الحاوي في التفسير

الشيخ

عبدالرحمن بن محمد القماش

المجلد الثامن عشر

الاجزاء من ٣٣٨ الى ٣٥٦

ٱلْحَاوِي فِي ٱلتَّقْسِيمِ

الشيخ عبدالرحمن بن محمد القماش

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۞ اللَّهُ

الصَّمَدُ ۞ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۞

وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۞

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

كتاب الحاوي في التفسير أكبر موسوعة في تفسير القرءان

الكريم حيث تحتوي على ٨٤٠ جزءا" موزعة على ٤١ مجلدا"

بذل فيه الشيخ الجليل " عبدالرحمن بن محمد القماش" جهدا"

كبيرا" و أسطوريا" في سبيل تأليف هذه الموسوعة العملاقة

وتم إكمال الموسوعة من قبل المكتبة الشاملة

في ١٤ حزيران ٢٠٠٩ وتم إكمال ملفات PDF

في آذار- نيسان ٢٠١٢ *

محتويات الكتاب

الجزء	الموضوع	الموضوع الفرعي	الصفحة
338	سورة التوبة	الآية 46 الى الآية 51	2
339	=	الآية 52 الى الآية 59	292
340	=	الآية 60	589
341	=	الآية 61 الى الآية 64	1238
342	=	الآية 65 الى الآية 70	1492
343	=	الآية 71 الى الآية 78	1837
344	=	الآية 79 الى الآية 85	2316
345	=	الآية 86 الى الآية 89	2704
346	=	الآية 90 الى الآية 97	2993
347	=	الآية 98 الى الآية 102	3371
348	=	الآية 103 الى الآية 107	3728
349	=	الآية 108 الى الآية 110	4092
350	=	الآية 111 الى الآية 114	4419
351	=	الآية115 الى الآية 118	4789
352	=	الآية 119 الى الآية 123	5150
353	=	الآية 124 الى الآية 129	5525
354	سورة يونس	فصول مهمة	6220
355	=	فصل في الوقف والابتداء	6551
356	=	الآية 1 الى الآية 5	6861

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والثلاثون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/338)

الجزء الثامن والثلاثون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 46 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 51 ﴾ من نفس السورة

(4/338)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له ﴾ أي قبل حلوله ﴿ عدة ﴾ أي قوة واهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون متصفين بما قدمت إليهم من التحريض على نحو ما وقع الأمر به في الأنفال فيكونون كالحاضرين في صلب الحرب الواقفين في الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها ﴿ ولكن ﴾ لم يريدوا ذلك قط فلم يعدوا له عدة ، فملا أمرت به شرعوا يعتلون بعدم العدة وما ذاك بهم ، إنما مانعم كراهتهم للخروج وذلك بسبب أن ﴿ كره الله ﴾ أي ذو الجلال والإكرام بأن فعل فعل الكاره فلم يرد ﴿ انبعاثهم ﴾ أي سيرهم معك مطاوعة

لأمرهم بذلك لما علم من عدم صلاحيتهم له ﴿ فثبطهم ﴾ أي حبسهم عنه حبساً عظيماً بما شغلهم بما بما حبب إليهم من الشهوات وكره إليهم من ارتكاب المشقات بسبب أنهم لا يرجون ثواباً ولا يخشون غير السيف عقاباً ، قصروا هممهم الدنية على الصفات البهيمية ، فلما استولت عليهم الشهوات وملكتهم الأنفس الدنيات نودوا من قبلها : إلى أين تخرجون ؟ ﴿ وقيل ﴾ أي لهم لما أسرعوا الإقبال إليها ﴿ اقعدوا ﴾ أي عن جندي لا تصحبوهم ، وفي قوله – : ﴿ مع القاعدين ﴾ أي الذين شانهم ذلك كالمرضى والزمنى والصبيان والنساء – من التبكيت ما لا يعلم مقداره إلا أولو الهمم العلية والأنفس الأبية ، وعبر بالمجهول إشارة إلى أنهم يطيعون الأمر بالقعود حقيقة ومجازاً كائناً من كان كما انهم يعصون الأمر بالنفر كائناً من كان لأن أنفسهم قابلة للدنايا غير صالحة للمزايا بوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 328 ﴾

(5/338)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ﴾

قرىء ﴿ عدته ﴾ وقرىء أيضاً ﴿ عِدَّةَ ﴾ بكسر العين بغير إضافة وبإضافة ، قال ابن عباس : يريد من الزاد والماء والراحلة ، لأن سفرهم بعيد وفي زمان شديد ، وتركهم العدة دليل على أنهم أرادوا التخلف .

وقال آخرون : هذا إشارة إلى أنهم كانوا مياسير قادرين على تحصيل الأهبة والعدة .

ثم قال تعالى : ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الانبعاث : الانطلاق في الأمر ، يقال بعثت البعير فانبعث وبعثته لأمر كذا فانبعث ، وبعثه لأمر كذا أي نفذه فيه ، والتثبيط رد الإنسان على الفعل الذي هم به ، والمعنى : أنه تعالى كره خروجهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم فصرفهم عنه .

فإن قيل : إن خروجهم مع الرسول إما أن يقال إنه كان مفسدة وإما أن يقال إنه كان مصلحة .

فإن قلنا : إنه كان مفسدة ، فلم عاتب الرسول في إذنه إياهم في القعود ؟ وإن قلنا : إنه كان مصلحة ، فلم قال إنه تعالى كره انبعاثهم وخروجهم ؟

والجواب الصحيح : أن خروجهم مع الرسول ما كان مصلحة ، بدليل أنه تعالى صرح بعد هذه الآية وشرح تلك المفاسد وهو قوله : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : 47] بقي أن يقال فلما كان الأصوب الأصلح أن لا يخرجوا ، فلم عاتب الرسول في الإذن ؟ فنقول : قد حكينا عن أبي مسلم أنه قال : ليس في قوله ﴿ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] أنه عليه الصلاة والسلام كان قد أذن لهم في القعود ، بل يحتمل أن يقال إنهم استأذنوه في الخروج معه فأذن لهم ، وعلى هذا التقدير فإنه يسقط السؤال ، قال أبو مسلم والدليل على صحة ما قلنا إن هذه الآية دلت على أن خروجهم معه كان مفسدة ، فوجب حمل ذلك العتاب على أنه عليه الصلاة والسلام أذن لهم في الخروج معه ، وتأكد ذلك بسائر الآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 83] ومنها قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم ﴾ [الفتح : 15] إلى قوله : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] فهذا دفع هذا السؤال على طريقة أبي مسلم .

(7/338)

والوجه الثاني : من الجواب أن نسلم أن العتاب في قوله : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنما توجه لأنه عليه الصلاة والسلام أذن لهم في القعود ، فنقول : ذلك العتاب ما كان لأجل أن ذلك القعود كان مفسدة ، بل لأجل أن إذنه عليه الصلاة والسلام بذلك القعود كان مفسدة وبيانه من وجوه : الأول : أنه عليه الصلاة والسلام أذن قبل إتمام التفحص وإكمال التأمل والتدبر ، ولهذا السبب قال تعالى : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذبين﴾ والثاني : أن بتقدير أنه عليه الصلاة والسلام ما كان يأذن لهم في القعود ؛ فهم كانوا يقعدون من تلقاء أنفسهم ، وكان يصير ذلك القعود علامة على نفاقهم ، وإذا ظهر نفاقهم احترز المسلمون منهم ولم يغتروا بقولهم ، فلما أذن الرسول في القعود بقي نفاقهم مخفياً وفاتت تلك المصالح .

والثالث : أنهم لما استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم غضب عليهم وقال : ﴿اقعدوا مَعَ القاعدين﴾ على سبيل الزجر كما حكاه الله في آخر هذه الآية وهو قوله : ﴿وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين﴾ ثم إنهم اغتنموا هذه اللفظة وقالوا : قد أذن لنا فقال تعالى : ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ أي لم ذكرت عندهم هذا اللفظ الذي أمكنهم أن يتوسلوا به إلى تحصيل غرضهم ؟ الرابع : أن الذين يقولون الاجتهاد غير جائز على الأنبياء عليهم السلام قالوا : إنه إنما أذن بمقتضى الاجتهاد ، وذلك غير جائز ، لأنهم لما تمكنوا من الوحي وكان الإقدام على الاجتهاد مع التمكن من الوحي جارياً مجرى الإقدام على الاجتهاد مع حصول النص ،

فكما أن هذا غير جائز فكذا ذاك .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة البصرية : الآية دالة على أنه تعالى كما هو موصوف بصفة المريدية هو موصوف بصفة الكارهية ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ قال أصحابنا : معنى ﴿ كَرِهَ الله ﴾ أراد عدم ذلك الشيء .

(8/338)

قال البصرية : العدم لا يصلح أن يكون متعلقاً ، وذلك لأن الإرادة عبارة عن صفة تقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر ، والعدم نفي محض ، وأيضاً فالعدم المستمر لا تعلق للإرادة بالعدم به ، لأن تحصيل الحاصل محال ، وجعل العدم عدماً محال ، فثبت أن تعلق الإرادة بالعدم محال ، فامتنع القول بأن المراد من الكراهة إرادة العدم .

أجاب أصحابنا : بأنا نفسر الكراهة في حق الله بإرادة ضد ذلك الشيء ، فهو تعالى أراد منهم السكون ، فوقع التعبير عن هذه الإرادة بكونه تعالى كارهاً لخروجهم مع الرسول .

المسألة الثالثة :

احتج أصحابنا في مسألة القضاء والقدر بقوله تعالى : ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي فكسلهم وضعف

رغبتهم في الانبعاث ، وحاصل الكلام فيه لا يتم إلا إذا صرحنا بالحق ، وهو أن صدور الفعل يتوقف على حصول الداعي إليه ، فإذا صارت الداعية فاترة مرجوحة امتنع صدور الفعل عنه ، ثم إن صيرورة تلك الداعية جازمة أو فاترة ، إن كانت من العبد لزم التسلسل ، وإن كانت من الله ؛ فحينئذ لزم المقصود .

لأن تقوية الداعية ليست إلا من الله ، ومتى حصلت تلك التقوية لزم حصول الفعل ، وحينئذ يصح قولنا في مسألة القضاء والقدر .

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

المقصود منه التنبيه على ذمهم وإلحاقهم بالنساء والصبيان والعاجزين الذين شأنهم القعود في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف على ما ذكره في قوله : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ [التوبة : 87 ، 93] .

المسألة الثانية :

اختلفوا في أن هذا القول ممن كان ؟ فيحتمل أن يكون القائل بذلك هو الشيطان على سبيل الوسوسة ، ويحتمل أن يكون بعضهم قال ذلك لبعض لما أرادوا الاجتماع على التخلف ، لأن من يتولى الفساد يحب التكثر بأشكاله ، ويحتمل أن يكون القائل هو الرسول صلى الله عليه وسلم لما أذن لهم في التخلف فعاتبه الله ، ويحتمل أن يكون القائل هو الله سبحانه لأنه قد كره خروجهم للإفساد ، وكان المراد إذا كنتم مفسدين فقد كره الله انبعاثكم على هذا الوجه فأمركم بالقعود عن هذا الخروج المخصوص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 63.64 ﴾

(10/338)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : صدق العزم ونشاط النفس .

والثاني : الزاد والراحلة في السفر ، ونفقة الأهل في الحضر . ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ وإنما كره انبعاثهم لوقوع الفشل بتخاذلهم كعبد الله بن أبي بن سلول ، والجد بن

قيس .

﴿ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مع القاعدين بغير عذر ، قاله الكلبي .

والثاني : مع القاعدين بعذر من النساء والصبيان ، حكاه علي بن عيسى . وفي قائل ذلك قولان :

أحدهما : أنه النبي صلى الله عليه وسلم ، غضباً عليهم ، لعلمه بذلك منهم .

والثاني : أنه قول بعضهم لبعض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(11/338)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ الآية

حجة على المنافقين ، أي ولو أرادوا الخروج بنياتهم لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه ، و" العدة " ما يعد للأمر ويروى له من الأشياء ، وقرأ جمهور الناس " عُدة " بضم العين وتاء تأنيث ، وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية بن محمد " عُدة " بضم العين وهاء إضمار يريد " عدته " فحذفت تاء التأنيث لما أضاف ، كما قال " وأقام الصلاة " يريد

إقامة الصلاة ، هذا قول الفراء ، وضعفه أبو الفتح ، وقال إنما خذف تاء التأنيث وجعل هاء الضمير عوضاً منها ، وقال أبو حاتم : هو جمع عدة على عد ، كبرة وكبر ودرة ودر ، والوجه فيه عدد ولكن لا يوافق خط المصحف ، وقرأ عاصم فيما روى عنه أبان وزر بن حبيش " عِده " بكسر العين وهاء إضمار وهو عندي اسم لما يعد كالريح والقتل لأن العدو سمي قتلاً إذ حقه أن يقتل هذا في معتقد العرب حين سمته ، ﴿ انبعاثهم ﴾ نفوذهم لهذه الغزوة ، و" التثبيط " التكسيل وكسر العزم ، وقوله ﴿ وقيل ﴾ ، يحتمل أن يكون حكاية عن الله تعالى أي قال الله في سابق قضائه ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ ، ويحتمل أن يكون حكاية عنهم أي كانت هذه مقالة بعضهم لبعض إما لفظاً وإماً معنى ، فحكي في هذه الألفاظ التي تقتضي لهم مذمة إذ القاعدون النساء والأطفال ، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن محمد صلى الله عليه وسلم عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر :

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي . . . وليس للهيئة في هذا كله مدخل ، وكراهية الله انبعاثهم رفق بالمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/338)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ ﴾

يعني : المستأذنين له في القعود .

وفي المراد بالعُدَّة قولان .

أحدهما : النية ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : السلاح ، والمركوب ، وما يصلح للخروج ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والانبعاث : الانطلاق .

والتثبُّط : ردُّك الإنسان عن الشيء يفعله .

قوله تعالى : ﴿ وقيل اقعدوا ﴾ في القائل لهم ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم أُلهموا ذلك خذلاناً لهم ، قاله مقاتل .

والثاني : أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله غضباً عليهم .

والثالث : أنه قول بعضهم لبعض ، ذكرهما الماوردي .

وفي المراد بالقاعدين قولان .

أحدهما : أنهم القاعدون بغير عذر ، قاله ابن السائب .

والثاني : أنهم القاعدون بعذر كالنساء والصبيان ، ذكره علي بن عيسى . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لأَعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ﴾

أي لو أرادوا الجهاد لتأهبوا أُهبة السفر .

فتركُهم الاستعداد دليل على إرادتهم التخلف .

﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ أي خروجهم معك .

﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم عنك وخذلهم .

لأنهم قالوا : إن لم يؤذن لنا في الجلوس أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين .

ويدلّ على هذا أن بعده ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : 47] .

﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ قيل : هو من قول بعضهم لبعض .

وقيل : هو من قول النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون هذا هو الإذن الذي تقدّم ذكره .

قيل : قاله النبيّ صلى الله عليه وسلم غضباً ، فأخذوا بظاهر لفظه وقالوا : قد أذن لنا .

وقيل : هو عبارة عن الخذلان ؛ أي أوقع الله في قلوبهم القعود .

ومعنى ﴿ مَعَ القاعدين ﴾ أي مع أُولِي الضرر والعميان والزَّمْنَى والنسوان والصبيان .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(14/338)

وقال الخازن :

﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾

يعني إلى الغزو معكم ﴿ لأعدوا له عدة ﴾ لتهؤوا له بإعداد آلات السفر وآلات القتال من الكراع والسلاح ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ يعني خروجهم إلى الغزو معكم ﴿ فثبطهم ﴾ يعني منعهم وحبسهم عن الخروج معكم والمعنى أن الله سبحانه وتعالى كره خروج المنافقين مع النبي (صلى الله عليه وسلم) فصرفهم عنه وها هنا يتوجه سؤال وهو أن خروج المنافقين مع النبي (صلى الله عليه وسلم) إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فإن كان فيه مصلحة فلم قال : ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ، وإن كان فيه مفسدة . فلم عاتب نبيه (صلى الله عليه وسلم) في أذنه لهم بالقعود والجواب عن السؤال أن خروجهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان فيه مفسدة عظيمة بدليل أنه تعالى أخبر عن تلك المفسدة بقوله تعالى لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ، بقي فلم عاتب

الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) بقوله لم أذنت لهم فنقول إنه (صلى الله عليه وسلم) أذن لهم قبل تمام الفحص وإكمال التأمل والتدبر في حالهم فلهذا السبب قال الله تعالى : لم أذنت لهم ؟ وقيل إنما عاتبه لأجل أنه أذن لهم قبل أن يوحي إليه في أمرهم بالقعود ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ معناه أنهم لما استأذنوه في القعود .

قيل لهم : اقعدوا مع القاعدين وهم النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعذار ثم اختلفوا في القائل من هو فقيل ، قال بعضهم لبعض : اقعدوا مع القاعدين .

وقيل : القائل هو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وإنما قال ذلك لهم على سبيل الغضب لما استأنذوه في القعود فقال لهم اقعدوا مع القاعدين فاغتنموا ذلك وقعدوا وقيل إن القائل ذلك هو الله سبحانه وتعالى بأن ألقى في قلوبهم القعود لما كره انبعاثهم مع المسلمين إلى الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(15/338)

وقال أبو حيان :

﴿ ولو أرادوا الخروج لأعَدّوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾

قال ابن عباس : عدّة من الزاد والماء والراحلة ، لأنّ سفرهم بعيد في زمان حر شديد .

وفي تركهم العدّة دليل على أنهم أرادوا التخلف .

وقال قوم : كانوا قادرين على تحصيل العدّة والإهبة .

وروى الضحاك عن ابن عباس : العدّة النية الخالصة في الجهاد .

وحكى الطبري : كل ما يعد للقتال من الزاد والسلاح .

وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية : عُدَّ بضم العين من غير تاء ، والفراء يقول : تسقط التاء للإضافة ، وجعل من ذلك وإقام الصلاة أي وإقامة الصلاة .

وورد ذلك في عدة أبيات من لسان العرب ، ولكن لا يقيس ذلك ، إنما نقف فيه مع مورد السماع .

قال صاحب اللوامح : لما أضاف جعل الكناية تائبة عن التاء فأسقطها ، وذلك لأنّ العد بغير تاء ، ولا تقديرها هو البثر الذي يخرج في الوجه .

وقال أبو حاتم : هو جمع عدة كبرة وبر ودرة ودر ، الوجه فيه عدد ، ولكن لا يوافق خط المصحف .

وقرأ ذر بن حبيش وإبان عن عاصم : عده بكسر العين ، وهاء إضمار .

قال ابن عطية : وهو عندي اسم لما يعد كالذبح والقتل للعد ، وسمي قتلاً إذ حقه أن يقتل .

وقرىء أيضاً : عبة بكسر العين ، وبالتاء دون إضافة أي : عدة من الزاد والسلاح ، أو مما

لهم مأخوذ من العدد .

ولما تضمنت الجملة انتفاء الخروج والاستعداد ، وجاء بعدها ولكن ، وكانت لا تقع إلا بين نقيضين أو ضدين أو خلافين على خلاف فيه ، لا بين متفقين ، وكان ظاهر ما بعد لكن موافقاً لما قبلها .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف موقع حرف الاستدراك ؟ (قلت) : لما كان قوله : ولو أرادوا الخروج معطياً معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو .

قيل : ولكن كره الله انبعاثهم ، كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول : ما أحسن إليّ زيد ولكن أساء إليّ انتهى .

(16/338)

وليست الآية نظير هذا المثال ، لأنّ المثال واقع فيه لكن بين ضدين ، والآية واقع فيها لكن بين متفقين من جهة المعنى ، والانبعاث الانطلاق والنهوض .

قال ابن عباس : فثبطهم كسلهم وفتر نياتهم .

وبنى وقيل للمفعول ، فاحتمل أن يكون القول : أذن الرسول لهم في القعود ، أو قول بعضهم لبعض إما لفظاً وإما معنى ، أو حكاية عن قول الله في سابق قضائه .

وقال الزمخشري : جعل القاء الله تعالى في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود .

وقيل : هو من قول الشيطان بالوسوسة .

قال : (فإن قلت) : كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة ، وتعالى الله عن إلهام القبيح .

(قلت) : خروجهم كان مفسدة لقوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة انتهى .

وهذا السؤال والجواب على طريقة الاعتزال في المفسدة والمصلحة ، وهذا القول هو ذمٌّ لهم وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزني الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخلفون والخوالف ، ويبينه قوله تعالى :

﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ والقعود هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما قال :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها . . .

واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(17/338)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج ﴾

يدل على أن بعضَهم قالوا عند الاعتذارِ : كنا نريد الخروجَ لكن لم نتهيأ له ، وقد قرُب الرحيلُ بحيث لا يمكننا الاستعدادُ ، فقيل تكذيباً لهم : لو أرادوه ﴿ لأعَدُّواْ لَهُ ﴾ أي للخروج في وقته ﴿ عِدَّةَ ﴾ أي أُهبةً من العَتاد والراحلة والسلاح وغيرِ ذلك مما لا بد منه للسفر ، وقرىء عُدَّه بحذف التاءِ ، والإضافةِ إلى ضمير الخروج كما فعل بالعِدَة مَنْ قال : وأخلفوك عِدَ الأمرِ الذي وعَدوا . . . أي عِدتَه وقرىء عِدَّةً بكسر العين وعِدَّهُ بالإضافة ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ أي نهوضَهم للخروج. قيل : هو استدراك عما يُفهم من مقدم الشرطيةِ فإن انتفاءَ إرادتِهم للخروج يستلزم انتفاءَ خروجِهم ، وكراهةَ الله تعالى انبعاثَهم تستلزم تثبيطَهم عن الخروج ، فكأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبَّطوا والاتفاق في المعنى لا يمنع الوقوعَ بين طرَفي لكنْ بعد تحققِ الاختلافِ نفياً وإثباتاً في اللفظ كقولك : ما أحسن إلى زيد ولكنْ أساء والأظهرُ أن يكون استدراكاً من نفس المقدم عن نهج ما في الأقيسة الاستثنائيةِ والمعنى لو أرادوا الخروجَ لأعدوا له عُدةً ولكن ما أرادوهِ لما أنه تعالى كره انبعاثَهم لما فيه من المفاسد التي ستَبين ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم بالجُبن والكسلِ فثبطوا عنه ولم يستدعوا له ﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ تمثيلٌ لإلقاء الله تعالى كراهةَ الخروجِ في قلوبهم أو لوسوسة الشيطانِ بالأمر بالقعود أو هو حكايةُ قولِ بعضِهم لبعض أي هو إذنُ الرسول صلى

الله عليه وسلم لهم في القعود ، والمرادُ بالقاعدين إما المعذورون أو غيرُهم ، وأياً ما كان فغيرُ خالٍ عن الذم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(18/338)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾

أي أهبة من الزاد والراحلة وسائر ما يحتاج إليه المسافر في السفر الذي يريده .

وقرىء ﴿ عده ﴾ بضم العين وتشديد الدال والإضافة إلى ضمير الخروج ، قال ابن جنى : سمع محمد بن عبد الملك يقرأ بها ، وخرجت على أن الأصل عدته إلا أن التاء سقطت كما في إقام الصلاة وهو سماعي وإلى هذا ذهب الفراء ، والضمير على ما صرح به غير واحد عوض عن التاء المحذوفة ، قيل : ولا تحذف بغير عوض وقد فعلوا مثل ذلك في عدة بالتخفيف بمعنى الوعد كما في قول زهير :

إن الخليط أجدوا البين فانجردوا . . .

وأخلفوك عدى الأمر الذي وعدوا

وقرىء ﴿ عده ﴾ بكسر العين بإضافة وغيرها ﴿ عُدَّةً ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ أي

خروجهم كما روي عن الضحاك أو نهوضهم للخروج كما قال غير واحد ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي حبسهم وعوقهم عن ذلك : والاستدراك قيل عما يفهم من مقدم الشرطية فإن انتفاء إرادة الخروج يستلزم انتفاء خروجهم وكراهة الله تعالى انبعاثهم يستلزم تثبطهم عن الخروج فكأنه قيل : ما خرجوا لكن تثبطوا عن الخروج ، فهو استدراك نفي الشيء بإثبات ضده كما يستدرك نفي الإحسان بإثبات الإساءة في قولك : ما أحسن إلى لكن أساء ، والاتفاق في المعنى لا يمنع الوقوع بين طرفي لكن بعد تحقق الاختلاف نفياً وإثباتاً في اللفظ ، وبحث فيه بعضهم بأن ﴿ لَكِنِ ﴾ تقع بين ضدين أو نقيضين أو مختلفين على قول وقعت فيما نحن فيه بين متفقين على هذا التقرير فالظاهر أنها للتأكيد كما أثبتوا مجيئها لذلك وفيه نظر : واستظهر بعض المحققين كون الاستدراك من نفس المقدم على نهج ما في الأقيسة الاستثنائية ، والمعنى لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن ما أرادوه لما أنه تعالى كره انبعاثهم من المفاسد فحبسهم بالجبن والكسل فتثبطوا عنه ولم يستعدوا له .

(19/338)

﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ تمثيل لخلق الله تعالى داعية القعود فيهم والقائه سبحانه كراهة الخروج في قلوبهم بالأمر بالقعود أو تمثيل لوسوسة الشيطان بذلك فليس هناك قول

حقيقة ، ونظير ذلك قوله سبحانه : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحياهم ﴾ [البقرة : 243] أي أماتهم ، ويجوز أن يكون حكاية قول بعضهم لبعض أو أذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم في العقود فالقول على حقيقته ، والمراد بالقاعدين الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت كالنساء والصبيان والزمنى أو الرجال الذين يكون لهم عذر يمنعهم عن الخروج ، وفيه على بعض الاحتمالات من الذم ما لا يخفى فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(20/338)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج ﴾

معك إلى الغزو ، ﴿ لاعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ﴾ ؛ يعني : اتخذوا لأنفسهم قوة من السلاح .

معناه : إن تركهم العدة دليل على إرادتهم التخلف .

ثم قال ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ ، يعني : لم يرد الله خروجهم معك لخبثهم وسوء نياتهم ، ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ ؛ يعني : حبسهم وأقعدهم عن الخروج ؛ ويقال : ثقلهم عن الخروج ؛ ويقال : جعل حلاوة الجلوس في قلوبهم حتى أقعدهم عن الخروج .

﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ ، يعني : ألهموا وخيّل إليهم القعود مع المتخلفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(21/338)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾

بضم العين وتشديد الدال ، أي : قوةً من مال وسلاح وزادٍ ونحوها ﴿ وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ ﴾ أي : نهوضهم للخروج ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ أي : فكسّلهم وضعّف رغبتهم ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ أي : من النساء والصبيان .

تنبيهات :

الأول : دل قوله تعالى : ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ على أن عدة الحرب ، من الكُراع والسلاح وجميع ما يستعان به على العدوّ ، من جملة الجهاد .

فما صرف في المجاهدين ، صرف في ذلك ، وهذا جليّ فيما يتقى به من العدة كالسلاح ، فأما ما يحصل به الإرهاب من الرايات والطبول ونحو ذلك ، مما يضعف به قلب العدوّ ، فهو داخل في الجهاد ، وقد قال تعالى في سورة الأنفال : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ

رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ ، ويكون ذلك كلباس الحرير حالة الحرب ، وهذا جليّ حيث لا يؤدي إلى السرَف .

الثاني : إن الفعل يحسن بالنية ، ويقبح بالنية ، وإن استويا في الصورة ، لأن النفير واجب مع نية النصر ، وقبيح مع إرادة تحصيل القبيح ، وذلك لأنه تعالى أخبر أنه كره انبعاثهم لما يحصل منه من إرادة المكر بالمسلمين .

الثالث : للإمام منع مِنْ يتهم بمضرة المسلمين ، أن يخرج للجهاد ، فله نفي الجاسوس والمرجف والمخذّل . ذكر ذلك كله بعض مفسري الزيدية .

(22/338)

الرابع : ذكروا أن قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ تمثيل لإلقاء الله تعالى كراهة الخروج في قلوبهم ، يعني نزّل خلق داعية القعود فيهم ، منزلة الأمر ، والقول الطالب ، كقوله تعالى : ﴿ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ أي : أماتهم ، أو هو تمثيل لوسوسة الشيطان بالأمر بالقعود ، أو هو حكاية قول بعضهم لبعض ، أو هو إذن الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بالقعود .

قال الزمخشري : فإن قلت : ما معنى قوله : ﴿ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ ؟ قلت : هو ذم لهم

وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزَّمْنَى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف ، ويبينه قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفَ ﴾

.

قال الناصر : وهذا من تنبيهاته الحسنة . ونزيده بسطاً فنقول :

لو قيل : ﴿ اقْعُدُوا ﴾ مقتصراً عليه ، لم يُفِدْ سوى أمرهم بالقعود ، وكذلك : كُونوا مع الْقَاعِدِينَ .

ولا تحصل هذه الفائدة من إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية ، ولعن الله فرعون ، لقد بالغ في توعيد موسى عليه السلام بقوله : ﴿ لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ ، ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً . لمثل هذه النكتة من البلاغة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 441.439 ﴾

(23/338)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾

عطف على جملة ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : 45] لأنّ معنى المعطوف عليها : أنّهم لم يريدوا الخروج إلى الغزو ، وهذا استدلال على عدم إرادتهم الخروج إذ لو أرادوه لأعدّوا له عُدّته .

وهذا تكذيب لزعمهم أنّهم تهيّأوا للغزو ثم عرضت لهم الأعذار فاستأذنوا في القعود لأنّ عدم إعدادهم العُدّة للجهاد دلّ على انتفاء إرادتهم الخروج إلى الغزو .

والعُدّة بضم العين : ما يُحتاج إليه من الأشياء ، كالسلاح للمحارب ، والزاد للمسافر ، مشتقّة من الإعداد وهو التهيئة .

والخروج تقدّم آنفاً .

والاستدراك في قوله : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ استدراك على ما دلّ عليه شرط ﴿ لو ﴾ من فرض إرادتهم الخروج تأكيد الانتفاء وقوعه بإثبات ضدّه ، وعبّر عن ضدّ الخروج بتثبيط الله إياهم لأنّه في السبب الإلهي ضدّ الخروج فعبّر به عن مسبّبه ، واستعمال الاستدراك كذلك بعد ﴿ لو ﴾ استعمال معروف في كلامهم كقول أُبَيّ بن سُلْمَى الضَّبِّي:

فلو طار ذُو حافرٍ قَبْلَها . . .

لطارتْ ولكِنَّه لم يَطِرْ

وقول الغَطَمَّشِ الضبي:

أخِلاَّيَ لو غَيْرُ الحِمام أصابكم . . .

عَتِبْتُ ولكن ما على الموت مَعْتَب

إلاَّ أنّ استدراك ضدّ الشرط في الآية كان بذكر ما يساوي الضدّ : وهو تثبيط الله إيّاهم ، توفيراً لفائدة الاستدراك ببيان سبب الأمر المستدَرَك ، وجعل هذا السبب مفرّعاً على علّته : وهي أنّ الله كره انبعاثهم ، فصيغ الاستدراك بذكر علّته اهتماماً بها ، وتنبيهاً على أنّ عدم إرادتهم الخروج كان حرماناً من الله إيّاهم ، وعناية بالمسلمين فجاء الكلام بنسج بديع وحصل التأكيد مع فوائد زائدة .

وكراهة الله انبعاثهم مفسّرة في الآية بعدها بقوله : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ﴾ [التوبة : 47] .

والانبعاث : مطاوع بعثَه إذا أرسله .

والتثبيط : إزالة العزم .

(24/338)

وتثبيط الله إيّاهم : أن خلق فيهم الكسل وضعف العزيمة على الغزو .

والقعود : مستعمل في ترك الغزو تشبيهاً للترك بالجلوس .

والقول : الذي في ﴿ وقيل اقعدوا ﴾ قول أمر التكوين : أي كُوِّن فيهم القعود عن الغزو .

وزيادة قوله : ﴿ مع القاعدين ﴾ مذمّة لهم : لأنّ القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو ، وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعُمي والزمنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(25/338)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) ﴾

ففي ترددهم دلالة على أنهم لا يريدون الخروج للجهاد ؛ ولو كانوا عازمين بالفعل على ذلك لأعدوا ما يلزمهم للحرب من الزاد الراحلة والسلاح ، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً من هذا قط ؛ لأنهم افتقدوا النية الصادقة للجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم .

ولقائل أن يقول : ألم يكن من الجائز أن يعدوا كل شيء للقتال في آخر لحظة ؟ نقول : لا ، فالذاهب إلى القتال لا يمكن أن يستعد في آخر لحظة . بل لا بد أن يشغل نفسه بمقدمات الحرب من سلاح وزاد وراحلة وغير ذلك ، ولو لم يشغل نفسه بهذه المسائل قبل الخروج بفترة وتأكد من صلاحية سلحه للقتال ؛ ووجود الطعام الذي سيحمله معه ؛ وغير ذلك ،

لما استطاع أن يخرج مقاتلاً . فليست المسألة بنت اللحظة . بل كان عدم استعدادهم للقتال يُعَدّ كشفاً للخميرة المبيَّتة في أعماقهم بألا يخرجوا ، وسبحانه قد اطلع علة نواياهم ، وما تُخْفى صدورهم ، وقد جازاهم بما أخفوا في أنفسهم . لذلك يقول :

﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ وسبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد من خلقه ، بل الخلق هم الذين في احتياج دائم إليه سبحانه ؛ لذلك ثبط هؤلاء عن الخروج ، وكره سبحانه خروجهم للقتال ، و " ثبطهم " أي جعلهم في مكانهم ، ولم يقبل منهم أن يعدوا العدة للقتال كراهية منه سبحانه أن يخرجوا بنشاط إلى القتال . والكره : عملية وجدانية . والتثبيط : عملية نزوعية .

(26/338)

وأضرب هذا المثل دائماً – ولله المثل الأعلى – أنت ترى الوردة ، فتدرك بعينيك جمالها ، فإنْ مددتَ يدك إليها لتقطفها ، هنا يتدخل الشرع ليقول لك : لا ؛ لأن هذا نزوع إلى ما لا تملك . وإن أردت أن تحوز وردة مثلها ، فإما أن تشتريها وإما أن تزرع مثلها ، إذن : فالمشرع يتدخل – فقط – في الأعمال النزوعية .

وكراهية الله لنزوعهم تجلَّتْ في تثبيطهم وخذلهم وردِّهم عن الفعل ، وزَيَّن لهم في نفوسهم

ألا يخرجوا للقتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك لحكمة أرادها الحق سبحانه ، فوافقت ما أذن فيه رسول الله في التخلف ، وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ وإذا كان التثبيط من الله ، فكأنه أوضح لهم : اقعدوا بإذن الله من الإرادة الإلهية . أو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لهم بالقعود والتخلف لمّا استشفَّ تراخيهم ، أو أن الشياطين أوحتْ لهم بالقعود ، فالحق هو القائل سبحانه : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نبيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً ﴾ [الأنعام : 112] .

وهكذا نجد أن كلمة : ﴿ قِيلَ ﴾ قد بُنيتْ لما يُسَمَّ فاعله لإمكان أن يتعدد القائلون ، فالله بتثبيطه لهم كأنه قال لهم : اقعدوا ، والرسول صلى الله عليه وسلم قال لهم : اقعدوا ، والشياطين حينما زينوا لهم القعود ؛ كأنهم قالوا لهم : اقعدوا .

وقولهم بعضهم لبعض زَيَّن لهم القعود ، وهكذا أعطتنا كلمة واحدة عطاءات متعددة .

وهل ينفي عطاءٌ عطاءً ؟ . لا ، بل كلها عطاءات تتناسب مع الموقف .

(27/338)

﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ والمقصود بالقاعدين هنا : هم الذين لا يجب عليهم الجهاد من النساء والأطفال والعجائز . فكأنهم قد تخلوا بعدم خروجهم عن رجولتهم التي تفرض عليهم الجهاد . وهذه مسألة ما كان يصح أن يرتضوها لأنفسهم . وفي موقع آخر من نفس السورة قال الحق سبحانه :

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : 87] .

وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال ، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ، ضعف النساء والأطفال .

ونجد الشاعر العربي عندما أراد أن يستنفر أفراد قبيلته الذين تكاسلوا عن القتال معه ، فقال :

وَمَا أَدْرِي ولسْتُ إخَالُ أَدْرِي . . . أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نسَاءُ

والقوم تُطلَقُ على الرجال دون النساء . ثم يبين لنا الحق حكمة التثبيط ، فإن كان قعودهم من جانب الخير ، فتثبيط الله لهم حكمة ، وإذن الرسول لهم بعدم الخروج حكمة . وإن كانت مسألة قعودهم من وسوسة الشياطين لهم أو وسوسة النفوس ، فقد خدمت وسوسة الشياطين ووسوسة النفوس قضية الإيمان ، وأعانوا على مراد الله ، وهذا هو الغباء الكفرى ، فزينت الوسوسة لهؤلاء المنافقين عدم الخروج للجهاد في سبيل الله ؛ لأنهم

لو خرجوا لحدث منهم ما قاله الحق سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(28/338)

فائدة

قال ابن القيم :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

والتثبيط رد الإنسان عن الشيء الذي يفعله قال ابن عباس: "يريد خذلهم وكسلهم عن الخروج" وقال في رواية أخرى: "حبسهم" قال مقاتل: "وأوحى إلى قلوبهم اقعدوا مع القاعدين" وقد بين سبحانه حكمته في هذا التثبيط والخذلان قبل وبعد فقال: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

فلما تركوا الإيمان به وبلقائه وارتابوا بما لا ريب فيه ولم يريدوا الخروج في طاعة الله ولم

يستعدوا له ولا أخذوا أهبة ذلك كره سبحانه انبعاث من هذا شأنه فإن من لم يرفع به وبرسوله أو كتابه رأسا ولم يقبل هديته التي أهداها إليه على يد أحب

(29/338)

خلقه إليه وأكرمهم عليه ولم يعرف قدر هذه النعمة ولا شكرها بل بدلها كفرا فإن طاعة هذا وخروجه مع رسوله يكرهه الله سبحانه فثبطه لئلا يقع ما يكره من خروجه وأوحى إلى قلبه قدرا وكونا أن يقعد مع القاعدين ثم أخبر سبحانه عن الحكمة التي تتعلق بالمؤمنين في تثبيط هؤلاء عنهم فقال: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا ﴾ و الخبال الفساد و الاضطراب فلو خرجوا مع المؤمنين لأفسدوا عليهم أمرهم فأوقعوا بينهم الاضطراب والاختلاف قال ابن عباس: "ما زادوكم إلا خبالا عجزا و جبنا" يعني يجبنوهم عن لقاء العدو بتهويل أمرهم و تعظيمهم في صدورهم ثم قال: ﴿ وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أي أسرعوا في الدخول بينكم للتفريق والإفساد قال ابن عباس: "يريد ضعفوا شجاعتكم يعني بالتفريق بينهم لتفريق الكلمة فيجبنوا عن العدو" وقال الحسن: "لا أوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات البين" وقال الكلبي: "ساروا بينكم يبغونكم العيب" قال لبيد:

أرانا موضعين لختم عيب وسحر بالطعام وبالشراب

أي مسرعين ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:

تبا لهن بالعرفان لما عرفنني وقلن أمرؤ باغ أكل وأوضعا

(30/338)

أي أسرع حتى كلت مطيته: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ قال قتادة: "وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم" وقال ابن إسحاق: "وفيكم قوم أهل محبة لهم وطاعة فيما يدعونهم إليه لشرفهم فيهم" ومعناه على هذا القول وفيكم أهل سمع وطاعة لهم لو صحبهم هؤلاء المنافقون أفسدوهم عليكم قلت فتضمن سماعين معنى مستجيبين وقال مجاهد وابن زيد والكلبي: "المعنى وفيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم أي جواسيس والقول هو الأول كما قال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ أي قابلون له ولم يكن في المؤمنين جواسيس للمنافقين فان النافقين كانوا مختلطين بالمؤمنين ينزلون معهم ويرحلون ويصلون معهم ويجالسونهم ولم يكونوا متحيزين عنهم قد أرسلوا فيهم العيون ينقلون إليهم أخبارهم فإن هذا إنما يفعله من انحاز عن طائفة ولم يخالطها وأرصد بينهم عيونا له فالقول قول قتادة وابن إسحاق والله أعلم فإن قيل انبعاثهم إلى طاعته طاعة له فكيف يكرهها وإذا كان

سبحانه يكرهها فهو يحب ضدها لا محالة إذ كراهة أحد الضدين تستلزم محبة الضد الآخر فيكون قعودهم محبوبا له فكيف يعاقبهم عليه قيل هذا سؤال له شأن وهو من أكبر الأسئلة في هذا الباب وأجوبة الطوائف على حسب أصولهم فالجبرية تجيب عنه بأن أفعاله لا تعلل بالحكم والمصالح وكل ممكن فهو جائز عليه ويجوز أن يعذبهم على فعل ما يحبه ويرضاه وترك ما يبغضه ويسخطه والجميع بالنسبة إليه سواء وهذه الفرقة قد سدت على نفسها باب الحكمة والتعليل والقدرية تجيب عنه على أصولها بأنه سبحانه لم يثبطهم حقيقة ولم يمنعهم بل هم منعوا أنفسهم وثبطوها عن الخروج وفعلوا ما لا يريد ولما كان في خروجهم المفسدة التي ذكرها الله سبحانه ألقى في نفوسهم كراهة الخروج مع رسوله قالوا وجعل سبحانه إلقاء كراهة الانبعاث في قلوبهم كراهة مشيئة من غير أن يكره هو سبحانه انبعاثهم فإنه أمرهم به قالوا وكيف يأمرهم بما يكرهه ولا يخفى على من

(31/338)

نور الله بصيرته فساد هذين الجوابين وبعدهما من دلالة القرآن فالجواب الصحيح أنه سبحانه أمرهم بالخروج طاعة له ولأمره واتّباعا لرسوله صلى الله عليه وسلم ونصرة له وللمؤمنين وأحب لك منهم ورضيه لهم دينا وعلم سبحانه أن خروجهم لو خرجوا لم يقع

على هذا

الوجه بل يكون خروجهم خروج خذلان لرسوله وللمؤمنين فكان خروجا يتضمن خلاف ما يحبه ويرضاه ويستلزم وقوع ما يكرهه ويبغضه فكان مكروها له من هذا الوجه ومحبوبا له من الوجه الذي خرج عليه أولياؤه وهو يعلم أنه لا يقع منهم إلا على الوجه المكروه إليه فكرهه وعاقبهم على ترك الخروج الذي يحبه ويرضاه لا على ترك الخروج الذي يبغضه ويسخطه وعلى هذا فليس الخروج الذي كرهه منهم طاعة حتى لو فعلوه لم يثبهم عليه ولم يرضه منهم وهذا الخروج المكروه له ضدان أحدهما : الخروج المرضي المحبوب وهذا الضد هو الذي يحبه والثاني : التخلف عن رسوله والقعود عن الغزو معه وهذا الضد يبغضه ويكرهه أيضا وكراهته للخروج على الوجه الذي كانوا يخرجون عليه لا ينافي كراهته لهذا الضد فيقول للسائل قعودهم مبغوض له ولكن ههنا أمران مكروهان له سبحانه وأحدهما أكره له من الآخر لأنه أعظم مفسدة فإن قعودهم مكروه له وخروجهم على الوجه الذي ذكره أكره إليه ولم يكن لهم بد من أحد المكروهين إليه سبحانه فدفع المكروه الأعلى بالمكروه الأدنى فإن مفسدة قعودهم عنه أصغر من مفسدة خروجهم معه فإن مفسدة قعودهم تختص بهم ومفسدة خروجهم تعود على المؤمنين فتأمل هذا الموضع فإن قلت فهلا وفقهم للخروج الذي يحبه ويرضاه وهو الذي خرج عليه المؤمنون قلت قد تقدم جواب مثل هذا السؤال مرارا وأن حكمته سبحانه تأبى أن يضع التوفيق في غير محله وعند غير أهله

فالله أعلم حيث يجعل هداه وتوفيقه وفضله وليس كل محل يصلح لذلك ووضع الشيء في غير محله لا يليق بحكمته فإن قلت وعلى ذلك فهلا جعل المحال كلها صالحة قلت يأباه كمال ربوبيته وملكه وظهور

(32/338)

آثار أسمائه وصفاته في الخلق والأمر وهو سبحانه لو فعل ذلك لكان محبوبا له فإنه يحب أن يذكر ويشكر ويطاع ويوحد ويعبد ولكن كان ذلك يستلزم فوات ما هو أحب إليه من استواء أقدام الخلائق في الطاعة والإيمان وهو محبته لجهاز أعدائه والانتقام منهم وإظهار قدر أوليائه وشرفهم وتخصيصهم بفضله وبذل نفوسهم له في معاداة من عاداه وظهور عزته وقدرته وسطوته وشدة أخذه وأليم عقابه وأضعاف أضعاف هذه الحكم التي لا سبيل للخلق ولو تناهوا في العلم والمعرفة إلى الإحاطة بها ونسبة ما عقلوه منها إلى ما خفي عليهم كنقرة عصفور في بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 101 . 103 ﴾

(33/338)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ : العامَّةُ على " عُدّة " بضم العين وتاء التأنيث وهي الزَّادُ والراحلةُ وجميعُ ما يَحْتاج إليه المسافرُ .

وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنهُ معاوية " عُدَّتَهُ " كذلك إلا أنه جعل مكان تاء التأنيث هاء ضمير غائب تعود على الخروج . واختُلِف في تخريجِها فقيل : أصلُها كقراءة الجمهور بتاء التأنيث ، ولكنهم يحذفونها للإضافةِ كالتنوين . وجعل الفراء من ذلك قولَه تعالى : ﴿ وَإِقَامَ الصلاة ﴾ [النور : 37] ، ومنه قولُ زهير :

2488 إنَّ الخَلِيْطَ أَجَدُّوا البَيْنَ فانْجَرَدُوا . . . وأَخْلَفُوكَ عِدَ الأمرِ الذي وَعدُوا

يريد : عِدَّةَ الأمرِ . وقال صاحب " اللوامح " : لَمَّا أضافَ جعل الكناية نائبةً عن التاء فأسقطها ؛ وذلك لأنَّ العُدَّ بغير تاء ولا تقديرها هو الشيء الذي يخرج في الوجه " . وقال أبو حاتم : " هو جمع عُدَّة كبُرّ جمع بُرّة ، ودُرّ جمع دُرَّة ، والوجهُ فيه عُدَد ، ولكن لا يوافق خطَّ المصحف .

وقرأ زر بن حبيش وعاصم في رواية أبان " عِدَّهُ " بكسر العين مضافةً إلى هاءِ الكناية .

قال ابن عطية : " وهو عندي اسمٌ لما يُعَدُّ كالذِّبْح والقِتْل . وقُرِئ أيضاً " عِدَّة " بكسر العين وتاء التأنيث ، والمرادُ عدة من الزاد والسلاح مشتقاً من العَدَد .

(34/338)

قوله : ﴿ ولكن كَرِهَ الله ﴾ الاستدراكُ هنا يحتاجُ إلى تأمل ؛ ولذلك قال الزمخشري : " فإن قلت : كيف موقعُ حرفِ الاستدراك ؟ قلت : لَمَّا كان قولُه ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج ﴾ معطياً نفيَ خروجهم واستعدادهم للغزو قيل : ولكنْ كره الله [انبعاثَهم] ، كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تَثَبَّطوا عن الخروج لكراهةِ انبعاثهم ، كما [تقول : ما] أحسن زيدٌ إليَّ ولكن أساء إليّ " انتهى . يعني أن ظاهر الآية يقتضي أنَّ ما بعد " لكن " موافقٌ لما قبلها ، وقد تقرَّر فيها أنها لا تقع إلا بين ضدين أو نقيضين أو خلافين على / خلاف في هذا الأخير فلذلك احتاج إلى الجواب المذكور .

قال الشيخ : " وليست الآيةُ نظيرَ هذا المثال يعني : ما أحسن زيداً إليّ ولكن أساء ، لأن المثالَ واقعٌ فيه " لكن " بين [ضدَّين ، والآيةُ واقعٌ فيها " لكن " بين] متفقين من جهة المعنى " ، قلت : مُرَادُهم بالنقيضين النفيُ والإثبات لفظاً وإن كانا يتلاقيان في المعنى ، ولا يُعَدُّ ذلك اتفاقاً .

والتَّثْبيطُ : التَّعْويق . يقال : ثَبَّطْتُ زيداً أي : عُقْتُه عَمَّا يريده من قولهم : ناقة ثَبِطَة أي بطيئة السير . والمراد بقوله " اقعدوا " التَّخْلية وهو كناية عن تباطُئِهم ، وأنهم تشبهوا بالنساء أو الصبيان والزمنى وذوي الأعذار ، وليس المراد قعوداً كقوله :

2489 دَعِ المكارِمَ لا تَقْصِدْ لبُغْيَتِها . . . واقعُدْ فإنَّك أنت الطاعِمُ الكاسي . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 57.59 ﴾

(35/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً ﴾ .

أي لو صدقوا في الطاعة لاستجابوا ببذل الوسع والطاقة ، ولكن سَقِمَتْ إرادتُهم ، فحصلت دون الخروج بَلادَتُهم ، وكذلك قيل :

لو صحَّ منكَ الهوى أُرْشِدْتَ للحِيَلِ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ .

أَلْزَمَهم الخروجَ من حيث التكليف ، ولكن ثبّتهم في بيوتهم بالخذلان ؛ فبالإلزام دعاهم ، وبأمر التكوين أقصاهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 31.32 ﴾

(36/338)

قوله تعالى ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : ما له ثبطهم وقد كنا قاصدين سفراً بعيداً وعدواً كثيراً شديداً فنحن محتاجون إلى الإسعاد ولو بتكثير السواد ! قيل : و ﴿ لو ﴾ أي فعل ذلك بهم لأنهم لو ﴿ خرجوا فيكم ﴾ أي وإن كانوا قليلاً معمورين بجماعاتكم ﴿ ما زادوكم ﴾ أي بخروجهم شيئاً من الأشياء ﴿ إلا خبالاً ﴾ أي ما أتوكم بشيء زائد على ما عندكم من الأشياء غير الخبال ، والاستثناء مفرغ والمستثنى منه - المقدر الثابت لهم الاتصاف به - هو الشيء ، وذلك لا يقتضي اتصاف أحد منهم بالخبال قبل خروج المنافقين ، والخبال : الفساد ، وهو ينظر على الخداع والأخد على غرة ﴿ ولأوضعوا ﴾ أي أوقعوا الإيضاع ،

حذف المفعول إشارة إلى أن مرادهم الإيضاع نفسه لا بقيد دابة ، وعبر بالإيضاع لأنه للراكب وهو أسرع من الماشي ﴿ خلالكم ﴾ أي لأسرعوا في السير ذهاباً وإياباً بينكم في تتبع عوراتكم وانتظار زلاتكم ليجدوا منها مدخلاً إلى الفساد بالنميمة وغيرها إن لم يجدوها ، والإيضاع في السير يكون برفق ويكون بإسراع ، والمراد به هنا الإسراع ، ومادة وضع بجميع تراكيبها تدور على الحركة ، وتارة تكون إلى علو وتارة إلى سفول ، ويلزم ذلك السكونُ والمحلُ القابل لذلك ، وعلى ذلك يتمشى العضو والعوض ، وعَوض الذي هو بمعنى الدهر ، وضوع الريح والتصويت بالبكاء ، والضعة لشجرة في البادية ، والوضع للطرح في مكان والسير اللين والسريع ؛ والخلال جمع الخلل وهو الفرجة ﴿ يبغونكم ﴾ أي حال كونهم يريدون لكم ﴿ الفتنة ﴾ أي بتشتيت الشمل وتفريق الأصحاب وتقدم عند ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ [الأنفال : 39] أنها الخلطة المميلة المحلية ، أي يريدون لكم الشيء الذي يصيبكم فغير حالتكم إلى ما يسوءكم فيسرهم ﴿ وفيكم ﴾ أي والحال أنه فيكم ﴿ سماعون لهم ﴾ أي في غاية القبول لكلامهم لضعف معارفهم وآرائهم .

(37/338)

وربما كان سماعهم منهم مؤدياً إلى مطلوبهم ﴿ والله ﴾ أي الذي أخبركم بهذا من حالهم وله الإحاطة بكل شيء ﴿ عليم ﴾ بهم ، فثقوا بأخبارهم .

هكذا كان الأصل وإنما قال : ﴿ بالظالمين ﴾ إشارة إلى الوصف الذي أوجب لهم الشقاء بمنعهم عن موطن الخير ، وتعميماً للحكم بالعلم بهم وبمن سمع لهم ظالم ، والحاصل أنه شبه سعيهم فيهم بالفساد بمن يوضع بعيره في أرض فيها أجرام شاخصة متقاربة ، فهو في غاية الالتفات إلى معرفة ما فيها من الفرج والتأمل لذلك حذراً من أن يصيبه شيء من تلك الأجرام فيسقيه كأس الحمام ، فلا شغل لهم إلا بغية فسادكم بعدم وصولكم إلى شيء من مرادكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 328 . 329 ﴾

(38/338)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) ﴾

اعلم أنه تعالى بين في هذه الآية أنواع المفاسد الحاصلة من خروجهم وهي ثلاثة : الأول :

قوله : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

الخبال والشر والفساد في كل شيء ، ومنه يسمى العته بالخبل ، والمعتوه بالمخبول ، وللمفسرين عبارات قال الكلبي : إلا شراً ، وقال يمان : إلا مكراً ، وقيل : إلا غياً ، وقال الضحاك : إلا غدراً ، وقيل : الخبال الاضطراب في الرأي ، وذلك بتزيين أمر لقوم وتقبيحه لقوم أخرين ، ليختلفوا وتفترق كلمتهم .

المسألة الثانية :

قال بعض النحويين قوله : ﴿ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ من الاستثناء المنقطع وهو أن لا يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، كقولك : ما زادوكم خيراً إلا خبالاً ، وههنا المستثنى منه غير مذكور وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من الأعم والعام هو الشيء ، فكان الاستثناء متصلاً ، والتقدير : ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً .

المسألة الثالثة :

قالت المعتزلة : إنه تعالى بين في الآية الأولى أنه كره انبعاثهم ، وبين في هذه الآية أنه إنما كره ذلك الانبعاث لكونه مشتملاً على هذا الخبال والشر والفتنة ، وذلك يدل على أنه تعالى يكره الشر والفتنة والفساد على الإطلاق ، ولا يرضى إلا بالخير ، ولا يريد إلا الطاعة .

النوع الثاني : من المفاسد الناشئة من خروجهم قوله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم

يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ وفي الإيضاح قولان نقلهما الواحدي .

القول الأول : وهو قول أكثر أهل اللغة ، أن الإيضاع حمل البعير على العدو ، ولا يجوز أن يقال : أوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً .

يقال : وضع البعير إذا عدا وأوضعه الراكب إذا حمله عليه .

(39/338)

قال الفراء : العرب تقول : وضعت الناقة ، وأوضع الراكب ، وربما قالوا للراكب وضع .

والقول الثاني : وهو قول الأخفش وأبي عبيد أنه يجوز أن يقال : أوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً من غير أن يراد أنه وضع ناقته ، روى أبو عبيد أن النبي صلى الله عليه وسلم أفاض من عرفة وعليه السكينة وأوضع في وادي محسر وقال لبيد :

أرانا موضعين لحكم غيب . . ونسخو بالطعام وبالشراب

أراد مسرعين ، ولا يجوز أن يكون يريد موضعين الإبل لأنه لم يرد السير في الطريق ، وقال عمر بن أبي ربيعة :

تبالهن بالعدوان لما عرفنني . . وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا

قال الواحدي : والآية تشهد لقول الأخفش وأبي عبيد .

واعلم أن على القولين : فالمراد من الآية السعي بين المسلمين بالتضريب والنمائم ، فإن اعتبرنا القول الأول كان المعنى : ولأوضعوا ركائبهم بينكم ، والمراد الإسراع بالنمائم ، لأن الراكب أسرع من الماشي ، وإن اعتبرنا القول الثاني كان المراد أنهم يسرعون في هذا التضريب .

المسألة الرابعة :

نقل صاحب "الكشاف" عن ابن الزبير أنه قرأ ﴿ ولأوقصوا ﴾ من وقصت الناقة وقصا إذا أسرعت وأوقصتها ، وقرىء ولأرفضوا .

فإن قيل : كيف كتب في المصحف ﴿ وَلأَوْضَعُواْ ﴾ بزيادة الألف ؟

أجاب صاحب "الكشاف" بأن الفتحة كانت ألفاً قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن وقد بقي في ذلك الألف أثر في الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحتها ألفاً أخرى ونحوه ﴿ أَولا أذبحنه ﴾ .

المسألة الخامسة :

قوله : ﴿ خلالكم ﴾ أي فيما بينكم ، ومنه قوله : ﴿ وَفَجَّرْنَا خلالهما نَهَراً ﴾ [الكهف : 33] وقوله : ﴿ فَجَاسُواْ خلال الديار ﴾ [الإسراء : 5] وأصله من الخلل ، وهو الفرجة بين الشيئين وجمعه خلال ، ومنه قوله : ﴿ فَتَرَى الودق يَخْرُجُ مِنْ خِلاَلِهِ ﴾ [النور :

43] وقرىء من ﴿ خلله ﴾ وهي مخارج مصب القطر ، وقال الأصمعي : تخللت القوم إذا دخلت بين خللهم وخلالهم .

(40/338)

ويقال : جلسنا خلال بيوت الحي وخلال دورهم أي جلسنا بين البيوت ووسط الدور .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ أي بالنميمة والإفساد وقوله : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ أي يبغون لكم ، وقال الأصمعي : ابغني كذا أي اطلبه لي ، ومعنى ابغني وابغ لي ، سواء ، وإذا قال ابغني ، فمعناه : أعني على ما بغيته ، ومعنى ﴿ الفتنة ﴾ ههنا افتراق الكلمة وظهور التشويش .

واعلم أن حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً ، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه .

ثم بين تعالى أنهم لا يقتصرون على ذلك بل يمشون بين الأكابر بالنميمة فيكون الإفساد أكثر ، وهو المراد بقوله : ﴿ وَلأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ .

فأما قوله : ﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ ففيه قولان : الأول : المراد : فيكم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم ، وهذا قول مجاهد وابن زيد .

والثاني : قال قتادة : فيكم من يسمع كلامهم ويقبل قولهم ، فإذا ألقوا إليهم أنواعاً من الكلمات الموجبة لضعف القلب قبلوها وفتروا بسببها عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغي .

فإن قيل : كيف يجوز ذلك على المؤمنين مع قوة دينهم ونيتهم في الجهاد ؟

قلنا : لا يمتنع فيمن قرب عهده بالإسلام أن يؤثر قول المنافقين فيهم ولا يمتنع كون بعض الناس مجبولين على الجبن والفشل وضعف القلب ، فيؤثر قولهم فيهم ، ولا يمتنع أن يكون بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقين فينظرون إليهم بعين الإجلال والتعظيم ، فلهذا السبب يؤثر قول هؤلاء الأكابر من المنافقين فيهم ، ولا يمتنع أيضاً أن يقال : المنافقون على قسمين : منهم من يقتصر على النفاق ولا يسعى في الأرض بالفساد ، ثم إن الفريق الثاني من المنافقين يحملونهم على السعي بالفساد بسبب إلقاء الشبهات والأراجيف إليهم .

(41/338)

ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بسبب كفرهم ونفاقهم ، وظلموا غيرهم بسبب أنهم سعوا في إلقاء غيرهم في وجوه الآفات والمخالفات ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 65. 67 ﴾

(42/338)

وقال السمرقندى :

ثم أخبر الله تعالى أن لا منفعة للمسلمين في خروجهم معهم ، بل عليهم مضرة منهم ، فقال تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾ ؛ يعني : المنافقين لو خرجوا معكم ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ ، يعني : فساداً ويقال : شراً وجبناً ؛ ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ ، يقول ساروا بينكم .

والإيضاع في اللغة هو إسراع الإبل ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم حين أفاض من عرفات : " أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالوَقَارِ ، فَإِنَّ البِرَّ لَيْسَ فِي إِيضَاعِ الإِبِلِ وَلا فِي إِيجَافِ الخَيْلِ " .

يعني : إن المنافقين لو خرجوا معكم ، يسرعون الإبل فيما بينكم ويؤتونكم .

ثم قال ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ ، يعني : يطلبون منكم الشرك ويطلبون هزيمتكم وعيوبكم ،

ويفشون سركم .

﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ ، يعني : وفي عسكركم عيون وجواسيس للمنافقين ؛ ويقال : وفيكم من يسمع ما يقول المنافقون ويقبلون منه .

﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ ، يعني : بالمنافقين .

وهذا وعيد لهم ، يعني : عليم بعقوبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(43/338)

وقال الثعلبى :

﴿ لَوْخَرَجُواْ فِيكُم ﴾ الآية ،

وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس بالجهاد لغزوة تبوك ، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعسكره على ثنيّة الوداع ، ولم يكن بأقلّ العسكرين ، فلمّا سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أُبيّ فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب ، فأنزل الله تعالى [يعزي] نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ يعني المنافقين ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ فساداً ، وقال الكلبي : شرّاً وقيل : غدراً ومكرا ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ يعني ولأوضعوا ركابهم بينكم ، يقال : وضعت الناقة تضع

وضعاً ووضوعاً إذا أسرعت السير ، وأوضعها أيضاعاً أي جدّ بها فأسرع ، قال الراجز :

يا ليتني فيها جذع . . . أخبّ فيها وأضعْ

وقال : أقصرْ فإنك طالما . . . أوضعت في إعجالها

قال محمد بن إسحاق يعني : أسرع الفرار في أوساطكم وأصل الخلال من الخلل وهو الفرجة بين الشيئين وبين القوم في الصفوف وغيرها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تراصّوا في الصفوف لايخللكم الشيطان كأولاد الحذف " .

﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ أي يبغون لكم ، يقول : يطلبون لكم ما تفتنون به ، يقولون : لقد جمع [العدو] لكم فعل وفعل ، يخبلونكم .

وقال الكلبي : يبغونكم الفتنة يعني الغيب والسر ، وقال الضحاك : يعني الكفر ، يقال فيه : بغيته أبغيه بغاء إذا التمسته بمعنى بغيت له ، ومثله عكمتك إن عكمت لك فيها ، وإذا أرادوا أعنتك عليه قالوا : أبغيتك وأحلبتك وأعمكمتك .

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ قال مجاهد وابن زيد بينكم عيون لهم عليكم [يوصلون] مايسمعون منكم ، وقال قتادة وابن يسار : وفيكم من يسمع كلامهم ويطبعهم ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(44/338)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾

يعني اضطراباً حكاه ابن عيسى .

والثاني : فساداً ، قاله ابن عباس .

فإن قيل : فلم يكونوا في خبال فيزدادوا بهؤلاء الخارجين خبالاً .

قيل هذا من الاستثناء المنقطع ، وتقديره : ما زادوكم قوة ، ولكن أوقعوا بينكم خبالاً .

﴿ وَلأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أما الإيضاع فهو إسراع السير ، ومنه قول الراجز :

يا ليتني فيها جذع . . . أخُبّ فيها وأضَعْ

وأما الخلال فهو من تخلل الصفوف وهي الفُرَج تكون فيها ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : " تَرَاصُّوا فِي الصُّفُوفِ وَلاَ يَتَخَلَّلْكُمْ ، كَأَوْلاَدِ الحذف يَعْنِي الشَّيَاطِينَ " والخلال هو الفساد ، وفيه ها هنا وجهان :

أحدهما : لأسرعوا في إفسادكم .

والثاني : لأوضعوا الخلف بينكم .

وفي الفتنة التي يبغونها وجهان :

أحدهما : الكفر .

والثاني : اختلاف الكلمة وتفريق الجماعة .

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ وفيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : وفيكم من يسمع كلامهم ويطيعهم ، قاله قتادة وابن إسحاق .

والثاني : وفيكم عيون منكم ينقلون إلى المشركين أخباركم ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(45/338)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ الآية

خبر بأنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرة ، وقولهم ﴿ إلا خبالاً ﴾ استثناء من غير الأول ، وهذا قول من قدر أنه لم يكن في عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خبال ، فيزيد المنافقون فيه ، فكأن المعنى ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً ، ويحتمل أن يكون استثناء غير منقطع وذلك أن عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهم لا محالة خبال ، فلو خرج هؤلاء لالتأموا مع الخارجين فزاد الخبال ،

والخبال الفساد في الأشياء المؤتلفة الملتحمة كالمودات وبعض الأجرام ، ومنه قول الشاعر : [الكامل]

يا بني لبينى لستما بيدِ . . . إلاّ يداً مخبولة العضدِ

وقرأ ابن أبي عبلة " ما زادكم " بغير واو ، وقرأ جمهور الناس ﴿ لأوضعوا ﴾ ومعناه لأسرعوا السير ، و ﴿ خلالكم ﴾ معناه فيما بينكم من هنا إلى هنا يسد الموضع الخلة بين الرجلين ، والإيضاع سرعة السير ، وقال الزجّاج ﴿ خلالكم ﴾ معناه فيما يخل بكم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، وماذا يقول في قوله : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ [الاسراء : 5] وقرأ مجاهد فيما حكى النقاش عنه ، " ولأوفضوا " وهو أيضاً بمعنى الإسراع ومنه قوله تعالى : ﴿ إلى نصب يوفضون ﴾ [المعارج : 43] ، وحكي عن الزبير أنه قرأ " ولأرفضوا " قال أبو الفتح : هذه من رفض البعير إذا أسرع في مشيه رقصاً ورقصاناً ، ومنه قول حسان بن ثابت : [الكامل]

رقص القلوص براكب مستعجل . . . ووقعت " ولا أوضعوا " بألف بعد " لا " في المصحف ، وكذلك وقعت في قوله ﴿ أو لأذبحنه ﴾ [النمل : 21] ، قيل وذلك لخشونة هجاء الأولين قال الزجّاج : إنما وقعوا في ذلك لأن الفتحة في العبرانية وكثير من الألسنة تكتب ألفاً .

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن تمطل حركة اللام فيحدث بين اللام والهمزة التي من أوضع ، وقوله : ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ أي يطلبون لكم الفتنة ، وقوله ﴿ وفيكم سماعون ﴾ قال سفيان بن عيينة والحسن ومجاهد وابن زيد معناه جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم ، ورجحه الطبري ، قال النقاش : بناء المبالغة يضعف هذا القول ، وقال جمهور المفسرين معناه وفيكم مطيعون سامعون لهم ، وقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ توعد لهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(47/338)

وقال ابن الجوزى :

قال الزجاج : ثم أعلم الله عز وجل لم كره خروجهم ، فقال : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبَالاً ﴾ والخبال : الفساد وذهاب الشيء .

وقال ابن قتيبة : الخبال : الشر .

فإن قيل : كأن الصحابة كان فيها خبال حتى قيل : ﴿ ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ ؟

فالجواب : أنه من الاستثناء المنقطع ، والمعنى : ما زادوكم قوّة ، لكن أوقعوا بينكم خبالاً .

وقيل : سبب نزول هذه الآية أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج ، ضرب عسكره على ثنيَّة الوداع ، وخرج عبد الله بن أُبيّ ، فضرب عسكره على أسفل من ذلك ؛ فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تخلَّف ابن أُبي فيمن تخلَّف من المنافقين ، فنزلت هذه الآية .

قوله تعالى : ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ قال الفراء : الإيضاع : السير بين القوم .

وقال أبو عبيدة : لأسرعوا بينكم ، وأصله من التخلل .

قال الزجاج : يقال : أوضعت في السير : أسرعت .

قوله تعالى : ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ قال الفراء : يبغونها لكم .

وفي الفتنة قولان .

أحدهما : الكفر ، قاله الضحاك ، ومقاتل ، وابن قتيبة .

والثاني : تفريق الجماعة ، وشتات الكلمة ، قال الحسن : لأوضعوا خلالكم بالنميمة لإفساد ذات بينكم .

قوله تعالى : ﴿ وفيكم سمَّاعون لهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : عيون ينقلون إليهم أخباركم ، قاله مجاهد ، وابن زيد .

والثاني : مَن يسمع كلامهم ويطيعهم ، قاله قتادة ، وابن إسحاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(48/338)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾

هو تسلية للمؤمنين في تخلف المنافقين عنهم .

والخبال : الفساد والنميمة وإيقاع الاختلاف والأراجيف .

وهذا استثناء منقطع ؛ أي ما زادوكم قوة ولكن طلبوا الخبال ، وقيل : المعنى لا يزيدونكم فيما يترددون فيه من الرأي إلا خبالاً ؛ فلا يكون الاستثناء منقطعاً .

قوله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ المعنى لأسرعوا فيما بينكم بالإفساد .

والإيضاع ، سرعة السير .

وقال الراجز :

يا ليتني فيها جَذَعْ . . .

أَخُبُّ فيها وَأَضَعْ

يقال : وَضع البعيرُ إذا عدا ، يضع وضعاً ووضوعاً إذا أسرع السير .

وأوضعته حملته على العَدْوِ .

وقيل : الإيضاع سير مثل الخَبَب .

والخلل الفرجة بين الشيئين ؛ والجمع الخلال ، أي الفُرَج التي تكون بين الصفوف .

أي لأوضعوا خلالكم بالنميمة وإفساد ذات البين .

﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ مفعول ثانٍ .

والمعنى يطلبون لكم الفتنة ؛ أي الإفساد والتحريض .

ويقال : أبغيته كذا أعنته على طلبه .

وبَغَيته كذا طلبته له .

وقيل : الفتنة هنا الشرك .

﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أي عيون لهم ينقلون إليهم الأخبار منكم .

قتادة : وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم .

النحاس : القول الأوّل أولى ؛ لأنه الأغلب من معنييه أن معنى سَمّاع يسمع الكلام : ومثله :

﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ [المائدة : 42] .

والقول الثاني لا يكاد يقال فيه إلا سامع ؛ مثل قائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى

حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

ثم بيَّن سبحانه وتعالى ما في خروجهم من المفاسد فقال تعالى : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ يعني لو خرج هؤلاء المنافقون معكم إلى الغزو ما زادوكم إلا فساداً وشراً وأصل الخبال اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون قال بعض النحاة : هذا من الاستثناء المنقطع والمعنى لو خرجوا فيكم ما زادوكم قوة لكن خبالاً والمراد به هنا الإفساد وإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين بتهويل الأمر وشدة السفر وكثرة العدوان وقوتهم ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ يعني ولأسرعوا فيكم وساروا بينكم بإلقاء النميمة والأحاديث الكاذبة فيكم ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ يعني يطلبون لكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين لقد جمع لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تجبن وقيل معناه يطلبون العيب والشر ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ قال مجاهد : يعني وفيكم عيون لهم يؤدون إليهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس .

وقال قتادة : وفيكم مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون إليهم

أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم .

فإن قلت : كيف يجوز أن يكون في المؤمنين المخلصين من يسمع ويطيع للمنافقين ؟

قلت : يحتمل أن يكون بعض المؤمنين لهم أقارب من كبار المنافقين ورؤسائهم فإذا قالوا قولاً ربما أثر ذلك القول في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وهذا وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(50/338)

وقال أبو حيان :

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين ﴾

لما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضرب عسكره على ثنية الوداع ، وضرب عبد الله بن أبيّ عسكره أسفل منها ، ولم يكن بأقل العسكرين ، فلما سار تخلف عنه عبد الله فيمن تخلف فنزلت بعرى الله ورسوله إلى قوله : وهم كارهون .

وفيكم أي : في جيشكم أو في جملتكم .

وقيل : في بمعنى مع .

قال ابن عباس : الخبال الفساد ومراعاة إخماد الكلمة .

وقال الضحاك : المكر والغدر .

وقال ابن عيسى : الاضطراب .

وقال الكلبي : الشر ، وقاله : ابن قتيبة .

وقيل : إيقاع الاختلاف والأراجيف ، وتقدّم شرح الخبال في آل عمران .

وهذا الاستثناء متصل وهو مفرغ ، إذ المفعول الثاني لزاد لم يذكر ، وقد كان في هذه الغزوة منافقون كثير ، ولهم لا شك خبال ، فلو خرج هؤلاء لتألبوا فزاد الخبال .

وقال الزمخشري : المستثنى منه غير مذكور ، فالاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء ، فكان هو استثناء متصلاً لأنّ بعض أعم العام ، كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً .

وقيل : هو استثناء منقطع ، وهذا قول من قال : إنه لم يكن في عسكر الرسول خبال .

فالمعنى : ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً .

وقرأ ابن أبي عبلة : ما زادوكم بغير واو ، ويعني : ما زادكم خروجهم إلا خبالاً .

والإيضاع الإسراع قال :

أرانا موضعين لأمر غريب . . .

ونسحر بالطعام وبالشراب

ويقال : وضعت الناقة تضع وضعاً ووضوعاً قال :

يا ليتني فيها جذع . . .

أخب فيها وأضع

قال الحسن : معناه لأسرعوا بالنميمة .

وقرأ محمد بن القاسم : لأسرعوا بالفرار .

ومفعول أوضعوا محذوف تقديره : ولأوضعوا ركائبكم بينكم ، لأن الراكب أسرع من الماشي .

وقرأ مجاهد ومحمد بن زيد : ولأوفضوا أي أسرعوا كقوله : ﴿ إلى نصيب يوفضون ﴾

وقرأ ابن الزبير : ولأرفضوا بالراء من رفض أسرع في مشيه رفضاً ورفضاناً قال حسان :

(51/338)

بزجاجة رفضت بما في جوفها . . .

رفض القلوص براكب مستعجل

وقال غيره :

والرافضات إلى منى فالقبقب . . .

والخلاف جمع الخلل ، وهو الفرجة بين الشيئين .

وقال الأصمعي : تخللت القوم دخلت بين خللهم وخلالهم ، وجلسنا خلال البيوت وخلال الدور أي : بينها ، ويبغون حال أي : باغين .

قال الفراء : يبغونها لكم .

والفتنة هنا الكفر قاله : مقاتل ، وابن قتيبة ، والضحاك .

أو العيب والشر قاله : الكلبي .

أو تفريق الجماعة أو المحنة باختلاف الكلمة أو النميمة .

وقال الزمخشري : يحاولون أن يفتنوكم بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ، ويفسدوا نياتكم في مغزاكم .

وفيكم سماعون لهم أي : ضامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم ، أو فيكم قوم يستمعون للمنافقين ويطيعونهم انتهى .

فاللام في القول الأول للعليل ، وفي الثاني لتقوية التعدية كقوله : ﴿ فعال لما يريد ﴾ والقول الأول قاله : سفيان بن عيينة ، والحسن ، ومجاهد ، وابن زيد ، قالوا : معناه جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم ، ورجحه الطبري .

والقول الثاني قول الجمهور قالوا : معناه وفيكم مطيعون سماعون لهم .

ومعنى وفيكم في خلالكم منهم ، أو منكم ممن قرب عهده بالإسلام .

والله عليم بالظالمين يعم كل ظالم .

ومعنى ذلك : أنه يجازيه على ظلمه .

واندرج فيه من يقبل كلام المنافقين ، ومن يؤدي إليهم أخبار المؤمنين ، ومن تخلف عن هذه الغزاة من المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(52/338)

وقال أبو السعود :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾

بيانٌ لسر كراهتِه تعالى لانبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ مَّا زَادُوكُمْ ﴾ أي ما أورثوكم شيئاً من الأشياء ﴿ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أي فساداً وشراً فالاستثناءُ مفرَّغٌ متصلٌ وقيل : منقطعٌ وليس بذلك ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ أي ولسعَوْا فيما بينكم بالنمائم والتضريبِ وإفسادِ ذاتِ البين من وضَع البعيرُ وضعاً إذا أسرع وأوضعتُه أنا أي حملتُه على الإسراع والمعنى لأوضعوا ركائبَهم بينكم ، والمرادُ به المبالغة في الإسراع بالنمائم لأن الراكبَ أسرعُ من الماشي وقرىء ولأوقصوا من وقصت الناقةُ أسرعتْ وأوقصتُها أنا وقرىء ولأوفضوا أي أسرعوا ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ يحاولون أن يفتنوكم بإيقاع الخلافِ

فيما بينكم وإلقاءِ الرعبِ في قلوبكم وإفسادِ نياتِكم ، والجملةُ حالٌ من ضمير أوضعوا أو استئنافٌ ﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ أي نمّامون يسمعون حديثَكم لأجل نقلِه إليهم أو فيكم قومٌ ضَعَفَةٌ يسمعون للمنافقين أي يُطيعونهم ، والجملةُ حالٌ من مفعول يبغونكم أو من فاعله لاشتمالها على ضميريهما ، أو مستأنَفةٌ ، ولعلهم لم يكونوا في كمية العددِ وكيفية الفسادِ بحيث يُخِل مكانُهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهادِ إخلالاً عظيماً ، ولم يكن فسادُ خروجِهم معادلاً لمنفعته ، ولذلك لم تقتضِ الحكمةُ عدمَ خروجِهم فخرجوا مع المؤمنين ، ولكن حيث كان انضمامُ المنافقين القاعدين إليهم مستتبِعاً لخلل كليَ كرِه الله انبعاثَهم فلم يتسنَّ اجتماعُهم فاندفع فسادُهم . ووجهُ العتابِ على الأذن في قعودهم مع تقرُّره لا محالة وتضمُّنِ خروجِهم لهذه المفاسد أنهم لو قعدوا بغير إذنٍ منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقُهم فيما بين المسلمين من أول الأمرِ ولم يقدِروا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالأراجيف ولم يتسنَّ لهم التمتعُ بالعيش إلى أن يظهرَ حالُهم بقوارعِ الآيات النازلة ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ علماً محيطاً بضمائرهم وظواهرِهم وما فعلوا فيما

(53/338)

مضى وما يتأتى منهم فيما سيأتي ، ووضعُ المظهَرِ موضِعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والإشعارِ بترتّبه على الظلم ولعله شاملٌ للفريقين السّماعين والقاعدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(54/338)

وقال الآلوسى :

﴿ لَوْخَرَجُواْ فِيكُم ﴾

بيان لكراهة الله تعالى انبعاثهم أي لو خرجوا مخالطين لكم ﴿ مَّا زَادُوكُمْ ﴾ شيئاً من الأشياء ﴿ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أي شراً وفساداً .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عجزاً وجبناً .

وعن الضحاك غدراً ومكراً ، وأصل الخبال كما قال الخازن : اضطراب ومرض يؤثر في العقل كالجنون ، وفي مجمع البيان أنه الاضطراب في الرأي ، والاستثناء مفرغ متصل والمستثنى منه ما علمت ولا يستلزم أن يكون لهم خبال حتى لو خرجوا زادوه لأن الزيادة باعتبار أعم العام الذي وقع منه الاستثناء .

وقال بعضهم : توهماً منه لزوم ما ذكر هو مفرغ منقطع والتقدير ما زادوكم قوة وخيراً لكن

شراً وخبالاً

واعترض بأن المنقطع لا يكون مفرغاً وفيه بحث لأنه مانه منه إذا دلت القرينة عليه كما إذا قيل : ما أنيسك في البادية فقلت : ما لي بها إلا اليعافير أي ما لي بها أنيس إلا ذلك ، وأنت تعلم أن في وجود القرينة ههنا مقالاً .

وقال أبو حيان : إنه كان في تلك الغزوة منافقون لهم خبال فلو خرج هؤلاء أيضاً واجتمعوا بهم زاد الخبال فلا فساد في ذلك الاستلزام لو ترب ﴿ ولاَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ الايضاع سير الابل يقال : أوضعت الناقة تضع إذا أسرعت وأوضعتها أنا إذا حملتها على الإسراع ، والخلال جمع خلل وهو الفرجة استعمل ظرفاً بمعنى بين ومفعول الإيضاع مقدر أي النمائم بقرينة السياق ، وفي الكلام استعارة مكنية حيث شبهت النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها وأثبت لها الأيضاع على سبيل التخييل ، والمعنى ولسعوا بينكم بالنميمة وإفساد ذات البين .

وقال العلامة الطيبي : فيه استعارة تبعية حيثي شبه سرعة افسادهم ذات البين بالنمائم بسرعة سير الراكب ثم استعير لها الإيضاع وهو للابل والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم ثم حذف النمائم وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل لأوضعوا اركائبهم ثم حذفت الركائب .

ومنع الأخفش في كتاب الغايات أن يقال : أوضعت الركائب ووضع البعير بمعنى أسرع وإنما يستعمل ذلك بدون قيد ، وجوز ذلك غيره واستدل له بقوله :

فلم أر سعدى بعد يوم لقيتها . . .

غداة بها أجمالها صاح توضع

وقرىء ﴿ ولأرقصوا ﴾ من رقصت الناقة إذا أسرعت وأرقصتها ومنه قوله :

يا عام لو قدرت عليك رماحنا . . .

والراقصات إلى منى فالغبغب

وقرىء ﴿ لأوفضوا ﴾ والمراد لأسرعوا أيضاً يقال : أوفض واستوفض إذا استعجل وأسرع والوفض العجلة ، وكتب قوله تعالى : ﴿ لأوضعوا ﴾ في الامام بألفين الثانية منهما هي فتحة الهمزة والفتحة ترسم لها ألف كما ذكره الداني ، وفي الكشاف كانت الفتحة تكتب ألفا قبل الخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحتها ألفاً أخرى ومثل ذلك

﴿ أَوْ لَاذْبَحَنَّهُ ﴾ [النمل : 21] ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ أي يطلبون أن يفتنوكم بايقاع الخلاف فيما بينكم وتهويل أمر العدو عليكم وإلقاء الرعب في قلوبكم وهذا هو المروى عن الضحاك .

وعن الحسن أن الفتنة بمعنى الشرك أي يريدون أن تكونوا مشركين ، والجملة في موضع الحال من ضمير أوضعوا أي باغين لكم الفتنة ، ويجوز أن تكون استئنافاً ﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ أي نمامون يسمعون حديثكم لأجل نقله إليهم كما روي عن مجاهد .

وابن زيد أو فيكم أناس من المسلمين ضعفة يسمعون قولهم ويطيعونهم كما روي عن قتادة .

وابن اسحق .

وجماعة .

واللام على التفسير الأول للتعليل وعلى الثاني للتقوية كما في قوله تعالى : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [البروج : 16] ، والجملة حال من مفعول ﴿ يَبْغُونَكُمُ ﴾ أو من فاعله لاشتمالها على ضميرهما أو مستأنفة .

(56/338)

قال بعض المحققين : ولعل هؤلاء لم يكونوا في كمية العدد وكيفية الفساد بحيث يخل مكانهم فيما بين المؤمنين بأمر الجهاد اخلالاً عظيماً ولم يكن فساد خروجهم معادلاً لمنفعته ولذلك لم تقتض الحكمة عدم خروجهم فخرجوا مع المؤمنين ، ولكن حيث كان انضمان المنافقين القاعدين إليهم مستتبعاً لخل كلي كره الله تعالى انبعاثهم فلم يتسن اجتماعهم فاندفع

فسادهم انتهى ، والاحتجاج إليه على التفسير الأول أظهر منه على التفسير الثاني لأن الظاهر عليه أن القوم لم يكونوا منافقين ، ووجه العتاب على الاذن في قعودهم مع ما قص الله تعالى فيهم أنهم لو قعدوا بغير إذن منه عليه الصلاة والسلام لظهر نفاقهم فيما بين المسلمين من أول الأمر ولم يقدروا على مخالطتهم والسعي فيما بينهم بالاراجيف ولم يتسن لهم التمتع بالعيش إلى أن يظهر حالهم بقوارع الآيات النازلة ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ علماً محيطاً بظواهرهم وبواطنهم وأفعالهم الماضية والمستقبلة فيجازيهم على ذلك ، ووضع المظهر موضع المضمر للتسجيل عليهم بالظلم والتشديد في الوعيد والاشعار بترتبه على الظلم ، ويجوز أن يراد بالظالمين الجنس ويدخل المذكورون دخولاً أولياً ، والمراد منهم إما القاعدون أو هم والسماعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(57/338)

وقال القاسمى :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾

أي : فساداً وشرّاً ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ﴾ أي : ولأسرعوا السير والمشي بينكم بالفساد .

قال الشهاب : الإيضاع : إسراع سير الإبل . يقال : وضعت الناقة ، تضع إذا أسرعت ، وأوضعتها أنا .

والمراد : الإسراع بالنمائم ، لأن الراكب أسرع من الماشي . فقيل : المفعول مقدّر ، وهو النمائم ، فشبه النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاع . ففيه تخييلية ومكنية .

وقيل : إنه استعارة تبعية ، شبه سرعة إفسادهم

لذات البيْن بالنميمة ، بسرعة سير الركائب ، ثم استعير لها الإيضاع ، وهو للإبل .

وخلال جمع خلل ، وهو الفرجة ، استعمل ظرفاً بمعنى بين .

واعلم أن قوله : ﴿ وَلَأَوْضَعُوا ﴾ مرسوم في الإمام بألفين ، لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اختراع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من تلك الألف أثر في الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً وفتحها ألفاً أخرى ونحوه : ﴿ أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ ﴾ .

﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾ أي : يطلبون لكم ما تفتنون ، بإيقاع الخلاف فيما بينكم ، وإلقاء الرعب في قلوبكم ، وإفساد نيّاتكم ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ أي : منقادون لقولهم مستحسنون لحديثهم ، وإن كانوا لا يعلمون حالهم ، لضعف عقولهم ، فيتوهمون منهم النصح والإعانة ، وهم يريدون التخذيل والفتنة ، فيؤدي إلى وقوع شرّ بين المؤمنين ، وفساد كبير .

وقال مجاهد وزيد بن أسلم وابن جرير ، أي : فيكم عيون يسمعون لهم الأخبار وينقلونها إليهم .

(58/338)

قال ابن كثير : وهذا لا يبقى له اختصاص بخروجهم معهم ، بل هذا عامّ في جميع الأحوال .

والمعنى الأول أظهر في المناسبة بالسياق ، وإليه ذهب قتادة وغيره من المفسرين .

قال محمد بن إسحاق : كان استأذن ، فيما بلغني ، من ذوي الشرف منهم ، عبد الله بن أبيّ ابن سلول والجدّ بن قيس ، وكانوا أشرافاً في قومهم ، فثبطهم الله ، لعلمه بهم أن يخرجوا فيفسدوا عليه جنده .

وكان في جنده قوم أهل محبة لهم وطاعة فيها يدعونهم إليه ، لشرفهم فيهم ، فقال : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ . انتهى .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ ولا يخفى عليه شيء من أمرهم ، وفيه شمول للفريقين : القاعدين والسماعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 441.442 ﴾

(59/338)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ﴾

استئناف بياني لجملة ﴿ كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ [التوبة : 46] لبيان الحكمة من كراهية الله انبعاثَهم ، وهي إرادة الله سلامة المسلمين من أضرار وجود هؤلاء بينهم ، لأنّهم كانوا يضمرون المكر للمسلمين فيخرجون مرغمين ، ولا فائدة في جيش يغزو بدون اعتقاد أنّه على الحقّ ، وتعدية فعل (الخروج) بفي شائعة في الخروج مع الجيش .

والزيادة : التوفير .

وحذف مفعول ﴿ زادوكم ﴾ لدلالة الخروج عليه ، أي ما زادوكم قوة أو شيئاً ممّا تفيد زيادته في الغزو نصراً على العدوّ ، ثم استُثني من المفعول المحذوف الخبالُ على طريقة التهكّم بتأكيد الشيء بما يشبه ضده فإنّ الخبال في الحرب بعض من عدم الزيادة في قوة الجيش ، بل هو أشدّ عدماً للزيادة ، ولكنّه ادّعي أنّه من نوع الزيادة في فوائد الحرب ، وأنّه يجب استثناؤه من ذلك النفي ، على طريقة التهكّم .

والخبال : الفساد ، وتفكّك الشيء الملتحم الملتئم ، فأطلق هنا على اضطراب الجيش واختلال نظامه .

وحقيقة ﴿ أوضعوا ﴾ أسرعوا سير الرِّكاب .

يقال : وضع البعيرُ وضعاً ، إذا أسرع ويقال : أوضعتُ بعيري ، أي سيّرته سيراً سريعاً .

وهذا الفعل مختصّ بسير الإبل فلذلك يُنزَّل فعل أوضع منزلة القاصر لأنّ مفعوله معلوم من مادّة فعله .

وهو هنا تمثيل لحالة المنافقين حين يبذلون جهدهم لإيقاع التخاذل والخوف بين رجال الجيش ، وإلقاء الأخبار الكاذبة عن قوّة العدوّ ، بحال من يُجهد بعيره بالسير لإبلاغ خبر مهمّ أو إيصال تجارة لسوق ، وقريب من هذا التمثيل قوله تعالى : ﴿ فجاسوا خلال الديار ﴾ [الإسراء : 5] وقوله : ﴿ وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان ﴾ [المائدة : 62] .

(60/338)

وأصله قولهم : يسعى لكذا ، إلاّ أنّه لمّا شاع إطلاق السعي في الحرص على الشيء خفيت ملاحظة تمثيل الحالة عند إطلاقه لكثرة الاستعمال فلذلك اختير هنا ذكر الإيضاع لعزّة هذا المعنى ، ولما فيه من الصلاحية لتفكيك الهيئة بأن يُشبه الفاتنون بالرّكب ، ووسائلُ الفتنة بالرواحل .

وفي ذكر ﴿ خلالكم ﴾ ما يصلح لتشبيه استقرائهم الجماعات والأفراد بتغلغل الرواحل في

خلال الطرق والشعاب .

والخلال : جمع خَلَل بالتحريك .

وهو الفرجة بين شيئين واستعير هنا لمعنى بينَكم تشبيهاً لجماعات الجيش بالأجزاء المتفرّقة .

وكتب كلمة ﴿ ولاَ أوضعوا ﴾ في المصحف بألف بعد همزة أوضعوا التي في اللام ألف بحيث وقع بعد اللام ألفان فأشبهت اللامُ ألف لا النافية لفعل ﴿ أوضعوا ﴾ ولا ينطق بالألف الثانية في القراءة فلا يقع التباس في ألفاظ الآية .

قال الزجاج : وإنّما وقعوا في ذلك لأنّ الفتحة في العبرانية وكثير من الألسنة تكتب ألفاً .

وتبعه الزمخشري ، وقال ابن عطية : "يحتمل أن تُمطل حركة اللام فتحدث ألف بين اللام والهمزة التي من أوضع ، وقيل : ذلك لخشونة هجاء الأوّلين" ، يعني لعدم تهذيب الرسم عند الأقدمين من العرب .

قال الزمخشري : ومثلَ ذلك كتبوا

﴿ لا اذبحنّه ﴾ في سورة النمل (21) قلت : وكتبوا ﴿ لأعذّبنه ﴾ [النمل : 21] بلام ألف لا غير وهي بلصق كلمة ﴿ أوْ لأذبحنّه ﴾ [النمل : 21] ، ولا في نحو ﴿ وإذاً لاتخذوك خليلاً ﴾ [الإسراء : 73] فلا أراهم كتبوا ألفاً بعد اللام ألف فيما كتبوها فيه إلاّ لمقصد ، ولعلّهم أرادوا التنبيه على أنّ الهمزة مفتوحة وعلى أنّها همزة قطع .

وجملة ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ [التوبة : 46] العائد على الذين لا يؤمنون بالله في قوله تعالى : ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 45] المرادِ بهم المنافقون كما تقدّم .

(61/338)

وبغى يتعدّى إلى مفعول واحد لأنّه بمعنى طلب ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ أفغير دين الله يبغون ﴾ في سورة آل عمران (83) .

وعدّي يبغونكم ﴾ إلى ضمير المخاطبين هنا على طريقة نزع الخافض ، وأصله يبغون لكم الفتنة .

وهو استعمال شائع في فعل بغي بمعنى طلب .

والفتنة : اختلال الأمور وفساد الرأي ، وتقدّمت في قوله : ﴿ وحسبوا أن لا تكون فتنة ﴾ في سورة المائدة (71) .

وقوله : وفيكم سماعون لهم ﴾ أي في جماعة المسلمين ، أي من بين المسلمين ﴿ سماعون لهم ﴾ فيجوز أن يكون هؤلاء السماعون مسلمين يصدقون ما يسمعونه من المنافقين .

ويجوز أن يكون السماعون منافقين مبثوثين بين المسلمين .

وهذه الجملة اعتراض للتنبيه على أنّ بغيهم الفتنةَ أشدّ خطراً على المسلمين لأنّ في المسلمين فريقاً تنطلي عليهم حيلهم ، وهؤلاء هم سذج المسلمين الذين يعجبون من أخبارهم ويتأثّرون ولا يبلُغون إلى تمييز التمويهات والمكائد عن الصدق والحقّ .

وجاء ﴿ سماعون ﴾ بصيغة المبالغة للدلالة على أنّ استماعهم تامّ وهو الاستماع الذي يقارنه اعتقاد ما يُسمع كقوله : ﴿ سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين ﴾ [المائدة : 41] وعن الحسن ، ومجاهد ، وابن زيد : معنى ﴿ سماعون لهم ﴾ ، أي جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم ، وقال قتادة وجهور المفسّرين : معناه وفيكم من يقبل منهم قولهم ويطيعهم ، قال النحاس الاغلب أن معنى سماع يسمع الكلام ومثله ﴿ سماعون للكذب ﴾ [المائدة : 41] .

وأمّا من يَقبل ما يسمعه فلا يكاد يقال فيه إلاّ سَامع مثل قائِل .

(62/338)

وجيء بحرف (في) من قوله : ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ الدالّ على الظرفية دون حرف (من) فلم يقل ومنكم سمّاعون لهم أو ومنهم سماعون ، لئلا يتوهّم تخصيص السماعين بجماعة من أحد الفريقين دون الآخر لأنّ المقصود أنّ السماعين لهم فريقان فريق من المؤمنين

وفريق من المنافقين أنفسهم مبثوثون بين المؤمنين لإلقاء الأراجيف والفتنة وهم الأكثر فكان اجتلاب حرف (في) إيفاء بحقّ هذا الإيجاز البديع ولأنّ ذلك هو الملائم لمحملي لفظ ﴿ سماعون ﴾ فقد حصلت به فائدتان .

وجملة ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ تذييل قصد منه إعلام المسلمين بأنّ الله يعلم أحوال المنافقين الظالمين ليكونوا منهم على حذر ، وليتوسّموا فيهم ما وسمهم القرآن به ، وليعلموا أنّ الاستماع لهم هو ضرب من الظلم .

والظلم هنا الكفر والشرك ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [لقمان : 13] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(63/338)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾

والخبال مرض عقلي ينشأ معه اختلال موازين الفكر ، فتقول : فلان مخبول ، أي : أنه يحكم في القضايا بدون عقل ، إذن فقوله تعالى : ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ أي : أنهم لن يكونوا إلا مصدراً لبلبلة الأفكار لو خرجوا معكم للقتال ، فلا تستطيعون اتخاذ القرار السليم .

فكأنهم عين عليكم ، وضدكم وليسوا معكم ، وقد يكونون من عوامل الهزيمة التي لم يُرِدْهَا الله لكم ، وليسوا من عوامل النصر ، فكأن عدم خروجهم هو دفع لشَر ، كان سيقع لو أنهم خرجوا معكم . وشاء الحق عدم خروجهم حفاظاً على قوة المؤمنين وقدرتهم على الجهاد .

وقوله تعالى : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ أي : أنهم كانوا سيُحْدثون فُرْقة بين صفوف المؤمنين ويُفرِّقونهم ، وسيتغلغلون بينهم للإفسَاد ؛ لأن الخلال هو الفُرْجة بين الشيئين أو الشخصين ، فيدخل واحد منهم بين فريق من المؤمنين فيفسد ، وآخر يفسد فريقاً آخر ، وهكذا يمشون خلال المؤمنين ليفرقوا بينهم .

ولكن التساؤل : هل كانوا سيخرجون معهم أو فيهم ؟ هم كانوا سيدخلون في الفُرج بين المؤمنين ليبلبلوا أفكارهم . ونقول : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض ، وعندما تسمع كلمة " فيكُم " اعلم أنها تغلغل ظرف ومظروف ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالَى في موضع آخر من القرآن ما يوضح لنا الظرف والمطروف ، قال الحق : ﴿ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ [طه : 71] .

(64/338)

هل كان فرعون سيصلب السحرة في داخل الجذوع أم على الجذوع؟ وإن كان أهل اللغة قد قالوا : إن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض . فإننا لا نرضى هذا الجواب ؛ لأننا إن رضيناه في أساليب البشر ، لا يمكن أن نقبله في أساليب كلام الله ؛ لأن هناك معنى " في " الظرفية ؛ ومعنى آخر في استخدام حرف " على " . ولو قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النخل ﴾ معناه : أن عملية الصَّلْب ستتم بقوة بحيث تدخل أجزاء من جسم المصلوب في المصلوب فيه ، أي : أن جنود فرعون كانوا سَيَدقُّون على أجساد السحرة حتى تدخل في جذوع النخل ، وتصبح هذه الأجساد وجذوع النخل وكأنها قطعو واحدة ، هذه صورة لقسوة الصلب وقوته .

لكن إذا قلنا : على جذوع النخل لكان المعنى أخفَّ ، ولكان الصَّلْب أقل قسوة ، فكأن القرآن الكريم قد استعمل ما يعطينا دقة المعنى . بحيث إذا تغيَّر حرف اختل المعنى .

ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في موضع آخر من القرآن الكريم : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [آل عمران : 113] .

أي : أن سرعتنا في العمل الصالح تنتهي بنا إلى المغفرة ، إذن : فنحن قبل أن نسرع إلى الصالح من الأعمال لم نكن في المغفرة ، وعندما نسارع نصل إليها .

ثم نجد قول الحق سبحانه وتعالى أيضاً : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِي الخيرات ﴾ [الأنبياء : 90]

ولم يقل : يسارعون إلى الخيرات ؛ لأن عملهم الآن خير ، وهم سيسارعون فيه ؛ أي سيزيدونه ؛ إذن : إنْ سارعتَ إلى شيء كأنه لم يكن في بالك ، ولكنك ستسرع إليه ، ولكن سارعتَ في الخير ، فكأنك في الخير أولاً ثم تزيد في فعل الخير .

(65/338)

وإذا تدبرنا قول الحق سبحانه : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خِلاَلَكُمْ ﴾ نجد أن " أوضع " تعنى : أسرع بدرجة بين الإبطاء والسرعة ، فيقال : " أوضعت الدابة ؛ أي مشتْ بخُطىً غير بطيئة وغير سريعة في نفس الوقت ، ولو نظرتَ إلى حالة هؤلاء المنافقين لو خرجوا مع المؤمنين للقتال ، لرأيتهم وهو يزينون لهم الفساد ، ويعملون على أن تصاب عقول المقاتلين بالخبل ، ولوجدتَ أن هذا الأمر يتطلب آخر البطء وأول السرعة في الحركة ، كانوا يحتاجون إلى البطء ؛ لأنهم كانوا سيهمسون في آذان المؤمنين بتزيين الباطل وهذا يقتضى بُطئاً ، ثم ينتقل الواحد منهم إلى مؤمن ثان ليقوم معه بنفس العملية ، ولا بد أن يسرع إلى التواجد بجانب المؤمن الآخر . إذن : فالحركة هنا تحتاج إلى البطء في الوسوسة ؛ وسرعة في الانتقال من مؤمن لآخر . وهذا أدقُّ وصف ينطبق على ما كان سيحدث .

(66/338)

ولكن ما هدف هؤلاء المنافقين من أن يضعوا الخبل في عقول المؤمنين ؟ ويُفرِّقوهم جماعات ؟ الهدف : أن ينالوا من وحدتهم وقوتهم ، ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ أي : يطلبون لكم الفتنة ؛ لأن الإنسان الشرير حين يرى خيراً يقوم به غيره ، يجد الملكات الإيمانية في أعماقه تصيبه بنوع من احتقار النفس ، فيحاول التقليل من شأن فاعل الخير بأن يسخر مما يفعله أو أن يستهزئ به ، وهذا أوضح ما يكون في مجالس الخمر ، حين يحس الجالسون في هذه المجالس بالذنب الشديد ؛ إن وُجِدَ بينهم إنسان لا يشرب الخمر ، فتجدهم يحاولون أن يُغْروه بكل طريقه ؛ لكي يرتكب نفس الإثم ، فإذا رفض أخذوا يُعيِّرونه ويستهزئون به ، ويسخرون منه ، ويدَّعون أنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، وغير ذلك من أساليب السخرية . وأيضاً تجد الكذاب يحاول دفع الناس إلى الكذب ، والسارق يغري الناس بالسرقة ، والمرتشي يحاول نشرة الرشوة بين جميع زملائه ، فإذا وُجِدَ إنسان نزيه وسط هؤلاء الذين يرتكبون هذه الألوان من السلوك السيء ؛ فهم يضطهدونه ويسخرون منه .

والمثال : حين يقوم إنسان للصلاة بين عدد من تاركي الصلاة ، تجدهم يحاولون السخرية منه ، فهذا يقول له : خذني على جناحك ، وهذا يقول له مستهزئاً : يجعلنا الله من بركاتك .

ويُبيِّن لنا القرآن الكريم هذه القضية ليعطينا المناعة الإيمانية فيقول : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ

كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إلى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ * وَإِذَا رَأَوْهُمْ قالوا إِنَّ هؤلاء لَضَالُّونَ * وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ * فاليوم الذين آمَنُواْ مِنَ الكفار يَضْحَكُونَ * عَلَى الأرآئك يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الكفار مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 29-36]

(67/338)

وهذه الآيات تعطينا صورة لما يحدث عندما يعمُّ الفساد في الأرض ، فالذين سخروا من المؤمنين يضحكون ضحكات ستزول حَتْماً طال الوقت أو قَصُر يتبعها عذاب في الآخرة ، أما أهل الإيمان فهم يخشون الله في الدنيا ؛ فيثيبهم الله في الآخرة ، ويضحكون ضحكة خالدة مستمرة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ أي : إنهم من فَرْط حقدهم عليكم وعلى أيمانكم ، يحاولون أن يفتنوكم في دينكم حتى تنزلوا إلى مستواهم ، تماماً كأنماط السلوك التي بيَّناها من قبل .

ثم يبيِّن الحق سبحانه وتعالى أن الصف الإيماني لن يكون في مَنَعة مما كان سيفعله هؤلاء المنافقون ، فصحيح أنهم لم يخرجوا مع المؤمنين ، ولكن هناك بين المؤمنين من كان يستمع لهم

، ويقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ واللهُ عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ وسمعتُ لفلان ، أي : سمعتْ أذني ما قاله ، وسمعت من فلان ، أي : لصالح شخص آخر ، أي : من يستمع منهم أو من يستمع أخباركم فهو ينقلها إليهم .

إذن : فاللام تأتي بالمعنيين ، فمن المؤمنين من كان سيسمع لهؤلاء المنافقين إليهم أخبار المؤمنين ويعملون لحسابهم ، وهناك من المؤمنين مَنْ سيسمع لهم أولاً ، فإذا أصيبوا بالخبل بدأوا في نقل أخبار المؤمنين إليهم ، وهكذا جاءت " اللام " فاصلة بين " سمعت له " أو " سمعت من غيره لصالحه " ويزيد الله سبحانه هذا الأمر إيضاحاً في قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكتاب بالحق لِتَحْكُمَ بَيْنَ الناس بِمَآ أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُنْ لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيماً ﴾ [النساء : 105]

فنجد السطحي التفكير يقول : إن هذا تحذير من مخاصمة الخائنين ؛ خوفاً من ألاَّ يقدر عليهم ، أو أن يزدادوا في إثمهم بسبب هذه الخصومة . ونقول : إنك لم تفهم المعنى ، فالمعنى الواضح هو : لا تكُنْ لصالح الخائنين خصيماً ، أي : لا تترافع عن الخائنين أو تدافع عنهم .

وقوله تعالى ﴿ واللهُ عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ لأن الذي كان سيسمع ، والذين سيسمع لصالحهم ؛ كلاهما ظالم والله عليم بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم ﴾ : أي : في جيشكم وفي جمعكم . وقيل : " في " بمعنى مع ، أي : معكم . وتقدَّم تفسير " الخبال " في آل عمران .

وقوله : ﴿ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ جوَّزوا فيه أن يكون استثناء متصلاً وهو مفرَّغٌ ؛ لأنَّ " زاد " يتعدى لاثنين . قال الزمخشري : " المستثنى منه غيرُ مذكور ، فالاستثناءُ من أعمِّ العام الذي هو الشيء ، فكان استثناء متصلاً فإن الخَبال بعضُ أعمِّ العام كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً " . وجوَّزوا فيه أن يكونَ منقطعاً والمعنى : ما زادوكم قوة ولا شدةً ولكنْ خبالاً ، وهذا يجيءُ على قول مَنْ قال إنه لم يكن في عَسْكر رسول الله صلى الله عليه وسلم خَبال ، كذا قال الشيخ . وفيه نظرٌ ؛ لأنه إذا لم يكن في العَسْكر خبالٌ أصلاً فكيف يستثنى شيءٌ لم يكنْ ولم يُتوهَّم وجوده ؟

قوله : ﴿ خِلاَلَكُمْ ﴾ منصوبٌ على الظرفِ . والخِلال : جمع خَلَل وهو الفُرْجَةُ بين الشيئين ويُستعار في المعاني فيُقال : في هذا الأمر خَلل .

والإِيضاع : الإِسْراع يُقال : أَوْضَعَ البعيرُ ، أي : أسرع في سَيْره قال امرؤ القيس :

2490 أرانا مُوضِعينَ لأَمْرِ غيبٍ . . . ونُسْحَرُ بالطعامِ والشراب

وقال آخر :

2491 - يا لَيْتَني فيها جَذَعْ . . . أَخُبُّ فيها وأَضَعْ

(69/338)

ومفعول " أوضعوا " محذوف ، أي : أوضعوا ركائبهم لأنَّ الراكبَ أسرعُ من الماشي .

ويُقال : وَضَعَتْ الناقةُ تَضَعُ : إذا أَسْرعت ، وأوضعتها أنا . وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ ما زادكم إلا خَبالاً ﴾ ، أي : ما زادكم خروجهم . وقرأ مجاهد ومحمد بن زيد : " ولأَوْفَضوا " وهو الإِسراع أيضاً من قوله تعالى : ﴿ إلى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴾ [المعارج : 43] ، وقرأ ابن الزبير " ولأَرْفَضُوا " بالراء والفاء والضاد المعجمة مِنْ رَفَضَ ، أي : أسرع أيضاً ، قال حسان :

2492 بزجاجةٍ رَقَصَتْ بما في جَوْفِها . . . رَقْصِ القَلوصِ براكبٍ مستعجِلِ

وقال :

2493 . . . . . والراقصاتِ إلى مِنَىً فالغَبْغَبِ

يُقال : رَفَضَ في مِشْيته رَفْضاً ورَفَضاناً .

قوله : ﴿ يَبْغُونَكُمُ ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال من فاعل " أَوْضَعوا " ، أي : لأَسْرَعوا فيما بينكم حالَ كونهم باغين ، أي : طالبين الفتنةَ لكم .

قوله : ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ﴾ هذه الجملةُ يجوز أن تكون حالاً من مفعول "يَبْغُونكم" أو مِنْ فاعله ، وجاز ذلك لأن في الجملة ضميريهما . ويجوز أن تكونَ مستأنفةً ، والمعنى : أنَّ فيكم مَنْ يَسْمع لهم ويُصْغِي لقولِهم . ويجوز أن يكونَ المرادُ : وفيكم جواسيسُ منهم يسمعون لهم الأخبارَ منكم ، فاللامُ على الأول للتقوية لكون العاملِ فرعاً ، وفي الثاني للتعليل ، أي : لأجلهم .

ورُسِم في المصحف ﴿ ولا أَوْضَعُوا خلالكم ﴾ بألف بعد " لا " ، قال الزمخشري : " كانت الفتحة تُكْتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من ذلك أثرٌ في الطباع فكتبوا صورةَ الهمزةِ ألفاً وفتحتَها ألفاً أخرى ، ونحوه ، ﴿ أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ ﴾ [النمل : 21] يعني في زيادة ألف بعد " لا " ، وهذا لا يجوزُ القراءة به ، ومَنْ قرأه متعمداً يكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 59-62 ﴾

(70/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) ﴾

أخبر عن سابق علمه بهم ، وذكر ما علم أنه لا يكون أَنْ لو كان كيف يكون ، فقال : ولو ساعدوكم في الخروج لكان ما يلحقكم من سوء سيرتهم في الفتنة بينكم ، والنميمة فيكم ، والسعي فيما يسوؤكم أكثر مما نالكم بتخلُّفِهم من نقصان عددكم . ومَنْ ضررُه أكثرُ من نفعِه فَعَدَمُهُ خيرٌ مِنْ وجودِه ، ومَنْ لا يحصل منه شيء غيرُ شرورِه فتخلُّفُه أَنْفَعُ مِنْ حضوره .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 32 ﴾

(71/338)

قوله تعالى ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أخبر سبحانه بذلك ، وحث على قبول أخبارهم بما وصف به ذاته الأقدس من إحاطة العلم ، شرع يقيم الدليل على ما قال بتذكيرهم بأشياء تقدمت مشاهدتها منهم ، فقال معللاً لما أخبر به : ﴿ لقد ابتغوا ﴾ أي طلبوا طلباً عظيماً كلهم لكم ﴿ الفتنة ﴾ أي لتشتيتكم ﴿ من قبل ﴾ أي قبل هذه الغزوة في يوم أحد بكسر قلوب العسكر بالرجوع عنه حتى كاد بعضهم أن يفشل وفي المريسيع بما قال ابن أبيّ ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : 8] وفي غزوة الخندق بما وقع منهم من التكذيب في أخذ كنوز كسرى وقيصر والإرجاف بكم في نقض بني قريظة وغير ذلك كما صنعوا قبله في غزوة قينقاع والنضير في قصدهم تقوية كل منهم عليكم وفي غير ذلك من أيام الله التي عكس فيها قصودهم وأنعس جدودهم ﴿ وقلبوا ﴾ أي تقليباً كثيراً ﴿ لك الأمور ﴾ أي التي لك فيها أذى ظهراً لبطن بإحالة الآراء وتدبير المكايد والحيل لعلهم يجدون فرصة في نقض أمرك ينتهزونها أو ثغرة في حالة يوسعونها ، وامتد بهم الحال في هذا المحال ﴿ حتى جاء الحق ﴾ أي الثابت الذي لا مراء في مزاولته مما تقدم به وعده سبحانه من إظهار الدين وقمع المفسدين ﴿ وظهر أمر الله ﴾ أي المتصف بجميع صفات الكمال من الجلال والجمال حتى لا مطمع لهم في ستره ﴿ وهم كارهون ﴾ أي لجميع ذلك فلم يبق لهم مطمع في محاولة بمواجهة ولا مخاتلة فصار همهم الآن الاعتزال والمبالغة في إخفاء الأحوال وستر الأفعال والأقوال . انتهى انتهى . اهـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 330 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) ﴾

اعلم أن المذكور في هذه الآية نوع آخر من مكر المنافقين وخبث باطنهم فقال : ﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل واقعة تبوك .

قال ابن جريج : هو أن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل المراد ما فعله عبد الله بن أبي يوم أحد حين انصرف عن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، وقيل : طلبوا صد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنك ، ومعنى الفتنة هو الاختلاف الموجب للفرقة بعد الألفة ، وهو الذي طلبه المنافقون للمسلمين وسلمهم الله منه ، وقوله : ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ تقليب الأمر تصريفه وترديده لأجل التدبر والتأمل فيه ، يعني اجتهدوا في الحيلة عليك والكيد بك .

يقال : في الرجل المتصرف في وجوه الحيل فلان حول قلب ، أي يتقلب في وجوه الحيل .

ثم قال تعالى : ﴿ حتى جَاء الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كارهون ﴾ والمعنى : أن هؤلاء المنافقين كانوا مواظبين على وجه الكيد والمكر وإثارة الفتنة وتنفير الناس عن قبول الدين حتى جاء الحق الذي كان في حكم المذاهب ، والمراد منه القرآن ودعوة محمد ، وظهر أمر الله الذي كان كالمستور والمراد بأمر الله الأسباب التي أظهرها الله تعالى وجعلها مؤثرة في قوة شرع محمد عليه الصلاة والسلام ، وهم لها كارهون أي وهم لمجيء هذا الحق وظهور أمر الله كارهون ، وفيه تنبيه على أنه لا أثر لمكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشر ، فإنهم منذ كانوا في طلب هذا المكر والكيد ، والله تعالى رده في نحرهم وقلب مرادهم وأتى بضد مقصودهم ، فلما كان الأمر كذلك في الماضي ، فهذا يكون في المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 67 ﴾

(73/338)

وقال السمرقندى :

﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾

يعني : من قبل غزوة تبوك ، لأنهم قصدوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم قبل كثرة المؤمنين ؛

ويقال : طلبوا إظهار الشرك قبل غزوة تبوك ؛ ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الامور ﴾ ، يعني : احتالوا في هلاكك من كل وجه ؛ ويقال : ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ ظهراً لبطن ، فانظر كيف يصنعون .

﴿ حتى جَاء الحق ﴾ ، يعني : كثر المسلمون ؛ ويقال : حتى جاء الحق يعني : الإسلام ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ ؛ يعني : ظهر دين الله الإسلام .

﴿ وَهُمْ كارهون ﴾ ، يعني : كارهون الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾

أي عملوا بها لصد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر بتخذيل الناس عنك قبل هذا اليوم ، كفعل عبد الله بن أبي يوم أحد حين انصرف عنك بأصحابه ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ أجالوا فيك وفي إبطال دينك الرأي بالتخذيل عنك وتشتّت أصحابك .

﴿ حتى جَآءَ الحق ﴾ أي النصر والظفر ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ دين الله ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ لَقَدْ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ ﴾

يعين إيقاع الخلاف وتفريق الكلمة . ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأُمُورَ ﴾ يحتمل أربعة أوجه :

أحدها : معاونتهم في الظاهر ومما لأة المشركين في الباطن .

والثاني : قولهم بأفواههم ما ليس في قلوبهم .

والثالث : توقع الدوائر وانتظار الفرص .

والرابع : حلفهم بالله لو استطعنا لخرجنا معكم .

﴿ حَتَّى جَآءَ الْحَقُّ ﴾ يعني النصر .

﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ ﴾ يعني الدين .

﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ يعني النصر وظهور الدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ ﴾

في هذه الآية تحقير شأنهم ، وذلك أنه أخبر أنهم قد لما سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم ، ومعنى قوله : ﴿ من قبل ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله صلى

الله عليه سلم ورجوعهم عنه في أحد وغيرها ، ومعنى ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ دبروها ظهراً لبطن ونظروا في نواحيها وأقسامها وسعوا بكل حيلة ، وقرأ مسلمة بن محارب " وقلَبوا لك " بالتخفيف في اللام ، و﴿ أمر الله ﴾ الإسلام ودعوته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(75/338)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ ﴾

في الفتنة قولان .

أحدهما : الشر ، قاله ابن عباس .

والثاني : الشرك ، قاله مقاتل .

قوله تعالى : ﴿ من قبل ﴾ أي : من قبل غزوة تبوك .

وفي قوله : ﴿ وقلَّبوا لك الأمور ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : بَغَوْا لك الغوائل ، قاله ابن عباس .

وقيل : إن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على طريقه ليلاً ليفتكوا به ، فسلَّمه الله

منهم .

والثاني : احتالوا في تشتُّت أمرك وإبطال دينك ، قاله أبو سليمان الدمشقي .

قال ابن جرير : وذلك كانصراف ابن أُبيّ يوم أُحد بأصحابه .

والثالث : أنه قولهم ما ليس في قلوبهم .

والرابع : أنه ميلهم إليك في الظاهر ، ومما لأة المشركين في الباطن .

والخامس : أنه حلفهم بالله ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ ذكر هذه الأقوال الثلاثة الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ حتى جاء الحق ﴾ يعني : النصر ﴿ وظهر أمر الله ﴾ يعني الإسلام .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(76/338)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾

أي لقد طلبوا الإفساد والخبال من قبل أن يظهر أمرهم ، وينزل الوَحْيُ بما أسّروه وبما سيفعلونه .

وقال ابن جريج : أراد اثني عشر رجلاً من المنافقين ، وقفوا على ثَنِية الوداع ليلة العقبة ليفتِكوا بالنبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ أي صرفوها وأجالوا الرأي في إبطال ما جئت به .

﴿ حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ أي دينه ﴿ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾

يعني لقد طلبوا صد أصحابك يا محمد عن الدين وردهم إلى الكفر وتخذيل الناس عنكم قيل هذا اليوم كما فعل عبد الله بن أبي بن سلول يوم أحد حين انصرف بأصحابه عنكم ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ يعني وأجالوا فيك وفي أمرك وفي إبطال دينك الرأي وبالغوا في تخذيل الناس عنك وقصدهم تشتيت أمرك ﴿ حتى جاء الحق ﴾ عين النصر والظفر ﴿ وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ يعني ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(77/338)

وقال أبو حيان :

﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾

تقدّم ذكر السبب في نزول هذه الآية والتي قبلها من قصة رجوع عبد الله بن أبي وأصحابه في هذه الغزاة ، حقّر شأنهم في هذه الآية ، وأخبر أنهم قديماً سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم ، وفي الأمور المقلبة أقوال .

قال ابن عباس : بغوا لك الغوائل .

وقال ابن جريج : وقف اثنا عشر من المنافقين على التثنية ليلة العقبة كي يفتكوا به .

وقال أبو سليمان الدمشقي : احتالوا في تشتيت أمرك وإبطال دينك .

قال ابن جريج : كانصراف ابن أبيّ يوم أحد بأصحابه .

ومعنى من قبل أي : منن قبل هذه الغزاة ، وذلك ما كان من حالهم وقت هجرة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ورجوعهم عنه في أحد وغيرها .

وتقليب الأمور : هو تدبيرها ظهر البطن ، والنظر في نواحيها وأقسامها ، والسعي بكل حيلة .

وقيل : طلب المكيدة من قولهم : هو حول قلب .

وقرأ مسلمة بن محارب : وقلبوا بتخفيف اللام .

حتى جاء الحق أي : القرآن وشريعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) .

ولفظة جاء مشعرة بأنه كان قد ذهب .

وظهر أمر الله وصفه بالظهور لأنه كان كالمستور أي : غلب وعلا دين الله .

وهم كارهون لمجيء الحق وظهور دين الله .

وفي ذلك تنبيه على أنه لا تأثير لمكرهم وكيدهم ، ومبالغتهم في إثارة الشر فإنهم مذ راموا ذلك رده الله في نحرهم ، وقلب مرادهم ، وأتى بضد مقصودهم ، فكما كان ذلك في الماضي كذا يكون في المستقبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(78/338)

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة ﴾

تشتيتَ شملِك وتفريقَ أصحابِك منك ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي يومَ أحُدٍ حين انصرف عبدُ اللَّه بنُ أُبيِّ بنِ سَلولٍ المنافقُ بمن معه وقد تخلف بمن معه عن تبوكَ أيضاً بعدما خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذي جُدّة ، أسفلَ من ثنية الوداع ، وعن ابن جريج رضي الله عنه وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلةَ العقبةِ وهم اثنا عشر رجلاً من

المنافقين ليفتِكوا به عليه الصلاة والسلام فردّهم الله تعالى خاسئين ﴿ وَقَلَّبُوا لَكَ الامور ﴾ تقليبُ الأمر تصريفُه من وجه إلى وجه وترديدُه لأجل التدبير والاجتهادِ في المكر والحيلة ، يقال للرجل المتصرِّف في وجوه الحِيَل : حُوَّلٌ وقُلَّبٌ ، أي اجتهدوا ودبروا لك الحِيلَ والمكايدَ ودوّروا الآراءَ في إبطال أمرِك ، وقرىء بالتخفيف ﴿ حتى جَاء الحق ﴾ أي النصرُ والتأييدُ الإلهي ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ غلب دينُه وعلا شرعُه ﴿ وَهُمْ كارهون ﴾ والحالُ أنهم كارهون لذلك أي على رغم منهم والآيتان لتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيانُ ما ثبّطهم الله تعالى لأجله وهتَك أستارَهم وكشف أسرارَهم ، وإزاحةِ أعذارِهم تداركاً لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الإذن وإيذاناً بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهويناً للخطب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(79/338)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ ﴾

تشتيت شملك وتفرق أصحابك ﴿ من قبل ﴾ تشتيت شملك وتفرق أصحابك ﴿ مِن

قَبْلُ ﴾ أي من قبل هذه الغزوة ، وذلك كما روي عن الحسن يوم أحد حين انصرف عبد الله بن أبي بن سلول بأصحابه المنافقين ، وقد تخلف بهم عن هذه الغزوة أياً بعد أن خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريب من ثنية الوداع ، وروي عن سعيد بن جبير ، وابن جريج .

أن المراد بالفتنة الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وذلك أنه اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين ووقفوا على الثنية ليفتكوا به عليه الصلاة والسلام فردهم الله تعالى خاسئين ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الامور ﴾ أي المكايد تقليبها مجاز عن تدبيرها أو الآراء وهو مجاز عن تفتيشها ، أي دبروا لك المكايد والحيل أو دوروا الآراء في إبطال أمرك .

وقرىء ﴿ وَقَلَّبُواْ ﴾ بالتخفيف ﴿ حتى جَاء الحق ﴾ أي النصر والظفر الذي وعده الله تعالى ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ أي غلب دينه وعلا شرعه سبحانه ﴿ وَهُمْ كارهون ﴾ أي في حال كراهتهم لذلك أي على رغم منهم ، والاتيان كما قالوا لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المتخلفين وبيان ما ثبطهم الله تعالى لأجله وهتك أستارهم وإزاهة أعذارهن تداركا لما عسى يفوت بالمبادرة إلى الاذن وإيذناً بأن ما فات بها ليس مما لا يمكن تلافيه تهويلاً للخطب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ ﴾

الجملة تعليل لقوله : ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ [التوبة : 47] لأنّها دليل بأنّ ذلك ديدن لهم من قبل ، إذ ابتغوا الفتنة للمسلمين وذلك يومَ أحد إذ انخزل عبد الله بن أبي ابنُ سلول ومن معه من المنافقين بعد أن وصلوا إلى أحد ، وكانوا ثُلث الجيش قصدوا إلقاء الخوف في نفوس المسلمين حين يرون انخزال بعض جيشهم وقال ابن جريج : الذين ابتغوا الفتنة اثنا عشر رجلاً من المنافقين ، وقفوا على ثنية الوداع ليلة العقبة ليفتِكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم و﴿ قلّبوا ﴾ بتشديد اللام مضاعف قلب المخفف ، والمضاعفة للدلالة على قوة الفعل .

* فيجوز أن يكون من قلَب الشيء إذا تأمل باطنه وظاهره ليطّلع على دقائق صفاته فتكون المبالغة راجعة إلى الكمّ أي كثرة التقليب ، أي ترددوا آراءهم وأعملوا المكائد والحيل للإضرار بالنبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين .

ويجوز أن يكون ﴿ قلبوا ﴾ من قلب بمعنى فتّش وبحث ، استعير التقليب للبحث والتفتيش لمشابهة التفتيش للتقليب في الإحاطة بحال الشيء كقوله تعالى : ﴿ فأصبح يقلب كفيه ﴾ [الكهف : 42] فيكون المعنى ، أنّهم بحثوا وتجسّسوا للاطّلاع على شأن المسلمين وإخبار العدوّ به .

واللام في قوله : ﴿ لك ﴾ على هذين الوجهين لام العلّة ، أي لأجلك وهو مجمل يبيّنهُ قوله :

﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ [التوبة : 48] .

فالمعنى اتّبعوا فتنة تظهر منك ، أي في أحوالك وفي أحوال المسلمين .

ويجوز أن يكون ﴿ قلبوا ﴾ مبالغة في قَلَب الأمر إذا أخفى ما كان ظاهراً منه وأبدَى ما كان خفيّاً ، كقولهم : قَلب له ظهر المِجَن .

وتعديته باللام في قوله ﴿ لك ﴾ ظاهرة .

و ﴿ الأمور ﴾ جمع أمر ، وهو اسم مبهم مثل شيء كما في قول الموصلي :

ولكن مقاديرٌ جرتْ وأمور . . .

(81/338)

والألف واللام فيه للجنس ، أي أموراً تعرفون بعضها ولا تعرفون بعضاً .

و ﴿ حتى ﴾ غاية لتقليبهم الأمور .

ومجِيء الحقّ حصوله واستقراره والمراد بذلك زوال ضعف المسلمين وانكشاف أمر المنافقين .

والمراد بظهور أمر الله نصر المسلمين بفتح مكة ودخول الناس في الدين أفواجاً وذلك يكرهه

المنافقون .

الظهور والغلبة والنصر .

و﴿ أمر الله ﴾ دينه ، أي فلمّا جاء الحقّ وظهر أمر الله علموا أنّ فتنتهم لا تضرّ المسلمين ، فلذلك لم يروا فائدة في الخروج معهم إلى غزوة تبوك فاعتذروا عن الخروج من أول الأمر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(82/338)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) ﴾

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يُذكِّر المؤمنين بالوقائع السابقة التي ارتكبها المنافقون والكفار تجاه الإسلام والمسلمين من : مؤامرات على الإسلام ، ومحاولات للإيقاع بين المسلمين ؛ والتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : ﴿ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾ له صلى الله عليه وسلم دليل على تلك الوقائع السابقة . أما قوله تعالى ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ . فالتقليب : هو جعل أسفل الشيء

عاليه ، وعاليه أسفله ؛ حتى لا يستتر منه شيء . وهذا مظهر الفاكهة مُنْتقىً بعناية ، فإذا اشتريتَ منه ملأ لك الكيس من الصنف الرديء الذي أخفاه أسفل القفص . وهكذا يأتي لك بالأسفل أو بالشيء الرديء المكشوف عورته . والذي لا يمكن أن تشتريه لو رأيته ويضعه لك .

وهكذا يفعل المنافقون حين يُقلِّبون الأمر على الوجوه المختلفة حتى يصادفوا ما يعطيهم أكبر الشر للمؤمنين دون أن يصابوا هم بشيء . والمثال الواضح : عندما تآمرت قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجاءوا من كل قبيلة بشاب ليضربوه ضرب رجل واحد ليضيع دمه بين القبائل .

لكن الحق سبحانه يأتي إلى كل هذه الفتن ويجعلها لصالح المؤمنين ، ولذلك يقول جل جلاله : ﴿ حتى جَآءَ الحق وَظَهَرَ أَمْرُ الله وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ فالتآمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحاولة قتله جعل الأمور تؤدي إلى هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة وخروجه منها مما جعله الله سبحانه وتعالى سبباً في إظهار الحق وانتشار الإسلام ؛ لأن الله لا يرسل رسولاً ثم يخذله ، فما دام قد أرسل رسولاً فلا بد أن ينصره ، فأريحوا أنفسكم ، ولا تبغوا الفتنة ؛ لأن السابق من الفتن انقلب عليكم وأدَّى إلى خير كثير للمؤمنين .

وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا المرسلين * إِنَّهُمْ لَهُمُ المنصورون * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 171-173]

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ وهو قضية كونية عقدية ، فإذا رأيتَ قوماً مؤمنين التحموا بقتال قَوم كافرين وانهزموا ، فاعلم أنهم ليسوا من جنود الله حقّا ، وأن شرطاً من شروط الجندية لله قد اختل . ولذلك علينا أن نحاسب أنفسنا أولاً .

فمثلاً في غزو أُحد ، عندما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرماة ألا يتركوا أماكنهم فخالفوه ، هنا اختل شرط من شروط الجندية لله وهو طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ فماذا كان يحدث للإسلام لو أن هؤلاء الرماة خالفوا رسول الله وانتصروا ؟ لو حدث ذلك لَهانَتْ أوامر الرسول عليه الصلاة والسلام على المؤمنين .

ويوم حنين ، حين اعتقد المؤمنون أنهم سينتصرون بكثرتهم وليس بإيمانهم ، وكانت النتيجة أن أصيبوا بهزيمة قاسية أول المعركة ؛ لتكون لهم درساً إيمانياً . ولذلك رأيت إيماناً انهزم أمام كفر ، فاعلم أن شرطاً من شروط الجندية الإيمانية قد اختل .

واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ الله وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا استكانوا والله يُحِبُّ الصابرين * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ

أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغفر لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانصرنا عَلَى القوم الكافرين ﴾ [آل عمران : 146-147]

(84/338)

إذن : فأول شيء فعله هؤلاء المقاتلون ؛ أنهم عرفوا أن الذنوب يمكن أن تأتي إليهم بالهزيمة ، فاستغفروا الله وتابوا إليه وحاربوا فنصرهم الله ، وإذا حدث لهم ولم ينتصر المؤمنون ؛ فمعنى هذا أن هناك خللاً في إيمانهم ؛ لأن الله لا يترك قضية قرآنية لتأتي حادثة كونية فتكذبها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(85/338)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ قال : خروجهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فثبطهم ﴾ قال : حبسهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ قال : هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك ، سأل الله عنها نبيه والمؤمنين فقال : ما يحزنكم ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ يقول : جمع لكم وفعل وفعل يخذلونكم .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ قال : لأسرعوا بينكم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولأوضعوا خلالكم ﴾ قال : لارفضوا ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ قال : يبطئنكم عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبي ابن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وأوس بن قيظي ﴿ وفيكم

سماعون لهم ﴾ قال : محدثون بأحاديثهم غير منافقين ، هم عيون للمنافقين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ قال : مبلغون .

(86/338)

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر عن الحسن البصري قال : كان عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن نبتل ، ورفاعة بن زيد بن تابوت ، من عظماء المنافقين وكانوا ممن يكيد الإِسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله تعالى ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(87/338)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّن يَقُولُ ائذن ﴾ : كقوله ﴿ يَاصَالِحُ ائتنا ﴾ [الأعراف : 77] من أنه يجوز تحقيقُ الهمزة وإبدالُها واواً لضمة ما قبلها ، وإن كانت منفصلةُ من كلمةٍ أخرى . / وهذه الهمزةُ هي فاءُ الكلمة ، وقد كان قبلها همزةُ وصل سَقَطت دَرْجاً . قال أبو جعفر . " إذا دخلت الواو والفاء على " ائذن " فهجاؤها ألفٌ وذال ونون بغير ياء ، أو " ثم " فالهجاءُ ألفٌ وياءٌ وذالٌ ونون . والفرقُ أنَّ " ثم " يوقف عليها ويُنْفَصَل بخلافهما " . قلت : يعني أنه إذا دخلت واوُ العطف أو فاؤه على هذه اللفظةِ اشتدَّ اتصالُهما بها فلم يُعْتَدَّ بهمزة الوصل المحذوفة دَرْجاً ، فلم يُرْسَمْ لها صورةٌ فتكتب " فَأْذَنْ ، وَأْذَنْ " ، فهذه الألفُ مِنْ صورةِ الهمزة التي هي فاءُ الكلمة . وإذا دخلت عليها " ثم " كُتِبَتْ كذا : ﴿ ثُمَّ ائتوا ﴾ ، فاعتدُّوا بهمزة الوصل فرسموا لها صورة . قلت : وكأنَّ هذا الحكمَ الذي ذَكره مع " ثم " يختصُّ بهذه اللفظة ، وإلا فغيرُها مما فاؤُه همزةٌ تسقط صورة همزة وصلِه خَطّاً فيُكتب الأمرُ من الإتيان مع " ثم " هكذا : " ثم أْتُوا " وكان القياسُ على " ثمَّ ائْذَنْ " : " ثم ائتوا " وفيه نظر .

وقرأ عيسى بن عمر وابن السَّمَيْفع وإسماعيل المكي فيما روى عنه ابن مجاهد : " ولا تُفْتِنِّي " بضم حرف المضارعة مِنْ أفتنه رباعياً . قال أبو حاتم : " هي لغة تميم " . وقيل : أفتنه : أدخله فيها . وقد جمع الشاعر بين اللغتين فقال :

2494 لئن فَتَنَتْني فهي بالأمس أفتنتْ . . . سعيداً فأمسى قد قلا كلَّ مسلم

ومتعلق الإِذن القعود ، أي : ائذن لي في القعود والخُلْف عن العدو ولا تَفْتِنّي بخروجي معك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 62 . 63 ﴾

(88/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (48) ﴾

إنَّهم وإِنْ أظهروا وِفاقَكم فقد استبطنوا نِفاقكم ؛ أعلنوا أنهم يؤازرونكم ولكن راموا بكيْدِهم تشويشَ أموركم ، حتى كَشَفَ اللهُ عوراتِهم ، وفَضَحَهم ، حتى تَحَذَّرْتم منهم بما تحققتم من أسرارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 32 ﴾

(89/338)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أجملهم في هذا الحكم ، وكان قد أشار إلى أن منهم من كان قد استأذن في الخروج توطئة للاعتذار عنه ، شرع يفصلهم ، وبدأ المفصلين بمن صرح بالاستئذان في القعود فقال عاطفاً على " لقد ابتغوا " : ﴿ ومنهم من يقول ﴾ أي في جبلته تجديد هذا القول من غير احتشام ﴿ ائذن لي ﴾ أي في التخلف عنك ﴿ ولا تفتني ﴾ أي تكن سبباً في فتنتي بالحزم بالأمر بالنفر فأفتتن إما بأن أتخلف فأكون مصارحاً بالمعصية أو أسافر فأميل إلى نساء بني الأصفر فأرتد عن الدين فأنه لا صبر لي عن النساء ، وقائل ذلك هو الجد ابن قيس ، كان من الأنصار منافقاً .

ولما أظهروا أنهم قصدوا البعد من شيء فإذا هم قد ارتكبوا فيه ، انتهزت فرصة الإخبار بذلك على أبلغ وجه بإدخال ناف على ناف لتحصيل الثبوت الأكيد بإقرار المسؤول فقيل : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي بما قالوا وفعلوا ، فصارت ظرفاً لهم فوضعوا أنفسهم بذلك في جهنم ، وفي التعبير بالسقوط دلالة على انتشابهم في أشراك الفتنة انتشاباً سريعاً بقوة فصار يعسر خلاصهم معه ﴿ وإن جهنم لمحيطة ﴾ أي بسبب إحاطة الفتنة – التي أسقطوا

أنفسهم فيها – بهم ، وإنما قال : ﴿ بالكافرين ﴾ تعميماً وتنبيهاً على الوصف الذي حملهم على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 330 . 331 ﴾

(90/338)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾

يريد ائذن لي في القعود ولا تفتني بسبب الأمر بالخروج ، وذكروا فيه وجوها : الأول : لا تفتني أي لا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي ، فإنك إن منعتني من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت في الإثم ، وعلى هذا التقدير فيحتمل أن يكونوا ذكروه على سبيل السخرية ، وإن يكونوا أيضاً ذكروه على سبيل الجد ، وإن كان ذلك المنافق منافقاً كان يغلب على ظنه كون محمد عليه السلام صادقاً ، وإن كان غير قاطع بذلك .

والثاني : لا تفتني أي لا تلقني في الهلاك فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لي بها .

والثالث : لا تفتني فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي .

والرابع : قال الجد بن قيس : قد علمت الأنصار أني مغرم بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر

، يعني نساء الروم ، ولكني أعينك بمال فاتركني ، وقرىء ﴿ وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ من أفتنه ﴿ أَلَا فِى الفتنة سَقَطُواْ ﴾ والمعنى أنهم يحترزون عن الوقوع في الفتنة ، وهم في الحال ما وقعوا إلا في الفتنة ، فإن أعظم أنواع الفتنة الكفر بالله ورسوله ، والتمرد عن قبول التكليف .

وأيضاً فهم يبقون خالفين عن المسلمين ، خائفين من أن يفضحهم الله ، وينزل آيات في شرح نفاقهم وفي مصحف أبي ﴿ سُقِطَ ﴾ لأن لفظ من موحد اللفظ مجموع المعنى .

قال أهل المعاني : وفيه تنبيه على أن من عصى الله لغرض ما ، فإنه تعالى يبطل عليه ذلك الغرض ، ألا ترى أن القوم إنما اختاروا القعود لئلا يقعوا في الفتنة ، فالله تعالى بين أنهم في عين الفتنة واقعون ساقطون .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ قيل : إنها تحيط بهم يوم القيامة .

وقيل إن أسباب تلك الإحاطة حاصلة في الحال ، فكأنهم في وسطها .

(91/338)

وقال الحكماء الإسلاميون : إنهم كانوا محرومين من نور معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وما كانوا يعتقدون لأنفسهم كمالاً وسعادة سوى الدنيا وما فيها من المال والجاه ، ثم إنهم اشتهروا بين الناس بالنفاق والطعن في الدين .

وقصد الرسول بكل سوء ، وكانوا يشاهدون أن دولة الإسلام أبداً في الترقي والاستعلاء والتزايد ، وكانوا في أشد الخوف على أنفسهم ، وأولادهم وأموالهم والحاصل أنهم كانوا محرومين عن كل السعادات الروحانية ، فكانوا في أشد الخوف ، بسبب الأحوال العاجلة ، والخوف الشديد مع الجهل الشديد ، أعظم أنواع العقوبات الروحانية ، فعبر الله تعالى عن تلك الأحوال بقوله : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 67.68 ﴾

(92/338)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لّي ﴾

يعني : جد بن قيس كان من المنافقين حرّضه النبي صلى الله عليه وسلم على الخروج إلى الغزو ، فقال : يا رسول الله ، إن قومي يعلمون حرصي على النساء ، فأخشى أني لو خرجت وقعت في الإثم ولا تفتني ببنات الأصفر .

وكان الأصفر رجلاً من الحبش ملك ناحية من الروم ، فتزوج رومية فولدت له بنات اجتمع فيهن سواد الحبش وبياض الروم فكنّ فتنة ، فقال جد بن قيس لا تفتني ببنات الأصفر ،

فإني أخاف أن لا أصبر وأضع يدي على الحرام.

فأذن له النبي صلى الله عليه وسلم بالقعود، فنزل ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي ﴾، يعني: من المنافقين من يقول: ائذن لي في التخلف ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾، يعني: ولا توقعني في الفتنة. ثم قال الله تعالى: ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾، يعني: في الكفر والنفاق وقعوا. ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾، يعني: جعلت جهنم للكافرين، وهو جد بن قيس ومن تابعه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(93/338)

وقال الثعلبي:

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ الآية.

نزلت في جد بن قيس المنافق وذلك "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا تجهّز لغزوة تبوك، قال له: يا أبا وهب، هل لك في جلاد بني الأصفر تتخذ منهم وصفاء، قيل: وإنما أمر بذلك لأن الحبش غلبت على ناحية الروم فولدت لهم بنات قد أنجبت من بياض الروم وسواد الحبشة فكنّ صفر اللعس، فلمّا قال له ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال جد: يا رسول الله لقد عرفت قومي أني رجل مغرم بالنساء وأني أخشى إن رأيت بنات

الأصفر أن لا أصبر عنهن فلا تفتّني بهن وائذنْ لي في القعود وأُعينك بمالي ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك " ، فأنزل الله [ومنهم] يعني ومن المنافقين [من يقول أئذن لي] في التخلف [ولا تفتّني] ببنات الأصفر ، قال قتادة : ولا تأثمني ﴿ أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ ﴾ ألا في الإثم والشرك وقعوا بخيانتهم وخلافهم أمر الله ورسوله ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ مطيقة بهم وجامعتهم فيها ، فلما نزلت هذه الآية " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني سلمة وكان منهم : من سيّدكم ؟ قالوا : جدّ بن قيس غير أنه نحيل جبان ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدوى من البخل ، بل سيّدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور ، " فقال فيه حسّان :

وقال رسول الله والقول لاحق . . . بمن قال منّا من تعدّون سيّدا

فقلنا له جدّ بن قيس على الذي . . . نبخّله فينا وإن كان أنكدا

فقال وأي الداء أدوى من الذي . . . رميتم به جدا وعالى بها يدا

وسوّد بشر بن البراء لجوده . . . وحق لبشر ذي الندى أن يُسوّدا

إذا ما أتاه الوفد أنهب ماله . . . وقال خذوه إنه عائد غدا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي ﴾ ي

عني في التأخر عن الجهاد .

﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : لا تكسبني الإثم بالعصيان في المخالفة ، قاله الحسن وقتادة وأبو عبيدة والزجاج .

والثاني : لا تصرفني عن شغلي ، قاله ابن بحر .

والثالث : أنها نزلت في الجد بن قيس قال : ائذن لي ولا تفتني ببنات بني الأصفر فإني مشتهر بالنساء ، قاله ابن عباس ومجاهد وابن زيد .

﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : في عذاب جهنم لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

والثاني : في محنة النفاق وفتنة الشقاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(95/338)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ﴾

نزلت في الجد بن قيس ، " وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرض الناس فقال للجد بن قيس هل لك العام في جلاد بني الأصفر ، وقال له وللناس : اغزوا تغنموا بنات الأصفر " ، فقال له الجد بن قيس : ائذن لي في التخلف ولا تفتني بذكر بنات الأصفر ، فقد علم قومي أني لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهن ، ذكر ابن إسحاق ونحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلف في الاعتذار ، وأسند الطبري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر " ، فقال الجد ائذن ولا تفتنا بالنساء ، وهذا منزع الأول إذا نظر ، وهو أشبه بالنفاق والمحادة ، وقال ابن عباس إن الجد قال : ولكني أعينك بمالي ، وتأول بعض الناس قوله ﴿ ولا تفتني ﴾ أي لا تصعب علي حتى أحتاج إلى مواقعة معصيتك ومخالفتك ، فسهل أنت عليّ ودعني غير مجلح ، وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ ، لكن تظاهر ما روي من ذكر بنات الأصفر ، وذلك معترض في هذا التأويل ، وقرأ عيسى بن عمر " ولا تُفتني " بضم التاء الأولى قال أبو حاتم هي لغة بني تميم ، والأصفر هو الروم بن عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام وكان أصفر اللون فيقال للروم بنو الأصفر ، ومن ذلك قول أبي سفيان : أمر أمر ابن أبي كبشة أنه يخافه

ملك بني الأصفر ، ومنه قول الشاعر [عدي بن زيد العبادي] : [الخفيف]

وبنو الأصفر الكرام ملوك الر . . . وم لم يبق منهمُ مذكور

(96/338)

وذكر النقاش والمهدوي أن الأصفر رجل من الحبشة وقع ببلاد الروم فتزوج وأنسل بنات لهن جمال وهذا ضعيف ، وقوله : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي في الذي أظهروا الفرار منه بما تبين لك وللمؤمنين من نفاقهم وصح عندكم من كفرهم وفسد مما بينكم وبينهم ، و ﴿ سقطوا ﴾ عبارة منبئة عن تمكن وقوعهم ومنه على الخبير سقطت ، ثم قال ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ، وهذا توعد شديد لهم أي هي مآلهم ومصيرهم كيف ما تقلبوا في الدنيا فإليها يرجعون فهي محيطة بهذا الوجه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(97/338)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾

سبب نزولها : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للجَدِّ بن قيس : "يا جَدُّ ، هل لك في جِلاد بني الأصفر ، لعلك أن تغنم بعض بنات الأصفر" ، فقال : يا رسول الله ، ائذن لي فأقيم ، ولا تفتني ببنات الأصفر .

فأعرض عنه ، وقال : "قد أذنت لك" " ونزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وهذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿ إنما الصدقات ﴾ في المنافقين .

قوله تعالى : ﴿ ومنهم ﴾ يعني : المنافقين ﴿ من يقول ائذن لي ﴾ أي : في القعود عن الجهاد ، وهو الجد بن قيس .

وفي قوله ﴿ ولا تفتّني ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : لا تفتّني بالنساء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وابن زيد .

والثاني : لا تُكسبني الإثم بأمرك إيَّايَ بالخروج وهو غير متيسّرٍ لي ، فآثم بالمخالفة ، قاله الحسن ، وقتادة ، والزجاج .

والثالث : لا تكفِّرني بإلزامك إيَّايَ الخروج ، قاله الضحاك .

والرابع : لا تصرفني عن شغلى ، قاله ابن بحر .

قوله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ في هذه الفتنة أربعة أقوال .

أحدها : أنها الكفر ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : الحرج ، قاله علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : الإثم ، قاله قتادة ، والزجاج .

والرابع : العذاب في جهنم ، ذكره الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(98/338)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي ﴾

من أذِن يأذَن .

وإذا أمرت زدت همزة مكسورة وبعدها همزة هي فاء الفعل ، ولا يجتمع همزتان ؛ فأبدلت من الثانية ياء لكسرة ما قبلها فقلت إيذن .

فإذا وصلت زالت العلة في الجمع بين همزتين ، ثم همزت فقلت : "ومنهم من يقول ائذن لي" .

وروى وَرْشٌ عن نافع "وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اوذَنْ لِي" خفف الهمزة .

قال النحاس : يقال إيذن لفلان ثم إيذن له ، هجاء الأولى والثانية واحد بألف وياء قبل الذال في الخط .

فإن قلت : إيذن لفلان وأذنْ لغيره كان الثاني بغير ياء ؛ وكذا الفاء .

والفرق بين ثُمّ والواو أن ثم يوقف عليها وتنفصل ، والواو والفاء لا يوقف عليهما ولا ينفصلان .

قال محمد بن إسحاق : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للجدّ بن قيس أخي بني سلمة لما أراد الخروج إلى تبوك : " "يا جدّ ، هل لك في جِلاد بني الأصفر تتخذ منهم سراري ووُصَفاء" فقال الجدّ : قد عرف قومي أني مغرم بالنساء ، وإني أخشى إن رأيت بني الأصفر ألا أصبر عنهن ، فلا تَفْتِنّي وأذن لي في القعود وأعينك بمالي ؛ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "قد أذنت لك" " فنزلت هذه الآية .

أي لا تفتنّي بصباحة وجوههم ، ولم يكن به علة إلا النفاق .

قال المهدويّ : والأصفر رجل من الحبشة كانت له بنات لم يكن في وقتهن أجمل منهن ، وكان ببلاد الروم .

وقيل : سُمُّوا بذلك لأن الحبشة غلبت على الروم ، وولدت لهم بنات فأخذن من بياض الروم وسواد الحبشة ، فكنّ صُفراً لُعْساً .

قال ابن عطية : في قول ابن إسحاق فتور .

وأسند الطبريّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " اغزوا تغنموا بنات الأصفر "

فقال له الجد : إيذن لنا ولا تفتنّا بالنساء .

وهذا منزع غير الأوّل ، وهو أشبه بالنفاق والمُحادّة .

(99/338)

ولما نزلت قال النبيّ صلى الله عليه وسلم لبني سلمة وكان الجدّ بن قيس منهم : " "من سيدكم يا بني سلمة" ؟ قالوا : جدّ بن قيس ، غير أنه بخيل جبان .

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "وأيّ داء أدوى من البخل بل سيدكم الفتى الأبيض بشر بن البراء بن مَعْرُور" " فقال حسان بن ثابت الأنصاريّ فيه :

وسُوّد بشر بن البراء لجوده . . .

وحقّ لبشر بن البرا أن يُسَوَّدَا

إذا ما أتاه الوفد أذهب ماله . . .

وقال خذوه إنني عائد غداً

﴿ أَلَا فِي الفتنة سَقَطُواْ ﴾ أي في الإثم والمعصية وقعوا .

وهي النفاق والتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي مسيرهم إلى النار .

فهي تحدق بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(100/338)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾

نزلت في الجد بن قيس وكان من المنافقين وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس : يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر يعني الروم تتخذ منهم سراري ووصفاء .

فقال الجد : يا رسول الله لقد عرف قومي أني رجل مغرم بحب النساء وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ائذن لي في القعود ولا تفتني بهن وأعينك بمالي قال ابن عباس : اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : " قد أذنت لك " فأنزل الله فيه ومنهم يعني ومن المنافقين من يقول ائذن لي يعني في التخلف والقعود في المدينة ولا تفتني يعني ببنات بني الأصفر وهم الروم ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ يعني أنهم وقعوا في الفتنة العظيمة وهي النفاق ومخالفة رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) والقعود عنه ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ يعني يوم القيامة تحيط بهم وتجمعهم فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(101/338)

وقال أبو حيان :

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾

نزلت في الجد بن قيس ، وذكر أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرض الناس فقال للجد بن قيس : " هل لك العام في جلاد بني الأصفر " وقال له وللناس : " اغزوا تغنموا بنات الأصفر " فقال الجد : ائذن لي في التخلف ولا تفتني بذكر بنات الأصفر ، فقد علم قومي أني لا أتمالك عن النساء إذا رأيتهم وتفتني ، ولا تفتني بالنساء .

هو قول ابن عباس ومجاهد وابن زيد .

وقيل : ولا تفتني أي ولا تصعب عليّ حتى احتاج إلى مواقعة معصيتك فسهِّل عليّ ، ودعني غير مختلج .

وقال قريباً منه الحسن وقتادة والزجاج قالوا : لا تكسبني الإثم بأمرك إياي بالخروج وهو غير

متيسر لي ، فآثم بمخالفتك .

وقال الضحاك : لا تكفرني بإلزامك الخروج معك .

وقال ابن بحر : لا تصرفني عن شغلي معك هلك مالي وعيالي .

وقيل : إنه قال : ولكنْ أعينك بمالي .

ومتعلق الإذن محذوف تقديره : في القعود وفي مجاورته الرسول (صلى الله عليه وسلم) على نفاقه .

وقرأ ورش : بتخفيف همزة إئذن لي بإبدالها واواً لضمة ما قبلها .

وقال النحاس ما معناه : إذا دخلت الواو أو الفاء على أأئذن ، فهجاؤها في الخط ألف وذال ونون بغير ياء ، أو ثم فالهجاء ألف وياء وذال ونون ، والفرق أنَّ ثم يوقف عليها وتنفصل بخلافهما .

وقرأ عيسى بن عمرو : لا تفتني بضم التاء الأولى من أفتن .

قال أبو حاتم هي لغة تميم ، وهي أيضاً قراءة ابن السميفع ، ونسبها ابن مجاهد إلى إسماعيل المكي .

وجمع الشاعر بين اللغتين فقال :

لئن فتنتني فهي بالأمس أفتنت . . .

سعيداً فأمسى قد قلا كل مسلم

والفتنة التي سقطوا فيها هي فتنة التخلف ، وظهور كفرهم ، ونفاقهم .

ولفظة سقطوا تنبىء عن تمكن وقوعهم فيها .

وقال قتادة : الإثم بخلافهم الرسول في أمره ، وإحاطة جهنم بهم إما يوم القيامة ، أو الآن على سبيل المجاز .

لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها ، أو لأنّ مصيرهم إليها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(102/338)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لّي ﴾

في القعود ﴿ وَلاَ تَفْتِنّى ﴾ أي لا توقِعْني في الفتنة وهي المعصيةُ والإثمُ يريد إني متخلِّفٌ لا محالة أذِنتَ أو لم تأذَنْ فائذن لي حتى لا أقعَ في المعصية بالمخالفة أو لا تُلقِني في الهلكة فإني إن خرجتُ معك هلَك مالي وعيالي لعدم مَنْ يقوم بمصالحهم . وقيل : قال الجدُّ بنُ قيس : قد علمت الأنصارُ أني مشتهرٌ بالنساء فلا تفتنّي ببنات الأصفر ، يعنى نساءَ الروم ولكن أُعينُك بمالي فاتركني ، وقرىء ولا تُفْتِنّي من أفْتَنَه بمعنى فتنه ﴿ أَلاَ فِى الفتنة ﴾ أي في

عينها ونفسها وأكملِ أفرادِها الغنيِّ عن الوصف بالكمال الحقيقِ باختصاص اسمِ الجنسِ به ﴿ سَقَطُواْ ﴾ لا في شيء مُغايرٍ لها فضلاً عن أن يكون مهرَباً ومخلَصاً عنها وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءةِ على الاستئذان بهذه الطريقة الشنيعةِ ومن القعود بالإذن المبنيِّ عليه وعلى الاعتذارات الكاذبةِ وقرىء بإفراد الفعلِ محافظةً على لفظ (مَن) وفي تصدير الجملةِ بحرف التنبيه مع تقديم الظرفِ إيذانٌ بأنهم وقعوا فيها وهم يحسَبون أنها مَنْجى من الفتنة زعماً منهم أن الفتنةَ إنما هي التخلفُ بغير إذن ، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيلٌ لها منزلةَ المَهواة المُهلكةِ المُفصحةِ عن تردّيهم في دَركات الرَّدى أسفلَ سافلين .

(103/338)

وقوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ وعيدٌ لهم على ما فعلوا معطوفٌ على الجملة السابقة داخلٌ تحت التنبيهِ أي جامعةٌ لهم يوم القيامة من كل جانب ، وإيثارُ الجملةِ الاسميةِ للدِلالة على الثبات والاستمرارِ أو محيطةٌ بهم الآن تنزيلاً لشيء سيقع عن قريب منزلَة الواقعِ أو وضعاً لأسباب الشيءِ موضعَه فإن مباديءَ إحاطةِ النارِ بهم من الكفر والمعاصي محيطةٌ بهم الآن من جميع الجوانبِ ومن جملتها ما فرّوا منه وما سقطوا فيه

من الفتنة ، وقيل : تلك المبادىء المتشكلةُ بصور الأعمالِ والأخلاق هي النارُ بعينها ولكن لا يظهر ذلك في هذه النشأةِ وإنما يظهر عند تشكُّلِها بصورها الحقيقيةِ في النشأة الآخرة ، والمرادُ بالكافرين إما المنافقون وإيثارُ وضعِ المُظهَر موضعَ المضمرِ للتسجيل عليهم بالكفر والإشعارِ بأنه معظمُ أسبابِ الإحاطة المذكورة وإما جميعُ الكافرين الشاملين للمنافقين شمولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(104/338)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائذن لِّي ﴾

في القعود عن الجهاد ﴿ وَلاَ تَفْتِنِّى ﴾ أي لا توقعني في الفتنة بنساء الروم .

أخرج ابن المنذر .

والطبراني .

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس : يا جد بن قيس ما تقول في مجاهدة بني الاصفر ؟ فقال : يا رسول الله إني امرأ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الاصفر أفتتن فائذن لي ولا

تفتني فنزلت ، وروي نحوه عن عائشة .

وجابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما ، أولا توقعني في المعصية والاثم بمخالفة أمرك في الخروج إلى الجهاد ، وروي هذا عن الحسن .

وقتادة .

واختاره الجبائي ، وفي الكلام على هذا إشعار بأنه لا محالة متخلف أذن له صلى الله عليه وسلم أو لم يأذن .

(105/338)

وفسر بعضهم الفتنة بالضرر أي لا توقعني في ذلك فاني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي لعدم من يقوم بمصالحهم ، وقال أبو مسلم : أي لا تعذبني بتكليف الخروج في شدة الحر ، وقرىء ﴿ وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ من أفتنه بمعنى فتنة ﴿ أَلَا فِى الفتنة ﴾ أي في نفسها وعينها وأكمل أفرادها الغنى عن الوصف بالكمال الحقيق باختصاص اسم الجنس به ﴿ سَقَطُواْ ﴾ لا في شيء مغاير لها فضلاً عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها ، وذلك بما فعلوا من العزيمة على التخلف والجراءة على هذا الاستئذان والقعود بالإذن المبني عليه وعلى الاعتذارات الكاذبة ، وفي مصحف أبي ﴿ سُقِطَ ﴾ بالافراد مراعاة للفظ ﴿ مِنْ ﴾ ولا يخفى ما في

تصدير الجملة بأداة التنبيه من التحقيق ، وفي التعبير عن الافتتان بالسقوط في الفتنة تنزيل لها منزلة المهواة المهلكة المفصحة عن ترديهم في دركات الردي أسفل سافلين ، وتقديم الجار والمجرور لا يخفى وجهه ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ وعيد لهم على ما فعلوا وهو عطف على الجملة السابقة داخل تحت التنبيه ، أي جامعة لهم من كل جانب لا محالة وذلك يوم القيامة ، فالمجاز في اسم الفاعل حيث استعمل في الاستقبال بناء على أنه حقيقة في الحال ، ويحتمل أن يكون المراد أنها حيطة بهم الآن بأن يراد من جهنم أسبابها من الكفر والفتنة التي سقطوا فيها ونحو ذلك مجازاً .

(106/338)

وقد يجعل الكلام تمثيلاً بأن تشبه حالهم في إحاطة الأسباب بحالهم عند إحاطة النار ، وكون الأعمال التي هم فيها هي النار بعينها لكنها ظهرت بصورة الأعمال في هذه النشأة وتظهر بالصورة النارية في النشأة الأخرى كما قيل نظيره في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يَأْكُلُونَ أموال اليتامى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً ﴾ [النساء : 10] منزع صوفي ، والمراد بالكافرين إما المنافقون المبحوث عنهم ، وإيثار وضع الظاهر موضع الضمير للتسجيل

عليهم بالكفر والاشعار بأنه معظم أسباب الإحاطة المذكورة وإما جميع الكافرين ويدخل هؤلاء دخولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(107/338)

وقال القاسمى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ﴾

أي : في القعود ﴿ وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ أي : لا توقعني في الفتنة .

روي عن مجاهد وابن عباس أنها نزلت في الجدّ بن قيس ، أخي بني سلمة ، وذلك فيما رواه محمد بن إسحاق ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذات يوم وهو في جهازه : < هل لك يا جدّ في جلاد بني الأصفر ؟ > فقال : يا رسول الله ! أو تأذن لي ولا تفتنِّي ؟ فوالله ! لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى ، إن رأيت نساء بني الأصفر ، ألَّا أصبر عنهن ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : < أذنت لك ! > .

قال الشهاب يعني أنه يخشى العشق لهن ، أو مواقعتهن من غير حلّ .

وبنات الأصفر : للروم ، كبني الأصفر . وقيل في وجه التسمية وجوه : منها أنهم ملكهم

بعض الحبشة ، فتولد بينهم نساء وأولاد ذهبية الألوان . انتهى .

قال ابن كثير : كان الجدّ بن قيس هذا من أشرف بني سلمة .

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : < من سيدكم يا بني سلمة ؟ > قالوا : الجدّ بن قيس ؟ على أنا نبخّله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < وأي داء أدوأ من البخل ؟ ولكن سيّدكم الفتى الجعد الأبيض ، بشر بن البراء بن معرور > .

وقوله تعالى : ﴿ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ قال أبو السعود : أي : في عينها ونفسها ، وأكمل أفرادها ، الغني عن الوصف بالكمال ، الحقيق باختصاص اسم الجنس به ، سقطوا . لا في شيء مغاير لها ، فضلاً عن أن يكون مهرباً ومخلصاً عنها . وذلك بم فعلوا من العزيمة على التخلف ، والجرأة على الإستئذان بهذه الطريقة الشنيعة ، ومن القعود بالإذن المبني عليه ، وعلى الإعتذارات الكاذبة ، وقرئ بإفراد الفعل ، محافظة

(108/338)

على لفظ من . وفي تصدير الجملة بحرف التنبيه ، مع تقديم الظرف ، إيذان بأنهم وقعوا فيها ، وهم يحسبون أنها منجى من الفتنة ، زعماً منهم أن الفتنة إنما هي التخلف بغير إذن . وفي

التعبير عن الإفتتان بالسقوط في الفتنة ، تنزل لها منزلة المهواة المهلكة ، المفصحة عن تردّيهم في درجات الردى أسفل سافلين . انتهى .

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ أي : ستحيط بهم يوم القيامة ، فلا محيد لهم عنها ولا مهرب ، وهذا وعيد لهم على ما فعلوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 444.443 ﴾

(109/338)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾

نزلت في بعض المنافقين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلّف عن تبوك ولم يُبدوا عذراً يمنعهم من الغزو ، ولكنّهم صرّحوا بأنّ الخروج إلى الغزو يفتنهم لمحبّة أموالهم وأهليهم ، ففضح الله أمرهم بأنّهم منافقون : لأن ضمير الجمع المجرور عائد إلى ﴿ الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 45] ، وقيل : قال جماعة منهم : ائذن لنا لأنّا قاعدون أذنت لنا أم لم تأذَنْ فأذَنْ لنا لئلا نقع في المعصية .

وهذا من أكبر الوقاحة لأنّ الإذن في هذه الحالة كَلا إذنٍ ، ولعلّهم قالوا ذلك لعلمهم برفق النبي

صلى الله عليه وسلم وقيل : إنّ الجِدّ بن قيس قال : يا رسول الله لقد علم الناس أنّي مُسْتَهْتَر بالنساء فإنّي إذا رأيت نساء بني الأصفر افتتنت بهنّ فأذَنْ لي في التخلّف ولا تفتنّي وأنا أعينك بمالي ، فأذن لهم .

ولعلّ كلَّ ذلك كان .

والإتيان بأداة الاستفتاح في جملة ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ للتنبيه على ما بعدها من عجيب حالهم إذ عاملهم الله بنقيض مقصودهم فهم احترزوا عن فتنة فوقعوا في الفتنة .

فالتعريف في الفتنة ليس تعريف العهد إذ لا معهود هنا ، ولكنّه تعريف الجنس المؤذن بكمال المعرّف في جنسه ، أي في الفتنة العظيمة سقطوا ، فأيُّ وجه فرض في المراد من الفتنة حين قال قائلهم ﴿ ولا تفتنى ﴾ كان ما وقَع فيه أشدَّ ممّا تفصَّى منه ، فإن أراد فتنة الدين فهو واقع في أعظم الفتنة بالشرك والنفاق ، وإن أراد فتنة سوء السمعة بالتخلّف فقد وقع في أعظم بافتضاح أمر نفاقهم ، وإنْ أراد فتنة النكد بفراق الأهل والمال فقد وقع في أعظم نكد بكونه ملعوناً مبغوضاً للناس .

وتقدّم بيان ﴿ الفتنة ﴾ قريباً .

(110/338)

والسقوط مستعمل مجازاً في الكَون فجأة على وجه الاستعارة : شُبّه ذلك الكون بالسقوط في عدم التهيّؤ له وفي المفاجأة باعتبار أنّهم حصلوا في الفتنة في حال أمنهم من الوقوع فيها ، فهم كالساقط في هُوّة على حينِ ظَنّ أنّه ماش في طريق سهل ومن كلام العرب "على الخبير سقطتَ" .

وتقديم المجرور على عامله ، للاهتمام به لأنّه المقصود من الجملة .

وهذه الجملة تسير مَسرى المثَل .

وجملة ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ معترضة والواو اعتراضية ، أي وقعوا في الفتنة المفضية إلى الكفر .

والكفر يستحقّ جهنّم .

وإحاطة جهنّم مراد منها عدم إفلاتهم منها ، فالإحاطة كناية عن عدم الإفلات .

والمراد بالكافرين : جميع الكافرين فيشمل المتحدّث عنهم لثبوت كفرهم بقوله : ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 45] .

ووجه العدول عن الإتيان بضميرهم إلى الإتيان بالاسم الظاهر في قوله : ﴿ لمحيطة بالكافرين ﴾ إثبات إحاطة جهنّم بهم بطريق شبيه بالاستدلال ، لأنّ شمول الاسم الكلي لبعض جزئياته أشهر أنواع الاستدلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

هؤلاء هم الذين استأذنوا رسول الله في عدم الخروج للجهاد ، ومنهم من قال هذه العبارة : لا تفتني بعدم إعطاء الإذن ، ولكن ما موضوع الفتنة ؟ هل هو عذاب ، أم سوء ، أم شرك وكفر – والعياذ بالله – ؟ إن كل ذلك – وغيره – تجوز فيه الفتنة . والقول : ﴿ ائذن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ﴾ ظاهره أنه أمر ، ولكنه هنا ليس أمراً ؛ لأن الأمر إذا جاء من الأدنى للأعلى فلا يقال إنه أمر ، بل هو دعاة أو رجاء ، وإن جاء من المساوى يقال : " مساو له " ، أما إن جاء من الأعلى إلى الأدنى ؛ فهذا هو ما يقال له أمر ، وكلها طلب للفعل .

وكان الجد بن قيس – وهو من الأنصار – قد جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ائذن لي ولا تفتني ؛ لأن رسول الله إن لم يأذن له فسيقع في فتنة مخالفة أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقيل : إن هذا الأنصاري لم يكن له جَلَدٌ على الحرب وشدائدها . وقيل : إنه كان على وَلَع

بحب النساء وسمع عن جمال بنات الروم ، وخشي أن يُفتنَ بهنَّ ، خصوصاً أن المعركة ستدور على أرض الروم . ومن المتوقع أن يحصل المقاتلون على سبايا من بنات الروم .

وقوله تعالى : ﴿ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي ﴾ أوقعه في الفتنة فعلاً ؛ لذاك جاء قول الحق : ﴿ أَلا فِي الفتنة سَقَطُواْ ﴾ . وكان هذا الأنصاري سميناً ، وشكا من عدم قدرته على السفر الطويل والحر ، فجاء الرد : إن كنتم من الحر والبرد تفرُّون فالنار أحقُّ بالفرار منها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ .

(112/338)

وفي آية أخرى قال سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ إذن : فجحيم النار أد قسوة وحرارة من نار القتار ، وحر الدنيا مهما اشتد أهون بكثير من نار الآخرة وهي تحيط بالكافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(113/338)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

أخرج ابن المنذر والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك قال لجد بن قيس : ما تقول في مجاهدة بني الأصفر ؟ فقال : إني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن فائذن لي ولا تفتني ، فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس : يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ قال جد : أتأذن لي يا رسول الله ؟ فإني رجل أحب النساء ، وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن افتتن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه : قد أذنت لك . فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي . . . ﴾ الآية " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اغزوا تغنموا بنات بني الأصفر . فقال ناس من المنافقين : إنه ليفتنكم بالنساء . فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن عائشة ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ قال : نزلت في الجد بن قيس ، قال : يا محمد ائذن لي ولا تفتني بنساء بني الأصفر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر نساء الروم . فقالوا : ائذن لنا ولا تفتنا بالنساء " .

(114/338)

وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل من طريقه عن عاصم بن عمر بن قتادة وعبد الله بن أبي بكر بن حزم " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما كان يخرج في وجه من مغازيه إلا أظهر أنه يريد غيره ، غير أنه في غزوة تبوك قال : " أيها الناس إني أريد الروم فاعلمهم ، وذلك في زمان البأس وشدة من الحر وجدب البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها ، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم في جهازه إذ قال للجد بن قيس : يا جد هل لك في بنات بني الأصفر ؟ قال : يا رسول الله لقد علم قومي أنه ليس أحد أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخاف إن رأيت نساء بني الأصفر أن يفتنني فَأْذن لي يا رسول الله . فأعرض عنه رسول الله

صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت . فأنزل الله ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا ﴾ يقول : ما وقع فيه من الفتنة بتخلفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورغبته بنفسه عن نفسه أعظم مما يخاف من فتنة نساء بني الأصفر ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ يقول : من ورائه . وقال رجل من المنافقين ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ فأنزل الله ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ [التوبة : 81] قال : ثم إن رسول الله جدَّ في سفره وأمر الناس بالجهاز ، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا ، وأنفق عثمان رضي عنه في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم منها وحمل على مائتي بعير " .

(115/338)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة وموسى بن عقبة قالا " ثم إن رسول الله تجهز غازياً يريد الشام فأذن في الناس بالخروج وأمرهم به ، وكان ذلك في حر شديد ليالي الخريف والناس في نخيلهم خارفون ، فأبطأ عنه ناس كثير وقالوا : الروم لا طاقة بهم . فخرج أهل الحسب وتخلف المنافقون ، وحدثوا أنفسهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرجع إليهم أبداً ، فاعتلوا وثبطوا من أطاعهم وتخلف عنه رجال من المسلمين بأمر كان لهم فيه

عذر ، منهم السقيم والمعسر ، وجاء ستة نفر كلهم معسر يستحملونه لا يجبون التخلف عنه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أجد ما أحملكم عليه . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما ينفقون ، منهم من بني سلمة ، عمر بن غنمة ، ومن بني مازن ابن النجار أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، ومن بني حارث علية بن زيد ومن بني عمرو بن عوف بن سالم بن عمير ، وهرم بن عبد الله ، وهم يدعون بني البكاء ، وعبد الله بن عمر ، ورجل من بني مزينة ، فهؤلاء الذين بكوا واطلع الله عز وجل أنهم يحبون الجهاد ، وأنه الجد من أنفسهم ، فعذرهم في القرآن فقال ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ [التوبة : 91] الآية والآيتين بعدها .

(116/338)

وأتاه الجد بن قيس السلمي وهو في المسجد معه نفر فقال : يا رسول الله ائذن لي في القعود فإني ذو ضيعة وعلة فيها عذر لي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تجهز فإنك موسر لعلك ان تحقب بعض بنات بني الأصفر . فقال : يا رسول الله ائذن لي ولا تفتني . فنزلت ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ وخمس آيات معها يتبع بعضها بعضاً ،

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، كان فيمن تخلف عنه غنمة بن وديعة من بني عمرو بن عوف ، فقيل : ما خلفك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت مسلم ؟ فقال : الخوض واللعب . فأنزل الله عز وجل فيه وفيمن تخلف من المنافقين ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ [التوبة : 65] ثلاث آيات متتابعات " .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : " لما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغزو تبوك قال " نغزو الروم إن شاء الله ونصيب بنات بني الأصفر – كان يذكر من حسنهن ليرغب المسلمون في الجهاد – فقام رجل من المنافقين فقال : يا رسول الله قد علمت حبي للنساء فائذن لي ولا تخرجني ، فنزلت الآية " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا تفتني ﴾ قال : لا تخرجني ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ يعني في الحرج .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ولا تفتني ﴾ قال : لا تؤثمني ﴿ ألا في الفتنة ﴾ قال : ألا في الإِثم سقطوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(117/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

أبرزوا قبيحَ فِعالِهم في مَعْرِض التخرج ، وراموا أَنْ يُلَبِّسُوا على الرسول – صلى الله وسلم وعلى آله – وعلى المسلمين خبث سيرتهم وسريرتهم ، فَبَيَّنَ الله أَنَّ الذين (. . .) بزعمهم سقطوا فيه بفعلهم ، وكذلك المتجلِّدُ بما يهواه متطوح في وادي بلواه ، وسَيَلْقَى في الآخرة من الهَوَان ما يَغْنِي عن الحاجة إلى البرهان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 33 ﴾

(118/338)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (49) ﴾

(119/338)

التفسير : لما شرح الله معايب هؤلاء الكفار عاد إلى الترغيب في قتالهم . عن ابن عباس أنها نزلت في غزوة تبوك سنة عشر ؛ وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من الطائف أقام بالمدينة أياماً فأمر بجهاد الروم فاستثقله الناس لكون الزمان زمان صيف وللقحط ولبعد المسافة ولمزيد احتياج الإستعداد ولشدة الحر وللخوف من عسكر الروم ولوجود أسباب الرفاهية بالمدينة لكون الوقت وقت إدراك الثمار وحصول الغلات . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما خرج في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك ليستعد الناس تمام العدة . أصل النفر الخروج إلى مكان لأمر هاج عليه واسم ذلك القوم الذين يخرجون النفير . وأصل ﴿ أثاقلتم ﴾ تثاقلتم كما قلنا في ﴿ فادّارأتم ﴾ [البقرة : 72] ومعناه تباطأتم . وإنما عدّي بإلى لتضمين معنى الميل والإخلاد كقوله ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾ [الأعراف : 176] أي مال إلى الدنيا وشهواتها . وقيل : المراد لتم إلى الإقامة

بأرضكم والبقاء فيها . ومعنى الاستفهام في ﴿ مالكم ﴾ الإنكار . وقرىء ﴿ أثاقلتم ﴾ على الاستفهام للإنكار أيضاً فيكون جواب " إذا " فعلاً آخر مدلولاً عليه بأثاقلتم كنحو ملتم ، وذلك أن جواب " إذا " عامل في " إذا " ، والاستفهام لا يعمل فيما قبله . ويجوز على هذه أن يكون " إذا " لمجرد الظرفية والعامل فيه ما في ﴿ مالكم ﴾ من معنى الفعل كأنه قيل : ما تصنعون إذا قيل لكم و " من " في ﴿ من الآخرة ﴾ للبدل كقوله ﴿ لجعلنا منكم ملائكة في الأرض يخلفون ﴾ كأنه قيل : قد ذكرنا الموجبات الكثيرة الداعية إلى القتال وبينا أنواع فضائحهم التي تحمل العاقل على مقاتلتهم ، ولو لم يكن فيه إلا طاعة المعبود المستلزمة لثواب الآخرة لكفى به باعثاً . ﴿ فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة ﴾ أي في جنبها وفي مقابلها . ﴿ إلا قليل ﴾ ويجوز أن يراد بالقلة العدم إذ لا نسبة للمتناهي الزائل إلى غير المتناهي الباقي . والظاهر أن هذا التثاقل لم يصدر من

(120/338)

جميع المخاطبين لاستحالة إطباق هذه الأمة على المعصية والضلالة إلا أنه طالما أعطى للأكثر حكم الكل وأطلق لفظ الكل على الإغلب ، ثم لما رغبهم في الجهاد بعرض الثواب

عليهم رغبتهم فيه بعرض العقاب فقال ﴿ إلا تنفروا ﴾ ورتب عليه ثلاث خصال : الأولى قوله ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ قيل : هو عذاب الدنيا .

(121/338)

عن استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتثاقلوا فأمسك الله عنهم المطر . وقال الحسن : الله أعلم بالعذاب الذي كان ينزل عليهم . وقيل : هو عذاب الآخرة فإن الأليم لا يليق إلا به . وقيل : إنه تهديد بالعذاب المطلق الشامل للدارين . الثانية قوله ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ يعني قوماً آخرين خيراً منهم وأطوع . قيل : هم أهل اليمن . عن أبي روق . وقيل : أبناء فارس عن سعيد بن جبير . وقيل : يحتمل أن يراد بهم الملائكة . وقال الأصم : معناه أنه يخرجه من بين أظهركم وهي المدينة والأصح إبقاء الآية على الإطلاق . الثالثة قوله ﴿ ولا تضروه شيئاً ﴾ قال الحسن : الضمير لله وفيه أنه غني عنهم في نصرة دنيه بل في كل شيء . وقال آخرون . الضمير للرسول لأن الله وعده أن يعصمه ووعد الله كائن لا محالة . وفي قوله ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ تنبيه على أنه قادر على نصرة رسوله بأي وجه أراد ، وقادر على إيقاع العذاب بكل من يخالف أمره كائناً من كان . عن الحسن وعكرمة أن الآية منسوخة بقوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : 122]

والصحيح أنها خطاب لمن استنفرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم ينفروا فلا نسخ . قال الجبائي : في الآية دلالة على إبطال مذهب المرجئة من أن أهل القبلة لا وعيد لهم . وقال القاضي : فيها دلالة على وجوب الجهاد سواء كان مع الرسول أولا لقوله تعالى ﴿ مالكم إذا قيل لكم ﴾ ولم ينص على أن القائل هو الرسول . ومن قال إن الضمير في قوله ﴿ لا يضروه ﴾ عائد إلى الرسول فجوابه أن خصوص آخر الآية لا يمنع من عموم أولها . ثم رغبهم في الجهاد بطريق آخر فقال ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ وهذا كالتفسير لما تقدم . والمعنى إن لم تشتغلوا بنصره فإن الله سينصره بدليل أن الله نصره وقواه حال ما لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد . وفيه أنه لما أوجب له النصرة وقتئذ فلن يخذله بعد ذلك . وقوله ﴿ إذ أخرجه الذين كفروا ﴾ أي ألجؤه إلى أن خرج ظرف

(122/338)

لنصره ، و ﴿ ثاني اثنين ﴾ نصب على الحال ومعناه أحد اثنين لأنه إذا حضر اثنان فكل واحد منهما ثانٍ للآخر وواحد منهما . وقوله ﴿ إذ هما في الغار ﴾ بدل من إذ أخرجه و ﴿ إذ يقول ﴾ بدل ثان والغار نقب عظيم في الجبل والمراد به ههنا نقب في أعلى ثور وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة .

واعلم أنا قد ذكرنا في سورة الأنفال أن قريشاً ومن بمكة تعاقدوا على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل ﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ﴾ [الأنفال : 30] فأمره الله تعالى أن يخرج هو وأبو بكر الصديق إلى الغار . فخرج وأمر علياً أن يضطجع على فراشه فلما وصلا إلى الغار دخل أبو بكر يلتمس ما في الغار فقال له الرسول : مالك ؟ فقال : بأبي أنت وأمي ، الغيران مأوى السباع والهوام فإن كان فيه شيء كان بي لا بك ، فخرق عمامته وسد الحجرة وبقي حجر واحد فوضع عقبه عليه كيلا يخرج منه ما يؤذي الرسول صلى الله عليه وسلم . فلما طلب المشركون الأثر وقربوا بكى أبو بكر خوفاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام : ﴿ لا تحزن أن الله معنا ﴾ وقيل : طلع المشركون فوق الغار فاشفق أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إن تصب اليوم ذهب دين الله فقال صلى الله عليه وسلم : ما ظنك باثنين الله ثالثهما ! وقيل : لما دخلا الغار بعث الله حمامتين فباضتا في أسفله ، والعنكبوت فنسجت عليه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أعم أبصارهم . فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفطنون له قد أخذ الله أبصارهم عنه . استدل أهل السنة بالآية على أفضلية أبي بكر وغاية اتحاده ونهاية

صحبته وموافقة باطنه ظاهره وإلا لم يعتمد الرسول عليه في مثل تلك الحالة ، وأنه كان ثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار وفي العلم لقوله " ما صب في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر " وفي الدعوة إلى الله لأنه صلى الله عليه وسلم عرض الإيمان أولاً على أبي بكر فآمن ، ثم عرض أبو بكر الإيمان على طلحة والزبير وعثمان بن عفان وجماعة أخرى من أجلة الصحابة ، وكان لا يفارق الرسول صلى الله عليه وسلم في الغزوات وفي أداء الجماعات وفي المجالس والمحافل ، وقد أقامه في مرضه مقامه في الإمامة ، ولما توفي دفن بجنب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ثاني اثنين من أول

(124/338)

أمره إلى آخره ، ولو قدرنا أنه توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك السفر لزم أن لا يقوم بأمره ولا يكون وصيه إلا أبو بكر . وأن لا يبلغ ما حدث في ذلك الطريق من الوحي والتنزيل إلا أبو بكر . وقوله ﴿ لا تحزن ﴾ نهى عن الحزن مطلقاً والنهي يقتضي الدوام والتكرار فهو لا يحزن قبل الموت وعنده وبعده . ولا شك أن من كان الله معه فإنه يكون من المتقين المحسنين لقوله ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾ [النحل : 128] قال الحسين بن فضيل : من أنكر صحبة غير أبي بكر من الصحابة فإنه يكون كذاباً مبتدعاً

، ومن أنكر صحبة أبي بكر فإنه يكون كافراً لأنه خالف قول الله تعالى ﴿ إذ يقول لصاحبه ﴾ أجابت الشيعة بأن كونه ثاني اثنين ليس أعظم من كون الله رابعاً لكل ثلاثة في قوله

(125/338)

﴿ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ﴾ [المجادلة : 7] وهذا عام في حق كل كافر ومؤمن . وكون المصاحبة موجبة للتشريف معارض بقوله تعالى للكافر ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك ﴾ [الكهف : 37] وكما احتمل أن يقال إنه عليه السلام استخلصه لنفسه في هذا السفر لأجل الثقة ، احتمل أن يكون ذلك لأجل إنه خاف أن يدل الكفار عليه أو يوقفهم على أسراره لو تركه . ثم إن حزنه لو كان حقاً لم ينه عنه فهو ذنب وخطأ . سلمنا دلالة الآية على فضل أبي بكر إلا أن اضطجاع علي رضي الله عنه على فراشه أعظم من ذلك فيه من خطر النفس . أجاب أهل السنة بأن كون الله رابعاً لكل ثلاثة أمر مشترك ، وكونه ثاني اثنين تشريف زائد اختص الله أبا بكر به على أن المعية هنالك بالعمل والتدبير وههنا بالصحبة والمرافقة ، فأين إحداهما من الأخرى ؟ !

والصحبة في قوله ﴿ قال له صاحبه ﴾ مقرونة بما تقتضي الإهانة والإذلال وهو قوله ﴿ أكفرت ﴾ وفي الآية مقرونة بما يوجب التعظيم والإجلال وهو قوله ﴿ ولا تحزن إن الله معنا

﴿ قالوا : والعجب أن الشيعة إذا حلفوا قالوا : وحق خمسة سادسهم جبريل .

واستنكروا أن يقال : وحق اثنين الله ثالثهما . والاحتمال الذي ذكروه مدفوع بما روي أن أبا بكر هو الذي اشترى الراحلة للرسول وأن عبد الرحمن بن أبي بكر وأسماء بنت أبي بكر هما اللذان كانا يأتيانهما بالطعام مدة مكثهما في الغار وذلك ثلاثة أيام وقيل بضعة عشر يوماً . وروي أن جبريل عليه السلام أتاه وهو جائع فقال ؛ هذه أسماء قد أتتك بجيسة ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبر به أبا بكر ، ولو كان أبو بكر قاصداً له لصاح بالكفار عند وصولهم إلى باب الغار ، ولقال ابنه وابنته نحن نعرف مكان محمد . وكون حزنه معصية معارض بقوله تعالى لموسى ﴿ لا تخف إنك أنت الأعلى ﴾ [طه : 68] وقول الملائكة لإبراهيم ﴿ لا تخف وبشروه ﴾ [الذاريات : 28] ثم إنا لا ننكر أن اضطجاع علي رضي الله عنه

(126/338)

على فراش الرسول طاعة وفضيلة إلا أن صحبة أبي بكر أعظم لأن الحاضر أعلى حالاً من الغائب ، ولأن علياً رضي الله عنه ما تحمل المحنة إلا ليلة وأبو بكر مكث في الغار أياماً ، وإنما اختار علياً للنوم على فراشه لأنه كان صغيراً لم يظهر عنه بعد دعوة بالدليل والحجة

ولا جهاد بالسيف والسنان بخلاف أبي بكر فإنه قد دعا حينئذ جماعة إلى الدين وكان يذب عن الرسول بالنفس والمال ، فكان غضب الكفار على أبي بكر أشد من غضبهم على عليّ رضي الله عنه ولهذا لم يقصدوا علياً بضرب ولا ألم لما عرفوا أن المضطجع هو .

(127/338)

ثم زعم أهل السنة أن الضمير في قوله ﴿ فأنزل الله سكينته عليه ﴾ عائد إلى أبي بكر لا إلى الرسول لأنه أقرب المذكورين فإن التقدير : إذ يقول محمد لصاحبه أبي بكر ولأن الخوف كان حاصلاً لأبي بكر والرسول كان آمناً ساكن القلب بما وعده الله من النصر ، ولو كان خائفاً لم يمكنه إزالة الخوف عن غيره بقوله ﴿ لا تحزن ﴾ ولناسب أن يقال : فأنزل الله سكينته عليه فقال لصاحبه لا تحزن . واعترض بأن قوله ﴿ وأيده ﴾ عطف على ﴿ فأنزل ﴾ فواجب أن يتحد الضميران في حكم العود . وأجيب بأن قوله ﴿ وأيده ﴾ معطوف على قوله ﴿ فقد نصره ﴾ والتقدير : إلا تنصروه فقد نصره في واقعة الغار وأيده في واقعة بدر والأحزاب وحنين بالملائكة ، والظاهر أن الحزن لا يبعد أن يكون شاملاً للنبي صلى الله عليه وسلم أيضاً من حيث البشرية كقوله ﴿ وزلزلوا ﴾ [البقرة : 214] ويكون في الكلام تقديم وتأخير والتقدير : فأنزل الله سكينته عليه إذ يقول ، أو يكون ﴿

فأنزل ﴾ معطوفاً على نصره . والمراد بالسكينة ما ألقي في قلبه من الأمنة التي سكن عندها قلبه وعلم أنه منصور لا محالة كقوله في قصة حنين ﴿ ثم أنزل الله سكينته على رسوله ﴾ [التوبة : 26] وقوله ﴿ وجعل ﴾ يعني يوم بدر وسائر الوقائع ﴿ كلمة الذين كفروا ﴾ وهي دعوتهم إلى الكفر وعبادة الأصنام ﴿ السفلى وكلمة الله ﴾ وهي دعوته إلى الإسلام أو كلمة التوحيد لا إله إلا الله ﴿ هي العليا ﴾ وفي توسيط كلمة الفصل - أعني هي - تأكيد فضل كلمة الله في العلو وأنها المختصة بالعلاء دون سائر الكلم . قال الفراء : لا أحب قراءة نصب الكلمة لأن الأجود حينئذ أن يقال : وكلمته هي العليا . ألا ترى أنك تقول : أعتق أبوك غلامه ولا تقول أعتق أبوك غلام أبيك ؟ قلت : وفي الرفع أيضاً الاستئناف وما في الجملة الاسمية من الثبات ﴿ والله عزيز حكيم ﴾ قاهر غالب لا فعل له إلا الصواب .

(128/338)

ثم لما توعد من لا ينفر مع الرسول وضرب له من الأمثال ما وصف عقبه بالأمر الجزم فقال ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ قال المفسرون : أي خفافاً في النفور لنشاطكم وثقالاً عنه لمشقته عليكم ، أو خفافاً لقلة عيالكم وثقالاً لكثرتهم ، أو خفافاً من السلام وثقالاً منه ، أو

ركباناً ومشاة ، أو شباناً وشيوخاً ، أو مهازيل وسماناً ، أو صحاحاً ، ومراضاً ، والصحيح التعميم ، وأن المراد انفروا سواء كنتم على الصفة التي يخف عليكم الجهاد معها أو على ضدها . قال الأكثرون : ظاهر هذا الأمر يقتضي تناول جميع الناس حتى المرضى والعاجزين ويؤيده ما روي عن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعليّ أن أنفر ؟ قال : ما أنت إلا خفيف أو ثقيل فرجع إلى أهله ولبس سلاحه ووقف بين يديه فنزل قوله

(129/338)

﴿ ليس على الأعمى حرج ﴾ [النور : 61] وقال مجاهد : إن إبا أيوب شهد بدراً مع الرسول الله ولم يتخلف عن غزوات المسلمين ويقول : قال الله ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ فلا أجدني إلا خفيفاً أو ثقيلاً . وعن صفوان بن عمرو قال : كنت والياً على حمص فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت : يا عم لقد أعذر الله إليك . فرفع حاجبيه وقال : يا ابن أخي استنفرنا الله خفافاً وثقالاً إلا أنه من يحبه الله يبتليه . وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل : إنك عليل صاحب ضرر . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل فإن لم تمكني

الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع . وعن أنس قال : قرأ أبو طلحة هذه الآية فقال : ما أسمع الله عذر أحداً فخرج مجاهداً إلى الشأم حتى مات . وقال السدي : جاء المقداد بن الأسود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان عظيماً سميناً وشكا إليه وسأله أن يأذن له فنزل فيه ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ فاشتد شأنها على الناس فنسخها الله بقوله ﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ﴾ [التوبة : 91] الآية ؟ وقيل : لا حاجة إلى التزام النسخ لأن هذه الآيات نزلت في غزوة تبوك بالاتفاق ، ولا شك أنه صلى الله عليه وسلم خلف من النساء والرجال أقواماً فذلك يدل على أن هذا الوجوب ليس على الأعيان ولكنه من فروض الكفايات . فمن أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يخرج لزمه ذلك ومن أمره أن يبقى لزمه أن يبقى . ولقائل أن يقول : لا نزاع في هذا إنما النزاع في الضعفاء والمرضى . ثم قال ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾ وفي إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، أو بالنفس إن لم يكن مال زائد على أسباب الجهاد ، أو بالمال بأن يستنيب من يغزو وعنه إن لم تكن له نفس سليمة صالحة للجهاد وهذا قول كثير من العلماء . ﴿ ذلكم خير لكم ﴾ يعني أنه خير في نفسه أو أنه خير من القعود لما فيه من الراحة والدعة والنعيم العاجل .

(130/338)

وإنما قال ﴿ إن كنتم تعلمون ﴾ لأن ما يحصل من الخيرات في الجهاد لا يدرك إلا بالتأمل ولا يعرفه إلا المؤمن الذي عرف بالدليل أن وعد الله حق . ثم نزل في المتخلفين عن غزوة تبوك من المنافقين ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ قال الزجاج : أي لو كان المدعو إليه فحذف لدلالة ما تقدم عليه . والعرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومنه قولهم : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، والمراد بالقرب سهولة مأخذه ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ أي وسطاً بين القرب والبعد وكل متوسط بين الإفراط والتفريط فهو قاصد أي ذو قصد لأن كل أحد يقصده .

(131/338)

والشقة المسافة الشاقة الشاطة ، ووصف المسافة البعيدة بالبعد مبالغة نحو جد جدّة . وفحوى الكلام لو كانت المنافع قريبة الحصول والسفر وسطاً ﴿ لاتبعوك ﴾ طمعاً في الفوز بتلك المنافع ولكن طال السفر فكانوا كالآيسين من الفوز بالغنيمة . ثم أخبر أنه سيجدهم إذا رجع من الجهاد يحلفون بالله إما ابتداء على طريق إقامة العذر وإما عندما يعاتبهم بسبب التخلف وقد وقع كما أخبر فكان معجزاً . و ﴿ بالله ﴾ متعلق ب ﴿ سيحلفون ﴾ أو هو من جملة كلام المتخلفين والقول مقدر في الوجهين أي سيحلفون بالله قائلين ﴿ لو

استطعنا ﴾ وقوله ﴿ لخرجنا ﴾ سادّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعاً . قيل : في الآية دلالة على أن قوله ﴿ انفروا ﴾ خطاب للمستطيعين وإلا لما أمكنهم جعل عدم الاستطاعة عذراً في التخلف . قال الجبائي : فيها دليل على أن الاستطاعة قبل الفعل وإلا لما كذبهم الله تعالى ، فإن لم من يخرج إلى القتال لم يكن مستطيعاً للقتال عند من يجعل الاستطاعة مع الفعل . وقال الكعبي : زائداً عليه فإن قيل : لم لا يجوز أن يراد أنهم ما كان لهم زاد ولا راحلة ولا يراد نفس القدرة ؟ قلنا إن من لا راحلة له يعذر في ترك الخروج فمن لا قدرة له أولى . وأيضاً الظاهر من الاستطاعة قوة البدن وإذا أريد به المال فلأنه يعين على ما يفعله الإنسان بقوة البدن . وأجيب بأن المعتزلة سلموا أن القدرة على الفعل لا تتقدم الفعل إلا بوقت واحد فإن الإنسان الجالس في مكان لا يكون قادراً في هذا الزمان على أن يفعل فعلاً في مكان بعيد عنه وإنما يقدر على فعله في المكان الملاصق لمكانه . فالقوم الذين تخلفوا ما كانوا قادرين على القتال عندنا وعندهم فيلزمهم ما ألزموه علينا فوجب المصير إلى تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة فيسقط السؤال . ولقائل أن يقول : إنهم وإن كانوا غير قادرين على القتال إلا أنهم كانوا قادرين على الاشتغال بأسباب القتال فيعود السؤال . قال في الكشاف ﴿ يهلكون ﴾ بدل من ﴿ سيحلفون ﴾

أو حال أي يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب ، أو حال من ضمير ﴿ خرجنا ﴾ أي لخرجنا معكم وإن ألقينا أنفسنا في التهلكة . وإنما جاء به على لفظ الغائب لأنه مخبر عنهم . حلف بالله ليفعلن أو لأفعلن فالغيبة على الإخبار والتكلم على الحكاية . قلت : وفي الوجه الأخير نظر للزوم بناء أول الكلام على التكلم وآخره على الغيبة ، ولعل الصحيح حينئذ أن لو قيل : لخرجنا معكم نهلك أنفسنا والله تعالى أعلم .

ثم بين أن ذلك التخلف من بعضهم كان بإذن الرسول ولهذا توجه عليه العتاب بقوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ فإن العفو يستدعي سابقة الذنب . وبقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ فإنه استفهام في معنى الإنكار وبيان لما كنى عنه بالعفو . قال قتادة وعمرو بن ميمون : شيئان فعلهما الرسول لم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين وأخذه الفداء من الأسارى .

(133/338)

فعاتبه الله بطريق الملاطفة كما تسمعون . والذي عليه المحققون أنه محمول على ترك الأولى . وقوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ إنما جاء على عادة العرب في التعظيم والتوقير فيقدمون أمثال ذلك بين يدي الكلام يقولون : عفا الله عنك ما صنعت في أمري ، رضي الله عنك ما

جوابك عن كلامي ، وعافاك الله ألا عرفت حقي . وبعد حصول العفو من الله تعالى يستحيل أن يكون قوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ وارداً على سبيل الذم والإنكار بل يحمل على ترك الأكمل والأولى لا سيما وهذه الواقعة كانت من جنس ما يتعلق بالحروب ومصالح الدنيا . قال كثير من العلماء : في الآية دلالة على جواز الاجتهاد لأنه عليه السلام أذن لهم من تلقاء نفسه من غير أن يكون من الله في ذلك إذن وإلا لم يعاتب أو منع وإلا كان عاصياً بل كافراً لقوله ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله ﴾ [المائدة : 47] ولا ريب أنه لا يكون بمجرد التشهي فيكون بالاجتهاد ثم إنه لم يمنع من الاجتهاد مطلقاً وإنما منع إلى غاية هي قوله ﴿ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ ولا يمكن أن يكون المراد من ذلك التبين هو التبين بطريق الوحي وإلا كان ترك ذلك كبيرة فتعين أن يحمل التبين على استعلام الحال بطريق الاجتهاد ليكون الخطأ واقعاً في الاجتهاد لا في النص ويدخل تحت قوله " ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد " وفي الآية دلالة على وجوب الاحتراز عن العجلة وترك الاغترار بظواهر الأمور . قال قتادة . عاتبه الله كما تسمعون ثم رخص له في سورة النور في قوله ﴿ فإذا استأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾ [الآية : 62] . قال أبو مسلم : يحتمل أن يريد بقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ الإذن في الخروج لا في القعود ، فقد يكون الخروج غير صواب لكونهم عيناً للمنافقين على المسلمين ، وإذا كان هذا محتملاً فلا تتعين الآية

لرخصة الإذن في القعود . وقال القاضي : هذا بعيد لأن سياق الآية يدل على أن الكلام في القاعدين وفي بيان حالهم .

(134/338)

ثم ذكر أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا لأن الاستئذان من علامات النفاق فقال ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا ﴾ أي في أن يجاهدوا ، وكان الأكابر من المهاجرين والأنصار يقولون : لا نستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في الجهاد وكانوا بحيث لو أمرهم بالقعود شق عليهم ذلك . ألا ترى أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أمره الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يبقى في المدينة شق عليه ذلك ولم يرض إلى أن قال له الرسول صلى الله عليه وسلم " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " وقيل : إن حرف النفي مضمر كإضمار الجار والتقدير في أن لا يجاهد والآن سياق الآية يدل على ذم من يستأذن في القعود .

(135/338)

وعلى هذا يمكن أن يقال : معناه كراهة أن يجاهدوا وفي قوله ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ رمز إلى أنهم من جملة المتقين وأن لهم ثوابهم . ثم بين الذين من شأنهم الاستئذان فقال ﴿ إنما يستأذنك ﴾ الآية . وفيه أن الشاك في أمر الدين وفي أصوله لا في بعض مسائلة غير مؤمن بالله تعالى ، وفيه أن محل الريب واليقين هو القلب وأن الإيمان ليس مجرد الإقرار باللسان وإلا لم يصح نفيه عن المنافقين . ومعنى قوله ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ أن الشاك متردد بين النفي والإثبات غير حاكم بأحد الطرفين . وتقريره أن الاعتقاد إما أن يكون جازماً أولاً ، فالجازم إن كان غير مطابق فهو الجهل وإن كان مطابقاً فإما بضرورة أو نظر فهو العلم أولاً وهو اعتقاد المقلد . وغير الجازم إن كان أحد الطرفين راجحاً عنده فالراجع هو الظن والمرجوح هو الوهم ، وإن تساوى الطرفان فهو الريب والشك فلهذا كانت الحيرة والتردد من شأن صاحبه كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر . قال المفسرون : إن المستأذنين هم المنافقون وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً . ثم نعى على المنافقين سوء فعالهم فقال ﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ قال ابن عباس : يريد من الماء والزاد والراحلة لأن سفرهم بعيد والزمان شديد ، فتركهم العدّة دليل على أنهم أرادوا التخلف . قال العلماء : وفيه إشارة إلى أنهم كانوا مياسير قادرين على تحصيل الأهبة والعدّة . ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي انطلاقهم ﴿ فثبطهم ﴾ والتثبيط رد الإنسان عن الفعل الذي هم به . ومعنى الاستدراك أن قوله ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ يعطي معنى نفي

الخروج وكأنه قيل : ما خرجوا ولكن تنبطوا لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك كما تقول : ما أحسن إليّ زيد ولكن أساء إليّ . ومثل هذا يسمى في علم البديع صنعة الاستدراك . وقد يقال : تأكيد الذم بما يشبه المدح . ولو قيل مثل هذا في المنع لقيل تأكيد المدح بما يشبه الذم . وههنا سؤال وهو أن خروجهم مع الرسول إن كان مفسدة فلم

(136/338)

عاتب الله رسوله في إذنه لهم بالقعود ، وإن كان مصلحة فلم كره الله انبعاثهم ؟ والجواب أنه كان مفسدة لقوله عقيب ذلك ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ وحديث العتاب ظاهر عند من لا يجوز الاجتهاد على الأنبياء لتمكنهم من استعلام الصواب بطريق الوحي ، وكذا على قول أبي مسلم . ومما يوهم أنه صلى الله عليه وسلم أذن لهم في الخروج قوله تعالى في هذه السورة ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾ [التوبة : 83] وقوله في سورة الفتح ﴿ سيقول لك المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم ﴾ [الفتح : 15] إلى قوله ﴿ قل لن تتبعونا ﴾ [الفتح : 15] وأما عندنا فإنما لم يستحسن الله من الرسول صلى الله عليه وسلم إذنه لهم بالقعود وإن كان قعودهم مصلحة لأنه أذن لهم قبل إتمام التفحص وإكمال التدبر ولأنه لو لم يأذن لهم فهم كانوا

يقعدون من تلقاء أنفسهم فكان يصير ذلك القعود علامة على نفاقهم ولا تبقى حاجة إلى إظهار نفاقهم بوجوه أخر دالة على هتك أستارهم وكشف أسرارهم .

(137/338)

قال معتزلة البصرة : في الآية دلالة على أنه تعالى موصوف بصفة الكراهة كما أنه موصوف بصفة الإرادة . قالت الأشاعرة : معنى كره الله أنه أراد عدم ذلك الشيء . وزيف بأن العدم يا يصلح أن يكون متعلق الإرادة لأن العدم مستمر فتعلق الإرادة به يكون تحصيلاً للحاصل . ويمكن أن يجاب بأن الإرادة صفة تقتضي ترجيح أحد طرفي الممكن على الآخر سواء في ذلك طرف الوجود وطرف العدم ، وطرف العدم غير حاصل إلا بإرادة العدم فكيف يكون تعلق الإرادة به تحصيلاً للحاصل ؟ وأيضاً عدم الشيء المخصوص ليس عدماً محضاً . أما قوله ﴿ وقيل اقعدوا ﴾ فيحتمل أن يكون قد جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود ، ويحتمل أن يراد به قول الشيطان بطريق الوسوسة ، أو قول بعضهم لبعض لما أرادوا الاجتماع على التخلف ، أو هو قول الرسول كأنه غضب عليهم حين استأذنوه فقال على سبيل الزجر ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ فاغتنموا هذه اللفظة وقالوا قد أذن لنا فلهذا عوتب بقوله ﴿ لم أذنت لهم ﴾ أي لم ذكرت هذه اللفظة التي

أمكنهم أن يتوسلوا بها إلى تحصيل غرضهم . ومعنى قوله ﴿ مع القاعدين ﴾ ذم لهم وتعجيز وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم الجثوم في البيوت . ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ قال المفسرون : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أبي عسكره على ذي حدة – أسفل من ثنية الوداع – ولم يكن بأقل العسكرين ، فلما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب فأنزل الله يعزي نبيه ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ فيكون استثناء متصلاً من أعم العام ، وحمله على الاستثناء المنقطع بناء على أن التقدير ما زادوكم خيراً إلا خبالاً ضعيف . والخبال في اللغة الفساد ومنه المخبل للمعتوه ، وللمفسرين عبارات ؛ قال الكلبي : إلا شراً . وقال سلمان إلا مكراً . وقال الضحاك : إلا غدراً .

(138/338)

وقيل : إلا خبثاً . وقيل : هو الاضطراب في الرأي وذلك بتزيين أمر لقوم وتقبيحه لآخرين حتى يختلفوا وتتفرق كلمتهم . قالت المعتزلة : دلت الآية على أنه كره انبعاثهم لاشتماله على هذا الخبال والشر . وفيه دليل على أنه تعالى لا يريد إلا الخير والصلاح . ولقائل : أن

يقول إثبات حكم كلي بحكم جزئي غير معقول . واعلم أنه سبحانه عد من مفاسد خروجهم ثلاثة : الأول : قوله ﴿ ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ الثاني : ﴿ ولا أوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ قال في الكشاف : زيد ألف في الكتابة لأن الفتحة كانت تكتب ألفاً قبل الخط العربي والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع فكتبوا صورة الهمزة ألفاً أخرى ونحوه

(139/338)

﴿ أو لأذبحنه ﴾ [الآية : 21] في النمل ﴿ ولا أتوها ﴾ [الآية : 14] في الأحزاب ، ولا رابع لها في القرآن . وفي الإيضاع قولان لأهل اللغة ؛ فقال أكثرهم : هو متعد يقال : وضع البعير إذا عدا ، وأوضعه الراكب إذا حمله على العدو . وعلى هذا يكون في الآية حذف والتقدير : ولأوضعوا ركائبهم . وقال الأخفش وأبو عبيد : إنه جاء لازماً ويقال : أوضع الرجل إذا سار بنفسه سيراً حثيثاً . ومنه ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أفاض من عرفة وعليه السكينة وأوضع في وادي محسر أي أسرع . قال الواحدي : والآية تشهد للأخفش وأبي عبيد . وعلى القولين المراد في الآية السعي بين المسلمين بالتضريب والنميمة والمبالغة في الأول أكثر لأن الراكب أسرع من الماشي . ومعنى ﴿ خلالكم ﴾ أي فيما

بينكم . والخلل الفرجة فيما بين الشيئين . و ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ أي يبغون لكم . قال الأصمعي : يقال ابغني كذا وابغ لي أي اطلبه لأجلي . ومعنى الفتنة هنا افتراق الكلمة والتشويش في المقاصد فعند ذلك يحصل الانهزام أسرع ما يكون . فالحاصل من النوع الأول اختلاف الآراء ، ومن الثاني المشي بالنميمة لتسهيل ذلك الغرض . وأما النوع الثالث فذلك قوله ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ قال مجاهد وابن زيد : أي عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم . وقال قتادة : فيكم من يسمع كلامهم ويقبل قولهم وإذا تعاضد الفاعل والقابل وقع الأثر على أكمل الوجوه لا محالة . واعترض على هذا القول بأنه كيف يجوز ذلك على المؤمنين مع قوة دينهم ؟ وأجيب بأن ذلك إنما يقع لمن قرب عهده بالإسلام أو لمن جبل على الجبن والفشل أو لمن حسن ظنه ببعض المنافقين لقرابة أو هيبة ، وقلما يخلو الأقوياء من ضعيف سخيف أو أهل الحق من مبطل منافق ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم ونفاقهم وغيرهم بإلقاء الفتنة فيما بينهم .

(140/338)

ثم سلى نبيه بتوهين كيد أهل النفاق قديماً وحديثاً فقال ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ أي من قبل وقعة تبوك . قال ابن جريج : هو أن اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا على ثنية

الوداع ليلة العقبة ليفتكوا بالنبي صلى الله عليه وسلم . وقيل : المراد ما فعله عبد الله بن أبي يوم أحد حين انصرف عن النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه . ومعنى الفتنة السعي في تشتيت شمل المسلمين والاختلاف الموجب للفرقة بعد الألفة فسلمهم الله منه ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ حرفوها ودبروا كل الحيل والمكايد .

(141/338)

ومنه فلان حوّل قلب إذا كان دائراً حول مصايد المكايد ﴿ حتى جاء الحق ﴾ الذي هو القرآن ﴿ وظهر أمر الله ﴾ غلب دينه وشرعه ﴿ وهم كارهون ﴾ رد الله مكرهم في نحرهم وأتى بضد مقصودهم . ولما كان الأمر كذلك في الماضي فكذا يكون الحال في المستقبل لقوله ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ﴾ [التوبة : 32] ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ﴾ في القعود ﴿ ولا تفتني ﴾ ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي فإني إن تخلفت بغير إذنك أثمت . واحتمل أن يكون قد ذكره على سبيل السخرية أو على سبيل الجد بأن كان يغلب على ظن ذلك المنافق صدق محمد وإن كان غير جازم به بعد . وقيل : لا تفتني أي لا تلقني في التهلكة فإني إن خرجت معك هلك مالي وعيالي . وقيل : قال الجد بن قيس ؛ قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر يعني نساء الروم ، ولكني

أعينك بما لي فاتركني ، فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قد أذنت لك فنزلت الآية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبني سلمة – وكان الجد منهم – من سيدكم يا بني سلمة ؟ قالوا : جد بن قيس غير أنه بخيل جبان . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وأي داء أدوى من البخل ؟ بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد الشعر البراء ابن معرور . ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة النفاق والتمرد عن قبول التكليف المستتبع لشقاء الدارين ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أما في الدنيا فلإحاطة أسبابها بهم من النعي عليهم بالنفاق وإفشاء الأسرار وهتك الأستار وتحقير المقدار ، وأما في الآخرة فلمآل حالهم إلى الدرك الأسفل من النار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 469. 480 ﴾

(142/338)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43) ﴾

الاستفهام في : ﴿ عَفَا الله عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ للإنكار من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث وقع منه الإذن لما استأذنه في القعود قبل أن يتبين من هو صادق منهم

في عذره الذي أبداه ، ومن هو كاذب فيه .

وفي ذكر العفو عنه صلى الله عليه وسلم ما يدلّ على أن هذا الإذن الصادر منه كان خلاف الأولى ، وفي هذا عتاب لطيف من الله سبحانه .

وقيل : إن هذا عتاب له صلى الله عليه وسلم في إذنه للمنافقين بالخروج معه ، لا في إذنه لهم بالقعود عن الخروج .

والأوّل : أولى ، وقد رخص له سبحانه في سورة النور بقوله : ﴿ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62] ويمكن أن يجمع بين الآيتين بأن العتاب هنا متوجه إلى الإذن قبل الاستثبات حتى يتبين الصادق من الكاذب ، والإذن هنالك متوجه إلى الإذن بعد الإستثبات ، والله أعلم .

وقيل : إن قوله : ﴿ عَفَا الله عَنكَ ﴾ هي افتتاح كلام كما تقول : أصلحك الله ، وأعزّك ورحمك ، كيف فعلت كذا ، وكذا حكاه مكي والنحاس ، والمهدوي ، وعلى هذا التأويل يحسن الوقف على عفا الله عنك ، وعلى التأويل الأوّل : لا يحسن .

ولا يخفاك أن التفسير الأوّل هو المطابق لما يقتضيه اللفظ على حسب اللغة العربية ، ولا وجه لإخراجه عن معناه العربي .

وفي الآية دليل على جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم ، والمسألة مدوّنة في الأصول ، وفيها أيضاً دلالة على مشروعية الاحتراز عن العجلة ، والاغترار بظواهر الأمور ،

و"حتى" في ﴿ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ ﴾ للغاية ، كأنه قيل : لم سارعت إلى الإذن لهم ؛ وهلا تأنيت حتى يتبين لك صدق من هو صادق منهم في العذر الذي أبداه ، وكذب من هو كاذب منهم في ذلك ؟

(143/338)

ثم ذكر سبحانه أنه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القعود عن الجهاد ، بل كان من عادتهم أنه صلى الله عليه وسلم إذا أذن لواحد منهم بالقعود شق عليه ذلك .

فقال : ﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر أَن يجاهدوا ﴾ وهذا على أن معنى لآية أن لا يجاهدوا على حذف حرف النفي ؛ وقيل المعنى : لا يستأذنك المؤمنون في التخلف كراهة الجهاد ؛ وقيل : إن معنى الاستئذان في الشيء الكراهة له ، وأما على ما يقتضيه ظاهر اللفظ فالمعنى : لا يستأذنك المؤمنون في الجهاد ، بل دأبهم أن يبادروا إليه من غير توقف ولا ارتقاب منهم ، لوقوع الإذن منك فضلاً عن أن يستأذنوك في التخلف .

قال الزجاج : ﴿ أن يجاهدوا ﴾ في موضع نصب بإضمار في : أي في أن يجاهدوا : ﴿ والله عَلِيمٌ بالمتقين ﴾ وهم هؤلاء الذين لم يستأذنوا ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ في القعود عن

الجهاد ، والتخلف عنه : ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ وهم : المنافقون ، وذكر الإيمان بالله أوّلا ، ثم باليوم الآخر ثانياً في الموضعين ، لأنهما الباعثان على الجهاد في سبيل الله .

قوله : ﴿ وارتابت قُلُوبُهُمْ ﴾ عطف على قوله : ﴿ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وجاء بالماضي للدلالة على تحقق الريب في قلوبهم ، وهو : الشك .

قوله : ﴿ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ أي : في شكهم الذي حلّ بقلوبهم يتحيرون ، والتردّد : التحير .

والمعنى : فهؤلاء الذين يستأذنونك ليسوا بمؤمنين ، بل مرتابين حائرين لا يهتدون إلى طريق الصواب ، ولا يعرفون الحق .

(144/338)

قوله : ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لاعَدُّواْ لَهُمْ عِدَّةً ﴾ أي : لو كانوا صادقين فيما يدّعونه ويخبرونك به من أنهم يريدون الجهاد معك ، ولكن لم يكن معهم من العدّة للجهاد ما يحتاج إليه ، لما تركوا إعداد العدّة وتحصيلها قبل وقت الجهاد ، كما يستعدّ لذلك المؤمنون ، فمعنى هذا الكلام : أنهم لم يريدوا الخروج أصلاً ولا استعدّوا للغزو .

والعدّة ما يحتاج إليه المجاهد من الزاد والراحلة والسلاح.

قوله: ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ أي: ولكن كره الله خروجهم، فتثبطوا عن الخروج، فيكون المعنى: ما خرجوا ولكن تثبطوا، لأن كراهة الله انبعاثهم تستلزم تثبطهم عن الخروج، والانبعاث: الخروج، أي حبسهم الله عن الخروج معك وخذلهم، لأنهم قالوا: إن لم يؤذن لنا في الجلوس، أفسدنا وحرّضنا على المؤمنين.

وقيل: المعنى: لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة، ولكن ما أرادوه لكراهة الله له قوله: ﴿ وَقِيلَ اقعدوا مَعَ القاعدين ﴾ قيل: القائل لهم هو الشيطان بما يلقيه إليهم من الوسوسة، وقيل: قاله بعضهم لبعض.

وقيل: قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباً عليهم.

وقيل: هو عبارة عن الخذلان، أي أوقع الله في قلوبهم القعود خذلاناً لهم.

ومعنى: ﴿ مَعَ القاعدين ﴾ أي: مع أولي الضرر من العميان، والمرضى، والنساء، والصبيان، وفيه من الذمّ لهم والإزراء عليهم والتنقص بهم ما لا يخفى.

قوله: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ هذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين عن تخلف المنافقين، والخبال: الفساد والنميمة، وإيقاع الاختلاف والأراجيف.

قيل: هذا الاستثناء منقطع، أي ما زادوكم قوّة، ولكن طلبوا الخبال.

وقيل المعنى : لا يزيدونكم فيما تردّدون فيه من الرأي إلا خبالاً فيكون متصلاً .

وقيل : هو استثناء من أعمّ العام : أي ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً .

(145/338)

فيكون الاستثناء من قسم المتصل ؛ لأن الخبال من جملة ما يصدق عليه الشيء .

قوله : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ الإيضاع : سرعة السير ، ومنه قوله ورقة بن نوفل :

يا ليتني فيها جذع . . . أخبّ فيها وأضع

يقال : أوضع البعير : إذا أسرع السير .

وقيل : الإيضاع : سير الخبب ، والخلل : الفرجة بين الشيئين ، والجمع الخلال : أي الفرج التي تكون بين الصفوف .

والمعنى : لسعوا بينكم بالإفساد بما يختلقونه من الأكاذيب المشتملة على الإرجاف والنمائم الموجبة لفساد ذات البين .

قوله : ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ يقال : بغيته كذا : طلبته له ، وأبغيته كذا : أعنته على طلبه .

والمعنى : يطلبون لكم الفتنة في ذات بينكم بما يصنعونه من التحريش والإفساد .

وقيل : الفتنة هنا الشرك .

وجملة : ﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ في محل نصب على الحال ، أي والحال أنّ فيكم من يستمع ما يقولونه من الكذب ، فينقله إليكم فيتأثر من ذلك الاختلاف بينكم ، والفساد لإخوانكم ﴿ والله عَلِيمٌ بالظالمين ﴾ وبما يحدث منهم لو خرجوا معكم ، لذلك اقتضت حكمته البالغة أن لا يخرجوا معكم ، وكره انبعاثهم معكم ، ولا ينافي حالهم هذا لو خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما تقدّم من عتابه على الإذن لهم في التخلف ؛ لأنه سارع إلى الإذن لهم ، ولم يكن قد علم من أحوالهم لو خرجوا أنهم يفعلون هذه الأفاعيل ، فعوتب صلى الله عليه وسلم على تسرّعه إلى الإذن لهم قبل أن يتبين له الصادق منهم في عذره من الكاذب ، ولهذا قال الله سبحانه فيما يأتي في هذه السورة : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 83] الآية ، وقال في سورة الفتح : ﴿ سَيَقُولُ المخلفون إِذَا انطلقتم إلى مَغَانِمَ ﴾ إلى قوله : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] .

(146/338)

قوله : ﴿ لَقَدِ ابتغوا الفتنة مِن قَبْلُ ﴾ أي : لقد طلبوا الإفساد والخبال وتفريق كلمة المؤمنين وتشتيت شملهم من قبل هذه الغزوة التي تخلفوا عنك فيها .

كما وقع من عبد الله بن أبيّ وغيره ﴿ ويأبى الله إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ .

قوله : ﴿ وَقَلَّبُواْ لَكَ الأمور ﴾ أي : صرّفوها من أمر إلى أمر ، ودبروا لك الحيل والمكائد ، ومنه قول العرب حوّل قلب إذا كان دائراً حول المكائد والحيل ، يدير الرأي فيها ويتدبره .

وقرىء "وقلبوا" بالتخفيف ﴿ حتى جَاء الحق ﴾ أي : إلى غاية هي مجيء الحق ، وهو النصر لك والتأييد ﴿ وَظَهَرَ أَمْرُ الله ﴾ بإعزاز دينه ، وإعلاء شرعه ، وقهر أعدائه .

وقيل : الحق : القرآن ﴿ وَهُمْ كارهون ﴾ أي : والحال أنهم كارهون لمجيء الحق وظهور أمر الله ، ولكن كان ذلك على رغم منهم ﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ أي : من المنافقين ﴿ مَن يقُولُ ﴾ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ائذن لّي ﴾ في التخلف عن الجهاد ﴿ وَلاَ تَفْتِنّى ﴾ أي : لا توقعني في الفتنة ، أي الإثم ، إذا لم تأذن لي فتخلفت بغير إذنك ؛ وقيل : معناه : لا توقعني في الهلكة بالخروج ﴿ أَلا فِى الفتنة سَقَطُواْ ﴾ أي : في نفس الفتنة سقطوا ، وهي : فتنة التخلف عن الجهاد ، والاعتذار الباطل .

والمعنى : أنهم ظنوا أنهم بالخروج أو بترك الإذن لهم يقعون في الفتنة ، وهم بهذا التخلف سقطوا في الفتنة العظيمة .

وفي التعبير بالسقوط ما يشعر بأنهم وقعوا فيها وقوع من يهوى من أعلى إلى أسفل ، وذلك

أشدّ من مجرّد الدخول في الفتنة ، ثم توعدهم على ذلك فقال : ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ أي : مشتملة عليهم من جميع الجوانب لا يجدون عنها مخلصاً ، ولا يتمكنون من الخروج منها بحال من الأحوال .

(147/338)

وقد أخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن جرير عن عمرو بن ميمون ، قال : اثنتان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأسارى ، فأنزل الله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن عون بن عبد الله ، قال : ما سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا ؟ بدأ بالعفو قبل المعاتبة .

فقال : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ ﴾ الآية قال : ناس قالوا استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أذن لكم ، فاقعدوا .

وإن لم يأذن لكم ، فاقعدوا .

وأخرج النحاس في ناسخه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ الثلاث الآيات ، قال : نسخها : ﴿ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62] .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والنحاس في ناسخه ، عنه ، في قوله : ﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ الآية قال : هذا تعيير للمنافقين حين استأذنوا في القعود عن الجهاد بغير عذر ، وعذر الله المؤمنين فقال : ﴿ فَإِذَا استأذنوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ ﴾ [النور : 62] .

وأخرج أبو عبيد ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عنه ، أيضاً في قوله : ﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ ﴾ الآيتين قال : نسختها الآية التي في سورة النور : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ إلى ﴿ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : 62] .

فجعل الله النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى النظرين في ذلك ، من غزا غزا في فضيلة ، ومن قعد قعد في غير حرج إن شاء الله .

(148/338)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ ولكن كَرِهَ الله انبعاثهم ﴾ قال : خروجهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ قال : حبسهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ قال : هؤلاء المنافقون في غزوة تبوك .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ ولأَوْضَعُواْ خلالكم ﴾ قال : لأسرعوا بينكم .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ ولأَوْضَعُوا خلالكم ﴾ قال : لأرفضوا ﴿ يَبْغُونَكُمُ الفتنة ﴾ يبطئونكم : عبد الله بن نبتل ، وعبد الله بن أبيّ ابن سلول ، ورفاعة بن تابوت ، وأوس بن قيظي ﴿ وَفِيكُمْ سماعون لَهُمْ ﴾ محدّثون لهم بأحاديثكم غير منافقين ، وهم عيون للمنافقين .

وأخرج ابن المنذر ، والطبراني ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن ابن عباس ، قال : لما أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى غزوة تبوك ، قال لجدّ بن قيس : " يا جدّ بن قيس ، ما تقول في مجاهدة بني الأصفر ؟ " فقال : يا رسول الله ، إني امرؤ صاحب نساء ، ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن ، فأذن لي ولا تفتني ، فأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لّي ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، نحوه .

وأخرج ابن مردويه ، عن عائشة ، نحوه أيضاً .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ قال : لا تخرجني ﴿ أَلَا فِى الفتنة سَقَطُواْ ﴾ يعني : في الخروج .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ قال : لا تؤثمني ﴿ أَلَا فِى الفتنة ﴾ قال : ألا في الإثم ، وقصة تبوك مذكورة في كتب الحديث والسير فلا نطول بذكرها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(149/338)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : أيها الأرواح والقلوب المؤمنة ما مصيبتكم وبلواكم إذ قيل لكم بالإلهام الرباني اخرجوا من الدنيا وما فيها في طلب والسير إليه ، أثاقلتم إلى أرض الدنيا وشهواتها . ﴿ إلا تنفروا ﴾ من سجن الدنيا وقيود شهواتها ﴿ يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ باستيلاء ظلمات الصفات النفسانية وغلبات الأوصاف السبعية والشيطانية وبألم البعد عن الحضرة

الربانية ﴿ ويستبدل قوماً غيركم ﴾ من الأرواح والقلوب العاشقة الصادقة بل من العقول الكاملة المفارقة ﴿ إلا تنصروه ﴾ والرسول الوارد الرباني ﴿ فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ﴾ أي النفوس الأمارة الكافرة من أرض القبول . ﴿ ثاني اثنين ﴾ ثاني النفس الملهمة ﴿ إذ هما في ﴾ غار العدم . ﴿ وكلمة الله هي العليا ﴾ بجعل النفس المطمئنة بجذبة ﴿ ارجعي ﴾ ﴿ الفجر : 28] واصلة إلى مقام العنديه ﴿ انفروا ﴾ أيها الطلاب ﴿ خفافاً ﴾ مجردين من علائق الأهل والأولاد والأموال ﴿ وثقالاً ﴾ متلبسين بها ، أو ﴿ خفافاً ﴾ مجذوبين بالعناية ﴿ وثقالاً ﴾ سالكين بالهداية ﴿ وجاهدوا ﴾ بقدمي بذل الأموال والأنفس . وقدّم إنفاق المال لأن بذل النفس مع بقاء صفاتها الذميمة غير معتبر ، ومن صفاتها الذميمة الحرص على الدنيا والبخل بها ذلكم خير لكم لأن الحصل من المال ومن النفس الوزر والوبال .

(150/338)

والحاصل من الطلب الوصول والوصال ﴿ لو كان ﴾ مطلوبك يا محمد ﴿ عرضاً قريباً ﴾ هو الدنيا ونعيمها ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ هو تتبع شهوات النفس وهواها ﴿ لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ لأنها الخروج من الدنيا والعقبى . ﴿ وسيحلفون ﴾ يعني

أرباب النفوس ﴿ لخرجنا معكم ﴾ يا أهل القلوب . ﴿ عفا الله عنك ﴾ قدم العفو على العتاب تحقيقاً لقوله ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ ﴿ الفتح : 2] ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ بين أوصافهم الذميمة النفسانية والحيوانية بلا داعية لخروج إلى الأنوار الروحانية ﴿ لأعدوا له عدة ﴾ وهي متابعة الأنبياء ﴿ فثبطهم ﴾ حبسهم في سجن البشرية ﴿ ما زادوكم إلاَّ خبالاً ﴾ فيه إشارة إلى أن قعود أهل الطبيعة في حبس البشرية صلاح لأرباب القلوب وأصحاب السلوك لأنهم لو خرجوا لا عن نية صادقة وعزيمة صالحة ما زادوهم إلا تشويشاً وتفرقة لأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم . ﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل ﴾ يعني أن صفات النفس قبل البلوغ كانت تستخدم الروح في شهواتها ﴿ حتى جاء الحق ﴾ وهو العقل القابل لأوامر الشرع ﴿ وظهر أمر الله ﴾ وهو التكليف ﴿ ومنهم ﴾ أي من صفات النفس ﴿ من يقول ﴾ وهو الهوى ﴿ ائذن لي ﴾ في القعود عن الارتقاء في مدارج المعارف والمشارع ﴿ ولا تفتني ﴾ يا روح بتكليفي ما ليس من شأني . وذلك أن الهوى مركب المحبة تستعمله الروح في تصاعده إلى ذروة الكمال والوصال . ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي إن فتنة الهبوط هي الفتنة بالحقيقة ﴿ وإن جهنم ﴾ البعد والقطيعة من لوازم كفار النفس وصفاتها أعاذنا الله منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 480 . 481 ﴾

(151/338)

قوله تعالى ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كأنه قيل : ما الفتنة التي سقطوا فيها فأحاطت بهم جهنم بسببها ؟ قيل :

﴿ إن ﴾ أي هي كونهم أن ، ويجوز أن يكون علة لإحاطة جهنم بهم ، وكأنهم – لأجل أنهم من الأوس والخزرج فالأنصار أقاربهم – خصوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالعدواة وشديد الحنق ، وكذا ايضاً كان لا يسوءهم ويسرهم من الحسنة والسيئة إلا ما له وقع – بما أذن به التعبير بالإصابة دون المس – لا ما دونه ، حفظاً لقلوب أقاربهم ورعياً لأسرار نسائهم ، فقال إشارة إلى ذلك : ﴿ تصبك ﴾ أي بتقدير الله ذلك ﴿ حسنة ﴾ أي بنصر أو غيره ﴿ تسؤهم ﴾ أي لما في قلوبهم من الضغن والمرض ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ أي نكبة وإن صغرت كما وقع يوم أحد ﴿ يقولوا ﴾ أي سروراً وتبجحاً بحسن آرائهم ﴿ قد أخذنا أمرنا ﴾ أي عصينا الذي أمرنا ولم نسلم قيادنا لأحد فنكون كالأعمه ، لأن الأمر الحادثة وضد النهي ، ومنه الأمير ، رجل إمرّ وإمرة – بتشديد الميم المفتوحة مع كسر الهمزة وتفتح : ضعف الرأي ، يوافق كل أحد على ما يريد من أمره كله ، وهو الأعمه وزناً

ومعنى ﴿ من قبل ﴾ أي قبل أن تكون هذه المصيبة ، فلم نكن مؤتمرين بأمر فيصيبنا فلم يكن ما أصاب من تبعه ، فكان أمرهم – لو كانوا مطيعين – كان شيئاً متحققاً بيد الآمر ، فلما عصوه كانوا كأنهم قد أخذوه منه .

ولما كان قولهم هذه بعيداً عن الاستقامة ، فكان جديراً بأن لا يقال ، وإن قيل كان حقيقاً بأن يستقال بالمباراة إلى الرجوع عنه والاستغفار منه ، أشار تعالى إلى تماديهم فيه فقال : ﴿ ويتولوا ﴾ أي عن مقامهم هذا الذي قالوا فيه ذلك وإن طال إلى أهاليهم ﴿ وهم فرحون ﴾ أي لمصيبتكم لكفرهم ولخلاصهم منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 331 ﴾

(152/338)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ هل تربّصون ﴾ بإظهار اللام وتشديد التاء : البزي وابن فليح ، وقرأه حمزة وعلي وهشام مدغماً حتى لا يجتمع ساكنان . الباقون : بإظهار اللام وتخفيف التاء ﴿ أن تقبل ﴾ بالياء التحتانية : حمزة وعلي وخلف . الباقون : بالفوقانية ﴿ مدخلاً ﴾ بضم

الميم وسكون الدال : سهل ويعقوب . الباقون : بالدال المشددة المتفوحة . ﴿ يلمزك ﴾ بضم الميم : سهل ويعقوب . الآخرون : بكسرها سوى عباس فإنه مخير .

الوقوف : ﴿ تسؤهم ﴾ ج لابتداء شرط آخر مع واو العطف ﴿ فرحون ﴾ ه ﴿ لنا ﴾ ج للابتداء لفظاً مع الاتحاد معنى ﴿ هو مولانا ﴾ ط لابتداء إخبار من الله أو الحكاية عنهم . ﴿ المؤمنون ﴾ ه ﴿ الحسنيين ﴾ ط للاستئناف بعد تمام الاستفهام ﴿ بأيدينا ﴾ ط والوصل أصح لأن الفاء جواب ﴿ نتربص ﴾ ﴿ متربصون ﴾ ه ﴿ منكم ﴾ ط . ﴿ فاسقين ﴾ ه ﴿ كارهون ﴾ ه ﴿ ولا أولادهم ﴾ ط ﴿ كافرون ﴾ ه ﴿ لمنكم ﴾ ط ﴿ يفرقون ﴾ ه ﴿ يجمحون ﴾ ه ﴿ في الصدقات ﴾ ط للشرط مع الفاء ﴿ يسخطون ﴾ ه ﴿ ورسوله ﴾ لا إلى قوله ﴿ راغبون ﴾ لأن الكل يتعلق ب "لو" وجواب "لو" بعد التمام محذوف أي لكان خيراً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 481.482 ﴾

(153/338)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من كيد المنافقين ومن خبث بواطنهم ، والمعنى : إن تصبك في بعض الغزوات حسنة سواء كان ظفراً ، أو كان غنيمة ، أو كان انقياداً لبعض ملوك الأطراف ، يسؤهم ذلك ، وإن تصبك مصيبة من نكبة وشدة ومصيبة ومكروه يفرحوا به ، ويقولوا قد أخذنا أمرنا الذي نحن مشهورون به ، وهو الحذر والتيقظ والعمل بالحزم ، من قبل أي قبل ما وقع وتولوا عن مقام التحدث بذلك ، والاجتماع له إلى أهاليهم ، وهم فرحون مسرورون ، ونقل عن ابن عباس أن الحسنة في يوم بدر ، والمصيبة في يوم أحد ، فإن ثبت بخبر أن هذا هو المراد وجب المصير إليه ، وإلا فالواجب حمله على كل حسنة ، وعلى كل مصيبة ، إذ المعلوم من حال المنافقين أنهم في كل حسنة وعند كل مصيبة بالوصف الذي ذكره الله ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 68 ﴾

(154/338)

وقال السمرقندى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

يعني : إن أصابك الغنيمة والنصر ساءهم ذلك .

﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ ﴾ ، يعني : الشدة والنكبة الهزيمة .

﴿ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ ، يعني : حذرنا بالقعود والتخلف من قبل المصيبة .

﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما أصابك وبتخلفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

يعني بالحسنة النصر .

﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي أخذنا حذرنا فسلمنا .

﴿ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أي بمصيبتك وسلامتهم .

قال الكلبي : عنى بالحسنة النصر يوم بدر ، وبالمصيبة النكبة يوم أحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ إن تصبك حسنة ﴾ الآية

أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه ، و" الحسنة " هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر ، و" المصيبة " الهزم والخيبة ، واللفظ عام بعد ذلك في كل محبوب ومكروه ، ومعنى

قوله : ﴿ قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ ، أي حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(155/338)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾

أي : نصر وغنيمة .

والمصيبة : القتل والهزيمة .

﴿ يقولوا قد أخذنا أمرنا ﴾ أي : عَمِلنا بالحزم فلم نخرج .

﴿ ويتوَلَّوْا وهم فرحون ﴾ بمصابك وسلامتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

شرط ومجازاة ؛ وكذا ﴿ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ ﴾

عطف عليه .

والحسنة : الغنيمة والظفر .

والمصيبة الانهزام .

ومعنى قولهم : "أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ" أي احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم فلم نخرج إلى القتال .

"وَيَتَوَلَّوْا" أي عن الإيمان .

﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ أي معجبون بذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾

يعني إن تصبك يا محمد حسنة من نصر وغنيمة تحزن المنافقين ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ يعني من هزيمة أو شدة ﴿ يقولوا ﴾ يعني المنافقين ﴿ قد أخذنا أمرنا ﴾ يعني أخذنا أمرنا بالجد والحزم في القعود عن الغزو ﴿ من قبل ﴾ يعني من قبل هذه المصيبة ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ يعني مسرورين لما نالك من المعصية وسلامتهم منها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾

قال ابن عباس : الحسنة في يوم بدر ، والمصيبة يوم أحد .

وينبغي أن يحمل قوله على التمثيل ، واللفظ عام في كل محبوب ومكروه ، وسياق الحمل يقتضي أن يكون ذلك في الغزو ، ولذلك قالوا : الحسنة الظفر والغنيمة ، والمصيبة الخيبة والهزيمة ، مثل ما جرى في أول غزوة أحد .

ومعنى أمرنا الذي نحن متسمون به من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم في التخلف عن الغزو ، من قبل ما وقع من المصيبة .

ويحتمل أن يكون التولي حقيقة أي : ويتولوا عن مقام التحديث بذلك ، والاجتماع له إلى أهليهم وهم مسرورون .

وقيل : أعرضوا عن الإيمان .

وقيل : عن الرسول ، فيكون التولي مجازاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(157/338)

وقال أبو السعود :

﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾

في بعض مغازيك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ من الظَفَر والغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ تلك الحسنةُ أي الحسنةُ أي تورِثُهم مساءةً لفرط حسَدِهم وعداوتهم لك ﴿ وَإِن تُصِبْكَ ﴾ في بعضها ﴿ مُّصِيبَةٌ ﴾ من نوع شدة ﴿ يَقُولُواْ ﴾ متبجّحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ أي تلافَيْنا ما يُهمّنا من الأمر ، يعنون به الاعتزالَ عن المسلمين والقعودَ عن الحرب والمداراةَ مع الكفرة وغيرَ ذلك من أمور الكفر والنفاقِ قولاً وفعلاً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبلِ إصابةِ المصيبة في وقت تداركه ، يشيرون بذلك إلى أن المعاملةَ المذكورةَ إنما تروّج عند الكفرةِ بوقوعها حالَ قوةِ الإسلامِ لا بعد إصابةِ المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّواْ ﴾ عن مجلس الاجتماعِ والتحدثِ إلى أهاليهم أو يُعرِضوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما صنعوا من أخذ الأمرِ وبما أصابه عليه الصلاة والسلام ، والجملة حالٌ من الضمير في (يقولوا) و (يتولوا) لا في الأخير فقط ، لمقارنة الفرَحِ لهما معاً ، وإيثارُ الجملةِ الاسمية للدِلالة على دوام السرورِ ، وإسنادُ المَساءة إلى الحسنة والمَسرّةَ إلى أنفسهم دون المصيبة بأن يقال : وإن تُصِبْك مصيبةٌ تَسْرُرْهم للإيذان باختلاف حاليهم حالتي عروضِ المَساءة والمسرةِ بأنهم في الأولى مضطرون وفي الثانية مختارون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ

﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

﴿ إِن تُصِبْكَ ﴾ في بعض مغازيك ﴿ حَسَنَةٌ ﴾ من الظفر والغنيمة ﴿ تَسُؤْهُمْ ﴾ تلك الحسنة أي تورثهم مساءة وحزناً لفرط حسدهم لعنهم الله تعالى وعداوتهم ﴿ وَإِن تُصِبْكَ ﴾ في بعضها ﴿ مُّصِيبَةٍ ﴾ كانكسار جيش وشدة ﴿ يَقُولُواْ ﴾ متبجحين بما صنعوا حامدين لآرائهم ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا ﴾ أي تلافينا ما يهمنا من الأمير يعنون به التخلف والقعود عن الحرب والمداراة مع الكفرة وغير ذلك من أمو الكفر والنفاق قولاً وفعلاً ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل إصابة المصيبة حيث ينفع التدارك ، يشيرون بذلك إلى أن نحو ما صنعوه إنما يروج عند الكفرة بوقوعه حال قوة الإسلام لا بعد إصابة المصيبة ﴿ وَيَتَوَلَّواْ ﴾ أي وينصرفوا عن متحدثهم ومحل اجتماعهم إلى أهليهم وخاصتهم أو يتفرقوا وينصرفوا عنك يا رسول الله ﴿ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ بما صنعوا وبما أصابك من السيئة ، والجملة في موضع الحال من الضمير في ﴿ يَقُولُواْ وَيَتَوَلَّواْ ﴾ فإن الفرح مقارن للأمرين معاً ، وإيثار الجملة الاسمية للدلالة على دوام السرور ، وإنما لم يؤت بالشرطية الثانية على طرز

الأولى بأن يقال : وإن تصبك مصيبة تسرهم بل أقيم ما يدل على ذلك مقامه مبالغة في فرط سرورهم مع الايذان بأنهم في معزل عن إدراك سوء صنيعهم لاقتضاء المقام ذلك ، وقل : إن إسناد المساءة إلى الحسنة والمسرة إلى أنفسهم للايذان باختلاف حالهم حالتي عروض المساءة والمسرة بأنهم في الأولى مضطرون وفي الثانية مختارون ، وقوبل هنا الحسنة بالمصيبة ولم تقابل بالسيئة كما قال سبحانه في سورة آل عمران : ﴿ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران : 120] لأن الخطاب هنا للنبي صلى الله عليه وسلم وهو هناك للمؤمنين وفرق بين المخاطبين فإن الشدة لا تزيده صلى الله عليه وسلم إلا ثواباً فإنه المعصوم في جميع أحواله عليه الصلاة والسلام ، وتقييد الإصابة في بعض الغزوات لدلالة السياق عليه ، وليس

(159/338)

المراد به بعضاً معيناً هو هذه الغزوة التي استأذنوا في التخلف عنها وهو ظاهر .

نعم سبب النزول يوهم ذلك ، فقد أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا في المدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء يقولون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب

حديثهم وعافية النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه فأنزل الله تعالى الآية فتأمل . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 10 صـ ﴾

(160/338)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾

تنزل هذه الجملة منزلة البيان لجملة ﴿ إنما يستئذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : 45] ، وما بين الجملتين استدلال على كذبهم في ما اعتذروا به وأظهروا الاستيذان لأجله ، وبُيِّن هنا أن تردّدهم هو أنّهم يخشون ظهور أمر المسلمين ، فلذلك لا يصارحونهم بالإعراض ويودّون خيبة المؤمنين ، فلذلك لا يحبّون الخروج معهم .

والحسنة : الحَادثة التي تحسُن لمن حلَّت به واعترته .

والمراد بها هنا النصر والغنيمة .

والمصيبة مشتقّة من أصاب بمعنى حَلَّ ونال وصادف ، وخصت المصيبة في اللغة بالحادثة التي تعتري الإنسان فتسُوءه وتُحزنه .

ولذلك عبّر عنها بالسيئة في قوله تعالى ، في سورة آل عمران (120) : ﴿ إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ﴾ والمراد بها الهزيمة في الموضعين ، وقد تقدّم ذلك في قوله تعالى : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة ﴾ في سورة الأعراف (95) .

وقولهم : قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ ابتهاج منهم بمصادفة أعمالهم ما فيه سلامتهم فيزعمون أنّ يقظَتهم وحزمهم قد صادفا المحَز ، إذ احتاطوا له قبل الوقوع في الضرّ .

والأخذُ حقيقته التناول ، وهو هنا مستعار للاستعداد والتلافي .

والأمر الحال المهمّ صاحبه ، أي : قد استعددنا لما يهمّنا فلم نقع في المصِيبة .

والتولّي حقيقته الرجوع ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ﴾ في سورة البقرة (205) .

وهو هنا تمثيل لحالهم في تخلّصهم من المصيبة ، التي قد كانت تحل بهم لو خرجوا مع المسلمين ، بحال من أشرفوا على خطر ثم سلموا منه ورجعوا فارحين مسرورين بسلامتهم وبإصابة أعدائهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(161/338)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) ﴾

وما يزال الحديث عن المنافقين ، فبعد أن بيَّن الحق سبحانه وتعالى كيف حاول المنافقون الهروب من الحرب لأسباب وأعذار مختلقة ، أراد سبحانه وتعالى أن يزيد الصورة توضيحياً في إظهار الكراهية التي تخفيها قلوب المنافقين بالنسبة للمؤمنين . وهنا يقول سبحانه :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾ والمقصود بالحسنة هنا هيك الانتصار في الحرب ، والنصر في الحرب هو من وجهة نظر المنافقين ينحصر في حصول المؤمنين على الغنائم ، وهذه مسألة تسوء المنافقين وتحزنهم ؛ لأن الهمّ الأول للمنافقين هو الدنيا ، وهم يريدون الحصول على أكبر نصيب منها . وبما أنهم لم يخرجوا للجهاد والتمسوا الأعذار غير الصحيحة للهروب من الحرب ؛ لذلك فهم يحزنون إذا انتصر المؤمنون ؛ لأنهم حينئذ لن يكون لهم حق في الغنائم . وفي هذه الحالة يقولون : يا ليتنا كنا معهم ؛ إذن لأصبْنَا الغنائم وأخذنا منها .

أما إذا كانت الدائرة قد دارت على المسلمين وهُزِموا في الحرب ؛ فهذه سيئة بالنسبة لكل مؤمن ، ولكن المنافقون يعتبرون الهزيمة لأهل الإيمان حسنة ، وسيقولون لأنفسهم : لقد كنا أكثر رجاحةً في الفكر واحتطْنا للأمر ، ولم نخرج معهم ولذلك نجونا مما أصابهم . والمصيبة

في الحرب تكون في : الأرواح ، والرجال والمال ، والعتاد بالإضافة إلى مرارة الهزيمة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

(162/338)

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴾ وكأنهم قد احتاطوا قبل أن يبدأ القتال فلم يخرجوا ، وهم كمنافقين يمكن أن يفرحوا ؟إنْ أصابت المسلمين كارثة أو مصيبة ، وهي هنا الهزيمة في الحرب . وسيقولون : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : قاموا بالاحتياط فلم يخرجوا للقتال ، بينما لم يحتَطْ محمد وصَحْبُه وجيشه . ثم يديرون ظهورهم ليُخْفُوا فرحتهم .

وحين يقول الحق : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يوضح لنا أن أي نصر للإيمان يحزن المنافقين في نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تُحزنهم الحسنة التي ينالها المنافقين في نفوسهم ، ويصير هذا القول قرآناً يُتلى ويُتعبد به ويسمعونه بآذانهم ، بالله لو لم تُحزنهم الحسنة التي ينالها المؤمنون ، ألم يكن ذلك دافعاً لأن يقولوا : نحن لم نفرح ولم نحزن ؟

بالله حين يفاجئهم القرآن بالكشف عن خبايا نفوسهم بالقرآن ؛ ألم يكن ذلك داعياً

لهدايتهم ؟

لقد عرف محمد صلى الله عليه وسلم الغيب الذي في قلوبهم وفضح ضمائرهم وسرائرهم بعد أن أطلعه الحق على ذلك . ومع هذا أضمروا النفاق في قلوبهم وانتظروا مَسَاءةً تحل بمحمد صلى الله عليه وسلم وصحبه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(163/338)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء يقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبي وأصحابه ، فساءهم ذلك ، فأنزل الله تعالى ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ الآية .

وأخرج سنيد وابن جرير عن ابن عباس ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ يقول : إن

تصبك في سفرك هذا لغزوة تبوك ﴿ حسنة تسؤهم ﴾ قال : الجد وأصحابه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ قال : العافية والرخاء والغنيمة ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ قال : البلاء والشدة ﴿ يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ قد حذرنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ قال : ان أظفرك الله وردك سالماً ساءهم ذلك ﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا ﴾ في القعود من قبل أن تصيبهم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ قال : إن كان فتح للمسلمين كبر ذلك عليهم وساءهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(164/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ

فَرِحُونَ (50) ﴾

هكذا صفة الحسود ، يتصاعد أنينُ قلبه عند شهود الحسنى ، ولا يَسُرُّ قلبَه غيرُ حلولِ البلوى ، ولا دواءَ لجروح الحسود ؛ فإنه لا يرضى بغير زوال النعمة ولذا قالوا :

كلُّ العداوةِ قد تُرْجَى إماتَتُها . . . إلا عداوةَ مَنْ عاداك من حَسَدِ

وإنَ اللهَ تعالى عَجَّلَ عقوبةَ الحاسد ، وذلك : حزنُ قلبه بسلامة محسوده ؛ فالنعمة للمحسود نقد والوحشة للحاسد نقد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 33 ﴾

(165/338)

قوله تعالى ﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان قولهم هذا متضمناً لتوهم القدرة على الاحتراس من القدر ، قال تعالى معلماً بجوابهم مخاطباً للرأس لعلو المقام : ﴿ قل ﴾ أي إنا نحن لا نقول مقالتكم لمعرفتنا بأنا لا نملك

ضراً ولا نفعاً ، بل نقول : ﴿ لن يصيبنا ﴾ أي من الخير والشر ﴿ إلا ما كتب ﴾ أي قدر ﴿ الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ، ولما كان قضاء الله كله خيراً للمؤمن إن أصابته سراء شكر وإن أصابته ضراء صبر ، عبر باللام فقال : ﴿ لنا ﴾ أي لا يقدر على رده عنا إلا هو سبحانه ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ مولانا ﴾ أي القريب منا الذي يلي جميع أمورنا ، لا قريب منا سواه ، فلو أراد لدفع عنا كل مصيبة لأنه أقرب إلينا منها ، لا تصل إلينا بدون علمه وهو قادر ، فنحن نعلم أن له في ذلك لطيف سريرة تتضاءل دونها ثواقب الأفكار وتخسأ عن الإحاطة بتحقيقها نوافذ الأبصار فنحن لا نتهمه في قضائه لأنا قد توكلنا عليه وفوضنا أمورنا إليه ، والموكل لا يتهم الوكيل ﴿ وعلى الله ﴾ أي الملك الأعلى لا غيره ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ أي كلهم توكلاً عظيماً جازماً لا معدل عنه ، فالفيصل بين المؤمن والكافر هو إسلام النفس إليه وحده بلا اعتراض عليه يقلبها كيف يشاء ويحكم فيها بما يريد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 331.332 ﴾

(166/338)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ وفيه أقوال :

القول الأول : أن المعنى أنه لن يصيبنا خير ولا شر ، ولا خوف ولا رجاء ، ولا شدة ولا رخاء ، إلا وهو مقدر علينا مكتوب عند الله ، وكونه مكتوباً عند الله يدل على كونه معلوماً عند الله مقضياً به عند الله ، فإن ما سواه ممكن ، والممكن لا يترجح إلا بترجيح الواجب ، والممكنات بأسرها منتهية إلى قضائه وقدره .

واعلم أن أصحابنا يتمسكون بهذه الآية في أن قضاء الله شامل لكل المحدثات وأن تغير الشيء عما قضى الله به محال ، وتقرير هذا الكلام من وجوه : أحدها : أن الموجود إما واجب وإما ممكن ، والممكن يمتنع أن يترجح أحد طرفيه على الآخر لنفسه ، فوجب انتهاؤه إلى ترجيح الواجب لذاته ، وما سواه فواجب بإيجاده وتأثيره وتكوينه .

ولهذا المعنى قال النبي عليه السلام : " جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة " وثانيها : أن الله تعالى لما كتب جميع الأحوال في اللوح المحفوظ فقد علمها وحكم بها ، فلو وقع الأمر بخلافها لزم انقلاب العلم جهلاً والحكم الصدق كذباً ، وكل ذلك محال ، وقد أطنبنا في شرح هذه المناظرة في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ سَوَاء عَلَيْهِمْ ءأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] .

فإن قيل : إنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام تسلية للرسول في فرحهم بحزنه ومكارهه فأي تعلق لهذا المذهب بذلك ؟

قلنا : السبب فيه قوله صلى الله عليه وسلم : " من علم سر الله في القدر هانت عليه المصائب " فإنه إذا علم الإنسان أن الذي وقع امتنع أن لا يقع ، زالت المنازعة عن النفس وحصل الرضا به .

(167/338)

القول الثاني : في تفسير هذه الآية أن يكون المعنى ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ أي في عاقبة أمرنا من الظفر بالعدو والاستيلاء عليهم ، والمقصود أن يظهر للمنافقين أن أحوال الرسول والمسلمين وإن كانت مختلفة في السرور والغم ، إلا أن في العاقبة الدولة لهم والفتح والنصر والظفر من جانبهم ، فيكون ذلك اغتياظاً للمنافقين ورداً عليهم في ذلك الفرح .

والقول الثالث : قال الزجاج : المعنى إذا صرنا مغلوبين صرنا مستحقين للأجر العظيم ، والثواب الكثير ، وإن صرنا غالبين ، صرنا مستحقين للثواب في الآخرة ، وفزنا بالمال الكثير والثناء الجميل في الدنيا ، وإذا كان الأمر كذلك ، صارت تلك المصائب والمحزنات في جنب هذا الفوز بهذه الدرجات العالية متحملة ، وهذه الأقوال وإن كانت حسنة ، إلا أن الحق الصحيح هو الأول .

ثم قال تعالى : ﴿ هُوَ مولانا ﴾ والمراد به ما يقوله أصحابنا أنه سبحانه يحسن منه التصرف

في العالم كيف شاء ، وأراد لأجل أنه مالك لهم وخالق لهم ، ولأنه لا اعتراض عليه في شيء من أفعاله ، فهذا الكلام ينطبق على ما تقدم ، ولذا قلنا إنه تعالى وإن أوصل إلى بعض عبيده أنواعاً من المصائب فإنه يجب الرضا بها لأنه تعالى مولاهم وهم عبيده ، فحسن منه تعالى تلك التصرفات ، بمجرد كونه مولى لهم ، ولا اعتراض لأحد عليه في شيء من أفعاله . ثم قال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ معناه أنه وإن لم يجب عليه لأحد من العبيد شيء من الأشياء ولا أمر من الأمور إلا أنه مع هذا عظيم الرحمة كثير الفضل والإحسان ، فوجب أن لا يتوكل المؤمن في الأصل إلا عليه ، وأن يقطع طمعه إلا من فضله ورحمته ، لأن قوله : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ يفيد الحصر ، وهذا كالتنبيه على أن حال المنافقين بالضد من ذلك وأنهم لا يتوكلون إلا على الأسباب الدنيوية واللذات العاجلة الفانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 68 . 69 ﴾

(168/338)

وقال السمرقندى :

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ يعني : إلاَّ ما قضي لنا وقدر علينا من شدة أو رخاء ، ويقال : ﴿ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ ،

يعني : في اللوح المحفوظ ؛ ويقال : ﴿ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ في القرآن وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يقاتلون فِى سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التوراة والإنجيل والقرءان وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 111] ثم قال : ﴿ هُوَ مولانا ﴾ ، أي ولينا وناصرنا وحافظنا .

﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ، يعني : وعلى المؤمنين واجب أن يتوكلوا على الله ؛ ويقال : وعلى الله فليثق الواثقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ أنه يصيبنا من خير أو شر ، لا أن ذلك بأفعالنا فنذمّ أو نحمد ، وهو معنى قول الحسن .

والثاني : إلا ما كتب الله لنا في عاقبة أمرنا أنه ينصرنا ويعز دينه بنا .

﴿ هُوَ مَوْلاَنَا ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : مالكنا .

والثاني : حافظنا وناصرنا .

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي على معونته وتدبيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(169/338)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ قل لن يصيبنا ﴾ الآية

أمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأن يعلمهم أن الشيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما اعتقدوه ، بل الجميع مما قد كتبه الله عز وجل للمؤمنين ، فإما أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أن يكون ذخراً للآخرة ، وقرأ طلحة بن مصرف " قل هل يصيبنا " ، ذكره أبو حاتم ، وعند ابن جني وقرأ طلحة بن مصرف وأعين قاضي الري " قل لن يصيِّبنا " بشد الياء التي بعد الصاد وكسرها كذا ذكر أبو الفتح وشرح ذلك وهو وهم ، والله أعلم .

قال أبو حاتم : قال عمرو بن شفيق سمعت أعين قاضي الري يقرأ " قل لن يصيبنا " النون مشددة ، قال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك لأن النون لا تدخل مع لن ، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأنها مع " هل " ، قال الله عز وجل ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ [الحج

: 15] وقوله : ﴿ كتب الله ﴾ يحتمل أن يريد ما قضى وقدر .

ويحتمل أن يريد ما كتب الله لنا في قرآننا علينا من أنّا إما أن نظفر بعدونا وإما أن نستشهد فندخل الجنة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا الاحتمال يرجع إلى الأول وقد ذكرهما الزجّاج ، وقوله : ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ ، معناه مع سعيهم وجدهم إذ لا حول ولا قوة إلا بالله ، وهذا قول أكثر العلماء وهو الصحيح ، والذي فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مدة عمره ومنه مظاهرته بين درعين ، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق فالأشهر والأصح أن الرجل الذي يمكنه التحرف الحلال المحض الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمتثل منه ما يصونه ويحمله كالاحتطاب ونحوه ، وقد قرن الله تعالى الرزق بالتسبب ، ومنه ﴿ وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليكم رطباً جنياً ﴾ [مريم : 25] ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم في الطير : " تغدو خماصاً " الحديث .

(170/338)

ومنه قوله : " قيدها وتوكل " وذهب بعض الناس إلى أن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل إلى أن يدخل غاراً أو بيتاً يجهل أمره فيه ويبقى في ذكر الله متوكلاً يقول إن كان بقي لي

رزق فسيأتي الله به وإن كان رزقي قد تم مت إذ ذلك حسن بالغ عند قوم ، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم ، يخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقته ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع ، فقرأت البطاقة فإذا فيها مكتوب ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ [الطور : 48] .

قال القاضي أبو محمد : وهذه الطريقة لا يراها جل أهل العلم بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة ، فإن تعذر عليه جميع ذلك وخرج إلى حد الاضطرار فحينئذ إن تسامح في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح ، وإن صبر وتحتسب نفسه كان في أعلى رتبة عند قوم ، ومن الناس من يرى أن فرضاً عليه إبقاء رمقه وأما من يختار الإلقاء باليد – والسعي ممكن – فما كان هذا قط من خلق الرسول ولا الصحابة ولا العلماء ، والله سبحانه الموفق للصواب ، ومن حجج من يقول بالتوكل حديث النبي صلى الله عليه وسلم في قوله " يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمتي بلا حساب وهم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطببون وعلى ربهم يتوكلون " ، وفي هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لعكاشة بن محصن أن يكون منهم ، فقيل ذلك لأنه عرف منه أنه معد لذلك ، وقال للآخر سبقك بها عكاشة ورُدّت الدعوة ، فقيل : ذلك لأنه كان منافقاً ، وقيل بل عرف منه أنه لا يصح لهذه الدرجة من التوكل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾

قيل : في اللوح المحفوظ .

وقيل : ما أخبرنا به في كتابه من أنا إمّا أن نظفر فيكون الظفر حسنى لنا ، وإما أن نقتل فتكون الشهادة أعظم حسنى لنا .

والمعنى كل شيء بقضاء وقدر .

وقد تقدّم في "الأعراف" أن العلم والقدر والكتاب سواء .

﴿ هُوَ مَوْلاَنَا ﴾ أي ناصرنا .

والتوكل تفويض الأمر إليه .

وقراءة الجمهور "يصِيبَنا" نصب بلن .

وحكى أبو عبيدة أن من العرب من يجزم بها .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "هل يصيبنا" .

وحكي عن أَعْيَن قاضي الرّيّ أنه قرأ "قل لن يصِيبنّا" بنون مشدّدة .

وهذا لحن ؛ لا يؤكد بالنون ما كان خبراً ، ولو كان هذا في قراءة طلحة لجاز .

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾

يعني قل يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه لن يصيبنا إلا ما قدره الله لنا وعلينا وكتبه في اللوح المحفوظ لأن القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروهاً نزل به أو يجلب لنفسه نفعاً أراده لم يقدر له ﴿ هو مولانا ﴾ يعني أن الله سبحانه وتعالى هو ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يعني في جميع أمورهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(172/338)

وقال أبو حيان :

﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾

قرأ ابن مسعود وابن مصرف : هل يصيبنا مكان لن يصيبنا .

وقرأ ابن مصرف أيضاً وأعين قاضي الرّي : هل يصيبنا بتشديد الياء ، وهو مضارع فيعل نحو : بيطر ، لا مضارع فعل ، إذ لو كان كذلك لكان صوّب مضاعف العين .

قالوا : صوب رأيه لما بناه على فعل ، لأنه من ذوات الواو .

وقالوا : صاب يصوب ومصاوب جمع مصيبة ، وبعض العرب يقول : صاب السهم يصيب ، جعله من ذوات الياء ، فعلى هذا يجوز أن يكون يصيبنا مضارع صيب على وزن فعل ، والصيب يحتمل أن يكون كسيد وكلين .

وقال عمرو بن شقيق : سمعت أعين قاضي الري يقول : قل لن يصيبنا بتشديد النون .

قال أبو حاتم : ولا يجوز ذلك ، لأن النون لا تدخل مع لن ، ولو كانت لطلحة بن مصرف الحارث ، لأنها مع هل .

قال تعالى : ﴿ هل يذهبن كيده ما يغيظ ﴾ انتهى .

ووجه هذه القراءة تشبيه لن بلا وبلم ، وقد سمع لحاق هذه النون بلا وبلم ، فلما شاركتهما لن في النفي لحقت معها نون التوكيد ، وهذا توجيه شذوذ .

أي : ما أصابنا فليس منكم ولا بكم ، بل الله هو الذي أصابنا وكتب أي : في اللوح المحفوظ أو في القرآن من الوعد بالنصر ، ومضاعفة الأجر على المصيبة ، أو ما قضى وحكم ثلاثة أقوال : هو مولانا ، أي ناصرنا وحافظنا قاله الجمهور .

وقال الكلبي : أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة .

وقيل : مالكنا وسيدنا ، فلهذا يتصرف كيف شاء .

فيجب الرضا بما يصدر من جهته .

وقال ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم ، فهو مولانا الذي يتولانا وتتولاه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(173/338)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ ﴾ بياناً لبطلان ما بنَوْا عليه مسرتَهم من الاعتقاد ﴿ لَّن يُصِيبَنَا ﴾ أبداً وقرىء هل يصيبنا وهل يصيِّبُنا من فيعل لا من فعل لأنه واويٌّ ، يقال : صاب السهمُ يصوب واشتقاقُه من الصواب ﴿ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ أي أثبته لمصلحتنا الدنيويةِ أو الأخروية من النُّصرة عليكم أو الشهادة المؤديةِ إلى النعيم الدائم ﴿ هُوَ مولانا ﴾ ناصرُنا ومتولِّي أمورِنا ﴿ وَعَلَى الله ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ التوكلُ تفويضُ الأمر إلى الله والرضا بما فعله وإن كان ذلك بعد ترتيب المبادي العادية ، والفاءُ للدلالة على السببية والأصل ليتوكلِ المؤمنون على الله ، قدّم الظرفُ على الفعل لإفادة القصْرِ ثم أُدخل الفاءُ

للدلالة على استيجابه تعالى للتوكل عليه كما في قوله تعالى : ﴿ وإياى فارهبون ﴾

والجملةُ إن كانت من تمام الكلامِ المأمورِ به فإظهارُ الاسمِ الجليلِ في مقام الإضمارِ لإظهار التبرُّكِ والتلذذِ به وإن كانت مَسوقةً من قِبله تعالى أمراً للمؤمنين بالتوكل إثرَ أمرِه عليه الصلاة والسلام بما ذكر فالأمرُ ظاهرٌ وكذا إعادةُ الأمر في قوله عز وجل :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾ .

لانقطاع حُكم الأمرِ الأولِ بالثاني وإن كان أمرَ الغائب وأما على الوجه الأولِ فهي لإبراز كمالِ العنايةِ بشأن المأمورِ به والإشعارِ بما بينه وبين ما أُمر به أولاً من الفرق في السياقِ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(174/338)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴾

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتا لهم ﴿ لَّن يُصِيبَنَا ﴾ أبدا ﴿ إِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ أي ما اختصنا بإثباته وإيجابه من المصلحة الدنيوية أو الأخروية الكنصرة أو الشهادة المؤدية للنعيم الدائم ، فالكتب بمعنى التقدير ، واللام للاختصاص ، وجوز أن يكون المراد بالكتب الخط في اللوح

واللام للتعليل والأجل ، أي لن يصيبنا إلا ما خط الله تعالى لأجلنا في اللوح ولا يتغير بموافقتكم ومخالفتكم ، فتدل الآية على أن الحوادث كلها بقضاء الله تعالى وروي هذا عن الحسن .

وادعى بعضهم أنه غير مناسب للمقام وأن قوله تعالى : ﴿ هُوَ ﴾ أي ناصرنا ومتولى أمورنا يعين الأول لأنه يبين أن معنى اللام الاختصاص ويخصص الموصول بالنصر والشهادة أي لن يصيبنا إلا ذلك دون الخذلان والشقاوة كما هو مصير حالكم لأنا مؤمنون وأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ، وقد يقال : هو تعليل لما يستفاد من القول السابق من الرضا أي لن يصيبنا إلا ما كتب من خير أو شر فلا يضرنا ما أنتم عليه ونحن بما فعل الله تعالى راضون لأنه سبحانه مالكنا ونحن عبيده .

وقرأ ابن مسعود ﴿ هَلْ يُصِيبَنَا ﴾ وطلحة ﴿ هَلْ يُصِيبَنَا ﴾ بتشديد الياء من صيب الذي وزنه فيعل لا فعل بالتضعيف لأن قياسه صوب لأنه من الواوي فلا وجه لقلبها ياء بخلاف ما إذا كان صيوب على وزن فيعل لأنه إذا اجتمعت الواو والياء والأول منهما ساكن قلبت الواو ياءاً وهو قياس مطرد ، وجوز الزمخشري كونه من التفعيل على لغة من قال صاب يصيب ، ومنه قول الكميت :

واستبى الكاعب العقيلة إذ . . .

أسهمي الصائبات والصيب

﴿ وَعَلَى اللهِ ﴾ وحده ﴿ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ بأن يفوضوا الأمر إليه سبحانه ، ولا ينافي ذلك التشبث بالأسباب العادية إذا لم يعتمد عليها ، وظاهر كلام جمع أن الجملة من تمام الكلام المأمور به ، وتقديم المعمول لإفادة التخصيص كما أشرنا إليه ، وإظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والاستلذاذ به .

ووضع المؤمنين موضع ضمير المتكلم ليؤذن بأن شأن المؤمنين اختصاص التوكل بالله تعالى ، وجيء بالفاء الجزائية لتشعر بالترتب أي إذا كان لن يصيبنا إلا ما كتب الله أي خصنا الله سبحانه به من النصر أو الشهادة وأنه متولى أمرنا فلنفعل ما هو حقنا من اختصاصه به جل شأنه بالتوكل ، قال الطيبي : وكأنه قوبل قول المنافقين [التوبة : 50] بهذه الفاصلة ، والمعنى دأب المؤمنين أن لا يتكلوا على حزمهم وتيقظ أنفسهم كما أن دأب المنافقين ذلك بل أن يتكلوا على الله تعالى وحده ويفوضوا أمورهم إليه ، ولا يبعد تفرع الكلام على قوله سبحانه : ﴿ هُوَ مولانا ﴾ كما لا يخفى ، ويجوز أن تكون هذه الجملة مسوقة من قبله تعالى أمراً للمؤمنين بالتوكل إثر أمره صلى الله عليه وسلم بما ذكر ، وأمر وضع الظاهر موضع

الضمير في الموضعين حينئذ ظاهر وكذا إعادة الأمر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(176/338)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ﴾

أَيْ : لَوْ كَانَ مَا اسْتَنْفَرْتَهُمْ لَهُ ، وَدَعَوْتَهُمْ إِلَيْهِ أَيُّهَا الرَّسُولُ عَرَضًا - وَهُوَ مَا يَعْرِضُ لِلْمَرْءِ مِنْ مَنْفَعَةٍ وَمَتَاعٍ ، مِمَّا لَا ثَبَاتَ لَهُ وَلَا بَقَاءَ - قَرِيبَ الْمَكَانِ وَالْمَنَالِ ، لَيْسَ فِي الْوُصُولِ إِلَيْهِ كَبِيرُ عَنَاءٍ ، وَسَفَرًا قَاصِدًا ، أَيْ : وَسَطًا لَا مَشَقَّةَ فِيهِ ، وَلَا كَلَالَ لَاتَّبَعُوكَ فِيهِ وَأَسْرَعُوا بِالنَّفْرِ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّ حُبَّ الْمَنَافِعِ الْمَادِّيَّةِ وَالرَّغْبَةَ فِيهَا لَاصِقَةٌ بِطَبْعِ الْإِنْسَانِ ، وَنَاهِيكَ بِهَا إِذَا كَانَتْ سَهْلَةَ الْمَأْخَذِ قَرِيبَةَ الْمَنَالِ ، وَكَانَ الرَّاغِبُ فِيهَا مِنْ غَيْرِ الْمُوقِنِينَ بِالْآخِرَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ لِلْمُجَاهِدِينَ كَأُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ الَّتِي دُعُوا إِلَيْهَا وَهِيَ تَبُوكُ - وَالشُّقَّةُ : النَّاحِيَةُ أَوِ الْمَسَافَةُ وَالطَّرِيقُ الَّتِي لَا تُقْطَعُ إِلَّا بِتَكَبُّدِ الْمَشَقَّةِ وَالتَّعَبِ - وَكَبُرَ عَلَيْهِمُ التَّعَرُّضُ لِقِتَالِ الرُّومِ فِي دِيَارِ مُلْكِهِمْ

(177/338)

وَهُمْ أَكْبَرُ دُوَلِ الْأَرْضِ الْحَرْبِيَّةِ ، فَتَخَلَّفُوا جُبْنًا وَحُبًّا بِالرَّاحَةِ وَالسَّلَامَةِ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَيْ : بَعْدَ رُجُوعِكُمْ إلَيْهِمْ ، وَقَالَ : سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ (9 : 95) كَمَا قَالَ : يَعْتَذِرُونَ إلَيْكُمْ إذَا رَجَعْتُمْ إلَيْهِمْ (9 : 94) قَائِلِينَ : لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ أَيْ : لَوِ اسْتَطَعْنَا الْخُرُوجَ إلَى الْجِهَادِ بِانْتِفَاءِ الْأَعْذَارِ الْمَانِعَةِ لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ؛ فَإِنَّنَا لَمْ نَتَخَلَّفْ عَنْكُمْ إلَّا مُضْطَرِّينَ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ بِامْتِهَانِ اسْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ ؛ لِسَتْرِ نِفَاقِهِمْ وَإِخْفَائِهِ ، يُؤَيِّدُونَ الْبَاطِلَ بِالْبَاطِلِ ، وَيَدْعُمُونَ الْإِجْرَامَ بِالْإِجْرَامِ ، أَوْ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ الْمُفْضِي إلَى الْفَضِيحَةِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنْ سُوءِ الْمُعَامَلَةِ ، فَالْجُمْلَةُ مُبَيِّنَةٌ لِحَالِهِمْ فِي حَلِفِهِمْ أَوْ مَا كَانَ سَبَبًا لَهُ ، وَإِنَّهُمْ يُرِيدُونَ بِهِ النَّجَاةَ فَيَقَعُونَ فِي الْهَلَاكِ : وَاللَّهُ يَعْلَمُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ فِي زَعْمِهِمْ أَنَّهُمْ لَوِ اسْتَطَاعُوا الْخُرُوجَ لَخَرَجُوا مَعَكُمْ .

(178/338)

عَفَا اللهُ عَنْكَ الْعَفْوُ : التَّجَاوُزُ عَنِ الذَّنْبِ أَوِ التَّقْصِيرِ ، وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ ، وَيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ . أَيْ عَفَا عَمَّا تَعَلَّقَ بِهِ اجْتِهَادُكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ حِينَ اسْتَأْذَنُوكَ وَكَذَبُوا عَلَيْكَ فِي الِاعْتِذَارِ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ؟ أَيْ لِأَيِّ شَيْءٍ أَذِنْتَ لَهُمْ بِالْقُعُودِ وَالتَّخَلُّفِ كَمَا أَرَادُوا ، وَهَلَّا اسْتَأْنَيْتَ وَتَرَيَّثْتَ بِالْإِذْنِ ؟ : حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي الِاعْتِذَارِ وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ فِيهِ ، أَيْ : حَتَّى تُمَيِّزَ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ فَتُعَامِلَ كُلًّا بِمَا يَلِيقُ بِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْكَاذِبِينَ لَا يَخْرُجُونَ سَوَاءً أَذِنْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَأْذَنْ لَهُمْ ، فَكَانَ مُقْتَضَى الْحَزْمِ أَنْ تَتَلَبَّثَ فِي الْإِذْنِ أَوْ تُمْسِكَ عَنْهُ اخْتِبَارًا لَهُمْ ، رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ قَالَ : هُمْ نَاسٌ قَالُوا : اسْتَأْذِنُوا رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَإِنْ أَذِنَ لَكُمْ فَاقْعُدُوا ، وَإِنْ لَمْ يَأْذَنْ

لَكُمْ فَاقْعُدُوا . وَأَخْرَجَ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ : وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

قَالَ : لَقَدْ كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ ، وَلَكِنْ كَانَ تَبْطِئَةً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ وَزَهَادَةً فِي الْجِهَادِ

.

(179/338)

هَذَا وَإِنَّ بَعْضَ الْمُفَسِّرِينَ وَلَا سِيَّمَا الزَّمَخْشَرِيُّ قَدْ أَسَاءُوا الْأَدَبَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ عَفْوِ اللَّهِ تَعَالَى عَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَكَانَ يَجِبُ أَنْ يَتَعَلَّمُوا مِنْهَا أَعْلَى الْأَدَبِ مَعَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، إذْ أَخْبَرَهُ رَبُّهُ وَمُؤَدِّبُهُ بِالْعَفْوِ قَبْلَ الذَّنْبِ ، وَهُوَ مُنْتَهَى التَّكْرِيمِ وَاللُّطْفِ ، وَبَالَغَ آخَرُونَ كَالرَّازِيِّ فِي الطَّرَفِ الْآخَرِ فَأَرَادُوا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ الْعَفْوَ لَا يَدُلُّ عَلَى الذَّنْبِ ، وَغَايَتُهُ أَنَّ الْإِذْنَ الَّذِي عَاتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ هُوَ خِلَافُ الْأَوْلَى ، وَهُوَ جُمُودٌ مَعَ الِاصْطِلَاحَاتِ الْمُحْدَثَةِ وَالْعُرْفِ الْخَاصِّ فِي مَعْنَى الذَّنْبِ وَهُوَ الْمَعْصِيَةُ ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَهْرُبُوا مِنْ إثْبَاتِ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ تَمَسُّكًا بِاصْطِلَاحَاتِهِمْ وَعُرْفِهِمْ الْمُخَالِفِ لَهُ وَلِمَدْلُولِ اللُّغَةِ أَيْضًا ، فَالذَّنْبُ فِي اللُّغَةِ كُلُّ عَمَلٍ يَسْتَتْبِعُ ضَرَرًا أَوْ فَوْتَ مَنْفَعَةٍ أَوْ مَصْلَحَةٍ ، مَأْخُوذٌ مِنْ ذَنَبِ الدَّابَّةِ ، وَلَيْسَ مُرَادِفًا لِلْمَعْصِيَةِ بَلْ أَعَمُّ مِنْهَا ، وَالْإِذْنُ الْمَعْفُوُّ عَنْهُ قَدِ اسْتَتْبَعَ فَوْتَ الْمَصْلَحَةِ الْمَنْصُوصَةِ فِي الْآيَةِ وَهِيَ تَبَيُّنُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَالْعِلْمَ بِالْكَاذِبِينَ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : إنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ (48 : 1 و2) الْآيَةَ .

(180/338)

فَالتَّفَصِّي مِنْ إِسْنَادِ الذَّنْبِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ بِالتَّأْوِيلِ لِيُوَافِقَ الْمَذَاهِبَ وَالْقَوَاعِدَ ، كَالتَّفَصِّي مِمَّا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ وَمَا أَسْنَدَهُ إِلَيْهَا مِنَ الْعُلُوِّ وَالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ أَوْ غَيْرِهِمَا مِنَ الصِّفَاتِ ، وَهُوَ يَسْتَلْزِمُ جَعْلَ بَيَانِ نُظَّارِ الْمُتَكَلِّمِينَ لِحَقَائِقِ دِينِ اللَّهِ أَفْصَحَ وَأَبْيَنَ وَأَوْلَى بِالتَّلَقِّي مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي وَصَفَهُ بِأَنَّهُ تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَلَوْ قِيلَ : إِنَّ لَازِمَ الْمَذْهَبِ مَذْهَبٌ مُطْلَقًا وَإِنْ لَمْ يَفْطُنْ لَهُ صَاحِبُ الْمَذْهَبِ وَيَلْتَزِمْهُ ، كَمَا يَقُولُهُ الَّذِينَ يُكَفِّرُونَ كَثِيرًا مِنَ الْمُخَالِفِينَ لَهُمْ ، لَجَازَ الْحُكْمُ بِكُفْرِ هَؤُلَاءِ الْمُتَأَوِّلِينَ الْمُحَرِّفِينَ ، وَلَكِنَّ أَهْلَ الْحَقِّ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ يَمْنَعُونَ مِنَ الْحُكْمِ بِالْكُفْرِ عَلَى الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ ، فِيمَا يَتَأَوَّلُ فِيهِ مِمَّا هُوَ كُفْرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَيَعُدُّونَ مِنَ الْعُذْرِ بِالْجَهْلِ مَا لَا يَعُدُّهُ الْمُتَكَلِّمُونَ عُذْرًا .

(181/338)

وَقَدْ كَانَ الْإِذْنُ الْمُعَاتَبُ عَلَيْهِ اجْتِهَادًا مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ مِنَ الْوَحْيِ ، وَهُوَ جَائِزٌ وَوَاقِعٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَلَيْسُوا بِمَعْصُومِينَ مِنَ الْخَطَأِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا الْعِصْمَةُ الْمُتَّفَقُ عَلَيْهَا خَاصَّةٌ بِتَبْلِيغِ الْوَحْيِ بِبَيَانِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ ، فَيَسْتَحِيلُ عَلَى الرَّسُولِ أَنْ يَكْذِبَ أَوْ يُخْطِئَ فِيمَا يُبَلِّغُهُ عَنْ رَبِّهِ أَوْ يُخَالِفَهُ بِالْعَمَلِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ طَلْحَةَ فِي تَأْبِيرِ النَّخْلِ إِذْ رَآهُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُلَقِّحُونَهَا فَقَالَ : " مَا أَظُنُّ يُغْنِي ذَلِكَ

شَيْئًا " فَأُخْبِرُوا بِذَلِكَ فَتَرَكُوهُ ظَنًّا مِنْهُمْ أَنَّ قَوْلَهُ هَذَا مِنْ أَمْرِ الدِّينِ فَنَفَضَتِ النَّخْلُ وَسَقَطَ ثَمَرُهَا ، فَأُخْبِرَ بِذَلِكَ فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنْ كَانَ يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ فَلْيَصْنَعُوهُ فَإِنِّي إِنَّمَا ظَنَنْتُ ظَنًّا فَلَا تُؤَاخِذُونِي

بِالظَّنِّ ، وَلَكِنْ إِذَا حَدَّثْتُكُمْ عَنِ اللَّهِ شَيْئًا فَخُذُوا بِهِ فَإِنِّي لَنْ أَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

(182/338)

وَقَدْ صَرَّحَ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ بِجَوَازِ الْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَالُوا : وَلَكِنْ لَا يُقِرُّهُمُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ بَلْ يُبَيِّنُ لَهُمُ الصَّوَابَ فِيهِ . وَمِنْهُ مَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ مِنْ عِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَخْذِ الْفِدْيَةِ مِنْ أَسَارَى بَدْرٍ ، وَالْخَطَأُ هُنَالِكَ أَعْظَمُ مِمَّا هُنَا ، فَغَايَةُ مَا فِيهِ هُنَا أَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمَا يَقْتَضِيهِ الْحَزْمُ ، وَكَانَ مِنْ لُطْفِ الرَّبِّ اللَّطِيفِ الْخَبِيرِ ، بِرَسُولِهِ الْبَشِيرِ النَّذِيرِ ، أَنْ أَخْبَرَهُ بِالْعَفْوِ عَنْهُ ، قَبْلَ بَيَانِهِ لَهُ ، وَأَمَّا ذَاكَ فَقَدْ بَدَأَ عِتَابُهُ لَهُ وَلِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ عَمِلَ بِرَأْيِ جُمْهُورِهِمْ فِي أَخْذِ الْفِدْيَةِ بِقَوْلِهِ : مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ (8 : 67) ثُمَّ بَيَّنَ أَنَّهُ كَانَ مُقْتَضِيًا لِعَذَابٍ أَلِيمٍ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ فَكَانَ مَانِعًا ، وَسَنَذْكُرُ فَائِدَةَ أَمْثَالِ هَذَا الِاجْتِهَادِ وَالْخَطَأِ فِي تَفْسِيرِ

الْآيَةِ 47 وَهِيَ قَرِيبَةٌ .

وَمِنْ مَبَاحِثِ الْبَلَاغَةِ فِي الْآيَةِ نُكْتَةُ الِاخْتِلَافِ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الصَّادِقِينَ وَالْكَاذِبِينَ إِذْ عَبَّرَ عَنِ الْأَوَّلِينَ بِالِاسْمِ الْمَوْصُولِ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ، وَعَنِ الْكَاذِبِينَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ أَبُو السُّعُودِ بِقَوْلِهِ : وَتَغْيِيرُ الْأُسْلُوبِ بِأَنْ عَبَّرَ عَنِ الْفَرِيقِ

(183/338)

الْأَوَّلِ بِالْمَوْصُولِ الَّذِي صِلَتُهُ فِعْلٌ دَالٌّ عَلَى الْحُدُوثِ ، وَعَنِ الْفَرِيقِ الثَّانِي بِاسِمِ الْفَاعِلِ الْمُفِيدِ لِلدَّوَامِ ؛ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ مَا ظَهَرَ مِنَ الْأَوَّلِينَ صِدْقٌ حَادِثٌ فِي أَمْرٍ خَاصٍّ غَيْرِ مُصَحِّحٍ لِنُظْمِهِمْ فِي سَلَكِ الصَّادِقِينَ ، وَأَنَّ مَا صَدَرَ مِنَ الْآخِرِينَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا حَادِثًا مُتَعَلِّقًا بِأَمْرٍ خَاصٍّ لَكِنَّهُ أَمْرٌ جَارٍ عَلَى عَادَتِهِمُ الْمُسْتَمِرَّةِ نَاشِئٌ عَنْ رُسُوخِهِمْ فِي الْكَذِبِ ، وَالتَّعْبِيرِ عَنْ ظُهُورِ الصِّدْقِ بِالتَّبَيُّنِ ، وَعَمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْكَذِبِ بِالْعِلْمِ ، لِمَا هُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ أَنَّ مَدْلُولَ الْخَبَرِ هُوَ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ احْتِمَالٌ عَقْلِيٌّ ، فَظُهُورُ صِدْقِهِ إِنَّمَا هُوَ تَبَيُّنُ ذَلِكَ الْمَدْلُولِ ، وَانْقِطَاعُ احْتِمَالِ نَقِيضِهِ بَعْدَ مَا كَانَ مُحْتَمِلًا لَهُ احْتِمَالًا عَقْلِيًّا ، وَأَمَّا كَذِبُهُ فَأَمْرٌ حَادِثٌ لَا دَلَالَةَ لِلْخَبَرِ عَلَيْهِ فِي الْجُمْلَةِ حَتَّى يَكُونَ ظُهُورُهُ تَبَيُّنًا لَهُ بَلْ هُوَ نَقِيضٌ لِمَدْلُولِهِ ، فَمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ يَكُونُ عِلْمًا مُسْتَأْنَفًا ، وَإِسْنَادُهُ إِلَى ضَمِيرِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا إِلَى الْمَعْلُومِينَ بِبِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ مَعَ

إِسْنَادِ التَّبَيُّنِ إِلَى الْأَوَّلِينَ ، لِمَا أَنَّ الْمَقْصُودَ هَا هُنَا عِلْمُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِهِمْ ، وَمُؤَاخَذَتُهُمْ بِمُوجِبِهِ بِخِلَافِ الْأَوَّلِينَ ؛ حَيْثُ لَا مُؤَاخَذَةَ عَلَيْهِمْ . وَمَنْ لَمْ يَتَنَبَّهْ لِهَذَا قَالَ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ مِنْ صِدْقٍ فِي عُذْرِهِ مِمَّنْ كَذَبَ فِيهِ . وَإِسْنَادُ التَّبَيُّنِ إِلَى الْأَوَّلِينَ ، وَتَعْلِيقُ الْعِلْمِ

(184/338)

بِالْآخِرِينَ – مَعَ أَنَّ مَدَارَ الِاسْتِنَادِ وَالتَّعَلُّقِ أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ هُوَ وَصْفُ الصِّدْقِ وَالْكَذِبِ كَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ – لِمَا أَنَّ الْمَقْصِدَ هُوَ الْعِلْمُ بِكِلَا الْفَرِيقَيْنِ ، بِاعْتِبَارِ اتِّصَافِهِمَا بِوَصْفَيْهِمَا الْمَذْكُورَيْنِ ، وَمُعَامَلَتِهِمَا بِحَسَبِ اسْتِحْقَاقِهِمَا ، لَا الْعِلْمِ بِوَصْفَيْهِمَا بِذَاتَيْهِمَا ، أَوْ بِاعْتِبَارِ قِيَامِهِمَا بِمَوْصُوفَيْهِمَا . اهـ .

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ

(185/338)

ذَكَرَ الْبَغَوِيُّ وَغَيْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ أَنَّهُ قَالَ : لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَعْرِفُ الْمُنَافِقِينَ حَتَّى نَزَلَتْ سُورَةُ (بَرَاءَةٌ) ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ مُرَادَهُ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُمْ كُلَّهُمْ وَيَعْرِفُ شُئُونَهُمْ بِمِثْلِ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ التَّفْصِيلِ ، كَمَا قَالَ اللهُ لَهُ فِي الَّذِينَ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ : لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ (9 : 101) وَسَتَأْتِي فِي هَذَا السِّيَاقِ . إِذْ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ ذِكْرَ الْمُنَافِقِينَ وَبَعْضِ صِفَاتِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ وَأَفْعَالِهِمْ جَاءَتْ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ نَزَلَتْ قَبْلَ سُورَةِ (بَرَاءَةٌ) مِنْهَا سُوَرُ الْمُنَافِقِينَ وَالْأَحْزَابِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَنْفَالِ وَالْقِتَالِ وَالْحَشْرِ ، وَأَمَّا سُورَةُ (بَرَاءَةٌ) فَهِيَ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ ، وَالْكَاشِفَةُ لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ نِفَاقِهِمُ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ ، وَهَذِهِ الْآيَاتُ أَوَّلُ السِّيَاقِ فِي هَذَا الْبَيَانِ لِلتَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِ الْقِتَالِ ، وَلَعَلَّهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَمْ يَعْلَمْ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ نُزُولِهَا . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ هَذَا نَفْيٌ لِلشَّأْنِ يُرَادُ بِهِ بَيَانُ الْوَاقِعِ فِي نَفْسِهِ فَلَا يُلَاحَظُ فِي الْفِعْلِ فِيهِ الزَّمَانُ الْحَاضِرُ أَوِ الْمُسْتَقْبَلُ الَّذِي وُضِعَ لَهُ الْمُضَارِعُ بَلْ يَشْمَلُهُمَا كَمَا يَشْمَلُ الْمَاضِيَ ، كَمَا تَقُولُ : الصَّائِمُ لَا يَغْتَابُ النَّاسَ ، وَالَّذِي يُزَكِّي لَا يَسْرِقُ ،

(186/338)

أَيْ : هَذَا شَأْنُ كُلٍّ مِنْهُمَا ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ الَّذِي كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ ، وَالْيَوْمُ الْآخِرُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ الْأَجْرُ الْأَكْمَلُ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَلَا مِنْ عَادَتِهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِذَا عَرَضَ الْمُقْتَضِي لَهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ الَّتِي لَا تَتَوَقَّفُ عَلَى الِاسْتِئْذَانِ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ

(49 : 15) وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي الْجِهَادِ بَلْ يُقْدِمُونَ عَلَيْهِ عِنْدَ وُجُوبِهِ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ لِمَا تَقَدَّمَ آنِفًا ، بَلْ هُمْ يَسْتَعِدُّونَ لَهُ فِي وَقْتِ السِّلْمِ بِإِعْدَادِ الْقُوَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ مَنِ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ مِنْهُمْ ، فَهَلْ يَكُونُ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ ، بَعْدَ إِعْلَانِ النَّفِيرِ الْعَامِّ لَهُ ؟ كَلَّا ، إِنَّ أَقْصَى مَا قَدْ يَقَعُ مِنْ بَعْضِهِمُ التَّثَاقُلُ وَالْبُطْءُ فِي مِثْلِ هَذَا السَّفَرِ الْبَعِيدِ .

(187/338)

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى : لَا يَسْتَأْذِنُكَ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنُونَ فِي الْقُعُودِ وَالتَّخَلُّفِ كَرَاهَةَ أَنْ يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ الْجِهَادَ لَا يَكْرَهُهُ الْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ الَّذِي يَرْجُو اللَّهَ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ عَاقِبَةَ الْجِهَادِ الْفَوْزُ بِإِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ : الْغَنِيمَةِ وَالنَّصْرِ ، أَوِ الشَّهَادَةِ وَالْأَجْرِ ،

وَإِنَّمَا قَدْ يَسْتَأْذِنُ صَاحِبُ الْعُذْرِ الصَّحِيحِ مِنْهُمْ ، وَهُمُ الَّذِينَ قَبِلَ اللَّهُ عُذْرَهُمْ ، وَأَسْقَطَ الْحَرَجَ عَنْهُمْ فِي الْآيَتَيْنِ (91 و92) رَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : مِنْ خَيْرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَطِيرُ عَلَى مَتْنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَوْ فَزْعَةً طَارَ عَلَيْهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ مَظَانَّهُ إلَخْ . يَعْنِي رَجُلًا أَعَدَّ فَرَسَهُ رِبَاطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيْعَةً أَيْ : صَيْحَةً لِقِتَالٍ أَوْ فِي قِتَالٍ ، أَوْ فَزْعَةً أَيْ : دَعْوَةً لِلْإِغَاثَةِ وَالنَّصْرِ فِيهِ طَارَ عَلَى فَرَسِهِ يَبْتَغِي الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ فِي مَظَانِّهِ ، أَيِ : الْمَوَاضِعِ الَّتِي يَظُنُّ أَنْ يَلْقَى الْقَتْلَ وَالْمَوْتَ فِيهَا .

(188/338)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ لَهُ بِاجْتِنَابِ مَا يُسْخِطُهُ ، وَفِعْلِ مَا يُرْضِيهِ وَبَيَّتَهُمْ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا بِالتَّخَلُّفِ كَرَاهَةً لِلْقِتَالِ فَهُوَ يَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ، وَقَدِ اسْتَنْبَطَ مِنَ الْآيَةِ أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي الِاسْتِئْذَانُ فِي أَدَاءِ شَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ ، وَلَا فِي الْفَضَائِلِ وَالْفَوَاضِلِ مِنَ الْعَادَاتِ ، كَقِرَى الضُّيُوفِ ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ ، وَسَائِرِ عَمَلِ الْمَعْرُوفِ ، وَيُعْجِبُنِي قَوْلُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ مَا مَعْنَاهُ : مَنْ قَالَ لَكَ : أَتَأْكُلُ ؟ هَلْ آتِيكَ بِكَذَا مِنَ الْفَاكِهَةِ أَوِ الْحَلْوَى مَثَلًا ؟ فَقُلْ لَهُ : لَا ، فَإِنَّهُ لَوْ أَرَادَ أَنْ يُكْرِمَكَ لَمَا اسْتَأْذَنَكَ .

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هَذَا تَصْرِيحٌ بِمَفْهُومِ مَا سَبَقَ ؛ لِزِيَادَةِ تَأْكِيدِهِ وَتَقْرِيرِهِ ، وَجَاءَ الْحَصْرُ فِيهِ بِـ (إِنَّمَا) الَّتِي مَوْضِعُهَا مَا هُوَ مَعْلُومٌ بِالْجُمْلَةِ ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى قَدْ عُلِمَ مِنْ مَفْهُومِ الْحَصْرِ بِالنَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ الَّذِي قَبْلَهُ . وَالْمَعْنَى : إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ لِأَنَّهُمْ

(189/338)

يَرَوْنَ بَذْلَ الْمَالِ لِلْجِهَادِ مَغْرَمًا يَفُوتُ عَلَيْهِمْ بَعْضُ مَنَافِعِهِمْ بِهِ ، وَلَا يَرْجُونَ عَلَيْهِ ثَوَابًا كَمَا يَرْجُو الْمُؤْمِنُونَ ، وَيَرَوْنَ الْجِهَادَ بِالنَّفْسِ آلَامًا وَمَتَاعِبَ وَتَعَرُّضًا لِلْقَتْلِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ حَيَاةٌ عِنْدَهُمْ ، فَطَبِيعَةُ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ تَقْتَضِي كَرَاهَتَهُمْ لِلْجِهَادِ ، وَفِرَارَهُمْ مِنْهُ مَا وَجَدُوا لَهُ سَبِيلًا ، بِضِدِّ مَا يَقْتَضِيهِ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِينَ كَمَا تَقَدَّمَ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ أَيْ : وَقَدْ وَقَعَ لَهُمُ الرَّيْبُ وَالشَّكُّ فِي الدِّينِ مِنْ قَبْلُ ، فَلَمْ تَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَلَمْ تُذْعِنْ لَهُ نُفُوسُهُمْ ، وَإِنَّمَا الْإِيمَانُ هُوَ الْيَقِينُ الْمُقَارِنُ لِلْإِذْعَانِ وَخُضُوعِ النَّفْسِ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ مُتَحَيِّرِينَ فِي أَمْرِهِمْ ، مُذَبْذَبِينَ فِي عَمَلِهِمْ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، فَهُمْ يُوَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يَسْهُلُ أَدَاؤُهُ مِنْ عِبَادَاتِ الْإِسْلَامِ ، فَإِذَا عَرَضَ لَهُمْ مَا يَشُقُّ عَلَيْهِمْ فِعْلُهُ ضَاقَتْ بِهِ صُدُورُهُمْ ، وَالْتَمَسُوا التَّفَصِّيَ مِنْهُ بِمَا اسْتَطَاعُوا مِنَ الْحِيَلِ وَالْمَعَاذِيرِ الْكَاذِبَةِ ، حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يَشُقُّ

عَلَيْهِمْ حُضُورُ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَالْعِشَاءِ كَمَا وَرَدَ فِي الصَّحِيحِ . وَسَيَأْتِي فِي بَيَانِ فَضَائِحِهِمْ : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) وَقَدْ وَرَدَ فِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ عَدَدَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ كَانَ تِسْعَةً وَثَلَاثِينَ رَجُلًا ، وَلَعَلَّ الْمُرَادَ الْمُسْتَأْذِنُونَ أَوِ الْمُتَخَلِّفُونَ مِنْهُمْ .

(190/338)

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ مَنْسُوخَةٌ بِآيَةِ سُورَةِ النُّورِ : إنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (24 : 62) وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهَا مُحْكَمَةٌ ، وَمَا أَرَى هَذَا الرَّأْيَ يَصِحُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ فَإِنَّ سُورَةَ النُّورِ نَزَلَتْ قَبْلَ هَذِهِ السُّورَةِ بِالِاتِّفَاقِ . وَمَوْضُوعُ الِاسْتِئْذَانِ فِيهَا غَيْرُ مَوْضُوعِهِ هُنَا ، وَإِلَّا كَانَتَا مُتَنَاقِضَتَيْنِ ، فَآيَةُ " بَرَاءَةٌ " فِي الِاسْتِئْذَانِ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ ، وَالْقُعُودِ عَنْهُ بَعْدَ النِّدَاءِ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ ، وَآيَةُ " النُّورِ " فِي اسْتِئْذَانِ مَنْ يَكُونُ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ

(191/338)

كَالْجُمُعَةِ وَالْعِيدَيْنِ - وَلْيَكُنْ مِنْهُ الْجِهَادُ - وَيَعْرِضُ لِأَحَدِهِمْ حَاجَةٌ يُرِيدُ قَضَاءَهَا ، وَالْعَوْدَةَ إِلَى الْجَمَاعَةِ ، فَكَانَ بَعْضُهُمْ لَا يَرَى بِذَلِكَ بَأْسًا كَالَّذِينَ كَانُوا مُجْتَمِعِينَ مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، فَجَاءَتِ الْعِيرُ بِالتِّجَارَةِ فَانْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوهُ قَائِمًا يَخْطُبُ لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ مِنْهُمْ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَجَابِرٌ الَّذِي أَخْرَجَ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَغَيْرُهُمْ هَذَا الْحَدِيثَ عَنْهُ ، وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ عِنْدَ ابْنِ مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ أَنَّهُ بَقِيَ مَعَهُ سَبْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا وَسَبْعُ نِسْوَةٍ . وَفِي هَذِهِ الْحَادِثَةِ نَزَلَتِ الْآيَاتُ الَّتِي فِي آخِرِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ فَصَارَ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدَ ذَلِكَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ حَضْرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِحَاجَةٍ تَعْرِضُ لَهُمْ إِلَّا إِذَا اسْتَأْذَنُوهُ وَأَذِنَ لَهُمْ ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ " بَرَاءَةٌ " : لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (44) الْآيَةَ . وَالْعَجَبُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الَّذِينَ نَقَلُوا هَذِهِ الرِّوَايَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ كَيْفَ سَكَتُوا عَنْ بَيَانِ هَذَا ، مَنْ سَلَّمَ مِنْهُمُ الْقَوْلَ بِالنَّسْخِ وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْهُ ؟ .

(192/338)

وَحَكَى الرَّازِيُّ عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخُرَاسَانِيِّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْإِذْنَ فِي مَاذَا ، فَيُحْتَمَلُ أَنَّ بَعْضَهُمُ اسْتَأْذَنَ فِي الْقُعُودِ فَأَذِنَ لَهُ ، وَيُحْتَمَلُ أَنَّ

بَعْضَهُمُ اسْتَأْذَنَ فِي الْخُرُوجِ فَأَذِنَ لَهُ ، مَعَ أَنَّهُ مَا كَانَ خُرُوجُهُمْ مِنْهُ صَوَابًا ؛ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ كَانُوا عُيُونًا لِلْمُنَافِقِينَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَكَانُوا يُثِيرُونَ الْفِتَنَ وَيَبْغُونَ الْغَوَائِلَ ؛ فَلِهَذَا السَّبَبِ مَا كَانَ خُرُوجُهُمْ

مَعَ الرَّسُولِ مَصْلَحَةً . قَالَ الْقَاضِي : هَذَا بَعِيدٌ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ عَلَى وَجْهِ الذَّمِّ لِلْمُتَخَلِّفِينَ وَالْمَدْحِ لِلْمُبَادِرِينَ ، وَأَيْضًا مَا بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى ذَمِّ الْقَاعِدِينَ وَبَيَانِ حَالِهِمْ انْتَهَى مَا نَقَلَهُ الرَّازِيُّ عَنْهُ وَعَنِ الْقَاضِي عَبْدِ الْجَبَّارِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِ وَكِلَاهُمَا مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ .

وَأَقُولُ : إِنَّ هَذَا الِاحْتِمَالَ الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو مُسْلِمٍ مَرْدُودٌ بِأَنَّ الْخُرُوجَ إِلَى الْجِهَادِ مَا كَانَ يَحْتَاجُ إِلَى إِذْنٍ بَعْدَ إِعْلَانِ النَّفِيرِ فَيَسْتَأْذِنُوا لَهُ . وَأَمَّا كَوْنُ خُرُوجِهِمْ مَفْسَدَةً فَهُوَ صَحِيحٌ ، وَسَيَأْتِي النَّصُّ عَلَيْهِ (فِي الْآيَةِ 47) وَلَكِنَّ أُولَئِكَ الْمُسْتَأْذِنِينَ

(193/338)

لَمْ يَكُونُوا يُرِيدُونَ الْخُرُوجَ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَكَانَتِ الْمَصْلَحَةُ فِي عَدَمِ الْإِذْنِ لَهُمْ ؛ لِيَنْكَشِفَ سَتْرُهُمْ ، فَيَعْرِفُ النَّبِيُّ وَالْمُؤْمِنُونَ كُنْهَ أَمْرِهِمْ ، وَيُثْبِتُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً مِنَ الزَّادِ وَالرَّاحِلَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُعَدُّ لِمِثْلِ هَذَا السَّفَرِ الْبَعِيدِ ، وَكَانُوا

مُسْتَطِيعِينَ لِذَلِكَ ، وَلَمْ يَفْعَلُوا كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ : وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ ، الِانْبِعَاثُ : مُطَاوِعُ الْبَعْثِ وَهُوَ إثَارَةُ الْإِنْسَانِ أَوْ الْحَيَوَانِ ، وَتَوْجِيهُهُ إلَى الشَّيْءِ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ كَبَعْثِ الرُّسُلِ ، أَوْ إزْعَاجٍ كَبَعْثِ الْبَعِيرِ فَانْبَعَثَ ، وَبَعَثَ اللَّهُ الْمَوْتَى . وَالتَّثْبِيطُ : التَّعْوِيقُ عَنْ الْأَمْرِ ، وَالْمَنْعُ مِنْهُ بِالتَّكْسِيلِ أَوْ التَّخْذِيلِ ، وَلَمْ تَرِدْ فِي التَّنْزِيلِ إلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ . وَالْمَعْنَى : كَرِهَ اللَّهُ نَفِيرَهُمْ وَخُرُوجَهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا سَيُذْكَرُ مِنْ ضَرَرِهِ الْعَائِقِ عَمَّا أَحَبَّهُ وَقَدَّرَهُ مِنْ نَصْرِهِمْ ، فَثَبَّطَهُمْ بِمَا أَحْدَثَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْخَوَاطِرِ وَالْمَخَاوِفِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي تَأْثِيرِ النِّفَاقِ ، فَلَمْ يَعُدُّوا لِلْخُرُوجِ عُدَّتَهُ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوهُ ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا بِالِاسْتِئْذَانِ سَتْرَ مَا عَزَمُوا عَلَيْهِ مِنَ الْعِصْيَانِ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ فِي هَذَا الْقِيلِ وُجُوهٌ أَحَدُهَا : أَنَّهُ تَمْثِيلٌ لِدَاعِيَةِ الْقُعُودِ الَّتِي هِيَ أَثَرُ التَّثْبِيطِ ، وَفِي مَعْنَاهُ أَنَّهُ أَمْرٌ قَدَرِيٌّ تَكْوِينِيٌّ لَا خِطَابٌ

(194/338)

كَلَامِيٌّ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ قَوْلُ الشَّيْطَانِ بِالْوَسْوَسَةِ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ . وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ حِكَايَةٌ لِإِذْنِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُمْ ، وَأَنَّهُ قَالَهُ بِعِبَارَةٍ تَدُلُّ عَلَى السُّخْطِ لَا عَلَى الرِّضَاءِ . إذْ مَعْنَاهُ : اقْعُدُوا مَعَ الْأَطْفَالِ وَالزَّمْنَى وَالْعَجَزَةِ وَالنِّسَاءِ ، فَأَخَذُوهُ عَلَى ظَاهِرِهِ لِمُوَافَقَتِهِ لِمُرَادِهِمْ .

وَيَحْتَجُّ الْمُجْبِرَةُ وَمِنْهُمُ الْأَشْعَرِيَّةُ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَيَتَأَوَّلُهَا هَؤُلَاءِ بِأَنَّهَا لَا تُنَافِي وُجُوبَ مُرَاعَاةِ الْمَصَالِحِ ، وَتَحْسِينِ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحِهِ ، وَمَذْهَبُنَا فِي أَمْثَالِهَا أَنَّهَا بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَرْتِيبِ الْأَعْمَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ ، عَلَى مَا يَبْعَثُ عَلَيْهَا مِنَ الْعَقَائِدِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ ، وَمُوَافَقَةُ ذَلِكَ هُنَا لِحِكْمَتِهِ وَعِنَايَتِهِ تَعَالَى بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَذَلِكَ تَوْفِيقُ أَقْدَارٍ لِأَقْدَارٍ ، فِي ضِمْنِ دَائِرَةِ الِاخْتِيَارِ ، فَلَا جَبْرَ وَلَا اضْطِرَارَ لِلْعَبْدِ ، وَلَا وُجُوبَ عَلَى الرَّبِّ ، فَالْحِكْمَةُ وَالرَّحْمَةُ وَمَا فِي شَرْعِهِ مِنْ مُوَافَقَةِ الْمَصَالِحِ

وَدَرْءِ الْمَفَاسِدِ مِمَّا يَجِبُ لَهُ ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ وَكَتَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ كَالرَّحْمَةِ .

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ

(195/338)

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَيَانِ حَالِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَا كَانَتْ تَكُونُ عَلَيْهِ لَوْ خَرَجُوا ، وَالتَّذْكِيرُ بِمَا كَانَ مِنْ أَحْوَالِهِمُ السَّابِقَةِ الدَّالَّةِ عَلَى ذَلِكَ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا هَذَا الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَمْرِهِمْ إِلَى خِطَابِ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ مَعَهُ ، يَقُولُ : لَوْ خَرَجَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمُسْتَأْذِنُونَ فِي الْقُعُودِ فِي

جَمَاعَتِكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مَا زَادُوكُمْ شَيْئًا مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خَبَالًا ، أَيْ : اضْطِرَابًا فِي الرَّأْيِ ، وَفَسَادًا فِي الْعَمَلِ ، وَضَعْفًا فِي الْقِتَالِ ، وَخَلَلًا فِي النِّظَامِ ؛ فَإِنَّ الْخَبَالَ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ : هُوَ الْفَسَادُ الَّذِي يَلْحَقُ الْحَيَوَانَ فَيُورِثُهُ اضْطِرَابًا كَالْجُنُونِ ، وَالْمَرَضِ الْمُؤَثِّرِ فِي الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ . وَالْمُرَادُ : مَا زَادُوكُمْ قُوَّةً وَمَنَعَةً وَإِقْدَامًا ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الْقُوَّةِ الْعَدَدِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ فِي الْعَقِيدَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، بَلْ ضَعْفًا وَفَشَلًا وَمَفْسَدَةً ، كَمَا حَصَلَ فِي غَزْوَةِ حُنَيْنٍ ؛ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ وَلَّوُا الْأَدْبَارَ فِي أَوَّلِ الْمَعْرَكَةِ ، وَتَبِعَهُمْ ضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ طُلَقَاءِ فَتْحِ مَكَّةَ ، فَاضْطَرَبَ لِذَلِكَ الْجَيْشُ كُلُّهُ ، وَفَسَدَ نِظَامُهُ ، فَوَلَّى أَكْثَرُ الْمُؤْمِنِينَ مَعَهُمْ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا تَدَبُّرٍ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ جَمَاعَاتِ الْبَشَرِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ .

(196/338)

وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ ، الْوَضْعُ وَالْإِيضَاعُ كَمَا فِي التَّاجِ : أَهْوَنُ سَيْرِ الدَّوَابِّ ، وَقِيلَ : ضَرْبٌ مِنْ سَيْرِ الْإِبِلِ دُونَ الشَّدِّ ، وَقِيلَ : هُوَ فَوْقَ الْخَبَبِ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَيُقَالُ : وَضَعَ الرَّجُلُ إِذَا عَدَى أَيْ : أَسْرَعَ وَهُوَ مَجَازٌ ، وَيُقَالُ : أَوْضَعَ رَاحِلَتَهُ اهـ .

وَخِلَالُ الْأَشْيَاءِ : مَا يَفْصِلُ بَيْنَهَا مِنْ فُرُوجٍ وَنَحْوِهَا ، وَالْمَعْنَى : وَلَأَوْضَعُوا رَكَائِبَهُمْ - أَوْ - وَلَأَسْرَعُوا فِي الدُّخُولِ فِي خِلَالِكُمْ وَمَا بَيْنَكُمْ سَعْيًا بِالنَّمِيمَةِ ، وَتَفْرِيقِ الْكَلِمَةِ يَبْغُونَكُمُ

الْفِتْنَةَ أَيْ : حَالَ كَوْنِهِمْ يَبْغُونَ بِذَلِكَ أَنْ يَفْتِنُوكُمْ بِالتَّشْكِيكِ فِي الدِّينِ ، وَالتَّثْبِيطِ عَنِ الْقِتَالِ ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ قُوَّةِ الْأَعْدَاءِ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ أَيْ : وَفِيكُمْ أُنَاسٌ مِنْ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ أَوْ ضُعَفَاءِ الْعَزْمِ وَالْعَقْلِ كَثِيرُو السَّمْعِ لَهُمْ ؛ لِاسْتِعْدَادِهِمْ لِقَبُولِ وَسْوَسَتِهِمْ ، وَقِيلَ : أُنَاسٌ نَمَّامُونَ يَسْمَعُونَ لِأَجْلِهِمْ مَا يَعْنِيهِمْ

مِنْ أَقْوَالِكُمْ فَيُلْقُونَهَا إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ بَعِيدٌ وَإِنْ رَجَّحَهُ الطَّبَرِيُّ وَقَدَّمَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَسَمَاعُ التَّشْدِيدِ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لَا يَخْتَصُّ بِمَا قَالَهُ الطَّبَرِيُّ فِيهَا ؛ فَإِنَّ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ اسْتَأْذَنُوا لَمْ يَكُونُوا مَعْرُوفِينَ مُتَمَيِّزِينَ بِحَيْثُ تَكُونُ لَهُمْ هَيْئَةٌ مُجْتَمِعَةٌ فِي الْجَيْشِ تَتَّخِذُ الْجَوَاسِيسَ لِتَنْظِيمِ عَمَلِهَا .

(197/338)

وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَغَيْرِهِمْ ، أَيْ : مُحِيطٌ عِلْمًا بِذَوَاتِهِمْ وَسَرَائِرِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ ، وَبِمَا هُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ مِمَّا وَقَعَ ، وَمِمَّا لَمْ يَقَعْ وَلَا يَقَعُ ، كَكَوْنِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ لَا يَزِيدُونَ الْمُؤْمِنِينَ لَوْ خَرَجُوا فِيهِمْ إِلَّا خَبَالًا إِلَخْ . فَهُوَ كَقَوْلِهِ فِي حُلَفَاءِ الْيَهُودِ مِنْهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يُغْرُونَهُمْ بِعَدَاوَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيُغْرُونَهُمْ بِمَا يَعِدُونَهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِهِمْ عَلَيْهِ الَّذِي حَكَاهُ عَنْهُمْ فِي سُورَةِ الْحَشْرِ وَكَذَّبَهُمْ فِيهِ بِقَوْلِهِ : لَئِنْ

أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (59 : 12) فَأَحْكَامُهُ تَعَالَى فِيهِمْ عَلَى عِلْمٍ تَامٍّ ، لَيْسَ فِيهَا ظَنٌّ ، وَلَا اجْتِهَادٌ كَاجْتِهَادِ الرَّسُولِ فِي الْإِذْنِ لَهُمْ ، الَّذِي تُثْبِتُ هَذِهِ الْآيَةُ نَفْسُهَا أَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلٍ صَحِيحٍ ، وَهُوَ أَنَّ خُرُوجَهُمْ شَرٌّ لَا خَيْرٌ ، وَضَعْفٌ لَا قُوَّةٌ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْلَمُ أَنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ إذَا لَمْ يَأْذَنْ لَهُمْ ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنَ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَمَنْ أَعْلَمَهُ اللَّهُ ، وَلَمْ يُعْلِمْهُ تَعَالَى بِذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ .

(198/338)

فَاجْتِهَادُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِيهِمْ كَاجْتِهَادِهِ فِي الْإِعْرَاضِ عَنِ الْأَعْمَى (عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ) عِنْدَمَا جَاءَهُ وَهُوَ يَدْعُو أَكَابِرَ رِجَالِ قُرَيْشٍ إلَى الْإِسْلَامِ ،
وَقَدْ لَاحَ لَهُ بَارِقَةُ رَجَاءٍ فِي إيمَانِهِمْ بِتَحَدُّثِهِمْ مَعَهُ ، فَإِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلِمَ أَنَّ إقْبَالَهُ عَلَيْهِ يُنَفِّرُهُمْ ، وَيَقْطَعُ عَلَيْهِ طَرِيقَ دَعْوَتِهِمْ ، وَكَانَ يَرْجُو بِإِيمَانِهِمُ انْتِشَارَ الْإِسْلَامِ فِي جَمِيعِ الْعَرَبِ فَتَوَلَّى عَنْهُ ، وَتَلَهَّى بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ قَبْلَ إعْلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ سُنَّتَهُ فِي الْبَشَرِ أَنْ يَكُونَ أَوَّلُ مَنْ يَتَّبِعُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمُصْلِحِينَ فُقَرَاءَ الْأُمَمِ وَأَوْسَاطَهَا ، دُونَ أَكَابِرِ

مُجْرِمِيهَا الْمُتْرَفِينَ وَرُؤَسَائِهَا الَّذِينَ يَرَوْنَ فِي اتِّبَاعِ غَيْرِهِمْ ضَعَةً بِذَهَابِ رِيَاسَتِهِمْ ، وَمُسَاوَاتِهِمْ لِمَنْ دُونَهُمْ إِلَخْ . فَيَكْفُرُونَ عِنَادًا وَيَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ اسْتِكْبَارًا لَا اعْتِقَادًا .

(199/338)

وَكَانَ مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي تَرْبِيَةِ رَسُولِهِ وَتَكْمِيلِهِ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُ بَعْضَ الْحَقَائِقِ بَعْدَ اجْتِهَادِهِ الشَّخْصِيِّ الْبَشَرِيِّ فِيهَا ؛ لِتَكُونَ أَوْقَعَ فِي نَفْسِهِ وَأَنْفَسَ أَتْبَاعِهِ ، فَيَحْرِصُوا عَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهَا ، وَلَا يُبِيحُوا لِأَنْفُسِهِمْ تَحْكِيمَ آرَائِهِمْ أَوْ أَهْوَائِهِمْ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ كَانَ سَلَفُنَا الصَّالِحُونَ الَّذِينَ أَوْرَثَهُمُ اللَّهُ بِهِدَايَةِ كِتَابِهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا ، فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ تَرَكُوهَا ، فَغَلَبَ عَلَيْهِمُ الْجَهْلُ وَالنِّفَاقُ ، فَسَلَبَهُمْ ذَلِكَ الْمُلْكَ الْعَظِيمَ ، فَهَلْ يَفْقَهُ أَهْلُ عَصْرِنَا وَيَعْتَبِرُونَ ؟ وَمَتَى يَتَدَبَّرُونَ وَيَهْتَدُونَ ؟ .

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ أَيْ : تَاللَّهِ لَقَدِ ابْتَغَى هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ إِيقَاعَ الْفِتْنَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ

(200/338)

مِنْ قَبْلِ هَذَا الْعَهْدِ - عَهْدِ غَزْوَةِ تَبُوكَ - وَأَوَّلُهُ مَا كَانَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا (3 : 122) وَذَلِكَ أَنَّهُمْ لَمَّا خَرَجُوا إِلَى أُحُدٍ اعْتَزَلَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ زَعِيمُ الْمُنَافِقِينَ بِنَحْوِ ثُلُثِ الْجَيْشِ فِي مَوْضِعٍ يُسَمَّى الشَّوْطَ ، بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَأُحُدٍ ، وَطَفِقَ يَقُولُ لَهُمْ فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَطَاعَهُمْ وَعَصَانِي . وَفِي رِوَايَةٍ : أَطَاعَ الْوِلْدَانَ وَمَنْ لَا رَأْيَ لَهُ ، فَمَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا ؟ وَكَانَ رَأْيُ ابْنِ أُبَيٍّ لَعَنَهُ اللَّهُ عَدَمَ الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ ، وَرَأْيُ الْجُمْهُورِ - وَلَا سِيَّمَا الشُّبَّانُ - الْخُرُوجَ فَعَمِلَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِرَأْيِ الْأَكْثَرِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ خِلَافَ رَأْيِهِ أَيْضًا ، فَرَجَعَ ابْنُ أُبَيٍّ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَادَ يَفْشَلُ بَنُو سَلَمَةَ مِنَ الْأَوْسِ وَبَنُو حَارِثَةَ مِنَ الْخَزْرَجِ بِقَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، فَعَصَمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْفِتْنَةِ بِفَضْلِهِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا (3 : 122) وَتَقَدَّمَ تَفْصِيلُ ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ عَلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ مِنْ تَفْسِيرِ الْجُزْءِ الرَّابِعِ .

(201/338)

وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أَيْ : دَبَّرُوا لَكَ الْحِيَلَ وَالْمَكَايِدَ ، وَدَوَّرُوا الْآرَاءَ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِهَا لِإِبْطَالِ دِينِكَ ، وَفَضِّ قَوْمِكَ مِنْ حَوْلِكَ ، فَإِنَّ تَقْلِيبَ الشَّيْءِ تَصْرِيفُهُ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنْ وُجُوهِهِ ، وَالنَّظَرُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ أَنْحَائِهِ ؛ لِيُعْلَمَ أَيُّهَا الْأَوْلَى بِالِاخْتِيَارِ . وَمَا زَالَ لِهَؤُلَاءِ

الْمُنَافِقِينَ ضِلْعٌ مَعَ الْيَهُودِ ، وَضِلْعٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ ، فِي كُلِّ مَا فَعَلَا مِنْ عَدَاوَتِكَ وَقِتَالِ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ بِالنَّصْرِ الَّذِي وَعَدَكَ بِهِ رَبُّكَ ، وَكَانُوا بِهِ يَمْتَرُونَ ، وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ أَيْ : ظَهَرَ دِينُ اللَّهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بِالتَّنْكِيلِ بِالْيَهُودِ الْغَادِرِينَ ، وَالنَّصْرِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، وَإِبْطَالِ الشِّرْكِ بِفَتْحِ مَكَّةَ ، وَدُخُولِ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ أَفْوَاجًا ، وَهُمْ كَارِهُونَ لِذَلِكَ ، حَتَّى كَانُوا بَعْدَ الْفَتْحِ يُمَنُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِظُهُورِ الْمُشْرِكِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي حُنَيْنٍ .

(202/338)

وَقَدْ رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ وَالطَّبَرِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ إِسْحَاقَ عَنِ الزُّهْرِيِّ وَيَزِيدَ بْنِ رُومَانَ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ وَعَاصِمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ ، كُلٌّ قَدْ حَدَّثَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ مَا بَلَغَهُ عَنْهَا ، وَبَعْضُ الْقَوْمِ يُحَدِّثُ مَا لَمْ يُحَدِّثْ بَعْضٌ ، وَكُلٌّ قَدِ اجْتَمَعَ حَدِيثُهُ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَرَ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ ، وَذَلِكَ فِي زَمَانِ عُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ ، وَشِدَّةِ الْحَرِّ ، وَجَدْبٍ مِنَ الْبِلَادِ . وَحِينَ طَابَ الثَّمَرُ ، وَأُحِبَّتِ الظِّلَالُ ، وَالنَّاسُ يُحِبُّونَ الْمَقَامَ فِي ثِمَارِهِمْ وَظِلَالِهِمْ ، وَيَكْرَهُونَ الشُّخُوصَ عَنْهَا عَلَى الْحَالِ مِنَ الزَّمَانِ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَلَّمَا يَخْرُجُ فِي غَزْوَةٍ إِلَّا كَنَّى عَنْهَا ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُ يُرِيدُ غَيْرَ الَّذِي يُصْمِدُ لَهُ ، إِلَّا مَا كَانَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فَإِنَّهُ بَيَّنَهَا لِلنَّاسِ

لِبُعْدِ الشُّقَّةِ ، وَشِدَّةِ الزَّمَانِ ، وَكَثْرَةِ الْعَدُوِّ الَّذِي

صَمَدَ لَهُ ؛ لِيَتَأَهَّبَ النَّاسُ لِذَلِكَ أُهْبَتَهُ ، فَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجِهَادِ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُ يُرِيدُ الرُّومَ ،

فَتَجَهَّزَ النَّاسُ عَلَى مَا فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْكُرْهِ لِذَلِكَ

(203/338)

الْوَجْهِ ، لِمَا فِيهِ مَعَ مَا عَظَّمُوا مِنْ ذِكْرِ الرُّومِ وَغَزْوِهِمْ ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَدَّ فِي سَفَرِهِ فَأَمَرَ النَّاسَ بِالْجِهَازِ وَالِانْكِمَاشِ ، وَحَضَّ أَهْلَ الْغِنَى عَلَى النَّفَقَةِ وَالْحِمْلَانِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضَرَبَ عَسْكَرَهُ عَلَى ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ ، وَضَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ عَسْكَرَهُ عَلَى ذِي حِدَةٍ أَسْفَلَ مِنْهُ نَحْوَ ذُبَابِ جَبَلٍ بِالْجَبَّانَةِ أَسْفَلَ مِنْ ثَنِيَّةِ الْوَدَاعِ ، وَكَانَ فِيمَا يَزْعُمُونَ لَيْسَ بِأَقَلِّ الْعَسْكَرَيْنِ ، فَلَمَّا سَارَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَخَلَّفَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ فِيمَنْ تَخَلَّفَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَهْلِ الرِّيَبِ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَخَا بَنِي عَوْفِ بْنِ الْخَزْرَجِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ نَبْتَلٍ أَخَا بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَرِفَاعَةُ بْنُ يَزِيدَ بْنِ التَّابُوتِ أَخَا بَنِي قَيْنُقَاعَ ، وَكَانُوا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَانُوا مِمَّنْ يَكِيدُ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ ، قَالَ : وَفِيهِمْ - كَمَا ثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ : ثَنَا سَلَمَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ - أَنْزَلَ اللَّهُ :

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ الْآيَةَ اهـ . وَأَوَّلُ هَذَا التَّلْخِيصِ مُوَافِقٌ لِمَا لَخَّصْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَبَقِيَّةُ مَا ذَكَرَهُ عَنِ ابْنِ أُبَيٍّ وَعَسْكَرِهِ فِيهِ مُبَالَغَةٌ أَشَارَ الطَّبَرِيُّ إِلَى عَدَمِ ثِقَتِهِ بِهَا بِقَوْلِهِ : (فِيمَا يَزْعُمُونَ) وَتَقَدَّمَتْ رِوَايَةُ مَنْ قَالَ :

(204/338)

إِنَّ الْمُتَخَلِّفِينَ 36 رَجُلًا .

وَزَعَمَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْفِتْنَةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مُحَاوَلَةُ الْمُنَافِقِينَ اغْتِيَالَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ خُرُوجِهِمْ هَذَا . وَالصَّوَابُ أَنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ وَقَعَتْ فِي أَثْنَاءِ الْعَوْدَةِ مِنْ تَبُوكَ ، وَهِيَ الْمُشَارُ إِلَيْهَا فِي آيَةِ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا (74) وَسَيَأْتِي بَيَانُهَا .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ

وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ

(205/338)

هَذَا شُرُوعٌ فِي بَيَانِ حَالِ أُنَاسٍ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ بِأَقْوَالٍ قَالُوهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ جَهْرًا وَأُمُورٍ أَكَنُّوهَا فِي أَنْفُسِهِمْ سِرًّا ، وَأَقْوَالٍ سَيَقُولُونَهَا ، وَأَقْسَامٍ سَيُقْسِمُونَهَا ، وَأَعْذَارٍ سَيَعْتَذِرُونَهَا غَيْرَ مَا سَبَقَ مِنْهُمْ ، وَشُئُونٍ عَامَّةٍ فِيهِمْ - أَكْثَرُهَا مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ - مَعَ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ وَيُنَاسِبُهُ مِنَ الْحُكْمِ وَالْأَحْكَامِ ، وَالْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي هَذَا بَيَانٌ لِأَوَّلِ اسْتِئْذَانٍ مُعَيَّنٍ وَقَعَ مِنْ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ فِي التَّخَلُّفِ ، وَاتَّفَقَتِ الرِّوَايَاتُ عَلَى أَنَّ جَدَّ بْنَ قَيْسٍ مِنْ شُيُوخِهِمْ قَالَ هَذَا لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَوَّلِ عَهْدِ الدَّعْوَةِ لِلْغَزْوَةِ ، وَأَثْنَاءِ التَّجْهِيزِ لِلسَّفَرِ ، وَرُوِيَ أَنَّ غَيْرَهُ مِنْهُمْ قَالَ لَمَّا دَعَاهُمْ إِلَى تَبُوكَ : إِنَّهُ لَيَفْتِنُكُمْ بِالنِّسَاءِ . أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي الْمَعْرِفَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا أَرَادَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَخْرُجَ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ لِجَدِّ بْنِ قَيْسٍ : " مَا تَقُولُ فِي مُجَاهَدَةِ بَنِي الْأَصْفَرِ " ؟ قَالَ : إِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ أُفْتَنَ ، فَأْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي . وَرَوَى ابْنُ حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ لِجَدِّ

بْنِ قَيْسٍ : "يَا جِدُّ هَلْ لَكَ فِي جِلَادِ بَنِي الْأَصْفَرِ " ؟ قَالَ جِدٌّ : أَتَأْذَنُ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنِّي رَجُلٌ أُحِبُّ النِّسَاءَ ، وَإِنِّي أَخْشَى إِنْ رَأَيْتُ نِسَاءَ بَنِي الْأَصْفَرِ أَنْ أُفْتَتَنَ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ مُعْرِضٌ عَنْهُ : " قَدْ أَذِنْتُ لَكَ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ

(207/338)

الْآيَةَ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ قَوْلِهِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِاسْتِحْضَارِ تِلْكَ الْحَالِ لِغَرَابَتِهَا ، فَإِنَّ مِثْلَهُ فِي نِفَاقِهِ لَا يَخْشَى عَلَى نَفْسِهِ إِثْمَ الِافْتِتَانِ بِالنِّسَاءِ إِذْ لَا يَجِدُ مِنْ دِينِهِ مَانِعًا مِنَ التَّمَتُّعِ بِهِنَّ وَهُوَ يُحِبُّهُنَّ ، بَلْ شَأْنُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ مُرَغِّبًا لَهُ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ . وَقَدْ رَدَّ اللَّهُ شُبْهَتَهُ وَشُبْهَةَ مَنْ وَافَقَهُ عَلَيْهَا وَرَدَّدُوا مَعْنَاهَا بِقَوْلِهِ : أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا بَدَأَ الرَّدَّ عَلَى قَائِلِي هَذَا الْقَوْلِ بِأَدَاةِ الِافْتِتَاحِ (أَلَا) الْمُفِيدَةِ لِلتَّنْبِيهِ وَالتَّأَمُّلِ فِيمَا بَعْدَهَا ؛ وَلِتَحْقِيقِ مَضْمُونِهِ إِنْ كَانَ خَبَرًا لِتَوْجِيهِ السَّمْعِ وَالْقَلْبِ لَهُ ، وَعَبَّرَ عَنِ افْتِتَانِهِمْ بِالسُّقُوطِ فِي الْفِتْنَةِ لِلْمُبَالَغَةِ ، وَقَدَّمَ الظَّرْفَ : فِي الْفِتْنَةِ عَلَى عَامِلِهِ : (سَقَطُوا) لِلدَّلَالَةِ عَلَى الْحَصْرِ ، يَقُولُ : أَلَا فَلْيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ سَقَطُوا وَتَرَدَّوْا بِهَذَا الْقَوْلِ فِي هَاوِيَةِ الْفِتْنَةِ بِأَوْسَعِ مَعْنَاهَا ، لَا فِي شَيْءٍ آخَرَ مِنْ شُبُهَاتِهَا أَوْ مُشَابِهَاتِهَا ، مِنْ

حَيْثُ يَزْعُمُونَ اتِّقَاءَ التَّعَرُّضِ لِشُبْهَةِ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهَا ، وَهُوَ الْإِثْمُ بِالنَّظَرِ إِلَى جَمَالِ نِسَاءِ الرُّومِ ، وَاشْتِغَالِ الْقَلْبِ بِجَمَالِهِنَّ ، فَتَرَدَّوْا فِي شَرٍّ مِمَّا اعْتَذَرُوا بِهِ .

(208/338)

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ هَذَا وَعِيدٌ لَهُمْ عَلَى الْفِتْنَةِ الَّتِي تَرَدَّوْا فِيهَا ، وُضِعَ فِيهِ الْمُظْهَرُ مَوْضِعَ ضَمِيرِهِمْ لِلنَّصِّ عَلَى أَنَّ عِقَابَهُمْ بِإِحَاطَةِ جَهَنَّمَ بِهِمْ عِقَابٌ عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الِاعْتِذَارِ ، الَّذِي هُوَ ذَنْبٌ فِي نَفْسِهِ كَانَ أَقْصَى عِقَابِهِ مَسَّ النَّارِ دُونَ إِحَاطَتِهَا لَوْ لَمْ يَكُنْ سَبَبُهُ الْكُفْرَ بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنْ حُكْمِ الْجِهَادِ وَثَوَابِهِ وَالْعِقَابِ عَلَى تَرْكِهِ ، أَوِ الشَّكِّ

فِي ذَلِكَ كَمَا قَالَ آنِفًا : وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ (45) وَقَلَّمَا يَكُونُ الْكُفْرُ إِلَّا شَكًّا أَوْ ظَنًّا ، فَإِنْ رَأَيْتَ صَاحِبَهُ مُوقِنًا فِيهِ فَاعْلَمْ أَنَّ يَقِينَهُ سُكُونُ النَّفْسِ إِلَيْهِ عَنْ جَهْلٍ لَا عَنْ عِلْمٍ ، وَالْمُرَادُ : أَنَّ جَهَنَّمَ سَتَكُونُ مُحِيطَةً بِهِمْ جَامِعَةً لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّمَا عَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِاسْمِ الْفَاعِلِ الدَّالِّ عَلَى الْحَالِ ؛ لِإِفَادَةِ تَحَقُّقِ ذَلِكَ حَتَّى كَأَنَّهُ وَاقِعٌ مُشَاهَدٌ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّهَا مُحِيطَةٌ بِهِمُ الْآنَ ؛ لِأَنَّ أَسْبَابَ الْإِحَاطَةِ مَعَهُمْ فَكَأَنَّهُمْ فِي وَسَطِهَا . قَالَهُ الزَّمَخْشَرِيُّ .

وَإِنَّمَا تُحِيطُ النَّارُ بِمَنْ أَحَاطَتْ بِهِ خَطَايَاهُ حَتَّى لَا رَجَاءَ فِي تَوْبَتِهِ : بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (2 : 81) .

(209/338)

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، الْمُتَبَادِرُ أَنَّ هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ شَأْنِهِمْ فِي مَاضِيهِمْ وَحَاضِرِهِمْ وَمُسْتَقْبَلِهِمْ ، وَالْحَسَنَةُ كُلُّ مَا يَحْسُنُ وَقْعُهُ وَيَسُرُّ مِنْ غَنِيمَةٍ وَنُصْرَةٍ وَنِعْمَةٍ ، أَيْ أَنَّهُ يَسُوءُهُمْ كُلُّ مَا يَسُرُّكَ ، مَا سَاءَهُمُ النَّصْرُ فِي بَدْرٍ وَغَيْرِ بَدْرٍ مِنَ الْغَزَوَاتِ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ أَيْ : نَكْبَةٌ وَشِدَّةٌ كَالَّذِي وَقَعَ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ أَيْ : قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا بِالْحَزْمِ وَالْحَذَرِ الَّذِي هُوَ دَأْبُنَا مِنْ قَبْلِ وُقُوعِهَا إِذْ تَخَلَّفْنَا عَنِ الْقِتَالِ ، وَلَمْ نُلْقِ بِأَيْدِينَا إِلَى الْهَلَاكِ : وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ أَيْ : وَيَنْصَرِفُوا عَنِ الْمَوْضِعِ الَّذِي يَقُولُونَ فِيهِ هَذَا الْقَوْلَ عِنْدَ بُلُوغِهِمْ خَبَرُ الْمُصِيبَةِ إِلَى أَهْلِيهِمْ ، أَوْ يُعْرِضُوا عَنْكَ بِجَانِبِهِمْ وَهُمْ فَرِحُونَ فَرَحَ الْبَطَرِ وَالشَّمَاتَةِ . وَتَقَدَّمَ فِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُهُ : إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ (3 : 120) الْآيَةَ وَهِيَ فِي سِيَاقِ غَزْوَةِ أُحُدٍ .

(210/338)

وَقَدْ وَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْآيَةَ خَبَرٌ عَنْ مُسْتَقْبَلِ الْأَمْرِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ .

رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : إِنَّ تُصِبْكَ فِي سَفَرِكَ هَذَا لِغَزْوَةِ تَبُوكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، قَالَ : الْجَدُّ وَأَصْحَابُهُ . وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : جَعَلَ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا فِي الْمَدِينَةِ يُخْبِرُونَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخْبَارَ السُّوءِ ، يَقُولُونَ : إِنَّ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ قَدْ جَهِدُوا فِي سَفَرِهِمْ وَهَلَكُوا فَبَلَغَهُمْ تَكْذِيبُ خَبَرِهِمْ وَعَافِيَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ فَسَاءَهُمْ ذَلِكَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، الْآيَةَ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ فِي الْآيَةِ قَالَ : إِنْ أَظْفَرَكَ اللَّهُ وَرَدَّكَ سَالِمًا سَاءَهُمْ ذَلِكَ ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا : قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا فِي الْقُعُودِ قَبْلَ أَنْ تُصِيبَهُمْ ، وَالْأَوَّلُ أَبْلَغُ وَهُوَ يَشْمَلُ هَذَا وَغَيْرَهُ .

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا أَيْ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَفْرَحُهُمْ مُصِيبَتُكَ ، وَتَسُوءُهُمْ نِعْمَتُكَ وَغَنِيمَتُكَ ، لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَهُ اللَّهُ وَأَوْجَبَهُ لَنَا بِوَعْدِهِ فِي كِتَابِهِ ، وَتَقْدِيرِهِ لِنِظَامِ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، مِنْ نَصْرٍ وَغَنِيمَةٍ وَتَمْحِيصٍ وَشَهَادَةٍ ، وَضَمَانٍ لِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ هُوَ مَوْلَانَا أَيْ : هُوَ وَحْدَهُ مَوْلَانَا

يَتَوَلَّانَا بِالتَّوْفِيقِ وَالنَّصْرِ ، وَنَتَوَلَّاهُ بِاللَّجَأِ إِلَيْهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، فَلَا نَيْأَسُ عِنْدَ شِدَّةٍ ، وَلَا نَبْطَرُ عِنْدَ نِعْمَةٍ ، وَقَدْ قَالَ لَنَا فِي وَعْدِهِ : وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (8 : 39 و40) وَقَالَ فِي بَيَانِ سُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ : أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (47 : 10 و11) وَقَالَ فِي سُنَّتِهِ فِي الْعَوَاقِبِ : إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (7 : 128) .

(212/338)

وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ أَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، أَيْ : وَإِذَا كَانَ اللَّهُ هُوَ مَوْلَاهُمْ فَحَقٌّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَتَوَكَّلُوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ دُونَ غَيْرِهِ ، مَعَ الْقِيَامِ بِمَا أَوْجَبَهُ عَلَيْهِمْ فِي شَرْعِهِ ، وَالِاهْتِدَاءِ بِسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمِنْهَا مَا أَخْبَرَهُمْ بِهِ مِنْ أَسْبَابِ النَّصْرِ الْمَادِّيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ الَّتِي فَصَّلَهَا فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَغَيْرِهَا ، كَإِعْدَادِ مَا تَسْتَطِيعُ الْأُمَّةُ مِنْ قُوَّةٍ ، وَاتِّقَاءِ التَّنَازُعِ الَّذِي يُوَلِّدُ الْفَشَلَ ، وَيُفَرِّقُ الْكَلِمَةَ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَكِلُوا إِلَيْهِ تَوْفِيقَهُمْ لِمَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ النَّجَاحُ ، وَتَسْهِيلَ أَسْبَابِهِ الَّتِي

لَمْ يَصِلْ إِلَيْهَا كَسْبُهُمْ ، وَمَا أَجْهَلَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ التَّوَكُّلَ وَكِتَابَةَ الْمَقَادِيرِ ، يَقْتَضِيَانِ تَرْكَ الْعَمَلِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَقَدْ بَسَطْنَا الْقَوْلَ فِي الْأَمْرَيْنِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ ، وَيُقَابِلُ التَّوَكُّلُ عَلَيْهِ تَعَالَى بِالْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ وَمَا أَيَّدَهُ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللهِ ، اتِّكَالَ الْمَادِّيِّينَ عَلَى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ وَحْدَهَا ، حَتَّى إِذَا مَا أَدْرَكَهُمُ الْعَجْزُ وَخَانَتْهُمُ الْقُوَّةُ أَمَامَ قُوَّةٍ تَفُوقُهَا ، خَانَهُمُ الصَّبْرُ وَأَدْرَكَهُمُ الْيَأْسُ ؛ إِذْ لَيْسَ لَهُمْ مَا لِلْمُؤْمِنِينَ مِنَ التَّوَكُّلِ عَلَى ذِي الْقُوَّةِ الَّتِي لَا تَعْلُوهَا قُوَّةٌ – وَشَرٌّ مِنْهُ اتِّكَالُ الْخَرَافِيِّينَ عَلَى الْأَوْهَامِ ، وَتَعَلُّقُ آمَالِهِمْ بِالْأَمَانِي وَالْأَحْلَامِ ، حَتَّى إِذَا مَا انْكَشَفَتْ أَوْهَامُهُمْ ، وَكَذَبَتْ أَحْلَامُهُمْ ، وَخَابَتْ آمَالُهُمْ ،

(213/338)

نَكَّسُوا رُؤُوسَهُمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَاسْتَكَانُوا لِأَعْدَائِهِمْ ، وَكَفَرُوا بِوَعْدِ رَبِّهِمْ بِنَصْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَعْدُ اللهِ أَصْدَقُ مِنْ دَعْوَاهُمُ الْإِيمَانَ ، وَإِنَّمَا وَعَدَ بِالنَّصْرِ أَوْلِيَاءَهُ لَا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 10 صـ 400.414 ﴾

(214/338)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ﴾

تلقين جواب لقولهم : ﴿ قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ [التوبة : 50] المنبىء عن فرحهم بما ينال المسلمين من مصيبة بإثبات عدم اكتراث المسلمين بالمصيبة وانتفاء حزنهم عليها لأنهم يعلمون أن ما أصابهم ما كان إلاّ بتقدير الله لمصلحة المسلمين في ذلك ، فهو نفع محض كما تدلّ عليه تعدية فعل ﴿ كتب ﴾ باللام المؤذنة بأنّه كتب ذلك لنفعهم وموقع هذا الجواب هو أن العدوّ يفرح بمصاب عدوّه لأنّه ينكد عدوّه ويُحزنه ، فإذا علموا أنّ النبي لا يحزَن لما أصابه زال فرحهم .

وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق : وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم لئلا يهنو وتذهب قوتهم ، كما قال تعالى : ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله ﴾ [آل عمران : 139 ، 140] .

وأن يرضوا بما قدر الله لهم ويرجوا رضى ربّهم لأنهم واثقون بأنّ الله يريد نصر دينه .

وجملة ﴿ هو مولانا ﴾ في موضع الحال من اسم الجلالة ، أو معترضة أي لا يصيبنا إلا ما قدره الله لنا ، ولنا الرجاء بأنّه لا يكتب لنا إلا ما فيه خيرنا العَاجل أو الآجل ، لأن المولى لا يرضى لمولاه الخزي .

وجملة ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ يجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ قل ﴾

فهي من كلام الله تعالى خبراً في معنى الأمر ، أي قل ذلك ولا تتوكّلوا إلا على الله دون نصرة هؤلاء ، أي اعتمدوا على فضله عليكم .

ويجوز أن تكون معطوفة على جملة ﴿ لن يصيبنا ﴾ أي قل ذلك لهم ، وقل لهم إن المؤمنين لا يتوكّلون إلا على الله ، أي يؤمنون بأنّه مؤيّدهم ، وليس تأييدهم بإعانتكم ، وتفصيل هذا الإجمال في الجملة التي بعدها .

والفاء الداخلة على ﴿ فليتوكل المؤمنون ﴾ فاء تدلّ على محذوف مفرّع عليه اقتضاه تقديم المعمول ، أي على الله فليتوكّل المؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(215/338)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ الحديث هنا عما يصيب الإنسان أو ما يحدث له ، فإن حدث للإنسان شيء يأتي منه خير ، يكون بالنسبة له حسنة ؛ وإن أتى منه شر يكون من وجهة نظره سيئة ، إذن فالإصابة هي التقاء هدف بغاية ، إذا تحقق الهدف وجاء بخير

فهو حسنة ، وإن جاء بِشَرٍّ فهو سيئة . والمصائب نوعان : مصيبة للنفس فيها غريم ، ومصيبة ليس فيها غريم ، فإن اعتدى عليّ واحد بالضرب مثلاً يصبح غريمي ، وتتولد في قلبي حفيظة عليه ، وغيظ منه ، وأرغب في أن أرد عليه وأثأر لنفسي منه ، ولكن إن مرضت مثلاً فمن هو غريمي في المرض ؟ لا أحد .

إذن : فالمصائب نوعان ؛ نوع لي فيه غريم ، ونوع لا يوجد لي غريم يمتلئ قلبي عليه بالحقد ، ويرغِّبنا الحق سبحانه وتعالى في عدم الحقد والعفو عن مثل هذا الغريم ، فيقول : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134]

وهنا ثلاث مراحل : الأولى كظم الغيظ ، والثانية هي العفو ، والثالثة هي أن تحسن ؛ فترتقي إلى مقام من يحبهم الله وهم المحسنون .

وكذلك يقول الحق : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43]

أي : من صبر على ما أصابه ، وغفر لغريمه وعدوه ، فالصبر والمغفرة من الأمور التي تحتاج إلى عزم وقوة حتى يطوّع الإنسان نفسه على العفو وعدم الانتقام .

أما المصائب التي ليس للإنسان فيها غريم فهي لا تحتاج إلى ذلك الجهد من النفس ، وإنما تحتاج إلى صبر فقط ، إذ لا حيلة للإنسان فيها . ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول في هذا اللون من المصائب : ﴿ واصبر على مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17]

لأن العزم المطلوب هنا أقل ، ولذلك لم تستخدم " لام التوكيد " التي جاءت في قوله تعالى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [الشورى : 43]

ولا بد أن نلتفت إلى قول الحق سبحانه عن المشاعر البشرية حين قال : ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عَنِ الناس والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134]

هذه الآية الكريمة تمثل مراحل ما يحدث في النفس ، فالمطلوب أولاً أن يكظم الإنسان غيظه ، أي أن الغيظ موجود في القلب ، ويتجدد كلما رأى الإنسان غريمه أمامه ، ويحتاج هذا من الإنسان أن يكظم غيظه كلما رآه ، ثم يرتقي المؤمن في انفعاله الإيماني ، فيأتي العفو ، وهذه مرحلة ثانية وهي أن يُخرِجَ الغيظ من قلبه ، ويحل بدلاً منه العفو .

ثم تأتي المرحلة الثالثة : ﴿ والله يُحِبُّ المحسنين ﴾ [آل عمران : 134]

أي : أن هذا إحسان يحبه الله ويجزي عليه ، وهو أن تحسن لمن أساء إليك ، فتنال حب الله ، وهذا من كمال الإيمان ؛ لأن العبيد كلهم عيال الله ، واضرب لنفسك المثل – ولله المثل الأعلى – هَبْ أنك دخلت البيت ، ووجدت أحد أولادك قد ضرب الثاني ، فمع من يكون قلبك وأنت رب البيت ؟ لا بد أن يكون قلبك مع المضروب ، لذلك تُرِبّتُ على كتفه

وتصالحه ، وقد تعطيه مالاً أو تشتري له شيئاً لترضيه ، أي أنك تحسن إليه .

وما دمنا كلنا عيال الله ، فإن اجترأ عبد على عبد فظلمه فالله يقف في صف المظلوم .

إذن فمن أساء إليك إنما يجعل الله إلى جانبك . أفلا يستحق في هذه الحالة أن ترد له هذه التحية بالإحسان إليه ؟

إن الولد الظالم يرى أخاه المظلوم وقد انتفع بعطف أبيه ، وقد يحصل الابن المظلوم على شيء يريده ، والظالم في هذه الحالة إنما يحلم أن يكون هو الذي حدث عليه الاعتداء ليحصل على بعض من الخير .

والحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يوصينا حين تأتي المصائب أن نرد على الكافرين ونقول :

(217/338)

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ وهكذا تُرَدُّ المسائل كلها إلى حكمة خالق الكون ومُدبِّر أمره ؛ فقد يحدث لي شيء أكرهه ؛ ولكنه في حقيقة الأمر يكون لصالحي ، فإن ضربني أبي لأنني أهمل مذاكرتي ، أيكون ذلك عقاباً لي أم لصالحي ؟

إن أنت نظرت إلى المستقبل والنجاح الذي سوف تحققه في الحياة إن ذاكرت ، فهذا العقاب

لصالحك وليس ضدك ، وكذلك لا بد أن نأخذ أحداث الله في كونه بالنسبة للمؤمنين ، فإن هُزموا في معركة ، فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يلفتهم إلى الخير في دينهم ؛ وإلى أنهم لا بد أن يعرفوا أن النصر له أسباب وهم لم يأخذوا بها ؛ فلهذا انهزموا .

ولله المثل الأعلى ، فنحن نجد الأستاذ – وهو يأخذ الكراسات من التلاميذ ليصحح لهم أخطاءهم – يعاقب المخطئ منهم ، وفي هذا تربية للتلاميذ .

إذن : إن رأيتم مصيبة قد نزلت بنا وظننتم أنها تسيئنا فاعلموا أننا نثق فيمن أجراها ، وأنه أجراها لحكمة تأديبية لنا ، وأن كل شيء مكتوب لنا لا علينا ، الذي كتبه وهو الحق سبحانه وتعالى هو القائل : ﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي . . . ﴾ [المجادلة : 21]

(218/338)

إذن : فنحن نعلم بإيماننا أن كل ما يصيبنا من الله هو الخير ، وأن هناك أحداثاً تتم للتأديب والتهذيب والتربية ، لنسير على المنهج الصحيح فلا نخرج عنه ، فالإنسان لا يربي إلا من يحب ، أما من لا يحب فهو لا يهتم بتربيته ، فما بالنا بحب الخالق لنا ؟ إن الأب إن دخل البيت ووجد في فنائه عدداً من الأولاد يلعبون الورق ؛ وبينهم ابنه ، فهو ينفعل على الابن ، ولكن إن دخل البيت ووجد أولاد الجيران يلعبون الورق فقد لا يلتفت إليهم ، فإذا أصابت

المسلمين ما يعتبره المنافقون والكافرون مصيبة يفرحون بها ، فهذا من غبائهم ؛ لأن كل ما كتبه الله هو لصالح المؤمنين به ، إما أدباً وإما ثواباً وإما ارتقاءً في الحياة ، ولذلك فهو خير ، ومن هنا كانت الآية الكريمة ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ وما كتب الله للمؤمنين إنما هو في صالحهم .

ثم يزيد الحق سبحانه وتعالى المعنى تأكيداً ؛ فيقول سبحانه : ﴿ هُوَ مَوْلاَنَا ﴾ وما دام الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتولى أمور المؤمنين وهو ناصرهم ، فالمولى الأعلى لا يسيء إلى مَنْ والاه ، ثم يأتي الإيضاح كاملاً في قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون ﴾ ؛ لأن الله الذي آمنتَ به هو إله قادر حكيم ، فإذا جرتْ عليك أمور فابحثها ؛ إن كانت من فعل نفسك ، هنا عليك أن تلوم نفسك ، أما إن كانت من مجريات الله عليك ، فلا بد أن تفهم أنها تحدث لحكمة .

والحق سبحانه وتعالى قد يعطي الكافر مقومات حياته ، ولكنه يعطي المؤمن مقومات حياته المادية والقيمية معاً . وبهذا المفهوم نعرف أنه إن أصابنا شيء نكرهه ، فليس معنى ذلك أن الله تخلى عنا ، ولكنه يريد أن يؤدبنا أو يلفتنا لأمر ما ، فإنه لو لم يؤدبنا أو يلفتنا لكان قد تخلى عنا حقاً .

والحق سبحانه وتعالى حين يخطئ المؤمن تجده سبحانه يلفته إلى خطئه ، وفي هذه الحالة يعرف المؤمن أن الله لم يتركه ؛ لذلك لا يقولن أحد : إن الله تخلى عنا ، فهذا ضعف في الإيمان وبالتالي فإنه ضعف في التوكل . ولكن قل : إن الله حين يؤدبك فهو لا يتخلى عنك ، فساعة تأتي المصيبة اعلم أنه لا يزال مولاك . وما دام مولاك يحاسبك على أي خطأ ويصوِّبه لك ، فِثِقْ به سبحانه وتوكل عليه .

وعلى سبيل المثال : لنفترض أن إنساناً اتكل عليك في أمر من الأمور ، ثم أخطأتَ أنت في هذا الأمر ، لا بد أن يأتي لينبهك إلى ما أخطأت فيه ويقترح عليك وسيلة لإصلاح الخطأ ، وفي هذه الحالة ستجد نفسك ممتلئة بالثقة في هذا الإنسان ، فما بالنا بالله سبحانه وتعالى حين نتوكل عليه ويُصوِّب لنا كل أمر ؟

ولكن إياكم أن تنقلوا التوكل من القلوب إلى الجوارح . ولذلك يقال : الجوارح تعمل والقلوب تتوكل . فأنت تحرث الأرض وتضع فيها البذور وترويها ، وهذا من عمل الجوارح لا بد أن تؤديه ، وبعد ذلك تتوكل على الله وتأمل في محصول وفير ينبته الزرع ، فلا تأتي آفة أو ظاهرة جوية مثل مطر غزير أو ريح شديدة ؛ فتضيع كل ما عملته ، وبعد إتقانك لعملك يأتي دعاؤك لله سبحانه وتعالى أن يحفظ لك نتائج عملك .

أما الذين لا يعملون بجوارحهم ويعلنون أنهم متوكلون على الله ، فنقول لهم : أنتم كاذبون ؛

لأن التوكل ليس من عمل الجوارح بل من عمل القلوب ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل .

لكن على مَنْ تتوكل ؟ إنك حين تتوكل على الحي الذي لا يموت ، فلن يضيع عملك ، أما إن اتكلت على إنسان مثلك حتى وإن كان ذا قوة ، فقد تنقلب قوته ضعفاً ، وقد يُكْرِهُك أو يُذِلُّكَ ، وقد تصيبه كارثة فيموت .

ويُبلِّغ الحق سبحانه رسوله أن يرد على الذين يفرحون في مصائب المسلمين ليكشف لهم أن فرحهم بالمصيبة هو فرح أغبياء . فيأتي قوله الحق : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(220/338)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : ثلاثة أمور توجب للعبد الراحة من التعب ، والسكون إلى رب الأرباب ، وتذهب عنه حرارة التدبير والاختبار ، وظلمة الأكدار والأغيار : أحدها : تحقيق العلم بسبقية القضاء والقدر ، حتى يتحقق بأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وما أصابه لم يكن ليخطئه ، قال تعالى : ﴿ قل لن يصينا إلا ما كتب الله لنا ﴾ ، ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ

فَلا كَاشِفَ له إلاَّ هُوَ ﴾ ، وليتأمل قول الشاعر :

مَا لاَ يُقَدّرُ لا يَكُون بحيلَةٍ . . . أَبداً ، وَمَا هُو كَائِنٌ سَيَكُونُ

سَيَكُونُ مَا هُوَ كَائِنٌ في وَقْتِهِ . . . وأخُو الجَهالَةِ مُتْعَبٌ مَخْزُون

وقد ورد عن سيدنا علي كرم الله وجهه أنه قال : سبع آيات : من قرأها أو حملها معه ؛ لو انطبقت السماء على الأرض ؛ لجعل الله له فرجاً ومخرجاً من أمره ، فذكر هذه الآية : ﴿ قل لن يصيبنا ﴾ ، وآية في سورة يونس : ﴿ وَإِن يَمسَسْك اللَّهُ بِضُرٍ . . . ﴾ [يونس : 107] الآية ، وآيتان في سورة هود : ﴿ وَما مِن دآبّةٍ . . . ﴾ [هود : 6] ، الآية ، ﴿ إنّي تَوَكَّلتُ عَلَى الله رَبّي وَرَبّكُم . . . ﴾ [هود : 56] ، الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وكأَيّن مّن دَآبّةٍ لاَّ تَحمِلُ رِزقَها اللَّهُ يرزُقُها وَإِيّاكُم وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [العنكبوت : 60] ، ﴿ مَّا يَفتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحمَةٍ فَلاَ مُمسكَ لَهَا وَمَا يَمسِك فَلاَ مُرسِلَ لَهُ مِن بَعدِهِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ [فاطر : 2] ، و ﴿ ولَئِن سَأَلتَهُم ﴾ . . في الزمر إلى قوله ﴿ عَلَيهِ يَتَوَكَّلُ المُتَوَكِلُون ﴾ [الزمر : 38] ، ونظمها بعضهم فقال :

عليك بقل وإن ، وما ، إني ، في هود . . . وكأين ، مَا يفتحْ ، ولئن ؛ مكملا

وإنما أشار رضي الله عنه إلى معنى الآيات لا إلى لفظها ؛ لأنها كلها تدل على النظر لسابق القدر ، والتوكل على الواحد القهار .

الأمر الثاني : تحقق العبد برأفته تعالى ورحمته ، وأنه لا يفعل به إلا ما هو في غاية الكمال في حقه ، إن كان جمالاً فيقتضي منه الشكر ، وإن كان جلالاً فيقتضي منه الصبر ، وفيه غاية التقريب والتطهير وطي المسافة بينك وبين الحبيب .

وفي الحكم : « خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجودَ فاقتك ، وتُرَدُ فيه إلى وجود ذلتك ، إن أردت بسط المواهب عليك ، فصحح الفقر والفاقة لديك ، الفاقة أعياد المريدين » . إلى غير ذلك من كلامه في هذا المعنى .

الأمر الثالث : تحققه بخالص التوحيد ؛ فإذا علم أن الفاعل هو الله ولا فاعل سواه ؛ رضي بفعل حبيبه ، كيفما كان ، كما قال ابن الفارض رضي الله عنه :

أَحِبَّاي أَنْتُمْ أَحسَنَ الدَّهر أم أسا . . . فكونوا كما شِئْتُمْ أَنَا ذلك الخِلّ

وكما قال صاحب العينية :

تَلَذُّ لِيَ الآلام إذْ كُنْتَ مُسقِمي . . . وإن تَخْتَبِرني فَهْي عِنْدي صَنَائِعُ

تَحَكَّم بِمَا تَهْواهُ فِيّ فإنَّني . . . فَقيرٌ لسُلطان المَحَبَّةِ طَائِعُ

فهذه الأمور الثلاثة ، إذا تفكر فيها العبد دام حبوره وسروره ، وسهلت عليه شؤونه وأموره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 390 . 391 ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن السدي ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ قال : إلا ما قضى الله لنا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مسلم بن يسار رضي الله عنه قال : الكلام في القدر واديان عريضان يهلك الناس فيهما لا يدرك عرضهما ، فاعمل عمل رجل يعلم أنه لا ينجيه إلا عمله ، وتوكل توكل رجل يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له .

وأخرج أبو الشيخ عن مطرف رضي الله عنه قال : ليس لأحد أن يصعد فوق بيت فيلقي نفسه ثم يقول : قدر لي . ولكن نتقي ونحذر ، فإن أصابنا شيء علمنا أنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

وأخرج أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لكل

شيء حقيقة ، وما بلغ عبد حقيقة الإِيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(223/338)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ ﴾ قال عمرو بن شقيق : " سمعت أَعْيُنَ قاضي الري يقرأ " لن يُصيبَنَّا " بتشديد النون " ، قال أبو حاتم : ولا يجوزُ ذلك ؛ لأنَّ النونَ لا تدخل مع " لن " ، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجاز ، لأنها مع " هل " قال الله تعالى : ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] ، قلت : يعني أبو حاتم أنَّ المضارعَ يجوز توكيده بعد أداةِ الاستفهامِ ، وابن مصرف يقرأ " هل " بدل " لن " ، وهي قراءة ابن مسعود .

وقد اعتُذِر عن هذه القراءة : فإنها حملت " لن " على " لم " و " لا " النافيتين ، و " لم " و " لا " يجوزُ توكيد الفعل المنفيّ بعدهما . أمَّا " لا " فقد تقدم تحقيق الكلام عليها في الأنفال ، وأمَّا " لم " فقد سُمع ذلك وأنشدوا :

2495 يَحْسَبُه الجاهل ما لم يَعْلما . . . شيخاً على كرسيِّه مُعَمَّمَا

أراد "يَعْلَمَنْ" فأبدل الخفيفة ألفاً بعد فتحة كالتنوين .

وقرأ القاضي أيضاً وطلحة : "هل يُصَيِّبُنا" بتشديد الياء . قال الزمخشري : "ووجهُه أن يكونَ يُفَيْعِل لا يُفَعّل لأنه من بنات الواو لقولهم : الصواب ، وصاب يصوب ، ومصاوب في جمع مصيبة ، فَحَقٌّ يُفَعّل منه يُصَوِّب . ألا ترى إلى قولهم : صَوَّب رأيه ، إلا أَنْ يكونَ من لغة من يقول : صاب السهمُ يَصيب كقوله :

2496 أَسْهُمِيَ الصائِبات والصُّيُبْ . . . يعني أنه أصله صَوْيِب فاجتمعت الواو والياء وسبقت إحدهما بالسكون فقُلبت الواو ياءً وأدغم فيها ، وهذا كما تقدم لك في تحيَّز أن أصله تَحَيْوَز . وأما إذا أخذناه مِنْ لغةِ مَنْ يقول : صاب السهم يَصيب فهو من ذوات الياء فوزنه على هذه اللغة فَعَّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 63.64﴾

(224/338)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51) ﴾

المؤمن لا تلحقُه شماتةُ عدوِّه لأنه ليس يرى إلا مُرادَ وليِّه ، فهو يتحقق أنَّ ما ينالُه مرادُ مولاه فيسقطُ عن قلبِه ما يهواه ، ويستقبله بروح رضاه فيَعْذُبُ عنده ما كان يَصْعُبُ مِنْ بلواه ، وفي معناه أنشدوا :

إنْ كان سَرَّكُمُ ما قال حاسدُنا . . . فما لِجُرْحٍ - إذا أَرْضَاكُم - أَلَمُ .

ويقال شَهودُ جريانِ التقدير يخفف على العبد تَعَبَ كلِّ عسير .

قوله ﴿ هُوَ مَوْلَانَا ﴾ : تعريفٌ للعبد أن له - سبحانه - أن يفعل ما يريد ، لأنه تصرفُ مالكِ الأعيانِ في مُلْكِه ، فهو يُبْدِي ويُجْرِي ما يريد بحقِّ حُكْمِه .

ثم قال : ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ : وأولُ التوكلِ الثقةُ بوعده ، ثم الرضا باختياره ، ثم نسيانُ أمورِك بما يغْلِبُ على قلبك من أذكاره .

ويقال التوكل سكونُ السِّرِّ عند حلول الأمر ونهاية التفويض ، وفيها يتساوى الحلوُ والمرُّ ، والنعمةُ والمحنةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 33 . 34 ﴾

(225/338)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِنَ الْأَحْبارِ وَالرُّهْبانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

معنى أكل الأموال على وجهين : إما أن يستعار الأكل للأخذ . ألا ترى إلى قولهم : أخذ الطعام وتناوله . وإمّا على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل . ومنه قوله :

إِنَّ لَنَا أَحْمِرَةً عِجَافَا يَأْكُلْنَ كُلَّ لَيْلَةٍ إِكَافَا «1»

يريد : علفاً يشترى بثمن إكاف . ومعنى أكلهم بالباطل : أنهم كانوا يأخذون الرشا في الأحكام ، والتخفيف والمسامحة في الشرائع وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأحبار والرهبان ، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم : أخذ البراطيل . وكنز الأموال ، والضنّ بها عن الإنفاق في سبيل الخير . ويجوز أن يراد المسلمون الكانزون غير المنافقين ، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى ، تغليظا ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت ، ومن لا يعطى منكم طيب ماله : سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم .

وقيل : نسخت الزكاة آية الكنز . وقيل : هي ثابتة ، وإنما عنى بترك الإنفاق في سبيل اللّه منع الزكاة . وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «ما أدّى زكاته فليس بكنز وإن كان باطناً ، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً» «2» وعن عمر رضى اللّه عنه أنّ رجلا سأله عن أرض له باعها فقال : أحرز مالك الذي أخذت ، احفر له تحت فراش امرأتك .

قال : أليس بكنز ؟ قال : ما أدّى زكاته فليس بكنز «3» وعن عمر رضى اللّه عنه : كل ما أدّيت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، وما لم

---

(1) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 216 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(2) . أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر مرفوعا بلفظ «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفونا ، وكل مالا يؤدى زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا» قال البيهقي : ليس هذا بمحفوظ ، والمشهور عن سفيان بن عبيد اللّه عن نافع عن ابن عمر قوله . ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عدى من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد اللّه بسنده مرفوعا ، ولفظه «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدى زكاته فليس بكنز ، وكل مال لا يؤدى زكاته وإن كان ظاهرا فهو كنز» قال ابن عدى : وفيه سويد وغيره يرويه موقوفا والموقوف رواه عبد الرزاق عن عبيد اللّه العمرى موقوفا والشافعي عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع نحوه ، وفي الباب عن أم سلمة قالت «جئت ألبس أوضاحا من ذهب فقلت يا رسول اللّه أكنز هو ؟ فقال : ما بلغ الذي يؤدى زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم .

(3) . أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد أن رجلا باع رجلا حائطا أو مالا بمال عظيم فقال له عمر ابن الخطاب رضى اللّه عنه : أحسن موضع هذا المال – الحديث»

ورواه ابن أبي شيبة من طريق أخرى عن سعيد ابن أبي سعيد أن عمر سأل رجلا - فذكره.

(226/338)

يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر اللّه تعالى وإن كان على ظهر الأرض «1» فإن قلت: فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى اللّه عنه أنها لما نزلت قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «تباً للذهب تبا للفضة» قالها ثلاثاً. فقالوا له: أيّ مال نتخذ؟ قال «لساناً ذاكراً، وقلباً خاشعاً، وزوجة تعين أحدكم على دينه «2» وبقوله عليه الصلاة والسلام «من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها» «3» وتوفى رجل فوجد في مئزره دينار، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «كية» وتوفى آخر فوجد في مئزره ديناران، فقال «كيتان» «4» قلت: كان هذا قبل أن تفرض الزكاة، فأمّا بعد فرض الزكاة، فاللّه أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه، ويؤدّى عنه ما أوجب عليه فيه، ثم يعاقبه. ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد اللّه وعبيد اللّه رضى اللّه عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها، وما عابهم أحد ممن أعرض عن القنية، لأنّ الإعراض اختيار للأفضل، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا، والاقتناء مباح موسع لا يذمّ

صاحبه ، ولكل شيء حدّ . وما روى عن عليّ رضى اللّه عنه :

---

(1) . تقدم الكلام عليه .

(2) . كذا ذكره مرسلا ، وهو معروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط من طريق موثل بن إسماعيل عن الثوري عن الأعمش ومنصور وعمرو بن مرة عن سالم بن أبى الجعد عن ثوبان بهذا ، ورواه الترمذي وأحمد في الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به ، وليس فيه «تبا الذهب تبا الفضة» بل فيه : فقال بعض أصحابه «لو علمنا أى المال خير فنتخذه» قال البخاري وغيره : سالم لم يسمع من ثوبان ، ورواه ابن ماجة وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد اللّه بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان ، ورواه ابن ماجة وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد اللّه بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم عن ثوبان قال «لما نزلت قالوا : فأى المال نتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضع على بعيره فأدرك النبي صلى اللّه عليه وسلم وأنا في أثره فقال :
يا رسول اللّه أى المال نتخذ ؟ - الحديث» وفي الباب عن على أخرجه عبد الرزاق عن الثوري عن أبى حصين عن أبى الضحى عن جعدة بن سبرة عنه ، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه . وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبد اللّه بن عطية عن عبد اللّه بن أبى الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال «تبا

للذهب تبا للفضة» فحدثني صاحبي أنه انطلق مع عمر ، فقال : يا رسول اللّه . فذكر نحوه .

(3) . أخرجه البخاري في التاريخ والطبري وابن مردويه من طريق عبد اللّه بن عبد الواحد الثقفي عن أبى النجيب الشامي «كان نعل سيف أبى هريرة من فضة ، فنهاه عنه أبو ذر وقال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها» وفي الباب عن أبى أمامة ، أخرجه الطبراني بلفظ «ما من عبد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوى بها» وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين من رواية أرطاة بن المنذر عن ابن عامر عنه ، بلفظ «ما من أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوى بها» .

(4) . أخرجه أحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري من طريق شهر بن حوشب عن أبى أمامة ، بلفظ مروه في الموضعين . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بالشطر الثاني .

(227/338)

أربعة آلاف فما دونها نفقة ، فما زاد فهو كنز «1» : كلام في الأفضل . فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيئان ؟ قلت : ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ : لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودراهم ، فهو كقوله وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا وقيل : ذهب به إلى الكنوز . وقيل : إلى الأموال . وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ، «2» كما أن معنى قوله :

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِهَا لَغَرِيبُ «3»

وقيار كذلك . فإن قلت : لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال ؟ قلت : لأنهما قانون التمول وأثمان الأشياء ، ولا يكنزهما إلا من فضلا عن حاجته ، ومن كثرا عنده حتى يكنزهما لم يعدم سائر أجناس المال ، فكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما ، فإن قلت : ما معنى قوله يُحْمى عَلَيْها ؟ وهلا قيل : تحمى ، من قولك : حمى الميسم «4» وأحميته ، ولا تقول : أحميت على الحديد ؟ قلت : معناه أن النار تحمى عليها ، أى توقد ذات حمى وحرّ شديد ، من قوله نارٌ حامِيَةٌ ولو قيل : يوم تحمى ، لم يعط هذا المعنى . فإن قلت : فإذا كان الإحماء للنار ، فلم ذكر الفعل ؟ قلت : لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله : يوم تحمى النار عليها ، فلما حذفت النار قيل : يحمى عليها ، لانتقال الاسناد عن النار إلى عليها ، كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وعن ابن عامر أنه قرأ : تحمى ، بالتاء . وقرأ أبو حيوة :

فيكوى بالياء . فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم – حيث لم ينفقوها في سبيل اللّه – إلا الأغراضَ الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدّم ، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم ، يتلقون بالجميل ، ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحتشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطرون ببالهم قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ذهب أهل الدثور بالأجور» «5» وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم . وقيل : معناه

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق والطبري بإسناده الماضي عن على رضى اللّه عنه قبل بحديثين .

(2) . قوله «و الذهب» لعله و «الذهب كذلك» . (ع)

(3) . تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 629 فراجعه إن شئت اه مصححه .

(4) . قال محمود : «إن قلت : هلا قيل تحمى ، كما يقال : حمى الميسم وأحميته . . . الخ» قال أحمد : وفي هذا الفصل دقائق إعراب يشوب حسنها إغراب ، واللّه الموفق .

[. . . . .]

(5) . أخرجه مسلم من طريق أبى الأسود عن أبى ذر «أن أناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : قالوا :

يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلى - الحديث .

(228/338)

يكون على الجهات الأربع مقاديمهم ومآخيرهم وجنوبهم هذا ما كَنَزْتُمْ على إرادة القول .

وقوله لِأَنْفُسِكُمْ أى كنزتموه لننتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التي حامت حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتتعذب وهو توبيخ لهم فَذُوقُوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ وقرئ : تكنزون ، بضم النون ، أى وبال المال الذي كنتم تكنزونه أو وبال كونكم كانزين .

[سورة التوبة (9) : آية 36]

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ مِنْها أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَما يُقاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (36)

فِي كِتابِ اللَّهِ فيما أثبته وأوجبه من حكمه وراآه حكمة وصوابا . وقيل في اللوح أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ

ثلاثة سرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ، وواحد فرد وهو رجب . ومنه قوله عليه السلام في خطبته في حجة الوداع : ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات والأرض « 1 » . السنة اثنا عشر شهراً : منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة وذو الحجة ، والمحرّم . ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان . والمعنى : رجعت الأشهر إلى ما كانت عليه ، وعاد الحج في ذى الحجة ، وبطل النسيء الذي كان في الجاهلية ، وقد وافقت حجة الوداع ذا الحجة ، وكانت حجة أبى بكر رضى اللّه عنه قبلها في ذى القعدة ذِلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ يعنى أنّ تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها ، حتى لو لقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه ، وسموا رجبا : الأصم ومنصل الأسنة ، حتى أحدثت النسيء فغيروا فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ في الحرم أَنْفُسَكُمْ أى لا تجعلوا حرامها حلالا . وعن عطاء . تاللّه ما يحل للناس أن يغزوا في الحرم ولا في الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ، وما نسخت ، وعن عطاء الخراساني رضى اللّه عنه : حلت القتال في الأشهر الحرم براءة من اللّه ورسوله . وقيل : معناه لا تأثموا فيهن ، بيانا لعظم حرمتهن ، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ . . . الآية وإن كان ذلك محرما في سائر الشهور كَافَّةً حال من الفاعل أو المفعول مَعَ الْمُتَّقِينَ ناصر لهم ، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها .

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى بكرة وفي الباب عن ابن عمر رضى اللّه عنهما أخرجه الطبري من رواية موسى ابن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف . وهو ضعيف . وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه .

(229/338)

[سورة التوبة (9) : آية 37]

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عاماً لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكافِرِينَ (37)

والنسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات ، فإذا جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة ، فيحلونه ويحرمون مكانه شهراً آخر ، حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم ، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر وذلك قوله تعالى لِيُواطِؤُا عِدَّةَ ما حَرَّمَ اللَّهُ أى ليوافقوا العدّة التي هي الأربعة ولا يخالفوها وقد خالفوا التخصيص الذي هو أحد الواجبين ، وربما زادوا في عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت . ولذلك قال عز وعلا إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنا عَشَرَ شَهْراً يعنى من غير زيادة زادوها . والضمير في : يحلونه ،

ويحرمونه للنسيء . أى إذا أحلوا شهراً من الأشهر الحرم عاما ، رجعوا فحرموه في العام القابل . وروى أنه حدث ذلك في كنانة لأنهم كانوا فقراء محاويج إلى الغارة ، وكان جنادة بن عوف الكناني مطاعاً في الجاهلية ، وكان يقوم على جمل في الموسم فيقول بأعلى صوته : إنّ آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه ، ثم يقوم في القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه . جعل النسيء زيادة في الكفر ، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، كما أن المؤمن إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وقرئ «يضل» على البناء للمفعول ، و«يضل» بفتح الياء والضاد ، ويُضَلُّ على أن الفعل للّه عز وجل . وقرأ الزهري :

ليوطئوا بالتشديد . والنسيء مصدر نسأه إذا أخره . يقال نسأه نسأ ونساء ونسيئاً ، كقولك :

مسه مساً ومساساً ومسيساً . وقرئ بهنّ جميعا . وقرئ النسى ، بوزن الندى . والنسى بوزن النهى ، وهما تخفيف النسيء والنسيء . فإن قلت : ما معنى قوله فَيُحِلُّوا ما حَرَّمَ اللَّهُ ؟ قلت : معناه فيحلوا بمواطأة العدّة وحدها من غير تخصيص ما حرّم اللّه من القتال ، أو من ترك الاختصاص للأشهر بعينها زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمالِهِمْ خذلهم اللّه فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة وَاللَّهُ لا يَهْدِي أى لا يلطف بهم بل يخذلهم . وقرئ : زين لهم سوء أعمالهم ، على البناء للفاعل ، وهو اللّه عزّ وجل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 38 إلى 41]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

(230/338)

اثَّاقَلْتُمْ تثاقلتم. وبه قرأ الأعمش، أى تباطأتم وتقاعستم. وضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى. والمعنى: ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه، ونحوه: أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَواهُ وقيل: ملتم إلى الإقامة بأرضكم وديارکم: وقرئ اثاقلتم؟ على الاستفهام الذي معناه الإنكار والتوبيخ. فإن قلت: فما العامل في «إذا» وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه «1»؟ قلت: ما دلّ عليه قوله اثَّاقَلْتُمْ أو ما في ما لَكُمْ من

معنى الفعل ، كأنه قيل : ما تصنعون إذا قيل لكم كما تعمله في الحال إذا قلت : مالك قائماً ، وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وكثرة العدو ، فشق عليهم . وقيل : ما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة إلا ورّى عنها بغيرها إلا في غزوة تبوك «2» ليستعدّ الناس تمام العدة مِنَ الْآخِرَةِ أى بدل الآخرة كقوله : لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً . فِي الْآخِرَةِ في جنب الآخرة إِلَّا تَنْفِرُوا سخط عظيم على المتثاقلين «3» حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيراً منهم وأطوع ، وأنه غنى عنهم في نصرة دينه ، لا يقدح تثاقلهم فيها شيئاً : وقيل : الضمير للرسول : أى ولا تضروه ، لأنّ اللّه وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ، ووعد اللّه كائن لا محالة ، وقيل يريد بقوله قَوْماً غَيْرَكُمْ أهل اليمن . وقيل : أبناء فارس ، والظاهر مستغن عن

---

(1) . قوله «وحرف الاستفهام» لعله : وأحرف الاستفهام ، بدليل قوله «مانعة» . وقوله «أن يعمل فيه» لعله : أن يعمل فيه «اثاقلتم» . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

(3) . قال محمود : «في هذه الآية سخط عظيم على المتثاقلين حيث أوعدهم عذابا أليما . . . الخ» قال أحمد : ويقرب إعادة الضمير إلى الرسول أن الضمير في قوله إِلَّا تَنْصُرُوهُ عقيب ذلك عائد إليه اتفاقا ، واللّه أعلم .

للتخصيص . فإن قلت : كيف يكون قوله فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ جواباً للشرط ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : إلا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد ، فدلّ بقوله فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ على أنه ينصره في المستقبل ، كما نصره في ذلك الوقت . والثاني :

أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت : ، فلن يخذل من بعده . وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ لأنهم حين هموا بإخراجه أذن اللّه له في الخروج ، فكأنهم أخرجوه ثانِيَ اثْنَيْنِ أحد اثنين ، كقوله ثالِثُ ثَلاثَةٍ وهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضى اللّه عنه . يروى أنّ جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال : من يخرج معى ؟ قال أبو بكر ، وانتصابه على الحال : وقرئ ثانى اثنين ، بالسكون . وإِذْ هُما بدل من إذ أخرجه . والغار : ثقب في أعلى ثور ، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة ، مكثا فيه ثلاثا إِذْ يَقُولُ بدل ثان . قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضى اللّه عنه على رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : إن تصب اليوم ذهب دين اللّه « 1 » فقال عليه الصلاة والسلام :

«ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما» : وقيل : لما دخلا الغار بعث اللّه تعالى حمامتين فباضتا في أسفله ، والعنكبوت فنسجت عليه «2» .

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «اللهم أعم أبصارهم «3»» : فجعلوا يتردّدون حول الغار ولا يفطنون . وقد أخذ اللّه بأبصارهم عنه . وقالوا : من أنكر صحبة أبى بكر رضى اللّه عنه فقد كفر ، لإنكاره كلام اللّه ، وليس ذلك لسائر الصحابة سَكِينَتَهُ ما ألقى في قلبه من الأمنة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه . والجنود الملائكة يوم بدر ، والأحزاب وحنين . وكلمة الذين كفروا : دعوتهم إلى الكفر وَكَلِمَةُ اللَّهِ دعوته إلى الإسلام . وقرئ «كلمة اللّه» بالنصب ، والرفع أوجه . وهِيَ فصل أو مبتدأ ، وفيها تأكيد فضل كلمة اللّه في العلوّ ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم خِفافاً وَثِقالًا خفافا في النفور لنشاطكم له ، وثقالا عنه لمشقته عليكم ، أو خفافا لقلة عيالكم وأذيالكم ، وثقالا لكثرتها . أو خفافا من السلاح وثقالا منه . أو ركبانا ومشاة . أو شبابا وشيوخا . أو مهازيل

---

(1) . لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه قال «نظرت إلى أقدام المشركين على رءوسنا ونحن في الغار . فقلت : يا رسول اللّه لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا . فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين اللّه ثالثهما .

(2) . أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبى مصعب المكي : سمعت أنس بن مالك وغيره «أن النبي صلى اللّه عليه وسلم ليلة الغار أمر اللّه تعالى صخرة فثبتت في وجه

النبي صلى اللّه عليه وسلم فسترته وأمر العنكبوت فنسجت في وجهه فسترته . وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار - الحديث» .

(3) . لم أجده

(232/338)

وسمانا . أو صحاحا ومراضا . وعن ابن أمّ مكتوم أنه قال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أعليّ أن أنفر ؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ . وعن ابن عباس : نسخت بقوله لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وعن صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو . فقلت : يا عمّ لقد أعذر اللّه إليك فرفع حاجبيه وقال : يا بن أخي استنفرنا اللّه خفافا وثقالا ، إلا أنه من يحبه اللّه يبتله . وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر ، فقال : استنفرنا اللّه الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ إيجاب للجهاد بهما إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة

[سورة التوبة (9) : آية 42]

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42)

العرض : ما عرض لك من منافع الدنيا . يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، أى لو كان ما دعوا إليه غنما قريبا سهل المنال وَسَفَراً قاصِداً وسطا مقاربا الشُّقَّةُ المسافة الشاطة الشاقة . وقرأ عيسى بن عمر : بعدت عليهم الشقة ، بكسر العين والشين .

ومنه قوله :

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْ وَهُمْ يَدْفِنُونَهُ وَلَا بُعْدَ إِلّا مَا تُوَارِى الصَّفَائِحُ «1»

بِاللَّهِ متعلق بسيحلفون . أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد في الوجهين ، أى سيحلفون يعنى المختلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ أو سيحلفون بالله يقولون : لو استطعنا ، وقوله لَخَرَجْنا سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعا ، والإخبار بما سوف يكون بعد القفول من حلفهم واعتذارهم ، وقد كان من جملة المعجزات .

ومعنى الاستطاعة : استطاعة العدّة ، أو استطاعة الأبدان ، كأنهم تمارضوا . وقرئ : لو استطعنا ،

---

(1) . يقال «بعد» ككرم وتعب ، ومصدرهما : البعد بفتحتين ، وبضم فسكون . وقد اشتهر باب تعب في معنى الهلاك ، ولا تبعد - بالفتح - كلمة جارية على لسانهم عند

المصيبة، دالة على تناهى الجزع، ولا بعد: معناه لا بعد إلا بعد ما تواريه الصفائح. أو ولا ذو بعد إلا ما تواريه. أو لا بعيد إلا ما تواريه، على أن المصدر بمعنى الوصف.

واستعمل «ما» في العاقل، لأن المراد بها الوصف. أو المراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الإدراكات والأرواح. والصفائح: أحجار عراض يسقف بها القبر، أى البعيد، حقيقته هو ما يستره القبر، كناية عن موته.

(233/338)

بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع في قوله فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ. يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ إما أن يكون بدلا من سيحلفون، أو حالا بمعنى مهلكين. والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف. ويحتمل أن يكون حالا من قوله لَخَرَجْنا أى لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديدا. يقال: حلف بالله ليفعلنّ ولأفعلنّ، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

[سورة التوبة (9): آية 43]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ كناية عن الجناية ، لأنّ العفو رادف لها «1» . ومعناه : أخطأت وبئس ما فعلت «2» . وِلِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ بيان لما كنى عنه بالعفو . ومعناه : مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعللهم وهلا استأنيت بالإذن حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ من صدق في عذره ممن كذب فيه . وقيل شيئان فعلهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يؤمر بهما : إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه اللّه تعالى .

[سورة التوبة (9) : آية 44]

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)

لا يَسْتَأْذِنُكَ ليس من عادة المؤمنين «3» أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ، وكان الخلص

---

(1) . قال محمود : «هذا كناية عن الجناية ، لأن العفو رادف لها . . . الخ» قال أحمد رحمه اللّه : ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير ، وهو بين أحد أمرين : إما أن لا يكون هو المراد . وإما أن يكون هو المراد ، ولكن قد أجل اللّه نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب ، وخصوصا في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فالزمخشري على كلا التقديرين ذاهل عما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام . ولقد أحسن من قال في هذه الآية :

إن من لطف اللّه تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ، ولو قال له ابتداء : لم أذنت لهم ؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام ، فمثل هذا الأدب يجب احتذاؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام .

(2) . قوله «و معناه أخطأت وبئس ما فعلت» خاطب اللّه رسوله خطاب الرقة والرأفة ، وفسره المصنف بخطاب الغلظة والقسوة ، وشتان ما بينهما . (ع)

(3) . عاد كلامه . قال : وقوله لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ – إلى قوله – إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ . . . الآية قال : معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا . . . الخ» قال أحمد : وهذا الأدب يجب أن يقتفى مطلقا ، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدى إليه معروفا ، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاما ، فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمارة التكلف والتكره ، وصلوات اللّه على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه ، أنه كان لا يتعاطى شيأ من أسباب التهيؤ للضيافة بمرأى منهم ، فلذلك مدحه اللّه تعالى على لسان رسوله صلى اللّه عليه وسلم بهذه الخلة الجميلة والآداب الجليلة ، فقال تعالى فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ أى ذهب على خفاء منهم كيلا يشعروا به ، والمهتم بأمر ضيفه بمرأى منه ربما يعد كالمستأذن له في الضيافة ، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة ، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين التثاقل عن المبادرة إليه بعد الحض عليه والمناداة

، وأسوأ أحوال المتثاقل - وقد دعى الناس إلى الغزاة - أن يكون متمسكا بشعبة من النفاق نعوذ بالله من التعرض لسخطه .

(234/338)

من المهاجرين والأنصار يقولون : لا نستأذن النبي أبدا ، ولنجاهدنّ أبدا معه بأموالنا وأنفسنا .

ومعنى أَنْ يُجاهِدُوا في أن يجاهدوا ، أو كراهة أن يجاهدوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ شهادة لهم بالانتظام في زمرة المتقين ، وعدة لهم بأجزل الثواب .

[سورة التوبة (9) : الآيات 45 إلى 48]

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (48)

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ يعنى المنافقين ، وكانوا تسعة وثلاثين رجلا يَتَرَدَّدُونَ عبارة عن التحير ، لأن

التردّد ديدن المتحير ، كما أنّ الثبات والاستقرار ديدن المستبصر . قرئ : عدّه ، بمعنى عدّته ، فعل بالعدّة ما فعل بالعدة من قال :

وَأَخْلَفُوكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا «1»

من حذف تاء التأنيث ، وتعويض المضاف إليه منها . وقرئ : عدّة ، بكسر العين بغير إضافة ، وعدّه بإضافة . فإن قلت : كيف موقع حرف الاستدراك ؟ قلت : لما كان قوله وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو . قيل وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكراهة انبعاثهم ، كما تقول : ما أحسن إلىّ زيد ، ولكن أساء إلىّ فَثَبَّطَهُمْ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث وَقِيلَ اقْعُدُوا جعل إلقاء اللّه في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود . وقيل : هو قول الشيطان

(1) . مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 323 فراجعه إن شئت اه مصححه

بالوسوسة . وقيل : هو قولهم لأنفسهم . وقيل : هو إذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهم في القعود .

فإن قلت : كيف جاز أن يوقع اللّه تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قبيحة ،

وتعالى اللّه عن إلهام القبيح «1» ؟ قلت : خروجهم كان مفسدة ، لقوله لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة . فإن قلت : فلم خطأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الإذن لهم فيما هو مصلحة ؟ قلت : لأنّ إذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا علمها إلا بعد القفول بإعلام اللّه تعالى ، ولكن لأنهم استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه ، فكان عليه أن يتفحص عن كنه معاذيرهم ولا يتجوّز في قبولها ، فمن ثم أتاه العتاب . ويجوز أن يكون في ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الإذن لهم مع تثبيط اللّه إياهم مصلحة أخرى ، فبإذنه لهم فقدت تلك المصلحة ، وذلك أنهم إذا ثبطهم اللّه فلم ينبعثوا وكان قعودهم بغير إذن من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة .

ولقد تدارك اللّه ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالنفاق ، وأنهم لا يؤمنون باللّه واليوم الآخر . فإن قلت : ما معنى قوله مَعَ الْقاعِدِينَ ؟ «2» قلت : هو ذمّ لهم وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم القاعدون والخالفون والخوالف ، ويبينه قوله تعالى رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ . إِلَّا خَبالًا ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه ، كقولك : ما زادوكم خيراً إلا خبالا ، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور ، وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي

هو الشيء ، فكان استثناء متصلا ، لأنّ الخبال بعض أعمّ العام ، كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالا . والخبال ، الفساد والشرّ وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ولسعوا بينكم بالتضريب «3» والنمائم وإفساد ذات البين . يقال : وضع البعير وضعاً إذا أسرع وأوضعته أنا . والمعنى : ولأوضع ركائبهم بينكم ، والمراد الإسراع بالنمائم ، لأنّ الراكب أسرع من

---

(1) . قال محمود : «إن قلت كيف جاز أن يوقع اللّه في نفوسهم كراهة الخروج للغزو . . . الخ» قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه مبنى على قاعدتين فاسدتين : إيجاب مراعاة المصالح على اللّه تعالى ، والتحسين والتقبيح . وقد تكرر بطلان ذلك فاحذره . واعلم أن معتقد أهل السنة أن اللّه تعالى ألقى كراهة الخروج في قلوبهم ، لأنه أراد شقاوتهم ، وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم ، إذ الأمر ليس شرطا في نفوذ المشيئة ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(2) . عاد كلامه . قال : «فان قلت فما معنى قوله مع القاعدين . . . الخ» قال أحمد : وهذا من تنبيهاته الحسنة ، ونزيده بسطاً فنقول : لو قيل اقعدوا مقتصراً عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود ، وكذلك : كونوا مع القاعدين ، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية ، ولعن اللّه فرعون : لقد بالغ في توعد موسى عليه السلام بقوله : لأجعلنك من

المسجونين ، ولم يقل : لأجعلنك مسجونا ، لمثل هذه النكتة من المبالغة

(3) . قوله «بالتضريب» أى بالإغراء . (ع)

(236/338)

الماشي . وقرأ ابن الزبير رضى اللّه عنه : ولأرقصوا ، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرعت وأرقصتها . قال :

وَالرَّاقِصَات إِلَى مِنْى فَالغَبْغَبِ

وقرئ : ولأوفضوا . فإن قلت : كيف خطّ في المصحف : ولا أوضعوا ، بزيادة ألف ؟ قلت :

كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربي ، والخط العربي اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقي من ذلك الألف أثر في الطباع ، فكتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحتها ألفاً أخرى ، ونحو :

أو لا أذبحنه . يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ يحاولون أن يفتنوكم . بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نياتكم في مغزاكم وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ أى نمامون يسماعون حديثكم فينقلونه إليهم . أو فيكم قوم يسماعون للمنافقين ويطيعونهم لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ أى العنت ونصب الغوائل

والسعى في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك ، كما فعل عبد اللّه بن أبىّ يوم أحد حين انصرف بمن معه وعن ابن جريج رضى اللّه عنه : وقفوا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلا ليفتكوا به مِنْ قَبْلُ من قبل غزوة تبوك وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ ودبروا لك الحيل والمكايد ، ودوّروا الآراء في إبطال أمرك . وقرئ : وقلبوا بالتخفيف حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وهو تأييدك ونصرك وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وغلب دينه وعلا شرعه .

[سورة التوبة (9) : آية 49]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49)

ائْذَنْ لِي في القعود وَلا تَفْتِنِّي ولا توقعني في الفتنة وهي الإثم ، بأن لا تأذن لي فإنى إن تخلفت بغير إذنك أثمت . وقيل : ولا تلقني في الهلكة ، فإنى إذا خرجت معك هلك مالى وعيالي وقيل : قال الجدّ بن قيس : قد علمت الأنصار أنى مستهتر بالنساء «1» فلا تفتني ببنات الأصفر ، يعنى نساء الروم ، ولكنى أعينك بمال فاتركنى . وقرئ : ولا تفتني ، من أفتنه أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا أى إنّ الفتنة هي التي سقطوا فيها ، وهي فتنة التخلف . وفي مصحف أبىّ رضى اللّه عنه : سقط ، لأنّ «من» موحد اللفظ مجموع المعنى لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ يعنى أنها تحيط بهم يوم القيامة . أو هي محيطة بهم الآن ، لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها .

[سورة التوبة (9) : آية 50]

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50)

---

(1) . قوله «إنى مستهتر» أى مولع لا أبالى بما يقال في شأنى انتهى . (ع)

(237/338)

إِنْ تُصِبْكَ في بعض الغزوات حَسَنَةٌ ظفر وغنيمة تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ نكبة وشدّة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك ، وَيَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا أى أمرنا الذي نحن متسمون به ، من الحذر والتيقظ والعمل بالحزم مِنْ قَبْلُ من قبل ما وقع . وتولوا عن مقام التحدّث بذلك والاجتماع له إلى أهاليهم وَهُمْ فَرِحُونَ مسرورون . وقيل : تولوا : أعرضوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم .

[سورة التوبة (9) : آية 51]

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

قرأ ابن مسعود رضى اللّه عنه : قل هل يصيبنا . وقرأ طلحة رضى اللّه عنه : هل يصيبنا ، بتشديد الياء . ووجهه أن يكون «يفيعل» لا «يفعل» لأنه من بنات الواو ، كقولهم : الصواب

، وصاب السهم يصوب ، ومصاوب «1» في جمع مصيبة ، فحق «يفعل» منه «يصوّب» ألا ترى إلى قولهم :

صوّب رأيه ، إلا أن يكون من لغة من يقول : صاب السهم يصيب . ومن قوله «2» أسهمى الصائبات والصيب ، واللام في قوله إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل : لن يصيبنا إلا ما اختصنا اللّه به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة . ألا ترى إلى قوله هُوَ مَوْلانا أى الذي يتولانا ونتولاه ، ذلك بأنّ اللّه مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير اللّه ، فليفعلوا ما هو حقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 266. 278﴾

---

(1) . قوله «و مصاوب» في الصحاح : أجمعت العرب على همز المصائب ، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصلى بالزائد ، ويجمع أيضا على مصاوب ، وهو الأصل . (ع)

(2) . قوله «و من قوله» لعله : ومنه . أو لعله : ومنها . وفي الصحاح : صاب السهم القرطاس يصيبه صيبا لغة في أصابه . (ع)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والثلاثون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء التاسع والثلاثون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 52 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 59 ﴾ من نفس السورة

(4/339)

قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تضمن ذلك أن سراءهم وضراءهم لهم خير من حيث إن الرضى بمر القضاء موجب لإقبال القاضي على المقضي عليه بالرأفة والرحمة ، صرح بذلك في قوله : ﴿ قل هل تربصون ﴾ أي تنتظرون انتظاراً عظيماً ﴿ بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ أي وهي أن نصيب أعداءنا فنظفر ونغنم ونؤجر أو يصيبونا بقتل أو غيره فنؤجر ، وكلا الأمرين حسن : أما السراء التي توافقوننا على حسنها فأمرها واضح ، وأما الضراء فموجبة لرضى الله عنا ومثوبته لنا بالصبر عليها ورضانا بها إجلالاً له وتسليماً لأمره فهي حسنى كما نعلم لا

سوأى كما تتوهمون ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ أي ننتظر إحدى السوأيين وهي ﴿ أن يصيبكم الله ﴾ أي الذي له جميع القدرة ونحن من حزبه ﴿ بعذاب من عنده ﴾ أي لا تسبب لنا فيه كما أهلك القرون الأولى بصائر للناس ﴿ أو بأيدينا ﴾ أي بسببنا من قتل أو نهب وأسر وضرب وغير ذلك لأن حذركم لا يمنعكم من الله ، وكل ذلك مكروه عندكم . ولما تسبب عن هذا البيان ان السوء خاصة بحزب الشيطان ، حسن أن يؤمروا تهكماً بهم بما أداهم إلى ذلك تخسيساً لشأنهم فقال : ﴿ فتربصوا ﴾ أي أنتم ﴿ إنا ﴾ أي نحن ﴿ معكم متربصون ﴾ أي بكم ، نفعل كما تفعلون ، والقصد مختلف ، والآية من الاحتباك : حذف أولاً الإصابة للدلالة عليها بما أثبت ثانياً ، وثانياً إحدى السوأيين للدلالة عليها بإثبات الحسنيين أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 332 ﴾

(5/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

اعلم أن هذا هو الجواب الثاني عن فرح المنافقين بمصائب المؤمنين ، وذلك لأن المسلم إذا

ذهب إلى الغزو ، فإن صار مغلوباً مقتولاً فاز بالاسم الحسن في الدنيا والثواب العظيم الذي أعده الله للشهداء في الآخرة ، وإن صار غالباً فاز في الدنيا بالمال الحلال والاسم الجميل ، وهي الرجولية والشوكة والقوة ، وفي الآخرة بالثواب العظيم .

وأما المنافق إذا قعد في بيته فهو في الحال في بيته مذموماً منسوباً إلى الجبن والفشل وضعف القلب والقناعة بالأمور الخسيسة من الدنيا على وجه يشاركه فيها النسوان والصبيان والعاجزون من النساء ، ثم يكونون أبداً خائفين على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، وفي الآخرة إن ماتوا فقد انتقلوا إلى العذاب الدائم في القيامة ، وإن أذن الله في قتلهم وقعوا في القتل والأسر والنهب ، وانتقلوا من الدنيا إلى عذاب النار ، فالمنافق لا يتربص بالمؤمن إلا إحدى الحالتين المذكورتين ، وكل واحدة منهما في غاية الجلالة والرفعة والشرف ، والمسلم يتربص بالمنافق إحدى الحالتين المذكورتين ، أعني البقاء في الدنيا مع الخزي والذل والهوان ، ثم الانتقال إلى عذاب القيامة والوقوع في القتل والنهب مع الخزي والذل ، وكل واحدة من هاتين الحالتين في غاية الخساسة والدناءة ، ثم قال تعالى للمنافقين : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ بنا إحدى الحالتين الشريفتين ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ وقوعكم في إحدى الحالتين الخسيستين النازلتين .

قال الواحدي : يقال فلان يتربص بفلان الدوائر ، وإذا كان ينتظر وقوع مكروه به ، وهذا قد سبق الكلام فيه .

وقال أهل المعاني : التربص ، التمسك بما ينتظر به مجيء حينه ، ولذلك قيل : فلان يتربص بالطعام إذا تمسك به إلى حين زيادة سعره ، والحسنى تأنيث الأحسن .

(6/339)

واختلفوا في تفسير قوله : ﴿ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ قيل : من عند الله .

أي بعذاب ينزله الله عليهم في الدنيا ، أو بأيدينا بأن يأذن لنا في قتلكم .

وقيل : بعذاب من عند الله ، يتناول عذاب الدنيا والآخرة ، أو بأيدينا القتل .

فإن قيل : إذا كانوا منافقين لا يحل قتلهم مع إظهارهم الإيمان ، فكيف يقول تعالى ذلك ؟

قلنا قال الحسن : المراد بأيدينا إن ظهر نفاقكم ، لأن نفاقهم إذا ظهر كانوا كسائر المشركين في كونهم حرباً للمؤمنين ، وقوله : ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ وإن كان بصيغة الأمر ، إلا أن المراد منه التهديد ، كما في قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 69.70 ﴾

(7/339)

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾

إمّا الشهادة وإمّا الغنيمة .

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ ، يعني : ننتظر بكم ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ الله بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ وهو الموت ، ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ ، يعني : فيأمرنا أن نقتلكم ؛ ويقال : معناه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ ، يعني : إلا إحدى الخبرين .

ونحن نتربص بكم إحدى الشرين فبين ما ننتظر وتنتظرونه فرق عظيم .

﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ ، يعني : انتظروا بنا الهلاك .

﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ، يعني : المنتظرين لإهلاككم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(8/339)

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ ﴾ تنتظرون ﴿ بِنَآ ﴾ أيها المنافقون ﴿ إِلاَّ إِحْدَى الحسنيين ﴾ أما النصر والفتح مع الأجر الكبير ، وأمّا القتل والشهادة وفيه الفوز الكبير .

أخبرنا أبو القاسم الحبيبي قال : حدّثنا جعفر بن محمد العدل ، حدّثنا أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم العبدي ، حدّثنا أبو بكر أُمية بن بسطام ، أخبرنا يزيد بن بزيع عن بكر بن القاسم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يضمن الله لمن خرج في سبيله ألاّ يخرج إيماناً بالله وتصديقاً برسوله أن (يرزقه) الشهادة ، أو يردّه إلى أهله مغفوراً له مع ما نال من أجر وغنيمة " .

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى الحسنيين ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ فيهلكهم الله كما أهلك الامم الخالية . قال ابن عباس : يعني الصواعق ، قال ابن جريج يعني الموت [والعقوبة] بالقتل بأيدينا كما أصاب الامم الخالية من قبلنا ﴿ فتربصوا ﴾ هلاكنا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ وقال الحسن : فتربصوا مواعيد الشيطان إنّا معكم متربّصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه ، وكان الشيطان يمنّي لهم بموت النبي (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(9/339)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

يعني النصر أو الشهادة وكلاهما حسنة لأن في النصر ظهور الدين ، وفي الشهادة الجنة .

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : عذاب الاستئصال في الدنيا .

والثاني : عقاب العصيان في الآخرة .

﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ يعني بقتل الكافر عند الظفر والمنافق مع الإذن فيه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

فالمعنى في هذه الآية الرد على المنافقين في معتقدهم في المؤمنين ، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب ، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت ، و ﴿ تربصون ﴾ معناه تنتظرون و" الحسنيان " الشهادة والظفر وقرأ ابن محيصن : " إلا احدى الحسنيين " بوصل ألف ﴿ إحدى ﴾ .

قال القاضي أبو محمد : وهذه لغة ليست بالقياس وهذا مثل قول الشاعر : [الكامل]

يا أبا المغيرة رب أمر معضل . . . وقول الآخر : [الكامل]

إن لم أقاتل فالبسيني برقعا . . . وقوله ﴿ بعذاب من عنده ﴾ ، يريد الموت بأخذات الأسف ، ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة ، وقوله ﴿ بأيدينا ﴾ ، يريد القتل وقيل

﴿ بعذاب من عنده ﴾ يريد أنواع المصائب والقوارع وقوله : ﴿ فتربصوا إنَّا معكم متربصون ﴾ وعيد وتهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(10/339)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾

أي : تنتظرون .

والحسنيان : النصر والشهادة .

﴿ ونحن نتربَّص بكم أن يصيبَكم الله بعذاب من عنده ﴾ في هذا العذاب قولان .

أحدهما : الصواعق ، قاله ابن عباس .

والثاني : الموت ، قاله ابن جُرَيج .

قوله تعالى : ﴿ أو بأيدينا ﴾ يعني : القتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ ﴾

والكوفيون يدغمون اللام في التاء .

فأما لام المعرفة فلا يجوز إلا الإدغام ؛ كما قال جل وعز : "التَّائِبُون" لكثرة لام المعرفة في كلامهم .

ولا يجوز الإدغام في قوله : "قُلْ تَعَالَوْا" لأن "قل" معتل ، فلم يجمعوا عليه علتين .

والتربص الانتظار .

يقال : تربص بالطعام أي انتظر به إلى حين الغلاء .

والحسنى تأنيث الأحسن .

وواحد الحسنيين حسنى ، والجمع الحسنى ، ولا يجوز أن ينطق به إلا معرّفاً .

لا يقال : رأيت امرأة حسنى .

والمراد بالحُسْنَيين الغنيمة والشهادة ؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ وغيرهما .

واللفظ استفهام والمعنى توبيخ .

﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي عقوبة تهلككم ؛ كما أصاب الأمم الخالية من قبلكم .

﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أي يؤذن لنا في قتالكم .

﴿ فتربصوا ﴾ تهديد ووعيد .

أي انتظروا مواعد الشيطان إنا منتظرون مواعد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ قل هل تربصون بنا ﴾

يعني : قل يا محمد لهؤلاء المنافقين هل تنتظرون بنا أيها المنافقون ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ يعني إما النصر والغنيمة وإما الشهادة والمغفرة وذلك أن المسلم إذا ذهب إلى الغزو والجهاد في سبيل الله إما أن يغلب عدوه فيفوز بالنصر والغنيمة والأجر العظيم في الآخرة وإما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي الغاية القصوى ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :

" تكفل الله وفي رواية تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي وإيمان بي وتصديق برسلي فهو عليّ ضامن أن أدخله الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة " أخرجاه في الصحيحين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ يعني ونحن ننتظر بكم إحدى السوأيين ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ يعني فيهلككم كما أهلك من كان قبلكم من الأمم الخالية ﴿ أو بأيدينا ﴾ يعني أو يصيبكم بأيدي المؤمنين بأن يظفرنا بكم ويظهرنا عليكم

﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ قال الحسن : فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعيد الله من إظهار دينه واستئصال من خالفه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(12/339)

وقال أبو حيان :

﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾

أي ما ينتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين ، كل واحدة منهما هي الحسنى من العواقب : إما النصرة ، وإما الشهادة .

فالنصرة مآلها إلى الغلبة والاستيلاء ، والشهادة مآلها إلى الجنة .

وقال ابن عباس : إنّ الحسينيين الغنيمة والشهادة .

وقيل : الأجر والغنيمة .

وقيل : الشهادة والمغفرة .

وفي الحديث : " تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله ، وتصديق كلمته أن يدخل الجنة ، أو رجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر

وغنيمة ، والعذاب من عند الله " قال ابن عباس : هو هنا الصواعق .

وقال ابن جريج : الموت .

وقيل : قارعة من السماء تهلكهم كما نزلت على عاد وثمود .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة ، أو بأيدينا بالقتل على الكفر .

فتربصوا مواعيد الشيطان إنا معكم متربصون إظهار دينه واستئصال من خالفه ، قاله الحسن .

وقال الزمخشري : فتربصوا بنا ما ذكرنا من عواقبنا أنا معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، فلا بد أنْ نلقى كلنا ما نتربصه لا نتجاوزه انتهى .

وهو أمر يتضمن التهديد والوعيد .

وقرأ ابن محيصن الأحدي : بإسقاط الهمزة .

قال ابن عطية : فوصل ألف إحدى وهذه لغة وليست بالقياس ، وهذا نحو قول الشاعر :

يا با المغيرة رب أمر معضل . . .

ونحو قول الآخر :

إن لم أقاتل فالبسني برقعا . . .

انتهى . انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾

والتربُّصُ التمكّثُ مع انتظار مجيءِ شيءٍ خيراً كان أو شراً ، والباءُ للتعدية وإحدى التاءين محذوفةٌ أي ما تنتظرون بنا ﴿ إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ أي العاقبتين اللتين كلٌّ واحدةٍ منهما هي حُسنى العواقبِ وهما النصرُ والشهادةُ وهذا نوعُ بيانٍ لما أُبهم في الجواب الأول وكشفٌ لحقيقة الحالِ بإعلام أن ما يزعُمونه مضرّةً للمسلمين من الشهادة أنفعُ مما يعُدّونه منفعةً من النصر والغنيمة ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ أحدى السوأَيْين من العواقب إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ كما أصاب مَن قبلكم من الأمم المهلَكة والظرفُ صفةُ عذاب ، ولذلك حُذف عاملُه وجوباً ﴿ أَوْ ﴾ بعذاب ﴿ بِأَيْدِينَا ﴾ وهو القتلُ على الكفر ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ الفاءُ فصيحةٌ أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتُنا ﴿ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ما هو عاقبتُكم فإذا لقِيَ كلٌّ منا ومنكم ما يتربصه لا تشاهدون إلا ما يُسرنا ولا نشاهد إلا ما يسوءكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(14/339)

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا ﴾

لانقطاع حكم الأمر الأول بالثاني وإن كان أمراً لغائب ، وأما على كلام الجماعة فالإعادة لإبراز كمال العناية بشأن المأمور به ، والتربص الانتظار والتمهل واحدى التاءين محذوفة ، والباء للتعدية أي ما تنتظرون بها ﴿ إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ أي إحدى العاقبتين اللتين كل منهما أحسن من جميع العواقب غير الأخرى أو أحسن من جميع عواقب الكفرة أو كل منهما أحسن مما عداه من جهة ، والمراد بهما النصرة والشهادة ، والحاصل أن ما تنتظرونه لا يخلو من أحد هذين الأمرين وكل منهما عاقبته حسنى لا كما تزعمون من أن ما يصيبنا من القتل في الغزو سوء ولذلك سررتم به .

(15/339)

وصح من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " تكفل الله تعالى لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر وغنيمة " ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى السوأيين من العواقب إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ فيهلككم كما

فعل بالأمم الخالية قبلكم ، والظرف صفة ﴿ عَذَابِ ﴾ وكونه من عنده تعالى كناية عن كونه منه جل شأنه بلا مباشرة البشر ، ويظهر ذلك المقابلة بقوله سبحانه : ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ أي أو بعذاب كائن بأيدينا كالقتل بكونه على الكفر لأنه بدونه شهادة ، وفيه إشارة إلى أنهم لا يقتلون حتى يظهروا الكفر ويصروا عليه لأنهم منافقون والمنافق لا يقتل ابتداء ﴿ فَتَرَبَّصُواْ ﴾ الفاء فصيحة أي إذا كان الأمر كذلك فتربصوا بنا ما هو عاقبتنا ﴿ إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ ﴾ ما هو عاقبتكم فإذا لقي كل منا ومنكم ما يتربصه لا نشاهد إلا ما يسؤوكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا ، وما ذكرناه من مفعول التربص هو الظاهر ، ولعله يرجع إليه ما روي عن الحسن أي فتربصوا مواعيد الشيطان إنا متربصون مواعد الله تعالى من إظهار دينه واستئصال من خالفه ، والمراد من الأمر التهديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(16/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

تنزّل هذه الجملة منزلة البيان لِما تضمّنته جملة ﴿ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ [

التوبة : 51] الآية ، ولذلك لم تعطف عليها ، والمبيّن هو إجمالُ ﴿ ما كتب الله لنا هو مولانا ﴾ [التوبة : 51] كما تقدّم .

والمعنى لا تنتظرون من حالنا إلاّ حسنة عاجلة أو حسنة آجلة فأمّا نحن فننتظر من حالكم أن يعذبكم الله في الآخرة بعذاب النار ، أو في الدنيا بعذاب على غير أيدينا من عذاب الله في الدنيا : كالجوع والخوف ، أو بعذابٍ بأيدينا ، وهو عذاب القتل ، إذا أذن الله بحربكم ، كما في قوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ﴾ [الأحزاب : 60] الآية .

والاستفهام مستعمل في النفي بقرينة الاستثناء .

ومعنى الكلام توبيخ لهم وتخطئة لتربّصهم لأنّهم يتربّصون بالمسلمين أن يقتلوا ، ويغفلون عن احتمال أن ينصروا فكان المعنى : لا تتربّصون بنا إلا أن نقتل أو نغلِب وذلك إحدى الحسنين .

والتربص : انتظار حصول شيء مرغوب حصوله ، وأكثر استعماله .

أن يكون انتظارَ حصول شيء لغير المنتظِر (بكسر الظاء) ولذلك كثرت تعدية فعل التربّص بالباء لأن المتربّص ينتظر شيئاً مصاحباً لآخرِ هو الذي لأجله الانتظار .

وأمّا قوله : ﴿ والمطلقات يتربّصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ [البقرة : 228] فقد نزلت ﴿ أنفسهن ﴾ منزلة المغاير للمبالغة في وجوب التربّص ، ولذلك قال في "الكشّاف" : "في

ذكر الأنفس تهييج لهن على التربّص وزيادة بعث" .

وقد تقدم ذلك هنالك ، وأمّا قوله : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربّص أربعة أشهر ﴾ [البقرة : 226] فهو على أصل الاستعمال لأنّه تربّص بأزواجهم .

وجملة ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ معطوفة على جملة الاستفهام عَطف الخبر على الإنشاء : بل على خبر في صورة الإنشاء ، فهي من مقول القول وليس فيها معنى الاستفهام .

(17/339)

والمعنى : وجود البون بين الفريقين في عاقبة الحرب في حالي الغلبة والهزيمة .

وجعلت جملة ﴿ ونحن نتربص ﴾ اسميةً فلم يقل ونتربّص بكم بخلاف الجملة المعطوف عليها : لإفادة تقوية التربّص ، وكناية عن تقوية حصول المتربَّص لأن تقوية التربّص تفيد قوة الرجاء في حصول المتربَّص فتفيد قوّة حصوله وهو المكنّى عنه .

وتفرّع على جملة ﴿ هل تربصون بنا ﴾ جملة ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ لأنّه إذا كان تربّص كلّ من الفريقين مسفراً عن إحدى الحالتين المذكورتين كان فريق المؤمنين أرضى الفريقين بالمتَّربِّصين لأنّ فيهما نفعه وضرّ عدوّه .

والأمر في قوله : ﴿ تربّصوا ﴾ للتحْضيض المجازي المفيد قلّة الإكتراث بتربّصهم كقول

طَريف بن تميم العنبري:

فتوسَّمُوني إنَّني أنَا ذلكُم . . .

شَاكِي سِلاحي في الحوادث مُعْلَم

وجملة ﴿ إنا معكم متربصون ﴾ تهديد للمخاطبين والمعية هنا : معية في التّربص ، أو في زمانه ، وفصلت هذه الجملة عن التي قبلها لأنّها كالعلّة للحضّ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(18/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

وسبحانه وتعالى بهذه الآية إنما يرد على من يحزن إن أصابت الحسنة المؤمنين ، ويفرح إن أصابتهم مصيبة ، فيأتي قول الحق سبحانه ليوضح : إن كل ما يصيب المؤمنين هو لصالحهم . ولذلك قال : ﴿ لَّن يُصِيبَنَآ إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ فلم يكتب سبحانه الأمور علينا ، بل لنا ، و " لنا " تفيد الملكية ؛ إما : تأديباً وإما تكفيراً عن ذنوب ، وإما اتجاهاً إلى الحق بعد زيغ الباطل ، وكل ذلك لصالحنا .

وجاء سبحانه بعد ذلك بالقول ﴿ فتربصوا ﴾ أي : تمهلوا وانتظروا وترقبوا نهايتنا ونهايتكم . أما نهايتكم فاستدامة عذاب في الدنيا وفي الآخرة . وأسباب العذاب مجتمعة لكم في الدنيا ، وأسباب الخير ممتنعة عنكم في الآخرة ، ونتيجة تربصنا لكم أن نرى السوء يصيبكم ، وتربصكم لنا يجعلكم ترون الخير وهو يسعى إلينا ، إذن فنتيجة المقارنة ستكون في صالحنا نحن .

وبعد أن بيَّن الله ذلك يطرأ على خاطر المؤمن سؤال : ألا يصدر من هؤلاء الأقوام فعل خير ؟ وألا يأتي إليهم أدنى خير ؟ ونحن نعلم أن الحق سبحانه يجزي دائماً على أدنى خير .

ونقول : إن الحق شاء أن يبين لنا بجسم مسألة الخيانة العظمى وهي الكفر والعياذ بالله ، وبيَّن أن كل كافر بالله لا يُقبل منه أي عمل طيب ؛ لأن الكفر يُحبط أيَّ عمل ، وإن كان لعملهم خير يفيد الناس ، فالحق يجازيهم مادياً في الدنيا ، ولكن ليس لهم في الآخرة إلا النار . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(19/339)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ قال : فتح أو شهادة .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ قال : إلا فتحاً أو قتلاً في سبيل الله .

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي من طريق سعد بن إسحاق بن كعب بن عجرة عن أبيه عن جده " بينما النبي صلى الله عليه وسلم بالروحاء إذ هبط عليه أعرابي من سرب فقال : من القوم وأين تريدون ؟ قال : قوم بدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم . قال : ما لي أراكم بذة هيئتكم قليلاً سلاحكم ؟ قال : ننتظر إحدى الحسنيين ، إما أن نقتل فالجنة وإما أن نغلب فيجمعهما الله تعالى لنا الظفر والجنة . قال : أين نبيكم ؟ قالوا : ها هوذا . فقال له : يا نبي الله ليست لي مصلحة آخذ مصلحي ثم الحق ؟ قال " اذهب إلى أهلك فخذ مصلحتك فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر وخرج الرجل إلى أهله حتى فرغ من حاجته ثم لحق بهم ببدر ، فدخل في الصف معهم فاقتتل الناس فكان فيمن

استشهد ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن انتصر فمر بين ظهراني الشهداء ومعه عمر رضي الله عنه ، فقال : ها يا عمر إنك تحب الحديث ، وإن للشهداء سادة وأشرافاً وملوكاً ، وإن هذا يا عمر منهم " " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج رضي الله عنه في قوله ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ﴾ قال : القتل بالسيوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(20/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِحْدَى ﴾ : مفعول التربُّص ، فهو استثناء مفرغ . وقرأ ابن محيصن " إلا احدى " بوصل ألف " احدى " إجراء لهمزة القطع مُجْرى همزة الوصل فهو كقول الشاعر :

2497 إنْ لم أُقاتِلْ فالبسوني بُرْقُعا . . . وقول الآخر :

2498 يا با المغيرة رُبَّ أَمْرٍ مُعْضِلٍ . . . فَرَّجْتُه بالمكر مِنّي والدَّهَا

وقوله ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ ﴾ مفعول التربُّص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 64 ﴾

(21/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) ﴾

بَيَّنَ اللهُ في هذه الآية الفَرْقَ بين المؤمنين وبين الكفار ، فقال قُلْ للذين ينتظرون : أيها الكفار إن كان من شأن المؤمنين وقوعُ الدائرة عليهم في القتال ، أَو أنَّ القَتْلَ ينالهُم فأيُّ واحدٍ من الأمْرَيْن ينالهم فهو لهم من الله نعمة ؛ لأنَّا إنْ ظَفِرْنا بكم فَنَصْرٌ وغنيمة ، وعِزٌّ للدِّين ورفعة ، وإنْ قُتِلْنَا فشهادةٌ ورحمة ، ورضوانٌ من الله وزُلْفَى . وإنْ كان الذي يصيبنا في الدنيا هزيمة ونكبةٌ ، فذلك مُوجِبٌ للأجْرِ والمثوبة ، فإذاً لن يستقبلَنا إلا ما هو حُسْنَى ونعمة .

وأمَّا أنتم ، فإنْ ظَفِرْنَا بكم فتعجيلُ لذلِّكم ومحنة ، وإن قُتِلتُم فعقوبةٌ من اللهِ وسخطه ، وإن كانت اليد لكم في الحال فخذلانٌ من اللهِ ، وسببُ عذابٍ وزيادةُ نقمة .

ويقال : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ أمَّا قيامُ بحقّ الله في الحال فنكون بوصف الرضاء وهو - في التحقيق - الجنَّةُ الكبرى ، وإمَّا وصولٌ إلى الله تعالى في المآل بوصف الشهادة ، ووجدان الزلفى في العقبى وهو الكرامة العظمى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 34 ﴾

(22/339)

قوله تعالى ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان جملة ما يصيبهم منهم من العذاب الإنفاق بتزكية ما طهر من أموالهم بالإعانة في سبيل الله خوفاً من اتهامهم بالنفاق في أقوالهم ليفتدوا أنفسهم به من السفر ، قال : ﴿ قل أنفقوا ﴾ أي أوجدوا الإنفاق لكل ما يسمى إنفاقاً ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ أي مظهرين الطواعية أو مظهرين الكراهية ؛ ولما كان الإعراض عنهم إنما سببه كفرهم لا إنفاقهم ، لم يربط الجواب بالفاء بل قال : ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ أي يقع تقبل لشيء يأتي من قبلكم أصلاً من أحد له أن يتقبل كائناً من كان ، ولذلك بناه للمفعول ، لأن قلوبكم كارهة ليست لها نية

صالحة في الإنفاق ولا في غيره ، فانقسام إنفاقكم إلى طوع وكره إنما هو باعتبار الظاهر ، وكأنه عبر بالتفعل إشارة إلى قبوله منهم ظاهراً ؛ ولما كان غير مقبول باطناً على حال من الأحوال علل بقوله : ﴿ إنكم كنتم ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ قوماً فاسقين ﴾ أي عريقين في الفسق بالغين أنهى غاياته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 332 . 333 ﴾

(23/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن عاقبة هؤلاء المنافقين هي العذاب في الدنيا وفي الآخرة ، بين أنهم وإن أتوا بشيء من أعمال البر فإنهم لا ينتفعون به في الآخرة ، والمقصود بيان أن أسباب العذاب في الدنيا والآخرة مجتمعة في حقهم ، وأن أسباب الراحة والخير زائلة عنهم في الدنيا وفي الآخرة ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي ﴿ كَرْهاً ﴾ بضم الكاف ههنا ، وفي النساء والأحقاف ، وقرأ عاصم

وابن عامر في الأحقاف بالضم من المشقة ، وفي النساء والتوبة بالفتح من الإكراه والباقون بفتح الكاف في جميع ذلك .

فقيل : هما لغتان .

وقيل : بالضم المشقة وبالفتح ما أكرهت عليه .

المسألة الثانية :

قال ابن عباس : نزلت في الجد بن قيس حين قال للنبي صلى الله عليه وسلم ائذن لي في القعود وهذا ما لي أعينك به .

واعلم أن السبب وإن كان خاصاً إلا أن الحكم عام ، فقوله : ﴿ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ وإن كان لفظه لفظ أمر ، إلا أن معناه معنى الشرط والجزاء .

والمعنى : سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل ذلك منكم .

واعلم أن الخبر والأمر يتقاربان ، فيحسن إقامة كل واحد منهما مقام الآخر .

أما إقامة الأمر مقام الخبر ، فكما ههنا ، وكما في قوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 80] وفي قوله : ﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضلالة فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] وأما إقامة الخبر مقام الأمر ، فكقوله : ﴿ والوالدات يُرْضِعْنَ أولادهن ﴾ [البقرة : 233] ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ﴾ [البقرة : 228] وقال كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

وقوله : ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ يريد طائعين أو كارهين .

(24/339)

وفيه وجهان : الأول : طائعين من غير إلزام من الله ورسوله أو مكرهين من قبل الله ورسوله ، وسمى الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون ، فكان إلزام الله إياهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه ، والثاني : أن يكون التقدير : طائعين من غير إكراه من رؤسائكم ، لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون الاتباع على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم .

ثم قال تعالى : ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ يحتمل أن يكون المراد أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتقبل تلك الأموال منهم ، ويحتمل أن يكون المراد أنها لا تصير مقبولة عند الله .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ وهذا إشارة إلى أن عدم القبول معلل بكونهم فاسقين .

قال الجبائي : دلت الآية على أن الفسق يحبط الطاعات ، لأنه تعالى بين أن نفقتهم لا تقبل ألبتة ، وعلل ذلك بكونهم فاسقين ، ومعنى التقبل هو الثواب والمدح ، وإذا لم يتقبل ذلك كان معناه أنه لا ثواب ولا مدح ، فلما علل ذلك بالفسق دل على أن الفسق يؤثر في إزالة هذا

المعنى ، ثم إن الجبائي أكد ذلك بدليلهم المشهور في هذه المسألة ، وهو أن الفسق يوجب الذم والعقاب الدائمين ، والطاعة توجب المدح والثواب الدائمين ، والجمع بينهما محال . فكان الجمع بين حصول استحقاقهما محالاً .

(25/339)

واعلم أنه كان الواجب عليه أن لا يذكر هذا الاستدلال بعد ما أزال الله هذه الشبهة على أبلغ الوجوه ، وهو قوله : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾ فبين تعالى بصريح هذا اللفظ أنه لا مؤثر في منع قبول هذه الأعمال إلا الكفر ، وعند هذا يصير هذا الكلام من أوضح الدلائل على أن الفسق لا يحبط الطاعات ، لأنه تعالى لما قال : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ فكأنه سأل سائل وقال : هذا الحكم معلل بعموم كون تلك الأعمال فسقاً ، أو بخصوص كون تلك الأعمال موصوفة بذلك الفسق ؟ فبين تعالى به ما أزال هذه الشبهة ، وهو أن عدم القبول غير معلل بعموم كونه فسقاً ، بل بخصوص وصفه وهو كون ذلك الفسق كفراً .

فثبت أن هذا الاستدلال باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 71 .

﴿ 72

وقال السمرقندى :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾

يعني : قل للمنافقين : أنفقوا طوعاً من قبل أنفسكم ، أو كرهاً مخافة القتل .

﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ النفقة .

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ ، يعني : منافقين .

فقوله : ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ اللفظِ لفظ الأمر والمعنى معنى الخبر ، يعني : إن أنفقتم ، كما إنه يذكر لفظ الخبر والمراد به الأمر ؛ كقولك : غفر الله لك ، وقولك : رحم الله فلاناً ، يعني : اللهم اغفر له .

وها هنا اللفظ لفظ الأمر ومعناه الخبر والشرط يعني : إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً ، لن يتقبل منكم .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ كَرْهاً ﴾ بضم الكاف .

وقرأ الباقون ﴿ كَرْهاً ﴾ بالنصب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾

نزلت في منجد بن قيس حين أستاذن النبي صلى الله عليه وسلم في القعود عن الغزوة ، وقال : هذا مالي أُعينك به ، وظاهر الآية أمر معناه خبر وجزاء تقديره : إن أنفقتم طوعاً أو كرهاً فليس بمقبول منكم كقول الله عز وجل : ﴿ واستغفر لَهُمْ ﴾ الآية [آل عمران : 159] [النساء : 64] [النور : 62] . قال الشاعر :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملامة . . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ منافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(27/339)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾

سببها : أن الجد بن قيس حين قال ﴿ ائذن لي ولا تفتني ﴾ [التوبة : 49] قال إني أعينك بمال فنزلت هذه الآية فيه وهي عامة بعده ، والطوع والكره يعمان كل إنفاق ، وقرأ ابن وثاب والأعمش " وكُرها " بضم الكاف .

قال القاضي أبو محمد : ويتصل ها هنا ذكر أفال الكافر إذا كانت براً كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة المظلوم هل ينتفع بها أم لا ، فاختصار القول في ذلك أن في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " إن ثواب الكافر على أفعاله البرة هو في الطعمة يطعمها " ونحو ذلك ، فهذا مقنع لا يحتاج معه إلى نظر وأما ينتفع بها في الآخرة فلا ، دليل ذلك أن عائشة أم المؤمنين قالت للنبي صلى الله عليه وسلم يا رسول الله : أرأيت عبد الله بن جدعان أينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير فقال : " لا إنه لم يقل يوماً ، رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين " ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه : ذاك العاصي بن وائل لا جزاه الله خيراً وكان هذا القول بعد موت العاصي ، الحديث بطوله ، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أحد التأويلين : أعني في قول النبي صلى الله عليه وسلم : " أسلمت على ما سلف لك من خير " ، ولا حجة في أمر أبي طالب كونه في ضحضاح من نار لأن ذلك إنما هو بشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وبأنه وجده في غمرة النار فأخرجه ، ولو فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعة ، وأما أفعال الكافر القبيحة فإنها تزيد في عذابه وبذلك هو تفاضلهم في عذاب جهنم ، وقوله : ﴿ أنفقوا ﴾ أمر في ضمنه جزاء وهذا مستمر في كل أمر معه جواب فالتقدير : إن لم تنفقوا لم يتقبل منكم ، وأما إذا عري الأمر من جواب فليس يصحبه تضمن الشرط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(28/339)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾

سبب نزولها : أن الجدّ بن قيس قال للنبي صلى الله عليه وسلم لما عرض عليه غزو الروم : إذا رأيت النساء افتتنت ، ولكن هذا مالي أعينك به ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس .

قال الزجاج : وهذا لفظ أمر ، ومعناه : معنى الشرط والجزاء ، المعنى : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين لن يُتقبّل منكم .

ومثله في الشعر قول كثيّر :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومةً . . .

لَدينا ولا مَقْلِيَّةً إن تَقَلَّتِ

لم يأمرها بالإساءة ، ولكن أعلمها أنها إن أساءت أو أحسنت فهو على عهدها .

قال الفراء ومثله : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(29/339)

وقال القرطبى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

فيه أربع مسائل :

الأُولى قال ابن عباس : نزلت في الجدّ بن قيس إذ قال ائذن لي في القعود وهذا مالي أعِينُك به .

ولفظ ﴿ أَنفِقُواْ ﴾ أمرٌ ، ومعناه الشرط والجزاء .

وهكذا تستعمل العرب في مثل هذا ، تأتي بأو ؛ كما قال الشاعر :

أسيئي بنا أو أحْسني لا ملومةٌ . . .

لدينا ولا مَقْلِيّةٌ إن تَقَلّتِ

والمعنى إن أسأتِ أو أحسنتِ فنحن على ما تعرفين .

ومعنى الآية : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يقبل منكم .

ثم بيّن جل وعزّ لم لا يقبل منهم فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ فكان في هذا أدلّ دليل وهي :

الثانية على أن أفعال الكافر إذا كانت برّاً كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة الملهوف لا يثاب عليها ولا ينتفع بها في الآخرة ؛ بَيْدَ أنه يُطْعَم بها في الدنيا .

دليلُه ما رواه مسلم " عن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت يا رسول الله ، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصِل الرحِم ويطعم المسكين ، فهل ذلك نافعه ؟ قال : "لا ينفعه ، إنه لم يقل يوماً رَبِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين" " وروي عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يظلم مؤمناً حسنةً يُعْطَى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخرة وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل لِلَّه بها في الدنيا حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزي بها " وهذا نصٌّ .

ثم قيل : هل بحكم هذا الوعد الصَّادق لا بدّ أن يطعم الكافر ويعطى بحسناته في الدنيا ، أو ذلك مقيّد بمشيئة الله المذكورة في قوله : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء : 18] وهذا هو الصحيح من القولين ، والله أعلم .

(30/339)

وتسمية ما يصدر عن الكافر حسنة إنما هو بحسب ظنّ الكافر ، وإلاَّ فلا يصح منه قُرْبة ، لعدم شرطها المصحّح لها وهو الإيمان .

أو سُمّيت حسنة لأنها تشبه صورة حسنة المؤمن ظاهراً .

قولان أيضاً .

الثالثة فإن قيل : فقد روى مسلم " عن حكيم بن حِزام أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أيْ رسولَ الله ، أرأيت أُموراً كنتُ أتحنّث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة أو صلةِ رحِم أفيها أجر ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أسلمتَ على ما أسلفتَ من خير" " قلنا قوله : " أسلمت على ما أسلفت من خير " مخالف ظاهره للأُصول ، لأن الكافر لا يصح منه التقرّب لله تعالى فيكون مثاباً على طاعته ؛ لأن من شرط المتقرِّب أن يكون عارفاً بالمتقرَّب إليه ، فإذا عدم الشرط انتفى صحة المشروط .

فكان المعنى في الحديث : إنك اكتسبت طباعاً جميلة في الجاهلية أكسبتك عادة جميلة في الإسلام .

وذلك أن حكيماً رضي الله عنه عاش مائة وعشرين سنة ؛ ستّين في الإسلام وستّين في الجاهلية ، فأعتق في الجاهلية مائة رقبة وحمل على مائة بعير ؟ وكذلك فعل في الإسلام .

وهذا واضح .

وقد قيل : لا يبعد في كرم الله أن يثيبه على فعله ذلك بالإسلام ، كما يسقط عنه ما ارتكبه في حال كفره من الآثام .

وإنما لا يثاب من لم يسلم ولا تاب ، ومات كافراً .

وهذا ظاهر الحديث .

وهو الصحيح إن شاء الله .

وليس عدم شرط الإيمان في عدم ثواب ما يفعله من الخير ثم أسلم ومات مسلماً بشرط عقليّ لا يتبدّل ، والله أكرم من أن يضيع عمله إذا حسن إسلامه .

وقد تأوّل الحربي الحديث على هذا المعنى فقال : " أسلمتَ على ما أسلفتَ " ؛ أي ما تقدّم لك من خير عملته فذلك لك .

كما تقول : أسلمت على ألف درهم ؛ أي على أن أحرزَها لنفسه .

والله أعلم .

(31/339)

الرابعة فإن قيل : فقد روى مسلم " عن العباس قال : قلت يا رسول الله (إن) أبا طالب كان يحوطك وينصرك ، فهل نفعه ذلك ؟ قال : "نعم ، وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضَحْضاح" " قيل له : لا يبعد أن يخفف عن الكافر بعض العذاب بما عمل من الخير ، لكن مع انضمام شفاعة ، كما جاء في أبي طالب .

فأما غيره فقد أخبر التنزيل بقوله : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشافعين ﴾ [المدثر : 48] .

وقال مخبراً عن الكافرين : ﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴾ [الشعراء : 101] .

وقد روى مسلم عن أبي سعيد الخُدرِيّ " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيُجعل في ضَحْضَاح من النار يبلغ كعبيه يَغلِي منه دماغه" " من حديث العباس رضي الله عنه : " ولولا أنا لكان في الدّرك الأسفل من النار " .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ أي كافرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(32/339)

وقال الخازن :

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾

نزلت في الجد بن قيس المنافق وذلك أنه استأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في القعود عنه وقال أنا أعطيكم مالي فأنزل الله رداً عليه قل أي قل يا محمد لهذا المنافق وأمثاله في النفاق أنفقوا طوعاً أو كرهاً يعني أنفقوا طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين بالإنفاق بإلزام الله ورسوله إياكم بالإنفاق ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ لأن هذا الإنفاق إنما وقع لغير الله وهذه الآية وإن كانت خاصة في إنفاق المنافقين فهي عامة في حل كل من أنفق ماله لغير وجه الله بل

أنفقه رياء وسمعة فإنه لا يقبل منه ثم علل بسبب منع القبول بقوله ﴿ إنكم ﴾ أي لأنكم ﴿ كنتم قوماً فاسقين ﴾ والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(33/339)

وقال أبو حيان :

﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾

قرأ الأعمش وابن وثاب : كرهاً بضم الكاف ، ويعني : في سبيل الله ووجوه البر .

قيل : وهو أمر ومعناه التهديد والتوبيخ .

وقال الزمخشري : هو أمر في معنى الخبر كقوله تعالى : ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ ومعناه لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً .

ونحوه قوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ وقوله : أسيىء بنا أو أحسنى لا ملومة .

أي لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أو لا تستغفر لهم ، ولا نلومك أسأت إلينا أم أحسنت

انتهى .

وعن بعضهم غير هذا بأن معناه الجزاء والشرط أي : إنْ تنفقوا طوعاً أو كرهاً لم يتقبل منك ، وذكر الآية وبيت كثير على هذا المعنى .

قال ابن عطية : أنفقوا أمر في ضمنه جزاء ، وهذا مستمر في كل أمر معه جزاء ، والتقدير : إنْ تنفقوا لن تتقبل منكم .

وأما إذا عرى الأمر من الجواب فليس يصحبه تضمن الشرط انتهى .

ويقدح في هذا التخريج أنّ الأمر إذا كان فيه معنى الشرط كان الجواب كجواب الشرط ، فعلى هذا يقتضي أن يكون التركيب فلن يتقبل بالفاء ، لأنّ لن لا تقع جواباً للشرط إلا بالفاء ، فكذلك ما ضمن معناه .

ألا ترى جزمه الجواب في مثل اقصد زيداً يحسن إليك ، وانتصب طوعاً أو كرهاً على الحال ، والطوع أن يكون من غير إلزام الله ورسوله ، والكره إلزام ذلك .

وسمَّى الإلزام كراهاً لأنهم منافقون ، فصار الإلزام شاقاً عليهم كالإكراه .

أو يكون من غير إلزام من رؤسائكم ، أو إلزام منهم لأنهم كانوا يحملونهم على الإنفاق لما يرون فيه من المصلحة .

والجمهور على أنّ هذه نزلت بسبب الجد بن قيس حين استأذن في القعود وقال : هذا مالي

أعينك به .

وقال ابن عباس : فيكون من إطلاق الجمع على الواحد أوله ولمن فعل فعله .

(34/339)

فقد نقل البيهقي وغيره من الأئمة أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً ، استثنى منهم الثلاثة الذين خلفوا وأهلك الباقون ، ونفى التقبل إما كون الرسول لم يقبله منهم ورده ، وإما كون الله لا يثيب عليه ، وعلل انتفاء التقبل بالفسق .

قال الزمخشري : وهو التمرد والعتو ، والأولى أن يحمل على الكفر .

قال أبو عبد الله الرازي : هذه إشارة إلى أنّ عدم القبول معلل بكونهم فاسقين ، فدلَّ على أن الفسق يؤثر في إزالة هذا المعنى .

وأكد الجبائي ذلك بدليله المشهور في هذه المسألة ، وهو أن الفسق يوجب الذم والعقاب الدائمين ، والطاعة توجب المدح والثواب الدائمين ، والجمع بينهما محال .

فكان الجمعُ بين استحقاقهما محالاً ، وقد أزال الله هذه الشبهة بقوله : ﴿ وما منعهم ﴾ الآية وأن تصريح هذا اللفظ لا يؤثر في القول إلا الكفر .

ودل ذلك على أن مطلق الفسق لا يحبط الطاعات ، فنفى تعالى أنّ عدم القبول ليس معللاً

بعموم كونه فسقاً ، بل بخصوص وصفه وهو كون ذلك الفسق كفراً ، فثبت أنّ استدلال الجبائي باطل انتهى .

وفيه بعض تلخيص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(35/339)

وقال أبو السعود :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ ﴾

أموالَكم في سبيل الله ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ مصدران وقعا موقعَ الفاعل أي طائعين أو كارهين وهو أمرٌ في معنى الخبر كقوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ والمعنى أنفقتم طوعاً أو كرهاً ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ونظمُ الكلامِ في سلك الأمرِ للمبالغة في بيان تساوي الأمرين في عدم القَبولِ كأنهم أُمروا بأن يمتحنوا الحال فينفقوا على الحالين فينظروا هل يُتقبّل منهم فيشاهدوا عدمَ القبولِ وهو جوابُ قولِ جدّ بنِ قيس : ولكن أُعينك بمالي ، ونفيُ التقبُّلِ يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذِ منهم وأن يكون بمعنى عدمِ الإثابةِ عليه وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ أي عانين متمرّدين تعليلٌ لرد إنفاقِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ ﴾

أموالكم في مصالح الغزاة ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ أموالكم في مصالح الغزاة ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ أي طائعين أو كارهين ، فهما مصدران وقعا موقع الحال وصيغة ﴿ أَنفَقُواْ ﴾ وإن كانت للأمر إلا أن المراد به الخبر ، وكثيراً ما يستعمل الأمر بمعنى الخبر كعكسه ، ومنه قول كثير عزة :

أسيئى بنا أو أحسني لا ملومة . . .

لدينا ولا مقيلة ان تقلت

وهو كما قال الفراء والزجاج في معنى الشرط أي إن أنفقتم على أي حال ف ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ .

وأخرج الكلام مخرج الأمر للمبالغة في تساوي الأمرين في عدم القبول ، كأنهم أمروا أن يجربوا فينفقوا في الحالين فينظروا هل يتقبل منهم فيشاهدوا عدم القبول ، وفيه كما قال بعض

المحققين : استعارة تمثيلية شبهت حالهم في النفقة وعدم قبولها بوجه من الوجوه بحال من يؤمر بفعل ليجربه فيظهر له عدم جدواه ، فلا يتوهم أنه إذا أمر بالإنفاق كيف لا يقبل .

(37/339)

والآية نزلت كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما جواباً عما في قول الجد بن قيس حين قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن لكن أعينك بمالي " ونفي التقبل يحتمل أن يكون بمعنى عدم الأخذ منهم ، ويحتمل أن يكون بمعنى عدم الإثابة عليه ، وكل من المعنيين واقع في الاستعمال ، فقبول الناس له أخذ وقبول الله تعالى ثوابه عليه ويجوز الجمع بينهما ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ تعليل لرد انفاقهم ، والمراد بالفسق العتو التمرد فلا يقال : كيف علل مع الكفر بالفسق الذي هو دونه وكيف صح ذلك مع التصريح بتعليله بالكفر في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 10 صـ ﴾

(38/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

ابتداء كلام هو جواب عن قول بعض المستأذنين منهم في التخلّف "وأنا أعينك بمالي" .

روي أنّ قائل ذلك هو الجدّ بن قيس ، أحد بني سَلِمة ، الذي نزل فيه قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ [التوبة : 49] كما تقدّم ، وكان منافقا .

وكأنّهم قالوا ذلك مع شدّة شُحّهم لأنّهم ظنّوا أنّ ذلك يرضي النبي صلى الله عليه وسلم عن قعودهم عن الجهاد .

وقوله : ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ أي بمال تبذلونه عوضاً عن الغزو ، أو بمال تنفقونه طوعاً مع خروجكم إلى الغزو ، فقوله : ﴿ طوعاً ﴾ إدماج لتعميم أحوال الإنفاق في عدم القبول فإنّهم لا ينفقون إلاّ كرهاً لقوله تعالى بعد هذا : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ [التوبة : 54] .

والأمر في ﴿ أنفقوا ﴾ للتسوية أي : أنفقوا أو لا تنفقوا ، كما دلّت عليه ﴿ أوْ ﴾ في قوله ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ وهو في معنى الخبر الشرطيّ لأنّه في قوة أن يقال : لن يتقبّل منكم إن أنفقتم طوعاً أو أنفقتم كَرهاً ، ألا ترى أنّه قد يَجيء بعد أمثاله الشرط في معناه كقوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة :

80].

والكَره أشدّ الإلزام ، وبينه وبين الطوع مراتب تعلم إرادتها بالأوْلى ، وانتصب ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق بتقدير : إنفاقَ طَوعٍ أو إنفاقَ كَره .

ونائت فاعل يتقبّل : هو ﴿ منكم ﴾ أي لا يتقبّل منكم شيء وليس المقدّرُ الإنفاقَ المأخوذَ من ﴿ أنفقوا ﴾ بل المقصود العموم .

وجملة ﴿ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ في موضع العلّة لنفي التقبّل ، ولذلك وقعت فيها (إنَّ) المفيدةِ لمعنى فاء التعليل ، لأنّ الكافر لا يتقبّل منه عمل البرّ .

(39/339)

والمراد بالفاسقين : الكافرون ، ولذلك أعقب بقوله : ﴿ وما منعهم أن تُقبل منهم نفقاتهم إلاّ أنّهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ [التوبة : 54] .

وإنّما اختير وصف الفاسقين دون الكافرين لأنّهم يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، فكانوا كالمائِلين عن الإسلام إلى الكفر .

والمقصود من هذا تأييسهم من الانتفاع بما بذلوه من أموالهم ، فلعلّهم كانوا يحسبون أنّ الإنفاق في الغزو ينفعهم على تقدير صدق دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا من

شكّهم في أمر الدين ، فتوهّموا أنّهم يعملون أعمالاً تنفع المسلمين يجدونها عند الحشر على فرض ظهور صدق الرسول .

ويَبقون على دينهم فلا يتعرّضون للمهالك في الغزو ولا للمشاق ، وهذا من سوء نظر أهل الضلالة كما حكى الله تعالى عن بعضهم : ﴿ أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ [مريم : 77] إذْ حسب أنّه يحشر يوم البعث بحالته التي كان فيها في الحياة إذا صَدَق إخبار الرسول بالبعث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(40/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

إذن : فشرط تقبُّل الله لأي عمل إنما يأتي بعد الإيمان بالله ، أما أن تعمل وليس في بالك الله ، فخذ أجرك ممن كان في بالك وأنت تعمل .

لذلك ضرب الله مثلاً بأعمال الذين كفروا في قوله تعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ والله سَرِيعُ الحساب ﴾ [النور : 39]

ويعطينا الله سبحانه مثلاً آخر في قوله تعالى : ﴿ مَّثَلُ الذين كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ على شَيْءٍ ذلك هُوَ الضلال البعيد ﴾ [إبراهيم : 18]

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20]

وهذا ما يشرح لنا ما استغلق على بعض العلماء فهمه في قول الحق : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7-8]

(41/339)

فقد تساءل بعض من العلماء : أيجزي الحق سبحانه هؤلاء الكفار في الآخرة أم في الدنيا ؟ وقد استغلق عليهم الأمر لأن الآية عامة . ونقول : إن الحق يعطي في الدنيا الجزاء لمن عمل للدنيا ، ويعطي في الآخرة لمن عمل للدنيا والآخرة وفي قلبه الله . ولذلك فالذين يحسنون اتخاذ الأسباب المخلوقة لله بمنح الربوبية ينجحون في حياتهم . والذين يتقدمون دنيوياً في زراعة الأرض وانتقاء البذور والعناية بما يعطيهم الله جزاء عملهم في الدنيا ، ولا يبخس منه شيئاً ؛ ولكن الحق سبحانه يقول أيضاً : ﴿ وَقَدِمْنَآ إلى مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ

هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

هذا القول يوضح عطاء الآخرة ، ولذلك فالخير الذي يعمله غير المؤمن لا يُجزى عليه في الآخرة ؛ لأنه عَمِلَ وليس في باله الله ، فكيف ينتظر جزاءه ممن لم يؤمن به ؟

إن الله سبحانه يجزي مَنْ آمن به وعمل من أجله . ولكن من كفر بالله حبط كل عمله .

وهذا أمر طبيعي ؛ لأنك ما دُمْتَ قد عملت الخير وليس في بالك الله ، فلا تنتظر جزاءً منه . إن عملتَ للإنسانية أعطتْك الإنسانية ، وإن عملتَ للمجتمع أعطاك المجتمع وصنعوا لك التماثيل وأطلقوا اسمك على الميادين والشوارع ، وأقيمت باسمك المؤسسات ، وتحقق لك الخلود في الدنيا ، وهذا هو جزاؤك . ولكن إن كنت مؤمناً بالله ، راجياً ثوابه تجيء يوم القيامة لتجد يد الله ممدودة لك بالخير الذي قدمته .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ والطَّوْع : هو الفعل الذي تُقبل عليه بإرادتك دون أن تكون مكرهاً ، فكيف لا تجازى على خير فعلته بإرادتك ؟

ولا بد لنا أن نفرق بين " طوع " و " طائع " ، وكذلك نفرق بين هذا وبين الفعل الذي تقوم به حين يحملك غيرك ويُكرهك أن تفعله .

(42/339)

والأفعال كلها إما أن تكون بالطواعية وبالإرادة ، وإما أن تكون بالإكراه . ولو كان الحق قد قال : أنفقوا ، طاعة لما قال : ﴿ لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ؛ لأن الطاعة معناها انصياع عابد لإرادة معبود ، ولكن قوله هنا : ﴿ طَوْعاً ﴾ يكشف أن ما ينفقونه هو أمر اختياري من عندهم . وكانت أحوال المنافقين كذلك ، فمنهم من قدم أولاده للجهاد ، ومنهم من قدم بعضاً من ماله ، وكانوا يفعلون ذلك طائعين لأنفسهم ويستترون بمثل هذه الأفعال حتى لا يفتضح نفاقهم ، وكان الواحد يتقدم إلى الصف الأول من صفوف الصلاة في المسجد ، ويفعل ذلك طوْعَ إرادته ، خوفاً من افتضاح نفاقه لا طاعة لله ، فطاعة الله هي طاعة عابد لمعبود ، أما مثل تلك الأفعال حين تنبع من طوع النفس فهي للمظهر وليست للعبادة .

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ هل هذا أمر بالإنفاق ؟ أو هل يريد منهم أن ينفقوا فعلاً ، خاصة أنه سبحانه لن يتقبل منهم ؟ لا ليس هذا أمراً بالإنفاق بل هو تهديد ووعيد . مثلما تقول لإنسان : اصبر ، فذلك ليس أمراً بالصبر ولكن تهديد بمعنى : اصبر فَستَرى مني هولاً كثيراً . وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ فاصبروا أَوْ لاَ تَصْبِرُواْ . . ﴾ [الطور : 16]

وقوله تعالى : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ . . ﴾ [فصلت : 40]

أي : أنكم إن صبرتم أو لم تصبروا فإن ذلك لن يغير شيئاً من الجزاء الذي سوف تلاقونه ، فالأمر سواء . ولو كان قوله تعالى : ﴿ اعملوا مَا شِئْتُمْ ﴾ أمراً ؛ لكان كل من عمل معصية داخلاً في الطاعة ؛ لأن الله أمره أن يفعل ما يشاء . ولكن هذا أمر تمهيدي ، أي :

افعلوا ما شئتم فأنتم عائدون إلى الله وسيحاسبكم على ما عملتموه . ولن تستطيعوا الفرار من الله سبحانه .

وقوله تعالى : ﴿ أَنفِقُواْ ﴾ هو – إذن – أمر تمهيدي ؛ لأنه لن يجديكم أن تنفقوا طوعاً أو كرهاً .

(43/339)

وكلمة ﴿ كَرْهاً ﴾ وردت في القرآن الكريم في أكثر من سورة ، فهي في سورة آل عمران ، وفي سورة النساء ، وفي سورة التوبة ، وفي سورة الأحقاف ، وفي سورة الرعد ، وفي سورة فصلت ، قد ذكرت ﴿ كَرْهاً ﴾ بفتح الكاف وقرأها بعضهم بضم الكاف . وقال البعض : إن "كَرْهاً" بفتح الكاف و "كُرْهاً" بضم الكاف بمعنى واحد . نقول لهم : لا ، إن المعنى ليس واحداً ، فمثلاً قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً . . . ﴾ [الأحقاف : 15]

فالكُره هنا ليس للحمل ولا للوضع ، ولكن للمشقة التي تعانيها الحامل أثناء حملها وعند الولادة . فلم يكرهها أحد على هذا الحمل . ولكن البعض يقول : إن الحمل يحدث وليس للمرأة علاج في أن تحمل ولا أن تضع ، فلا توجد امرأة تقول لنفسها : " سوف أحمل الليلة " ؛

لأن الحمل يحدث دون أن تَعيَ هي حدوثه ، فالحمل يحدث باللقاء بين الرجل والمرأة .

والمرأة لا تستطيع أن تختار ساعة الحمل ولا أن تختار ساعة الولادة ، ولا تستطيع أن تقول : سألد اليوم أو لن ألد اليوم .

فكل هذا يحدث إكراهاً بغير اختيار منها . ولذلك نقول لمن يقولون أن "كَرْهاً" بفتح الكاف و "كُرْهاً" بضم الكاف بمعنى واحد : لا ؛ لأن "الكُرْه" بضم الكاف هو ما لا يريده الإنسان لأن فيه مشقة ، و "الكَره" بفتح الكاف هو ما فيه إكراه من الغير . إذن ف "كَرْهاً" بفتح الكاف تختلف في معناها عن "كُرْهًا" بضم الكاف .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

(44/339)

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ أي : لن يقبل الله منكم ما تنفقونه . ولكن ما الفرق ؟ لقد كان المنافقون يدفعون الزكاة ويقبلها الرسول منه ولم يرفضها أدباً منه صلى الله عليه وسلم ، فكل عمل يؤدى ثم يذهب إلى الرقيب الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى .

ولكن حدث أن واحداً من هؤلاء هو ثعبلة طلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بالغنى ، فلما دعا له ورزقه الله الرزق الوفير بَخِل عن الزكاة ، وحاول أن يتهرب من

دفعها ؛ فنزل القول الكريم : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُواْ اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : 75-77]

وعندما نزلت هذه الآيات جاء ثعلبة ليدفع الزكاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقبلها منه . وعندما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ثعلبة إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبل منه الزكاة . وبعد أبي جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلم يقبلها منه . ومات ثعبلة في عهد عثمان . هذا هو عدم القبول .

ولكن هناك في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم من دفع الزكاة من المنافقين وقُبلَتْ منه ، ولكن الله لم يتقبلها منه . إذن : فكل عمل قد يُقبل من فاعله ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد يتقبله أو قد لا يتقبله . إذن فالآية معناها : أنه الله لن يتقبل من هؤلاء المنافقين إنفاقهم في الخير ولو تقبله البشر .

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى السبب في ذلك فيقول :

(45/339)

﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ ﴾ وكما قلنا : إن كلمة الفاسق مأخوذة من " فسقت الرُّطَبَة " أي انفصلت القشرة عن الثمرة . وقشرة البلح مخلوقة لتحفظ الثمر . وعلمنا أن المعاني في التكليف الشرعي قد أُخذت من الأمور الحسّية ؛ ولهذا تجد أن الدين سياج يمنع الإنسان من أن يخرج على حدود الله ويحفظه من المعصية ، والإنسان حين ينفصل عن الدين إنما يصبح كالثمرة التي انفصلت عن سياجها .

فالذي يشرب الخمر أو يرتكب الجرائم أو الزنا يُعاقب على معصيته ، أما إن كان الإنسان منافقاً بعيداً عن الإيمان بالله فطاعته لا تقبل . وهَبْ أن الإنسان مؤمن بالله ولكنه ضعيف أمام معصية ما ، هنا نقول : لا شيء يجور على شيء ، إن له ثوابَ إيمانه وعليه عقاب معصيته .

إذن : فالفسق في هذه الآية الكريمة ليس هو الخروج عن مطلق الطاعة . ولكنه فسق من نوع خاص ؛ لأن هناك فسقاً محدوداً وهو أن يخرج الإنسان عن مجرد تكليف . ولكن الفسق الكبير هو أن يكفر الإنسان بالله . ولذلك جاءت الآية الكريمة التالية ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(46/339)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال الجد بن قيس : إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى افتتن ولكن أعينك بمالي . قال : ففيه نزلت ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴾ قال : لقوله أعينك بمالي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(47/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

قوله تعالى : ﴿ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ : مصدران في موضع الحال ، أي : طائعين أو كارهين . وقرأ الأخوان " كُرْهاً " بالضم وقد تقدم تحقيق ذلك في النساء .

وقال الشيخ هنا : " قرأ الأعمش وابن وثاب "كُرْهاً" بضم الكاف " . وهذا يُوهم أنها لم تُقْرأ في السبعة . قال الزمخشري " هو أمرٌ في معنى الخبر كقوله : ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرحمن مَدّاً ﴾ [مريم : 75] ومعناه : لن يُتقبَّل منكم : أنفقتم طَوْعاً أو كرهاً ، ونحوه قوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 80] . وقوله يعني كثيِّر عَزَّة :

2499 أسِيْئي بنا أو أَحْسِني لا مَلُومَةٌ . . . . . .

. . . .

أي : لن يغفر الله لهم استغفرت أو لم تستغفر ، ولا نلومك أحسنتِ إلينا أو أَسَأْتِ ، وفي معناه قول القائل :

2500 أخوك الذي إنْ قُمْتَ بالسيفِ عامداً . . . لتضربَهُ لم يَسْتَغِشَّكَ في الودِّ

وقال ابن عطية : " هذا أمرٌ في ضمنه جزاءٌ ، وهذا مستمر في كل أمرٍ معه جزاء والتقدير : إن تنفقوا لن يُتقبَّل منكم ، وأما إذا عَرِي الأمرُ من الجواب فليس يصحبه تضمُّنُ الشرط " قال الشيخ : " ويَقْدح في هذا التخريجِ أنَّ الأمر إذا كان فيه معنى الشرط كان الجواب لجواب الشرط ، فعلى هذا يقتضي أن يكون التركيب : " لن يُتقبل " بالفاء لأنَّ " لن " لا تقع جواباً للشرط إلا بالفاء فكذلك ما ضُمِّن معناه ، ألا ترى جزمَه الجوابَ في نحو : اقصد زيداً يُحْسِنْ إليك " . قلت : إنما أراد أبو محمد تفسير المعنى ، وإلا فلا يَجْهَلُ مثل هذه الواضحات . وأيضاً فلا يلزمُ لأن يُعْطى الأمرُ التقديري حكمَ الشيء الظاهر من كل وجه .

وقوله : ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ وما بعد جارٍ مَجْرى التعليل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 65.66 ﴾

(48/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (53) ﴾

المردودُ لا يقبلُ منه توصُّل ، ولا يُغيِّر حُكمُ شقاوته بتكثير التكلُّف والتعمل .

ويقال تقرُّبُ العدوِّ يوجبُ زيادةَ المقت له ، وتحبُّبُ الحبيب يقتضي زيادةَ العطف عليه ، قال تعالى : ﴿ فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ [الفرقان : 70] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 35 ﴾

(49/339)

قوله تعالى ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علل بالعراقة في الخروج عن الطاعة ، بينه في قوله : ﴿ وما منعهم أن تقبل ﴾ أي باطناً ، ولذا عبر بالمجرد ، ولذا بناه للمفعول لأن النافع القبول في نفس الأمر لا كونه من معين ﴿ منهم نفقاتهم ﴾ أي وإن جلت ﴿ إلا أنهم كفروا بالله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال من الجلال والجمال لفساد جبلاتهم وسوء غرائزهم .

ولما كان قبول النفقات مهيئاً للطهارة التي تؤثرها الصلاة ، كان السياق لعدم قبولها – ليتسبب عنه النهي عن الصلاة عليهم – أبلغ لأنه أدل على الخبث ، فأكد كفرهم بزيادة الجار إشعاراً بأن الكفر بكل منهما على حياله مانع فقال : ﴿ وبرسوله ﴾ أي فسقهم بأنهم غير مؤمنين وهو السبب المانع بمفرده من القبول : ثم قدح في شاهدي ما يظهرون من الإيمان وهما الصلاة والزكاة وغيرهما من الإنفاق في الخيرات بما هو لازم للكفر ودال عليه فقال : ﴿ ولا يأتون الصلاة ﴾ أي المفروضة وغيرها ﴿ إلا وهم كسالى ﴾ أي في حال كسلهم ، لا يأتونها قط بنشاط ﴿ ولا ينفقون ﴾ أي نفقة من واجب أو غيره ﴿ إلا وهم كارهون ﴾ أي في حال الكراهة وإن ظهر لكم خلاف ذلك ، وذلك كله لعدم النية الصالحة واعتقاد

الآخرة ، وهذا لا ينافي طوعاً لأن ذلك بحسب الفرض أو الظاهر وهذا بحسب الواقع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 333 ﴾

(50/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

دل صريح هذه الآية على أنه لا تأثير للفسق من حيث إنه فسق في هذا المنع ، وذلك صريح في بطلان قول المعتزلة على ما لخصناه وبيناه .

المسألة الثانية :

ظاهر اللفظ يدل على أن منع القبول بمجموع الأمور الثلاثة ، وهي الكفر بالله ورسوله ، وعدم الإتيان بالصلاة إلا على وجه الكسل ، والإنفاق على سبيل الكراهية .

ولقائل أن يقول : الكفر بالله سبب مستقل في المنع من القبول ، وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر ، فكيف يمكن إسناد هذا الحكم إلى السببين الباقيين ؟

وجوابه : أن هذا الإشكال إنما يتوجه على قول المعتزلة ، حيث قالوا : إن الكفر لكونه كفراً يؤثر في هذا الحكم ، أما عندنا فإن شيئاً من الأفعال لا يوجب ثواباً ولا عقاباً ألبتة ، وإنما هي معرفات واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد محال ، بل نقول : إن هذا من أقوى الدلائل اليقينية على أن هذه الأفعال غير مؤثرة في هذه الأحكام لوجوه عائدة إليها ، والدليل عليه أنه تعالى بين أنه حصلت هذه الأمور الثلاثة في حقهم ، فلو كان كل واحد منها موجباً تاماً لهذا الحكم ، لزم أن يجتمع على الأثر الواحد أسباب مستقلة ، وذلك محال ، لأن المعلول يستغنى بكل واحد منها عن كل واحد منها ، فيلزم افتقاره إليها بأسرها حال استغنائه عنها بأسرها ، وذلك محال ، فثبت أن القول بكون هذه الأفعال مؤثرة في هذه الأحكام يفضي إلى هذا المحال ، فكان القول به باطلاً .

المسألة الثالثة :

دلت هذه الآية على أن شيئاً من أعمال البر لا يكون مقبولاً عند الله مع الكفر بالله .

(51/339)

فإن قيل : فكيف الجمع بينه وبين قوله : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : 7]

قلنا : وجب أن يصرف ذلك إلى تأثيره في تخفيف العقاب ، ودلت الآية على أن الصلاة لازمة للكافر ، ولولا ذلك لما ذمهم الله تعالى على فعلها على وجه الكسل .

فإن قالوا : لم لا يجوز أن يقال الموجب للذم ليس هو ترك الصلاة ؟ بل الموجب للذم هو الإتيان بها على وجه الكسل جارياً مجرى سائر تصرفاتها من قيام وقعود ، وكما لا يكون قعودهم على وجه الكسل مانعاً من تقبل طاعتهم ، فكذلك كان يجب في صلاتهم لو لم تجب عليهم .

المسألة الرابعة :

مضى تفسير الكسالى في سورة النساء .

قال صاحب "الكشاف" : ﴿ كسالى ﴾ بالضم والفتح جمع الكسلان : نحو سكارى وحيارى في سكران وحيران .

قال المفسرون : هذا الكسل معناه أنه إن كان في جماعة صلى ، وإن كان وحده لم يصل .

قال المصنف : إن هذا المعنى إنما أثر في منع قبول الطاعات ، لأن هذا المعنى يدل على أنه لا يصلي طاعة لأمر الله وإنما يصلي خوفاً من مذمة الناس ، وهذا القدر لا يدل على الكفر .

أما لما ذكره الله تعالى بعد أن وصفهم بالكفر ، دل على أن الكسل إنما كان لأنهم يعتقدون أنه غير واجب ، وذلك يوجب الكفر .

أما قوله : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ فالمعنى : أنهم لا ينفقون لغرض الطاعة ، بل رعاية للمصلحة الظاهرة ، وذلك أنهم كانوا يعدون الإنفاق مغرماً وضيعة بينهم ، وهذا يوجب أن تكون النفس طيبة عند أداء الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، لأن الله تعالى ذم المنافقين بكراهتهم الإنفاق ، وهذا معنى قوله عليه السلام : " أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم " فإن أداها وهو كاره لذلك كان من علامات الكفر والنفاق .

قال المصنف رضي الله عنه : حاصل هذه المباحث يدل على أن روح الطاعات الإتيان بها لغرض العبودية والانقياد في الطاعة ، فإن لم يؤت بها لهذا الغرض ، فلا فائدة فيه ، بل ربما صارت وبالاً على صاحبها .

(52/339)

المسألة الخامسة :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم ﴾ قرأ حمزة والكسائي ﴿ أَن يَقْبَلُ ﴾ بالياء والباقون بالتاء على التأنيث .

وجه الأولين : أن النفقات في معنى الإنفاق ، كقوله : ﴿ فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ ﴾ ووجه من قرأ بالتأنيث أن الفعل مسند إلى مؤنث .

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ نفقاتهم ﴾ و ﴿ نَفَقَتُهُمْ ﴾ على الجمع والتوحيد .

وقرأ السلمي ﴿ أن يقبل منهم نفقاتهم ﴾ على إسناد الفعل إلى الله عز وجل . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 72 . 83 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم بيّن المعنى الذي لم تقبل نفقاتهم من أجله ، فقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾

يعني : في السر .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ لَنْ يَقْبَلُ ﴾ بالياء على لفظ التذكير ، وقرأ الباقون بلفظ التأنيث ، لأن الفعل مقدم فيجوز أن يذكر ويؤنث .

قوله : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ ، يعني : متثاقلين ولا يرونها واجبة عليهم ، ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ ﴾ في الجهاد ﴿ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ غير محتسبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴾

قرأ نافع وعاصم ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي : (أن يقبل) بالياء لنعتهم الفعل ، الباقون بالتاء ﴿ نَفَقَاتُهُمْ ﴾ صدقاتهم ﴿ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾ الاولى في

موضع نصب ، و"أن" الثانية في محل رفع تقديره : وما منعهم قبول نفقاتهم إلاّ كفرهم ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ مستاؤون لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ، ولايخافون بتركها عقاباً ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يتخذونها مغرماً ومنعها مغنماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(53/339)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾

يحتمل أن يكون معنى الآية : وما منعهم الله من أن تقبل إلا لأجل أنهم كفروا ، ف ﴿ أن ﴾ الأولى على هذا في موضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض ، و" أن " الثانية ، في موضع نصب مفعول من أجله ، ويحتمل أن يكون التقدير : وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم ، فالأولى على هذا في موضع نصب ، ويحتمل أن يكون المعنى : وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا كفرهم ، فالثانية في موضع رفع فاعلة ، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصم : " أن تقبل منهم نفقاتهم " وقرأ حمزة والكسائي ونافع فيما روي عنه : " أن يقبل منهم نفقاتهم " بالياء وقرأ الأعرج بخلاف عنه : أن تقبل منهم نفقتهم " بالتاء من فوق وإفراد

النفقة ، وقرأ الأعمش ، " أن يقبل منهم صدقاتهم ، وقرأت فرقة : " أن نقبل منهم نفقتهم " بالنون ونصب النفقة ، و ﴿ كسالى ﴾ جمع كسلان ، وكسلان إذا كانت مؤنثته كسلى لا ينصرف بوجه وإن كانت مؤنثته كسلانة فهو ينصرف في النكرة ثم أخبر عنهم تعالى أنهم " لا ينفقون دومة إلا على كراهية " إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين ، فلم يبق إلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(54/339)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ ﴾

قرأ ابن كثير ، ونافع ، وعاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "تقبل" بالتاء .

وقرأ حمزة ، والكسائي : "يقبل" بالياء .

قال أبو علي : من أَنَّث ، فلأن الفعل مسند إلى مؤنَّث في اللفظ ، ومن قرأ بالياء ، فلأنه ليس بتأنيث حقيقي ، فجاز تذكيره ، كقوله : ﴿ فمن جاءه موعظة من ربه ﴾ [البقرة : 275] وقرأ الجحدري : "أن يَقبل" بياء مفتوحة ، "نفقاتِهم" بكسر التاء .

وقرأ الأعمش : "نفقتهم" بغير ألف مرفوعة التاء .

وقرأ أبو مجلز ، وأبو رجاء ، "أن يَقبل" بالياء ، "نفقتهم" بنصب التاء على التوحيد .

قوله تعالى : ﴿ إلا أنَّهم كفروا بالله ﴾ قال ابن الأنباري : "أن" ها هنا مفتوحة ، لأنها بتأويل المصدر مرتفعة ب "منعهم" ، والتقدير : وما منعهم قبول النفقة منهم إلا كفرهم بالله .

قوله تعالى : ﴿ إلا وهم كسالى ﴾ قد شرحناه في سورة [النساء : 142] .

قوله تعالى : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ لأنهم يعدُّون الإنفاق مغرماً . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(55/339)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ ﴾ "أنْ" الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع .

والمعنى : وما منعهم من أن تقبل منهم نفقاتهم إلاَّ كفرهم وقرأ الكوفيون "أن يُقبل مِنهم" بالياء ؛ لأن النفقات والإنفاق واحد .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ قال ابن عباس : إن كان في جماعة صلى وإن انفرد لم يصلّ ، وهو الذي لا يرجو على الصَّلاة ثواباً ولا يخشى في تركها عقاباً .

فالنفاق يورث الكسل في العبادة لا محالة .

وقد تقدّم في "النساء" القول في هذا كله .

وقد ذكرنا هناك حديث العلاء مُوعَبا .

والحمد لله .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ لأنهم يعدونها مَغْرماً ومنعها مَغْنماً . وإذا كان الأمر كذلك فهي غير متقبَّلة ولا مثاب عليها حسب ما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي المانع من قبول نفقاتهم هو كفرهم بالله وبرسوله ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ جمع كسلان يعني متثاقلين في الإتيان إلى الصلاة وذلك لأنهم لا يرجون على فعلها ثواباً ولا يخافون على تركها عقاباً فلذلك ذمهم مع فعلها ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ لأنهم

كانوا يعتقدون الإنفاق في سبيل الله مغرماً ومنع ذلك الإنفاق مغنماً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(56/339)

وقال أبو حيان :

﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ .

ذكر السبب الذي هو بمفرده مانع من قبول نفقاتهم وهو الكفر ، وأتبعه بما هو ناشىء عن الكفر ومستلزم له وهو دليل عليه .

وذلك هو إتيان الصلاة وهم كسالى ، وإيتاء النفقة وهم كارهون .

فالكسل في الصلاة وترك النشاط إليها وأخذها بالإقبال من ثمرات الكفر ، فإيقاعها عندهم لا يرجون به ثواباً ، ولا يخافون بالتفريط فيها عقاباً .

وكذلك الإنفاق للأموال لا يكرهون ذلك إلا وهم لا يرجون به ثواباً .

وذكر من أعمال البر هذين العملين الجليلين وهما الصلاة والنفقة ، واكتفى بهما وإن كانوا أفسد حالاً في سائر أعمال البر ، لأنّ الصلاة أشرف الأعمال البدنية ، والنفقة في سبيل الله أشرف الأعمال المالية ، وهما وصفان المطلوب إظهارهما في الإسلام ، ويستدل بهما على

الإيمان ، وتعداد القبائح يزيد الموصوف بها ذماً وتقبيحاً .

وقرأ الأخوان وزيد بن علي : أن يقبل بالياء ، وباقي السبعة بالتاء ، ونفقاتهم بالجميع ، وزيد بن علي بالإفراد .

وقرأ الأعرج بخلاف عنه : أن تقبل بالتاء من فوق نفقتهم بالإفراد .

وفي هذه القراءات الفعل مبني للمفعول .

وقرأت فرقة : أن نقبل منهم نفقتهم بالنون ونصب النفقة .

قال الزمخشري : وقراءة السلمي أن نقبل منهم نفقاتهم على أنّ الفعل لله تعالى انتهى .

والأولى أن يكون فاعل منع قوله : ألا أنهم أي كفرهم ، ويحتمل أن يكون لفظ الجلالة أي : وما منعهم الله ، ويكون إلا أنهم تقديره : إلا لأنهم كفروا .

وأن تقبل مفعول ثان إما لوصول منع إليه بنفسه ، وإما على تقدير حذف حرف الجر ، فوصل الفعل إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(57/339)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ ﴾

وقرىء بالتحتانية ﴿ نفقاتهم إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾ استثناءٌ من أعم الأشياءِ أي ما منعهم قَبولَ نفقاتِهم منهم شيءٌ من الأشياء إلا كفرُهم ، وقرىء يَقبَلَ على البناء للفاعل وهو الله تعالى ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ أي لا يأتونها في حال من الأحوال إلا حالَ كونهم متثاقلين ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً فقوله تعالى : ﴿ طَوْعاً ﴾ أي رغبة من غير إلزامٍ من جهته عليه الصلاة والسلام أو هو فرْضيٌّ لتوسيع الدائرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(58/339)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾

وقد يراد به ما هو الكامل وهو الكفر ويكون هذا منه تعالى بياناً وتقريراً لذلك ، والاستثناء من أعم الأشياء أي ما منعهم أن تقبل نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم ، ومنه يتعدى إلى مفعولين بنفسه وقد يتعدى إلى الثاني بحرف الجبر وهو من أو عن ، وإذا عدى بحرف صح أن يقال : منعه من حقه ومنه حقه منه لأنه يكون بمعنى الحيلولة بينهما والحماية ، ولا

قلب فيه كما يتوهم ، وجاز فيما نحن فيه أن يكون متعدياً للثاني بنفسه وأن يقدر حرف وحذف حرف الجر مع إن وأن مقيس مطرد .

وجوز أبو البقاء أن يكون ﴿ أَن تُقْبَلَ ﴾ بدل اشتمال من هم في ﴿ مَنَعَهُمْ ﴾ وهو خلاف الظاهر ، وفاعل منع ما في حيز الاستثناء ، وجوز أن يكون ضمير الله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ بتقدير لأنهم كفروا .

وقرأ حمزة .

والكسائي ﴿ يَقْبَلُ ﴾ بالتحتانية لأنه تأنيث النفقات غير حقيقي مع كونه مفصولاً عن الفعل بالجار والمجرور .

وقرىء ﴿ نفقاتهم ﴾ على التوحيد .

وقرأ السلمى ﴿ إن يَقْبَلُ مِنْهُمْ نفقاتهم ﴾ ببناء ﴿ يَقْبَلُ ﴾ للفاعل ونصب النفقات ؛ والفاعل إما ضمير الله تعالى أو ضمير الرسول عليه الصلاة والسلام بناء على أن القبول بمعنى الأخذ ﴿ وَلاَ يَأْتونَ الصلاة ﴾ المفروضة في حال من الأحوال ﴿ إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ أي إلا حال كونهم متثاقلين ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ الانفاق لأنهم لا يرجون بهما ثواباً ولا يخافون على تركهما عقاباً ، وهاتان الجملتان داخلتان في حيز التعليل .

واستشكل بأن الكفر سبب مستقل لعدم القبول فما وجه التعليل بمجموع الأمور الثلاثة وعند حصول السبب المستقل لا يبقى لغيره أثر .

وأجاب الإمام بأنه إنما يتوجه على المعتزلة القائلين بأن الكفر لكونه كفراً يؤثر في هذا الحكم وأما على أهل السنة فلا لأنهم يقولون : هذه الأسباب معرفات غير موجبة للثواب ولا للعقاب واجتماع المعرفات الكثيرة على الشيء الواحد جائز ، والقول بأنه إنما جيء بهما لمجرد الذم وليستا داخلتين في حيز التعليل وإن كان يندفع به الاشكال على رأي المعتزلة خلاف الظاهر كما لا يخفى .

﴿ فَإِن قِيلَ ﴾ الكراهية خلاف الطواعية وقد جعل هؤلاء المنافقون فيما تقدم طائعين ووصفوا ههنا بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون وظاهر ذلك المنافاة .

أجيب بأن المراد بطوعهم أنهم يبذلون من غير الزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أنهم يبذلون رغبة فلا منافاة .

وقال بعض المحققين في ذلك : إن قوله سبحانه : ﴿ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [التوبة : 53] لا يدل على أنهم ينفقون طائعين بل غايته أنه ردد حالهم بين الأمرين وكون الترديد ينافي القطع محل نظر ، كما إذا قلت : إن أحسنت أو أسأت لا أزورك مع أنه لا يحسن قطعاً ،

ويكون الترديد لتوسع الدائرة وهو متسع الدائرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(60/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾

عطف على جملة ﴿ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ [التوبة : 53] لأنّ هذا بيان للتعليل لعدم قبول نفقاتهم بزيادة ذكر سببين آخرَيْن مانعين من قبول أعمالهم هما من آثار الكفر والفسوق .

وهما : أنّهم لا يأتون الصلاة إلاّ وهم كسالى ، وأنّهم لا ينفقون إلاّ وهم كارهون .

والكفر وإن كان وحده كافياً في عدم القبول ، إلاّ أنْ ذكر هذين السببين إشارة إلى تمكّن الكفر من قلوبهم وإلى مذمّتهم بالنفاق الدالّ على الجبن والتردّد .

فذكر الكفر بيان لذكر الفسوق ، وذكر التكاسل عن الصلاة لإظهار أنّهم متهاونون بأعظم عبادة فكيف يكون إنفاقهم عن إخلاص ورغبة .

وذكر الكراهية في الإنفاق لإظهار عدم الإخلاص في هذه الخصلة المتحدّث عنها .

وقرأ حمزة والكسائي : ﴿ أن يُقبل منهم ﴾ بالمثناة التحتية لأنّ جمع غير المؤنّث الحقيقي يجوز فيه التذكير وضدّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(61/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾

إذن : فالفسق نوعان : فسق خاص . وقد يقول البعض : إنك إن ارتكبت معصية فصلاتك وزكاتك وكل عباداتك لا تنفعك .

ونقول : لا فما دامت القمة سليمة ؛ إيماناً بالله وإيماناً بالرسول عليه الصلاة والسلام وتصديقاً بالمنهج ، فلكل عمل عبادي ثوابه ، ولكل ذنب عقابه ؛ لأن الحق سبحانه مطلق العدالة والرحمة ، ولا يمكن أن يضع كل الشرور في ميزان الإنسان . فمن كان عنده خصلة من خير فسوف يأخذ جائزتها وثوابها ، ومن كان عنده خصلة من شر فسوف ينال عقابها

.

وقوله الحق هنا ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ ، هذا

القول الكريم هو حيثية للحكم بعدم قبول نفقاتهم ، وفي هذا تحديد لعموم الفسق وهو الكفر ، لا في خصوص الفسق ، وحدد الحق ثلاث أشياء منعت التقبل منهم : الكفر بالله ورسوله وهو كفر القمة ، ثم قيامهم إلى الصلاة وهم كسالى ، ثم الإنفاق بكراهية .

ونفعهم المنع على أنه رَدُّ الفعل إلى ما ينقض العمل أو ينافيه ؛ كأن يريد إنسان القيام فتُعده ، أي أنك رددت إرادة القيام إلى القعود ، وهو ما ينافيه ، أو أن يحاول إنسان ضرب آخر فتمنع يده ، فتكون بذلك قد منعت غيره من أن يعتدى عليه . إذن فالمنع مرة يأتي للفاعل ومرة للمفعول . فأنت حين تمنع زيداً من الضرب تكون قد منعت الفاعل ، وحين تمنع عنه الضرب تكون قد منعت المفعول ، وكل فلسفة الحياة قائمة على المنع ، الذي يوجزه الفعل ورد الفعل ، تجد ذلك في الإنسان وفي الزمان وفي المكان .

(62/339)

وإذا بحثت هذه المسألة في الإنسان تجد أن حياته تقوم على التنفس والطعام والشراب ، والتنفس هو الأمر الذي لا يصبر الإنسان على التوقف عنه ، فإن لم تأخذ الشهيق انتهت حياتك ، وإن كتمت الزفير انتهت حياتك . وإذا منعت الهواء من الدخول إلى الرئتين يموت الإنسان ، وإذا منعت خروج الهواء من الرئتين يموت الإنسان أيضاً .

وحركة العالم كله مبنية على الفعل وما يناقضه . فإذا حاول إنسان أن يضرب شخصاً آخر وأمسكتَ يده ، وقلت له : سيأتي أبناؤه أو إخوته أو عائلته ويضربونك ، حينئذ يمتنع عن الفعل خوفاً من رد الفعل . والعالم كله لا يمكن أن يعيش في سلام إلا إذا كان هناك خوف من رد الفعل ؛ القوى يواجه قوياً ، والكل خائف من رَدِّ فعل اعتدائه على الآخر . ولكن إذا واجه قوى ضعيفاً ، تجد القوى يفتك بالضعيف .

وهكذا العالم كله ، فالكون إما ساكن وإما متحرك . وتجد الكون المتحرك فيه قوى متوازية تعيش في سلام خوفاً من رد الفعل . وكذلك تجد العالم الساكن ؛ فالعمارة الشاهقة تستمد ثباتها وسكونها من أن الهواء لا يأتي من جهة واحدة ، ولكن من جهات متعددة تجعل الضغط متوازناً على كل أجناب العمارة ، ولكن لو فرَّغْتَ الهواء من ناحية وجعلته يهب من ناحية أخرى لتحطمت العمارة ، تماماً كما تُفرِّغُ الهواء من إناء مغلق فيتحطم .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

(63/339)

﴿ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾ لا يعني أن ألسنتهم لم تنطق بالشهادة ، لا ، فقد شهد المنافقون قولاً ، ولكن هناك فرق بين قولة اللسان وتصديق الجنان ؛ فالإيمان محله القلب ،

والمنافقون جمعوا بين لسان يشهد وقلب ينكر ، فأعطاهم الرسول حق شهادة اللسان ، فلم يتعرض لهم ولم يأسرهم ولم يقتلهم ، وأعطاهم نفس الحقوق المادية المساوية لحقوق المؤمنين ، وكل ذلك احتراماً لكلمة " لا إله إلا الله محمد رسول الله " التي نطقوا بها ؛ ولأن باطنهم قبيح ، فالحق سبحانه يجازيهم بمثل ما في باطنهم ، ويعاقبهم ، فلا يأخذون ثواباً على ما يفعلونه ظاهراً وينكرونه باطناً . وهكذا كان التعامل معهم منطقياً ومناسباً . فما داموا قد أعطوا ظاهراً ، فقد أعطاهم الله حقوقاً ظاهرة ؛ ولأنهم لم يعطوا باطناً طيباً ، فلم يُعْطِهم الله غيباً من ثوابه وغيباً من جنته وعاقبهم بناره .

ونأتي إلى السبب الثاني في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاوة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ والكسل : هو التراخي في أداء المهمة . إذن فهم يصلون رياءً ، فإن كانوا مع المؤمنين ونُودي للصلاة قاموا متثاقلين . وإن كانوا حيث لا يراهم المؤمنون فهم لا يؤدون الصلاة . إذن فسلكوهم مليء بالازدواج والتناقض .

(64/339)

والسبب الثالث : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ والنفقة هي بذل ما عندك من فضل ما أعطاه الله لك ؛ سواء أكان ذلك مالاً أم علماً أم جاهاً أم قوة ، وهذا ما يحقق التوازن في

المجتمع ؛ لأن كل مجتمع به أعراض كثيرة ، تجد القوي والضعيف ، الغني والفقير ، العالم والجاهل ، الصحيح والمريض . ولو أن كل إنسان تحرك في حياته على قدر حاجته فقط لهلك الضعفاء والمرضى والعاجزون والفقراء . ولكن لابد أن يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ، ولابد أن يأخذ من ناتج عمله على قدر حاجته ومن يعول ، فأنت تأخذ حاجتك من ثمرة طاقتك ، ثم تفيء على غيرك بفضل الله عليك ، خصوصاً على هؤلاء الذين لا يقدرون على الحركة في الحياة ، فالصحيح يعطي المريض من قوته ما يعينه على الحياة . والغني يعطي الفقير من ماله ما يعينه على الحياة . والقادر على الحركة يعطي من لا يقدر عليها ، هذا هو المجتمع المتكافل .

ومثل هذا السلوك هو لصالح الجميع ؛ لأن الغني اليوم قد يكون فقيراً غداً ، والقوى اليوم قد يكون ضعيفاً غداً ، فلو أحس الإنسان بأنه يعيش في مجتمع متكافل فهو لن يخشى الأحداث والأغيار . وهذا هو التأمين الصحيح للقادر والغني ويشعر فيه كل إنسان بالتضامن والتكافل ، فلا ينشغل الفقير خوفاً من الأحداث المتغيرة ، وإن مات فلن يجوع عياله ، وإن افتقر الغني فسوف يجد المساندة ، وإن مرض الصحيح فسوف يجد العلاج .

(65/339)

إذن : فالنفقة أمر ضروري لسلامة المجتمع ، ونجد أن السوق توصف بأنها نافقة ، وهي التي يتم فيها بيع كل من السلع وشراؤها . فمن أراد أن يبيع باع ، ومن أراد أن يشتري اشترى ، إذن فالحركة فيها متكافئة . وأنت حين تذهب إلى السوق لتبيع أو تشتري ، فإما أن تأخذ مالاً نقدياً مقابل ما بِعْتَ ، وإما أن تدفع مالاً ثمناً لما اشتريت . وقديماً كان الإنسان يبادل السلعة بسلعة أخرى . وبعد اختراع النقود أصبح الإنسان يشتري السلع بثمن ، ومن ينفق ماله ويقدمه عند الله ، فالحق سبحانه يأتي له بكل خير .

وقد أراد الحق سبحانه للمنافقين العذاب الباطني في الدنيا ، والعذاب الواقع أمام الكل في الآخرة ، وبيّن لهم أن إنفاقهم طَوْعاً أو كَرْهاً لن يأتي لهم بالخير .

ولكن من ينظر إلى المنافقين قد يجد أنهم يستمتعون بالمال والولد . ولا يلتفت الإنسان الناظر إليهم إلى أن المال والولد هما أدوات عذابه . وقد يقول إنسان : إن الله قد قال : ﴿ المال والبنون زِينَةُ الحياة الدنيا . . ﴾ [الكهف : 46]

ونقول لمن يقول ذلك : أكمل الآية : ﴿ والباقيات الصالحات خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف : 46]

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ . . ﴾ [التغابن : 15]

والله يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي طي هذا الخطاب خطابٌ لجميع المسلمين

، وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(66/339)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون "

وفيما بعد من هذه السورة : "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين "

وبعد هذه الآية : "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون "

للسائل أن يسأل عن زيادة الباء فى قوله "وبرسوله " ولم تزد فى الآيتين بعد والظاهر من بعد ما يسأل فيه لأنها مقاصد مختلفة ؟

والجواب : أنك إذا قلت مثلا المانع من تقريب زيد نفاقه فإنك لم تزد على أن أخبرت عن علة منع تقريب زيد شيئا فإذا قلت أن المانع من تقريب زيد نفاقه فقد زدت على الاخبار بالمانع

من تقريب زيد أنه نفاقه وإن قلت إنما المانع من تقريب زيد نفاقه فقد حصرت المانع من التقريب فى النفاق وأكدت ذلك تأكيدا أكثر من الحاصل بإن ولذا اتفق الأصوليون على قوم المفهوم الحاصل من قوله صلى الله عليه وسلم : "إنما الولاء لمن أعتق " ولم يتفقوا فى المفهوم الحاصل من قوله عليه الصلاة والسلام : "فى سائمة الغنم بالزكاة " وذلك بسبب ما تقتضيه إنما من معنى الحصر وقد جرده بعضهم عن المفهومات وجعله دليلا برأسه لقوته وأبى أن يجعل هذا من دليل الخطاب وفى معنى قوله : "إنما الولاء لمن أعتق " وفى قوم قولك : "ما الولاء إلا لمن أعتق " فإن معناه حصر الولاء فى المعتق وأنه لا ولاء لغيره ومن هذا قوله تعالى : " إنما يخشى الله من عباده العلماء " أى ما يخشاه تعالى حق الخشية إلا العلماء وقال تعالى : "إن هو إلا وحى يوحى " فنزه سبحانه نطق نبيه عن أن يكون غير وحى وليس قولك فى الكلام : هو وحى فى قوة قولك : إنه وحى يوحى لما زدت من التأكيد بإن ولا قولك : إنه يوحى فى قوة الاخبار القرآنى من قوله تعالى : " إن هو إلا وحى يوحى " لما بين قبل .

(67/339)

فإذا وضح هذا فقوله تعالى : " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله " وقد ورد على أبلغ وجوه التأكيد وحصل حصر المانع من القبول فى كفرهم وأنه لو لم يكن

الكفر لكان القبول فناسب هذا التأكيد الذى بلغ به الغاية زيادة الباء فى قوله "وبرسوله" لإعطائها معنى التأكيد وإحرازها إياه.

ولما لم يكن هذا التأكيد الحصرى واقعا فى الآيتين بعد وإنما وكد فيها بأن قال تعالى: "ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله" وقال تعالى: "إنهم كفروا بالله ورسوله" فلم يبلغ بهذا الاخبار مع تأكيده وقوته مبلغ الأول لم تلحقه الباء وجاء كل على ما يجب والله أعلم بما أراد. انتهى انتهى. اهـ ﴿ملاك التأويل صـ 230. 231﴾

(68/339)

فائدة

قال فى البحر المديد:

الإشارة: لا يتقبل الله إلا عمل المخلصين، إما إخلاص العوام؛ لقصد الثواب وخوف العقاب، أو إخلاص الخواص؛ لإظهار العبودية وإجلال الربوبية، وعلامة الإخلاص: وجود النشاط والخفة حال المباشرة للعمل، أو قبلها والغيبة عنه بعد الوقوع، والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المديد حـ 3 صـ 392﴾

(69/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَن تُقْبَلَ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعول ثانٍ ل " منع " : إمَّا على تقدير إسقاطِ حرف الجر ، أي : من أن يُقْبل وإمَّا لوصول الفعل إليه بنفسه ، لأنك تقول : منعتُ زيداً حَقَّه ومِنْ حقه . والثاني : أنه بدلٌ من " هم " في مَنْعِهم ، قاله أبو البقاء كأنه يريد بدلَ الاشتمال . ولا حاجَةَ إليه .

وفي فاعل " منع " وجهان ، أحدهما وهو الظاهر أنه ﴿ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا ﴾ ، أي : ما منعهم قبولَ نفقتهم إلا كفرُهم . والثاني : إنه ضمير الله تعالى ، أي : وما منعهم الله ، ويكون " إلا أنهم " منصوباً على إسقاط حرف الجر ، أي : لأنهم كفروا .

وقرأ الأخَوان : " أن يُقْبَلَ " بالياء من تحت ، والباقون بالتاء من فوق ، وهما واضحتان لأنَّ التأنيثَ مجازي ، وقرأ زيد بن علي كالأخوين ، إلا أنه أفرد النفقة . وقرأ الأعرج : " تُقْبل " بالتاء من فوق ، " نفقتُهم " بالإفراد . وقرأ السُّلمي : "يَقبل " مبنياً للفاعل وهو الله تعالى . وقرىء : " نَقْبل " بنون العظمة ، " نفقتهم " بالإفراد .

قوله : ﴿ إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ ، ﴿ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ كلتا الجملتين حالٌ من الفاعل قبلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 66. 67 ﴾

(70/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) ﴾

فقدوا الإخلاص في أموالهم فعدموا الاختصاص في أحوالهم ، وحُرِموا الخلاصَ في عاجلهم وفي مآلهم .

قوله : ﴿ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى ﴾ : مَنْ أَطَاعَ من حيث العادة – مِنْ غَيْرِ أن تحملَه عليها لوعةُ الإرادة – لم يَجِدْ لطاعته راحةً وزيادة .

ويقال مَنْ لاحظَ الخَلْقَ في الجهر من أعماله ، وركَنَ إلى الكسلِ في السِّرِّ من أحواله فقد وُسِمَ بالخذلان ، وخُتِمَ بالحرمان ، وهذه هي أمارة الفرقة والقطيعة ، قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا

وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 35 ﴾

(71/339)

قوله تعالى ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما انتفى عن أموالهم النفع الأخروي الذي هو النفع ، تسبب عن ذلك الزهد فيها الموجب لعدم الالتفات إليها وعدم اعتقاد أن فيها بركة ودلالة على خير ، فقال – مبيناً ما فيها من الفساد الذي يظن أنه صلاح : ﴿ فلا ﴾ – بفاء السبب ، فالسياق ابلغ من سياق الآتية بعد النهي عن الصلاة عليهم ﴿ تعجبك أموالهم ﴾ أي وإن أنفقوها في سبيلي وجهزوا بها الغزاة .

فإن ذلك عن غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية ، وإنما هو لما أذلهم من عزة الإسلام وأخافهم من سطوة الانتقام فهو من جملة العذاب ، وعطف عليها الأولاد

لمشاركتها لها في الملاذ والقوة والاستعمال في الجهاد ، فقال مؤكداً للنفي بإعادة النافي : ﴿ ولا أولادهم ﴾ فكأنه قيل : فماذا يراد بإعطائهم ذلك ؟ ولو منعوها وأعطيها المخلصون لكان قوة للدين ، فقال : ﴿ إنما يريد الله ﴾ أي يوقع الإرادة لهم بها الملك الذي له الإحاطة بجميع الحكمة كما أن له الإحاطة بتمام القدرة ، وأبلغ في الحصر بإدخال اللام في قوله : ﴿ ليعذبهم ﴾ أي لأجل أن يعذبهم ﴿ بها في الحياة ﴾ أي وإن كان يتراءى أنها لذيذة ، لأن ذلك من شأن الحياة فإنما هي لهم موت في الحقيقة ﴿ الدنيا ﴾ أي تارة بجمعها وتربيتها وتارة ببذلها كرهاً في سبيل الله أو في تزكيتها وتارة بغير ذلك ﴿ وتزهق ﴾ أي وإنما يريد بتمكينهم منا لأجل أن يخرج وقت الموت بغاية الصعوبة ﴿ أنفسهم ﴾ أي بسببها ﴿ وهم ﴾ أي والحال أنهم ﴿ كافرون ﴾ أي عريقون في الكفر ، وهكذا كل من أراد استدراجه سبحانه فإنه في الغالب يكثر أموالهم وأولادهم لنحو هذا لأنهم إذ رأوا زيادتهم بها على بعض المخلصين ظنوا أن ذلك إنما هو لكرامتهم وحسن حالتهم فيستمرون عليها حتى يموتوا فهو سبحانه لم يرد بها منحتهم بل فتنتهم ومحنتهم ، وأما الدين فإن القادر يقويه بغير ذلك فيكون أظهر لدليله وأوضح لسبيله ؛ فالحاصل أنه ظهر لهم أنهم أكرموا بها وخفي عنهم أنها سبب لعذابهم في الحياة باتكالهم عليها ، وفي الممات بصعوبته عليهم المشار إليه بالزهوق ، وفي الآخرة بسبب موتهم على حال الكفر باستدراجهم بها ، وأما المؤمن فلا يموت حتى يرى من الثواب ما يسليه عن كل شيء فيشتاق إلى لقاء الله وتخرج

نفسه وهو في غاية المحبة لخروجها لأن البدن عائق له عما يرى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 333.334 ﴾

(72/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) ﴾

اعلم أنه تعالى لما قطع في الآية الأولى رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة ، بين أن الأشياء التي يظنونها من باب المنافع في الدنيا ، فإنه تعالى جعلها أسباب تعظيمهم في الدنيا ، وأسباب اجتماع المحن والآفات عليهم ، ومن تأمل في هذه الآيات عرف أنها مرتبة على أحسن الوجوه ، فإنه تعالى لما بين قبائح أفعالهم وفضائح أعمالهم ، بين ما لهم في الآخرة من العذاب الشديد وما لهم في الدنيا من وجوه المحنة والبلية ، ثم بين بعد ذلك أن ما يفعلونه من أعمال البر لا ينتفعون به يوم القيامة ألبتة .

ثم بين في هذه الآية أن ما يظنون أنه من منافع الدنيا فهو في الحقيقة سبب لعذابهم وبلائهم

وتشديد المحنة عليهم ، وعند هذا يظهر أن النفاق جالب لجميع الآفات في الدين والدنيا ، ومبطل لجميع الخيرات في الدين والدنيا ، وإذا وقف الإنسان على هذا الترتيب عرف أنه لا يمكن ترتيب الكلام على وجه أحسن من هذا .

ومن الله التوفيق .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

هذا الخطاب ، وإن كان في الظاهر مختصاً بالرسول عليه السلام ، إلا أن المراد منه كل المؤمنين ، أي لا ينبغي أن تعجبوا بأموال هؤلاء المنافقين والكافرين ، ولا بأولادهم ولا بسائر نعم الله عليهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ﴾ [طه : 131] الآية .

(73/339)

المسألة الثانية :

الإعجاب : السرور بالشيء مع نوع الافتخار به ، ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، وهذه الحالة تدل على استغراق النفس في ذلك الشيء وانقطاعها عن الله ، فإنه لا يبعد في حكم الله أن يزيل ذلك الشيء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره ، والإنسان متى كان متذكراً

لهذا المعنى زال إعجابه بالشيء ، ولذلك قال عليه السلام : " ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه " وكان عليه السلام يقول : " هلك المكثرون " وقال عليه السلام : " مالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدقت فأمضيت " وذكر عبيد بن عمير ، ورفعه إلى الرسول عليه السلام : " من كثر ماله اشتد حسابه ، ومن كثر بيعه كثرت شياطينه ، ومن ازداد من السلطان قرباً ، ازداد من الله بعداً " والأخبار المناسبة لهذا الباب كثيرة ، والمقصود منها الزجر عن الارتكان إلى الدنيا ، والمنع من التهالك في حبها والافتخار بها .

قال بعض المحققين : الموجودات بحسب القسمة العقلية على أربعة أقسام : الأول : الذي يكون أزلياً أبدياً ، وهو الله جل جلاله والثاني : الذي لا يكون أزلياً ولا أبدياً وهو الدنيا . والثالث : الذي يكون أزلياً ولا يكون أبدياً وهذا محال الوجود ، لأنه ثبت بالدليل أن ما ثبت قدمه امتنع عدمه .

والرابع : الذي يكون أبدياً ولا يكون أزلياً وهو الآخرة وجميع المكلفين ، فإن الآخرة لها أول ، لكن لا آخر لها ، وكذلك المكلف سواء كان مطيعاً أو كان عاصياً فلحياته أول ، ولا آخر لها .

وإذا ثبت هذا ثبت أن المناسبة الحاصلة بين الإنسان المكلف وبين الآخرة أشد من

المناسبة بنيه وبين الدنيا ، ويظهر من هذا أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، فينبغي أن لا يشتد عجبه بالدنيا ، وأن لا يميل قلبه إليها فإن المسكن الأصلي له هو الآخرة لا الدنيا .

(74/339)

أما قوله : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال النحويون : في الآية محذوف ، كأنه قيل : إنما يريد الله أن يملي لهم فيها ليعذبهم ، ويجوز أيضاً أن يكون هذا اللام بمعنى "أن" كقوله : ﴿ يُرِيدُ اللهِ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ ﴾ [النساء : 26] أي أن يبين لكم .

المسألة الثانية :

قال مجاهد والسدي وقتادة : في الآية تقديم وتأخير .

والتقدير : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وقال القاضي : وههنا سؤالان : الأول : وهو أن يقال : المال والولد لا يكونان عذاباً ، بل هما من جملة النعم التي من الله بها على عباده ، فعند هذا التزم هؤلاء التقديم والتأخير ، إلا

أن هذ الالتزام لا يدفع هذا السؤال .

لأنه يقال : بعد هذا التقديم والتأخير ، فكيف يكون المال والولد عذاباً ؟ فلا بد لهم من تقدير حذف في الكلام بأن يقولوا أراد التعذيب بها من حيث كانت سبباً للعذاب ، وإذا قالوا ذلك فقد استغنوا عن التقديم والتأخير ، لأنه يصح أن يقال يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا من حيث كانت سبباً للعذاب ، وأيضاً فلو أنه قال : ﴿ فَلاَ تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ﴾ لم يكن لهذه الزيادة كثير فائدة ، لأن من المعلوم أن الإعجاب بالمال والولد لا يكون إلا في الدنيا ، وليس كذلك حال العذاب ، فإنها قد تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة ، فثبت أن القول بهذا التقديم والتأخير ليس بشيء .

المسألة الثالثة :

الأموال والأولاد يحتمل أن تكون سبباً للعذاب في الدنيا ، ويحتمل أن تكون سبباً للعذاب في الآخرة .

أما كونها سبباً للعذاب في الدنيا فمن وجوه : الأول : أن كل من كان حبه للشيء أشد وأقوى ، كان حزنه وتألم قلبه على فواته أعظم وأصعب ، وكان خوفه على فواته أشد وأصعب ، فالذين حصلت لهم الأموال الكثيرة والأولاد إن كانت تلك الأشياء باقية عندهم كانوا في ألم الخوف الشديد من فواتها ، وإن فاتت وهلكت كانوا في ألم الحزن الشديد بسبب فواتها .

فثبت أنه بحصول موجبات السعادات الجسمانية لا ينفك عن تلك القلب إما بسبب خوف فواتها وإما بسبب الحزن من وقوع فواتها .

والثاني : أن هذه يحتاج في اكتسابها وتحصيلها إلى تعب شديد ومشقة عظيمة ، ثم عند حصولها يحتاج إلى متاعب أشد وأشق وأصعب وأعظم في حفظها ، فكان حفظ المال بعد حصوله أصعب من اكتسابه ، فالمشغوف بالمال والولد أبداً يكون في تعب الحفظ والصون عن الهلاك ، ثم إنه لا ينتفع إلا بالقليل من تلك الأموال ، فالتعب كثير والنفع قليل .

والثالث : أن الإنسان إذا عظم حبه لهذه الأموال والأولاد ، فإما أن تبقى عليه هذه الأموال والأولاد إلى آخر عمره ، أولا تبقى ، بل تهلك وتبطل .

فإن كان الأول ، فعند الموت يعظم حزنه وتشتد حسرته ، لأن مفارقة المحبوب شديدة ، وترك المحبوب أشد وأشق ، وإن كان الثاني وهو أن هذه الأشياء تهلك وتبطل حال حياة الإنسان عظم أسفه عليها ، واشتد تألم قلبه بسببها ، فثبت أن حصول الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا .

الرابع : أن الدنيا حلوة خضرة والحواس مائلة إليها ، فإذا كثرت وتوالت استغرقت فيها

وانصرفت النفس بكليتها إليها ، فيصير ذلك سبباً لحرمانه عن ذكر الله ، ثم إنه يحصل في قلبه نوع قسوة وقوة وقهر ، وكلما كان المال والجاه أكثر .

كانت تلك القسوة أقوى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] فظهر أن كثرة الأموال والأولاد سبب قوي في زوال حب الله وحب الآخرة عن القلب وفي حصول حب الدنيا وشهواتها في القلب ، فعند الموت كان الإنسان ينتقل من البستان إلى السجن ومن مجالسة الأقرباء والأحباء إلى موضع الكربة والغربة ، فيعظم تألمه وتقوى حسرته ، ثم عند الحشر حلالها حساب ، وحرامها عقاب .

فثبت أن كثرة الأموال والأولاد سبب لحصول العذاب في الدنيا والآخرة .

فإن قيل : هذا المعنى حاصل للكل ، فما الفائدة في تخصيص هؤلاء المنافقين بهذا العذاب ؟

(76/339)

قلنا : المنافقون مخصوصون بزيادات في هذا الباب : أحدها : أن الرجل إذا آمن بالله واليوم الآخر علم أنه خلق للآخرة لا للدنيا ، فبهذا العلم يفتر حبه للدنيا ، وأما المنافق لما اعتقد

أنه لا سعادة إلا في هذه الخيرات العاجلة عظمت رغبته فيها ، واشتد حبه لها ، وكانت الآلام الحاصلة بسبب فواتها أكثر في حقه ، وتقوى عند قرب الموت وظهور علاماته ، فهذا النوع من العذاب حاصل لهم في الدنيا بسبب حب الأموال والأولاد .

وثانيها : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلفهم إنفاق تلك الأموال في وجوه الخيرات ، ويكلفهم إرسال أموالهم وأولادهم إلى الجهاد والغزو ، وذلك يوجب تعريض أولادهم للقتل ، والقوم كانوا يعتقدون أن محمداً ليس بصادق في كونه رسولاً من عند الله وكانوا يعتقدون أن إنفاق تلك الأموال تضييع لها من غير فائدة ، وأن تعريض أولادهم للقتل التزام لهذا المكروه الشديد من غير فائدة ، ولا شك أن هذا أشق على القلب جداً ، فهذه الزيادة من التعذيب ، كانت حاصلة للمنافقين .

وثالثها : أنهم كانوا يبغضون محمداً عليه الصلاة والسلام بقلوبهم ، ثم كانوا يحتاجون إلى بذل أموالهم وأولادهم ونفوسهم في خدمته ، ولا شك أن هذه الحالة شاقة شديدة .

ورابعها : أنهم كانوا خائفين من أن يفتضحوا ويظهر نفاقهم وكفرهم ظهوراً تاماً ، فيصيرون أمثال سائر أهل الحرب من الكفار ، وحينئذ يتعرض الرسول لهم بالقتل ، وسبي الأولاد ونهب الأموال ، وكلما نزلت آية خافوا من ظهور الفضيحة ، وكلما دعاهم الرسول خافوا من أنه ربما وقف على وجه من وجوه مكرهم وخبثهم وكل ذلك مما يوجب تألم القلب ومزيد العذاب .

وخامسها : أن كثيراً من المنافقين كان لهم أولاد أتقياء ، كحنظلة بن أبي عامر غسلته الملائكة ، وعبد الله بن عبد الله بن أبي ، شهد بدراً وكان من الله بمكان ، وهم خلق كثير مبرؤن عن النفاق وهم كانوا لا يرتضون طريقة آبائهم في النفاق ، ويقدحون فيهم ، ويعترضون عليهم ، والابن إذا صار هكذا عظم تأذى الأب به واستيحاشه منه ، فصار حصول تلك الأولاد سبباً لعذابهم .

وسادسها : أن فقراء الصحابة وضعافهم كانوا يذهبون في خدمة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الغزوات ، ثم يرجعون مع الاسم الشريف والثناء العظيم والفوز بالغنائم . وهؤلاء المنافقون مع الأموال الكثيرة والأولاد الأقوياء ، كانوا يبقون في زوايا بيوتهم أشباه الزمنى والضعفاء من الناس ، ثم إن الخلق ينظرون إليهم بعين المقت والازدراء والسمة بالنفاق ، وكأن كثرة الأموال والأولاد صارت سبباً لحصول هذه الأحوال ، فثبت بهذه الوجوه أن كثرة أموالهم وأولادهم صارت سبباً لمزيد العذاب في الدنيا في حقهم .

المسألة الرابعة :

احتج أصحابنا في إثبات أن كل ما دخل في الوجود فهو مراد الله تعالى بقوله : ﴿ وَتَزْهَقَ

أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ قالوا : لأن معنى الآية أن الله تعالى أراد إزهاق أنفسهم مع الكفر ومن أراد ذلك فقد أراد الكفر .

أجاب الجبائي فقال : معنى الآية أنه تعالى أراد إزهاق أنفسهم حال ما كانوا كافرين ، وهذا لا يقتضي كونه تعالى مريداً للكفر ، ألا ترى أن المريض قد يقول للطبيب : أريد أن تدخل علي في وقت مرضي ، فهذه الإرادة لا توجب كونه مريداً لمرض نفسه ، وقد يقول للطبيب : أريد أن تطيب جراحتي ، وهذا لا يقتضي أن يكون مريداً لحصول تلك الجراحة ، وقد يقول السلطان لعسكره : اقتلوا البغاة ، حال إقدامهم على الحرب ، وهذا لا يدل على كونه مريداً لذلك الحرب ، فكذا ههنا .

(78/339)

والجواب : أن الذي قاله تمويه عجيب ، وذلك لأن جميع الأمثلة التي ذكرها حاصلها يرجع إلى حرف واحد ، وهو أنه يريد إزالة ذلك الشيء ، فإذا قال المريض للطبيب : أريد أن تدخل علي في وقت مرضي ، كان معناه : أريد أن تسعى في إزالة مرضي ، وإذا قال له : أريد أن تطيب جراحتي كان معناه : أريد أن تزيل عني هذه الجراحة ، وإذا قال السلطان : اقتلوا البغاة حال إقدامهم على الحرب ، كان معناه : طلب إزالة تلك المحاربة وإبطالها

وإعدامها ، فثبت أن المراد والمطلوب في كل هذه الأمثلة إعدام ذلك الشيء وإزالته فيمتنع أن يكون وجوده مراداً بخلاف هذه الآية ، وذلك لأن إزهاق نفس الكافر ليس عبارة عن إزالة كفره ، وليس أيضاً مستلزماً لتلك الإزالة ، بل هما أمران متناسبان ، ولا منافاة بينهما ألبتة ، فلما ذكر الله في هذه الآية أنه أراد إزهاق أنفسهم حال كونهم كافرين ، وجب أن يكون مريداً لكونهم كافرين حال حصول ذلك الإزهاق ، كما أنه لو قال : أريد ألقى أن فلاناً حال كونه في الدار ، فإنه يقتضي أن يكون قد أراد كونه في الدار ، وتمام التحقيق في هذا التقدير : أن الإزهاق في حال الكفر يمتنع حصوله إلا حال حصول الكفر ، ومريد الشيء مريد لما هو من ضروراته ، فلما أراد الله الإزهاق حال الكفر ، وثبت أن من أراد شيئاً فقد أراد جميع ما هو من ضروراته ، لزم كونه تعالى مريداً لذلك الكفر ، فثبت أن الأمثلة التي أوردها الجبائي محض التمويه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 73 .

77 ﴾

(79/339)

وقال السمرقندى :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَموالهم ﴾

يعني : كثرة أموالهم ؛ ﴿ وَلاَ أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ .

في الآية تقديم وتأخير قال ابن عباس فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنَّما يريد الله ليعذبهم في الآخرة ثم قال : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ ، يعني : تذهب أنفسهم وتقبض أرواحهم .

وأصله الذهاب ، كقوله تعالى ﴿ وَقُلْ جَآءَ الحق وَزَهَقَ الباطل إِنَّ الباطل كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء : 81] ﴿ وَهُمْ كافرون ﴾ ، يعني : يقبض أرواحهم على الكفر . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(80/339)

وقال الثعلبى :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لأن العبد إذا كان من الله تعالى في استدراج [. . . . .] ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهِ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ قال مجاهد وقتادة والسدّي : في الآية تقديم وتأخير تقديرها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وقال الحسن : إنما يريد الله أن يعذبهم في الحياة الدنيا بالزكاة والنفقة في سبيل الله ، وقال ابن

زيد : بالمصائب فيها ، وقيل التعب في جمعه ، والوجل في حفظه وحبه . ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي تخرج وتذهب أنفسهم على الكفر : يقال : زهقت الخيول أي خرجت عن الحلبة ، وزهق السهم إذا خرج عن الهدف ، وزهق الباطل أي اضمحل ، قال المبرّد : وفيه لغتان : زَهَق يزهِق وزهيق يزهق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(81/339)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُم وَلآ أَوْلاَدُهُمْ . . . ﴾

فيه خمسة أقاويل :

أحدها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس وقتادة ويكون فيه تقديم وتأخير .

والثاني : إنما يريد الله ليعذبهم بما فرضه من الزكاة في أموالهم ، يعني المنافقين . وهذا قول الحسن .

والثالث : ليعذبهم بمصائبهم في أموالهم أولادهم ، قاله ابن زيد .

والرابع : ليعذبهم ببني أولادهم وغنيمة أموالهم ، يعني المشركين ، قاله بعض المتأخرين .

والخامس : يعذبهم بجمعها وحفظها وحبها والبخل بها والحزن عليها ، وكل هذا عذاب .

﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي تهلك بشدة ، من قوله تعالى ﴿ وَقُلْ جَآءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ﴾ [الإسراء : 81] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(82/339)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ﴾ الآية

حقر هذا اللفظ شأن المنافقين وعلل إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها ، واختلف في وجه التعذيب فقال قتادة : في الكلام تقديم وتأخير ، فالمعنى " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة " ، وقال الحسن : الوجه في التعذيب أنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله .

قال القاضي أبو محمد : فالضمير في قوله ﴿ بها ﴾ عائد في هذا القول على " الأموال " فقط ، وقال ابن زيد وغيره : " التعذيب " هو بمصائب الدنيا ورزاياها هي لهم عذاب إذ لا يؤجرون عليها ، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا وذلك لاقتران الذلة والغلبة

بأوامر الشريعة لهم قوله : ﴿ وتزهق انفسهم ﴾ ، يحتمل أن يريد ويموتون على الكفر ، ويحتمل أن يريد " وتزهق أنفسهم " من شدة التعذيب الذي ينالهم ، وقوله ﴿ وهم كافرون ﴾ جملة في موضع الحال على التأويل الأول ، وليس يلزم ذلك على التأويل الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(83/339)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾

أي : لا تستحسن ما أنعمنا به عليهم من الأموال والأولاد .

وفي معنى الآية أربعة أقوال .

أحدها : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، والسدي ، وابن قتيبة .

فعلى هذا ، في الآية تقديم وتأخير ، ويكون تعذيبهم في الآخرة بما صنعوا في كسب الأموال وإنفاقها .

والثاني : أنها على نظمها ، والمعنى : ليُعذبهم بها في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ،

فهي لهم عذاب ، وللمؤمنين أجر ، قاله ابن زيد .

والثالث : أن المعنى ليعذبهم بأخذ الزكاة من أموالهم والنفقة في سبيل الله ، قاله الحسن .

فعلى هذا ، ترجع الكناية إلى الأموال وحدها .

والرابع : ليعذبهم بسبي أولادهم وغنيمة أموالهم ، ذكره الماوردي .

فعلى هذا ، تكون في المشركين .

قوله تعالى : ﴿ وتزهق أنفسهم ﴾ أي : تخرج .

يقال : زهق السهم : إذا جاوز الهدف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(84/339)

وقال القرطبى :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾

أي لا تستحسن ما أعطيناهم ولا تَمِل إليه فإنه استدراج .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ قال الحسن : المعنى بإخراج الزكاة والإنفاق في سبيل الله .

وهذا اختيار الطبريّ .

وقال ابن عباس وقتادة : في الكلام تقديم وتأخير ؛ والمعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم

في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وهذا قول أكثر أهل العربية ؛ ذكره النحاس .

وقيل : يعذبهم بالتعب في الجمع .

وعلى هذا التأويل وقول الحسن لا تقديم فيه ولا تأخير ، وهو حسنٌ .

وقيل : المعنى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الدنيا لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين فيعذّبون بما ينفقون .

﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ نصٌّ في أن الله يريد أن يموتوا كافرين ؛ سبق بذلك القضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(85/339)

وقال الخازن :

﴿ فلا تعجبك ﴾ يا محمد ﴿ أموالهم ولا أولادهم ﴾ هذا الخطاب وإن كان مختصاً بالنبي (صلى الله عليه وسلم) إلا أن المرد به جميع المؤمنين والمعنى فلا تعجبوا بأموال المنافقين وأولادهم والإعجاب السرور بالشيء مع نوع من الافتخار به مع الاعتقاد أنه ليس لغيره مثله وهذا يدل على استغراق النفس بذلك الشيء ويكون سبب انقطاعه عن الله

فينبغي للإنسان أن لا يعجب بشيء من أمور الدنيا ولذاتها فإن العبد إذا كان من الله في استدراج كثر ماله وولده فيكثر إعجابه بماله وولده فيبطر ويكفر نعم الله عليه ولهذا قال سبحانه وتعالى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ فإن قلت كيف يكون المال والولد عذاباً في الدنيا وفيهما اللذة والسرور في الدنيا .

قلت : قال مجاهد وقتادة : في الآية تقديم وتأخير وتقديرها فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وقيل : إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فإذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما ، فعلى هذا القول ، لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بهذا العذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وإنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والشدة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا فثبت بهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين .

(86/339)

وقيل : إن تعذيبهم بهما في الدنيا أخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله غير مثابين على ذلك وربما قتل الولد في الغزو فلا يثاب الوالد المنافق على قتل ولده وذهاب ماله .

وقيل : يعذبهم بالتعب في جمعه وحفظه والكره في إنفاقه والحسرة على تخليفه عند من لا يحمده ثم يقدم في الآخرة على ملك لا يعذره ﴿ وتزهق أنفسهم ﴾ يعني وتخرج أنفسهم ﴿ وهم كافرون ﴾ والمعنى أنهم يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(87/339)

وقال أبو حيان :

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾

لما قطع رجاء المنافقين عن جميع منافع الآخرة ، بيّن أن الأشياء التي يظنونها من باب منافع الدنيا جعلها الله تعالى أسباباً ليعذبهم بها في الدنيا أي : ولا يعجبك أيها السامع بمعنى لا

يستحسن ولا يفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا كقوله : ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ وفي هذا تحقير لشأن المنافقين .

قال ابن عباس وقتادة ومجاهد والسدي وابن قتيبة : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة انتهى .

ويكون إنما يريد الله ليعذبهم بها جملة اعتراض فيها تشديد للكلام وتقوية لانتفاء الإعجاب ، لأنّ من كان مآل إتيانه المال والولد للتعذيب لا ينبغي أن تستحسن حاله ولا يفتتن بها ، إلا أنّ تقييد الإيجاب المنهى عنه الذي يكون ناشئاً عن أموالهم وأولادهم من المعلوم أنه لا يكون إلا في الحياة الدنيا ، فنفى ذلك ، كأنه زيادة تأكيد بخلاف التعذيب ، فإنه قد يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة ، ومع أن التقديم والتأخير لخصه أصحابنا بالضرورة .

وقال الحسن : الوجه في التعذيب إنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله ، فالضمير في قوله : بها ، عائد في هذا القول على الأموال فقط .

وقال ابن زيد وغيره : التعذيب هو مصائب الدنيا ورزاياها هي لهم عذاب ، إذ لا يؤجرون عليها انتهى .

ويتقوى هذا القول بأنّ تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا ، وذلك لاقتران الذلة والغلبة وأمر الشريعة لهم قاله : ابن عطية ، وقد جمع الزمخشري هذا كله فقال : إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب بأن عرضهم للمغنم والسبي ، وبلاهم فيه بالآفات

والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير وهم كارهون له على رغم أنوفهم ، وأذاقهم أنواع الكلف والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم .

(88/339)

وقيل : أموالهم التي ينفقونها فإنها لا تقبل منهم ولا أولادهم المسلمون ، مثل عبد الله بن عبد الله بن أبي وغيره ، فإنهم لا ينفعون آباءهم المنافقين حكاه القشيري .

وقيل : يتمكن حب المال من قلوبهم ، والتعب في جمعه ، والوصل في حفظه ، والحسرة على تخلفته عند من لا يحمده ، ثم يقدم على ملك لا يعذره .

وقدم الأموال على الأولاد لأنها كانت أعلق بقلوبهم ، ونفوسهم أميل إليها ، فإنهم كانوا يقتلون أولادهم خشية ذهاب أموالهم .

قال تعالى : ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ﴾

قال الزمخشري : (فإن قلت) : إن صح تعليق العذاب بإرادة الله تعالى ، فما بال زهوق أنفسهم وهم كافرون ؟ (قلت) : المراد الاستدراج بالنعم كقوله تعالى : ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة انتهى .

وهو بسط كلام ابن عيسى وهو الرماني ، وهما كلاهما معتزليان .

قال ابن عيسى : المعنى إنما يريد الله أن يملي لهم ويستدرجهم ليعذبهم انتهى .

وهي نزغة اعتزالية .

والذي يظهر من حيث عطف وتزهق على ليعذب أن المعنى ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ونبه على عذاب الآخرة بعلته وهو زهوق أنفسهم على الكفر ، لأنّ من مات كافراً عذب في الآخرة لا محالة .

والظاهر أن زهوق النفس هنا كناية عن الموت .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد وتزهق أنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(89/339)

وقال أبو السعود :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾

فإن ذلك استدراجٌ لهم ووبالٌ عليهم حسبما ينبىء عنه قولُه عز وجل : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ الله ﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظِها من المتاعب وما

يقاسون فيها من الشدائد والمصائب ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة فيكون ذلك لهم نقمةً لا نعمةً وأصلُ الزهوقِ الخروجُ بصعوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(90/339)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾

أي لا يروقك شيء من ذلك فإنه استدراج لهم ووبال عليهم حسبما ينبىء عنه قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ الله ﴾ والخطاب يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يكون لكل من يصلح له على حد ما قيل في نحو قوله تعالى : ﴿ لاَ تُشْرِكْ بالله ﴾ [لقمان : 13] ومفعول الإرادة قيل : التعذيب واللام زائدة وقيل : محذوف واللام تعليلية ، أي يريد إعطاءهم لتعذيبهم ، وتعذيبهم بالأموال والأولاد في الدنيا لما أنهم يكابدون بجمعها وحفظها المتاعب ويقاسون فيها الشدائد والمصائب وليس عندهم من الاعتقاد بثواب الله تعالى ما يهون عليهم ما يجدونه ، وقيل : تعذيبهم في الدنيا بالأموال لأخذ الزكاة منهم والنفقة في سبيل الله تعالى مع عدم اعتقادهم الثواب على ذلك ، وتعذيبهم فيها

بالأولاد أنهم قد يقتلون في الغزو فيجزعون لذلك أشد الجزع حيث لا يعتقدون شهادتهم وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون وأن الاجتماع بهم قريب ولا كذلك المؤمنون فيما ذكر ، وقيل : تعذيبهم بالأموال بأن تكون غنيمة للمسلمين وبالأولاد بأن يكونوا سبباً لهم إذا أظهروا الكفر وتمكنوا منهم .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن قتادة أن في الآية تقديماً وتأخيراً أي لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي يموتون وأصل الزهوق الخروج بصعوبة ﴿ وَهُمْ كافرون ﴾ في موضع الحال أي حال كونهم كافرين ، والفعل عطف على ما قبله داخل معه في حيز الإرادة .

واستدل بتعليق الموت على الكفر بإرادته تعالى على أن كفر الكافر بإرادته سبحانه وفي ذلك رد على المعتزلة .

(91/339)

وأجاب الزمخشري بأن المراد إنما هو إمهالهم وإدامة النعم عليهم إلى أن يموتوا على الكفر مشتغلين بما هم فيه عن النظر في العاقبة ، والامهال والإدامة المذكورة مما يصح أن يكون مراداً له تعالى .

واعترضه الطيبي بأن ذلك لا يجديه شيئاً لأن سبب السبب سبب في الحقيقة ، وحاصله أن ما يؤدي إلى القبح ويكون سبباً له حكمه حكمه في القبح وهو في حيز المنع ، وأجاب الجبائي بأن معنى الآية أن الله تعالى أراد زهوق أنفسهم في حال الكفر وهو لا يقتضي كونه سبحانه مريداً للكفر فإن المريض يريد المعالجة في وقت المرض ولا يريد المرض والسلطان يقول لعسكره : اقتلوا البغاة حال هجومهم ولا يريد هجومهم .

ورده الإمام بأنه لا معنى لما ذكر من المثال إلا إرادة إزالة المرض وطلب إزالة هجوم البغاة وإذا كان المراد إعدام الشيء امتنع أن يكون وجوده مراداً بخلاف أرادة زهوق نفس الكافر فإنها ليست عبارة عن إرادة إزالة الكفر فلما أراد الله تعالى زهوق أنفسهم حال كونهم كافرين وجب أن يكون مريداً لكفرهم ، وكيف لا يكون كذلك والزهوق حال الكفر يمتنع حصوله إلا حال حصول الكفر ، وأرادة الشيء تقتضي أرادة ما هو من ضرورياته فيلزم كونه تعالى مريداً للكفر .

وفيه أن الظاهر أن إرادة المعالجة شيء غير إرادة إزالة المرض وكذا أرادة القتل غير إرادة إزالة الهجوم ولهذا يعلل إحدى الإرادتين بالأخرى فكيف تكون نفسها ، وأما أن كون إرادة

ضروريات الشيء من لوازم إرادته فغير مسلم ؛ فكم من ضروري لشيء لا يخطر بالبال عند أرادته فضلاً عما ادعاه ، فالاستدلال بالآية على ما ذكر غير تام . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(92/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾

تفريع على مذمّة حالهم في أموالهم ، وأن وفرة أموالهم لا توجب لهم طُمَأْنِينَة بال ، بإعلام المسلمين أنّ ما يرون بعض هؤلاء المنافقين فيه من متاع الحياة الدنيا لا ينبغي أن يكون محلّ إعجاب المؤمنين ، وأن يحسبوا المنافقين قد نالوا شيئاً من الحظّ العاجل ببيان أنّ ذلك سبب في عذابهم في الدنيا .

فالخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمراد تعليم الأمّة .

ومعنى هذه الآية : أنّ الله كشف سرّاً من أسرار نفوس المنافقين بأنّه خلق في نفوسهم شحّاً وحرصاً على المال وفتنة بتوفيره والإشفاق من ضياعه ، فجعلهم بسبب ذلك في عناء وعذاب من جرّاء أموالهم ، فهم في كَبَد من جمعها .

وفي خوف عليها من النقصان ، وفي ألم من إنفاق ما يلجئهم الحال إلى إنفاقه منها ، فقد أراد الله تعذيبهم في الدنيا بما الشأن أن يكون سبب نعيم وراحة ، وتمّ مراده .

وهذا من أشدّ العقوبات الدنيوية وهذا شأن البخلاء وأهل الشحّ مطلقاً ، إلاّ أنّ المؤمنين منهم لهم مسلاة عن الرزايا بما يرجون من الثواب على الإنفاق أو على الصبر .

ثم يجوز أن يكون هذا الخلق قد جبلهم الله عليه من وقت وجودهم فيكون ذلك من جملة بواعث كفرهم ونفاقهم ، إذ الخلق السيّء يدعو بعضه بعضاً ، فإنّ الكفر خُلق سيّء فلا عجب أن تنساق إليه نفس البخيل الشحيح ، والنفاق يبعث عليه الخلقُ السيّء من الجُبن والبخل ، ليتقّي صاحبه المخاطر ، وكذلك الشأن في أولادهم إذ كانوا في فتنة من الخوف على إيمان بعض أولادهم ، وعلى خلاف بينهم وبين بعض أولادهم الموفّقين إلى الإسلام : مثل حنظلة : ابن أبي عامر الملقّبِ غَسيلَ الملائكة ، وعبد الله بنِ عبدِ الله بنِ أُبي فكان ذلك من تعذيب أبويهما .

(93/339)

ولكون ذكر الأولاد كالتكملة هنا لزيادة بيان عدم انتفاعهم بكلّ ما هو مظنّة أن ينتفع به الناس ، عُطف الأولاد بإعادة حرف النفي بَعْد العاطف ، إيماء إلى أنّ ذكرهم كالتكملة

والاستطراد .

واللام في ﴿ ليعذّبهم ﴾ للتعليل : تعلّقت بفعل الإرادة للدلالة على أنّ المراد حكمة وعلّة فتغني عن مفعول الإرادة ، وأصل فعل الإرادة أن يعدّى بنفسه كقوله تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] ويعدّى غالباً باللام كما في هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ في سورة النساء (26) وقول كُثيّرِ :

أريدُ لأُنْسَى حُبَّها فكأنما . . .

تَمَثَّلُ لي ليلَى بكلّ مكان

وربما عَدَّوه باللام وكَي مبالغةً في التعليل كقول قيس بن عُبادة:

أردتُ لكيما يعلمَ الناس أنّها . . .

سراويلُ قيس والوفُود شهود

وهذه اللام كثير وقوعها بعد مادة الإرادة ومادة الأمر .

وبعضُ القرّاء سمّاها (لام أنْ) بفتح الهمزة وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ في سورة النساء (26) .

فقوله : في الحياة الدنيا ﴾ متعلّق بـ ﴿ يعذبهم ﴾ ومحاولة التقديم والتأخير تعسّف وعطف ﴿ وتزهق ﴾ على ﴿ ليعذبهم ﴾ باعتبار كونه أراده الله لهم عندما رزقهم الأموال والأولاد فيعلم منه : أنّه أراد موتهم على الكفر ، فيستغرق التعذيبُ بأموالهم

وأولادهم حياتَهم كلّها ، لأنّهم لو آمنوا في جزء من آخر حياتهم لحصل لهم في ذلك الزمن انتفاع ما بأموالهم ولو مع الشحّ .

وجملة : ﴿ وهم كافرون ﴾ في موضع الحال من الضمير المضاف إليه لأنّه إذا زهقت النفس في حال الكفر فقد مات كافراً .

والإعجاب استحسان مشوب باستغراب وسرور من المرئي قال تعالى : ﴿ ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [المائدة : 100] أي استحسنت مرأى وفرة عدده .

و(الزهوق) الخروج بشدّة وضيق ، وقد شاع ذكره في خروج الروح من الجسد ، وسيأتي مثل هذه الآية في هذه السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(94/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ﴾

وإياكم أن تروا واحداً من هؤلاء ممن رزقهم الله المال والولد ثم تقولون : كيف يكون عذابهم في الدنيا وهم يملكون المال والولد ؟ ومثل هذا التعجب يعني استحسان المال والولد ، والظن أن فيهما الخير كله ، لكنك إن نظرت بعمق إلى المال والولد وكل حطام الدنيا

فستجده لا يستحق الإعجاب ، وإياك أن تغتر بشيء يمكن أن يتركك ، ويمكن أن يكون سبباً في عذابك ، فالمال والولد قد يجعلان الإنسان ملتفتاً إلى النعمة ويلهيانه عن المنعم . وإن لم يلتفت الإنسان إلى المنعم لا يذكره . وإن لم يذكر الله أهمل منهجه .

والمال والولد في الحياة الدنيا قد يكونان سببين في أن يخاف الإنسان ترك الدنيا . فإن لم يكن لك إيمان بما عند الله في الآخرة ، فقد تخاف أن يتركك المال أو الولد . والذي لا يؤمن باليوم الآخر ؛ فالدنيا هي كل زمنه ؛ وإن فاتها كان ذلك مصيبة له ، وإن فاتته كان ذلك مصيبة عليه . وإن آمن الإنسان بالله واليوم الآخر لقال : لئن فاتتني الدنيا فلي عند الله خير منها . ويريد الحق سبحانه أن يمنع عن المؤمنين به فتنة النعمة التي تُلْهِي عن المنعم ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ والآية الكريمة تدلُّنا على أن للمال وحده إعجاباً ، وللأولاد وحدهم إعجاباً ، فمن عنده مال معجب بما عنده . ومن ليس عنده مال وعنده أولاد معجب بهم أيضاً . فإذا اجتمع الاثنان معاً يكون الإعجاب أكبر وأشمل . والحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أن اجتماع المال والولد يجب ألا يثير الإعجاب في نفوسنا ، بل إن سياق الآية يحذرنا من أن نعجب بمن عنده المال وحده ، أو بمن عنده الأولاد وحدهم ، لذلك كرر الحق سبحانه وتعالى كلمة : ﴿ لا ﴾ فقال : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ .

وأفهمنا الحق سبحانه وتعالى أنه إذا أمد الكافر أو المنافق بالمال والولد ؛ فلذلك ليس رفعة من شأنه ، وإنما ليعذبه بهما في الدنيا والآخرة . فقال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ ، واللام هنا في "لِيُعَذِّبَهُمْ" هي لام تدخل على الفعل واسمها "لام العاقبة" . وهي تعني أننا ربما نقوم بالفعل لهدف معين ، ولكن قد تكون عاقبته شيئاً آخر تماماً غير الذي قصدناه ، بل ربما تكون عكس الذي قصدناه .

وعندما نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ﴾ [القصص : 8]

هل التقط آل فرعون موسى عليه السلام ليكون لهم عدواً ؟ أم ليكون قرة عين لهم ؟

هم قد التقطوه ليكون قرة عين لهم ، ولكن الذي حدث كان عكس ما قصدوه ساعةَ قيامهم بفعل الالتقاط ، فبدلاً من أن يصبح موسى قرة عين ، أصبح عدواً لفرعون بل كان سبباً في زوال مُلْكه ، إذن هذه هي لام العاقبة .

والله سبحانه وتعالى أعطى لبعض الكفار أموالاً وأولاداً ، وهذا في ظاهره رفعة في الدنيا ، ولكنهم بدلاً من أن يستخدموا هذه النعمة في التقرب إلى الله ألهتهم عن الإيمان بالله ،

ووصل بهم الأمر إلى أن يدخلهم الحق في العذاب . ولم يُرِد الحق العذاب لهم ، ولكنهم بحركتهم وفتنتهم بالمال والولد استحقوا أن يدخلوا في العذاب . والعمل غير الشرعي في تنمية المال أو إرضاء الأولاد هو الذي أوصلهم إلى العذاب .

(96/339)

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ وأول ألوان العذاب : أن تلهيهم تلك النعمة عن المنعم . وتبعدهم عن منهج الله فيصيرون في عداء مع المؤمنين بمنهج الله ، ويخافون إعلان هذا العداء ؛ لذلك حينما كان يرسل الرسول صلى الله عليه وسلم في طلب واحد من المنافقين أو اليهود كانوا يرتعدون ويتساءلون : هل اكتشف الرسول أمرنا أم كشف الله لنا بعض خبايانا ؟ وكانوا في خوف أن يفتضح في خوف أن يفتضح أمرهم ، فيعاملهم معاملة المشركين ويشردهم .

وثانياً : كانوا يخافون من أن يدخل الرسول صلى الله عليه وسلم في حرب ؛ لأنهم ما داموا قد أعلنوا الإيمان فهم مطالبون ببذل المال ، وأن يذهب أولادهم الذين بلغوا سن القتال مع جيش المسلمين ، وكانوا يقولون بينهم وبين أنفسهم : ما لنا نبذل المال ونضحي بالأولاد في سبيل ما لا نؤمن به . وهم بمشاعرهم تلك يختلفون عن مشاعر المؤمنين الذين يُلبُّون نداء

رسول الله طمعاً في الجنة أو النصر . وهذا لون من ألوان العذاب .

وهناك لون آخر من العذاب : عندما يخرج هؤلاء المنافقون إلى إحدى الغزوات ، فهم يخافون على أنفسهم من القتل أو الأذى بالأسر أو سبي النساء ، فيكونون في عذاب نفسي طوال الرحلة إلى الغزوة وفي أثناء الحرب .

ولون ثالث من ألوان العذاب : أن عابد المال يجمع المال من حرام ومن حلال ، لا يهمه من أين جاء المال ؟ ولكن يهمه أن يأتي ، والذي يكسب حلالاً يكون واضح الحركة في الحياة ، والذي يكسب حراماً هو لص يخاف أن ينكشف أمام الناس ، ويعيش في عذاب أليم دائم من أن يأتي يوم يكشف الله ستره فيعرف الناس أنه ارتشى ، أو أنه اختلس ، أو أنه زوّرَ وَزَيَّف . أو أنه فعل شيئاً يُحقّره في أعين الناس أو يُعرِّضه للعقوبة ؛ كأن يكون قد تاجر في المخدرات أو في الأعراض . أو في غير ذلك ، وخوفه من انكشاف أمره يجعله يعيش في عذاب دائم وصراع مستمر .

(97/339)

وإذا أردنا أن نعرف الفرق بين الحلال والحرام نضرب هذا المثل : أنت إن أعجبك شيء في بيت جارك ، وطلبته منه وأعطاك إياه ، فأنت لا تخشى أن يعرف الناس ما حدث . ولكن

إذا أعجبك شيء في بيت جارك وأردت أن تسرقه ، فأنت لا تأتي في النهار ولا أمام الناس ، بل تأتي ليلاً وتحرص على ألا يراك أحد .

ولا تدخل من باب الشفقة ، بل تظل تدور وتخطط لتجد منفذاً تدخل منه دون أن يراك أحد . وتضع خطة للسرقة . وتدخل المنزل على أطراف أصابعك وأنت ترتعد . فإذا شعرت وأنت تنفذ الخطة بصوت أقدام تنزعج وتجري لتختبئ وتأخذ الشيء وتكون حريصاً على إخفائه وإن رآه أحد عندك انزعجت ، وكل هذا عذاب يمر به كل من يجمع المال الحرام ، إذن فجمع المال الحرام عذاب .

وكل من يربي أولاده من مال حرام لا يبارك الله لهم فيهم ، فإما أن ينشأ الواحد منهم عذاباً لأبيه في تربيته فيرسب في الامتحانات . ويُتلف المال في الإنفاق بلا وعي . فكلما أعطيته أكثر احتاج إلى المزيد من المال أكثر . ومثل هذا الابن لا يطيع أباه . ويكون العذاب الأكبر حينما ينشأ أحد أبناء هذا الإنسان ويكون الابن مؤمناً إيماناً صادقاً بالله ، فيرفض أن يأكل أو يلبس من مال أبيه ، أو أن يناقشه من أين جاء بهذا المال ويسمع منه ما يكره ، ويتمرد دائماً عليه .

(98/339)

وفي عهد رسول الله صلى الله عليه سلم كان أبو عامر عدواً لله ورسوله . وكان ابنه حنظلة مؤمناً ، وكلما رأى أبو عامر ابنه كان قلبه يغلي بالغيظ ، وعندما نودي للقتال ، وسمع حنظلة نداء الجهاد بعد أن فرغ من الاستمتاع مع زوجته فلم يصبر إلى أن يغتسل من الجنابة ، بل سارع إلى الحرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهد في المعركة ولكن كيف عرف الصحابة قصة حنظلة ، مع أن هذه المسألة تكون سراً بين الرجل وزوجته لا يعرفه أحد ؟ لقد عرف المؤمنون بخبر حنظلة حين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بإشراقات الله أن الملائكة تنزل من السماء وتُغسِّل حنظلة . ولما كان الشهيد لا يُغسل ، فقد عرف الرسول أن هذا ليس غُسْلاً من الشهادة ، وإنما هو غُسْل حتى لا يُقْبِلَ الشهيد على الله وهو جُنُب ، رأى الرسول صلى الله عليه وسلم ما حدث لحنظلة ، وعندما عاد إلى المدينة بعث إلى زوجة حنظلة وسألها : ماذا حدث ساعة ساعة خروج حنظلة إلى المعركة ؟ فقالت أنه سمع نداء القتال ، خرج بدون غُسْل . وتأمل كيف نزلت الملائكة لتغسل شهيداً هو ابن عدو الله ورسوله . وكيف يكون هذا غَيْظاً في قلب الأب

.

وقصة أخرى : سيدنا عبد الله بن عبد الله بي أبيّ ؛ والده عبد الله بن أبيّ كان زعيم المنافقين في المدينة ، وهو الذي انسحب يوم أحد ومعه ثلث المقاتلين من المعركة . ويسمع عبد الله أن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يطلبون منه الإذن بقتل والده ابن أبيّ

، انظروا إلى الإيمان . فها هو الابن يذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويقول له : يا رسول الله إن كنتَ آمراً بقتل أبي فأمرني بقتله ؛ حتى لا ألقي قاتله من المسلمين وفي قلبي غِلٌّ عليه .

وعندما يسمع الأب أن ابنه يطلب أن يكون قاتله ، أليس هذا عذاباً في قلبه ؟ وهكذا نرى أن الأموال والأولاد الذين كان من المفروض أن يكونوا نعمة يصبحون نقمة ، أليس هذا عذاباً في الدنيا ؟

(99/339)

ولكن غير المؤمنين لا يلتفتون إلى واهب النعمة ، ولا إلى الجزاء الذي ينتظرهم في الآخرة ، ولا ينتبهون إلى حكمة الخلق التي تؤكد أن الإنسان خليفة الله في الأرض ، وأن الله قد أعدَّ الأرض بكل ما فيها من إمكانات ومن خيرات لتكون في خدمة هذا الخليفة ، أي : أنه أقبل على عالم كامل من كل شيء ؛ معداً له إعداداً فوق قدراته وطاقاته .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في حديث قدسي : " خلقتُ الأشياء من أجلك ، وخلقتُك من أجلي ، فلا تشتغل بما هو لك عما أنت له "

أي : لا تشتغل بالنعمة عن المنعم ، تماماً كما يدخل الإنسان إلى وليمة كبيرة ، فيجد المائدة

مُعدَّة بكل ألوان الطعام ، وصاحب المائدة واقف فلا يحييه ولا يسلم عيه ويذهب مباشرة إلى الطعام ، فيُحسُّ الناس أن هذا الإنسان جاحد بكرم الضيافة . بينما نجد رجلاً آخر يدخل فيسلم على صاحب الوليمة ويشكره على كرمه ويشيد به ، الأول : انشغل بالنعمة ، والثاني : لم يُنْسه انشغاله بالنعمة أن يشكر مَنْ أعدها له .

ومثال آخر : إن الصحة هي من أثمن النعم . أما المرض فإنه أقسى ما يمكن أن يصاب به الإنسان ؛ لأن الصحة هي التي تجعل الإنسان يتمتع بنعم الحياة ، أما المرض فيحرمه هذه النعمة . ولذلك فعندما يمرض الإنسان يعوضه الله بأنه بدلاً من أن يكون في معيّة النعمة ، يكون في معيّة المنعم وهو الله سبحانه . ولذلك يقول في حديث قدسي :

" عبدي فلان مرض فلم تَعُدْني . فيقول له : يا رب وكيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ فيقول له : أما علمْتَ أنك لو عُدته لوجدتني عنده "

(100/339)

قولوا لي بالله : أيضيق أي مريض عندما يعرف أن الصحة كانت نعمة من الله وفارقته ، ولكن المرض جعله مع المنعم ، وهو الله سبحانه وتعالى ؟ لا ، بل إن ذلك يخفف عنه وطأة المرض ، ويجعله يشعر أن الأُنْسَ بالله يخفف عنه الآلام . لكنك للأسف تجد الإنسان غير

منطقي مع نفسه ، فالعالم خُلق من أجل الإنسان . والإنسان خُلق ليعبد الله . ولكنك تجده لا يلتفت لما خُلق من أجله ، بل يلتفت للأشياء التي خُلقت له . وقد كان من المنطقي أن ينشغل بما خُلق من أجله .

وإذا أخذنا مثلاً منطق الإنسان مع الزمن ، نجد أن الزمن إما أن يكون حاضراً أو ماضياً أو مستقبلاً . فإذا أردنا أن نذهب إلى ما لا نهاية نقول : إن الزمن حاضر وأزلي وأبدي .

والأزلي : هو القديم بلا بداية . والأبد : هو المستقبل بلا نهاية . والحاضر : هو ما نعيش فيه .

والوجود الذي تراه أمامك خلقه الحق سبحانه واجبُ الوجود وبكلمة "كن " جاء كل " ممكن الوجود " ؛ لأن كل وجود يحتاج إلى مُوجد هو وجزد ممكن ، وسيأتي له عدم . أما الوجود غير المحتاج إلى موجد فهو وجود لا ينتهي . أي : أن واجب الوجود هو وجود الله وحده سبحانه وتعالى . ولذلك فهو وجود أزلي قديم بلا نهاية ، وأبد باقٍ بلا نهاية .

وبذلك فهو يخرج عن الزمن .

نأتي بعد ذلك إلى المخلوقات الممكنة ، أي التي لها مُوجدٌ ، وهي كل ما في الكون ما عدا الله سبحانه وتعالى ، ومنها هذه الدنيا التي يعبدها بعض الناس من دون الله ، هذه الدنيا ليس لها أزل ولا أبد ، فالدنيا لم توجد إلا عندما خلق الله السماوات والأرض ، أي ليس

لها وجود بلا نهاية . ولكن كان وجودها ببداية . إذن فهي ليست أزلاً ، وهي ليست أبداً لأنها تنتهي بيوم القيامة .

(101/339)

ولذلك لا يجتمع في قلب المؤمن حب الله وحب الدنيا ؛ لأن الله أزل وأبد ، والدنيا لا أزل ولا أبد ، بل عمر الدنيا بالنسبة للإنسان هي بمقدار عمره فيها . وقبل ميلاده لا علاقة له بها ، وبعد الموت لا علاقة له بها . وحتى إذا أخذنا الدنيا غي عمومها فإن لها بداية ونهاية ، فكيف يمكن أن يجتمع في قلب المؤمن حب من لا بداية له ولا نهاية ، وحب من له بداية ونهاية ؟ لا يجتمعان .

ولذلك قال شيخنا الزمخشري رضي الله عنه : ما دام هذا الكون فيه وجود ، يكون الوجود : إما واجباً ، وإما ممكناً . والوجود الواجب لله وحده . والوجود الممكن هو كل ما عدا الله ، ولا يوجد أزل ولا أبد إلا للحق سبحانه وتعالى .

فإذا قلنا : إن هناك وجوداً فيه أزل وليس فيه أبد ، نقول : إن هذا ممتنع عقلاً ؛ لأن الذي لا تكون له بداية لا تكون له نهاية . أي : يكون دائم الوجود .

إذن : فيبقى أن يكون الوجود له أبد وليس له أزل ، أي : له بداية وليس له نهاية . ونقول :

إن هذا يجتمع في اثنتين ؛ الآخرة والإنسان ؛ الإنسان له بداية وهي تاريخ خَلْقه ، وليس له نهاية ؛ لأنه بعد أن يموت يُبعَثُ مرة أخرى ، إما أن يخلد في النعيم ، وإما أن يُعذَّبَ قليلاً ، ويدخل الجنة وإمّا يخلد – والعياذ بالله – في النار .

وكذلك الآخرة لم يأت زمنها بعد . إذن فهي لم تبدأ بعد ، ولكنها متى بدأت فليس لها نهاية ؛ لأن هناك حياة أبدية في الجنة أو في النار . إذن : فالإنسان والآخرة اشتركا في شيء واحد ، ولا بد أن يربط الإنسان نفسه بالآخرة ؛ فالذي يأخذ الدنيا إنما أخذ شيئاً له بداية ونهاية ، ولكن الذي يطبق منهج الله ويعبده عن حب واختيار أخذ مَنْ لا بداية له ولا نهاية له .

والذي عمل للآخرة ، عمل لما لا نهاية له أو للذي سيخلد فيه ، وتكون فيه حياته الحقيقية .

ولذلك حين نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّ الدار الآخرة لَهِيَ الحيوان لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : 64] .

(102/339)

نعرف أن الحياة الحقيقية هي في الآخرة وليست الدنيا ؛ لأن الغايات في أي شيء يجب أن تكون متساوية ، فمثلاً : إذا أردنا أن نصنع كُرْسياً . فالغرض من الكرسي أن نجلس عليه . إذن : فكل الكراسي مهما اختلَفت أشكالها وألوانها لها غاية واحدة وهي أن نجلس عليها . والإنسان غايته لابد أن تكون متساوية . وما دُمْنَا أفراداً لجنس واحد فلا بد أن تكون لنا غاية واحدة : ما هي ؟ أهي الصحة ؟ بعضنا مريض . أهي القدرة ؟ بعضنا عاجز . أهي طول العمر ؟ بعضنا عمره في الدنيا ساعات .

وإذا استعرضنا كل ما في الدنيا فلا نجد شيئاً نتفق فيه إلا الموت ، وفيما عدا ذلك فنحن نختلف . إذن فلا بد أن نلتفت في حياتنا الدنيا من أول يوم إلى أننا سوف نموت ونلقى الله ، وعلينا أن نعد العدة لذلك ، وكلنا سائرون إلى هذه النهاية .

والحق سبحانه وتعالى يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ لم يقف عز وجل عند هذا الحد ، بل قال سبحانه : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

و ﴿ تَزْهَقَ ﴾ أي تخرج بصعوبة ، لماذا ؟ لأن عابد الدنيا عمل من أجلها فقط . ولم يعمل شيئاً من أجل الآخرة ، فعندما يأتي له الموت ، يجد أنه لم يقدم شيئاً لآخرته ، وأن ما ينتظره هو العذاب ، ولذلك يكره أن يترك نعيم الدنيا إلى عذاب الآخرة . أما صاحب الأعمال الطيبة عندما يأتي له الموت فهو يستبشر ؛ لأن الذي ينتظره خير يفوق كل الذي سيتركه .

كمثل إنسان يعيش في كوخ صغير ثم ينتقل إلى قصر فاخر ، ألا يكون سعيداً ؟ وكذلك المؤمن عندما يأتيه الموت يصبح كالذي ينتقل من كوخ صغير إلى قصر فاخر . أما صاحب الدنيا فمثل الذي يؤخذ من قصر إلى نار محرقة ، ولذلك فهو يكره ساعة الموت .

(103/339)

والمؤمن يفرح حين ينتقل من الدنيا الفانية إلى الحياة الخالدة الباقية ، ومن النعمة إلى المنعم ، ومن الحياة بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لا بد أن نأخذ بالأسباب إلى الحياة مع المسبِّب ، فنحن في الدنيا لابد أن نأخذ بالأسباب لنصنع ما نريد ، والمثال : أنك إنْ أردت أن تأكل فلا بد من أن تطهو الطعام أو أن يُعدّه لك غيرك ، وإنْ أردتَ أن تلبس فلا بد لك ممن يصنع لك القماش ويحيك الثوب . ووراء كل نتيجة توجد سلسلة طويلة من الأسباب . فهناك الذي يزرع ، والذي يحصد ، والذي ينقل إلى المطحن أو إلى المصنع ، والذي يطحن الدقيق أو ينسج القماش ، أما في الاخرة فلا توجد أسباب ، بل بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تجده أمامك ، أليست هذه حياةَ نعيمٍ ؟

إذن : فالذي تنفرج أساريره ساعة الموت هو المؤمن ، والذي ينقبض وجهه ويتشنج عندما يأتيه مَلَكُ الموت هو الكافر والعاصي ؛ لأنه سينتقل من نعيم حتى ولو كان نسبيا إلى عذاب

رهيب .

وقد قيل للإمام علي رضي الله عنه : يا إمام ، أريد أن أعرف نفسي أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ فقال الإمام عليّ : الله أرحم من أن يجعل جواب هذا السؤال عندي وجعل السؤال عندك أنت ، إن كنت تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يأخذ منك أكثر مما تحب من يدخل عليك وهو يريد أن يعطيك هدية تكون من أهل الآخرة .

أي : إذا دخل عليك إنسان يطلب صدقة أو مالاً فاستقبلته بترحاب وتحية وتعطيه وأنت مسرور تكون من أهل الآخرة ؛ لأنك تعرف أنه أخذ منك في الفانية ما يحمله لك أجراً في الآخرة التي تعمل من أجلها ، ولذلك تحبه . أما إن كنت تحب من جاء يعطيك هدية أكثر ممن جاء يسألك تكون من أهل الدنيا ؛ لأنه معطي الهدية يزيدك في دنياك . وما دُمْتَ تفرح بذلك أكثر من فرحك بالذي يزيد آخرتك فأنت من أهل الدنيا .

(104/339)

ويقال : إن فلاناً أحسن الله خاتمته لأنهم دخلوا عليه لحظة الموت فوجدوا وجهه أبيض وملامحه سمحة مستريحة . نقول : إن هذا صحيح ، فهذه لحظة لا يكذب الإنسان فيها على نفسه . ونحن نعلم أن الإنسان حين يشتد عليه المرض فهو يتشبث بالأمل في أن ينال

الشفاء على يد طبيب بارع . لكن الأمر يختلف ساعة الاحتضار حين يعلم الإنسان أن الموت يتخلله وأنه ميت لا محالة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه : ﴿ فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الحلقوم ﴾ [الواقعة : 83]

ويرى ما كان محجوباً عنه في الدنيا . حينئذ يستعرض أعماله . فإنْ رأى شريط الحياة حُلْواً منيراً ، ابتسم وانفرجتْ أساريره فيُقبَضُ على هذا الوضع . أما من امتلأت حياته بالسوء والمعاصي فوجهه يسوَدّ وتنقبض أساريره فيُقبض على هذا الوضع . وهذا ما نسميه الخاتمة ، فلحظة الاحتضار فيها يقين بالموت ، تماماً كساعة الامتحان حيث تجد التلميذ الخائب مصفر الوجه مرتعداً ومتشنجاً ، أما التلميذ المجتهد فيكون مُبتسماً مُنْفرجَ الأسارير .

وفي ساعة الاحتضار يخلو الذهن من أي شيء إلا صحيفة عمله ، فهي التي تبقى وفي بؤرة شعوره ، وبؤرة الشعور هي المكان الذي إن استقر فيه شيء فإنه لا يُنسَى أبداً . فإذا عرف طالب قبل الامتحان بفترة قصيرة ، أن هناك سؤالاً سيأتي في جزء معين من الكتاب وأمسك هذا الجزء وقرأه مرة واحدة تجد أنه وهو يقرؤه لا يفكر في شيء آخر غيره ، ومجرد قراءته مرة تجعله يجيب الإجابة المتميزة ؛ لأن بؤرة الشعور مثل آلة التصوير ، تأخذ صورة ما ترى مرة واحدة .

إذن : فساعة الالتقاط هذه حيث لا شيء يشغل الذهن ، تجد أن الشعور لا يتسع إلا لخاطر واحد ، فلا يأتي خاطر إليها إلا إذا تزحزح الخاطر الأول عنها .

(105/339)

ولذلك إذا سمعتَ شيئاً وحفظتَهُ من أول مرة ، فهذا دليل على أن بؤرة شعورك كانت خالية ومستعدة ساعة التقاط هذا الشيء . كذلك عند الموت ساعة الاحتضار لا يجد الميت في بؤرة شعوره خاطراً آخر يناقض أو يزاحم أمر الآخرة ، فإن كانت حياته خيِّرة أشرق وجهه وانفرجت أساريره ، وإن كانت حياته سيئة انقبضت أساريره واسودَّ وجهه والعياذ بالله .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ يعطينا معنيين : المعنى الأول : أن النعمة تظل معهم تلهيهم عن الله حتى تأتي ساعة الموت . والمعنى الثاني : أن ساعة الموت تكون شاقة وصعبة على الكافر والمنافق ؛ لأنه يترك الأموال والأولاد ويذهب إلى العذاب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(106/339)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى فى المنافقين : "ولا ينفقون إلا وهم كارهون فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم فى الحياة الدنيا "

وقال فيما بعد : "ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا " فحملت الآية الأولى على ما قبلها بالفاء والثانية بالواو وزيدت لا النافية فى الأولى وسقطت من الثانية وقيل فى الأولى "ليعذبهم " وفى الثانية "أن يعذبهم " وقال فى الأولى "فى الحياة الدنيا " واكتفى بالوصف فى الثانية فقيل "فى الدنيا " فتلك أربع سؤالات .

والجواب عن الأول : أنه لما وصف تعالى أقوال المنافقين فى كفرهم وشتى مرتكباتهم وقرر ما هم عليه فى آيات إلى قوله : " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون " فلما عرف بأحوالهم قال لنبيه عليه السلام : "فلا تعجبك أموالهم " وكان الكلام فى قوم أن لو قيل : إذا عرفت أحوالهم فلا تغتر بما لديهم فتظن أن ما مكناهم فيه ومنحناهم إياه من مال وولد إحسان عجلناه لهم "أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون " ، "وإنما نملى لهم ليزدادوا إثما " فالكلام فى قوة الشرط والجزاء فكان موضع

الفاء .

أما قوله فى الآية الأخرى : "ولا تعجبك أموالهم وأولادهم " فمنسوق على قوله : "ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ولا تعجبك أموالهم وأولادهم " وكل هذا نهى له صلى الله عليه وسلم أن يفعله وليس كالأولى فى أن ذكر مرتكباتهم ما بنى نهيه عليه السلام عليه فيتصور فيه معنى شرط وجزاء فلا محل للفاء هنا ولا هو موضعها .

(107/339)

والجواب عن الثانى : أن الآية الأولى مقصود فيها من التأكيد ما لم يقصد فى الثانية لما قيل له عليه السلام : " وما منعهم أن تقبل منهم نفاقتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله " وذكر له من قبح مرتكباتهم أشنعها أكد نهيه عليه السلام عن أن يلتفت إليهم تنزيها لقدره العلى عن الصغو إلى ما حاصله إملاء ولأهله فى الحقيقة استدراج وعناء فدخلت لا النافية تأكيدا يناسب هذا القصد ولما لم يكن فى الآية الأخرى اشتراط وجزاء يقتضى التأكيد فلم تحل لا فجاء كل على ما يجب ويناسب .

والجواب عن السؤال الثالث : أن قوله فى الآية الأولى : "إنما يريد الله ليعذبهم " بلام كى

مناسب لما فى الآية من التأكيد إذ لا تقتضى تراخيا فناسب هذا ما ذكر من التأكيد أما قوله فى الآية الثانية : "إنما يريد الله أنيعذبهم " فيقتضى أن التأكيد لما لم يبلغ فى هذه الثانية مبلغ الأولى بما تقدم فيها أشعرت أن بما فيها من التراخى فأن هذه ليست من التأكيد فى نمط الأولى وهذا رعى مناسبة لفظية إذ الاخبار بحالهم واحد فى الآيتين من غير فرق .

فإن قيل فإن لام كى فى قوله تعالى : " ليعذبهم " تقدر بعدها أن على قول الجمهور فقد تساوت الآيتان قلت ليس المعنى مع تقديرها هو المعنى مع ظهورها بل لظهورها حكم لا يكون فى تقديرها وقد نص سيبويه رحمه الله على ذلك فى باب الجواب بالفاء من كتابه أنه كلام العرب فتبين أن قوله تعالى : " ليعذبهم " ليس كقوله : "أن يعذبهم " فيما يعطيه ظهور أن من التراخى والله أعلم .

والجواب عن السؤال الرابع : أن قوله "فى الحياة الدنيا " فى الآية الأولى بالجمع بين الصفة والموصوف مناسب أيضا وملائم أوضح ملاءمة للتأكيد الجارى فيها ، أما الآية الأخرى فلا تأكيد فيها فناسب ذلك الاكتفاء بقوله : "فى الدنيا " وجاء الكل على ما يجب ويناسب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 231.232 ﴾

(108/339)

فائدة

قال ابن القيم :

قال تعالى: ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: 55] .

ولم يصب من قال: إن الآية على التقديم والتأخير ، كالجرجانى ، حيث قال: ينتظم قوله ﴿ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ بعد فصل آخر ليس بموضعه ، على تأويل ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة: 55] وهذا القول يروى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وهو منقطع ، واختاره قتادة وجماعة ، وكأنهم لما أشكل عليهم وجه تعذيبهم بالأموال والأولاد فى الدنيا ، وأن سرورهم ولذتهم ونعيمهم بذلك ، فروا إلى التقديم والتأخير .

وأما الذين رأوا أن الآية على وجهها ونظمها فاختلفوا فى هذا التعذيب ، فقال الحسن البصرى: يعذبهم بأخذ الزكاة منها والإنفاق فى الجهاد ، واختاره ابن جرير ، وأوضحه . فقال: العذاب بها إلزامهم بما أوجب الله عليهم فيها من حقوقه وفرائضه ، إذ كان يؤخذ منه ذلك ،

وهو غير طيب النفس ، ولا راج من الله جزاء ، ولا من الآخذ منه حمدا ولا شكرا ، بل

على صغار منه وكره .

وهذا أيضا عدول عن المراد بتعذيبهم فى الدنيا بها ، وذهاب عن مقصود الآية .

(109/339)

وقالت طائفة: تعذيبهم بها أنهم يتعرضون بكفرهم لغنيمة أموالهم ، وسبى أولادهم فإن هذا حكم الكافر ، وهم فى الباطن كذلك . وهذا أيضا من جنس ما قبله فإن الله سبحانه أقر المنافقين ، وعصم أموالهم وأولادهم بالإسلام الظاهر وتولى سرائرهم ، فلو كان المراد ما ذكره هؤلاء لوقع مراده سبحانه من غنيمة أموالهم وسبى أولادهم ، فإن الإرادة هاهنا كونية بمعنى المشيئة ، وما شاء الله كان ولا بد ، وما لم يشأ لم يكن . والصواب ، والله أعلم ، أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها ومؤثريها على الآخرة: بالحرص على تحصيلها ، والتعب العظيم فى جمعها ومقاساة أنواع المشاق فى ذلك ، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه ، وهو حريص بجهده على تحصيلها . والعذاب هنا هو الألم والمشقة والتعب ، كقوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ الْعَذَابِ" وقوله: "إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ" .

أى يتألم ويتوجع ، لا أنه يعاقب بأعمالهم ، وهكذا من كانت الدنيا كل همه أو أكبر همه كما

قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فى الحديث الذى رواه الترمذى وغيره من حديث أنس رضى الله عنه:

"مَنْ كانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جعَلَ اللهُ غِنَاهُ فى قَلْبِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِىَ رَاغِمَةٌ . وَمَنْ كانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ ، وَلَمْ يأْتِهِ مِنَ الدُّنْيا إلا مَا قُدِّرَ لَهُ" .

ومن أبلغ العذاب فى الدنيا : تشتيت الشمل وتفرق القلوب ، وكون الفقر نصب عينى العبد لا يفارقه ، ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها لاستغاثوا من هذا العذاب ،

على أن أكثرهم

(110/339)

لا يزال يشكو أو يصرخ منه . وفى الترمذى أيضاً عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله تعالى عليه وآله وسلم قال: "يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ابْنَ آدَمَ ، تَفَرَّغْ لعِبَادَتِى أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنًى ، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ ، وَإِنْ لا تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلا ، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ" .

وهذا أيضا من أنواع العذاب ، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاساة معاداتهم ، كما قال بعض السلف: من أحب الدنيا فليوطن نفسه على

تحمل المصائب . ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث: همّ لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضى ، وذلك أن محبها لا ينال منها شيئا إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه ، كما فى الحديث الصحيح عن النبى عليه الصلاة والسلام: "لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى لهَما ثَالِثا" .

وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محب الدنيا بشارب الخمر ، كلما ازداد شربا ازداد عطشا .

وذكر ابن أبى الدنيا أن الحسن البصرى كتب إلى عمر بن عبد العزيز "أما بعد : فإن الدنيا دار ظعن ، ليست بدار إقامة ، إنما أنزل إليها آدم عليه السلام عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، لها فى كل حين قتيل ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها . هى كالسم يأكله من لا يعرفه ، وهو حتفه فكن فيها كالمداوى جراحه ، يحتمى قليلا ، مخافة ما يكره طويلا ، ويصبر على شدة الدواء مخافة طول البلاء ، فاحذر هذه الدار الغرارة ، الخداعة الخَتَّالة ، التى قد تزينت بخدعها ، وفتنت بغرورها ، وختلت بآمالها ، وتشوفت لخطابها ، فأصبحت كالعروس المجلوة ، فالعيون إليها ناظرة ، والقلوب عليها والهة ، والنفوس لها عاشقة ، وهى لأزواجها كلهم قاتلة ، فعاشق لها قد ظفر منها بحاجته فاغتر وطغى ، ونسى المعاد فشَغل بها لُبَّه ، حتى زلّت عنها قدمه ، فعظمت عليه ندامته ، وكثرت حسرته ، واجتمعت عليه سكرات الموت وألمه ،

وحسرات الفوت . وعاشق لم ينل منها بغيته ، فعاش بغُصته ، وذهب بكمده ، ولم يدرك منها ما طلب ، ولم تسترح نفسه من التعب ، فخرج بغير

زاد ، وقدم على غير مهاد . فكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها ، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصته إلى مكروه ، وُصِل الرخاء منها بالبلاء ، وجُعل البقاء فيها إلى فناء . سرورها مشوب بالحزن ، أمانيها كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصفوها كدر ، وعيشها نكد ، فلو كان ربنا لم يخبر عنها خبرا ، ولم يضرب لها مثلا ، لكانت قد أيقظت النائم ، ونبهت الغافل . فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ وعنها زاجر ؟ فما لها عند الله قدر ولا وزن ، ولا نظر إليها منذ خلقها . ولقد عرضت على نبينا صلى الله عليه وآله وسلم بمفاتيحها وخزائنها لا تُنقِصُه عند الله جناح بعوضة ، فأَبى أن يقبلها ، كره أن يحب ما أبغض خالقُه ، أو يرفع ما وضع مليكه . فزواها عن الصالحين اختيارا ، وبسطها لأعدائه اغترارا . فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكْرِم بها ، ونسى ما صنع الله عز وجل برسوله صلى الله عليه وسلم حين شد الحجر على بطنه" .

وقال الحسن أيضا : إن قوما أكرموا الدنيا فصلبتهم على الخُشب . فأهينوها فأهنأ ما تكون

إذا أهنتموها . وهذا باب واسع .

وأهل الدنيا وعشاقها أعلم بما يقاسونه من العذاب وأنواع الألم فى طلبها .

ولما كانت هى أكبر هَمّ من لا يؤمن بالآخرة ، ولا يرجو لقاء ربه ، كان عذابه بها بحسب حرصه عليها ، وشدة اجتهاده فى طلبها .

(112/339)

وإذا أردت أن تعرف عذاب أهلها بها فتأمل حال عاشق فانٍ فى حب معشوقه ، وكلما رام قربا من معشوقه نأى عنه ، ولا يفى له ويهجره ويصل عدوه . فهو مع معشوقه فى أنكد عيش ، يختار الموت دونه ، فمعشوقه قليل الوفاء ، كثير الجفاء ، كثير الشركاء ، سريع الاستحالة ، عظيم الخيانة ، كثير التلون ، لا يأمن عاشقه معه على نفسه ولا على ماله ، مع أنه لا صبر له عنه ولا يجد عنه سبيلا إلى سلوة تريحه ، ولا وصال يدوم له ، فلو لم يكن لهذا العاشق عذاب إلا هذا العاجل لكفى به ، فكيف إذا حيل بينه وبين لذاته كلها ، وصار معذبا بنفس ما كان ملتذا به على قدر

لذته به ، التى شغلته عن سعيه فى طلب زاده ، ومصالح معاده ؟ ،

وسنعود إلى تمام الكلام فى هذا الباب فى باب ذكر علاج مرض القلب بحب الدنيا إن شاء

الله تعالى ، إذ المقصود بيان أن من أحب شيئا سوى الله تعالى ، ولم تكن محبته له لله تعالى ، ولا لكونه معينا له على طاعة الله تعالى: عذب به فى الدنيا قبل يوم القيامة . كما قيل:

أَنْتَ الْقَتِيلُ بِكُلِّ مَنْ أَحْبَبْتَهُ فَاخْتَرْ لِنَفْسِكَ فِى الْهَوَى مَنْ تَصْطَفِى

فإذا كان يوم المعاد ولّى الحكَم العدل سبحانه كل محب ما كان يحبه فى الدنيا . فكان معه: إما منعما أو معذبا . ولهذا:

"يُمَثَّلُ لِصاحِبِ المَالِ مَالُهُ شُجَاعاً أَقْرَعَ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيه ، يعنى شدقيه ، يقُولُ: أَنَا مَالُكَ ، أَنَا كَنزُكَ ، ويُصَفَّحُ لَهُ صَفَائِحَ مِنْ نَارٍ يُكْوَى بِهَا جَبِينُهُ وَجَنبهُ وَظَهْرُهُ" .

وكذلك عاشق الصور إذا اجتمع هو ومعشوقه على غير طاعة الله تعالى جمع الله بينهما فى النار ، وعذب كلٌّ منهما بصاحبه . قال تعالى:

﴿ الأَخِلاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌ إِلا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: 67] .

وأخبر سبحانه أن الذين توادوا فى الدنيا على الشرك يكفر بعضهم ببعض يوم القيامة ، ويلعن بعضهم بعضا ومأواهم النار وما لهم من ناصرين .

(113/339)

فالمحب مع محبوبه دنيا وأخرى . ولهذا يقول الله تعالى يوم القيامة للخلق : "أَلَيْسَ عَدْلا مِنّى أَنْ أُوَلّى كُلَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مَا كَانَ يَتَوَلَّى فى دَارِ الدُّنْيا ؟" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إغاثة اللهفان صـ 35.39 ﴾

(114/339)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها ﴾ في الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ قال : بالمصائب فيهم ، هي لهم عذاب وللمؤمنين أجر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ قال : هذه من مقاديم الكلام يقول : لا تعجبك أموالهم ولا

أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ قال : تزهق أنفسهم في الحياة الدنيا ﴿ وهم كافرون ﴾ قال : هذه آية فيها تقديم وتأخير .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ فلا تعجبك ﴾ يقول : لا يغررك ﴿ وتزهق ﴾ قال : تخرج أنفسهم من الدنيا ﴿ وهم كافرون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(115/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الحياة الدنيا ﴾ : فيه وجهان أحدهما : أنه متعلق ب " تعجبك " ويكون قول ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا ﴾ جملة اعتراض والتقدير : فلا تعجبك في الحياة .

ويجوز أن يكونَ الجارُّ حالاً من أموالهم . وإلى هذا نحا ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي وابن قتيبة قالوا : في الكلام تقديمٌ وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد ليعذبهم بها في الآخرة . قال الشيخ : " إلا أنَّ تقييدَ الإعجابِ المنهيَّ عنه الذي يكون ناشئاً عن أموالهم وأولادهم من المعلوم أنه لا يكون إلا في الحياة الدنيا ، فيبقى ذلك كأنه زيادة تأكيد ، بخلاف التعذيب فإنه قد يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة ، ومع أن التقديمَ والتأخيرَ يخصُّه أصحابنا بالضرورة " . قلت : كيف يُقال مع نَصِّ مَنْ قَدَّمْتُ ذكرَهم : " أصحابنا يخصُّون ذلك بالضرورة " على أنه ليس من التقديم والتأخير الذي يكون في الضرورة في شيءٍ إنما هو اعتراض ، والاعتراض لا يقال فيه تقديم وتأخير بالاصطلاح الذي يُخَصُّ بالضرورة ، وتسميتهم أعني ابن عباس ومن معه رضي الله عنهم إنما يريدون فيه الاعتراضَ المشارَ إليه لا ما يخصه أهل الصناعة بالضرورة .

والثاني : أن " في الحياة " متعلقٌ بالتعذيب ، والمراد بالتعذيب الدنيويِّ مصائبُ الدنيا ورزاياها ، أو ما لزمهم من التكاليف الشاقة ، فإنهم لا يرجون عليها ثواباً . قاله ابن زيد ، أو ما فُرِض عليهم من الزكوات قاله الحسن ، وعلى هذا فالضمير في " بها " يعود على الأموال فقط ، وعلى الأول يعود على الأولاد والأموال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 67. 68 ﴾

(116/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (55) ﴾

بَيَّنَ أن ما حسبوه نعمة واعْتَدُّوه من الله مِنَّةٌ فهو - في التحقيق - مِحْنَةٌ ، وسببُ شقاءٍ وفُرْقة ، وإنما دَسَّ التقديرُ لهم سُمومَ الصَّابِ ، فيما استلذوه من الشرابِ ؛ ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : 56] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 36 ﴾

(117/339)

قوله تعالى ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وضح بهذه الأمور منابذتهم للمؤمنين وخروجهم من ربقة الدين المصحح لوصفهم

بالفسق ، أوضح لبساً آخر من أحوالهم يقيمونه بالأيمان الكاذبه فقال : ﴿ ويحلفون ﴾ أي طلبوا لكم الفتنة والحال انهم يجددون الأيمان ﴿ بالله ﴾ أي على ما له من تمام العظمة ﴿ إنهم ﴾ أي المنافقين ﴿ لمنكم ﴾ أي أيها المؤمنون على اعتقادكم باطناً كما هم ظاهراً ﴿ وما ﴾ أي والحال أنهم ما ﴿ هم ﴾ صادقين في حلفهم أنهم ﴿ منكم ولكنهم قوم ﴾ أي مع أن لهم قوة وقياماً فيما يحاولونه ﴿ يفرقون ﴾ أي يخافون منكم على دمائهم خوفاً عظمياً يفرق همومهم فهو الملجىء لهم إلى الحلف كذباً على التظاهر بالإسلام ، فكأنه قيل : فما لهم يقيمون بيننا والمبغض لا يعاشر من يبغضه ؟ فقيل : لأنهم لا يجدون ما يحميهم منكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 334 . 335 ﴾

(118/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين كونهم مستجمعين لكل مضار الآخرة والدنيا ، خائبين عن جميع منافع الآخرة والدنيا ، عاد إلى ذكر قبائحهم وفضائحهم ، وبين إقدامهم على الأيمان الكاذبة فقال

: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي المنافقون للمؤمنين إذا جالسوهم ﴿ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ أي على دينكم .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ أي ليسوا على دينكم ﴿ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ القتل ، فأظهروا الإيمان وأسروا النفاق ، وهو كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : 14] والفرق الخوف ، ومنه يقال : رجل فروق .

وهو الشديد الخوف ، ومنها : أنهم لو وجدوا مفراً يتحصنون فيه آمنين على أنفسهم منكم لفروا إليه ولفارقوكم ، فلا تظنوا أن موافقتهم إياكم في الدار والمسكن عن القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 77 ﴾

(119/339)

وقال السمرقندي :

قوله تعالى : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾

يعني : إنهم مؤمنون على دينكم في السر وهم كاذبون في ذلك القول .

﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ ، يعني : ليسوا على دينكم في السر ، ﴿ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ ؛

يعني : يخبثون فأظهروا الإيمان وأسرُّوا النفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ويحلفون ﴾ الآية

أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يحلفون أنهم من المؤمنين في الدين والشريعة ثم أخبر تعالى عنهم على الجملة لا على التعيين أنهم ليسوا من المؤمنين ، وإنما هم يفزعون منهم فيظهرون الإيمان وهو يبطنون النفاق ، و" الفرق " ، الخوف ، والفروقة الجبان وفي المثل وفرق خير من حبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون ﴾

أي لمن جملة المسلمين .

وأكذبهم الله بقوله : وما هم منكم .

ومعنى يفرقون : يخافون القتل .

وما يفعل بالمشركين فيتظاهرون بالإسلام تقية ، وهم يبطنون النفاق ، أو يخافون اطلاع الله المؤمنين على بواطنهم فيحل بهم ما يحل بالكفار .

ولما حقر تعالى شأن المنافقين وأموالهم وأولادهم عاد إلى ذكر مصالحهم وما هم عليه من

خبث السريرة فقال : ويحلفون بالله على الجملة لا على التعيين ، وهي عادة الله في ستر أشخاص العصاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(120/339)

وقال الآلوسى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾

أي في الدين والمراد أنهم يحلفون أنهم مؤمنون مثلكم ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ في ذلك لكفر قلوبهم ﴿ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية ويؤيدونه بالأيمان الفاجرة ، وأصل الفرق انزعاج النفس بتوقع الضرر ، قيل : وهو من مفارقة الأمن إلى حال الخوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(121/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) ﴾

هذه الجملة معطوفة على ما قبلها من أخبار أهل النفاق .

وضمائر الجمع عائدة إليهم ، قصد منها إبطال ما يموّهون به على المسلمين من تأكيد كونهم مؤمنين بالقَسم على أنّهم من المؤمنين .

فمعنى : ﴿ إنهم لمنكم ﴾ أي بعض من المخاطبين ولمّا كان المخاطبون مؤمنين ، كانَ التبعيض على اعتبار اتّصافهم بالإيمان ، بقرينة القَسَم لأنّهم توجّسوا شكّ المؤمنين في أنّهم مثلهم .

والفَرَق : الخوف الشديد .

واختيار صيغة المضارع في قوله : ﴿ ويحلفون ﴾ وقوله : ﴿ يفرقون ﴾ للدلالة على التجدّد وأنّ ذلك دأبهم .

ومقتضى الاستدراك : أن يكون المستدرك أنّهم ليسوا منكم ، أي كافرون ، فحُذف المستدرك استغناء بأداة الإستدراك ، وذُكر ما هو كالجواب عن ظاهر حالهم من الإيمان بأنّه تظاهر باطل وبأنّ الذي دعاهم إلى التظاهر بالإيمان في حال كفرهم : هم أنّهم يفرَقون من المؤمنين ، فحصل إيجاز بديع في الكلام إذ استغني بالمذكور عن جملتين محذوفتين .

وحذف متعلّق ﴿ يفرقون ﴾ لظهوره ، أي يخافون من عداوة المسلمين لهم وقتالهم إياهم

أو إخراجهم ، كما قال تعالى : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ [الأحزاب : 60 ، 61] .

وقوله : ﴿ وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون كلام موجه لصلاحيته لأن يكون معناه أيضاً وما هم منكم ولكنّهم قوم متّصفون بصفة الجُبن ، والمؤمنون من صفتهم الشجاعة والعزّة ، فالذين يفرقون لا يكونون من المؤمنين ، وفي معنى هذا قوله تعالى : ﴿ قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾ [هود : 46] وقول مساور بن هند في ذمّ بني أسد :

زَعَمتُم أنَّ إخوتكم قُريش . . .

لهم إلْفٌ وليس لكم إلاف

(122/339)

أولئك أومِنُوا جُوعاً وخوفاً . . .

وقد جَاعَتْ بنو أسد وخافوا

فيكون توجيهاً بالثناء على المؤمنين ، وربما كانت الآية المذكورة عقبها أوفق بهذا المعنى .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ اختلاف الخُلق مانع من المواصلة والموافقة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(123/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) ﴾

لماذا أتى الله بهذه الآية بعد أن حذرنا من أن نُعجَبَ بأموال المنافقين وأولادهم ؟ لأن هذه ليست نعمة لهم ولكنها نقمة عليهم ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يشحننا ضد المنافقين وأن يجعلنا نحذر منهم كل الحذر ، ويضرب لنا المثل باليمين ، واليمين لا ينطق بها الإنسان عادة إلا بعد شبهة إنكار . فإذا جئت لإنسان بخبر وصدّقه فأنت لا تضطر لأن تحلف له . ولكن إذا أنكره فأنت تحلف لتزيل شبهة الإنكار من نفسه ، ولذلك فأنت حين تروي الخبر لأول مرة لا تحلف ، فإن أنكره سامعك حلفْتَ .

ولكن لماذا يحلف المنافقون دون سابق إنكار ؟

إنهم يسمعون القرآن الذي ينزل من السماء مملوءاً بالغضب عليهم ، وهم يشعرون في داخل صدورهم أن كل مسلم في قلبه شك من ناحية تصرفاتهم ، فيبدأون كلامهم بالحلف حتى

يصدِّقهم المؤمنون ، والمؤمنون قد متَّعهم الله بمناعة إيمانية ، في صدورهم ؛ فلا يصدقون ما يقوله المنافقون ، حتى يأخذوا حِذْرهم ويكونوا بمنجاة مما يدبره هؤلاء المنافقون من أذى ، ولذلك حذر سبحانه وتعالى المؤمنين من تصديق كلام المنافقين حتى ولو حلفوا .

ولو لم يُعط الله المؤمنين هذه المناعة الإيمانية لصدَّقوا قول المنافقين بقداسة اليمين . وبماذا حلف المنافقون ؟ لقد حلفوا بأنهم من المؤمنين والحقيقة أنهم في مظاهر التشريع يفعلون كما يفعل المؤمنون ، ولكن قلوبهم ليس فيها يقين أو صدق .

(124/339)

وما داموا على غير يقين وغير صدق ، فلماذا يحلفون ؟ نقول : إن هذا هو تناقض الذات ، وأنت تجد المؤمن غيرَ متناقض مع نفسه ؛ لأنه مؤمن بقلبه ومؤمن بذاته ، ومؤمن بجوارحه ، ولا توجد مَلَكَاتٌ تتناقض فيه ، والكافر أيضاً غير متناقض مع نفسه ؛ لأنه يعلن صراحة أنه لا يؤمن بالله ولا برسوله ، فليس هناك تناقض بين ظاهره وباطنه ، صحيح أن فيه ملكة واحدة ، ولكنها فاسدة ، ولكن ليس فيه تناقض بين ما يفعله ظاهراً وما في قلبه .

أما المنافق فتتناقض ملكاته . فهو يقول بلسانه : " أنا مؤمن وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " . لكن قلبه يناقض ما يقوله ، فلا يشهد بوحدانية الألوهية لله ، ولا

يصدق رسالة رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في سورة " المنافقون " : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله والله يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ والله يَشْهَدُ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : 1]

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّ المنافقين لَكَاذِبُونَ ﴾ ، مع أنهم شهدوا بما شهد به الله ، وهو أن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله ؟ نقول : إن الحق أراد أن يفضحهم ، فهم قد شهدوا بألسنتهم فقط ولكن قلوبهم منكرة . وفضح الله ما في قلوبهم وأوضح أن ألسنتهم تكذب ؛ لأنها لا تنقل صدق ما في قلوبهم .

إذن : فالمنافق يعيش في تناقض مع نفسه ، وهو شر من الكافر ؛ لأن الكافر يعلن عداءه للدين فهو عدو ظاهر لك فتأخذ حذرك منه . أما المنافق فهو يتظاهر بالإيمان ، فتأمن له ويكون إيذاؤه أكبر ، وقدرته على الغَدْرِ أشد . ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار . . ﴾ [النساء : 145]

ونحن نعلم أن تناقض الذات هو الذي يتعب الدنيا كلها ، ويبين لنا المتنبي هذه القضية ، ويشرح كيف أنها أتعبُ شيء في الوجود ، فيقول :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيا علَى الحرِّ أنْ يَرَى . . . عَدوّا له مَا مِنْ صَداقتِه بُدُّ

هذا هو تناقض الملكَاتِ حين تجد عدواً لك ، وتحكم عليك الظروف أن تصادقه . وفي ذلك يقول شاعر آخر :

عَلَى الذَّمِّ بِتْنا مُجْمِعينَ وحالُنَا . . . مِنَ الخَوْفِ حَالُ المُجْمِعين عَلىَ الحَمْدِ

وشاعر ثالث يريد أن يصور التناقض في المجتمع الذي يجعل الناس يمجدون هذا وهم كارهون له ، فيقول :

كَفَانَا هَواناً مِنْ تناقُضِ ذَاتِنا . . . متى تَصْدُقُ الأقوالُ بالألسُنِ الخُوَّفِ

إذن : فالمنافقون يحلفون بألسنتهم بأنهم من المؤمنين ، وهم كذلك في ظاهر التشريع ، ولكنهم ليسوا منكم في حقيقتهم ، فهم في قلوبهم ليسوا منكم .

ويكمل الحق سبحانه وتعالى الصورة بقوله :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ والفَرَق معناه : الخوف ، أي أنهم في فزع دائم ، ويخافون أن يُفتضَحَ أمرهم فيعزلهم مجتمع الإسلام ويحاربهم محاربته للكفار . ويشرِّدهم ويأخذ أموالهم ويَسْبي نساءهم وأولادهم . إذن : فالخوف هو الذي جعلهم يحلفون كذباً وخوفاً من افتضاح أمرهم ؛ ولذلك قال الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم عنهم : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . .

﴿ [محمد : 30]

وفي هذا القول دعوة لفحص ما يقوله أهل النفاق ، حتى وإنْ بَدا القول على ألسنتهم جميلاً .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(126/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) ﴾

التَّقَرُّبُ بالأَيمانِ الفاجِرةِ لا يوجِبُ للقلوب إلا بُعْداً عن القُبول .

ويقال إنَّ إظهارَ التلبيس لا (. . .) الأسرارَ بَرَدّ السكون ، ولا يَشْفِي البصائر بِرَدّ الثقة واليقين . . فما لا يكون فلا يكون بحيلةٍ أبداً ، وما هو كائنٌ سيكون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 36 ﴾

(127/339)

قوله تعالى ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ لو يجدون ملجئاً ﴾ أي شيئاً يلجؤون إليه من حصن أو جبل أو قوم يمنعونهم منكم ﴿ أو مغارات ﴾ في الجبال تسعهم ، جمع مغارة - مفعلة من غار في الشيء - إذا دخل فيه ، والغور : ما انخفض من الأرض .

ولما كانت الغيران - وهي النقوب في الجبال - واسعة والوصول إليها سهلاً ، قال : ﴿ أو مدخلاً ﴾ أي مكاناً يدخلونه بغاية العسر والصعوبة لضيقه أو لمانع في طريقه أو قوماً يداخلونهم وإن كانوا يكرهونهم - بما أرشد إليه التشديد : ﴿ لولوا إليه ﴾ أي لاشتدوا في التوجه إليه متولين مرتدين عنكم على أعقابهم ﴿ وهم يجمحون ﴾ أي حالهم حال الدابة التي كانت مسرعة في طواعية راكبها فإذا هي قد نكصت على عقبها ثم أخذت في غير قصده بغاية الإسراع ونهاية الرغبة والداعية لا يردها بئر تقع فيه ولا مهلكة ولا شيء .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 335 ﴾

(128/339)

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً ﴾

الملجأ : المكان الذي يتحصن فيه ، ومثله اللجأ مقصوراً مهموزاً ، وأصله من لجأ إلى كذا يلجأ لجأ بفتح اللام وسكون الجيم ، ومثله التجأ والجأته إلى كذا ، أي جعلته مضطراً إليه ، وقوله : ﴿ أَوْ مغارات ﴾ هي جمع مغارة ، وهي الموضع الذي يغور الإنسان فيه ، أي يستتر .

قال أبو عبيد : كل شيء جزت فيه فغبت فهو مغارة لك ، ومنه غار الماء في الأرض وغارت العين .

وقوله : ﴿ مُدْخَلاً ﴾ قال الزجاج : أصله مدتخل والتاء بعد الدال تبدل دالاً ، لأن التاء مهموسة ، والدال مهجورة ، وهما من مخرج واحد وهو مفتعل من الدخول ، كالمتلج من الولوج .

ومعناه : المسلك الذي يستتر بالدخول فيه .

قال الكلبي وابن زيد : نفقا كنفق اليربوع .

والمعنى : أنهم لو جدوا مكاناً على أحد هذه الوجوه الثلاثة ، مع أنها شر الأمكنة ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾ أي رجعوا إليه .

يقال : ولى بنفسه إذا انصرف وولى غيره إذا صرفه وقوله : ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء ، ومن هذا يقال : جمح الفرس وهو فرس جموح ، وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام ، والمراد من الآية أنهم من شدة تأذيهم من الرسول ومن المسلمين صاروا بهذه الحالة .

واعلم أنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء وهي : الملجأ ، والمغارات ، والمدخل ، والأقرب أن يحمل كل واحد منها على غير ما يحمل الآخر عليه ، فالملجأ يحتمل الحصون ، والمغارات الكهوف في الجبال ، والمدخل السرب تحت الأرض نحو الآبار .

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ من دخل و ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ من أدخل وهو مكان يدخلون فيه أنفسهم ، وقرأ أبي بن كعب ﴿ متدخلاً ﴾ وقرأ ﴿ لَوْ أَلوا إِلَيْهِ ﴾ أي لالتجاؤا ، وقرأ أنس ﴿ يجمزون ﴾ فسئل عنه فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدون واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 77 ـ 78 ﴾

(129/339)

وقال الثعلبى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾

يعني حرزاً وحصناً ومعقلاً ، وقال عطاء مهرباً ، وقال ابن كيسان : قوماً يأمنون فيهم ﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ غيراناً في الجبال ، وقال عطاء : سرادب ، وقال الاخفش : كلّ ما غرتَ فيه فغبت فهو مغارة ، وهي مفعلة من غار الرجل في الشيء يغور فيه إذا دخل ، ومنه غار الماء وغارت العين إذا دخلت في الحدقة ، ومنه غور تهامة ، والغور : ما انخفض من الأرض ، وقرأ عبد الرحمن بن عوف مُغارات بضم الميم جعله مفعلاً من أغار يُغير إذا أسرع ومعناه موضع فرارا ، قال الشاعر :

فعدّ طلابها وتعدّ عنها . . . بحرف قد تغير إذ تبوع

﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ موضع دخول ، وهو مفتعل من تدخّل يتدخّل متدخّل ، وقال مجاهد : مدّخلا : محرزاً . قتادة : سرداباً ، وقال الكلبي وابن زيد : نفقاً كنفق اليربوع ، وقال الضحاك : مأوىً يأوون إليه ، وقال الحسن : وجهاً يدخلونه على خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ابن كيسان : دخلا من مدخلا لاينالهم منكم مايخافون [منه] وقرأ الحسن : أو مدخلاً ، مفتوحة الميم خفيفة الدال من دخل يدخل ، وقرأ مسلمة بن محارب مُدخلاً بضم الميم وتخفيف الدال من دخل يدخل ، وقرأه أُبيّ مندخلا ، منفعل من اندخل . كما قال :

فلا يدي في حميت السكن تندخل . . . وقرأ الأعرج بتشديد الدال والخاء [. . . . .] جعله متّفعلا ثم أدغم التاء في الدال كالمزمّل والمدّثر ﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾

لأدبروا إليه هرباً منكم ، وفي حرف أُبي : لولّوا وجوههم إليه ، وقرأ الأعمش والعقيلي : لوالوا إليه بالألف من الموالاة أي تابعوا وسارعوا .

وروى معاوية بن نوفل عن أبيه عن جده وكانت له صحبة لولوا إليه بتخفيف اللام لأنها من التولية يقال : ولي إليه بنفسه إذا انصرف ولولوّا إليه من المولي ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ يسرعون في الفرار [لا يردهم شيء] . قال الشاعر أبان بن ثعلب :

(130/339)

سبوحاً جموحاً وإحضارها . . . كمعمعة السعف الموقد

وقيل : إن الجماح مشي بين مشيين وهو مثل [الصماح] . قال مهلهل :

لقد جمحت جماحاً في دمائهمُ . . . حتى رأيت ذوي أحسابهم خمدوا

وقرأ الأعمش : وهم يجمزون أي يسرعون ويشدّون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(131/339)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ . . . ﴾ الآية

أما الملجأ ففيه أربعة أوجه :

أحدها : أنه الحرز ، قاله ابن عباس .

والثاني : الحصن ، قاله قتادة .

والثالث : الموضع الحريز من الجبل ، قاله الطبري .

والرابع : المهرب ، قاله السدي . ومعاني هذه كلها متقاربة . وأما المغارات ففيها وجهان :

أحدهما : أنها الغيران في الجبال ، قاله ابن عباس .

والثاني : المدخل الساتر لمن دخل فيه ، قاله علي بن عيسى .

وأما المدَّخل ففيه وجهان :

أحدهما : أنه السرب في الأرض ، قاله الطبري .

والثاني : أنه المدخل الضيق الذي يدخل فيه بشدة .

﴿ لَوَلَّوْا إِلَيْهِ ﴾ يعني هرباً من القتال وخذلاناً للمؤمنين .

﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون ، قال مهلهل :

لقد جمحت جماحاً في دمائهم . . . حتى رأيت ذوي أحسابهم خمدوا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

" الملجأ " من لجأ يلجأ إذا أوى واعتصم ، وقرأ جمهور الناس " أو مَغارات " بفتح الميم ، وقرأ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف " أو مُغارات " بضم الميم وهي الغيران في أعراض الجبال ففتح الميم من غار الشيء إذا دخل كما تقول غارت العين إذا دخلت في الحجاج ، وضم الميم من أغار الشيء غيره إذا أدخله ، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة ، وقيل إن العرب تقول : غار الرجل وأغار بمعنى واحد أي دخل ، قال الزجّاج : إذا دخل الغور فيحتمل أن تكون اللفظة أيضاً من هذا .

قال القاضي أبو محمد : ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم حبل مُغار أي مفتول ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبروم ، فيجيء التأويل على هذا : لو يجدون عصرة أو أموراً مرتبطة مشددة تعصمهم منكم أو مدخلاً لولوا إليه ، وقرأ جمهور الناس " أو مُدخلاً " أصله مفتعل وهو بناء تأكيد ومبالغة ومعناه السرب والنفق في الأرض ، وبما ذكرناه في الملجأ والمغارات ، " والمُدخل " فسر ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الزجّاج " المُدخل "

معناه قوماً يدخلونهم في جملتهم وقرأ مسلمة بن محارب والحسن وابن أبي إسحاق وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه " أو مَدخلاً " فهذا من دخل وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش " أو مدّخّلاً " بتشديدهما وقرأ أبي بن كعب " مندخلاً " قال أبو الفتح هذا كقول الشاعر [الكميت] : [البسيط]

(133/339)

ولا يدي في حميت السمن تندخل . . . قال القاضي أبو محمد : وقال أبو حاتم : قراءة أبي بن كعب " متدخلاً " بتاء مفتوحة ، وروي عن الأعمش وعيسى " مُدخلاً " بضم الميم فهو من أدخل ، وقرأ الناس ﴿ لولوا ﴾ وقرأ جد أبي عبيدة بن قرمل " لوالوا " من الموالاة ، وأنكرها سعيد بن مسلم وقال : أظن لوالوا بمعنى للجؤوا ، وقرأ جمهور الناس ، " يجمحون " معناه يسرعون مصممين غير منثنين ، ومنه قول مهلهل : [البسيط]

لقد جمحت جماحاً في دمائهم . . . حتى رأيت ذوي أحسابهم خمدوا

وقرأ أنس بن مالك " يجمزون " ومعناه يهربون ، ومنه قولهم في حديث الرجم : فلما إذ لقته الحجارة جمزة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(134/339)

وقال ابن الجوزى :

﴿ لَوْيَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾

المغارات : جمع مغارة ، وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان ، أي : يستتر فيه .

وقرأ سعيد بن جبير ، وابن أبي عبلة : "أو مُغارات" بضم الميم ؛ لأنه يقال : أغرت وغُرت : إذا دخلتَ الغور ، وأصل مدَّخَل : مدتخل ، ولكن التاء تبدل بعد الدال دالاً ، لأن التاء مهموسة ، والدال مجهورة ، والتاء والدال من مكان واحد ، فكان الكلام من وجه واحد أخف .

وقرأ أُبيٌّ ، وأبو المتوكل ، وأبو الجوزاء : ﴿ أو مُتَدَخَّلاً ﴾ برفع الميم ، وبتاء ودال مفتوحتين ، مشددة الخاء .

وقرأ ابن مسعود ، وأبو عمران : ﴿ مُندخَلاً ﴾ بنون بعد الميم المضمومة .

وقرأ الحسن ، وابن يعمر ، ويعقوب : "مدخلاً" بفتح الميم وتخفيف الدال وسكونها .

قال الزجاج : من قال : "مَدْخلاً" فهو من دخل يدخل مدخلاً ؛ ومن قال : "مُدْخلاً" فهو من أدخلته مُدخلاً ، قال الشاعر :

الحمد لله مُمْسَانا ومُصْبَحَنَا . . .

بالخير صبَّحنا ربِّي ومسَّانا

ومعنى مُدَّخل ومُدْخل : أنهم لو وجدوا قوماً يدخلون في جملتهم ﴿ لولَّوا ﴾ إليه ، أي : إلى أحد هذه الأشياء ﴿ وهم يجمحون ﴾ أي : يسرعون إسراعاً لا يرد فيه وجوهَهم شيء .

يقال : جمح وطمح : إذا أسرع ولم يردَّ وجهه شيء ، ومنه قيل : فرس جموح للذي إذا حمل لم يرده اللجام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(135/339)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَوْيَجِدُونَ مَلْجَئاً ﴾ كذا الوقف عليه .

وفي الخط بألفَين : الأُولى همزة ، والثانية عوض من التنوين ؛ وكذا (رأيت) جزءاً .

والملجأ الحصن ؛ عن قتادة وغيره .

ابن عباس : الحرز ؛ وهما سواء .

يُقال : لجأت إليه لجأً (بالتحريك) وملجأ والتجأت إليه بمعنًى .

والموضع أيضاً لَجأً ومَلْجأً .

والتّلجِئة الإكراه .

وألجأته إلى الشيء اضطررته إليه .

وألجأت أمري إلى الله أسندته .

وعمرو بن لجَأ التميميّ الشاعر ؛ عن الجوهريّ .

﴿ أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ جمع مَغارة ؛ من غار يَغير .

قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يُغير ؛ كما قال الشاعر :

الحمد للَّه مُمسانا ومُصْبَحَنَا . . .

قال ابن عباس : المغارات الغِيران والسراديب ، وهي المواضع التي يستتر فيها ؛ ومنه غار الماء وغارت العين .

﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ مفتعل من الدخول ؛ أي مسلكاً نختفي بالدخول فيه ، وأعاده لاختلاف اللفظ .

قال النحاس : الأصل فيه مدتخل .

قلبت التاء دالاً ؛ لأن الدال مجهورة والتاء مهموسة وهما من مخرج واحد .

وقيل : الأصل فيه مُتَدَخّل على مُتَفَعّل ؛ كما في قراءة أبيّ : "أو مُتَدَخَّلاً" ومعناه دخول بعد دخول ، أي قوماً يدخلون معهم .

المهدَويّ : متدخّلاً من تدخّل مثل تفعّل إذا تكلّف الدخول .

وعن أُبَيّ أيضاً : مُنْدَخلاً من اندخَل ، وهو شاذ ، لأن ثلاثيه غير متعدّ عند سيبويه

وأصحابه .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق وابن مُحَيْصِن : "أو مَدْخلاً" بفتح الميم وإسكان الدال .

قال الزجاج : ويقرأ "أو مُدْخلاً" بضم الميم وإسكان الدال .

الأول من دخل يدخل .

والثاني من أدخل يدخل .

كذا المصدر والمكان والزمان كما أنشد سيبويه :

مُغَارَ ابن همّامٍ على حَيّ خَثْعَمَا . . .

ورُوي عن قتادة وعيسى والأعمش "أو مدّخّلا" بتشديد الدال والخاء .

والجمهور بتشديد الدال وحدها ؛ أي مكاناً يدخلون فيه أنفسهم .

فهذه ست قراءات .

﴿ لَوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾ أي لرجعوا إليه .

(136/339)

﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون ، لا يردّ وجوهَهم شيء .

من جمح الفرس إذا لم يرده اللجام .

قال الشاعر :

سَبُوحاً جَمُوحاً وإحضارها . . .

كَمَعْمعة السَّعَف المُوقَدِ

والمعنى : لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة لولّوْا إليه مسرعين هرباً من المسلمين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(137/339)

وقال أبو حيان :

﴿ لو يجدون ملجئًا أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾

لما ذكر فرق المنافقين من المؤمنين أخبر بما هم عليه معهم مما يوجبه الفرق وهو أنهم لو أمكنهم الهروب منهم لهربوا ، ولكنْ صحبتهم لهم صحبة اضطرار لا اختيار .

قال ابن عباس : الملجأ الحرز .

وقال قتادة : الحصن .

وقال السدي : المهرب .

وقال الأصمعي : المكان الذي يتحصن فيه .

وقال ابن كيسان : القوم يأمنون منهم .

والمغارات جمع مغارة وهي الغار ، ويجمع على غيران بني من غار يغور إذا دخل مفعلة للمكان كقولهم : مزرعة .

وقيل : المغارة السرب تحت الأرض كنفق اليربوع .

وقرأ سعد بن عبد الرحمن بن عوف : مغارات بضم الميم ، فيكون من أغار .

قيل : وتقول العرب : غار الرجل وأغار بمعنى دخل ، فعلى هذا يكون مغارات من أغار اللازم .

ويجوز أن يكون من أغار المنقول بالهمزة من غار ، أي أماكن في الجبال يغيرون فيها أنفسهم .

وقال الزجاج : ويصح أن يكون من قولهم : جبل مغار أي مفتول .

ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم ، فيجيء التأويل على هذا لو يجدون نصرة أو أموراً مرتبطة مشدّدة تعصمهم منكم أو مدّخلاً لولوا إليه .

وقال الزمخشري ويجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع ، بمعنى مهارب ومغارّ انتهى .

والمدّخل قال مجاهد : المعقل يمنعهم من المؤمنين .

وقال قتادة : السرب يسيرون فيه على خفاء .

وقال الكلبي : نفقاً كنفق اليربوع .

وقال الحسن : وجهاً يدخلون فيه على خلاف الرسول .

وقيل : قبيلة يدخلون فيها تحميهم من الرسول ومن المؤمنين .

وقال الجمهور : مدّخلاً وأصله مدتخل ، مفتعل من ادّخل ، وهو بناء تأكيد ومبالغة ،

ومعناه السرب والنفق في الأرض قاله : ابن عباس .

بدىء أولاً بالأعم وهو الملجأ ، إذ ينطلق على كل ما يلجأ إليه الإنسان ، ثم ثنى بالمغارات

وهي الغيران في الجبال ، ثم أتى ثالثاً بالمدّخل وهو النفق باطن الأرض .

وقال الزجاج : المدّخل قوم يدخلونهم في جملتهم .

(138/339)

وقرأ الحسن ، وابن أبي إسحاق ، ومسلمة بن محارب ، وابن محيصن ، ويعقوب ، وابن كثير

بخلاف عنه : مدخلاً بفتح الميم من دخل .

وقرأ محبوب عن الحسن : مدخلاً بضم الميم من أدخل .

وروى ذلك عن الأعمش وعيسى ابن عمر .

وقرأ قتادة ، وعيسى بن عمر ، والأعمش : مدخلاً بتشديد الدال والخاء معاً أصله

متدخل ، فأدغمت التاء في الدال .

وقرأ أبي مندخلاً بالنون من اندخل .

قال :

ولا يدي في حميت السمن تندخل . . .

وقال أبو حاتم : قراءة أبي متدخلاً بالتاء .

وقرأ الأشهب العقيلي : لوالوا إليه لتابعوا إليه وسارعوا .

وروي ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نوفل ، عن أبيه ، عن جده وكانت له صحبة أنه قرأ لوالوا إليه من الموالاة ، وأنكرها سعيد بن مسلم وقال : أظنها لو ألوا بمعنى للجأوا .

وقال أبو الفضل عبد الرحمن بن أحمد الرازي : وهذا مما جاء فيه فاعل وفعل بمعنى واحد ، ومثله ضاعف وضعف انتهى .

وقال الزمخشري : وقرأ أبي بن كعب متدخلاً لوالوا إليه لا لتجأوا إليه انتهى .

وعن أبيّ لولوا وجوههم إليه .

ولما كان العطف بأو عاد الضمير إليه مفرداً على قاعدة النحو في أو ، فاحتمل من حيث الصناعة أن يعود على الملجأ ، أو على المدخل ، فلا يحتمل على أن يعود في الظاهر على المغارات لتذكيره ، وأما بالتأويل فيجوز أن يعود عليها .

وهم يجمحون يسرعون إسراعاً لا يردهم شيء .

وقرأ أنس بن مالك والأعمش : وهم يجمزون .

قيل : يجمحون ، ويجمزون ، ويشتدون واحد .

وقال ابن عطية : يجمزون يهرولون ، ومنه قولهم في حديث الرجم : فلما إذ لقته الحجارة جمز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(139/339)

وقال أبو السعود :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾

استئنافٌ مقرِّرٌ لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءَهم إلى الانتماء إليهم إنما هو للتقية اضطراراً حتى إنهم لو وجدوا غيرَ ذلك ملجأً أي مكاناً حصيناً يلجأون إليه من رأس جبل أو قلعةٍ أو جزيرة ، وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في الشرط وإن كان المعنى على المُضِيّ لإفادة استمرارِ عدمِ الوجدانِ فإن المضارعَ المنفيَّ الواقعَ موقعَ الماضي ليس نصاً في إفادة انتفاءِ استمرارِ الفعلِ كما هو الظاهرُ بل قد يفيد استمرارَ انتفائِه أيضاً حسبما يقتضيه المقامُ فإن معنى قولِك : لو تحسن إليّ لشكرتك أن انتفاءَ الشكر بسبب استمرارِ انتِفاء الإحسانِ لا أنه بسبب انتفاءِ استمرارِ الإحسانِ فإن الشكرَ يتوقف على وجود الإحسانِ لا على استمرارِه كما حقق في موضعه ﴿ أَوْ مغارات ﴾ أي غِيراناً وكهوفاً يُخفون فيها أنفسهَم وقرىء بضم الميم من أغار الرجلُ إذا دخل الغَور وقيل : هو متعد من

غار إذا دخل الغور أي أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم وأهليهم يجوز أن يكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى مهارب ومفار ﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ أي نفقاً يندسّون فيه وينجحرون وهو مفتعلٌ من الدخول وقرىء مَدخْلاً من الدخول ومُدْخلاً من الإدخال ، أي مكاناً يُدخِلون فيه أنفسَهم وقرىء مُتدخَّلاً ومنْدخَلاً من التدخل والاندخال ﴿ لَوَلَّوْاْ ﴾ أي لصرفوا وجوهَهم وأقبلوا ، وقرىء لوالَوْا أي لالتجأوا ﴿ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى أحد ما ذكر ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يُسرعون بحيث لا يردُّهم شيء من الفرس الجَموحِ وهو الذي لا يثنيه اللجام ، وفيه إشعارٌ بكمال عتوّهم وطُغيانِهم وقرىء يجمزون بمعنى يجمحون ويشتدون ومنه الجمازة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(140/339)

وقال الآلوسى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾

أي حصنا يلجأون إليه كما قال قتادة ﴿ أَوْ مغارات ﴾ أي غيرا أن يخفون فيها أنفسهم وهو جمع مغارة بمعنى الغار ، ومنهم من فرق بينهما بأن الغار في الجبل والمغارة في الأرض .

وقرىء ﴿ مغارات ﴾ بضم الميم من أغار الرجل إذا دخل الغور ، وقيل : هو تعدية غار

الشيء وأغرته أنا أي أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم ، ويجوز أن تكون من أغار الثعلب إذا أسرع بمعنى مهارب ومغار ﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ أي نفقا كنفق اليربوع ينجحرون فيه ، وهو مفتعل من الدخول فأدغم بعد قلب تائه دالا .

وقرأ يعقوب .

وسهل ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ بفتح الميم اسم مكان من دخل الثلاثي وهي قراءة ابن أبي اسحق . والحسن ، وقرأ سلمة بن محارب ﴿ مُّدْخَلاً ﴾ بضم الميم وفتح الخاء من أدخل المزيد أي مكاناً يدخلون فيه أنفسهم أو يدخلهم الخوف فيه ، وقرأ أبي بن كعب ﴿ متدخلاً ﴾ اسم مكان من تدخل تفعل من الدخول ، وقرىء ﴿ مندخلاً ﴾ من اندخل ، وقد ورد في شعر الكميت

ولا يدي في حميت السمن تندخل . . .

وأنكر أبو حاتم هذه القراءة وقال : إنما هي بالتاء بناء على إنكار هذه اللغة وليس بذاك ﴿ كَفَرُواْ لَوَلَّوْاْ ﴾ أي لصرفوا وجوههم وأقبلوا .

وقرىء ﴿ لوألوا ﴾ أي لا لتجأوا ﴿ ءاوى إِلَيْهِ ﴾ أي إلى أحد ما ذكر ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ أي يسرعون في الذهاب إليه بحيث لا يردهم شيء كالفرس الجموح وهو النفور الذي لا يرده لجام ، وروي الأعمش عن أنس بن مالك أنه قرأ ﴿ يجمزون ﴾ بالزاي وهو بمعنى

يجمحون ويشتدون ، ومنه الجمازة الناقة الشديدة العدو ، وأنكر بعضهم كون ما ذكر قراءة وزعم أنه تفسير وهو مردود .

(141/339)

والجملة الشرطية استئناف مقرر لمضمون ما سبق من أنهم ليسوا من المسلمين وأن التجاءهم إلى الانتماء إليهم إنما هو للتقية اضطراراً ، وإيثار صيغة الاستقبال في الشرط وإن كان المعنى على المضي لإفادة استمرار عدم الوجدان حسبما يقتضيه المقام ، ونظير ذلك لو تحسن إلي لشكرتك نعم كثيراً ما يكون المضارع المنفي الواقع موقع الماضي لإفادة انتفاء استمرار الفعل لكن ذلك غير مراد ههنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(142/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

بيان لجملة : ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ [التوبة : 56] .

والمَلجأ : مكان اللَّجإ ، وهو الإيواء والاعتصام .

والمغارات : جمع مغارة ، وهي الغار المتّسع الذي يستطيع الإنسان الولوج فيه ، ولذلك اشتقّ لها المفعل : الدالّ على مكان الفعل ، من غَارَ الشيء إذا دخل في الأرض .

والمُدَّخَل مُفْتَعَل اسم مكان للإدّخال الذي هو افتعال من الدخول .

قلبت تاء الافتعال دالاً لوقوعها بعد الدال ، كما أبدلت في ادَّان ، وبذلك قرأه الجمهور .

وقرأ يعقوب وحده ﴿ أو مدخلاً ﴾ بفتح الميم وسكون الدال اسم مكان من دخل .

ومعنى ﴿ لولوا إليه ﴾ لانصرفوا إلى أحد المذكورات وأصل ولَّى أعرض ولمّا كان الإعراض يقتضي جهتين : جهة يُنصرف عنها ، وجهة يُنصرف إليها ، كانت تعديته بأحد الحرفين تعيّن المراد .

والجموح : حقيقته النفور ، واستعمل هنا تمثيلاً للسرعة مع الخوف .

والمعنى : أنهم لخوفهم من الخروج إلى الغزو لو وجدوا مكاناً ممّا يختفي فيه المختفي فلا يشعر به الناس لقصدوه مسرعين خشية أن يعزم عليهم الخروج إلى الغزو . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

والملجأ : هو ما نلجأ إليه ليحمينا من الأذى مثل الحصون ، وكذلك المغارة وهي الكهف في الجبل . والمدَّخَل : هو شيء يشبه النفق تحت الأرض تدخل فيه بمشقة والتواء ، إذن : فهناك ثلاثة ملاجئ يفِرُّون إليها إنْ وُجدوا في المعركة ؛ لأنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم . وهم يتمنَّوْن الذهاب إلى مكان بعيد ؛ ليسبُّوا الإسلام على ما هم فيه من مشقة القتال ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك أمام المسلمين ؛ لذلك تجدهم في حالة بحث عن مكان لا يسمعهم فيه أحد .

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مغارات أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ فالكلام إذن عن المنافقين الذين ذكر الحق أوصافهم ، وعهودهم التي نقضوها ، وحَلِفهم كذباً ، وما يعيشه كل منهم من تناقض مَلَكاته ، ذلك التناقض الذي يورثه الشقاء ؛ لأن كل واحد منهم يُظْهِرُ غير ما يبطن ويخاف من انكشاف أمره . فيظل مضطرباً لأن ما بداخله يتناقض مع واقع حياته .

إن هذه الحالة هي عكس حالة المؤمن الذي يعيش حياة منسجمة ؛ لأن ما في قلبه هو ما يحكيه لسانه ، فضلاً عن انسجامه بالإيمان مع الكون الذي يعيش فيه ، وكذلك فحالة

المنافق تختلف عن حالة الكفر ، فالكافر قد أعلن الكفر الذي في قلبه بلسانه . أما المنافق فله قلب يكفر ولسان ينطق كذباً بالإيمان . ولذلك فهو في تعب مستمر من أن ينكشف أمره ، أو يعرف المؤمنون ما في قلبه ؛ لأنه يُكِنّ الحقد لمنهج الله وإن كان يعلن الحب ظاهراً .

(144/339)

والإنسان إذا اضطر أن يمدح من يعاديه وأن يتظاهر له بالحب ، فإن هذا السلوك يمثل ثقلاً نفسياً رهيباً يحمله على ظهره ، وهكذا نرى أن المنافقين يُتعبون أنفسهم قبل أن يُتعبوا المجتمع ، تماماً كالرجل البخيل الذي يتظاهر بأنه كريم ، وكلما أنفق قرشاً ليؤكد هذا التظاهر فإن هذا القرش يذبحه في نفسه ويسبب له آلاماً رهيبة . وحتى يرتاح الإنسان مع الدنيا لا بد أن يرتاح مع نفسه أولاً ويتوافق مع نفسه .

ومن هنا نجد المنافقين حين يريدون أن يُنفِّثوا عما في صدورهم ، فهم يَختَلُّون ببعضهم بعضاً بعيداً عن أعين وآذان المسلمين ؛ ليُظهروا ما في نفوسهم من حقد وغِلّ وكراهية لهذا الدين ، ويبحثون عن ملجأ يكونون آمنين فيه ، أو مغارة في الجبل بعيداً عن الناس حتى لا يسمعهم أحد ، أو مُدَّخلاً وهو المكان الضيق الذي لا تستطيع أن تدخل فيه إلا بصعوبة . هم إذن يبحثون عن مكان يغيبون فيه عن سمع المؤمنين وأنظارهم ليُخرِجوا الكراهية المحبوسة في

صدورهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَئاً أَوْ مغارات أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ و ﴿ وَلَّوْاْ ﴾ أي : انطلقوا إليه وقد شغلهم الإسراع للذهاب إلى المكان عن أي شيء آخر ، ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ والجماح هو أن تفقد السيطرة على الفرس الذي تركبه ، فلا تقدر على كَبْح جماحه أو التحكم فيه ، فينطلق بسرعة ، وحين يقال هذا عن الإنسان فهو يعني الانطلاق بسرعة إلى المكان الذي يقصد إليه ولا يستطيع أحدٌ منعه ، وإنْ تعرض له أحد دفعه بعيداً لينطلق في طريقه بسرعة .

(145/339)

والآية هنا تعطينا صورة دقيقة لحالة المنافقين في أي معركة . فبمجرد بَدْءِ القتال تجدهم لا يتجهون إلى الحرب ، ولا إلى منازلة العدو ، ولا يطلبون الاستشهاد ، ولكنهم في هذه اللحظة التي يبدأ فيها القتال يبحثون عن مكان آمن يهربون إليه ، أو مغارة يختبئون فيها ، أو مُدَّخل في الأرض ينحشرون فيه بصعوبة ليحميهم من القتال . فإذا انتهت المعركة خرجوا لينضموا إلى صفوف المسلمين ، ذلك أنهم لا يؤمنون . فكيف يقاتلون في سبيل دين لا يؤمنون به ؟ ولذلك كنت تجدهم في المدينة إذا نودي للجهاد فهم أول من يحاول الهروب ويذهبون للقاء

النبي صلى الله عليه وسلم طالبين التخلف عن المعركة ، ويقول الواحد منهم : ﴿ ائذن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي . . . ﴾ [التوبة : 49]

وفي الصدقة يحاولون التشكيك في توزيع الصدقة وكيف يتم ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(146/339)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم . . . ﴾ الآية . قال : إنما يحلفون بالله تقية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ لو يجدون ملجأ . . . ﴾ الآية . قال : الملجأ الحرز في الجبال ، والغارات الغيران في

الجبال ، والمدخل السرب .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مدخلاً ﴾ يقول : محرزاً لهم يفرون إليه منكم ﴿ لولوا إليه ﴾ قال : لفروا إليه منكم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وهم يجمحون ﴾ قال : يسرعون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(147/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ ﴾ : المَلْجَأُ : الحِصْن . وقيل : المَهْرب . وقيل : الحِرْز وهو مَفْعَل مِنْ لجأ إليه يلجأ ، أي : انحاز يقال : ألجأته إلى كذا ، أي : اضطررته إليه فالتجأ . والملجأ يَصْلُح للمصدر والزمان والمكان ، والظاهر منها هنا المكان . والمَغارات جمع مغارة وهي مَفْعَلة مِنْ غار يغور فهي كالغار في المعنى . وقيل : المغارة : السِّرْب في الأرض

كنفق اليربوع . والغار النَّقْبُ في الجبل .

والجمهور على فتح ميم " مغارات " وقرأ عبد الرحمن بن عوف مُغارات بالضم وهو مِنْ أغار / وأغار يكون لازماً ، تقول العرب : أغار بمعنى غار ، أي : دخل ، ويكون متعدياً تقول : أَغَرْتُ زيداً ، أي : أدخلته في الغار ، فعلى هذا يكون مِنْ أغار المتعدي ، والمفعول محذوف ، أي : أماكنُ يُغيرون فيها أنفسهم ، أي : يُغَيِّبونها .

والمُدَّخل : مُفْتَعَلٍ مِنَ الدخول وهو بناء مبالغة في هذا المعنى ، والأصل مُدْتَخل فأدغمت الدال في تاء الافتعال كادَّان من الدَّين . وقرأ قتادة وعيسى بن عمر والأعمش مُدَّخَّلاً بتشديد الدال والخاء معاً . وتوجيهُها أن الأصل : مُتَدَخَّلاً مِنْ تَدخَّل بالتضعيف ، فلما أدغمت التاء في الدال صار اللفظ مُدَّخَّلاً نحو مُدَّيَّن مِنْ تَدَيَّن . وقرأ الحسن أيضاً ومسلمة بن محارب وابن أبي إسحاق وابن محيصن وابن كثير في رواية " مَدْخَلاً " بفتح الميم وسكون الدال وفتح الخاء خفيفة مِنْ دخل . وقرأ الحسن في رواية محبوب كذلك إلا أنه ضَمَّ الميم جعله مِنْ أدخل .

(148/339)

وهذا من أبرع العلم : ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان ، ثم ذكر الغَيْران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن وفي الجبال ، ثم الأماكن التي يُختفى فيها في الأماكن السافلة وهي السُّروب وهي التي عبَّر عنها بالمُدَّخل .

وقال الزجاج : " يصح أن تكون المَغَارات مِنْ قولهم : حَبْل مُغار ، أي : مُحْكم الفتل ، ثم يُستعار ذلك في الأمر المحكم المبرَم فيجيء التأويل على هذا : لو يَجدون نصرة أو أموراً مسددة مرتبطة تعصِمهم منكم . وجعل المُدَّخَل أيضاً قوماً يدخلون في جملتهم .

وقرأ أُبَيّ مُنْدَخَلاً بالنون بعد الميم مِنْ اندخل قال :

2501 . . . . . ولا يدي في حَمِيتِ السَّمْنِ تَنْدَخِلُ

وأنكر أبو حاتم هذه القراءة عنه ، وقال : " إنما هي بالتاء " . قلت وهو معذورٌ لأن انفعل قاصر لا يتعدى فكيف بُني منه اسمُ مفعول ؟

وقرأ الأشهب العقيلي : " لَوَالُوا " ، أي : بايعوا وأسرعوا ، وكذلك رواها ابن أبي عبيدة بن معاوية بن نوفل عن أبيه عن جده وكانت له صحبة من الموالاة . وهذا ممَّا جاء فيه فَعَّل وفاعَل بمعنى نحو : ضَعَّفْتُه وضاعَفْتُه . قال سعيد بن مسلم أظنها " لَوَأَلُوا " بهمزة مفتوحة بعد الواو مِنْ وَأَلَ ، أي : التجأ ، وهذه القراءةُ نقلها الزمخشري وفسَّرها بما تقدم من الالتجاء :

والجُّموح: النُّفور بإسراع ومنه فرس جَموح إذا لم يَرُدَّه لِجام قال:

2502 جَمُوحاً مَرُوحاً وإحضارُها . . . كمَعْمَعَةِ السَّعَفِ المُؤْقَدِ

وقال آخر:

2503 - إذا جَمَحَتْ نساؤكُمُ إليه . . . أَشَظَّ كأنه مَسَدٌ مُغَارُ

وقال آخر:

2504 وقد جَمَحْتُ جِماحاً في دمائِهمُ . . . حتى رأيتُ ذوي أحسابِهم جَهَزوا

(149/339)

وقرأ أنس بن مالك والأعمش "يَجْمِزُون"، قال ابن عطية: "يُهَرْوِلُون في مَشْيِهم". قيل: يَجْمِزُون ويَجْمَحون ويشتدُّون بمعنى". وفي الحديث: "فلما أَذْلَقَتْه الحجارة جَمَزَ"،

وقال رؤبة:

2505 إمَّا تَرَيْني اليومَ أمَّ حَمْزِ . . . قارَبْتُ بين عَنَقي وجَمْزي

وهذا أصلُه في اللغة.

وقوله: ﴿ إِلَيْهِ ﴾، عاد الضميرُ إلى الملجأ أو على المُدَّخل؛ لأن العطف ب أو"، ويجوز

أن يعودَ على "المَغَارات" لتأويلها بمذكر. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 68 71.﴾

(150/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة:

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) ﴾

إن المماذِق في الخُلَّة ينسلُّ عن سِلْكِها بأضعف خلَّة، وإنْ وَجَدَ مهربا آوَى إليه، ويأمل أن ينال فرصةً ما يتعللُ بها عند ذلك. انتهى انتهى. اهـ ﴿لطائف الإشارات حـ 2 صـ 36﴾

(151/339)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة:

قوله : ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ ﴾

أيّ : حسنة كانت بأيّ سبب اتفق ، كما يفيده وقوعها في حيز الشرط ، وكذلك القول في المصيبة ، وتدخل الحسنة والمصيبة الكائنة في القتال كما يفيده السياق دخولاً أوّلياً ، فمن جملة ما تصدق عليه الحسنة : الغنيمة والظفر .

ومن جملة ما تصدق عليه المصيبة : الخيبة والانهزام ، وهذا ذكر نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين وسوء أفعالهم ، والإخبار بعظيم عدوانهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، فإن المساءة بالحسنة ، والفرح بالمصيبة من أعظم ما يدلّ على أنهم في العداوة قد بلغوا إلى الغاية ، ومعنى ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ : رجعوا إلى أهلهم عن مقامات الاجتماع ، ومواطن التحدّث حال كونهم فرحين بالمصيبة التي أصابت المؤمنين ، ومعنى قولهم : ﴿ قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي : احتطنا لأنفسنا ، وأخذنا بالحزم ، فلم نخرج إلى القتال كما خرج المؤمنون حتى نالهم ما نالهم من المصيبة .

ثم لما قالوا هذا القول أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يجيب عليهم بقوله : ﴿ لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ أي : في اللوح المحفوظ ، أو في كتابه المنزّل علينا ، وفائدة هذا الجواب أن الإنسان إذا علم أن ما قدّره الله كائن ، وأن كل ما ناله من خير أو شرّ إنما هو بقدر الله وقضائه ، هانت عليه المصائب ، ولم يجد مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة ﴿ هُوَ مولانا ﴾ أي : ناصرنا وجاعل العاقبة لنا ، ومظهر دينه على جميع الأديان ،

والتوكل على الله تفويض الأمور إليه ؛ والمعنى : أن من حق المؤمنين أن يجعلوا توكلهم مختصاً بالله سبحانه ، لا يتوكلون على غيره .

وقرأ طلحة بن مصرف " يصيبنا " بتشديد الياء .

وقرأ أعين قاضي الري "يصيبنا" بنون مشدّدة .

وهو لحن لان الخبر لا يؤكد .

وردّ بمثل قوله تعالى : ﴿ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : 15] .

(152/339)

وقال الزجاج : معناه لا يصيبنا إلا ما اختصنا الله من النصرة عليكم أو الشهادة .

وعلى هذا القول يكون قوله : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ تكريراً لغرض التأكيد ، والأوّل : أولى حتى يكون كل واحد من الجوابين اللذين أمر الله سبحانه رسوله بأن يجيب عليهم بهما مفيداً لفائدة غير فائدة الآخر ، والتأسيس خير من التأكيد .

ومعنى : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ : هل تنتظرون بنا إلا إحدى الخصلتين الحسنيين : إما النصرة أو الشهادة ، وكلاهما مما يحسن لدينا ، والحسنى : تأنيث الأحسن ، ومعنى الاستفهام : التقريع والتوبيخ ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ ﴾ إحدى المساءتين

لكم : إما ﴿ أَن يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ ﴾ أي : قارعة نازلة من السماء ، فيسحتكم بعذابه ، ﴿ أَوْ ﴾ بعذاب لكم ﴿ بِأَيْدِينَا ﴾ أي : بإظهار الله لنا عليكم بالقتل والأسر والنهب والسبي .

والفاء في ﴿ فتربصوا ﴾ فصيحة ، والأمر للتهديد كما في قوله : ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] أي تربصوا بنا ما ذكرنا من عاقبتنا فنحن معكم متربصون ما هو عاقبتكم ، فستنظرون عند ذلك ما يسرّنا ويسوؤكم .

وقرأ البزي وابن فليح "هل تربصون" بإظهار اللام وتشديد التاء .

وقرأ الكوفيون بإدغام اللام في التاء .

وقرأ الباقون بإظهار اللام وتخفيف التاء .

قوله : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ هذا الأمر معناه الشرط والجزاء ، لأن الله سبحانه لا يأمرهم بما لا يتقبله منهم .

(153/339)

والتقدير : إن أنفقتم طائعين أو مكرهين فلن يتقبل منكم ؛ وقيل : هو أمر في معنى الخبر : أي أنفقتم طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ، فهو كقوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [

التوبة : 80] وفيه الإشعار بتساوي الأمرين في عدم القبول ، وانتصاب طوعاً أو كرهاً على الحال ، فهما مصدران في موقع المشتقين : أي أنفقوا طائعين من غير أمر من الله ورسوله ، أو مكرهين بأمر منهما .

وسمي الأمر منهما إكراهاً لأنهم منافقون لا يأتمرون بالأمر .

فكانوا بأمرهم الذي لا يأتمرون به كالمكرهين على الإنفاق ، أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو مكرهين منهم ، وجملة ﴿ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْماً فاسقين ﴾ تعليل لعدم قبول إنفاقهم ، والفسق : التمرّد والعتوّ ، وقد سبق بيانه لغة وشرعاً .

ثم بين سبحانه السبب المانع من قبول نفقاتهم فقال : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نفقاتهم إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَبِرَسُولِهِ ﴾ أي : كفرهم بالله وبرسوله جعل المانع من القبول ثلاثة أمور : الأوّل : الكفر ، الثاني : أنهم لا يصلون في حال من الأحوال إلا في حال الكسل والتثاقل ؛ لأنهم لا يرجون ثواباً ولا يخافون عقاباً ، فصلاتهم ليست إلا رياء للناس وتظهراً بالإسلام الذي يبطنون خلافه ، والثالث : أنهم لا ينفقون أموالهم إلا وهم كارهون ، ولا ينفقونها طوعاً لأنهم يعدّون إنفاقها وضعاً لها في مضيعة لعدم إيمانهم بما وعد الله ورسوله .

قوله : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ الإعجاب بالشيء : أن يسرّ به سروراً راض به متعجب من حسنه ، قيل : مع نوع من الافتخار ، واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه .

والمعنى : لا تستحسن ما معهم من الأموال والأولاد : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ بما يحصل معهم من الغمّ والحزن عند أن يغنمها المسلمون ، ويأخذوها قسراً من أيديهم مع كونها زينة حياتهم وقرّة أعينهم ، وكذا في الآخرة يعذبهم بعذاب النار بسبب عدم الشكر لربهم الذي أعطاهم ذلك ، وترك ما يجب عليهم من الزكاة فيها ، والتصدق بما يحق التصدق به .

وقيل : في الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة لأنهم منافقون ، فهم ينفقون كارهين ، فيعذبون بما ينفقون .

قوله : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ الزهوق : الخروج بصعوبة ، والمعنى : أن الله يريد أن تزهق أنفسهم وتخرج أرواحهم حال كفرهم لعدم قبولهم لما جاءت به الأنبياء وأرسلت به الرسل ، وتصميمهم على الكفر وتماديهم في الضلالة .

ثم ذكر الله سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين ، فقال : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ أي : من جملتكم في دين الإسلام ، والانقياد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكتاب الله

سبحانه : ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ في ذلك إلا بمجرّد ظواهرهم دون بواطنهم ﴿ ولكنهم قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾ أي : يخافون أن ينزل بهم ما نزل بالمشركين من القتل والسبي ، فيظهرون لكم الإسلام تقية منهم لا عن حقيقة ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ يلتجئون إليه ويحفظون نفوسهم فيه منكم من حصن أو غيره ﴿ أَوْ مغارات ﴾ جمع مغارة من غار يغير .

قال الأخفش : ويجوز أن يكون من أغار يغير ، والمغارات : الغيران والسراديب ، وهي : المواضع التي يستتر فيها ، ومنه غار الماء وغارت العين ؛ والمعنى : لو وجدوا أمكنة يغيبون فيها أشخاصهم هرباً منكم ﴿ أَوْ مُدَّخَلاً ﴾ من الدخول : أي مكاناً يدخلون فيه من الأمكنة التي ليست مغارات .

(155/339)

قال النحاس : الأصل فيه متدخل قلبت التاء دالاً ، وقيل أصله : مدتخل .

وقرأ أبيّ : "متدخلاً" وروى عنه أنه قرا "مندخلا" بالنون .

وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق ، وابن محيصن "أو مدخلاً" بفتح الميم وإسكان الدال .

قال الزجاج : ويقرأ "أو مدخلاً" بضم الميم وإسكان الدال .

وقرأ الباقون بتشديد الدال مع ضم الميم ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ ﴾ أي : لالتجئوا إليه وأدخلوا

أنفسهم فيه والحال أنهم ﴿ يَجْمَحُون ﴾ أي يسرعون إسراعاً لا يردّهم شيء ، من جمح الفرس : إذا لم يردّه اللجام ، ومنه قول الشاعر :

سبوح جموح وإحضارها . . . كمعمعة السعف الموقد

والمعنى : لو وجدوا شيئاً من هذه الأشياء المذكورة لولوا إليه مسرعين هرباً من المسلمين .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن جابر بن عبد الله ، قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا بالمدينة يخبرون عن النبي صلى الله عليه وسلم أخبار السوء يقولون : إن محمداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا ، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبيّ وأصحابه ، فساءهم ذلك فأنزل الله ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج سنيد ، وابن جرير ، عن ابن عباس ﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ﴾ يقول : إن يصبك في سفرك هذه الغزوة – تبوك – حسنة تسؤهم قال : الجد وأصحابه ، يعني : الجد بن قيس .

وأخرج أبو الشيخ ، عن السديّ : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ﴾ قال : إلا ما قضى الله لنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : ﴿ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الحسنيين ﴾ قال : فتح أو شهادة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في قوله : ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ قال : القتل بالسيوف .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، قال : قال الجد بن قيس : إني إذا رأيت النساء لم أصبر حتى أفتتن ولكن أعينك بمالي ، قال : ففيه نزلت ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ الآية .

(156/339)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم ﴾ قال : هذه من تقاديم الكلام ، يقول : لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، قال : إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ قال : تزهق أنفسهم في الحياة الدنيا ﴿ وَهُمْ كافرون ﴾ قال : هذه آية فيها تقديم وتأخير .

وأخرج أبو حاتم ، وأبو الشيخ عن الضحاك ، في قوله : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾ يقول : لا يغرنك ﴿ وَتَزْهَقَ ﴾ قال : تخرج أنفسهم ، قال في الدنيا وهم كافرون .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً ﴾ الآية قال : الملجأ : الحرز في الجبال ، والمغارات : الغيران ، والمدّخل : السرب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ﴿ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ قال : يسرعون .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(157/339)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر حال من يتخلف عن الجهاد ، وربما بذل ماله فيه افتداء لسفره ، شرع في ذكر من يشاركه في الإنفاق والنفاق ويخالفه فقال : ﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ أي يعيبك عند مشاكليه على طريق الملازمة في ستر وخفاء أو تظاهر وقلة حياء ﴿ في الصدقات ﴾ أي اللاتي تؤتيها لأتباعك ، ولما أخبر عن اللمز ، أخبر أنه لحظ نفسه لا للدين فقال : ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ أي عنك ﴿ وإن لم يعطوا منها ﴾ فاجؤوا السخط الذي يتجدد في كل لحظة ولم يتخلفوا عنه أصلاً ، وعبر عن ذلك بقوله : ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ فوافقوا الأولين في جعل الدنيا همهم ، وخالفوهم في أن أولئك أنفقوا ليتمتعوا بالتخلف وهؤلاء طلبوا ليتنعموا

بنفس المال الذي يأخذونه ؛ قيل : إنها نزلت في ذي الخويصرة لما قال للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقسم غنائم حنين : اعدل يا محمد ! فإني لم أرك تعدل ، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ " وسيأتي حديثه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 335 ﴾

(158/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) ﴾

اعلم أن المقصود من هذا شرح نوع آخر من قبائحهم وفضائحهم ، وهو طعنهم في الرسول بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء ويقولون : إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : بينا النبي صلى الله عليه وسلم يقسم مالاً إذ جاءه

المقداد بن ذي الخويصرة التميمي ، وهو حرقوص بن زهير ، أصل الخوارج فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : " ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل " فنزلت هذه الآية .

قال الكلبي : قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزعم أن الله أمرك أن تضع الصدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشاء ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً " فلما ذهب ، قال عليه الصلاة والسلام : " احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون "

وروى أبو بكر الأصم رضي الله عنه في "تفسيره" : أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه : " ما علمك بفلان " فقال : مالي به علم إلا إنك تدنيه في المجلس وتجزل له العطاء ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إنه منافق أداري عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره " فقال : لو أعطيت فلاناً بعض ما تعطيه ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إنه مؤمن أكله إلى إيمانه ، وأما هذا فمنافق أداريه خوف إفساده " .

المسألة الثانية :

قوله : ﴿يَلْمِزُكَ﴾ قال الليث : اللمز كالهمز في الوجه .

يقال : رجل لمزة يعيبك في وجهك ، ورجل همزة يعيبك بالغيب .

وقال الزجاج : يقال لمزت الرجل ألمزه بالكسر ، وألمزه بضم الميم إذا عيبته ، وكذلك همزته أهمزه همزاً .

إذا عيبته ، والهمزة اللمزة : الذي يغتاب الناس ويعيبهم ، وهذا يدل على أن الزجاج لم يفرق بين الهمز واللمز .

قال الأزهري : وأصل الهمز واللمز الدفع .

يقال : همزته ولمزته إذا دفعته ، وفرق أبو بكر الأصم بينهما ، فقال : اللمز أن يشير إلى صاحبه بعيب جليسه ، والهمز أن يكسر عينه على جليسه إلى صاحبه .

إذا عرفت هذا فنقول : قال ابن عباس : يلمزك يغتابك .

وقال قتادة : يطعن عليك .

وقال الكلبي : يعيبك في أمر ما ، ولا تفاوت بين هذه الروايات إلا في الألفاظ .

قال أبو علي الفارسي : ههنا محذوف والتقدير : يعيبك في تفريق الصدقات .

قال مولانا العلامة الداعي إلى الله : لفظ القرآن وهو قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ لا يدل على أن ذلك اللمز كان لهذا السبب ، إلا أن الروايات التي ذكرناها دلت أن سبب اللمز هو ذلك ، ولولا هذه الروايات لكان يحتمل وجوهاً أخر سواها .

فأحدها : أن يقولوا أخذ الزكوات مطلقاً غير جائز ، لأن انتزاع كسب الإنسان من يده غير

جائز .

أقصى ما في الباب أن يقال : يأخذها ليصرفها إلى الفقراء إلا أن الجهال منهم كانوا يقولون إن الله تعالى أغنى الأغنياء ، فوجب أن يكون هو المتكفل بمصالح عبيده الفقراء : فأما أن يأمرنا بذلك فهو غير معقول .

فهذا هو الذي حكاه الله تعالى عن بعض اليهود ، وهو أنهم قالوا : ﴿ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء ﴾ وثانيها : أن يقولوا هب أنك تأخذ الزكوات إلا أن الذي تأخذه كثير ، فوجب أن تقنع بأقل من ذلك .

وثالثها : أن يقولوا هب أنك تأخذ هذا الكثير إلا أنك تصرفه إلى غير مصرفه .

وهذا هو الذي دلت الأخبار على أن القوم أرادوه .

قال أهل المعاني : هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق أولئك المنافقين ودناءة طباعهم ، وذلك لأنه لشدة شرههم إلى أخذ الصدقات عابوا الرسول فنسبوه إلى الجور في القسمة ، مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا .

(160/339)

قال الضحاك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله من قليل المال وكثيره ، وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله عليه .

وأما المنافقون : فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا ، وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لأجل الدين .

وقيل : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفر الغنائم عليهم ، فسخط المنافقون .

وقوله : ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ كلمة ﴿ إِذَا ﴾ للمفاجأة ، أي وإن لم يعطوا منها فاجؤا السخط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 78 . 79 ﴾

(161/339)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾

روي عن ابن كثير أنه قرأ ﴿ يَلْمِزُكَ ﴾ بضم الميم والباقون بالكسر ؛ وهما لغتان ومعناهما واحد يقول : من المنافقين من يطعنك ويعيبك ؛ ويقال : لمزته إذا عبته .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري ، عن أبي سلمة ، عن أبي سعيد الخدري ،

قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً ، إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله .

فقال : " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ " فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أتأذن لي فأضرب عنقه ؟ فقال : " دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَاباً يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ يَمْرَقُونَ مِنَ الدِّينِ ، كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ ؛ آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ إِحْدَى ثَدْيَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ البضعةِ ، يَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فرقةٍ مِنَ النَّاسِ " ويروى : " عَلَى حِينِ الفِتَنِ مِنَ النَّاس " فنزلت فيهم ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ الآية .

قال أبو سعيد : أشهد أني سمعت هذا من رسول الله عليه السلام وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه ، أتى بالرجل بالنعت الذي نعته رسول الله عليه السلام وروي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلفة قلوبهم من الصدقات ، فقال أبو الخواص والنبي عليه السلام يعطي وروى بعضهم أبو الجواظ : ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقتكم في رعاة الغنم ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أَبَا لَكَ ، أَمَا كَانَ مُوسَى رَاعِياً ؟ أَمَا كَانَ داودُ رَاعِياً " أما كان داود راعياً ؟ فذهب أبو الخواص ، فقال النبي عليه السلام : " احْذِرُوا هذا وَأَصْحَابَهُ " فنزل ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ يعني من المنافقين ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ .

الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري ، قال : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً قال ابن عباس كانت غنائم هوازن يوم حنين جاء ابن ذي الخريصر التميمي وهو حرقوص بن زهير اصل الخوارج فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ومن يعدل أن لم أعدل .

فقال عمر : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم دعه فأن له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر فلا يوجد فيه شيء ، وقد سبق الفرث والدم ، أشبههم برجل أسود في إحدى يديه ، أو قال : أحدى ثدييه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ، يخرجون على فترة من الناس ، وفي غير هذا الحديث : وإذا خرجوا فاقتلوهم ثم إذا خرجوا فاقتلوهم ، ثم إذا اخرجوا فاقتلوهم . " فنزل ، ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ أي يعيبك في أمرها ، ويطعن عليك فيها يقال : همزة لمزة . قال الشاعر :

إذا لقيتُك عن شحط تكاشرني . . . وإنْ تغيبتُ كنتَ الهامز اللمزة

وقال مجاهد : يهمزك : يطعنك ، وقال عطاء : يغتابك ، وقال الحسن والأعرج وأبو رجاء وسلام ويعقوب : يلمزُك بضم الميم ، وروى عوف بن كثير يلمِزك بكسر الميم خفيفة ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وقرأ [إياد بن لقيط] : ساخطون . قال ابن زيد : هؤلاء المنافقون قالوا : والله لا يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثر بها إلاّ هواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(163/339)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ . . . ﴾ الآية

فيه قولان :

أحدهما : أنه ثعلبة بن حاطب كان يقول : إنما يعطي محمد من يشاء ويتكلم بالنفاق فإن أعطي رضي وإن منع سخط ، فنزلت فيه الآية .

الثاني : ما روى الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن أبي سعيد الخدري قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً إذ جاءه الخويصرة التميمي فقال : اعدْل يا رسول الله ، فقال : " وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِن لَّمْ أَعْدِلْ " ؟ " فقال عمر رضي الله عنه : يا

رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه ، فقال " دَعْهُ " . فأنزل الله تعالى ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ الآية .

وفي معنى يلمزك ثلاثة أوجه :

أحدها : يروزك ويسألك ، قاله مجاهد .

والثاني : يغتابك ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : يعيبك ، قال رؤبة :

قاربت بين عَنَقي وحجزي . . . في ظل عصري باطلي ولمزي . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(164/339)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ الآية

الضمير في قوله ﴿ ومنهم ﴾ عائد على المنافقين ، وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال : جاء ابن ذي الخويصرة التميمي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً فقال : اعدل يا محمد الحديث المشهور بطوله ، وفيه قال أبو سعيد : فنزلت في ذلك ﴿ ومنهم

من يلمزك في الصدقات ﴾ ، وروى داود بن أبي عاصم أن النبي صلى الله عليه وسلم أتي بصدقة فقسمها ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت الآية .

قال القاضي أبو محمد : وهذه نزعة منافق ، وكذلك روي من غير ما طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذ لم يعطوا بحسب شطط آمالهم ، و ﴿ يلمزك ﴾ معناه يعيبك ويأخذ منك في الغيبة ومنه قول الشاعر : [البسيط]

إذا لقيتك تبدي لي مكاشرة . . . وأن أغيب فأنت الهامز اللمزة

ومنه قول رؤبة : [الرجز]

في ظل عصري باطلي ولمزي . . . والهمز أيضاً في نحو ذلك ومنه قوله تعالى ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [الهمزة : 1] وقيل لبعض العرب : أتهمز الفأرة فقال : إنها تهمزها الهرة قال أبو علي : فجعل الأكل همزاً ، وهذه استعارة كما استعار حسان بن ثابت الغرث في قوله : [الطويل]

وتصبح غرثى من لحوم الغوافل . . . تركيباً على استعارة الأكل في الغيبة .

قال القاضي أبو محمد : ولم يجعل الأعرابي الهمز الأكل ، وإنما أراد ضربها إياها بالناب والظفر ، وقرأ جمهور الناس " يلمِزك " بكسر الميم ، وقرأ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة " يلمُزك " بضم الميم ، وهي قراءة أهل مكة وقراءة الحسن وأبي رجاء وغيرهم ، وقرأ الأعمش " يُلمّزك " ، وروى أيضاً حماد بن سلمة عن ابن كثير " يلامزك " ، وهي

مفاعلة من واحد لأنه فعل لم يقع من النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(165/339)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

فيمن نزلت فيه قولان .

أحدهما : أنه ذو الخويصرة التميمي ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم يوماً : اعدل يا رسول الله ، فنزلت هذه الآية .

ويقال : أبو الخواصر ، ويقال : ابن ذي الخويصرة .

والثاني : أنه ثعلبة بن حاطب ، كان يقول : إنما يعطي محمد من يشاء ، فنزلت هذه الآية .

قال ابن قتيبة : ﴿ يلمزك ﴾ يعيبك ويطعن عليك .

يقال : همزت فلاناً ولمزته : إذا اغتبته وعبته ، والأكثرون على كسر ميم ﴿ يلمزك ﴾ .

وقرأ يعقوب ، ونظيف عن قنبل ، وأبان عن عاصم ، والقزاز عن عبد الوارث ﴿ يلمزون ﴾ [التوبة : 79] و ﴿ يلمزك ﴾ و ﴿ لا تلمزوا ﴾ [الحجرات : 11] بضم الميم

فيهنَّ .

وقرأ ابن السميفع : "يلامزك" مثل يفاعلك .

وقد رواها حماد بن سلمة عن ابن كثير .

قال أبو علي الفارسي : وينبغي أن تكون فاعلت في هذا من واحد ، ونحو : طارقت النعل ، وعافاه الله لأن هذا ، لا يكون من النبي صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الأعمش : "يلمّزك" بتشديد الميم من غير ألف مثل : يفعّلك قال الزجاج : يقال : لمزت الرجل أَلمِزه وأَلمُزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذلك : همزته أهمزه ، قال الشاعر :

إذا لقيتُك تُبْدِي لي مُكَاشَرَةً . . .

وإن تَغَيَّبْتُ كنتَ الهامِزَ اللُّمَزَهْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(166/339)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

أي يطعن عليك ؛ عن قَتادة .

الحسن : يعيبك .

وقال مجاهد : أي يَرُوزك ويسألك .

النحاس : والقول عند أهل اللغة قول قتادة والحسن .

يُقال : لَمَزه يلمِزه إذا عابه .

واللّمْز في اللغة العيب في السر .

قال الجوهريّ : اللمز العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمِزه ويلمُزه وقرىء بهما ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ .

ورجل لماز ولُمَزَة أي عيّاب .

ويقال أيضاً : لمزه يلمزه إذا دفعه وضربه .

والهَمْز مثل اللمز .

والهامز والهماز العيّاب ، والهُمَزة مثله .

يُقال : رجل هُمَزة وامرأة هُمَزة أيضاً .

وهَمَزه أي دفعه وضربه .

ثم قيل : اللمز في الوجه ، والهمز بظَهْر الغَيْب .

وصف الله قوماً من المنافقين بأنهم عابوا النبيّ صلى الله عليه وسلم في تفريق الصدقات ، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم .

قال أبو سعيد الخُدْريّ : " بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقسم مالاً إذ جاءه

حُرْقُوص بن زهير أصلُ الخوارج ، ويُقال له ذو الخُوَيصرة التميميّ ؛ فقال : إعدل يا رسول الله .

فقال : "وَيْلَك ومَن يعدل إذا لم أعدل" فنزلت الآية " حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه .

وعندها " قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : دعني يا رسول الله فأقتلَ هذا المنافق .

فقال : "معاذ الله أن يتحدّث الناس أني أقتل أصحابي إنّ هذا وأصحابَه يقرأون القرآن لا يُجاوز حناجرهم يَمْرقون منه كما يَمْرُق السهم من الرّميّة" " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(167/339)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾

نزلت في ذي الخويصرة التميمي واسمه حرقوص بن زهير وهو أصل الخوارج (ق) عن أبي سعيد الخدري قال : " بينما نحن عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يقسم فيئاً فأتاه ذو الخويصرة رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ويلك من يعدل إذا لم أعدل " وفي رواية : " قد خبت وخسرت إن لم أعدل

" فقال عمر بن الخطاب : ائذن لي فيه فأضرب عنقه فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم " زاد في رواية " يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين " وفي رواية " من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية " وقال الكلبي : قال رجل من المنافقين ، يقال له أبو الجواظ لم تقسم بالسوية فنزلت هذه الآية ، وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو يقسم ذهباً وفضة فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل فما عدلت فقال نبي الله (صلى الله عليه وسلم) " ويلك فمن ذا يعدل بعدي " وقال ابن زيد قال المنافقون والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا من يهواه فأنزل الله سبحانه وتعالى ومنهم من يلزمك في الصدقات يعني ومن المنافقين من يعيبك في قسم الصدقات وفي تفريقها ويطعن عليك في أمرها يقال همزه ولمزه بمعنى واحد أي عابه ﴿ فإن أعطوا منها ﴾ يعني من الصدقات ﴿ رضوا ﴾ يعني رضوا عنك في قسمتها ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ يعني وإن لم تعطهم منها عابوا عليك وسخطوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(168/339)

وقال أبو حيان :

﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾

اللامز حرقوص بن زهير التميمي ، وهو ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج ، كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يقسم غنائم حنين فقال : إعدل يا رسول الله الحديث .

وقيل : هو ابن الجواظ المنافق قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم .

وقيل : ثعلبة بن حاطب كان يقول : إنما يعطى محمد قريشاً .

وقيل : رجل من الأنصار أتى الرسول بصدقة يقسمها ، فقال : ما هذا بالعدل ؟ وهذه نزغة منافق .

والمعنى : من يعيبك في قسم الصدقات .

وضمير ومنهم للمنافقين ، والكاف للرسول .

وهذا الترديدين الشرطين يدل على دناءة طباعهم ونجاسة أخلاقهم ، وإن لمزهم الرسول إنما هو لشرههم في تحصيل الدنيا ومحبة المال ، وأنّ رضاهم وسخطهم إنما متعلة العطاء .

والظاهر حصول مطلق الإعطاء أو نفيه .

وقيل : التقدير فإن أعطوا منها كثيراً يرضوا ، وإن لم يعطوا منها كثيراً بل قليلاً ، وما أحسن

مجيء جواب هذين الشرطين ، لأنّ الأول لا يلزم أن يقارنه ولا أن يعتقبه ، بل قد يجوز أن يتأخر نحو : إن أسلمت دخلت الجنة ، فإنما يقتضي مطلق الترتب .

وأما جواب الشرط الثاني فجاء إذا الفجائية ، وأنه إذا لم يعطوا فاجأ سخطهم ، ولم يمكن تأخره لما جبلوا عليه من محبة الدنيا والشره في تحصيلها .

ومفعول رضوا محذوف أي : رضوا ما أعطوه .

وليس المعنى رضوا عن الرسول لأنهم منافقون ، ولأنّ رضاهم وسخطهم لم يكن لأجل الدين ، بل للدنيا .

وقرأ الجمهور : يلمزك بكسر الميم .

وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة عن ابن كثير والحسن وأبو رجاء وغيرهم : بضمها ، وهي قراءة المكيين ، ورويت عن أبي عمرو .

وقرأ الأعمش : يلمزك .

وروى أيضاً حماد بن سلمة عن ابن كثير : يلامزك ، وهي مفاعلة من واحد .

وقيل : وفرق الرسول (صلى الله عليه وسلم) قسم أهل مكة في الغنائم استعطافاً لقلوبهم ، فضج المنافقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(169/339)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ ﴾

بكسر الميم وقرىء بضمها أي يَعيبُك سراً وقرىء يُلمّزك ويلامزُك مبالغة ﴿ فِي الصدقات ﴾ أي في شأنها وقسمتها ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ بيانٌ لفسادِ لمزِهم وأنه لا منشأ له سوى حرصِهم على حطام الدنيا أي إن أُعطوا منها قدرَ ما يريدون ﴿ رَضُواْ ﴾ بما وقع من القسمة واستحسنوها ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا ﴾ ذلك المقدارَ ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي يفاجِئون بالسُخط ، وإذا نائبٌ منابَ فاءِ الجزاء . قيل : نزلت الآية في أبي الجوّاظِ المنافقِ حيث قال : ألا تَروْن إلى صاحبكم ، يقسِم صدقاتِكم في رعاة الغنم ويزعُم أنه يعدل . وقيل : في ابن ذي الخُويصِرَة واسمُه حُرقوصُ بنُ زهير التميمي رأسُ الخوارج كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسمُ غنائمَ حُنينٍ فاستعطف قلوبَ أهلِ مكةَ بتوفير الغنائم عليهم فقال : اعدِلْ يا رسول الله فقال عليه الصلاة السلام : " ويلك إن لم أعدِلْ فمن يعدِلُ ؟ " وقيل : هم المؤلفةُ قلوبُهم والأولُ هو الأظهر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

أي يعيبك في شأنها .

وقرأ يعقوب ﴿ يَلْمُزُكَ ﴾ بضم الميم وهي قراءة الحسن .

والأعرج ، وقرأ ابن كثير ﴿ يلامزك ﴾ هو من الملامزة بمعنى اللمز ، والمشهور أنه مطلق العيب كالهمز ، ومنهم من فرق بينهما بان اللمز في الوجه والهمز في الغيب وهو المحكي عن الليث وقد عكس أيضاً وأصل معناه الدفع ﴿ الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ بيان لفساد لمزهم وأنه لا منشأ له إلا حرصهم على حطام الدنيا أي إن أعطيتهم من تلك الصدقات قدر ما يريدون ﴿ رَضُواْ ﴾ بما وقع في القسمة واستحسنوا علك ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا ﴾ ذلك المقدار ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي يفاجؤونا لسخط ، و ﴿ إِذَا ﴾ نابت منا ب فاء الجزاء وشرط لنيابتها عنه كون الجزاء جملة اسمية ، ووجه نيابتها دلالتها على التعقيب كالفاء ، وغاير سبحانه بين جوابي الجملتين إشارة إلى أن سخطهم ثابت لا يزول ولا يفنى بخلاف رضاهم .

وقرأ أياد بن لقيط ﴿ إِذَا هُمْ ﴾ والآية نزلت في ذي الخويصرة واسمه حرقوص بن زهير التميمي جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم هوازن يوم حنين فقال : يا رسول

الله اعدل .

فقال عليه الصلاة والسلام : " ومن يعد إذا لم أعدل " فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ائذن لي أضرب عنقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " الحديث .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلاً يقول : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله تعالى فأتيت النبي عليه الصلاة والسلام فذكرت ذلك له فقال : " رحمة الله تعالى على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " ونزلت الآية .

وأخرج ابن جرير .

(171/339)

وغيره عن داود بن أبي عاصم قال : "أوتي النبي صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسمها ههنا وههنا حتى ذهبت ووراءه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل فنزلت" ، وعن الكلبي أنها نزلت في أبي الجواظ المنافق قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم

في رعاء الغنم ويزعم أنه يعدل .

وتعقب هذا ولي الدين العراقي بأنه ليس في شيء من كتب الحديث ، وأنت تعلم أن أصح الروايات الأولى إلا أن كون سبب النزول قسمته صلى الله عليه وسلم للصدقة على الوجه الذي فعله أوفق بالآية من كون ذلك قسمته للغنية فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(172/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

عرف المنافقون بالشحّ كما قال الله تعالى : ﴿ أشحة عليكم ﴾ [الأحزاب : 19] وقال ﴿ أشحة على الخير ﴾ [الأحزاب : 19] ومن شحّهم أنّهم يودّون أنّ الصدقات توزع عليهم فإذا رأوها تُوزّع على غيرهم طعنوا في إعطائها بمطاعن يُلقونها في أحاديثهم ، ويظهرون أنّهم يغارون على مستحقّيها ، ويشمئزّون من صرفها في غير أهلها ، وإنّما يرومون بذلك أن تقصر عليهم .

روي أنّ أبا الجَوَّاظ ، من المنافقين ، طَعَن في أن أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أموالِ

الصدقات بعضَ ضعفاء الأعراب رعاء الغنم ، إعانة لهم ، وتأليفاً لقلوبهم ، فقال : ما هذا بالعدل أن يضع صدقاتكم في رعاء الغنم ، وقد أمر أن يقسمها في الفقراء والمساكين ، وقد روي أنّه شافه بذلك النبي صلى الله عليه وسلم

وعن أبي سعيد الخدري : أنّها نزلت في ذي الخويصرة التميمي الذي قال للنبيء صلى الله عليه وسلم اعدل ، وكان ذلك في قسمة ذهب جاء من اليمن سنة تسع ، فلعل السبب تكرّر ، وقد كان ذو الخويصرة من المنافقين من الأعراب .

واللّمز القدح والتعييب ، مضارعه من باب يضرب ، وبه قرأ الجمهور ، ومن باب ينصرُ ، وبه قرأ يعقوب وحده .

وأدخلت ﴿ في ﴾ على الصدقات ، وإنّما اللمز في توزيعها لا في ذواتها : لأنّ الاستعمال يدلّ على المراد ، فهذا من إسناد الحكم إلى الأعيان والمراد أحوالها .

(173/339)

ثم إنّ قوله : ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ يحتمل : أنّ المراد ظاهر الضمير أن يعود على المذكور ، أي إن أعطي اللامزون ، أي إنّ الطاعنين يطمعون أن يأخذوا من أموال الصدقات بوجه هدية وإعانة ، فيكون ذلك من بلوغهم الغاية في الحرص والطمع ، ويحتمل أنّ الضمير

راجع إلى ما رجع إليه ضمير ﴿ منهم ﴾ أي : فإن أعطي المنافقون رضي اللاَّمزون ، وإن أعطي غيرهم سخطوا ، فالمعنى أنّهم يرومون أن لا تقسم الصدقات إلاّ على فقرائهم ولذلك كره أبو الجَواظ أن يعطى الأعراب من الصدقات .

ولم يُذكر متعلّق ﴿ رضوا ﴾ ، لأنّ المراد صاروا راضين ، أي عنك .

ودلّت ﴿ إذا ﴾ الفجائية على أنّ سخطهم أمر يفاجىء العاقل حين يشهده لأنّه يكون في غير مظنّة سخط ، وشأن الأمور المفاجئة أن تكون غريبة في بابها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(174/339)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) ﴾

وإذا جلسوا مع بعضهم البعض تجدهم يحاولون النَّيْل من رسول الله صلى الله عليه وسلم بغرض إيذائه ولمزه ، ويقول الله سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ والذين يُؤْذُونَ

رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 61]

هذه بعض صفات المنافقين التي يفضحهم الله بها بكشفها للمؤمنين . وقد جاء الحق سبحانه لنا بمزيد من الكشف لقبائحهم وفضائحهم . فقال فيهم : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة : 58]

كلنا أيضاً نقرأ قول الله سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ [الهمزة : 1]

فما هي الهُمَزة وما هي اللُّمَزة ؟

" الهمزة " : هو من يعيب في الآخرين عيباً خفياً ويسخر منهم خفية ، ويكون ذلك بإشارة من عينه أو بأي حركة من جوارحه ، ومثال هذا : حين تكون هناك مجموعة من الناس جالسين ، ويحاول أحدهم النَّيْل من أحد الحضور خفية ، فيغمز بطرف عينه لإنسان آخر ، أو يكون باللسان هَمْساً في أذن إنسان أو بأي طريقة أخرى ، المهم أن يُشَار إلى العيب بطريقة خفية لا يلحظها معظم الحاضرين .

أما اللُّمَزة العيَّابون في غيرهم في حضورهم . فهناك القوي الذي يكشف العيوبَ بشجاعة وصراحة وهو اللَّماز ، أما الضعيف فهو يعيب خفية وهو الهمَّاز . واللمزة تطلق على من يعيب كثيراً في الناس .

وهمزة لمزة ، من صيغة المبالغة " فُعَلَة " وتدل على كثرة فعل الشيء . فتقول " فلان أُكَلة " – بضمة على الألف – أي : يأكل كثيراً . وفلان ضُحَكة – بضمة على الضاد – أي : كثير الضحك .

إذن : فاللّمزة هي كثرة العيب في الغير ، وهي تدل على ضعف من يقول بها ، ولو لم يكن ضعيفاً لقال ما يريد بصراحة .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ واللمز كما عرفنا هو البحث عن العيب ، وهو هنا مظروف في شيء هو الصدقات . وكان بعض من المنافقين يغتابون تشريع الصدقة ، وكانوا يعيبون أن يتعب الغني ويشقى في الحصول على المال ثم يأخذ الفقير المال بلا تعب ، فهل يعيبون التشريع نفسه ؟ أم يعيبون كمية الصدقات المفروضة عليهم ويرونها كثيرة ؟ أم يعيبون حثَّ الله للناس على الصدقة ؟ أم يعيبون الطريقة التي يتم بها صرف الصدقة للفقراء ، وأن بعضهم يُعطَى كثيراً وبعضهم يُعْطى قليلاً ؟ لقد كانوا يعيبون في كل الأمور أو بعضها .

إذن : فاللمز إما أن يكون في التشريع ، وإما أن يكون في كمية الصدقات أو في طريقة الصرف ، والحادثة التي وقعت ونزلت فيها هذه الآية الكريمة كانت في مصارف الصدقة ، فقد قام حرقوص بن زهير ، وهو رأس الخوارج ، وهو ابن ذي الخويصرة ، وقال : اعدل يا محمد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويلك ! ومَنْ يعدل إنْ لم أعدل ؟ قد خبت وخسرت إن لم أعدل . فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله إئذن لي فيه أضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(176/339)

" دعه ، فإنه له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم . يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم . يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . يُنظَر إلى نَصْله فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر إلى رصافه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنْظر إلى نَضيّه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء ، ثم يُنظر في قُذَذِه فلا يوجد فيه شيء . سبق الفرْثَ والدم . آيتُهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة . أو مثل البضعة تَدرْدَرُ ، يخرجون على حين فُرْقة من الناس "

قال أبو سعيد الخدري : فأشهد أنِّي سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قاتلهم وأنا معه . فأمر بذلك الرجل – أي الرجل الأسود – فالتُمس فوُجد فأُتِي به ، حتى نظرتُ إليه على نَعْتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعت .

ويقول الحق سبحانه موضحاً حال هؤلاء ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي : أن هؤلاء الناس إن أعْطوا من الصدقة كانوا راضين مهلّلين ، وإن لم يُعْطَوْا منها ملأ قلوبهم السخط ، وبدأوا باللَّمْز . إذن : فالكمية المعطاة لهم من الصدقة كانت هي أساس اللمز .

ومثل هذا قد حدث في غزوة حنين . فقد وزع رسول الله صلى الله عليه وسلم الغنائم على قريش وأهل مكة ، ولم يُعْطِ الأنصار شيئاً .

فلما لم يُدخل صلى الله عليه وسلم الأنصار في هذه القسمة ، استاء بعضهم من ذلك ، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم :

(177/339)

" ألا ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعون أنتم برسول الله ؟ المحيا محياكم والممات مماتكم ، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لسلكتُ شِعْبَ الأنصار "

وهنا بكى الأنصار ، وعرفوا أنهم سيعودون بما هو أكبر كثيراً من الغنائم ؛ سيعودون بصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد يعطي رسول الله صلى الله عليه حَديثَ عَهْدٍ بالإسلام شيئاً من الصدقة ليربطه بهذا الدين ، وقد يعطى لتأليف القلوب ، وقد

يعطي لفقير تأبى عزة نفسه أن يعترف أمام الناس بحاجته .

ولذلك كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ملاحظة في توزيع الصدقات والغنائم ، قد لا يلحظها أحد . وكان الواجب على المسلمين أن يقبلوا عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن سلوكه هو الحكم ، ولا بد أن نقبله .

ففي الحديبية مثلاً حيث حدث عهد بين رسول الله صلى الله عليه وبين كفار قريش بألا يتعرض أحد منهم للآخر مدة عشرة أعوام ، هذا الصلح أثار غضب عدد من المؤمنين وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنرضى بالدنية في ديننا ؟ أي : كيف نعطيهم هذه العهود وهي مجحفة بالنسبة لنا ؟ حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه انفعل وأراد أن يقسو في الكلام وقال لرسول الله عليه الصلاة والسلام : ألستَ على حق يا رسول الله ؟ فقال أبو بكر : الزم غرزك يا عمر – أي اعرف مكانك – إنه رسول الله . وبعد أن مرت فترة من الزمن وعرف المسلمون الحكمة من صلح الحديبية ، وما أتاحه هذا الصلح للإسلام من انتشار وقوة أدت إلى فتح مكة ، قال أبو بكر رضي الله عنه : ما كان نصر في الإسلام أعظم من نصر الحديبية .

ولكن المسلمين في هذا الوقت لم يُحِطْ فكرهم بما بين محمد وربه ؛ لأن العباد دائماً يعجَلُون ، والله لا يعجل عجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

وقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُهدّئ نفوس المؤمنين ، وقبل أن يصلوا إلى المدينة عائدين بعد صلح الحديبية ، نزل قوله تعالى : ﴿ هُمُ الذين كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ المسجد الحرام والهدي مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِّنْهُمْ مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ [الفتح : 25]

وهكذا أطلع الله المؤمنين على عِلَّة قبول صلح الحديبية وعدم القتال مع المشركين في هذا الوقت وذلك المكان ، فقد كان هناك مؤمنون في مكة يكتمون إيمانهم ويعيشون في مجتمع المشركين الذين يمكنهم البطش بهؤلاء المسلمين لو علموا بوجودهم . كما أن المسلمين القادمين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعرفون هؤلاء المؤمنين ، فإذا قامت المعركة فقد يقتل المسلم مسلماً ، لأن الذين قدموا من المدينة لو دخلوا مع أهل مكة في قتال فقد يقتلون بعضاً من إخوانهم في الإيمان الموجودين في مكة ، فهم لا يعرفونهم . ولو كان المؤمنون في ناحية والكفار في ناحية لعذَّب الحقُّ الكفار بأيدي المؤمنين عذاباً أليماً .

إذن : فقد علم رسول الله من ربه سراً ولم يُعْلِنْه إلا لوقته ، رغم تعجُّل من كانوا معه صلى الله عليه وسلم .

ومثل هذا يحدث في حياتنا ، قد نجد مؤمناً يدعو الله ولا تجاب دعوته وعلى هذا المؤمن

ألا يحزن ، بل عليه أن يعلم أنه قد يكون في عدم الإجابة خير لا يعلمه . وأن من رحمة الله أنه يُجبْ هذه الدعوة ، مثلما تحمي ابنك الشاب من أن يحمل سلاحاً ؛ خوفاً من أن يتهور في أي مشاجرة ويقتل أحداً ، رغم أن السلاح معه حمتية له ، ولكنه أسلوب حماية قد يحمل الضرر ، وقد يؤدي إلى عواقب وخيمة .

(179/339)

وحين تدعو الله ولا يجيب دعاءك ، فَثِقْ أنه سبحانه يحميك من نفسك ؛ لأنك لا تعلم والله سبحانه وتعالى يعلَم . فقد تدعو بشيء تحسبُه خيراً والله سبحانك يعلم أنه شر . إذن : فعدم إجابة هذه الدعوة هو عين الإجابة لها .

الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

والسخط هو : عدم الرضا في القلب ، ثم يتعدى ذلك إلى اللسان ، مثلما قال حرقوص بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اعدل يا محمد . أي : أنه سخط بقلبه أولاً ، ثم أساء بلسانه ثانياً .

وساعة يعرض الحق سبحانه لنا الداء في المجتمع الإيماني فهو جل وعلا يعطي الدواء الذي يحمي المجتمع من هذا الداء ، وهؤلاء الناس كانوا يعيبون تشريع الصدقة ، رغم أنهم إنْ أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا سخطوا ، إذن : فموازينهم مُختلة ، وليست موازين حق ثابت ، بل هي موازين هوى النفس ، لكن موازين الحق لا تتبع ولا تتوقف على هوى النفس ، بل هي موازين ثابتة يعدل فيها الإنسان حتى مع ألدّ أعدائه .

ولكن هؤلاء الناس تختلف انفعالاتهم باختلاف مصلحتهم ، إذا أَخَذُوا رضُوا ، وإذا مُنِعُوا سخِطوا ؛ لأن ميزانهم هو المصلحة الخاصة البعيدة عن كل عدل .

وهنا يأتي الحق سبحانه وتعالى بالعلاج فيقول جل جلاله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(180/339)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْخَطُونَ (58) ﴾

أخرج البخاري والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال " بينما النبي صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميمي فقال : اعدل يا رسول الله . فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ ! فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رسول الله ائذن لي فيه فاضرب عنقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثم ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء ، ثم ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ، قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى يديه – أو قال ثدييه – مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة ، تدردر يخرجون على حين فرقة من الناس قال : فنزلت فيهم ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات . . . ﴾ الآية قال أبو سعيد : أشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأشهد أن علياً حين قتلهم وأنا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ قال : يطعن عليك .

وأخرج سنيد وابن جرير عن داود بن أبي عاصم قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم

بصدقة فقسمها ههنا وههنا حتى ذهبت ، ورآه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل ؟ فنزلت هذه الآية .

(181/339)

وأخرج أبو الشيخ عن إياد بن لقيط . أنه قرأ ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم ساخطون ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : " لما قسم النبي صلى الله عليه وسلم غنائم حنين سمعت رجلاً يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك ، فقال " رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " ونزل ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(182/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله : ﴿ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾

قرأ العامة " يلمزك " بكسر الميم مِنْ لَمَزه يَلْمِزه ، أي : عابه ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها . قال الأزهري : " أصلُه الدفع ، لَمَزْته : دفعته " ، وقال الليث : " هو الغَمْز في الوجه ومنه هُمَزَةٌ لُمَزَة ، أي : كثيرُ هذين الفعلين .

وقرأ يعقوب وحماد بن سلمة عن ابن كثير والحسن وأبو رجاء ورُويت عن أبي عمرو بضمها وهما لغتان في المضارع . وقرأ الأعمش يُلْمِزُك مِنْ أَلْمز رباعياً . وروى حماد بن سلمة : " يُلامِزُك " على المفاعلة من واحدٍ كسافرَ وعاقَب .

وقد تقدَّم الكلام على " إذا " الفجائيةِ مراراً والعامل فيها : قال أبو البقاء : " يَسْخَطون " لأنه قال : إنها ظرفُ مكان ، وفيه نظر تقدَّم في نظيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 71 ﴾

(183/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) ﴾

أولئك أصحاب الأطماع؛ يتملقون في الظاهر ما دامت الأرفاقُ واصلةً إليهم، فإنْ انقطَعَتْ انقلبوا كأن لم يكن بينكم وبينهم مودة.

ويقال مَنْ كان رضاؤه بوجدان سبب، وسُخْطُه في عدم ما يوصّله إلى نصيبه فهو ليس من أهل الولاء، إنما هو قائم بحظّه، غيرُ صالحٍ للصحبة، وأمَّا المتحقّقُ فكما قيل:

فَسِرْتُ إليكَ في طلبِ المعالي... وسَارَ سِوَايَ في طلب المعاش. انتهى انتهى. اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 36 ﴾

(184/339)

قوله تعالى ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي:

ولما أخبر تعالى عن حالهم السيىء الدنيء الذي لا يجديهم في الدنيا ويهلكهم في الأخرى، نبههم على ما هو الأصلح لهم من الحال الشريف السني فقال: ﴿ ولو أنهم ﴾ أي المنافقين ﴿ رضوا ما آتاهم الله ﴾ أي المنعم بجميع النعم لأن له جميع الكمال ﴿ ورسوله ﴾ الذي

عظمته من عظمته قل ذلك المؤتي أو كثر طال زمنه أو قصر ﴿ وقالوا ﴾ أي مع الرضى ﴿ حسبنا الله ﴾ أي كافينا لأن له جميع العظمة فهو الغني المطلق .

ولما كانت الكفاية تارة تكون بالتنجيز العاجل وتارة بالوثوق بالوعد الآجل ، بين أن الثاني هو المراد لأنه أدل على الإيمان فقال : ﴿ سيؤتينا الله ﴾ أي الملك الأعظم بوعد لا خلف فيه واعتقدوا أن لا حق لأحد فقالوا : ﴿ من فضله ورسوله ﴾ أي الذي لا يخالف أمره ، على ما قدر لنا في الأزل ؛ ثم عللوا ذلك بقولهم : ﴿ إنا إلى الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال وحده ﴿ راغبون ﴾ أي عريقون في الرغبة ، فلذلك نكتفي بما يأتي من قبله كائناً ما كان ، أي لكان ذلك خيراً لهم لأنه لا ينالهم إلا ما قسم سبحانه لهم شاؤوا أو أبوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 335.336 ﴾

(185/339)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ ﴾ الآية

والمعنى : ولو أنهم رضوا بما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنيمة وطابت

نفوسهم وإن قل ، وقالوا : كفانا ذلك وسيرزقنا الله غنيمة أخرى ، فيعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر مما أعطانا اليوم ، إنا إلى طاعة الله وإفضاله وإحسانه لراغبون .

واعلم أن جواب "لو" محذوف ، والتقدير : لكان خيراً لهم وأعود عليهم ، وذلك لأنه غلب عليهم النفاق ولم يحضر الإيمان في قلوبهم ، فيتوكلوا على الله حق توكله ، وترك الجواب في هذا المعرض أدل على التعظيم والتهويل ، وهو كقولك للرجل : لو جئتنا ، ثم لا تذكر الجواب ، أي لو فعلت ذلك لرأيت أمراً عظيماً .

المسألة الثانية :

الآية تدل على أن من طلب الدنيا آل أمره في الدين إلى النفاق .

وأما من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله فيه وكان غرضه من الدنيا أن يتوسل إلى مصالح الدين فهذا هو الطريق الحق ، والأصل في هذا الباب أن يكون راضياً بقضاء الله ، ألا ترى أنه قال : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى الله راغبون ﴾ فذكر فيه مراتب أربعة :

المرتبة الأولى : الرضا بما آتاهم الله ورسوله لعلمه بأنه تعالى حكيم منزه عن العبث والخطأ ، وحكيم بمعنى أنه عليم بعواقب الأمور ، وكل ما كان حكماً له وقضاء كان حقاً وصواباً ولا اعتراض عليه .

والمرتبة الثانية : أن يظهر آثار ذلك الرضا على لسانهم ، وهو قوله : ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا

الله ﴾ يعني أن غيرنا أخذوا المال ونحن لما رضينا بحكم الله وقضائه فقد فزنا بهذه المرتبة العظيمة في العبودية ، فحسبنا الله .

(186/339)

والمرتبة الثالثة : وهي أن الإنسان إذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة العالية التي عندها يقول : ﴿ حَسْبُنَا الله ﴾ نزل منها إلى مرتبة أخرى وهي أن يقول : ﴿ سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ إما في الدنيا إن اقتضاه التقدير ، وإما في الآخرة وهي أولى وأفضل .

والمرتبة الرابعة : أن يقول : ﴿ إِنَّا إِلَى الله راغبون ﴾ فنحن لا نطلب من الإيمان والطاعة أخذ الأموال والفوز بالمناصب في الدنيا ، وإنما المراد إما اكتساب سعادات الآخرة .

وإما الاستغراق في العبودية على ما دل لفظ الآية عليه فإنه قال : ﴿ إِنَّا إِلَى الله راغبون ﴾ ولم يقل : إنا إلى ثواب الله راغبون .

ونقل أن عيسى عليه السلام مر بقوم يذكرون الله تعالى فقال : ما الذي يحملكم عليه ؟ قالوا : الخوف من عقاب الله ، فقال : أصبتم ثم مر على قوم آخرين يذكرون الله ، فقال : ما الذي يحملكم عليه ، فقالوا : الرغبة في الثواب ، فقال : أصبتم ، ثم مر على قوم ثالث مشتغلين بالذكر فسألهم فقالوا : لا نذكره للخوف من العقاب ، ولا للرغبة في الثواب ، بل لإظهار ذلة

العبودية ، وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته ، وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه وعزته .

فقال : أنتم المحقون المحققون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 79 .

80 ﴾

(187/339)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ ﴾

يعني : إنهم لو رضوا بما رزقهم الله تعالى ، وبما يعطيهم رسول الله من العطية ، ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله ﴾ ؛ يعني : يقيننا بالله .

﴿ سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ ﴾ ، يعني : سيعطينا الله من رزقه ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ ، يعني : سيعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنيمة إذا كان عنده سعة وفضل .

﴿ إِنَّا إِلَى الله راغبون ﴾ ، يعني : طامعون وراجون .

ولم يذكر جوابه ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، ومعناه : ولو أنهم فعلوا ذلك ، لكان خيراً لهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ الآية

وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون ، يقول تعالى : ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله ورجوا أنفسهم فضل الله ورسوله وأقروا بالرغبة إلى الله لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه ، وحذف الجواب من الآية لدلالة ظاهر الكلام عليه ، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(188/339)

وقال أبو حيان :

﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون ﴾

هذا وصف لحال المستقيمين في دينهم ، أي رضوا قسمة الله ورسوله وقالوا : كفانا فضل الله ، وعلقوا آمالهم بما سيؤتيه الله إياهم ، وكانت رغبتهم إلى الله لا إلى غيره .

وجواب لو محذوف تقديره : لكان خيراً لهم في دينهم ودنياهم .

وكان ذلك الفعل دليلاً على انتقالهم من النفاق إلى محض الإيمان ، لأنّ ذلك تضمن الرضا بقسم الله ، والإقرار بالله وبالرسول إذ كانوا يقولون : سيؤتينا الله من فضله ورسوله .

وقيل : جواب لو هو قوله : وقالوا على زيادة الواو ، وهو قول كوفي .

قال الزمخشري : والمعنى : ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم ، وقالوا : كفانا فضل الله تعالى وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا غنيمة أخرى ، فسيؤتينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أكثر مما آتانا اليوم ، إنا إلى الله في أنْ يغنمنا ويخولنا فضله راغبون انتهى .

وقال ابن عباس : راغبون فيما يمنحنا من الثواب ويصرف عنا من العقاب .

وقال التبريزي : راغبون في أن يوسع علينا من فضله ، فيغنينا عن الصدقة وغيرها مما في أيدي الناس .

وقيل : ما آتاهم الله بالتقدير ، ورسوله بالقسم انتهى .

وأتى أولاً بمقام الرضا وهو فعل قلبي يصدر عمن علم أنه تعالى منزه عن العتب والخطأ عليم بالعواقب ، فكل قضائه صواب وحق ، لا اعتراض عليه .

ثم ثنى بإظهار آثار الوصف القلبي وهو الإقرار باللسان ، فحسبنا ما رضي به .

ثم أتى ثالثاً بأنه تعالى ما داموا في الحياة الدنيا مادّ لهم بنعمه وإحسانه ، فهو إخبار حسن إذ ما من مؤمن إلا ونعمُ الله مترادفة عليه حالاً ومآلاً ، إما في الدنيا ، وإما في الآخرة .

(189/339)

ثم أتى رابعاً بالجملة المقتضية الالتجاء إلى الله لا إلى غيره ، والرغبة إليه ، فلا يطلب بالإيمان أخذ الأموال والرئاسة في الدنيا ولما كانت الجملتان متغايرتين وهما ما تضمن الرضا بالقلب ، وما تضمن الإقرار باللسان ، تعاطفتا .

ولما كانت الجملتان الأخيرتان من آثار قولهم : حسبنا الله لم تتعاطفا ، إذ هما كالشرح لقولهم : حسبنا الله ، فلا تغاير بينهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(190/339)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ ﴾

أي ما أعطاهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيِّبي النفوسِ به وإن قلَّ ، وذكرُ الله عز وجل للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله الرسولُ صلى الله عليه وسلم كان بأمره سبحانه ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله ﴾ أي كفانا فضلُه وصنعُه بنا وما قسمه لنا ﴿ سَيُؤْتِينَا

اللهِ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونؤمّل ﴿ إِنَّا إِلَى اللهِ راغبون ﴾ في أن يُخوّلنا فضلَه ، والآيةُ بأسرها في حيز الشرطِ ، والجوابُ محذوفٌ بناء على ظهوره أي لكان خيراً لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(191/339)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا أَتاهم اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾

أي ما أعطاهم الرسول صلى الله عليه وسلم من الصدقات طيبي النفوس به وان قل فما وإن كانت من صيغ العموم إلا أن ما قبل وما بعد قرينة على التخصيص ، وبعض أبقاها على العموم أي ما أعطاهم من الصدقة أو الغنيمة قيل لأنه الأنسب ، وذكر الله عز وجل للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول عليه الصلاة والسلام كان بأمره سبحانه ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله ﴾ أي كفانا فضله وما قسمه لنا كما يقتضيه المعنى ﴿ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ بعد هذا حسبما نرجو ونأمل ﴿ إِنَّا إِلَى اللهِ راغبون ﴾ في أن يخولنا فضله جل شأنه ، والآية بأسرها في حيز الشرط والجواب محذوف بناء على ظهوره أي لكان

خيراً لهم وأعود عليهم ، وقيل : إن جواب الشرط ﴿ قَالُواْ ﴾ والواو زائدة وليس بذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(192/339)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

التَّرَبُّصُ : التَّمَهُّلُ فِي انْتِظَارِ مَا يُرْجَى أَوْ يُتَمَنَّى وُقُوعُهُ . وَمَضْمُونُ هَذَا بَدَلٌ مِمَّا قَبْلَهُ أَوْ بَيَانٌ لَهُ ، وَالْحُسْنَيَانِ مُثَنَّى الْحُسْنَى ، وَهِيَ اسْمُ التَّفْضِيلِ لِلْمُؤَنَّثِ ، وَالِاسْتِفْهَامُ لِلتَّقْرِيرِ وَالتَّحْقِيقِ . وَالْجُمْلَةُ تُفِيدُ الْحَصْرَ ، أَيْ : قُلْ لَهُمْ أَيْضًا : هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ إِلَّا إِحْدَى الْعَاقِبَتَيْنِ اللَّتَيْنِ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا حُسْنَى الْعَوَاقِبِ وَفُضْلَاهَا ، وَهُمَا النُّصْرَةُ وَالشَّهَادَةُ ، النُّصْرَةُ الْمَضْمُونَةُ لِلْجَمَاعَةِ ، وَالشَّهَادَةُ الْمَكْتُوبَةُ لِبَعْضِ الْأَفْرَادِ ؟ أَيْ : لَا شَيْءَ يُنْتَظَرُ لَنَا غَيْرُ هَاتَيْنِ الْعَاقِبَتَيْنِ مِمَّا كَتَبَ لَنَا رَبُّنَا ، وَأَنْتُمْ تَجْهَلُونَ

(193/339)

مَا تَتَرَبَّصُونَ بِنَا : وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ فِي مُقَابَلَةِ ذَلِكَ إِحْدَى السُّوءَيَيْنِ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا الْأُولَى : أَنْ يُهْلِكَكُمْ بِقَارِعَةٍ سَمَاوِيَّةٍ لَا كَسْبَ لَنَا فِيهَا ، كَمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنَ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ كَذَّبُوا الرُّسُلَ ، وَالثَّانِيَةُ : أَنْ يَأْذَنَ لَنَا بِقَتْلِكُمْ ، أَنْ أَغْرَاكُمُ الشَّيْطَانُ بِإِظْهَارِ كُفْرِكُمْ ، بِهَذَا الِاسْتِدْرَاجِ فِي الِاسْتِمْرَارِ عَلَى إِجْرَامِكُمْ ، كَمَا قَالَ فِي سِيَاقِ غَزْوَةِ الْأَحْزَابِ : لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ (33 : 60) الْآيَاتِ . وَحَكَمَ الشَّرْعُ أَنَّهُمْ لَا يُقْتَلُونَ مَا دَامُوا يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ ، بِإِقَامَةِ الشَّعَائِرِ ، وَأَدَاءِ الْأَرْكَانِ ، وَلَا سِيَّمَا الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ ، وَلَمْ تُذْكَرْ هَاتَانِ الْعَاقِبَتَانِ لَهُمْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ كَعَاقِبَتَيِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِجَوَازِ أَنْ يَتُوبُوا عَنْ نِفَاقِهِمْ ، وَيَصِحَّ إِيمَانُهُمْ ، وَقَدْ تَابَ بَعْضُهُمْ ، وَاعْتَرَفُوا بِمَا كَانُوا عَلَيْهِ بَعْدَ ظُهُورِ أَمْرِهِمْ ، كَالَّذِينَ أَخْبَرَهُمُ النَّبِيُّ بِمَا ائْتَمَرُوا بِهِ مِنِ اغْتِيَالِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَمِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ أَكْثَرُ الْبَاقِينَ قَدْ تَابُوا بَعْدَ أَنْ أَنْجَزَ اللَّهُ لِرَسُولِهِ جَمِيعَ مَا وَعَدَهُ بِهِ ، وَوَقَعَ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَهُ مِنْ تَنْزِيلِ سُورَةٍ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَمِنْهَا فَضِيحَتُهُ تَعَالَى لِزَعِيمِهِمُ الَّذِي مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ ، وَلَوْ ذُكِرَ ذَلِكَ فِي التَّنْزِيلِ

(194/339)

بِصِيغَةِ الْحَصْرِ لَكَانَ خَبَرًا بِخِلَافِ مَا سَيَقَعُ ،

وَهُوَ هَلَاكُهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِدُونِ الشَّرْطِ الَّذِي بَيَّنَّاهُ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ أَيْ : وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَتَرَبَّصُوا بِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ مَا ذُكِرَ مِنْ عَاقِبَتِنَا وَعَاقِبَتِكُمْ ، إِنْ أَصْرَرْتُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَظَهَرَ أَمْرُكُمْ ، مِمَّا نَحْنُ فِيهِ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّنَا ، وَلَا بَيِّنَةَ لَكُمْ ، وَيَاللَّهِ مَا أَبْلَغَ الْإِيجَازَ فِي حَذْفِ مَفْعُولَيْ تَرَبُّصِهِمَا ، وَفِي التَّعْبِيرِ عَنْ تَرَبُّصِ الْمُؤْمِنِينَ بِالصِّفَةِ الدَّالَّةِ عَلَى تَمَكُّنِ الثِّقَةِ مِنْ مُتَعَلِّقِهِ ! .

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي مَسْأَلَةِ النَّفَقَةِ فِي الْقِتَالِ ، وَهِيَ الْجِهَادُ الْمَفْرُوضُ فِي الْمَالِ ، وَمِثْلُهَا سَائِرُ النَّفَقَاتِ ، فِي حُكْمِ مَا يَعْتَوِرُهَا مِنَ الرِّيَاءِ وَالْإِخْلَاصِ ، رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا دَعَا الْجَدَّ بْنَ قَيْسٍ إِلَى جِهَادِ الرُّومِ قَالَ : إِنِّي إِذَا رَأَيْتُ النِّسَاءَ لَمْ أَصْبِرْ حَتَّى أُفْتَتَنَ وَلَكِنْ أُعِينُكَ بِمَالِي ، فَفِيهِ نَزَلَ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ وَقَدْ ضَعَّفَ (الطَّبَرِيُّ) هَذَا الْقَوْلَ بِالتَّعْبِيرِ عَنْهُ بِـ " قِيلَ " وَالْحَقُّ أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ تَشْمَلُ هَذَا وَغَيْرَهُ ، وَأَنَّهَا نَزَلَتْ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ هَذَا السِّيَاقِ فِي أَثْنَاءِ السَّفَرِ لَا عَقِبَ قَوْلِ جَدِّ بْنِ قَيْسٍ مَا قَالَ قَبْلَهُ ، وَالْمَعْنَى : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ : أَنْفِقُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ أَمْوَالِكُمْ فِي الْجِهَادِ أَوْ غَيْرِهِ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي حَالِ الطَّوْعِ لِلتَّقِيَّةِ ، أَوِ الْكُرْهِ خَوْفَ الْعُقُوبَةِ ، فَمَهْمَا تُنْفِقُوا فِي الْحَالَتَيْنِ لَنْ يَتَقَبَّلَ اللَّهُ مِنْكُمْ شَيْئًا مِنْهُ ، مَا دُمْتُمْ عَلَى شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ

وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الْآخِرَةِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَقْبَلُ مِنْهُمْ مَا يُنْفِقُونَهُ ، وَلَكِنَّ هَذَا لَا يَصِحُّ عَلَى إِطْلَاقِهِ فِي جَمِيعِهِمْ ؛ لِأَنَّ مُقْتَضَى إِجْرَاءِ أَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ عَلَيْهِمْ تَقْتَضِي وُجُوبَ أَخْذِ زَكَاتِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ ، إِلَّا أَنْ يُوجَدَ مَانِعٌ خَاصٌّ فِي شَأْنِ بَعْضِهِمْ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِهِ : وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ (75) الْآيَاتِ .

(196/339)

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ جَرِيرٍ وَتَبِعَهُ غَيْرُهُ : وَخَرَجَ قَوْلُهُ : أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا مَخْرَجَ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ . وَالْعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي يَحْسُنُ فِيهَا " إِنْ " الَّتِي تَأْتِي بِمَعْنَى الْجَزَاءِ ، كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ فَهُوَ فِي لَفْظِ الْأَمْرِ وَمَعْنَاهُ الْخَبَرُ ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ :

أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَا مَلُومَةً . . . لَدَيْنَا وَلَا مَقْلِيَّةً إِنْ تَقَلَّتِ

(197/339)

فَكَذَلِكَ قَوْلُ : أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا إِنَّمَا مَعْنَاهُ : إِنْ تُنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ اهـ . إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ هَذَا تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ قَبُولِ نَفَقَاتِهِمْ ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ إِنْفَاقَكُمْ طَائِعِينَ أَوْ مُكْرَهِينَ سِيَّانِ فِي عَدَمِ الْقَبُولِ ؛ لِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ وَإِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (5 : 27) وَالْمُرَادُ بِالْفُسُوقِ : الْخُرُوجُ مِنْ دَائِرَةِ الْإِيمَانِ ، الَّذِي هُوَ شَرْطٌ لِقَبُولِ الْأَعْمَالِ مَعَ الْإِخْلَاصِ ، وَهُوَ كَثِيرُ الِاسْتِعْمَالِ فِي الْقُرْآنِ - وَتَخْصِيصُهُ بِالْمَعَاصِي مِنِ اصْطِلَاحِ الْفُقَهَاءِ ، فَلْيَعْتَبِرْ بِهَذَا مُنَافِقُو هَذَا الزَّمَانِ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَيُعْلِنُونَ أَمْرَهَا فِي صُحُفِ الْأَخْبَارِ ؛ لِيَشْتَهِرُوا بِهَا فِي الْأَقْطَارِ . ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى مَا فِي هَذَا التَّعْلِيلِ مِنَ الْإِجْمَالِ فَقَالَ : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ أَيْ : وَمَا مَنَعَهُمْ قَبُولَ

نَفَقَاتِهِمْ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كُفْرُهُمْ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى الْوَجْهِ الْحَقِّ ، وَمِنْهَا الْحِكْمَةُ وَالتَّنَزُّهُ عَنِ الْعَبَثِ فِي خَلْقِ الْخَلْقِ وَهِدَايَتِهِمْ وَجَزَائِهِمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، وَكُفْرِهِمْ بِرِسَالَةِ رَسُولِهِ ، وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى . قَرَأَ الْجُمْهُورُ : (تُقْبَلُ) بِالْمُثَنَّاةِ الْفَوْقِيَّةِ وَقَرَأَهَا حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِالتَّحْتِيَّةِ ، وَتَأْنِيثُ النَّفَقَاتِ لَفْظِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ فَيَجُوزُ تَذْكِيرُ فِعْلِهِ وَلَا يَأْتُونَ

(198/339)

الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ

فَفِعْلُهُمْ لِهَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ ، اللَّذَيْنِ هُمَا أَظْهَرُ آيَاتِ الْإِيمَانِ ، لَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ إِيمَانِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ يَأْتُونَهُمَا رِيَاءً وَتَقِيَّةً لَا إِيمَانًا بِوُجُوبِهِمَا ، وَلَا قَصْدًا إِلَى تَكْمِيلِ أَنْفُسِهِمْ بِمَا شَرَعَهُمَا اللَّهُ لِأَجْلِهِ ، وَاحْتِسَابًا لِأَجْرِهِمَا عِنْدَهُ أَمَّا الصَّلَاةُ فَلَا يَأْتُونَهَا إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى أَيْ : فِي حَالِ الْكَسَلِ وَالتَّثَاقُلِ مِنْهَا ، فَلَا تَنْشَطُ لَهَا أَبْدَانُهُمْ ، وَلَا تَنْشَرِحُ لَهَا صُدُورُهُمْ ، زَادَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ : يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (4 : 142) وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ لَا بِمُجَرَّدِ الْإِتْيَانِ بِصُورَتِهَا ، وَوَصْفُهُمْ بِالْخُشُوعِ فِيهَا ، وَهُوَ يُنَافِي الْكَسَلَ عِنْدَ الْقِيَامِ إِلَيْهَا ، فَعَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ ؛ لِيَعْلَمَ هَلْ صَلَاتُهُ صَلَاةُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَمْ صَلَاةُ الْمُنَافِقِينَ ؟ .

وَأَمَّا الْإِنْفَاقُ فِي مَصَالِحِ الْجِهَادِ وَغَيْرِهَا فَلَا يُؤْتُونَهُ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ لَهُ ، غَيْرَ طَيِّبَةٍ أَنْفُسُهُمْ بِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ يَعُدُّونَ هَذِهِ النَّفَقَاتِ مَغَارِمَ مَضْرُوبَةً عَلَيْهِمْ ، تَقُومُ بِهَا مَرَافِقُ الْمُؤْمِنِينَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْهُمْ ، فَلَا يَرَوْنَ لَهُمْ بِهَا نَفْعًا فِي الدُّنْيَا ، وَلَا يُؤْمِنُونَ بِنَفْعِهَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ ، وَبِمَا قَرَّرْنَاهُ يَنْدَفِعُ إيرَادُ بَعْضِهِمْ أَنَّ الْكُفْرَ وَحْدَهُ كَافٍ فِي عَدَمِ قَبُولِ نَفَقَاتِهِمْ ، فَأَيُّ حَاجَةٍ إلَى وَصْفِهِمْ بِالْكَسَلِ عِنْدَ إتْيَانِ الصَّلَاةِ ، وَكُرْهِ أَدَاءِ الزَّكَاةِ وَغَيْرِهَا مِنْ نَفَقَاتِ الْبِرِّ ؟ وَتَمَحَّلَ الْجَوَابُ عَنْهُ عَلَى مَذْهَبِ الْمُعْتَزِلَةِ أَوِ الْأَشْعَرِيَّةِ ؟ فَإِنَّ وَصْفَهُمَا بِمَا ذُكِرَ تَقْرِيرٌ لِكُفْرِهِمْ ، وَدَفْعٌ لِلشُّبْهَةِ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ .

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : (فَإِنْ قُلْتَ) الْكَرَاهِيَةُ خِلَافُ الطَّوَاعِيَةِ ، وَقَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ طَائِعِينَ فِي قَوْلِهِ : طَوْعًا ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ وَلَا يُنْفِقُونَ إلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (قُلْتُ) الْمُرَادُ بِطَوْعِهِمْ أَنَّهُمْ يَبْذُلُونَهُ مِنْ غَيْرِ إلْزَامٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمِنْ رُؤَسَائِهِمْ ، وَمَا طَوْعُهُمْ ذَاكَ إلَّا عَنْ كَرَاهِيَةٍ وَاضْطِرَارٍ ، لَا عَنْ رَغْبَةٍ وَاخْتِيَارٍ اهـ . عَلَى أَنَّهُ فَسَّرَ الْكَرْهَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى بِالْإِكْرَاهِ .

وَالرَّاجِحُ عِنْدِي مَا قَدَّمْتُهُ مِنْ أَنَّ الْمُرَادَ بِطَوْعِهِمْ مَا كَانَ بِقَصْدِ التَّقِيَّةِ لِإِخْفَاءِ كُفْرِهِمْ ، وَهُوَ يَقْتَضِي كَرْهَهُ فِي قُلُوبِهِمْ وَعَدَمَ إِخْلَاصِهِمْ فِيهِ ، وَهُوَ مَا أَثْبَتَهُ لَهُمْ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ، وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ طَوَاعِيَةُ الْمَصْلَحَةِ أَوِ الطَّبْعِ ، لَا طَاعَةُ الشَّرْعِ ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ التَّرْدِيدَ بَيْنَ الطَّوْعِ وَالْكَرْهِ فِي مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ لَا يَقْتَضِي إِثْبَاتَ وُقُوعِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ مِنْهُ أَنَّهُ مَهْمَا يَكُنِ الْوَاقِعُ فَهِيَ غَيْرُ مَقْبُولَةٍ ؛ لِوُجُودِ الْكُفْرِ الْمَانِعِ مِنَ الْقَبُولِ ، وَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فِيمَا يَسْهُلُ عَلَيْهِ وَعَصَاهُمَا فِيمَا يَشُقُّ عَلَيْهِ فَلَا يُعَدُّ مُذْعِنًا لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ؛ لِأَنَّ حُكْمَ اللَّهِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُذْعِنًا لَا يَكُونُ مُؤْمِنًا أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ (2 : 85) وَقَدْ بَايَعَ الْمُؤْمِنُونَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ .

(201/339)

وَلَمَّا كَانَ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أُولِي الطَّوْلِ وَالسَّعَةِ فِي الدُّنْيَا كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ : اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) وَكَانَ تَرَفُ الْغِنَى وَطُغْيَانُهُ أَقْوَى

أَسْبَابِ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ آيَاتِ اللهِ ، وَالتَّأَمُّلِ فِي مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ – بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ سُوءَ عَاقِبَتِهِمْ فِيهِ فَقَالَ : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ، الْإِعْجَابُ بِالشَّيْءِ أَنْ تُسَرَّ بِهِ سُرُورَ رَاضٍ بِهِ فَتَعْجَبُ مِنْ حُسْنِهِ كَمَا قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ ، وَالْخِطَابُ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ لِكُلِّ مَنْ سَمِعَ الْقَوْلَ أَوْ بَلَغَهُ ، وَالْكَلَامُ مُرَتَّبٌ عَلَى مَا قَبْلَهُ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : إِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُهُمْ فِي مَظِنَّةِ مَا يَنْتَفِعُونَ بِهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، لَا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا

(202/339)

عَدْلًا ، فَلَا تُعْجِبْكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ أَوْ أَيُّهَا السَّامِعُ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمُ الَّتِي هِيَ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَكْبَرِ النِّعَمِ وَأَجَلِّهَا ، وَلَا تَظُنَّ أَنَّهُمْ وَقَدْ حُرِمُوا مِنْ ثَوَابِهَا فِي الْآخِرَةِ قَدْ صَفَا لَهُمْ نَعِيمُهَا فِي الدُّنْيَا ، وَعَلَّلَ النَّهْيَ بِقَوْلِهِ : إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِمَا يَعْرِضُ لَهُمْ فِيهَا مِنَ الْمُنَغِّصَاتِ وَالْحَسَرَاتِ ، أَمَّا الْأَمْوَالُ فَإِنَّهُمْ يَتْعَبُونَ فِي جَمْعِهَا ، وَيَحْرِصُونَ عَلَى حِفْظِهَا ، وَيَشُقُّ عَلَيْهِمْ مَا يُنْفِقُونَهُ مِنْهَا مِنْ زَكَاةٍ وَإِعَانَةٍ عَلَى قِتَالٍ ، وَإِنْفَاقٍ عَلَى قَرِيبٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَشَقُّ مِنْهُ إِعْتِقَادُهُمْ أَنَّهُمْ يَتْرُكُونَهَا بَعْدَهُمْ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّ وَرَثَتَهُمْ مِنْهُمْ فِي الْغَالِبِ حَتَّى زَعِيمِهِمُ الْأَكْبَرِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ (لَعَنَهُ اللهُ) كَمَا سَيَأْتِي فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي خَبَرِ مَوْتِهِ عَلَى كُفْرِهِ ، وَأُعِيدَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهَا . وَأَمَّا الْأَوْلَادُ فَلِأَنَّهُمْ يَرَوْنَهُمْ قَدْ نَشَؤُوا فِي الْإِسْلَامِ

، وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَأَنَّهُمْ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَكُلُّ هَذِهِ حَسَرَاتٌ فِي قُلُوبِهِمْ . وَلَقَدْ كَانَ ثَعْلَبَةُ الَّذِي عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ وَلَيَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، ثُمَّ نَقَضَ عَهْدَهُ وَأَخْلَفَ اللهَ مَا وَعَدَهُ بَعْدَ أَنْ أَغْنَاهُ - أَشَدَّهُمْ حَسْرَةً بِامْتِنَاعِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخُلَفَائِهِ عَنْ قَبُولِ زَكَاتِهِ وَتَزْهَقَ

(203/339)

أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ فَيُعَذَّبُونَ بِهَا فِي الْآخِرَةِ أَشَدَّ مِمَّا عُذِّبُوا بِهَا فِي الدُّنْيَا بِمَوْتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمُ الْمُحْبِطِ لِعَمَلِهِمْ . زُهُوقُ الْأَنْفُسِ : خُرُوجُهَا مِنَ الْأَجْسَادِ . وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : هُوَ الْخُرُوجُ بِصُعُوبَةٍ . وَفِي التَّنْزِيلِ : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ (17 : 81) أَيْ هَلَكَ وَاضْمَحَلَّ ، وَجَعَلَهُ فِي الْأَسَاسِ مَجَازًا ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنْ زَهَقَ السَّهْمُ إِذَا سَقَطَ دُونَ الْهَدَفِ ، وَوَرَدَ زَهَقَتِ النَّاقَةُ بِمَعْنَى أَسْرَعَتْ ، فَالتَّعْبِيرُ بِالزُّهُوقِ هُنَا إِمَّا مِنَ الْأَوَّلِ أَيِ : الْهَلَاكِ وَهُوَ الْأَظْهَرُ ، وَإِمَّا مِنَ الْإِسْرَاعِ لِلْإِشَارَةِ إِلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْ أَعْمَارِهِمْ إِلَّا الْقَلِيلُ حَقِيقَةً ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِمْ : قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا (33 : 16) .

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ

(204/339)

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَيَانِ سَبَبِ النِّفَاقِ ، وَمُصَانَعَةِ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ الْخَوْفُ وَبَيَانُ حَالِهِمْ فِيهِ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ قَالَ الطَّبَرِيُّ : وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ كَذِبًا وَبَاطِلًا أَنَّهُمْ لَمِنْكُمْ فِي الدِّينِ وَالْمِلَّةِ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ أَيْ : لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ دِينِكُمْ وَمِلَّتِكُمْ ، بَلْ هُمْ أَهْلُ شَكٍّ وَنِفَاقٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ يَقُولُ : وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَخَافُونَكُمْ ، فَهُمْ خَوْفًا مِنْكُمْ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ إِنَّهُمْ مِنْكُمْ ؛ لِيَأْمَنُوا فِيكُمْ فَلَا يُقْتَلُوا اهـ .

وَأَقُولُ : إِنَّ الْفَرَقَ بِالتَّحْرِيكِ الْخَوْفُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَفْرُقُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَإِدْرَاكِهِ - أَوْ هُوَ كَمَا قَالَ الرَّاغِبُ : تَفَرُّقُ الْقَلْبِ مِنَ الْخَوْفِ ، وَاسْتِعْمَالُ الْفَرَقِ فِيهِ كَاسْتِعْمَالِ الصَّدْعِ وَالشَّقِّ فِيهِ ، وَفِعْلُهُ بِوَزْنِ فَرِحَ ، فَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ يَحْلِفُونَ مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمُ الَّذِي فَرَقَ قُلُوبَهُمْ وَمَزَّقَهَا . ثُمَّ بَيَّنَ سُوءَ حَالِهِمْ فِي هَذَا الْفَرَقِ بِقَوْلِهِ : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ الْمَلْجَأُ : الْمَكَانُ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْخَائِفُ ؛ لِيَعْتَصِمَ بِهِ مِنْ حِصْنٍ أَوْ قَلْعَةٍ أَوْ جَزِيرَةٍ

فِي بَحْرٍ أَوْ قُنَّةٍ فِي جَبَلٍ ، وَالْمَغَارَاتُ : جَمْعُ مَغَارَةٍ وَهِيَ الْغَارُ فِي الْجَبَلِ ، وَتَقَدَّمَ اشْتِقَاقُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْغَارِ ، وَالْمُدَّخَلُ بِالتَّشْدِيدِ (مُفْتَعَلٌ مِنَ الدُّخُولِ) السَّرْبُ فِي

(205/339)

الْأَرْضِ يَدْخُلُهُ الْإِنْسَانُ بِمَشَقَّةٍ ، وَالْجِمَاحُ : السُّرْعَةُ الشَّدِيدَةُ الَّتِي تَتَعَسَّرُ مُقَاوَمَتُهَا أَوْ تَتَعَذَّرُ . يَقُولُ : إِنَّهُمْ لِشِدَّةِ كُرْهِهِمْ لِلْقِتَالِ مَعَكُمْ وَلِمُعَاشَرَتِكُمْ ، وَلِشِدَّةِ رُعْبِهِمْ مِنْ ظُهُورِ نِفَاقِهِمْ لَكُمْ ، يَتَمَنَّوْنَ الْفِرَارَ مِنْكُمْ ، وَالْمَعِيشَةَ فِي مَضِيقٍ مِنَ الْأَرْضِ يَعْتَصِمُونَ بِهِ مِنِ انْتِقَامِكُمْ ، بِحَيْثُ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً يَلْجَؤُونَ إِلَيْهِ ، أَوْ مَغَارَاتٍ يَغُورُونَ فِيهَا ، أَوْ مُدَّخَلًا يَنْدَسُّونَ وَيَنْجَحِرُونَ فِيهِ ، لَوَلَّوْا إِلَيْهِ - أَيْ : إِلَى مَا يَجِدُونَهُ مِمَّا ذُكِرَ - وَهُمْ يُسْرِعُونَ مُتَقَحِّمِينَ

كَالْفَرَسِ الْجَمُوحِ لَا يَرُدُّهُمْ شَيْءٌ . وَهَذَا الْوَصْفُ مِنْ أَبْلَغِ مُبَالَغَةِ الْقُرْآنِ فِي تَصْوِيرِ الْحَقَائِقِ الَّتِي لَا تَتَجَلَّى لِلْفَهْمِ وَالْعِبْرَةِ بِدُونِهَا ، فَتَصَوَّرْ شُخُوصَهُمْ وَهُمْ يَعْدُونَ بِغَيْرِ نِظَامٍ ، يَلْهَثُونَ كَمَا تَلْهَثُ الْكِلَابُ ، يَتَسَابَقُونَ إِلَى تِلْكَ الْمَلَاجِئِ مِنْ مَغَارَاتٍ وَمُدَّخَلَاتٍ ، فَيَتَسَلَّقُونَ إِلَيْهَا ، أَوْ يَنْدَسُّونَ فِيهَا . فَكَذَلِكَ كَانَ تَصَوُّرُهُمْ عِنْدَ مَا سَمِعُوا الْآيَةَ فِي وَصْفِهِمْ .

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَإِنَّمَا وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِمَا وَصَفَهُمْ بِهِ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا أَقَامُوا بَيْنَ

(206/339)

أَظْهُرِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَعَدَاوَتِهِمْ لَهُمْ ، وَلِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا فِي قَوْمِهِمْ وَعَشِيرَتِهِمْ ، وَفِي دُورِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَرْكِ ذَلِكَ وَفِرَاقِهِ فَصَانَعُوا الْقَوْمَ بِالنِّفَاقِ ، وَدَافَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ بِالْكُفْرِ (كَذَا وَلَعَلَّ أَصْلَهُ بِإِخْفَاءِ الْكُفْرِ) وَدَعْوَى الْإِيمَانِ ، وَفِي أَنْفُسِهِمْ مَا فِيهَا مِنَ الْبُغْضِ لِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَأَهْلِ الْإِيمَانِ بِهِ وَالْعَدَاوَةِ لَهُمْ اهـ .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ

(207/339)

كَانَ الْمُنَافِقُونَ يَرْتَقِبُونَ الْفُرَصَ لِلصَّدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ بِالطَّعْنِ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِالشُّبَهِ الَّتِي يَظُنُّونَ أَنَّهَا تُوقِعُ الرَّيْبَ فِي قُلُوبِ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ مِنَ الْجَانِبِ الَّذِي يُوَافِقُ

أَهْوَاءَهُمْ وَقَدْ كَانَ مِنْهَا قِسْمَةُ الصَّدَقَاتِ وَالْغَنَائِمِ . رَوَى الْبُخَارِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَمُصَنِّفُو التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : بَيْنَمَا النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقْسِمُ قَسَمًا إِذْ جَاءَهُ ذُو الْخُوَيْصِرَةِ التَّمِيمِيُّ فَقَالَ : اعْدِلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ : " وَيْلَكَ وَمَنْ

(208/339)

يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ ؟ " فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ : ائْذَنْ لِي فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " دَعْهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ " الْحَدِيثَ بِطُولِهِ . قَالَ (أَبُو سَعِيدٍ) فَنَزَلَتْ فِيهِمْ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ الْآيَةَ . وَرَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : لَمَّا قَسَّمَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ سَمِعْتُ رَجُلًا يَقُولُ : إِنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ : فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ : " رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى مُوسَى لَقَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ " وَنَزَلَ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ وَرَوَى سُنَيْدٌ وَابْنُ جَرِيرٍ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي عَاصِمٍ قَالَ : أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بِصَدَقَةٍ فَقَسَّمَهَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا حَتَّى ذَهَبَتْ ، وَرَآهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ : مَا هَذَا بِالْعَدْلِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ . وَهُنَالِكَ رِوَايَاتٌ أُخْرَى يَدُلُّ مَجْمُوعُهَا عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ قَالَهُ أَفْرَادٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَانَ سَبَبُهُ حِرْمَانَهُمْ مِنَ الْعَطِيَّةِ كَمَا هُوَ مُصَرَّحٌ بِهِ فِي الْآيَةِ ، وَكَانُوا مِنْ مُنَافِقِي الْأَنْصَارِ ، بَلْ كَانَ جَمِيعُ الْمُنَافِقِينَ قَبْلَ فَتْحِ مَكَّةَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْهُمْ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ أَسْلَمُوا فِي وَقْتِ ضَعْفِ الْإِسْلَامِ ، وَاحْتَمَلُوا الْإِيذَاءَ الشَّدِيدَ فِي سَبِيلِ إِسْلَامِهِمْ ، وَلَا مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَوَّلِينَ كَالَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مِنًى ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى غَزْوَةِ حُنَيْنٍ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ سَبَبُ حِرْمَانِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْأَنْصَارَ مِنْ غَنَائِمِ هَوَازِنَ ، وَمَنِ اسْتَاءَ مِنْهُمْ وَمَنْ تَكَلَّمَ ، وَإِرْضَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُمْ ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ نَصٌّ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ ، فَجَعَلَ الْغَنَائِمَ سَبَبًا لِنُزُولِهَا مِنْ جُمْلَةِ تَسَاهُلِهِمْ فِيمَا يُسَمُّونَهُ أَسْبَابَ النُّزُولِ . قَالَ تَعَالَى : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ اللَّمْزُ : مَصْدَرُ لَمَزَهُ إِذَا عَابَهُ وَطَعَنَ عَلَيْهِ مُطْلَقًا أَوْ فِي وَجْهِهِ ، وَأَمَّا هَمَزَهُ هَمْزًا فَمَعْنَاهُ عَابَهُ فِي غِيبَتِهِ ، وَأَصْلُهُ الْعَضُّ وَالضَّغْطُ عَلَى الشَّيْءِ . وَالْمَعْنَى

(210/339)

: وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَعِيبُكَ وَيَطْعَنُ عَلَيْكَ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ وَهِيَ أَمْوَالُ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ، يَزْعُمُونَ أَنَّكَ تُحَابِي فِيهَا فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَطَاؤُهُمْ بِاسْتِحْقَاقٍ ، كَأَنْ أَظْهَرُوا الْفَقْرَ كَذِبًا وَاحْتِيَالًا أَوْ كَانَ لِتَأْلِيفِ قُلُوبِهِمْ وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذَا هُمْ يَسْخَطُونَ أَيْ : وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا فَاجَأَهُمُ السُّخْطُ أَوْ فَاجَئُوكَ بِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَحِقِّينَ لِلْعَطَاءِ ؛ لِأَنَّهُ لَا هَمَّ لَهُمْ ، وَلَا حَظَّ مِنَ الْإِسْلَامِ ، إلَّا الْمَنَعَةُ الدُّنْيَوِيَّةُ كَنَيْلِ الْحُطَامِ . وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ رِضَاهُمْ بِصِيغَةِ الْمَاضِي لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَكُونُ لِأَجْلِ الْعَطَاءِ فِي وَقْتِهِ وَيَنْقَضِي ، فَلَا يَعُدُّونَهُ نِعْمَةً يَتَمَنَّوْنَ دَوَامَ الْإِسْلَامِ لِدَوَامِهَا ، وَعَبَّرَ عَنْ سُخْطِهِمْ بِـ " إذَا " الْفُجَائِيَّةِ ، وَبِفِعْلِ الْمُضَارِعِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سُرْعَتِهِ وَاسْتِمْرَارِهِ . وَهَذَا دَأْبُ الْمُنَافِقِينَ وَخُلُقُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، كَمَا نَرَاهُ بِالْعِيَانِ ، حَتَّى مِنْ مُدَّعِي كَمَالِ الْإِيمَانِ ، وَالْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ .

(211/339)

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَيْ : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْغَنَائِمِ وَغَيْرِهَا ، وَأَعْطَاهُمْ رَسُولُهُ بِقَسْمِهِ لِلْغَنَائِمِ وَالصَّدَقَاتِ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ تَعَالَى وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ أَيْ : هُوَ مُحْسِبُنَا وَكَافِينَا فِي كُلِّ حَالٍ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ أَيْ : سَيُعْطِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْكَسْبِ ؛ لِأَنَّ فَضْلَهُ دَائِمٌ لَا يَنْقَطِعُ ، وَيُعْطِينَا رَسُولُهُ مِمَّا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالصَّدَقَاتِ زِيَادَةً مِمَّا أَعْطَانَا مِنْ قَبْلُ ، لَا يَبْخَسُ أَحَدًا مِنَّا حَقًّا يَسْتَحِقُّهُ فِي شَرْعِ اللهِ تَعَالَى إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ لَا نَرْغَبُ إِلَى غَيْرِهِ فِي شَيْءٍ ؛ لِأَنَّ بِيَدِهِ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِلَيْهِ نَتَوَجَّهُ ، وَمِنْهُ نَرْجُو أَنْ يَبْسُطَ لَنَا فِي الرِّزْقِ بِمَا يُوَفِّقُنَا لَهُ مِنَ الْعَمَلِ ، وَيَهَبُهُ لَنَا مِنَ النَّصْرِ - لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ .

(212/339)

الرَّغَبُ بِالتَّحْرِيكِ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ ، يُقَالُ رَغِبَهُ ، وَيَتَعَدَّى بِـ " فِي " يُقَالُ : رَغِبَ فِيهِ ، أَيْ : أَحَبَّ حُصُولَهُ لَهُ وَتَوَجَّهَ شَوْقُهُ إِلَى طَلَبِهِ ، وَيَتَعَدَّى بِـ " عَنْ " لِضِدِّ ذَلِكَ ، فَيُقَالُ : رَغِبَ " عَنْهُ ، وَمِنْهُ : وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ (2 : 13) وَأَمَّا تَعْدِيَتُهُ بِـ " إِلَى فَهُوَ بِمَعْنَى التَّوَجُّهِ إِلَى الْغَايَةِ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا غَايَةٌ ، وَلَا يَنْبَغِي هَذَا إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى إِذَا أُرِيدَ بِالْغَايَةِ مَا بَعْدَ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ لِلْبَشَرِ وَهُوَ مَقَامُ التَّوَكُّلِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ

إِنَّهُمْ يَقُولُونَ ، حَسْبُنَا اللهُ وَرَسُولُهُ ، كَمَا يَقُولُونَ : سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، فَلِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَسْبٌ فِي الْإِيتَاءِ بَعْدَ فَضْلِ اللهِ تَعَالَى ، وَلَكِنَّ الْمُحْسِبَ الْكَافِيَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ ، كَمَا قَالَ : أَلَيْسَ اللهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ (39 : 36) ؟ وَقَالَ : وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ (65 : 3) وَلِذَلِكَ اسْتُعْمِلَ فِي التَّنْزِيلِ بِالصِّيغَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْحَصْرِ ، وَمَا ثَمَّ إِلَّا هَذِهِ الْجُمْلَةُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ الْقَلَمِ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ (68 : 32) وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ فِي سُورَةِ الِانْشِرَاحِ : وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (94 : 8) .

(213/339)

وَإِنَّمَا حُذِفَ جَوَابُ الشَّرْطِ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْقَرِينَةِ ، وَتَفْصِيلُ الْمَعْنَى : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مِنَ اللهِ بِنِعْمَتِهِ ، وَمِنَ الرَّسُولِ بِقِسْمَتِهِ ، وَعَلَّقُوا أَمَلَهُمْ وَرَجَاءَهُمْ بِفَضْلِ اللهِ وَكِفَايَتِهِ ، وَمَا سَيُنْعِمُ اللهُ بِهِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَبِعَدْلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْقِسْمَةِ ، وَانْتَهَتْ رَغْبَتُهُمْ فِي هَذَا وَغَيْرِهِ إِلَى اللهِ وَحْدَهُ ، لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنَ الطَّمَعِ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ ، وَلَمْزِ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ مِنْ كُلِّ مَلْمَزٍ وَمَهْمَزٍ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ . وَالْآيَتَانِ تَهْدِيَانِ الْمُؤْمِنَ إِلَى الْقَنَاعَةِ بِكَسْبِهِ وَمَا يَنَالُهُ بِحَقٍّ مِنْ صَدَقَةٍ وَنَحْوِهَا ، ثُمَّ بِأَنْ يُوَجِّهَ قَلْبَهُ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَا يَرْغَبَ إِلَّا إِلَيْهِ فِي شَيْءٍ مِنْ رَغَائِبِهِ الَّتِي وَرَاءَ كَسْبِهِ وَحُقُوقِهِ الشَّرْعِيَّةِ ، لَا إِلَى الرَّسُولِ ، وَلَا إِلَى مَنْ

دُونَهُ فَضْلًا وَعَدْلًا وَقُرْبًا مِنَ اللهِ تَعَالَى بِالْأَوْلَى ، فَتَعِسًا لِعُبَّادِ الْقُبُورِ ، وَالرَّاغِبِينَ إِلَى مَا دُفِنَ فِيهَا مِنْ مُهِمَّاتِ الْأُمُورِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 414.422 ﴾

(214/339)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ﴾

جملة معطوفة على جملة : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] باعتبار ما تفرّع عليها من قوله : ﴿ فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ [التوبة : 58] عطفاً ينبىء عن الحالة المحمودة ، بعد ذكر الحالة المذمومة .

وجواب ﴿ لو ﴾ محذوف دلّ عليه المعطوف عليه ، وتقديره : لكان ذلك خيراً لهم .

والإيتاء : الإعطاء ، وحقيقته إعطاء الذوات ويطلق مجازاً على تعيين المواهب كما في ﴿ وآتاه الله الملك والحكمة ﴾ [البقرة : 251] وفي ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ﴾ [المائدة : 54] .

وقوله : ﴿ ما آتاهم الله ﴾ من هذا القبيل ، أي ما عيّنه لهم ، أي لجماعتهم من الصدقات بنوطها بأوصاف تحقّقت فيهم كقوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ [التوبة : 60]

الآية .

وإيتاء الرسول صلى الله عليه وسلم إعطاؤه المال لمن يرى أن يعطيه ممّا جعل الله له التصرّف فيه ، مثل النفَل في المغانم ، والسلَب ، والجوائز ، والصلات ، ونحو ذلك ، ومنه إعطاؤه من جعل الله لهم الحقّ في الصدقات .

ويجوز أن يكون إيتاء الله عين إيتاء الرسول عليه الصلاة والسلام وإنّما ذكر إيتاء الله للإشارة إلى أنّ ما عينه لهم الرسول صلى الله عليه وسلم هو ما عيّنه الله لهم ، كما في قوله : ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ أي ما أوحى الله به إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم وقوله : ﴿ قل الأنفال لله والرسول ﴾ [الأنفال : 1] .

وحسب : اسم بمعنى الكافي ، والكفاية تستعمل بمعنى الاجتزاء ، وتستعمل بمعنى ولي مهمّ المكفي ، كما في قوله تعالى : ﴿ وقالوا حسبنا الله ﴾ وهي هنا من المعنى الأول .

(215/339)

ورضي إذا تعدّى إلى المفعول دلّ على اختيارِ المرضيّ ، وإذا عدّي بالباء دلّ على أنّه صار راضياً بسبب ما دخلت عليه الباء ، كقوله : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] .

وإذا عدّي بـ (عن) فمعناه أنّه تجاوز عن تقصيره أو عن ذنبه ﴿ فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ [التوبة : 96] .

فالقول هنا مراد به الكلام مع الاعتقاد ، فهو كناية عن اللازم مع جواز إرادة الملزوم ، فإذا أضمروا ذلك في أنفسهم فذلك من الحالة الممدوحة ولكن لمّا وقع هذا الكلام في مقابلة حكاية اللَّمز في الصدقات ، واللَّمز يكون بالكلام دلالة على الكراهية ، جعل ما يدلّ على الرضا من الكلام كناية عن الرضى .

وجملة ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ بيان لجملة ﴿ حسبنا الله ﴾ لأنّ كفاية المهمّ تقتضي تعهّد المكفي بالعوائد ودفع الحاجة ، والإيتاءُ فيه بمعنى إعطاء الذوات .

والفضل زيادة الخير والمنافع ﴿ إن الله لذو فضل على الناس ﴾ [غافر : 61] والفضل هنا المعطَى : من إطلاق المصدر وإرادة المفعول ، بقرينة من التبعيضية ، ولو جعلت ﴿ من ﴾ ابتدائية لصحّت إرادة معنى المصدر .

وجملة ﴿ إنا إلى الله راغبون ﴾ تعليل .

أي لأنّنا راغبون فضله .

وتقديم المجرور لإفادة القصر ، أي إلى الله راغبون لا إلى غيره ، والكلام على حذف مضاف ، تقديره : إنّا راغبون إلى ما عيّنه الله لنا لا نطلب إعطاء ما ليس من حقّنا .

والرغبة الطلب بتأدب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) ﴾

كيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مَا آتَاهُمُ ﴾ مع أنهم لم يأخذوا شيئاً ، بل إنهم قد سخطوا ؛ لأنهم لم يأخذوا شيئاً .

نقول : إن الله يريد أن يلفتهم إلى أن له عطاء في المنح وعطاء في المنع . فعطاء الحق سبحانه لمن أخذ ، وحرمان الحق سبحانه للبعض ، كل ذلك فيه عطاء من الحق جل وعلا ، ولكن الناس لا يلتفتون إلى ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم حين منع الغنائم عن الأنصار في حنين أخذوا المعية مع رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهذا أكبر وأسْمَى من الغنائم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" المحيا محياكم ، والممات مماتكم . لو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعْباً لَسلكْتُ شِعْب الأنصار "

وبذلك أخذوا ما هو أكبر وأهم وأعظم من الغنائم . إذن فقد يكون في المنع إيتاء .

الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَآ آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وهو عز وجل المشرِّع ، والرسول عليه الصلاة والسلام هو المبلِّغ والمنفِّذ ، فإذا ما رَضُوا بقسمة الله ، فالرِّضاء عمل قلبي كان عليهم أن يترجموه بكلام نزوعي هو : ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللهُ ﴾ فكأن الرضا عمل القلب ، والتعبير عن الرضا عمل اللسان ، وما داموا قد احتسبوا الأمر عند الله ، فالله هو الذي يرعى ، وفي عطائه خير وفي منعه خير . ولذلك نجد الطيبين من الناس إن غُلِبُوا على أمرهم يقولون : إن لنا رباً ، أي : إياك أن تفهم أنك حينَ منعتني أو أخذت حقي بأن اعتديت عليّ ستمضي بهذا الفعل دون عقاب ؛ لأن لي رباً يغار عليّ ، وسبحانه سيعوِّضني أكثر مما أخذت ، ويجعل ما أخذته مني قَسْراً ؛ نقمة عليك .

(217/339)

ولذلك فأهم ما يجب أن يحرص عليه المؤمن ليس هو الصلة بالنعمة ولكن الصلة بالمنعم .

وفي أن الله هو القادر على أن يعوِّض أي شيء يفوت .

ويوضح لنا سبحانه الصورة أكثر فيقول : ﴿ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي سيعوضنا عنها بخير منها . وعطاء الله دائماً فضل ؛ لأنه يعطي الإنسان قبل أن يكون قادراً على عبادته ، حتى وهو في بطن أمه لا يقدر على شيء ، فإذا كنت في الدنيا قد فكرت بالعقل الذي

خلقك لك الله ، وعملت بالطاقة التي خلقها لك الله ، وفي الأرض التي خلقها الله ، فإنك في بطن أمك لم تكن قادراً على أي شيء . وحين تخرج وتنمو وتكبر فأنت تحيا في كون مليء بنعم الله ، لم تخلق فيه شيئاً ، ولم تُوجد فيه خيراً . وإنما جئت إلى الكون وهو كامل النعم ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، فلا أنت أوجدت الأرض ولا صنعتَ الشمس ، بل إن نعمة واحدة من نعم الله ، وهي المطر ؛ إن توقفت هلك كل من في الأرض .

ونلمس أثر ذلك حين تأتي مواسم الجفاف في أي منطقة من العالم ، ونرى كيف يهلك كل شيء ؛ الزرع والإنسان والحيوان .

والحق سبحانه وتعالى قد خلقنا في عالم أغيار ، فالقادر اليوم قد يصبح غير قادر غداً ، والصحيح اليوم قد يصبح مريضاً معلولاً غداً ، والقوي يضعف ، حتى نعرف أن ما نملكه من قدرة وقوة ليست أموراً ذاتية فينا ، ولكنها منحة من الله ؛ يأخذها وقتما يشاء ، ونرى القوى الذي كان يفتك بيده ويؤذي بها غيره ويُذِلُّ اناس بها . نراه وقد أصيبت يده ، فلا تصل إليها الأوامر من المخ فتُشَل . إذن : فقدرة أي إنسان ليست ذاتية فيه ، بل هي من فضل الله سبحانه وتعالى ، وكل شيء في الكون هو من فضل الله .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّآ إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ ويقال : رغب في كذا أي أراده ، ويقال : رغب عن كذا ، أي ترك هذا الأمر . ويقال : رغب إلى كذا أي سار في الطريق نحوه . وهنا قال الحق : ﴿ إِنَّآ إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ ﴾ وما دُمْنا إلى الله راغبين ، كان يجب ألا نعزل عطاء الدنيا عن عطاء الآخرة ، فالدنيا ليست كل شيء عندك ؛ ما دُمْت راغباً إلى الله الذي سيعطيك نعيماً لا حدود له في الآخرة . ولذلك فرغبتنا في الله كان يجب ألا تجعلنا نسخط على نعيم فاتنا في الدنيا ؛ لأن هناك نعيماً بلا حدود ينتظرنا في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/339)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ ﴾ : الظاهر أن جواب " لو " محذوفٌ تقديره : لكان خيراً

لهم . وقيل : جوابُها " وقالوا " ، والواوُ مزيدةٌ ، وهذا مذهبُ الكوفيين . وقوله " سيُؤْتينا " إنَّا إلى الله راغبون " هاتان الجملتان كالشرح لقولهم : حسبُنا الله ، فلذلك لم يتعاطَفا لأنهما كالشيءِ الواحد ، فشدَّةَ الاتصال منعت العطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 72 ﴾

(220/339)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) ﴾

لو وقفوا مع الله بِسِرِّ الرضا لأَتَتْهُم فنونُ العطاء وتحقيقات المنى ، ولحفظوا مع الله – عند الوجدان – ما لهم من الأدب ، من غير معاناة تَعبٍ ، ولا مُقاساة نَصَبٍ . . ولكنهم عَرَّجُوا في أوطانِ الطمعِ فوقعوا في الذُّلِّ والحَرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 37 ﴾

(221/339)

ومن فوائد العلامة الزمخشري في الآيات

قال رحمه الله :

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾

إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب ، وهما النصرة والشهادة وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ إحدى السوأتين « 1 » من العواقب ، إمّا أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود أَوْ بعذاب بِأَيْدِينا وهو القتل على الكفر فَتَرَبَّصُوا بنا ما ذكرنا من عواقبنا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ

(1) . قوله «إحدى السوأتين» لعله : السوأيين . (ع)

(222/339)

ما هو عاقبتكم ، فلا بدّ أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه

[سورة التوبة (9) : آية 53]

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53)

أَنْفِقُوا يعنى في سبيل اللّه ووجوه البر طَوْعاً أَوْ كَرْهاً نصب على الحال ، أى طائعين أو مكرهين . فإن قلت : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ ؟ قلت : هو أمر في معنى الخبر ، كقوله تبارك وتعالى قُلْ مَنْ كانَ فِي الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمنُ مَدًّا ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ونحوه قوله تعالى اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وقوله :

أَسِيئِى بِنَا أَوْ أَحْسِنِى لَا مَلُومَةً «1»

أى لن يغفر اللّه لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . ولا نلومك - أسأت إلينا أم أحسنت .

فإن قلت : متى يجوز نحو هذا ؟ قلت : إذا دلّ الكلام عليه كما جاز عكسه في قولك رحم اللّه زيداً وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهي أنّ كثيرا كأنه يقول لعزة : امتحنى لطف محلك عندي وقوّة محبتي لك ، وعامليني بالاساءة . والإحسان ، وانظري هل بتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة ؟ وفي معناه قول القائل :

أَخُوكَ الَّذِى إِنْ قُمْتَ بِالسَّيْفِ عَامِداً لِتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَفِثَّكَ فِى الْوَدِّ «2»

وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافا بين حال الاستغفار وتركه ؟ فإن قلت : ما الغرض في نفى التقبل ؟ أهو ترك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه ؟ أم هو كونه غير مقبول

---

(1) أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

لكثير صاحب عزة ، يقول : امتحنيني في المحبة ، وعامليني بالاساءة والإحسان ، وانظري هل يتغير حالى ، وافعلي ما يجبرك زوجك عليه من شتمي ، كما يأتى في كلامه ، ولا تتحرجى عنه فانه مثل إحسانك ، ولهذا ذكر الإحسان والمعنى : لا لوم ولا بغض ، سواء أسأت أو أحسنت ، فالأمر بمعنى الخبر ، ثم التفت وقال : ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت ، أى تكلفت البغض لنا وأظهرته . ويجوز أن المعنى : لا ملومة أنت ولا مقلية ، فالالتفات في قوله «إن تبغضت ، فقط .

(2) أخوك الذي إن قمت بالسيف عامداً لتضربه لم يستفثك في الود

ولو جئت تبغى كنفه لتبيتها تبادر إشفاقا عليك من الرد

يرى أنه في الود وان مقصر على أنه قد زاد فيه عن الجهد

روى يستفشك «بالشين بدل الثاء . والمعنى متقارب . والسين والتاء للعد ، أى لم يعدك خائنا مضراً . وتبينها تقطعها . والإشفاق : الخوف . والوانى : المتوانى . يقول : إن أخاك الصدق هو الذي لو قصدته بالمكاره لم يعدها غشا منك في المودة ، بل يبادرك بكل ما طلبته خوفا عليك من أذى المنع ، يظن أو يعتقد أنه مقصر في الود ، مع أنه جاوز فيه الحد ، وتكلف غير طاقته .

عند اللّه تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له؟ قلت: يحتمل الأمرين جميعاً. وقوله طَوْعاً أَوْ كَرْهاً معناه طائعين من غير إلزام من اللّه ورسوله، أو ملزمين. وسمى الإلزام إكراها، لأنهم منافقون، فكان إلزامهم الإنفاق شاقا عليهم كالإكراه. أو طائعين من غير إكراه من رؤسائكم، لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه، أو مكرهين من جهتهم. وروى أنها نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: هذا مالى أعينك به فاتركنى إِنَّكُمْ تعليل لردّ إنفاقهم.

والمراد بالفسق:

التمرّد والعتو.

[سورة التوبة (9): آية 54]

وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (54)

أَنَّهُمْ فاعل منع. وهم، وأن تقبل: مفعولاه. وقرئ: أن تقبل، بالتاء والياء على البناء للمفعول. ونفقاتهم، ونفقتهم، على الجمع والتوحيد. وقرأ السلمى: أن يقبل منهم نفقاتهم، على أن الفعل للّه عزّ وجلّ كُسالى بالضم والفتح، جمع كسلان، نحو سكارى وغيارى، في جمع سكران وغيران، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثوابا، ولا يخشون بتركها عقابا

فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى وَإِنَّها لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخاشِعِينَ وقرأت في بعض الأخبار أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول : كسلت ، كأنه ذهب إلى هذه الآية ، فإنّ الكسل من صفات المنافقين ، فما ينبغي أن يسنده المؤمن إلى نفسه . فإن قلت : الكراهية خلاف الطواعية ، وقد جعلهم اللّه تعالى طائعين في قوله طَوْعاً ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون . قلت :

المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار .

[سورة التوبة (9) : آية 55]

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55)

الإعجاب بالشيء : أن يسرّ به سرور راض به متعجب من حسنه . والمعنى : فلا تستحسن ولا تفتتن بما أوتوا من زينة الدنيا ، كقوله تعالى وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ فإن اللّه تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب ، بأن عرّضه للتغنم والسبي ، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير ، وهم كارهون له على رغم أنوفهم ، وأذاقهم أنواع الكلف

والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم . فإن قلت : إن صح تعليق التعذيب «1» بإرادة اللّه تعالى ، فما بال زهوق أنفسهم وَهُمْ كارِهُونَ ؟ قلت : المراد الاستدراج بالنعم ، كقوله تعالى إِنَّما نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إِثْماً كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ، ملتهون بالتمتع عن النظر للعاقبة .

[سورة التوبة (9) : الآيات 56 إلى 57]

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

لَمِنْكُمْ لمن جملة المسلمين يَفْرَقُونَ يخافون القتل وما يفعل بالمشركين ، فيتظاهرون بالإسلام تقية مَلْجَأً مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة أَوْ مَغاراتٍ أو غيرانا . وقرئ بضم الميم ، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور . وقيل :

هو تعدية غار الشيء وأغرته أنا ، يعنى : أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم . ويجوز أن يكون من :

أغار الثعلب ، إذا أسرع ، بمعنى مهارب ومفارّ أَوْ مُدَّخَلًا أو نفقا يندسون فيه وينجحرون ، وهو مفتعل من الدخول . وقرئ مدخلا من دخل ، ومدخلا من أدخل : مكانا يدخلون فيه أنفسهم . وقرأ أبى بن كعب رضى اللّه عنه : متدخلا وقرئ : لو ألوا إليه لالتجؤا إليه

يَجْمَحُونَ يسرعون إسراعا لا يردّهم شيء ، من الفرس الجموح ، وهو الذي إذا حمل لم يردّه اللجام . وقرأ أنس رضى اللّه عنه : يجمزون . فسئل فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدّون «2» واحد .

[سورة التوبة (9) : آية 58]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)

يَلْمِزُكَ يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك . قيل : هم المؤلفة قلوبهم . وقيل هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال : اعدل يا رسول اللّه ، فقال صلوات اللّه عليه وسلامه «ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟ «3» وقيل :

هو أبو الجواظ ، من المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم ! إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ،

---

(1) . قوله «فان قلت إن صح تعليق . . . الخ» مبنى على أنه تعالى لا يريد الشر ، وهو مذهب المعتزلة . وعند أهلى السنة : أنه يريده كالخير . (ع)

(2) . قوله «ويجمزون ويشتدون» فيقال : جمز بالجيم يجمز بالكسر : أسرع ، وحمز بالحاء يحمز بضمها :

اشتد اه صحاح فتدبر . (ع)

(3) . متفق عليه من حديث أبى سعيد واللفظ للبخاري . ولهما : «إذ جاء ذو الخويصرة» وهو المحفوظ

(225/339)

وهو يزعم أنه يعدل ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «لا أبالك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً» فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام «احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»»

وقرئ : يلمزك بالضم ، ويلمزك ويلامزك . التثقيل والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز . ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم ، لا للدين وما فيه صلاح أهله ، لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه . وإذا للمفاجأة : أى وإن لم يعطوا منها فاجئوا للسخط .

[سورة التوبة (9) : آية 59]

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59)

جواب «لو» محذوف تقديره : ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم . والمعنى : ولو أنهم رضوا ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قلّ نصيبهم وقالوا كفانا فضل اللّه وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا اللّه غنيمة أخرى فيؤتينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكثر مما آتانا اليوم إِنَّا إِلَى اللَّهِ فِي أن يغنمنا ويخولنا فضله لراغبون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشاف حـ 2 صـ 278.282 ﴾

---

(1) . لم أجده .

(226/339)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (59) ﴾

التفسير : هذا نوع آخر من خبث ضمائر المنافقين . عن ابن عباس : الحسنة في قوم بدر والمصيبة في يوم أحد . والأولى حمله على العموم إذ معلوم من حال المنافقين أنهم كانوا في كل حسنة وعند كل مصيبة بالوصف الذي ذكر الله تعالى . ومعنى ﴿ أخذنا أمرنا ﴾ أي أمرنا الذي نحن موسومون به من التيقظ والتحرر وحسن الرأي والتدبير . و ﴿ من قبل ﴾ أي من قبل ما وقع ﴿ وتولوا ﴾ أي عن مقام التحدث بذلك إلى أهاليهم أو أعرضوا عن الرسول ﴿ وهم فرحون ﴾ مسرورون ثم أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يقول في جوابهم ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ قيل : أي في اللوح المحفوظ من خير أو شر أو خوف أو رجاء أو شدة أو رخاء . وفائدته أنه إذا علم الإنسان أن الذي وقع امتنع أن لا يقع - لأن خلاف معلوم الله ومقدوره محال - زالت عنه مناعة النفس وهانت عليه المصائب . وقيل : أي في عاقبة أمرنا من الظفر بالعدوّ وإظهار دين الله على كل الأديان فيكون المقصود أن أحوال المسلمين وإن كانت مختلفة في الغم والسرور والمحنة إلا أن العاقبة والدولة تكون لهم والظفر يقع في جانبهم فلا معنى لفرح المنافقين في الحال . وقال الزجاج : معناه لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به من الصنرة عليكم أو الشهادة ، وعلى هذا القول يقع

ما في الآية الثانية كالمكرر ﴿ هو مولانا ﴾ لا يتولى أمورنا إلا هو يفعل بنا ما يريد من أسباب التهاني والتعازي ، لا اعتراض لأحد عليه . ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ فيه تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يعلق الرجاء إلا برب الأرباب فإنهم يتعلقون بالوسائط والأسباب .

(228/339)

ثم أمره بجواب ثانٍ فقال ﴿ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ﴾ التربص التمسك بما ينتظر به مجيء حينه ومنه تربص بالطعام إذا تمسك به إلى حين زيادة سعره . والحسنى تأنيث الأحسن وهي صفة الحالة أو الخصلة أو العاقبة يعني النصرة أو الشهادة . وفي الأولى إحراز الغنيمة والظفر بالأعداء ، وفي الثانية إبقاء الذكر والفوز بنعيم الآخرة . ﴿ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ قارعة مثل قارعة عاد وثمود وقيل : عذاب الله يشمل عذاب الدارين ﴿ أو بأيدينا ﴾ يعني القتل بأن يظهر نفاقكم ويأمر بقتلكم كالكافر الحربي ﴿ فتربصوا ﴾ أمر للتهديد نحو ﴿ ذق أنك أنت العزيز الكريم ﴾ [الدخان : 49] ثم ذكر أنهم إن أتوا بشيء من صورة البر لم يكن له قدر عند الله ولا ينتفعون به في الآخرة ، والغرض أن أسباب الذل والهوان مجتمعة عليهم في الدنيا والأخرى .

عن ابن عباس نزلت في الجد بن قيس حين قال النبي صلى الله عليه وسلم ائذن لي في القعود وهذا مالي أعينك به . ولا يبعد أن يكون السبب خاصاً والحكم عاماً . و ﴿ أنفقوا ﴾ لفظه أمر ومعناه خبر كقوله فيما يجيء ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] ومعناه أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم واستغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟ ومثله قول كثير لعزة :

(229/339)

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة . . . كأنه يقول : امتحني لطف محلك عندي وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل تجدين مني تفاوتاً في الحالين . وإنما يجوز إقامة الخبر والطلب أحدهما مقام الآخر إذا دل الكلام عليه فيعدل عن الأصل لإفادة المبالغة .

وانتصب ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ على الحال ومعناه طائعين من غير إلزام من الله ورسوله أو ملزمين من جهتهما . وسمي الإلزام كراهاً لأنهم منافقون فكان إلزام الله إياهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه . ويحتمل أن يراد طائعين من غير إكراه من رؤسائكم أو ملزمين من جهتهم ، وذلك أن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملونهم على الإنفاق إذا رأوا فيه مصلحة . ومعنى ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ أن الرسول لا يقبله منكم ، أو أنه لا يقع قبولاً عند الله . ثم علل عدم

القبول بقوله ﴿ إنكم كنتم قوماً فاسقين ﴾ قال الجبائي : فيه دليل على أن الفسق يحبط الطاعات . وأجيب بأن الفسق ههنا بمعنى الكفر ولا يلزم منه كون الفسق المطلق كذلك . وإنما قلنا إن الفسق بمعنى الكفر لقوله سبحانه ﴿ وما منعهم أن تقبل منهم ﴾ الآية علل منع القبول بأمور ثلاثة : أولها : الكفر بالله وبرسوله . وثانيها ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ قال المفسرون : معناه أنه إن كان في جماعة صلى وإن كان وحده لم يصل ، وفيه أنه يصلي للناس لا لله ، وفيه أنه غير معتقد للصلاة ووجوبها فلهذا لزم منه الكفر .

(230/339)

وثالثها : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ ولك أنهم لا ينفقون رغبة في ثواب الله وإنما ينفقون لأجل المصالح الدنيوية ، فهم في حكم الكارهين وإن أنفقوا مختارين يعدون الإنفاق مغرماً ومنعه مغنماً خلاف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " أدوا زكاة أموالكم طيبة بها نفوسكم " قيل : الكفر بالله سبب مستقل في منع القبول فكيف ضم إليه الأمرين الآخرين ؟ والجواب أنها أمارات ويجوز توارد الأمارت المتعددة على شيء واحد . بوجه آخر أطلق كفرهم أولاً ثم قيده بعدم اعتقادهم وجوب الصلاة والزكاة ، وبعبارة أخرى حكم عليهم بالكفر مطلقاً ثم خص من أنواع كفرهم هذين تفظيعاً لشأن تارك الصلاة

والزكاة . قال في الكشاف : وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول كسلت كأنه ذهب إلى هذه الآية . وأن الكسل من صفات المنافقين .

قال بعض العلماء : وجه الجمع بين قوله ﴿ فَمَنْ يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ [الزلزلة : 7] وبين مضمون هذه الآية وهو أن شيئاً من أعمال البر لا يكون مقبولاً عند الله مع الكفر ، هو أن يصرف ذلك إلى تأثيره في تخفيف العقاب . ولقائل أن يقول : لو لم يكن مقبولاً وإلا لم يكن له في التخفيف أيضاً أثر . وقيل : في الآية دلالة على أن الصلاة لازمة للكفار وإلا لم يكن الإتيان بها على وجه الكسل مانعاً من تقبل طاعاتهم كما أن قيامهم وقعودهم وسائر تصرفاتهم على وجه الكسل ليس مانعاً من التقبل بالإنفاق . ثم لما قطع رجاء المنافقين عن منافع الآخرة أراد أن يبّين أن ما يظنونه من منافع الدنيا فهو أيضاً في الحقيقة سبب لتعذيبهم وبلائهم وتشديد المحنة عليهم فقال مخاطباً للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد ﴿ فلا تعجبك ﴾ الآية . ونظيره ﴿ ولا تمدّن عينيك ﴾ [طه : 131] وإنما قال ﴿ فلا تعجبك ﴾ بالفاء لأن ما قبله مستقبل يصلح للشرط أي إن يكن فيهم ما ذكرنا من الإتيان بالصلاة على وجه الكسل وغير ذلك فهذا جزاؤه ، وهذ بخلاف

ما سيجيء في الآية الآخرى من هذه السورة . والإعجاب سرور المرء بالشيء مع نوع من الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، وأنه من البعيد في حكم الله أن يزيل ذلك الشيء عنه ويحصله لغيره كقوله ﴿ ما أظن أن تبيد هذه أبداً ﴾ [الكهف : 35] ولا شك أن هذه خصلة مذمومة من جهة استغراق النفس في ذلك الشيء وانقطاعها عن الله ، ومن جهة استبعاد إزالته في قدرة الله ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم " ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه " والمقصود من الآية زجر الناس عن الانصباب إلى الدنيا والمنع من التهالك في حبها ، فإن المسكن الأصلي هو الآخرة لا الأولى .

(232/339)

وقوله ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ إعرابه كما مر في قوله ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ [النساء : 26] قال مجاهد والسدي وقتادة : في الآية تقديم وتأخير والتقدير : فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة كأنهم نظروا إلى أن المال والولد لا يكونان عذاباً بل هما من نعم الله تعالى على عباده ، وأورد عليه أنهما لا يكونان عذاباً في الآخرة أيضاً . فإن تكلفوا وقالوا : أراد بذلك أنهما سبب العذاب فقد استغنوا عن التقديم والتأخير لأنهما قد يكونان سبباً للعذاب في الدنيا أيضاً . وبوجه أخر ،

المال والولد وكذا الإعجاب بهما يكونان . في الدنيا لا محالة ، فأي فائدة في ذكرها ؟ واعلم أن الأموال والأولاد قد يكونان سبباً للتعذيب في الدنيا والآخرة ، وذلك أن كل ما كان حبه للشيء أشد كان خوفه عن فواته أكثر وحزنه على فواته أعظم . فصاحب المال أبداً إما في خوف فوات المال وإما في حزن فواته وإما في تعب حفظه وتثميره . ثم إن الدنيا حلوه خضرة فإذا كثر ماله انصب بكليته إليه ويفضي إلى طغيانه وقساوة قلبه إلى أن ينسى حب الله وذكر الآخرة . ثم إنه إن بقي عليه ذلك إلى آخر عمره فعند الموت يعظم أسفه على مفارقته وكان كمن ينتقل من بستان ونعيم إلى سجن وجحيم وعند الحشر يكون حلاله حساباً وحرانه عذاباً فثبت أن حصول المال سبب لعذاب الدارين . إلا من يتصرف فيه بالحق ومثله يكون نادراً ، وكذا الكلام في الولد . وهذا المعنى وإن كان عاماً للكل إلا أن المنافقين لهم وجوه اختصاص بالتعذيب . وذلك أن الرجل إذا كان مؤمناً بالله واليوم الآخر علم أنه إنما خلق للآخرة لا للدنيا فيفتر حبه للأمور الدنيوية بخلاف المنافق الذي اعتقد أن لا سعادة إلا هذه الخيرات العاجلة . وأيضاً إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكلفهم إنفاق الأموال وبعث الأولاد إلى الغزو والجهاد ، وكانوا لا يعتقدون في ذلك فائدة أخروية ، وكانوا في أشق تكليف ،

وكانوا مبغضين للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا مضطرين إلى بذل المال وبعث الأولاد إلى خدمته ، وكانا خائفين من افتضاحهم وإظهار نفاقهم وتعريض أولادهم وأموالهم للنهب والسبي ، وكثير منهم كان لهم أولاد أتقياء مخلصون كحنظلة بن أبي عامر غسلته الملائكة ، وكعب الله بن عبد الله بن أبيّ شهد بدراً وكان عند الله بمكان ، وهم خلق كثير كانوا يزيفون طريق آبائهم في النفاق ويقدحون فيهم ، والابن إذا صار هكذا تأذى الأب بسببه ولأجل هذه المعاني ذكر بعض العلماء أن التقدير : يريد الله أن يزيد في أموالهم ليعذبهم . أما قوله ﴿ وتزهق أنفسهم ﴾ أي تخرج ﴿ وهم كافرون ﴾ فقد قالت الأشاعرة : فيه دليل على أنه تعالى أراد منهم الكفر .

وأورد الجبائي عليه أن المريض إذا قال للطبيب أريد أن تدخل علي في حالة مرضي لم يلزم منه كونه مريداً لمرض نفسه ، والجواب أن أمثال هذه موكولة إلى قرائن الحال ففي قول المريض لا ريب أن المطلوب هو دخول الطبيب ، وكون الدخول واقعاً في تلك الحالة من ضرورات كونه مريضاً وهو طبيبه . وفي الآية ليس المراد زهوق الروح فقط لأن المسلم والمنافق في ذلك سيان ، فالمراد وقوع الزهوق في حالة الكفر فيكون الكفر منهم مراداً بالضرورة . وقال في الكشاف : المراد الاستدراج بالنعم كقوله ﴿ إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ﴾ [آل عمران : 178] كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمه إلى أن يموتوا وهم كافرون مشغولون بالتمتع

عن النظر للعاقبة . ومن قبائح أفعال المنافقين ما حكى الله سبحانه عنهم في قوله ﴿ ويحلفون بالله أنهم لمنكم ﴾ أي على دينكم . ثم قال ﴿ وما هم منكم ﴾ أي ليسوا على دينكم . ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ يخافون القتل فيظهرون الإيمان تقية .

(234/339)

ثم أكد نفاقهم بقوله ﴿ لو يجدون ملجأً ﴾ مفراً فيتحصنون فيه آمنين على أنفسهم منكم لفروا إليه ولفارقوكم . فلا تظنوا أن موافقتهم إياكم في الدار والمسكن من صميم القلب . والمغارات مغارة وهو الموضع الذي يغور الإنسان فيه أي يستتر . والمدخل بالتشديد مفتعل من الدخول أدغمت التاء في الدال لقرب مخرجيهما . والتداخل " تفعل " من الإدخال ومعناه المسلك الذي يتحفظ بالدخول فيه . قال الكلبي وابن زيد : نفق كنفق اليربوع . والمراد أنهم لو وجدوا مكاناً على أحد هذه الوجوه مع أنها شر الأمكنة ﴿ لولوا إليه ﴾ يقال : ولي إليه بنفسه إذا انصرف وولي غيره إذا صرفه ﴿ وهم يجمحون ﴾ أي يسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء . ومنه الفرس الجموح لا يرده اللجام . والحاصل أنهم من شدة تأذيهم وتنفرهم من الرسول والمسلمين صاروا بهذه الحالة . قال بعض العلماء : إنه تعالى ذكر ثلاثة أشياء والأقرب حملها على المعاني المتغايرة ، فالملجأ الحصون ، والمغارات

الكهوف في الجبال ، والمدخل السرب تحت الأرض كالآبار والله تعالى أعلم . ومن جملة قبائحهم قوله ﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ الآية . قال الزجاج : لمزت الرجل ألمزه وألمزه بكسر الميم وضمها إذا عبته . وفرق الليث فقال : اللمز العيب في الحضور ، والهمز الغيب في الغيبة ، واعلم أن العيب في الصدقات يحتمل وجوهاً : الأول : في أخذها بأن يقال انتزاع كسب الإنسان من يده غير معقول لأن الله هو المتكفل بمصالح عبيده إن شاء أفقرهم وإن شاء أغناهم . الثاني : أن يقال : هي أنك تأخذ الزكوات إلا أن ما تأخذه كثير فوجب أن تقنع بأقل من ذلك . الثالث : هب أنك تأخذ هذا الكثير إلا أنك تصرفه إلى غير مصرفه فيكون العيب قد وقع في قسمة الصدقات وفي تفريقها وهذا هو الذي دلت الأخبار على أنهم أرادوه . عن أبي سعيد الخدري

(235/339)

" بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين قال له ابن ذي الخويصرة رأس الخوارج : أعدل يا رسول الله . فقال : ويلك ومن يعدل إذ لم أعدل " فنزلت . وعن الكلبي هو أبو الجواظ قال : ألا ترون إلى صاحبكم إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم وهو يزعم أنه يعدل . فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أبا لك أما كان موسى راعياً . أما

كان داود راعياً فلما ذهب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون " وقيل : هم المؤلفة قلوبهم . ثم بيّن أن عيبهم ذلك وسخطهم لأجل نصيب نفسهم لا للدين فقال ﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون . ومعنى ﴿ إذا هم يسخطون ﴾ فهم يسخطون . وفائدته أن يعلم أن الشرط مفاجىء للجزاء ومتهجم عليه . ثم أرشدهم إلى ما صلاحهم في نفس الأمر فقال ﴿ ولو أنهم رضوا ﴾ الآية ورتبه على أربع مراتب : الأولى : الرضا بما آتاهم الله ورسوله لعلمهم بأنه تعالى حكيم يعلم عواقب الأمور ، فكل ما كان حكماً له وقضاء منه كان حقاً وصواباً ولا إعتراض عليه . الثانية : أن يظهر أثر ذلك الرضا على لسانهم وهو قولهم ﴿ حسبنا الله ﴾ كفاناً فضله وصنعه ، لغيرنا المال ولنا الرضا والتسليم وذكر الحبيب . الثالثة : أن نزل من هذه المرتبة العالية كان واثقاً بأن الله لا يهمله وسيعوضه من فضله في غنيمة أخرى . الرابعة الرغبة إلى الله بأنه المقصد الحقيقي والمقصود الأصلي من الإيمان والطاعة والمال والمنال . يروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر بقوم يذكرون الله فقال : ما الذي يحملكم عليه ؟ قالوا : الخوف من عقاب الله . فقال : أصبتم . ومر على قوم آخرين يذكرون الله فقال : ما الذي حملكم عليه ؟ فقال : الرغبة في الثواب . فقال : أصبتم . ومر على قوم ثالث مشتغلين بالذكر فسأهلم فقالوا : لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل

لإظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بذكره . فقال : أنتم المحقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 482. 487 ﴾

(236/339)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾

إلى الغزو معك ﴿ لأعدّوا له ﴾ أي : قبل حلوله ﴿ عدّة ﴾ أي : قوّة وأهبة من المتاع والسلاح والكراع بحيث يكونون كالحاضرين في صلب الحرب الواقفين في الصف قد استعدوا لها بجميع عدتها ، ولما كان قوله تعالى : ﴿ ولو أرادوا الخروج ﴾ يعطي معنى نفي خروجهم واستعدادهم للغزو أتى تعالى بحرف الاستدراك فقال تعالى : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ أي : لم يرض خروجهم معك إلى الغزو ﴿ فثبطهم ﴾ أي : حبسهم بالجبن والكسل ﴿ وقيل ﴾ لهم ﴿ اقعدوا مع القاعدين ﴾ أي : مع النساء والصبيان والمرضى وأهل الأعذار ومعنى ﴿ قيل لهم ﴾ أي : قدر الله تعالى عليهم ذلك بأن ألقى في قلوبهم القعود لما كره الله انبعاثهم مع المؤمنين ، وقيل القائل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استأذنوه في القعود فقال لهم : اقعدوا مع القاعدين .

فإن قيل : خروج المنافقين مع النبي صلى الله عليه وسلم إما أن يكون فيه مصلحة أو مفسدة فإن كان فيه مصلحة فِلمَ قال تعالى : ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم ﴾ وإن فيه مفسدة فلم قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ في ترك الخروج ؟

أجيب : بأن خروجهم فيه مفسدة عظيمة بدليل قوله تعالى:

﴿ لو خرجوا فيكم ﴾ أي : معكم ﴿ ما زادوكم ﴾ بخروجهم ﴿ إلا خبالاً ﴾ أي : فساداً وشراً بتخذيل المؤمنين وتقدم الكلام على قوله : ﴿ لم أذنت لهم ﴾ .

(237/339)

تنبيه : لا يصح أن يكون فيه الاستثناء منقطعاً لأنّ الاستثناء المنقطع يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقوله : ﴿ ما زادوكم خيراً إلا خبالاً ﴾ والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور وإذا لم يذكر ووقع الاستثناء من أعم العام كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالاً ﴿ ولأوضعوا ﴾ أي : أسرعوا ﴿ خلالكم ﴾ أي : بينكم فيما يخل بكم بالمشي بالنميمة ﴿ يبغونكم الفتنة ﴾ أي : يطلبون منكم ما تفتتنون به وذلك أنهم يقولون للمؤمنين : لقد جمعوا لكم كذا وكذا ولا طاقة لكم بهم وإنكم ستهزمون منهم وسيظهرون عليكم ،

ونحو ذلك من الأحاديث الكاذبة التي تجبنهم ﴿ وفيكم ﴾ أي : والحال أن فيكم ﴿ سماعون لهم ﴾ أي : عيون لهم يؤدون لهم أخباركم وما يسمعون منكم وهم الجواسيس أو مطيعون لهم يسمعون كلام المنافقين ويطيعونهم وذلك أنهم يلقون إليهم أنواعاً من الشبهات الموجبة لضعف القلب فيقبلونها منهم .

فإن قيل : كيف يكون في المؤمنين الخالصين من يطيع المنافقين ؟

أجيب : بأنهم ربما قالوا قولاً أثر في قلوب ضعفة المؤمنين في بعض الأحوال وقوله تعالى : ﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ وعيد وتهديد للمنافقين الذين يلقون الفتن والشبهات بين المؤمنين .

(238/339)

﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ أي : العنت ونصب الغوائل والسعي في تشتيت شملك وتفريق أصحابك عنك كما فعل عبد الله بن أبيّ يوم أحد وحنين انصرف بمن معه وعن ابن جريج وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به . ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل غزوة تبوك ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ أي : ودبروا لك الحيل والمكايد ودوروا الآراء في إبطال أمرك ﴿ حتى جاء الحق ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿ وظهر أمر الله ﴾ أي : غلب دينه وعلا شرعه ﴿ وهم كارهون ﴾ له أي : على رغم

منهم فدخلوا فيه ظاهراً ، ولما تجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس وكان من المنافقين : "يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر يعني : الروم نتخذ منهم سراري ووصفاء" فقال الجدّ بن قيس : يا رسول الله لقد علم قومي أني مغرم بالنساء وإني أخشى إن رأيت بنات بني الأصفر أن لا أصبر عنهن ائذن لي بالقعود ولا تفتني وأعينك بمالي ، قال ابن عباس : اعتل الجد بن قيس ولم تكن له علة إلا النفاق فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيه:

﴿ ومنهم ﴾ أي : المنافقين ﴿ من يقول أئذن لي ﴾ أي : في القعود في المدينة ﴿ ولا تفتني ﴾ أي : ببنات بني الأصفر وقيل : لا توقعني في الفتنة وهي الإثم بأن لا تأذن لي فإنك إن منعتني من القعود وقعدت بغير إذنك وقعت في الإثم وقيل : لا تلقني في الهلاك فإن الزمان زمان شدة الحر ولا طاقة لي بها وقيل : لا تفتني بسبب ضياع المال والعيال ؛ إذ لا كافل لهم بعدي قال الله تعالى : ﴿ ألا في الفتنة سقطوا ﴾ أي : إن الفتنة هي التي سقطوا فيها وهي فتنة التخلف وظهور النفاق لا ما أخبروا عنه ﴿ وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ أي : جامعة لهم لا محيص لهم عنها يوم القيامة أو هي محيطة بهم الآن لأنّ أسباب الإحاطة معهم فكأنهم في وسطها .

﴿ إن تصبك ﴾ يا محمد في بعض الغزوات ﴿ حسنة ﴾ أي : نصرة وغنيمة ﴿ تسؤهم ﴾ أي : تحزنهم لما في قلوبهم من الضعف والمرض ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ أي : نكبة وإن صغرت في بعض الغزوات كما وقع يوم أحد ﴿ يقولوا ﴾ أي : سروراً وتبجحاً بحسن رأيهم ﴿ قد أخذنا أمرنا ﴾ أي : بالجد والحزم في القعود عن الغزو ﴿ من قبل ﴾ أي : قبل هذه المصيبة ﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ أي : مسرورون بما نالك من المصيبة وسلامتهم منها قال الله تعالى:

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يفرحون بما يصيبك من المصائب والمكروه ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله ﴾ أي : قدره ﴿ لنا ﴾ في اللوح المحفوظ لأنّ القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة من خير وشر فلا يقدر أحد أن يدفع عن نفسه مكروهاً نزل به أو يجلب لنفسه نفعاً إن أراده ما لم يقدر له ﴿ هو ﴾ أي : الله ﴿ مولانا ﴾ أي : ناصرنا وحافظنا وهو أولى بنا من أنفسنا في الموت والحياة ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم ﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ في جميع أمورهم لأنّ حقهم أن لا يتوكلوا على غيره ليفعلوا ما هو حقهم.

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ هل تربصون ﴾ فيه حذف إحدى التاءين من الأصل أي : تنتظرون أن يقع ﴿ بنا ﴾ أيها المنافقون ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ تثنية حسنى تأنيث أحسن أي : إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسنى العواقب وهما النصر أو الشهادة ، وذلك أنّ المسلم إذا ذهب إلى الجهاد في سبيل الله إما أن يسلم ويغنم فيحصل له المال وإما أن يقتل في سبيل الله فتحصل له الشهادة وهي العاقبة القصوى وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : "تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيله وتصديق كلمته أن يدخله الجنة أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة" ﴿ ونحن نتربص بكم ﴾ أي : إحدى السوأيين من العواقب إما ﴿ أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ﴾ لا سبب لنا فيه كأن ينزل عليكم قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود ﴿ أو ﴾ بعذاب ﴿ بأيدينا ﴾ أي : بسببنا من قتل ونهب وأسر وغير ذلك ﴿ فتربصوا ﴾ بنا ما ذكرنا من عواقبنا ﴿ إنا معكم متربصون ﴾ ما هو عاقبتكم ولا بد أن يلقى كلنا ما يتربصه لا يتجاوزه .

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ أي : من غير إلزام من الله ورسوله أو ملزمين .

وسمي الإلزام إكراهاً لأنهم منافقون فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالإكراه أو طائعين من

غير إكراه من رؤسائكم لأنّ رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصلحة فيه أو مكرهين من جهتهم ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ أي : لا تقبل منكم نفقاتكم على أيّ حال كان .

فإن قيل : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ ؟

أجيب : بأن هذا أمر في معنى الخبر كقوله تعالى : ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ﴾ (مريم ،)

وروي أنها نزلت في الجدّ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذا مالي أعينك به فاتركني .

(241/339)

ثم علل تعالى سبب منع القبول بقوله تعالى : ﴿ إنكم ﴾ أي : لأنكم ﴿ كنتم قوماً فاسقين ﴾ والمراد بالفسق هنا الكفر ويدل عليه قوله تعالى:

﴿ وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ﴾ أي : وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم ، وقرأ حمزة والكسائي : يقبل ، بالياء على التذكير لأنّ تأنيث النفقات غير حقيقي ، والباقون بالتاء على التأنيث ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ أي :

متثاقلون لا يأتونها قط بنشاط ﴿ ولا ينفقون ﴾ أيّ : نفقة من واجب أو غيره ﴿ إلا وهم كارهون ﴾ أي : في حال الكراهة وإن ظهر خلاف ذلك وذلك كله لعدم النية الصالحة وهذا لا ينافي طوعاً لأنّ ذلك بحسب الظاهر وهذا بحسب الواقع .

﴿ فلا تعجبك ﴾ يا محمد ﴿ أموالهم ﴾ أي : وإن أنفقوها في سبيل الله وجهزوا بها الغزاة فإنّ ذلك من غير إخلاص منهم ولا حسن نية ولا جميل طوية ﴿ ولا أولادهم ﴾ الذين يتجملون بهم فإنّ ذلك استدراج ووبال كما قال تعالى : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ وإن كان يتراءى أنها لذيذة لأنّ ذلك من شأن الحياة وتعذيبهم فيها بسبب ما يكابدون من جمعها وحفظها من المتاعب وما يرون فيها من الشدائد والمصائب .

فإن قيل : هذا لا يختص بالمنافق فما فائدة تخصيصه به ؟

أجيب : بأنّ المؤمن قد علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً والمنافق لا يعتقد ذلك فبقي ما يحصل له في الدنيا من التعب والمشقة والغم والحزن على المال والولد عذاباً عليه في الدنيا ﴿ وتزهق ﴾ أي : تخرج ﴿ أنفسهم ﴾ بسببها ﴿ وهم ﴾ أي : والحال أنهم ﴿ كافرون ﴾ أي : يموتون على الكفر فتكون عاقبتهم بعد عذاب الدنيا عذاب الآخرة وهكذا كل من أراد الله تعالى استدراجه في الغالب كثر ماله وولده فكثر إعجابه بماله وولده وبطره وكفره نعمة الله تعالى .

والإعجاب السرور بالشيء مع نوع الافتخار به ومع اعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه وهذه الحالة تدل على استغراق النفس بذلك الشيء وانقطاعه عن الله تعالى فإنه لا يبعد في حكم الله تعالى أن يزيل ذلك الشيء عن ذلك الإنسان ويجعله لغيره والإنسان متى كان متذكراً لهذا المعنى زال إعجابه بذلك الشيء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه" وكان صلى الله عليه وسلم يقول : "هلك المكثرون" ، وقال أيضاً : "مالك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت أو تصدّقت فأبقيت" .

وروي من كثر ماله اشتدّ حسابه ومن أراد من السلطان قرباً ازداد من الله بعداً والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة والمقصود منها الزجر عن الإطناب من الدنيا والمنع من التهالك في حبها والافتخار بها لأنّ الإنسان خلق للآخرة لا للدنيا فينبغي أن لا يشتدّ عجبه بالدنيا وأن لا يميل قلبه إليها فإن المسكن الأصلي له هو الآخرة لا الدنيا ، ولما بين تعالى كون المنافقين مستجمعين لكل مضار الدنيا والآخرة خالين عن جميع منافع الآخرة والدنيا عاد إلى ذكر فضائحهم وقبائحهم فمنها إقدامهم على الأيمان الكاذبة كما قال تعالى:

﴿ ويحلفون ﴾ أي : المنافقون ﴿ با ﴾ للمؤمنين إذا جاؤوا معهم ﴿ إنهم لمنكم ﴾ أي :

على دينكم وملتكم ﴿ وما هم منكم ﴾ أي : لكفر قلوبهم ﴿ ولكنهم قوم يفرقون ﴾ أي : يخافون منكم أن تفعلوا بهم ما تفعلوا بالمشركين فيظهرون الإسلام تقية .

(243/339)

﴿ لو يجدون ملجأ ﴾ أي : حصناً يلجؤن إليه وقيل : لو وجدوا مهرباً هربوا إليه ، وقيل : لو يجدون قوماً يأمنون عندهم على أنفسهم منكم لصاروا إليهم وفارقوكم ﴿ أو مغارات ﴾ أي : سراديب جمع مغارة وهو الموضع الذي يغور فيه الإنسان أي : يستتر ﴿ أو مدّخلاً ﴾ أي : موضعاً يدخلونه ﴿ لولوا إليه ﴾ والمعنى أنهم لو وجدوا مكاناً على أحد هذه الوجوه الثلاثة مع أنها شر الأمكنة لدخلوا إليه وتحرّزوا فيه ﴿ وهم يجمحون ﴾ أي : يسرعون في دخول ذلك المكان إسراعاً لا يردّ وجوههم شيء ومن هذا يقال : جمح الفرس وهو فرس جموح وهو الذي إذا حمل لا يرده اللجام ، ثم ذكر تعالى نوعاً آخر من قبائح المنافقين وهو طعنهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات بقوله تعالى:

(244/339)

﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ أي : يعيبك ﴿ في الصدقات ﴾ قال أبو على الفارسي : ههنا محذوف والتقدير يعيبك في تقسيم الصدقات واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال أبو سعيد الخدري : بيا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالاً إذ أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم رأس الخوارج وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين واستعطف قلوب أهل مكة بتوفير الغنائم عليهم فقال : يا رسول الله اعدل ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "ويلك إن لم أعدل فمن يعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل" فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ائذن لي فيه أضرب عنقه فقال له صلى الله عليه وسلم "دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤن القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية" . وقال الكلبي : قال رجل من المنافقين يقال له الجوّاظ المنافق : ألا ترون إلى صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ويزعم أنه يعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا أبا لك أما كان موسى راعياً أما كان داود راعياً" فلما ذهب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون" ، وقال ابن زيد قال المنافقون : والله ما يعطيها محمد إلا من أحب ولا يؤثرها إلا هواه فنزلت .

وروى أبو بكر الأصم في تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل من أصحابه : "ما علمك بفلان" فقال : ما لي به علم إلا أنك تدنيه في المجلس وتجزل له العطاء فقال صلى

الله عليه وسلم "إنه منافق أداريه عن نفاقه وأخاف أن يفسد على غيره" فقال : لو أعطيت فلاناً بعض ما تعطيه فقال صلى الله عليه وسلم "إنه مؤمن أكمل إيمانه وأما هذا فمنافق أداريه خوف فساده" .

(245/339)

﴿ فإن أعطوا منها ﴾ أي : من الصدقات ﴿ رضوا ﴾ أي : رضوا عنك في قسمتها ﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ أي : وإن لم تعطهم عابوا عليك وسخطوا ، قال أهل المعاني : إن هذه الآية تدل على ركاكة أخلاق المنافقين ودناءة طباعهم وذلك لأنه لشدّة شرههم إلى أخذ الصدقات عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونسبوه إلى الجور في القسمة مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدنيا ، وقال الضحاك : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم بينهم ما آتاه الله تعالى من قليل المال وكثيره وكان المؤمنون يرضون بما أعطوا ويحمدون الله تعالى وأما المنافقون فإن أعطوا كثيراً فرحوا وإن أعطوا قليلاً سخطوا وذلك يدل على أن رضاهم وسخطهم لطلب النصيب لا لأجل الدين ، وكلمة إذا للمفاجأة أي : وإن لم يعطوا منها فاجؤا السخط .

(246/339)

﴿ ولو أنهم ﴾ أي : المنافقين ﴿ رضوا ما آتاهم الله ورسوله ﴾ أي : ما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغنائم والصدقات أو غيرها وذكر الله تعالى للتعظيم والتنبيه على أن ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كان بأمره ﴿ وقالوا ﴾ أي : مع الرضا ﴿ حسبنا الله ﴾ أي : كافينا الله من فضله ﴿ سيؤتينا الله من فضله ورسوله ﴾ أي : من غنيمة أو صدقة أخرى ما يكفينا ﴿ إنا إلى الله ﴾ أي : في أنّ الله تعالى يغنينا عن الصدقة وغيرها من أموال الناس ويوسع علينا من فضله ﴿ راغبون ﴾ أي : عريقون في الرغبة ولذلك نكتفي بما يأتي من قبله كائناً ما كان وجواب لو محذوف والتقدير لكان خيراً لهم ، نقل عن عيسى عليه السلام أنه مرّ بقوم يذكرون الله تعالى فقال : ما الذي حملكم عليه ؟ فقالوا : الخوف من عقاب الله ، فقال : أصبتم ، ومر على قوم يشتغلون بالذكر فسألهم فقالوا : لا نذكره للخوف من العقاب ولا للرغبة في الثواب بل لإظهار ذلة العبودية وعزة الربوبية وتشريف القلب بمعرفته وتشريف اللسان بالألفاظ الدالة على صفات قدسه ، فقال : أنتم المحقون المحققون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 405 . 413 ﴾

(247/339)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إن تصبك ﴾ يا روح ﴿ حسنة ﴾ من عواطف الحق تحزن النفس وصفاتها فبها تظفر الروح عليها ﴿ وإن تصبك مصيبة ﴾ من الموانع والقواطع أخذنا نصيبنا من المراتع الحيوانية لما خالفناه في السير في العالم الروحاني . ﴿ قل ﴾ يا روح ﴿ لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ﴾ لا علينا فإن الفترات والوقفات للتربية لا للرد . وانظر وقل ﴿ هل تربصون بنا ﴾ أيتها النفس وصفاتها ﴿ إلا إحدى الحسنيين ﴾ الإحسان والعواطف الربانية والوقفة والفترة الموجبة لحسن التربية ﴿ بعذاب من عنده ﴾ هو الابتلاء بالمصائب من الخوف والجوع وغيرهما ﴿ أو بأيدينا ﴾ بالمنع من المخالفات وبكثرة الرياضيات والمجاهدات ﴿ طوعاً ﴾ أو رياء ﴿ وكرهاً ﴾ أي نفاقاً ﴿ لن يتقبل منكم ﴾ لأن أعمال اللسان وغيره من الجوارح من غير عمل القلب ليست بمقبولة وإن كان عمل القلب بدون الجوارح مقبولاً لقوله صلى الله عليه وسلم " نية المؤمن أبلغ من عمله " وباقي الآيات إشارات إلى أن من أمارات النفاق عدم الرضا بقسمة الخلاق وحال المخلص بالعكس . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 487 ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/340)

الجزء الأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 60 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 60 ﴾ نفس الآية

(4/340)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر عن لمزهم في الصدقات وقرر ما هو خير لهم إرشاداً إلى النجاة ، علل فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيها وبين أنه لا يفعل غيره لأنه الحق الذي لا يجوز في شرعه الأكمل غيره لمزوا أو تركوا زهدوا أو رغبوا فقال معبراً بأداة القصر على ما ذكر : ﴿ إنما الصدقات ﴾ أي هذا الجنس بجميع ما صدق من أفراده ، والظاهر أنه قدم الأهم فالأهم ، فلذا قال الشافعي : إن الفقير أشدهم حاجة لكونه ابتدأ به ، فقال : ﴿ للفقراء ﴾ أي الذين لا شيء لهم أو لهم شيء يقع موقعاً من كفايتهم ﴿ والمساكين ﴾ أي الذين لا كفاية لهم

بدليل ﴿أما السفينة﴾ [الكهف : 79] وأما ﴿مسكيناً ذا متربة﴾ [البلد : 16]

فتقييده دل على أن المطلق بخلافه ﴿والعاملين عليها﴾ أي المؤتمنين في السعاية والولاية على جمعها ﴿والمؤلفة قلوبهم﴾ أي ليسلموا أو يسلم بسببهم غيرهم أو يثبتوا على إسلامهم؛ روى البخاري في التفسير وغيره عن أبي سعيد - رضى الله عنهم - قال: "بعث إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - بشيء فقسمه بين أربعة وقال: أتألفهم، فقال رجل: ما عدلت! فقال: يخرج من ضئضىء هذا قوم يمرقون من الدين.

وفي رواية: فاستأذنه رجل في ضرب عنقه فقال: لا، دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم - الحديث.

ولئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد" ولا يقال: إن العلة مقتضية لقتلهم لا للكف عنهم فإن عمله بالمقام الخضري - كما تقدم - أنه ما من كرامة لنبي إلا وله - صلى الله عليه وسلم - مثلها أو أعلى منها بنفسه أو بأحد من أمته.

(5/340)

ولما فرغ من هذه الأصناف الأربعة الذين يعطون الصدقة في أيديهم يتصرفون فيها كيف شاؤوا، كما دل عليه التعبير باللام، ذكر الذين يعطون الصدقة لقضاء ما بهم كما دل عليه

التعبير ب " في " فقال : ﴿ وفي الرقاب ﴾ أي والمكاتبين بسبب فك رقابهم من الرق ﴿ والغارمين ﴾ أي الذين استدانوا في غير معصية ، يصرف ما يعطونه إلى قضاء ديونهم فقط ﴿ وفي ﴾ أي والمجاهدين في ﴿ سبيل الله ﴾ أي الذي له الأمر كله بالنفقة والحمل والإعانة بالسلاح وغير ذلك ، ونقل القفال عن بعض الفقهاء أنه عمم السبيل فأجاز صرفه إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وعمارة المساجد ونحوها ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن بلده ، يعطى ما يوصله إليه ، ففيه إشارة إلى أن رسولنا ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يفعل ما أدى إلى لمزهم له بسببه إلا بأمر حقاً ، فإنا قد عينّا له أهل الصدقات فهو لا يعدل عنهم لشيء من الأشياء لأنه واقف عند ما يرضينا ، فإن كانوا منهم أعطاهم وإلا منعهم رضي من رضي وسخط من سخط ، وقد فرض ذلك ، أو ثابتة للفقراء حال كونها ﴿ فريضة ﴾ كائنة ﴿ من الله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً لعلمه بأن في ذلك أعظم صلاح ، وهذا كالزجر عن مخالفة الظاهر ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المؤمنين ﴿ حكيم ﴾ أي فهو يجعل أفعاله من الإحكام بحيث لا يقدر غيره على نقضها ؛ قال أبو حيان : " إنما " إن كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها ، وإن كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به ، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه .

وحكمة الزكاة من جهة المالك أن المال محبوب لأنه يحصل المحبوب والتمادي في حبه يوجب الإعراض عن الله المعطي له ، فكان من الحكمة تذكير المالك له بالمالك الحقيقي في أنه أوجب عليه إخراج طائفة منه ليكف منه انصباب النفس بالكلية إليه ويطهر النفس عن محبتها له ويطهره عن محض الإنفاق في الشهوات ، ومن جهة الآخذ أنه لما اجتمعت حاجته إليه وحاجة – المالك – ولو احتمالاً – كان هناك سببان للتسلط على المال : أحدهما اكتساب المالك له ، والثاني احتياج الآخذ إليه ، فروعي السببان بقدر الإمكان ، ورجح المالك بإبقاء الكثير ، وصرف إلى الآخذ اليسير .

وأجرى الشافعي الآية على ظاهرها فقال : إن أخرجها ذو المال سقط سهم العامل مع سهم المؤلفة وصرف إلى الستة الأصناف ، وإن قسم الإمام فعلى سبعة ، ويجب أن يعطى من كل صنف ثلاثة أنفس ، ومن لم يوجد من الأصناف رد نصيبه على الباقين ويستوي بين الأصناف لا بين آحاد الصنف .

وقال أبو حنيفة : يجوز صرف الكل لواحد من الأصناف لأن الآية أوجبت أن لا تخرج الصدقة عنهم ، لا أن تكون في جميع الأصناف – وهو قول عمر بن الخطاب وحذيفة وابن

عباس ـ رضى الله عنهم ـ م وسعيد بن جبير وعطاء وأبي العالية وميمون بن مهران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 336 ـ 338 ﴾

(7/340)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ أذن خير ﴾ كلاهما بالرفع والتنوين : الأعشى والمفضل . الباقون : بالإضافة . ﴿ ورحمة ﴾ بالجر : حمزة الآخرون : بالرفع ﴿ ألم تعلموا ﴾ بتاء الخطاب : جبلة عن المفضل الباقون : بياء الغيبة ﴿ إن نعف ﴾ ﴿ نعذب ﴾ كلاهما بالنون ونصب ﴿ طائفة ﴾ عاصم غير المفضل . الباقون : على البناء للمفعول بياء الغيبة في الأول ، وبتاء التأنيث في التالي .

الوقوف : ﴿ وابن السبيل ﴾ ط أي فرض الله ﴿ فريضة من الله ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ هو أذن ﴾ ط ﴿ آمنوا منكم ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ ليرضوكم ﴾ ط لاحتمال الواو الحال أو الاستئناف . ﴿ مؤمنين ﴾ ه ﴿ خالداً فيها ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ بما في قلوبهم ﴾ ط ﴿ استهزؤا ﴾ ط لاحتمال الهمزة في " إن " للتعليل ﴿ يحذرون ﴾ ه ﴿

ونلعب ﴿ ط ﴿ تستهزؤون ﴾ ه ﴿ بعد إيمانكم ﴾ ط ﴿ مجرمين ﴾ ه ﴿ من بعض ﴾ ط كيلا تصير الجملة صفة لبعض المنافقين وهي صفة لكلهم ﴿ أيديهم ﴾ ط ﴿ فنسيهم ﴾ ط ﴿ الفاسقون ﴾ ه ﴿ فيها ﴾ ط ﴿ حسبهم ﴾ ط لاختلاف النظم مع اتحاد المقصود في إتمام الجزاء ﴿ ولعنهم الله ﴾ ج لذلك ﴿ مقيم ﴾ ه لا بناء على تعلق الكاف ﴿ وأولاداً ﴾ ط ﴿ خاضوا ﴾ ط ﴿ والآخرة ﴾ ج ﴿ الخاسرون ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 488. 489 ﴾

(8/340)

فصل

قال الفخر:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

اعلم أن المنافقين لما لمزوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الصدقات، بين لهم أن مصرف الصدقات هؤلاء، ولا تعلق لي بها، ولا آخذ لنفسي نصيباً منها، فلم يبق لهم طعن في الرسول بسبب أخذ الصدقات.

وههنا مقامات:

المقام الأول : بيان الحكمة في أخذ القليل من أموال الأغنياء ، وصرفها إلى المحتاجين من الناس .

والمقام الثاني : بيان حال هؤلاء الأصناف الثمانية المذكورين في هذه الآية .

أما المقام الأول : فنقول : الحكمة في إيجاب الزكاة أمور ، بعضها مصالح عائدة إلى معطى الزكاة .

وبعضها عائدة إلى آخذ الزكاة .

أما القسم الأول : فهو أمور : الأول : أن المال محبوب بالطبع ، والسبب فيه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها ، ولعينها لا لغيرها لأنه لا يمكن أن يقال : إن كل شيء فهو محبوب لمعنى آخر وإلا لزم ، إما التسلسل وإما الدور ، وهما محالان ، فوجب الانتهاء في الأشياء المحبوبة إلى ما يكون محبوباً لذاته .

والكمال محبوب لذاته ، والنقصان مكروه لذاته فلما كانت القدرة صفة كمال ، وصفة الكمال محبوبة لذاتها ، كانت القدرة محبوبة لذاتها .

والمال سبب لحصول تلك القدرة ، ولكمالها في حق البشر فكان أقوى أسباب القدرة في حق البشر هو المال ، والذي يتوقف عليه المحبوب فهو محبوب ، فكان المال محبوباً ، فهذا هو السبب في كونه محبوباً إلا أن الاستغراق في حبه يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة فاقتضت حكمة الشرع تكليف مالك المال بإخراج طائفة منه من يده ، ليصير ذلك الإخراج كسراً من شدة الميل إلى المال ، ومنعاً من انصراف النفس بالكلية إليها وتنبيهاً لها على أن سعادة الإنسان لا تحصل عند الاشتغال بطلب المال وإنما تحصل بإنفاق المال في طلب مرضاة الله تعالى فإيجاب الزكاة علاج صالح متعين لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب ، فالله سبحانه أوجب الزكاة لهذه الحكمة .

وهو المراد من قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : 103] أي تطهرهم وتزكيهم عن الاستغراق في طلب الدنيا .

والوجه الثاني : وهو أن كثرة المال ، توجب شدة القوة وكمال القدرة ، وتزايد المال يوجب تزايد القدرة ، وتزايد القدرة يوجب تزايد الالتذاذ بتلك القدرة ، وتزايد تلك اللذات ، يدعو الإنسان إلى أن يسعى في تحصيل المال الذي صار سبباً لحصول هذه اللذات المتزايدة ، وبهذا الطريق تصير المسألة مسألة الدور ، لأنه إذا بالغ في السعي ازداد المال وذلك يوجب ازدياد القدرة ، وهو يوجب ازدياد اللذة وهو يحمل الإنسان على أن يزيد في طلب المال ، ولما صارت المسألة مسألة الدور ، لم يظهر لها مقطع ولا آخر ، فأثبت الشرع لها

مقطعاً وآخراً وهو أنه أوجب على صاحبه صرف طائفة من تلك الأموال إلى الإنفاق في طلب مرضاة الله تعالى ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلماني الذي لا آخر له ويتوجه إلى عالم عبودية الله وطلب رضوانه .

(10/340)

والوجه الثالث : أن كثرة المال سبب لحصول الطغيان والقسوة في القلب ، وسببه ما ذكرنا من أن كثرة المال سبب لحصول القدرة ، والقدرة محبوبة لذاتها ، والعاشق إذا وصل لمعشوقه استغرق فيه ، فالإنسان يصير غرقاً في طلب المال ، فإن عرض له مانع يمنعه عن طلبه استعان بماله وقدرته على دفع ذلك المانع ، وهذا هو المراد بالطغيان ، وإليه الإشارة بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّءاهُ استغنى ﴾ [العلق : 6 ، 7] فإيجاب الزكاة يقلل الطغيان ويرد القلب إلى طلب رضوان الرحمن .

والوجه الرابع : أن النفس الناطقة لها قوتان ، نظرية وعملية ، فالقوة النظرية كمالها في التعظيم لأمر الله ، والقوة العملية كمالها في الشفقة على خلق الله ، فأوجب الله الزكاة ليحصل لجوهر الروح هذا الكمال وهو اتصافه بكونه محسناً إلى الخلق ساعياً في إيصال الخيرات إليهم دافعاً للآفات عنهم ، ولهذا السر قال عليه الصلاة والسلام : " تخلقوا بأخلاق

الله "

والوجه الخامس : أن الخلق إذا علموا في الإنسان كونه ساعياً في إيصال الخيرات إليهم ، وفي دفع الآفات عنهم أحبوه بالطبع ومالت نفوسهم إليه لا محالة ، على ما قاله عليه الصلاة والسلام : " جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها " فالفقراء إذا علموا أن الرجل الغني يصرف إليهم طائفة من ماله ، وأنه كلما كان ماله أكثر كان الذي يصرفه إليهم من ذلك المال أكثر ، أمدوه بالدعاء والهمة ، وللقلوب آثار وللأرواح حرارة فصارت تلك الدعوات سبباً لبقاء ذلك الإنسان في الخير والخصب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ الناس فَيَمْكُثُ فِى الأرض ﴾ [الرعد : 17] وبقوله عليه الصلاة والسلام : " حصنوا أموالكم بالزكاة "

(11/340)

والوجه السادس : أن الاستغناء عن الشيء أعظم من الاستغناء بالشيء ، فإن الاستغناء بالشيء يوجب الاحتياج إليه ، إلا أنه يتوسل به إلى الاستغناء عن غيره ، فأما الاستغناء عن الشيء فهو الغنى التام ، ولذلك فإن الاستغناء عن الشيء صفة الحق ، والاستغناء بالشيء صفة الخلق ، فالله سبحانه لما أعطى بعض عبيده أموالاً كثيرة فقد رزقه نصيباً

وافراً من باب الاستغناء بالشيء .

فإذا أمره بالزكاة كان المقصود أن ينقله من درجة الاستغناء بالشيء ، إلى المقام الذي هو أعلى منه ، وأشرف منه وهو الاستغناء عن الشيء .

والوجه السابع : أن المال سمي مالاً لكثرة ميل كل أحد إليه ، فهو غاد ورائح ، وهو سريع الزوال مشرف على التفرق ، فما دام يبقى في يده كان كالمشرف على الهلاك والتفرق .

فإذا أنفقه الإنسان في وجوه البر والخير والمصالح بقي بقاء لا يمكن زواله ، فإنه يوجب المدح الدائم في الدنيا والثواب الدائم في الآخرة ، وسمعت واحداً يقول : الإنسان لا يقدر أن يذهب بذهبه إلى القبر ، فقلت بل يمكنه ذلك فإنه إذا أنفقه في طلب الرضوان الأكبر فقد ذهب به إلى القبر وإلى القيامة .

والوجه الثامن : وهو أن بذل المال تشبه بالملائكة والأنبياء ، وإمساكه تشبه بالبخلاء المذمومين ، فكان البذل أولى .

والوجه التاسع : أن إفاضة الخير والرحمة من صفات الحق سبحانه وتعالى ، والسعي في تحصيل هذه الصفة بقدر القدرة تخلق بأخلاق الله ، وذلك منتهى كمالات الإنسانية .

والوجه العاشر : أن الإنسان ليس له إلا ثلاثة أشياء : الروح والبدن والمال .

فإذا أمر بالإيمان فقد صار جوهر الروح مستغرقاً في هذا التكليف .

ولما أمر بالصلاة فقد صار اللسان مستغرقاً بالذكر والقراءة ، والبدن مستغرقاً في تلك

الأعمال ، بقي المال ؛ فلو لم يصر المال مصروفاً إلى أوجه البر والخير لزم أن يكون شح الإنسان بماله فوق شحه بروحه وبدنه ، وذلك جهل ، لأن مراتب السعادات ثلاثة : أولها : السعادات الروحانية .

(12/340)

وثانيها : السعادات البدنية وهي المرتبة الوسطى .

وثالثها : السعادات الخارجية وهي المال والجاه .

فهذه المراتب تجري مجرى خادم السعادات النفسانية ، فإذا صار الروح مبذولاً في مقام العبودية ، ثم حصل الشح ببذل المال لزم جعل الخادم في مرتبة أعلى من المخدوم الأصلي ، وذلك جهل .

فثبت أنه يجب على العاقل أيضاً بذل المال في طلب مرضاة الله تعالى .

والوجه الحادي عشر : أن العلماء قالوا : شكر النعمة عبارة عن صرفها إلى طلب مرضاة المنعم ، والزكاة شكر النعمة ، فوجب القول بوجوبها لما ثبت أن شكر المنعم واجب .

والوجه الثاني عشر : أن إيجاب الزكاة يوجب حصول الإلف بالمودة بين المسلمين ، وزوال الحقد والحسد عنهم ، وكل ذلك من المهمات ، فهذه وجوه معتبرة في بيان الحكمة الناشئة

من إيجاب الزكاة العائدة إلى معطي الزكاة ، فأما المصالح العائدة من إيجاب الزكاة إلى من يأخذ الزكاة فهي كثيرة ، الأول : أن الله تعالى خلق الأموال ، وليس المطلوب منها أعيانها وذواتها .

فإن الذهب والفضة لا يمكن الانتفاع بهما في أعيانهما إلا في الأمر القليل ، بل المقصود من خلقهما أن يتوسل بهما إلى تحصيل المنافع ودفع المفاسد ، فالإنسان إذا حصل له من المال بقدر حاجته كان هو أولى بإمساكه لأنه يشاركه سائر المحتاجين في صفة الحاجة ، وهو ممتاز عنهم بكونه ساعياً في تحصيل ذلك المال ، فكان اختصاصه بذلك المال أولى من اختصاص غيره ، وأما إذا فضل المال على قدر الحاجة ، وحضر إنسان آخر محتاج ، فههنا حصل سببان كل واحد منهما يوجب تملك ذلك المال .

أما في حق المالك ، فهو أنه سعى في اكتسابه وتحصيله ، وأيضاً شدة تعلق قلبه به ، فإن ذلك التعلق أيضاً نوع من أنواع الحاجة .

وأما في حق الفقير ، فاحتياجه إلى ذلك المال يوجب تعلقه به ، فلما وجد هذان السببان المتدافعان اقتضت الحكمة الإلهية رعاية كل واحد من هذين السببين بقدر الإمكان .

(13/340)

فيقال حصل للمالك حق الاكتساب وحق تعلق قلبه به ، وحصل للفقير حق الاحتياج ، فرجحنا جانب المالك ، وأبقينا عليه الكثير وصرفنا إلى الفقير يسيراً منه توفيقاً بين الدلائل بقدر الإمكان .

الثاني : أن المال الفاضل عن الحاجات الأصلية إذا أمسكه الإنسان في بيته بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال ، وذلك سعي في المنع من ظهور حكمة الله تعالى ، وهو غير جائز ، فأمر الله بصرف طائفة منه إلى الفقير حتى لا تصير تلك الحكمة معطلة بالكلية .

الثالث : أن الفقراء عيال الله لقوله تعالى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] والأغنياء خزان الله لأن الأموال التي في أيديهم أموال الله ، ولولا أن الله تعالى ألقاها في أيديهم وإلا لما ملكوا منها حبة ، فكم من عاقل ذكي يسعى أشد السعي ، ولا يملك ملء بطنه طعاماً ، وكم من أبله جلف تأتيه الدنيا عفواً صفواً .

إذا ثبت هذا فليس بمستبعد أن يقول الملك لخازنه : اصرف طائفة مما في تلك الخزانة إلى المحتاجين من عبيدي .

الوجه الرابع : أن يقال : المال بالكلية في يد الغني مع أنه غير محتاج إليه ، وإهمال جانب الفقير العاجز عن الكسب بالكلية ؛ لا يليق بحكمة الحكيم الرحيم ، فوجب أن يجب على الغني

صرف طائفة من ذلك المال إلى الفقير .

الوجه الخامس : أن الشرع لما أبقى في يد المالك أكثر ذلك المال وصرف إلى الفقير منه جزأ قليلاً ، تمكن المالك من جبر ذلك النقصان بسبب أن يتجر بما بقي في يده من ذلك المال ويربح ويزول ذلك النقصان .

أما الفقير ليس له شيء أصلاً ، فلو لم يصرف إليه طائفة من أموال الأغنياء لبقي معطلاً وليس له ما يجبره ، فكان ذلك أولى .

(14/340)

الوجه السادس : أن الأغنياء لو لم يقوموا بإصلاح مهمات الفقراء فربما حملهم شدة الحاجة ومضرة المسكنة على الالتحاق بأعداء المسلمين ، أو على الإقدام على الأفعال المنكرة كالسرقة وغيرها فكان إيجاب الزكاة يفيد هذه الفائدة فوجب القول بوجوبها .

الوجه السابع : قال عليه الصلاة والسلام : " الإيمان نصفان ، نصف صبر ونصف شكر " والمال محبوب بالطبع ، فوجدانه يوجب الشكر وفقدانه يوجب الصبر ، وكأنه قيل : أيها الغني أعطيتك المال فشكرت فصرت من الشاكرين ، فأخرج من يدك نصيباً منه حتى تصبر على فقدان ذلك المقدار فتصير بسببه من الصابرين ، وأيها الفقير ما أعطيتك الأموال

الكثيرة فصبرت فصرت من الصابرين ، ولكني أوجب على الغني أن يصرف إليك طائفة من ذلك المال حتى إذا دخل ذلك المقدار في ملكك شكرتني ، فصرت من الشاكرين ، فكان إيجاب الزكاة سبباً في جعل جميع المكلفين موصوفين بصفة الصبر والشكر معاً .

الوجه الثامن : كأنه سبحانه يقول للفقير إن كنت قد منعتك الأموال الكثيرة ، ولكني جعلت نفسي مديوناً من قبلك ، وإن كنت قد أعطيت الغني أموالاً كثيرة لكني كلفته أن يعدوا خلفك ، وأن يتضرع إليك حتى تأخذ ذلك القدر منه ، فتكون كالمنعم عليه بأن خلصته من النار .

فإن قال الغني : قد أنعمت عليك بهذا الدينار ، فقل أيها الفقير بل أنا المنعم عليك حيث خلصتك في الدنيا من الذم والعار ، وفي الآخرة من عذاب النار ، فهذه جملة من الوجوه في حكمة إيجاب الزكاة بعضها يقينية ، وبعضها إقناعية ، والعالم بأسرار حكم الله وحكمته ليس إلا الله ، والله أعلم .

المقام الثاني : في تفسير هذه الآية وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ الآية تدل على أنه لا حق في الصدقات لأحد إلا لهذه الأصناف الثمانية ، وذلك مجمع عليه ، وأيضاً فلفظة ﴿ إِنَّمَا ﴾ تفيد الحصر ويدل عليه وجوه : الأول : أن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ مركبة من "إن" و "ما" وكلمة إن للإثبات وكلمة ما للنفي ، فعند اجتماعهما وجب بقاؤهما على هذا المفهوم ، فوجب أن يفيدا ثبوت المذكور ، وعدم ما يغايره .

الثاني : أن ابن عباس تمسك في نفي ربا الفضل بقوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الربا في النسيئة " ولولا أن هذا اللفظ يفيد الحصر ، وإلا لما كان الأمر كذلك ، وأيضاً تمسك بعض الصحابة في أن الإكسال لا يوجب الاغتسال بقوله عليه الصلاة والسلام : " إنما الماء من الماء " ولولا أن هذه الكلمة تفيد الحصر وإلا لما كان كذلك .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الله إله واحد ﴾ [النساء : 171] والمقصود بيان نفي الإلهية للغير

والثالث : الشعر .

قال الأعشى :

ولست بالأكثر منهم حصى . . وإنما العزة للكاثر

وقال الفرزدق :

أنا الذائد الحامي الذمار وإنما . . يدافع عن أحسابهم أنا أو مثلي

فثبت بهذه الوجوه أن كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ للحصر ، ومما يدل على أن الصدقات لا تصرف إلا

لهذه الأصناف الثمانية أنه عليه الصلاة والسلام قال لرجل : " إن كنت من الأصناف الثمانية فلك فيها حق وإلا فهو صداع في الرأس ، وداء في البطن " وقال : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي "

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى لما أخبر عن المنافقين أنهم يلمزون الرسول عليه السلام في أخذ الصدقات ، بين تعالى أنه إنما يأخذها لهؤلاء الأصناف الثمانية ، ولا يأخذها لنفسه ولا لأقاربه ومتصليه ، وقد بينا أن أخذ القليل من مال الغني ليصرف إلى الفقير في دفع حاجته هو الحكمة المعينة ، والمصلحة اللازمة ، وإذا كان الأمر كذلك كان همز المنافقين ولمزهم عين السفه والجهالة .

(16/340)

فكان عليه الصلاة والسلام يقول : " ما أوتيكم شيئاً ولا أمنعكم ، إنما أنا خازن أضع حيث أمرت "

المسألة الثالثة :

مذهب أبي حنيفة رحمه الله : أنه يجوز صرف الصدقة إلى بعض هؤلاء الأصناف فقط ،

وهو قول عمر وحذيفة وابن عباس وسعيد بن جبير وأبي العالية والنخعي ، وعن سعيد بن جبير لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فحبوتهم بها كان أحب إلي ، وقال الشافعي رحمه الله : لا بد من صرفها إلى الأصناف الثمانية ، وهو قول عكرمة والزهري وعمر ابن عبد العزيز : واحتج بأنه تعالى ذكر هذه القسمة في نص الكتاب .

ثم أكدها بقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ قال : ولا بد في كل صنف من ثلاثة ، لأن أقل الجمع ثلاثة ، فإن دفع سهم الفقراء إلى فقيرين ضمن نصيب الثالث وهو ثلث سهم الفقراء .

قال : ولا بد من التسوية في أنصباء هذه الأصناف الثمانية ، مثل أنك إن وجدت خمسة أصناف ولزمك أن تتصدق بعشرة دراهم ، جعلت العشرة خمسة أسهم كل سهم درهمان ، ولا يجوز التفاضل .

ثم يلزمك أن تدفع إلى كل صنف درهمين وأقل عددهم ثلاثة ، ولا يلزمك التسوية بينهم ، فلك أن تعطي فقيراً درهماً وفقيراً خمسة أسداس درهم وفقيراً سدس درهم ، هذه صفة قسمة الصدقات على مذهب الشافعي رحمه الله .

قال المصنف الداعي إلى الله رضي الله عنه : الآية لا دلالة فيها على قول الشافعي رحمه الله ، لأنه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الأصناف الثمانية ، وذلك لا يقتضي في صدقة زيد بعينه أن تكون لجملة هؤلاء الثمانية .

والدليل عليه العقل والنقل .

أما النقل : فقوله تعالى : ﴿ واعلموا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] الآية ، فأثبت خمس الغنيمة لهؤلاء الطوائف الخمس ، ثم لم يقل أحد إن كل شيء يغنم بعينه فإنه يجب تفرقته على هذه الطوائف ، بل اتفقوا على أن المراد إثبات مجموع الغنيمة لهؤلاء الأصناف ، فإما أن يكون كل جزء من أجزاء الغنيمة موزعاً على كل هؤلاء فلا ، فكذا ههنا مجموع الصدقات تكون لمجموع هذه الأصناف الثمانية .

فإما أن يقال : إن صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على هذه الأصناف الثمانية ، فاللفظ لا يدل عليه ألبتة .

وأما العقل : فهو أن الحكم الثابت في مجموع لا يوجب ثبوته في كل جزء من أجزاء ذلك المجموع ، ولا يلزم أن لا يبقى فرق بين الكل وبين الجزء .

فثبت بما ذكرنا أن لفظ الآية لا دلالة فيه على ما ذكره ، والذي يدل على صحة قولنا وجوه :

الأول : أن الرجل الذي لا يملك إلا عشرين ديناراً لما وجب عليه إخراج نصف دينار ، فلو كلفناه أن نجعله على أربعة وعشرين قسماً لصار كل واحد من تلك الأقسام حقيراً صغيراً غير منتفع به في مهم معتبر .

الثاني : أن هذا التوقيف لو كان معتبراً لكان أولى الناس برعايته أكابر الصحابة ، ولو كان الأمر كذلك لوصل هذا الخبر إلى عمر بن الخطاب وإلى ابن عباس وحذيفة وسائر الأكابر ، ولو كان كذلك لما خالفوا فيه ، وحيث خالفوا فيه علمنا أنه غير معتبر .

(18/340)

الثالث : وهو أن الشافعي رحمه الله له اختلاف رأي في جواز نقل الصدقات أما لم يقل أحد بوجوب نقل الصدقات ، فالإنسان إذا كان في بعض القرى ولا يكون هناك مكاتب ولا مجاهد غاز ولا عامل ولا أحد من المؤلفة ، ولا يمر به أحد من الغرباء ، واتفق أنه لم يحضر في تلك القرية من كان مديوناً فكيف تكليفه ؟ فإن قلنا : وجب عليه أن يسافر بما وجب عليه من الزكاة إلى بلد يجد هذه الأصناف فيه ، فذاك قول لم يقل به أحد ! وإذا أسقطنا عنه ذلك فحينئذ يصح قولنا فهذا ما نقوله في هذا الباب ، والله أعلم .

المسألة الرابعة :

في تعريف الأصناف الثمانية ، فالأول والثاني هم الفقراء والمساكين ، ولا شك أنهم هم المحتاجون الذي لا يفي خرجهم بدخلهم .

ثم اختلفوا فقال بعضهم : الذي يكون أشد حاجة هو الفقير ؛ وهو قول الشافعي رحمه الله

وأصحابه .

وقال آخرون : الذي أشد حاجة هو المسكين ، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله ، ومن الناس من قال : لا فرق بين الفقراء والمساكين ، والله تعالى وصفهم بهذين الوصفين ، والمقصود شيء واحد وهو قول أبي يوسف ومحمد رحمهما الله ، واختيار أبي علي الجبائي ، وفائدته تظهر في هذه المسألة ، وهو أنه لو أوصى لفلان وللفقراء والمساكين ، فالذين قالوا : الفقراء غير المساكين قالوا لفلان الثلث ، والذين قالوا : الفقراء هم المساكين قالوا لفلان النصف .

وقال الجبائي : إنه تعالى ذكرهم باسمين لتوكيد أمرهم في الصدقات لأنهم هم الأصول في الأصناف الثمانية .

وأيضاً الفائدة فيه أن يصرف إليهم من الصدقات سهمان لا كسائرهم .

واعلم أن فائدة هذا الاختلاف لا تظهر في تفرقة الصدقات وإنما تظهر في الوصايا ، وهو أن رجلاً لو قال : أوصيت للفقراء بمائتين وللمساكين بخمسين ، وجب دفع المائتين عند الشافعي رحمه الله من كان أشد حاجة ، وعند أبي حنيفة رحمه الله إلى من كان أقل حاجة ، وحجة الشافعي رحمه الله وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى إنما أثبت الصدقات لهؤلاء الأصناف دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم ، وهذا يدل عى أن الذي وقع الابتداء بذكره يكون أشد حاجة ، لأن الظاهر وجوب تقديم الأهم على المهم ألا ترى أنه يقال : أبو بكر وعمر ومن فضل عثمان على علي عليه السلام قال في ذكرهما عثمان وعلي ، ومن فضل علياً على عثمان يقول علي وعثمان ، وأنشد عمر قول الشاعر :

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً . . فقال هلا قدم الإسلام على الشيب ؟ فلما وقع الابتداء بذكر الفقراء وجب أن تكون حاجتهم أشد من حاجة المساكين .

الوجه الثاني : قال أحمد بن عبيد الفقير أسوأ حالاً من المسكين ، لأن الفقير أصله في اللغة المفقور الذي نزعت فقرة من فقار ظهره ، فصرف عن مفقور إلى فقير كما قيل : مطبوخ وطبيخ ، ومجروح وجريح ، فثبت أن الفقير إنما سمي فقيراً لزمانته مع حاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ومعلوم أنه لا حال في الإقلال والبؤس آكد من هذه الحال وأنشدوا للبيد :

لما رأى لبد النسور تطايرت . . رفع القوادم كالفقير الأعزل

قال ابن الأعرابي في هذا البيت الفقير المكسور الفقار ، يضرب مثلاً لكل ضعيف لا يتقلب في الأمور ، ومما يدل على إشعار لفظ الفقير بالشدة العظيمة قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴾ [القيامة : 24 ، 25] جعل لفظ الفاقرة كناية عن أعظم أنواع الشر والدواهي .

الوجه الثالث : ما روي أنه عليه الصلاة والسلام ، كان يتعوذ من الفقر ، وقال : " كاد الفقر أن يكون كفراً " ثم قال : " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين " فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لتناقض الحديثان ، لأنه تعوذ من الفقر ، ثم سأل حالاً أسوأ منه ، أما إذا قلنا الفقر أشد من المسكنة فلا تناقض ألبتة .

(20/340)

الوجه الرابع : أن كونه مسكيناً ، لا ينافي كونه مالكاً للمال بدليل قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين ﴾ [الكهف : 79] فوصف بالمسكنة من له سفينة من سفن البحر تساوي جملة من الدنانير ، ولم نجد في كتاب الله ما يدل على أن الإنسان سمي فقيراً مع أنه يملك شيئاً .

فإن قالوا : الدليل عليه قوله تعالى : ﴿ والله الغنى وَأَنتُمُ الفقراء ﴾ [محمد : 38] فوصف الكل بالفقر مع أنهم يملكون أشياء .

قلنا : هذا بالضد أولى لأنه تعالى وصفهم بكونهم فقراء بالنسبة إلى الله تعالى ، فإن أحداً

سوى الله تعالى لا يملك ألبتة شيئاً بالنسبة إلى الله فصح قولنا .

الوجه الخامس : قوله تعالى : ﴿ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 14 16] والمراد منه المسكين ذي المتربة الفقير الذي قد ألصق بالتراب من شدة الفقر ، فتقييد المسكين بهذا القيد يدل على أنه قد يحصل مسكين خال عن وصف كونه ﴿ ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ وإنما يكون كذلك بتقدير أن يملك شيئاً ، فهذا يدل على أن كونه مسكيناً لا ينافي كونه مالكاً لبعض الأشياء .

الوجه السادس : قال ابن عباس رضي الله عنهما ، الفقير هو المحتاج الذي لا يجد شيئاً ، قال : وهم أهل الصفة ، صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو أربعمائة رجل لا منزل لهم ، فمن كان من المسلمين عنده فضل أتاهم به إذا أمسوا ، والمساكين هم الطوافون الذين يسألون الناس .

وجه الاستدلال : أن شدة فقر أهل الصفة معلومة بالتواتر ، فلما فسر ابن عباس الفقراء بهم وفسر المساكين بالطوافين ، ثم ثبت أن أحوال المحتاج الذي لا يسأل أحداً شيئاً أشد من أحوال من يحتاج ، ثم يسأل الناس ويطوف عليهم ، ظهر أن الفقير يجب أن يكون أسوأ حالاً من المسكين .

الوجه السابع : أن المسكنة لفظ مأخوذ من السكون ، فالفقير إذا سأل الناس وتضرع إليهم وعلم أنه متى تضرع إليهم أعطوه شيئاً فقد سكن قلبه ، وزال عنه الخوف والقلق ، ويحتمل أنه سمي بهذا الاسم ؛ لأنه إذا أجيب بالرد ومنع سكن ولم يضطرب وأعاد السؤال ، فلهذا السبب جعل التمسكن كناية عن السؤال والتضرع عند الغير ، ويقال : تمسكن الرجل إذا لان وتواضع ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام للمصلي : " تأن وتمسكن " يريد تواضع وتخشع ، فدل هذا على أن المسكين هو السائل .

إذا ثبت هذا فنقول : إنه تعالى قال في آية أخرى : ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] فلما ثبت بما ذكرنا ههنا أن المسكين هو السائل ، وجب أن يكون المحروم هو الفقير ، ولا شك أن المحروم مبالغة في تقرير أمر الحرمان ، فثبت أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين .

الوجه الثامن : أنه عليه الصلاة والسلام قال : " أحيني مسكيناً " الحديث ، والظاهر أنه تعالى أجاب دعاءه فأماته مسكيناً ، وهو عليه الصلاة والسلام حين توفي كان يملك أشياء كثيرة فدل هذا على أن كونه مسكيناً لا ينافي كونه مالكاً لبعض الأشياء ، أما الفقير فإنه يدل على الحاجة الشديدة لقوله عليه الصلاة والسلام : " كاد الفقر أن يكون كفراً " فثبت بهذا أن الفقر أشد حالاً من المسكنة .

الوجه التاسع : أن الناس اتفقوا على أن الفقر والغنى ضدان ، كما أن السواد والبياض ضدان ولم يقل أحد إن الغنى والمسكنة ضدان بل قالوا : الترفع والتمسكن ضدان ؛ فمن كان منقاداً لكل أحد خائفاً منهم متحملاً لشرهم ساكتاً عن جوابهم متضرعاً إليهم .

(22/340)

قالوا : إن فلاناً يظهر الذل والمسكنة ، وقالوا : إنه مسكين عاجز ، وأما الفقير فجعلوه عبارة عن ضد الغنى ، وعلى هذا فقد يصفون الرجل الغني بكونه مسكيناً ، إذا كان يظهر من نفسه الخضوع والطاعة وترك المعارضة ، وقد يصفون الرجل الفقير بكونه مترفعاً عن التواضع والمسكنة ، فثبت أن الفقر عبارة عن عدم المال والمسكنة عبارة عن إظهار التواضع ، والأول ينافي حصول المال ، والثاني لا ينافي حصوله .

الوجه العاشر : قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ في الزكاة : " خذها من أغنيائهم ، وردها على فقرائهم " ولو كانت الحاجة في المساكين أشد ، لوجب أن يقول : وردها على مساكينهم ، لأن ذكر الأهم أولى ، فهذه الوجوه التي ذكرناها تدل على أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين ، واحتج القائلون بأن المسكين أسوأ حالاً من الفقير بوجوه : الأول : احتجوا بقوله تعالى :

﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] وصف المسكين بكونه ذا متربة ، وذلك يدل على نهاية الضر والشدة ، وأيضاً أنه تعالى جعل الكفارات من الأطعمة له ، ولا فاقة أعظم من الحاجة إلى إزالة الجوع .

الثاني : احتجوا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته . . وفق العيال فلم يترك له سَبَدُ

سماه فقيراً وله حلوبة .

الثالث : قالوا المسكين هو الذي يسكن حيث يحضر لأجل أنه ليس له بيت يسكن فيه وذلك يدل على نهاية الضر والبؤس .

الرابع : نقلوا عن الأصمعي وعن أبي عمرو بن العلاء أنهما قالا : الفقير الذي له ما يأكل . والمسكين الذي لا شيء له ، وقال يونس : الفقير قد يكون له بعض ما يكفيه والمسكين هو الذي لا شيء له ، وقلت لأعرابي أفقير أنت ؟ قال : لا والله بل مسكين .

(23/340)

والجواب : عن تمسكهم بالآية أنا بينا أن هذه الآية حجة لنا ، فإنه لما قيد المسكين المذكور ههنا بكونه ذا متربة دل ذلك على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة وإلا لم يبق لهذا القيد

فائدة قوله : أنه صرف الطعام الواجب في الكفارات إليه ، قلنا : نعم إنه أوجب صرفه إلى المسكين المقيد بقيد كونه ذا متربة ، وهذا لا يدل على أنه أوجب الصرف إلى مطلق المسكين .

والجواب عن استدلالهم ببيت الراعي أنه ذكر أن هذا الذي هو الآن موصوف بكونه فقيراً فقد كانت له حلوبه ثم السيد لم يترك له شيئاً ، فلم لا يجوز أن يقال كانت له حلوبة ثم لما لم يترك له شيء وصف بكونه فقيراً ؟

والجواب عن قولهم : المسكين هو الذي يسكن حيث يحضر لأجل أنه ليس له بيت .

قلنا : بل المسكين هو الطواف على الناس الذي يكثر إقدامه على السؤال ، وسمي مسكيناً إما لسكونه عندما ينتهرونه ويردونه ، وإما لسكون قلبه بسبب علمه أن الناس لا يضيعونه مع كثرة سؤاله إياهم ، وأما الروايات التي ذكروها عن أبي عمرو ويونس فهذا معارض بقول الشافعي وابن الأنباري رحمهما الله ، وأيضاً نقل القفال في "تفسيره" عن جابر بن عبد الله أنه قال : الفقراء فقراء المهاجرين ، والمساكين الذين لم يهاجروا ، وعن الحسن الفقير الجالس في بيته ، والمسكين الذي يسعى وعن مجاهد الفقير الذي لا يسأل ، والمسكين الذي يسأل ، وعن الزهري الفقراء هم المتعففون الذين لا يخرجون ، والمساكين الذين يسألون ، قال مولانا الداعي إلى الله : هذه الأقوال كلها متوافقة على أن الفقير لا يسأل ، والمسكين يسأل ، ومن سأل وجد ، فكان المسكين أسهل وأقل حاجة .

الصنف الثالث : قوله تعالى : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ وهم السعاة لجباية الصدقة ، وهؤلاء يعطون من الصدقات بقدر أجور أعمالهم ، وهو قول الشافعي رحمه الله ، وقول عبد الله بن عمر وابن زيد ، وقال مجاهد والضحاك : يعطون الثمن من الصدقات ، وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أن الشافعي رحمه الله يقول هذا أجرة العمل فيتقدر بقدر العمل ، والصحيح أن مولى الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات لينالـه منها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يبعث أبا رافع عاملاً على الصدقات ، وقال : أما علمت أن مولى القوم منهم .

وإنما قال : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ لأن كلمة على تفيد الولاية كما يقال فلان على بلد كذا إذا كان والياً عليه .

الصنف الرابع : قوله تعالى : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : هم قوم أشراف من الأحياء أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وكانوا خمسة عشر رجلاً ، أبو سفيان ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن ، وحويطب بن عبد العزى ، وسهل بن عمرو من بني عامر ، والحرث بن هشام ، وسهيل بن عمرو الجهني ، وأبو السنابل ، وحكيم

بن حزام .

ومالك بن عوف ، وصفوان بن أمية ، وعبد الرحمن بن يربوع ، والجد بن قيس ، وعمرو بن مرداس .

والعلاء بن الحرث أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل رجل منهم مائة من الإبل ورغبهم في الإسلام ، إلا عبد الرحمن بن يربوع أعطاه خمسين من الإبل وأعطى حكيم بن حزام سبعين من الإبل ، فقال : يا رسول الله ما كنت أرى أن أحداً من الناس أحق بعطائك مني فزاده عشرة ، ثم سأله فزاده عشرة ، وهكذا حتى بلغ مائة ، ثم قال حكيم : يا رسول الله أعطيتك الأولى التي رغبت عنها خير أم هذه التي قنعت بها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " بل التي رغبت عنها " فقال : والله لا آخذ غيرها : فقيل مات حكيم وهو أكثر قريش مالاً وشق على رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك العطايا لكن ألفهم بذلك .

(25/340)

قال المصنف رحمه الله : هذه العطايا إنما كانت يوم حنين ولا تعلق لها بالصدقات ، ولا أدري لأي سبب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما هذه القصة في تفسير هذه الآية ، ولعل المراد بيان أنه لا يمتنع في الجملة صرف الأموال إلى المؤلفة ، فأما أن يجعل ذلك تفسيراً

لصرف الزكاة إليهم فلا يليق بابن عباس ، ونقل القفال أن أبا بكر رضي الله عنه أعطى عدي بن حاتم لما جاءه بصدقاته وصدقات قومه أيام الردة ، وقال المقصود أن يستعين الإمام بهم على استخراج الصدقات من الملاك .

قال الواحدي : إن الله تعالى أغنى المسلمين عن تألف قلوب المشركين ، فإن رأى الإمام أن يؤلف قلوب قوم لبعض المصالح التي يعود نفعها على المسلمين إذا كانوا مسلمين جاز إذ لا يجوز صرف شيء من زكوات الأموال إلى المشركين ، فأما المؤلفة من المشركين فإنما يعطون من مال الفيء لا من الصدقات وأقول إن قول الواحدي إن الله أغنى المسلمين عن تألف قلوب المشركين بناء على أنه ربما يوهم أنه عليه الصلاة والسلام دفع قسماً من الزكاة إليهم لكنا بينا أن هذا لم يحصل ألبتة ، وأيضاً فليس في الآية ما يدل على كون المؤلفة مشركين بل قال : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ وهذا عام في المسلم وغيره ، والصحيح أن هذا الحكم غير منسوخ وأن للإمام أن يتألف قوماً على هذا الوصف ويدفع إليهم سهم المؤلفة لأنه [لا] دليل على نسخه ألبتة .

الصنف الخامس : قوله : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ قال الزجاج : وفيه محذوف ، والتقدير : وفي فك الرقاب وقد مضى الاستقصاء في تفسيره في سورة البقرة في قوله : ﴿ والسائلين وَفِي الرقاب ﴾ [البقرة : 177] ثم في تفسير الرقاب أقوال :

القول الأول : إن سهم الرقاب موضوع في المكاتبين ليعتقوا به ، وهذا مذهب الشافعي رحمه الله ، والليث بن سعد ، واحتجوا بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : قوله : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ يريد المكاتب وتأكد هذا بقوله تعالى : ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ [النور : 33] .

والقول الثاني : وهو مذهب مالك وأحمد وإسحق أنه موضوع لعتق الرقاب يشتري به عبيد فيعتقون .

والقول الثالث : قول أبي حنيفة وأصحابه وقول سعيد بن جبير والنخعي ، أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكنه يعطي منها في رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ يقتضي أن يكون له فيه مدخل وذلك ينافي كونه تاماً فيه .

والقول الرابع : قول الزهري : قال سهم الرقاب نصفان ، نصف للمكاتبين من المسلمين ، ونصف يشتري به رقاب ممن صلوا وصاموا ، وقدم إسلامهم فيعتقون من الزكاة ، قال أصحابنا : والاحتياط في سهم الرقاب دفعه إلى السيد بإذن المكاتب ، والدليل عليه أنه تعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة الذين تقدم ذكرهم بلام التمليك وهو قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ ولما ذكر الرقاب أبدل حرف اللام بحرف في فقال : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ فلا بد لهذا الفرق من فائدة ، وتلك الفائدة هي أن تلك الأصناف الأربعة

المتقدمة يدفع إليهم نصيبهم من الصدقات حتى يتصرفوا فيها كما شاؤوا وأما ﴿فِي الرقاب﴾ فيوضع نصيبهم في تخليص رقبتهم عن الرق ، ولا يدفع إليهم ولا يمكنوا من التصرف في ذلك النصيب كيف شاؤوا ، بل يوضع في الرقاب بأن يؤدي عنهم ، وكذا القول في الغارمين يصرف المال في قضاء ديونهم ، وفي الغزاة يصرف المال إلى إعداد ما يحتاجون إليه في الغزو وابن السبيل كذلك .

والحاصل : أن في الأصناف الأربعة الأول ، يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا فيه كما شاؤوا ، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم ، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة .

(27/340)

الصنف السادس : قوله تعالى : ﴿والغارمين﴾ قال الزجاج : أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق والغرام العذاب اللازم ، وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً ولازماً ، ومنه : فلان مغرم بالنساء إذا كان مولعاً بهن ، وسمي الدين غراماً لكونه شاقاً على الإنسان ولازماً له ، فالمراد بالغارمين المديونون ، ونقول : الدين إن حصل بسبب معصية لا يدخل في الآية ، لأن المقصود من صرف المال المذكور في الآية الإعانة ، والمعصية لا تستوجب الإعانة ، وإن

حصل لا بسبب معصية فهو قسمان : دين حصل بسبب نفقات ضرورية أو في مصلحة ، ودين حصل بسبب حمالات وإصلاح ذات بين ، والكل داخل في الآية ، وروى الأصم في "تفسيره" أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قضى بالغرة في الجنين ، قال العاقلة : لا نملك الغرة يا رسول الله قال لحمد بن مالك بن النابغة :

" أعنهم بغرة من صدقاتهم " وكان حمد على الصدقة يومئذ .

الصنف السابع : قوله تعالى : ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ قال المفسرون : يعني الغزاة .

قال الشافعي رحمه الله : يجوز له أن يأخذ من مال الزكاة وإن كان غنياً وهو مذهب مالك وإسحق وأبي عبيد .

وقال أبو حنيفة وصاحباه رحمهم الله : لا يعطى الغازي إلا إذا كان محتاجاً .

واعلم أن ظاهر اللفظ في قوله : ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ لا يوجب القصر على كل الغزاة ، فلهذا المعنى نقل القفال في "تفسيره" عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد ، لأن قوله : ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ عام في الكل .

والصنف الثامن : ابن السبيل قال الشافعي رحمه الله : ابن السبيل المستحق للصدقة وهو الذي يريد السفر في غير معصية فيعجز عن بلوغ سفره إلا بمعونة .

قال الأصحاب : ومن أنشأ السفر من بلده لحاجة ، جاز أن يدفع إليه سهم ابن السبيل ،

فهذا هو الكلام في شرح هذه الأصناف الثمانية .

المسألة الخامسة :

في أحكام هذه الأقسام .

الحكم الأول

(28/340)

اتفقوا على أن قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقات ﴾ دخل فيه الزكاة الواجبة ، لأن الزكاة الواجبة مسماة بالصدقة ، قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ [التوبة : 103] وقال عليه الصلاة والسلام : " ليس فيما دون خمسة ذود وليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " واختلفوا في أنه هل تدخل فيها الصدقة المندوبة فمنهم من قال : تدخل فيها لأن لفظ الصدقة مختص بالمندوبة فإذا أدخلنا فيه الزكاة الواجبة فلا أقل من أن تدخل فيه أيضاً الصدقة المندوبة وتكون الفائدة أن مصارف جميع الصدقات ليس إلا هؤلاء ، والأقرب أن المراد من لفظ الصدقات ههنا هو الزكوات الواجبة ويدل عليه وجوه : الأول : أنه تعالى أثبت هذه الصدقات بلام التمليك للأصناف الثمانية ، والصدقة المملوكة لهم ليست إلا الزكاة الواجبة ، الثاني : أن ظاهر هذه الآية يدل على أن مصرف الصدقات ليس إلا لهؤلاء

الثمانية ، وهذا الحصر إنما يصح لو حملنا هذه الصدقات على الزكوات الواجبة ، أما لو أدخلنا فيها المندوبات لم يصح هذا الحصر ، لأن الصدقات المندوبة يجوز صرفها إلى بناء المساجد ، والرباطات ، والمدارس ، وتكفين الموتى وتجهيزهم وسائر الوجوه .

الثالث : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاءِ ﴾ إنما يحسن ذكره لو كان قد سبق بيان تلك الصدقات وأقسامها حتى ينصرف هذا الكلام إليه ، والصدقات التي سبق بيانها وتفصيلها هي الصدقات الواجبة فوجب انصراف هذا الكلام إليها .

الحكم الثاني

(29/340)

دلت هذه الآية على أن هذه الزكاة يتولى أخذها وتفرقتها الإمام ومن يلي من قبله ، والدليل عليه أن الله تعالى جعل للعاملين سهماً فيها ، وذلك يدل على أنه لا بد في أداء هذه الزكوات من عامل والعامل هو الذي نصبه الإمام لأخذ الزكوات ، فدل هذا النص على أن الإمام هو الذي يأخذ هذه الزكوات ، وتأكد هذا النص بقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ فالقول بأن المالك يجوز له إخراج زكاة الأموال الباطنة بنفسه إنما يعرف بدليل آخر ، ويمكن أن يتمسك في إثباته بقوله تعالى : ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ للسَّائِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات :

19] فإذا كان ذلك الحق حقاً للسائل والمحروم وجب أن يجوز له دفعه إليه ابتداء .

الحكم الثالث

نص القرآن يدل على أن العامل له في مال الزكاة حق ، واختلفوا في أن الإمام هل له فيه حق ؟ فمنهم من أثبته قال : لأن العامل إنما قدر على ذلك العمل بتقويته وإمارته ، فالعامل في الحقيقة هو الإمام ، ومنهم من منعه وقال : الآية دلت على حصر مال الزكاة في هؤلاء الثمانية ، والإمام خارج عنهم فلا يصرف هذا المال إليه .

الحكم الرابع

اختلفوا في هذا العامل إذا كان غنياً هل يأخذ النصيب ؟ قال الحسن : لا يأخذ إلا مع الحاجة وقال الباقون : يأخذ وإن كان غنياً لأنه يأخذه أجرة على العمل ، ثم اختلفوا فقال بعضهم : للعامل في مال الزكاة الثمن ، لأن الله تعالى قسم الزكاة على ثمانية أصناف فوجب أن يحصل له الثمن ، كما أن من أوصى بمال لثمانية أنفس حصل لكل واحد منهم ثمنه ، وقال الأكثرون : بل حقه بقدر مؤنته عند الجباية والجمع .

الحكم الخامس

اتفقوا على أن مال الزكاة لا يخرج عن هذه الثمانية واختلفوا أنه هل يجوز وضعه في بعض الأصناف فقط ؟ وقد سبق ذكر دلائل هاتين المسألتين ، إلا أنا إذا قلنا يجوز وضعه في بعض الأصناف فقط فهذا إنما يجوز في غير العامل ، وأما وضعه بالكلية في العالم فذلك غير

جائز بالاتفاق .

الحكم السادس

(30/340)

أن العامل والمؤلفة مفقودان في هذا الزمان ، ففيه الأصناف الستة والأولى صرف الزكاة إلى هذه الأصناف الستة على ما يقوله الشافعي ، لأنه الغاية في الاحتياط ، أما إن لم يفعل ذلك أجزأه على ما بيناه .

الحكم السابع

عموم قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ والمساكين ﴾ يتناول الكافر والمسلم إلا أن الأخبار دلت على أنه لا يجوز صرف الزكاة إلى الفقراء والمساكين وغيرهم إلا إذا كانوا مسلمين .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الأصناف الثمانية وشرح أحوالهم .

قال : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ الله ﴾ قال الزجاج : ﴿ فَرِيضَةً ﴾ منصوب على التوكيد ، لأن قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقات ﴾ لهؤلاء جار مجرى قوله : فرض الله الصدقات لهؤلاء فريضة ، وذلك كالزجر عن مخالفة هذا الظاهر ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إن الله تعالى لم يرض بقسمة الزكاة أن يتولاها ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تولى قسمتها بنفسه "

والمقصود من هذه التأكيدات تحريم إخراج الزكاة عن هذه الأصناف .

ثم قال : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ أي أعلم بمقادير المصالح ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يشرع إلا ما هو الأصوب الأصلح ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 80.92 ﴾

(31/340)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾

يعني : ليست الصدقات للذين يلمزونك في الصدّقات ؛ وإنّما الصدقات ﴿ لِلْفُقَرَاء والمساكين ﴾ .

قال بعضهم : الفقراء الضعفاء الأحوال الذين لهم بلغة من العيش بدليل قول الشاعر :

أَمَّا الفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُه .

. . وَفْقَ العِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَهَدُ

والمسكين الذي لا شيء له ، بدليل قول الله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 16] يعني : الذي لم يكن بينه وبين التراب شيء يقيه منه ؛ وقال بعضهم : الفقير الذي لا شيء له ، والمسكين الذي له أدنى شيء .

كما قال الله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين يَعْمَلُونَ فِى البحر فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴾ [الكهف : 79] سماهم مساكين ، وإن لهم سفينة ، وقال بعضهم : الفقير الذي لا يسأل الناس إلحافاً ، كما قال الله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاء الذين أُحصِرُواْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ إلى قوله ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ﴾ [البقرة : 273] والمسكين الذي يسأل الناس .

وقال بعضهم : الفقير الذي يسأل الناس والمسكين الذي لا يسأل الناس ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لَيْسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى أَبْوَابِكُمْ فَتَرُدُّونَهُ بِاللُّقْمَةِ وَاللُّقْمَتَيْنِ ؛ وإِنَّمَا المِسْكِينُ المُتَعَفِّفُ الَّذِي لاَ يَسْأَلُ النَّاسَ وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ " .

وقال قتادة : الفقير الذي به زمانة ، والمسكين الصحيح المحتاج وقال بعضهم : الفقير الذي يكون عليه زي الفقر ولا تعرف حاجته ، والمسكين الذي يكون عليه زي الفقر وتكون حاجته ظاهرة .

(32/340)

ثم قال : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ ، وهم السعاة الذين يجبون الصدقات ، فيعطون على قدر حاجتهم ، ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ وهم قوم كان يعطيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم

ويتألفهم بالصدقات على الإسلام ؛ وكانوا رؤساء في كل قبيلة ، منهم أبو سفيان بن حرب ، والأقرع بن حابس ، وعيينة بن حصن الفزاري ، وعباس بن مرداس السلمي ، وصفوان بن أمية وغيرهم ؛ فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جاؤوا إلى أبي بكر وطلبوا منه ، فكتب لهم كتاباً فجاؤوا بالكتاب إلى عمر بن الخطاب ليشهدوه ، فقال : أي شيء هذا ؟ فقالوا : سهمنا .

فأخذ عمر الكتاب ومزقه وقال : إنما كان يعطيكم النبي عليه السلام يتألفكم على الإسلام ؛ فأما اليوم فقد أعزّ الله الإسلام فإن ثبتم على الإسلام ، وإلا فبيننا وبينكم السيف ، فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا : أنت الخليفة أم هو ؟ قال : هو إن شاء فبطل سهمهم .

ثم قال : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ ، أي وفي فك الرقاب ، وهم المكاتبون .

ثم قال ﴿ والغارمين ﴾ ، يعني : أصحاب الديون الذين استدانوا في غير فساد ولا تبذير ؛ وقال مجاهد : ثلاثة من الغارمين : رجل ذهب السيل بماله ، ورجل أصابه حريق فهلك ماله ، ورجل ليس له مال وله عيال فهو يستدين وينفق على عياله .

﴿ وَفِى سَبِيلِ الله ﴾ ، وهم الذين يخرجون إلى الجهاد ، ﴿ وابن ﴾ ، يعني : المسافر المنقطع من ماله .

قال بعضهم : وجب أن تقسم الصدقات على ثمانية أصناف ، وهو قول الشافعي ؛ كما بيَّن في هذه الآية .

وقال أصحابنا : إذا صرف الصدقات إلى صنف من هذه الأصناف جاز .

وروي عن حذيفة بن اليمان أنه قال : إذا أعطى الرجل الصدقة صنفاً واحداً من الأصناف الثمانية جاز .

وعن عبد الله بن عباس أنه قال : إذا وضعتها في صنف واحد فحسبك ؛ إنّما قال : إنّما الصدقات للفقراء ، لأن لا تجعلها في غير هذه الأصناف .

وعن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه أنه أتي بصدقة فبعث بها إلى أهل بيت واحد .

(33/340)

ثم قال تعالى : ﴿ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ﴾ يعني : وضع الصدقات في هذه المواضع فريضة من الله ، وهو مما أمر الله تعالى .

﴿ واللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ بأهلها ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ حكم قسمتها وبيّنها لأهلها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(34/340)

وقال الثعلبي :

ثم بين [لمن] الصدقات فقال عز من قال ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ لا للمنافقين ، واختلف العلماء في صفة الفقر والمسكين .

وقال ابن عباس والحسن وجابر بن زيد والزهري ومجاهد وابن زيد : الفقير : المتعفف عن المسألة ، والمسكين : المحتاج السائل ، وقال قتادة : الفقير : المؤمن المحتاج [الذي به زمانة] والمسكين : [الذي لا زمانة به] ، وقال الضحاك وإبراهيم النخعي : الفقراء فقراء المهاجرين ، والمساكين من لم يهاجروا من المسلمين المحتاجين ، وروى ابن سلمة عن ابن علية عن ابن سيرين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ليس الفقير الذي لا مال له ولكن الفقير الأخلق الكسب قال ابن علية : الأخلق المحارف عندنا ، وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين من أهل الكتاب .

وقال أبو بكر العبسي : رأى عمر بن الخطاب ذميماً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فقال له عمر : مالك ؟ قال : استكروني في هذه الجزيرة حتى إذا كف بصري تركوني فليس لي أحد يعود عليّ بشيء ، فقال : ما أُنصفت إذاً ، فأمر له بقوته وما يصلحه ، ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ وهم زمنى أهل الكتاب ، وقال ابن عباس : المساكين : (الطوافون) ، والفقراء ، من المسلمين .

أخبرنا عبد الله بن حامد . أخبرنا محمد بن جعفر . حدّثنا أحمد بن عبد الله بن يزيد

المؤدب . حدّثنا عبد الرزاق ، أخبرنا معمر عن همام بن منبّه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ليس المسكين هذا الطوّاف الذي يطوف على الناس تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، إنما المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يسأل الناس ، ولا يفطن له فيتصدق عليه " .

(35/340)

قال الفرّاء : الفقراء أهل الصفة لم يكن لهم عشائر ولا مال ، كانوا يلتمسون الفضل ثم يأوون إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم والمساكين : الطوّافون على الأبواب ، وقال عبد الله بن الحسن : المسكين الذي يخشع ويستكين وإن لم يسأل ، والفقير الذي يحتمل ويقبل الشيء سراً ولا يخشع وقال [ابن السكيت والقتيبي ويونس] الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شيء له ، واحتج بقول الشاعر :

إنّ الفقير الذي كانت حلوبته . . . وفق العيال فلم يترك له سبد

فجعل له حلوبة وجعلها وفقاً لعياله أي قوتاً لا فضل فيه ، يدلّ عليه ما روي عن عبد الرحمن بن أبزي قال : كان ناس من المهاجرين لأحدهم الدار والزوجة والعبد والناقة يحجّ عليها ويغزو فنسبهم الله تعالى إلى أنهم فقراء وجعل لهم سهماً في الزكاة .

وقال محمد بن مسلمة : الفقير الذي له مسكن يسكنه ، والخادم إلى [. . . . .] لأن ذلك المسكين الذي لا ملك له . قالوا : وكل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً من غيره ، قال الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس أَنتُمُ الفقرآء إِلَى الله ﴾ [فاطر : 15] ، والمسكين المحتاج إلى كل شيء ، ألا ترى كيف حُضّ على إطعامه وجعل الكفّارة من الاطعمة له ، ولا فاقة أعظم من [. . . . .] في شدة الجوعة .

أما قوله : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف : 79] وإن مسكنتهم ها هنا مساكين على جهه الرحمة والاستعفاف لا بملكهم السفينة كما قيل لمن امتحن بنكبة أو دفع إلى بلية : مسكين ، وفي الحديث : " مساكين أهل النار " وقال الشاعر :

مساكين أهل الحبّ حتى قبورهم . . . (عليها) تراب الذل بين المقابر

﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ يعني سقاتها وجباتها الذين يتولّون قبضها من أهلها ووضعها في حقها ويعملون عليها يعطون ذلك بالسعاية ، أغنياء كانوا أو فقراء .

(36/340)

واختلفوا في قدر مايعطون ، فقال الضحّاك : يعطون : الثمن من الصدقة ، وقال مجاهد : يأكل العمال من السهم الثامن ، وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : يعطون على قدر عمالتهم ، وهو قول الشافعي وأبي يعفور قالا : يعطون بقدر أجور أمثالهم ، وإن كان أكثر من الثمن ، يدلّ عليه قول عبد الرحمن بن زيد قال : لم يكن عمر ولا أُولئك يعطون العامل الثمن إنما يفرضون له بقدر عمله ، وقال مالك وأهل العراق : إنّما ذلك إلى الامام وإجتهاده ، يعطيهم الامام على قدر مايرى .

﴿ والمؤلفة قلُوبُهُمْ ﴾ ، قال قتادة : هم ناس من الأعراب وغيرهم كان النبي صلى الله عليه وسلم يألفهم بالعطية كيما يؤمنوا ، وقال معقل بن عبد الله : سألت الزهري عن المؤلفة قلوبهم ، قال : من أسلم من يهودي أو نصراني ، قلت : وإنْ كان غنياً ؟ قال : وإنْ كان غنياً ، وقال ابن عباس : هم قوم قد أسلموا ، كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا : هذا دين صالح ، فإن كان غير ذلك عابوه وتركوه . !

(37/340)

وقال ابن كيسان : هم قوم من أهل الحرب كان النبي صلى الله عليه وسلم يتألّفهم بالصدقات ليكفّوا عن حربه ، وقال الكلبي ويحيى بن أبي كثير وغيرهم : ذوو الشرف من الأحياء ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم في الإسلام يتألّفهم وهم الذين قسم بينهم يوم حنين الإبل ، وهم : من بني مخزوم الحرث ابن هشام ، وعبد الرحمن بن يربوع ، ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ومنهم من بني جمح صفوان بن أمية ، ومن بني عامر بن لؤي سهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، ومن بني أسد بن عبد العزى حكيم بن خزام ، ومن بني هاشم أبو سفيان بن الحرث بن عبد المطلب ، ومن بني فزارة عيينة بن حصين ، وحذيفة بن بدر ، ومن بني تميم الاقرع بن حابس ، ومن بني النضر مالك بن عوف بن مالك ومن بني سليم العباس بن مرادس ، ومن بني ثقيف العلاء بن خارجة ، أعطى النبي صلى الله عليه وسلم كل رجل منهم مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى ، قال وفي رواية أخرى : مخرمة بن نوفل ، وعمير بن وهيب وهشام بن عمرو .

وزاد الكلبي : أبا البعائل بن يعكل وجد بن قيس السهمي وعمرو بن مرداس وهشام بن عمرو . قال : أعطى كل واحد منهم خمسين ناقة ، فقال العباس بن مرادس في ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم

فأصبح نهبي ونهب العبيد . . . بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولاحابس . . . يفوقان مرداس في المجمع

وقد كنت في الحرب ذا [قوّة] . . . فلم أعط شيئاً ولم أمنع

الا أفائل أعطيتها . . . عديد قوائمه الأربع

وكانت نهاباً تلافيتها . . . بكري على المهر في الأجرع

وايقاظي القوم أن يرقدوا . . . إذا هجع الناس لم أهجع

وما كنت دون أمرئ منهما . . . ومن تضع اليوم لا يرفع

(38/340)

فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم مائة ناقة ، وأعطى حكيم بن حزام سبعين ناقة فقال : يا رسول الله ما كنت أدري أن أحداً أحق بعطائك مني فزاده عشرة أبكار ، ثم زاده عشرة أبكار حتى أتمها له مائة ، فقال حكيم : يا رسول الله أعطيتُك التي رغبت عنها خيرٌ أم هذه التي زادت ؟ قال : لا ، بل هذه التي رغبت فيها .

قال : لا آخذ غيرها ، فأخذ السبعين ، فمات حكيم وهو أكثر قريش مالاً .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أعطي رجلاً وأترك الآخر ، والذي أترك أحب إلي من الذي أعطي ، ولكني أتألف هذا بالعطية ، وأُوكل المؤمن إلى إيمانه " .

وقال صفوان بن أُمية : لقد أعطاني رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطاني وإنه

لأبغض الناس اليَّ فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي .

ثم اختلفوا في وجود المؤلّفة اليوم وهل يُعطون من الصدقة وغيرها أم لا ؟ ، فقال الحسن : أما المؤلفة قلوبهم فليس اليوم ، وقال الشعبي : إنه لم يبقَ في الناس اليوم من المؤلفة قلوبهم ، إنما كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلمّا ولي أبو بكر انقطعت الرشى ، وهذا تأويل أهل القرآن ، يدل عليه حديث عمر بن الخطاب حين جاءه عيينة بن حصين ، فقال ﴿ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29] إن الإسلام أجلّ من أن يرشى عليه ، أي ليس اليوم مؤلّفة .

وروى أبو عوانة عن مهاجر أبي الحسن ، قال : أتيت أبا وائل وأبا بردة بالزكاة وهما على بيت المال فأخذاها ، ثم جئت مرة أُخرى فوجدت أبا وائل وحده فقال ردّها فضعها في مواضعها ، قلت : فما أصنع بنصيب المؤلفة قلوبهم ؟ فقال ردّه على الآخرين . وقال أبو جعفر محمد بن علي : [في الناس] اليوم المؤلفة قلوبهم ثابتة ، وهو قول أبي ثور قال : لهم سهم يعطيهم الامام قدر ما يرى .

(39/340)

وقال الشافعي : المؤلّفة قلوبهم ضربان : ضرب مشركون فلا يعطون ، وضرب مسلمون [إذا اعطاهم الإمام كفّوا شرهم عن المسلمين] ، فأرى أن يعطيهم من سهم النبي وهو خمس الخمس ما يتألّفون به سوى سهمهم مع المسلمين ، يدلّ عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلّفة قلوبهم بعد أن فتح الله عليه الفتوح وفشا الإسلام وأعزّ أهله ، وأمّا سهمهم من الزكاة فأرى أن يصرف في تقوية الدين وفي سدّ خلة الإسلام ولا يعطى مشرك تألّف على الإسلام ، ألا إنّ الله تعالى يغني دينه عن ذلك ، والله أعلم .

﴿ وَفِي الرقاب ﴾ مختصر أي في فك الرقاب من الرق ، واختلفوا فيهم ، فقال أكثر الفقهاء : هم المكاتبون ، وهو قول الشافعي والليث بن سعد ، ويروى أنّ مكاتباً قام إلى أبي موسى الاشعري وهو يخطب الناس يوم الجمعة فقال له : أيها الأمير حثّ الناس عليّ ، فحث أبو موسى ، فألقى الناس ملاءة وعمامة وخاتماً حتى ألقوا عليه سواداً كثيراً ، فلمّا رأى أبو موسى ما ألقى الناس ، قال أبو موسى : أجمعوه فجُمع ، ثم أمر به فبيع فأعطى المكاتب مكاتبته ، ثم أعطى الفضل في الرقاب ولم يردّه على الناس ، وقال إنما أعطى الناس في الرقاب .

وقال الحسن وابن عباس : يعتق منه الرقاب وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق وأبي عبيد وأبي ثور ، وقال سعيد بن جبير والنخعي ، لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطي منها في ميقات رقبة مكاتب ، وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد .

قال الزهري : سهم الرقاب نصفان : نصف لكلّ مكاتب ممن يدّعي الإسلام ، والنصف الثاني لمن يشتري به رقاب ممن صلّى وصام وقدّم إسلامه من ذكر وأنثى يعتقون لله .

﴿ والغارمين ﴾ قتادة : هم قوم غرقتهم الديون في غير إملاق ولا تبذير ولا فساد .

(40/340)

وقال مجاهد : من احترق بيته وذهب السيل بماله ، وأدان على عياله ، وقال أبو جعفر الباقر : الغارمون صنفان : صنف استدانوا في مصلحتهم أو معروف أو غير معصية ثم عجزوا عن أداء ذلك في العرض والنقد فيعطون في غرمهم ، وصنف استدانوا في جمالات وصلاح ذات بين ومعروف ولهم عروض إن بيعت أضرّ بهم فيعطى هؤلاء قدر عروضهم . وذلك إذا كان دينهم في غير فسق ولا تبذير ولا معصية ، وأما من ادان في معصية الله فلا أرى أن يعطى ، وأصل الغرم الخسران والنقصان ، ومنه الحديث في الرحمن له غنمه وعليه غرمه ، ومن ذلك قيل للعذاب غرام ، قال الله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] وفلان مغرم بالنساء أي مهلك بهنّ ، وما أشدّ غرامه وإغرامه بالنساء .

﴿ وَفِي سَبِيلِ الله ﴾ فيهم الغزاة والمرابطون والمحتاجون .

فأما إذا كانوا أغنياء فاختلفوا فيه ، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد : لايعطى الغازي

إلا أن يكون منقطعاً مفلساً ، وقال مالك والشافعي وإسحاق وأبو عبيد وأبو ثور : يعطى الغازي منها وإن كان غنياً ، يدلّ عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : رجل عمل عليها أو رجل اشتراها بماله ، أو في سبيل الله أو ابن السبيل ، أو رجل كان له جار تصدّق عليه فأهداها له " .

﴿ وابن السبيل ﴾ المسافر المجتاز ، سمّي ابن السبيل للزومه إيّاه ، كقول الشاعر :

أيا ابن الحرب رجّعني وليداً . . . إلى أن شبتُ فاكتملتْ لداتي

قال مجاهد والزهري : لابن السبيل حق من الزكاة وإن كان غنياً إذا كان منتفعاً به ، وقال مالك وفقهاء العراق : هو الحاج المنقطع ، وقال الشافعي : ابن السبيل من (جيران) الصدقة الذين يريدون السفر في غير معصية فيعجزون من بلوغ سفرهم إلا بمعونة ، وقال قتادة : هو الضيف .

(41/340)

﴿ فَرِيضَةً ﴾ واجبة ﴿ مِّنَ الله ﴾ وهو نصب على القطع في قول الكسائي ، وعلى المصدر في قول سيبويه أي : فرض الله هذه الأشياء فريضة ، وقال إبراهيم بن أبي عبلة : رفع فريضة فجعلها خبراً كما تقول : إنّما يزيد خارج ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

واختلف العلماء في كيفية قسم الصدقات المذكورة في هذه الآية ، [وهل] يجب لكل صنف من هؤلاء الأصناف الثمنية فيها حق ، أو ذلك إلى رب المال ومن يتولى قسمها في أن له أن يعطي جميع ذلك من شاء من الاصناف الثمانية ، فقال بعضهم : له قسمها ووضعها في أي الأصناف يشاء وإنما سمّى الله تعالى الاصناف الثمانيه في الآية إعلاماً منه إن الصدقة لا تخرج من هذه الأصناف إلى غيرها لا إيجاد القسمة بينهم ، وهو قول عمر بن الخطاب وحذيفة وابن عباس وابن (جبير) وعطاء وأبي العالية وميمون بن مهران وأبي حنيفة .

أخبرنا عبد الله بن حامد . أخبرنا أبو بكر الطبري . حدّثنا علي بن حرب ، أخبرنا ابن فضيل ، حدّثنا عطاء عن سعيد ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ الآية ، أيُّ هذه الأصناف وجدتَ أجزاك أن تعطيه صدقتك ، ويقول أبو حنيفة : يجوز الاقتصار على رجل واحد من الفقراء ، وقال مالك يخصّ بأمسّهم حاجةً .

كان الشافعي يجري الآية على ظاهرها ويقول : إذا تولّى رب المال قسمتها فإن عليه وضعه في ثلاثة أصناف لأن سهم المؤلّفة ساقط ، وسهم العاملين يبطل بقسمته إياها ، فإذا تولّى الإمام قسمتها فإن عليه أن يقسمها على سبعة أصناف ، يجزيه أن يعطي من كل صنف منهم أقل من ثلاثة أنفس ولا يصرف السهم ولا شيئاً منه عن أهله أحد يستحقه ، ولا يخرج

من بلد وفيه أحد يردّ حقه ممّن لم يوجد من أهل السهام على من وجد منهم ، وهذا قول عمر بن عبد العزيز ، وعكرمة والزهري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(42/340)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

اختلف أهل العلم فيها على ستة أقاويل :

أحدها : أن الفقير المحتاج المتعفف عن المسألة . والمسكين : المحتاج السائل ، قاله ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد وزيد .

والثاني : أن الفقير هو ذو الزمانة من أهل الحاجة ، والمسكين : هو الصحيح الجسم منهم ، قاله قتادة .

والثالث : أن الفقراء هم المهاجرون ، والمساكين : غير المهاجرين ، قاله الضحاك بن مزاحم وإبراهيم .

والرابع : أن الفقير من المسلمين ، والمسكين : من أهل الكتاب ، قاله عكرمة .

والخامس : أن الفقير الذي لا شيء له لأن الحاجة قد كسرت فقاره ، والمسكين الذي له ما

لا يكفيه لكن يسكن إليه ، قاله الشافعي .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ليس المسكين الذي لا مال له ولكن المسكين الأخلق الكسب . قال ابن عليّة : الأخلق المحارف عندنا وقال الشاعر :

لما رأى لُبَدُ النُّسور تطايرت . . . رفع القوادم كالفقير الأعزل

والسادس : أن الفقير الذي له ما لا يكفيه ، والمسكين : الذي ليس له شيء يسكن إليه قاله أبو حنيفة .

ثم قال ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ وهم السعاة المختصون بجبايتها وتفريقها قال الشاعر :

إن السُّعاة عصوك حين بعثتهم . . . لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

وليس الإمام من العاملين عليها ولا والي الإقليم .

وفي قدر نصيبهم منها قولان :

أحدهما : الثمن ، لأنهم أحد الأصناف الثمانية ، قال مجاهد والضحاك .

والثاني : قدر أجور أمثالهم ، قاله عبد الله بن عمر .

﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم قوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم بالعطية ، وهم صنفان : مسلمون ومشركون .

فأما المسلمون فصنفان : صنف كانت نياتهم في الإسلام ضعيفة فتألفهم تقوية لنياتهم ، كعقبة بن زيد وأبي سفيان بن حرب والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس . وصنف آخر منهم كانت نياتهم في الإسلام حسنة فأعطوا تألفاً لعشائرهم من المشركين مثل عدي بن حاتم . ويعطي كِلا الصنفين من سهم المؤلفة قلوبهم .

وأما المشركون فصنفان : صنف يقصدون المسلمين بالأذى فيتألفهم دفعاً لأذاهم مثل عامر بن الطفيل ، وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام تألفهم بالعطية ليؤمنوا مثل صفوان بن أمية .

وفي تألفهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسهم المسمى لهم من الصدقات قولان :

أحدهما : يعطونه ويتألفون به ، قاله الحسن وطائفة .

والثاني : يمنعون منه ولا يعطونه لإعزاز الله دينه عن تألفهم ، قاله جابر ، وكلا القولين محكي عن الشافعي .

وقد روى حسان بن عطية قال : قال عمر رضي الله عنه وأتاه عيينة بن حصن يطلب من سهم المؤلفة قلوبهم فقال قد أغنى الله عنك وعن ضربائك ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف : 29) أي ليس اليوم مؤلفة .

﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم المكاتبون ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه والشافعي .

والثاني : أنهم عبيد يُشترون بهذا السهم قاله ابن عباس ومالك .

﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ وهم الذين عليهم الدين يلزمهم غرمه ، فإن ادّانوا في مصالح أنفسهم لم يعطوا إلا مع الفقر ، وإن ادّانوا في المصالح العامة أعطوا مع الغنى والفقر .

واختلف فيمن ادّان في معصية على ثلاثة أقاويل :

أحدها لا يعطى لئلا يعان على معصية .

والثاني : يعطى لأن الغرم قد وجب ، والمعصية قد انقضت .

والثالث : يعطى التائب منها ولا يعطى إن أصر عليها .

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله يعطون سهمهم من الزكاة مع الغنى والفقر .

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ فيه قولان :

(44/340)

أحدهما : هو المسافر لا يجد نفقة سفره ، يعطى منها وإن كان غنياً في بلده ، وهو قول الجمهور .

والثاني : أنه الضيف ، حكاه ابن الأنباري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(45/340)

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

﴿ إنما ﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف ﴿ الصدقات ﴾ على الثمانية الأصناف ، وإنما اختلف في صورة القسمة فقال مالك وغيره : ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أهل الحاجة ، وقال الشافعي : هي ثمانية أقسام على ثمانية أصناف لا يخل بواحد منها إلا أن ﴿ المؤلفة ﴾ انقطعوا .

قال القاضي أبو محمد : ويقول صاحب هذا القول : إنه لا يجزىء المتصدق والقاسم من كل صنف أقل من ثلاثة ، وأما الفقير والمسكين فقال الأصمعي وغيره : الفقير أبلغ فاقه وقال غيرهم : المسكين أبلغ فاقه .

قال القاضي أبو محمد : ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر النظر في شواهد القرآن والنظر في كلام العرب وأشعارها ، فمن حجة الأولين قول الله عز وجل ﴿

أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ [الكهف : 79] واعترض هذا الشاهد بوجوه منها ، أن يكون سماهم " مساكين " بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أغنياء على جهة الشفقة كما تقول في جماعة تظلم مساكين لا حيلة لهم وربما كانوا مياسير ومنها : أنه قرىء " لمسّاكين " بشد السين بمعنى : دباغين يعملون المسوك قاله النقاش وغيره ومنها : أن تكون إضافتها إليهم ليست بإضافة ملك بل كانوا عاملين بها فهي كما تقول : سرج الفرس ، ومن حجة الآخرين قول الراعي : [البسيط]

أما الفقير الذي كانت حلوبته . . . وفق العيال فلم يترك له سبد

(46/340)

وقد اعترض هذا الشاهد بأنه إنما سماه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له ، وإنما ذكر الحلوبة بأنها كانت ، وهذا اعتراض يرده معنى القصيدة ومقصد الشاعر بأنه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأجمعه ، فقال أما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحال ، وذهب من يقول إن المسكين أبلغ فاقه إلى أنه مشتق من السكون ، وأن الفقير مشتق من فقار الظهر كأنه أصيب فقارة فيه لا محالة حركة ، وذهب من يقول إن الفقير أبلغ فاقه : إلى أنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها ، وأن المسكين من السكن .

قال القاضي أبو محمد : ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقه ، فينبغي أن يبحث على الوجه الذي من أجله جعلهما الله اثنين ، والمعنى فيهما واحد ، وقد اضطرب الناس في هذا ، فقال الضحاك بن مزاحم : ﴿ الفقراء ﴾ هم من المهاجرين ﴿ والمساكين ﴾ من لم يهاجر ، وقال النخعي نحوه ، قال سفيان : يعني لا يعطى فقراء الأعراب منها شيئاً .

(47/340)

قال القاضي أبو محمد : " والمسكين السائل " يعطى في المدينة وغيرها ، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية ، وأما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس ، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقر ، وقال عكرمة : ﴿ الفقراء ﴾ من المسلمين ، ﴿ والمساكين ﴾ من أهل الذمة ، ولا تقولوا لفقراء المسلمين مساكين ، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر " الفقير " من لا مال له ولا حرفة سائلاً كان أو متعففاً " والمسكين الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغنيه ذلك سائلاً كان أو غير سائل ، وقال قتادة بن دعامة : الفقير الزمن المحتاج ، والمسكين الصحيح المحتاج ، وقال ابن عباس والحسن ومجاهد والزهري وابن زيد وجابر بن زيد ومحمد بن مسلمة : " المساكين " الذين يسعون ويسألون ، و" الفقراء " هم الذين يتصاونون ،

وهذا القول الأخير إذا لخص وحرر أحسن ما يقال في هذا ، وتحريره : أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل ولا بذل وجهه ، وذلك إما لتعفف مفرط وإما لبلغة تكون له كالحلوبة وما أشبهها ، والمسكين هو الذي يقترن بفقره تذلل وخضوع وسؤال ، فهذه هي المسكنة ، فعلى هذا كل مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً ، ويقوي هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلة مع غناهم ، وإذا تأملت ما قلناه بان أنهما صنفان موجودان في المسلمين ، ويقوي هذا قوله تعالى :

(48/340)

﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ [البقرة : 273] وقيل لأعرابي : أفقير أنت فقال : إني والله مسكين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وليس المسكين بهذا الطوّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان ، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه " ، اقرأوا إن شئتم ﴿ لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ [البقرة : 273] ، فدل هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطواف ، وجرى تنبيه النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على المتصاون مجرى تقديم ﴿ الفقراء ﴾ في الآية لمعنى الاهتمام إذ هم بحيث إن لم يتهمم

بهم هلكوا ، والمسكين يلح ويذكر بنفسه ، وأما العامل فهو الرجل الذي يستنيبه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم ، وكل من يصرف من عون لا يستغنى عنه فهو من ﴿ العاملين ﴾ لأنه يحشر الناس على السعي ، وقال الضحاك : للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن ، وقال الجمهور : لهم قدر تعبهم ومؤنتهم قاله مالك والشافعي في كتاب ابن المنذر ، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختلف ، فقيل يتم لهم ذلك من سائر الأنصباء وقيل ، بل يتم لهم ذلك من خمس الغنيمة ، واختلف إذا عمل في الصدقات هاشمي فقيل : يعطى منها عمالته وقيل : بل يعطاها الخمس ، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه وذلك إن فعله رد في بيت المال كنا فعل النيبي صلى الله عليه وسلم با بن اللتبية حتى استعمله على الصدقة فقال ، هذا لكم وهذا ما أهدي لي ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

" هلا قعدت في بيت أبيك وأمك حتى تعلم ما يهدى إليك " وأخذ الجميع منه .

(49/340)

قال القاضي أبو محمد : وتأمل عمالة الساعي هل يأخذها قبل العمل أو بعده ، وهل هي إجازة أو هي جعل وهل العمل معلوم أو هو يتتبع وإنما يعرف قدره بعد الفراغ ، وأما ﴿

المؤلفة قلوبهم ﴾ فكانوا صنفين ، مسلمين وكافرين مساترين ، قال يحيى بن أبي كثير ، كان منهم أبو سفيان بن حرب بن أمية والحارث بن هشام وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وحكيم بن حزام وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعيينة والأقرع ومالك بن عوف والعباس بن مرداس والعلاء بن جارية الثقفي .

قال القاضي أبو محمد : وأكثر هؤلاء من الطلقاء الذين ظاهر أمرهم يوم الفتح الكفر ، ثم بقوا مظهرين الإسلام حتى وثقه الاستئلاف في أكثرهم واستئلافهم إنما كان لتجلب إلى الإسلام منفعة أو تدفع عنه مضرة ، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه والحسن والشعبي وجماعة من أهل العلم : انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله ، قال عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة .

قال القاضي أبو محمد : وقول عمر عندي إنما هو لمعنيين ، فإنه قال لأبي سفيان حين أراد أخذ عطائه القديم : إنما تأخذ كرجل من المسلمين فإن الله قد أغنى عنك وعن ضربائك ، يريد في الاستئلاف ، وأما أن ينكر عمر الاستئلاف جملة وفي ثغور الإسلام فبعيد ، وقال كثير من أهل العلم : ﴿ المؤلفة قلوبهم ﴾ موجودون إلى يوم القيامة .

قال القاضي أبو محمد : وإذا تأملت الثغور وجد فيها الحاجة إلى الاستئلاف ، وقال الزهري : ﴿ المؤلفة ﴾ من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً .

قال القاضي أبو محمد : يريد لتبسط نفسه ويحبب دين الإسلام إليه ، وأما ﴿ الرقاب ﴾ فقال ابن عباس والحسن ومالك وغيره : هو ابتداء العتق وعون المكاتب بما يأتي على حريته ، واختلف هل يعان بها المكاتب في أثناء نجومه بالمنع والإباحة ، واختلف على القول بإباحة ذلك إن عجز فقيل يرد ذلك من عند السيد ، وقيل يمضي لأنه كان يوم دفعه بوجه مترتب ، وقال الشافعي : معنى ﴿ وفي الرقاب ﴾ في المكاتبين ولا يبتدأ منها عتق عبد ، وقاله الليث وإبراهيم النخعي وابن جبير ، وذلك أن هذه الأصناف إنما تعطى لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أنفسها ، والعبد ليس له واحدة من هاتين العلتين ، والمكاتب قد صار من ذوي الحاجة وقال الزهري : سهم الرقاب نصفان ، نصف للمكاتبين ونصف يعتق منه رقاب مسلمون ممن صلى ، قال ابن حبيب : ويفدى منه أسارى المسلمين ومنع ذلك غيره ، وأما " الغارم فهو الرجل يركبه دين في غير معصية ولا سفه ، قال العلماء : فهذا يؤدى عنه وإن كانت له عروض تقيم رمقه وتكفي عياله ، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة في ديارات أو إصلاح بين القبائل ونحو هذا ، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

" ولا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة العامل عليها أو غاز في سبيل الله أو رجل تحمل بحمالة أو من أهديت له أو من اشتراها بماله " .

(51/340)

قال القاضي أبو محمد : وقد سقط ﴿ المؤلفة ﴾ من هذا الحديث ، ولا يؤدى من الصدقة دين ميت ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله ، وإنما " الغارم " من عليه دين يسجن فيه ، وقد قيل في مذهبنا وغيره : يؤدى دين الميت من الصدقات قاله أبو ثور ، وأما ﴿ في سبيل الله ﴾ فهو المجاهد يجوز أن يأخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنياً قال ابن حبيب : ولا يعطى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره ، وقال ابن عباس وابن عمر وأحمد وإسحاق : يعطى منها الحاج وإن كان غنياً ، والحج سبيل الله ، ولا يعطى منها في بناء مسجد ولا قنطرة ولا شراء مصحف ونحو هذا ، وأما ﴿ ابن السبيل ﴾ فهو الرجل في السفر والغربة يعدم فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده ، وسمي المسافر ابن السبيل لملازمته السبيل كما يقال للطائر : ابن ماء لملازمته له ومنه عندي قولهم : ابن جلا وقد قيل فيه غير هذا ومنه قولهم : بنو الحرب وبنو المجد ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ، قال ابن الماجشون ومطرف وأصبغ وابن حبيب : ولا

من التطوع ولا يعطى مواليهم لأن مولى القوم منهم ، قال ابن القاسم : يعطى بنو هاشم من صدقة التطوع ويعطى مواليهم من الصدقتين ، ومن سأل من الصدقة وقال إنه فقير ، فقالت فرقة يعطى دون أن يكلف بينة على فقره بخلاف حقوق الآدميين يدعي معها الفقر فإنه يكلف البينة لأنها حقوق الناس يؤخذ لها بالأحوط ، وأيضاً فالناس إذا تعلقت بهم حقوق آدمي محمولون على الغني حتى يثبت العدم ويظهر ذلك من قوله تعالى

(52/340)

﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ [البقرة : 280] أي ان وقع فيعطي هذا أن الأصل الغنى فإن وقع ذو عسرة فنظرة ، وقالت فرقة : الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يعطى إلا أن يعلم فقره ، وأما إن ادعى أنه غارم أو مكاتب أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يعلم منه فلا يعطى إلا ببينة قولاً واحداً ، وقد قيل في الغارم : تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر ، ويعطى الرجل قرابته الفقراء وهم أحق من غيرهم فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أولى ، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة فقيل هو أولى من الجار الفقير ، وقيل الجار أولى ويعطى الرجل قرابته الذين لا تلزمه نفقتهم ، وتعطى المرأة زوجها ، وقال بعض الناس ما لم ينفق عليها ، ويعطي الرجل زوجته إذا كانت من

الغارمين ، واختلف في ولاء الذي يعتق من الصدقة ، فقال مالك : ولاؤه لجماعة المسلمين وقال أبو عبيد : ولاؤه للمعتق وقال عبيد الله بن الحسن : يجعل ماله في بيت الصدقات ، وقال الحسن وأحمد وإسحاق : ويعتق من ماله رقاب ، وإذا كان لرجل على معسر دين فقيل يتركه له ويقطع ذلك من صدقته وقيل لا يجوز ذلك جملة ، وقيل إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك وإلا لم يجز لأنه قد توي وأما السبيل : فهو الذي قدمنا ذكره يعطى الرجل الغازي وإن كان غنياً ، وقال أصحاب الرأي لا يعطى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به ، قال ابن المنذر ؟ وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(53/340)

أما القرآن فقوله ﴿ وفي سبيل الله ﴾ ، وأما الحديث فقوله " إلا لخمسة لعامل عليها أو غاز في سبيل الله " ، وأما صورة التفريق فقال مالك وغيره : على قدر الحاجة ونظر الإمام يضعها في أي صنف رأى وكذلك المتصدق ، وقاله حذيفة بن اليمان وسعيد بن جبير وإبراهيم وأبو العالية ، قال الطبري : وقال بعض المتأخرين : إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف لأنه ليس ثم عامل ولأن المؤلفة قد انقطعوا فإن قسم الإمام ففي سبعة

أصناف ، قال الشافعي وعكرمة والزهري : هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها واحتج الشافعي بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم للرجل الذي سأله : " إن الله تعالى لم يرض في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف فإن كنت واحداً منها أعطيتك " .

(54/340)

قال القاضي أبو محمد : والحديث في مصنف أبي داود ، وقال أبو ثور : إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها وإن أعطى الرجل صدقته صنفاً دون صنف أجزأه ذلك وقال النخعي : إذا كان المال كثيراً قسم على الأصناف كلها وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً . وقالت فرقة من العلماء : من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة ، وقال الحسن وأبو عبيد ، لا يعطى من له أوقية وهي أربعون درهماً ، قال الحسن : وهو غني وقال الشافعي : قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سعيه وتحيله ، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف ، وقال أبو حنيفة : لا يأخذ الصدقة من لا مائتا درهم ومن كان له أقل فلا بأس أن يأخذ ، قال سفيان الثوري : لا يدفع إلى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً ، إلا أن يكون غارماً وقال أصحاب الرأي ، إن أعطي ألفاً وهو

محتاج أجزأ ذلك ، وقال أبو ثور : يعطى من الصدقة حتى يغنى ويزول عنه اسم المسكنة ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك ، وقال ابن المنذر : أجمع أكثر من يحفظ عنه من أهل العلم أن من له دار وخادم لا يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة وللمعطي أن يعطيه ، وقال مالك : إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة على ما يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجزه ، وأما الرجل يعطي الآخر وهو يظنه فقيراً فإذا هو غني ، فإنه إن كان بفور ذلك أخذها منه فإن فاتت نظر ، فإن كان الآخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه ، وإن كان لم يغر بل اعتقد أنها تجوز له ، أو لم يتحقق مقصد المعطي نظر ، فقال الحسن وأبو عبيدة : تجزيه ، وقال الثوري وغيره : لا تجزيه ، وأهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فتنقل إلى غيرها بحسب نظر الإمام ، قال ابن حبيب في الواضحة : أما ﴿ المؤلفة ﴾ فانقطع سهمهم ، وأما سبيل الله فلا بأس أن يعطى الإمام الغزاة إذا قل الفيء في بيت المال .

(55/340)

قال القاضي أبو محمد : وهذا الشرط فيه نظر ، قال ابن حبيب : وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جبيت فيها ولا يحمل منه شيء إلى الإمام إلا أن يرى ذلك

لحاجة أو فاقة نزلت بقوم ، قال مالك : ومن له مزرعة أو شيء في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أخذ الصدقة ، وهذه جملة من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز والله الموفق برحمته ، وقال تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ أي موجبة محدودة وهو مأخوذ من الفرض في الشيء بمعنى الحز والقطع ثبوت ذلك ودوامه ، شبه ما يفرض من الأحكام ، ونصب ﴿ فريضة ﴾ على المصدر ، ثم وصف نفسه تعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية لأنه صدر عن علم منه بخلقه وحكمة منه في القسمة بينهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(56/340)

وقال ابن الجوزى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

اختلفوا في صفة الفقير والمسكين على ستة أقوال .

أحدها : أن الفقير : المتعفف عن السؤال .

والمسكين الذي يسأل وبه رَمَق ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وجابر بن زيد ، والزهري ، والحكم ، وابن زيد ، ومقاتل .

والثاني : أن الفقير : المحتاج الذي به زمانة .

والمسكين : المحتاج الذي لا زمانة به ، قاله قتادة .

والثالث : الفقير : المهاجر ، والمسكين : الذي لم يهاجر ، قاله الضحاك بن مزاحم ، والنخعي .

والرابع : الفقير : فقير المسلمين ، والمسكين : من أهل الكتاب ، قاله عكرمة .

والخامس : أن الفقير : من له البُلْغَة من الشيء ، والمسكين الذي ليس له شيء ، قاله أبو حنيفة ، ويونس بن حبيب ، ويعقوب بن السكّيت ، وابن قتيبة .

واحتجوا بقول الراعي :

أمَّا الفقيرُ الذي كانتْ حَلُوبَتُه . . .

وفقَ العيال فلم يُتْرَكْ له سَبَدُ

فسماه فقيراً ، وله حَلوبة تكفيه وعياله .

وقال يونس : قلت لأعرابي : أفقير أنت ؟ قال لا والله ، بل مسكين ؛ يريد أنا أسوأ حالاً من الفقير .

والسادس : أن الفقير أمسُّ حاجةً من المسكين ، وهذا مذهب أحمد ، لأن الفقير مأخوذ من انكسار الفَقار ، والمسكنة مأخوذة من السكون والخشوع ، وذلك أبلغ .

قال ابن الأنباري : ويروى عن الأصمعي أنه قال : المسكين أحسن حالاً من الفقير .

وقال أحمد بن عبيد : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، لأن الفقير أصله في اللغة : المفقور الذي نزعت فَقره من فِقَرِ ظهره ، فكأنه انقطع ظهره من شدة الفقر ؛ فصُرف عن مفقور إلى فقير ، كما قيل : مجروح وجريح ، ومطبوخ وطبيخ ، قال الشاعر :

لَمّا رأى لُبَدَ النُّسُورِ تَطَايَرَتْ . . .

رَفَعَ القَوادِمَ كالفقيرِ الأعْزَلِ

قال : ومن الحجة لهذا القول قوله : ﴿ وأما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴾ [الكهف : 79] فوصف بالمسكنة من له سفينة تساوي مالاً ، قال : وهو الصحيح عندنا .

(57/340)

قوله تعالى : ﴿ والعاملين عليها ﴾ وهم السعاة لجباية الصدقة ، يُعْطَوْنَ منها بقدر أُجُور أمثالهم ، وليس ما يأخذونه بزكاة .

قوله تعالى : ﴿ والمؤلَّفة قلوبهم ﴾ وهم قوم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألَّفهم على الإسلام بما يعطيهم ، وكانوا ذوي شرف ، وهم صنفان : مسلمون ، وكافرون .

فأما المسلمون ، فصنفان : صنف كانت نِيَّاتُهم في الإسلام ضعيفة ، فتألَّفهم تقويةً لنيَّاتهم ،

كعُيَيْنة بن حصن ، والأقرع ؛ وصنف كانت نياتهم حسنة ، فأُعطوا تألُّفاً لعشائرهم من المشركين ، مثل عدي بن حاتم .

وأما المشركون ، فصنفان : صنف يقصدون المسلمين بالأذى ، فتألَّفهم دفعاً لأذاهم ، مثل عامر بن الطفيل ؛ وصنف كان لهم ميل إلى الإسلام ، تألَّفهم بالعطية ليؤمنوا ، كصفوان بن أُمية .

وقد ذكرت عدد المؤلفة في كتاب "التلقيح" .

وحكمهم باقٍ عند أحمد في رواية ، وقال أبو حنيفة ، والشافعي ، حكمهم منسوخ .

قال الزهري : لا أعلم شيئاً نسخَ حكم المؤلَّفة قلوبهم .

قوله تعالى : ﴿ وفي الرقاب ﴾ قد ذكرناه في سورة [البقرة : 177] .

قوله تعالى : ﴿ والغارمين ﴾ وهم الذين لزمهم الدَّين ولا يجدون القضاء .

قال قتادة : هم ناس عليهم دَيْنٌ من غير فساد ولا إِسراف ولا تبذير ، وإنما قال هذا ، لأنه لا يؤمَن في حق المفسد إذا قُضِيَ دَيْنُه أن يعود إلى الاستدانة لذلك ؛ ولا خلاف في جواز قضاء دينه ودفع الزكاة إليه ، ولكن قتادة قاله على وجه الكراهية .

قوله تعالى : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ يعني : الغزاة والمرابطين .

ويجوز عندنا أن يعطى الأغنياء منهم والفقراء ، وهو قول الشافعي .

وقال أبو حنيفة : لا يعطى إلا الفقير منهم .

وهل يجوز أن يصرف من الزكاة إلى الحج ، أم لا ؟ فيه عن أحمد روايتان .

قوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ هو المسافر المنقطع به ، وإن كان له مال في بلده ، قاله مجاهد ، وقتادة ، وأبو حنيفة ، وأحمد .

(58/340)

فأما إذا أراد أن ينشىء سفراً ، فهل يجوز أن يعطى ؟ قال الشافعي : يجوز ، وعن أحمد مثله ؛ وقد ذكرنا في سورة [البقرة : 177] فيه أقوالاً عن المفسرين .

قوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ يعني : أن الله افترض هذا .

فصل

وحدُّ الغنى الذي يمنع أخذ الزكاة عند أصحابنا بأحد شيئين : أن يكون مالكاً لخمسين درهماً ، أو عِدلها من الذهب ، سواء كان ذلك يقوم بكفايته ، أو لا يقوم .

والثاني : أن يكون له كفاية ، إما من صناعة ، أو أجرة عقار ، أو عروض للتجارة يقوم ربحها بكفايته .

وقال أبو حنيفة : الاعتبار في ذلك أن يكون مالكاً لنصاب تجب عليه فيه الزكاة .

فأما ذوو القربى الذين تحرم عليه الصدقة ، فهم بنو هاشم ، وبنو المطلب .

وقال أبو حنيفة : تحرم على ولد هاشم ، ولا تحرم على ولد المطلب .

ويجوز أن يعمل على الصدقة من بني هاشم وبني المطلب ويأخذ عمالته منها ، خلافاً لأبي حنيفة .

فأما موالي بني هاشم وبني المطلب ، فتحرم عليهم الصدقة ، خلافاً لمالك .

ولا يجوز أن يعطيَ صدقته مَنْ تلزمه نفقتُه ؛ وبه قال مالك ، والثوري .

وقال أبو حنيفة ، والشافعي : لا يعطي والداً وإن علا ، ولا ولداً وإن سفل ، ولا زوجه ، ويعطي مَنْ عَداهم .

فأما الذميُّ ؛ فالأكثرون على أنه لا يجوز إعطاؤه .

وقال عبيد الله بن الحسن : إذا لم يجد مسلماً ، أعطي الذمي .

ولا يجب استيعاب الأصناف ، ولا اعتبار عدد من كل صنف ؛ وهو قول أبي حنيفة ، ومالك ؛ وقال الشافعي : يجب الاستيعاب من كل صنف ثلاثة .

فأما إذا أراد نقل الصدقة من بلد المال إلى موضع تُقصر فيه الصلاة ، فلا يجوز له ذلك ، فإن نقلها لم يُجزئه ؛ وهو قول مالك ، والشافعي .

وقال أبو حنيفة : يكره نقلها ، وتجزئه .

قال أحمد : ولا يعطي الفقير أكثر من خمسين درهماً .

وقال أبو حنيفة : أكره أن يعطي رجل واحد من الزكاة مائتي درهم .

وإن أعطيته أجزأك .

فأما الشافعي ، فاعتبر ما يدفع الحاجةَ من غير حدّ .

فإن أعطى من يظنه فقيراً ، فبان أنه غني ، فهل يجزىء ؟ فيه عن أحمد روايتان . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(59/340)

وقال النسفى :

﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاء والمساكين ﴾

قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة أي هي مختصة بهم لا تتجاوز إلى غيرهم كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم كقولك «إنما الخلافة لقريش» تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم ، فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها ، وأن تصرف إلى بعضها كما هو مذهبنا ، وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين أنهم قالوا : في أي صنف منها وضعتها أجزأك .

وعند الشافعي رحمه الله : لا بد من صرفها إلى الأصناف وهو المروي عن عكرمة .

ثم الفقير الذي لا يسأل لأن عنده ما يكفيه للحال والمسكين الذي يسأل لأنه لا يجد شيئاً فهو

أضعف حالاً منه ، وعند الشافعي رحمه الله على العكس ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ هم السعادة الذين يقبضونها ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ على الإسلام أشراف من العرب ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم على أن يسلموا وقوم منهم أسلموا فيعطيهم تقريراً لهم على الإسلام ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ هم المكاتبون يعانون منها ﴿ والغارمين ﴾ الذين ركبتهم الديون ﴿ وَفِي سَبِيلِ الله ﴾ فقراء الغزاة أو الحجيج المنقطع بهم ﴿ وابن السبيل ﴾ المسافر المنقطع عن ماله ، وعدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن «في» للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها .

وتكرير «في» في قوله ﴿ وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل ﴾ فيه فضل وترجيح لهذين على الرقاب والغارمين .

(60/340)

وإنما وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ليدل بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات حاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسماً لأطماعهم وإشعاراً بأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها !

وسهم المؤلفة قلوبهم سقط بإجماع الصحابة في صدر خلافة أبي بكر رضي الله عنه لأن الله أعز الإسلام وأغنى عنهم ، والحكم متى ثبت معقولاً لمعنى خاص يرتفع وينتهي بذهاب ذلك المعنى ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ في معنى المصدر المؤكد لأن قوله ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاءِ ﴾ معناه فرض الله الصدقات لهم ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بالمصلحة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في القسمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير النسفى حـ 2 صـ 131.132 ﴾

(61/340)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاءِ . . . ﴾ الآية

﴿ إِنَّمَا ﴾ في هذه الآيةِ حاصرةٌ تقتضي وقوفَ الصَدقاتِ على الثمانيةِ الأصناف ، وإنما أُخْتُلِفَ في صُورَةِ القِسْمَةِ ، ومَذْهَب مالكٍ وغيره ؛ أَنَّ ذَلِكَ عَلى قَدْرِ الاجتهاد ، وبحسب الحاجة ، وأما الفقيرُ والمِسْكين ، فقال ابن عبَّاس والحسن ومجاهدٌ والزُّهْرِيُّ وابن زَيْد وغيرهم : المَسَاكِينُ : الذين يَسْعَوْنَ ويَسْأَلُونَ ، والفقراء : الذين يتصَاوَنُون ، وهذا القولُ أحسنُ ما قيل في هذا ، وتحريره أن الفقيرَ هو الذي لا مَالَ له إلا أنه لم يذلَّ نفسه ، ولا يذلُّ وجهه ؛ وذلك إما لتعفُّفٍ مُفْرِطٍ ، وإما لِبُلغَةٍ تكون له ، كالحَلُوبة وما أشبهها ، والمسكينُ هو

الذي يقترن بفقره تذلُّل وخضوعٌ وسؤالٌ ، فهذه هي المَسْكَنَة ؛ ويقوّي هذا أن اللَّه سبحانه قد وَصَفَ بني إسرائيل بالمَسْكَنة ، وقَرَنها بالذِّلَّة مع غناهم ، وإذا تأمَّلت ما قلناه ، بَانَ أنهما صِنْفان موجُودَان في المسلمين .

* ت * : وقد أكْثر الناس في الفَرْق بين الفَقِير والمِسْكِين ، وأوْلَى ما يعوَّل عليه ما ثَبَتَ في ذلك عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقد رَوَى مالكٌ ، عن أبي الزِّنَادِ عن الأعرج عن أبي هريرة ؛ أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : " لَيْسَ المِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، إِنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلاَ يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيْهِ ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ " ، انتهى . وأوَّل أبو عمر في «التمهيد» هذا الحديثَ ، فقال : كأنه أراد - واللَّه أعلم - ليس المسكينُ على تمامِ المَسْكَنة ، وعلى الحقيقة إلا الذي لا يَسْأَلُ النَّاس . انتهى .

(62/340)

وأَمَّا العاملون : فهم جُبَاتها يستنيبهم الإِمامُ في السعْي على الناس ، وجَمْعِ صَدَقَاتهم ، قال الجُمْهور : لَهُمْ قَدْر تعبهم ومؤنتهم ، وأما ﴿ المؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ ، فكانوا مُسْلِمين وكافرينَ مستَتِرِينَ مُظْهرين للإِسلام ؛ حتى وثَّقه الاستئلاف في أكثرهم ، واستئلافهم إنما كان

لِتُجْلَبَ إلى الإِسلام مَنْفَعة ، أو تُدْفَعَ عنه مَضرَّة ، والصحيحُ بَقَاءُ حكمهم ؛ إن احتيج إليهم ، وأَما ﴿ الرقاب ﴾ ، فمذْهَبُ مالك وغيره هو ابتداء عِتْق مؤْمِن ، وأما الغَارِمُ : فهو الرجُل يركَبه دَيْن في غير مَعْصِيَة ولا سَفَه ، كذا قال العلماء ، وأما ﴿ فِي سَبِيلِ الله ﴾ ، فهو الغازِي ، وإن كانَ مَلِيًّا ببَلَده ، وأمَّا ﴿ ابن السبيل ﴾ ، فهو المسافِرُ ، وإن كان غنيًّا ببلده ، وسمي المُسَافِر ابْنَ السبيلِ لملازمته السبيلِ .

ومَن ادعى الفقْر صُدِّق إلاَّ لريبة ؛ فيكلَّف حينئذٍ البيّنة ، وأمَّا إن ادعى أنه غارمٌ أو ابن السبيل أو غاز ، ونحو ذلك مما لا يُعْلَم إلا منه ، فلا يعطَى إلا ببينة ، وأهلُ بلد الصَّدقة أَحقُّ بها إلا أن تَفْضُلَ فضلةٌ ، فتنقل إلى غيرهم .

قال ابنُ حَبيب : وينبغي للإمام أن يأمِر السُّعَاة بتَفْريقها في المواضِع التي جُبيَتْ فيها ، ولا يحمل منها شيْءٌ إلى الإمام ، وفي الحديثِ : " تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ "

وقوله سبحانه : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ الله ﴾ : أي : موجبةً محدودةً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(63/340)

وقال القرطبى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

فيه ثلاثون مسألة :

الأولى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ ﴾ خص الله سبحانه بعض الناس بالأموال دون بعض نعمة منه عليهم ، وجعل شكر ذلك منهم إخراجَ سهم يؤدّونه إلى من لا مال له ، نيابة عنه سبحانه فيما ضمِنه بقوله : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأرض إِلاَّ عَلَى الله رِزْقُهَا ﴾ [هود : 6] .

الثانية قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ تبيين لمصارف الصدقات والمحلّ ؛ حتى لا تخرج عنهم . ثم الإختيار إلى مَن يقسم ؛ هذا قول مالك وأبي حنيفة وأصحابهما .

كما يُقال : السّرج للدابة والباب للدار .

وقال الشافعيّ : اللام لام التمليك ؛ كقولك : المال لزيد وعمرو وبكر ، فلا بدّ من التسوية بين المذكورين .

قال الشافعيّ وأصحابه : وهذا كما لو أوْصَى لأصناف معينين أو لقوم معيّنين .

واحتجوا بلفظه "إنما" وأنها تقتضي الحصر في وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف ، وعَضَدُوا هذا بحديث " زياد بن الحارث الصُّدّائيّ قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبعث إلى قومي جيشاً فقلت : يا رسول الله ، احبس جيشك فأنَا لك

بإسلامهم وطاعتهم ، وكتبتُ إلى قومي فجاء إسلامهم وطاعتهم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا أخا صُداء المطاعُ في قومه" .

قال : قلت بل مَنّ الله عليهم وهداهم ؛ قال : ثم جاءه رجل يسأله عن الصدقات ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن الله لم يرض في الصدقات بحكم نبيّ ولا غيره حتى جزّأها ثمانية أجزاء فإن كنت من أهل تلك الأجزاء أعطيتك" " رواه أبو داود والدَّارَقُطْنِيّ .

واللفظ للدارقطني .

وحكي عن زين العابدين أنه قال : إنه تعالى علّم قدر ما يدفع من الزكاة وما تقع به الكفاية لهذه الأصناف ، وجعله حقاً لجميعهم ، فمن منعهم ذلك فهو الظالم لهم رزقهم .

(64/340)

وتمسك علماؤنا بقوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقرآء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] .

والصدقة متى أطلقت في القرآن فهي صدقة الفرض .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أُمِرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها على فقرائكم

" وهذا نص في ذكر أحد الأصناف الثمانية قرآنا وسنة ؛ وهو قول عمر بن الخطاب وعليّ وابن عباس وحُذيفة .

وقال به من التابعين جماعة .

قالوا : جائز أن يدفعها إلى الأصناف الثمانية ، وإلى أي صنف منها دفعتَ جاز .

روى المِنْهال بن عمرو عن زِرّ بن حُبيش عن حُذيفة في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ قال : إنما ذكر الله هذه الصدقات لتُعرف ، وأيّ صنف منها أعطيتَ أجزأك .

وروى سعيد بن جُبير عن ابن عباس ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ قال : في أيها وضعت أجزأ عنك .

وهو قول الحسن وإبراهيم وغيرهما .

قال الكِيَا الطبريّ : حتى ادعى مالك الإجماع على ذلك .

قلت : يريد إجماع الصحابة ؛ فإنه لا يُعلم لهم مخالف منهم على ما قال أبو عمر ، والله أعلم .

ابن العربيّ : والذي جعلناه فَيْصلا بيننا وبينهم أن الأُمة اتفقت على أنه لو أُعطي كلُّ صنف حظّه لم يجب تعميمه ، فكذلك تعميم الأصناف مثله .

والله أعلم .

الثالثة واختلف علماء اللغة وأهل الفقه في الفرق بين الفقير والمسكين على تسعة أقوال ؛ فذهب يعقوب بن السِّكِّيت والقُتَبِي ويونس بن حبيب إلى أن الفقير أحسن حالاً من المسكين .

قالوا : الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه ، والمسكين الذي لا شيء له ؛ واحتجّوا بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حَلُوبَتُه . . .

وَفْقَ العِيَال فلم يُترك له سَبَدُ

(65/340)

وذهب إلى هذا قوم من أهل اللغة والحديث منهم أبو حنيفة والقاضي عبد الوهاب ، والوفق من الموافقة بين الشيئين كالالتحام ؛ يُقال : حلوبته وفق عياله أي لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه ؛ عن الجوهري .

وقال آخرون بالعكس ؛ فجعلوا المسكين أحسنَ حالاً من الفقير .

واحتجو بقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر ﴾ [الكهف : 79] .

فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر .

وربما ساوت جملةً من المال .

وعَضَدوه بما رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه تعوّذ من الفقرِ .

وروي عنه أنه قال : " اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مسكيناً وأمتني مسكيناً " فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لتناقض الخبران ؛ إذ يستحيل أن يتعوّذ من الفقر ثم يسأل ما هو أسوأ حالاً منه ، وقد استجاب الله دعاءه وقبَضَه وله مال مما أفاء الله عليه ، ولكن لم يكن معه تمام الكفاية ؛ ولذلك رَهَن دِرعه .

قالوا : وأما بيت الرّاعي فلا حجة فيه ؛ لأنه إنما ذكر أن الفقير كانت له حَلُوبة في حال .

قالوا : والفقير معناه في كلام العرب المفقور الذي نُزعت فِقرُه من ظهره من شدّة الفقر فلا حال أشدّ من هذه .

وقد أخبر الله عنهم بقوله ﴿ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض ﴾ [البقرة : 273] .

واستشهدوا بقول الشاعر :

لما رأى لُبَدُ النُّسورِ تطايرت . . .

رفعَ القوادمَ كالفقير الأَعْزلِ

أي لم يطق الطيران فصار بمنزلة من انقطع صلبه ولصق بالأرض .

ذهب إلى هذا الأصمعيّ وغيره ، وحكاه الطحاوِيّ عن الكوفيين .

وهو أحد قولي الشافعيّ وأكثر أصحابه.

وللشافعيّ قول آخر: أن الفقير والمسكين سواء، لا فرق بينهما في المعنى وإن افترقا في الاسم؛ وهو القول الثالث.

وإلى هذا ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك، وبه قال أبو يوسف.

(66/340)

قلت: ظاهر اللفظ يدل على أن المسكين غير الفقير، وأنهما صنفان، إلاَّ أن أحد الصّنفين أشدّ حاجة من الآخر؛ فمن هذا الوجه يقرب قول من جعلهما صنفاً واحداً، والله أعلم.

ولا حجة في قول من احتج بقوله تعالى: ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ [الكهف: 79].

لأنه يحتمل أن تكون مستأجرة لهم؛ كما يُقال: هذه دار فلان إذا كان ساكنَها وإن كانت لغيره.

وقد قال تعالى في وصف أهل النار: ﴿ وَلَهُمْ مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴾ [الحج: 21] فأضافها إليهم.

وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ ﴾ [النساء: 5].

وقال صلى الله عليه وسلم : " من باع عبداً وله مال " وهو كثير جداً يُضاف الشيء إليه وليس له .

ومنه قولهم : باب الدار .

وجُلّ الدابة ، وسرج الفرس ، وشبهه .

ويجوز أن يُسمّوا مساكين على جهة الرحمة والاستعطاف ؛ كما يُقال لمن امتحن بِنكبة أو دفع إلى بلية مسكين .

وفي الحديث : " مساكين أهل النار " وقال الشاعر :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم . . .

عليها تراب الذل بين المقابر

وأمّا ما تأوّلوه من قوله عليه السَّلام : " اللهم أحيِني مسكيناً " الحديث .

رواه أنس ، فليس كذلك ؛ وإنما المعنى هاهنا : التواضع لله الذي لا جبروت فيه ولا نخوة ، ولا كبر ولا بطر ، ولا تكبّر ولا أشر .

ولقد أحسن أبو العتاهية حيث قال :

إذا أردت شريف القوم كلّهم . . .

فانظر إلى مِلك في زِي مسكين

ذاك الذي عظُمت في اللَّه رغبته . . .

وذاك يصلح للدنيا وللدين

وليس بالسائل ، لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد كره السؤال ونهى عنه ، " وقال في امرأة سوداء أبت أن تزول له عن الطريق : "دَعُوها فإنها جَبّارة" " وأما قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الذين أُحصِرُواْ فِي سَبِيلِ الله لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأرض ﴾ فلا يمتنع أن يكون لهم شيء .

والله أعلم .

وما ذهب إليه أصحاب مالك والشافعيّ في أنهما سواء حسن .

(67/340)

ويقرب منه ما قاله مالك في كتاب ابن سُحْنون ، قال : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين السائل ؛ وروي عن ابن عباس وقاله الزُّهْرِي ، واختاره ابن شعبان وهو القول الرابع .

وقول خامس قال محمد بن مسلمة : الفقير الذي له المسكن والخادم إلى من هو أسفل من ذلك .

والمسكين الذي لا مال له .

قلت : وهذا القول عكس ما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو ، وسأله رجل

فقال : ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له عبد الله : ألك امرأة تأوي إليها ؟ قال نعم .

قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال نعم .

قال : فأنت من الأغنياء .

قال : فإن لي خادماً قال : فأنت من الملوك .

وقول سادس روي عن ابن عباس قال : الفقراء من المهاجرين ، والمساكين من الأعراب الذين لم يهاجروا ؛ وقاله الضحاك .

وقول سابع وهو أن المسكين الذي يخشع ويستكنّ وإن لم يسأل .

والفقير الذي يتحمل ويقبل الشيء سرّاً ولا يخشع ؛ قاله عبيد الله بن الحسن .

وقول ثامن قاله مجاهد وعِكْرمة والزُّهرِيّ المساكين الطوّافون ، والفقراء فقراء المسلمين .

وقول تاسع قاله عكرمة أيضاً أن الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب .

وسيأتي .

الرابعة وهي فائدة الخلاف في الفقراء والمساكين ، هل هما صنف واحد أو أكثر تظهر فيمن أوصى بثلث ماله لفلان وللفقراء والمساكين ؛ فمن قال هما صنف واحد قال : يكون لفلان نصف الثلث وللفقراء والمساكين نصفُ الثلث الثاني .

ومن قال هما صنفان يقسم الثلث بينهم أثلاثاً .

الخامسة وقد اختلف العلماء في حدّ الفقر الذي يجوز معه الأخذ بعد إجماع أكثر من يحفظ

عنه من أهل العلم أن من له داراً وخادماً لا يستغني عنهما أن له أن يأخذ من الزكاة ، وللمعطِي أن يعطيه .

وكان مالك يقول : إن لم يكن في ثمن الدار والخادم فضلة عما يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ وإلا لم يجز ؛ ذكره ابن المنذر .

وبقول مالك قال النَّخَعِي والثوريّ .

(68/340)

وقال أبو حنيفة : من معه عشرون ديناراً أو مائتا درهم فلا يأخذ من الزكاة .

فاعتبر النصاب لقوله عليه السلام : " أُمِرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم " وهذا واضح ، ورواه المغيرة عن مالك .

وقال الثوريّ وأحمد وإسحاق وغيرهم : لا يأخذ مَن له خمسون درهماً أو قدرها من الذهب ، ولا يعطَى منها أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون غارماً ؛ قاله أحمد وإسحاق .

وحجة هذا القول ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ عن عبد الله بن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " لا تحلّ الصدقة لرجل له خمسون درهماً " في إسناده عبد الرحمن بن إسحاق ضعيف ، وعنه بكر بن خنيس ضعيف أيضاً .

ورواه حكيم بن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله عن النبيّ صلى الله عليه وسلم نحوه ، وقال : خمسون درهماً .

وحكيم بن جبير ضعيف تركه شعبة وغيره ؛ قاله الدَّارَقُطْنِيّ رحمه الله .

وقال أبو عمر : هذا الحديث يدور على حكيم بن جبير وهو متروك .

وعن عليّ وعبد الله قالا : لا تحلّ الصدقة لمن له خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب ؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي وقال الحسن البصريّ : لا يأخذ مَن له أربعون درهماً .

ورواه الواقِديّ عن مالك .

وحجة هذا القول ما رواه الدَّارَقُطْنِيّ " عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : "من سأل الناس وهو غَنِيّ جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش" .

فقيل : يا رسول الله وما غناؤه ؟ قال : "أربعون درهماً" " وفي حديث مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يَسار عن رجل من بني أسد فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من سأل منكم وله أوقِية أو عدلها فقد سأل إلحافاً والأوقية أربعون درهماً " والمشهور عن مالك ما رواه ابن القاسم عنه أنه سئل : هل يعطَى من الزكاة مَن له أربعون درهماً ؟ قال نعم .

قال أبو عمر : يحتمل أن يكون الأوّل قوِيّاً على الاكتساب حَسن التصرف .

والثاني ضعيفاً عن الاكتساب ، أو من له عيال .

والله أعلم .

وقال الشافعيّ وأبو ثَوْر .

من كان قوِياً على الكسب والتحرّف مع قوّة البدن وحسن التصرف حتى يغنيه ذلك عن الناس فالصدقة عليه حرام .

واحتج بحديث النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سَوِيّ " رواه عبد الله بن عمر ، وأخرجه أبو داود والترمذِيّ والدّارَقُطْنِيّ .

وروى جابر قال : " جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم صدقة فركبه الناس ؛ فقال : "إنها لا تصلح لغنِيّ ولا لصحيح ولا لعامل" " أخرجه الدّارقطنيّ .

وروى أبو داود " عن عبيد الله بن عَدِيّ بن الخيار قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا النبيّ صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يَقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا النظر وخفضه ، فرآنا جَلْدَين فقال : "إن شئتما أعطيتكما ولا حظّ فيها لغنيّ ولا لقوِيّ مكتسب" " ولأنه قد صار غنيّاً بكسبه كغِنى غيره بماله فصار كل واحد منهما غنيّاً عن

المسألة .

وقاله ابن خُوَيْزِمَنْدَاد ، وحكاه عن المذهب .

وهذا لا ينبغي أن يعوّل عليه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يعطيها الفقراء ووقوفها على الزَّمِن باطل .

قال أبو عيسى الترمذِيّ في جامعه : إذا كان الرجل قوياً محتاجاً ولم يكن عنده شيء فتُصدّقِ عليه أجزأ عن المتصدّق عند أهل العلم .

ووجه الحديث عند بعض أهل العلم على المسألة .

وقال الكِيَا الطبريّ : والظاهر يقتضي جواز ذلك ؛ لأنه فقير مع قوّته وصحةِ بدنه .

وبه قال أبو حنيفة وأصحابه .

وقال عبيد الله بن الحسن : من لا يكون له ما يكفيه ويقيمه سَنَةً فإنه يعطي الزكاة .

وحجته ما رواه ابن شهاب عن مالك بن أوس بن الحَدَثان عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدّخر مما أفاء الله عليه قوت سنة ، ثم يجعل ما سوى ذلك في الكُراع والسلاح مع قوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فأغنى ﴾ [الضحى : 8] .

(70/340)

وقال بعض أهل العلم : لكل واحد أن يأخذ من الصدقة فيما لا بدّ له منه .

وقال قوم : من عنده عشاء ليلة فهو غنِى ؛ وروي عن عليّ .

واحتجوا بحديث عليّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " "من سأل مسألة عن ظَهر غِنىً استكثر بها من رَضْف جهنم" قالوا : يا رسول الله ، وما ظهر الغني ؟ قال : "عشاء ليلة" " أخرجه الدّارَقُطْنِي وقال : في إسناده عمرو بن خالد وهو متروك .

وأخرجه أبو داود عن سهل بن الحَنْظَلية عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وفيه : " من سأل وعنده ما يُغنيه فإنما يستكثر من النار " وقال النُّفَيْلي في موضع آخر " من جمر جهنم " فقالوا : يا رسول الله وما يغنيه ؟ وقال النُّفَيْلي في موضع آخر ؛ وما الغنى الذي لا تنبغي معه المسألة ؟ قال :

" قدر ما يغدّيه ويعشّيه " وقال النّفيلي في موضع آخر : " أن يكون له شبع يوم وليلة أو ليلة ويوم " .

قلت : فهذا ما جاء في بيان الفقر الذي يجوز معه الأخذ .

ومطلق لفظ الفقراء لا يقتضي الإختصاص بالمسلمين دون أهل الذمة ، ولكن تظاهرت الأخبار في أن الصدقات تؤخذ من أغنياء المسلمين فتُرد في فقرائهم .

وقال عكرمة : الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين فقراء أهل الكتاب .

وقال أبو بكر العبسي : رأى عمر بن الخطاب ذِمّيّاً مكفوفاً مطروحاً على باب المدينة فقال

له عمر : مالَك ؟ قال : استكروني في هذه الجزية ، حتى إذا كُفّ بصري تركوني وليس لي أحد يعود عليّ بشيء .

فقال عمر : ما أُنصِفتَ إذاً ؛ فأمر له بقُوته وما يصلحه .

ثم قال : هذا من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ الآية .

وهم زَمْنَى أهل الكتاب .

(71/340)

ولما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ الآية ، وقابل الجملة بالجملة وهي جملة الصدقة بجملة المصرف بيّن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال لمعاذ حين أرسله إلى اليمن : " أخبرهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم " فاختص أهل كل بلد بزكاة بلده .

وروى أبو داود : أن زياداً أو بعض الأمراء بعث عمران بن حُصين على الصدقة ، فلما رجع قال لعمران : أين المال ؟ قال : وللمال أرسلتني أخذناها من حيث كنا نأخذها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووضعناها حيث كنا نضعها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروى الدَّارَقُطْنِي والترمذِيّ عن عَوْن بن أبي جُحيفة عن أبيه قال : قدم علينا مصدّق النبيّ صلى الله عليه وسلم فأخذ الصدقة من أغنيائنا فجعلها في فقرائنا فكنت غلاماً يتيماً فأعطاني منها قَلُوصاً .

قال الترمذِيّ : وفي الباب عن ابن عباس حديث ابن أبي جحيفة حديث حسن .

السادسة وقد اختلفت العلماء في نقل الزكاة عن موضعها على ثلاثة أقوال : لا تنقل ؛ قاله سُحْنون وابن القاسم ، وهو الصحيح لما ذكرناه .

قال ابن القاسم أيضاً : وإن نُقل بعضها لضرورة رأيته صواباً .

ورُوي عن سُحْنون أنه قال : ولو بلغ الإمام أن ببعض البلاد حاجة شديدة جاز له نقل بعض الصدقة المستحقة لغيره إليه ؛ فإن الحاجة إذا نزلت وجب تقديمها على من ليس بمحتاج .

" والمسلم أخو المسلم لا يُسْلِمه ولا يَظْلمه " والقول الثاني : تنقل .

وقاله مالك أيضاً .

وحجة هذا القول ما رُوي أن معاذاً قال لأهل اليمن : ايتوني بخَمِيس أو لَبِيس آخذه منكم مكان الذرة والشعير في الصدقة فإنه أيسر عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة .

أخرجه الدَّارَقُطْنيّ وغيره .

والخميس لفظ مشترك ، وهو هنا الثوب طوله خمس أذرع .

ويقال : سُمّيَ بذلك لأن أوّل من عمِله الْخمسُ مَلِك من ملوك اليمن ؛ ذكره ابن فارس في المُجْمَل والجوهريّ أيضاً .

(72/340)

وفي هذا الحديث دليلان : أحدهما ما ذكرناه من نقل الزكاة من اليمن إلى المدينة ؛ فيتولّى النبيّ صلى الله عليه وسلم قسمتها .

ويَعْضُد هذا قوله تعالى : "إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ" ولم يفصّل بين فقير بلد وفقير آخر . والله أعلم .

الثاني أخذ القيمة في الزكاة .

وقد اختلفت الرواية عن مالك في إخراج القِيَم في الزكاة ؛ فأجاز ذلك مرّةً ومنع منه أُخرى ، فوجهُ الجواز وهو قول أبي حنيفة هذا الحديث .

وثبت في صحيح البخاريّ من حديث أنس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من بلغت عنده من الإبل صدقة الجَذَعة وليست عنده جذعة وعنده حِقّة فإنه تؤخذ منه وما استيسرتا من شاتين أو عشرين درهماً " الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم : " أُغنوهم عن سؤال هذا اليوم " يعني يوم الفِطْر .

وإنما أراد أن يُغنوا بما يسدّ حاجتهم ، فأيّ شيء سدّ حاجتهم جاز .

وقد قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ [التوبة : 103] ولم يخص شيئاً من شيء .

ولا يُدفع عند أبي حنيفة سُكْنَى دار بدل الزكاة ؛ مثل أن يجب عليه خمسة دراهم فأسكن فيها فقيراً شهراً فإنه لا يجوز .

قال : لأن السكنى ليس بمال .

ووجه قوله : "لا تجزي القِيَم" وهو ظاهر المذهب فلأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " في خَمْسٍ من الإبل شاةٌ وفي أربعين شاةً شاةٌ " فنص على الشاة ، فإذا لم يأت بها لم يأت بمأمور به ، وإذا لم يأت بالمأمور به فالأمر باقٍ عليه .

القول الثالث وهو أن سهم الفقراء والمساكين يقسم في الموضع ، وسائر السهام تنقل باجتهاد الإمام .

والقول الأوّل أصح .

والله أعلم .

السابعة وهل المعتبر مكان المال وقت تمام الحول فتفرّق الصدقة فيه ، أو مكان المالك إذ هو المخاطب ؛ قولان .

واختار الثاني أبو عبد الله محمد بن خُوَيْزِمَنْدَاد في أحكامه قال : لأن الإنسان هو المخاطب بإخراجها فصار المال تبعاً له ؛ فيجب أن يكون الحكم فيه بحيث المخاطب .

(73/340)

كابن السبيل فإنه يكون غنِيّاً في بلده فقيراً في بلد آخر ؛ فيكون الحكم له حيث هو .

مسألة واختلفت الرواية عن مالك فيمن أعطى فقيراً مسلماً فانكشف في ثاني حال أنه أعطى عبداً أو كافراً أو غنيّاً ؛ فقال مرة : تجزيه ومرّة لا تجزيه .

وجه الجواز وهو الأصح ما رواه مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " قال رجل لأتصدّقنّ الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق الليلة على زانية قال اللَّهُم لك الحمد على زانية لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد غنيّ فأصبحوا يتحدّثون تُصدِّق على غنِيّ قال اللّهُم لك الحمد على غنيّ لأتصدّقنّ بصدقة فخرج بصدقته فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدّثون تُصدّق على سارق فقال اللّهُم لك الحمد على زانية وعلى غنيّ وعلى سارق فأُتِي فقيل له أمّا صدقتك فقد قُبلت أما الزانية فلعلّها تستعِفّ بها عن زناها ولعلّ الغنِيّ يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق يستعِف بها عن سرقته "

وروي " أن رجلاً أخرج زكاة ماله فأعطاها أباه ، فلما أصبح علم بذلك ؛ فسأل النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال له : "قد كُتب لك أجر زكاتك وأجر صلة الرحم فلك أجران" "

ومن جهة المعنى أنه سوّغ له الاجتهاد في المعطى .

فإذا اجتهد وأعطى من يظنه من أهلها فقد أتى بالواجب عليه .

ووجه قوله : لا يَجْزِي .

أنه لم يضعها في مستحقّها ؛ فأشبه العمد ، ولأن العمد والخطأ في ضمان الأموال واحد فوجب أن يضمن ما أتلف على المساكين حتى يُوصِله إليهم .

الثامنة فإن أخرج الزكاة عند محلّها فهلكت من غير تفريط لم يضمن ؛ لأنه وكيل للفقراء .

فإن أخرجها بعد ذلك بمدة فهلكت ضمِن ؛ لتأخيرها عن محلها فتعلّقت بذمته فلذلك ضمن .

والله أعلم .

التاسعة وإذا كان الإمام يعدل في الأخذ والصرف لم يَسُغ للمالك أن يتولّى الصرف بنفسه في الناضّ ولا في غيره .

وقد قيل : إن زكاة الناضّ على أربابه .

وقال ابن الماجِشون : ذلك إذا كان الصرف للفقراء والمساكين خاصة ؛ فإن احتيج إلى صرفها لغيرهما من الأصناف فلا يفرّق عليهم إلا الإمام .

وفروع هذا الباب كثيرة ، هذه أُمّهاتها .

العاشرة قوله تعالى : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ يعني السُّعاة والجُبَاة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة بالتوكيل على ذلك .

روى البخاريّ عن أبي حُميد الساعديّ قال : استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من الأسْد على صدقات بني سُليم يُدْعَى ابن اللّتْبِية ، فلما جاء حاسبه .

واختلف العلماء في المقدار الذي يأخذونه على ثلاثة أقوال : قال مجاهد والشافِعيّ : هو الثُّمن .

ابن عمر ومالك : يُعطوْن قدر عملهم من الأُجرة ؛ وهو قول أبي حنيفة وأصحابه .

قالوا : لأنه عطّل نفسه لمصلحة الفقراء ، فكانت كفايته وكفاية أعوانه في مالهم ؛ كالمرأة لما عطّلت نفسها لحقّ الزوج كانت نفقتها ونفقة أتباعها من خادم أو خادمين على زوجها .

ولا تقدّر بالثّمن ، بل تعتبر الكفاية ثُمْنا كان أو أكثر ؛ كرزق القاضي .

ولا تعتبر كفاية الأعوان في زماننا لأنه إسراف محض .

القول الثالث يُعطون من بيت المال .

قال ابن العربيّ : وهذا قول صحيح عن مالك بن أنس من رواية ابن أبي أُوَيس وداود بن سعيد بن زنبوعة ، وهو ضعيف دليلاً ؛ فإن الله سبحانه قد أخبر بسهمهم فيها نصّاً فكيف يخلفون عنه استقراء وسَبْراً .

والصحيح الاجتهاد في قدر الأُجرة ؛ لأن البيان في تعديد الأصناف إنما كان للمحل لا للمستحقّ ، على ما تقدّم .

واختلفوا في العامل إذا كان هاشميّاً ؛ فمنعه أبو حنيفة لقوله عليه السلام : " إن الصدقة لا تحلّ لآل محمد إنما هي أوساخ الناس " وهذه صدقة من وجه ؛ لأنها جزء من الصدقة فتُلحق بالصدقة من كل وجه كرامة وتنزيهاً لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن غُسالة الناس .

(75/340)

وأجاز عمله مالك والشافِعيّ ، ويُعطى أجر عُمالته ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم بعث عليّ بن أبي طالب مصدّقاً ، وبعثه عاملاً إلى اليمن على الزكاة ، وولّى جماعةً من بني هاشم وولّى الخلفاء بعده كذلك .

ولأنه أَجِير على عمل مباح فوجب أن يستوي فيه الهاشميّ وغيره اعتباراً بسائر

الصناعات .

قالت الحنفية : حديث عليّ ليس فيه أنه فرض له من الصدقة ، فإن فرض له من غيرها جاز .

وروي عن مالك .

الحادية عشرة ودلّ قوله تعالى : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ على أن كل ما كان من فروض الكفايات كالساعي والكاتب والقَسّام والعاشِر وغيرهم فالقائم به يجوز له أخذ الأُجرة عليه .

ومن ذلك الإمامة ؛ فإن الصلاة وإن كانت متوجَّهة على جميع الخلق فإن تقدّم بعضهم بهم من فروض الكفايات ، فلا جَرَم يجوز أخذ الأُجرة عليها .

وهذا أصل الباب ، وإليه أشار النبيّ صلى الله عليه وسلم بقوله : " ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة " قاله ابن العربيّ .

الثانية عشرة قوله تعالى : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ لا ذكر للمؤلفة قلوبهم في التنزيل في غير قَسْم الصدقات ؛ وهم قوم كانوا في صدر الإسلام ممن يظهر الإسلام ، يتألّفون بدفع سهم من الصدقة إليهم لضعف يقينهم .

قال الزهريّ : المؤلّفة من أسلم مِن يهوديّ أو نصرانِيّ وإن كان غنيّاً .

وقال بعض المتأخرين : اختلف في صفتهم ؛ فقيل : هم صِنف من الكفار يعطون ليتألفوا

على الإسلام ، وكانوا لا يُسلمون بالقهر والسيف ، ولكن يسلمون بالعطاء والإحسان .

وقيل : هم قوم أسلموا في الظاهر ولم تستيقن قلوبهم ، فيُعطَوْن ليتمكن الإسلام في صدورهم .

وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع يُعطون ليتألفوا أتباعهم على الإسلام .

قال : وهذه الأقوال متقاربة ، والقصد بجميعها الإعطاءُ لمن لا يتمكن إسلامه حقيقةً إلا بالعطاء ؛ فكأنه ضربٌ من الجهاد .

والمشركون ثلاثة أصناف : صِنف يرجع بإقامة البرهان .

وصنف بالقهر .

وصنف بالإحسان .

(76/340)

والإمام الناظر للمسلمين يستعمل مع كل صِنف ما يراه سبباً لنجاته وتخليصه من الكفر .

وفي صحيح مسلم من حديث أنس ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعني للأنصار : " فإني أُعطِي رجالاً حدِيثي عَهْدٍ بكفر أتألَّفهم " الحديث .

قال ابن إسحاق : أعطاهم يتألَّفهم ويتألف بهم قومهم .

وكانوا أشرافاً ؛ فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير ، وأعطى ابنه مائة بعير ، وأعطى حَكيم بن حِزام مائة بعير ، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير ، وأعطى سُهيل بن عمرو مائة بعير ، وأعطى حُوَيطب بن عبد العُزَّى مائة بعير ، وأعطى صفوان بن أُمية مائة بعير .

وكذلك أعطى مالك بن عوف والعلاء بن جارية .

قال : فهؤلاء أصحاب المِئين .

وأعطى رجالاً من قريش دون المائة منهم مخرمة بن نوفل الزهريّ ، وعمير بن وَهْب الجُمَحِيّ ، وهشام بن عمرو العامريّ .

قال ابن إسحاق : فهؤلاء لا أعرف ما أعطاهم .

وأعطى سعيد بن يَرْبُوع خمسين بعيراً ، وأعطى عباس بن مِرداس السُّلَمِيّ أَبَاعِرَ قليلة فسخِطها .

فقال في ذلك :

كانت نِهاباً تَلافَيْتُهَا . . .

بكَرِّي على المُهْرِ في الأجْرَع

وإيقاظِيَ القومَ أن يرقدوا . . .

إذا هَجَعَ الناس لم أهجع

فأصبَح نَهْبِي ونَهْب العُبَيْ . . .

دِ بين عُيَيْنة والأَقْرَع

وقد كنتُ في الحرب ذا تُدْرَإٍ . . .

فلم أعْطَ شيئاً ولم أمْنع

إلاّ أفائلَ أُعطِيتُهَا . . .

عديدَ قوائمه الأربع

وما كان حِصنٌ ولا حابِسٌ . . .

يفوقان مِرْداسَ في المَجْمع

وما كنتُ دون امرىء منهما . . .

ومن تَضع اليومَ لا يُرْفَع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اذهبوا فاقطعوا عني لسانه " فأعطَوْه حتى رَضِيَ ؛ فكان ذلك قَطْع لسانه .

قال أبو عمر : وقد ذُكر في المؤلفة قلوبهم النُّضير بن الحارث بن علقمة بن كَلَدة ، أخو النضر بن الحارث المقتول ببدر صَبْراً .

(77/340)

وذكر آخرون أنه فيمن هاجر إلى الحبشة ؛ فإن كان منهم فمحال أن يكون من المؤلفة قلوبهم ؛ ومن هاجر إلى أرض الحبشة فهو من المهاجرين الأوّلين ممن رسخ الإيمان في قلبه وقاتل دونه ، وليس ممن يؤلّف عليه .

قال أبو عمر : واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن عوف بن سعد بن يربوع النّصريّ على من أسلم من قومه من قبائل قيس ، وأمره بمغاورة ثقيف ففعل وضيّق عليهم ، وحسُن إسلامه وإسلام المؤلّفة قلوبهم ، حاشا عُيينة بن حِصن فلم يزل مَغْموزاً عليه .

وسائر المؤلفة متفاضلون ، منهم الخَيّر الفاضل المجتمَع على فضله ، كالحارث بن هشام ، وحكِيم بن حِزام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، ومنهم دون هؤلاء .

وقد فضل الله النبيين وسائر عباده المؤمنين بعضهم على بعض وهو أعلم بهم .

قال مالك : بلغني أنّ حكيم بن حِزام أخرج ما كان أعطاه النبيّ صلى الله عليه وسلم في المؤلفة قلوبهم فتصدّق به بعد ذلك .

قلت : حكيم بن حزام وحُويطِب بن عبد العُزّى عاش كل واحد منهما مائة وعشرين سنة ، ستين في الإسلام وستين في الجاهلية .

وسمعت الإمام شيخنا الحافظ أبا محمد عبد العظيم يقول : شخصان من الصحابة عاشا في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام ستين سنة ، وماتا بالمدينة سنة أربع وخمسين ؛ أحدهما حكيم بن حزام ، وكان مولده في جوف الكعبة قبل عام الفِيل بثلاث عشرة سنة .

والثاني حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصاريّ .

وذكر هذا أيضاً أبو عمر وعثمان الشَّهْرُزُوريّ في كتاب معرفة أنواع علم الحديث له ، ولم يذكرا غيرهما .

وحُويطب ذكره أبو الفرج الجَوْزِيّ في كتاب الوفا في شرف المصطفى .

وذكره أبو عمر في كتاب الصحابة أنه أدرك الإسلام وهو ابن ستين سنة ، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة .

وذكر أيضاً حَمْنن بن عوف أخو عبد الرحمن بن عوف ، أنه عاش في الإسلام ستين سنة وفي الجاهلية ستين سنة .

وقد عُدّ في المؤلفة قلوبهم معاوية وأبوه أبو سفيان بن حرب .

(78/340)

أما معاوية فبعيد أن يكون منهم ؛ فكيف يكون منهم وقد ائتمنه النبيّ صلى الله عليه وسلم على وَحْي الله وقراءته وخَلَطه بنفسه .

وأما حاله في أيام أبي بكر فأشهر من هذا وأظهر .

وأما أبوه فلا كلام فيه أنه كان منهم .

وفي عددهم اختلاف ، وبالجملة فكلهم مؤمن ولم يكن فيهم كافر على ما تقدّم ، والله أعلم وأحكم .

الثالثة عشرة واختلف العلماء في بقائهم ؛ فقال عمر والحسن والشعبيّ وغيرهم : انقطع هذا الصِّنف بعز الإسلام وظهوره .

وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي .

قال بعض علماء الحنفية : لما أعز الله الإسلام وأهله وقطع دابر الكافرين لعنهم الله اجتمعت الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين في خلافة أبي بكر رضي الله عنه على سقوط سهمهم .

وقال جماعة من العلماء : هم باقون ؛ لأن الإمام ربما احتاج أن يستألف على الإسلام .

وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدِّين .

قال يونس سألت الزُّهْرِيّ عنهم فقال : لا أعلم نسخاً في ذلك .

قال أبو جعفر النحاس : فعلى هذا الحُكم فيهم ثابت ، فإن كان أحد يحتاج إلى تألّفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة ، أو يرجى أن يحسن إسلامه بعدُ دُفع إليه .

قال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة .

وقال القاضي ابن العربيّ : الذي عندي أنه إن قوِي الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهم ؛ فإن في الصحيح : " بدأ الإسلام

غريباً وسيعود كما بدأ " .

الرابعة عشر فإذا فرّعنا على أنه لا يُردّ إليهم سهمهم فإنه يرجع إلى سائر الأصناف أو ما يراه الإمام .

وقال الزهرِيّ : يُعطَى نصفُ سهمهم لعُمّار المساجد .

وهذا مما يدلك على أن الأصناف الثمانية محلّ لا مستحقون تسويةً ، ولو كانوا مستحقين لسقط سهمهم بسقوطهم ولم يرجع إلى غيرهم ، كما لو أوصى لقوم معينين فمات أحدهم لم يرجع نصيبه إلى من بقي منهم .

والله أعلم .

(79/340)

الخامسة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ أي في فَكّ الرقاب ؛ قاله ابن عباس وابن عمر ؛ وهو مذهب مالك وغيره .

فيجوز للإمام أن يشتري رِقاباً من مال الصدقة يعتقها عن المسلمين ؛ ويكون ولاؤهم لجماعة المسلمين .

وإن اشتراهم صاحب الزكاة وأعتقهم جاز .

هذا تحصيل مذهب مالك ؛ وروي عن ابن عباس والحسن ، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو عبيد .

وقال أبو ثَوْر : لا يبتاع منها صاحب الزكاة نَسمَة يعتقها بجرّ ولاء .

وهو قول الشافعيّ وأصحاب الرأي ورواية عن مالك .

والصحيح الأوّل ؛ لأن الله عز وجل قال : "وفي الرِّقَابِ" فإذا كان للرقاب سهم من الصدقات كان له أن يشتري رقبة فيعتقها .

ولا خلاف بين أهل العلم أن للرجل أن يشتري الفرس فيحمل عليه في سبيل الله .

فإذا كان له أن يشتري فرساً بالكمال من الزكاة جاز أن يشتري رقبة بالكمال ؛ لا فرق بين ذلك .

والله أعلم .

السادسة عشرة قوله تعالى : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ الأصل في الولاء ؛ قال مالك : هي الرقبة تعتق وولاؤها للمسلمين ، وكذلك إن أعتقها الإمام .

وقد نهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن بيع الولاء وعن هبته .

وقال عليه السلام : " الولاء لُحْمَةٌ كَلُحْمة النسب لا يباع ولا يوهب " وقال عليه السلام : " الولاء لمن أعتق " ولا ترث النساء من الولاء شيئاً ؛ لقوله عليه السلام : " لا ترث النساء من الولاء شيئاً إلا ما أعتقن أو أعتق من أعتقن " وقد ورّث النبيّ صلى الله عليه وسلم ابنة

حمزة من مولًى لها النصف ولابنته النصف .

فإذا ترك المعتِق أولاداً ذكوراً وإناثاً فالولاء للذكور من ولده دون الإناث .

وهو إجماع الصحابة رضي الله عنهم .

والولاء إنما يورث بالتعصيب المحض ، والنساءُ لا تعصيب فيهن فلم يرثن من الولاء شيئاً .

فافهم تصِب .

السابعة عشرة واختلف هل يُعان منها المكاتب ؛ فقيل لا .

(80/340)

روي ذلك عن مالك ؛ لأن الله عز وجل لما ذكر الرقبة دلّ على أنه أراد العتق الكامل ، وأما المكاتب فإنما هو داخل في كلمة الغارمين بما عليه من دين الكتابة ، فلا يدخل في الرّقاب .

والله أعلم .

وقد روي عن مالك من رواية المدنيين وزيادٍ عنه : أنه يُعان منها المكاتب في آخر كتابته بما يعتق .

وعلى هذا جمهور العلماء في تأويل قول الله تعالى : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ .

وبه قال ابن وهب والشافعيّ واللّيث والنَّخَعِيّ وغيرهم .

وحكى عليّ بن موسى القُمّيّ الحنفيّ في أحكامه : أنهم أجمعوا على أن المكاتب مراد .

واختلفوا في عتق الرقاب ؛ قال الكِيا الطبريّ : "وذكر وجهاً بيّنه في منع ذلك فقال : إن العتق إبطال مِلك وليس بتمليك ، وما يدفع إلى المكاتب تَمليك ، ومن حق الصدقة ألا تجزي إلا إذا جرى فيها التمليك .

وقوى ذلك بأنه لو دفع من الزكاة عن الغارم في دينه بغير أمره لم يجزه من حيث لم يملك فلأن لا يجزي ذلك في العتق أولى .

وذكر أن في العتق جرّ الولاء إلى نفسه وذلك لا يحصل في دفعه للمكاتب .

وذكر أن ثمن العبد إذا دفعه إلى العبد لم يملكه العبد ، وإن دفعه إلى سيده فقد ملّكه العتق .

وإن دفعه بعد الشراء والعتق فهو قاضٍ ديناً ، وذلك لا يجزي في الزكاة" .

قلت : قد ورد حديث ينصّ على معنى ما ذكرنا من جواز عتق الرقبة وإعانة المكاتب معاً ، أخرجه الدّارقُطْنِيّ عن البَرَاء قال : " جاء رجل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : دُلَّني على عمل يقرّبني من الجنة ويباعدني من النار .

قال : "لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة أعتق النسمة وفك الرقبة" .

فقال : يا رسول الله ، أو ليستا واحداً ؟ قال : "لا ، عِتق النسمة أن تنفرد بعتقها وفكّ الرقبة أن تُعين في ثمنها" " وذكر الحديث .

الثامنة عشرة واختلفوا في فكّ الأسارى منها ؛ فقال أَصْبَغ : لا يجوز .

وهو قول ابن القاسم .

(81/340)

وقال ابن حبيب : يجوز ؛ لأنها رقبة مُلِكت بملك الرِّق فهي تخرج من رِقّ إلى عتق ، وكان ذلك أحقّ وأوْلى من فكاك الرقاب الذي بأيدينا ؛ لأنه إذا كان فكّ المسلم عن رقِ المسلم عبادةً وجائزاً من الصدقة ، فأحرى وأولى أن يكون ذلك في فكّ المسلم عن رق الكافر وذلِّه .

التاسعة عشرة قوله تعالى : ﴿ والغارمين ﴾ هم الذين ركبهم الدّين ولا وفاء عندهم به ، ولا خلاف فيه .

اللَّهُمّ إلا من ادان في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

ويُعْطَى منها من له مال وعليه دين محيط به ما يقضي به دينه ، فإن لم يكن له مال وعليه دين فهو فقير وغارم فَيُعطى بالوصفين .

روى مسلم عن أبي سعيد الخُدْريّ قال : " أصيب رجل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمار ابتاعها فكثر دينه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "تصدقوا عليه" .

فتصدق الناس عليه فلم يبلغ ذلك وفاء دينه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لغرمائه : "خذوا ما وجدتم وليس لكم إلا ذلك" " .

الموفية عشرين ويجوز للمتحمّلِ في صلاح وبرٍّ أن يُعطى من الصدقة ما يؤدّي ما تحمّل به إذا وجب عليه وإن كان غنياً ، إذا كان ذلك يُجْحف بماله كالغريم .

وهو قول الشافعيّ وأصحابه وأحمد بن حنبل وغيرهم .

واحتج من ذهب هذا المذهب بحديث " قَبِيصة بن مُخارِق قال : تحملت حمّالة فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم أسأله فيها فقال : "أقم حتى تأتينا الصدقةُ فنأمر لك بها ثم قال يا قَبيصةُ إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثةٍ رجل تحمّل حَمَالة فحلّت له المسألة حتى يصيبها ثم يُمسِك ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سِداداً من عيش ورجل أصابته فاقة حتى يقوم ثلاثة من ذوِي الحِجَا من قومه لقد أصابت فلاناً فاقةٌ فحلّت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال سداداً من عيش فما سواهنّ من المسألة يا قَبيصةُ سُحْتاً يأكلها صاحبها سُحْتاً" "

(82/340)

فقوله : " ثم يُمسك " دليل على أنه غنيّ ؛ لأن الفقير ليس عليه أن يمسك .

والله أعلم .

وروي عنه عليه السلام أنه قال : " إن المسألة لا تحلّ إلا لأحد ثلاثةٍ ذوي فقر مُدْقِع أو لذي غُرْم مُفظِع أو لذي دم مُوجِع " وروي عنه عليه السلام : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ إلا لخمسة " الحديث .

وسيأتي .

الحادية والعشرون واختلفوا ، هل يُقضى منها دينُ الميت أم لا ؛ فقال أبو حنيفة : لا يؤدَّى من الصدقة دين ميتٍ .

وهو قول ابن الموّاز .

قال أبوحنيفة : ولا يعطى منها مَن عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله تعالى ، وإنما الغارم من عليه دين يُسجن فيه .

وقال علماؤنا وغيرهم : يُقضى منها دين الميت لأنه من الغارمين ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " أنا أولى بكل مؤمن من نفسه من ترك مالاً فلأهله ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإليّ وعليّ " .

الثانية والعشرون قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ وهم الغزاة وموضع الرباط ، يُعطون ما ينفقون في غزوهم كانوا أغنياء أو فقراء .

وهذا قول أكثر العلماء ، وهو تحصيل مذهب مالك رحمه الله .

وقال ابن عمر : الحجاج والعُمّار .

ويُؤثر عن أحمد وإسحاق رحمهما الله أنهما قالا : سبيل الله الحج .

وفي البخاريّ : ويذكر عن أبي لاسٍ : حملنا النبيّ صلى الله عليه وسلم على إبل الصدقة للحج ، ويذكر عن ابن عباس : يُعتِق من زكاة ماله ويُعطِي في الحج .

خرّج أبو محمد عبد الغني الحافظ حدّثنا محمد بن محمّد الخياش حدّثنا أبو غسان مالك بن يحيى حدّثنا يزيد بن هارون أخبرنا مهدي بن ميمون عن محمد بن أبي يعقوب عن عبد الرحمن بن أبي نُعْم ويكنى أبا الحكم قال : كنت جالساً مع عبد الله بن عمر فأتته امرأة فقالت له : يا أبا عبد الرحمن ، إن زوجي أوصى بماله في سبيل الله .

قال ابن عمر : فهو كما قال في سبيل الله .

فقلت له : ما زدتها فيما سألت عنه إلا غَمّاً .

(83/340)

قال : فما تأمرني يا بن أبي نُعْم ، آمرها أن تدفعه إلى هؤلاء الجيوش الذين يخرجون فيفسدون في الأرض ويقطعون السبيل ! قال : قلت فما تأمرها .

قال آمرها أن تدفعه إلى قوم صالحين ، إلى حجاج بيت الله الحرام .

أولئك وفد الرحمن .

أولئك وفد الرحمن .

أولئك وفد الرحمن ، ليسوا كوفد الشيطان ؛ ثلاثاً يقولها .

قلت : يا أبا عبد الرحمن ، وما وفد الشيطان ؟ قال : قوم يدخلون على هؤلاء الأمراء فَيُنِمُّون إليهم الحديث ، ويسعون في المسلمين بالكذب ؛ فيجازَوْن الجوائز ويعطْون عليه العطايا .

وقال محمد بن عبد الحكم : ويعطي من الصدقة في الكُراع والسلاح وما يحتاج إليه من الات الحرب ، وكف العدوّ عن الحَوْزة ؛ لأنه كلَّه من سبيل الغزو ومنفعته .

وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم مائة ناقةٍ في نازلة سهل بن أبي حَثْمة إطفاءً للثّائرة .

قلت : أخرج هذا الحديث أبو داود عن بشير بن يسار ، أن رجلاً من الأنصار يقال له سهل بن أبي حَثْمة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وداه مائة من إبل الصدقة ، يعني دية الأنصاريّ الذي قُتل بخَيْبَر ، وقال عيسى بن دِينار : تَحِل الصدقة لغاز في سبيل الله ، قد احتاج في غزوته وغاب عنه غَناؤه ووَفْرُه .

قال : ولا تحلّ لمن كان معه ماله من الغزاة ، إنما تحلّ لمن كان ماله غائباً عنه منهم .

وهذا مذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق وجمهور أهل العلم .

وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يعطى الغازِي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به .

وهذه زيادة على النص ، والزيادة عنده على النص نسخ ، والنسخ لا يكون إلا بقرآن أو خبر متواتر ، وذلك معدوم هنا ، بل في صحيح السّنة خلاف ذلك من قوله عليه السلام : " لا تحل الصدقة لغنِيّ إلا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل اشتراها بماله أو لرجل له جار مسكين فتصدّق على المسكين فأهدى المسكين للغني " رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار .

(84/340)

ورفعه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخُدْري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

فكان هذا الحديث مفسِّراً لمعنى الآية ، وأنه يجوز لبعض الأغنياء أخذها ، ومفسِّراً لقوله عليه السلام : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سَوِيّ " لأن قوله هذا مجمل ليس على عمومه بدليل الخمسة الأغنياء المذكورين .

وكان ابن القاسم يقول : لا يجوز لغني أن يأخذ من الصدقة ما يستعين به على الجهاد وينفقه في سبيل الله ، وإنما يجوز ذلك لفقير .

قال : وكذلك الغارم لا يجوز له أن يأخذ من الصدقة ما يقي به ماله ويؤدّي منها دينه وهو

عنها غنيّ .

قال : وإذا احتاج الغازي في غزوته وهو غنيّ له مال غاب عنه لم يأخذ من الصدقة شيئاً ويستقرض ، فإذا بلغ بلده أدى ذلك من ماله .

هذا كله ذكره ابن حبيب عن ابن القاسم ، وزعم أن ابن نافع وغيره خالفوه في ذلك .

وروى أبو زيد وغيره عن ابن القاسم أنه قال : يُعَطى من الزكاة الغازي وإن كان معه في غزاته ما يكفيه من ماله وهو غنيّ في بلده .

وهذا هو الصحيح ؛ لظاهر الحديث : " لا تحلّ الصدقة لغني إلا لخمسة " وروى ابن وهب عن مالك أنه يعطى منها الغزاة ومواضع الرّباط فقراء كانوا أو أغنياء .

الثالثة والعشرون قوله تعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ السبيل الطريق ، ونُسب المسافر إليها لملازمته إياها ومروره عليها ؛ كما قال الشاعر :

إن تسألوني عن الهوى فأنا الهوى . . .

وابن الهوى وأخو الهوى وأبوهُ

والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقره وماله ؛ فإنه يُعْطَى منها وإن كان غنياً في بلده ، ولا يلزمه أن يشغل ذمّته بالسّلف .

وقال مالك في كتاب ابن سُحنون : إذا وجد من يسلفه فلا يعطَى .

والأول أصح ؛ فإنه لا يلزمه أن يدخل تحت مِنَّة أحد وقد وجد مِنَّة الله تعالى .

فإن كان له ما يغنيه ففي جواز الأخذ له لكونه ابن السبيل روايتان : المشهور أنه لا يعطى ؛ فإن أخذ فلا يلزمه ردّه إذا صار إلى بلده ولا إخراجه .

(85/340)

الرابعة والعشرون فإن جاء وادعى وصفاً من الأوصاف ، هل يقبل قوله أم لا ويقال له أثبت ما تقول .

فأما الدّين فلا بدّ أن يثبته ، وأما سائر الصفات فظاهر الحال يشهد له ويُكتفى به فيها .

والدليل على ذلك حديثان صحيحان أخرجهما أهل الصحيح ، وهو ظاهر القرآن .

روى مسلم عن جرير عن أبيه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم في صدر النهار ، قال : فجاءه قوم حُفاةٌ عُراةٌ مُجْتَابي النِّمار أو العَبَاء متقلّدي السيوف ، عامتُهم من مُضَرَ بل كلهم من مُضَر ، فتمعّر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة ، فدخل ثم خرج فأمر بلالاً فأذّن وأقام فصلى ، ثم خطب فقال : ﴿ أَيُّهَا الناس اتقوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ ﴾ [النساء : 1] الآية إلى قوله ﴿ رَقِيباً ﴾ [النساء : 1] والآية التي في الحشر ﴿ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ [الحشر : 18] تصدق رجل من ديناره من درهمه من ثوبه من صاع بره حتى قال ولو بشق تمرة .

قال : فجاء رجل .

من الأنصار بُصّرة كادت كفُّه تَعْجِز عنها بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كَوْمَين من طعام وثياب ، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مُذْهبة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من سَنّ في الإسلام سُنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن يُنقص من أجورهم شيء ومن سَنّ في الإسلام سُنّة سيئة كان عليه وِزْرها ووِزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء " فاكتفى صلى الله عليه وسلم بظاهر حالهم وحَثّ على الصدقة ، ولم يطلب منهم بيّنة ، ولا استقصى هل عندهم مال أم لا .

ومثله حديث أبْرص وأقرع وأعمى أخرجه مسلم وغيره .

(86/340)

وهذا لفظه : عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن ثلاثة في بني إسرائيل أبْرص وأقرع وأعمى فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم مَلَكاً فأتى الأبرص فقال أي شيء أحبُّ إليك فقال لون حَسَن وجلد حَسَن ويذهب عني الذي قد قَذِرني الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قذره وأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً قال فأيّ المال أحبُّ إليك

قال الإبل أو قال البقر ، شك إسحاق ، إلا أن الأبرص أو الأقرع قال أحدهما الإبل وقال الآخر البقر قال فأعطي ناقة عُشَراء قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأقرعَ فقال أي شيء أحب إليك قال شعر حَسَن ويذهب عني هذا الذي قد قَذِرَني الناسُ قال فمسحه فذهب عنه قال فأعْطيَ شعراً حسناً قال فأيّ المال أحبُّ إليك قال البقر فأعِطي بقرة حاملاً قال بارك الله لك فيها قال فأتى الأعمى فقال أيّ شيء أحبُّ إليك قال أن يَرُدّ الله إليّ بصري فأُبصر به الناسَ قال فمسحه فردّ الله إليه بصره قال فأيّ المال أحبُّ إليك قال الغنم فأعطي شاة والداً فأُنتج هذان وولد هذا قال فكان لهذا وادٍ من الإبل ولهذا وادٍ من البقر ولهذا وادٍ من الغنم قال ثم إنه أتى الأبرصَ في صورته وهيئته فقال رجل مسكين قد انقطعت بي الحِبال في سفري فلا بلاغَ لي اليوم إلا بالله وبك أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلّغ عليه في سفري فقال له الحقوق كثيرة فقال له كأني أعرفك ألم تكن أبرصَ يَقْذَرُكَ الناسُ فقيراً فأعطاك الله فقال إنما وَرِثتُ هذا المال كابراً عن كابر فقال إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت فقال وأتى الأقرعَ في صورته فقال له مثلَ ما قال لهذا وردّ عليه مثلَ ما ردّ على هذا فقال إن كنتَ كاذباً فصيّرك الله إلى ما كنت قال وأتى الأعمى في صورته وهيئته فقال رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بي الحبال في سفري فلا بلاغَ لِيَ اليوم إلا بالله ثم بك أسألك بالذي ردّ عليك بصرَك شاةً أتبلّغ بها

في سفري فقال قد كنتُ أعمى فردّ الله إليّ بصري فخذ ما شئتَ ودَعْ ما شئت فوالله لا أجْهَدُك اليومَ شيئاً أخذته لله فقال أمْسِك مالك فإما ابتُليتم فقد رُضيَ عنك وسُخِط على صاحبيك "

وفي هذا أدلّ دليل على أن من ادعى زيادةً على فقره من عيال أو غيره لا يكشف عنه خلافاً لمن قال يُكشف عنه إن قدر ؛ فإنّ في الحديث " فقال رجل مسكين وابنُ سبيل أسألك شاة " ، ولم يكلفه إثبات السفر .

فأما المكاتب فإنه يكلَّف إثبات الكتابة لأن الرّق هو الأصل حتى تثبت الحرّية .

الخامسة والعشرون ولا يجوز أن يُعطِيَ من الزكاة من تلزمه نفقته وهم الوالدان والولد والزوجة .

وإن أعطى الإمامُ صدقة الرجل لولده ووالده وزوجته جاز .

وأما أن يتناول ذلك هو بنفسه فلا ؛ لأنه يسقط بها عن نفسه فرضاً .

قال أبو حنيفة : ولا يعطي منها ولد ابنه ولا ولد ابنته ، ولا يعطي منها مكاتبة ولا مدبَّره ولا أمّ ولده ولا عبداً أعتق نصفه ؛ لأنه مأمور بالإيتاء والإخراج إلى الله تعالى بواسطة كَفّ الفقير ، ومنافع الأملاك مشتركة بينه وبين هؤلاء ؛ ولهذا لا تقبل شهادة بعضهم لبعض .

قال : والمكاتب عبد ما بَقي عليه درهم وربما يعجز فيصير الكسب له .

ومعتق البعض عند أبي حنيفة بمنزلة المكاتب .

وعند صاحبيه أبي يوسف ومحمد بمنزلة حُرّ عليه دين فيجوز أداؤها إليه .

السادسة والعشرون فإن أعطاها لمن لا تلزمه نفقتهم فقد اختلف فيه ، فمنهم من جوزه ومنهم من كَرِهه .

قال مالك : خوف المحمدة .

وحكى مُطَرِّف أنه قال : رأيت مالكاً يعطي زكاته لأقاربه .

وقال الواقِديّ قال مالك : أفضل من وضعت فيه زكاتك قرابتُك الذين لا تَعُول .

" وقد قال صلى الله عليه وسلم لزوجة عبد الله بن مسعود : "لك أجران أجر القرابة وأجر الصدقة" " واختلفوا في إعطاء المرأة زكاتها لزوجها ، فذُكر عن ابن حبيب أنه كان يستعين بالنفقة عليها بما تعطيه .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز ، وخالفه صاحباه فقالا : يجوز .

(88/340)

وهو الأصح لما ثبت : " أن زينب امرأة عبد الله أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إني أريد أن أتصدق على زوجي أيجزيني ؟ فقال عليه السلام : "نعم لك أجران

أجر الصدقة وأجر القرابة" " والصدقة المطلقة هي الزكاة ، ولأنه لا نفقة للزوج عليها ؛ فكان بمنزلة الأجنبي .

اعتل أبو حنيفة فقال : منافع الأملاك بينهما مشتركة ، حتى لا تقبل شهادة أحدهما لصاحبه .

والحديث محمول على التطوّع .

وذهب الشافعيّ وأبو ثور وأشْهَب إلى إجازة ذلك ، إذا لم يصرفه إليها فيما يلزمه لها ، وإنما يصرف ما يأخذه منها في نفقته وكسوته على نفسه وينفق عليها من ماله .

السابعة والعشرون واختلفوا أيضاً في قدر المُعْطَى ؛ فالغارم يُعْطَي قدر دَيْنه ، والفقير والمسكين يعطيان كفايتهما وكفاية عيالهما .

وفي جواز إعطاء النصاب أو أقلّ منه خلافٌ ينبني على الخلاف المتقدم في حدّ الفقر الذي يجوز معه الأخذ .

وروى عليّ بن زياد وابن نافع : ليس في ذلك حدّ ، وإنما هو على اجتهاد الوالي .

وقد تِقِلّ المساكين وتكثر الصدقة فيعطي الفقير قوت سَنة .

وروى المُغِيرة : يعطَى دون النصاب ولا يبلغه .

وقال بعض المتأخرين : إن كان في البلد زكاتان نقد وحَرْث أخذ ما يبلّغه إلى الأخرى .

قال ابن العربيّ : الذي أراه أن يعطى نصاباً ، وإن كان في البلد زكاتان أو أكثر ؛ فإن الغرض

إغناء الفقير حتى يصير غنياً .

فإذا أخذ ذلك فإن حضرت الزكاة الأخرى وعنده ما يكفيه أخذها غيره .

قلت : هذا مذهب أصحاب الرأي في إعطاء النصاب .

وقد كره ذلك أبو حنيفة مع الجواز ، وأجازه أبو يوسف ؛ قال : لأن بعضه لحاجته مشغول للحال ، فكان الفاضل عن حاجته للحال دون المائتين ، وإذا أعطاه أكثر من مائتي درهم جملةً كان الفاضل عن حاجته للحال قدر المائتين فلا يجوز .

(89/340)

ومن متأخريّ الحنفية من قال : هذا إذا لم يكن له عيال ولم يكن عليه دين ، فإن كان عليه دين فلا بأس أن يعطيَه مائتي درهم أو أكثر ، مقدار ما لو قضى به دينه يبقى له دون المائتين .

وإن كان مُعِيلاً لا بأس بأن يعطيَه مقدار ما لو وَزّع على عياله أصاب كلّ واحد منهم دون المائتين ؛ لأن التصدّق عليه في المعنى تصدّق عليه وعلى عياله .

وهذا قول حسن .

الثامنة والعشرون اعلم أن قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ مطلقٌ ليس فيه شرط وتقييد ، بل فيه دلالة على جواز الصرف إلى جملة الفقراء كانوا من بني هاشم أو غيرهم ؛ إلاَّ أن السنة

وردت باعتبار شروط : منها ألا يكونوا من بني هاشم وألا يكونوا ممن تلزم المتصدّق نفقته .

وهذا لا خلاف فيه .

وشرط ثالث ألَّا يكون قوِيّاً على الاكتساب ؛ لأنه عليه السَّلام قال : " لا تحل الصدقة لغنيّ ولا لذي مِرّة سَوِي " وقد تقدّم القول فيه .

ولا خلاف بين علماء المسلمين أن الصدقة المفروضة لا تحلّ للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا لبني هاشم ولا لمواليهم .

وقد روي عن أبي يوسف جواز صرف صدقة الهاشميّ للهاشميّ ؛ حكاه الكيا الطبريّ .

وشذ بعض أهل العلم فقال : إن موالى بني هاشم لا يحرم عليهم شيء من الصدقات .

وهذا خلاف الثابت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم فإنه قال لأبي رافع مولاه : " وإن مَوْلَى القوم منهم " .

التاسعة والعشرون واختلفوا في جواز صدقة التطوّع لبني هاشم ؛ فالذي عليه جمهور أهل العلم وهو الصحيح أن صدقة التطوّع لا بأس بها لبني هاشم ومواليهم ؛ لأن عليّاً والعباس وفاطمة رضوان الله عليهم تصدّقوا وأوقفوا أوقافاً على جماعة من بني هاشم ، وصدقاتُهم الموقوفة معروفة مشهورة .

وقال ابن الماجِشون ومُطَرِّف وأَصْبَغ وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصدقة

المفروضة ولا من التطوّع .

وقال ابن القاسم : يعطى بنو هاشم من صدّقة التطوّع .

(90/340)

قال ابن القاسم : والحديث الذي جاء عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لآل محمد " إنما ذلك في الزكاة لا في التطوّع .

واختار هذا القول ابن خُوَيْزِ مَنْدَاد ، وبه قال أبو يوسف ومحمد .

قال ابن القاسم : ويُعْطَى مواليهم من الصدقتين .

وقال مالك في الواضحة : لا يعطى لآل محمد من التطوّع .

قال ابن القاسم : قيل له يعني مالكاً فمواليهم ؟ قال : لا أدري ما الموالي .

فاحتجت عليه بقوله عليه السَّلام : " مَوْلى القوم منهم " فقال قد قال : " ابن أخت القوم منهم " قال أَصْبَغَ : وذلك في البرّ والحُرْمة .

الموفية ثلاثين قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ بالنصب على المصدر عند سيبويه .

أي فرض الله الصدقات فريضةً .

ويجوز الرفع على القطع في قول الكسائي ؛ أي هن فريضة .

قال الزجاج : ولا أعلم أنه قرىء به .

قلت : قرأ بها إبراهيم بن أبي عَبْلة ، جعلها خبراً ، كما تقول : إنما زيد خارج . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(91/340)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ الآية

اعلم أن المنافقين لما لمزو رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعابوه في قسم الصدقات بيَّن الله في هذه الآية إن المستحقين للصدقات هؤلاء الأصناف الثمانية ومصرفها إليهم ولا تعلن لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) منها بشيء ولم يأخذ لنفسه منها شيئاً فلم يلمزونه ويعيبون عليه فلا مطعن لهم فيه بسبب قسم الصدقات .

عن زياد بن الحرث الصدائي قال " أتيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فبايعته فأتاه رجل فقال أعطني من الصدقة فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك " أخرجه أبو داود .

(فصل في بيان حكم هذه الآية وفيه مسائل)

المسألة الأولى : في بيان وجه الحكمة في إيجاب الزكاة على الإغنياء وصرفها إلى المحتاجين من الناس وذلك من وجوه ، الوجه الأول أو المال محبوب بالطبع وسببه أن القدرة صفة من صفات الكمال محبوبة لذاتها والمال سبب لتحصيل تلك القدرة فكان المال محبوباً بالطبع فإذا استغرق القلب في حب المال اشتغل به عن حب الله وعن الاشتغال بالطاعات المقربة إلى الله فاقتضت الحكمة الإلهية إيجاب الزكاة في ذلك المال الذي هو سبب البعد عن الله فيصير سبباً للقرب من الله بإخراج الزكاة منه .

الوجه الثاني : إن كثرة المال توجب قسوة القلب وحب الدنيا والميل إلى شهواتها ولذاتها فأوجب الله سبحانه وتعالى الزكاة ليقل ذلك المال الذي هو سبب لقساوة القلب .

الوجه الثالث سبب وجوب الزكاة امتحان العبد المؤمن لأن التكاليف البدنية غير شاقة على العبد وإخراج المال مشق على النفس فأوجب الله الزكاة على العباد ليمتحن بإخراج الزكاة أصحاب الأموال لتميز بذلك المطيع المخرج لها طيبة بها نفسه من العاصي المانع لها .

(92/340)

الوجه الرابع أن المال مال الله والأغنياء خزان الله والفقراء عيال الله فأمر الله سبحانه وتعالى خزانه الذين هم أغنياء بدفع طائفة من ماله إلى عياله فيثيب العبد المؤمن المطيع المسارع إلى امتثال المشفق على عياله ويعاقب العبد العاصي المانع لعياله من ماله (ق) .

عن أبي موسى الأشعري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الخازن المسلم الأمين الذي ينفذ وربما قال يعطي ما أمر به فيعطيه كاملاً موفراً طيبة به نفسه فيدفعه إلى الذي أمر له به أحد المتصدقين " الوجه الخامس أن الفقراء ربما تعلقت قلوبهم بالأموال التي بأيدي الأغنياء فأوجب الله نصيباً للفقراء في ذلك المال تطييباً لقلوبهم .

الوجه السادس أن المال الفاضل عن حاجة الإنسان الأصلية إذا أمسك بقي معطلاً عن المقصود الذي لأجله خلق المال فأمر بدفع الزكاة إلى الفقراء حتى لا يصير ذلك المال معطلاً بالكلية .

المسألة الثانية : الآية تدل على أنه لا حق لأحد في الصدقات إلا هؤلاء الأصناف الثمانية وذلك مجمع عليه لأن كلمتي إنما تفيدان الحصر وذلك لأنها مركبة من إن وما فكلمة إن للإثبات وكلمة ما للنفي فعند اجتماعهما يفيدان الحكم المذكور وصرفه عما عداه فدل ذلك على أن الصدقات لا تصرف إلا إلى الأصناف الثمانية .

المسألة الثالثة : في بيان الأصناف الثمانية فالصنف الأول للفقراء والثاني للمساكين وهم المحتاجون الذين لا يفي خرجهم بدخلهم ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين

فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري : الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل وقال ابن عمر : ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم والتمر إلى التمرة ولكن الفقير من أنفق نفسه وثيابه ولا يقدر على الشيء يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

(93/340)

وقال قتادة : الفقير المحتاج الزمن والمسكين الصحيح المحتاج وقال الشافعي رضي الله تعالى عنه : الفقير من لا مال له ولا حرفة تقع منه موقعاً زمناً كان أو غير زمن والمسكين من له مال أو حرفة ولكن لا تقع منه موقعاً لكفايته سائلاً كان أو غير سائل فالمكسين عنده أحسن حالاً من الفقير .

وقال أبو حنيفة ، وأصحاب الرأي : الفقير أحسن حالاً من المسكين ومن الناس من قال لا فرق بين الفقير والمسكين حجة الشافعي ومن وافقه أن الله سبحانه وتعالى حكم بصرف الصدقات إلى هؤلاء الأصناف الثمانية دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم فبدأ بالفقر وإنما يبدأ فالأهم فلو لم تكن حاجتهم أشد من حاجة المساكين لما بدأ بهم وأصل الفقير المكسور الفقار قال لبيد :

لما رأى لبد النسور تطايرت . . .

رفع القوادم كالفقير الأعزل

(94/340)

قال ابن الأعرابي : الفقير في هذا البيت المكسور الفقار فثبت بهذا أن الفقير إنما سمي فقيراً لزمانته وحاجته الشديدة وتمنعه الزمانة من التقلب في الكسب ولأن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يتعوذ من الفقر وقال " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة " رواه الترمذي من حديث أنس فلو كان المسكين أسوأ حالاً من الفقير لما تعوذ من الفقر وسأل المسكنة فثبت بهذا أن المسكين أحسن حالاً من الفقير ولأن الله سبحانه وتعالى قال أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأثبت لهم ملكاً مع اسم المسكنة لأن السفينة من سفن البحر تساوي دنانير كثيرة ولأن الغنى والفقر ضدان والمسكنة قسم ثالث بينهما فثبت بهذا أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين وحجة أبي حنيفة ومن وافقه على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير قوله أو مسكيناً ذا متربة وصف المسكين بكونه ذا متربة وهو الذي لصق جلده بالتراب وهذا يدل على غاية الضر والشدة ولأن الله تعالى جعل الكفارات للمساكين فلو لم يكن المسكين أشد حاجة من غيره لما

جعلها له واحتج أيضاً بقول الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته . . .

وفق العيال فلم يترك له سبد

(95/340)

واحتج أيضاً بقول الأصمعي وأبي عمرو بن العلاء أن الفقير الذي له ما يأكل والمسكين الذي لا شيء له وكذا قال القتيبي : الفقير الذي له البلغة من العيش والمسكين الذي لا شيء له وقيل : الفقير الذي له المسكن والخادم والمسكين الذي لا ملك له وقيل : إن كل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه وإن كان غنياً عن غيره قال الله سبحانه وتعالى : أنتم الفقراء إلى الله فأثبت لهم اسم الفقر مع وجدان المال والجواب عن هذه الحجج أما قوله أو مسكيناً ذا متربة فهو حجة لمذهب الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه لأنه قيد المسكين المذكور هنا بكونه ذا متربة فدل على أنه قد يوجد مسكين لا بهذه الصفة وإلا لم يبق لهذا القيد فائدة والجواب عن جعل الكفارات للمسكين أنه هو الفقير الذي لصق جلده بالتراب من شدة المسكنة والجواب عن الاستدلال ببيت الراعي إنه ذكر الفقير وجده فكل فقير أفرد بالاسم جاز إطلاق المسكين عليه فسقط الاستدلال به وأما الروايات المذكورة فهي

معارضة بما تقدم من الروايات عن ابن عباس وغيره من المفسرين .

وبالجملة أن الفقر والمسكنة عبارتان عن شدة الحاجة وضعف الحال فالفقير هو الذي كسرت الحاجة فقار ظهره والمسكين هو الذي ضعفت نفسه وسكنت عن الحركة في طلب القوت .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عيله وسلم قال : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي " أخرجه النسائي وأبو داود وله في رواية أخرى " ولا لذي مرة قوي " عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال " أخبرني رجلان أنهما أتيا النبي (صلى الله عليه وسلم) وهو في حجة الوداع وهو يقسم الصدقات فسألاه منها فرفع فينا النظر وخفضه فرآنا جلدين فقال إن شئتما أعطيتكما ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب "

(96/340)

أخرجه أبو داود والنسائي وأخرجه الشافعي ولفظه " أن رجلين أتيا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسألاه عن الصدقة فقال : إن شئتما أعطيتكما ولاحظ فيها لغني ولا لذي قوة مكتسب " واختلف العلماء في حد الغنى الذي يمنع من أخذ الصدقة فقال الأكثرون حده أن يكون عنده ما يكفيه وعياله سنة وهو قول مالك والشافعي .

وقال أصحاب الرأي : حده أن يملك مائتي درهم .

وقال قوم : من ملك خمسين درهماً أو قيمتها لا تحل له الصدقة لما روي عن ابن مسعود قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من سأل الناس وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجه خموش أو خدوش أو كدوح قيل يا رسول الله وما يغنيه قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب " أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهذا قول الثوري وابن المبارك وأحمد وإسحاق .

وقالوا : لا يجوز أن يعطى الرجل أكثر من خمسين درهماً من الزكاة وقيل : أربعين درهماً لما روي عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف " أخرجه أبو داود وكانت الأوقية في ذلك الزمان أربعين درهماً

الصنف الثالث قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والعالمين عليها ﴾ وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء وهذا قول ابن عمر وبه .

قال الشافعي وقال مجاهد والضحاك : يعطون الثمن من الصدقات .

(97/340)

وظاهر اللفظ مع مجاهد إلا أن الشافعي يقول : هو وأجره عمل تقدر بقدر العمل والصحيح أن الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات لما روي عن أبي رافع أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استعمل رجلاً من بني مخزوم على الصدقة فأراد أبو رافع أن يتبعه فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا تحل لنا الصدقة وأن مولى القوم منهم " أخرجه الترمذي والنسائي الصنف الرابع قوله تعالى : ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم قسمان : قسم مسلمون وقسم كفار فأما قسم المسلمين فقسمان القسم الأول هم قوم من أشراف العرب كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيهم من الصدقات يتألفهم بذلك كما أعطى عيينة بن حصن والأقرع بن حابس والعباس بن مرداس السلمي فهؤلاء أسلموا وكانت نيتهم ضعيفة فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيهم لتقوى رغبتهم في الإسلام وقوم أسلموا وكانت نيتهم قوية في الإسلام وهم أشراف قومهم مثل عدي بن حاتم والزبرقان بن بدر فكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيهم تألفاً لقومهم ترغيباً لأمثالهم في الإسلام فيجوز للإمام أن يعطي أمثال هؤلاء من خمس خمس الغنيمة والفيء من سهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يعطيهم من ذلك ومن الصدقات أيضاً .

القسم الثاني من مؤلفة المسلمين هم قوم من المسلمين يكونون بإزاء قوم كفار في موضع لا تبلغهم جيوش المسلمين إلا بكلفة كبيرة ومؤنة عظيمة وهؤلاء الذين بإزائهم من المسلمين لا

يجاهدونهم لضعف نيتهم أو لضعف حالهم فيجوز للإمام أن يعطيهم من سهم الغزاة من مال الصدقة وقيل من سهم المؤلفة قلوبهم ومن هؤلاء قوم بإزاء جماعة من مانعي الزكاة فيأخذون منهم الزكاة ويحملونها إلى الإمام فيعطيهم الإمام من سهم المؤلفة من الصدقات وقيل من سهم سبيل الله .

(98/340)

روي أن عدي بن حاتم جاء أبا بكر بثلثمائة من الإبل من صدقات قومه فأعطاه أبو بكر منها ثلاثين بعيراً وأما مؤلفة الكفار فهم قوم يخشى شرهم أو يرجى إسلامهم فيجوز للإمام أن يعطي من يخاف شره أو يرجو إسلامه فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيهم من خمس الخمس كما أعطى صفوان بن أمية لما كان يرى من ميله إلى الإسلام أما اليوم فقد أعز الله الإسلام وله الحمد على ذلك وأغناه عن أن يتألف عليه أحد من المشركين فلا يعطى مشرك تألفاً بحال وقد قال بهذا كثير من أهل العلم ورأوا أن المؤلفة منقطعة وسهمهم ساقط يروى ذلك عن ابن عمر وعكرمة وهو قول الشعبي وبه قال مالك والثوري وأصحاب الرأي وإسحاق بن راهويه .

وقال قوم : سهمهم ثابت لم يسقط .

يروى ذلك عن الحسن وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي وأبي ثور وقال أحمد يعطون إن احتاج المسلمون إلى ذلك الصنف الخامس قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وفي الرقاب ﴾ قال الزجاج : فيه حذف تقديره وفي فك الرقاب وفي تفسير الرقاب أقوال الأول أن سهم الرقاب موضوع في المكاتبين فيدفع إليهم ليعتقوا به وهذا مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه وهو قول أكثر الفقهاء منهم سعيد بن جبير والنخعي والزهري والليث بن سعد ويدل عليه أيضاً قوله تعالى وآتوهم من مال الله الذي آتاكم ، القول الثاني وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق أن سهم الرقاب موضوع لعتق الرقاب فيشترى به عبيد ويعتقون ويدل عليه ما روي عن ابن عباس أنه قال لا بأس أن يعتق الرجل من الزكاة القول الثالث وهو قول أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة لكن يعطي منها في عتق رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله في الرقاب يقتضي التبعيض .

القول الرابع وهو قول الزهري أن سهم الرقاب نصفان نصف للمكاتبين ونصف يشترى به عبيد ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم فيعتقوا من الزكاة .

(99/340)

قال أصحابنا : الأحوط في سهم الرقاب أن يدفع إلى السيد بإذن المكاتب ويدل عليه أنه سبحانه وتعالى أثبت الصدقات للأصناف الأربعة المتقدمة بلام الملك فقال : إنما الصدقات للفقراء .

(100/340)

وقال : في الصنف الخامس وفي الرقاب فلا بد لهذا الفرق من فائدة وهي أن الأصناف الأربعة المتقدم ذكرها يدفع إليهم نصيبهم من الصدقات فيصرفون ذلك فيما شاؤوا وأما الرقاب فيوضع نصيبهم في تخليص رقابهم من الرق ولا يدفع إليهم ولا يمكنون من التصرف فيه وكذا القول في الغارمين فيصرف نصيبهم في قضاء ديونهم وفي الغزاة يصرف نصيبهم فيما يحتاجون إليه في الغزو وكذا ابن السبيل فيصرف إليه ما يحتاج إليه في سفره إلى بلوغ غرضه الصنف السادس قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والغارمين ﴾ أصل الغرم في اللغة لزوم ما يشق عليه النفس وسمى الدين غرماً لكونه شاقاً على الإنسان والمراد بالغارمين هنا المدينون وهم قسمان أدانوا لأنفسهم في غير معصية فيعطون من مال الصدقات بقدر ديونهم إذا لم يكن لهم مال يفي بدينونهم فإن كان عندهم وفاء فلا يعطون وقسم أدانوا في المعروف وإصلاح ذات البين فيعطون من مال الصدقات ما يقضون به دينهم وإن كانوا أغنياء لما روي

عن عطاء بن يسار أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة لغاز في سبيل الله أو لعامل عليها أو لغارم أو لرجل أسير إعانة أو لرجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى المسكين للغني " أخرجه أبو داود مرسلاً لأن عطاء بن يسار لم يدرك النبي (صلى الله عليه وسلم) ورواه معمر عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري عن النبي (صلى الله عليه وسلم) متصلاً بمعناه أما من كان دينه في معصية فلا يعطى من الصدقات شيئاً الصنف السابع قوله تعالى : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ يعني وفي النفقة في سبيل الله وأراد به الغزاة فلهم سهم من مال الصدقات فيعطون إذا أرادوا الخروج إلى الغزو ما يستعينون به على أمر الجهاد من النفقة والكسوة والسلاح فيعطون ذلك وإن كانوا أغنياء لما تقدم من حديث عطاء وأبي سعيد الخدري ولا يعطى من سهم الله لمن أراد الحج عند أكثر أهل العلم وقال قوم يجوز أن يصرف

(101/340)

سهم سبيل الله إلى الحج يروى ذلك عن ابن عباس وهو قول الحسن وإليه ذهب أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وقال بعضهم : إن اللفظ عام فلا يجوز قصره على الغزاة فقط ولهذا أجاز بعض الفقهاء صرف سهم سبيل الله إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى

وبناء الجسور والحصون وعمارة المساجد وغير ذلك قال لأن قوله وفي سبيل الله عام في الكل فلا يختص بصنف دون غيره والقول الأول هو الصحيح لإجماع الجمهور عليه .

الصنف الثامن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وابن السبيل ﴾ يعني المسافر من بلد إلى بلد والسبيل الطريق سمي المسافر ابن السبيل لملازمته الطريق قال الشاعر :

أنا ابن الحرب ربتني وليداً . . .

إلى أن شبت واكتهلت لداتي

فكل مريد سفراً مباحاً ولم يكن له ما يقطع به مسافة سفره يعطى من الصدقات ما يكفيه لمؤنة سفره سواء كان له مال في البلد الذي يقصده أو لم يكن له مال ، وقال قتادة : ابن السبيل هو الضيف وقال فقهاء العراق : ابن السبيل هو الحاج المنقطع .

وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في الآية فريضة واجبة من الله وقيل فرض الله هذه الأشياء فريضة ﴿ والله عليم ﴾ يعني بمصالح عباده ﴿ حكيم ﴾ يعني فيما فرض لهم لا يدخل في تدبيره وحكمه نقض ولا خلل .

(102/340)

المسألة الرابعة : في أحكام متفرقة تتعلق بالزكاة اتفق العلماء على أن المراد بقوله إنما الصدقات للفقراء هي الزكاة المفروضة بدليل قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة واختلفوا في كيفية قسمتها وفي جواز صرفها كلها إلى بعض الأصناف دون بعض فذهب جماعة من الفقهاء إلى أنه لا يجوز صرفها كلها إلى بعض الأصناف مع وجود الباقين وهو قول عكرمة وإليه ذهب الشافعي قال : يجب أن يقسم زكاة ماله على الموجودين من الأصناف الستة الذين سماهم ثمانية أقسام قسمة على السواء لأن سهم المؤلفة ساقط وسهم العامل ساقط إذا قسم زكاته بنفسه ثم حصة كل صنف من الأصناف الستة لا يجوز أن تصرف إلى أقل من ثلاثة منهم إن وجد منه ثلاثة أو أكثر فلو فاوت بين أولئك الثلاثة جاز فإن لم يجد من بعض الأصناف إلا واحداً دفع حصة ذلك الصنف إليه ما لم يخرج من حد الاستحقاق فإن انتهت حاجة وفضل شيء رده إلى الباقين وذهب جماعة من العلماء إلى أنه لو صرف الكل إلى صنف واحد من هذه الأصناف أو إلى شخص واحد منهم جاز لأن الله سبحانه وتعالى إنما سمى هذه الأصناف الثمانية إعلاماً منه أن الصدقة لا تخرج عن هذه الثمانية إلا إيجاباً منه لقسمتها بينهم جميعاً وهذا قول عمر وابن عباس وبه قال سعيد بن جبير وعطاء وإليه ذهب سفيان الثوري وأصحاب الرأي وأحمد بن حنبل .

قال أحمد بن حنبل : يجوز أن يضعها في صنف واحد وتفريقها أولى .

وقال إبراهيم النخعي : إن كان المال كثيراً يحتمل الإجزاء قسمه على الأصناف وإن كان

قليلاً وضعه في صنف واحد .

وقال مالك : يتحرى موضع الحاجة منهم ويقدم الأولى فالأولى من أهل الخلة والحاجة فإن رأى الخلة في الفقراء في عام قدمهم وإن رآها في صنف آخر في عام حولها إليهم وكل من دفع غيله شيئاً من الصدقة فلا يعطي بعده شيئاً وإن كان محترفاً لكنه لا يجد آلة حرفته فيعطي قدر ما يحصل به آلة حرفته فالاعتبار عند الإمام الشافعي ما يدفع الحاجة من غير حد .

(103/340)

وقال أحمد بن حنبل : لا يعطي الفقير أكثر من خمسين درهماً وقال أبو حنيفة : أكره أن يعطى رجل واحد من الزكاة مائتي درهم فإن أعطيته أجزأ فإن أعطى من يظنه فقيراً فبان أنه غني فهل يجزئ فيه قولان ولا يجوز أن يعطي صدقته لمن تلزمه نفقته وبه قال مالك والثوري وأحمد وقال أبو حنيفة والشافعي : لا يعطى والداً وإن علا ولا ولداً وإن سفل ولا زوجة ويعطي من عداهم وتحرم الصدقة على ذوي القربى وهم بنو هاشم وبنو المطلب فلا يدفع إليهم من الزكاة شيء قوله (صلى الله عليه وسلم) : " إنا آل بيت لا تحل لنا الصدقة " وقال أبو حنيفة تحرم على بني هاشم ولا تحرم على بني المطلب دليلنا قوله (صلى الله عليه وسلم) " إنا وبنو المطلب شيء واحد لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام " وتحرم الصدقة

على موالي بني هاشم وبني المطلب قوله (صلى الله عليه وسلم) " مولى القوم منهم " وقال مالك لا تحرم واختلفوا في نقل الصدقة من بلد إلى بلد آخر مع وجود المستحقين في بلد المال فكرهه أكثر أهل العلم لتعلق قلوب فقراء ذلك البلد بذلك المال ولقوله (صلى الله عليه وسلم) لمعاذ " وأعلمهم أن الله سحبانه وتعالى افترض عليهم صدقة من أغنيائهم وترد على فقرائهم " الحديث بطوله في الصحيحين واتفقوا على أنه إذا نقل المال إلى بلد آخر وأداه إلى فقراء ذلك البلد سقط عنه الفرض إلا ما حكى عن عمر بن عبد العزيز فإنه رد صدقة حملت من خرسان إلى الشام فردها إلى مكانها من خراسان والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(104/340)

وقال أبو حيان :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ﴾

لما ذكر تعالى من يعيب الرسول في قسم الصدقات بأنه يعطي من يشاء ويحرم من يشاء ، أو يخص أقاربه ، أو يأخذ لنفسه ما بقي .

وكانوا يسألون فوق ما يستحقون ، بيّن تعالى مصرف الصدقات ، وأنه (صلى الله عليه

وسلم) إنما قسم على ما فرضه الله تعالى .

ولفظه إنما إنْ كانت وضعت للحصر فالحصر مستفاد من لفظها ، وإن كانت لم توضع للحصر فالحصر مستفاد من الأوصاف ، إذ مناط الحكم بالوصف يقتضي التعليل به ، والتعليل بالشيء يقتضي الاقتصار عليه .

والظاهر أنّ مصرف الصدقات هؤلاء الأصناف .

والظاهر أن العطف مشعر بالتغاير ، فتكون الفقراء عين المساكين .

والظاهر بقاء هذا الحكم للأصناف الثمانية دائماً ، إذ لم يرد نص في نسخ شيء منها .

والظاهر أنه يعتبر في كل صنف منها ما دل عليه لفظه إن كان موجوداً ، والخلاف في كل شيء من هذه الظواهر .

فأما أنّ مصرف الصدقات هؤلاء الأصناف ، فذهب جماعة من الصحابة والتابعين إلى أنه يجوز أن يقتصر على بعض هؤلاء الأصناف ، ويجوز أن يصرف إلى جميعها .

فمن الصحابة : عمر ، وعليّ ، ومعاذ ، وحذيفة ، وابن عباس ، ومن التابعين النخعي ، وعمر بن عبد العزيز ، وأبو العالية ، وابن جبير ، قالوا : في أيّ صنف منها وضعتها أجزأتك .

قال ابن جبير : لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فخيرتهم بها كان أحب إليّ .

قال الزمخشري : وعليه مذهب أبي حنيفة قال غيره : وأبي يوسف ، ومحمد ، وزفر ، ومالك .

وقال جماعة من التابعين : لا يجوز الاقتصار على أحد هذه الأصناف منهم : زين العابدين علي بن الحسين ، وعكرمة ، والزهري ، بل يصرف إلى الأصناف الثمانية .

وقد كتب الزهري لعمر بن عبد العزيز : يفرّقها على الأصناف الثمانية ، وهو مذهب الشافعي قال : إلا المؤلفة ، فإنهم انقطعوا .

(105/340)

وأما أنّ الفقراء غير المساكين ، فذهب جماعة من السلف إلى أنّ الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما في المعنى ، وإن افترقا في الاسم ، وهما صنف واحد سمي باسمين ليعطي سهمين نظراً لهم ورحمة .

قال في التحرير : وهذا هو أحد قولي الشافعي .

وذهب الجمهور إلى أنهما صنفان يجمعهما الإقلال والفاقة ، واختلفوا فيما به الفرق .

فقال الأصمعي وغيره منهم أحمد بن حنبل وأحمد بن عبيد الفقير : أبلغ فاقة .

وقال غيره منهم أبو حنيفة ، ويونس بن حبيب ، وابن السكيت ، وابن قتيبة المسكين : أبلغ

فاقة ، لأنه لا شيء له .

والفقير من له بلغة من الشيء .

وقال الضحاك : الفقراء هم من المهاجرين ، والمساكين من لم يهاجر .

وقال النخعي نحوه .

وقال عكرمة : الفقراء من المسلمين ، والمساكين من أهل الذمة .

لا نقول لفقراء المسلمين مساكين .

وروى عنه بالعكس حكاه مكي .

وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر : الفقير من لا مال له ولا حرفة ، سائلاً كان أو متعففاً .

والمسكين الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغنيه ذلك سائلاً كان أو غير سائل .

وقال قتادة : الفقير الزمن المحتاج ، والمسكين الصحيح المحتاج .

وقال ابن عباس : والحسن ، ومجاهد ، والزهري ، وابن زيد ، وجابر بن زيد ، والحكم ، ومقاتل ، ومحمد بن مسلمة : المساكين الذين يسعون ويسألون ، والفقراء هم الذين يتعاونون .

وأما بقاء الحكم للأصناف الثمانية فذهب عمر بن الخطاب والحسن والشعبي وجماعة : إلى أنه انقطع صنف المؤلفة بعزة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور مذهب مالك وأبي حنيفة ، قال بعض الحنفيين : أجمعت الصحابة على سقوط سهمهم في خلافة أبي بكر لما

أعز الله الإسلام وقطع دابر الكافرين .

وقال القاضي عبد الوهاب : إن احتيج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقات .

وقال كثير من أهل العلم : المؤلفة قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة .

قال ابن عطية : وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الائتلاف انتهى .

(106/340)

وقال يونس : سألت الزهري عنهم فقال : لا أعلم نسخاً في ذلك .

قال أبو جعفر النحاس : فعل هذا الحكم فيهم ثابت ، فإن كان أحد يحتاج إلى تألفه ويخاف أن تلحق المسلمين منه آفة أو يرجى حسن إسلامه بعدُ دفع إليه .

وقال القاضي أبو بكر بن العربي : الذي عندي أنه إن قوي الإسلام زالوا ، وإن احتيج إليهم أعطوا سهمهم ، كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعطيهم .

فإن في الصحيح : " بدا الإسلام غريباً وسيعود كما بدا " وفي كتاب التحرير قال الشافعي : العامل والمؤلفة قلوبهم مفقودان في هذا الزمان ، بقيت الأصناف الستة ، فالأولى صرفها إلى الستة .

وأما أنه يعتبر في كل صنف منها ما دل عليه لفظه إن كان موجوداً فهو مذهب الشافعي ،

ذهب إلى أنه لا بد في كل صنف من ثلاثة ، لأن أقلّ الجمع ثلاثة ، فإن دفع سهم الفقراء إلى فقيرين ضمن نصيب الثالث وهو ثلث سهم .

وقال أصحاب أبي حنيفة : يجوز أن يعطي جميع زكاته مسكيناً واحداً .

وقال مالك : لا بأس أن يعطي الرجل زكاة الفطر عن نفسه وعياله واحداً ، واللام في للفقراء .

قيل : للملك .

وقيل : للاختصاص .

والظاهر عموم الفقراء والمساكين ، فيدخل فيه الأقارب والأجانب وكل من اتصف بالفقر والمسكنة فأما ذوو قربى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال أصحاب أبي حنيفة : تحرم عليهم الصدقة منهم : آل العباس ، وآل علي ، وآل جعفر ، وآل عقيل ، وآل الحرث بن عبد المطلب .

وروى عن أبي حنيفة وليس بالمشهور أنّ فقراء بني هاشم يدخلون في آية الصدقة .

وقال أبو يوسف : لا يدخلون .

قال أبو بكر الرازي : المشهور عن أصحابنا أنهم من تقدم من آل العباس ومن ذكر معهم ، ويخص التحريم الفرض لا صدقة التطوع .

وقال مالك : لا تحل الزكاة لآل محمد ، ويحلّ التطوع .

وقال الثوري : لا تحل لبني هاشم ، ولم يذكر فرقاً بين النفل والفرض .

(107/340)

وقال الشافعي : تحرم صدقة الفرض على بني هاشم وبني المطلب ، وتجوز صدقة التطوع على كل أحدٍ إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه كان لا يأخذها .

وقال ابن الماجشون ومطرف وأصبغ : وابن حبيب : لا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة ، ولا من التطوع .

وقال مالك في الواضحة : لا يعطى آل محمد من التطوع .

وأما أقارب المزكي فقال أصحاب أبي حنيفة : لا يعطى منها والد وإن علا ، ولا ابن وإن سفل ، ولا زوجة .

وقال مالك والثوري والحسن بن صالح والليث : لا يعطى من تلزمه نفقته .

وقال ابن شبرمة : لا يعطى قرابته الذين يرثونه ، وإنما يعطى من لا يرثه وليس في عياله .

وقال الأوزاعي : لا يتخطى بزكاة ماله فقراء أقاربه إذا لم يكونوا من عياله ، ويتصدق على مواليه من غير زكاة ماله .

وقال مالك والثوري وابن شبرمة والشافعي وأصحاب أبي حنيفة : لا يعطى الفرض من الزكاة .

وقال عبيد الله بن الحسن : إذا لم يجد مسلماً أعطى الذمي ، فكأنه يعني الذمي الذي هو بين ظهرانيهم .

وقال مالك وأبو حنيفة : لا تعطى الزوجة زوجها من الزكاة .

وقال الثوري والشافعي وأبو يوسف ومحمد : تعطيه ، واختلفوا في المقدار الذي إذا ملكه الإنسان دخل به في حد الغنى وخرج عن حد الفقر وحرمت عليه الصدقة .

فقال قوم : إذا كان عند أهله ما يغديهم ويعشيهم حرمت عليه الصدقة ، ومن كان عنده دون ذلك حلت له .

وقال قوم : حتى يملك أربعين درهماً ، أو عدلها من الذهب .

وقال قوم : حتى تملك خمسين درهماً أو عدلها من الذهب ، وهذا مروي عن علي وعبد الله والشعبي .

قال مالك : حتى تملك مائتي درهم أو عدلها من عرض أو غره فاضلاً عما يحتاج إليه من مسكن وخادم وأثاث وفرش ، وهو قول أصحاب أبي حنيفة .

فلو دفعها إلى من ظن أنه فقير فتبين أنه غنى ، أو تبين أن المدفوع إليه أبوه أو ذمي ولم يعلم بذلك وقت الدفع .

فقال أبو حنيفة ومحمد : يجزئه .

وقال أبو يوسف : لا يجزئه .

(108/340)

والعامل هو الذي يستنيبه الإمام في السعي في جميع الصدقات ، وكل من يصرف ممن لا يستغنى عنه فيها فهو من العاملين ، ويسمى جابي الصدقة والساعي قال :

إن السعاة عصوك حين بعثتهم . . .

لم يفعلوا مما أمرت فتيلا

وقال :

سعى عقالاً فلم يترك لنا سبدا . . .

فكيف لو قد سعى عمرو عقالين

أراد بالعقال هنا زكاة السنة ، وتعدى بعلى ولم يقل فيها ، لأنّ على للاستعلاء .

المشعر بالولاية .

والجمهور على أن للعامل قدر سعيه ، ومؤنته من مال الصدقة .

وبه قال مالك والشافعي في كتاب ابن المنذر ، وأبو حنيفة وأصحابه ، فلو تجاوز ذلك من

الصدقة ، فقيل : يتم له من سائر الأنصباء .

وقيل : من خمس الغنيمة .

وقال مجاهد والضحاك والشافعي : هو الثمن على قسم القرآن .

وقال مالك من رواية ابن أبي أويس وداود بن سعيد عنه : يعطون من بيت المال .

واختلف في الإمام ، هل له حق في الصدقات ؟ فهمنهم من قال : هو العامل في الحقيقة ، ومنهم من قال : لا حق له فيها .

والجمهور على أنّ أخذها مفوض للإمام ومن استنابه ، فلو فرقها المزكي بنفسه دون إذن الإمام أخذها منه ثانياً .

وقال أبو حنيفة : لا يجوز أن يعمل على الصدقة أحد من بني هاشم ويأخذ عمالته منها ، فإن تبرع فلا خلاف بين أهل العلم في جوازه .

وقال آخرون : لا بأس لهم بالعمالة من الصدقة .

وقيل : إنْ عمل أعطيها من الخمس .

والمؤلفة قلوبهم أشراف العرب مسلمون لم يتمكن الإيمان من قلوبهم ، أعطاهم ليتمكن الإيمان من قلوبهم ، أو كفار لهم اتباع أعطاهم ليتألفهم واتباعهم على الإسلام .

قال الزهري : المؤلفة من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً فمن المؤلفة : أبو سفيان بن حرب ، وسهيل بن عمرو ، والحرث بن هشام ، وحويطب بن عبد العزى ، وصفوان بن

أمية ، ومالك بن عوف النضري ، والعلاء بن حارثة الثقفي ، فهؤلاء أعطاهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) مائة بعير مائة بعير .

(109/340)

ومخرمة بن نوفل الزهري ، وعمير بن وهب الجمحي ، وهشام بن عمرو العابدي ، أعطاهم دون المائة .

ومن المؤلفة : سعيد بن يربوع ، والعباس بن مرداس ، وزيد الخيل ، وعلقمة بن علاثة ، وأبو سفيان الحرث بن عبد المطلب ، وحكيم بن حزام ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسعيد بن عمرو ، وعيينة بن حصن .

وحسن إسلام المؤلفة حاشا عيينة فلم يزل مغموصاً عليه .

وأما قوله وفي الرقاب فالتقدير : وفي فك الرقاب فيعطي ما حصل به فك الرقاب من ابتداء عتق يشتري منه العبد فيعتق ، أو تخليص مكاتب أو أسير .

وقال النخعي ، والشعبي ، وابن جبير ، وابن سيرين : لا يجزىء أن يعتق من الزكاة رقبة كاملة ، وهو قول أصحاب أبي حنيفة والليث والشافعي .

وقال ابن عباس وابن عمر : أعتق من زكاتك .

وقال ابن عمر والحسن وأحمد وإسحاق : يعتق من الزكاة ، وولاؤه لجماعة المسلمين لا للمعتق .

وعن مالك والأوزاعي : لا يعطي المكاتب من الزكاة شيئاً ، ولا عبد كان مولاه موسراً أو معسراً .

وعن ابن عباس والحسن ومالك : هو ابتداء العتق وعون المكاتب بما يأتي على حريته .

والجمهور على أنّ المكاتبين يعانون في فك رقابهم من الزكاة .

ومذهب أبي حنيفة وابن حبيب : أنّ فك رقاب الأساري يدخل في قوله : وفي الرقاب ، فيصرف في فكاكها من الزكاة .

وقال الزهري : سهم الرقاب نصفان : نصف للمكاتبين ، ونصف يعتق منه رقاب مسلمون ممن صلى .

والغارم من عليه دين قاله : ابن عباس ، وزاد مجاهد وقتادة : في غير معصية ولا إسراف .

والجمهور على أنه يقضي منها دين الميت إذ هو غارم .

وقال أبو حنيفة وابن المواز : لا يقضى منها .

وقال أبو حنيفة : ولا يقضي منها كفارة ونحوها من صنوف الله تعالى ، وإنما الغارم من عليه دين يحبس فيه .

وقيل : يدخل في الغارمين من تحمل حمالات في إصلاح وبر وإن كان غنياً إذا كان ذلك

يجحف بماله ، وهو قول الشافعي وأصحابه وأحمد .

وفي سبيل الله هو المجاهد يعطي منها إذا كان فقيراً .

(110/340)

والجمهور على أنه يعطي منها وإن كان غنياً ما ينفق في غزوته .

وقال الشافعي ، وأحمد ، وعيسى بن دينار ، وجماعة : لا يعطي الغني إلا إن احتاج في غزوته ، وغاب عنه وفره .

وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يعطي إلا إذا كان فقيراً أو منقطعاً به ، وإذا أعطي ملك ، وإن لم يصرفه في غزوته .

وقال ابن عبد الحكم : ويجعل من الصدقة في الكراع والسلاح وما يحتاج إليه من آلات الحرب وكف العدو عن الحوزة ، لأنه كله من سبيل الغزو ومنفعته .

والجمهور على أنه يجوز الصرف منها إلى الحجاج والمعتمرين وإن كانوا أغنياء .

وقال الزمخشري : وفي سبيل الله فقراء الغزاة ، والحجيج المنقطع بهم انتهى .

والذي يقتضيه تعداد هذه الأوصاف أنها لا تتداخل ، واشتراط الفقر في بعضها يقضي بالتداخل .

فإن كان الغازي أو الحاج شرط إعطائه الفقر ، فلا حاجة لذكره لأنه مندرج في عموم الفقراء ، بل كل من كان بوصف من هذه الأوصاف جاز الصرف إليه على أي حال كان من فقر أو غنى ، لأنه قام به الوصف الذي اقتضى الصرف إليه .

قال ابن عطية : ولا يعطى منها في بناء مسجد ، ولا قنطرة ، ولا شراء مصحف انتهى .

وابن السبيل قال ابن عباس : هو عابر السبيل .

وقال قتادة في آخرين : هو الضيف .

وقال جماعة : هو المسافر المنقطع به وإن كان له مال في بلده .

وقالت جماعة : هو الحاج المنقطع .

وقال الزجاج : هو الذي قطع عليه الطريق .

وفي كتاب سحنون قال مالك : إذا وجد المسافر المنقطع به من يسلفه لم يجز له أن يأخذ من الصدقة ، والظاهر الصرف إليه .

وإن كان له ما يغنيه في طريقه لأنه ابن سبيل ، والمشهور أنه إذا كان بهذا الوصف لا يعطى .

(111/340)

قال الزمخشري : (فإن قلت) : لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة ؟ (قلت) : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأنّ في للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال .

وتكرير في في قوله تعالى : وفي سبيل الله وابن السبيل ، فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين .

(فإن قلت) : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكائدهم ؟ (قلت) : ذل بكون هذه الأوصاف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم ، على أنهم ليسوا منهم حسماً لا طعامهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم ولها ، وما سلطهم على الكلام لها ولمن قاسمها .

وانتصب فريضة لأنه في معنى المصدر المؤكد ، لأن قوله تعالى : إنما الصدقات للفقراء ، معناه فرض من الله الصدقات لهم .

وقرىء فريضة بالرفع على تلك فريضة انتهى .

وقال الكرماني وأبو البقاء : فريضة حال من الضمير في الفقر ، أي مفروضة .

قال الكرماني : كما تقول هي لك طلقاً انتهى .

وذكر عن سيبويه أنها مصدر ، والتقدير : فرض الله الصدقات فريضة .

وقال الفراء : هي منصوبة على القطع .

والله عليم حكيم ، لأن ما صدر عنه هو عن علم منه بخلقه وحكمة منه في القسمة ، أو عليم بمقادير المصالح ، حكيم لا يشرع إلا ما هو الأصلح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(112/340)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾

شروعٌ في تحقيق حقّيةِ ما صنعه الرسولُ صلى الله عليه وسلم من القسمة ببيان المصارفِ وردٌّ لمقالة القالةِ في ذلك وحسمٌ لأطماعهم الفارغة المبنيةِ على زعمهم الفاسدِ ببيان أنهم بمعزل من الاستحقاق ، أي جنسُ الصدقات المشتملةِ على الأنواع المختلفة ﴿ لِلْفُقَرَاء والمساكين ﴾ أي مخصوصةٌ بهؤلاء الأصنافِ الثمانيةِ الآتية لا تتجاوزهم إلى غيرهم ، كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم فما للذين لا علاقةَ بينها وبينهم يقولون فيها ما يقولون وما سوّغ

لهم أن يتكلموا فيها وفي قاسمها ؟ والفقيرُ من له أدنى شيءٍ والمسكينُ من لا شيء له هو المرويُّ عن أبي حنيفة رضي الله عنه وقد قيل : على العكس ولكل منهما وجهٌ يدل عليه ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ الساعين في جمعها وتحصيلها ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ هم أصنافٌ فمنهم أشرافٌ من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم ليُسلموا فيرضَخ لهم ومنهم قومٌ أسلموا ونيّاتهم ضعيفةٌ فيؤلّف قلوبَهم بإجزال العطاء كعيينةَ بنِ حصن ، والأقرعِ بن حابس ، والعباسِ بن مرداس ، ومنهم من يُترقَّب بإعطائهم إسلامُ نظرائهم ، ولعل الصنفَ الأولَ كان يعطيهم الرسولُ صلى الله عليه وسلم من خُمس الخُمسِ الذي هو خالصُ مالَه ، وقد عد منهم من يؤلَّف قلبُه بشيء منها على قتال الكفار وما نعي الزكاة وقد سقط سهمُ هؤلاء بالإجماع لما أن ذلك كان لتكثير سوادِ الإسلامِ فلما أعزّه الله عز وعلا وأعلى كلمتَه استُغنيَ عن ذلك ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ أي وللصَّرف في فك الرقاب بأن يُعانَ المكاتَبون بشيء منها على أداء نجومِهم ، وقيل : بأن يُفدَى الأُسارى وقيل : بأن يُبتاع منها الرقابُ فتُعتق ، وأياً ما كان فالعدولُ عن اللام لعدم ذكرِهم بعنوان مصحّحٍ للمالكية والاختصاص كالذين من قبلهم أو للإيذان بعدم قرارِ ملكِهم فيما أعطوا كما في الوجهين الأولين أو بعدم ثبوتِه رأساً كما في الوجه الأخير أو للإشعار برسوخهم في استحقاق

الصدقةِ لما أن (في) للظرفية المنبئةِ عن إحاطتهم بها وكونِهم محلَّها ومركزَها .

﴿ والغارمين ﴾ أي الذين تداينوا لأنفسهم في غير معصيةٍ إذا لم يكن لهم نصابٌ فاضلٌ عن ديونهم وكذلك عند الشافعيِّ رضي الله عنه غُرمٍ لإصلاح ذاتِ البين وإطفاءِ الثائرة بين القبيلتين وإن كانوا أغنياء ﴿ وَفِى سَبِيلِ الله ﴾ أي فقراءِ الغزاةِ والحجيج والمنقطَعِ بهم ﴿ وابن السبيل ﴾ أي المسافر المنقطِع عن ماله ، وتكريرُ الظرف في الأخيرين للإيذان بزيادة فضلِهما في الاستحقاق أو لما ذكر من إيرادهما بعنوان غيرِ مصحِّحٍ للمالكية والاختصاص فهذه مصارفُ الصدقاتِ ، فللمتصدق أن يدفع صدقتَه إلى كل واحدٍ منهم وأن يقتصرَ على صنف منهم لأن اللام لبيان أنهم مصارفُ لا تخرُج عنهم لا لإثبات الاستحقاق ، وقد روي ذلك عن عمرَ وابنِ عباس وحذيفةَ رضي الله عنهم وعند الشافعيِّ لا يجوز إلا أن يُصرَف إلى ثلاثة من تلك الأصناف ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ الله ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لما دل عليه صدْرُ الآية أي فرَضَ لهم الصدقاتِ فريضةً . ونُقل عن سيبويه أنه منصوبٌ بفعله مقدراً أي فرَض الله ذلك فريضةً أو حالٌ من الضمير المستكنّ في قوله : للفقراء ، أي إنما الصدقاتُ كائنةٌ لهم حالَ كونها فريضةً أي مفروضة ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناسِ ومراتبِ استحقاقِهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعلُ إلا ما تقتضيه الحِكمةُ من الأمور

الحسنةِ التي من جملتها سَوْقُ الحقوقِ إلى مستحقّيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(114/340)

وقال الآلوسى :

ثم إنه سبحانه لما ذكر المنافقين وطعنهم وسخطهم بين أن فعله عليه الصلاة والسلام لإصلاح الدين وأهله لا لأغراض نفسانية كأغراضهم فقال جل وعلا :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الخ

يعني أن الذي ينبغي أن يقسم مال الله عليه من اتصف باحدى هذه الصفات دون غيره إذ القصد الصلاح والمنافقون ليس فيهم سوى الفساد فلا يستحقونه وفي ذلك حسم لأطماعهم الفارغة ورد لمقالتهم الباطلة ، والمراد من الصدقات الزكوات فيخرج غيرها من التطوع ، والفقير على ما روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من له أدنى شيء وهو ما دون النصاب أو قدر نصاب غير نام وهو مستغرق في الحاجة ، والمسكين من لا شيء له فيحتاج للمسألة لقوته وما يوراى بدنه ويحل له ذلك بخلاف الأول حيث لا تحل له المسألة فإنها لا تحل لمن يملك قوت يومه بعد ستر بدنه ، وعند بعضهم لا تحل لمن كان كسوباً

أو يملك خمسين درهما .

فقد أخرج أبو داود .

والترمذي والنسائي عن ابن مسعود قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سألنا وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل : يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب " وإلى هذا ذهب الثوري .

وابن المبارك .

وأحمد واسحق ، وقيل : من ملك أربعين درهماً حرم عليه السؤال لما أخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف " وكان الأوقية في ذلك الزمان أربعين درهماً .

ويجوز صرف الزكاة لمن لا تحل له المسألة بعد كونه فقيراً ، ولا يخرجه عن الفقر ملك نصب كثيرة غير نامية إذا كانت مستغرقة للحاجة ، ولذا قالوا : يجوز للعالم وإن كانت له كتب تساوي نصباً كثيرة إذا كان محتاجاً إليها للتدريس ونحوه أخذ الزكاة بخلاف العامي وعلى هذا جميع آلات المحترفين .

(115/340)

وعلى ما نقل عن الإمام يكون المسكين أسوأ حالاً من الفقير ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة ﴾ [البلد : 16] الخ يعني أن الذي ينبغي أن يقسم مال الله عليه من اتصف باحدى هذه الصفات دون غيره إذ القصد الصلاح والمنافقون ليس فيهم سوى الفساد فلا يستحقونه وفي ذلك حسم لأطماعهم الفارغة ورد لمقالتهم الباطلة ، والمراد من الصدقات الزكوات فيخرج غيرها من التطوع ، والفقير على ما روي عن الإمام أبي حنيفة رضي الله تعالى عنه من له أدنى شيء وهو ما دون النصاب أو قدر نصاب غير نام وهو مستغرق في الحاجة ، والمسكين من لا شيء له فيحتاج للمسألة لقوته وما يوراى بدنه ويحل له ذلك بخلاف الأول حيث لا تحل له المسألة فإنها لا تحل لمن يملك قوت يومه بعد ستر بدنه ، وعند بعضهم لا تحل لمن كان كسوباً أو يملك خمسين درهما .

فقد أخرج أبو داود .

والترمذي والنسائي عن ابن مسعود قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سألنا وله ما يغنيه جاء يوم القيامة ومسألته في وجهه خموش أو خدوش أو كدوح قيل : يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب" وإلى هذا ذهب الثوري .

وابن المبارك .

وأحمد واسحق ، وقيل : من ملك أربعين درهماً حرم عليه السؤال لما أخرج أبو داود عن أبي سعيد الخدري قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من سأل وله قيمة أوقية

فقد ألحف" وكان الأوقية في ذلك الزمان أربعين درهماً .

ويجوز صرف الزكاة لمن لا تحل له المسألة بعد كونه فقيراً ، ولا يخرجه عن الفقر ملك نصب كثيرة غير نامية إذا كانت مستغرقة للحاجة ، ولذا قالوا : يجوز للعالم وإن كانت له كتب تساوي نصباً كثيرة إذا كان محتاجاً إليها للتدريس ونحوه أخذ الزكاة بخلاف العامي وعلى هذا جميع آلات المحترفين .

(116/340)

وعلى ما نقل عن الإمام يكون المسكين أسوأ حالاً من الفقير ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : 61] أي ألصق جلده بالتراب في حفرة استتر بها مكان الإزار وألصق بطنه به لفرط الجوع فإنه يدل على غاية الضرر والشدة ولم يوصف الفقير بذلك ، وبأن الأصمعي .

وأبا عمرو بن العلاء وغيرهما من أهل اللغة فسروا المسكين بمن لا شيء له ، والفقير بمن له بلغة من العيش .

وأجيب بأن تمام الاستدلال بالآية موقوف على أن الصفة كاشفة وهو خلاف الظاهر ، وأن النقل عن بعض أهل اللغة معارض بالنقل عن البعض الآخر .

وقال الشافعي عليه الرحمة : الفقير من لا مال له ولا كسب يقع موقعاً من حاجته ، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه ، فالفقير عنده أسوأ حالاً من المسكين ، واستدل له بقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين ﴾ [الكهف : 79] فأثبت للمسكين سفينة ، وبما رواه الترمذي عن أنس .

وابن ماجه .

والحاكم عن أبي سعيد قالا : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين " مع ما رواه أبو داود عن أبي بكرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو بقوله : " اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر " وخبر "الفقر فخري" كذب لا أصل له .

وبأن الله تعالى قدم الفقير في الآية ولو لم تكن حاجته أشد لما بدأ به ، وبأن الفقير بمعنى المفقور أي مكسور الفقار أي عظام الصلب فكان أسوأ .

وأجيب عن الأول بأن السفينة لم تكن ملكاً لهم بل هم أجراء فيها أو كانت عارية معهم أو قيل لهم مساكين ترحماً كما في الحديث " مساكين أهل النار "

وقوله :

مساكين أهل الحب حتى قبورهم . . .

عليها تراب الذل بين المقابر

وهذا أولى ، وعن الثاني بأن الفقر المتعوذ منه ليس إلا فقر النفس لما روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يسأل العفاف والغنى والمراد به غنى النفس لا كثرة الدنيا ، وعن الثالث بأن التقديم لا دليل فيه إذ له اعتبارات كثيرة في كلامهم ، وعن الرابع بأنا لا نسلم أن الفقير مأخوذ من الفقار لجواز كونه من فقرت له فقرة من مالي إذا قطعتها فيكون له شيء ، وأياً ما كان فهما صنفان ، وقال الجبائي : إنهما صنف واحد والعطف للاختلاف في المفهوم ، وروي ذلك عن محمد .

وأبي يوسف ، وفائدة الخلاف تظهر فيما إذا أوصى بثلث ماله مثلا لفلان وللفقراء والمساكين فمن قال : إنهما صنف واحد جعل لفلان النصف ومن قال : إنهما صنفان جعل له الثلث من ذلك ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ وهم الذين يبعثهم الإمام لجبايتها ، وفي البحر أن العامل يشمل العاشر والساعي .

والأول من نصبه الإمام على الطريق ليأخذ الصدقات من التجار المارين بأموالهم عليه .

والثاني هو الذي يسعى في القبائل ليأخذ صدقة المواشي في أماكنها ، ويعطي العامل ما

يكفيه وأعوانه بالوسط مدة ذهابهم وإيابهم ما دام المال باقياً إلا إذا استغرقت كفايته الزكاة فلا يزاد على النصف لأن التصنيف عين الإنصاف .

(118/340)

وعن الشافعي أنه يعطي الثمن لأن القسمة تقتضيه وفيه نظر ، وقيد بالوسط لا يجوز أن يتبع شهوته في المأكل والمشرب والملبس لكونه إسرافاً محضاً ، وعلى الإمام أن يبعث من يرضي بالوسط من غير إسراف ولا تقتير ، وببقاء المال لأنه لو أخذ الصدقة وضاعت من يده بطلت عمالته ولا يعطي من بين المال شيئاً وما يأخذه صدقة ، ومن هنا قالوا : لا تحل العمالة لهاشمي لشرفه ، وإنما حلت للغني مع حرمة الصدقة عليه لأنه فرغ نفسه لهذا العمل فيحتاج إلى الكفاية ، والغنى لا يمنع من تناولها عند الحاجة كابن السبيل كذا في البدائع ، والتحقيق أن في ذلك شبهاً بالاجرة وشبهاً بالصدقة ، فبالاعتبار الأول حلت للغنى ولذا لا يعطى لو أداها صاحب المال إلى الإمام ، وبالاعتبار الثاني لا تحل للهاشمي .

وفي النهاية رجل من بني هاشم استعمل على الصدقة فأجرى له منها رزق فإنه لا ينبغي له أن يأخذ من ذلك ، وإن عمل فيها ورزق من غيرها فلا بأس به ، وهو يفيد صحة توليته وأن أخذه منها مكروه لإحرام ، وصرح في الغاية بعدم صحة كون العامل هاشمياً أو عبداً أو

كافراً ، ومنه يعلم حرمة تولية اليهود على بعض الأعمال وقد تقدمت نبذة من الكلام على ذلك ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم كانوا ثلاثة أصناف .

صنف كان يؤلفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا .

وصنف أسلموا لكن على ضعف كعيينة بن حصن .

والأقرع بن حابس .

والعباس بن مرداس السلمي فكان عليه الصلاة والسلام يعطيهم لتقوى نيتهم في الإسلام .

وصنف كانوا يعطون لدفع شرهم عن المؤمنين ، وعد منهم من يؤلف قلبه بإعطاء شيء من الصدقات على قتال الكفار ومانعي الكاة .

وفي الهداية أن هذا الصنف من الأصناف الثمانية قد سقط وانعقد إجماع الصحابة على ذلك في خلافة الصديق رضي الله تعالى عنه .

(119/340)

روي أن عيينة والأقرع جاءا يطلبان أرضاً من أبي بكر فكتب بذلك خطاً فمزقه عمر رضي الله تعالى عنه وقال : هذا شيء يعطيكموه رسول الله صلى الله عليه وسلم تأليفاً لكم فأما اليوم فقد أعز الله تعالى الإسلام وأغني عنكم فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا

وبينكم السيف .

فرجعوا إلى أبي بكر فقالوا : أنت الخليفة أم عمر ؟ بذلت لنا الخط ومزقه عمر ، فقال رضي الله تعالى عنه : هو إن شاء ووافقه ، ولم ينكر عليه أحد من الصحابة رضي الله تعالى عنهم مع احتمال أن فيه مفسدة كارتداد بعض منهم وإثارة ثائرة .

واختلف كلام القوم في وجه سقوطه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثبوته بالكتاب إلى حين وفاته بأبي هو وأمي عليه الصلاة والسلام فمنهم من ارتكب جواز نسخ ما ثبت بالكتاب بالإجماع بناء على أن الإجماع حجة قطعية كالكتاب وليس بصحيح من المذهب ؛ ومنهم من قال : هو من قبيل انتهاء الحكم بانتهاء علته كانتهاء جواز الصوم بانتهاء وقته وهو النهار .

ورد بأن الحكم في البقاء لا يحتاج إلى علة كما في الرمل والاضطباع في الطواف فانتهاؤها لا يستلزم انتهاءه وفيه بحث .

(120/340)

وقال علاء الدين عبد العزيز : والأحسن أن يقال : هذا تقرير لما كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من حيث المعنى ، وذلك أن المقصود بالدفع إليهم كان إعزاز الإسلام لضعفه في

ذلك الوقت لغلبة أهل الكفر وكان الإعزاز بالدفع ، ولما تبدلت الحال بغلبة أهل الإسلام صار الإعزاز في المنع ، وكان الإعطاء في ذلك الزمان والمنع في هذا الزمان بمنزلة الآلة لإعزاز الدين والإعزاز هو المقصود وهو باق على حاله فلم يكن ذلك نسخاً ، كالمتيمم وجب عليه استعمال التراب للتطهير لأنه آلة متعينة لحصول التطهير عند عدم الماء فإذا تبدلت حاله فوجد الماء سقط الأول ووجب استعمال الماء لأنه صار متعيناً لحصول المقصود لا يكون هذا نسخاً للأول فكذا هذا وهو نظير إيجاب الدية على العاقلة فإنها كانت واجبة على العشيرة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعده على أهل الديوان لأن الإيجاب على العاقلة بسبب النصرة والاستنصار في زمنه صلى الله عليه وسلم كان بالعشيرة وبعده عليه الصلاة والسلام بأهل الديوان ، فإيجابها عليهم لم يكن نسخاً بل كان تقريراً للمعنى الذي وجبت الدية لأجله وهو الاستنصار ا ه .

واستحسنه في النهاية .

وتعقبه ابن الهمام بأن هذا لا ينفي النسخ لأن إباحة الدفع إليهم حكم شرعي كان ثابتاً وقد ارتفع ، وقال بعض المحققين : إن ذلك نسخ ولا يقال : نسخ الكتاب بالإجماع لا يجوز على الصحيح لأن الناسخ دليل الإجماع لا هو بناء على أنه لا إجماع إلا عن مستند فإن ظهر وإلا وجب الحكم بأنه ثابت ، على أن الآية التي أشار إليها عمر رضي الله تعالى عنه وهي قوله سبحانه : ﴿ وَقُلِ الحق مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : 29

] يصلح لذلك وفيه نظر ، فإنه إنما يتم لو ثبت نزول هذه الآية بعد هذه ولم يثبت ، وقال قوم : لم يسقط سهم هذا الصنف ، وهو قول الزهري وأبي جعفر محمد بن علي .

(121/340)

وأبي ثور ، وروي ذلك عن الحسن ، وقال أحمد : يعطون أن احتاج المسلمون إلى ذلك .

وقال البعض : إن المؤلفة قلوبهم مسلمون وكفار والساقط سهم الكفار فقط .

وصحح أنه عليه الصلاة والسلام كان يعطيهم من خمس الخمس الذي كان خاص ماله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ أي للصرف في فك الرقاب بأن يعان المكاتبون بشيء منها على أدار نجومهم ، وقيل : بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق ، وقيل : بأن يفدي الأساري ، وإلى الأول ذهب النخعي .

والليث .

والزهري .

والشافعي ، وهو المروى عن سعيد بن جبير وعليه أكثر الفقهاء ، وإلى الثاني ذهب

مالك .

وأحمد .

وإسحق ، وعزاه الطيبي إلى الحسن ، وفي تفسير الطبري أن الأول هو المنقول عنه ﴿ والغارمين ﴾ أي الذين عليهم دين ، والدفع إليهم كما في الظهيرية أولى من الدفع إلى الفقير وقيدوا الدين بكونه في غير معصية كالخمر والإسراف فيما لا يعنيه ، لكن قال النووي في المنهاج قلت : والأصح أن من استدان للمعصية يعطي إذا تاب وصححه في الروضة ، والمانع مطلقاً قال : إنه قد يظهر التوبة للأخذ ، واشترط أن لا يكون لهم ما يوفون به دينهم فاضلاً عن حوائجهم ومن يعولونه ، وإلا فمجرد الوفاء لا يمنع من الاستحقاق ، وهو أحد قولين عند الشافعية وهو الأظهر .

وقيل : لا يشترط لعموم الآية .

وأطاق القدوري .

وصاحب الكنز من أصحابنا المديون في باب المصرف ، وقيده في الكافي بأن لا يملك نصاباً فضلاً عن دينه وذكر في البحر أنه المراد بالغارم في الآية إذ هو في اللغة من عليه دين ولا يجد قضاء كما ذكره العتبي .

واعتذر عن عدم التقييد بأن الفقر شرط في الأصناف كلها إلا العامل وابن السبيل إذا كان له في وطنه مال فهو بمنزلة الفقير ، وهل يشترط حلول الدين أولا قولان للشافعية .

(122/340)

ويعطي عندهم من استدان لإصلاح ذات البين كأن يخاف فتنة بين قبيلتين تنازعتا في قتيل لم يظهر قاتله أو ظهر فأعطي الدية تسكيناً للفتنة ، ويعطى مع الغنى مطلقاً ، وقيل : إن كان غنياً بنقد لا يعطى ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

أريد بذلك عند أبي يوسف منقطعوا الغزاة ، وعند محمد منقطعوا الحجيج .

وقيل : المراد طلبة العلم واقتصر عليه في الفتاوي الظهيرية ، وفسره في "البدائع" بجميع القرب فيدخل فيه كل من سعي في طاعة الله تعالى وسبل الخيرات .

قال في البحر : ولا يخفى أن قيد الفقر لا بد منه على الوجوه كلها فحينئذ لا تظهر ثمرته في الزكاة .

وإنما تظهر في الوصايا والأوقاف انتهى .

وفي النهاية فإن قيل : إن قوله سبحانه ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ مكرر سواء أريد منقطع الغزاة أو غيره لأنه إما أن يكون له في وطنه مال أم لا فإن كان فهو ابن السبيل وإن لم يكن فهو فقير ، فمن أين يكون العدد سبعة على ما يقول الأصحاب أو ثمانية على ما يقول غيرهم .

وأجيب بأنه فقير إلا أنه ازداد فيه شيء آخر سوى الفقر وهو الانقطاع في عبادة الله تعالى من جهاد أو حج فلذا غاير الفقير المطلق فإن المقيد يغاير المطلق لا محالة ، ويظهر أثر التغاير في حكم آخر أيضاً وهو زيادة التحريض والترغيب في رعاية جانبه وإذا كان كذلك لم تنقص

المصارف عن سبعة وفيه تأمل انتهى ، ولا يخفي وجهه .

وذكر بعضهم أن التحقيق ما ذكره الجصاص في الأحكام أن من كان غنياً في بلده بداره وخدمه وفرسه وله فضل دراهم حتى لا تحل له الصدقة فإذا عزم على سفر جهاد احتاج لعدة وسلاح لم يكن محتاجاً له في إقامته فيجوز أن يعطي من الصدقة وإن كان غنياً في مصره وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " الصدقة تحل للغازي الغني " فافهم ولا تغفل ﴿ وابن السبيل ﴾ وهو المسافر المنقطع عن ماله ، والاستقراض له خير من قبول الصدقة على ما في الظهيرية .

(123/340)

وفي "فتح القدير" أنه لا يحل له أن يأخذ أكثر من حاجته ، وألحق به كل من هو غائب عن ماله وان كان في بلده .

وفي المحيط وإن كان تاجراً له دين على الناس لا يقدر على أخذه ولا يجد شيئاً يحل له أخذ الزكاة لأنه فقير يداً كابن السبيل .

وفي الخانية تفصيل في هذا المقام قال : والذي له دين مؤجل على إنسان إذا احتاج إلى النفقة يجوز له أن يأخذ من الزكاة قدر كفايته إلى حلول الأجل ، وإن كان الدين غير مؤجل فإن كان

من عليه الدين معسراً يجوز له أن يأخذ الزكاة في أصح الأقاويل لأنه بمنزلة ابن السبيل ، وإن كان المديون موسراً معترفاً لا يحل له أخذ الزكاة وكذا إذا كان جاحداً وله عليه بينة عادلة ، وإن لم تكن عادلة لا يحل له الأخذ أيضاً ما لم يرفع الأمر إلى القاضي فيحلفه فإذا حلفه يحل له الأخذ بعد ذلك ا ه ، والمراد من الدين ما يبلغ نصاباً كما لا يخفي .

وفي "فتح القدير" ولو دفع إلى فقيره لها مهر دين على زوجها يبلغ نصاباً وهو موسر بحيث لو طلبت أعطاها لا يجوز ، وإن كان بحيث لا يعطى لو طلبت جاز ا ه .

(124/340)

وهو مقيد لعموم ما في الخانية ، والمراد من المهر ما تعورف تعجيله لأن ما تعورف تأجيله فهو دين مؤجل لا يمنع أخذ الزكاة ، ويكون في الأول عدم إعطائه بمنزلة إعساره ، ويفرق بينه وبين سائر الديون بأن رفع الزوج للقاضي مما لا ينبغي للمرأة بخلاف غيره ، لكن في البزازية دفع الزكاة إلى أخته وهي تحت زوج إن كان مهرها المعجل أقل من النصاب أو أكثر لكن الزوج معسر له أن يدفع إليها الزكاة وإن كان موسراً والمعجل قدر النصاب لا يجوز عندهما وبه يفتي للاحتياط ، وعند الإمام يجوز مطلقاً هذا ، والعدول عن اللام إلى ﴿ فِى ﴾ في الأربعة الأخيرة على ما قال الزمخشري للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق الصدقة ممن سبق

ذكره لما أن ﴿ فِى ﴾ للظرفية المنبئة عن إحاطتهم بها وكونهم محلها ومركزها وعليه فاللام لمجرد الاختصاص ، وفي الانتصاف أن ثم سرا آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأوائل ملاك لما عساه أن يدفع إليهم وإنما يأخذونه تملكاً فكان دخول اللام لائقا بهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون لما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن يصرف في مصالح تتعلق بهم ، فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون أو البائعون فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بملكهم لما يصرف نحوهم وإنما هم محال لهذا الصرف ولمصالحه المتعلقة به ، وكذلك الغارمون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم ، وأما في سبيل الله فواضح فيه ذلك ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجاً في سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً .

وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكن عطفه على القريب أقرب ، وما أشار إليه من أن المكاتب لا يملك وإنما يملك المكاتب هو الذي أشار إليه بعض أصحابنا .

(125/340)

ففي المحيط قالوا : إنه لا يجوز إعطاء الزكاة لمكاتب هاشمي لأن الملك يقع للمولى من وجه والشبهة ملحقة بالحقيقة في حقهم وفي "البدائع" ما هو ظاهر في أن الملك يقع للمكاتب وحينئذ فبقية الأربعة بالطريق الأولى .

والمشهور أن اللام للملك عند الشافعية وهو الذي يقتضيه مذهبهم حيث قالوا : لا بد من صرف الزكاة إلى جميع الأصناف إذا وجدت ولا تصرف إلى صنف مثلا ولا إلى أقل من ثلاثة من كل صنف بل إلى ثلاثة أو أكثر إذا وجد ذلك ، وعندنا يجوز للمالك أن يدفع الزكاة إلى كل واحد منهم وله أن يقتصر على صنف واحد لأن المراد بالآية بيان الأصناف التي يجوز الدفع إليهم لا تعيين الدفع لهم ، ويدل له قوله تعالى :

﴿ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] وأنه صلى الله عليه وسلم أتاه مال من الصدقة فجعله في صنف واحد وهو المؤلفة قلوبهم ثم أتاه مال آخر فجعله في الغارمين فدل ذلك على أنه يجوز الاقتصار على صنف واحد ، ودليل جواز الاقتصار على شخص واحد منه أن الجمع المعرف بال مجاز عن الجنس ، فلو حلف لا يتزوج النساء ولا يشتري العبيد يحنث بالواحد ؛ فالمعنى في الآية أن جنس الصدقة لجنس الفقير ، فيجوز الصرف إلى واحد لأن الاستغراق ليس بمستقيم ، إذ يصير المعنى إن كل صدقة لكل فقير وهو ظاهر الفساد ، وليس هناك معهود ليرتكب العهد ، ولا يرد خالعني على ما في يدي من الدراهم ولا شيء في يدها فإنه يلزمها ثلاثة ، ولو حلف لا يكلمه الأيام

أو الشهور فإنه يقع على العشرة عند الإمام وعلى الأسبوع والسنة عند الإمامين لأنه أمكن العهد فلا يحمل على الجنس .

فالحاصل أن حمل الجمع على الجنس مجاز وعلى العهد أو الاستغراق حقيقة ، ولا مساغ للخلف إلا عند تعذر الأصل ، وعلى هذا ينصف الموصى به لزيد والفقراء كالوصية لزيد وفقير .

وما ذهبنا إليه هو المروى عن عمر .

وابن عباس رضي الله تعالى عنهم ، وبه قال سعيد بن جبير .

وعطاء .

(126/340)

وسفيان الثوري .

وأحمد بن حنبل .

ومالك عليهم الرحمة .

وذكر ابن المنير أن جده أبا العباس أحمد بن فارس كان يستنبط من تغاير الحرفين المذكورين دليلاً على أن الغرض بيان المصرف واللام لذلك فيقول : متعلق الجار الواقع خبراً عن

الصدقات محذوفاً فإما أن يكون التقدير إنما الصدقات مصروفة للفقراء كما يقول مالك ومن معه أو مملوكة للفقراء كما يقول الشافعي لكن الأول متعين لأنه تقدير يكتفي به في الحرفين جميعاً ويصح تعلق اللام ﴿ وَفِى ﴾ معاً به فيصح أن يقال : هذا الشيء مصروف في كذا ولكذا بخلاف تقدير مملوكة فإنه إنما يلتئم مع اللام وعند الانتهاء إلى ﴿ فِى ﴾ يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها فتقديره من الأول عام التعلق شامل الصحة متعين ا ه .

وبالجملة لا يخفى قوة منزع الأئمة الثلاثة في الأخذ .

ولذا اختار بعض الشافعية ما ذهبوا إليه ، وكان والد العلامة البيضاوي عمر بن محمد وهو مفتي الشافعية في عصره يفتى به ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ مصدر مؤكد لمقدر مأخوذ من معنى الكلام أي فرض لهم الصدقات فريضة ، ونقل عن سيبويه أنه منصوب بفعله مقدراً أي فرض الله تعالى ذلك فريضة ، واختار أبو البقاء كونه حالا من الضمير المسكن في قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ أي إنما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة أي مفروضة ، قيل : ودخلته التاء لإلحاقه بالأسماء كنطيحة ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التي من جملتها سوق الحقوق إلى مستحقيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(127/340)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ .

لما ذكر تعالى لمزهم في الصدقات تأثره ببيان حقِّيَّة ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم من القسمة ، إذ لم يتجاوز فيها مصارفها المشروعة له ، وهو عين العدل ، وذلك أنه تعالى شرع قسمها لهؤلاء ، ولم يكله إلى أحد غيره ، ولم يأخذ صلى الله عليه وسلم منها لنفسه شيئاً ، ففيم اللمز لقاسمها ، صلوات الله عليه ؟

روى البخاري عن معاوية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، وإنما أنا قاسم ، والله يعطي > .

وروى أبو داود عن زياد بن الحارث رضي الله عنه قال : أتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له : < إن الله تعالى لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات ، حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك حقك > .

فالآية ردّ لمقالة أولئك اللمزة ، وحسم لأطماعهم ، ببيان أنهم بمعزل من الإستحقاق .

وإعلام بمن إعطاؤهم عدل ، ومنعهم ظلم .

والفقراء ، جمع فقير ، فعيل بمعنى فاعل ، يقال فقر يفقر من باب تعب ، إذا قل ماله .

والمساكين : جمع مسكين ، من سكن سكوناً ، ذهبت حركته ، لسكونه إلى الناس ، وهو بفتح الميم في لغة بني أسد ، وبكسرها عند غيرهم .

(128/340)

قال ابن السكِّيت : المسكين : الذي لا شيء له ، والفقير : الذي له بُلغة من العيش .

وكذلك قال يونس ، وجعل الفقير أحسن حالاً من المسكين .

قال : وسألت أعرابياً : أفقير أنت ؟ فقال : لا ، والله بل مسكين ، وقال الأصمعي : المسكين أحسن حالاً من الفقير ، وهو الوجه ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ وكانت تساوي جملة ، وقال في حق الفقراء : ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ وقال ابن الأعرابي : المسكين هو الفقير ، وهو الذي لا شيء له ، فجعلهما سواء . كذا في "المصباح" .

قال البدر القرافي : وإذا اجتمعا افترقا ، كما إذا أوصي للفقراء والمساكين ، فلا بد من الصرف للنوعين ، وإن افترقا اجتمعا ، كما إذا أوصي لأحد النوعين ، جاز الصرف للآخر .

قال المهايمي : ثم ذكر تعالى من يحتاج إليهم المحتاجون إلى الصدقات ، فقال :

﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ أي : الساعين في تحصيلها : القابض والوازن والكيال والكاتب ، ويعطون أجورهم منها .

ثم ذكر من يحتاج إليهم الإمام فقال : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

وهم قوم ضعفت نيتهم في الإسلام ، فيحتاج الإمام إلى تأليف قلوبهم بالعطاء ، تقوية لإسلامهم ، لئلا يسري ضعفهم إلى غيرهم ، أو أشراف يترقب بإعطائهم إسلام نظرائهم .

ثم ذكر تعالى من يعان بها في دفع الرقّ بقوله : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ .

أي : وللإعانة في فك الرقاب ، فيعطي المكاتبون منها ما يستعينون به على أداء نجوم الكتابة ، وإن كانوا كاسبين ، وهو قول الشافعي والليث ، أو : وللصرف في عتق الرقاب ، بأن يبتاع منها الرقاب فتعتق .

قال ابن عباس والحسن : لا بأس أن تعتق الرقبة من الزكاة ، وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق .

ولا يخفى أن الرقاب يعم الوجهين ، وقد ورد في ثواب الإعتاق وفك الرقبة أحاديث كثيرة .

(129/340)

ثم ذكر تعالى من تفك ذمته في الديون بقوله : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ .

وهم الذين ركبتهم الديون لأنفسهم في غير معصية ، ولم يجدوا وفاء ، أو لإصلاح ذات البين ولو أغنياء .

ثم ذكر تعالى الإعانة على الجهاد بقوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

فيصرف على المتطوعة في الجهاد ، ويشتري لهم الكراع والسلاح .

قال الرازي : لا يوجب قوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ القصر على الغزاة ، ولذا نقل القفّال في " تفسيره " عن بعض الفقهاء جوازَ صرف الصدقات إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى ، وبناء الحصون ، وعمارة المساجد ، لأن قوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ عامّ في الكل . انتهى .

ولذا ذهب الحسن وأحمد وإسحاق إلى أن الحج من : ﴿ سبيل الله ﴾ فيصرف للحجاج منه .

قال في الإقناع و شرحه : والحج من سبيل الله نصاً ، روي عن ابن عباس وابن عمر ، لما روى أبو داود ، أن رجلاً جعل ناقة في سبيل الله ، فأرادت امرأته الحج ، فقال لها النبيّ صلى الله عليه وسلم : اركبيها ، فإن الحج من سبيل الله ، فيأخذ إن كان فقيراً ، من الزكاة ما يؤدي به فرض حج أو عَمْرة ، أو يستعين به فيه ، وكذا في نافلتهما ، لأن كلاً من سبيل الله . انتهى .

قال ابن الأثير : و سبيل الله عام ، يقع على كل عمل خالص سلك به طريق التقرب إلى الله عزّ وجلَّ ، بأداء الفرائض والنوافل ، وأنواع التطوعات ، وإذا أطلق فهو في الغالب واقع على الجهاد ، حتى صار لكثرة الإستعمال كأنه مقصور عليه . انتهى .

وقال في " التاج " : كل سبيل أريد به الله عز وجل ، وهو برّ ، داخل في سبيل الله .

ثم ذكر تعالى الإعانة لأبناء الطريق بقوله :

﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ فيعطي المجتاز في بلدٍ ما يستعين به على بلوغه لبلده .

وقوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ ناصبة مقدَّر ، أي : فرض الله ذلك فريضة ، وقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : بأحوال الناس ومراتب استحقاقهم .

(130/340)

وقول : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة من الأمور الحسنة التي منها سوق الحقوق إلى مستحقيها .

تنبيهات :

الأول : ظاهر الآية يقضي بالقسمة بين الثمانية الأصناف ، ويؤيد هذا وجهان :

الأول : ما يقتضيه اللفظ اللغوي ، إن قلنا : الواو والتشريك .

والثاني : ما رواه أبو داود في سننه من قوله صلى الله عليه وسلم : < إن الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات ، حتى حكم فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء > الحديث .

وقد ذهب ، إلى هذا ، الشافعي وعكرمة والزهري ، إلا إن استغنى أحدها فتدفع إلى الآخرين ، بلا خلاف .

وذهبت طوائف إلى جواز الصرف في صنف واحد منهم عمر وابن عباس ، وحذيفة وعطاء وابن جبير والحسن ومالك وأبو حنيفة ، والهادي والقاسم وأسباطهما ، وزيد .

قال في " التهذيب " : وخرجوا عن الظاهر في دلالة الآية المذكورة والخبر ، بوجوه :

الأول : أن الله تعالى قال في سورة البقرة : ﴿ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ فدل على أن ذكر العدد هنا لبيان جنس من يستحقها .

الثاني : الخبر وهو قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ : أعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وتُرَدُّ في فقرائهم .

الثالث : حديث سلمة بن صخر ، فإنه عليه الصلاة والسلام جعل له صدقة بني زريق .

الخامس : أنه لم يظهر في ذلك خلاف من جهة الصحابة فجرى كالمجمع عليه .

الخامس : المعارضة للفظ بالمعنى ، فإن المقصود سدّ الخلة .

وقال صاحب " النهاية " : وهذا أقرب إلى المعنى ، والأول أقرب إلى اللفظ ، ويؤيد أنها

مستحقة بالمعنى لا بالإسم ، أنا لو قلنا تستحق بالإسم لزم أن من كان فقيراً غازياً غارماً مسافراً ، أن يستحق سهاماً لهذه الأسباب جميعاً – كذا في تفسير بعض الزيدية – .

(131/340)

وقال الناصر في " الإنتصاف " : القول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف ، حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً من إشعار اللام بالتمليك ، كما ذهب إليه الشافعي : لا يسعده السياق ، فإن الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على قصر جنس الصدقات على الأصناف المعدودة ، وأنها مختصة بهم ، وأن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً ، كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم ، فهاذ هو الغرض الذي سيقت له الآية ، فلا اقتضاء فيها لما سواه . انتهى .

الثاني : قال بعضهم : لفظ الصَّدَقات بعمومه يجمع الصدقة الواجبة والنافلة ، ثم إن الصدقة الواجبة تتنوّع أنواعاً ، منها الزكوات لما هو العشر أو نصف العشر ، أو ربع العشر ، وزكاة المواشي والفطرة والكفارات ، نحو كفارة اليمين والظهار والصوم ، وكذلك الهَدْي في الحج ، ومنها ما يؤخذ من أموال الكفار ورؤوسهم ، ولهذا سمى الله الغنائم صدقة في سبب نزول الآية ، وذلك في قسمة غنائم حنين ، فإذا كان اللفظ يعمّ ما ذكر ، فهل تحمل الآية على

عمومها في قسمتها على ما ذكر ، أو يخصص البعض ؟

ثم قال : والعلماء قسموا الصدقات ، وجعلوا مصارفها مختلفة ، والكفارة لم يذكر أنها تصرف في الثمانية المصارف .

وقد ورد قوله تعالى : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً ﴾ وفي الحديث : < أطعم عن كل يوم مسكيناً > ، وورد في الفطرة : < أغنوهم هذا اليوم > .

وورد الأدلة مخصصة لعموم لفظ الصدقات ؟ فإن الزكوات مجمع عليها في أن مصرفها الثمانية الأصناف ، أم كيف تنزل الآية على القواعد الأصولية ؟ . انتهى كلامه .

ولا يخفى كونها مخصصة لعموم لفظ الصدقات ، لأن الخاصّ يقضي على العامّ على أن المراد قصرها على هذه الأصناف ، فكل ما ذكر لم يخرج عنها ، لشمولها له . والله أعلم .

الثالث : المؤلفة قلوبهم حكمهم باق ، لأنه صلى الله عليه وسلم أعطى المؤلفة من المسلمين والمشركين ، فيعطون عند الحاجة .

(132/340)

ويحمل ترك عمر وعثمان وعليّ إعطائهم ، على عدم الحاجة إلى إعطائهم في خلافتهم ، لا لسقوط سهمهم ، فإن الآية من آخر ما نزل ، وأعطى أبو بكر عدي بن حاتم والزبرقان بن

بدر .

ومنعُ وجود الحاجة على ممرّ الزمان ، واختلاف أحوال النفوس في القوة والضعف لا يخفى فساده . كذا في " الإقناع " و " شرحه " .

والمؤلفة كما في " الإقناع " هم رؤساء قومهم : من كافر يرجى إسلامه ، أو كف شره ، ومسلم يرجى بعطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو نصحه في الجهاد ، أو في الدفع عن المسلمين ، أو كف شره كالخوارج ونحوهم ، أو قوة على جباية الزكاة ممن لا يعطيها . انتهى .

الرابع : قال في " الإكليل " : استدل بعموم الآية من أجاز الدفع للفقير القادر على الإكتساب .

وللذمي ، ولمن تلزمه نفقته لسائر القرابة ، للزوج ، ولآله صلى الله عليه وسلم ، حيث حرموا حظهم من الخمس ، ولمواليهم ، ولمن جوّز نقلها .

وقال ابن الفرس : يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ ﴾ جواز أخذ الأجرة لكل من اشتغل بشيء من أعمال للمسلمين .

قال : وقد احتج به أو عُبَيْد على جواز أحد القضاة الرزقَ فقال : قد فرض الله للعاملين على الصدقة ، وجعل لهم منها حقّاً بقيامهم فيه وسعيهم ، فكذلك القضاة يجوز لهم أخذ الأجرة على عملهم ، وكذا كل من شغل بشيء من أعمال المسلمين .

الخامس : قال الزمخشري : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى في ، في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأن في للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ، ويجعلوا مظنة لها ومصبّاً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم ، من التخليص والإنقاذ .

(133/340)

ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير في ، في قوله تعالى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ فيه فضل ترجيح لهذين ، على الرقاب والغارمين . انتهى .

قال الناصر : وَثُمَ سر آخر هو أظهر وأقرب ، وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملّاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لائقاً بهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن في مصالح تتعلق بهم .

فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محالّ لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به .

وكذلك الغارمون ، إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم ، تخليصاً لذممهم ، لا لهم وأما : ﴿ سبيل الله ﴾ فواضح فيه ذلك .

وأما : ﴿ ابن السبيل ﴾ فكأنه كان مندرجاً في

سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب . والله أعلم .

ثم قال : وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه ، استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الإستدلال لمالك ، رحمه الله ، على أن الغرض بيان المصرف و اللام لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجارّ الواقع خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقدير ، فإما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك ، أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعي ، لكن الأول متعين لأنه تقدير ، يكتفي به في الحرفين جميعاً ، يصح تعلق اللام به و في معاً ، فيصح أن نقول : هذا الشيء مصروف في كذا ولكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فإنه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى في يحتاج إلى تقدير : مصروفة ليلتئم بها .

(134/340)

فتقديره من اللام عامّ التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله الموفق . انتهى .

السادس : قال الزمخشري : فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟

قلت : دلّ بكون هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم ، وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها ، وما سلطهم على التكلم فيها ، ولمز قاسمها صلوات الله عليه وسلامه . انتهى .

وتقدم بيانه أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 449.455 ﴾

(135/340)

وقال السعدى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ ﴾ أي: الزكوات الواجبة ، بدليل أن الصدقة المستحبة لكل أحد ، لا يخص بها أحد دون أحد .

أي: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين دون من عداهم ، لأنه حصرها فيهم ، وهم ثمانية أصناف .

الأول والثاني: الفقراء والمساكين ، وهم في هذا الموضع ، صنفان متفاوتان ، فالفقير أشد حاجة من المسكين ، لأن الله بدأ بهم ، ولا يبدأ إلا بالأهم فالأهم ، ففسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئًا ، أو يجد بعض كفايته دون نصفها .

والمسكين: الذي يجد نصفها فأكثر ، ولا يجد تمام كفايته ، لأنه لو وجدها لكان غنيا ، فيعطون من الزكاة ما يزول به فقرهم ومسكنتهم .

والثالث: العاملون على الزكاة ، وهم كل من له عمل وشغل فيها ، من حافظ لها ، أو جاب لها من أهلها ، أو راع ، أو حامل لها ، أو كاتب ، أو نحو ذلك ، فيعطون لأجل عمالتهم ، وهي أجرة لأعمالهم فيها .

والرابع: المؤلفة قلوبهم ، المؤلف قلبه: هو السيد المطاع في قومه ، ممن يرجى إسلامه ، أو يخشى شره أو يرجى بعطيته قوة إيمانه ، أو إسلام نظيره ، أو جبايتها ممن لا يعطيها ، فيعطى ما يحصل به التأليف والمصلحة .

الخامس: الرقاب ، وهم المكاتبون الذين قد اشتروا أنفسهم من ساداتهم ، فهم يسعون في تحصيل ما يفك رقابهم ، فيعانون على ذلك من الزكاة ، وفك الرقبة المسلمة التي في حبس

الكفار داخل في هذا ، بل أولى ، ويدخل في هذا أنه يجوز أن يعتق منها الرقاب استقلالا لدخوله في قوله: ﴿ وفي الرقاب ﴾

(136/340)

السادس: الغارمون ، وهم قسمان:

أحدهما : الغارمون لإصلاح ذات البين ، وهو أن يكون بين طائفتين من الناس شر وفتنة ، فيتوسط الرجل للإصلاح بينهم بمال يبذله لأحدهم أو لهم كلهم ، فجعل له نصيب من الزكاة ، ليكون أنشط له وأقوى لعزمه ، فيعطى ولو كان غنيا .

والثاني: من غرم لنفسه ثم أعسر ، فإنه يعطى ما يُوَفِّى به دينه .

والسابع: الغازي في سبيل اللّه ، وهم: الغزاة المتطوعة ، الذين لا ديوان لهم ، فيعطون من الزكاة ما يعينهم على غزوهم ، من ثمن سلاح ، أو دابة ، أو نفقة له ولعياله ، ليتوفر على الجهاد ويطمئن قلبه .

وقال كثير من الفقهاء : إن تفرغ القادر على الكسب لطلب العلم ، أعطي من الزكاة ، لأن العلم داخل في الجهاد في سبيل اللّه .

وقالوا أيضا : يجوز أن يعطى منها الفقير لحج فرضه ، [وفيه نظر] .

والثامن: ابن السبيل ، وهو الغريب المنقطع به في غير بلده ، فيعطى من الزكاة ما يوصله إلى بلده ، فهؤلاء الأصناف الثمانية الذين تدفع إليهم الزكاة وحدهم .

﴿ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ﴾ فرضها وقدرها ، تابعة لعلمه وحكمه ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

واعلم أن هذه الأصناف الثمانية ، ترجع إلى أمرين:

أحدهما: من يعطى لحاجته ونفعه ، كالفقير ، والمسكين ، ونحوهما .

والثاني: من يعطى للحاجة إليه وانتفاع الإسلام به ، فأوجب اللّه هذه الحصة في أموال الأغنياء ، لسد الحاجات الخاصة والعامة للإسلام والمسلمين ، فلو أعطى الأغنياء زكاة أموالهم على الوجه الشرعي ، لم يبق فقير من المسلمين ، ولحصل من الأموال ما يسد الثغور ، ويجاهد به الكفار وتحصل به جميع المصالح الدينية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير السعدى صـ 341 ﴾

(137/340)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

قوله سبحانه : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا »

هو بيان مصاحب لما وقع فى نفوس المسلمين من قسمة غنائم هوازن ،

والتي كان النبي - صلوات اللّه وسلامه عليه - قد تألف بها بعض النفوس التي كانت تعادى الإسلام ، وتحقد على رسول اللّه أن كان هو المبعوث المتخيّر لدين اللّه . . !

وقد اشتمل - هذا البيان فيما اشتمل عليه ممن لهم نصيب فى الصدقات - المؤلفة قلوبهم ، الذين كان منهم من تألفه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من غنائم هوازن . .

وفى هذا ما يكشف عن أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - كان فيما فعله فى غنائم هوازن ، وفى اقتطاع قدر منها لمن أراد أن يتألف قلوبهم - كان منفذا لأمر اللّه ، ولم يكن فيما قضى به فى ذلك منقادا لهوى أو مؤثرا لقرابة أو صداقة . .

وحاشاه ، صلوات اللّه وسلامه عليه .

(138/340)

والآية الكريمة وإن كانت فى بيان مصارف « الصدقات » التي خصصها الفقهاء هنا « بالزكاة » حيث استبان لهم من قوله تعالى ، « وَالْعامِلِينَ عَلَيْها » أن ذلك يشير إشارة صريحة إلى أن المراد بالصدقات هو الزكاة ، التي لها وحدها من دون الصدقات ، عاملون يعملون لتقديرها وأخذها ممن وجبت عليهم هذه الفريضة . .

نقول : إن الآية الكريمة وإن كانت فى بيان مصارف الزكاة ، فإن ذلك لا يمنع من أن تكون

الصدقات كلها ، سواء ما كان منها فريضة كالزكاة ، أو تطوعا كالإنفاق فى سبيل اللّه ، والإحسان إلى الفقراء والمساكين ، وفى كل وجه من وجوه البر - لا يمنع ذلك من أن تكون جميعها محكومة بهذا البيان ، موجهة فى هذه الوجوه التي أشارت إليها الآية الكريمة ، ودلّت بها على وجوه المصارف التي يصرف إليها المحسنون إحسانهم ، وما تجود به أنفسهم ، وتقدمه أيديهم من برّ وصدقة .

فالفقراء . . هم أحق جماعة فى المجتمع الإنسانى ، بالرّعاية والحماية ، من آفة الفقر التي تفتك بهم ، وتغتال المعاني الإنسانية فيهم . .

ومحاربة هذه الآفة - فوق أنه واجب إنسانىّ تفرضه الأخوة الإنسانية ، وتقتضيه لحمة النسب بين الإنسان والإنسان - هى حماية للأغنياء أنفسهم ، وضمانة لأمنهم وسلامتهم هم ، فى أموالهم وأنفسهم ، من عادية الفقراء عليهم ، والتذرع بكل وسيلة ممكنة ، يجد فيها الفقراء منفذا ينفذون منه إلى ما عند الأغنياء ، ليشبعوا جوعتهم ، وليدفعوا عن أنفسهم خطر الموت جوعا . .

(139/340)

فالسّرقة ، والنهب ، والاغتصاب ، والقتل الفردى أو الجماعى . . كل هذا وكثير غيره مما يتولّد عنه ـ هو مما يراه الجياع المحرمون ـ إن كان للجائع المحروم أن يرى ـ حقّا مشروعا لهم ، فى الدفاع عن النفس ، واتقاء خطر الموت الذي يتهددهم . . إذ ليس عند الفقير المحروم المشرف على الموت جوعا ـ ما يحرص عليه ، غير نفسه تلك ، التي يكاد يفقدها ، إن هو لم يعمل على إنقاذها ، ولو كان ذلك ما يحمله على ركوب كل مهلكة . . فإنه هالك لا محالة ، إن هو لم يعمل عملا فى وجه هذا الخطر الذي يتهدده . . وإنه لا بد له أن يعمل بدافع غريزة حبّ البقاء . ولن يكفّ عن العمل ما دام فى صدره نفس يتردد . .

إن الغريق الذي ابتلعه اليمّ لا يكفّ عن الضرب بكيانه كلّه فى وجه الماء ، ضربات محمومة ، مجنونة ، يائسة ، وكأنه بهذا ينتقم لنفسه من اليمّ الذي أوقعه فى شباكه ! يقول الإمام الشافعي ـ رضى اللّه عنه ـ : « لا تشاور من ليس فى بيته دقيق ، فإنه مولّه العقل » . أي شارد العقل ، مضطرب التفكير .

فالفقراء خطر يهدد المجتمع من أكثر من وجه . .

يهددونه بالخروج على شرائعه السماوية والوضعية ، وبالتحلل من كل نظام يحكم الجماعة ، ويدفع عدوان بعضها على بعض . . وذلك بمدّ أيديهم إلى ما ليس لهم . . وفى هذا إزعاج للمجتمع ، وإثارة للفتن والاضطرابات فى كيانه . .

ويهددونه بإشاعة البطالة ، وسوء استغلال الموارد المتاحة له . . حيث لا يجد الفقير

القدرة على العمل ، وهو تحت وطأة الجوع والحرمان . . وإذا وجد القدرة فلن يجد بين يديه الوسائل التي تمكنه من العمل . . وفى هذا خسارة يعود ضررها على المجتمع كله ، وبخاصة أغنياء المجتمع ، الذين يفقدون اليد العاملة القوية التي تعمل لهم ، كما يفقدون اليد القادرة على تبادل المنافع معهم . .

(140/340)

ومن هنا كان من تدبير الإسلام لمحاربة الفقر ، وحماية الفقراء من قسوة هذه الآفة المهلكة. أن فرض على المسلمين الزكاة ، وجعلها ركنا من أركان الدين ، لمن ملك نصابا معيّنا من المال ، وكان من تدبير الإسلام أيضا أن بدأ بالفقراء ، وجعل داءهم هو الداء الأول ، الذي يتهدد المجتمع ، بالضّياع ، ويؤذنه بالهلاك . . إن لم تعمل الجماعة جاهدة على محاربة هذه الآفة ، ورصد كل قواها للقضاء عليها ، وشفاء المجتمع منها . .

ثم كان من تدبير الإسلام أيضا فى هذه السبيل ، أن دعا إلى البرّ والإحسان ، وحض عليه ، ووعد المنفقين بالجزاء الجزل ، والثواب العظيم . . « مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ » .

والتكافل بين المسلمين هو ملاك الشريعة الإسلامية . . إذ المسلمون فى حقيقتهم كيان واحد . . كل فرد منهم هو عضو فى الجسد الاجتماعى الكبير . .

ولن تقوم سلامة هذا الجسد ، إلا بسلامة جميع أعضائه . .

(وَالْمَساكِينِ) هم الصنف الثاني من الأصناف الثمانية التي جعل الإسلام لكل صنف منها نصيبه فى الزكاة . .

وقد اختلف المفسّرون فى التفرقة بين الفقير والمسكين ، فقال بعضهم إنهم صنف واحد ، والعطف الواقع بينهما هو من عطف البيان . . وقال آخرون : الفقير من يجد قوت يومه ، والمسكين من لا يجده ، وقال غيرهم عكس هذا . . وقال الأكثرون : الفقير الذي مع فقره لا يسأل ، والمسكين هو من يسأل . . إلى كثير من الآراء التي لم تفرق تفرقة واضحة محددة ، بين الفقير والمسكين .

(141/340)

والرأى الذي نراه ونستريح إليه ، هو أن المساكين ، هم صنف قائم بذاته ، معروف بصفة مميزة له عن الفقراء . . وهم - أي المساكين - الفقراء من أهل الذّمة الذين فرضت عليهم الجزية . . فهم - والحال كذلك - أشبه بالأرقاء ، المكاتبين ، الذين فرض لهم فى الزكاة

نصيب . . حيث يقول تعالى : « وَفِي الرِّقَابِ » .

وفى يقيننا أنه ليس فى المسلمين مسكين ، وإن كان فيهم الفقير . . لأن المسكين : من المسكنة والذلة والضراعة ، ولا يلبس المسلم - مع الإسلام - ثوب المسكنة والذلة والضراعة أبدا ، وإن عضّه الفقر ، وأضرّ به الضرّ .

وقد ذكر اللّه تعالى فقراء المسلمين ، فقال سبحانه : « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجاهِلُ أَغْنِياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ لا يَسْئَلُونَ النَّاسَ إِلْحافاً »

كما ذكر القرآن الكريم المسكين فى معرض الذلّة والمهانة : « وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً » فهذه الأصناف الثلاثة يحتويها الضعف وتشتمل عليها الذلّة .

ويقول سبحانه وتعالى : « وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ فَكُّ رَقَبَةٍ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ » . .

فقد جمعت الآية بين العبد الرقيق ، واليتيم الفقير ، والمسكين المترب .

(142/340)

وفقير المسلمين ـ كما قلنا ـ لا يكون أبدا على هذا المستوي الإنسانى من الاستكانة ، والذلة ، والضعف . . بل هو من إيمانه باللّه فى عزّة ، وقوّة وإن صفرت يداه من الأصفرين « 1 » ! والذّميون ـ وهم الذين فى يد المسلمين وذمتهم ـ من أهل الكتاب ، فيهم ـ كما فى كل جماعة ـ من هم فى حاجة إلى الصّدقة التي تسدّ مفاقرهم ، وتدفع غائلة الحاجة عنهم . . واللّه سبحانه وتعالى يقول : « لاَ يَنْهاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » . . فإذا جعل الإسلام نصيبا مفروضا فى الزكاة لفقراء أهل الكتاب ، فذلك من البر الذي دعانا اللّه إليه نحوهم . . ثم هو من جهة أخرى حماية للمجتمع الإسلامى الذي يعيشون فيه ، من آثار هذا الداء ـ داء الحاجة والعوز ـ الذي إن سرى فى جماعة أفسدها ، وأشاع الفوضى والقلق والوهن فى كيانها .

« وَالْعامِلِينَ عَلَيْها » وهم الذين يوكل إليهم تحصيل الزكاة من أهل الزكاة . . فهم ـ والحال كذلك ـ مشتغلون بجمعها ، عاملون فى تحصيلها ، ومن ثمّ وجب أن ينالوا نصيبا منها ، يكفل لهم الحياة المناسبة لهم . . حياة تأخذ مكانا وسطا

---

(1) الأصفران : الذهب والفضة . [. . . . .]

بين الفقراء والأغنياء . . إنهم عاملون ، ولا بدّ لكل عامل من أجر فى مقابل ما يعمل . .

« وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ »

وهم الذين دخلوا فى الإسلام من زعماء العرب ، ولم تخلص نياتهم له ، ولم تطب نفوسهم به ، إذ نزع الإسلام عنهم ما كان لهم من سلطان فى قومهم ، وسوّى بينهم وبين عامة الناس . . فهم - والحال كذلك - فى حاجة إلى علاج نفسىّ يزيل ما بينهم وبين الدين الجديد من جفوة . . وفيما كان من تدبير الإسلام فى تألفهم إليه بالمال الذي يخصّهم به دون الناس - فى هذا ما يرضى نوازع السلطان والرياسة عندهم ، وذلك من شأنه أن يقيم نظرهم على الدين الجديد ، وأن يتيح لهم الفرصة لمراجعة حسابهم معه ، فإذا كان ذلك استبانت لهم حقيقة الإسلام ، وعرفوا أي دعوة يدعوهم النبىّ إليها ، وأي خير يقدمه إليهم فى ثنايا الدعوة ، التي تحمل إليهم سعادة الدنيا والآخرة جميعا . .

فهذا المال الذي يتألّف به الإسلام تلك الجماعة التي أعماها حبّها للجاه والسلطان عن أن تنظر فى الدعوة الإسلامية ، وأن تستمع إلى كلمة الحق التي يؤذّن بها الرسول الكريم فى الناس - هذا المال ليس رشوة يقدّمها الإسلام لتلك الجماعة المتأبية عليه ، المزورّة عنه ، حتى تسكت عنه ، ولا تقف فى سبيله - وإنما الذي قصد إليه الإسلام من هذا ، هو أن يروض جماح هذه الجماعة ، ويهدىء من ثائرتها ، ويطفىء من نار حنقها ، وضغنها على

الإسلام ، حتى تستطيع أن تنظر إليه ، وتعرض دعوته على العقل ، بعيدا عن دخان الحقد ، وضبابه . . وبهذا يكون حكم هذه الجماعة على الدين الذي يدعون إليه ، حكما صحيحا ، قائما على النظر ، والتعقل ، والتدبر . .

والإسلام لا يريد من الذين يدعوهم إليه أكثر من هذا . . إنهم يريدهم

(144/340)

على أن ينظروا إليه ، ويتعقلوه ، ويتدبروا آياته . . « فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّما هُمْ فِي شِقاقٍ » (137 : البقرة) . . ذلك أنه ليس من الخير للإنسان فى نفسه أن يدين بدين لا يعرضه على عقله ، وينظر فيه بنفسه ، ويجد فيه داعيا مسمعا يدعوه إليه ، وعاطفة قوية تعطفه عليه . . فإنّ دينا يدخل على الإنسان من غير هذا الطريق - طريق النظر والاقتناع - ، لا يكون له سلطان مؤثّر فى سلوك الإنسان ، وفى انتفاعه بما يحمل هذا الدين من عقيدة أو شريعة . .

هذا ، ويرى كثير من الفقهاء أن نظرة الإسلام إلى هذا الصنف من ضعاف الإيمان الذين تألفهم الإسلام بالعطاء - إنما كان ذلك فى أول الإسلام ، حيث حاجة المسلمين إلى من يكثّر جمعهم ، ويسند ظهرهم من الرجال . . ولكن لمّا قويت شوكة الإسلام ، وكثرت أعداد

المسلمين لم يكن ثمة داع يدعو إلى عملية التأليف هذه ، فقد تبيّن الرشد من الغى . . فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وإن اللّه لغنىّ عن العالمين . .

وعلى هذا ، فقد أسقط القائلون بهذا الرأى فريضة المؤلّفة قلوبهم ، من الزكاة ، بعد أن قوى الإسلام ، كما أسقطوا فريضة من فى الرقاب ، وهم الأرقاء المكاتبون ، بعد أن انتهى الرقّ .

والذي نراه ، أن تأليف القلوب ، وشدها إلى الإسلام ، والعمل على تعاطفها معه ، أمر لازم للدعوة الإسلامية فى حال ضعف المسلمين وقوتهم على السواء .

فتأليف القلوب على الإسلام ، وقتل ضغنها عليه ، وشنآنها له - هو تدبير حكيم ، وسياسة رشيدة ، لا تستغنى عنها دعوة جاءت لهداية الناس ، وخيرهم ، وإسعادهم . .

فهذا التدبير الحكيم من شأنه « أولا » أن يشفى هؤلاء المرضى - مرضى القلوب - من دائهم الذي عزلهم عن الإسلام ، وحجزهم عن الانتفاع به ، والاهتداء بهديه . .

(145/340)

وهو « ثانيا » إذ يجلب للمسلمين قوّة جديدة بإضافة هؤلاء المؤلفة قلوبهم إليه ، يدفع عن الإسلام والمسلمين شرّا كان يتربص به ، وعداوة كانت تتحين الفرص للنيل منهم .

وإذن ، فتأليف القلوب على الإسلام ، وسلّ السخائم والأضغان عليه منها ، أمر ينبغى أن يكون من سياسة الإسلام دائما ، ومن عمل المسلمين ، فى كل حال ممكنة لهم ، سواء أكان ذلك بالمال أم بغيره مما يتألف الناس ، ويسلك بهم مسالك الخير ، ويقيمهم على طريق الهدى . . وإن دعوة الإسلام فى صميمها لتقوم على هذا الأساس المتين . . وقوله تعالى لنبيه الكريم : « ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » هو المفتاح الذي وضعته السماء فى يد النبىّ ليفتح به مغالق القلوب ، وليتألفها به ، ويستولى على مواطن الاطمئنان منها .

وبهذا المفتاح نفسه يستطيع دعاة المسلمين أن ينفذوا بدعوة الإسلام إلى الصميم من القلوب ، وإنه لا بأس من أن يرفدوا ذلك بما يرون من بر وإحسان لمن يدخلون فى الإسلام ، ليطعموا من ثمر الأخوة الإسلامية ، وليفيئوا منها إلى ظل ظليل .

« وَفِي الرِّقابِ » .

وهم الأرقاء الّذين كاتبهم مالكو رقابهم على قدر من المال ، فى مقابل تخليصهم من الرّق . فهؤلاء الأرقاء أعضاء ضعيفة ، فى جسم المجتمع . . وإنه لكى لا يشيع الضعف فى هذا الجسم ، ولكى يكون على أحسن ما يمكن من الصحة والسلامة ، يجب أن يعمل على

تخليصه من دواعى الضعف التي ألمت به ، لا باستئصال هذه الأعضاء الضعيفة ، كما تدعو إلى ذلك بعض المذاهب المادية ، ولكن بالطبّ لها من دائها ، وتصحيح آدميتها ، ونظمها فى سلك الآدميين .

وسنعرض بعد شرح هذه الآية لموقف الإسلام من الرق ، وسياسته فى تخليص الأرقاء . . إن شاء اللّه . .

(146/340)

« وَالْغارِمِينَ » وهم المدينون ، الذي رهقهم الدين ، ولم تكن لهم موارد يؤدون منها الدين . . فهذه الجماعة التي ركبها الدين ، هى فى معرض الضّياع ، أو الانحلال ، أو الفساد ، إن لم تجد يدا رحيمة تمسك بها ، وترفع عن كاهلها هذا العبء الثقيل . . الذي هو همّ بالليل ومذلة بالنّهار .

وفى تسمية المدينين بالغارمين ، إشارة إلى أن الدّين أيا كان هو غرم واقع على صاحبه . . لأنه يحمّل المدين عبئا إلى العبء الذي كان يحمله ، من ضيق ذات اليد قبل أن يستدين ، فهو حين استدان ، قد وضع فى يده غلّا جديدا ، وأضاف على كاهله حملا فوق حمل . وأن هذا اليسر الذي وجده بعد أن استدان لم يكن إلا أمرا عارضا لا يلبث أن يزول ،

ويعود الحال به إلى ما كان عليه ، بل وأسوأ مما كان عليه .

فالدّين غرم . . هكذا يجب أن تكون نظرة المدين إليه ، فلا يقدم عليه إلا عند الاضطرار ، وإن أقدم عليه فلا يستدين إلا بقدر ما يدفع الحاجة الملحّة التي تبرّر له مدّ يده للاستدانة !

ومن جهة أخرى . . فإن الإسلام إذ وصف الدين بتلك الصفة ، وجعله غرما على المدين لا غنما له . فإنه من جهة أخرى حبّب إلى أصحاب الغنى واليسار أن يقرضوا المعسرين من إخوانهم ، حتى يحموهم من التعامل بالرّبا . . كما دعا المدينين إلى قضاء دينهم عند أول فرصة تمكنهم من قضائه . . وفى هذا يقول الرسول الكريم : « مطل الغنىّ ظلم » . .

وقد عرضنا لذلك عند تفسير آية الدّين فى سورة البقرة « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا تَدايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ . . الآية » .

وفى نظرة الإسلام إلى « الْغارِمِينَ » وفرض نصيب لهم فى الصّدقات ، سياسة حكيمة ، وتدبير محكم ، يريد به الإسلام أن يصحح أوضاع المجتمع الإسلامى ، ويقضى على العلل التي تنجم فيه ، قبل أن تعظم وتستشرى . .

فالمدين الغارم - وهو أشبه بالمفلس - إذا ترك وشأنه ، وتلك حاله - لم يستطع الوفاء بقضاء دينه . . وينشأ عن هذا أمور :

منها ضياع مال الدائن ، الذي خفّ متطوّعا لإنقاذ المدين ، والأخذ بيده فى ساعة العسرة . .

والدائن إنما عمل خيرا ، ومن حقّه أن ينتظر خيرا لما فعل . . فإذا جاءت عاقبة أمره مع المدين على تلك الصورة ، ضاقت نفسه بفعل الخير بعد هذا ، وكره أن يدخل فى تجربة جديدة كتلك التجربة . .

والإسلام حريص على إشاعة المعروف بين النّاس ، وتبادل الإحسان بين أفرادهم وجماعاتهم . . وموقف كهذا الموقف يقبض يد الناس عن الإحسان ، ويزهدهم فيه .

ومنها : أن المدين نفسه ، إذا ما وصلت به الحال إلى اليأس من قضاء دينه ، صغرت نفسه بين الناس ، وخفّ ميزانه فيهم . . ثم لا يلبث حتى ينعكس ذلك على نظرته هو إلى نفسه . . ثم يصبح وإذا هو إنسان ساقط المروءة ، متعثر الخطا ، مضطرب الحياة ، ضائع الوجود .

وإذ فرض الإسلام نصيبا من الزكاة ، أو بمعنى آخر من بيت المال ، ورصده لقضاء دين المدينين المفلسين ، فإنّه حمى بذلك الدائن والمدين جميعا . . وأبقى على مشاعر البرّ والإحسان بين النّاس ، وقطع دواعى الشحناء والعداوة بينهم .

هذا ، وقد رأى بعض الفقهاء أن يقيّد الدّين هنا بحيث لا يكون قد استدين للإنفاق منه فى حرام ، أو فى سرف وتبذير . .

ولا نرى حكمة لهذا القيد الذي يرد على الآية فى إطلاقها ، فيضيق دائرة نفعها ، ويحجز خيرها المطلق ، ورحمتها الواسعة عن أن تنال كل غارم مشرف على الهلاك والضياع . .

إن الحكم القرآنى - هنا - يواجه حالا واقعة ، ويداوى علّة قائمة ، ويستنفذ غريقا مشرفا على الغرق . .

وإذ كان الأمر على تلك الصفة ، فإنه ليس من الحكمة ، ولا من المنطق أن يقلّب الإسلام صفحات هذا الإنسان ، ويستعرض تاريخه . . ثم ليحكم أهو أهل لأن يمدّ إليه يده فينقذه ، أم يدعه حيث هو ليلقى مصيره المحتوم . .

(148/340)

وكلا . . فإن المطلوب ، أولا ، هو إنقاذ هذا الإنسان ، دون نظر إلى أي اعتبار آخر . .

فإذا أنقذ ، كان من الممكن أن ينصح له ، وكان من المرجوّ له أيضا أن ينتصح ، وأن يتقبل هذا الإحسان الذي يجىء إليه فى صورة هداية وتبصرة له ، بعد أن تلقّى هذا الإحسان الذي أمسك عليه حياته ، وأنقذه من وطأة الدين الذي أنقض ظهره ! وأكثر من هذا ، فإن

الإسلام ، تكفّل - من بيت المال - بقضاء دين المدينين ، ممن يتوفّون ، وليس فى تركتهم ما يقضى دينهم . .

يقول الرسول الكريم : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم . . من مات وعليه دين فأنا وليّه . . ومن مات وله مال فماله لورثته ! » هذا شىء رائع معجز . . لا يمكن أن يقع فى حساب تشريع وضعىّ ، مهما بلغ من المثاليّة والإحكام . . وإنما هو ممّا تجىء به السّماء من رحماتها وبركاتها .

وإنه بحسب الإسلام أن يقدّم للإنسانية هذه اللفتة الرائعة من لفتاته فى بناء المجتمع ، وحياطة بنيانه من دواعى التصدّع والتشقق . . فتلك نظرة من نظراته النافذة إلى الصميم من حياة المجتمع ، لا تستطيع الشرائع الوضعية فى أعمق نظراتها أن تحوم حولها .

« وفى سبيل اللّه » .

المراد بسبيل اللّه هنا ، ما ينفق من مال الصدقات فى تجهيز المجاهدين فى سبيل اللّه ، وفى إمدادهم بالعتاد والسلاح والمؤن وغيرها ، مما يعين المجاهدين على الجهاد ، لتأمين المجتمع ، وحمايته من عدوان المعتدين . .

« وابن السبيل » . .

وهو المسافر ، المنقطع عن أهله . . ولا زاد معه . .

والمسافر الذي على تلك الصفة ، هو إنسان فى معرض الضياع والهلاك ، إن لم يجد اليد

الرحيمة التي تمتد إليه بالبر والإحسان ، فتدفع عنه عادية الجوع التي تهجم عليه ، وتريد اغتياله . .

(149/340)

وفى جعل بيت المال هو الذي يقوم بهذا الأمر ، ويتولّى رعاية أبناء السبيل - فى هذا ضمان موثّق لحماية هذه الطائفة ، إذ كان بيت المال بموارده الكثيرة ، أقدر على كفالة هذه الجماعة ، وتوفير أسباب الحماية لها . . ثم هو - من جهة أخرى - صيانة لكرامة الإنسان ، من أن يمدّ يده إلى غيره من الناس ، أو أن يستشعر أنه عالة على أحد . . الأمر الذي عافاه اللّه منه ، إذ جعل إلى « بيت المال » كفالة هذا الإنسان ، والبرّ به ، والإحسان إليه . .

ومن جهة أخرى . . فإن الإسلام قد نظر نظرة أوسع من هذا ، فلم يجعل إلى بيت المال وحده ، القيام بهذا الواجب حيال أبناء السبيل . . فقد يكون ابن السبيل فى مكان لا تصل إليه يد « بيت المال » . . وقد يكون « بيت المال » ولا مال فيه يتّسع للوفاء بحاجة المحتاجين من أبناء السبيل .

ومن أجل هذا ، فقد فرض الإسلام على المسلمين جميعا ، القيام بهذا الواجب إذا عرض لهم ، وطلع عليهم ابن سبيل أو أبناء سبيل ! روى البخاري ومسلم ، عن عقبة بن عامر

قال : قلنا يا رسول اللّه ، تبعثنا « 1 » فننزل بقوم فلا قروننا « 2 » ، فما ترى فى ذلك ؟

فقال ـ صلى اللّه عليه وسلم :

« إذا نزلتم بقوم فأمروا لكم ما ينبغى للضيف فاقبلوا منهم ، وإن لم يفعلوا فخذوا منهم حق الضيف الذي ينبغى لهم « 3 » » .

وعنه صلى اللّه عليه وسلم قال : « أيما مسلم ضاف قوما فأصبح الضيف محروما ، فإن حقّا على كل مسلم نصره ، حتى يأخذ بقرى ليلته . . من زرعه أو ماله . »

وعن أبى كريمة ، أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : « ليلة الضيف واجبة على كل مسلم ، فإن أصبح بفنائه محروما كان دينا عليه ، فإن شاء اقتضاه « 4 » ، وإن شاء تركه ! » .

فإلى هذا الحدّ تبلغ عناية الشريعة الإسلامية ورعايتها للفقراء ، والضعفاء ،

---

(1) أي فى سبيل اللّه .

(2) أي فلا يقدمون لنا ما يقدم للضيف .

(3) أي الذي ينبغى للضيوف .

(4) اقتضاه : أي أخذه الضيف منه .

فى المجتمع الإسلامى ، حتى لتجعل فرضا على كل مسلم نزل به ابن سبيل ، أن يجعله ضيفا عليه ، وأن يقدّم إليه من البشاشة والرعاية والإكرام ما يقدّم للضيف العزيز ، دون منّ أو أذى ، ودون ضيق أو تكره . . وفى تسمية ابن السبيل ضيفا ، رعاية لهذا الواجب الذي ينبغى للمضيف أن يؤديه له ، وصيانة لابن السبيل من أن ينظر إليه ، أو ينظر هو إلى نفسه نظرة المتطفل . . وكلا إنه صاحب حق ، وهو إذ ينزل بأحد المسلمين ، فإنما ليستقضى حقّه عنده ! فأين فى دنيا الناس ، هذا المجتمع الذي ينزل فيه الفقير والمسكين منزلة الضيف العزيز المكرم ؟ إن ذلك لن يكون إلا فى المجتمع الإسلامى ، الذي يحفظ شريعة الإسلام ، ويقيم سلوكه عليها ! ! « فريضة من اللّه » .

أي هذا التشريع الذي شرعه اللّه فى أموال الأغنياء ، ثم ردّ هذه الأموال على تلك الجهات ، التي بينها اللّه سبحانه وتعالى فى الآية الكريمة . هذا التشريع ، هو فرض محكم فرضه اللّه على المسلمين ، وأوجب عليهم أداءه ، على هذا الوجه الذي شرعه .

« وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » .

أي أن هذا التشريع الذي شرعه اللّه سبحانه وتعالى ، هو مما قضى به علمه وحكمته . . علمه الذي يحيط بكل شىء ، وينفذ إلى كل شىء ، ويستولى على كل شىء . . وحكمته المقدّرة لكل أمر ، المحكمة لكل تدبير . .

فليس بعد قضاء اللّه قضاء ، ولا بعد تدبيره تدبير ، ولا وراء حكمه حكم . .

من أخذ به اهتدى وأمن ، وسعد ، ومن عدل عنه ، ضلّ وخاب وشقى ! . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ التفسير القرآني للقرآن حـ 5 صـ 806.820 ﴾

(151/340)

وقال صاحب المنار :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

لَمَّا كَانَ طَمَعُ الْبَشَرِ فِي الْمَالِ لَا حَدَّ لَهُ ، وَقَدْ يَكُونُ الْغَنِيُّ أَشَدَّ طَمَعًا فِيهِ مِنَ الْفَقِيرِ ، وَكَانَ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ لَا يُرْضِيهِ قِسْمَةُ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ لَهُ إِذَا لَمْ يُعْطِهِ مَا يُرْضِي طَمَعَهُ ، وَكَانَ غَيْرُ الْمَعْصُومِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ ، وَمِنَ الْأَغْنِيَاءِ عُرْضَةً لِاتِّبَاعِ الْهَوَى فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ ، بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى مَصَارِفَهَا بِنَصِّ كِتَابِهِ فَقَالَ :

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ هَذِهِ الْآيَةُ نَاطِقَةٌ بِوُجُوبِ قَصْرِ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ ، وَهِيَ زَكَاةُ النُّقُودِ عَيْنًا أَوْ تِجَارَةً وَالْأَنْعَامِ وَالزَّرْعِ وَالرِّكَازِ وَالْمَعْدِنِ عَلَى الْأَصْنَافِ السَّبْعَةِ أَوِ الثَّمَانِيَةِ الْمَنْصُوصَةِ فِيهَا دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَهِيَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمَزَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَعْدَ إِعْطَائِهِمْ مِنْهَا - وَهُمْ لَيْسُوا مِنْهُمْ - وَقَاطِعَةٌ لِأَطْمَاعِ أَمْثَالِهِمْ . وَ"

اللَّامُ " فِي قَوْلِهِ : (لِلْفُقَرَاءِ) لِلْمِلْكِ وَلِلِاسْتِحْقَاقِ ، أَوْ بِتَقْدِيرِ مَفْرُوضَةٌ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي آخِرِ الْآيَةِ : فَرِيضَةً مِنَ اللهِ وَسَيَأْتِي حُكْمُ سَائِرِ الْمَعْطُوفَاتِ .

(152/340)

وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ عَلَى أَنَّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ صِنْفَانِ مُسْتَقِلَّانِ ، وَقَدِ اخْتَلَفُوا فِي تَعْرِيفِ كُلٍّ مِنْهُمَا بِمَا ذَهَبَ بِهِ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا وَأَشَدُّ حَاجَةً مِنَ الْمِسْكِينِ ، وَبَعْضُهُمْ إِلَى الْعَكْسِ ، وَجَعَلُوا ذَلِكَ مِنْ تَقَالِيدِ الْمَذَاهِبِ الَّتِي يَتَعَصَّبُ لَهَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ .

وَيَرَى بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُسْتَقِلِّينَ أَنَّهُمَا قِسْمَانِ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ يَخْتَلِفَانِ بِالْوَصْفِ لَا بِالْجِنْسِ وَهُوَ الْمُخْتَارُ لَنَا ، وَلَمْ يَجْمَعِ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ بَيْنَهُمَا إِلَّا فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَيَكْفِي مِنْ دَلَالَةِ الْعَطْفِ فِيهَا عَلَى الْمُغَايَرَةِ مَا اخْتَرْنَاهُ فِي تَغَيُّرِهِمَا فِي الْوَصْفِ . فَالْفَقِيرُ فِي اللُّغَةِ خِلَافُ الْغَنِيِّ وَمُقَابِلُهُ مُقَابَلَةَ التَّضَادِّ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا (4 : 135) وَقَوْلُهُ : وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ (4 : 6) وَقَوْلُهُ : إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ (24 : 32) وَالْغَنِيُّ الْمُطْلَقُ هُوَ اللهُ تَعَالَى ، وَكُلُّ عِبَادِهِ فَقِيرٌ إِلَيْهِ كَمَا قَالَ : وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ (47 : 38) وَأَمَّا فَقْرُ النَّاسِ بَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ فَهُوَ أَمْرٌ نِسْبِيٌّ ، فَمَا مِنْ غَنِيٍّ إِلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّنْ فَوْقَهُ وَمِمَّنْ دُونَهُ

أَيْضًا ، وَلَكِنَّ ذِكْرَ الْفَقِيرِ فِي مُقَابَلَةِ الْغَنِيِّ أَوْ إطْلَاقَ ذِكْرِهِ ، يَدُلُّ عَلَى الْمُحْتَاجِ فِي مَعِيشَتِهِ إلَى مُوَاسَاةِ غَيْرِهِ ؛ لِعَدَمِ

(153/340)

وُجُودِ مَا يَكْفِيهِ بِحَسَبِ حَالِهِ ، وَيُطْلَقُ الْفَقِيرُ فِي اللُّغَةِ عَلَى الْكَسِيرِ الْفَقَارِ وَمَنْ يَشْتَكِي فَقَارَهُ – وَهِيَ جَمْعُ فَقْرَةٍ وَفَقَارَةٌ (بِفَتْحِهِمَا) عِظَامُ الظَّهْرِ الْمَنْضُودَةُ مِنْ لَدُنِ الْكَاهِلِ إلَى عَجْبِ الذَّنَبِ فِي الصُّلْبِ – وَهَذَا هُوَ الْمَعْنَى الْأَصْلِيُّ ، وَالْمَعْنَى الْأَوَّلُ مَأْخُوذٌ مِنْهُ ، كَمَا قِيلَ : وَمِنْهُ الْفَاقِرَةُ وَهِيَ الدَّاهِيَةُ أَوِ الْمُصِيبَةُ الَّتِي تَكْسِرُ فَقَارَ الظَّهْرِ .

وَأَمَّا الْمِسْكِينُ فَمَأْخُوذٌ مِنْ مَادَّةِ السُّكُونِ الْمُرَادِ بِهِ قِلَّةُ الْحَرَكَةِ وَالِاضْطِرَابِ الْحِسِّيِّ مِنَ الضَّعْفِ وَالْعَجْزِ ، أَوِ النَّفْسِيِّ مِنَ الْقَنَاعَةِ وَالصَّبْرِ ، وَإِنَّمَا يُطْلَقُ عَلَى الْفَقِيرِ إذَا كَانَ الْفَقْرُ سَبَبَ سُكُونِهِ . قَالَ فِي الصِّحَاحِ : الْمِسْكِينُ الْفَقِيرُ وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى الذِّلَّةِ وَالضَّعْفِ اهـ .

(154/340)

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ الْفَقِيرُ الْقَانِعُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ ، وَقِيلَ خِلَافُ ذَلِكَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى . وَقَالُوا : إنَّ لَفْظَ الْمِسْكِينِ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الذَّلِيلِ وَالضَّعِيفِ ، وَبِمَعْنَى الْمُتَوَاضِعِ الْمُخْبِتِ ، وَالْخَاشِعِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَمُقَابِلُهُ الْجَعْظَرِيُّ الْجَوَّاظُ الْمُتَكَبِّرُ ، وَيُقَالُ : سَكَنَ الرَّجُلُ وَتَسَكَّنَ وَتَمَسْكَنَ إذَا صَارَ مِسْكِينًا . وَلَكِنَّ صِيغَةَ تَمَسْكَنَ يَدُلُّ عَلَى تَكَلُّفِ الْمَسْكَنَةِ وَمُحَاوَلَتِهَا بِالتَّخَلُّقِ وَالتَّعَوُّدِ . وَقَالَ اللِّحْيَانِيُّ : تَمَسْكَنَ لِرَبِّهِ : تَضَرَّعَ . وَفِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : " اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَتَوَفَّنِي مِسْكِينًا ، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ " رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَصَحَّحَهُ وَأَقَرَّهُ الذَّهَبِيُّ وَلَكِنْ ضَعَّفَهُ النَّوَوِيُّ ، وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ بِسَنَدٍ ضَعِيفٍ . وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : إنَّهُ مَوْضُوعٌ وَخَطَّأَهُ السُّيُوطِيُّ ، وَفِيهِ زِيَادَةٌ عِنْدَ الْحَاكِمِ ، وَأُخْرَى عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفَقْرِ ، وَقَدِ امْتَنَّ عَلَيْهِ رَبُّهُ بِقَوْلِهِ : وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى (93 : 8) فَلَا يُعْقَلُ هَذَا أَنْ يَسْأَلَهُ أَشَدَّ الْفَقْرِ ، وَقَدْ عَاشَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكْفِيًّا وَمَاتَ مَكْفِيًّا .

(155/340)

وَقَالَ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ : وَالْمِسْكِينُ مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ أَوِ الْفَقِيرُ الْمُحْتَاجُ . وَالْمِسْكِينُ مَنْ أَذَلَّهُ الْفَقْرُ أَوْ غَيْرُهُ مِنَ الْأَحْوَالِ اهـ . قَالَ شَارِحُهُ قَالَ ابْنُ عَرَفَةَ : فَإِذَا كَانَتْ مَسْكَنَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْفَقْرِ حَلَّتْ لَهُ الصَّدَقَةُ ، وَكَانَ فَقِيرًا مِسْكِينًا ، وَإِذَا كَانَ مِسْكِينًا قَدْ أَذَلَّهُ سِوَى الْفَقْرِ فَالصَّدَقَةُ لَا تَحِلُّ لَهُ ؛ إِذْ كَانَ شَائِعًا فِي اللُّغَةِ أَنْ يُقَالَ : ضُرِبَ فُلَانٌ الْمِسْكِينُ وَظُلِمَ الْمِسْكِينُ – وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الثَّرْوَةِ وَالْيَسَارِ – وَإِنَّمَا لَحِقَهُ اسْمُ الْمِسْكِينِ مِنْ جِهَةِ الذِّلَّةِ ، فَمَنْ لَمْ تَكُنْ مَسْكَنَتُهُ مِنْ جِهَةِ الْفَقْرِ فَالصَّدَقَةُ عَلَيْهِ حَرَامٌ اهـ .

فَعُلِمَ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنَّ الْفَقِيرَ فِي اللُّغَةِ الْمُحْتَاجُ ، وَهُوَ ضِدُّ الْغَنِيِّ أَيِ الْمَكْفِيِّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ ، مِنَ الْغَنَاءِ (بِالْفَتْحِ) وَهُوَ الْكِفَايَةُ ، وَأَنَّ الْمِسْكِينَ وَصْفٌ مِنَ السُّكُونِ

(156/340)

يُوصَفُ بِهِ الْفَقِيرُ وَغَيْرُهُ . وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ : هَلْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا وَأَشَدُّ حَاجَةً مِنَ الْفَقِيرِ أَوْ أَحْسَنُ كَمَا تَقَدَّمَ ؟ وَيُقَالُ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ زِيَادَةٌ عَمَّا قُلْنَاهُ فِي الْحَدِيثِ آنِفًا : إِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمِسْكِينُ فِي الْآيَةِ صِنْفًا مُسْتَقِلًّا مُبَايِنًا لِلْفَقِيرِ ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ أَخَصَّ مِنْهُ ؛ لِأَنَّ الْمَسْكَنَةَ فِيهِ وَصْفٌ لِلْفَقِيرِ ، كَمَا ذَكَرَ الْوَجْهَيْنِ ابْنُ عَرَفَةَ وَغَيْرُهُ ، فَإِنْ كَانَ صِنْفًا مُسْتَقِلًّا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ فَقِيرٍ ؛ لِأَنَّ وَصْفَ الْمَسْكَنَةِ فِيهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِسَبَبِ فَقْرِهِ بَلْ

بِتَوَاضُعِهِ وَأَدَبِهِ مَثَلًا ، كَمَا هُوَ الْمُرَادُ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ آنِفًا ، فَكَيْفَ يَكُونُ أَسْوَأَ مِنَ الْفَقِيرِ فِي شِدَّةِ الْحَاجَةِ الَّتِي يَسْتَحِقُّ بِهَا الصَّدَقَةَ ؟ وَإِنْ كَانَ أَخَصَّ مِنَ الْفَقِيرِ بِوَصْفِ الْمَسْكَنَةِ الَّتِي كَانَ سَبَبُهَا الْفَقْرَ ، فَلَا يَظْهَرُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَا شِدَّةَ الْفَقْرِ وَسُوءَ الْحَالِ فِيهِ ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ الْفُقَرَاءِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُغْنِي عَنْ ذِكْرِ الْمَسَاكِينِ ؛ لِأَنَّهُ يَشْمَلُهُمْ بِعُمُومِهِ لَهُمْ ، وَيَكُونُ اسْتِحْقَاقُ الشَّدِيدِ الْفَقْرِ لِلصَّدَقَةِ أَوْلَى مِنِ اسْتِحْقَاقِ مَنْ دُونَهُ فِيهِ . فَلَا يَصِحُّ فِي الْكَلَامِ الْبَلِيغِ أَنْ يُقَالَ : أَعْطِ هَذِهِ الصَّدَقَةَ

(157/340)

أَوْ أَطْعِمْ هَذَا الطَّعَامَ لِلْفُقَرَاءِ وَلِأَشَدِّ النَّاسِ فَقْرًا ؛ لِأَنَّ ذِكْرَ أَشَدِّهِمْ فَقْرًا بَعْدَ ذِكْرِ الْفُقَرَاءِ يَكُونُ لَغْوًا ، إلَّا أَنْ يُرَادَ بِهِ الْإِضْرَابُ عَمَّا قَبْلَهُ ، وَحِينَئِذٍ يُقَالُ : بَلْ لِأَشَدِّهِمْ فَقْرًا ، وَلَا يَظْهَرُ هُنَا إرَادَةُ التَّأْكِيدِ لِلِاهْتِمَامِ ، فَتَرَجَّحَ أَوْ تَعَيَّنَ أَنْ يُرَادَ بِالْمَسَاكِينِ مَنْ جَعَلَتْهُمْ مَسْكَنَةُ الْفَقْرِ أَقَلَّ اضْطِرَابًا فِيهِ ، وَأَكْثَرَ تَجَمُّلًا وَسُكُونًا لِخِفَّتِهِ عَلَيْهِمْ وَعَدَمِ وُصُولِهِ بِهِمْ إلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي لَا تُطَاقُ ، وَلَا يُمْكِنُ إخْفَاؤُهَا بِالتَّجَمُّلِ ، وَلَا يُرَدُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (90 : 16) لِأَنَّ شِدَّةَ الْحَاجَةِ الْمُلْصِقَةِ بِالتُّرَابِ لَا تُنَافِي التَّجَمُّلَ وَالتَّعَفُّفَ . وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلَا اللُّقْمَةُ

وَاللُّقْمَتَانِ ، إنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ : لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا (2 : 273) وَفِي لَفْظٍ : " وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ فَيُتَصَدَّقُ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ " وَالْحَدِيثُ بِلَفْظَيْهِ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِيمَا اخْتَرْنَاهُ . وَإِنَّمَا أَطَلْنَا فِي الْمَسْأَلَةِ ؛ لِتَفْنِيدِ مَا أَطَالَهُ فِيهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ .

(158/340)

فَالْفُقَرَاءُ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهَا بِفَقْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ فِي آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (2 : 271) وَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا (2 : 273) وَكَمَا قَالَ فِي مَالِ الْفَيْءِ مِنْ سُورَةِ الْحَشْرِ : مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (59 : 7) إلَى آخِرِ الْآيَةِ . ثُمَّ خَصَّ الْمَسَاكِينَ مِنَ الْفُقَرَاءِ بِالذِّكْرِ ؛ لِأَنَّهُمْ رُبَّمَا لَا يُفْطَنُ لَهُمْ لِتَجَمُّلِهِمْ .

(159/340)

وَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِمُعَاذٍ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ وَالِيًا وَقَاضِيًا : " إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدِ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وَكَرَائِمُ أَمْوَالِ النَّاسِ خِيَارُهَا وَنَفَائِسُهَا الَّتِي تَضِنُّ النَّفْسُ بِهَا ، فَلَا يَجُوزُ لِلْحُكَّامِ وَالْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ أَخْذُهَا فِي الصَّدَقَةِ لِتُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ ، وَلَا بِالرِّشْوَةِ الْمُحَرَّمَةِ بِالْأَوْلَى . وَالْمَسَاكِينُ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الْفُقَرَاءِ فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَأَمْثَالِهِ كَالْآيَاتِ لُغَةً ، وَحَيْثُ يُذْكَرُ الْمِسْكِينُ أَوْ الْمَسَاكِينُ فِي الْقُرْآنِ يُرَادُ بِهِ مَا يَعُمُّ الْفُقَرَاءَ بِالتَّغْلِيبِ أَوْ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى ؛ إذْ وَرَدَ ذَلِكَ فِي الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ بِهِمْ ، وَفِي كَفَّارَاتِ الظِّهَارِ وَالْيَمِينِ وَصَيْدِ الْحَرَمِ وَالْغَنَائِمِ وَصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ ، فَهُمَا صِنْفَانِ لِجِنْسٍ أَوْ نَوْعٍ وَاحِدٍ مِنَ

الْمُسْتَحِقِّينَ . وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ عُمُومًا وَخُصُوصًا وَجْهَيْنِ فِي اللُّغَةِ ، وَعُمُومًا وَخُصُوصًا مُطْلَقًا فِي اسْتِعْمَالِ الشَّرْعِ لِلَفْظَيْنِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ الْجَامِعَةِ بَيْنَهُمَا ، وَحَيْثُ يُذْكَرُ أَحَدُهَا وَحْدَهُ يُرَادُ بِهِ مَا يَعُمُّ الْآخَرَ ، فَاللَّفْظَانِ مُخْتَلِفَانِ فِي مَفْهُومِهِمَا ، مُتَّحِدَانِ فِيمَا يَصْدُقَانِ عَلَيْهِ ، وَمَا يُعْطَاهُ الْفَقِيرُ وَالْمِسْكِينُ مِنَ الصَّدَقَةِ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَحْوَالِ ، وَمِقْدَارِ الْمَالِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالْمُسْلِمِينَ بِخِلَافِ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ .

(161/340)

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا أَيِ : الَّذِينَ يُوَلِّيهِمُ الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ الْعَمَلَ عَلَى جَمْعِهَا مِنَ الْأَغْنِيَاءِ وَهُمُ الْجُبَاةُ ، وَعَلَى حِفْظِهَا وَهُمُ الْخَزَنَةُ ، وَكَذَا الرُّعَاةُ لِلْأَنْعَامِ مِنْهَا ، وَالْكَتَبَةُ لِدِيوَانِهَا ، وَيَجِبُ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، يُقَالُ : كَانَ فُلَانٌ عَامِلَ الْإِمَامِ أَوِ السُّلْطَانِ عَلَى بَلَدِ كَذَا أَوْ عَلَى الزَّكَاةِ أَوِ الْخَرَاجِ ، وَفِي الْأَسَاسِ : وَيُقَالُ : مَنِ الَّذِي عُمِّلَ (بِالتَّشْدِيدِ وَالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ) عَلَيْكُمْ ؟ أَيْ : نُصِّبَ عَامِلًا عَلَيْكُمْ اهـ . وَقَالَ فِي أَوَّلِ الْمَادَّةِ : تَقُولُ : أَعْطِ الْعَامِلَ عُمَالَتَهُ ، وَوَفِّهِ جُعَالَتَهُ ، وَهُوَ بِالضَّمِّ فِيهِمَا جَزَاءُ الْعَمَلِ وَأُجْرَتُهُ الْمُعَيَّنَةُ . وَقَالَ الْجَوْهَرِيُّ : رِزْقُ الْعَامِلِ عَلَى عَمَلِهِ ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي الْعَامِلِ عَلَى الصَّدَقَاتِ أَنْ يَكُونَ مُسْتَحِقًّا لِلصَّدَقَةِ بِفَقْرِهِ مَثَلًا ، وَلَكِنْ إِنْ وُجِدَ مَنْ هُوَ أَهْلٌ لِلْعَمَلِ مِنَ الْمُسْتَحِقِّينَ يَكُونُ أَوْلَى مِنْ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا عُمَالَتُهُ عَلَى

عَمَلِهِ لَا عَلَى فَقْرِهِ ، فَإِنْ لَمْ تَكْفِهِ كَانَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ بِفَقْرِهِ مَا يَأْخُذُهُ أَمْثَالُهُ ، وَإِنْ كَانَتْ زَائِدَةً عَلَى حَاجَتِهِ أَوْ كَانَ غَيْرَ مُحْتَاجٍ فَلَهُ أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا وَيُهْدِيَ وَيَتَصَدَّقَ ، وَقَدْ تَجِبُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ بِمَا يَأْخُذُهُ مِنْهَا بِشُرُوطِهَا مِنَ النِّصَابِ وَالْحَوْلِ ، وَقَدْ يَسْتَغْنِي عَنْهُ فَيَسْقُطُ سَهْمُهُ .

(162/340)

وَلَا تَجُوزُ الْعُمَالَةُ لِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ مِنْ آلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ بِالِاتِّفَاقِ ، وَكَذَا بَنُو الْمُطَّلِبِ ، وَدَلِيلُهُ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ وَالْمُطَّلِبَ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَأَلَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُؤَمِّرَهُمَا عَلَى الصَّدَقَاتِ بِالْعُمَالَةِ كَمَا يُؤَمِّرُ النَّاسَ ، فَقَالَ لَهُمَا : " إنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَلَا لِآلِ مُحَمَّدٍ ، إنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ " وَفِي لَفْظٍ " لَا تَنْبَغِي " بَدَلَ " لَا تَحِلُّ " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ .

وَرَوَى أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ عَنْ بُسْرِ بْنِ سَعِيدٍ أَنَّ ابْنَ السَّعِيدِ الْمَالِكِيَّ قَالَ : اسْتَعْمَلَنِي عُمَرُ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا فَرَغْتُ مِنْهَا وَأَدَّيْتُهَا إلَيْهِ أَمَرَ لِي بِعُمَالَةٍ . فَقُلْتُ إنَّمَا عَمِلْتُ لِلَّهِ . فَقَالَ : خُذْ مَا أُعْطِيتَ ، فَإِنِّي عَمِلْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَعَمَّلَنِي فَقُلْتُ مِثْلَ قَوْلِك ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - : إذَا أُعْطِيتَ شَيْئًا مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَ فَكُلْ وَتَصَدَّقْ .

وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أَيِ : الْجَمَاعَةُ الَّذِينَ يُرَادُ تَأْلِيفُ قُلُوبِهِمْ بِالِاسْتِمَالَةِ إلَى الْإِسْلَامِ أَوِ التَّثَبُّتِ

(163/340)

فِيهِ ، أَوْ بِكَفِّ شَرِّهِمْ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ رَجَاءِ نَفْعِهِمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْهُمْ ، أَوْ نَصْرِهِمْ عَلَى عَدُوٍّ لَهُمْ ، لَا فِي تِجَارَةٍ وَصِنَاعَةٍ وَنَحْوِهِمَا . فَإِنَّ مَنْ يَرَى أَنَّ مُخَالِفَهُ فِي الدِّينِ مَصْدَرُ نَفْعٍ لَهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَادَّهُ ، فَإِنْ لَمْ يُوَادَّهُ لَمْ يُحَادَّهُ كَالْعَدُوِّ الَّذِي يَخْشَى ضَرَرَهُ وَلَا يَرْجُو نَفْعَهُ .

وَذَكَرَ الْفُقَهَاءُ أَنَّ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ قِسْمَانِ : كُفَّارٌ وَمُسْلِمُونَ . وَالْكُفَّارُ ضَرْبَانِ ، وَالْمُسْلِمُونَ أَرْبَعَةٌ ، فَمَجْمُوعُ الْفَرِيقَيْنِ سِتَّةٌ ، وَهَذَا بَيَانُهُمْ بِالتَّفْصِيلِ وَالِاخْتِصَارِ : (الْأَوَّلُ) قَوْمٌ مِنْ سَادَاتِ الْمُسْلِمِينَ وَزُعَمَائِهِمْ لَهُمْ نُظَرَاءُ مِنَ الْكُفَّارِ إذَا أُعْطُوا رُجِيَ إسْلَامُ نُظَرَائِهِمْ ، وَاسْتَشْهَدُوا لَهُ بِإِعْطَاءِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لِعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ وَالزِّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرٍ مَعَ حُسْنِ إسْلَامِهِمَا لِمَكَانَتِهِمَا فِي أَقْوَامِهِمَا .

(الثَّانِي) زُعَمَاءُ ضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، مُطَاعُونَ فِي أَقْوَامِهِمْ يُرْجَى بِإِعْطَائِهِمْ تَثَبُّتُهُمْ ، وَقُوَّةُ إيمَانِهِمْ وَمُنَاصَحَتُهُمْ فِي الْجِهَادِ وَغَيْرِهِ ، كَالَّذِينَ أَعْطَاهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْعَطَايَا الْوَافِرَةَ مِنْ غَنَائِمِ هَوَازِنَ ، وَهُمْ بَعْضُ الطُّلَقَاءِ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا

فَكَانَ مِنْهُمُ الْمُنَافِقُ ، وَمِنْهُمْ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَكْثَرُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ

.

(164/340)

(الثَّالِثُ) قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الثُّغُورِ وَحُدُودِ بِلَادِ الْأَعْدَاءِ ، يُعْطَوْنَ لِمَا يُرْجَى مِنْ دِفَاعِهِمْ عَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إذَا هَاجَمَهُمُ الْعَدُوُّ ، وَأَقُولُ : إنَّ هَذَا الْعَمَلَ هُوَ الْمُرَابَطَةُ ، وَهَؤُلَاءِ الْفُقَهَاءُ يُدْخِلُونَهَا فِي سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ كَالْغَزْوِ الْمَقْصُودِ مِنْهَا . وَأَوْلَى مِنْهُمْ بِالتَّأْلِيفِ فِي زَمَانِنَا قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَأَلَّفُهُمُ الْكُفَّارُ ؛ لِيُدْخِلُوهُمْ تَحْتَ حِمَايَتِهِمْ أَوْ فِي دِينِهِمْ ، فَإِنَّنَا نَجِدُ دُوَلَ الِاسْتِعْمَارِ الطَّامِعَةَ فِي اسْتِعْبَادِ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِي رَدِّهِمْ عَنْ دِينِهِمْ يُخَصِّصُونَ مِنْ أَمْوَالِ دُوَلِهِمْ سَهْمًا لِلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ،

فَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَلِّفُونَهُ لِأَجْلِ تَنْصِيرِهِ وَإِخْرَاجِهِ مِنْ حَظِيرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤَلِّفُونَهُ ؛ لِأَجْلِ الدُّخُولِ فِي حِمَايَتِهِمْ وَمُشَاقَّةِ الدُّوَلِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوِ الْوَحْدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، كَكَثِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَسَلَاطِينِهَا ! ! أَفَلَيْسَ الْمُسْلِمُونَ أَوْلَى بِهَذَا مِنْهُمْ ؟ .

(الرَّابِعُ) قَوْمٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُحْتَاجُ إلَيْهِمْ لِجِبَايَةِ الزَّكَاةِ مِمَّنْ لَا يُعْطِيهَا إلَّا بِنُفُوذِهِمْ وَتَأْثِيرِهِمْ إلَّا

أَنْ يُقَاتِلُوا ، فَيُخْتَارُ بِتَأْلِيفِهِمْ وَقِيَامِهِمْ بِهَذِهِ الْمُسَاعَدَةِ لِلْحُكُومَةِ أَخَفُّ الضَّرَرَيْنِ وَأَرْجَحُ الْمَصْلَحَتَيْنِ وَهَذَا سَبَبٌ جُزْئِيٌّ قَاصِرٌ ، فَمِثْلُهُ مَا يُشْبِهُهُ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ .

(165/340)

(الْخَامِسُ) مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُرْجَى إِيمَانُهُ بِتَأْلِيفِهِ وَاسْتِمَالَتِهِ ، كَصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ الَّذِي وَهَبَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ الْأَمَانَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَأَمْهَلَهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ لِيَنْظُرَ فِي أَمْرِهِ بِطَلَبِهِ ، وَكَانَ غَائِبًا فَحَضَرَ وَشَهِدَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ غَزْوَةَ حُنَيْنٍ قَبْلَ أَنْ يُسْلِمَ ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعَارَ سِلَاحَهُ مِنْهُ لَمَّا خَرَجَ إلَى حُنَيْنٍ . وَهُوَ الْقَائِلُ يَوْمَئِذٍ : لَأَنْ يَرْبُنِي رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ يَرْبُنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ . وَقَدْ أَعْطَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إبِلًا كَثِيرًا مُحَمَّلَةً كَانَتْ فِي وَادٍ ، فَقَالَ : هَذَا عَطَاءُ مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ ، وَرَوَى مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْهُ قَالَ : وَاَللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إلَيَّ ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ . وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ مَعْرُوفِ بْنِ خَرَّبُوذَ قَالَ : كَانَ صَفْوَانُ أَحَدَ الْعَشَرَةِ الَّذِينَ انْتَهَى

إِلَيْهِمْ شَرَفُ الْجَاهِلِيَّةِ وَوَصَلَهُ لَهُمُ الْإِسْلَامُ مِنْ عَشَرَةِ بُطُونٍ . وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ : كَانَ أَحَدَ الْمَطْعِمِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْفُصَحَاءِ ، وَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُهُ .

(166/340)

(السَّادِسُ) مِنَ الْكُفَّارِ مَنْ يُخْشَى شَرُّهُ فَيُرْجَى بِإِعْطَائِهِ كَفُّ شَرِّهِ وَشَرِّ غَيْرِهِ مَعَهُ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : إِنَّ قَوْمًا كَانُوا يَأْتُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنْ أَعْطَاهُمْ مَدَحُوا الْإِسْلَامَ ، وَقَالُوا : هَذَا دِينٌ حَسَنٌ . وَإِنْ مَنَعَهُمْ ذَمُّوا وَعَابُوا . وَكَانَ مِنْ هَؤُلَاءِ سُفْيَانُ بْنُ حَرْبٍ وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، الَّذِينَ تَقَدَّمَ فِي قِسْمَةِ غَنَائِمِ هَوَازِنَ مِنْ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مِائَةً مِنَ الْإِبِلِ .

(167/340)

وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ أَنَّ سَهْمَ هَؤُلَاءِ قَدِ انْقَطَعَ بِإِعْزَازِ اللَّهِ لِلْإِسْلَامِ وَهُوَ قَوْلٌ لِلشَّافِعِيِّ . وَاحْتَجُّوا بِمَا رُوِيَ أَنَّ مُشْرِكًا جَاءَ يَلْتَمِسُ مِنْ عُمَرَ مَالًا فَلَمْ يُعْطِهِ وَقَالَ : فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ

فَلْيَكْفُرْ (18 : 29) وَلَا حُجَّةَ فِي هَذَا ، بَلْ قَدْ يَكُونُ فِي غَيْرِ الْمَوْضُوعِ ؛ إذْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ أَنَّ كُلَّ مُشْرِكٍ يُعْطَى لِتَأْلِيفِهِ . وَقَالُوا أَيْضًا : إنَّ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ وَالْأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ جَاءَا يَطْلُبَانِ مِنْ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَرْضًا ، فَكَتَبَ لَهُمَا خَطًّا بِذَلِكَ ، فَمَزَّقَهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَالَ : هَذَا شَيْءٌ كَانَ يُعْطِيكُمُوهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَأْلِيفًا لَكُمْ ، فَأَمَّا الْيَوْمَ فَقَدْ أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَغْنِي عَنْكُمْ ، فَإِنْ ثَبَتُّمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَإِلَّا فَبَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ السَّيْفُ ، فَرَجَعُوا إلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالُوا : أَنْتَ الْخَلِيفَةُ أَمْ عُمَرُ ؟ بَذَلْتَ لَنَا الْخَطَّ وَمَزَّقَهُ عُمَرُ - فَقَالَ هُوَ إنْ شَاءَ . فَقَدْ وَافَقَهُ وَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الصَّحَابَةِ . وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ لَا تَقْتَضِي سُقُوطَ هَذَا السَّهْمِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ اجْتِهَادٌ مِنْ عُمَرَ بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَصْلَحَةِ اسْتِمْرَارُ هَذَا التَّأْلِيفِ لِهَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ الطَّامِعَيْنِ وَأَمْثَالِهِمَا ، بَعْدَ الْأَمْنِ مِنْ ضَرَرِ ارْتِدَادِهِمَا لَوِ ارْتَدَّا ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ ثَبَتَ فِي أَقْوَامِهِمَا حَتَّى إنَّهُ لَا يَتَرَتَّبُ عَلَى قَتْلِهِمَا - لَوِ ارْتَدَّا - أَدْنَى فِتْنَةٍ .

(168/340)

وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِأَنَّهُ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّ عُثْمَانَ وَعَلِيًّا أَعْطَيَا أَحَدًا مِنْ هَذَا الصِّنْفِ ، وَهَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى سُقُوطِ السَّهْمِ ، وَإِنَّمَا هُوَ خَبَرٌ سَلْبِيٌّ لَا حُجَّةَ فِيهِ ، وَقُصَارَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّ الْخَلِيفَتَيْنِ لَمْ يَعْرِضْ لَهُمَا حَاجَةٌ إلَى تَأْلِيفِ أَحَدٍ مِنَ الْكُفَّارِ لِذَلِكَ . وَهُوَ لَا يُنَافِي ثُبُوتَهُ لِمَنِ

احْتَاجَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ بَعْدَهُمَا .

وَأَمَّا مَنِ ادَّعَى أَنَّهُ مَنْسُوخٌ بِالْإِجْمَاعِ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ عَمَلِ الْخُلَفَاءِ ، وَالسُّكُوتِ عَلَيْهِ مِنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ ، فَدَعْوَاهُ مَمْنُوعَةٌ . لَا الْإِجْمَاعُ بِثَابِتٍ بِمَا ذُكِرَ ، وَلَا كَوْنُهُ حُجَّةً عَلَى نَسْخِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ صَحِيحًا ، وَإِنِ اخْتَلَفَ فِيهِ الْأُصُولِيُّونَ بِمَا لَا مَحَلَّ لِذِكْرِهِ هُنَا .

(169/340)

وَقَالَ الْإِمَامُ الشَّوْكَانِيُّ فِي نَيْلِ الْأَوْطَارِ : وَقَدْ ذَهَبَ إِلَى جَوَازِ التَّأْلِيفِ الْعِتْرَةُ وَالْجُبَّائِيُّ وَالْبَلْخِيُّ وَابْنُ بِشْرٍ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا تَتَأَلَّفُ كَافِرًا ، فَأَمَّا الْفَاسِقُ فَيُعْطَى مِنْ سَهْمِ التَّأْلِيفِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ : قَدْ سَقَطَ بِانْتِشَارِ الْإِسْلَامِ وَغَلَبَتِهِ ، وَاسْتَدَلُّوا عَلَى ذَلِكَ بِامْتِنَاعِ أَبِي بَكْرٍ مِنْ إِعْطَاءِ أَبِي سُفْيَانَ وَعُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ وَعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ . وَالظَّاهِرُ جَوَازُ التَّأْلِيفِ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ فِي زَمَنِ الْإِمَامِ قُوَّةٌ لَا يُطِيعُونَهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا ، وَلَا يَقْدِرُ عَلَى إِدْخَالِهِمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ بِالْقَسْرِ وَالْغَلَبِ ، فَلَهُ أَنْ يَتَأَلَّفَهُمْ وَلَا يَكُونُ لِفُشُوِّ الْإِسْلَامِ تَأْثِيرٌ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَنْفَعْ فِي خُصُوصِ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ اهـ .

وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ فِي جُمْلَتِهِ ، وَإِنَّمَا يَجِيءُ الِاجْتِهَادُ فِي تَفْصِيلِهِ مِنْ حَيْثُ الِاسْتِحْقَاقِ ، وَمِقْدَارُ الَّذِي يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَاتِ وَمِنَ الْغَنَائِمِ إِنْ وُجِدَتْ وَغَيْرِهَا مِنْ أَمْوَالِ الْمَصَالِحِ ،

وَالْوَاجِبُ فِيهِ الْأَخْذُ بِرَأْيِ أَهْلِ الشُّورَى كَمَا كَانَ يَفْعَلُ الْخُلَفَاءُ فِي الْأُمُورِ الِاجْتِهَادِيَّةِ . وَفِي اشْتِرَاطِ الْعَجْزِ عَنْ إدْخَالِ الْإِمَامِ إيَّاهُمْ تَحْتَ طَاعَتِهِ بِالْغَلَبِ نَظَرٌ ، فَإِنَّ هَذَا لَا يَطَّرِدُ ، بَلِ الْأَصْلُ فِيهِ تَرْجِيحُ الضَّرَرَيْنِ وَخَيْرِ الْمَصْلَحَتَيْنِ .

(170/340)

وَفِي الرِّقَابِ أَيْ : وَلِلصَّرْفِ فِي إعَانَةِ الْمُكَاتَبِينَ مِنَ الْأَرِقَّاءِ فِي فَكِّ رِقَابِهِمْ مِنَ الرِّقِّ ، الَّذِي هُوَ مِنْ أَكْبَرِ الْإِصْلَاحِ الْبَشَرِيِّ الْمَقْصُودِ مِنْ رَحْمَةِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ لِشِرَاءِ الْعَبِيدِ مِنْ رِقٍّ وَمُبَعَّضٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَإِعْتَاقِهِمْ . وَالْمُخْتَارُ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا كَمَا قَالَ الزُّهْرِيُّ .

قَالَ فِي مُنْتَقَى الْأَخْبَارِ عِنْدَ ذِكْرِ الْوَارِدِ فِي هَذَا الصِّنْفِ : وَهُوَ يَشْمَلُ الْمُكَاتَبَ وَغَيْرَهُ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا بَأْسَ أَنْ يُعْتَقَ مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ ، ذَكَرَهُ عَنْهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ ، وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ يُقَرِّبُنِي مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُنِي مِنَ النَّارِ ، فَقَالَ : " أَعْتِقِ النَّسَمَةَ وَفُكَّ الرَّقَبَةَ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوَ لَيْسَا وَاحِدًا ؟ قَالَ : " لَا ، عِتْقُ الرَّقَبَةِ أَنْ تَنْفَرِدَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ بِثَمَنِهَا " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالدَّارَقُطْنِيُّ . وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : ثَلَاثَةٌ ،

(171/340)

كُلٌّ حَقٌّ عَلَى اللهِ عَوْنُهُ . الْغَازِي فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالْمُكَاتِبُ الَّذِي يُرِيدُ الْأَدَاءَ ، وَالنَّاكِحُ الْمُتَعَفِّفُ رَوَاهُ الْخَمْسَةُ إلَّا أَبَا دَاوُدَ اهـ . وَيَعْنِي بِالْخَمْسَةِ : الْإِمَامَ أَحْمَدَ وَأَصْحَابَ السُّنَنِ الْأَرْبَعَةَ . قَالَ الشَّوْكَانِيُّ : حَدِيثُ الْبَرَاءِ ، قَالَ فِي مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ رِجَالُهُ ثِقَاتٌ ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ التِّرْمِذِيُّ حَسَنٌ صَحِيحٌ . ثُمَّ قَالَ :

(172/340)

قَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمُرَادِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَفِي الرِّقَابِ فَرُوِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَاللَّيْثِ وَالثَّوْرِيِّ وَالْعِتْرَةِ وَالْحَنَفِيَّةِ وَالشَّافِعِيَّةِ وَأَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ : الْمُكَاتَبُونَ يُعَانُونَ مِنَ الزَّكَاةِ عَلَى الْكِتَابَةِ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَمَالِكٍ وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَأَبِي ثَوْرٍ وَأَبِي عُبَيْدٍ وَإِلَيْهِ مَالَ الْبُخَارِيُّ وَابْنِ الْمُنْذِرِ أَنَّ الْمُرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهَا تُشْتَرَى رِقَابٌ لِتُعْتَقَ . وَاحْتَجُّوا بِأَنَّهَا لَوِ اخْتَصَّتْ بِالْمُكَاتَبِ لَدَخَلَ فِي حُكْمِ الْغَارِمِينَ ؛ لِأَنَّهُ غَارِمٌ ، وَبِأَنَّ شِرَاءَ الرَّقَبَةِ لِتُعْتَقَ أَوْلَى مِنْ إعَانَةِ الْمُكَاتَبِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يُعَانُ وَلَا يُعْتَقُ ؛ لِأَنَّ الْمُكَاتَبَ عَبْدٌ مَا بَقِيَ عَلَيْهِ دِرْهَمٌ ، وَلِأَنَّ الشِّرَاءَ يَتَيَسَّرُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِخِلَافِ الْكِتَابَةِ . وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : إنَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ الْمُصَنِّفُ وَهُوَ الظَّاهِرُ ؛ لِأَنَّ

الْآيَةَ تَحْتَمِلُ الْأَمْرَيْنِ . وَحَدِيثُ الْبَرَاءِ الْمَذْكُورُ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ فَكَّ الرِّقَابِ غَيْرُ عِتْقِهَا ، وَعَلَى أَنَّ الْعِتْقَ وَإِعَانَةَ الْمُكَاتَبِينَ عَلَى مَالِ الْكِتَابَةِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْمُقَرِّبَةِ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْمُبْعِدَةِ مِنَ النَّارِ اهـ . وَهُوَ الْحَقُّ .

(173/340)

وَالْغَارِمِينَ الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ لِأَنَّهُ صُرِفَ لِأَشْخَاصٍ مَوْصُوفِينَ ، لَا عَلَى مَا قَبْلَهُ وَهُوَ : وَفِي الرِّقَابِ أَيْ : وَلِلْغَارِمِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ عَلَيْهِمْ غَرَامَةٌ مِنَ الْمَالِ بِدُيُونٍ رَكِبَتْهُمْ وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا ، وَاشْتَرَطَ الْفُقَهَاءُ أَنْ تَكُونَ الدُّيُونُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، إلَّا إذَا عُلِمَ أَنَّ الْغَارِمَ تَابَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَفِي غَيْرِ إسْرَافٍ وَسَفَاهَةٍ إلَّا إذَا رَشَدَ فَكَانَتْ مُسَاعَدَتُهُ مِنَ الصَّدَقَةِ عَوْنًا لَهُ عَلَى رُشْدِهِ ، وَكَذَا الْغَارِمُونَ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ إذَا

وَقَعَتْ بَيْنَهُمْ فِتْنَةٌ اقْتَضَتْ غَرَامَةً فِي دِيَةٍ أَوْ غَيْرِهَا ، قَامَ أَحَدُهُمْ فَتَبَرَّعَ بِالْتِزَامِ ذَلِكَ وَالْقِيَامِ بِهِ حَتَّى تَرْتَفِعَ تِلْكَ الْفِتْنَةُ الثَّائِرَةُ ، وَكَانُوا إذَا عَلِمُوا أَنَّ أَحَدَهُمُ الْتَزَمَ غَرَامَةً أَوْ تَحَمَّلَ حَمَالَةً بَادَرُوا إلَى مَعُونَتِهِ عَلَى أَدَائِهَا وَإِنْ لَمْ يَسْأَلْ ، وَكَانُوا يَعُدُّونَ سُؤَالَ الْمُسَاعَدَةِ عَلَى ذَلِكَ فَخْرًا ، لَا ضَعَةً وَذُلًّا .

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : إنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إلَّا لِثَلَاثَةٍ : لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ ، أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ ، أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ . وَعَنْ قَبِيصَةَ بْنِ مُخَارِقٍ الْهِلَالِيِّ قَالَ : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَسْأَلُهُ فِيهَا فَقَالَ : " أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا - ثُمَّ قَالَ - يَا قَبِيصَةُ إنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ إلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ : رَجُلٌ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ - سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُولَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ : قَدْ أَصَابَتْ فُلَانًا فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ - أَوْ قَالَ - سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ ، فَمَا سِوَاهُنَّ مِنَ الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ فَسُحْتٌ يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا " رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ : وَفِي الرِّقَابِ لَا عَلَى مَا قَبْلَهُ ؛ لِأَنَّهُ صُرِفَ

فِي مَصْلَحَةٍ عَامَّةٍ لَا لِأَشْخَاصٍ مَسَّتْهُمُ الْحَاجَةُ . وَالسَّبِيلُ : الطَّرِيقُ ، وَسَبِيلُ اللَّهِ : الطَّرِيقُ الِاعْتِقَادِيُّ الْعَمَلِيُّ الْمُوَصِّلُ إلَى مَرْضَاتِهِ وَمَثُوبَتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ مِرَارًا . وَلِكَثْرَةِ اقْتِرَانِ الْجِهَادِ وَالْقِتَالِ الدِّينِيِّ فِي الْقُرْآنِ بِكَوْنِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، اتَّفَقَتِ الْمَذَاهِبُ عَلَى أَنَّ الْغُزَاةَ وَالْمُرَابِطِينَ هُمُ الْمَقْصُودُونَ بِهَذَا الصِّنْفِ مِنْ مُسْتَحِقِّي الصَّدَقَاتِ ، إمَّا وَحْدَهُمْ ، وَهُوَ قَوْلُ الْجُمْهُورِ ، وَإِمَّا مَعَ غَيْرِهِمْ مِمَّا يَشْمَلُهُ عُمُومُ الْإِضَافَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، عَلَى بَحْثٍ فِي تَخْصِيصِهِ سَيَأْتِي قَرِيبًا ، وَقَدْ جَاءَ فِي التَّنْزِيلِ ذِكْرُ الْهِجْرَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالضَّرْبِ (أَيِ السَّفَرِ) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالْمَخْمَصَةِ (أَيِ الْمَجَاعَةِ) فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَنَّ الْمُرَادَ بِأَصْحَابِ هَذَا السَّهْمِ هُنَا : الْحُجَّاجُ وَالْعُمَّارُ ، وَرُوِيَ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوَيْهِ أَنَّهُمَا جَعَلَا الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

(176/340)

وَفِي كِتَابِ الْمُقْنِعِ - مِنْ أَشْهَرِ كُتُبِ الْحَنَابِلَةِ - فِي عَدِّ الْأَصْنَافِ مَا نَصُّهُ : (السَّابِعُ) فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُمُ الْغُزَاةُ الَّذِينَ لَا دِيوَانَ لَهُمْ ، وَلَا يُعْطَى مِنْهَا فِي الْحَجِّ ، وَعَنْهُ (أَيِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ) يُعْطَى الْفَقِيرُ قَدْرَ مَا يَحُجُّ بِهِ الْفَرْضَ أَوْ يَسْتَعِينُ بِهِ فِيهِ اهـ . وَقَدْ ضَعَّفَ فُقَهَاءُ الْحَنَابِلَةِ هَذِهِ الرِّوَايَةَ بِأَنَّهَا خِلَافُ الْمُتَبَادَرِ ، وَهُوَ أَنَّ الْفَقِيرَ إنَّمَا يُعْطَى لِفَقْرِهِ مَا يَسُدُّ بِهِ حَاجَتَهُ وَحَاجَةَ مَنْ

يَمُونُهُ مِمَّنْ تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُمْ ، وَالْحَجُّ غَيْرُ وَاجِبٍ عَلَيْهِ .

وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيَّةِ كَمَذْهَبِ الْحَنَابِلَةِ فِي أَنَّ سَهْمَ سَبِيلِ اللَّهِ لِلْغُزَاةِ غَيْرِ الْمُرَتَّبِينَ فِي دِيوَانِ السُّلْطَانِ سَوَاءٌ أَكَانُوا أَغْنِيَاءَ أَمْ فُقَرَاءَ ، وَنَصُّ الشَّافِعِيِّ فِي " الْأُمِّ " : وَيُعْطَى فِي سَبِيلِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ مَنْ غَزَا مِنْ جِيرَانِ الصَّدَقَةِ فَقِيرًا كَانَ أَوْ غَنِيًّا ، وَلَا يُعْطَى مِنْهُ غَيْرُهُمْ إلَّا أَنْ يُحْتَاجَ إلَى الدَّفْعِ عَنْهُمْ فَيُعْطَاهُ مَنْ دَفَعَ عَنْهُمُ الْمُشْرِكِينَ اهـ . وَإِنَّمَا اشْتَرَطَ جِيرَانَ الصَّدَقَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ عِنْدَهُ نَقْلُ الزَّكَاةِ إلَى أَبْعَدَ مِنْ مَسَافَةِ الْقَصْرِ .

(177/340)

وَقَالَ الْآلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْكَلِمَةِ عِنْدَ الْحَنَفِيَّةِ : أُرِيدَ بِذَلِكَ عِنْدَ أَبِي يُوسُفَ مُنْقَطِعُو الْغُزَاةِ وَالْحَجِيجِ . وَقِيلَ : الْمُرَادُ طَلَبَةُ الْعِلْمِ ، وَاقْتَصَرَ عَلَيْهِ فِي الْفَتَاوَى الظَّهِيرِيَّةِ ، وَفَسَّرَهُ فِي الْبَدَائِعِ بِجَمِيعِ الْقُرَبِ فَيَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ سَعْيٍ فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَسُبُلِ الْخَيْرَاتِ . قَالَ فِي الْبَحْرِ : وَلَا يَخْفَى أَنَّ قَيْدَ الْفَقْرِ لَا بُدَّ مِنْهُ عَلَى الْوُجُوهِ كُلِّهَا ، فَحِينَئِذٍ لَا تَظْهَرُ ثَمَرَتُهُ فِي الزَّكَاةِ ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ فِي الْوَصَايَا وَالْأَوْقَافِ اهـ . وَنَقُولُ : إنَّهُ بِهَذَا الْقَيْدِ أَبْطَلَ كَوْنَ سَبِيلِ اللَّهِ صِنْفًا مُسْتَقِلًّا إذَا أَرْجَعَهُ إلَى الصِّنْفِ الْأَوَّلِ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ اهـ .

وَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ الْمَالِكِيُّ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ : قَوْلُهُ : وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ

مَالِكٌ : سُبُلُ اللهِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِسَبِيلِ اللهِ هُنَا الْغَزْوُ مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِ اللهِ (هَكَذَا) إنَّمَا يُؤْثَرُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ فَإِنَّهُمَا قَالَا : إنَّهُ الْحَجُّ . وَالَّذِي يَصِحُّ عِنْدِي مِنْ قَوْلِهِمَا أَنَّ الْحَجَّ مِنْ جُمْلَةِ السُّبُلِ مَعَ الْغَزْوِ ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقُ بِرٍّ فَأُعْطِي مِنْهُ بِاسْمِ السَّبِيلِ ، وَهَذَا يَحِلُّ عَقْدَ الْبَابِ ، وَيَخْرِمُ قَانُونَ

(178/340)

الشَّرِيعَةِ ، وَيَنْثُرُ سِلْكَ النَّظَرِ ، وَمَا جَاءَ قَطُّ بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ فِي الْحَجِّ أَثَرٌ . وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَيُعْطَى مِنْهَا الْفَقِيرُ بِغَيْرِ خِلَافٍ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ سُمِّيَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، وَيُعْطَى الْغَنِيُّ عِنْدَ مَالِكٍ بِوَصْفِ سَبِيلِ اللهِ تَعَالَى كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِهِ أَوْ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ، لَا يُلْتَفَتُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ الَّذِي يُؤْثَرُ عَنْهُ . قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ إلَّا لِخَمْسَةٍ : غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُعْطَى الْغَازِي إلَّا إذَا كَانَ فَقِيرًا . وَهَذِهِ زِيَادَةٌ عَلَى النَّصِّ . وَعِنْدَهُ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ وَلَا نَسْخَ فِي الْقُرْآنِ إلَّا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ أَوْ بِخَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ فَعَلَ مِثْلَ هَذَا فِي الْخُمُسِ فِي قَوْلِهِ : وَلِذِي الْقُرْبَى فَشَرَطَ فِي قَرَابَةِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْفَقْرَ ، وَحِينَئِذٍ يُعْطَوْنَ مِنَ الْخُمُسِ ، وَهَذَا كُلُّهُ ضَعِيفٌ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ ، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : يُعْطَى مِنَ الصَّدَقَةِ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ ، وَمَا يُحْتَاجُ

إِلَيْهِ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ ، وَكَفِّ الْعَدُوِّ عَنِ الْحَوْزَةِ ؛ لِأَنَّهُ كُلَّهُ مِنْ سَبِيلِ الْغَزْوِ وَمَنْفَعَتِهِ ، وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الصَّدَقَةِ مِائَةَ نَاقَةٍ فِي نَازِلَةِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ إِطْفَاءً لِلثَّائِرَةِ اهـ .

(179/340)

وَمَا قَالَهُ مَالِكٌ وَابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ مِنْ أَصْحَابِهِ مِنَ التَّعْبِيرِ بِالْغَزْوِ بَدَلَ الْغُزَاةِ ، وَمِنَ الصَّرْفِ فِي السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ إِلَخْ هُوَ الْحَقُّ الظَّاهِرُ مِنْ كَوْنِ هَذَا السَّهْمِ فِي الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ لَا لِأَشْخَاصِ الْغُزَاةِ .

وَقَالَ السَّيِّدُ حَسَنُ صِدِّيقٍ فِي فَتْحِ الْبَيَانِ وَهُوَ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ الْحَدِيثِ الْمُسْتَقِلِّينَ - بَعْدَ ذِكْرِ قَوْلِ الْجُمْهُورِ : إِنَّهُمُ الْغُزَاةُ وَالْمُرَابِطُونَ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ ، وَبَعْدَ ذِكْرِ الرِّوَايَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ وَعَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ مَا نَصُّهُ : وَقِيلَ إِنَّ اللَّفْظَ عَامٌّ فَلَا يَجُوزُ قَصْرُهُ عَلَى نَوْعٍ خَاصٍّ ، وَيَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ وُجُوهِ الْخَيْرِ مِنْ تَكْفِينِ الْمَوْتَى وَبِنَاءِ الْجُسُورِ وَالْحُصُونِ وَعِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَالْأَوَّلُ أَوْلَى لِإِجْمَاعِ الْجُمْهُورِ عَلَيْهِ اهـ .

وَقَالَ فِي الرَّوْضَةِ النَّدِيَّةِ : وَمِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِ اللَّهِ الصَّرْفُ فِي الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الدِّينِيَّةِ ، فَإِنَّ لَهُمْ فِي مَالِ اللَّهِ نَصِيبًا سَوَاءٌ كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فُقَرَاءَ . بَلِ الصَّرْفُ فِي

هَذِهِ الْجِهَةِ مِنْ أَهَمِّ الْأُمُورِ ؛ لِأَنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَحَمَلَةُ الدِّينِ وَبِهِمْ تُحْفَظُ بَيْضَةُ الْإِسْلَامِ ، وَشَرِيعَةُ سَيِّدِ الْأَنَامِ ، وَقَدْ كَانَ عُلَمَاءُ الصَّحَابَةِ يَأْخُذُونَ مِنَ الْعَطَاءِ مَا يَقُومُ بِمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ ، مَعَ زِيَادَاتٍ كَثِيرَةٍ يَتَفَوَّضُونَ بِهَا فِي قَضَاءِ حَوَائِجِ مَنْ يَرِدُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ وَالْأَمْرُ

(180/340)

فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ . وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَأْخُذُ زِيَادَةً عَلَى مِائَةِ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَمِنْ جُمْلَةِ الْأَمْوَالِ الَّتِي كَانَتْ تُفَرَّقُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الزَّكَاةُ . وَقَدْ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعُمَرَ لَمَّا قَالَ لَهُ يُعْطَى مَنْ هُوَ أَحْوَجُ مِنْهُ : " مَا أَتَاكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ " كَمَا فِي الصَّحِيحِ وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ اهـ .

أَقُولُ : مَا ذَكَرَهُ السَّيِّدُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى هُنَا غَيْرُ ظَاهِرٍ عَلَى إطْلَاقِهِ ، وَحَدِيثُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يُفَسِّرُهُ حَدِيثُ ابْنُ السَّعْدِيِّ الَّذِي تَقَدَّمَ فِي بَحْثِ الْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ عُمَالَةً كَمَا رَجَّحَهُ بَعْضُهُمْ ، وَرَجَّحَ آخَرُونَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْعَطَاءُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ كَالْغَنَائِمِ ، وَفِيهِ : أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ ، وَلَفْظُ الْحَدِيثِ صَرِيحٌ فِيهِ .

وَالْحَدِيثُ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْطِينِي الْعَطَاءَ فَأَقُولُ : أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي ، فَقَالَ : " خُذْهُ ، إِذَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ شَيْءٌ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلَا سَائِلٍ فَخُذْهُ وَمَا لَا فَلَا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ " .

(181/340)

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ مِنَ الْفَتْحِ : قَالَ الطَّحَاوِيُّ : لَيْسَ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي يُقَسِّمُهَا الْإِمَامُ ، وَلَيْسَتْ هِيَ مِنْ جِهَةِ الْفَقْرِ ، وَلَكِنْ مِنَ الْحُقُوقِ ، فَلَمَّا قَالَ عُمَرُ : أَعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَرُ إِلَيْهِ مِنِّي ، لَمْ يَرْضَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَعْطَاهُ لِمَعْنًى غَيْرِ الْفَقْرِ . قَالَ : وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ فِي رِوَايَةِ شُعَيْبٍ : " خُذْهُ فَتَمَوَّلْهُ " فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الصَّدَقَاتِ .

(182/340)

" وَقَالَ الطَّبَرِيُّ : اخْتَلَفُوا فِي قَوْلِهِ : " فَخُذْهُ " بَعْدَ إِجْمَاعِهِمْ عَلَى أَنَّهُ أَمْرُ نَدْبٍ ، فَقِيلَ : هُوَ نَدْبٌ لِكُلِّ مَنْ أُعْطِيَ عَطِيَّةً أَبَى قَبُولَهَا كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَهَذَا هُوَ الرَّاجِحُ ، يَعْنِي بِالشَّرْطَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ ، وَقِيلَ : هُوَ مَخْصُوصٌ بِالسُّلْطَانِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثُ سَمُرَةَ فِي السُّنَنِ " إِلَّا أَنْ

يَسْأَلَ ذَا سُلْطَانٍ " وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ : يَحْرُمُ قَبُولُ الْعَطِيَّةِ مِنَ السُّلْطَانِ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : يُكْرَهُ ، وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى مَا إذَا كَانَتِ الْعَطِيَّةُ مِنَ السُّلْطَانِ الْجَائِرِ ، أَوِ الْكَرَاهَةُ مَحْمُولَةٌ عَلَى الْوَرَعِ وَهُوَ الْمَشْهُورُ مِنْ تَصَرُّفِ السَّلَفِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَالتَّحْقِيقُ فِي الْمَسْأَلَةِ أَنَّ مَنْ عُلِمَ كَوْنُ مَالِهِ حَلَالًا فَلَا تُرَدُّ عَطِيَّتُهُ ، وَمَنْ عُلِمَ كَوْنُ مَالِهِ حَرَامًا فَتَحْرُمُ عَطِيَّتُهُ ، وَمَنْ شُكَّ فِيهِ فَالِاحْتِيَاطُ رَدُّهُ وَهُوَ الْوَرَعُ ، وَمَنْ أَبَاحَهُ أَخَذَ بِالْأَصْلِ . قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ : وَاحْتَجَّ مَنْ رَخَّصَ فِيهِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي الْيَهُودِ : سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ (5 : 42) وَقَدْ رَهَنَ الشَّارِعُ دِرْعَهُ عِنْدَ يَهُودِيٍّ مَعَ عِلْمِهِ بِذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ أَخَذَ الْجِزْيَةَ مِنْهُمْ مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ أَكْثَرَ أَمْوَالِهِمْ مِنْ ثَمَنِ الْخَمْرِ وَالْخِنْزِيرِ وَالْمُعَامَلَاتِ الْفَاسِدَةِ . وَفِي حَدِيثِ الْبَابِ : إنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يُعْطِيَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ إذَا رَأَى لِذَلِكَ وَجْهًا وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُ أَحْوَجَ إلَيْهِ مِنْهُ ، وَأَنَّ رَدَّ عَطِيَّةِ الْإِمَامِ لَيْسَ مِنَ الْأَدَبِ ، وَلَا سِيَّمَا

(183/340)

مِنَ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ (59 : 7) الْآيَةَ اهـ .

(أَقُولُ) : إنَّ بَعْضَ السَّلَفِ أَبَاحَ أَخْذَ مَالِ السَّلَاطِينِ وَغَيْرِهِمْ إذَا كَانَ بِحَقٍّ ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ

حَرَامًا ، وَيَسْتَدِلُّونَ بِمَا قَالَهُ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَبِغَيْرِهِ مِمَّا لَا مَحَلَّ لَهُ هُنَا . وَأَمَّا السُّنَّةُ فِي هَذَا السَّهْمِ فَقَدِ اسْتَدَلُّوا مِنْهَا بِأَحَادِيثَ (مِنْهَا) رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهْ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلَّا لِخَمْسَةٍ : لِعَامِلٍ عَلَيْهَا ، أَوْ رَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ ، أَوْ غَارِمٍ ، أَوْ غَازٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أَوْ مِسْكِينٍ تُصُدِّقَ عَلَيْهِ مِنْهَا فَأَهْدَى لِغَنِيٍّ مِنْهَا وَرَوَاهُ مَالِكٌ فِي الْمُوَطَّأِ مِنْ مُرْسَلِ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ وَهِيَ إحْدَى رِوَايَتَيْ أَبِي دَاوُدَ . وَإِسْنَادُ مَنْ أَسْنَدَهُ زِيَادَةٌ يَجِبُ الْأَخْذُ بِهَا ، وَقَدْ أَسْنَدَهُ مَعْمَرٌ وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ .

(184/340)

(وَمِنْهَا) مَا رَوَى أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي لَاسٍ الْخُزَاعِيِّ قَالَ : حَمَلَنَا رَسُولُ اللهِ عَلَى إبِلٍ مِنَ الصَّدَقَةِ إلَى الْحَجِّ - وَرُوِيَ عَنْ أُمِّ مَعْقِلٍ الْأَسَدِيَّةِ أَنَّ زَوْجَهَا جَعَلَ بَكْرًا فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَأَنَّهَا أَرَادَتِ الْعُمْرَةَ فَسَأَلَتْ زَوْجَهَا الْبَكْرَ فَأَبَى ، فَأَتَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَذَكَرَتْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَرَهُ أَنْ يُعْطِيَهَا ، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ أَصْحَابُ السُّنَنِ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، وَفِي إسْنَادِهِ مَجْهُولٌ ، وَيُعَارِضُهُ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إسْحَاقَ عَنْ أُمِّ مَعْقِلٍ قَالَتْ : لَمَّا حَجَّ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ ـ حَجَّةَ الْوَدَاعِ وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ فَجَعَلَهُ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَأَصَابَنَا مَرَضٌ وَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ وَخَرَجَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ حَجَّتِهِ جِئْتُهُ فَقَالَ : " يَا أُمَّ مَعْقِلٍ مَا مَنَعَكِ أَنْ تَخْرُجِي " ؟ قَالَتْ : لَقَدْ تَهَيَّأْنَا فَهَلَكَ أَبُو مَعْقِلٍ ، وَكَانَ لَنَا جَمَلٌ هُوَ الَّذِي يَحُجُّ عَلَيْهِ فَأَوْصَى بِهِ أَبُو مَعْقِلٍ فِي سَبِيلِ اللهِ . فَقَالَ : " فَهَلَّا خَرَجْتِ عَلَيْهِ فَإِنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ " ؟ وَهَذَا ضَعِيفٌ أَيْضًا ، لَا لِلْخِلَافِ فِي ابْنِ إِسْحَاقَ بَلْ ؛ لِأَنَّهُ مُدَلِّسٌ ، وَقَدْ عَنْعَنَ هُنَا ، وَمَنْ وَثَّقَهُ يَرُدُّونَ مَا عَنْعَنَ فِيهِ لِتَدْلِيسِهِ .

(185/340)

وَأَقُولُ : مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى ـ أَوَّلًا ـ أَنَّ جَعْلَ أَبِي مَعْقِلٍ جَمَلَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ وَصِيَّتَهُ بِهِ صَدَقَةُ تَطَوُّعٍ ، وَهِيَ لَا يُشْتَرَطُ فِيهَا أَنْ تُصْرَفَ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ الَّتِي قَصَرَتْهَا عَلَيْهَا الْآيَةُ ـ وَثَانِيًا ـ أَنَّ حَجَّ امْرَأَتِهِ عَلَيْهِ لَيْسَ تَمْلِيكًا لَهَا يُخْرِجُ الْجَمَلَ عَنْ إِبْقَائِهِ عَلَى مَا أَوْصَى بِهِ أَبُو مَعْقِلٍ . وَيُقَالُ مِثْلُ هَذَا فِي حَدِيثِ أَبِي لَاسٍ ـ ثَالِثًا ـ أَنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللهِ بِالْمَعْنَى الْعَامِّ لِلَّفْظِ ، وَالرَّاجِحُ الْمُخْتَارُ أَنَّهُ غَيْرُ مُرَادٍ فِي الْآيَةِ .

وَيَأْتِي هَاهُنَا تَحْرِيرُ الْمُرَادِ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ : أَمَّا عُمُومُ مَدْلُولِ هَذَا اللَّفْظِ فَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ أَمْرٍ

مَشْرُوعٍ أُرِيدَ بِهِ مَرْضَاةُ اللهِ تَعَالَى ، بِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِقَامَةِ دِينِهِ ، وَحُسْنِ

6عِبَادَتِهِ ، وَمَنْفَعَةِ

(186/340)

عِبَادِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهِ الْجَهْلُ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ، وَإِذَا كَانَ لِأَجْلِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ . وَهَذَا الْعُمُومُ لَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ السَّلَفِ ، وَلَا مِنَ الْخَلَفِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا هُنَا ؛ لِأَنَّ الْإِخْلَاصَ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْعَمَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْرٌ بَاطِنِيٌّ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ تَعَالَى ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تُنَاطَ بِهِ حُقُوقٌ مَالِيَّةٌ دَوْلِيَّةٌ ، وَإِذَا قِيلَ : إنَّ الْأَصْلَ فِي كُلِّ طَاعَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِ أَنْ تَكُونَ لِوَجْهِ اللهِ تَعَالَى فَيُرَاعَى هَذَا فِي الْحُقُوقِ عَمَلًا بِالظَّاهِرِ ، اقْتَضَى هَذَا أَنْ يَكُونَ كُلُّ مُصَلٍّ وَصَائِمٍ وَمُتَصَدِّقٍ وَتَالٍ لِلْقُرْآنِ وَذَاكِرٍ لِلَّهِ تَعَالَى وَمُمِيطٍ لِلْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ مُسْتَحِقًّا بِعَمَلِهِ هَذَا لِلزَّكَاةِ الشَّرْعِيَّةِ ، فَيَجِبُ أَنْ يُعْطَى مِنْهَا ، وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا ، وَهَذَا مَمْنُوعٌ بِالْإِجْمَاعِ أَيْضًا ، وَإِرَادَتُهُ تُنَافِي حَصْرَ الْمُسْتَحِقِّينَ لِلصَّدَقَاتِ فِي الْأَصْنَافِ الْمَنْصُوصَةِ ؛ لِأَنَّ هَذَا الصِّنْفَ لَا حَدَّ لِجَمَاعَاتِهِ فَضْلًا عَنْ أَفْرَادِهِ ، وَإِذَا وُكِّلَ أَمْرُهُ إلَى السَّلَاطِينِ وَالْأُمَرَاءِ تَصَرَّفُوا فِيهِ بِأَهْوَائِهِمْ تَصَرُّفًا تَذْهَبُ بِهِ حِكْمَةُ فَرْضِيَّةِ الصَّدَقَةِ مِنْ أَصْلِهَا .

(187/340)

(فَإِنْ قِيلَ) نُخَصِّصُ الْعُمُومَ بِمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ - وَقَالَ : مَا أَجْوَدَهُ مِنْ حَدِيثٍ - وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِأَسَانِيدَ صَحِيحَةٍ كَمَا قَالَ النَّوَوِيُّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلَانِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ ، فَقَلَّبَ فِيهِمَا الْبَصَرَ ، وَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ : " إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ " وَبِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْمُتَقَدِّمِ آنِفًا (قُلْنَا) : إِنَّ هَذَا لَيْسَ تَخْصِيصًا لِعُمُومِ " سَبِيلِ اللَّهِ " . وَالتَّحْقِيقُ : أَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ هُنَا مَصَالِحُ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةُ الَّتِي بِهَا قِوَامُ أَمْرِ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ دُونَ الْأَفْرَادِ ، وَأَنَّ حَجَّ الْأَفْرَادِ لَيْسَ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهُ وَاجِبٌ عَلَى الْمُسْتَطِيعِ دُونَ غَيْرِهِ ، وَهُوَ مِنَ الْفَرَائِضِ الْعَيْنِيَّةِ بِشَرْطِهِ كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ ، لَا مِنَ الْمَصَالِحِ الدِّينِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ ، وَسَيَأْتِي بَيَانُهُ بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ ، وَلَكِنَّ شَعِيرَةَ الْحَجِّ وَإِقَامَةَ الْأُمَّةِ لَهَا مِنْهَا ، فَيَجُوزُ الصَّرْفُ مِنْ هَذَا السَّهْمِ عَلَى تَأْمِينِ طُرُقِ الْحَجِّ وَتَوْفِيرِ الْمَاءِ وَالْغِذَاءِ وَأَسْبَابِ الصِّحَّةِ لِلْحُجَّاجِ إِنْ لَمْ يُوجَدْ لِذَلِكَ مَصْرَفٌ آخَرُ .

(188/340)

وَابْنِ السَّبِيلِ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ الْمُنْقَطِعُ عَنْ بَلَدِهِ فِي سَفَرٍ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَالِهِ إنْ كَانَ لَهُ مَالٌ ، فَهُوَ غَنِيٌّ فِي بَلَدِهِ ، فَقِيرٌ فِي سَفَرِهِ ، فَيُعْطَى لِفَقْرِهِ الْعَارِضِ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى الْعَوْدَةِ إلَى بَلَدِهِ ، وَهُوَ مِنْ عِنَايَةِ الْإِسْلَامِ بِالسِّيَاحَةِ بِالْإِعَانَةِ عَلَيْهَا ، وَلَا يُعْرَفُ مِثْلُهُ فِي دِينٍ وَلَا شَرْعٍ آخَرَ - وَاشْتَرَطُوا أَنْ يَكُونَ سَفَرُهُ فِي طَاعَةٍ أَوْ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةٍ عَلَى الْأَقَلِّ ، وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فِي السَّفَرِ الْمُبَاحِ كَالتَّنَزُّهِ لَا الِاسْتِشْفَاءِ ، وَإِنَّمَا أُخِذَ هَذَا الشَّرْطُ مِنْ قَوَاعِدِ الدِّينِ الْعَامَّةِ كَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَعَدَمِ التَّعَاوُنِ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَمِنَ الطَّاعَةِ فِي السَّفَرِ كَوْنُهُ بِقَصْدِ مَا أَرْشَدَ إلَيْهِ الْوَحْيُ مِنَ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَسُنَنِهِ فِي الْأُمَمِ ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي الْأَصْلَيْنِ 13 و14 مِنْ خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (ص77 ج8 ط الْهَيْئَةِ) وَقَلَّمَا يُوجَدُ غَنِيٌّ يُسَافِرُ فِي أَمْصَارِ الْحَضَارَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ لَا يَقْدِرُ عَلَى جَلْبِ الْمَالِ مِنْ بَلَدِهِ إلَى بَلَدٍ آخَرَ .

(189/340)

فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ أَيْ : فَرَضَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ ، أَوْ هَذِهِ الصَّدَقَاتُ فَرِيضَةٌ مِنْهُ تَعَالَى فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا رَأْيٌ ، أَوْ تَقْدِيرُ الْكَلَامِ : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِمَنْ ذُكِرَ مِنْ أَصْنَافِ الْمُحْتَاجِينَ ، وَفِيمَا ذُكِرَ مِنْ مَصَالِحِ الْأُمَّةِ حَالَ كَوْنِهَا مَفْرُوضَةً لَهُمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ عَلِيمٌ بِحَالِ عِبَادِهِ

وَمَصَالِحِهِمْ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَشْرَعُهُ لَهُمْ ، فَهُوَ لِتَطْهِيرِ أَنْفُسِهِمْ وَتَزْكِيَتِهَا ، بِمَا يَحْمِلُ عَلَيْهَا مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالشُّكْرِ لَهُ ، وَإِرْضَائِهِ بِنَفْعِ عِبَادِهِ كَمَا قَالَ فِيمَا سَيَأْتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (103) وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَى نُفَاةِ الْمَصَالِحِ فِي أَفْعَالِ اللَّهِ وَأَحْكَامِهِ . هَذَا مَا فُتِحَ عَلَيْنَا فِي مَعْنَى الْآيَةِ ، وَنُعَزِّزُهُ بِمَبَاحِثَ فِي نَظْمِهَا وَأَحْكَامِهَا وَحِكَمِهَا وَمَدَارِكِ الْأَئِمَّةِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مَصَالِحُ الْأُمَّةِ وَحَالَةُ هَذَا الْعَصْرِ فِيهَا فَنَقُولُ :

(1) مَصَارِفُ الصَّدَقَاتِ قِسْمَانِ : أَشْخَاصٌ وَمَصَالِحُ : عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ مَصَارِفَ الصَّدَقَاتِ فِي الْآيَةِ قِسْمَانِ (أَحَدُهُمَا) أَصْنَافٌ مِنَ

(190/340)

النَّاسِ يَمْلِكُونَهَا تَمْلِيكًا بِالْوَصْفِ الْمُقْتَضِي لِلتَّمْلِيكِ ، وَعَبَّرَ عَنْهُ بِلَامِ الْمِلْكِ . (وَثَانِيهِمَا) مَصَالِحُ عَامَّةٌ اجْتِمَاعِيَّةٌ وَدَوْلِيَّةٌ لَا يُقْصَدُ بِهَا أَشْخَاصٌ يَمْلِكُونَهَا بِصِفَةٍ قَائِمَةٍ فِيهِمْ وَعَبَّرَ عَنْهُ بِـ " فِي " الظَّرْفِيَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَفِي الرِّقَابِ وَقَوْلُهُ : وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْأَوَّلُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ يَسْتَحِقُّونَهَا بِفَقْرِهِمْ مَا دَامُوا فُقَرَاءَ - وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِعَمَلِهِمْ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ ، وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ يَسْتَحِقُّهَا مِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَ عِنْدَ أُولِي الْأَمْرِ الْحَاجَةُ إِلَى تَأْلِيفِهِ ، وَالْغَارِمُونَ بِقَدْرِ مَا يُخْرِجُهُمْ مِنْ غُرْمِهِمْ ، وَابْنُ السَّبِيلِ بِقَدْرِ مَا يُسَاعِدُهُ عَلَى الْعَوْدِ إِلَى أَهْلِهِ

وَمَالِهِ ، وَهَذَا فِي مَعْنَى الْفَقِيرِ ، وَلَكِنْ قَدْ يَكُونُ فَقْرُهُ عَارِضًا بِسَبَبِ السِّيَاحَةِ وَالْقِسْمُ الثَّانِي : فَكُّ الرِّقَابِ وَتَحْرِيرُهَا ، وَهِيَ مَصْلَحَةٌ عَامَّةٌ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلَيْسَ فِيهَا تَمْلِيكٌ لِأَشْخَاصٍ مُعَيَّنِينَ بِوَصْفٍ فِيهَا - وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَهُوَ يَشْمَلُ سَائِرَ الْمَصَالِحِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي هِيَ مِلَاكُ أَمْرِ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ ، وَأَوَّلُهَا وَأَوْلَاهَا بِالتَّقْدِيمِ الِاسْتِعْدَادُ لِلْحَرْبِ بِشِرَاءِ السِّلَاحِ ، وَأَغْذِيَةِ الْجُنْدِ ، وَأَدَوَاتٍ لِنَقْلٍ وَتَجْهِيزِ الْغُزَاةِ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يُجَهَّزُ بِهِ الْغَازِي يَعُودُ بَعْدَ الْحَرْبِ إلَى بَيْتِ الْمَالِ إنْ كَانَ مِمَّا يَبْقَى كَالسِّلَاحِ وَالْخَيْلِ وَغَيْرِ

(191/340)

ذَلِكَ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُهُ دَائِمًا بِصِفَةِ الْغَزْوِ الَّتِي قَامَتْ بِهِ ، بَلْ يَسْتَعْمِلُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيَبْقَى بَعْدَ زَوَالِ تِلْكَ الصِّفَةِ مِنْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، بِخِلَافِ الْفَقِيرِ وَالْعَامِلِ عَلَيْهَا وَالْغَارِمِ وَالْمُؤَلَّفِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَإِنَّهُمْ لَا يَرُدُّونَ مَا أَخَذُوا بَعْدَ فَقْدِ الصِّفَةِ الَّتِي أَخَذُوهُ بِهَا ، وَيَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ إنْشَاءُ الْمُسْتَشْفَيَاتِ الْعَسْكَرِيَّةِ ، وَكَذَا الْخَيْرِيَّةُ الْعَامَّةُ ، وَإِشْرَاعُ الطُّرُقِ وَتَعْبِيدُهَا ، وَمَدُّ الْخُطُوطِ الْحَدِيدِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ لَا التِّجَارِيَّةِ ، وَمِنْهَا بِنَاءُ الْبَوَارِجِ الْمُدَرَّعَةِ وَالْمَنَاطِيدِ وَالطَّيَّارَاتِ الْحَرْبِيَّةِ وَالْحُصُونِ وَالْخَنَادِقِ .

وَمِنْ أَهَمِّ مَا يُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ فِي زَمَانِنَا هَذَا إِعْدَادُ الدُّعَاةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَإِرْسَالُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ مِنْ قِبَلِ جَمْعِيَّاتٍ مُنَظَّمَةٍ تَمُدُّهُمْ بِالْمَالِ الْكَافِي كَمَا يَفْعَلُهُ الْكُفَّارُ فِي نَشْرِ دِينِهِمْ ، وَقَدْ

بَيَّنَّا تَفْصِيلَ هَذِهِ الْمَصْلَحَةِ الْعَظِيمَةِ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ (3 : 104) الْآيَةَ . وَيَدْخُلُ فِيهِ النَّفَقَةُ عَلَى الْمَدَارِسِ لِلْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِمَّا تَقُومُ بِهِ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ ، وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ يُعْطَى مِنْهَا مُعَلِّمُو هَذِهِ الْمَدَارِسِ مَا دَامُوا يُؤَدُّونَ وَظَائِفَهُمُ الْمَشْرُوعَةَ الَّتِي يَنْقَطِعُونَ بِهَا عَنْ كَسْبٍ آخَرَ ، وَلَا يُعْطَى عَالِمٌ غَنِيٌّ لِأَجْلِ عِلْمِهِ ، وَإِنْ كَانَ يُفِيدُ النَّاسَ بِهِ .

(192/340)

وَالتَّرْتِيبُ فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ لِبَيَانِ الْأَحَقِّ فَالْأَحَقِّ لِلصَّدَقَاتِ ، عَلَى الْقَاعِدَةِ الْغَالِبَةِ عِنْدَ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ فِي تَقْدِيمِ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ عَلَى مَا دُونَهُ فِي الْمَوْضُوعِ ، وَإِنْ كَانَتِ الْوَاوُ لَا تُفِيدُ التَّرْتِيبَ فِي مَعْطُوفَاتِهَا ، فَالْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ أَحَقُّ مِنْ غَيْرِهِمْ بِهَذِهِ الصَّدَقَاتِ ؛ لِأَنَّهُمُ الْمَقْصُودُونَ بِهَا أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ ، بِدَلِيلِ الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ : " تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ " وَيَلِيهِمُ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِجَمْعِهَا وَحِفْظِهَا ، وَقَالَ بَعْضُ

الْفُقَهَاءِ : إنَّهُمْ أَوَّلُ مَنْ يُعْطَى عُمْلَتَهُ مِنْهَا إلَّا إذَا كَانَ لَهُمْ رَوَاتِبُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ أَوْ رَأَى وَلِيُّ الْأَمْرِ إعْطَاءَهُمْ عُمَالَتَهُمْ مِنْهُ ، وَيَلِيهِمُ الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَيْهِمْ ، وَهُمْ يُعْطَوْنَ مِنَ الْغَنَائِمِ أَيْضًا ، فَالْحَاجَةُ إلَيْهِمْ عَارِضَةٌ لَا كَالْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، وَيَلِيهِمْ مَصْلَحَةُ فَكِّ الرِّقَابِ وَالْعِتْقِ وَهِيَ الْمَصَالِحُ مِنَ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْكَمَالِيَّةِ لَا الضَّرُورِيَّةِ ، فَإِنَّ تَأْخِيرَهَا لَا يُرْهِقُ مَعُوزًا كَالْفَقِيرِ ، وَلَا يُضَيِّعُ مَصْلَحَةً تَشْتَدُّ الْحَاجَةُ إلَيْهَا كَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ ، وَيَلِيهَا مُسَاعَدَةُ الْغَارِمِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ غُرْمِهِ ، فَهُوَ دُونَ مُسَاعَدَةِ الرَّقِيقِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ رِقِّهِ ، وَيَلِيهِمُ الْمَصْلَحَةُ الْعَامَّةُ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِسَبِيلِ اللَّهِ ، فَهِيَ مِنْ قَبِيلِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَادُ بِهِ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَاصِّ

(193/340)

مِمَّا قَبْلَهَا الَّذِي تَكْثُرُ الْحَاجَةُ إلَيْهِ ، وَأَمَّا ابْنُ السَّبِيلِ فَهُوَ دُونَ جَمِيعِ مَا قَبْلَهُ لِنُدْرَةِ وُجُودِهِ . وَلَوْلَا إرَادَةُ التَّرْتِيبِ لَذَكَرَ الْمُسْتَحِقُّونَ مِنَ الْأَفْرَادِ بِأَوْصَافِهِمُ الَّتِي اشْتُقَّتْ مِنْهَا أَلْقَابُهُمْ نَسَقًا (وَهُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ) ثُمَّ ذُكِرَتْ بَعْدَهُمُ الْمَصَالِحُ الَّتِي أُدْخِلَ عَلَيْهَا " فِي " وَهِيَ الرِّقَابُ وَسَبِيلُ اللَّهِ .

وَلَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ هَذَا التَّرْتِيبِ أَنَّ كُلَّ صِنْفٍ يَحْجُبُ مَا دُونَهُ حَجْبَ حِرْمَانٍ أَوْ نُقْصَانٍ كَتَرْتِيبِ الْوَارِثِينَ ، وَإِنَّمَا يَظْهَرُ اعْتِبَارُهُ فِي حَالِ قِلَّةِ الْمَالِ ، فَالْمُتَّجَهُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ يُقَدَّمُ فِيهِ الْأَهَمُّ وَهُوَ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، وَلَكِنْ بَعْدَ سَهْمِ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا إِنْ كَانُوا هُمُ الَّذِينَ جَمَعُوهَا ، وَلَمْ يَرَ الْإِمَامُ إِعْطَاءَهُمْ عُمَالَتَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ خِلَافِ الْعُلَمَاءِ فِي قِسْمَتِهَا فِي الْمَسْأَلَةِ الثَّالِثَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَبَاحِثِ .

هَذَا مَا نَفْهَمُهُ مِنَ الْآيَةِ عِنْدَ قِرَاءَتِهَا ، وَلَكِنَّنَا بَعْدَ أَنْ كَتَبْنَا مَا فَهِمْنَاهُ ، رَاجَعْنَا الْكَشَّافَ الَّذِي

(194/340)

يُعْنَى بِهَذِهِ النُّكَتِ الدَّقِيقَةِ ، فَرَأَيْنَا لَهُ رَأْيًا آخَرَ فِي نُكْتَةِ اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ مِنْ حَيْثُ تَقْسِيمِ الْأَصْنَافِ إِلَى الْقِسْمَيْنِ يُخَالِفُ رَأْيَنَا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ قَالَ : (فَإِنْ قُلْتَ) لِمَ عَدَلَ عَنِ " اللَّامِ " إِلَى " فِي " فِي الْأَرْبَعَةِ الْأَخِيرَةِ ؟ (قُلْتُ) لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُمْ أَرْسَخُ فِي اسْتِحْقَاقِ التَّصَدُّقِ عَلَيْهِمْ مِمَّنْ سَبَقَ ذِكْرُهُ ، لِأَنَّ " فِي " لِلْوِعَاءِ فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّهُمْ أَحِقَّاءُ بِأَنْ تُوضَعَ فِيهِمُ الصَّدَقَاتُ ، وَيُجْعَلُوا مَظِنَّةً لَهَا وَمَصَبًّا . وَذَلِكَ لِمَا فِي فَكِّ الرِّقَابِ مِنَ الْكِتَابَةِ أَوِ الرِّقِّ وَالْأَسْرِ ، وَفِي فَكِّ الْغَارِمِينَ مِنَ الْغُرْمِ ، مِنَ التَّخْلِيصِ وَالْإِنْقَاذِ ، وَلِجَمْعِ الْغَازِي الْفَقِيرِ ، أَوِ الْمُنْقَطِعِ فِي الْحَجِّ

بَيْنَ الْفَقْرِ وَالْعِبَادَةِ ، وَكَذَلِكَ ابْنُ السَّبِيلِ جَامِعٌ بَيْنَ الْفَقْرِ وَالْغُرْبَةِ عَنِ الْأَهْلِ وَالْمَالِ . وَتَكْرِيرُ "فِي" فِي قَوْلِهِ : وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فِيهِ فَضْلُ تَرْجِيحٍ لِهَذَيْنِ عَلَى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ اهـ .

وَقَدْ ذَكَرَ أَحْمَدُ بْنُ الْمُنِيرِ فِي (الِانْتِصَافِ) نُكْتَةً أُخْرَى هِيَ أَقْرَبُ إلَى مَا قُلْنَاهُ قَالَ :

(195/340)

وَثَمَّ سِرٌّ آخَرُ هُوَ أَظْهَرُ وَأَقْرَبُ ، ذَلِكَ أَنَّ الْأَصْنَافَ الْأَرْبَعَةَ الْأَوَائِلَ مُلَّاكٌ لِمَا عَسَاهُ يُدْفَعُ إلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُونَهُ مِلْكًا ، فَكَانَ دُخُولُ "اللَّامِ" لَائِقًا بِهِمْ ، وَأَمَّا الْأَرْبَعَةُ الْأَوَاخِرُ فَلَا يَمْلِكُونَ مَا يُصْرَفُ نَحْوَهُمْ ، بَلْ وَلَا يُصْرَفُ إلَيْهِمْ وَلَكِنْ فِي مَصَالِحَ تَتَعَلَّقُ بِهِمْ ، فَالْمَالُ الَّذِي يُصْرَفُ فِي الرِّقَابِ إنَّمَا يَتَنَاوَلُهُ السَّادَةُ الْمُكَاتَبُونَ

(196/340)

وَالْبَائِعُونَ ، فَلَيْسَ نَصِيبُهُمْ مَصْرُوفًا إلَى أَيْدِيهِمْ حَتَّى يُعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِاللَّامِ الْمُشْعِرَةِ بِتَمَلُّكِهِمْ لِمَا يُصْرَفُ نَحْوَهُمْ ، وَإِنَّمَا هُمْ مَحَالٌّ لِهَذَا الصَّرْفِ وَالْمَصْلَحَةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِهِ . وَكَذَلِكَ

الْغَارِمُونَ إِنَّمَا يُصْرَفُ نَصِيبُهُمْ لِأَرْبَابِ دُيُونِهِمْ تَخْلِيصًا لِذِمَمِهِمْ لَا لَهُمْ . وَأَمَّا سَبِيلُ اللَّهِ فَوَاضِحٌ فِيهِ ذَلِكَ ، وَأَمَّا ابْنُ السَّبِيلِ فَكَأَنَّهُ كَانَ مُنْدَرِجًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَإِنَّمَا أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ تَنْبِيهًا عَلَى خُصُوصِيَّتِهِ مَعَ أَنَّهُ مُجَرَّدٌ مِنَ الْحَرْفَيْنِ جَمِيعًا ، وَعَطْفُهُ عَلَى الْمَجْرُورِ بِاللَّامِ مُمْكِنٌ ، وَلَكِنْ عَلَى الْقَرِيبِ مِنْهُ أَقْرَبُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَكَانَ جَدِّي أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ فَارِسٍ الْفَقِيهُ الْوَزِيرُ اسْتَنْبَطَ مِنْ تَغَايُرِ الْحَرْفَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ وَجْهًا فِي الِاسْتِدْلَالِ لِمَالِكٍ عَلَى أَنَّ الْغَرَضَ بَيَانُ الْمَصْرَفِ ، " وَاللَّامُ لِذَلِكَ لَامُ الْمِلْكِ ، فَيَقُولُ مُتَعَلِّقُ الْجَارِّ الْوَاقِعِ خَبَرًا عَنِ الصَّدَقَاتِ مَحْذُوفٌ فَيَتَعَيَّنُ تَقْدِيرُهُ ، فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ التَّقْدِيرُ : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ مَصْرُوفَةٌ لِلْفُقَرَاءِ كَقَوْلِ مَالِكٍ ، أَوْ مَمْلُوكَةٌ لِلْفُقَرَاءِ كَقَوْلِ الشَّافِعِيِّ ، لَكِنَّ الْأَوَّلَ مُتَعَيَّنٌ ؛ لِأَنَّهُ تَقْدِيرٌ يُكْتَفَى بِهِ فِي الْحَرْفَيْنِ جَمِيعًا يَصِحُّ تَعَلُّقُ اللَّامِ بِهِ وَفِي مَعًا فَيَصِحُّ أَنْ تَقُولَ : هَذَا الشَّيْءُ مَصْرُوفٌ فِي كَذَا ، وَلَكَذَا بِخِلَافِ تَقْدِيرِهِ مَمْلُوكَةٌ ، فَإِنَّهُ لَا يَلْتَئِمُ مَعَ اللَّامِ وَعِنْدَ الِانْتِهَاءِ إِلَى " فِي " يَحْتَاجُ إِلَى تَقْدِيرٍ

(197/340)

مَصْرُوفَةٌ لِيَلْتَئِمَ بِهَا ، فَتَقْدِيرُهُ مِنَ اللَّامِ عَامٌّ التَّعَلُّقُ شَامِلُ الصِّحَّةِ مُتَعَيَّنٌ ، وَاللَّهُ الْمُوَفِّقُ اهـ .

وَمَا قَالَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ يُوَافِقُ فِي الْجُمْلَةِ ، إِلَّا أَنَّهُ جَعَلَ سَهْمَ الْغَارِمِينَ مِنَ الْمَصَالِحِ وَهُوَ مُحْتَمَلٌ ،

وَمَا قُلْنَاهُ فِيهِمْ أَظْهَرُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُشْتَرَطُ أَنْ يُعْطَى كُلُّ مَا يَأْخُذُونَهُ لِأَرْبَابِ دُيُونِهِمْ وَلَا سِيَّمَا الْغَارِمِينَ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فَمَا يُعْطَوْنَهُ مُسَاعَدَةٌ عَلَى مَا يُعْطُونَ غَيْرَهُمْ أَوْ تَعْوِيضٌ عَمَّا أَعْطَوْا ، وَأَجَازَ الْوَجْهَيْنِ فِي ابْنِ السَّبِيلِ ، وَضَعْفُهُ ظَاهِرٌ فَهُوَ مِمَّنْ يَمْلِكُونَ سَهْمَهُمْ .

(2) أَنْوَاعُ الصَّدَقَاتِ وَعُرُوضُ التِّجَارَةِ مِنْهَا :

ذَكَرْنَا فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ الْآيَةِ أَنَّ أَنْوَاعَ الصَّدَقَاتِ : زَكَاةُ النَّقْدَيْنِ ، وَزَكَاةُ الْأَنْعَامِ ، وَزَكَاةُ الزُّرُوعِ ، وَزَكَاةُ الْمَعْدِنِ وَالرِّكَازِ ، وَهُوَ مَا يُوجَدُ فِي الْأَرْضِ مِنَ

الْكُنُوزِ الْمَدْفُونَةِ ، وَلِكُلٍّ مِنْهَا نِصَابٌ لَا تَجِبُ الزَّكَاةُ فِيمَا دُونَهُ ، وَهُوَ مُبَيَّنٌ فِي كُتُبِ السُّنَّةِ وَالْفِقْهِ ، وَلَعَلَّنَا نَذْكُرُهُ فِي تَفْسِيرِ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (103) وَجُمْهُورُ عُلَمَاءِ الْمِلَّةِ يَقُولُونَ بِوُجُوبِ زَكَاةِ عُرُوضِ التِّجَارَةِ ، وَلَيْسَ فِيهَا نَصٌّ قَطْعِيٌّ مِنَ الْكِتَابِ أَوِ السُّنَّةِ ، وَإِنَّمَا وَرَدَ فِيهَا رِوَايَاتٌ يُقَوِّي بَعْضُهَا بَعْضًا مَعَ الِاعْتِبَارِ الْمُسْتَنِدِ إِلَى النُّصُوصِ ، وَهُوَ أَنَّ عُرُوضَ التِّجَارَةِ الْمُتَدَاوَلَةِ لِلِاسْتِغْلَالِ نُقُودٌ لَا فَرْقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ الَّتِي هِيَ أَثْمَانُهَا إِلَّا فِي كَوْنِ النِّصَابِ يُقْلَبُ وَيَتَرَدَّدُ بَيْنَ الثَّمَنِ وَهُوَ النَّقْدُ ، وَالْمُثَمَّنُ وَهُوَ الْعُرُوضُ ، فَلَوْ لَمْ تَجِبِ

الزَّكَاةُ فِي التِّجَارَةِ لَأَمْكَنَ لِجَمِيعِ الْأَغْنِيَاءِ أَوْ أَكْثَرِهِمْ أَنْ يَتَّجِرُوا بِنُقُودِهِمْ ، وَيَتَحَرَّوْا أَلَّا يَحُولَ عَلَى نِصَابٍ مِنَ النَّقْدَيْنِ أَبَدًا . وَبِذَلِكَ تَبْطُلُ الزَّكَاةُ فِيهِمَا عِنْدَهُمْ .

(199/340)

وَرَأْسُ الِاعْتِبَارِ فِي الْمَسْأَلَةِ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ صَدَقَةً لِمُوَاسَاةِ الْفُقَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَإِقَامَةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَقَدَّمَ بَيَانُهَا . وَأَنَّ الْفَائِدَةَ فِي ذَلِكَ لِلْأَغْنِيَاءِ تَطْهِيرُ أَنْفُسِهِمْ مِنْ رَذِيلَةِ الْبُخْلِ ، وَتَزْكِيَتُهَا بِفَضَائِلِ الرَّحْمَةِ بِالْفُقَرَاءِ وَسَائِرِ أَصْنَافِ الْمُسْتَحِقِّينَ ، وَمُسَاعَدَةُ الدَّوْلَةِ وَالْأُمَّةِ فِي إِقَامَةِ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الْأُخْرَى الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا ، وَالْفَائِدَةَ لِلْفُقَرَاءِ وَغَيْرِهِمْ إِعَانَتُهُمْ عَلَى نَوَائِبِ الدَّهْرِ – مَعَ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ سَدِّ ذَرِيعَةِ الْمَفَاسِدِ فِي تَضَخُّمِ الْأَمْوَالِ وَحَصْرِهَا فِي أُنَاسٍ مَعْدُودِينَ ، وَهُوَ الْمُشَارُ إِلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي حِكْمَةِ قِسْمَةِ الْفَيْءِ : كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ (59 : 7) فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الشَّرْعِيَّةِ كُلِّهَا التُّجَّارُ الَّذِينَ رُبَّمَا تَكُونُ مُعْظَمُ ثَرْوَةِ الْأُمَّةِ فِي أَيْدِيهِمْ ؟ وَسَنَذْكُرُ سَائِرَ فَوَائِدِ الزَّكَاةِ وَمَنَافِعِهَا الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (103) إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(3) تَوْزِيعُ الصَّدَقَاتِ عَلَى الْأَصْنَافِ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ

قَالَ الْقَاضِي أَبُو الْوَلِيدِ مُحَمَّدُ بْنُ رُشْدٍ الْحَفِيدُ فِي بَحْثِ مَنْ تَجِبُ لَهُ الصَّدَقَةُ مِنْ كِتَابِهِ (بِدَايَةُ الْمُجْتَهِدِ)

(200/340)

مَا نَصُّهُ : فَأَمَّا عَدَدُهُمْ فَهُمُ الثَّمَانِيَةُ الَّذِينَ نُصَّ عَلَيْهِمْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الْآيَةَ . وَاخْتَلَفُوا مِنَ الْعَدَدِ فِي مَسْأَلَتَيْنِ : (إِحْدَاهُمَا) هَلْ يَجُوزُ أَنْ تُصْرَفَ جَمِيعُ الصَّدَقَةِ إِلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَصْنَافِ ؟ أَمْ هُمْ شُرَكَاءُ فِي الصَّدَقَةِ لَا يَجُوزُ أَنْ يُخَصَّ بِهَا صِنْفٌ

دُونَ صِنْفٍ ؟ فَذَهَبَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ أَنَّهُ يَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَصْرِفَهَا فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ إِذَا رَأَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ . وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : لَا يَجُوزُ ذَلِكَ بَلْ يُقَسَّمُ عَلَى الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ كَمَا سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى .

(201/340)

وَسَبَبُ اخْتِلَافِهِمْ مُعَارَضَةُ اللَّفْظِ يَقْتَضِي الْقِسْمَةَ بَيْنَ جَمِيعِهِمْ وَالْمَعْنَى يَقْتَضِي أَنْ يُؤْثَرَ بِهَا أَهْلَ الْحَاجَةِ ، إذْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهَا سَدَّ الْخَلَّةِ ، فَكَانَ تَعْدِيدُهُمْ فِي الْآيَةِ عِنْدَ هَؤُلَاءِ إنَّمَا وَرَدَ لِتَمْيِيزِ الْجِنْسِ - أَعْنِي أَهْلَ الصَّدَقَاتِ - لَا تَشْرِيكِهِمْ فِي الصَّدَقَةِ . فَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ مِنْ جِهَةِ اللَّفْظِ ، وَهَذَا أَظْهَرُ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى . وَمِنَ الْحُجَّةِ لِلشَّافِعِيِّ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنِ الصُّدَائِيِّ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ الصَّدَقَةِ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ أَنْ يَحْكُمَ نَبِيٌّ وَلَا غَيْرُهُ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ فَإِنْ كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ اهـ . ثُمَّ ذَكَرَ الْمَسْأَلَةَ الثَّانِيَةَ وَهِيَ الِاخْتِلَافُ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَقَدْ تَقَدَّمَتْ .

(202/340)

وَأَقُولُ : إنَّ الْإِمَامَ الشَّافِعِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَطَالَ فِي مَسْأَلَةِ وُجُوبِ تَعْمِيمِ مَا يُوجَدُ مِنَ الْأَصْنَافِ فِي كِتَابِهِ " الْأُمِّ " فِي فُصُولٍ كَثِيرَةٍ ، وَقَدْ بَيَّنَ النَّوَوِيُّ الْمَذْهَبَ فِيهَا وَالْقَائِلِينَ بِالتَّعْمِيمِ وَالْمُخَالِفِينَ فِيهِ مِنَ السَّلَفِ وَعُلَمَاءِ الْأَمْصَارِ فِي شَرْحِ الْمُهَذَّبِ . قَالَ : " قَالَ الشَّافِعِيُّ وَالْأَصْحَابُ رَحِمَهُمُ اللَّهُ . إنْ كَانَ مُفَرِّقُ الزَّكَاةِ هُوَ الْمَالِكُ أَوْ وَكِيلُهُ سَقَطَ نَصِيبُ الْعَامِلِ ، وَوَجَبَ صَرْفُهَا إلَى الْأَصْنَافِ السَّبْعَةِ الْبَاقِينَ إنْ وُجِدُوا وَإِلَّا فَالْمَوْجُودُ مِنْهُمْ ، وَلَا

يَجُوزُ تَرْكُ صِنْفٍ مِنْهُمْ مَعَ وُجُودِهِ ، فَإِنْ تَرَكَهُ ضَمِنَ نَصِيبَهُ ، وَهَذَا لِاخْتِلَافٍ فِيهِ إلَّا مَا سَيَأْتِي إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، وَبِمَذْهَبِنَا فِي اسْتِيعَابِ الْأَصْنَافِ قَالَ عِكْرِمَةُ وَعُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالزُّهْرِيُّ وَدَاوُدُ .

(203/340)

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ وَعَطَاءٌ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ وَالشَّعْبِيُّ وَالثَّوْرِيُّ وَمَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَأَحْمَدُ وَأَبُو عُبَيْدٍ : لَهُ صَرْفُهَا إلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ ، قَالَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَغَيْرُهُ وَرُوِيَ هَذَا عَنْ حُذَيْفَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَلَهُ صَرْفُهَا إلَى شَخْصٍ وَاحِدٍ مِنْ أَحَدِ الْأَصْنَافِ قَالَ مَالِكٌ وَيَصْرِفُهَا إلَى أَمَسِّهِمْ حَاجَةً ، وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : إنْ كَانَتْ قَلِيلَةً جَازَ صَرْفُهَا إلَى صِنْفٍ وَإِلَّا وَجَبَ اسْتِيعَابُ الْأَصْنَافِ . قَالُوا وَمَعْنَاهَا (أَيْ آيَةِ الصَّدَقَاتِ) لَا يَجُوزُ صَرْفُهَا إلَى غَيْرِ هَذِهِ الْأَصْنَافِ وَهُوَ فِيهِمْ مُخَيَّرًا اهـ ثُمَّ ذَكَرَ مَا يَجِبُ عَلَى الْإِمَامِ أَوْ نَائِبِهِ مِنْ ذَلِكَ وَلَا حَاجَةَ إلَى نَقْلِهِ .

أَقُولُ : إنَّ خِلَافَ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْأَمْصَارِ فِي الْمَسْأَلَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقْ فِيهَا سُنَّةٌ عَمَلِيَّةٌ مُجْمَعٌ عَلَيْهَا مِنْ عَهْدِ الرَّسُولِ ، وَلَا مِنْ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَهَا مِنَ الْمَصَالِحِ

الَّتِي يَتَرَجَّحُ فِيهَا الْعَمَلُ بِمَا يَرَاهُ أُولُو الْأَمْرِ فِي دَرَجَةِ الِاسْتِحْقَاقِ وَقِلَّةِ الْمَالِ وَكَثْرَتِهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، وَفِي بَيْتِ الْمَالِ ، وَأَقْرَبُ أَقْوَالِ الْأَئِمَّةِ فِي مُرَاعَاةِ الْمَصْلَحَةِ قَوْلُ مَالِكٍ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ ، وَأَبْعَدُهَا عَنِ الْمَصْلَحَةِ وَالنَّصِّ جَمِيعًا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ : إلَّا إذَا كَانَ الْمَالُ قَلِيلًا جِدًّا إذَا أَعْطَاهَا وَاحِدًا انْتَفَعَ بِهِ ، وَإِذَا وَزَّعَهُ عَلَى مَنْ يُوجَدُ مِنَ الْأَصْنَافِ أَوْ عَلَى أَفْرَادِ صِنْفٍ وَاحِدٍ كَالْفُقَرَاءِ لَمْ يُصِبْ أَحَدًا مِنْهُمْ مَالُهُ مَوْقِعًا مِنْ كِفَايَتِهِ . وَأَمَّا جَوَازُ إعْطَاءِ الْمَالِ الْكَثِيرِ إلَى وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْتَحِقِّينَ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ فَلَا وَجْهَ لَهُ وَلَا شُبْهَةَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ أَصْنَافًا بِصِيغَةِ الْجَمْعِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَقُولَ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَلَا مَنْ دُونَهُ عِلْمًا وَفَهْمًا . إنَّ إعْطَاءَ وَاحِدٍ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ يُعَدُّ امْتِثَالًا لِأَمْرِ اللَّهِ وَعَمَلًا بِكِتَابِهِ .

وَيَنْبَغِي لِجَمَاعَةِ الشُّورَى مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ أَنْ يَضَعُوا فِي كُلِّ عَصْرٍ وَقُطْرٍ نِظَامًا لِتَقْدِيمِ الْأَهَمِّ فَالْأَهَمِّ إذَا لَمْ تَكْفِ الصَّدَقَاتُ الْجَمِيعَ ؛ لِيَمْنَعُوا السَّلَاطِينَ وَالْأُمَرَاءَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِيهَا بِأَهْوَائِهِمْ ، وَذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْأَصْنَافِ يُوجَدُ فِي بَعْضِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ دُونَ بَعْضٍ ، كَمَا أَنَّ دَرَجَاتِ الْحَاجِيَّةِ تَخْتَلِفُ .

(4) الزَّكَاةُ الْمُطْلَقَةُ وَالْمُعَيَّنَةُ وَمَكَانَتُهَا فِي الدِّينِ ، وَحُكْمُ دَارِ الْإِسْلَامِ وَدَارِ الْكُفْرِ أَوِ الذَّبْذَبَةِ فِيهَا :

(205/340)

فُرِضَتِ الزَّكَاةُ الْمُطْلَقَةُ بِمَكَّةَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَتُرِكَ أَمْرُ مِقْدَارِهَا وَدَفْعِهَا إِلَى شُعُورِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْيَحِيَّتِهِمْ ، ثُمَّ فُرِضَ مِقْدَارُهَا مِنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنَ أَنْوَاعِ الْأَمْوَالِ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ عَلَى الْمَشْهُورِ ، وَقِيلَ فِي الْأُولَى : ذَكَرَهُ الذَّهَبِيُّ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ، وَكَانَتْ تُصْرَفُ لِلْفُقَرَاءِ كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ (2 : 271) وَقَدْ نَزَلَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ ، وَكَمَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمُعَاذٍ : " تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ " وَتَقَدَّمَ . ثُمَّ نَزَلَتْ هَذِهِ الْمَصَارِفُ السَّبْعُ أَوِ الثَّمَانِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ ، فَتَوَهَّمَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ أَنَّ فَرْضَ الزَّكَاةِ كَانَ فِي هَذِهِ السَّنَةِ .

وَالْحِكْمَةُ فِيمَا ذُكِرَ أَنَّ تَعْيِينَ الْمَقَادِيرِ ، وَقِيَامَ أُولِي الْأَمْرِ بِتَحْصِيلِهَا وَتَوْزِيعِهَا عَلَى مَنْ فُرِضَتْ لَهُمْ ، وَتَعَدُّدِ أَصْنَافِهِمْ ، كُلُّ ذَلِكَ إِنَّمَا وُجِدَ بِوُجُودِ حُكُومَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ تُنَاطُ بِهَا مَصَالِحُ الْأُمَّةِ فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا فِي دَارٍ تُسَمَّى دَارَ الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّ أَحْكَامَهُ تُنَفَّذُ فِيهَا بِسُلْطَانِهِ

، وَكَانَتْ دَارُ الْهِجْرَةِ إذْ كَانَتْ مَكَّةُ دَارَ كُفْرٍ وَحَرْبٍ لَا يُنَفَّذُ فِيهَا لِلْإِسْلَامِ حُكْمٌ ، بَلْ لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِهِ فِيهَا حُرِّيَّةُ الْجَهْرِ بِالصَّلَاةِ إلَّا بِحِمَايَةِ قَرِيبٍ أَوْ جَارٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ .

(206/340)

وَإِمَامُ الْمُسْلِمِينَ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ هُوَ الَّذِي تُؤَدَّى لَهُ صَدَقَاتُ الزَّكَاةِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْحَقِّ بِجَمْعِهَا وَصَرْفِهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا ، وَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُقَاتِلَ الَّذِينَ يَمْتَنِعُونَ عَنْ أَدَائِهَا إلَيْهِ كَمَا فَعَلَ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَرَضِيَ عَنْهُ فِيمَنْ مَنَعُوا الزَّكَاةَ مِنَ الْعَرَبِ وَقَالَ : " وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ

مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ ،

وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهَا وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . فَالزَّكَاةُ هِيَ الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ - بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ وَالصَّلَاةِ الْمَفْرُوضَةِ - وَأَظْهَرُ آيَاتِ الْإِيمَانِ ، وَتَقَدَّمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ اشْتِرَاطُ أَدَائِهَا فِي قَبُولِ إسْلَامِ الْكُفَّارِ وَعَدِّهِمْ إخْوَانًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الدِّينِ وَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُبَايِعُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَدَائِهَا ، وَأَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى كُفْرِ جَاحِدِهَا وَمُسْتَحِلِّ تَرْكِهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا

مَكَانَةَ الزَّكَاةِ فِي الْإِسْلَامِ وَأَدِلَّتَهَا عَلَى صِدْقِ الْإِيمَانِ وَضَلَالِ تَارِكِيهَا فِي هَذَا الزَّمَانِ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ .

(207/340)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ لَمْ يَبْقَ لَهُمْ فِي هَذَا الْعَصْرِ حُكُومَاتٌ إِسْلَامِيَّةٌ تُقِيمُ الْإِسْلَامَ بِالدَّعْوَةِ إِلَيْهِ وَالدِّفَاعِ عَنْهُ ، وَالْجِهَادِ الَّذِي يُوجِبُهُ وُجُوبًا عَيْنِيًّا أَوْ كِفَائِيًّا ، وَتُقِيمُ حُدُودَهُ ، وَتَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَةَ كَمَا فَرَضَهَا ، وَتَضَعُهَا فِي مَصَارِفِهَا الَّتِي حَدَّدَهَا ، بَلْ سَقَطَ أَكْثَرُهُمْ تَحْتَ سُلْطَةِ دُوَلِ الْإِفْرِنْجِ ، وَبَعْضُهُمْ تَحْتَ سُلْطَةِ حُكُومَاتٍ مُرْتَدَّةٍ أَوْ مُلْحِدَةٍ ، وَلِبَعْضِ الْخَاضِعِينَ لِدُوَلِ الْإِفْرِنْجِ رُؤَسَاءُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجُغْرَافِيِّينَ اتَّخَذَهُمُ الْإِفْرِنْجُ آلَاتٍ لِإِخْضَاعِ الشُّعُوبِ لَهُمْ بِاسْمِ الْإِسْلَامِ حَتَّى فِيمَا يَهْدِمُونَ بِهِ الْإِسْلَامَ ، وَيَتَصَرَّفُونَ بِنُفُوذِهِمْ وَأَمْرِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمْ فِيمَا لَهُ صِفَةٌ دِينِيَّةٌ مِنْ صَدَقَاتِ الزَّكَاةِ وَالْأَوْقَاتِ وَغَيْرِهَا ، فَأَمْثَالُ هَذِهِ الْحُكُومَاتِ لَا يَجُوزُ دَفْعُ شَيْءٍ مِنَ الزَّكَاةِ لَهَا مَهْمَا يَكُنْ لَقَبُ رَئِيسِهَا وَدِينُهُ الرَّسْمِيُّ .

(208/340)

وَأَمَّا بَقَايَا الْحُكُومَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي يَدِينُ أَئِمَّتُهَا وَرُؤَسَاؤُهَا بِالْإِسْلَامِ ، وَلَا سُلْطَانَ عَلَيْهِمْ لِلْأَجَانِبِ فِي بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ، فَهِيَ الَّتِي يَجِبُ أَدَاءُ الزَّكَاةِ لِأَئِمَّتِهَا ، وَكَذَا الْبَاطِنَةُ كَالنَّقْدَيْنِ إذَا طَلَبُوهَا ، وَإِنْ كَانُوا جَائِرِينَ فِي بَعْضِ أَحْكَامِهِمْ كَمَا قَالَ الْفُقَهَاءُ ، وَتَبْرَأُ ذِمَّةُ مَنْ أَدَّاهَا إلَيْهِمْ وَإِنْ لَمْ يَضَعُوهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمَنْصُوصَةِ فِي الْآيَةِ الْحَكِيمَةِ بِالْعَدْلِ . وَالَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الْمُحَقِّقُونَ كَمَا فِي

شَرْحِ الْمُهَذَّبِ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْإِمَامَ السُّلْطَانَ إذَا كَانَ جَائِرًا لَا يَضَعُ الصَّدَقَاتِ فِي مَصَارِفِهَا الشَّرْعِيَّةِ ، فَالْأَفْضَلُ لِمَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ أَنْ يُؤَدِّيَهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا بِنَفْسِهِ ، إذَا لَمْ يَطْلُبْهَا الْإِمَامُ أَوِ الْعَامِلُ مِنْ قِبَلِهِ .

(5) لَا تُعْطَى الزَّكَاةُ لِلْمُرْتَدِّينَ ، وَلَا لِلْمَلَاحِدَةِ وَالْإِبَاحِيِّينَ :

مِنَ الْمَعْلُومِ بِالِاخْتِبَارِ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الْإِلْحَادُ وَالزَّنْدَقَةُ فِي الْأَمْصَارِ الَّتِي أَفْسَدَ التَّفَرْنُجُ تَرْبِيَتَهَا الْإِسْلَامِيَّةَ وَتَعْلِيمَ مَدَارِسِهَا ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الْمُرْتَدَّ عَنِ الْإِسْلَامِ شَرٌّ مِنَ الْكَافِرِ الْأَصْلِيِّ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى شَيْئًا مِنَ الزَّكَاةِ ، وَلَا مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ ، وَأَمَّا الْكَافِرُ الْأَصْلِيُّ غَيْرُ الْحَرْبِيِّ فَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ دُونَ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ .

وَالْمَلَاحِدَةُ فِي أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَمْصَارِ أَصْنَافٌ (مِنْهُمْ) مَنْ يُجَاهِرُ بِالْكُفْرِ بِاللهِ إمَّا بِالتَّعْطِيلِ وَإِنْكَارِ وُجُودِ الْخَالِقِ ، وَإِمَّا بِالشِّرْكِ بِعِبَادَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُجَاهِرُ بِإِنْكَارِ الْوَحْيِ وَبَعْثَةِ الرُّسُلِ ، أَوْ بِالطَّعْنِ فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ فِي الْقُرْآنِ أَوْ فِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ بِمَعْنَى الْجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَحِلُّ شُرْبَ الْخَمْرِ وَالزِّنَا وَتَرْكَ الصَّلَاةِ وَغَيْرَهَا مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ فَلَا يُصَلِّي وَلَا يُزَكِّي وَلَا يَصُومُ وَلَا يَحُجُّ الْبَيْتَ الْحَرَامَ مَعَ الِاسْتِطَاعَةِ ، وَهَؤُلَاءِ لَا اعْتِدَادَ بِإِسْلَامِهِمُ الْجُغْرَافِيِّ ، فَلَا يَجُوزُ إعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِأَحَدٍ مِمَّنْ ذُكِرَ ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْمُزَكِّي أَنْ يَتَحَرَّى بِزَكَاتِهِ مَنْ يَثِقُ بِصِحَّةِ عَقِيدَتِهِمُ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَإِذْعَانِهِمْ لِلْأَمْرِ وَالنَّهْيِ الْقَطْعِيَّيْنِ فِي الدِّينِ ، وَلَا يُشْتَرَطُ فِي هَؤُلَاءِ عَدَمُ اقْتِرَافِ شَيْءٍ مِنَ الذُّنُوبِ ، فَإِنَّ الْمُسْلِمَ قَدْ يُذْنِبُ وَلَكِنَّهُ يَتُوبُ . وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّهُمْ لَا يُكَفِّرُونَ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ بِذَنْبٍ وَلَا بِبِدْعَةٍ عَمَلِيَّةٍ أَوِ اعْتِقَادِيَّةٍ هُوَ فِيهَا مُتَأَوِّلٌ لَا جَاحِدٌ لِلنَّصِّ . وَأَنَّ الْفَرْقَ عَظِيمٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِ الْمُذْعِنِ لِأَمْرِ اللهِ وَنَهْيِهِ إذَا أَذْنَبَ ، وَالْمُسْتَحِلِّ لِتَرْكِ الْفَرَائِضِ وَاقْتِرَافِ الْفَوَاحِشِ فَهُوَ يُصِرُّ عَلَيْهِمَا بِدُونِ شُعُورٍ مَا بِأَنَّهُ مُكَلَّفٌ مِنَ اللهِ بِشَيْءٍ ، وَلَا بِأَنَّهُ قَدْ

عَصَاهُ ، وَأَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَتُوبَ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرَهُ .

وَلَا يَنْبَغِي إِعْطَاءُ الزَّكَاةِ لِمَنْ يَشُكُّكُ الْمُسْلِمَ فِي إِسْلَامِهِ . وَمَا أَدْرِي مَا يَقُولُ فِيمَنْ يَرَاهُمْ بِعَيْنِهِ فِي الْمَقَاهِي وَالْحَانَاتِ وَالْمَلَاهِي يُدَخِّنُونَ أَوْ يَسْكَرُونَ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ حَتَّى فِي وَقْتِ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ ، وَرُبَّمَا كَانَ الْمَلْهَى تُجَاهَ مَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ الْجُمُعَةِ ؟ هَلْ يُعَدُّ هَؤُلَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُذْنِبِينَ ؟ أَمْ مِنَ الْمَلَاحِدَةِ الْإِبَاحِيِّينَ ؟ مَهْمَا يَكُنْ ظَنُّهُ فِيهِمْ فَلَا يُعْطِهِمْ مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ شَيْئًا ، بَلْ يَتَحَرَّى بِهَا مَنْ يَثِقُ بِدِينِهِ وَصَلَاحِهِ ، إِلَّا إِذَا عَلِمَ أَنَّ فِي إِعْطَاءِ الْفَاسِقِ اسْتِصْلَاحًا لَهُ فَيَكُونُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ .

(6) الْتِزَامُ أَدَاءِ الزَّكَاةِ كَافٍ لِإِعَادَةِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ :

(211/340)

الْمَالُ قِوَامُ الْحَيَاةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْمِلِّيَّةِ أَوْ مِلَاكُهَا وَقِيَامُ نِظَامِهَا كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا (4 : 5) إِنَّ الْإِسْلَامَ يَمْتَازُ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ وَالشَّرَائِعِ بِفَرْضِ الزَّكَاةِ فِيهِ ، كَمَا يَعْتَرِفُ لَهُ بِهَذَا حُكَمَاءُ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَعُقَلَاؤُهَا ، وَلَوْ أَقَامَ الْمُسْلِمُونَ هَذَا الرُّكْنَ مِنْ دِينِهِمْ لَمَا وُجِدَ فِيهِمْ – بَعْدَ أَنْ كَثَّرَهُمُ اللهُ ، وَوَسَّعَ عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ – فَقِيرٌ مُدْقِعٌ ، وَلَا ذُو غُرْمٍ مُفْجِعٌ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ تَرَكُوا هَذِهِ الْفَرِيضَةَ فَجَنَوْا عَلَى

دِينِهِمْ وَمِلَّتِهِمْ وَأُمَّتِهِمْ فَصَارُوا أَسْوَأَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ حَالًا فِي مَصَالِحِهِمُ الْمِلِّيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، حَتَّى فَقَدُوا مُلْكَهُمْ وَعِزَّهُمْ وَشَرَفَهُمُ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَصَارُوا عَالَةً عَلَى أَهْلِ الْمِلَلِ الْأُخْرَى حَتَّى فِي تَرْبِيَةِ أَبْنَائِهِمْ وَبَنَاتِهِمْ ، فَهُمْ يَلْقَوْنَهُمْ فِي مَدَارِسِ دُعَاةٍ أَوْ دُعَاةِ الْإِلْحَادِ فَيُفْسِدُونَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَيَقْطَعُونَ رَوَابِطَهُمُ الْمِلِّيَّةَ وَالْجِنْسِيَّةَ ، وَيُعِدُّونَهُمْ لِيَكُونُوا عَبِيدًا أَذِلَّةً لِلْأَجَانِبِ عَنْهُمْ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ : لِمَاذَا لَا تُؤَسِّسُونَ لِأَنْفُسِكُمْ مَدَارِسَ

(212/340)

كَمَدَارِسِ هَؤُلَاءِ الرُّهْبَانِ وَالْمُبَشِّرِينَ ؟ أَوِ الْمَلَاحِدَةِ الْإِبَاحِيِّينَ ؟ قَالُوا : إِنَّنَا لَا نَجِدُ مِنَ الْمَالِ مَا يَقُومُ بِذَلِكَ . وَإِنَّمَا الْحَقُّ أَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ مِنَ الدِّينِ وَالْعَقْلِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَالْغَيْرَةِ مَا يُمَكِّنُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، فَهُمْ يَرَوْنَ أَبْنَاءَ الْمِلَلِ الْأُخْرَى يَبْذُلُونَ لِلْمَدَارِسِ وَلِلْجَمْعِيَّاتِ الْخَيْرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ مَالًا لَمْ يُوجِبْهُ عَلَيْهِمْ دِينُهُمْ ، وَإِنَّمَا أَوْجَبَتْهُ عَلَيْهِمْ عُقُولُهُمْ وَغَيْرَتُهُمُ الْمِلِّيَّةُ وَالْقَوْمِيَّةُ وَلَا يَغَارُونَ مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَرْضَوْنَ أَنْ يَكُونُوا عَالَةً عَلَيْهِمْ . تَرَكُوا دِينَهُمْ ، فَضَاعَتْ لَهُ دُنْيَاهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (59 : 19) .

(213/340)

فَالْوَاجِبُ عَلَى دُعَاةِ الْإِصْلَاحِ فِيهِمْ أَنْ يَبْدَءُوا بِإِصْلَاحِ مَنْ بَقِيَ فِيهِ بَقِيَّةٌ مِنَ الدِّينِ وَالشَّرَفِ بِتَأْلِيفِ جَمْعِيَّةٍ لِتَنْظِيمِ جَمْعِ الزَّكَاةِ مِنْهُمْ ، وَصَرْفِهَا قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ فِي مَصَالِحِ الْمُرْتَبِطِينَ بِهَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِي نِظَامِ هَذِهِ الْجَمْعِيَّةِ أَنَّ لِسَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مَصْرَفًا فِي مُقَاوَمَةِ الرِّدَّةِ وَالْإِلْحَادِ ، وَأَنَّ لِسَهْمِ فَكِّ الرِّقَابِ مَصْرَفًا فِي تَحْرِيرِ الشُّعُوبِ الْمُسْتَعْمَرَةِ مِنَ الِاسْتِعْبَادِ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَصْرَفُ تَحْرِيرِ الْأَفْرَادِ ، وَأَنَّ لِسَهْمِ سَبِيلِ اللهِ مَصْرَفًا فِي السَّعْيِ لِإِعَادَةِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ أَهَمُّ مِنَ الْجِهَادِ لِحِفْظِهِ فِي حَالِ وُجُودِهِ مِنْ عُدْوَانِ الْكُفَّارِ ، وَمَصْرَفًا آخَرَ فِي الدَّعْوَةِ إِلَيْهِ ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ بِالْأَلْسِنَةِ وَالْأَقْلَامِ ، إِذَا تَعَذَّرَ الدِّفَاعُ عَنْهُ بِالسُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ وَبِأَلْسِنَةِ النِّيرَانِ .

أَلَا إِنَّ إِيتَاءَ الْمُسْلِمِينَ أَوْ أَكْثَرِهِمْ لِلزَّكَاةِ وَصَرْفَهَا بِالنِّظَامِ ، كَافٍ لِإِعَادَةِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ لِإِعَادَةِ مَا سَلَبَهُ الْأَجَانِبُ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنْقَاذِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ رِقِّ الْكُفَّارِ ، وَمَا هِيَ إِلَّا بَذْلُ الْعُشْرِ أَوْ رُبْعِ الْعُشْرِ مِمَّا فَضَلَ عَنْ حَاجَةِ الْأَغْنِيَاءِ . وَإِنَّنَا نَرَى الشُّعُوبَ الَّتِي سَادَتِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا سَادَتَهُمْ يَبْذُلُونَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ أُمَّتِهِمْ وَهُوَ غَيْرُ مَفْرُوضٍ عَلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ .

وَقَدْ كَثُرَ تَسَاؤُلُ أَذْكِيَاءِ الْمُسْلِمِينَ عَنْ إِحْيَاءِ فَرِيضَةِ الزَّكَاةِ ، وَقَوِيَ اسْتِعْدَادُ أَهْلِ الْغَيْرَةِ لِلْقِيَامِ بِهِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، وَكَادَ أَهْلُ الْأَهْوَاءِ يَسْتَغِلُّونَ هَذَا الِاسْتِعْدَادَ لِمَنَافِعِهِمْ ، فَهَلْ نَجِدُ مِنْ أَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ مَنْ يَنْهَضُ بِهِ نَهْضَةً تَكُونُ أَهْلًا لِأَنْ يَثِقَ بِهَا الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ وَيُعَزِّزُهَا ، قَبْلَ أَنْ يَقْطَعَ عَلَيْهِمُ الْمُنَافِقُونَ وَالْأَعْدَاءُ طَرِيقَهَا ؟ .

طَالَمَا طَالَبْنَا الْعُقَلَاءَ بِالدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، وَمَا زِلْنَا نُسَوِّفُ انْتِظَارًا لِلْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَشَرْنَا إِلَى صِفَتِهِمْ ، وَقَدِ اضْطُرِرْنَا إِلَى التَّصْرِيحِ بِالِاقْتِرَاحِ هُنَا قَبْلَ الْعُثُورِ عَلَيْهِمْ . وَسَنَعُودُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى إِلَى بَقِيَّةِ فَوَائِدِ الزَّكَاةِ وَحِكَمِهَا وَأَحْكَامِهَا

فِي تَفْسِيرِ آيَةِ : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا (103) فِي أَوَاخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 10 صـ 423.444 ﴾

(215/340)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

هذه الآية اعتراض بين جملة : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] وجملة

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [التوبة : 61] الآية .

وهو استطراد نشأ عن ذكر اللمز في الصدقات أدمج فيه تبيين مصارف الصدقات .

والمقصود من أداة الحصر : أن ليس شيء من الصدقات بمستحقّ للذين لَمَزوا في الصدقات ، وحَصْر الصدقات في كونها مستحقّة للأصناف المذكورة في هذه الآية ، فهو قصر إضافي أي الصدقات لهؤلاء لا لكم .

وأمّا انحصارها في الأصناف الثمانية دون صنف آخر فيستفاد من الاقتصار عليها في مقام البيان إذ لا تكون صيغة القصر مستعملة للحقيقي والإضافي معاً إلاّ على طريقة استعمال المشترك في معنييه .

والفقير صفة مشبّهة أي المتّصف بالفقر وهو عدم امتلاك ما به كفاية لوازم الإنسان في عيشه ، وضدّه الغني .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ﴾ في سورة النساء (135) .

والمسكين ذو المسكنة ، وهي المذلّة التي تحصل بسبب الفقر ، ولا شكّ أنّ ذكر أحدهما يغني عن ذكر الآخر ، وإنّما النظر فيما إذا جُمع ذكرهما في كلام واحد ؛ فقيل : هو من قبيل التأكيد ، ونسب إلى أبي يوسف ومحمد بن الحسن وأبي علي الجبائي ، وقيل : يراد بكلّ من الكلمتين معنى غير المراد من الأخرى ، واختلف في تفسير ذلك على أقوال كثيرة : الأوضح

منها أن يكون المراد بالفقير المحتاج احتياجاً لا يبلغ بصاحبه إلى الضراعة والمذلّة .

والمسكين المحتاج احتياجاً يُلجئه إلى الضراعة والمذلّة ، ونسب هذا إلى مالك ، وأبي حنيفة ، وابن عباس ، والزهري ، وابن السكّيت ، ويونسَ بن حبيب ؛ فالمسكين أشدّ حاجة لأنّ الضراعة تكون عند ضعف الصبر عن تحمّل ألم الخصاصة ، والأكثرُ إنّما يكون ذلك من شدّة الحاجة على نفس المحتاج .

(216/340)

وقد تقدّم الكلام عليهما عند قوله تعالى : ﴿ وبذي القربى واليتامى والمساكين ﴾ في سورة النساء (36) .

والعاملين عليها ﴾ معناه العاملون لأجلها ، أي لأجل الصدقات فحرف (على) للتعليل كما في قوله : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ [البقرة : 185] أي لأجل هدايته إيّاكم .

ومعنى العمل السعي والخدمة وهؤلاء هم الساعون على الأحياء لجمع زكاة الماشية واختيار حرف (على) في هذا المقام لما يشعر به أصل معناه من التمكّن ، أي العاملين لأجلها عملاً قوياً لأنّ السعاة يتجشّمون مشقّةً وعملاً عظيماً ، ولعلّ الإشعار بذلك لقصد

الإيمان إلى أنّ علّة استحقاقهم مركّبة من أمرين : كون عملهم لفائدة الصدقة ، وكونه شاقّاً ، ويجوز أن تكون (على) دالَّة على الاستعلاء المجازي ، وهو استعلاء التصرف كما يقال : هو عامل على المدينة ، أي العاملين للنبيء أو للخليفة على الصدقات أي متمكّنين من العمل فيها .

وممّن كان على الصدقة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم حَمَل بن مالك بن النابغة الهذلي كان على صدقات هُذيل .

﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ هم الذين تؤلّف ، أي تُؤَنَّس نفوسهم للإسلام من الذين دخلوا في الإسلام بحدثان عهدٍ ، أو من الذين يرغَّبون في الدخول في الإسلام ، لأنّهم قاربوا أن يُسلموا .

والتأليف : إيجاد الألفة وهي التأنّس .

فالقلوب بمعنى النفوس .

وإطلاق القلب على ما به إدراك الاعتقاد شائع في العربية .

وللمؤلّفة قلوبهم أحوال : فمنهم من كان حديثَ عهد بالإسلام ، وعرف ضعف حينئذٍ في إسلامه ، مثل : أبي سفيان بن حرب ، والحارث بن هشام ، من مسلمة الفتح ؛ ومنهم من هم كفار أشدّاء ، مثل : عامر بن الطفيل ، ومنهم من هم كفار ، وظهر منهم ميل إلى الإسلام ، مثل : صفوان بن أمية .

فمثل هؤلاء أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم من أموال الصدقات وغيرها يتألفهم على الإسلام ، وقد بلغ عدد من عدّهم ابن العربي في "الأحكام" من المؤلفة قلوبهم : تسعة وثلاثين رجلاً ، قال ابن العربي : وعدّ منهم أبو إسحاق يعني القاضي إسماعيل بن إسحاق معاويةَ بن أبي سفيان ، ولم يكن منهم وكيف يكون ذلك ، وقد ائتمنه النبي صلى الله عليه وسلم على وحي الله وقرآنه وخلطه بنفسه .

و﴿ الرقاب ﴾ العبيد جمع رقَبة وتطلق على العبد .

قال تعالى : ﴿ فتحرير رقبة مؤمنة ﴾ [النساء : 92] .

و﴿ في ﴾ للظرفية المجازية وهي مغنية عن تقدير "فكّ الرقاب" لأنّ الظرفية جَعلت الرقاب كأنّها وُضعت الأموالُ في جماعتها ، ولم يجرّ باللاّم لئلا يتوهّم أنّ الرقاب تدفع إليهم أموال الصدقات ، ولكن تُبذل تلك الأموال في عتق الرقاب بشراء أو إعانة على نجوم كتابة ، أو فداءِ أسرى مسلمين ، لأنّ الأسرى عبيد لمن أسَّروهم ، وقد مضى في سورة البقرة (177) قوله : ﴿ والسائلين وفي الرقاب والغارمين ﴾ المدينون الذين ضاقت أموالهم عن أداء ما عليهم من الديون ، بحيث يُرْزأ دائنوهم شيئاً من أموالهم ، أو يُرْزأ المدينون ما بقي

لهم من مَال لإقامة أود الحياة ، فيكون من صرف أموالٍ من الصدقات في ذلك رحمةٌ للدائن والمدين .

و﴿ سبيل الله ﴾ الجهاد ، أي يصرف من أموال الصدقات ما تقام به وسائل الجهاد من آلات وحراسة في الثغور ، كلّ ذلك برّاً وبحراً .

و﴿ ابن السبيل ﴾ الغريب بغَير قومه ، أضيف إلى ﴿ السبيل ﴾ بمعنى الطريق : لأنّه أولده الطريق الذي أتى به ، ولم يكن مولوداً في القوم ، فلهذا المعنى أطلق عليه لفظ ابن السبيل .

ولفقهاء الأمّة في الأحكام المستمدّة من هذه الآية طرائق جمّة ، وأفهام مهمّة ، ينبغي أن نلمّ بالمشهور منها بما لا يفضي بنا إلى الإطالة ، وإنّ معانيَها لأوفرُ ممّا تفي به المقالة .

(218/340)

فأمّا ما يتعلّق بجعل الصدقات لهؤلاء الأصناف فبقطع النظر عن حمل اللام في قوله : ﴿ للفقراء ﴾ على معنى الملك أو الإستحقاق ، فقد اختلف العلماء في استحقاق المستحقّين من هذه الصدقات هل يجب إعطاء كلّ صنف مقداراً من الصدقات ، وهل تجب التسوية بين الأصناف فيما يعطى كلّ صنف من مقدارها ، والذي عليه جمهور

العلماء أنّه لا يجب الإعطاء لجميع الأصناف ، بل التوزيع موكول لاجتهاد وُلاَة الأمور يضعونها على حسب حاجة الأصناف وسعة الأموال ، وهذا قول عمر بن الخطاب ، وعلي ، وحذيفةَ ، وابن عباس ، وسعيد بن جبير ، وأبي العالية ، والنخعي ، والحسن ، ومالك ، وأبي حنيفة .

وعن مالك أنّ ذلك ممّا أجمع عليه الصحابة ، قال ابن عبد البر : ولا نعلم مخالفاً في ذلك من الصحابة ، وعن حذيفة .

إنّما ذكر الله هذه الأصناف لتُعرف وأيّ صنف أعطيْت منها أجزأك .

قال الطبري : الصدقة لسدّ خلّة المسلمين أو لسدّ خلّة الإسلام ، وذلك مفهوم من مآخذ القرآن في بيان الأصناف وتعدادهم .

قلت وهذا الذي اختاره حذّاق النظّار من العلماء ، مثل ابن العربي ، وفخر الدين الرازي .

وذهب عكرمة ، والزهري ، وعمر بن عبد العزيز ، والشافعي : إلى وجوب صرف الصدقات لجميع الأصناف الثمانية لكلّ صنف ثُمن الصدقات فإن انعدم أحد الأصناف قسمت الصدقات إلى كسور بعدد ما بقي من الأصناف .

واتّفقوا على أنّه لا يجب توزيع ما يعطى إلى أحد الأصناف على جميع أفراد ذلك الصنف .

وأمّا ما يرجع إلى تحقيق معاني الأصناف ، وتحديد صفاتها : فالأظهر في تحقيق وصف الفقير والمسكين أنّه موكول إلى العرف ، وأنّ الخصاصة متفاوتة وقد تقدّم آنفاً .

واختلف العلماء في ضبط المكاسب التي لا يكون صاحبها فقيراً ، واتّفقوا على أن دار السكنى والخادم لا يُعدّانِ مالاً يرفع عن صاحبه وصف الفقر .

(219/340)

وأمّا القدرة على التكسّب ، فقيل : لا يعدّ القادر عليه فقيراً ولا يستحقّ الصدقة بالفقر وبه قال الشافعي ، وأبو ثور ، وابن خويز منداد ، ويحيى بن عُمر من المالكية . . .

ورويت في ذلك أحاديث رواها الدارقطني ، والترمذي ، وأبو داود .

وقيل : إذا كان قوياً ولا مال له جاز له أخذ الصدقة ، وهو المنقول عن مالك واختاره الترمذي .

والكيا الطبري من الشافعية .

وأمّا العاملون عليها فهم يتعيّنون بتعيين الأمير ، وعن ابن عمر يعطون على قدر عملهم من الأجرة .

وهو قول مالك وأبي حنيفة .

وأمّا المؤلفة قلوبهم فقد أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم عطايا متفاوتة من الصدقات وغيرها .

فأمّا الصدقات فلهم حقّ فيها بنصّ القرآن ، وأما غير الصدقات فبفعل النبي صلى الله عليه وسلم واستمرّ عطاؤهم في خلافة أبي بكر ، وزمنٍ من خلافة عمر ، وكانوا يعطَون بالاجتهاد ، ولم يكونوا يعيّنون لهم ثُمن الصدقات ثم اختلف العلماء في استمرار هذا المصرف ، وهي مسألة غريبة لأنّها مبنية على جواز النسخ بدليل العَقْل وقياس الاستنباط أي دون وجود أصل يقاس عليه نظيره وفي كونها مبنيّة على هذا الأصل نظر .

وإنّما بناؤها على أنّه إذا تعطّل المصرف فلِمَن يردّ سهمه وينبغي أن تقاس على حكم سهم من مات من أهل الحبس أنّ نصيبه يصير إلى بقية المحبس عليهم .

(220/340)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(221/340)

وفداء الأسرى من فك الرقاب على الأصحّ من المذهب ، وهو لابن عبد الحكم ، وابن حبيب ، خلافاً لأصبغ ، من المالكية .

وأما الغارمون فشرطهم أن لا يكون دينهم في معصية إلاّ أن يتوبوا .

والميت المدين الذي لا وفاء لدينه في تركته يُعدّ من الغارمين عند ابن حبيب ، خلافاً لابن الموّاز .

وسبيل الله لم يُختلف أنّ الغزو هو المقصود ، فيعطى الغزاة المحتاجون في بلد الغزو ، وإن كانوا أغنياء في بلدهم ، وأمّا الغزاة الأغنيَاء في بلد الغزو فالجمهور أنّهم يعطَون .

وبه قال مالك ، والشافعي ، وإسحاق ، وقال أبو حنيفة : لا يعطون .

والحق أنّ سبيل الله يشمل شراء العُدّة للجهاد من سلاح ، وخيل ، ومراكب بحرية ، ونوتيه ، ومجانيق ، وللحُملان ، ولبناء الحصون ، وحفر الخنادق ، وللجواسيس الذين يأتون بأخبار العدوّ ، قاله محمد بن عبد الحكم من المالكية ولم يُذكر أنّ له مخالفاً ، وأشعر كلام القرطبي في التفسير أنّ قول ابن عبد الحكم مخالف لقول الجمهور .

وذهب بعض السلف أنّ الحجّ من سبيل الله يدخل في مصارف الصدقات ، وروي عن ابن عمر ، وأحمد ، وإسحاق .

وهذا اجتهاد وتأويل ، قال ابن العربي : "وما جاء أثرٌ قطّ بإعطاء الزكاة في الحجّ" .

وأما ابن السبيل فلم يُختلف في الغريب المحتاج في بلد غربته أنّه مراد ولو وجد من يسلفه ، إذ ليس يلزمه أن يدخل نفسه تحتَ منّة .

واختلف في الغني : فالجمهور قالوا : لا يعطى ؛ وهو قول مالك ، وقال الشافعي وأصبغ :

يعطى ولو كان غنياً في بلد غربته .

وقوله : ﴿ فريضة من الله ﴾ منصوب على أنّه مصدر مؤكّد لمصدر محذوف يدلّ عليه قوله : ﴿ إنما الصدقات ﴾ لأنّه يفيد معنى فَرَضَ اللَّهُ أو أوجبَ ، فأكّد بفريضة من لفظ المقدّر ومعناه .

والمقصود من هذا تعظيم شأن هذا الحكم والأمر بالوقوف عنده .

(222/340)

وجملة ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل إمّا أفاده الحصر بـ ﴿ إنّما ﴾ في قوله : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ إلخ ، أي : والله عليم حكيم في قصر الصدقات على هؤلاء ، أيْ أنّه صادر عن العليم الذي يعلم ما يناسب في الأحكام ، والحكيمِ الذي أحكم الأشياء التي خلقها أو شرعها .

والواو اعتراضية لأنّ الاعتراض يكون في آخر الكلام على رأي المحقّقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(223/340)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

وعندما تسمع كلمة ﴿ إِنَّمَا ﴾ فافهم أنه يُرَادُ بها القصر ، فإن قلتَ " إنما الرجل زيد ، أي : أنك قصرت الرجولة على زيد . وإن قلتَ : إنما الكريم حاتم ، تكون قد قصرت الكرم على حاتم . وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقات ﴾ معناها : أن الصدقات محصورة في هؤلاء ولا تتعداهم .

فمن هم هؤلاء الذين حصر الحق سبحانه وتعالى فيهم الصدقة ؟ وما المراد هنا بالصدقة ؟ هل هي صدقة التطوع أو الزكاة ؟

نقول : ما دام الحق سبحانه وتعالى قد حدد لها مصارف فهي الزكاة ، ولسائل أن يسأل : لماذا لم يَقُل الحق سبحانه وتعالى الزكاة وقال الصدقة ؟

ونقول : ألا ترى – في المجتمعات غير الإيمانية الملحدة – أن من الناس مَنْ يكفرون في إنشاء مؤسسات اجتماعية لرعاية الفقراء ؟ إن عطف الإنسان على أخيه الإنسان هو أمر غريزي خلقه الله فينا جميعاً ، ولذلك كان يجب أن نفهم أن الزكاة صدقة ، ولو لم يشرعها الله لكان يجب أن يقدمها الإنسان لأخيه الإنسان . وحوادث الكون كلها تدل على صدق وصف الحق سبحانه وتعالى للزكاة بأنها صدقة ؛ لأنها تأتي تطوعاً من غير المؤمن وغير

الملتزم بالتشريع ، ويحس القادر بالسعادة وهو يعطي لغير القادر ، وعي غريزة وضعها الله في خلقه ليخفف من الشقاء في الكون .

وهنا يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَآءِ والمساكين ﴾ وقد احتار العلماء في ذلك ، فقال بعضهم : إن الفقير هو الذي لا يجد شيئاً فهو مُعدم . والمسكين هو من يملك شيئاً ولكنه لا يكفيه ، وعلى هذا يكون المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واستندوا في ذلك إلى نص قرآني في قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي البحر . . . ﴾ [الكهف : 79]

(224/340)

وما دام هؤلاء المساكين يملكون سفينة إذن فعندهم شيء يملكونه . ولكن العائد الذي تأتي به السفينة لا يكفيهم .

ولكن بعض العلماء قالوا عكس ذلك ، ورأوا أن المسكين هو مَنْ لا يملك شيئاً مطلقاً ، والفقير هو الذي يجد الكفاف . وعلى هذا يكون الفقير أحسن حالاً من المسكين ، ولا أعتقد أن الدخول في هذا الجدل له فائدة ؛ لأن الله أعطى الاثنين . . الفقير والمسكين .

وكلمة " فقير " معناها الذي أتعبت الحياة فَقَار ظهره أي فقرات ظهره ، وحاله يغني للتعبير

عنه ، والمسكين هو الذي أذهلته المسكنة .

ثم يأتي بعد ذلك : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ أي : الذين يقومون بجمع الصدقات ويأخذونها ممن يعطيها ويضعونها في بيت المال ، ونلاحظ هنا أن ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ جاءت مطلقة ؛ فلم تحدد هل يستحق الصدقة مَنْ كان يجمعها وهو فقير ، أو مَنْ كان يجمعها وهو غير محتاج . ونقول : إن جمع الصدقة عمل ، ولو قلنا : إن غير المحتاج ويعمل في جمع الصدقة لا يجب أن يأخذ أجراً ، هنا يصبح عمله لوناً من التفضل ، وما دام العمل تفضُّلاً فلن يكون بنفس الكفاءة التي يعمل بها ، إذا كان العمل بالأجر .

وأيضاً حتى لا يُحرَم المجتمع من جامع صدقة ذكي نشيط ؛ لأنه غير محتاج ، ولكن نعطيه أجراً ليكون مسئولاً عن عمله ، والمسئولية لا تأتي إلا إذا ارتبطت بالأجر .

والعامل على جمع الصدقة إنما يعمل لصالح الدولة الإيمانية ، فهو يجمع الصدقات ويعطيها للحاكم أو الوالي الذي يوزعها . وفي هذا مصلحة لمجتمع المسلمين كله . خصوصاً إن كانت الصدقة توزع من بيت المال فلا يتعالى أحد على أحد ، ولا يذلك أحد أمام أحد ، وفي هذا حفظ لكرامة المؤمنين ؛ لأن من يأخذ من غير بيت المال سيعاني من انكساره يده السُّفْلى .

(225/340)

ومن يعطي لغير بيت المال قد يكون في عطائه لون من تعالى صاحب اليد العليا ، وكذلك فإن أولاد الفقير لن يروا أباهم وهو ذاهب إلى رجل غني ليأخذ منه الصدقة ويُصَاب بالذلة والانكسار . ولا يرى أولاد الغني هذا الفقير وهو يأتي إلى أبيهم ليأخذ منه الصدقة ؛ فَيتعالَوْنَ على أبناء الفقير . فإن أخذ الفقراء الصدقة من بيت المال ، كان ذلك صيانة لكرامة الجميع ، وإن حدث خلال بين غني وفقير فلن يقول الغني للفقير : أنا أعطيك كذا وكذا ، أو يقول أولاد الغني لأولاد الفقير : لولا أبونا لَمُتُمْ جوعاً .

إذن : فقد أراد الحق سبحانه بهذا النظام أن يمنع طغيان المعطي ، ويمنع – أيضاً – ذلة السؤال ، فالكل يذهب إلى بيت المال ليأخذ أو يعطي . وحين يذهب الفقير ليأخذ من بيت المال بأمر من الوالي فلا غضاضة ؛ لأن كل المحكومين تحت ولايته مسؤولون منه .

ثم يأتي الحق إلى فئة أخرى فيقول : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ وهم من يريد الإسلام أن يستميلهم ، أو على الأقل أن يكفوا آذاهم عن المسلمين . وكان المسلمون في الزمن الأول للإسلام ضعافاً لا يقدرون على حماية أنفسهم . وعندما أعز الله دولة المسلمين بالقوة والعزة والمكانة ، منع الخليفة عمر بن الخطاب إعطاء المؤلفة قلوبهم نصيباً من الزكاة ؛ لأنه لم يجد أن قوة الإسلام تحتاج أحداً غير صحيحي الإيمان ؛ لذلك لم يدخلهم عمر بن الخطاب في فئات الزكاة .

وقول الحق سبحانه : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ يثير سؤالاً : هل يُؤَلَّف القلب ؟ . نقول : نعم ،

فالإحسان يؤلف قلب الإنسان السَّوي ، وكذلك يؤلف جوارح الإنسان غير السوي ، فلا يعتدى على من أحسن إليه باللسان أو باليد .

(226/340)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ ومعناها العبيد الذين أُسروا في حرب مشروعة . وكانت تصفية الرق من أهداف الإسلام ؛ لذلك جعل من مصارف الزكاة تحرير العبيد . وبعض من الناس يدَّعون أن الإسلام جاء بالرق وأقره . ونقول : لم يأت الإسلام بالرق ؛ لأن الرق كان موجوداً قبيل البعثة المحمدية ، وجاء الإسلام بالعتق ليصفى الرق ، فجعل من فَكِّ الرقبة كفارة لبعض الذنوب .

وجعل من مصارف الزكاة عتق العبيد . وقد نزل القرآن وقت أن كانت منابع الرق متعددة .

وكان من المعتاد في تلك الأيام أن المدين الذي يعجز عن سداد ما عليه من دَيْن ، فالدائن يأخذه أو يأخذ أحد أبنائه كعبد له .

وإذا فُعِلَتْ جناية ، فالجاني يأخذ العفو من المجني عليه مقابل أن يعطيه أحد أولاده عبداً .

وإذا سُرِق شيء فإن السارق لا يعاقب ، بل يعطي أحد أولاده عبداً للمسروق منه .

وكان الأقوياء يستعبدون الضعفاء ؛ فيخطفون نساءهم وأولادهم بالقوة ويبيعونهم في سوق الرقيق ، وهكذا كانت منابع الرق في العالم متعددة ، ولا يوجد إلا مصرف واحد هو إرادة السيد ؛ إن شاء حرر وإن شاء لم يحرر .

وقد كان الرق موجوداً في أوروبا وفي آسيا وفي أفريقيا ووُجِد أيضاً في أمريكا . إذن : كانت هناك منابع متعددة للرق ؛ ومصرف واحد هو إرادة السيد ، وقد كان الرق يتزايد ، وجاء الإسلام والعالمُ غارق في الرق ، لماذا ؟

لأن الرق في ذلك الوقت كان يشبه حوضاً تصب فيه صنابير متعددة ، وليس له إلا بالوعة واحدة . ولم يعالج الإسلام المسألة طفرة واحدة ، شأن معظم تشريعات الله ، ولكنه عالجها على مراحل ، تماماً كتحريم الخمر حين بدأ التحريم بالمنع عند الصلاة ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَقْرَبُواْ الصلاة وَأَنْتُمْ سكارى حتى تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ . . . ﴾ [النساء : 43]

ثم حرمها تحريماً قاطعاً .

(227/340)

وحين جاء الإسلام ليعالج قضية الرق ويحرر الإنسان من العبودية ، بدأ بإغلاق مصادر الرق . وجعل المصدر الوحيد هو الحرب الإيمانية المشروعة من ولي الأمر . أما كل الوسائل والألوان الأخرى من أبواب الرق ، كأن يتم استعباد أحد كعقوبة جنائية أو لعجزه عن تسديد دَيْن أو غير ذلك ، فقد أغلقها الإسلام بالتحريم . أما ناحية المصرف فلم يجعله مصرفاً واحداً هو إرادة السيد ، بل جعله مصارف متعددة ؛ فالذي يرتكب ذنباً يعرف أن الله لن يغفر له إلا إذا أعتق رقبة ، ومن حلف يميناً ويريد أن يتحلل منها ؛ يعتق رقبة . فإذا لم يفعل هذا كله وأراد أن يحسن إحساناً يزيد من أجره عند الله ؛ أعتق رقبة .

وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلاَ اقتحم العقبة * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا العقبة * فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : 11-13]

وهكذا جعل الإسلام مصارف كثيرة لتصفية الرق حتى ينتهي في سنوات قليلة ، ثم وضع بعد ذلك ما يُنْهي الرق فعلاً ، وإن لم يُنْهِه شكلاً .

فإذا كان عند أي سيد لون من الإصرار على أن يستبقى عبده ، فلا بد أن يُلبسه مما يلبس ، ويُطعمه مما يَطْعم ، فإن كلَّفه بعينه . وهكذا أصبح الفارق متلاشياً بين السيد وعبده .

وحين ألغتْ بعض الدول الإسلامية الرقَّ بالقانون ، ذهب الرقيق إلى أسيادهم وقالوا : دعونا نعش معكم كما كنا . وهم قد فعلوا ذلك لأن حياتهم مع أسيادهم كانت طيبة .

وهكذا ألغى الإسلام فوارق الرق كلها ، وأصبحت مسألة شكلية لا تساوي شيئاً .

ولكن بعض الناس يتساءل : وماذا عن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ . . . ﴾ [النساء : 36]

(228/340)

نقول : افهم عن الله ، فهذا أمر لا يسري إلا إذا كانت المرأة المملوكة مشتركة في الحرب ، أي : كانت تحارب مع الرجل ثم وقعت في الأسْر ، والذي يسري على الرجل في الأسر يسري عليها ، ثم من أي مصدر ستعيش وهي في بلد عدوة لها ؛ إنَّ تركها في المجتمع فيه خطورة على المجتمع وعليها . كما أن لهذه المرأة عاطفة سوف تُكْبتُ ، فأوصى الإسلام السيد بأنه إذا أحب هذه الأمةَ فلها أن تستمتع كما تستمتع زوجة السيد ، وإن أنجبت أصبحت زوجة حرة وأولادها أحراراً ، وفي هذا تصفية للرق .

ويقول الحق سبحانه وتعالى عن لون آخر من مستحقي الزكاة : ﴿ والغارمين ﴾ والغارم : هو من استدان في غير معصية ، ثم عجز عن الوفاء بِدَيْنه . ولم يمهله صاحب الدَّين كما أمر الله في قوله تعالى : ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ . . . ﴾ [البقرة : 280]

ولم يسامحه ولم يتنازل عن دَيْنه ، وفي هذه الحالة يقوم بيت المال بسداد هذا الدَّين . لكن لماذا هذا التشريع ؟

لقد شاء الحق إعطاء الغارم الذي لا يجد ما يسد به دَيْنه حتى لا يجعل الناس ينقلبون عن الكرم وعن أقراض الذي يمر بعسر ، وبذلك يبقى اليُسْر في المجتمع ، وتبقى نجدة الناس للناس في ساعة العسرة ، فلا يمتنع أحد عن إعطاء إنسان في عسرة ؛ لأنه يعلم أنه إن لم يدفع فسيقوم بيت المال بالسداد من الزكاة . أو : أن الغارم هو الذي أراد أن يصلح بين طرفين ، كأن يكون هناك شخصان مختلفان على مبلغ من المال ، فيقوم هو بفضِّ الخلاف ودَفْع المبلغ ، ثم تسوء حالته ؛ لأنه غرم هذا المال بنخوة إيمانية ، فنقول له : خذ من بيت المال حتى يشيع في النفوس تصفية الخلافات وإشاعة الحب بين الناس . إذن : فالغارم هو المستدين في غير معصية ولا يقدر على سداد الدين ، أو المتحمِّل لتكلفة إصلاح ذات البَيْن بين طرفين ، وهو مستحق لهذا اللون من المال .

(229/340)

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . يقول جمهور الفقهاء : إنها تنطبق على الجهاد ؛ لأن الذي يضحي بماله مجاهداً في سبيل الله ، لو لم يعلم أن الجهاد باب يدخله الجنة لما ضَحَّى بماله ، وعندما تضحي بالمال أو النفس في سبيل الله يكون هذا من يقين الإيمان . فلو لم تكن على ثقة أنك إذا استشهدت دخلت الجنة ما حاربت . ولو لم تكن على ثقة

بأنك إذا أنفقتَ المال جهاداً في سبيل الله دخلتَ الجنة ما ما أنفقت .

والإسلام يهدف إلى أمرين : دين يبلَّغ ومنهج يُحقَّق ، والمجاهد في سبيل الله أسوة لغيره من المؤمنين . والأسوة في الإسلام هي التي تُقوِّيه وتُثبِّته في النفوس ؛ لأنها الإعلام الحقيقي بأن ما تعطيه من نفسك أو مالك لله ستجازى عنه بأضعاف أضعاف ما أعطيت .

﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أيضاً كل ما يتعلق بمصارف البر مثل : بناء المساجد والمدارس والمستشفيات .

(230/340)

ثم يقول سبحانه موضحاً لمصرف جديد من مصارف الصدقة والزكاة : ﴿ وابن السبيل ﴾ ، ونحن نعلم أن كل إنسان ينسب إلى بلده . فهذا دمنهوري وهذا طنطاوي ، إلى آخره حسب البلد الذي هو منه . ولكن لنفرض أن إنساناً مشى في الطريق في غير بلده فإلى من تنسبه وأنت لا تعرف بلده ؟ تنسبه إلى الطريق فيصبح : ابْن السَّبِيلِ ؛ لأن السبيل هو الطريق . وهذا الإنسان الغريب عن بلده لا بد أن تعينه حتى يصل إلى بلده ، وإنْ وجد الإنسان مَنْ يعينه في هذه الحالة ، فسوف يشجع ذلك سفر الشباب إلى الدول الأخرى لطلب الرزق ، وأيضاً هناك من يسافر ليزداد خبرة أو يسافر للسياحة ، وهناك من يسافر

للتجارة ، وقد يكون غنياً ولكنه قد يفقد ماله في الطريق . ويريد الحق سبحانه أن يكفل عباده وهم غرباء من أي مفاجأة قد تجعلهم في عسر ، فالذين سافروا للسياحة مثلاً ثم أصيبوا بكارثة أوجب الحق مساعدتهم ، والذين سافروا طلباً للرزق ولم يُوفَّقوا أوجب الله سبحانه وتعالى مساعدتهم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد من عباده أن يسيروا في الأرض ليروا آياته ، وليبتغوا الرزق ، إذن : فابن السبيل هو كل غريب صادفته ظروف صعبة ، ولا يجد ما يعود به إلى بلده .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ أي : أن كل من حدد الله سبحانه وتعالى استحقاقه للصدقة إنما يستحقها بفرض من الله ، فالصدقة فريضة للفقراء ، فريضة للمساكين ، فريضة للعاملين عليها ، والمؤلَّفة قلوبهم وفي الرِّقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله ، وابن السبيل .

(231/340)

ويُنهي الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ، والله هو واجب الوجود وخالقه ، خلق الإنسان وكرَّمه فجعله خليفة في الأرض . وقبل أن يخلق سبحانه الإنسان أعدَّ له الكون الذي يعيش فيه ؛ الأرض والشمس والقمر والسماء والكواكب والنجوم .

ثم جاء الإنسان إلى الكون ؛ ليجد كل شيء قد أعدَّ لخدمته خاضعاً له ، فلا يوجد جنس من الأجناس يتأبى عن خدمة الإنسان ، فلا الأرض إذا زُرِعَتْ رفضت إنبات الزرع ، ولا الحيوان الذي سخره الله جل جلاله لخدمة الإنسان يتأبى عليه ؛ فالحمار تُحمِّله السباخ والقاذورات فلا يرفض ، وتنظفه وتجعله مَطيَّة تنقلك من مكان إلى آخر فلا يتأبى عليك .

وما دام سبحانه الذي خلق ، فهو أدرى بمن خلق ، وبما يصلحه وما يفسده – ولله المثل الأعلى – نحن نعرف أن المهندس الذي يصمم آلة إنما يضع لها قانون صيانتها . فما بالنا بخالق الإنسان المتعدد المشاعر والأطوار ؟ إن خلق الإنسان لا يقتضي علماً فقط ، ولكنه يقتضي أيضاً حكمة ؛ لأنك قد تعلم ، ولكنك لا تستخدم العلم فيما تفعل ، كأن تعلم قانون صيانة آلة معينة ثم لا تطبقه وتحاول أن تأتي بقانون من عندك ؛ لذلك فلا بد مع العلم من حكمة لتضع الشيء في موضعه السليم .

ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ونحن نعلم أن الصدقات تقتضي مُتصدِّقاً وهو المعطي ، ومُتصدَّقاً عليه وهو مستحق الصدقة أو بالذي يأخذها ، ومُتصدَّقاً به وهو الشيء الذي تتصدق به ، إذن فهناك ثلاثة عناصر : المتصدِّق ، والمتصدَّق عليه ، والمتصدَّق به .

قد يتساءل بعض الناس : لماذا خلق الله الإنسان الخليفة في الأرض وجعل بعضهم قادراً وبعضهم عاجزاً ، وهذا يعطي وهذا يأخذ ، ولماذا لم يجعل الكل قادرين ؟

نقول : إن مفارقات التقابل في الأشياء تجعلها تتكامل ، فهناك ليل وهناك نهار ، فهل الليل ضد النهار ؟ لا ؛ لأن الليل مُكمّل للنهار ، والنهار مُكمّل لليل . ولو لم يُخْلقَا معاً متكاملين ؛ لاختلَّ التوازن في الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ الليل سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِضِيَآءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ النهار سَرْمَداً إلى يَوْمِ القيامة مَنْ إله غَيْرُ الله يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [القصص : 72]

إذن : فالإنسان يحتاج إلى ضوء النهار للحركة والعمل ، ويحتاج إلى ظُلْمة وسكون الليل للنوم ، وإن لم يَنَمِ الإنسان ويسترِحْ فهو لا يستطيع مواصلة العمل . وهكذا نرى الليل والنهار متكاملين وليسا متضادين . كذلك الرجل والمرأة . وقد لا يفهم بعض الناس أن الرجل والمرأة متكاملان ، ويقولون : لا بد أن تساوي المرأةُ الرجلَ ، ونقول : إنكم تعتقدون أن المرأة والرجل جنسان مختلفان ، ولكنهما جنس واحد مخلوق من نوعين ، وكل نوع له مهمة وله خاصية . وللإنسان المكوَّن من الرجال والنساء مهمة وخصائص يشتركون فيها ، ويتضح لنا ذلك عندما نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الليل : ﴿ والليل إِذَا يغشى *

والنهارِ إذَا تجلى * وَمَا خَلَقَ الذكر والأنثى ﴾ [الليل : 1-3]

كأن الذكر والأنثى ، مثل الليل والنهار متساندان متكاملان ، فلا تجعلهما أعداء بل انظر إلى التكامل بينهما ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لشتى ﴾ [الليل : 4]

(233/340)

أي : كُلٌّ له مهمة في الحياة ، واقتضتْ حكمته سبحانه في خلق الكون أن يجعل كل شيء يخدم الإنسان ؛ الجماد يخدم الإنسان ، وكذلك النبات ، وكذلك الحيوان ، حتى يكون الإنسان مستنجياً لمنهج الله ولعبادته . وكذلك اقتضتْ الحكمة أيضاً أن يخلق الله سبحانه وتعالى أشياء لا تستجيب للإنسان ؛ حتى يعرف الناس أن هذا الكون ليس مُذلَّلاً بقدراتهم هم ، بل بقدرة الله سبحانه وتعالى ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

فتجد مثلاً الجمل بضخامته ينقاد لطفل صغير ، بينما الثعبان الصغير على دِقَّة حجمه لا يجرؤ الإنسان أن يقترب منه .

وفي الوقت نفسه ، فإن هذه الحكمة تقتضي أن يحس الإنسان أن قدراته وقوته موهوبة له من الله سبحانه وتعالى ، وأنها ليست من ذات الإنسان .

ولذلك يخلق الله أناساً ضعافاً لا يقدرون على الكسب ، ليلفت أنظارنا إلى أن قوة القوى هي هبة من الله ، وليست في ذاتية الإنسان ، وإلا لو كانت ذاتية في الإنسان ما وُجد عاجز . ولا بد أن يفهم كل قوي أن قوته هبة من الله يمكن أن تسلب منه فيصبح ضعيفاً مثل من يراهم أمامه من ضعاف البشر .

والضعيف غير القادر على العمل ، والأعمى غير القادر على الكسب ، والكسيح غير القادر على السير ، كل هؤلاء موجودون في الكون ليلفتوا الأصحاء والأقوياء إلى أن الصحة والقوة من الله ، فلا يغتر الأصحاء والأقوياء بأنفسهم ويرتكبوا المعاصي ، بل عليهم أن يخافوا الله ، فسبحانه الذي أعطى يستطيع أن يأخذ .

(234/340)

كما اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن ينقسك الأرزاق بيننا لتسير حركة الكون .

وإلا لو أصبحنا كلنا ميسورين ، فمن الذي يقوم بتنظيف الشارع ؟ ومن الذي يقوم بتسليك البالوعات ؟ ومن الذي يحمل الطوب والأسمنت على كتفيه للبناء ؟ وإن كنا جميعاً نملك المال فلن يرضى أحد أن يقوم بالأعمال البسيطة والمزعجة والمرهقة ، وشاء الله أن يربط هذه الأعمال بالرزق ، بحيث يقوم بها بعضنا ليحصل على قوت أولاده ، وإلا لما أمسك

أحد بمكنسة لتنظيف الطريق ، وما عمل أحد في إصلاح المجاري ؛ لذلك قد ترى مَنْ يقومون بهذه الأعمال سعداء عندما تُسَدُّ المجاري ، أو يحتاج الطريق إلى نظافة ؛ لأن رزقهم يأتي من هذا العمل .

ولكن أيبقى هذا الحال على ما هو عليه ؟ لا ؛ لأن الأيام تُتداوَل بين الناس ، وكل واحد له عُرْس وله مَأتم . وتأتي أيام تكون فيها هذه الأعمال اليدوية هي مصدر الرزق الوفير ، وهي التي يملك أصحابها سعة الرزق ، أكثر من الذين درسوا في الجامعات وأهّلوا للمناصب ، لكنهم أقل دخلاً وأقل رزقاً .

وهكذا نعلم أن الكون يحتاج إلى المواهب المتعددة التي تتكامل فيه ، فأنت إذا أردت أن تبني بيتاً تحتاج إلى مهندس ومقاول ونجار وحداد وبنَّاء إلى غير ذلك ، ولا يمكن لإنسان أن يملك هذه المواهب كلها في وقت واحد . فلا بد أن تتكامل وأن يرتبط هذا التكامل بالرزق ولقمة العيش . بل وتجد أن الإنسان قد يتخصص في عمل ويتقنه بينما يحتاج هو لبعض من وقته ليقوم بمثل هذا العمل لبيته فلا يجد ، ولذلك يقال : " باب النجار مخلّع " ؛ لأن الأبواب الأخرى التي يصنعها مرتبطة برزقه وهو يحاول أن يحسن صناعتها ، أما بابه هو فلا رزق له فيه ، ولذلك قد يكسل عن صيانته .

ولا بد أن يعرف الإنسان أنه ليس أصيلاً في الكون ، بل مستخلف فيه ؛ لأن الفساد ينشأ دائماً حين يعتبر الإنسان نفسه أصيلاً في الكون . وإياك أن تفهم أن المعْطى مُفضَّل على الآخذ ، أو أن الآخذ مُفضَّل على المُعطي ، بل هما متبادلان ، فالإيمان نصفان : نصف شكر ونصف صبر .

إما أنك في نعمة فتشكر . وإما أنك في محنة فتصبر . وعندما تتأمل الغني المستخلَف في النعمة تجد أنه قد أخذ النصف الذي يخصه كشاكر ، وحُرِمَ من النصف الآخر الإيماني وهو الصبر ؛ ولذلك يأتي الإسلام له بتشريع يأَخذ منه بعضاً من ماله الذي حصل عليه بعرقه وعمله ويعطيه لغير القادر على العمل ، وبذلك يحصل على جزء من الصبر ؛ لأنه يعطي بعضاً من فائدته عمله للعاجز عن العمل ، ويكون الفقير قد أخذ نصف الشكر ونصف الصبر . فقد صبر على فقره ، وجاء له المال بلا تعب فشكر الله على نعمته .

وهكذا نجد أن الاثنين إذا طبّقا منهج الله أخذا نصف الصبر ونصف الشكر .

وعلى العاجز عن الكسب ألا يغضب ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعطيه الرزق بلا تعب . بل إنك قد تجد الغني وهو يبحث عن مصارف الزكاة ويسال عن الفقراء ليعطيهم .

وكثيراً ما نرى إنساناً عزيزاً في أزمة ، ونجد من أصدقائه من يقترض ليعطيه . والله سبحانه

وتعالى قال : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 245]

(236/340)

ومع أن المال مال الله فقد احترم سبحانه عمل الإنسان الذي يأتيه بالمال ، وطلب منه أن يعطي بعضاً منه أخاه المحتاج ؛ ابتغاء مرضاة الله ، واعتبر سبحانه وتعالى هذا العمل إقراضاً له جل جلاله ، وكأن الذي يعطي المال للمحتاج يقرض الله ، ولله المثل الأعلى ؛ كالأب الذي يعطي مصروفاً لأولاده ، فيضعه كل منهم في حصالته ، ثم تأتي للأب أزمة مالية ، فيستأذن أولاده حتى يأخذ ما في حصالاتهم ، رغم أن مال الأولاد هو من مال الأب ، ورغم ذلك نجد الأب قد احترم ما وهبه من المال لأولاده ؛ فاعتبره مالهم . كذلك الحق سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فاعتبر المال ماله ، وطلب منه أن يقرضه .

وفي هذا مَيْزة للغني والفقير ، فالغني يأخذ ميزة وشرف أنه أعطى لله ، والفقير أخذ ميزة ؛ لأن الله سبحانه وتعالى اقترض من أجله .

وجعل الله الزكاة من أركان الإسلام ، وجعل هذا الركن لمصلحة الفقير . فالغني ليس له ركن في إيمان الفقير ، ولكن الفقير له ركن من إيمان الغني . والغني حين يعطي جزءاً من ماله

فهو يستغني عن هذا الجزء . وهناك فرق بين أن تستغني عن الشيء وتستغني بالشيء . والحق سبحانه وتعالى مستغن عن الكون وما فيه ، فكأنه أعطى الغني صفة من صفات الحق ؛ لأن الله مستغن عن مال الدنيا كله ، والمال ليس سلعة مفيدة فائدة مباشرة للإنسان .

والمثال الذي أقوله دائماً ، يوضح ذلك : لنفرض أن رجلاً عنده جبل من ذهب وتاه في صحراء لا يجد فيها لقمة خبز أو شربة ماء ، فما هي فائدة جبل الذهب هذا ؟ إنه لا يساوي شيئاً .

إذن : فالمال ليس غاية في حد ذاته ، ولكنه وسيلة . وعندما يمنع الغني ماله عن الفقير يكون قد جعل المال غاية فلا ينفعه . أما إذا أعطى الغني بعضاً من المال للفقير ؛ فهو قد أعاد إلى المال وظيفته في أنه وسيلة من وسائل الحياة . وأنت تشتري بالمال ما تعتقد أنه ينفعك ؛ فعليك أن توظفه في أكمل ما ينفعك ؛ وهو رضا الله سبحانه وتعالى وثوابه .

(237/340)

واحترم الحق سبحانه حركة الحياة في العمل ؛ حتى يعمل كل إنسان على قدر طاقته ، وليس على قدر حاجته ؛ لأن الإنسان إذا عمل على قدر حاجته فقط لما وُجِد فائض من

مال للزكاة .

ولذلك سمى الحق سبحانه وتعالى المال الذي يكسبه الإنسان في الدنيا مال الإنسان ، حتى يعمل كل منا على قدر طاقته ؛ لأن المال ماله . وعندما يزيد ما عندك من مال على حاجتك فأنت لا تحب أن يفارقك المال الزائد ، وفي الوقت نفسه تحرص على أن تنفقه فيما ينفعك ، فيرشدك الحق إلى إنفاق بعض المال في خير ما ينفعك ، وهو أن تعمل لآخرتك .

إذن : فأنت محتاج إلى التصدق ببعض من المال الزائد لِتحسُنَ آخرتك . والفقير محتاج إلى بعض من المال الزائد عن حاجتك ليَعيش . فكلاكما يحتاج الآخر ، ولكن الله سبحانه وتعالى احترم عمل الإنسان ، فجعل له النصيب الأكبر مما يكسب ، وللفقير نصيب أقل .

وعلى سبيل المثال : إن عثر الإنسان على كنز فزكاته عشرون في المائة ، وإذا زرع الإنسان وروى وحصد فزكاته هي عشرة في المائة ، أما إذا كان رزق الإنسان من عمل يومي كالتجارة ، فالزكاة هي اثنان ونصف في المائة ؛ ذلك أنه كلما كثرت حركة الإنسان في عمله قلَّتْ الزكاة . وكلما قَلَّ عمل الإنسام فيما يكسب ؛ زادت الزكاة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يشجع العامل على العمل . والمجتمع هو المستفيد بالعمل وإن لم يقصد صاحبه ذلك .

فالذي يبني عمارة – مثلاً – إنما يفتح باب العمل لمن يحضر الرمال ، ولمن يحضر الطوب والأسمنت والحديد ، وهو يدفع لوسائل نقل هذه المواد إلى موقع البناء ، ويدفع أجوراً لمن

قاموا بصناعة وتركيب الأدوات الصحية ، والكهرباء ، وغير ذلك وقد لا يستفيد صاحب العمارة منها لانتهاء أجله .

(238/340)

إذن : فالمجتمع كله يستفيد من بناء العمارة ، حتى ولو لم يكن في بال صاحبها أن يفيد المجتمع ، ويعتقد بعض الناس أن العمل وحده هو الذي يأتي بالمال ، وينسون أن الله هو الذي ييسره لهم ، ويُمَكِّنُهم منه . ويلفتنا سبحانه إلى ذلك حين تأتي آفات تتلف الزرع وتُضَيِّعُ تعب من قاموا بالحرث والبذر والسَّقْي ؛ لعلنا نلتفت إلى أن كل شيء يتم بإرادة الله ، وليس بالأسباب وحدها .

وسبحانه وتعالى حين يقضي بذلك ، يلفتنا أيضاً لفتة فيبارك في زرع في بلد آخر أو مكان آخر ، فإذا هلك محصول القمح في دولة ، كانت هناك دولة أخرى يزيد فيها محصول القمح ، فيشتري هؤلاء من هؤلاء ، أو ترسل الدول التي جاءها محصول وفير إلى الدول التي هلك فيها الزرع كمعونة أو إغاثة ، وبذلك تتعامل سبل الحياة .

ولا بد لنا أن نتذكر دائماً أن الله سبحانه وتعالى هو الذي أعطانا القدرة ، ولا أحد يستطيع أن يعطي القدرة للإنسان غير الله تبارك وتعالى . فالقدرة المطلقة هي لله سبحانه وتعالى ،

وسبحانه يُمرِّر بعضاً من أثر قدرته إلى خلقه ، فنجد إنساناً يستطيع بقدراته أن يُعِين إنساناً آخر في حَمْل شيء ثقيل لا يستطيع صاحبه أن يحمله .

وفَرْقٌ بين أن تتبرع أنت بأثر قوتك ؛ وبين أن تهبَ الغير هذه القوة . فالبشر يعطي أثر القوة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يهب القوة لمن يشاء .

المال – إذن – لا ينفع بذاته ، وإنما هو يُحضر الشيء النافع للإنسان ، فإذا احتجت إلى طعام أو شراب أو ملابس أو سيارة أو غير ذلك اشتريتها بالمال . إذن : فالمال هو وسيلة البشر للحصول على احتياجاتهم . ولذلك يعتز به الإنسان . والمثال : أن الأبناء الذين يأخذون المصروف كل شهر من الأب ، تجدهم يحرصون على لقاء الأب في أول الشهر ، وقد لا يلتفتون إليه باقي الأيام . أما إذا كان المصروف في كل يوم فتجد الأولاد يحرصون على لقاء أبيهم في كل يوم .

(239/340)

والحق سبحانه وتعالى هو خالق النفس البشرية ، يعلم ما في صدور الناس ؛ ولذلك يُلفت القادر إلى ضرورة أن يُخرِجَ بعضاً من ماله للعاجز عن الكسب .

ونحن نعيش في عالم أغيار ، ومن الممكن ان يصبح القادر اليوم عاجزاً غداً . ولذلك نجد

القادر يمتلئ بالقلق إذا رأى عاجزاً . وهنا يتذكر نعمة الله عليه ؛ فيسرع ليدفع بعضاً من ماله إلى العاجز ؛ وهو راض ، خوفاً من أن يحدث له مثل ما حدث لهذا العاجز . ويقول الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا . . . ﴾ [التوبة : 103]

إذن : فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه ، وتُزكِّي الإنسان أيضاً ، وشاء سبحانه أن تكون الزكاة نموّاً وزيادة وإن بدت في ظاهرها على أنها نقص . فالمائة جنيه تصبح سبعة وتسعين ونصفاً بعد إخراج الزكاة ، وهي عكس الربا الذي قد تصبح فيه المائة مائتين ، وظاهر الربا أنه زيادة ، ولكنه يمحق كل خير ، وظاهرة الزكاة أنها نقص ، ولكنها في حقيقتها نماء . والنماء أن يترقى الشيء في مراتب الكمال ؛ فينمو طهارة ، وينمو تزكية ، وينمو بالزيادة والبركة . والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها ؛ فيطمئن إلى حاضره ومستقبله .

لكن لنفرض أن المال دام لك طول العمر ، وأنت تعرف أن العمر مهما طال ، قصير . ولا بد أن يأتي يوم تفارق فيه هذا المال بالموت . في هذه اللحظة يكون ما كنزت من المال قد صار إلى ورثتك ، ولا يصحبك منه إلى آخرتك إلا ما أنفقت في سبيل الله ، أي : أن ما أنفقت هو ما يبقى لك في عالم الخلود لا يفارقك ولا تفارقه .

وشاء الحق أن يضاعف لك الجزاء والثواب .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم : مالي مالي . . وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ "

(240/340)

إذن : فالذي يحب ماله عليه أن يصحب معه هذا المال لمدة أطول ، وأن يتعدى به مجرد الوجود في الدنيا ، وأن يصل به إلى دار الخلود . ومن يعشق المال – إذا أراد أن يبقيه – فلينفقه في الصدقة .

" ولنا الأسوة الحسنة في رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جاءته شاة كهدية ، فقال للسيدة عائشة رضي الله عنها : " تصدقي بلحمها " . وكانت السيدة عائشة رضوان الله عليها تعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب لحم الكتف ، فتصدقت بلحم الشاة كلها ، وأبقَتْ قطعة من لحم الكتف لرسول الله عليه الصلاة والسلام . وعندما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألها : ماذا فعلت بلحم الشاة ؟ قالت : تصدقت بها كلها وأبقيت كتفها . فقال : " بل قولي أبقيتها كلها إلا كتفها "

وذلك لأن ما تصدقت به السيدة عائشة هو الباقي . وما أبقته لهما هو الذي سيفني .

وهكذا سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم الأشياء بحقيقة مسمياتها .

فالذي يحب صحبة ماله في الدنيا والآخرة ، عليه أن يقدم بعضاً منه صدقة للفقير والمحتاج ، ليبارك الله له في الدنيا ، ويجزيه خير الثواب في الآخرة . وقد سأل رجل الإمام عليا رضي الله عنه : أريد أن أعرف : هل أنا من أهل الآخرة ؟ . قال الإمام علي كرم الله وجهه : الجواب عندك أنت ، لا عندي ، انظر إذا دخل عليك من يعطيك ، ودخل عليك من يطلب منك ، أيهما ترحب به وتقابله ببشاشة ؛ أيهما تحب ؟ إن كنت تحب من يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة ، وإن كنت تحب من يعطيك فأنت من أهل الدنيا ؛ لأن من يأخذ منك يحمل حسناتك إلى الآخرة ، وأما من يعطيك فيزيدك من الدنيا ولا يعطي آخرتك شيئاً . ونقول للذي يحب المال : اجعل حبك للمال يبقيه لك فترة أطول من عمر الدنيا ؛ فالدنيا ليست هي المقاس ، ودنياك قدر عمرك فيها . أما الآخرة فأنت خالد فيها ، فتصدق ببعض مالك يكن لك خيراً في الآخرة .

(241/340)

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : أنه سبحانه وتعالى يضع الأشياء في موضعها عن علم وحكمة مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير ﴾ [الملك : 14]

وأما الحكمة فيدير بها الحق سبحانه حياة كل الناس ، وكلهم عبيد لله ، ولا فرق بين غني وفقير .

وشاء الحق أن يجعل التفرقة فقط في الدنيا ؛ لأن العالم لا يحتاج إلى أفراد مكررين ، ولا يمكن أن تستقيم الحياة إن كنا كلنا أطباء أو كلنا مهندسين أو كلنا قضاة ؛ لذلك شاء سبحانه أن تتوزع المواهب على قدر ضروريات الحياة ، فنبغ كل واحد منا في شيء ؛ أنا أتقن شيئاً ولا أعرف الباقي ، وغيري يتقن شيئاً آخر ولا يعرف الباقي . فأكون في حاجة إلى عمل غيري ، وغيري يحتاج عملي ، وبذلك يصير الرباط بيننا رباط حاجة ورباط رزق ، لا رباط تفضل وتطوع .

إذن : فالحكمة اقتضت أن يوزع سبحانه وتعالى المواهب على الخَلق بقدر ما تتطلب الخلافة في الأرض من حركات الحياة ؛ فأعطى هذا زاوية من نبوغ ، وأعطى الآخر زاوية أخرى من النبوغ ، ومن مجموع هذه الزوايا يتكون المجتمع ، وسبق أن قلنا : إن مجموع كل إنسان يساوي مجموع الآخر ، ولكن الناس لا تنظر إلا للمال ، ولا يلتفتون إلى ما هو أهم من المال ، كالصحة ، والأخلاق ، وراحة البال ، وسعادة الأولاد وتوفيقهم ، ثم البركة في الرزق وغير ذلك .

إنك لو وضعتَ لكل هذه الأشياء رقماً من عشرة مثلاً ؛ تجد أن مجموع كل إنسان في النهاية يتساوى مع مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . وإن رأى إنسان عاجز غيره ممن يملكون المال ولا يخرجون منه زكاة أو صدقة ، فماذا يكون موقفه ؟ لابد أنه سيتمنى زوال النعمة عن هؤلاء . ولكن إن عادت نعمة القادر الغني على من لا نعمة عنده ، فهذا يجعل العاجز الفقير مُحِبّاً لدوام النعمة عند صاحبها ؛ لأنه إن حُرِم الغني القوة ، حُرِم العاجز من آثارها ؛ ولذلك فعندما يعطي الغني للفقير ، فهو يدعو له بالبركة ، وحين يبارك الله في تلك النعمة سيعود على الفقير بعض منها .

وإن لم يأخذ الفقير المحتاج صدقة من الغني ، فقد يأخذها تلصُّصاً بأن يتحايل عليه ليسرقه أو ينهبه ، أو ربما دفعه الحقد والحسد إلى ان يقتله أو يتآمر على قتله .

إذن : فالزكاة في المجتمع تدفع شروراً كثيرة عن صاحبها . وهي ضرورة من ضروريات الحياة . ولذلك رأيناه القادرين في المجتمعات التي لا ترمن بدين وهم يتطوعون لإقامات المؤسسات الاجتماعية لرعاية غير القادرين لدفع شرور العاجزين عن مجتمعاتهم ؛ لذلك تجد في معظم دول العالم من يحاول تخصيص جزء من المال لكفالة العجزة والمتعطلين ليعيشوا حياة الكفاف ، وبذلك يأمن المجتمع شرورهم .

على أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَآءِ والمساكين والعاملين عَلَيْهَا

والمؤلفة قُلُوبُهُمْ وَفِي الرقاب والغارمين وَفِي سَبِيلِ الله وابن السبيل ﴾ معناه : أن الصدقات قد فرضت لهؤلاء ، والذي فرضها هو الحق سبحانه بقوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ الله ﴾ .

وقد تُفرَض الصدقات من البشر كضريبة اجتماعية ، أو غير ذلك ، لدفع الشرر عن المجتمع ، ولكن هذا لا يحدث إلا بعد أن تقع أحداث جسام يشقى بها مجتمع القادرين من مجتمع العاجزين ، ويخرج من يقول : لكي تأمنوا شرهم لابد أن نعطيهم حاجاتهم حتى يستقيم الأمر .

(243/340)

وهكذا نجد أن تشريعات البشر لا تأتي إلا بعد أن يشقى المجتمع لفترة طويلة من وضع موجود ، ولكن الحق سبحانه وتعالى رحمة منه بخليفته في الأرض جاء بالتشريع من أول الخلق ، بل من قبل الخلق ؛ حتى يرتب للإنسان حياة سعيدة خالية من الشقاء . ولذلك شرع الدين ورتَّبَ أحكامه لينزل إلى البشر ؛ فيكون منهجاً لهم يحميهم من شرور قاسية قبل أن تقع .

وشاء الحق سبحانه أن يجعل " سورة براءة " فاضحة كاشفة للمنافقين ؛ لذلك كان من بين أسمائها : " السورة الحافرة " ؛ لأن المنافق ربما يستر كفره ، ويفضح الله هذا الكفر بأن يحفر

عليه ليخرجه – ولله المثل الأعلى – فالإنسان يحفر الأرض ليكشف المخبوء فيها ، وهذه السورة ذكرت من صفات المنافقين الكثير .

فقد قال الحق : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي . . . ﴾ [التوبة : 49]

وقال عز وجل : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ . . . ﴾ [التوبة : 75]

وقال سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات . . . ﴾ [التوبة : 58]

ولذلك يسمونها " مَنَاهِم التوبة " . وهنا يبين الحق صورة جديدة للمنافقين وتصرفاتهم فيقول : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(244/340)

لطيفة

قال فى البحر المديد :

الإشارة : إنما النفحات والمواهب للفقراء والمساكين ، الذين افتقروا من السِّوى ، وسكنوا في حضرة شهود المولى . وفي الحكم . « ورود الفاقات أعياد المريدين ، ربما وجدت من المزيد في الفاقة ما لا تجده في الصوم والصلاة ، الفاقات بسُطُ المواهب . إن أردت بسط

المواهب عليك فصحح الفقر والفاقة لديك . ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ .

وقال الهروي : الفقر صفة مهجورة ، وهو ألذُّ ما يناله العارف ، لكونها تدخله على الله ، وتجلسه بين يدي الله ، وهو أعم المقامات حكماً ؛ لقطع العوائق ، والتجرد من العلائق ، واشتغال القلب بالله . وقيل : الفقير الصادق لا يملِك ولا يُملَك . وقال الشبلي : الفقير لا يستغني بشيء دون الله . وقال الشيخ ابن سبعين رضي الله عنه : الفقير هو الذي لا يحصره الكون . انتهى انتهى . اهـ يعني : لخروج فكرته عن دائرة الأكوان ، وقال القشيري : الفقير الصادق عندهم : مَنْ لا سماء تُظِله ، ولا أرضَ تُقِلُّه ، ولا سهم يتناوله ، ولا معلومَ يشغِله ، فهو عبد الله بالله . أهـ

وقال السهروردي في عوارفه : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ويلزم من وجود التصوف وجود الفقر ؛ لأن التصوف اسم جامع لمعاني الفقر والزهد ، مع زيادة أحوال لا بد منها للصوفي ، وإن كان فقيراً زاهداً . وقال بعضهم : نهاية الفقر بداية التصوف ؛ لأن التصوف اسم جامع لكل خلق سني ، والخروج من كل خلق دنيء ، لكنهم اتفقوا ألاَّ دخول على الله إلا من باب الفقر ، ومن لم يتحقق بالفقر لم يتحقق بشيء مما أشار إليه القوم .

وقال أبو إسحاق الهروي أيضاً : من أراد ان يبلغ الشرفَ كل الشرف ؛ فليخترْ سبعاً على سبع ، فإن الصالحين اختاروا حتى بَلَغُوا سنام الخير . واختاروا الفقر على الغنى ، والجوع على الشبع ؛ والدُّون على المرتفع ، والذلَّ على العز ، والتواضع على الكبر ، والحزن على

الفرح، والموت على الحياة. انتهى انتهى. اهـ ﴿البحر المديد حـ 3 صـ 395.

396 ﴾

(245/340)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر قال " جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله وهو يقسم قسماً ، فأعرض عنه وجعل يقسم قال : أتعطي رعاء الشاء ؟ والله ما عدلت . فقال : ويحك . . . ! من يعدل إذا أنا لم أعدل ؟ فأنزل الله هذه الآية ﴿ إنما الصدقات للفقراء . . . ﴾ الآية " .

وأخرج أبو داود والبغوي في معجمه والطبراني والدارقطني وضعفه عن زياد بن الحارث الصدائي قال : " قال رجل " يا رسول الله أعطني من الصدقة . فقال : إن الله لم يرض بحكم نبي ولا غيره في الصدقات حتى حكم هو فيها ، فجزأها ثمانية أجزاء فإن كنت من تلك

الأجزاء أعطيتك حقك " " .

وأخرج ابن سعد عن زياد بن الحرث الصدائي قال : بينا أنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء قوم يشكون عاملهم ، ثم قالوا : يا رسول الله آخذنا بشيء كان بيننا وبينه في الجاهلية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا خير للمؤمن في الإِمارة ، ثم قام رجل فقال : يا رسول الله أعطني من الصدقة . فقال : إن الله لم يكِل قسمها إلى ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى أجزأها ثمانية أجزاء ، فإن كنت جزأ منها أعطيتك وإن كنت غنياً عنها فإنما هي صداع في الرأس وداء في البطن " .

وأخرج سعيد بن منصور والطبراني وابن مردويه عن موسى بن يزيد الكندي قال : كان ابن مسعود يقرىء رجلاً ، فقرأ ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ مرسلة ، فقال ابن مسعود : ما هكذا أقرأنيها النبي صلى الله عليه وسلم . فقال : وكيف أقرأكها ؟ قال : أقرأنيها ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ فمدها .

(246/340)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن قوله ﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ﴾ [الإِسراء : 26] وقوله ﴿ إن تبدوا

الصدقات ﴾ [البقرة : 271] وقوله ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين . . . ﴾ الآية . قال : إنما هذا شيء أعلمه الله إياه لهم ، فأيما أعطيت صنفاً منها أجزاك .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وأبو الشيخ عن حذيفة في قوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء . . . ﴾ الآية . قال : إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية الذين سمى الله أو صنفين أو ثلاثة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي العالية قال : لا بأس أن تجعلها في صنف واحد مما قال الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن الحسن وعطاء وإبراهيم وسعيد بن جبير . مثله .

وأخرج ابن المنذر والنحاس عن ابن عباس قال : الفقراء فقراء المسلمين ، والمساكين الطوّافون .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس وأبو الشيخ عن قتادة قال : الفقير الذي به زمانة ، والمسكين المحتاج الذي ليس به زمانة .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم عن عمر بن الخطاب . أنه مرَّ برجل من أهل الكتاب مطروح على باب فقال : استكدوني وأخذوا مني الجزية حتى كف بصري ، فليس أحد يعود عليَّ بشيء . فقال عمر : ما أنصفنا إذاً ، ثم قال : هذا من الذين قال الله

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ ثم أمر له أن يرزق ويجري عليه .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عمر في قوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ قال : هم زَمْنى أهل الكتاب .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن قال : لا يعطي المشركون من الزكاة ولا من شيء من الكفارات .

(247/340)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر قال : ليس بفقير من جمع الدرهم إلى الدرهم ولا التمرة إلى التمرة ، إنما الفقير من اتقى ثوبه ونفسه لا يقدر على غنى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ﴾ [البقرة : 273] .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جابر بن زيد قال : الفقراء المتعففون ، والمساكين الذين يسألون .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الزهري . أنه سئل عن هذه الآية فقال : الفقراء الذين في بيوتهم ولا يسألون ، والمساكين الذي يخرجون فيسألون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الفقير ، الرجل يكون فقيراً وهو بين ظهري قومه وعشريته وذوي قرابته وليس له مال ، والمسكين الذي لا عشيرة له ولا قرابة ولا رحم

وليس له مال .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في الآية قال : الفقراء الذين هاجروا ، والمساكين الذين لم يهاجروا .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعيد بن جبير قال : يعطي من الزكاة من له الدار والخادم والفرس .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم رضي الله عنه قال : كانوا لا يمنعون الزكاة من له البيت والخادم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والعاملين عليها ﴾ قال : السعاة أصحاب الصدقة .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر عن الضحاك رضي الله عنه قال : يعطي كل عامل بقدر عمله .

وأخرج ابن أبي شيبة عن رافع بن خديج رضي الله عنه " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : العامل على الصدقة بالحق كالغازي حتى يرجع إلى بيته " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم

من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا : هذا دين صالح ، وإن كان غير ذلك ، عابوه وتركوه .

(248/340)

وأخرج البخاري وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال " بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن إلى النبي صلى الله عليه وسلم بذهيبة فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي ، وعلقمة بن علاثة العامري ، وعينية بن بدر الفزاري ، وزيد الخيل الطائي . فقالت قريش والأنصار : أيقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إنما أتالفهم " .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يحيى بن أبي كثير رضي الله عنه قال " المؤلفة قلوبهم : من بني هاشم أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب ، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبد الرحمن بن يربوع ، ومن بني أسد حكيم بن حزام ، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزي ، ومن بني جمح صفوان بن أمية ، ومن بني سهم عدي بن قيس ، ومن ثقيف العلاء بن حارثة أو حارثة ، ومن بني فزارة عينية بن حصن ، ومن بني تميم الأقرع بن حابس ، ومن بني نصر

مالك بن عوف ، ومن بني سليم العباس بن مرداس . أعطى النبي صلى الله عليه وسلم كل رجل منهم مائة ناقة مائة ناقة إلا عبد الرحمن بن يربوع وحويطب بن عبد العزى ، فإنه أعطى كل واحد منهما خمسين " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : المؤلفة قلوبهم الذين يدخلون في الإِسلام إلى يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك قال : المؤلفة قلوبهم قوم من وجوه العرب ، يقدمون عليه فينفق عليهم منها ما داموا حتى يسلموا أو يرجعوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن جبير قال : ليس اليوم مؤلفة قلوبهم .

(249/340)

وأخرج البخاري في تاريخه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي رضي الله عنه قال : ليست اليوم مؤلفة قلوبهم ، إنما كان رجال يتألفهم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما أن كان أبو بكر رضي الله عنه قطع الرشا في الإِسلام .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبيدة السلماني قال : جاء عينية بن حصن والأقرع بن حابس

إلى أبي بكر فقالا : يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ان عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة ، فإن رأيت أن تعطيناها لعلنا نحرثها ونزرعها ولعل الله أن ينفع بها .

فاقطعهما إياها وكتب لهما بذلك كتاباً واشهد لهما ، فانطلقا إلى عمر ليشهداه على ما فيه ، فلما قرآ على عمر ما في الكتاب تناوله من أيديهما فتفل فيه فمجاه ، فتذمرا وقالا له مقالة سيئة ، فقال عمر : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفهما والإِسلام يومئذ قليل ، وإن الله قد أعز الإِسلام فاذهبا فاجهد جهدكما لا أرعى الله عليكما إن أرعيتما .

وأخرج ابن سعد عن أبي وائل . أنه قيل له : ما أصنع بنصيب المؤلفة ؟ قال : زده على الآخرين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ وفي الرقاب ﴾ قال : هم المكاتبون .

وأخرج ابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : لا يعتق من الزكاة رقبة تامة ويعطى في رقبة ، ولا بأس بأن يعين به مكاتباً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عمر بن عبد العزيز قال : سهم الرقاب نصفان ، نصف لكل مكاتب ممن يدَّعي الإِسلام ، والنصف الباقي يشتري به رقاب ممن صلى وصام وقدم إسلامه من ذكر أو أنثى يعتقون لله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس . أنه كان لا يرى بأساً أن يعطي الرجل من زكاته في الحج ، وأن يعتق منها رقبة .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : أعتق من زكاة مالك .

وأخرج أبو عبيد وابن المنذر عن الحسن : أنه كان لا يرى بأساً أن يشتري الرجل من زكاة ماله نسمة فيعتقها .

(250/340)

وأخرج أبو عبيد وسعيد بن منصور وابن المنذر عن إبراهيم النخعي قال : يعان فيها الرقبة ولا يعتق منها .

وأخرج أبو عبيد وابن أبي شيبة وابن المنذر عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : لا تعتق من زكاة مالك فإنه يجر الولاء . قال أبو عبيد : قول ابن عباس أعلى ما جاءنا في هذا الباب ، وهو أولى بالاتباع وأعلم بالتأويل ، وقد وافقه عليه كثير من أهل العلم .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الزهري . أنه سئل عن الغارمين . قال : أصحاب الدين ، وابن السبيل وإن كان غنياً .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ والغارمين ﴾ قال : من احترق بيته ، وذهب السيل بماله ، وادّان على عياله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي جعفر في قوله ﴿

والغارمين ﴾ قال : المستدينين في غير فساد ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : المجتاز من أرض إلى أرض .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل في قوله ﴿ والغارمين ﴾ قال : هو الذي يسأل في دم أو جائحة تصيبه ﴿ وفي سبيل الله ﴾ قال : هم المجاهدون ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : المنقطع به يعطي قدر ما يبلغه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ وفي سبيل الله ﴾ قال : الغازي في سبيل الله ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : المسافر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو قال : الغازي في سبيل الله ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : المسافر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الضحاك في رجل سافر وهو غني ، فنفد ما معه في سفره فاحتاج قال : يعطى من الصدقة في سفره لأنه ابن سبيل .

(251/340)

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وفي سبيل الله ﴾ قال : حمل الرجل في سبيل الله من الصدقة ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : هو الضيف والمسافر إذا قطع به وليس له شيء ﴿ فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ قال : ثمانية أسهم فرضهن الله وأعلمهن .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة : لعامل عليها ، أو رجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز في سبيل الله ، أو مسكين تصدق عليه فأهدى منها الغني " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجة والنحاس في ناسخه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خموشاً أو كدوحاً . قالوا : يا رسول الله وماذا يغنيه ؟ قال : خمسون درهماً ، أو قيمتها من الذهب " .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الله بن عمر . أنه سئل عن مال الصدقة فقال : شر مال ، إنما هو مال الكسحان والعرجان والعميان وكل منقطع به . قيل : فإن للعاملين عليها حقاً ، وللمجاهدين في سبيل الله . قال : أما العاملون فلهم بقدر عمالتهم ، وأما المجاهدون في سبيل الله فقوم أحل لهم أن الصدقة لا تحل لغني ، ولا لذي مرة سوى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال " فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم الصدقة في ثمانية أسهم . ففرض في الذهب ، والورق ، والإِبل ، والبقر ، والغنم ، والزرع ، والكرم ، والنخل ، ثم توضع في ثمانية أسهم . في أهل هذه الآية ﴿ إنما الصدقات للفقراء . . . ﴾ الآية كلها " .

(252/340)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " خففوا على المسلمين في خرصكم فإن فيه العرايا ، وفيه الوصايا ، فأما العرايا فالنخلة والثلاث والأربع وأقل من ذلك وأكثر ، يمنحها الرجل أخاه ثمرتها فيأكلها هو وعياله ، وأما الوصايا فثمانية أسهم ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ إلى قوله ﴿ والله عليم حكيم ﴾ " .

وأخرج أحمد عن رجل من بني هلال قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لا تحل الصدقة لغني ، ولا ذي مرة سوى " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تحل الصدقة لغني ، ولا لذي مرة سوى " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو داود والنسائي عن عبيد الله بن عدي بن الخيار قال : " أخبرني

رجلان أنهما أتيا النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع وهو يقسم الصدقة ، فسألاه منها . فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين ، فقال : إن شئتما أعطيتكما ولا حظَّ فيها لغني ، ولا لقوي مكتسب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(253/340)

فصل

قال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

قَالَ الْحَسَنُ : يَعِيبُكَ .

وَقِيلَ : اللَّمْزُ الْعَيْبُ سِرًّا ، وَالْهَمْزُ الْعِيبُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ ، وَقَالَ قَتَادَةُ : يَطْعَنُ عَلَيْك .

وَيُقَالُ : إنَّ هَؤُلَاءِ كَانُوا قَوْمًا مُنَافِقِينَ أَرَادُوا أَنْ يُعْطِيَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ الصَّدَقَاتِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَائِزًا أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْهَا لِأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا ، فَطَعَنُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ ، وَقَالُوا يُؤْثِرُ بِهَا أَقْرِبَاءَهُ وَأَهْلَ مَوَدَّتِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ وَأَخْبَرَ أَنَّهُ لَا حَظَّ لِهَؤُلَاءِ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَإِنَّمَا هِيَ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمَنْ ذُكِرَ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ فِيهِ ضَمِيرُ جَوَابِ ﴿ لَوْ ﴾ تَقْدِيرُهُ : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ أَوْ أَعْوَدَ عَلَيْهِمْ ، وَحَذْفُ الْجَوَابِ فِي مِثْلِهِ أَبْلَغُ لِأَنَّهُ لِتَأْكِيدِ الْخَبَرِ بِهِ اسْتَغْنَى عَنْ ذِكْرِهِ مَعَ أَنَّ النَّفْسَ تَذْهَبُ إلَى كُلِّ نَوْعٍ مِنْهُ ، وَالذِّكْرُ يَقْصُرُهُ عَلَى الْمَذْكُورِ مِنْهُ دُونَ غَيْرِهِ .

وَفِيهِ إخْبَارٌ عَلَى أَنَّ الرِّضَا بِفِعْلِ اللَّهِ يُوجِبُ الْمَزِيدَ مِنْ الْخَيْرِ جَزَاءً لِلرَّاضِي عَلَى فِعْلِهِ .

(254/340)

﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الْآيَةَ قَالَ الزُّهْرِيُّ : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ وَالْمِسْكِينُ الَّذِي يَسْأَلُ .

وَرَوَى ابْنُ سِمَاعَةَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ فِي حَدِّ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ مِثْلَ هَذَا ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ رَأَى الْمِسْكِينَ أَضْعَفَ حَالًا وَأَبْلَغَ فِي جَهْدِ الْفَقْرِ وَالْعُدْمِ مِنْ الْفَقِيرِ وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَالزُّهْرِيِّ وَمُجَاهِدٍ قَالُوا : الْفَقِيرُ : الْمُتَعَفِّفُ الَّذِي لَا يَسْأَلُ ، وَالْمِسْكِينُ : الَّذِي يَسْأَلُ ؛ فَكَانَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ مُوَافِقًا لِقَوْلِ هَؤُلَاءِ السَّلَفِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا

يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ فَسَمَّاهُمْ فُقَرَاءَ ، وَوَصَفَهُمْ بِالتَّعَفُّفِ وَتَرْكِ الْمَسْأَلَةِ ، وَرُوِيَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : الْفَقِيرُ ذُو الزَّمَانَةِ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمِسْكِينُ الصَّحِيحُ مِنْهُمْ .

وَقِيلَ : إِنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الْمِسْكِينُ إِلَّا أَنَّهُ ذُكِرَ بِالصِّفَتَيْنِ لِتَأْكِيدِ أَمْرِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ الصَّدَقَةِ .

(255/340)

وَكَانَ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ الْكَرْخِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ : ﴿ الْمِسْكِينُ هُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ، وَالْفَقِيرُ هُوَ الَّذِي لَهُ أَدْنَى بُلْغَةٍ ﴾ وَيَحْكِي ذَلِكَ عَنْ أَبِي الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٍ ، قَالَ : وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ : حُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ : أَفَقِيرٌ أَنْتَ ؟ قَالَ : لَا بَلْ مِسْكِينٌ وَأَنْشَدَ عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ : أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يُتْرَكْ لَهُ سَبَدُ فَسَمَّاهُ فَقِيرًا مَعَ وُجُودِ الْحَلُوبَةِ .

قَالَ : وَحَكَى مُحَمَّدُ بْنُ سَلَّامٍ الْجُمَحِيُّ عَنْ يُونُسَ النَّحْوِيِّ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْفَقِيرُ يَكُونُ لَهُ بَعْضُ مَا يُغْنِيهِ ، وَالْمِسْكِينُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ قَدْ يَمْلِكُ بَعْضَ مَا يُغْنِيهِ لِأَنَّهُ لَا يَحْسَبُهُ الْجَاهِلُ بِحَالِهِ غَنِيًّا إِلَّا وَلَهُ ظَاهِرٌ جَمِيلٌ ، وَبِزَّةٌ حَسَنَةٌ

، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مِلْكَهُ لِبَعْضِ مَا يُغْنِيهِ لَا يَسْلُبُهُ صِفَةَ الْفَقْرِ .

وَكَانَ أَبُو الْحَسَنِ يَسْتَدِلُّ عَلَى مَا قَالَ فِي صِفَةِ الْمِسْكِينِ بِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ

(256/340)

الْمِسْكِينَ لَيْسَ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَالْأَكْلَةُ وَالْأَكْلَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ مَا يُغْنِيهِ ﴾ قَالَ : فَلَمَّا نَفَى الْمُبَالَغَةَ فِي الْمَسْكَنَةِ عَمَّنْ تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَأَثْبَتَهَا لِمَنْ لَا يَجِدُ ذَلِكَ وَسَمَّاهُ مِسْكِينًا ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ أَضْعَفُ حَالًا مِنْ الْفَقِيرِ .

قَالَ : وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ رُوِيَ فِي التَّفْسِيرِ أَنَّهُ الَّذِي قَدْ لَزِقَ بِالتُّرَابِ وَهُوَ جَائِعٌ عَارٍ لَا يُوَارِيهِ عَنْ التُّرَابِ شَيْءٌ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ فِي غَايَةِ الْحَاجَةِ وَالْعُدْمِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ فَأَثْبَتَ لَهُمْ مِلْكَ السَّفِينَةِ ، وَسَمَّاهُمْ مَسَاكِينَ .

(257/340)

قِيلَ لَهُ : قَدْ رُوِيَ أَنَّهُمْ كَانُوا أُجَرَاءَ فِيهَا ، وَأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُلَّاكًا لَهَا ، وَإِنَّمَا نَسَبَهَا إِلَيْهِمْ بِالتَّصَرُّفِ وَالْكَوْنِ فِيهَا ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ فَأَضَافَ الْبُيُوتَ تَارَةً إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَارَةً إِلَى أَزْوَاجِهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهَا لَمْ تَخْلُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مِلْكًا لَهُ أَوْ لَهُنَّ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لَهُنَّ ، وَلَهُ فِي حَالٍ وَاحِدَةٍ ، لِاسْتِحَالَةِ كَوْنِهَا مِلْكًا لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى حِدَةٍ فَثَبَتَ أَنَّ الْإِضَافَةَ إِنَّمَا صَحَّتْ لِأَجْلِ التَّصَرُّفِ وَالسُّكْنَى ، كَمَا يُقَالُ : ﴿ هَذَا مَنْزِلُ فُلَانٍ ﴾ وَإِنْ كَانَ سَاكِنًا فِيهِ غَيْرَ مَالِكٍ لَهُ وَ ﴿ هَذَا مَسْجِدُ فُلَانٍ ﴾ ، وَلَا يُرَادُ بِهِ الْمِلْكُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ هُوَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى ، وَيُقَالُ إِنَّ الْفَقِيرَ إِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَدْ كُسِرَتْ فَقَارُهُ ، يُقَالُ مِنْهُ فَقَرَ الرَّجُلُ فَقْرًا ، وَأَفْقَرَهُ اللَّهُ إِفْقَارًا ، وَتَفَاقَرَ تَفَاقُرًا ، وَالْمِسْكِينُ الَّذِي قَدْ أَسْكَنَتْهُ الْحَاجَةُ ، وَرُوِيَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ وَالضَّحَّاكِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ .

(258/340)

أَنَّ الْفُقَرَاءَ الْمُهَاجِرُونَ وَالْمَسَاكِينَ مِنْ غَيْرِ الْمُهَاجِرِينَ ، كَأَنَّهُمَا ذَهَبَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾ ، وَرَوَى سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : الْفَقِيرُ الَّذِي بِهِ زَمَانَةٌ وَهُوَ فَقِيرٌ إِلَى بَعْضِ جَسَدِهِ ، وَبِهِ حَاجَةٌ ، وَالْمِسْكِينُ الْمُحْتَاجُ الَّذِي لَا زَمَانَةَ بِهِ .

وَرَوَى مَعْمَرٌ عَنْ أَيُّوبَ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ قَالَ : لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالَّذِي لَا مَالَ لَهُ ، وَلَكِنْ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يُصِيبُ الْمَكْسَبَ .

وَهَذَا الَّذِي قَدَّمْنَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَحْسَنُ حَالًا مِنْ الْمِسْكِينِ ، وَأَنَّ الْمِسْكِينَ أَضْعَفُ حَالًا مِنْهُ .

وَقَدْ رَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ فِيمَنْ قَالَ ثُلُثُ مَالِي لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلِفُلَانٍ ؛ أَنَّ لِفُلَانٍ الثُّلُثَ وَالثُّلُثَانِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ فَهَذَا مُوَافِقٌ لِمَا رُوِيَ عَنْهُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ وَأَنَّهُمَا صِنْفَانِ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ : أَنَّ نِصْفَ الثُّلُثِ لِفُلَانٍ ، وَنِصْفَهُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ صِنْفًا وَاحِدًا .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ فَإِنَّهُمْ السُّعَاةُ لِجِبَايَةِ الصَّدَقَةِ ؛ رُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ بِقَدْرِ عِمَالَتِهِمْ ، وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِثْلُهُ .

وَلَا نَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُمْ لَا يُعْطَوْنَ الثَّمَنَ ، وَأَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ مِنْهَا بِقَدْرِ عَمَلِهِمْ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ أَوْجَبَ قِسْمَةَ الصَّدَقَاتِ عَلَى ثَمَانِيَةٍ ، وَيَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّ أَخْذَ الصَّدَقَاتِ إلَى الْإِمَامِ ، وَأَنَّهُ لَا يَجْزِي أَنْ يُعْطِيَ رَبُّ الْمَاشِيَةِ صَدَقَتَهَا الْفُقَرَاءَ فَإِنْ فَعَلَ أَخَذَهَا الْإِمَامُ ثَانِيًا ، وَلَمْ يَحْتَسِبْ لَهُ بِمَا أَدَّى ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ جَازَ لِأَرْبَابِ الْأَمْوَالِ أَدَاؤُهَا إلَى الْفُقَرَاءِ لَمَا احْتِيجَ إلَى عَامِلٍ لِجِبَايَتِهَا فَيَضُرُّ بِالْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَخْذَهَا إلَى الْإِمَامِ ، وَأَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُ إعْطَاؤُهَا الْفُقَرَاءَ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ فَإِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يُتَأَلَّفُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِمَا يُعْطَوْنَ مِنْ الصَّدَقَاتِ ، وَكَانُوا يُتَأَلَّفُونَ بِجِهَاتٍ ثَلَاثٍ : إحْدَاهَا لِلْكُفَّارِ لِدَفْعِ مَعَرَّتِهِمْ ، وَكَفِّ أَذِيَّتِهِمْ عَنْ الْمُسْلِمِينَ ، وَالِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ، وَالثَّانِيَةِ : لِاسْتِمَالَةِ قُلُوبِهِمْ وَقُلُوبِ غَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ إلَى الدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَلِئَلَّا يَمْنَعُوا مَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِمْ مِنْ الثَّبَاتِ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ ، وَالثَّالِثَةِ إعْطَاءُ قَوْمٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَدِيثِي الْعَهْدِ بِالْكُفْرِ لِئَلَّا يَرْجِعُوا إلَى الْكُفْرِ .

وَقَدْ رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي نُعَيْمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : ﴿ بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بِذَهَبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ ، فَقَسَمَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ زَيْدِ الْخَيْرِ ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ وَعُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ ،

وَعَلْقَمَةَ بْنِ عُلَاثَةَ ، فَغَضِبَتْ قُرَيْشٌ ، وَالْأَنْصَارُ ، وَقَالُوا : يُعْطِي صَنَادِيدَ أَهْلِ نَجْدٍ قَالَ : إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ ﴾ رَوَى ابْنُ أَبِي ذِئْبٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ عَامِرِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُلَ الْعَطَاءَ ، وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ ، وَمَا أَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَّا مَخَافَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللَّهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ عَلَى وَجْهِهِ .

﴾ وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ : أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ قَالُوا يَوْمَ حُنَيْنٍ حِينَ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ أَمْوَالَ هَوَازِنَ وَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعْطِي رِجَالًا مِنْ قُرَيْشٍ الْمِائَةَ مِنْ الْإِبِلِ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، فَذَكَرَ حَدِيثًا فِيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ أُصَانِعُهُمْ أَفَلَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالْأَمْوَالِ ، وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ إِلَى رِحَالِكُمْ ؟ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَتَأَلَّفُ بِمَا يُعْطِي قَوْمًا مِنْ الْمُسْلِمِينَ حَدِيثِي عَهْدٍ بِالْإِسْلَامِ لِئَلَّا يَرْجِعُوا كُفَّارًا .

وَرَوَى الزُّهْرِيُّ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ قَالَ : ﴿ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَمَا زَالَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ الْخَلْقِ إِلَيَّ ﴾ وَرَوَى مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : لَمَّا أَصَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْغَنَائِمَ بِحُنَيْنٍ ، وَقَسَمَ لِلْمُتَأَلِّفِينَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَفِي سَائِرِ الْعَرَبِ مَا قَسَمَ ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَذَكَرَ الْحَدِيثَ ، وَقَالَ فِيهِ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ : ﴿ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْت بِهَا أَقْوَامًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إلَى مَا قَسَمَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ الْإِسْلَامِ ﴾ فَفِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهُ تَأَلَّفَهُمْ لِيُسْلِمُوا ، وَفِي الْأَوَّلِ : ﴿ إنِّي لَأُعْطِي رِجَالًا حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ ﴾ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يَتَأَلَّفُ بِذَلِكَ الْمُسْلِمِينَ وَالْكُفَّارَ جَمِيعًا .

(262/340)

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : ﴿ إنَّمَا كَانُوا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ فِي حَالِ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِمْ ، وَقَدْ أَعَزَّ اللَّهُ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ ، وَاسْتَغْنَى بِهِمْ عَنْ تَأَلُّفِ الْكُفَّارِ ، فَإِنْ احْتَاجُوا إلَى ذَلِكَ فَإِنَّمَا ذَلِكَ لِتَرْكِهِمْ

الْجِهَادَ ، وَمَتَى اجْتَمَعُوا وَتَعَاضَدُوا لَمْ يَحْتَاجُوا إلَى تَأَلُّفِ غَيْرِهِمْ بِمَالٍ يُعْطَوْنَهُ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ نَحْوُ قَوْلِ أَصْحَابِنَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ ؛ رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْمُحَارِبِيُّ عَنْ حَجَّاجِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ ابْنِ سِيرِينَ عَنْ عُبَيْدَةَ قَالَ : جَاءَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ إلَى أَبِي بَكْرٍ فَقَالَا : يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ إنَّ عِنْدَنَا أَرْضًا سَبِخَةً لَيْسَ فِيهَا كَلَأٌ وَلَا مَنْفَعَةٌ فَإِنْ رَأَيْت أَنْ تُعْطِينَاهَا فَأَقْطَعَهَا إيَّاهُمَا ، وَكَتَبَ لَهُمَا عَلَيْهَا كِتَابًا وَأَشْهَدَ ، وَلَيْسَ فِي الْقَوْمِ عُمَرُ ، فَانْطَلَقَا إلَى عُمَرَ لِيَشْهَدَ لَهُمَا ، فَلَمَّا سَمِعَ عُمَرُ مَا فِي الْكِتَابِ تَنَاوَلَهُ مِنْ أَيْدِيهِمَا ثُمَّ تَفَلَ فِيهِ فَمَحَاهُ فَتَذَمَّرَا ، وَقَالَا مَقَالَةً سَيِّئَةً ، فَقَالَ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَتَأَلَّفُكُمَا وَالْإِسْلَامُ يَوْمَئِذٍ قَلِيلٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَغْنَى الْإِسْلَامَ ، اذْهَبَا فَاجْهَدَا جَهْدَكُمَا لَا يَرْعَى اللَّهُ عَلَيْكُمَا إنْ رَعَيْتُمَا .

(263/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : فَتَرْكُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النَّكِيرَ عَلَى عُمَرَ فِيمَا فَعَلَهُ بَعْدَ إمْضَائِهِ الْحُكْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ عَرَفَ مَذْهَبَ عُمَرَ فِيهِ حِينَ نَبَّهَهُ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ سَهْمَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ كَانَ مَقْصُورًا عَلَى الْحَالِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْإِسْلَامِ مِنْ قِلَّةِ الْعَدَدِ

وَكَثْرَةِ عَدَدِ الْكُفَّارِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَرَ الِاجْتِهَادَ سَائِغًا فِي ذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ سَوَّغَ الِاجْتِهَادَ فِيهِ لَمَا أَجَازَ فَسْخَ الْحُكْمِ الَّذِي أَمْضَاهُ ، فَلَمَّا أَجَازَ لَهُ ذَلِكَ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ عَرَفَ بِتَنْبِيهِ عُمَرَ إِيَّاهُ عَلَى ذَلِكَ امْتِنَاعَ جَوَازِ الِاجْتِهَادِ فِي مِثْلِهِ .

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ قَالَ : ﴿ لَيْسَ الْيَوْمَ مُؤَلَّفَةٌ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

وَرَوَى إِسْرَائِيلُ أَيْضًا عَنْ جَابِرِ بْنِ عَامِرٍ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ قَالَ : ﴿ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ انْقَطَعَ الرِّشَا ﴾ .

وَرَوَى ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ مُبَارَكٍ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : لَيْسَ مُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ كَانُوا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَرَوَى مَعْقِلُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ قَالَ : سَأَلْت الزُّهْرِيَّ عَنْ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، قَالَ : مَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ ، قُلْت : وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا ؟ قَالَ : وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا .

(264/340)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ فَإِنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ مُخْتَلِفُونَ فِيهِ فَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَمُحَمَّدُ بْنُ سِيرِينَ : لَا يُجْزِي أَنْ تُعْتَقَ مِنْ الزَّكَاةِ رَقَبَةٌ ، وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا وَالشَّافِعِيِّ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَعْتِقْ مِنْ زَكَاتِك .

وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ لَا يُعْتِقُ مِنْ الزَّكَاةِ مَخَافَةَ جَرِّ الْوَلَاءِ .

وَقَالَ مَالِكٌ فِي الرِّقَابِ : ﴿ إنَّهَا رِقَابٌ يُبْتَاعُونَ مِنْ الزَّكَاةِ ، وَيُعْتَقُونَ فَيَكُونُ وَلَاؤُهُمْ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ دُونَ الْمُعْتِقِينَ ﴾ .

قَالَ مَالِكٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ : لَا يُعْطَى الْمُكَاتَبُ مِنْ الزَّكَاةِ شَيْئًا ، وَلَا عَبْدًا مُوسِرًا كَانَ مَوْلَاهُ أَوْ مُعْسِرًا ، وَلَا يُعْطَوْنَ مِنْ الْكَفَّارَاتِ أَيْضًا ، قَالَ مَالِكٌ : ﴿ لَا يُعْتَقُ مِنْ الزَّكَاةِ إلَّا رَقَبَةٌ مُؤْمِنَةٌ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَا نَعْلَمُ خِلَافًا بَيْنَ السَّلَفِ فِي جَوَازِ إعْطَاءِ الْمُكَاتَبِ مِنْ الزَّكَاةِ ، فَثَبَتَ أَنَّ إعْطَاءَهُ مُرَادٌ بِالْآيَةِ ، وَالدَّفْعُ إلَيْهِ صَدَقَةٌ صَحِيحَةٌ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ وَعِتْقُ الرَّقَبَةِ لَا يُسَمَّى صَدَقَةً ، وَمَا أُعْطِيَ فِي ثَمَنِ الرَّقَبَةِ فَلَيْسَ بِصَدَقَةٍ لِأَنَّ بَائِعَهَا أَخَذَهُ ثَمَنًا لِعَبْدِهِ فَلَمْ تَحْصُلْ بِعِتْقِ الرَّقَبَةِ صَدَقَةٌ ، وَاَللَّهُ تَعَالَى إنَّمَا جَعَلَ الصَّدَقَاتِ فِي الرِّقَابِ فَمَا لَيْسَ بِصَدَقَةٍ فَهُوَ غَيْرُ مُجْزِئٍ .

(265/340)

وَأَيْضًا فَإِنَّ الصَّدَقَةَ تَقْتَضِي تَمْلِيكًا وَالْعَبْدُ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا بِالْعِتْقِ ، وَإِنَّمَا سَقَطَ عَنْ رَقَبَتِهِ ، وَهُوَ مِلْكٌ لِلْمَوْلَى ، وَلَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ الرِّقُّ لِلْعَبْدِ لِأَنَّهُ لَوْ حَصَلَ لَهُ لَوَجَبَ أَنْ يَقُومَ فِيهِ مَقَامَ الْمَوْلَى فَيَتَصَرَّفَ فِي رَقَبَتِهِ كَمَا يَتَصَرَّفُ الْمَوْلَى ، فَثَبَتَ أَنَّ الَّذِي حَصَلَ لِلْعَبْدِ إنَّمَا هُوَ سُقُوطُ مِلْكِ الْمَوْلَى ، وَأَنَّهُ لَمْ يَمْلِكْ بِذَلِكَ شَيْئًا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مُجْزِيًا مِنْ الصَّدَقَةِ إذْ

شَرْطُ الصَّدَقَةِ وُقُوعُ الْمِلْكِ لِلْمُتَصَدَّقِ عَلَيْهِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْعِتْقَ وَاقِعٌ فِي مِلْكِ الْمَوْلَى غَيْرُ مُنْتَقِلٍ إلَى الْغَيْرِ ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ وَلَاؤُهُ مِنْهُ فَغَيْرُ جَائِزٍ وُقُوعُهُ عَنْ الصَّدَقَةِ .

وَلَمَّا قَامَتْ الْحُجَّةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ الْوَلَاءَ لِمَنْ أَعْتَقَ وَجَبَ أَنْ لَا يَكُونَ الْوَلَاءُ لِغَيْرِهِ ، فَإِذَا انْتَفَى أَنْ يَكُونَ الْوَلَاءُ إلَّا لِمَنْ أَعْتَقَ ثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ الْمُكَاتَبُونَ .

وَأَيْضًا رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ أَعَانَ مُكَاتَبًا فِي رَقَبَتِهِ أَوْ غَازِيًا فِي عُسْرَتِهِ أَوْ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَظَلَّهُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ ﴾ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى الْمُكَاتَبِينَ مَعُونَةٌ لَهُمْ فِي رِقَابِهِمْ حَتَّى يُعْتَقُوا ، وَذَلِكَ مُوَافِقٌ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ .

وَرَوَى طَلْحَةُ الْيَمَانِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْسَجَةَ عَنْ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ : ﴿ قَالَ أَعْرَابِيٌّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عَلِّمْنِي عَمَلًا يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ قَالَ : لَئِنْ كُنْتَ أَقْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ عَرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ ، أَعْتِقْ النَّسَمَةَ ، وَفُكَّ الرَّقَبَةَ قَالَ : أَوَلَيْسَا سَوَاءً ؟ قَالَ : لَا عِتْقُ النَّسَمَةِ أَنْ تَفُوزَ بِعِتْقِهَا ، وَفَكُّ الرَّقَبَةِ أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا ، وَالْمِنْحَةُ الرَّكُوبُ ، وَالْفَيْءُ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الظَّالِمِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَأَطْعِمْ الْجَائِعَ ، وَاسْقِ الظَّمْآنَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنْ الْمُنْكَرِ ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفَّ لِسَانَكَ إلَّا مِنْ خَيْرٍ ، ﴾ فَجَعَلَ عِتْقَ النَّسَمَةِ غَيْرَ فَكِّ الرَّقَبَةِ ، فَلَمَّا قَالَ : ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ كَانَ الْأَوْلَى أَنْ يَكُونَ فِي مَعُونَتِهَا بِأَنْ يُعْطَى الْمُكَاتَبُ حَتَّى يَفُكَّ الْعَبْدُ رَقَبَتَهُ مِنْ الرِّقِّ .

وَلَيْسَ هُوَ ابْتِيَاعُهَا وَعِتْقُهَا ؛ لِأَنَّ

الثَّمَنَ حِينَئِذٍ يَأْخُذُهُ الْبَائِعُ ، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ قُرْبَةٌ ، وَإِنَّمَا الْقُرْبَةُ فِي أَنْ يُعْطَى الْعَبْدُ نَفْسَهُ حَتَّى يَفُكَّ بِهِ رَقَبَتَهُ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إلَّا بَعْدَ الْكِتَابَةِ لِأَنَّهُ قَبْلَهَا يَحْصُلُ لِلْمَوْلَى ، وَإِذَا كَانَ مُكَاتَبًا فَمَا يَأْخُذُهُ لَا يَمْلِكُهُ الْمَوْلَى ، وَإِنَّمَا يَحْصُلُ لِلْمُكَاتَبِ فَيَجْزِي مِنْ الزَّكَاةِ .

(267/340)

وَأَيْضًا فَإِنَّ عِتْقَ الرَّقَبَةِ يُسْقِطُ حَقَّ الْمَوْلَى عَنْ رَقَبَتِهِ مِنْ غَيْرِ تَمْلِيكٍ ، وَلَا يَحْتَاجُ فِيهِ إلَى إذْنِ الْمَوْلَى ، فَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ مَنْ قَضَى دَيْنَ رَجُلٍ بِغَيْرِ أَمْرِهِ فَلَا يَجْزِي مِنْ زَكَاتِهِ ، وَإِنْ دَفَعَهُ إلَى الْغَارِمِ فَقَضَى بِهِ دَيْنَ نَفْسِهِ جَازَ ؛ كَذَلِكَ إذَا دَفَعَهُ إلَى الْمُكَاتَبِ فَمَلَكَهُ أَجْزَأَهُ عَنْ الزَّكَاةِ ، وَإِذَا أَعْتَقَهُ لَمْ يُجْزِهِ لِأَنَّهُ لَمْ يَمْلِكْهُ ، وَحَصَلَ الْعِتْقُ بِغَيْرِ قَبُولِهِ وَلَا إذْنِهِ

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ ؛ قَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَخْتَلِفُوا أَنَّهُمْ الْمَدِينُونَ ، وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ إذَا لَمْ يَمْلِكْ فَضْلًا عَنْ دَيْنِهِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَإِنَّهُ فَقِيرٌ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ : أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ .

﴾ فَحَصَلَ لَنَا بِمَجْمُوعِ الْآيَةِ وَالْخَبَرِ أَنَّ الْغَارِمَ فَقِيرٌ ، إذْ كَانَتْ الصَّدَقَةُ لَا تُعْطَى إلَّا الْفُقَرَاءَ بِقَضِيَّةِ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ أَيْضًا عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ يُحِيطُ بِمَالِهِ ، وَلَهُ مَالٌ كَثِيرٌ أَنَّهُ لَا زَكَاةَ عَلَيْهِ ، إذْ كَانَ فَقِيرًا يَجُوزُ لَهُ أَخْذُ الصَّدَقَةِ .

(268/340)

وَالْآيَةُ خَاصَّةٌ فِي بَعْضِ الْغَارِمِينَ دُونَ بَعْضٍ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ أَلْفُ دِرْهَمٍ ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ مِائَةُ دِرْهَمٍ لَمْ تَحِلَّ لَهُ الزَّكَاةُ ، وَلَمْ يُجْزِ مُعْطِيهِ إيَّاهَا وَإِنْ كَانَ غَارِمًا ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ الْغَرِيمُ

الَّذِي لَا يَفْضُلُ لَهُ عَمَّا فِي يَدِهِ بَعْدَ قَضَاءِ دَيْنِهِ مِقْدَارُ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ أَوْ مَا يُسَاوِيهَا ، فَيَجْعَلُ الْمِقْدَارَ الْمُسْتَحَقَّ بِالدَّيْنِ مِمَّا فِي يَدِهِ كَأَنَّهُ فِي غَيْرِ مِلْكِهِ ، وَمَا فَضَلَ عَنْهُ فَهُوَ فِيهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ لَا دَيْنَ عَلَيْهِ .

وَفِي جَعْلِهِ الصَّدَقَةَ لِلْغَارِمِينَ دَلِيلٌ أَيْضًا عَلَى أَنَّ الْغَارِمَ إذَا كَانَ قَوِيًّا مُكْتَسِبًا فَإِنَّ الصَّدَقَةَ تَحِلُّ لَهُ ، إذْ لَمْ تُفَرِّقْ بَيْنَ الْقَادِرِ عَلَى الْكَسْبِ وَالْعَاجِزِ عَنْهُ .

وَزَعَمَ الشَّافِعِيُّ أَنَّ مَنْ تَحَمَّلَ حَمَالَةَ عَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَلَهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ أَنَّ الصَّدَقَةَ تَحِلُّ لَهُ ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ مِنْ غَيْرِ الْحَمَالَةِ لَمْ تَحِلَّ لَهُ ، وَاحْتَجَّ فِيهِ بِحَدِيثِ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ أَنَّهُ تَحَمَّلَ حَمَالَةً ، فَسَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهَا فَقَالَ : ﴿ إنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا

(269/340)

تَحِلُّ إلَّا لِثَلَاثَةٍ رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَيَسْأَلُ فِيهَا حَتَّى يُؤَدِّيَهَا ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَاحَتْ مَالَهُ فَيَسْأَلُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ وَحَاجَةٌ حَتَّى يَشْهَدَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ فُلَانًا أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ سُحْتٌ .

﴿ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْحَمَالَةَ وَسَائِرَ الدُّيُونِ سَوَاءٌ ؛ لِأَنَّ الْحَمَالَةَ هِيَ الْكَفَالَةُ وَالْحَمِيلُ هُوَ الْكَفِيلُ ، فَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجَازَ لَهُ الْمَسْأَلَةَ لِأَجْلِ مَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنِ الْكَفَالَةِ ، وَقَدْ عَلِمَ مُسَاوَاةَ دَيْنِ الْكَفَالَةِ لِسَائِرِ الدُّيُونِ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ شَيْءٍ مِنْهَا ، فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ إبَاحَةُ الْمَسْأَلَةِ لِأَجْلِ الْحَمَالَةِ مَحْمُولَةً عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى أَدَائِهَا ، وَكَانَ الْغُرْمُ الَّذِي لَزِمَهُ بِإِزَاءِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَالِهِ كَمَا نَقُولُ فِي سَائِرِ الدُّيُونِ .

وَرَوَى إسْرَائِيلُ عَنْ جَابِرِ بْنِ أَبِي جَعْفَرٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ قَالَ : ﴿ الْمُسْتَدِينُ فِي غَيْرِ سَرَفٍ حَقٌّ عَلَى الْإِمَامِ أَنْ يَقْضِيَ عَنْهُ ﴾ .

وَقَالَ سَعِيدٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ قَالَ : ﴿ نَاسٌ عَلَيْهِمْ دَيْنٌ مِنْ غَيْرِ فَسَادٍ وَلَا إتْلَافٍ وَلَا تَبْذِيرٍ فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُمْ فِيهَا سَهْمًا ﴾ .

(270/340)

وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ فِي الدَّيْنِ أَنَّهُ مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا إفْسَادٍ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ مُبَذِّرًا مُفْسِدًا لَمْ يُؤْمَنْ إذَا قَضَى دَيْنَهُ أَنْ يَسْتَدِينَ مِثْلَهُ فَيَصْرِفَهُ فِي الْفَسَادِ ، فَكَرِهُوا قَضَاءَ دَيْنِ مِثْلِهِ لِئَلَّا يَجْعَلَهُ ذَرِيعَةً إلَى السَّرَفِ وَالْفَسَادِ ، وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ قَضَاءِ دَيْنِ مِثْلِهِ وَدَفْعِ الزَّكَاةِ إلَيْهِ .

وَإِنَّمَا ذَكَرَ هَؤُلَاءِ عَدَمَ الْفَسَادِ وَالتَّبْذِيرِ فِيمَا اسْتَدَانَ عَلَى وَجْهِ الْكَرَاهَةِ لَا عَلَى جِهَةِ

الْإِيجَابِ ، وَرَوَى عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى عَنْ

عُثْمَانَ بْنِ الْأَسْوَدِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ قَالَ : الْغَارِمُ مَنْ ذَهَبَ السَّيْلُ بِمَالِهِ ، أَوْ أَصَابَهُ حَرِيقٌ فَأَذْهَبَ مَالَهُ ، أَوْ رَجُلٌ لَهُ عِيَالٌ لَا يَجِدُ مَا يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ فَيَسْتَدِينُ .

(271/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : أَمَّا مَنْ ذَهَبَ مَالُهُ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلَا يُسَمَّى غَرِيمًا ؛ لِأَنَّ الْغُرْمَ هُوَ اللُّزُومُ ، وَالْمُطَالَبَةُ ، فَمَنْ لَزِمَهُ الدَّيْنُ يُسَمَّى غَرِيمًا ، وَمَنْ لَهُ الدَّيْنُ أَيْضًا يُسَمَّى غَرِيمًا لِأَنَّ لَهُ اللُّزُومَ وَالْمُطَالَبَةَ ، فَأَمَّا مَنْ ذَهَبَ مَالُهُ فَلَيْسَ بِغَرِيمٍ ، وَإِنَّمَا يُسَمَّى فَقِيرًا أَوْ مِسْكِينًا ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ كَانَ يَسْتَعِيذُ بِاللَّهِ مِنْ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : إنَّ الرَّجُلَ إذَا غَرِمَ حَدَّثَ فَكَذَبَ وَوَعَدَ فَأَخْلَفَ ﴾ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ إذَا لَزِمَهُ الدَّيْنُ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُجَاهِدٌ أَرَادَ مَنْ ذَهَبَ مَالُهُ ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ ؛ لِأَنَّهُ إذَا كَانَ لَهُ مَالٌ ، وَعَلَيْهِ دَيْنٌ أَقَلُّ مِنْ مَالِهِ بِمِقْدَارِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَلَيْسَ هُوَ مِنْ الْغَارِمِينَ الْمُرَادِينَ بِالْآيَةِ .

وَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُمَيْطٍ عَنْ أَبِي بَكْرٍ الْحَنَفِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إنَّ الْمَسْأَلَةَ لَا تَحِلُّ ، وَلَا تَصْلُحُ إلَّا لِأَحَدِ ثَلَاثَةٍ :

لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ لِذِي غُرْمٍ مُفْظِعٍ أَوْ لِذِي دَمٍ مُوجِعٍ ﴾ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مُرَادَهُ بِالْغُرْمِ الدَّيْنُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

(272/340)

رَوَى ابْنُ أَبِي لَيْلَى عَنْ عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ابْنِ السَّبِيلِ أَوْ رَجُلٍ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَهْدَى لَهُ ﴾ .

وَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : ﴿ هِيَ لِلْمُجَاهِدِينَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْهُمْ وَالْفُقَرَاءِ ﴾ ، وَهُوَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ لَا يُعْطَى مِنْهَا إلَّا الْفُقَرَاءُ مِنْهُمْ ، وَلَا يُعْطَى الْأَغْنِيَاءُ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ ، فَإِنْ أُعْطُوا مَلَكُوهَا ، وَأَجْزَأَ الْمُعْطِي ، وَإِنْ لَمْ يَصْرِفْهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ شَرْطَهَا تَمْلِيكُهُ ، وَقَدْ حَصَلَ لِمَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ فَأَجْزَأَ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ تَصَدَّقَ بِفَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَوَجَدَهُ يُبَاعُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَأَرَادَ أَنْ يَشْتَرِيَهُ ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَعُدْ فِي صَدَقَتِك ﴾ فَلَمْ يَمْنَعْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَحْمُولَ عَلَى الْفَرَسِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ بَيْعِهَا ، وَإِنْ أَعْطَى حَاجًّا مُنْقَطِعًا

بِهِ أَجْزَأَ أَيْضًا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَجُلًا أَوْصَى بِمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : إنَّ الْحَجَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاجْعَلْهُ فِيهِ .

(273/340)

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ فِي السِّيَرِ الْكَبِيرِ فِي رَجُلٍ أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ : ﴿ إنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْحَاجِّ الْمُنْقَطِعِ بِهِ ﴾ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ قَدْ أُرِيدَ بِهِ عِنْدَ مُحَمَّدٍ الْحَاجُّ الْمُنْقَطِعُ بِهِ .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِيمَنْ أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَّهُ لِفُقَرَاءِ الْغُزَاةِ .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ أَجَازَ النَّبِيُّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَغْنِيَاءِ الْغُزَاةِ أَخْذَ الصَّدَقَةِ بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ إلَّا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ غَنِيًّا فِي أَهْلِهِ وَبَلَدِهِ بِدَارٍ يَسْكُنُهَا وَأَثَاثٍ يَتَأَثَّثُ بِهِ فِي بَيْتِهِ وَخَادِمٍ يَخْدُمُهُ ، وَفَرَسٍ يَرْكَبُهُ ، وَلَهُ فَضْلُ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ أَوْ قِيمَتُهَا ، فَلَا تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ ، فَإِذَا عَزَمَ عَلَى الْخُرُوجِ فِي سَفَرِ غَزْوٍ احْتَاجَ مِنْ آلَاتِ السَّفَرِ وَالسِّلَاحِ وَالْعُدَّةِ إلَى مَا لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجًا

إِلَيْهِ فِي حَالِ إِقَامَتِهِ فَيُنْفِقُ الْفَضْلَ عَنْ أَثَاثِهِ ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مِصْرِهِ عَلَى السِّلَاحِ وَالْآلَةِ وَالْعُدَّةِ ، فَتَجُوزُ لَهُ الصَّدَقَةُ .

(274/340)

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْفَضْلُ عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ دَابَّةً أَوْ سِلَاحًا أَوْ شَيْئًا مِنْ آلَاتِ السَّفَرِ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْمِصْرِ ، فَيَمْنَعُ ذَلِكَ جَوَازَ إِعْطَائِهِ الصَّدَقَةَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ يُسَاوِي مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وَإِنْ هُوَ خَرَجَ لِلْغَزْوِ فَاحْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ جَازَ أَنْ يُعْطَى مِنْ الصَّدَقَةِ ، وَهُوَ غَنِيٌّ فِي هَذَا الْوَجْهِ ؛ فَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : الصَّدَقَةُ تَحِلُّ لِلْغَازِي الْغَنِيِّ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ هُوَ الْمُسَافِرُ الْمُنْقَطِعُ بِهِ ، يَأْخُذُ مِنْ الصَّدَقَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ فِي بَلَدِهِ ؛ وَكَذَلِكَ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَقَتَادَةَ وَأَبِي جَعْفَرٍ .

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ : ﴿ هُوَ مَنْ يَعْزِمُ عَلَى السَّفَرِ ، وَلَيْسَ لَهُ مَا يَتَحَمَّلُ بِهِ ﴾ وَهَذَا خَطَأٌ ؛ لِأَنَّ السَّبِيلَ هُوَ الطَّرِيقُ ، فَمَنْ لَمْ يَحْصُلْ فِي الطَّرِيقِ لَا يَكُونُ ابْنَ السَّبِيلِ ، وَلَا يَصِيرُ كَذَلِكَ بِالْعَزِيمَةِ كَمَا لَا يَكُونُ مُسَافِرًا بِالْعَزِيمَةِ ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ الْمُسَافِرُ لَا يَجِدُ الْمَاءَ فَيَتَيَمَّمُ فَكَذَلِكَ ابْنُ السَّبِيلِ هُوَ الْمُسَافِرُ .

(275/340)

وَجَمِيعُ مَنْ يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ فَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا صَدَقَةً بِالْفَقْرِ ، وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ ، وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا لَا يَأْخُذُونَهَا صَدَقَةً ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ الصَّدَقَةُ فِي يَدِ الْإِمَامِ لِلْفُقَرَاءِ ثُمَّ يُعْطِي الْإِمَامُ الْمُؤَلَّفَةَ مِنْهَا لِدَفْعِ أَذِيَّتِهِمْ عَنْ الْفُقَرَاءِ وَسَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُعْطِيهَا الْعَامِلِينَ عِوَضًا مِنْ أَعْمَالِهِمْ لَا عَلَى أَنَّهَا صَدَقَةٌ عَلَيْهِمْ .

وَإِنَّمَا قُلْنَا ذَلِكَ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ فَتَبَيَّنَ أَنَّ الصَّدَقَةَ مَصْرُوفَةٌ إلَى الْفُقَرَاءِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ أَحَدًا لَا يَأْخُذُهَا صَدَقَةً إلَّا بِالْفَقْرِ ، وَأَنَّ الْأَصْنَافَ الْمَذْكُورِينَ إنَّمَا ذُكِرُوا بَيَانًا لِأَسْبَابِ الْفَقْرِ .

بَابُ الْفَقِيرُ الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنْ الصَّدَقَةِ .

(276/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : اخْتَلَفَ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي الْمِقْدَارِ الَّذِي إذَا مَلَكَهُ الرَّجُلُ دَخَلَ بِهِ فِي حَدِّ الْغَنِيِّ ، وَخَرَجَ بِهِ مِنْ حَدِّ الْفَقِيرِ ، وَحُرِّمَتْ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ ، فَقَالَ قَوْمٌ : ﴿ إذَا كَانَ

عِنْدَ أَهْلِهِ مَا يُغَدِّيهِمْ وَيُعَشِّيهِمْ حُرِّمَتْ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ بِذَلِكَ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ دُونَ ذَلِكَ حَلَّتْ لَهُ الصَّدَقَةُ ﴾ ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَاهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ عَنْ يَزِيدَ بْنِ جَابِرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي رَبِيعَةُ بْنُ يَزِيدَ عَنْ أَبِي كَبْشَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ : حَدَّثَنِي سَهْلُ بْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ مَنْ سَأَلَ النَّاسَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى فَإِنَّمَا يَسْتَكْثِرُ مِنْ جَمْرِ جَهَنَّمَ ، قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا ظَهْرُ غِنًى ؟ قَالَ : أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ عِنْدَ أَهْلِهِ مَا يُغَدِّيهِمْ وَيُعَشِّيهِمْ .

﴿ وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ حَتَّى يَمْلِكَ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلَهَا مِنْ الذَّهَبِ ﴾ ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَى مَالِكٌ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ قَالَ : أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ لِرَجُلٍ : ﴿ مَنْ سَأَلَ مِنْكُمْ ، وَعِنْدَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عِدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ إِلْحَافًا ﴾ ، وَالْأُوقِيَّةُ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا .

(277/340)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : ﴿ حَتَّى يَمْلِكَ خَمْسِينَ دِرْهَمًا أَوْ عِدْلَهَا مِنْ الذَّهَبِ ﴾ ، وَاحْتَجُّوا فِي ذَلِكَ بِمَا رَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ حَكِيمِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَسْأَلُ عَبْدٌ مَسْأَلَةً ، وَلَهُ مَا

يُغْنِيهِ إِلَّا جَاءَتْ شَيْئًا أَوْ كُدُوحًا أَوْ خُدُوشًا فِي وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا غِنَاهُ ؟ قَالَ : خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ حِسَابُهَا مِنْ الذَّهَبِ .

﴿ وَرَوَى الْحَجَّاجُ عَنْ

الْحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيٍّ وَعَبْدِ اللَّهِ قَالَا : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِمَنْ لَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عِوَضُهَا مِنْ الذَّهَبِ .

وَعَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : لَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ مَنْ لَهُ خَمْسُونَ دِرْهَمًا ، وَلَا نُعْطِي مِنْهَا خَمْسِينَ دِرْهَمًا .

وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ حَتَّى يَمْلِكَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ أَوْ عِدْلَهَا مِنْ غَرَضٍ أَوْ غَيْرِهِ فَاضِلًا عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ مَسْكَنٍ وَخَادِمٍ وَأَثَاثٍ وَفَرَسٍ ﴾ وَهُوَ قَوْلُ أَصْحَابِنَا .

وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ مَا رَوَى أَبُو بَكْرٍ الْحَنَفِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ قَالَ : حَدَّثَنِي أَبِي عَنْ رَجُلٍ مِنْ مُزَيْنَةَ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ﴿ : مَنْ سَأَلَ وَلَهُ عِدْلُ خَمْسِ أَوَاقٍ سَأَلَ إِلْحَافًا .

(278/340)

﴿ ويَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رَوَى اللَّيْثُ بْنُ سَعْدٍ قَالَ : حَدَّثَنِي سَعِيدُ بْنُ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيُّ عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي نَمِرٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَأْخُذَ هَذِهِ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَتُقَسِّمَهَا عَلَى فُقَرَائِنَا ؟ فَقَالَ : اللَّهُمَّ نَعَمْ ﴾ .

وَرَوَى يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ صَيْفِي عَنْ أَبِي مَعْبَدٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ بَعَثَ مُعَاذًا إلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : أَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، وَتُرَدُّ إلَى فُقَرَائِهِمْ .

﴿ وَرَوَى الْأَشْعَثُ عَنْ ابْنِ أَبِي جُحَيْفَةَ عَنْ أَبِيهِ : ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ سَاعِيًا عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِنَا فَيُقَسِّمَهَا فِي فُقَرَائِنَا .

﴿ فَلَمَّا جَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ صِنْفَيْنِ فُقَرَاءَ وَأَغْنِيَاءَ ، وَأَوْجَبَ أَخْذَ الصَّدَقَةِ مِنْ صِنْفِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَرَدَّهَا فِي الْفُقَرَاءِ ، لَمْ تَبْقَ هَهُنَا وَاسِطَةٌ

بَيْنَهُمَا ، وَلَمَّا كَانَ الْغَنِيُّ هُوَ الَّذِي مَلَكَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وَمَا دُونَهَا لَمْ يَكُنْ مَالِكُهَا غَنِيًّا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ دَاخِلًا فِي الْفُقَرَاءِ فَيَجُوزُ لَهُ أَخْذُهَا ، وَلَمَّا اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ مَنْ كَانَ لَهُ دُونَ

الْغَدَاءِ وَالْعَشَاءِ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ عَلِمْنَا أَنَّهَا لَيْسَتْ إِبَاحَتُهَا مَوْقُوفَةً عَلَى الضَّرُورَةِ الَّتِي تَحِلُّ مَعَهَا الْمَيْتَةُ ، فَوَجَبَ اعْتِبَارُ مَا يَدْخُلُ بِهِ فِي حَدِّ الْغِنَى ، وَهُوَ أَنْ يَمْلِكَ فَضْلًا عَمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِمَّا وَصَفْنَا مِائَتَيْ دِرْهَمٍ أَوْ مِثْلَهَا مِنْ عَرْضٍ أَوْ غَيْرِهِ ، وَأَمَّا مِلْكُ الْأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ، وَالْخَمْسِينَ الدِّرْهَمِ عَلَى مَا رُوِيَ فِي الْأَخْبَارِ الَّتِي قَدَّمْنَا فَإِنَّ هَذِهِ الْأَخْبَارَ وَارِدَةٌ فِي كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ لَا فِي تَحْرِيمِهَا ، وَقَدْ تُكْرَهُ الْمَسْأَلَةُ لِمَنْ عِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فِي الْوَقْتِ لَا سِيَّمَا فِي أَوَّلِ مَا هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ مَعَ كَثْرَةِ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَقِلَّةِ ذَاتِ أَيْدِيهِمْ ، فَاسْتَحَبَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ عِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ تَرْكَ الْمَسْأَلَةِ لِيَأْخُذَهَا مَنْ هُوَ أَوْلَى مِنْهُ مِمَّنْ لَا يَجِدُ شَيْئًا ، وَهُوَ نَحْوُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ ، وَمَنْ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ لَا يَسْأَلُنَا أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّنْ يَسْأَلُنَا ﴾ .

(280/340)

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلًا فَيَحْتَطِبُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ .

﴿ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ الْحُسَيْنِ عَنْ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لِلسَّائِلِ حَقٌّ ، وَإِنْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ ﴾ فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ بِإِعْطَاءِ السَّائِلِ مَعَ مِلْكِهِ لِلْفَرَسِ وَالْفَرَسُ فِي أَكْثَرِ الْحَالِ تُسَاوِي أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا أَوْ

خَمْسِينَ دِرْهَمًا ، وَقَدْ رَوَى يَحْيَى بْنُ آدَمَ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ هَاشِمٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ يَزِيدَ الْمَكِّيِّ عَنْ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ سَأَلَ رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّ لِي أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا أَفَمِسْكِينٌ أَنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ .

﴾ .

(281/340)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ بْنُ يُوسُفَ الْمُطَّوِّعِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو مُوسَى الْهَرَوِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْمُعَافَى قَالَ : حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ يَزِيدَ الْجَزَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي مُغِيثٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي أَرْبَعُونَ دِرْهَمًا أَمِسْكِينٌ أَنَا ؟ قَالَ : نَعَمْ ﴾ ، فَأَبَاحَ لَهُ الصَّدَقَةَ مَعَ مِلْكِهِ لِأَرْبَعِينَ دِرْهَمًا حِينَ سَمَّاهُ مِسْكِينًا ، إِذْ كَانَ اللَّهُ قَدْ جَعَلَ الصَّدَقَةَ لِلْمَسَاكِينِ ، وَرَوَى أَبُو يُوسُفَ عَنْ غَالِبِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ أَحَدُهُمْ الصَّدَقَةَ وَلَهُ مِنْ السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ وَالْعَقَارِ قِيمَةُ عَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ .

وَرَوَى الْأَعْمَشُ عَنْ إبْرَاهِيمَ قَالَ : كَانُوا لَا يَمْنَعُونَ الزَّكَاةَ مَنْ لَهُ الْبَيْتُ وَالْخَادِمُ .

وَرَوَى شُعْبَةُ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : مَنْ لَهُ مَسْكَنٌ وَخَادِمٌ أُعْطِيَ مِنْ الزَّكَاةِ .

وَرَوَى جَعْفَرُ بْنُ أَبِي الْمُغِيرَةِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : ﴿ يُعْطَى مَنْ لَهُ دَارٌ وَخَادِمٌ وَفَرَسٌ وَسِلَاحٌ يُعْطَى مَنْ إذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ الشَّيْءِ احْتَاجَ إلَيْهِ ﴾ .

(282/340)

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي ذَلِكَ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ ، فَقَالَ قَائِلُونَ : ﴿ مَنْ كَانَ قَوِيًّا مُكْتَسِبًا لَمْ تَحِلَّ لَهُ الصَّدَقَةُ وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ شَيْئًا ﴾ ، وَاحْتَجُّوا بِمَا رَوَى أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ أَبِي حُصَيْنٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ، ﴾ وَرَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ أَيْضًا عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَهُ .

وَرَوَى سَعْدُ بْنُ إبْرَاهِيمَ عَنْ رَيْحَانَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ﴾ ، وَهَذَا عِنْدَنَا عَلَى وَجْهِ الْكَرَاهَةِ لَا عَلَى جِهَةِ التَّحْرِيمِ ، عَلَى النَّحْوِ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي كَرَاهَةِ الْمَسْأَلَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ﴾ عَلَى وَجْهِ التَّحْرِيمِ وَامْتِنَاعِ جَوَازِ إِعْطَائِهِ الزَّكَاةَ ، كَذَلِكَ الْقَوِيُّ الْمُكْتَسِبُ .

(283/340)

قِيلَ لَهُ : يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ الْغِنَى الَّذِي يَسْتَغْنِي بِهِ عَنْ الْمَسْأَلَةِ ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَقَلُّ مِنْ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، لَا الْغِنَى الَّذِي يَجْعَلُهُ فِي حَيِّزِ مَنْ يَمْلِكُ مَا تَجِبُ فِي مِثْلِهِ الزَّكَاةُ ، إِذْ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى غَنِيًّا لِاسْتِغْنَائِهِ بِمَا يَمْلِكُهُ عَنْ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ الْغِنَى الَّذِي يَتَعَلَّقُ بِمِلْكِ مِثْلِهِ وُجُوبُ الْغِنَى ، فَكَانَ قَوْلُهُ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ﴾ عَلَى وَجْهِ الْكَرَاهَةِ لِلْمَسْأَلَةِ لِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِهِ .

وَعَلَى أَنَّ حَدِيثَ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا فِي قَوْلِهِ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ ، وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ﴾ مُخْتَلَفٌ فِي رَفْعِهِ ، فَرَوَاهُ أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ مَرْفُوعًا عَلَى مَا قَدَّمْنَا ، وَرَوَاهُ أَبُو يُوسُفَ عَنْ حُصَيْنٍ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ قَوْلِهِ غَيْرَ مَرْفُوعٍ ، وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَوَاهُ شُعْبَةُ ، وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ عَنْ سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ رَيْحَانَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو مَوْقُوفًا عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ ، وَقَالَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ .

﴾ وَرَوَاهُ سُفْيَانُ عَنْ

سَعْدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ عَنْ رَيْحَانَ بْنِ يَزِيدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ﴾ ، فَاخْتَلَفُوا فِي رَفْعِهِ ، ، وَظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ عَامٌّ فِي سَائِرِهِمْ مَنْ قَدَرَ مِنْهُمْ عَلَى الْكَسْبِ ، وَمَنْ لَمْ يَقْدِرْ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ يَقْتَضِي وُجُوبَ الْحَقِّ لِلسَّائِلِ الْقَوِيِّ الْمُكْتَسِبِ ، إذْ لَمْ تُفَرِّقْ الْآيَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ، وَيَدُلُّ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمْ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنْ التَّعَفُّفِ ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ الْقَوِيِّ الْمُكْتَسِبِ وَبَيْنَ مَنْ لَا يَكْتَسِبُ مِنْ الضُّعَفَاءِ .

فَهَذِهِ الْآيَاتُ كُلُّهَا قَاضِيَةٌ بِبُطْلَانِ قَوْلِ الْقَائِلِ بِأَنَّ الزَّكَاةَ لَا تُعْطَى الْفَقِيرَ إذَا كَانَ قَوِيًّا مُكْتَسِبًا ، وَلَا يَجُوزُ تَخْصِيصُهَا بِخَبَرِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو اللَّذَيْنِ ذَكَرْنَا لِاخْتِلَافِهِمْ فِي رَفْعِهِ ، وَاضْطِرَابِ مَتْنِهِ ؛ لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يَقُولُ : ﴿ قَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ﴾ وَبَعْضُهُمْ : ﴿ لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ﴾ .

وَقَدْ رُوِيَتْ أَخْبَارٌ هِيَ أَشَدُّ اسْتِفَاضَةً ، وَأَصَحُّ طُرُقًا مِنْ هَذَيْنِ الْحَدِيثَيْنِ مُعَارِضَةً لَهُمَا ، مِنْهَا حَدِيثُ أَنَسٍ وَقَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ إِلَّا فِي إِحْدَى ثَلَاثٍ فَذَكَرَ إِحْدَاهُنَّ فَقْرٌ مُدْقِعٌ ، وَقَالَ : أَوْ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ أَوْ رَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ ﴾ ، وَلَمْ يَشْرُطْ فِي شَيْءٍ مِنْهَا عَدَمَ الْقُوَّةِ وَالْعَجْزَ عَنْ الِاكْتِسَابِ ، وَمِنْهَا حَدِيثُ سُلَيْمَانَ ﴿ أَنَّهُ حَمَلَ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَةً ، فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : كُلُوا وَلَمْ يَأْكُلْ ﴾ ،

وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانُوا أَقْوِيَاءَ مُكْتَسِبِينَ ، وَلَمْ يَخُصَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا مَنْ كَانَ مِنْهُمْ زَمِنًا أَوْ عَاجِزًا عَنْ الِاكْتِسَابِ .

وَمِنْهَا حَدِيثُ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ أَنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ الْعَرَبِ حَدَّثَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَاهُ مِنْ الصَّدَقَةِ ، فَصَعَّدَ فِيهِمَا الْبَصَرَ وَصَوَّبَهُ فَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ : ﴿ إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ﴾ فَلَمَّا قَالَ لَهُمَا : ﴿ إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا ﴾ ، وَلَوْ كَانَ مُحَرَّمًا مَا أَعْطَاهُمَا مَعَ مَا ظَهَرَ لَهُ مِنْ جَلَدِهِمَا وَقُوَّتِهِمَا وَأَخْبَرَ .

مَعَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ بِذَلِكَ كَرَاهَةَ الْمَسْأَلَةِ ، وَمَحَبَّةَ النَّزَاهَةِ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ مَا يُغْنِيهِ أَوْ قَدَرَ عَلَى الْكَسْبِ فَيَسْتَغْنِي بِهِ عَنْهَا ، وَقَدْ يُطْلَقُ مِثْلُ هَذَا عَلَى وَجْهِ التَّغْلِيظِ لَا عَلَى وَجْهِ تَحْقِيقِ الْمَعْنَى ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مَنْ بَيِتُ شَبْعَانًا وَجَارُهُ جَائِعٌ ﴾ ، قَالَ : ﴿ لَا دِينَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِالطَّوَّافِ الَّذِي تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ﴾ ، وَلَمْ يُرِدْ بِهِ نَفْيَ الْمَسْكَنَةِ عَنْهُ رَأْسًا حَتَّى تَحْرُمَ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ لَيْسَ حُكْمُهُ كَحُكْمِ الَّذِي لَا يَسْأَلُ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا حَقَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ ، وَلَا لِقَوِيٍّ مُكْتَسِبٍ ﴾ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ حَقُّهُ فِيهَا كَحَقِّ الزَّمِنِ الْعَاجِزِ عَنْ الْكَسْبِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ فَعَمَّ سَائِرَ الْفُقَرَاءِ الزَّمْنَى مِنْهُمْ وَالْأَصِحَّاءِ .

وَأَيْضًا قَدْ

كَانَتْ الصَّدَقَاتُ وَالزَّكَوَاتُ تُحْمَلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيُعْطِيهَا فُقَرَاءَ الصَّحَابَةِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَهْلِ الصُّفَّةِ ، وَكَانُوا أَقْوِيَاءَ مُكْتَسِبِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ يَخُصُّ بِهَا الزَّمْنَى دُونَ الْأَصِحَّاءِ ، وَعَلَى هَذَا أَمْرُ النَّاسِ مِنْ لَدُنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى يَوْمِنَا يُخْرِجُونَ صَدَقَاتِهِمْ إِلَى الْفُقَرَاءِ الْأَقْوِيَاءِ وَالضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ مِنْهَا ذَوِي الْعَاهَاتِ وَالزَّمَانَةِ دُونَ الْأَقْوِيَاءِ الْأَصِحَّاءِ ، وَلَوْ كَانَتْ الصَّدَقَةُ مُحَرَّمَةً وَغَيْرَ جَائِزَةٍ عَلَى الْأَقْوِيَاءِ الْمُكْتَسِبِينَ الْفُرُوضَ مِنْهَا أَوْ النَّوَافِلَ لَكَانَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوْقِيفٌ لِلْكَافَّةِ عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْحَاجَةِ إِلَيْهِ ، فَلَمَّا لَمْ يَكُنْ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوْقِيفٌ لِلْكَافَّةِ عَلَى حَظْرِ دَفْعِ الزَّكَوَاتِ إِلَى الْأَقْوِيَاءِ مِنْ الْفُقَرَاءِ وَالْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْهُ تَوْقِيفٌ لِلْكَافَّةِ لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُسْتَفِيضًا ، دَلَّ ذَلِكَ عَلَى جَوَازِ إِعْطَائِهَا الْأَقْوِيَاءَ الْمُتَكَسِّبِينَ مِنْ الْفُقَرَاءِ كَجَوَازِ إِعْطَائِهَا الزَّمْنَى وَالْعَاجِزِينَ عَنْ الِاكْتِسَابِ .

بَابُ ذَوِي الْقُرْبَى الَّذِينَ تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ الصَّدَقَةُ قَالَ أَصْحَابُنَا : مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ الصَّدَقَةُ مِنْهُمْ آلُ الْعَبَّاسِ ، وَآلُ عَلِيٍّ ، وَآلُ جَعْفَرٍ ، وَآلُ عَقِيلٍ ، وَوَلَدُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ جَمِيعًا .

(288/340)

وَحَكَى الطَّحَاوِيُّ عَنْهُمْ : وَوَلَدُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَلَمْ أَجِدْ ذَلِكَ عَنْهُمْ رِوَايَةً .

وَالَّذِي تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ الصَّدَقَاتُ الْمَفْرُوضَةُ ، وَأَمَّا التَّطَوُّعُ فَلَا بَأْسَ بِهِ .

وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ أَنَّهُ رُوِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَلَيْسَ بِالْمَشْهُورِ أَنَّ فُقَرَاءَ بَنِي هَاشِمٍ يَدْخُلُونَ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ ، ذَكَرَهُ فِي أَحْكَامِ الْقُرْآنِ ، قَالَ : وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ لَا يَدْخُلُونَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : الْمَشْهُورُ عَنْ أَصْحَابِنَا جَمِيعًا مَنْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ آلِ الْعَبَّاسِ وَآلِ عَلِيٍّ وَآلِ جَعْفَرٍ وَآلِ عَقِيلٍ وَوَلَدِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَأَنَّ تَحْرِيمَ الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ خَاصٌّ فِي الْمَفْرُوضِ مِنْهُ دُونَ التَّطَوُّعِ .

وَرَوَى ابْنُ سِمَاعَةَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّ الزَّكَاةَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ تَحِلُّ لِبَنِي هَاشِمٍ ، وَلَا يَحِلُّ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ لَهُمْ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ﴿ لَا تَحِلُّ الزَّكَاةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ وَالتَّطَوُّعُ يَحِلُّ ﴾ وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِبَنِي هَاشِمٍ وَلَمْ يَذْكُرْ فَرْقًا بَيْنَ النَّفْلِ وَالْفَرْضِ ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ تَحْرُمُ صَدَقَةُ الْفَرْضِ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَيَجُوزُ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَأْخُذُهَا ﴾ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ الْمَفْرُوضَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : مَا خَصَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَيْءٍ دُونَ النَّاسِ إلَّا بِثَلَاثٍ إسْبَاغِ الْوُضُوءِ ، وَأَنْ لَا نَأْكُلَ الصَّدَقَةَ ، وَأَنْ لَا نُنْزِيَ الْحَمِيرَ عَلَى الْخَيْلِ .

وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخَذَ تَمْرَةً مِنْ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ ، فَأَخْرَجَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : ﴿ إنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ .

﴾ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا نَصْرُ بْنُ عَلِيٍّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ خَالِدِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ قَتَادَةَ عَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَ تَمْرَةً فَقَالَ : ﴿ لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً لَأَكَلْتُهَا .

﴾ وَرَوَى بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِي الْإِبِلِ السَّائِمَةِ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ ابْنَةُ لَبُونٍ مَنْ أَعْطَاهَا مُؤْتَجِرًا فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَمَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ ، لَا يَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا شَيْءٌ ﴾ .

وَرُوِيَ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ إنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ ﴾ .

فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ تَحْرِيمُ الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ عَلَيْهِمْ .

فَإِنْ قِيلَ : رَوَى شَرِيكٌ عَنْ سِمَاكِ بْنِ حَرْبٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : قَدِمَ عِيرُ الْمَدِينَةِ ، فَاشْتَرَى مِنْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَتَاعًا فَبَاعَهُ بِرِبْحِ أَوَاقٍ فِضَّةٍ ، فَتَصَدَّقَ بِهَا عَلَى أَرَامِلِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ثُمَّ قَالَ : ﴿ لَا أَعُودُ أَنْ أَشْتَرِيَ بَعْدَهَا شَيْئًا ، وَلَيْسَ ثَمَنُهُ عِنْدِي ﴾ فَقَدْ تَصَدَّقَ عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَهُنَّ هَاشِمِيَّاتٌ .

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ فِي الْخَبَرِ أَنَّهُنَّ كُنَّ هَاشِمِيَّاتٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ لَا يَكُنَّ هَاشِمِيَّاتٍ بَلْ زَوْجَاتِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ غَيْرِ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، بَلْ عَرَبِيَّاتٍ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكُنَّ أَزْوَاجًا لِبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَمَاتُوا عَنْهُنَّ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ ، وَجَائِزٌ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِصَدَقَةِ التَّطَوُّعِ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ حَدِيثَ عِكْرِمَةَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ

حَدِيثَ ابْنِ عَبَّاسٍ أَخْبَرَ فِيهِ بِحُكْمِهِ فِيهِمْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَالْحَظْرُ مُتَأَخِّرٌ لِلْإِبَاحَةِ ، فَهَذَا أَوْلَى ، وَأَمَّا بَنُو الْمُطَّلِبِ فَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَنَّ قَرَابَتَهُمْ مِنْهُ كَقَرَابَةِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَلَا خِلَافَ أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَلِكَ بَنُو الْمُطَّلِبِ فَإِنْ قِيلَ : لَمَّا أَعْطَاهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْخُمُسِ سَهْمَ ذَوِي الْقُرْبَى كَمَا أَعْطَى بَنِي هَاشِمٍ ، وَلَمْ يُعْطِ بَنِي أُمَيَّةَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ بِمَنْزِلَةِ بَنِي هَاشِمٍ فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ .

(292/340)

قِيلَ لَهُ : إنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُعْطِهِمْ لِلْقَرَابَةِ فَحَسْبُ ؛ لِأَنَّهُ لَمَّا قَالَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا بَنُو هَاشِمٍ فَلَا نُنْكِرُ فَضْلَهُمْ لِقُرْبِهِمْ مِنْك ، وَأَمَّا بَنُو الْمُطَّلِبِ فَنَحْنُ ، وَهُمْ فِي النَّسَبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَأَعْطَيْتَهُمْ ، وَلَمْ تُعْطِنَا فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ بَنِي الْمُطَّلِبِ لَمْ تُفَارِقْنِي فِي جَاهِلِيَّةٍ ، وَلَا إسْلَامٍ ﴾ ، فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَمْ يُعْطِهِمْ بِالْقَرَابَةِ فَحَسْبُ بَلْ بِالنُّصْرَةِ وَالْقَرَابَةِ ، وَلَوْ كَانَتْ إجَابَتُهُمْ إيَّاهُ وَنُصْرَتُهُمْ لَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ أَصْلًا لِتَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ لَوَجَبَ أَنْ يَخْرُجَ مِنْهَا آلُ أَبِي لَهَبٍ ، وَبَعْضُ آلِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُجِيبُوهُ ، وَيَنْبَغِي أَنْ لَا تَحْرُمَ عَلَى مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ لِأَنَّهُمْ لَمْ يُخَالِفُوهُ ، وَهَذَا سَاقِطٌ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ سَهْمَ الْخُمُسِ إنَّمَا يَسْتَحِقُّهُ خَاصٌّ مِنْهُمْ ، وَهُوَ مَوْكُولٌ إلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَرَأْيِهِ ، وَلَمْ يَثْبُتْ خُصُوصُ تَحْرِيمِ

الصَّدَقَةِ فِي بَعْضِ آلِ النَّبِيِّ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(293/340)

وَأَيْضًا فَلَيْسَ اسْتِحْقَاقُ سَهْمٍ مِنْ الْخُمْسِ أَصْلًا لِتَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ ؛ لِأَنَّ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ يَسْتَحِقُّونَ سَهْمًا مِنْ الْخُمْسِ ، وَلَمْ تَحْرُمْ عَلَيْهِمْ الصَّدَقَةُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ اسْتِحْقَاقَ سَهْمٍ مِنْ الْخُمْسِ لَيْسَ بِأَصْلٍ فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَةِ .

وَاخْتُلِفَ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى مَوَالِي بَنِي هَاشِمٍ وَهَلْ أُرِيدُوا بِآيَةِ الصَّدَقَةِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ : ﴿ مَوَالِيهِمْ بِمَنْزِلَتِهِمْ فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ عَلَيْهِمْ ﴾ وَقَالَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ : ﴿ لَا بَأْسَ بِأَنْ يُعْطَى مَوَالِيهِمْ ﴾ .

وَالَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْقَوْلِ الْأَوَّلِ حَدِيثُ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَعْمَلَ أَرْقَمَ بْنَ أَرْقَمَ الزُّهْرِيَّ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَاسْتَتْبَعَ أَبَا رَافِعٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الصَّدَقَةَ حَرَامٌ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَآلِ مُحَمَّدٍ ، وَإِنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءِ بْنِ السَّائِبِ عَنْ أُمِّ كُلْثُومٍ بِنْتِ عَلِيٍّ عَنْ مَوْلًى لَهُمْ يُقَالُ لَهُ هُرْمُزُ أَوْ كَيْسَانُ أَنَّ

رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ : ﴿ يَا أَبَا فُلَانٍ إِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ ، وَإِنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ فَلَا تَأْكُلْ الصَّدَقَةَ .

(294/340)

﴿ وَأَيْضًا لَمَّا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ الْوَلَاءُ لُحْمَةٌ كَلُحْمَةِ النَّسَبِ ﴾ ، وَكَانَتْ الصَّدَقَةُ مُحَرَّمَةً عَلَى مَنْ قَرُبَ نَسَبُهُ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَوَالِيهِمْ بِمَثَابَتِهِمْ ، إذْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ جَعَلَهُ لُحْمَةً كَالنَّسَبِ .

وَاخْتُلِفَ فِي جَوَازِ أَخْذِ بَنِي هَاشِمٍ لِلْعِمَالَةِ مِنْ الصَّدَقَةِ إذَا عَمِلُوا عَلَيْهَا ، فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ ذَكَرَاهُ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ : ﴿ لَا يَجُوزُ أَنْ يَعْمَلَ عَلَى الصَّدَقَةِ أَحَدٌ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَلَا يَأْخُذُ عِمَالَتَهُ مِنْهَا ﴾ ، قَالَ مُحَمَّدٌ : ﴿ وَإِنَّمَا يَصْنَعُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خُرُوجِهِ إلَى الْيَمَنِ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ غَيْرِ الصَّدَقَةِ ﴾ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَعْنِي بِقَوْلِهِ : ﴿ لَا يَعْمَلُ عَلَى الصَّدَقَةِ ﴾ عَلَى مَعْنَى أَنَّهُ يَعْمَلُهَا لِيَأْخُذَ عِمَالَتَهَا ، فَأَمَّا إذَا عَمِلَ عَلَيْهَا مُتَبَرِّعًا عَلَى أَنْ لَا يَأْخُذَ شَيْئًا فَهَذَا لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ

فِي جَوَازِهِ .

وَقَالَ آخَرُونَ : ﴿ لَا بَأْسَ بِالْعِمَالَةِ لَهُمْ مِنْ الصَّدَقَةِ ﴾ .

(295/340)

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُسَدَّدٌ قَالَ : حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ قَالَ : سَمِعْت أَبِي يُحَدِّثُ عَنْ جَيْشٍ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : بَعَثَ نَوْفَلُ بْنُ الْحَارِثِ ابْنَيْهِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : انْطَلِقَا إلَى عَمِّكُمَا لَعَلَّهُ يَسْتَعْمِلُكُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَجَاءَا فَحَدَّثَا نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَاجَتِهِمَا ، فَقَالَ لَهُمَا نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ مِنْ الصَّدَقَاتِ شَيْءٌ لِأَنَّهَا غُسَالَةُ الْأَيْدِي ، إنَّ لَكُمْ فِي خُمْسِ الْخُمْسِ مَا يُغْنِيكُمَا أَوْ يَكْفِيكُمَا .

﴿ وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَبَّاسِ سَلْ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْتَعْمِلَك عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَسَأَلَهُ فَقَالَ : ﴿ مَا كُنْت لِأَسْتَعْمِلَك عَلَى غُسَالَةِ ذُنُوبِ النَّاسِ ﴾ وَرَوَى الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ الْمُطَّلِبِ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ سَأَلَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ

يَسْتَعْمِلُهُمَا عَلَى الصَّدَقَةِ لِيُصِيبَا مِنْهَا ، فَقَالَ : ﴿ إِنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ ﴾ فَمَنَعَهُمَا أَخْذَ الْعِمَالَةِ ، وَمَنَعَ أَبَا رَافِعٍ ذَلِكَ أَيْضًا ، وَقَالَ : ﴿ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ﴾ .

وَاحْتَجَّ الْمُبِيحُونَ لِذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ عَلِيًّا إِلَى الْيَمَنِ عَلَى الصَّدَقَةِ رَوَاهُ جَابِرٌ وَأَبُو سَعِيدٍ جَمِيعًا .

(296/340)

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ وِلَايَتُهُ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهَا ، وَلَا حُجَّةَ فِي هَذَا لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ أَنَّ عَلِيًّا أَخَذَ عِمَالَتَهُ مِنْهَا ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَأْخُذُ مِنْ الصَّدَقَةِ عِمَالَةً ، وَقَدْ كَانَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ حِينَ خَرَجَ إلَى الْيَمَنِ فَوَلِيَ الْقَضَاءَ وَالْحَرْبَ بِهَا ، فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ أَخَذَ رِزْقَهُ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ لَا مِنْ جِهَةِ الصَّدَقَةِ .

فَإِنْ قِيلَ فَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ الْغَنِيُّ عِمَالَتَهُ مِنْهَا ، وَإِنْ لَمْ تَحِلَّ لَهُ الصَّدَقَةُ فَكَذَلِكَ بَنُو هَاشِمٍ .

قِيلَ لَهُ : لِأَنَّ الْغَنِيَّ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّدَقَةِ لَوْ افْتَقَرَ أَخَذَ مِنْهَا ، وَالْهَاشِمِيَّ لَا يَأْخُذُ مِنْهَا بِحَالٍ فَإِنْ قِيلَ : إنَّ الْعَامِلَ لَا يَأْخُذُ عِمَالَتَهُ صَدَقَةً ، وَإِنَّمَا يَأْخُذُ أُجْرَةً لِعَمَلِهِ كَمَا رُوِيَ أَنَّ بَرِيرَةَ

كَانَتْ تُهْدِي لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا يُتَصَدَّقُ بِهِ عَلَيْهَا ، وَيَقُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ هِيَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ .

﴾ قِيلَ لَهُ : الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الصَّدَقَةَ كَانَتْ تَحْصُلُ فِي مِلْكِ بَرِيرَةَ ثُمَّ تُهْدِيهَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَانَ بَيْنَ مِلْكِ الْمُتَصَدِّقِ وَبَيْنَ مِلْكِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسِطَةُ مِلْكٍ آخَرَ ، وَلَيْسَ بَيْنَ مِلْكِ الْمَأْخُوذِ مِنْهُ وَبَيْنَ مِلْكِ الْعَامِلِ وَاسِطَةٌ لِأَنَّهَا لَا تَحْصُلُ فِي

(297/340)

مِلْكِ الْفُقَرَاءِ حَتَّى يَأْخُذَهَا الْعَامِلُ

بَابُ مَنْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنْ الزَّكَاةِ مِنْ الْفُقَرَاءِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ فَاقْتَضَى ظَاهِرُهُ جَوَازَ إعْطَائِهَا لِمَنْ شَمِلَهُ الِاسْمُ مِنْهُمْ قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا لَوْلَا قِيَامُ الدَّلَالَةِ عَلَى مَنْعِ إعْطَاءِ بَعْضِ الْأَقْرِبَاءِ ، وَقَدْ اخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا : ﴿ لَا يُعْطَى مِنْهَا وَالِدًا وَإِنْ عَلَا وَلَا وَلَدًا ، وَإِنْ سَفَلَ وَلَا امْرَأَةً ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : لَا يُعْطَى مَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ .

وَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ : لَا يُعْطَى مِنْ الزَّكَاةِ قَرَابَتُهُ الَّذِينَ يَرِثُونَهُ ، وَإِنَّمَا يُعْطَى مَنْ لَا يَرِثُهُ ، وَلَيْسَ فِي عِيَالِهِ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ : لَا يَتَخَطَّى بِزَكَاةِ مَالِهِ فُقَرَاءَ أَقَارِبِهِ إذَا لَمْ يَكُونُوا مِنْ عِيَالِهِ ، وَيَتَصَدَّقُ عَلَى مَوَالِيهِ مِنْ غَيْرِ زَكَاةٍ لِمَالِهِ .

وَقَالَ اللَّيْثُ : لَا يُعْطَى الصَّدَقَةَ الْوَاجِبَةَ مَنْ يَعُولُ .

وَقَالَ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيّ فِي مُخْتَصَرِهِ : ﴿ وَيُعْطَى الرَّجُلُ مِنْ الزَّكَاةِ مَنْ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ مِنْ قَرَابَتِهِ ، وَهُمْ مَنْ عَدَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ وَالزَّوْجَةَ إذَا كَانُوا أَهْلَ حَاجَةٍ فَهُمْ أَحَقُّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ تَطَوُّعًا ﴾ .

(298/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَحَصَلَ مِنْ اتِّفَاقِهِمْ أَنَّ الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ وَالزَّوْجَةَ لَا يُعْطَوْنَ مِنْ الزَّكَاةِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُك لِأَبِيك ﴾ ، وَقَالَ : ﴿ إنَّ أَطْيَبَ مَا أَكَلَ الرَّجُلُ مِنْ كَسْبِهِ ، وَإِنَّ وَلَدَهُ مِنْ كَسْبِهِ ﴾ فَإِذَا كَانَ مَالُ الرَّجُلِ مُضَافًا إلَى أَبِيهِ وَمَوْصُوفًا بِأَنَّهُ مِنْ كَسْبِهِ فَهُوَ مَتَى أَعْطَى ابْنَهُ فَكَأَنَّهُ بَاقٍ فِي مِلْكِهِ لِأَنَّ مِلْكَ ابْنِهِ مَنْسُوبٌ إلَيْهِ فَلَمْ تَحْصُلْ صَدَقَةٌ صَحِيحَةٌ ، وَإِذَا صَحَّ ذَلِكَ فِي الِابْنِ فَالْأَبُ مِثْلُهُ إذْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْسُوبٌ إلَى الْآخَرِ مِنْ طَرِيقِ

الْوِلَادَةِ ، وَأَيْضًا قَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا بُطْلَانُ شَهَادَةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا لِصَاحِبِهِ ، فَلَمَّا جَعَلَ كُلَّ

وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِيمَا يُحَصِّلُهُ بِشَهَادَتِهِ لِصَاحِبِهِ كَأَنَّهُ يُحَصِّلُهُ لِنَفْسِهِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ إعْطَاؤُهُ إيَّاهُ الزَّكَاةَ كَتَبْقِيَتِهِ فِي مِلْكِهِ ، وَقَدْ أَخَذَ عَلَيْهِ فِي الزَّكَاةِ إخْرَاجَهَا إلَى مِلْكِ الْفَقِيرِ إخْرَاجًا صَحِيحًا ، وَمَتَى أَخْرَجَهَا إلَى مَنْ لَا تَجُوزُ لَهُ شَهَادَتُهُ فَلَمْ يَنْقَطِعْ حَقُّهُ عَنْهُ ، وَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَا هُوَ بَاقٍ فِي مِلْكِهِ فَلِذَلِكَ لَمْ يُجْزِهِ وَلِهَذِهِ الْعِلَّةِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطِيَ زَوْجَتَهُ مِنْهَا ، وَأَمَّا اعْتِبَارُ التَّفَقَةِ فَلَا مَعْنَى لَهُ ؛ لِأَنَّ النَّفَقَةَ حَقٌّ يَلْزَمُهُ ، وَلَيْسَتْ بِآكَدَ مِنْ الدُّيُونِ الَّتِي ثَبَتَتْ لِبَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ، فَلَا يَمْنَعُ ثُبُوتُهَا مِنْ جَوَازِ دَفْعِ الزَّكَاةِ إلَيْهِ .

(299/340)

وَعُمُومُ الْآيَةِ يَقْتَضِي جَوَازَ دَفْعِهَا إلَيْهِ بِاسْمِ الْفَقْرِ ، وَلَمْ تَقُمْ الدَّلَالَةُ عَلَى تَخْصِيصِهِ ، فَلَمْ يَجُزْ إخْرَاجُهَا لِأَجْلِ النَّفَقَةِ مِنْ عُمُومِهَا وَأَيْضًا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ﴾ ، وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي جَوَازِ دَفْعِ سَائِرِ الصَّدَقَاتِ إلَى مَنْ يَعُولُ ، وَخَرَجَ الْوَلَدُ وَالْوَالِدُ وَالزَّوْجَانِ بِدَلَالَةٍ .

فَإِنْ قِيلَ : إنَّمَا لَمْ يَجُزْ إعْطَاءُ الْوَالِدِ وَالْوَلَدِ لِأَنَّهُ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا غَلَطٌ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ الْوَلَدُ وَالْوَالِدُ مُسْتَغْنِيَيْنِ بِقَدْرِ الْكَفَافِ ، وَلَمْ تَكُنْ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ نَفَقَتُهُمَا لَمَا جَازَ أَنْ يُعْطِيَهُمَا مِنْ الزَّكَاةِ ؛ لِأَنَّهُمَا مَمْنُوعَانِ مِنْهَا مَعَ لُزُومِ النَّفَقَةِ

وَسُقُوطِهَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَانِعَ مِنْ دَفْعِهَا إِلَيْهِمَا أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَنْسُوبٌ إِلَى الْآخَرِ بِالْوِلَادَةِ ، وَأَنَّ وَاحِدًا مِنْهُمَا لَا تَجُوزُ شَهَادَتُهُ لِلْآخَرِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ الْمَعْنَيَيْنِ عِلَّةٌ فِي مَنْعِ دَفْعِ الزَّكَاةِ .

وَاخْتَلَفُوا فِي إِعْطَاءِ الْمَرْأَةِ زَوْجَهَا مِنْ زَكَاةِ الْمَالِ ، قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ : ﴿ لَا تُعْطِيهِ ﴾ وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : ﴿ تُعْطِيهِ ﴾ .

(300/340)

وَالْحُجَّةُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ شَهَادَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الزَّوْجَيْنِ لِصَاحِبِهِ غَيْرُ جَائِزَةٍ ، فَوَجَبَ أَنْ لَا يُعْطِيَ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ مِنْ زَكَاتِهِ لِوُجُودِ الْعِلَّةِ الْمَانِعَةِ مِنْ دَفْعِهَا فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا .

وَاحْتَجَّ الْمُجِيزُونَ لِدَفْعِ زَكَاتِهَا إِلَيْهِ بِحَدِيثِ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ حِينَ سَأَلَتْ النَّبِيَّ عَنْ الصَّدَقَةِ عَلَى زَوْجِهَا عَبْدِ اللَّهِ ، وَعَلَى أَيْتَامٍ لِأَخِيهَا فِي حِجْرِهَا ، فَقَالَ : ﴿ لَكِ أَجْرَانِ أَجْرُ الصَّدَقَةِ وَأَجْرُ الْقَرَابَةِ ﴾ .

قِيلَ لَهُ : كَانَتْ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ ، وَأَلْفَاظُ الْحَدِيثِ تَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِيهِ أَنَّهَا قَالَتْ لَمَّا

حَثَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النِّسَاءَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، وَقَالَ : ﴿ تَصَدَّقْنَ وَلَوْ بِحُلِيِّكُنَّ ﴾ : جَمَعْت حُلِيًّا لِي وَأَرَدْت أَنْ أَتَصَدَّقَ ، فَسَأَلْت النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(301/340)

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا كَانَتْ صَدَقَةَ تَطَوُّعٍ فَإِنْ احْتَجُّوا بِمَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ نَاجِيَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ حَاتِمٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ ثَابِتٍ قَالَ : حَدَّثَنِي يَحْيَى بْنُ أَبِي أُنَيْسَةَ الْجَزَرِيُّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ إبْرَاهِيمَ عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّ زَيْنَبَ الثَّقَفِيَّةَ امْرَأَةَ عَبْدِ اللَّهِ سَأَلَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ : ﴿ إنَّ لِي طَوْقًا فِيهِ عِشْرُونَ مِثْقَالًا أَفَأُؤَدِّي زَكَاتَهُ ؟ قَالَ : نَعَمْ نِصْفَ مِثْقَالٍ ، قَالَتْ : فَإِنَّ فِي حِجْرِي بِنْتَيْ أَخٍ لِي أَيْتَامًا أَفَأَجْعَلُهُ أَوْ أَضَعُهُ فِيهِمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ ﴾ فَبَيَّنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ زَكَاتِهَا .

قِيلَ لَهُ : لَيْسَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ

ذِكْرُ إعْطَاءِ الزَّوْجِ ، وَإِنَّمَا ذَكَرَ فِيهِ إعْطَاءَ بَنِي أَخِيهَا ، وَنَحْنُ نُجِيزُ ذَلِكَ ، وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ سَأَلَتْهُ عَنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ عَلَى زَوْجِهَا وَبَنِي أَخِيهَا فَأَجَازَهَا ، وَسَأَلَتْهُ فِي وَقْتٍ آخَرَ عَنْ زَكَاةِ الْحُلِيِّ ، وَدَفْعِهَا إلَى بَنِي أَخِيهَا فَأَجَازَهَا ، وَنَحْنُ نُجِيزُ دَفْعَ الزَّكَاةِ إلَى بَنِي الْأَخِ

وَاخْتُلِفَ فِي إعْطَاءِ الذِّمِّيِّ مِنْ الزَّكَاةِ فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَابْنُ شُبْرُمَةَ وَالشَّافِعِيُّ : لَا يُعْطَى الذِّمِّيُّ مِنْ الزَّكَاةِ وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْحَسَنِ : ﴿ إذَا لَمْ يَجِدْ مُسْلِمًا أَعْطَى الذِّمِّيَّ ﴾ فَقِيلَ لَهُ : فَإِنَّهُ لَيْسَ بِالْمَكَانِ الَّذِي هُوَ بِهِ مُسْلِمٌ ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ مُسْلِمٌ ؛ فَكَأَنَّهُ ذَهَبَ إلَى إعْطَائِهَا لِلذِّمِّيِّ الَّذِي هُوَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ .

وَالْحُجَّةُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ كُلُّ صَدَقَةٍ أَخَذَهَا إلَى الْإِمَامِ مَقْصُورَةً عَلَى فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا يَجُوزُ إعْطَاؤُهَا الْكُفَّارَ ، وَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ هُنَاكَ مُسْلِمُونَ لَمْ يُعْطَ الْكُفَّارُ ثَبَتَ أَنَّ الْكُفَّارَ لَا حَظَّ لَهُمْ فِي الزَّكَاةِ ، إذْ لَوْ جَازَ إعْطَاؤُهَا إيَّاهُمْ بِحَالٍ لَجَازَ فِي كُلِّ حَالٍ لِوُجُودِ الْفَقْرِ كَسَائِرِ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

وَاخْتَلَفُوا فِي دَفْعِ الزَّكَاةِ إلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ فَقَالَ أَصْحَابُنَا : ﴿ يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَ جَمِيعَ زَكَاتِهِ مِسْكِينًا وَاحِدًا ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ﴿ لَا بَأْسَ أَنْ يُعْطِيَ الرَّجُلُ زَكَاةَ الْفِطْرِ عَنْ نَفْسِهِ وَعِيَالِهِ مِسْكِينًا وَاحِدًا ﴾ .

وَقَالَ الْمُزَنِيّ عَنْ الشَّافِعِيّ : ﴿ وَأَقَلُّ مَا يُعْطَى أَهْلُ السَّهْمِ مِنْ سِهَامِ الزَّكَاةِ ثَلَاثَةٌ فَإِنْ أَعْطَى اثْنَيْنِ ، وَهُوَ يَجِدُ الثَّالِثَ ضَمِنَ ثُلُثَ سَهْمٍ ﴾ .

(303/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ اسْمٌ لِلْجِنْسِ فِي الْمَدْفُوعِ وَالْمَدْفُوعِ إلَيْهِمْ ، وَأَسْمَاءُ الْأَجْنَاسِ إذَا أُطْلِقَتْ فَإِنَّهَا تَتَنَاوَلُ الْمُسَمَّيَاتِ بِإِيجَابِ الْحُكْمِ فِيهَا عَلَى أَحَدِ مَعْنَيَيْنِ : إمَّا الْكُلُّ ، وَإِمَّا أَدْنَاهُ ، وَلَا تَخْتَصُّ بِعَدَدٍ دُونَ عَدَدٍ إلَّا بِدَلَالَةٍ ، إذْ لَيْسَ فِيهَا ذِكْرُ الْعَدَدِ ، أَلَا تَرَى إلَى قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي ﴾ وَقَوْلِهِ : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ وَنَحْوِهَا مِنْ أَسْمَاءِ الْأَجْنَاسِ أَنَّهَا تَتَنَاوَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ آحَادِهَا عَلَى حِيَالِهِ لَا عَلَى طَرِيقِ الْجَمْعِ ؟ وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا فِيمَنْ قَالَ : إنْ تَزَوَّجْت النِّسَاءَ أَوْ اشْتَرَيْت الْعَبِيدَ ، أَنَّهُ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ ، وَلَوْ قَالَ : إنْ شَرِبْت الْمَاءَ أَوْ أَكَلْت الطَّعَامَ ، كَانَ عَلَى الْجُزْءِ مِنْهَا لَا عَلَى اسْتِيعَابِ جَمِيعِ مَا تَحْتَهُ ، وَقَالُوا : لَوْ أَرَادَ بِيَمِينِهِ اسْتِيعَابَ الْجِنْسِ كَانَ مُصَدَّقًا ، وَلَمْ يَحْنَثْ أَبَدًا إذْ كَانَ مُقْتَضَى اللَّفْظِ أَحَدَ مَعْنَيَيْنِ إمَّا اسْتِيعَابُ الْجَمِيعِ أَوْ أَدْنَى مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الِاسْمُ مِنْهُ ، وَلَيْسَ لِلْجَمِيعِ حَظٌّ فِي ذَلِكَ ، فَلَا مَعْنَى لِاعْتِبَارِ الْعَدَدِ فِيهِ .

وَإِذَا ثَبَتَ مَا وَصَفْنَا ، وَاتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِآيَةِ الصَّدَقَاتِ اسْتِيعَابَ الْجِنْسِ كُلِّهِ حَتَّى لَا يَحْرُمَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ سَقَطَ اعْتِبَارُ الْعَدَدِ فِيهِ ، فَبَطَلَ قَوْلُ مَنْ اعْتَبَرَ ثَلَاثَةً مِنْهُمْ .

(304/340)

وَأَيْضًا لَمَّا لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ حَقًّا لِإِنْسَانٍ بِعَيْنِهِ وَإِنَّمَا هُوَ حَقُّ اللَّهِ تَعَالَى يُصْرَفُ فِي هَذَا الْوَجْهِ وَجَبَ أَنْ لَا يَخْتَلِفَ حُكْمُ الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ فِي جَوَازِ الْإِعْطَاءِ ، وَلِأَنَّهُ لَوْ وَجَبَ اعْتِبَارُ الْعَدَدِ لَمْ يَكُنْ بَعْضُ الْأَعْدَادِ أَوْلَى بِالِاعْتِبَارِ مِنْ بَعْضٍ ، إذْ لَا يَخْتَصُّ الِاسْمُ بِعَدَدٍ دُونَ عَدَدٍ .

وَأَيْضًا لَمَّا وَجَبَ اعْتِبَارُ الْعَدَدِ ، وَقَدْ عَلِمْنَا تَعَذُّرَ اسْتِيفَائِهِ لِأَنَّهُمْ لَا يُحْصَوْنَ دَلَّ عَلَى سُقُوطِ اعْتِبَارِهِ ، إذْ كَانَ فِي اعْتِبَارِهِ مَا يُؤَدِّيهِ إلَى إسْقَاطِهِ

وَقَدْ اخْتَلَفَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ فِيمَنْ أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ لِلْفُقَرَاءِ ، فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : ﴿ يَجْزِيهِ وَضْعُهُ فِي فَقِيرٍ وَاحِدٍ ﴾ ، وَقَالَ مُحَمَّدٌ : ﴿ لَا يَجْزِي إلَّا فِي اثْنَيْنِ فَصَاعِدًا ﴾ شَبَّهَهُ أَبُو يُوسُفَ بِالصَّدَقَاتِ ، وَهُوَ أَقْيَسُ .

وَاخْتُلِفَ فِي مَوْضِعِ أَدَاءِ الزَّكَاةِ فَقَالَ أَصْحَابُنَا أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : ﴿ تُقَسَّمُ

صَدَقَةُ كُلِّ بَلَدٍ فِي فُقَرَائِهِ ، وَلَا يُخْرِجُهَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَإِنْ أَخْرَجَهَا إِلَى غَيْرِهِ فَأَعْطَاهَا الْفُقَرَاءَ جَازَ ، وَيُكْرَهُ ﴾ .

(305/340)

وَرَوَى عَلِيٌّ الرَّازِيّ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : ﴿ لَا بَأْسَ بِأَنْ يَبْعَثَ الزَّكَاةَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ آخَرَ إِلَى ذِي قَرَابَتِهِ ﴾ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : فَحَدَّثْت بِهِ مُحَمَّدَ بْنَ الْحَسَنِ فَقَالَ : هَذَا حَسَنٌ ، وَلَيْسَ لَنَا فِي هَذَا سَمَاعٌ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ ؛ قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ : فَكَتَبَهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ عَنْ ابْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ وَذَكَرَ الطَّحَاوِيُّ عَنْ ابْنِ أَبِي عِمْرَانَ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَصْحَابُنَا عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ قَالَ : ﴿ لَا يُخْرِجُ الرَّجُلُ زَكَاتَهُ مِنْ مَدِينَةٍ إلَى مَدِينَةٍ إلَّا لِذِي قَرَابَتِهِ ﴾ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي زَكَاةِ الْفِطْرِ : ﴿ يُؤَدِّيهَا حَيْثُ هُوَ ، وَعَنْ أَوْلَادِهِ الصِّغَارِ حَيْثُ هُمْ ، وَزَكَاةِ الْمَالِ حَيْثُ الْمَالُ ﴾ .

وَقَالَ مَالِكٌ : ﴿ لَا تُنْقَلُ صَدَقَةُ الْمَالِ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ إلَّا أَنْ تَفْضُلَ فَتُنْقَلَ إلَى أَقْرَبِ الْبُلْدَانِ إلَيْهِمْ ﴾ قَالَ : ﴿ وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ مِصْرَ حَلَّتْ زَكَاتُهُ عَلَيْهِ وَمَالُهُ بِمِصْرَ ، وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ

فَإِنَّهُ يُقَسِّمُ زَكَاتَهُ بِالْمَدِينَةِ ، وَيُؤَدِّي صَدَقَةَ الْفِطْرِ حَيْثُ هُوَ ﴾ .

وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : لَا تُنْقَلُ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ إِلَّا أَنْ لَا يَجِدَ مَنْ يُعْطِيهِ .

(306/340)

وَكَرِهَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ نَقْلَهَا مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ ، وَقَالَ اللَّيْثُ فِيمَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ زَكَاةُ مَالِهِ ، وَهُوَ بِبَلَدٍ غَيْرِ بَلَدِهِ : إِنَّهُ إِنْ كَانَتْ رَجْعَتُهُ إِلَى بَلَدِهِ قَرِيبَةً فَإِنَّهُ يُؤَخِّرُ ذَلِكَ حَتَّى يَقْدَمَ بَلَدَهُ فَيُخْرِجَهَا ، وَلَوْ أَدَّاهَا حَيْثُ هُوَ رَجَوْتُ أَنْ تُجْزِيَ ، وَإِنْ كَانَتْ غَيْبَتُهُ طَوِيلَةً ، وَأَرَادَ الْمُقَامَ بِهَا فَإِنَّهُ يُؤَدِّي زَكَاتَهُ حَيْثُ هُوَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ إِنْ أَخْرَجَهَا إِلَى غَيْرِ بَلَدِهِ لَمْ يَبِنْ لِي أَنَّ عَلَيْهِ الْإِعَادَةَ ﴾ .

(307/340)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ يَقْتَضِي جَوَازَ إِعْطَائِهَا فِي غَيْرِ الْبَلَدِ الَّذِي فِيهِ الْمَالُ ، وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ شَاءَ ، وَلِذَلِكَ قَالَ أَصْحَابُنَا : ﴿ أَيُّ مَوْضِعٍ أَدَّى فِيهِ أَجْزَأَهُ ﴾ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَنَّا لَمْ نَرَ فِي الْأُصُولِ صَدَقَةً مَخْصُوصَةً بِمَوْضِعٍ

حَتَّى لَا يَجُوزَ أَدَاؤُهَا فِي غَيْرِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ كَفَّارَاتِ الْأَيْمَانِ وَالنُّذُورِ وَسَائِرِ الصَّدَقَاتِ لَا يَخْتَصُّ جَوَازُهَا بِأَدَائِهَا فِي مَكَانٍ دُونَ غَيْرِهِ ؟ وَرُوِيَ عَنْ طَاوُسٍ أَنَّ مُعَاذًا قَالَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ : ائْتُونِي بِخَمِيسٍ أَوْ لَبِيسٍ آخُذُهُ مِنْكُمْ فِي الصَّدَقَةِ مَكَانَ الذُّرَةِ وَالشَّعِيرِ فَإِنَّهُ أَيْسَرُ عَلَيْكُمْ ، وَخَيْرٌ لِمَنْ بِالْمَدِينَةِ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ يَنْقُلُهَا مِنْ الْيَمَنِ إلَى الْمَدِينَةِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ كَانُوا أَحْوَجَ إلَيْهَا مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ، وَرَوَى عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ أَنَّهُ نَقَلَ صَدَقَةَ طَيِّئٍ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبِلَادُهُمْ بِالْبُعْدِ مِنْ الْمَدِينَةِ ، وَنَقَلَ أَيْضًا عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ وَالزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ صَدَقَاتِ قَوْمِهِمَا إلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ مِنْ بِلَادِ طَيِّئٍ وَبِلَادِ بَنِي تَمِيمٍ فَاسْتَعَانَ بِهَا عَلَى قِتَالِ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، وَإِنَّمَا كَرِهُوا نَقْلَهَا إلَى بَلَدٍ غَيْرِهِ إذَا تَسَاوَى أَهْلُ الْبَلَدَيْنِ فِي الْحَاجَةِ ، لِمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ : ﴿ أَعْلِمْهُمْ

(308/340)

أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي أَمْوَالِهِمْ يُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَيُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ﴾ ، وَذَلِكَ يَقْتَضِي رَدَّهَا فِي فُقَرَاءِ الْمَأْخُوذِينَ مِنْهُمْ .

وَإِنَّمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ إنَّهُ يَجُوزُ لَهُ نَقْلُهَا إلَى ذِي قَرَابَتِهِ فِي بَلَدٍ آخَرَ لِمَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ

قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ أَيُّوبَ وَهِشَامٍ وَحَبِيبٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ ﴿ صَدَقَةُ الرَّجُلِ عَلَى قَرَابَتِهِ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ زَكَرِيَّا قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ مَنْصُورٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عُثْمَانُ بْنُ صَالِحٍ : حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّهُ سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الصَّدَقَةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى ذِي الْقَرَابَةِ تُضَاعَفُ مَرَّتَيْنِ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ زَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ حِينَ سَأَلَتْهُ عَنْ صَدَقَتِهَا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ وَأَيْتَامِ بَنِي أَخٍ لَهَا فِي حِجْرِهَا .

فَقَالَ : ﴿ لَكِ أَجْرَانِ أَجْرُ الصَّدَقَةِ وَأَجْرُ الْقَرَابَةِ ﴾ .

(309/340)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ يَزِيدَ الصُّدَائِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ : حَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ عَنْ حَجَّاجٍ عَنْ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَيُّوبَ بْنِ بَشِيرٍ عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ : قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ ﴿ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ ﴾ .

فَثَبَتَ بِهَذِهِ الْأَخْبَارِ أَنَّ الصَّدَقَةَ عَلَى ذِي الرَّحِمِ وَالْمَحْرَمِ وَإِنْ بَعُدَتْ دَارُهُ أَفْضَلُ مِنْهَا عَلَى الْأَجْنَبِيِّ ؛ فَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ يَجُوزُ نَقْلُهَا إلَى بَلَدٍ آخَرَ إذَا أَعْطَاهَا ذَا قَرَابَتِهِ ﴾ .

وَإِنَّمَا قَالَ أَصْحَابُنَا فِي صَدَقَةِ الْفِطْرِ : ﴿ إنَّهُ يُؤَدِّيهَا عَنْ نَفْسِهِ حَيْثُ هُوَ وَعَنْ رَفِيقِهِ وَوَلَدِهِ حَيْثُ هُمْ ﴾ لِأَنَّهَا مُؤَدَّاةٌ عَنْهُمْ ،

فَكَمَا تُؤَدَّى زَكَاةُ الْمَالِ حَيْثُ الْمَالُ كَذَلِكَ تُؤَدَّى صَدَقَةُ الْفِطْرِ حَيْثُ الْمُؤَدَّى عَنْهُ

فِيمَا يُعْطَى مِسْكِينٌ وَاحِدٌ مِنْ الزَّكَاةِ كَانَ أَبُو حَنِيفَةَ يَكْرَهُ أَنْ يُعْطَى إنْسَانٌ مِنْ الزَّكَاةِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وَإِنْ أَعْطَيْته أَجْزَاك وَلَا بَأْسَ بِأَنْ تُعْطِيَهُ أَقَلَّ مِنْ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، قَالَ : ﴿ وَأَنْ يُغْنِيَ بِهَا إنْسَانًا أَحَبُّ إلَيَّ ﴾ .

(310/340)

وَرَوَى هِشَامٌ عَنْ أَبِي يُوسُفَ فِي رَجُلٍ لَهُ مِائَةٌ وَتِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ دِرْهَمًا فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ بِدِرْهَمَيْنِ : ﴿ أَنَّهُ يَقْبَلُ وَاحِدًا وَيَرُدُّ وَاحِدًا ﴾ فَقَدْ أَجَازَ لَهُ أَنْ يَقْبَلَ تَمَامَ الْمِائَتَيْنِ ، وَكَرِهَ أَنْ يَقْبَلَ مَا فَوْقَهَا ، وَأَمَّا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ فَإِنَّهُ يَرُدُّ الْأَمْرَ فِيهِ إلَى الِاجْتِهَادِ مِنْ غَيْرِ تَوْقِيفٍ ، وَقَوْلُ ابْنِ شُبْرُمَةَ فِيهِ كَقَوْلِ أَبِي حَنِيفَةَ ، وَقَالَ الثَّوْرِيُّ : لَا يُعْطَى مِنْ الزَّكَاةِ أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ دِرْهَمًا إلَّا أَنْ يَكُونَ غَارِمًا وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ ، وَقَالَ اللَّيْثُ : يُعْطَى مِقْدَارُ مَا يَبْتَاعُ بِهِ

خَادِمًا إذَا كَانَ ذَا عِيَالٍ ، وَالزَّكَاةُ كَثِيرَةٌ .

وَلَمْ يَحُدَّ الشَّافِعِيُّ شَيْئًا ، وَاعْتَبَرَ مَا يَرْفَعُ الْحَاجَةَ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ لَيْسَ فِيهِ تَحْدِيدُ مِقْدَارِ مَا يُعْطَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ تَفْرِيقَهَا عَلَى الْفُقَرَاءِ عَلَى عَدَدِ الرُّءُوسِ لِامْتِنَاعِ ذَلِكَ وَتَعَذُّرِهِ ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ دَفْعُهَا إلَى بَعْضٍ أَيِّ بَعْضٍ كَانَ ، وَأَقَلُّهُمْ وَاحِدٌ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ مُخَاطَبٌ بِذَلِكَ فَاقْتَضَى ذَلِكَ جَوَازَ دَفْعِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جَمِيعَ صَدَقَتِهِ إلَى فَقِيرٍ وَاحِدٍ قَلَّ الْمَدْفُوعُ أَوْ كَثُرَ ، فَوَجَبَ بِظَاهِرِ الْآيَةِ جَوَازُ دَفْعِ الْمَالِ الْكَثِيرِ مِنْ الزَّكَاةِ إلَى وَاحِدٍ مِنْ الْفُقَرَاءِ مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ لِمِقْدَارِهِ .

(311/340)

وَأَيْضًا فَإِنَّ الدَّفْعَ وَالتَّمْلِيكَ يُصَادِفَانِهِ ، وَهُوَ فَقِيرٌ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ دَفْعِ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ لِحُصُولِ التَّمْلِيكِ فِي الْحَالَتَيْنِ

لِلْفَقِيرِ ، وَإِنَّمَا كَرِهَ أَبُو حَنِيفَةَ أَنْ يُعْطَى إنْسَانٌ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ لِأَنَّ الْمِائَتَيْنِ هِيَ النِّصَابُ الْكَامِلُ فَيَكُونُ غَنِيًّا مَعَ تَمَامِ مِلْكِ الصَّدَقَةِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إنَّمَا أَمَرَ بِدَفْعِ الزَّكَوَاتِ إلَى الْفُقَرَاءِ لِيَنْتَفِعُوا بِهَا ، وَيَتَمَلَّكُوهَا ، فَلَا يَحْصُلُ لَهُ التَّمْكِينُ مِنْ الِانْتِفَاعِ إلَّا ، وَهُوَ غَنِيٌّ ؛ فَكَرِهَ مِنْ أَجْلِ

ذَلِكَ دَفْعَ نِصَابٍ كَامِلٍ ، وَمَتَى دَفَعَ إلَيْهِ أَقَلَّ مِنْ النِّصَابِ فَإِنَّهُ يَمْلِكُهُ ، وَيَحْصُلُ لَهُ الِانْتِفَاعُ بِهَا ، وَهُوَ فَقِيرٌ فَلَمْ يَكْرَهْهُ ، إذْ الْقَلِيلُ وَالْكَثِيرُ سَوَاءٌ فِي هَذَا الْوَجْهِ إذَا لَمْ يَصِرْ غَنِيًّا ، فَالنِّصَابُ عِنْدَ وُقُوعِ التَّمْلِيكِ وَالتَّمْكِينِ مِنْ الِانْتِفَاعِ .

وَأَمَّا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ : ﴿ وَأَنْ يُغْنِيَ بِهَا إنْسَانًا أَحَبُّ إلَيَّ ﴾ فَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ الْغِنَى الَّذِي تَجِبُ عَلَيْهِ بِهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعْطِيَهُ مَا يَسْتَغْنِي بِهِ عَنْ الْمَسْأَلَةِ وَيَكُفُّ بِهِ وَجْهَهُ وَيَتَصَرَّفُ بِهِ فِي ضَرْبٍ مِنْ الْمَعَاشِ .

وَاخْتُلِفَ فِيمَنْ أَعْطَى زَكَاتَهُ رَجُلًا ظَاهِرُهُ الْفَقْرُ فَأَعْطَاهُ عَلَى ذَلِكَ ثُمَّ تَبَيَّنَ أَنَّهُ غَنِيٌّ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمُحَمَّدٌ : ﴿ يَجْزِيهِ ، وَكَذَلِكَ إنْ دَفَعَهَا إلَى ابْنِهِ أَوْ إلَى ذِمِّيٍّ ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ثُمَّ عَلِمَ أَنَّهُ يَجْزِيهِ ﴾ .

(312/340)

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ : ﴿ لَا يَجْزِيهِ ﴾ ذَهَبَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي ذَلِكَ إلَى مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ مَعْنِ بْنِ يَزِيدَ أَنَّ أَبَاهُ أَخْرَجَ صَدَقَةً فَدَفَعَهَا إلَيْهِ لَيْلًا ، وَهُوَ لَا يَعْرِفُهُ فَلَمَّا أَصْبَحَ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : مَا إيَّاكَ أَرَدْت ، وَاخْتَصَمَا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ لَهُ : ﴿ لَك مَا نَوَيْت يَا يَزِيدُ ﴾ ، وَقَالَ لِمَعْنٍ : ﴿ لَك مَا أَخَذْت ﴾ ، وَلَمْ يَسْأَلْهُ أَنَوَيْتَهَا مِنْ الزَّكَاةِ أَوْ غَيْرِهَا بَلْ قَالَ :

﴿ لك ما نويت ﴾ ، فدل على جوازها إن نواها زكاة ، وأيضا فإن الصدقة على هؤلاء قد تكون صدقة صحيحة من وجه في غير حال الضرورة ، وهو أن يتصدق عليهم صدقة التطوع ، فأشبهت من هذا الوجه الصلاة إلى الكعبة إذا أداها باجتهاد صحيح ثم تبين أنه أخطأها كانت صلاته ماضية ، إذ كانت الصلاة إلى غير جهة الكعبة قد تكون صلاة صحيحة من غير ضرورة ، وهو المصلي تطوعا على الراحلة ، فكان إعطاء الزكاة باجتهاد مشبها لأداء الصلاة باجتهاد على النحو الذي ذكرنا .

فإن قيل : إنما يشبه مسألة الزكاة من توضأ بماء يظنه طاهرا ثم علم أنه كان نجسا فلا تجزيه صلاته لأنه صار من اجتهاد إلى يقين ، كذلك مؤدي الزكاة إلى غني أو ابنه أو ذمي إذا علم فقد صار من اجتهاد إلى يقين ، فبطل حكم اجتهاده ووجبت عليه الإعادة .

(313/340)

قيل له : ليس كذلك ؛ لأن الوضوء بالماء النجس لا يكون طهارة بحال فلم يكن للاجتهاد تأثير في جوازه ، وترك القبلة جائز في أحوال ، فمسألتنا بما ذكرناه أشبه .

فإن قيل : الصلاة قد تجوز في الثوب النجس في حال ، ومع ذلك فلو أداها باجتهاد منه في طهارة الثوب ثم تبين النجاسة بطلت صلاته ، ووجبت عليه الإعادة ، ولم يكن جواز

الصَّلَاةِ فِي الثَّوْبِ النَّجِسِ بِحَالٍ مُوجِبًا لِجَوَازِ أَدَائِهَا بِالِاجْتِهَادِ مَتَى صَارَ إِلَى يَقِينِ النَّجَاسَةِ .

قِيلَ لَهُ : أَغْفَلْت مَعْنَى اعْتِلَالِنَا ؛ لِأَنَّا قُلْنَا إنَّ تَرْكَ الْقِبْلَةِ جَائِزٌ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ كَجَوَازِ إعْطَاءِ هَؤُلَاءِ مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ فَكَانَا مُتَسَاوِيَيْنِ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَا ضَرُورَةَ بِالْمُصَلِّي عَلَى الرَّاحِلَةِ فِي فِعْلِ التَّطَوُّعِ كَمَا لَا ضَرُورَةَ بِالْمُتَصَدِّقِ صَدَقَةَ التَّطَوُّعِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا ؟ فَلَمَّا اسْتَوَيَا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ اشْتَبَهَا فِي الْحُكْمِ ، وَأَمَّا الصَّلَاةُ فِي الثَّوْبِ النَّجِسِ فَغَيْرُ جَائِزَةٍ إلَّا فِي حَالِ الضَّرُورَةِ ، وَيَسْتَوِي فِيهِ حُكْمُ مُصَلِّي الْفَرْضِ أَوْ مُتَنَفِّلٍ ، فَلِذَلِكَ اخْتَلَفَا

بَابُ دَفْعِ الصَّدَقَاتِ إلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الْآيَةَ .

(314/340)

فَرَوَى أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَشْعَثُ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عَبَّاسٍ قَالَا : إذَا أَعْطَى الرَّجُلُ الصَّدَقَةَ صِنْفًا وَاحِدًا مِنْ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ أَجْزَأَهُ ، وَرَوَى مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَحُذَيْفَةَ ، وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمَ

وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَأَبِي الْعَالِيَةِ ، ، وَلَا يُرْوَى عَنْ الصَّحَابَةِ خِلَافُهُ ، فَصَارَ إجْمَاعًا مِنْ السَّلَفِ لَا يَسَعُ أَحَدًا خِلَافُهُ لِظُهُورِهِ وَاسْتِفَاضَتِهِ فِيهِمْ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ ظَهَرَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ نُظَرَائِهِمْ عَلَيْهِمْ .

وَرَوَى الثَّوْرِيُّ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ مَيْسَرَةَ عَنْ طَاوُسٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ : أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ الْعُرُوضَ فِي الزَّكَاةِ وَيَجْعَلُهَا فِي صِنْفٍ وَاحِدٍ مِنْ النَّاسِ ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَأَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ وَزُفَرَ وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ .

(315/340)

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : ﴿ تُقَسَّمُ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَصْنَافٍ إلَّا أَنْ يُفْقَدَ صِنْفٌ فَتُقَسَّمُ فِي الْبَاقِينَ لَا يَجْزِي غَيْرُهُ ﴾ وَهَذَا قَوْلٌ مُخَالِفٌ لِقَوْلِ مَنْ قَدَّمْنَا ذِكْرَهُ مِنْ السَّلَفِ وَمُخَالِفٌ لِلْآثَارِ وَالسُّنَنِ وَظَاهِرِ الْكِتَابِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ لِأَنَّهُ اسْمٌ لِلْجِنْسِ لِدُخُولِ الْأَلِفِ وَاللَّامِ عَلَيْهِ ، فَاقْتَضَتْ الْآيَةُ دَفْعَ جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ إلَى صِنْفٍ وَاحِدٍ مِنْ الْمَذْكُورِينَ ، وَهُمْ الْفُقَرَاءُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ مُرَادَ اللَّهِ تَعَالَى فِي ذِكْرِ الْأَصْنَافِ إنَّمَا هُوَ بَيَانُ أَسْبَابِ الْفَقْرِ لَا قِسْمَتُهَا عَلَى ثَمَانِيَةٍ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ أَيْضًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ

مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ وَذَلِكَ يَقْتَضِي جَوَازَ إعْطَاءِ الصَّدَقَةِ هَذَيْنِ دُونَ غَيْرِهِمَا ، وَذَلِكَ يَنْفِي وُجُوبَ قِسْمَتِهَا عَلَى ثَمَانِيَةٍ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ عُمُومٌ فِي سَائِرِ الصَّدَقَاتِ ، وَمَا يَحْصُلُ مِنْهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ إلَى آخِرِهِ عُمُومٌ أَيْضًا فِي سَائِرِ الْمَذْكُورِينَ مِنْ الْمَوْجُودِينَ وَمَنْ يَحْدُثُ مِنْهُمْ .

(316/340)

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ قِسْمَةَ كُلِّ مَا يَحْصُلُ مِنْ الصَّدَقَةِ فِي الْمَوْجُودِينَ ، وَمَنْ يَحْدُثُ مِنْهُمْ لِاسْتِحَالَةِ إمْكَانِ ذَلِكَ إلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ فَوَجَبَ أَنْ يَجْزِيَ إعْطَاءُ صَدَقَةِ عَامٍ وَاحِدٍ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ ، وَإِعْطَاءُ صَدَقَةِ عَامٍ ثَانٍ لِصِنْفٍ آخَرَ ثُمَّ كَذَلِكَ صَدَقَةُ كُلِّ عَامٍ لِصِنْفٍ مِنْ الْأَصْنَافِ عَلَى مَا يَرَى الْإِمَامُ قِسْمَتَهُ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ أَنَّ صَدَقَةَ عَامٍ وَاحِدٍ أَوْ رَجُلٍ وَاحِدٍ غَيْرُ مَقْسُومَةٍ عَلَى ثَمَانِيَةٍ .

وَأَيْضًا لَا خِلَافَ أَنَّ الْفُقَرَاءَ لَا يَسْتَحِقُّونَهَا بِالشَّرِكَةِ ، وَأَنَّهُ جَائِزٌ أَنْ يُحْرَمَ الْبَعْضُ مِنْهُمْ ، وَيُعْطَى الْبَعْضُ فَثَبَتَ أَنَّ الْمَقْصِدَ صَرْفُهَا فِي بَعْضِ الْمَذْكُورِينَ فَوَجَبَ أَنْ يَجُوزَ إعْطَاؤُهَا بَعْضَ الْأَصْنَافِ كَمَا جَازَ إعْطَاؤُهَا بَعْضَ الْفُقَرَاءِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَوْ كَانَ حَقًّا لَهُمْ جَمِيعًا لَمَا جَازَ

حِرْمَانُ الْبَعْضِ وَإِعْطَاءُ الْبَعْضِ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا رُوِيَ فِي حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ حِينَ ظَاهَرَ مِنْ امْرَأَتِهِ ، وَلَمْ يَجِدْ مَا يُطْعِمُ ، فَأَمَرَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَنْطَلِقَ إِلَى صَاحِبِ صَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ لِيَدْفَعَ إِلَيْهِ صَدَقَاتِهِمْ ؛ فَأَجَازَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَفْعَ صَدَقَاتِهِمْ إِلَى سَلَمَةَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ .

وَفِي حَدِيثِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ الْخِيَارِ فِي الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ سَأَلَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الصَّدَقَةِ ، فَرَآهُمَا جَلْدَيْنِ فَقَالَ : ﴿ إِنْ شِئْتُمَا أَعْطَيْتُكُمَا ﴾ ، وَلَمْ

(317/340)

يَسْأَلْهُمَا مِنْ أَيِّ الْأَصْنَافِ هُمَا لِيَحْسِبَهُمَا مِنْ الصِّنْفِ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ بِالْفَقْرِ قَوْلُهُ : ﴿ أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ ، وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ، وَقَالَ لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ : أَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَرَضَ عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي أَمْوَالِهِمْ يُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَيُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ ﴾ ، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يَسْتَحِقُّ جَمِيعُ الْأَصْنَافِ هُوَ الْفَقْرُ ؛ لِأَنَّهُ عَمَّ جَمِيعَ الصَّدَقَةِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ إِلَى الْفُقَرَاءِ ، وَهَذَا اللَّفْظُ مَعَ مَا تَضَمَّنَ مِنْ الدَّلَالَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى الْمُسْتَحَقَّ بِهِ الصَّدَقَةُ هُوَ الْفَقْرُ ، وَأَنَّ عُمُومَهُ يَقْتَضِي جَوَازَ دَفْعِ جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ

إلَى الْفُقَرَاءِ حَتَّى لَا يُعْطَى غَيْرُهُمْ ، بَلْ ظَاهِرُ اللَّفْظِ يَقْتَضِي إيجَابَ ذَلِكَ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أُمِرْت فَإِنْ قِيلَ : الْعَامِلُ يَسْتَحِقُّهُ لَا بِالْفَقْرِ .

قِيلَ لَهُ : لَمْ يَكُونُوا يَأْخُذُونَهَا صَدَقَةً ، وَإِنَّمَا تَحْصُلُ الصَّدَقَةُ لِلْفُقَرَاءِ ثُمَّ يَأْخُذُهَا الْعَامِلُ عِوَضًا مِنْ عَمَلِهِ لَا صَدَقَةً ، كَفَقِيرٍ تَصَدَّقَ عَلَيْهِ فَأَعْطَاهَا عِوَضًا عَنْ عَمَلٍ عُمِلَ لَهُ ، وَكَمَا كَانَ يُتَصَدَّقُ عَلَى بَرِيرَةَ فَتُهْدِيهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَدِيَّةً لِلنَّبِيِّ ، وَصَدَقَةً لِبَرِيرَةَ .

(318/340)

فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ قَدْ كَانُوا يَأْخُذُونَهَا صَدَقَةً لَا بِالْفَقْرِ قِيلَ لَهُ : لَمْ يَكُونُوا يَأْخُذُونَهَا صَدَقَةً ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَحْصُلُ صَدَقَةً لِلْفُقَرَاءِ فَيُدْفَعُ بَعْضُهَا إلَى الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ لِدَفْعِ أَذِيَّتِهِمْ عَنْ فُقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَلِيُسْلِمُوا فَيَكُونُوا قُوَّةً لَهُمْ ، فَلَمْ يَكُونُوا يَأْخُذُونَهَا صَدَقَةً بَلْ كَانَتْ تَحْصُلُ صَدَقَةً فَتُصْرَفُ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، إذْ كَانَ مَالُ الْفُقَرَاءِ جَائِزًا صَرْفُهُ فِي بَعْضِ مَصَالِحِهِمْ إذْ كَانَ الْإِمَامُ يَلِي عَلَيْهِمْ ، وَيَتَصَرَّفُ

فِي مَصَالِحِهِمْ .

فَأَمَّا ذِكْرُ الْأَصْنَافِ فَإِنَّمَا جَاءَ بِهِ لِبَيَانِ أَسْبَابِ الْفَقْرِ عَلَى مَا بَيَّنَّا ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ أَنَّ الْغَارِمَ

وَابْنَ السَّبِيلِ ، وَالْغَازِي لَا يَسْتَحِقُّونَهَا إلَّا بِالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ دُونَ غَيْرِهِمَا ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمَعْنَى الَّذِي بِهِ يَسْتَحِقُّونَهَا هُوَ الْفَقْرُ .

(319/340)

فَإِنْ قِيلَ : رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زِيَادِ بْنِ الْعَمِّ عَنْ زِيَادِ بْنِ نُعَيْمٍ أَنَّهُ سَمِعَ زِيَادَ بْنَ الْحَارِثِ الصُّدَائِيَّ يَقُولُ : ﴿ أَمَّرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى قَوْمٍ ، فَقُلْت : أَعْطِنِي مِنْ صَدَقَاتِهِمْ فَفَعَلَ ، وَكَتَبَ لِي بِذَلِكَ كِتَابًا ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : أَعْطِنِي مِنْ الصَّدَقَةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ ، وَلَا غَيْرِهِ حَتَّى حَكَمَ فِيهَا مِنْ السَّمَاءِ فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ فَإِنْ كُنْت مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُك مِنْهَا ﴾ قِيلَ لَهُ : هَذَا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا لِأَنَّهُ قَالَ : " إنْ كُنْت مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُك " فَبَانَ أَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ لِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ ، وَذَكَرَ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ لِلصُّدَائِيِّ بِشَيْءٍ مِنْ صَدَقَةِ قَوْمِهِ ، وَلَمْ يَسْأَلْ مِنْ أَيِّ الْأَصْنَافِ هُوَ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ قَوْلَهُ : " إنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ " مَعْنَاهُ لِيُوضَعَ فِي كُلِّ جُزْءٍ مِنْهَا جَمِيعًا إنْ رَأَى ذَلِكَ الْإِمَامُ ، وَلَا يُخْرِجُهَا عَنْ جَمِيعِهِمْ .

وَأَيْضًا فَلَيْسَ تَخْلُو الصَّدَقَةُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُسْتَحَقَّةً بِالِاسْمِ أَوْ بِالْحَاجَةِ أَوْ بِهِمَا جَمِيعًا ،

وَفَاسِدٌ أَنْ يُقَالَ هِيَ مُسْتَحَقَّةٌ بِمُجَرَّدِ الِاسْمِ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدِهِمَا : أَنَّهُ يُوجِبُ أَنْ يَسْتَحِقَّهَا كُلُّ غَارِمٍ ، وَكُلُّ ابْنِ سَبِيلٍ ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا ، وَهَذَا بَاطِلٌ .

(320/340)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَوْ اجْتَمَعَ لَهُ الْفَقْرُ ، وَابْنُ السَّبِيلِ أَنْ يَسْتَحِقَّ سَهْمَيْنِ ، فَلَمَّا بَطَلَ هَذَانِ الْوَجْهَانِ صَحَّ أَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ بِالْحَاجَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الْآيَةَ ، يَقْتَضِي إِيجَابَ الشَّرِكَةِ ، فَلَا يَجُوزُ إِخْرَاجُ صِنْفٍ مِنْهَا ، كَمَا لَوْ أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو وَخَالِدٍ لَمْ يُحْرِمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا مُقْتَضَى اللَّفْظِ فِي جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ ، وَكَذَلِكَ نَقُولُ ، فَيُعْطِي صَدَقَةَ الْعَامِ صِنْفًا وَاحِدًا ، وَيُعْطِي صَدَقَةَ عَامٍ آخَرَ صِنْفًا آخَرَ عَلَى قَدْرِ اجْتِهَادِ الْإِمَامِ وَمَجْرَى الْمَصْلَحَةِ فِيهِ ، وَإِنَّمَا الْخِلَافُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ فِي صَدَقَةٍ وَاحِدَةٍ هَلْ يَسْتَحِقُّهَا الْأَصْنَافُ كُلُّهَا ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ بَيَانُ حُكْمِ صَدَقَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا فِيهَا حُكْمُ الصَّدَقَاتِ كُلِّهَا ، فَنُقَسِّمُ الصَّدَقَاتِ كُلَّهَا عَلَى مَا ذَكَرْنَا فَنَكُونُ قَدْ وَفَّيْنَا الْآيَةَ حَقَّهَا مِنْ مُقْتَضَاهَا ، وَاسْتَعْمَلْنَا سَائِرَ الْآيِ الَّتِي قَدَّمْنَا ذِكْرَهَا ، وَالْآثَارَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْلَ السَّلَفِ ، فَذَلِكَ

أَوْلَى مِنْ إيجَابِ قِسْمَةِ صَدَقَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى ثَمَانِيَةٍ ، وَرَدِّ أَحْكَامِ سَائِرِ الْآيِ وَالسُّنَنِ الَّتِي قَدَّمْنَا .

(321/340)

وَبِهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَا انْفَصَلَتْ الصَّدَقَاتُ مِنْ الْوَصِيَّةِ بِالثُّلُثِ لِأَعْيَانٍ لِأَنَّ الْمُسَمَّيْنَ لَهُمْ مَحْصُورُونَ ، وَكَذَلِكَ الثُّلُثُ فِي مَالٍ مُعَيَّنٍ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَسْتَحِقُّوهُ بِالشَّرِكَةِ .

وَأَيْضًا فَلَا خِلَافَ أَنَّ الصَّدَقَاتِ غَيْرُ مُسْتَحَقَّةٍ عَلَى وَجْهِ الشَّرِكَةِ لِلْمُسَمَّيْنَ لِاتِّفَاقِهِمْ عَلَى جَوَازِ إعْطَاءِ بَعْضِ الْفُقَرَاءِ دُونَ بَعْضٍ ، وَلَا جَائِزٌ إخْرَاجُ بَعْضِ الْمُوصَى لَهُمْ .

وَأَيْضًا لَمَا جَازَ التَّفْضِيلُ فِي الصَّدَقَاتِ لِبَعْضٍ عَلَى بَعْضٍ ، وَلَمْ يَجُزْ ذَلِكَ فِي الْوَصَايَا الْمُطْلَقَةِ ، كَذَلِكَ جَازَ حِرْمَانُ بَعْضِ الْأَصْنَافِ كَمَا جَازَ حِرْمَانُ بَعْضِ الْفُقَرَاءِ ، فَفَارَقَ الْوَصَايَا مِنْ هَذَا

الْوَجْهِ ، وَأَيْضًا لَمَّا كَانَتْ الصَّدَقَةُ حَقًّا لِلَّهِ تَعَالَى لَا لِآدَمِيٍّ بِدَلَالَةِ أَنَّهُ لَا مُطَالَبَةَ لِآدَمِيٍّ يَسْتَحِقُّهَا لِنَفْسِهِ ، فَأَيُّ صِنْفٍ أُعْطِيَ فَقَدْ وَضَعَهَا مَوْضِعَهَا ، وَالْوَصِيَّةُ لِأَعْيَانٍ حَقٌّ لِآدَمِيٍّ لَا مُطَالَبَةَ لِغَيْرِهِمْ بِهَا ، فَاسْتَحَقُّوهَا كُلُّهُمْ كَسَائِرِ الْحُقُوقِ الَّتِي لِلْآدَمِيِّ .

وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَوْجَبَ فِي الْكَفَّارَةِ إطْعَامَ مَسَاكِينَ ، وَلَوْ أَعْطَى الْفُقَرَاءَ جَازَ ،

فَكَذَلِكَ جَائِزٌ أَنْ يُعْطِيَ مَا سَمَّى لِلْمَسَاكِينِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ لِلْفُقَرَاءِ ، وَالْوَصِيَّةُ مُخَالِفَةٌ لِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَوْ أَوْصَى لِزَيْدٍ لَمْ يُعْطَ عَمْرٌو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(322/340)

" فصل جامع للعلامة الماوردى "

قال عليه رحمة الله :

مَسْأَلَةٌ قَسْمُ الصَّدَقَاتِ

(323/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : " وَقَسْمُ الصَّدَقَاتِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، ثُمَّ أَكَّدَهَا وَشَدَّدَهَا فَقَالَ : فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ الْآيَةَ . وَهِيَ سُهْمَانٌ ثَمَانِيَةٌ لَا تُصْرَفُ مِنْهَا سَهْمٌ وَلَا شَيْءٌ مِنْهُ عَنْ أَهْلِهِ مَا كَانَ مِنْ أَهْلِهِ أَحَدٌ يَسْتَحِقُّهُ " . قَالَ

الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ قَسْمُ الصَّدَقَاتِ يُسْتَحَقُّ فِي الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ وَلَا يَجُوزُ اِلاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهَا مَعَ وُجُودِ جَمِيعِهَا الأصناف في الزكاة . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَجُوزُ اقْتِصَارُ أَيِّ الْأَصْنَافِ شَاءَ ، وَإِنْ دَفَعَ جَمِيعَ الزَّكَاةِ إلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ أَجْزَأَهُ . وَقَالَ مَالِكٌ : يَدْفَعُهَا إلَى أَمَسِّ الْأَصْنَافِ حَاجَةً . وَقَالَ إبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : إنْ كَثُرَتِ الزَّكَاةُ دَفَعَهَا إلَى الْأَصْنَافِ كُلِّهَا ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ وَإِنْ قَلَّتْ دَفَعَهَا إلَى أَيِّ الْأَصْنَافِ شَاءَ كَمَا قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ . وَاسْتَدَلُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ [الْبَقَرَةَ : 271] فَجَعَلَ تَخْصِيصَ الْفُقَرَاءِ بِهَا خَيْرًا مَشْكُورًا فَدَلَّ عَلَى جَوَازِهِ وَصَرْفِ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ [الْمَعَارِجِ : 24 ، 25] فَدَلَّ عَلَى جَوَازِ تَفَرُّدِهِمْ بِهِ ،

(324/340)

وَبِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ، وَبِمَا رُوِيَ مِنْ أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيَّ ظَاهَرَ مِنِ امْرَأَتِهِ فَذَكَرَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَجْزَهُ عَنِ الْكَفَّارَةِ ، فَقَالَ لَهُ : انْطَلِقْ إلَيَّ بِصَدَقَةِ بَنِي زُرَيْقٍ فَلْتُدْفَعْ إلَيْكَ فَأَطْعِمْ مِنْهَا وَسْقًا مِنْ تَمْرٍ سِتِّينَ مِسْكِينًا وَكُلْ أَنْتَ وَعِيَالُكَ

بَقِيَّتَهَا ، فَدَلَّ نَصُّ هَذَا الْخَبَرِ عَلَى جَوَازِ دَفْعِهَا إلَى نَفْسٍ وَاحِدَةٍ عَنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ . قَالُوا : وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ الْأَصْنَافَ الثَّمَانِيَةَ بِالذِّكْرِ كَمَا خَصَّ الصِّنْفَ الْوَاحِدَ بِالذِّكْرِ ، فَلَمَّا لَمْ يَلْزَمِ اسْتِيفَاءُ جَمِيعِ الصِّنْفِ وَجَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهِ لَمْ يَلْزَمِ اسْتِيفَاءُ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ وَجَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهَا ؛ وَيَتَحَرَّرُ مِنْهُ قِيَاسَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا صَدَقَةٌ يَجُوزُ أَنْ يُخَصَّ بِهَا بَعْضُ الْفُقَرَاءِ فَجَازَ أَنْ يُخَصَّ بِهَا بَعْضُ الْأَصْنَافِ كَالْكَفَّارَاتِ . وَالثَّانِي : أَنَّ مَنْ جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَيْهِ فِي الْكَفَّارَاتِ جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَيْهِ فِي الزَّكَوَاتِ ، قِيَاسًا عَلَى بَعْضِ الْفُقَرَاءِ .

(325/340)

قَالُوا : وَلِأَنَّهُ لَوِ اسْتَحَقَّ كُلُّ صِنْفٍ مِنْهُمْ سَهْمًا يَخُصُّهُ لَمَا جَازَ فِيمَنْ فُقِدَ أَنْ يُرَدَّ سَهْمُهُ عَلَى مَنْ وُجِدَ ، وَفِي إجْمَاعِهِمْ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ مَعَ فَقْدِ بَعْضِهِمْ دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِهِ مَعَ وُجُودِ بَعْضِهِمْ . قَالُوا : وَلِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا سَدُّ الْخَلَّةِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَعُمَّ بِهَا الْجَمِيعُ ، فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ وَمِنْ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، كَمَا لَا فَرْقَ بَيْنَ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَعْضِ الصِّنْفِ أَوْ مِنْ جَمِيعِهِ . وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ [التَّوْبَةِ : 60] الْآيَةَ . وَالدَّلِيلُ فِيهَا مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ أَضَافَ الصَّدَقَةَ إلَى الْأَصْنَافِ

الثَّمَانِيَةِ بِلَامِ التَّمْلِيكِ وَعَطَفَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِوَاوِ التَّشْرِيكِ وَكُلَّمَا يَصِحُّ أَنْ يُمْلَكَ إذَا أُضِيفَ إلَى مَنْ يَصِحُّ أَنْ يُمَلَّكَ اقْتَضَتِ الْإِضَافَةُ ثُبُوتَ الْمِلْكِ كَمَا لَوْ قَالَ : هَذِهِ الدَّارُ لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو . فَإِنْ قِيلَ : فَالْإِضَافَةُ إلَى الْأَشْخَاصِ تُوجِبُ التَّمْلِيكَ لِتَعْيِينِ الْمَالِكِ ، وَالْإِضَافَةُ إلَى الْأَوْصَافِ لَا تُوجِبُ التَّمْلِيكَ لِلْجَهَالَةِ بِالْمَالِكِ ، أَلَا تَرَاهُ لَوْ قَالَ : هَذِهِ الدَّارُ لِزَيْدٍ صَحَّ إقْرَارُهُ ، وَلَوْ قَالَ هَذِهِ الدَّارُ لِإِنْسَانٍ لَمْ يَصِحَّ إقْرَارُهُ . قِيلَ : قَدْ يَصِحُّ تَمْلِيكُ الْأَصْنَافِ كَمَا يَصِحُّ تَمْلِيكُ الْأَعْيَانِ ، أَلَا تَرَاهُ لَوْ قَالَ قَدْ أَوْصَيْتُ بِثُلُثِ مَالِي لِلْفُقَرَاءِ وَالْغَارِمِينَ صَحَّ أَنْ يَمْلِكُوهُ كَمَا يَصِحُّ إذَا أَوْصَى بِهِ لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ أَنْ

(326/340)

يَمْلِكُوهُ . وَالدَّلِيلُ الثَّانِي : مِنَ الْآيَةِ أَنَّ لِلْإِضَافَةِ وَجْهَيْنِ : تَشْرِيكٌ وَتَخْيِيرٌ وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صِيغَةٌ وَصِيغَةُ التَّشْرِيكِ الْوَاوُ كَقَوْلِهِ : أَعْطِ هَذَا الْمَالَ لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو ؛ فَيَقْتَضِي اشْتِرَاكَهُمَا فِيهِ وَلَا يَقْتَضِي تَفَرُّدَ أَحَدِهِمَا بِهِ . وَصِيغَةُ التَّخْيِيرِ تَكُونُ بِـ " أَوْ " كَقَوْلِهِ : أَعْطِ هَذَا الْمَالَ لِزَيْدٍ أَوْ عَمْرٍو ، فَيَكُونُ مُخَيَّرًا فِي إعْطَائِهِ لِأَحَدِهِمَا وَلَا يَقْتَضِي أَنْ يُشْرِكَ بَيْنَهُمَا ، فَلَمَّا كَانَتِ الْإِضَافَةُ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ عَلَى صِيغَةِ التَّشْرِيكِ دُونَ التَّخْيِيرِ وَجَبَ حَمْلُهَا عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ . فَإِنْ قِيلَ : فَيُحْمَلُ مِلْكُ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ لِجَمِيعِ الصَّدَقَاتِ لَا لِكُلِّ صَدَقَةٍ مِنْهَا ؛

فَنَدْفَعُ صَدَقَةَ زَيْدٍ إِلَى الْفُقَرَاءِ وَصَدَقَةَ عَمْرٍو إِلَى الْمَسَاكِينِ وَصَدَقَةَ بَكْرٍ إِلَى الْغَارِمِينَ ، قِيلَ هَذَا فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ لَا يَعْتَبِرُ هَذَا فِي الصَّدَقَاتِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَتَّفِقَ جَمِيعُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ عَلَى صَرْفِهَا كُلِّهَا فِي أَحَدِ الْأَصْنَافِ ، فَلَا يُوجَدُ مَا ذَكَرَهُ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْإِضَافَةِ تَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ كُلُّ صَدَقَةٍ لِمَنْ سُمِّيَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ رَجُلًا لَوْ قَالَ : هَذِهِ الدُّورُ الثَّلَاثَةُ لِزَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ كَانَتْ كُلُّ دَارٍ بَيْنَهُمْ أَثْلَاثًا ، وَلَمْ يُجْعَلْ كُلُّ دَارٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الثَّلَاثَةِ ، ثُمَّ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ السُّنَّةِ مَا رَوَى زِيَادُ بْنُ الْحَارِثِ الصُّدَائِيُّ ، قَالَ : كُنْتُ

(327/340)

عِنْدَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : أَعْطِنِي مِنَ

(328/340)

الصَّدَقَاتِ ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ بِنَبِيٍّ مُرْسَلٍ وَلَا مَلَكٍ مُقَرَّبٍ فَتَوَلَّى قِسْمَتَهَا بِنَفْسِهِ وَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ ، فَإِنْ

كُنْتَ مِنْ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُكَ حَقَّكَ . فَأَخْبَرَ أَنَّهَا مَقْسُومَةٌ ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ وَأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يُعْطَى مِنْهَا إلَّا قَدْرَ حَقِّهِ ، وَهَذَا نَصٌّ لَا يُحْتَمَلُ خِلَافُهُ ، وَلِأَنَّهُ مَالٌ أُضِيفَ شَرْعًا إلَى أَصْنَافٍ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُخْتَصَّ بِهِ بَعْضُ تِلْكَ الْأَصْنَافِ كَالْخُمُسِ ، وَلِأَنَّهُ مَالٌ لَوْ جُعِلَ لِصِنْفٍ وَاحِدٍ لَمْ يَعْدُهُ ، فَوَجَبَ إذَا جَعَلَ الْأَصْنَافَ أَنْ يَقْتَسِمُوهُ كَالْوَصَايَا ، وَلِأَنَّ الْفُقَرَاءَ أَحَدُ أَصْنَافِ الصَّدَقَاتِ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُخْتَصُّوا بِهَا كَالْعَامِلِينَ . فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ فَهُوَ أَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْآيَةِ تَفْضِيلُ الْإِخْفَاءِ عَلَى الْإِبْدَاءِ لِإِتْيَانِ الْمَصْرِفِ وَإِنَّمَا قُصِدَ بَيَانُ الْمَصْرِفِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الْآيَةَ ، فَوَجَبَ أَنْ يُقْضَى بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى تِلْكَ ، أَوْ تُحْمَلَ هَذِهِ عَلَى الْفَرْضِ وَتِلْكَ عَلَى التَّطَوُّعِ . وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ فِي ذَلِكَ حَقًّا وَلَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِمْ فِيهِ حَقٌّ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ

(329/340)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ فَمِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مَتْرُوكُ الظَّاهِرِ : لِأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ وَإِنْ جَوَّزَ دَفْعَهَا إلَى الْفُقَرَاءِ فَلَيْسَ يَمْنَعُ مِنْ

صَرْفِهَا فِي غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَصْنَافِ ، فَيَكُونُ مَعْنَى قَوْلِهِ فِي " فُقَرَائِكُمْ " أَيْ فِي ذَوِي الْحَاجَةِ مِنْكُمْ وَجَمِيعِ أَهْلِ الْأَصْنَافِ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَإِنِ اخْتَلَفَتْ حَاجَاتُهُمْ . وَالْجَوَابُ الثَّانِي : الْمَقْصُودُ بِالْخَبَرِ عَوْدُ الصَّدَقَاتِ عَلَيْنَا وَأَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَا يَسْتَبِدُّ بِشَيْءٍ مِنْهَا دُونَنَا ، فَحُمِلَ الْخَبَرُ عَلَى مَقْصُودِهِ ، كَالَّذِي رَوَاهُ بَهْزُ بْنُ حَكِيمٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ فِي سَائِمَةِ الْإِبِلِ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ ابْنَةُ لَبُونٍ ، مَنْ أَعْطَاهَا مُؤْتَجِرًا فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَمَنْ مَنَعَهَا فَإِنَّا آخِذُوهَا وَشَطْرَ مَالِهِ عَزْمَةٌ مِنْ عَزَمَاتِ رَبِّنَا ، لَيْسَ لِآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا شَيْءٌ . فَحُمِلَ هَذَا الْخَبَرُ عَلَى الْمَقْصُودِ بِهِ فِي أَنَّهُ لَيْسَ لِآلِ مُحَمَّدٍ فِيهَا شَيْءٌ ، وَلَمْ يُحْمَلْ عَلَى أَخْذِ الشَّطْرِ إِنْ مَنَعَ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ حَدِيثِ سَلَمَةَ بْنِ صَخْرٍ الْأَنْصَارِيِّ فَمِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ صَدَقَةَ بَنِي زُرَيْقٍ كَانَتْ وَقْفًا لَا زَكَاةً ، فَلَا يَكُونُ فِيهَا دَلِيلٌ . وَالثَّانِي : أَنَّ مَعْنَاهُ فَلْيَدْفَعْ إِلَيْكَ حَقَّكَ مِنْهَا ، أَوْ يَكُونُ لَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا حَقٌّ فَيُعْتَبَرُ وَاحِدًا فَدَفَعَهُ

(330/340)

إِلَيْهِ .

وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ دَفْعُهَا إِلَى بَعْضِ الصِّنْفِ جَازَ دَفْعُهَا إِلَى بَعْضِ

الْأَصْنَافِ فَهُوَ أَنَّ دَفْعَهَا إلَى بَعْضِ الصِّنْفِ تَخْصِيصُ عُمُومٍ فَجَوَّزْنَاهُ ، وَدَفْعُهَا إلَى بَعْضِ الْأَصْنَافِ نَسْخُ نَصٍّ فَأَبْطَلْنَاهُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِرَدِّ سَهْمِ مَنْ فُقِدَ مِنَ الْأَصْنَافِ عَلَى مَنْ وُجِدَ فَهُوَ بَاطِلٌ بِمِيرَاثِ الزَّوْجَاتِ الْأَرْبَعِ الرُّبُعَ ، وَلَوْ بَقِيَتْ وَاحِدَةٌ لَكَانَ لَهَا فَلَمْ يَصِحَّ الِاسْتِدْلَالُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ هُوَ سَدُّ الْخَلَّةِ فَمِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمَقْصُودَ بِبَعْضٍ سَدُّ الْخَلَّةِ فِي الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَبَعْضِهِ مَعُونَةٌ لِفَكِّ رِقَابِ الْمَسَاكِينِ وَالْغَارِمِينَ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْمَقْصُودَ سَدُّ خَلَّاتِ الْأَصْنَافِ كُلِّهَا لَا بَعْضِهَا فَلَمْ يَسْلَمِ الدَّلِيلُ .

(331/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا وَصَفْنَا مِنْ وُجُوبِ مَصْرِفِهَا فِي الْأَصْنَافِ كُلِّهِمْ لَمْ يَخْلُ حَالُ رَبِّ الْمَالِ يَتَوَلَّى تَفْرِيقَ الزَّكَاةِ بِنَفْسِهِ ، أَوْ يَدْفَعُهَا إلَى الْإِمَامِ ؟ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّى تَفْرِيقَهَا بِنَفْسِهِ ، أَوْ يَدْفَعُهَا إلَى الْإِمَامِ ، فَإِنْ فَرَّقَهَا بِنَفْسِهِ سَقَطَ مِنْهَا سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا لِأَنَّهُمْ لَا عَمَلَ لَهُمْ فِيهَا ، وَقَسَمَ عَلَى سَبْعَةِ أَصْنَافٍ إنْ وُجِدُوا ، فَإِنْ أَخَلَّ بِبَعْضِهِمْ ضَمِنَ سَهْمَهُمْ مِنْهَا وَإِنْ دَفَعَهَا إلَى الْإِمَامِ أَوْ سَاعِيهِ ، كَانَتْ يَدُهُ يَدًا لِأَهْلِ السُّهْمَانِ بِنِيَابَتِهِ عَنْهُمْ وَوِلَايَتِهِ عَلَيْهِمْ وَكَانَ حُصُولُهَا فِي يَدِ الْإِمَامِ ، أَوْ سَاعِيهِ مُسْقِطًا لِفَرْضِهَا عَنْ رَبِّ الْمَالِ ، ثُمَّ الْإِمَامُ بِالْخِيَارِ بِحَسَبِ مَا يُؤَدِّي

اجْتِهَادُهُ إلَيْهِ فِي أَنْ يُفَرِّقَ كُلَّ صَدَقَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ وَيَكُونُوا ثَمَانِيَةً ، يُدْخِلُ فِيهِمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا إنْ عَمِلُوا فِيهَا ، أَوْ يَدْفَعُ كُلَّ صَدَقَةٍ إلَى صِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ : لِأَنَّ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ إذَا جُعِلَتْ بِيَدِهِ صَارَتْ كَالصَّدَقَةِ الْوَاحِدَةِ .

(332/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَلَا يَخْرُجُ عَنْ بَلَدٍ وَفِيهِ أَهْلُهُ وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – حِينَ بَعَثَهُ : فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، زَكَاةُ الْأَمْوَالِ يَجِبُ أَنْ يَصْرِفَهَا فِي بَلَدِ الْمَالِ وَلَا يَجُوزُ نَقْلُهَا عَنْهُ ، فَإِنْ نُقِلَتْ فَقَدْ أَسَاءَ نَاقِلُهَا ، وَفِي إجْزَائِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : يُجْزِئُهُ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَكُونُ عِنْدَهُ مُسِيئًا إلَّا أَنْ تَكُونَ الْبَلَدُ الَّذِي نَقَلَهَا إلَيْهِ أَمَسَّ حَاجَةً ، فَلَا يَكُونُ عِنْدَهُ مُسِيئًا . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : لَا يُجْزِئُهُ نَقْلُهَا وَعَلَيْهِ الْإِعَادَةُ ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ . فَإِذَا قِيلَ بِالْأَوَّلِ أَنَّهُ يُجْزِئُ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ فَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ الْآيَةَ ، فَكَانَ عَلَى عُمُومِهِ . وَرُوِيَ أَنَّ قَبِيصَةَ بْنَ الْمُخَارِقِ الْهِلَالِيَّ وَفَدَ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنِّي

تَحَمَّلْتُ بِحَمَالَةٍ فَأَعِنِّي ، فَقَالَ : نُؤَدِّهَا عَنْكَ إذَا قَدَّمْتَ لَنَا نَعَمَ الصَّدَقَةِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَتْ تُحْمَلُ إلَيْهِ صَدَقَاتُ الْبِلَادِ .

(333/340)

وَرُوِيَ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ حَمَلَ صَدَقَةَ قَوْمِهِ إلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، ثُمَّ إلَى أَبِي بَكْرٍ مِنْ بَعْدِهِ . وَرُوِيَ أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ لِأَهْلِ الْيَمَنِ ائْتُونِي بِخَمِيسٍ ، أَوْ لَبِيسٍ آخُذُهُ مِنْكُمْ مَكَانَ الذُّرَةِ وَالشَّعِيرِ ، فَإِنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْكُمْ وَخَيْرٌ لِلْمُهَاجِرِينَ بِالْمَدِينَةِ . فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ قَدْ كَانَ يُنْقَلُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - زَكَاةُ الْيَمَنِ إلَى الْمَدِينَةِ ؛ وَلِأَنَّ مَا لَزِمَ إخْرَاجُهُ لِلطُّهْرَةِ لَمْ يُخْتَصَّ بِبَلَدِهِ كَالْكَفَّارَةِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ فِعْلُ الصَّلَاةِ فِي غَيْرِ بَلَدِ الْوُجُوبِ جَازَ نَقْلُ الزَّكَاةِ إلَى غَيْرِ بَلَدِ الْوُجُوبِ . إذَا قِيلَ بِالْقَوْلِ الثَّانِي إنَّ ذَلِكَ لَا يُجْزِئُ وَهُوَ الْقَوْلُ الْأَصَحُّ ، فَدَلِيلُهُ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمُعَاذٍ حِينَ بَعَثَهُ إلَى الْيَمَنِ : ادْعُهُمْ إلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ فِي أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ . فَجَعَلَ وُجُوبَ أَخْذِهَا مِنْ أَغْنِيَاءِ الْيَمَنِ مُوجِبًا لِرَدِّهَا عَلَى فُقَرَاءِ الْيَمَنِ . فَإِنْ قِيلَ : فَلَا يَمْنَعُ ذَلِكَ مِنْ نَقْلِهَا عَنْ بَلَدٍ مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ إلَى غَيْرِهَا

مِنْ بِلَادِ الْيَمَنِ وَإِنْ دَلَّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْ نَقْلِهَا إلَى غَيْرِ الْيَمَنِ . قِيلَ لَمَّا جَعَلَ مَحَلَّ الْوُجُوبِ مَحَلَّ التَّفْرِقَةِ اقْتَضَى أَنْ يَتَمَيَّزَ فِيهَا بِلَادُ الْيَمَنِ كَمَا يَتَمَيَّزُ بِهَا جَمِيعُ الْيَمَنِ عَلَى

(334/340)

أَنَّ مَنْ جَوَّزَ نَقْلَهَا سَوَّى فِي الْجَوَازِ بَيْنَ الْإِقْلِيمِ الْوَاحِدِ وَالْأَقَالِيمِ ، وَمَنْ مَنَعَ مِنْ نَقْلِهَا سَوَّى فِي الْمَنْعِ بَيْنَ الْإِقْلِيمِ الْوَاحِدِ وَالْأَقَالِيمِ وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُعَاذٍ أَنَّهُ قَالَ : أَيُّمَا رَجُلٍ انْتَقَلَ مِنْ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ إلَى غَيْرِ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ . فَجَعْلُهُ النُّقْلَةَ عَنِ الْمَكَانِ بَعْدَ وُجُوبِ الزَّكَاةِ فِيهِ يَمْتَنِعُ مِنْ نَقْلِهَا عَنْهُ ، وَذَلِكَ صَادِرٌ عَنْهُ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَقَدَّمَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَيْهِ ، فَصَارَ كَالْمَنْقُولِ عَنْهُ نَصًّا ، وَلِأَنَّ حُقُوقَ اللَّهِ تَعَالَى ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : عَلَى الْأَبْدَانِ . وَالثَّانِي : فِي الْأَمْوَالِ . فَلَمَّا كَانَ فِي حُقُوقِ الْأَبْدَانِ مَا يَخْتَصُّ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ وَهُوَ الطَّوَافُ وَالسَّعْيُ وَالْوُقُوفُ بِعَرَفَةَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي حُقُوقِ الْأَمْوَالِ مَا يَخْتَصُّ بِمَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ وَهُوَ الزَّكَاةُ ، وَلِأَنَّ اخْتِصَاصَ الزَّكَاةِ بِالْمَكَانِ كَاخْتِصَاصِهَا بِأَهْلِ السُّهْمَانِ ، فَلَمَّا لَمْ يَجُزْ نَقْلُهَا عَنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ لَمْ يَجُزْ نَقْلُهَا عَنِ الْمَكَانِ . وَأَمَّا الْأَجْوِبَةُ عَنْ دَلَائِلِ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ ، فَالْآيَةُ قَصْدُهَا بَيَانُ أَهْلِ السُّهْمَانِ دُونَ الْمَكَانِ فَلَمْ يُعْدَلْ بِهَا عَنْ مَقْصُودِهَا .

(335/340)

وَأَمَّا حَدِيثُ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ فَمَحْمُولٌ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا عَلَى مَا فِي سَوَادِ الْمَدِينَةِ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، أَوْ عَلَى مَا لَمْ يُوجَدْ فِي بَلَدِ الْمَالِ مُسْتَحِقٌّ لَهَا . وَأَمَّا قَوْلُ مُعَاذٍ " ائْتُونِي بِخَمِيسٍ أَوْ لَبِيسٍ " ، فَإِنَّهُ مَحْمُولٌ عَلَى مَالِ الْجِزْيَةِ : لِأَنَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالْمَدِينَةِ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ يُصْرَفُ إلَيْهِمُ الْجِزْيَةُ وَلَا تُصْرَفُ إلَيْهِمُ الزَّكَاةُ . وَأَمَّا نَقْلُ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ فَفِيهِ أَجْوِبَةٌ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ قَوْمُهُ حَوْلَ الْمَدِينَةِ وَفِي سَوَادِهَا فَنَقَلَ زَكَاتَهُمْ إلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَقَلَهَا وَمُسْتَحِقُّوهَا بِالْمَدِينَةِ لِيَتَوَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَسْمَهَا فِيهِمْ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ أَظْهَرَ الطَّاعَةَ بِنَقْلِهَا لَا سِيَّمَا وَقَدْ مَنَعَ النَّاسُ الزَّكَاةَ عَلَى عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ رَدَّهَا إلَيْهِ لِيُفَرِّقَهَا ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ أَنَّهُ رَدَّ عَلَيْهِ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ وَأَمَّا الْكَفَّارَةُ فَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ الزَّكَاةِ فِي الْجَوَازِ مَا جَعَلُوهُ فَرْقًا بَيْنَهُمَا فِي الْكَرَاهَةِ لِأَنَّهُمْ كَرِهُوا نَقْلَ الزَّكَاةِ وَلَمْ يَكْرَهُوا نَقْلَ الْكَفَّارَةِ . وَكَذَلِكَ الْجَوَابُ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا فِي الْكَرَاهَةِ فَرَّقَ بَيْنَهُمَا فِي الْجَوَازِ عَلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا يَنْتَفِعُ أَهْلُ الْبَلَدِ بِإِقَامَتِهَا فِيهِمْ وَيَنْتَفِعُ أَهْلُ

الْبَلَدِ بِتَفْرِيقِ الزَّكَاةِ فِيهِمْ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ فِي تَفْرِيقِ الزَّكَاةِ حَقٌّ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ حَقٌّ .

(337/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ اخْتِصَاصُ الزَّكَاةِ بِمَكَانِهَا وَوُجُوبُ تَفْرِيقِهَا فِي نَاحِيَتِهَا ، فَلَا يَخْلُو حَالُ الزَّكَاةِ مِنْ أَنْ تَكُونَ زَكَاةَ مَالٍ ، أَوْ زَكَاةَ فِطْرٍ ، فَإِنْ كَانَتْ زَكَاةَ مَالٍ فَالْمُرَاعَى فِيهَا مَكَانُ الْمَالِ لَا مَكَانُ الْمَالِكِ ، فَلَوْ كَانَ فِي نَاحِيَةٍ وَمَالُهُ فِي أُخْرَى في أي الناحيتين يوزع زكاة ماله ؟ كَانَ نَاحِيَةُ الْمَالِ وَمَكَانُهُ أَحَقَّ بِتَفْرِيقِ زَكَاتِهِ فِيهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْمَالِكِ ، ثُمَّ فِي نَاحِيَةِ الْمَالِ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ بِتَفْرِيقِ زَكَاتِهِ فِيهَا وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمَا مِنَ الْمَالِ لِمَسَافَةٍ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ : لِأَنَّهَا مَسَافَةُ الْإِقَامَةِ الَّتِي لَا يُقْصَرُ فِي مِثْلِهَا الصَّلَاةُ فَكَانَتْ حَدًّا لِمُسْتَحَقِّ الزَّكَاةِ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهَا الْبَلَدُ الَّذِي فِيهِ الْمَالُ وَمَا أَحَاطَ بِهِ بِبِنَائِهِ دُونَ مَا خَرَجَ عَنْهُ ، وَإِنْ كَانَتْ زَكَاةَ زَرْعٍ وَثَمَرٍ فِي صَحْرَاءَ لَا بُنْيَانَ فِيهَا فَفِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ وَالْبُنْيَانِ إِلَيْهَا ، وَسَوَاءٌ كَانَ الْبَلَدُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا يَكُونُ جَمِيعُ أَهْلِ الْبَلَدِ مُسْتَحِقِّينَ لَهَا وَإِنْ كَانَتْ زَكَاةَ مَالٍ نَاضٍّ ، فَإِنْ كَانَ الْبَلَدُ صَغِيرًا فَجَمِيعُ أَهْلِهِ فِيهِ سَوَاءٌ ، وَإِنْ كَانَ الْبَلَدُ وَاسِعًا كَالْبَصْرَةِ وَبَغْدَادَ كَانَ جِيرَانُ الْمَالِ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَخَصَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ وَهَلْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى أَوْ مِنْ طَرِيقِ

الِاسْتِحْقَاقِ ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ أَوْلَى بِهِمَا لِأَجْلِ الْجِوَارِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا أَحَقَّ ، فَإِنْ فُرِّقَتْ فِي غَيْرِهِمْ

(338/340)

مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ أَجْزَأَ وَإِنْ عُدِلَ عَنِ الْأَوْلَى .

(339/340)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُمْ أَحَقُّ بِهَا ، وَإِنْ فُرِّقَتْ فِي غَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ لَمْ يُجْزِهِ ، وَإِذَا قِيلَ إِنَّ نَقْلَ الزَّكَاةِ لَا يُجْزِئُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ [النِّسَاءِ : 36] ، يَعْنِي : الْجَارُ ذِي الْقُرْبَى الْجَارَ الْقَرِيبَ فِي نَسَبِهِ وَبِالْجَارِ الْجُنُبِ الْبَعِيدَ فِي نَسَبِهِ ، فَاعْتُبِرَ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ الْجِوَارُ ثُمَّ قَالَ : وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ تَأْوِيلَاتٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ الرَّفِيقُ فِي السَّفَرِ [وَهُوَ قَوْلُ /55 ابْنِ عَبَّاسٍ /55 /55 وَمُجَاهِدٍ /55 /55 وَقَتَادَةَ /55] . وَالثَّانِي : أَنَّهُ الَّذِي يَلْزَمُكَ وَيَصْحَبُكَ رَجَاءَ نَفْعِكَ [وَهُوَ قَوْلُ /55 ابْنِ زَيْدٍ /55] . وَالثَّالِثُ : أَنَّهَا الزَّوْجَةُ الَّتِي تَكُونُ إِلَى جَنْبِكَ [وَهُوَ قَوْلُ /55 ابْنِ مَسْعُودٍ /55

] . هَذَا إذَا كَانَ رَبُّ الْمَالِ هُوَ الْمُفَرِّقَ لِزَكَاتِهِ ، فَأَمَّا إنْ فَرَّقَهَا الْإِمَامُ أَوْ عَامِلُهُ فَجَمِيعُ أَهْلِ الْبَلَدِ فِيهَا سَوَاءٌ ، لِمَا فِي مُرَاعَاةِ الْإِمَامِ لِذَلِكَ مَعَ اجْتِمَاعِ الزَّكَوَاتِ بِيَدِهِ فِي الْمَشَقَّةِ الَّتِي لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا وَلَا يُمْكِنُهُ حِفْظُهَا ، فَأَمَّا زَكَاةُ الْفِطْرِ ، أَيُرَاعَى فِيهِ بَلَدُ الْمَالِ أَمْ بَلَدُ الْمُزَكِّي ؟ فَإِنْ كَانَ مَالُ الْمُزَكِّي فِي بَلَدٍ أَخْرَجَهَا مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ مَالُهُ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ فَفِيهَا وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يُرَاعَى فِيهِ بَلَدُ الْمَالِ لَا بَلَدُ الْمُزَكِّي ؛ لِتَعَلُّقِ وُجُوبِهَا بِالْمَالِ ، فَكَانَ بَلَدُ الْمَالِ أَحَقَّ أَنْ يُرَاعَى كَسَائِرِ الزَّكَوَاتِ . وَالثَّانِي : أَنْ يُرَاعَى فِيهِ

(340/340)

بَلَدُ الْمُزَكِّي : لِأَنَّهَا عَنْهُ لَا عَنْ مَالِهِ ، فَكَانَ بَلَدُهُ أَنْ يُرَاعَى إخْرَاجُهَا فِيهِ أَوْلَى مِنْ بَلَدِ مَالِهِ .

مَسْأَلَةٌ تُرَدُّ حِصَّةُ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ عَلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ

(341/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَتُرَدُّ حِصَّةُ مَنْ لَمْ يُوجَدْ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ عَلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الزَّكَاةَ مُسْتَحَقَّةٌ لِلْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ الْمَنْصُوصِ عَلَيْهِمْ فِي

كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِذَا كَانُوا هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهَا لَمْ يَخْلُ حَالُهَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إمَّا أَنْ يُفَرِّقَهَا رَبُّ الْمَالِ بِنَفْسِهِ ، أَوْ يَدْفَعَهَا إلَى الْإِمَامِ ، أَوْ يَدْفَعَهَا إلَى عَامِلِ الْإِمَامِ عَلَيْهَا ، فَإِنْ فَرَّقَهَا رَبُّ الْمَالِ بِنَفْسِهِ سَقَطَ مِنْهَا سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا لِفَقْدِ عَمَلِهِمْ فِيهَا وَوَجَبَ قَسْمُهَا عَلَى الْأَصْنَافِ السَّبْعَةِ عَلَى سَبْعَةِ أَسْهُمٍ مُتَسَاوِيَةٍ لَا يُفَضِّلُ صِنْفًا عَلَى سَهْمِهِ وَإِنْ كَانُوا أَمَسَّ حَاجَةً وَلَا يَنْقُصُ صِنْفًا عَنْ سَهْمِهِ وَإِنْ كَانُوا أَقَلَّ حَاجَةً : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى تَوَلَّى قِسْمَتَهَا بِنَفْسِهِ وَقَطَعَ الِاجْتِهَادَ فِيهَا بِتَفْضِيلٍ ، أَوْ نُقْصَانٍ ، فَإِنْ فَضَّلَ صِنْفًا عَلَى غَيْرِهِ كَانَ التَّفْضِيلُ مُتَطَوِّعًا وَضَمِنَ لِلْمَفْضُولِ قَدْرَ حِصَّتِهِ مِنَ الْفَضْلِ كَمَا لَوْ أَسْقَطَ جَمِيعَ سَهْمِهِ صَارَ لِجَمِيعِهِ ضَامِنًا . فَأَمَّا سَهْمُ كُلِّ صِنْفٍ ، فَإِنْ قَدَرَ عَلَى تَفْرِيقِهِ فِي جَمِيعِ الصِّنْفِ كَانَ أَوْلَى وَإِنْ فَرَّقَهُ فِي بَعْضِ الصِّنْفِ أَجْزَأَهُ إذَا فَرَّقَهُ فِي ثَلَاثَةٍ مِنْهُمْ فَصَاعِدًا وَلَا يُجْزِئُهُ إنْ يُفَرِّقْهُ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ إذَا وُجِدُوا لِأَنَّهُمْ أَقَلُّ الْجَمْعِ الْمُطْلَقِ وَلَهُ الْخِيَارُ فِي الصِّنْفِ الْوَاحِدِ بَيْنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَالتَّفْضِيلِ ، وَالْأَوْلَى أَنْ

(342/340)

يَكُونَ بَيْنَهُمْ عَلَى قَدْرِ حَاجَتِهِمْ ، فَإِنْ تَسَاوَوْا فِي الْحَاجَةِ سَوَّى بَيْنَهُمْ فِي الْعَطِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ لَوْ فَاضَلَ أَجْزَأَ وَإِنْ تَفَاضَلُوا فِي الْحَاجَةِ فَاضَلَ بَيْنَهُمْ فِي الْعَطِيَّةِ وَإِنْ

كَانَ لَوْ سَوَّى أَجْزَأَهُ ، فَلَوْ فَرَّقَ سَهْمَ الصِّنْفِ الْوَاحِدِ فِي أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ وَدَفَعَهُ إلَى اثْنَيْنِ ، فَإِنْ كَانَ لِعَدَمِ الثَّالِثِ مِنْ ذَلِكَ الصِّنْفِ أَجْزَأَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَ وُجُودِهِ ضَمِنَ حِصَّةَ الثَّالِثِ وَفِي قَدْرِهَا وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يَضْمَنُ ثُلُثَ ذَلِكَ السَّهْمِ اعْتِبَارًا بِالتَّسَاوِي فِيهِ . وَالثَّانِي : يَضْمَنُ قَدْرَ الْأَجْزَاءِ وَهُوَ الْقَلِيلُ الَّذِي لَوْ أَعْطَاهُ ثَالِثًا أَجْزَأَهُ .

(343/340)

فَصْلٌ : وَإِذَا دَفَعَهَا إلَى الْإِمَامِ سَقَطَ عَنْهُ فَرْضُهَا بِقَبْضِ الْإِمَامِ الزَّكَاةَ : لِأَنَّهُ نَائِبٌ عَنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ فِي فَرْضِهَا فَصَارَتْ يَدُهُ كَأَيْدِيهِمْ ، ثُمَّ سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا قَدْ سَقَطَ مِنْهَا لِفَقْدِ عَمَلِهِمْ وَلَيْسَ لِلْإِمَامِ أَخْذُهُ : لِأَنَّ نَظَرَهُ لَا يَخْتَصُّ بِالصَّدَقَاتِ وَإِنْ تَوَلَّاهَا فَلَمْ يَسْتَحِقَّ فِيهَا سَهْمًا وَإِنَّمَا هُوَ عَامٌّ النَّظَرِ وَرِزْقُهُ فِي مَالِ الْغَيْرِ ، ثُمَّ هُوَ بِالْخِيَارِ بِحَسَبِ مَا يُؤَدِّيهِ اجْتِهَادُهُ إلَيْهِ مِنْ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ : إمَّا أَنْ يُفَرِّقَ كُلَّ صَدَقَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ وَإِمَّا أَنْ يَجْمَعَ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ وَيُفَرِّقَهَا بِالتَّسْوِيَةِ بَيْنَ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، ثُمَّ يُفَاضِلُ بَيْنَ كُلِّ صِنْفٍ ، أَوْ يُسَاوِي وَإِمَّا أَنْ يَدْفَعَ كُلَّ صَدَقَةٍ إلَى أَحَدِ الْأَصْنَافِ فَيُرَاعِي التَّسْوِيَةَ بَيْنَهُمْ فِي جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أَخَلَّ بِصِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ فَلَمْ يُعْطِهِمْ شَيْئًا مِنْ جَمِيعِ الصَّدَقَاتِ ، ضَمِنَ فِي أَمْوَالِ

الصَّدَقَاتِ لَا فِي مَالِ نَفْسِهِ قَدْرَ سَهْمِهِمْ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَاتِ وَخَالَفَ فِي ذَلِكَ رَبَّ الْمَالِ الَّذِي لَا يَضْمَنُهُ فِي مَالِ نَفْسِهِ .

(344/340)

فَصْلٌ : وَإِنْ دَفَعَهَا إلَى الْعَامِلِ أَجْزَأَهُ وَكَانَ سَهْمُ الْعَامِلِ فِيهَا ثَابِتًا ، أداء الزكاة فَإِنْ فَوَّضَ الْإِمَامُ إلَيْهِ جِبَايَتَهَا وَتَفْرِيقَهَا أَخَذَ سَهْمَ الْجِبَايَةِ وَالتَّفْرِيقِ وَفَعَلَ فِيهَا مِثْلَمَا فَعَلَهُ الْإِمَامُ ، إلَّا أَنَّ خِيَارَهُ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : بَيْنَ أَنْ يُفَرِّقَ كُلَّ صَدَقَةٍ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ وَبَيْنَ أَنْ يَجْمَعَ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ وَيَصْرِفَهَا فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَخُصَّ بِكُلِّ صَدَقَةٍ صِنْفًا كَالْإِمَامِ : لِأَنَّ نَظَرَ الْعَامِلِ خَاصٌّ لَا يَسْتَقِرُّ إلَّا عَلَى مَا جَبَاهُ وَرُبَّمَا صُرِفَ فَلَمْ يَقْضِ بَاقِيَ الْأَصْنَافِ وَإِنِ اقْتَصَرَ الْإِمَامُ بِالْعَامِلِ عَلَى جِبَايَةِ الصَّدَقَاتِ دُونَ تَفْرِيقِهَا أَخَذَ الْعَامِلُ مِنْهَا قَدْرَ حَقِّهِ مِنَ الْجِبَايَةِ دُونَ التَّفْرِقَةِ وَلَمْ يَكُنْ لِلْعَامِلِ أَنْ يُفَرِّقَهَا ، فَإِنْ فَرَّقَهَا ضَمِنَ مَا فَرَّقَهُ فِي مَالِ نَفْسِهِ وَكَانَ الْإِمَامُ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَنْ يَتَوَلَّى تفريق الزكاة وَبَيْنَ أَنْ يُوَلِّيَ مِنْ عُمَّالِ الصَّدَقَاتِ تَفْرِيقَهَا بِنَفْسِهِ فَيُسْقِطُ مِنْهَا سَهْمَ التَّفْرِقَةِ وَبَيْنَ أَنْ يُوَلِّيَ مِنْ عُمَّالِ الصَّدَقَاتِ مَنْ يُفَرِّقُهَا فَيَأْخُذُ مِنْهَا سَهْمَ التَّفْرِقَةِ .

(345/340)

فَصْلٌ : فَأَمَّا إِذَا عَدِمَ بَعْضَ الْأَصْنَافِ ، الثمانية لمصارف الزكاة أُيسْقِطُ سَهْمَهُمْ بِعَدَمِهِمْ ؟ فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَعْدَمُوا فِي جَمِيعِ الْبِلَادِ فَيُسْقِطُ سَهْمَهُمْ بِعَدَمِهِمْ ، وَيُقَسِّمُ الصَّدَقَةَ عَلَى مَنْ وَجَدَ مِنْهُمْ ، فَإِنْ كَانَ الْبَاقُونَ مِنَ الْأَصْنَافِ خَمْسَةً قُسِّمَتِ الزَّكَاةُ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ سَهْمٌ ، وَإِنْ بَقِيَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ قُسِّمَتْ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ لِكُلِّ صِنْفٍ سَهْمٌ . فَإِنْ قِيلَ : أَفَلَيْسَ لَوْ وَصَّى بِثُلُثِهِ لِثَلَاثَةٍ فَقِدَ أَحَدُهُمْ لَمْ يُرَدَّ سَهْمُهُ عَلَى مَنْ وَجَدَ ؛ فَهَلَّا كَانَتْ سِهَامُ الْأَصْنَافِ هَكَذَا ، قِيلَ : لِأَنْ لَيْسَ لِلصَّدَقَاتِ مَصْرِفٌ غَيْرَ الْأَصْنَافِ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُرَدَّ سَهْمُ الْمَفْقُودِ عَلَيْهِمْ وَالضَّرْبُ عَلَى غَيْرِهِمْ . وَلِمَالِ الْمَيِّتِ مَصْرِفٌ غَيْرُ أَهْلِ الْوَصَايَا فَلَمْ يُرَدَّ سَهْمُ الْمَفْقُودِ عَلَيْهِمْ .

(346/340)

وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَعْدَمُوا فِي بَلَدِ الْمَالِ وَيُوجَدُوا فِي غَيْرِ الْبِلَادِ ، فَيَنْقَسِمُ حَالُ مَنْ عُدِمَ مِنْهُمْ فِي بَلَدِ الْمَالِ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : قِسْمٌ يُنْقَلُ سَهْمُهُمْ ، وَقِسْمٌ لَا يُنْقَلُ سَهْمُهُمْ ، وَقِسْمٌ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي نَقْلِ سَهْمِهِمْ ، فَأَمَّا مَنْ يُنْقَلُ سَهْمُهُمْ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي يُوجَدُونَ فِيهَا فَهُمُ الْغُزَاةُ ، يُنْقَلُ سَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ الْمَصْرُوفُ إِلَيْهِمْ مِنْ بَلَدِ الْمَالِ الَّذِي فُقِدُوا فِيهِ إِلَى الْبِلَادِ الَّتِي يُوجَدُونَ

فِيهَا مِنَ الثُّغُورِ وَغَيْرِهَا : لِأَنَّهُمْ يَكْثُرُونَ فِي الثُّغُورِ وَيَقِلُّونَ فِي غَيْرِهَا فَلَمْ يَكْتَفُوا بِسَهْمِهِمْ مِنْ صَدَقَاتِ بِلَادِهِمْ ، وَأَمَّا مَنْ لَا يُنْقَلُ سَهْمُهُمْ فَهُمُ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا : لِأَنَّهُمْ إذَا قَعَدُوا قَامَ أَرْبَابُ الْأَمْوَالِ مَقَامَهُمْ فِيهَا ، وَلِأَنَّ سَهْمَهُمْ يَسْقُطُ مَعَ الْحُضُورِ إذَا لَمْ يَعْمَلُوا ، فَكَيْفَ بِهِمْ إذَا قَعَدُوا ؟ وَأَمَّا مَنِ اخْتَلَفَ مِنْ أَصْحَابِنَا فِي نَقْلِ سَهْمِهِمْ فَهُمْ بَاقِي الْأَصْنَافِ وَفِيهِمْ وَجْهَانِ :

أَحَدُهُمَا : لَا يُنْقَلُ اعْتِبَارًا بِتَغْلِيبِ الْمَكَانِ عَلَى الصِّنْفِ وَيُقَسَّمُ عَلَى مَنْ وُجِدَ دُونَ مَنْ فُقِدَ كَمَا يُعْتَبَرُ عَدَمُ الْمَاءِ فِي جَوَازِ التَّيَمُّمِ لِمَكَانِ عَدَمِهِ ، وَيُعْتَبَرُ حَالُ ابْنِ السَّبِيلِ بِمَكَانِ حَاجَتِهِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : يُنْقَلُ اعْتِبَارًا بِتَغْلِيبِ الصِّنْفِ عَلَى الْمَكَانِ فَيُنْقَلُ إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ الَّتِي تُوجَدُ فِيهَا مَنْ فُقِدَ مِنَ الْأَصْنَافِ : لِأَنَّ اسْتِحْقَاقَ الْأَصْنَافِ لَهَا ثَابِتٌ بِالنَّصِّ وَاخْتِصَاصَ الْمَكَانِ بِهَا ثَابِتٌ

(347/340)

بِالِاجْتِهَادِ ، فَإِذَا تَعَارَضَ كَانَ تَغْلِيبُ مَا ثَبَتَ بِالنَّصِّ أَوْلَى مِنْ تَغْلِيبِ مَا ثَبَتَ بِالِاجْتِهَادِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

(348/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُجْمِعُ أَهْلُ السُّهْمَانِ أَنَّهُمْ أَهْلُ حَاجَةٍ إلَى مَالِهِمْ مِنْهَا وَأَسْبَابُ حَاجَتِهِمْ مُخْتَلِفَةٌ ، وَكَذَلِكَ أَسْبَابُ اسْتِحْقَاقِهِمْ مَعَانٍ مُخْتَلِفَةٌ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، مَالُ الصَّدَقَاتِ لَا يَنْصَرِفُ إلَّا فِي ذَوِي الْحَاجَاتِ إلَّا أَنَّهَا ضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : مَنْ يُدْفَعُ إلَيْهِ لِحَاجَتِهِ إلَيْهَا ، وَهُمُ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالْمُكَاتَبُونَ وَأَحَدُ صِنْفَيِ الْغَارِمِينَ الَّذِينَ أُذِنُوا فِي مَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ وَبَنُو السَّبِيلِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : مَنْ تُدْفَعُ إلَيْهِ لِحَاجَتِنَا إلَيْهِ وَهُمُ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ ، وَأَحَدُ صِنْفَيِ الْغَارِمِينَ وَهُمُ الَّذِينَ أُذِنُوا فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَالْغُزَاةِ ، فَمَنْ دُفِعَتْ إلَيْهِ لِحَاجَتِهِ إلَيْهَا لَمْ يَسْتَحِقَّهَا إلَّا مَعَ الْفَقْرِ ، وَلَمْ يُجْزِ أَنْ يُدْفَعَ إلَيْهِ مَعَ الْغِنَى . وَمَنْ دُفِعَتْ إلَيْهِ لِحَاجَتِنَا إلَيْهِ جَازَ أَنْ تُدْفَعَ إلَيْهِ مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، الزكاة ثُمَّ يَنْقَسِمُ جَمِيعُهُمْ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : فَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا بِسَبَبٍ مُتَقَدِّمٍ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا بِسَبَبٍ مُسْتَحْدَثٍ ، فَأَمَّا الَّذِي يَأْخُذُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا بِسَبَبٍ مُتَقَدِّمٍ فَهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا : لِأَنَّ السَّبَبَ الَّذِي بِهِ أَخَذُوا وَبِهِ اسْتَحَقُّوا هُوَ الْفَقْرُ وَالْمَسْكَنَةُ وَالْعَمَلُ وَذَلِكَ مُتَقَدِّمٌ عَلَى الْأَخْذِ ، فَإِذَا قَبَضُوهَا فَقَدِ اسْتَقَرَّ مِلْكُهُمْ عَلَيْهَا ،

فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُسْتَرْجَعَ مِنْهُمْ وَإِنْ زَالَ سَبَبُ اسْتِحْقَاقِهِمْ .

(350/340)

وَأَمَّا الَّذِي يَأْخُذُهَا وَيَسْتَحِقُّهَا بِسَبَبٍ مُسْتَحْدَثٍ فَهُمْ صِنْفَانِ : بَنُو السَّبِيلِ ، وَالْغُزَاةُ . فَيَأْخُذُ ابْنُ السَّبِيلِ لِيَبْتَدِئَ سَفَرَهُ وَيَأْخُذُ الْغَازِي لِيَبْتَدِئَ جِهَادَهُ ، فَإِذَا أَخَذُوا سَهْمَهُمْ مِنْهَا لَمْ يَسْتَقِرَّ مِلْكُهُمْ عَلَيْهِ إلَّا أَنْ يُسَافِرَ ابْنُ السَّبِيلِ وَيُجَاهِدَ الْغَازِي فَيَسْتَقِرُّ حِينَئِذٍ مِلْكُهُمْ عَلَى مَا أَخَذُوا ، فَإِنْ لَمْ يُسَافِرِ ابْنُ السَّبِيلِ وَلَمْ يُجَاهِدِ الْغَازِي اسْتَرْجَعَ مِنْهُمَا مَا أَخَذَاهُ لِفَقْدِ السَّبَبِ الَّذِي يُعْتَبَرُ بِهِ الْأَخْذُ وَالِاسْتِحْقَاقُ ، وَأَمَّا الَّذِي يَأْخُذُهَا بِسَبَبٍ مُتَقَدِّمٍ وَاسْتِحْقَاقٍ مُسْتَحْدَثٍ فَهُمْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ يُدْفَعُ إلَيْهِمْ لِتَغَيُّرِ نِيَّاتِهِمُ الْمُتَقَدِّمَةِ وَيَسْتَحِقُّونَهَا بِجِنْسِ نِيَّاتِهِمُ الْمُسْتَحْدَثَةِ ، وَالْمُكَاتَبُونَ يَأْخُذُونَهَا لِلْبَاقِي عَلَيْهِمْ مِنْ أَمْوَالِ كِتَابَتِهِمْ وَيَسْتَحِقُّونَهَا بِمَا يَسْتَحْدِثُونَ مِنْ قَضَاءِ دُيُونِهِمْ وَزَوَالِ غُرْمِهِمْ ، فَهَؤُلَاءِ إنْ حَدَثَ مِنْهُمْ بَعْدَ أَخْذِهَا مَا بِهِ يَسْتَقِرُّ الِاسْتِحْقَاقُ مِنْ حُسْنِ نِيَّاتِ الْمُؤَلَّفَةِ وَعِتْقِ الْمُكَاتَبِينَ بِالْأَدَاءِ وَقَضَاءِ دُيُونِ الْغَارِمِينَ بِالْقَضَاءِ ، فَلَا يَجُوزُ الرُّجُوعُ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ مِنْهَا ؛ لِاسْتِقْرَارِ الِاسْتِحْقَاقِ ، وَالْحَادِثُ بَعْدَ الْأَخْذِ بِالسَّبَبِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَإِنْ لَمْ يَحْدُثْ مِنْهُمْ بَعْدَ الْأَخْذِ مَا يَسْتَقِرُّ بِهِ

الِاسْتِحْقَاقُ فَلَمْ يَحْسُنْ بِهِ نِيَّاتُ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَلَمْ يُؤَدِّ الْمُكَاتَبُونَ ذَلِكَ فِي عِتْقِهِمْ وَلَا قَضَاهُ الْغَارِمُونَ فِي

(351/340)

دُيُونِهِمْ ، فَهَذَا يُنْظَرُ ، فَإِنْ كَانَ سَبَبُ الْأَخْذِ بَاقِيًا وَهُوَ بَقَاءُ الْكِتَابَةِ عَلَى الْمُكَاتَبِينَ ، وَبَقَاءُ الدَّيْنِ عَلَى الْغَارِمِينَ لَمْ يُسْتَرْجَعْ ذَلِكَ مِنْهُمْ : لِأَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَأْنَفَ دَفْعُهَا إلَيْهِمْ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُسْتَرْجَعَ الْمُتَقَدِّمُ مِنْهُمْ . وَكَذَلِكَ الْمُؤَلَّفَةُ : لِأَنَّ ضَعْفَ نِيَّاتِهِمُ الَّتِي قُصِدُوا لَهُ بِتَأْلِيفِهِمْ بَاقٍ يَقْتَضِي اسْتِئْنَافَ الْعَطَاءِ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعَارَضَ بِالِاسْتِرْجَاعِ الْمُنْكَرِ ، وَإِنْ كَانَ سَبَبُ الْأَخْذِ قَدْ زَالَ مَعَ بَقَاءِ الصَّدَقَةِ بِأَيْدِيهِمْ كَعِتْقِ الْمُكَاتَبِ تَبَرُّعًا ، أَوْ بِأَدَاءِ مَنْ كَسَبَ وَزَالَ الْغُرْمُ بِإِبْرَاءٍ أَوْ بِقَضَاءٍ مِنْ كَسْبٍ اسْتُرْجِعَتْ مِنْهُمْ : لِأَنَّ سَبَبَ الِاسْتِحْقَاقِ لَمْ يُوجَدْ .

(352/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَإِذَا اجْتَمَعُوا فَالْفُقَرَاءُ الزَّمْنَى الضِّعَافُ الَّذِينَ لَا حِرْفَةَ لَهُمْ ، وَأَهْلُ الْحِرْفَةِ الضَّعِيفَةِ الَّذِينَ لَا تَقَعُ فِي حِرْفَتِهِمْ مَوْقِعًا مِنْ حَاجَتِهِمْ وَلَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ . (وَقَالَ)

وَفِي الْجَدِيدِ زَمِنًا كَانَ أَوْلَى أَوْ غَيْرَ زَمِنٍ سَائِلًا أَوْ مُتَعَفِّفًا (قَالَ الشَّافِعِيُّ) وَالْمَسَاكِينُ السُّؤَّالُ ، وَمَنْ لَا يَسْأَلُ مِمَّنْ لَهُ حِرْفَةٌ لَا تَقَعُ مِنْهُ مَوْقِعًا وَلَا تُغْنِيهِ وَلَا عِيَالَهُ . وَقَالَ فِي الْجَدِيدِ سَائِلًا كَانَ أَوْ غَيْرَ سَائِلٍ (قَالَ الْمُزَنِيُّ) أَشْبَهُ بِقَوْلِهِ مَا قَالَهُ فِي الْجَدِيدِ : لِأَنَّهُ قَالَ : لِأَنَّ أَهْلَ هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ يَسْتَحِقُّونَهُمَا بِمَعْنَى الْعَدَمِ ، وَقَدْ يَكُونُ السَّائِلُ بَيْنَ مَنْ يَقِلُّ مُعْطِيهِمْ وَصَالِحٌ مُتَعَفِّفٌ بَيْنَ مَنْ يُبْدُونَهُ بِعَطِيَّتِهِمْ . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ الْفَقْرَ وَالْمَسْكَنَةَ ما المراد بهما ؟ اسْمَانِ يَشْتَرِكَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ وَجْهٍ ، فَأَمَّا الْوَجْهُ الَّذِي يَشْتَرِكَانِ فِيهِ فَهُوَ الضَّعْفُ ، وَأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا إذَا أُفْرِدَ بِالذِّكْرِ شَارَكَهُ الْآخَرُ فِيهِ حَتَّى لَوْ وَصَّى بِثُلُثِ مَالِهِ لِلْفُقَرَاءِ شَارَكَهُمُ الْمَسَاكِينُ ، وَلَوْ وَصَّى بِهِ لِلْمَسَاكِينِ شَارَكَهُمُ الْفُقَرَاءُ . وَأَمَّا الْوَجْهُ الَّذِي يَفْتَرِقَانِ فِيهِ فَهُوَ أَنَّهُ إذَا جَمَعَ بَيْنَهُمَا تَمَيَّزَا ، ثُمَّ اخْتُلِفَ فِي تَمَيُّزِهِمَا عِنْدَ الِاجْتِمَاعِ هَلْ يَكُونُ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا بِاخْتِلَافِهِمَا فِي الْحَاجَةِ ، أَوْ بِاخْتِلَافِهِمَا فِي الصِّفَةِ ؟ الفقير والمسكين فَذَهَبَتْ

(353/340)

طَائِفَةٌ إلَى تَمَيُّزِهَا بِالِاخْتِلَافِ فِي الصِّفَةِ مَعَ تَسَاوِيهِمَا فِي الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ ، وَمَنْ قَالَ بِهَذَا اخْتَلَفُوا فِي الصِّفَةِ الَّتِي بِهَا وَقَعَ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَقَاوِيلَ : أَحَدُهَا : أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ

الْمُحْتَاجُ الْمُتَعَفِّفُ عَنِ السُّؤَالِ وَالْمِسْكِينَ هُوَ الْمُحْتَاجُ السَّائِلُ ، وَهَذَا قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَالْحَسَنِ وَالزُّهْرِيِّ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ ذُو الزَّمَانَةِ ، وَالْمِسْكِينَ هُوَ الصَّحِيحُ الْجِسْمِ مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ ، وَهَذَا قَوْلُ قَتَادَةَ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْفُقَرَاءَ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ وَالْمَسَاكِينَ غَيْرُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَهَذَا قَوْلُ الضَّحَّاكِ بْنِ مُزَاحِمٍ وَإِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ . وَالرَّابِعُ : أَنَّ الْفُقَرَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَالْمَسَاكِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَهَذَا قَوْلُ عِكْرِمَةَ . وَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَجُمْهُورُ الْفُقَهَاءِ إِلَى أَنَّ تَمْيِيزَهُمَا بِالِاخْتِلَافِ فِي الضَّعْفِ وَالْحَاجَةِ وَإِنْ تَسَاوَيَا فِي الصِّفَةِ ، وَأَنَّ أَحَدَهُمَا أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْآخَرِ ، فَبِذَلِكَ تَمَيَّزَ عَنْهُ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي أَيِّهِمَا أَسْوَأُ حَالًا الْفَقِيرُ أَوِ الْمِسْكِينُ ، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إِلَى أَنَّ الْفَقِيرَ هُوَ أَسْوَأُهُمَا حَالًا وَهُوَ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ، أَوْ لَهُ يَسِيرٌ تَافِهٌ لَا يُؤَثِّرُ فِي قَدْرِ حَاجَتِهِ . وَالْمِسْكِينُ : هُوَ الَّذِي لَهُ مَا يُؤَثِّرُ فِي حَاجَتِهِ وَيَقْتَصِرُ عَلَى كِفَايَتِهِ ، فَإِذَا كَانَتْ كِفَايَةُ الْوَاحِدِ عَشَرَةً ، فَإِنْ وَجَدَهَا فَلَيْسَ بِمِسْكِينٍ وَلَا فَقِيرٍ ، وَإِنْ عَدِمَهَا أَوْ وَجَدَ أَقَلَّهَا كَانَ

(354/340)

فَقِيرًا ، وَإِنْ وَجَدَ أَكْثَرَهَا كَانَ مِسْكِينًا وَهَذَا فِي أَهْلِ اللُّغَةِ قَوْلُ الْأَصْمَعِيِّ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : الْمِسْكِينُ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ ، فَالْمِسْكِينُ عِنْدَهُ عَلَى صِفَةِ الْفَقِيرِ عِنْدَنَا وَالْفَقِيرُ

عِنْدَهُ عَلَى صِفَةِ الْمِسْكِينِ عِنْدَنَا ، وَهُوَ فِي أَهْلِ اللُّغَةِ قَوْلُ الْفَرَّاءِ وَثَعْلَب وَاخْتَارَهُ أَبُو إِسْحَاقَ الْمَرْوَزِيُّ مِنْ أَصْحَابِنَا اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [الْبَلَدِ : 16] أَيْ مُلْصَقًا بِالتُّرَابِ لِضُرِّهِ وَعُرْيِهِ ؛ وَلَيْسَ أَحَدٌ أَسْوَأَ حَالًا مِمَّنْ هَذِهِ صِفَتُهُ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْفَقِيرِ وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ [الْبَقَرَةِ : 177 وَالسَّائِلُ أَحْسَنُ حَالًا فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ أَسْوَأُ حَالًا ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَصَّ بِمَصْرِفِ أَمْوَالِ الطُّهْرَةِ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ مِنَ الْقُرَبِ وَالْكَفَّارَاتِ عَلَى الْمَسَاكِينِ دُونَ الْفُقَرَاءِ ، فَدَلَّ تَخْصِيصُهُمْ بِالذِّكْرِ عَلَى اخْتِصَاصِهِمْ بِسُوءِ الْحَالَةِ . /50 قَالُوا : وَقَدْ حُكِيَ /103 عَنْ /55 يُونُسَ /55 قَالَ : قُلْتُ لِأَعْرَابِيٍّ أَمِسْكِينٌ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : لَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، بَلْ فَقِيرٌ ، /103 فَدَلَّ عَلَى أَنَّ /1 الْفَقِيرَ أَحْسَنُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ /1 : لِأَنَّ الْحَمْدَ يَكُونُ عَلَى أَحْسَنِ الْحَالَيْنِ L3138 وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَيْضًا قَوْلُ : /50 /69 /206 أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلُوبَتُهُ /206 وَفْقَ الْعِيَالِ فَلَمْ يَتْرُكْ لَهُ سِيدُ /206

(355/340)

/206/ 69/ 50/ فَسَمَّاهُ فَقِيرًا وَلَهُ حَلُوبَةٌ هِيَ وَفْقَ عِيَالِهِ . /50/ 401/ 401/ 402/

(356/340)

/402 وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : /30/ 403 403/ L60 L60 L9 إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ /30 [التَّوْبَةِ : 60] فَبَدَأَ بِذَوِي الْحَاجَاتِ بِالْفُقَرَاءِ وَالْبِدَايَةُ تَكُونُ بِالْأَهَمِّ فَاقْتَضَى أَنْ يَكُونَ الْفَقْرُ أَسْوَأَ حَالًا وَقَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ [فَاطِرٍ : 15] وَلَمْ يَقُلِ الْمَسَاكِينُ ؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَمَسُّ حَاجَةً وَأَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ وَقَالَ تَعَالَى : أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ [الْكَهْفِ : 79] فَسَمَّاهُمْ مَسَاكِينَ وَلَهُمْ سَفِينَةٌ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ أَحْسَنُ حَالًا . وَرَوَى أَبُو زُهْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَاللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الْمُتَعَفِّفُ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ، فَكَانَ هَذَا نَصًّا فِي أَنَّ الْمِسْكِينَ أَحْسَنُ حَالًا . وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : كَادَ الْفَقْرُ أَنْ يَكُونَ كُفْرًا ، وَكَادَ الْحَسَدُ أَنْ يَغْلِبَ الْقَدَرَ ، فَكَانَ هَذَا نَصًّا عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا . وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : اللَّهُمَّ

أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِسْكِينَ أَحْسَنُ حَالًا . وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَنَّهُ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ

(357/340)

الْفَقْرِ اللَّازِبِ ، يَعْنِي : اللَّازِمَ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا . وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا مَالَ لَهُ ، وَلَكِنَّ الْمِسْكِينَ الْأَخْلَقُ الْكَسْبِ قَالَ ابْنُ عُلَيَّةَ : الْأَخْلَقُ الْكَسْبِ : الْمُحَارِفُ ؛ وَلِأَنَّ فِي اشْتِقَاقِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ دَلِيلًا عَلَى أَنَّ الْفَقْرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمَسْكَنَةِ . أَمَّا الْفَقْرُ فَقَدِ اخْتُلِفَ فِي اشْتِقَاقِهِ فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ مُشْتَقٌّ مِنِ انْكِسَارِ الْفَقَارِ وَهُوَ الظَّهْرُ الَّذِي لَا تَبْقَى مَعَهُ قُدْرَةٌ . وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ الْفَاقَةِ وَمِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ [الْقِيَامَةِ : 25] وَفِيهَا ثَلَاثَةُ تَأْوِيلَاتٍ :

(358/340)

أَحَدُهَا : أَنَّهَا [الْفَاقِرَةُ] الدَّاهِيَةُ الْعُظْمَى ، وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا الْهَلَاكُ الْمُسْتَأْصِلُ ، وَهُوَ قَوْلُ السُّدِّيِّ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ الشَّرُّ الْمُحَلَّى ، وَهُوَ قَوْلُ قَتَادَةَ ؛ وَعَلَى أَيِّ التَّأْوِيلَاتِ كَانَ فَهُوَ لِلْمُبَالَغَةِ فِي سُوءِ الْحَالِ . وَأَمَّا الْمَسْكَنَةُ فَقَدِ اخْتُلِفَ فِي اشْتِقَاقِهَا فَقَالَ قَوْمٌ : هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ التَّمَسْكُنِ وَهُوَ الْخُضُوعُ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ السُّكُونِ : لِأَنَّ الْمِسْكِينَ مَا يُسْكَنُ إِلَيْهِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَحْسَنُ حَالًا ، وَلِأَنَّ شَوَاهِدَ أَشْعَارِ الْعَرَبِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، أَنْشَدَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ لِبَعْضِ الْعَرَبِ : هَلْ لَكَ فِي أَجْرٍ عَظِيمٍ تُؤْجَرُهْ تُغِيثُ مِسْكِينًا قَلِيلًا عَسْكَرُهْ عَشْرُ شِيَاهٍ سَمْعُهُ وَبَصَرُهْ قَدْ حَدَّثَ النَّفْسَ بِمِصْرٍ يَحْضُرُهْ فَسَمَّاهُ مِسْكِينًا وَلَهُ عَشْرُ شِيَاهٍ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ لِلْمِسْكِينِ مَالًا وَأَنَّهُ أَحْسَنُ حَالًا . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [الْبَلَدِ : 16] فَهُوَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمِسْكِينِ هَاهُنَا الْفَقِيرُ : لِأَنَّهُ لَمْ يُطْلِقْ ذِكْرَهُ ، وَلَكِنْ قَيَّدَهُ بِصِفَاتِ الْفُقَرَاءِ ، وَقَدْ يَنْطَلِقُ اسْمُ الْمِسْكِينِ عَلَى الْفَقِيرِ كَمَا ذَكَرْنَا ، وَإِنَّمَا كَلَامُنَا فِي الْمِسْكِينِ الَّذِي قَدْ أُطْلِقَتْ صِفَتُهُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْآيَةِ الْأُخْرَى فَهُوَ أَنَّ السَّائِلَ لَا يَكُونُ أَحْسَنَ حَالًا مِنَ الْمُتَعَفِّفِ : لِأَنَّهُ قَدْ يَسْأَلُ فَيُحْرَمُ وَيَتَعَفَّفُ فَيُعْطَى . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ : لَا

(359/340)

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَنَّا فَقِيرٌ ، فَهُوَ إذَا أَبَانَ بِذَلِكَ مَنْزِلَتَهُ فِي الشُّكْرِ مَعَ شِدَّةِ الضُّرِّ . وَأَمَّا الشِّعْرُ فَلَا دَلِيلَ فِيهِ : لِأَنَّهُ بَعْدَ أَخْذِ الْحَلُوبَةِ سَمَّاهُ فَقِيرًا حِينَ لَمْ يَتْرُكْ لَهُ سِيدٌ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْفَقِيرَ أَسْوَأُ حَالًا مِنَ الْمِسْكِينِ فَقَدْ يَكُونُ الْفَقِيرُ سَائِلًا وَغَيْرَ سَائِلٍ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمِسْكِينُ سَائِلًا وَغَيْرَ سَائِلٍ ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الشَّافِعِيِّ فِي الْجَدِيدِ وَالْقَدِيمِ مِنَ التَّسْوِيَةِ فَظَنَّ الْمُزَنِيُّ أَنَّ قَوْلَهُ قَدِ اخْتُلِفَ فِيهِ فَجَعَلَ الْجَدِيدَ أَوْلَى وَلَيْسَ كَمَا ظَنَّ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : " فَإِنْ كَانَ رَجُلٌ جَلْدٌ ، يَعْلَمُ الْوَالِي أَنَّهُ صَحِيحٌ مُكْتَسِبٌ ، يُغْنِي عِيَالَهُ أَوْ لَا عِيَالَ لَهُ يُغْنِي نَفْسَهُ بِكَسْبِهِ لَمْ يُعْطِهِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، الْمُكْتَسِبُ بِصَنْعَتِهِ قَدْرَ كِفَايَتِهِ وَكِفَايَةِ عِيَالِهِ لَا يَكُونُ فَقِيرًا وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَسِبًا حَتَّى يَمْلِكَ نِصَابًا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ، أَوْ مَا يَبْلُغُ قِيمَتُهُ نِصَابًا ؛ فَجَعَلَ الْفَقْرَ مُعْتَبَرًا بِعَدَمِ النِّصَابِ وَإِنْ

(360/340)

كَانَ قَادِرًا عَلَى كِفَايَتِهِ بِنَفْسِهِ ، وَجَوَّزَ لَهُ أَخْذَ الزَّكَاةِ وَجَعَلَ الْغِنَاءَ مُعْتَبَرًا بِمِلْكِ النِّصَابِ وَإِنْ عَجَزَ عَنْ كِفَايَتِهِ وَحَظَرَ عَلَيْهِ أَخْذَ الزَّكَاةِ اسْتِدْلَالًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ [التَّوْبَةِ : 60] وَالْفَقِيرُ هُوَ الْعَادِمُ ، وَهَذَا عَادِمٌ وَإِنْ كَانَ مُكْتَسِبًا ، وَبِمَا رُوِيَ

عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ فَمَيَّزَ الْأَغْنِيَاءَ بِأَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنْهُمْ وَمَيَّزَ الْفُقَرَاءَ بِدَفْعِ الصَّدَقَةِ إلَيْهِمْ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ الصَّدَقَةُ غَنِيًّا ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مُكْتَسِبٍ ، وَمَنْ تُدْفَعُ إلَيْهِ فَقِيرًا ، وَإِنْ كَانَ مُكْتَسِبًا . وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ : مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ وَقَالَ : أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ وَقَدْ سَأَلَ الْمُكْتَسِبُ ، فَوَجَبَ أَنْ يُعْطَى ، وَلِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ نِصَابًا وَلَا قِيمَتَهُ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ فَقِيرًا تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ قِيَاسًا عَلَى غَيْرِ الْمُكْتَسِبِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ الْمُكْتَسِبُ غَنِيًّا فِي وُجُوبِ الْحَجِّ وَالتَّكْفِيرِ بِالْعِتْقِ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا فِي تَحْرِيمِ الزَّكَاةِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا حَلَّتِ الزَّكَاةُ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ حَلَّتْ لَهُ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَدَلِيلُنَا مَا رَوَاهُ الشَّافِعِيُّ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ

(361/340)

عَدِيٍّ أَنَّ رَجُلَيْنِ أَخْبَرَاهُ أَنَّهُمَا أَتَيَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَاهُ مِنَ الصَّدَقَاتِ فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهِمَا وَصَوَّبَ وَقَالَ : " إنْ شِئْتُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي قُوَّةٍ مُكْتَسِبٍ " فَجَعَلَ الْكَسْبَ كَالْغِنَى بِالْمَالِ فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ . وَرَوَى سَالِمُ بْنُ أَبِي الْجَعْدِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي

قُدْرَةٍ فَحَرَّمَ الصَّدَقَةَ بِالْقُدْرَةِ عَلَى الْكَسْبِ كَمَا حَرَّمَهَا بِالْغِنَى ، وَلِأَنَّهُ مُسْتَدِيمُ الْقُدْرَةِ عَلَى كِفَايَتِهِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَحْرُمَ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ بِالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ كَالْقَادِرِ عَلَى نِصَابٍ ، أَوْ كَالْمُشْتَغِلِ لِوَقْفٍ ؛ وَلِأَنَّ مَنْ حَرُمَتْ عَلَيْهِ الْمَسْأَلَةُ حَرُمَتْ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ كَالْغَنِيِّ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ الِاكْتِسَابُ كَالْغِنَى فِي سُقُوطِ نَفَقَتِهِ عَنْ وَالِدِيهِ وَمَوْلُودِيهِ وَوُجُوبِهَا عَلَيْهِ لِوَالِدِيهِ وَمَوْلُودِيهِ كَانَ كَالْغِنَى فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ . فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْآيَةِ فَهُوَ أَنَّ الْفَقْرَ لَيْسَ الْعَدَمَ وَإِنَّمَا هُوَ الْحَاجَةُ ؛ وَالْمُكْتَسِبُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ فَهُوَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي النَّاسِ مَنْ لَا تُؤْخَذُ مِنْهُ وَلَا تُدْفَعُ إلَيْهِ فَهُوَ مَالِكُ مَا لَا يُزَكَّى ، فَكَذَلِكَ الْمُكْتَسِبُ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَنْ تُؤْخَذُ مِنْهُ فَتُدْفَعُ إلَيْهِ وَهُوَ مَالِكُ مَا يُزَكَّى إذَا

(362/340)

كَانَ غَيْرَ مُكْتَسِبٍ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : مَنْ سَأَلَنَا أَعْطَيْنَاهُ فَهُوَ أَنَّ مَعْنَاهُ مَنْ أَظْهَرَ لَنَا الْفَقْرَ قَبِلْنَا مِنْهُ : لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي النَّاسِ الْعَدَمُ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : أَعْطُوا السَّائِلَ وَلَوْ جَاءَ عَلَى فَرَسٍ ، فَهُوَ دَلِيلُنَا : لِأَنَّ أَبَا حَنِيفَةَ يَمْنَعُهُ إذَا كَانَ ثَمَنُ فَرَسِهِ نِصَابًا وَنَحْنُ نُعْطِيهِ إذَا كَانَ مُحْتَاجًا . وَأَمَّا قِيَاسُهُ عَلَى غَيْرِ الْمُكْتَسِبِ فَالْمَعْنَى

فِيهِ الْحَاجَةُ ، وَالْمُكْتَسِبُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : " لَمَّا لَمْ يَكُنِ الِاكْتِسَابُ كَالْمَالِ فِي وُجُوبِ الْحَجِّ وَالتَّكْفِيرِ بِالْعِتْقِ كَذَلِكَ فِي تَحْرِيمِ الزَّكَاةِ " فَهُوَ فَاسِدٌ بِنَفَقَاتِ الْأَقَارِبِ الَّتِي يُجْعَلُ الِاكْتِسَابُ فِيهَا كَالْمَالِ ، ثُمَّ وُجُوبُ الْحَجِّ وَالتَّكْفِيرِ بِالْعِتْقِ يَتَعَلَّقَانِ بِوُجُودِ الْمَالِ وَالْمُكْتَسِبُ غَيْرُ وَاجِدٍ وَتَحْرِيمُ الزَّكَاةِ يَتَعَلَّقُ بِالْكِفَايَةِ وَالْمُكْتَسِبُ مُكْتَفٍ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(363/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَإِنْ قَالَ الْجَلْدُ لَسْتُ مُكْتَسِبًا لِمَا يُغْنِينِي وَلَا يُغْنِي عِيَالِي وَلَهُ عِيَالٌ وَلَيْسَ عِنْدَ الْوَالِي يَقِينُ مَا قَالَ ؛ فَالْقَوْلُ قَوْلُهُ ، وَاحْتَجَّ بِأَنَّ رَجُلَيْنِ أَتَيَا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَاهُ مِنَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ " إنْ شِئْتُمَا وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي قُوَّةٍ مُكْتَسِبٍ " . (قَالَ الشَّافِعِيُّ) رَأَى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صِحَّةً وَجَلَدًا يُشْبِهُ الِاكْتِسَابَ فَأَعْلَمَهُمَا أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهُمَا مَعَ الِاكْتِسَابِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَمُكْتَسِبَانِ أَمْ لَا ، فَقَالَ " إنْ شِئْتُمَا " بَعْدَ أَنْ أَعْلَمْتُكُمَا أَنْ لَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِمُكْتَسِبٍ فَعَلْتُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ إذَا تَقَرَّرَ فَرْقُ مَا بَيْنَ الْفَقِيرِ وَالْمِسْكِينِ بِمَا ذَكَرْنَا فَخُصَّ رَجُلٌ ادَّعَى فَقْرًا مَسْكَنَةً هل يدفع إليه من الزكاة ؟ فَلِلْوَالِي عَلَى الصَّدَقَةِ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَعْلَمَهُ فَقِيرًا فَيَدْفَعُ إلَيْهِ

لِعِلْمِهِ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَلَا يُكَلِّفُهُ بِبَيِّنَةٍ وَلَا يَمِينًا . وَالْحَالُ الثَّانِيَةُ : أَنْ يَعْلَمَهُ غَنِيًّا ، فَلَا يَدْفَعُ إلَيْهِ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ شَيْئًا ، فَإِنِ ادَّعَى تَلَفَ مَالِهِ لَمْ يَقْبَلْ قَوْلَهُ إلَّا بِبَيِّنَةٍ ، فَإِنْ أَقَامَهَا عَلَى تَلَفِ مَالِهِ الَّذِي كَانَ بِهِ غَنِيًّا سَمِعَهَا مِنْ شَاهِدَيْنِ ، أَوْ شَاهِدٍ وَامْرَأَتَيْنِ ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ بَيِّنَتُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ الْبَاطِنَةِ أَمْ لَا ، وَإِنْ أَقَامَ الْبَيِّنَةَ عَلَى فَقْرِهِ لَمْ يَسْمَعْهَا إلَّا مِنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ

(364/340)

الْبَاطِنَةِ بِهِ : لِأَنَّهُ قَدْ يَسْتُرُ الْغِنَى وَيَتَظَاهَرُ بِالْفَقْرِ فَلَمْ تُسْمَعْ مِنْهُ الْبَيِّنَةُ بَعْدَ تَقَدُّمِ الْعِلْمِ بِغِنَاهُ إلَّا مِمَّنْ يَعْرِفُ بَاطِنَ أَمْرِهِ مِنْ أَقَارِبِهِ وَجِيرَانِهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ قَالَ لِقَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ : إنَّ الْمَسْأَلَةَ حُرِّمَتْ إلَّا فِي ثَلَاثٍ ، ذَكَرَ فِيهَا : أَوْ رَجُلٍ أَصَابَتْهُ عَادِيَةٌ الْخَبَرَ ، إلَى أَنْ قَالَ : حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ إنْ تَدَخَّلَتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي الثَّلَاثَةِ هَلْ يَكُونُونَ شَرْطًا فِي بَيِّنَتِهِ أَمْ لَا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَكَرَ الثَّلَاثَةَ تَغْلِيظًا وَأَنَّ شَهَادَةَ الْعَدْلَيْنِ مُجْزِئَةٌ . وَالثَّانِي : أَنَّ الثَّلَاثَةَ هَا هُنَا شَرْطٌ ، فَعَلَى هَذَا هَلْ يَكُونُ شَهَادَةً ، أَوْ خَبَرًا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا شَهَادَةٌ غُلِّظَتْ يُرَاعَى فِيهَا عَدَالَةُ الشُّهُودِ فِي الْحُقُوقِ لِنَقْلِهَا خِلَافَ الْمَعْلُومِ

.

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ خَبَرٌ لَزِمَ فِيهِ الِاحْتِيَاطُ فَيُمَيِّزَ بِعَدَدٍ وَرُوعِيَ فِيهِ صِدْقُ الْمُخْبِرِينَ لَا عَدَالَةُ الشُّهُودِ . وَالْحَالَةُ الثَّالِثَةُ : أَنْ يَجْهَلَ الْوَالِي أَمْرَهُ وَلَا يَعْلَمَهُ غَنِيًّا وَلَا فَقِيرًا ، فَلَا يَخْلُو حَالُ السَّائِلِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ مُوَافِقًا لِمَسْأَلَتِهِ ، أَوْ مُخَالِفًا لَهَا ، فَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ مُوَافِقًا لِمَسْأَلَتِهِ لِمَا عَلَيْهِ مِنْ سِمَاتِ الْفَقْرِ وَالْفَاقَةِ وَدَلَائِلِ الضُّرِّ فِي ضَعْفِ بَدَنِهِ وَرَثَاثَةِ هَيْئَتِهِ ، فَهَذَا يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ تَعْوِيلًا عَلَى شَاهِدِ حَالِهِ مِنْ غَيْرِ قَوْلٍ يُوعَظُ بِهِ وَلَا يَمِينٍ يَحْلِفُ بِهَا ، وَإِنْ كَانَ ظَاهِرُهُ مُخَالِفًا لِمَسْأَلَتِهِ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَوِيَّ الْبَدَنِ حَسَنَ الْهَيْئَةِ ، فَيَنْبَغِي لِلْوَالِي أَنْ يَقُولَ لَهُ عَلَى طَرِيقِ الْوَعْظِ وَالْإِخْبَارِ بِحَالِ مَنْ يَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَةُ مَا قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلَّذَيْنِ سَأَلَاهُ الصَّدَقَةَ فَصَعَّدَ النَّظَرَ فِيهِمَا وَصَوَّبَ ، ثُمَّ قَالَ : " إنْ شِئْتُمَا ! وَلَا حَظَّ فِيهَا لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي قُوَّةٍ مُكْتَسِبٍ " ، فَإِذَا قَالَ لَهُ هَذِهِ الْمَقَالَةَ وَأَقَامَ عَلَى الْمَسْأَلَةِ وَأَنَّهُ يَسْتَحِقُّ الصَّدَقَةَ أَعْطَاهُ مِنْهَا : لِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِلرَّجُلَيْنِ : " إنْ شِئْتُمَا " فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ لَهُمَا . وَهَلْ يَحْلِفُ عَلَى فَقْرِهِ قَبْلَ الدَّفْعِ إلَيْهِ أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَحْلِفُ : لِأَنَّ الْأَصْلَ الْفَقْرُ ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَا عَرَضَ الْيَمِينَ عَلَى الرَّجُلَيْنِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : يُحَلِّفُهُ عَلَى فَقْرِهِ : لِأَنَّ ظَاهِرَهُ بِخِلَافِ قَوْلِهِ ، فَأَمَّا إنِ ادَّعَى عِيَالًا فَفِي قَبُولِ قَوْلِهِ فِيهِمْ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِي دَعْوَى الْعِيَالِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ تَشْهَدُ بِهِمْ : لِأَنَّهَا دَعْوَى تُخَالِفُ الظَّاهِرَ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِيهِمْ كَمَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ فِي نَفْسِهِ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِهِ وَإِضَافَتِهِمْ إلَيْهِ ، لَكِنْ لَا تُقْبَلُ إلَّا يَمِينٌ يَحْلِفُ بِهَا وَجْهًا وَاحِدًا : لِأَنَّهُ يَسْتَزِيدُ بِهَا عَلَى حَقِّ نَفْسِهِ .

(367/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا ، مَنْ وَلَّاهُ الْوَالِي قَبْضَهَا وَمَنْ لَا غِنَى لِلْوَالِي عَنْ مَعُونَتِهِ عَلَيْهَا وَأَمَّا الْخَلِيفَةُ وَوَالِي الْإِقْلِيمِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا يَلِي قَبْضَ الصَّدَقَةِ ، وَإِنْ كَانَا مِنَ الْقَائِمِينَ بِالْأَمْرِ بِأَخْذِهَا ، فَلَيْسَا عِنْدَنَا مِمَّنْ لَهُ فِيهَا حَقٌّ ؛ لِأَنَّهُمَا لَا يَلِيَانِ أَخْذَهَا . وَشَرِبَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَبَنًا فَأَعْجَبَهُ فَأُخْبِرَ أَنَّهُ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ فَأَدْخَلَ إصْبَعَهُ فَاسْتَقَاءَهُ . (قَالَ) وَيُعْطَى الْعَامِلُ بِقَدْرِ غَنَائِهِ مِنَ الصَّدَقَةِ وَإِنْ كَانَ مُوسِرًا : لِأَنَّهُ يَأْخُذُهُ عَلَى مَعْنَى الْإِجَارَةِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَقَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ سَهْمَ الْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ ثَابِتٌ إذَا تَوَلَّوْا قَبْضَهَا وَتَفْرِيقَهَا وَسَاقِطٌ مِنْهَا إذَا تَوَلَّى رَبُّ الْمَالِ بِنَفْسِهِ ، فَإِنْ قَالَ رَبُّ الْمَالِ الْمُتَوَلِّي لِتَفْرِيقِ

زَكَاتِهِ أَنَا آخُذُ سَهْمَ الْعَامِلِينَ لِنَفْسِي لِلْقِيَامِ بِالْعَمَلِ فِي التَّفْرِقَةِ مَقَامَ الْعَامِلِينَ لَمْ يَجُزْ : لِأَنَّ الْعَامِلَ مَنْ وَلَّاهُ الْإِمَامُ قبض الزكاة وَتَفْرِيقَهَا نِيَابَةً عَنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ قَبْضَهَا وَتَفْرِيقَهَا نِيَابَةً عَنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ ، وَرَبُّ الْمَالِ إنَّمَا هُوَ نَائِبٌ عَنْ نَفْسِهِ : لِأَنَّهُ لَا

(368/340)

يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ وَكِيلًا عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، وَإِذَا كَانَ هَكَذَا لَمْ يَخْلُ حَالُ رَبِّ الْمَالِ إذَا دَفَعَ زَكَاةَ مَالِهِ إلَى الْوَالِي مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى الْإِمَامِ الَّذِي هُوَ الْخَلِيفَةُ عَلَى الْأَمْرِ . وَالثَّانِي : أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى وَالِي الْإِقْلِيمِ النَّاظِرِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ . وَالثَّالِثُ : أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى الْعَامِلِ الَّذِي وَلَّاهُ الْإِمَامُ قَبْضَهَا وَجَعَلَ نَظَرَهُ مَقْصُورًا عَلَيْهَا ، فَإِنْ تَوَلَّاهُ الْإِمَامُ سَقَطَ مِنْهَا سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا : لِأَنَّ وِلَايَةَ الْإِمَامِ عَامَّةٌ قَدْ أَخَذَ رِزْقَهُ عَلَيْهَا مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، فَلَمْ يُجْمَعْ لَهُ بَيْنَ رِزْقَيْنِ عَلَى عَمَلٍ وَاحِدٍ ، وَلِمَا رَوَى الشَّافِعِيُّ عَنْ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَجُلًا أَتَى عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا ؟ فَقَالَ مَرَرْتُ بِلِقَاحِ الصَّدَقَةِ فَأَعْطَوْنِيهِ فَجَعَلْتُهُ فِي سِقَائِي ، فَاسْتَقَاءَهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَيْهِ مَالُ الصَّدَقَةِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَسْتَبْقِهِ فِي جَوْفِهِ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا تَأْثِيرُ اسْتِقَائِهِ بَعْدَ اسْتِهْلَاكِهِ وَمَنْ أَكَلَ حَرَامًا هَلْ يَلْزَمُهُ أَنْ يَسْتَقِيئَهُ ؟ لَمْ يَلْزَمْهُ أَنْ يَسْتَقِيئَهُ ؟ قِيلَ

فِي اسْتِقَائِهِ لِذَلِكَ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَعْلَمَ النَّاسُ تَحْرِيمَ الصَّدَقَاتِ عَلَى الْإِمَامِ .
وَالثَّانِي : أَنَّ مَنْ أَخَذَ مَا لَا يَحِلُّ لَهُ مِنْ مَغْصُوبٍ وَغَيْرِهِ فَتَغَيَّرَ فِي يَدِهِ لَمْ يَمْلِكْهُ ، بِخِلَافِ مَا

(369/340)

قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ . وَالثَّالِثُ : لِئَلَّا يَسْتَدِيمَ الِاغْتِذَاءُ وَالِانْتِفَاعُ بِحَرَامٍ ، وَهَكَذَا لَوْ تَوَلَّى قَبْضَ الصَّدَقَاتِ وَتَفْرِيقَهَا وَإِلَى الْإِقْلِيمِ سَقَطَ مِنْهَا سَهْمُ الْعَامِلِينَ : لِأَنَّهُمْ فِي عُمُومِ وِلَايَتِهِ عَلَى ذَلِكَ الْإِقْلِيمِ الَّذِي قَدِ ارْتَزَقَ عَلَى عَمَلِهِ فِيهِ جَارٍ مَجْرَى الْإِمَامِ . فَأَمَّا إِذَا اخْتَصَّ لِعَامِلٍ بِقَبْضِ الزَّكَاةِ تَفْرِيقَهَا ثَبَتَ فِيهَا حِينَئِذٍ سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا لِيَكُونَ مَصْرُوفًا إِلَى الْعَامِلِ وَأَعْوَانِهِ فِيهَا ؛ وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ وَجَبَ أَنْ يُوصَفَ مَنْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَامِلًا على الزكاة فِي الْقَبْضِ وَالتَّفْرِقَةِ فِيهَا بِهَا فِي الْقَبْضِ وَالتَّفْرِقَةِ وَهُوَ مَنْ تَكَامَلَتْ فِيهِ سِتُّ خِصَالٍ : إِحْدَاهَا : الْبُلُوغُ : لِأَنَّ الصِّغَرَ لَا يَصِحُّ مَعَهُ قَبْضٌ وَلَا تَقْبِيضٌ . وَالثَّانِيَةُ : الْعَقْلُ الَّذِي يَصِحُّ التَّمْيِيزُ بِهِ . وَالثَّالِثَةُ : الْحُرِّيَّةُ . وَالرَّابِعَةُ : الْإِسْلَامُ : لِأَنَّ الْكُفْرَ يَمْنَعُ مِنَ الْوِلَايَةِ عَلَى مُسْلِمٍ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ [الْمُمْتَحِنَةِ : آيَةَ 1] وَقَدِمَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى عُمَرَ بِحِسَابٍ اسْتَحْسَبَهُ عُمَرُ ، فَقَالَ : مَنْ عَمِلَ هَذَا ؟ فَقَالَ : كَاتِبِي ، فَقَالَ : أَيْنَ هُوَ ؟

قَالَ : هُوَ عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ ، قَالَ : أَجُنُبٌ هُوَ ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنَّهُ ذِمِّيٌّ ، فَأَمَرَهُ بِعَزْلِهِ وَقَالَ : لَا تَأْمَنُوهُمْ إِذْ خَوَّنَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا تُقَرِّبُوهُمْ إِذْ بَعَّدَهُمُ اللَّهُ .

(370/340)

وَالْخَامِسُ : الْأَمَانَةُ : لِأَنَّهَا بَيَانُهُ لِيُقْصَدَ بِهَا حِفْظُ الْمَالِ عَلَى غَيْرِ الْمُسْتَنِيبِ ، فَأَشْبَهَ وَلِيَّ الْيَتِيمِ الَّذِي إِنْ خِيفَتْ خِيَانَتُهُ سَقَطَتْ وِلَايَتُهُ . وَالسَّادِسَةُ : الْفِقْهُ بِأَحْكَامِ الزَّكَوَاتِ فِيمَا تَجِبُ فِيهِ مِنَ الْأَمْوَالِ وَمَا لَا تَجِبُ ، وَفِي مَقَادِيرِهَا وَقَدْرِ الْحَقِّ فِيهَا وَأَوْصَافِ مُسْتَحِقِّيهَا وَمَبْلَغِ اسْتِحْقَاقِهِمْ مِنْهَا لِئَلَّا يَكُونَ جَاهِلًا بِمَا هُوَ مَوْكُولٌ إِلَى نَظَرِهِ ، فَلَا يَصِحُّ تَقْلِيدُهُ كَالْحَاكِمِ إِذَا كَانَ جَاهِلًا ، وَلَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ عَامِلِ الصَّدَقَةِ أَنْ يَكُونَ فَقِيهًا فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ : لِأَنَّ وِلَايَةَ الْحَاكِمِ جَامِعَةٌ فَاحْتَاجَ أَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِجَمِيعِ الْأَحْكَامِ ، وَوِلَايَةُ عَامِلِ الصَّدَقَاتِ مَخْصُوصَةٌ ، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ عَالِمًا ، يَعْنِي : أَحْكَامَهَا ، فَإِذَا تَكَامَلَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ السِّتَّةُ جَازَ أَنْ يَكُونَ عَامِلًا عَلَيْهَا ، وَسَوَاءٌ كَانَ رَجُلًا أَوِ امْرَأَةً ، وَإِنْ كَرِهْنَا تَقْلِيدَ النِّسَاءِ لِذَلِكَ لِمَا عَلَيْهِنَّ مِنْ لُزُومِ الْخَفَرِ : لِأَنَّ الْمَرْأَةَ لَمَّا جَازَ أَنْ تَلِيَ أَمْوَالَ الْأَيْتَامِ جَازَ أَنْ تَلِيَ أَمْوَالَ الصَّدَقَاتِ ، فَأَمَّا أَعْوَانُ الْعَامِلِ مِنْ كُتَّابِهِ وَحُسَّابِهِ وَجُبَاتِهِ وَمُسْتَوْفِيهِ فَأُجُورُهُمْ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ لِعَمَلِهِمْ فِيهَا ، وَلَا يَلْزَمُ اعْتِبَارُ الْحُرِّيَّةِ وَالْفِقْهِ فِيهِمْ ، لِأَنَّهُمْ خَدَمٌ فِيهَا مَأْمُورُونَ

وَيَلْزَمُ اعْتِبَارُ الْخِصَالِ الْأَرْبَعَةِ مِنَ الْبُلُوغِ وَالْفَضْلِ وَالْإِسْلَامِ وَالْأَمَانَةِ . وَأَمَّا الرِّعَاةُ وَالْحَفَظَةُ لَهَا بَعْدَ

(371/340)

قَبْضِهَا فَفِي أُجُورِهِمْ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا . وَالثَّانِي : مِنْ أَصْلِ الصَّدَقَاتِ ، فَأَمَّا أُجْرَةُ الْحَمَّالِينَ وَالنَّقَّالِينَ فَإِنْ كَانَتْ عِنْدَ أَخْذِ ذَلِكَ مِنْ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فَفِيهَا وَجْهَانِ : كَالرِّعَاةِ وَالْحَفَظَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ لِحَمْلِهَا لِأَهْلِ الصَّدَقَاتِ فَأُجُورُهُمْ فِي أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ وَجْهًا وَاحِدًا . وَأَمَّا أُجُورُ الْكَيَّالِينَ وَالْوَزَّانِينَ وَالْعَدَّادِينَ فَعَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُ أَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ : إنَّهَا عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ : لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ التَّسْلِيمِ وَالتَّمْكِينِ فَأَشْبَهَ أُجْرَةَ الْكَيَّالِ وَالْوَزَّانِ فِي الْمَبِيعِ ، يَخْتَصُّ بِهَا الْبَائِعُ دُونَ الْمُشْتَرِي . وَالْوَجْهُ الثَّانِي وَهُوَ قَوْلُ أَبِي إسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ إنَّهَا فِي سَهْمِ الْعَامِلِينَ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ الْبَيْعِ أَنَّ الْبَيْعَ مَكِيلٌ فِي حَقِّ الْبَائِعِ وَهَذَا مَكِيلٌ فِي حَقِّ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، فَصَارَ مَا يَلْزَمُ مِنْ أُجُورِ الْعَمَلِ فِي أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ تَنْقَسِمُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : مَا كَانَ فِي سَهْمِ الْعَامِلِينَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَهُوَ الْعَامِلُ وَأَعْوَانُهُ . وَالثَّانِي : مَا كَانَ فِي أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ مِنْ غَيْرِ سَهْمِ الْعَامِلِينَ ، وَهُوَ أُجُورُ الْحَمَّالِينَ وَالنَّقَّالِينَ إلَى أَهْلِ الصَّدَقَاتِ . وَالثَّالِثُ : مَا كَانَ عَلَى

أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فِي أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ وَمِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ فِي الْوَجْهِ الثَّانِي وَهُوَ أُجْرَةُ الْكَيَّالِ وَالْوَزَّانِ . وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ : مَا اخْتَلَفَ

(372/340)

أَصْحَابُنَا فِيهِ وَهُوَ أُجْرَةُ الرُّعَاةِ وَالْحَفَظَةِ ، فَأَحَدُ الْوَجْهَيْنِ أَنَّهُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ . وَالثَّانِي : مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ .

(373/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا ثَبَتَ مَا وَصَفْنَا فَالْإِمَامُ فِيمَنْ قَلَّدَهُ مِنْ عُمَّالِهِ الصَّدَقَةَ فله الإجارة أو الجعالة بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَعْقِدَ مَعَهُ إجَارَةً عَلَى عَمَلٍ مَعْلُومٍ فِي زَمَانٍ مَعْلُومٍ بِأُجْرَةٍ مَعْلُومَةٍ ، فَيَكُونُ الْعَقْدُ لَازِمًا لَهُ وَلَهُ الْأُجْرَةُ إذَا عَمِلَ ، وَإِمَّا أَنْ يَجْعَلَهَا جُعَالَةً فَيَقُولُ : إنْ عَمِلْتَ كَذَا فَلَكَ كَذَا ، فَتَكُونُ هَذِهِ جُعَالَةً لَا تَلْزَمُ وَلَهُ إنْ عَمِلَ مَا يُسَمَّى لَهُ ، فَإِنِ اسْتَعْمَلَهُ مِنْ غَيْرِ إجَارَةٍ وَلَا جُعَالَةٍ فَلَهُ أُجْرَةُ الْمِثْلِ ، ثُمَّ لَا يَخْلُو سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، وَأَجْرُهُمْ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَتَسَاوَيَا فَتَكُونُ الْأُجْرَةُ بِقَدْرِ سَهْمِهِمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ فَنُقِصَ عَلَيْهَا ، وَقَدِ اسْتَوْفَوْا

أُجُورَهُمْ مِنْ سَهْمِهِمْ ، وَسَوَاءٌ كَانُوا أَغْنِيَاءَ أَوْ فُقَرَاءَ : لِأَنَّهَا مُعَاوَضَةٌ فَلَمْ يُعْتَبَرْ فِيهَا الْفَقْرُ ، وَقَدْ رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ إلَّا لِخَمْسَةٍ : الْعَامِلُ عَلَيْهَا وَغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْحَدِيثَ . وَرَوَى ابْنُ السَّاعِدِيِّ قَالَ : بَعَثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَامِلًا عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ بِهَا وَأَدَّيْتُهَا أَعْطَانِي عِمَالَتِي فَقُلْتُ : إنَّمَا عَمِلْتُ لِلَّهِ وَإِنَّمَا أَجْرِي عَلَى اللَّهِ ، فَقَالَ : خُذْ مَا أَعْطَيْتُكَ فَقَدْ فَعَلْتُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِثْلَمَا فَعَلْتَ فَأُعْطِيتُ مِثْلَمَا أُعْطِيتَ فَقُلْتُ مِثْلَمَا

(374/340)

قُلْتَ ، فَقَالَ : إذَا أُعْطِيتَ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَسْأَلَ فَكُلْ وَتَصَدَّقْ . فَدَلَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْخَبَرَيْنِ عَلَى جَوَازِ ذَلِكَ مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ أُجُورُ الْعَامِلِينَ أَقَلَّ وَسَهْمُهُمْ أَكْثَرَ فَيَدْفَعُ إلَيْهِمْ مِنْ سَهْمِهِمْ قَدْرَ أُجُورِهِمْ وَيَرُدُّ الْفَاضِلَ مِنْهُ عَلَى السُّهْمَانِ كُلِّهَا بِالتَّسْوِيَةِ وَلَا يَسْتَبْقِي لِعَامِلِهِ عَلَى غَيْرِ تِلْكَ الصَّدَقَةِ . وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ تَكُونَ أُجُورُ الْعَامِلِينَ أَكْثَرَ وَسَهْمُهُمْ أَقَلَّ فَيَدْفَعُ إلَيْهِمْ سَهْمَهُمْ وَيُتَمِّمُ لَهُ بَاقِيَ أُجُورِهِمْ وَمِنْ أَيْنَ يُتَمِّمُ ؟ فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ الَّتِي عَمِلُوا فِيهَا لِاخْتِصَاصِ عَمَلِهِمْ بِهَا . وَالثَّانِي : مِنْ

مَالِ الْمَصَالِحِ وَهُوَ خُمُسُ الْخُمُسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ : لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَتِهَا .

فَصْلٌ : وَأَمَّا اسْتِعْمَالُ ذَوِي الْقُرْبَى عَلَى الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ تَطَوَّعُوا بِالْعَمَلِ مِنْ غَيْرِ أَجْرٍ جَازَ وَسَقَطَ مِنْ تِلْكَ الصَّدَقَةِ الَّتِي عَمِلُوا فِيهَا سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ، كَمَا يَجُوزُ لِلْإِمَامِ أَنْ يَتَوَلَّاهَا ، وَإِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى : لِأَنَّهُ يَأْخُذُ مِنْهَا وَيَسْقُطُ سَهْمُ الْعَامِلِينَ مِنْهَا ، وَإِنْ أَرَادَ الْعَامِلُ مِنْ ذَوِي الْقُرْبَى أَنْ يَعْمَلَ عَلَيْهَا وَيَأْخُذَ سَهْمَ عَمَلِهِ مِنْهَا فَفِي جَوَازِهِ ثَلَاثَةُ أَوْجُهٍ :

(375/340)

أَحَدُهَا : يَجُوزُ لِأَنَّهَا مُعَاوَضَةٌ لَا يُرَاعَى فِيهَا الْفُقَرَاءُ فَلَمْ يُرَاعَ فِيهَا النَّسَبُ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ أَنْ يُفَاضَلُوا عَلَى عَمَلِهِمْ فِيهَا مَا يَلْزَمُ رَبَّ الْمَالِ مِنْ أُجْرَةِ الْكَيْلِ وَالْوَزْنِ وَمَا يَلْزَمُ أَهْلَ الصَّدَقَاتِ مِنْ أُجْرَةِ الْحِفْظِ وَالنَّقْلِ ، جَازَ أَنْ يُفَاضَلُوا عَلَيْهِ بِمَا يَلْزَمُ فِي مَالِ الصَّدَقَاتِ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ تَحْرِيمُ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ ، رُوِيَ أَنَّ الْفَضْلَ بْنَ الْعَبَّاسِ وَالْمُطَّلِبَ بْنَ رَبِيعَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَاهُ عِمَالَةَ الصَّدَقَةِ فَقَالَ : إنَّ الصَّدَقَةَ مِنْ أَوْسَاخِ النَّاسِ لَا يَحِلُّ لِمُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ مِنْهَا شَيْءٌ . وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : إنَّا أَهْلَ بَيْتٍ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ ، وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ سَهْمَهُمْ مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ عِوَضًا عَنْ مَالِ

الصَّدَقَةِ . وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ : وَهُوَ قَوْلُ أَبِي سَعِيدٍ الْإِصْطَخْرِيِّ : إنْ كَانُوا يُعْطَوْنَ سَهْمَهُمْ مِنَ الْخُمُسِ لَمْ يَجُزْ وَإِنْ كَانُوا لَا يُعْطَوْنَ جَازَ : لِئَلَّا يَجْمَعُوا بَيْنَ مَالَيْنِ إنْ أُعْطُوا ، لَا يُحْرَمُوا الْمَالَيْنِ إنْ مُنِعُوا ، فَأَمَّا مَوْلَى ذَوِي الْقُرْبَى هل يعطى من الصدقة ؟ فَقَدِ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِيهِمْ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ كَذَوِي الْقُرْبَى فِي تَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ لِرِوَايَةِ أَبِي رَافِعٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(376/340)

وَسَلَّمَ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْتَعْمَلَ عَلَى الصَّدَقَةِ رَجُلًا مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ فَقُلْتُ لَهُ : أَثْبِتْ لِي سَهْمًا مِنْهَا ، فَقَالَ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : إنَّ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، وَإِنَّا أَهْلُ بَيْتٍ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهَا لَا تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْمَوْلَى مِنْهُمْ عَامِلًا عَلَيْهَا : لِأَنَّ تَحْرِيمَهُ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى لِأَمْرَيْنِ تَفَرَّدُوا بِهِمَا عَنْ مَوَالِيهِمْ : أَحَدُهُمَا : شَرَفُ نَسَبِهِمُ الَّذِي فُضِّلُوا بِهِ . وَالثَّانِي : سَهْمُهُمْ مِنَ الْخُمُسِ الَّذِي تَفَرَّدُوا بِهِ . فَوَجَبَ أَنْ يُخْتَصُّوا بِتَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ دُونَ مَوَالِيهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

فَصْلٌ : إذَا تَلِفَتِ الصَّدَقَةُ فِي يَدِ الْعَامِلِ فَهُوَ عَلَيْهَا أَمِينٌ لَا يَضْمَنُهَا إلَّا بِالْعُدْوَانِ ، ثُمَّ لَا يَخْلُو أَنْ

يَكُونَ قَدْ أَخَذَ سَهْمَهُ مِنْهَا أَوْ لَمْ يَأْخُذْ ، فَإِنْ أَخَذَهُ لَمْ يَلْزَمْهُ رَدُّهُ : لِأَنَّهُ قَدِ اسْتَحَقَّهُ بِعَمَلِهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ أَخَذَ أُجْرَةَ الْقَبْضِ وَالتَّفْرِيقِ ، فَيَلْزَمُهُ إِذَا تَلِفَتْ قَبْلَ التَّفْرِيقِ أَنْ يَرُدَّ مِنَ الْأُجْرَةِ مَا قَابَلَ أُجْرَةَ التَّفْرِيقِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أَخَذَ سَهْمَهُ مِنَ الْمَالِ قَبْلَ تَلَفِهِ أُعْطِيَ أُجْرَةً مِنْ سَهْمِ الْمَصَالِحِ مِنَ الْخُمُسِ وَلَمْ يُفَوَّتْ عَلَيْهِ بِغَيْرِ بَدَلٍ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

(377/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فِي مُتَقَدِّمِ الْأَخْبَارِ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ مُسْلِمُونَ أَشْرَافٌ مُطَاعُونَ يُجَاهِدُونَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ فَيَقْوَى الْمُسْلِمُونَ بِهِمْ وَلَا يَرَوْنَ مِنْ نِيَّاتِهِمْ مَا يَرَوْنَ مِنْ نِيَّاتِ غَيْرِهِمْ ، فَإِذَا كَانُوا هَكَذَا فَأَرَى أَنْ يُعْطَوْا مِنْ سَهْمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ خُمُسُ الْخُمُسِ مَا يُتَأَلَّفُونَ بِهِ سِوَى سِهَامِهِمْ مَعَ الْمُسْلِمِينَ ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ هَذَا السَّهْمَ

(378/340)

خَالِصًا لِنَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَدَّهُ فِي مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ ، (وَاحْتُجَّ) بِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ يَوْمَ حُنَيْنٍ مِنَ الْخُمُسِ مِثْلَ عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ وَأَصْحَابِهِمَا وَلَمْ يُعْطِ عَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ وَكَانَ شَرِيفًا عَظِيمَ الْغَنَاءِ ، حَتَّى اسْتَعْتَبَ فَأَعْطَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، (قَالَ الشَّافِعِيُّ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَمَّا أَرَادَ مَا أَرَادَ الْقَوْمُ احْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُ شَيْءٌ حِينَ رَغِبَ عَمَّا صَنَعَ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فَأَعْطَاهُ عَلَى مَعْنَى مَا أَعْطَاهُمْ ، وَاحْتَمَلَ أَنْ يَكُونَ رَأَى أَنْ يُعْطِيَهُ مِنْ مَالِهِ حَيْثُ رَأَى أَنْ يُعْطِيَهُ : لِأَنَّهُ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَالِصًا لِلتَّقْوِيَةِ بِالْعَطِيَّةِ وَلَا نَرَى أَنْ قَدْ وَضَعَ مِنْ شَرَفِهِ فَإِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ أَعْطَى مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ النَّفْلَ وَغَيْرَ النَّفْلِ : لِأَنَّهُ لَهُ وَأَعْطَى صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ وَلَمْ يُسْلِمْ وَلَكِنَّهُ أَعَارَهُ أَدَاةً فَقَالَ فِيهِ عِنْدَ الْهَزِيمَةِ أَحْسَنَ مِمَّا قَالَ بَعْضُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَامَ الْفَتْحِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الْهَزِيمَةَ كَانَتْ فِي أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ حُنَيْنٍ أَوَّلَ النَّهَارِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ : غَلَبَتْ هَوَازِنُ وَقُتِلَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَقَالَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : بِفِيكَ الْحَجَرُ ، فَوَاللَّهِ لَرَبٌّ مِنْ قُرَيْشٍ

(379/340)

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ رَبٍّ مِنْ هَوَازِنَ ، ثُمَّ أَسْلَمَ قَوْمُهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانَ كَأَنَّهُ لَا يُشَذُّ فِي إِسْلَامِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ . (قَالَ الشَّافِعِيُّ) : فَإِذَا كَانَ مِثْلُ هَذَا رَأَيْتُ أَنْ يُعْطَى مِنْ سَهْمِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ لِلِاقْتِدَاءِ بِأَمْرِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، (وَلَوْ قَالَ) قَائِلٌ : كَانَ هَذَا السَّهْمُ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَكَانَ لَهُ أَنْ يَضَعَ سَهْمَهُ حَيْثُ يَرَى فَقَدْ فَعَلَ هَذَا مَرَّةً وَأَعْطَى مِنْ سَهْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رِجَالًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : لِأَنَّهُ مَالُهُ يَضَعُهُ حَيْثُ رَأَى وَلَا يُعْطِي أَحَدًا الْيَوْمَ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّ أَحَدًا مِنْ خُلَفَائِهِ أَعْطَى أَحَدًا بَعْدَهُ ، وَلَوْ قِيلَ لَيْسَ لِلْمُؤَلَّفَةِ فِي قَسْمِ الْغَنِيمَةِ سَهْمٌ مَعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ كَانَ مَذْهَبًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . (قَالَ) وَلِلْمُؤَلَّفَةِ فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ سَهْمٌ ، وَالَّذِي أَحْفَظُ فِيهِ مِنْ مُتَقَدِّمِ الْخَبَرِ أَنَّ عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ جَاءَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ أَحْسَبُهُ بِثَلَاثِمِائَةٍ مِنَ الْإِبِلِ مِنْ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ فَأَعْطَاهُ أَبُو بَكْرٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ بَعِيرًا وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ بِمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ قَوْمِهِ فَجَاءَهُ بِزُهَاءِ أَلْفِ رَجُلٍ وَأَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا ، وَالَّذِي يَكَادُ يَعْرِفُ الْقَلْبُ بِالِاسْتِدْلَالِ بِالْأَخْبَارِ أَنَّهُ أَعْطَاهُ إِيَّاهَا مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ ، فَإِمَّا زَادَهُ تَرْغِيبًا

(380/340)

فِيمَا صَنَعَ وَإِمَّا لِيَتَأَلَّفَ بِهِ غَيْرَهُ مِنْ قَوْمِهِ مِمَّنْ لَمْ يَثِقْ مِنْهُ بِمِثْلِ مَا يَثِقُ بِهِ مِنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، (قَالَ) فَأَرَى أَنْ يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَعْنَى إنْ نَزَلَتْ بِالْمُسْلِمِينَ نَازِلَةٌ وَلَنْ تَنْزِلَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَدُوُّ بِمَوْضِعٍ مُنْتَاطٍ لَا يَنَالُهُ الْجَيْشُ إلَّا بِمُؤْنَةٍ وَيَكُونَ بِإِزَاءِ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ فَأَعَانَ عَلَيْهِمْ أَهْلُ الصَّدَقَاتِ إمَّا بِلِيَّةٍ فَأَرَى أَنْ يَقْوَوْا بِسَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَإِمَّا أَلَّا يُقَاتِلُوا إلَّا بِأَنْ يُعْطَوْا سَهْمَ الْمُؤَلَّفَةِ أَوْ مَا يَكْفِيهِمْ مِنْهُ ، وَكَذَا إذَا انْتَاطَ الْعَدُوُّ وَكَانُوا أَقْوَى عَلَيْهِ مِنْ قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ يُوَجَّهُونَ إلَيْهِ بِبُعْدِ دِيَارِهِمْ وَثِقَلِ مُؤَنِهِمْ وَيَضْعُفُونَ عَنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِثْلَمَا وَصَفْتُ مِمَّا كَانَ فِي زَمَنِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنِ امْتِنَاعِ أَكْثَرِ الْعَرَبِ بِالصَّدَقَةِ عَلَى الرِّدَّةِ وَغَيْرِهَا لَمْ أَرَ أَنْ يُعْطَى أَحَدٌ مِنْ

(381/340)

سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي أَنَّ عُمَرَ وَلَا عُثْمَانَ وَلَا عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَعْطَوْا أَحَدًا تَأَلُّفًا عَلَى الْإِسْلَامِ وَقَدْ أَغْنَى اللَّهُ - فَلَهُ الْحَمْدُ - الْإِسْلَامَ عَنْ أَنْ تُتَأَلَّفَ عَلَيْهِ رِجَالٌ . (وَقَالَ فِي الْجَدِيدِ) لَا يُعْطَى مُشْرِكٌ يُتَأَلَّفُ عَلَى الْإِسْلَامِ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ أَمْوَالَ الْمُشْرِكِينَ لَا الْمُشْرِكِينَ أَمْوَالَ الْمُسْلِمِينَ ، وَجَعَلَ صَدَقَاتِ الْمُسْلِمِينَ مَرْدُودَةً فِيهِمْ " .

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَجُمْلَةُ ذَلِكَ أَنَّ مَالِكًا وَأَبَا حَنِيفَةَ أَسْقَطَا سَهْمَ الْمُؤَلَّفَةِ كَمَا أَسْقَطَ أَبُو

حَنِيفَةَ سَهْمَ ذِي الْقُرْبَى لِلِاسْتِغْنَاءِ بِقُوَّةِ الْإِسْلَامِ وَاسْتِعْلَاءِ أَهْلِهِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ وَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي سَهْمِ ذَوِي الْقُرْبَى ، فَأَمَّا سَهْمُ الْمُؤَلَّفَةِ فَهُوَ بَاقٍ عَلَى مَا سَنَشْرَحُهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ [التَّوْبَةِ : 60] وَتَأَلَّفَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ .

وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ مُسْلِمُونَ ، وَمُشْرِكُونَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ضَرْبَانِ : مُسْلِمُونَ ، وَمُشْرِكُونَ . فَأَمَّا الْمُشْرِكُونَ فَضَرْبَانِ : أَحَدُهُمَا : أَشْرَافٌ مُطَاعُونَ ، فِيهِمْ قُوَّةٌ وَبَأْسٌ وَلَيْسَ لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ نِيَّاتٌ ، المؤلفة قلوبهم لَكِنَّهُمْ إنْ أُعْطُوا كَفُّوا عَنْ قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَعَنْ أَذَاهُمْ مُجْتَازِينَ أَوْ مُسَافِرِينَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا قَاتَلُوهُمْ وَتَتَبَّعُوهُمْ بِالْأَذَى فِي أَسْفَارِهِمْ وَمَسَاكِنِهِمْ ، مِثْلَ عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ

(382/340)

فَقَدْ كَانَ ذَا غِلْظَةٍ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَقَتَلَ أَهْلَ بَنِي مَعُونَةَ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَأَلَّفُهُ وَيَسْتَكْفُهُ فَأَتَى الْمَدِينَةَ وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، شَارِكْنِي فِي أَمْرِكَ وَكُنْ أَنْتَ عَلَى الْمَدَرِ وَأَنَا عَلَى الْوَبَرِ ، فَقَالَ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ ذَلِكَ لِي ، قَالَ : وَاللَّهِ لَأَمْلَأَنَّهَا عَلَيْكَ خَيْلًا وَرِجَالًا ، فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ عَلَيْكَ وَأَبْنَاءِ قَبِيلَةِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ - يَعْنِي الْأَنْصَارَ - ، فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بِأَخْبَثِ نِيَّةٍ فَأَخَذَتْهُ غُدَّةٌ مَاتَ بِهَا وَقَدْ نَزَلَ

عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ سَلُولٍ ، قَالَ وَهُوَ يَجُودُ بِنَفْسِهِ : غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَعِيرِ وَمَوْتٌ فِي بَيْتِ سَلُولِيَّةٍ .

وَالضَّرْبُ الثَّانِي : مِنَ الْكُفَّارِ أَشْرَافٌ وَمُطَاعُونَ ، لَهُمْ فِي الْإِسْلَامِ نِيَّاتٌ لَمْ تُخْلَصْ إِنْ أُعْطُوا قَوِيَتْ نِيَّاتُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمُوا ، المؤلفة قلوبهم وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا بَقَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ مِثْلُ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ فَإِنَّهُ كَانَ ذَا نِيَّةٍ فِي الْإِسْلَامِ وَاسْتَعَارَ مِنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَدَاةً فَأَعَارَهُ مِائَةَ دِرْعٍ وَحَضَرَ مَعَهُ حُنَيْنًا ، وَقَالَ : قَدِ انْهَزَمَتِ الصَّحَابَةُ فِي أَوَّلِ الْوَقْعَةِ أَحْسَنُ مِمَّا قَالَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا عَامَ الْفَتْحِ بِمَكَّةَ ، فَإِنَّ أَبَا سُفْيَانَ قَالَ عِنْدَ الْهَزِيمَةِ غَلَبَتْ هَوَازِنُ وَقُتِلَ مُحَمَّدٌ ، فَقَالَ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ : لِفِيكَ الْحَجَرُ ، وَاللَّهِ لَرَبٌّ قُرَيْشٍ أَحَبُّ إِلَيَّ

(383/340)

مِنْ رَبِّ هَوَازِنَ ، فَلَمَّا انْجَلَتِ الْوَقْعَةُ وَأُحِيزَتْ غَنَائِمُ هَوَازِنَ أَعْطَاهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهَا مِائَةَ بَعِيرٍ ، فَلَمَّا رَآهَا وَقَدِ امْتَلَأَ بِهَا الْوَادِي فَقَالَ : هَذَا عَطَاءُ مَنْ لَا يَخَافُ الْفَقْرَ ، ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ . هَذَانِ الضَّرْبَانِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَأَلَّفَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَفِي جَوَازِ تَأَلُّفِهِمُ الْآنَ بَعْدَ وَفَاتِهِ قَوْلَانِ :

(384/340)

أَحَدُهُمَا : يَجُوزُ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ [التَّوْبَةِ : 160] . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : لَا يَجُوزُ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ بِمَا أَعْطَاهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَزَادَهُمْ مِنْ قُدْرَةٍ عَنْ أَنْ يَتَأَلَّفُوا بِأَمْوَالِهِمْ مُشْرِكًا ، وَيَكُونُ تَأَلُّفُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُمْ إمَّا عَنْ حَاجَةٍ إلَيْهِمْ عِنْدَ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَكَثْرَتِهِمْ وَإِمَّا لِأَنَّهُ كَانَ يُعْطِيهِمْ مِنْ مَالِهِ الَّذِي مَلَّكَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ خُمُسِ الْخُمُسِ ، فَكَانَ يَصْنَعُ بِهِ مَا شَاءَ مِمَّا لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنَ الْوُلَاةِ أَنْ يَصْنَعَ مِثْلَهُ . فَإِذَا قِيلَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَأَلَّفُوا بِمَالٍ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى أَمْوَالَهُمْ لِلْمُسْلِمِينَ حَوْلًا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ فِي أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ حَقًّا مُنِعُوا ذَلِكَ مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهَا . وَإِذَا قِيلَ بِجَوَازِ تَأَلُّفِهِمْ جَازَ إذَا وُجِدَ فِيهِمْ نَفْعُ التَّأَلُّفِ يُعْطَوْا مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ لَا مِنْ أَمْوَالِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ تَعَالَى لِلْمُسْلِمِينَ ، وَلَكِنْ مِنْ سَهْمِ الْمَصَالِحِ وَهُوَ خُمُسُ الْخُمُسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ الْمُعَدَّةِ لِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ الْعَامَّةِ .

(385/340)

فَصْلٌ : وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ فَضَرْبَانِ : مقضرب لَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ فِي جَوَازِ تَأَلُّفِهِمْ . وَأَمَّا الضَّرْبُ الَّذِي اخْتَلَفَ قَوْلُهُ فِي جَوَازِ تَأَلُّفِهِمْ وَحَمْلِهِمْ فِيهِ عَلَى حُكْمِ الْمُشْرِكِينَ فَضَرْبَانِ

: أَحَدُهُمَا : الْأَشْرَافُ الْمُطَاعُونَ وَقَدْ حَسُنَتْ فِي الْإِسْلَامِ نِيَّاتُهُمْ ، لَكِنْ فِي إعْطَائِهِمْ تَأَلُّفٌ لِقَوْمِهِمْ وَتَرْغِيبٌ لِأَكْفَائِهِمْ وَنُظَرَائِهِمْ كَالزِّبْرِقَانِ بْنِ بَدْرٍ وَعَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْطَاهُمَا تَأَلُّفًا لِقَوْمِهِمَا وَتَرْغِيبًا لِنُظَرَائِهِمَا . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَشْرَافٌ مُطَاعُونَ قَدْ أَسْلَمُوا بِنِيَّاتٍ ضَعِيفَةٍ ، إنْ أُعْطُوا قَوِيَتْ نِيَّاتُهُمْ وَحَسُنَ إسْلَامُهُمْ وَإِنْ مُنِعُوا رُبَّمَا أَفْضَى بِهِمْ ضَعْفُ النِّيَّةِ إلَى الرِّدَّةِ ، فَقَدْ أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ مِثْلَ عُيَيْنَةَ بْنِ حِصْنٍ الْفَزَارِيِّ وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ التَّمِيمِيِّ ، فَإِنَّهُ تَأَلَّفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِمِائَةِ بَعِيرٍ وَتَرَكَ الْعَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسٍ السُّلَمِيَّ فَلَمْ يُعْطِهِ ثِقَةً بِحُسْنِ إسْلَامِهِ ، كَمَا تَرَكَ الْأَنْصَارَ وَقَصَرَ بِهِ عَلَى مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ حَتَّى اسْتَعْتَبَ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ فِيمَا أَنْشَدَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ شِعْرِهِ حَيْثُ يَقُولُ : كَانَتْ نَهَابًا تَلَافَيْتُهَا وَكَرِّي عَلَى الْقَوْمِ بِالْأَجْرَعِ وَحَثِّي الْجُنُودَ لِكَيْ يُدْلِجُوا إذَا هَجَعَ الْقَوْمُ لَمْ أَهْجَعِ أَتَجْعَلُ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ بَيْنَ

(386/340)

عُيَيْنَةَ وَالْأَقْرَعِ

(387/340)

الْأَبْيَاتِ إِلَى آخِرِهَا . فَأَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأُعْطِيَ مِائَةَ بَعِيرٍ فَاحْتَمَلَ إِعْطَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ لَهُ أَحَدَ أَمْرَيْنِ ذَكَرَهُمَا الشَّافِعِيُّ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَنَّ بِهِ حُسْنَ النِّيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ فَمَنَعَهُ ، ثُمَّ بَانَ مِنْهُ ضَعْفُ النِّيَّةِ فَتَأَلَّفَهُ . وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ عَلَى حُسْنِ نِيَّتِهِ ، لَكِنْ خَشِيَ نَقْصَ الرُّتْبَةِ وَحَظَّ الْمَنْزِلَةِ فَأَحَبَّ الْمُسَاوَاةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَكْفَائِهِ فَأَعْطَاهُ مَعَ حُسْنِ إِسْلَامِهِ ، وَهَذَا أَشْبَهُ الْأَمْرَيْنِ بِشِعْرِهِ ، فَهَذَانِ الضَّرْبَانِ مِنْ مُؤَلَّفَةِ الْمُسْلِمِينَ قَدْ تَأَلَّفَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي حَيَاتِهِ وَفِي جَوَازِ تَأَلُّفِهِمُ الْآنَ بَعْدَ وَفَاتِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : يَجُوزُ اقْتِدَاءً بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ عُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ [التَّوْبَةِ : 160] ، وَلِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَمَّا أَتَاهُ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ الطَّائِيُّ بِثَلَاثِمِائَةِ بَعِيرٍ مِنْ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ أَعْطَاهُ مِنْهَا ثَلَاثِينَ بَعِيرًا لِيَتَأَلَّفَ بِهَا قَوْمَهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْحَقَ بِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ فِيمَنْ أَطَاعَهُ مِنْ قَوْمِهِ ، فَلَحِقَ بِهِ فِي زُهَاءِ أَلْفِ رَجُلٍ وَأَبْلَى بَلَاءً حَسَنًا . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : لَا يَجُوزُ أَنْ يُتَأَلَّفُوا : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ بِالْقُوَّةِ وَالْكَثْرَةِ عَنْ أَنْ يُتَأَلَّفَ فِيهِ أَحَدٌ ، وَلِأَنَّ عُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيًّا - رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ - مَا تَأَلَّفُوا مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ أَحَدًا ، وَقَدْ رَوَى حَسَّانُ بْنُ عَطِيَّةَ أَنَّ عُيَيْنَةَ بْنَ حِصْنٍ أَتَى عُمَرَ فَسَأَلَهُ شَيْئًا فَلَمْ يُعْطِهِ فَقَالَ : وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ [الْكَهْفِ : 29] ، فَإِنْ قِيلَ : لَا يُعْطَى الْكُفَّارُ ، فَلَا مَقَالَ وَإِذَا قِيلَ يُعْطَوْنَ تَأَلُّفًا لِقُلُوبِهِمْ ، فَعَنِ الْمَالِ الَّذِي يُتَأَلَّفُونَ مِنْهُ الكفار قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : هُوَ سَهْمُ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنَّ النَّصَّ عَلَى سَهْمِهِمْ مِنْهَا ، وَلِأَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْطَى عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ ثَلَاثِينَ بَعِيرًا مِنْ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ مِنْ مَالِ الْمَصَالِحِ وَهُوَ خُمُسُ الْخُمُسِ مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ لِأَنَّهُمْ مِنْ جُمْلَتِهَا وَيُعْطَوْنَ ذَلِكَ مَعَ الْغَنَاءِ وَالْفَقْرِ .

فَصْلٌ : وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ لَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِي جَوَازِ تَأَلُّفِهِمْ فَهُمْ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونُوا مِنْ أَعْرَابٍ أَوْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي طَرَفٍ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ بِإِزَاءِ مُشْرِكِينَ لَا يُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ إِلَّا بِمَالٍ يُعْطَوْنَهُ ، إِمَّا لِفَقْرِهِمْ وَإِمَّا لِضَعْفِ نِيَّتِهِمْ وَفِي مَسِيرِ الْمُجَاهِدِينَ إِلَيْهِمْ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ وَالْتِزَامُ مَالٍ جَزِيلٍ .

(389/340)

وَالصِّنْفُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ مَنْ ذَكَرْنَا بِإِزَاءِ قَوْمٍ مُرْتَدِّينَ لَا يُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى الرِّدَّةِ إِلَّا بِمَالٍ إِمَّا لِفَقْرٍ أَوْ لِضَعْفِ نِيَّةٍ وَفِي تَجْهِيزِ الْجَيْشِ إِلَيْهِمْ مُؤْنَةٌ ثَقِيلَةٌ . وَالصِّنْفُ الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونُوا بِإِزَاءِ قَوْمٍ

مِنَ الْبُغَاةِ وَهَذِهِ حَالُهُمْ مَعَهُمْ . وَالصِّنْفُ الرَّابِعُ : أَنْ يَكُونُوا بِإِزَاءِ قَوْمٍ مَانِعِي الزَّكَاةِ وَلَا يُقَاتِلُونَهُمْ عَلَى بَذْلِهَا إلَّا بِمَالٍ ؛ فَهَؤُلَاءِ الْأَصْنَافُ الْأَرْبَعَةُ يَجُوزُ تَأَلُّفُهُمْ بِالْمَالِ لِمَا فِي تَأَلُّفِهِمْ مِنْ مَعُونَةِ الْمُسْلِمِينَ وَنَفْعِهِمْ وَالذَّبِّ عَنْهُمْ وَفِي الْمَالِ الَّذِي يُتَأَلَّفُونَ مِنْهُ المسلمون ثَلَاثَةُ أَقَاوِيلَ وَرَابِعٌ مَعْلُولٌ : أَحَدُهَا : مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ مِنَ الصَّدَقَاتِ لِأَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ لِأَنَّهُمْ غُزَاةٌ . وَالْقَوْلُ الثَّالِثُ : مِنْ مَالِ الْمَصَالِحِ مِنَ الْخُمُسِ لِأَنَّهُمْ مِنْ جُمْلَةِ الْمَصَالِحِ . وَالْقَوْلُ الرَّابِعُ : الْمَعْلُولُ أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ وَسَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَهَذَا قَوْلٌ مَعْلُولٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الْجَمْعِ فِي دَفْعِ الصَّدَقَةِ بَيْنَ سَبَبَيْنِ مِنْ سَهْمَيْنِ ؛ فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي هَذَا الْقَوْلِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ هَذَا عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي جَوَّزَ الشَّافِعِيُّ فِيهِ إعْطَاءَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ مِنَ الزَّكَاةِ الْوَاحِدَةِ بِسَبَبَيْنِ مِنْ سَهْمَيْنِ إذَا كَانَا فِيهِ مَوْجُودَيْنِ ، فَأَمَّا عَلَى الْقَوْلِ الَّذِي مَنَعَ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ فَلَا يُعْطَوْنَ إلَّا مِنْ أَحَدِ السَّهْمَيْنِ .

(390/340)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى ظَاهِرِهِ فِي إعْطَائِهِمْ مِنَ السَّهْمَيْنِ مَعًا عَلَى الْقَوْلَيْنِ جَمِيعًا لِوُجُودِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ السَّبَبَيْنِ فِيهِمْ مَعَ الْحَاجَةِ الدَّاعِيَةِ إلَيْهِمْ ، وَإِنَّمَا يُمْنَعُ مِنْ إعْطَائِهِ بِالسَّبَبَيْنِ لِمَنْ كَانَتْ حَاجَتُهُ إلَيْنَا . وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ مُخْتَلِفٌ بِاخْتِلَافِ الْحَالِ فِيمَنْ

قَاتَلَ مِنْهُمْ مَانِعِي الزَّكَاةِ أُعْطِيَ مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ ، وَمَنْ قَاتَلَ مِنْهُمُ الْمُشْرِكِينَ أُعْطِيَ مِنْ سَهْمِ الْغُزَاةِ وَالْأَصَحُّ عِنْدِي فِي هَذَا الْقَوْلُ الرَّابِعُ غَيْرُ هَذِهِ الْوُجُوهِ الثَّلَاثَةِ : أَنَّهُ يُجْمَعُ لِهَذِهِ الْأَصْنَافِ كُلِّهَا بَيْنَ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ وَبَيْنَ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْجُمْلَةِ إلَّا أَنْ يُصْبِحَ الشَّخْصُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مِنَ السَّهْمَيْنِ ، لَكِنْ يُعْطَى بَعْضُهُمْ مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ وَلَا يُعْطَى مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَيُعْطَى بَعْضُهُمْ مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ ، فَيَكُونُ الْجَمْعُ بَيْنَ السَّهْمَيْنِ لِلْجِنْسِ الْعَامِّ وَالْمَنْعُ مِنَ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا لِلشَّخْصِ الْوَاحِدِ ، وَهَذَا أَصَحُّ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ تَخْرِيجُ هَذَا الْقَوْلِ الرَّابِعِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَالرِّقَابُ الْمُكَاتَبُونَ مِنْ حَيِّزِ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ ، وَلَا يُعْتَقُ عَبْدٌ يُبْتَدَأُ عِتْقُهُ فَيُشْتَرَى وَيُعْتَقُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ وَالرِّقَابُ صِنْفٌ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى وَفِي الرِّقَابِ

(391/340)

فَاخْتَلَفَ الْفُقَهَاءُ فِيهِمْ ، فَذَهَبَ الشَّافِعِيُّ إلَى أَنَّهُمُ الْمُكَاتَبُونَ يُعْطَوْنَ الْمُسَمَّى لَهُمْ يَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي مَالِ كِتَابَتِهِمْ وَلَا يَبْتَدِئُ عِتْقَ رِقَابٍ تُشْتَرَى ، وَهُوَ فِي الصَّحَابَةِ قَوْلُ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ، وَفِي التَّابِعِينَ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالنَّخَعِيِّ ، وَفِي الْفُقَهَاءِ قَوْلُ أَبِي

حَنِيفَةَ وَالثَّوْرِيِّ . وَقَالَ مَالِكٌ : الرِّقَابُ أَنْ يُبْتَدَأَ عِتْقُ رِقَابٍ تُشْتَرَى . وَهُوَ فِي الصَّحَابَةِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ ، وَفِي التَّابِعِينَ قَوْلُ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، وَفِي الْفُقَهَاءِ قَوْلُ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَفِي الرِّقَابِ وَفِيهَا ثَلَاثَةُ أَدِلَّةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ مُطْلَقَ اسْمِ الرَّقَبَةِ يَتَنَاوَلُ الْعَبْدَ الْقِنَّ دُونَ الْمُكَاتَبِ ؛ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ يَقْتَضِي عِتْقَ الْعَبْدِ الْقِنِّ دُونَ الْمُكَاتَبِ . وَالثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ سُهْمَانَ الصَّدَقَاتِ إِلَى الْأَصْنَافِ بِلَامِ التَّمْلِيكِ : " إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ " وَخَالَفَ صِيغَةَ اللَّفْظِ فِي الرِّقَابِ بِأَنْ حَذَفَ لَامَ التَّمْلِيكِ ، فَقَالَ وَفِي الرِّقَابِ فَجَعَلَ ذَلِكَ فِيهِمْ وَلَمْ يَجْعَلْهُ لَهُمْ ، فَاقْتَضَى أَلَّا يَمْلِكَهُ الْمُكَاتَبُونَ وَيُشْتَرَى بِهِ عَبِيدٌ يُعْتَقُونَ لِيَصِحَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِمْ وَلَا يَكُونُ لَهُمْ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْمُكَاتَبِينَ مِنْ جُمْلَةِ الْغَارِمِينَ ، فَلَوْ أُرِيدُوا بِالْآيَةِ لَاكْتَفَى بِذِكْرِ الْغَارِمِينَ عَنْ ذِكْرِهِمْ ، وَلِأَنَّ مَا وَجَبَ مِنْ أَمْوَالِ الطُّهْرَةِ نَوْعَانِ : زَكَوَاتٍ ،

(392/340)

وَكَفَّارَاتٍ ، فَلَمَّا كَانَ فِي الْكَفَّارَاتِ عِتْقٌ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ فِي الزَّكَوَاتِ عِتْقٌ . وَتَحْرِيرُهُ : أَنَّهُ أَحَدُ نَوْعَيِ الطُّهْرَةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَخْتَصَّ بِعِتْقٍ وَيُفَرِّقَهُ كَالْكَفَّارَاتِ وَدَلِيلُنَا قَوْلُهُ تَعَالَى : وَفِي الرِّقَابِ [التَّوْبَةِ : 60] ، وَمِنْهَا سَبْعَةُ أَدِلَّةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ ذَلِكَ فِي الرِّقَابِ لَا

فِي السَّادَةِ وَمِلْكُهُ يَجْعَلُهُ فِي السَّادَةِ لَا فِي الرِّقَابِ . وَالثَّانِي : أَنَّ سَائِرَ الْأَصْنَافِ لَمَّا اسْتَحَقُّوا الْأَخْذَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ صِنْفُ الرِّقَابِ مُسْتَحِقًّا الْأَخْذَ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ فِي الْآيَةِ ثَمَانِيَةَ أَصْنَافٍ وَقَرَنَ فِيهَا بَيْنَ كُلِّ صِنْفَيْنِ يَتَقَارَبُ مَعْنَاهُمَا فَنُقَارِبُ فِي حَاجَتِنَا إلَيْهِمْ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ : لِأَنَّ مَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبٌ فِي اخْتِصَاصِهِمْ بِقَطْعِ مَسَافَةٍ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُمَا مُتَقَارِبًا ، فَلَمَّا أَخَذَ الْغَارِمُونَ لِمَا فِي الذِّمَّةِ اقْتَضَى أَنْ يَأْخُذَ الرِّقَابُ لِمَا فِي الذِّمَّةِ . وَالرَّابِعُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ الْمَصْرُوفَ إلَى الْأَصْنَافِ صَدَقَةً وَفِي صَرْفِهِ فِي الْعِتْقِ يَصِيرُ ثَمَنًا يَخْرُجُ عَنْ حُكْمِ الصَّدَقَةِ . وَالْخَامِسُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ كُلَّ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ مِمَّنْ يُمْكِنُ دَفْعُ سَهْمِهِ إلَيْهِ

(393/340)

مِنْ كُلِّ صَدَقَةٍ وَلَا يُمْكِنُ إذَا جَعَلَ سَهْمَ الرِّقَابِ فِي الْعِتْقِ أَنْ يُعْتِقَ سَهْمَهُمْ مِنْ كُلِّ صَدَقَةٍ ، وَإِذَا جُعِلَ فِي الْمُكَاتَبِينَ أَمْكَنَ أَنْ يُدْفَعَ إلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ صَدَقَةٍ . وَالسَّادِسُ : أَنَّهُ لَوْ صُرِفَ سَهْمُ الرِّقَابِ فِي مُكَاتَبِينَ وَبَقِيَ عَلَيْهِمْ مِنْ آخِرِكُمْ آخِرُ نَجْمٍ مَا يُعْتَقُونَ بِهِ فَأَعْطَوْا مَا عُتِقُوا بِهِ أَجْزَأَ ، وَلَوْ خَرَجُوا مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ لَمْ يُجْزِ كَالْعِتْقِ فِي الْكَفَّارَةِ فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمُ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ . وَالسَّابِعُ : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ بِالرِّقَابِ الْمُعْتَقَ لَقَرَنَهُ بِذِكْرِ التَّحْرِيرِ كَالْكَفَّارَةِ حَيْثُ قَالَ :

فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَلَا يَقْتَضِي أَنْ يُحْمَلَ مُطْلَقُ الرِّقَابِ فِي الصَّدَقَةِ عَلَى الْمُقَيَّدِ مِنْهَا فِي الْكَفَّارَةِ : لِأَنَّ فِي الْمُطْلَقِ فِي الرِّقَابِ مَا يُجْزِئُ وَهُوَ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْمُكَاتَبِينَ ، فَكَانَ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُطْلَقِ أَوْلَى مِنْ حَمْلِهِ عَلَى الْمُقَيَّدِ ، وَخَالَفَ تَقْيِيدَ الشَّهَادَةِ بِالْعَدَالَةِ فِي مَوْضِعٍ وَإِطْلَاقَهَا فِي آخَرَ : لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الشَّهَادَةِ مَالٌ يُعْتَبَرُ فِيهِ الْعَدَالَةُ : فَلِذَلِكَ وَجَبَ حَمْلُ الْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الِاعْتِبَارِ أَنَّهُ صِنْفٌ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونُوا عَلَى صِفَةٍ يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْأَخْذَ قِيَاسًا عَلَى سَائِرِ الْأَصْنَافِ ، وَلِأَنَّ الْعِتْقَ يَقْتَضِي ثُبُوتَ الْوَلَاءِ لِلْمُعْتِقِ ، فَلَوْ أَعْتَقَ سَهْمُ الرِّقَابِ لَمْ يَخْلُ أَنْ يَثْبُتَ عَلَى الْمُعْتِقِ وَلَاءٌ أَوْ لَا يَثْبُتُ ، فَإِنْ لَمْ يَثْبُتْ

(394/340)

عَلَيْهِ وَإِلَّا سُلِبَ حُكْمَ الْعِتْقِ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ ، وَإِنْ ثَبَتَ عَلَيْهِ الْوَلَاءُ لَمْ يَخْلُ أَنْ يَكُونَ لِرَبِّ الْمَالِ أَوْ لِغَيْرِهِ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ : لِأَنَّهُ غَيْرُ مُعْتِقٍ بِمَالِهِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ لِرَبِّ الْمَالِ لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مَا اشْتَرَاهُ وَلَا اشْتُرِيَ لَهُ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَا يَسْتَفِيدُ بِإِخْرَاجِ زَكَاتِهِ مِلْكًا كَسَائِرِ الْأَصْنَافِ فَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْعِتْقِ . فَإِنْ قِيلَ : فَلَوْ أَخَذَ الْغَارِمُ سَهْمَهُ وَعَلَيْهِ لِرَبِّ الْمَالِ دَيْنٌ جَازَ أَنْ يَسْتَعِيدَهُ مِنْ دَيْنِهِ فَيَصِيرُ مِلْكًا لَهُ .

قِيلَ : لَيْسَ هَذَا فِي كُلِّ غَارِمٍ وَلَا الْغَارِمُ الَّذِي عَلَيْهِ الدَّيْنُ يَلْزَمُهُ رَدُّ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ : لِأَنَّهُ لَوْ دَفَعَ غَيْرُهُ أَجْزَأَ . فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ مِنَ الْآيَةِ مِنْ أَنَّ مُطْلَقَ الرَّقَبَةِ يَتَنَاوَلُ الْعَبْدَ الْقِنَّ دُونَ الْمُكَاتَبِ فَهُوَ أَنَّ ادِّعَاءَ ذَلِكَ غَيْرُ مُسَلَّمٍ : لِأَنَّهُ إنْ أُطْلِقَ تَنَاوَلَتِ الْقِنَّ وَغَيْرَهُ ، وَإِنْ قُيِّدَ بِقَرِينَةٍ كَالتَّحْرِيرِ تَخَصَّصَ لِأَجْلِ الْقَرِينَةِ بِالْقِنِّ دُونَ غَيْرِهِ ، فَلَمَّا أُطْلِقَ ذِكْرُ الرِّقَابِ فِي الصَّدَقَةِ وَجَبَ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى عُمُومِهِ وَلَا يَجْرِي مَجْرَى مَا خُصَّ فِي الْكَفَّارَةِ بِقَرِينَةٍ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ مِنَ الْآيَةِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَ الصَّدَقَاتِ إلَى أَهْلِ

(395/340)

السُّهْمَانِ بِلَامِ التَّمْلِيكِ إلَّا الرِّقَابَ فَهُوَ أَنَّهُ قَدْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْغُزَاةِ وَبَنِي السَّبِيلِ فَقَالَ : وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ لَا يَقْتَضِي ذَلِكَ أَلَّا يُدْفَعَ إلَيْهِمْ تَمْلِيكًا ، كَذَلِكَ الرِّقَابُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ فِيهَا بِأَنَّ الْمُكَاتَبِينَ مِنْ جُمْلَةِ الْغَارِمِينَ فَمِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ غَيْرُ الْغَارِمِينَ : لِأَنَّ دُيُونَهُمْ غَيْرُ مُسْتَقِرَّةٍ وَدُيُونَ الْغَارِمِينَ مُسْتَقِرَّةٌ . وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ وَإِنْ تَقَارَبُوا فِي الْمَعْنَى فَإِنَّهُ يُسْتَفَادُ بِذِكْرِهِمْ أَلَّا يُقْتَصَرَ عَلَى الْغَارِمِينَ لَوْ لَمْ يُذْكَرُوا وَعَلَيْهِمْ دُونَ الْغَارِمِينَ لِأَنَّهُمْ مِنْهُمْ ، وَجَرَى ذَلِكَ مَجْرَى ذِكْرِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَإِنْ كَانُوا مُتَقَارِبَيْنِ يُسْتَغْنَى بِذِكْرِ أَحَدِهِمَا عَنْ ذِكْرِ الْآخَرِ : لِئَلَّا يَقْتَصِرَ عَلَى أَحَدِهِمَا حَتَّى يَلْزَمَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا . وَأَمَّا الْجَوَابُ

عَنِ اسْتِدْلَالِهِمْ بِالْكَفَّارَاتِ فَهُوَ أَنَّ الْمَأْمُورَ بِإِخْرَاجِهِ فِي الْكَفَّارَاتِ هُوَ الْعِتْقُ ، لِذَلِكَ لَوْ أَعْتَقَ رَقَبَةً يَمْلِكُهَا أَجْزَأَهُ ، وَالْمَأْمُورُ بِإِخْرَاجِهِ فِي الصَّدَقَاتِ هُوَ الْمَالُ ، وَلِذَلِكَ لَوْ أَعْتَقَ رَقَبَةً يَمْلِكُهَا لَمْ يُجْزِهِ فَافْتَرَقَا .

(396/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ سَهْمَ الرِّقَابِ مَصْرُوفٌ فِي الْمُكَاتَبِينَ ، فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمُكَاتَبِ فِي الزَّكَاةِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ قَادِرًا عَلَى مَا عَلَيْهِ مِنْ مَالِ الْكِتَابَةِ ، أَوْ عَاجِزًا عَنْهُ ، فَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ وَذَلِكَ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ : إمَّا بِمَالٍ فِي يَدِهِ بِقَدْرِ الْبَاقِي مِنْ مَالِ كِتَابَتِهِ ، أَوْ بِصِنَاعَةٍ يَكْتَسِبُ بِهَا ، فَذَلِكَ يَكُونَا فِي الْحُكْمِ سَوَاءً ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إلَيْهِ مِنْ شَيْءٍ مِنَ الصَّدَقَاتِ : لِأَنَّهَا مَصْرُوفَةٌ فِي ذَوِي الْحَاجَاتِ وَلَيْسَ هَذَا الْمُكَاتَبُ مِنْهُمْ ، وَإِنْ كَانَ عَاجِزًا عَمَّا عَلَيْهِ مِنْ مَالِ الْكِتَابَةِ ، فَلَا يَخْلُو حَالُهُ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ نَجْمُ الْكِتَابَةِ قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ أَوْ لَمْ يَحُلَّ ، فَإِنْ كَانَ نَجْمُ الْكِتَابَةِ قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ وَاسْتَحَقَّ السَّيِّدُ الْمُطَالَبَةَ بِهِ دُفِعَ إلَيْهِ وَكَانَ رَبُّ الْمَالِ وَالْعَامِلُ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَنْ يَدْفَعَهُ إلَى الْمُكَاتَبِ حَتَّى يَدْفَعَهُ الْمُكَاتَبُ إلَى سَيِّدِهِ ، أَوْ يَدْفَعَهُ ابْتِدَاءً إلَى السَّيِّدِ بِأَمْرِ الْمُكَاتَبِ أَوْ بِغَيْرِ أَمْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ نَجْمُ الْكِتَابَةِ لَمْ

يَحُلَّ وَمُطَالَبَةُ الْمُكَاتَبِ بِهِ لَمْ تَجِبْ ، فَفِي جَوَازِ الدَّفْعِ إِلَيْهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ لِأَنَّهُ غَيْرُ مُحْتَاجٍ إِلَيْهِ . وَالثَّانِي : يُدْفَعُ إِلَيْهِ : لِأَنَّهُ قَدْ يَحُلُّ مَالُ النَّجْمِ فَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

(397/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا وَصَفْنَا لَمْ يَخْلُ الْمُكَاتَبُ بَعْدَ الدَّفْعِ إِلَيْهِ سهم الزكاة مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يُعْتَقَ بِالْأَدَاءِ فَقَدِ اسْتَقَرَّ اسْتِحْقَاقُ مَا أَخَذَهُ مِنْ كِتَابَتِهِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : يُعْتَقُ بِغَيْرِ أَدَاءِ مَالِ الصَّدَقَةِ وَذَلِكَ إِمَّا بِإِبْرَاءِ السَّيِّدِ لَهُ ، أَوْ بِأَدَاءِ آخَرَ عَنْهُ ، أَوْ بِأَدَائِهِ مِنْ كَسْبِهِ ، فَيَكُونُ الْحُكْمُ فِي هَذِهِ الْأَحْوَالِ الثَّلَاثَةِ سَوَاءً ، وَيَنْظُرُ فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ فِي النَّجْمِ الْأَخِيرِ اسْتَرْجَعَ مِنْهُ مَا دَفَعَ إِلَيْهِ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِلْأَخْذِ تَأْثِيرٌ فِي الْمَقْصُودِ مِنْ عِتْقِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا قَبْلَ النَّجْمِ الْأَخِيرِ وَقَدْ أَدَّاهُ فِيهِ لَمْ يَسْتَرْجِعْ : لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ لِذَلِكَ الدَّفْعِ تَأْثِيرٌ فِي تَحْرِيرِ الْعِتْقِ ، وَلَوِ اسْتَرْجَعَ لَمْ يُعْتَقْ .

(398/340)

الْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ يَسْتَرِقَّهُ السَّيِّدُ بِالْعَجْزِ ، فَلَا يَخْلُو حَالُ الْمَدْفُوعِ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي النَّجْمِ الْأَخِيرِ أَوْ فِيمَا قَبْلَهُ ، فَإِنْ كَانَ فِي النَّجْمِ الْأَخِيرِ اسْتُرْجِعَ الْمَدْفُوعُ إِلَيْهِ ، سَوَاءٌ كَانَ بَاقِيًا فِي يَدِ الْمُكَاتَبِ ، أَوْ قَدْ قَبَضَهُ السَّيِّدُ مِنْهُ : لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنَ الْعِتْقِ لَمْ يَقَعْ ، وَإِنْ كَانَ فِيمَا قَبْلَ النَّجْمِ الْأَخِيرِ مِنَ النُّجُومِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ بَاقِيًا فِي يَدِ الْمُكَاتَبِ فَيُسْتَرْجَعُ مِنْهُ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَهُ السَّيِّدُ بَعْدَ الْعَجْزِ وَلَا يَتَمَلَّكَ الْمُكَاتَبُ بَعْدَ الرِّقِّ لِفَوَاتِ الْمَعْنَى الْمُبِيحِ لِلْأَخْذِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ السَّيِّدُ قَدْ قَبَضَهُ مِنْهُ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ قَدْ قَبَضَهُ مِنْ مَالِ النَّجْمِ الَّذِي عَجَّزَهُ فِيهِ ، فَهَذَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ أَيْضًا لِفَوَاتِ الْمَقْصُودِ بِذَلِكَ الْأَخْذِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ قَدْ قَبَضَهُ مِنْهُ مِنْ مَالِ نَجْمٍ مُتَقَدِّمٍ قَبْلَ نَجْمِ التَّعْجِيزِ فَفِي جَوَازِ اسْتِرْجَاعِهِ مِنْهُ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ لِفَوَاتِ الْمَقْصُودِ مِنَ الْعِتْقِ فَشَابَهَ مَالَ النَّجْمِ الْأَخِيرِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : لَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ : لِأَنَّ لِكُلِّ نَجْمٍ حُكْمًا .

(399/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا وَجَبَ اسْتِرْجَاعُ الْمَأْخُوذِ مِنْ مَالِ الصَّدَقَةِ فَتَلَفَ قَبْلَ الِاسْتِرْجَاعِ ، فَلَا يَخْلُو حَالُ تَلَفِهِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَتْلَفَ فِي يَدِ السَّيِّدِ أَوْ فِي يَدِ الْمُكَاتَبِ ، فَإِنْ تَلَفَ فِي يَدِ

السَّيِّدِ فَهُوَ مَضْمُونٌ عَلَيْهِ بِالْغُرْمِ ، سَوَاءٌ تَلَفَ بِاسْتِهْلَاكِهِ لَهُ أَوْ بِغَيْرِهِ : لِأَنَّهُ أَخَذَهُ عَلَى وَجْهِ الْبَدَلِ عَنِ الْعِتْقِ ، فَإِذَا فَاتَ الْعِتْقُ ضَمِنَهُ بِالرَّدِّ إِنْ بَقِيَ وَبِالْغُرْمِ إِنْ تَلَفَ كَالْمَبِيعِ ، وَإِنْ تَلَفَ فِي يَدِ الْمُكَاتَبِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَتْلَفَ بِاسْتِهْلَاكِهِ ، فَإِنْ تَلَفَ بِاسْتِهْلَاكِهِ ضُمِنَ ضَمَانَ الْمَغْصُوبِ يُقَدَّمُ عَلَى دُيُونِ الْمُعَامَلَاتِ ، فَإِنْ ضَاقَ مَا بِيَدِهِ عَنْ غُرْمِهِ ضَمِنَهُ فِي رَقَبَتِهِ ، وَإِنْ تَلَفَ بِغَيْرِ اسْتِهْلَاكِهِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَتْلَفَ بِيَدِهِ قَبْلَ عَجْزِهِ . وَالثَّانِي : أَنْ يَتْلَفَ بَعْدَ عَجْزِهِ ، فَإِنْ تَلَفَ قَبْلَ عَجْزِهِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَتْلَفَ قَبْلَ إِمْكَانِ دَفْعِهِ إِلَى سَيِّدِهِ ، فَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى سَيِّدِهِ : لِأَنَّهُ كَانَ مُؤْتَمَنًا عَلَى أَدَائِهِ . وَالثَّانِي : يَتْلَفُ بَعْدَ إِمْكَانِ دَفْعِهِ إِلَى سَيِّدِهِ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ نَجْمُ الْكِتَابَةِ وَأَخَّرَ دَفْعَ ذَلِكَ إِلَيْهِ فَهُوَ مَضْمُونٌ عَلَيْهِ ضَمَانَ الْمَغْصُوبِ لِعُدْوَانِهِ بِتَأْخِيرِ الْأَدَاءِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَلَّا يَكُونَ نَجْمُ الْكِتَابَةِ قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ ، فَفِي ضَمَانِهِ عَلَيْهِ وَجْهَانِ مِنِ اخْتِلَافِ الْوَجْهَيْنِ فِي جَوَازِ

(400/340)

الدَّفْعِ إِلَيْهِ قَبْلَ حُلُولِ النَّجْمِ عَلَيْهِ : أَحَدُهُمَا : يَضْمَنُهُ إِذَا جُعِلَ كَالَّذِي حَلَّ عَلَيْهِ فِي جَوَازِ الدَّفْعِ إِلَيْهِ .

وَالثَّانِي : لَا يَضْمَنُهُ إذَا لَمْ يُجْعَلْ فِي جَوَازِ الدَّفْعِ إلَيْهِ كَالَّذِي حَلَّ عَلَيْهِ ، وَإِنْ تَلَفَ فِي يَدِهِ بَعْدَ عَجْزِهِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ تَلَفُهُ بَعْدَ إمْكَانِ رَدِّهِ عَلَى رَبِّ الْمَالِ أَوِ الْعَامِلِ ، فَهَذَا مَضْمُونٌ عَلَيْهِ ضَمَانَ الْمَغْصُوبِ لِعُدْوَانِهِ بِتَأْخِيرِ الرَّدِّ ، وَيَكُونُ الضَّمَانُ فِي رَقَبَتِهِ دُونَ مَا بِيَدِهِ لِتَقَدُّمِ اسْتِحْقَاقِ مَا بِيَدِهِ فِي مُعَامَلَاتِهِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ تَلَفُهُ قَبْلَ إمْكَانِ رَدِّهِ فَهُوَ غَيْرُ مَضْمُونٍ عَلَى الْمُكَاتَبِ : لِأَنَّهُ مَا قَبَضَهُ لِنَفْسِهِ وَلَا كَانَ مُتَعَدِّيًا فِي جِنْسِهِ وَهَلْ يَكُونُ مَضْمُونًا عَلَى سَيِّدِهِ ؟ فِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَضْمَنُهُ : لِأَنَّهُ مَا صَارَ إلَيْهِ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : يَضْمَنُهُ : لِأَنَّ الْمُكَاتَبَ قَبَضَهُ لِسَيِّدِهِ وَيَدُهُ بَعْدَ الْعَجْزِ كَيَدِهِ .

مَسْأَلَةٌ فِي بيان أصناف الغارمين

(401/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : (وَالْغَارِمُونَ) صِنْفَانِ صِنْفٌ دَانُوا فِي مَصْلَحَتِهِمْ أَوْ مَعْرُوفٍ وَغَيْرِ مَعْصِيَةٍ ، ثُمَّ عَجَزُوا عَنْ أَدَاءِ ذَلِكَ فِي الْعَرْضِ وَالنَّقْدِ فَيُعْطَوْنَ فِي غُرْمِهِمْ لِعَجْزِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ عُرُوضٌ يَقْضُونَ مِنْهَا دُيُونَهُمْ فَهُمْ أَغْنِيَاءُ لَا يُعْطَوْنَ حَتَّى يَبْرَءُوا مِنَ الدَّيْنِ ، ثُمَّ لَا يَبْقَى لَهُمْ مَا يَكُونُونَ بِهِ أَغْنِيَاءَ ، وَصِنْفٌ دَانُوا فِي صَلَاحِ ذَاتِ بَيْنٍ وَمَعْرُوفٍ وَلَهُمْ عُرُوضٌ تَحْمِلُ حَمَالَاتِهِمْ أَوْ عَامَّتَهَا وَإِنْ بِيعَتْ أَضَرَّ ذَلِكَ بِهِمْ وَإِنْ لَمْ يَفْتَقِرُوا ، فَيُعْطَى هَؤُلَاءِ وَتُوَفَّرُ

عُرُوضُهُمْ كَمَا يُعْطَى أَهْلُ الْحَاجَةِ مِنَ الْغَارِمِينَ حَتَّى يَقْضُوا سَهْمَهُمْ (وَاحتَجَّ) بِأَنَّ قَبِيصَةَ بْنَ الْمُخَارِقِ قَالَ تَحَمَّلْتُ بِحَمَالَةٍ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : نُؤَدِّيهَا عَنْكَ ، أَوْ نُخْرِجُهَا عَنْكَ إِذَا قَدِمَ نَعَمُ الصَّدَقَةِ ، يَا قَبِيصَةُ . الْمَسْأَلَةُ حُرِّمَتْ إِلَّا فِي ثَلَاثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ أَوْ حَاجَةٌ حَتَّى شَهِدَ أَوْ تَكَلَّمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحَاجَةِ مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ بِهِ فَاقَةً أَوْ حَاجَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ . وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الصَّدَقَةُ حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ سُحْتٌ (قَالَ

(402/340)

الشَّافِعِيُّ) – رَحِمَهُ اللَّهُ – فَبِهَذَا قُلْتُ فِي الْغَارِمِينَ وَقَوْلُ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تَحِلُّ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فِي الْفَاقَةِ وَالْحَاجَةِ ، يَعْنِي – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ لَا الْغَارِمِينَ ، وَقَوْلُهُ : حَتَّى يُصِيبَ سَدَادًا مِنْ عَيْشٍ يَعْنِي – وَاللَّهُ أَعْلَمُ – أَقَلَّ اسْمِ الْغِنَى وَلِقَوْلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إِلَّا لِخَمْسَةٍ : لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا ، أَوْ لِغَارِمٍ ، أَوْ لِرَجُلٍ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ ، أَوْ لِرَجُلٍ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ

فَتَصَدَّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَى الْمِسْكِينُ لِلْغَنِيِّ فَبِهَذَا قُلْتُ يُعْطَى الْغَازِي وَالْعَامِلُ وَإِنْ كَانَا غَنِيَّيْنِ ، وَالْغَارِمُ فِي الْحَمَالَةِ عَلَى مَا أَبَانَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - لَا عَامًّا " .

(403/340)

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، وَالْغَارِمُونَ صِنْفٌ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ [التَّوْبَةِ : 60] ، فَجَعَلَ لَهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ سَهْمًا وَهُمْ صِنْفَانِ : صِنْفٌ أَدَانُوا فِي مَصَالِحِ أَنْفُسِهِمْ ، وَصِنْفٌ أَدَانُوا فِي مَصَالِحِ غَيْرِهِمْ ، فَأَمَّا مَنْ أَدَانَ فِي مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ فَعَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي حَقٍّ . وَالثَّانِي : فِي تَبْذِيرٍ . وَالثَّالِثُ : فِي مَعْصِيَةٍ . فَأَمَّا الْأَوَّلُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي حَقٍّ فَكَرَجُلٍ أَدَانَ فِي جَوَائِحَ أَصَابَتْهُ ، أَوْ نَفَقَاتٍ لَزِمَتْهُ ، أَوْ مُعَامَلَاتٍ أَضَرَّتْ ، أَوْ زَكَوَاتٍ وَجَبَتْ ، وَحَجٍّ أُدِّيَ ، وَفَرْضٍ قُضِيَ إِلَى مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنْ وَاجِبَاتٍ أَوْ مُبَاحَاتٍ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إِلَى مَنْ صَارَ بِهَا غَارِمًا مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ إِذَا كَانَ فَقِيرًا ، فَأَمَّا إِنْ كَانَ غَنِيًّا ، فَلَا يَخْلُو مَالُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ نَاضًّا ، أَوْ عَقَارًا ، فَإِنْ كَانَ مَالُهُ نَاضًّا كَالذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَعُرُوضِ التِّجَارَاتِ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إِلَيْهِ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ : لِأَنَّهُ مُسْتَغْنٍ عَنِ الْمَعُونَةِ عَلَى قَضَاءِ دَيْنِهِ ، وَلِأَنَّهُ قَلَّمَا يَخْلُو مُوسِرٌ مِنْ دَيْنٍ فَيَجْعَلُ كُلَّ الْمُوسِرِ مِنَ الْغَارِمِينَ ، وَإِنْ كَانَ مَالُهُ عَقَارًا مِنْ دُورٍ وَضِيَاعٍ

كَفَى أَثْمَانُهَا بِدَيْنِهِ ، فَفِي جَوَازِ إعْطَائِهِ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ قَوْلَانِ : أَصَحُّهُمَا وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَكْثَرُ كُتُبِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى : لِأَنَّهُ

(404/340)

قَادِرٌ عَلَى قَضَاءِ دَيْنِهِ كَالْمُوسِرِ بِمَالٍ نَاضٍّ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : قَالَهُ فِي الْقَدِيمِ وَحُكِيَ عَنْهُ فِي كِتَابِ الْأُمِّ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى : لِأَنَّ الْعَاجِزَ عَنْ قَضَاءِ الدَّيْنِ إلَّا مِنْ عَقَارٍ مُسْتَقًّا هُوَ بِالْمُعْسِرِينَ أَشْبَهُ عَنْهُ بِالْمُوسِرِينَ فَاقْتَضَى أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ الْغَارِمِينَ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي تَبْذِيرٍ كَرَجُلٍ بَذَّرَ فِي الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ وَأَسْرَفَ فِي الصِّلَاتِ وَالْهِبَاتِ لَا فِي بِرٍّ وَلَا تَقْوَى ؛ فَهَذَا لَا يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ وَلَهُ مَا يَقْدِرُ عَلَى قَضَاءِ دَيْنِهِ مِنْهُ مِنْ نَاضٍّ أَوْ عَقَارٍ : لِأَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنَ التَّبْذِيرِ ، فَلِأَنْ يَعُودَ تَبْذِيرُهُ عَلَى مَالِهِ أَوْلَى مِنْ أَنْ يَعُودَ عَلَى مَالِ الصَّدَقَاتِ ، وَإِنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَقْدِرُ عَلَى قَضَاءِ دَيْنِهِ مِنْ نَاضٍّ وَلَا عَقَارٍ جَازَ أَنْ يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ : لِأَنَّهُ مِنْهُمْ فِي الْغُرْمِ وَالْحَاجَةِ . وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي مَعْصِيَةٍ ، فَإِنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا وَكَانَ مُصِرًّا عَلَى تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ : لِأَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعَانَ عَلَيْهَا بِتَحَمُّلِ الْغُرْمِ فِيهَا ، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَابَ مِنْهَا وَأَقْلَعَ عَنْهَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ مَعَ الْغِنَى بِمَالٍ نَاضٍّ أَوْ عَقَارٍ

: لِأَنَّ مَالَهُ فِي غُرْمِ الْمَعَاصِي أَوْلَى مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ ، وَفِي جَوَازِ إعْطَائِهِ مَعَ الْفَقْرِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يَجُوزُ

(405/340)

لِبَقَاءِ الْغُرْمِ مَعَ زَوَالِ الْمَعْصِيَةِ . وَالثَّانِي : لَا يَجُوزُ : لِأَنَّهُ غُرْمٌ سَبَبُهُ الْمَعْصِيَةُ .

(406/340)

فَصْلٌ : وَأَمَّا مَنْ أَدَانَ فِي مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ فَعَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي إصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي تَحَمُّلِ دِيَةٍ لِنَفْسٍ ، أَوْ طَرَفٍ كَفَّ بِهَا فِتْنَةً بَيْنَ قَبِيلَتَيْنِ وَقَطَعَ بِهَا حَرْبًا بَيْنَ طَائِفَتَيْنِ ، فَهَذَا يُعْطَى مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ مَعَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى النَّاضِّ وَالْعَقَارِ ، وَلَا يُرَاعَى فِيهِ فَقْرٌ وَلَا اعْتِبَارٌ لِرِوَايَةِ سُفْيَانَ عَنْ هَارُونَ بْنِ رِبَابٍ عَنْ كِنَانَةَ بْنِ نُعَيْمٍ عَنْ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ : أَنَّهُ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَهُ فَقَالَ : نُؤَدِّيهَا عَنْكَ وَنُخْرِجُهَا مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ ، يَا قَبِيصَةُ . إنَّ الْمَسْأَلَةَ حُرِّمَتْ إلَّا فِي ثَلَاثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ حَاجَةٌ فَاجْتَاحَتْ مَالَهُ

فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ فَيَسْأَلُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ وَفَاقَةٌ حَتَّى يَشْهَدَ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ فَقَدْ حَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قَوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ سُحْتٌ ، وَلِأَنَّ ذَلِكَ غُرْمٌ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، فَكَانَ أَوْلَى مِنَ الْغُرْمِ فِي الْمَصَالِحِ الْخَاصَّةِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ أَنْ يُعْطَى فِي الْغُرْمِ مَنْ حَاجَتِهِ إِلَيْنَا ، فَأَوْلَى أَنْ يُعْطَى فِي الْغُرْمِ مَنْ حَاجَتِنَا إِلَيْهِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي صَلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فِي

(407/340)

غُرْمِ مَالٍ كَفَّ بِهِ فِتْنَةً وَمَنَعَ بِهِ حَرْبًا ، فَيَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مَعَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى بِالْعَقَارِ ، وَفِي جَوَازِ إِعْطَائِهِ مَعَ الْغِنَى وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يَجُوزُ كَالْغُرْمِ فِي الدَّمِ لِمَا فِيهِمَا مِنْ قَطْعِ الْفِتْنَةِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : لَا يَجُوزُ : لِأَنَّ لِلدَّمِ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِ . وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ قَدْ أَدَانَ فِي مَصْلَحَةٍ لَا تَتَعَلَّقُ بِقَطْعِ فِتْنَةٍ وَلَا مَنْعِ حَرْبٍ كَرَجُلٍ أَدَانَ فِي عِمَارَةِ مَسْجِدٍ ، أَوْ جَامِعٍ ، أَوْ بِنَاءِ حِصْنٍ ، أَوْ قَنْطَرَةٍ ، أَوْ فَكِّ أَسْرَى ، أَوْ مَا جَرَى مَجْرَى ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ لِحَسْمِ فِتْنَةٍ ، فَهَذَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مَعَ الْفَقْرِ وَالْغِنَى بِالْعَقَارِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى مَعَ

الْغِنَى بِالنَّاضِّ : لِأَنَّهُ فِي النَّفْعِ مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَاقْتَضَى أَنْ يَكُونَ فِيهِ مُتَرَدِّدًا مُتَوَسِّطًا بَيْنَ الْحُكْمَيْنِ .

(408/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا وَصَفْنَا مِنْ أَحْكَامِ الْغَارِمِينَ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُزَادَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ عَلَى قَدْرِ دَيْنِهِ وَيَكُونُ الْغَارِمُ هُوَ الْمُتَوَلِّي لقبض سهمه لِقَبْضِهِ وَدَفْعِهِ إلَى غُرَمَائِهِ ، فَإِنْ دَفَعَ رَبُّ الْمَالِ أَوِ الْعَامِلُ حَقَّهُ إلَى غُرَمَائِهِ بِإِذْنِهِ جَازَ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ لَمْ يَجُزْ ، بِخِلَافِ الْمُكَاتَبِ الَّذِي يَجُوزُ دَفْعُ حَقِّهِ إلَى سَيِّدِهِ بِأَمْرِهِ وَغَيْرِ أَمْرِهِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُكَاتَبَ مَحْجُورٌ عَلَيْهِ فِي حَقِّ سَيِّدِهِ وَلَيْسَ الْغَارِمُ مَحْجُورًا عَلَيْهِ فِي دُيُونِ غُرَمَائِهِ ، فَلَوْ كَانَ الْغَارِمُ مَحْجُورًا عَلَيْهِ بِالْفَلَسِ فَدَفَعَ إلَى غُرَمَائِهِ بِالْحِصَصِ جَازَ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ : لِأَنَّهُ يَصِيرُ بِالْحَجْرِ فِي مَعْنَى الْمُكَاتَبِ ، فَلَوْ كَانَ دَيْنُ الْغَارِمِ مُؤَجَّلًا فَفِي جَوَازِ الدَّفْعِ إلَيْهِ وَجْهَانِ كَالْمُكَاتَبِ قَبْلَ حُلُولِ النَّجْمِ عَلَيْهِ .

فَصْلٌ : فَإِذَا أَخَذَ الْغَارِمُ سَهْمَهُ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَهُ فِي دَيْنِهِ وَهُوَ بِالْخِيَارِ فِي دَفْعِهِ إلَى غُرَمَائِهِ شَاءَ إلَّا أَنْ يَكُونَ غَارِمًا فِي حَمَالَةِ دِيَةٍ قَدْ أُعْطِيَ فِيهَا مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ مَعَ غَنَائِهِ ،

(409/340)

وَيَكُونُ عَلَيْهِ دَيْنَانِ : دَيْنُ الْحَمَالَةِ ، وَدَيْنٌ عَنْ مُعَامَلَتِهِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ مَا أَخَذَهُ فِي دَيْنِ الْحَمَالَةِ وَلَا يَصْرِفُهُ فِي دَيْنِ الْمُعَامَلَةِ ، وَلَوْ قَدْ أَخَذَ مَعَ الْفَقْرِ فِي دَيْنِ الْمُعَامَلَةِ كَانَ بِالْخِيَارِ فِي أَنْ يَصْرِفَهُ فِيمَا شَاءَ فِي دَيْنِ الْمُعَامَلَةِ أَوْ دَيْنِ الْحَمَالَةِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الشَّرْطَ فِي دَيْنِ الْمُعَامَلَةِ أَغْلَظُ : لِأَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّهُ إلَّا بِالْفَقْرِ ، وَدَيْنِ الْحَمَالَةِ أَخَفُّ : لِأَنَّهُ يَسْتَحِقُّهُ مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ ، فَجَازَ أَنْ يَصْرِفَ مَا غَلُظَ شَرْطُ اسْتِحْقَاقِهِ فِيمَا خَفَّ شَرْطُهُ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَصْرِفَ مَا خَفَّ شَرْطُ اسْتِحْقَاقِهِ فِيمَا غَلُظَ شَرْطُهُ ، فَإِذَا أَرَادَ الْغَارِمُ أَنْ يَصْرِفَ مَا أَخَذَهُ فِي غَيْرِ دَيْنِهِ لَمْ يَجُزْ لِاسْتِحْقَاقِهِ فِي الدَّيْنِ إلَّا أَنْ يَعْدَمَ قُوتَ يَوْمِهِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ قُوتَ يَوْمِهِ وَحْدَهُ : لِأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ فِي دَيْنِهِ كَالْمُفْلِسِ يُقْسَمُ مَالُهُ بَيْنَ غُرَمَائِهِ إلَّا قُوتَ يَوْمِهِ .

(410/340)

فَصْلٌ : وَإِذَا أَخَذَ الْغَرِيمُ سَهْمَهُ فَلَمْ يَصْرِفْهُ فِي دَيْنِهِ حَتَّى أُبْرِئَ مِنْهُ ، أَوْ قُضِيَ عَنْهُ ، أَوْ قَضَاهُ مِنْ غَيْرِهِ اسْتُرْجِعَ مِنْهُ كَمَا قُلْنَا فِي الْمُكَاتَبِ إلَّا أَنْ يَقْضِيَهُ مِنْ قَرْضٍ يَقْتَرِضُهُ ، فَلَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ : لِأَنَّ الْقَرْضَ مَا أَسْقَطَ عَنْهُ الدَّيْنَ وَإِنَّمَا انْتَقَلَ مِنْ مُسْتَحِقٍّ إلَى مُسْتَحِقٍّ ، فَصَارَ كَالْحِوَالَةِ ، فَلَوْ أُبْرِئَ مِنَ الدَّيْنِ أَوْ قَضَاهُ مِنْ غَيْرِ قَرْضٍ فَلَمْ يُسْتَرْجَعْ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ حَتَّى لَزِمَهُ

دَيْنٌ آخَرُ صَارَ بِهِ مِنَ الْغَارِمِينَ فَفِي اسْتِرْجَاعِهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : لَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ : لِأَنَّهُ لَوِ اسْتُرْجِعَ لَجَازَ أَنْ يُرَدَّ إلَيْهِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ يُسْتَرْجَعُ : لِأَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمُسْتَسْلِفِ لَهُ قَبْلَ غُرْمِهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

(411/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُقْبَلُ قَوْلُ ابْنِ السَّبِيلِ أَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ الْبَلَدِ لِأَنَّهُ غَيْرُ قَوِيٍّ حَتَّى تُعْلَمَ قُوَّتُهُ بِالْمَالِ ، وَمَنْ طَلَبَ بِأَنَّهُ يَغْزُو أُعْطِيَ ، وَمَنْ طَلَبَ بِأَنَّهُ غَارِمٌ أَوْ عَبْدٌ بِأَنَّهُ مُكَاتَبٌ لَمْ يُعْطَ إلَّا بِبَيِّنَةٍ : لِأَنَّ أَصْلَ النَّاسِ أَنَّهُمْ غَيْرُ غَارِمِينَ حَتَّى يُعْلَمَ غُرْمُهُمْ ، وَالْعَبِيدُ غَيْرُ مُكَاتَبِينَ حَتَّى تُعْلَمَ كِتَابَتُهُمْ ، وَمَنْ طَلَبَ بِأَنَّهُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ لَمْ يُعْطَ إلَّا بِأَنْ يُعْلَمَ ذَلِكَ وَمَا وَصَفْتُ أَنَّهُ يَسْتَحِقُّهُ بِهِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ وَالَّذِي قَصَدَهُ الشَّافِعِيُّ بِذَلِكَ أَنْ يُبَيِّنَ مَنْ يُقْبَلُ قَوْلُهُ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ فِي اسْتِحْقَاقِ الصَّدَقَةِ وَمَنْ لَا يُقْبَلُ قَوْلُهُ إلَّا بِبَيِّنَةٍ وَنَحْنُ نَذْكُرُ حُكْمَ كُلِّ صِنْفٍ مِنَ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ . أَمَّا الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ ، فَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ لَهُمْ غَنَاءٌ مُتَقَدِّمٌ قُبِلَ قَوْلُهُمْ فِي الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ مِنْ غَيْرِ بَيِّنَةٍ وَإِنْ عُلِمَ لَهُمْ مَالٌ مُتَقَدِّمٌ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُمْ فِي تَلَفِهِ وَفَقْرِهِمْ إلَّا بِبَيِّنَةٍ تَشْهَدُ لَهُمْ بِذَلِكَ ، وَأَمَّا الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا فَحَالُهُمْ فِي الْعَمَلِ أَشْهَرُ مِنْ أَنْ يَحْتَاجُوا إلَى بَيِّنَةٍ أَوْ تَحْلِيفِ يَمِينٍ . وَأَمَّا الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَلَا يُرْجَعُ إلَى قَوْلِهِمْ : لِأَنَّهُمْ مِمَّنْ تَدْعُو الضَّرُورَةُ

إلَيْهِمْ بِظُهُورِ الصَّلَاحِ وَتَأَلُّفِهِمْ . وَأَمَّا الْمُكَاتَبُونَ فَلَا يُقْبَلُ قَوْلُهُمْ فِي دَعْوَى الْكِتَابَةِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ تَشْهَدُ بِهَا وَبِالْبَاقِي مِنْهَا :

(412/340)

لِأَنَّ الْأَصْلَ أَنَّهُمْ غَيْرُ مُكَاتَبِينَ ، فَإِذَا تَصَادَقَ الْمُكَاتَبُ وَالسَّيِّدُ عَلَيْهَا وَعَلَى الْبَاقِي مِنْهَا فَفِيهِ وَجْهَانِ :

(413/340)

أَحَدُهُمَا : أَنَّ تَصَادُقَهُمَا يُغْنِي عَنْ الْبَيِّنَةِ بَعْدَ إحْلَافِهِمَا : لِأَنَّهُ قَدْ صَارَ بِالتَّصَادُقِ مُكَاتَبًا فِي الظَّاهِرِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ ذَلِكَ مِنْهُمَا مَعَ التَّصَادُقِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ لِأَنَّهُمَا قَدْ يَتَوَاطَآنِ عَلَى ذَلِكَ اجْتِلَابًا لِلنَّفْعِ . وَأَمَّا الْغَارِمُونَ ، فَمَنْ اسْتَدَانَ مِنْهُمْ فِي إصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ فَحَالُهُ فِيهِ أَظْهَرُ مِنْ أَنْ يُكَلَّفَ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ ، فَإِنْ شُكَّ فِي قَضَائِهِ الدَّيْنَ مِنْ مَالِهِ أُحْلِفَ : لِأَنَّ الْأَصْلَ بَقَاؤُهُ . وَمَنْ أَدَانَ فِي مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ لَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ فِي دَعْوَى الدَّيْنِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ : لِأَنَّ الْأَصْلَ بَرَاءَةُ الذِّمَّةِ ، فَإِنْ تَصَادَقَ الْغَارِمُ وَرَبُّ الدَّيْنِ كَانَ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْوَجْهَيْنِ . وَأَمَّا ابْنُ السَّبِيلِ

فَالْقَوْلُ قَوْلُهُ فِي فَقْرِهِ وَالْقَوْلُ قَوْلُهُ فِي إرَادَتِهِ لِلسَّفَرِ ، وَفِي إحْلَافِهِ عَلَى أَنَّهُ مُرِيدٌ لِلسَّفَرِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يَحْلِفُ عَلَى إرَادَةِ السَّفَرِ وَلَا يُعْطَى إلَّا بَعْدَ يَمِينِهِ ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي إسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : لَا يُحْلَفُ : لِأَنَّهُ إنْ لَمْ يُسَافِرْ اسْتُرْجِعَ مِنْهُ ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَأَمَّا الْغَازِي فَيُقْبَلُ قَوْلُهُ فِيمَا يُرِيدُ أَنْ يَسْتَأْنِفَهُ مِنْ غَزْوِهِ وَهَلْ يَحْلِفُ عَلَى إرَادَةِ الْغَزْوِ أَمْ لَا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : يَحْلِفُ وَهُوَ قَوْلُ الْمَرْوَزِيِّ . وَالثَّانِي : لَا يَحْلِفُ وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ .

مَسْأَلَةٌ بيان كيفية إعطاء سَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ

(414/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَسَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا وَصَفْتُ يُعْطَى مِنْهُ مَنْ أَرَادَ الْغَزْوَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ فَقِيرًا كَانَ أَوْ غَنِيًّا ، وَلَا يُعْطَى مِنْهُ غَيْرُهُمْ إلَّا أَنْ يُحْتَاجَ إلَى الدَّفْعِ عَنْهُمْ فَيُعْطَاهُ مَنْ دَفَعَ عَنْهُمُ الْمُشْرِكِينَ : لِأَنَّهُ يَدْفَعُ عَنْ جَمَاعَةِ أَهْلِ الْإِسْلَامِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، سَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ مَصْرُوفٌ فِي الْغَزَاةِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَمَالِكٍ . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : وَهُوَ مَصْرُوفٌ فِي الْحَجِّ ، وَبِهِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ اسْتِدْلَالًا بِمَا رُوِيَ أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ نَاقَةً لَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَرَادَتِ امْرَأَتُهُ أَنْ تَحُجَّ ، فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ : ارْكَبِيهَا

فَإِنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَدَلِيلُنَا هُوَ أَنَّ سَبِيلَ اللَّهِ إذَا أُطْلِقَ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْغَزْوِ وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى :

(415/340)

وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ [التَّوْبَةِ : 20] ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا [الصَّفِّ : 4] . وَرَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلَّا لِخَمْسَةٍ : لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِأَنَّ مَالَ الصَّدَقَاتِ مَصْرُوفٌ فِي ذَوِي الْحَاجَاتِ وَلَيْسَ الْحَجُّ مِنْهَا ، وَلِأَنَّ مَالَ الصَّدَقَاتِ لَا يَنْصَرِفُ إلَّا فِي الْجِهَاتِ الْمَالِكَةِ فَخَرَجَ الْحَجُّ مِنْهَا ، وَلِأَنَّ الْحَجَّ وَإِنْ كَانَ عَنْ رَبِّ الْمَالِ ، فَلَا يَجِبُ إلَّا مَعَ عَجْزِهِ وَفِي غَيْرِ زَكَاتِهِ مِنْ أَمْوَالِهِ ، وَإِنْ كَانَ عَنْ غَيْرِهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُصْرَفَ فِيهِ زَكَاةُ غَيْرِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي الْحُجَّاجِ أُعْطُوا إمَّا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ ، أَوْ مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ ، فَبَطَلَ بِذَلِكَ مَا قَالُوهُ ، وَلَيْسَ يَمْتَنِعُ مَا جَاءَ بِهِ الْخَبَرُ مِنْ أَنَّ الْحَجَّ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ لِقَرِينَةٍ ، وَإِنْ كَانَ إطْلَاقُهُ يَتَنَاوَلُ الْجِهَادَ .

فَصْلٌ الْغُزَاةُ ضَرْبَانِ الْمُرْتَزِقَةُ أَهْلُ الصَّدَقَاتِ

(416/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ سَهْمَ سَبِيلِ اللَّهِ مَصْرُوفٌ فِي الْغَزَاةِ ، فَالْغُزَاةُ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ هُمْ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ وَهُمُ الْمُرْتَزِقَةُ مِنْ أَهْلِ الدِّيوَانِ ؛ الصدقات لهم فَهُوَ لَا يَأْخُذُ أَرْزَاقَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَوْا مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : هُمْ أَهْلُ الصَّدَقَاتِ وَهُمُ الَّذِينَ لَا أَرْزَاقَ لَهُمْ إنْ أَرَادُوا غَزْوًا وَإِنْ لَمْ يُرِيدُوا قَعَدُوا . وَقَدْ سَمَّاهُمُ الشَّافِعِيُّ أَعْرَابًا فَهُمْ غُزَاةُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَوْا مِنْهَا مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَوْا إلَّا مَعَ الْفَقْرِ وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ لَمْ يُعْطَوْا اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ، وَلِأَنَّ مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ تُدْفَعَ إلَيْهِ الصَّدَقَةُ كَالْأَصْنَافِ الْبَاقِيَةِ . وَدَلِيلُنَا رِوَايَةُ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلَّا لِخَمْسَةٍ : لِغَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ لِعَامِلٍ عَلَيْهَا ، أَوْ لِغَارِمٍ ، أَوْ لِرَجُلٍ لَهُ جَارٌ مِسْكِينٌ فَتَصَدَّقَ عَلَى الْمِسْكِينِ فَأَهْدَى الْمِسْكِينُ إلَى الْغَنِيِّ وَلِأَنَّ مَنْ أَخَذَ الصَّدَقَةَ لِحَاجَتِنَا إلَيْهِ جَازَ أَنْ يَأْخُذَهَا مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ كَالْعَامِلِ . فَإِنْ قِيلَ : فَالْعَامِلُ يَأْخُذُ أَجْرَهُ : لِأَنَّهُ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ . قِيلَ : هُوَ صَدَقَةٌ ، وَإِنْ كَانَ فِي

مُقَابَلَةِ عَمَلٍ لِتَحْرِيمِهِ عَلَى ذَوِي الْقُرْبَى ، وَعَلَى أَنَّ مَا يَأْخُذُهُ الْغَازِي فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ وَهُوَ الْجِهَادُ ، وَلِذَلِكَ يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ إنْ لَمْ يُجَاهِدْ . فَأَمَّا الْخَبَرُ فَمَخْصُوصُ الْعُمُومِ . وَأَمَّا الْقِيَاسُ فَغَيْرُ مُسَلَّمِ الْأَصْلِ .

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ مَا وَصَفْنَا أُعْطِيَ الْغَازِيَ مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ قَدَرَ كِفَايَتِهِ إنْ كَانَ الْمَالُ مُتَّسِعًا وَكِفَايَتُهُ تُعْتَبَرُ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : قُرْبُ الْمَغْزَى وَبُعْدُهُ .

(418/340)

وَالثَّانِي : أَنْ يَكُونَ فَارِسًا ، أَوْ رَاجِلًا ، فَإِذَا أُعْطِيَ ذَلِكَ فَلَمْ يَغْزُ اسْتُرْجِعَ مِنْهُ ، وَإِنْ غَزَا فَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ لَمْ تُسْتَرْجَعْ : لِأَنَّ مَا أَخَذَهُ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ قَدْ عَمِلَهُ ، فَلَوْ خَرَجَ لِلْغَزْوِ ثُمَّ عَادَ قَبْلَ لِقَاءِ الْعَدُوِّ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَرْجِعَ قَبْلَ دُخُولِ أَرْضِ الْعَدُوِّ ، فَهَذَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ جَمِيعُ مَا أَخَذَهُ وَلَا يُعْطَى مِنْهُ قَدْرَ نَفَقَتِهِ : لِأَنَّ الْمَفْقُودَ مِنْ غَزْوِهِ قَدْ فَوَّتَهُ بِعَوْدِهِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَرْجِعَ بَعْدَ دُخُولِ أَرْضِ الْعَدُوِّ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ وَقْفَةٌ مَعَ الْمُشْرِكِينَ قَابَلَ فِيهَا الْمُجَاهِدُونَ فَتَأَخَّرَ هَذَا عَنْ حُضُورِهَا ، فَهَذَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ : لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْغَزْوِ لِقَاءُ الْعَدُوِّ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَلَّا تَكُونَ وَقْفَةٌ وَلَا حَارَبَ

الْمُجَاهِدُونَ فِيهَا أَحَدًا لِبُعْدِ الْمُشْرِكِينَ عَنْهُمْ ، فَهَذَا لَا يُسْتَرْجَعُ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ : لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِغَزْوِهِمْ هُوَ الِاسْتِيلَاءُ عَلَى دِيَارِهِمْ وَقَدْ وُجِدَ لِبُعْدِهِمْ .

مَسْأَلَةٌ ابْنُ السَّبِيلِ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ الَّذِي يُرِيدُ الْبَلَدَ غَيْرَ بَلَدِهِ لِأَمْرٍ يَلْزَمُهُ

(419/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَابْنُ السَّبِيلِ عِنْدِي ابْنُ السَّبِيلِ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ الَّذِي يُرِيدُ الْبَلَدَ غَيْرَ بَلَدِهِ لِأَمْرٍ يَلْزَمُهُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ . وَبَنُو السَّبِيلِ هُمْ صِنْفٌ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَبَنُو السَّبِيلِ هُمُ الْمُسَافِرُونَ : لِأَنَّ السَّبِيلَ الطَّرِيقُ ، سُمُّوا بِهَا لِسُلُوكِهِمْ لَهَا وَهُمْ ضَرْبَانِ : مُجْتَازٌ ، وَمُنْشِئٌ . فَأَمَّا الْمُجْتَازُ فَهُوَ الْمَارُّ فِي سَفَرِهِ بِبَلَدِ الصَّدَقَةِ ، وَأَمَّا الْمُنْشِئُ فَهُوَ الْمُبْتَدِئُ لِسَفَرِهِ عَنْ بَلَدِ الصَّدَقَةِ وَهُمَا سَوَاءٌ فِي الِاسْتِحْقَاقِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ : ابْنُ السَّبِيلِ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ هُوَ الْمُجْتَازُ دُونَ الْمُنْشِئِ اسْتِدْلَالًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَابْنِ السَّبِيلِ ، يَعْنِي : ابْنَ الطَّرِيقِ . وَهَذَا يَنْطَبِقُ عَلَى الْمُسَافِرِ الْمُجْتَازِ دُونَ الْمُنْشِئِ الَّذِي لَيْسَ بِمُسَافِرٍ مُجْتَازٍ . وَدَلِيلُنَا هُوَ أَنَّ ابْنَ السَّبِيلِ يُعْطَى لِمَا يَبْتَدِؤُهُ مِنَ السَّفَرِ لَا لِمَا مَضَى مِنْهُ ، فَاسْتَوَى فِيهِ الْمُجْتَازُ وَالْمُنْشِئُ : لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُبْتَدِئٌ : لِأَنَّ الْمُسَافِرَ لَوْ دَخَلَ بَلَدًا أَوْ نَوَى إِقَامَةَ خَمْسَةَ عَشَرَ يَوْمًا صَارَ فِي

حُكْمِ الْمُقِيمِينَ مِنْ أَهْلِهِ وَيَصِيرُ عِنْدَ إِرَادَةِ الْخُرُوجِ كَالْمُنْشِئِ ثُمَّ يَجُوزُ بِوِفَاقٍ ، فَكَذَا كُلُّ مُقِيمٍ مُنْشِئٌ ، وَفِيهِ انْفِصَالٌ عَنِ الِاسْتِدْلَالِ . فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يُسَمَّى مَنْ لَمْ يُسَافِرْ مُسَافِرًا ؟ قِيلَ : كَمَا يُسَمَّى مَنْ لَمْ يَحُجَّ حَاجًّا ، وَمِثْلُ

(420/340)

ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ [الْبَقَرَةِ : 282] .

(421/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الْمُجْتَازَ وَالْمُنْشِئَ سَوَاءٌ ، فَلَا يَخْلُو حَالُهُ فِيمَا يُنْشِئُهُ مِنْ سَفَرٍ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : إمَّا أَنْ يَكُونَ فِي طَاعَةٍ ، أَوْ يَكُونَ فِي مَعْصِيَةٍ ، أَوْ يَكُونَ مُبَاحًا ، فَإِنْ كَانَ سَفَرُهُ طَاعَةً كَالْحَجِّ وَطَلَبِ الْعِلْمِ وَزِيَارَةِ الْوَالِدَيْنِ ابن السبيل أُعْطِيَ مِنْ سَهْمِ ابْنِ السَّبِيلِ مَعُونَةً عَلَى سَفَرِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ سَفَرُهُ مَعْصِيَةً كَالسَّفَرِ لِقَطْعِ الطَّرِيقِ وَإِتْيَانِ الْفُجُورِ ، ابن السبيل فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى وَلَا يُعَانُ عَلَى مَعْصِيَةٍ كَمَا يُمْنَعُ مِنْ رُخَصِ سَفَرِهِ ، فَإِنْ تَابَ الْعَاصِي فِي سَفَرِهِ صَارَ بَعْدَ التَّوْبَةِ كَالْمُبْتَدِئِ لِلسَّفَرِ فَيُعْطَى نَفَقَةَ بَاقِي سَفَرِهِ بَعْدَ تَوْبَتِهِ ،

وَإِنْ كَانَ سَفَرُهُ مُبَاحًا ابن السبيل فَعَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِ حَاجَةٍ كَالسَّفَرِ إلَى نُزْهَةٍ وَتَفَرُّجٍ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى وَإِنْ أُبِيحَتْ لَهُ الرُّخَصُ : لِأَنَّ مَالَ الصَّدَقَاتِ مَصْرُوفٌ إلَى ذَوِي الْحَاجَاتِ وَلَيْسَ هَذَا مِنْهَا ، وَلَكِنْ لَوْ سَافَرَ لِلنُّزْهَةِ بِمَالِهِ ثُمَّ انْقَطَعَتْ بِهِ النَّفَقَةُ لِعَوْدِهِ جَازَ أَنْ يُعْطَى لِحَاجَتِهِ وَضَرُورَتِهِ . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ لِحَاجَةٍ مَاسَّةٍ كَالسَّفَرِ فِي طَلَبِ غَرِيمٍ هَرَبَ أَوْ عَبْدٍ أَبَقَ ، أَوْ جَمَلٍ شَرَدَ ، فَهَذَا يُعْطَى لِسَدِّ حَاجَتِهِ . وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ يَكُونَ لِحَاجَةٍ لَكِنَّهَا غَيْرُ مَاسَّةٍ كَالسَّفَرِ فِي تِجَارَةٍ فَفِي جَوَازِ إعْطَائِهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : يُعْطَى لِوُجُودِ الْحَاجَةِ . وَالثَّانِي : لَا يُعْطَى : لِأَنَّهُ طَالِبٌ

(422/340)

لِلِاسْتِزَادَةِ .

(423/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا ثَبَتَ مَنْ يَجُوزُ إعْطَاؤُهُ مَنْ بَنِي السَّبِيلِ ، من الزكاة فَلَا يَخْلُو إمَّا أَنْ يَكُونَ مُنْشِئًا لِلسَّفَرِ ، أَوْ مُجْتَازًا فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ مُنْشِئًا لِسَفَرِهِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطَى إلَّا مَعَ الْفَقْرِ ، وَهُوَ بِالْخِيَارِ

بَيْنَ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَمِنْ سَهْمِ ابْنِ السَّبِيلِ ، وَإِنْ كَانَ مُجْتَازًا فِي سَفَرِهِ جَازَ أَنْ يَأْخُذَ مَعَ الْعَدَمِ فِي سَفَرِهِ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْخُذَ إلَّا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ وَلَا يَأْخُذُ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ لِمُرَاعَاةِ الْجِوَارِ فِي الْفَقْرِ وَلَيْسَ الْمُجْتَازُ جَارًا ، ثُمَّ يُعْطَى عِنْدَ اتِّسَاعِ الْمَالِ بِحَسَبِ مَسَافَةِ سَفَرِهِ ، فَإِنْ أَرَادَ الْعَوْدَ أُعْطِيَ نَفَقَةَ ذَهَابِهِ وَعَوْدِهِ . وَنَفَقَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ هِيَ مُقَامُ الْمُسَافِرِ فِي بِلَادِ سَفَرِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُرِدِ الْعَوْدَ أُعْطِيَ نَفَقَةَ الذَّهَابِ وَحْدَهُ وَلَمْ يُعْطَ نَفَقَةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِانْتِهَاءِ سَفَرِهِ بِالْقُدُومِ ، فَإِنْ قَصَّرَ بُعْدَ الْمَسَافَةِ فِي نَفَقَتِهِ وَضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ حَتَّى بَقِيَتْ مَعَهُ بَقِيَّةٌ بَعْدَ انْتِهَاءِ سَفَرِهِ اسْتُرْجِعَتْ مِنْهُ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْغَازِي حَيْثُ لَمْ تُسْتَرْجَعْ مِنْهُ بَقِيَّةُ نَفَقَتِهِ أَنَّ الْغَازِيَ كَالْمُعَاوَضِ عَلَى غَزْوِهِ عَنَاءً ؛ فَلَمْ يَلْزَمْهُ رَدُّ الْبَاقِي لِاسْتِكْمَالِ الْعَمَلِ ، وَالْمُسَافِرُ مُعَانٌ عَلَى سَفَرِهِ فَلَزِمَهُ رَدُّ مَا زَادَ عَلَى مَعُونَتِهِ ، فَإِنْ أَخَذَ ابْنُ السَّبِيلِ نَفَقَةَ سَفَرِهِ ثُمَّ أَفَادَ قَدْرَ نَفَقَتِهِ اسْتُرْجِعَ مِنْهُ مَا أَخَذَ

(424/340)

، وَلَوْ أَخَذَ الْفَقِيرُ ثُمَّ أَفَادَ مَا زَالَ بِهِ فَقْرُهُ لَمْ يُسْتَرْجَعْ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ ابْنَ السَّبِيلِ يُعْطَى لِأَمْرٍ مُنْتَظَرٍ فَاعْتُبِرَتْ حَالُهُ فِيمَا بَعُدَ . وَالْفَقِيرُ يُعْطَى لِلْحَالِ الَّتِي هُوَ فِيهَا فَلَمْ تُعْتَبَرْ حَالُهُ مِنْ بُعْدِهِ ، وَلَوْ أَنَّ ابْنَ السَّبِيلِ أَخَذَ نَفَقَةَ سَفَرِهِ إلَى غَايَةٍ

قَدْرُهَا مِائَةُ فَرْسَخٍ فَسَافَرَ شَطْرَ الْمَسَافَةِ ، ثُمَّ قَطَعَ سَفَرَهُ ، نَظَرْنَا فِي نَفَقَتِهِ ، فَإِنْ كَانَ أَنْفَقَ فِي شَطْرِ الْمَسَافَةِ جَمِيعَ نَفَقَتِهِ نُظِرَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَلِكَ لِغَلَاءِ سِعْرٍ ، أَوْ زِيَادَةِ مُؤْنَةٍ لَمْ يُسْتَرْجَعْ مِنْهُ ، وَإِنْ كَانَ لِسُرْفٍ فِي شَهْوَةٍ وَإِكْثَارٍ اسْتُرْجِعَتْ مِنْهُ نَفَقَةُ الْبَاقِي مِنْ سَفَرِهِ كَمَا لَوْ لَمْ يُسَافِرْ وَأَنْفَقَ فِي ذَلِكَ فِي مُقَامِهِ اسْتُرْجِعَ مِنْهُ جَمِيعًا : لِأَنَّهُ أَخَذَهَا لِيَسْتَقْبِلَ بِهَا مَا لَمْ يَفْعَلْهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

باب كيف تفريق قسم الصدقات

مَسْأَلَةٌ يَنْبَغِي لِلسَّاعِي أَنْ يَأْمُرَ بِإِحْصَاءِ أَهْلِ السُّهْمَانِ فِي عَمَلِهِ

(425/340)

باب كيف تفريق قسم الصدقات مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ – : يَنْبَغِي لِلسَّاعِي أَنْ يَأْمُرَ بِإِحْصَاءِ أَهْلِ السُّهْمَانِ فِي عَمَلِهِ حَتَّى يَكُونَ فَرَاغُهُ مِنْ قَبْضِ الصَّدَقَاتِ بَعْدَ تَنَاهِي أَسْمَائِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ وَحَالَاتِهِمْ وَمَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهِ ، وَيُحْصِيَ مَا صَارَ فِي يَدَيْهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ فَيَعْزِلُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ بِقَدْرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ ، فَإِنْ جَاوَزَ سَهْمَ الْعَامِلِينَ رَأَيْتُ أَنْ يُعْطِيَهُمْ سَهْمَ الْعَامِلِينَ وَيَزِيدَهُمْ قَدْرَ أُجُورِ أَعْمَالِهِمْ مِنْ سَهْمِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ ، وَلَوْ أَعْطَاهُمْ ذَلِكَ مِنَ السُّهْمَانِ مَا رَأَيْتُ ذَلِكَ ضَيِّقًا ، أَلَا تَرَى أَنَّ مَالَ

الْيَتِيمِ يَكُونُ بِالْمَوْضِعِ فَيُسْتَأْجَرُ عَلَيْهِ إذَا خِيفَ ضَيْعَتُهُ مَنْ يَحُوطُهُ وَإِنْ أَتَى ذَلِكَ عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُ (قَالَ الْمُزَنِيُّ) هَذَا أَوْلَى بِقَوْلِهِ لِمَا احْتَجَّ بِهِ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ إذَا تَوَجَّهَ عَامِلُ الصَّدَقَاتِ إلَى عَمَلِهِ فِي جِبَايَةِ الصَّدَقَاتِ وَتَفْرِيقِهَا ، المسحب للساعي فَيَنْبَغِي لَهُ مَعَ ابْتِدَاءِ تَشَاغُلِهِ بِجِبَايَتِهَا أَنْ يَسْتَنِيبَ مَنْ يَتَعَرَّفُ لَهُ أَحْوَالَ أَهْلِ السُّهْمَانِ حَتَّى يَعْرِفَ أَهْلَ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ فَيُثْبِتُ كُلَّ وَاحِدٍ بِاسْمِهِ وَنَسَبِهِ وَحِلْيَتِهِ ، وَإِنَّمَا أَثْبَتَ الْأَنْسَابَ وَالْحِلَى لِئَلَّا يَأْخُذَ الْوَاحِدُ مِنْ صَدَقَةٍ مَرَّتَيْنِ فَيُمَيِّزُ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهُمْ عَلَى مَا وَصَفْنَا لِيَعْلَمَ أَعْدَادَ الْأَصْنَافِ وَعَدَدَ كُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمَا

(426/340)

وَيَكُونُ فَرَاغُهُ مِنْ تَفْرِقَةِ ذَلِكَ مَعَ فَرَاغِهِ مِنْ جِبَايَةِ الصَّدَقَاتِ حَتَّى لَا يَتَأَخَّرَ عَنْ أَهْلِهَا وَجُودُهُمْ وَلَا يَلْزَمُ لَهَا مَؤُنَةٌ بِالْإِمْسَاكِ وَلَا تَكُونُ مُعَرَّضَةً لِلتَّلَفِ بِالِاحْتِبَاسِ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَخْلُ أَنْ يَكُونَ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ جَمِيعُ تِلْكَ الْأَصْنَافِ أَوْ بَعْضُهُمْ ، فَإِنْ كَانَ بِهَا جَمِيعُ الْأَصْنَافِ قَسَمَ الصَّدَقَةَ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَسْهُمٍ مُتَسَاوِيَةٍ وَلَا يُفَضِّلُ بَعْضَ الْأَصْنَافِ عَلَى بَعْضٍ وَإِنْ تَفَاضَلُوا فِي الْحَاجَةِ وَالْكَثْرَةِ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَضَافَهَا إلَيْهِمْ بِلَامِ التَّمْلِيكِ وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ بِوَاوِ التَّشْرِيكِ فَاقْتَضَى أَنْ يَكُونُوا فِيهَا سَوَاءً ، فَإِنْ وَجَدَ خَمْسَةَ أَصْنَافٍ وَعَدِمَ ثَلَاثَةً قَسَمَ

الصَّدَقَةَ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ ، وَإِنْ وَجَدَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ وَعَدِمَ خَمْسَةً قَسَمَ الصَّدَقَةَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ ، فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَأَوَّلُ سَهْمٍ يَبْدَأُ بِقَسْمِهِ الساعي على الصدقات سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا لِأَمْرَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ عَلَى عَمَلٍ ؛ فَصَارَتْ كَالْمُعَاوَضَةِ وَغَيْرُهُ مُوَاسَاةٌ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ مُقَدَّرٌ بِأُجُورِهِمْ مِنْ زِيَادَةٍ وَلَا نُقْصَانَ فَهُوَ قَدْرُ حَقِّهِمْ ، أَوْ يَكُونُونَ أَكْثَرَ مِنْ أُجُورِهِمْ فَيُعْطَوْا مِنْهُ قَدْرَ أُجُورِهِمْ وَيُرَدُّ الْبَاقِي عَلَى سِهَامِ أَهْلِ السُّهْمَانِ بِالسَّوِيَّةِ ، أَوْ يَكُونُ أَقَلَّ مِنْ أُجُورِهِمْ فَيَجِبُ أَنْ يُتَمَّمَ لَهُمْ أُجُورَهُمْ ، وَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ تَمَامُهَا ؟ قَالَ الشَّافِعِيُّ : هَاهُنَا

(427/340)

أَعْطَاهُمْ مِنْ سَهْمِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ ، فَلَوْ أَعْطَاهُمْ مِنَ السُّهْمَانِ مَا رَأَيْتُ ذَلِكَ ضِيقًا فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ : أَحَدُهَا : يَخْرُجُ ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يُتَمِّمَهَا مِنْ سِهَامِ أَهْلِ السُّهْمَانِ لِاخْتِصَاصِهِمْ بِالْعَمَلِ فِيهَا . وَالثَّانِي : يُتَمِّمُهَا مِنْ مَالِ الْمَصَالِحِ وَهُوَ سَهْمُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ : لِأَنَّ ذَلِكَ مِنْ جُمْلَتِهَا ، وَلِئَلَّا يُفَضَّلُوا عَلَى أَهْلِ السُّهْمَانِ . وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : أَنْ لَيْسَ ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ ، وَلَكِنْ لِلْإِمَامِ اجْتِهَادُ رَأْيِهِ فِي أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ فَأَيُّهُمَا أَدَّاهُ اجْتِهَادُهُ

إِلَيْهِ كَانَ مَذْهَبَنَا . وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى اخْتِلَافِ حَالَيْنِ ، فَإِنْ كَانَ فِي أَهْلِ السُّهْمَانِ تَمَاسُكٌ يُقْنِعُهُمُ الْبَاقِي بَعْدَ أُجُورِ الْعَامِلِينَ تُمِّمَتْ أُجُورُهُمْ مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ ، وَإِنْ كَانُوا ذَوِي فَاقَةٍ لَا يَتَمَاسَكُونَ بِمَا يَبْقَى تُمِّمَتْ أُجُورُهُمْ مِنْ مَالِ الْمَصَالِحِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(428/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَتُفَضُّ جَمِيعُ السُّهْمَانِ عَلَى أَهْلِهَا كَمَا أَصِفُ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَانَ الْفُقَرَاءُ عَشَرَةً وَالْمَسَاكِينُ عِشْرِينَ وَالْغَارِمُونَ خَمْسَةً وَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ ، وَكَانَ سُهْمَانُهُمُ الثَّلَاثَةُ مِنْ جَمِيعِ الْمَالِ ثَلَاثَةَ آلَافٍ فَلِكُلِّ صِنْفٍ أَلْفٌ ، فَإِنْ كَانَ الْفُقَرَاءُ يَغْتَرِفُونَ سَهْمَهُمْ كَفَافًا يَخْرُجُونَ بِهِ مِنْ حَدِّ الْفَقْرِ إلَى أَدْنَى الْغِنَى أُعْطَوْهُ ، وَإِنْ كَانَ يُخْرِجُهُمْ مِنْ حَدِّ الْفَقْرِ إلَى أَدْنَى الْغِنَى أَقَلُّ وَقَفَ الْوَالِي مَا بَقِيَ مِنْهُ ، ثُمَّ يَقْسِمُ عَلَى الْمَسَاكِينِ سَهْمَهُمْ هَكَذَا وَعَلَى الْغَارِمِينَ سَهْمَهُمْ هَكَذَا وَإِذَا خَرَجُوا مِنْ اسْمِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ فَصَارُوا إلَى أَدْنَى اسْمِ الْغِنَى وَمِنَ الْغُرْمِ فَبَرِئَتْ ذِمَمُهُمْ وَصَارُوا غَيْرَ غَارِمِينَ فَلَيْسُوا مِنْ أَهْلِهِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ مَالَ الصَّدَقَاتِ مَقْسُومٌ عَلَى الْمَوْجُودِينَ مِنْ أَهْلِهَا ، فَإِنْ كَمَلُوا فِي سهمانهم (أهل الصدقات) قُسِمَتْ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَسْهُمٍ وَإِنْ قَلُّوا قُسِمَتْ عَلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ ، فَإِنْ كَانَ الْمَوْجُودُونَ بَعْدَ الْعَامِلِينَ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ : الْفُقَرَاءُ وَالْغَارِمُونَ

وَالْمَسَاكِينُ ، قُسِمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ مُتَسَاوِيَةٍ ، سَوَاءً تَسَاوَى أَصْنَافٌ فِي الْأَعْدَادِ وَالْحَاجَةِ أَوْ تَفَاضَلُوا ، فَإِذَا كَانَ الْفُقَرَاءُ عَلَى الْمَثَلِ الَّذِي صَوَّرَهُ الشَّافِعِيُّ عَشْرَةً وَالْمَسَاكِينُ عِشْرِينَ وَالْغَارِمُونَ خَمْسَةً وَقَدْ قُسِّمَتِ الصَّدَقَةُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ مُتَسَاوِيَةٍ ،

(429/340)

فَكَانَ كُلُّ سَهْمٍ مِنْهَا أَلْفَ دِرْهَمٍ قُسِّمَ سَهْمُ الْفُقَرَاءِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ الْأَلْفُ عَلَى قَدْرِ حَاجَاتِهِمْ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا تَفَاضَلَتْ حَاجَاتُهُمْ وَرُبَّمَا تَسَاوَتْ ، فَيُقَسَّمُ عَلَى الْحَاجَةِ لَا عَلَى الْعَدَدِ ، وَكَذَلِكَ سَهْمُ الْمَسَاكِينِ يُقَسَّمُ بَيْنَهُمْ عَلَى قَدْرِ حَاجَاتِهِمْ وَيُقَسَّمُ سَهْمُ الْغَارِمِينَ عَلَى قَدْرِ دُيُونِهِمْ ، كَمَا يُقَسَّمُ مَالُ الْمُفْلِسِ بَيْنَ غُرَمَائِهِ عَلَى قَدْرِ دُيُونِهِمْ لَا عَلَى أَعْدَادِ رُءُوسِهِمْ . فَإِنْ قِيلَ : فَأَيُّهُمْ يَبْدَأُ بِالْعَطَاءِ قَبْلَ أَنْ يُعَجِّلَ حُضُورُ أَحَدِهِمْ وَتَأَخَّرَ الْبَاقُونَ بَدَأَ بِمَنْ تَعَجَّلَ حُضُورُهُ عَلَى مَنْ تَأَخَّرَ وَإِنْ حَضَرُوا جَمِيعًا ، فَقَدْ قِيلَ : يَبْدَأُ بِأَشَدِّهِمْ حَاجَةً وَأَمَسِّهِمْ

(430/340)

ضَرُورَةً ، وَقِيلَ : يَبْدَأُ بِمَنْ إِذَا فِيضَ عَلَيْهِمْ سَهْمُهُمْ بَقِيَتْ مِنْهُ بَقِيَّةٌ لِتُقْضَى عَلَى الْبَاقِينَ قَبْلَ الْقِسْمَةِ ، فَلَا يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَى اسْتِئْنَافِ قِسْمَتِهَا مِنْهُ . وَقِيلَ : يَبْدَأُ بِمَنْ بَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ عَلَى تَرْتِيبِهِمْ مصارف الزكاة فِيهَا ، فَأَمَّا الصِّنْفُ فَيَبْدَأُ بِأَسْبَقِ أَهْلِهِ ، فَإِنْ جَاءُوا مَعًا بَدَأَ بِأَمَسِّهِمْ حَاجَةً وَضَرُورَةً ، فَإِنْ تَسَاوَوْا بَدَأَ بِمَنْ يَرَى ، هَذَا كُلُّهُ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى وَبِأَيِّهِمْ بَدَأَ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْأَعْيَانِ جَازَ ، ثُمَّ يُقَسَّمُ سَهْمُ الْفُقَرَاءِ وَهُوَ أَلْفٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عَشَرَةٌ بِحَسَبِ حَاجَاتِهِمْ ، وَيُقَسَّمُ سَهْمُ الْمَسَاكِينِ وَهُوَ أَلْفٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ عِشْرُونَ بِحَسَبِ حَاجَاتِهِمْ ، وَيُقَسَّمُ سَهْمُ الْغَارِمِينَ وَهُوَ أَلْفٌ عَلَيْهِمْ وَهُمْ خَمْسَةٌ بِحَسَبِ دُيُونِهِمْ ، مِثَالُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ دَيْنُ أَحَدِهِمْ مِائَةَ دِرْهَمٍ ، وَدَيْنُ الْآخَرِ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ ، وَدَيْنُ الثَّالِثِ ثَلَاثَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَدَيْنُ الرَّابِعِ أَرْبَعَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، وَدَيْنُ الْخَامِسِ خَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ ، فَيَكُونُ مَبْلَغُ دَيْنِهِمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَخَمْسَمِائَةٍ ، وَسَهْمُهُمْ أَلْفُ دِرْهَمٍ هِيَ ثُلُثَا دَيْنِهِمْ فَيُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ دَيْنِهِ ثُلُثَهُ ، وَلَوْ كَانَ سَهْمُهُمْ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَخَمْسَمِائَةِ دِرْهَمٍ لَكَانَ كَافِيًا لِجَمِيعِهِمْ فَيُعْطِي كُلَّ وَاحِدٍ جَمِيعَ دَيْنِهِ ، وَلَوْ كَانَ سَهْمُهُمْ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ أُعْطِيَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ قَدْرَ دَيْنِهِ وَحُبِسَ الْبَاقِي عَنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ بِالْفُقَرَاءِ

(431/340)

وَالْمَسَاكِينِ .

(432/340)

فَصْلٌ : فَإِذَا قَسَّمَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ كَمَا وَصَفْنَا لَمْ يَخْلُ حَالُهُمْ مِنْ سِتَّةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ جَمِيعِهِمْ وَفْقَ كِفَايَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ فَقَدِ اسْتَوْفَوْهَا وَخَرَجُوا بِهَا ، إنِ اسْتَحَقُّوا مِثْلَهَا مِنْ غَيْرِهَا . وَالْقِسْمُ الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ جَمِيعِهِمْ مُقَصِّرَةً عَنْ كِفَايَاتِهِمْ ، فَإِذَا قَسَّمَهَا فِيهِمْ كَانَ مِنَ الْبَاقِي مِنْ كِفَايَاتِهِمْ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ فِيمَا يَأْتِي مِنْهَا حَتَّى يَسْتَوفُوا قَدْرَ الْكِفَايَاتِ إنْ أَمْكَنَتْ . وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ جَمِيعِهِمْ زَائِدَةً عَلَى قَدْرِ كِفَايَاتِهِمْ ، فَإِذَا أَخَذُوا مِنْهَا قَدْرَ كِفَايَاتِهِمْ نُقِلَ الْفَاضِلُ عَنْهُمْ إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ . وَالْقِسْمُ الرَّابِعُ : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ بَعْضِهِمْ وَفْقَ كِفَايَاتِهِمْ ، وَسِهَامُ بَعْضٍ مُقَصِّرَةً عَنْ كِفَايَاتِهِمْ ، فَإِذَا قَسَّمَ الْكَافِيَ عَلَى أَهْلِهِ خَرَجُوا بِهِ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، وَإِذَا قَسَّمَ الْمُقَصِّرُ عَلَى أَهْلِهِ كَانُوا فِي الْبَاقِي مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ . وَالْقِسْمُ الْخَامِسُ : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ بَعْضِهِمْ زَائِدَةً عَلَى قَدْرِ كِفَايَاتِهِمْ ، وَسِهَامُ بَعْضِهِمْ نَاقِصَةً عَنْ كِفَايَاتِهِمْ ، فَإِذَا فَضَّ النَّاقِصَ عَلَى أَهْلِهِ وَحَبَسَ مِنَ الزَّائِدِ مَا فَضَلَ عَنْ وَفْقِ الْكِفَايَةِ ، فَفِي مَصْرِفِهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ يَرُدُّ الْفَضْلَ إلَى

أَهْلِ السُّهْمَانِ الْمُقَصِّرَةِ حَتَّى يَسْتَوْفِيَ جَمِيعُ الْأَصْنَافِ قَدْرَ كِفَايَاتِهِمْ تَغْلِيبًا لِحُكْمِ الْمَكَانِ أَلَّا نَنْقُلَ صَدَقَةً إلَى غَيْرِهِ وَفِيهِ مُسْتَحِقُّهَا .

(433/340)

وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنْ نَنْقُلَ الْفَضْلَ عَنِ السِّهَامِ الزَّائِدَةِ إلَى تِلْكَ الْأَصْنَافِ فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ وَلَا تُرَدُّ عَلَى غَيْرِهِمْ تَغْلِيبًا لِحُكْمِ الْأَعْيَانِ أَلَّا يُفَضَّلَ بَعْضُ الْأَصْنَافِ عَلَى بَعْضٍ .

وَالْقِسْمُ السَّادِسُ : أَنْ تَكُونَ سِهَامُ بَعْضِهِمْ وَفْقَ كِفَايَاتِهِمْ وَسِهَامُ بَعْضِهِمْ زَائِدَةً عَلَى قَدْرِ كِفَايَاتِهِمْ ، فَإِذَا قَسَّمَ الْكَافِيَ وَحَبَسَ الْفَضْلَ الزَّائِدَ عَنْ أَهْلِهِ نُقِلَتْ تِلْكَ الزِّيَادَةُ إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ لَا يَخْتَلِفُ ، وَلَكِنْ إذَا نَقَلَهَا فَهَلْ يَخْتَصُّ بِهَا أَهْلُ تِلْكَ الْأَصْنَافِ ، أَوْ تَكُونُ كَالصَّدَقَةِ الْمُبْتَدَأَةِ تُقَسَّمُ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ عَلَى وَجْهَيْنِ بِنَاءً عَلَى الْوَجْهَيْنِ الْمَاضِيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَخْتَصَّ بِهَا أَهْلُ تِلْكَ الْأَصْنَافِ إذَا قِيلَ فِي الْقِسْمِ الْمَاضِي بِتَغْلِيبِ الْأَعْيَانِ وَأَنَّ الْفَاضِلَ يُنْقَلُ إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ وَلَا يُرَدُّ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْفَاضِلَ يُقَسَّمُ فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ عَلَى جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، إذَا قِيلَ فِي الْقِسْمِ الْمَاضِي بِتَغْلِيبِ الْمَكَانِ وَأَنَّ الْفَاضِلَ يُرَدُّ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ وَلَا وَقْتَ فِيمَا يُعْطَى الْفَقِيرُ إلَّا مَا يُخْرِجُهُ مِنْ حَدِّ الْفَقْرِ

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَلَا وَقْتَ فِيمَا يُعْطَى الْفَقِيرُ إلَّا مَا يُخْرِجُهُ مِنْ حَدِّ الْفَقْرِ إلَى الْغِنَى قَلَّ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ مِمَّا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ أَوْ لَا تَجِبُ : لِأَنَّهُ يَوْمَ يُعْطَاهُ لَا زَكَاةَ فِيهِ عَلَيْهِ ، وَقَدْ يَكُونُ غَنِيًّا وَلَا مَالَ لَهُ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ، وَفَقِيرًا بِكَثْرَةِ الْعِيَالِ وَلَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنَّمَا الْغِنَى وَالْفَقْرُ مَا يَعْرِفُ النَّاسُ بِقَدْرِ حَالِ الرِّجَالِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ الْكَلَامَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ يَشْتَمِلُ عَلَى فَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : فِيمَنْ يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ بِالْفَقْرِ مِنَ الزَّكَاةِ . وَالثَّانِي : فِي الْقَدْرِ الَّذِي يَجُوزُ أَنْ يُعْطَاهُ مِنَ الزَّكَاةِ ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ مُعْتَبَرٌ بِأَدْنَى الْغِنَى وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي أَدْنَى الْغِنَى عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ : أَحَدُهَا : مَا ذَهَبَ إلَيْهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَنَّ أَدْنَى الْغِنَى خَمْسُونَ دِرْهَمًا ، فَلَا تَحِلُّ الزَّكَاةُ لِمَنْ تَمَلَّكَهَا ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى أَكْثَرَ مِنْهَا وَقَدْ حُكِيَ ذَلِكَ فِي الصَّحَابَةِ عَنْ عُمَرَ وَعَلِيٍّ وَسَعْدٍ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ - ، وَبِهِ قَالَ مِنَ الْفُقَهَاءِ الزُّهْرِيُّ وَالثَّوْرِيُّ . وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : مَا ذَهَبَ إلَيْهِ أَبُو حَنِيفَةَ : أَنَّ أَدْنَى الْغِنَى نِصَابٌ تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ ، فَلَا يُحِلُّ الزَّكَاةَ لِمَنْ يَمْلِكُ نِصَابًا وَلَا يُعْطَى مِنْهَا نِصَابًا ، فَإِذَا مَلَكَ مَالًا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ مِنْ عَقَارٍ وَرَقِيقٍ ، فَإِنِ احْتَاجَ إلَيْهِ كَدَارٍ يَسْكُنُهَا ، أَوْ دَابَّةٍ يَرْكَبُهَا ، أَوْ أَمَةٍ يَسْتَخْدِمُهَا

(435/340)

حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ ، وَإِنْ كَانَتْ قِيمَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ نِصَابٍ وَمَا اسْتَغْنَى عَنْهُ مِنْ ذَلِكَ اعْتُبِرَتْ قِيمَتُهُ ، فَإِنْ بَلَغَتْ نِصَابًا حَرُمَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنْ نَقَصَتْ عَنْ نِصَابٍ حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ .

وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ : مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ أَنَّ الْغِنَى غَيْرُ مُعْتَبَرٍ بِالْمَالِ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْكِفَايَةِ الدَّائِمَةِ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ إِمَّا بِضَاعَةٍ أَوْ تِجَارَةٍ أَوْ زِرَاعَةٍ ، وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ أَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : صُنَّاعٌ وَتُجَّارٌ وَأَصْحَابُ عَقَارٍ وَأَصْحَابُ مَوَاشٍ . فَأَمَّا الصُّنَّاعُ فَكَالْفَلَّاحِينَ وَالْمَلَّاحِينَ وَالنَّجَّارِينَ وَالْبَنَّائِينَ ، فَإِنْ كَانَ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَكْتَسِبُ بِضَاعَتَهُ قَدْرَ كِفَايَتِهِ عَلَى الدَّوَامِ لِنَفْسِهِ وَلِمَنْ تَلْزَمُهُ مُؤْنَتُهُ حَرُمَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَإِنْ لَمْ

(436/340)

يَمْلِكْ دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا ، وَإِنْ كَانَ لَا يَكْتَسِبُ بِضَاعَتَهُ قَدْرَ كِفَايَتِهِ عَلَى الدَّوَامِ حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ وَأَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا تَمَامَ كِفَايَتِهِ . وَأَمَّا التُّجَّارُ فَهُمُ الَّذِينَ يَسْتَمِدُّونَ أَرْبَاحَ بَضَائِعِهِمْ ، فَإِنْ كَانَتْ بِضَاعَةُ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ تُرْبِحُهُ غَالِبًا قَدْرَ كِفَايَتِهِ كَانَ غَنِيًّا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ وَإِنْ لَمْ يَمْلِكْ

نِصَابًا ، وَإِنْ كَانَتْ لَا تُرْبِحُهُ قَدْرَ كِفَايَتِهِ كَانَ فَقِيرًا وَإِنْ مَلَكَ نِصَابًا وَحَلَّ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الزَّكَاةِ مَا إِذَا ضَمَّهُ إِلَى بِضَاعَتِهِ رَبِحَ بِهَا قَدْرَ كِفَايَتِهِ ، وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ اخْتِلَافِهِمْ فِي مَتَاجِرِهِمْ ، فَإِذَا كَانَ الْبَقْلِيُّ يَكْتَفِي بِخَمْسَةِ دَرَاهِمَ وَالْبَاقِلَّانِيُّ بِعَشَرَةٍ وَالْفَاكِهَانِيُّ بِعِشْرِينَ وَالْخَبَّازُ بِخَمْسِينَ وَالْبَقَّالُ بِمِائَةٍ وَالْعَطَّارُ بِأَلْفٍ وَالْبَزَّازُ بِأَلْفَيْ دِرْهَمٍ وَالصَّيْرَفِيُّ بِخَمْسَةِ آلَافٍ وَالْجَوْهَرِيُّ بِعَشَرَةِ آلَافٍ ، وَمَلَكَ كُلُّ وَاحِدٍ مِمَّنْ ذَكَرْنَا بِضَاعَتَهُ الَّتِي يَكْتَفِي بِرِبْحِهَا حَرُمَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنْ مَلَكَ أَقَلَّ مِنْهَا حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا تَمَامَ بِضَاعَتِهِ الَّتِي يَكْتَفِي بِرِبْحِهَا ، حَتَّى أَنَّ الْبَقْلِيَّ إِذَا مَلَكَ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ هِيَ كِفَايَتُهُ كَانَ غَنِيًّا ، وَالْجَوْهَرِيَّ إِذَا مَلَكَ تِسْعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ هِيَ دُونَ كِفَايَتِهِ كَانَ فَقِيرًا أَوْ مِسْكِينًا ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي أَصْحَابِ الْعَقَارِ وَالْمَوَاشِي إِنْ كَانَ يَسْتَغِلُّ مِنْهَا قَدْرَ كِفَايَتِهِ حَرُمَتْ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَسْتَغِلُّ

(437/340)

مِنْهَا قَدْرَ كِفَايَتِهِ حَلَّتْ لَهُ الزَّكَاةُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا مَا يَشْتَرِي بِهِ مِنَ الْعَقَارِ وَالْمَوَاشِي مَا إِذَا ضَمَّهُ إِلَى مَالِهِ اكْتَفَى بِغَلَّتِهِ عَلَى الدَّوَامِ .

(438/340)

فَصْلٌ : فَأَمَّا أَحْمَدُ فَاسْتَدَلَّ بِرِوَايَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَهُوَ غَنِيٌّ كَانَتْ مَسْأَلَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خُمُوشًا ، أَوْ خُدُوشًا ، أَوْ كُدُوحًا فِي وَجْهِهِ ، قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَمَا غِنَاهُ ؟ قَالَ : خَمْسُونَ دِرْهَمًا أَوْ عَدْلُهَا . وَأَمَّا أَبُو حَنِيفَةَ فَاسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ فَجَعَلَ الْمَأْخُوذَ مِنْهُ غَيْرَ الْمَدْفُوعِ إلَيْهِ ، قَالُوا : وَلِأَنَّهُ مَالِكٌ لِنِصَابٍ مِنْ مَالٍ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ غَنِيًّا تَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ على الغني أَصْلًا إذَا كَانَ لَهُ كِفَايَةٌ عَلَى الدَّوَامِ ، قَالُوا : وَلِأَنَّ اعْتِبَارَ الْكِفَايَةِ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَعْتَبِرُوا كِفَايَةَ زَمَانِ الْمُقَدَّرِ ، أَوْ كِفَايَةَ الْعُمُرِ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْتَبَرَ كِفَايَةُ الْعُمُرِ لِأَنَّهُ مَجْهُولٌ ، وَأَمَّا الزَّمَانُ الْمُقَدَّرُ فَلَسْتُمْ فِي اعْتِبَارِهِ بِسَنَتِهِ بِأَوْلَى مِنْ اعْتِبَارِهِ بِأَقَلَّ مِنْهَا أَوْ أَكْثَرَ فَبَطَلَ اعْتِبَارُ الْكِفَايَةِ ، وَدَلِيلُنَا حَدِيثُ قَبِيصَةَ بْنِ الْمُخَارِقِ أَنَّهُ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ فَأَتَى النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْأَلُهُ فَقَالَ : نُؤَدِّهَا عَنْكَ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ ، يَا قَبِيصَةُ ، إنَّ الْمَسْأَلَةَ حُرِّمَتْ إلَّا فِي ثَلَاثَةٍ : رَجُلٍ تَحَمَّلَ بِحَمَالَةٍ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُؤَدِّيَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٍ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ فَاجْتَاحَتْ مَالَهُ

فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ حَاجَةٌ حَتَّى تَكَلَّمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَى مِنْ قَوْمِهِ أَنَّ بِهِ حَاجَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ ثُمَّ يُمْسِكُ ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْمَسْأَلَةِ فَهُوَ سُحْتٌ . فَدَلَّ نَصُّ هَذَا الْخَبَرِ عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ تَحِلُّ بِالْحَاجَةِ وَتَحْرُمُ بِإِصَابَةِ الْقِوَامِ مِنَ الْعَيْشِ وَهُوَ الْكِفَايَةُ عَلَى الدَّوَامِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْتَبَرَ النِّصَابُ ، وَلِأَنَّ مَنْ عَجَزَ عَنِ الْكِفَايَةِ الدَّائِمَةِ زَالَ عَنْهُ حُكْمُ الْغِنَى كَالَّذِي لَا

(440/340)

يَمْلِكُ نِصَابًا ؛ وَلِأَنَّ مِلْكَ النِّصَابِ وَالْحَاجَةَ مَعْنَيَانِ مُخْتَلِفَانِ يَجُوزُ اجْتِمَاعُهُمَا فَجَازَ اجْتِمَاعُ حُكْمِهِمَا وَهُمَا أَخْذُ الصَّدَقَةِ مِنْهُ بِالنِّصَابِ وَدَفْعُهَا إِلَيْهِ بِالْحَاجَةِ كَالْعُشْرِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَكُنْ مِلْكُ قِيمَةِ النِّصَابِ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْعُرُوضِ يَمْنَعُ مِنْ أَخْذِ الصَّدَقَةِ لِأَجْلِ الْحَاجَةِ لَمْ يَكُنْ مِلْكُ النِّصَابِ مَانِعًا مِنْهَا لِأَجْلِ الْحَاجَةِ . وَتَحْرِيرُهُ أَنَّهُ ذُو حَاجَةٍ فَلَمْ تَحْرُمْ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ بِالْقُدْرَةِ عَلَى نِصَابٍ كَمَالِكِ الْمَتَاعِ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِ أَحْمَدَ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَقْصِدْ بِهِ تَحْدِيدَ الْغِنَى فِي جَمِيعِ النَّاسِ ، وَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ مَنْ كَانَتْ كِفَايَتُهُ خَمْسِينَ دِرْهَمًا ، بِدَلِيلِ مَا رَوَى أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ – قَالَ : مَنْ سَأَلَ النَّاسَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ ، يَعْنِي : لِمَنْ كَانَ مُكْتَفِيًا بِهَا .

وَرَوَى سَهْلُ ابْنُ الْحَنْظَلِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ مَا يُغْنِيهِ فَقَدِ اسْتَكْثَرَ مِنَ النَّارِ ، قِيلَ : وَمَا يُغْنِيهِ ؟ قَالَ : قَدْرُ مَا يُغَدِّيهِ وَيُعَشِّيهِ وَهَذَا فِيمَنْ يَكْتَسِبُ بِصَنْعَتِهِ قَدْرَ عَشَائِهِ وَغَدَائِهِ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ اسْتِدْلَالِ أَبِي حَنِيفَةَ بِقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ فَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ فَهُوَ أَنَّهُ قَصَدَ بِذَلِكَ إِنَّمَا يَأْخُذُهُ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ لَيْسَ يَأْخُذُهُ

(441/340)

لِنَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَإِنَّمَا يَرُدُّهُ عَلَى فُقَرَائِهِمْ مِنْ ذَوِي الْحَاجَاتِ وَلَيْسَ يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُ مَرْدُودًا عَلَيْهِ كَالْعَامِلِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَكَالْمَأْخُوذِ مِنْهُ الْعُشْرُ وَالْعُشْرُ عِنْدَنَا زَكَاةٌ ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ وَاجِدًا لِلْكِفَايَةِ فَتَحْرُمُ عَلَيْهِ الزَّكَاةُ لِوُجُودِ الْكِفَايَةِ ، لَا يَمْلِكُ النِّصَابَ فَلَمْ يَصِحَّ قِيَاسُهُمْ . وَأَمَّا اسْتِدْلَالُهُمْ بِأَنَّهُ لَا يَخْلُو اعْتِبَارُ الْكِفَايَةِ مِنْ أَنْ يَكُونَ بِالْعُمُرِ أَوْ بِزَمَانٍ مُقَدَّرٍ فَقَدِ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ ، فَكَانَ مَذْهَبُ أَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ سُرَيْجٍ إِلَى أَنَّهُ مُعْتَبَرٌ بِزَمَانٍ مُقَدَّرٍ وَهُوَ سَنَةٌ وَذَلِكَ أَوْلَى مِنِ اعْتِبَارِهِ بِأَقَلَّ مِنْهُمَا أَوْ أَكْثَرَ : لِأَنَّ الزَّكَاةَ تَجِبُ بَعْدَ سَنَةٍ ، فَاعْتُبِرَ فِي مُسْتَحِقِّهَا لِكَافِيَةِ السَّنَةِ ، وَذَهَبَ سَائِرُ أَصْحَابِنَا إِلَى أَنَّهُ يُعْتَبَرُ فِي ذَلِكَ كِفَايَةُ الْعُمُرِ وَلَئِنْ

كَانَ الْعُمُرُ مَجْهُولًا فَالْكِفَايَةُ فِيهِ لَا تُجْهَلُ : لِأَنَّ كِفَايَةَ الشَّهْرِ مِنْ أَجَلٍ مُعَيَّنٍ أَوْ صَنْعَةٍ تَدُلُّ عَلَى كِفَايَةِ الْعُمُرِ وَإِنْ جُهِلَ . فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ يَمْرَضُ فَيَعْجِزُ عَنِ الْكَسْبِ ، أَوْ يَغْلُو السِّعْرُ ، فَلَا يُكْتَفَى بِذَلِكَ الْقَدْرِ . قِيلَ : إذَا كَانَ ذَلِكَ صَارَ حِينَئِذٍ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ كَمَا أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يَمْلِكَ النِّصَابَ فَيَصِيرَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ .

مَسْأَلَةٌ وَيَأْخُذُ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا بِقَدْرِ أُجُورِهِمْ فِي مِثْلِ كِفَايَتِهِمْ وَقِيَامِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ

(442/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : " وَيَأْخُذُ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا بِقَدْرِ أُجُورِهِمْ الزكاة فِي مِثْلِ

(443/340)

كِفَايَتِهِمْ وَقِيَامِهِمْ وَأَمَانَتِهِمْ وَالْمُؤْنَةِ عَلَيْهِمْ فَيَأْخُذُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا الْمَعْنَى وَيُعْطِي الْعَرِيفَ وَمَنْ يَجْمَعُ النَّاسَ عَلَيْهَا بِقَدْرِ كِفَايَتِهِ وَكُلْفَتِهِ وَذَلِكَ خَفِيفٌ لِأَنَّهُ فِي بِلَادِهِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا صَحِيحٌ ، وَإِنْ كَانَ الشَّافِعِيُّ قَدْ ذَكَرَهُ فَإِنَّمَا أَعَادَهُ لِيُبَيِّنَ قَدْرَ مَا يُعْطَى كُلُّ صِنْفٍ مِنْ

أَهْلِ السُّهْمَانِ بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهُمْ ، فَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا هُمْ صِنْفٌ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ يُعْطَوْنَ أُجُورَهُمْ مِنْهَا صَدَقَةً . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : هُوَ أُجْرَةٌ وَلَيْسَ بِصَدَقَةٍ : لِأَنَّهُمْ يَأْخُذُونَهُ مَعَ الْغِنَى ، وَلَوْ كَانَتْ صَدَقَةً حَرُمَتْ عِنْدَهُ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ وَهَذَا خَطَأٌ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا [التَّوْبَةِ : 60] ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُزَالَ عَنِ الصَّدَقَةِ حُكْمُهَا بِاخْتِلَافِ الْمُتَمَلِّكِينَ ؛ وَلِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَعَ ذَوِي الْقُرْبَى مِنَ الْعَمَلِ عَلَيْهَا لِتَحْرِيمِ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَلَوْ خَرَجَتْ عَنْ حُكْمِ الصَّدَقَةِ إلَى الْأُجْرَةِ مَا مَنَعَهُمْ مِنْهَا ، وَلَيْسَ يُنْكَرُ أَنْ تَكُونَ الْأُجْرَةُ صَدَقَةً إذَا كَانَتْ مَأْخُوذَةً مِنْ مَالِ الصَّدَقَةِ ، فَإِذَا ثَبَتَ هَذَا ، فَإِنْ كَانَ الْعَامِلُونَ عَلَيْهَا مُسْتَأْجَرِينَ بِعَقْدِ إجَارَةٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَكُونَ الْمُسَمَّى فِيهِ مِنَ الْأُجْرَةِ أَكْثَرَ مِنْ أُجُورِ أَمْثَالِهِمْ ، كَمَا لَا يَجُوزُ فِي الْمُسْتَأْجَرِ عَلَى أَمْوَالِ الْأَيْتَامِ أَنْ يُسَمَّى لَهُ أَكْثَرُ مِنْ

(444/340)

أُجْرَةِ الْمِثْلِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا مُسْتَأْجَرِينَ بِعَقْدٍ كَانَ لَهُمْ أُجْرَةُ الْمِثْلِ كَمَنِ اسْتَهْلَكَ عَمَلَهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ ، وَذَلِكَ يَخْتَلِفُ بِقُرْبِ الْمَسَافَةِ وَبُعْدِهَا وَقِلَّةِ الْعَمَلِ وَكَثْرَتِهِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَأَمَانَاتُهُمْ " لَيْسَ يُرِيدُ أَنَّهُ قَدْ يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ غَيْرُ أَمِينٍ ، وَلَكِنَّهُ إنْ كَانَ مَعْرُوفَ الْأَمَانَةِ

كَانَتْ أُجْرَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَمَانَةِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَعْمَلَ عَلَيْهَا غَيْرُ أَمِينٍ ، وَمِنَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا الْعَرِيفُ وَالْحَاشِرُ وَالْحَاسِبُ وَالْكَيَّالُ وَالْعَدَّادُ ، من العاملين على الزكاة فَأَمَّا الْعَرِيفُ فَعَرِيفَانِ : عَرِيفٌ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، وَعَرِيفٌ عَلَى أَهْلِ السُّهْمَانِ . فَأَمَّا الْعَرِيفُ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُ أَمْوَالَهُمْ ، وَهَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِيرَانِ أَهْلِ الْمَالِ لِيَصِحَّ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِجَمِيعِهَا وَبِأَرْبَابِهَا . وَأَمَّا عَرِيفُ أَهْلِ السُّهْمَانِ فَهُوَ الَّذِي يَعْرِفُ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهُمْ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ ، وَهَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِيرَانِ أَهْلِ السُّهْمَانِ لِيَصِحَّ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِظَاهِرِ أَحْوَالِهِمْ وَبَاطِنِهَا ، وَكِلَا الْفَرِيقَيْنِ أُجْرَتُهُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ ، وَأُجْرَتُهُمَا أَقَلُّ لِأَنَّهُمَا مِمَّنْ لَا يَحْتَاجُ إِلَى قَطْعِ مَسَافَةٍ لِكَوْنِهِمَا مِنْ بَلَدِ الصَّدَقَةِ لَا مِنَ الْمُسَافِرِينَ إِلَيْهِ .

بيان أن الْحَاشِرُ صنفان

(445/340)

وَأَمَّا الْحَاشِرُ من العاملين على الزكاة فَحَاشِرَانِ : حَاشِرٌ لِأَهْلِ السُّهْمَانِ يَقْتَصِرُ عَلَى النِّدَاءِ فِي النَّاحِيَةِ بِاجْتِمَاعِهِمْ لِأَخْذِ الصَّدَقَةِ وَهَذَا أَقَلُّهُمَا أُجْرَةً لِكَوْنِهِ أَقَلَّهُمْ تَحَمُّلًا . وَالثَّانِي : حَاشِرُ الْأَمْوَالِ : لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُ الْعَامِلَ أَنْ يَتْبَعَ الْمَوَاشِيَ سَارِحَةً فِي مَرَاعِيهَا ؛ فَاحْتَاجَ إِلَى

حَاشِرٍ يَحْشُرُهَا إِلَى مِيَاهِ أَهْلِهَا ، وَهَذَا أَكْثَرُهُمَا أُجْرَةً لِكَوْنِهِ أَكْثَرَهُمَا عَمَلًا ، وَكِلَاهُمَا أُجْرَتُهُمَا فِي سَهْمِ الْعَامِلِينَ .

(446/340)

فَأَمَّا الْحَاسِبُ من العاملين على الزكاة فَهُوَ الَّذِي يَحْسِبُ النُّصُبَ وَقَدْرَ الْوَاجِبِ فِيهَا وَمَا يَسْتَحِقُّهُ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، وَيَجُوزُ أَلَّا يَكُونَ مِنْ جِيرَانِ الْمَالِ وَأُجْرَتُهُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ ، فَإِنْ كَانَ كَاتِبًا كَانَتْ أُجْرَتُهُ أَكْثَرَ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَاتِبًا وَكَانَ الْعَامِلُ يَكْتُبُ وَإِلَّا احْتَاجَ إِلَى كَاتِبٍ يَكْتُبُ مَا أُخِذَ مِنَ الصَّدَقَاتِ مِنْ كُلِّ مَالِكٍ ثَبَتَ عَلَيْهِ قَدْرُ مَالِهِ وَمَبْلَغُ صَدَقَتِهِ وَمَا أَعْطَى كُلُّ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ بِإِثْبَاتِ أَسْهُمِ كُلِّ وَاحِدٍ وَنَسَبِهِ وَحِلْيَتِهِ وَقَدْرِ عَطِيَّتِهِ ، وَكَتَبَ بَرَاءَةً لِرَبِّ الْمَالِ بِأَدَاءِ صَدَقَتِهِ وَيُعْطَى أُجْرَتُهُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ . وَأَمَّا الْعَدَّادُ من العاملين على الزكاة فَهُوَ الَّذِي يَعُدُّ مَوَاشِيَ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ فَيُعْطَى أُجْرَتُهُ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ . وَأَمَّا الْكَيَّالُ من العاملين على الزكاة فَكَيَّالُ مَالِ رَبِّ الْمَالِ وَكَيَّالٌ لِحُقُوقِ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، فَأَمَّا كَيَّالُ الْمَالِ عَلَى رَبِّ الْمَالِ فَفِي أُجْرَتِهِ وَجْهَانِ مَضَيَا . وَأَمَّا الْكَيَّالُ لِحُقُوقِ أَهْلِ السُّهْمَانِ فَفِي أُجْرَتِهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : فِي مَالِ أَهْلِ السُّهْمَانِ . وَالثَّانِي : مِنْ سَهْمِ

الْعَامِلِينَ ، وَرُبَّمَا احْتَاجَ الْعَامِلُ إِلَى غَيْرِ مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْأَعْوَانِ ، فَيَكُونُ أُجُورُ مَنِ احْتَاجَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنِ اعْتِبَارِ حَالِهِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ مِنْ عَمَلِهِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(447/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَكَذَلِكَ الْمُؤَلَّفَةُ إِذَا احْتِيجَ إِلَيْهِمْ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ إذا صح اعتقادهم وحسن إسلامهم إِنِ احْتِيجَ إِلَيْهِمْ أَحَدُ أَصْنَافِ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ عَلَى مَا وَصَفْنَا مِنْ أَقْسَامِهِمْ وَأَحْكَامِهِمْ ؛ وَقَدْرُ مَا يُعْطَاهُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ مَا يُتَأَلَّفُ بِهِ قَلْبُهُ فَيُقْلِعُ عَنْ سَيِّئِ الِاعْتِقَادِ ، فَإِذَا صَحَّ اعْتِقَادُهُ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُ خَرَجَ مِنْ جُمْلَةِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنْ لَمْ يُؤَثِّرْ فِيهِ مَا أُعْطِيَ مُنِعَ لِئَلَّا يَكُونَ سَهْمُهُمْ مَصْرُوفًا فِي غَيْرِ نَفْعٍ ، وَإِنْ أَثَّرَ تَأْثِيرًا لَمْ يُسْتَكْمَلْ مَعَهُ حُسْنُ الِاعْتِقَادِ أُعْطِيَ مِنْ بَعْدُ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ حُسْنَ إِسْلَامِهِ وَصِحَّةَ اعْتِقَادِهِ .

(448/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَالْمُكَاتَبُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُعْتَقَ وَإِنْ دَفَعَ إلَى سَيِّدِهِ كَانَ أَحَبَّ إلَيَّ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ مَضَى الْكَلَامُ أَنَّ الْمُكَاتَبِينَ هُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لِسَهْمِ الرِّقَابِ فِي الصَّدَقَاتِ ، وَقَدْرُ مَا يُعْطَاهُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مُعْتَبَرٌ بِمَا عَلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ الْبَاقِي عَلَيْهِ وَهُوَ عَاجِزٌ عَنْهُ مِنْ آخِرِ نُجُومِهِ أُعْطِيَ جَمِيعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَوْسَطِ نُجُومِهِ أُعْطِيَ مَالَ ذَلِكَ النَّجْمِ الَّذِي قَدْ حَلَّ عَلَيْهِ ، وَهَلْ يَجُوزُ عِنْدَ اتِّسَاعِ الْمَالِ أَنْ يُعْطَى مَا عَلَيْهِ مِنْ بَاقِي نُجُومِهِ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ عِتْقَهُ أَمْ لَا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ بِنَاءً عَلَى الْوَجْهَيْنِ فِي جَوَازِ إعْطَائِهِ مَالَ النَّجْمِ قَبْلَ حُلُولِهِ : أَحَدُهُمَا : يُعْطَى مَالَ ذَلِكَ النَّجْمِ وَحْدَهُ وَهَذَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا يَجُوزُ إعْطَاءُ النَّجْمِ قَبْلَ حُلُولِهِ . وَالثَّانِي : يُعْطَى الْجَمِيعَ وَهَذَا عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَجُوزُ فِيهِ أَنْ يُعْطَى مَالَ النَّجْمِ قَبْلَ حُلُولِهِ .

مَسْأَلَةٌ يُعْطَى الْغَازِي الْحَمُولَةَ وَالسِّلَاحَ وَالنَّفَقَةَ وَالْكُسْوَةَ

(449/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُعْطَى الْغَازِي الْحَمُولَةَ وَالسِّلَاحَ وَالنَّفَقَةَ وَالْكُسْوَةَ ، وَإِنِ اتَّسَعَ الْمَالُ زِيدُوا الْخَيْلَ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : أَمَّا غُزَاةُ الصَّدَقَاتِ فَلَهُمْ سَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْهَا وَمَا يُعْطَوْنَهُ مِنْهَا مُعْتَبَرٌ بِمُؤْنَةِ غَزْوِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ الْجِهَادُ فِي بَلَدِهِمْ أُعْطُوا النَّفَقَةَ وَالسِّلَاحَ

وَالْحَمُولَةَ الَّتِي تَحْمِلُهُم وَرِحَالَهُمْ إمَّا فِي مَاءٍ أَوْ عَلَى ظَهْرٍ ، ثُمَّ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونُوا فُرْسَانًا أَوْ رَجَّالَةً ، فَإِنْ كَانُوا فُرْسَانًا أُعْطَوْا نَفَقَاتِ خَيْلِهِمْ وَمُؤْنَتِهِمْ فِي ذَهَابِهِمْ وَعَوْدَتِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا رَجَّالَةً لَا خَيْلَ لَهُمْ ، فَإِنْ كَانُوا لَا يُقَاتِلُونَ إلَّا رَجَّالَةً عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُعْطَوُا الْخَيْلَ ، وَإِنْ كَانُوا يُقَاتِلُونَ فُرْسَانًا أُعْطُوا الْخَيْلَ إذَا عَدِمُوهَا . فَإِنْ قِيلَ : فَكَيْفَ يُعْطَوْنَ مِنْ مَالِ الزَّكَاةِ الْخَيْلَ وَالسِّلَاحَ وَلَيْسَ فِيهَا خَيْلٌ وَلَا سِلَاحٌ غُزَاةُ الصَّدَقَاتِ . قُلْنَا : لَا يَخْلُو دَافِعُ الزَّكَاةِ إلَيْهِمْ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ رَبَّ الْمَالِ أَوِ الْوَالِيَ ، فَإِنْ كَانَ دَافِعُهَا رَبَّ الْمَالِ أَعْطَاهُمْ بِأَثْمَانِ الْخَيْلِ وَالسِّلَاحِ لِيَتَوَلَّوْا شِرَاءَ ذَلِكَ لِأَنْفُسِهِمْ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يَشْتَرِيَهُ رَبُّ الْمَالِ لَهُمْ : لِأَنَّ إخْرَاجَ الْقِيَمِ فِي الزَّكَوَاتِ لَا يَجُوزُ ، وَإِنْ كَانَ الْوَالِي عَلَيْهَا هُوَ الدَّافِعَ لَهَا فَفِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : تُدْفَعُ إلَيْهِمْ أَثْمَانُهَا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّى شِرَاءَهَا رَبُّ الْمَالِ ، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي إسْحَاقَ الْمَرْوَزِيِّ

(450/340)

وَابْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : يَجُوزُ أَنْ يَتَوَلَّى شِرَاءَ ذَلِكَ لَهُمْ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّ الْمَالِ أَنَّ لِلْوَالِي عَلَيْهِمْ وِلَايَةً لَيْسَتْ لِرَبِّ الْمَالِ ، فَجَازَ أَنْ يَتَوَلَّى شِرَاءَهُ لَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَتَوَلَّهُ رَبُّ الْمَالِ .

مَسْأَلَةٌ يُعْطَى ابْنُ السَّبِيلِ قَدْرَ مَا يُبَلِّغُهُ الْبَلَدَ الَّذِي يُرِيدُ

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – : " وَيُعْطَى ابْنُ السَّبِيلِ قدر ما يعطى من الزكاة

قَدْرَ مَا يُبَلِّغُهُ الْبَلَدَ الَّذِي يُرِيدُ مِنْ نَفَقَتِهِ وَحَمُولَتِهِ إنْ كَانَ الْبَلَدُ بَعِيدًا أَوْ كَانَ ضَعِيفًا ، وَإِنْ كَانَ الْبَلَدُ قَرِيبًا وَكَانَ جَلْدًا ، فَالْأَغْلَبُ مِنْ مِثْلِهِ لَوْ كَانَ غَنِيًّا الْمَشْيُ إلَيْهَا أُعْطِيَ مُؤْنَتَهُ وَنَفَقَتَهُ بِلَا حَمُولَةٍ ، فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَذْهَبَ وَيَرْجِعَ أُعْطِيَ مَا يَكْفِيهِ فِي ذَهَابِهِ وَرُجُوعِهِ مِنَ النَّفَقَةِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَالَّذِي يُعْطَاهُ ابْنُ السَّبِيلِ مُعْتَبَرٌ بِكِفَايَتِهِ فِي سَفَرِهِ بِحَسَبِ قُرْبِهِ وَبُعْدِهِ وَذَهَابِهِ وَعَوْدِهِ فَيُعْطَى مَا يَكْفِيهِ مِنْ نَفَقَةٍ وَمُؤْنَةٍ ، فَإِنْ كَانَ جَلْدًا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ فِي سَفَرِهِ لَمْ يُزَدْ عَلَى مُؤْنَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَشْيِ أَوْ كَانَ مُسَافِرًا فِي بَحْرٍ لَا يَجِدُ مِنَ الرُّكُوبِ بُدًّا أُعْطِيَ مَعَ النَّفَقَةِ كِرَاءَ مَرْكُوبِهِ ، فَإِنْ أَرَادَ الْعَوْدَةَ أُعْطِيَ مَعَ اتِّسَاعِ الْمَالِ نَفَقَةَ الذَّهَابِ وَالْعَوْدَةِ وَنَفَقَةَ مُقَامِ الْمُسَافِرِ وَهُوَ مُدَّةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لَا يُزَادُ عَلَيْهَا . وَقَدْ ذَكَرْنَا مِنْ ذَلِكَ مَا أَقْنَعَ .

(451/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ يَأْتِي عَلَى السَّهْمِ كُلِّهِ أُعْطِيَهُ كُلَّهُ إنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ ابْنُ سَبِيلٍ غَيْرُهُ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَأْتِي إلَّا عَلَى سَهْمٍ ، سَهْمٌ مِنْ مِائَةِ سَهْمٍ مِنْ سَهْمِ ابْنِ السَّبِيلِ لَمْ يُزَدْ عَلَيْهِ " .

(452/340)

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ لَا يَخْلُو حَالُ ابْنِ السَّبِيلِ وَكُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ أَهْلِ السُّهْمَانِ مِنْ ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : أَنْ يَكُونُوا ثَلَاثَةً وَهُمْ أَقَلُّ الْجَمْعِ الْمُطْلَقِ لَا يَزِيدُونَ عَلَيْهَا وَلَا يُنْقَصُونَ مِنْهَا ، ابن السبيل وقدر ما يعطى من الزكاة فَالْوَاجِبُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِمْ سَهْمَهُمْ بِقَدْرِ حَاجَاتِهِمْ وَلَا يَجُوزُ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهِمْ ، سَوَاءٌ كَانَ دَافِعُ الزَّكَاةِ هُوَ الْوَالِي أَوْ رَبُّ الْمَالِ ، فَإِنْ كَانَ سَهْمُهُمْ وَفْقَ كِفَايَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا نَقْصٍ أُعْطَوْهُ ، فَإِنْ أَعْطَى اثْنَانِ مِنْهُمْ وَحَرَمَ الثَّالِثَ ضَمِنَتْ حِصَّتُهُ بِقَدْرِ حَاجَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ سَهْمُهُمْ أَقَلَّ مِنْ كِفَايَاتِهِمْ لَمْ يَخْلُ حَالُ الْمُعْطِي مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ رَبَّ الْمَالِ ، أَوِ الْعَامِلَ ، فَإِنْ كَانَ رَبَّ الْمَالِ قَسَّمَهُ عَلَى خِيَارِهِ مِنْ تَسْوِيَةٍ وَتَفْضِيلٍ ، وَإِنْ كَانَ الْعَامِلَ قَسَّمَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ وَوَكَلُوا فِي بَاقِي كِفَايَاتِهِمْ عَلَى مَا يَأْتِي مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أَعْطَى اثْنَانِ مِنْهُمْ وَحَرَمَ الثَّالِثَ ضَمِنَتْ حِصَّتُهُ ، فَإِنْ كَانَ فَاعِلُ ذَلِكَ هُوَ الْعَامِلَ ضَمِنَ حِصَّةَ الثَّالِثِ بِقَدْرِ حَاجَتِهِ ، وَإِنْ كَانَ رَبَّ الْمَالِ فَفِي قَدْرِ مَا يَضْمَنُهُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : ثُلُثُ سَهْمِهِمُ اعْتِبَارًا بِالْعَدَدِ . وَالثَّانِي : يَضْمَنُ أَقَلَّ مَا يُجْزِئُ أَنْ يَدْفَعَهُ إلَيْهِمْ : لِأَنَّ التَّسْوِيَةَ بَيْنَهُمْ لَا تَلْزَمُ ، وَإِنْ كَانَ سَهْمُهُمْ أَكْثَرَ مِنْ كِفَايَاتِهِمْ أُعْطُوا مِنْهُ قَدْرَ كِفَايَاتِهِمْ مِنْ غَيْرِ

الزِّيَادَةِ وَفِيمَا يُصْنَعُ بِالْفَاضِلِ مِنْ سَهْمِهِمْ وَجْهَانِ مَضَيَا : أَحَدُهُمَا وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أَنَّهُ يُرَدُّ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ . وَالثَّانِي : يُنْقَلُ إِلَى أَهْلِ ذَلِكَ الصِّنْفِ فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ .

فَصْلٌ : وَالْقِسْمُ الثَّانِي أَنْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةٍ كَأَنَّهُمْ كَانُوا عَشَرَةً فَصَاعِدًا ، ابن السبيل وقدر ما يعطى من الزكاة فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ سَهْمُهُمْ وَفْقًا لِكِفَايَةِ جَمِيعِهِمْ فَالْوَاجِبُ أَنْ يُقَسَّمَ عَلَى جَمِيعِهِمْ وَلَا يَجُوزُ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهِمْ ، فَإِنِ اقْتَصَرَ الْمُعْطِي عَلَى بَعْضِهِمْ وَحَرَمَ الْبَاقِينَ ضَمِنَ لِمَنْ حَرَمَهُ قَدْرَ كِفَايَتِهِ وَجْهًا وَاحِدًا ، سَوَاءٌ كَانَ الْمُعْطِي رَبَّ الْمَالِ أَوِ الْعَامِلَ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ سَهْمُهُمْ يَقْضِي عَنْ كِفَايَةِ جَمِيعِهِمْ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ الْمُعْطِي رَبَّ الْمَالِ ، فَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقْتَصِرَ ثُمُنُهُمْ عَلَى ثَلَاثَةٍ فَصَاعِدًا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ لِاسْتِحْقَاقِ ذَلِكَ لِأَقَلِّ الْجَمْعِ ، فَإِنِ اقْتَصَرَ عَلَى اثْنَيْنِ ضَمِنَ حِصَّةَ الثَّالِثِ وَفِي قَدْرِهَا وَجْهَانِ مَضَيَا : أَحَدُهُمَا : الثُّلُثُ . وَالثَّانِي : قَدْرُ الْأَجْزَاءِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ الْمُعْطِي الْوَالِيَ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُفَرِّقَ ذَلِكَ عَلَى جَمِيعِهِمْ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى بَعْضِهِمْ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّ الْمَالِ أَنَّ مَا يُعْطِيهِ رَبُّ الْمَالِ هُوَ بَعْضُ

الصَّدَقَاتِ ، فَجَازَ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ السُّهْمَانِ وَمَا يُعْطِيهِ الْوَالِي هُوَ جَمِيعُ الصَّدَقَاتِ ، فَوَجَبَ أَنْ يُفَرِّقَهُ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، فَهَذَا قِسْمٌ ثَانٍ .

فَصْلٌ : وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ أَنْ يَكُونُوا أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ ، كَأَنَّهُ وَجَدَ وَاحِدًا لَمْ يَرَ سِوَاهُ ، ابن السبيل وقدر ما يعطى من الزكاة فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ السَّهْمُ أَكْثَرَ مِنْ كِفَايَتِهِ فَيُعْطَى مِنْهُ قَدْرَ كِفَايَتِهِ وَفِيمَنْ يُنْقَلُ إلَيْهِ الْفَاضِلُ مِنْهُ الْوَجْهَانِ الْمَاضِيَانِ : أَحَدُهُمَا : إلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ . وَالثَّانِي : إلَى ذَلِكَ الصِّنْفِ فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ السَّهْمُ كُلُّهُ بِقَدْرِ كِفَايَةِ هَذَا الْوَاحِدِ فَفِي جَوَازِ دَفْعِ جَمِيعِهِ إلَيْهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : يَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إلَيْهِ جَمِيعُ السَّهْمِ : لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِ الْأَصْنَافِ عِنْدَ عَدَمِ مَنْ سِوَاهُ جَازَ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِ الصِّنْفِ عِنْدَ عَدَمِ مَنْ سِوَاهُ . وَالْوَجْهُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهُ مِنَ السَّهْمِ إلَّا ثُلُثَهُ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ لِجَمْعٍ أَقَلُّهُ ثَلَاثَةٌ وَيُنْقَلُ بَاقِي السَّهْمِ وَهُوَ ثُلُثَاهُ إلَى ذَلِكَ الصِّنْفِ فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ وَلَا يُعَادُ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ .

مَسْأَلَةٌ يُقَسَمُ لِلْعَامِلِ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ وَابْنِ السَّبِيلِ بِمَعْنَى الْبَلَاغِ

(455/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُقَسَّمُ لِلْعَامِلِ بِمَعْنَى الْكِفَايَةِ وَابْنِ السَّبِيلِ بِمَعْنَى الْبَلَاغِ ، لِأَنِّي لَوْ أَعْطَيْتُ الْعَامِلَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالْغَازِيَ بِالِاسْمِ لَمْ يَسْقُطْ عَنِ الْعَامِلِ اسْمُ الْعَامِلِ مَا لَمْ يُعْزَلْ وَلَا عَنِ ابْنِ السَّبِيلِ اسْمُ ابْنِ السَّبِيلِ مَا دَامَ مُجْتَازًا أَوْ يُرِيدُ الِاجْتِيَازَ ، وَلَا عَنِ الْغَازِي مَا كَانَ عَلَى الشُّخُوصِ لِلْغَزْوِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَإِنَّمَا قَصْدُ الشَّافِعِيِّ بِذَلِكَ تَمْيِيزُ أَهْلِ السُّهْمَانِ وَأَنَّهُمْ صِنْفَانِ : أَحَدُهُمَا : مَا يُعْطَى بِالِاسْمِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهُ . وَالثَّانِي : مَنْ يُعْطَى لِمَعْنًى يَقْتَرِنُ بِالِاسْمِ لَا يُرَاعَى زَوَالُهُ عَنْهُ ، فَأَمَّا الْمُعْطَوْنَ بِالِاسْمِ حَتَّى يَزُولَ عَنْهُمْ فَأَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : الْفُقَرَاءُ يُعْطَوْنَ حَتَّى يَسْتَغْنُوا فَيَزُولُ عَنْهُمُ اسْمُ الْفَقْرِ وَالْمَسَاكِينُ يُعْطَوْنَ حَتَّى يَسْتَغْنُوا فَيَزُولَ عَنْهُمُ اسْمُ الْمَسْكَنَةِ ، وَالْمُكَاتَبُونَ يُعْطَوْنَ حَتَّى يُعْتَقُوا فَيَزُولَ عَنْهُمُ اسْمُ الْكِتَابَةِ ، وَالْغَارِمُونَ يُعْطَوْنَ حَتَّى يَقْضُوا دُيُونَهُمْ فَيَزُولُ عَنْهُمُ اسْمُ الْغُرْمِ ، فَأَمَّا الْمُعْطَوْنَ لِمَعْنًى يَقْتَرِنُ بِالِاسْمِ وَلَا يُرَاعَى زَوَالُ الِاسْمِ عَنْهُ فِي أصناف مصارف الزكاة فَأَرْبَعَةُ أَصْنَافٍ : الْعَامِلُونَ يُعْطَوْنَ أُجُورَهُمْ وَإِنْ سُمُّوا بَعْدَ الْأَخْذِ عُمَّالًا . وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ يُعْطَوْنَ وَإِنْ سُمُّوا بَعْدَ الْأَخْذِ مُؤَلَّفَةً .

(456/340)

وَالْغُزَاةُ يُعْطَوْنَ وَإِنْ سُمُّوا بَعْدَ الْأَخْذِ غُزَاةً ، وَبَنُو السَّبِيلِ يُعْطَوْنَ وَإِنْ سُمُّوا بَعْدَ الْأَخْذِ بَنِي السَّبِيلِ ، وَلَا يُرَاعَى فِيهِمْ زَوَالُ الِاسْمِ عَنْهُمْ كَمَا يُرَاعَى فِيمَنْ تَقَدَّمَهُمْ .

(457/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَأَيُّ السُّهْمَانِ فَضَلَ عَنْ أَهْلِهِ رُدَّ عَلَى عَدَدٍ مِنْ عَدَدِ مَنْ بَقِيَ السُّهْمَانُ كَانَ بَقِّي = فُقَرَاءَ وَمَسَاكِينَ لَمْ يَسْتَغْنُوا وَغَارِمُونَ لَمْ تُقْضَ كُلُّ دُيُونِهِمْ فَيُقَسَّمُ مَا بَقِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَسْهُمٍ ، فَإِنِ اسْتَغْنَى الْغَارِمُونَ رُدَّ بَاقِي سَهْمِهِمْ عَلَى هَذَيْنِ السَّهْمَيْنِ نِصْفَيْنِ حَتَّى تَنْفَدَ السُّهْمَانُ ، وَإِنَّمَا رُدَّ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا جَعَلَ هَذَا الْمَالَ لَا مَالِكَ لَهُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ بِعَيْنِهِ يُرَدُّ إلَيْهِ كَمَا تُرَدُّ عَطَايَا الْآدَمِيِّينَ وَوَصَايَاهُمْ لَوْ أُوصِيَ بِهَا لِرَجُلٍ فَمَاتَ الْمُوصَى لَهُ قَبْلَ الْمُوصِي كَانَتْ وَصِيَّتُهُ رَاجِعَةً إلَى وَرَثَةِ الْمُوصِي ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْمَالُ مُخَالِفًا الْمَالَ يُورَثُ هَا هُنَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ أَوْلَى بِهِ عِنْدَنَا فِي قَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَقْرَبَ مِمَّنْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ هَذَا الْمَالَ وَهَؤُلَاءِ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ هَذَا الْمَالَ وَلَمْ يَبْقَ مُسْلِمٌ مُحْتَاجٌ إلَّا وَلَهُ حَقٌّ سَمَّاهُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : إذَا قُسِّمَتِ الزَّكَاةُ عَلَى الْمَوْجُودِينَ مِنَ الْأَصْنَافِ فَكَانَتْ سِهَامُ بَعْضِ الْأَصْنَافِ أَكْثَرَ مِنْ كِفَايَاتِهِمْ وَسِهَامُ الْبَاقِينَ مِنَ الْأَصْنَافِ أَقَلَّ

مِنْ كِفَايَاتِهِمْ ، لَمْ يُعْطَ الْمُكْتَفُونَ بِبَعْضِ سِهَامِهِمْ إلَّا قَدْرَ كِفَايَاتِهِمْ ، وَنُقِلَ عَنْهُمُ الْفَاضِلُ مِنْ كِفَايَاتِهِمْ ، ثُمَّ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَغَيْرِهِ أَنْ يُرَدَّ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ الَّذِينَ قَصَرَتْ سِهَامُهُمْ عَنْ

(458/340)

كِفَايَاتِهِمْ عَلَى مَا وَصَفْنَاهُ مِنَ الْمِثَالِ فِي الْقِسْمَةِ ، وَذَهَبَ بَعْضُ أَصْحَابِهِ إلَى أَنَّهُ يُنْقَلُ الْفَاضِلُ مِنْ تِلْكَ السِّهَامِ إلَى أَهْلِهَا فِي أَقْرَبِ الْبِلَادِ وَلَا يُرَدُّ عَلَى بَاقِي الْأَصْنَافِ : لِئَلَّا يُفَاضِلَ بَيْنَ الْأَصْنَافِ مَعَ تَسْوِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى بَيْنَهُمْ . وَمَا ذَهَبَ إلَيْهِ الشَّافِعِيُّ أَصَحُّ لِثَلَاثَةِ مَعَانٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ بِالصَّدَقَةِ عَنْ جِيرَانِ الْمَالِ مَا وُجِدُوا ، وَفِي هَذَا عُدُولٌ عَنْهُمْ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ لَمَّا عَدِمَ بَعْضَ الْأَصْنَافِ وَجَبَ رَدُّ سَهْمِهِ عَلَى مَنْ وُجِدَ وَلَا يُنْقَلُ ، فَأَوْلَى أَنْ يَكُونَ الْفَاضِلُ عَنْ كِفَايَةِ الْمَوْجُودِينَ يُرَدُّ عَلَى مَنِ احْتَاجَ وَلَا يُنْقَلُ . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ الْوَصَايَا إذَا ضَاقَتْ وَرَدَّ بَعْضُهُمْ حِصَّتَهُ مِنْهَا ، رُدَّتْ عَلَى مَنْ بَقِيَ وَلَمْ تُرَدَّ عَلَى الْوَرَثَةِ كَانَتِ الصَّدَقَةُ بِمَثَابَتِهَا ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ أَهْلُ الْفَيْءِ لَا يَدْخُلُونَ عَلَى أَهْلِ الصَّدَقَةِ

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " أَمَّا أَهْلُ الْفَيْءِ فَلَا يَدْخُلُونَ عَلَى أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، وَأَمَّا أَهْلُ الصَّدَقَةِ

الْأُخْرَى فَهُوَ مَقْسُومٌ لَهُمْ صَدَقَتُهُمْ ، فَلَوْ كَثُرَتْ لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ وَوَاحِدٌ مِنْهُمْ يَسْتَحِقُّهَا ، فَكَمَا كَانُوا لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ ، فَكَذَلِكَ لَا يَدْخُلُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ مَا كَانَ مِنْ غَيْرِهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّ مِنْهَا شَيْئًا " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ وَهِيَ جُمْلَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى فَصْلَيْنِ :

(459/340)

أَحَدُهُمَا : تَمْيِيزُ أَهْلِ الصَّدَقَةِ عَنْ أَهْلِ الْفَيْءِ . وَالثَّانِي : تَمْيِيزُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ بَعْضِهِمْ عَنْ بَعْضٍ . فَأَمَّا تَمْيِيزُ أَهْلِ الصَّدَقَةِ عَنْ أَهْلِ الْفَيْءِ فَقَدْ ذَكَرْنَاهُ وَقُلْنَا لِمَنْ قَالَ : الْفَيْءُ لِأَهْلِهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ أَهْلُ الصَّدَقَاتِ ، وَأَمَّا الصَّدَقَةُ لِأَهْلِهَا لَا يَجُوزُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهَا أَهْلُ الْفَيْءِ ، وَهُوَ قَوْلُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَإِنْ خَالَفَ فِيهِ أَهْلُ الْعِرَاقِ بَعْدَ مُضِيِّ الْكَلَامِ فِيهِ . وَأَمَّا تَمْيِيزُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ فَهُوَ مُعْتَبَرٌ بِحَالِ مُعْطِيهَا ، فَإِنْ كَانَ رَبُّ الْمَالِ هُوَ الْمُعْطِي تَمَيَّزُوا بِالْجِوَارِ ، فَإِذَا أَعْطَى زَكَاةَ مَالِهِ لِأَهْلِهَا مِنْ جِيرَانِهِ ، فَإِنِ اكْتَفَوْا بِهَا لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ زَكَاةِ غَيْرِهِمَا ، وَإِنْ لَمْ يَكْتَفُوا جَازَ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ زَكَاةٍ أُخْرَى : لِأَنَّ أَرْبَابَ الْأَمْوَالِ قَدْ يَتَجَاوَرُونَ ، فَيَكُونُ فِي جِيرَانِ جَمِيعِهِمْ أَهْلًا لِصَدَقَاتِهِمْ كُلِّهِمْ ، فَإِنْ كَانَ الْعَامِلُ هُوَ الْمُعْطِي فَأَهْلُ عَمَلِهِ أَهْلُ الصَّدَقَاتِ الَّتِي يَجْبِيهَا ، فَإِذَا فَرَّقَهَا فِيهِمْ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ غَيْرِهَا مِنَ الصَّدَقَاتِ ،

سَوَاءً اكْتَفَوْا بِمَا قَدْ أَخَذُوا مِنَ الصَّدَقَاتِ أَمْ لَا : لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي صَدَقَةٍ لَيْسُوا مِنْ أَهْلِهَا وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ الشَّافِعِيِّ : " فَكَمَا لَا يَدْخُلُونَ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَكَذَلِكَ لَا يَدْخُلُ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ " . وَدَلَّ الشَّافِعِيُّ بِهَذَا عَلَى أَنَّ الصَّدَقَةَ إذَا فَضَلَتْ عَنْ كِفَايَةِ بَعْضِهِمْ فَاحْتَاجَ إلَيْهَا الْبَاقُونَ أَنَّهَا لَا تُنْقَلُ

(460/340)

عَنْهُمْ ؛ تَعْلِيلًا بِأَنَّهُمْ لَمَّا لَمْ يَدْخُلُوا عَلَى غَيْرِهِمْ فِي صَدَقَةٍ أُخْرَى لَمْ يَدْخُلْ عَلَيْهِمْ غَيْرُهُمْ فِي الْفَاضِلِ مِنْ صَدَقَاتِ بَعْضِهِمْ ، وَهَذَا تَعْلِيلٌ صَحِيحٌ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا الْفَرْقُ بَيْنَ مَا يُعْطِيهِ الْعَامِلُ وَبَيْنَ مَا يُعْطِيهِ رَبُّ الْمَالِ ؟ قِيلَ : الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ رَبَّ الْمَالِ يُعْطِي بَعْضَ الصَّدَقَاتِ ، فَجَازَ أَنْ يُعْطِيَ الْآخِذَ مِنْ صَدَقَةٍ أُخْرَى ، وَالْعَامِلُ يُعْطِي جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطِيَ الْآخِذَ مِنْ صَدَقَةٍ أُخْرَى ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ إذَا اسْتَغْنَى أَهْلُ نَاحِيَةٍ بِبَعْضِ صَدَقَاتِهِمْ

(461/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِنِ اسْتَغْنَى أَهْلُ عَمَلٍ بِبَعْضِ مَا قُسِمَ لَهُمْ وَفَضَلَ عَنْهُمْ فَضْلٌ ، رَأَيْتُ أَنْ يُنْقَلَ الْفَضْلُ مِنْهُمْ إلَى أَقْرَبِ النَّاسِ بِهِمْ فِي الْجِوَارِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : إذَا اسْتَغْنَى أَهْلُ نَاحِيَةٍ بِبَعْضِ صَدَقَاتِهِمْ وَجَبَ نَقْلُ فَاضِلِهَا إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ : لِأَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِيمَا فَضَلَ عَنْ كِفَايَاتِهِمْ ، فَكَانَ أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِمْ أَحَقَّ بِهَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَلَوْ قَرُبَ مِنْهُمْ بُلْدَانٌ ، فَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمَا أَقْرَبَ إلَيْهِمْ مِنَ الْآخَرِ ، كَانَ أَقْرَبُ الْبَلَدَيْنِ أَوْلَى مِنْ أَبْعَدِهِمَا ، سَوَاءٌ كَانَ الْأَقْرَبُ مِصْرًا أَوْ قَرْيَةً . وَإِنْ كَانَا فِي الْقُرْبِ سَوَاءً ، نُظِرَ فِي الْعَامِلِ فِي الصَّدَقَةِ ، فَإِنْ كَانَتْ مَعَ رَبِّ الْمَالِ كَانَ بِالْخِيَارِ فِي إخْرَاجِهَا فِي أَيِّ الْبَلَدَيْنِ شَاءَ ، وَإِنْ كَانَتْ مَعَ الْوَالِي كَانَ عَلَيْهِ أَنْ يُخْرِجَهَا فِي الْبَلَدَيْنِ مَعًا : لِأَنَّ عَلَى الْوَالِي أَنْ يَعُمَّ وَلَيْسَ عَلَى رَبِّ الْمَالِ أَنْ يَعُمَّ ، وَلَوْ تَسَاوَيَا فِي الْقُرْبِ إلَيْهِمْ قَرْيَةً وَبَادِيَةً اسْتَوَيَا فِي الِاسْتِحْقَاقِ وَكَانَا كَالْبَلَدَيْنِ الْمُتَسَاوِيَيْنِ فِي الْقُرْبِ ، وَسَوَاءٌ كَانَا فِي جِهَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ فِي جِهَتَيْنِ مِنْ عَمَلٍ وَاحِدٍ أَوْ مِنْ عَمَلَيْنِ إلَّا أَنْ يَكُونَ أَحَدُ الْبَلَدَيْنِ مِنْ وِلَايَةِ هَذَا الْعَامِلِ وَالْآخَرُ مِنْ غَيْرِ وِلَايَتِهِ ، فَيَكُونُ الْبَلَدُ الَّذِي هُوَ فِي وِلَايَتِهِ أَوْلَى بِنَقْلِ هَذَا الْفَاضِلِ إلَيْهِمْ مِنَ الْبَلَدِ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ وِلَايَتُهُ .

(462/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَلَوْ ضَاقَتِ السُّهْمَانُ قُسِّمَتْ عَلَى الْجِوَارِ دُونَ النَّسَبِ ، وَكَذَلِكَ إنْ خَالَطَهُمْ عَجَمٌ غَيْرُهُمْ فَهُمْ مَعَهُمْ فِي الْقَسْمِ عَلَى الْجِوَارِ ، فَإِنْ كَانُوا أَهْلَ بَادِيَةٍ عِنْدَ النُّجْعَةِ يَتَفَرَّقُونَ مَرَّةً وَيَخْتَلِطُونَ أُخْرَى ، فَأَحَبُّ إلَيَّ لَوْ قَسَّمَهَا عَلَى النَّسَبِ إذَا اسْتَوَتِ الْحَالَاتُ ، وَإِذَا اخْتَلَفَتِ الْحَالَاتُ فَالْجِوَارُ أَوْلَى مِنَ النَّسَبِ . وَإِنْ قَالَ مَنْ تَصَدَّقَ إنَّ لَنَا فُقَرَاءَ عَلَى غَيْرِ هَذَا الْمَاءِ وَهُمْ كَمَا وَصَفْتُ يَخْتَلِطُونَ فِي النُّجْعَةِ ، قَسَّمَ بَيْنَ الْغَائِبِ وَالْحَاضِرِ . وَلَوْ كَانُوا بِالطَّرَفِ مِنْ بَادِيَتِهِمْ فَكَانُوا أَلْزَمَ لَهُ ، قُسِّمَ بَيْنَهُمْ وَكَانَتْ كَالدَّارِ لَهُمْ ، وَهَذَا إذَا كَانُوا مَعًا أَهْلَ نُجْعَةٍ لَا دَارَ لَهُمْ يَقَرُّونَ بِهَا ، فَأَمَّا إنْ كَانَتْ لَهُمْ دَارٌ يَكُونُونَ لَهَا أَلْزَمَ ، فَإِنِّي أُقَسِّمُهَا عَلَى الْجِوَارِ بِالدَّارِ . (وَقَالَ فِي الْجَدِيدِ) : إذَا اسْتَوَى فِي الْقُرْبِ أَهْلُ نَسَبِهِمْ وَعِدًى ، قُسِّمَتْ عَلَى أَهْلِ نَسَبِهِمْ دُونَ الْعِدَى ، وَإِنْ كَانَ الْعِدَى أَقْرَبَ مِنْهُمْ دَارًا ، وَكَانَ أَهْلُ نَسَبِهِمْ مِنْهُمْ عَلَى سَفَرٍ تُقْصَرُ فِيهِ الصَّلَاةُ قُسِّمَتْ عَلَى الْعِدَى إذَا كَانَتْ دُونَ مَا تُقْصَرُ فِيهِ الصَّلَاةُ : لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِاسْمِ حَضْرَتِهِمْ . وَإِنْ كَانَ أَهْلُ نَسَبِهِمْ دُونَ مَا تُقْصَرُ فِيهِ الصَّلَاةُ ، وَالْعِدَى أَقْرَبَ مِنْهُمْ قُسِّمَتْ عَلَى أَهْلِ نَسَبِهِمْ : لِأَنَّهُمْ بِالْبَادِيَةِ غَيْرُ خَارِجِينَ مِنِ اسْمِ الْجِوَارِ ، وَكَذَلِكَ هُمْ فِي الْمَنْعَةِ حَاضِرُو الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ " .

(463/340)

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : لِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مُقَدِّمَتَانِ : إحْدَاهُمَا : أَنَّ الصَّدَقَةَ إنْ قَسَّمَهَا الْعَامِلُ لَزِمَهُ أَنْ يُقَسِّمَهَا عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ عَلَى طَائِفَةٍ حَتَّى يُقَسِّمَهَا عَلَى جَمِيعِهِمْ ، وَإِنْ قَسَّمَهَا رَبُّ الْمَالِ جَازَ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ عَلَى طَائِفَةٍ أَقَلُّهَا ثَلَاثَةٌ ، وَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ يُفَرِّقَهَا فِي جَمِيعِ الصِّنْفِ إلَّا أَنْ تَتَّسِعَ صَدَقَتُهُ لِجَمِيعِهِمْ فَيَلْزَمُهُ مَعَ الِاتِّسَاعِ أَنْ يُفَرِّقَهَا فِي الْجَمِيعِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْعَامِلِ وَبَيْنَ رَبِّ الْمَالِ مَا قَدَّمْنَاهُ ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يُقَسِّمُ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ فَيَلْزَمُهُ أَنْ يُقَسِّمَهَا فِي جَمِيعِ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، وَرَبُّ الْمَالِ يُقَسِّمُ بَعْضَ الصَّدَقَاتِ ، فَجَازَ أَنْ يُقَسِّمَهَا فِي بَعْضِ أَهْلِ السُّهْمَانِ . وَالْمُقَدِّمَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّ نَقْلَ الصَّدَقَةِ عَنْ مَكَانِهَا لَا يَجُوزُ إذَا وُجِدَ فِيهِ أَهْلُهَا ، وَإِنْ نُقِلَتْ فَقَدْ أَسَاءَ نَاقِلُهَا . وَفِي إجْزَائِهَا قَوْلَانِ . فَإِنْ عُدِمَ أَهْلُ السُّهْمَانِ فِي مَكَانِهِمَا نُقِلَتْ إلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِ . فَإِذَا تَقَرَّرَتْ هَاتَانِ الْمُقَدِّمَتَانِ فَلَا يَخْلُو قَسْمُ الصَّدَقَاتِ مِنْ أَنْ يَتَوَلَّاهُ رَبُّ الْمَالِ أَوْ الْعَامِلُ ، فَإِنْ تَوَلَّاهُ الْعَامِلُ ، فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ صَدَقَاتِ أَمْصَارٍ أَوْ بَوَادٍ ، فَإِنْ كَانَتْ صَدَقَاتِ أَمْصَارٍ لَزِمَهُ أَنْ يُقَسِّمَ صَدَقَةَ كُلِّ مِصْرٍ فِي أَهْلِهِ وَأَهْلُ الْمِصْرِ مَنِ اشْتَمَلَ عَلَيْهِمْ بُنْيَانُهُ وَأَحَاطَ بِهِمْ سُورُهُ . فَأَمَّا مَنْ خَرَجَ عَنْ سُورِهِ

(464/340)

وَلَمْ يَتَّصِلْ بِبُنْيَانِهِ ، فَإِنْ كَانُوا عَلَى مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَصَاعِدًا لَمْ تَكُنْ لَهُمْ فِي زَكَاةِ ذَلِكَ الْمِصْرِ حَقٌّ لِكَوْنِهِمْ مِنَ الْمِصْرِ عَلَى سَفَرٍ يُقْصَرُ فِيهِ الصَّلَاةُ ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُضَافُوا إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى مَسَافَةٍ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، فَفِيهِمْ وَجْهَانِ لِأَصْحَابِنَا :

أَحَدُهُمَا : أَنَّهُمْ مُسْتَحِقُّونَ لِصَدَقَاتِ الْمِصْرِ وَهُمْ كَسُكَّانِهِ فِي أَنَّ الْخَارِجَ إِلَيْهِمْ لَا يَكُونُ مُسَافِرًا يَسْتَبِيحُ الْقَصْرَ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي صَدَقَاتِهِ : لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُضَافَ إِلَى بَلَدِ مَنْ لَيْسَ فِيهِ . وَالَّذِي أَرَاهُ مَذْهَبًا وَهُوَ أَصَحُّ عِنْدِي مِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ : أَنْ يُنْظَرَ فِي الْخَارِجِ عَنِ الْمِصْرِ ، فَإِنْ كَانَ مِمَّنْ يَلْزَمُهُ حُضُورُهُ كَصَلَاةِ الْجُمُعَةِ كَانَ مُضَافًا إِلَى أَهْلِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ صَدَقَاتِهِمْ كَمَا كَانَ مُضَافًا إِلَيْهِمْ فِي وُجُوبِ الْجُمُعَةِ عَلَيْهِ فِي مِصْرِهِمْ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يَلْزَمُهُ حُضُورُ الْمِصْرِ لِصَلَاةِ الْجُمُعَةِ لَمْ يَكُنْ مُضَافًا إِلَى أَهْلِهِ فِي اسْتِحْقَاقِ صَدَقَاتِهِمْ كَمَا لَمْ يُضَفْ إِلَيْهِمْ فِي وُجُوبِ الْجُمُعَةِ عَلَيْهِ فِي مِصْرِهِمْ . وَهَذَا حُكْمُ صَدَقَاتِ الْأَمْصَارِ إِذَا قَسَّمَهَا الْعَامِلُ فِي أَهْلِهَا . وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَنْ كَانَ قَاطِنًا فِي الْمِصْرِ أَوْ طَارِئًا إِلَيْهِ وَأَقَارِبُ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ وَالْأَجَانِبُ : لِأَنَّ اسْتِيعَابَ جَمِيعِهِمْ فِي قِسْمَةِ الْعَامِلِ وَاجِبٌ .

فَصْلٌ صَدَقَاتُ الْبَادِيَةِ

فَصْلٌ : [1/ L27718 L3255 صَدَقَاتُ الْبَادِيَةِ 1/] وَإِنْ كَانَ مَا يُقَسِّمُهُ الْعَامِلُ صَدَقَاتِ بَادِيَةٍ لَا تَضُمُّهُمْ أَمْصَارٌ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونُوا مُقِيمِينَ بِمَكَانٍ قَدِ اسْتَوْطَنُوهُ مِنْ بَادِيَتِهِمْ لَا يَظْعَنُونَ عَنْهُ شِتَاءً وَلَا صَيْفًا وَلَا يَنْقُلُونَ عَنْهُ لِمَرْعًى وَلَا كَلَأٍ ، فَهَؤُلَاءِ كَأَهْلِ الْمِصْرِ لِاشْتِرَاكِهِمْ فِي الْمُقَامِ ، وَإِنِ اخْتَلَفُوا فِي صِفَاتِ الْمَسَاكِنِ ؛ فَتَكُونُ صَدَقَاتُهُمْ مَقْسُومَةً فِيمَنْ كَانَ نَازِلًا مَعَهُمْ فِي مَكَانِهِمْ ، وَهَلْ يُشْرِكُهُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مَسَافَةٍ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَمْ لَا ، عَلَى مَا حَكَيْنَاهُ مِنَ الْوَجْهَيْنِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونُوا مِمَّنْ يَنْتَجِعُ الْكَلَأَ وَيَنْتَقِلُ لِطَلَبِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ لَا يَنْفَصِلُ حَالُ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ ، فَجَمِيعُهُمْ جِيرَانٌ وَإِنْ تَمَيَّزَتْ أَنْسَابُهُمْ فَتُقَسَّمُ الزَّكَاةُ فِي جَمِيعِهِمْ وَفِيمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى مَسَافَةٍ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَإِنْ تَمَيَّزُوا عَنْهُمْ وَجْهًا وَاحِدًا ، بِخِلَافِ أَهْلِ الْأَمْصَارِ : لِأَنَّ الْبَادِيَةَ لَمَّا لَمْ تَضُمَّهُمُ الْأَمْصَارُ رُوعِيَ فِي تَجَاوُرِهِمُ الْقُرْبُ وَالْبُعْدُ ، فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى أَقَلَّ مِنْ مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ كَانَ جَارًا لِقُرْبِهِ ، وَمَنْ كَانَ عَلَى مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَصَاعِدًا لَمْ يَكُنْ جَارًا لِبُعْدِهِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَتَمَيَّزَ حَالُهُمْ وَتَنْفَصِلَ كُلُّ حَلَّةٍ عَنِ الْأُخْرَى ، فَتُقَسَّمُ زَكَاةُ كُلِّ حَلَّةٍ عَنِ الْأُخْرَى

فَتُقَسَّمُ زَكَاةُ كُلِّ حِلَّةٍ عَلَى أَهْلِهَا وَعَلَى مَنْ كَانَ مِنْهَا عَلَى أَقَلَّ مِنْ مَسَافَةِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ، هَذَا حُكْمُ الْعَامِلِ إذَا تَوَلَّى قَسْمَهَا بِنَفْسِهِ فِي الْأَمْصَارِ وَالْبَوَادِي .

فَصْلٌ : وَإِنْ كَانَ رَبُّ الْمَالِ هُوَ الْمُتَوَلِّي لِقَسْمِ زَكَاتِهِ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ جَوَازِهِ فِي تَفْضِيلِ حُكْمِ الْمَالِ الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ ، فَلَا يَخْلُو مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ أَوْ مِنَ الْبَوَادِي ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ لَمْ يَكُنْ مَنْ خَرَجَ عَنْ مِصْرِهِ مِنْ جِيرَانِهِ وَلَا مِنْ مُسْتَحِقِّي زَكَاتِهِ وَجْهًا وَاحِدًا ، بِخِلَافِ مَا يُقَسِّمُهُ الْعَامِلُ :

(467/340)

لِأَنَّنَا نُرَاعِي فِيمَا يُقَسِّمُهُ رَبُّ الْمَالِ الْجِوَارَ وَفِيمَا يُقَسِّمُهُ الْعَامِلُ النَّاحِيَةَ ، ثُمَّ لَا يَخْلُو حَالُ مِصْرِهِ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكُونَ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، فَإِنْ كَانَ صَغِيرًا كَانَ جَمِيعُ أَهْلِهِ جِيرَانَهُ ، فَإِنْ كَانَ أَهْلُ الصَّدَقَةِ فِيهِ أَجَانِبَ مِنْ رَبِّ الْمَالِ أَوْ جَمِيعُهُمْ أَقَارِبَ لَهُ فَجَمِيعُهُمْ سَوَاءٌ وَلَهُ أَنْ يَدْفَعَ زَكَاةَ مَالِهِ إلَى مَنْ شَاءَ مِنْهُمْ بَعْدَ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ثَلَاثَةً فَصَاعِدًا ، وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ أَقَارِبَ لِرَبِّ الْمَالِ وَبَعْضُهُمْ أَجَانِبَ مِنْهُ كَانَ أَقَارِبُهُ أَوْلَى بِزَكَاتِهِ مِنَ الْأَجَانِبِ لِقَوْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : خَيْرُ الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ ، يَعْنِي :

الْمُعَادِي وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : صَدَقَتُكَ عَلَى غَيْرِ ذِي رَحِمِكَ صَدَقَةٌ ، وَعَلَى ذِي رَحِمِكَ صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ ، فَإِنْ عَدَلَ بِهَا عَنْ أَقَارِبِهِ إلَى الْأَجَانِبِ فَقَدْ أَسَاءَ وَأَجْزَأَتْهُ : لِأَنَّ تَقْدِيمَ الْأَقَارِبِ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى مَعَ اشْتِرَاكِ الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ فِي الِاسْتِحْقَاقِ ، وَإِنْ كَانَ الْبَلَدُ كَبِيرًا وَاسِعًا فَقَدِ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا هَلْ يُرَاعَى فِيهِ الْجِوَارُ الْخَاصُّ وَالْجِوَارُ الْعَامُّ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُرَاعَى فِيهِ الْجِوَارُ الْخَاصُّ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ جِيرَانُهُ مَنْ أُضِيفَ إلَى مَكَانِهِ مِنَ الْبَلَدِ . وَقِيلَ : إنَّهُمْ إلَى أَرْبَعِينَ دَارًا مِنْ دَارِهِ وَلَا يَكُونُ جَمِيعُ أَهْلِ الْبَلَدِ جِيرَانَهُ وَهَذَا قَوْلٌ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّهُ يُرَاعَى فِيهِ

(468/340)

الْجِوَارُ الْعَامُّ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ [النِّسَاءِ : آيَةَ 36] ، يَعْنِي : الْبَعِيدَ . فَعَلَى هَذَا يَكُونُ جَمِيعُ أَهْلِ الْبَلَدِ جِيرَانَهُ وَهَذَا هُوَ الظَّاهِرُ مِنْ قَوْلِ الْبَغْدَادِيِّينَ ، فَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ : إنْ فَرَّقَهَا فِي غَيْرِ جِيرَانِهِ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ كَانَ نَاقِلًا لِزَكَاتِهِ عَنْ مَحَلِّهَا وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي لَا يَكُونُ نَاقِلًا لَهَا وَهُوَ أَصَحُّ الْوَجْهَيْنِ .

فَصْلٌ : وَإِنْ كَانَ رَبُّ الْمَالِ بَدَوِيًّا فِي الزَّكَاةِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ فِي حَلَّةٍ قَاطِنًا بِمَكَانِهَا لَا يَظْعَنُ عَنْهَا شِتَاءً وَلَا صَيْفًا ، فَهِيَ كَالْبَلَدِ وَجَمِيعُهَا جِيرَانٌ ، سَوَاءٌ

صَغُرَتْ أَوْ كَبُرَتْ لِأَنَّهَا لَا تَبْلُغُ ، وَإِنْ كَبُرَتْ مَبْلَغَ كِبَارِ الْأَمْصَارِ فَيَخُصُّ مِنْهُمْ أَقَارِبَهُ ، فَإِنْ عَدَلَ عَنْهُمْ إلَى الْأَجَانِبِ أَجْزَأَ وَلَا يَكُونُ مَنْ فَارَقَ الْحَلَّةَ جَارًا ، وَإِنْ كَانَ عَلَى مَسَافَةٍ أَقَلَّ مِنْ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ : لِأَنَّ ذَلِكَ جَارٌ لِلْحَلَّةِ وَالْوَاحِدُ مِنَ الْحَلَّةِ جِيرَانُهُ أَهْلُ الْحَلَّةِ ، فَبَانَ الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ فِي حَلَّةٍ يَنْجَعُ الْكَلَأَ وَيَظْعَنُ لِطَلَبِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ :

(469/340)

أَحَدُهُمَا : أَنْ تَكُونَ الْحَلَّةُ مُجْتَمِعَةً لَا يَنْفَصِلُ بَعْضُهَا عَنْ بَعْضٍ فَجَمِيعُ أَهْلِهَا جِيرَانُهُ كَبُرَتْ أَمْ صَغُرَتْ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ تَكُونَ مُتَفَرِّقَةً كَتَمَيُّزِ كُلِّ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ عَنْ غَيْرِهِمْ ، إمَّا لِتَمَيُّزِهِمْ فِي الْأَنْسَابِ وَإِمَّا لِتَمَيُّزِهِمْ فِي الْأَسْبَابِ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الرَّحِيلِ وَالنُّزُولِ ، فَيَكُونُ جِيرَانُهُ مِنَ الْحَلَّةِ مَنْ يَرْحَلُ بِرَحِيلِهِ وَيَنْزِلُ بِنُزُولِهِ وَلَا تَكُونُ الْفِرْقَةُ الَّتِي تُخَالِفُهُ فِي الرَّحِيلِ وَالنُّزُولِ جِيرَانًا لَهُ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَتَّفِقُوا فِي الرَّحِيلِ وَالنُّزُولِ فَفِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ جَمِيعَ الْحَلَّةِ مِنَ الْفِرَقِ كُلِّهَا جِيرَانٌ لَهُ اعْتِبَارًا بِاتِّفَاقِهِمْ فِي النُّجْعَةِ وَإِنْ تَفَرَّقُوا فِي الْبُقْعَةِ كَمَا يَتَفَرَّقُ أَهْلُ الْأَمْصَارِ فِي مَحَالِّهِمْ وَيَكُونُوا جِيرَةً إذَا جَمَعَهُمُ الْمِصْرُ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ جِيرَانَهُ مِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي بُقْعَتِهِ دُونَ مَنْ فَارَقَهُ

اعْتِبَارًا بِالْمَكَانِ فَعَلَى الْوَجْهِ الْأَوَّلِ إنْ عَدَلَ بِزَكَاتِهِ إلَى غَيْرِ طَائِفَتِهِ مِنْ فِرَقِ الْحَلَّةِ لَمْ يَكُنْ نَاقِلًا لَهَا ، وَعَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي يَكُونُ نَاقِلًا لَهَا .

مَسْأَلَةٌ إذَا وَلِيَ الرَّجُلُ إخْرَاجَ زَكَاةِ مَالِهِ قَسَّمَهَا عَلَى قَرَابَتِهِ وَجِيرَانِهِ مَعًا

(470/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِذَا وَلِيَ الرَّجُلُ إخْرَاجَ زَكَاةِ مَالِهِ قَسَّمَهَا عَلَى قَرَابَتِهِ وَجِيرَانِهِ مَعًا ، فَإِنْ ضَاقَتْ فَآثَرَ قَرَابَتَهُ فَحَسَنٌ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَإِنْ كَانَ لِرَبِّ الْمَالِ أَقَارِبُ ، فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونُوا جِيرَانًا أَوْ أَبَاعِدَ ، فَإِنْ كَانَ أَقَارِبُهُ جِيرَانًا فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ مَعَهُمْ أَجَانِبُ أَمْ لَا ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ أَجَانِبُ فَقَدِ اسْتَحَقُّوا زَكَاةَ مَالِهِ بِالْجِوَارِ وَحَازَ الْفَضِيلَةَ بِالْقَرَابَةِ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُمْ أَجَانِبُ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ تَسَعَ زَكَاتُهُ لِلْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ فَيَفُضُّهَا عَلَى الْفَرِيقَيْنِ : وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ تَضِيقَ زَكَاتُهُ عَنِ الْفَرِيقَيْنِ فَأَقَارِبُهُ أَوْلَى بِزَكَاتِهِ مِنَ الْأَجَانِبِ ، لَكِنِ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا هَلِ الْأَفْضَلُ أَنْ يَخْلِطَ بِأَقَارِبِهِ نَفَرًا مِنَ الْأَجَانِبِ أَوْ يَتَوَفَّرَ بِهَا عَلَى أَقَارِبِهِ ، عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَتَوَفَّرَ بِهَا عَلَى أَقَارِبِهِ لِلْخَبَرِ الْمُتَقَدِّمِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ الْأَوْلَى أَنْ يَخْلِطَ بِهِمْ نَفَرًا مِنَ الْأَجَانِبِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : أَوْ إطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا

مَقْرَبَةٍ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ [الْبَلَدِ : 14 ، 15 ، 16] ، فَجَمَعَ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ فِي اسْتِحْقَاقِ الثَّنَاءِ .

(471/340)

فَصْلٌ : فَأَمَّا إذَا كَانَ جِيرَانُهُ أَجَانِبَ وَأَقَارِبُهُ أَبَاعِدَ ، فَجِيرَانُهُ الْأَجَانِبُ أَوْلَى بِزَكَاتِهِ مِنْ أَقَارِبِهِ الْأَبَاعِدِ ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : أَقَارِبُهُ الْأَبَاعِدُ أَوْلَى مِنْ جِيرَانِهِ الْأَجَانِبِ : لِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَدَقَةَ امْرِئٍ وَذُو رَحِمِهِ مُحْتَاجٌ ، وَلِأَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ فِي النَّسَبِ صِفَةٌ لَازِمَةٌ وَاجْتِمَاعُهُمْ فِي

(472/340)

الْجِوَارِ صِفَةٌ زَائِلَةٌ ، وَلِأَنَّ النَّفَقَةَ لَمَّا وَجَبَتْ بِالنَّسَبِ دُونَ الْجِوَارِ كَانَ النَّسَبُ فِي الزَّكَاةِ أَوْلَى مِنْ اعْتِبَارِ الْجِوَارِ . وَدَلِيلُنَا عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى الْآيَةَ ، وَعُمُومُ قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الْجَارُ أَحَقُّ بِسَقَبِهِ أَيْ بِقُرْبِهِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا تَمَيَّزَ الْأَقَارِبُ بِوُجُوبِ النَّفَقَةِ تَمَيَّزَ الْجِيرَانُ بِاسْتِحْقَاقِ الزَّكَوَاتِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَ جِيرَانُهُ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ أَوْلَى مِنْ

زَكَاتِهِ مِنْ أَقَارِبِهِ فِي دَارِ الْحَرْبِ كَانَ جِيرَانُهُ فِي بَلَدِهِ أَوْلَى بِهَا مِنْ أَقَارِبِهِ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ .

وَتَحْرِيرُهُ قِيَاسًا أَنَّ قُرْبَ الدَّارِ أَحَقُّ بِالزَّكَاةِ مِنْ قُرْبِ النَّسَبِ قِيَاسًا عَلَى دَارِ الْحَرْبِ ، فَأَمَّا الْخَبَرُ فَمَحْمُولٌ عَلَى أَحَدِ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : عَلَى صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ . وَالثَّانِي : عَلَى ذِي الرَّحِمِ الَّذِي يَجِبُ نَفَقَتُهُ ، فَأَمَّا الِاعْتِبَارُ لِلُزُومِ الصِّفَةِ فِي النَّسَبِ دُونَ الْجِوَارِ فَفَاسِدٌ بِالشُّفْعَةِ حَيْثُ رُوعِيَ فِيهَا الْجِوَارُ دُونَ النَّسَبِ ، وَأَمَّا الِاسْتِدْلَالُ بِوُجُوبِ النَّفَقَةِ بِالنَّسَبِ دُونَ الْجِوَارِ فَهُوَ أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ دَلِيلًا عَلَيْهِمْ لِتَمَيُّزِ مُسْتَحِقِّي النَّفَقَةِ عَنْ مُسْتَحِقِّي الزَّكَاةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(473/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَأَحَبُّ إلَيَّ أَنْ يُوَلِّيَهَا غَيْرُهُ : الْمُزَكِّي فِي صَرْفِ الزَّكَاةِ لِأَنَّهُ الْمُحَاسَبُ عَلَيْهَا وَالْمَسْئُولُ عَنْهَا وَأَنَّهُ عَلَى يَقِينٍ مِنْ نَفْسِهِ وَفِي شَكٍّ مِنْ فِعْلِ غَيْرِهِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَكَذَلِكَ دَفْعُهَا إلَى الْإِمَامِ أَوْلَى مِنْ اسْتِنَابَةِ الْوَكِيلِ فِيهَا الزَّكَاةُ : لِأَنَّهَا تَسْقُطُ عَنْهُ بِقَبْضِ الْإِمَامِ لَهَا وَلَا تَسْقُطُ عَنْهُ بِقَبْضِ وَكِيلِهِ لَهَا ، فَأَمَّا رَبُّ الْمَالِ وَالْإِمَامُ فَإِنْ كَانَ الْمَالُ ظَاهِرًا فَدَفْعُ زَكَاتِهِ إلَى الْإِمَامِ أَوْلَى مِنْ تَفَرُّدِ رَبِّ الْمَالِ بِإِخْرَاجِهَا عَلَى قَوْلَيْهِ فِي الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ لَكِنَّهَا عَلَى الْقَدِيمِ مِنْ طَرِيقِ الِاسْتِحْقَاقِ ، وَعَلَى الْجَدِيدِ مِنْ طَرِيقِ الْأَوْلَى . وَإِنْ

كَانَ الْمَالُ بَاطِنًا فَفِيهِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ سُرَيْجٍ وَأَبِي إِسْحَاقَ : أَنَّ دَفْعَهَا إِلَى الْإِمَامِ أَوْلَى وَتَفَرُّدَ رَبِّ الْمَالِ بِإِخْرَاجِهَا : لِأَنَّ الْإِمَامَ يَعُمُّ بِهَا جَمِيعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ إِذَا انْضَمَّتْ إِلَى غَيْرِهَا ، وَرَبُّ الْمَالِ يَخُصُّ بِهَا بَعْضَهُمْ ، وَلِأَنَّ رَبَّ الْمَالِ إِذَا دَفَعَهَا خَطَأً إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ لَمْ يَسْقُطْ فَرْضُهَا عَنْهُ ، وَلَوْ دَفَعَهَا الْإِمَامُ خَطَأً إِلَى غَيْرِ مُسْتَحِقٍّ سَقَطَ فَرْضُهَا عَنْهُ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ رَبَّ الْمَالِ أَوْلَى بِإِخْرَاجِهَا مِنْ دَفْعِهَا إِلَى الْإِمَامِ : لِأَنَّ مَا بَاشَرَهُ مَعَ عِبَادَاتِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِمَّا عَوَّلَ فِيهِ عَلَى غَيْرِهِ ، وَلِأَنَّهُ أَوْسَعُ اجْتِهَادًا فِي مُسْتَحِقِّي زَكَاتِهِ مِنَ الْإِمَامِ ، وَلِأَنَّهُ أَعْرَفُ مِنْهُ

(474/340)

بِأَقَارِبِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ .

مَسْأَلَةٌ أَقَلُّ مَنْ يُعْطَى مِنْ أَهْلِ السُّهْمِ ثَلَاثَةٌ

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَأَقَلُّ مَنْ يُعْطَى مِنْ أَهْلِ السُّهْمِ ثَلَاثَةٌ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ

(475/340)

كُلَّ صِنْفِ جَمَاعَةٍ ، فَإِنْ أَعْطَى اثْنَيْنِ وَهُوَ يَجِدُ الثَّالِثَ ضَمِنَ ثُلُثَ سَهْمٍ ، وَإِنْ أَخْرَجَهُ إِلَى غَيْرِ بَلَدِهِ لَمْ يَبِنْ لِي أَنَّ عَلَيْهِ إِعَادَةً : لِأَنَّهُ أَعْطَى أَهْلَهُ بِالِاسْمِ وَإِنْ تَرَكَ الْجِوَارَ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ قَسْمَ الصَّدَقَةِ يَخْتَلِفُ فِيهَا حَالُ الْعَامِلِ وَحَالُ رَبِّ الْمَالِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُ الْوَجْهَيْنِ : أَنَّ عَلَى الْعَامِلِ فِيمَا يُقَسِّمُهُ أَنْ يَعُمَّ بِهِ جَمِيعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ ، وَيَجُوزُ لِرَبِّ الْمَالِ أَنْ يَقْتَصِرَ فِي كُلِّ صِنْفٍ عَلَى ثَلَاثَةٍ فَصَاعِدًا وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا قَدْ ذَكَرْنَاهُ وَهُوَ أَنَّ الْعَامِلَ يُقَسِّمُ جَمِيعَ الصَّدَقَاتِ ، فَلَزِمَهُ أَنْ يَعُمَّ بِهَا جَمِيعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ وَرَبُّ الْمَالِ يُقَسِّمُ بَعْضَ الصَّدَقَاتِ ، فَجَازَ أَنْ يَقْتَصِرَ عَلَى بَعْضِ أَهْلِ السُّهْمَانِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي : أَنَّ عَلَى الْعَامِلِ أَنْ يُقَسِّمَ سَهْمَ كُلِّ صِنْفٍ عَلَى قَدْرِ حَاجَاتِهِمْ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسَاوِيَ بَيْنَهُمْ مَعَ تَفَاضُلِهِمْ فِي الْحَاجَةِ وَلَا أَنْ يُفَاضِلَ بَيْنَهُمْ مَعَ تَسَاوِيهِمْ فِي الْحَاجَةِ ، وَرَبُّ الْمَالِ يُقَسِّمُ ذَلِكَ عَلَى خِيَارِهِ مَعَ تَسْوِيَةٍ وَتَفْضِيلٍ وَلَا يَلْزَمُهُ أَنْ يُقَسِّمَهُ بَيْنَهُمْ عَلَى قَدْرِ الْحَاجَةِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَامِلَ لَمَّا لَزِمَهُ أَنْ يَعُمَّ جَمِيعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ لَزِمَهُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ ، وَرَبُّ الْمَالِ لَمَّا لَمْ يَلْزَمْهُ أَنْ يَعُمَّ جَمِيعَ أَهْلِ السُّهْمَانِ لَمْ يَلْزَمْهُ التَّسْوِيَةُ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ وَكَانَ عَلَى خِيَارِهِ فِي قَدْرِ الْعَطَاءِ كَمَا كَانَ

(476/340)

عَلَى خِيَارِهِ فِي تَمَيُّزِ الْعَطَاءِ ، فَإِذَا ثَبَتَ الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ فَقَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِيمَا يَتَوَلَّاهُ الْعَامِلُ ، فَأَمَّا رَبُّ الْمَالِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَقْتَصِرَ مِنَ الصِّنْفِ الْوَاحِدِ عَلَى أَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةٍ إِذَا وُجِدُوا : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذَكَرَ كُلَّ صِنْفٍ بِلَفْظِ الْجَمْعِ الْمُطْلَقِ وَقَالَ : إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ [التَّوْبَةِ : آيَةَ 160] وَأَقَلُّ الْجَمْعِ ثَلَاثَةٌ فَرْقًا بَيْنَ الْجَمْعِ وَالتَّثْنِيَةِ ، أَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَصْنَافِ كُلِّهِمْ فَيَسْتَوِي فِيهِ الْعَامِلُ وَرَبُّ الْمَالِ ، فَلَا يَجُوزُ لِرَبِّ الْمَالِ أَنْ يُخِلَّ بِصِنْفٍ مِنْهُمْ إِذَا قَدَرَ عَلَيْهِ فِي بَلَدِهِ كَالْعَامِلِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَلَّا يَلْزَمَهُ اسْتِيعَابُ كُلِّ صِنْفٍ ، بِخِلَافِ الْعَامِلِ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ كُلَّ زَكَاةٍ لِجَمِيعِ الْأَصْنَافِ وَلَمْ يَجْعَلْهَا لِجَمِيعِ كُلِّ صِنْفٍ . فَإِذَا تَقَرَّرَ أَنَّ الْوَاجِبَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَ ثَلَاثَةً مِنْ كُلِّ صِنْفٍ كَانَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ التَّسْوِيَةِ بَيْنَهُمْ وَالتَّفْضِيلِ اعْتِبَارًا بِالْحَاجَةِ ، فَأَيُّ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ فَعَلَ أَجْزَأَهُ ، فَإِنْ قَسَّمَهَا عَلَى اثْنَيْنِ مَعَ وُجُودِ الثَّالِثِ ضَمِنَ حِصَّةَ الثَّالِثِ ، وَفِي قَدْرِ مَا ضَمِنَهُ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : ثُلُثُ ذَلِكَ السَّهْمِ وَهُوَ الْمَنْصُوصُ عَلَيْهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ اعْتِبَارًا بِالتَّسْوِيَةِ عِنْدَ تَرْكِ الِاجْتِهَادِ فِي التَّفْضِيلِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : يَضْمَنُ أَقَلَّ مَا يُجْزِئُ اعْتِبَارًا بِمَا جُعِلَ مِنَ الْخِيَارِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

(477/340)

مَسْأَلَةٌ إِنْ أَعْطَى قَرَابَتَهُ مِنَ السُّهْمَانِ مِمَّنْ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِنْ أَعْطَى قَرَابَتَهُ مِنَ السُّهْمَانِ مِمَّنْ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ كَانَ أَحَقَّ بِهَا مِنَ الْبَعِيدِ مِنْهُ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مِنْ قَرَابَتِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَكَذَلِكَ خَاصَّتُهُ

(478/340)

وَمَنْ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ مِنْ قَرَابَتِهِ مَا عَدَا وَلَدَهُ وَوَالِدَهُ وَلَا يُعْطَى وَلَدُ الْوَلَدِ صَغِيرًا وَلَا كَبِيرًا زَمِنًا وَلَا أَخًا وَلَا جَدًّا وَلَا جَدَّةً زَمِنَيْنِ وَيُعْطِيهِمْ غَيْرَ زَمْنَى : لِأَنَّهُ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا زَمْنَى " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَقَارِبَ صَاحِبِ الْمَالِ مِنْ مَنَاسِبِهِ وَذَوِي رَحِمِهِ أَوْلَى بِزَكَاةِ مَالِهِ مِنَ الْأَجَانِبِ ، وَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَهُمْ ضَرْبَانِ : ضَرْبٌ تَجِبُ نَفَقَاتُهُمْ وَضَرْبٌ لَا تَجِبُ . فَأَمَّا مَنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُ بِفَقْرِهِ وَزَمَانَتِهِ مِنْ أَقَارِبِهِ فَهُمُ الْوَالِدُونَ وَالْمَوْلُودُونَ ، فَالْوَالِدُونَ الْآبَاءُ وَالْأُمَّهَاتُ وَالْأَجْدَادُ وَالْجَدَّاتُ مِنْ قِبَلِ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ . وَأَمَّا الْمَوْلُودُونَ فَالْبَنُونَ وَالْبَنَاتُ وَبَنُو الْبَنِينَ وَبَنُو الْبَنَاتِ . وَأَمَّا مَنْ لَا تَجِبُ عَلَيْهِ نَفَقَتُهُمْ فَهُمْ مَنْ عَدَا مَنْ ذَكَرْنَا مِنَ الْإِخْوَةِ وَالْأَخَوَاتِ وَالْأَعْمَامِ وَالْعَمَّاتِ وَالْأَخْوَالِ وَالْخَالَاتِ وَمَنِ اتَّصَلَ بِهِمْ مِنْ أَبْنَائِهِمْ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : تَجِبُ نَفَقَةُ كُلِّ ذِي رَحِمٍ مَحْرَمٍ وَالْكَلَامُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِ النَّفَقَاتِ ، فَإِذَا كَانَ الْأَقَارِبُ مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَاتُهُمْ كَانُوا أَوْلَى بِالزَّكَاةِ مِنَ الْأَجَانِبِ الْبُعَدَاءِ ، سَوَاءٌ كَانَ يَتَطَوَّعُ بِالنَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ

أَمْ لَا . وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ : إنْ تَطَوَّعَ بِالنَّفَقَةِ عَلَيْهِمْ صَارُوا فِي تَحْرِيمِ الزَّكَاةِ كَمَنْ تَجِبُ نَفَقَتُهُمْ . وَهَذَا خَطَأٌ لِأَنَّ لَهُ قَطْعَ مَا تَطَوَّعَ بِهِ مِنَ النَّفَقَةِ فَلَمْ تَحْرُمْ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَةُ

(479/340)

كَتَطَوُّعِهِ بِنَفَقَاتِ الْأَجَانِبِ .

فَصْلٌ إنْ كَانُوا مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَاتُهُمْ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَدْفَعَ إلَيْهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ إنْ كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ مَسَاكِينَ

(480/340)

فَصْلٌ : وَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ تَجِبُ نَفَقَاتُهُمْ فِي الزكاة لَمْ يَجُزْ أَنْ يَدْفَعَ إلَيْهِمْ مِنَ الزَّكَاةِ إنْ كَانُوا فُقَرَاءَ أَوْ مَسَاكِينَ : لِأَنَّهُمْ بِوُجُوبِ نَفَقَاتِهِمْ عَلَيْهِ قَدْ صَارُوا بِهِ أَغْنِيَاءَ ، وَلِأَنَّهُ يَصِيرُ مُرْتَفِقًا بِهَا فِي سُقُوطِ نَفَقَاتِهِمْ عَنْهُ ، فَلَمْ يَجُزْ لِهَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، فَأَمَّا إنْ كَانُوا مِنَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا جَازَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ سَهْمَ الْعَامِلِينَ مِنْهَا : لِأَنَّ سَهْمَهُمْ فِي مُقَابَلَةِ عَمَلٍ فَكَانَ عِوَضًا ، فَإِنْ كَانُوا مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ أَعْطَاهُمْ مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ إنْ كَانُوا أَغْنِيَاءَ وَلَمْ يُعْطِهِمْ مِنْهُ إنْ كَانُوا فُقَرَاءَ : لِأَنَّهُ تَسْقُطُ نَفَقَاتُهُمْ عَنْهُ بِمَا يَأْخُذُونَهُ مِنْهُ فَصَارَ مُرْتَفِقًا بِهَا . وَإِنْ كَانُوا

مُكَاتَبِينَ جَازَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ سَهْمِ الرِّقَابِ : لِأَنَّ نَفَقَةَ الْمُكَاتَبِ لَا تَجِبُ عَلَى مُنَاسِبٍ ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْغَارِمِينَ جَازَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْ سَهْمِهِمْ ، سَوَاءٌ كَانُوا مِمَّنْ أَدَانَ فِي مَصْلَحَةِ نَفْسِهِ ، أَوْ مَصْلَحَةِ غَيْرِهِ ، فَلَا يُعْطَى إلَّا مَعَ الْفُقَرَاءِ . وَإِنْ كَانُوا مِمَّنْ أَدَانَ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فَيُعْطَى مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ : لِأَنَّ مَا يُعْطَوْنَهُ يَلْزَمُهُمْ صَرْفُ دُيُونِهِمُ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ قَضَاؤُهَا عَلَيْهِمْ ، فَلَيْسَ يَرْتَفِقُ بِهَا فِي سُقُوطِ نَفَقَتِهِمْ . وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْغُزَاةِ أَعْطَاهُمْ مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْرَ مَا يَسْتَعِينُونَ بِهِ فِي مُؤْنَةِ

(481/340)

حُمُولَتِهِمْ وَثَمَنِ سِلَاحِهِمْ وَدَوَابِّهِمْ وَنَفَقَاتِ خَيْلِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ ، وَلَا يُعْطِيهِمْ نَفَقَاتِ أَنْفُسِهِمْ لِوُجُوبِهَا عَلَيْهِ حَتَّى لَا يَصِيرَ مُرْتَفِقًا بِسُقُوطِهَا عَنْهُ . وَإِنْ كَانُوا مِنْ بَنِي السَّبِيلِ أَعْطَاهُمْ مِنْ سَهْمِهِمْ كِرَاءَ مَسِيرِهِمْ ، وَلَمْ يُعْطِهِمْ نَفَقَاتِ أَنْفُسِهِمْ إلَّا مَا زَادَ عَلَى نَفَقَةِ الْحَضَرِ لِئَلَّا يَصِيرَ مُرْتَفِقًا بِهَا فِي سُقُوطِهَا عَنْهُ : لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ أَنْ يُسَافِرَ بِهِمْ وَلَا يُقِرَّهُمْ كَمَا لَا يَلْزَمُهُ أَنْ يَقْضِيَ دُيُونَهُمْ ، فَجَازَ أَنْ يُعْطِيَهُمْ مِنْهَا مَا اخْتَصَّ بِالسَّفَرِ وَالْغَزْوِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

مَسْأَلَةٌ لَا يُعْطِي زَوْجَتَهُ لِأَنَّ نَفَقَتَهَا تَلْزَمُهُ

(482/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَلَا يُعْطِي زَوْجَتَهُ : لِأَنَّ نَفَقَتَهَا تَلْزَمُهُ ، فِي الزَّكَاةِ فَإِنْ أَدَانُوا أَعْطَاهُمْ مِنْ سَهْمِ الْغَارِمِينَ وَكَذَلِكَ مِنْ سَهْمِ ابْنِ السَّبِيلِ : لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ قَضَاءُ الدَّيْنِ عَنْهُمْ وَلَا حَمْلُهُمْ إلَى بَلَدٍ أَرَادُوهُ ، فَلَا يَكُونُونَ أَغْنِيَاءَ عَنْ هَذَا بِهِ كَمَا كَانُوا بِهِ أَغْنِيَاءَ عَنِ الْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ " .

قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ مَضَى الْكَلَامُ فِي الْأَقَارِبِ الْمُنَاسِبِينَ ، فَأَمَّا الزَّوْجَةُ فَلَا يَخْلُو حَالُهَا مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ تَكُونَ مُقِيمَةً ، أَوْ مُسَافِرَةً ، فَإِنْ كَانَتْ مُقِيمَةً لَمْ تَخْلُ مِنْ أَنْ تَكُونَ مُطِيعَةً أَوْ نَاشِزَةً ، فَإِنْ كَانَتْ مُطِيعَةً تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهَا وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ : لِأَنَّهَا غَنِيَّةٌ بِهِ ، وَإِنْ كَانَتْ نَاشِزَةً لَمْ تَلْزَمْهُ نَفَقَتُهَا وَسَقَطَتْ عَنْهُ بِالنُّشُوزِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَإِنْ لَمْ يَكْتَسِبْ لِقُدْرَتِهِ عَلَى الْكِفَايَةِ ، فَأَمَّا إعْطَاءُ الزَّوْجَةِ مِنْ سَهْمِ الْعَامِلِينَ فَلَيْسَتْ مِمَّنْ يُسْتَعْمَلُ عَلَى الزَّكَاةِ فَيُعْطَاهُ . وَأَمَّا مِنْ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُعْطَى : لِأَنَّ الْمُؤَلَّفَةَ هُمُ الرِّجَالُ الْمُقَاتِلَةُ ، وَلَوْ قِيلَ : يُعْطَى لَكَانَ مَذْهَبًا : لِأَنَّ مَا يُقْصَدُ مِنْ حُسْنِ إسْلَامِ الرَّجُلِ وَتَرْغِيبِ قَوْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ مَوْجُودٌ فِي الْمَرْأَةِ . وَأَمَّا إنْ كَانَتْ مُكَاتَبَةً أَوْ غَارِمَةً جَازَ أَنْ تُعْطَى مِنْ سَهْمِ الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ : لِأَنَّهُ لَا يَلْزَمُهُ

(483/340)

قَضَاءُ دَيْنِهَا وَأَدَاءُ كِتَابَتِهَا . وَأَمَّا مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ تُعْطَاهُ : لِأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَهْلِ الْجِهَادِ . وَأَمَّا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ فَسَنَذْكُرُ حُكْمَ سَفَرِهَا ، فَلَا يَخْلُو أَنْ تُسَافِرَ وَحْدَهَا أَوْ مَعَ زَوْجِهَا ، فَإِنْ سَافَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ بِإِذْنِهِ أَوْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَإِنْ كَانَ بِإِذْنِهِ فَلَا يُعْطِيهَا مِنْ سَهْمِ ابْنِ السَّبِيلِ : لِأَنَّ مُؤْنَةَ حُمُولَتِهَا تَلْزَمُهُ لِأَجْلِ إِذْنِهِ ، وَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ فَلَهَا النَّفَقَةُ لِكَوْنِهَا مَعَهُ وَلَا يَلْزَمُهُ حُمُولَتُهَا لِخُرُوجِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ كِرَاءَ حُمُولَتِهَا : لِأَنَّهُ سَفَرُ مَعْصِيَةٍ . وَإِنْ سَافَرَتْ وَحْدَهَا ، فَلَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ بِإِذْنِهِ أَوْ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَإِنْ كَانَ بِغَيْرِ إِذْنِهِ ، فَلَا نَفَقَةَ لَهَا ؛ لِكَوْنِهَا نَاشِزَةً ، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ بِخِلَافِ الْمُقِيمَةِ النَّاشِزَةِ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْمُقِيمَةَ إِذَا نَشَزَتْ قَدَرَتْ عَلَى النَّفَقَةِ بِتَعْجِيلِ الْمُطَاوَعَةِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ : لِأَنَّهُ سَفَرُ مَعْصِيَةٍ ، وَإِنْ كَانَ سَفَرُهَا بِإِذْنِهِ فَعَلَى ضَرْبَيْنِ :

(484/340)

أَحَدُهُمَا : فِيمَا يَخْتَصُّ بِزَوْجِهَا ، فَعَلَيْهِ نَفَقَتُهَا وَحُمُولَتُهَا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ . وَالضَّرْبُ الثَّانِي : أَنْ يَكُونَ فِيمَا يُخْتَصُّ بِهَا فَفِي وُجُوبِ نَفَقَتِهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : تَجِبُ عَلَيْهِ ، فَعَلَى هَذَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ

الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ لِغِنَاهَا بِهِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ : لِأَنَّ حُمُولَتَهَا لَا تَلْزَمُهُ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : لَا نَفَقَةَ لَهَا ، فَعَلَى هَذَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ .

(485/340)

فَصْلٌ : فَأَمَّا إذَا كَانَتْ فِي عِدَّةٍ مِنْ طَلَاقِهِ ، فَإِنْ وَجَبَتْ نَفَقَتُهَا لِكَوْنِهَا رَجْعِيَّةً أَوْ حَامِلًا فِي طَلَاقٍ بَائِنٍ ، فِي الزكاة فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ لِوُجُوبِ نَفَقَتِهَا عَلَيْهِ وَلَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ لِحَظْرِ السَّفَرِ عَلَيْهَا فِي الْعِدَّةِ ، وَإِنْ لَمْ تَجِبْ نَفَقَتُهَا لِكَوْنِهَا حَائِلًا فِي طَلَاقٍ بَائِنٍ جَازَ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ ، وَإِنْ كَانَتْ فِي عِدَّةٍ مِنْ وَطْئِهِ بِشُبْهَةٍ ، فَإِنْ كَانَتْ حَائِلًا لَمْ تَجِبْ عَلَيْهِ نَفَقَتُهَا ، فَجَازَ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ لِحَظْرِ السَّفَرِ عَلَيْهَا فِي الْعِدَّةِ . وَإِنْ كَانَتْ حَامِلًا فَفِي وُجُوبِ نَفَقَتِهَا عَلَيْهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : تَجِبُ ، فَيَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَا يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : تَجِبُ نَفَقَتُهَا ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا مِنْ سَهْمِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَلَا مِنْ سَهْمِ بَنِي السَّبِيلِ .

(486/340)

فَصْلٌ : فَأَمَّا الزَّوْجَةُ فَيَجُوزُ لَهَا دَفْعُ زَكَاتِهَا إلَى زَوْجِهَا مِنَ السِّهَامِ كُلِّهَا . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ اسْتِدْلَالًا بِأَنَّهُ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ فَمَنْعُ زَكَاةِ صَاحِبِهِ كَالزَّوْجِ إلَى زَوْجَتِهِ . وَلِأَنَّهُ وَارِثٌ لَا يَسْقُطُ بِالْحَجْبِ ، فَوَجَبَ أَنْ يُمْنَعَ مِنَ الزَّكَاةِ كَالْأَبِ . وَلِأَنَّهُ قَدْ تَرْتَفِقُ بِدَفْعِ زَكَاتِهَا إلَيْهِ : لِأَنَّهُ قَدْ يَسْتَغْنِي بِهَا فَتَلْزَمُهُ لَهَا نَفَقَةُ مُوسِرٍ . وَدَلِيلُنَا عُمُومُ قَوْلِهِ تَعَالَى : إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِزَيْنَبَ امْرَأَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : " زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ عَلَيْهِمْ " ، فَكَانَ عَلَى عُمُومِهِ . فَإِنْ قِيلَ فَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى التَّطَوُّعِ : لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الزَّوْجِ وَالْوَلَدِ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُدْفَعَ إلَى الْوَلَدِ مِنَ الْفَرْضِ فَثَبَتَ أَنَّهُ التَّطَوُّعُ ، فَعَنْ ذَلِكَ جَوَابَانِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ جَوَابُ أَبِي عُبَيْدٍ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ أَوْلَادُهُ مِنْ غَيْرِهَا .

(487/340)

الثَّانِي وَهُوَ جَوَابُ الشَّافِعِيِّ : أَنَّ أَوْلَادَهُ وَإِنْ كَانُوا مِنْهَا فَإِنَّهُمْ كَانُوا بَالِغِينَ أَصِحَّاءَ فَسَقَطَتْ نَفَقَاتُهُمْ وَجَازَ دَفْعُ الزَّكَاةِ إِلَيْهِمْ . وَمِنَ الْقِيَاسِ أَنَّهُ نَسَبٌ لَا يَسْتَحِقُّ بِهِ النَّفَقَةَ فَلَمْ تَحْرُمْ بِهِ الصَّدَقَةُ قِيَاسًا عَلَى ذَوِي الْأَرْحَامِ ، وَلِأَنَّ الزَّوْجَ مَعَ الزَّوْجَةِ بِمَنْزِلَةِ الْأَجْنَبِيِّ فِي سُقُوطِ النَّفَقَةِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ بِمَنْزِلَتِهِ فِي اسْتِبَاحَةِ الصَّدَقَةِ . فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قِيَاسِهِمْ عَلَى مَنْعِ الزَّوْجِ مِنْ دَفْعِهَا إِلَى زَوْجَتِهِ فَهُوَ لِأَنَّ نَفَقَتَهَا تَلْزَمُهُ فَمُنِعَتْ مِنْ صَدَقَتِهِ وَنَفَقَتُهُ لَا تَلْزَمُهَا فَلَمْ يُمْنَعْ مِنْ صَدَقَتِهَا ، وَأَمَّا قِيَاسُهُ عَلَى الْأَبِ بِعِلَّةِ أَنَّهُ لَا يَسْقُطُ بِالْحَجْبِ ، فَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ الْأَبَ تَمَيَّزَ بِاسْتِحْقَاقِ النَّفَقَةِ فَيُمْنَعُ مِنَ الصَّدَقَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ الزَّوْجُ . وَأَمَّا الْجَوَابُ عَنْ قَوْلِهِمْ أَنَّهَا قَدْ تَرْتَفِقُ بِدَفْعِ زَكَاتِهَا إِلَيْهِ ، فَهُوَ أَنَّهَا لَا تَرْتَفِقُ بِالدَّفْعِ ، وَإِنَّمَا تَرْتَفِقُ بِمَا قَدْ يَحْدُثُ بَعْدَهُ مِنَ الْيَسَارِ وَذَلِكَ لَا يَمْنَعُ مِنَ الزَّكَاةِ كَمَنْ دَفَعَهَا إِلَى غَرِيمٍ لَهُ فَأَخَذَهَا مِنْ بَعْدِ قَبْضِهَا مِنْ دَيْنِهِ جَازَ ، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ رِفْقًا يَمْنَعُ مِنْ جَوَازِهَا لِحُصُولِ ذَلِكَ بَعْدَ اسْتِقْرَارِ الْمِلْكِ بِالْقَبْضِ ، كَذَلِكَ مَا يَأْخُذُهُ الزَّوْجُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(488/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ – رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى – : " فَأَمَّا آلُ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِينَ جُعِلَ لَهُمُ الْخُمُسُ عِوَضًا مِنَ الصَّدَقَةِ ، فِي الزَّكَاةِ فَلَا يُعْطَوْنَ مِنَ الصَّدَقَاتِ

الْمَفْرُوضَاتِ وَإِنْ كَانُوا مُحْتَاجِينَ وَغَارِمِينَ وَهُمْ أَهْلُ الشِّعْبِ وَهُمْ صُلْبِيَّةُ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ وَلَا تَحْرُمُ عَلَيْهِمْ صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ ، وَرُوِيَ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَشْرَبُ مِنْ سِقَايَاتٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَقُلْتُ لَهُ أَتَشْرَبُ مِنَ الصَّدَقَةِ ؟ فَقَالَ : إِنَّمَا حُرِّمَتْ عَلَيْنَا الصَّدَقَةُ الْمَفْرُوضَةُ وَقَبِلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْهَدِيَّةَ مِنْ صَدَقَةٍ تَصَدَّقَ بِهَا عَلَى بَرِيرَةَ ، وَذَلِكَ أَنَّهَا مِنْ بُرَيْرَةَ تَطَوُّعٌ لَا صَدَقَةٌ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَجُمْلَتُهُ أَنَّ النَّاسَ فِي صَدَقَتَيِ الْفَرْضِ وَالتَّطَوُّعِ يَنْقَسِمُونَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ : مِنْهُمْ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ صَدَقَةُ الْفَرْضِ وَالتَّطَوُّعِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحِلُّ لَهُ الصَّدَقَتَانِ جَمِيعًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ صَدَقَةُ الْفَرْضِ دُونَ التَّطَوُّعِ . فَأَمَّا مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ صَدَقَةُ الْفَرْضِ وَالتَّطَوُّعِ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِمَا رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ قَدْرِهِ وَفَضْلِهِ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ . رَوَى أَبُو رَافِعٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : إِنَّا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ . وَرَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَجَدَ تَمْرَةً وَقَالَ : لَوْلَا

(489/340)

أَخَافُ أَنْ تَكُونَ صَدَقَةً لَأَكَلْتُهَا . وَرُوِيَ أَنَّ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ حَمَلَ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - طَبَقًا مِنْ رُطَبٍ فَقَالَ : مَا هَذَا ؟ قَالَ : صَدَقَةٌ ، قَالَ : " إِنَّا لَا تَحِلُّ لَنَا

الصَّدَقَةُ" . فَحَمَلَ إِلَيْهِ طَبَقًا آخَرَ فَقَالَ : " مَا هَذَا " ؟ قَالَ : هَدِيَّةٌ . قَالَ : " إِنَّا نَقْبَلُ الْهَدِيَّةَ وَنُكَافِئُ عَلَيْهَا .

(490/340)

وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنْ صَدَقَةِ الْفَرْضِ تَحْرِيمًا وَفِي امْتِنَاعِهِ مِنْ صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنْهَا تَحْرِيمًا كَالْفَرْضِ ، وَلِأَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَكَلَ مِنْ لَحْمٍ تُصُدِّقَ بِهِ عَلَى بَرِيرَةَ وَقَالَ : هُوَ لَهَا صَدَقَةٌ وَلَنَا هَدِيَّةٌ . وَصَدَقَاتُ اللُّحُومِ بِالْمَدِينَةِ كَانَتْ مِنْ ضَحَايَا تَطَوُّعٍ غَيْرِ وَاجِبَةٍ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنْهَا تَنْزِيهًا لَا تَحْرِيمًا : لِأَنَّهُ قَدْ كَانَ يُصَلِّي فِي الْمَسَاجِدِ وَهِيَ صَدَقَاتٌ وَيَشْرَبُ مِنْ بِئْرِ رُومَةَ بِالْمَدِينَةِ وَبِئْرِ زَمْزَمَ بِمَكَّةَ وَهُمَا صَدَقَتَانِ . وَقَالَ أَبُو عَلِيِّ بْنُ أَبِي هُرَيْرَةَ : مَا كَانَ مِنْ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ عَلَى الْأَعْيَانِ كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا مَسْأَلَةً عَلَى الْكَافَّةِ لَمْ تَحْرُمْ عَلَيْهِ مِثْلَ صَلَاتِهِ فِي الْمَسَاجِدِ وَشُرْبِهِ مِنَ الْآبَارِ . وَالَّذِي أَرَاهُ عِنْدِي أَصَحَّ أَنَّ مَا كَانَ مِنْهَا أَمْوَالًا مُقَوَّمَةً كَانَتْ عَلَيْهِ مُحَرَّمَةً وَمَا لَمْ تَكُنْ أَمْوَالًا مُقَوَّمَةً كَانَتْ لَهُ مُبَاحَةً ؛ فَعَلَى هَذَا كَانَتْ صَلَاتُهُ فِي الْمَسَاجِدِ وَشُرْبُهُ مِنْ بِئْرِ رُومَةَ وَزَمْزَمَ ، وَلَوْ كَانَتِ الصَّدَقَةُ الْمُسَيَّلَةُ ثِمَارًا لَا تَحِلُّ

لَهُ ، وَعَلَى قَوْلِ ابْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ تَحِلُّ لَهُ .

فَصْلٌ مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ

(491/340)

فَصْلٌ : وَأَمَّا مَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ الصَّدَقَةُ الْفَرْضُ دُونَ التَّطَوُّعِ فَهُمْ آلُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ أَخَذَ تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ فَنَزَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ فِيهِ بِلُعَابِهَا وَقَالَ كِخْ كِخْ ، وَقَالَ : إنَّا آلَ مُحَمَّدٍ لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ . وَسَأَلَهُ الْفَضْلُ بْنُ الْعَبَّاسِ عِمَالَةَ الصَّدَقَاتِ فَغَضِبَ وَقَالَ : أَلَيْسَ فِي خُمُسِ الْخُمُسِ مَا يُغْنِيكُمْ عَنْ أَوْسَاخِ النَّاسِ . فَدَلَّ هَذَانِ الْخَبَرَانِ عَلَى تَحْرِيمِ الْفَرْضِ عَلَيْهِمْ . فَأَمَّا التَّطَوُّعُ فَحَلَالٌ لِمَا رُوِيَ أَنَّ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ شَرِبَ مِنْ سِقَايَاتٍ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ ، فَقِيلَ لَهُ : أَلَيْسَ قَدْ حُرِّمَ عَلَيْكُمُ الصَّدَقَاتُ ؟ فَقَالَ : إنَّمَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْنَا الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ . وَلِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَوَّضَهُمْ مَالًا وَاحِدًا عَنْ مَالٍ وَاحِدٍ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ آلَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَحْرُمُ عَلَيْهِمُ الصَّدَقَاتُ الْمَفْرُوضَاتُ دُونَ التَّطَوُّعِ فَهُمْ ذُو الْقُرْبَى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ . وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنَّمَا تَحْرُمُ عَلَى آلِ الْعَبَّاسِ وَآلِ حَمْزَةَ وَآلِ الْحَارِثِ وَبَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَلَى آلِ عَلِيٍّ وَآلِ جَعْفَرٍ وَالْفَضْلِ ، وَلَا

تَحْرُمُ عَلَى آلِ أَبِي لَهَبٍ وَلَا عَلَى غَيْرِ الْمَذْكُورِينَ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَا عَلَى جَمِيعِ بَنِي الْمُطَّلِبِ وَهَذَا خَطَأٌ : لِأَنَّ مَنِ اسْتَحَقَّ سَهْمَ ذِي

(492/340)

الْقُرْبَى

مُنِعَ صَدَقَةَ الْفَرْضِ ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ سَهْمَ ذِي الْقُرْبَى مُشْتَرَكٌ بَيْنَ جَمِيعِ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ وَكَذَا صَدَقَةُ الْفَرْضِ حَرَامٌ عَلَى جَمِيعِ بَنِي هَاشِمٍ . وَأَمَّا مَنْ تَحِلُّ لَهُ صَدَقَةُ الْفَرْضِ وَالتَّطَوُّعِ فَهُمْ سَائِرُ النَّاسِ ، تَحِلُّ لَهُمْ صَدَقَاتُ الْفَرْضِ وَالتَّطَوُّعِ بِالْفَقْرِ وَصَدَقَاتُ التَّطَوُّعِ مَعَ الْغِنَى وَالْفَقْرِ وَقَدْ دَلَّلْنَا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ .

(493/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِذَا كَانَ فِيهِمْ غَارِمُونَ لَا أَمْوَالَ لَهُمْ فَقَالُوا أَعْطِنَا بِالْغُرْمِ وَالْفَقْرِ ، فِي الزَّكَاةِ قِيلَ لَا إنَّمَا نُعْطِيكُمْ بِأَيِّ الْمَعْنَيَيْنِ شِئْتُمْ ، فَإِذَا أَعْطَيْنَاهُ بِاسْمِ الْفَقْرِ فَلِغُرَمَائِهِ أَنْ يَأْخُذُوا مِمَّا فِي يَدَيْهِ حُقُوقَهُمْ ، وَإِذَا أَعْطَيْنَاهُ بِمَعْنَى الْغُرْمِ أَحْبَبْتُ أَنْ يَتَوَلَّى دَفْعَهُ عَنْهُ ، وَإِلَّا

فَجَائِزٌ كَمَا يُعْطَى الْمُكَاتَبُ ، فَإِنْ قِيلَ : وَلِمَ لَا يُعْطَى بِمَعْنَيَيْنِ : قِيلَ الْفَقِيرُ مِسْكِينٌ وَالْمِسْكِينُ فَقِيرٌ يَجْمَعُهُمَا اسْمٌ وَيَتَفَرَّقُ بِهِمَا اسْمٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى إلَّا بِأَحَدِ الْمَعْنَيَيْنِ ، وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يُعْطَى رَجُلٌ بِفَقْرٍ وَغُرْمٍ وَبِأَنَّهُ ابْنُ سَبِيلٍ وَغَازٍ وَمُؤَلَّفٍ فَيُعْطَى بِهَذِهِ الْمَعَانِي كُلِّهَا ؛ فَالْفَقِيرُ هُوَ الْمِسْكِينُ وَمَعْنَاهُ أَلَّا يَكُونَ غَنِيًّا بِحِرْفَةٍ وَلَا مَالٍ ، فَإِذَا جُمِعَا مَعًا فَقُسِّمَ لِصِنْفَيْنِ بِهِمَا لَمْ يَجُزْ إلَّا أَنْ يُفَرَّقَ بَيْنَ حَالَيْهِمَا بِأَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ الَّذِي بُدِئَ بِهِ أَشَدَّهُمَا فَقْرًا ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي اللِّسَانِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَصُورَتُهَا فِي رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ جَمَعَ بَيْنَ سَبَبَيْنِ يَسْتَحِقُّ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا سَهْمًا فِيهِمَا كَغَارِمٍ فَقِيرٍ وَعَامِلٍ مِسْكِينٍ طَلَبَ أَنْ يُعْطَى بِالْفَقْرِ أَوْ بِالْغُرْمِ ، أَوْ بِالْعِمَالَةِ وَالْمَسْكَنَةِ ، فَالَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ الشَّافِعِيُّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَكْثَرِ كُتُبِهِ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُجْمَعَ لَهُ بِهِمَا وَلَا يُعْطَى إلَّا بِأَحَدِهِمَا ، وَقَالَ فِي كِتَابِ فَرْضِ

(494/340)

الزَّكَاةِ مِنْ قِسْمِ الصَّدَقَاتِ : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى بِالسَّبَبَيْنِ ، فَاخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ عَلَى ثَلَاثَةِ مَذَاهِبَ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَامِدٍ الْإِسْفَرَايِينِيِّ وَكَثِيرٍ مِنَ الْبَغْدَادِيِّينَ : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ لِاخْتِلَافِ نَصِّهِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ . أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ : أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى إلَّا بِأَحَدِ

السَّبَبَيْنِ وَهَذَا هُوَ الْأَشْهَرُ . قَوْلُهُ : وَالْأَصَحُّ مِنْ مَذْهَبِهِ لِئَلَّا يُؤَدِّيَ ذَلِكَ إلَى الْأَخْذِ بِجَمِيعِ الْأَسْبَابِ كَمَا لَا يُورَثُ الْمَجُوسِيُّ إذَا اجْتَمَعَتْ لَهُ قَرَابَتَانِ إلَّا بِأَحَدِهِمَا . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى بِهِمَا مَعًا : لِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ أَنْ يَأْخُذَ بِالسَّبَبِ الْوَاحِدِ إذَا انْفَرَدَ بِهِ جَازَ أَنْ يَأْخُذَ بِالسَّبَبَيْنِ إذَا اجْتَمَعَا فِيهِ وَكَمَا يَجُوزُ أَنْ يُورَثَ الزَّوْجُ إذَا كَانَ ابْنَ عَمٍّ لَهَا بِالسَّبَبَيْنِ .

وَالْمَذْهَبُ الثَّانِي : قَالَهُ أَبُو حَامِدٍ الْمَرْوَزِيُّ وَجُمْهُورُ الْبَصْرِيِّينَ : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى قَوْلٍ وَاحِدٍ لَا يُعْطَى إلَّا بِأَحَدِهِمَا وَلَا يُجْمَعُ لَهُ بَيْنَهُمَا ، وَمَا قَالَهُ فِي فَرْضِ الزَّكَاةِ مِنْ جَوَازِ إعْطَائِهِ بِالسَّبَبَيْنِ مَحْمُولٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ زَكَاتَيْنِ . وَالْمَذْهَبُ الثَّالِثُ : أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى بِالسَّبَبَيْنِ إذَا اخْتَلَفَا وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى بِهِمَا إذَا

(495/340)

اتَّفَقَا ، فَاخْتِلَافُهُمَا أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا لِحَاجَتِهِ إلَيْنَا وَالْآخَرُ لِحَاجَتِنَا إلَيْهِ كَالْعَامِلِ إذَا كَانَ فَقِيرًا وَالْغَازِي إذَا كَانَ مِسْكِينًا ، وَاتِّفَاقُهُمَا أَنْ يَكُونَا مَعًا لِحَاجَتِهِ إلَيْنَا كَالْفَقِيرِ إذَا كَانَ غَارِمًا وَالْمِسْكِينِ إذَا كَانَ مُكَاتَبًا ، كَمَا أَنَّهُ لَا يُورَثُ أَحَدٌ بِسَبَبَيْنِ مُتَّفِقَيْنِ كَفَرْضَيْنِ أَوْ نَصِيبَيْنِ وَيُورَثُ بِسَبَبَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ مِنْ فَرْضٍ وَتَعْصِيبٍ ، فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا وَقِيلَ : إنَّهُ لَا يُعْطَى بِهِمَا وَكَانَ فَقِيرًا غَارِمًا ، خُيِّرَ فِي إعْطَائِهِ بِأَيِّ السَّبَبَيْنِ شَاءَ مِنْ فَقْرٍ وَغُرْمٍ ، فَإِنِ اخْتَارَ أَنْ

يُعْطَى بِالْفَقْرِ سُلِّمَ إِلَيْهِ وَكَانَ لِصَاحِبِ الدَّيْنِ أَنْ يَأْخُذَهُ مِنْ دَيْنِهِ ، وَإِنِ اخْتَارَ أَنْ يُعْطَى بِالْغُرْمِ جَازَ أَنْ يُسَلَّمَ إِلَيْهِ وَجَازَ أَنْ يُعْطِيَهُ لِصَاحِبِ الدَّيْنِ بِأَمْرِهِ . فَإِنْ قِيلَ : فَأَيُّهُمَا أَوْلَى ؟ قُلْنَا : إِنْ كَانَ بِقَدْرِ دَيْنِهِ كُلِّهِ فَأَوْلَى دَفْعُهُ إِلَى صَاحِبِ الدَّيْنِ ، وَإِنْ كَانَ أَقَلَّ فَالْأَوْلَى دَفْعُهُ إِلَى الْغَارِمِ لَعَلَّهُ أَنْ يَتَّجِرَ بِهِ فَيَنْمَى ، وَإِنْ قِيلَ : يَجُوزُ أَنْ يُعْطَى بِالسَّبَبَيْنِ ، أُعْطِيَ بِالْفَقْرِ وَالْغُرْمِ ، فَإِنْ كَانَ فِي سَهْمِ الْغُرْمِ وَفَاءٌ لِدَيْنِهِ اسْتُبْقِيَ سَهْمُ الْفَقْرِ ، وَإِنْ كَانَ يَعْجِزُ عَنْ دَيْنِهِ كَانَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنْهُ سَهْمَ الْفَقْرِ لِيَسْتَوْفِيَ دَيْنَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

(496/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَإِنْ كَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ ضُرِبَ عَلَيْهِ الْبَعْثُ فِي الْغَزْوِ وَلَمْ يُعْطَ ، فَإِنْ قَالَ لَا أَغْزُو وَاحْتَاجَ أُعْطِيَ ، فَإِنْ هَاجَرَ بَدَوِيٌّ (وَاحْتَاجَ) وَاقْتَرَضَ وَغَزَا صَارَ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ وَأَخَذَ فِيهِ ، وَلَوِ احْتَاجَ وَهُوَ فِي الْفَيْءِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الصَّدَقَاتِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْفَيْءِ وَيَعُودَ إِلَى الصَّدَقَاتِ فَيَكُونُ ذَلِكَ لَهُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ ، قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ أَهْلَ الْفَيْءِ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ يَنْصَرِفُ إِلَيْهِمْ مَالُ الْفَيْءِ دُونَ الصَّدَقَاتِ ، وَأَهْلُ الصَّدَقَاتِ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَهْلِ الْفَيْءِ يَنْصَرِفُ إِلَيْهِمْ مَالُ الصَّدَقَاتِ دُونَ الْفَيْءِ ، وَضَرْبٌ هُمْ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، فَأَمَّا غُزَاةُ أَهْلِ الْفَيْءِ فَهُمُ الْمُقْتَرِضُونَ فِي دِيوَانَ

الْفَيْءِ مِنَ الْمُقَاتِلَةِ فَهُمْ لَا يُعْطَوْنَ أَرْزَاقَهُمْ مِنْ مَالِ الْفَيْءِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطَوْا مِنَ الصَّدَقَاتِ ، وَأَمَّا غُزَاةُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ فَهُمُ الْمُتَطَوِّعَةُ مِنَ الْأَعْرَابِ وَأَهْلِ الصَّنَائِعِ مِنْ أَهْلِ الْأَمْصَارِ الَّذِينَ إنْ شَاءُوا غَزَوْا وَإِنْ شَاءُوا أَقَامُوا ، فَهَؤُلَاءِ إذَا أَرَادُوا الْغَزْوَ أُعْطُوا مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ مِنْ سَهْمِ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْطَوْا مِنْ مَالِ الْفَيْءِ لِرِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ : كَانَ أَهْلُ الْفَيْءِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَعْزِلٍ عَنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ ، وَأَهْلُ الصَّدَقَاتِ بِمَعْزِلٍ عَنْ أَهْلِ الْفَيْءِ ، فَلَوْ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ

(497/340)

الْفَيْءِ مُعْتَرِضًا فِي دِيوَانِهِ ضُرِبَ عَلَيْهِ الْبَعْثُ فِي الْغَزْوِ أَوْ لَمْ يُضْرَبْ عَلَيْهِ فَأَرَادَ الْخُرُوجَ مِنْ أَهْلِ الْفَيْءِ وَالدُّخُولَ فِي أَهْلِ الصَّدَقَاتِ لِيَغْزُوَ إنْ شَاءَ وَيَقْعُدَ عَنْهُ إنْ اخْتَارَ كَانَ ذَلِكَ لَهُ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ عَقْدٌ لَازِمٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ جُعَالَةٌ فَيَسْقُطُ رِزْقُهُ مِنْ دِيوَانِ الْفَيْءِ وَيُعْطَى مِنْ مَالِ الصَّدَقَاتِ ، وَلَوْ أَنَّ أَعْرَابِيًّا مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ هَاجَرَ وَأَرَادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مِنْ دِيوَانِ الْفَيْءِ جَازَ أَنْ يُقْرِضَهُ الْإِمَامُ ، فَإِذَا رَآهُ الْإِمَامُ أَهْلًا لِذَلِكَ خَرَجَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - : " وَإِنْ لَمْ يَكُنْ رِقَابٌ وَلَا مُؤَلَّفَةٌ وَلَا غَارِمُونَ ،

ابْتُدِئَ الْقَسْمُ عَلَى خَمْسَةِ أَسْهُمٍ أَخْمَاسًا عَلَى مَا وَصَفْتُ ، فَإِنْ ضَاقَتِ الصَّدَقَةُ قُسِّمَتْ عَلَى

(498/340)

عَدَدِ السُّهْمَانِ وَيُقَسَّمُ بَيْنَ كُلِّ صِنْفٍ عَلَى قَدْرِ اسْتِحْقَاقِهِمْ ، وَلَا يُعْطَى أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ سَهْمٍ وَإِنِ اشْتَدَّتْ حَاجَتُهُ وَقَلَّ مَا يُصِيبُهُ مِنْ سَهْمِ غَيْرِهِ حَتَّى يَسْتَغْنِيَ ، ثُمَّ يُرَدُّ فَضْلٌ إِنْ كَانَ عَنْهُ وَيُقَسَّمُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ قَدْ مَضَتْ ، فَذَكَرْنَا أَنَّ أَهْلَ السُّهْمَانِ ثَمَانِيَةُ أَصْنَافٍ ، فَإِنْ كَمَلُوا قُسِّمَتِ الزَّكَاةُ أَثْمَانًا بَيْنَهُمْ مُتَسَاوِيَةً ، وَإِنْ عَدِمُوا أصناف مصارف الزكاة نُقِلَتْ إِلَى أَقْرَبِ الْبِلَادِ بِهِمْ ، وَإِنْ وُجِدَ بَعْضُهُمْ قُسِّمَتْ عَلَى مَنْ وُجِدَ مِنْهُمْ وَسَقَطَ سَهْمُ مَنْ عَدِمَ ، إِلَّا الْغُزَاةُ فَإِنَّهُمْ يَسْكُنُونَ الثُّغُورَ فَيُنْقَلُ إِلَيْهِمْ سَهْمُهُمْ إِنْ كَانَ الْإِمَامُ هُوَ الْقَاسِمَ لَهَا . فَأَمَّا إِنْ كَانَ رَبُّ الْمَالِ هُوَ الْمُتَوَلِّيَ لِقَسْمِهَا سَقَطَ سَهْمُهُمْ إِنْ عَجَزَ عَنْ إِيصَالِهِ إِلَيْهِمْ : لِأَنَّ الْإِمَامَ يَقْدِرُ عَلَى نَقْلِ سَهْمِهِمْ عَلَى مَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ أَرْبَابُ الْأَمْوَالِ فَافْتَرَقَ الْحُكْمُ فِيهِ .

(499/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " فَإِنِ اجْتَمَعَ حَقُّ أَهْلِ السُّهْمَانِ فِي بَعِيرٍ ، أَوْ بَقَرَةٍ ، أَوْ شَاةٍ ، أَوْ دِينَارٍ ، أَوْ دِرْهَمٍ ، أَوِ اجْتَمَعَ فِيهِ اثْنَانِ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ أَوْ أَكْثَرُ أُعْطَوْهُ وَيُشْرَكُ بَيْنَهُمْ فِيهِ ، وَلَمْ يُبْدَلْ بِغَيْرِهِ كَمَا يُعْطَاهُ مَنْ أُوصِيَ لَهُمْ بِهِ ، وَكَذَلِكَ مَا يُوزَنُ أَوْ يُكَالُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ : إِذَا كَانَ مَالُ الزَّكَاةِ يَنْقَسِمُ قَلِيلُهُ وَيَتَجَزَّأُ كَالْحُبُوبِ أَعْطَى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ حَقَّهُ مِنْهُ وَلَمْ يُشْرِكْ فِيهِ بَيْنَ اثْنَيْنِ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنِ الشَّرِيكِ ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يَتَجَزَّأُ ، كَالْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ ، فَإِنِ اتَّسَعَتِ الصَّدَقَةُ أَنْ يَنْفَرِدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِبَعِيرٍ لَهُ أَوْ بَقَرَةٍ أَوْ شَاةٍ ، لَمْ يُشْرِكْ بَيْنَهُمْ وَأَفْرَدَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَقِّهِ ، وَإِنْ ضَاقَتِ الصَّدَقَةُ عَنْ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يُشْرِكَ الْجَمَاعَةَ فِي الْبَعِيرِ الْوَاحِدِ أَوِ الْبَقَرَةِ الْوَاحِدَةِ أَوِ الشَّاةِ الْوَاحِدَةِ ، سَوَاءٌ كَانَتِ الْجَمَاعَةُ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ أَوْ أَصْنَافٍ بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ حِصَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِيهِ : لِأَنَّ التَّفْضِيلَ بَيْنَهُمْ بِحَسَبِ الْحَاجَةِ مُعْتَبَرٌ مِنْ جِهَةِ الْعَامِلِ وَغَيْرُ مُعْتَبَرٍ مِنْ جِهَةِ رَبِّ الْمَالِ ، فَإِنْ لَمْ يُبَيِّنْ حِصَّةَ كُلِّ وَاحِدٍ كَانُوا فِي الظَّاهِرِ شُرَكَاءَ بِالسَّوِيَّةِ فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُبَاعَ ذَلِكَ وَيُقَسَّمُ عَلَيْهِمْ ثَمَنُهُ قَبْلَ أَنْ يُمَلِّكَهُ إِيَّاهُمْ : لِأَنَّ الْقِيَمَ فِي الزَّكَاةِ لَا تُجَزَّأُ ، وَسَوَاءٌ كَانَ الْقَاسِمُ رَبَّ الْمَالِ أَوِ

(500/340)

الْعَامِلَ : لِأَنَّهُمْ أَهْلُ رُشْدٍ لَا يُوَلَّى عَلَيْهِمْ بِعَجْزِ أَرْبَابِ السِّهَامِ إلَّا أَنْ تَدْعُوَ الْعَامِلَ الضَّرُورَةُ إلَى بَيْعِهِ وَإِمَّا لِعَطَبِ الْحَيَوَانِ وَخَوْفِهِ مِنْ تَلَفِهِ وَإِمَّا لِبُعْدِ الْمَسَافَةِ وَإِحَاطَةِ مَئُونَةِ نَقْلِهِ بِجَمِيعِ قِيمَتِهِ ، فَيَجُوزُ لَهُ فِي هَاتَيْنِ الْحَالَتَيْنِ بَيْعُهُ لِلضَّرُورَةِ وَقَسْمُ ثَمَنِهِ فِيهِمْ ، وَلَا يَجُوزُ ذَلِكَ لِرَبِّ الْمَالِ بِحَالٍ لِثُبُوتِ الزَّكَاةِ فِي ذِمَّةِ رَبِّ الْمَالِ دُونَ الْعَامِلِ وَأَنَّ لِلْعَامِلِ وِلَايَةً لَيْسَتْ لِرَبِّ الْمَالِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ : وَكَذَلِكَ مَا يُوزَنُ أَوْ يُكَالُ . يَعْنِي فِي أَنَّهُ لَا يَجُوزُ بَيْعُهُ عَلَى أَهْلِ السُّهْمَانِ إلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ فَتَجُوزُ لِلْعَامِلِ دُونَ رَبِّ الْمَالِ .

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِذَا أَعْطَى الْوَالِي مَنْ وَصَفْنَا أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يُعْطِيَهُ ، ثُمَّ عَلِمَ أَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ نَزَعَ ذَلِكَ مِنْهُ إلَى أَهْلِهِ ، فَإِنْ فَاتَ فَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ : لِأَنَّهُ أَمِينٌ لِمَنْ يُعْطِيهِ وَيَأْخُذُ مِنْهُ لَا لِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ : لِأَنَّهُ كُلِّفَ فِيهِ الظَّاهِرَ ، وَإِنْ تَوَلَّى ذَلِكَ رَبُّ الْمَالِ فَفِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ

(501/340)

يَضْمَنُ ، وَالْآخَرُ كَالْوَالِي لَا يَضْمَنُ . (قَالَ الْمُزَنِيُّ) : وَلَمْ يَخْتَلِفْ قَوْلُهُ فِي الزَّكَاةِ أَنَّ رَبَّ الْمَالِ يَضْمَنُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَصُورَةُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي زَكَاةٍ دُفِعَتْ إلَى مُسْتَحِقٍّ لَهَا فِي الظَّاهِرِ فَبَانَ غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ لَهَا فِي الْبَاطِنِ ، فَهَذَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : أَحَدُهَا : مَا يَكُونُ

الضَّمَانُ فِيهِ عَلَى الدَّافِعِ وَاجِبًا ، سَوَاءٌ كَانَ الدَّافِعُ لَهَا إمَامًا أَوْ مَالِكًا . وَالثَّانِي : مَا لَا يَجِبُ فِيهِ الضَّمَانُ عَلَى الدَّافِعِ ، سَوَاءٌ كَانَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا . وَالثَّالِثُ : مَا يَخْتَلِفُ فِي وُجُوبِ الضَّمَانِ فِيهِ بِحَسَبِ اخْتِلَافِ الدَّافِعِ إنْ كَانَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا . فَأَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الَّذِي يَجِبُ فِيهِ الضَّمَانُ عَلَى الدَّافِعِ إمَامًا كَانَ أَوْ مَالِكًا فَهُوَ أَنْ تُدْفَعَ إلَى مَنْ لَا يَجُوزُ الدَّفْعُ إلَيْهِ إلَّا بِبَيِّنَةٍ يَشْهَدُ عَلَى سَبَبِ اسْتِحْقَاقِهِ كَالْمُكَاتَبِ وَالْغَارِمِ ، فَإِذَا دَفَعَهَا إلَى مَنْ ذَكَرَ أَنَّهُ مُكَاتَبٌ ، أَوْ غَارِمٌ بِغَيْرِ بَيِّنَةٍ ، ثُمَّ بَانَ أَنَّهُ غَيْرُ مُكَاتَبٍ وَلَا غَارِمٍ فَعَلَى الدَّافِعِ الضَّمَانُ إمَامًا كَانَ أَوْ مَالِكًا : لِأَنَّ إخْلَالَهُ بِالْبَيِّنَةِ الَّتِي هِيَ شَرْطٌ فِي جَوَازِ الدَّفْعِ تَفْرِيطٌ مِنْهُ ، فَإِنْ أَمْكَنَهُ اسْتِرْجَاعُهَا مِنَ الْمَدْفُوعِ إلَيْهِ كَانَ مُسْتَرْجِعًا لَهَا فِي حَقِّ نَفْسِهِ لَا فِي حَقِّ أَهْلِ السُّهْمَانِ لِوُجُوبِ ضَمَانِهَا عَلَيْهِ ، فَلَوْ دَفَعَهَا بِبَيِّنَةٍ ، ثُمَّ بَانَ أَنَّ الْبَيِّنَةَ شَهِدَتْ بِزُورٍ أَوْ خَطَأٍ كَانَتِ الْبَيِّنَةُ ضَامِنَةً ، فَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ إمَامًا ضَمِنَتِ

(502/340)

الْبَيِّنَةُ ذَلِكَ لِأَهْلِ السُّهْمَانِ وَكَانَ الْإِمَامُ بَرِيئًا مِنَ الضَّمَانِ ، وَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ مَالِكًا كَانَتِ الْبَيِّنَةُ ضَامِنَةً لِلْمَالِكِ الَّذِي هُوَ رَبُّ الْمَالِ وَكَانَ وُجُوبُهَا بَاقِيًا فِي ذِمَّةِ رَبِّ الْمَالِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ لِلْإِمَامِ وِلَايَةً عَلَى أَهْلِ السُّهْمَانِ لَيْسَتْ لِرَبِّ الْمَالِ .

فَصْلٌ : وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّانِي الَّذِي لَا يَجِبُ فِيهِ الضَّمَانُ عَلَى الدَّافِعِ ، سَوَاءٌ كَانَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا فَهُوَ أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا بِسَبَبٍ يَسْتَحْدِثُهُ كَابْنِ السَّبِيلِ وَالْغَازِي ، فَلَا يُسَافِرُ ابْنُ السَّبِيلِ وَلَا يَغْزُو الْغَازِي ، فَلَا ضَمَانَ عَلَى الدَّافِعِ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ تَفْرِيطٌ فِي الدَّفْعِ ، سَوَاءٌ كَانَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا : لِأَنَّ بِالدَّفْعِ قَدْ سَقَطَتِ الزَّكَاةُ عَنْ رَبِّ الْمَالِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ مُرَاعًا بِإِحْدَاثِ سَفَرٍ أَوْ جِهَادٍ ، لَكِنَّ عَلَى الدَّافِعِ مُطَالَبَةَ الْمَدْفُوعِ إلَيْهِ ، فَإِنْ كَانَ عَامُ الزَّكَاةِ بَاقِيًا خَيَّرَهُ فِي الْمُطَالَبَةِ بَيْنَ رَدِّ مَا أَخَذَهُ وَبَيْنَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ سَفَرًا وَغَزْوًا ، وَإِنْ كَانَ عَامُ الزَّكَاةِ قَدِ انْقَضَى طَالَبَهُ بِالرَّدِّ مِنْ غَيْرِ تَخْيِيرٍ : لِأَنَّ زَكَاةَ كُلِّ عَامٍ مُسْتَحَقَّةٌ لِأَهْلِهَا فِي ذَلِكَ الْعَامِ لَا فِي غَيْرِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَرْجِعْ مِنْهُ حَتَّى سَافَرَ وَغَزَا فِي الْعَامِ الثَّانِي نَظَرَ ، فَإِنْ كَانَ قَدْ أَخَذَ فِي الْعَامِ الثَّانِي مِنْ زَكَاةٍ ثَانِيَةٍ اسْتَرْجَعَ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ : لِأَنَّهُ قَدْ أَخَذَ فِي الْعَامِ الثَّانِي مَا اسْتَحَقَّهُ بِسَفَرِهِ وَغَزْوِهِ ، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَأْخُذْ فِي الْعَامِ الثَّانِي مِنْ زَكَاةٍ ثَانِيَةٍ يَسْتَرْجِعُ مِنْهُ مَا أَخَذَهُ فِي الْعَامِ الْأَوَّلِ وَكَانَتْ بِمَثَابَةِ زَكَاةٍ أُخِّرَتْ مِنْ عَامٍ إلَى عَامٍ ، فَإِنَّهَا تَقَعُ مَوْقِعَ الْإِجْزَاءِ ، وَإِنْ كُرِهَ التَّأْخِيرَ مَعَ إمْكَانِ التَّعْجِيلِ ، فَلَوْ مَاتَ الْمَدْفُوعُ إلَيْهِ قَبْلَ السَّفَرِ وَالْغَزْوِ

وَلَمْ يَكُنِ اسْتِرْجَاعُ مَا أَخَذَ ، كَانَ ذَلِكَ تَالِفًا فِي حَقِّ أَهْلِ السُّهْمَانِ .

(505/340)

فَصْلٌ : وَأَمَّا الْقِسْمُ الثَّالِثُ الَّذِي يَخْتَلِفُ فِيهِ الضَّمَانُ بِاخْتِلَافِ حَالِ الدَّافِعِ فِي الزَّكَاةِ إنْ كَانَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا فَهُوَ مَسْأَلَةُ الْكِتَابِ ، وَهُوَ أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا بِالْفَقْرِ وَالْمَسْكَنَةِ فَيَبِينُ غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ ، فَهَذَا عَلَى ضَرْبَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَلَّا يَسْتَحِقَّهَا لِعَدَمِ الْفَقْرِ . وَالثَّانِي : أَلَّا يَسْتَحِقَّهَا مَعَ وُجُودِ الْفَقْرِ لِسَبَبٍ يَمْنَعُ مِنْ جَوَازِ الْأَخْذِ . فَأَمَّا الضَّرْبُ الْأَوَّلُ فَهُوَ أَنْ يَدْفَعَهَا إلَى رَجُلٍ ظَنَّ بِهِ فَقْرًا فَبَانَ غَنِيًّا ، فَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ لَمْ يَجْتَهِدْ عِنْدَ الدَّفْعِ ضَمِنَ إمَامًا أَوْ مَالِكًا : لِأَنَّ تَرْكَ الِاجْتِهَادِ تَفْرِيطٌ ، وَإِنْ كَانَ قَدِ اجْتَهَدَ عِنْدَ الدَّفْعِ نُظِرَ ، فَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ لَهَا إمَامًا أَوْ وَالِيًا عَلَيْهَا مِنْ قِبَلِ الْإِمَامِ لَمْ يَضْمَنْ : لِأَنَّهُ أَمِيرٌ عَلَيْهَا لَمْ يُفَرِّطْ فِيهَا ، وَلَكِنْ لَهُ اسْتِرْجَاعُهَا مِنَ الْآخِذِ لَهَا إنْ كَانَ حَيًّا وَمِنْ تَرِكَتِهِ إنْ كَانَ مَيِّتًا ، سَوَاءٌ شَرَطَ عِنْدَ الدَّفْعِ أَنَّهَا زَكَاةٌ أَوْ لَمْ يَشْرُطْ : لِأَنَّ الْوَالِيَ لَا يَدْفَعُ مِنَ الْأَمْوَالِ إلَّا مَا وَجَبَ ، وَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ لَهَا هُوَ رَبَّ الْمَالِ فَفِي وُجُوبِ ضَمَانِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ لَا يَضْمَنُ كَالْإِمَامِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : يَضْمَنُ ، بِخِلَافِ

الْإِمَامِ وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا مِنْ ثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ لِلْإِمَامِ عَلَيْهَا وِلَايَةً لَيْسَتْ لِرَبِّ الْمَالِ فَلَمْ يَضْمَنْهَا إِلَّا بِالْعُدْوَانِ . وَالثَّانِي : أَنَّ الْإِمَامَ بَرِيءُ الذِّمَّةِ مِنْ ضَمَانِهَا قَبْلَ

(506/340)

الدَّفْعِ فَلَمْ يَضْمَنْهَا إِلَّا بِتَفْرِيطٍ ظَاهِرٍ . وَرَبُّ الْمَالِ مُرْتَهِنُ الذِّمَّةِ بِضَمَانِهَا قَبْلَ الدَّفْعِ ؛ فَلَمْ يَبْرَأْ مِنْهَا إِلَّا بِاسْتِحْقَاقٍ ظَاهِرٍ . وَالثَّالِثُ : أَنَّ الْإِمَامَ لَا يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهَا إلَى مُسْتَحِقِّهَا إِلَّا بِالِاجْتِهَادِ دُونَ الْيَقِينِ فَلَمْ يَضْمَنْ إذَا اجْتَهَدَ وَرَبُّ الْمَالِ يَقْدِرُ عَلَى دَفْعِهَا إلَى مُسْتَحِقِّهَا بِيَقِينٍ وَهُوَ الْإِمَامُ مَضْمُونَةٌ إذَا دَفَعَهَا بِالِاجْتِهَادِ . فَإِذَا تَقَرَّرَ هَذَا نُظِرَ فِي رَبِّ الْمَالِ ، فَإِنْ شَرَطَ عِنْدَ الدَّفْعِ أَنَّهَا زَكَاةٌ كَانَ لَهُ اسْتِرْجَاعُهَا مِنَ الْآخِذِ لَهَا إذَا كَانَ غَنِيًّا وَإِنْ لَمْ يَشْتَرِطْ ذَلِكَ عِنْدَ الدَّفْعِ نُظِرَ فِي الْآخِذِ لَهَا ، فَإِنْ صَدَّقَهُ أَنَّهَا زَكَاةٌ لَزِمَهُ رَدُّهَا وَإِنْ لَمْ يُصَدِّقْهُ لَمْ يَلْزَمْهُ رَدُّهَا ، بِخِلَافِ الْإِمَامِ : لِأَنَّ رَبَّ الْمَالِ قَدْ يُعْطِي فَرْضًا وَتَطَوُّعًا فَلَمْ يَسْتَرْجِعْ إِلَّا بِشَرْطٍ ، وَالْإِمَامُ لَا يُعْطِي إِلَّا فَرْضًا وَاجِبًا ، فَجَازَ أَنْ يَسْتَرْجِعَ بِغَيْرِ شَرْطٍ ، وَلِأَنَّ لِلْإِمَامِ وِلَايَةً عَلَى أَهْلِ السُّهْمَانِ ، فَكَانَ قَوْلُهُ عَلَيْهِمْ مَقْبُولًا وَلَيْسَ لِرَبِّ الْمَالِ عَلَيْهِمْ وِلَايَةٌ فَلَمْ يُقْبَلْ قَوْلُهُ عَلَيْهِمْ ، فَكَانَ هَذَا فَرْقًا بَيْنَ الْإِمَامِ وَرَبِّ الْمَالِ فِي جَوَازِ الِاسْتِرْجَاعِ عِنْدَ عَدَمِ الشَّرْطِ ، لَكِنْ

اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا هَلْ يَكُونُ لِرَبِّ الْمَالِ إحْلَافُ الْمَدْفُوعِ إلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَخَذَهُ تَعْجِيلٌ أَمْ لَا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لَهُ إحْلَافُهُ : لِأَنَّهُ لَوْ عَلِمَ لَزِمَهُ الرَّدُّ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي

(507/340)

: لَيْسَ لَهُ إحْلَافُهُ : لِأَنَّهُ هُوَ الْمُفَرِّطُ حَيْثُ لَمْ يَشْتَرِطْ ، وَلَكِنْ لَوْ قَالَ رَبُّ الْمَالِ : شَرَطْتُ التَّعْجِيلَ ، وَقَالَ الْمَدْفُوعُ إلَيْهِ : لَمْ يَشْتَرِطْ ، كَانَ لَهُ إحْلَافُهُ وَجْهًا لِوَجْهٍ .

فَصْلٌ : وَأَمَّا الضَّرْبُ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ مُسْتَحِقٍّ لَهَا مَعَ الْفَقْرِ لِسَبَبٍ يَمْنَعُ مِنْ

(508/340)

جَوَازِ الْأَخْذِ كَفَقِيرٍ دُفِعَتْ إلَيْهِ وَظَاهِرُهُ الْحُرِّيَّةُ فَبَانَ عَبْدًا ، الزَّكَاةَ أَوْ كَانَ ظَاهِرُهُ الْإِسْلَامُ فَبَانَ كَافِرًا ، أَوْ كَانَ ظَاهِرُهُ أَنَّهُ فِي سَائِرِ النَّاسِ فَبَانَ فِي ذَوِي الْقُرْبَى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ كَانَ الدَّافِعُ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي الْآخِذِ لَهَا عِنْدَ الدَّفْعِ ، فَعَلَيْهِ الضَّمَانُ وَالِيًا كَانَ أَوْ مَالِكًا ، وَإِنْ كَانَ قَدِ اجْتَهَدَ فَقَدِ اخْتَلَفَ أَصْحَابُنَا فِي ذَلِكَ عَلَى طَرِيقَتَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْخَطَأَ فِي ذَلِكَ كَالْخَطَأِ فِي الْفَقِيرِ ، فَلَا يَضْمَنُ إنْ كَانَ وَالِيًا ، وَفِي

ضَمَانِهِ إِنْ يَكُنْ مَالِكًا قَوْلَانِ ، فَهَذِهِ طَرِيقَةُ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ . وَالطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ : أَنَّ الْخَطَأَ فِي هَذَا أَخَصُّ بِالضَّمَانِ مِنَ الْخَطَأِ فِي الْفَقِيرِ ؛ فَيَضْمَنُ الدَّافِعُ إِنْ كَانَ مَالِكًا ، وَفِي ضَمَانِهِ إِنْ كَانَ وَالِيًا قَوْلَانِ ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَبِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي هُرَيْرَةَ وَطَائِفَةٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ ، وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْخَطَأِ فِي الْفَقِيرِ وَبَيْنَ الْخَطَأِ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْلَامِ بِأَنَّهُ لَا يُعْلَمُ يَقِينُ الْفَقْرِ قَطْعًا ، فَجَازَ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ عَلَى الظَّاهِرِ . وَيُعْلَمُ يَقِينُ الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْلَامِ قَطْعًا فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْمَلَ فِيهِ عَلَى الظَّاهِرِ . مِثَالُهُ : أَنَّ مَنْ صَلَّى خَلْفَ جُنُبٍ أَوْ مُحْدِثٍ لَمْ يُعِدْ صَلَاتَهُ : لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ يَقِينَ طَهَارَةِ إِمَامِهِ قَطْعًا ، فَإِذَا عَمِلَ فِيهَا عَلَى الظَّاهِرِ لَمْ يُعِدْ ، وَلَوْ صَلَّى خَلْفَ امْرَأَةٍ أَوْ كَافِرٍ أَعَادَ : لِأَنَّهُ قَدْ يَعْلَمُ

(509/340)

يَقِينَ كَوْنِ إِمَامِهِ رَجُلًا مُسْلِمًا ، فَإِذَا عَمِلَ عَلَى الظَّاهِرِ أَعَادَ . وَسَوَّى أَبُو حَنِيفَةَ بَيْنَ خَطَأِ الْوَالِي وَالْمَالِكِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْخَطَأِ فِي الْفَقِيرِ وَبَيْنَ الْخَطَأِ فِي الْحُرِّيَّةِ وَالْإِسْلَامِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ ، وَفِيمَا مَضَى دَلِيلٌ كَافٍ .

مَسْأَلَةٌ يُعْطَى الْوُلَاةُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ الظَّاهِرَةِ الثَّمَرَةِ وَالزَّرْعِ وَالْمَعْدِنِ وَالْمَاشِيَةِ

(510/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَيُعْطَى الْوُلَاةُ زَكَاةَ الْأَمْوَالِ الظَّاهِرَةِ الثَّمَرَةِ وَالزَّرْعِ وَالْمَعْدِنِ وَالْمَاشِيَةِ ، دفعها للولاة فَإِنْ لَمْ يَأْتِ الْوُلَاةُ لَمْ يَسَعْ أَهْلَهَا إلَّا قَسْمُهَا ، فَإِنْ جَاءَ الْوُلَاةُ بَعْدَ ذَلِكَ لَمْ يَأْخُذُوهُمْ بِهَا وَإِنِ ارْتَابُوا بِأَحَدٍ ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يُحَلِّفُوهُ بِاللَّهِ لَقَدْ قَسَمَهَا فِي أَهْلِهَا ، وَإِنْ أَعْطَوْهُمْ زَكَاةَ التِّجَارَاتِ وَالْفِطْرِ وَالرِّكَازِ أَجْزَأَهُمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ ذَكَرْنَا أَنَّ الْأَمْوَالَ ضَرْبَانِ : ظَاهِرَةٌ كَالثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ وَالْمَوَاشِي ، وَبَاطِنَةٌ كَالدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ وَعُرُوضِ التِّجَارَاتِ وَالرِّكَازِ وَزَكَاةِ الْفِطْرِ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا بَاطِنًا لَمْ يَلْزَمْهُ دَفْعُ زَكَاتِهِ إلَى الْإِمَامِ وَجَازَ لِأَرْبَابِهَا أَنْ يَتَوَلَّوْا إخْرَاجَهَا وَقَسْمَهَا فِي أَصْلِهَا وَإِنْ دَفَعُوهَا إلَى الْوُلَاةِ جَازَ وَمَا كَانَ مِنْهَا ظَاهِرًا فَفِيهَا قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا وَهُوَ قَوْلُهُ فِي الْجَدِيدِ أَنَّهَا كَالْبَاطِنَةِ يَجُوزُ لِأَهْلِهَا أَنْ يَتَوَلَّوْا إخْرَاجَ زَكَاتِهَا وَلَا يَلْزَمُهُمْ دَفْعُهَا إلَى الْإِمَامِ . وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ عَلَيْهِمْ دَفْعَ زَكَاتِهَا إلَى الْإِمَامِ أَوْ عَامِلِهِ عَلَيْهَا وَلَا يَجُوزُ لِأَرْبَابِهَا أَنْ يَتَوَلَّوْا إخْرَاجَهَا بِأَنْفُسِهِمْ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى دَفْعِهَا إلَى الْإِمَامِ أَوْ عَامِلِهِ عَلَيْهَا ، وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ وَقَدْ مَضَى تَوْجِيهُ الْقَوْلَيْنِ .

(511/340)

فَإِنْ تَأَخَّرَ الْإِمَامُ وَعَامِلُهُ وَتَعَذَّرَ عَلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ دَفْعُ زَكَاتِهِمْ إلَيْهِ فَهَلْ لَهُمْ عَلَى الْقَوْلِ الْقَدِيمِ إخْرَاجُهَا بِأَنْفُسِهِمْ أَمْ لَا ؟ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : لَا يَجُوزُ وَتَكُونُ مَحْبُوسَةً عَلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ فَيَتَوَلَّى إخْرَاجَهَا : لِأَنَّ مَنِ اسْتَحَقَّ قَدْرَ مَالٍ لَمْ يَجُزْ أَنْ يُدْفَعَ إلَى غَيْرِهِ لِتَأَخُّرِهِ كَالدُّيُونِ . وَالْوَجْهُ الثَّانِي وَهُوَ ظَاهِرُ نَصِّهِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ يَجِبُ عَلَى أَهْلِهَا تَعْجِيلُ إخْرَاجِهَا بِأَنْفُسِهِمْ إذَا تَأَخَّرَ الْوَالِي عَنْهُمْ : لِأَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لِجِهَاتٍ يُمْكِنُ إيصَالُهُ إلَيْهَا وَالْوَالِي نَائِبٌ ، وَتَأَخُّرُ الْوَالِي النَّائِبِ لَا يُوجِبُ تَأَخُّرَ الْحَقِّ كَالْوَالِي وَالْوَكِيلِ ، فَإِذَا أَخْرَجَهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ تَأَخُّرِ الْوَالِي ، ثُمَّ حَضَرَ فَأَخْبَرُوهُ بِإِخْرَاجِهَا فَالْقَوْلُ قَوْلُهُمْ وَلَهُ إحْلَافُهُمْ إنِ اسْتَرَابَ بِهِمْ وَفِي هَذِهِ الْيَمِينِ وَجْهَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهَا مُسْتَحَقَّةٌ ، فَإِنْ نَكَلُوا عَنْهَا لَمْ تُؤْخَذْ مِنْهُمُ الزَّكَاةُ . وَالثَّانِي : أَنَّهَا وَاجِبَةٌ ، فَإِنْ نَكَلُوا عَنْهَا أُخِذَتْ مِنْهُمُ الزَّكَاةُ بِالْوُجُوبِ الْمُتَقَدِّمِ لَا بِالنُّكُولِ ، وَقَدْ مَضَى تَعْلِيلُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ الزَّكَاةِ .

(512/340)

مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَإِنَّمَا يَسْتَحِقُّ أَهْلُ السُّهْمَانِ سِوَى الْعَامِلِينَ حَقَّهُمْ يَوْمَ يَكُونُ الْقَسْمُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : اعْلَمْ أَنَّ الشَّافِعِيَّ قَدْ نَصَّ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ عَلَى أَنَّ اسْتِحْقَاقَ أَهْلِ السُّهْمَانِ لِلزَّكَاةِ يَكُونُ يَوْمَ الْقَسْمِ وَنَصَّ فِي كِتَابِ الزَّكَاةِ أَنَّهَا إذَا وَجَبَتْ فِي قَرْيَةٍ فَمَاتَ أَحَدُ

أَهْلِ السُّهْمَانِ أَنَّ نَصِيبَهُ لِوَارِثِهِ فَجَعَلَهَا مُسْتَحَقَّةً يَوْمَ الْوُجُوبِ وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى قَوْلَيْنِ وَإِنَّمَا هُوَ بِاخْتِلَافِ حَالَيْنِ ، فَالْمَوْضِعُ الَّذِي جَعَلَهَا مُسْتَحَقَّةً يَوْمَ الْوُجُوبِ إذَا تَعَيَّنَ أَهْلُ السُّهْمَانِ فِيهَا ، مِثْلُ أَنْ تَجِبَ الزَّكَاةُ عَلَيْهِمْ فِي قَرْيَةٍ فِيهَا مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ ثَلَاثَةٌ فَمَا دُونَ فَيَكُونُوا فِي اسْتِحْقَاقِهَا مُعَيَّنِينَ لَا يَجُوزُ الْعُدُولُ عَنْهُمْ إلَى غَيْرِهِمْ ، فَعَلَى هَذَا يَكُونُ اسْتِحْقَاقُهُمْ لَهَا مُعْتَبَرًا بِيَوْمِ الْوُجُوبِ لَا بَعْدَ الْقَسْمِ ، فَلَوْ مَاتَ أَحَدُهُمْ كَانَ حَقُّهُ لِوَارِثِهِ وَلَوْ غَابَ أَوْ أَيْسَرَ لَمْ يَسْقُطْ حَقُّهُ مِنْهَا ، وَلَوْ حَضَرَ الْقَرْيَةَ بَعْدَ الْوُجُوبِ غَرِيبٌ لَمْ يَجُزْ دَفْعُهَا إلَيْهِ . وَالْمَوْضِعُ الَّذِي جَعَلَهَا مُسْتَحَقَّةً يَوْمَ الْقَسْمِ إذَا لَمْ يَتَيَقَّنْ أَهْلُ السُّهْمَانِ فِيهَا ، مِثْلُ أَنْ تَجِبَ الزَّكَاةُ عَلَيْهِ فِي بَلَدٍ كَبِيرٍ فِيهِ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ عَدَدٌ كَبِيرٌ فَيَلْزَمُهُ أَنْ يُعْطِيَ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ ثَلَاثَةً وَيَمْنَعَ الْبَاقِينَ ، فَلَا يَكُونُوا فِيهَا مُعَيَّنِينَ ، فَيَكُونُ الِاعْتِبَارُ بِاسْتِحْقَاقِهِمْ يَوْمَ الْقَسْمِ لَا

(513/340)

يَوْمَ الْوُجُوبِ ، فَعَلَى هَذَا لَوْ مَاتَ أَحَدُهُمْ قَبْلَ الْقَسْمِ لَمْ يُعْطَ وَارِثُهُ ، وَلَوْ غَابَ أَوْ أَيْسَرَ لَمْ يَكُنْ لَهُ فِيهَا حَقٌّ ، وَلَوْ حَضَرَ غَرِيبٌ بَعْدَ الْوُجُوبِ وَقَبْلَ الْقَسْمِ أُعْطِيَ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ .

بَابُ مِيسَمِ الصَّدَقَاتِ

بَابُ مِيسَمِ الصَّدَقَاتِ مَسْأَلَةٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : يَنْبَغِي لِوَالِي الصَّدَقَاتِ أَنْ يَسِمَ كُلَّ مَا أَخَذَ مِنْهَا مِنْ بَقَرٍ أَوْ إِبِلٍ فِي أَفْخَاذِهَا وَيَسِمَ الْغَنَمَ فِي أُصُولِ آذَانِهَا ، وَمِيسَمُ الْغَنَمِ أَلْطَفُ مِنْ مِيسَمِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ ، وَيَجْعَلَ الْمِيسَمَ مَكْتُوبًا لِلَّهِ ؛ لِأَنَّ مَالِكَهَا أَدَّاهَا لِلَّهِ تَعَالَى فَكَتَبَ لِلَّهِ ، وَمِيسَمُ الْجِزْيَةِ مُخَالِفٌ لِمِيسَمِ الصَّدَقَةِ : لِأَنَّهَا أُدِّيَتْ صِغَارًا لَا أَجْرَ لِصَاحِبِهَا فِيهَا ، وَكَذَلِكَ بَلَغَنَا عَنْ عُمَّالِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِمُونَ وَقَالَ أَسْلَمُ لِعُمَرَ إِنَّ فِي الظَّهْرِ نَاقَةً عَمْيَاءَ ، فَقَالَ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - " نَدْفَعُهَا إلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَنْتَفِعُونَ بِهَا يُقَطِّرُونَهَا بِالْإِبِلِ . قَالَ قُلْتُ كَيْفَ تَأْكُلُ مِنَ الْأَرْضِ ؟ قَالَ عُمَرُ أَمِنْ نَعَمِ الْجِزْيَةِ أَوْ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ ؟ قُلْتُ لَا ، بَلْ مِنْ نَعَمِ الْجِزْيَةِ . فَقَالَ عُمَرُ أَرَدْتُمْ وَاللَّهِ أَكْلَهَا ، فَقُلْتُ إِنَّ عَلَيْهَا مِيسَمَ الْجِزْيَةِ ، قَالَ فَأَمَرَ بِهَا عُمَرُ فَنُحِرَتْ ، قَالَ فَكَانَتْ عِنْدَهُ صِحَافٌ تِسْعٌ ، فَلَا تَكُونُ فَاكِهَةٌ وَلَا طَرِيفَةٌ إلَّا وَجَعَلَ مِنْهَا فِي تِلْكَ الصِّحَافِ ، فَيَبْعَثُ بِهَا إلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَكُونُ الَّذِي يَبْعَثُ بِهِ إلَى حَفْصَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مِنْ آخِرِ ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ نُقْصَانٌ كَانَ فِي حَظِّهَا ، قَالَ فَجَعَلَ فِي تِلْكَ الصِّحَافِ مِنْ لَحْمِ تِلْكَ الْجَزُورِ فَبَعَثَ بِهِ إلَى أَزْوَاجِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

(515/340)

وَسَلَّمَ – وَأَمَرَ بِمَا بَقِيَ مِنَ اللَّحْمِ فَصُنِعَ فَدَعَا عَلَيْهِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ . (قَالَ) وَلَا أَعْلَمُ فِي الْمِيسَمِ عِلَّةً إلَّا أَنْ يَكُونَ مَا أُخِذَ مِنَ الصَّدَقَةِ مَعْلُومًا ، فَلَا يَشْتَرِيهِ الَّذِي أَعْطَاهُ : لِأَنَّهُ خَرَجَ مِنْهُ لِلَّهِ كَمَا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عُمَرَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي فَرَسٍ حُمِلَ عَلَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَرَآهُ يُبَاعُ أَنْ لَا يَشْتَرِيَهُ ، وَكَمَا تَرَكَ الْمُهَاجِرُونَ نُزُولَ مَنَازِلِهِمْ بِمَكَّةَ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوهَا لِلَّهِ تَعَالَى " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذَا كَمَا قَالَ الْمِيسَمُ عِنْدَنَا مُسْتَحَبٌّ فِي مَوَاشِي الزَّكَاةِ وَالْجِزْيَةِ ، وَحُكِيَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ كَرَاهِيَتُهُ لِنَهْيِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ تَعْذِيبِ الْحَيَوَانِ ، وَدَلِيلُنَا رِوَايَةُ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَسِمُ إبِلَ الصَّدَقَةِ . وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – رَأَى الْعَبَّاسَ وَهُوَ يَسِمُ إبِلَهُ فِي وُجُوهِهَا فَقَالَ : يَا عَبَّاسُ ، لَا تَسِمْ فِي الْوَجْهِ ، فَقَالَ : الْعَبَّاسُ ، وَاللَّهِ لَا وَسَمْتُهَا بَعْدَ هَذَا إلَّا فِي الْجَاعِرَتَيْنِ . وَرَوَى ابْنُ عُيَيْنَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ مُسْعَدِ بْنِ نُقَادَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ نُقَادَةَ الْأَسَدِيِّ أَنَّهُ قَالَ :

(516/340)

يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنِّي رَجُلٌ مُغَفَّلٌ فَأَيْنَ أَسِمُ ؟ قَالَ : فِي مَوْضِعِ الْجِرْمِ مِنَ السَّالِفَةِ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، اطْلُبْ لِي طِلْبَةً ، قَالَ : ابْغِنِي حَلْبَانَةً رَكْبَانَةً غَيْرَ أَلَّا تُولَدَ ذَاتَ وَلَدٍ عَنْ وَلَدِهَا . الْمُغَفَّلُ : صَاحِبُ الْإِبِلِ الْغُفْلِ الَّتِي لَا سِمَةَ عَلَيْهَا ، وَالْجِرْمُ : الزِّمَامُ . وَالسَّالِفَةُ : مُقَدَّمُ صَفْحَةِ الْعُنُقِ ، وَالْحَلْبَانَةُ : ذَاتُ لَبَنٍ يُحْلَبُ ، وَالرَّكْبَانَةُ : ذَاتُ ظَهْرٍ يُرْكَبُ . وَرَوَى زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : إِنَّ فِي الظَّهْرِ نَاقَةً عَمْيَاءَ ، فَقَالَ عُمَرُ ادْفَعْهَا إِلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَنْتَفِعُونَ بِهَا يَقْطُرُونَهَا بِالْإِبِلِ ، قُلْتُ : فَكَيْفَ تَأْكُلُ مِنَ الْأَرْضِ ، قَالَ عُمَرُ : مِنْ نَعَمِ الْجِزْيَةِ أَمْ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ ؟ فَقُلْتُ : الْإِبِلُ هِيَ مِنْ نَعَمِ الْجِزْيَةِ ، فَقَالَ : عُمَرُ أَرَدْتُمْ وَاللَّهِ أَكْلَهَا ، فَقُلْتُ : إِنَّ عَلَيْهَا وَسْمَ الْجِزْيَةِ ، قَالَ : فَأَمَرَ بِهَا فَنُحِرَتْ . . . الْحَدِيثَ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْمِيسَمَ فِعْلُ الْأَئِمَّةِ وَإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ ، وَلِأَنَّ بِهِ تَمْتَازُ الْأَمْوَالُ مَعَ تَمَيُّزِ مُسْتَحِقِّهَا ، وَلِيَكُونَ إِذَا ضَلَّتْ سَبَبًا لِرَدِّهَا ، فَإِذَا ثَبَتَ جَوَازُ الْوَسْمِ ، فَالْكَلَامُ فِيهِ يَشْتَمِلُ عَلَى فَصْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنْ يَكُونَ الْمِيسَمُ مِنْهَا . وَالثَّانِي : فَالَّذِي يُكْتَبُ عَلَيْهِ . فَأَمَّا مَكَانُهُ فَهُوَ كُلُّ مَوْضِعٍ صَلُبَ مِنَ الْبَدَنِ وَقَلَّ شَعْرُهُ ، فَإِنْ كَانَ فِي الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ فَعَلَى أَفْخَاذِهَا ، وَإِنْ كَانَ فِي الْغَنَمِ فَعَلَى أُصُولِ آذَانِهَا

(517/340)

وَيَكُونُ مِيسَمُ الْغَنَمِ أَلْطَفَ لِأَنَّهَا ضَعِيفَةٌ لَا تَصْبِرُ مِنَ الْأَلَمِ عَلَى مَا يَصْبِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهَا . فَأَمَّا مَا يُكْتَبُ فَإِنْ كَانَتْ مِنْ نَعَمِ الصَّدَقَةِ كَانَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ ثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ ، إمَّا أَنْ يَكْتُبَ عَلَيْهَا صَدَقَةً ، أَوْ طُهْرَةً ، أَوْ لِلَّهِ ، وَهَذَا أَحَبُّهَا إلَى الشَّافِعِيِّ تَبَرُّكًا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاقْتِدَاءً بِالسَّلَفِ ، وَإِنْ كَانَتْ مِنَ الْجِزْيَةِ كَانَ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ يَكْتُبَ جِزْيَةً ، أَوْ يَكْتُبَ صِغَارًا ، وَهَذَا اجْتِهَادُ الشَّافِعِيِّ اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ [التَّوْبَةِ : 29] ، فَأَمَّا تَمْيِيزُهَا بِجَدْعِ الْأُنُوفِ وَقَطْعِ الْآذَانِ فَمَكْرُوهٌ لِمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ نَهَى عَنِ الْمُثْلَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

بَابُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ

(518/340)

بَابُ الِاخْتِلَافِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : " قَالَ بَعْضُ النَّاسِ لَا مُؤَلَّفَةَ . فَيَجْعَلُ سَهْمَهُمْ وَسَهْمَ سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ فِي ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : قَدْ مَضَتْ مَسَائِلُ هَذَا الْبَابِ مَشْرُوحَةً بِدَلَائِلِهَا ، وَإِنَّمَا أَوْرَدَهُ الشَّافِعِيُّ مَقْصُورًا عَلَى ذِكْرِ الِاخْتِلَافِ فِيهَا وَالِاحْتِجَاجِ عَلَيْهَا فَاقْتَصَرْنَا مِنْهُ عَلَى الْإِشَارَةِ إلَى تَفْصِيلِ مَا أَوْرَدَهُ ، فَمِنْ ذَلِكَ مَسْأَلَتَانِ قَدَّمَهُمَا فِي هَذَا الْفَصْلِ : إحْدَاهُمَا : فِي سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ . وَالثَّانِيَةُ : فِي سَهْمِ

سَبِيلِ اللَّهِ . فَأَمَّا سَهْمُ الْمُؤَلَّفَةِ فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ أَسْقَطَهُ وَزَعَمَ أَنْ لَا مُؤَلَّفَةَ لِلِاسْتِغْنَاءِ عَنْهُمْ بِقُوَّةِ الدِّينِ وَإِعْزَازِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُوَ عِنْدَ الشَّافِعِيِّ ثَابِتٌ عَلَى الشَّرْحِ الَّذِي قَدَّمْنَاهُ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُمْ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ سَهْمًا فَلَمْ يَجُزْ نَسْخُهُ بَعْدَ انْقِطَاعِ الْوَحْيِ ، وَلِأَنَّ مَا بَقِيَ لِلْإِسْلَامِ أَعْدَاءٌ يَلْزَمُ جِهَادُهُمْ بَقِيَ مُؤَلَّفَةٌ يُتَأَلَّفُ قُلُوبُهُمْ كَالْعَصْرِ الْأَوَّلِ . وَأَمَّا سَهْمُ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ زَعَمَ أَنَّهُ مَصْرُوفٌ مَعَ سَهْمِ الْمُؤَلَّفَةِ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ فِي ثَغْرِ الْمُسْلِمِينَ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَاهُ فِي الْغُزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْتَرِيَ بِهِ كُرَاعًا وَلَا سِلَاحًا لِمَنْ لَمْ يَتَعَيَّنْ مِنْهُمْ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ مَالَ الصَّدَقَاتِ مَصْرُوفًا إِلَى

(519/340)

مَالِكِينَ ، فَإِنْ تَعَيَّنَ الْغُزَاةُ الَّذِينَ يُعْطَوْنَ تِلْكَ الصَّدَقَاتِ وَاحْتَاجُوا إِلَى كُرَاعٍ وَسِلَاحٍ ، فَإِنْ كَانَ قَاسِمُ الصَّدَقَةِ رَبَّ الْمَالِ لَمْ يَجُزْ أَنْ يَشْتَرِيَ لَهُمْ بِسَهْمِهِمْ كُرَاعًا وَسِلَاحًا وَدَفَعَ إِلَيْهِمْ عَيْنَ مَالِهِ لِيَتَوَلَّوْا بِأَنْفُسِهِمْ شِرَاءَ مَا احْتَاجُوا إِلَيْهِ مِنْ كُرَاعٍ وَسِلَاحٍ لِئَلَّا يَصِيرَ رَبُّ الْمَالِ دَافِعَهَا قِيمَةَ زَكَاةٍ ؛ إِذْ يَمْنَعُ الشَّافِعِيُّ مِنْهَا ، وَإِنْ كَانَ قَاسِمُ الصَّدَقَةِ وَالِيًا فَفِي جَوَازِ اتِّبَاعِهِ ذَلِكَ لَهُمْ وَجْهَانِ مَضَيَا .

فَصْلٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَقَالَ بَعْضُهُمُ ابْنُ السَّبِيلِ مَنْ مَرَّ بِقَاسِمٍ فِي الْبَلَدِ الَّذِي بِهِ الصَّدَقَاتُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ ثَالِثَةٌ أَرَادَ بِهَا أَبَا حَنِيفَةَ ؛ حَيْثُ يَقُولُ إنَّ ابْنَ السَّبِيلِ الَّذِي يَسْتَحِقُّ سَهْمَهُ مِنَ الصَّدَقَاتِ هُوَ الْمُجْتَازُ بِبَلَدِ الصَّدَقَةِ دُونَ الْمُنْشِئِ لِسَفَرِهِ مِنْهُ لِيَكُونَ مَصْرُوفًا إلَى مَنْ تَنَاوَلَهُ حَقِيقَةُ الِاسْمِ . وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ مَصْرُوفٌ إلَى الْمُجْتَازِ وَالْمُنْشِئِ اعْتِبَارًا

بِالْعُمُومِ ، وَلِأَنَّ الْمُنْشِئَ جَارٌّ لِلْمَالِ ، فَكَانَ أَوْلَى مِنَ الْمُجْتَازِ الْغَرِيبِ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا جَازَ أَنْ يُعَانَ الْمُجْتَازُ عَلَى بَعْضِ سَفَرِهِ فَأَوْلَى أَنْ يُعَانَ الْمُنْشِئُ عَلَى جَمِيعِ سَفَرِهِ .

(520/340)

فَصْلٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَقَالَ أَيْضًا حَيْثُ كَانَتِ الْحَاجَةُ أَكْثَرَ ، فَهِيَ وَاسِعَةٌ كَأَنَّهُ يَذْهَبُ إلَى أَنَّهُ فَوْضَى بَيْنَهُمْ يُقَسِّمُونَهُ عَلَى الْعَدَدِ وَالْحَاجَةِ : لِأَنَّ لِكُلِّ أَهْلِ صِنْفٍ مِنْهُمْ سَهْمًا " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ رَابِعَةٌ أَرَادَ بِهَا أَبَا حَنِيفَةَ ؛ حَيْثُ يَقُولُ : إنَّ مَالَ الصَّدَقَاتِ لَا يَلْزَمُ صَرْفُهُ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، وَلَكِنْ يَصْرِفُ فِي أَمَسِّهِمْ حَاجَةً وَيَعْدِلُ عَنِ الْبَاقِينَ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ : أَنَّهُ يَصْرِفُ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ الْمُسَمَّاةِ فِي آيَةِ الصَّدَقَاتِ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى لِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهُمْ حَقًّا ، فَلَمْ يَجُزِ الْعُدُولُ عَنْ بَعْضِهِمْ كَمَا لَمْ يَجُزِ الْعُدُولُ

عَنْ جَمِيعِهِمْ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ عَطَايَا الْآدَمِيِّينَ مِنَ الْوَصَايَا إذَا سَمَّى فِيهَا أَصْنَافًا لَمْ يَجُزِ الِاقْتِصَارُ عَلَى بَعْضِهَا كَانَتْ عَطَايَا اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَتِ الْحَاجَةُ مُعْتَبَرَةً لَبَطَلَ حُكْمُ التَّصَرُّفِ وَالتَّسْمِيَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَمِنْ أَصْحَابِنَا مَنْ قَالَ إذَا تَمَاسَكَ أَهْلُ الصَّدَقَةِ وَأَجْدَبَ آخَرُونَ نُقِلَتْ إلَى الْمُجْدِبِينَ إذَا كَانُوا يُخَافُ عَلَيْهِمُ الْمَوْتُ كَأَنَّهُ يَذْهَبُ إلَى أَنَّ هَذَا مَالٌ مِنْ مَالِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْهُ لِأَهْلِ السُّهْمَانِ لِمَعْنَى صَلَاحِ عِبَادِ اللَّهِ عَلَى اجْتِهَادِ الْإِمَامِ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ خَامِسَةٌ أَرَادَ بِهَا أَبَا حَنِيفَةَ ، فَإِنَّهُ جَوَّزَ نَقْلَ الصَّدَقَةِ عَنْ بَلَدِ الْمَالِ إلَى غَيْرِهِ بِحَسَبِ

(521/340)

مَا يُؤَدِّي اجْتِهَادُ الْإِمَامِ إلَيْهِ فِي شِدَّةِ الْحَاجَةِ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَقْلُ الصَّدَقَةِ عَنْ بَلَدِ الْمَالِ إلَى غَيْرِهِ لِأَجْلِ الْحَاجَةِ لِمَا قَدَّمْنَاهُ مِنَ الدَّلِيلِ . فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ نَقَلَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ وَالزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ صَدَقَاتِ قَوْمِهِمَا إلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِالْمَدِينَةِ ، قِيلَ أَجَابَ الشَّافِعِيُّ عَنْهُ بِأَرْبَعَةِ أَجْوِبَةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ نَقْلُ إلَى الْمَدِينَةِ مَا فَضَلَ مِنْ جِيرَانِ الْمَالِ . وَالثَّانِي : أَنَّهُ كَانَ مَنْ بِالْمَدِينَةِ أَقْرَبَ النَّاسِ بِهِمْ نَسَبًا وَدَارًا فَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا . وَالثَّالِثُ : أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ حَوْلَهُمُ ارْتَدُّوا : لِأَنَّهُ كَانَ وَقْتَ الرِّدَّةِ فَلَمْ يَسْتَحِقُّوهَا

مَعَ الرِّدَّةِ فَنُقِلَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَالرَّابِعُ : أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ حُمِلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ إِظْهَارًا لِطَاعَتِهِ : لِأَنَّ النَّاسَ قَدْ كَانُوا مَنَعُوا الزَّكَاةَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، فَلَمَّا أَظْهَرُوا الطَّاعَةَ بِنَقْلِ الزَّكَاةِ رَدَّهَا عَلَيْهِمْ لِيَتَوَلَّوْا قَسْمَهَا فِي جِيرَانِهِمْ .

فَصْلٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَأَحْسَبُهُ يَقُولُ وَتُنْقَلُ سُهْمَانُ أَهْلِ الصَّدَقَاتِ إِلَى أَهْلِ الْفَيْءِ إِنْ جَهِدُوا وَضَاقَ الْفَيْءُ وَيُنْقَلُ الْفَيْءُ إِلَى أَهْلِ الصَّدَقَاتِ إِنْ جَهِدُوا وَضَاقَتِ الصَّدَقَاتُ عَلَى مَعْنَى إِرَادَةِ صَلَاحِ عِبَادِ اللَّهِ (قَالَ الشَّافِعِيُّ) وَإِنَّمَا قُلْتُ بِخِلَافِ هَذَا الْقَوْلِ لِأَنَّ اللَّهَ - جَلَّ وَعَزَّ -

(522/340)

جَعَلَ الْمَالَ قِسْمَيْنِ أَحَدُهُمَا فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي هِيَ طُهْرَةٌ فَسَمَّاهَا اللَّهُ لِثَمَانِيَةِ أَصْنَافٍ وَوَكَّدَهَا ، وَجَاءَتْ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنْ تُؤْخَذَ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدَّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ لَا فُقَرَاءِ غَيْرِهِمْ ، وَلِغَيْرِهِمْ فُقَرَاءُ ، فَلَا يَجُوزُ فِيهَا عِنْدِي وَاللَّهُ أَعْلَمُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا غَيْرُ مَا قُلْتُ مِنْ أَلَّا تُنْقَلَ عَنْ قَوْمٍ وَفِيهِمْ مَنْ يَسْتَحِقُّهَا وَلَا يُخْرَقُ سَهْمُ ذِي سَهْمٍ مِنْهُمْ إِلَى غَيْرِهِ وَهُوَ يَسْتَحِقُّهُ ، وَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ تَعَالَى أَصْنَافًا فَيَكُونُوا مَوْجُودِينَ مَعًا فَيُعْطِي أَحَدًا سَهْمَهُ وَسَهْمَ غَيْرِهِ ، وَلَوْ جَازَ هَذَا عِنْدِي جَازَ أَنْ يَجْعَلَ فِي

سَهْمٍ وَاحِدٍ جَمِيعَ سِهَامِ سَبْعَةٍ مَا فُرِضَ لَهُمْ ، وَيُعْطَى وَاحِدٌ مَا لَمْ يُفْرَضْ لَهُ ، وَالَّذِي يُخَالِفُنَا يَقُولُ لَوْ أَوْصَى بِثُلُثِهِ لِفُقَرَاءِ بَنِي فُلَانٍ وَغَارِمِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلٍ آخَرَ وَبَنِي سَبِيلٍ وَبَنِي فُلَانٍ رَجُلٍ آخَرَ . إنَّ كُلَّ صِنْفٍ مِنْ هَؤُلَاءِ يُعْطَوْنَ مِنْ ثُلُثِهِ ، وَأَنْ لَيْسَ لِوَصِيٍّ وَلَا وَالٍ أَنْ يُعْطِيَ الثُّلُثَ صِنْفًا دُونَ صِنْفٍ وَإِنْ كَانَ أَحْوَجَ وَأَفْقَرَ مِنْ صِنْفٍ : لِأَنَّ كُلًّا ذُو حَقٍّ بِمَا سُمِّيَ لَهُ . وَإِذَا كَانَ هَذَا عِنْدَنَا وَعِنْدَ قَائِلِ هَذَا الْقَوْلِ فِيمَا أُعْطِيَ الْآدَمِيُّونَ أَنْ لَا يَجُوزَ أَنْ يَمْضِيَ إلَّا عَلَى مَا أُعْطُوا ، فَعَطَاءُ اللَّهِ أَوْلَى أَلَّا يَجُوزَ أَنْ يَمْضِيَ إلَّا عَلَى مَا أَعْطَى . (قَالَ) وَإِذَا قَسَمَ اللَّهُ الْفَيْءَ وَسَنَّ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

(523/340)

أَنَّ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسِهِ لِمَنْ أَوْجَفَ عَلَى الْغَنِيمَةِ لِلْفَارِسِ ثَلَاثَةُ أَسْهُمٍ وَلِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ، وَلَمْ نَعْلَمْ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَضَّلَ ذَا غَنَاءٍ عَلَى مَنْ دُونَهُ وَلَمْ يُفَضِّلِ الْمُسْلِمُونَ الْفَارِسَ أَعْظَمَ النَّاسِ غَنَاءً عَلَى جَبَانٍ فِي الْقَسْمِ ، وَكَيْفَ جَازَ لِمُخَالِفِنَا فِي قَسْمِ الصَّدَقَاتِ وَقَدْ قَسَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى أَمِينِ الْقَسْمِ بَعْضًا دُونَ بَعْضٍ وَيَنْقُلُهَا عَنْ أَهْلِهَا الْمُحْتَاجِينَ إلَيْهَا إلَى غَيْرِهِمْ ؛ لِأَنْ كَانُوا أَحْوَجَ مِنْهُمْ ، أَوْ يُشْرِكُهُمْ مَعَهُمْ ، أَوْ يَنْقُلُهَا عَنْ صِنْفٍ مِنْهُمْ إلَى صِنْفٍ غَيْرِهِ ، (أَرَأَيْتَ) لَوْ قَالَ قَائِلٌ لِقَوْمٍ أَهْلِ غَزْوٍ كَثِيرٍ أَوجِفُوا عَلَى عَدُوٍّ أَنْتُمْ أَغْنِيَاءُ ،

فَآخُذُ مَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ فَأُقَسِّمُهُ عَلَى أَهْلِ الصَّدَقَاتِ الْمُحْتَاجِينَ إذَا كَانَ عَامًا سَنَةً لِأَنَّهُمْ مِنْ عِيَالِ اللَّهِ تَعَالَى ، هَلِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِ ، إلَّا أَنَّ مَنْ قَسَمَ اللَّهُ لَهُ بِحَقٍّ فَهُوَ أَوْلَى بِهِ وَإِنْ كَانَ مَنْ لَمْ يَقْسِمْ لَهُ أَحْوَجَ مِنْهُ ؟ وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ فِي أَهْلِ الصَّدَقَاتِ ، وَهَكَذَا لِأَهْلِ الْمَوَارِيثِ لَا يُعْطَى أَحَدٌ مِنْهُمْ سَهْمَ غَيْرِهِ وَلَا يُمْنَعُ مِنْ سَهْمِهِ لِفَقْرٍ وَلَا لِغِنًى ، وَقَضَى مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَيُّمَا رَجُلٍ انْتَقَلَ مِنْ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ إلَى غَيْرِ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ فَعُشْرُهُ وَصَدَقَتُهُ إلَى مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ . فَفِي هَذَا مَعْنَيَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ جَعَلَ صَدَقَتَهُ وَعُشْرَهُ لِأَهْلِ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ ، لَمْ يَقُلْ لِقَرَابَتِهِ

(524/340)

دُونَ أَهْلِ الْمِخْلَافِ ، وَالْآخَرُ أَنَّهُ رَأَى أَنَّ الصَّدَقَةَ إذَا ثَبَتَتْ لِأَهْلِ مِخْلَافِ عَشِيرَتِهِ لَمْ تُحَوَّلْ عَنْهُمْ صَدَقَتُهُ وَعُشْرُهُ بِتَحَوُّلِهِ عَنْهُمْ وَكَانَتْ كَمَا يَثْبُتُ بَدْءًا ، فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ جَاءَ عَدِيُّ بْنُ حَاتِمٍ أَبَا بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِصَدَقَاتٍ وَالزِّبْرِقَانُ بْنُ بَدْرٍ ، فَهُمَا وَإِنْ جَاءَا بِهَا فَقَدْ تَكُونُ فَضْلًا عَنْ أَهْلِهَا ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِالْمَدِينَةِ أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِمْ نَسَبًا وَدَارًا مِمَّنْ يَحْتَاجُ إلَى سَعَةٍ مِنْ مُضَرَ وَطَيِّءٍ مِنَ الْيَمَنِ

(525/340)

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ حَوْلَهُمْ ارْتَدُّوا فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِيهَا حَقٌّ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يُؤْتَى بِهَا أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ثُمَّ يَرُدَّهَا إلَى غَيْرِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ خَبَرٌ عَنْ أَبِي بَكْرٍ نَصِيرُ إلَيْهِ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يُؤْتَى بِنَعَمٍ مِنَ الصَّدَقَةِ فَبِالْمَدِينَةِ صَدَقَاتُ النَّخْلِ وَالزَّرْعِ وَالنَّاسِ وَالْمَاشِيَةِ ، وَلِلْمَدِينَةِ سَاكِنٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَحُلَفَاءُ لَهُمْ وَأَشْجَعُ وَجُهَيْنَةُ وَمُزَيْنَةُ بِهَا وَبِأَطْرَافِهَا وَغَيْرُهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْعَرَبِ ، فَعِيَالُ سَاكِنِي الْمَدِينَةِ بِالْمَدِينَةِ ، وَعِيَالُ عَشَائِرِهِمْ وَجِيرَانِهِمْ وَقَدْ يَكُونُ عِيَالُ سَاكِنِي أَطْرَافِهَا بِهَا وَعِيَالُ جِيرَانِهِمْ وَعَشَائِرِهِمْ فَيُؤْتَوْنَ بِهَا وَتَكُونُ مَجْمَعًا لِأَهْلِ السُّهْمَانِ كَمَا تَكُونُ الْمِيَاهُ وَالْقُرَى مَجْمَعًا لِأَهْلِ السُّهْمَانِ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَعَلَّهُمُ اسْتَغْنَوْا فَنَقَلَهَا إلَى أَقْرَبِ النَّاسِ بِهِمْ وَكَانُوا بِالْمَدِينَةِ ، (فَإِنْ قِيلَ) فَإِنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَحْمِلُ عَلَى إبِلٍ كَثِيرَةٍ إلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَإِنَّمَا هِيَ - وَاَللَّهُ أَعْلَمُ - مِنْ نَعَمِ الْجِزْيَةِ : لِأَنَّهُ إنَّمَا يَحْمِلُ عَلَى مَا يَحْتَمِلُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَأَكْثَرُ فَرَائِضِ الْإِبِلِ لَا تَحْمِلُ أَحَدًا . وَقَدْ كَانَ يَبْعَثُ إلَى عُمَرَ بِنَعَمِ الْجِزْيَةِ فَيَبْعَثُ فَيَبْتَاعُ بِهَا إبِلًا جِلَّةً فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا (وَقَالَ) بَعْضُ النَّاسِ مِثْلَ قَوْلِنَا فِي أَنَّ مَا أُخِذَ مِنْهُمْ فَسَبِيلُهُ سَبِيلُ

الصَّدَقَاتِ) . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ سَادِسَةٌ أَرَادَ بِهَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، وَلَعَلَّ أَبَا حَنِيفَةَ مَعَهُمْ فَإِنَّهُمْ جَوَّزُوا نَقْلَ الصَّدَقَاتِ إلَى أَهْلِ الْفَيْءِ وَنَقْلَ الْفَيْءِ إلَى أَهْلِ الصَّدَقَاتِ اعْتِبَارًا بِشِدَّةِ الْحَاجَةِ ، ثُمَّ اخْتَلَفُوا بَعْدَ النَّقْلِ هَلْ يُقْضَى مَنْ نُقِلَ عَنْهُ سَهْمُهُ إذَا اتَّسَعَ مَالُ الْمَنْقُولِ إلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَوْجَبَ الْقَضَاءَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْقَطَهُ ، وَعِنْدَ الشَّافِعِيِّ لَا يَجُوزُ نَقْلُ الصَّدَقَةِ إلَى أَهْلِ الْفَيْءِ وَإِنْ جَهِدُوا ، وَلَا نَقْلُ الْفَيْءِ إلَى أَهْلِ الصَّدَقَاتِ وَإِنْ جَهِدُوا .

وَيُقَسَّمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ الْحَالَيْنِ فِي أَهْلِهِ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَمَّى لِكُلِّ مَالٍ مَالِكًا ، فَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْدَلَ بِهِ عَنْهُ لِمَا فِيهِ مِنْ إبْطَالِ النَّصِّ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْدَلَ بِالْغَنِيمَةِ عَمَّنْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا انْقِيَادًا لِحُكْمِ النَّصِّ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرُهُمْ أَشَدَّ ضَرُورَةً وَأَمَسَّ حَاجَةً لَمْ يَجُزْ فِي مَالِ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ أَنْ يُعْدَلَ بِهِ عَنْ حُكْمِ النَّصِّ ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا كَانَتْ عَطَايَا الْآدَمِيِّينَ مِنَ الْوَصَايَا لَا يَجُوزُ أَنْ يُعْدَلَ بِهَا عَمَّنْ سُمِّيَتْ لَهُ فَعَطَايَا اللَّهِ تَعَالَى أَوْلَى ، وَلِأَنَّهُ لَمَّا لَمْ يَجُزْ أَنْ يُعْدَلَ بِالْمَوَارِيثِ عَمَّنْ سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى إلَى مَنْ هُوَ أَثَرُ وَأَحْوَجُ ، فَكَذَلِكَ مَالُ الْفَيْءِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَلِأَنَّ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَسِمُ إبِلَ الصَّدَقَةِ مِيسَمًا وَإِبِلَ الْجِزْيَةِ مِيسَمًا ؛ فَلَوْلَا تَمَيُّزُ الْمُسْتَحَقِّ

(527/340)

لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمِثَالَيْنِ لَمَا مَيَّزَ بِالْمِيسَمِ . فَإِنْ قِيلَ : فَإِنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ يَحْمِلُ عَلَى إبِلٍ كَثِيرَةٍ مِنْ إبِلِ الصَّدَقَةِ إلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ فَدَلَّ عَلَى جَوَازِ دَفْعِ الصَّدَقَةِ إلَى أَهْلِ الْفَيْءِ . قَالَ الشَّافِعِيُّ جَوَابًا عَنْ هَذَا : إنَّ عُمَرَ إنَّمَا كَانَ يَحْمِلُ عَلَى إبِلِ الْجِزْيَةِ لَا عَلَى إبِلِ الصَّدَقَةِ : لِأَنَّ أَكْثَرَ فَرَائِضِ الْإِبِلِ فِي الصَّدَقَاتِ لَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ كَانَ يَبْعَثُ إلَيْهِ بِنَعَمِ الْجِزْيَةِ فَيَبْعَثُ بِهَا فَيَبْتَاعُ بِهَا إبِلًا يَحْمِلُ عَلَيْهَا .

(528/340)

فَصْلٌ : قَالَ الشَّافِعِيُّ : " وَقَالُوا وَالرِّكَازُ سَبِيلُ الصَّدَقَاتِ وَرَوَوْا مَا رُوِّينَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : وَفِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ وَقَالَ : الْمَعَادِنُ مِنَ الرِّكَازِ وَكُلُّ مَا أُصِيبَ مِنْ دَفْنِ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ رِكَازٌ ، ثُمَّ عَادَ لَمَّا شَدَّدَ فِيهِ فَأَبْطَلَهُ فَزَعَمَ أَنَّهُ إذَا وَجَدَ رِكَازًا فَوَسَّعَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكْتُمَهُ ، وَلِلْوَالِي أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ بَعْدَمَا يَأْخُذُهُ مِنْهُ أَوْ يَدَعُهُ لَهُ فَقَدْ أَبْطَلَ بِهَذَا الْقَوْلِ السُّنَّةَ فِي أَخْذِهِ ، وَحَقَّ اللَّهِ فِي قَسْمِهِ لِمَنْ جَعَلَهُ اللَّهُ لَهُ ، وَلَوْ جَازَ ذَلِكَ جَازَ فِي جَمِيعِ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ لِمَنْ جَعَلَهُ لَهُ (قَالَ) فَإِنَّا رَوَيْنَا عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ أَرْبَعَةَ أَوْ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ عَلِيٌّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : لَأَقْضِيَنَّ فِيهَا

قَضَاءً بَيِّنًا : أَمَّا أَرْبَعَةُ أَخْمَاسٍ فَلَكَ وَخُمُسٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ قَالَ الْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ (قَالَ الشَّافِعِيُّ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : فَهَذَا الْحَدِيثُ يَنْقُضُ بَعْضُهُ بَعْضًا : إذْ زَعَمَ أَنَّ عَلِيًّا قَالَ : وَالْخُمُسُ لِلْمُسْلِمِينَ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَالِ رَجُلٍ شَيْئًا ثُمَّ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ أَوْ يَدَعَهُ لَهُ ؟ ! وَهَذَا عَنْ عَلِيٍّ مُسْتَنْكَرٌ ، وَقَدْ رَوَوْا عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِإِسْنَادٍ مَوْصُولٍ أَنَّهُ قَالَ : أَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ لَكَ ، وَاقْسِمِ الْخُمُسَ فِي فُقَرَاءِ أَهْلِكَ . فَهَذَا الْحَدِيثُ أَشْبَهُ بِحَدِيثِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ

(529/340)

عَنْهُ - ، لَعَلَّ عَلِيًّا عَلِمَهُ أَمِينًا وَعَلِمَ فِي أَهْلِهِ فُقَرَاءَ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ فَأَمَرَهُ أَنْ يَقْسِمَهُ فِيهِمْ ، (قَالَ الشَّافِعِيُّ) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَهُمْ يُخَالِفُونَ مَا رَوَوْا عَنِ الشَّعْبِيِّ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ مَنْ كَانَتْ لَهُ مِائَتَا دِرْهَمٍ فَلَيْسَ لِلْوَالِي أَنْ يُعْطِيَهُ وَلَا لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئًا مِنَ السُّهْمَانِ الْمَقْسُومَةِ بَيْنَ مَنْ سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى وَلَا مِنَ الصَّدَقَاتِ تَطَوُّعًا ، وَالَّذِي يَزْعُمُونَ أَنَّ عَلِيًّا تَرَكَ لَهُ خُمُسَ رِكَازِهِ رَجُلٌ لَهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ وَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا سِوَاهَا ، وَيَزْعُمُونَ أَنَّهُ إذَا أَخَذَ الْوَالِي مِنْهُ وَاجِبًا فِي مَالِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَعُودَ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى أَحَدٍ يَعُولُهُ ، وَيَزْعُمُونَ أَنْ لَوْ وَلِيَهَا هُوَ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبْسُهَا وَلَا دَفْعُهَا إلَى أَحَدٍ يَعُولُهُ . (قَالَ الشَّافِعِيُّ) -

رَحِمَهُ اللَّهُ – وَإِذَا كَانَ لَهُ أَنْ يَكْتُمَهَا وَلِلْوَالِي أَنْ يَرُدَّهَا إِلَيْهِ فَلَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ عَلَيْهِ ، وَتَرْكُهَا وَأَخْذُهَا سَوَاءٌ . وَقَدْ أَبْطَلُوا بِهَذَا الْقَوْلِ السُّنَّةَ فِي أَنَّ فِي الرِّكَازِ الْخُمُسَ وَأَبْطَلُوا حَقَّ مَنْ قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَهْلِ السُّهْمَانِ الثَّمَانِيَةِ ، فَإِنْ قَالَ لَا يَصْلُحُ هَذَا إِلَّا فِي الرِّكَازِ ، قِيلَ : فَإِنْ قِيلَ لَكَ لَا يَصْلُحُ فِي الرِّكَازِ وَيَصْلُحُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنْ صَدَقَةٍ وَمَاشِيَةٍ وَعُشْرِ زَرْعٍ وَوَرَقٍ ، فَمَا الْحُجَّةُ عَلَيْهِ إِلَّا كَهِيَ عَلَيْكَ ؟ وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ تَعَالَى أَعْلَمُ " . قَالَ الْمَاوَرْدِيُّ : وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ

(530/340)

سَابِقَةٌ أَرَادَ بِهَا أَبَا حَنِيفَةَ ، فَإِنَّهُ جَعَلَ فِي الرِّكَازِ الْخُمُسَ لِلْخَبَرِ الْمَرْوِيِّ فِيهِ ، ثُمَّ نَاقَضَ فِي قَوْلِهِ بَعْدَ وُجُوبِ الْخُمُسِ فِيهِ ، فَجَعَلَ وَاجِدَ الرِّكَازِ مُخَيَّرًا بَيْنَ إِظْهَارِهِ لِلْإِمَامِ وَبَيْنَ كَتْمِهِ ، ثُمَّ جَعَلَ لِلْإِمَامِ إِذَا ظَهَرَ لَهُ الرِّكَازُ مُخَيَّرًا بَيْنَ أَخْذِ خُمُسِهِ مِنْهُ وَبَيْنَ رَدِّهِ عَلَيْهِ ، وَعَوَّلَ فِيهِ عَلَى أَنَّهُ ضَعِيفٌ رَوَاهُ الشَّعْبِيُّ مُنْقَطِعًا : أَنَّ رَجُلًا وَجَدَ أَرْبَعَةَ أَوْ خَمْسَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ ، فَقَالَ عَلِيٌّ : لَأَقْضِيَنَّ فِيهَا قَضَاءً بَيِّنًا ، أَمَّا أَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ فَلَكَ وَخُمُسٌ لِلْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ

(531/340)

قَالَ : وَالْخُمُسُ مَرْدُودٌ عَلَيْكَ . وَهَذَا خَطَأٌ ، بَلِ الْخُمُسُ مُسْتَحَقٌّ لِأَهْلِ الصَّدَقَاتِ لَا يَجُوزُ تَرْكُهُ عَلَيْهِ لِقَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : فِي الرِّكَازِ الْخُمُسُ ، وَلِأَنَّهُ لَا يَخْلُو أَنْ يَكُونَ وَاجِبًا ، فَلَا يَجُوزُ تَرْكُهُ أَوْ غَيْرَ وَاجِبٍ فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُ ، وَلِأَنَّهُ لَوْ كَانَ غَنِيًّا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبْسُ الْخُمُسِ عَلَى نَفْسِهِ بِوِفَاقِ أَبِي حَنِيفَةَ ، فَكَذَلِكَ إذَا كَانَ فَقِيرًا كَالْعُشْرِ . فَأَمَّا حَدِيثُ الشَّعْبِيِّ فَقَدْ قَالَ الشَّافِعِيُّ : بَعْضُهُ يَنْقُضُ بَعْضًا ؛ إذْ زَعَمَ أَنَّ عَلِيًّا قَالَ : إنَّ الْخُمُسَ لِلْمُسْلِمِينَ . فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرَى لِلْمُسْلِمِينَ فِي مَالِ رَجُلٍ شَيْئًا ثُمَّ يَرُدُّهُ عَلَيْهِ ؟ ! وَهَذَا عَنْ عَلِيٍّ مُسْتَنْكَرٌ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِإِسْنَادٍ مَوْصُولٍ أَنَّهُ قَالَ : أَرْبَعَةُ أَخْمَاسِهِ لَكَ وَاقْسِمِ الْخُمُسَ فِي فُقَرَاءِ أَهْلِكَ . وَهَلِ الْحَدِيثُ أَشْبَهُ بِعَلِيٍّ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - مِمَّا رَوَاهُ الشَّعْبِيُّ ؟ وَلِأَنَّ رَدَّ الصَّدَقَةِ عَلَى الْفَيْءِ لَا يَجُوزُ عِنْدَهُ ، وَمَنْ وَجَدَ أَرْبَعَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ كَانَ غَنِيًّا عِنْدَهُ بِبَعْضِهَا ، وَلَعَلَّهُ قَدْ كَانَ يَمْلِكُ غَيْرَهَا ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِ صَدَقَةً هُوَ عِنْدَهُ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لَهَا ، وَلَوْ جَازَ مِثْلُ هَذَا فِي الرِّكَازِ لَجَازَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، فَدَلَّ عَلَى فَسَادِ مَا ذَهَبَ إلَيْهِ وَتَنَاقُضِ مَا عَوَّلَ عَلَيْهِ ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ وَهُوَ الْهَادِي إلَى سَوَاءِ الطَّرِيقِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحاوى حـ 8 صـ 478.554 ﴾

(532/340)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ .

فِيهَا ثَمَانٍ وَعِشْرُونَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أُمَّهَاتِ الْآيَاتِ ، إنَّ اللَّهَ بِحِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَأَحْكَامِهِ الْمَاضِيَةِ الْعَالِيَةِ ، خَصَّ بَعْضَ النَّاسِ بِالْأَمْوَالِ دُونَ الْبَعْضِ ، نِعْمَةً مِنْهُ عَلَيْهِمْ ، وَجَعَلَ شُكْرَ ذَلِكَ مِنْهُمْ إخْرَاجَ سَهْمٍ يُؤَدُّونَهُ إلَى مَنْ لَا مَالَ لَهُ ، نِيَابَةً عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِيمَا ضَمِنَهُ بِفَضْلِهِ لَهُمْ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ؛ وَقَدَّرَ الصَّدَقَاتِ عَلَى حَسَبِ أَجْنَاسِ الْأَمْوَالِ ، فَجَعَلَ فِي النَّقْدَيْنِ رُبْعَ الْعُشْرِ ، وَجَعَلَ فِي النَّبَاتِ الْعُشْرَ ، وَمَعَ تَكَاثُرِ الْمُؤْنَةِ نِصْفَ الْعُشْرِ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ فِي حَقِيقَةِ الصَّدَقَةِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : عَلَى قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّهُ جُزْءٌ مِنْ الْمَالِ مُقَدَّرٌ مُعَيَّنٌ ؛ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ .

(533/340)

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : إنَّهَا جُزْءٌ مِنْ الْمَالِ مُقَدَّرٌ فَجَوَّزَ إخْرَاجَ الْقِيمَةِ فِي الزَّكَاةِ ؛ إذْ زَعَمَ أَنَّ التَّكْلِيفَ وَالِابْتِلَاءَ إنَّمَا هُوَ فِي نَقْصِ الْأَمْوَالِ ، وَذَهَلَ عَنْ التَّوْفِيَةِ لِحَقِّ التَّكْلِيفِ فِي تَعْيِينِ النَّاقِصِ ، وَأَنَّ ذَلِكَ يُوَازِي التَّكْلِيفَ فِي قَدْرِ النَّاقِصِ ؛ فَإِنَّ الْمَالِكَ يُرِيدُ أَنْ يَبْقَى مِلْكُهُ بِحَالِهِ

، وَيَخْرُجَ مِنْ غَيْرِهِ عَنْهُ ، فَإِذَا مَالَتْ نَفْسُهُ إِلَى ذَلِكَ ، وَعَلِقَتْ بِهِ ، كَانَ التَّكْلِيفُ قَطْعَ تِلْكَ الْعَلَاقَةِ الَّتِي هِيَ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْجُزْءِ مِنْ الْمَالِ ، فَوَجَبَ إِخْرَاجُ ذَلِكَ الْجُزْءِ بِعَيْنِهِ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ فِي كِتَابِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ بِالصَّدَقَةِ :

وَمَنْ بَلَغَتْ صَدَقَتُهُ بِنْتَ مَخَاضٍ ، وَلَيْسَتْ عِنْدَهُ ، وَعِنْدَهُ بِنْتُ لَبُونٍ ، فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ ، وَيُعْطِيهِ الْمُصَدِّقُ عِشْرِينَ دِرْهَمًا أَوْ شَاتَيْنِ .

قُلْنَا : قَدْ أَجَابَ عَنْهُ عُلَمَاؤُنَا بِأَرْبَعَةِ أَجْوِبَةٍ : أَحَدُهَا : أَنَّ هَذَا خَبَرُ وَاحِدٍ يُخَالِفُ الْأُصُولَ ، وَعِنْدَهُمْ إِذَا خَالَفَ خَبَرُ الْوَاحِدِ الْأُصُولَ بَطَلَ فِي نَفْسِهِ .

(534/340)

الثَّانِي : أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ لَمْ يَخْرُجْ مَخْرَجَ التَّقْوِيمِ ، بِدَلِيلِ أَنَّهُ لَمْ يَقُلْ : وَمَنْ بَلَغَتْ صَدَقَتُهُ بِنْتَ مَخَاضٍ ، وَعِنْدَهُ بِنْتُ لَبُونٍ ، فَإِنَّهَا تُؤْخَذُ مِنْهُ وَيُعْطَى عِشْرِينَ دِرْهَمًا ، وَإِنَّمَا كَانَ الْقِيَاسُ أَنْ يَقُولَ : فَإِنَّهَا تُؤْخَذُ مِنْهُ إِذَا عُرِفَتْ قِيمَتُهَا ، فَلَمَّا عَدَلَ عَنْ الْقِيمَةِ إِلَى التَّقْدِيرِ وَالتَّحْدِيدِ بِتَعَيُّنِ الشَّاتَيْنِ أَوْ الْعِشْرِينَ دِرْهَمًا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ خَرَجَ مَخْرَجَ الْعِبَادَةِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ هَذَا إِنَّمَا جَوَّزَ فِي الْجِيرَانِ ضَرُورَةَ اخْتِلَافِ السِّنِّينَ ، وَلَا ضَرُورَةَ إِلَى إِجْزَائِهِ فِي الْأَصْلِ ، فَبَقِيَ عَلَى حَالِهِ .

الرَّابِعُ : أَنَّ كِتَابَ عُمَرَ فِي الصَّدَقَةِ الَّذِي رَوَاهُ مَالِكٌ وَعَمِلَ بِهِ فِي الْأَقْطَارِ وَالْأَمْصَارِ أَوْلَى مِنْ كِتَابِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي لَمْ يَجِئْ إلَّا مِنْ طَرِيقٍ وَاحِدَةٍ .

وَلَعَلَّهُ كَانَ لِقَضِيَّةٍ فِي عَيْنٍ مَخْصُوصَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي مَعْنَى تَسْمِيَتِهَا صَدَقَةً : وَذَلِكَ مَأْخُوذٌ مِنْ الصِّدْقِ فِي مُسَاوَاةِ الْفِعْلِ لِلْقَوْلِ ، وَالِاعْتِقَادِ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا .

وَبِنَاءُ " صَدَقَ " يَرْجِعُ إلَى تَحْقِيقِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَعَضْدُهُ بِهِ ، وَمِنْهُ صَدَاقُ الْمَرْأَةِ ؛ أَيْ تَحْقِيقُ الْحِلِّ وَتَصْدِيقُهُ بِإِيجَابِ الْمَالِ وَالنِّكَاحِ عَلَى وَجْهٍ مَشْرُوعٍ .

وَيُخْتَلَفُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بِتَصْرِيفِ الْفِعْلِ ، يُقَالُ : صَدَّقَ فِي الْقَوْلِ صَدَاقًا وَتَصْدِيقًا ، وَتَصَدَّقَتْ بِالْمَالِ تَصَدُّقًا ، وَأَصْدَقَتْ الْمَرْأَةُ إصْدَاقًا .

(535/340)

وَأَرَادُوا بِاخْتِلَافِ الْفِعْلِ الدَّلَالَةَ عَلَى الْمَعْنَى الْمُخْتَصِّ بِهِ فِي الْكُلِّ .

وَمُشَابَهَةُ الصِّدْقِ هَاهُنَا لِلصَّدَقَةِ أَنَّ مَنْ أَيْقَنَ مِنْ دِينِهِ أَنَّ الْبَعْثَ حَقٌّ ، وَأَنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ هِيَ الْمَصِيرُ ، وَأَنَّ هَذِهِ الدَّارَ الدَّانِيَةَ قَنْطَرَةٌ إلَى الْأُخْرَى ، وَبَابٌ إلَى السُّوأَى أَوْ الْحُسْنَى عَمِلَ لَهَا ، وَقَدَّمَ مَا يَجِدُهُ فِيهَا ؛ فَإِنْ شَكَّ فِيهَا أَوْ تَكَاسَلَ عَنْهَا وَآثَرَ عَلَيْهَا بَخِلَ بِمَالِهِ ، وَاسْتَعَدَّ

لِآمَالِهِ ، وَغَفَلَ عَنْ مَآلِهِ .

وَفِي كُتُبِ الذِّكْرِ تَحْقِيقُ ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ : وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي الْمَعْنَى الَّذِي أَفَادَتْ هَذِهِ اللَّامُ [فَقِيلَ] لَامُ الْأَجَلِ ؛ كَقَوْلِك : هَذَا السَّرْجُ لِلدَّابَّةِ ، وَالْبَابُ لِلدَّارِ ؛ وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ وَأَبُو حَنِيفَةَ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّ هَذِهِ لَامُ التَّمْلِيكِ ؛ كَقَوْلِك : هَذَا الْمَالُ لِزَيْدٍ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا يُعْطَى جَمِيعُهَا لِلْعَامِلَيْنِ عَلَيْهَا .

وَاعْتَمَدَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ عَلَى أَنَّ اللَّهَ أَضَافَ الصَّدَقَةَ فَاللَّامُ التَّمْلِيكِ إلَى مُسْتَحِقٍّ حَتَّى يَصِحَّ مِنْهُ الْمِلْكُ عَلَى وَجْهِ التَّشْرِيكِ ؛ فَكَانَ ذَلِكَ بَيَانًا لِلْمُسْتَحِقِّينَ .

وَهَذَا كَمَا لَوْ أَوْصَى لِأَصْنَافٍ مُعَيَّنِينَ ، أَوْ لِقَوْمٍ مُعَيَّنِينَ .

وَتَعَلَّقَ عُلَمَاؤُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وَالصَّدَقَةُ مَتَى أُطْلِقَتْ فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ صَدَقَةُ الْفَرْضِ .

(536/340)

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي ذِكْرِ أَحَدِ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ قُرْآنًا وَسُنَّةً .

وَحَقَّقَ عُلَمَاؤُنَا الْمَعْنَى ، فَقَالُوا : إنَّ الْمُسْتَحِقَّ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُ أَحَالَ بِحَقِّهِ لِمَنْ ضَمِنَ لَهُمْ رِزْقَهُمْ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ ؛ فَكَانَ كَمَا لَوْ قَالَ زَيْدٌ لِعَمْرٍو : إنَّ لِي حَقًّا عَلَى خَالِدٍ يُمَاثِلُ حَقَّك يَا عَمْرُو أَوْ يُخَالِفُهُ ، فَخُذْهُ مِنْهُ مَكَانَ حَقِّك فَإِنَّهُ يَكُونُ بَيَانًا لِمَصْرِفِ حَقِّ الْمُسْتَحِقِّ لَا لِلْمُسْتَحِقِّ ، وَالصِّنْفُ الْوَاحِدُ فِي جِهَةِ الْمَصْرِفِ وَالْمَحَلِّيَّةِ كَالْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ .

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا يُبْطِلُ بِالْكَافِرِ فَإِنَّهُ مَضْمُونٌ لَهُ الرِّزْقُ بِذَلِكَ الْوَعْدِ الْحَقِّ ، ثُمَّ لَيْسَ بِمَصْرِفٍ لِلزَّكَاةِ .

قُلْنَا : كَذَلِكَ كُنَّا نَقُولُ : إنَّهُ تُصْرَفُ الزَّكَاةُ إلَى الذِّمِّيِّ ، إلَّا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَصَّصَ هَذَا الْعُمُومَ بِقَوْلِهِ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا عَلَى فُقَرَائِكُمْ ﴾ ؛ فَخَصَّصْنَاهُ بِمَا خَصَّصَهُ بِهِ صَاحِبُ الشَّرِيعَةِ ، الْمُبَيِّنُ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إلَيْهِمْ ؛ وَمَا فَهِمَ الْمَقْصُودَ أَحَدٌ فَهْمَ الطَّبَرِيِّ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ : الصَّدَقَةُ لِسَدِّ خُلَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلِسَدِّ خُلَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَفْهُومِ مَأْخَذِ الْقُرْآنِ فِي بَيَانِ الْأَصْنَافِ وَتَعْدِيدِهِمْ .

وَالَّذِي جَعَلْنَاهُ فَصْلًا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْأُمَّةَ اتَّفَقَتْ عَلَى أَنَّهُ لَوْ أُعْطِيَ كُلُّ صِنْفٍ حَظَّهُ لَمْ يَجِبْ تَعْمِيمُهُ ، فَكَذَلِكَ تَعْمِيمُ الْأَصْنَافِ مِثْلُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رَوَى زِيَادُ بْنُ الْحَارِثِ الصَّدَائِيُّ : أَتَيْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعْته ، فَأَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : أَعْطِنِي مِنْ الصَّدَقَةِ .

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ اللَّهَ لَمْ يَرْضَ بِحُكْمِ نَبِيٍّ وَلَا غَيْرِهِ فِي الصَّدَقَاتِ حَتَّى حَكَمَ هُوَ فِيهَا ، فَجَزَّأَهَا ثَمَانِيَةَ أَجْزَاءٍ ، فَإِنْ كُنْت مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْأَجْزَاءِ أَعْطَيْتُك حَقَّك ﴾ .

وَقَدْ قَالَ النَّخَعِيُّ : إنْ كَانَ الْمَالُ كَثِيرًا قَسَّمَهُ عَلَى الْأَصْنَافِ ، وَإِلَّا وَضَعَهُ فِي صِنْفٍ .

وَقَالَ أَبُو ثَوْرٍ : إنْ أَخْرَجَهُ صَاحِبُهُ جَازَ لَهُ أَنْ يَضَعَهُ فِي قِسْمٍ ، وَإِنْ قَسَّمَهُ الْإِمَامُ اسْتَوْعَبَ الْأَصْنَافَ ؛ وَذَلِكَ فِيمَا قَالُوا : إنَّهُ إنْ كَانَ كَثِيرًا فَلْيَعُمَّهُمْ ، وَإِنْ كَانَ قَلِيلًا كَانَ قَسْمُهُ ضَرَرًا عَلَيْهِمْ .

وَكَذَلِكَ إنْ قَسَّمَهُ صَاحِبُهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَى النَّظَرِ فِي جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، فَأَمَّا الْإِمَامُ فَحَقُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ الْخَلْقِ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَغَيْرِهِ ، فَيَبْحَثُ عَنْ النَّاسِ وَيُمْكِنُهُ تَحْصِيلُهُمْ ، وَالنَّظَرُ فِي أَمْرِهِمْ .

وَالَّذِي صَارَ إلَيْهِ مَالِكٌ مِنْ أَنَّهُ يَجْتَهِدُ الْإِمَامُ وَيَتَحَرَّى مَوْضِعَ الْحُجَّةِ هُوَ الْأَقْوَى .

وَتَحْصِيلُ الْمَسْأَلَةِ : أَنَّ

(538/340)

الْمُتَحَصِّلَ مِنْ أَصْنَافِ الْآيَةِ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ : وَهُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَالْعَامِلُونَ عَلَيْهَا ، وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ .

وَسَائِرُ الْأَصْنَافِ دَاخِلَةٌ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنْهَا .

فَأَمَّا الْعَامِلُونَ ، وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ فَيَأْتِي بَيَانُ حَالِهِمْ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

إذَا ثَبَتَ هَذَا فَإِنَّ بَيَانَ الْأَصْنَافِ مِنْ مُهِمَّاتِ الْأَحْكَامِ ، فَنَقُولُ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ :

أَمَّا الْفَقِيرُ : فَفِيهِ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْفَقِيرَ الْمُحْتَاجُ الْمُتَعَفِّفُ ، وَالْمِسْكِينَ : الْفَقِيرُ السَّائِلُ .

وَبِهِ قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ ابْنِ سَحْنُونٍ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالزُّهْرِيُّ ، وَاخْتَارَهُ ابْنُ شَعْبَانَ .

الثَّانِي : الْفَقِيرُ هُوَ الْمُحْتَاجُ الزَّمِنُ .

وَالْمِسْكِينُ هُوَ الْمُحْتَاجُ الصَّحِيحُ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّ الْفَقِيرَ الْمُحْتَاجُ ، وَالْمِسْكِينَ سَائِرُ النَّاسِ قَالَهُ إِبْرَاهِيمُ وَغَيْرُهُ .

الرَّابِعُ ، الْفَقِيرُ الْمُسْلِمُ ، وَالْمِسْكِينُ أَهْلُ الْكِتَابِ .

الْخَامِسُ : الْفَقِيرُ الَّذِي لَا شَيْءَ لَهُ ، وَالْمِسْكِينُ الَّذِي لَهُ شَيْءٌ ؛ قَالَهُ الشَّافِعِيُّ .

السَّادِسُ : عَكْسُهُ ؛ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ ، وَالْقَاضِي عَبْدُ الْوَهَّابِ .

السَّابِعُ : أَنَّهُ وَاحِدٌ ، ذَكَرَهُ لِلتَّأْكِيدِ .

الثَّامِنُ : الْفُقَرَاءُ الْمُهَاجِرُونَ ، وَالْمَسَاكِينُ الْأَعْرَابُ .

(539/340)

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ : وَهُمْ الَّذِينَ يَقْدَمُونَ لِتَحْصِيلِهَا ، وَيُوَكَّلُونَ عَلَى جَمْعِهَا ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى مَسْأَلَةٍ بَدِيعَةٍ ، وَهِيَ أَنَّ مَا كَانَ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ فَالْقَائِمُ بِهِ يَجُوزُ لَهُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَيْهِ .

وَمِنْ ذَلِكَ الْإِمَامَةُ ؛ فَإِنَّ الصَّلَاةَ ، وَإِنْ كَانَتْ مُتَوَجِّهَةً عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ فَإِنَّ تَقَدُّمَ بَعْضِهِمْ بِهِمْ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ ، فَلَا جَرَمَ يَجُوزُ أَخْذُ الْأُجْرَةِ عَلَيْهَا .

وَهَذَا أَصْلُ الْبَابِ ، وَإِلَيْهِ أَشَارَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ مَا تَرَكْت بَعْدَ نَفَقَةِ عِيَالِي وَمَئُونَةِ عَامِلِي فَهُوَ صَدَقَةٌ ﴾ .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : الْعَامِلُ فِي الصَّدَقَةِ يَسْتَحِقُّ مِنْهَا كِفَايَتَهُ بِالْمَعْرُوفِ بِسَبَبِ الْعَمَلِ ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَدَلًا عَنْ الْعَمَلِ ، حَتَّى لَمْ يَحِلَّ لِلْهَاشِمِيِّ ، وَالْأُجْرَةُ تَحِلُّ لَهُ .

قُلْنَا : بَلْ هِيَ أُجْرَةٌ صَحِيحَةٌ ؛ وَإِنَّمَا لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا الْهَاشِمِيُّ تَحَرِّيًا لِلْكَرَامَةِ وَتَبَاعُدًا عَنْ الذَّرِيعَةِ ، وَذَلِكَ مُبَيَّنٌ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّهَا أُجْرَةٌ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمْلَكَهَا لَهُ ، وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا ، وَلَيْسَ لَهُ وَصْفٌ يَأْخُذُ بِهِ مِنْهَا سِوَى الْخِدْمَةِ فِي جَمْعِهَا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْمِقْدَارِ الَّذِي يَأْخُذُهُ الْعَامِلُونَ مِنْ الصَّدَقَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قِيلَ : هُوَ الثُّمُنُ بِقِسْمَةِ اللَّهِ لَهَا عَلَى ثَمَانِيَةِ أَجْزَاءٍ ؛ قَالَ مُجَاهِدٌ وَالشَّافِعِيُّ .

(540/340)

وَهَذَا تَعْلِيقٌ بِالِاسْتِحْقَاقِ الَّذِي سَبَقَ الْخِلَافُ فِيهِ ، أَوْ بِالْمَحَلِّيَّةِ ، وَمَبْنِيٌّ عَلَيْهِ .

الثَّانِي : يُعْطَوْنَ قَدْرَ عَمَلِهِمْ مِنْ الْأُجْرَةِ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ وَمَالِكٌ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي الْأَصْلِ الَّذِي انْبَنَى عَلَيْهِ هَذَا ، وَالْكَلَامُ عَلَى تَحْقِيقِهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ يُعْطَوْنَ مِنْ غَيْرِ الزَّكَاةِ ، وَهُوَ مَا كَانَ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ .

وَهَذَا قَوْلٌ صَحِيحٌ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ مِنْ رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي أُوَيْسٍ ، وَدَاوُدَ بْنِ سَعِيدٍ ؛ وَهُوَ

ضَعِيفٌ دَلِيلًا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ بِسَهْمِهِمْ فِيهَا نَصًّا ، فَكَيْفَ يُخَلِّفُونَ عَنْهُ اسْتِقْرَاءً وَسَبْرًا .

وَالصَّحِيحُ الِاجْتِهَادُ فِي قَدْرِهِ ؛ لِأَنَّ الْبَيَانَ فِي تَعْدِيدِ الْأَصْنَافِ إنَّمَا كَانَ لِلْمَحَلِّ لَا لِلْمُسْتَحِقِّ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ : فِيهِ أَرْبَعَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : مَنْ قَالَ : إنَّهُمْ مُسْلِمُونَ يُعْطَوْنَ لِضَعْفِ يَقِينِهِمْ [حَتَّى يُقَوَّوْا] ، مَثَّلَهُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَالْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ ، وَالْعَبَّاسِ بْنِ مِرْدَاسٍ .

وَمَنْ قَالَ : إنَّهُمْ كُفَّارٌ مَثَّلَهُمْ بِعَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ .

وَمَنْ قَالَ : إنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ وَلَهُمْ إلَى الْإِسْلَامِ مَيْلٌ مَثَّلَهُمْ بِصَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ .

الثَّانِي : قَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ : أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ، وَمِنْ بَنِي مَخْزُومٍ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ يَرْبُوعٍ .

وَمِنْ بَنِي جُمَحٍ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ .

(541/340)

وَمِنْ بَنِي عَامِرِ بْنِ لُؤَيٍّ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى .

وَمِنْ بَنِي أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ .

وَمِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

وَمِنْ بَنِي فَزَارَةَ عُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ بَدْرٍ .

وَمِنْ بَنِي تَمِيمٍ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ .

وَمِنْ بَنِي نَصْرٍ مَالِكُ بْنُ عَوْفٍ .

وَمِنْ بَنِي سُلَيْمٍ الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ .

وَمِنْ ثَقِيفٍ الْعَلَاءُ بْنُ حَارِثَةَ .

الثَّالِثُ : رَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ قَالَ : كَانَ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ بَدْرٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَأَبُو سُفْيَانَ مِنْ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ .

وَكَانَ صَفْوَانُ يَوْمَ الْعَطِيَّةِ مُشْرِكًا .

وَقَالَ أَصْبَغُ عَنْ ابْنِ الْقَاسِمِ : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَرِجَالٌ مِنْ قُرَيْشٍ .

الرَّابِعُ : قَالَ الشَّيْخُ أَبُو إِسْحَاقَ : الْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ : أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَمُعَاوِيَةُ ابْنُهُ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ ؛ وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَحُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، وَالْمُعَلَّى بْنُ

حَارِثَةَ الثَّقَفِيُّ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، وَمَالِكُ بْنُ عَوْفٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَمَخْرَمَةُ بْنُ نَوْفَلٍ ، وَعُمَيْرُ بْنُ وَهْبِ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ ، وَهِشَامُ بْنُ عَمْرٍو ، وَسَعْدُ بْنُ يَرْبُوعٍ ، وَعَدِيُّ بْنُ قَيْسٍ السَّهْمِيُّ ، وَالْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ ، وَطُلَيْقُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَخَالِدُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي الْعَيْصِ ، وَشَيْبَةُ بْنُ عُثْمَانَ ، وَأَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ ، وَعِكْرِمَةُ بْنُ سُفْيَانَ بْنِ عَامِرٍ ، وَزُهَيْرُ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ ، وَخَالِدُ بْنُ هِشَامٍ ، وَهِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، وَسُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ ، وَالسَّائِبُ بْنُ أَبِي السَّائِبِ ، وَمُطِيعُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، وَأَبُو جَهْمِ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ غَانِمٍ ، وَأُحَيْحَةُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ الْجُمَحِيُّ ، وَعَدِيُّ بْنُ قَيْسٍ ، وَنَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عُرْوَةَ ، وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ ، وَلَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ بْنِ مَالِكٍ ، وَخَالِدُ بْنُ هَوْذَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَحَرْمَلَةُ بْنُ هَوْذَةَ بْنِ رَبِيعَةَ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسِ بْنِ عِقَالٍ ، وَقَيْسُ بْنُ مَخْرَمَةَ ، وَجُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمِ بْنِ عَدِيٍّ ، وَهِشَامُ بْنُ عَمْرِو بْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ حَبِيبٍ .

قَالَ الْقَاضِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَمَّا أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ فَلَا شَكَّ فِيهِ وَلَا فِي ابْنِهِ .

وَأَمَّا حَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ فَعَظِيمُ الْقَدْرِ فِي الْإِسْلَامِ .

قَالَ مَالِكٌ : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَى الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ فَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ .

(543/340)

قَالَ مَالِكٌ : وَبَلَغَنِي أَنْ حَكِيمَ بْنَ حِزَامٍ أَخْرَجَ مَا كَانَ أَعْطَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمُؤَلَّفَةِ ، فَتَصَدَّقَ بَعْدَ ذَلِكَ بِهِ .

وَأَمَّا الْحَارِثُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلْدَةَ فَهُوَ ابْنُ طَبِيبِ الْعَرَبِ وَكَانَ مِنْهُمْ .

وَلَا خَفَاءَ بِعُيَيْنَةَ وَلَا بِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ سَيِّدِ هَوَازِنَ .

وَأَمَّا سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو فَرَجُلٌ عَظِيمٌ ، إنْ كَانَ مُؤَلَّفًا بِالْعَطِيَّةِ فَلَمْ يَمُتْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَّا ، وَهُوَ مُؤَلَّفٌ عَلَى الْإِسْلَامِ بِالْيَقِينِ ؛ فَإِنَّهُ لَمَّا اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِرَسُولِهِ ، وَبَلَغَ الْخَبَرُ إلَى مَكَّةَ مَاجَ أَهْلُ مَكَّةَ ، فَقَامَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو خَطِيبًا ، فَقَالَ : وَاَللَّهِ إنِّي لَأَعْلَمُ أَنْ هَذَا الْأَمْرَ سَيَمْتَدُّ امْتِدَادَ الشَّمْسِ فِي طُلُوعِهَا إلَى غُرُوبِهَا ، فَلَا يَغُرَّنَّكُمْ هَذَا مِنْ أَنْفُسِكُمْ يَعْنِي أَبَا سُفْيَانَ .

وَرُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ حُبِسَ عَلَى بَابِ عُمَرَ ، فَأَذِنَ لِأَهْلِ بَدْرٍ وَصُهَيْبٌ وَنَوْعُهُ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو سُفْيَانَ ، وَمَشْيَخَةُ قُرَيْشٍ : يَأْذَنُ لِلْعَبِيدِ وَيَذَرُنَا ، فَقَالَ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : دُعِيتُمْ فَأَجَابُوا ، وَأَسْرَعُوا وَأَبْطَأْتُمْ ، أَمَا وَاَللَّهِ لَمَا سَبَقُوكُمْ بِهِ مِنْ الْفَضْلِ أَشَدُّ عَلَيْكُمْ مِنْ هَذَا الَّذِي تُنَافِسُونَ فِيهِ ؛ إلَى أَمْثَالِ هَذَا الْخَبَرِ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْبَصِيرَةِ فِي الدِّينِ وَالْبَصَرِ .

(544/340)

وَأَمَّا حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى فَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدِي أَمْرُهُ ، إِنَّمَا هُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ ، وَاسْتَقْرَضَ مِنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ ، وَصَحَّ دَيْنُهُ وَيَقِينُهُ .

وَأَمَّا مَخْرَمَةُ بْنُ نَوْفَلِ بْنِ أُمَيَّةَ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زَهْرَةَ بْنِ كِلَابٍ فَأُمُّهُ رَقِيقَةُ بِنْتُ أَبِي صَيْفِيِّ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَالِدِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ ، حَسُنَ إِسْلَامُهُ ، وَهُوَ الَّذِي نَصَبَ أَعْلَامَ الْحَرَمِ لِعُمَرَ مَعَ حُوَيْطِبِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ، ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَبَّأَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْقِثَّاءَ ، فَقَالَ : خَبَّأْتُ هَذَا لَكَ ، خَبَّأْتُ هَذَا لَكَ ﴾ .

وَأَمَّا عُمَيْرُ بْنُ وَهْبِ بْنِ خَلَفٍ أَبُو أُمَيَّةَ الْجُمَحِيُّ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ، مُسْلِمٌ حَنِيفِيٌّ ، أَمَا إِنَّهُ كَانَ مِنْ أَشَدِّهِمْ عَدَاوَةً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَ لِقَتْلِهِ بِمَا شَرَطَ لَهُ صَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ الْمَسْجِدَ دَعَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَفْوَانَ ، فَأَسْلَمَ ، وَحَدِيثُهُ طَوِيلٌ .

وَأَمَّا هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو فَلَا أَعْرِفُ .

وَأَمَّا الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ فَكَانَ فِي أَوَّلِ أَمْرِهِ كَأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ ؛ وَهِيَ شَنْشَنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمَ ، وَمَنْ يُشْبِهُ أَخَاهُ فَلَمْ يَظْلِمْ .

حَسُنَ إِسْلَامُهُ ، وَكَانَ بِالْمِسْكِ خِتَامُهُ .

(545/340)

وَأَمَّا سَعِيدُ بْنُ يَرْبُوعٍ فَهُوَ الْمُلَقَّبُ بِالصِّرْمِ ، مَخْزُومِيٌّ قَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَيُّنَا أَكْبَرُ ؟ قَالَ : أَنَا أَقْدَمُ مِنْك ، وَأَنْتَ أَكْبَرُ وَخَيْرٌ مِنِّي ﴾ ، وَلَمْ أَعْلَمْ تَأْلِيفَهُ .

وَأَمَّا عَدِيُّ بْنُ قَيْسٍ فَلَمْ أَعْرِفْهُ .

وَأَمَّا الْعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ فَكَبِيرُ قَوْمِهِ ، حَسُنَ إسْلَامُهُ ، وَخَبَرُهُ مَشْهُورٌ .

وَأَمَّا طُلَيْقُ بْنُ سُفْيَانَ ، وَابْنُهُ حَكِيمٌ ؛ فَهُوَ وَابْنُهُ مَذْكُورَانِ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ .

وَأَمَّا خَالِدُ بْنُ أُسَيْدِ بْنِ أَبِي الْعِيصِ بْنِ أُمَيَّةَ فَلَا أَعْرِفُ قِصَّتَهُ .

﴿ وَأَمَّا شَيْبَةُ بْنُ عُثْمَانَ فَكَانَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ ، ثُمَّ أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا دَنَا مِنْهُمْ عَرَفَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَعَاهُ ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهُ أَخَذَهُ أَفْكَلُ ، فَمَسَحَ صَدْرَهُ فَأَسْلَمَ وَحَسُنَ إسْلَامُهُ ﴾ .

وَأَمَّا أَبُو السَّنَابِلِ بْنُ بَعْكَكٍ الْعَبْدَرِيُّ فَهُوَ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ ، وَاسْمُهُ حَبَّةُ ؛ لَا أَعْرِفُهُ .

وَأَمَّا عِكْرِمَةُ بْنُ عَامِرٍ فَلَا أَعْرِفُهُ ، أَمَا إنَّهُ مِنْ بَنِي عَبْدِ الدَّارِ ، وَلَسْت أُحَصِّلُ .

وَأَمَّا زُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ ، وَخَالِدُ بْنُ هِشَامٍ فَلَا أَعْرِفُهُمَا .

وَأَمَّا هِشَامُ بْنُ الْوَلِيدِ فَهُوَ أَخُو خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ .

وَأَمَّا سُفْيَانُ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ فَلَا أَعْرِفُهُ .

وَأَمَّا أَبُو السَّائِبِ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا مُطِيعُ بْنُ الْأَسْوَدِ فَلَسْت أَعْلَمُ .

(546/340)

وَأَمَّا أَبُو جَهْمِ بْنُ حُذَيْفَةَ بْنِ غَانِمٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ ، وَاسْمُهُ عَامِرٌ ، فَلَا أَعْرِفُهُ مِنْهُمْ ، عَلَى أَنَّ النَّبِيَّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِيهِ فِي الصَّحِيحِ : ﴿ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ فَلَا يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ ﴾ رَوَاهُ النَّسَائِيّ .

وَقَالَ فِيهِ : ﴿ وَأَمَّا أَبُو جَهْمٍ بِشَرٍّ لَا خَيْرَ فِيهِ ﴾ وَرَبُّك أَعْلَمُ .

وَأَمَّا أُحَيْحَةُ فَهُوَ أَخُو صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ لَا أَعْرِفُ .

وَأَمَّا نَوْفَلُ بْنُ مُعَاوِيَةَ الدِّيلِيُّ فَلَا أَعْرِفُهُ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا عَلْقَمَةُ بْنُ عُلَاثَةَ الْعَامِرِيُّ الْكِلَابِيُّ فَهُوَ مِنْهُمْ وَأُسَيْدُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَحَسُنَ الْإِسْلَامُ عِنْدَهُمَا .

وَأَمَّا خَالِدُ بْنُ هَوْذَةَ فَهُوَ وَالِدُ الْعَدَّاءِ بْنِ خَالِدٍ مُبَايِعُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَبْدِ أَوْ الْأَمَةِ ، مِنْ بَنِي أُنْفِ النَّاقَةِ ، غَيْرُ مَمْدُوحٍ .

وَالْحُطَيْئَةُ لَا أَعْرِفُ ، وَكَذَلِكَ أَخُوهُ حَرْمَلَةُ .

وَأَمَّا الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ فَمَشْهُورٌ فِيهِمْ .

وَأَمَّا قَيْسُ بْنُ مَخْرَمَةَ بْنُ الْمُطَّلِبِ الْقُرَشِيُّ الْمُطَّلِبِيُّ فَلَا أَعْلَمُهُ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا جُبَيْرُ بْنُ مُطْعِمٍ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو فَلَا أَعْرِفُهُ .

وَقَدْ عُدَّ فِيهِمْ زَيْدُ الْخَيْرِ الطَّائِيُّ ، وَهُمْ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ .

اسْتِدْرَاكٌ : وَأَمَّا مُعَاوِيَةُ فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ ؛ كَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ ، وَقَدْ ائْتَمَنَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ وَقِرَاءَتِهِ وَخَلْطِهِ بِنَفْسِهِ ، وَأَمَّا حَالُهُ فِي أَيَّامِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ فَأَشْهُرُ مِنْ هَذَا وَأَظْهَرُ .

(547/340)

وَقَدْ قَدَّمْنَا أَنَّ أَصْنَافَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ ؛ فَمِنْهُمْ ضَعِيفُ الْإِيمَانِ قَوِيُّ بِالْأَدِلَّةِ وَالْعَطَاءِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَمِيعُهُمْ كَافِرًا ؛ فَحَصِّلُوا هَذَا فَإِنَّهُ مُهِمٌّ فِي الْقِصَّةِ .

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : اخْتُلِفَ فِي بَقَاءِ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هُمْ زَائِلُونَ ؛ قَالَهُ جَمَاعَةٌ ، وَأَخَذَ بِهِ مَالِكٌ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : هُمْ بَاقُونَ ؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ رُبَّمَا احْتَاجَ أَنْ يَسْتَأْنِفَ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ قَطَعَهُمْ عُمَرُ لِمَا رَأَى مِنْ إعْزَازِ الدِّينِ .

وَالَّذِي عِنْدِي : أَنَّهُ إنْ قَوِيَ الْإِسْلَامُ زَالُوا ، وَإِنْ احْتِيجَ إلَيْهِمْ أُعْطُوا سَهْمَهُمْ ، كَمَا كَانَ يُعْطِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَإِنَّ الصَّحِيحَ قَدْ رُوِيَ فِيهِ : ﴿ بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ : إذَا قُلْنَا بِزَوَالِهِمْ فَإِنَّ سَهْمَهُمْ سَيَعُودُ إلَى سَائِرِ الْأَصْنَافِ كُلِّهَا ، أَوْ مَا يَرَاهُ الْإِمَامُ ، حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي أَصْلِ الْخِلَافِ وَقَالَ الزُّهْرِيُّ : يُعْطَى نِصْفُ سَهْمِهِمْ لِعُمَّارِ الْمَسَاجِدِ ، وَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ .

وَهَذَا مِمَّا يَدُلُّك عَلَى أَنَّ الْأَصْنَافَ الثَّمَانِيَةَ مَحَلٌّ لَا مُسْتَحَقُّونَ ؛ إذْ لَوْ كَانُوا مُسْتَحَقِّينَ لَسَقَطَ سَهْمُهُمْ بِسُقُوطِهِ عَنْ أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ ، وَلَمْ يَرْجِعْ إلَى غَيْرِهِمْ ، كَمَا لَوْ أَوْصَى لِقَوْمٍ مُعَيَّنِينَ فَمَاتَ أَحَدُهُمْ لَمْ يَرْجِعْ نَصِيبُهُ إلَى مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ .

(548/340)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ : وَفِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ الْمُكَاتَبُونَ ؛ قَالَهُ عَلِيٌّ ، وَالشَّافِعِيُّ ، وَأَبُو حَنِيفَةَ ، وَجَمَاعَةٌ .

الثَّانِي : أَنَّهُ الْعِتْقُ ، وَذَلِكَ بِأَنْ يَبْتَاعَ الْإِمَامُ رَقِيقًا فَيُعْتِقَهُمْ ، وَيَكُونُ وَلَاؤُهُمْ لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ .

وَعَنْ مَالِكٍ أَرْبَعُ رِوَايَاتٍ : إحْدَاهَا : أَنَّهُ لَا يَتَعَيَّنُ مُكَاتَبًا ، وَلَا فِي آخِرِ نَجْمٍ مِنْ نُجُومِهِ ، وَلَوْ خَرَجَ بِهِ حُرًّا .

وَقَدْ قَالَ مَرَّةً : فَلِمَنْ يَكُونُ الْوَلَاءُ ؟ وَقَالَ آخِرًا : مَا يُعْجِبُنِي ذَلِكَ ، وَمَا بَلَغَنِي أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَلَا عُمَرَ وَلَا عُثْمَانَ فَعَلُوا ذَلِكَ .

الثَّانِيَةُ : رَوَى عَنْهُ مُطَرِّفٌ أَنَّهُ يُعْطَى الْمُكَاتَبُونَ .

الثَّالِثَةُ : قَالَ : يَشْتَرِي مِنْ زَكَاتِهِ رَقَبَةً فَيُعْتِقُهَا ، يَكُونُ وَلَاؤُهَا لِجَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ .

الرَّابِعَةُ : قَالَ مَالِكٌ : لَا آمُرُ أَحَدًا أَنْ يَشْتَرِيَ رَقَبَةً مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ فَيُعْتِقُهَا .

وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ .

وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ شِرَاءُ الرِّقَابِ وَعِتْقُهَا ، كَذَلِكَ هُوَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ حَيْثُ ذَكَرَ الرَّقَبَةَ فِي كِتَابِهِ إنَّمَا هُوَ الْعِتْقُ ، وَلَوْ أَرَادَ الْمُكَاتَبِينَ لَذَكَرَهُمْ بِاسْمِهِمْ الْأَخَصِّ ، فَلَمَّا عَدَلَ إلَى الرَّقَبَةِ دَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ الْعِتْقَ .

وَتَحْقِيقُهُ أَنَّ الْمُكَاتَبَ قَدْ دَخَلَ فِي جُمْلَةِ الْغَارِمِينَ بِمَا عَلَيْهِ مِنْ دَيْنِ الْكِتَابَةِ ، فَلَا يَدْخُلُ فِي الرِّقَابِ ، وَرُبَّمَا دَخَلَ فِي الْمُكَاتَبِ بِالْعُمُومِ ، وَلَكِنْ فِي آخِرِ نَجْمٍ يُعْتَقُ بِهِ ، وَيَكُونُ وَلَاؤُهُ لِسَيِّدِهِ ، وَلَا حَرَجَ عَلَى مُعْطِي الصَّدَقَةِ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ تَخْلِيصَهُ مِنْ الرِّقِّ ، وَفَكَّهِ مِنْ حَبْسِ الْمِلْكِ هُوَ الْمَقْصُودُ ، وَلَا يَتَأَتَّى عَنْ الْوَلَاءِ ؛ فَإِنَّ الْغَرَضَ تَخْلِيصُ الْمُكَاتَبِ مِنْ الرِّقِّ ، وَفَكُّهُ مِنْ حَبْسِ الْمِلْكِ هُوَ الْمَقْصُودُ ، وَكَذَلِكَ قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ : لَوْ اشْتَرَى الْإِمَامُ مِنْ رَجُلٍ أَبَاهُ وَأَخَذَ الْمَالَ لِيُعْتِقَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيهِ عَلَى قَوْلَيْنِ .

وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ [فِيهِ] قَوْلُ مَالِكٍ ؛ فَمَنَعَهُ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ ، وَأَجَازَهُ فِي الْمُخْتَصَرِ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْطَى الثَّمَنَ ﴾ ، وَلِأَنَّهُ إذَا أَعْتَقَهُ عَنْ نَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ لِلثَّمَنِ مُقَابِلٌ يُوَازِيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ : وَكَذَلِكَ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي فَكِّ الْأُسَارَى مِنْهَا ؛ فَقَدْ قَالَ أَصْبَغُ : لَا يَجُوزُ ذَلِكَ .

وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ : يَجُوزُ ذَلِكَ .

وَإِذَا كَانَ فَكُّ الْمُسْلِمِ عَنْ رِقِّ الْمُسْلِمِ عِبَادَةً وَجَائِزًا مِنْ الصَّدَقَةِ فَأَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي فَكِّ الْمُسْلِمِ عَنْ رِقِّ الْكَافِرِ وَذُلِّهِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةَ عَشْرَةَ : إذَا قُلْنَا : إنَّهُ يُعَانُ مِنْهَا الْمُكَاتَبُ ، فَهَلْ نُعْتِقُ مِنْهَا بَعْضَ رَقَبَةٍ يَنْبَنِي عَلَيْهَا ؟ فَإِذَا كَانَ نِصْفَ عَبْدٍ أَوْ عَشَرَةً يَكُونُ فِيهِ فَكُّهُ عَنْ الرِّقِّ بِمَا قَدْ سَبَقَ مِنْ عِتْقِهِ فَإِنَّهُ يَجُوزُ ؛ ذَكَرَهُ مُطَرِّفٌ ، وَكَذَلِكَ أَقُولُ .

وَاَللَّهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةَ عَشْرَةَ : وَيَكُونُ الْوَلَاءُ بَيْنَ الْمُعْتَقَيْنِ كَالشَّرِيكَيْنِ .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْمَسَائِلِ ، فَإِنَّ فِيهِ تَفْرِيعًا كَثِيرًا .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالْغَارِمِينَ ﴾ : وَهُمْ الَّذِينَ رَكِبَهُمْ الدَّيْنُ ، وَلَا وَفَاءَ عِنْدَهُمْ [بِهِ] ، وَلَا خِلَافَ فِيهِ .

اللَّهُمَّ إلَّا مَنْ ادَّانَ فِي سَفَاهَةٍ ، فَإِنَّهُ لَا يُعْطَى مِنْهَا ، نَعَمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهَا إلَّا أَنْ يَتُوبَ ، فَإِنَّهُ إنْ أَخَذَهَا قَبْلَ التَّوْبَةِ عَادَ إلَى سَفَاهَةٍ مِثْلِهَا أَوْ أَكْبَرَ مِنْهَا ، وَالدُّيُونُ وَأَصْنَافُهَا كَثِيرَةٌ .

وَتَفْصِيلُهُ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ : فَإِنْ كَانَ مَيِّتًا قُضِيَ مِنْهَا دَيْنُهُ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ الْغَارِمِينَ .

وَقَالَ ابْنُ الْمَوَّازِ : لَا يُقْضَى .

وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ : ﴿ مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إلَّا أَنَا أَوْلَى بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَءُوا إنْ شِئْتُمْ : ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ؛ فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ مَاتَ وَتَرَكَ مَالًا فَلْيَرِثْهُ عُصْبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ ﴾ .

(551/340)

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : قَالَ مَالِكٌ : سُبُلُ اللَّهِ كَثِيرَةٌ ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ خِلَافًا فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِسَبِيلِ اللَّهِ هَاهُنَا الْغَزْوُ مِنْ جُمْلَةِ سَبِيلِ اللَّهِ ، إلَّا مَا يُؤْثَرُ عَنْ أَحْمَدَ وَإِسْحَاقَ فَإِنَّهُمَا قَالَا : إنَّهُ الْحَجُّ .

وَالَّذِي يَصِحُّ عِنْدِي مِنْ قَوْلِهِمَا أَنَّ الْحَجَّ مِنْ جُمْلَةِ السُّبُلِ مَعَ الْغَزْوِ ؛ لِأَنَّهُ طَرِيقُ بِرٍّ ، فَأُعْطِيَ مِنْهُ بِاسْمِ السَّبِيلِ ، وَهَذَا يُحِلُّ عَقْدَ الْبَابِ ، وَيَخْرِمُ قَانُونَ الشَّرِيعَةِ ، وَيَنْثُرُ سِلْكَ النَّظَرِ ، وَمَا جَاءَ قَطُّ بِإِعْطَاءِ الزَّكَاةِ فِي الْحَجِّ أَثَرٌ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : وَيُعْطَى مِنْهَا الْفَقِيرُ بِغَيْرِ خِلَافٍ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ سُمِّيَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ ، وَيُعْطَى الْغَنِيُّ عِنْدَ مَالِكٍ بِوَصْفِ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَوْ كَانَ غَنِيًّا فِي بَلَدِهِ أَوْ فِي مَوْضِعِهِ الَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ، لَا يُلْتَفَتُ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِ الَّذِي يُؤْثَرُ عَنْهُ .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ إلَّا لِخَمْسَةٍ : غَازٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ

﴾ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يُعْطَى الْغَازِي [فِي سَبِيلِ اللَّهِ] إلَّا إذَا كَانَ فَقِيرًا ، وَهَذِهِ زِيَادَةٌ عَلَى النَّصِّ ، وَعِنْدَهُ أَنَّ الزِّيَادَةَ عَلَى النَّصِّ نَسْخٌ ، وَلَا نَسْخَ فِي الْقُرْآنِ إلَّا بِقُرْآنٍ مِثْلِهِ أَوْ بِخَبَرٍ مُتَوَاتِرٍ .

(552/340)

وَقَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ فَعَلَ مِثْلَ هَذَا فِي الْخَمْسِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلِذِي الْقُرْبَى ﴾ ؛ فَشَرَطَ فِي قَرَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَقْرَ ؛ وَحِينَئِذٍ يُعْطَوْنَ مِنْ الْخُمُسِ .

وَهَذَا كُلُّهُ ضَعِيفٌ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ .

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ : يُعْطَى مِنْ الصَّدَقَةِ فِي الْكُرَاعِ وَالسِّلَاحِ ، وَمَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْ آلَاتِ الْحَرْبِ ، وَكَفِّ الْعَدُوِّ عَنْ الْحَوْزَةِ ؛ لِأَنَّهُ كُلَّهُ مِنْ سَبِيلِ الْغَزْوِ وَمَنْفَعَتِهِ .

﴿ وَقَدْ أَعْطَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الصَّدَقَةِ مِائَةَ نَاقَةٍ فِي نَازِلَةِ سَهْلِ بْنِ أَبِي حَثْمَةَ إطْفَاءً لِلثَّائِرَةِ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الْمُوفِيَةُ عِشْرِينَ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ : يُرِيدُ الَّذِي انْقَطَعَتْ بِهِ الْأَسْبَابُ فِي سَفَرِهِ ، وَغَابَ عَنْ بَلَدِهِ وَمُسْتَقَرِّ مَالِهِ وَحَالِهِ فَإِنَّهُ يُعْطَى مِنْهَا .

قَالَ مَالِكٌ فِي كِتَابِ ابْنِ سَحْنُونٍ : إذَا وَجَدَ مَنْ يُسَلِّفُهُ فَلَا يُعْطَى .

وَلَيْسَ يَلْزَمُهُ أَنْ يُدْخِلَ تَحْتَ مِنَّةِ أَحَدٍ ، وَقَدْ وَجَدَ مِنَّةَ اللَّهِ وَنِعْمَتَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : إذَا جَاءَ الرَّجُلُ وَقَالَ : أَنَا فَقِيرٌ ، أَوْ مِسْكِينٌ ، أَوْ غَارِمٌ ، أَوْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَوْ ابْنُ السَّبِيلِ ، هَلْ يُقْبَلُ قَوْلُهُ ، أَمْ يُقَالُ لَهُ : أَثْبِتْ مَا تَقُولُ ؟ فَأَمَّا الدَّيْنُ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَثْبُتَ .

وَأَمَّا سَائِرُ الصِّفَاتِ فَظَاهِرُ الْحَالِ يَشْهَدُ لَهَا وَيُكْتَفَى بِهِ فِيهَا .

(553/340)

ثَبَتَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ إلَيْهِ قَوْمٌ ذَوُو حَاجَةٍ مُجْتَابِي النِّمَارِ ، فَحَثَّ عَلَى الصَّدَقَةِ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وَفِي حَدِيثٍ : أَبْرَصُ وَأَقْرَعُ وَأَعْمَى قَالَ مُخْبِرًا عَنْهُمْ : ﴿ إنَّا عَلَى مَا تَرَى ﴾ .

فَاكْتَفَى بِظَاهِرِ الْحَالِ .

وَكَذَلِكَ ابْنُ السَّبِيلِ يُكْتَفَى بِغُرْبَتِهِ ، وَظَاهِرِ حَالَتِهِ ، وَكَوْنُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَعْلُومٌ بِفِعْلِهِ لِذَلِكَ وَرُكُونِهِ فِيهِ .

وَإِنْ قَالَ : أَنَا مُكَاتَبٌ أَثْبَتَ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الْأَصْلَ الرِّقُّ حَتَّى يُثْبِتَ الْحُرِّيَّةَ أَوْ سَبَبَهَا .

وَإِنْ ادَّعَى زِيَادَةً عَلَى الْفَقْرِ عِيَالًا ، فَقَالَ الْقَرَوِيُّونَ : يَكْشِفُ عَنْ ذَلِكَ إِنْ قَدَرَ ، وَهَذَا لَا يَلْزَمُ ؛ لِأَنَّ حَدِيثَ أَبْرَصَ وَأَعْمَى وَأَقْرَعَ ذَكَرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ وَأَنَا ابْنُ سَبِيلٍ أَسْأَلُك بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي ، وَلَمْ يُكَلِّفْهُ إثْبَاتَ السَّفَرِ ، وَهُوَ غَائِبٌ عَنْهُ ؛ فَصَارَ هَذَا أَصْلًا فِي دَعْوَى كُلِّ شَيْءٍ غَائِبٍ مِنْ هَذَا الْبَابِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ وَالْعِشْرُونَ : إذَا قُلْنَا : إنَّ الْأَصْنَافَ الثَّمَانِيَةَ مُسْتَحِقُّونَ ، فَيَأْخُذُ كُلُّ أَحَدٍ حَقَّهُ وَهُوَ الثُّمُنُ ، وَلَا مَسْأَلَةَ مَعَنَا .

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّ الْإِمَامَ يَجْتَهِدُ ، وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ فَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ بِأَيِّ صِنْفٍ يَبْدَأُ .

فَأَمَّا الْعَامِلُونَ فَإِنْ قُلْنَا : إنَّ أُجْرَتَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، فَلَا كَلَامَ .

(554/340)

وَإِنْ قُلْنَا : إنَّ أُجْرَتَهُمْ مِنْ الزَّكَاةِ فَبِهِمْ نَبْدَأُ ، فَنُعْطِيهِمْ الثُّمُنَ عَلَى قَوْلٍ ، وَقَدْرَ أُجْرَتِهِمْ عَلَى الصَّحِيحِ فِي الشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْخَبَرَ بِأَنْ يُعْطَى كُلُّ أَجِيرٍ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ مَأْثُورُ اللَّفْظِ صَحِيحُ الْمَعْنَى .

فَإِنْ أَخَذَ الْعَامِلُ حَقَّهُ فَلَا يَبْقَى صِنْفٌ يُتَرَجَّحُ فِيهِ إلَّا صِنْفَيْنِ ؛ هُمَا سَبِيلُ اللَّهِ وَالْفُقَرَاءُ ، أَوْ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ إنْ قُلْنَا : إنَّ الْفُقَرَاءَ وَالْمَسَاكِينَ صِنْفَانِ ، فَأَمَّا سَبِيلُ اللَّهِ إذَا اجْتَمَعَ مَعَ الْفَقْرِ

فَإِنَّ الْفَقْرَ مُقَدَّمٌ عَلَيْهِ إِلَّا أَنْ يَنْزِلَ بِالْمُسْلِمِينَ حَاجَةٌ إِلَى مَالِ الصَّدَقَةِ فِيمَا لَا بُدَّ مِنْهُ مِنْ دَفْعِ مَضَرَّةٍ ، كَمَا تَقَدَّمَ ، فَإِنَّهُ يُقَدَّمُ عَلَى كُلِّ نَازِلَةٍ .

وَأَمَّا الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ فَالصَّحِيحُ أَنَّهُمْ صِنْفَانِ ، وَلَا نُبَالِي بِمَا قَالَ النَّاسُ فِيهِمَا ، وَهَا أَنَا ذَا أُرِيحُكُمْ مِنْهُ بِعَوْنِ اللَّهِ ؛ فَإِنْ قَالَ الْقَائِلُ بِأَنَّ الْفَقِيرَ مَنْ لَهُ شَيْءٌ وَالْمِسْكِينُ مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ ، أَوْ بِعَكْسِهِ ، فَإِنَّ مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ هُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَى مَنْ لَهُ شَيْءٌ ، فَهَذَا الْمَعْنَى سَاقِطٌ لَا فَائِدَةَ فِيهِ .

وَأَمَّا إِنْ قُلْنَا : إِنَّ الْفَقِيرَ هُوَ الَّذِي لَا يَسْأَلُ ، وَالْمِسْكِينُ هُوَ الَّذِي يَسْأَلُ فَالَّذِي لَا يَسْأَلُ أَوْلَى ؛ لِأَنَّ السَّائِلَ أَقْرَبُ إِلَى التَّفَطُّنِ وَالْغِنَى ، وَالْعِلْمُ بِهِ مِمَّنْ لَا يَسْأَلُ ، وَلَا يَفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقُ عَلَيْهِ .

وَلَا خِلَافَ أَنَّ الزَّمِنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الصَّحِيحِ ، وَأَنَّ الْمُحْتَاجَ مُقَدَّمٌ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ ، وَأَنَّ

(555/340)

الْمُسْلِمَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْكِتَابِيِّ .

وَقَدْ سَقَطَ اعْتِبَارُ الْهِجْرَةِ وَالتَّقَرُّبِ بِذَهَابِ زَمَانِهِمَا ، فَلَا مَعْنَى لِلِاحْتِجَاجِ عَلَى ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مَنَّ بِالْمَعْرِفَةِ وَكَفَانَا الْمَئُونَةَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ وَالْعِشْرُونَ : هَذِهِ الْأَوْصَافُ الَّتِي ذَكَرْنَا شَأْنُهَا فِي الْأَصْنَافِ الَّتِي قَدَّمْنَا

بَيانَهَا إنَّمَا تُعْتَبَرُ عِنْدَ عُلَمَائِنَا فِيمَنْ لَا قَرَابَةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُتَصَدِّقِ ، فَإِنْ وَقَعَتْ الْقَرَابَةُ فَفِي ذَلِكَ تَفْصِيلٌ عَرِيضٌ طَوِيلٌ .

فَأَمَّا صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ فَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْنَبَ امْرَأَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ : زَوْجُكِ وَوَلَدُكِ أَحَقُّ مَنْ تَصَدَّقْتِ عَلَيْهِمْ بِهِ ﴾ .

يَعْنِي بِحُلِيِّهَا الَّذِي أَرَادَتْ أَنْ تَتَصَدَّقَ بِهِ .

وَفِي حَدِيثِ بِئْرِ حَاءٍ : ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي طَلْحَةَ : أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ ﴾ ، فَجَعَلَهَا أَبُو طَلْحَةَ فِي أَقَارِبِهِ ، وَبَنِي عَمِّهِ .

وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ ثَابِتٌ فِي كُلِّ أُمٍّ وَبِنْتٍ مِنْ الْحَدِيثِ .

وَأَمَّا صَدَقَةُ الْفَرْضِ فَإِنْ أَعْطَى الْإِمَامُ صَدَقَةَ الرَّجُلِ لِوَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَزَوْجِهِ الَّذِينَ تَلْزَمُهُ نَفَقَةُ جَمِيعِهِمْ فَإِنَّهُ يُجْزِئُهُ .

وَأَمَّا إنْ تَنَاوَلَ هُوَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُعْطِيَهَا بِحَالٍ لِمَنْ تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ يُسْقِطُ [فِي ذَلِكَ] بِهَا عَنْ نَفْسِهِ فَرْضًا .

وَأَمَّا إنْ أَعْطَاهَا لِمَنْ لَا تَلْزَمُهُ نَفَقَتُهُمْ فَقَدْ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي ذَلِكَ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ جَوَّزَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَرِهَهُ .

(556/340)

قَالَ مَالِكٌ : خَوْفَ الْمَحْمَدَةِ .

وَقَالَ مُطَرِّفٌ : رَأَيْت مَالِكًا يَدْفَعُ زَكَاتَهُ لِأَقَارِبِهِ .

وَقَالَ الْوَاقِدِيُّ وَهُوَ إمَامٌ عَظِيمٌ : قَالَ مَالِكٌ : أَفْضَلُ مَنْ وَضَعْت فِيهِ زَكَاتَك قَرَابَتُك الَّذِينَ لَا تَعُولُ .

وَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَوْجَةِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ : لَك أَجْرَانِ : أَجْرُ الْقَرَابَةِ ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ ﴾ .

وَاخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي إعْطَاءِ الزَّكَاةِ لِلزَّوْجَيْنِ ، فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو الْحَسَنِ : إنَّ ذَلِكَ مِنْ مَنْعِ مَالِكٍ مَحْمُولٌ عَلَى الْكَرَاهِيَةِ .

وَذُكِرَ عَنْ ابْنِ حَبِيبٍ إنْ كَانَ يَسْتَعِينُ فِي النَّفَقَةِ عَلَيْهَا بِمَا يُعْطِيهِ فَلَا يَجُوزُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ مَا يُنْفِقُ عَلَيْهَا وَيَصْرِفُ مَا يَأْخُذُ مِنْهَا مِنْ نَفَقَتِهِ وَكِسْوَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ فَذَلِكَ جَائِزٌ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَجُوزُ بِحَالٍ .

وَالصَّحِيحُ جَوَازُهُ لِحَدِيثِ زَيْنَبَ امْرَأَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ .

فَإِنْ قِيلَ : ذَلِكَ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ .

قُلْنَا : صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ وَالْفَرْضِ هَاهُنَا وَاحِدٌ ؛ لِأَنَّ الْمَنْعَ مِنْهُ إنَّمَا هُوَ لِأَجْلِ عَوْدِهِ عَلَيْهِ ، وَهَذِهِ الْعِلَّةُ لَوْ كَانَتْ مُرَاعَاةً لَاسْتَوَى فِيهِ التَّطَوُّعُ وَالْفَرْضُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : إذَا كَانَ الْفَقِيرُ قَوِيًّا ، فَقَالَ مَالِكٌ فِي مُخْتَصَرِ مَا لَيْسَ فِي الْمُخْتَصَرِ : يُعْطَى ، يَعْنِي لِتَحْقِيقِ صِفَةِ الِاسْتِحْقَاقِ فِيهِ .

(557/340)

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ عُمَرَ : لَا يُجْزِيهِ ، وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيٍّ ﴾ .

خَرَّجَهُ التِّرْمِذِيُّ مَعَ غَيْرِهِ ، وَزَادَ فِيهِ : ﴿ إلَّا لِذِي فَقْرٍ مُدْقِعٍ أَوْ غُرْمٍ مُفْظِعٍ ﴾ .

وَقَالَ : هَذَا غَرِيبٌ ، وَالْحَدِيثُ الْمُطْلَقُ دُونَ زِيَادَةٍ لَا يُرْكَنُ إلَيْهِ ، وَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَوَّلَ عَلَى هَذَا ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُعْطِيهَا لِلْفُقَرَاءِ الْأَصِحَّاءِ ، وَوُقُوفُهَا عَلَى الزَّمْنَى بَاطِلٌ ، وَهَذَا أَوْلَى مِنْ ذَلِكَ بِالِاتِّبَاعِ ، وَأَقْوَى مِنْهُ فِي الِارْتِبَاطِ وَالِانْتِزَاعِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : مَنْ كَانَ لَهُ نِصَابٌ مِنْ الزَّكَاةِ ، هَلْ يَجُوزُ لَهُ أَخْذُهَا أَمْ لَا ؟

فَقَالَ عُلَمَاؤُنَا تَارَةً : مَنْ مَلَكَ نِصَابًا فَلَا يَأْخُذُ مِنْهَا شَيْئًا ؛ لِأَنَّهُ غَنِيٌّ تُؤْخَذُ مِنْهُ فَلَا تُدْفَعُ إلَيْهِ .

وَفِي الْقَوْلِ الثَّانِي : يَأْخُذُ مِنْهَا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ مَنْ سَأَلَ وَعِنْدَهُ أُوقِيَّةٌ أَوْ عَدْلُهَا فَقَدْ سَأَلَ إلْحَافًا ﴾ .

وَالصَّحِيحُ مَا قَالَهُ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : إنَّ مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ كِفَايَةٌ تُغْنِيهِ فَهُوَ الْغَنِيُّ ، وَإِنْ كَانَ

أَقَلَّ مِنْ نِصَابٍ ، وَمَنْ زَادَ عَلَى النِّصَابِ ، وَلَمْ تَكُنْ فِيهِ كِفَايَةٌ لِمُؤْنَتِهِ وَلَا سَدَادٌ لِخُلَّتِهِ فَلَيْسَ بِغَنِيٍّ فَيَأْخُذُ مِنْهَا .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ وَالْعِشْرُونَ : اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ ، هَلْ يُعْطَى مِنْ الزَّكَاةِ نِصَابًا أَمْ لَا ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ .

(558/340)

وَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ : إنْ كَانَ فِي الْبَلَدِ زَكَاتَانِ : نَقْدٌ ، وَحَرْثٌ ، أَخَذَ مَا يُبَلِّغُهُ إلَى الْأُخْرَى .

وَالَّذِي أَرَاهُ أَنْ يُعْطَى نِصَابًا ، وَإِنْ كَانَ فِي الْبَلَدِ زَكَاتَانِ وَأَكْثَرُ ، فَإِنَّ الْغَرَضَ إغْنَاءُ الْفَقِيرِ ، حَتَّى يَصِيرَ غَنِيًّا ، فَإِذَا أَخَذَ تِلْكَ فَإِنْ حَضَرَتْ زَكَاةٌ أُخْرَى وَعِنْدَهُ مَا يَكْفِيهِ أَخَذَهَا غَيْرُهُ ، وَإِلَّا عَادَ عَلَيْهِ الْعَطَاءُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ وَالْعِشْرُونَ : لَا تُصْرَفُ الصَّدَقَةُ إلَى آلِ مُحَمَّدٍ ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِآلِ مُحَمَّدٍ ، إنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ ﴾ .

وَالْمَسْأَلَةُ مُشْكِلَةٌ جِدًّا ، وَقَدْ أَفَضْنَا فِيهَا فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ نُفِيضَ فِيهِ .

وَبِالْجُمْلَةِ إنَّ الصَّدَقَةَ مُحَرَّمَةٌ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِجْمَاعِ أُمَّتِهِ ، وَهِيَ

مُحَرَّمَةٌ عَلَى بَنِي هَاشِمٍ فِي قَوْلِ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ وَاحِدٌ ؛ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِنَّ بَنِي هَاشِمٍ وَبَنِي الْمُطَّلِبِ لَمْ يَفْتَرِقُوا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا فِي إِسْلَامٍ ﴾ .

قَالُوا : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَاهُمْ الْخُمُسَ عِوَضًا عَنْ الصَّدَقَةِ وَلَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا مِنْ قَبَائِلِ قُرَيْشٍ .

(559/340)

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَوَّازِ : آلُ مُحَمَّدٍ عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ : بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، وَآلُ هَاشِمٍ ، وَآلُ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَآلُ قُصَيٍّ ، وَآلُ غَالِبٍ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا نَزَلَتْ : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ : ﴿ يَا آلَ قُصَيٍّ ، يَا آلَ غَالِبٍ ، يَا آلَ عَبْدِ مَنَافٍ ، يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ ، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ، اعْمَلُوا لِمَا عِنْدَ اللَّهِ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ أَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ .

فَبَيَّنَ بِمُنَادَاتِهِ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَقَدْ سُئِلَ عَنْهَا : نَحْنُ هُمْ .

يَعْنِي آلَ مُحَمَّدٍ خَاصَّةً ، وَأَبَى ذَلِكَ عَلَيْنَا قَوْمُنَا .

فَأَمَّا مَوَالِيهِمْ ، فَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ : لَا تَحِلُّ الصَّدَقَةُ لِآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الزَّكَاةِ لَا فِي التَّطَوُّعِ ، وَإِنَّمَا هُمْ بَنُو هَاشِمٍ أَنْفُسُهُمْ .

قِيلَ لَهُ يَعْنِي مَالِكًا : فَمَوَالِيهِ ؟ قَالَ : لَا أَدْرِي مَا الْمَوَالِي ؟ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَرَهُمْ مِنْ ذَلِكَ فَاحْتَجَجْتُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : ﴿ مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْهُمْ ﴾ ، فَقَالَ : وَقَدْ قَالَ : ﴿ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ﴾ .

قَالَ أَصْبَغُ : وَذَلِكَ فِي الْبِرِّ وَالْحُرْمَةِ ، كَقَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ أَنْتَ وَمَالُكَ لِأَبِيكَ ﴾ .

قَالَ مُطَرِّفٌ وَابْنُ الْمَاجِشُونِ : مَوَالِيهِمْ مِنْهُمْ لَا تَحِلُّ لَهُمْ [الصَّدَقَةُ] .

وَقَالَ مَالِكٌ فِي الْوَاضِحَةِ : لَا يُعْطَى آلُ مُحَمَّدٍ مِنْ التَّطَوُّعِ .

(560/340)

وَأَجَازَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ فِي كِتَابِ مُحَمَّدٍ ، وَهُوَ الْأَصَحُّ ؛ لِأَنَّ الْوَسَخَ إِنَّمَا قُرِنَ بِالْفَرْضِ خَاصَّةً .

فَإِنْ قِيلَ : قَدْ رَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ أَبِي رَافِعٍ ، ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى الصَّدَقَةِ مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ ، فَقَالَ لِأَبِي رَافِعٍ : اصْحَبْنِي ، فَإِنَّك تُصِيبُ مِنْهَا ؛ فَقَالَ : حَتَّى آتِيَ رَسُولَ اللَّهِ فَأَسْأَلَهُ .

فَأَتَاهُ فَسَأَلَهُ ، فَقَالَ : مَوْلَى الْقَوْمِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّا لَا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ ﴾ .

وَهَذَا نَصٌّ فِي الْمَسْأَلَةِ ، فَلَوْ صَحَّ لَوَجَبَ قَبُولُهُ ، وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي ذَلِكَ جَوَابَانِ : الْأَوَّلُ : أَنَّ ذَلِكَ عَلَى التَّنْزِيهِ مِنْهُ .

الثَّانِي : أَنَّ أَبَا رَافِعٍ كَانَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْدُمُ وَيُطْعِمُ ، فَكَرِهَ لَهُ تَرْكَ الْمَالِ الَّذِي لَمْ يُذَمَّ ، وَأَخْذَهُ لِمَالٍ هُوَ أَوْسَاخُ النَّاسِ ، فَكَسْبُ غَيْرِهِ أَوْلَى مِنْهُ .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ قَالَ : بَعَثَنِي أَبِي إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي إبِلٍ أَعْطَاهَا إيَّاهُ مِنْ الصَّدَقَةِ .

قُلْنَا : لَمْ يَصِحَّ .

وَجَوَابُهُ لَوْ صَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَسْلَفَ مِنْ الْعَبَّاسِ ، فَرَدَّ إلَيْهِ مَا اسْتَسْلَفَ مِنْ الصَّدَقَةِ ، فَأَكَلَهَا بِالْعِوَضِ .

وَقَدْ رَوَيْنَا ذَلِكَ مُفَسَّرًا مُسْتَوْفًى فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ .

وَقَدْ قَالَ أَبُو يُوسُفَ : يَجُوزُ صَرْفُ صَدَقَةِ بَنِي هَاشِمٍ إلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَيُقَالُ لَهُ : أَيَأْكُلُونَ مِنْ أَوْسَاخِهِمْ ؟ هَذَا جَهْلٌ بِحَقِيقَةِ الْعِلَّةِ وَجِهَةِ الْكَرَامَةِ .

(561/340)

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ وَالْعِشْرُونَ : قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ : مُقَابَلَةُ جُمْلَةٍ بِجُمْلَةٍ ، وَهِيَ جُمْلَةُ الصَّدَقَةِ بِجُمْلَةِ الْمَصْرِفِ لَهَا ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي حَدِيثِ الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ حِينَ أَرْسَلَ مُعَاذًا إلَى الْيَمَنِ : ﴿ قُلْ لَهُمْ : إنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ﴾ فَاخْتُصَّ أَهْلُ كُلِّ بَلَدٍ بِزَكَاةِ بَلَدِهِ ؛ فَهَلْ يَجُوزُ نَقْلُهَا أَمْ لَا ؟ فِي ذَلِكَ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : لَا تُنْقَلُ ، وَبِهِ قَالَ سَحْنُونٌ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ ، إلَّا أَنَّهُ زَادَ إنْ نَقَلَ بَعْضَهَا لِضَرُورَةٍ رَأَيْتُهُ صَوَابًا .

الثَّانِي : يَجُوزُ نَقْلُهَا ، وَقَالَهُ مَالِكٌ أَيْضًا .

الثَّالِثُ : يُقَسَّمُ فِي الْمَوْضِعِ سَهْمُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ ، وَيُنْقَلُ سَائِرُ السِّهَامِ ، بِاجْتِهَادِ الْإِمَامِ .

وَالصَّحِيحُ مَا قَالَهُ ابْنُ الْقَاسِمِ لِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذٍ ، وَلِأَنَّ الْحَاجَةَ إذَا نَزَلَتْ وَجَبَ تَقْدِيمُهَا عَلَى مَنْ لَيْسَ بِمُحْتَاجٍ فَالْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يُسْلِمُهُ وَلَا يَظْلِمُهُ . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(562/340)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً ﴾ : في نصبها وجهان أحدهما : أنها مصدر على المعنى ، لأن معنى إنما الصدقات للفقراء في قوة : فرض الله ذلك . والثاني : أنها حالٌ من الفقراء ، قاله الكرماني وأبو البقاء ، يَعنْيان/ من الضمير المستكنّ في الجار لوقوعه خبراً ، أي : إنما الصدقاتُ كانت لهم حال كونها فريضةً ، أي : مفروضة . ويجوز أن تكون " فريضة " حينئذ بمعنى مفعولة ، وإنما دخلت التاء لجريانها مجرى الأسماء كالنَّطيحة . ويجوز أن يكون مصدراً واقعاً موقع الحال . قال الزمخشري : " فإنْ قلت : لِمَ عدل عن اللام إلى " في " في الأربعة الأخيرة ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخُ في استحقاق التصدُّق عليهم مِمَّن سَبَق ذكرُه ؛ لأن " في " للوعاء ، فنبَّه على أنهم أحقاءُ بأن توضع فيهم الصدقات ويُجعلوا مَظِنَّةً لها ومَصَبَّاً " ، ثم قال : " وتكرير " في " في قوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وابن السبيل ﴾ فيه فضلُ ترجيحٍ لهذين على الرقاب والغارمين " .

ونُقِل عن سيبويه أن " فريضة " منصوبٌ بفعلها مقدراً ، أي : فرض الله ذلك فريضة . ونُقل عن الفراء أنها منصوبة على القطع .

وقرىء " فريضةٌ " بالرفع على : تلك فريضة .

والغُرْم أصله لُزوم شيءٍ شاق ومنه قيل للعشق غرام ، ويُعَبَّر به عن الهلاك في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] ، وغَرامَةُ المال فيها مشقة عظيمة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 72 . 73 ﴾

(563/340)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا الصَدَقَاتُ لِلْفُقَرَآءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ ﴾ .

تكلَّم الفقهاءُ في صفةِ الفقيرِ ، والفرقِ بينه وبين المسكين لما احتاجوا إليه في قسمة الزكاة المفروضة . . فأبو حنيفة رحمة الله عليه – يقول : المسكينُ الذي لا شيء له . والفقيرُ الذي له بُلْغَةٌ من العيش .

ويقول الشافعي رحمة الله عليه : الفقير الذي لا شيء له ، والمسكين الذي له بُلْغَةٌ من العيش – أي بالعكس .

وأهل المعرفة اختلفوا فيه ؛ فمنهم من قال بالأول ، ومنهم من قال بالقول الثاني ، واختلافهم ليس كاختلاف الفقهاء ؛ وذلك لأن كلَّ واحدٍ منهم أشار إلى ما هو حاله ووقته ووجوده

وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخْذَ الزكاةِ حاله ووقته ووجوده وشربه ومقامه . فَمِنْ أهل المعرفة مَنْ رأى أَنَّ أَخْذَ الزكاةِ المفروضة أَوْلى ، قالوا إلى الله تعالى جعل ذلك مِلْكا للفقير ، فهو أَحَلُّ له مما يُتَطَوَّعُ به عليه .

ومنهم من قال : الزكاة المفروضة مستحقة لأقوام ، ورأوا الإيثار على الإخوان أوْلى من أن يزاحموا أرباب السهمان – مع احتياجهم أخذ الزكاة – وقالوا : نحن آثرنا الفَقْرَ اختياراً . . فَلِمَ نأخذ الزكاة المفروضة ؟

ثم على مقتضى أصولهم في الجملة – لا في أخذ الزكاة – للفقر مراتب :

أوَّلُها الحاجةُ ثم الفقرُ ثم المسكنةُ ؛ فذو الحاجة مَنْ يرضى بدنياه وتسدُّ الدنيا فقرَه ، والفقير مَنْ يكتفي بعقباه وتجبُرُ الجنة فقرُه . والمسكين مَنْ لا يرضى بغير مولاه ؛ لا إلى الدنيا يلتفت ، ولا بالآخرة يشتغل ، ولا بغير مولاه يكتفي ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني سكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين » وقال صلى الله عليه وسلم « أعوذ بك من الفقر » لأن عليه بقية ؛ فهو ببقيته محجوبٌ عن ربِّه .

(564/340)

ويحسن أن يقال إن الفقر الذي استعاذ منه ألا يكون له منه شيء ، والمسكنة المطلوبة أن تكون له بُلْغَةٌ ليتفرَّغَ بوجود تلك البلغة إلى العبادة ؛ لأنه إذا لم تكن له بلغة شَغَلَه فَقْرُه عن أداء حقِّه ، ولذلك استعاذ منه .

وقوم سَمَتْ هِمَمُهم عن هذا الاعتبار – وهذا أَوْلى بأصولهم – فالفقير الصادق عندهم مَنْ لا سماءَ تُظِله ولا أرضَ تُقِلُّه ولا معلومَ يشغله ، فهو عبدٌ بالله لله ، يردُّه إلى التمييز في أوان العبودية ، وفي غير هذا الوقت فهو مُصطَلَم عن شواهده ، واقِفٌ بربِّه ، مُنْشَقٌّ عن جملته .

ويقال الفَقِيرُ من كُسِرَتْ فقاره – هذا في العربية .

والفقير – عندهم – مَنْ سَقَطَ اختياره ، وتعطلت عنه دياره ، واندرست – لاستيلاء مَنْ اصْطَلَمَه – آثارُه ، فكأنه لم تبقَ منه إلا أخبارُه ، وأنشدوا :

أَمَّا الرسومُ فَخَبَّرتْ أنهم رحلوا قريباً . . . ويقال المسكين هو الذي أسكنه حالُه بباب مقصوده ، لا يبرح عن سُدَّتِه ، فهو مُعْتَكِفٌ بقلبه ، ولا يغفل لحظةً عن ربِّه .

(565/340)

وأمَّا ﴿ وَالعَالِمِينَ عَلَيْهَا ﴾ فعلى لسان العلم : مَنْ يتولى جمع الزكاة على شرائطها المعلومة . وعلى لسان الإشارة : أَوْلَى الناس بالتصاون عن أخذ الزكاة مَنْ صَدَقَ في

أعماله لله ، فإنهم لا يرجون على أعمالهم عِوَضاً ، ولا يتطلبون في مقابلة أحوالهم عَرَضا ، وأنشدوا :

وما أنا بالباغي على الحب رِشْوَةً . . . قبيحٌ هوىً يُرجَى عليه ثواب

وأمّا المؤلَّفة قلوبهم – على لسان العلم – فمَنْ يُسْتَمَالُ قلبه بنوع إرفاقٍ معه ، ليتوفَّر في الدين نشاطُه ؛ فلهم من الزكاة سهمٌ استعطافاً لهم ، وبيان ذلك مشهورٌ في مسائل الفقه .

وحاشا أن يكون في القوم مَنْ يكون حضورُه بسبب طَمَع أو لنَيْل ثوابٍ أو لرؤية مقام أو لاطلاع حال . . فذلك في صفة العوام ، فأما الخواص فكما قالوا .

من لم يكن بك فانياً عن حظه . . . وعن الهوى والإنْسِ والأحباب

أو تيمته صبابة جمعت له . . . ما كان مفترقاً من الأسباب

فلأنَّ بين المراتب واقفٌ . . . لِمَنَالِ حظٍّ أو الحُسْنِ مآبِ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفِى الرِّقَابِ ﴾ .

وهم على لسان العلم : المكاتَبُون ، وشرحه في مسائل الفقه معلوم .

وهؤلاء لا يتحررون ولهم تعريج على سبب ، أو لهم في الدنيا والعقبى أرب ، فهم لا يستفزُّهم طلب ، فَمَنْ كان به بقية من هذه الجملة فهو عبدٌ لم يتحرر ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله : « المكاتَبُ عَبْدٌ ما بقي عليه درهم » وأنشد بعضهم :

أتمنى على الزمان مُحَالاً . . . أَنْ ترى مقلتاي طَلْعَةَ حُرِّ

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالغَارِمِينَ ﴾ .

وهم على لسان العلم : مَنْ عليهم دَيْنٌ في غير معصية .

وهؤلاء القوم لا يقضى عنهم ما لزمهم امتلاك الحق ، ولهذا قيل المعرفة غريم لا يُقْضَى دَيْنُه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَفِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ .

وعلى لسان العلم : مَنْ سلك سبيلَ الله وَجبَ له في الزكاة سهمٌ على ما جاء بيانُه في مسائل الفقه .

(566/340)

وفي هذه الطريقة : مَنْ سلك سبيلَ الله تتوجَّبُ عليه المطالبات ؛ فيبذل أولاً مالَه ثم جاهَه ثم نَفْسه ثم روحَه . . وهذه أول قَدَمٍ في الطريق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

وهو على لسان العلم : مَنْ وقع في الغُربة ، وفارَقَ وطَنه على أوصاف مخصوصة .

وعند القوم : إذا تَغَرَّبَ العَبدُ عن مألوفات أوطانه فهو في قِرَى الحقّ ؛ فالجوعُ طعامُه ، والخلوةُ مجلسُه ، والمحبةُ شرابُه ، والأُنسُ شهوده ، والحقُّ – تعالى – مشهودُه . قال تعالى : ﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : 21] : لقوم وَعْدٌ في الجنة ، ولآخرين نَقْدٌ

في الوقت ؛ اليوم شرابُ المحابِّ وغداً شراب الثواب ، وفي معناه أنشدوا :

وَمُقعدِ قومٍ قد مشى من شرابنا . . . وأعمى سقيناه ثلاثاً فأَبْصَرَا

وأخرسَ لم ينطِقْ ثلاثين حِجَّةً . . . أَدِرْنا عليه الكأسَ يوماً فأخبرا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 37 . 40 ﴾

(567/340)

فصل

قال حجة الإسلام الغزالى :

فقر المضطر هو الذى استعاذ منه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأله فى دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء

بيان فضيلة الفقر مطلقا

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم الآية وقال تعالى للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض ساق

الكلام فى معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والإحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر

(568/340)

وأما الأخبار فى مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يا رسول الله قال فقير يعطى جهده // حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا موسر من المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أخرجه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصرا على المرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له // وقال صلى الله عليه وسلم لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا // حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا أخرجه الحاكم فى كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبي سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاهما ضعيف // وقال صلى الله عليه وسلم إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال // حديث إن يحب الفقير

المتعفف أبا العيال أخرجه ابن ماجه من حديث عمران بن حصين وقد تقدم // وفى الخبر المشهور يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام // حديث يدخل فقراء أمتى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام أخرجه الترمذى من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم // وفى حديث آخر

(569/340)

بأربعين خريفا // حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس // أى أربعين سنة فيكون المراد به تقدير تقدم الفقير الحريص على الغنى الحريص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على الغنى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتا بين الفقراء فى درجاتهم وكأن الفقير الحريص على درجة من خمسوعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تظنن أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة // حديث

الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة أخرجه البخارى من حديث أبى سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبي هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم // فإنه تقدير تحقيق لا محالة لكن ليس فى قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبى ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أن يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته والملائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره بل مخالفا له بكثرة المعلومات وبزيادة اليقين والتحقيق والكشف

والثانى أن له فى نفسه صفة بها تتم له الأفعال الخارقة للعادات كما أن لنا صفة بها تتم الحركات المقرونة بإرادتنا وباختيارنا وهى القدرة وإن كانت القدرة والمقدور جميعا من فعل الله تعالى

والثالث أن له صفة بها يبصر الملائكة ويشاهدهم كما أن للبصر صفة بها يفارق الأعمى حتى يدرك بها المبصرات

(570/340)

والرابع أن له صفة بها يدرك ما سيكون فى الغيب إما فى اليقظة أو فى المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كمالات وصفات يعلم ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن نتكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة جزءا واحدا من جملتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذى أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات التى بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لا يرشدنا إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس فى قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والغرض التنبيه على منهاج التقدير فى أمثال هذه الأمور فإن الضعيف الإيمان قد يظن أن ذلك يجرى من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك ولنرجع إلى نقل الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم أيضا خير هذه الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها // حديث خير الأمة فقراؤها وأسرعها تضجعا فى الجنة ضعفاؤها لم أجد له أصلا // وقال صلى الله عليه وسلم إن لى حرفتين اثنتين فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد ابغضنى

الفقر والجهاد // حديث إن لى حرفتين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجد له أصلا // وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا // حديث أن جبريل نزل فقال إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أتحب أن أجعل هذه الجبال ذهبا الحديث

(571/340)

وفيه إن الدنيا دار من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبى أمامة عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا قلت لا يا رب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن

ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم فى ذم الدنيا // وتكون معك أينما كنت فأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت

وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مر فى سياحته برجل نائم ملتف فى عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد منى إني قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن

يا حبيبى

ومر موسى صلى الله عليه وسلم برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته فى التراب وهو متزر بعباءة فقال يا رب عبدك هذا فى الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت أنى إذا نظرت إلى عبد بوجهى كله زويت عنه الدنيا كلها

(572/340)

وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلى إلى رجل من يهود خيبر وقال قل له يقول لك محمدا سلفنى أو بعنى دقيقا إلى هلال رجب قال فأتيته فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله إنى لأمين في أهل السماء أمين فى أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأديت إليه اذهب بدرعى هذا إليه فارهنه فلما خرجت نزلت هذه الآية ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا // حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر الحديث فى نزول قوله تعالى ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم أخرجه الطبرانى بسند ضعيف // الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال

صلى الله عليه وسلم الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس // حديث الفقر أزين بالمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس رواه الطبرانى من حديث شداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدى فى الكامل هكذا // وقال صلى الله عليه وسلم من أصبح منكم معافى فى جسمه آمنا فى سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها // حديث من أصبح منكم معافى فى جسمه الحديث أخرجه الترمذى وقد تقدم //

وقال كعب الأحبار قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين

وقال عطاء الخراسانى مر نبى من الأنبياء بساحل فإذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بآخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها

(573/340)

فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا رب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للملائكة اكشفوا لعبدى عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من الكرامة ولذاك

من الهوان قال رضيت يا رب

وقال نبينا صلى الله عليه وسلم اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلعت فى النار فرأيت اكثر أهلها الأغنياء والنساء وفى لفظ آخر فقلت اين الأغنياء حبسهم الجد وفى حديث آخر فرأيت أكثر أهل النار النساء فقلت ما شأنهن فقيل شغلهن الأحمران الذهب والزعفران // حديث اطلعت فى النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم فى آداب النكاح مع الزيادة التى فى آخره // وقال صلى الله عليه وسلم تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر // حديث تحفة المؤمن فى الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازى فى شرف الفقر وأبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به ورواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا // وفى الخبر آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابى دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه // حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو فى الأوسط للطبرانى بإسناد فرد وفيه نكارة // وفى حديث آخر رأيته يدخل الجنة زحفا // حديث رأيته يعنى عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف //

وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الغنى الجنة

وفى خبر آخر عن أهل البيت رضى الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال إذا أحب الله

عبدا ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا //

حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث أخرجه الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني //

(574/340)

وفى الخبر إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته // حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشعار الصالحين وإذا رأيت الغنى مقبلا فقل ذنب عجلت عقوبته أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب الأحبار غير مرفوع بإسناد ضعيف //

وقال موسى عليه السلام يا رب من أحباؤك من خلقك حتى أحبهم لأجلك فقال كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثانى للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديد الضر

(575/340)

وقال المسيح صلوات الله عليه وسلامه إنى لأحب المسكنة وأبغض النعماء وكان أحب الأسامى إليه صلوات الله عليه أن يقال له يا مسكين ولما قالت سادات العرب واغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجىء ونجىء إليك ولا يجيئون بعنون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبى هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضى الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذى برائحتهم وكان لباس القوم الصوف فى شدة الحر فإذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس التميمى وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمى وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فنزل عليه قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم يعنى الفقراء تريد زينة الحياة الدنيا يعنى الأغنياء ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا يعنى الأغنياء إلى قوله تعالى وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر // حديث قال سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم الآية تقدم من حديث

خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرفوا وهذه الزيادة من حديث سلمان // الآية

(576/340)

واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى يعنى ابن مكتوم أما من استغنى فأنت له تصدى // حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده رجل من أشراف قريش ونزول قوله تعالى عبس وتولى أخرجه الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح // يعنى هذا الشريف

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يؤتى بالعبد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل فى الدنيا فيقول وعزتى وجلالى ما زويت الدنيا عنك لهوانك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة اخرج يا عبدى إلى هذه الصفوف فمن أطعمك فى أو كساك فى يريد بذلك وجهى فخذ بيده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ بيده ويدخله الجنة // حديث يؤتى بالعبد

يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت عنك الدنيا لهرناك على الحديث أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أدنوا منى أحبائي فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدنون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم علي ولاكن أردت بذلك أن أضعف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شئتم اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسيأتي في الحديث الذي بعده

(577/340)

وقال عليه السلام أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادى فإن لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا بيده ثم امضوا به إلى الجنة // حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندهم الأيادي فإن لهم دولة الحديث أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فإن لهم دولة يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيعتذر إليهم كما يعتذر أحدكم إلى أخيه في الدنيا // وقال صلى الله عليه وسلم دخلت الجنة فسمعت حركة أمامى فنظرت فإذا بلال

ونظرت فى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم ونظرت فى أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل فقلت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فأضربهن الأحمران الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أصحابى فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءنى بعد ذلك وهو يبكى فقلت ما خلفك عنى قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لقيت المشيبات وظننت أنى لا أراك فقلت ولم قال كنت أحاسب بمالى // حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت إلى أعلاها فإذا فقراء أمتى وأولادهم الحديث أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف نحوه وقصه بلال في الصحيح من طريق آخر // فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة // حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المخصوصين بأنهم من أهل الجنة رواه أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذي حسن صحيح // وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا من قال بالمال هكذا وهكذا // حديث إلا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبي ذر في أثناء حديث تقدم // ومع هذا فقد استضر بالغنى إلى هذا الحد

(578/340)

ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم // حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده //

وقال صلى الله عليه وسلم ألا أخبركم بملوك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره // حديث ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقل ملوك وقد تقدم ولابن ماجه بسند جيد من حديث معاذ ألا أخبركم عن ملوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث //

وقال عمران بن حصين كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله فقام وقمت معه حتى وقف بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معى قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذى بعثك بالحق نبيا ما على إلا عباءة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدى على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال

السلام عليكم يا ابنتاه كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضر بى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى يا ابنتاه فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولو سألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب بيده على منكبها وقال لها أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسيه سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقنعي يا بن عمك فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة // حديث عمران ابن حصين كانت لي من رسول اللهصلى الله عليه وسلم منزلة وجاه فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في عيادة فاطمة الحديث تقدم //

وروى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على جمع الدراهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاة الأحكام والشوكة من الأعداء //

حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أخرجه أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جهالة وهو منكر //

وأما الآثار فقد قال أبو الدرداء رضى الله عنه ذو الدرهمين أشد حبسا أو قال أشد حسابا من ذى الدرهم

(580/340)

وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرينى درعك الخلق فشقه وجعله صررا وفرقه ثم قام يصلى ويبكى إلى الغداة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج // حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء كئيبا حزينا وفرقها وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بخمسمائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم //

وقال أبو هريرة ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يغسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرابه فلا يقال له أيها تريد

وقيل جاء فقير إلى مجلس الثورى رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك وكان الأغنياء من أصحابه يودون أنهم فقراء لكثرة تقريبه للفقراء وإعراضه عن الأغنياء وقال المؤمل ما رأيت الغنى أذل منه فى مجلس الثورى ولا رأيت الفقير أعز منه فى مجلس الثورى رحمه الله

وقال بعض الحكماء مسكين ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعا ولو رغب فى الجنة كما يرغب فى الغنى لفاز بهما جميعا ولو خاف الله فى الباطن كما يخاف خلقه فى الظاهر لسعد فى الدارين جميعا

وقال ابن عباس ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر

وقال يحيى بن معاذ حبك الفقراء من أخلاق المرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين

وفى الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام احذر أن أمقتك فتسقط

من عينى فأصب الدنيا عليك صبا

ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم فى يوم واحد يوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحما تفطرين عليه وكانت صائمة فقالت لو ذكرتينى لفعلت وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال إن أردت اللحوق بى فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعيه // حديث قال لعائشة إن أردت اللحوق بي فعليك بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث أخرجه الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوا من حديثها وقد تقدم //

وجاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم بعشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبلها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمى من ديوان الفقراء بعشرة آلاف درهم لا أفعل ذلك أبدا رضى الله عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الإحياء حـ 4 صـ 193 . 199 ﴾ . بتصرف يسير .

(582/340)

فصل فى منزلة الفقر

قال ابن القيم :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الفقر

هذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم وأعلاها وأرفعها بل هي روح كل منزلة وسرها ولبها وغايتها

وهذا إنما يعرف بمعرفة حقيقة الفقر والذي تريد به هذه الطائفة أخص من معناه الأصلي فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع أحدها : قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ الآية [البقرة: 273] أي الصدقات لهؤلاء كان فقراء المهاجرين نحو أربعمائة لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله فكانوا وقفا على كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل الصفة هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله وقيل: حبسهم الفقر والعدم عن الجهاد في سبيل الله وقيل: لما عادوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى: أحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش فلا يستطيعون ضربا في الأرض والصحيح: أنهم لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربا في الأرض ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الآية [التوبة: 60] والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: 15]

(583/340)

فالصنف الأول: خواص الفقراء والثاني: فقراء المسلمين خاصهم وعامهم والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم: غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وكافرهم فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجدة ومن ليس محصرا في سبيل الله ومن لا يكتم فقره تعففا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة ويدخل فيهم المتعفف وغيره والمحصر في سبيل الله وغيره والصنف الثالث: لا مقابل لهم بل الله وحده الغني وكل ما سواه فقير إليه ومراد القوم بالفقر: شيء أخص من هذا كله وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة

وهذا المعنى أجل من أن يسمى فقرا بل هو حقيقة العبودية ولبها وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية وسئل عنه يحيى بن معاذ فقال: حقيقته أن لا يستغني إلا بالله ورسمه: عدم الأسباب كلها يقول: عدم الوثوق بها والوقوف معها وهو كما قال بعض المشايخ: شيء لا يضعه الله إلا عند من يحبه ويسوقه إلى من يريده وسئل رويم عن الفقر فقال: إرسال النفس

في أحكام الله وهذا إنما يحمد في إرسالها في الأحكام الدينية والقدرية التي لا يؤمر بمدافعتها والتحرز منها

وسئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه فقال: ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره وحقيقة الفقر وكماله كما قال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم الفقر فقال: إذا لم يبق عليه بقية منه فقيل له: وكيف ذاك فقال: إذا كان له فليس له وإذا لم يكن له فهو له

(584/340)

وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم وهو أن يصير كله لله عز وجل لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول ثم فسر ذلك بقوله: إذا كان له فليس له أي إذا كان لنفسه فليس لله وإذا لم يكن لنفسه فهو لله فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك ولا يكون لها منك شيء بحيث تكون كلك لله وإذا كنت لنفسك فثم ملك واستغناء مناف للفقر وهذا الفقر الذي يشيرون إليه: لا تنافيه الجدة ولا الأملاك فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جدتهم وملكهم كإبراهيم الخليل كان أبا الضيفان وكانت له الأموال والمواشي وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام وكذلك كان نبينا كان كما قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ [

الضحى: 8] فكانوا أغنياء في فقرهم فقراء في غناهم فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقة تامة إلى الله تعالى من كل وجه فالفقر ذاتي للعبد وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالا وإلا فهو حقيقة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقر لي وصف ذات لازم أبدا . . . كما الغنى أبدا وصف له ذاتي

(585/340)

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب أكثر إشارات القوم إليها كقول بعضهم: الفقير لا تسبق همته خطوته يريد: أنه ابن حاله ووقته فهمته مقصورة على وقته لا تتعداه وقيل: أركان الفقر أربعة: علم يسوسه وورع يحجزه ويقين يحمله وذكر يؤنسه وقال الشبلي: حقيقة الفقر أن لا يستغني بشيء دون الله وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير فقال: إذا لم ير لنفسه غير الوقت الذي هو فيه وقال أبو حفص: أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال وملازمة السنة في جميع الأفعال وطلب القوت من وجه حلال وقيل: من حكم الفقر: أن لا تكون له رغبة فإذا كان ولابد فلا تجاوز رغبته كفايته وقيل: الفقير من لا يملك ولا يملك وأتم من هذا: من يملك ولا يملكه مالك

وقيل: من أراد الفقر لشرف الفقر مات فقيرا ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنيا و الفقر له بداية ونهاية وظاهر وباطن فبدايته: الذل ونهايته: العز وظاهره: العدم وباطنه: الغنى كما قال رجل لآخر: فقر وذل فقال: لا بل فقر وعز قال: فقر وثراء قال: لا بل فقر وعرش وكلاهما مصيب واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله مع التخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعجب مع أنه لا صفاء معهما وإذا عرفت معنى الفقر علمت أنه عين الغنى بالله فلا معنى لسؤال من سأل: أي الحالين أكمل الافتقار إلى الله أم الاستغناء به

(586/340)

فهذه مسألة غير صحيحة فإن الاستغناء به هو عين الافتقار إليه وسئل عن ذلك محمد بن عبد الله الفرغاني فقال: إذا صح الافتقار إلى الله تعالى فقد صح الاستغناء بالله وإذا صح الاستغناء بالله كمل الغنى به فلا يقال أيهما أفضل: الافتقار أم الاستغناء لأنهما حالتان لا تتم إحداهما إلا بالأخرى وإما كلامهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر وترجيح أحدهما على صاحبه فعند أهل التحقيق والمعرفة: أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق فالمسألة أيضا فاسدة في نفسها فإن

التفضيل: عند الله تعالى بالتقوى وحقائق الإيمان لا بفقر ولا غنى كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: 13] ولم يقل أفقركم ولا أغناكم قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه: والفقر والغنى ابتلاء من الله لعبده كما قال تعالى: فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول: ربي أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول: ﴿ رَبِّي أَهَانَنِ كَلاَّ ﴾ [الفجر: 15-16] أي ليس كل من وسعت عليه وأعطيته: أكون قد أكرمته ولا كل من ضيقت عليه وقترت: أكون قد أهنته فالإكرام: أن يكرم الله العبد بطاعته والإيمان به ومحبته ومعرفته والإهانة: أن يسلبه ذلك قال يعني ابن تيمية ولا يقع التفاضل بالغني والفقر بل بالتقوى فإن استويا في التقوى استويا في الدرجة سمعته يقول ذلك وتذاكروا هذه المسألة عند يحيى بن معاذ فقال: لا يوزن غدا الفقر ولا الغنى وإنما يوزن الصبر والشكر وقال غيره: هذه المسألة محال من وجه آخر وهو أن كلا من الغني والفقير لابد له من صبر وشكر فإن الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر بل قد يكون نصيب الغني وقسطه من الصبر أوفر لأنه يصبر عن قدرة فصبره أتم

(587/340)

من صبر من يصبر عن عجز ويكون شكر الفقير أتم لأن الشكر هو استفراغ الوسع في طاعة الله والفقير أعظم فراغا للشكر من الغني فكلاهما لا تقوم قائمة إيمانه إلا على ساقي الصبر والشكر نعم الذي يحكي الناس من هذه المسألة: فرعا من الشكر وفرعا من الصبر وأخذوا في الترجيح بينهما فجردوا غنيا منفقا متصدقا باذلا ماله في وجوه القرب شاكرا لله عليه وفقيرا متفرغا لطاعة الله ولأوراد العبادات من الطاعات صابرا على فقره فهل هو أكمل من ذلك الغني أم الغني أكمل منه فالصواب في مثل هذا: أن أكملهما أطوعهما فإن تساوت طاعتهما تساوت درجاتهما والله أعلم

فصل قال صاحب المنازل رحمه الله: الفقر اسم للبراءة من الملكة

عدل الشيخ عن لفظ عدم الملكة إلى قوله: البراءة من الملكة لأن عدم الملكة ثابت في نفس الأمر لكل أحد سوى الله تعالى فالله سبحانه هو المالك حقيقة فعدم الملكة: أمر ثابت لكل ما سواه لذاته والكلام في الفقر الذي يمدح به صاحبه: هو فقر الاختيار وهو أخص من مطلق الفقر وهو براءة العبد من دعوى الملك بحيث لا ينازع مالكه الحق ولما كانت نفس الإنسان ليست له وانما هي ملك لله فما لم يخرج عنها ويسلمها لمالكها ومولاها الحق: لم يثبت له في الفقر قدم فلذلك كان أول قدم الفقر: الخروج عن النفس وتسليمها لمالكها ومولاها فلا يخاصم لها ولا يتوكل لها ولا يحاجج عنها ولا ينتصر لها بل يفوض ذلك لمالكها وسيدها قال بندار بن الحسين: لا تخاصم لنفسك فإنها ليست لك دعها لمالكها يفعل بها

ما يريد

وقد أجمعت هذه الطائفة على أنه لا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر ولا دخول عليه إلا من بابه والله اعلم

فصل قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الاولى: فقر الزهاد وهو

(588/340)

قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا وإسكات اللسان عنها مدحا أو ذما والسلامة منها طلبا أو تركا وهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه الدنيا عند القوم: ماسوى الله تعالى من المال والجاه والصور والمراتب واختلف المتكلمون فيها على قولين حكاهما أبو الحسن الأشعري في مقالاته احدهما: أنها اسم لمدة بقاء هذا العالم والثاني: أنها اسم لما بين السماء والارض فما فوق السماء ليس من الدنيا وما تحت الأرض ليس منها فعلى الاول: تكون الدنيا زمانا وعلى الثاني: تكون مكانا ولما كان لها تعلق بالجوارح والقلب واللسان كان حقيقة الفقر: تعطيل هذه الثلاثة عن تعلقها بها وسلبها منها فلذلك قال: قبض اليد عن الدنيا ضبطا أو طلبا يعني يقبض يده عن إمساكها إذا حصلت له فإذا قبض يده عن الامساك جاد بها وإن كانت غير حاصلة له كف يده عن طلبها فلا يطلب معدومها ولا

يبخل بموجودها واما تعطيلها عن اللسان

فهو أن لا يمدحها ولا يذمها فإن اشتغاله بمدحها أو ذمها دليل على محبتها ورغبته فيها فاإن من أحب شيئا أكثر من ذكره وإنما اشتغل بذمها حيث فاتته كمن طلب العنقود فلم يصل إليه فقال: هو حامض ولا يتصدى لذم الدنيا إلا راغب محب مفارق فالواصل مادح والمفارق ذام وأما تعطيل القلب منها فالسلامة من آفات طلبها وتركها فإن لتركها

(589/340)

آفات ولطلبها آفات والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها فان قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها قلت: من وجوه شتى أحدها: أنه إذا تركها وهو بشر لا ملك تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه وما هو محتاج اليه فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا وهذه قلة فقه في الطريق بل الفقيه العارف: يردها عنه بلقمة كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته بل أعطاها حظها وطالبها بما عليها من الحق

هذه طريقة الرسل وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك كما قال النبي صلى الله عليه

وسلم: إنلنفسك عليك حقا ولربك عليك حقا ولزوجك عليك حقا ولضيفك عليك حقا فأعط كلع ذي حق حقه

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة: مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن وقطاع الطريق على القلوب كأهل البدع من بني العلم وبني الإرادة ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم ويتقوى على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح ولا يشتغل بها ومن آفات الترك: تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك ومن افات تركها وعدم أخذها: ما يداخله من الكبر والعجب والزهو وهذا يقابل الزهد فيها وتركها كما أن كسرة الآخذ وذلته وتواضعه: يقابل الآخذ التارك ففي الأخذ آفات وفي الترك آفات فالفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك وهذا لا يحصل الا بفقه في الفقر

قوله رحمه الله فهذا هو الفقر الذي تكلموا في شرفه يعني تكلم فيه أرباب السلوك وفضلوه ومدحوه

فصل قال: الدرجة الثانية: الرجوع الى السبق بمطالعة الفضل وهو يورث

(590/340)

الخلاص من رؤية الاعمال ويقطع شهود الاحوال ويمحص من أدناس مطالعة المقامات يريد بالرجوع إلى السبق: الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده وأن العبد وكل ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه وليس للعبد من ذاته سوى العدم وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه فإذا شهد هذا وأحضره قلبه وتحقق به: خلصه من رؤية أعماله فإنه لا يراها إلا من الله وبالله وليست منه هو ولا به واتفقت كلمة الطائفة على أن رؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله ويخلصه منها: شهود السبق ومطالعة الفضل وقوله: ويقطع شهود الأحوال لأنه إذا طالع سبق فضل الله: علم أن كل ما حصل له من حال أو غيره فهو محض جوده فلا يشهد له حالا مع الله ولا مقاما كما لم يشهد له عملا فقد جعل عدته للقاء ربه: فقره من أعماله وأحواله فهو لا يقدم عليه إلا بالفقر المحض فالفقر خير العلاقة التي بينه وبين ربه والنسبة التي ينتسب بها إليه والباب الذي يدخل منه عليه وكذلك قوله: يمحص من أدناس مطالعة المقامات هو من جنس التخلص من رؤية الأعمال والانقطاع عن رؤية شهود الأحوال ومطالعة المقامات: دنس عند هذه الطائفة فمطالعة الفضل يمحص من هذا الدنس

(591/340)

والفرق بين الحال والمقام: أن الحال معنى يرد على القلب من غير اجتلاب له ولا اكتساب ولا تعمد و المقام يتوصل إليه بنوع كسب وطلب فالأحوال عندهم مواهب والمقامات مكاسب فالمقام يحصل ببذل المجهود وأما الحال: فمن عين الجود ولما دخل الواسطى نيسابور سأل أصحاب أبي عثمان: بماذا كان يأمركم شيخكم فقالوا: كان يأمر بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها فقال: أمركم بالمجوسية المحضة هلا أمركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها قلت: لم يأمرهم أبو عثمان رحمه الله إلا بالحنيفية المحضة وهي القيام بالأمر ومطالعة التقصير فيه وليس في هذا من رائحة المجوسية شيء فإنه إذا بذل الطاعة لله وبالله صانه ذلك عن الاتحاد والشرك وإذا شهد تقصيره فيها صانه عن الإعجاب فيكون قائما بإياك نعبد وإياك نستعين وأما ما أشار إليه الواسطي: فمشهد الفناء ولا ريب أن مشهد البقاء أكمل فإن من غاب عن طاعاته: لم يشهد تقصيره فيها ومن تمام العبودية: شهود التقصير فمشهد أبي عثمان أتم من مشهد الواسطي وأبو عثمان هذا: هو سعيد بن إسماعيل النيسابوري من جلة شيوخ القوم وعارفيهم وكان يقال: في الدنيا ثلاثة لا رابع لهم: أبو عثمان النيسابوري بنيسابور والجنيد ببغداد وأبو عبد الله بن الجلا بالشام وله كلام رفيع عال في التصوف والمعرفة وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها ولما حضرته الوفاة مزق ابنه قميصا على نفسه ففتح أبو عثمان عينيه وهو في السياق فقال: يا بني خلاف السنة في الظاهر علامة رياء في الباطن

فصل قال: الدرجة الثالثة: الاضطرار والوقوع في يد التقطع الوجداني

أو الاحتباس في بيداء قيد التجريد وهذا فقر الصوفية

(592/340)

الاضطرار شهود كمال الضرورة والفاقة علما وحالا ويريد بالوقوع في يد التقطع الوجداني: حضرة الجمع التي ليس عندها آغيار فهي منقطعة عن الأغيار وحدانية في نفسها والوقوع في يدها: الاستسلام والإذعان لها والدخول في رقها وقد تقدم أن حضرة الجمع عندهم: هي شهود الحقيقة الكونية ورؤيتها بنور الكشف حيث يشهدها منشأ جميع الكائنات والكائنات عدم بالنسبة إليها و أما الاحتباس في بيداء قيد التجريد فهو تجريد الفردانية أن يشهد معها غيرها وهو الفناء عن شهود السوى وسمعى ذلك احتباسا لأنه منع نفسه عن شهود الأغيار وجعل للتجريد قيدا وهو التقيد بشهود الحقيقة وجعل القيد بيداء لوجهين أحدهما: أن الأغيار تبيد فيه وتنعدم ولا يكون معه سواه والثاني: لسعته وفضائه فصاحب مشهده: في بيداء واسعة وإن احتبس في قيد شهوده وقوله: وهذا فقر الصوفية قد يفهم منه: أن التصوف أعلى عنده من الفقر فإن هذه الدرجة الثالثة التي هي أعلى درجات الفقر عنده هي من بعض مقامات الصوفية وطائفة تنازعه في ذلك وتقول:

التصوف دون هذا المقام بكثير والتصوف وسيلة إلى هذا الفقر فإن التصوف خلق وهذا الفقر حقيقة وغاية لا غاية وراءها

وقد تقدم ذكر الخلاف بين القوم في هذه المسألة وحكينا فيها ثلاثة أقوال هدين والثالث: أنه لا يفضل أحدهما على الآخر فإن كل واحد منهما لا تتم حقيقته إلا بالآخر وهذا قول الشاميين والله أعلم

فصل ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الغنى العالي

(593/340)

وهو نوعان: غنى بالله وغنى عن غير الله وهما حقيقة الفقر ولكن أرباب الطريق أفردوا للغنى منزلة قال صاحب المنازل رحمه الله باب الغني قال الله تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾ [الضحى: 8] وفي الآية ثلاثة أقوال أحدها : أنه أغناه من المال بعد فقره: وهذا قول أكثر المفسرين لأنه قابله بقوله عائلا والعائل: هو المحتاج ليس ذا العيلة فأغناه من المال والثاني: أنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال وهو حقيقة الغنى والثالث: وهو الصحيح أنه يعم النوعين: نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال ثم قال: الغنى اسم للملك التام يعني أن من كان مالكا من وجه دون وجه فليس بغني

وعلى هذا: فلا يستحق اسم الغنى بالحقيقة إلا الله وكل ما سواه فقير إليه بالذات قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: غنى القلب وهو سلامته من السبب ومسالمته للحكم وخلاصه من الخصومة.

(594/340)

حقيقة غني القلب: تعلقه بالله وحده وحقيقة فقره المذموم: تعلقه بغيره فإذا تعلق بالله حصلت له هذه الثلاثة التي ذكرها سلامته من السبب أي من التعلق به لا من القيام به والغني عند أهل الغفلة بالسبب ولذلك قلوبهم معلقة به وعند العارفين بالمسبب وكذلك الصناعة والقوة فهذه الثلاثة: هي جهات الغنى عند الناس وهي التي أشار إليها النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: إن الصدقة لا تحل لغني ولا لذي مرة سوى وفي رواية ولا لقوي مكتسب وهو غني بالشيء فصاحبها غني بها إذا سكنت نفسه إليها وإن كان سكونه إلى ربه: فهو غني به وكل ما سكنت النفس إليه فهي فقيرة إليه وأما مسالمة الحكم فعلى نوعين أحدهما: مسالمة الحكم الديني الأمري وهي معانقته وموافقته ضد محاربته والثاني: مسالمة الحكم الكوني القدري الذي يجري عليه بغير اختياره ولا قدرة له على دفعه وهو غير مأمور بدفعه وفي مسالمة الحكم نكتة لابد منها وهي تجريد إضافته ونسبته إلى من

صدر عنه بحيث لا ينسبه إلى غيره وهذا يتضمن توحيد الربوبية في مسالمة الحكم الكوني وتوحيد الإلهية في مسألمة الحكم الديني وهما حقيقة إياك نعبد وإياك نستعين وأما الخلاص من الخصومة فإنما يحمد منه: الخلاص من الخصومة بنفسه لنفسه وأما إذا خاصم بالله ولله: فهذا من كمال العبودية وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في استفتاحه: اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت

فصل قال: الدرجة الثانية: غنى النفس وهو استقامتها على المرغوب

(595/340)

وسلامتها من الحظوظ وبراءتها من المراءاة جعل الشيخ: غنى النفس فوق غنى القلب ومعلوم: أن أمور القلب أكمل وأقوى من أمور النفس لكن في هذا الترتيب نكتة لطيفة وهي أن النفس من جند القلب ورعيته وهي من أشد جنده خلافا عليه وشقاقا له ومن قبلها تتشوش عليه المملكة ويدخل عليه الداخل فإذا حصل له كمال بالغنى: لم يتم له إلا بغناها أيضا فإنها متى كانت فقيرة عاد حكم فقرها عليه وتشوش عليه غناه فكان غناها تماما لغناه وكمالا له وغناه أصلا بغناها فمنه يصل الغنى إليها ومنها يصل الفقر والضرر والعنت إليه إذا عرف هذا فالشيخ جعل غناها بثلاثة أشياء: استقامتها على المرغوب وهو الحق

تعالى واستقامتها عليه: استدامة طلبه وقطع المنازل بالسير إليه الثاني: سلامتها من الحظوظ وهي تعلقاتها الظاهرة والباطنة بما سوى الله الثالث: براءتها من المراءاة وهي إرادة غير الله بشيء من أعمالها وأقوالها فمراءاتها دليل على شدة فقرها وتعلقها بالحظوظ من فقرها أيضا وعدم استقامتها على مطلوبها الحق أيضا: من فقرها وذلك يدل على أنها غير واجدة لله إذ لو وجدته لاستقامت على السير إليه ولقطعت تعلقاتها وحظوظها من غيره ولما أرادت بعملها غيره فلا تستقيم هذه الثلاثة إلا لمن قد ظفر بنفسه ووجد مطلوبه وما لم يجد ربه تعالى فلا استقامة له ولا سلامة لها من الحظوظ ولا براءة لها من الرياء

فصل قال: الدرجة الثالثة: الغنى بالحق وهو على ثلاث مراتب المرتبة

(596/340)

الأولى: شهود ذكره إياك والثانية: دوام مطالعة أوليته والثالثة: الفوز بوجوده أما شهود ذكره إياك فقد تقدم قريبا وأما مطالعة أوليته فهو سبقه للأشياء جميعا فهو الأول الذي ليس قبله شيء قال بعضهم: ما رأيت شيئا إلا وقد رأيت الله قبله فإن قلت: وأي غنى يحصل للقلب للقلب من مطالعة أولية الرب وسبقه لكل شيء ومعلوم أن هذا حاصل لكل أحد من غني

أو فقير فما وجه الغنى الحاصل به قلت: إذا شهد القلب سبقه للأسباب وأنها كانت في حيز العدم وهو الذي كساها حلة الوجود فهي معدومة بالذات فقيرة إليه بالذات وهو الموجود بذاته والغني بذاته لا بغيره فليس الغنى في الحقيقة إلا به كما أنه ليس في الحقيقة إلا له فالغنى بغيره: عين الفقر فإنه غني بمعدوم فقير وفقير كيف يستغني بفقير مثله وأما الفوز بوجوده فإشارة القوم كلهم إلى هذا المعنى وهو نهاية سفرهم وفي الأثر الإلهي: ابن آدم اطلبني تجدني فإن وجدتني وجدت كل شيء وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شيء ومن لم يعلم معنى وجوده لله عز وجل والفوز به: فليحث على رأسه الرماد وليبك على نفسه والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿المدارج حـ 2 صـ 438. 452﴾

(597/340)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة:

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾

قوله: ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ هذا ذكر نوع آخر قبائحهم، يقال: لمزه يلمزه: إذا عابه.

قال الجوهري : اللمز : العيب ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها ، وقد لمزه يلمزه ويلمزه ، ورجل لماز ، ولمزة : أي عياب .

قال الزجاج : لمزت الرجل أِلمزه وأُلمزه ، بكسر الميم وضمها : إذا عبته ، وكذا همزته .

ومعنى الآية : ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات ، أي في تفريقها وقسمتها .

وروى عن مجاهد أنه قال : معنى ﴿ يَلْمِزُكَ ﴾ : يرزؤك ويسألك ، والقول عند أهل اللغة هو الأوّل ، كما قال النحاس .

وقرىء " يلمزك " بضم الميم ، و " يلمزك " بكسرها مع التشديد .

وقرأ الجمهور بكسرها مخففة ﴿ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا ﴾ أي : من الصدقات بقدر ما يريدون ﴿ رَضُواْ ﴾ بما وقع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعيبوه ، وذلك لأنه لا مقصد لهم إلا حطام الدنيا ، وليسوا من الدين في شيء ﴿ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنهَا ﴾ أي : من الصدقات ما يريدونه ويطلبونه ﴿ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ أي : وإن لم يعطوا فاجئوا السخط ، وفائدة إذا الفجائية : أن الشرط مفاجىء للجزاء وهاجم عليه .

وقد نابت إذا الفجائية مناب فاء الجزاء .

(598/340)

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ ﴾ أي : ما فرضه الله لهم وما أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصدقات ، وجوب " لو " محذوف : أي لكان خيراً لهم ، فإن فيما أعطاهم الخير العاجل والآجل ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله سَيُؤْتِينَا الله مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ﴾ أي : قالوا هذه المقالة عند أن أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هو لهم : أي كفانا الله ، سيعطينا من فضله ، ويعطينا رسوله بعد هذا ما نرجوه ونؤمله ﴿ إِنَّا إِلَى الله راغبون ﴾ في أن يعطينا من فضله ما نرجوه .

قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاء ﴾ لما لمز المنافقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات بيّن الله لهم مصرفها دفعاً لطعنهم ، وقطعاً لشغبهم ، و ﴿ إِنَّمَا ﴾ من صيغ القصر ، وتعريف الصدقات للجنس : أي جنس هذه الصدقات مقصور على هذه الأصناف المذكورة لا يتجاوزها ، بل هي لهم لا لغيرهم .

وقد اختلف أهل العلم هل يجب تقسيط الصدقات على هذه الأصناف الثمانية ، أو يجوز صرفها إلى البعض دون البعض على حسب ما يراه الإمام أو صاحب الصدقة ؟ فذهب إلى الأوّل الشافعي وجماعة من أهل العلم ، وذهب إلى الثاني : مالك وأبو حنيفة ، وبه قال عمر ، وحذيفة ، وابن عباس ، وأبو العالية ، وسعيد بن جبير ، وميمون بن مهران .

قال ابن جرير وهو قول عامة أهل العلم : احتج الأوّلون بما في الآية من القصر ، وبحديث زياد بن الحرث الصدائي عند أبي داود والدارقطني قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم

فبايعته ، فأتى رجل فقال : أعطني من الصدقة ، فقال له :

" إن الله لم يرض بحكم نبيّ ولا غيره في الصدقات حتى حكم فيها هو ، فجزأها ثمانية أصناف ، فإن كنت من تلك الأجزاء أعطيتك " وأجاب الآخرون بأن ما في الآية من القصر إنما هو لبيان الصرف والمصرف ، لا لوجوب استيعاب الأصناف ، وبأن في إسناد الحديث عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي وهو ضعيف .

(599/340)

ومما يؤيد ما ذهب إليه الآخرون قوله تعالى : ﴿ إِن تُبْدُواْ الصدقات فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : 271] والصدقة تطلق على الواجبة كما تطلق على المندوبة .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردّها في فقرائكم " وقد ادّعى مالك الإجماع على القبول الآخر .

قال ابن عبد البرّ : يريد إجماع الصحابة ، فإنه لا يعلم له مخالفاً منهم .

قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاء ﴾ قدمهم ، لأنهم أحوج من البقية على المشهور لشدّة فاقتهم وحاجتهم .

وقد اختلف أهل العلم في الفرق بين الفقير والمسكين على أقوال : فقال يعقوب بن السكيت ، والقتيبي ، ويونس ابن حبيب : إن الفقير أحسن حالاً من المسكين ، قالوا : لأن الفقير هو الذي له بعض ما يكفيه ويقيمه .

والمسكين الذي لا شيء له ، وذهب إلى هذا قوم من أهل الفقه منهم أبو حنيفة .

وقال آخرون بالعكس ، فجعلوا المسكين أحسن حالاً من الفقير ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ أَمَّا السفينة فَكَانَتْ لمساكين ﴾ [الكهف : 79] .

فأخبر أن لهم سفينة من سفن البحر .

وربما ساوت جملة من المال ، ويؤيده تعوّذ النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفقر مع قوله : " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً " وإلى هذا ذهب الأصمعي وغيره من أهل اللغة .

وحكاه الطحاوي عن الكوفيين ، وهو أحد قولي الشافعي وأكثر أصحابه .

وقال قوم : إن الفقير والمسكين سواء لا فرق بينهما وهو أحد قولي الشافعي ، وإليه ذهب ابن القاسم وسائر أصحاب مالك ، وبه قال أبو يوسف .

وقال قوم : الفقير المحتاج المتعفف ، والمسكين : السائل .

قاله الأزهري ، واختاره ابن شعبان ، وهو مرويّ عن ابن عباس .

وقد قيل غير هذه الأقوال مما لا يأتي الاستكثار منه بفائدة يعتدّ بها .

والأولى في بيان ماهية المسكين : ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند البخاري ومسلم ، وغيرهما ، من حديث أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ليس المسكين بهذا الطواف الذي يطوف على الناس فتردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان " ، قالوا : فما المسكين يا رسول الله ؟ قال : " الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدّق عليه ، ولا يسأل الناس شيئاً " قوله : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ أي : السعاة والجباة الذين يبعثهم الإمام لتحصيل الزكاة ، فإنهم يستحقون منها قسطاً .

وقد اختلف في القدر الذي يأخذونه منها ، فقيل : الثمن .

روي ذلك عن مجاهد والشافعي .

وقيل : على قدر أعمالهم من الأجرة ، روي ذلك عن أبي حنيفة وأصحابه .

وقيل : يعطون من بيت المال قدر أجرتهم .

روي ذلك عن مالك ، ولا وجه لهذا ، فإن الله قد أخبر بأن لهم نصيباً من الصدقة فكيف يمنعون منها ويعطون من غيرها ؟ واختلفوا هل يجوز أن يكون العامل هاشمياً أم لا ؟ فمنعه قوم ، وأجازه آخرون .

قالوا : ويعطى من غير الصدقة .

قوله : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ هم قوم كانوا في صدر الإسلام ، فقيل : هم الكفار الذين كان

النبيّ صلى الله عليه وسلم يتألفهم ليسلموا .

وكانوا لا يدخلون في الإسلام بالقهر والسيف ، بل بالعطاء .

وقيل : هم قوم أسلموا في الظاهر ولم يحسن إسلامهم ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتألفهم بالعطاء ؛ وقيل : هم من أسلم من اليهود والنصارى ، وقيل : هم قوم من عظماء المشركين لهم أتباع ، أعطاهم النبي صلى الله عليه وسلم ليتألفوا أتباعهم على الإسلام .

وقد أعطى النبيّ صلى الله عليه وسلم جماعة ممن أسلم ظاهراً كأبي سفيان بن حرب ، والحرث بن هشام ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، أعطى كل واحد منهم مائة من الإبل تألفهم بذلك ، وأعطى آخرين دونهم .

(601/340)

وقد اختلف العلماء هل سهم المؤلفة قلوبهم باق بعد ظهور الإسلام أم لا ؟ فقال عمر ، والحسن ، والشعبي : قد انقطع هذا الصنف بعزّة الإسلام وظهوره ، وهذا مشهور من مذهب مالك وأصحاب الرأي : وقد ادّعى بعض الحنفية أن الصحابة أجمعت على ذلك .

وقال جماعة من العلماء : سهمهم باق لأن الإمام ربما احتاج أن يتألف على الإسلام .

وإنما قطعهم عمر لما رأى من إعزاز الدين .

قال يونس : سألت الزهري عنهم فقال : لا أعلم نسخ ذلك ، وعلى القول الأول يرجع سهمهم لسائر الأصناف .

قوله : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ أي في فك الرقاب بأن يشتري رقاباً ثم يعتقها .

روي ذلك عن ابن عباس ، وابن عمر ، وبه قال مالك ، وأحمد بن حنبل ، وإسحاق وأبو عبيد .

وقال الحسن البصري ، ومقاتل ابن حيان ، وعمر بن عبد العزيز ، وسعيد بن جبير ، والنخعي ، والزهري ، وابن زيد : إنهم المكاتبون يعانون من الصدقة على مال الكتابة ، وهو قول الشافعي وأصحاب الرأي ، ورواية عن مالك ، والأولى حمل ما في الآية على القولين جميعاً لصدق الرقاب على شراء العبد وإعتاقه ، وعلى إعانة المكاتب على مال الكتابة .

قوله : ﴿ والغارمين ﴾ هم : الذين ركبتهم الديون ولا وفاء عندهم بها ، ولا خلاف في ذلك إلا من لزمه دين في سفاهة فإنه لا يعطى منها ولا من غيرها إلا أن يتوب .

وقد أعان النبيّ صلى الله عليه وسلم من الصدقة من تحمل حمالة وأرشد إلى إعانته منها .

قوله : ﴿ وَفِى سَبِيلِ الله ﴾ هم الغزاة والمرابطون ، يعطون من الصدقة ما ينفقون في

غزوهم ومرابطتهم وإن كانوا أغنياء ، وهذا قول أكثر العلماء .

وقال ابن عمر : هم الحجاج والعمار ، وروي عن أحمد وإسحاق أنهما جعلا الحج من سبيل الله .

وقال أبو حنيفة وصاحباه : لا يعطى الغازي إلا إذا كان فقيراً منقطعاً به .

(602/340)

قوله : ﴿ وابن السبيل ﴾ هو : المسافر ، والسبيل الطريق ، ونسب إليها المسافر لملازمته إياها ، والمراد الذي انقطعت به الأسباب في سفره عن بلده ومستقرّه ، فإنه يعطى منها وإن كان غنياً في بلده ، وإن وجد من يسلفه .

وقال مالك : إذا وجد من يسلفه فلا يعطى .

قوله : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ مصدر مؤكد ؛ لأن قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ معناه : فرض الله الصدقات لهم .

والمعنى : أن كون الصدقات مقصورة على هذه الأصناف هو حكم لازم فرضه الله على عباده ونهاهم عن مجاوزته ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال عباده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أفعاله ؛

وقيل : إن ﴿ فريضة ﴾ منتصبة بفعل مقدّر ، أي فرض الله ذلك فريضة .

قال في الكشاف : فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى "في" في الأربعة الآخرة ؟ قلت : للإيذان بأنها أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ؛ وقيل : النكتة في العدول أن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى ينصرفوا به كما شاءوا ، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم ، بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا سهم الزكاة ، كذا قيل .

وقد أخرج البخاري ، والنسائي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم قسماً إذ جاءه ابن ذي الخويصرة التيمي فقال : اعدل يا رسول الله ، فقال : " ويحك ، ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ " فقال عمر بن الخطاب : ائذن لي فأضرب عنقه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " دعه ، فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية " الحديث حتى قال : وفيهم نزلت : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ ﴾ قال : يرزؤك ويسألك .

وأخرج ابن المنذر ، عن قتادة قال : يطعن عليك .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود قال : لما قسم النبيّ صلى الله عليه وسلم غنائم حنين ، سمعت رجلاً يقول : إن هذه لقسمة ما أريد بها الله ، فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وذكرت ذلك له ، فقال : " رحمة الله على موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " ، ونزل ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : نسخت هذه الآية كل صدقة في القرآن ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن حذيفة ، في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاء ﴾ الآية قال : إن شئت جعلتها في صنف واحد من الأصناف الثمانية التي سمى الله أو صنفين أو ثلاثة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن أبي العالية ، والحسن ، وعطاء ، وإبراهيم ، وسعيد بن جبير ، نحوه .

وأخرج ابن المنذر ، والنحاس ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : الفقير الذي به زمانة ، والمسكين : المحتاج الذي ليس به زمانة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن عمر ، في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ قال : هم زمني أهل الكتاب .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والعاملين عَلَيْهَا ﴾ قال : السعاة أصحاب الصدقة .

وأخرج ابن جرير ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : هم قوم كانوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أسلموا ، وكان يرضخ لهم من الصدقات ، فإذا أعطاهم من الصدقة فأصابوا منها خيراً قالوا : هذا دين صالح ، وإن كان غير ذلك عابوه وتركوه .

(604/340)

وأخرج البخاري ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد ، قال : بعث عليّ بن أبي طالب من اليمن إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم بذهيبة فيها تربتها ، فقسمها بين أربعة من المؤلفة : الأقرع بن حابس الحنظلي وعلقمة بن علاثة العامري ، وعيينة بن بدر الفزاري ، وزيد الخيل الطائي ؛ فقالت قريش والأنصار : يقسم بين صناديد أهل نجد ويدعنا ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنما أتألفهم .

" وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الزهري أنه سئل عن المؤلفة قلوبهم قال : من أسلم من يهودي أو نصرانيّ ، قلت : وإن كان موسراً ؟ قال : وإن كان موسراً .

وأخرج هؤلاء عن أبي جعفر قال : ليس اليوم مؤلفة قلوبهم .

وأخرج هؤلاء أيضاً عن الشعبي مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مقاتل ، في قوله : ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ قال : هم المكاتبون .

وأخرج ابن المنذر ، عن النخعي ، نحوه .

وأخرج أيضاً عن عمر بن عبد الله قال : سهم الرقاب نصفان : نصف لكل مكاتب ممن يدّعي الإسلام ، والنصف الآخر يشتري به رقاب ممن صلى وصام ، وقدم إسلامه من ذكر وأنثى ، يعتقون لله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو عبيد ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، أنه كان لا يرى بأساً أن يعطى الرجل من زكاته في الحج ، وأن يعتق منها رقبة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن الزهري ، أنه سئل عن الغارمين قال : أصحاب الدين .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي جعفر ، في قوله : ﴿ والغارمين ﴾ قال : هو الذي يسأل في دم أو جائحه تصيبه ﴿ وَفِى سَبِيلِ الله ﴾ قال : هم المجاهدون ﴿ وابن السبيل ﴾ قال : المنقطع به يعطى قدر ما يبلغه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس قال : ابن السبيل هو الضيف الفقير الذي ينزل بالمسلمين .

(605/340)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، وابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ إلا لخمسة : العامل عليها ، أو الرجل اشتراها بماله ، أو غارم ، أو غاز في سبيل الله ، أو مسكين تصدّق عليه فأهدى منها لغنيّ " وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والترمذي ، عن عبد الله بن عمر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " لا تحلّ الصدقة لغنيّ ولا لذي مرة سوى " وأخرج أحمد ، عن رجل من بني هلال ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأبو داود ، والنسائي عن عبد الله بن عدي بن الجيار ، قال : أخبرني رجلان أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ، وهو يقسم الصدقة فسألاه منها ، فرفع فينا البصر وخفضه فرآنا جلدين ، فقال : " إن شئتما

أعطيتكما ولا حظّ فيها لغنيّ ولا لقويّ مكتسب" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(606/340)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

ويُسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/341)

الجزء الحادى والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 61 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 64 ﴾ من نفس السورة

(4/341)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما بين الصنفين السالفين ، وختم أمرهما بصفتي العلم والحكمة ، أتبعهما بصنف آخر يؤذي بما يجعله نقصاً في صفات الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليزم الطعن في علم مرسله وحكمته فقال : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ أي الذي أعلى الله مقداره ، فهو ينبئه بما

يريد سبحانه من خفايا الأسرار ؛ ولما أخبر بمطلق الأذى الشامل للقول والفعل ، عطف عليه قوله : ﴿ ويقولون هو ﴾ أي من فرط سماعه لما يقال له ﴿ أذن ﴾ ومرادهم أنه يصدق كل ما يسمع ويقبل قول كل أحد - كما سمي الجاسوس عيناً ؛ قال أبو حيان : كان خذام بن خالد وعبيد بن هلال والجلاس بن سويد في آخرين يؤذون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا ، فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا فإن محمداً أذن سامعة ، ثم نأتيه فيصدقنا ، فنزلت ، وقيل غير ذلك .

رجل أذن - إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع - انتهى .

(5/341)

ومرادهم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يعرف مكر من يمكر به وخداع من يخادعه وكذبوا ، هو أعرف الناس بذلك ، ولكنه يعرض عند المصالح ، لا يليق بمحاسن الدين غيرها ، بينها تعالى بقوله : ﴿ قل أذن خير ﴾ ثم بين أن نفع ذلك عائد إليهم بقوله : ﴿ لكم ﴾ ثم فسر ذلك بقوله : ﴿ يؤمن ﴾ أي يوقع الإيمان للملائكة الذين يأتونه عن الله من التكذيب بأن يصدقهم معترفاً ﴿ بالله ﴾ أي بسبب ما يخبرونه عنه به حق الإيمان لما له من كمال العلم بما له سبحانه من صفات الجلال والإكرام ؛ وحاصله أن فعل الإيمان ضمن فعل التصديق ثم

حذف وانتزعت منه حال أقيمت مقامه ثم حذفت وأتى بصلة تدل عليها كما قالوا في قوله تعالى ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ [البقرة : 185] أن التقدير : حامدين على ما هداكم ، فالتقدير هنا : يؤمن مصدقاً بالله ، فهذا حقيقته وهو يثمر محبة المؤمنين وولايتهم ، ولذا أتبعه قوله : ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي الراسخين ، يوقع الإيمان لهم من التكذيب بأن يصدقهم في كل ما يخبرونه به مما يحتمل التصديق ، وذلك لأجل مصالحهم والتأليف بينهم مع ما ثبت من صدقهم ، فإنه لو حملهم على عقله ومبلغ علمه يحبه الكاذب وعاقب الخائن بمجرد علمه وتفرسه ، لقصرت عن ذلك غالب الأفهام وتاهت بسببه أكثر الأوهام ، فنفرت القلوب ووقع من الأغلب الاتهام .

ولما كان التصديق بوجود الإله على ما له من صفات الكمال المقتضي للأمر والنهي عدي بالباء ، وهنا كان التصديق إنما هو للإخبار بأيّ شيء كان عدي باللام وأشير – بقصر الفعل وهو متعد – إلى مبالغة في التصديق بحيث كأنه لا تصديق غيره .

(6/341)

ولما بين سبحانه أن تصديقه ظاهراً وباطناً إنما هو للراسخين في الإيمان ، بين أن تصديقه لغيرهم إنما هو الظاهر فقال : ﴿ ورحمة ﴾ أي وهو رحمة ﴿ للذين آمنوا ﴾ أي أظهروا

الإيمان بألسنتهم ﴿ منكم ﴾ فهو - والله أعلم - إشارة إلى المنافقين ومن في حكمهم ممن جزم لسانه وقلبه مزلزل ، أي أن إظهار تصديقهم قبولاً لما ظهر منهم وستر قبائح أسرارهم سبب للكف عن دمائهم ، وإظهار المؤمنين لمقتهم ربما كان ذلك سبباً لصدق إيمانهم بما يرون من محاسن الإيمان بتمادي الزمان ، ولا يستبعد كون التعبير بالماضي إشارة إلى المنافقين لا سيما بعد التعبير باسم الفاعل ، فقد قال الإمام أبو الحسن الحرالي في كتابه المفتاح ما نصه : الباب الرابع في رتب البيان عن تطور الإنسان بترقيه في درج الإيمان وترديه في درك الكفران : اعلم أن الله محيط بكل شيء خلقاً وأمراً أولاً وآخراً ظاهراً وباطناً وهو حمده ، وله علو في ظهور أمره وكبير خلقه ، واحتجاب في مقابل ذلك من خلقه وأمره بما أبداه من حكمته وأسباب هداه وفتنته ، وذلك العلو هو إلهيته ، والاحتجاب هو ملكه ، وبينهما إقامة كل خلق لما خلق له وتأييد كل أمر من الأمرين لما أقيم له ، وذلك هو ربانيته ولكل فتق من خلفه وأمره رتق سابق .

(7/341)

ولكل تفاوت سواء ، وذلك هو رحمانيته ، ولكل أقرب في مدد الحجاب اختصاص وذلك هو رحيميته ، ولكل أبعد في مدد الحجاب بطش منه شديد في رده إلى القرب وتلك هي

نقمته ، ولكل من تنزلاته العلية ظاهراً وباطناً أمر خاص ، ولكل أمر خلق ، يرد بيان القرآن لكل خلق بحسب كنه ذاته واختصاص رتبة قربه ومحل بعده ، وأن الله سبحانه جعل آدم وذرأه خليفة له في جميع أمره وتفصيله ، وأنزل القرآن بناء على جملة ذلك ، فأردأ الأحوال لهذا المستخلف المحل الذي سمي فيه بالإنسان ، وهو حيث أنس بنفسه وغيره ونسي عهد ربه ، فيرد لذلك بناؤه بالذم في القرآن ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ﴾ [عبس : 17] ﴿ إن الإنسان لربه لكنود ﴾ [العاديات : 6] ثم المحل الذي تداركه فيه تنبه لسماع الزجر من ربه ، وهو له بمنزلة سن المميّز لابن سبع ، ولا يقع إلا عن اجتماع وتراء ، وذلك هو السن المسمون فيه بالناس لنوسهم ، أي ترددهم بين سماع الزجر من ربهم وغلبة أهوائهم عليهم ، فيرد لذلك بناؤهم بذم أكثرهم في القرآن ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الأعراف : 187] - ﴿ ولا يشكرون ﴾ ثم المحل الذي يتحقق لهم قبول وسماع وإيمان لغائب الأمر والخلق ، لكنهم يتزلزلون عنه كثيراً عند كل عارضة نيل خادعة رفعة ، وهو لهم بمنزلة سن المحتلم الذي قد ذاق طعم بدو النطفة من باطنه الناجم العقل للنظر في حقائق المحسوسات ، وذلك هو السن الذي يسعون فيه ﴿ الذين آمنوا ﴾ وهو أول سن التلقي ، فلذلك جميع آداب القرآن وتعليمه إنما مورده أهل هذا السن ، كان ابن مسعود - رضى الله عنهم - يقول : إذا سمعت الله عز وجل يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ فأعرها سمعك فإنه خير يأمر به أو شر ينهي عنه ، وكما أن ما يخص البالغ العاقل من الخطاب لا يدخل فيه الصبي المميز ، وما

يخص المميز لا يدخل فيه البالغ ، كذلك خطاب ﴿ الذين آمنوا ﴾ لم يصل إليه الناس بعد ، وخطاب الناس قد جاوزه ﴿ الذين آمنوا ﴾ لأنهم قد انزجروا بما قبلت قلوبهم عما ينزجر

(8/341)

عنه الناس ، وقد ائتمروا بما يأتمر به الناس ؛ وهذه الأسنان الخالية عند أولي البصائر ، وخاص خطابها أشد ظهوراً من أسنان الأبدان عند أصحاب الأبصار ، وعدم التبصرة بهذه المراتب في الأحوال والبيان هي أقفال القلوب المانعة من تدبر القرآن ، وكذلك ما فوق سن " الذين آمنوا " من سن ﴿ الذين يؤمنون ﴾ وهم في أول حد القرب منزلة بلوغ الأشد ، وسن ﴿ الذين آمنوا ﴾ و ﴿ الناس ﴾ في مدد حد البعد ولذلك يخاطبون بحرف " يا " المرسلة إلى حد البعد :

﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله ﴾ [الصف : 10] وفوق ذلك سن المؤمنين وأدنى قرباً ، ولذلك لم يرد في القرآن في خطابهم ﴿ يا ﴾ البعد ، وهذا السن بمنزلة الاكتهال وسن الشيب ، وتمام سنهم ﴿ المؤمنون حقاً ﴾ وكذلك إلى سن ﴿ المحسنين ﴾ إلى غيب سن ﴿ الموقنين ﴾ إلى ما وراء ذلك ، فإن أسنان الجسم أرابيع ، وأسنان القلب أسابيع ، يعرفها من تطور فيها ، ويجهلها من نبت

سن قلبه على الجهل وتطور سن جسمه إلى الهرم " يهرم ابن آدم ويشيب منه اثنتان : الحرص والأمل " فالحرص فقره ولو ملك الدنيا ، والأمل همه وتعبه ، فمن لم يتحقق أسنان القلب وتفاوت خطابها لم ينفتح له الباب إلى فهم القرآن ، ومن لم يتضح له تنزلات الخطاب لم يبن له خطاب الله من خطاب الرحمن من خطاب الملك الديان – انتهى .

ولما بين ما لمن صدقه باطناً أو ظاهراً من الرحمة ، بين ما على من كذبه فآذاه من النقمة فقال : ﴿ والذين يؤذون ﴾ أي هؤلاء ومن غيرهم ﴿ رسول الله ﴾ أي الذي أظهر – وهو الملك الأعلى – شرفه وعظمته بالجمع بين الوصفين وأعلاه بإضافته إليه ، وزاد في رفعته بالتبيير باسمه الأعظم الجامع ، وهو واسطة بين الحق والخلق في إصلاح أحوالهم فإنما يستحق منهم الشكر والإكرام لا الأذى والإيلام .

ولما كان أذاهم مؤلماً جعل جزاءهم من جنسه فقال : ﴿ لهم عذاب أليم ﴾ ثم علل ذلك باستهانتهم بالله ورسوله ، وأخبر أنهم يخشون على دمائهم فيصلحون ظواهرهم حفظاً لها بالأيمان الكاذبة فقال : ﴿ يحلفون بالله ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 341.338 ﴾

(9/341)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يقولون في رسول الله أنه أذن على وجه الطعن والذم ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم في رواية الأعمش وعبد الرحمن عن أبي عكرمة عنه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ مرفوعين منونين ، على تقدير : إن كان كما تقولون إنه أذن .

فأذن خير لكم يقبل منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ، والباقون ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ بالإضافة ، أي هو أذن خير ، لا أذن شر ، وقرأ نافع ﴿ أَذِنَ ﴾ ساكنته الذال في كل القرآن ، والباقون بالضم وهما لغتان مثل عنق وظفر .

المسألة الثانية :

قال ابن عباس رضي الله عنه : أن جماعة من المنافقين ، ذكروا النبي صلى الله عليه وسلم بما لا ينبغي من القول فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما نقول ، فقال الجلاس بن سويد : بل نقول ما شئنا ، ثم نذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا ، فيقبل قولنا ، وإنما محمد أذن سامعة ، فنزلت هذه الآية .

وقال الحسن : كان المنافقون يقولون ما هذا الرجل إلا أذن ، من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له .

وروى الأصم أن رجلاً منهم قال لقومه إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن شر من الحمير فسمعها ابن امرأته ، فقال : والله إنه لحق وإنك أشر من حمارك ، ثم بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فقال بعضهم : إنما محمد أذن ولو لقيته وحلفت له ليصدقنك ، فنزلت هذه الآية على وفق قوله .

فقال القائل : يا رسول الله لم أسلم قط قبل اليوم ، وإن هذا الغلام لعظيم الثمن علي والله لأشكرنه ثم قال الأصم : أظهر الله تعالى عن المنافقين وجوه كفرهم التي كانوا يسرونها لتكون حجة للرسول ولينزجروا .

فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ .

(10/341)

ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى ﴾ ثم قال : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ إلى غير ذلك من الأخبار عن الغيوب ، وفي كل ذلك دلائل على كونه نبياً حقاً من عند الله .

المسألة الثالثة :

اعلم أنه تعالى حكى أن من المنافقين من يؤذي النبي ، ثم فسر ذلك الإيذاء بأنهم يقولون للنبي أنه أذن ، وغرضهم منه أنه ليس له ذكاء ولا بعد غور ، بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع ، فلهذا السبب سموه بأنه أذن ، كما أن الجاسوس يسمى بالعين يقال : جعل فلان علينا عيناً ، أي جاسوساً متفحصاً عن الأمور ، فكذا ههنا .

ثم إنه تعالى أجاب عنه بقوله ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ والتقدير : هب أنه أذن لكنه خير لكم وقوله : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ مثل ما يقال فلان رجل صدق وشاهد عدل ، ثم بين كونه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ جعل تعالى هذه الثلاثة كالموجبة لكونه عليه الصلاة والسلام ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ فلنبين كيفية اقتضاء هذه المعاني لتلك الخيرية .

أما الأول : وهو قوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ فلأن كل من آمن بالله خائفاً من الله ، والخائف من الله لا يقدم على الإيذاء بالباطل .

وأما الثاني : وهو قوله : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فالمعنى أنه يسلم للمؤمنين قولهم والمعنى أنهم إذا توافقوا على قول واحد ، سلم لهم ذلك القول ، وهذا ينافي كونه سليم القلب سريع الاغترار .

فإن قيل : لم عدى الإيمان إلى الله بالباء وإلى المؤمنين باللام ؟

قلنا : لأن الإيمان المعدى إلى الله المراد منه التصديق الذي هو نقيض الكفر ، فعدى بالباء ، والإيمان المعدى إلى المؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فيتعدى باللام ، كما في قوله : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ [يوسف : 17] وقوله : ﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ [يونس : 83] وقوله : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] وقوله : ﴿ ءامَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لكم ﴾ [الشعراء : 49] .

وأما الثالث : وهو قوله : ﴿ وَرَحْمَةٌ للذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ فهذا أيضاً يوجب الخيرية لأنه يجري أمركم على الظاهر ، ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنكم ، ولا يسعى في هتك أستاركم ، فثبت أن كل واحد من هذه الأوصاف الثلاثة يوجب كونه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ ولما بين كونه سبباً للخير والرحمة بين أن كل من آذاه استوجب العذاب الأليم ، لأنه إذا كان يسعى في إيصال الخير والرحمة إليهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي ، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور ، فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى .

المسألة الرابعة :

أما قراءة من قرأ ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ بالتنوين في الكلمتين ففيه وجوه :

الوجه الأول : التقدير قل أذن واعية سامعة للحق خير لكم من هذا الطعن الفاسد الذي

تذكرون ، ثم ذكر بعده ما يدل على فساد هذا الطعن ، وهو قوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ والمعنى أن من كان موصوفاً بهذه الصفات ، فكيف يجوز الطعن فيه ، وكيف يجوز وصفه بكونه سليم القلب سريع الاغترار ؟

الوجه الثاني : أن يضمر مبتدأ ، والتقدير : هو أذن خير لكم ، أي هو أذن موصوف بالخيرية في حقكم ، لأنه يقبل معاذيركم ، ويتغافل عن جهالاتكم ، فكيف جعلتم هذه الصفة طعناً في حقه ؟

الوجه الثالث : وهو وجه متكلف ذكره صاحب النظم .

(12/341)

فقال : ﴿ أُذُنُ ﴾ وإن كان رفعاً بالابتداء في الظاهر لكن موضعه نصب على الحال وتأويله قل هو أذناً خير إذا كان أذناً فهو خير لكم لأنه يقبل معاذيركم ، ونظيره ، وهو حافظاً خير لكم ، أي هو حال كونه حافظاً خير لكم إلا أنه لما كان محذوفاً وضع الحال مكان المبتدأ تقديره ، وهو حافظ خير لكم وإضمار "هو" في القرآن كثير .

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ ﴾ أي هم ثلاثة ، وهذا الوجه شديد التكلف ، وإن كان قد استحسنه الواحدي جداً .

المسألة الخامسة :

قرأ حمزة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالجر عطفاً على ﴿ خَيْرٌ ﴾ كأنه قيل : أذن خير ورحمة ، أي مستمع كلام يكون سبباً للخير والرحمة .

فإن قيل : وكل رحمة خير ، فأي فائدة في ذكر الرحمة عقيب ذكر الخير ؟

قلنا : لأن أشرف أقسام الخير هو الرحمة ، فجاز ذكر الرحمة عقيب ذكر الخير ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَلَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ ﴾ [البقرة : 98] قال أبو عبيد : هذه القراءة بعيدة لأنه تباعد المعطوف عن المعطوف عليه .

قال أبو علي الفارسي : البعد لا يمنع من صحة العطف ، ألا ترى أن من قرأ ﴿ وَقِيلِهِ يارب ﴾ [الزخرف : 88] إنما يحمله على قوله : ﴿ وَعِندَهُ عِلْمُ الساعة ﴾ [لقمان : 34] تقديره : وعنده علم الساعة وعلم قيله .

فإن قيل : ما وجه قراءة ابن عامر ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ بالنصب ؟

قلنا : هي علة معللها محذوف ، والتقدير : ورحمة لكم يأذن إلا أنه حذف ، لأن قوله : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ يدل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 92. 94 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى ﴾

قال ابن عباس : نزلت في جماعة من المنافقين منهم الجلاس بن سويد ومحشر بن خويلد وأبو ياسر بن قيس ؛ وذلك أنهم كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رجل منهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر .

فقال الجلاس : نقول ما نشاء ، فإنما ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ سامعة ثم نأتيه فيصدقنا ، والأذن الذي يقبل كل ما قيل له .

قال تعالى ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ، يعني : إن كان الأمر كما تذكرون فهو خير لكم ، ولكنه ﴿ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني : يصدق الله ويصدق المؤمنين لا أنتم ؛ والباء واللام زائدتان ، يعني : ويصدق محمد المؤمنين فذلك قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى ﴾ يعني : من المنافقين من يؤذي النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ ؛ يعني : سامع لمن حدثه .

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ .

قرأ العامة قل : ﴿ أُذِنَ ﴾ بغير تنوين ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ بالكسر ؛ وقرأ بعضهم : ﴿ قُلْ أُذُنُ ﴾ بالتنوين ﴿ خَيْرٌ ﴾ بالتنوين والضم .

فمن قرأ أُذُنٌ بالتنوين ، فمعناه إن كان محمد كما قلتم أذنٌ فهو خيرٌ لكم أي صلاح لكم ، ومن قرأ بالكسر أُذُنُ خَيْرٍ فهو على معنى الإضافة ، أي أذن خير وأذن نعمة .

وقرأ نافع : ﴿ قُلْ أُذُنُ ﴾ بجزم الذال والباقون بالضم وهما لغتان .

﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ ، يعني : يصدق بالله تعالى في مقالته ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ يعني : يصدق قول المؤمنين ، ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ؛ يعني : هو نعمة ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ ، أي هو نعمة الذين آمنوا في السر والعلانية .

قرأ حمزة ﴿ وَرَحْمَةٍ ﴾ على معنى الإضافة ، يعني : أذن رحمة ، وقرأ الباقون ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ بالضم على معنى الاستئناف .

ثم قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، يعني وجيع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(14/341)

وقال الثعلبي :

ثمّ رجع إلى ذكر المنافقين وقال : ﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ يعني من المنافقين ﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ نزلت في حزام بن خالد ، والجلاس بن سويد ، وإياس بن قيس ،

ومخشي بن خويلد ، وسمّاك بن يزيد ، وعبيد بن هلال ورفاعة بن المقداد ، وعبيدة بن مالك ، ورفاعة بن زيد ، كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون مالا ينبغي ، فقال بعضهم : لا تفعلوا مايقولون فيقع بنا ، فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول : فإنّما محمد أذن سامعة فأنزل الله هذه الآية .

وقال محمد بن إسحاق عن يسار وغيرة نزلت في رجل من المنافقين يقال له : نهشل بن الحرث ، وكان حاسر الرأس أحمر العينين أسفح الخدين مشوّه الخلقة ، وهو الذي قال النبي صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر الى الشيطان فلينظر إلى نهشل بن الحرث " ، وكان ينمّ حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له : لا تفعل ، فقال : إنما محمد أذن ، من حدّثه شيئاً يقبل ، نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له ويصدقنا عليه ، فأنزل : ﴿ الذين يُؤْذُونَ النبي وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يسمع من كل واحد ويقبل ما يقال له ومثله أذنة على وزن فعلة ويستوي فيه المذكر والمؤنث والواحد والجمع ، وأصله : أذن يأذن أذناً إذا استمع ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم ما اذن الله لشيء كأذنه لنبي بمعنى القرآن ، وقال عدي بن زيد :

أيها القلب تعلل بددن . . . إن همي في سماع وأَذَن

وقال الأعشى :

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذُكرتُ به . . . وإن ذُكرتُ بشرَ عندهم أذنوا

وكان أُستاذنا أبو القاسم الجبيبي يحكي عن أبي زكريا العنبري عن ابن العباس الازهري عن أبي حاتم السجستاني أنّه قال : هو أذن أي ذو أذن سامعة .

(15/341)

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ قراءة العامة بالإضافة أي أذن خير لا أذن شرّ ، وقرأ الحسن والأشهب العقيلي : والأعمش والبرجمي : أذن خير لكم مرفوعاً من المنافقين ومعناه : إنْ كان محمداً كما تزعمون بأن يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم .

ثم كذّبهم فقال ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعلمهم ، وقيل : يقال أمنتك وأمنت لك بمعنى صدقتك كقوله : ﴿ والذين هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون : 58] أي [. . . . .] ربهم ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ قرأ الحسن وطلحة والأعمش وحمزة : (ورحمة) عطفاً على معنى أُذن خير وأُذن شر في قول عبد الله وأُبي ، وقرأ الباقون : (ورحمة) بالرفع أي : هو أُذن خير ، وهو رحمة ، جعل الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم مفتاح الرحمة ومصباح الظلمة وهو اختيار أبي عبيد وأبي حاتم .

﴿ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(16/341)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

أي يصغي إلى كل أحد ، فيسمع منه ، قال عدي بن زيد :

أيها القلب تعلّل بددن . . . إن همي من سماع وأذن

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي يسمع الخير ويعمل به ، لا أذن شر يفعله إذا سمعه .

قال الكلبي : نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين كانوا يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون فيه ما لا يجوز ، فنزلت هذه الآية فيهم .

وفي تأويلها وجهان :

أحدهما : أنهم كانوا يعيبونه بأنه أذن يسمع جميع ما يقال له ، فجعلوا ذلك عيباً فيه .

والثاني : أنهم عابوه فقال أحدهم : كفوا فإني أخاف أن يبلغه فيعاقبنا ، فقالوا : هو أُذن إذا أجبناه وحلفنا له صدقنا ، فنسبوه بذلك إلى قبول العذر في الحق والباطل ، قاله الكلبي

ومقاتل .

وقيل إن قائل هذا نفيل بن الحارث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(17/341)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

الضمير في قوله ﴿ ومنهم ﴾ عائد على المنافقين ، و ﴿ يؤذون ﴾ لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ، وخص بعد ذلك من قولهم ﴿ هو أذن ﴾ ، وروي أن قائل هذه اللفظة نبتل بن الحارث وكان من مردة المنافقين ، وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من سره أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث وكان ثائر الرأس منتفش الشعرة أحمر العينين أسفع الدين مشوهاً ، روي عن الحسن البصري ومجاهد أنهما تأولا أنهم أرادوا بقولهم ﴿ هو أذن ﴾ أي يسمع منا معاذيرنا وتنصلنا ويقبله ، أي فنحن لا نبالي عن أذاه ولا الوقوع فيه إذ هو سماع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه ، فهذا تنقص بقلة الحزامة والانخداع ، وروي عن ابن عباس وجماعة معه أنهم أرادوا بقوله ﴿ هو أذن ﴾ أي يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصغي إليه ويقبله ، فهذا

تشكٍّ منه ووصف بأنه يسوغ عنده الأباطيل والنمائم ، ومعنى ﴿ أذن ﴾ سماع ، ويسمى الرجل السماع لكل قول أذناً إذا كثر منه الإبل التي قد بزل نابها ناب وقيل معنى الكلام ذو أذن أي ذو سماع ، وقيل إن قوله ﴿ أذن ﴾ مشتق من قولهم أذن للشيء إذا استمع كما قال الشاعر وهو علي بن زيد : [الرمل]

أيها القلب تعللْ بِدَدَنْ . . . إن همّي في سماعٍ وأَذَنْ

وفي التنزيل ﴿ وأذنت لربها وحقت ﴾ [الإنشقاق : 2-5] ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم " ما أذن الله لشيء كأذنه لنبي يتغنى بالقرآن " ومن هذا قول الشاعر [عدي بن زيد] : [الرمل]

في سماع يأذن الشيخ له . . . وحديث مثل ماذيّ مشار

ومنه قوله الآخر [قعنب بن أم صاحب] : [البسيط]

صمٌّ إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . . وإن ذكرت بسوء عندهم أذنوا

(18/341)

وقرأ نافع " أذْن " بسكون الذال فيهما ، وقرأ الباقون " أذُن " بضم الذال فيهما ، وكلهم قرأ بالإضافة إلى ﴿ خير ﴾ إلا ما روي عاصم ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ومجاهد

وعيسى بخلاف " قل أذنٌ خيرٌ " برفع خير وتنوين " أذن " وهذا يجري مع تأويل الحسن الذي ذكرناه أي من يقبل معاذيركم خير لكم ، ورويت هذه القراءة عن عاصم ، ومعنى " أذن خير " على الإضافة أي سماع خير وحق ، ﴿ ويؤمن بالله ﴾ معناه يصدق بالله ، ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ قيل معناه ويصدق المؤمنين واللام زائدة كما هي في قوله ﴿ ردف لكم ﴾ [النمل : 72] وقال المبرد هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال وإيمانه للمؤمنين أي تصديقه ، ويقال آمنت لك بمعنى صدقتك ومنه قوله تعالى :

﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ [يوسف : 17] .

قال القاضي أبو محمد : وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باء فالمعنى ويصدق للمؤمنين بما يخبرونه ، وكذلك ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ [يوسف : 17] بما نقوله لك والله المستعان ، وقرأ جميع السبعة إلا حمزة " ورحمةٌ " بالرفع عطفاً على ﴿ أذن ﴾ وقرأ حمزة وحده " ورحمةٍ " بالخفض عطفاً على ﴿ خير ﴾ ، وهي قراءة أبي بن كعب وعبد الله والأعمش ، وخصص الرحمة ﴿ للذين آمنوا ﴾ إذ هم الذين نجوا بالرسول وفازوا به ، ثم أوجب تعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم وحتم عليهم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن خِذام بن خالد ، والجُلاس بن سويد ، وعبيد بن هلال في آخرين ، كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بعضهم لبعض : لا تفعلوا ، فانا نخاف أن يبلغه فيقع بنا ، فقال الجلاس : بل نقول ما شئنا ، فانما محمد أُذُنٌ سامعة ، ثم نأتيه فيصدّقنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من المنافقين يقال له : نَبْتَل بن الحارث ، كان ينم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين ، فقيل له : لا تفعل ، فقال : إنما محمد أُذُن ، مَنْ حدّثه شيئاً ، صدقه ؛ نقول ما شئنا ، ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا ، فنزلت هذه الآية ؛ قاله محمد بن إسحاق .

والثالث : أن ناساً من المنافقين منهم جلاس بن سويد ، ووديعة بن ثابت ، اجتمعوا ، فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم ، وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه ، فتكلموا ، وقالوا : لئن كان ما يقوله محمد حقاً ، لنحن شر من الحمير ، فغضب الغلام ، وقال : والله إن ما يقوله محمد حق ، وإنكم لشرٌ من الحمير ؛ ثم أتى النبيَّ

صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعاهم فسألهم ، فحلفوا أن عامراً كاذب ، وحلف عامر أنهم كذبُوا ، وقال : اللهم لا تفرِّق بيننا حتى تبيِّنَ صدق الصادق ، وكذب الكاذب ؛ فنزلت هذه الآية ، ونزل قوله : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ قاله السدي .

فأما الأذى ، فهو عيبه ونقل حديثه .

ومعنى : ﴿ أُذُنٌ ﴾ يقبل كل ما قيل له .

قال ابن قتيبة : الأصل في هذا أن الأُذُنَ هي السامعة ، فقيل لكل من صدَّق بكل خبر يسمعه : أُذُنٌ .

وجمهور القراء يقرؤون ﴿ هو أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾ بالتثقيل .

وقرأ نافع : "هو أُذْنٌ قل أُذْنُ خير" باسكان الذال فيهما .

(20/341)

ومعنى ﴿ أُذُنُ خيرٍ لكم ﴾ أي : أذن خير ، لا أُذُنُ شرّ ، يسمع الخير فيعمل به ، ولا يعمل بالشرّ إذا سمعه .

وقرأ ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، ومجاهد ، وابن يعمر ، وابن أبي عبلة : "أُذُنٌ" بالتنوين "خيرٌ" بالرفع .

والمعنى : إن كان كما قلتم ، يسمع منكم ويصدِّقكم ، خيرٌ لكم من أن يكذِّبكم .

قال أبو علي : يجوز أن تطلق الأذن على الجملة ، كما قال الخليل : إنما سميت النابُ من الإبل ، لمكان الناب البازل ، فسميت الجملة كلُّها به ، فأجرَوا على الجملة اسم الجارحة لإرادتهم كثرة استعماله لها في الإصغاء بها .

ثم بيَّن ممن يَقبل ، فقال ﴿ يؤمِنُ بالله ويؤمِنُ للمؤمنين ﴾ قال ابن قتيبة : الباء واللام زائدتان ، والمعنى : يصدِّق اللهَ ويصدِّقُ المؤمنين .

وقال الزجاج : يسمع ما ينزِّله الله عليه ، فيصدِّق به ، ويصدِّق المؤمنين فيما يخبرونه به .

﴿ ورحمةٌ ﴾ أي : وهو رحمة ، لأنه كان سبب إيمان المؤمنين .

وقرأ حمزة : "ورحمةٍ" بالخفض .

قال أبو علي : المعنى : أُذُنُ خيرٍ ورحمة .

والمعنى : مستمعُ خيرٍ ورحمةٍ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(21/341)

وقال القرطبى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

بيّن تعالى أن في المنافقين من كان يبسط لسانه بالوقيعة في أذِيّة النبيّ صلى الله عليه وسلم ويقول : إن عاتبني حلفتُ له بأني ما قلت هذا فيقبله ؛ فإنه أُذُنٌ سامعة .

قال الجوهري : يُقال رجل أُذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ؛ يستوي فيه الواحد والجمع .

وروى عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ قال : مستمع وقابل .

وهذه الآية نزلت في عَتّاب بن قُشير ، قال : إنما محمد أُذن يقبل كل ما قيل له .

وقيل : هو نَبْتَل بن الحارث ؛ قاله ابن إسحاق .

وكان نبتل رجلاً جسيماً ثائرَ شعر الرأس واللحية ، آدمَ أحمر العينين أسفعَ الخدّين مشوّه الخِلْقة ، وهو الذي قال فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث " السّفعة (بالضم) : سواد مُشْرَب بحمرة .

والرجل أسفع ؛ عند الجوهري .

وقرىء "أُذن" بضم الذال وسكونها .

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي هو أذن خير لا أذن شرّ ؛ أي يسمع الخير ولا يسمع الشر .

وقرأ "قل أُذُنٌ خيرٌ لكم" بالرفع والتنوين ، الحسنُ وعاصم في رواية أبي بكر .

والباقون بالإضافة ، وقرأ حمزة "ورحمةٍ" بالخفض .

والباقون بالرفع عطف على "أذن" ، والتقدير : قل هو أذن خير وهو رحمة ، أي هو مستمع

خير لا مستمع شر ، أي هو مستمع ما يحب استماعه ، وهو رحمة .

ومن خفض فعلى العطف على "خيرٍ" .

قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد : لأنه قد تباعد ما بين الاسمين ، وهذا يقبح في المخفوض .

المهدوِيّ : ومن جر الرحمة فعلى العطف على "خير" والمعنى مستمعُ خير ومستمع رحمة ؛ لأن الرحمة من الخير .

ولا يصح عطف الرحمة على المؤمنين ؛ لأن المعنى يصدّق بالله ويصدّق المؤمنين ؛ فاللام زائدة في قول الكوفيين .

ومثله ﴿ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾ [الأعراف : 154] أي يرهبون ربهم .

(22/341)

وقال أبو عليّ : كقوله "رَدِفَ لَكُمْ" وهي عند المبرّد متعلقة بمصدر دلّ عليه الفعل ، التقدير : إيمانه للمؤمنين ؛ أي تصديقه للمؤمنين لا للكفار .

أو يكون محمولاً على المعنى ؛ فإن معنى يؤمن يصدّق ، فعُدّي باللام كما عُدّي في قوله تعالى

: ﴿ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ [البقرة : 97] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(23/341)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾

نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويعيبونه ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين بل نقول ما شئنا ثم نأتيه وننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن أي يسمع كل ما يقال له ويقبله وقيل معنى هو أذن أي ذو أذن سامعة ، وقال محمد بن إسحاق : نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان أزنم ثائر الشعر أحمد العينين أسقع الخدين مشوه الخلقة وقد قال فيه النبي : " من أحب أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث " وكان ينم حديث النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى المنافقين .

فقيل له : لا تفعل ذلك .

فقال : إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه فنقول ما شئنا ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا ، فأنزل الله هذه الآية .

(24/341)

ومقصد المنافقين بقوله هو أذن أنه ليس بعيد غور بل هو سليم سريع الاغترار بكل ما يسمع فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله : ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ يعني هب أنه أذن لكنه أذن خير لكم كقولك رجل صدق وشاهد عدل والمعنى أنه مستمع خير وصلاح لا مستمع شر وفساد وقرئ أذن خير مرفوعين منونين ومعناه يسمع منكم ويصدقكم خير لكم من أن يكذبكم ولا يقبل قولكم ثم وصف الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) بقوله تعالى : ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ يعني أنه يصدق المؤمنين ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين وإنما عدي الإيمان بالله بالباء والإيمان للمؤمنين باللام لأن الإيمان بالله هو نقيض الكفر فلا يتعدى إلا بالباء فيقال : آمن بالله والإيمان للمؤمنين معناه تصديق المؤمنين فيما يقولونه فلا يقال إلا باللام ومنه قوله تعالى أنؤمن لك وقوله آمنتم له ﴿ ورحمة ﴾ أي هو رحمة ﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ وإنما قال منكم لأن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون فبين الله سبحانه وتعالى كذبهم بقوله إنه رحمة للمؤمنين المخلصين لا للمنافقين وقيل في كونه (

صلى الله عليه وسلم) رحمة لأنه يجري أحكام الناس على الظاهر ولا ينقب عن أحوالهم ولا يهتك أسرارهم ﴿ والذين يؤذنون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(25/341)

وقال أبو حيان :

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾

كان قدام بن خالد وعبيد بن هلال والجلاس بن سويد في آخرين يؤذون الرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه فيوقع بنا .

فقال الجلاس : بل نقول بما شئنا ، فإنّ محمداً أذن سامعة ، ثم نأتيه فيصدقنا فنزلت .

وقيل : نزلت في نبتل بن الحرث كان ينم حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى المنافقين ، فقيل له : لا تفعل ، فقال ذلك القول .

وقيل : نزلت في الجلاس وزمعة بن ثابت في آخرين أرادوا أن يقعوا في الرسول وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس فحقروه ، فقالوا : لئن كان ما يقول محمّد حقاً لنحن شر من الحمير ، فغضب الغلام فقال : والله إنّ ما يقول محمد حق ، وأنتم لشر من الحمير ، ثم أتى

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأخبره فدعاهم ، فسألهم ، فحلفوا أنّ عامراً كاذب ، وحلف عامر أنهم كذبة وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب ، ونزلت هذه الآية يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، فقال رجل : أذن إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع قاله الجوهري .

وقال الزمخشري : الأذن الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ، ويقبل قول كل أحد ، سمي بالجارحة التي هي آلة السماع ، كان جملته أذن سامعة ونظيره قولهم للرئية : عين .

وقال الشاعر :

قد صرت أذناً للوشاة سميعة . . .

ينالون من عرضي ولو شئت ما نالوا

وهذا منهم تنقيص للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، إذ وصفوه بقلة الحزامة والانخداع .

وقيل : المعنى ذو أذن ، فهو على حذف مضاف قاله ابن عباس .

وقيل : أذن حديد السمع ، ربما سمع مقالتنا .

وقيل : أذن وصف بنى على فعل من أذن يأذن أذناً إذا استمع ، نحو أنف وشلل وارتفع .

أذن على إضمار مبتدأ أي : قل هو أذن خير لكم .

وهذه الإضافة نظيرها قولهم : رجل صدق ، تريد الجودة والصلاح .

كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الإذن .

ويجوز أن يراد هو أذن في الخير والحق وما يجب سماعه وقبوله ، وليس بإذن في غير ذلك .

ويدل عليه خير ورحمة في قراءة من جرها عطفاً على خير أي : هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله ، قاله الزمخشري .

وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن علي وأبو بكر عن عاصم في رواية قل : أذن بالتنوين خير بالرفع .

وجوزوا في أذن أن يكون خبر مبتدأ محذوف ، وخير خبر ثان لذلك المحذوف أي : هو أذن هو خير لكم ، لأنه (صلى الله عليه وسلم) يقبل معاذيركم ولا يكافئكم على سوء خلتكم .

وأن يكون خير صفة لأذن أي : أذن ذو خير لكم .

أو على أنّ خيراً أفعل تفضيل أي : أكثر خيراً لكم ، وأن يكون أذن مبتدأ خبره خبر .

وجاز أن يخبر بالنكرة عن النكرة مع حصول الفائدة فيه قاله صاحب اللوامح ، وهو جائز على تقدير حذف وصف أي : أذن لا يؤاخذكم خير لكم ، ثم وصفه تعالى بأنه يؤمن بالله ، ومن آمن بالله كان خائفاً منه لا يقدم على الإيذاء بالباطل .

ويؤمن للمؤمنين أي : يسمع من المؤمنين ويسلم لهم ما يقولون ويصدقهم لكونهم مؤمنين ، فهم صادقون .

ورحمة للذين آمنوا منكم ، وخص المؤمنين وإن كان رحمة للعالمين ، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم ، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم .

وهذه الأوصاف الثلاثة مبينة جهة الخيرية ، ومظهرة كونه (صلى الله عليه وسلم) أذن خير .

وتعدية يؤمن أولاً بالباء ، وثانياً باللام .

قال ابن قتيبة : هما زائدان ، والمعنى : يصدق الله ، ويصدق المؤمنين .

وقال الزمخشري : قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر ، فعدى بالباء ، وقصد الاستماع للمؤمنين ، وإن يسلم لهم ما يقولون فعدى باللام .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ ما أنباه عن الباء ونحوه ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قَومه ﴾ ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ ﴿ آمنتم له قبل أن آذن ﴾ انتهى .

(27/341)

وقال ابن عطية : يؤمن بالله يصدق بالله ، ويؤمن للمؤمنين .

قيل : معناه ويصدق المؤمنين ، واللام زائدة كما هي في ﴿ ردف لكم ﴾ وقال المبرد : هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل ، كأنه قال : وإيمانه للمؤمنين أي : وتصديقه .

وقيل : يقال آمنت لك بمعنى صدقتك ، ومنه قوله : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ﴾ وعندي أنّ هذه التي معها اللام في ضمنها باء فالمعنى : ويصدق للمؤمنين فيما يخبرونه به ، وكذلك وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك انتهى .

وقرأ أبي ، وعبد الله ، والأعمش ، وحمزة : ورحمة بالجر عطفاً على خير ، فالجملة من يؤمن اعتراض بين المتعاطفين ، وباقي السبعة بالرفع عطفاً على يؤمن ، ويؤمن صفة لأذن خير .

وابن أبي عبلة : بالنصب مفعولاً من أجله حذف متعلقه التقدير : ورحمة يأذن لكم ، فحذف لدلالة أذن خير لكم عليه .

وأبرز اسم الرسول ولم يأت به ضميراً على نسق يؤمن بلفظ الرسول تعظيماً لشأنه ، وجمعاً له في الآية بين الرتبتين العظيمتين من النبوّة والرسالة ، وإضافته إليه زيادة في تشريفه ، وحتم على من أذاه بالعذاب الأليم ، وحق لهم ذلك والذين يؤذون عام يندرج فيه هؤلاء الذين أذوا هذا الإيذاء الخاص وغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ﴾

نزلت في فِرقة من المنافقين قالوا في حقه عليه الصلاة والسلام ما لا ينبغي فقال بعضُهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلُغه ذلك فيقعَ بنا فقال الجُلاَسُ بنُ سُوَيْد : نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلِف فيصدقنا بما نقول ، إنما محمدٌ أذُنٌ سامعة وذلك قوله عز وجل ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ أي سمع كلَّ ما قيل من غير أن يتدبَّرَ فيه ويميّزَ بين ما يليق بالقَبول لمساعدة أَمارات الصدقِ له وبين ما لا يليق به ، وإنما قالوه لأنه عليه الصلاة والسلام كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ويصفَحُ عنهم حِلماً وكرماً فحملوه على سلامة القلبِ وقالوا ما قالوا ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ من قبيل رجلُ صدقٍ في الدلالة على المبالغة في الجودة والصلاح ، كأنه قيل : نعم هو أذنٌ ولكن نِعمَ الأذُنُ ، ويجوز أن يكون المرادُ أذناً في الخير والحقّ وفيما ينبغي سماعُه وقَبولُه لا في غير ذلك كما يدل عليه قراءةُ رحمةٍ بالجر عطفاً عليه أي هو أذنُ خيرٍ ورحمةٍ لا يسمع غيرَهما ولا يقبله ، وقرىء أذْن بسكون الذال فيهما وقرىء أذن خير على أنه صفةٌ أو خبرٌ ثان وقوله عز وجل ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ ﴾ تفسيرٌ لكونه أذنَ خيرٍ لهم أي يصدق

بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة الموجبةِ له ، وكونُ ذلك خيراً للمخاطَبين كما أنه خيرٌ للعالمين مما لا يخفى ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يصدّقهم لما علم فيهم من الخلوص ، واللامُ مزيدةٌ للتفرقة بين الإيمان المشهورِ وبين الإيمان بمعنى التسليمِ والتصديق كما في قوله تعالى : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ ﴾ الخ وقوله تعالى : ﴿ فَمَا ءامَنَ لموسى ﴾ الخ .

(29/341)

﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عطفٌ على أذنُ خيرٍ أي وهو رحمةٌ بطريق إطلاقِ المصدرِ على الفاعل للمبالغة ﴿ لِّلَّذِينَ ءامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ أي للذين أظهروا الإيمانَ منكم حيث يقبله منهم لكن لا تصديقاً لهم في ذلك بل رفقاً بهم وترحماً عليهم ولا يكشف أسرارَهم ولا يهتِك أستارَهم ، وإسنادُ الإيمان إليهم بصيغة الفعلِ بعد نسبتِه إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئةِ عن الرسوخ والاستمرارِ للإيذان بأن إيمانَهم أمرٌ حادثٌ ما له من قرار ، وقرىء بالنصب على أنها علةٌ لفعل دلَّ عليه أذنُ خيرٍ أي يأذن لكم رحمةً ﴿ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله ﴾ بما نُقل عنهم من قولهم : هو أذنٌ ونحوِه ، وفي صيغة الاستقبالِ المُشعِرة بترتب الوعيدِ على الاستمرار على ما هم عليه إشعارٌ بقبول توبتِهم كما أفصح عنه قولُه تعالى فيما سيأتي : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ ﴿ لَهُمْ ﴾ بما يجترئون عليه من أذيّته عليه الصلاة والسلام كما ينبىء عنه بناءُ

الحُكمِ على الموصول ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا اعتراضٌ مَسوقٌ من قِبَله عز وجل على نهج الوعيدِ غيرُ داخلٍ تحت الخطابِ وفي تكرير الإسنادِ بإثبات العذابِ الأليم لهم ثم جعلِ الجملةِ خبراً للموصول ما لا يخفى من المبالغة ، وإيرادُه عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالةِ مضافاً إلى الاسم الجليلِ لغاية التعظيمِ والتنبيهِ على أن أذيته راجعةٌ إلى جنابه عز وجل موجبةٌ لكمال السخطِ والغضب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(30/341)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن السدى أنها نزلت في جماعة من المنافقين منهم .

الحلاس بن سويد بن صامت .

ورفاعة ابن عبد المنذر .

ووديعة بن ثابت .

وغيرهم قالوا ما لا ينبغي في حقه عليه الصلاة والسلام فقال رجل منهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغ محمداً صلى الله عليه وسلم ما تقولون فيقع بنا .

فقال الحلاس : بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإن محمداً صلى الله عليه وسلم أذن ، وفي رواية أذن سامعة ، وعن محمد بن إسحاق أنها نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث ، وكان رجلاً آدم أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وكان ينم حديث النبي صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له : لا تفعل .

فقال : إنما محمد صلى الله عليه وسلم أذن من حدثه شيئاً صدقه نقول شيئاً ثم نأتيه ونحلف له فيصدقنا ، وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث " وأرادوا سوّد الله تعالى وجوههم وأصمهم وأعمى أبصارهم بقولهم أذن أنه عليه الصلاة والسلام يسمع ما يقال له ويصدقه فيكون وصف ﴿ أُذُنٌ ﴾ بما يفيد ذلك في كلامهم كشفاً له ، وهي في الأصل اسم للجارحة ، وإطلاقها على الشخص بالمعنى المذكور كما يؤيده بعض الروايات من باب المجاز المرسل على ما في المفتاح كإطلاق العين على ربيئة القوم حيث كانت العين هي المقصودة منه ، وصرح غير واحد أن ذلك من إطلاق الجزء على الكل للمبالغة كقوله :

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين . . .

وإن هي ناجتني فكلي مسامع

وقيل : إنه مجاز عقلي كرجل عدل وفيه نظر ، والمبالغة هنا على ما قيل في أنه يسمع كل قول باعتبار أنه يصدقه لا في مجرد السماع ، وما قيل : إن مرادهم بكونه عليه الصلاة والسلام أذنا تصديقه بكل ما يسمع من غير فرق بين ما يليق بالقبول لمساعدة أمارات الصدق له وبين ما لا يليق به فليس من قبيل إطلاق العين على الربيئة .

ولذا جعله بعضهم من قبيل التشبيه بالأذن في أنه ليس فيه وراء الاستماع تمييز حق عن باطل ليس بشيء يعتد به وقيل : إنه على تقدير مضاف أي ذو أذن ولا يخفى أنه مذهب لرونقه ، وجوز أن يكون ﴿ أُذُنُ ﴾ صفة مشبهة من أذن يأذن إذناً إذا استمع وأنشد الجوهري لقعنب :

إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحا . . .

مني وما سمعوا من صالح دفنوا

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به . . .

وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا . . .

وعلى هذا هو صفة بمعنى سميع ولا تجوز فيه وما تأذى به النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون ما قالوه في حقه عليه الصلاة والسلام من سائر الأقوال الباطلة فيكون قوله سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ الخ غير ما تأذى به .

ويحتمل أن يكون نفس قولهم ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ فيكون عطف تفسير و ﴿ يُؤْذُونَ ﴾ مضارع آذاه والمشهور في مصدره أذى وأذاة وأذية وجاء أيضاً الإيذاء كما أثبته الراغب وقول صاحب القاموس ولا تقل إيذاء خطأ منه .

(32/341)

﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ من قبيل رجل صدق فهو من إضافة الموصوف إلى الصفات للمبالغة في الجودة والصلاح كأنه قيل : نعم هو إذن ولكن نعم الاذن ، ويجوز أن تكون الإضافة على معنى في أي هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله وليس بأذن في غير ذلك ، ويدل عليه قراءة حمزة ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ فيما يأتي بالجر عطفاً على خير فإنه لا يحسن وصف الأذن بالرحمة ويحسن أن يقال أذن في الخير والرحمة ، وهذا كما قال ابن المنير أبلغ أسلوب في الرد عليهم لأن فيه اطماعاً لهم بالموافقة على مدعاهم ثم كر عليهم بحسم طمعهم وبت أمنيتهم وهو كالقول الموجب .

(33/341)

وقرأ نافع ﴿ أَذِنَ ﴾ بالتخفيف في الموضعين وقرأ ﴿ أَذِنَ ﴾ بالتنوين فخير صفة له بمعنى خير المشدد أو أفعل تفضيل أو مصدر وصف به للمبالغة أو بالتأويل المشهور ، وقوله سبحانه : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ تفسير لكونه عليه الصلاة والسلام أذن خير لهم ، أي يصدق بالله تعالى لما قام عنده من الأدلة والآيات الموجبة لذلك ، وكون ذلك صفة خير للمخاطبين كما أنه خير للعالمين مما لا يخفى ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي يصدقهم لما علم فيهم من الخلوص ، والظاهر أن هذا مندرج في حيز التفسير لكن الغالب من المفسرين لم يبينوا وجهه كونه صفة خير للمخاطبين ، نعم قال مولانا الشهاب : إن المعنى هو أذن خير يسمع آيات الله تعالى ودلائله فيصدقها ويسمع قول المؤمنين فيسلمه لهم ويصدقهم به ، وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر يسمعون آيات الله تعالى ولا ينتفعون بها ويسمعون قول المؤمنين ولا يقبلونه ، وأنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع قولهم إلا شفقة عليهم لا أنه يقبله لعدم تمييزه عليه الصلاة والسلام كما زعموا ، وبهذا يصح وجه التفسير فتدبر انتهى ، ولا يخفى أن في إرادة هذا المعنى من هذا المقدار من الآية بعداً ، وربما يقال : إن المراد أنه عليه الصلاة والسلام يسمع قول المؤمنين الخلص ويصدقهم ولا يصدق المنافقين وإن سمع قولهم ، وكون ذلك صفة خير للمخاطبين إما باعتبار أنه قد ينجر إلى إخلاصهم لما أن فيه انحطاط مرتبتهم عن مرتبة المخلصين وإما باعتبار أن تصديقه صلى الله عليه وسلم للمؤمنين الخلص فيما يقولونه من

الحق من متممات تصديقه آيات الله تعالى ولا شك في خيرية ذلك للمخاطبين بل ولغيرهم أيضاً فليفهم .

(34/341)

والأيمان في قوله تعالى : ﴿ يؤمن بالله ﴾ بمعنى الاعتراف والتصديق كما أشرنا إليه ولذا عدى بالباء ، وأما في قوله سبحانه : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهو بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب فاللام فيه مزيدة للتقوية لأنه بذلك المعنى متعد بنفسه كذا قيل ، وفيه أن الزيادة لتقوية الفعل المتقدم على معموله قلية .

وقال الزمخشري : إنه قصد من الإيمان في الأول التصديق بالله تعالى الذي هو نقيض الكفر فعدى بالباء الذي يتعدى بها الكفر حملاً للنقيض على النقيض ، وقصد من الإيمان في الثاني السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقهم لكونهم صادقين عنده فعدى باللام ألا ترى إلى قوله سبحانه : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صادقين ﴾ [يوسف : 17] حيث عدى الإيمان فيه باللام لأنه بمعنى التسليم لهم ، وظاهر هذا أن اللام ليست مزيدة للتقوية كما في الأول ، وكلام بعضهم يشعر ظاهره بزيادتها ، وقوله سبحانه : ﴿ وَرَحْمَةً ﴾ عطف على ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ أي وهو رحمة ، وفيه الأخبار بالمصدر والكلام

في ذلك معلوم ﴿ ءامَنُواْ مِنكُمْ والذين ﴾ أي للذين أظهروا الإيمان حيث يقبله منهم لكن لا تصديقاً لهم في ذلك بل رفقاً بهم وترحماً عليهم ولا يكشف أسرارهم ولا يهتك أستارهم . وظاهر كلام الخازن أن المراد ﴿ مّنَ الكتاب يُؤْمِنُونَ ﴾ المخلصون وذكر ﴿ مّنكُمْ ﴾ باعتبار أن المنافقين كانوا يزعمون أنهم مؤمنون والحق حمل ذلك على المنافقين وإسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل بعد نسبته إلى المؤمنين المخلصين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ماله من قرار ولعل العدول عن رحمة لكم إلى ما ذكر للإشارة إلى ذلك .

(35/341)

وقرأ ابن أبي عبلة ﴿ رَحْمَةً ﴾ بالنصب على أنه مفعول له لفعل مقدر دل عليه ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ أي يأذن لكم ويسمع رحمة وجوز عطفه على آخر مقدر أي تصديقاً لهم ورحمة لكم ﴿ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله ﴾ أي بأي نوع من الإيذاء كان وفي صيغة الاستقبال المشعرة بترتب الوعيد على الاستمرار على ما هم عليه إشعار بقبول توبتهم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي بسبب ذلك كما ينبىء عنه بناء الحكم على الموصول وجملة الموصول وخبره مسوق من قبله عز وجل على نهج الوعيد غير داخل تحت الخطاب وفي تكرير الإسناد

بإثبات العذاب الأليم لهم ثم جعل الجملة خبراً ما لا يخفى من المبالغة وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة مع الإضافة إلى الاسم الجليل لغاية التعظيم والتنبيه على أن أذيته عليه الصلاة والسلام راجعة إلى جنابه عز وجل موجبة لكمال السخط والغضب منه سبحانه .

وذكر بعضهم أن الأيذاء لا يختص بحال حياته صلى الله عليه وسلم بل يكون بعد وفاته صلى الله عليه وسلم أيضاً وعدوا من ذلك التكلم في أبويه صلى الله عليه وسلم بما لا يليق وكذا إيذاء أهل بيته رضي الله تعالى عنهم كإيذاء يزيد عليه ما يستحق لهم وليس بالبعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(36/341)

وقال القاسمى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ أي : من الذين يحلفون بالله إنهم لمنكم ، ومن أشدّ من اللامز في الصدقات إذ هم ﴿ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ ﴾ أي : يسمع كل ما يقال له ويصدقه ، ويعنون إنه ليس بعيد الغور ، بل سريع الإغترار بكل ما يسمع .

قال أبو السعود : وإنما قالوه لأنه صلوات الله عليه كان لا يواجههم بسوء ما صنعوا ، ويصفح عنهم حلماً وكراماً ، فحملوه على سلامة القلب ، وقالوا ما قالوا .

قال اللغويون : الأُذُن الرجل المستمع القابل لما يقال له ، وصفوا به الواحد والجمع ، فيقال : رجلٌ أُذن ، ورجالٌ أُذن ، فلا يثنى ولا يجمع ، وإنما سموه باسم العضو تهويلاً وتشنيعاً ، فهو مجاز مرسل ، أطلق فيه الجزء على الكل مبالغة بجعل جملته ، لفرط استماعه ، آلة السماع ، كما سمي الجاسوس عيناً لذلك ، ونحوُه :

~إذا ما بدت ليلَى فكلِّيَ أعينٌ وإن حدثوا عنها فكلِّي مسامعُ

وجعله بعضهم من قبيل التشبيه : بالأُذُن في أنه ليس فيه وراء الإستماع تمييز حق عن باطل .

قال الشهاب : وليس بشيء يعتد به . وقيل إنه على تقدير مضاف ، أي : ذو أذن .

قال الشهاب : وهو مُذْهِب لرونقه . وقيل : هو صفة مشبهة من أذن إليه وله ، كفرح : استمع . قال عَمْرو بن الأهيم :

~فلما أنْ تسايرنا قليلاً أذنَّ إلى الحديثِ فَهُنَّ صُورُ

ولِقَعنب بن أم صاحب :

~إن يسمعوا ريبة طاروا بها فرحاً مني ، وما سَمِعُوا من صالحٍ دَفَنُوا

~صُمٌّ إذا سَمِعُوا خيراً ذكرتُ به وإن ذُكِرْتُ بشرٍّ عندهُمْ أَذِنُوا

وفي الحديث : < ما أذن الله لشيء ما أذن لنبيّ يتغنى بالقرآن > .

قال أبو عبيد : يعني ما استمع الله لشيء كاستماعه لمن يتلوه ، يجهر به .

وقوله عز وجل : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ ، أي : استمعت . كذا في " تاج العروس " .

وعلى هذا فأُذن صفة بمعنى سميع ولا تجوّز فيه ، ففيه أربعة أوجه .

وعطف قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ عطف تفسير : لأنه نفس الإيذاء .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة ، كرجل صدق ، تريد المبالغة في الجودة والصلاح ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نِعْمَ الأذن أو إضافته على معنى في ، أي : هو أذن في الخير والحق ، وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس بأذن في غير ذلك .

ودل عليه قراءة حمزة (ورحمة) بالجر عطفاً عليه ، أي : هو أذن خير لكم ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله .

ثم فسر كونه أذن خير بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ قال القاشاني : هو بيان لينه صلى الله عليه وسلم وقابليته ، لأن الإيمان لا يكون إلا مع سلامة القلب ولطافة النفس ولينها

﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : يصدق قولهم في الخيرات ، ويسمع كلامهم فيها ويقبله ، ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ أي : وهو رحمة ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ﴾ أي : يعطف عليهم ، ويرقّ لهم ، فينجيهم من العذاب بالتزكية والتعليم ، ويصلح أمر معاشهم ومعادهم ، بالبر والصلة ، وتعليم الأخلاق من الحلم والشفقة والأمر بالمعروف ، باتباعهم إياه فيها ، ووضع الشرائع الموجبة لنظام أمرهم في الدارين ، والتحريض على أبواب البر بالقول والفعل ، إلى غير ذلك . قاله القاشاني .

وقال غيره : أي : هو رحمة للذين أظهروا الإيمان منكم ، معشر المنافقين ، حيث يقبله ، لا تصديقاً لكم ، بل رفقاً بكم ، وترحماً عليكم ، ولا يكشف أسراركم ، ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى تعالى من الحكمة في الإبقاء عليكم .

(38/341)

قال الشهاب : والمعنى هو أذن خير يسمع آيات الله ودلائله فيصدقها ويستمع للمؤمنين ، فيسلم لهم ما يقولون ، ويصدقهم ، وهو تعريض بأن المنافقين أذن شر ، يسمعون آيات الله ولا يثقون بها ، ويسمعون قول المؤمنين ، ولا يقبلونه وأنه صلى الله عليه وسلم لا يسمع أقوالهم إلا شفقة عليهم ، لا أنه يقبلها لعدم تمييزه ، كما زعموا .

وقال القاشاني في " تفسيره " : كانوا يؤذونه ، صلوات الله عليه ، ويغتابونه بسلامة القلب ، وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم في ذلك وسلّم وقال : هو كذلك ، ولكن بالنسبة إلى الخير ، فإن النفس الأبية والغليظة الجافية ، والكزة القاسية التي تتصلب في الأمور ، ولا تتأثر ، غير مستعدة للكمال ، إذ الكمال الْإِنْسَانِي لا يكون إلا بالقبول والتأثر ، فكلما كانت النفس ألين عريكة ، وأسلم قلباً ، وأسهل قبولاً ، كانت أقبل للكمال ، وأشد استعداداً له .

وليس هذا اللين هو من باب الضعف والبلاهة الذي يقتضي الإنفعال من كل ما يسمع ، حتى المحال ، والتأثر من كل ما يرد عليه ويراه ، حتى الكذب والشرور والضلال ، بل هو من باب اللطافة ، وسرعة القبول لما يناسبه من الخير والصدق ، فلذلك قال : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ إذ صفاء الإستعداد ، ولطف النفس ، يوجب قبول ما يناسبه من باب الخيرات ، لا ما ينافيه من

باب الشرور ، فإن الإستعداد الخيريّ لا يقبل الشر ، ولا يتأثر به ، ولا ينطبع فيه ، لمنافاته إياه ، وبعده عنه . انتهى .

لطائف :

الأولى : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ أبلغ أسلوب في الرد عليهم ، فإنه صدقهم في كونه أذناً ، إلا أنه فسره بما هو مدح له ، وثناء عليه .

قال الناصر : لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه ، لأنه في الأول ، إطماع لهم بالموافقة ، ثم كرّ على طمعهم بالحسم ، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه .

(39/341)

ويضاهي هذا ، من مستعملات الفقهاء ، القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم ، ثم بتّاً للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه .

والله الموفق .

الثانية : اللام في قوله تعالى : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور ، وهو الاعتراف ، وبين الإيمان بمعنى التسليم والتصديق – قاله أبو السعود تبعاً للقاضي . .

قال الشهاب : يعني أن الإيمان بالله بمعنى الاعتراف والتصديق ، يتعدى بالباء ، فلذا قال بِاللهِ ، والإيمان للمؤمنين بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم ، لما علم من خلوصهم ، متعد بنفسه ، فاللام فيه مزيدة للتقوية .

الثالثة : قال أبو السعود : إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل ، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار ، للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي : بما نقل عنهم من قولهم : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾

ونحوه ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : بما يجترئون عليه من إيذانه .

قال أبو السعود : وهذا اعتراض مسوق من قبله عزَّ وجلَّ على نهج الوعيد ، غير تحت الخطاب .

وإيراده صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل ، لغاية التعظيم ، التنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عزَّ وجلَّ ، موجبة لكمال السخط والغضب .

انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 455. 458 ﴾

(40/341)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

عطف ذكر فيه خلق آخر من أخلاق المنافقين : وهو تعلّلهم على ما يعاملهم به النبي والمسلمون من الحَذر ، وما يطَّلعون عليه من فلتات نفاقهم ، يزعمون أن ذلك إرجاف من المرجفين بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأنّه يُصدّق القالَة فيهم ، ويتّهمهم بما يبلغه عنهم ممّا هم منه برآء يعتذرون بذلك للمسلمين ، وفيه زيادة في الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء الشكّ في نفوس المسلمين في كمالات نبيئهم عليه الصلاة والسلام .

والتعبير بالنبي إظهار في مقام الإضمار لأنّ قبله ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] فكان مقتضى الظاهر أن يقال : "ومنهم الذين يؤذونك" فعُدل عن الإضمار إلى إظهار وصف النبي للإيذان بشناعة قولهم ولزيادة تنزيه النبي بالثناء عليه بوصف النبوءة بحيث لا تحكى مقالتهم فيه إلاّ بعد تقديم ما يشير إلى تنزيهه والتعريض بجرمهم فيما قالوه .

وهؤلاء فريق كانوا يقولون في حق النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤذيه إذا بلغه .

وقد عُدّ من هؤلاء المنافقين ، القائلين ذلك : الجُلاَسُ بن سُويد ، قبل توبته ، ونَبْتَل بن الحارث ، وعتاب بن قشير ، ووديعة بن ثابت .

فمنهم من قال : إن كان ما يقول محمّد حقّاً فنحن شرّ من الحمير ، وقال بعضهم : نقول فيه ما شئنا ثم نذهب إليه ونحلف له أنّا ما قلنا فيقبل قولنا .

والأذَى : الإضرار الخفيف ، وأكثر ما يطلق على الضرّ بالقول والدسائس ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ وقد تقدّم في سورة آل عمران (111) ، وعند قوله تعالى : ﴿ وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ﴾ في سورة الأنعام (34) .

ومضمون جملة : ويقولون هو أذن ﴾ عطفُ خاصّ على عامّ ، لأنّ قولهم ذلك هو من الأذى .

والأذن الجارحة التي بها حاسّة السمع .

ومعنى ﴿ هو أذن ﴾ الإخبار عنه بأنّه آلة سمع .

(41/341)

والإخبار بـ ﴿ هو أذن ﴾ من صيغ التشبيه البليغ ، أي كالأذن في تلقّي المسموعات لا يردّ منها شيئاً ، وهو كناية عن تصديقه بكلّ ما يسمع من دون تمييز بين المقبول والمردود .

روي أنّ قائل هذا هو نَبْتَل بن الحارث أحد المنافقين .

وجملة : ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ جملة ﴿ قل ﴾ مستأنفة استينافاً ابتدائياً ، على طريقة المقاولة والمحاورة ، لإبطال قولهم بقلب مقصدهم إغاظةً لهم ، وكمداً لمقاصدهم ، وهو من الأسلوب الحكيم الذي يَحمِل فيه المخاطَبُ كلامَ المتكلّم على غير ما يريده ، تنبيهاً له على أنّه الأولى بأن يراد ، وقد مضى عند قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : 189] ومنه ما جَرَى بين الحجّاج والقبعثرَى إذ قال له الحجاج متوعّدا إيّاه "لأحْمِلَنّك على الأدهْم (أراد لألْزِمنّك القَيْد لا تفارقه) فقال القبعثري : "مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب" فصرف مراده إلى أنّه أراد بالحمل معنى الركوب وإلى إرادة الفَرس الذي هو أدهم اللون من كلمة الأدهم .

وهذا من غيرة الله على رسوله عليه الصلاة والسلام ، ولذلك لم يعقّبه بالردّ والزجر ، كما أعقب ما قبله من قوله : ﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ﴾ [التوبة : 49] .

إلى هنا بل أعقبه ببيان بطلانه فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يبلغهم ما هو إبطال لزعمهم من أصله بصرف مقالتهم إلى معنى لائق بالرسول ، حتّى لا يبقى للمحكي أثر ، وهذا من لطائف القرآن .

ومعنى ﴿ أذن خير ﴾ أنّه يسمع ما يبلغه عنكم ولا يؤاخذكم ؛ ويسمع معاذيركم ويقبلها منكم ، فقبولهُ ما يسمعه ينفعكم ولا يضرّكم فهذا أذن في الخبر ، أي في سماعه والمعاملة به وليَس أذناً في الشر .

وهذا الكلام إبطال لأن يكون ﴿ أذن ﴾ بالمعنى الذي أرادوه من الذم فإنّ الوصف بالأذن لا يختصّ بمن يقبل الكلام المفضي إلى شرّ بل هو أعمّ ، فلذلك صحّ تخصيصه هنا بما فيه خير .

وهذا إعمال في غير المراد منه .

(42/341)

وهو ضرب من المجاز المرسل بعلاقة الإطلاق والتقييد في أحد الجانبين ، فلا يُشكلْ عليك بأنّ وصف ﴿ أذن ﴾ إذا كان مقصوداً به الذّم كيف يضاف إلى الخير ، لأنّ محلّ الذمّ في هذا الوصف هو قبول كلّ ما يسمع ممّا يترتّب عليه شرّ أو خير ، بدون تمييز ، لأنّ ذلك يوقع صاحبه في اضطراب أعماله ومعاملاته ، فأمّا إذا كان صاحبه لا يقبل إلاّ الخير ، ويرفض ما هو شرّ من القول ، فقد صار الوصف نافعاً ، لأنّ صاحبه التزم أن لا يقبل إلاّ الخير ، وأن يحمل الناس عليه .

هذا تحقيق معنى المقابلة ، وتصحيح إضافة هذا الوصف إلى الخير ، فأمّا حملهُ على غير هذا المعنى فيصيّره إلى أنّه من طريقة القول بالموجَب على وجه التنازل وإرخاء العنان ، أي هو أذن كما قلتم وَقد انتفعتم بوصفه ذلك إذ قبل منكم معاذيركم وتبرّؤكم ممّا يبلغه عنكم ، وهذا ليس بالرشيق لأنّ ما كان خيراً لهم قد يكون شرّاً لغيرهم .

وقرأ نافع وحده ﴿ أذْن ﴾ بسكون الذال فيهما وقرأ الباقون بضمّ الذال فيهما .

وجملة ﴿ يؤمن بالله ﴾ تمهيد لقوله بعده ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ إذ هو المقصود من الجواب لتمحّضه للخير وبعده عن الشرّ بأنّه يؤمن بالله فهو يعامل الناس بما أمر الله به من المعاملة بالعفو ، والصفح ، والأمر بالمعروف ، والإعراض عن الجاهلين ، وبأنْ لا يؤاخذ أحد إلاّ ببيّنة ، فالناس في أمن من جانبه فيما يبلُغ إليه لأنّه لا يعامل إلاّ بالوجه المعروف فكونه يؤمن بالله وازع له عن المؤاخذة بالظنّة والتهمة .

والإيمان للمؤمنين تصديقهم في ما يخبرونه ، يقال : آمن لفلان بمعنى صدّقه ، ولذلك عدّي باللام دون الباء كما في قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ [يوسف : 17] فتصديقه إيّاهم لأنّهم صادقون لا يكذبون ، لأنّ الإيمان وازع لهم عن أن يخبروه الكذب ، فكما أنّ الرسول لا يؤاخذ أحداً بخبر الكاذب فهو يعامل الناس بشهادة المؤمنين ، فقوله : ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ ثناء عليه بذلك يتضمّن الأمر به ، فهو ضدّ قوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ [الحجرات : 6] .

وعطف جملة ﴿ ورحمة ﴾ على جملتي ﴿ يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ لأن كونه رحمة للذين يؤمنون بعد علمه بنفاقهم أثرٌ لإغضائه عن إجرامهم ولإمهالهم حتّى يَتمكن من الإيمان مَن وفّقه الله للإيمان منهم ، ولو آخذهم بجالهم دون مهل لكان من سَبْقِ السيفِ العذل ، فالمراد من الإيمان في قوله : ﴿ آمنوا ﴾ الإيمان بالفعل ، لا التظاهر بالإيمان ، كما فَسّر به المفسّرون ، يعنون بالمؤمنين المتظاهرين بالإيمان المبطنين للكفر ، وهم المنافقون .

وقرأ حمزة بجرّ ﴿ ورحمةٍ ﴾ عطفاً على خير ، أي أذن رحمةٍ ، والمآل واحد .

وقد جاء ذكر هذه الخصلة مع الخصلتين الأخريَين على عادة القرآن في انتهاز فرصة

الإرشاد إلى الخير ، بالترغيب والترهيب ، فرغَّبَهم في الإيمان ليكفِّروا عن سيّئاتهم الفارطة ، ثم أعقب الترغيب بالترهيب من عواقب إيذاء الرسول بقوله : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ وهو إنذار بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا .

وفي ذكر النبي بوصف ﴿ رسول الله ﴾ إيماء إلى استحقاق مُؤذيه العذاب الأليم ، فهو من تعليق الحكم بالمشتقّ المؤذن بالعلية .

وفي الموصول إيماء إلى أنّ علّة العذاب هي الإيذاء ، فالعلةُ مركبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(44/341)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

ونعلم أن الإيذاء لرسول الله صلى الله جاء بعد النبوة ، وكان بعض الكفار يقولون ما حكاه القرآن على ألسنتهم : ﴿ اللهم إِن كَانَ هذا هُوَ الحق مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السمآء أَوِ ائتنا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : 32]

وهذا دعاء مَنْ لا عقل له ، ولو كانوا يعقلون لقالوا : إن كان هذا الحق من عندك فَاهْدنا يا

رب إليه ، أو اجعلنا نؤمن به . ولكنهم من فَرْط حقدهم وضلالهم ، تمنَّوا العذاب على الإيمان بالحق . وهذا يكشف لنا تفاهة عقول الكفار .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي ﴾ والذين يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم هم السادة ، وهم أصحاب النفوذ الذين يخافون ان يذهب منهج هذا النبي بنفوذهم ؛ وثرواتهم ؛ وما أخذوه ظلماً من الضعفاء . والضعفاء – كما نعلم – هم أول من دخل إلى دين الإسلام ؛ لأنهم أحسوا أن هذا الدين يحميهم من بطش الأغنياء واستغلالهم ونفوذهم . وشاء الحق أن يبدل خوف الضعفاء قوة وأمناً ، وشاء سبحانه أن يضم إلى الإيمان عدداً من الأغنياء ؛ ومن رجال القمة مثل : أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين ، حتى لا يقول أقوياء قريش مثلما قال قوم نوح لنبيهم : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتبعك إِلاَّ الذين هُمْ أَرَاذِلُنَا . . . ﴾ [هود : 27]

وهكذا كان الإيذاء له صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة ، أما قبل الرسالة فكان في نظر الجميع هو : الأمين والصادق والمؤتمن .

(45/341)

ومن العجيب أنهم ، بعد أن نزل الوحي ، كانوا لا يستأمنون أحداً مثلما يستأمنون محمداً صلى الله عليه وسلم . فإذا كان هناك شيء ثمين عند الكافرين المعارضين ، ذهبوا إلى رسول الله ليحفظوا هذه الأشياء الثمينة عنده . وهذا التناقض لا يفسره إلا وثوقهم في أخلاقه صلى الله عليه وسلم . ورغم ذلك كانوا في غيظ وكَمَدٍ ؛ لأن القرآن قد نزل عليه . والحق هو القائل ما جاء على ألسنتهم : ﴿ وَقَالُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرآن على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31]

وهم بذلك قد اعترفوا بألسنتهم بعظمة القرآن ، بعد أن اعترفوا بسلوكهم بأمانة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولكنهم اعترضوا على اختيار الحق سبحانه له ، وتمنوا لو كان هذا القرآن قد نزل على أحدهم عظمائهم . ورد الحق سبحانه عليهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياة الدنيا . . . ﴾ [الزخرف : 32]

وفي هذا دعوة لأن يتأدبوا مع الله سبحانه ، فهو لم يوكلهم في اختيار من ينزل عليه رحمته ، ورسالته ، ولكنه سبحانه هو الذي يختار . وهو الذي قسم بين العباد معيشتهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وإذا كان لأحد نعمة من مال أو جاه أو مجد ، أو غير ذلك ، فهذا ليس من قدرات البشر أو من ذواتهم ، ولكنه نعمة من الله .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي ﴾ إذن : فالإيذاء سببه أنه صلى الله عليه وسلم جاء بدعوة الخير ، ولا يجيء رسول بدعوة الخير إلا إذا كان الشر قد عم

المجتمع . وحين يعم الشر في المجتمع فهناك مستفيدون منه ، فإذا أتى رسول الله بالخير أسرع جنود الشر ليؤذوا صاحب رسالة الخير ، إذن : فمن الطبيعي أن يكون للنبي أعداء .

(46/341)

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . . ﴾ [الأنعام : 112]

بل إن كل من يحمل من العلماء رسالة رسول الله ليبلغها إلى الأجيال التالية ، إن لم يكن له أعداء ، أنقض ذلك من حظه في ميراث النبوة ، وكل من له أعداء ويقوم بهداية الناس إلى منهج الله ، نقول له : لا تنزعج ، واطمئن ؛ لأن معنى وجود من يعاديك ، أن فيك أثراً من آثار النبوة .

وتمثَّل إيذاء المنافقين له صلى الله عليه وسلم في عدة صور ؛ منها قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

وللإنسان – كما نعلم – وسائل إدراك متعددة : فالأذن وسيلة إدراك ، والعين وسيلة إدراك ، والجوارح كلها وسائل إدراك . وكل إنسان له ملكات متعددة ، منها ملكات إدراكية وملكات نفسية ، ولملكات الإدراكية هي التي يدرك بها الأشياء مثل : السمع

والبصر والشم والذوق . أما الملكات النفسية فهذه يوصف بها الناس . وعلى سبيل المثال : نحن نسمي الجاسوس عيناً ؛ لأنه يتجسس وينقل ما يراه إلى غيره . ونسمي الرجل الذي يسمع كل حدث " أُذُن " ، ونسمي اللص الذي يتعدَّى على ماله غيره صاحب اليد الطويلة وهكذا .

إذن : كل جارحة لها حاسة ، والنظر والسمع والشم واللمس والذوق كلها من وسائل الإدراك الحسية التي تتكون منها الخمائر المعنوية ، ثم تصبح عقائد ، فوسائل الإدراك هذه تتلقى من العالم الحسي ما يعطيه لها من معلومات ، وتخزنها لتتصرف بعد ذلك على أساسها ، وتكون في مجموعها هي ما يعلمه الإنسان ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه يمتنُّ على خَلقه ، فيقول : ﴿ واللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السمع والأبصار والأفئدة لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : 78]

(47/341)

والشكر لا يكون إلا على النعمة ، فكأن وسائل الإدراك هذه مما تسمعه أو تراه ببصرك ، أو تدركه بفؤادك هي من نعم الله التي يجب أن نشكره عليها ؛ لأنها أعطتنا العلم الحسي بعد أن كنا لا نعلم شيئاً .

وإذا أطلقَ على الإنسان اسم جارحة من جوارحه ، فاعلم أن هذه الجارحة هي العمدة فيه ، فكأن قول المنافقين وصفاً للرسول ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ هو سَبٌّ للرسول ، وكان الواحد منهم يقول : احذروا أن يبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيكشف نفاقهم ويؤذيكم ؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام في رأيهم يُصدِّق كل شي . أرادوا أن يتهموه صلى الله عليه وسلم أنه لا يمحص القول الذي يُنقل إليه ويصدق كل ما يقال له ، كما نقول نحن في العامية " فلان وِدَني " أي : يعطي أذنه لكل ما يقال له .

فيرد عليهم الله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يستمع لمنهج السماء ويبلغه للبشر ليهدي أهل الأرض ، إذن : فهو خير للناس كلهم . وحتى إذا أخذنا كلامهم في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدقهم إن كذبوا عليه ، فهذا خير لهم ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤذيهم ، وهو صلى الله عليه وسلم ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ لأنه لا يسمع إلا من الله بالوحي . ولذلك قلنا : إن الحكمة من أمية رسول الله عليه الصلاة والسلام ، أنه لم يستمع من مُسَاوِله ، وإنما كان علمه من الله . فإذا كانت الأمية فينا نحن نقيصة ؛ فإنها الكمال كله في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لم يأخذ إلا من خالقه ، وهو اذن خير ؛ لأنه الأذن التي استمعت إلى آخر إرسال ينزل من السماء لهداية الأرض .

فإذا كان المنافقون قد قالوا : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ فقد قال سبحانه : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ،

وهو خير يعود نفسه على البشرية كلها ، ولكن ليس بالمعنى الذي تعيبونه عليه ، فهو قد يسمع إساءاتكم ، ثم يسمع اعتذاركم فلا يؤذيكم ويعفو عنكم .

(48/341)

وما دام هذا هو سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم فلماذا تؤذونه وترهقونه ؟

وفي اللغة ما يسمونه " القول بالموجب " ، فإن قال لك واحد شيئاً تصدقه وتقول له : نعم ، ولكن قد تأخذها على مَحْمَل آخر ، فإن كان هناك إنسان يُكثِر الزيارة لإنسان ويقول له : أنا أثقلتُ عليك ، ويرد عليه : أنت أثقلتَ كاهلي بأياديك ، أي أن أفضالك عليّ كثيرة .

وإن قال لك واحد : " أنا طولت عليك " ، يرد عليه صديقه : لا ، أنت تطولت عليَّ ، أي : أعطيتني نعمة بأنك أسعدتني بمجلسك . إذن : فهو قد وافقه على وما قال ، ولكنه رد عليه بعكس ما قال .

وهم قد عابوا على الرسول أنه أذن ، فكأن أذنه تتحكم في كل تصرفاته ، وإن سمع شيئاً تأثر به . وإن سمع شيئاً ينغصه ينقلب موقفه من النقيض إلى النقيض . وحاولوا أن يدَّعوا أنه يصدق كل ما يسمعه ولا يحتاط تجاه من يبلغه ، وقالوا : إنه صلى الله عليه وسلم ﴿ أُذُنٌ ﴾ ، وردَّ الحق سبحانه ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ وبطبيعة الحال لم يكن قول الحق موافقاً لما

قالوه ؛ لأن " أُذُن " عندهم غير ﴿ أُذُن ﴾ التي أقرها الله سبحانه وتعالى .

وقد يقول بعض السطحيين : إن المنافقين قالوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ وهم يقصدون بذلك أنه يسمع ويصدق كل ما يقال له ، وليس من حكمة التمحيص والاختيار . لكن لنلتفت إلى أن الحق قد قال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمع إلا من الله ، وما يسمعه من الله أطاعه وطبَّقه ، وما سمعه من الناس ؛ عرضه على منهج الله ؛ فإن وافق المنهج نفذه ، وإن تعارض مع المنهج رفضه .

إذن : فهو أذن للخير لا يسمع إلا من الله ، ولا يأتي من رسالته إلا الخير لمن اتبعه .

(49/341)

ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه وتعالى : أذن خير للمؤمنين ، وقال : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ ؟ ؛ لأن خيرية رسول الله قد شملت الجميع ، وتعدَّتْ المؤمنين إلى المنافقين وإلى الكفار .

فكان رسول الله صلى الله عليه لا يفضح منافقاً ، إلا إذا فضح الله المنافق بقرآن نزل من السماء .

وعلى سبيل المثال : كان المنافقون يأتون إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعتذرون عن الجهاد في سبيل الله ؛ ويطلبون الإذن بالقعود . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم

يعطيهم الإذن . وحين كان المنافقون يأتون إلى الرسول الكريم ويحلفون له كذباً ، كان يصدقهم ، أو على الأرجح لا يفضح كذبهم أمام الناس .

إذن : فالخيرية فيه عليه الصلاة والسلام شملت المنافقين ؛ لأن خُلُقَه الكريم أبى أن يفضحهم أمام الناس . أما الكفار فد شملتهم الخيرية أيضاً ؛ لأن دعوته لهم إلى الإسلام ، وإصراره صلى الله عليه وسلم على هذه الدعوة ، جعل عدداً من الكفار يسلم ويؤمن ، وأصابهم خير عميم من اعتدائهم لدين الحق . إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي : للبشرية كلها .

وهكذا فرق الحق سبحانه وتعالى بين ما يريدونه ، وما يقصده الله جل جلاله . هم قصدوا وصف الرسول أنه أذن سَمَّاعة . والله يقول : إنها أذن خير ؛ وهذا ما يسمونه في اللغة – كما قلنا – : " بالقول الموجب " ، أي : أن تتفق مع خصمك فيما قاله ، إلا أنك تحول ما قاله من الشر إلى الخير . والمثال أيضاً فيما يقوله الحق سبحانه وتعالى على ألسنة المنافقين حين قالوا : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل . . . ﴾ [المنافقون : 8]

(50/341)

كانوا يقصدون أنهم هم الأعز ، أما الأذل فهم المؤمنون . ووافقهم الحق سبحانه وتعالى على ما قالوا ؛ نعم سيُخرِج منها الأعزُّ الأذلَّ . ولكنه أراد أن يبين لهم من هو العزيز ومن هو الذليل ؛ فقال : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [المنافقون : 8]

فكأن الحق سبحانه وتعالى يؤكد لهم أن الأعز سيُخرج الأذل ، ولكنهم يحسبون أنفسهم هم الأعزاء ؛ فيقول لهم : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وهذا ما يسمونه بالقول الموجب ، أي : أن تتفق مع من يقول ، ويقصد أن يوجه كلامه وجهة الشر ؛ فتقلب المقصود من الكلام وتوجهه وجهة الخير . وهذا مقصود به هنا أن تزيد من ذلة المخاطب ، فأنت تجعله يعتقد أنك توافقه ، فتنفرج أساريره ويشعر بالسعادة ؛ ثم بعد ذلك تنقض ما قاله ؛ فيصاب بالذل . تماماً كما يأتي الحارس لسجين يشعر بظمأ شديد ويُلحُّ في طلب كوب ماء

.

فيقول له الحارس : سأحضر لك كوب الماء . وفعلاً يحضر الكوب مليئاً بالماء المثلج ، ويفرح السجين ويظن أنه سينال منه ما يريده ، ولكن ما إن يقرب الحارس الكوب من فم السجين ، حتى يفرغه على الأرض ، فيكون تعذيبه أكبر مما لو رفض منذ البداية إحضار كوب الماء .

وهكذا شاء الحق سبحانه وتعالى أن يزيد ذلة المنافقين ، فوافقهم على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " أُذُن " ثم جاء بنقيض ما كانوا يقصدونه فقال :

﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾ وما دام صلى الله عليه وسلم يؤمن بالله فهو يأخذ منهجه من الله سبحانه وتعالى ، ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم .

(51/341)

إذن : فهناك ثلاثة أدلة على خيرية رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه يؤمن بالله وينفذ منهجه . ثم يؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا . ونلاحظ أن هناك اختلافاً بين قوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ وبين قوله عز وجل : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . فبالنسبة للإيمان بالله جاء بالباء في قوله : ﴿ بِاللَّهِ ﴾ وبالنسبة للمؤمنين جاء باللام في قوله : ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

بعض الناس يقولون : إن هذه مترادفات ؛ لأن معنى ﴿ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ ﴾ أي : يصدق بوجوده . والمنافقون كفرة بالله ، ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ معناها أنه صلى الله عليه وسلم يصدق المؤمنين . أما المنافقون فهو صلى الله عليه وسلم يعرف أنهم كاذبون فلا يصدقهم . ولكنه لا يفضحهم أمام المؤمنين ؛ حتى لا يقطع عليهم خط الرجعة إن كانوا ينوون الإيمان فعلاً . ولو فضحهم صلى الله عليه وسلم أمام المؤمنين لضاعت هيبتهم تماماً . وإن فكر أحدهم في ترك النفاق إلى الإيمان ، لوجد صعوبة شديدة في ذلك ؛ لأن أحداً لن يصدقه . ولكن

أراد صلى الله عليه وسلم أن يسترهم أمام المؤمنين ؛ فجعل باب الإيمان مفتوحاً على مصراعيه ؛ لأن صلى الله عليه وسلم إنما جاء رحمة للعالمين ، ولذلك فهو يحرص على أن يبقي باب التوبة وباب الإيمان أمامهم مفتوحاً دائماً مع حفظ كرامتهم .

قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : يصدقهم ، وكلمة الإيمان بالنسبة للناس جاءت في آيات كثيرة ، منها قوله تعالى حين أعلن السحرة إيمانهم برب موسى وسجدوا ؛ قال لهم فرعون : ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الذي عَلَّمَكُمُ السحر . . . ﴾ [طه : 71]

(52/341)

ومعنى ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ أي : صدّقتموه ، ولكن ما هو الفرق بين الباء واللام ؟ أنت حين تقول : آمنا بالله . فأنت تعلن أنك قد آمنت بالذات بكل صفات الكمال فيها ، وحين تقول : آمنت للمؤمنين فيما قالوه ، أي صدقتهم لأنهم مؤمنون .

ومادة " آمن " تدور كلها حول الأمن والطمأنينة ، ولكنها تأتي مرة لازمة ومرة متعدية .

مثلما تقول : " آمنت الطريق " أي : اطمأننت إلى أنه لن يصيبني فيه شر . ومنها قول يعقوب عليه السلام لبنيه :

﴿ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا آمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [يوسف : 64]

أي : أن السابقة هنا أنه آمنهم على يوسف فلم يرعوا الأمانة ، فصار لا يأمنهم على أخي يوسف ، وهذه آمن اللازمة . أما المتعدية فهي التي يتعدد فيها الأمن ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ . . . ﴾ [قريش : 4]

والخوف متعدد في أشكاله ، فهناك مثلاً خوف من الظلام ، وخوف من العدو ، وخوف من مخاطر الطريق ، إذن : فالأمن هنا شمل أشياء متعددة وقد أدخلهم الحق سبحانه في الأمان والطمأنينة من أشياء متعددة .

وقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بالله ﴾ هو إيمان بالذات ، وإيمان بالصفات ، وإيمان بالمنهج ، وإيمان يسع أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها ، فكأن الإيمان هنا قد تعددت جوانبه . أما الإيمان للمؤمنين فهو تصديق لهم وهذا هو الخير الثاني . وقوله سبحانه ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم شفيع لهم يوم القيامة ، وقال : " أمتي أمتي " . وهو رحمة لهم في الدنيا ؛ لأنه يقودهم إلى الخير الذي يقودهم إلى سعادة الدنيا ثم إلى جنة الآخرة ، ويبعدهم عن الشر والنار ؛ فهو صلى الله عليه وسلم رحمة تدفع الضرر وتأتي بالخير ، والرحمة إنما تأتي باتقاء الضرر .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ . . . ﴾ [الإسراء : 82]

الشفاء يعني أن يكون هناك مرض ويشفى الإنسان منه ، والرحمة ألا يأتي المرض ، فكأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يبشر بمنهج إذا اتبعه الناس وآمنوا به ؛ كان لهم وقاية فلا يصيبهم شر في الدنيا ولا نار في الآخرة .

ويتساءل بعض الناس : لقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ ﴾ والمنافقون قد آمنوا بألسنتهم فقط فما موقفهم ؟ نقول : إن الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه رحمة فقد احترم كلمة اللسان وصدقهم أمام الناس ، أما الحق سبحانه فينزلهم في جهنم .

ثم يقول سبحانه وتعالى :

﴿ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وإيذاء المنافقين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن بالمواجهة ؛ لأنهم أعلنوا كلمة الإيمان ، وكان الإيذاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين في قلوبهم وفيما بينهم في مجالسهم ، ولذلك لم يكن الإيذاء منهم مباشرة قط ، ولكن الآيات بينت أنواع الإيذاء بأنهم يلمزون في الصدقات ، ويقولون : إنه أُذُنٌ ، ويحلفون له كذباً ليضللوه ، إلى آخر ما كانوا يفعلون . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) ﴾

أخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان نبتل بن الحرث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه ، فأنزل الله فيه ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ، وجحش بن حمير ، ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم ، فنهى بعضهم بعضاً وقالوا : أنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، وقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا . فنزل ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما

في قوله ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ يعني أنه يسمع من كل أحد . قال الله عزَّ وجل ﴿ قل أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ﴾ يعني يصدق بالله ويصدق المؤمنين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ أي يسمع ما يقال له .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ يقولون : سنقول له ما شئنا ثم نحلف له فيصدقنا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عطاء رضي الله عنه قال : الأذن الذي يسمع من كل أحد ويصدقه .

(55/341)

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ يؤمن بالله ﴾ قال : يصدق الله بما أنزل إليه ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ يصدق المؤمنين فيما بينهم في شهاداتهم وإيمانهم على حقوقهم وفروجهم وأموالهم .

وأخرج الطبراني وابن عساكر وابن مردويه عن عمير بن سعد قال : فيَّ أنزلت هذه الآية ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة فيأتي النبي

صلى الله عليه وسلم فيساره حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد ، وكرهوا مجالسته وقالوا ﴿ هو أذن ﴾ والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(56/341)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ : " أُذُن " خبر مبتدأ محذوف ، أي : قل هو أُذُنُ خيرٍ . والجمهور على جرّ " خيرٍ " بالإضافة . وقرأ الحسن ومجاهد وزيد بن علي وأبو بكر عن عاصم " أُذُنٌ " بالتنوين ، " خيرٌ " بالرفع وفيها وجهان ، أحدهما : أنها وصف ل " أُذُن " . والثاني : أن يكون خبراً بعد خبر . و " خير " يجوز أن تكون وصفاً من غير تفضيل ، أي : أُذُنُ ذو خيرٍ لكم ، ويجوز أن تكونَ للتفضيل على بابها ، أي : أكثر خير لكم . وجوّز صاحب " اللوامح " أن يكونَ " أذن " مبتدأ و " خير " خبرها ، وجاز الابتداءُ هنا بالنكرة لأنها موصوفةٌ تقديراً ، أي : أذنٌ لا يؤاخذكم خير لكم مِنْ أُذُنٍ يؤاخذكم .

ويقال : رَجُلٌ أُذُنٌ ، أي : يسمع كل ما يقال . وفيه تأويلان أحدهما : أنه سُمِّي بالجارحة

لأنها آلة السماع ، وهي معظم ما يُقْصد منه كقولهم للربيئة : عين . وقيل : المرادُ بالأذن هنا الجارحة ، وحينئذٍ تكونُ على حَذْف مضاف ، أي : ذو أذن . والثاني : أن الأذن وصفٌ على فُعُل كأُنُف وشُلل ، يقال : أَذِن يَأْذَن فهو أُذُن ، قال :

2506 وقد صِرْتَ أُذْناً للوُشاة سَميعةً . . . ينالُون مِنْ عِرْضي ولو شئْتَ ما نالوا

(57/341)

قوله : ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ ، قرأ الجمهور : " ورحمة " ، رفعاً نسقاً على " أذن ورحمة " ، فيمن رفع " رحمة " . وقال بعضهم : هو عطف على " يؤمن " ؛ لأن يؤمن " في محل رفع صفة ل " أذن " تقديره : أذن مؤمنٌ ورحمةٌ . وقرأ حمزةُ والأعمش : " ورحمة " بالجر نسقاً على " خير " المخفوض بإضافة " أذن " إليه . والجملة على هذه القراءة معترضةٌ بين المتعاطفين تقديره : أذن خير ورحمة . وقرأ ابن أبي عبلة : " ورحمةً نصباً على أنه مفعول من أجله ، والمعلل محذوف ، أي : يَأْذَنُ لكم رحمةً بكم ، فحذف لدلالة قوله : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ ﴾ . والباءُ واللام في " يؤمن بالله " " ويؤمن للمؤمنين " مُعَدِّيتان قد تقدَّم الكلامُ عليهما في أول هذه الموضوع . وقال الزمخشري : " قصد التصديقَ بالله الذي هو نقيض الكفر فعدى بالباء ، وقصد الاستماعَ للمؤمنين ، وأن يُسَلِّم لهم ما يقولون فعدى باللام ، ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَمَآ

أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] . ما أنباه عن الباء ، ونحوه : ﴿ فَمَآ آمَنَ لموسى ﴾ [يونس : 83] ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ واتبعك الأرذلون ﴾ [الشعراء : 111] ﴿ آمَنتُمْ لَهُ ﴾ [الشعراء : 49] . وقال ابن قتيبة : " هما زائدتان ، والمعنى : يصدِّق الله ويصدِّق المؤمنين " وهذا قولٌ مردودٌ ، ويدلُّ على عدم الزيادة تغايرُ الحرف الزائد ، فلو لم يُقْصَدْ معنىً مستقلٌ لَمَا غاير بين الحرفين وقال المبرد : " هي متعلقةٌ بمصدرٍ مقدر من الفعل كأنه قال : وإيمانه للمؤمنين " . وقيل : يقال : آمنتُ لك بمعنى صَدَّقْتُكَ ، ومنه ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ وعندي أن هذه اللامَ في ضمنها " ما " فالمعنى : ويصدِّق للمؤمنين بما يُخبرونه به . وقال أبو البقاء : " واللام في للمؤمنين زائدةٌ دَخَلَتْ لتفرِّقَ بين " يؤمن " بمعنى يُصَدِّق ، وبين يؤمن بمعنى يثبت الإِيمان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 73 .

75 ﴾

(58/341)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ .

عين العداوة بالمساوئ مُوَكَّلَة ، وعين الرضا عن المعايب كليلة .

بسطوا اللائمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم فعابوه بما هو أمارة كرمه ، ودلالة فضله ، فقالوا : إنه بحسن خُلُقِه يسمع ما يقال له ، فقال عليه السلام : « المؤمِن غِرٌّ كريم والمنافق خَبٌّ لئيم » .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

وقيل : مَنْ العاقلُ ؟ قالوا : الفَطِنُ المُتَغافِل . وفي معناه أنشدوا :

وإذا الكريمُ أتيْتَه بخديعةٍ . . . ولقِبتَه فيما تروم يُسارعُ

فاعلمْ بأنَّكَ لم تُخادِعْ جاهلاً . . . إنَّ الكريم – بفضله – يتخادع . انتهى انتهى . اهـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 40 . 41 ﴾

(59/341)

فصل في ذكر من سب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو آذاه أو تنقصه أو وقع فيه

قال المقريزى :

خرج أبو داود من حديث عباد بن موسى الخَتّليّ ، أخبرنا إسماعيل بن جعفر المدني عن

إسرائيل ، عن عثمان الشحام ، عن عكرمة ، قال : حدثنا ابن عباس ، أن أعمى كانت له أم ولد تشتم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتقع فيه ، فينهاها فلا تنتهي ، ويزجرها فلا تنزجر ، قال : فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صلّى الله عليه وسلّم وتشتمه ، فأخذ المغول فوضعه في بطنها ، واتكأ عليها فقتلها .

فوقع بين رجليها طفل فلطخت ما هناك بالدم ، فلما أصبح ذكر ذلك لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم فجمع الناس فقال : أنشد الله رجلا فعل ما فعل ، لي عليه حق إلا قام ، فقام الأعمى يتخطى الناس وهو يتزلزل ، حتى قعد بين يدي النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : يا رسول الله أنا صاحبها : كانت تشتمك وتقع فيك فأنهاها فلا تنتهي وأزجرها فلا تنزجر ، ولى منها ابنان مثل اللؤلؤتين ، وكانت بي رفيقة ،

(60/341)

فلما كان البارحة جعلت تشتمك وتقع فيك ، فأخذت المغول فجعلته في بطنها واتكأت عليها حتى قتلتها ، فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم : ألا اشهدوا أن دمها هدر .

وخرجه الحاكم من حديث إسرائيل به نحوه وقال : حديث صحيح الإسناد . وقال ابن الكلبي : وعمير بن عدي بن خرشة القارئ ، ناصر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كانت

امرأة هجت النبي صلّى الله عليه وسلّم فأتاها فقتلها في منزلها وقال ابن عبد البر : عمير الخطميّ القاري من بني خطمه من الأنصار ، وكان أعمى كانت له أخت تشتم النبي صلّى الله عليه وسلّم فقتلها فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أبعدها الله . قال المؤلف : هذا هو الّذي ذكره ابن الكلبي ، فإن عمير بن عدي بن خرشة من بني خطمة وهو عبد الله بن جشم بن مالك بن دوس .

ولأبي داود من طريق جرير ، عن مغيرة ، عن الشعبي ، عن علي – رضي الله تبارك وتعالى عنه – قال : إن يهودية كانت تشتم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وتقع فيه فخنقها رجل حتى ماتت ، فأبطل النبي صلّى الله عليه وسلّم دمها .

وخرج الشيبانيّ من حديث شعبة ، عن نبيح العنزي ، عن عبد الله بن قدامة ابن عنزة ، عن أبي برزة الأسلمي قال : أغلظ رجل الصديق فقلت : أقتله ، فانتهرني وقال : ليس هذا لأحد بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

ومن حديث يزيد بن زريع ، حدثنا يونس بن عبيد ، عن حميد بن هلال ، عن عبد الله بن مطرف بن الشخير ، عن أبي برزة الأسلمي أنه قال : كنت عند أبي بكر – رضي الله تبارك وتعالى عنه – فتغيظ على رجل فاشتد عليه ، فقلت تأذن لي يا خليفة رسول صلّى الله عليه وسلّم أضرب عنقه ؟ قال : فأذهبت كلمتي غضبه ، فقام فدخل فأرسل إليّ فقال : ما الّذي قلت آنفا ؟ قلت : ائذن لي اضرب عنقه ، قال : أكنت فاعلا لو أمرتك ؟

قلت : نعم ، قال : لا والله ، ما كانت لبشر بعد محمد صلّى الله عليه وسلّم وله عنده طرفا أخر .

وقال محمد بن سهل : سمعت عليّ بن المديني يقول : دخلت على أمير

(61/341)

المؤمنين فقال لي : أتعرف حديثا مسندا فيمن سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم فيقتل ؟

قلت :

نعم ، فذكرت له حديث عبد الدار ، عن معمر ، عن سماك بن الفضل ، عن عروة بن محمد ، عن رجل ممن لقيني قال : كان رجل يشتم النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم من يلقني عدوا لي فقال خالد بن الوليد : أنا ، فبعثه إليه فقتله فقال أمير المؤمنين ليس هذا بسند ، أهو عن رجل ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين بهذا تعرف هذا الرجل ، وقد بايع النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو معروف ، فأمر لي بألف دينار ، قال ابن حزم : هذا صحيح يدين به من كفر من سب الرسول صلّى الله عليه وسلّم قال : كل كفر شرك ، وكل شرك كفر وهما اسمان شرعيان أوقعهما الله تعالى على معنى واحد ، ونقلهما عن موضوعهما في اللغة إلى كل من أنكر شيئًا من دين الإسلام يكون بإنكاره معاندا للرسول

صلّى الله عليه وسلّم بعد بلوغ النذارة .

وقال الشيخ تقى الدين أبو الفتح السبكى وإيذاؤه صلّى الله عليه وسلّم موجب القتل بدليل الحديث ، فذكره ، ثم قال : وهو حديث صحيح ولكن الأذى على قسمين :

أحدهما : يكون فاعله قاصدا لأذى النبي صلّى الله عليه وسلّم ولا شك أن هذا يقتضي القتل وهذا كأذى عبد الله بن أبيّ في قصة الافك ، فالإجماع منعقد على أنه كفر ، فلذلك يستحق القتل ، ولكن الحق للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فله تركه .

والآخر : لا يكون فاعله قاصدا لأذى النبي صلّى الله عليه وسلّم ، مثل كلام مسطح ، وحمنة في الافك ، فهذا لا يقتضي قتل ، قال : ومن الدليل على أن الأذى لا بد أن يكون مقصودا ، قوله تعالى : إِنَّ ذَلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ 33 : 53 وهذه الآية نزلت في ناس صالحين من الصحابة فلم يقتض ذلك الأذى كفر ، وكل معصية فاعلها مؤذ ومع ذلك فليس بكفر فالتفصيل في الأذى الّذي ذكرناه يتعين . قال :

الاستهزاء به صلّى الله عليه وسلّم كفرا ، قال الله تبارك وتعالى قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ 9 : 65 - 66 . قال أبو عبيد القاسم بن سلام :

فمن حفظ سطر بيت مما هجى به النبي صلّى الله عليه وسلّم فهو كفر وقد ذكر بعض من

السلف في الإجماع ، إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجى به النبي صلّى الله عليه وسلّم .

وقال ابن المنذر : ولا أعلم أحدا يوجب القتل دون عدة من الناس ، وكذلك إذا كان مقصودا سواء كان الأذى حقيقيا أو غير حقيقي ولا شيء من قصد أو أذى النبي صلّى الله عليه وسلّم محتمل ، بل كله كفر موجب للقتل ، للحديث الّذي قال : من يكفي عدوى ؟ فانتدب له خالد – رضي الله تبارك وتعالى عنه – والأشهر أنه كفر للآية الكريمة ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم : من سبّ نبيا فاقتلوه ، وإن يتب فهو عمدة في أن قتله جدا لا يسقط بالتوبة ، كما يقوله المالكي ، لكن هذا الحديث لا نعلمه إلا بالإسناد المذكور ، يعنى من طريق ذكرها القاضي عياض ، عن الدارقطني ، فذكره عن عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن زبالة ، حدثنا عبد الله بن موسى ابن جعفر ، عن على بن موسى ، عن أبيه ، عن جده محمد بن على بن الحسين عن أبيه ، عن الحسين بن على ، عن أبيه قال : إن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال : من سب نبيا فاقتلوه ومن سب أصحابه فاضربوه ، قال فلم يظهر لنا من حاله شيء فلا يصح الاحتجاج بعمومه ، وجعل مناط القتل من غير توبة ولا استتابة ، وإن تاب هذا إنما يصحّ لو صحّ الحديث وذلك الوقت يحتمل أن يقال : إنه مشروط معدوم التوبة ، وإذا لم يصح فالقول بعدم التوبة لا ينتهى الكلام فيه ، فإن الجانبين خطران .

قال المؤلف : وقد رأيت أن أورد ما للفقهاء والمالكية في هذه المسألة ، وأحكى كلام القاضي الفقيه أبى الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي رحمه الله في كتاب (الشفا بتعريف حقوق المصطفى) صلّى الله عليه وسلّم قال القاضي عياض :

وقد تقدم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة ما يجب من الحقوق للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وما يتعين له من بر وتوقير وتعظيم وإكرام وبحسب هذا حرم الله تعالى أذاه في كتابه وأجمعت الأمة على قتل متنقصه من المسلمين وسابه ، قال الله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً 33 : 57 وقال عز وجل وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ 9 : 61 وقال تبارك وتعالى : وَما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً 33 : 53 وقال جل وعلا في تحريم

(63/341)

التعريض له يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا وَاسْمَعُوا 2 : 104 الآية وذلك أن اليهود كانوا يقولون : راعنا يا محمد أي ارعنا سمعك واسمع منا ويعرضون بالكلمة يريدون الرعونة ، فنهى الله تعالى المؤمنين عن التشبه بهم ، وقطع الذريعة بنهي المؤمنين عنها

لئلا يتوصل بها الكافر والمنافق إلى شبه الاستهزاء به وقيل : بل لما فيها من مشاركة اللفظ لأنها عند اليهود بمعنى اسمع لا سمعت ، وقيل : بل لما فيها من قلة الأدب وعدم توقير النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه لأنه في لغة الأنصار بمعني ارعنا نرعك ، فنهوا عن ذلك مضمنه إذ أنهم لا يرعونه إلا برعايته لهم وهو صلّى الله عليه وسلّم واجب الرعاية بكل حال ، وهذا هو قول صلّى الله عليه وسلّم قد أنهى عن التكني بكنيته فقال : تسموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي ، صيانة لنفسه وحماية عن أذاه إذا كان النبي صلّى الله عليه وسلّم استجاب لرجل نادى : يا أبا القاسم ، فقال لم أعنك إنما دعوت هذا فنهى صلّى الله عليه وسلّم حينئذ عن التكني بكنيته لئلا يتأذى بإجابة دعوة غيره ممن لم يدعه ، ويجد بذلك المنافقون والمستهزءون ذريعة إلى أذاه والإزراء به فينادونه ، فإذا التفت قالوا : إنما أردنا هذا لسواه ، تعنيتا له واستخفافا بحقه على عادة المجان والمستهزءين ، فحمى صلّى الله عليه وسلّم حمى أذاه بكل وجه فحمل محققو العلماء نهية عن هذا على مدة حياته وأجازوه بعد وفاته ، لارتفاع العلة قال : وقد روى أنس ما يدل على كراهة التسمي باسمه وتنزيهه عن ذلك إذا لم يوقر فقال : يسمون أولادكم محمدا ثم تلعنوهم ! ! وروى أن عمر كتب إلى أهل الكوفة : لا يسمى أحد باسم الرسول صلّى الله عليه وسلّم حكاه أبو جعفر الطبري .

وحكى محمد بن سعد أن عمر نظر إلى رجل اسمه محمد ورجل يسبه ويقول :

فعل الله بك يا محمد وصنع ، فقال عمر لابن أخيه محمد بن زيد بن الخطاب :

آلا أرى محمدا صلّى الله عليه وسلّم يسب بك والله لا تدعى محمدا ما دمت حيا وسماه عبد الرحمن ، وأراد أن يمنع لهذا أن يسمى أحد بأسماء الأنبياء ، إكراما بذلك وغير أسماءهم ، وقال لا تسموا بأسماء الأنبياء ، ثم أمسك ، قال والصواب جواز هذا كله بعده صلّى الله عليه وسلّم بدليل إطباق الصحابة على ذلك وقد سمى جماعة منهم ابنه محمدا وكناه بأبي القاسم .

قال : اعلم أن جميع من سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أو عابه أو ألحق به نقصا في نفسه أو

(64/341)

نسبه أو دينه أو خصلة من خصاله أو عرض أو شبّهه بشيء على طريق السب له أو الإزراء عليه أو التصغير بشأنه أو الغض منه ، والعيب له ، فهو ساب له والحكم فيه حكم الساب يقتل ولا يستثنى فصلا من فصول هذا الباب على هذا المقصد ولا يمترى فيه تصريحا كان أو تلويحا ، وكذلك من لعنه أو دعا عليه أو تمنى مضرة له ، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام وهجر ومنكر من القول وزور أو غيره بشيء مما جرى من البلاء والمحنة عليه أو غمصة ببعض العوارض

البشرية الجائزة المعهودة لديه ، وهذا كله إجماع من العلماء وأئمة الفتوى من لدن الصحابة عنهم إلى هلم جرّا .

قال أبو بكر بن المنذر : أجمع عوام أهل العلم أن من سب النبي صلّى الله عليه وسلّم يقتل وممن قال ذلك مالك بن أنس والليث ، وأحمد ، وإسحاق ، وهو مذهب الشافعيّ رحمة الله تبارك وتعالى عليهم ، قال القاضي : هو مقتضى قول أبي بكر الصديق ولا تقبل توبته عند هؤلاء وبمثله قال أبو حنيفة وأصحابه والثوري وأهل الكوفة والأوزاعي في المسلمين لكنهم قالوا : هي ردة وروى مثله الوليد بن مسلم عن وحكى الطبري مثله عن أبى حنيفة وأصحابه فيمن ينقصه صلّى الله عليه وسلّم أو بريء منه أو كذبة . قال سحنون فيمن سبه : ذلك ردة كالزندقة ولعل هذا أوقع الخلاف في استتابته وتكفيره وهل قتله حد أو كفر لا يعلم خلافا في استباحة دمه بين علماء الأمصار وسلف الأمة وقد ذكر غير واحد الإجماع على قتله وتكفيره وأشار بعض الظاهرية وهو أبو محمد على بن أحمد الفارسيّ إلى الخلاف في تكفير المستخف به والمعروف ما قدمناه .

قال محمد بن سحنون : أجمع العلماء أن شاتم النبي صلّى الله عليه وسلّم المنتقص له كافر والوعيد جار عليه بعذاب الله تعالى له ، وحكمه عند الأمة القتل ومن شك في كفره وعذابه كفر .

احتج إبراهيم بن حسين بن خالد الفقيه في مثل هذا بقتل خالد بن الوليد مالك بن نويرة لقوله

عن النبي صلّى الله عليه وسلّم : صاحبكم . قال أبو سليمان الخطابي : لا أعلم أحدا من المسلمين اختلف في قتله إذا كان مسلما .

(65/341)

قال ابن القاسم عن مالك في (كتاب ابن سحنون) و(المبسوط) و(العتبية) : وحكاه مطرف عن مالك في (كتاب ابن حبيب) من سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم من المسلمين قتل ولم يستتب قال أبو القاسم في (العتبية) : من سبه أو شتمه أو عابه أو تنقصه ، فإنه يقتل وحكمة عند الأمة القتل كالزنديق ، وقد فرض الله تعالى توقيره وبره صلّى الله عليه وسلّم .

وفي (المبسوط) عن عثمان بن كنانة : من شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم من المسلمين قتل أو صلب حيا ولم يستتب ، والإمام مخير في صلبه حيا أو قتله .

ومن رواية أبي المصعب وابن أبي أويس ، سمعنا مالكا يقول : من سب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو شتمه أو عابه أو تنقصه قتل ، مسلما كان أو كافرا ، ولا يستتاب . وفي (كتاب محمد) : أخبرنا أصحاب مالك أنه قال : من سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أو غيره من البشر من مسلم أو كافرا قتل ولم يستتب .

وقال أصبغ : قتل على كل حال ، أسر ذلك أو أظهره ، ولا يستتاب ، لأن توبته لا تعرف .

وقال عبد الله بن الحكم : من سب النبي صلّى الله عليه وسلّم من مسلم أو كافرا قتل ولم يستتب . وحكى الطبري مثله عن مالك .

وقال بعض علمائنا : أجمع العلماء على أن من دعي على نبي من الأنبياء بالويل أو بشيء من المكروه أنه يقتل بلا استتابة . وأفتى أبو الحسن القابسي فيمن قال في النبي صلّى الله عليه وسلّم الحمال يتيم أبى طالب ، بالقتل . وأفتى أبو محمد بن أبى زيد بقتل رجل سمع قوما يبكون يتذاكرون صفة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، إذ مرّ بهم رجل قبيح الوجه واللحية فقال لهم : تريدون تعرفون صفته ؟ هي صفة هذا الماشي في خلقة ولحيته ! قال : ولا تقبل توبته . وقد كذب لعنه الله ، وليس يخرج هذا من قلب سليم الإيمان . قال أحمد بن أبى سليمان صاحب سحنون :

من قال : إن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان أسود يقتل . وقال في رجل قيل له : لا وحقّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، فقال : فعل الله برسول الله كذا وذكر كلاما قبيحا فقيل له :

ما تقول يا عدو الله ؟ فقال : أشد من كلامه الأول ، ثم قال : إنما أردت برسول الله العقرب ، فقال ابن أبى سليمان للذي سأله : أشهد عليه ، وأنا شريكك ، يريد في قتله وثواب ذلك .

قال حبيب بن الربيع : لأن إعادة التأويل في لفظ صراح لا يقبل ، لأنه امتهان وهو غير معزر لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم ولا موقر له فوجب إباحة دمه .

وأفتى أبو عبد الله بن عتاب في عشّار قال لرجل : أدّ واشتك إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم وقال : إن سألت أو جهلت فقد جهل ، وسأل النبي بالقتل .

وأفتى فقهاء الأندلس بقتل ابن حاتم المتفقي الطليطلي وصلبه بما شهد عليه به من استخفافه بحق النبي صلّى الله عليه وسلم وتسميته إياه أثناء مناظرته باليتيم ، وختن حيدرة ، وزعمه أن زهده لم يكن قصدا ، ولو قدر على الطيبات أكلها ، إلى أشباه لهذا ، وأفتى فقهاء القيروان وأصحاب سحنون بقتل إبراهيم الفزاري ، وكان شاعرا متفننا في كثير من العلوم وكان ممن يحضر مجلس القاضي أبى العباس ابن أبى طالب للمناظرة ، فرفعت عليه أمور منكرة من هذا الباب في الاستهزاء بالله وأنبيائه ونبينا صلّى الله عليه وسلّم فأحضر له القاضي يحيى بن عمر وغيره من الفقهاء وأمر بقتله وصلبه فطعن بالسكين وصلب منكسا ثم أنزل وأحرق بالنار .

حكى بعض المؤرخين : أنه لما رفعت خشبته وزالت عنها الأيدي استدارت وحولته عن

القبلة فكان آية للجميع ، وكبرّ الناس ، وجاء كلب فولغ في دمه ، فقال يحيى بن عمر : صدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وذكر حديثا عنه صلّى الله عليه وسلّم أنه قال : لا يلغ الكلب في دم مسلم . وقال القاضي أبو عبد الله بن المرابط : من قال : إن النبي صلّى الله عليه وسلّم هزم يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل لأنه ينتقصه . إذ لا يجوز ذلك عليه في خاصته صلّى الله عليه وسلّم إذ هو على بصيرة من أمره ، ويعلن عن عصمته .

وقال حبيب بن ربيع القروي : مذهب مالك وأصحابه : أن من قال فيه صلّى الله عليه وسلّم ما فيه نقص قتل دون استتابة ، وقال ابن عتاب : الكتاب والسنة موجبان أن من قصد النبي صلّى الله عليه وسلّم بأذى أو نقص معرضا أو مصرحا وإن قلّ فقتله واجب .

فهذا الباب كله مما عده العلماء سبا وتنقصا يجب قتل قائله ، لم يختلفوا في ذلك ، متقدمهم ولا متأخرهم ، وإن اختلفوا في حكم قتله ، وكذلك أقول :

حكم من غمصه أو غيره برعاية الغنم ، أو السهو ، أو النسيان ، أو السحر ، أو ما أصابه من جرح ، أو هزيمة لبعض جيوشه ، أو أذى من عدوه ، أو شدة من زمنة أو بالميل إلى نسائه ، فحكم هذا كله بمن قصد به نقصه ، القتل .

(67/341)

فصل في الحجة في إيجاب قتل من سبه أو عابه صلّى الله عليه وسلّم

فمن القرآن لعنته تعالى لمؤذيه في الدنيا والآخرة. وقرانه تعالى أذاه بأذاه ولا خلاف في قتل من سب الله تعالى وأن اللعن إنما يستوجبه من هو كافر، وحكم الكافر القتل، فقال تبارك وتعالى: إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً 33 : 57. [1] وقال في قاتل المؤمن بمثل ذلك فمن لعنته في الدنيا القتل، قال الله تعالى: مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا 33 : 61 [2].

وقال في المحاربين وذكر عقوبتهم: ذلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا 5 : 33 [3] وقد يقع القتل بمعنى اللعن في الدنيا والآخرة ولأنه الفرق بين أذاهما وأذى المؤمنين في ما دون القتل من الضرب والنكال فكان حكم من يؤذى الله تعالى ونبيه أشد من ذلك وهو القتل، وقال عز وجل: فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً 4 : 65 [4] فسلب اسم الإيمان عمن وجد في صدره حرجا من قضائه ولم يسلم له، ومن تنقصه فقد ناقض هذا. وقال تبارك وتعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ 49 : 2 [5] ولا يحبط العمل إلا الكفر، والكافر يقتل.

قال تبارك وتعالى: وَإِذا جاؤُكَ حَيَّوْكَ بِما لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللهُ 58 : 8 [6] ثم قال: حَسْبُهُمْ

جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَها فَبِئْسَ الْمَصِيرُ 58 : 8 [7] وقال عز وجل : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ 9 : 61 [8] ثم قال : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ 9 : 61 [9] وقال جل وعلا : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ 9 : 65 - 66 [10] قال أهل التفسير : كفرتم بقولكم في رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

---

[1] الأحزاب : 57 .

[2] الأحزاب : 61 .

[3] المائدة : 33 .

[4] النساء : 65 .

[5] الحجرات : 2 .

[6] المجادلة : 8 .

[7] المجادلة : 58 .

[8] التوبة : 61 .

[9] التوبة : 61 .

[10] التوبة : 61 .

وأما الإجماع فقد ذكرناه ، وأما الآثار فقد ذكر حديث من سبّ نبيا فاقتلوه ، وفي الحديث الصحيح : أمر النبي صلّى الله عليه وسلّم بقتل كعب بن الأشرف ، وقوله صلّى الله عليه وسلّم : من لكعب بن الأشرف فإنه يؤذى الله تعالى ورسوله ، ووجه إليه من قتله غيلة دون دعوة ، بخلاف غيره من المشركين ، وعلل بأذاه له ، فدل أن قتله إياه لغير الإشراك ، بل للأذى .

وكذلك قتل أبا رافع ، قال البراء : وكان يؤذي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ويعيش عليه وكذلك أمره يوم الفتح بقتل ابن خطل وجاريتيه اللتين كانتا تغنيان في سبه صلّى الله عليه وسلّم وفي حديث آخر : أن رجلا كان يسبه صلّى الله عليه وسلّم فقال : من يكفيني عدوى ؟ فقال خالد : أنا فبعثه النبي صلّى الله عليه وسلّم فقتله ، وكذلك أمر بقتل جماعة منهم ممن كان يؤذية من الكفار ويسبه كالنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، وعهد بقتل جماعة منهم قبل الفتح وبعده فقتلوا إلا من بادر بإسلامه قبل القدرة عليه .

وقد روى البزار عن ابن عباس قال : إن عقبة بن أبي معيط نادى : يا معشر قريش ما لي أقتل من بينكم صبرا ، فقال له النبي صلّى الله عليه وسلّم : بكفرك وافترائك على رسول

الله صلّى الله عليه وسلّم ، وذكر عبد الرزاق أن النبي صلّى الله عليه وسلّم سبه رجل فقال : من يكفيني عدوي ؟ فقال الزبير : أنا ، فبارزه ، فقتله الزبير . وروي أيضا أن امرأة كانت تسبه صلّى الله عليه وسلّم فقال : من يكفيني عدوي ؟ فخرج إليها خالد بن الوليد فقتلها ، ويروى أن رجلا كذب على النبي صلّى الله عليه وسلّم فبعث علي والزبير - رضي الله تبارك وتعالى عنهما - إليه ليقتلاه ، وروى ابن قانع أن رجلا جاء إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال :

يا رسول الله ! سمعت أبي يقول فيك قولا قبيحا فقتلته ، فلم يشق ذلك على النبي صلّى الله عليه وسلّم ، وبلغ المهاجر بن أبي أمية أمير اليمن لأبي بكر - رضي الله تبارك وتعالى عنه - أن امرأة هناك في الردة غنت بسب النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فقطع يدها ونزع ثنيتها ، فبلغ أبا بكر ذلك فقال له : لولا ما فعلت لأمرتك بقتلها ، لأن حد الأنبياء ليس يشبه الحدود .

وعن ابن عباس - رضي الله تبارك وتعالى عنهما - قال : هجت امرأة من خطمة النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : من لي بها ؟ فقال رجل من قومها : أنا يا رسول الله ، فنهض فقتلها ، فأخبر النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال : لا ينتطح فيها عنزان .

(69/341)

وعن ابن عباس – رضي الله تبارك وتعالى عنهما – قال : إن أعمى كانت له امرأة تسب النبي صلّى الله عليه وسلّم فيزجرها فلا تنزجر ، فلما كانت ذات ليلة جعلت تقع في النبي صلّى الله عليه وسلّم فتشتمه فقتلها ، وأعلم النبي صلّى الله عليه وسلّم بذلك فأهدر دمها . وذكر حديث أبي برزة الأسلميّ .

وقال القاضي أبو محمد بن نصر ولم يخالف عليه فاستدل الأئمة بهذا الحديث على قتل من أغضب النبي صلّى الله عليه وسلّم بكل ما أغضبه أو أذاه أو سبه .

ومن ذلك كتاب عمر بن عبد العزيز – رضي الله تبارك وتعالى عنه – إلى عامله بالكوفة ، وقد استشاره في قتل رجل سب عمر فكتب عمر : إنه لا يحل قتل امرئ يسب أحد من الناس إلا رجلا سب النبي صلّى الله عليه وسلّم ، فمن سبه فقد حل دمه .

وسأل الرشيد مالكا في رجل شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم وذكر له أن فقهاء العراق أفتوه بجلده ، فغضب مالك وقال : يا أمير المؤمنين ! ما بقاء الأمة بعد شتم نبيها ؟ من شتم الأنبياء قتل ، ومن شتم أصحاب النبي صلّى الله عليه وسلّم جلد .

قال القاضي أبو الفضل : كذا وقع في هذه الحكاية رواها غير واحد من أصحاب مناقب مالك ومؤلفي أخباره ، وغيرهم ، ولا أدري من هؤلاء الفقهاء بالعراق الذين أفتوا الرشيد بما ذكر ؟ فقد ذكرنا مذهب العراقيين بقتله ولعلهم ممن لم يشهر بعلم أو من لا يوثق بفتواه ، أو

يميل به هواه ، أو يكون ما قاله يحمل على غير السب ، فيكون الخلاف : هل هو سب أو غير سب ؟ أو يكون رجع وتاب عن سبه فلم يقله لمالك على أصله ، وإلا فالإجماع على قتل من سبه كما قدمناه .

ويدل على قتله من جهة النظر والاعتبار من سبه أو نقّصه صلّى الله عليه وسلّم فقد ظهرت علامة مرض قلبه ، وبرهان سر طويته وكفره ، ولهذا ما حكم عليه كثير من العلماء بالردة وهي رواية الشاميين عن مالك والأوزاعي ، وقول الثوري وأبي حنيفة والكوفيين .

والقول الآخر : أنه دليل على الكفر فيقتل حدا ، وإن لم يحكم له بالكفر إلا أن يكون متماديا على قوله غير منكر له ، ولا يقلع عنه ، فهذا كافر .

(70/341)

وقوله إما صريح كفر كالتكذيب ونحوه ، أو من كلمات الاستهزاء والذم فاعترافه بها ، وترك توبته عنها دليل استحلاله لذلك وهو كفر أيضا ، فهذا كافر بلا خلاف ، قال تعالى في مثله : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ 9 : 74 [1] قال أهل التفسير : هي قوله : إن كان ما يقول محمد حق لنحن شر من الحمير . وقيل بل قول بعضهم : ما مثلنا أو مثل محمد إلا قول القائل : سمن كلبك يأكلك لَئِنْ رَجَعْنا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ

الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ 63 : 8 [2] وقد قيل : إن قائل مثل هذا إن كان مستترا به فإن حكمه حكم الزنديق يقتل ، ولأنه غير دينه ، وقال صلّى الله عليه وسلّم من غير دينه فاضربوا عنقه ، ولأن حكم النبي صلّى الله عليه وسلّم في الحرمة مزية على أمته ، وساب الحر من أمته يحد ، فكانت العقوبة لمن سبه صلّى الله عليه وسلّم القتل ، لعظيم قدره ، وشفوف منزلته على غيره .

فإن قلت : فلم لم يقتل النبي صلّى الله عليه وسلّم اليهودي الّذي قال له : السام عليكم ؟ وهذا دعاء عليه ، ولا قتل الآخر الّذي قال له : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله ، وقد تأذى النبي صلّى الله عليه وسلّم من ذلك ؟ وقال : قد أوذي موسى بأكثر من هذا فصبر ، ولا قتل المنافقين الذين كانوا يؤذونه في أكثر الأحيان ؟

فاعلم وفقنا الله وإياك أن النبي صلّى الله عليه وسلّم كان أول الإسلام يستألف عليه الناس ، ويستميل قلوبهم إليه ويحبب إليهم الإيمان ، ويزينه في قلوبهم ، ويدارئهم ويقول لأصحابه : إنما بعثتم مبشرين ولم تبعثوا منفرين ، ويقول : يسروا ولا تعسروا ، وسكنوا ولا تنفروا ويقول : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه . وكان صلّى الله عليه وسلّم يداري الكفار والمنافقين ، ويجمل صحبتهم ، ويفضي عنهم ويحتمل من أذاهم ، ويصبر على جفائهم ، ما لا يجوز لنا اليوم الصبر لهم عليه وكان يرفقهم بالعطاء والإحسان ، وبذلك أمره الله تعالى ، فقال : وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُحْسِنِينَ 5 : 13 [3] قال تعالى : ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ 41 : 34

---

[1] التوبة : 74 .

[2] المنافقون : 8 .

[3] المائدة : 13 .

(71/341)

عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ 41 : 34 [1] وذلك لحاجة الناس للتألف أول الإسلام ، وجمع الكلمة عليه ، فلما استقر ، وأظهره الله تعالى على الدين كله قتل من قدر عليه واشتهر أمره كفعله بابن خطل ، ومن عهد بقتله يوم الفتح ، ومن أمكنه قتله غلبة من يهود وغيرهم ، أو غلبة ممن لم ينتظمه قبل سلك صحبته ، والانخراط في جملة مظهر الإيمان به ، ممن كان يؤذيه ، كابن الأشراف وأبي رافع والنضر ، وعقبة ، وكذلك ندر دم جماعة سواهم ، ككعب بن زهير ، وابن الزبعري ، وغيرهما ممن أذاه حتى ألقوا بأيدهم ولقوة مسلمين ، وبواطن المنافقين مستترة ، وحكمه صلّى الله عليه وسلّم على الظاهر ، وأكثر تلك الكلمات إنما كان يقولها القائل منهم خفية ، ومع أمثاله ، ويحلفون عليها إذا نميت وينكرونها وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا

وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ 9 : 74 [2] وكان مع هذا يطمع في فيئتهم ورجوعهم إلى الإسلام وتوبتهم فيصبر صلّى الله عليه وسلّم على هناتهم وجفوتهم كما صبر أولو العزم من الرسل ، وفاء كثير منهم باطنا وظاهرا وأخلص سرا كما أظهر جهرا ونفع الله بعد بهم وقام منهم للدين ، وزراء ، وأعوان ، وحماة ، وأنصار ، كما جاءت به الأخبار .

وبهذا أجاب بعض أئمتنا عن هذا السؤال ، وقال : لعله لم يثبت عنده صلّى الله عليه وسلّم من أقوالهم ما رفع ، وإنما نقله الواحد ، ومن لم يصل رتبة الشهادة في هذا الباب من صبي أو عبد أو امرأة ، والدماء لا تستباح إلا بعدلين ، وعلى هذا يحمل أمر اليهودي في السلام ، وأنهم لووا به ألسنتهم ولم يبينوه ، ألا ترى كيف نبهت عليه عائشة – رضي الله تبارك وتعالى عنها – ؟ ولو كان صرح بذلك لم ينفرد بعلمه ، ولهذا نبه النبي صلّى الله عليه وسلّم أصحابه على فعلهم ، وقلة صدقهم في سلامهم ، وخيانتهم في ذلك ليا بألسنتهم ، وطعنا في الدين ، فقال : إن اليهود إذا سلّم أحدهم فإنما يقول : السام عليكم ، فقولوا : وعليكم وكذلك قال بعض أصحابنا البغداديين : إن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يقتل المنافقين بعلمه فيهم ولم يأت أنه قامت بينة على نفاقهم فلذلك تركهم ، وأيضا فإن الأمر كان سرا وباطنا ، وظاهرهم الإسلام والإيمان ، وإن كان من أهل الذمة بالعهد والجوار

---

[1] فصلت : 34 .

[2] التوبة : 74 .

والناس قريب عهدهم بالإسلام لم يتميز بعد الخبيث من الطيب ، وقد شاع عن المذكورين في العرب كون من يتهم بالنفاق من جملة المؤمنين ، وصحابة سيد المرسلين ، وأنصار الذين يحكم بظاهرهم ، فلو قتلهم النبي صلى الله عليه وسلم لنفاقهم وما يبدر منهم ، وعلمه بما أسروا في أنفسهم ، لما وجد المعاند ما يقول ، ولا ارتاب الشارد ، وأرجف المعاند ، وارتاع من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، والدخول في الإسلام غير واحد ولزعم الزاعم وظن العدو الظالم أن القتل إنما كان للعداوة وطلب أخذ الترة ، وقد رأيت معنا ما حررته منسوبا إلى مالك بن أنس ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، وقال : أولئك الذين نهاني الله تعالى عن قتلهم ، وهذا بخلاف إجراء الأحكام الظاهرة عليهم من حدود الزنا ، والقتل ، وشبهه ، لظهورها ، واستواء الناس في علمها .

وقال القاضي أبو الحسن بن القصار : وقال قتادة في تفسير قوله تعالى :

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجاوِرُونَكَ فِيها إِلَّا قَلِيلًا . مَلْعُونِينَ أَيْنَما ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا .

سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا 33 : 60 - 62 [1] قال :

معناه إذا أظهروا النفاق .

وحكى محمد بن مسلمة في (المبسوط) عن زيد بن أسلم قال : إن قوله تعالى : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ 9 : 73 [2] نسخها ما كان قبلها ، وقال بعض مشايخنا : علل القائل : هذه قسمة ما أريد وجه الله ، وقوله :

اعدل ، لم يفهم النبي صلى الله عليه وسلم منه الطعن عليه ، والتهمة له ، وإنما رآها من وجه الغلط في الرأي ، وأمور الدنيا ، والاجتهاد ، وفي مصالح أهلها ، فلم ير ذلك سبا ، ورأى أنه من الأذى الّذي كان له العفو عنه ، والصبر عليه ، فلذلك لم يعاقبه .

وكذلك يقال في اليهود إذا قالوا : السام عليكم ، ليس في صريح سبّ ولا دعاء إلا بما لا بد منه من الموت الّذي لا بد من لحاقه جميع البشر . وقيل : بل المراد ، تسأمون ، دينكم والسآمة الملال ، وهذا دعاء على سآمة الدين ، ليس

---

[1] الأحزاب : 60 - 62 .

[2] التحريم : 9 .

بصريح سب ، وبهذا ترجم البخاري على هذا الحديث : باب إذا عرّض الذميّ أو غيره بسب النبي صلى الله عليه وسلّم .

وقال بعض علمائنا : ليس هذا بتعرض بالسب ، وإنما هو تعرض بالأذى .

قال القاضي عياض : الأذى والسب في حقه صلّى الله عليه وسلّم سواء ، قال القاضي أبو محمد بن نصر مجيبا عن هذا الحديث ببعض ما تقدم ، ثم قال ولم يذكر في الحديث هل كان هذا اليهودي من أهل العهد والذمة أو الحرب ، ولا يترك موجب الأدلة المحتملة كله ، والأظهر من هذه الوجوه مقصد الاستئلاف والمداراة على الدين ، لعلهم يؤمنون .

ولذلك ترجم البخاري على حديث القسمة والخوارج باب : من ترك قتال الخوارج للتألف ولئلا ينفر الناس عنه ، وقد صبر لهم صلّى الله عليه وسلم على سحره ، وسمه ، وهو أعظم من سبه ، إلى أن نصره الله تعالى عليهم وأذن له في قتل من عينه منهم ، وإنزالهم من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، وكتب على من شاء منهم الجلاء ، وأخرجهم من ديارهم ، وخرب بيوتهم بأيديهم ، وأيدي المؤمنين وكاشفهم بالسب فقال : يا إخوة القردة والخنازير ، وحكم فيهم سيوف المسلمين ، وأجلاهم من جوارهم ، فإن قتله فقد جاء في الحديث الصحيح عن عائشة رضى الله تبارك وتعالى عنها – أنه صلّى الله عليه وسلّم ما انتقم لنفسه في شيء يؤثر إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم للّه .

فاعلم أن هذه لا تقتضي أنه لم ينتقم ممن سبه أو آذاه وكذبه ، وأن هذه من حرمات الله التي

انتقم لها ، وإنما يكون ما لا ينتقم له فيما تعلق بسوء أدب أو معاملة من القول والفعل ، بالنفس والمال ، مما لم يقصد فاعله به أذاه ، ولكن مما جبلت عليه الأعراب من الجفاء ، والجهل ، أو جبل عليه البشر من السفه ، كجبذ الأعرابي بإزاره حتى أثر في عنقه ، وكرفع صوت الآخر عنده ، وكجحد الأعرابي في شرائه منه فرسه التي شهد فيها خزيمة بن ثابت وكما كان من تظاهر زوجيه عليه ، وأشباه هذا مما يحسن الصفح عنه ، أو يكون هذا مما أذاه به كافر ، وجاء بعد ذلك إسلامه كعفوه عن اليهودي الّذي سحره ، وعن اليهودية التي سمته ، وعن الأعرابيّ الّذي أراد قتله .

(74/341)

الوجه الثاني : لاحق به في البيان والجلاء ، وهو أن يكون القائل ، لما قال في جهته صلّى الله عليه وسلّم غير قاصد للسب والإزراء ، ولا معتقد له ، ولكنه تكلم في جهته صلّى الله عليه وسلّم بكلمة الكفر من لعنه ، أو سبه ، أو تكذيبه أو إضافة ما لا يجوز عليه ، أو نفى ما يجب له مما هو في حقه صلّى الله عليه وسلّم نقيصه ، مثل أن ينسب إليه إتيان كبيرة أو مداهنة في تبليغ الرسالة ، أو في حكم بين الناس ، أو بعض من مرتبته ، أو شرف نسبه ، وفور علمه ، أو يكذب بما استمر من أمور أخبر بها صلّى الله عليه وسلّم وتواتر الخبر بها

عنه قصد لرد خبره أو يأتي نسقه من القول ، وقبيح من الكلام ونوع من السب في جهته ، وإن ظهر بدليل حاله أنه لم يتعمد ولم يقصد سبه أو لجهالة جملته على ما قاله لضجر أو سكر اضطره إليه ، أو قلة مراقبة ، وضبط للسانه وعجرفة وتهور في كلامه ، فحكم هذا الوجه حكم الوجه الأول : القتل دون تلعثم ، إذ لا يعذر أحد في الكفر بالجهالة ، ولا بدعوى زلل اللسان ولا بشيء مما ذكرناه إذا كان عقله في فطرته سليما إِلَّا من أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ 16 : 106 [1] وبهذا أفتى الأندلسيون على ابن حاتم في نفيه الزهد عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الّذي قدمناه .

وأفتى أبو الحسن القابسي في من شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم في سكره : يقتل لأنه يظن به أنه يعتقد هذا ويفعله في صحوة ، وأيضا فإنه حد لا يسقطه السكر كالقذف ، والقتل وسائر الحدود لأنه أدخله على نفسه ، لأن من شرب الخمر على علم من زوال عقله بها وإتيان ما ينكر فهو كالعامد لما يكون بسببه ، وعلى هذا ألزمناه الطلاق ، والعتاق ، والقصاص ، والحدود ، لا يعترض على هذا بحديث حمزة – رضي الله تبارك وتعالى عنه – وقوله للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم : هل أنتم إلا عبيد لأبي قال فعرف النبي صلّى الله عليه وسلّم أنه ثمل فانصرف ، لأن الخمر كانت حينئذ غير محرمه ، فلم يكن في جناياتها إثم ، وكان حكم ما يحدث عنها معفوا عنه ، كما يحدث من النوم ، وشرب الدواء المأمون .

الوجه الثالث : أن يقصد إلى تكذيبه فيما قاله ، وأتى به ، أو ينفي نبوته أو رسالته ، أو

وجوده ، أو يكفر به ، انتقل بقوله ذلك إلى دين آخر غير ملته أم لا ، فهذا كافر بإجماع يجب قتله ، ثم ينظر ، فإن كان مصرحا بذلك كان

---

[1] النحل : 106 .

(75/341)

حكمت أشبه بحكم المرتد ، وقوى الخلاف في استتابته وعلى القول الآخر لا يسقط القتل عنه بتوبته لحق النبي صلّى الله عليه وسلّم إن كان ذكره بنقيصة فيما قاله من كذب أو غيرة ، وإن كان متسترا بذلك فحكمه حكم الزنديق لا يسقط قتله بالتوبة عندنا كما سنبينه . قال ابن القاسم : دعا إلى ذلك : سرا أو جهرا . وقال أصبغ : وهو كالمرتد لأنه قد كفر بكتاب الله مع الفرية على الله ، وقال أشهب في يهودي تنبأ أو زعم أنه أرسل إلى الناس ، أو قال : بعد نبيكم نبي ، إنه يستتاب إن كان معلنا بذلك فإن تاب وإلا قتل ، وذلك لأنه مكذب للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم فهو كافر جاحد ، وقال : من كذب النبي صلّى الله عليه وسلّم كان حكمه عند الأمة القتل ، وقال أحمد بن أبى سليمان صاحب سحنون : من قال إن النبي صلّى الله عليه وسلّم أسود ، لأن النبي صلّى الله عليه وسلّم لم يكن صلّى الله عليه وسلّم بأسود . وقال نحوه : أبو عثمان الحداد : قال : لو قتل لأن هذا نفى ، وقال حبيب بن

ربيع : تبديل صفته ومواضعه كفر والمظهر له كافر ، وفيه الاستتابة الوجه الرابع : أن يأتى من الكلام بمجمل أو بلفظ من القول بمشكل يمكن حمله على النبي صلّى الله عليه وسلّم أو غيره ، أو يتردد في المراد به من سلامته من المكروه أو شره . فها هنا متردد النظر وحيرة العبر ومظنة اختلاف المجتهدين ووقعه استبراء المقلدين ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينه ، فمنهم من غلب حرمة النبي صلّى الله عليه وسلّم وحمى عرضه ، فجسر على القتل ، ومنهم من عظم حرمة الدم ودرء الحد بالشبهة لاحتمال القول ، وقد اختلف أئمتنا في رجل أغضبه غريمه ، فقال له : صل على النبي محمد فقال له الطالب : لا صلّى الله على من صلّى عليه ، فقيل لسحنون : هل هو كمن شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم ؟ أو شتم الملائكة الذين يصلون عليه ؟ قال : لا ، إذا كان على ما وصفت من الغضب لأنه لم يكن مضمرا الشتم .

ذهب الحارث بن مسكين القاضي وغيره في مثل هذا إلى القتل ، وتوقف أبو الحسن القابسي في قتل رجل قال : كل صاحب فندق قرنان ولو كان نبيا مرسلا ! فأمر بشده بالقيود والتضييق عليه حتى يستفهم بالبينة من جملة ألفاظه وما يدل على مقصده ، هل أراد أصحاب الفنادق الآن ! فمعلوم أنه ليس

فيهم نبي مرسل ، فيكون أمره أخف ، قال : ولكن ظاهر لفظه العموم لكل صاحب فندق من المتقدمين والمتأخرين ، وقد كان فيمن تقدم من الأنبياء والرسل من اكتسب المال .

قال : ودم المسلم لا يقدم عليه إلا بأمر بين ، وما ترد إليه التأويلات لا بد من إمعان النظر فيه ، هذا معنى كلامه .

وحكى عن محمد بن أبي زيد فيمن قال : لعن الله العرب ، ولعن الله بني إسرائيل ، ولعن الله بني آدم وذكر أنه لم يرد الأنبياء وإنما أراد الظالمين منهم ، أن عليه الأدب بقدر اجتهاد السلطان ، وكذلك أفتى فيمن قال : لعن الله من حرم المسكر وقال : لم أعلم من حرمه وفيمن لعن ، حديث لا يبيع حاضر لباد ، ولعن من جاء به أنه إن كان يعذر بالجهل وعدم معرفة السنن ، فعليه الأدب الوجيع وذلك أن هذا لم يقصد بظاهر حاله سب الله ، ولا سب رسوله ، وإنما لعن من حرمه من الناس ، على نحو فتوى سحنون وأصحابه في المسألة المتقدمة ، ومثل هذا يجري في كلام سفهاء الناس ، من قول بعضهم لبعض : يا ابن ألف خنزيرة ، وابن مائة كلب ، وشبهه من هجر القول ، ولا شك أنه يدخل في مثل هذا العدد من آبائه وأجداده جماعة من الأنبياء ، ولعل بعض هذا العدد منقطع إلى آدم عليه السلام فينبغي الزجر عنه ويتبين ما جهل قائله منه ، وشدة الأدب فيه ، ولو علم أنه قصد سب من في آبائه من الأنبياء على علم لقتل .

وقد يضيق القول في نحو هذا لو قال لرجل هاشمي « : لعن الله بنى هاشم ، وقال أردت الظالمين منهم ، أو قال لرجل من ذرية النبي صلّى الله عليه وسلّم ولم تكن قرينة في المسألتين تقتضي تخصيص بعض آبائه ، وإخراج النبي صلّى الله عليه وسلّم ممن سبه منهم ، وقد كان اختلف شيوخنا فيمن قال لشاهد شهد عليه بشيء ثم قال : تتهمني ، فقال له الآخر : الأنبياء يتهمون فكيف أنت ؟ وكان شيخنا أبو إسحاق بن جعفر يرى قتله لبشاعة ظاهر اللفظ ، وكان القاضي أبو محمد بن منصور يتوقف عن القتل لاحتمال اللفظ عنده ، أن يكون خبرا عمن اتهمهم من الكفار ، وأفتى فيها قاضي قرطبة أبو عبد الله بن الحاج بنحو من هذا ، وشدد القاضي أبو محمد تصفيده وأطال سجنه ، ثم استخلفه بعد على تكذيب ما شهد به عليه أو دخل

(77/341)

في شهادة بعض من شهد عليه ، وشاهدت شيخنا القاضي أبا عبد الله بن عيسى أيام قضائه ، أتى برجل هاتر رجلا اسمه محمد ، ثم قصد إلى كلب فضربه برجله ، وقال له : قم يا محمد ، فأنكر الرجل أن يكون قال ذلك وشهد عليه ، ومن ثم أطلقه لفيف من الناس ، فأمر به إلى السجن وتقصى عن حاله وهل يصحب من يستراب بدينه ؟ فلما لم يجد ما

يقوى الريبة باعتقاده ، ضربه بالسوط وأطلقه .

الوجه الخامس : أن لا يقصد بقصد ولا يذكر عيبا ولا سبا ولكنه ينزع بذكر بعض أوصافه أو يستشهد ببعض أحواله صلّى الله عليه وسلّم الجائزة عليه في الدنيا على طريق ضرب المثل ، والحجة لنفسه أو لغيره ، أو على التشبه به ، أو عند هضيمة نالته ، أو لغضاضة لحقته ، لنفسه أو لغيره ، أو على سبيل التمثيل ، وعدم التوقير لنبيه صلّى الله عليه وسلّم أو قصد الهزل ، والتنذير بقوله كقول القائل : إن قيل في السوء فقد قيل في النبي صلّى الله عليه وسلّم ، أو إن كذبت فقد كذب الأنبياء أو إن أذنبت فقد أذنبوا وأنا أسلم من ألسنة الناس لم يسلم منهم أنبياء الله ورسوله ، أو قد صبرت كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ من الرُّسُلِ 46 : 35 ، أو كصبر أيوب ، أو قد صبر نبي الله عن عداه ، وحلم عليّ أكثر مما صبرت ، وكقول المتنبي :

أنا في أمة تداركها الله غريب كصالح في ثمود

ونحوه من أشعار المتعجرفين في القول المتساهلين في الكلام ، كقول المعري :

كنت موسى وافته بنت شعيب غير أن ليس فيكما فقير

على أن آخر البيت شديد ، وداخل في باب الإزراء والتحقير بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم وتفضيل حال غيره عليه .

وكذلك قوله :

لولا انقطاع الوحي بعد محمد قلنا محمد بأبيه بديل

هو مثله في الفضل إلا أنه لم يأته برسالة جبريل

فصدر البيت الثاني في هذا الفصل شديد ، لتشبيه غير النبي صلّى الله عليه وسلّم في فضله ، والعجز محتمل لوجهين ، أحدهما : أن هذه الفضيلة نقصت الممدوح ، والآخر

(78/341)

استغناؤه عنها ، وهذه أشد ونحو منه قول الآخر :

وإذا ما رفعت راياتها صفقت بين جناحي جبرين

وقول الآخر من أهل العصر :

فر من الخلد واستجار بنا فصبر الله قلب رضوان

كقول حسان المصيصي من شعراء الأندلس في محمد بن عباد المعروف بالمعتمد ووزيره أبي بكر بن زيدون :

كأن أبا بكر أبو بكر الرضى وحسان حسان وأنت محمد

إلى أمثال هذا .

وإنما أكثرنا بشاهدها مع استثقالنا حكايتها ، لتعرف أمثلتها ، ولتساهل كثير من الناس في ولوج هذا الباب الضنك ، واستخفافهم فادح في هذا العبء وقلة علمهم بعظيم ما فيه من

الوزر وكلامهم فيه بما ليس لهم به علم ، وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَهُوَ عِنْدَ اللهِ عَظِيمٌ 24 : 15 [1] ، لا سيما الشعراء ، وأشدهم فيه تصريحا ، وللسانه تسريحا ، ابن هانئ الأندلسي [2] وأبي سليمان المغربي ، بل قد خرج كثير من كلامهم إلى حد الاستخفاف ، والنقص ، وصريح الكفر .

قال : فإن هذه كلها ، وإن لم تتضمن سبا ولا أضافت إلى الملائكة والأنبياء نقصا ولست أعنى عجزي بيتي المعري ، ولا قصد قائلها إزراء وغضبا ، فما وقر النبوة ، ولا عظم الرسالة ، ولا عزر حرمة الاصطفاء ، ولا عزر حظوة الكرامة ، حتى شبه من شبه في كرامة نالها ، أو معرة قصد الانتفاء منها ، أو ضرب مثل لتطييب مجلسه ، أو إغلاء في وصف لتحسن كلامه بمن عظم الله تعالى خطره ، وشرف قدره ، وألزم توقيره وبره ، ونهى عن جهر القول له ، ورفع الصوت عنده ، فحق هذا إن دري عنه القتل ، الأدب والسجن ، وقوة تعزيره ، بحسب شنعة مقاله ، ومقتضى قبح ما نطق به ، ومألوف عادته لمثله ، أو ندوره ، وقرينة كلامه ، أو ندمه على ما سبق منه ، ولم يزل المتقدمون ينكرون

---

[1] النور : 15 .

[2] هو أبو نواس .

مثل هذا ممن جاء به ، وقد أنكر الرشيد على أبي نواس قوله :

فإن يك باق سحر فرعون فيكم فإن عصا موسى بكف خصيب

قال له : يا بن اللخناء ، أنت المستهزئ بعصا موسى ؟ وأمر بإخراجه عن عسكره من ليلته .

وذكر القتبي : أن مما أخذ عليه أيضا أو كفر به أو قارب ، قوله في محمد الأمين ، تشبيهه إياه بالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم حيث قال :

تنازع الأحمدان الشبه فاشتبها خلقا كما قد الشراكان

وقد أنكروا أيضا قوله :

كيف لا بد فيك من أمل من رسول من نفره

لأن حق الرسول صلّى الله عليه وسلّم وموجب تعظيمه ، وأناقة منزلته ، أن يضاف إليه ولا يضاف ، فالحكم في أمثال هذا ما بسطناه في طريق الفتيا على هذا المنهج جاءت فتيا إمام مذهبنا مالك بن أنس وأصحابه ، ففي (النوادر) من رواية ابن أبي مريم عنه في رجل عيّر رجلا بالفقر ، فقال : تعيرني بالفقر وقد رعى النبي صلّى الله عليه وسلّم الغنم ؟ فقال مالك : قد عرض بذكر النبي صلّى الله عليه وسلّم في غير موضعه ، أرى أن يؤدب ، قال : ولا ينبغي لأهل الذنوب إذا عوتبوا أن يقولوا : قد أخطأت الأنبياء قبلنا .

وقال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – لرجل : انظر لنا كاتبا يكون أبوه عربيا ، فقال كاتب له : قد كان أبو النبي كافرا ! فقال : جعلت هذا مثلا ؟

فعزله وقال : لا تكتب لي أبدا ، وقد كره سحنون أن يصلّى على النبي صلّى الله عليه وسلّم عند التعجب إلا على طريق الثواب والاحتساب توقيرا له وتعظيما كما أمرنا الله تعالى .

وسأل القابسيّ عن رجل قال لرجل قبيح : كأنه وجه نكير ، ولرجل عبوس : كأنه وجه مالك الغضبان ! فقال أبي شيء أراد بهذا ؟ ونكير أحد فتاني القبر ، وهما ملكان ، فما الّذي أراد ؟ أروع دخل عليه حين رآه من وجهه ؟ أم خاف النظر إليه لدمامة خلقه ؟ قال : فإن قال هذا فهو شديد لأنه جرى مجرى

(80/341)

التحقير والتهوين ، فهو أشد عقوبة ، وليس فيه تصريح بالسب للملك ، وإنما السبّ واقع على المخاطب ، وفي الأدب بالسوط والسجن نكال للسفهاء .

قال وأما ذكر مالك وخازن النار فقد جفا الّذي ذكره عند ما أنكر حاله من عبوس الآخر ، إلا أن يكون المعبس له يد فمرهب الملك بعبسته ، فيشبه القائل على طريق الذم لهذا في فعله ولزومه في ظلمه صفة لمالك الملك لربه في فعله ، فيقول : كأنه للّه يغضب مالك فيكون

أخف ، وما كان ينبغي له التعرض لمثل هذا ، ولو كان أثنى على العبوس بعبسته ، واحتج بصفة مالك كان أشد ، ويعاقب المعاقبة الشديدة ، وليس في هذا ذم للملك على قصد ذمه يقتل .

وقال أبو الحسن أيضا في شاب معروف بالخير ، قال لرجل شيئا ، فقال له : اسكت فإنك أمي ، فقال الشاب : أليس كان النبي صلّى الله عليه وسلّم أميا ؟ فشنع عليه مقاله ، وكفره الناس ، وأشفق الشاب مما قال ، وأظهر الندم عليه ، فقال أبو الحسن : أما إطلاق الكفر عليه فخطأ ، لكنه مخطئ في استشهاده فصفة النبي صلّى الله عليه وسلّم أميا آية له ، وكون هذا أميا نقيصة فيه ، وجهالة ، ومن جهالته احتجاجه بصفة النبي صلّى الله عليه وسلّم ، ولكنه إذا استغفر وتاب واعترف ولجأ إلى الله فيترك ، لأن قوله لا ينتهي إلى حدّ القتل وما طريقه الأدب ، فطوع فاعله بالندم عليه يوجب الكف عنه .

ونزلت أيضا مسألة استفتى فيها بعض قضاه الأندلس شيخنا القاضي أبا محمد بن منصور – رحمه الله – في رجل تنقصه آخر بشيء فقال له : إنما تريد نقصي بقولك وأنا بشر ، وجميع البشر يلحقهم النقص ، حتى النبي صلّى الله عليه وسلّم ! فأفتاه بإطالة سجنه وإيجاع أدبه ، إذ لم يقصد السب ، وكان بعض فقهاء الأندلس أفتى بقتله .

الوجه السادس : أن يقول القائل ذلك حاكيا عن غيره ، وآثرا له عن سواه ، فهذا ينظر في صورة حكايته ، وقرينة مقالته ، ويختلف الحكم باختلاف ذلك على أربعة وجوه :

الوجوب ، والندب ، والكراهة ، والتحريم ، فإن كان أخبر به على وجه الشهادة ، والتعريف بقائله ، والإنكار والإعلام بقوله ، والتنفير منه ، والتجريح له : فهذا مما ينبغي امتثاله ويحمد فاعله .

(81/341)

وكذلك إن حكاه في كتاب أو في مجلس على طريق الرد له والنقص على قائله ، والفتيا بما يلزمه ، وهذا منه ما يجب ، ومنه ما يستحب ، بحسب حالات الحاكي لذلك ، والمحكي عنه ، فإنه كان القائل لذلك ممن تصدى لأن يؤخذ عنه العلم ، أو رواية الحديث ، أو يقطع بحكمه ، أو شهادته ، أو فتياه في الحقوق ، وجب على سامعه الإشادة بما سمع منه ، والتنفير للناس عنه والشهادة عليه بما قاله ، ووجب على من بلغه ذلك من أئمة المسلمين إنكاره وبيان كفره ، وفساد قوله ، لقطع ضرره عن المسلمين ، وقياما بحق سيد المرسلين صلّى الله عليه وسلّم ، وكذلك إن كان ممن يعظ العامة ، أو يؤدب الصبيان ، فإن من هذه سريرته لا يؤمن على إلقاء ذلك في قلوبهم ، فيتأكد في هؤلاء الإيجاب لحق النبي صلّى الله عليه وسلّم ولحق شريعته .

وإن لم يكن القائل بهذه السبيل فالقيام بحق النبي صلّى الله عليه وسلّم واجب ، وحماية

عرضه متعين ، ونصرته على الأذى حيا وميتا ، مستحق على كل مؤمن ، ولكنه إذا قام بهذا من ظهر به الحق وفصلت به القضية ، وبان به الأمر ، سقط عن الباقي الفرض ، وبقي الاستحباب في تكثير الشهادة ، والتحذير منه .

وقد أجمع السلف على بيان حال المتهم في الحديث ، فكيف ، بمثل هذا ؟

وقد سئل أبو محمد بن أبي زيد عن الشاهد يسمع مثل هذا في حق الله تعالى أيسعه أن يؤدي شهادته ؟ قال : إن رجا نفاذ الحكم بشهادته فليشهد ، وكذلك إن علم أن الحاكم لا يرى القتل بما يشهد به ويرى الاستتابة والأدب فليشهد ، ويلزمه ذلك ، وأما الإباحة لحكاية قوله لغير هذين المقصدين ، فلا أرى لها مدخلا في هذا الباب ، فليس التفكه بعرض النبي صلّى الله عليه وسلّم والتمضمض بسوء ذكره لأحد لا ذاكرا ولا آثرا لغير غرض شرعي بمباح ، وأما للأغراض المتقدمة فمتردد بين الإيجاب والاستحباب ، وقد حكى الله تعالى مقالات المفترين عليه وعلى رسله في كتابه على وجه الإنكار لقولهم ، والتحذير من كفرهم ، والوعيد عليه ، والرد عليهم بما تلاه الله علينا في محكم كتابه ، وكذلك وقع من أمثاله في أحاديث النبي صلّى الله عليه وسلّم الصحيحة على الوجوه المتقدمة ، وأجمع السلف والخلف من أئمة الهدى على حكايات مقالات الكفرة والملحدين

في كتبهم ومجالسهم ، ليبيّنوها للناس ، وينقضوا شبهها عليهم وإن كان ورد لأحمد بن حنبل رحمه الله إنكار لبعض هذا على الحارث بن أسد ، فقد صنع أحمد مثله في رده على الجهمية ، والقائلين بالمخلوق ، وهذه الوجوه السابقة الحكاية عنها ، وأما ذكرها على هذا من حكاية سبه صلى الله عليه وسلم والإزراء بمنصبه على وجه الحكايات والأسمار والطرف ، وأحادث الناس ، ومقالاتهم في الغث والسمين ، ومضاحك المجان ، ونوارد السخفاء ، والخوض في قيل وقال : وما لا يعني ، فكل هذا ممنوع وبعضه أشد في المنع والعقوبة من بعض ، فما كان من قائله الحاكي له على غير قصد أو معرفة بمقدار ما حكاه أو يكن الكلام من البشاعة حيث هو ولم يظهر على حاكيه استحسانه واستصوابه ، ونهى عن العودة إليه ، وإن قوّم ببعض الأدب فهو مستوجب له ، وإن كان لفظه من البشاعة حيث هو كان الأدب أشدّ .

وقد حكي أن رجلا سأل مالكا رحمه الله عمن يقول : القرآن مخلوق ، فقال مالك : كافر فاقتلوه ، فقال إنما حكيته عن غيري . فقال مالك : إنما سمعناه منك ، وهذا من مالك – رحمه الله – على طريق الزجر والتغليظ بدليل أنه لم ينفذ قتله ، وإن أتاهم هذا الحاكي فيما حكاه أنه اختلقه ونسبه إلى غيره ، أو كانت تلك عادة له ، أو ظهر استحسانه لذلك ، أو كان مولعا بمثله ، والاستخفاف له ، أو التحفظ لمثله ، وطلبه ، ورواية أشعار هجوه صلى

الله عليه وسلم ، وسبّه ، فحكم هذا حكم الساب نفسه ، يؤاخذ بقوله ، ولا ينفعه نسبته إلى غيره ، فيبادر بقتله ، وتعجل إلى الهاوية أمه .

وقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام في من حفظ شطر بيت مما هجي به النبي صلى الله عليه وسلّم : فهو كفر ، وقد ذكر بعض من ألف في الإجماع ، إجماع المسلمين على تحريم رواية ما هجي به النبي صلّى الله عليه وسلّم وكتابته ، وقراءته ، وتركه متى وجد دون محو .

ورحم الله أسلافنا المتقين المحرزين لدينهم ، فقد أسقطوا من أحاديث المغازي والسير ما كان هذا سبيله ، وتركوا روايته ، إلا أشياء ذكروها يسيرة وغير مستبشعة على نحو الوجوه الأول ، ليروا نقمة الله من قائلها ، وأخذه المفترى عليه بذنبه .

(83/341)

الوجه التاسع : أن يذكر ما يجوز على النبي صلّى الله عليه وسلّم أو يختلف في جوازه عليه وما يطرأ من الأمور البشرية به ، ويمكن إضافتها إليه ، أو يذكر ما امتحن به وصبر في ذات الله تعالى على شدته من مقاساة أعدائه ، وأذاهم له ومعرفة ابتداء حاله وسيرته ، وما لقيه من بؤس زمنه ، ومر عليه من معاناة عيشه ، كل ذلك على طريق الرواية ومذاكرة العلم ومعرفة ما صحت منه العصمة للأنبياء وما يجوز عليهم ، فهذا من خرج عن هذه الفنون

الستة ، إذ ليس فيه غمص ولا نقص ، ولا إزراء ولا استخفاف ولا في ظاهر اللافظ ولا في مقصد اللفظ ، لكن يجب أن يكون الكلام فيه مع أهل العلم ، وفهم طلبة الدين ممن يفهمون مقاصده ، ويحققون فوائده ويجنب ذلك من عساه لا يفقه ، أو يخشى به فتنته ، فقد كره بعض السلف تعليم النساء سورة يوسف ، لما انطوت عليه من تلك القصص ، لضعف معرفتهن ، ونقص عقولهنّ وإدراكهن ، فقد قال صلّى الله عليه وسلّم مخبرا عن نفسه باستئجاره لرعاية الغنم في ابتداء حاله ، فقال : ما من نبي إلا وقد رعى الغنم . وأخبرنا الله تعالى بذلك عن موسى عليه السلام ، وهذا لا غضاضة فيه جملة واحدة ، لمن ذكره على وجهه ، بخلاف من قصد به الغضاضة والتحقير بل كانت عادة جميع العرب ترى في ذلك للأنبياء حكمة بالغة ، وتدريج للّه تعالى إلى كرامته وتدريب برعايتها لسياسة أممهم من خليقته ، بما سبق لهم من الكرامة في الأزل ، ومتقدم العلم ، وكذلك ذكر الله تعالى يتمه وعيلته على طريق المنة عليه ، والتعريف بكرامته له ، فذكر الذاكر لها على وجه تعريف حاله والخبر عن مبتدئه ، والتعجب من منح الله تعالى قبله ، وعظيم منته عنده ، ليس فيه غضاضة بل فيه دلالة على نبوته ، وصحة دعوته ، إذ أظهره الله تعالى بعد هذا على صناديد العرب ومن ناوأه من أشرافهم ، شيئًا فشيئًا ، ونمى أمره حتى قهرهم ، وتمكن من ملك مقاليدهم ، واستباحة ممالك كثير من الأمم غيرهم ، بإظهار الله ، تعالى له ، وتأييده بنصره وبالمؤمنين ، وألف بين قلوبهم ، وإمداده بالملائكة المسومين ، ولهذا قال هرقل حين

سأل أبا سفيان عنه : هل في آبائه من ملك ؟ ثم قال : ولو كان في آبائه ملك لقلنا رجل يطلب ملك أبيه ! وإذا آليتم من صفته وإحدى علاماته في الكتب المتقدمة ، وأخبار الأمم

(84/341)

السالفة ، وكذا وقع ذكره في كتاب أرمياء ، وبهذا وصفه ابن ذي يزن لعبد المطلب ، وبحيرا لأبي طالب .

وكذلك إذا وصف بأنه أميّ كما وصفه الله تعالى به ، فهي مدحة له ، وفضيلة ثابتة فيه ، وقاعدة معجزته ، إذ معجزته العظمى من القرآن العظيم إنما هي متعلقة بطريق المعارف والعلوم ، مع ما منح صلّى الله عليه وسلّم وفضل به من ذلك ، ووجود مثل ذلك من رجل لم يقرأ ، ولم يكتب ولم يدارس ، ولا قن ، ومقتضى العجب ! ومنتهى العبر ، ومعجزة البشر ، وليس في ذلك نقيصه إذ المطلوب من الكتابة والقراءة والمعرفة إنما هي آله لها واسطة موصّلة إليها غير مرادة في نفسها فإذا حصلت الثمرة والمطلوب استغنى عن الواسطة والسّبب .

والأمية في غيره نقيصة ، لأنها سبب الجهالة وعنوان الغباوة فسبحان من باين أمره من أمر غيره وجعل شرفه فيما فيه محطة سواه ، وحياته فيما فيه هلاك من عداه ، ففي شق قلبه

وإخراج حشوته ، كان تمام حياته ، وغاية قوة نفسه ، وثبات روعه ، وهو فيمن سواه منتهى هلاكه وحتم موته وفنائه ، وهلم جرّا ، إلى سائر ما روي من أخباره وسيره وتقلّله من الدنيا من الملبس ، والمطعم والمركب ، وتواضعه ، ومهنته نفسه في أموره . وخدمة بيته ، زهدا ورغبة عن الدنيا ، وتسوية بين حقيرها وخطيرها ، لسرعة فناء أمورها ، وتقلب أحوالها كل هذا من فضائله ، ومآثره ، وشرفه فمن أورد شيئا منها مورده ، وقصد بها مقصده .

ورحم الله مالكا ، فلقد كره التحدث بمثل ذلك من الأحاديث الموهمة للتشبيه ، والمشكلة المعنى ، وقال : ما يدعو الناس إلى التحدث بمثل هذا ؟ فقيل له : إن ابن عجلان يحدث بها ، فقال : لم يكن من الفقهاء ، ليت الناس وافقوه على ترك الحديث بها ، وساعدوه على طيها ، فأكثرها ليس تحته عمل ، وقد حكى عن جماعة من السلف بل عنهم على الجملة أنهم كانوا يكرهون الكلام فيما ليس تحته عمل ، والنبي صلّى الله عليه وسلّم أوردها قوما عربا يفهمون كلام العرب على وجهه وتصرفاتهم في حقيقته ، ومجازه ، واستعارته ، وبليغة وإيجازه ، فلم تكن في حقهم مشكلة ، ثم جاء من غلبت عليه العجمة وداخلته الأمية ، فلا يكاد يفهم

من مقاصد العرب إلا نصها وصريحها ، ولا يتحقق إشاراتها إلى غرض الإيجاز ، ووحيها وتبليغها ، وتلويحها ، فتفرقوا في تأويلها شذر مذر ، من آمن منهم ومن كفر .

فأما ما لا يصح من هذه الأحاديث فواجب أن لا يذكر منها شيء في حق الله تعالى ولا في حق أنبيائه ، ولا يتحدث بها ولا يتكلف الكلام على معانيها ، والصواب طرحها ، وترك الشغل بها ، إلا أن يذكر على وجه التعريف بأنها ضعيفة المفاد ، واهية الإسناد ، وقد أنكر الأشياخ على أبي بكر بن فورك تكلفه في مشكله الكلام على أحاديث ضعيفة موضوعة لا أصل لها ، أو منقولة عن أهل الكتاب الذين يلبسون الحق بالباطل ، كان يكفيه طرحها ويغنيه على الكلام عليها التنبيه على ضعفها ، إذ المقصود بالكلام على مشكل ما فيها ، أزال اللبس بها واجتثاثها من أصلها وطرحها ، أكشف للبس ، وأشفى للنفس .

قال : ومما يجب على المتكلم فيما يجوز على النبي وما لا يجوز والمذاكر أن يلتزم في كلامه عند ذكره صلّى الله عليه وسلّم وذكر تلك الأحوال الواجبة من توقيره وتعظيمه ، ويراقب حال لسانه ، ولا يهمله وتظهر عليه علامات الأدب عند ذكره صلّى الله عليه وسلّم فإذا ذكر ما قاساه من الشدائد ظهر عليه الإشفاق والغيظ على عدوه ، ومودة الفداء للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم والنصرة له لو أمكنه ، وإذا أخذ في أبواب العصمة وتكلم على مجاري أعماله وأقواله صلّى الله عليه وسلّم ، يجرى أحسن اللفظ ، وأدب العبارة ما أمكنه ،

وهجر من العبارة ما يقبح كلفظة الجهل ، والكذب ، والمعصية .

فإذا تكلم في الأقوال قال : هل يجوز عليه الخلف في القول والإخبار بخلاف ما وقع سهوا أو غلطا ؟ ونحوه من العبارة ويتجنب لفظه الكذب جملة واحدة ، وإذا تكلم على العلم قال : هل يجوز أن لا يعلم إلا ما علم ؟ وهل يمكن أن لا يكون عنده علم من بعض الأشياء حتى يوحى إليه ؟ ولا يقول بجهل لقبح اللفظ وبشاعته ، وإذا تكلم في الأفعال قال : هل يجوز منه المخالفة في بعض الأوامر والنواهي ومواقعة الصغائر ؟ فهو أولى وأدب من قوله : هل يجوز أن يعصي أو يذنب ؟ أيفعل كذا وكذا من أنواع المعاصي ؟ فهذا من حق توقيره صلّى الله عليه وسلّم وما يجب له من تعزيز وإعظام .

(86/341)

قال : وإذا كان مثل هذا بين الناس مستعملا في آدابهم وحسن معاشرتهم وخطابهم ومطالبهم ، فاستعماله في حقه صلّى الله عليه وسلّم أوجب ، والتزامه آكد ، فجودة العبارة تفج الشيء أو تحسنه ، وتحريرها وتهذيبها يعظم الأمر أو يهونه ، ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم : إن من البيان لسحرا . فأما ما أورده على جهة النفي عنه والتنزيه فلا حرج في تسريح العبارة وتصريحها فيه ، كقوله : لا يجوز عليه الكذب جملة ولا إتيان الكبائر

بوجه ، ولا الجور في الحكم على حال ولكن مع هذا يجب ظهور توقيره ، وتعظيمه ، وتعزيزه عند ذكره مجردا ، فكيف عند ذكر مثل هذا ؟

قال في حكم سابّه ، وشانئه ، ومنتقصه ومؤذيه : وعقوبته أن مشهور مذهب مالك وأصحابه وقول السلف وجمهور العلماء قبله حدا لا كفرا إن أظهر التوبة منه ولهذا لا يقبل عندهم توبته ، لا تنفعه استقالته ولا فيأته فيه ، وحكمه حكم الزنديق ، ومسرّ الكفر ، وسواء كانت توبته على هذا بعد القدرة عليه ، والشهادة على قوله ، أو جاء تائبا من قبل نفسه ، لأنه حد واجب لا تسقطه التوبة .

قال أبو الحسن القابسي : إذا أقر بالسب وتاب منه وأظهر التوبة قتل بالسب لأنه هو حده .

قال القاضي عياض : وهذا قول أصبغ ، ومسألة سابّ النبي صلّى الله عليه وسلّم أقوى ، لا يتصور فيها الخلاف على الأصل لأنه حق متعلق للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم ولأمته بسببه لا تسقطه التوبة كسائر حقوق الآدميين ، والزنديق إذا تاب بعد القدرة عليه فعند مالك والليث وإسحاق وأحمد لا تقبل توبته ، وعند الشافعيّ تقبل ، واختلف فيه عن أبي حنيفة وأبي يوسف . وحكى ابن المنذر عن علي بن أبى طالب يستتاب ، وقال محمد بن سحنون : ولم يزل القتل عن المسلم بالتوبة من سبه صلّى الله عليه وسلّم ، لأنه لم ينتقل من دين إلى غيره ، وإنما فعل شيئا حده عندنا القتل لا عفو فيه لأحد كالزنديق ، لأنه لم ينتقل من ظاهر إلى ظاهر .

وقال القاضي أبو محمد بن نصر محتجا لسقوط اعتبار توبته : والفرق بينه وبين من سبّ الله تعالى على مشهور القول باستتابته أن النبي صلّى الله عليه وسلّم بشر ،

(87/341)

والبشر جنس تلحقهم المعرة إلا من أكرمه الله تعالى بنبوته ، والبارئ تعالى منزه عن جميع المعايب قطعا ، وليس من جنس تلحق المعرة بجنسه ، وليس سبه صلّى الله عليه وسلّم كالارتداد المقبول فيه التوبة ، لأن الارتداد معنى ينفرد به المرتد لا حق فيه لغيره من الآدميين ، فقبلت توبته ومن سب النبي صلّى الله عليه وسلّم تعلق فيه حق لآدميّ فكان كالمرتد ويقتل حين ارتداده ، أو يقذف ، فإن توبته لا تسقط عنه حدّ القتل والقذف .

وأيضا فإن توبة المرتد إذا قبلت لا تسقط ذنوبه من زنا وسرقة وغيرها ولم يقتل سابّ النبي لكفره لكن لمن يرجع إلى تعظيم حرمته ، وزوال المعرّة به ، وذلك لا تسقطه التوبة .

قال القاضي عياض : يريد – والله أعلم – أن سبّه لم يكن بكلمة تقتضي الكفر ، ولكن بمعنى الإزراء أو الاستخفاف أو لأن بتوبته وإظهار إنابته ارتفع عنه اسم الكفر ظاهرا ، والله تعالى أعلم بسريرته ، وبقي حكم السب عليه .

وقال أبو عمران القابسيّ : من سبّ النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم ارتد عن الإسلام قتل ،

ولم يستتب ، لأن السبّ من حقوق الآدميين التي لا تسقط عن المرتد .

قال القاضي عياض : وكلام شيوخنا هؤلاء مبني على القول بقتله حدا لا كفرا وهو يحتاج إلى تفصيل ، وأما على رواية الوليد بن مسلم ، عن مالك ومن وافقه على ذلك ممن ذكرناه ، وقال به من أهل العلم ، فقد حرروا أنه ردة ، قالوا : ويستتاب منها ، فإن تاب نكل به ، وإن أبى قتل ، فحكم بحكم المرتد مطلقا في هذا الوجه الأول أشهر وأظهر لما قدمناه .

ونحن نبسط الكلام فيه فنقول : من لم يره ردة فهو يوجب القتل وفيه حدا ، وإنما نقول ذلك مع فصلين ، إما مع إنكاره ما شهد عليه به ، أو إظهاره الإقلاع والتوبة عنه ، فنقتله حدا لثبات كلمة الكفر عليه في حق النبي صلّى الله عليه وسلّم وتحقيره ما عظم الله تعالى من حقه ، وأجرينا حكمه في ميراثه وغير ذلك حكم الزنديق إذا ظهر عليه ، وأنكر أو تاب .

فإن قيل : فكيف تثبتون عليه الكفر ويشهد عليه بكلمة الكفر ولا تحكمون

(88/341)

عليه بحكمه من الاستتابة وتوابعها ؟ قلنا : نحن وإن أثبتنا له حكم الكافر في القتل فلا يقطع عليه بذلك لإقراره بالتوحيد والنبوة ، وإنكاره ما شهد به عليه أو زعمه أن ذلك كان منه ذهلا ومعصية ، وأنه مقلع عن ذلك نادم عليه ولا يمتنع إثبات بعض أحكام الكفر على

شخص وإن لم تثبت له خصائصه كقتل تارك الصلاة .

وأما من علم أنه سبه معتقدا لاستحلاله ، فلا شك في كفره بذلك ، وكذلك إن كان سبه في نفسه كفر كتكذيبه ، أو تكفيره ، ونحوه ، فهذا مما لا إشكال فيه ، ويقتل وإن تاب منه ، لأنا لا نقبل توبته ونقتله بعد التوبة حدا ، لقوله ومتقدم كفره ، وأمره بعد إلى الله تعالى المطلع على صحة إقلاعه ، العالم بسره وكذلك من لم يظهر إلى التوبة واعترف بما شهد به عليه ، وصمم عليه ، فهذا كافر بقوله وباستحلاله ، هتك حرمة الله تعالى وحرمة نبيه صلّى الله عليه وسلّم يقتل كافرا بلا خلاف ، فعلى هذه التفصيلات يؤخذ كلام العلماء ونزل مختلف عبارتهم في الاحتجاج عليها وأخذ اختلافهم في الموارثة وغيرها على ترتيبها ، يتضح لك مقاصدهم ، إن شاء الله تعالى .

حكى ابن القصار أنه إجماع من الصحابة – رضي الله تبارك وتعالى عنهم – على تصويب قول عمر في الاستتابة ولم ينكره واحد منهم ، وهو قول عثمان ، وعلي وابن مسعود ، وبه قال عطاء بن أبي رباح ، والنخعي ، والثوري ومالك ، وأصحابه والأوزاعيّ والشافعيّ ، وأحمد ، وإسحاق ، وأصحاب الرأي ، وذهب طاووس ، وعبيد بن عمير ، والحسن في إحدى الروايتين عنه ، أنه لا يستتاب ، وقاله عبد العزيز بن أبي شيبة ، وذكره معاذ ، وأنكر سحنون عن معاذ ، وحكاه الطحاوي عن أبي يوسف ، وهو قول أهل الظاهر .

قالوا : وتنفعه توبته عند الله تعالى ولكن لا ندرأ القتل عنه لقوله صلّى الله عليه وسلّم : من

بدل دينه : فاقتلوه ، وحكى أيضا عن عطاء أنه إن كان ممن ولد في الإسلام لم يستتب ، ويستتاب الإسلامي ، وجمهور العلماء على أن المرتد والمرتدة في ذلك سواء روى عن عليّ لا تقتل المرتدة وتسترق ، وقال عطاء وقتادة ، وروي عن ابن عباس – رضي الله تبارك وتعالى عنهما – : لا تقتل النساء في الردة ،

(89/341)

وبه قال أبو حنيفة ، وقال مالك : والحر والعبد والذكر والأنثى في ذلك سواء .

وأما مدتها : فمذهب الجمهور ، وروى عن ابن عمر أنه يستتاب ثلاثة أيام يحبس فيها ، وقد اختلف فيه عن عمر وهو أحد قولي الشافعيّ ، وقول أحمد وإسحاق ، واستحسنه مالك . وقال لا يأتي الاستظهار إلا بخير ، وليس عليه جماعة الناس .

قال ابن أبي زيد : يزيد في الاستتابة ثلاثا ، وقال مالك أيضا : الّذي آخذ به في المرتد قول ابن عمر يحبس ثلاثة أيام ويعرض عليه كل يوم فإن تاب وإلا قتل ، وقال ابن القصار : في تأخيره ثلاثا روايتان عن مالك : هل ذلك واجب أو مستحب ؟ واستحسن الاستتابة والاستيناء ثلاثا أصحاب الرأي ، وروى عن أبي بكر الصديق – رضي الله تبارك وتعالى عنه – أنه استتاب امرأة فلم تتب فقتلها ، وقال الشافعيّ مرة : إن لم يتب مكانه وإلا قتل ،

واستحسنه المزني وقال الزهري : يدعى إلى الإسلام ثلاث مرات ، فإن أبى قتل ، وروى عن علي : يستتاب شهرين ، وقال النخعي : يستتاب أبدا وبه أخذ الثوري ما رجيت توبته ، وحكى ابن القصار عن أبي حنيفة أنه يستتاب ثلاث مرات ، فإن أبى ضربت عنقه ، واختلف على هذا ، هل يهدد أو يشدد عليه أيام الاستتابة ليتوب أم لا ؟

فقال مالك : ما علمت في الاستتابة تجويعا ولا تعطيشا ويؤتى من الطعام بما لا يضره .

قال أصبغ : وأي المواضع حبس فيها من السجون مع الناس أو وحده إذا استوثق منه سواء ، ويوقف ماله إذا أخيف أن يتلفه على المسلمين ويطعم منه ويسقى ، وكذلك يستتاب أبدا كلما رجع وارتد . وهو قول الشافعيّ وأحمد .

وقاله ابن القاسم ، وقال إسحاق : يقتل في الرابعة . وقال أصحاب الرأي : وإن لم يتب في الرابعة قتل دون استتابة ، وإن تاب ضرب ضربا وجيعا . ولم يخرج من السجن حتى يظهر عليه خشوع التوبة .

قال ابن المنذر : ولا نعلم أحدا أوجب على المرتد في المرة الأولى أدبا إذا رجع وهو على مذهب مالك والشافعيّ والكوفي .

(90/341)

قال القاضي عياض : هذا ، وحكم من ثبت عليه بما شهد عليه ذلك بما يجب ثبوته من إقرار أو عدول لم يدفع منهم فأما من لم تتم الشهادة عليه بما شهد عليه الواحد أو اللفيف من الناس ، أو ثبت قوله ، لكن احتمل ولم يكن صريحا وكذلك إن من تاب على القول بقبول توبته ، فهذا يدرأ عنه القتل ، ويتسلط عليه اجتهاد الإمام بقدر شهرة حاله ، وقوة الشهادة عليه وضعفها ، وكره السماع عنه ، وصورة حاله من التهمة في الدين والتميز بالسفه والمجون ، فمن قوى أمره أذاقه من شديد النكال من التضييق في السجن ، والشد في القيود ، إلى الغاية التي منتهى طاقته ، مما لا يمنعه القيام لضرورته ولا يقعده عن صلاته ، وهو حكم كل من وجب عليه القتل .

قال القابسي في مثل هذا : ومن كان أقصى أمره القتل فعاق عائق أشكل في القتل لم ينبغ أن يطلق من السجن ويستطال سجنه ، ولو كان فيه من المدة ما عسى أن يقيم ، ويحمل عليه من القيد ما يطيق ، وقال في مثلها مما أشكل أمره ، فشد في القيود شدا ويضيق عليه في السجن حتى ينظر فيما يجب عليه فقال في مسأله أخرى مثلهما : ولا يهراق الدم إلا بالأمر الواضح ، وفي الأدب بالسوط ، والسجن ، نكال للسفهاء ، ويعاقب عقوبة شديدة فأما إن لم يشهد عليه سوى شاهدين ، فأثبت من عدولهما أو جرحهما ، ما أسقطهما عنه ، ولم يسمع ذلك من غيرهما ، فأمره أخف ، لسقوط الحكم عنه ، وكأنه لم يشهد عليه إلا أن يكون ممن يليق به ذلك ويكون الشاهدان من أهل التبريز فأسقطهما بعداوة فهو وإن لم ينفذ

الحكم عليه بشهادتهما ، فلا يدفع الظن صدقها ، للحاكم هنا في تنكيله موضع اجتهاد ، والله ولى الإرشاد .

(91/341)

فصل في حكم الذميّ إذا صرح بسب النبي صلّى الله عليه وسلّم أو عرّض أو استخفّ بقدره

قال القاضي عياض : أما الذمّيّ إذ صرّح بسبّه أو عرض أو استخف بقدره ، أو وصفه صلّى الله عليه وسلّم بغير الوجه الّذي كفر به فلا خلاف عندنا في قتله إن لم يسلم ، لأنا لم نعطه العهد على هذا ، وهو قول عامة العلماء إلا أبا حنيفة ، والثوري ، وأتباعهما من أهل الكوفة ، فإنّهم قالوا : لا يقتل لأن ما هو عليه من الشرك أعظم ، ولكن يؤدب ويعذر .

واستدل بعض شيوخنا على قتله بقوله تعالى : وَإِنْ نَكَثُوا أَيمانَهُمْ من بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيمانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ 9 : 12 [1] .

ويستدل أيضا بقتل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم لابن الأشرف وأشباهه ، ولأنا لم نعاهدهم ولم نعطهم الذمة على هذا ولا يجوز لنا أن نفعل ذلك معهم ، فإذا أتوا ما لم يعطوا عليه العهد ولا الذمة ، فقد نقضوا ذمتهم ، وصاروا كفارا أهل حرب يقتلون لكفرهم .

وأيضا فإن ذمتهم لا تسقط ، حدود الإسلام عنهم ، من القطع في سرقة أموالهم والقتل لمن قتلوه منهم وإن كان ذلك حلالا عندهم فكذلك سبهم للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقتلون به وردت لأصحابنا ظواهر تقتضي الخلاف إذا ذكره الذمي بالوجه الّذي كفر به ستقف عليها من كلام ابن القاسم وابن سحنون بعد .

وحكى أبو المصعب الخلاف فيها عن أصحابه المدنيين ، واختلفوا إذا سبه ثم أسلم فقيل : يسقط إسلامه قتله ، لأن الإسلام يجب ما قبله ، بخلاف المسلم إذا سبه ثم تاب لأنا نعلم باطنه الكافر في بغضه له ، وتنقصه بقلبه ، لكنا منعناه من إظهاره ، فلم يزدنا ما أظهر إلا مخالفة للأمر ونقضا للعهد ، فإذا

---

[1] التوبة : 12 .

(92/341)

رجع عن ذنبه الأول إلى الإسلام سقط ما قبله . قال الله تعالى : قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ 8 : 38 [1] والمسلم بخلافه إذ كان ظننا بباطنه حكم بظاهره وخلاف ما بدا منه الآن ، فلم يقبل بعد رجوعه ، ولا استنمنا الي باطنه إذ قد بدت سرائره وما ثبت عليه من الأحكام باقية عليه لم يسقطها

شيء .

وقيل : لا يسقط إسلام الذمي الساب قتله لأنه حق للنّبيّ صلّى الله عليه وسلّم وجب عليه لانتهاكه حرمته وقصده إلحاق النقيصة والمعرة به فلم يكن رجوعه إلي الإسلام بالذي يسقطه كما وجب عليه من حقوق المسلمين من قبل إسلامه من قتل وقذف ، وإذا كنا لا نقبل توبة المسلم فإن لا نقبل توبة الكافر أولي .

قال مالك في كتاب ابن حبيب (المبسوط) وابن القاسم وابن الماجشون وابن عبد الحكم وأصبغ فيمن شتم نبينا صلّى الله عليه وسلّم من أهل الذمة أو أحدا من الأنبياء عليهم السلام : قتل إلا أن يسلم وقاله ابن القاسم في (العتبية) وعند محمد وابن سحنون وقال سحنون وأصبغ : لا يقال له أسلم ولا تسلم ولكن إن أسلم فذلك له توبة . وفي كتاب محمد أخبرنا أصحاب مالك أنه قال : من سب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو غيره من النبيين من مسلم أو كافر قتل ولم يستتب وروي لنا عن مالك : إلا أن يسلم الكافر . وقد روى ابن وهب عن ابن عمر أن راهبا تناول النبي صلّى الله عليه وسلّم فقال ابن عمر : فهلا قتلتموه ؟ وروى عيسى عن ابن القاسم في ذميّ قال : إن محمدا لم يرسل إلينا إنما أرسل إليكم وإنما نبينا موسى أو عيسى ونحو هذا لا شيء عليهم لأن الله تعالى أقرهم على مثله .

وأما إن سبه فقال : ليس بنبي ، أو لم يرسل أو لم ينزل عليه قرآن وإنما هو شيء تقوله أو نحو

هذا فيقتل . قال ابن القاسم : وإذا قال النصراني ديننا خير من دينكم إنما دينكم دين الحمير ونحو هذا من القبيح ، أو سمع المؤذن يقول :

أشهد أن محمد رسول الله فقال : كذلك يعطيكم الله ، ففي هذا الأدب الموجع والسجن الطويل .

قال : وأما إن شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم شتما يعرف فإنه يقتل إلا أن يسلم ، قاله مالك غير مرة ، ولم يقل : يستتاب .

---

[1] الأنفال : 38 .

(93/341)

قال ابن القاسم : ومحمل قوله عندي إن أسلم طائعا . وقال ابن سحنون في سؤالات سليمان بن سالم في اليهودي يقول للمؤذن إذا تشهد : كذبت ، يعاقب العقوبة الموجعة مع السجن الطويل .

وفي (النوادر) من رواية سحنون عنه : من شتم الأنبياء من اليهود والنصارى بغير الوجه الّذي به كفروا ضربت عنقه إلا أن يسلم . قال محمد بن سحنون : فإن قيل : لم قتلت في سب النبي صلى الله عليه وسلّم ومن دينه سبه وتكذيبه ؟

قيل : لأنا لم نعطهم العهد على ذلك ، ولا علي قتلنا ، وأخذ أموالنا ، فإذا قتل واحدا منا قتلناه ، وإن كان من دينه استحلاله فكذلك إظهاره لسب نبينا صلّى الله عليه وسلّم .

قال سحنون : كمال بذل لنا أهل الحرب الجزية على إقرارهم على سبه لم يجز لنا ذلك في قول قائل ، كذلك ينتقض عهد من سب منهم ، ويحل لنا دمه ، وكما لم يحصن الإسلام من سبه من القتل كذلك لا تحصنه الذمة .

قال القاضي أبو الفضل : ما ذكره ابن سحنون عن نفسه وعن أبيه مخالف لقول ابن القاسم فيما خفف عقوبتهم فيه مما به كفروا فتأمله ويدل على أنه خلاف ما روى عن المدنيين في ذلك ، فحكى أبو المصعب الزهري قال : أتيت بنصرانيّ قال : والّذي اصطفي عيسى على محمد فاختلف عليه فيه فضربته حتى قتلته أو عاش يوما وليلة وأمرت من جرّ برجله ، وطرح علي مزبلة فأكلته الكلاب .

وسئل أبو المصعب عن نصرانيّ قال : عيسى خلق محمدا فقال : يقتل وقال ابن القاسم : سألنا مالكا عن نصراني بمصر شهد عليه أنه قال : مسكين محمد ! يخبركم أنه في الجنة ! ما له لم ينفع نفسه ؟ إذ كانت الكلاب تأكل ساقيه ؟ لو قتلوه استراح منه الناس . قال مالك : أري أن تضرب عنقه ، قال ولقد كدت أن لا أتكلم فيها بشيء ، ثم رأيت أنه لا يسعني الصمت .

قال ابن كنانة في (المبسوطة) : من شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم من اليهود والنصارى

فأري للإمام أن يحرقه بالنار وإن شاء قتله ، ثم حرق جثته ، وإن شاء أحرقه بالنار حيا إذا تهافتوا في سبه .

ولقد كتب إلي مالك من مصر وذكروا مسألة ابن القاسم المتقدمة قال :

(94/341)

فأمرني مالك فكتبت بأن يقتل وتضرب عنقه ، فكتبت ، ثم قلت : يا أبا عبد الله واكتب : ثم يحرق بالنار ، فقال : إنه لحقيق بذلك ، وما أولاده به كتبته بيدي بين يديه فما أنكره ولا عابه ونفذت الصحيفة بذلك ، فقتل وحرق .

وأفتي عبيد الله بن يحيي وابن لبابة في جماعة من سلف أصحابنا الأندلسيين بقتل نصرانية استهلت بنفي الربوبية ونبوة عيسى للَّه وتكذيب محمد في النبوة وبقبول إسلامها ودرء القتل عنها به ، قال غير واحد من المتأخرين منهم القابسي وابن الكاتب وقال أبو القاسم بن الجلاب في كتابه :

من سب الله ورسوله من مسلم أو كافر قتل ولا يستتاب .

وحكي القاضي أبو محمد في الذمي يسب ثم يسلم روايتين في درء ، القتل عنه بإسلامه ، وقال ابن سحنون : وحد القذف وشبهه من حقوق العباد لا يسقطه عن الذمي إسلامه

وانما يسقط عنه بإسلامه حدود الله ، فأما حد القذف فحق للعباد كان ذلك لنبي أو غيره ، فأوجب على الذميّ إذا قذف النبي صلّى الله عليه وسلّم ثم أسلم حد القذف ولكن انظر ما ذا يجب عليه ، هل حد القذف في حق النبي صلّى الله عليه وسلم وهو القتل لزيادة حرمة النبي صلّى الله عليه وسلّم على غيره ؟ أم هل يسقط القتل بإسلامه ويحد ثمانين ؟ فتأمله .

فصل في ميراث من قتل في سب النبي صلّى الله عليه وسلّم وغسله والصلاة عليه

اختلف العلماء في ميراث من قتل بسب النبي صلّى الله عليه وسلّم فذهب سحنون إلي أنه لجماعة المسلمين من قبل أن شتم النبي صلّى الله عليه وسلّم كفر يشبه كفر الزنديق .

وقال أصبغ : ميراثه لورثته من المسلمين ان كان مستسرا بذلك . وإن كان مظهرا له مستهلا به ، فميراثه للمسلمين ، ويقتل على كل حال ولا يستتاب .

قال أبو الحسن القابسي : إن قتل وهو منكر للشهادة عليه فالحكم في ميراثه على ما أظهر من إقراره يعني لورثته والقتل حد ثبت عليه ليس من الميراث في شيء وكذلك لو أقر بالسب وأظهر التوبة لقتل إذ هو حده وحكمه في ميراثه ،

(95/341)

وسائر أحكامه حكم الإسلام ، ولو أقر بالسب وتمادى عليه وأبى التوبة منه فقتل على ذلك كان كافرا ، وميراثه للمسلمين ، ولا يغسل ، ولا يصلّى عليه ، ولا يكفن وتستر عورته ويوارى كما يفعل بالكفار .

وقول الشيخ أبى الحسن في المجاهر المتمادي بين لا يمكن الخلاف فيه لأنه كافر ، مرتد ، غير تائب ، ولا مقلع ، وهو مثل قول أصبغ وكذلك في كتاب ابن سحنون في الزنديق : يتمادى على قوله ، ومثله لابن القاسم في (العتبية) ولجماعة من أصحاب مالك في كتاب ابن حبيب فيمن أعلن كفره مثله قال ابن القاسم : وحكمه حكم المرتد ، لا ترثه ورثته من المسلمين ، ولا من أهل الدين الّذي ارتد إليه ، ولا يجوز وصاياه ، ولا عتقه ، وقاله أصبغ ، قبل ذلك أو مات عليه .

وقال أبو محمد بن أبى زيد وإنما يختلف في ميراث الزنديق الّذي يستهل بالتوبة فلا تقبل منه ، فأما المتمادي فلا خلاف أنه لا يورث .

وقال أبو محمد فيمن سب الله تعالى ثم مات ولم تعدل عليه بينة أو لم تقبل إنه يصلّى عليه وروى أصبغ عن ابن القاسم في كتاب ابن حبيب فيمن كذب برسول الله صلّى الله عليه وسلّم أو أعلن دينا مما يفارق به الإسلام إن ميراثه للمسلمين وقال بقول مالك إن ميراث المرتد للمسلمين ولا ترثه ورثته ربيعة والشافعيّ وأبو ثور وابن ليلى واختلف فيه عن أحمد .

وقال على بن أبي طالب – رضي الله تبارك وتعالى عنه – وابن مسعود ، وابن المسيب ، والحسن ، والشعبي ، وعمر بن عبد العزيز ، والحكم والأوزاعي ، والليث وإسحق ، وأبو حنيفة : يرث ورثته من المسلمين . وقيل : ذلك فيما كسبه قبل ارتداده ، وما كسبه في الارتداد فللمسلمين .

وتفصيل أبي الحسن في باقي جوابه حسن بين ، وهو على رأى أصبغ ، وخلاف قول سحنون ، واختلافهما على قولي مالك في ميراث الزنديق ، فمرة ورثه ورثته من المسلمين قامت عليه بذلك بينة فأنكرها ، أو اعترف بذلك وأظهر التوبة ، وقاله أصبغ ، ومحمد بن مسلمة ، وغير واحد من أصحابه لأنه مظهر للإسلام بإنكاره أو توبته ، وحكمه حكم المنافقين الذين كانوا على عهد

(96/341)

رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

وروى ابن نافع عنه في (العتبية) وكتاب محمد أن ميراثه لجماعة المسلمين لأن ماله تبع لدمه ، وقال به أيضا جماعة من أصحابه . وقاله أشهب ، والمغيرة ، وعبد الملك ، ومحمد ، وسحنون ، وذهب ابن قاسم في (العتبية) إلي أنه إن اعترف بما شهد عليه به وتاب فقتل

فلا يورث ، وإن لم يقر حتى مات أو قتل ورث . قال : وكذلك كل من أسرّ كفرا فإنّهم يتوارثون بوراثة الإسلام ، وسئل أبو القاسم بن الكاتب عن النصراني يسب النبي صلّى الله عليه وسلّم فيقتل ، هل يرثه أهل دينه أم المسلمون ؟ فأجاب : إنه للمسلمين ليس على جهة الميراث لأنه لا توارث بين أهل ملتين ، ولكن لأنه من فيئهم لنقضه العهد . هذا معنى قوله واختصاره .

فصل في حكم من سب الله تعالى وملائكته وأنبياءه وكتبه وآل النبي صلّى الله عليه وسلّم وأزواجه وصحبه

قال القاضي عياض : لا خلاف أن سابّ الله تعالى من المسلمين كافر ، حلال الدم ، واختلف في استتابته ، فقال ابن القاسم في المبسوط . وفي كتاب ابن سحنون ومحمد ورواها ابن القاسم عن مالك في كتاب إسحاق بن يحي : من سب الله تعالى من المسلمين قتل ولم يستتب الا أن يكون افتراء على الله بارتداده إلى دين دان به وأظهره فيستتاب وإن لم يظهره لم يستتب .

وقال في (المبسوطة) مطرف وعبد الملك مثله وقال المخزومي ومحمد بن مسلمة وابن أبي حازم لا يقتل المسلم بالسب حتى يستتاب وكذلك اليهودي والنصراني فإن تابوا قبل منهم وإن لم يتوبوا قتلوا ، ولا بد من الاستتابة وذلك كله كالردة وهو الّذي حكاه القاضي ابن نصر عن المذهب . وأفتي أبو محمد بن أبي زيد فيما حكي عنه في رجل لعن رجلا ولعن الله ،

فقال : إنما أردت أن ألعن الشيطان فزل لساني فقال : يقتل بظاهر كفره ولا يقبل عذره ، وأما فيما بينه وبين الله تعالى فمعذور ، واختلف فقهاء قرطبة في مسألة هارون بن حبيب

(97/341)

أخي عبد الملك الفقيه ، وكان ضيق الصدر كثير التبرم ، وكان قد شهد عليه بشهادات منها أنه قال استقلاله من مرض : لقيت في مرضي هذا ما لو قتلت أبا بكر وعمر لم أستوجب هذا كله ، فأفتى إبراهيم بن حسين بن خالد بقتله وإن ضمّن قوله تجويراً لله تعالى وتظلم منه والتعريض فيه كالتصريح .

وأفتى أخوه عبد الملك بن حبيب وإبراهيم بن حسين بن عاصم وسعيد بن سليمان القاضي بطرح القتل عنه إلا أن القاضي رأى عليه التثقيل في الحبس والشدة في الأدب لاحتمال كلامه وصرفه إلي التشكي ، فوجه من قال في ساب الله بالاستتابة أنه كفر وردة محضة ، لم يتعلق بها حق لغير الله فأشبه قصد الكفر بغير سب الله ، وإظهار الانتقال إلى دين آخر من الأديان المخالفة للإسلام .

ووجه ترك استتباته أنه لما ظهر منه ذلك بعد إظهار الإسلام قبل اتهمناه وظننا أن لسانه لم ينطق به إلا وهو معتقد له إذ لا يتساهل في هذا أحد فحكم له بحكم الزنديق ولم تقبل توبته ،

وإذا انتقل من دين إلي دين آخر وأظهر السب بمعنى الارتداد فهذا قد أعلم أنه خلع ربقة الإسلام من عنقه بخلاف الأول المستمسك به ، وحكم هذا حكم المرتد يستتاب علي مشهور مذاهب أكثر العلماء ، وهو مذهب مالك وأصحابه ، على ما بيناه قبل وذكرنا الخلاف في فصوله .

وأما من أضاف إلي الله تعالى ما لا يليق به ليس علي طريق السب ولا الردة وقصد الكفر ولكن على طريق التأويل والاجتهاد والخطأ المفضي إلى الهوى ولبدعة من تشبيه أو نعت بجارحة أو نفي صفة كمال فهذا مما اختلف السلف والخلف في تكفير قائله ومعتقده .

واختلف قول مالك وأصحابه في ذلك ولم يختلفوا في قتالهم إذا تحيزوا فئة وأنهم يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا وإنما اختلفوا في المنفرد منهم فأكثر قول مالك وأصحابه ترك القول بتكفيرهم وترك قتلهم والمبالغة في عقوبتهم وإطالة سجنهم حتى يظر إقلاعهم وتستبين توبتهم كما فعل عمر رضي الله عنه بصبيغ . وهذا قول محمد بن المواز في الخوارج وعبد الملك بن الماجشون وقول سحنون في جميع أهل الأهواء وبه فسر قول مالك في الموطأ وما رواه عن عمر

(98/341)

ابن عبد العزيز وجده وعمه من قولهم . في القدرية يستتابون فإن تابوا وإلا قتلوا ، وقال عيسى بن القاسم في أهل الأهواء من الإباضية والقدرية وشبههم ممن خالف الجماعة من أهل البدع والتحريف لتأويل كتاب الله : يستتابون أظهروا ذلك أو أسروه ، فإن تابوا وإلا قتلوا وميراثهم لورثتهم .

وقال مثله أيضا ابن القاسم في كتاب محمد في أهل القدر وغيرهم قال :

واستتابتهم أن يقال لهم اتركوا ما أنتم عليه ومثله في المبسوط في الإباضية والقدرية وسائر أهل البدع قال : وهم مسلمون ، وإنما قتلوا لرأيهم السوء وبهذا عمل عمر بن عبد العزيز .

قال ابن القاسم : من قال إن الله لم يكلم موسى تكليما استتيب ، فإن تاب وإلا قتل ، وابن حبيب وغيره من أصحابنا يرى تكفيرهم وتكفير أمثالهم من الخوارج والقدرية والمرجئة .

وقد روي أيضا عن سحنون مثله فيمن قال :

ليس للَّه كلام ، أنه كافر ، واختلفت الروايات عن مالك فأطلق في رواية الشاميين أبي مسهر ومروان بن محمد الطاطري الكفر عليهم وقد شوور في زواج القدري فقال : لا تزوجه ، قال الله تعالي : وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ من مُشْرِكٍ 2 : 221 وروي عنه أيضا : أهل الأهواء كلهم كفار : وقال : من وصف شيئا من ذات الله تعالى وأشار إلي شيء من جسده يد أو سمع أو بصر قطع ذلك منه ، شبه الله بنفسه .

وقال فيمن قال : القرآن مخلوق فاقتلوه ، وقال أيضا في رواية ابن نافع :

يجلد ويوجع ضربا ويحبس حتى يتوب ، وفي رواية بشر بن بكر التنيسي عنه يقتل ولا تقبل توبته .

قال القاضي أبو عبد الله البرنكاني والقاضي أبو عبد الله التستري من أئمة العراقيين :

جوابه مختلف ، قتل المستبصر الداعية وعلى هذا الخلاف اختلف قوله في إعادة الصلاة خلفهم ، وحكي ابن المنذر عن الشافعيّ :

لا يستتاب القدريّ ، وأكثر أقوال السلف تكفيرهم ، وممن قال به الليث وابن عيينة وابن لهيعة ، وروي عنهم ذلك فيمن قال بخلق القرآن ، وقال ابن المبارك والأودي ووكيع وحفص بن غياث وأبو إسحاق الفزاري وهشيم وعلي بن عاصم في آخرين وهو من قول أكثر المحدثين والفقهاء والمتكلمين فيهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إمتاع الأسماع حـ 14 صـ 371. 410﴾

(99/341)

قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

أخبر أنهم يخشون على دمائهم فيصلحون ظواهرهم حفظاً لها بالأيمان الكاذبة فقال : ﴿ يحلفون بالله ﴾ أي الذي له تمام العظمة ﴿ لكم ﴾ أي أنهم ما آذوا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ خصوصاً ولا أولادكم بالمخالفة عموماً ؛ وبين غاية مرادهم بقوله : ﴿ ليرضوكم ﴾ .

ولما كان الرسول عليه الصلاة والسلام ليس بأذن بالمعنى الذي أرادوه ، بين أنه لم يكن راضياً بإيمانهم لعدم وقوع صدقتهم في قلبه ولكنه أظهر تصديقهم لما تقدم من الإصلاح فقال : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي هو أعلى خلقه ، وبلغ النهاية في تعظيمه بتوحيد الضمير الدال على وحدة الراضي لأن كل ما يرضي أحدهما يرضي الآخر فقال : ﴿ أحق أن ﴾ أي بأن ﴿ يرضوه ﴾ ولما كان مناط الإرضاء الطاعة ومدار الطاعة الإيمان ، قال معبراً بالوصف لأنه مجزأه : ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ أي فهم يعلمون أنه أحق بالإرضاء فيجتهدون فيه ، وذلك إشارة إلى أنهم إن جددوا إرضاءه كل وقت كان دليلاً على إيمانهم ، وإن خالفوه كان قاطعاً على كفرانهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 341 ﴾

(100/341)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائح أفعال المنافقين وهو إقدامهم على اليمين الكاذبة .

قيل : هذا بناء على ما تقدم ، يعني يؤذون النبي ويسيؤون القول فيه ثم يحلفون لكم .

وقيل : نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتوه واعتذروا وحلفوا ، ففيهم نزلت الآية ، والمعنى : أنهم حلفوا على أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ، ليرضوا المؤمنين بيمينهم ، وكان من الواجب أن يرضوا الله بالإخلاص والتوبة ، لا بإظهار ما يستسرون خلافه ، ونظيره قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا ﴾ [البقرة : 76] .

وأما قوله : ﴿ يُرْضُوهُ ﴾ بعد تقدم ذكر الله وذكر الرسول ففيه وجوه : الأول : أنه تعالى لا يذكر مع غيره بالذكر المجمل ، بل يجب أن يفرد بالذكر تعظيماً له .

والثاني : أن المقصود بجميع الطاعات والعبادات هو الله ، فاقتصر على ذكره .

ويروى أن واحداً من الكفار رفع صوته .

وقال : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ، فسمع الرسول عليه السلام ذلك وقال : "

وضع الحق في أهله " الثالث : يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر الواحد كقوله :

نحن بما عندنا وأنت بما . . عندك راض والرأي مختلف

والرابع : أن العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى ، وإخلاص القلب لا يعلمه إلا الله ، فلهذا السبب خص تعالى نفسه بالذكر .

الخامس : لما وجب أن يكون رضا الرسول مطابقاً لرضا الله تعالى وامتنع حصول المخالفة بينهما وقع الاكتفاء بذكر أحدهما كما يقال : إحسان زيد وإجماله نعشني وجبرني .

السادس : التقدير : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك وقوله : ﴿ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ فيه قولان : الأول : إن كانوا مؤمنين على ما ادعوا .

(101/341)

والثاني : أنهم كانوا عالمين بصحة دين الرسول إلا أنهم أصروا على الكفر حسداً وعناداً ، فلهذا المعنى قال تعالى : ﴿ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ وفي الآية دلالة على رضا الله لا يحصل بإظهار الإيمان ، ما لم يقترن به التصديق بالقلب ، ويبطل قول الكرامية الذين يزعمون أن الإيمان ليس إلا القول باللسان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 95 ﴾

(102/341)

وقال السمرقندى :

ثم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلفوا ، فأخبر الله تعالى أنهم كاذبون في حلفهم ، فقال : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ بحلفهم الكاذب .

﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ .

قال الزجاج : لم يقل أحق أن يرضوهما ، لأن في الكلام دليلاً عليه ، لأن في رضى الله تعالى رضى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فحذف تخفيفاً .

ومعناه والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه ، كما قال الشاعر :

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا .

. . عِنْدَكَ رَاضٍ والرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

أي نحن بما عندنا راضون وأنت بما عندك راضٍ ؛ ويقال : يكره أن يجمع بين ذكر الله تعالى وذكر الرسول في كتابة واحدة ، ويستحب أن يكون ذكر الله تعالى مقدماً وذكر النبي عليه السلام مؤخراً .

وذكر في بعض الأخبار أن خطيباً قام عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال في خطبته : من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى فقال النبي عليه السلام : " بِئْسَ الخَطِيبُ أَنْتَ " لأنه كان يجب أن يقول : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى .

ثم قال : ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ ، يعني : مصدقين بقلوبهم في السر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(103/341)

وقال الثعلبى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾

قال قتادة والسدّي : [اجتمع نفر] من المنافقين منهم جلاس بن سويد وذريعة بن ثابت فوقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : لئن كان ما يقول محمد حق لنحن شر من الحمير ، وكان سمعهم غلام من الأنصار يقال له عامر بن قيس ، فحقروه وقالوا هذه المقالة ، فغضب الغلام وقال : والله إنّ ما يقوله محمد حق وأنتم شر من الحمير ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا إن عامراً كذّاب ، وحلف عامر أنهم كذبة ، فصدقهم النبي صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، وقد كان قال بعضهم في ذلك : يا معشر المنافقين والله إني شر خلق الله ، لوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلّفهم ، ويطلبون ويحلفون ، فأنزل الله ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ وقد كان حقه يرضوهما وقد مضت هذه المسألة ، قال الشاعر :

ما كان حبك والشقاء لتنتهي . . . حتى يجازونك في مغار محصد

أي الحبل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(104/341)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ والله ﴾

مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، والتقدير عنده والله أحق أن يرضوه ورسوله أحق أن يرضوه وهذا كقول الشاعر : [المنسرح]

نحن بما عندنا وأنت بما عن . . . دك راض والرأي مختلفُ

ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره والله أحق أن يرضوه ورسوله قال وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير ، حكاه النقاش عنه ، وليس هذا بشيء ،

وفي مصنف أبي داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما " فجمع في ضمير ، وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر " بئس الخطيب أنت " إنما ذلك وقف في يعصهما فأدخل العاصي في الرشد ، وقيل الضمير في ﴿ يرضوه ﴾ عائد على المذكور كما قال رؤبة : [الرجز] .

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبلقْ . . . كأنَّه في الجلد توليعُ البهقْ

(105/341)

وقوله ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ أي على قولهم ودعواهم ، وقوله ﴿ ألم يعلموا ﴾ الآية ، قولهم ﴿ ألم ﴾ تقرير ووعيد ، وفي مصحف أبي بن كعب " ألم تعلم " على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو وعيد لهم ، وقرأ الأعرج والحسن " ألم تعلموا " بالتاء ، و ﴿ يحادد ﴾ معناه يخالف ويشاق ، وهو أن يعطي هذا حده وهذا حده لهذا ، وقال الزجاج : هو أن يكون هذا في حد وهذا في حد ، وقوله ﴿ فإن ﴾ مذهب سيبويه أنها بدل من الأولى وهذا معترض بأن الشيء لا يبدل منه حتى يستوفى ، والأولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بعد إذ لم يتم جواب الشرط ، وتلك الجملة هي الخبر ، وأيضاً فإن الفاء تمانع البدل ، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأول فيقلق البدل ، وإذا تلطف للبدل فهو بدل الاشتمال

وقال غير سيبويه : هي مجردة لتأكيد الأولى وقالت فرقة من النحاة : هي في موضع خبر ابتداء تقديره فواجب أن له ، وقيل المعنى فله أن له ، وقالت فرقة : هي ابتداء والخبر مضمر تقديره فإن له نار جهنم واجب ، وهذا مردود لأن الابتداء ب " أن " لا يجوز مع إضمار الخبر ، قاله المبرد : وحكي عن أبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أقف الآن على لفظه ، وجميع القراء على فتح " أن " الثانية ، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءتها كسر الألف ، ذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة ابن أبي عبلة ، ووجهه في العربية قوي لأن الفاء تقتضي القطع والاستئناف ولأنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل وإذا كانت كذلك وجب كسرها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(106/341)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾

قال ابن السائب : نزلت في جماعة من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم ، أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم ، ويحلفون ويعتلّون .

وقال مقاتل : منهم عبد الله بن أُبيّ ، حلف لا يتخلَّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولَيكونَنَّ معه على عدوِّه .

وقد ذكرنا في الآية التي قبلها أنهم حلفوا أنهم ما نطقوا بالعيب .

وحكى الزجاج عن بعض النحويين أنه قال : اللام في ﴿ ليرضوكم ﴾ بمعنى القسم ، والمعنى : يحلفون بالله لكم لترضينّكم .

قال : وهذا خطأٌ ، لأنهم إنما حلفوا أنهم ما قالوا ما حكي عنهم ليُرضُوا باليمين ، ولم يحلفوا أنهم يُرضُون في المستقبل .

قلت : وقول مقاتل يؤكد ما أنكره الزجاج ، وقد مال إليه الأخفش .

قوله تعالى : ﴿ واللهُ ورسولُهُ أَحقُّ أن يُرضُوه ﴾ فيه قولان .

أحدهما : بالتوبة والإِنابة .

والثاني : بترك الطعن والعيب .

فإن قيل : لم قال ﴿ يُرضُوه ﴾ ولم يقل : يرضوهما ؟ فقد شرحنا هذا عند قوله : ﴿ ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾ [التوبة : 34] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(107/341)

وقال القرطبى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأُولى روي أن قوماً من المنافقين اجتمعوا ، فيهم الجُلاَس بن سُويد ووديعة بن ثابت ، وفيهم غلام من الأنصار يُدْعَى عامر بن قيس ، فحقّروه فتكلموا وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شرّ من الحمير .

فغضب الغلام وقال : والله إنّ ما يقول حق وأنتم شر من الحمير ؛ فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقولهم ، فحلفوا أن عامراً كاذب ؛ فقال عامر : هم الكَذَبَة ، وحلف على ذلك وقال : اللَّهُمَّ لا تفرّق بيننا حتى يتبيّن صدقُ الصادق وكَذِب الكاذب .

فأنزل الله هذه الآية وفيها ﴿ يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ .

الثانية قوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ابتداء وخبر .

ومذهب سيبويه أن التقدير : والله أحقّ أن يرضوه ورسولُه أحقّ أن يرضوه ؛ ثم حذف ؛ كما قال بعضهمُ :

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راضٍ والرأيُ مختلِفُ

وقال محمد بن يزيد : ليس في الكلام محذوف ، والتقدير ، والله أحق أن يرضوه ورسوله ،

على التقديم والتأخير .

وقال الفرّاء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه ، والله افتتاح كلام ؛ كما تقول : ما شاء الله وشئتَ .

قال النحاس : قول سيبويه أوْلاها ؛ لأنه قد صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم النهيُ عن أن يُقال : ما شاء الله وشئت ، ولا يقدَّر في شيء تقديم ولا تأخير ، ومعناه صحيح .

قلت : وقيل إن الله سبحانه جعل رضاه في رضاه ؛ ألا ترى أنه قال : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] .

وكان الربيع بن خيثم إذا مرّ بهذه الآية وقف ، ثم يقول : حَرْفٌ وأيُّمَا حرف ، فوّض إليه فلا يأمرنا إلاَّ بخير .

الثالثة قال علماؤنا : تضمّنت هذه الآية قبولَ يمين الحالف وإن لم يلزم المحلوف له الرضا .

واليمين حق للمدّعي .

(108/341)

وتضمّنت أن يكون اليمين بالله عزّ وجلّ حَسب ما تقدّم .

وقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " من حلف فلْيحلِفْ بالله أو لِيَصْمُت ومن حلف له

فليصدّق " وقد مضى القول في الأيمان والاستثناءِ فيها مستوفىً في المائدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(109/341)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾

قال قتادة والسدي : اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ثم وديعة بن ثابت فوقعوا في النبي (صلى الله عليه وسلم) وقالوا إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار أسمه عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة فغضب الغلام من قولهم وقال والله إن ما يقول محمد حق وأنتم شر من الحمير ثم أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) وأخبره فدعاهم فسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامراً كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فصدقهم النبي (صلى الله عليه وسلم) فجعل عامر يدعو ويقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب .

فأنزل الله هذه الآية .

وقال مقاتل والكلبي : نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله

(صلى الله عليه وسلم) أتوه يعتذرون ويحلفون ، فأنزل الله هذه الآية .

والمعنى : يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون ليرضوكم يعني فيما بلغكم عنهم من أذى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ اختلفوا في معنى هذا الضمير إلى ماذا يعود فقيل : الضمير عائد على الله تعالى لأن في رضا الله رضا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمعنى والله ورسوله أحق أن يرضوه بالتوبة والإخلاص .

وقيل : يجوز أن يكون المراد يرضوهما فاكتفى بذكر أحدهما عن الآخر .

وقيل : معناه والله أحق أن يرضوه وكذلك رسوله : ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ يعني إن كان هؤلاء المنافقون مصدقين بوعد الله ووعيده في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(110/341)

وقال أبو حيان :

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾

الظاهر أنّ الضمير في يحلفون عائد على الذين يقولون : هو أذن أنكره وحلفوا أنهم ما قالوه .

وقيل : عائد على الذين قالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن شر من الحمير ، وتقدم

ذكر ذلك .

وقيل : عائد على الذين تخلفوا عن غزوة تبوك ، فلما رجع الرسول (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون اعتذروا وحلفوا واعتلوا ، قاله : ابن السائب ، واختاره البيهقي .

وكانوا ثلاثة وثمانين حلف منهم ثمانون ، فقبل الرسول أعذارهم واعترف منهم بالحق ثلاثة ، فأطلع الله رسوله على كذبهم ونفاقهم ، وهلكوا جميعاً بآفات ، ونجا الذين صدقوا .

وقيل : عائد على عبد الله بن أبي ومن معه حلفوا أن لا يتخلفوا عن رسول الله وليكونوا معه على عدوه .

وقال ابن عطية المراد جميع المنافقين الذين يحلفون للرسول والمؤمنين أنهم معهم في الدين وفي كل أمر وحرب ، وهم يبطنون النفاق ، ويتربصون بالمؤمنين الدوائر ، وهذا قول جماعة من أهل التأويل .

واللام في ليرضوكم لام كي ، وأخطأ من ذهب إلى أنها جواب القسم ، وأفرد الضمير في أن يرضوه لأنهما في حكم مرضي واحد ، إذ رضا الله هو رضا الرسول ، أو يكون في الكلام حذف .

قال ابن عطية : مذهب سيبويه أنهما جملتان ، حذفت الأولى لدلالة الثانية عليها ، والتقدير عنده : والله أحق أن يرضوه ، ورسوله أحق أن يرضوه .

وهذا كقول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف . . .

ومذهب المبرد : أنّ في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : والله أحق أن يرضوه ورسوله .

وقيل : الضمير عائد على المذكور كما قال رؤبة :

فيها خطوط من سواد وبلق . . .

كأنه في الجلد توليع البهق

انتهى .

(111/341)

فقوله : مذهب سيبويه أنهما جملتان حذفت الأولى لدلالة الأولى لدلالة الثانية عليها أنْ كان الضمير في أنهما عائداً على كل واحدة من الجملتين ، فكيف تقول حذفت الأولى ولم تحذف الأولى إنما حذف خبرها ؟ ، وإن كان الضمير عائداً على الخبر وهو أحق أن يرضوه ، فلا يكون جملة إلا باعتقاد كون أنْ يرضوه مبتدأ وأحق المتقدم خبره ، لكن لا يتعين هذا القول : إذ يجوز أن يكون الخبر مفرداً بأن يكون التقدير : أحق بأن يرضوه .

وعلى التقدير الأول يكون التقدير : والله إرضاؤه أحق .

وقدره الزمخشري : والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك .

إن كانوا مؤمنين كما يزعمون ، فأحق من يرضونه الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) بالطاعة والوفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(112/341)

وقال أبو السعود :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ﴾

الخطابُ للمؤمنين خاصةً وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرَهم بالأيمان ليعذُروهم ويرضَوا عنهم أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نُقل إليهم مما يورث أذاةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأما التخلفُ عن الجهاد فليس بداخل في هذا الاعتذارِ ﴿ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ بذلك ، وإفرادُ إرضائِهم بالتعليل مع أن عمدةَ أغراضِهم إرضاءُ الرسول صلى الله عليه وسلم وقد قبِل عليه الصلاة والسلام ذلك منهم ولم يكذّبْهم للإيذان بأن ذلك بمعزل من أن يكون وسيلةً إلى إرضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يكذبهم رفقاً بهم وستراً لعيوبهم لا عن رضا بما فعلوه كما أشير إليه ﴿ واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ أي أحقُّ بالإرضاء ولا يتسنى ذلك إلا بالطاعة والمتابعةِ وإيفاءِ حقوقِه عليه الصلاة والسلام في باب الإجلالِ والإعظامِ مَشهداً ومَغيباً وأما ما أتَوا به

من الأَيمان الفاجرة فإنما يرضى به من انحصر طريقُ علمِه في الأخبار إلى أن يجيءَ الحقُّ ويزهَقَ الباطلُ . والجملةُ نصبٌ على الحالية من ضمير يحلفون أي يحلفون لكم لإرضائكم والحالُ أنه تعالى ورسولُه أحقُّ بالإرضاء منكم أي يُعرضون عما يُهِمُّهم ويجديهم ويشتغلون بما لا يَعنيهم ، وإفرادُ الضمير في يُرْضوه إما للإيذان بأن رضاه عليه الصلاة السلام مندرجٌ تحت رضاه سبحانه وإرضاؤُه عليه الصلاة والسلام إرضاءٌ له تعالى لقوله تعالى : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ وإما لأنه مستعارٌ لاسم الإشارةِ الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور كما في قول رؤبة :

فيها خطوطٌ من سوادٍ وبَلَق . . . كأنه في الجلد توليعُ البهقْ

(113/341)

أي كأن ذلك . لا يقال أيُّ حاجةٍ إلى الاستعارة بعد التأويل المذكورِ لأنا نقول : لولا الاستعارةُ لم يتسنَّ التأويل لما أن الضميرَ لا يتعرض إلا لذات ما يرجعِ إليه من غير تعرضٍ لوصف من أوصافه التي من جملتها المذكوريةُ وإنما المتعرضُ لها اسمُ الإشارةِ وإما لأنه عائدٌ إلى رسوله ، والكلامُ جملتان حُذف خبرُ الأولى لدلالة خبرِ الثانية عليه كما ذهب إليه سيبويه ، ومنه قولُ من قال :

نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندك راضٍ والرأيُ مختلف

أو إلى الله على أن المذكورَ خبرُ الجملة الأولى وخبرُ الثانيةِ محذوفٌ كما هو رأي المبرد ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جوابُه محذوفٌ تعويلاً على دِلالة ما سبق عليه أي إن كانوا مؤمنين فليُرْضوا الله ورسولَه بما ذكر فإنهما أحقُّ بالإرضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(114/341)

وقال الآلوسى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾

الخطاب للمؤمنين وكان المنافقون يتكلمون بما لا يليق ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم .

أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ولئن كان ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم حقاً لهم شر من الحمر ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد صلى الله عليه وسلم لحق ولأنت شر من

الحمار ، فسعى بها الرجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : ما حملك على الذي قلت ؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله تعالى ما قال ذلك وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل سبحانه في ذلك : ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ الخ أي يحلفون لكم أنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذاة النبي صلى الله عليه وسلم ليرضوكم بذلك .

وعن مقاتل والكلبي أنها نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم منها أتوا المؤمنين يعتذرون إليهم من تخلفهم ويعتلون ويحلفون .

(115/341)

وأنكر بعضهم هذا مقتصراً على الأول ولعله رأى ذلك أوفق بالمقام ، وإنما أفرد إرضاءهم بالتعليل مع أن عمدة أغراضهم إرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم للإيذان بأن ذلك بمعزل عن أن يكون وسيلة لإرضائه عليه الصلاة والسلام وأنه صلى الله عليه وسلم إنما لم يكذبهم رفقاً بهم وستراً لعيوبهم لا عن رضى بما فعلوا وقبول قلبي لما قالوا ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ أي أحق بالإرضاء من غيره ولا يكون ذلك إلا بالطاعة والموافقة لأمره وإيفاء حقوقه عليه الصلاة والسلام في باب الإجلال والاعظام حضوراً وغيبة ، وأما الإيمان

فإنما يرضى بها من انحصر طريق علمه في الأخبار إلى أن يجيء الحق ويزهق الباطل ، والجلمة في موضع الحال من ضمير ﴿ يحلفون ﴾ والمراد ذمهم بالاشتغال فيما لا يعنيهم والاعراض عما يهمهم ويجديهم .

وتوحيد الضمير في ﴿ يُرْضُوهُ ﴾ مع أن الظاهر بعد العطف بالواو التثنية لأن إرضاء الرسول عليه الصلاة والسلام لا ينفك عن إرضاء الله تعالى و ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] فلتلازمهما جعلا كشيء واحد فعاد إليهما الضمير المفرد ، أو لأن الضمير مستعار لاسم الإشارة الذي يشار به إلى الواحد والمتعدد بتأويل المذكور ، وإنما لم يثن تأدباً لئلا يجمع بين الله تعالى وغيره في ضمير تثنية : وقد نهى عنه على كلام فيه ، أو لأنه عائد إلى رسوله والكلام جملتان حذف خبر الأولى لدلالة خبر الثانية عليه كما في قوله :

نحن بما عندنا وأنت بما . . .

عندك راض والرأي مختلف

(116/341)

أو إلى الله تعالى على أن المذكور خبر الجملة الأولى وخبر الجملة الثانية محذوف ، واختار الأول في مثل ذلك التركيب سيبويه لقرب ما جعل المذكور خبراً له مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر ، واختار الثاني المبرد للسبق ، وقيل : إن الضمير للرسول عليه الصلاة والسلام والخبر له لا غير ولا حذف في الكلام لأن الكلام في إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام وإرضائه فيكون ذكر الله تعالى تعظيماً له عليه الصلاة والسلام وتمهيداً فلذا لم يخبر عنه وخص الخبر بالرسول صلى الله عليه وسلم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُواْ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النور : 48] ولا يخفى أن اعتبار الأخبار عن المعطوف وعدم اعتبار خبر للمتدأ المعطوف عليه أصلاً مع أنه المستقل في الابتداء في غاية الغرابة ، والفرق بين الآيتين مثل الشمس ظاهر ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ جواب الشرط محذوف يدل عليه ما قبله أي إن كانوا مؤمنين إيماناً صادقاً في الظاهر والباطن فليرضوا الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام بما ذكر فإنهما أحق بالإرضاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(117/341)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

عدل عن أسلوب الحكاية عنهم بكلمة ومنهم ، لأنّ ما حكي هنا حال من أحوال جميعهم . فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً ، لإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنّ المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة ، فلا تغرّهم أيمانهم ، فضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبي .

والمراد : الحلف الكاذب ، بقرينة قوله : ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ ، أي بتركهم الأمور التي حلفوا لأجلها ، على أنّه قد عُلِم أنّ أيمانهم كاذبة ممّا تقدّم في قوله : ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ [التوبة : 42] .

فكاف الخطاب للمسلمين ، وذلك يدلّ على أنّ المنافقين يحلفون على التبرّئي ، ممّا يبلغ المسلمين من أقوالهم المؤذية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك يغيظ المسلمين وينكرهم عليهم ، والنبي صلى الله عليه وسلم يغضي عن ذلك ، فلذلك قال الله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ ﴾ أي أحقّ منكم بأن يرضوهما ، وسيأتي تعليل أحقّيّة الله ورسوله بأن يرضوهما في الآية التي بعدها فإرضاء الله بالإيمان به وبرسوله وتعظيمِ رسوله ، وإرضاءُ الرسول بتصديقه ومحبّته وإكرامه .

وإنّما أفرد الضمير في قوله : ﴿ أن يرضوه ﴾ مع أنّ المعاد اثنان لأنّه أريد عود الضمير إلى أول الاسمين ، واعتبار العطف من عطف الجمل بتقدير : واللَّهُ أحقّ أن يرضوه ورسولُه كذلك ، فيكون الكلام جملتين ثانيتهما كالاحتراس وحذفُ الخبر إيجاز .

ومن نكتة ذلك الإشارة إلى التفرقة بين الإرضاءين ، ومنه قول ضابىء بن الحارث:

ومَن يك أمسَى بالمدينة رَحْلُه . . .

فإِنّي وقيّارٌ بهَا لَغَرِيب

التقدير : فإنّي لغريبٌ وقيارٌ بها غَريب أيضاً .

لأنّ إحدى الغربتين مخالفة لأخراهما .

(118/341)

والضمير المنصوب في ﴿ يرضوه ﴾ عائد إلى اسم الجلالة ، لأنّه الأهمّ في الخبر ، ولذلك ابتدىء به ، ألا ترى أنّ بيت ضابىء قد جاء في خبره المذكور لام الابتداء الذي هو من علائق (إنّ) الكائنة في الجملة الأولى ، دون الجملة الثانية ، وهذا الاستعمال هو الغالب .

وشرط ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ ، مستعمل للحثّ والتوقّع لإيمانهم ، لأنّ ما حكي عنهم من الأحوال لا يبقى معه احتمال في إيمانهم ، فاستعمل الشرط للتّوقع وللحثّ على الإيمان .

وفيه أيضاً تسجيل عليهم ، إن أعادوا مثل صنيعهم ، بأنّهم كافرون باللّه ورسوله ، وفيه تعليم للمؤمنين وتحذير من غضب الله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(119/341)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

ومن العجيب أن سورة التوبة فيها أكبر عدد من لفظ " يحلفون " ، ولم ترد مادة " يحلف " في سورة المائدة إلا مرة واحدة ، وفي سورة النساء مرة ، وفي سورة المجادلة ثلاث مرات ، أما في سورة التوبة فقد جاءت سبع مرات ، وفي سورة القلم جاءت " حلاف " ، حتى إن سورة التوبة سميت " سورة يحلف " ؛ لأن فيها أكبر عدد من ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ في القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ وفي هذا إصرار من المنافقين على الحلف كذباً ، وهو ما يوضح غباءهم وعدم فطنتهم .

وأيضاً يقول الحق : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ . . . ﴾ [

التوبة : 95]

واستخدام الحق سبحانه وتعالى حرف السين معناه أنهم لم يحلفوا بعد ، ولكنهم سيحلفون بعد فترة ، أي في المستقبل ، أي : أن الآية الكريمة نزلت ولم يحلفوا بعد ، إنما هم سيحلفون بعد نزول الآية الكريمة ، ولو كان عندهم ذرة من ذكاء ما حلفوا ، ولقالوا : إن القرآن قال سنحلف ولكننا لم نحلف . ولكنهم ورغم نزول الآية جاءوا مصدقين للقرآن مثبتين للإيمان وحلفوا . وكلمة " حلف " هي القسم أو اليمين . وحين نتمعن في القرآن نجد أن الحلف لا يطلق إلا على اليمين الكاذبة ، أما القسم فإنه يطلق على اليمين الصادقة واليمين الكاذبة . فمثلاً عندما نقرأ في سورة المائدة : ﴿ ذلك كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ . . . ﴾ [المائدة : 89]

وما دامت هناك كفارة يمين ؛ يكون الحلف كذباً ؛ لأن الذي يستوجب الكفارة هو الكذب . وإذا استعرضنا بعد ذلك كل " حلف " في القرآن نجد أنه يقصد بها اليمين الكاذبة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ ﴾ [القلم : 10]

(120/341)

فالحلف هنا مقصود به القسم الكاذب . ولكن إذا قال الحق سبحانه وتعالى ﴿ أَقْسَمُواْ ﴾ فقد يكون اليمين صادقاً ؛ وقد يكون كاذباً .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ أي : أن هدف الحلف كذباً هو رضاء المؤمنين حتى يطمئنوا للمنافقين ولا يتوقعوا منهم الشر ، ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى بالحقيقة : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ إذن : فهم يحلفون لترضَوْا أنتم عنهم ، أما المؤمن الحق فهو لا يقسم إلا ليرضى الله ؛ لأن الإنسان قد يخدع البشر ، وقد يفلت من عدالة الأرض ، ولكنك لا تخدع الله ولا تلفت من عدالته أبداً .

ومن مهام الإيمان أن الإنسان يرعى الله في كل معاملة له مع البشر ؛ ويبتغي رضاه ويخاف من غضبه ، ذلك هو المؤمن الحق .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ وكان القياس اللغوي على حسب كلام البشر أن يقول : والله ورسوله أحق أن ترضوهما . وشاء الحق أن يأتى بها ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ؛ لأن رضا الله ورضا رسوله هو رضا واحد ؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأتي بالقرآن من عنده ، ولكنه وحي من عند الله .

وإرضاء الرسول هو اتباع المنهج الذي فيه رضا الله لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله . . . ﴾ [الفتح : 10]

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتبعوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ . . . ﴾ [آل عمران : 31]

ويقول سبحانه : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ . . . ﴾ [النساء : 80]

إذن : فلا توجد طاعة لله وطاعة للرسول ، ولا رضا لله ورضا للرسول ؛ لأن الرضا منهما رضا واحد .

(121/341)

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ دليل على اتحاد الرضا من الله ومن رسوله ، فما يُرضي الله يُرضي الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما يُغضب الله يُغضب الرسول .

أو : أن الحق سبحانه وتعالى يريدنا أن نتأدب مع ذاته ، في أنه إذا اجتمع أمران لله ولرسوله لا نجعل أحداً مع الله ، وإنما نجعله له سبحانه وهو الواحد . ولذلك فعندما ارتكب رجل ذنباً ، وقالوا له : أعلن توبتك أمام رسول الله ، قال الرجل : إني أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد . فقال له رسول الله : " وقعت على الخير " . انظر إلى عظمة الرسول الكريم الذي يثني على رجل يقول أمامه : إني لا أتوب إلى محمد ، وإنما أتوب إلى الله .

وقول الحق سبحانه : ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي : إن كان إيمانهم حقيقة ، وليس نفاقاً .

إذن : فنحن لا نطلب الرضا من خلق الله ، ولكن نطلبه من الله . ورضا الله سبحانه وتعالى ورضا المبلِّغ عنه رسوله صلى الله عليه وسلم رضا واحد . ولذلك وحَّد الضمير ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ ولم يقل يرضوهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(122/341)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال : " ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، وإن كان ما يقول محمد حقاً لهم أشر من حمير . فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله ما يقول محمد لحق ولأنت أشر من الحمار . فسعى بها الرجل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : ما حملك على الذي قلت ؟ فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم

يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب ، فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي رضي الله عنه . مثله ، وسمى الرجم المسلم عامر بن قيس من الأنصار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(123/341)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

قوله تعالى : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ : إنما أفرد الضمير في "يُرْضوه" ، وإن كان الأصل في العطف بالواو المطابقة لوجوهٍ أحدُها : أنَّ رضا الله ورسولِه شيء واحد : مَنْ أطاع الرسول فقد أطاع [الله] ، ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] ، فلذلك جَعل الضميرين ضميراً واحداً مَنْبَهة على ذلك . والثاني : أن الضميرَ عائد على المثنى بلفظ الواحد بتأويل " المذكور " كقول رؤبة :

2507 فيها خطوطٌ مِنْ سوادٍ وبَلَقْ . . . كأنه في الجلد تَوْلِيعُ البَهَقْ

أي : كأن ذاك المذكور . وقد تقدَّم لك بيان هذا في أوائل البقرة . الثالث : قال المبرد : في الكلام تقديمٌ وتأخير تقديره : والله أحقُّ أن يُرْضوه ورسولُه . قلت : وهذا على رأي مَنْ يدَّعي/ الحَذْفَ من الثاني . الرابع : وهو مذهب سيبويه أنه حَذَفَ خبر الأول وأبقى خبر الثاني . وهو أحسن من عكسه وهو قولُ المبردِ ، لأن فيه عدمَ الفصل بين المبتدأ أو خبره ، ولأن فيه أيضاً الإخبار بالشيء عن الأقرب إليه ، وأيضاً فهو متعيَّنٌ في قول الشاعر :

2508 - نحن بما عندنا وأنت بما . . . عندكَ راضٍ والرأيُ مختلفُ

(124/341)

أي : نحن راضُون ، حَذَفَ " راضون " لدلالةِ خبر الثاني عليه . قال ابن عطية : " مذهبُ سيبويهِ أنهما جملتان حُذِفَت الأولى لدلالةِ الثانيةِ عليها " . قال الشيخ : " إن كان الضمير في " أنهما " عائداً على كلِّ واحدةٍ من الجملتين فكيف يقول " حُذفت الأولى " والأُوْلى لم تُحْذَفْ ، إنما حُذِفَ خبرُها ، وإن كان عائداً على الخبر وهو ﴿ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ فلا يكونُ جملةً إلا باعتقاد أن يكون " أن يُرْضُوه " مبتدأً وخبره " أحقُّ " مقدَّماً عليه ، ولا يتعيَّنُ هذا القولُ إذ يجوزُ أن يكونَ الخبرُ مفرداً بأن يكونَ التقدير : أحقٌّ بأَنْ تُرْضوه " . قلت : إنما أراد أبو محمد التقديرَ الأول وهو المشهورُ عند المُعْربين ، يجعلون " أحق " خبراً مقدماً ، و "

أن يرضوه " مبتدأ مؤخراً [أي] : واللَّهُ ورسولُه إرضاؤُه أحقُّ ، وقد تقدَّم تحريرُ هذا قريباً في قوله : ﴿ فاللهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ ﴾ [التوبة : 13] .

و ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ شرطٌ جوابُه محذوفٌ أو متقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 75 . 76 ﴾

(125/341)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) ﴾

أخبر أنَّ من تزيَّن للخَلْق ، وتقرَّب إليهم وأَدامَ رضاهم ، واتَّبَعَ في ذلك هواهم ، فإن اللهَ سبحانه يُسْقِط به عن الخَلْق جاهَهُم ، ويُشِينُهم فيما توهَمُّوا أنه يزينهم ، والذي لا يَضِيعُ ما كان الله ، فأمَّا ما كان لغير الله فَوَبَالٌ لِمَنْ أصابه ، ومُحالٌ ما طَلَبَه .

ويقال إنَّ الخَلْق لا يصدقونك وإنْ حَلَفْت لهم ، والحقُّ يَقْبَلُكَ وإنْ تخلَّفْتَ عنه ؛ فالاشتغالُ بالخَلْقِ محنةٌ أنت غيرُ مأجورٍ عليها ، والإقبالُ على الحقِّ نعمةٌ أنت مشكورٌ عليها .

والمغبونُ مَنْ تَرَكَ ما يُشْكَرُ عليه ويُؤثِر ما لا يؤجرُ عليه .

أهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 41 ﴾

(126/341)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين أن حلفهم هذا إنما هو لكراهة الخزي عند المؤمنين وبين من هو الأحق بأن يرضوه ، أقام الدليل على ذلك في استفهام إنكار وتوبيخ مبيناً أنهم فرّوا من خزي منقض فسقطوا في خزي دائم ، والخزي : استحياء في هوان ، فقال : ﴿ ألم يعلموا ﴾ أي لدلالتهم على الأحق بالإرضاء .

ولما كان ذكر الشيء مبهماً ثم مفسراً أضخم ، أضمر للشأن فقال : ﴿ أنه ﴾ أي الشأن العظيم ﴿ من يحادد الله ﴾ وهو الملك الأعظم ، ويظهر المحادة - بما أشار إليه الفك ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي عظمته من عظمته ، بأن يفعل معهما فعل من يخاصم في حد أرض

فيريد أن يغلب على حد خصمه ، ويلزمه أن يكون في حد غير حده ﴿ فأن له نار جهنم ﴾ أي فكونها له جزاء له على ذلك حق لا ريب فيه ﴿ خالداً فيها ﴾ أي دائماً من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبداً ؛ ثم نبه على عظمة هذا الجزاء بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر البعيد الوصف العظيم الشأن ﴿ الخزي العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 341.342 ﴾

(127/341)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

اعلم أن المقصود من هذه الآية أيضاً ، شرح أحوال المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أهل المعاني : قوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ خطاب لمن حاول الإنسان تعليمه مدة وبالغ في ذلك

التعليم ثم إنه لم يعلم فيقال له : ألم تعلم بعد هذه الساعات الطويلة والمدة المديدة ، وإنما حسن ذلك لأنه طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم ، وكثرت نهاياته للتحذير عن معصية الله والترغيب في طاعته ، فالضمير في قوله : ﴿ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ ﴾ ضمير الأمر والشأن ، والمعنى : أن الأمر والشأن كذا وكذا .

والفائدة في هذا الضمير هو أنه لو ذكر بعد كلمة ﴿ أن ﴾ ذلك المبتدأ والخبر لم يكن له كثير وقع .

فأما إذا قلت الأمر والشأن كذا وكذا أوجب مزيد تعظيم وتهويل لذلك الكلام .

وقوله : ﴿ مَن يُحَادِدِ اللهَ ﴾ قال الليث : حاددته أي خالفته ، والمحاددة كالمجانبة والمعاداة والمخالفة ، واشتقاقه من الحد ، ومعنى حاد فلان فلاناً ، أي صار في حد غيره حده كقوله : شاقه أي صار في شق غير شقه ، ومعنى ﴿ يُحَادِدِ اللهَ ﴾ أي يصير في حد غير حد أولياء الله بالمخالفة .

وقال أبو مسلم : المحادة مأخوذة من الحديد حديد السلاح ، ثم للمفسرين ههنا عبارات : يخالف الله ، وقيل يحارب الله ، وقيل يعاند الله .

وقيل يعاد الله .

ثم قال : ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ وفيه وجوه : الأول : التقدير : فحق أن له نار جهنم .

الثاني : معناه فله نار جهنم ، وإن تكرر للتوكيد .

الثالث : أن نقول جواب ﴿ مِنْ ﴾ محذوف ، والتقدير : ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له نار جهنم .

قال الزجاج : ويجوز كسر ﴿ إن ﴾ على الاستئناف من بعد الفاء والقراءة بالفتح .

(128/341)

ونقل الكعبي في "تفسيره" أن القراءة بالكسر موجودة .

قال أبو مسلم جهنم من أسماء النار ، وأهل اللغة يحكون عن العرب أن البئر البعيدة القعر تسمى الجهنام عندهم ، فجاز في جهنم أن تكون مأخوذة من هذا اللفظ ، ومعنى بعد قعرها أنه لا آخر لعذابها ، والخالد : الدائم ، والخزي قد يكون بمعنى الندم وبمعنى الاستحياء ، والندم هنا أولى .

لقوله تعالى : ﴿ وَأَسَرُّواْ الندامة لَمَّا رَأَوُاْ العذاب ﴾ [يونس : 54] . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 95.96 ﴾

(129/341)

وقال السمرقندى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾

يعني : يخالف الله ورسوله ؛ ويقال : يخالف أمر الله وأمر رسوله ، يعني : أمر الله تعالى في الفرائض ، وأمر رسوله في السنن وفيما بيَّن .

وقال الأخفش : يحادد الله ، يعني : يعادي الله ورسوله ، ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ .

قرأ بعضهم ﴿ فَإِنَّ لَهُ ﴾ بالكسر على معنى الاستئناف ، وقرأ العامة بالنصب على معنى البناء .

﴿ خَالِداً فِيهَا ذلك الخزى العظيم ﴾ ، يعني : العذاب الشديد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾

فيها ثلاثة أقوال :

أحدها : من يخالف الله ورسوله ، قاله الكلبي .

والثاني : مجاوزة حدودها ، قاله علي بن عيسى .

والثالث : أنها معاداتها مأخوذ من حديد السلاح لاستعماله في المعاداة ، قاله ابن بحر .

﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ وهذا وعيد ، وإنما سميت النار جهنم من قول العرب بئر جهنام إذا

كانت بعيدة القعر ، فسميت نار الآخرة جهنم لبعد قعرها ، قاله ابن بحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(130/341)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا ﴾

روى أبو زيد عن المفضل ﴿ ألم تعلموا ﴾ بالتاء .

﴿ أنه من يُحادِدِ الله ﴾ فيه قولان .

أحدهما : من يخالف الله ، قاله ابن عباس .

والثاني : من يعادي الله ، كقولك : من يُجانِبِ الله ورسوله ، أي : يكون في حدٍّ ، والله ورسولُه في حدٍّ .

قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ له نارَ جهنَّم ﴾ قرأ الجمهور : ﴿ فأن ﴾ بفتح الهمزة .

وقرأ أبو رزين ، وأبو عمران ، وابن أبي عبلة : بكسرها ، فمن كسر ، فعلى الاستئناف بعد الفاء ، كما تقول : فله نار جهنم .

ودخلت "إنّ" مؤكدة .

ومن قال : ﴿ فأَنَّ له ﴾ فانما أعاد ﴿ أنَّ ﴾ الأولى توكيداً ؛ لأنه لما طال الكلام ، كان إعادتها أوكد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(131/341)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يعلموا ﴾ يعني المنافقين .

وقرأ ابن هُرْمُز والحسن "تعلموا" بالتاء على الخطاب .

﴿ أَنَّهُ ﴾ في موضع نصب بيعلموا ، والهاء كناية عن الحديث .

﴿ مَن يُحَادِدِ الله ﴾ في موضع رفع بالابتداء .

والمحادّة : وقوع هذا في حَدّ وذاك في حَدّ ؛ كالمشاقّة .

يُقال : حادّ فلان فلاناً أي صار في حَدّ غير حدّه .

﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ يُقال : ما بعد الفاء في الشرط مبتدأ ؛ فكان يجب أن يكون "فإنّ" بكسر الهمزة .

وقد أجاز الخليل وسيبويه ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ بالكسر .

قال سيبويه : وهو جَيّد وأنشد :

وعِلْمِي بأسْدام المياه فلم تَزَل . . .

قَلائصُ تَخْدي في طريقٍ طلائحُ

وأني إذا مَلّتْ رِكابي مُناخَها . . .

فإني على حَظّي من الأمر جامحُ

إلاَّ أن قراءة العامّة "فأن" بفتح الهمزة.

فقال الخليل أيضاً وسيبويه: إن "أنّ" الثانية مبدلة من الأولى.

وزعم المبّرد أن هذا القول مردود، وأن الصحيح ما قاله الجَرْمِيّ، قال: إن الثانية مكررة للتوكيد لما طال الكلام؛ ونظيره ﴿ وَهُمْ فِي الآخرة هُمُ الأخسرون ﴾ [النمل: 5].

وكذا ﴿ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النار خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ [الحشر: 17].

وقال الأخفش: المعنى فوجوب النار له.

وأنكره المبرّد وقال: هذا خطأ من أجل إنّ "أن" المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر.

وقال عليّ بن سليمان: المعنى فالواجب أن له نار جهنم؛ فإن الثانية خبر ابتداء محذوف.

وقيل: التقدير فله أن له نار جهنم.

فإن مرفوعة بالاستقرار على إضمار المجرور بين الفاء وأن. انتهى انتهى. اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألم يعلموا ﴾ قال أهل المعاني ألم تعلم خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه أو أنكره فيقال له ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين أظهر المؤمنين والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله ألم يعلموا يعني من شرائع الدين التي علمهم رسولنا ﴿ إنه من يحادد الله ورسوله ﴾ يعني أنه من يخالف الله ورسوله .

وأصل المحاداة في اللغة : المخالفة والمجانبة والمعادة .

واشتقاقه .

من الحد .

يقال : حاد فلان فلاناً إذا صار في غير حده وخالفه في أمره .

وقيل : معنى يحادد الله ورسوله أي يحارب الله ورسوله ويعاند الله ورسوله ﴿ فأن له نار

جهنم ﴾ أي فحق أن له نار جهنم ﴿ خالداً فيها ﴾ يعني على الدوام ﴿ ذلك الخزي العظيم ﴾ يعني ذلك الخلود في نار جهنم هو الفضيحة العظيمة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(133/341)

وقال أبو حيان :

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ذلك الخزي العظيم ﴾

أي ألم يعلم المنافقون ؟ وهو استفهام معناه التوبيخ والإنكار .

وقرأ الحسن والأعرج : بالتاء على الخطاب ، فالظاهر أنه التفات ، فهو خطاب للمنافقين .

قيل : ويحتمل أن يكون خطاباً للمؤمنين ، فيكون معنى الاستفهام التقرير .

وإن كان خطاباً للرسول فهو خطاب تعظيم ، والاستفهام فيه للتعجب ، والتقدير : ألا تعجب من جهلهم في محادّة الله تعالى : وفي مصحف أبيّ ألم يعلم .

قال ابن عطية : على خطاب النبي عليه السلام انتهى .

والأولى أن يكون خطاباً للسامع ، قال أهل المعاني : ألم تعلم ، الخطاب لمن حاول تعليم إنسان شيئاً مدة وبالغ في ذلك التعليم فلم يعلم فقال له : ألم تعلم بعد المباحث الظاهرة والمدة

المديدة ، وحسن ذلك لأنه طال مكث النبي (صلى الله عليه وسلم) معه ، وكثر منه التحذير عن معصية الله والترغيب في طاعة الله .

قال بعضهم : المحادّة المخالفة ، حاددته خالفته ، واشتقاقه من الحد أي كان على حد غير حادة كقولك : شاقة ، كان في شق غير شقه .

وقال أبو مسلم : المحادة مأخوذة من الحديد ، حديد السلاح .

والمحادة هنا ، قال ابن عباس : المخالفة .

وقيل : المحاربة .

وقيل : المعاندة .

وقيل : المعادة .

وقيل : مجاوزة الحد في المخالفة .

وهذه أقوال متقاربة .

وقرأ الجمهور فإنّ له بالفتح ، والفاء جواب الشرط .

فتقتضي جملة وإنّ له مفرد في موضع رفع على الابتداء ، وخبره محذوف قدره الزمخشري : مقدماً نكرة أي : فحق أن يكون وقدره غيره : متأخراً أي فإن له نار جهنم واجب ، قاله : الأخفش ، ورد عليه بأن أنْ لا يبتدأ بها متقدمة على الخبر ، وهذا مذهب سيبويه والجمهور .

وأجاز الأخفش والفراء وأبو حاتم الابتداء بها متقدمة على الخبر ، فالأخفش خرج ذلك على أصله .

أو في موضع رفع على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي : فالواجب أنّ له النار .

(134/341)

قال علي بن سليمان : وقال الجرمي والمبرد : إن الثانية مكررة للتوكيد ، كان التقدير : فله نار جهنم ، وكرر أنّ توكيداً .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يكون فإن له معطوفاً على أنه ، على أن جواب من محذوف تقديره : ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فإن له نار جهنم انتهى ، فيكون فإنّ له نار جهنم في موضع نصب .

وهذا الذي قدره لا يصح ، لأنهم نصوا على أنه إذا حذف الجواب لدلالة الكلام عليه كان فعل الشرط ماضياً في اللفظ ، أو مضارعاً مجزوماً بلم ، فمن كلامهم : أنت ظالم إن فعلت ، ولا يجوز أن تفعل ، وهنا حذف جواب الشرط ، وفعل الشرط ليس ماضي اللفظ ولا مضارعاً مقروناً بلم ، وذلك إنْ جاء في كلامهم فمخصوص بالضرورة .

وأيضاً فتجد الكلام تاماً دون تقدير هذا الجواب .

ونقلوا عن سيبويه أنّ أنّ بدل من أنه .

قال ابن عطية : وهذا معترض بأن الشيء لا يبدل منه حتى يستوفى .

والأولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بعد أن لم يتم جواب الشرط ، وتلك الجملة هي الخبر .

وأيضاً فإنّ الفاء مانع البدل وأيضاً ، فهي معنى آخر غير الأول ، فيقلق البدل .

وإذا تلطف للبدل فهو بدل اشتمال انتهى .

وقال أبو البقاء : وهذا يعني البدل ضعيف لوجهين : أحدهما : أن الفاء التي معها تمنع من ذلك ، والحكم بزيادتها ضعيف .

والثاني : أن جعلها بدلاً يوجب سقوط جواب الكلام انتهى .

وقيل : هو على إسقاط اللام أي : فلأن له نار جهنم ، فالفاء جواب الشرط ، ويحتاج إلى إضمار ما يتم به جواب الشرط جملة أي : فمحادته لأن له نار جهنم .

وقرأ ابن أبي عبلة : فإن له بالكسر في الهمزة حكاها عنه أبو عمرو الداني ، وهي قراءة محبوب عن الحسن ، ورواية أبي عبيدة عن أبي عمرو ، ووجهه في العربية قوي لأنّ الفاء تقتضي الاستئناف ، والكسر مختار لأنه لا يحتاج إلى إضمار ، بخلاف الفتح .

وقال الشاعر :

فمن يك سائلاً عني فإني . . .

وجروة لا ترود ولا تعار

وعلى هذا يجوز في أنّ بعد فاء الجزاء وجهان : الفتح ، والكسر .

ذلك لأن كينونة النار له خالداً فيها هو الهوان العظيم كما قال : ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(135/341)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾

أي أولئك المنافقون ، والاستفهامُ للتوبيخ على ما أقدَموا عليه من العظيمة مع علمهم بسوء عاقبتِها ، وقُرِىء بالتاء على الالتفات لزيادةِ التقريعِ والتوبيخ أي ألم يعلموا بما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم من فنون القوارعِ والإنذارات ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأنَ ﴿ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ ﴾ المحادَّةُ من الحدّ كالمُشاقّة من الشّق والمعاداةُ من العُدوة بمعنى الجانب فإن كلَّ واحدٍ من مباشري كلِّ الأفعالِ المذكورة في محل غيرِ محلِّ صاحبه ، ومَنْ شرطيةٌ جوابُها قوله تعالى : ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ على أن خبرَه محذوفٌ أي فحقٌّ أن له نارَ جهنم ، وقرىء بكسر الهمزةِ والجملةُ الشرطيةُ في محلّ الرفعِ على أنها خبرٌ لأن وهي مع خبرها سادةٌ مسدَّ مفعولي يعلموا ، وقيل : المعنى فله ، وإنّ تكريرٌ للأولى تأكيداً لطول العهدِ

لا من باب التأكيدِ اللفظيِّ المانعِ للأولى من العمل ، ودخولُ الفاءِ كما في قول من قال :

لقد علم الحيُّ اليمانُونَ أنني . . . إذا قلتُ : أما بعدُ ، أني خطيبُها

وقد جوّز أن يكون فإن له معطوفاً على أنه ، وجوابُ الشرط محذوفٌ تقديرُه ألم يعلموا أنه من يحادِدِ الله ورسولَه يهلِكْ فإن له الخ ، ورُدّ بأن ذلك إنما يجوز عند كونِ فعلِ الشرط ماضياً أو مضارعاً مجزوماً بلم ﴿ خَالِداً فِيهَا ﴾ حالٌ مقدّرةٌ من الضمير المجرورِ إن اعتُبر في الظرف ابتداءُ الاستقرار وحدوثُه وإن اعتبر مطلقُ الاستقرارِ فالأمرُ ظاهر ﴿ ذلك ﴾ أشير إلى ما ذكر من العذاب الخالدِ بذلك إيذاناً ببُعد درجتِه في الهول والفظاعةِ ﴿ الخزى العظيم ﴾ الخزيُ الذلُّ والهوانُ المقارنُ للفضيحة والندامة ، وهي ثمراتُ نفاقِهم حيث يفتضحون على رؤوس الأشهادِ بظهورها ولُحوقِ العذاب الخالدِ بهم ، والجملةُ تذييلٌ لما سبق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(136/341)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ أي أولئك المنافقون ، والاستفهام للتوبيخ على ما أقدموا عليه من العظيمة

مع علمهم بما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بوخامة عاقبتها .

وقرىء ﴿ تَعْلَمُواْ ﴾ بالتاء على الالتفات لزيادة التقريع والتوبيخ إذا كان الخطاب للمنافقين لا للمؤمنين كما قيل به .

وفي قراءة ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ ﴾ [العلق : 14] والخطاب إما للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل واقف عليه ، والعلم يحتمل أن يكون المتعدي لمفعولين وأن يكون المتعدي لواحد ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي الشأن ﴿ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي يخالف أمر الله وأمر رسوله عليه الصلاة والسلام ، وأصل المحادة مفاعلة من الحد بمعنى الجهة والجانب كالمشاقة من الشق والمعاداة من العدوة بمعناه أيضاً فإن كان واحد من مباشري كل من الأفعال المذكورة في حد وشق وعدوة غير ما عليه صاحبه ، ويحتمل أن تكون من الحد بمعنى المنع ، و ﴿ مِنْ ﴾ شرطية جوابها قوله سبحانه : ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ على أن خبره محذوف أي فحق أن له نار جهنم ، وقدر ذلك لأن جواب الشرط لا يكون إلا جملة وأن المفتوحة مع ما في حيزها مفرد تأويلاً ، وقدر مقدماً لأنها لا تقع في ابتداء الكلام كالمكسورة ، وجوز أن يكون المقدر خبراً أي الأمر أن له الخ ، وقيل المراد فله نار جهنم وأن تكرير ﴿ إن ﴾ في قوله سبحانه : ﴿ أَنَّهُ ﴾ توكيداً قيل : وفيه بحث لأنه لو كان المراد فله وأن توكيداً لكان نار جهنم مرفوعاً ولم يعمل ﴿ إن ﴾ فيه ، ولما فصل بين المؤكد والمؤكد بجملة الشرط ، ولما وقع أجنبي بين فاء الجزاء وما في حيزه .

وأجيب بأنه ليس من باب التوكيد اللفظي بل التكرير لبعد العهد وهو من باب التطرية ومثل ذلك لا يمنع العمل ودخول الفاء .

(137/341)

ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء بجهالة ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 119] وقوله :

لقد علم الحي اليمانون أنني . . .

إذا قلت أما بعد أني خطيبها

وكم وكم .

وجعل الآية من هذا الباب نقله سيبويه في الكتاب عن الخليل وهو هو وليس ﴿ زَعَمَ ﴾ في كلامه تمريضاً له لأنه عادته في كل ما نقله كما بينه شراحه وجوّز أن يكون معطوفاً على ﴿ أَنَّهُ ﴾ وجواب الشرط محذوف أي ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فان له الخ .

وحاصله ألم يعلموا هذا وهذا عقيبه ولا يخفى بعده مع أن أبا حيان قال : إنه لا يصح لأنهم نصوا على أن حذف الجواب إنما يكون إذا كان فعل الشرط ماضياً أو مضارعاً مجزوماً بلم وما هنا ليس كذلك .

وتعقبه بعضهم بأن ما ذكره ليس متفقاً عليه فقد نص ابن هشام على خلافه فكأنه شرط للأكثرية ، والقول بأن حق العطف فيما ذكر أن يكون بالواو قال فيه الشهاب ليس بشيء إلا أن استحقاقه النار بسبب المحادة بلا شبهة ، وقرىء .

﴿ فَانٍ ﴾ بالكسر ولا يحتاج إلى توجيه لظهوره ، وقوله سبحانه : ﴿ خَالِداً فِيهَا ﴾ حال مقدرة من الضمير المجرور ان اعتبر في الظرف ابتداء الاستقرار وحدوثه وانه اعتبر مطلق الاستقرار فالأمر واضح ﴿ ذلك ﴾ أي ما ذكر من العذاب ﴿ الخزى العظيم ﴾ أي الذل والهوان المقارن للفضيحة ، ولا يخفى ما في الحمل من المبالغة ، والجملة تذييل لما سبق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(138/341)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

هَذَا ضَرْبٌ آخَرُ مِنْ دَلَائِلِ نِفَاقِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ وَآثَارِهِ ، وَهُوَ إِيذَاءُ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالطَّعْنِ فِي أَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ ، وَشَمَائِلِهِ الْكَرِيمَةِ ، كَإِيذَاءِ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمَزُوهُ فِي بَعْضِ

أَفْعَالِهِ الْعَادِلَةِ وَهِيَ قِسْمَةُ الصَّدَقَاتِ ، وَنَاهِيكَ بِكُفْرِ مَنْ يُصَغِّرُونَ مَا عَظَّمَهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، بِقَوْلِهِ لِرَسُولِهِ : وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (68 : 4) .

(139/341)

أَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : كَانَ نَبْتَلُ بْنُ الْحَارِثِ يَأْتِي رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَجْلِسُ إِلَيْهِ فَيَسْمَعُ مِنْهُ ، ثُمَّ يَنْقِلُ حَدِيثَهُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ ، وَهُوَ الَّذِي قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ ، مَنْ حَدَّثَهُ شَيْئًا صَدَّقَهُ ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِ : وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ وَلَكِنَّ مَنْطُوقَ الْآيَةِ يُسْنِدُ هَذَا الْقَوْلَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ وَهُوَ أَقْرَبُ ، وَإِنْ كَانَ الْإِسْنَادُ إِلَى الْجَمَاعَةِ يَصْدُقُ بِقَوْلِ وَاحِدٍ وَإِقْرَارِ الْبَاقِينَ .

وَالْأَوَّلُ مَرْوِيٌّ عَنِ السُّدِّيِّ عِنْدَ ابْنِ أَبِي حَاتِمٍ قَالَ : اجْتَمَعَ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِيهِمْ جُلَاسُ بْنُ سُوَيْدِ بْنِ صَامِتٍ وَمَخْشِيُّ بْنُ حُمَيْرٍ وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ فَأَرَادُوا أَنْ يَقَعُوا فِي النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَنَهَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَقَالُوا : نَخَافُ أَنْ يَبْلُغَ مُحَمَّدًا فَيَقَعُ بِكُمْ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّمَا مُحَمَّدٌ أُذُنٌ نَحْلِفُ لَهُ فَيُصَدِّقُنَا ، فَنَزَلَ (وَمِنْهُمْ) وَذَكَرَ الْآيَةَ .

الْأَذَى : مَا يُؤْلِمُ الْحَيَّ الْمُدْرِكَ فِي بَدَنِهِ أَوْ فِي نَفْسِهِ وَلَوْ أَلَمًا خَفِيفًا ، يُقَالُ : أَذَى الْإِنْسَانُ

(كَرَضَى) بِكَذَا أَذًى ، وَتَأَذَّى تَأَذِّيًا ، إذَا أَصَابَهُ مَكْرُوهٌ يَسِيرٌ - كَذَا قَالُوا - وَآذَى غَيْرَهُ إيذَاءً ، وَأَنْكَرَ الْفَيْرُوزَابَادِيُّ لَفْظَ الْإِيذَاءِ ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الْقِيَاسُ

(140/341)

؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُسْمَعْ مِنَ الْعَرَبِ إلَّا الْأَذَى وَالْأَذَاةُ وَالْأَذِيَّةُ ، وَرُبَّمَا يَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أَذًى (3 : 111) مِنْ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ آذَى الْمُتَعَدِّي بِنَفْسِهِ لَا مِنْ أَذَى اللَّازِمِ ، إلَّا أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ اسْمُ مَصْدَرٍ ، وَتَقْيِيدُهُمْ لِلْأَذَى بِالْمَكْرُوهِ الْيَسِيرِ غَيْرُ مُسَلَّمٍ عَلَى إطْلَاقِهِ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَى الْيَسِيرِ وَالْخَفِيفِ وَعَلَى الشَّدِيدِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : لَنْ يَضُرُّوكُمْ إلَّا أَذًى مِنَ الْأَوَّلِ ؛ لِأَنَّهُ مُسْتَثْنًى مِنَ الضَّرَرِ ، وَمِثْلُهُ مَا وَرَدَ فِي الْأَذَى مِنَ الْمَطَرِ وَأَذَى الرَّأْسِ مِنَ الْقَمْلِ ، وَمِنَ الثَّانِي قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَحْزَابِ :

إنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (33 : 57 ، 58) فَقَدْ وَرَدَ فِي الْمَأْثُورِ تَفْسِيرُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ بِالَّذِينَ نَسَبُوا إلَيْهِ الِابْنَ وَالْبَنَاتِ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَهُ بِالَّذِينَ شَجُّوا رَأْسَهُ يَوْمَ أُحُدٍ ، وَبِالَّذِينَ كَانُوا يُكَذِّبُوا بِرِسَالَتِهِ وَيَقُولُونَ : سَاحِرٌ

، وَشَاعِرٌ وَكَاهِنٌ . وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالطَّاعِنِينَ فِي الْأَعْرَاضِ ، وَبِالزُّنَاةِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ النِّسَاءَ لِمُرَاوَدَتِهِنَّ . وَنَاهِيكَ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ لِلْجَمِيعِ .

(141/341)

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : (أُذُنٌ) فَهُوَ مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّخْصِ بِاسْمِ الْجَارِحَةِ لِلْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِهِ بِوَظِيفَتِهَا وَهُوَ كَثْرَةُ السَّمْعِ لِمَا يُقَالُ وَتَصْدِيقُهُ كَأَنَّهُ كُلَّهُ أُذُنٌ سَامِعَةٌ ، كَقَوْلِهِمْ لِلْجَاسُوسِ عَيْنٌ ، وَيُطْلَقُ عَلَى لَازِمِهِ وَهُوَ عَدَمُ الدِّقَّةِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا يُسْمَعُ ، وَتَصْدِيقُ مَا يُعْقَلُ وَمَا لَا يُعْقَلُ ، فَيُرَادُ بِهِ الذَّمُّ بِالْغَرَارَةِ وَسُرْعَةِ الِانْخِدَاعِ ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ عُيُوبِ الْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ لِمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ قَبُولِ الْغِشِّ بِالْكَذِبِ وَالنَّمِيمَةِ وَتَقْرِيبِ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِبْعَادِ النَّاصِحِينَ . وَكَانَ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يُعَامِلُ الْمُنَافِقِينَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ وَآدَابِهَا الَّتِي يُعَامِلُ بِهَا عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ ، كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِبِنَاءِ الْمُعَامَلَةِ عَلَى الظَّوَاهِرِ ، فَظَنُّوا أَنَّهُ يُصَدِّقُ كُلَّ مَا يُقَالُ لَهُ . قَرَأَ الْجُمْهُورُ : (أُذُنٌ) بِضَمَّتَيْنِ وَنَافِعٌ بِسُكُونِ الذَّالِ وَهُمَا لُغَتَانِ .

وَقَدْ لَقَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى الرَّدَّ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ : قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ أَيْ : نَعَمْ هُوَ

(142/341)

أُذُنٌ وَلَكِنَّهُ نِعْمَ الْأُذُنُ ؛ لِأَنَّهُ أُذُنُ خَيْرٍ لَا كَمَا تَزْعُمُونَ ، فَهُوَ لَا يَقْبَلُ مِمَّا يَسْمَعُهُ إلَّا الْحَقَّ وَمَا وَافَقَ الشَّرْعَ ، وَمَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْمَصْلَحَةُ لِلْخَلْقِ ، وَلَيْسَ بِأُذُنٍ فِي غَيْرِ ذَلِكَ كَسَمَاعِ الْبَاطِلِ وَالْكَذِبِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْجَدَلِ وَالْمِرَاءِ ، فَهُوَ لَا يُلْقِي سَمْعَهُ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِذَا سَمِعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْتَمِعَ إلَيْهِ لَا يَقْبَلُهُ ، وَلَا يُصَدِّقُ مَا لَا يَجُوزُ تَصْدِيقُهُ شَرْعًا أَوْ عَقْلًا ، كَمَا هُوَ شَأْنُ مَنْ يُوصَفُونَ بِهَذَا الْوَصْفِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالزُّعَمَاءِ فَيَسْتَعِينُ الْمُتَمَلِّقُونَ وَأَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ بِهِ عَلَى السِّعَايَةِ عِنْدَهُمْ ؛ لِإِبْعَادِ النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ عَنْهُمْ ، وَحَمْلِهِ عَلَى إيذَاءِ مَنْ يَبْغُونَ إيذَاءَهُ ، وَالْإِضَافَةُ هُنَا إضَافَةُ الْمَوْصُوفِ إلَى الصِّفَةِ وَقَرَأَ نَافِعٌ (أُذُنٌ) بِالتَّنْوِينِ وَ (خَيْرٌ) بِالرَّفْعِ صِفَةً لَهُ .

(143/341)

وَالرَّدُّ مِنْ بَابِ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ فَهُوَ فِي أَوَّلِهِ يُوَافِقُهُمْ عَلَى قَوْلِهِمْ ، ثُمَّ يَتْبَعُهُ مَا يَنْقُضُهُ عَلَيْهِمْ حَتَّى يَنْقَضَّ عَلَى رُءُوسِهِمْ ، كَقَوْلِهِ فِي سُورَةِ الْمُنَافِقُونَ وَهُمْ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (63 : 28) الْآيَةَ . فَهُمْ كَانُوا يَعْنُونَ أَنَّهُمُ الْأَعِزَّةُ ، وَيُعَرِّضُونَ بِالرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ بِهِ فَقَلَبَ عَلَيْهِمْ مُرَادَهُمْ عَلَى تَقْدِيرِ تَسْلِيمِ

أَصْلِ الْقَضِيَّةِ وَهِيَ إخْرَاجُ الْأَعَزِّ لِلْأَذَلِّ بِإِثْبَاتِ الْعِزَّةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالتَّعْرِيضِ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْأَذَلُّونَ وَلَوْ شَاءَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَأَخْرَجَهُمْ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُ إلَّا إذَا أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ ؛ لِأَنَّ قَاعِدَةَ شَرْعِيَّتِهِ الْحُكْمُ عَلَى الظَّوَاهِرِ . وَجَعَلَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ فِي الِانْتِصَافِ مِنْ قَبِيلِ الْقَوْلِ بِمُوجَبِ الْعِلَّةِ فَقَالَ : لَا شَيْءَ أَبْلَغُ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا الْوَجْهِ ؛ لِأَنَّهُ فِي الْأَوَّلِ إطْمَاعٌ لَهُمْ بِالْمُوَافَقَةِ ثُمَّ كَرٌّ عَلَى طَمَعِهِمْ بِالْحَسْمِ وَأَعْقَبَهُمْ فِي تَنَقُّصِهِ بِالْيَأْسِ مِنْهُ ، وَيُضَاهِي هَذَا مِنْ مُسْتَعْمَلَاتِ الْفُقَهَاءِ الْقَوْلُ بِالْمُوجَبِ ؛ لِأَنَّ فِي أَوَّلِهِ إطْمَاعًا لِلْخَصْمِ بِالتَّسْلِيمِ ، ثُمَّ بِالطَّمَعِ عَلَى قُرْبٍ وَلَا شَيْءَ أَقْطَعُ مِنَ الْأَطْمَاعِ ثُمَّ الْيَأْسِ يَتْلُوهُ وَيَعْقُبُهُ اهـ .

(144/341)

ثُمَّ فَسَّرَ الْمُرَادَ مِنْ أُذُنِ الْخَيْرِ بِأَفْضَلِ الْخَيْرِ وَأَعْلَاهُ عَلَى طَرِيقِ الْبَيَانِ الْمُسْتَأْنَفِ فَقَالَ : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَيْ : يُصَدِّقُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَمَا يُوحِيهِ إلَيْهِ مِنْ خَبَرِكُمْ وَخَبَرِ غَيْرِكُمْ ، وَهُوَ الْخَبَرُ الْقَطْعِيُّ الصِّدْقُ ، الَّذِي لَا يَحُومُ حَوْلَهُ الشَّكُّ ؛

(145/341)

لِأَنَّهُ بُرْهَانِيٌّ وِجْدَانِيٌّ عِيَانِيٌّ لَهُ بِمَا كَشَفَهُ اللهُ لَهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَإِيمَانُهُ بِهِ أَثْبَتُ وَأَرْسَخُ فِي الْيَقِينِ مِنْ تَصْدِيقِ غَيْرِهِ بِمَا قَامَتْ عَلَيْهِ الْأَدِلَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الْقَطْعِيَّةُ ، وَيُصَدِّقُ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ تَصْدِيقَ ائْتِمَانٍ وَجُنُوحٍ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِي الْإِيمَانِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ الَّذِينَ بَرْهَنُوا عَلَى صِدْقِهِمْ بِجِهَادِهِمْ مَعَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَهُوَ يُصَدِّقُ أَخْبَارَهُمْ لَا لِذَاتِهَا بِمُجَرَّدِ سَمَاعِهَا ، بَلْ لِمَا عَلِمَهُ مِنْ آيَاتِ إِيمَانِهِمُ الَّذِي يُوجِبُ عَلَيْهِمُ الصِّدْقَ وَلَا سِيَّمَا الصِّدْقُ بِمَا يُحَدِّثُونَهُ بِهِ ، وَلِمَا يَجِدُهُ فِي أَخْبَارِهِمْ مِنْ أَمَارَاتِهِ وَآيَاتِهِ . وَيَتَضَمَّنُ هَذَا أَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ إِيمَانَ تَسْلِيمٍ وَائْتِمَانٍ ، وَلَا يُصَدِّقُهُمْ فِي أَخْبَارِهِمْ وَإِنْ وَكَّدُوهَا بِالْأَيْمَانِ كَمَا ظَنَّ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ : هُوَ أُذُنٌ اغْتِرَارًا بِلُطْفِهِ وَأَدَبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذْ كَانَ لَا يُوَاجِهُ أَحَدًا بِمَا يَكْرَهُ ، وَبِمُعَامَلَتِهِ إِيَّاهُمْ كَمَا يُعَامِلُ أَمْثَالَهُمْ مِنْ عَامَّةِ أَصْحَابِهِ . وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ وَتَخْوِيفٌ . بِأَنْ يُنْبِئَهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا كَانُوا يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ وَفِيمَا بَيْنَهُمْ ، كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا فِي قَوْلِهِ : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ (64) وَتَخْوِيفٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُسِيئُونَ الظَّنَّ فِيهِمْ كَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ

(146/341)

اللهُ عَنْهُ ـ أَنْ يَظْهَرُوا عَلَى كُفْرِهِمْ فَيُخْبِرُوهُ بِهِ فَيَأْذَنَ بِالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ .

وَأَمَّا كَوْنُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أُذُنَ خَيْرٍ لَهُمْ مَعَ هَذَا فَهُوَ مُعَامَلَتُهُ لَهُمْ بِالْحِلْمِ وَمَا يَقْتَضِيهِ حُكْمُ الشَّرْعِ مِنَ الْعَمَلِ بِالظَّوَاهِرِ ، وَمِنْهَا قَبُولُ الْمَعَاذِيرِ قَبْلَ نَهْيِهِمْ عَنْهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ . وَلَوْ كَانَ يُعَامِلُهُمْ بِمُقْتَضَى مَا يَسْمَعُ عَنْهُمْ - كَمَا تَقْتَضِيهِ اسْتِعْمَالُ كَلِمَةِ أُذُنٍ لَمَا سَلِمُوا مِنْ عِقَابِهِ ؛ لِأَنَّ أَخْبَارَ السُّوءِ عَنْهُمْ كَثِيرَةٌ بِكَثْرَةِ أَعْمَالِ السُّوءِ فِيهِمْ ، فَلَوْ كَانَ يَقْبَلُ أَخْبَارَ الشَّرِّ لَقَبِلَهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِيهِمْ وَلَعَاقَبَهُمْ عَلَيْهَا .

وَفَسَّرَ الزَّمَخْشَرِيُّ قِرَاءَةَ التَّنْوِينِ فِي قَوْلِهِ (أُذُنُ خَيْرٍ) بِأَنَّ كُلًّا مِنَ اللَّفْظَيْنِ خَبَرٌ لِمُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ أَيْ هُوَ أُذُنٌ ، هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، يَعْنِي إِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُونَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ؛ لِأَنَّهُ يَقْبَلُ مَعَاذِيرَكُمْ وَلَا يُكَافِئُكُمْ عَلَى سُوءِ دَخِيلَتِكُمْ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أُذُنٌ ذُو خَيْرٍ لَكُمْ ، أَوْ بِمَعْنَى : أَخْيَرُ لَكُمْ .

(147/341)

وَنُكْتَةُ تَعْدِيَةِ الْإِيمَانِ بِالْبَاءِ فِي اللهِ تَعَالَى . وَبِاللَّامِ فِي الْمُؤْمِنِينَ أَنَّ الْأَوَّلَ عَلَى الْأَصْلِ فِي آمَنَ بِهِ ضِدَّ كَفَرَ بِهِ ، وَصَدَّقَ بِهِ ضِدَّ كَذَّبَ بِهِ . وَأَمَّا الثَّانِي فَقَدْ ضُمِنَ مَعْنَى الْمَيْلِ وَالِائْتِمَانِ وَالْجُنُوحِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَفِي مَعْنَاهُ آيَاتٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ (29 : 26) وَقَوْلِهِ : فَمَا

آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ (10 : 83) وَقَوْلِهِ إِخْبَارًا عَنْ قَوْلِ إِخْوَةِ يُوسُفَ لِأَبِيهِمْ : وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا (12 : 17) وَقَوْلِهِ فِي جِدَالِ قَوْمِ نُوحٍ لَهُ : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (26 : 111) فَفِي كُلِّ هَذَا مَعْنَى التَّصْدِيقِ الْمُتَضَمِّنِ لِلِائْتِمَانِ وَالتَّسْلِيمِ وَالْمَيْلِ عَنْ جَانِبٍ إلَى جَانِبٍ . وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا فِي إيمَانِ النَّاسِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، لَا فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَبِهَذَا يُعْلَمُ كَذِبُهُمْ فِي زَعْمِهِمْ تَصْدِيقَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُمْ فِيمَا يَعْتَذِرُونَ لَهُ ، فَهُوَ لَا يُصَدِّقُهُمْ وَإِنْ حَلَفُوا ؛ لِأَنَّهُ إنَّمَا يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ الْمُنَافِقِينَ الْكَاذِبِينَ .

(148/341)

وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ أَيْ : هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ عَلَى كَوْنِهِ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَهُوَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ إيمَانًا صَحِيحًا صَادِقًا ؛ إذْ كَانَ سَبَبَ إيمَانِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ إلَى مَا فِيهِ سَعَادَةُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، دُونَ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَأَسَرَّ الْكُفْرَ مُنَافِقًا فَهُوَ نِقْمَةٌ عَلَيْهِ فِي الدَّارَيْنِ ، كَمَا قَالَ : إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (2 : 218) وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى كَثِيرَةٌ . وَلَمَّا كَانَ كُلٌّ مِنْهُمْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ كَانَ قَوْلُهُ : (مِنْكُمْ) تَعْرِيضًا بِغَيْرِ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ لَا تَصْرِيحًا . وَفَائِدَتُهُ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَالِمٌ بِأَنَّ مِنْهُمْ مُنَافِقِينَ ، وَلَكِنَّهُ لَا يَعْرِفُ أَعْيَانَهُمْ

وَأَشْخَاصَهُمْ ، وَيَخْشَى أَنْ يُخْبِرَهُ رَبُّهُ بِهِمْ وَيَكْشِفَ لَهُ عَنْ أَسْرَارِ قُلُوبِهِمْ ، كَمَا سَيَأْتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ (64) وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِالَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمُ الَّذِينَ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَإِنَّهُ رَحْمَةٌ لَهُمْ بِقَبُولِ ظَوَاهِرِهِمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِهَا مُعَامَلَةَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : لِلَّذِينَ آمَنُوا فَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالْفِعْلِ ، وَلَمْ يَقُلِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْوَصْفِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ ضَعِيفٌ . وَكَثِيرًا مَا نَاطَ التَّنْزِيلُ الْجَزَاءَ عَلَى الْإِيمَانِ بِالتَّعْبِيرِ عَنْ أَهْلِهِ

(149/341)

بِالْفِعْلِ الْمَاضِي .

وَقَرَأَ حَمْزَةُ (وَرَحْمَةٍ) بِالْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى (خَيْرٍ) قِيلَ فِي مَعْنَاهُ : أَيْ : هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ وَرَحْمَةٍ لَكُمْ ، وَفِيهِ نَظَرٌ أَيْضًا فَإِنَّهُ لَوْ أُرِيدَ هَذَا لَمَا فُصِلَ بَيْنَ الْخَيْرِ وَالرَّحْمَةِ بِقَوْلِهِ : يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ بَلْ هُوَ يُؤَيِّدُ مَا قُلْنَاهُ ، وَالتَّقْدِيرُ : أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ كَافَّةً . وَأُذُنُ رَحْمَةٍ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ، فَكُلُّ مَا فِي اخْتِلَافِ التَّعْبِيرِ أَنَّ لِينَ الرَّسُولِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلُطْفَهُ وَإِلْقَاءَهُ السَّمْعَ إِلَى مُحَدِّثِهِ ، وَعَدَمَ مُعَامَلَتِهِ بِمُقْتَضَى سِرِّهِ وَسَرِيرَتِهِ ، هُوَ خَيْرٌ لِلْمُنَافِقِينَ مِنْ عَدَمِهِ ؛ فَإِنَّهُ لَوْ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمَا يُخْفُونَ مِنَ الْكُفْرِ لَكَانَ ذَلِكَ أَمْرًا بِقَطْعِ رِقَابِهِمْ ، وَبَقَاؤُهُمْ خَيْرٌ لَهُمْ بِالْمَعْنَى الَّذِي يَعْتَقِدُونَهُ مِنْ لَفْظِ الْخَيْرِ ، وَخَيْرٌ لَهُمْ فِي نَفْسِ

الْأَمْرِ ؛ لِأَنَّهُ إِمْهَالٌ لَهُمْ يُرْجَى أَنْ يَتُوبَ بِسَبَبِهِ مَنْ فِيهِ اسْتِعْدَادٌ لِلْإِيمَانِ مِنْهُمْ بِمَا يَرَاهُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَتَأْيِيدِهِ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، فَالْخَيْرِيَّةُ

دُنْيَوِيَّةٌ وَهِيَ لِلْجَمِيعِ ، وَالرَّحْمَةُ دُنْيَوِيَّةٌ وَأُخْرَوِيَّةٌ وَإِنَّمَا هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ . وَأَمَّا إِرْسَالُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ؛ فَالْمُرَادُ بِهِ عُمُومُ دَعْوَتِهِ وَهِدَايَتِهِ ، لَا أَنَّهُ رَحْمَةٌ لِمَنْ كَفَرَ بِهِ كَمَنْ آمَنَ بِهِ .

(150/341)

وَيُؤَيِّدُ مَا اخْتَرْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فَهُوَ مُقَابِلُ قَوْلِهِ : وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ إِيذَاءَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْقَوْلِ أَوِ الْفِعْلِ يُنَافِي الْإِيمَانَ الَّذِي هُوَ سَبَبُ الرَّحْمَةِ ، فَجَزَاؤُهُ ضِدُّ جَزَائِهِ وَهُوَ الْعَذَابُ الشَّدِيدُ الْإِيلَامِ ، وَفِي إِضَافَةِ الرَّسُولِ إِلَى اسْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِيذَانٌ بِأَنَّ إِيذَاءَهُ إِيذَاءٌ لِمُرْسِلِهِ أَيْ : سَبَبٌ لِعِقَابِهِ ، كَمَا أَنَّ طَاعَتَهُ طَاعَةٌ لَهُ وَسَبَبٌ لِثَوَابِهِ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (4 : 80) وَقَوْلُهُ : لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ جُمْلَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ هِيَ خَبَرٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَفِي هَذَا تَأْكِيدٌ لِمَضْمُونِهَا .

الْآيَةُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ إِيذَاءَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كُفْرٌ إِذَا كَانَ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَةِ الرِّسَالَةِ ؛ فَإِنَّ إِيذَاءَهُ فِي رِسَالَتِهِ ، يُنَافِي صِدْقَ الْإِيمَانِ بِطَبِيعَتِهِ ، وَأَمَّا الْإِيذَاءُ

الْخَفِيفُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْعَادَاتِ وَالشُّئُونِ الْبَشَرِيَّةِ فَهُوَ حَرَامٌ ، لَا كُفْرٌ ، كَإِيذَاءِ الَّذِينَ كَانُوا يُطِيلُونَ الْمُكْثَ فِي بُيُوتِهِ عِنْدَ نِسَائِهِ بَعْدَ الطَّعَامِ فَنَزَلَ فِيهِمْ : إِنَّ ذَلِكُمْ

(151/341)

كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ إِلَى قَوْلِهِ : وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (33 : 53) وَقَالَ فِي الْأَعْرَابِ الَّذِينَ كَانُوا يَرْفَعُونَ أَصْوَاتَهُمْ فِي نِدَائِهِ وَيُسَمُّونَهُ بِاسْمِهِ : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (49 : 2) فَهَذِهِ آدَابُ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي فَرَضَهَا عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ مَعَ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي التَّقْصِيرِ فِيهَا خَطَرُ حُبُوطِ الْأَعْمَالِ بِدُونِ شُعُورٍ مِنَ الْمُقَصِّرِ .

(152/341)

وَصَرَّحَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِأَنَّ إِيذَاءَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ انْتِقَالِهِ إِلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى ، كَإِيذَائِهِ فِي حَالِ حَيَاتِهِ الدُّنْيَا ، وَمِنْهُ نِكَاحُ أَزْوَاجِهِ مِنْ بَعْدِهِ ، قَالَ بَعْضُهُمْ : وَمِنْهُ الْخَوْضُ

فِي أَبَوَيْهِ وَآلِ بَيْتِهِ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُؤْذِيهِ لَوْ كَانَ حَيًّا ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوهُ ذَنْبًا لَا كُفْرًا ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَانِعٌ مِنْ تَصَدِّي الْمُؤْمِنِ لِمَا يَعْلَمُ أَوْ يَظُنُّ أَنْ يُؤْذِيَهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ إيذَاءً مَا . وَلَكِنْ لَا يَدْخُلُ فِي هَذَا كُلُّ مَا يُؤْذِي أَحَدًا مِنْ سَلَائِلِ آلِهِ وَعِتْرَتِهِ بِأَيِّ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ التَّنَازُعِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْحُقُوقِ الْمَالِيَّةِ وَالْجِنَائِيَّةِ وَالْمُخَاصَمَاتِ الشَّخْصِيَّةِ : لِأَنَّ مِنْهَا مَا يَكُونُ فِيهَا الْمَنْسُوبُ إلَى الْآلِ الْكِرَامِ جَانِيًا آثِمًا وَمُعْتَدِيًا ظَالِمًا . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إلَّا مَنْ ظُلِمَ (4 : 148) وَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا وَسَبَبُهُ كَمَا فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ رَجُلًا تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَغْلَظَ لَهُ فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ فَقَالَ : " دَعُوهُ إنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا " الْحَدِيثَ . وَهَذِهِ فَاطِمَةُ سَيِّدَةُ نِسَاءِ أَهْلِهِ بَلْ سَيِّدَةُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ كَمَرْيَمَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ قَدْ تَأَذَّتْ مِنَ الصِّدِّيقِ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ أَحَبَّ الرِّجَالِ إلَيْهِ ، كَمَا كَانَتْ أَحَبَّ

(153/341)

النِّسَاءِ إلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُعْطِهَا مَا ظَنَّتْ مِنْ مِيرَاثِهَا مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَعُذْرُهُ أَنَّهُ مُنَفِّذٌ لِأَمْرِهِ وَمُقِيمٌ لِشَرْعِهِ ، وَقَدْ أَخْبَرَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِنُطْقِ فَمِهِ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا

يُورَثُونَ وَمَا تَرَكُوهُ فَهُوَ صَدَقَةٌ ، فَعَمَلُهُ بِوَصِيَّتِهِ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَدَّ إِيذَاءً لَهُ ، فَتَأَذِّيهَا عَلَيْهَا السَّلَامُ ، لَمْ يَكُنْ عَنْ إِيذَاءٍ مِنْهُ عَلَيْهِ الرِّضْوَانُ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا مَعْذُورٌ ، فَمَاذَا يَقُولُ بَعْدَ هَذَا فِيمَنِ ارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ مِنْ

(154/341)

مُدَّعِي هَذَا النَّسَبِ الشَّرِيفِ بِحَقٍّ وَبِغَيْرِ حَقٍّ ، كَغُلَاةِ الشِّيعَةِ الْبَاطِنِيَّةِ مِنْ فَاطِمِيَّةِ مِصْرَ وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَغَيْرِهِمُ الَّذِينَ أَسَّسُوا جَمْعِيَّاتِهِمُ السِّرِّيَّةَ لِمَحْوِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْأَرْضِ ، مِنْ طَرِيقِ دَعْوَى عِصْمَةِ أَئِمَّةِ آلِ الْبَيْتِ ، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ وَبَيَّنَّاهُ مِرَارًا ؟ هَلْ يُقَالُ : إِنَّ مَنْ يُؤْذِيهِمْ يُعَدُّ مُؤْذِيًا لِرَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمْ أَعْدَى أَعْدَائِهِ ، وَأَخْبَثُ الْمُفْسِدِينَ لِدِينِهِ ؟ وَمَنْ دُونَهُمْ مُبْتَدِعَةُ الرَّوَافِضِ ، وَخُرَافَاتُهُمْ مَعْرُوفَةٌ ، وَجِنَايَاتُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مَشْهُورَةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا بَعْضَهَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ ، عَلَى أَنَّ مَنْ آثَرَ الْأَدَبَ مَعَ أَحَدٍ مِنْ آلِ الرَّسُولِ عَلَى حَقِّهِ الشَّخْصِيِّ حُبًّا لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ إِيمَانِهِ كَمَا فَعَلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللهُ فِي الْعَفْوِ عَنِ الْمُعْتَصِمِ الْعَبَّاسِ لِقَرَابَتِهِ . وَقَدْ بَيَّنَّا الْحَقَّ فِي أَصْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي الْآلِ وَالْأَبَوَيْنِ الطَّاهِرَيْنِ فِي تَفْسِيرِ : وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ (6 : 74) الْآيَاتِ . فَتُرَاجَعُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ [ط الْهَيْئَةِ] .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

(155/341)

رَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ قَالَ فِي شَأْنِ الْمُتَخَلِّفِينَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ الَّذِينَ نَزَلَ فِيهِمْ مَا نَزَلَ : وَاللَّهِ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَخِيَارُنَا وَأَشْرَافُنَا ، وَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَهُمْ شَرٌّ مِنَ الْحُمُرِ . فَسَمِعَهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ لَحَقٌّ ، وَلَأَنْتَ أَشَرُّ مِنَ الْحِمَارِ . فَسَعَى بِهَا الرَّجُلُ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرَهُ ، فَأَرْسَلَ إِلَى الرَّجُلِ فَدَعَاهُ فَقَالَ : " مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي قُلْتَ " ؟ فَجَعَلَ يَلْتَعِنُ (أَيْ يَلْعَنُ نَفْسَهُ) وَيَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَ ذَلِكَ ، وَجَعَلَ الرَّجُلُ الْمُسْلِمُ يَقُولُ اللَّهُمَّ صَدِّقِ الصَّادِقَ وَكَذِّبِ الْكَاذِبَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ، الْآيَةَ . وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ السُّدِّيِّ

مِثْلَهُ ، وَسَمَّى الرَّجُلَ

(156/341)

الْمُسْلِمَ عَامِرَ بْنَ قَيْسٍ مِنَ الْأَنْصَارِ . وَهَذَا لَيْسَ بِحَصْرٍ ، بَلِ الْمُرَادُ أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي هَذَا وَأَمْثَالِهِ ، فَإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَاذِبِينَ مِنْ عُصَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِهِمْ أَنْ يُكْثِرُوا الْحَلِفَ لِيُصَدَّقُوا ؛ لِأَنَّهُمْ لِعِلْمِهِمْ بِكَذِبِهِمْ يَظُنُّونَ أَوْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُتَّهَمُونَ فِي أَقْوَالِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، فَيَحْلِفُونَ لِإِزَالَةِ التُّهْمَةِ ، وَهَذَا مَعْلُومٌ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ (42) مِنْ هَذَا السِّيَاقِ حَلِفُهُمْ أَنَّهُمْ لَوِ اسْتَطَاعُوا الْخُرُوجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ لَخَرَجُوا ، وَالتَّصْرِيحُ بِعِلْمِ اللَّهِ بِكَذِبِهِمْ فِي حَلِفِهِمْ هَذَا - وَفِي الْآيَةِ (56) مِنْهُ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ إِلَخْ . وَسَيَأْتِي فِي آيَةِ (74) مِنْهُ مِثْلُ هَذَا الْحَلِفِ عَلَى قَوْلٍ مِنَ الْكُفْرِ قَالُوهُ إِنَّهُمْ مَا قَالُوهُ ، وَفِي آيَاتِ 59 و96 و107 مِنْهُ نَحْوٌ مِنْ ذَلِكَ .

(157/341)

فَقَوْلُهُ تَعَالَى : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ خِطَابٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ شُئُونِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَعَهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، أَخْبَرَهُمْ بِأَنَّهُمْ شَعَرُوا بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَشْعُرُونَ مِنْ ظُهُورِ نِفَاقِهِمْ ، فَكَثُرَ اعْتِذَارُهُمْ وَحَلِفُهُمْ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ مُتَّهَمُونَ بِهِ مِنْ قَوْلٍ وَعِلْمٍ ؛ لِيُرْضُوهُمْ فَيَطْمَئِنُّوا لَهُمْ ، فَتَنْتَفِي دَاعِيَةُ إِخْبَارِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا يُنْكِرُونَ مِنْهُمْ ،

وَقَدْ رَدَّ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ أَيْ : وَالْحَالُ أَنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ أَحَقُّ بِالْإِرْضَاءِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ يُصَدِّقُونَهُمْ فِيمَا يَحْلِفُونَ عَلَيْهِ إذَا لَمْ يَكُنْ كَذِبُهُمْ فِيهِ ظَاهِرًا مَعْلُومًا بِالْيَقِينِ ، وَلَكِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ ، فَهُوَ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَهُوَ يُوحِي إلَى رَسُولِهِ مِنْ أُمُورِ الْغَيْبِ مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ .

(158/341)

وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ : "يُرْضُوهُمَا " وَنُكْتَةُ الْعُدُولِ عَنْهُ إلَى : (يُرْضُوهُ) الْإِعْلَامُ بِأَنَّ إرْضَاءَ رَسُولِهِ مِنْ حَيْثُ إنَّهُ رَسُولُهُ عَيْنُ إرْضَائِهِ تَعَالَى ؛ لِأَنَّهُ إرْضَاءٌ لَهُ فِي اتِّبَاعِ مَا أَرْسَلَهُ بِهِ ، وَهَذَا مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ فِي الْإِيجَازِ ، وَلَوْ قَالَ : (يُرْضُوهُمَا) لَمَا أَفَادَ هَذَا الْمَعْنَى ؛ إذْ يَجُوزُ فِي نَفْسِ الْعِبَارَةِ أَنْ يَكُونَ إرْضَاءُ كُلٍّ مِنْهُمَا فِي غَيْرِ مَا يَكُونُ بِهِ إرْضَاءُ الْآخَرِ ، وَهُوَ خِلَافُ الْمُرَادِ هُنَا ، وَكَذَلِكَ لَوْ قِيلَ : " وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ " لَا يُفِيدُ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا ، وَفِيهِ مَا فِيهِ مِنَ الرَّكَاكَةِ وَالتَّطْوِيلِ ،

وَقَدْ خَرَّجَهُ عُلَمَاءُ النَّحْوِ عَلَى قَوَاعِدِهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ كَأَبِي السُّعُودِ : إنَّ الضَّمِيرَ الْمُفْرَدَ هُنَا يَعُودُ إلَى مَا فُهِمَ مِمَّا قَبْلَهُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِاسْمِ الْإِشَارَةِ أَوْ " مَا ذُكِرَ " كَقَوْلِ رُؤْبَةَ :

فِيهَا خُطُوطٌ مِنْ سَوَادٍ وَبَلَقْ . . . كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوْلِيعُ الْبَهَقْ

يَعْنِي كَأَنَّ ذَلِكَ أَوْ كَأَنَّ مَا ذُكِرَ ، وَهُوَ تَخْرِيجٌ ضَعِيفٌ لَا يَظْهَرُ فِي الْمُثَنَّى . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلَى اسْمِ الْجَلَالَةِ ، وَيُقَدَّرُ مِثْلُهُ لِلرَّسُولِ ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إنَّهُ لِلرَّسُولِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ

الْكَلَامَ فِي إيذَائِهِ ، وَهُوَ أَضْعَفُ مِمَّا قَبْلَهُ ، وَأَقْرَبُ الْأَقْوَالِ إلَى قَوَاعِدِهِمْ قَوْلُ سِيبَوَيْهِ : الْكَلَامُ جُمْلَتَانِ حُذِفَ خَبَرُ إحْدَيْهِمَا لِدَلَالَةِ خَبَرِ الْأُخْرَى عَلَيْهِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

(159/341)

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْـ . . . ـدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفُ

فَهَذَا لَا تَكَلُّفَ فِيهِ مِنْ نَاحِيَةِ التَّرْكِيبِ الْعَرَبِيِّ ، وَلَكِنْ تَفُوتُ بِهِ النُّكْتَةُ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَهِيَ مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي يَجِبُ عَلَى أَهْلِ الْبَيَانِ اقْتِبَاسُهَا ، وَاسْتِعْمَالُ مِثْلِ هَذَا التَّعْبِيرِ فِي كُلِّ مَا كَانَ مِثْلُهُ فِي الْمَعْنَى ، وَلَوْلَا هَذَا التَّنْبِيهُ لَمَا عُنِينَا بِنَقْلِ أَقْوَالِهِمْ فِي الْإِعْرَابِ ؛ لِأَنَّهُ مُخَالِفٌ لِمِنْهَاجِنَا .

وَقَوْلُهُ : إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ تَذْيِيلٌ لِبَيَانِ أَنَّ مَا قَبْلَهُ هُوَ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ الَّذِي لَا يُنْجِي فِي الْآخِرَةِ غَيْرُهُ ، أَيْ : إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ كَمَا يَدَّعُونَ وَيَحْلِفُونَ فَلْيُرْضُوا اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ ، وَإِلَّا كَانُوا كَاذِبِينَ ، وَفِي الْآيَةِ عِبْرَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ فِي زَمَانِنَا كَكُلِّ زَمَانٍ ، وَعِبْرَةٌ بِحَالِهِمْ لِمَنْ يَرَاهُمْ

يَكْذِبُونَ وَيَحْلِفُونَ عِنْدَ الْحَاجَةِ إلَى تَأْكِيدِ أَخْبَارِهِمْ فِيمَا يُحَاوِلُونَ بِهِ إرْضَاءَ النَّاسِ وَلَا سِيَّمَا الْمُلُوكُ وَالْأُمَرَاءُ وَالْوُزَرَاءُ الَّذِينَ يَتَقَرَّبُونَ إلَيْهِمْ فِيمَا لَا يُرْضِي اللَّهَ تَعَالَى بَلْ فِيمَا يُسْخِطُهُ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، الَّتِي يَتَوَسَّلُونَ إلَيْهَا بِأَخَسِّ الْوَسَائِلِ .

(160/341)

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا الِاسْتِفْهَامُ هُنَا لِلتَّوْبِيخِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ ، وَالْمُحَادَّةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ الْحَدِّ وَهُوَ طَرَفُ الشَّيْءِ ، كَالْمُشَاقَّةِ مِنَ الشِّقِّ وَهُوَ بِالْكَسْرِ الْجَانِبُ وَنِصْفُ الشَّيْءِ الْمُنْشَقِّ مِنْهُ ، وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى الْمُعَادَاةِ مِنَ الْعُدْوَةِ وَهِيَ بِالضَّمِّ جَانِبُ الْوَادِي ؛ لِأَنَّ الْعَدُوَّ يَكُونُ فِي غَايَةِ الْبُعْدِ عَمَّنْ يُعَادِيهِ عَدَاءَ الْبُغْضِ وَالشَّنَآنِ ، بِحَيْثُ لَا يَتَزَاوَرَانِ وَلَا يَتَعَاوَنَانِ ، فَشُبِّهَ بِمَنْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي حَدٍّ وَشِقٍّ وَعُدْوَةٍ ، كَمَا يُقَالُ : هُمَا عَلَى طَرَفَيْ نَقِيضٍ ، وَكَذَلِكَ الْمُنَافِقُونَ يَكُونُونَ فِي الْحَدِّ وَالْجَانِبِ الْمُقَابِلِ لِلْجَانِبِ الَّذِي يُحِبُّهُ اللَّهُ لِعِبَادِهِ وَالرَّسُولِ لِأُمَّتِهِ مِنَ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَلَا سِيَّمَا الْجِهَادُ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ لِلدِّفَاعِ عَنِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ وَإِعْلَاءِ شَأْنِهِمَا . وَالْعَاصِي وَإِنْ خَالَفَ أَمْرَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَهْيَهُمَا فِي بَعْضِ الْأُمُورِ لَا يَنْتَهِي إلَى هَذِهِ الْغَايَةِ أَوْ

الْعُدْوَةِ فِي الْبُعْدِ عَنْهُمَا ، فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ حُجَّةٌ لِمَنْ يُكَفِّرُونَ الْعُصَاةَ . وَجَهَنَّمُ دَارُ الْعَذَابِ وَتَقَدَّمَ هَذَا الِاسْمُ مِرَارًا .

(161/341)

وَالْمَعْنَى : أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ الشَّأْنَ وَالْأَمْرَ الثَّابِتَ الْحَقَّ هُوَ : مَنْ يُعَادِي اللَّهَ وَرَسُولَهُ بِتَعَدِّي حُدُودِ اللَّهِ ، أَوْ بِلَمْزِ الرَّسُولِ فِي أَعْمَالِهِ كَقِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ أَوْ أَخْلَاقِهِ وَشَمَائِلِهِ كَقَوْلِهِمْ : هُوَ أُذُنٌ - فَجَزَاؤُهُ أَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَالِدًا فِيهَا لَا مُخْرِجَ لَهُ مِنْهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ أَيْ : ذَلِكَ الصَّلْيُ الْأَبَدِيُّ هُوَ الذُّلُّ وَالنَّكَالُ الْعَظِيمُ ، الَّذِي يَتَضَاءَلُ دُونَهُ كُلُّ خِزْيٍ وَذُلٍّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 452.445 ﴾

(162/341)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾

هذه الجملة تتنزل من جملة ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ [التوبة : 62] منزلة التعليل ، لأنّ العاقل لا يرضى لنفسه عملاً يَؤول به إلى مثل هذا العذاب ، فلا يُقدم على ذلك إلاّ مَن لاَ يعلم أنّ من يحادد الله ورسوله يصير إلى هذا المصير السيىء .

والاستفهام مستعمل في الإنكار والتشنيع ، لأنّ عدم علمهم بذلك محقّق بِضرورة أنّهم كافرون بالرسول ، وبأنّ رضى الله عند رضاه ولكن لمّا كان عدم علمهم بذلك غريباً لوجود الدلائل المقتضية أنّه ممّا يحقّ أن يعلموه ، كان حال عدم العلم به حالاً منكراً .

وقد كثر استعمال هذا ونحوه في الإعلام بأمر مهمّ ، كقوله في هذه السورة : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ [التوبة : 104] وقوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ [التوبة : 78] وقول مَوْيَال بن جهم المذحجي ، أو مبشر بن هذيل الفزاري:

أَلَمْ تعلَمي يا عَمْرَكِ اللَّهَ أَنّني . . .

كريمٌ على حينَ الكرامُ قليل

فكأنّه قيل : فلْيعلموا أنّه من يُحادد الله الخ .

والضمير المنصوب بـ ﴿ أنّه ﴾ ضمير الشأن ، وفسّر الضمير بجملة ﴿ من يحادد الله ﴾ إلى آخرها .

والمعنى : ألم يعلموا شأناً عظيماً هو من يحادد الله ورسوله له نار جهنّم .

وفكّ الدّالان من ﴿ يحادد ﴾ ولم يُدغما لأنّه وقع مجزوماً فجاز فيه الفَكّ والإدغام ،

والفكّ أشهر وأكثر في القرآن ، وهو لغة أهل الحجاز ، وقد ورد فيه الإدغام نحو قوله : ﴿ ومن يشاق الله ﴾ في سورة الحشر (4) في قراءة جميع العشرة وهو لغة تميم .

والمحادَّة : المُعاداة والمخالفة .

والفاء في فأن له نار جهنم ﴾ لربط جواب شرط ﴿ مَن ﴾ .

(163/341)

وأعيدت ﴿ أنَّ ﴾ في الجواب لتوكيد ﴿ أنَّ ﴾ المذكورة قبلَ الشرط توكيداً لفظياً ، فإنّها لما دخلت على ضمير الشأن وكانت جملة الشرط وجوابه تفسيراً لضمير الشأن ، كان حكم ﴿ أنَّ ﴾ سارياً في الجملتين بحيث لو لم تذكر في الجواب لعُلِم أنّ فيه معناها ، فلمّا ذكرت كان ذكرها توكيداً لها ، ولا ضيرَ في الفصل بين التأكيد والمؤكَّد بجملة الشرط ، والفصل بين فاء الجواب ومدخولها بحرفٍ ، إذ لا مانع من ذلك ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ ثم إن ربك للذين عملوا السوءَ بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ [النحل : 119] وقول الحماسي ، وهو أحد الأعراب:

وإنَّ امرءاً دامت مواثيق عهده . . .

على مثل هذا إنَّه لكريم

و﴿ جهنّم ﴾ تقدّم ذكرها عند قوله تعالى : ﴿ فحسبه جهنم وبئس المهاد ﴾ في سورة البقرة (206) .

والإشارة بذلك إلى المذكور من العذاب أو إلى ضمير الشأن باعتبار تفسيره .

والمقصود من الإشارة : تمييزه ليتقرّر معناه في ذهن السامع .

والخزي ﴾ الذلّ والهوان ، وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ﴾ في سورة البقرة (85) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(164/341)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

إذا سمعت ﴿ أَلَمْ ﴾ ، فافهم أن هذا استنكار ، كأن وسائل العلم قد تقدمت ، وكان من الواجب أن تعلم . فإذا قلت لإنسان : ألم تعلم أنه حدث كذا وكذا ؟ فمعنى ذلك أنه قد أعلن عن هذا الحدث عدة مرات ، ومع ذلك لم يعلمه . وهذا استنكار لتخلُّف هذا

الإنسان عن العلم .

وهنا يستنكر الحق عدم علم المنافقين بقضية أعلنها الله مرات ومرات ، وكان يجب أن يعلموها وألا تزول عن خواطرهم أبداً . وسبق أن قلنا : إن الاستفهام فيه نفي ، والهمزة همزة استفهام . ولم تأت للنفي ، وإذا دخلت همزة الاستفهام على النفي يكون استنكاراً .

فإن قلت لإنسان : ألم أكرمك ؟ كأنك أكرمته عدة مرات وهو مُنكر لذلك .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَمْ يعلموا ﴾ هو إقامة للحجة على أن الحكم قد بلغهم ؛ لأنه من الجائز أن يقولوا : إن الحكم لم يبلغنا ، فيوضح لهم الحق : بل بلغكم الحكم وقد أعلمتكم به عدة مرات .

﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله ﴾ ما معنى يحادد ؟ نجد في الريف أن أهل الريف يضعون علامات من الحديد تفصل بين قطعة أرض وأخرى مجاورة لها ، كعلامة على الشيء الذي يفصل بين حق وحق ويسمونها حدّاً ، والذين يحادون الله هم الذين يجعلون الله في جانب وهم في جانب ، وبذلك لا يعيشون في معية الله ولا ينعمون بنعمة الإيمان به سبحانه ولا يطبقون منهجه . بل يجعلون حدّاً بينهم وبين ما أمر به الله .

وعندما أراد العلماء تفسير هذه الآية قالوا : ﴿ يُحَادِدِ ﴾ تعني : يعادي ، وقالوا : بمعنى يشاقق ؛ أي : يجعل نفسه في شق والله ورسوله ودينه في شق آخر . أو : يحارب دين الله فيكون هو في وجهة ودين الله في وجهة أخرى . وهناك علاقة بين كلمة " يحارب " وكلمة " حد " ، فحدُّ السيف هو الجزء القاطع منه الذي يفصل أي شيء يقطعه إلى جزءين ، فكأن الذي يحادد هو من يحارب منهج الله ورسوله . فهو لا يكفر بالله فقط ، ولكنه يحمل السلاح ليجعل خلق الله يكفرون أيضاً .

والحق سبحانه وتعالى يريد من المؤمنين أن يكونوا دائماً في جانب الإيمان ، وألا يقيموا حدّاً بينهم وبين الإيمان به . والأحكام الشرعية تسمى حدوداً ، أي : أن كل حكم قد وضع ليحدد حدّاً من حدود الله ، تحفظ به الحقوق والأوامر .

ومنهج الله إما أن يكون أوامر ، وإما أن يكون نواهي ؛ لأن منهج الدين كلمة في " افعل " و " لاتفعل " ، ويضع الحق سبحانه وتعالى عقاباً لمن يتعدى حدوده سبحانه ، فيقول سبحانه :

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . ﴾ [البقرة : 187]

ويقول : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . ﴾ [البقرة : 229]

ويسأل بعض الناس : ما الفرق بين اللفظين ﴿ تَعْتَدُوهَا ﴾ و ﴿ تَقْرَبُوهَا ﴾ .

ونقول إذا كانت هناك أوامر فلا تتعد الأمر ، وإذا كانت هناك نواهٍ فلا تقترب من المنهي عنه

.

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى حين نهى آدم وحواء عن الأكل من الشجرة المحرمة لم يقل : لا تأكلا من الشجرة ، بل قال : ﴿ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة . . . ﴾ [الأعراف : 19]

وبذلك أباح سبحانه الأكل من كل ثمار الجن ، ولكنه أمر ﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هذه الشجرة ﴾ لأن القرب من هذه الشجرة إغراء بالمعصية ؛ فقد يعجبهما منظر الثمرة . وقد تغريهما رائحتها ، وقد يفتنهما لونها . ولكن عندما لا يقتربان من هذه المغريات كلها فهما يحميان نفسيهما من المعصية .

(166/341)

وعندما تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الخمر قال : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . . ﴾ [المائدة : 90]

والحق لم يقل : لا تشربوا الخمر ، ولكن أمر باجتناب الخمر ، أي : لا تقرب أي مكان فيه خمر ؛ لأن وجود الإنسان في مكان فيه خمر قد يوحي إليه بتناولها . وقد يجد من الجالسين من يحاول إغراء من لا يشرب بأن يتناول ولو جرعة . إذن : فالحق سبحانه يريد أن يبقي النفس المؤمن أن تغرى بالمعصية فتقع فيها .

ويقول سبحانه في أدب الاعتكاف : ﴿ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي المساجد تِلْكَ حُدُودُ الله . . . ﴾ [البقرة : 187]

المنهي عنه هو المباشرة ، أي : إن تواجدت الزوجة مع زوجها في المسجد ، فليس في هذا الأمر معصية شرط ألا يباشرها الزوج ، ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ الله ﴾ ولم يقل : فلا تفعلوها ، ولكنه قال : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . ﴾ [البقرة : 187]

إذن : ففيهما نهى الله سبحانه وتعالى عنه ؛ مطلوب من المسلم ألا يقرب منه ، أي : لا تكن انت والشيء الذي نهى عنه في مكان واحد ، بل عليك أن تبتعد عن المكان ؛ لأن المعصية لها إغراءات ، وما دمت بعيداً عن الإغراءات ؛ فأنت تعصم نفسك ، أما إن اقتربت منها فقد تقع فيها .

أما في الأوامر ؛ فيقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ . وعلى سبيل المثال : إن نشأ خلاف بين الزوجين وفشلت كل محاولات الصلح بينهما ، يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افتدت بِهِ تِلْكَ حُدُودُ الله فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . ﴾ [البقرة : 229]

إذن : ففي الأوامر يقول الحق : ﴿ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ﴾ ، وفي النواهي يقول سبحانه : ﴿ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ﴾ .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ينذر الحق سبحانه وتعالى الذين يحادون الله ورسوله فيقول :

﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا ذلك الخزي العظيم ﴾

والإنذار هنا يتمثل في أنه يوضح لهم أن ما ينتظرهم ليس هو العذاب الجسدي فقط ، ولكنه عذاب فيه خزي وهوان ، فمثلاً بعض الناس قد يتحمل ويتجلد أمام الألم حتى لا يشمت فيه عدوه ؛ لذلك فالعذاب الذي يعدهم الله به في الآخرة ليس أليماً فقط ، ولكن فيه خزي وهوان . ويتمثل الخزي في أن المتكبر في الدنيا يأتي إلى الآخرة ويهان أمام الخلق جميعاً ، ويكفي خزياً أن يكون في النار . والمؤمنون الذين تكبَّر عليهم في الدنيا يعيشون في نعيم الجنة ، وتلك حسرة تصيبه ليس بعدها حسرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(168/341)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ

﴿ (63)

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه ﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله ﴾ قال : يعادي الله ورسوله .

وأخرج أبو الشيخ عن يزيد بن هرون قال : خطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه فقال في خطبته : يؤتى بعبد قد أنعم الله عليه وبسط له في الرزق ، قد أصح بدنه وقد كفر نعمة ربه ، فيوقف بين يدي الله تعالى فيقال له : ماذا عملت ليومك هذا وما قدمت لنفسك ؟ فلا يجده قدَّم خيراً ، فيبكي حتى تنفد الدموع ثم يعيَّر ويخزى بما ضيع من طاعة الله ، فيبكي الدم ثم يعير ويخزى حتى يأكل يديه إلى مرفقيه ، ثم يعير ويخزى بما ضيع من طاعة الله فينتحب حتى تسقط حدقتاه على وجنتيه وكل واحد منهما فرسخ في فرسخ ، ثم يعير ويخزى حتى يقول : يا رب ابعثني إلى النار وارحمني من مقامي هذا . وذلك قوله ﴿ أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم ﴾ إلى قوله ﴿ العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(169/341)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يعلموا ﴾ :

الجمهورُ : على "يَعْلموا " بياء الغيبة رَدًّا على المنافقين . وقرأ الحسن والأعرج : " تَعْلموا " بتاء الخطاب . فقيل : هو التفاتٌ من الغَيْبة إلى الخطاب إن كان المرادُ المنافقين . وقيل الخطابُ للنبي عليه السلام ، وأتى بصيغةِ الجمع تعظيماً كقوله :

2509 وإن شِئْتِ حرَّمْتُ النساءَ سواكم . . . . . .

. . . . . .

وقيل : الخطابُ للمؤمنين ، وبهذه التقادير الثلاثةِ يختلف معنى الاستفهام : فعلى الأول يكونُ الاستفهامُ للتقريع والتوبيخ ، وعلى الثاني يكون للتعجبِ مِنْ حالِهم ، وعلى الثالث يكون للتقرير .

والعِلْم هنا يُحْتمل أن يكون على بابِه فتسدَّ " أَنْ " مسدَّ مفعولَيْن عند سيبويه ، ومسدَّ أحدِهما والآخرُ محذوفٌ عند الأخفش ، وأن يكونَ بمعنى العرفان فتسدَّ " أنَّ " مسدَّ

مفعول . و " مَنْ " شرطية و ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ ﴾ جوابُها ، وفتحت " أنَّ " بعد الفاء لِما عُرِف في الأنعام والجملة الشرطيةُ في محلِّ رفعٍ خبرِ " أنَّ " الأولى .

(170/341)

وهذا تخريجٌ واضحٌ وقد عدل عن هذا الواضحِ جماعةٌ إلى وجوهٍ أُخرَ فقال الزمخشري : " ويجوز أن يكونَ " فأنَّ له " معطوفاً على " أنه " على أنَّ جوابَ " مَنْ " محذوفٌ تقديره : ألم يعلموا أنَّه مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ ورسولَه يُهْلَكْ فأنَّ له " . وقال الجرمي والمبرد : " أنَّ " الثانيةُ مكررةٌ للتوكيد كأن التقدير : فله نارُ جهنم ، وكُرِّرت " أنَّ " توكيداً . وشبَّهه أبو البقاء بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السوء ﴾ [النحل : 119] ، ثم قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا ﴾ قال : " والفاءُ على هذا جوابُ الشرط " .

وقد رَدَّ الشيخ على الزمخشري قولَه بأنهم نصُّوا على أنه إذا حُذِف جوابُ الشرط لَزِم أن يكونَ فعلُ الشرط ماضياً أو مضارعاً مقروناً ب " لم " ، والجوابُ على قولِه محذوفٌ ، وفعلُ الشرطِ مضارعٌ غيرُ مقترنٍ ب لم " ، وأيضاً فإنَّا نجدُ الكلامَ تاماً بدون هذا الذي قدَّره " .

وقد نُقِل عن سيبويه أنه قال : " الثانيةُ بدلٌ من الأولى " ، وهذا لا يَصِحُّ عن سيبويه فإنه ضعيف أو ممتنع . وقد ضعَّفه أبو البقاء بوجهين ، أحدهما : أنَّ الفاءَ تمنعُ من ذلك ،

والحكمُ بزيادتِها ضعيفٌ . والثاني : أنَّ جَعْلَها بدلاً يوجب سقوط جواب " مَنْ " مِن الكلام " . وقال ابن عطية : " وهذا يُعْتَرَضُ بأنَّ الشيءَ لا يُبدل منه حتى يُسْتوفى ، والأُولى في هذا الموضع لم يأتِ خبرُها بعدُ ، إذ لم يأتِ جوابُ الشرط ، وتلك الجملةُ هي الخبر . وأيضاً فإنَّ الفاءَ تمانعُ البدلَ ، [وأيضاً] فهي في معنى آخرَ غيرِ البدل فيقلقُ البدل " .

وقال بعضهم : " فيجب على تقدير اللام أي : فلأنَّ له نار جهنم وعلى هذا فلا بد من إضمار شيءٍ يتمُّ به جواب الشرط تقديره : فمُحادَّتُه لأنَّ له نارَ جهنم " .

(171/341)

وهذه كلُّها تكلُّفاتٌ لا يُحتاج إليها ، فالأولى ما تقدم ما ذكره : وهو أن يكونَ ﴿ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ في محلِّ رفعٍ بالابتداء والخبرُ محذوفٌ ، وينبغي أن تقدِّرَه متقدماً عليها كما فعل الزمخشري وغيرُه أي : فحقٌّ أنَّ له نارَ جهنم . وقدَّره غيرُه متأخراً أي : فأنَّ له نارَ جهنم واجبٌ . كذا قدَّره الأخفش . ورَدُّوه عليه بأنها لا يُبتدأ بها ، وهذا لا يُلْزِمُه فإنه يُجيز الابتداء ب " أنَّ " المفتوحةِ من غير تقديمِ خبر ، وغيرُه لا يُجيز الابتداءَ بها إلا بشرطِ تقدُّمِ " أمَّا " نحو : " أمَّا أنك ذاهبٌ فعندي " أو بشرطِ تقدُّمِ الخبر نحو : " عندي / أنَّك مُنْطَلق "

. وقيل : فأنَّه " خبرُ مبتدأ محذوفٍ أي : فالواجبُ أنَّه . وهذه الجملةُ التي بعد الفاء مع الفاء في محلِّ جزم جواباً للشرط .

وقرأ أبو عمرو فيما رواه أبو عبيدة والحسن وابن لأبي عبلة " فإنَّ " بالكسر وهي قراءةٌ حسنةٌ قوية ، تقدَّم أنه قرأ [بها] بعضُ السبعة في الأنعام ، وتقدَّم هناك توجيهُها .

والمُحَادَّة : المخالفةُ والمعاندةُ ومجاوزةُ الحدِّ والمعاداة . قيل : مشتقةٌ مِن الحدّ وهو حَدُّ السلاح الذي يحارَبُ به من الحديد . وقيل : من الحدّ الذي هو الجهةُ كأنه في حدٍّ غيرِ حدِّ صاحبِه كقولهم : شاقَّه أي : كان في شقٍ غيرِ شقِّ صاحبه . وعاداه : أي كان في عُدْوَة غيرِ عُدْوَته .

واختار بعضُهم قراءةَ الكسرِ بأنها لا تُحْوِج إلى إضمار ، ولم يُروَ قولُه :

2510 فَمَنْ يكُ سائلاً عني فإني . . . وجِرْوَةَ لا تُعارُ ولا تُباعُ

إلا بالكسرِ ، وهذا غيرُ لازمٍ فإنه جاء على أحد الجائزين . و " خالداً " نصبٌ على الحال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 76 . 79﴾

(172/341)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63) ﴾

مَنْ كَفَرَ بالله واشرك في توحيده بإثباتِ موهوم استحق ما هو حقٌّ لله : تعَجَّلُ عقوبته في الحال بالفُرقة ، وفي المآلِ بالخلود في الحرقة .

فليس كلُّ مَنْ مُنِي بمصيبة يعلم ما ناله من المحنة ، وأنشدوا :

غَداً يَتَفَرَّقُ أهلُ الهوى . . . ويكْثُر باكٍ ومُسْتَرْجِع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 42 ﴾

(173/341)

قوله تعالى ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علل فعل المستهينين ، أتبعه تعليل أمر صنف آخر أخف منهم نفاقاً بما عندهم مما يقارب التصديق فقال : ﴿ يحذر المنافقون ﴾ وعبر بالوصف الدال على الرسوخ تحذيراً لهم من أدنى النفاق فإنه يجر إلى أعلاه ﴿ أن تنزل ﴾ ولما كانت السورة الفاضحة لهم داهية ونائبة من نوائب الدهر وشدائده ، عدى الفعل بعلى فقال : ﴿ عليهم سورة ﴾ أي قطعة من القرآن شديدة الانتظام ﴿ تنبئهم ﴾ أي تخبرهم إخبار عظيماً مستقصي ﴿ بما في قلوبهم ﴾ لم يظهروا عليه أحداً من غيرهم او أحداً مطلقاً ، لعل هذا الصنف كانوا يسلفون الأيمان لعلها تشكك بعض الناس أو تخفف عنهم إذا نزل ما يهتكهم ، روي أنهم كانوا يقولون ما يؤدي ويدل على النفاق ويقولون : عسى الله أن لا يفشي علينا سرنا ، وقال بعضهم بعد كلام قالوه : والله إني لأرانا شر خلق الله ولوددت أني قدمت فجلدت مائة جلدة وأنه لا ينزل فينا شيء يفضحنا .

ولما كان حذرهم مع العمل ينافيه من كلام النفاق فعل المستهزىء ، قال مهدداً : ﴿ قل استهزءوا ﴾ أي افعلوا فعل المستهزىء بغاية الرغبة ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بكمال العلم وتمام القدرة ﴿ مخرج ﴾ أي كانت له وصف إخراجه ﴿ ما تحذرون ﴾ أي إخراجه من قبائحكم ؛ وعن الحسن : كان المسلمون يسمون هذه السورة الحفارة ، حفرت ما في قلوب المنافقين وأظهرته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 342 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

واعلم أنهم كانوا يسمون سورة براءة ، الحافرة حفرت عما في قلوب المنافقين قال الحسن : اجتمع اثنا عشر رجلاً من المنافقين على أمر من النفاق ، فأخبر جبريل الرسول عليه الصلاة والسلام بأسمائهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : " إن أناساً اجتمعوا على كيت وكيت ، فليقوموا وليعترفوا وليستغفروا ربهم حتى أشفع لهم " فلم يقوموا ، فقال عليه الصلاة والسلام بعد ذلك : " قم يا فلان ويا فلان " حتى أتى عليهم ثم قالوا : نعترف ونستغفر فقال : " الآن أنا كنت في أول الأمر أطيب نفساً بالشفاعة ، والله كان أسرع في الإجابة ، اخرجوا عني اخرجوا عني " فلم يزل يقول حتى خرجوا بالكلية ، وقال الأصم : إن عند رجوع الرسول عليه الصلاة والسلام من تبوك وقف له على العقبة اثنا عشر رجلاً ليفتكوا به فأخبره جبريل ، وكانوا متلثمين في ليلة مظلمة وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم ، فأمر حذيفة بذلك فضربها حتى نحاهم ، ثم قال : " من عرفت من القوم " فقال : لم أعرف منهم أحداً ، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم أسماءهم وعدهم له ، وقال : "

إن جبريل أخبرني بذلك " فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم ليقتلوا ، فقال : " أكره أن تقول العرب قاتل محمد بأصحابه حتى إذا ظفر صار يقتلهم بل يكفينا الله ذلك "

فإن قيل : المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحي على الرسول .

قلنا : فيه وجوه : الأول : قال أبو مسلم : هذا حذر أظهره المنافقون على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول عليه الصلاة والسلام يذكر كل شيء ويدعي أنه عن الوحي ، وكان المنافقون يكذبون بذلك فيما بينهم ، فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أن يعلمهم أنه يظهر سرهم الذي حذروا ظهوره ، وفي قوله : ﴿ استهزئوا ﴾ دلالة على ما قلناه .

(175/341)

الثاني : أن القوم وإن كانوا كافرين بدين الرسول إلا أنهم شاهدوا أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يخبرهم بما يضمرونه ويكتمونه ، فلهذه التجربة وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

الثالث : قال الأصم : أنهم كانوا يعرفون كونه رسولاً صادقاً من عند الله تعالى ، إلا أنهم كفروا به حسداً وعناداً .

قال القاضي : يبعد في العالم بالله وبرسوله وصحة دينه أن يكون محاداً لهما .

قال الداعي إلى الله : هذا غير بعيد لأن الحسد إذا قوي في القلب صار بحيث ينازع في

المحسوسات ، الرابع : معنى الحذر الأمر بالحذر ، أي ليحذر المنافقون ذلك .

الخامس : أنهم كانوا شاكين في صحة نبوته وما كانوا قاطعين بفسادها .

والشاك خائف ، فلهذا السبب خافوا أن ينزل عليه في أمرهم ما يفضحهم ، ثم قال

صاحب "الكشاف" : الضمير في قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ و ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ للمؤمنين ، وفي قوله : ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ للمنافقين ويجوز أيضاً أن تكون الضمائر كلها للمنافقين ، لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم ، ومعنى ﴿ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ أن السورة كأنها تقول لهم في قلوبهم كيت وكيت ، يعني أنها تذيع أسرارهم إذاعة ظاهرة فكأنها تخبرهم .

ثم قال : ﴿ قُلِ اسْتَهْزِءُواْ ﴾ وهو أمر تهديد كقوله : ﴿ وَقُلِ اعملوا ﴾ [التوبة : 105] ﴿ إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 64] أي ذلك الذي تحذرونه ، فإن الله يخرجه إلى الوجود ، فإن الشيء إذا حصل بعد عدمه ، فكان فاعله أخرجه من العدم إلى الوجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 96 . 97 ﴾

(176/341)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون ﴾

قال الزجاج قوله : ﴿ يَحْذَرُ ﴾ لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر ، أي ليحذر المنافقون ؛ ويقال : هو على وجه الخبر يحذر يعني : يخشى المنافقون .

وذلك أن بعضهم قال : لو أني جلدت مائة جلدة ، أحب إليّ من أن ينزل فينا شيء يفضحنا ، فنزل : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ يعني سورة براءة تنبئهم ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ من النفاق .

وكانت سورة براءة تسمى الفاضحة .

﴿ قُلْ استهزءوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ، يعني : مظهر ما تخافون من إظهار النفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ . . . ﴾ الآية

فيه وجهان :

أحدهما : أنه إخبار من الله تعالى عن حذرهم ، قاله الحسن وقتادة .

والثاني : أنه أمر من الله تعالى لهم بالحذر ، وتقديره ليحذر المنافقون ، قاله الزجاج .

وفي قوله تعالى ﴿ . . . تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ وجهان :

أحدهما : ما أسرّوه من النفاق .

والثاني : قولهم في غزوة تبوك : أيرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ؟ هيهات

هيهات . فأطلع الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا ، قاله الحسن وقتادة .

﴿ قُلِ اسْتَهْزِئُواْ ﴾ هذا ويعد خرج مخرج الأمر للتهديد .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : مظهر ما تسرون .

والثاني : ناصر من تخذلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(177/341)

وقال ابن عطية :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾

قوله ، ﴿ يحذر ﴾ خبر عن حال قلوبهم ، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة ومعتقدهم هل تنزل أم لا ليس بنص في الآية لكنه ظاهر ، فإن حمل على مقتضى نفاقهم واعتقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بين ، وإن قيل إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم ينافقون مع ذلك فهذا كفر عناد ، وقال الزجّاج وبعض من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال : معنى يحذر الأمر وإن كان لفظه لفظ الخبر كأنه يقول " ليحذر " وقرأ أبو عمرو وجماعة معه " أن تنْزَل " ساكنة النون خفيفة الزاي ، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسن والأعرج وعاصم

والأعمش ، و﴿ أن ﴾ من قوله ﴿ أن تنزل ﴾ مذهب سيبويه ، أن ، ﴿ يحذر ﴾ عامل فهي مفعوله ، وقال غيره حذر إنما هي من هيئات النفس التي لا تتعدى مثل فزع وإنما التقدير يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة ، وقوله ﴿ قل استهزئوا ﴾ لفظه الأمر ومعناه التهديد ، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يخرج لهم إلى حيز الوجود ما يحذرونه ، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة براءة فهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين ، وقال الطبري : كان المنافقون إذ عابوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا شيئاً من أمره قالوا لعل الله لا يفشي سرنا فنزلت الآية في ذلك .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(178/341)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن المنافقين كانوا يعيبون رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بينهم ، ويقولون :

عسى الله أن لا يفشي سرَّنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والثاني : أن بعض المنافقين قال : لوددت أني جُلدت مائة جلدة ، ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ، فنزلت هذه الآية ، قاله السدي .

والثالث : أن جماعة من المنافقين وقفوا للنبي صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به ، فأخبره جبريل عليه السلام ، ونزلت هذه الآية ، قاله ابن كيسان .

وفي قوله : ﴿ يحذر المنافقون ﴾ قولان .

أحدهما : أنه إخبار من الله عز وجل عن حالهم ، قاله الحسن ، وقتادة ، واختاره ابن القاسم .

والثاني : أنه أمر من الله عز وجل لهم بالحذر ، فتقديره : ليحذر المنافقون ، قاله الزجاج : قال ابن الأنباري : والعرب ربما أخرجت الأمر على لفظ الخبر ، فيقولون : يرحم الله المؤمن ، ويعذب الكافر ؛ يريدون : ليرحم وليعذب ، فيسقطون اللام ، ويُجْرُونَه مجرى الخبر في الرفع ، وهم لا ينوون إلا الدعاء ؛ والدعاء مضارع للأمر .

قوله تعالى : ﴿ قل استهزؤوا ﴾ هذا وعيد خرج مخرج الأمر تهديداً .

وفي قوله : ﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ وجهان .

أحدهما : مظهر ما تُسِرُّون .

والثاني : ناصر مَنْ تخذلون ، ذكرهما الماوردي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(179/341)

وقال القرطبى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون ﴾ خبر وليس بأمر .

ويدلّ على أنه خبر أن ما بعده "إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرونَ" لأنهم كفروا عِناداً .

وقال السّديّ : قال بعض المنافقين والله ودِدت لو أني قدّمت فجلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ؛ فنزلت الآية : ﴿ يَحْذَرُ ﴾ أي يتحرّز .

وقال الزجاج : معناه ليَحْذَر ؛ فهو أمر ؛ كما يُقال : يفعل ذلك .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾ "أَنْ" في موضع نصب ، أي من أن تنزّل .

ويجوز على قول سيبويه أن تكون في موضع خفض على حذف من .

ويجوز أن تكون في موضع نصب مفعولة ليحذر ؛ لأن سيبويه أجاز : حذِرت زيداً ؛ وأنشد :

حَذِرٌ أُموراً لا تَضِير وآمِنٌ . . .

ما ليس مُنْجيَه من الأقدار

ولم يُجزِه الْمُبّرد ؛ لأن الحذر شيء في الهيئة .

ومعنى "عَلَيْهِمْ" أي على المؤمنين ﴿ سُورَةٌ ﴾ في شأن المنافقين تخبرهم بمخازيهم ومساويهم ومثالبهم ؛ ولهذا سُمِّيت الفاضحة والمثيرة والمبعثرة ، كما تقدّم أوّل السورة .

وقال الحسن : كان المسلمون يسمّون هذه السورة الحفّارة لأنها حفرت ما في قلوب المنافقين فأظهرته .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ قُلِ استهزءوا ﴾ هذا أمرُ وعيدٍ وتهديد .

﴿ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي مظهر ﴿ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ظهوره .

قال ابن عباس : أنزل الله أسماء المنافقين وكانوا سبعين رجلاً ، ثم نَسخ تلك الأسماء من القرآن رأفة منه ورحمة ؛ لأن أولادهم كانوا مسلمين والناس يعيّر بعضهم بعضاً .

فعلى هذا قد أنجز الله وعده بإظهاره ذلك إذ قال : "إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ" .

وقيل : إخراج الله أنه عرّف نبيّه عليه السَّلام أحوالهم وأسماءهم لا أنها نزلت في القرآن ، ولقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول ﴾ [محمد : 35] وهو نوع إلهام .

وكان المنافقين من يتردّد ولا يقطع بتكذيب محمد عليه السَّلام ولا بصدقه .

وكان فيهم من يعرف صدقه ويعاند . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(181/341)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يحذر المنافقون ﴾

يعني يخشى المنافقون ﴿ أن تنزل عليهم سورة ﴾ يعني على المؤمنين ﴿ تنبئهم ﴾ يعني تخبر المؤمنين ﴿ بما في قلوبهم ﴾ يعني بما في قلوب المنافقين من الحسد والعداوة للمؤمنين وذلك أن المنافقين كانوا فيما بينهم يذكرون المؤمنين بسوء ويسترونه ويخافون الفضيحة ونزول القرآن في شأنهم .

قال قتادة : وهذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة يعني أنها فضحت المنافقين وبعثرت عن أخبارهم وأثارتها وأسفرت عن مخازيهم ومثالبهم .

وقال ابن عباس : أنزل الله ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة منه على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأن أولادهم كانوا مؤمنين ﴿ قل استهزئوا ﴾ أمر تهديد فهو كقوله اعملوا ما شئتم ﴿ إن الله مخرج ﴾ أي مظهر ﴿ ما تحذرون ﴾ والمعنى أن الله سبحانه وتعالى يظهر إلى الوجود ما كان المنافقون يسترونه ويخفونه عن المؤمنين .

قال ابن كيسان : نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما قد أضمروا له وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وكان معه عمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة : " اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاهم عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال لم أعرف منهم أحداً يا رسول الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فإنهم فلان وفلان حتى عدَّهم كلهم فقال هلا بعثت إليهم من يقتلهم فقال : أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفينا هم الله بالدبيلة "

(م) .

عن قيس بن عباد قال : قلت لعمار : أرأيت قتالكم أرأيا رأيتموه فإن الرأي يخطئ ويصيب أم عهداً عهده إليكم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ؟ فقال ما عهد إلينا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شيئاً لم يعهده إلى الناس كافة وقال إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن في أمتي " قال شعبة وأحسبه قال حدثني حذيفة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن في أمتي اثني عشر منافقاً لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سم الخياط ثمانية منهم تكفيهم الدبيلة سراج من النار يظهر في أكتافهم حتى ينجم من صدورهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(183/341)

وقال أبو حيان :

﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزءُوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾

كان المنافقون يعيبون الرسول ويقولون : عسى الله أن لا يفشي سرنا فنزلت ، قاله مجاهد .

وقال السدي : قال بعضهم : وددت أني جلدت مائة ولا ينزل فينا شيء يفضحنا ،

فنزلت .

وقال ابن كيسان : وقف جماعة منهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) في ليلة مظلمة عند مرجعه من تبوك ليفتكوا به فأخبره جبريل عليه السلام فنزلت .

وقيل قالوا في غزوة تبوك : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها : هيهات هيهات فأنزل الله قل استهزؤوا .

والظاهر أنّ يحذر خبر ، ويدل عليه أن الله مخرج ما تحذرون .

فقيل : هو واقع منهم حقيقة لما شاهدوا الرسول يخبرهم بما يكتمونه ، وقع الحذر والخوف في قلوبهم .

وقال الأصم : كانوا يعرفونه رسولاً من عند الله فكفروا حسداً ، واستبعد القاضي في العالم بالله ورسوله وصحة دينه أن يكون محاداً لهما وليس ببعيد ، فإنه إذا استحكم الحسد نازع الحاسد في المحسوسات .

وقيل : هو حذر أظهروه على وجه الاستهزاء حين رأوا الرسول يذكر أشياء وأنها عن الوحي وكانوا يكذبون بذلك ، فأخبر الله رسوله بذلك ، وأعلم أنه مظهر سرهم ، ويدل عليه قوله : قل استهزؤوا .

وقال الزجاج وغيره ممن ذهب إلى التحرز من أن يكون كفرهم عناداً : هو مضارع في معنى الأمر أي : ليحذر المنافقون ، ويبعده مخرج ما تحذرون ، وأن تنزل مفعول يحذر ، وهو

متعد .

قال الشاعر :

حذر أموراً لا تضرّ وآمن . . .

ما ليس ينجيه من الأقدار

وقال تعالى : ﴿ ويحذركم الله نفسه ﴾ لما كان قبل التضعيف متعدياً إلى واحد ، عداه بالتضعيف إلى اثنين .

(184/341)

وقال المبرد : حذر إنما هي من هيئات الأنفس التي لا تتعدى مثل فزع ، والتقدير : يحذر المنافقون من أن تنزل ، ولا يلزم ذلك : ألا ترى أنّ خاف من هيئات النفس وتتعدى ؟

والظاهر أن قوله عليهم : وتنبئهم ، الضمير أنّ فيهما عائدان على المنافقين ، وجاء عليهم لأنّ السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم قاله : الكرماني ، والزمخشري .

قال الكرماني : ويحتمل أنه من قولك : هذا عليك لا لك .

ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم : تذيع أسرارهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة ، فكأنها تخبرهم بها .

وقال الزمخشري : والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين ، وفي قلوبهم للمنافقين ، وصح ذلك لأنّ المعنى يعود إليه انتهى .

والأمر بالاستهزاء أمر تهديد ووعيد كقوله : ﴿ اعملوا ما شئتم ﴾ ومعنى مخرج ما تحذرون مبرز إلى حيز الوجود ، ما تحذرونه من إنزال السورة ، أو مظهر ما كنتم تحذرونه من إظهار نفاقكم .

وفعل ذلك تعالى في هذه السورة فهي تسمى الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين .

قيل : كانوا سبعين رجلاً أنزل الله أسماءهم وأسماء آبائهم في القرآن ، ثم رفع ذلك ونسخ رحمة ورأفة منه على خلقه ، لأن أبناءهم كانوا مسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(185/341)

وقال أبو السعود :

﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ ﴾

في شأنهم فإن ما نزل في حقهم نازلٌ عليهم ﴿ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ من الأسرار الخفيةِ فضلاً عما كانوا يُظهِرونه فيما بينهم من أقاويل الكفرِ والنفاقِ ، ومعنى تَنْبِئَتِها إياهم

بما في قلوبهم مع أنه معلومٌ لهم وأن المحذورَ عندهم إطلاعُ المؤمنين على أسرارهم لا إطلاعُ أنفسِهم عليها أنها تُذيع ما كانوا يُخفونه من أسرارهم فتنتشرُ فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجالِ مُذاعةً ، فكأنها تخبرهم بها أو المرادُ بالتنبئة المبالغةُ في كون السورة مشتملةً على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنةِ ما لا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعي عليهم قبائحَهم ، وقيل : معنى يحذرِ ليحذر ، وقيل : الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ولا يبالى بالتفكيك عند ظهورِ الأمرِ بعَوْد المعنى إليه أي يحذر المنافقون أن تنزَّلَ على المؤمنين سورةٌ تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتِك عليهم أستارَهم . قال أبو مسلم : كان إظهارُ الحذرِ منهم بطريق الاستهزاءِ فإنهم كانوا إذا سمعوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يذكر كلَّ شيء ويقول إنه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزئون به ولذلك قيل : ﴿ قُلْ استهزءوا ﴾ أي افعلوا الاستهزاءَ وهو أمر تهديد ﴿ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ﴾ أي من القوة إلى الفعل أو من الكُمون إلى البروز ﴿ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ أي ما تحذرونه من إنزال السورةِ ومن مخازيكم ومثالبِكم المستكنةِ في قلوبكم الفاضحةِ لكم على ملأ الناسِ ، والتأكيدُ لرد إنكارِهم بذلك لا لدفع ترددِهم في وقوع المحذورِ إذ ليس حذرُهم بطريق الحقيقة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(186/341)

وقال الآلوسى :

﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ ﴾

أي من أن تنزل .

ويجوز أن يكون يحذر متعدياً بنفسه كما يدل عليه ما أنشد سيبويه من قوله :

حذر أموراً لا تضير وآمن . . .

ما ليس ينجيه من الأقدار

وأنكر المبرد كونه متعدياً لأن الحذر من هيئات النفس كالفزع ، والبيت قيل : إنه مصنوع ، ورد ما قاله المبرد بأن من الهيآت ما يتعدى كخاف وخشي فما ذكره غير لازم ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي في شأنهم فإن ما نزل في حقهم نازل عليهم ، وهذا إنما يحتاج إليه إذا كان الجار والمجرور متعلقاً بتنزل ، وأما إذا كان متعلقاً بمقدر وقع صفة لقوله سبحانه : ﴿ سُورَةٌ ﴾ كما قيل أي تنزل سورة كائنة عليهم من قولهم : هذا لك وهذا عليك فلا كما لا يخفى إلا أنه خلاف الظاهر جداً .

(187/341)

والظاهر تعلق الجار بما عنده ، وصفة سورة بقوله تعالى شأنه : ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ من الأسرار الخفية فضلاً عما كانوا يظهرونه فيما بينهم خاصة من أقاويل الكفر والنفاق ، والمراد أنها تذيع ما كانوا يخفونه من أسرارهم فينتشر فيما بين الناس فيسمعونها من أفواه الرجال مذاعة فكأنهم تخبرهم بها وإلا فما في قلوبهم معلوم لهم والمحذور عندهم إطلاع المؤمنين عليه لهم ، وقيل : المراد تخبرهم بما في قلوبهم على وجه يكون المقصود منه لازم فائدة الخبر وهو علم الرسول عليه الصلاة والسلام به ، وقيل : المراد بالتنبئة المبالغة في كون السورة مشتملة على أسرارهم كأنها تعلم من أحوالهم الباطنة ما لا يعلمونه فتنبئهم بها وتنعى عليهم قبائحهم ، وجوز أن يكون الضميران الأولان للمؤمنين والثالث للمنافقين ، وتفكيك الضمائر ليس بممنوع مطلقاً بل هو جائز عند قوة القرينة وظهور الدلالة عليه كما هنا ، أي يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما في قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم وتفشي أسرارهم ، وفي الأخبار عنهم بأنهم يحذرون ذلك إشعار بأنهم لم يكونوا على بت في أمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال أبو مسلم : كان إظهار الحذر بطريق الاستهزاء فإنهم كانوا إذا سمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر كل شيء ويقول : إنه بطريق الوحي يكذبونه ويستهزئون به لقوله سبحانه : ﴿ قُلِ استهزءوا ﴾ فإنه يدل على أنه وقع منهم استهزاء بهذه المقالة .

والأمر للتهديد والقائلون بما تقدم قالوا : المراد نافقوا لأن المنافق مستهزىء وكما جعل قولهم

: آمنا وما هم بمؤمنين مخادعة في البقرة جعل هنا استهزاء ، وقيل : إن ﴿ يَحْذَرُ ﴾ خبر في معنى الأمر أي ليحذر .

(188/341)

وتعقب بأن قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ ينبو عنه نوع نبوة إلا أن يراد ما يحذرون بموجب هذا الأمر وهو خلاف الظاهر ، وكان الظاهر أن يقول : إن الله منزل سورة كذلك أو منزل ما تحذرون لكن عدل عنه إلى ما في النظم الكريم للمبالغة إذ معناه مبرز ما تحذرونه من إنزال السورة ، أو لأنه أعم إذ المراد مظهر كل ما تحذرون ظهوره من القبائح ، وإسناد الإخراج إلى الله تعالى للإشارة إلى أنه سبحانه يخرجه إخراجاً لا مزيد عليه ، والتأكيد لدفع التردد أو رد الإنكار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(189/341)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

استئناف ابتدائي لذكر حال من أحوال جميع المنافقين كما تقدم في قوله : ﴿ يحلفون بالله لكم ﴾ [التوبة : 62] وهو إظهارهم الإيمان بالمعجزات وإخبار الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمغيبات .

وظاهر الكلام أنّ الحذر صادر منهم وهذا الظاهر ينافي كونهم لا يصدقون بأنّ نزول القرآن من الله وأنّ خبره صدق فلذلك تردّد المفسّرون في تأويل هذه الآية .

وأحسن ما قيل في ذلك قول أبي مسلم الأصفهاني "هو حذر يظهره المنافقون على وجه الاستهزاء .

فأخبر الله رسوله بذلك وأمره أن يعلمهم بأنّه يظهر سرّهم الذي حذروا ظهوره .

وفي قوله : ﴿ استهزءوا ﴾ دلالة على ما ذكرناه ، أي هم يظهرون ذلك يريدون به إيهام المسلمين بصدق إيمانهم وما هم إلاّ مستهزئون بالمسلمين فيما بينهم ، وليس المراد بما في قلوبهم الكفر ؛ لأنّهم لا يظهرون أنّ ذلك مفروض ففعل ﴿ يحذر ﴾ فأطلق على التظاهر بالحذر ، أي مجاز مرسل بعلاقة الصورة ، والقرينة قوله : ﴿ قل استهزءوا ﴾ إذ لا مناسبة بين الحذر الحقّ وبين الاستهزاء لولا ذلك ، فإنّ المنافقين لمّا كانوا مبطنين الكفر لم يكن من شأنهم الحذر من نزول القرآن بكشف ما في ضمائرهم ، لأنّهم لا يصدقون بذلك فتعيّن

صرف فعل ﴿ يحذر ﴾ إلى معنى : يتظاهرون بالحذر وعلى هذا القول يكون إطلاق الفعل على التظاهر بمدلوله من غرائب المجاز .

وتأوّل الزجاج الآية بأنّ ﴿ يحذر ﴾ خبر مستعمل في الأمر ، أي ليحذر .

وعلى تأويله تكون جملة ﴿ قل استهزءوا ﴾ استئنافاً ابتدائياً لا علاقة لها بجملة ﴿ يحذر المنافقون ﴾ .

ولهم وجوه أخرى في تفسير الآية بعيدة عن مهيعها ، ذكرها الفخر .

وضميراً ﴿ عليهم ﴾ و ﴿ تنبئهم ﴾ يجوز أن يعودا إلى المنافقين ، وهو ظاهر تناسق الضمائر ومعادها .

(190/341)

وتكون (على) بمعنى لام التعليل أي تنزل لأجل أحوالهم كقوله تعالى : ﴿ ولتكبروا الله على ما هداكم ﴾ [البقرة : 185] .

وهو كثير في الكلام ، وتكون تعدية ﴿ تنبئهم ﴾ إلى ضمير المنافقين : على نزع الخافض ، أي تنبيء عنهم ، أي تنبىء الرسول بما في قلوبهم .

ويجوز أن يكون تاء ﴿ تنبئهم ﴾ تاء الخطاب ، والخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم

أي : تنبئهم أنت بما في قلوبهم ، فيكون جملة ﴿ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ في محلّ الصفة ل ﴿ سورة ﴾ والرابط محذوف تقديره : تنبّئهم بها ، وهذا وصف للسورة في نفس الأمر ، لا في اعتقاد المنافقين ، فموقع جملة ﴿ تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ استطراد .

ويجوز أن يعود الضميرانِ للمسلمين ، ولا يضرّ تخالف الضميرين مع ضمير ﴿ قلوبهم ﴾ الذي هو للمنافقين لا محالة ، لأنّ المعنى يَرُدّ كلّ ضمير إلى ما يليق بأن يعود إليه .

واختيرت صيغة المضارع في ﴿ يحذر ﴾ لما تشعر به من استحضار الحالة كقوله تعالى : ﴿ فتثير سحاباً ﴾ [الروم : 48] وقوله : ﴿ يجادلنا في قوم لوط ﴾ [هود : 74] .

والسورة : طائفة معيّنة من آيات القرآن ذات مبدأ ونهاية وقد تقدّم بيانها عند تفسير طالعة سورة فاتحة الكتاب .

والتنبئة الإخبار والإعلام مصدر نَبَّأَ الخبر ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين ﴾ في سورة الأنعام (34) .

والاستهزاء : تقدّم في قوله : ﴿ إنما نحن مستهزئون ﴾ في أول البقرة (14) .

والإخراج : مستعمل في الإظهار مجازاً ، والمعنى : أنّ الله مظهر ما في قلوبكم بإنزال السور : مثل سورةِ المنافقين ، وهذه السورةِ سورةِ براءة ، حتّى سميت الفاضحة لما فيها من تعداد أحوالهم بقوله تعالى : ومنهم ، ومنهم ، ومنهم .

والعدول إلى التعبير بالموصول في قوله : ما تحذرون ﴾ دون أن يقال : إنّ الله مخرج سورة تنبئكم بما في قلوبكم : لأنّ الأهمّ من تهديدهم هو إظهار سرائرهم لا إنزال السورة ، فذكر الصلة وافٍ بالأمرين : إظهارِ سرائرهم ، وكونه في سورة تنزِل ، وهو أنكى لهم ، ففيه إيجاز بديع كقوله تعالى في سورة كهيعص (80) ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ بعد قوله : ﴿ وقال لأوتين مالا وولداً ﴾ [مريم : 77] أي نرثه ماله وولده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(192/341)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

والحذر معناه الاستعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع ، وعلى سبيل المثال ؛ يقال لمن يسافر في طريق محفوف بالأخطار : خذ حذرك وأنت تسير في هذا الطريق . وهنا قد يصحب المسافر معه رفيقاً ، أو يأخذ معه سلاحاً يدافع به عن نفسه إن قابلته عصابة من قطاع

الطرق . إذن : فالحذر هو الإعداد لدفع خطر أو ضرر متوقع .

ولكن إذا كانت السورة تتنزل من عند الله على رسوله فكيف يحذرون ويستعدون لنزول هذه السورة ؟

نقول : إن هذا استهزاء بهم ؛ لأنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولأن آيات سابقة نزلت تفضح ما يخبئونه في نفوسهم . فهم دائماً خائفون من أن تنزل آية جديدة تفضحهم أمام المسلمين .

الحق سبحانه وتعالى يريدهم أن يعرفوا أنه عليم بما في نفوسهم ، ويخوفهم من أن تنزل آيات تكشفهم ، فهم يخشون أن يخرج ما في بطونهم من كفر يخفونه ، وهو غيب عن المؤمنين .

والغيب – كما نعلم – محجوب بزمان ومكان ، وغيب الزمان محجوب بالماضي أو بالمستقبل ، فإن كان هناك حدث قد مضى ولم تشهده ، فهو غيب عنك ما لم تعلمه من كتب التاريخ ، وكذلك إن كان هناك حدث سوف يأتي في المستقبل ، فهو لم يقع بعد ، فهو إذن محجوب بالمستقبل ، أما حجاب المكان فهو حجاب الحاضر ، وعلى سبيل المثال : إن كنا الآن في القاهرة فنحن لا نعلم ما يحدث في الإسكندرية . والله سبحانه وتعالى هتك كل هذه الحجب في القرآن الكريم ، فهتك الحق سبحانه حجاب الماضي في أمثلة كثيرة أخبر بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، مثل قوله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الغربي إِذْ قَضَيْنَا إِلى مُوسَى الأمر وَمَا كنتَ مِنَ الشاهدين ﴾ [القصص : 44]

وأيضاً يقول سبحانه : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِياً فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴾ [القصص : 45]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد كشف لرسوله من حجب الزمن الماضي ، ما لم يكن يعلمه أحد ، وذلك مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ الغيب نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هذا فاصبر إِنَّ العاقبة لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : 49]

وكشف الله سبحانه وتعالى – أيضاً – لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين حجاب الزمن المستقبل ؛ فقال : ﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . . . ﴾ [البقرة : 142]

وهؤلاء السفهاء سمعوا الآية قبل أن يتساءلوا عن تحويل القبلة ، ورغم ذلك تساءلوا عن تحويل قبلة الصلاة . وأيضاً قالوا الحق من أمثلة كشف حجب المستقبل : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع وَيُوَلُّونَ الدبر ﴾ [القمر : 45]

وقد نزلت هذه الآية والمسلمون يلاقون عذاباً شديداً من الكفار ، حتى إن عمر بن الخطاب قال : أي جمع هذا ؟

وعندما حدثت غزوة بدر قال عمر : صدقت ربي : ﴿ سَيُهْزَمُ الجمع ويُوَلُّونَ الدبر ﴾ .

وكذلك كشف الحق سبحانه وتعالى حجاب المستقبل حين قال :

﴿ غُلِبَتِ الروم * في أَدْنَى الأرض وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المؤمنون * بِنَصْرِ الله يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ العزيز الرحيم ﴾ [الروم : 2-5]

(194/341)

أي : أن الله تبارك وتعالى أعطى نتيجة المعركة بين الروم والفرس قبل أن تحدث بسنوات طويلة ، وحدد الجانب المنتصر وهو الروم ، وكذلك أنبأ سبحانه وتعالى رسوله بما يحدث في أعماق النفس . وما يدور في صدور الخلق ، وساعة ما ينتهك حجاب النفس ، كأنه يوضح لكل إنسان : إن سِرَّكَ الذاتي مفضوح عند الله ، والمثال على هذا قول الحق سبحانه : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا الله بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8]

هم قالوا في أنفسهم ، ولو لم يقولوا لعارضوا ما أخبرهم به محمد صلى الله عليه وسلم عمَّا قالوه في أنفسهم وأعلنوا أنه كذب . ولكنهم لم يكذِّبوا رسول الله فيما أبلغ على ظنهم صدق رسول الله .

والمثال هو قول الحق هنا : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ استهزءوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 64]

وإن كان البعض منهم قد استهزأ قائلاً : لا داعي أن نتكلم حتى لا يُنزل فينا قرآناً ، فالحق يُبلِّغ رسوله أن يرد عليهم : ﴿ قُلِ استهزءوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 64]

.

وما تحذرون منه أيها المنافقون سيكشفه الله لرسوله وللمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(195/341)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ﴾ قال : يقولون القول فيما

بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشي علينا هذا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المثيرة ، أنبأت بمثالبهم وعوراتهم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وأبو الشيخ عن المسيب بن رافع رضي الله عنه قال : ما عمل رجل من حسنة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، ولا عمل رجل من سيئة في سبعة أبيات إلا أظهرها الله ، وتصديق ذلك كلام الله تعالى ﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(196/341)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَن تُنَزَّلَ ﴾ : مفعولٌ به ناصبُه يحذر ، فإن "يَحْذَر" متعدٍّ بنفسِه لقوله

تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : 30] لولا أنه متعدٍّ في الأصل لواحدٍ لَما اكتسب التضعيف مفعولاً ثانياً ، ويدلُّ عليه أيضاً ما أنشده سيبويه :

2511 حَذِرٌ أُموراً لا تَضيرُ وآمِنٌ . . . ما ليسَ مُنْجيَه من الأَقْدارِ

وفي البيت كلامٌ ، قيل : إنه مصنوع ، وهو فاسد أتقنت حكايته في " شرح التسهيل " وقال المبرد : " إنَّ " حَذِر لا يتعدى " قال : لأنه من هَيْئات النفسِ كفَزِع ، وهذا غير لازم فإنَّ لنا من هيئات النفس ما هو متعدٍ كخاف وخشِي فإنَّ " تُنَزَّل " عند المبرد على إسقاط الخافض أي : مِنْ أَنْ تُنَزَّل . وقوله " تُنَبِّئهم " في موضع الرفع صفةً ل " سورة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 79 . 80 ﴾

(197/341)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (64) ﴾

ظَنُّوا أَنَّ الحقَّ – سبحانه – لا يفضحهم ، فَدَلَّسُوا عليكم ، وأنكروا ما انطوت عليه

سرائرهم ، فأرخى الله – سبحانه – عنانَ إمهالهم ، ثم هتك الستر عن نفاقهم ؛ فَفَضَحَهم عند أهل التحقيق ، فتقنعوا بِخِمار الخجل ، وكشف لأهل التحقيق مكامنَ الاعتبار . ونعوذ بالله من عقوبة أهل الاغترار ! ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الماكِرِينَ ﴾ [آل عمران : 54] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 42 ﴾

(198/341)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ
﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/342)

الجزء الثانى والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 65 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 70 ﴾ من نفس السورة

(4/342)

قوله تعالى ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما وصفهم بالنفاق ، حققه بعدم مبادرتهم إلى التوبة التي هي فعل المؤمنين ، وباجترائهم

على الإنكار مع كون السائل لهم مَنْ بلغ الغاية في الجلال والوقار والكمال فقال : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي وأنت من يجب أن يصدقه مسؤوله عما أخرجت السورة مما أظهروا بينهم من الكفر ، وذلك حين قال بعضهم : انظروا إلى هذا الرجل يظن أنه يفتح قصور الشام وحصونها ! هيهات هيهات ! فأعلمه الله فقال : احبسوا عليّ الركب .

فسألهم ﴿ ليقولن إنما ﴾ أي ما قلنا شيئاً من ذلك ، إنما ﴿ كنا نخوض ﴾ أي نتحدث على غير نظام ﴿ ونلعب ﴾ أي بما لا خرج علينا فيه ويحمل عنا ثقل الطريق ، فكأنه قيل : فماذا يقال لهم إذا حلفوا على ذلك على العادة ؟ فقال : ﴿ قل ﴾ أي لهم تقريراً على استهزائهم متوعداً لهم معرضاً عما اعتذروا إعلاماً بأنه غير أهل لأن يسمع جاعلاً لهم كأنهم معترفون بالاستهزاء حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته تكذيباً لهم في قولهم : إنك إذن ، بالمعنى الذي أرادوه ، وبياناً لما في إظهارك لتصديقهم من الرفق بهم ﴿ أبالله ﴾ أي هو المحيط بصفات بصفات الكمال ﴿ وآياته ﴾ أي التي لا يمكن تبديلها ولا تخفى على ذي بصر ولا بصيرة ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي عظمته من عظمته وهو مجتهد في إصلاحكم وتشريفكم وإعلائكم ﴿ كنتم ﴾ أي دائماً ﴿ تستهزءون ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 342 . 343 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في سبب نزول الآية أموراً : الأول : روى ابن عمر أن رجلاً من المنافقين قال في غزوة تبوك ما رأيت مثل هؤلاء القوم أرعب قلوباً ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، فقال واحد من الصحابة : كذبت ولأنت منافق ، ثم ذهب ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد القرآن قد سبقه .

فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله وكان قد ركب ناقته ، فقال يا رسول الله إنما كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به الطريق ، وكان يقول إنما كنا نخوض ونلعب .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون " ولا يلتفت إليه وما يزيده عليه .

الثاني : قال الحسن وقتادة : لما سار الرسول إلى تبوك قال المنافقون بينهم أتراه يظهر على

الشأن ويأخذ حصونها وقصورها هيهات ، هيهات ، فعند رجوعه دعاهم وقال : أنتم القائلون بكذا وكذا فقالوا : ما كان ذلك بالجد في قلوبنا وإنما كنا نخوض ونلعب .

الثالث : روى أن المتخلفين عن الرسول صلى الله عليه وسلم سألوا عما كانوا يصنعون وعن سبب تخلفهم ، فقالوا هذا القول .

الرابع : حكينا عن أبي مسلم أنه قال في تفسير قوله : ﴿يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم﴾ [التوبة : 64] أظهروا هذا الحذر على سبيل الاستهزاء ، فبين تعالى في هذه الآية أنه إذا قيل لهم لم فعلتم ذلك ؟ قالوا : لم نقل ذلك على سبيل الطعن ، بل لأجل أنا كنا نخوض ونلعب .

(6/342)

الخامس : اعلم أنه لا حاجة في معرفة هذه الآية إلى هذه الروايات فإنها تدل على أنهم ذكروا كلاماً فاسداً على سبيل الطعن والاستهزاء ، فلما أخبرهم الرسول بأنهم قالوا ذلك خافوا واعتذروا عنه بأنا إنما قلنا ذلك على وجه اللعب لا على سبيل الجد وذلك قولهم إنما كنا نخوض ونلعب أي ما قلنا ذلك إلا لأجل اللعب ، وهذا يدل على أن كلمة "إنما" تفيد الحصر إذ لو لم يكن ذلك لم يلزم من كونهم لاعبين أن لا يكونوا مستهزئين فحينئذ لا يتم هذا

العذر .

والجواب : قال الواحدي : أصل الخوض الدخول في مائع من الماء والطين ، ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وأذى ، والمعنى : أنا كنا نخوض ونلعب في الباطل من الكلام كما يخوض الركب لقطع الطريق ، فأجابهم الرسول بقوله : ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

فرق بين قولك أتستهزىء بالله ، وبين قولك أبالله تستهزىء ، فالأول يقتضي الإنكار على عمل الاستهزاء ، والثاني : يقتضي الإنكار على إيقاع الاستهزاء في الله ، كأنه يقول هب أنك قد تقدم على الاستهزاء ولكن كيف أقدمت على إيقاع الاستهزاء في الله ونظيره قوله تعالى :

﴿ لاَ فِيهَا غَوْلٌ ﴾ [الصافات : 47] والمقصود : ليس نفي الغول ، بل نفي أن يكون خمر الجنة محلاً للغول .

المسألة الثانية :

أنه تعالى حكى عنهم أنهم يستهزئون بالله وآياته ورسوله ، ومعلوم أن الاستهزاء بالله محال . فلا بد له من تأويل وفيه وجوه : الأول : المراد بالاستهزاء بالله هو الاستهزاء بتكاليف الله تعالى .

الثاني : يحتمل أن يكون المراد الاستهزاء بذكر الله ، فإن أسماء الله قد يستهزىء الكافر بها كما أن المؤمن يعظمها ويمجدها .

قال تعالى : ﴿ سَبِّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى ﴾ [الأعلى : 1] فأمر المؤمن بتعظيم اسم الله .

(7/342)

وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الأسماء الحسنى فادعوه بِهَا وَذَرُواْ الذين يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَئِهِ ﴾ [الأعراف : 180] فلا يمتنع أن يقال : ﴿ أبالله ﴾ ويراد : أبذكر الله .

الثالث : لعل المنافقين لما قالوا : كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشأم وقصورها .

قال بعض المسلمين : الله يعينه على ذلك وينصره عليهم ، ثم إن بعض الجهال من المنافقين ذكر كلاماً مشعراً بالقدح في قدرة الله كما هو عادات الجهال والمُلْحِدَة ، فكان المراد ذلك .

وأما قوله : ﴿ وءاياته ﴾ فالمراد بها القرآن ، وسائر ما يدل على الدين .

وقوله : ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ معلوم ، وذلك يدل على أن القوم إنما ذكروا ما ذكروه على سبيل الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 97.98 ﴾

(8/342)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾

وذلك أن رسول الله عليه السلام حين رجع من تبوك ، وبين يديه هؤلاء الثلاثة يسيرون ويقولون : إن محمداً يقول إنّه نزل في إخواننا الذين تخلفوا بالمدينة كذا وكذا ، وهم يضحكون ويستهزئون ، فأتاه جبريل فأخبره بذلك ، فبعث إليهم النبي عليه السلام عمار بن ياسر وقال له : " اذْهَبْ إِلَى أُوْلَئِكَ وَاسْأَلْهُمْ عَمَّا ذَا يَتَحَدَّثُونَ وَيَضْحَكُونَ " وأخبره أنهم يستهزئون بالقرآن ، وأنه إذا أتاهم وسألهم يقولون : إنّما كنا نخوض ونلعب .

فلما جاء إليهم عمار بن ياسر قال لهم : ما كنتم تقولون ؟ قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا ، ونضحك بيننا .

فقال عمار : صدق الله ، وبلغ رسوله ؛ هكذا أخبرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أنكم تقولون ذلك .

غضب الله عليكم هلكتم ، فعرفوا عند ذلك أنه نزل فيهم شيء فجاؤوا واعتذروا .

فنزل : ﴿ قُلْ ﴾ ، يعني : قل لهم يا محمد : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ القرآن ، ﴿ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ ﴾ .

وقال قتادة : إذا رأيا العبد ، يقول الله انظروا إلى عبدي يستهزىء ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءونَ ﴾ فجاؤوا إلى النبي واعتذروا ، فنزل قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانكم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(9/342)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية

قال ابن عمر وقتادة وزيد بن أسلم ومحمد بن كعب : قال رجل من المنافقين في غزوة تبوك : ما رأيت مثل [قرائنا] هؤلاء أرغب بطوناً ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنك منافق ، لأُخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم فذهب عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره فوجد القرآن قد سبقه ، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ارتحل وركب ناقة فقال : يا رسول الله إنما كنّا نخوض ونلعب ونتحدث بحديث الركب يقطع به عنا الطريق .

قال ابن عمر : كأني أنظر إليه متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكبه وهو ويقول : إنا كنّا نخوض ونعلب . فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿

أبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ فالتفت إليه وما يزيده عليه .

وقال قتادة : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه ، فقالوا أيظن هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيّه على ذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم احبسوا عليَّ الركب ، فدعاهم فقال لهم : قلتم كذا وكذا ، فقالوا يانبي الله أنما كنا نخوض ونلعب ، وحلفوا على ذلك ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية " .

(10/342)

وقال مجاهد : قال رجل من المنافقين : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب ، فأنزل الله هذه الآية ، وقال ابن كيسان : نزلت في وديعة بن ثابت وهو الذي قال هذه المقالة ، وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أبي ورهطه كانوا يقولون في رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مالا ينبغي ، فإذا بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك قالوا : إنّما كنا نخوض ونلعب قال الله عز وجل : ﴿ قُلْ أَبِالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(11/342)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ الآية

نزلت على ما ذكر جماعة من المفسرين في وديعة بن ثابت وذلك ؟ أنه مع قوم من المنافقين كانا يسيرون في عزوة تبوك ، فقال بعضهم لبعض هذا يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر هيهات هيهات ، فوقفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وقال لهم قلتم كذا وكذا ، فقالوا ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ ، يريدون كنا مجدين ، وذكر ابن إسحاق أن قوماً منهم تقدموا النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال بعضهم كأنكم والله غداً في الحبال أسرى لبني الأصفر إلى نحو هذا من القول ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر : " أدرك القوم فقد احترقوا وأخبرهم بما قالوا " ونزلت الآية ، وروي أن وديعة بن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين : ما رأيت كقرائنا هؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاء فعنفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه المقالة فقالوا ﴿ إنما كما نخوض ونلعب ﴾ ، ثم أمره بتقريرهم ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ وفي ضمن هذا التقرير وعيد ، وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر أنه قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعة متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ والنبي يقول ﴿ أبالله وآياته

ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ وذكر النقاش أن هذا المتعلق كان عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك خطأ لأنه لم يشهد تبوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(12/342)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾

في سبب نزولها ستة أقوال .

أحدها : " أن جَدَّ بنَ قيس ، ووديعة بن خذام ، والجُهَير بن خُمَير ، كانوا يسيرون بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مرجعه من تبوك ، فجعل رجلان منهم يستهزآن برسول الله صلى الله عليه وسلم " والثالث يضحك مما يقولان ولا يتكلم بشيء ، فنزل جبريل فأخبره بما يستهزؤون به ويضحكون ؛ فقال لعمار بن ياسر : " اذهب فسلهم عما كانوا يضحكون منه ، وقل لهم : أحرقكم الله " فلما سألهم ، وقال : أحرقكم الله ؛ علموا أنه قد نزل فيهم قرآن ، فأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال الجُهَير : والله ما تكلَّمت بشيء ، وإنما ضحكت تعجباً من قولهم ، فنزل قوله : ﴿ لا تعتذروا ﴾ يعني جَدَّ بن قيس ، ووديعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأُولى هذه الآية نزلت في غَزوة تَبُوك .

قال الطبريّ وغيره عن قتادة : " بينا النبيّ صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وَرَكْبٌ من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا ، هذا يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر ا فأطلعه الله سبحانه على ما في قلوبهم وما يتحدّثون به ، فقال : "احبسوا عليّ الركب ثم أتاهم فقال قلتم كذا وكذا "فحلفوا : ما كنا إلاَّ نخوض ونلعب ؛ يريدون كنا غير مجدّين " وذكر الطبري عن عبد الله بن عمر قال : رأيت قائل هذه المقالة وديعةَ بن ثابت متعلقاً بحَقَب ناقِة رسول الله صلى الله عليه وسلم يماشيها والحجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب .

والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ أبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وذكر النقاش أن هذا المتعلِّق كان عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول .

وكذا ذكر القُشيرِي عن ابن عمر .

قال ابن عطية : وذلك خطأ ؛ لأنه لم يشهد تَبُوك .

قال القشيري : وقيل إنما قال عليه السَّلام هذا لوديعة بن ثابت وكان من المنافقين وكان في غزوة تبوك .

والخوض : الدخول في الماء ، ثم استعمل في كل دخول فيه تلويث وأذًى .

الثانية قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدّاً أو هزلاً ، وهو كيفما كان كفر ؛ فإن الهزل بالكفر كفر لا خلاف فيه بين الأُمة .

فإن التحقيق أخو العلم والحق ، والهزل أخو الباطل والجهل .

قال علماؤنا : انظر إلى قوله : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [البقرة : 67]

الثالثة واختلف العلماء في الهزل في سائر الأحكام كالبيع والنكاح والطلاق على ثلاثة أقوال :

لا يلزم مطلقاً .

يلزم مطلقاً .

التفرقة بين البيع وغيره .

فيلزم في النكاح والطلاق ؛ وهو قول الشافعيّ في الطلاق قولاً واحداً .

ولا يلزم في البيع .

قل مالك في كتاب محمد : يلزم نكاح الهازل .

وقال أبو زيد عن ابن القاسم في العتبية : لا يلزم .

وقال عليّ بن زياد : يُفسخ قبلُ وبعدُ .

وللشافعيّ في بيع الهازل قولان .

وكذلك يخرّج من قول علمائنا القولان .

وحكى ابن المنذر الإجماع في أن جِدّ الطلاق وهزلَه سواء .

وقال بعض المتأخرين من أصحابنا : إن اتفقا على الهزل في النكاح والبيع لم يلزم ، وإن اختلفا غلب الجدّ الهزل .

وروى أبو داود والترمذيّ والدّارَقُطْنِيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث جِدهنّ جِدّ وهَزْلهنّ جدّ النكاحُ والطلاق والرجعة " قال الترمذيّ : حديث حسن غريب ، والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

قلت : كذا في الحديث "والرَّجعة" .

وفي موطأ مالك عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيِّب قال : ثلاث ليس فيهن لَعِب النكاح والطلاق والعتق .

وكذا رُوي عن علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأبي الدَّرداء ، كلهم قال : ثلاث لا لِعب فيهن ولا رجوع فيهن واللاعب فيهن جادٌّ النكاح والطلاق والعتق .

وعن سعيد بن المسيّب عن عمر قال : أربع جائزات على كل أحد العتق والطلاق والنكاح والنذور .

وعن الضحاك قال : ثلاث لا لعب فيهن النكاح والطلاق والنذور . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(15/342)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية

وسبب نزولها على ما قال زيد بن أسلم أن رجلاً من المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تبوك : ما لقرائنا أرغبنا بطوناً وأكذبنا ألسنة وأجبننا عند اللقاء ؟ فقال له عوف بن مالك

: كذبت ولكنك منافق ولأخبرن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فذهب عوف إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليخبره فوجد القرآن قد سبقه .

قال زيد : قال عبد الله بن عمر : فنظرت إليه ، يعني إلى المنافق ، متعلقة بحقب ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تنكبه الحجارة يقول إنما كنا نخوض ونلعب فيقول له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون " ما يزيده قال محمد بن إسحاق الذي قال هذه المقالة فيما بلغني هو وديعة بن ثابت أخو أمية بن زيد بن عمرو بن عوف .

وقال قتادة : " بينا رسول الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ناس من المنافقين فقالوا يرجوا هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) على ذلك فقال نبي (صلى الله عليه وسلم) احبسوا على الركب فأتاهم فقال قلتم كذا وكذا فقالوا يا نبي الله كنا نخوض ونلعب فأنزل الله فيهم ما تسمعون " وقال الكلبي ومقاتل : " كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان منهم يستهزئان بالقرآن والرسول والثالث يضحك " قيل كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك .

وقيل : كانوا يقولون إن محمداً يزعم أنه أنزل في أصحابنا قرآن إنما هو قوله وكلامه فأطلع الله

نبيه (صلى الله عليه وسلم) على ذلك .

فقال : احبسوا على الركب فدعاهم .

(16/342)

وقال لهم : " قلتم كذا وكذا " فقالوا إنما كنا نخوض ونلعب ، ومعنى الآية : ولئن سألت يا محمد هؤلاء المنافقين عما كانوا يقولون فيما بينهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب يعني كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعله الركب يقطعون الطريق باللعب والحديث ، وأصل الخوض : الدخول في مائع كالماء مع الطين كثر استعماله حتى صار يستعمل في كل دخول مع تلويث وأذى ﴿ قل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ فيه توبيخ وتقريع للمنافقين وإنكار عليهم والمعنى كيف تقدمون على إيقاع الاستهزاء بالله يعني بفرائض الله وحدوده وأحكامه والمراد بآياته كتابه وبرسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) فيحتمل أن المنافقين لما قالوا كيف يقدر محمد على أخذ حصون الشام .

قال بعض المسلمين : الله يعينه على ذلك فذكر بعض المنافقين كلاماً يشعر بالقدح في قدرة

الله وإنما ذكروا ذلك على طريق الاستهزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(17/342)

وقال أبو حيان :

﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾

أي : ولئن سألتهم عما قالوا من القبيح في حقك وحق أصحابك من قول بعضهم : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام ، وقول بعضهم : كأنكم غداً في الجبال أسرى لبني الأصفر ، وقول بعضهم : ما رأيت كهؤلاء لا أرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاء ، فأطلع الله نبيه على ذلك فعنفهم ، فقالوا : يا نبي الله ما كنا في شيء من أمرك ولا أمر أصحابك ، إنما كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ، كنا في غير جدّ .

قل : أبالله تقرير على استهزائهم ، وضمنه الوعيد ، ولم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم وبأنه موجود منهم ، حتى وبخوا بأخطائهم موضع الاستهزاء ، حيث جعل المستهزأ به على حرف التقرير .

وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته قاله : الزمخشري ، وهو حسن .

وتقديم بالله وهو معمول خبر كان عليها ، يدل على جواز تقديمه عليها .

وعن ابن عمر : رأيت قائل هذه المقالة يعني : إنما كنا نخوض ونلعب وديعة بن ثابت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يماشيها والحجارة تنكته وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبي يقول : " أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ؟ "

وذكر أنّ هذا المتعلق عبد الله بن أبي بن سلول ، وذلك خطأ لأنه لم يشهد تبوك . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(18/342)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾

عما قالوا ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ رُوي أنه عليه الصلاة والسلام كان يسير في غزوة تبوكَ وبين يديه ركبٌ من المنافقين يستهزئون بالقرآن وبالرسول صلى الله عليه وسلم ويقولون : انظُروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتحَ حُصون الشامِ وقصورَها هيهاتَ هيهات . فأطلع الله تعالى نبيه على ذلك فقال : "احبِسوا على الركب" فأتاهم فقال : "قلتم كذا ، وكذا ؟" فقالوا : يا نبيَّ الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابِك ولكن كنا

في شيء مما يخوض فيه الركبُ ليقصُرَ بعضنا على بعض السفر ﴿ قُلْ ﴾ غيرَ ملتفتٍ إلى اعتذارهم ناعياً عليهم جناياتِهم منزِّلاً لهم منزلةَ المعترفِ بوقوع الاستهزاء موبخاً لهم على أخطائهم موقعَ الاستهزاء ﴿ أَبِاللهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ حيث عقب حرف التقرير بالمستهزأ به ولا يستقيم ذلك إلا بعد تحققِ الاستهزاءِ وثبوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(19/342)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ ﴾

عما قالوه ﴿ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه من المنافقين يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه عليه الصلاة والسلام على ذلك فقال : احبسوا على هؤلاء الركب فأتاهم فقال صلى الله عليه وسلم قلتم : كذا وكذا قالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب .

فنزلت " وأخرج ابن جرير .

وابن مردويه .

وغيرهما عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : قال رجل في غزوة تبوك ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنة ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل : كذبت ولكنك منافق لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن ، قال عبد الله : فأنا رأيت الرجل متعلقاً بحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكيه وهو يقول : يا رسول الله إنا كنا نخوض ونلعب ورسول الله عليه الصلاة والسلام يقول ما أمره الله تعالى به في قوله سبحانه : ﴿ قُلْ أبالله وءاياته وَرَسُولِهِ كُنتُمْ ﴾ وجاء في بعض الروايات أن هذا المتعلق عبد الله بن أبي رأس المنافقين وهل أنكروا ما قالوه واعتذروا بهذا العذر الباطل أو لم ينكروه وقالوا ما قالوا فيه خلاف والإمام على الثاني وهو أوفق بظاهر النظم الجليل .

(20/342)

وأصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين ثم كثر حتى صار اسماً لكل دخول فيه تلويث وإذاء وأرادوا إنما نلعب ونتلهى لتقصر مسافة السفر بالحديث والمداعبة كما يفعل

الركب ذلك لقطع الطريق ولم يكن ذلك منا على طريق الجد ، والاستفهام للتوبيخ ، وأولى المتعلق إيذاناً بأن الاستهزاء واقع لا محالة لكن الخطاب في المستهزأ به ، أي قل لهم غير ملتفت إلى اعتذارهم ناعياً عليهم جناياتهم قد استهزأتم بمن لا يصح الاستهزاء به وأخطأتم مواقع فعلكم الشنيع الذي طالما ارتكبتموه ، ومن تأمل علم أن قولهم السابق في سبب النزول متضمن للاستهزاء المذكور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(21/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

الظاهر أنّها معطوفة على جملة : ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ [التوبة : 62] أو على جملة ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [التوبة : 61] ، فيكون المراد بجملة : ﴿ يحلفون بالله لكم ﴾ [التوبة : 62] أنّهم يحلفون إن لم تسألهم .

فالحلف الصادر منهم حلف على الأعمّ من براءتهم من النفاق والطعن ، وجواب السؤال عن أمور خاصّة يُتهمون بها جواب يراد منه أنّ ما صدر منهم ليس من جنس ما يُتّهمون به ،

فإذا سئلوا عن حديث يجري بينهم يستراب منهم أجابوا بأنّه خوض ولعب ، يريدون أنّه استجمام للراحة بين أتعاب السفر لما يحتاجه الكادُّ عملاً شاقّاً من الراحة بالمزح واللعب .

وروي أنّ المقصود من هذه الآية : أنّ ركباً من المنافقين الذين خرجوا في غزوة تبوك نفاقاً ، منهم : وديعةُ بن ثابت العَوْفي ، ومخشي بن حُمَيِّر الأشجعي ، حليف بني سَلِمة ، وقفوا على عَقَبَة في الطريق ينظرون جيش المسلمين فقالوا انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح حصون الشام هيهات هيهات فسألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن مناجاتهم فأجابوا "إنّما كنّا نخوض ونلعب" .

وعندي أنّ هذا لا يتّجه لأنّ صيغة الشرط مستقبلة فالآية نزلت فيما هو أعمّ ، ممّا يسألون عنه في المستقبل ، إخباراً بما سيجيبون ، فهم يسألون عمّا يتحدّثون في مجالسهم ونواديهم ، التي ذكرها الله تعالى في قوله : ﴿ وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ﴾ [البقرة : 14] لأنّهم كانوا كثيري الإنفراد عن مجالس المسلمين .

وحذف متعلّق السؤال لظهوره من قرينة قوله : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ .

والتقدير : ولئن سألتهم عن حديثهم في خلواتهم ، أعلم الله رسوله بذلك وفيه شيء من دلائل النبوءة .

ويجوز أن تكون الآية قد نزلت قبل أن يسألهم الرسول ، وأنّه لمَّا سألهم بعدها أجابوا بما أخبرت به الآية .

والقصر للتعيين : أي ما تحدثْنا إلاّ في خوض ولعب دون ما ظننته بنا من الطعن والأذى .

والخوض : تقدّم في قوله تعالى : ﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا ﴾ في سورة الأنعام (68) .

واللعب تقدّم في قوله : ﴿ وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ﴾ في الأنعام (32) ، ولمّا كان اللعب يشمل الاستهزاء بالغير جاء الجواب عن اعتذارهم بقوله : كنتم تستهزءون ﴾ فلمّا كان اعتذارهم مبهماً ردّ عليهم ذلك إذ أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيبهم جواب الموقن بحالهم بعد أن أعلمه بما سيعتذرون به فقال لهم ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ﴾ ، على نحو قوله تعالى : ﴿ فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة ﴾ [الإسراء : 51] .

والاستفهام إنكاري توبيخي .

وتقديم المعمول وهو ﴿ أبالله ﴾ على فعله العامل فيه لقصد قصر التعيين لأنّهم لما أتوا في اعتذارهم بصيغة قصر تعيين جيء في الردّ عليهم بصيغة قصر تعيين لإبطال مغالطتهم في الجواب ، فاعلمهم بأنّ لعبهم الذي اعترفوا به ما كان إلاّ استهزاء بالله وآياته ورسوله لا بغير

أولئك ، فقصْر الاستهزاء على تعلّقه بمن ذكر اقتضى أنّ الاستهزاء واقع لا محالة لأنّ القصر قيد في الخبر الفعلي ، فيقتضي وقوعَ الفعل ، على ما قرّره عبد القاهر في معنى القصر الواقع في قول القائل : أَنَا سعيتُ في حاجتك وأنّه يؤكّد بنحو : وحدي ، أوْ لا غيري ، وأنّه يقتضي وقوع الفعل فلا يقال : ما أنا قلت هذا ولا غيري ، أي ولا يقال : أنا سعيت في حاجتك وغيري ، وكذلك هنا لا يصحّ أن يفهم أبالله كنتم تستهزِئون أم لَمْ تكونوا مستهزئين .

والاستهزاء بالله وبآياته إلزام لهم : لأنّهم استهزأوا برسوله وبدينه ، فلزمهم الاستهزاء بالذي أرسله بآيات صدقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(23/342)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

وإن سألتهم يا رسول الله : ها تناولتم الإسلام بسوء أو عيب في مجالسكم ، فسوف يقولون : كان هذا قد حدث فهو مجرد خوض ولعب ، وكلام مجالس لا قيمة له .

والخوض أن تُدخِلَ نفسك في سائل ، مثل الذي يخوض في الماء أو يخوض في الطينَ ، وقد

أطلق على كلِّ خوض ، ثم اقتصر على الخوض في الباطل ، أي : أن المسائلة لم تكن جدية بل كانت مجرد تسلية ولعب .

ويقول الله لرسوله : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ أي : إذا قالوا لك : إن هذا حديث تسلية ولعب ؛ فاللعب هو أمر لا فائدة منه إلا قتل الوقت ، أليس عندكم إلا الاستهزاء بآيات الله ورسوله وأحكام الإسلام تقتلون به الوقت ؟ فهل هذه المسائل خوض ولعب ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(24/342)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) ﴾

أخرج أبو نعيم في الحلية عن شريح بن عبيد رضي الله عنه . أن رجلاً قال لأبي الدرداء رضي الله عنه : يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقماً إذا

أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يرد عليه شيئاً ، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك ، فقاله بثوبه وخنقه وقاده إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب . فأوحى الله تعالى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن عمر قال " قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، لا أرغب بطونا ، ولا أكذب ألسنة ، ولا أجبن عند اللقاء . ! فقال رجل في المجلس : كذبت ، ولكنك منافق . لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن ، . قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقاً يحقب ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكيه وهو يقول : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ " .

(25/342)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والعقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب في رواة مالك عن ابن عمر قال " رأيت عبد الله بن أبي وهو يشتد قدام النبي صلى الله عليه

وسلم والأحجار تنكيه ، وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ قال : قال رجل من المنافقين يحدثنا محمد : أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، وما يدريه بالغيب ؟ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في الآية قال : " بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . . . ! فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال نبي صلى الله عليه وسلم " احسبوا عليَّ هؤلاء الركب . فأتاهم فقال : قلتم كذا قلتم كذا . قالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهما ما تسمعون " " .

وأخرج الفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن سعيد بن جبير قال " بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مسيره وأناس من المنافقين يسيرون أمامه ، فقالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً فلنحن أشر من الحمير .

فأنزل الله تعالى ما قالوا ، فأرسل إليهم . ما كنتم تقولون ؟ فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب " .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال " قال محشي بن حمير : لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزل فينا قرآن . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمار بن ياسر " أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا ، فإن هم أنكروا وكتموا فقل بلى قد قلتم كذا وكذا ، فأدركهم فقال لهم . فجاءوا يعتذرون ، فأنزل الله ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم ﴾ الآية . فكان الذي عفا الله عنه محشي بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمقتله . فقتل باليمامة لا يعلم مقتله ، ولا من قتله ، ولا يرى له أثر ولا عين " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف ، فيهم وديعة بن ثابت ورجل من أشجع حليف لهم يقال له محشي بن حمير ، كانوا يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم ؟ والله لكأنا بكم غداً تقادون في الحبال . قال محشي بن حمير : لوددت أني أقاضي . فذكر الحديث مثل الذي قبله .

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود . نحوه .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبي " أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم لما أقبل من غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة رهط استهزأوا بالله وبرسوله وبالقرآن ، قال : كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له يزيد بن وديعة ، فنزلت ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ فسمي طائفة وهو واحد " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ قال : الطائفة الرجل والنفر .

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الطائفة الواحد إلى الألف .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : الطائفة رجل فصاعداً .

(27/342)

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ﴾ يعني أنه إن عفى بعضهم فليس بتارك الآخرين أن يعذبهم ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : كان فيمن تخلف بالمدينة من المنافقين وداعة بن ثابت أحد بني عمرو بن عوف ، فقيل له : ما خلفك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : الخوض واللعب . فأنزل الله فيه وفي أصحابه ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما

كنا نخوض ونلعب ﴾ إلى قوله ﴿ مجرمين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(28/342)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

قوله تعالى : ﴿ أبالله ﴾ : متعلقٌ بقوله : " تستهزئون " و " تستهزئون " خبرُ كان . وفيه دليلٌ على تقديم خبر كان عليها ، لأنَّ تقديمَ المعمول يُؤْذِن بتقديم العامل ، وقد تقدم معمول الخبر على " كان " فَلْيَجُزْ تقديمُه بطريق الأولى . وفيه بحث : وذلك أن ابنَ مالك قَدَحَ في هذا الدليلِ بقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا اليتيم فَلاَ تَقْهَرْ وَأَمَّا السآئل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 9-10] قال : " فاليتيم والسائل قد تَقَدَّما على " لا " الناهية والعاملُ فيهما ما بعدها ، ولا يجوز تقديم ما بعد " لا " الناهية عليها لكونه مجزوماً بها ، فقد تقدَّم المعمولُ حيث لا يتقدَّم العامل . ذكر ذلك عند استدلالهم على جواز تقديم خبر ليس بقوله : ﴿ أَلاَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ ﴾ [هود : 8] .

والاعتذار : التنصُّل مِنَ الذنب وأصله مِنْ تعذَّرت المنازل أي : دُرِسَت وامحى أثرها ، قال ابن أحمر :

2512 قد كنتَ تعرف آياتٍ فقد جعلَتْ . . . أطلالُ إلفِك بالوَعْساء تعتذِرُ

فالمعتذر يزاول محو ذنبه . وقيل : أصله من العَذْر وهو القطع ، ومنه العُذْرة لأنها تُقْطع بالافتراع . قال ابن الأعرابي : " يقولون : اعتذرت [المياه أي : انقطعت ، وكأن المعتذر يحاول] قطع الذمّ عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 80 . 81 ﴾

(29/342)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (65) ﴾

مَنْ استَهانَ بالدّين ، ولم يَحْتَشِمْ مِنْ تَرْكِ حُرْمةِ الإسلام جعله الله في الحال نكالاً ، وسامَه في الآخرة صِغَراً وإذلالاً ، والحقُّ – سبحانه – لا يرضى دون أن يذيق العُتَاةَ بَأْسَه ، ويَسْقِيَ

كُلاًّ - على ما يستوجبه - كأسَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 42 ﴾

(30/342)

قوله تعالى ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما حقق استهزاءهم ، أنتج قوله : ﴿ لا تعتذروا ﴾ أي لا تبالغوا في إثبات العذر ، وهو ما ينفي الملام ، فإن ذلك لا يغنيكم وإن اجتهدتم لأن القطع حاصل بأنكم ﴿ قد كفرتم ﴾ أي بقولكم هذا ، ودل - على أن كفرهم أحبط ما كان لهم من عمل - بنزع الخافض تشديداً على من نكث منهم تخويفاً له وتحقيقاً بحال من أصر فقال : ﴿ بعد إيمانكم ﴾ أي الذي ادعيتموه بألسنتكم صدقاً من بعضكم ونفاقاً من غيره .

(31/342)

ولما كان الحال مقتضياً لبيان ما صاروا إليه بعد إكفارهم من توبتهم أو إصرارهم ، بين أنهم قسمان : أحدهما مطبوع على قلبه ومقضي توبته وحبه ، وهذا الأشرف هو المراد بقوله بانياً للمفعول إعلاماً بأن المقصود الأعظم هو الفعل ، لا بالنظر إلى فاعل معين : ﴿ إن نعف ﴾ لأن كلام الملك وإن جري في مضمار الشرط فهو مرشد إلى تحققه ليحصل الفرق بين كلام الأعلى والأدنى ﴿ عن طائفة منكم ﴾ أي لصلاحيتها للتوبة ﴿ نعذب طائفة ﴾ أي قوم ذوو عدد فيهم أهلية الاستدارة ، وقرأ عاصم ببناء الفعلين للفاعل على العظمة ﴿ بأنهم ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كانوا مجرمين ﴾ أي كسبهم للذنوب القاطعة عن الخير صفة لهم ثابتة لا تنفك ، فهم غير متأهلين للعفو ، وشرح هذه القصة أنه كان يسير بين يدي النبي - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك ثلاثة نفر من المنافقين : اثنان يستهزئان بالقرآن والرسول ، والآخر يضحك ، قيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه يغلب الروم ويفتح مدائنهم ، ما أبعده من ذلك ! وقيل : كانوا يقولون : إن محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين في المدينة قرآن ، وإنما هو قوله وكلامه ، فأطلع الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - على ذلك فقال : احسبوا الركب عليّ ، فدعاهم وقال لهم : قلتم كذا وكذا ؟ فقالوا : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ أي كنا نتحدث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لقطع الطريق بالحديث واللعب ، قال ابن اسحاق : والذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير

الأشجعي ، يقال : هو الذي كان يضحك ، ولا يخوض وكان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع ، فلما نزلت هذه الآية تاب .

قال : اللهم ! لا أزال أسمع آية تقرأ ، تقشعر منها الجلود ، وتجب منها القلوب ، اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك ! لا يقول أحد : أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة ، فما أحد من المسلمين إلا عرف مصرعه غيره ـ رضى الله عنهم ـ .

(32/342)

ولعل إطلاقاً الطائفة عليه تعظيماً له وستراً عليه وتبشيراً بتوبة غيره ، ولعل مخشياً كان مؤمناً ولكن كان إيمانه مزلزلاً فلذا عبر هنا بقوله ﴿ أكفرتم بعد إيمانكم ﴾ والتعبير بذلك أشنع في الذم ولا سيما عند العرب لأنهم يتمادحون بالثبات على أيّ أمر اختاروه ويتذامون بالطيش ، ولعل الجلاس المعنيّ بالقصة الآتية وحده أو مع غيره لم يكن آمن كغيره ممن عني بها ، وما آمن إلا حين تاب ، فلذا عبر هناك بقوله : ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ ؛ قال أبو حيان : قال ابن عمر : " رأيت وديعة بن ثابت متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يماشيها والحجارة تنكته وهو يقول ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ والنبي ـ صلى الله عليه

وسلم.يقول : " أبالله وآياته " - الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 343 .
344 ﴾

(33/342)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

نقل الواحدي عن أهل اللغة في لفظ الاعتذار قولين :

القول الأول : أنه عبارة عن محو الذنب من قولهم : اعتذرت المنازل إذا درست .

يقال : مررت بمنزل معتذر ، والاعتذار هو الدرس وأخذ الاعتذار منه .

لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه .

والقول الثاني : حكى ابن الأعرابي أن الاعتذار هو القطع ، ومنه يقال للقلفة عذرة لأنها تقطع ، وعذرة الجارية سميت عذرة لأنها تعذر أي تقطع ، ويقال اعتذرت المياه إذا

انقطعت ، فالعذر لما كان سبباً لقطع اللوم سمي عذراً ، قال الواحدي : والقولان متقاربان ، لأن محو أثر الذنب وقطع اللوم يتقاربان .

المسألة الثانية :

أنه تعالى بين أن ذلك الاستهزاء كان كفراً ، والعقل يقتضي أن الإقدام على الكفر لأجل اللعب غير جائز ، فثبت أن قولهم ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ ما كان عذراً حقيقياً في الإقدام على ذلك الاستهزاء ، فلما لم يكن ذلك عذراً في نفسه نهاهم الله عن أن يعتذروا به لأن المنع عن الكلام الباطل واجب .

فقال : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾ أي لا تذكروا هذا العذر في دفع هذا الجرم .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانكم ﴾ يدل على أحكام .

الحكم الأول

أن الاستهزاء بالدين كيف كان كفرٌ بالله .

وذلك لأن الاستهزاء يدل على الاستخفاف والعمدة الكبرى في الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان والجمع بينهما محال .

الحكم الثاني

أنه يدل على بطلان قول من يقول ، الكفر لا يدخل إلا في أفعال القلوب .

الحكم الثالث

يدل على أن قولهم الذي صدر منهم كفر في الحقيقة ، وإن كانوا منافقين من قبل وأن الكفر يمكن أن يتجدد من الكافر حالاً فحالاً .

الحكم الرابع

يدل على أن الكفر إنما حدث بعد أن كانوا مؤمنين .

ولقائل أن يقول : القوم لما كانوا منافقين فكيف يصح وصفهم بذلك ؟

(34/342)

قلنا : قال الحسن : المراد كفرتم بعد إيمانكم الذي أظهرتموه ، وقال آخرون : ظهر كفركم للمؤمنين بعد أن كنتم عندهم مسلمين ، والقولان متقاربان .

ثم قال تعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ عاصم ﴿ إِن نُعَذِّبْ ﴾ بالنون وكسر الذال ، وطائفة بالنصب والمعنى أنه تعالى حكى عن نفسه أنه يقول إن يعف عن طائفة يعذب طائفة والباقون بالياء وضمها ، وفتح الفاء على ما لم يسم فاعله ، إن يعف عن طائفة بالتذكير ، وتعذب طائفة بالتأنيث ، وحكى

صاحب "الكشاف" عن مجاهد ، إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث ، ثم قال : والوجه التذكير لأن المسند إليه الظرف كما تقول سير بالدابة ، ولا تقول سيرت بالدابة ، وأما تأويل قراءته فهو أن مجاهداً لعله ذهب إلى أن المعنى كأنه قيل : إن ترحم طائفة فأنت كذلك ، وهو غريب والجيد القراءة العامة إن يعف عن طائفة بالتذكير وتعذب طائفة بالتأنيث .

المسألة الثانية :

(35/342)

ذكر المفسرون ، أن الطائفتين كانوا ثلاثة ، استهزأ اثنان وضحك واحد ، فالطائفة الأولى الضاحك ، والثانية الهازيان ، وقال المفسرون : لما كان ذنب الضاحك أخف لا جرم عفا الله عنه ، وذنب الهازيين أغلظ ، فلا جرم ما عفا الله عنهما ، قال القاضي : هذا بعيد لأنه تعالى حكم على الطائفتين بالكفر ، وأنه تعالى لا يعفو عن الكافر إلا بعد التوبة والرجوع إلى الإسلام ، وأيضاً لا يعذب الكافر إلا بعد إصراره على الكفر ، أما لو تاب عنه ورجع إلى الإسلام فإنه لا يعذبه ، فلما ذكر الله تعالى أنه يعفو عن طائفة ويعذب الأخرى ، كان فيه إضمار أن الطائفة التي أخبر أنه يعفو عنهم تابوا عن الكفر ورجعوا إلى الإسلام ، وأن

الطائفة التي أخبر أنه يعذبهم أصروا على الكفر ولم يرجعوا إلى الإسلام ، ولعل ذلك الواحد لما لم يبالغ في الطعن ولم يوافق القوم في الذكر خف كفره ، ثم إنه تعالى وفقه للإيمان والخروج عن الكفر ، وذلك يدل على أن من خاض في عمل باطل ، فليجتهد في التقليل فإنه يرجى له ببركة ذلك التقليل أن يتوب الله عليه في الكل .

المسألة الثالثة :

قالوا : ثبت بالروايات أن الطائفتين كانوا ثلاثة ، فوجب أن تكون إحدى الطائفتين إنساناً واحداً .

قال الزجاج : والطائفة في اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة ، قال تعالى :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : 2] وأقله الواحد ، وروى الفراء بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الطائفة الواحد فما فوقه ، وفي جواز تسمية الشخص الواحد بالطائفة وجوه : الأول : أن من اختار مذهباً ونصره فإنه لا يزال يكون ذاباً عنه ناصراً له ، فكأنه بقلبه يطوف عليه ويذب عنه من كل الجوانب ، فلا يبعد أن يسمى الواحد طائفة لهذا السبب .

الثاني : قال ابن الأنباري : العرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول : خرج فلان إلى مكة على الجمال ، والله تعالى يقول : ﴿ الذين قَالَ لَهُمُ الناس ﴾ [آل عمران : 173] يعني نعيم بن مسعود .

الثالث : لا يبعد أن تكون الطائفة إذا أريد بها الواحد يكون أصلها طائفاً ، ثم أدخل الهاء عليه للمبالغة ، ثم إنه تعالى علل كونه معذباً للطائفة الثانية بأنهم كانوا مجرمين .

واعلم أن الطائفتين لما اشتركتا في الكفر ، فقد اشتركتا في الجرم ، والتعذيب يختص بإحدى الطائفتين ، وتعليل الحكم الخاص بالعلة العامة لا يجوز ، وأيضاً التعذيب حكم حاصل في الحال وقوله : ﴿ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ يدل على صدور الجرم عنهم في الزمان الماضي ، وتعليل الحكم الحاصل في الحال بالعلة المتقدمة لا يجوز ، بل كان الأولى أن يقال ذلك بأنهم مجرمون .

واعلم أن الجواب عنه أن هذا تنبيه على أن جرم الطائفة الثانية كان أغلظ وأقوى من جرم الطائفة الأولى ، فوقع التعليل بذلك الجرم الغليظ ، وأيضاً ففيه تنبيه على أن ذلك الجرم بقي واستمر ولم يزل ، فأوجب التعذيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 98 ﴿ 100.

(37/342)

وقال الثعلبى :

﴿ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾

بقولكم هذا ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ إقراركم ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾

قراءة العامة بضم الياء والتاء على غير تسمية الفاعل ، وقرأ عاصم : إن نعف بنون مفتوحة وفاء مضمومة ، نعذب بالنون وكسر الذال طائفة بالنصب ، والطائفة في هذه الآية رجل يقال له مخشي بن حمير الأشجعي ، أنكر عليهم بعد ما سمع ولم يمالئهم عليه وجعل يسير مجانباً لهم ، فلمّا نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال : اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ أُعنى بها ، تقشعر منها الجلود وتجل وتجب فيها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك ، لا يقول أحد : أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة فيمن قتل فما أحد من المسلمين الا وجدوه وعرف مصرعه غيره .

وقيل : معناه إن يتب على طائفة منكم فيعفو الله عنهم ليعذب طائفة بترك التوبة ﴿ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(38/342)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا ﴾ الآية

المعنى قل لهم يا محمد لا تعتذروا على جهة التوبيخ كأنه قال لا تفعلوا ما لا ينفع .

ثم حكم عليهم بالكفر فقال لهم ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به ، وقوله ﴿ عن طائفة منكم ﴾ يريد فيما ذكر المفسرون رجلاً واحداً قيل اسمه مخشن بن حفير قاله ابن إسحاق ، وقال ابن هشام ويقال فيه مخشي وقال خليفة بن خياط في تاريخه مخاشن بن حمير وذكر ابن عبد البر مخاشن الحميري وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة وكان قد تاب وتسمى عبد الرحمن ، فدعا الله أن يستشهد ، ويجهل أمره فكان ذلك باليمامة ولم يوجد جسده ، وذكر أيضاً ابن عبد البر محشي بن حمير بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء ولم يتقن القصة ، وكان محشي مع المنافقين الذين قالوا ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ فقيل كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة ، وقيل كن مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم فعفا الله عنه في كلا الوجهين ، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم ، وقرأ جميع السبعة سوى عاصم " إن يعف عن طائفة " بالياء " تعذب " بالتاء ، وقرأ الجحدري " إن يعف " بالياء على تقديره يعذب الله طائفة " بالنصب ، وقرأ عاصم وزيد بن ثابت وأبو عبد الرحمن " إن نعف " بالنون " نعذب " بنون

الجميع أيضاً ، وقرأ مجاهد " إن تعفُ " بالتاء المضمومة على تقدير إن تعف هذه الذنوب " تعذب " بالتاء أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(39/342)

وقال ابن الجوزى :

﴿ إن يُعْفَ عن طائفة منكم ﴾

يعني : الجهير ﴿ نعَذِّبْ طائفة ﴾ يعني : الجَدَّ ووديعة ، هذا قول أبي صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رجلاً من المنافقين قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء ، ولا أرغبَ بطوناً ، ولا أكذبَ ، ولا أجبنَ عند اللقاء ، يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال له عوف بن مالك : كذبت ، لكنك منافق ، لأخبرن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذهب ليخبره ، فوجد القرآن قد سبقه ؛ فجاء ذلك الرجل فقال : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، هذا قول ابن عمر ، وزيد بن أسلم ، والقرظي .

والثالث : أن قوماً من المنافقين كانوا يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن كان ما يقول هذا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير ، فأعلم الله نبيه ما قالوا ، ونزلت : ﴿ ولئن

سألتهم ﴾ قاله سعيد بن جبير .

والرابع : أن رجلاً من المنافقين قال : يحدثنا محمد أن ناقة فلان بوادي كذا وكذا ، وما يُدريه ما الغيب ؟ فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

والخامس : " أن ناساً من المنافقين قالوا : يرجو هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها ، هيهات ؛ فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم : احبسوا علي الرَّكب فأتاهم ، فقال : "قلتم كذا وكذا" فقالوا : إنما كنا نخوض ونلعب " ؛ فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والسادس : أن عبد الله بن أُبيٍّ ، ورهطاً معه ، كانوا يقولون في رسول الله وأصحابه مالا ينبغي ، فإذا بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال الله تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم ﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ﴾ ، قاله الضحاك .

فقوله : ﴿ ولئن سألتهم ﴾ أي : عما كانوا فيه من الاستهزاء ﴿ ليقولُنّ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ أي : نلهو بالحديث .

وقوله : ﴿ قد كفرتم ﴾ أي : قد ظهر كفركم بعد إظهاركم الإيمان ؛ وهذا يدل على أن الجِدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء .

(40/342)

قوله تعالى : ﴿ إن يُعْفَ عن طائفة منكم ﴾ قرأ الأكثرون "إن يُعْفَ" بالياء ، "تُعَذَّبْ" بالتاء .

وقرأ عاصم غير أبان "إن نَعْفُ" "نُعَذِّبْ" بالنون فيهما ونصب "طائفةً" ، والمعنى : إن نعف عن طائفة منكم بالتوفيق للتوبة ، نعذِّب طائفةً بترك التوبة .

وقيل : الطائفتان هاهنا ثلاثة ، فاستهزأ اثنان ، وضحك واحد .

ثم أنكر عليهم بعض ما سمع .

وقد ذكرنا عن ابن عباس أسماء الثلاثة ، وأن الضاحك اسمه الجُهَيْر ، وقال غيره : هو مَخْشِيُّ بن خُمَيْر .

وقال ابن عباس ، ومجاهد : الطائفة : الواحد فما فوقه .

وقال الزجاج : أصل الطائفة في اللغة : الجماعة ؛ ويجوز أن يقال للواحد : طائفة ، يراد به : نفس طائفة .

قال ابن الأنباري : إذا أريد بالطائفة الواحد ، كان أصلها طائفاً ، على مثال : قائم وقاعد ، فتدخل الهاء للمبالغة في الوصف ، كما يقال : رواية ، علاّمة ، نسّابة .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما فُرِغ من تنزيل (براءة) حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾

على جهة التوبيخ ؛ كأنه يقول : لا تفعلوا ما لا ينفع ، ثم حكم عليهم بالكفر وعدم الإعتذار من الذنب .

واعتذر بمعنى أعذر ، أي صار ذا عذر .

قال لَبيد :

وَمَنْ يَبْكِ حَولاً كاملاً فقد اعتذر . . .

والاعتذار : مَحْوُ أثر المَوْجِدة ؛ يُقال : اعتذرتِ المنازلُ دَرَست .

والاعتذار الدُّروس .

قال الشاعر :

أم كنتَ تعرِف ايات فقد جعلتْ . . .

أطلالُ إِلْفِك بالوْدكاءِ تَعتذِرُ

وقال ابن الأعرابيّ : أصله القطع .

واعتذرت إليه قطعت ما في قلبه من المَوْجِدة .

ومنه عُذرة الغلام وهو ما يُقطع منه عند الخِتان .

ومنه عُذرة الجارية لأنه يقطع خاتم عُذرتها .

قوله تعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ قيل : كانوا ثلاثة نفر ؛ هَزِىء اثنان وضحك واحد ؛ فالمعفُّو عنه هو الذي ضحك ولم يتكلم .

والطائفة الجماعة ، ويُقال للواحد على معنى نفس طائفة .

وقال ابن الأنبارِيّ : يطلق لفظ الجمع على الواحد ؛ كقولك : خرج فلان على البغال .

قال : ويجوز أن تكون الطائفة إذا أُريد بها الواحد طائفاً ، والهاء للمبالغة .

واختلف في اسم هذا الرجل الذي عُفِيَ عنه على أقوال .

فقيل : مَخْشِيّ بن حُمَيِّر ؛ قاله ابن إسحاق .

وقال ابن هشام : ويُقال فيه ابن مخشي .

وقال خليفة بن خياط في تاريخه : اسمه مخاشن بن حُمَيِّر .

وذكر ابن عبد البر مخاشن الحميري وذكر السهيلي مخشّن ابن خُميّر .

وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة ، وكان تاب وسُمّي عبد الرّحمن ، فدعا الله أن يُقتل شهيداً ولا يُعلم بقبره .

واختلف هل كان منافقاً أو مسلماً .

فقيل : كان منافقاً ثم تاب توبة نَصُوحاً .

وقيل : كان مسلماً ، إلاَّ أنه سمع المنافقين فضحِك لهم ولم يُنكر عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(42/342)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾

يعني قل لهؤلاء المنافقين لا تعتذروا بالباطل .

ومعنى الاعتذار محو أثر الموجدة من قلب المعتذر إليه .

وقيل : معنى العذر قطع اللائمة على الجاني .

قد كفرتم بعد إيمانكم : يعني الاستهزاء بالله كفر والإقدام عليه يوجب الكفر فلهذا قال سبحانه وتعالى لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم فإن قلت إن المنافقين لم يكونوا مؤمنين فكيف قال قد كفرتم بعد إيمانكم .

قلت : معناه أظهرتهم الكفر بعد ما كنتم قد أظهرتم الإيمان وذلك أن المنافقين كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر قيل لهم قد كفرتم بعد

إيمانكم .

وقيل : معناه قد كفرتم عند المؤمنين بعد أن كنتم عندهم مؤمنين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾

ذكر المفسرون أن الطائفتين كانوا ثلاثة فالواحد طائفة والاثنان طائفة .

والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فلهذا أطلق لفظ الطائفة على الواحد .

قال محمد بن إسحاق : الذي عفى عنه رجل واحد وهو مخشى بن حمير الأشجعي يقال إنه هو الذي كان يضحك ولا يخوض .

وقيل : إنه كان يمشي مجانباً لهم وينكر بعض ما يسمع فكان ذنبه أخف فلما نزلت الآية تاب من نفاقه ورجع إلى الإسلام وقال : اللهم إني لا أزال أسمع آية تقرأ عني بها تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت ، فأصيب يوم اليمامة ولم يعرف أحد من المسلمين مصرعه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(43/342)

وقال أبو حيان :

﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾

نهوا عن الاعتذار ، لأنها اعتذارات كاذبة فهي لا تنفع .

قد كفرتم أظهرتم الكفر بعد إيمانكم أي : بعد إظهار إيمانكم ، لأنهم كانوا يسرُّون الكفر فأظهروه باستهزائهم ، وجاء التقسيم بالعفو عن طائفة ، والتعذيب لطائفة .

وكان المنافقون صنفين : صنف أمر بجهادهم : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ وهم رؤساؤهم المعلنون بالأراجيف ، فعذبوا بإخراجهم من المسجد ، وانكشاف معظم أحوالهم .

وصنف ضعفه مظهرون الإيمان وإن أبطنوا الكفر ، لم يؤذوا الرسول فعفى عنهم ، وهذا العذاب والعفو في الدنيا .

وقيل : المعفو عنها من علم الله أنهم سيخلصون من النفاق ويخلصون الإيمان ، والمعذبون من مات منهم على نفاقه .

وقيل : المعفو عنه رجل واحد اسمه مخشى بن حمير بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء ، كان مع الذين قالوا : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ وقيل : كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة .

وقيل : إنه كان مسلماً مخلصاً ، إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم ، فعفا الله عنه ، واستشهد باليمامة وقد كان تاب ، ويسمى عبد الرحمن ، فدعا الله أن يستشهدوا ويجهل أمره ، فكان ذلك باليمامة ولم يوجد جسده .

وقرأ زيد بن ثابت ، وأبو عبد الرحمن ، وزيد بن علي ، وعاصم من السبعة : إن نعف بالنون ، نعذب بالنون طائفة .

ولقيني شيخنا الأديب الحامل أبو الحكم مالك بن المرحل المالقي بغرناطة فسألني قراءة من تقرأ اليوم على الشيخ أبي جعفر بن الطباغ ؟ فقلت : قراءة عاصم ، فأنشدني :

لعاصم قراءة . . .

لغيرها مخالفة

إن نعف عن طائفة . . .

منكم نعذب طائفة

وقرأ باقي السبعة : إن تعف تعذب طائفة ، مبنياً للمفعول .

وقرأ الجحدري : أن يعف بعذب مبنياً للفاعل فيهما ، أي : أن يعف الله .

وقرأ مجاهد : أن تعف بالتاء مبنياً للمفعول ، تعذب مبنياً للمفعول بالتاء أيضاً .

قال ابن عطية : على تقدير إن تعف هذه الذنوب .

وقال الزمخشري : الوجه التذكير لأنّ المسند إليه الظرف كما تقول : سير بالدابة ، ولا تقول سيرت بالدابة ، ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل : إن ترحم طائفة فأنث لذلك ، وهو غريب .

والجيد قراءة العامة إن تعف عن طائفة بالتذكير ، وتعذب طائفة بالتأنيث انتهى .

مجرمين : مصرين على النفاق غير تائبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(45/342)

وقال أبو السعود :

﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾

لا تشتغلوا بالاعتذار وهو عبارةٌ عن محو أثرِ الذنبِ فإنه معلومُ الكذبِ بيّنُ البطلان ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أظهرتم الكفر بإيذاء الرسولِ صلى الله عليه وسلم والطعن فيه ﴿ بَعْدَ إيمانكم ﴾ بعد إظهارِكم له ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ ﴾ لتوبتهم وإخلاصِهم أو تجنّبهم (عن) الإيذاء والاستهزاءِ ، وقرىء إن يعفُ على إسناد الفعلِ إلى الله سبحانه وقرىء على البناء

للمفعول مسنَداً إلى الظرف بتذكير الفعلِ وبتأنيثه أيضاً ذهاباً إلى المعنى كأنه قيل : إن ترحم طائفةٌ ﴿ نُعَذّبْ ﴾ بنون العظمة وقرىء بالياء على البناء للفاعل وبالتاء على البناء للمفعول مسنداً إلى ما بعده ﴿ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ مصِرّين على الإجرام وهو غيرُ التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين . قال محمد بن إسحاقَ : الذي عُفي عنه رجلٌ واحدٌ هو يحيى بنُ حُمَيّرِ الأشجعيُّ لما نزلت هذه الآيةُ تاب عن نفاقه وقال : اللهم إني لا أزال أسمع آيةً تقشعر منها الجلودُ وتجِبُ منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحدٌ : أنا غسلتُ أنا كفنتُ أنا دفنتُ فأصيب يومَ اليمامة فما أحدٌ من المسلمين إلا عُرِفَ مصرعُه غيرَه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(46/342)

وقال الآلوسى :

﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾

أي لا تشتغلوا بالاعتذار وتستمروا عليه فليس النهي عن أصله لأنه قد وقع ، وإنما نهوا عن ذلك لأن ما يزعمونه معلوم الكذب بين البطلان ، والاعتقدار قيل : إنه عبارة عن محو أثر الذنب من قولهم : اعتذرت المنازل إذا درست لأن المعتذر يحاول إزالة أثر ذنبه

واندراسه .

وقيل هو القطع ومنه يقال للقلفة عذرة لأنها تعذر أي تقطع وللبكارة عذرة لأنها تقطع بالافتراع ، ويقال : اعتذرت المياة إذا انقطعت فالعذر لما كان سبباً لقطع اللوم سمي عذراً ، والقولان منقولان عن أهل اللغة وهما على ما قال الواحدي متقاربان ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أي أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام والطعن فيه ﴿ بَعْدَ إِيمانكم ﴾ أي إظهاركم الإيمان وهذا وما قبله لأنه القوم منافقون فأصل الكفر في باطنهم ولا إيمان في نفس الأمر لهم .

واستدل بعضهم بالآية على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء ولا خلاف بين الأئمة في ذلك ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ ﴾ لتوبتهم وإخلاصهم على أن الخطاب لجميع المنافقين أو لتجنبهم عن الإيذاء والاستهزاء على أن الخطاب للمؤذين والمستهزئين منهم ، والعفو في ذلك عن عقوبة الدنيا العاجلة ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مصرين على النفاق وهم غير التائبين أو مباشرين له وهم غير المجتنبين .

أخرج ابن إسحق .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال من خبر فيه طول : كان الذي عفى عنه محشي بن

حمير الأشجعي فتسمى عبد الرحمن وسأل الله تعالى أن يقتل شهيداً لا يعلم مقتله فقتل يوم اليمامة فلم يعلم مقتله ولا قاتله ولم ير له عين ولا أثر .

(47/342)

وفي بعض الروايات أنه لما نزلت هذه الآية تاب عن نفاقه وقال : اللهم إني لا أزال أسمع آية تقشعر منها الجلود وتجب منها القلوب اللهم اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة واستجيب دعاؤه رضي الله تعالى عنه .

ومن هنا قال مجاهد : إن الطائفة تطلق على الواحد إلا الألف ، وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : الطائفة الواحد والنفر ، وقرىء ﴿ يعف ﴾ و ﴿ لاَّيُعَذّبُ ﴾ بالياء وبناء الفاعل فيهما وهو الله تعالى .

وقرىء ﴿ إن ﴾ و ﴿ أَن تُعَذّبَ ﴾ بالتاء والبناء للمفعول .

واستشكلت هذه القراءة بأن الفعل الأول مسند فيها إلى الجار والمجرور ومثله يلزم تذكيره ولا يجوز تأنيثه إذا كان المجرور مؤنثاً فيقال سير على الدابة ولا يقال سيرت عليها .

(48/342)

وأجيب بأن ذلك من الميل مع المعنى والرعاية له فلذا أنث لتأنيث المجرور إذ معنى ﴿ نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ ﴾ ترحم طائفة وهو من غرائب العربية ، وقيل : لو قيل بالمشاكلة لم يبعد ، وقيل : إن نائب الفاعل ضمير الذنوب والتقدير ان تعف هي أي الذنوب ، ومن الناس من استشكل الشرطية من حيث هي بأنه كيف يصح أن يكون ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ جواباً للشرط السابق ومن شرط الشرط والجزاء الاتصال بطريق السببية أو اللزوم في الجملة وكلاهما مفقود في الجملة ، وقد ذكر ذلك العز بن عبد السلام في أماليه ونقله عنه العلامة ابن حجر في ذيل الفتاوي وذكر أنه لم ير أحداً نبه على الجواب عنه لكنه يعلم من سبب النزول ، وتكلم بعد أن ساق الخبر بما لا يخلو عن غموض ، ولقد ذكرت السؤال وأنا في عنفوان الشباب مع جوابه للعلامة المذكور لدى شيخ من أهل العلم قد حلب الدهر أشطره وطلبت منه حل ذلك فأعرض عن تقرير الجواب الذي في الذيل وأظن أن ذلك لجهله به وشمر الذيل وكشف عن ساق للجواب من تلقاء نفسه فقال : إن الشرطية اتفاقية نحو قولك : إن كان الإنسان ناطقاً فالحمار ناهق وشرع في تقرير ذلك بما تضحك منه الثكلى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

وأجاب مولانا سري الدين : بأن الجزاء محذوف مسبب عن المذكور أي فلا ينبغي أن يفتروا أو فلا يفتروا فلا بد من تعذيب طائفة ، ثم قال : فإن قيل هذا التقدير لا يفيد سببية

مضمون الشرط لمضمون الجزاء .

قلت : يحمل على سببيته للأخبار بمضمون الجزاء أو سببيته للأمر بعدم الاغترار قياساً على الأخبار ، وقد حقق الكلام في ذلك العلامة التفتازاني عند قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ من سورة البقرة في حاشية الكشاف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(49/342)

وقال القاسمى :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [66] .

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ أي : لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ، فالنهي عن الإشتغال به وإدامته إذ أصله وقع ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ أي : أظهرتم الكفر بإيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم والطعن فيه وباستهزائكم بمقالكم ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي : بعد إظهاركم الإيمان .

تنبيه :

قال في " الإكليل " : قال إلكيا : فيه دلالة على أن اللاعب والجادّ في إظهار كلمة الكفر سواء

، وأن الإستهزاء بآيات الله كفر – انتهى – .

قال الرازي : لأن الإستهزاء يدل على الإستخفاف ، والعمدة الكبرى في الإيمان تعظيم الله تعالى بأقصى الإمكان ، والجمع بينهما محال .

وقال الإمام ابن حزم في " الملل " : كل ما فيه كفر بالبارئ تعالى ، واستخفاف به ، أو بنبيّ من أنبيائه ، أو بملك من ملائكته ، أو بآية من آياته عزَّ وجلَّ ، فلا يحلّ سماعه ، ولا النطق به ، ولا يحلّ الجلوس حيث يلفظ به . ثم ساق الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ ﴾ أي : لتوبتهم وإخلاصهم ، أو تجنبهم عن الإيذاء والإستهزاء ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ أي : مصرّين على النفاق ، أو مُقدمين على الإيذاء والإستهزاء .

تنبيه :

(50/342)

روي في صفة استهزاء المنافقين روايات عدة : قال ابن إسحاق : كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت ، أخو بني عَمْرو بن عوف ، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مُخَشَّن بن حُمَيّر ، ويقال مَخْشِيّ ، يشيرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً . والله ! لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين ، فقال مخشن بن حمير : والله ! لوددت أن أقاضى على أن يُضرَبَ كل منا مائة جلدة ، وأنا ننقلب أن ينزل فينا قرآن ، لمقالتكم هذه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني لعمار بن ياسر : < أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ! قلتم : كذا وكذا > . فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت – و رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف على ناقته – : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيهم : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ .

وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ! قعد بي إسمي وإسم أبي ، وكان الذي عُفِيَ عنه في هذه الآية

مخشن ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل بيوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر انتهى .

وقال عِكْرِمَة : ممن إن شاء الله تعالى عفا عنه يقول : اللهم إني أسمع آية أنا أعنى بها ، تقشعر منها الجلود ، وتوجَل منها القلوب ، اللهم فاجعل وفاتي قتيلاً في سبيلك ، لا يقول أحد : أنا

غسلت ، أنا كفنت ، أنا دفنت .

قال : فأصيب يوم اليمامة ، فما من أحد من المسلمين إلا وقد وُجِدَ غيره .

(51/342)

ومما روي في استهزائهم أن رجلاً من المنافقين قال : ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء ، أرغب بطوناً ، ولا أكذب ألسناً ، ولا أجبن عند اللقاء ، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء إلى النبيّ صلوات الله عليه وقد ارتحل وركب ناقته ، فقال : يا رسول الله ! إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال : ﴿ أَبِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَآيَاتِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ الآية ، وهو متعلق بسيف الرسول ، وما يلتفت إليه صلى الله عليه وسلم .

قال الزجاج : الطائفة في اللغة أصلها الجماعة ، لأنها المقدار الذي يمكنها أن تطيف بالشيء ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة . انتهى .

وإيقاع الجمع على الواحد معروف في كلام العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 462.463 ﴾

(52/342)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

هَذِهِ الْآيَاتُ فِي بَيَانِ شَأْنٍ آخَرَ مِنْ شُئُونِ الْمُنَافِقِينَ الَّتِي كَشَفَتْ سَوْأَتَهُمْ فِيهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قَالَ : يَقُولُونَ الْقَوْلَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَقُولُونَ عَسَى أَلَّا يُفْشَى عَلَيْنَا هَذَا . وَأَخْرَجُوا إِلَّا الْأَوَّلَ مِنْهُمْ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : كَانَتْ هَذِهِ السُّورَةُ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ فَاضِحَةَ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهَا : الْمُنْبِئَةُ أَنْبَأَتْ بِمَثَالِبِهِمْ وَعَوْرَاتِهِمْ .

(53/342)

الْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّ جُمْلَةَ (يَحْذَرُ) خَبَرٌ عَلَى ظَاهِرِهَا . وَعَنِ الزَّجَّاجِ أَنَّهَا إِنْشَائِيَّةٌ فِي الْمَعْنَى أَيْ لِيَحْذَرُوا ذَلِكَ . وَهُوَ ضَعِيفٌ ، فَالْحَذَرُ كَالتَّعَبِ : الِاحْتِرَازُ وَالتَّحَفُّظُ مِمَّا يُخْشَى وَيُخَافُ مِنْهُ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ مُفْرَدَاتِ الرَّاغِبِ وَأَسَاسِ الْبَلَاغَةِ (فِي مَادَّتَيْ حَ ذَ رَ ، وَحَ رَ زَ) وَيُسْتَعْمَلُ فِي الْخَوْفِ الَّذِي هُوَ سَبَبُهُ ، وَقَدِ اسْتَشْكَلَ هَذَا الْحَذَرُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ

بِالْوَحْيِ ، وَأَجَابَ أَبُو مُسْلِمٍ عَنْ هَذَا الْإِشْكَالِ بِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْحَذَرَ اسْتِهْزَاءً ، وَأَجَابَ الْجُمْهُورُ بِمَا حَاصِلُهُ أَنَّ أَكْثَرَ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا شَاكِّينَ مُرْتَابِينَ فِي الْوَحْيِ وَرِسَالَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَكُونُوا مُوقِنِينَ بِشَيْءٍ مِنَ الْإِيمَانِ وَلَا مِنَ الْكُفْرِ ، فَهُمْ مُذَبْذَبُونَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُوقِنِينَ وَالْكَافِرِينَ الْجَازِمِينَ بِالْكُفْرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ شَكُّهُ قَوِيًّا ، وَمَنْ كَانَ شَكُّهُ ضَعِيفًا . وَتَقَدَّمَ شَرْحُ حَالِهِمْ وَبَيَانُ أَصْنَافِهِمْ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُ وَمَا فِيهِ مِنْ بَلَاغَةِ الْمَثَلَيْنِ اللَّذَيْنِ ضَرَبَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُمْ . وَهَذَا الْحَذَرُ وَالْإِشْفَاقُ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِلشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ ، فَلَوْ كَانُوا مُوقِنِينَ بِتَكْذِيبِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَا خَطَرَ لَهُمْ هَذَا الْخَوْفُ عَلَى بَالٍ . وَلَوْ كَانُوا مُوقِنِينَ بِتَصْدِيقِهِ لَمَا كَانَ هُنَاكَ مَحَلٌّ لِهَذَا الْخَوْفِ وَالْحَذَرِ ؛ لِأَنَّ قُلُوبَهُمْ مُطْمَئِنَّةٌ بِالْإِيمَانِ .

(54/342)

وَاخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ فِي ضَمِيرِ (عَلَيْهِمْ) قَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ لِلْمُنَافِقِينَ الْمَذْكُورِينَ ، وَالْمُرَادُ بِنُزُولِهِ عَلَيْهِمْ نُزُولُهُ فِي شَأْنِهِمْ ، وَبَيَانُ كُنْهِ حَالِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ

(2 : 102) أَيْ : فِي شَأْنِ مُلْكِهِ . وَيُقَالُ : كَانَ كَذَا عَلَى عَهْدِ الْخُلَفَاءِ أَيْ : فِي عَهْدِهِمْ

وَزَمَنِهِمْ . وَالْمُرَادُ بِإِنْبَائِهِمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ لَازِمَهُ ، وَهُوَ فَضِيحَتُهُمْ وَكَشْفُ عُوَارِهِمْ وَإِنْذَارُهُمْ مَا قَدْ يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنْ عِقَابِهِمْ ، وَقَالَ آخَرُونَ : هُوَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، أَيْ : يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ أَيْ قُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ الْحَذِرِينَ مِنَ الشَّكِّ وَالِارْتِيَابِ وَتَرَبُّصِ الدَّوَائِرِ بِهِمْ أَيْ بِالْمُؤْمِنِينَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يُسِرُّونَهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَالْأَضْغَانِ الَّتِي يُخْفُونَهَا فِي قُلُوبِهِمْ . قِيلَ : فِيهِ تَفْكِيكٌ لِلضَّمَائِرِ وَأُجِيبَ بِأَنَّ تَفْكِيكَ الضَّمَائِرِ غَيْرُ مَمْنُوعٍ ، وَلَا يُنَافِي الْبَلَاغَةَ إِلَّا إِذَا كَانَ الْمَعْنَى بِهِ غَيْرَ مَفْهُومٍ .

(55/342)

وَلَنَا فِي هَذَا الْمَقَامِ بَحْثَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا تَفْكِيكٌ لِلضَّمَائِرِ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ سَبَقَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَحْلِفُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيُرْضُوهُمْ ، وَقَدْ وَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى اهْتِمَامِهِمْ بِإِرْضَاءِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ إِرْضَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَهُمَا أَحَقُّ بِالْإِرْضَاءِ ، وَأَوْعَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّهُ مُحَادَّةٌ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ يَسْتَحِقُّونَ بِهَا الْخُلُودَ فِي النَّارِ ثُمَّ بَيَّنَ بِطَرِيقَةِ الِاسْتِئْنَافِ سَبَبَ حَلِفِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَاهْتِمَامِهِمْ بِإِرْضَائِهِمْ بِأَنَّهُمْ يَحْذَرُونَ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، فَتُبْطِلُ ثِقَتَهُمْ بِهِمْ ، فَأُعِيدَ الضَّمِيرُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ؛ لِأَنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ فِيهِمْ .

(وَالْبَحْثُ الْآخَرُ) أَنَّ إِنْزَالَ الْوَحْيِ يُعَدَّى بِـ "إِلَى" وَبِـ "عَلَى" إِلَى الرَّسُولِ الَّذِي يَتَلَقَّاهُ عَنِ اللهِ تَعَالَى - وَيُعَدَّى بِهِمَا إِلَى قَوْمِهِ الْمُنَزَّلِ لِيُتْلَى عَلَيْهِمْ لِأَجْلِ هِدَايَتِهِمْ ، وَكِلَا الِاسْتِعْمَالَيْنِ مُكَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ ، قَالَ تَعَالَى : قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا (2 : 136) إِلَخْ . وَقَالَ : قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا (3 : 84) إِلَخْ . وَقَالَ : اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ (7 : 3) وَقَالَ : وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ (2 : 231) وَقَالَ : لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (21 : 10) ؟ .

(56/342)

قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ اسْتَدَلَّ أَبُو مُسْلِمٍ الْأَصْفَهَانِيُّ بِهَذَا الْجَوَابِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ أَظْهَرُوا الْحَذَرَ مِمَّا ذُكِرَ اسْتِهْزَاءً ، وَلَمْ يَكُونُوا يَحْذَرُونَ ذَلِكَ بِالْفِعْلِ ؛ لِعَدَمِ إِيمَانِهِمْ ، وَيَرُدُّهُ إِسْنَادُ الْحَذَرِ إِلَيْهِمْ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ وَآخِرِهَا ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَذُكِرَ ذَلِكَ عَنْهُمْ بِالْحِكَايَةِ فَأَسْنَدَ الْحَذَرَ إِلَى قَوْلِهِمْ ، وَلَمْ يُسْنِدْهُ إِلَيْهِمْ ، كَمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِمْ كَثِيرًا مِنَ الْأَقْوَالِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَغَيْرِهَا ،

وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (2 : 14) وَيُؤَيِّدُ وُقُوعَ الْحَذَرِ مِنْهُمْ قَوْلُهُ

تَعَالَى فِي السُّورَةِ الْمُضَافَةِ إِلَى اسْمِهِمْ : يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ (63 : 4) وَفِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ بَيَانٌ لِضَرْبٍ آخَرَ مِنِ اسْتِهْزَائِهِمْ فِي

(57/342)

هَذَا الْمَقَامِ مِنْ سِيَاقِ غَزْوَةِ تَبُوكَ . فَالِاسْتِهْزَاءُ دَأْبُهُمْ وَدَيْدَنُهُمْ ، وَحَذَرُهُمْ مِنْ تَنْزِيلِ السُّورَةِ لَيْسَ مِنْ هَذَا الِاسْتِهْزَاءِ ، بَلْ مِنْ خَوْفِ عَاقِبَتِهِ ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ أَمْرِهِمُ اسْتِمْرَارُهُمْ عَلَيْهِ مَعَ هَذَا الْحَذَرِ ، وَأَمَّا أَمْرُهُمْ بِهِ فَهُوَ لِلتَّهْدِيدِ وَالْوَعِيدِ عَلَيْهِ ، وَبَيَانِ كَوْنِهِ سَبَبًا لِإِخْرَاجِهِ تَعَالَى مَا يَحْذَرُونَ ظُهُورَهُ مِنْ مُخَبَّآتِ سَرَائِرِهِمْ ، وَمَكْتُوبَاتِ ضَمَائِرِهِمْ ، وَالْأَصْلُ فِي الْإِخْرَاجِ أَنْ يَكُونَ لِلشَّيْءِ الْخَفِيِّ الْمُسْتَتِرِ ، أَوِ الْمُتَمَكِّنِ الْمُسْتَقِرِّ . وَمِنَ الْأَوَّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ : أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (47 : 29) وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ : وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ (47 : 37) وَمِنْهُ إِخْرَاجُ الْمَوْتَى بِالْبَعْثِ . وَإِخْرَاجُ الْحَبِّ وَالنَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ ، وَمِثْلُهُ فِي التَّنْزِيلِ كَثِيرٌ . وَمِنَ الثَّانِي النَّفْيُ مِنَ الْأَوْطَانِ وَالدِّيَارِ وَفِيهِ آيَاتٌ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ (22 : 40) الْآيَةَ . فَقَوْلُهُ تَعَالَى : مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مُخْرِجُهُ الْآنَ بِتَنْزِيلِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي لَمْ تَدَعْ فِي قُلُوبِهِمْ شَيْئًا مِنْ مُخَبَّآتِ نِفَاقِهِمْ إِلَّا أَخْرَجَتْهُ وَأَظْهَرَتْهُ لَهُمْ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

(58/342)

قَالَ تَعَالَى : وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ رُوِيَ فِيمَنْ نَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ نَذْكُرُ أَمْثَلَهَا : أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ قَتَادَةَ فِي الْآيَةِ قَالَ : بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَتِهِ إِلَى تَبُوكَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ أُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَقَالُوا : أَيَرْجُو هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ قُصُورُ الشَّامِ وَحُصُونُهَا ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ، فَأَطْلَعَ اللَّهُ نَبِيَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " احْبِسُوا عَلَيَّ هَؤُلَاءِ الرَّكْبَ " فَأَتَاهُمْ فَقَالَ : قُلْتُمْ كَذَا ، قُلْتُمْ كَذَا . قَالُوا : يَا نَبِيَّ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ مَا تَسْمَعُونَ . وَأَخْرَجَ الْفِرْيَابِيُّ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ : بَيْنَمَا النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَسِيرِهِ

(59/342)

وَأُنَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَسِيرُونَ أَمَامَهُ فَقَالُوا : إِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى مَا قَالُوا ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِمْ : مَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ ؟ فَقَالُوا : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَثَعْلَبُ . وَأَخْرَجَ ابْنُ إِسْحَاقَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيْرٍ : لَوَدِدْتُ أَنِّي أُقَاضِي عَلَى أَنْ يُضْرَبَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ مِائَةً عَلَى أَنْ نَنْجُوَ مِنْ أَنْ يَنْزِلَ فِينَا قُرْآنٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ : " أَدْرِكِ الْقَوْمَ فَإِنَّهُمْ قَدِ احْتَرَقُوا فَسَلْهُمْ عَمَّا قَالُوا ، فَإِنْ هُمْ أَنْكَرُوا وَكَتَمُوا فَقُلْ : بَلَى قَدْ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا " فَأَدْرَكَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ فَجَاءُوا يَعْتَذِرُونَ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ الْآيَةَ . فَكَانَ الَّذِي عَفَا اللَّهُ عَنْهُ مَخْشِيَّ بْنَ حُمَيْرٍ فَتَسَمَّى عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَسَأَلَ اللَّهَ أَنْ يُقْتَلَ شَهِيدًا لَا يُعْلَمُ بِمَقْتَلِهِ ، فَقُتِلَ بِالْيَمَامَةِ لَا يُعْلَمُ مَقْتَلُهُ وَلَا مَنْ قَتَلَهُ وَلَا يُرَى لَهُ أَثَرٌ وَلَا عَيْنٌ . وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي رَهْطٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ فِيهِمْ وَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ وَرَجُلٌ مِنْ أَشْجَعَ حَلِيفٌ لَهُمْ يُقَالُ لَهُ مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيْرٍ ، كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ مُنْطَلِقٌ إِلَى تَبُوكَ فَقَالَ

(60/342)

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : أَتَحْسَبُونَ قِتَالَ بَنِي الْأَصْفَرِ كَقِتَالِ غَيْرِهِمْ ، وَاللَّهِ لَكَأَنَّا بِكُمْ غَدًا تُقَادُونَ فِي الْحِبَالِ ، قَالَ مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيْرٍ : مَا وَدِدْتُ أَنِّي أُقَاضِي ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ مِثْلَ الَّذِي قَبْلَهُ

، وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ نَحْوَهُ .

وَالْمَعْنَى : أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى نَبَّأَ رَسُولَهُ بِمَا كَانَ يَقُولُهُ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ فِي أَثْنَاءِ السَّيْرِ إِلَى تَبُوكَ ، مِنَ الِاسْتِهْزَاءِ بِتَصَدِّيهِ لِقِتَالِ الرُّومِ الَّذِينَ مَلَأَ صِيتُهُمْ بِلَادَ الْعَرَبِ ، بِمَا كَانَ تُجَّارُهُمْ يَرْوُونَ مِنْ عَظَمَةِ مُلْكِهِمْ فِي الشَّامِ ؛ إِذْ كَانُوا يَرْحَلُونَ إِلَيْهَا فِي كُلِّ صَيْفٍ . نَبَّأَهُ نَبَأً مُؤَكَّدًا بِصِيغَةِ الْقَسَمِ أَنَّهُ إِنْ سَأَلَهُمْ عَنْ أَقْوَالِهِمْ هَذِهِ يَعْتَذِرُونَ عَنْهَا بِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا فِيهَا جَادِّينَ وَلَا مُنْكِرِينَ ، بَلْ هَازِلِينَ لَاعِبِينَ ، كَمَا هُوَ شَأْنُ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَلِفَةِ لِلتَّسَلِّي وَالتَّلَهِّي ، وَكَانُوا يَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا عُذْرٌ مَقْبُولٌ ؛ لِجَهْلِهِمْ أَنَّ اتِّخَاذَ أُمُورِ الدِّينِ لَعِبًا وَلَهْوًا ، لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنِ اتَّخَذَهُ هُزُوًا ، وَهُوَ كُفْرٌ

(61/342)

مَحْضٌ ، وَيَغْفُلُ عَنْ هَذَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ يَخُوضُونَ فِي الْقُرْآنِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ . كَمَا يَفْعَلُونَ إِذْ يَخُوضُونَ فِي أَبَاطِيلِهِمْ وَأُمُورِ دُنْيَاهُمْ ، وَفِي الرِّجَالِ الَّذِينَ يَتَفَكَّهُونَ بِالتَّنَادُرِ عَلَيْهِمْ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِهِمْ وَإِنَّمَا يُسْتَعْمَلُ " الْخَوْضُ " فِيمَا كَانَ بِالْبَاطِلِ ؛ لِأَنَّهُ مَأْخُوذٌ مِنَ الْخَوْضِ فِي الْبَحْرِ أَوْ فِي الْوَحْلِ ، فَيُرَادُ بِهِ الْإِكْثَارُ ، وَالتَّعَرُّضُ لِتَقَحُّمِ الْأَخْطَارِ ، قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الزُّخْرُفِ آيَةَ رَقَمِ (83) وَالْمَعَارِجِ آيَةَ رَقَمِ (42) فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا

يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ وَقَالَ فِي سُورَةِ الطُّورِ : فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (52 : 11 و12) وَقَالَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ : وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (4 : 140) وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْخِطَابَ فِيهَا لِكُلِّ مَنْ يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ مِنْ مُؤْمِنٍ وَمُنَافِقٍ ، وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِي عُمُومِهَا الْمُبْتَدِعُونَ الْمُحْدِثُونَ فِي الدِّينِ ، وَالَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي الدَّاعِينَ إلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَيَسْتَهْزِئُونَ بِهِمْ لِاعْتِصَامِهِمْ بِهِمَا وَإِيثَارِهِمْ إيَّاهُمَا عَلَى الْمَذَاهِبِ الْمُقَلَّدَةِ [رَاجِعْ ص377 ج5 ط الْهَيْئَةِ] .

(62/342)

وَبَعْدَ أَنْ نَبَّأَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِمَا يَعْتَذِرُونَ بِهِ لَقَّنَهُ مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ وَالْمَعْنَى أَنَّ الْخَوْضَ وَاللَّعِبَ إذَا كَانَ مَوْضُوعُهُ صِفَاتِ اللَّهِ وَأَفْعَالَهُ وَشَرْعَهُ وَآيَاتِهِ الْمُنَزَّلَةَ وَأَفْعَالَ رَسُولِهِ وَأَخْلَاقَهُ وَسِيرَتَهُ كَانَ ذَلِكَ اسْتِهْزَاءً بِهَا ؛ لِأَنَّ الِاسْتِهْزَاءَ بِالشَّيْءِ عِبَارَةٌ عَنِ الِاسْتِخْفَافِ بِهِ ، وَكُلُّ مَا يُلْعَبُ بِهِ فَهُوَ مُسْتَخَفٌّ بِهِ ، وَقَدْ حَرَّرْنَا مَعْنَى اللَّفْظِ فِي تَفْسِيرِ مَا أَسْنَدَهُ تَعَالَى إلَى الْمُنَافِقِينَ مِنْ قَوْلِهِمْ لِشَيَاطِينِهِمْ :

إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (2 : 14) أَيْ بِقَوْلِنَا لِلْمُؤْمِنِينَ آمَنَّا ، كَمَا أَنَّ مَنْ يَحْتَرِمُ شَيْئًا أَوْ شَخْصًا أَوْ يُعَظِّمُهُ ، فَإِنَّهُ لَا يَجْعَلُهُ مَوْضُوعَ الْخَوْضِ وَاللَّعِبَ ، وَتَقْدِيمُ مَعْمُولِ فِعْلِ الِاسْتِهْزَاءِ عَلَيْهِ يُفِيدُ الْقَصْرَ وَالِاسْتِفْهَامُ عَنْهُ لِلْإِنْكَارِ التَّوْبِيخِيِّ ، وَالْمَعْنَى : أَلَمْ تَجِدُوا مَا تَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فِي خَوْضِكُمْ وَلَعِبِكُمْ إِلَّا اللهَ وَآيَاتِهِ

(63/342)

وَرَسُولَهُ فَقَصَرْتُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِمَا ، فَهَلْ ضَاقَتْ عَلَيْكُمْ جَمِيعُ مَذَاهِبِ الْكَلَامِ تَخُوضُونَ فِيهَا وَتَعْبَثُونَ دُونَهُمَا ، ثُمَّ تَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا عُذْرٌ مَقْبُولٌ ، فَتُدْلُونَ بِهِ بِلَا خَوْفٍ وَلَا حَيَاءٍ ؟ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ أَيْ : قَدْ كَفَرْتُمْ بِهَذَا الْخَوْضِ وَاللَّعِبِ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، فَاعْتِذَارُكُمْ إِقْرَارٌ بِذَنْبِكُمْ ، وَإِنَّمَا الِاعْتِذَارُ الْإِدْلَاءُ بِالْعُذْرِ ، وَهُوَ بِالضَّمِّ مَا يُرَادُ بِهِ مَحْوُ الذَّنْبِ ، وَتَرْكُ الْمُؤَاخَذَةِ عَلَيْهِ ، وَأَنْتُمْ قَدْ جِئْتُمْ بِمَا يُثْبِتُ الذَّنْبَ وَيَقْتَضِي الْعِقَابَ ، أَوْ هُوَ كَمَا قِيلَ : " عُذْرٌ أَقْبَحُ مِنَ الذَّنْبِ " يُقَالُ : اعْتَذَرَ إِلَيَّ عَنْ ذَنْبِهِ فَعَذَرْتُهُ (مِنْ بَابِ ضَرَبَ) أَيْ : قَبِلْتُ عُذْرَهُ ، وَرَفَعْتُ اللَّوْمَ عَنْهُ ، وَهُوَ عَلَى الرَّاجِحِ الْمُخْتَارِ مَأْخُوذٌ مِنْ عَذَرَ الصَّبِيَّ يَعْذُرُهُ - أَيْ خَتَنَهُ ، فَعَذْرُهُ - تَطْهِيرُهُ بِالْخِتَانِ ، إِذْ هُوَ قَطْعٌ لِعَذْرَتِهِ أَيْ قُلْفَتِهِ الَّتِي تُمْسِكُ النَّجَاسَةَ .

(فَإِنْ قِيلَ) ظَاهِرُ هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ فَكَفَرُوا بِهَذَا الِاسْتِهْزَاءِ الَّذِي سَمَّوْهُ خَوْضًا وَلَعِبًا ، وَظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ الْكُفْرَ الَّذِي يُسِرُّونَهُ ، هُوَ سَبَبُ الِاسْتِهْزَاءِ الَّذِي يُعْلِنُونَهُ . (قُلْنَا) كِلَاهُمَا حَقٌّ ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا وَجْهٌ فَالْأَوَّلُ : بَيَانٌ لِحُكْمِ الشَّرْعِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ حُكْمًا ، فَإِنَّهُمُ ادَّعَوُا الْإِيمَانَ ، فَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ ، وَهِيَ إِنَّمَا تُبْنَى عَلَى الظَّوَاهِرِ ، وَالِاسْتِهْزَاءُ بِمَا ذُكِرَ عَمَلٌ ظَاهِرٌ يَقْطَعُ الْإِسْلَامَ وَيَقْتَضِي الْكُفْرَ ، فَبِهِ صَارُوا كَافِرِينَ حُكْمًا ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ حُكْمًا .

وَالثَّانِي : وَهُوَ مَا دَلَّ عَلَيْهِ السِّيَاقُ هُوَ الْوَاقِعُ بِالْفِعْلِ ، وَالْآيَةُ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْخَوْضَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَفِي رَسُولِهِ ، وَفِي صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَوَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ ، وَجَعْلَهَا مَوْضُوعًا لِلَّعِبِ وَالْهُزُؤِ ، كُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ الْحَقِيقِيِّ الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَتُجْرَى عَلَيْهِ بِهِ أَحْكَامُ الرِّدَّةِ ، إِلَّا أَنْ يَتُوبَ وَيُجَدِّدَ إِسْلَامَهُ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى : إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ الطَّائِفَةُ مُؤَنَّثُ الطَّائِفِ ، مِنَ الطَّوْفِ أَوِ الطَّوَافِ حَوْلَ الشَّيْءِ ، وَالطَّائِفَةُ مِنَ النَّاسِ الْجَمَاعَةُ مِنْهُمْ ، وَمِنَ الشَّيْءِ الْقِطْعَةُ مِنْهُ ، يُقَالُ : ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنَ اللَّيْلِ ، وَمِنَ الْعُمُرِ . وَأَعْطَاهُ طَائِفَةً مِنْ مَالِهِ ، وَإِذَا أُرِيدَ بِالطَّائِفَةِ الْجَمَاعَةُ كَانَ أَقَلُّهَا ثَلَاثَةً عَلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ فِي الْجَمْعِ . وَالْخِطَابُ هُنَا لِلْمُعْتَذِرِينَ أَوْ لِجُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ ، فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَقُولَهُ لَهُمْ

(66/342)

كَالَّذِي قَبْلَهُ ، فَالْمُرَادُ بِالْعَفْوِ وَالتَّعْذِيبِ مَا يَفْعَلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَدِينَةِ ، وَإِلَّا كَانَ الْمُرَادُ مَا سَيَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، وَالْمَعْنَى : إِنَّا إِنْ نَعْفُ عَنْ بَعْضِكُمْ بِتَلَبُّسِهِمْ بِمَا يَقْتَضِي الْعَفْوَ ، وَهُوَ التَّوْبَةُ وَالْإِنَابَةُ (وَمِنْهُمْ مَخْشِيُّ بْنُ حُمَيِّرٍ) نُعَذِّبْ بَعْضًا آخَرَ بِاتِّصَافِهِمْ بِالْإِجْرَامِ وَرُسُوخِهِمْ فِيهِ ، وَعَدَمِ تَحَوُّلِهِمْ عَنْهُ ، أَيْ : بِالْإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْجَرَائِمِ الظَّاهِرَةِ ، وَهَذَا التَّقْسِيمُ عَقْلِيٌّ إِذْ لَا يَخْلُو حَالُهُمْ مِنَ التَّوْبَةِ أَوِ الْإِصْرَارِ ، فَمَنْ تَابَ مِنْ كُفْرِهِ وَنِفَاقِهِ عُفِيَ عَنْهُ ، وَمَنْ أَصَرَّ عَلَيْهِ وَأَظْهَرَهُ عُوقِبَ بِهِ ، فَإِنْ كَانَ الْوَعِيدُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَمَعْنَاهُ هَذَا مَا سَنُنْفِذُ حُكْمَ الشَّرْعِ عَلَيْكُمْ بِهِ عِنْدَ الرُّجُوعِ مِنْ دَارِ الْحَرْبِ إِلَى

دَارِ الْإِسْلَامِ ؛ لِأَنَّ دَارَ الْحَرْبِ لَا تُقَامُ فِيهَا الْحُدُودُ وَأَمْثَالُهَا مِنَ الْأَحْكَامِ ، وَالْمُخْتَارُ عِنْدَنَا أَنَّهُ مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ عَفْوُ اللهِ وَتَعْذِيبُهُ فِي الْآخِرَةِ . وَقَالَ الضَّحَّاكُ : يَعْنِي أَنَّهُ إِنْ عَفَا عَنْ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَلَيْسَ بِتَارِكِ الْآخَرِينَ .

(67/342)

(فَإِنْ قِيلَ) إِنَّهُ بَيَّنَ سَبَبَ التَّعْذِيبِ وَهُوَ الْإِصْرَارُ عَلَى الْإِجْرَامِ ، وَلَمْ يُبَيِّنْ سَبَبًا لِلْعَفْوِ ، أَفَلَيْسَ هَذَا دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ لِمَحْضِ الْفَضْلِ ؟ (قُلْنَا) إِنَّ مَا بَيَّنَهُ يَدُلُّ عَلَى مَا لَمْ يُبَيِّنْهُ ، فَإِنَّهُ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ، دَلَّ عَلَى أَنَّهُمُ اسْتَحَقُّوا الْعَذَابَ بِكُفْرِهِمْ . فَبَيَانُهُ بَعْدَ هَذَا لِسَبَبِ تَعْذِيبِ بَعْضِهِمْ دَالٌّ عَلَى أَنَّ التَّعْذِيبَ يَنْتَفِي بِانْتِفَاءِ هَذَا السَّبَبِ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِتَرْكِ النِّفَاقِ وَإِجْرَامِهِ وَالتَّوْبَةِ مِنْهُمَا ، وَالْأَدِلَّةُ الْعَامَّةُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْوَعِيدَ عَلَى الْكُفْرِ لَا بُدَّ مِنْ نُفُوذِهِ عَلَى مَنْ لَمْ يَتُبْ مِنْهُ ، وَأَنَّ الْوَعِيدَ عَلَى الذُّنُوبِ بَعْضُهُ يُنَفَّذُ وَبَعْضُهُ يُدْرِكُهُ الْعَفْوُ .

وَأَمَّا عَدَدُ مَنْ يَتُوبُ وَيُعْفَى عَنْهُ ، وَعَدَدُ مَنْ يُصِرُّ وَيُعَاقَبُ بِالْفِعْلِ مِنْ كُلٍّ مِنَ الطَّائِفَتَيْنِ ، فَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ وَاحِدًا أَوِ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ ، فَإِنْ كَانَ وَاحِدًا فَلَا يُسَمَّى طَائِفَةً ، وَإِنَّمَا يَكُونُ وَاحِدًا مِنَ الطَّائِفَةِ مُمَثِّلًا لَهَا ، وَرُوِيَ عَنِ الْكَلْبِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا أَقْبَلَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ اسْتَهْزَئُوا بِاللهِ

وَبِرَسُولِهِ وَبِالْقُرْآنِ ، قَالَ : وَكَانَ رَجُلٌ مِنْهُمْ لَمْ يُمَالِئْهُمْ فِي الْحَدِيثِ يَسِيرُ مُجَانِبًا لَهُمْ يُقَالُ لَهُ يَزِيدُ بْنُ وَدِيعَةَ ، فَنَزَلَتْ : إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً فَسُمِّيَ طَائِفَةً وَهُوَ وَاحِدٌ اهـ . وَبِنَاءً عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ قَالَ مَنْ قَالَ : إِنَّ الطَّائِفَةَ مِنَ الْوَاحِدِ إِلَى الْأَلْفِ ، وَرُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ – وَمَنْ زَعَمَ – أَنَّهَا تُطْلَقُ عَلَى الرَّجُلِ وَالنَّفَرِ . وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَهُوَ غَلَطٌ ، وَالرِّوَايَةُ الْمَذْكُورَةُ عَنِ الْكَلْبِيِّ لَا تَقْتَضِيهِ ، وَهِيَ لَا تَصِحُّ سَنَدًا فَالْكَلْبِيُّ مَتْرُوكٌ ، وَلَا مَعْنَى لَهَا فَإِنَّ الَّذِي كَانَ يَسِيرُ مُجَانِبًا لَا يَتَنَاوَلُهُ وَعِيدُهُمْ ، وَلَكِنَّ الْمُتَعَلِّقِينَ بِالرِّوَايَاتِ يُحَكِّمُونَهَا فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ ، أَفَلَا يُحَكِّمُونَهَا فِي اللُّغَةِ أَيْضًا فَيَقُولُونَ : إِنَّ الْوَاحِدَ يُسَمَّى طَائِفَةً ؟ وَقَدْ حَافَظَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى اللُّغَةِ فِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَقَالُوا : إِنَّ التَّاءَ فِي طَائِفَةٍ لِلْمُبَالَغَةِ ، كَرَاوِيَةٍ لِكَثِيرٍ مِنَ الرِّوَايَةِ ، وَهُوَ غَيْرُ ظَاهِرٍ هُنَا

وَإِنَّمَا الظَّاهِرُ مَا شَرَحْنَاهُ ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ أَكْثَرَ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ قَدْ تَابُوا وَاهْتَدَوْا بَعْدَ نُزُولِ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي نَبَّأَتْهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا .

وَقَدْ ظَهَرَ بِمَا قَرَّرْنَاهُ وَجْهُ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الشَّرْطِ وَالْجَزَاءِ ، بِمَا سَقَطَ بِهِ اسْتِشْكَالُ بَعْضِ كِبَارِ الْعُلَمَاءِ ، كَسُلْطَانِهِمُ الْعِزِّ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ ، وَاسْتَغْنَيْنَا بِهِ عَمَّا تَكَلَّفَهُ الْمُتَكَلِّفُونَ لِحَلِّ الْإِشْكَالِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 453. 459 ﴾

(70/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ .

لمّا كان قولهم : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ [التوبة : 65] اعتذاراً عن مناجاتهم ، أي إظهاراً للعذر الذي تناجَوا من أجله ، وأنّه ما يحتاجه المتعَب : من الارتياح إلى المزح والحديثِ في غير الجدّ ، فلمّا كشف الله أمر استهزائهم ، أردفه بإظهار قلّة جدوى اعتذارهم إذ قد تلبّسوا بما هو أشنع وأكبر ممّا اعتذروا عنه ، وهو التباسهم بالكفر بعد إظهار الإيمان .

فإن الله لمّا أظهر نفاقهم .

كان ما يصدر عنهم من الاستهزاء أهون فجملة ﴿ لا تعتذروا ﴾ من جملة القول الذي أمر الرسول أن يقوله ، وهي ارتقاء في توبيخهم ، فهي متضمّنة توكيداً لمضمون جملة ﴿ أبالله

وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ﴾ [التوبة : 65] ، مع زيادة ارتقاء في التوبيخ وارتقاء في مثالبهم بأنّهم تلبّسوا بما هو أشدّ وهو الكفر ، فلذلك قطعت الجملة عن التي قبلها ، على أنّ شأن الجمل الواقعة في مقام التوبيخ أن تقطع ولا تعطف لأنّ التوبيخ يقتضي التعْداد ، فتقع الجمل الموبَّخ بها موقع الأعداد المحسوبة نحو واحد ، اثنان ، فالمعنى لا حاجة بكم للإعتذار عن التناجي فإنّكم قد عُرفتم بما هو أعظم وأشنع .

والنهي مستعمل في التسوية وعدم الجدوى .

وجملة : ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ في موضع العلّة من جملة : ﴿ لا تعتذروا ﴾ تعليلاً للنهي المستعمل في التسوية وعدم الجدوى .

وقوله : ﴿ قد كفرتم ﴾ يدلّ على وقوع الكفر في الماضي ، أي قبل الاستهزاء ، وذلك أنّه قد عُرف كفرهم من قبل .

والمراد بإسناد الإيمان إليهم : إظهارُ الإيمان ، وإلاّ فَهُم لم يؤمنوا إيماناً صادقاً .

والمراد بإيمانهم : إظهارهم الإيمان ، لا وقوع حقيقته .

وقد أنبأ عن ذلك إضافة الإيمان إلى ضميرهم دون تعريف الإيمان باللام المفيدة للحقيقة ، أي بعد إيمان هو من شأنكم ، وهذا تعريض بأنّه الإيمان الصوري غير الحقّ ونظيره قوله تعالى الآتي ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ [التوبة : 74] وهذا من لطائف القرآن .

﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

جاءت هذه الجملة على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالتبشير للراغب في التوبة تذكيراً له بإمكان تدارك حاله .

ولمّا كان حال المنافقين عجيباً كانت البشارة لهم مخلوطة ببقية النذارة ، فأنبأهم أنّ طائفة منهم قد يُعفى عنها إذا طلبت سبب العفو : بإخلاص الإيمان ، وأنّ طائفة تَبْقى في حالة العذاب ، والمقام دالّ على أنّ ذلك لا يكون عبثاً ولا ترجيحاً بدون مُرجّح ، فما هو إلاّ أنّ طائفة مرجّوة الإيمان ، فيغفر عمّا قدّمته من النفاق ، وأخرى تصرّ على النفاق حتّى الموت ، فتصير إلى العذاب .

والآيات الواردة بعد هذه تزيد ما دلَّ عليه المقام وضوحاً من قوله : ﴿ نسوا الله فنسيهم إلى قوله عذاب مقيم ﴾ [التوبة : 67 ، 68] .

وقوله بعد ذلك : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولّوا يعذّبهم الله عذاباً أليما في الدنيا والآخرة ﴾

[التوبة : 74] .

وقد آمن بعض المنافقين بعد نزول هذه الآية ، وذكر المفسّرون من هذه الطائفة مخشيًا بن حُمَيِّر الأشجعي لمّا سمع هذه الآية تاب من النفاق ، وحسن إسلامه ، فعدّ من الصحابة ، وقد جاهد يوم اليمامة واستشهد فيه ، وقد قيل : إنّه المقصود "بالطائفة" دون غيره فيكون من باب إطلاق لفظ الجماعة على الواحد في مقام الإخفاء والتعمية كقوله صلى الله عليه وسلم " مَا بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله " وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي المدينة بقية من المنافقين وكان عمر بن الخطاب في خلافته يتوسّمهم .

(72/342)

والباء في ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ للسببية ، والمجرم الكافر .

وقرأ الجمهور ﴿ يُعفَ وتُعذبْ ﴾ ببناء الفعلين إلى النائب ، وقرأه عاصم بالبناء للفاعل وبنون العظمة في الفعلين ونصب ﴿ طائفة ﴾ الثاني . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا

مُجْرِمِينَ (66) ﴾

وهل سبق للمنافقين إيمان ثم جاء كفر ؟ لا ، ولكن قوله تعالى ﴿ قَدْ كَفَرْتُمْ ﴾ يعني : أنكم أيها المنافقون قد فضحتم أنفسكم ؛ لأنكم كنتم تعلنون الإيمان فقط ، ثم أظهر الحق أن إيمانكم إيمان لسان لا إيمان وجدان .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ انظر إلى رحمة الله ، وكيف أنه – جَلَّ وعلا – لم يوصد باب التوبة أمامهم ، بعد أن كشف ما في نفوسهم ، هنا يعلن له الحق أن الطائفة التي ستتوب توبة صادقة ، والتي لم تشترك في هذا الخوض سيغفر لهم الله . أما الذين بَقَوْا على نفاقهم وإجرامهم – والإجرام هو القطع ، وجرمت الثمرة أي قطعتها ، وسمي إجراماً لأنه قطع حقاً عن باطل – أي الذي قطعوا واقعهم بقلوبهم وسلوكهم عن الإيمان ، فسوف يعذبهم الحق سبحان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(73/342)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ ﴾ : قرأ عاصم " نَعْفُ " بنون العظمة ، " نُعَذِّب " كذلك أيضاً ، " طائفةً " نصباً على المفعولية ، وهي قراءاتُ أَبي عبد الرحمن السلمي وزيد بن علي . وقرأ الباقون " يُعفَ " في الموضعين بالياء من تحتُ مبنياً للمفعول ورفع " طائفةٌ " على قيامِها مَقام الفاعل . والقائمُ مقامَ الفاعل في الفعل الأولِ الجارُّ بعده . وقرأ الجحدري : " إن يَعْفُ " بالياء من تحت فيهما مبنياً للفاعل وهو ضميرُ الله تعالى ، ونصب " طائفة " على المفعول به ، وقرأ مجاهد " تَعْفُ " بالتاء من فوق فيهما مبنياً للفاعل وهو ضمير الله تعالى ، ونصبِ " طائفةً " على المفعول به . وقرأ مجاهد : " تُعفَ " بالتاء من فوق فيهما مبنياً للمفعول ورفع " طائفة " لقيامها مَقامَ الفاعل .

وفي القائم مقامَ الفاعل في الفعل الأول وجهان أحدهما : أنه ضمير الذنوب أي : إن تُعْفَ هذه الذنوب . والثاني : أنه الجارُّ ، وإنما أُنِّثَ الفعلُ حَمْلاً على المعنى . قال الزمخشري : " الوجه التذكير ، لأنَّ المسنَد إليه الظرفُ ، كما تقول : " سِيْرَ بالدابة " ولا تقول : سِيْرت بالدابة ولكنه ذهب إلى المعنى كأنه قيل : إن تُرحَمْ طائفة ، فأَنَّث لذلك وهو غريبٌ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 81.82 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66) ﴾

جَرَّدَ العفوَ والعذابَ من عِلَّة الجُرْمِ ، وسببَ الفِعْل مِنْ حُجّةِ العبد ؛ حيث أَحالَ الأمر على المشيئة . . إذ لو كان الموجِبُ لعفوِه أو تعذيبِه صفةَ العبد لَسَوَّى بينهم عند تساويهم في الوصف ، فَلَمَّا اشتركوا في الكفر بعد الإيمان ، وعفا عن بعضهم وعذَّب بعضَهم دَلَّ على أنه يفعل ما يشاء ، ويختصُّ من يشاء بما يشاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 43 ﴾

(75/342)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾

قوله : ﴿ وَمِنْهُمُ ﴾ هذا نوع آخر بما حكاه الله من فضائح المنافقين وقبائحهم ، وذلك أنهم كانوا يقولون للنبيّ صلى الله عليه وسلم ، على وجه الطعن والذم ﴿ هو أذن ﴾ .

قال الجوهري : يقال : رجل أذن : إذا كان يسمع مقال كل أحد ، يستوي فيه الواحد والجمع ومرادهم ، أقماهم الله ، أنهم إذا آذوا النبيّ وبسطوا فيه ألسنهم .

وبلغه ذلك اعتذروا له ، وقبل ذلك منهم ، لأنه يسمع كل ما يقال له ، فيصدّقه ، وإنما أطلقت العرب على من يسمع ما يقال له فيصدّقه أنه أذن مبالغة ، لأنهم سموه بالجارحة التي هي آلة السماع ، حتى كأن جملته أذن سامعة ، ونظيره قولهم : للربيئة عين ، وإيذاؤهم له هو قولهم : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ لأنهم نسبوه إلى أنه يصدّق كل ما يقال له ، ولا يفرق بين الصحيح والباطل ، اغتراراً منهم بحلمه عنهم ، وصفحه عن جناياتهم كرماً وحلماً وتغاضياً ، ثم أجاب الله عن قولهم هذا ، فقال : ﴿ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ بالإضافة على قراءة الجمهور .

وقرأ الحسن بالتنوين ، وكذا قرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه ، كأنه قيل : نعم هو أذن ، ولكن نعم الأذن هو ، لكونه أذن خير لكم ، وليس بأذن في غير ذلك .

كقولهم رجل صدق ، يريدون الجودة والصلاح .

والمعنى أنه يسمع الخير ولا يسمع الشرّ .

وقرىء "أذن" بسكون الذال وضمها .

ثم فسر كونه أذن خير بقوله : ﴿ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : يصدّق بالله ويصدّق

المؤمنين لما علم فيهم من خلوص الإيمان .

فتكون اللام في ﴿ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للتقوية ، كما قال الكوفيون ، أو متعلقة بمصدر محذوف ، كما قال المبرد .

وقرأ الجمهور ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ بالرفع عطف على أذن .

وقرأ حمزة بالخفض عطفاً على خير .

(76/342)

والمعنى على القراءة الأولى : هو أنه أذن خير ، وأنه هو رحمة للمؤمنين ، وعلى القراءة الثانية : أنه أذن خير وأذن رحمة .

قال النحاس : وهذا عند أهل العربية بعيد ، يعني : قراءة الجر لأنه قد تباعد بين الاسمين ، وهذا يقبح في المخفوض .

والمعنى : أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أذن خير للمنافقين ﴿ وَرَحْمَةٌ ﴾ لهم حيث لم يكشف أسرارهم ولا فضحهم ، فكأنه قال : هو أذن كما قلتم لكنه أذن خير لكم لا أذن سوء ، فسلم لهم قولهم فيه إلا أنه فسرّه بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته .

ومعنى ﴿ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ ﴾ أي : الذين أظهروا الإيمان وإن لم يكونوا مؤمنين حقيقة ﴿ والذين يُؤْذُونَ رَسُولَ الله ﴾ بما تقدّم من قولهم : هو أذن ، ونحو ذلك مما يصدق عليه أنه أذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : شديد الألم .

وقرأ ابن أبي عبلة "ورحمة للمؤمنين" بالنصب على أنها علة لمعلل محذوف : أي ورحمة لكم يأذن لكم .

ثم ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الإيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ والخطاب للمؤمنين .

وذلك أن المنافقين كانوا في خلواتهم يطعنون على المؤمنين ، وعلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا بلغ ذلك إلى رسول الله وإلى المؤمنين جاء المنافقون فحلفوا على أنهم لم يقولوا ما بلغ عنهم قاصدين بهذه الأيمان الكاذبة : أن يرضوا رسول الله ومن معه من المؤمنين ، فنعى الله ذلك عليهم .

وقال : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ أي : هما أحق بذلك من إرضاء المؤمنين بالإيمان الكاذبة ، فإنهم لو اتقوا الله وآمنوا به وتركوا النفاق لكان ذلك أولى لهم ، وإفراد الضمير في ﴿ يرضوه ﴾ إما للتعظيم للجناب الإلهيّ بإفراده بالذكر ، أو لكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله .

فإرضاء الله إرضاء لرسوله ؛ أو المراد : الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، كما قال سيبويه ، ورجحه النحاس ، أو لأن الضمير موضوع موضع اسم الإشارة ؛ فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدّد ، أو الضمير راجع إلى المذكور ، وهو يصدق عليهما .

وقال الفراء : المعنى : ورسوله أحق أن يرضوه .

﴿ والله ﴾ افتتاح كلام ، كما تقول : ما شاء الله وشئت ، وهذه الجملة أعني : ﴿ والله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ في محل نصب على الحال ، وجواب ﴿ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ محذوف : أي إن كانوا مؤمنين فليرضوا الله ورسوله .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ الله وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ .

قرأ الحسن ، وابن هرمز ، "ألم تعلموا " بالفوقية .

وقرأ الباقون بالتحتية : والمحاددة : وقوع هذا في حد .

وذلك في حد كالمشاقة : يقال حادّ فلان فلاناً : أي صار في حدّ غير حده ﴿ فإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ قرأ الجمهور بفتح الهمزة على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أي فحق أن له نار جهنم .

وقال الخليل وسيبويه : إن "أن" الثانية مبدلة من الأولى ، وزعم المبرد أن هذا القول مردود ، وأن الصحيح ما قال الجرمي أن الثانية مكرّرة للتوكيد لما طال الكلام .

وقال الأخفش : المعنى : فوجوب النار له ، وأنكره المبرد وقال : هذا خطأ من أجل أن

"أن" المفتوحة المشدّدة لا يبتدأ بها ويضمر الخبر .

وقرىء بكسر الهمزة .

قال سيبويه ، وهي قراءة جيدة ، وأنشد :

وإني إذا ملت ركابي مناخها . . . فإني على حظي من الأمر جامح

وانتصاب ﴿ خالداً ﴾ على الحال .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما ذكر من العذاب ، وهو مبتدأ وخبره ﴿ الخزى العظيم ﴾ أي : الخزي البالغ إلى الغاية التي لا يبلغ إليها غيره ، وهو الذلّ والهوان .

قوله : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ ﴾ قيل : هو خبر وليس بأمر .

وقال الزجاج : معناه : ليحذر .

(78/342)

فالمعنى على القول الأوّل : أن المنافقين كانوا يحذرون نزول القرآن فيهم .

وعلى الثاني : الأمر لهم بأن يحذروا ذلك ، و ﴿ أن تنزل ﴾ في موضع نصب : أي من أن تنزل ، ويجوز على قول سيبويه أن يكون في موضع خفض على تقدير " من " وإعمالها .

ويجوز أن يكون النصب على المفعولية .

وقد أجاز سيبويه : حذرت زيداً ، وأنشد :

حذر أموراً لا تضير وآمن . . . ما ليس ينجيه من الأقدار

ومنع من النصب على المفعولية المبرد .

ومعنى : ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : على المؤمنين في شأن المنافقين ، على أن الضمير للمؤمنين ، والأولى أن يكون الضمير للمنافقين : أي في شأنهم ﴿ تُنَبِّئُهُمْ ﴾ أي : المنافقين ﴿ بِمَا فِي قُلُوبِهِم ﴾ مما يسرّونه فضلاً عما يظهرونه ، وهم وإن كانوا عالمين بما في قلوبهم ، فالمراد من إنباء السورة لهم إطلاعهم على أن المؤمنين قد علموا بما في قلوبهم ، ثم أمر الله رسوله بأن يجيب عليهم ، فقال : ﴿ قُلِ استهزءوا إِنَّ اللهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ هو أمر تهديد : أي افعلوا الاستهزاء ، إن الله مخرج ما تحذرون من ظهوره حتى يطلع عليه المؤمنون ، إما بإنزال سورة ، أو بإخبار رسوله بذلك أو نحو ذلك .

قوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ أي : لئن سألتهم عما قالوه من الطعن في الدين ، وثلب المؤمنين بعد أن يبلغ إليك ذلك ، ويطلعك الله عليه ، ليقولنّ إنما كنا نخوض ونلعب ، ولم نكن في شيء من أمرك ولا أمر المؤمنين .

ثم أمره الله أن يجيب عنهم فقال : ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ والاستفهام : للتقريع والتوبيخ ، وأثبت وقوع ذلك منهم ، ولم يعبأ بإنكارهم ، لأنهم كانوا كاذبين في الإنكار ، بل جعلهم كالمعترفين بوقوع ذلك منهم حيث جعل المستهزأ به ، والباء لحرف النفي ، فإن ذلك إنما يكون بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ، ثم قال : ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا ﴾ نهياً لهم عن الاشتغال بالاعتذارات الباطنة ، فإن ذلك غير مقبول منهم .

وقد نقل الواحدي عن أئمة اللغة : أن معنى الاعتذار : محو أثر الذنب وقطعه ، من قولهم : اعتذر المنزل : إذا درس ، واعتذرت المياه : إذا انقطعت ﴿ قَدْ كَفَرْتُم ﴾ أي أظهرتم الكفر بما وقع منكم من الاستهزاء المذكور ﴿ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾ أي بعد إظهاركم الإيمان ، مع كونكم تبطنون الكفر ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ وهم من أخلص الإيمان ، وترك النفاق ، وتاب عنه .

قال الزجاج : الطائفة في اللغة : الجماعة .

قال ابن الأنباري : ويطلق لفظ الجمع على الواحد عند العرب ﴿ نُعَذِّبْ طَائِفَةً ﴾ بسبب ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ مصرّين على النفاق ، لم يتوبوا منه .

قرىء ﴿ نعذب ﴾ بالنون وبالتاء الفوقية على البناء للمفعول وبالتحتية على البناء للفاعل ، وهو الله سبحانه .

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، قال : كان نبتل بن

الحارث يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيجلس إليه فيسمع منه ، ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذي قال لهم : إنما محمد أذن ، من حدثه بشيء صدقه ، فأنزل الله فيه : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ الآية .

(80/342)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم : جلاس بن سويد ابن صامت ، ومخشي بن حمير ، ووديعة بن ثابت ، فأرادوا أن يقعوا في النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فنهى بعضهم بعضاً وقالوا : إنا نخاف أن يبلغ محمداً فيقع بكم ، فقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا ، فنزل : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ هُوَ أُذُنٌ ﴾ يعني : أنه يسمع من كل أحد .

قال الله تعالى : ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بالله وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : يصدّق بالله ويصدّق المؤمنين .

وأخرج الطبراني ، وابن عساكر ، وابن مردويه ، عن عمير بن سعد ، قال : فيّ أنزلت هذه الآية ﴿ وَيَقُولُونَ هُمْ أَذِنَ ﴾ وذلك أن عمير بن سعد كان يسمع أحاديث أهل المدينة ،

فيأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فيسارّه حتى كانوا يتأذون بعمير بن سعد ، وكرهوا مجالسته ، وقال : ﴿ هو أذن ﴾ فأنزلت فيه .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : ذكر لنا أن رجلاً من المنافقين قال : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لهم شرّ من الحمير ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ولأنت شرّ من الحمار ، فسعى بها الرجل إلى نبيّ الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : " ما حملك على الذي قلت ؟ " فجعل يلتعن ويحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق ، وكذب الكاذب ، فأنزل الله في ذلك : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ مثله ، وسمى الرجل المسلم عامر بن قيس من الأنصار .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يقول : يعادي الله ورسوله .

(81/342)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون ﴾ الآية قال : يقولون القول فيما بينهم ، ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا هذا .

وأخرج أبو نعيم في الحلية ، عن شريح بن عبيد ، أن رجلاً قال لأبي الدرداء : يا معشر القراء ما بالكم أجبن منا وأبخل إذا سئلتم ، وأعظم لقماً إذا أكلتم ؟ فأعرض عنه أبو الدرداء ولم يردّ عليه بشيء ، فأخبر بذلك عمر بن الخطاب ، فانطلق عمر إلى الرجل الذي قال ذلك ، فقال بثوبه وخنقه وقاده إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال الرجل : إنما كنا نخوض ونلعب ، فأوحى الله نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن عمر ، قال : قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوماً : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء ، لا أرغب بطوناً ولا أكذب ألسنة ، ولا أجبن عند اللقاء ، فقال رجل في المجلس : كذبت ولكنك منافق ، لأخبرنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل القرآن .

قال عبد الله : فأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ، والحجارة تنكبه وهو يقول : يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ أبالله وَآيَاتِهِ

وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وأخرجه ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والعقيلي في الضعفاء ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والخطيب ، في رواية مالك عن ابن عمر ، فقال : رأيت عبد الله بن أبيّ وهو يشتد قدّام النبي صلى الله عليه وسلم والأحجار تنكبه وهو يقول : يا محمد إنما كنا نخوض ونلعب ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : ﴿ أبالله وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

(82/342)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في الآية قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين ، فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه على ذلك ، فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم : " احبسوا على هؤلاء الركب " ، فأتاهم فقال : " قلتم كذا " ، قالوا : يا نبيّ الله ، إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون .

وقد روي نحو هذا من طرق عن جماعة من الصحابة .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ ﴾ قال : الطائفة : الرجل والنفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين سبحانه أفعالاً وأقوالاً لطوائف من المنافقين – منهم من كان معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العسكر – هي في غاية الفساد ، كان ذلك ربما اقتضى أن يسأل عن المتخلفين لو خرجوا ما كان يكون حالهم ؟ فقال جواباً عن ذلك واستدلالاً على أن إجرام الذين لم يعف عنهم منهم خلق لازم : ﴿ المنافقون والمنافقات ﴾ أي الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفران ﴿ بعضهم ﴾ ولما كان مرجعهم الجمود على الهوى والطبع والعادة والتقليد من التابع منهم للمتبوع ، قال : ﴿ من بعض ﴾ أي في صفة النفاق هم فيها كالجسد الواحد ، أمورهم متشابهة في أقوالهم وأفعالهم وجميع أحوالهم ، والقصد أن حالهم يضاد حال أهل الإيمان ولذلك بينه بقوله : ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ أي مما تقدم من الخبال والإيضاع في الخلال وغير ذلك من سيء الخصال ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ أي من كل ما يكون فيه تعظيم

الإسلام وأهله ، يبغون بذلك الفتنة ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ أي يشحون فلا ينفقون إلا وهم كارهون .

ولما كان كأن قيل : أما خافوا بذلك من معاجلة العقاب ؟ أجاب بقوله : ﴿ نسوا الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الأمر كله ولا أمر لأحد معه ، ويصلح أن يكون علة لما تقدم عليه ؛ ولما اقدموا على ذلك ، سبب عنه قوله : ﴿ فنسيهم ﴾ أي فعل بهم فعل الناسي لما استهانوا به بأن تركهم من رحمته ، فكان ذلك الترك سبباً لحلول نقمته ؛ ولما تطبعوا بهذه النقائص كلها ، اختصوا بكمال الفسق فشرح ذلك في أسلوب التعجيب من حالهم فقال مظهراً موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف : ﴿ إن المنافقين هم ﴾ أي خاصة ﴿ الفاسقون ﴾ أي الخارجون عن دائرة ما ينفعهم من الطاعة الراسخون في ذلك ، فقد علم أنهم لو غزوا فعلوا فعل هؤلاء سواء لأن الكل من طينة واحدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 344 . 345 ﴾

(84/342)

فصل

قال الفخر :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾

اعلم أن هذا شرح نوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم ، والمقصود بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة ، فقال : ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي في صفة النفاق ، كما يقول الإنسان : أنت مني وأنا منك ، أي أمرنا واحد لا مباينة فيه ولما ذكر هذا الكلام ذكر تفصيله فقال : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ ولفظ المنكر يدخل فيه كل قبيح ، إلا أن الأعظم ههنا تكذيب الرسول ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ ولفظ المعروف يدخل فيه كل حسن إلا أن الأعظم ههنا الإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم ويقبضون أيديهم ، قيل من كل خير ، وقيل عن كل خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله وهذا أقرب لأنه تعالى لا يذمهم إلا بترك الواجب ويدخل فيه ترك الإنفاق في الجهاد ، ونبه بذلك على تخلفهم عن الجهاد ، والأصل في هذا أن المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء .

فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده .

ثم قال : ﴿ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ واعلم أن هذا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان على الحقيقة لما استحقوا عليه ذماً ، لأن النسيان ليس في وسع البشر ، وأيضاً فهو في حق الله تعالى محال فلا بد من التأويل ، وهو من وجهين : الأول : معناه أنهم

تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي ، فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته ، وجاء هذا على أوجه الكلام كقوله : ﴿ وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ [الشورى : 40]

الثاني : النسيان ضد الذكر ، فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ، ترك الله ذكرهم بالرحمة والإحسان ، وإنما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لأن من نسي شيئاً لم يذكره ، فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم .

ثم قال : ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الفاسقون ﴾ أي هم الكاملون في الفسق ، والله أعلم . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 101 ﴾

(85/342)

وقال السمرقندى :

﴿ المنافقون والمنافقات ﴾

يعني : من الرجال والنساء .

﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ ، يعني : بعضهم على دين بعض في السر .

﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ ، يعني : بالتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالشرك ، وبما لا يرضي الله تعالى ؛ ويقال : المنكر ما يخالف الكتاب والسنة .

﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ ، يعني : عن التوحيد واتباع محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ، يعني : يمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله ويقال : كفوا عن الحق .

﴿ نَسُواْ الله ﴾ ، يقول : تركوا طاعة الله .

﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ ، يعني : تركهم في النار ، ويقال : تركهم في الحرمان والخذلان ، كقوله تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ الله فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طغيانهم يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : 186] .

﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الفاسقون ﴾ ، يعني : الخارجين عن طاعة الله تعالى ، وكل منافق فاسق .

وقد يكون فاسقاً ولا يكون منافقاً ، ولا يكون منافقاً إلا وهو فاسق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(86/342)

وقال الثعلبى :

﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾

أي شكل بعض وعلى دين بعض ، يعني إنهم صنف واحد وعلى أمر واحد ، ثم ذكر أمرهم

فقال ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ بالكفر والمعصية ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ عن الإيمان والطاعة ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ يمسكونها ويكفّونها عن الصدقة والنفقة في الحق ولايبسطونها بالخير ، وأصله : إنّ المعطي يمد يده ويبسطها بالخير ، فقيل : لمن بخل ومنع قد قبض يده ، ومنه قوله :

﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : 64] أي ممسكة عن النفقة .

﴿ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ تركوا طاعة الله فتركهم الله من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته المنجية من عذابه وناره في العقبى ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(87/342)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾

يحتمل وجهين :

أحدهما : أن بعضهم يجتمع مع بعض على النفاق .

والثاني : أن بعضهم يأخذ نفاقه من بعضٍ . وقال الكلبي : بعضهم على دين بعض .

﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ في المنكر والمعروف قولان :

أحدهما : أن المنكر كل ما أنكره العقل من الشرك ، والمعروف : كل ما عرفه العقل من الخير .

والثاني : أن المعروف في كتاب الله تعالى كله الإيمان ، والمنكر في كتاب الله تعالى كله الشرك ، قاله أبو العالية .

﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فيه أربعة أقاويل :

أحدها : يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله تعالى ، قاله الحسن ومجاهد .

والثاني : يقبضونها عن كل خير ، قاله قتادة .

والثالث : يقبضونها عن الجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، قاله بعض المتأخرين .

والرابع : يقبضون أيديهم عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى .

﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي تركوا أمره فترك رحمتهم .

قال ابن عباس : كان المنافقون بالمدينة من الرجال ثلاثمائة ، ومن النساء سبعين ومائة امرأة .

وروى مكحول عن أبي الدرداء أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صفة المنافق : فقال : " إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا اؤتُمِنَ خَانَ ، وَإِذا وَعَدَ أَخلَفَ ، وَإِذَ خَاصَمَ فَجَرَ ،

وَإِذَا عَاهَدَ نَقَضَ ، لاَ يَأْتِي الصَّلاَةَ إِلاَّ دُبُراً وَلاَ يَذْكُرِ اللَّهَ إِلاَّ هَجْراً " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(88/342)

وقال ابن عطية :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

هذا ابتداء إخبار عنهم وحكم من الله تعالى عليهم بما تضمنته الآية ، فقوله ﴿ بعضهم من بعض ﴾ يريد في الحكم والمنزلة من الكفر ، وهذا نحو قولهم الأذنان من الرأس يريدون في حكم المسح وإلا فمعلوم أنهما من الرأس ، ولما تقدم قبل " وما هم منكم " حسن هذا الإخبار ، وقوله ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ يريد بالكفر وعبادة غير الله وسائر ذلك من الآية لأن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله عز وجل ، و" القبض " هو عن الصدقة وفعل الخير ، وقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ أي تركوه حين تركوا نبيه وشرعته فتركهم حين لم يهدهم ولا كفاهم عذاب النار ، وإنما يعبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذا بلغ وجوه الترك الوجه الذي يقترن به نسيان ، وعلى هذا يجيء ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ [البقرة : 237] ﴿

ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ [القصص : 77] ثم حكم عليهم عز وجل بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار .

وكان قتادة يقول ﴿ فنسيهم ﴾ أي من الخير ولم ينسهم من الشر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(89/342)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾

قال ابن عباس : بعضهم على دين بعض .

وقال مقاتل : بعضهم أولياء بعض ، ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ وهو الكفر ، ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ وهو الإيمان .

وفي قوله : ﴿ ويقبضون أيديَهم ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله ، قاله ابن عباس ، والحسن ، ومجاهد .

والثاني : عن كل خير ، قاله قتادة .

والثالث : عن الجهاد في سبيل الله .

والرابع : عن رفعها في الدعاء إلى الله تعالى ، ذكرهما الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ قال الزجاج : تركوا أمره ، فتركهم من رحمته وتوفيقه .

قال : وقوله : ﴿ هي حسبهم ﴾ أي : هي كفاية ذنوبهم ، كما تقول : عذَّبتُك حسبَ فِعلك ، وحسبُ فلان ما نزل به ، أي : ذلك على قدر فعله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ﴾ ابتداء .

﴿ بَعْضُهُمْ ﴾ ابتداء ثان .

ويجوز أن يكون بدلاً ، ويكون الخبر "من بعض" .

ومعنى ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ أي هم كالشيء الواحد في الخروج عن الدِّين .

وقال الزجاج ، هذا متصل بقوله : "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ" أي ليسوا من المؤمنين ، ولكن بعضهم من بعض ، أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف .

وقَبْضُ أيديهم عبارة عن ترك الجهاد ، وفيما يجب عليهم من حق .

والنسيان : الترك هنا ؛ أي تركوا ما أمرهم الله به فتركهم في الشك .

وقيل : إنهم تركوا أمره حتى صار كالمَنْسِيّ فصيّرهم بمنزلة المنسِيّ من ثوابه .

وقال قتادة : "نَسِيَهُمْ" أي من الخير ؛ فأما من الشر فلم يَنْسَهُم .

والفسق : الخروج عن الطاعة والدِّين .

وقد تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(90/342)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾

يعني أنهم على أمر واحد ودين واحد مجتمعون على النفاق والأعمال الخبيثة كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت مني أي أمرنا واحد لا مباينة فيه ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ يعني يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ يعني عن الإيمان والطاعة وتصديق الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ يعني عن الإنفاق في سبيل الله تعالى وفي كل خير ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ هذا الكلام لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملناه على النسيان الحقيقي لم يستحقوا ذماً عليه لأن النسيان ليس في وسع البشر دفعه وأيضاً فإن النسيان في حق الله محال فلا بد من التأويل وقد ذكروا فيه وجهين الأول معناه أنهم تركوا أمره حتى صاروا بمنزلة الناسين له فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسى من ثوابه ورحمته فخرج على مزاوجة

الكلام فهو كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ الوجه الثاني : أن النسيان ضد الذكر فلما تركوا ذكر الله وعبادته ترك الذكر لأن من ترك شيئاً لم يذكره وقيل لما تركوا طاعة الله والإيمان به تركهم من توفيقه وهدايته في الدنيا ومن رحمته في العقبى ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ يعني هم الخارجون عن الطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(91/342)

وقال أبو حيان :

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾

بيّن تعالى أن ذكورهم وأناثهم ليسوا من المؤمنين كما قال تعالى : ﴿ ويحلفون بالله أنهم لمنكم وما هم منكم ﴾ بل بعضهم من بعض في الحكم والمنزلة والنفاق ، فهم على دين واحد . وليس المعنى على التبعيض حقيقة لأن ذلك معلوم ووصفهم بخلاف ما عليه المؤمنون من أنهم يأمرون بالمنكر وهو الكفر وعبادة غير الله والمعاصي ، وينهون عن المعروف ، لأن الذين نزلت فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة ، وذلك بظهور الإسلام وعزته . وقبض الأيدي عبارة عن عدم الإنفاق في سبيل الله قاله الحسن .

وقال قتادة : عن كل خير .

وقال ابن زيد : عن الجهاد وحمل السلاح في قتال أعداء الدين .

وقال سفيان : عن الرفع في الدعاء .

وقيل ذلك كناية عن الشح في النفقات في المبار والواجبات ، والنسيان هنا الترك .

قال قتادة : تركوا طاعة الله وطاعة رسوله فنسيهم ، أي : تركهم من الخير ، أما من الشر فلم ينسهم .

وقال الزمخشري : أغفلوا ذكره فنسيهم تركهم من رحمته وفضله ، ويغبر بالنسيان عن الترك مبالغة في أنه لا يخطر ذلك ببال .

هم الفاسقون أي : هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ من كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسب هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(92/342)

وقال أبو السعود :

﴿ المنافقون والمنافقات ﴾

التعرّضُ لأحوال الإناثِ للإيذان بكمال عراقتِهم في الكفر والنفاق ﴿ بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ أي متشابهون في النفاق والبُعدِ عن الإيمان كأبعاض الشيء الواحدِ بالشخص ، وقيل : أريد به نفيُ أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبُهم في حلفهم بالله إنهم لمنكم وتقريرٌ لقوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم مّنكُمْ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ أي بالكفر والمعاصي ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ أي عن الإيمان والطاعةِ استئنافٌ مقررٌ لمضمون ما سبق ومُفصِحٌ عن مضادة حالِهم لحال المؤمنين أو خبرٌ ثان ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي عن المبرات والإنفاق في سبيل الله فإن قبضَ اليد كنايةٌ عن الشح ﴿ نَسُواْ الله ﴾ أغفلوا ذكرَه ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ فتركهم من رحمته وفضلِه وخذلَهم ، والتعبيرُ عنه بالنسيان للمشاكلة ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الفاسقون ﴾ الكاملون في التمرد والفسقِ الذي هو الخروجُ عن الطاعة والانسلاخُ عن كل خيرٍ والإظهارُ في موقع الإضمار لزيادة التقرير كما في قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(93/342)

وقال الآلوسى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

أي متشابهون في النفاق كتشابه أبعاض الشيء الواحد ، والمراد الاتحاد في الحقيقة والصورة كالماء والتراب ، والآية متصلة بجميع ما ذكر من قبائحهم ، وقيل : هي متصلة بقوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ [التوبة : 56] والمراد منها تكذيب قولهم المذكور وإبطال له وتقرير لقوله سبحانه : ﴿ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة : 56] وما بعد من تغاير صفاتهم وصفات المؤمنين كالدليل على ذلك ، و ﴿ مِنْ ﴾ على التقريرين اتصالية كما في قوله عليه الصلاة والسلام : " أنت مني بمنزلة هارون من موسى " والتعرض لأحوال الإناث للإيذان بكمال عراقتهم في الكفر والنفاق ﴿ يَأْمُرُونَ بِالمنكر ﴾ أي بالتكذيب بالنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ أي شهادة أن لا إله إلا الله وإلا قرار بما أنزل الله تعالى كما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج عن أبي العالية أنه قال : كل منكر ذكر في القرآن المراد منه عبادة الأوثان والشيطان ، ولا يبعد أن يراد بالمنكر والمعروف ما يعم ما ذكر وغيره ويدخل فيه المذكور دخولاً أولياً ، والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق مفصح عن مضادة حالهم لحال المؤمنين أو خير ثان ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ عن الانفاق في طاعة الله ومرضاته كما روي عن قتادة .

والحسن ، وقبض اليد كناية عن الشح والبخل كما أن بسطها كناية عن الجود لأن من يعطي يمد يده بخلاف من يمنع ، وعن الجبائي أن المراد يمسكون أيديهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وهو خلاف الشائع في هذه الكلمة ﴿ نَسُواْ اللهَ ﴾ النسيان مجاز عن الترك وهو كناية عن ترك الطاعة فالمراد لم يطيعوه سبحانه ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ منه لطفه وفضله عنهم ، والتعبير بالنسيان للمشاكلة ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الفاسقون ﴾ أي الكاملون في التمرد والفسق الذي هو الخروج عن الطاعة والانسلاخ عن كل حتى كأنهم الجنس كله ، ومن هنا صح الحصر المستفاد من الفصل وتعريف الخبر وإلا فكم فاسق سواهم .

والاظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير ، ولعله لم يذكر المنافقات اكتفاء بقرب العهد ، ومثله في نكتة الإظهار قوله سبحانه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(95/342)

وقال القاسمي :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾

أي : متشابهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، كتشابه أبعاض الشيء الواحد . والمراد الإتحاد في الحقيقة والصفة . فمن اتصالية .

قال الزمخشري : أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ويحلفون بالله إنهم لمنكم ، وتقرير قوله : وما هم منكم ، ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ ﴾ كالكفر والمعاصي ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾ كالإيمان والطاعات : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي : بخلاً

بالمبرّات ، والإنفاق في سبيل الله ، فإن قبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يُعطي يمد يده ، بخلاف من يمنع ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي : أغفلوا ذكره وطاعته ، فتركهم من رحمته وفضله .

قال الشهاب : معنى : ﴿ نَسُوا اللَّهَ ﴾ أنهم لا يذكرونه ولا يطيعونه ، لأن الذكر له مستلزم لإطاعته ، فجعل النسيان مجازاً عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، ونسيان الله منع لطفه وفضله عنهم .

قال النحرير : جعل النسيان مجازاً لاستحالة حقيقته عليه تعالى ، وامتناع المؤاخذة على نسيان البشر .

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أي : الكاملون في الفسق ، الذي هو التمرد في الكفر ، والإنسلاخ عن كل خير .

(96/342)

وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم ، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول : كسلت ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله : ﴿ كُسَالَى ﴾ فما ظنك بالفسق ؟ أفاده الزمخشري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 464 ﴾

(97/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

يظهر أن تكون هذه الآية احتراساً عن أن يظنّ المنافقون أنّ العفو المفروض لطائفة منهم هو عفو ينال فريقاً منهم باقين على نفاقهم ، فعقب ذلك ببيان أنّ النفاق حالة واحدة وأنّ

أصحابه سواء ، ليعلم بذلك أن افتراق أحوالهم بين عفو وعذاب لا يكون إلاّ إذا اختلفت أحوالهم بالإيمان والبقاءِ على النفاق ، إلى ما أفادته الآية أيضاً من إيضاح بعض أحوال النفاق وآثاره الدالّة على استحقاق العذاب ، ففصل هاته الجملة عن التي قبلها : إمّا لأنّها كالبيان للطائفة المستحقّة العذاب ، وإمّا أن تكون استئنافاً ابتدائياً في حكم الاعتراض كما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ [التوبة : 69] وإمّا أن تكون اعتراضاً هي والتي بعدها بين الجملة المتقدمة وبين جملة ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوة ﴾ [التوبة : 69] كما سيأتي هنالك .

وزيد في هذه الآية ذكر ﴿ المنافقات ﴾ تنصيصاً على تسوية الأحكام لجميع المتّصفين بالنفاق : ذكورهم وإناثهم ، كيلا يخطر بالبال أن العفو يصادف نساءهم ، والمؤاخذة خاصّة بذُكرَانهم ، ليعلم الناس أنّ لنساء المنافقين حظّا من مشاركة رجالهنّ في النفاق فيحذروهنّ .

و﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ اتّصالية دالّة على معنى اتّصال شيء بشيء وهو تبعيض مجازي معناه الوصلة والولاية ، ولم يطلق على ذلك اسم الولاية كما أطلق على اتّصال المؤمنين بعضهم ببعض في قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة : 71] لما سيأتي هنالك .

وقد شمل قوله : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ جميع المنافقين والمنافقات ، لأنّ كلّ فرد هو بعض

من الجميع ، فإذا كان كلّ بعض متّصلاً ببعض آخر ، عُلم أنّهم سواء في الأحوال .

وجملة ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ مبيّنة لمعنى الاتّصال والاستواءِ في الأحوال .

والمنكر : المعاصي لأنّها ينكرها الإسلام .

(98/342)

والمعروف : ضدّها ، لأنّ الدين يعرفه ، أي يرضاه ، وقد تقدّما في قوله تعالى : ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ في سورة آل عمران (104) .

وقبض الأيدي : كناية عن الشحّ ، وهو وصف ذمّ لدلالته على القسوة ، لأنّ المراد الشحّ على الفقراء .

والنسيانُ منهم مستعار للإشراك بالله ، أو للإعراض عن ابتغاء مرضاته وامتثالِ ما أمر به ، لأنّ الإهمال والإعراض يشبه نسيان المعرَض عنه .

ونسيان الله إيّاهم مُشاكلة أي حرمانه إياهم ممّا أعدّ للمؤمنين ، لأنّ ذلك يشبه النسيان عند قسمة الحظوظ .

وجملة : إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ فذلكة للتي قبلها فلذلك فصلت لأنّها كالبيان

الجامع .

وصيغة القصر في ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ قصر ادّعائي للمبالغة لأنّهم لمّا بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق .

والإظهار في مقام الإضمار في قوله : ﴿ إن المنافقين ﴾ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم .

ولتكون الجملة مستقلّة حتّى تكون كالمثل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(99/342)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾

ثم يعود سبحانه وتعالى إلى الأحكام التكليفية ، وعادة تكون الأحكام التكليفية من الله كلها على الذكورة ، وليس فيها على الأنوثة إلا عدد قليل من الآيات مثل قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن

يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

وقوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى . . . ﴾ [النحل : 97]

أما باقي الأحكام فتنصبُّ على الذكورة ، وتدخل الإناث في الأحكام لأن الأنوثة مبنية على السِّتْر في الذكورة . ولكنه لا بد هنا من ذكر المنافقين والمنافقات على كل حدة ؛ لأن للرجال مجالس ، وللنساء مجالس ، ولكل منهما أفعال وأقوال تختلف عن الآخرين . . ولذلك كان لا بد من النص على المنافقات .

وقوله الحق سبحانه : ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ أي : لا يتميز أحد من المنافقين والمنافقات عن الآخر في الخسة والقبح والفضائح ، ويحدد الاله خصالهم في قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ فهم إن فعل الناس معروفاً ينهونهم عنه ، بل إنهم يشجعونهم على فعل المنكر ، وهم لا ينفقون في سبيل الله إذا طُلِبَ منهم الإنفاق . ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ نَسُواْ الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ وهل يُنْسَى الحق سبحانه وتعالى بالفطرة ؟ لا ، ولكن المقصود أنهم نسوا مطلوبات الله وتكاليفه فنساهم الله أي أهملهم ، فمن يبعد عن الله يزده الله بُعْداً ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً . . . ﴾ [البقرة : 10]

فإن كنت مسروراً من أنك نسيت الله فسيزيدك نسياناً ، ويختم على قلبك فلا يخرج منه الكفر أبداً .

ثم يعطي الحق سبحانه الحكم : ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وكلمة " منافق " – كما نعرف – مأخوذة من نفقاء اليربوع ، وهو حيوان يشبه الفأر ويسكن في الصحراء ويحفر لنفسه نفقاً في الأرض ؛ له بابان ، وإنْ ترصَّد له الصائد عند أحدهما خرج من الثاني ، وهكذا ترى أن المنافق له وجهان . والفسوق معناه الخروج عن منهج الطاعة ؛ وهو مأخوذ من " فسق الرطب " أي : انفصلت القشرة عن الثمرة . والقشرة – كما نعلم – مخلوقة لصيانة الثمرة ؛ فإذا فسقت عنها تلفت الثمرة . والإنسان إذا فسق خرج عن طاعة الله . انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(101/342)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

المَعْرُوفِ ﴾ .

المؤمِنُ بالمؤمِن يَتَقَوَّى ، والمنافقُ بالمنافق يتعاضد ، وطيور السماء على أُلاَّفِها تَقَعُ .

فالمنافِقُ لصاحبه أسٌّ به قوامه ، وأصلٌ به قيامه ؛ يُعِينُه على فساده ، ويُعَمِّي عليه طريقَ رشادِه .

والمؤمِنُ ينصر المؤمنَ ويُبَصِّره عيوبَه ، ويُبغضُ لديه ويُقَبِّحُ – في عينيه – ذنوبَه ، وهو على السدادِ يُنْجِدُه ، وعن الفسادِ يُبْعِده .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .

عن طلب الحوائج من الله تعالى .

قوله جلّ ذكره : ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

جازاهم على نسيانهم ، فسمَّى جزاءَ النسيانِ نسياناً . تركوا طاعتَه ، وآثروا مُخالَفَته ، فَتَرَكَهُم وما اختاره لأنفسهم ، قال تعالى : ﴿ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ ﴾ [البقرة : 17] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 43 ﴾

(102/342)

قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين كثيراً من أحوالهم فاشتد التشوف إلى مآلهم وكان مقصودها بإظهار الإيمان والاعتذار عن النقائض بتأكيد الأيمان إنما هو التقرب إلى المؤمنين والتحبب طمعاً في العيش في أكنافهم وفرقاً من المعاجلة بما يستحقون من إتلافهم ، بين أن لهم على هذا الخداع العذاب الدائم والطرد اللازم ، وجمع معهم المصارحين بالكفر إعلاماً بأنهم إن لم يكونوا أعظم عناداً منهم فهم سواء ، فقال : ﴿ وعد الله ﴾ وساقه بصيغة البشارة تهكماً بهم وإبلاغاً في مساءتهم ﴿ المنافقين والمنافقات ﴾ أي المساترين باعتقادهم ﴿ والكفار ﴾ أي المجاهرين في عنادهم .

ولما كانوا مجبولين على تجهم المؤمنين والانقباض عنهم ، وإن أظهروا خلاف ذلك فهو تصنع ، قال : ﴿ نار جهنم ﴾ أي النار التي من شأنها تجهم أهلها ولقاؤهم بالعبوسة الزائدة ﴿ خالدين فيها ﴾ أي لا براح لهم عنها ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كافيتهم في العذاب ، لكن لما كان الخلود قد يتجوز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج ، قال : ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي طردهم وأبعدهم من رحمته وهو الملك العليم الحكيم الذي لا أمر لأحد معه فأفهم أنه لا

فرج لهم ، ثم نفي كل احتمال بقوله : ﴿ ولهم ﴾ أي بالأمرين ﴿ عذاب مقيم ﴾ أي لا وصف له غير الإقامة في الدنيا بما هم مقهورون به من سطوة الإسلام وجنوده الكرام الأعلام ، وفي الآخرة بما لا يعلمه حق علمه إلا الله الملك العلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 345 ﴾

(103/342)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من قبل في المنافقين والمنافقات أنه نسبهم ، أي جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله أكد هذا الوعيد وضم المنافقين إلى الكفار فيه ، فقال : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ المنافقين والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ ولا شك أن النار المخلدة من أعظم العقوبات .

ثم قال : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ والمعنى : أن تلك العقوبة كافية لهم ولا شيء أبلغ منها ، ولا

يمكن الزيادة عليها .

ثم قال : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي ألحق بتلك العقوبة الشديدة الإهانة والذم واللعن .

ثم قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ولقائل أن يقول : معنى كون العذاب مقيماً وكونه خالداً واحد ، فكان هذا تكراراً ؟

والجواب : ليس ذلك تكريراً ، وبيان الفرق من وجوه : الأول : أن لهم نوعاً آخر من العذاب المقيم الدائم سوى العذاب بالنار والخلود المذكور أولاً ، ولا يدل على أن العذاب بالنار دائم .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ يدل على أن لهم مع ذلك نوعاً آخر من العذاب .

ولقائل أن يقول : هذا التأويل مشكل لأنه قال في النار المخلدة : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ وكونها حسباً يمنع من ضم شيء آخر إليه .

وجوابه : أنها حسبهم في الإيلام والإيجاع ، ومع ذلك فيضم إليه نوع آخر زيادة في تعذيبهم .

والثاني : أن المراد بقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ العذاب العاجل الذي لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق والخوف من اطلاع الرسول على بواطنهم ، وما يحذرونه أبداً من أنواع الفضائح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 102 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين ﴾

الوعد يكون بالخير ، ويكون بالشر إذا قيد به ، والوعيد لا يكون إلاّ بالشر ؛ فقال : ﴿ وَعَدَ الله المنافقين والمنافقات ﴾ ، يعني : المنافقين الذين كانوا بالمدينة ومن كان على مذهبهم ويكون إلى يوم القيامة ؛ ﴿ والكفار ﴾ ؛ وهم أهل مكة ومن كان بمثل حالهم .

﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ ، يعني : تكفيهم النار جزاءً لكفرهم ، ﴿ وَلَعَنَهُمُ الله ﴾ ؛ يعني : طردهم الله من رحمته .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ ، يعني : دائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وعد الله المنافقين ﴾ الآية

لما قيد الوعد بالتصريح بالشر صح ذلك وحسن وإن كانت آية وعيد محض ، و ﴿ الكفار ﴾ في هذه الآية المعلنون ، وقوله ﴿ هي حسبهم ﴾ أي كافيتهم وكافية جرمهم وكفرهم نكالاً وجزاء ، فلو تمنى أحد لهم عذاباً لكان ذلك عنده حسباً لهم ، ﴿ ولعنهم الله ﴾ معناه أبعدهم عن رحمته ، ﴿ عذاب مقيم ﴾ معناه مؤبد لا نقلة له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ ﴾

يُقال : وعد الله بالخير وَعَدْاً .

ووعد بالشر وعِيداً .

﴿ خَالِدِينَ ﴾ نصب على الحال والعامل محذوف ؛ أي يصلَوْنها خالدين .

﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ ابتداء وخبر ، أي هي كفاية ووفاء لجزاء أعمالهم .

واللّعن : البعد ، أي من رحمة الله : وقد تقدّم .

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي واصب دائم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(105/342)

وقال الخازن :

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾

يقال : وعده بالخير وعداً ، ووعده بالشر وعيداً .

فالوعد يكون في الخير والشر ﴿ نار جهنم خالدين فيها ﴾ فيه حذف تقديره يصلونها

خالدين يعني مقيمين فيها ﴿ هي حسبهم ﴾ يعني هي كافيتهم جزاء على كفرهم ونفاقهم وتركهم الإيمان والطاعة ﴿ ولعنهم الله ﴾ يعني وأبعدهم من رحمته وطردهم عن بابه ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أي دائم لا ينقطع .

فإن قلت قوله خالدين فيها بمعنى ولهم عذاب مقيم وهذا تكرار فما معناه ؟ قلت ليس ذلك تكراراً .

وبيان الفرق من وجهين الأول أن معناه ولهم نوع آخر من العذاب المقيم سوى الصلي بالنار .

ولقائل أن يقول : هذا التأويل مشكل لأنه سبحانه وتعالى قال في النار هي حسبهم وذلك يمنع من ضم شيء آخر إلى عذاب النار .

وأجيب عن هذا الإشكال بأن قوله هي حسبهم في الإيلام ولا يمتنع أن لا يحصل نوع آخر من العذاب من غير جنس النار كالزمهرير ونحوه ويكون ذلك زيادة في عذابهم .

الوجه الثاني : أن العذاب المقيم هو العذاب المعجل لهم في الدنيا وهو ما يقاسونه من خوف اطلاع المسلمين عليهم وما هم فيه من النفاق وكشف فضائحهم وهذا هو العذاب المقيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(106/342)

وقال أبو حيان :

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾

الكفار هنا المعلنون بالكفر ، وخالدين فيها حال مقدرة ، لأن الخلود لم يقارن الوعد .

وحسبهم كافيهم ، وذلك مبالغة في عذابهم ، إذ عذابهم شيء لا يزاد عليه ، ولعنهم أهانهم مع التعذيب وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة المقربين .

مقيم : مؤبّد لا نقلة فيه .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يريد ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق .

والظاهر المخالف للباطن خوفاً من المسلمين ، وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ .

أي المجاهرين ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ مقدرين الخلود فيها ﴿ هِىَ حَسْبُهُمْ ﴾ عقاباً وجزاءً وفيه دليلٌ على عظم عقابِها وعذابِها ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي أبعدهم من

رحمته وأهانهم ، وفي إظهار الاسمِ الجليلِ من الإيذان بشدة السخط ما لا يخفى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي نوعٌ من العذاب غيرَ عذابِ النار دائمٌ لا ينقطع أبداً أو لهم عذاب مقيمٌ في الدنيا لا ينفك عنهم وهو ما يقاسونه من تعب النفاقِ الذي هم منه في بلية دائمةٍ لا يأمنون ساعةً من خوف الفضيحةِ ونزولِ العذاب إن اطُّلع عن أسرارهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(107/342)

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ ﴾

أي المجاهرين فهو من عطف المغار ، وقد يكون من عطف العام على الخاص ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة من مفعول ﴿ وَعْدُ ﴾ أي مقدرين الخلود ، قيل : والمراد دخولهم وتعذيبهم بنار جهنم في تلك الحال لما يلوح لهم يقدرون الخلود في أنفسهم فلا حاجة لما قاله بعضهم من أن التقدير مقدري الخلود بصيغة المفعول .

والإضافة إلى الخلود لأنهم لم يقدروه وإنما قدره الله تعالى لهم ، وقيل : إذا كان المراد يعذبهم الله سبحانه بنار جهنم خالدين لا يحتاج إلى التقدير ، والتعبير بالوعد للتهكم نحو قول

سبحانه : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : 21] ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ عقاباً وجزاء أي فيها ما يكفي من ذلك ، وفيه ما يدل على عظم عقابها وعذابها فإنه إذا قيل للمعذب كفى هذا دل على أنه بلغ غاية النكاية ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي أبعدهم من رحمته وخيره وأهانهم ؛ وفي إظهار الاسم الجليل من الإيذان بشدة السخط ما لا يخفى ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي نوع من العذاب غير عذاب النار دائم لا ينقطع أبداً فلا تكرار مع ما تقدم ، ولا ينافي ذلك ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ لأنه بالنظر إلى تعذيبهم بالنار ، وقيل : في دفع التكرار إن ما تقدم وعيد وهذا بيان لوقوع ما وعدوا به على أنه لا مانع من التأكيد ، وقيل : إن الأول عذاب الآخرة وهذا عذاب ما يقاسونه في الدنيا من التعب والخوف في الفضيحة والقتل ونحوه ، وفسرت الإقامة بعدم الانقطاع لأنها من صفات العقلاء فلا يوصف بها العذاب فهي مجاز عما ذكر .

وجوز أن يكون وصف العذاب بها كما في قوله تعالى : ﴿ عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴾ [القارعة : 7] فالمجاز حينئذ عقلي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(108/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

هذه الجملة إمّا استئنافٌ بياني ناشيء عن قوله : ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ [التوبة : 67] ، وإمّا مبيّنَةٌ لجملة ﴿ فنسيهم ﴾ [التوبة : 67] لأنّ الخلود في جهنم واللعنَ بَيَان للمرادِ من نسيان الله إيّاهم .

والوعد أعمّ من الوعيد ، فهو يطلق على الإخبار بالتزام المخبِر للمخبَر بشيء في المستقبل نافع أو ضار أو لا نفع فيه ولا ضرّ ﴿ هذا ما وعد الرحمن ﴾ [يس : 52] .

والوعيد خاصّ بالضارّ .

وفعل المضي هنا : إمّا للإخبار عن وعيد تقدّم وعَدَه الله المنافقين والمنافقات تذكيراً به لزيادة تحقيقه وإمّا لصوغ الوعيد في الصيغة التي تنشأ بها العُقود مثل (بعت ووهبت) إشعاراً بأنّه وعيد لا يتخلّف مثل العقد والالتزام .

والإظهار في مقام الإضمار لتقرير المحكوم عليه في ذهن السامع حتى يتمكّن اتّصافهم بالحكم .

وزيادة ذِكر ﴿ الكفار ﴾ هنا للدلالة على أنّ المنافقين ليسوا بأهون حالاً من المشركين إذ قد جمع الكفر الفريقين .

ومعنى ﴿ هي حسبهم ﴾ أنّها ملازمة لهم .

وأصل حَسْب أنّه بمعنى الكافي ، ولمَّا كان الكافي يلازمه المكفي كني به هنا عن الملازمة ، ويجوز أن يكون ﴿ حسب ﴾ على أصله ويكون ذكره في هذا المقام تهكماً بهم ، كأنّهم طلبوا النعيم ، فقيل : حسبهم نار جهنم .

واللعن : الإبعاد عن الرحمة والتحقير والغضب .

والعذاب المقيم : إن كان المراد به عذاب جهنّم فهو تأكيد لقوله : ﴿ خالدين فيها هي حسبهم ﴾ لدفع احتمال إطلاق الخلود على طول المدّة ، وتأكيد للكناية في قوله : ﴿ هي حسبهم ﴾ وإن كان المراد به عذاباً آخر تعيّن أنّه عذاب في الدنيا وهي عذاب الخزي والمذلّة بين الناس .

وفي هذه الآية زيادة تقرير لاستحقاق المنافقين العذاب ، وأنّهم الطائفة التي تعذب إذا بقُوا على نفاقهم ، فتعيّن أنّ الطائفة المعفو عنها هم الذين يؤمنون منهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(109/342)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ

وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾

والوعد للخير والوعيد للشر ، ويقال : " أوعد " في الشر ، وفي بعض الأحيان تستخدم كلمة " وَعَدَ " بدلاً من " أوعد " حتى إذا استمع السامع لها يتوقع خيراً . فإذا جاء الأمر بالعذاب كان ذلك أليماً على النفس . وهذا استهزاء بالمنافقين والكفار ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوجوه . . . ﴾ [الكهف : 29]

كأن الله أعطاهم وعداً أنهم إن يستغيثوا سيأتيهم الغوث ثم يقلبه عليهم ويجعله ماء يغلي ويشوي وجوههم – والعياذ بالله – ونلحظ أيضاً أن الحق سبحانه قد قدَّم المنافقين والمنافقات على الكفار ، وهذا يؤيده قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ [النساء : 145]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ والمنافقات والكفار نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ الله وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

وهكذا نرى أن المنافقين موقعهم الدرك الأسفل من النار . والكفار موقعهم الدرك الأعلى ، وقد يسأل سائل : كيف يكون ذلك ؟

ونقول : إن الكافر بكفره قد أعطانا مناعة ؛ فأنه أعلن الكفر فنحن نأخذ حذرنا دائماً منه ، فلا يلحق بنا إلا ضرراً محدوداً ، أما المنافق فهو قد تظاهر بالإيمان فآمناه ، ويستطيع أن

يلحق بنا شرّاً رهيباً ؛ لأنه بحكم ما أخذه من أمان منا ، يعرف أسرارنا ومواطن الضعف فينا ، وقد تكون طعنته قاتلة .

(110/342)

والعدو الخفي – كما نعلم – شر من العدو الظاهر ؛ لأننا نكون على حذر من العدو الظاهر ، لكننا لا نأخذ الحذر من العدو الخفي ، وهو يعرف ما في نفسي ، ويعرف كل تحركاتي ، ويستطيع أن يغدر بي في أي وقت دون أن أكون منتبهاً لهذا الغدر .

ولذلك إذا أراد قوم أن يكيدوا للإسلام دون أن يسلموا ، فكيدهم يفشل ؛ لأنهم وهم على الكفر سيجدون مناعة عند المسلمين من الاستماع إليهم . أما إن احتالوا ودخلوا على الإسلام من داخل المسلمين أنفسهم ، فهم يجنّدون عدداً من ضعاف الإيمان ليطعنوا في هذا الدين ، وتكون طعنات هؤلاء المسلمين بالاسم ، هي القاتلة وهي المؤثرة .

هنا نلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ولم يقل الحق بالخلود أبداً في النار إلا في ثلاث آيات فقط في القرآن الكريم .

في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً وَكَانَ ذلك عَلَى اللهِ يَسِيراً ﴾ [النساء : 169]

وقوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللهَ لَعَنَ الكافرين وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً لاَّ يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً ﴾ [الأحزاب : 64-65]

وقوله جل جلاله : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ [الجن : 23]

ولكنه ذكر الخلود في الجنة أبداً مرات كثيرة .

ونقول : إن الجنة هي بُشرى النعيم للمؤمنين . ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يؤنس خلقه بالنعيم الذي ينتظرهم ، ولكن بالنسبة للنار فهي دار عذاب ، وتأبى رحمة الله وهو الخالق الرحيم بعباده ألا يُذكر الخلود في النار متبوعاً بكلمة أبداً في ثلاث آيات ؛ حتى لا يظن الكفار أن الله سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ دون ذكر الأبدية أنه خلود مؤقت في النار ؛ لذلك يُذكِّرهم بأنه خلود أبدي .

(111/342)

وفي نفس الوقت تأبى رحمته سبحانه وتعالى أن يكون ذلك في كل آية تُذكَر فيها النار ؛ حتى يفتح طريق التوبة والرحمة لكل عاصٍ ، عَلَّه يتوب ويرجع إلى الله .

والحق سبحانه يقول : ﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ * وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : 106-108]

وثار الحديث بين المستشرقين : كيف يقول الحق سبحانه وتعالى عن النار والجنة خالدين فيها أبداً ؟ ثم يأتي في هذه الآيات ويستثنى ويقول : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ والاستثناء وارد على المؤمن والكافر ؟

ونقول : إن الذين يثيرون هذا الاعتراض لم يفهموا القرآن ولا المنهج ، فالذين سيدخلون النار قسمان : قسم آمن ولكنه عصى وارتكب سيئات ؛ فيُعذَّب في النار على قَدْر سيئاته ، ثم يُخرجه الله من النار إلى الجنة لأنه مؤمن ، وقسم آخر كافر أو منافق ، الاثنان يدخلان النار ، ولكن أولهما – وهو المؤمن – يُعذّب على قَدْر سيئاته . والثاني يبقى خالداً فيها لأنه كفر أو نافق .

إذن : فالمؤمن العاصي لا يخلد في النار ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إلا ما شاء ربك ﴾ لأنه لن يبقى في النار إلا بقدر سيئاته ، فكأن خلوده في النار من البداية مؤقت وهو لا يبقى خالداً فيها ؛ لأن مشيئة الله سبحانه وتعالى تدركه ، فتخرجه من النار إلى الجنة . أما الكافر والمنافق فهما خالدان في النار لا يخرجان منها ، فكأن هناك من يدخل النار ولا

يكون خلوده فيها أبديّاً ، وهذا هو المؤمن العاصي . وهناك من يدخل النار ويخلد فيها أبداً ، وهذا هو الكافر أو المنافق .

(112/342)

وإذا جئنا إلى الجنة ، فهناك من سيدخل فيها خالداً أبداً ؛ أي منذ انتهاء الحساب إلى ما لا نهاية . وهذا هو المؤمن الذي غلبت حسناته سيئاته وأدخله الحق الجنة . ولكن هناك من سيدخل الجنة ، ولكن خلوده فيها يكون ناقصاً وهو المؤمن العاصي ؛ لأنه يدخل النار أولاً ليجازي بمعاصيه .

إذن : فالمؤمن العاصي خلوده في النار ناقص ؛ لأنه لن يبقى فيها أبداً . وكذلك يفتقد الخلود في الجنة فور انتهاء لحظة الحساب ؛ لأنه لن يدخل فيها بعد الحساب مباشرة ، بل سيدخل النار أولاً بقدر معاصيه . فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ ينطبق على عصاة المؤمنين الذين سيأخذون حظهم من العذاب أولاً على قدر سيئاتهم ، ثم بعد ذلك يدخلون الجنة .

وقول الحق عن خلود المنافقين في النار : ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي تكفيهم ، كأن يكون هناك إنسان شرير وأنت تريد أن تؤدبه ، فيأتي إنسان قوي ويقول لك : اتركه لي ، أنا وحدي كفيل

أن أؤدبه ، فتقول : هذا حسبه ، أي يكفيه هذا ؛ ليتم التأديب المطلوب . كذلك النار ، فسبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنها تكفيهم ، أي : أن ما سيعانونه فيها من ألم وعذاب كافٍ جدّاً لمجازاتهم على ما فعلوه من سيئات .

ثم يقول الحق : ﴿ وَلَعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي : طردهم من رحمته ومن طاعته فلا يقبل لهم توبة ولا عودة ؛ لأن مكان التوبة هو الدنيا . وأما بعد الموت والآخرة ، فلا محل فيهما لتوبة ولا رجوع عن معصية ؛ لأن زمان ذلك قد انتهى . لذلك فالعذاب لمن لم يَتُبْ في الدنيا هو عذاب مقيم في الآخرة .

(113/342)

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ وقد وصف الحق عذاب جهنم مرة بأنه عذاب أليم ، ومرة بأنه عذاب مهين ، ومرة بأنه عذاب مقيم ؛ لأنه يريدنا أن نعلم أن كل أنواع العذاب ستصيب أهل جهنم ، فإن كان الإنسان مُتجلِّداً له كبرياء يتحمل الألم الشديد ولا يُظْهِر ما يعاني ، فالعذاب لن يكون أليماً فقط ، ولكنه مهين أيضاً ، والهوان هو إيلام النفس ، وإن كان ذا كبرياء مُتجلِّد فإنه يُجَرُّ على وجهه ويُهَانُ . وبعض الناس قد يتحمل الألم ، ولكن لا يتحمل الإهانة التي تصيبه بعذاب نفسي أكثر من العذاب البدني ، فقد تأتي لكبير قوم وتهينه أمام أتباعه ، أو

لأب وتهينه أمام أولاده ، ويكون هذا أكثر إيلاماً لنفسه من أن تضربه .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي : عذاب دائم ، فإن كان أليماً يبقى الألم على شدته ولا يخفَّف أبداً ، وإن كان مهيناً تبقى الإهانة مستمرة ولا تزول أبداً . وفي كلتا الحالتين هو عذاب فيه إقامة وفيه دوام واستمرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(114/342)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾

قوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : حالٌ من المفعول الأول للوعد وهي حالٌ مقدرةٌ ؛ لأنَّ هذه الحالَ لم تقارِنْ الوعد ، وقوله : " هي حَسْبُهم " لا محلَّ لهذه الجملةِ الاستئنافية . وقوله : " هي حسبهم " لا محلَّ لهذه الجملة الاستئنافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 82 ﴾

(115/342)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (68) ﴾

وَعَدَهم النارَ في الآخرة ، ولهم العذابُ المقيمُ في الحاضرة ، فمؤجَّلُ عذابِهم الحُرقَةُ ، ومُعَجَّلُه الفُرْقَةُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 44 ﴾

(116/342)

قوله تعالى ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (69) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان حالهم في الإقبال على العاجلة لكونها حاصلة والإعراض عن العاقبة لأنها غائبة متشابهاً لحال من كان قبلهم من الأمم الخالية والقرون الماضية ، بين لهم ذلك وختم ببيان سوء أحوالهم وقبح مآلهم بتلاشي أعمالهم فقال ملتفتاً إلى أسلوب الخطاب لأنه أوقع في باب العتاب وأقعد في استجلاب المصالح للمتاب : ﴿ كالذين ﴾ أي حاصل ما مضى من أمركم أيها المنافقون أنكم مثل الذين ؛ ولما كان فاعل ما يذكر إنما هو بعض من مضى أثبت الجارّ فقال : ﴿ من قبلكم ﴾ أي من الأمم الخالية ، ثم شرع في شرح حالهم وذكر وجه الشبه فقال : ﴿ كانوا أشد منكم قوة ﴾ لأن الزمان كان إذ ذاك أقرب إلى سن الشباب ﴿ وأكثر أموالاً وأولاداً ﴾ وهذا ناظر إلى قوله : " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴿ فاستمتعوا ﴾ أي طلبوا المتاع والانتفاع في الدنيا بغاية الرغبة معرضين عن العقبى ﴿ بخلاقهم ﴾ أي نصيبهم الذي قدره الله وخلقه لهم ، وكان الأليق بهم أن يتبلغوا به في السفر الذي لا بد منه إلى الآخره ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم ﴾ أي كالمقتفين لآثارهم والقاصدين لنارهم ﴿ كما استمتع ﴾ وفي الإتيان بقوله : ﴿ الذين ﴾ ولما كانوا لم يستغرقوا الزمن الماضي ، أثبت الجارّ فقال : ﴿ من قبلكم بخلاقهم ﴾ ظاهراً غير مضمر تنبيه على ذمهم بقلة النظر لنفسهم المستلزم لقلة عقولهم حيث كانوا دونهم في القوة أبداناً وأموالاً وأولاداً لم يكفوا عن الاستمتاع والخوض خوفاً مما محق أولئك الأحزاب على قوتهم من

العذاب من غير أن ينفعهم سبب من الأسباب ﴿ وخضتم ﴾ أي ذهبتم في أقوالكم وأفعالكم خبطاً على غير سنن قويم ﴿ كالذي ﴾ أي كخوضهم الذي ﴿ خاضوا ﴾ وهو ناظر إلى قولهم ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ قال أبو حيان : وهو مستعار من الخوض في الماء ولا يستعمل إلا في الباطل لأن التصرف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام ، وأمور الباطل إنما هي خوض ، ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة " .

(117/342)

ولما آذن هذا النظم لهم بالخسارة ، حصل التشوف إلى عاقبة أمرهم فأخبر عن ذلك بقوله : ﴿ أولئك ﴾ أي البعداء من الخير ، والظاهر أنه إشارة إلى الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والأولاد ﴿ حبطت ﴾ أي فسدت فبطلت ﴿ أعمالهم في الدنيا ﴾ أي بزوالها عنهم ونسان لذاتها ﴿ والآخرة ﴾ أي وفي الدار الباقية لأنهم لم يسعوا لها سعيها ؛ وزاد في التنبيه على بعدهم مما قصدوا لأنفسهم من النفع فقال : ﴿ وأولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ الخاسرون ﴾ أي لا خاسر في الحقيقة غيرهم لأنهم خسروا خلاقهم في الدارين فخسروا أنفسهم فلا أخسر ممن تشبه بهم ، ولعل في الالتفات إلى مقام الخطاب أيضاً إشارة

إلى تحذير كل سامع من مثل هذه الحال لصحة أن يكون مراداً بهذا المقال ، فإن من أسرار القرآن في إعجازه أن تكون عبارته متوجهة إلى شيء وإشارته شاملة لغيره من حيث اتصافه بعلة ذلك الحال أو غير ذلك من الخلال ؛ قال الإمام أبو الحسن الحرالي في آخر عروة المفتاح في بيان تناول كلية القرآن لكلية الآية ولكل قارىء يقرؤه من أهل الفهم والإيقان : اعلم أن الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن نبأ عن جميع الأكوان ، وأن جميع ما أنبأ عنه من أمر آدم إلى زمان محمد عليهما السلام من أمر النبوات والرسالات والخلافات وأصناف الملوك والفراعنة والطغاة وأصناف الجناة وجميع ما أصابهم من المثوبات والمثلات في يوم آدم عليه السلام إلى زمان محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي هو ستة آلاف سنة ونحوها كل ذلك يتكرر بجملته في يوم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذي هو ألف سنة أو نحوها أعداداً بأعداد وأحوالاً بأحوال في خير أو شرف ، لكل من الماضين مثل يتكرر في هذه الأمة الخاتمة كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " " لكل نبي قبلي في أمتي نظير " ثم ذكر ـ صلى الله عليه وسلم ـ نظراء " مثل إبراهيم كأبي بكر ، ومثل موسى كعمر ، ومثل هارون كعثمان ، ومثل نوح كعلي ، ومثل عيسى كأبي ذر " وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " إني

لأعرف النظراء من أمتي بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم كافرهم ومؤمنهم ممن كان وممن هو كائن وممن سيكون بعد ، ولو شئت أن أسميهم لفعلت " "

فما صد أكثر هذه الأمة عن فهم القرآن ظنهم أن الذي فيه من قصص الأولين وأخبار المثابين والمعاقبين من أهل الأديان أجمعين أن ذلك إنما مقصوده الأخبار والقصص فقط ، كلاً وليس كذلك ! إنما مقصوده الاعتبار والتنبيه لمشاهدة متكررة في هذه الأمة من نظائر جميع أولئك الأعداد وتلك الأحوال والآثار حتى يسمع السامع جميع القرآن من أوله إلى خاتمته منطبقاً على هذه الأمة وأئمتها هداتها وضلالها ، فحينئذ ينفتح له باب الفهم ويضيء له نور العلم ويتجه له حال الخشية ويرى في أصناف هذه الأمة ما سمع من أحوال القرون الماضية وإنه كما قيل في مثل السائر :

إياك أعني واسمعي ياجارة . . .

(119/342)

ثم إذا شهد انطباق القرآن على كلية الأمة فكان بذلك عالماً ينفتح له باب ترق ، فيترقى سمعه إلى أن يجد جميع كلية القرآن المنطبق على كلية الأمة منطبقاً على ذاته في أحوال نفسه وتقلباته وتصرفات أفعاله وازدحام خواطره حتى يسمع القرآن منطبقاً عليه فينتفع بسماع

جميعه ويعتبر بأي آية سمعها منه فيطلب موقعها في نفسه فيجدها بوجه ما رغبة كانت أو رهبة تقريباً كانت أو تبعيداً إلى أرفع الغايات أو إلى أنزل الدركات ، فيكون بذلك عارفاً ، هذا مقصود التنبيه في هذا الفصل جملة ، ولنتخذ لذلك مثالاً يرشد لتفهم ذلك الانطباق على كلية الأمة علماً وعلى خصوص ذات القارىء السامع عرفاناً ، فاعلم أن أصول الأديان المزدوجه التي لم تترق إلى ثبات حقائق المؤمنين فمن فوقهم من المحسنين والموقنين التي جملتها تحت حياطة الملك والجزاء والمداينة ، الذين تروعهم رائعة الموت أولاً ثم رائعة القيامة ثانياً إلى ما يشتمل عليه يوم الدين من أهوال المواقف الخمسين التي كل موقف منها ألف من السنين في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، فعدد هذه الأديان سبعة ، ما من دين منها إلا ويوجد في صنف من أصناف هذه الأمة ، وتجده المعتبر في نفسه في وقت ما بقلة أو كثرة بدوام أو خطرة بضعف أو شدة على إثر دين غالب أو عن لمح عين زائل ، وهذه الأديان السبعة هي دين ﴿ الذين آمنوا ﴾ من هذه الأمة ولم يتحققوا لحقيقة الإيمان فيكونوا من المؤمنين الذين صار الإيمان وصفاً ثابتاً في قلوبهم ، الموحدين المتبرئين من الحول والقوة ، المتحققين لمعناه ، إقداراً لله عليهم بما شاء لا بما يشاؤون ﴿ الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون – أولئك هم المؤمنون حقاً ﴾ [الأنفال : 2–4] ، وأما الذين آمنوا فهم الذين لا يثبتون على حال إيمانهم ولكن

تارة وتارة ، ولذلك هم المنادون والمنهيون والمأمورون في جميع القرآن الذين يتكرر عليهم النداء في

(120/342)

السورة الواحدة مرات عديدة من نحو ما بين قوله تعالى

(121/342)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : 119] إلى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه ﴾ [المائدة : 54] إلى ما بين ذلك من نحو قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ﴾ [النساء : 137] فهؤلاء هم أهل دين ثابت ينتظمون به مع من ليس له ثبات من ماضي الأيان المنتظمين مع من له أصل في الصحة من الأديان الثلاثة في نحو قوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر ﴾ [البقرة : 62] المنتظمين أيضاً مع المغيرين لأديانهم والمفترين لدين لم ينزل الله به من سلطان في نحو قوله تعالى : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين

والنصارى والمجوس والذين أشركوا ﴾ [الحج : 17] فهذا هو الدين الأول ؛ وأما الدين الثاني فهو دين الذين هادوا والذين منهم الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها والذين ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون : سيغفر لنا ، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه والذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون : هذا من عند الله ، والذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، والذين يأكلون الربا وقد نهوا عنه ، والذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وأما الدين الثالث فدين الذين قالوا : إنا نصارى ، الذين منهم الذين ضلوا عن سواء السبيل الذين غلوا في دينهم وقالوا على الله غير الحق واتخذوا رهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم ، وأما الدين الرابع فدين الصابئة الذين منهم متألهو النجوم عباد الشمس والقمر والكواكب ومغيروهم ، هم بالترتيب أول من عبد محسوساً سماوياً ؛ وأما الدين الخامس فدين المجوس الثنوية الذين جعلوا إلهين اثنين : نوراً وظلمة ، وعبدوا محسوساً آفاقياً ، وأما الدين السادس فدين الذين أشركوا وهم الذين عبدوا محسوساً أرضياً غير مصور ، وهم الوثنية أو مصوراً وهم الصنمية – فهذه الأديان

(122/342)

الستة الموفية لعد الست لما جاء فيه ؛ وأما الدين السابع فاعلم أن الله سبحانه حعل السابع أبداً جامعاً لستة خيراً كانت أو شراً ، فالدين السابع هو دين المنافقين الذين ظاهرهم مع الذين آمنوا وباطنهم مع أحد سائر الأديان الخمسة المذكورة إلى أدنى دين مشركها الذين إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا واذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم – فهذه الأديان السبعة متكررة بكليتها في هذه الأمة بنحو مما وقع قبل في الأمم الماضية ، وهو مضمون الحديث الجامع لذكر ذلك في قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لتأخذنّ كما أخذت الأمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحداً من أولئك دخل في حجر ضب لدخلتموه ، قالوا : يارسول الله ! كما صنعت فارس والروم ؟ قال : فهل الناس إلا هم " وما بينه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في هذا الحديث هو من مضمون قوله تعالى ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا ﴾ ، وأهل هذه الأديان السبعة – أو منهم – عمرة دركات جهنم السبع على ترتيبهم ، والناجون بالكلية الفائزون هم المؤمنون فمن فوقهم من المحسنين والموقنين ، ومزيد تفضيل في ذلك وتثنية قول بما ينبه عليه بحول الله تعالى من جهات تتبع طوائف من هذه الأمة سنن من تقدمهم في ذلك ، أما وجه تكرار دين الذين أشركوا في هذه الأمة فباتخاذهم أصناماً وآلهة يعبدونها من دون الله محسوسة جمادية كما اتخذ المشركون الأصنام والأوثان من الحجارة والخشب واتخذت

هذه الأمة بوجه ألطف وأخفى أصناماً وأوثاناً فإنها اتخذت الدينار والدرهم أصناماً والسبائك والنقر أوثاناً من حيث إن الصنم هو ما له صورة والوثن ما ليس له صورة ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(123/342)

" صنم أمتي الدينار والدرهم " وقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " لكل أمة عجل وعجل أمتي الدينار والدرهم " فلا فرق بين ظن المشرك أن الصنم الذي صنعه بيده ينفعه وظن المفتونين من هذه الأمة أن ما اكتسبوا من الدينار والدرهم ينفعهم حتى يشير مثلهم : ما ينفعك إلا درهمك ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ [التوبة : 74] فما من آية نزلت في المشركين في ذكر أحوالهم وتبيين ضلالهم وتفاصيل سرهم وإعلانهم إلا وهي منطبقة على كل مفتون بدينار ه ودرهمه ، فموقع قول المشركين في أصنامهم ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ [الزمر : 3] مثله موقع نظيره من قول المفتون : ما أحب المال إلا لأعمل الخير وأستعين به على وجوه البر ، ولو أراد البر لكان ترك التكسب والتمول له أبر : قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " إنما أهلك من كان قبلكم الدينار والدرهم وهما مهلكاكم " فكل من أحبهما وأعجب بجمعهما فهو مشرك هذه الأمة وهما

لاته وعزاه اللتان تبطلان عليه قول لا إله إلا الله لأنه تأله ماله ؛ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لا إله إلا الله نجاة لعباد الله من عذاب الله ما لم يؤثروا صفقة دنياهم على دينهم " فمن وجد من هذا مسة فليسمع جميع ما أنزل في المشركين من القرآن منطبقاً عليه ومنزلاً إليه وحافاً به حتى يخلصه الله من شركه كما خلص من أخرجه من الظلمات إلى النور من الأولين ، فتخلص هذا المشرك بما له من ظلمته التي غشيت ضعيف إيمانه إلى صفاء نور الإيمان في مضمون قوله تعالى ﴿ ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور ﴾ [الطلاق : 11] فهذا وجه تفضيل يبين نحواً من تكرر دين الشرك في هذه الأمة ، وأما وجه وقوع المجوسية ، ونظيرها في هذه الأمة فإطباق الناس على رؤية الأفعال من أنفسهم خيرها وشرها وإسنادهم أفعال الله إلى خلقه حيث استحكمت عقائدهم على أن فلاناً فاعل وفلاناً فاعل شر وفلاناً يعطي وفلاناً يمنع

(124/342)

وفلاناً خير مني وفلاناً أعطاني ، حتى ملؤوا الدواوين من الأشعار والخطب والرسائل أمداحاً لخلق الله على ما لم يفعلوا وذماً لهم على ما لم يمنعوا يحمدون الخلق على رزق الله ويذمونهم على ما لم يؤته الله ويلحدون في أسمائه حتى يكتب بعضهم لبعض " سيدي

وسندي وأسنى عُددي عبدك ومملوكك " يبطلون بذلك أخوة الإيمان ويكفرون تسوية خلق الرحمن ويدعون لأنفسهم أفعال الله فيقولون : فعلنا وصنعنا وأحسنا وعاقبنا – كلمة نمرودية ، آتاهم ما لم يشعروا باختصاص الله فيه بأمر كالذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك حين قال : أنا أحيي وأميت ، وهذه هي المجوسية الصرف والقدرية المحضة التي لا يصح دين الإسلام معها ، لأن المسلم من أسلم الخلق والأمر لربه

﴿ أسلمت وجهي لله ومن اتبعن ﴾ [آل عمران : 20] ، ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾ [الأعراف : 54] وما سوى ذلك قدرية وهي مجوسية هذه الأمة حيث جعلوا للعبد شركة في فعل الرب وجعلوا له معه تعالى قدرة وقوة ومشيئة واختياراً وتدبيراً ولم يعلموا أن التقدير منع التدبير ، وأنه تعالى هو يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ؛ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " القدرية مجوس هذه الأمة " فكل ما أنزل الله عز وجل في القرآن الجامع لذكر جميع الملل والأديان مما عزاه لمن وزع الأفعال بين الحق والخلق من كلام ذي فرعنة أو نمرودية أو ذي سلطان فللمعتقد المدح والذم حظ منه على حسب توغلهم واستغراقهم في الذين زعموا أنهم فيهم شركاء فخافوهم ورجوهم ، فكل خائف من الخلق أو راج منهم من عداد الذين آمنوا والذين أسلموا في هذه الأمة فهم من مجوس هذه الأمة ، فليسمع السامع ما يقرؤه من ذلك حجة عليه ليسأل الله تعالى التخلص منها وليعلم أن ذلك لم يزل حجة عليه وإن كان لم يشعر به قبل .

فهذا وجه من وقوع المجوسية في هذه الأمة ، وأما وجه وقوع الصابئة ونظيرها في هذه الأمة – فما غلب على أكثرهم وخصوصاً ملوكها وسلاطينها وذوو الرئاسة منها من النظر في النجوم والعمل بحسب ما تظهره هيئتها عندهم من سعد ونحس والاستمطار بالنجوم والاعتماد على الأنواء وإقبال القلب على الآثار الفلكية قضاء بها وحكماً بحسب ما جرى عليه الخليون الذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون – من العناية بها ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أربعة من أمتي هن بهم كفر وليسوا بتاركيهن " – فذكر منها الاستمطار بالنجوم فالمتعلق خوفهم ورجاؤهم بالآثار الفلكية هم صابئة هذه الأمة كما أن المتعلق خوفهم ورجاؤهم بأنفسهم وغيرهم من الخلق هم مجوس هذه الأمة ، وكما أن المتعلق تشوفهم ورجاؤهم بدرهمهم ودينارهم هم مشركو هذه الأمة وما انطوى عليه سر كل طائفة منهم مما تعلق به خوفهم ورجاؤهم فهو ربهم ومعبودهم الذي إليه تصرف جميع أعمالهم ، واسم كل امرىء مكتوب على وجه ما اطمأن به قلبه فكل ما أنزل في القرآن من تزييف أراء الصابئة فهو حجة عليه وجه يقرؤه أو يسمعه من حيث لا يشعر

حتى يقرأ قوم القرآن وهو نذير لهم بين يدي عذاب شديد وهم لا يشعرون ويحسبون أنهم يرحمون به وهم الأخسرون

(126/342)

﴿ ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] فمما يختص بهذه الطائفة المتصبئة ما هو نحو قوله تعالى ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين ﴾ [الأنعام : 75] - الآيات في ذكر الكوكب والقمر والشمس إلى آيات ذكر التسخير لهن نحو قوله تعالى ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴾ [إبراهيم : 33] ﴿ هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ [يونس : 5] ﴿ وإنه هو رب الشعرى ﴾ [النجم : 49] كل ذلك ليصرف تعالى خوف الخلق ورجاءهم عن الأفلاك والنجوم المسخرة إلى المسخر القاهر فوق عبادة الذي استوى على جميعها ، فهذا وجه من وقوع الصائبة في الذين آمنوا والذين أسلموا في هذه الأمة ، وأما وجه وقوع ما غلب على هذه الأمة وكثر فيها وفشا في أعمالها وأحوالها من تمادي طوائف منهم على نظير ما كان عليه

اليهود والنصارى في اختلافهم وغلبة أحوالهم – ملوكهم وسلاطينهم – على أحوال أنبيائهم وعلمائهم وأوليائهم فهو الذي حذرته هذه الأمة وأشعر أولو الفهم بوقوعه فيهم بنحو ما في مضمون قوله تعالى : ﴿ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ﴾ [آل عمران : 105] وما أنبأ به ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لاتبعتموهم " وفي بعض طرقه " حتى لو كان فيهم من أتى أمه جهاراً لكان فيكم ذلك ، قلنا : يارسول الله ! اليهود والنصارى ؟ قال : فمن ؟ " وإنما قوي وكثر في هذه الأمة حال هاتين الملتين لما آتاهما الله من الكتاب والعلم والحكمة فاختلفوا فيها بالأغراض والأهواء وإيثار عرض الدنيا ، وسامحوا الملوك والولاة وحللوا لهم ما حرم الله وحرموا لهم ما حلل الله ، وتوصلوا بهم إلى أغراضهم في الاعتداء على من حسدوه

(127/342)

من أهل الصدق والتقوم ، وكثر البغي بينهم فاستقر حالهم على مثل حالهم ، وسلطت عليهم عقوبات مثل عقوباتهم ، وتمادى ذلك فيهم منذ تبدلت الخلافة ملكاً إلى أن تضع الحرب أوزارها وتصير الملل كلها ملة واحدة ويرجع الافتراق إلى ألفة التوحيد ، فكل من

اقتطع واقتصر من هذه الشريعة المحمدية الجامعة للظاهر والباطن حظاً مختصاً من ظاهر أو باطن ولم يجمع بينهما في علمه وحاله وعرفانه فهو بما لزم الظاهر الشرعي دون حقيقة باطنه من يهود هذه الأمة كالمقيمين لظواهر الأحوال الظاهر التي بها تستمر الدنيا على حسب ما يرضى ملوك الوقت وسلاطينهم ، المضيعين لأعمال السرائر ، المنكرين لأحوال أهل الحقائق الشاهد عليهم تعلق خوفهم ورجائهم بأهل الدنيا ، المؤثرين لعرض هذا الأدنى ، فبهذا ظهرت أحوال اليهود في هذه الأمة ، مر الأعراب مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بسدرة خضراء نضرة ، وكان لأهل الجاهلية سدره يعظمونها ويجتمعون عندها وينيطون بها أسلحتهم ويسمونها ذات أنواط فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا هذه السدرة ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ! فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(128/342)

" قلتموها ورب الكعبة كما قالت بنو إسرائيل : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ! إنها السنن " فحيث ظهرت أحداث اليهود من البغي والحسد وتعظيم ما ظهر تعظيمه من حيث الدنيا واستحقار ضعفاء المؤمنين فهنالك أعلام اليهودية ظاهرة ، وكذلك ايضاً من اقتصر من هذه الشريعة الجامعة المحمدية على باطن من إصلاح حال أو قلب مع تضييع ظاهر الأمر

ومجامع الخير وتعاضد الإسلام واكتفى بما استبطن وتهاون بما استظهر فهو من نصارى هذه الأمة ، ليس بصاحب فرقان فكيف أن يكون صاحب قرآن ، وذلك أن هذا الدين الجامع إنما يقوم بمعالم إسلام ظاهرة وشعار إيمان في القلوب وأحوال نفس باطنة وحقائق إحسان شهودية ، لا يشهد المحسن مع الله سواه ولا يؤمن المؤمن مع الله بغيره ، ولا يخضع المسلم إلى شيء دونه ، فبذلك يتم ، وقد التزم بمعالم الإسلام طوائف يسمون المتفقهة ، والتزم بشعائر الإيمان طوائف يسمون الأصوليين والمتكلمين ، وترامى إلى الإحسان طوائف يسمون المتصوفه ، فمتى كان المتفقه منكراً لصدق أحوال الصوفية لما لعله يراه من خلل في أحوال المتصوفة فقد تسنن بسنن اليهودية ، ومتى كان المتصوف غير مجل للفقهاء لما لعله يراه من خلل في أحوال المتفقه فقد تسنن بسنن النصارى ، وكذلك حال المتكلم بين الفرقتين لأيهما مال ، وإنما أئمة الدين الذين جمع الله لهم إقامة معالم الإسلام وإيمان أهل الإيمان وشهود أهل الإحسان ، تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله فتأتم بهم الصوفية ، وتظهر أنوار قلوبهم على ظلم المتشابهات فيأتم بهم أهل الإيمان ، وتبدو في أعمالهم معالم الإسلام تامة فيأتم بهم أهل الإسلام ﴿ عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ [الفرقان : 63] " أفضل الناس مؤمن في خلق حسن وشر الناس كافر في خلق سيىء " فأولو الفرقان جامعون ومستبصرون فمن اقتصر على ظاهر وأنكر باطناً لزمته مذام اليهود فيما أنزل من القرآن فيهم بحسب توغله

واقتصاره ، ومن اقتصر على باطن دون ظاهر لزمته مذام النصارى فيما أنزل من القرآن فيهم ؛ يذكر أن رجلاً من صلحاء المسلمين دخل كنيسة فقال لراهب فيها : دلني على موضع طاهر أصلي فيه ، فقال الراهب : طهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت ، قال ذلك الصالح المسلم : فخجلت منه ، فاعلم أن كل واحد من هذين الحالين ليس حال صاحب فرقان ولا حال صاحب قرآن لأن صاحب القرآن لا يخجل لهذا القول لأنه حاله ، وقلبه مطهر مما سوى الله ، ومع ذلك لابد أن ينظف ظاهره ، لأن الله سبحانه كما أنه الباطن فيحب صفاء البواطن فإنه الظاهر يحب صلاح الظواهر ، فصاحب القرآن إذا دعي إلى صفاء باطن أجاب ولم يتعلثم وإذا دعي إلى صلاح ظاهر أجاب ولم يتلكأ لقيامه بالفرقان وحق القرآن ، يذكر أن ملكاً رحمه الله دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبي : يا شيخ ! قم فاركع ، فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهباً ، فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن أكون من

﴿ الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون ﴾ [المرسلات : 48] ووقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على سقاية زمزم وقد صنع العباس ـ رضى الله عنهم ـ أحواضاً من شراب

فضيخ التمر والمسلمون يردون عليه وقد خاضوا فيه بأيديهم ، فأهوى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشرب من شرابهم ، فقال له العباس ـ رضى الله عنهم ـ : يا رسول الله ! ألا نسقيك من شراب لنا في أسقية ؟ فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أشرب من هذه ألتمس بركة أيدي المسلمين " ، فشرب منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(130/342)

فصاحب القرآن يعبد الله تبارك وتعالى بقلبه وجسمه لا يقتصر على ظاهر دون باطن ، ولا على باطن دون ظاهر ، ولا على أول دون آخر ولا على آخر دون أول ؛ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره " فمن حق القارىء أن يعتبر القرآن نفسه ويلحظ مواضع مذامه للفرق ويزن به أحوال نفسه من هذه الأديان الستة في هذه الأمة ، وأما وجه وقوع النفاق وأحوال المنافقين فهي داهية القراء وآفة الخليفة ؛ قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أكثر منافقي أمتى قراؤها " وقال بعض كبار التابعين : أدركت سبعين ممن رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلهم يخاف النفاق على نفسه .

وأصل مداخله على الخلق من إيثار حرمة الخلق على حرمة الحق جهلاً بالله عز وجل واغتراراً بالناس ، فليزم لذلك محاسنة أولى البر والصدق ظاهراً وتكرههم بقلبه باطناً ،

ويتبع ذلك من الذبذبة بين الحالين ما وصف الله تعالى من أحوالهم وما بينه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من علاماتهم حتى قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(131/342)

" بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونهما " وكما قال تبارك وتعالى ﴿ لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ ينظر المنافق إلى ما يستسقط به فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم ، كما روي أن الله يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ لسيئته ، والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوىء أهل المساوىء فكيف بمعايب أهل المحاسن ! ومن أظهر علامات المنافق تبرمه بأعمال الصادق كما ذكر ، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقي إلا وإلى جنبه منافق يكره عمله ، وعن ذلك المنافق غماز لماز بخيل جبان مرتاع ، مستثقل في مجامع الخير أجنبي منها ، مستخف في مواطن الشر متقدم فيها ، طلق اللسان بالغيبة والبهتان ، ثقيل اللسان عن مداومة ذكر الله تبارك وتعالى ، عم عن ذكر الله عز وجل في كل حال ، ناظر إلى الناس بكل وجه ، وهو مع ذلك يصانعهم ولا يصادقهم ، يأخذ من الدين ما ينفعه في الدنيا ولا يأخذ ما ينفع في العقبى ، ويجتنب في الدين ما يضر في الدنيا ولا يجتنب ما يضر في في العقبى مما لا يضر في الدنيا ، فهذا وجه من وقوع

شياع النفاق في هذه الأمة ، فلذلك من حق القارىء أن يستشعر مواقع آي القرآن من نفسه في ذات قلبه وفي أحوال نفسه وأعمال بدنه وفي سره مع ربه وفي علانيته مع خلقه ، فإنه بذلك يجد القرآن كله منطبقاً عليه خاصاً به حتى كأن جميعه لم ينزل إلا إليه حتى إذا رغب في أمر رغب هو فيه من وجه ولا يقول : هذا إنما أنزل في كذا ، وإذا رهب القرآن من أمر رهبه من وجه ما ، وإذا أعلى فكذلك وإذا أسفل فكذلك ، ولا يقول : هذا إنما أنزل في كذا حتى يجد لكل القرآن موقعاً في عمله أيّ عمل كان ومحلاً في نفسه أيّ حال كان ومشعراً لقلبه أيّ ملحظ كان ، فيستمع القرآن بلاغاً من الله سبحانه وتعالى إليه بلا واسطة بينه وبينه ، فعند ذلك يوشك أن يكون ممن يقشعر له جلده ابتداء ثم تلين له جلده وقلبه انتهاء ، وربما يجد من الله سبحانه وتعالى

(132/342)

نفح رحمة يفتح له باباً إلى التخلق بالقرآن أسوة بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، سئلت عائشة ـ رضى الله عنهم ـ ا عن خُلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت ، كان خُلقه القرآن وبذلك هو ذو الخلق العظيم – والله واسع عليم – انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 345 . 356 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾

واعلم أن هذا رجوع من الغيبة إلى الخطاب ، وهذا الكاف للتشبيه ، وهو يحتمل وجوهاً :

الأول : قال الفراء : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم ، والمعنى : أنه تعالى شبه المنافقين بالكفار الذين كانوا قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، وقبض الأيدي عن الخيرات ، ثم إنه تعالى وصف أولئك الكفار بأنهم كانوا أشد قوة من هؤلاء المنافقين وأكثر أموالاً وأولاداً ، ثم استمتعوا مدة بالدنيا ثم هلكوا وبادوا وانقلبوا إلى العقاب الدائم ، فأنتم مع ضعفكم وقلة خيرات الدنيا عندكم أولى أن تكونوا كذلك .

والوجه الثاني : أنه تعالى شبه المنافقين في عدولهم عن طاعة الله تعالى ، لأجل طلب لذات الدنيا بمن قبلهم من الكفار ، ثم وصفهم تعالى بكثرة الأموال والأولاد وبأنهم استمتعوا بخلاقهم ، والخلاق النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أي قدر له من خير ، كما قيل له : قسم لأنها قسم ونصيب ، لأنه نصب أي ثبت ، فذكر تعالى أنهم استمتعوا بخلاقهم فأنتم

أيها المنافقون استمتعم بخلاقكم كما استمتع أولئك بخلاقهم .

فإن قيل : ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم ذكره في حق الأولين ثالثاً .

(134/342)

قلنا : الفائدة فيه أنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ العاجلة ، فلما قرر تعالى هذا الذم عاد فشبه حال هؤلاء المنافقين بحالهم ، فيكون ذلك نهاية في المبالغة ، ومثاله : أن من أراد أن ينبه بعض الظلمة على قبح ظلمه يقول له : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب ، وأنت تفعل مثل ما فعله ، وبالجملة فالتكرير ههنا للتأكيد ، ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك المتقدمين في طلب الدنيا ، وفي الإعراض عن طلب الآخرة ، بين حصول المشابهة بين الفريقين في تكذيب الأنبياء وفي المكر والخديعة والغدر بهم .

فقال : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ قال الفراء : يريد كخوضهم الذي خاضوا ، ف ﴿ الذى ﴾ صفة مصدر محذوف دل عليه الفعل .

ثم قال تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أعمالهم فِي الدنيا والأخرة ﴾ أي بطلت حسناتهم في

الدنيا بسبب الموت والفقر والانتقال من العز إلى الذل ومن القوة إلى الضعف ، وفي الآخرة بسبب أنهم لا يثابون بل يعاقبون أشد العقاب ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ حيث أتعبوا أنفسهم في الرد على الأنبياء والرسل ، فما وجدوا منه إلا فوات الخيرات في الدنيا والآخرة ، وإلا حصول العقاب في الدنيا والآخرة ، والمقصود أنه تعالى لما شبه حال هؤلاء المنافقين بأولئك الكفار بين أن أولئك الكفار لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال وإلا الخزي والخسار ، مع أنهم كانوا أقوى من هؤلاء المنافقين وأكثر أموالاً وأولاداً منهم ، فهؤلاء المنافقون المشاركون لهم في هذه الأعمال القبيحة أولى أن يكونوا واقعين في عذاب الدنيا والآخرة ، محرومين من خيرات الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 103.102 ﴾

(135/342)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾

يعني : صنيعكم مع نبيكم ، كما صنع الأمم الخالية مع أنبيائهم عليهم السلام وقال الضحاك : يعني : لعن المنافقين ، كما لعن الذين من قبلكم من الأمم الخالية ؛ ويقال : ولهم عذاب دائم

﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أموالا وأولادا ﴾ ، يعني : لم ينفعهم أموالهم ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً ولا ينفعكم أموالكم ولا أولادكم أيضاً ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ ، يعني : فانتفعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا .

﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بخلاقكم ﴾ ، كما يقول انتفعتم أنتم بنصيبكم من الآخرة في الدنيا ، ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ من الأمم الخالية ، ﴿ بخلاقهم ﴾ ؛ أي بنصيبهم ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ في الباطل ، ﴿ كالذي خَاضُواْ ﴾ ؛ ويقال : كذبتم الرسول كما كذبوا رسلهم .

﴿ أولئك ﴾ ، يعني : أهل هذه الصفة حبطت أعمالهم ، ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم فِي الدنيا والآخرة ﴾ يعني : بطل ثواب أعمالهم فلا ثواب لهم لأنها كانت في غير إيمان .

﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ ، يعني : في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(136/342)

وقال الثعلبى :

﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾

يعني فعلتم كفعل الذين كانوا من قبلكم ولُعنتم وعُذّبتم كما لعن الذين كانوا من قبلكم من

كفار الأُمم الخالية ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ بطشاً ومنعة ﴿ وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فاستمتعوا ﴾ وتمتعوا وانتفعوا ﴿ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ بنصيبهم من الدنيا ورضوا به عوضاً من الآخرة.

قال أبو هريرة: الخلاق: الدين ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ ﴾ في الباطل والكذب على الله وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿ كالذي خاضوا ﴾ أراد كالذين خاضوا وذلك أن (الذي) اسم ناقص مثل (ما) و (من) يعبّر بها عن الواحد والجميع نظير قوله: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الذي استوقد ﴾ [البقرة: 17] ثم قال: ﴿ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ [البقرة: 17] قال الشاعر:

وإنّ الذي حانت بفلج دماؤهم . . . هم القوم كل القوم يا أم خالد

وأن شئت جعلت (الذي) إشارة إلى ضمير، وقوله: خضتم كالخوض الذي خاضوا فيه إلى قوله الخاسرون.

روى أبو هريرة " عن النبي صلى الله عليه وسلم: لتأخذن كما أخذت الامم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع، حتى لو أن أحد من ثمّ أولئك دخل جحر ضب لدخلتموه، قال أبو هريرة اقرؤوا إن شئتم ﴿ كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ الآية، قالوا: يا رسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب، قال: " وهل الناس إلا

هم " " .

قال ابن عباس في هذه الآية : ما اشبه الليلة بالبارحة ، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم ، وقال ابن مسعود : أنتم أشبه الأُمم ببني إسرائيل سمتاً وهدياً ، تتبعون عملهم حذو القذّة بالقذّة غير أني لا أدري أتعبدون العجل أم لا .

(137/342)

وقال حذيفة : المنافقون الذين فيكم اليوم شرٌّ من المنافقين الذي كانوا على عهد النبي صلى الله عليه وسلم قلنا : وكيف ؟ قال : أُولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ . . . فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاَقِهِمْ . . ﴾ .

قيل بنصيبهم من خيرات الدنيا .

ويحتمل استمتاعهم باتباع شهواتهم .

وفيه وجه ثالث : أنه استمتاعهم بدينهم الذي أصروا عليه .

﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوآ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في شهوات الدنيا .

والثاني : في قول الكفر .

وفيهم قولان :

أحدهما : أنهم فارس والروم .

والثاني : أنهم بنو اسرائيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(138/342)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ الآية

أمر الله نبيه أن يخاطب بها المنافقين فيقول لهم ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ ، والمعنى أنتم كالذين أو مثلكم مثل الذين من قبلكم ، وقال الزجّاج : المعنى وعداً كما وعد الذين من قبلكم فهو متعلق بوعد .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قلق ، ثم قال ﴿ كانوا أشد منكم ﴾ وأعظم فعصوا فأهلكوا فأنتم أحرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم ، والخلاق الحظ من القدر والدين وجميع حال المرء وخلاق المرء الشيء الذي هو به خليق والمعنة عجلوا حظهم في دنياهم

وتركوا باب الآخرة فاتبعتموهم أنتم .

قال القاضي أبو محمد : وأورد الطبري في تفسير هذه الآية قوله صلى الله عليه وسلم " لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه " ، وما شاكل هذا الحديث مما يقتضي اتباع محمد صلى الله عليه وسلم لسائر الامم ، وهو معنى لا يليق بالآية جداً إذ هي مخاطبة لمنافقين كفار أعمالهم حابطة والحديث مخاطبة لموحدين يتبعون سنن من مضى في أفعاله دنيوية لا تخرج عن الدين ، وقوله ﴿ خضتم كالذي خاضوا ﴾ أي خلطتم كالذي خلطوا ، وهو مستعار من الخوض في المائعات ، ولا يستعمل إلا في الباطل ، لأن التصرف في الحقائق إنما هو على ترتيب ونظام ، وأمور الباطل إنما هي خوض ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم

(139/342)

" رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة " ، ثم قال تعالى : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ فيحتمل أن يراد ب ﴿ أولئك ﴾ القوم الذين وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بالخلاق ، والمعنى وأنتم أيضاً كذلك يعتريكم بإعراضكم عن الحق ، ويحتمل أن يريد ب ﴿ أولئك ﴾ المنافقين المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ويكون

الخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأول ، و" حبط العمل " وما جرى مجراه يحبط حبطاً إذا بطل بعد التعب فيه ، وحبَط البطن حبَطاً بفتح الباء وهو داء في البطن ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم " إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطاً أو يلم " ، وقوله ﴿ في الدنيا ﴾ معناه إذا كان في المنافقين ما يصيبهم في الدنيا من المقت من المؤمنين وفساد أعمالهم عليهم وفي الآخرة بأن لا تنفع ولا يقع عليها جزاء ، ويقوي أن الإشارة ب ﴿ أولئك ﴾ إلى المنافقين قوله في الآية المستقبلة ﴿ ألم يأتهم ﴾ فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(140/342)

وقال ابن الجوزى :

وموضع الكاف في قوله : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ نصب ، أي : وعدكم الله على الكفر به كما وعد الذين من قبلكم .

وقال غيره : رجع عن الخبر عنهم إلى مخاطبتهم ، وشبَّههم في العدول عن أمره بمن كان قبلهم من الأمم الماضية .

قوله تعالى : ﴿ فاستمتَعوا بخلاقهم ﴾ قال ابن عباس : استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في

الدنيا .

وقال الزجاج : بحظهم من الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ وخضتم ﴾ أي : في الطعن على الدِّين وتكذيب نبيكم كما خاضوا .

﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا ﴾ لأنها لم تُقبل منهم ، وفي الآخرة ، لأنهم لا يثابون عليها ، ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ بفوت الثواب وحصول العقاب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(141/342)

وقال القرطبى :

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ قال الزجاج : الكاف في موضع نصب ، أي وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وَعَد الذين من قبلهم .

وقيل : المعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ؛ فحذف المضاف .

وقيل : أي أنتم كالذين من قبلكم ؛ فالكاف في محل رفع لأنه خبر ابتداء محذوف .

ولم ينصرف "أشَدّ" لأنه أفعل صفة .

والأصل فيه أَشْدَد ، أي كانوا أشدّ منكم قوّة فلم يتهيأ لهم ولا أمكنهم رفع عذاب الله عزّ وجلّ .

الثانية روى سعيد عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "تأخذون كما أخذت الأُمم قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر وباعاً بباع حتى لو أن أحداً من أُولئك دخل جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه" .

قال أبو هريرة : وإن شئتم فاقرءوا القرآن : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فاستمتعوا بِخَلاَقِهِمْ ﴾ قال أبو هريرة : والخَلاَق الدِّين ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ حتى فرغ من الآية .

قالوا : يا نبيّ الله ، فما صنعت اليهود والنصارى ؟ قال : "وما الناس إلاَّ هم" " وفي الصحيح عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " "لَتَتَّبِعُنّ سنَن مَنْ قبلَكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضَبّ لدخلتموه" قالوا : يا رسول الله ، اليهود والنصارى ؟ قال : "فمن" " ؟ وقال ابن عباس : ما أشبه الليلة بالبارحة ، هؤلاء بنو إسرائيل شبهنا بهم .

ونحوه عن ابن مسعود .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فاستمتعوا بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أي انتفعوا بنصيبهم من الدِّين كما فعل الذين

من قبلهم .

﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ خروج من الغيبة إلى الخطاب .

﴿ كالذي خاضوا ﴾ أي كخوضهم .

(142/342)

فالكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف ؛ أي وخضتم خوضاً كالذين خاضوا .

و"الذي" اسم ناقص مثل مَن ، يعبّر به عن الواحد والجمع .

وقد مضى في "البقرة" .

ويقال : خُضْت الماء أخوضه خَوْضاً وخِياضاً .

والموضع مخاضَة ؛ وهو ما جاز الناسُ فيها مُشاةً وركباناً .

وجمعها المخَاض والمَخاوِض أيضاً ؛ عن أبي زيد .

وأخضت دابتي في الماء .

وأخاض القوم ، أي خاضت خيلهم .

وخضت الغَمرات : اقتحمتها .

ويقال : خاضه بالسيف ، أي حرّك سيفه في المضروب .

وخَوّض في نَجيعه شدّد للمبالغة .

والمِخْوَض للشّراب كالمِجْدح للسَّويق ؛ يقال منه : خضت الشراب .

وخاض القوم في الحديث وتخاوضوا أي تفاوضوا فيه ؛ فالمعنى : خضتم في أسباب الدنيا باللّهو واللعب .

وقيل : في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب .

﴿ أولئك حَبِطَتْ ﴾ بطلت .

وقد تقدّم .

﴿ أَعْمَالُهُمْ ﴾ حسناتهم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ وقد تقدّم أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(143/342)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾

هذا رجوع عن الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف في كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم

كأفعال الذين من قبلكم ، شبه فعل المنافقين بفعل الكفار الذين كانوا من قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن فعل الخير والطاعة وقيل : إنه تعالى شبه المنافقين في عدولهم عن طاعة الله واتباع أمره لأجل طلب الدنيا بمن قبلهم من الكفار ثم وصفهم الكفار بأنهم كانوا أشد من هؤلاء المنافقين قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فقال تعالى : ﴿ كانوا أشد منكم قوة ﴾ يعني بطشاً ومنعة ﴿ وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ يعني فتمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة والخلاق النصيب وهو ما خلق الله للإنسان وقدر له من خير كما يقال قسم له ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم ﴾ وهذا خطاب للحاضرين يعني فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ فإن قلت ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم إعادة ذكره في حق الأولين ثالثاً .

قلت فائدته أنه يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وشهواتها ورضاهم بها وتركهم النظر فيما يصلحهم في الدار الآخرة ثم شبه حال المخاطبين من المنافقين والكفار بحال من تقدمهم ثم رجع إلى ذكر حال الأولين ثالثاً وهذا كما تريد أن تبكت بعض الظلمة على قبح ظلمة فتقول له أنت مثل فرعون كان يقتل بغير حق ويعذب بغير جرم فأنت تفعل مثل ما كان يفعل فالتكرير هنا للتأكيد وتقبيح فعلهم وفعل من شابههم في فعلهم .

وقوله تعالى : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ معطوف على ما قبله ومستند إليه يعني وسلكتم في فعلكم مثل ما سلكوا في اتباع الباطل والكذب على الله وتكذيب رسوله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿ أولئك حبطت أعمالهم ﴾ يعني بطلت أعمالهم ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ يعني أن أعمالهم لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة بل يعاقبون عليها ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ والمعنى أنه كما بطلت أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون (ق) .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب لاتبعتموهم قلنا يا رسول الله اليهود والنصارى قال فمن " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(145/342)

وقال أبو حيان :

﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة ﴾

هذا التفات من ضمير الغيبة إلى ضمير الخطاب .

قال الفراء : التشبيه من جهة الفعل أي : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم فتكون الكاف في موضع نصب .

وقال الزجاج : المعنى وعد كما وعد الذين من قبلكم ، فهو متعلق بوعد .

وقال ابن عطية : وفي هذا قلق .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن تكون متعلقة بيستهزؤون ، وهذا فيه بعد .

وقيل : في موضع رفع التقدير أنتم كالذين .

والتشبيه وقع في الاستمتاع والخوض .

وقوله : كانوا أشد ، تفسير لشبههم بهم ، وتمثيل لفعلهم بفعلهم .

والخلاق : النصيب أي : ما قدر لهم .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : أي فائدة في قوله : فاستمتعوا بخلاقهم ، وقوله : كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم مغن عنه ، كما أغنى كالذي خاضوا ؟ (قلت) : فائدته أنْ قدم الأولين بالاستمتاع ما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم ، فشبهوا بهم الفانية عن النظر في العاقبة ، وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الراضي به ، ثم شبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم كما يريد أن ينبه بعض الظلمة على سماجة فعله فيقول : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف ، وأنت تفعل مثل فعله .

وأما وخضتم كالذي خاضوا فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن بإسناده إليه عن تلك المقدمة انتهى .

يعني : استغنى عن أن يكون التركيب ، وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا .

قال ابن عطية : كانوا أشد منكم وأعظم فعصوا فهلكوا ، فأنتم أحرى بالإهلاك لمعصيتكم وضعفكم والمعنى : عجلوا حظهم في دنياهم ، وتركوا باب الآخرة ، فاتبعتموهم أنتم انتهى .

(146/342)

ولما ذكر تشبيههم بمن قبلهم وذكر ما كانوا فيه من شدة القوة وكثرة الأولاد ، واستمتاعهم بما قدّر لهم من الأنصباء ، شبه استمتاع المنافقين باستمتاع الذين من قبلهم ، وأبرزهم بالاسم الظاهر فقال : كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، ولم يكن التركيب كما استمتعوا بخلاقهم ليدل بذلك على التحقير ، لأنه كما يدل بإعادة الظاهر مكان المضمر على التفخيم والتعظيم ، كذلك بدل بإعادته على التحقير والتصغير لشأن المذكور كقوله تعالى : ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ﴾ وكقوله : ﴿ إن المنافقين هم الفاسون ﴾ ولم يأت التركيب أنه كان ، ولا أنهم هم .

وخضتم : أي دخلتم في اللهو والباطل ، وهو مستعار من الخوض في الماء ، ولا يستعمل إلا في الباطل ، لأنّ التصرف في الحق إنما هو على ترتيب ونظام ، وأمور الباطل إنما هي خوض .

ومنه : رب متخوض في مال الله له النار يوم القيامة .

كالذي خاضوا : أي كالخوض الذي خاضوا قاله الفراء .

وقيل : كالخوض الذين خاضوا .

وقيل : النون محذوفة أي : كالذين خاضوا ، أي كخوض الذين .

وقيل : الذي مع ما بعدها يسبك منهما مصدر أي : كخوضهم .

والظاهر أنّ أولئك إشارة إلى الذين وصفهم بالشدّة وكثرة الأموال والأولاد ، والمعنى : وأنتم كذلك يحبط أعمالكم .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يريد بأولئك المنافقين المعاصرين لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، ويكون الخطاب لمحمد (صلى الله عليه وسلم) ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأول .

وقوله : في الدنيا ما يصيبهم في الدنيا من التعب وفساد أعمالهم ، وفي الآخرة نار لا تنفع ولا يقع عليها جزاء .

ويقوي الإشارة بأولئك إلى المنافقين قوله في الآية المستقبلة ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فتأمله انتهى .

وقال الزمخشري : حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، نقيض قوله تعالى : ﴿ وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(147/342)

وقال أبو السعود :

﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾

التفاتٌ من الغَيبة إلى الخطاب للتشديد والكافُ في محل الرفعِ على الخبرية ، أي أنتم مثلُ الذين مِن قبلكم ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أموالا وأولادا ﴾ تفسيرٌ وبيانٌ لشَبَههم بهم وتمثيلٌ لحالهم بحالهم ﴿ فاستمتعوا ﴾ تمتعوا ، وفي صيغة الاستفعالِ ما ليس في صيغة التفعلِ من الاستزادة والاستدامةِ في التمتع ﴿ بخلاقهم ﴾ بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، واشتقاقُه من الخَلْق بمعنى التقدير وهو ما قُدّر لصاحبه ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بخلاقكم كَمَا اسْتَمْتَعَ ﴾ الكاف في محل النصبِ على أنه نعتٌ لمصدر محذوفٍ أي استمتاعاً كاستمتاع ﴿ الذين مِنْ قَبْلِكُم بخلاقهم ﴾ ذمّ الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسةِ من الشهوات الفانيةِ والتهائهم بها عن النظر في العواقب الحقةِ واللذائذ الحقيقيةِ تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم إياهم واقتفائِهم أثرَهم ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي دخلتم في الباطل ﴿ كالذي خَاضُواْ

﴿ أي كالذين بإسقاط النونِ أو كالفوج الذي أو كالخوض الذي خاضوه ﴿ أولئك ﴾ إشارةٌ إلى المتصفين بالأوصاف المعدودةِ من المشبَّهين والمشبَّهة بهم لا إلى الفريق الأخير فقط فإن ذلك يقتضي أن يكون حُبوطُ أعمالِ المشبهين وخسرانُهم مفهومَين ضمناً لا صريحاً ويؤدي إلى خلوّ تلوينِ الخطابِ عن الفائدة إذ الظاهرُ حينئذ أولئكم والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم أو لكل من يصلُح للخطاب أي أولئك الموصوفون بما ذكر من الأفعال الذميمة .

(148/342)

﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ ليس المرادُ بها أعمالَهم المعدودةَ كما يُشعر به التعبيرُ عنهم باسم الإشارةِ فإن غائلتَها غنيةٌ عن البيان بل أعمالَهم التي كانوا يستحقون بها أجوراً حسنةً لو قارنت الإيمان ، أي ضاعت وبطَلت بالكلية ولم يترتب عليها أثرٌ ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ بطريق المثوبةِ والكرامةِ ، أما في الآخرة فظاهرٌ وأما في الدنيا فلأنّ ما يترتب على أعمالهم فيها من الصحةِ والسعة وغيرِ ذلك حسبما ينبىء عنه قولُه عز وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الحياة الدنيا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ ﴾ ليس ترتبُه عليها على طريقه المثوبةِ والكرامة بل بطريق الاستدراج ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي الموصوفون بحُبوط

الأعمالِ في الدارين ﴿ هُمُ الخاسرون ﴾ الكاملون في الخسران في الدارين الجامعون لمباديه وأسبابِه طراً فإنه قد ذهبت رؤوسُ أموالِهم التي هي أعمالُهم فيما ضرَّهم ولم تنفعْهم قطّ ولو أنها ذهبت فيما لا يضرهم ولا ينفعهم لكفى به خسراناً ، وإيرادُ اسمِ الأشارة في الموضعين للإشعار بعلية الأوصافِ المُشارِ إليها للحبوط والخسران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(149/342)

وقال الآلوسى :

﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾

التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد ، والكاف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم مثل الذين من قبلكم من الأمم المهلكة أو في حيز النصب بفعل مقدر أي فعلتم مثل الذين من قبلكم ، ونحوه قول النمر يصف ثور وحش وكلاباً :

حتى إذا الكلاب قال لها . . .

كاليوم مطلوباً ولا طالباً

فإن أصله لم أر مطلوباً رأيته اليوم ولا طلبة كطلبة رأيتها اليوم فاختصر الكلام فقيل لم أر

مطلوباً كمطلوب اليوم لملابسته له ثم حذف المضاف اتساعاً وعدم الباس ، وقيل : كاليوم وقدم على الموصوف فصار حالا للاعتناء والمبالغة وحذف الفعل للقرينة الحالية ووجه الشبه المعمولية لفعل محذوف ، وقوله سبحانه : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أموالا وأولادا ﴾ الخ تفسير للتشبيه وبيان لوجه الشبه بين المخاطبين ومن قبلهم فلا محل لها من الاعراب ، وفيه إيذان بأن المخاطبين أولى وأحق بأن يصيبهم ما أصابهم ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ أي تمتعوا بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، وفي صيغة الاستفعال ما ليس في التفعل من الاستفادة والاستدامة في التمتع ، واشتقاق الخلاق من الخلق بمعنى التقدير وهو أصل معناه لغة ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بخلاقكم كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بخلاقهم ﴾ ذم الأولين باستمتاعهم بحظوظهم الخسيسة من الشهوات الفانية والتهائهم فيها عن النظر في العاقبة والسعي في تحصيل اللذائذ الحقيقية تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ، ولذلك اختير الاطناب بزيادة ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وهذا كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مقله ، ومحل الكافالنصب على أنه نعت لمصدر محذوف أي استمتعتم استمتاعاً كاستمتاع الذين ﴿ وَخُضْتُمْ ﴾ أي دخلتم في الباطل ﴿ كالذي خَاضُواْ ﴾ أي كالذين فحذفت نونه تخفيفاً كما في قوله :

إن الذين حانت بفلج دماؤهم . . .

هم القوم كل القوم يا أم خالد

ويجوز أن أكون الذي صفة لمفرد اللفظ مجموع المعنى كالفوج والفريق فلوحظ في الصفة اللفظ وفي الضمير المغنى أو هو صفة مصدر محذوف أي كالخوض الذي خاضوه ورجح بعدم التكلف فيه ، وقال الفراء : إن الذي تكون مصدرية وخرج هذا عليه أي كخوضهم وهو كما قال أبو البقاء نادر ، وهذه الجملة عطف على ما قبلها وحينئذ إما أن يقدر فيها ما يجعلها على طرزه لعطفها عليه أو لا يقدر إشارة إلى الاعتناء بالأول ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المتصفين بالصفات المعدودة من المشبهين والمشبه بهم ، وكونه إشارة إلى الأخير يقتضي أن يكون حكم المشبهين مفهوماً ضمناً ويؤدي إلى خلو تلوين الخطاب عن الفائدة إذ الظاهر حينئذ أولئكم والخطاب لسيد المخاطبين عليه الصلاة والسلام أو لكل من يصلح له أي أولئك المتصفون بما ذكر من القبائح ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ أي التي كانوا يستحقون بها أجوراً حسنة لو قارنت الإيمان ، والحبط السقوط والبطلان والاضمحلال ؛ والمراد لم يستحقوا عليها ثواباً وكرامة ﴿ فِى الدنيا والاخرة ﴾ أما في الآخرة فظاهر وأما في الدنيا فلأن ما حصل لهم من الصحة والسعة ونحوهما ليس الا بطريق الاستدراج كما نطقت به الآيات دون الكرامة ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ الموصوفون بحبط الأعمال في الدارين ﴿ هُمُ

الخاسرون ﴾ أي الكاملون في الخسران الجامعون لمباديه وأسبابه طرا .

وإيراد اسم الإشارة في الموضعين للأشعار بعلية الأوصاف المشار إليها للحبط والخسران .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(151/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا ﴾

قيل هذا الخطاب التفات ، عن ضمائر الغيبة الراجعة إلى المنافقين ، إلى خطابهم لقصد التفريع والتهديد بالموعظة ، والتذكير عن الغرور بما هم فيه من نعمة الإمهال بأنّ آخر ذلك حبط الأعمال في الدنيا والآخرة ، وأن يحقّ عليهم الخسران .

فكاف التشبيه في موضع الخبر عن مبتدأ محذوف دلّ عليه ضمير الخطاب ، تقديره : أنتم كالذين من قبلكم ، أو الكاف في موضع نصب بفعل مقدّر ، أي : فعلتم كفعل الذين من قبلكم ، فهو في موضع المفعول المطلق الدالّ على فعله ، ومثله في حذف الفعل والإتيان بما هو مفعول الفعل المحذوف قول النمر بن تولب:

حتّى إذا الكلاّب قال لها . . .

كاليومِ مطلوباً ولا طالِبا

أراد : لم أر كاليوم ، إلاّ أنّ عامل النصب مختلف بين الآية والبيت .

وقيل هذا من بقية المَقول المأمور بأن يبلغه النبي صلى الله عليه وسلم إيّاهم من قوله : ﴿ قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون ﴾ [التوبة : 65] الآية .

فيكون ما بينهما اعتراضاً بقوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] إلخ فضمير الخطاب لهم جار على مقتضى الظاهر بدون التفات والكلام مسوق لتشبيه حالهم في مصيرهم إلى النار .

والإتيان بالموصول لأنّه أشمل وأجمع للأمم التي تقدّمت مثل عاد وثمود ممّن ضرب العرب بهم المثل في القوة .

و﴿ أشَدّ ﴾ معناه أقوى ، والقوة هنا القدرة على الأعمال الصعبة كقوله : ﴿ أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة ﴾ [فصلت : 15] أو يُراد بها العزّة وعُدّة الغلب باستكمال العَدد والعُدد ، وبهذا المعنى أوقعت القوة تمييزا ل ﴿ أشد ﴾ كما أوقعت مضافاً إليه شديد في قوله تعالى : ﴿ علمه شديد القوى ﴾ [النجم : 5] .

(152/342)

وكثرة الأموال لها أسباب كثيرة : منها طيب الأرض للزرع والغرس ورَعِي الأنعام والنحلِ ، ومنها وفرة التجارة بحسن موقع الموطن بين مواطن الأمم ، ومنها الاقتراب من البحار للسفر إلى الأقطار وصيد البحر ، ومنها اشتمال الأرض على المعادن من الذهب والفضّة والحديد والمواد الصناعية والغذائية من النبات ، كأشجار التوابل ولحاء الدبغ والصبغ والأدوية والزراريع والزيوت .

وكثرة الأولاد تأتي من الأمن بسبب بقاء الأنفس ، ومن الخصب المؤثر قوة الأبدان والسلامة من المجاعات المعقبة للموتان ، ومن حسن المُناخ بالسلامة من الأوبئة المهلكة ، ومن الثروة بكثرة الأزواج والسراري والمراضع .

والاستمتاع : التمتّع ، وهو نوال أحدٍ المتاعَ الذي به التذاذ الإنسان وملائمه وتقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ في سورة الأعراف (24) .

والسين والتاء فيه للمبالغة في قوة التمتّع .

والخلاق : الحَظ من الخير وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا وماله في الآخرة من خلاق ﴾ في سورة البقرة (200) .

وتفرّع فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ على ﴿ كانوا أشد ﴾ : لأنّ المقصود إدخاله في الحالة المشبه بها كما سيأتي .

وتفرّع ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم ﴾ على ما أفاده حرف الكاف بقوله : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ من معنى التشبيه ، ولذلك لم تعطف جملة ﴿ فاستمتعتم ﴾ بواو العطف ، فإنّ هذه الجملة هي المقصد من التشبيه وما تفرّع عليه ، وقد كان ذكر هذه الجملة يغني عن ذكر جملة : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ لولا قصد الموعظة بالفريقين : المشبّهِ بهم ، والمشبّهين ، في إعراض كليهما عن أخذ العدّة للحياة الدائمة وفي انصبابهما على التمتّع العاجل فلم يكتف في الكلام بالاقتصار على حال أحد الفريقين ، قصداً للاعتناء بكليهما فذلك الذي اقتضى هذا الاطناب ولو اقتصر على قوله : ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ولم يذكر قبله ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ لحصل أصل المعنى ولم يستفد قصد الاهتمام بكلا الفريقين .

ولذلك لمّا تقرّر هذا المقصد في أنفس السامعين لم يحتج إلى نسج مثل هذا النظم في قوله : ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ .

وقوله : ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ تأكيد للتشبيه الواقع في قوله : ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ إلى قوله فاستمتعتم بخلاقكم للتنبيه على أنّ ذلك الجزء بخصوصه ، من بين الحالة المشبهةِ والحالةِ المشبه بها ، هو محلّ الموعظة والتذكير ، فلا يغرّهم ما هم فيه من نعمة الإمهال والاستدراج ، فقدّم قوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وأتى بقوله : ﴿

كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ مؤكِّداً له دون أن يقتصر على هذا التشبيه الأخير ، ليتأتى التأكيد ، ولأنّ تقديم ما يتمّم تصوير الحالة المشبّه بها المركّبة ، قبل إيقاع التشبيه ، أشدّ تمكيناً لمعنى المشابهة عند السامع .

وقوله : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ تشبيه لخوض المنافقين بخوض أولئك وهو الخوض الذي حكي عنهم في قوله : ﴿ ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ [التوبة : 65] ولبساطة هذا التشبيه لم يؤت فيه بمثل الأسلوب الذي أتي به في التشبيه السابق له .

(154/342)

أي : وخضتم في الكفر والاستهزاء بآيات الله ورسوله كالخوض الذي خاضوه في ذلك ، فأنتم وهم سواء ، فيوشك أن يَحيق بكم ما حاق بهم ، وكلامنا في هذين التشبيهين أدقّ ما كتب فيهما .

و ﴿ الذي ﴾ اسم موصول ، مفرد ، وإذ كان عائد الصلة هنا ضمير جمع تعيّن أن يكون المراد بـ ﴿ الذي ﴾ : تأويله بالفريق أو الجَمْع ، ويجوز أن يكون ﴿ الذي ﴾ هنا أصله الذين فخُفّف بحذف النون على لغة هذيل وتميم كقول الأشهب بن رميلة النهشلي:

وإن الذي حانت بفلج دماؤهم . . .

هُم القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالد

ونحاة البصرة يرون هذا الاستعمال خاصّاً بحالة أن تطول الصلة كالبيت فلا ينطبق عندهم على الآية ، ونحاة الكوفة يجوزّونه ولو لم تطل الصلة ، كما في الآية ، وقد ادّعى الفرّاء : أنّ ﴿ الذي ﴾ يكون موصولاً حرفياً مؤوّلاً بالمصدر ، واستشهد له بهذه الآية ، وهو ضعيف .

ولمّا وصفت حالة المشبه بهم من الأمم البائدة أعقب ذلك بالإشارة إليهم للتنبيه على أنّهم بسبب ذلك كانوا جديرين بما سيخبر به عنهم ، فقال تعالى : ﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ وفيه تعريض بأنّ الذين شابهوهم في أحوالهم أحرياء بأن يحلّ بهم ما حلّ بأولئك ، وفي هذا التعريض من التهديد والنذارة معنى عظيم .

والخوض : تقدّمت الحوالة على معرفته آنفاً .

والحبط : الزوال والبطلان ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ في سورة البقرة (217) .

والمراد بأعمالهم : ما كانوا يعملونه ويكدحون فيه : من معالجة الأموال والعيال والانكباب عليهما ، ومعنى حبْطها في الدنيا استئصالها وإتلافها بحلول مختلف العذاب بأولئك الأمم ، وفي الآخرة بعدم تعويضها لهم ، كقوله تعالى : ﴿ ونرثه ما يقول ﴾ [مريم : 80] أي في

الدنيا ﴿ ويأتينا فرداً ﴾ [مريم : 80] أي في الآخرة لا مال له ولا ولد ، كقوله : ﴿ ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه ﴾ [الحاقة : 28 ، 29] .

(155/342)

وفي هذا كلّه تذكرة للنبيء صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأنْ لا يظنّوا أن الله لمّا أمهل المنافقين قد عفا عنهم .

ولمّا كانت خسارتهم جسيمة جعل غيرهم من الخاسرين كلاً خاسرين فحصرت الخسارة في هؤلاء بقوله : ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ قصراً مقصوداً به المبالغة .

وإعادة اسم الإشارة للاهتمام بتمييز المتحدّث عنهم لزيادة تقرير أحوالهم في ذهن السامع .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(156/342)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ ﴾

وهنا يُذكِّرهم سبحانه بمواكب الكفر التي صاحبت الرسل السابقين ، وقد كانت هذه المواكب فيها المنافقون وفيها الكفار ، وسبحانه وتعالى عندما يرسل رسولاً يؤيده ضد أعداء منهج الخير .

والحق سبحانه يريدنا أن نتذكر ما حدث للأمم السابقة الذين كانوا أكثر قوة وأكثر أموالاً وأولاداً من أولئك الكفار والمنافقين الذين يواجهون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولنقرأ قول الحق جل جلاله : ﴿ والفجر * وَلَيالٍ عَشْرٍ * والشفع والوتر * والليل إِذَا يَسْرِ * هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ * أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العماد * التي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد * وَثَمُودَ الذين جَابُواْ الصخر بالواد * وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد * الذين طَغَوْاْ فِي البلاد * فَأَكْثَرُواْ فِيهَا الفساد * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لبالمرصاد ﴾ [الفجر : 1-14]

ونحن لم نشهد ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ التي وصفها الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي البلاد ﴾ ، ولكن القرآن أكد لنا أنها وصلت إلى درجة من الحضارة التي لم يصل إليها أحد . وقد يتساءل بعض الناس : أين ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ من حضارات اليوم ؟ . ونقول : إن هناك أسراراً لله في كونه قد أعطاها بعض خلقه ولم يُعْطِها لأحد حتى الآن .

وإذا نظرنا إلى الفراعنة مثلاً نجد أن الحق سبحانه وتعالى قد وصفهم في القرآن بقوله : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأوتاد ﴾ . والأهرامات أوتاد ، والمسلات أوتاد ، وما زالت علوم حضارة الفراعنة تغيب عن البشر حتى الآن ، فهناك من مظاهر هذه الحضارة ما نعجز عنه حتى الآن ، مثل سير التحنيط وبناء الأهرام ؛ فهذه الكتل الحجرية الضخمة التي ارتفعت ويمسك بعضها البعض ، دون أية مواد مثبتة ، وما زال العلم الحديث عاجزاً حتى اليوم عن أن يوجد هرماً مبنيّاً بنفس طريقة قدماء المصريين دون استخدام أي مواد مثبتة ، ومع ذلك فهؤلاء الفراعنة لم يستطيعوا أن يسودوا الكون رغم قوتهم وحضارتهم ، بل أخذهم الله أَخْذَ عزيز مقتدر . وجاءت الرمال فدفنت حضارتهم . ثم شاء الله لنا أن تكشف عن جزء بسيط منها ؛ فإذا بهذا الجزء البسيط يبهر الدنيا كلها . وإذا بالعالم كله يأتي ليشاهد حضارة الفراعنة ، ويتعجب من هذا الفن وهذا الرقي في العلم . فإذا كانت هذه هي حضارة آل فرعون ، فما بالك بحضارة إرم ذات العماد التي لم يُخْلَق مثلها في البلاد ؟

وهكذا نعلم أن بعض حضارة إرم ذات العماد ما زالت مخفية حتى الآن لا يعلم أحد عنها شيئاً . ومدفونة في باطن الأرض . ولعل الله سبحانه وتعالى قد أبقاها ليكشفها في زمن قادم يزداد فيه بُعْد الناس عن الدين ؛ لأن الإنسان كلما تقدم في الحضارة ابتعد عن الإيمان ؛ لإحساسه بأنه متمكن في الكون ؛ مسيطر عليه ؛ حينئذ ربما يكشف الحق سبحانه

وتعالى عن حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ ليعرف الناس أن ما وصلوا إليه لا يساوي شيئاً مما كشفه الله لهؤلاء القوم .

(158/342)

وإن سأل سائل : أين هي حضارة ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ ؟ نقول له : إنها في وادي الأحقاف والهبّة الواحدة من الرياح في هذا الوادي تستر قافلة بأكملها ؛ أي إذا هبّت ريح ، فإن الرمال لا تداري الطريق وحده ؛ ولكنها تداري القافلة كلها ، فكم عاصفة رملية هبّت على المكان الذي كانت تقطنه ﴿ إِرَمَ ذَاتِ العماد ﴾ فأخفتْ حضارتهم ؟ لا بد إذن من حفريات على مستوى عميق جدّاً لنعثر على تلك الحضارة ؛ لأننا نعلم ونرى أن كل الكشوف الأثرية تحتاج أن نحفر لها ؛ لأن الرمال تتراكم فوق الآثار . بل إننا نرى البيوت القديمة في القرى ، لا بد أن تنزل لها بدرجة أو درجتين لتدخل إليها من الباب ؛ لأن العوامل الطبيعية والرصف وغير ذلك تزيد من علو الطريق . فإذا كان هذا هو عمل الرياح العادية في وقت قصير ، فما بالك بالأعاصير في أزمان طويلة ؟

وأنت إذا سافرت وأغلقت نوافذ مسكنك إغلاقاً مُحْكماً ، وعُدْتَ بعد شهر واحد تجد الأثاث مغطى بطبقة من التراب ، فإن غبْتَ عاماً وجدت كمية كثيفة من التراب ، هذا

بالنسبة لبيت محكم الإغْلاق ، فما بالك بحضارة معرضة لكل هذه الظواهر الطبيعية ، وتُسْتر كل شهر بطبقة جديدة كثيفة من التراب ؟

ويقول سبحانه : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ أي : أن حضارتهم أكبر من حضارتنا ؛ لأن الحضارة كلما كانت متقدمة كانت الأمة قوية ، وكلما تأخر شعب حضاريّاً كان ضعيفاً .

(159/342)

إذن : فالذين من قبلنا كانوا أكثر حضارة وأكثر أموالاً وأولاداً . ولسائل أن يسأل : كيف تكون لهم كثرة أولاد والعالم يزداد عدداً كل عام ، وكيف تكون لهم كثرة أموال ونحن نكشف كنوز الأرض جيلاً بعد جيل ؟ نقول : لا تأخذ الكثرة على أنها كثرة عددية ، بل خذها بنسبتها ؛ لأنك إذا جئت بمائة شخص ووضعتهم في حجرة ، يقال عنهم : "كثير" . فإذا أخذت كل واحد منهم ووضعتهم في مكان بعيد عن الآخر يكون العدد قليلاً .

وكان العالم في الماضي مسكوناً بأماكن محدودة ، بدليل أننا اكتشفنا قارات وأماكن لم يكن يعرفها أحد .

إذن : فالكثرة هنا بالنسبة للحيز ، وهم فس حيزهم الذي يعيشون فيه كانوا كثرة ، وبالأموال التي كانت بين أيديهم بعددهم المحدود كانوا أكثر منكم أموالاً بعددكم الكبير ، أي

أن نصيب الفرد كان أكبر ، وكذلك الأولاد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ والخلاق هو النصيب الذي يصيب الإنسان من أي نعمة ، ويقول سبحانه : ﴿ فَمِنَ الناس مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدنيا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِنْ خَلاَقٍ ﴾ [البقرة : 200]

أي : ليس له في الآخرة نصيب من نعم الله ، فالذين عملوا للدنيا وحدها ولك يكن في بالهم الله ، يأبى عدل الحق سبحانه وتعالى أن يضيع عليهم نتيجة عملهم ، ولذلك فهو يعطيه لهم في الدنيا ، ولكم من يعمل وفي باله الله يعطيه الله من الدنيا ويُوفِّيه أجره في الآخرة .

ولذلك نجد بعضاً من المؤمنين يسألون : كيف يكون الكفار أحسن حالاً من المؤمنين في الحضارة المادية ، ولماذا يأخذ الكفار من خيرات الأرض ما يكفيهم ويزيد ، لدرجة أنهم في بعض البلاد يُلْقون بالفائض في البحر ، بينما تجد المسلمين يعيشون في حضارة مادية محدودة ، ويستوردون ما يأكلون ؟

(160/342)

ولنتذكر الحقيقة الواضحة التي أكررها دائماً لكل مسلم : إياك أن يغيب عنك أن هناك " عطاء للرب " و " عطاء للإله " . فعطاء الرب للجميع ؛ لأن الرب هو الذي خلق وربَّى ،

وأمدنا بالأقوات ، وسبحانه ليس رب المؤمن فقط . لكنه رب المؤمن والكافر . ولذلك إذا أخذ المؤمن أو الكافر بالأسباب أعطاه الله ؛ فالأرض تعطى محصولاً وفيراً لمن يحسن زراعتها وينتقي لها التقاوي ويرعاها ، لا تفرق في ذلك بين مؤمن وكافر ، والكون يعطي كنوزه لمن يبحث عنها ويجتهد ، لا فرق بين مؤمن وكافر ، وهذا عطاء الربوبية .

أما عطاء الألوهية فقد خصَّ الله سبحانه وتعالى به عباده المؤمنين الذين يتبعون منهجه ، هذا عطاء العبادة يجزي به الإنسان في الآخرة ، والذي يأخذ العطاءين هو السعيد ، يأخذ عطاء الربوبية فيستغل أسباب الحياة فيعطيه الله خير الدنيا ، ويأخذ عطاء الألوهية بأن يجعل حياته وفقاً لمنهج الله ، فيعطيه الله النعيم في الآخرة .

والأسباب في الدنيا لا تفرق بين مؤمن وكافر ، فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، والمطر ينزل على الطائع والعاصي ؛ لأن هذا عطاء ربوبية . من أحسن استخدامه أعطاه بصرف النظر عن الطاعة أو المعصية .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴾ [الفرقان : 23]

لماذا ؟ لأنك عملت للدنيا وحدها . . وكنت تعمل ليقال إنك مخترع أو مكتشف . . أو لتحصل على الأموال والأوسمة . . أو النفوذ والجاه في الدنيا ، ولكنك لم تكن تعمل وفي بالك الله .

وبعض الناس يأتي ليقول لك : هل الذي اكتشف علاجاً لميكروب كان يفتك بالبشر ، أو اكتشف الكهرباء أو اكتشف كذا مما أسعد البشرية كلها ، أيكون هذا كافراً ويُعذَّب في النار ؟

(161/342)

نقول له : نعم ؛ لأنه فعل هذا وليس في باله الله . . وإنما فعله وفي باله الحصول على المجد أو المال أو النفوذ في الأرض ؛ ولذلك أعطاه الله ، ما عمل من أجله ، فأصبح له ثروة طائلة وتاريخ يدرس في المدارس ، وأعطوه النياشين وأطلقوا اسمه على الشوارع والميادين .

فما دام قد عمل للدنيا فإن الله سبحانه وتعالى يعطيه أجره في الدنيا ، ولكن الذي عمل وفي باله الله يأخذ من الدنيا بالأسباب ، ولكنه يأخذ في الآخرة من المسبب مباشرة ؟

فالإنسان قد ارتقى حضاريّاً ، حتى إنك الآن في بعض الدول المتقدمة تضغط زراً يعطي لك القهوة أو الشاي ، وآخر يعطيك الطعام .

نقول : إن هذا كله متاع الأسباب ، فقبل أن تضغط أنت هذا الزر ، كان هناك بشر أعدّوا لك القهوة أو الطعام ، والآلة أوصلته إليك .

ولكن مهما ارتقى الإنسان تكنولوجيّاً فلن يأتي اليوم الذي يجعل الشيء يخطر ببالك فتجده

أمامك . . ولكن في الجنة بمجرد أن يخطر الشيء على بال تجده أمامك ؛ لأن عطاء الدنيا عطاء أسباب ، وعطاء الآخرة عطاء مسبب .

فالله سبحانه وتعالى أعطانا الاختيار والأسباب في الدنيا ، ولكن في الآخرة يأتي لك الشيء بلا عمل ، مختلفاً في مذاقه ورائحته عن الدنيا .

إذن : فالذي يعمل وفي باله الأسباب فقط يعطي في الدنيا ، والذي يعمل وفي باله خالق الأسباب يعطي في الحياتين ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والذين كفروا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظمآن مَآءً حتى إِذَا جَآءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ . . ﴾ [النور : 39]

والسراب الذي تمشي له متخيلاً أنه ماء فإنك حين تصل إليه لا تجده شيئاً ، هكذا الكافر يوم القيامة ، يفاجأ بأن الله موجود ، وجد الله سبحانه الذي لم يؤمن به ، ويطلب من الله الأجر فيقال له : أجرك مما عملت له . وما دمت لم تعمل لله فلا يوجد لك أجر في الآخرة ؛ لأن الله هو الذي يجزي في الآخرة .

(162/342)

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أي : أنهم أخذوا نصيبهم من الدنيا ، ولكن الآخرة ليس لهم فيها نصيب ؛ لأن النصيب في الآخرة يأتي ب " افعل " و " لاتفعل " في التكليف ، فإذا فعلت الاثنين ترتقي ، بدليل أن حضارة المسلمين استمرت ألف سنة حين أخذوا بالأسباب ، ولم ينسوا المسبب . . بل حرسوا الأسباب بقيم المسبب في " افعل " و " لا تفعل " ؛ فملكوا الدنيا ألف سنة . ولا توجد حضارة مكثت مثل هذه المدة ، ولئن زالت الحضارة من أمم الإسلام سياسيّاً ، فقد بقي دينهم في نفوسهم ، ولا توجد حضارة عاشت مبادئها بعد زوال الحضارة إلا الإسلام . فقد بقي منارة هادية ، رغم ضعف المسلمين سياسيّاً .

وقول الحق سبحانه : ﴿ فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أي : خذوا نصيبكم من الدنيا بالأسباب ، ولكن تذكروا أنه استمتاع موقوت بزمن لا يملكه الإنسان ؛ لأن عمر الفرد في الدنيا هو بعمر حياته فيها لا بعمر الدنيا نفسها ؛ لأن الدنيا لك ولمن يأتي من بعدك . وعمرك فيها له حدود لا تعرف طوله . هل هو شهر أم سنة أم عشر سنين أم مائة عام ؟ إذن : عمرك في الدنيا مظنون موقوت ، فعملك لأسباب الدنيا محدودة المدة ، بمقدار عمرك في الدنيا .

وهَبْ أن عمرك طال وصرت من المعمرين فسوف ينتهي حتماً .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ أي : أنتم تبعتموه ومشيتم على أثرهم ، وكلما فعلوا إثماً فعلتم إثماً ، وهم خاضوا في الأنبياء ، وأنتم خضتم أيضاً في الأنبياء ، فأنتم شركاء الذين ذهبوا من قبلكم في أنكم أخذتم نصيبكم وحظكم في الدنيا ، ولم تدعوا للآخرة شيئاً . فلكم نصيب فيما فعلوا ؛ هذه واحدة . أما الثانية : فقد بدلتم الحق بالباطل . إذن : فأنتم أخذتم المقدمات مثلهم فقادتكم إلى نفس النتائج .

﴿ أولئك حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدنيا والآخرة ﴾ أي : فشلت وضاعت أعمالكم في الدنيا ، كما حبطت أعمال من سبقوكم في الدنيا وكانوا قسمين : قسماً وقف يحارب دعوة الخير حتى قتل ولم يأخذ شيئاً لآخرته فلم يأخذ شيئاً في الآخرة .

فالذين حبطت أعمالهم في الدنيا هم الذين قُتلوا وأسروا وشُردوا وغنمت أموالهم بأيدي المؤمنين ، فكأنهم خسروا الدنيا فلم يأخذوا من متاعها شيئاً ، وأيضاً خسروا الآخرة ، وهذا هو الخسران المبين ، أي الخسران الحيط بطرفي الزمن ؛ الدنيا والآخرة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(164/342)

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ .

وقد اختلف في محل هذا الكاف وما يتعلق به فقيل هو رفع خبر مبتدأ محذوف أي أنتم كالذين من قبلكم وقيل: نصب بفعل محذوف تقديره فعلتم كفعل الذين من قبلكم والتشبيه على هذين القولين في أعمال الذين من قبل وقيل إن التشبيه في العذاب ثم قيل العامل محذوف أي لعنهم وعذبهم كما لعن الذين من قبل وقيل بل العامل ما تقدم أي وعد الله المنافقين كوعد الذين من قبلكم ولعنهم كلعنهم ولهم عذاب مقيم كالعذاب الذي لهم .

والمقصود أنه سبحانه ألحقهم بهم في الوعيد وسوى بينهم فيه كما تساووا في الأعمال وكونهم كانوا أشد منهم قوة وأكثر أموالا وأولادا فرق غير مؤثر فعلق الحكم بالوصف الجامع المؤثر وألغى الوصف الفارق ثم نبه على أن مشاركتهم في الأعمال اقتضت مشاركتهم في الجزاء فقال ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فهذه هي العلة المؤثرة والوصف الجامع وقوله

﴿ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ هو الحكم والذين من قبل هم الأصل والمخاطبون الفرع.

قال عبد الرزاق في تفسيره: أنا معمر عن الحسن في قوله ﴿ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ ﴾ قال: "بذنبهم" ويروي عن أبي هريرة.

وقال ابن عباس: "استمتعوا بنصيبهم من الآخرة في الدنيا وقال آخرون: بنصيبهم من الدنيا".

(165/342)

وحقيقة الأمر أن الخلاق هو النصيب والحظ كأنه الذي خلق للإنسان وقدر له كما يقال قسمه الذي قسم له ونصيبه الذي نصب له أي أثبت وقطه الذي قط له أي قطع.

ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة" والآية تتناول ما ذكره السلف كله فإنه سبحانه قال: ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ فبتلك القوة التي كانت فيهم كانوا يستطيعون أن يعملوا للدنيا والآخرة وكذلك الأموال والأولاد وتلك القوة والأموال والأولاد هي الخلاق فاستمتعوا بقوتهم وأموالهم وأولادهم في الدنيا ونفس الأعمال التي عملوها بهذه القوة من الخلاق الذي استمتعوا به ولو أرادوا بذلك الله والدار الآخرة لكان لهم خلاق في الآخرة

فتمتعهم بها أخذ حظوظهم العاجلة وهذا حال من لم يعمل إلا لدنياه سواء كان عمله من جنس العبادات أو غيرها ثم ذكر سبحانه حال الفروع فقال فاستمتعم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم فدل هذا على أن حكمهم حكمهم وأنه ينالهم ما نالهم لأن حكم النظير حكم نظيره .

ثم قال: ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ فقيل الذي صفة لمصدر محذوف أي كالخوض الذي خاضوا وقيل لموصوف محذوف أي كخوض القوم الذي خاضوا وهو فاعل الخوض وقيل الذي مصدرية كما أي كخوضهم وقيل: هي موضع الذين .

البدع واتباع الهوى جالبة لكل شر:

والمقصود أنه سبحانه جمع بين الاستمتاع بالخلاق وبين الخوض بالباطل لأن فساد الدين إما أن يقع بالاعتقاد الباطل والتكلم به وهو الخوض أو يقع في العمل بخلاف الحق والصواب وهو الاستمتاع بالخلاق فالأول البدع والثاني اتباع الهوى وهذان هما أصل كل شر وفتنة وبلاء وبهما كذبت الرسل وعصي الرب ودخلت النار وحلت العقوبات فالأول من جهة الشبهات والثاني من جهة الشهوات ولهذا كان السلف يقولون: "احذروا من الناس صنفين صاحب هوى فتنه هواه وصاحب دنيا أعجبته دنياه" .

(166/342)

وكانوا يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون فهذا يشبه المغضوب عليهم الذين يعلمون الحق ويعملون بخلافه وهذا يشبه الضالين الذين يعملون بغير علم.

وفي صفة الإمام أحمد رحمه الله: عن الدنيا ما كان أصبره وبالماضين ما كان أشبهه أتته البدع فنفاها والدنيا فأباها وهذه حال أئمة المتقين الذين وصفهم الله في كتابه بقوله: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فبالصبر تترك الشهوات وباليقين تدفع الشبهات قال تعالى ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ .

وفي بعض المراسيل: "إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات" .

فقوله تعالى ﴿ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ ﴾ إشارة إلى اتباع الشهوات وهو داء العصاة وقوله ﴿ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾ إشارة إلى الشبهات وهو داء المبتدعة وأهل الأهواء والخصومات وكثيرا ما يجتمعان فقل من تجده فاسد الاعتقاد إلا وفساد اعتقاده يظهر في عمله.

والمقصود أن الله أخبر أن في هذه الأمة من يستمتع بخلاقه كما استمتع الذين من قبله

بخلاقهم ويخوض كخوضهم وأنهم لهم من الذم والوعيد كما للذين من قبلهم ثم حضهم على القياس والاعتبار بمن قبلهم فقال ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

فتأمل صحة هذا القياس وإفادته لمن علق عليه من الحكم وأن الأصل

(167/342)

والفرع قد تساويا في المعنى الذي علق به العقاب وأكده كما تقدم بضرب من الأولى وهو شدة القوة وكثرة الأموال والأولاد فإذا لم يتعذر على الله عقاب الأقوى منهم بذنبه فكيف يتعذر عليه عقاب من هو دونه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المعاد حـ 1 صـ 134 .

138 ﴾

(168/342)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ . . . الآيات ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم عن حذيفة . أنه سئل عن المنافق . فقال : الذي يصف الإسلام ولا يعمل به .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : النفاق نفاقان . نفاق تكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم فذاك كفر ، ونفاق خطايا وذنوب فذاك يرجى لصاحبه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ قال : هو التكذيب .

قال : وهو أنكر المنكر ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ قال : شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما أنزل الله وهو أعظم المعروف .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي العالية قال : كل آية ذكرها الله تعالى في القرآن فذكر المنكر عبادة الأوثان والشيطان .

(169/342)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ قال : لا يبسطونها بنفقة في حق الله .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ قال : لا يبسطونها بخير ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ قال : نسوا من كل خير ولم ينسوا من الشر .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ نسوا الله ﴾ قال : تركوا أمر الله ﴿ فنسيهم ﴾ تركهم من رحمته أن يعطيهم إيماناً وعملاً صالحاً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في الآية قال : إن الله لا ينسى من خلقه ولكن نسيهم من الخير يوم القيامة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : نسوا في العذاب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ قال : صنيع الكفار كالكفار .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة ﴾ إلى قوله ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسي بيده لنتبعنهم حتى لو دخل رجل

جُحْر ضبٍّ لدخلتموه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ بخلاقهم ﴾ قال : بدينهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي هريرة قال : الخلاق الدين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ قال : بنصيبهم من الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ قال : لعبتم كالذي لعبوا .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حذركم أن تحدثوا حدثاً في الإِسلام ، وعلم أنه سيفعل ذلك أقوام من هذه الأمة فقال الله ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم . . . ﴾ الآية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(170/342)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ :

فيه أوجه أحدها : هذه الكافَ/ في محلِّ رفعٍ تقديرُه : إنهم كالذين فهي خبر مبتدأ محذوف . الثاني : أنها في محل نصب . قال الزجاج : " المعنى : وعدكما وَعْدَ الذين مِنْ قبلكم ، فهو متعلقٌ ب " وَعَدَ " . قال ابن عطية : " وهذا قَلِقٌ " . وقال أبو البقاء : " ويجوز أن يكونَ متعلِّقاً ب "يَسْتهزئون " . وفي هذا بُعْدٌ كبير .

وقوله : ﴿ كَانُواْ أَشَدَّ ﴾ تفسيرٌ لشبههم بهم وتمثيل لفعلهم . وجعل الفراءُ محلَّها نصباً بإضمارِ فعلٍ قال : " التشبيهُ من جهة الفعل أي : فعلتم كما فعل الذين من قبلكم " فتكون الكافُ في موضع نصب . وقال أبو البقاء : " الكاف في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف ، وفي الكلام حذفُ مضافٍ تقديرُه " وعداً كوعد الذين " . وذكر الزمخشري وجهَ الرفع المتقدمَ والوجهَ الذي قدَّمْتُه عن الفراء ، وشبَّهه بقول النمر بن تولب :

2513 . . . . . كاليوم مَطْلوباً ولا طَلَبا

بإضمار : لم أر .

قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ ﴾ الكافُ في محل نصب نعتاً لمصدرٍ محذوف أي : استمتاعاً كاستمتاع الذين .

قوله : كالذي خاضوا ﴾ الكافُ كالتي قبله . وفي " الذي " وجوهٌ أحدُها : أن المعنى : وخضتم خوضاً كخوض الذين خاضوا ، فحُذفت النونُ تخفيفاً ، أو وقع المفردُ موقعَ الجمع . وقد تقدم تحقيق هذا في أوائل البقرة ، فحُذِفَ المصدرُ الموصوفُ والمضافُ إلى

الموصول ، وعائدُ الموصول تقديرُه : خاضوه ، والأصلُ : خاضوا فيه ؛ لأنه يتعدى ب " في " فاتُّسع فيه ، فَحُذِفَ الجارُّ فاتصل الضميرُ بالفعل فساغ حَذْفُه ، ولولا هذا التدريجُ لَمَا ساغ الحذف ؛ لِما عرفت ممَّا مرَّ أنه متى جُرَّ العائد بحرف اشتُرِط في جواز حَذْفِه جَرُّ الموصولِ بمثل ذلك الحرف ، وأن يتحدَ المتعلَّق ، مع شروط أُخَرَ ذكرتُها فيما تقدَّم .

(171/342)

الثاني : أنَّ " الذي " صفةٌ لمفردٍ مُفْهِمٍ للجمع أي : وخضتم خوضاً كخوضِ الفوج الذي خاضُوا ، أو الفريق الذي خاضوا . والكلامُ في العائد كما سَبَق قبلُ .

الثالث : أنَّ " الذي " من صفةِ المصدرِ والتقدير : وخضتم خوضاً كالخوضِ الذي خاضوه . وعلى هذا فالعائدُ منصوب من غير وساطةِ حرفِ جر . وهذا الوجهُ ينبغي أن يكونَ هو الراجح إذ لا محذورَ فيه .

الرابع : أن " الذي " تقعُ مصدريةً ، والتقدير : وخضتم خوضاً كخوضهم ومثله :

2514 فَثَبَّتَ اللَّهُ ما آتاكَ مِنْ حسنٍ . . . في المُرْسلين ونَصْراً كالذي نُصِروا

أي : كنَصْرهم . وقول الآخر :

2515 يا أمَّ عمروٍ جزاكِ اللَّهُ مغفرةً . . . رُدِّي عليَّ فؤادي كالذي كانا

أي : ككونِه . وقد تقدَّم أن هذا مذهب الفراء ويونس ، وتقدَّمَ تأويلُ البصريين لذلك . قال الزمخشري : " فإن قلتَ : أيُّ فائدة في قوله : ﴿ فاستمتعوا بِخَلاقِهِمْ كَمَا ﴾ ، وقوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ مُغْنٍ عنه كما أغنى "كالذي خاضوا " [عن أن يقال : وخاضُوا فَخُضْتُمْ كالذي خاضُوا] ؟ قلت : فائدتُه أَنْ يَذُمَّ الأوَّلين بالاستمتاع بما أُوتوا ورِضاهم بها عن النظر في العاقبة وطلبِ الفلاحِ في الآخرة وأن يُخَسِّسَ أمر الاستمتاع ، ويُهَجِّن أمرَ الراضي به ، ثم يشبه حال المخاطبين بحالهم .

وأمَّا " وخُضْتُمْ كالذي خاضوا " فمعطوفٌ على ما قبله ، ومسندٌ إليه مُسْتَغْنٍ بإسناده إليه عن تلك المقدمة " يعني أنه استغنى عن أَنْ يكونَ التركيبُ : وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا .

(172/342)

وفي قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ ﴾ إيقاعُ للظاهر موقع المضمرِ لنُكْتةٍ : وهو أن كانَ الأصلُ : فاستمتعتم فخَلاقكم كما استمتعوا بخلاقِهم ، فأبرزهم بصورةِ الظاهر تحقيراً لهم كقوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْبُدِ الشيطان إِنَّ الشيطان كَانَ للرحمن عَصِيّاً ﴾ [مريم : 44] وكقوله قبل ذلك : ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ المنافقين هُمُ

الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : 67] . وهذا كما يدل بإيقاع الظاهر موقعَ المضمرِ على التفخيم والتعظيم يدلُّ به على عكسِه وهو التحقير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 85.82 ﴾

(173/342)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ﴾

يقال : سلكتم طريقَ مَنْ قَبْلَكم من الكفار وأهل النفاق وأهل النفاق وقد كافأناهم . ويقال الذين تقدموكم زادوا عليكم فكافأناهم كما نكافئ أهل الشقاق والنفاق ؛ في كثرة المدَّةِ وقوةِ العُدَّةِ ، والاستمتاع في الدنيا ، والاغترار بالانخراط في سِلْك الهوى . . ولكن لم تَدُمْ في الراحة مُدَّتُهم ، ولم تُغْنِ عنهم يومَ الشِدَّةِ عُدَّتُهم ، وعما قريبٍ يَلْحَقُ بكُم ما لَحِقَ بالذين هم قبلكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 44 ﴾

(174/342)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60) ﴾

(175/342)

التفسير : إن المنافقين لما لمزوا الرسول صلى الله عليه وسلم في قسمة الصدقات بيَّن لهم الله سبحانه مصرفها كيلا يبقى لهم طعن إذا وجدوا فعله موافقاً لحكم الله فقال ﴿ إنما الصدقات ﴾ الآية . وفي تصدير الكلام بإنما دلالة على أنه لا حق لأحد في الصدقات إلا لهؤلاء ، ويؤيده ما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لرجل : " إن كنت من الأصناف الثمانية فلك فيها حق . وإلا فهو صداع في الرأس وداء في البطن " ولنتكلم في تعريف هؤلا الأصناف . فالأول والثاني : الفقراء والمساكين . ولا شك أن كلاً من الصنفين محتاجون لا يفي دخلهم بخرجهم إنما الكلام في أنهما متساوياً الدلالة أو أحدهما أسوأ حالاً . فعن أبي يوسف ومحمد والجبائي أنهما واحد حتى لو أوصى لزيد وللفقراء والمساكين بمال كان لزيد

النصف لا الثلث . قال الجبائي : إنه تعالى ذكرهما باسمين ليؤكد أمرهم في الصدقات . والفائدة فيه أن أصرف إليهم من الصدقات سهمان لا كسائرهم . وعند الشافعي الفقير أسوأ حالاً لأنه تعالى أثبت الصدقات لهؤلاء الأصناف دفعاً لحاجاتهم فالذي وقع الابتداء بذكره يكون أشد حاجة لأن الظاهر تقديم الأهم على المهم ، ومما يدل على إشعار الفقر بالشدّة العظيمة قوله تعالى ﴿ تظن أن يفعل بها فاقرة ﴾ [القيامة : 25] جعل الفاقرة كناية عن أعظم أنواع الشر والدواهي . وروي أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من الفقر ، وقد سأل المسكنة في قوله " اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين " فكأنه سأل توسط الحال ، ولهذا لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أشياء معلومة مع أنه تعالى أجاب دعاءه ظاهراً فأماته مسكيناً .

(176/342)

وتقييده تعالى المسكين بقوله ﴿ ذا متربة ﴾ [البلد : 16] يدل على أن المسكين قد لا يكون كذلك ، وقال تعالى ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ [الكهف : 79] وكان ابن عباس يفسر الفقير بأنه الذي لا يجد شيئاً كأهل الصفة ، والمسكين بأنه الطوّاف الذي يسأل الناس . والغالب أنه يحصل له منهم شيء وقريب منه قول من قال سمي مسكيناً لأنه الدائم

السكون إلى الناس . ولما كان المسكين هو السائل لما قلنا فالمحرم في قوله سبحانه ﴿ وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] هو الفقير صاحب الحرمان . واتفق الناس على أن الفقير ضد الغني ولم يقل أحد أن الغنى والمسكنة ضدان فلعل الترفع هو ضد التمسكن . وقال أبو حنيفة : المسكين أسوأ حالاً لقوله تعالى ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ [البلد : 16] وقد تقدم الكلام عليه ولأنه تعالى جعل الكفارات من الأطعمة ولا فاقة أعظم من الجوع ونقل الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أن الفقير الذي له ما يأكل والمسكين هو الذي لا شيء له ، وقال يونس : قلت لأعرابي ، أفقير أنت ؟ قال : لا والله بل مسكين . وقيل : سمعي مسكيناً لأنه يسكن حيث يحضر لأجل أنه لا بيت له ولا منزل . وأجيب بأنه تعالى جعل الكفارة للمسكين ذي المتربة وهو الفقير بعينه وإنما النزاع في المسكين المطلق والروايات معارضة بأمثالها والله أعلم . الصنف الثالث : العاملون على الصدقات وهم السعاة الجباة للصدقة . قال ابن عمر وابن الزبير والشافعي : يعطى هؤلاء أجور أمثالهم لأنها أجرة للعمل . وقال مجاهد والضحاك : يعطون الثمن من الصدقات لأنهم صنف من الثمانية ، والصحيح أن الهاشمي والمطلبي لا يجوز أن يكون عاملاً على الصدقات لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أبى أن يبعث أبا رافع عاملاً على الصدقات وقال : أما علمت أن مولى القوم منهم . وفائدة التعدية بعلى التسليط والولاية . يقال : فلان على بلدة كذا إذا كان والياً عليها . واختلفوا في أن الإمام هل له حق لأنه هو

(177/342)

العامل في الحقيقة أو لا حق له لخروجه عن الأصناف ؟ والجمهور على أن العامل يأخذ نصيبه وإن كان غنياً لأن ذلك أجرة عمله . وعن الحسن أنه لا يأخذ إلا مع الحاجة .

الصنف الرابع : المؤلفة قلوبهم . عن ابن عباس هم قوم أشراف من الأحياء أعطاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين وكانوا خمسة عشر رجلاً منهم أبو سفيان والأقرع بن حابس وعيينة بن حصن أعطى كل رجل منهم مائة من الإبل . قال العلماء : لعل مراد ابن عباس إنه لا يمتنع في الجملة صرف الأموال إلى المؤلفة وإلا فلم يكن ما أعطاهم من الصدقات . ويروى أن أبا بكر الصديق أعطى عدي بن حاتم لما جاءه بصدقاته وصدقات قومه أيام الردة .

(178/342)

والذي استقر عليه رأى الأئمة أن المؤلفة ثلاثة أقسام : ضعيف النية في الإسلام ، وشريف بإعطائه يتوقع سلام نظرائه ، والمتألف على جهاد من يليهم من الكفار ومانعي الزكاة حيث

يكون ذلك أهون للإمام من بعث جيش يعطى كل واحد ما رأى الإمام باجتهاده ، هذا كله إذا كانوا مسلمين ، فأما الكفار الذين يميلون إلى الإسلام فيرغبون فيه بإعطاء مال ، والذين يخاف شرهم فيتألفون لدفع الشر بمال فلا يعطون شيئاً من الزكاة ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يعطيهم من خمس الخمس والآن لا يعطون أصلاً لقوة الإسلام والاستغناء عن تألفهم ولأنه ليس في الآية دلالة على أن المؤلفة يجوز أن يكونوا من الكفار فلا ينبغي أن يقال إن حكم الآية منسوخ ، الصنف الخامس قوله وفي الرقاب . قال الزجاج : تقديره وفي فك الرقاب ، وللأئمة في تفسيره أقوال ؛ فعن ابن عباس أنهم المكاتبون وهو مذهب الشافعي قال : إذا عجزوا عن أداء النجوم بأن يكون لهم شيء أو لا يفي ما في أيديهم بنجومهم صرف إليهم أو إلى سيدهم بإذنهم ما يعينهم على العتق . وقال مالك وأحمد وإسحاق : المراد أنه يشتري به عبيد فيعتقون . وعن أبي حنيفة وأصحابه . وهو قول سعيد بن جبير والنخعي ، أنه لا يعتق من الزكاة رقبة كاملة ولكن يعطى منها في رقبة ويعان بها مكاتب لأن قوله ﴿ وفي الرقاب ﴾ يقتضي أن يكون له فيه مدخل وذلك ينافي كونه تاماً فيه . وقال الزهري : سهم الرقاب نصفه للمكاتبين المسلمين ونصفه يشتري به رقاب ممن صلوا وصاموا وقدم إسلامهم فيعتقون . قال المفسرون : إنما عدل عن اللام إلى " في " لأن الأصناف الأربعة الأول يصرف المال إليهم حتى يتصرفوا فيه كما شاؤا ، وفي الأربعة الأخيرة لا يصرف المال إليهم بل يصرف إلى جهات الحاجات المعتبرة في الصفات التي لأجلها استحقوا

سهم الزكاة . ففي الرقاب يوضع نصيبهم في تخليص رقابهم عن الرق أو الأسر ولا يدفع إليهم ، وفي الغارمين يصرف المال إلى قضاء ديونهم ، وفي الغزاة يصرف

(179/342)

المال إلى إعداد ما يحتاج إليه في الغزو ، وفي ابن السبيل كذلك يصرف إلى ما يبلغه المقصد .

وقال في الكشاف : إنما عدل للإيذان بأنهم أرسخ في استحاق التصديق عليهم ممن سبق لأن " في " للوعاء فنبه به على أنهم أحقاء بأن يجعلوا مصباً للصدقات . وتكرير " في " في قوله ﴿ وفي سبيل الله وابن السبيل ﴾ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين الصنف السادس الغارمون قال الزجاج : أصل الغرم لزوم ما يستحق وسمي العشق غراماً لكونه أمراً شاقاً لازماً . وفلان مغرم بالنساء ، وسمي الدين غرماً لأنه شاق لازم .

فالغارمون المديونون والدين إن حصل بسبب معصية لم يدخل في الآية لأن المعصية لا تستوجب الإعانة وإن حصل لا بالمعصية فهو مقصود الآية سواء حصل بسبب نفقات ضرورية أي لإصلاح ذات البين .

وإن كان متمولاً أو للضمان إن أعسر هو والأصيل وكل داخل في الآية . روى الأصم في تفسيره أنه صلى الله عليه وسلم لم قضى بالغرة في جنين قالت العاقلة : لا نملك الغرة يا

رسول الله ، فقال لحمد ابن مالك : أعنهم بغرة من صدقاتهم ، وكان حمد على الصدقة يومئذ . وإنما يعطى الغارم قدر دينه إن لم يقدر على شيء وإن قدر على بعض أعطى الباقي . الصنف السابع قوله ﴿ في سبيل الله ﴾ يعني الغزاة . قال الشافعي : يجوز له أن يأخذ من مال الصدقات وإن كان غنياً وهو مذهب مالك وأحمد وإسحاق وأبي عبيد . وقال أبو حنيفة : لا يعطى الغازي إلا إذا كان محتاجاً وظاهر لفظ الآية لا يوجب القصر على الغزاة فلهذا نقل القفال عن بعض الفقهاء أنهم أجازوا صرف الصدقة إلى جميع وجوه الخير من تكفين الموتى وبناء الحصون وعمارة المساجد لأن كلها في سبيل الله . الصنف الثامن ابن السبيل وهو المسافر لا لأجل معصية ، يعطى ما يبلغه المقصد أو موضع ماله إن كان له في الطريق مال . قال الشافعي : ويدخل في المسافر الشاخص من وطنه أو من بلد كان مقيماً به منشئاً للسفر والغريب المجتاز ببلدنا والله أعلم .

(180/342)

ولنذكر طرفاً من أحكام هذه الأصناف :

الحكم الأول : اتفقوا على دخول الزكاة الواجبة في قوله ﴿ إنما الصدقات ﴾ لقوله في موضع آخر ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : 103] ولقوله صلى الله عليه وسلم

: " ليس فيما دون خمسة أوسق صدقة " واختلفوا في الصدقة المندوبة فمنهم من قال تدخل ، والفائدة أن تعلم أن مصارف جميع الصدقات ليست إلا هؤلاء الأصناف ، والأقرب اختصاص الآية بالواجبة لدخول لام التمليك في الأصناف ، والصدقة المملوكة لهم ليست إلا الزكاة ولأن الآية تدل على الحصر في الأصناف الثمانية والصدقة المندوبة يجوز صرفها إلى وجوه أخر كالمساجد والمدارس وتجهيز الموتى ، ولأن الصدقات تنصرف إلى معهود سابق وهو الصدقات الواجبة في قوله ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ .

الحكم الثاني : في الآية دلالة على أن الزكاة إنما يتولى أخذها الإمام أو نائبه لأنه تعالى جعل للعاملين سهماً منها . والعامل هو الذي نصبه الإمام لأخذ الزكوات ويتأكد هذا النص بقوله ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ فالقول بأن المالك يجوز له إخراج زكاة الأموال الباطنة بنفسه إنما يعرف بدليل آخر كقوله ﴿ وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] وإذا كان حقاً لهما وجب أن يجوز دفعه إليهما ابتداء ، وإذا كان الإمام جائراً فالتفريق بنفسه أفضل .

الحكم الثالث : مذهب أبي حنيفة أنه يجوز صرف الصدقة إلى بعض هؤلاء الأصناف وهو قول عمر وحذيفة وابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء وأبي العالية والنخعي ، لأنه تعالى جعل جملة الصدقات لهؤلاء الثمانية فلا يلزم أن يكون كل جزء من أجزائها كصدقة زيد مثلاً موزعاً على كل واحد منهم ، ولأن الرجل الذي لا يملك إلا عشرين ديناراً فأخرج

نصف دينار لو كلفناه أن يقسمه على أربعة وعشرين لدفع كل ثلاثة منها إلى ثلاثة من كل صنف صار كل قسم حقيراً صغيراً غير منتفع به في مهم معتبر .

(181/342)

وعن سعيد بن جبير لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعففين فجبرتهم بها كان أحب إلي . وقال الشافعي : لا بد من صرفها ، إلى الأصناف الثمانية وهو قول عكرمة والزهري وعمر بن عبد العزيز . واحتجوا عليه بأن الله تعالى ذكر هذه القسمة في نص الكتاب ثم أكدها بقوله ﴿ فريضة من الله ﴾ وهو في معنى المصدر المؤكد لأن قوله ﴿ إنما الصدقات للفقراء ﴾ في قوة قوله فرض الله الصدقات لهم ، وهذا كالزجر عن مخالفة من الآية . وعن النبي صلى الله عليه وسلم " إن الله تبارك وتعالى لم يرض بقسمة ملك مقرب ولا نبي مرسل حتى تولى قسمتها بنفسه " ثم ختم الآية بقوله ﴿ والله عليم ﴾ أي بتقدير الأنصباء والمصالح ﴿ حكيم ﴾ لا يفعل إلا ما هو الأصوب والأصلح وكل هذه المؤكدات دليل على وجوب الاحتياط في صرف الزكاة ، ومن ههنا قال الشافعي : لا بد في كل صنف من ثلاثة لأنه تعالى ذكر أكثر الأصناف بلفظ الجمع وأقل الجمع ثلاثة ، فإن دفع نصيب الفقراء إلى اثنين غرم للثالث أقل متمول على الأقيس لا الثلث ، لأن التفضيل في

أفراد الصنف جائز للمالك لأن العدد من كل صنف غير محصور فيصعب اعتبار التسوية بخلاف التسوية بين الأصناف لأنهم محصورون فتسهل التسوية بينهم .

(182/342)

الحكم الرابع : العامل والمؤلفة قلوبهم مفقودان في زماننا فبقي أن تصرف الزكاة إلى الأصناف الستة الباقية كما لو فقد بعض الأصناف في بلد فإنه يصرف إلى الباقين ، ولا يؤمر بالنقل إلى بلد وجدوا فيه جميعاً والأحوط رعاية التسوية بينهم على ما يقوله الشافعي ، أما إذا لم يفعل ذلك فإنها مجزئه عند سائر الأئمة . أما الحكمة في إيجاب الزكاة فهو أن المال محبوب بالطبع لأن القدرة من صفات الكمال والمال سبب . لحصول القدرة على المشتهيات والمآرب لكن الاستغراق في حبه يذهل النفس عن حب الله وعن التأهب للآخرة فاقتضت الحكمة الإلهية تكليف مالك المال إخراج طائفة منه كسراً للنفس ومنعاً من انصبابها بالكلية إليه . فإيجاب الزكاة علاج صالح لإزالة مرض حب الدنيا عن القلب وهو المراد من قوله ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ﴾ أي عن دنس الاستغراق في حب المال . وأيضاً إن كثرة الأموال توجب القوة والقدرة والشدة ، وتزايد تلك اللذات يدعو الإنسان إلى تحصيل الأموال المتزايدة فتصير المسألة دورية لا مقطع لها ولا آخر فأثبت

الشرع لها مقطعاً وآخراً وهو صرف طائفة من المال في طلب مرضاة الله ليصرف النفس عن ذلك الطريق الظلماني الذي لا آخر له ويفضي في الأغلب إلى الطغيان وقساوة القلب .

(183/342)

وأيضاً النفس الناطقة لها قوتان : نظرية وكمالها في التعظيم لأمر الله ، وعملية وكمالها في الشفقة على خلق الله فأوجب الله الزكاة ليتصف جوهر الروح بهذا الكمال ويصير بسبب ذلك محسناً إلى الخلق ، وإذا أحسن إليهم أمدوه بالدعاء والهمة . وأيضاً المال سمي مالاً لكثرة ميل كل أحد إليه وهو غاد ورائح سريع الزوال مشرف على التلف والبوار ، فإذا أنفقه لوجه الله بقي بقاء لا يمكن زواله . وفي إنفاق المال تشبه بالمجردات والمفارقات وليس الغنى إلا عن الشيء لا به لأن الاستغناء عن الشيء صفة الحق والاستغناء بالشيء صفة المخلوقين العاجزين ، ففي الأمر بالزكاة نقل للإنسان من درجة أدنى إلى درجة أعلى .

وأيضاً للإنسان روح وبدن ومال فإذا بذلك الروح في الاستغراق في بحار معرفة الله ، وبذل البدن في العبودية لله والصلاة له فكيف يليق به أن لا يبذل المال في ابتغاء مرضاته ؟ ! وأيضاً إذا فضل المال عن قدر الحاجة وحضر إنسان آخر محتاج فههنا حصل سببان كل واحد منهما يوجب تملك ذلك المال ، أما في حق المالك فهو أنه سعى اكتسابه وتحصيله وتعلق

قلبه به ، وأما في حق الفقير فلاحتياجه الموجب للتعلق به فلما وجد هذان السببان المتدافعان اقتضت حكمة الشارع رعاية كل منهما بقدر الإمكان . ورجح جانب المالك لأن له حق الاكتساب وحق التعلق فأبقى عليه الكثير وأمر بصرف جزء يسير إلى الفقير توفيقاً بين الأمرين وجمعاً بين المصلحتين مع رعاية المال عن التعطيل فلا معطل في الوجود . وأيضاً الأغنياء خزان الله لأن المال مال الله وهم عبيده ولولا أنه ألقاها في أيديهم لما ملكوا منها حبة ، فكم من عاقل لا يملك ملء بطنه ، وكم من غافل تأتيه الدنيا عفواً صفواً . وليس بمستبعد أن يقول الملك لخزّانه اصرفوا طائفة من مال خزانتي إلى المحتاجين من عبيدي . وأيضاً إن الأغنياء لو لم يلزموا بإصلاح مهمات الفقراء فربما حملتهم شدة الحاجة على تحصيل المال من وجوه منكرة كالسرقة ونحوها أو

(184/342)

على الالتحاق بأعداء المسلمين . وقال صلى الله عليه وسلم " الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر " وكأن تعالى يقول للغني أعطيتك المال فشكرت فصرت من الشاكرين فأخرج من يدك نصيباً منه حتى تصبر على فقدان المال فتصير من الصابرين ، ويقول للفقير ما أعطيتك الأموال الكثيرة فصبرت فصرت من الصابرين ولكني أوجبت على الغني أن

يصرف إليك طائفة من المال لتشكرني فتكون من الشاكرين . وأيضاً أراد الله سبحانه أن يكون الغني منعماً على الفقير بما يؤديه إليه ويكون الفقير منعماً على الغني بما قبله منه ليحصل الخلاص في الدنيا من الذم والعار وفي الآخرة من عذاب النار .

(185/342)

ثم حكى نوعاً من فضائح المنافقين وهو أنهم كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم على وجه الطعن والذم ﴿ هو أذن ﴾ عن ابن عباس كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويقولون ما لا ينبغي فقال بعضهم : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فنحلف له . فقال الجلاس بن سويد ، نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا بما نقول فإنما محمد أذن سامعة فنزلت الآية . وقال محمد بن إسحاق بن يسار وغيره : نزلت في رجل من المنافقين يقال له نبتل بن الحرث وكان رجلاً أحمر العينين أسفع الخدين مشوه الخلقة وهو الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم " من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحرث " وكان ينم حديث النبي صل الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له : لا تفعل فقال : إنما محمد أذن من حدثه شيئاً صدقه نقول ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدّقنا . وقال السدي : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن الصامت ووديعة بن ثابت فأرادوا إن يقعوا في

النبي صلى الله عليه وسلم وعندهم غلام من الأنصار يدعى عامر بن قيس ، فحقروه فتكلموا وقالوا إن كان ما يقوله محمد حقاً لنحن شر من الحمير فغضب الغلام وقال : والله إن ما يقول محمد حق وإنكم لشر من الحمير ، ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أن عامراً كاذب وحلف عامر أنهم كذبة . وقال : اللهم لا تفرق بيننا حتى يتبين صدق الصادق من كذب الكاذب فنزلت الآيتان . قال علماء اللغة : الأذن الرجل الذي يصدق بكل ما يسمع ويقبل قول كل أحد سمي بالجارحة التي هي آلة السماع كأنه جملته أذن سامعة ومثله قولهم للربيئة عين . وفسر إيذاءهم النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يقولون له أذن وذلك أنهم قصدوا به المذمة وأنه ليس ذا ذكاء ولا بعيد غور بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع . ويجوز أن يراد بالإيذاء أنواع أخر سوى هذا القول أي يؤذونه بالغيبة والنميمة وسائر أنواع الأذية ويقولون

(186/342)

في وجه الاعتذار عن ذلك هو أذن يقبل كل ما يسمع ، فنحن نأتيه فنعتذر إليه فيسمع عذرنا فيرضى ، ثم إنه سبحانه أجاب عن قولهم فقال ﴿ قل أذن خير لكم ﴾ بالإضافة كقولهم : رجل صدق يريدون الجودة والصلاح . ومجوز الإضافة هو الملابسة كأنه قيل : نعم

هو أذن ولكن نعم الأذن إذ أريد هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعة وقبوله وليس بإذن في غير ذلك ويؤيده قراءة حمزة ﴿ رحمة ﴾ بالجر عطفاً عليه عطف الخاص على العام أي هو أذن خير ورحمة لا يسمع ولا يقبل غيرهما .

ثم بين كونه أذن خير بأنه ﴿ يؤمن بالله ﴾ أي يقرّ به ويعترف بوحدانيته لما قام عنده من الأدلة ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ يسلم لهم قولهم لوثوقه بقولهم وعلمه بإخلاصهم لا لكونه من أهل الغرة والبله ﴿ و ﴾ هو ﴿ رحمة للذين آمنوا منكم ﴾ باللسان دون الجنان لأنه يجري أمركم على الظاهر ولا يبالغ في التفتيش عن بواطنكم فإن الله هو الذي يتولى السرائر ولهذا ختم الآية بقوله ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ وأما من قرأ ﴿ أذن خير ﴾ بالرفع فيهما فعلى أن الإذن خبر مبتدأ محذوف و ﴿ خير ﴾ كذلك أي هو أذن هو خير . والمعنى هو أذن موصوف بالخيرية في حقكم لأنه يقبل معاذيركم ويتغافل عن جهالاتكم فتحفظ بذلك دماؤكم وأموالكم . وقيل : التقدير قل أذن واعية سامعة للحق خير لكم من هذا الطعن الفاسد . ثم ذكر بعده ما يدل على فساد هذا الطعن وهو قوله ﴿ يؤمن بالله ﴾ إلى آخره . ووجه ثالث ذكره صاحب النظم واستحسنه الواحدي وهو أن قوله ﴿ أذن ﴾ وإن كان رافعاً في الظاهر لكنه نصب في الحقيقة على الحال وتأويله : قل هو أذنا خير لكم .

ذكر أن من قبائح المنافقين إقدامهم على الأيمان الكاذبة فقال ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ أي كان من الواجب أن يرضوا الله تعالى بالإخلاص والتوبة لا بإظهار ما يستسرون خلافه . وإنما لم يقل يرضوهما تعظيماً لله بالإفراد بالذكر ، أو المراد والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك ، أو وقع الاكتفاء بذكر الله لأن رضا الله ورضا رسوله شيء واحد كما يقال إحسان زيد وإجماله بعثني ومعني ﴿ إن كانوا مؤمنين ﴾ أي بزعمهم . ثم وبخهم بقوله ﴿ ألم يعلموا ﴾ وذلك أنه يقال ذلك لمن تتولع في تعليمه مدة ثم لم يظهر عليه أثر العلم والرشد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم طال مكثه فيهم وكثر تحذيره عن المعصية وترغيبه في الطاعة . والضمير في قوله ﴿ أنه ﴾ للشأن وفائدته مزيد التعظيم والتهويل . والمحادة المخالفة لأن كلاً منهما في حد غير حد صاحبه كالمشاقة لأن كلاً منهما في شق آخر . وقال أبو مسلم : هي من الحديد حديد السلاح . ثم ذكر في الجزاء قوله ﴿ فإن له ﴾ بالفتح أي فحق أن له ﴿ نار جهنم ﴾ وقيل " أن " مكرر للتأكيد والتقدير فله نار جهنم . وقيل " فإن " معطوف على " أنه " وجواب من محذوف وهو يهلك . قال الزجاج : يجوز كسر " أن " على الاستئناف بعد الفاء ولكن القراءة بالفتح . ونقل الكعبي في تفسيره أنه قرىء بالكسر .

قال السدي : قال بعض المنافقين : والله لوددت إني قدمت فجلدت مائة جلدة ولا ينزل

فينا شيء فيفضحنا فأنزل الله تعالى ﴿ يحذر المنافقين ﴾ وقال مجاهد : كانوا يقولون القوم بينهم ثم يقولون عسى الله أن لا يفشى علينا سرنا فنزلت .

(188/342)

والضمير في ﴿ عليهم ﴾ و ﴿ تنبئهم ﴾ للمؤمنين وفي ﴿ قلوبهم ﴾ للمنافقين ، ويجوز أن تكون الضمائر كلها للمنافقين لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم وكأنها تخبر عما في بواطنهم وتذيع عليهم أسرارهم . قيل : المنافق كافر فكيف يحذر نزول الوحي لأنه غير قائل به ؟ وأجيب بأنهم عرفوا ذلك بالتجربة أو كفرهم كان كفر عناد أو كانوا شاكين في صحة نبوته والشاك في أمر خائف من وقوعه ، أو هذا الخبر في معنى الأمر أي ليحذر المنافقون : عن أبي مسلم أنهم أظهروا هذا الحذر على سبيل الاستهزاء ولهذا أجابهم الله بقوله ﴿ استهزؤا ﴾ وهو أمر تهديد ﴿ إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ مظهر ما تحذرونه من نفاقكم أو محصل إنزال السورة لأن الشيء إذا حصل بعد عدم فكأن فاعله أخرجه من العدم إلى الوجود . قوله ﴿ ولئن سألتهم ﴾ الآية . عن ابن عمر أن رجلاً من المنافقين في غزوة تبوك . ما رأيت مثل هؤلاء الفراء أرغب بطوناً أي أوسع ولا أكذب ألسناً ولا أجبن عند اللقاء يعني رسول الله وأصحابه . فقال واحد من المؤمنين : كذبت وأنت

منافق . ثم ذهب ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد القرآن قد سبقه فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله عليه وسلم وقد ارتحل وركب ناقته فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا كنا نلعب ونتحدث بحديث الركب نقطع به عنا الطريق قال ابن عمر : رأيت عبد الله بن أبيّ يشتد قدام رسول الله صلى الله عليه وسلم والحجارة تنكبه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب . والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن ؟ ما يلتفت إليه ولا يزيد عليه . وقال الحسن وقتادة : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات . فأطلع الله عز وجل نبيه على ذلك فقال : احبسوا عليّ الركب فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا فقالوا : يا رسول الله

(189/342)

إنما كنا نخوض ونلعب . قال الواحدي : أصل الخوض الدخول في مائع مثل الماء والطين ثم كثر حتى أطلق على كل دخول فيه تلويث وأذى أي كنا نخوض في الباطل كما يخوض الركب لقطع الطريق . ثم أمر نبيه بأن يقول في جوابهم ﴿ أبا لله ﴾ أي بتكاليفه أو بأسمائه أو بقدرته حيث استبعدتم إعانته النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على فتح قصور

الشام ﴿ وآياته ﴾ يعني القرآن ﴿ ورسوله كنتم تستهزؤن ﴾ لم يعبأ باعتذارهم فجعلوا كأنهم معترفون بوقوع الاستهزاء منهم فأوقع الإنكار على الاستهزاء بالله بأن أولى الاستفهام الذي يفيد التقرير المستهزأ به ولم يقل " أتستهزؤن بالله " .

(190/342)

ثم قال : ﴿ لا تعتذروا ﴾ نقل الواحدي عن أئمة اللغة أن معنى الاعتذار محو أثر الذنب أو قطعه من قولهم : اعتذر المنزل إذا درس . واعتذرت المياه إذا انقطعت ، ومنه عذرة الجارية لأنها تعذر أي تقطع . والعذر سبب لقطع اللوم ، نهاهم الله عن الاعتذار بالخوض واللعب لأن الشيء الذي يوجب الكفر لا يصلح للعذر . ثم بين ذلك بقوله ﴿ قد كفرتم ﴾ أي صريحاً ﴿ بعد إيمانكم ﴾ أي بعد الإيمان الذي أظهرتموه . وفيه أن الاستهزاء بالدين كيف كان كفر بالله صريح لأن العمدة الكبرى في الإيمان هو التعظيم لأمر الله ولشرائعه . ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ ذكر المفسرون أنهم كانوا ثلاثة ، استهزأ اثنان وضحك الثالث ، ولما كان ذنب الضاحك أخف لأنه لم يوافق القوم في الكفر فلا جرم عفا الله عنه . وفيه إشارة إلى أنه من خاض في عمل باطل فعليه أن يجتهد في التقليل ويحذر من الانهماك فإنه يرجى له ببركة ذلك القليل أن يعفو الله عنه الكل . قال الزجاج : الطائفة في اللغة

الجماعة لأنها المقدار الذي يمكنه أن يطيف بالشي ، ثم يجوز أن يسمى الواحد بالطائفة قال تعالى ﴿ وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ﴾ [النور : 2] وأقله الواحد . وروى الفراء بإسناده عن ابن عباس أنه قال : الطائفة الواحد فما فوقه . ووجه بأن من اختار مذهباً فإنه ينصره ويذب عنه من كل الجوانب فلا يبعد أن يسمى طائفة بهذا السبب والتاء للمبالغة . وقال ابن الأنباري : العرب قد توقع لفظ الجمع على الواحد وقال تعالى ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران : 173] يعني نعيم بن مسعود . ثم علل كونه معذباً للطائفة الثانية ﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي مصّرين مستمرّين على الجرم ، ويجوز أن يكون سبب العفو عن الطائفة الأولى إحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ، ويجوز أن يراد بالعذاب العذاب العاجل . ومن قرأ ﴿ أن يعف ﴾ على البناء للمفعول والتذكير فلأنه مستند إلى الظرف كما تقول : سير بالدابة دون سيرت . وقرىء بالتأنيث

(191/342)

ذهاباً إلى المعنى كأنه قيل : إن ترحم طائفة .

ثم ذكر جملة أحوال المنافقين . وأن إناثهم في ذلك كذكورهم فقال ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ أي في صفة النفاق وأريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في

قولهم ﴿ إنهم لمنكم ﴾ وتقرير قوله ﴿ وما هم منكم ﴾ ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادة حالهم الحال المؤمنين فقال ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً وأعظم ذلك تكذيب الله ورسوله . ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ وهو كل حسن عقلاً أو شرعاً وأعظم ذلك الإخلاص في الإيمان ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ عن كل خير أو عن كل واجب كصدقة أو زكاة أو إتفاق في سبيل الله ، وهذا أولى ليتوجه الذم بتركه . وقبض الأيدي كناية عن الشح والبخل كبسطها في الكرم والسخاء ﴿ نسوا الله ﴾ أغفلوا أمره وتركوا ذكره وذلك أن النسيان الحقيقي لا يتوجه عليه الذم ﴿ فنسيهم ﴾ جازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته وهذا على سبيل المزاوجة والطباق .

(192/342)

وإنما جعل النسيان عبارة عن ترك الذكر لأن من نسي شيئاً لم يذكره فدل بذكر الملزوم على اللازم ، ثم قال ﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ وفيه دليل على أنهم هم الكاملون في الفسق وأن على المسلم أن يتحرز عما يكسبه هذا الاسم . ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر فقال ﴿ وعد الله ﴾ الآية ومعنى ﴿ خالدين فيها ﴾ مقدرين الخلود فيها قاله في الكشاف ويحتمل أن يراد مستأهلين للخلود ﴿ هي حسبهم ﴾ كافيهم في الجزاء والإيلام

ومع ذلك فقد لعنهم الله ليكون العذب مقروناً بالإهانة والطرد ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ نوع آخر من العذاب الدائم سوى عذاب النار ، أو عذاب عاجل لا ينفكون عنه من تعب النفاق والخوف من افتضاحهم . ثم شبه المنافقين بالكفار الذين كانوا قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن الخيرات فقال ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب ﴿ كالذين من قبلكم ﴾ أي أنتم مثل الذين أو فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم . فعلى الأول محل الكاف رفع وعلى الثاني نصب . ثم وصف أولئك الكفار بأنهم كانوا أشد قوة أي جسامة من هؤلاء المنافقين ﴿ وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وهو ما خلق للإنسان أي قدر له من خير كما قيل له قسم لأنه قسم ونصيب لأنه نصب أي أثبت . ﴿ فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ قيل : ما الفائدة في ذكر الاستمتاع بالخلاق في حق الأولين مرة ثم ذكره في حق المنافقين ثانياً ثم تكريره في حق الأوّلين ثالثاً ؟ وأجيب بأنه تعالى ذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ ، فلما قرر تعالى هذا الذم عاد فشبه حال المنافقين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة . قال جار الله : نظيره أن تقول لبعض الظلمة أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب وأنت تفعل مثل فعله . وأما قوله ﴿ وخضتم كالذي خاضوا ﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن بإسناده إليه عن تلك

التقدمة . ومعنى "كالذي "كالخوض الذي خاضوه أو كالفوج الذي خاضوا . وقيل : أصله كالذين فحذف النون . ثم بين أن أولئك الكفار لم يحصل لهم إلا حبوط الأعمال أما في الدنيا فبسبب الفقر والانتقال من العز إلى الذل ومن القوة إلى الضعف ، وأما في الآخرة فلأنهم هلكوا وبادوا وانتقلوا إلى العقاب الدائم وخسران الدارين . فهؤلاء المنافقون المشاركون لهم في هذه الأعمال والفضائح مع ضعف بنيتهم وقلة عددهم وعددهم أولى بخزي الدارين وخسار الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 489 . 499 ﴾

(194/342)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إنما الصدقات ﴾ وهي صدقات مواهب الله كما قال الله صلى الله عليه وسلم

" ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا لله فيها صدقة على من يشاء من عبادة الفقراء وهم

الأغنياء بالله الذين فنوا عنهم وبقوا به " ﴿ والمساكين ﴾ الذين لهم بقية أوصاف الوجود ألقوا سفينة القلب في بحر الطلب وقد خرقها خضر المحبة ﴿ وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ﴾ [الكهف : 73] ﴿ والعاملين عليها ﴾ وهم أرباب الأعمال كما كان الفقراء والمساكين أرباب الأحوال ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ الذين

(195/342)

تتألف قلوبهم بذكر الله ﴿ وفي الرقاب ﴾ الذين يريدون أن يتخلصوا عن رق الموجودات تحر لعبودية موجدها . والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم . ﴿ والغارمين ﴾ الذين استقرضوا من مراتب المكونات أوصافها وطبائعها وخواصها وهم محبوسون في الوجود فهم معاونون بتلك الصدقات للخلاص عن حبس الوجود ﴿ وفي سبيل الله ﴾ المجاهدين الجهاد الأكبر مع كفار النفوس والهوى والشيطان والدنيا ﴿ وابن السبيل ﴾ المسافرون عن أوصاف الطبيعة وعالم البشرية ، السائرون إلى الله على أقدام الشريعة والطريقة ﴿ فريضة من الله ﴾ أوجبها على ذمة كرمه كما قال " ألا من طلبني وجدني " ﴿ والله عليم ﴾ بطالبيه ﴿ حكيم ﴾ في معاونتهم بعد الطلب كقوله " من تقرب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً " ﴿ ويقولون هو أذن ﴾ رأوا محامده بنظر المذمة والعيب ﴿ قل أذن خير لكم ﴾

أي سامعيته خير لكم لأن له مقام السامعية يسمع ما يوحى إليه ﴿ يؤمن بالله ﴾ عياناً ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ لأن فوائد إيمانه تعود إليهم كما إلى نفسه ﴿ ورحمة للذين آمنوا ﴾ لأنهم يهتدون بهداه ﴿ والذين يؤذون رسول الله ﴾ بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ﴿ يحذر المنافقون ﴾ والحذر لا يغني عن القدر ﴿ أن نعف عن طائفة ﴾ إظهاراً للفضل والرأفة ﴿ نعذب طائفة ﴾ إظهار للقهر والعزة ولكن إظهار اللطف بلا سبب . وإظهار القهر لا يكون إلا بسبب أنهم كانوا مجرمين و ﴿ بعضهم من بعض ﴾ لأن أرواحهم كانت في صف واحد في الأزل فمعاملاتهم من نتائج خصوصيات أرواحهم ﴿ نسوا الله

(196/342)

﴿ ولو ذكروه قبل الإتيان بالمعاصي لم يفعلوا ما فعلوا ، ولو ذكروه بعد الإتيان لاستغفروا فغفر لهم ﴿ هي حسبهم ﴾ لأنها نصيبهم في الأزل ﴿ كانوا أشد منكم قوة ﴾ بالاستعداد الفطري وضيعوها في الاستمتاع العاجل فخسروا رأس المال ولم يربحوا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 499. 500 ﴾

(197/342)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما قرر سبحانه بهذه الآية تشابههم في التمتع بالعاجل ، وختمها بهذا الختام المؤذن بالانتقام ، اتبع ذلك بتخويفهم من متشابهتهم فيما حل بطوائف منهم ملتفتاً إلى مقام الغيبة لأنه أوقع في الهيبة ، فقال مقرراً لخسارتهم : ﴿ ألم يأتهم ﴾ أي هؤلاء الأخابث من أهل النفاق ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي خبرهم العظيم الذي هو جدير بالبحث عنه ليعمل بما يقتضيه حين عصوا رسلنا ؛ ثم أبدل من ذلك قوله : ﴿ قوم نوح ﴾ أي في طول أعمارهم وامتداد آثارهم وطيب قرارهم بحسن التمتع في أرضهم وديارهم ، أهلكهم بالطوفان ، لم يبق عن عصاتهم إنسان ، وعطف على قوم القبيلة فقال ؛ ﴿ وعاد ﴾ أي في قوة أبدانهم وعظيم شأنهم ومصانعهم وبنيانهم وتجبرهم في عظيم سلطانهم ، أهلكهم بالريح الصرصر ، لم يبق ممن كفر منهم بشر ﴿ وثمود ﴾ أي في تمكنهم من بلاد الحجر عرضها وطولها ، جبالها وسهولها ، أهلكوا بالرجفة لم يبق من الكفار منهم ديار ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ أي في ملك جميع الأرض

بطولها والعرض ، سلب الله منهم الملك بعد شديد الهلك ﴿ وأصحاب مدين ﴾ أي في جمع الأموال ومد الآمال إلى أخذها من حرام وحلال ونقص الميزان والمكيال فعمهم الله بالنكال ﴿ والمؤتفكات ﴾ أي في إعراضهم عن صيانة أعراضهم في اتباع لذائذ أغراضهم ، فأثمر لهم فعلهم بعد الخسف عموم انقراضهم .

(198/342)

ولما كان كأنه قيل : ما نبأهم ؟ قال : ﴿ أتتهم رسلهم ﴾ أي أتى كل أمة منهم رسولها ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات الواضحات جداً بسبب أنهم ارتكبوا من القبائح ما أوجب دمارهم ﴿ فما ﴾ أي فتسبب عن ذلك أنه ﴿ ما ﴾ ﴿ كان الله ﴾ أي مع ما له من صفات الكمال مريداً ﴿ ليظلمهم ﴾ أي لأن يفعل بهم في الإهلاك قبل الإنذار وإنارة البينات فعل من تعدونه فيما بينكم ظالماً ، ولكنه أرسل إليهم الرسل فكذبوا ما أتوهم به من البينات ، فصار العالم بحالهم إذا سمع بهلاكهم وبزوالهم يقول : ما ظلمهم الله ﴿ ولكن كانوا ﴾ أي دائماً في طول أعمارهم ﴿ أنفسهم ﴾ أي لاغيرها ﴿ يظلمون ﴾ أي بفعل ما يسبب هلاكها ، فإن لم ترجعوا أنتم فنحن نحذركم مثل عذابهم ، ولعله خص هؤلاء بالذكر

من بين بقية الأمم لما عند العرب من أخبارهم وقرب ديارهم من ديارهم مع أنهم كانوا أكثر الأمم عدداً ، وأنبياؤهم أعظم الأنبياء – نبه على ذلك أبو حيان .

(199/342)

ولعله قدم أصحاب مدين على قوم لوط وهم بعدهم في الزمان لأن هذا في شأن من وصفوا بأنهم لم يجدوا ما يحميهم مما هم فيه من العذاب بمشاهدة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من ملجأ أو مغارات أو مدخل كما أن من قبل المؤتفكات جمعهم هذا الوصف ، فقوم نوح عليه السلام لم يمنعهم لما أتاهم الماء معقل منيع ولا جبل رفيع مع أنه يقال ؛ إنهم هم الذين بنوا الأهرامات ، منها ما هو بالحجارة ليمنعهم من الحادث الذي هددوا به إن كان ماء ، ومنها ما هو بالطوب التي لتحميهم منه إن كان ناراً ، وعاد لما أتتهم الريح بادروا إلى البيوت فقلعت الأبواب وصرعتهم في أجواف بيوتهم ، ولم يغنهم ما كانوا يبنون من المصانع المتقنة والقصور المشيدة والحصون الممنعة ، وحال ثمود معروف في توسعهم في البيوت جبالاً وسهولاً فما منعتهم من الصيحة التي أعقبت الرجفة ، وقوم إبراهيم عليه السلام بنوا الصرح ، ارتفاعه خمسة آلاف ذراع أو فرسخان ليتوصل به نمرود كما زعم – إلى السماء فأتى الله بنيانهم من القواعد ، ألقت الريح رأسه في البحر وخر عليهم الباقي وهم تحته ، وأتاهم العذاب من

حيث لا يشعرون ، وأصحاب مدين لما أتاهم العذاب فأخذتهم الرجفة الرجفة لما تغن عنهم مدينتهم ، وإن كانوا هم أصحاب الأيكة فإنهم لما اشتد عليهم الحر يوم الظلة قصدوا المغارات فوجدوها أحر من وجه الأرض فخرجوا منها هاربين ، فجمعتهم الظلة بنسيم بارد خيلته إليهم ولبست به عليهم ، فلما اجتمعوا تحتها أحرقتهم نارها وبقي عليهم عارها ، وأما قوم لوط فأتاهم الأمر بغتة ، لم يشعروا حتى قلبت مدائنهم بعد أن رفعت إلى عنان السماء ، واتبعت حجارة الكبريت تضطرم ناراً ، ولعله خص قوم لوط بالذكر من بين من ليس له هذا الوصف لأن العرب كانوا يمرون على مواضع مدائنهم ويشاهدونها ، وعبر عنهم بالمؤتفكات لأن القصص للمنافقين الذين مبنى أمرهم على الكذب وصرف الأمور عن ظواهرها وتقليبها عن وجوهها ، فالمعنى أن أولئك لما

(200/342)

قلبوا فعل النكاح عن وجهه عوقبوا بقلب مدائنهم ، فهؤلاء جديرون بمثل هذه العقوبة لقلب القول عن وجهه ، ومادة " إفك " بكل ترتيب تدور على القلب ، فإذا كافأت الرجل فكأنك قلبت فعله فرددته إليه وصرفته عنك ، وأكاف الدابة شبه بالإناء المقلوب ،

والكذب صرف الكلام عن وجهه فهو إفك لذلك - والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 356. 358 ﴾

(201/342)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ والمؤتفكات ﴾ وبابه بغير همز: أبو عمرو غير شجاع وورش ويزيد والحلواني عن قالون والأعشى وحمزة في الوقف.

الوقوف: ﴿ والمؤتفكات ﴾ ط ﴿ بالبينات ﴾ ج لابتداء النفي مع فاء التعقيب. ﴿ يظلمون ﴾ ه ﴿ أولياء بعض ﴾ م لما مر. ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ سيرحمهم الله ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ عدن ﴾ ط ﴿ أكبر ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ واغلظ عليهم ﴾ ط ﴿ جهنم ﴾ ط ﴿ المصير ﴾ ه ﴿ ما قالوا ﴾ ط ﴿ لم ينالوا ﴾ ج ﴿ من فضله ﴾ ط ﴿ خيراً لهم ﴾ ج ﴿ والآخرة ﴾ ج ﴿ ولا نصير ﴾ ه ﴿ من الصالحين ﴾ ه ﴿ معرضون ﴾ ه ﴿ يكذبون ﴾ ه ﴿ علام الغيب ﴾ ه ج لاحتمال النصب أو الرفع على الذم. وكونه بدلاً من الضمير في ﴿ نجواهم ﴾ ﴿ فيسخرون منهم ﴾ ط. ﴿ سخر

الله منهم ﴾ ط لإتمام الجزء مع اختلاف النظم . ﴿ أليم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 501 ﴾

(202/342)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا وفي تكذيب الأنبياء والمبالغة في إيذائهم بين أن أولئك الكفار المتقدمين منهم ، فذكر هؤلاء الطوائف الستة ، فأولهم قوم نوح والله أهلكهم بالإغراق ، وثانيهم : عاد والله تعالى أهلكهم بإرسال الريح العقيم عليهم .

وثالثهم : ثمود والله أهلكهم بإرسال الصيحة والصاعقة .

ورابعهم : قوم إبراهيم أهلكهم الله بسبب سلب النعمة عنهم ، وبما روي في الأخبار أنه تعالى سلط البعوضة على دماغ نمروذ .

وخامسهم : قوم شعيب وهم أصحاب مدين ، ويقال : إنهم من ولد مدين بن إبراهيم ، والله تعالى أهلكهم بعذاب يوم الظلة ، والمؤتفكات قوم لوط أهلكهم الله بأن جعل عالي أرضهم سافلها ، وأمطر عليهم الحجارة ، وقال الواحدي : ﴿ المؤتفكات ﴾ جمع مؤتفكة ، ومعنى الائتفاك في اللغة الانقلاب ، وتلك القرى ائتفكت بأهلها ، أي انقلبت فصار أعلاها أسفلها ، يقال أفكه فائتفك أي قلبه فانقلب ، وعلى هذا التفسير فالمؤتفكات صفة القرى ، وقيل ائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر .

واعلم أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وذكر هؤلاء الطوائف الستة وإنما قال ذلك لأنه أتاهم نبأ هؤلاء تارة ، بأن سمعوا هذه الأخبار من الخلق ، وتارة لأجل أن بلاد هذه الطوائف ، وهي بلاد الشام ، قريبة من بلاد العرب ، وقد بقيت آثارهم مشاهدة ، وقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ وإن كان في صفة الاستفهام إلا أن المراد هو التقرير ، أي أتاهم نبأ هؤلاء الأقوام .

ثم قال : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ ﴾ وهو راجع إلى كل هؤلاء الطوائف .

(203/342)

ثم قال : ﴿ بالبينات ﴾ أي بالمعجزات ولا بدَّ من إضمار في الكلام ، والتقدير : فكذبوا فعجل الله هلاكهم .

ثم قال : ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والمعنى : أن العذاب الذي أوصله الله إليهم ما كان ظلماً من الله لأنهم استحقوه بسبب أفعالهم القبيحة ومبالغتهم في تكذيب أنبيائهم ، بل كانوا ظلموا أنفسهم ، قالت المعتزلة : دلت هذه الآية على أنه تعالى لا يصح منه فعل الظلم وإلا لما حسن التمدح به ، وذلك دل على أنه لا يظلم ألبتة ، وذلك يدل على أنه تعالى لا يخلق الكفر في الكافر ثم يعذبه عليه ، ودل على أن فاعل الظلم هو العبد ، وهو قوله : ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ وهذا الكلام قد مر ذكره في هذا الكتاب مراراً خارجة عن الإحصاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 103 . 104 ﴾

(204/342)

وقال السمرقندى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾

يعني : ألم يأتهم خبر الذين من قبلهم في القرآن عند التكذيب كيف فعلنا بهم ؟ ﴿ قَوْمُ نُوحٍ

﴿ كيف أغرقناهم ، ﴿ وَ ﴾ قوم ﴿ وإلى عَادٍ ﴾ كيف أهلكناهم بالريح المقيم ؟ ﴿ وَ ﴾ قوم ﴿ بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ، وهم قوم صالح كيف أهلكناهم بالصيحة ؟ ﴿ وَقَوْمِ إبراهيم ﴾ ، وهو النمرود بن كنعان كيف أهلكناه بأضعف الخلق وهو البعوض ؟ ﴿ وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ ، وهم قوم شعيب كيف أهلكناهم بعذاب يوم الظلة ؟ ﴿ والمؤتفكات ﴾ ، يعني : مدائن قوم لوط .

والمؤتفكات جمع المؤتفكة ، لأنها ائتفكت بهم ، يعني : انقلبت ، كقوله تعالى : ﴿ والمؤتفكة أهوى فغشاها مَا غشى ﴾ [النجم : 53 ، 54] يعني : أمطرت عليهم الحجارة ؛ وقال مقاتل : المؤتفكات يعني : المكذبات ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ ، يعني : بالأمر والنهي فتركوا طاعتي فأهلكتهم .

﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، يعني : لم يهلكهم بغير ذنب .

﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بتركهم طاعتي وتكذيبهم الرسل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(205/342)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

يقول عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ألم يأت هؤلاء المنافقين خبر الأمم السالفة التي عصت الله بتكذيب رسله فأهلكها ، ﴿ وعاد وثمود ﴾ قبيلتان ، ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ نمرود وأصحابه وتباع دولته ، ﴿ وأصحاب مدين ﴾ قوم شعيب ، ﴿ والمؤتفكات ﴾ أهل القرى الأربعة ، وقيل السبعة الذين بعث إليهم لوط صلى الله عليه وسلم ، ومعنى ﴿ المؤتفكات ﴾ المنصرفات والمنقلبات أفكت فانتفكت لأنها جعل أعاليها أسفلها ، وقد جاءت في القرآن مفردة تدل على الجمع ، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان : [البسيط]

بمنطق مستبينٍ غيرِ مُلْتَبِسٍ . . . به اللسانُ وإني غيرُ مؤتفكِ

أي غير منقلب منصرف مضطرب ومنه يقال للريح مؤتفكة لتصرفها ، ومنه ﴿ أنى يؤفكون ﴾ [المائدة : 75 ، التوبة : 30 ، العنكبوت : 61 ، الزخرف ، 87 ، المنافقون : 4] والإفك صرف القول من الحق إلى الكذب ، والضمير في قوله ﴿ أتتهم رسلهم ﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة ، وقيل على ﴿ المؤتفكات ﴾ خاصة ، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيهم واحداً لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً ، فهم رسل رسول الله ذكره الطبري ، والتأويل الأول في عود الضمير على جميع الأمم أبين وقوله ﴿ بالبينات ﴾ يريد

بالمعجزات وهي بينة في أنفسها بالإضافة إلى الحق لا بالإضافة إلى المكذبين بها . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(206/342)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ قال ابن عباس : يريد نمرود بن كنعان ﴿ وأصحاب مدين ﴾ يعني : قوم شعيب ﴿ والمؤتفكات ﴾ قرى لوط ، قال الزجاج : وهم جمع مؤتفكة ، ائتفكت بهم الأرض ، أي : انقلبت .

قال : ويقال : إنَّهم جميع من أُهلك ، [كما] يقال للهالك : انقلبت عليه الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ أتتهم ﴾ يعني هذه الأمم ﴿ رسلهُم بالبيِّناتِ ﴾ فكذَّبوا بها ، ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ قال ابن عباس : ليُهلكهم حتى يبعث فيهم نبياً ينذرهم ، والمعنى : أنهم أُهلكوا باستحقاقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(207/342)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ﴾

أي خبر ﴿ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ .

والألف لمعنى التقرير والتحذير ؛ أي ألم يسمعوا إهلاكنا الكفار من قبل .

﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ﴾ بدل من الذين .

﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أي نُمرود بن كنعان وقومه .

﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ مدين اسم للبلد الذي كان فيه شعيب ، أهلكوا بعذاب يوم الظُّلَّة .

﴿ والمؤتفكات ﴾ قيل : يراد به قوم لوط ؛ لأن أرضهم ائتفَكت بهم ، أي انقلبت ؛ قاله قتادة .

وقيل : المؤتفكات كل من أهلك ؛ كما يقال : انقلبت عليهم الدنيا .

﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ يعني جميع الأنبياء .

وقيل : أتت أصحاب المؤتفكات رسلُهم ؛ فعلى هذا رسولهم لوط وحده ؛ ولكنه بعث في كل قرية رسولاً ، وكانت ثلاث قَرْيات ، وقيل أربع .

وقوله تعالى في موضع آخر : "والمؤتفكة" على طريق الجنس .

وقيل : أراد بالرسل الواحد ؛ كقوله ﴿ يا أيها الرسل كُلُواْ مِنَ الطيبات ﴾ [المؤمنون : 51

] ولم يكن في عصره غيره .

قلت وهذا فيه نظر ؛ للحديث الصحيح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن الله خاطب المؤمنين بما أمر به المرسلين " الحديث .

وقد تقدّم في "البقرة" .

والمراد جميع الرسل ، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي ليهلكهم حتى يبعث إليهم الأنبياء .

﴿ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ولكن ظلموا أنفسهم بعد قيام الحجة عليهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(208/342)

وقال الخازن :

﴿ ألم يأتهم ﴾

رجع من الخطاب إلى الغيبة يعني ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي قد تاهم ﴿ نبأ ﴾ يعني خبر ﴿ الذين من قبلهم ﴾ يعني الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ثم ذكرهم فقال تعالى : ﴿ قوم نوح

﴿ يعني أنهم أهلكوا بالطوفان ﴿ وعاد ﴾ أهلكوا بالريح العقيم ﴿ وثمود ﴾ أهلكوا بالرجفة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ أهلكوا بسلب النعمة وكان هلاك نمرود ببعوضة ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وهم قوم شعيب أهلكوا بعذاب يوم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ يعني المنقلبات التي جعل الله عاليها سافلها وهي مدائن قوم لوط.

وإنما ذكر الله سبحانه وتعالى هذه الطوائف الستة، لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من أرض العرب، فكانوا يمرون عليهم ويعرفون أخبارهم ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ يعني بالمعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها المنافقون والكفار فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ يعني بتعجيل العقوبة ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ يعني أن الذي استحقوه من العقوبة بسبب ظلمهم أنفسهم. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(209/342)

وقال أبو حيان:

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين

والمؤتفكات ﴾

لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في الرغبة في الدنيا وتكذيب الأنبياء ، وكان لفظ الذين من قبلكم فيه إبهام ، نصّ على طوائف بأعيانها ستة ، لأنهم كان عندهم شيء من أنبائهم ، وكانت بلادهم قريبة من بلاد العرب ، وكانوا أكثر الأمم عدداً ، وأنبياؤهم أعظم الأنبياء : نوح أول الرسل ، وابراهيم الأب الأقرب للعرب وما يليها من الأمم مقاربون لهم في الشدّة وكثرة المال والولد .

فقوم نوح أهلكوا بالغرق ، وعاد بالريح ، وثمود بالصيحة ، وقوم إبراهيم بسلب النعمة عنهم ، حتى سلطت البعوضة على نمرود ملكهم ، وأصحاب مدين بعذاب يوم الظلة ، والمؤتفكات بجعل أعالي أرضها أسافل ، وأمطار الحجارة عليهم .

قال الواحدي : معنى الائتفاك الانقلاب ، فأفكته فائتفك أي قلبته فانقلب .

والمؤتفكات صفة للقرى التي ائتفكت بأهلها ، فجعل أعلاها أسفلها .

والمؤتفكات مدائن قوم لوط .

وقيل : قريات قوم لوط وهود وصالح .

وائتفاكهن : انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر .

قال ابن عطية : والمؤتفكات أهل القرى الأربعة .

وقيل : التسعة التي بعث إليهم لوط عليه السلام ، وقد جاءت في القرآن مفردة تدل على

الجمع ، ومن هذه اللفظة قول عمران بن حطان :

لمنطق مستبين غير ملتبس . . .

به اللسان ورأي غير مؤتفك

أي غير منقلب متصرّف مضطرب .

ومنه يقال للريح : مؤتفكة لتصرفها ، ومنه ﴿ أنى يؤفكون ﴾ والإفك صرف القول من الحق إلى الكذب انتهى .

وفي قوله : ألم يأتهم ، تذكير بأنباء الماضين وتخويف أنْ يصيبهم مثل ما أصابهم ، وكان أكثرهم عالمين بأحوال هذه الأمم ، وقد ذكر شيء منها في أشعار جاهليتهم كالأفوه الأزدي ، وعلقمة بن عبدة ، وغيرهما .

ويحتمل أن يكون قوله : ألم يأتهم تذكيراً بما قص الله عليهم في القرآن من أحوال هؤلاء وتفاصيلها .

(210/342)

والظاهر أنّ الضمير في أتتهم رسلهم بالبينات عائد على الأمم الستة المذكورة ، والجملة شرح للنبأ .

وقيل : يعود على المؤتفكات خاصة ، وأتى بلفظ رسل وإن كان نبيهم واحداً ، لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً ، فهم رسول رسول الله ، ذكره الطبري .

وقال الكرماني : قيل : يعود على المؤتفكات أي : أتاهم رسول بعد رسول .

والبينات المعجزات ، وهي وأصحاب بالنسبة إلى الحق ، لا بالنسبة إلى المكذبين .

قال ابن عباس : ليظلمهم ليهلكهم حتى يبعث فيهم نبياً ينذرهم .

والمعنى : أنهم أهلكوا باستحقاقهم .

وقال مكي : فما كان الله ليضع عقوبته في غير مستحقها ، إذ الظلم وضع الشيء في غير موضعه ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون إذ عصوا الله وكذبوا رسله حتى أسخطوا ربهم واستوجبوا العقوبة ، فظلموا بذلك أنفسهم .

وقال الكرماني : ليظلمهم بإهلاكهم ، يظلمون بالكفر والتكذيب .

وقال الزمخشري : فما صح منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح ، وأن يعاقبهم بغير جرم ، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه انتهى .

وذلك على طريقة الاعتزال .

ويظهر أن بين قوله بالبينات .

وقوله : فما كان كلاماً محذوفاً تقديره والله أعلم فكذبوا فأهلكهم الله ، فما كان الله ليظلمهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾

أي المنافقين ﴿ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي خبرُهم الذي له شأنٌ وهو ما فعل بهم والاستفهامُ للتقرير والتحذير ﴿ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إبراهيم وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ وهم قومُ شعيبٍ ﴿ والمؤتفكات ﴾ قَرْياتُ قومِ لوطٍ ائتفَكَت بهم أي انقلبت بهم فصار عاليها سافلَها وأُمطروا حجارةً من سجيل وقيل : قرياتُ المكذبين بهم وائتفاكُهن انقلابُ أحوالِهن من الخير إلى الشر ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ استئنافٌ لبيان نبئهم ﴿ فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ الفاءُ للعطف على مقدر ينسحب عليه الكلامُ ويستدعيه النظامُ أي فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما ظلمهم بذلك ، وإيثارُ ما عليه النظمُ الكريمُ للمبالغة في تنزيه ساحةِ السُّبحان عن الظلم ، أي ما صح وما استقام له أن يظلِمهم ولكنهم ظلموا أنفسَهم ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبل في قوله عز وجل : ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ للدِلالة على استمرار ظلمِهم حيث لم يزالوا يعرِّضونها للعقاب بالكفر والتكذيب ، وتقديمُ المفعول لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلةِ من غير قصدٍ إلى قصر

المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديمَ موجباً للقصر فيكون كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا ظلمناهم ولكن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ﴾ من غير قصر للظلم على الفاعل أو المفعول وسيجيء لهذا مزيدُ بيان في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَظْلِمُ الناس شَيْئًا ولكن الناس أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(212/342)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾

أي المنافقين ﴿ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي خبرهم الذي له شأن واستفهام للتقرير والتحذير ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ أغرقوا بالطوفان ﴿ وَعَادٌ ﴾ أهلكوا بالريح ﴿ وَثَمُودُ ﴾ أهلكوا بالرجفة ، وغير الأسلوب في القومين لأنهم لم يشتهروا بنبيهم ، وقيل : لأن الكثير منهم آمن ﴿ وَقَوْمِ إبراهيم ﴾ أهلك نمروذ رئيسهم ببعوض وأبيدوا بعده لكن لا بسبب سماوي كغيرهم ﴿ وأصحاب مَدْيَنَ ﴾ أي أهلها وهم قوم شعيب عليه السلام أهلكوا بالنار يوم الظلة أو بالصيحة والرجفة أو بالنار والرجفة على اختلاف الروايات ﴿ والمؤتفكات ﴾ جمع مؤتفكة من الائتفاك وهو الانقلاب بجعل أعلى الشيء أسفل بالخسف ، والمراد بها إما

قريات قوم لوط عليه السلام فالائتفاك على حقيقته فإنها انقلبت بهم وصار عاليها سافلها وأمطر على من فيها حجارة من سجيل وإما قريات المكذبين المتمردين مطلقاً فالائتفاك مجاز عن انقلاب حالها من الخير إلى الشر على طريق الاستعارة كقول ابن الرومي :

وما الخسف أن تلقى أسافل بلدة . . .

أعاليها بل أن تسود الأراذل

لأنها لم يصبها كلها الائتفاك الحقيقي ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ استئناف لبيان نبئهم ، وضمير الجمع للجميع لا للمؤتفكات فقط ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي فكذبوهم فأهلكهم الله تعالى فما كان الخ ، فالفاء للعطف على ذلك المقدر الذي ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام ، أي لم يكن من عادته سبحانه ما يشبه ظلم الناس كالعقوبة بلا جرم ، وقد يحمل على استمرار النفي أي لا يصدر منه سبحانه ذلك أصلا بل هو أبلغ كما لا يخفى .

وقول الزمخشري : أي فما صح منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح مبني على الاعتزال .

(213/342)

﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ حيث عرضوها بمقتضى استعدادهم للعقاب بالكفر والتكذيب ، والجمع بين صيغتي الماضي والمستقبل للدلالة على الاستمرار ، وتقديم المفعول على ما قرره بعض الأفاضل لمجرد الاهتمام به مع مراعاة الفاصلة من غير قصد إلى قصر المظلومية عليهم على رأي من لا يرى التقديم موجباً للقصر كابن الأثير فيما قيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(214/342)

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أي : بطريق التواتر ﴿ نَبَأُ ﴾ أي : خبر ﴿ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ وهو إهلاكهم بعد تنعيمهم لكفرهم ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ أنعم عليهم بنعم ، منها تطويل أعمارهم ، ثم أهلكوا بالطوفان ﴿ وَعَادٍ ﴾ قوم هود ، أنعم عليهم بنعم منها مزيد قوتهم ، ثم أهلكوا بالريح ﴿ وَثَمُودَ ﴾ قوم صالح ، أنعم عليهم بنعم ، منها القصور ، ثم أهلكوا بالرجفة ﴿ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ أهلكوا بالهدم - كذا في " التنوير " .

وقال المهايمي : أنعم عليهم بنعم منها عظم الملك ، ثم أهلك ملكهم نمرود بالبعوض الداخل في أنفه ﴿ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ ﴾ قوم شعيب ، أنعم عليهم بنعم ، منها التجارة ، ثم أهلكهم بإفاضة النار عليهم ﴿ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾ قريات قوم لوط ، ائتفكت بهم ، أي : انقلبت بهم ، فصار عاليها سافلها ، وأمطروا حجارة من سجيل .

وقوله تعالى : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ استئناف لبيان نبئهم ، أن جاءتهم بالآيات الدالة على رسالتهم ﴿ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ أي : بإهلاكه إياهم ، لأنه قام عليهم الحجة ، بإرسال الرسل ، وإزاحة العلل .

والفاء للعطف على مقدَّر ينسحب عليه الكلام ويستدعيه النظام ، أي : فكذبهم فأهلكهم الله تعالى ، فما ظلمهم بذلك ﴿ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي : بالكفر والتكذيب ، وترك شكره تعالى ، وصرفهم نعمه إلى غيره ما أعطاهم إياهم لأجله ، فاستحقوا ذلك العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 466 .

467 ﴾

(215/342)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ﴾

هَذَا بَيَانٌ عَامٌّ لِحَالِ جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ ذُكْرَانِهِمْ وَإِنَاثِهِمْ ، مَقْرُونٌ بِالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ عَلَى مَا أُعِدَّ لَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ مَعَ إِخْوَانِهِمُ الْكُفَّارِ عَلَى فَسَادِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ ، يَتْلُوهُ ضَرْبُ الْمَثَلِ لَهُمْ بِحَالِ أَمْثَالِهِمْ فِي الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ . فَاتِّصَالُهَا بِمَا قَبْلَهَا مِنْ بَيَانِ شُئُونِ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَعَلِّقَةِ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ هُوَ مِنْ

قَبِيلِ التَّنَاسُبِ بَيْنَ الْقَوَاعِدِ الْعِلْمِيَّةِ فِي الْأَخْلَاقِ ، وَالسُّنَنِ الْعَامَّةِ فِي رَوَابِطِ الِاجْتِمَاعِ ، وَبَيْنَ الْوَقَائِعِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تُعَدُّ مِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذِهِ الْقَوَاعِدِ وَالسُّنَنِ .

قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أَيْ : أَهْلُ النِّفَاقِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ مُتَشَابِهُونَ فِيهِ وَصْفًا وَعَمَلًا ، كَأَنَّ كُلًّا مِنْهُمْ عَيْنُ الْآخَرِ كَمَا قِيلَ :

تِلْكَ الْعَصَا مِنْ هَذِهِ الْعُصَيَّهْ . . . هَلْ تَلِدُ الْحَيَّةُ إِلَّا حَيَّهْ

(216/342)

وَكَمَا قَالَ تَعَالَى فِي آلِ إِبْرَاهِيمَ وَآلِ عِمْرَانَ : ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ (3 : 34) وَفِي اسْتِجَابَتِهِ لِدُعَاءِ الذَّاكِرِينَ الْمُتَفَكِّرِينَ : لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ

مِنْ بَعْضٍ (3 : 195) ثُمَّ بَيَّنَ هَذَا التَّشَابُهَ بِقَوْلِهِ : يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، الْمُنْكَرُ الشَّرْعِيُّ : مَا يُنْكِرُهُ الشَّرْعُ وَيَسْتَقْبِحُهُ ، وَالْمُنْكَرُ الْعَقْلِيُّ وَالْفِطْرِيُّ : مَا تَسْتَنْكِرُهُ الْعُقُولُ الرَّاجِحَةُ وَالْفِطَرُ السَّلِيمَةُ ، لِمُنَافَاتِهِ لِلْفَضَائِلِ وَالْمَنَافِعِ الْفَرْدِيَّةِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَالشَّرْعُ : هُوَ الْقِسْطَاسُ الْمُسْتَقِيمُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَالْمَعْرُوفُ : مَا يُقَابِلُ الْمُنْكَرَ

(217/342)

مُقَابَلَةَ التَّضَادِّ ، وَمِنَ الْمُنْكَرِ الَّذِي يَأْمُرُ بِهِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْكَذِبُ وَالْخِيَانَةُ وَإِخْلَافُ الْوَعْدِ وَالْفُجُورُ وَالْغَدْرُ بِنَقْضِ الْعُهُودِ ، قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ . وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ : أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالشَّيْخَانِ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ الثَّلَاثَةُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . وَمِنَ الْمَعْرُوفِ الَّذِي يَنْهَوْنَ عَنْهُ الْجِهَادُ ، وَبَذْلُ الْمَالِ

فِي سَبِيلِ اللهِ لِلْقِتَالِ وَغَيْرِ الْقِتَالِ . كَقَوْلِهِمُ الَّذِي ذُكِرَ فِي سُورَتِهِمْ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا (63 : 7) .

(218/342)

وَقَبْضُ الْأَيْدِي : ضَمُّ أَصَابِعِهَا إِلَى بَاطِنِ الْكَفِّ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الِامْتِنَاعِ مِنَ الْبَذْلِ ، كَمَا أَنَّ بَسْطَ الْيَدِ كِنَايَةٌ عَنِ الْإِنْفَاقِ وَالْبَذْلِ ، فَهُمْ يَنْهَوْنَ النَّاسَ عَنِ الْبَذْلِ ، وَيَمْتَنِعُونَ مِنْهُ بِالْفِعْلِ ، وَاقْتَصَرَ مِنْ مُنْكَرَاتِهِمُ الْفِعْلِيَّةِ عَلَى هَذَا ؛ لِأَنَّهُ شَرُّهَا وَأَضَرُّهَا ، وَأَقْوَاهَا دَلَالَةً عَلَى النِّفَاقِ ، كَمَا أَنَّ الْإِنْفَاقَ فِي سَبِيلِ اللهِ أَقْوَى الْآيَاتِ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْإِنْفَاقِ كَثِيرَةٌ جِدًّا تَقَدَّمَ كَثِيرٌ مِنْهَا فِي سُورَتَيِ الْبَقَرَةِ وَالْأَنْفَالِ وَهَذِهِ السُّورَةِ .

نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ أَيْ : نَسُوا اللهَ أَنْ يَتَقَرَّبُوا إِلَيْهِ بِالْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ ، يَعْنِي أَنَّهُمْ لِرُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ لَمْ يَعُدْ يَخْطُرُ بِبَالِهِمْ أَنَّ لَهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ حَقَّ الطَّاعَةِ وَالشُّكْرِ ، فَهُمْ لَا يَذْكُرُونَهُ بِشَيْءٍ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ فِيهَا أَهْوَاءَهُمْ مِنَ الرِّيَاءِ وَوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ ، وَقَدْ حَذَّرَهُمْ رَبُّهُمْ طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَلَاسِيَّمَا فِي الْبُخْلِ فَقَالَ : الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا

(2 : 268) الْفَحْشَاءُ : مَا فَحُشَ قُبْحُهُ وَعَظُمَ كَالزِّنَا وَاللِّوَاطِ وَالْبُخْلِ الشَّدِيدِ ، وَفُسِّرَتْ بِهِ فِي الْآيَةِ كَمَا فُسِّرَ الْفَاحِشُ بِالْبَخِيلِ فِي قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ فِي مُعَلَّقَتِهِ :

(219/342)

أَرَى الْمَوْتَ يَعْتَامُ الْكِرَامَ وَيَصْطَفِي . . . عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاحِشِ الْمُتَشَدِّدِ

(220/342)

وَأَمَّا نِسْيَانُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ فَهُوَ عِبَارَةٌ عَنْ مُجَازَاتِهِمْ عَلَى نِسْيَانِهِمْ إِيَّاهُ بِحِرْمَانِهِمْ مِنْ فَوَائِدِ ذِكْرِهِ ، وَفَضِيلَةِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالْإِنْفَاقِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ تَوْفِيقِهِ وَلُطْفِهِ فِي الدُّنْيَا ، وَحِرْمَانِهِمْ مِنَ الثَّوَابِ عَلَى ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ كَمَا سَيَأْتِي قَرِيبًا فِي قَوْلِهِ : حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ (69) فَالْمُرَادُ بِالنِّسْيَانِ لَازِمُهُ وَهُوَ جَعْلُهُمْ كَالْمَنْسِيِّ الَّذِي لَا يُتَعَهَّدُ ، وَلَا يُعْتَنَى بِشَأْنِهِ . لَا كَالْمَنْسِيِّ مُطْلَقًا . إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ الرَّاسِخُونَ فِي الْفُسُوقِ ، وَهُوَ الْخُرُوجُ مِنْ مُحِيطِ الْإِيمَانِ وَفَضَائِلِهِ ، النَّاكِبُونَ عَنْ صِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَى طُرُقِ الشَّيْطَانِ وَرَذَائِلِهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَرِيبًا قَوْلُهُ تَعَالَى : إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (: 53) وَهُوَ فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ

، فَلَمْ يُذْكَرْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَصِحُّ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا صَحَّ هُنَا ؛ لِأَنَّهُ فِي جِنْسِ الْمُنَافِقِينَ ، وَالْحَصْرُ فِيهِمْ إِضَافِيٌّ ، فَهُمْ أَشَدُّ فُسُوقًا مِنْ جَمِيعِ أَجْنَاسِ الْعُصَاةِ ، حَتَّى الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ عَقَائِدِهِمُ الْبَاطِلَةِ وَتَعَالِيمِهِمُ الْمُنْكَرَةِ ، فَلَا يَبْلُغُ فُسُوقُهُمْ وَخُرُوجُهُمْ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ بِمُخَالَفَةِ دِينِهِمْ ، وَلَا الْخُرُوجُ مِنْ فَضَائِلِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، حَدَّ فُسُوقِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يُخَالِفُ ظَاهِرُهُمْ بَاطِنَهُمْ ، وَالْمُرَجَّحُ فِي تَفْصِيلِ حَالِهِمْ إِلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْآيَاتِ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، وَفِي آيَاتٍ مِنْ

(221/342)

سُورَةِ النِّسَاءِ ، وَنَاهِيكَ بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ وَمَا تَأَخَّرَ .

ثُمَّ قَفَّى تَعَالَى عَلَى بَيَانِهِ حَالَهُمْ هَذِهِ بِذِكْرِ مَا أَعَدَّهُ لَهُمْ وَلِإِخْوَانِهِمُ الْكُفَّارِ مِنَ الْعِقَابِ فَقَالَ : وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا الْوَعْدُ يُسْتَعْمَلُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَفِيمَا يَنْفَعُ وَفِيمَا يَضُرُّ ، وَالْوَعِيدُ خَاصٌّ بِالثَّانِي ، وَلَا يَكَادُ يُذْكَرُ الْوَعْدُ فِيهِ إِلَّا مَعَ ذِكْرِ مُتَعَلِّقِهِ صَرَاحَةً أَوْ ضِمْنًا كَهَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي الْجُزْءِ الثَّامِنِ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ (ص378) مِنْ هَذِهِ الطَّبْعَةِ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْمُنَافِقَاتِ مَعَ الْمُنَافِقِينَ لِلنَّصِّ عَلَى أَنَّ فِي النِّسَاءِ نِفَاقًا كَالرِّجَالِ ، وَإِنْ كَانَ هَذَا مَعْرُوفًا فِي طِبَاعِ النَّاسِ ، كَمَا قَرَنَ

ذِكْرَ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ فِي صِفَاتِ الْإِيمَانِ

وَأَخَّرَ ذِكْرَ الْكُفَّارِ فِي مَقَامِ الْوَعِيدِ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَعَمِلُوا أَعْمَالَ الْإِسْلَامِ - شَرٌّ مِنَ الْكُفَّارِ الصُّرَحَاءِ ، وَلَاسِيَّمَا الْمُتَدَيِّنِينَ مِنْهُمْ بِأَدْيَانٍ بَاطِلَةٍ مِنَ الْأَصْلِ أَوْ مُحَرَّفَةٍ وَمَنْسُوخَةٍ كَأَهْلِ الْكِتَابِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ وَبَيَّنَّا وَجْهَهُ .

(222/342)

وَتَقَدَّمَ آنِفًا ذِكْرُ الْخُلُودِ فِي جَهَنَّمَ وَعِيدًا عَلَى مُحَادَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَزَادَ هُنَا ثَلَاثًا فَقَالَ : هِيَ حَسْبُهُمْ إِلَخْ . فَزِيَادَةُ التَّشْدِيدِ فِي الْوَعِيدِ لِلْفَرْقِ بَيْنَ جَزَاءِ جَمَاعَةِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ ، الرَّاسِخِينَ فِي النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ ، الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى أَعْمَالِهِمَا ، وَجَزَاءِ أَفْرَادِ الْعَاصِينَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَمَفَاسِدُ هَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ شَخْصِيَّةٌ كَبِيرُهَا وَصَغِيرُهَا ، وَأَمَّا مَفَاسِدُ جَمَاعَاتِ النِّفَاقِ وَالْكُفْرِ الْقَوْمِيَّةِ وَالْأُمَمِ الْمُتَعَاوِنَةِ فِيهَا فَهِيَ أَكْبَرُ ؛ لِأَنَّهَا أَعَمُّ . وَالْمَعْنَى : أَنَّ نَارَ جَهَنَّمَ فِيهَا مِنَ الْجَزَاءِ مَا يَكْفِيهِمْ عِقَابًا فِي الْآخِرَةِ وَلَعَنَهُمُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحِرْمَانِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ ، الَّتِي لَا يَسْتَحِقُّهَا إِلَّا الْمُؤْمِنُونَ الصَّادِقُونَ ، الَّذِينَ تُذْكَرُ صِفَاتُهُمْ فِي الْآيَاتِ الْمُقَابِلَةِ لِهَذِهِ عَقِبَهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ أَيْ : ثَابِتٌ لَا يَتَحَوَّلُ عَنْهُمْ ، وَالظَّاهِرُ مِنَ الْعَطْفِ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الْعَذَابِ نَفْسِيٌّ مَعْنَوِيٌّ غَيْرُ عَذَابِ جَهَنَّمَ الْحِسِّيِّ الْخَاصِّ بِهَا بِنَوْعَيْهِ الظَّاهِرِ

وَالْبَاطِنِ : الظَّاهِرِ كَالسَّمُومِ الَّذِي يَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ ، وَالْحَرَارَةِ الَّتِي تُنْضِجُ جُلُودَهُمْ ، وَالْحَمِيمِ الَّذِي يَصْهَرُ مَا فِي بُطُونِهِمْ ، وَالزَّقُّومِ طَعَامِ الْأَثِيمِ ، وَالضَّرِيعِ الَّذِي لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ . وَالْبَاطِنِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْحُطَمَةِ : الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (104 : 7) فَهَذَا النَّوْعُ الْمُقِيمُ إنْ

(223/342)

كَانَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ مَا يَلْصَقُ بِقُلُوبِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ خَوْفِ الْفَضِيحَةِ ، وَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ : إنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (55) وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ تَعْذِيبِ الضَّمِيرِ وَالْوِجْدَانِ ، وَلِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ الْكُفَّارِ عَذَابٌ دُنْيَوِيٌّ مُقِيمٌ بِحَسَبِ حَالِهِمْ ، وَلَاسِيَّمَا الْمُعَطِّلِينَ مِنْهُمْ ، الَّذِينَ لَا هَمَّ لَهُمْ فِي لَذَّاتِ الدُّنْيَا ، فَكُلُّ مَا يَفُوتُهُمْ مِنْهَا أَوْ يُنَغِّصُهَا عَلَيْهِمْ لَهُمْ فِيهِ عَذَابٌ لَا يَشْعُرُ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ الرَّاضُونَ بِقَضَاءِ اللَّهِ ، الصَّابِرُونَ عَلَى بَلَائِهِ ، الشَّاكِرُونَ

لِنَعْمَائِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي الْآخِرَةِ فَهُوَ حِرْمَانُهُمْ مِنْ لِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَكَرَامَتِهِ ، وَالْحِجَابُ دُونَ رُؤْيَتِهِ ، كَمَا قَالَ : كَلَّا إنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ثُمَّ إنَّهُمْ لَصَالُو الْجَحِيمِ (83 : 15 و16) وَمَا يُذْكِيهِ فِي قُلُوبِهِمْ إطِّلَاعُ اللَّهِ تَعَالَى إيَّاهُمْ عَلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنَ النَّعِيمِ

الْمُقِيمِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ . وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مَا يُقَابِلُهُ فِي جَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الرِّضْوَانِ الْأَكْبَرِ الَّذِي عُطِفَ عَلَى نَعِيمِ الْجَنَّةِ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ شُمُولِهِ لِمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَكِنَّهُ فِي عَذَابِ الْآخِرَةِ الْمَعْنَوِيِّ أَظْهَرُ ، وَأَعَمُّ وَأَشْمَلُ ، وَتَقَدَّمَ ذِكْرُ الْعَذَابِ الْمُقِيمِ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ فِي النَّارِ (5 : 37) .

(224/342)

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ هَذَا عَوْدٌ إِلَى خِطَابِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِي شَأْنِهِمُ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ وَاللَّاحِقَةُ ، بَعْدَ ذِكْرِ حَالِ جِنْسِ الْمُنَافِقِينَ وَصِفَاتِهِمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ . يَقُولُ لَهُمْ : أَنْتُمْ أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْذُونَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، كَأُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ فِي أَقْوَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، مَفْتُونُونَ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ ، مَغْرُورُونَ بِدُنْيَاكُمْ ، كَمَا كَانُوا مَفْتُونِينَ وَمَغْرُورِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ

(225/342)

أَيْ : فَكَانَ مَطْلَبُهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ وَسَعْيِهِمُ التَّمَتُّعَ وَالتَّنَعُّمَ بِنَصِيبِهِمْ ، وَحَظِّهِمُ الدُّنْيَوِيِّ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَطْلَبٌ وَلَا غَرَضٌ فِي الدُّنْيَا إِلَّا التَّمَتُّعُ بِعَظَمَتِهَا تُطْغِيهِمْ بِهَا الْقُوَّةُ وَبِلَذَّاتِهَا تُغْرِيهِمْ بِهَا الثَّرْوَةُ ، وَبِزِينَتِهَا تُفْرِحُهُمْ بِهَا كَثْرَةُ الذُّرِّيَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَقَاصِدُ شَرِيفَةٌ عَالِيَةٌ مِنَ الْحَيَاةِ سِوَاهَا ، كَالَّذِي يَقْصِدُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَالدَّارِ الْآخِرَةِ مِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ ، وَإِقَامَةِ مِيزَانِ الْعَدْلِ فِي الْخَلْقِ ، وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، بَلْ كَانَ خَلَاقُهُمْ كَخَلَاقِ السِّبَاعِ وَالْأَنْعَامِ مِنَ الْعُدْوَانِ وَاللَّذَّاتِ الْبَدَنِيَّةِ وَالنَّسْلِ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ سَوَاءً ، لَمْ تُفَضَّلُوا عَلَيْهِمْ

(226/342)

بِشَيْءٍ مِنْ إِرْشَادِ كَلَامِ اللهِ وَهَدْيِ رَسُولِهِ فِي الْفَضَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الَّتِي تَتَزَكَّى بِهَا الْأَنْفُسُ الْبَشَرِيَّةُ ، وَتَكُونُ بِهَا أَهْلًا لِلسَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ ، فَكُنْتُمْ أَجْدَرَ بِاللَّائِمَةِ وَالْعُقَابِ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أُوتُوا مِنَ الْقُوَّةِ الْمُطْغِيَةِ ، وَالْأَمْوَالِ الْمُبْطِرَةِ ، وَالْأَوْلَادِ الْفَاتِنَةِ ، فَوْقَ مَا أُوتِيتُمْ ، وَلَمْ يَرَوْا مِنْ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى مَا رَأَيْتُمْ ، وَلَا سَمِعُوا مِنْ حِكَمِ كَلَامِهِ وَشَرَائِعِهِ مَا سَمِعْتُمْ ، وَلَا نَصَبَ لَهُمْ مِنَ الْمُثُلِ الْأَعْلَى لِهِدَايَةِ رُسُلِهِ مَا نَصَبَ لَكُمْ بِهَدْيِ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّ اللهَ نَزَّلَ عَلَيْهِ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ ، وَأَفْضَلَ الْكُتُبِ ، وَأَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ ، وَجَعَلَهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، أَعَادَ ذِكْرَ اسْتِمْتَاعِ مَنْ قَبْلَهُمْ لِمَا يَقْتَضِيهِ التَّبْكِيتُ وَالتَّأْنِيبُ مِنَ الْإِطْنَابِ ؛ لِبَيَانِ اخْتِلَافِ الْحَالَيْنِ ، فَهُوَ يَقُولُ لَهُمْ : إِنَّكُمْ فَعَلْتُمْ فِعْلَتَهُمْ حَذْوَ الْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ مَعَ تَوَفُّرِ الدَّوَاعِي عَلَى ضِدِّهِ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أَيْ : وَخُضْتُمْ فِي حَمْأَةِ الْبَاطِلِ كَالْخَوْضِ الَّذِي خَاضُوهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، عَلَى مَا بَيْنَ حَالِكُمْ مِنَ الْفَرْقِ ، الَّذِي كَانَ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونُوا أَهْدَى مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْفَرَّاءُ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ إِنَّ (الَّذِي) تَأْتِي مَصْدَرِيَّةً : كَ " مَا " فَيَكُونُ التَّقْدِيرُ : وَخُضْتُمْ كَخَوْضِهِمْ ، وَقِيلَ : (الَّذِي) هُنَا لِلْجِنْسِ كَمَنَ ، وَمَا وَأَنَّهُ بِمَعْنَى الَّذِينَ وَلَكِنَّ هَذَا ضَعِيفٌ لَفْظًا

(227/342)

وَمَعْنًى ، إِذِ الْمُرَادُ أَنَّكُمْ تَخُوضُونَ كَخَوْضِ مَنْ قَبْلَكُمْ - وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الْعَطْفُ - لَا كَالَّذِينَ خَاضُوا مُطْلَقًا مِنْ أَيِّ فَرِيقٍ كَانُوا .

أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَبِطَ الْعَمَلُ بِكَسْرِ الْبَاءِ حَبْطًا بِسُكُونِهَا وَحُبُوطًا : فَسَدَ وَذَهَبَتْ فَائِدَتُهُ ، وَحَبِطَ دَمُ الْقَتِيلِ هَدَرَ ، وَهُوَ مِنْ حَبِطَ بَطْنُ الْبَعِيرِ حَبَطًا (بِفَتْحَتَيْنِ) انْتَفَخَ وَفَسَدَ مِنْ كَثْرَةِ أَكْلِ الْحَنْدَقُوقِ فَلَمْ يَثْلِطْ ، أَيْ : أُولَئِكَ الْمُسْتَمْتِعُونَ

بِخِلَاقِهِمْ وَحَظِّهِمْ مِمَّا ذُكِرَ ، وَالْخَائِضُونَ فِي الْبَاطِلِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمُ الدُّنْيَوِيَّةُ فِي الدُّنْيَا ، فَكَانَ ضَرَرُهَا أَكْبَرَ مِنْ نَفْعِهَا لَهُمْ لِإِسْرَافِهِمْ فِيهَا ، وَإِفْسَادِهِمْ فِي الْأَرْضِ ، كَمَا تَحْبَطُ بُطُونُ الْمَاشِيَةِ تَأْكُلُ الْخَضِرَ فَتَسْتَوْبِلُهُ فَتَنْتَفِخُ وَتَفْسَدُ وَيَكُونُ سَبَبَ هَلَاكِهَا ، وَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمُ الدِّينِيَّةُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَصُنْعِ الْمَعْرُوفِ وَالصَّدَقَةِ وَقِرَى الضُّيُوفِ ، فَلَمْ يَكُنْ لَهَا أَجْرٌ يُنْقِذُهُمْ مِنْ عَذَابِ

النَّارِ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ؛ لِأَنَّهَا كَانَتْ لِأَجْلِ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ وَحُبِّ الظُّهُورِ وَالثَّنَاءِ ، وَلِأَجْلِ أَنْ يُعَامَلُوا مُعَامَلَةَ

(228/342)

الْمُسْلِمِينَ وَتَجْرِي عَلَيْهِمْ أَحْكَامُهُمْ ، لَمْ تَكُنْ لِأَجْلِ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَلَا لِمَرْضَاةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِي التَّنْزِيلِ عِدَّةُ آيَاتٍ فِي حُبُوطِ الْأَعْمَالِ بِالشِّرْكِ وَالرِّيَاءِ ، أَيْ بُطْلَانِ ثَوَابِهَا ، وَهُوَ مُسْتَعَارٌ مِنْ حَبِطَ بُطُونُ الْمَاشِيَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَيَالَهَا مِنِ اسْتِعَارَةٍ فَإِنَّ الْمَاشِيَةَ عِنْدَمَا تَأْكُلُ الْخَضِرَ مِنَ النَّبَاتِ تَلَذُّذًا بِهِ فَتَكْثُرُ بِهِ فَتَسْتَوْبِلُهُ وَتَسْتَوْخِمُهُ ، يَكُونُ حَظُّهَا مِنْهَا فَسَادَ بُطُونِهَا وَهَلَاكَهَا ، بَدَلًا مِنَ التَّغَذِّي وَالِانْتِفَاعِ الَّذِي تَطْلُبُهُ بِشَهْوَتِهَا ، وَقِيلَ : إِنَّ الْمُرَادَ بِحُبُوطِ أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا فَشَلُهُمْ وَخَيْبَتُهُمْ فِيمَا كَانُوا يَكِيدُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ أَعْمَالَهُمْ إمَّا دِينِيَّةٌ وَإِمَّا دُنْيَوِيَّةٌ : فَالدِّينِيَّةُ تَحْبَطُ كُلُّهَا فِي الْآخِرَةِ ; لِأَنَّ شَرْطَ قَبُولِهَا الْإِيمَانُ وَالْإِخْلَاصُ ، وَتَحْبَطُ فِي الدُّنْيَا إذَا ظَهَرَ نِفَاقُهُمْ ، وَافْتَضَحَ أَمْرُهُمْ ، وَلِحُبُوطِهَا مَعْنًى آخَرُ وَهُوَ : أَنَّهَا لَا تَأْثِيرَ لَهَا فِي تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ ، وَتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَمَسَاوِئِ الْأَخْلَاقِ ; لِأَنَّ هَذَا لَا يَحْصُلُ إلَّا بِالْإِخْلَاصِ . وَأَمَّا الدُّنْيَوِيَّةُ فَهِيَ قِسْمَانِ : (1) تَمَتُّعٌ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَالْقُوَّةِ . (2) كَيْدٌ وَمَكْرٌ وَنِفَاقٌ . وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى حُبُوطِهِمَا آنِفًا بِمَا يَطَّرِدُ فِي أَزْمِنَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَمَا يُشْبِهُهَا كَعَهْدِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ . وَأَمَّا أَعْمَالُ النِّفَاقِ الدُّنْيَوِيَّةِ فِي أَيَّامِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الظَّالِمِينَ الْفَاسِقِينَ ، فَإِنَّهَا تَكُونُ أَكْثَرَ رَوَاجًا وَنِتَاجًا مِنْ أَعْمَالِ الصَّادِقِينَ الْمُخْلِصِينَ . وَلَا دَلِيلَ عَلَى فَسَادِ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ أَدُلُّ مِنْ تَقْرِيبِهِمْ لِلْمُنَافِقِينَ الْمُتَمَلِّقِينَ مِنْهُمْ ، وَإِبْعَادِهِمْ لِلنَّاصِحِينَ الصَّادِقِينَ عَنْهُمْ . قَالَ الصَّادِقُ الْأَمِينُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الْتَامُوا الْخُسْرَانَ ، دُونَ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَمْ يَكُنْ كُلُّ حَظِّهِمْ مِنْ نِعَمِ اللهِ الِاسْتِمْتَاعَ الْعَاجِلَ ، وَالْخَوْضَ فِي الْبَاطِلِ ، إِذْ جَاءَ خَسَارُهُمْ مِنْ مَظِنَّةِ الرِّبْحِ وَالْمَنْفَعَةِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى : هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (18 : 103 ، 104) وَكُلُّ خَسَارٍ دُونَ هَذَا هَيِّنٌ كَأَنَّهُ لَيْسَ بِخَسَارٍ ، وَهَذَا مَعْنَى صِيغَةِ الْحَصْرِ فِي الْجُمْلَةِ ، فَهَلْ يَعْتَبِرُ بِهَذَا أَهْلُ هَذَا الزَّمَانِ ؟ أَمْ هَلْ يَعْتَبِرُ بِهِ التَّالُونَ وَالْمُفَسِّرُونَ لِلْقُرْآنِ ، أَمْ يَقْرَءُونَهُ وَيُفَسِّرُونَهُ لِكَسْبِ الْحُطَامِ ؟ .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ هَذَا اسْتِفْهَامُ تَقْرِيرٍ وَتَوْبِيخٍ لِمَنْ نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُذَكِّرُهُمْ بِالْأَقْوَامِ الَّذِينَ ضَلُّوا مِنْ قَبْلِهِمْ وَوَصَلَتْ إِلَيْهِمْ سِيرَتُهُمْ

وَكَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا مِنْهُمْ ، وَالْمُؤْتَفِكَاتُ : جُمَعُ مُؤْتَفِكَةٍ مِنَ الِائْتِفَاكِ : وَهُوَ الِانْقِلَابُ وَالْخَسْفُ وَهِيَ قُرَى قَوْمِ لُوطٍ . وَقَدْ فَصَّلَ التَّنْزِيلُ قِصَصَهُمْ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ ، وَبَيَّنَ هُنَا خُلَاصَةَ نَبَئِهِمْ وَمَحَلَّ الْعِبْرَةِ فِيهِ بِقَوْلِهِ : أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَيْ : فَأَعْرَضُوا عَنْهَا

وَعَانَدُوا الرُّسُلَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُوَ الطُّوفَانُ الَّذِي أَغْرَقَ قَوْمَ نُوحٍ ، وَالرِّيحُ الْعَقِيمُ الَّتِي أَهْلَكَتْ عَادًا قَوْمَ هُودٍ ، وَالصَّيْحَةُ الَّتِي أَخَذَتْ ثَمُودَ ، وَالْعَذَابُ الَّذِي هَلَكَ بِهِ النَّمْرُودُ الَّذِي حَاوَلَ إِحْرَاقَ إِبْرَاهِيمَ ، وَالْخَسْفُ الَّذِي نَزَلَ بِقُرَى قَوْمِ لُوطٍ وَهُمْ فِيهَا : فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ مَا كَانَ لِيَفْعَلَ كَذَا ، مَعْنَاهُ : مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ . وَهُوَ يَتَضَمَّنُ نَفْيَ الْفِعْلِ بِدَلِيلِهِ فَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ أَيْ : فَمَا كَانَ مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ ، وَلَا مِنْ مُقْتَضَى عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَظْلِمَهُمْ بِمَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ ، وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ وَأَعْذَرَ إِلَيْهِمْ لِيَجْتَنِبُوهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ بِجُحُودِهِمْ وَعِنَادِهِمْ ، وَعَدَمِ مُبَالَاتِهِمْ بِإِنْذَارِ رُسُلِهِمْ . وَالْمُرَادُ مِنْ ضَرْبِ هَذَا الْمَثَلِ لِلْكَافِرِينَ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْمُجَاهِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ، أَنَّ سُنَّةَ اللَّهِ فِي عِبَادِهِ وَاحِدَةٌ لَا ظُلْمَ فِيهَا وَلَا مُحَابَاةَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ مَا حَلَّ بِأَمْثَالِهِمْ مِنْ أَقْوَامِ الرُّسُلِ إِنْ لَمْ يَتُوبُوا ،

(232/342)

كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (54 : 43) ؟ .

وَأَمَّا قَوْمُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ أَهْلَكَ اللَّهُ تَعَالَى أَكَابِرَ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ

مِنْهُمْ فِي أَوَّلِ غَزْوَةٍ هَاجَمُوهُ فِيهَا وَهِيَ غَزْوَةُ بَدْرٍ ، ثُمَّ خَذَلَ اللهُ مَنْ بَعْدَهُمْ فِي سَائِرِ الْغَزَوَاتِ

(233/342)

وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (33 : 26) وَهُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (59 : 2) ثُمَّ صَارَ النَّاسُ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَمَا زَالُوا يَكِيدُونَ لَهُ فِي السِّرِّ ، حَتَّى فَضَحَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَذِهِ السُّورَةِ فِي آخِرِ الْأَمْرِ فَتَابَ أَكْثَرُهُمْ ، وَمَاتَ زَعِيمُهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ بِغَيْظِهِ وَكُفْرِهِ ، وَلَمْ تَقُمْ لِلنِّفَاقِ قَائِمَةٌ مِنْ بَعْدِهِ ، وَسَيَأْتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ نَبَأُ مَوْتِهِ ، وَلَوْ بَقِيَ لَهُمْ قُوَّةٌ يَكِيدُونَ بِهَا لِلْإِسْلَامِ لَمَا خَفِيَ أَمْرُهَا عَلَى الْمُؤَرِّخِينَ ، كَانَ قَوْمُ مُحَمَّدٍ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِهَذَا التَّمْحِيصِ خَيْرَ أَقْوَامِ النَّبِيِّينَ ، نَشَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِمْ أَعْلَامَ هَذَا الدِّينِ ، فَسَادُوا بِهِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ ، وَلَوْلَا مَا أَحْدَثَهُ

الرَّوَافِضُ الْمُنَافِقُونَ ، وَالْخَوَارِجُ الْمَغْرُورُونَ ، مِنَ الشِّقَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، لَعَمَّتْ سِيَادَةُ الْإِسْلَامِ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 459. 465 ﴾

(234/342)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾

عاد الكلام على المنافقين : فضمير ﴿ ألم يأتهم ﴾ و ﴿ من قبلهم ﴾ عائدانِ إلى المنافقين الذين عاد عليهم الضمير في قوله : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ [التوبة : 65] ، أو الضميرُ في قوله : ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ [التوبة : 68] .

والاستفهام موجه للمخاطب تقريراً عنهم ، بحيث يكون كالاستشهاد عليهم بأنّهم أتاهم نبأ الذين من قبلهم .

والإتيان مستعمل في بلوغ الخبر كقوله تعالى : ﴿ يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه ﴾ وقد تقدّم في سورة العقود (41) ، شُبْه حصول الخبر عند المخبَر بإتيان الشخص ، بجامع الحصول بعد عدمه ، ومن هذا القبيل قولهم : بلغَه الخبر ، قال تعالى : ﴿ لأنذركم به ومن بلغ ﴾ في

سورة الأنعام (19) .

والنبأ : الخبر وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ولقد جاءك من نبإِ المرسلين ﴾ في سورة الأنعام (34) .

وقوم نوح تقدم الكلام عليهم عند قوله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحا إلى قومه ﴾ في سورة الأعراف (59) .

ونوح : تقدّم ذكره عند قوله تعالى : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً ﴾ في سورة آل عمران (33) .

وعاد : تقدّم الكلام عليهم عند قوله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ في سورة الأعراف (65) .

وكذلك ثمود .

وقوم إبراهيم هم الكلدانيون ، وتقدّم الكلام على إبراهيم وعليهم عند قوله تعالى : ﴿ وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات ﴾ في سورة البقرة (124) .

وإضافة أصحاب ﴾ إلى ﴿ مَدْيَنَ ﴾ باعتبار إطلاق اسم مَدْيَن على الأرض التي كان يقطنها بنو مدين ، فكما أنّ مدين اسم للقبيلة كما في قوله تعالى : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ [الأعراف : 85] كذلك هو اسم لموطن تلك القبيلة .

وقد تقدّم ذكر مَدين عند قوله : ﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً ﴾ في الأعراف (85) .

والمؤتفكات ﴾ عطف على ﴿ أصحاب مدين ﴾ ، أي نَبَأ المؤتفكات ، وهو جمع مؤتفكة : اسم فاعلٍ من الائْتِفَاك وهو الانقلابُ .

أي القرى التي انقلبت والمراد بها : قرى صغيرة كانت مساكنَ قوم لوط وهي : سدوم ، وعمورة ، وأدَمَة ، وصِبْوِيم وكانت قرى متجاورة فخسف بها وصار عاليها سافلها .

وكانت في جهات الأردن حول البحر الميت ، ونبأ هؤلاء مشهور معلوم ، وهو خبر هلاكهم واستئصالهم بحوادث مهولة .

وجملة : ﴿ أتتهم رسلهم ﴾ تعليل أو استئناف بياني نشأ عن قوله : ﴿ نبأ الذين من قبلهم ﴾ أي أتتهم رسلهم بدلائل الصدق والحقّ .

وجملة ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ تفريع على جملة ﴿ أتتهم رسلهم ﴾ ، والمفرّع هو مجموع الجملة إلى قوله : ﴿ يظلمون ﴾ لأنّ الذي تفرّع على إتيان الرسل : أنّهم ظلموا أنفسهم بالعناد ، والمكابرة ، والتكذيب للرسل ، وصمّ الآذان عن الحقّ ، فأخذهم الله بذلك ، ولكن نُظِم الكلام على هذا الأسلوب البديع إذا ابتدىء فيه بنفي أن يكون الله ظلمهم اهتماماً بذلك لفرط التسجيل عليهم بسوء صنعهم حتّى جُعل ذلك كأنّه هو المفرّع

وجعل المفرّع بحسب المعنى في صورة الاستدراك .

ونُفِي الظلم عن الله تعالى بأبلغ وجه ، وهو النفي المقترن بلام الجحود ، بعد فعل الكون المنفي ، وقد تقدّم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ﴾ من سورة العقود (6) .

وأثبت ظُلمُهم أنفُسَهم لهم بأبلغ وجه إذْ أسند إليهم بصيغة الكون الماضي ، الدالّ على تمكّن الظلم منهم منذ زمان مضى ، وصيغ الظلم الكائن في ذلك الزمان بصيغة المضارع للدلالة على التجدّد والتكرّر ، أي على تكرير ظلمهم أنفسهم في الأزمنة الماضية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(236/342)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾

وبعد أن ذكر الحق في الآية السابقة القضية العامة في قوله : ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ ﴾ جاء في هذه الآية بالأعلام والأشخاص وهم الرسل ومن عاداهم فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ وساعة يقول : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ فهنا همزة الاستفهام ، ولا

النفي . والهمزة تنفي هذا النفي ، أي أتاهم نبأ هؤلاء . وحين ينفى النفي في أمر فالمراد إثبات الأمر ، وأنت لا تستفهم الاستفهام الإنكاري ، إلا وأنت واثق من أن الجواب عند من تسأله هو : " نعم " ، فحين تقول لإنسان : أنت تخليت عني في محنتي . فيقول : ألم أزرك في يوم كذا ؟ ألم أعطك كذا ؟ ألم أصنع مع ابنك كذا ؟ فهو واثق أنك لا تستطيع إنكار شيء من هذا لأنه ثابت ثبوتاً حقيقيّاً .

ونلحظ هنا أن الحق جاء بالخطاب للغيبة فقال : ﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ ولم يقل : " أَلَمْ يَأْتِكُمْ " ، فسبحانه يخاطبهم ترقيقاً لهم ، ثم يتكلم عنهم مرة ثانية وكأنهم غائبون . وكأن هذا أيضاً مزيد من حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم في غيبتهم ، فهو صلى الله عليه وسلم حريص على هدايتهم .

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ والنبأ : هو الخبر الهام . ونحن لا نقول عن كل خبر : نبأ ، بل نقول عن الخبر الهام فقط إنه نبأ ، والنبأ أصله من النبوة ، والنبوة واضحة ظاهرة وليست مطموسة ؛ ولذلك فكل شيء هام ظاهر قد حدث يقال عنه نبأ . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ * عَنِ النبإ العظيم * الذي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴾ [النبأ : 1-3]

ولا يوجد نبأ أعظم من نبأ يوم القيامة .

وقد جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية الأولى التي كان الخطاب فيها مباشراً كقضية عامة ، وجاء بالقضية الثانية التي تكلم فيها عنهم غَيْباً كقضية خاصة .

(237/342)

ثم حدد الحق سبحانه المقصود بالذين من قبلهم ، وهم قوم نوح الذين أغرقهم الله بالطوفان . وكان قوم نوح كلما مروا عليه وهو يصنع السفينة سخروا منه ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى ردّاً على من سخروا من نوح : ﴿ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : 38]

أي أنتم يا من تسخرون من نوح عليه السلام جاهلون بالغيب ، ولكن الله أعلم نوحاً وقومه بما يكون ، ولذلك فالسخرية الحقيقية هي من أولئك الذين رفضوا الإيمان ، ولم يعلموا بما أعده الله لهم .

ثم ذكر الحق بعد ذلك عاداً وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين وهم قوم شعيب ، والمؤتفكات أي قوم لوط . ومعنى المؤتفك أي المنقلب . وقد جعل لله عاليها سافلها . ويقول الحق سبحانه : ﴿ والمؤتفكة أهوى * فَغَشَّاهَا مَا غشى ﴾ [النجم : 53-54]

أي : كانت عالية فأنزلها للهاوية . والإفك هو الصرف عن الحقيقة ، كما قالوا لإبراهيم : ﴿ قالوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الأحقاف : 22]

أي : لتصرفنا عنهم .

(238/342)

ما قصة هؤلاء الأنبياء وأقوامهم ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات فَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ أي أن قوم نوح وقوم إبراهيم وغيرهم أتتهم رسالات السماء ولم تأتهم الرسالة كمنهج فقط ، بل جاءتهم معجزات تثبت صدق بلاغ الرسل عن ربهم ، فكأنه لا حجة لهم أن ينصرفوا عن منهج السماء أو أن يكذبوا به ؛ لأن كل منهج مُؤَيَّد بمعجزة تثبت صدق الرسول في رسالته . وقد تتابع هؤلاء الرسل على البشر ليهدوهم إلى منهج السماء ، ويبينوا لهم طريق الحق . وكان تعدد الرسالات في أول الخلق ؛ لأن العالم كان منعزلاً عن بعضه البعض ، حتى إن أقواماً عاشوا على الأرض في زمن واحد وأماكن متفرقة ؛ ولم يعلم أحد منهم عن الآخر شيئاً ، ولكن العالم الآن اتصل ببعضه البعض ، بحيث إذا وقعت الحادثة في مكان ، نراها عن طريق الأقمار الصناعية في ثوان ،

وربما في نفس الوقت الذي تحدث فيه ؛ إن كان الحادث مُعدًّا له مسبقاً ، وقد رأى العالم كله أول إنسان ينزل فوق سطح القمر في نفس اللحظة التي نزل فيها .

وعندما كان العالم يعيش في انعزال ، كانت كل بيئة لها لون من المعصية والفساد ، فكان الرسول يأتي ليحارب هذا اللون من المعصية والفساد الموجود في في بيئة معينة ، ولا يوجد هذا اللون من المعصية والفساد في بيئة أخرى .

ولكن عندما توحد العالم توحدت الداءات ؛ فالداء يظهر في أمريكا مثلاً ، وبعد فترة قصيرة جدّاً يظهر في أوروبا أو في مصر . ولذلك كان لا بد أن يأتي رسول واحد ؛ لأن الداءات أصبحت واحدة ، واقتضى الأمر وحدة المعالجة ؛ لذلك كانت رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم رسالة عامة لكل الأزمان وكل الأمكنة .

(239/342)

وحين يقول سبحانه : ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ فالبينات هي الشيء الذي يبين لك ما هو الحق ، والمعجزات التي صاحبت الرسالات السماوية بيَّنت وأكَّدتْ أن الرسول مُبلِّغ عن ربه ، وكانت المعجزة واضحة تماماً ليراها كل قوم رؤية تسمح باستيعابها . ولذلك كان كل رسول يأتي بآية يُجمع الكل على أنها معجزة . فأنت قد تأتي بشيء عجيب ،

ولكن لا يُجمع الناس على أنها معجزة ، فعندما اخترُع الفانوس السحري ، قال بعض الناس : إنه شيء عجيب . وبعضهم قال : إنه خداع نظر . ولكن معجزات الرسل لا بد أن تستوعبها كل مستويات العقول ، يستوعبها المتعلم والذي لم يقرأ حرفاً في حياته ؛ لأن الدين دين فطرة يخاطب أكبر العقول وأكثرها علماً كما يخاطب عقل البدوي الذي يقضي حياته كلها في الصحراء ؛ لا يعرف شيئاً ولم يَعِش حضارة ولم يدرس علماً .

إذن : فالمعجزات لا بد أن تكون واضحة لكل المستويات ؛ حتى لا يكون هناك عذر لأحد .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ ، وهذا دليل على أن الحق سبحانه وتعالى يحاسبهم على قدر استيعابهم للمعجزة ، فكأن كل العقول قد فهمت وأيقنت أن هناك معجزة . والذين استقبلوا المعجزة بالكفر ظلموا أنفسهم ؛ لأنهم بعد أن استوعبوا المعجزة ، وتحققوا أنها خَرْقٌ لقوانين الكون ولا يمكن أن يأتي به إلا الله سبحانه وتعالى ، ولكنهم رغم ذلك رفضوا الإيمان .

ويقول الحق عنهم : ﴿ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ ولكن كانوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ والظلم أنك تأخذ حقّاً وتنقله إلى الباطل . ولكن الحقوق مختلفة ، فأيُّ حق ذلك الذي نقلته إلى الباطل ؟ إنه حق الوجود الأعلى الإيمان به وعبادته .

وكيف يظلم الإنسان نفسه ؟ يظلم الإنسان نفسه حين تُزيِّن له النفس شهوة فيرتكبها ؛ ليأخذ لذة عاجلة ويحرمها من نعيم دائم . وهناك من يظلم نفسه بظلم غيره ، مثل شاهد الزور ؛ هذا الذي ينصر صاحب باطل على صاحب حق . ومن يشهد الزور يسقط حتى في عين ذلك الذي شهد له . فإن جاء ليشهد أمامه في قضية ، فهو لا يقبل شهادته وينظر إليه باحتقار ، وكان يجب على من يطلب من إنسان شهادة زور أن يضربه ؛ لأنه يريد أن يسقطه في نظر الناس ، وفي نظر هذا الذي شهد من أجله ؛ لأن شاهد الزور حين أعان إنساناً على خَصْمِه ، فالكل ينظر إلى مثل الشاهد بالاحتقار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(241/342)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ : بدلٌ من الموصول قبلَه وهو ويَحْتمل أن يكونَ بدلَ كل من كل إن كان المرادُ بالذين ما ذُكِر بعده خاصة ، وأن يكونَ بدلَ بعضٍ مِنْ كل إنْ أريد به أعمَّ من ذلك

.

والمُؤْتَفكات أي : المُنْقَلبات يُقال : أَفَكْتُه فانتفك أي : قَلَبْته فانقلب ، والمادةُ تدل على التحوُّل والتصرف ومنه ﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ / أُفِكَ ﴾ [الذاريات : 9] أي : يُصْرَف . والضمير في " أَتَتْهم " يجوز أن يعودَ على مَنْ تقدَّم ، وخَصَّه بعضُهم بالمؤتفكات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 85 ﴾

(242/342)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) ﴾

ألم يَنْتَهِ إليهم خبرُ القرون الماضية ، ونبأُ الأمم الخالية كيف دَمَّرْنا عليهم جَمْعَهُم ، وكيف

بَدَّدْنَا شَمْلَهم ؟ قَضَيْنَا فيهم بالعدْل ، وحَكَمْنَا باستئصالِ الكُلِّ ، فلم يَبْقَ منهم نافخُ نار ، ولم يحصلوا إلاَّ على عارٍ وشنار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 45 ﴾

(243/342)

فصل

قال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ إنما الصدقات ﴾

ثم بين سبحانه وتعالى مصارف الصدقات تحقيقاً لما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل :

﴿ إنما الصدقات ﴾ أي : الزكوات مصروفة ﴿ للفقراء ﴾ والفقير هو الذي لا يجد ما يقع موقعاً من كفايته كأنه يحتاج إلى عشرة دراهم وهو لا يجد إلا درهمين أو ثلاثاً مأخوذ من الفقار كأنه أصيب فقاره ﴿ والمساكين ﴾ جمع مسكين وهو الذي يجد ما يقع موقعاً من كفايته ولا يكفيه كأن يحتاج إلى عشرة وهو يجد سبعة أو ثمانية مأخوذ من السكون كأنّ العجز أسكنه والمسكين أعلى من الفقير ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين ﴾ (الكهف ،)

وروي أنه صلى الله عليه وسلم تعوذ من الفقر وقيل : الفقير أعلى لقوله تعالى : ﴿ أو مسكيناً ذا متربة ﴾ والعبرة عند الجمهور في عدم كفاية الفقير والمسكين بالعمر الغالب بناء على أنه يعطى كفاية ذلك ﴿ والعاملين عليها ﴾ أي : الزكاة فيعطى العامل وإن كان غنياً ويدخل في اسم العامل الساعي وهو الذي يبعثه الإمام لأخذ الزكاة والكاتب والحاشر والعريف وهو الذي يعرف أرباب الاستحقاق والحاسب والحافظ للأموال والكيال والوزان والعداد عمال إن ميزوا أنصباء الأصناف لا المميزون للزكاة من المال وجامعوه فإن أجرتهم على المالك . ﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ وهم إما ضعيف النية في الإسلام فيعطى ليقوى إسلامه أو شريف في قومه يتوقع بإعطائه إسلام غيره أو كاف لناشر من يليه من الكفار أو مانعي الزكاة فيعطى حيث إعطاؤه أهون علينا من بعث جيش وأما مؤلفة الكفار لترغيبهم في الإسلام فلا يعطون من الزكاة ولا من غيرها للإجماع ولأنّ الله تعالى أعز الإسلام وأهله وأغنى عن التأليف . ﴿ وفي الرقاب ﴾ وهم المكاتبون كتابة صحيحة فيعطون ما يؤدّون من النجوم إن عجزوا عن الوفاء ولو لم يحل النجم لأن قوله تعالى : ﴿ وفي الرقاب ﴾ كقوله تعالى : ﴿ وفي سبيل الله ﴾ وهناك يعطى المال للمجاهدين فيعطى للرقاب فلا يشترى به

رقاب للعتق كما قيل به : ﴿ والغارمين ﴾ وهم من لزمتهم الديون وهم ثلاثة أضرب : دين لزمه لمصلحة نفسه ، ودين لزمه بضمان لا لتسكين فتنة ، ودين لزمه لتسكينها وهو إصلاح ذات البين فمن استدان لمصلحة نفسه أعطى لا إن استدان في معصية إلا إن تاب عنها فيعطى إذا احتاج وكان بحيث لو قضى دينه مما معه تمسكن فيترك له ما يكفيه ويعطي ما يقضي به بقية دينه ويعطى ولو قدر على قضائه بالكسب وكذا المكاتب ويشترط حلول الدين في إعطاء الغريم وإن ضمن لا لتسكين فتنة وهو معسر ملتزم بمال على معسر أعطي ما يقضي به دينه وإذا قضى به دينه لا يرجع على الأصيل وإن ضمن بإذنه وإنما يرجع إذا غرم من عنده

(245/342)

ويعطى معسر

ملتزم بمال على موسر بلا إذن من الأصيل لأنه إذا غرم لا يرجع عليه بخلاف ما إذا ضمن بإذنه ولا يعطى موسر ملتزم بمال على موسر وإن ضمن موسر ما على معسر أعطي الأصيل دون الضامن والغارم لإصلاح ذات البين يعطى مع الغني ولو في غير دم ويعطى المستدين لقرى ضيف وعمارة مسجد وبناء قنطرة وفك أسير ونحو ذلك من المصالح

العامة عند العجز عن النقد .

﴿ وفي سبيل الله ﴾ وهم الغزاة المتطوعون أي : الذين لا رزق لهم في الفيء ويعطون ولو أغنياء إعانة لهم على الغزو وتحرم الزكاة على الغازي المرتزق ولو كان عاملاً فإذا عدم الفيء واضطررنا إلى المرتزق ليكفينا شر الكفار أعانه الأغنياء لا من الزكاة ﴿ وابن السبيل ﴾ أي : الطريق وهو من ينشىء سفراً مباحاً من محل الزكاة فيعطى ولو كان كسوباً أو كان مسافراً لنزهة ويعطى أيضاً المسافر الغريب المجتاز بمحل الزكاة وإنما يعطيان إن لم يجدا معهما شيئاً يكفيهما لسفرهما وقوله تعالى : ﴿ فريضة من الله ﴾ نصب بفعله المقدر أي : فرض لهم الصدقات فريضة أو حال من الضمير المستكن في للفقراء .

(246/342)

﴿ والله عليم ﴾ أي : بالغ العلم بما يصلح الدين والدنيا ويؤلف بين قلوب المسلمين ﴿ حكيم ﴾ يضع الأشياء في مواضعها وإنما أضيفت الصدقات إلى الأصناف الأربعة الأولى بلام الملك وإلى الأربعة الأخيرة بفي الظرفية للإشعار بإطلاق الملك في الأربعة الأولى وتقييده في الأخيرة حتى إذا لم يحصل الصرف في مصارفها استرجع بخلافه في الأولى ويجب تعميم الأصناف الثمانية في القسم إن أمكن بأن قسم الإمام ولو بنائبة ووجدوا لظاهر الآية

سواء في ذلك زكاة الفطر وزكاة المال وإن لم يمكن بأن قسم المالك إذ لا عامل أو الإمام ووجد بعضهم كأن جعل عاملاً بأجرة من بيت المال فتعميم من وجد منهم وعلى الإمام تعميم آحاد كل صنف من الزكاة الحاصلة عنده إذ لا يتعذر عليه ذلك أو على المالك أيضاً إن انحصر الآحاد بالبلد بأن سهل عادة ضبطهم ومعرفة عددهم ووفّى بهم المال فإن أخل أحدهما بصنف ضمن وإن لم ينحصر أو لم يف بهم المال ويجب إعطاء ثلاثة فأكثر من كل صنف لذكره في الآية بصيغة الجمع وهو المراد في سبيل الله وابن السبيل الذي هو للجنس ولا عامل في قسم المالك ويجوز حيث كان أن يكون واحداً إن حصلت به الكفاية كما يستغنى عنه فيما مرّ وتجب التسوية بين الأصناف غير العامل لا بين آحاد الصنف إلا أن يقسم الإمام وتتساوى الحاجات فتجب التسوية لأنّ عليه التعميم فعليه التسوية بخلاف المالك إذا لم ينحصروا أو لم يف بهم المال ولا يجزيه نقل الزكاة من بلد وجوبها مع وجود المستحقين فيه إلى بلد آخر أو حال الحول والمال ببادية فرقت الزكاة بأقرب البلاد إليه أمّا الإمام ولو بنائبه فله نقلها ولو امتنع المستحقون من أخذها قوتلوا وشرط أخذ الزكاة من هذه الثمانية حرّية وإسلام وأن لا يكون هاشمياً ولا مطلبياً ولا مولى لهما كما بينته السنة هذا مذهب الشافعيّ رضي الله تعالى عنه وقال الرازي وغيره : لا دلالة في الآية على قول الشافعي في أنه لا بدّ من صرفها إلى جميع الأصناف لأنه تعالى

جعل

جملة الصدقات لهؤلاء الأصناف وأمّا أن صدقة زيد بعينها يجب توزيعها على الأصناف كلها فلا كما أنّ قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فإنّ خمسه ﴾ (الأنفعال ،) الآية ، يوجب قسم الخمس على الطوائف من غير توزيع بالاتفاق وما ذهب إليه الشافعيّ رضي الله تعالى عنه قول عكرمة وما ذهب إليه الأئمة الثلاثة من جواز صرفها إلى صنف واحد هو قول عمر وحذيفة وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين وكل على هدى من ربهم .

فإن قيل : كيف وقعت هذه الآية في تضاعيف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟

أجيب : بأنه تعالى ذكر ذلك ليدل على أنّ هذه الأصناف مصارف الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم حسماً لأطماعهم وإشعاراً باستحقاقهم الحرمان وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها فمالهم ومالها وما سلطهم على التكلم فيها وبمن قاسمها .

(248/342)

﴿ ومنهم ﴾ أي : المنافقين ﴿ الذين يؤذون النبيّ ﴾ هذا نوع آخر من جهالات المنافقين وهو أنهم كانوا يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم ويعيبونه وينقلون حديثه ﴿ ويقولون ﴾ إذا نهوا عن ذلك لئلا يبلغه ﴿ هو أذن ﴾ أي : يسمع كل ما يقال له ويصدقه سمي بالجارحة للمبالغة كأنه من فرط استماعه صار جملته آلة للسماع كما يسمى الجاسوس عيناً لذلك واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال ابن عباس : نزلت في جماعة من المنافقين كانوا يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم لبعض : لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه ما تقولون فيقع بنا فقال الجلاس بن سويد وهو من المنافقين : بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف له فيصدقنا فيما نقول فإنّ محمداً أذن ـ أي : أذن سامعة ـ يسمع كل ما يقال له ويقبله ، وقال محمد بن إسحاق : نزلت في رجل من المنافقين يقال له : نبيل بن الحرث وكان رجلاً ثائر الشعر أحمر العينين أسفع الخدين مشوّه الخلقة وقد قال صلى الله عليه وسلم "من أراد أن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث" وكان ينم حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى المنافقين فقيل له : لا تفعل ذلك فقال : إنما محمد أذن فمن حدثه شيئاً صدقه فنقول : ما شئنا ثم نأتيه فنحلف له فيصدقنا ، فنزلت . وقال الحسن : كان المنافقون يقولون : ما هذا الرجل إلا أذن من شاء صرفه حيث شاء لا عزيمة له .

ومقصود المنافقين بقولهم هو أذن ليس له ذكاء ولا بعد غور بل هو سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع فلهذا السبب سموه بأذن وقوله تعالى : ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء

المنافقين ﴿ أذن خير لكم ﴾ تصديق لهم بأنه أذن لكن لا على الوجه الذي ذموه به بل من حيث إنه يسمع الخير ويقبله ثم فسر تعالى ذلك بقوله تعالى : ﴿ يؤمن با ﴾ أي : يصدّق به لما قام عنده من الأدلة ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ أي : ويصدّقهم ويقبل قولهم ولا يقبل قول المنافقين .

(249/342)

فإن قيل : لم عدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام أجيب : بأنّ الإيمان المعدى إلى الله تعالى المراد التصديق الذي هو نقيض الكفر ، فعدي بالباء ، والإيمان المعدي للمؤمنين معناه الاستماع منهم والتسليم لقولهم فعدي باللام كما في قوله تعالى : ﴿ وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ﴾ (يوسف ،)

وقوله تعالى : ﴿ فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ﴾ (يوسف ،)

وقوله تعالى : ﴿ أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ﴾ (الشعراء ،)

وقوله : ﴿ آمنتم له قبل أن آذن لكم ﴾ (طه ،)

وقرأ نافع : أذن في الموضعين بتسكين الذال ، والباقون بالرفع ﴿ ورحمة ﴾ أي : وهو رحمة ﴿ للذين آمنوا منكم ﴾ أي : لمن أظهر الإيمان حيث يقبله ولا يكشف سرّه وفيه تنبيه على

أنه ليس يقبل قولكم جهلاً بحالكم بل رفقاً بكم وترحماً عليكم وقرأ حمزة ورحمة بالجرّ عطفاً على خير ، والباقون بالرفع ، ولما بين سبحانه وتعالى كونه سبباً للخير بين أنّ كل من آذاه استوجب العذاب الأليم بقوله تعالى : ﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ أي : مؤلم لأنه إذا كان يسعى في إيصال الخير والرحمة إليهم مع كونهم في غاية الخبث والخزي ثم أنهم مع ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة وخيراته بالشرور فلا شك أنهم يستحقون العذاب الشديد من الله تعالى ثم ذكر نوعاً آخر من قبائح أفعال المنافقين بقوله تعالى:

﴿ يحلفون بالله لكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ليرضوكم ﴾ أي : لترضوا عنهم واختلف في سبب نزول هذه الآية فقال مقاتل والكلبي : نزلت في رهط من المنافقين تخلفوا عن غزوة تبوك فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوا يعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم .

(250/342)

وقال قتادة والسدي : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن أشر من الحمير وكان عندهم غلام من الأنصار يقال له : عامر بن قيس فحقروه وقالوا هذه المقالة

فغضب الغلام وقال والله ما يقول محمد حق وأنتم أشر من الحمير ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فدعاهم فسألهم فحلفوا أنّ عامراً كذب وحلف عامر أنهم كذبة فصدّقهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فجعل عامر يدعو اللهمّ صدق الصادق وكذب الكاذب فنزلت ﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه ﴾ أي : بالإرضاء بالطاعة والوفاق وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم لتلازمهما كقولك : إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني أو أن العالم بالأسرار والضمائر هو الله تعالى وإخلاص القلب لا يعلمه إلا الله تعالى ولهذا السبب خص الله تعالى نفسه بالذكر أو لأنّ الكلام في إيذاء الرسول وإرضائه أو خبر الله أو رسوله محذوف وفي كلام البيضاوي إشارة إلى أن المذكور خبر الأوّل لأنه المتبوع وفي كلام سيبويه أنه للثاني لكونه أقرب مع السلامة من الفصل بين المبتدأ والخبر ﴿ إن كانوا ﴾ أي : هؤلاء المنافقون ﴿ مؤمنين ﴾ أي : مصدّقين بوعد الله ووعيده في الآخرة .

(251/342)

﴿ ألم يعلموا ﴾ قال أهل المعاني : هذا خطاب لمن علم شيئاً ثم نسيه وتركه فيقال له : ألم تعلم أنه كان كذا وكذا ولما طال مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهر المؤمنين

والمنافقين وعلمهم من أحكام الدين ما يحتاجون إليه خاطب المنافقين بقوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا ﴾ أنّ من شرائع الدين التي علمهم رسولنا ﴿ أنه ﴾ أي : الشأن ﴿ من يحادد الله ﴾ أي : من يخالف الله ﴿ ورسوله ﴾ وأصل المحادّة في اللغة المخالفة والمجانبة والمعاداة واشتقاقه من الحدّ يقال : حادّ فلان فلاناً أي : صار في حدّ غير حدّه ، كقولك شاقه أي : صار في شق غير شقه ، ومعنى ﴿ يحادد الله ﴾ أي : يصير في حدّ غير حدّ أولياء الله تعالى بالمخالفة وقوله تعالى : ﴿ فأنّ له نار جهنم ﴾ أي : على حذف الخبر أي : فحق أنّ له نار جهنم لأنّ الفاء واقعة في جواب الشرط فتقتضي جملة و ﴿ فأنّ له نار جهنم ﴾ مفرد في موضع رفع بالابتداء وقدر خبره مقدماً لأنّ أنّ لا يبتدأ بها قال الرازي أو أنّ معناه فله نار جهنم وأنّ تكررت للتوكيد واعترض بأنّ فيه الفصل بين المؤكد والمؤكد بأجنبي ثم قال أو جواب من محذوف والتقدير ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأنّ له نار جهنم ﴿ خالداً فيها ﴾ أي : دائماً من غير انقضاء كما كانت نيته المحادة أبداً ، ثم نبه على عظم هذا الجزاء بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر البعيد الوصف العظيم الشأن ﴿ الخزي العظيم ﴾ أي : الهلاك الدائم .

(252/342)

﴿ يحذر ﴾ أي : يخاف ﴿ المنافقون أن تنزل عليهم ﴾ أي : المؤمنين ﴿ سورة تنبئهم ﴾ أي : تخبرهم ﴿ بما في قلوبهم ﴾ أي : بما في قلوب المنافقين من النفاق والحسد والعداوة للمؤمنين كانوا يقولون فيما بينهم ويستهزؤن ويخافون الفضيحة بنزول القرآن في شأنهم قال قتادة : هذه السورة كانت تسمى الفاضحة والمبعثرة والمثيرة أثارت مخازيهم ومثالبهم ، قال ابن عباس : أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلاً من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الأسماء رحمة على المؤمنين لئلا يعير بعضهم بعضاً لأنّ أولادهم كانوا مؤمنين ﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ استهزؤا ﴾ أمر تهديد ﴿ إنّ الله مخرج ﴾ أي : مظهر ﴿ ما تحذرون ﴾ إخراجه من نفاقكم ، قال ابن كيسان : نزلت هذه الآية في اثني عشر رجلاً من المنافقين وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على العقبة لما رجع من غزوة تبوك ليفتكوا به إذا علاها ومعهم رجل مسلم يخفيهم شأنه وتنكروا له في ليلة مظلمة فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدّروا وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم وعمار بن ياسر يقود ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم فضربها حذيفة حتى نحاها عن الطريق فلما نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم قال : لم أعرف منهم أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنهم فلان وفلان حتى عدهم كلهم" ، فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فتقتلهم فقال : أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفينا هم الله .

﴿ ولئن ﴾ اللام لام القسم ﴿ سألتهم ﴾ أي : المنافقين عن استهزائهم بك والقرآن وهم سائرون معك إلى تبوك ﴿ ليقولنّ ﴾ معتذرين ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ في الحديث لنقطع به الطريق ولم نقصد ذلك ، قال قتادة : كان النبي صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وبين يديه ثلاثة نفر من المنافقين اثنان يستهزئان بالنبيّ صلى الله عليه وسلم والقرآن والثالث يضحك قيل : كانوا يقولون : إنّ محمداً يغلب الروم ويفتح مدائنهم ما أبعده من ذلك وقيل : كانوا يقولون : إنّ محمداً يزعم أنه نزل في أصحابنا المقيمين بالمدينة قرآن وإنما هو قوله وكلامه فأطلع الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك فقال : "احبسوا الركب عليّ فدعاهم وقال لهم : قلتم كذا وكذا فقال : ﴿ إنما كنا نخوض ونلعب ﴾ أي : كنا نتحدّث ونخوض في الكلام كما يفعل الركب لنقطع الطريق بالحديث واللعب" قال الله تعالى :

﴿ قل ﴾ يا محمد لهؤلاء المنافقين ﴿ أبا ﴾ أي : بفرائضه وحدوده وأحكامه

﴿ وآياته ﴾ أي : القرآن وسائر ما يدل على الدين الذي لا يمكن تبديله ولا يخفى على بصير ولا بصيرة ﴿ ورسوله ﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الذي عظمته من عظمته وهو مجتهد في إصلاحكم وتشريفكم وإعلائكم ﴿ كنتم تستهزؤن ﴾ توبيخاً وتقريعاً لهم على

استهزائهم بما لا يصلح الاستهزاء به وإلزاماً للحجة عليهم ولا يعبأ باعتقادهم الكاذب ، ولما كان الاستهزاء بذلك كفراً قال الله تعالى:

﴿ لا تعتذروا ﴾ أي : لا تشتغلوا باعتذاراتكم الباطلة ﴿ قد كفرتم ﴾ أي : أظهرتم الكفر بقولكم هذا ﴿ بعد إيمانكم ﴾ أي : بعد إظهار الإيمان .

فإن قيل : المنافقون لم يكونوا مؤمنين فكيف قال تعالى : ﴿ قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ ؟

(254/342)

أجيب : بأنهم كانوا يكتمون الكفر ويظهرون الإيمان فلما حصل ذلك الاستهزاء منهم وهو كفر فقد أظهروا الكفر بعد ما أظهروا الإيمان كما تقرّر ﴿ إن نعف عن طائفة منكم ﴾ أي : بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿ نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ أي : مصرين على النفاق والاستهزاء قال محمد بن إسحاق : الذي عفا الله عنه رجل واحد وهو مخشي بن حمير الأشجعي يقال هو الذي كان يضحك ولا يخوض وكان يمشي مجانباً لهم وكان ينكر بعض ما يسمع والعرب توقع لفظ الجمع على الواحد فتقول خرج فلان إلى مكة على الجمال والله تعالى يقول : ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ (آل عمران ،)

يعني : نعيم بن مسعود فلما نزلت هذه الآية تاب من نفاقه وقال : اللهمّ إني لا أزال أسمع آية

تقرأ تقشعر منها الجلود وتخفق منها القلوب اللهمّ اجعل وفاتي قتلاً في سبيلك لا يقول أحد أنا غسلت أنا كفنت أنا دفنت فأصيب يوم اليمامة فلم يعرف أحد من المسلمين مصرعه وقرأ عاصم نعف بالنون مفتوحة وضم الفاء ونعذب طائفة بنون مضمومة وكسر الذال وطائفة بالنصب والباقون إن يعف بياء مضمومة وتعذب بضم التاء وفتح الذال وطائلة بالرفع ثم بين تعالى نوعاً آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم والمقصود منه بيان أنّ إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة بقوله تعالى:

(255/342)

﴿ المنافقون والمنافقات بعضم من بعض ﴾ أي : متشابهة في النفاق والبعد عن الإيمان كإبعاض الشيء الواحد كما يقول الإنسان لغيره أنا منك وأنت مني أي : أمرنا واحد لا مباينة فيه ﴿ يأمرون بالمنكر ﴾ أي : يأمر بعضهم بعضاً بالشرك والمعصية وتكذيب النبيّ صلى الله عليه وسلم ﴿ وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم ﴾ أي : عن الإنفاق في كل خير من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله ، والأصل في هذا أنّ المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده فقبض اليد كناية عن الشح وقوله تعالى : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ لا يمكن إجراؤه على ظاهره لأنا لو حملنا النسيان على الحقيقة لما استحقوا

عليه ذماً لأن النسيان ليس في وسع البشر ولخبر : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان" وأيضاً فهو في حق الله تعالى محال فلا بدّ من التأويل وهو من وجهين : الأوّل : معناه أنهم تركوا أمره حتى صار بمنزلة المنسي فجازاهم بأن صيرهم بمنزلة المنسي من ثوابه ورحمته وجاء هذا على مزاوجة الكلام كقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ (الشورى ،)

الثاني : النسيان ضدّ الذكر فلما تركوا ذكر الله بالعبادة والثناء على الله ترك الله تعالى ذكرهم بالرحمة والإحسان وإنما حسن جعل النسيان كناية عن ترك الذكر لأنّ من نسي شيئاً لم يذكره فجعل اسم الملزوم كناية عن اللازم ﴿ إنّ المنافقين هم الفاسقون ﴾ أي : الكاملون في الفسق الذي هو التمرّد في الكفر والانسلاخ عن كل خير وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله تعالى به المنافقين حتى بالغ في ذمهم وقد كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلم أن يقول كرهت كسلت لأنّ المنافقين وصفوا بالكسل في قوله تعالى : ﴿ إلا وهم كسالى فما ظنك بالفسق ﴾ ، ولما بين سبحانه وتعالى كثيراً من أحوال المنافقين والمنافقات وأنه نسيهم أي : جازاهم على تركهم التمسك بطاعة الله تعالى أكد هذا الوعيد وضم المنافقين إلى الكفار فيه بقوله تعالى:

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ أي : المجاهرين في عنادهم يقال وعده بالخير وعدا وأوعده بالشر وعيداً ﴿ نار جهنم خالدين فيها ﴾ أي : مقدرين الخلود ولا شك أنّ النار المخلدة من أعظم العقوبات ﴿ هي حسبهم ﴾ أي : كافيتهم في العذاب ﴿ ولعنهم الله ﴾ أي : أبعدهم مع من أبعدهم من رحمته ، ولما كان الخلود قد يتجوّز به عن الزمن الطويل فيكون بعده فرج نفى ذلك بقوله تعالى : ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ أي : دائم لا ينقطع وقوله تعالى:

(257/342)

﴿ كالذين من قبلكم ﴾ رجوع من الغيبة إلى خطاب الحضور والكاف في كالذين للتشبيه والمعنى فعلتم كأفعال الذين من قبلكم شبه فعل المنافقين بفعل الكافرين الذين كانوا من قبلهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف وقبض الأيدي عن فعل الخير والطاعة ثم إنه تعالى وصف الكفار بأنهم كانوا أشدّ من هؤلاء المنافقين قوّة وأكثر أموالاً وأولاداً بقوله تعالى : ﴿ كانوا أشدّ منكم قوّة ﴾ أي : بطشاً ومنعاً ﴿ وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ أي : تمتعوا بنصيبهم من الدنيا باتباع الشهوات ورضوا بها عوضاً عن الآخرة والخلاق : النصيب ، وهو ما خلق للإنسان وقدّر له من خير وشر كما يقال : قسم له .

﴿ فاستمتعتم بخلاقكم ﴾ أي : فتمتعتم أيها المنافقون والكافرون بخلاقكم فهو خطاب للحاضرين ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ ذم الأوّلين باستمتاعهم بما أوتوا من حظوظ الدنيا العاجلة وحرمانهم من سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ العاجلة تمهيداً لذم المخاطبين بمشابهتهم واقتفاء أثرهم ، ولما بين تعالى مشابهة هؤلاء المنافقين لأولئك المتقدّمين في طلب الدنيا وفي الإعراض عن طلب الآخرة بين حصول المشابهة بين الفريقين في تكذيب الأنبياء وفي المكر والخديعة بقوله تعالى : ﴿ وخضتم ﴾ أي : ودخلتم في الباطل والكذب على الله تعالى وتكذيب رسله والاستهزاء بالمؤمنين ﴿ كالذي خاضوا ﴾ أي : كالذين خاضوا أو كالفوج الذي خاضوا هذا كله إذا جعلنا الذي موصولاً اسمياً فإن جعلناه موصولاً حرفياً أول مع صلته بمصدر أي كخوضهم والفوج الجماعة .

فإن قيل : أيّ فائدة في قوله تعالى : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ وقوله تعالى : ﴿ كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ﴾ مغن عنه كما أغنى قوله تعالى : ﴿ كالذي خاضوا ﴾ عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا ؟

(258/342)

أجيب : بأنّ فائدة ذلك أن يذم الأوّلين بما مرّ ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم فيكون ذلك نهاية في المبالغة كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على قبح ظلمه بقولك : أنت مثل فرعون كان يقتل بغير جرم ويعذب من غير موجب وأمّا ﴿ خضتم كالذي خاضوا ﴾ فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن بإسناده إليه عن تلك التقدمة ﴿ أولئك ﴾ أي : هؤلاء الأشقياء ﴿ حبطت ﴾ أي : بطلت ﴿ أعمالهم في الدنيا ﴾ أي : بزوالها عنهم ونسيان لذاتها ﴿ والآخرة ﴾ أي : وفي الدار الآخرة لأنهم لم يسعوا لها سعيها فلم تنفعهم أعمالهم في الدارين بل يعاقبون عليها وزاد في التنبيه على بعدهما مما قصدوا لأنفسهم من النفع بقوله تعالى : ﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ أي : الذين خسروا الدنيا والآخرة والمعنى أنه كما بطل أعمال الكفار الماضين وخسروا تبطل أعمالكم أيها المنافقون وتخسرون .

وفي الالتفات إلى مقام الخطاب إشارة إلى تحذير كل سامع عن مثل هذه المقالة قال بعض كبراء التابعين : أدركت سبعين ممن أدرك النبيّ صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه وذكر أنّ مالكاً رحمه الله تعالى دخل المسجد بعد العصر وهو ممن لا يرى الركوع بعد العصر فجلس ولم يركع فقال له صبيّ : يا شيخ قم فاركع فقام وركع ولم يحاجه بما يراه مذهباً فقيل له في ذلك فقال : خشيت أن أكون من الذين إذا قيل لهم اركعوا لا يركعون .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : "بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا

يستطيعونهما" وقال تعالى : ﴿ لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ (التوبة ،)

ينظر المنافق إلى ما يسقط فضائل أهل الفضل ويتعامى عن محاسنهم .

(259/342)

كما روي أنّ الله تعالى يبغض التارك لحسنة المؤمن الآخذ لسيئته والمؤمن الصادق يتغافل عن مساوى أهل المساوى فكيف بمعايب أهل المحاسن والمنافق يأخذ من الدين ما ينفع في الدنيا ولا يأخذ ما ينفع في العقبى ويجتنب في الدين ما يضر في الدنيا ولا يجتنب ما يضر في العقبى مما لا يضر في الدنيا .

ويذكر أن رجلاً من صلحاء المسلمين دخل كنيسة فقال لراهب فيها : دلني على موضع طاهر أصلي فيه ، فقال له الراهب : طهر قلبك مما سواه وقم حيث شئت ، قال المسلم : فخجلت منه .

وقوله عز من قائل:

﴿ ألم يأتهم ﴾ فيه رجوع من الخطاب إلى الغيبة أي : ألم يأت هؤلاء المنافقين والكفار وهو استفهام بمعنى التقرير أي : قد أتاهم ﴿ نبأ ﴾ أي : خبر ﴿ الذين من قبلهم ﴾ من الأمم الماضية الذين خلوا من قبلهم كيف أهلكناهم حين خالفوا أمرنا وعصوا رسلنا ، ولما شبه

تعالى المنافقين بالكفار المتقدّمين في الرغبة في الدنيا وفي تكذيب الأنبياء والمبالغة في إيذائهم لرسلهم بين منهم ستة طوائف:

الأولى: ﴿قوم نوح﴾ أهلكوا بالطوفان.

﴿و﴾ الثانية: ﴿عاد﴾ وهم قوم هود أهلكوا بالريح.

﴿و﴾ الثالثة: ﴿ثمود﴾، وهم قوم صالح أهلكوا بالرجفة.

﴿و﴾ الرابعة: ﴿قوم إبراهيم﴾ أهلكوا بسلب النعمة وأهلك نمروذ ببعوضة سلطها الله تعالى على دماغه فقتلته.

﴿و﴾ الخامسة: ﴿أصحاب مدين﴾ وهم قوم شعيب ويقال إنهم من ولد مدين بن إبراهيم أهلكوا بعذاب يوم الظلة.

(260/342)

﴿و﴾ السادسة: ﴿المؤتفكات﴾ وهم قوم لوط أي: أهلها أهلكوا بأن جعل الله تعالى أعالي أرضهم سافلها وأمطر عليهم حجارة، وإنما ذكر الله تعالى هذه الطوائف الستة لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام والعراق واليمن وكل ذلك قريب من بلاد العرب فكانوا يمرّون عليهم ويعرفون أخبارهم وقوله تعالى: ﴿أتتهم رسلهم﴾ راجع إلى كل هؤلاء الطوائف

﴿ بالبينات ﴾ أي : المعجزات الباهرات والحجج الواضحات الدالة على صدقهم فكذبوهم وخالفوا أمرنا كما فعلتم أيها الكفار والمنافقون فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم فتعجل لكم النقمة كما عجلت لهم . وقرأ أبو عمرو بسكون السين والباقون بالرفع ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ بتعجيل العقوبة لهم ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ حيث عرضوها للعقاب بالكفر والتكذيب ، ولما بالغ سبحانه وتعالى في وصف المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 413. 423 ﴾

(261/342)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾

ذكر ها هنا جملة أحوال المنافقين ، وأن ذكورهم في ذلك كإناثهم ، وأنهم متناهون في النفاق والبعد عن الإيمان ، وفيه إشارة إلى نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وردّ لقولهم : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بالله إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ ﴾ ، ثم فصل ذلك المجمل ببيان مضادّة حالهم لحال المؤمنين فقال : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ وهو كل قبيح عقلاً أو شرعاً ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ وهو كل

حسن عقلاً أو شرعاً قال الزجاج: هذا متصل بقوله: ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: 56] أي ليسوا من المؤمنين، ولكن بعضهم من بعض: أي متشابهون في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي: يشحون فيما ينبغي إخراجه من المال في الصدقة، والصلة والجهاد، فالقبض كناية عن الشحّ، كما أن البسط كناية عن الكرم.

والنسيان الترك: أي تركوا ما أمرهم به، فتركهم من رحمته وفضله، لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان، ثم حكم عليهم بالفسق: أي الخروج عن طاعة الله إلى معاصيه، وهذا التركيب يفيد أنهم هم الكاملون في الفسق.

ثم بين مآل حال أهل النفاق والكفر بأنه ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ و ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدّرة: أي مقدّرين الخلود؛ وفي هذه الآية دليل على أن وعد يقال في الشر، كما يقال في الخير: ﴿ هِيَ حَسْبُهُمْ ﴾ أي: كافيتهم لا يحتاجون إلى زيادة على عذابها، "و" مع ذلك فقد ﴿ لَّعَنَهُمُ اللهُ ﴾ أي: طردهم وأبعدهم من رحمته ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ أي: نوع آخر من العذاب دائم لا ينفك عنهم.

قوله : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ شبه حال المنافقين بالكفار الذين كانوا من قبلهم ملتفتاً من الغيبة إلى الخطاب ، والكاف محلها رفع على خبرية مبتدأ محذوف : أي أنتم مثل الذين من قبلكم ، أو محلها نصب : أي فعلتم مثل فعل الذين من قبلكم من الأمم .

وقال الزجاج : التقدير وعد الله الكفار نار جهنم وعداً كما وعد الذين من قبلكم ؛ وقيل : المعنى : فعلتم كأفعال الذين من قبلكم في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فحذف المضاف .

ثم وصف حال أولئك الكفار الذين من قبلهم ، وبين وجه تشبيههم بهم وتمثيل حالهم بحالهم بأنهم كانوا أشدّ من هؤلاء المنافقين والكفار المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم ﴿ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أموالا وأولادا فاستمتعوا ﴾ أي : تمتعوا ﴿ بخلاقهم ﴾ أي : نصيبهم الذي قدّره الله لهم من ملاذ الدنيا ، ﴿ فاستمعتم ﴾ أنتم ﴿ بخلاقكم ﴾ أي : نصيبكم الذي قدّره الله لكم ﴿ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بخلاقهم ﴾ أي : انتفعتم به كما انتفعوا به ، والغرض من هذا التمثيل ذمّ هؤلاء المنافقين والكفار بسبب مشابهتهم لمن قبلهم من الكفار ، في الاستمتاع بما رزقهم الله .

وقد قيل : ما فائدة ذكر الاستمتاع بالخلاق في حقّ الأولين مرّة ، ثم في حقّ المنافقين ثانياً ، ثم تكريره في حقّ الأوّلين ثالثاً ؟ وأجيب بأنه تعالى ذمّ الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ

الدنيا ، وحرمانهم عن سعادة الآخرة بسبب استغراقهم في تلك الحظوظ ، فلما قرّر تعالى هذا عاد فشبه حال المنافقين بحالهم ، فيكون ذلك نهاية في المبالغة .

قوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ معطوف على ما قبله : أي كالفوج الذي خاضوا ، أو كالخوض الذي خاضوا .

(263/342)

وقيل : أصله كالذين فحذفت النون ، والأولى أن يقال إن الذي اسم موصول مثل من وما ، يعبر به عن الواحد والجمع ، يقال : خضت الماء : أخوضه خوضاً وخياضاً ، والموضع مخاضة ، وهو ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً ، وجمعها المخاض والمخاوض .

ويقال منه : خاض القوم في الحديث ، وتخاوضوا فيه ، أي تفاوضوا فيه .

والمعنى : خضتم في أسباب الدنيا ، واللهو واللعب .

وقيل : في أمر محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، أي دخلتم في ذلك ، والإشارة بقوله : ﴿ أولئك ﴾ إلى المتصفين بهذه الأوصاف من المشبهين ، والمشبه بهم ﴿ حَبِطَتْ أعمالهم ﴾ أي : بطلت ، والمراد بالأعمال ما عملوه مما هو في صورة طاعة ، لا هذه الأعمال المذكورة هنا فإنها من المعاصي ، ومعنى ﴿ فِى الدنيا والآخرة ﴾ أنها باطلة

على كل حال : أما بطلانها في الدنيا فلأنّ ما يترتب على أعمالهم فيها لا يحصل لهم بل يصير ما يرجونه من الغنى فقراً ، ومن العزّ ذلاً ، ومن القوّة ضعفاً .

وأما في الآخرة فلأنهم يصيرون إلى عذاب النار ، ولا ينتفعون بشيء مما عملوه من الأعمال التي يظنونها طاعة وقربة ﴿ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الخاسرون ﴾ أي : المتمكنون في الخسران الكاملون فيه في الدنيا والآخرة .

(264/342)

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ ﴾ أي : المنافقين ﴿ نَبَأُ الذين مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي : خبرهم الذي له شأن ، وهو ما فعلوه وما فعل بهم ، ولما شبه حالهم بحالهم فيما سلف على الإجمال في المشبه بهم ، ذكر منهم ههنا ست طوائف قد سمع العرب أخبارهم ، لأن بلادهم وهي الشام قريبة من بلاد العرب ، فالاستفهام للتقرير ، وأوّلهم : قوم نوح ، وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم : قوم عاد ، وقد أهلكوا بالريح العقيم ، وثالثهم : قوم ثمود ، وقد أخذوا بالصيحة ، ورابعهم : قوم إبراهيم ، وقد سلط الله عليهم البعوض ، وخامسهم : أصحاب مدين ، وهم قوم شعيب ، وقد أخذتهم الرجفة ، وسادسهم : أصحاب المؤتفكات ، وهي قرى قوم لوط ، وقد أهلكهم الله بما أمطر عليهم من الحجارة ؛ وسميت مؤتفكات ؛ لأنها انقلبت بهم حتى صار

عاليها سافلها ، والائتفاك : الانقلاب ﴿ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالبينات ﴾ أي : رسل هذه الطوائف الست .

وقيل : رسل أصحاب المؤتفكات ؛ لأن رسولهم لوط وقد بعث إلى كل قرية من قراهم رسولاً ، والفاء في ﴿ فَمَا كَانَ اللهِ لِيَظْلِمَهُمْ ﴾ للعطف على مقدّر يدل عليه الكلام : أي فكذبوهم ، فأهلكهم الله فما ظلمهم بذلك ؛ لأنه قد بعث إليهم رسله فأنذروهم وحذروهم ﴿ ولكن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ بسبب ما فعلوه من الكفر بالله ، وعدم الانقياد لأنبيائه ، وهذا التركيب يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان مستمراً .

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ قال : هو التكذيب ، قال : وهو أنكر المنكر ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف ﴾ شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما أنزل الله ، وهو أعظم المعروف .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ قال : لا يبسطونها بنفقة في حق .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ نَسُواْ اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ قال : تركوا الله فتركهم من كرامته وثوابه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ ﴾ قال : صنيع الكفار ، كالكفار .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : ما أشبه الليلة بالبارحة ﴿ كالذين مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً ﴾ إلى قوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والذي نفسي بيده لنتبعنهم حتى لو دخل رجل جحر ضب لدخلتموه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عنه ، في قوله : ﴿ بخلاقهم ﴾ قال : بدينهم .

وأخرجا أيضاً عن أبي هريرة قال الخلاق : الدين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ فاستمتعوا بخلاقهم ﴾ قال : بنصيبهم في الدنيا .

وأخرج عبد بن حميد ، وابن المنذر ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ وَخُضْتُمْ كالذي خَاضُواْ ﴾ قال : لعبتم كالذي لعبوا .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿

والمؤتفكات ﴾ قال : قوم لوط ائتفكت بهم أرضهم ، فجعل عاليها سافلها . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(266/342)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (42) ﴾

من هنا يبدأ الحديث عن الطوائف التي ظهرت عليها أعراض الضعف في الصف . وبخاصة جماعة المنافقين ، الذين اندسوا في صفوف المسلمين باسم الإسلام ، بعد أن غلب وظهر ، فرأى هؤلاء أن حب السلامة وحب الكسب يقتضيان أن يحنوا رؤوسهم للإسلام ، وأن يكيدوا له داخل الصفوف بعد أن عز عليهم أن يكيدوا له خارج الصفوف .

وسنرى في هذا المقطع كل الظواهر التي تحدثنا عنها في تقديم السورة كما يصورها السياق القرآني . ونحسب أنها ستكون مفهومة واضحة في ضوء ذلك التقديم الذي أسفلنا .

﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ، ولكن بعدت عليهم الشقة ؛ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، والله يعلم إنهم لكاذبون . عفا الله عنك

لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ؛ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم ، فثبطهم ، وقيل : اقعدوا مع القاعدين . لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين . لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ . .

(267/342)

لو كان الأمر أمر عرض قريب من أعراض هذه الأرض ، وأمر سفر قصير الأمد مأمون العاقبة لاتبعوك ولكنها الشقة البعيدة التي تتقاصر دونها الهمم الساقطة والعزائم الضعيفة . ولكنه الجهد الخطر الذي تجزع منه الأرواح الهزيلة والقلوب المنخوبة . ولكنه الأفق العالي الذي تتخاذل دونه النفوس الصغيرة والبنية المهزولة .

وإنه لنموذج مكرور في البشرية ذلك الذي ترسمه تلك الكلمات الخالدة :

﴿ لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة ﴾ . .

فكثيرون هم أولئك الذين يتهاوون في الطريق الصاعد إلى الآفاق الكريمة . كثيرون أولئك الذين يجهدون لطول الطريق فيتخلفون عن الركب ويميلون إلى عرض تافه أو مطلب رخيص . كثيرون تعرفهم البشرية في كل زمان وفي كل مكان ، فما هي قلة عارضة ، إنما هي النموذج المكرور . وإنهم ليعيشون على حاشية الحياة ، وإن خيل إليهم أنهم بلغوا منافع ونالوا مطالب ، واجتنبوا أداء الثمن الغالي ، فالثمن القليل لا يشتري سوى التافه الرخيص !

﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ . .

فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً . وما يكذب إلا الضعفاء . أجل ما يكذب إلا ضعيف ولو بدا في صورة الأقوياء الجبارين في بعض الأحايين . فالقوي يواجه والضعيف يداور . وما تتخلف هذه القاعدة في موقف من المواقف ولا في يوم من الأيام . .

﴿ يهلكون أنفسهم ﴾ . .

بهذا الحلف وبهذا الكذب ، الذي يخيل إليهم أنه سبيل النجاة عند الناس ، والله يعلم الحق ، ويكشفه للناس ، فيهلك الكاذب في الدنيا بكذبه ، ويهلك في الآخرة يوم لا يجدي النكران .

﴿ والله يعلم إنهم لكاذبون ﴾ . .

﴿ عفا الله عنك . لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ . .

إنه لطف الله برسوله ، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب . فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير . وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم في هذه المعاذير وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم . فعندئذ تتكشف حقيقتهم ، ويسقط عنهم ثوب النفاق ، ويظهرون للناس على طبيعتهم ، ولا يتوارون خلف إذن الرسول .

وإذا لم يكن ذلك فإن القرآن يتولى كشفهم ، ويقرر القواعد التي يمتاز بها المؤمنون والمنافقون .

﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين . إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم ، فهم في ريبهم يترددون ﴾ .

وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ . فالذين يؤمنون بالله ، ويعتقدون بيوم الجزاء ، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد ؛ ولا يتلكأون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح ؛ بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما أمرهم الله ، طاعة لأمره ، ويقيناً بلقائه ،

وثقة بجزائه ، وابتغاء لرضاه . وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم ، فضلاً عن الإذن لهم . إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير ، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها ، وهم يرتابون فيها ويترددون .

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة ، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق ، أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق !

ولقد كان أولئك المتخلفون ذوي قدرة على الخروج ، لديهم وسائله ، وعندهم عدته :

﴿ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ﴾ . .

وقد كان فيهم عبد الله بن أبي بن أبي سلول ، وكان فيهم الجد بن قيس ، وكانوا أشرافاً في قومهم أثرياء .

﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ . .

(269/342)

لما يعلمه من طبيعتهم ونفاقهم ، ونواياهم المنطوية على السوء للمسلمين كما سيجيء .

﴿ فثبطهم ﴾ . .

ولم يبعث فيهم الهمة للخروج .

﴿ وقيل : اقعدوا مع القاعدين ﴾ . .

وتخلفوا مع العجائز والنساء والأطفال الذين لا يستطيعون الغزو ، ولا ينبعثون للجهاد .

فهذا مكانكم اللائق بالهمم الساقطة والقلوب المرتابة والنفوس الخاوية من اليقين .

وكان ذلك خيراً للدعوة وخيراً للمسلمين :

﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ، وفيكم سماعون لهم ، والله عليم بالظالمين ﴾ . .

والقلوب الحائرة تبث الخور والضعف في الصفوف ، والنفوس الخائنة خطر على الجيوش ؛

ولو خرج أولئك المنافقون ما زادوا المسلمين قوة بخروجهم بل لزادوهم اضطراباً وفوضى .

ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفتنة والتفرقة والتخذيل . وفي المسلمين من يسمع لهم في ذلك الحين .

ولكن الله الذي يرعى دعوته ويكلأ رجالها المخلصين ، كفى المؤمنين الفتنة ، فترك المنافقين المتخاذلين قاعدين :

﴿ والله عليم بالظالمين ﴾ . .

والظالمون هنا معناهم " المشركون " فقد ضمهم كذلك إلى زمرة المشركين !

وإن ماضيهم ليشهد بدخل نفوسهم ، وسوء طويتهم ، فلقد وقفوا في وجه الرسول ـ صلى

الله عليه وسلم - وبذلوا ما في طوقهم ، حتى غلبوا على أمرهم فاستسلموا وفي القلب ما فيه :

﴿ لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون ﴾ . .

وكان ذلك عند مقدم الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة ، قبل أن يظهره الله على أعدائه . ثم جاء الحق وانتصرت كلمة الله فحنوا لها رؤوسهم وهم كارهون ، وظلوا يتربصون الدوائر بالإسلام والمسلمين .

ثم يأخذ السياق في عرض نماذج منهم ومن معاذيرهم المفتراة ؛ ثم يكشف عما تنطوي عليه صدورهم من التربص بالرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين :

(270/342)

﴿ ومنهم من يقول : ائذن لي ولا تفتني . ألا في الفتنة سقطوا ، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين . إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ، ويتولوا وهم فرحون . قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون . قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو

بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ .

روى محمد بن إسحاق عن الزهري ويزيد بن رومان وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن قتادة قالوا : " قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذات يوم ، وهو في جهازه (أي لغزوة تبوك) للجد بن قيس أخي بني سلمة : هل لك يا جد في جلاد بني الأصفر ؟ " (يعني الروم) فقال : يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجباً بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر عنهن . فأعرض عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : " قد أذنت لك " ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية .

بمثل هذه المعاذير كان المنافقون يعتذرون . والرد عليهم :

﴿ ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ . .

والتعبير يرسم مشهداً كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون ؛ وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم ، وتأخذ عليهم المنافذ والمتجهات فلا يفلتون . كناية عن مقارفتهم للخطيئة كاملة وعن انتظار العقاب عليها حتماً ، جزاء الكذب والتخلف والهبوط إلى هذا المستوى المنحط من المعاذير . وتقريراً لكفرهم وإن كانوا يتظاهرون بالإسلام وهم فيه منافقون .

إنهم لا يريدون بالرسول خيراً ولا بالمسلمين ؛ وإنهم ليسؤوهم أن يجد الرسول والمسلمون

خيراً :

﴿ إن تصبك حسنة تسؤهم ﴾ . .

وإنهم ليفرحون لما يحل بالمسلمين من مصائب وما ينزل بهم من مشقة :

﴿ وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل ﴾ .

.

واحتطنا ألا نصاب مع المسلمين بشرّ ، وتخلفنا عن الكفاح والغزو !

﴿ ويتولوا وهم فرحون ﴾ . .

(271/342)

بالنجاة وبما أصاب المسلمين من بلاء .

ذلك أنهم يأخذون بظواهر الأمور ، ويحسبون البلاء شراً في كل حال ، ويظنون أنهم يحققون لأنفسهم الخير بالتخلف والقعود . وقد خلت قلوبهم من التسليم لله ، والرضى بقدره ، واعتقاد الخير فيه . والمسلم الصادق يبذل جهده ويقدم لا يخشى ، اعتقاداً بأن ما يصيبه من خير أو شر معقود بإرادة الله ، وأن الله ناصر له ومعين :

﴿ قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

والله قد كتب للمؤمنين النصر ، ووعدهم به في النهاية ، فمهما يصبهم من شدة ، ومهما يلاقوا من ابتلاء ؛ فهو إعداد للنصر الموعود ، ليناله المؤمنون عن بينة ، وبعد تمحيص ، وبوسائله التي اقتضتها سنة الله ، نصراً عزيزاً لا رخيصاً ، وعزة تحميها نفوس عزيزة مستعدة لكل ابتلاء ، صابرة على كل تضحية . والله هو الناصر وهو المعين :

﴿ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ . .

والاعتقاد بقدر الله ، والتوكل الكامل على الله ، لا ينفيان اتخاذ العدة بما في الطوق . فذلك أمر الله الصريح :

﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . . ﴾ وما يتكل على الله حق الاتكال من لا ينفذ أمر الله ، ومن لا يأخذ بالأسباب ، ومن لا يدرك سنة الله الجارية التي لا تحابي أحداً ، ولا تراعي خاطر إنسان !

على أن المؤمن أمره كله خير . سواء نال النصر أو نال الشهادة . والكافر أمره كله شر سواء أصابه عذاب الله المباشر أو على أيدي المؤمنين :

﴿ قل : هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا . فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ . .

فماذا يتربص المنافقون بالمؤمنين ؟ إنها الحسنى على كل حال . النصر الذي تعلو به كلمة الله ، فهو جزاؤهم في هذه الأرض . أو الشهادة في سبيل الحق عليا الدرجات عند الله . وماذا يتربص المؤمنون بالمنافقين ؟ إنه عذاب الله يأخذهم كما أخذ من قبلهم من المكذبين ؛ أو ببطش المؤمنين بهم كما وقع من قبل للمشركين . . ﴿ فتربصوا إنا معكم متربصون ﴾ والعاقبة معروفة . . والعاقبة للمؤمنين .

ولقد كان بعض هؤلاء المعتذرين المتخلفين المتربصين ، قد عرض ماله ، وهو يعتذر عن الجهاد ، ذلك ليمسك العصا من الوسط على طريقة المنافقين في كل زمان ومكان . فرد الله عليهم مناورتهم ، وكلف رسوله أن يعلن أن إنفاقهم غير مقبول عند الله ، لأنهم إنما ينفقونه عن رياء وخوف ، لا عن إيمان وثقة ، وسواء بذلوه عن رضا منهم بوصفه ذريعة يخدعون بها المسلمين ، أو عن كره خوفاً من انكشاف أمرهم ، فهو في الحالتين مردود ، لا ثواب له ولا يحسب لهم عند الله :

﴿ قل : أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ، إنكم كنتم قوماً فاسقين .

وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله ورسوله ، ولا يأتون الصلاة إلى وهم كسالى ، ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ . .

إنها صورة المنافقين في كل آن . خوف ومداراة ، وقلب منحرف وضمير مدخول .

ومظاهر خالية من الروح، وتظاهر بغير ما يكنه الضمير.

والتعبير القرآني الدقيق:

﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ﴾ . .

فهم يأتونها مظهراً بلا حقيقة، ولا يقيمونها إقامة واستقامة. يأتونها كسالى لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعاً، فيحسون أنهم عليها مسخرون! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين.

وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التي لا تحدو إليها عقيدة، ولا يصاحبها شعور دافع. فالباعث هو عمدة العمل والنية هي مقياسه الصحيح.

(273/342)

ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوي مال وذوي أولاد، وذوي جاه في قومهم وشرف. ولكن هذا كله ليس بشيء عند الله. وكذلك يجب ألا يكون شيئاً عند الرسول والمؤمنين. فما هي بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنأوا بها، إنما هي الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها:

﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا، وتزهق

أنفسهم وهم كافرون ﴾ .

إن الأموال والأولاد قد تكون نعمة يسبغها الله على عبد من عباده ، حين يوفقه إلى الشكر على النعمة ، والإصلاح بها في الأرض ، والتوجه بها إلى الله ، فإذا هو مطمئن الضمير ، ساكن النفس ، واثق من المصير . كلما أنفق احتسب وشعر أنه قدم لنفسه ذخراً ، وكلما أصيب في ماله أو بنيه احتسب ، فإذا السكينة النفسية تغمره . والأمل في الله يسري عنه . . وقد تكون نقمة يصيب الله بها عبداً من عباده ، لأنه يعلم من أمره الفساد والدخل ، فإذا القلق على الأموال والأولاد يحول حياته جحيماً ، وإذا الحرص عليها يؤرقه ويتلف أعصابه ، وإذا هو ينفق المال حين ينفقه فيما يتلفه ويعود عليه بالأذى ، وإذا هو يشقى بأبنائه إذا مرضوا ويشقى بهم إذا صحوا ، وكم من الناس يعذبون بأبنائهم لسبب من الأسباب !

وهؤلاء الذين كانوا على عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأمثالهم في كل زمان ، يملكون الأموال ويرزقون الأولاد ، يعجب الناس ظاهرها ، وهي لهم عذاب على نحو من الأنحاء . عذاب في الحياة الدنيا ، وهم - بما علم الله من دخيلتهم - صائرون إلى الهاوية . هاوية الموت على الكفر والعياذ بالله من هذا المصير .

والتعبير ﴿ وتزهق أنفسهم ﴾ يلقي ظل الفرار لهذه النفوس أو الهلاك . ظلاً مزعجاً لا هدوء فيه ولا اطمئنان ، فيتسق هذا الظل مع ظل العذاب في الحياة الدنيا بالأموال

والأولاد . فهو القلق والكرب في الدنيا والآخرة . وما يحسد أحد على هذه المظاهر التي تحمل في طياتها البلاء !

(274/342)

ولقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم في الصف ، لا عن إيمان واعتقاد ، ولكن عن خوف وتقية ، وعن طمع ورهب .

ثم يحلفون أنهم من المسلمين ، أسلموا اقتناعاً ، وآمنوا اعتقاداً . . فهذه السورة تفضحهم وتكشفهم على حقيقتهم ، فهي الفاضحة التي تكشف رداء المداورة وتمزق ثوب النفاق :

﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون . لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ .

إنهم جبناء . والتعبير يرسم لهذا الجبن مشهداً ويجسمه في حركة . حركة النفس والقلب ، يبرزها في حركة جسد وعيان :

﴿ لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلاً لولوا إليه وهم يجمحون ﴾ . .

فهم متطلعون أبداً إلى مخبأ يحتمون به ، ويأمنون فيه . حصناً أو مغارة أو نفقاً . إنهم مذعورون مطاردون . يطاردهم الفزع الداخلي والجبن الروحي . ومن هنا :

﴿ يحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ . .

بكل أدوات التوكيد ، ليداروا ما في نفوسهم ، وليتقوا انكشاف طويتهم ، وليأمنوا على ذواتهم . . وإنها لصورة زرية للجبن والخوف والملق والرياء . لا يرسمها إلا هذا الاسلوب القرآني العجيب . الذي يبرز حركات النفس شاخصة للحس على طريقة التصوير الفني الموحي العميق .

ثم يستمر سياق السورة في الحديث عن المنافقين ، وما يند منهم من أقوال وأعمال ، تكشف عن نواياهم التي يحاولون سترها ، فلا يستطيعون . فمنهم من يلمز النبي - صلى الله عليه وسلم - في توزيع الصدقات ، ويتهم عدالته في التوزيع ، وهو المعصوم ذو الخلق العظيم ، ومنهم من يقول : هو اذن يستمع لكل قائل ، ويصدق كل ما يقال ، وهو النبي الفطن البصير ، المفكر المدبر الحكيم . ومنهم من يتخفى بالقولة الفاجرة الكافرة ، حتى إذا انكشف أمره استعان بالكذب والحلف ليبرئ نفسه من تبعة ما قال . ومنهم من يخشى أن ينزل الله على رسوله سورة تفضح نفاقهم وتكشفهم للمسلمين .

ويعقب على استعراض هذه الصنوف من المنافقين ، ببيان طبيعة النفاق والمنافقين ، ويربط بينهم وبين الكفار الذين خلوا من قبل ، فأهلكهم الله بعد ما استمتعوا بنصيبهم إلى أجل معلوم . ذلك ليكشف عن الفوارق بين طبيعتهم هذه وطبيعة المؤمنين الصادقين ، الذين يخلصون العقيدة ولا ينافقون .

﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ، فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون . إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ . .

من المنافقين من يغمزك بالقول ، ويعيب عدالتك في توزيع الصدقات ، ويدعي أنك تحابي في قسمتها . وهم لا يقولون ذلك غضباً للعدل ، ولا حماسة للحق ، ولا غيرة على الدين ، إنما يقولونه لحساب ذواتهم وأطماعهم ، وحماسة لمنفعتهم وأنانيتهم :

﴿ فإن أعطوا منها رضوا ﴾ ولم يبالوا الحق والعدل والدين !

﴿ وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ !

وقد وردت روايات متعددة عن سبب نزول الآية ، تقص حوادث معينة عن أشخاص بأعيانهم لمزوا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في عدالة التوزيع .

روى البخاري والنسائي عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال : بينما النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصر التميمي ، فقال : أعدل يا رسول الله . فقال : " ويلك ! ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ " فقال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – ائذن لي فأضرب عنقه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " دعه فإن له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم في الرمية . . . " قال أبو سعيد ، فنزلت فيهم : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ .

(276/342)

وروى ابن مردويه عن ابن مسعود – رضي الله عنه – قال : " لما قسم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ غنائم حنين سمعت رجلاً يقول : إن هذه قسمة ما أريد بها وجه الله . فأتيت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكرت له ذلك فقال : " رحمة الله على موسى لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر " ونزل ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ .

وروى سنيد وابن جرير عن داود بن أبي عاصم قال : أتي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت ، ورآه رجل من الأنصار فقال : ما هذا بالعدل . فنزلت هذه الآية .

وقال قتادة في قوله : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ يقول : ومنهم من يطعن عليك في الصدقات . وذكر لنا أن رجلاً من أهل البادية حديث عهد بأعرابية أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقسم ذهباً وفضة ، فقال : يا محمد والله لئن كان الله أمرك أن تعدل ما عدلت ، فقال نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ويلك فمن ذا الذي يعدل عليك بعدي ؟ " وعلى أية حال فالنص القرآني يقرر أن القولة قولة فريق من المنافقين . يقولونها لا غيرة على الدين ، ولكن غضباً على حظ أنفسهم ، وغيظاً أن لم يكن لهم نصيب . . وهي آية نفاقهم الصريحة . فما يشك في خلق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ مؤمن بهذا الدين ، وهو المعروف حتى قبل الرسالة بأنه الصادق الأمين ، والعدل فرع من أمانات الله التي ناطها بالمؤمنين فضلاً على نبي المؤمنين . وواضح أن هذه النصوص تحكي وقائع وظواهر وقعت من قبل ، ولكنها تتحدث عنها في ثنايا الغزوة لتصوير أحوال المنافقين الدائمة المتصلة قبل الغزوة وفي ثناياها .

وبهذه المناسبة يرسم السياق الطريق اللائق بالمؤمنين الصادقي الإيمان :

﴿ ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله ، سيؤتينا الله من فضله ورسوله .

إنا إلى الله راغبون ﴾ . .

فهذا هو أدب النفس وأدب اللسان ، وأدب الإيمان : الرضا بقسمة الله ورسوله ، رضا التسليم والاقتناع لا رضا القهر والغلب . والاكتفاء بالله ، والله كاف عبده . والرجاء في فضل الله ورسوله والرغبة في الله خالصة من كل كسب مادي ، ومن كل طمع دنيوي . .

ذلك أدب الإيمان الصحيح الذي ينضح به قلب المؤمن . وإن كانت لا تعرفه قلوب المنافقين ، الذين لم تخالط بشاشة الإيمان أرواحهم ، ولم يشرق في قلوبهم نور اليقين .

وبعد بيان هذا الأدب اللائق في حق الله وحق رسوله ، تطوعاً ورضا وإسلاماً ، يقرر أن الأمر – مع ذلك – ليس أمر الرسول ؛ إنما هو أمر الله وفريضته وقسمته ، وما الرسول فيها إلا منفذ للفريضة المقسومة من رب العالمين . فهذه الصدقات – أي الزكاة – تؤخذ من الأغنياء فريضة من الله ، وترد على الفقراء فريضة من الله . وهي محصورة في طوائف من الناس يعينهم القرآن ، وليست متروكة لاختيار أحد ، حتى لا اختيار الرسول :

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل . فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ . .

وبذلك تأخذ الزكاة مكانها في شريعة الله ، ومكانها في النظام الإسلامي ، لا تطوعاً ولا تفضلاً ممن فرضت عليهم . فهي فريضة محتمة . ولا منحة ولا جزافاً من القاسم الموزع . فهي فريضة معلومة . إنها إحدى فرائض الإسلام تجمعها الدولة المسلمة بنظام معين لتؤدي

بها خدمة اجتماعية محددة . وهي ليست إحساناً من المعطي وليست شحاذة من الآخذ . . كلا فما قام النظام الاجتماعي في الإسلام على التسول ، ولن يقوم !

(278/342)

إن قوام الحياة في النظام الإسلامي هو العمل – بكل صنوفه وألوانه – وعلى الدولة المسلمة أن توفر العمل لكل قادر عليه ، وأن تمكنه منه بالإعداد له ، وبتوفير وسائله ، وبضمان الجزاء الأوفى عليه ، وليس للقادرين على العمل من حق في الزكاة ، فالزكاة ضريبة تكافل اجتماعي بين القادرين والعاجزين ، تنظمها الدولة وتتولاها في الجمع والتوزيع ؛ متى قام المجتمع على أساس الإسلام الصحيح ، منفذاً شريعة الله ، لا يبتغي له شرعاً ولا منهجاً سواه .

عن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم : " لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مرة سوي " .

وعن عبد الله بن عدي بن الخيار أن رجلين أخبراه أنهما أتيا النبي - صلى الله عليه وسلم - يسألانه من الصدقة ، فقلب فيهما البصر ، فرآهما جلدين ، فقال : " إن شئتما أعطيتكما . ولا حظ فيها لغني ولا لقوي مكتسب " .

إن الزكاة فرع من فروع نظام التكافل الاجتماعي في الإسلام . وهذا النظام أشمل وأوسع كثيراً من الزكاة ؛ لأنه يتمثل في عدة خطوط تشمل فروع الحياة كلها ، ونواحي الارتباطات البشرية بأكملها ، والزكاة خط أساسي من هذه الخطوط .

والزكاة تجمع بنسبة العشر ونصف العشر وربع العشر من أصل المال حسب أنواع الأموال . وهي تجمع من كل من يملك حوالي عشرين جنيهاً فائضة عن حاجته يحول عليها الحول . وبذلك يشترك في حصيلتها معظم أفراد الأمة . ثم تنفق في المصارف التي بينتها الآية هنا ، وأول المستحق لها هم الفقراء والمساكين . والفقراء هم الذين يجدون دون الكفاية ، والمساكين مثلهم ولكنهم هم الذين يتجملون فلا يبدون حاجتهم ولا يسألون .

(279/342)

وإن كثيراً ممن يؤدون الزكاة في عام ، قد يكونون في العام التالي مستحقين للزكاة . بنقص ما في أيديهم عن الوفاء بحاجاتهم . فهي من هذه الناحية تأمين اجتماعي . وبعضهم يكون لم يؤد شيئاً في حصيلة الزكاة ولكنه يستحقها . فهي من هذه الناحية ضمان اجتماعي . . وهي قبل هذا وذاك فريضة من الله ، تزكو النفس بأدائها وهي إنما تعبد بها الله ، وتخلص من الشح وتستعلي عليه في هذا الأداء .

﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين ﴾ . . وقد سبق بيانهما .

﴿ والعاملين عليها ﴾ . . أي الذين يقومون على تحصيلها .

﴿ والمؤلفة قلوبهم ﴾ . . وهم طوائف ، منهم الذين دخلوا حديثاً في الإسلام ويراد تثبيتهم عليه . ومنهم الذين يرجى أن تتألف قلوبهم فيسلموا . ومنهم الذين أسلموا وثبتوا ويرجى تأليف قلوب أمثالهم في قومهم ليثوبوا إلى الإسلام حين يرون إخوانهم يرزقون ويزادون . . وهناك خلاف فقهي حول سقوط سهم هؤلاء المؤلفة قلوبهم بعد غلبة الإسلام . . ولكن المنهج الحركي لهذا الدين سيظل يواجه في مراحله المتعددة كثيراً من الحالات ، تحتاج إلى إعطاء جماعة من الناس على هذا الوجه ؛ إما إعانة لهم على الثبات على الإسلام إن كانوا يحاربون في أرزاقهم لإسلامهم ، وإما تقريباً لهم من الإسلام كبعض الشخصيات غير المسلمة التي يرجى أن تنفع الإسلام بالدعوة له والذب عنه هنا وهناك . ندرك هذه الحقيقة ، فنرى مظهراً لكمال حكمة الله في تدبيره لأمر المسلمين على اختلاف الظروف والأحوال .

﴿ وفي الرقاب ﴾ . . ذلك حين كان الرق نظاماً عالمياً ، تجري المعاملة فيه على المثل في استرقاق الأسرى بين المسلمين وأعدائهم . ولم يكن للإسلام بد من المعاملة بالمثل حتى يتعارف العالم على نظام آخر غير الاسترقاق . . وهذا السهم كان يستخدم في إعانة من

يكاتب سيده على الحرية في نظير مبلغ يؤديه له ، ليحصل على حريته بمساعدة قسطه من الزكاة . أو بشراء رقيق وإعتاقهم بمعرفة الدولة من هذا المال .

(280/342)

﴿ والغارمين ﴾ . . وهم المدينون في غير معصية . يعطون من الزكاة ليوفوا ديونهم . بدلاً من إعلان إفلاسهم كما تصنع الحضارة المادية بالمدينين من التجارة مهما تكن الأسباب ! فالإسلام نظام تكافلي ، لا يسقط فيه الشريف ، ولا يضيع فيه الأمين ، ولا يأكل الناس بعضهم بعضاً في صورة قوانين نظامية ، كما يقع في شرائع الأرض أو شرائع الغاب !

﴿ وفي سبيل الله ﴾ .

. وذلك باب واسع يشمل كل مصلحة للجماعة ، تحقق كلمة الله .

﴿ وابن السبيل ﴾ . . وهو المسافر المنقطع عن ماله ، ولو كان غنياً في بلده .

هذه هي الزكاة التي يتقول عليها المتقولون في هذا الزمان ، ويلمزونها بأنها نظام تسول وإحسان . . هذه هي فريضة اجتماعية ، تؤدى في صورة عبادة إسلامية . ذلك ليطهر الله بها القلوب من الشح ؛ وليجعلها وشيجة تراحم وتضامن بين أفراد الأمة المسلمة . تندّي جو الحياة الإنسانية ، وتمسح على جراح البشرية ؛ وتحقق في الوقت ذاته التأمين

الاجتماعي والضمان الاجتماعي في أوسع الحدود . وتبقى لها صفة العبادة التي تربط بين القلب البشري وخالقه ، كما تربط بينه وبين الناس :

﴿ فريضة من الله ﴾ الذي يعلم ما يصلح لهذه البشرية ، ويدبر أمرها بالحكمة :

﴿ والله عليم حكيم ﴾ .

وبعد بيان قواعد الصدقات ، التي يرجع إليها التوزيع والتقسيم . ذلك البيان الذي يكشف عن جهل الذين يلمزون الرسول - صلى الله عليه وسلم - فوق سوء أدبهم حين يلمزون الرسول الأمين . بعد هذا يمضي السياق يعرض صنوف المنافقين ، وما يقولون وما يفعلون :

(281/342)

﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ويقولون : هو أذن . قل : أذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، ورحمة للذين آمنوا منكم ، والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم . يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين . ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها . ذلك الخزي العظيم . يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل : استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب . قال : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد

كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ . .

إنه سوء الأدب في حق الرسول ، يبدو في صورة أخرى غير صورة اللمز في الصدقات . إنهم يجدون من النبي - صلى الله عليه وسلم - أدباً رفيعاً في الاستماع إلى الناس بإقبال وسماحة ؛ ويعاملهم بظاهرهم حسب أصول شريعته ؛ ويهش لهم ويفسح لهم من صدره . فيسمون هذا الأدب العظيم بغير اسمه ، ويصفونه بغير حقيقته ، ويقولون عن النبي - صلى الله عليه وسلم - ﴿ هو أذن ﴾ أي سماع لكل قول ، يجوز عليه الكذب والخداع والبراعة ، ولا يفطن إلى غش القول وزوره . من حلف له صدقه ، ومن دس عليه قولاً قبله . يقولون هذا بعضهم لبعض تطميناً لأنفسهم أن يكشف النبي - صلى الله عليه وسلم - حقيقة أمرهم ، أو يفطن إلى نفاقهم . أو يقولونه طعناً على النبي في تصديقه للمؤمنين الخلص الذين ينقلون له ما يطلعون عليه من شؤون المنافقين وأعمالهم وأقوالهم عن الرسول وعن المسلمين . وقد وردت الروايات بهذا وذلك في سبب نزول الآية .

وكلاهما يدخل في عمومها . وكلاهما يقع من المنافقين .

ويأخذ القرآن الكريم كلامهم ليجعل منه رداً عليهم :

﴿ ويقولون : هو أذن ﴾ . .

نعم . . ولكن .

﴿ قل : أذن خير لكم ﴾ . .

أذن خير يستمع إلى الوحي ثم يبلغه لكم وفيه خيركم وصلاحكم . وأذن خير يستمع إليكم في أدب ولا يجبهكم بنفاقكم ، ولا يرميكم بخداعكم ، ولا يأخذكم بريائكم .

﴿ يؤمن بالله ﴾ .

فيصدق كل ما يخبره به عنكم وعن سواكم .

﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾ . .

فيطمئن إليهم ويثق بهم ، لأنه يعلم منهم صدق الإيمان الذي يعصمهم من الكذب والالتواء والرياء .

﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم ﴾ . .

يأخذ بيدهم إلى الخير .

﴿ والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ . .

من الله غيرة على الرسول أن يؤذى وهو رسول الله .

﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ .

يحلفون بالله لكم ليرضوكم ، على طريقة المنافقين في كل زمان ، الذين يقولون ما يقولون

ويفعلون ما يفعلون من وراء الظهور ؛ ثم يجبنون عن المواجهة ، ويضعفون عن المصارحة ، فيتضاءلون ويتخاذلون للناس ليرضوهم .

﴿ والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين ﴾ . .

فماذا يكون الناس ؟ وماذا تبلغ قوتهم ؟ ولكن الذي لا يؤمن بالله عادة ولا يعنو له ، يعنو لإنسان مثله ويخشاه ؛ ولقد كان خيراً أن يعنو لله الذي يتساوى أمامه الجميع ، ولا يذل من يخضع له ، إنما يذل من يخضع لعباده ، ولا يصغر من يخشاه ، إنما يصغر من يعرضون عنه فيخشون من دونه من عباد الله .

﴿ ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالداً فيها ، ذلك الخزي العظيم ﴾ . . سؤال للتأنيب والتوبيخ ، فإنهم ليدعون الإيمان ، ومن يؤمن يعلم أن حرب الله ورسوله كبرى الكبائر ، وأن جهنم في انتظار من يرتكبها من العباد ، وأن الخزي هو الجزاء المقابل للتمرد . فإذا كانوا قد آمنوا كما يدعون ، فكيف لا يعلمون ؟

(283/342)

إنهم يخشون عباد الله فيحلفون لهم ليرضوهم ، ولينفوا ما بلغهم عنهم . فكيف لا يخشون خالق العباد ، وهم يؤذون رسوله ، ويحاربون دينه . فكأنما يحاربون الله ، تعالى الله أن

يقصده أحد بحرب ! إنما هو تفظيع ما يرتكبون من إثم ، وتجسيم ما يقارفون من خطيئة ، وتخويف من يؤذون رسول الله ، ويكيدون لدينه في الخفاء .

وإنهم لأجبن من أن يواجهوا الرسول والذين معه ، وإنهم ليخشون أن يكشف الله سترهم ، وأن يطلع الرسول - صلى الله عليه وسلم - على نواياهم :

﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم . قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون . ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ؛ إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين ﴾ . .

إن النص عام في حذر المنافقين أن ينزل الله قرآناً يكشف خبيئتهم ، ويتحدث عما في قلوبهم .

فينكشف للناس ما يخبئونه . وقد وردت عدة روايات عن حوادث معينة في سبب نزول هذه الآيات .

قال أبو معشر المديني عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال رجل من المنافقين : ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا وأكذبنا ألسنة ، وأجبننا عند اللقاء (يقصدون قراء القرآن) فرفع ذلك إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد ارتحل وركب ناقته ؛ فقال : يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فقال :

﴿ أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾ إلى قوله : ﴿ كانوا مجرمين ﴾ وإن رجليه لتسفعان الحجارة ، وما يلتفت إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو متعلق بسيف رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم .

(284/342)

وقال محمد بن إسحاق : وقد كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف ، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له مخشي بن حمير يسيرون مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منطلق إلى تبوك ؛ فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال . . إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال مخشي ابن حمير : والله لوددت أن أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا ننجوا أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . " وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني لعمار بن ياسر أدرك القوم فإنهم قد احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا " فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتذرون إليه . فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يا

رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب . فقال مخشي بن حمير : يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي . فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة ولم يوجد له أثر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة قال : " بينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوته إلى تبوك ، وبين يديه أناس من المنافقين فقالوا : أيرجو هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات . فأطلع الله نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ على ذلك . فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ " احبسوا على هؤلاء الركب " فأتاهم فقال : قلتم كذا . قلتم كذا . قالوا : يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون .

(285/342)

إنما كنا نخوض ونلعب . . كأن هذه المسائل الكبرى التي يتصدون لها ، وهي ذات صلة وثيقة بأصل العقيدة . . كأن هذه المسائل مما يخاض فيه ويلعب . ﴿ قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾ .

لذلك ، لعظم الجريمة ، يجبههم بأنهم قالوا كلمة الكفر . وكفروا بعد إيمانهم الذي أظهروه ،

وينذرهم بالعذاب ، الذي إن تخلف عن بعضهم لمسارعته إلى التوبة وإلى الإيمان الصحيح ، فإنه لن يصرف عن بعضهم الذي ظل على نفاقه واستهزائه بآيات الله ورسوله ، وبعقيدته ودينه :

﴿ بأنهم كانوا مجرمين ﴾ . .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد في استعراض تلك النماذج من أقوال المنافقين وأعمالهم وتصوراتهم ، يعمد إلى تقرير حقيقة المنافقين بصفة عامة ، وعرض الصفات الرئيسية التي تميزهم عن المؤمنين الصادقين ، وتحديد العذاب الذي ينتظرهم أجمعين :

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ، يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ، ويقبضون أيديهم . نسوا الله فنسيهم . إن المنافقين هم الفاسقون . وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ؛ هي حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم ﴾ .

(286/342)

المنافقون والمنافقات من طينة واحدة ، وطبيعة واحدة . المنافقون في كل زمان وفي كل مكان . تختلف أفعالهم وأقوالهم ، ولكنها ترجع إلى طبع واحد ، وتنبع من معين واحد .

سوء الطوية ولؤم السريرة ، والغمز والدس ، والضعف عن المواجهة ، والجبن عن المصارحة . تلك سماتهم الأصلية . أما سلوكهم فهو الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ، والبخل بالمال إلا أن يبذلوه رئاء الناس . وهم حين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف يستخفون بهما ، ويفعلون ذلك دساً وهمساً ، وغمزاً ولمزاً ، لأنهم لا يجرؤون على الجهر إلا حين يأمنون . إنهم ﴿ نسوا الله ﴾ فلا يحسبون إلا حساب الناس وحساب المصلحة ، ولا يخشون إلا الأقوياء من الناس يذلون لهم ويدارونهم ﴿ فنسيهم ﴾ الله فلا وزن لهم ولا اعتبار . وإنهم لكذلك في الدنيا بين الناس ، وإنهم لكذلك في الآخرة عند الله . وما يحسب الناس حساباً إلا للرجال الأقوياء الصرحاء ، الذين يجهرون بآرائهم ، ويوقفون خلف عقائدهم ، ويواجهون الدنيا بأفكارهم ، ويحاربون أو يسالمون في وضح النهار . أولئك ينسون الناس ليذكروا إله الناس ، فلا يخشون في الحق لومة لائم ، وأولئك يذكرهم الله فيذكرهم الناس ويحسبون حسباهم .

﴿ إن المنافقين هم الفاسقون ﴾ . .

فهم خارجون عن الإيمان ، منحرفون عن الطريق ، وقد وعدهم الله مصيراً كمصير الكفار :

﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هي حسبهم ﴾ . .

وفيها كفايتهم وهي كفاء إجرامهم .

﴿ ولعنهم الله ﴾ . .

فهم مطرودون من رحمته . .

﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ . .

(287/342)

هذه الطبيعة الفاسقة المنحرفة الضالة ، ليست جديدة ، ففي تاريخ البشرية لها نظائر وأمثال . ولقد حوى تاريخ البشرية من قبل هؤلاء نماذج كثيرة من هذا الطراز . ولقد لاقى السابقون مصائر تليق بفسوقهم عن الفطرة المستقيمة والطريق القويمة ، بعدما استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم في هذه الأرض ، وكانوا أشد قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فلم يغن عنهم من ذلك كله شيء .

والقرآن يذكر القوم بما كان من أسلافهم ، ويبصرهم بأنهم يسلكون طريقهم ، ويحذرهم أن يلاقوا مصيرهم . لعلهم يهتدون :

﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً ، فاستمتعوا بخلاقهم . فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ، وخضتم كالذي خاضوا . أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ .

إنها الفتنة بالقوة ، والفتنة بالأموال والأولاد . فأما الذين اتصلت قلوبهم بالقوة الكبرى فهم لا يفتنون بالقوة العارضة التي تخول لهم في الأرض ، لأنهم يخشون من هو أقوى ، فينفقون قوتهم في طاعته وإعلاء كلمته . وهم لا يفتنون بالأموال والأولاد ، لأنهم يذكرون من أنعم عليهم بالأموال والأولاد ، فيحرصون على شكر نعمته ، وتوجيه أموالهم وأولادهم إلى طاعته . .

وأما الذين انحرفت قلوبهم عن مصدر القوة والنعمة فهم يبطرون ويفجرون في الأرض ، ويتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام :

﴿ أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ﴾ . .

وبطلت بطلاناً أساسياً ، لأنها كالنبتة بلا جذور ، لا تستقر ولا تنمو ولا تزدهر .

﴿ وأولئك هم الخاسرون ﴾ . .

الذين خسروا كل شيء على وجه الإجمال بلا تحديد ولا تفصيل .

ويلتفت السياق من خطابهم إلى خطاب عام ، كأنما يعجب من هؤلاء الذين يسيرون في طريق الهالكين ولا يعتبرون :

﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات ؟ أتتهم رسلهم بالبينات ، فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . .

هؤلاء الذين يستمتعون غير شاعرين ، ويسيرون في طريق الهلكى ولا يتعظون . . هؤلاء ﴿ ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم ﴾ ممن ساروا في نفس الطريق ؟ ﴿ قوم نوح ﴾ وقد غمرهم الطوفان وطواهم اليم في تيار الفناء المرهوب ﴿ وعاد ﴾ وقد أهلكوا بريح صرصر عاتية ﴿ وثمود ﴾ وقد أخذتهم الصيحة ﴿ وقوم إبراهيم ﴾ وقد أهلك طاغيتهم المتجبر وأنجى إبراهيم ﴿ وأصحاب مدين ﴾ وقد أصابتهم الرجفة وخنقتهم الظلة ﴿ والمؤتفكات ﴾ قرى قوم لوط وقد قطع الله دابرهم إلا الأقلين . . ألم يأتهم نبأ هؤلاء الذين ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ فكذبوا بها ، فأخذهم الله بذنوبهم :

﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ ؟

إن النفس المنحرفة تبطرها القوة فلا تذكر ، وتعميها النعمة فلا تنظر . وما تنفع عظات الماضي ولا عبره إلا من تتفتح بصائرهم لإدراك سنة الله التي لا تتخلف ، ولا تتوقف ، ولا تحابي أحداً من الناس . وإن كثيراً ممن يبتليهم الله بالقوة وبالنعمة لتغشى أبصارهم وبصائرهم غشاوة ، فلا يبصرون مصارع الأقوياء قبلهم ، ولا يستشعرون مصير البغاة الطغاة من الغابرين . عندئذ تحق عليهم كلمة الله ، وعندئذ تجري فيهم سنة الله ، وعندئذ يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر . وهم في نعمائهم يتقلبون ، وبقوتهم يتخايلون . والله من ورائهم محيط .

إنها الغفلة والعمى والجهالة نراها تصاحب القوة والنعمة والرخاء ، نراها في كل زمان وفي كل مكان . إلا من رحم الله من عباده المخلصين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1675.1661 ﴾

(289/342)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/343)

الجزء الثالث والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 71 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 78 ﴾ من نفس السورة

(4/343)

قوله تعالى ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما بين سبحانه أن المنافقين بعضهم من بعض وما توعدهم به وما استتبعه من تهديدهم بإهلاك من شابهوه ، وختم بما سبب هلاكهم من إصرارهم وعدم اعتبارهم ، عطف ببيان حال المؤمنين ترغيباً في التوبة طمعاً في مثل حالهم فقال : ﴿ والمؤمنون ﴾ ﴿ والمؤمنات ﴾ أي بما جاءهم عن ربهم ﴿ بعضهم أولياء ﴾ ولم يقل : من ، كما قال في المنافقين : من ﴿ بعض ﴾ دلالة على أن أحداً منهم لم يقلد أحداً في أصل الإيمان ولا وافقه بحكم الهوى ، بل كلهم مصوبون بالذات وبالقصد الأول إلى اتباع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالدليل القطعي على حسب فهم كل أحد منهم ، فذلك دليل على صحة إيمانهم ورسوخهم في تسليمهم وإذعانهم ؛ ثم بين ولايتهم بأنهم يد واحدة على من سواهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر فقال : ﴿ يأمرون ﴾ أي كلهم على وجه التعاضد والتناصر ﴿ بالمعروف ﴾ وهو كل ما عرفه الشرع وأجازه ﴿ وينهون ﴾ أي كذلك ﴿ عن المنكر ﴾ لا يحابون أحداً .

(5/343)

ولما ذكر الدليل القطعي على صحة الإيمان ، أتبعه أفضل العبادات فقال : ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ أي يوجدونها على صفة تقتضي قيامها بجميع أركانها وشروطها وحدودها

مراقبة لربهم واستعانة بذلك على جميع ما ينوبهم ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي مواساة منهم لفقرائهم صلة للخلائق بعد خدمة الخالق ، وذلك مواز لقوله في المنافقين ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ ولما خص أمهات الدين ، عم بياناً لأنهم لا ينسون الله طرفة عين بل يذكرونه في كل حال بقوله : ﴿ ويطيعون الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي لا ملك سواه ﴿ ورسوله ﴾ إشارة إلى حسن سيرتهم وجميل عشرتهم .

ولما ذكر مكارم أفعالهم ، أتبعه حسن مآلهم فقال : ﴿ أولئك ﴾ أي العظماء الشأن ﴿ سيرحمهم الله ﴾ أي المستجمع لصفات الكمال بوعد لا خلف فيه ، وهذا مع الجملة قبله مواز لقوله في المنافقين ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ وهو إشارة إلى أن الطريق وعر والأمر شديد عسر ، فالسائر مضطر إلى الرحمة ، وهي المعاملة بعد الغفران بالإكرام ، لا قدرة له على قطع مفاوز الطريق إلا بها ، ولا وصول له أصلاً من غير سببها .

ولما بين أن حال المؤمنين مبني على الموالاة وكانت الموالاة فقيرة إلى الإعانة قال : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ عزيز ﴾ أي غالب غير مغلوب بوجه ، فهو قادر على نصر من يوالي حزبه وأن ينيله من ثمرات الرحمة ما يريد من غير أن يقدر أحد على أن يحول بينه وبين شيء من ذلك ﴿ حكيم ﴾ أي فلا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل يبرمه ، وفي ذلك إشارة إلى أن المؤمنين لا يزالون منصورين على كل مفسد ما داموا على هذه

الخلال من الموالاة وما معها من حميد الخصال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 359.358 ﴾

(6/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بالغ في وصف المنافقين بالأعمال الفاسدة والأفعال الخبيثة ، ثم ذكر عقيبه أنواع الوعيد في حقهم في الدنيا والآخرة ، ذكر بعده في هذه الآية كون المؤمنين موصوفين بصفات الخير وأعمال البر ، على ضد صفات المنافقين ، ثم ذكر بعده في هذه الآية أنواع ما أعد الله لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم ، فأما صفات المؤمنين فهي قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ .

فإن قيل : ما الفائدة في أنه تعالى قال في صفة المنافقين و ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ وههنا قال في صفحة المؤمنين : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ فلم ذكر في المنافقين لفظ ﴿ مِنْ ﴾ وفي المؤمنين لفظ ﴿ أَوْلِيَاء ﴾ .

قلنا : قوله في صفة المنافقين ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ يدل على أن نفاق الأتباع ، كالأمر المتفرع على نفاق الأسلاف ، والأمر في نفسه كذلك ، لأن نفاق الأتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر ، وبسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة ، أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة ، بل بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية ، فلهذا السبب قال تعالى في المنافقين : ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ وقال في المؤمنين : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ .

واعلم أن الولاية ضد العداوة ، وقد ذكرنا فيما تقدم أن الأصل في لفظ الولاية القرب ، ويتأكد ذلك بأن ضد الولاية هو العداوة ، ولفظة العداوة مأخوذة من عدا الشيء إذا جاوز عنه .

(7/343)

واعلم أنه تعالى لما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ، ذكر بعده ما يجري مجرى التفسير والشرح له فقال : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر وَيُقِيمُونَ الصلاة وَيؤتون الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ ورسولهُ ﴾ فذكر هذه الأمور الخمسة التي بها يتميز المؤمن من المنافق ، فالمنافق على ما وصفه الله تعالى في الآية المتقدمة يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ،

والمؤمن بالضد منه .

والمنافق لا يقوم إلى الصلاة إلا مع نوع من الكسل والمؤمن بالضد منه .

والمنافق يبخل بالزكاة وسائر الواجبات كما قال : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ والمؤمنون يؤتون الزكاة ، والمنافق إذا أمره الله ورسوله بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف بنفسه ويثبط غيره كما وصفه الله بذلك ، والمؤمنون بالضد منهم .

وهو المراد في هذه الآية بقوله : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ ثم لما ذكر صفات المؤمنين بين أنه كما وعد المنافقين نار جهنم فقد وعد المؤمنين الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة ، فلذلك قال : ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾ وذكر حرف السين في قوله : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾ للتوكيد والمبالغة كما تؤكد الوعيد في قولك سأنتقم منك يوماً ، يعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك ، ونظيره ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96] ﴿ لَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5] ﴿ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ [النساء : 152] .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ وذلك يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو من لا يمنع من مراده في عباده من رحمة أو عقوبة ، والحكيم هو المدبر أمر عباده على ما يقتضيه العدل والصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 104 .

105 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾

يعني : بعضهم على دين بعض ، وبعضهم معين لبعض في الطاعة .

﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ ، يعني : بالإيمان واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ ؛ يعني : عن الشرك ، ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ ؛ يعني : يقرون بها ويقيمونها ، ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ ؛ أي ويقرون بها ويؤدونها .

قوله : ﴿ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ ، يعني : يطيعون الله في فرائضه ، ويطيعون الرسول في السنن وفيما بَيَّنَ .

﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ ، يعني : ينجيهم الله من العذاب الأليم .

﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ في أمره حكم للمؤمنين بالجنة وللكافرين بالنار .

قال الفقيه : ذكر عن أبي سعيد الفاريابي أنه قال : سيرحمهم الله في خمسة مواضع : عند الموت وسكراته ، وفي القبر وظلماته ، وعند الكتاب وحسراته ، وعند الميزان ونداماته ، وعند الوقوف بين يدي الله تعالى وسؤالاته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

قوله ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾

في الدين والملة والعون والنصرة والمحبة والرحمة . قال جرير بن عبد الله سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : " المهاجرون والأنصار بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة ، والطلقاء من قريش والعتقاء من ثقيف ، بعضهم أولياء بعض في الدنيا والآخرة " ، ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ بالإيمان والخير ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ مالا يعرف في شريعة ولا سنّة .

قال أبو العالية كلّما ذكر الله تعالى في كتابة من الأمر بالمعروف فهو رجوع من الشرك إلى الإسلام ، والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الاوثان والشيطان ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ المفروضة ﴿ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ أولئك ﴾ إلى قوله ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ ومنازل طيبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(10/343)

وقال ابن عطية :

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأشياء التي ينبغي أن تصرف عن النفاق وتنهي عنه عقب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي ترغب في الإيمان وتنشط إليه تلطفاً منه تعالى بعباده لا رب غيره ، وذكرت هنا " الولاية " إذ لا ولاية بين المنافقين لا شفاعة لهم ولا يدعو بعضهم لبعض وكان المراد هنا الولاية في الله خاصة ، وقوله ﴿ بالمعروف ﴾ يريد بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك ، وقوله ﴿ عن المنكر ﴾ يريد عن عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك ، وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاء من الشرك إلى الإسلام وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين ، وقال ابن عباس في قوله ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ هي الصلوات الخمس .

قال القاضي أبو محمد : وبحسب هذا تكون ﴿ الزكاة ﴾ المفروضة ، والمدح عندي بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أحرى بإقامة الفرض ، وقوله ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ جامع للمندوبات ، والسين في قوله ﴿ سيرحمهم ﴾ مدخلة في الوعد مهلة لتكون النفوس تنعم برجائه ، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

فيه أربع مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي قلوبهم متّحدة في التوادّ والتحابّ والتعاطف .

وقال في المنافقين "بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ" لأن قلوبهم مختلفة ولكن يضم بعضهم إلى بعض في الحكم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ أي بعبادة الله تعالى وتوحيده ، وكل ما أتبع ذلك .

﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ عن عبادة الأوثان وكل ما أتبع ذلك .

وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال : كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأوثان والشياطين .

وقد مضى القول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في سورة المائدة وآل عمران ، والحمد لله .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ تقدّم في أول "البقرة" القول فيه .

وقال ابن عباس : هي الصلوات الخمس ، وبحسب هذا تكون الزكاة هنا المفروضة .

ابن عطيّة : والمدح عندي بالنوافل أبلغ ؛ إذ من يقيم النوافل أحْرَى بإقامة الفرائض .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ اللهَ ﴾ في الفرائض ﴿ وَرَسُولَهُ ﴾ فيما سنّ لهم .

والسين في قوله : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾ مُدْخِلةٌ في الوعد مُهْلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه ؛ وفضلهُ تعالى زعيمٌ بالإنجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(12/343)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

لما وصف الله المنافقين بالأعمال الخبيثة والأحوال الفاسدة ثم ذكر بعده ما أعد لهم من أنواع الوعيد في الدنيا والآخرة عقبة بذكر أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة فقال تعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ يعني الموالاة في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة .

فإن قلت : إنه سبحانه وتعالى قال في وصف المنافقين : بعضهم من بعض وقال في وصف المؤمنين : بعضهم أولياء بعض فما الفائدة في ذلك .

قلت : لما كان نفاق الأتباع وكفرهم إنما حصل بتقليد المتبوعين وهم الرؤساء والأكابر وحصل بمقتضى الطبيعة أيضاً قال فيهم بعضهم من بعض ولما كانت الموافقة الحاصلة بين المؤمنين بتسديد الله وتوفيقه وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأن بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الفائدة .

(13/343)

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ يأمرون بالمعروف ﴾ يعني بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف في الشرع من خير وبر وطاعة ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ يعني عن الشرك والمعصية والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع وهذا في مقابلة ما وصف به المنافقون وضده ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ يعني الصلاة المفروضة ويتممون أركانها وحدودها ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ يعني الواجبة عليهم وهو في مقابلة ويقبضون أيديهم ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ يعني فيما يأمرهم به وهو في مقابلة نسوا الله فنسيهم ﴿ أولئك ﴾ يعني المؤمنين والمؤمنات الموصوفين بهذه الصفات ﴿ سيرحمهم الله ﴾ لما ذكر الله ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين والمؤمنات من الرحمة والرضوان وما أعد لهم في الجنان والسين في قوله سيرحمهم الله للمبالغة والتوكيد ﴿ إن الله

عزيز حكيم ﴾ وهذا يوجب المبالغة في الترغيب والترهيب لأن العزيز هو الذي لا يمتنع عليه شيء أراد فهو قادر على إيصال العقوبة لمن أراد والحكيم هو الذي يدبر عباده على ما يقتضيه العدل والإنصاف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(14/343)

وقال أبو حيان :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

لما ذكر المنافقين والمنافقات وما هم عليه من الأوصاف القبيحة والأعمال الفاسدة ، ذكر المؤمنين والمؤمنات وقال في أولئك بعضهم من بعض ، وفي هؤلاء بعضهم أولياء بعض .

قال ابن عطية : إذ .

لا ولاية بين المنافقين ولا شفاعة لهم ، ولا يدعو بعضهم لبعض ، فكان المراد هنا الولاية في الله خاصة .

وقال أبو عبد الله الرازي : بعضهم من بعض يدل على أنّ نفاق الاتباع وكفرهم حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر ، وسبب مقتضى الطبيعة والعادة .

أما الموافقة الحاصلة بين المؤمنين فإنما حصلت لا بسبب الميل والعادة ، بل بسبب المشاركة

في الاستدلال والتوفيق والهداية ، والولاية ضد العداوة .

ولما وصف المؤمنين بكون بعضهم أولياء بعض ذكر بعده ما يجري كالتفسير والشرح له ، وهي الخمسة التي يميز بها المؤمن على المنافق .

فالمنافق يأمر بالمنكر ، وينهى عن المعروف ولا يقوم إلى الصلاة إلا وهو كسلان ، ويبخل بالزكاة ، ويتخلف بنفسه عن الجهاد ، وإذا أمره الله تثبط وثبط غيره .

والمؤمن بضد ذلك كله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، والجهاد .

وهو المراد في هذه الآية بقوله : ويطيعون الله ورسوله انتهى ، وفيه بعض تلخيص .

وقال أبو تلخيص .

وقال أبو العالية : كل ما ذكره الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاء من الشرك إلى الإسلام ، وما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة الأصنام والشياطين .

وقال ابن عباس : ويقيمون الصلاة هي الصلوات الخمس .

قال ابن عطية : وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة والمدح عندي بالنوافل أبلغ ، إذ من يقيم النوافل أجدى بإقامة الفروض ، ويطيعون الله ورسوله جامع للمندوبات انتهى ، سيرحمهم الله .

قال ابن عطية : السين مدخلة في الوعد مهلة ، لتكون النفوس تتنعم برجائه وفضله تعالى .

(15/343)

وقال الزمخشري : السين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة ، فهي تؤكد الوعد كما تؤكد الوعيد في قولك : سأنتقم منك يوماً يعني : إنك لا تفوتني وإن تبطأ ذلك .

ونحوه : ﴿ سيجعل لهم الرحمن وداً ﴾ ﴿ ولسوف يعطيك ربك ﴾ ﴿ سوف نؤتيهم أجورهم ﴾ انتهى .

وفيه دفينة خفية من الاعتزال بقوله : السين مفيدة وجوب الرحمة لا محالة ، يشير إلى أنه يجب على الله تعالى إثابة الطائع ، كما تجب عقوبة العاصي .

وليس مدلول السين توكيد ما دخلت عليه ، إنما تدل على تخليص المضارع للاستقبال فقط .

ولما كانت الرحمة هنا عبارة عما يترتب على تلك الأعمال الصالحة من الثواب والعقاب في الآخرة ، أتى بالسين التي تدل على استقبال الفعل أنّ الله عزيز غالب على كل شيء ، قادر عليه ، حكيم واضع كلاًّ موضعه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(16/343)

وقال ابن كثير :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

لما ذكر [الله] تعالى صفات المنافقين الذميمة ، عطف بذكر صفات المؤمنين المحمودة ، فقال : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ أي : يتناصرون ويتعاضدون ، كما جاء في الصحيح : "المؤمن للمؤمن كالبنان يشد بعضه بعضا" وشبك بين أصابعه (1) وفي الصحيح أيضا : "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم ، كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" (2)

---

(1) صحيح البخاري برقم (481) وصحيح مسلم برقم (2585) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

(2) صحيح البخاري برقم (6011) وصحيح مسلم برقم (2586) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه .

(17/343)

وقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ كما قال تعالى : ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل

عمران : 104]

وقوله تعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ﴾ أي : يطيعون الله ويحسنون إلى خلقه ، ﴿ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي : فيما أمر ، وترك ما عنه زجر ، ﴿ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ أي : سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ أي : عزيز ، من أطاعه أعزه ، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء ، وتخصيصه المنافقين بصفاتهم المتقدمة ، فإن له الحكمة في جميع ما يفعله ، تبارك وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 174. 175 ﴾

(18/343)

وقال أبو السعود :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾

بيانٌ لحسن حالِ المؤمنين والمؤمنات حالاً ومآلاً إثرَ بيانِ قبحِ حالِ أضدادِهم عاجلاً وآجلاً ، والتعبيرُ عن نسبة هؤلاء بعضِهم إلى بعض بالولاية وعن نسبة أولئك بمن الاتصالية للإيذان بأن نسبةَ هؤلاء بطريق القرابة الدينيةِ المبنية على المعاقدة المستتبعةِ للآثار من المعونة والنصرة وغيرِ ذلك ونسبةُ أولئك بمقتضى الطبيعةِ والعادة ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ

عَنِ المنكر ﴾ أي جنسِ المعروف والمنكرِ المنتظمَين لكل خير وشر ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ فلا يزالون يذكرون الله سبحانه فهو في مقابلة ما سبق من قوله تعالى : نسُوا الله ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكاة ﴾ بمقابلة قوله تعالى : ﴿ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ ﴿ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ أي في كل أمر ونهي ، وهو بمقابله وصفِ المنافقين بكمال الفسقِ والخروج عن الطاعة ﴿ أولئك ﴾ إشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافِهم بما سلف من الصفات الفاضلة وما فيه من معنى البعدِ للإشعار ببُعد درجتِهم في الفضل أي أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ أي يُفيض عليهم آثارَ رحمتِه من التأييد والنصرة البتة لما أن السين مؤكدةٌ للوقوع كما في قولك : سأنتقم منك ﴿ إِنَّ الله عَزِيزٌ ﴾ تعليلٌ للوعد أي قويٌّ قادرٌ على إعزاز أوليائه وقهر أعدائه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يبني أحكامَه على أساس الحِكمةِ الداعيةِ إلى إيصال الحقوقِ من النعمة والنقمة إلى مستحقيها من أهل الطاعة وأهلِ المعصية وهذا وعدٌ للمؤمنين متضمّنٌ لوعيد المنافقين كما أن ما سبق في شأن المنافقين من قوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ وعيدٌ لهم متضمنٌ لوعد المؤمنين فإن منعَ لطفِه تعالى عنهم لطفٌ في حق المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(19/343)

وقال الآلوسى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالمُؤْمِنَاتُ ﴾

بيان لحسن حال المؤمنين والمؤمنات حالا ومآلا بعد بيان حال أضدادهم عاجلاً وآجلاً ، وقوله سبحانه : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ يقابل قوله تعالى فيما مر : ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 67] ، وتغيير الأسلوب للإشارة إلى تناصرهم وتعاضدهم بخلاف أولئك ؛ وقوله عز وجل : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ ظاهر المقابلة ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر ﴾ الخ والكلام في المنكر والمعروف معروف ، وقوله جل وعلا : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ في مقابلة ﴿ نَسُواْ الله ﴾ [التوبة : 67] وقوله تعالى جده : ﴿ وَيُؤْتُونَ الزكواة ﴾ في مقابلة ﴿ يقبضون أَيدِيهِمْ ﴾ [التوبة : 67] وقوله تعبارك وتعالى : ﴿ وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ أي في سائر الأمور في مقابلة وصف المناقين بكمال الفسق والخروج عن الطاعة وقيل : هو في مقابلة ﴿ نَسُواْ الله ﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاة ﴾ زيادة مدح ، وقوله تعالى شأنه : ﴿ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ في مقابلة ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] المفسر بمنع لطفه ورحمته سبحانه ، وقيل : في مقابلة ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ هُمُ الفاسقون ﴾ [التوبة : 67] لأنه بمعنى المتقين المرحومين ، والإشارة إلى المؤمنين والمؤمنات باعتبار اتصافهم بما سلف من الصفات الجليلة ، والاتيان بما يدل على البعد لما مر غير مرة .

والسين على ما قال الزمخشري وتبعه غير واحد لتأكيد الوعد وهي كما تفيد ذلك تفيد تأكيد الوعيد ، ونظر فيه صاحب التقريب ووجه ذلك بأن السين في الإثبات في مقابلة لن في النفي فتكون بهذا الاعتبار تأكيداً لما دخلت عليه ولا فرق في ذلك بين أن يكون وعداً أو وعيداً أو غيرهما .

(20/343)

وقال العلامة ابن حجر : ما زعمه الزمخشري من أن السين تفيد القطع بمدخولها مردود بأن القطع إنما فهم من المقام لا من الوضع وهو توطئة لمذهبه الفاسد في تحتم الجزاء ومن غفل عن هذه الدسيسة وجهه ، وتعقبه الفهامة ابن قاسم بأن هذا لا وجه له لأنه أمر نقلي لا يدفعه ما ذكر ونسبة الغفلة للأئمة إنما أوجبه حب الاعتراض ، وحينئذ فالمعنى أولئك المنعوتون بما فصل من النعوت الجليلة يرحمهم الله تعالى لا محالة ﴿ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ ﴾ قوي قادر على كل شيء لا يمتنع عليه ما يريده ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يضع الأشياء مواضعها ومن ذلك النعمة والنقمة ؛ والجملة تعليل للوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 10 صـ ﴾

(21/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

هذه تقابل قوله : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] لبيان أنّ الطائفة التي ينالها العفو هي الملتحقة بالمؤمنين .

فالجملة معطوفة على جملة : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] وما بينهما جمل تسلسل بعضها عن بعض .

وقوله : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ مقابل قوله : في المنافقين ﴿ بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] .

وعبّر في جانب المؤمنين والمؤمنات بأنّهم أولياء بعضٍ للإشارة إلى أنّ اللحمة الجامعة بينهم هي وَلاية الإسلام ، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلّداً للآخر ولا تابعاً له على غير بصيرة لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر بخلاف المنافقين فكأنّ بَعضَهم ناشىء من بعض في مذامّهم .

وزيد في وصف المؤمنين هنا ﴿ يقيمون الصلاة ﴾ تنويهاً بأنّ الصلاة هي أعظم المعروف .

وقوله : ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ مقابل قوله في المنافقين ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ [التوبة : 67] .

وقوله ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ مقابل قوله في المنافقين ﴿ نسوا الله ﴾ [التوبة : 67] لأنّ الطاعة تقتضي مراقبة المطاع فهي ضدّ النسيان .

وقوله : ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ مقابل قوله في المنافقين ﴿ فنسيهم ﴾ [التوبة : 67] .

والسين لتأكيد حصول الرحمة في المستقبل ، فحرف الاستقبال يفيد مع المضارع ما تفيد (قد) مع الماضي كقوله : ﴿ ولسوف يعطيك ربك فترضى ﴾ [الضحى : 5] .

والإشارةُ للدلالة على أنّ ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرياءَ به من أجلِ الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة .

وجملة : ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ تعليل لجملة ﴿ سيرحمهم الله ﴾ أي : أنّه تعالى لعزّته ينفع أولياءه وأنّه لحكمته يضع الجزاء لمستحقّه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(22/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

جاءت هذه الآية بعد آية سابقة وُصِفَ فيها المنافقون في قوله تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ . . . ﴾ [التوبة : 67]

فناسب أن يقابلهم بالمؤمنين والمؤمنات ، وتلك مناسبة الضد بالضد ؛ لأن قياس الضد إلى ضده يُظهر الأمرين معاً . والمثال قول الشاعر حين يمدح محبوبته فيقول :

فالوَجْهُ مثْلُ الصبح مُبيضٌ . . . والشَّعْر مثل الليل مُسْودُّ

ضِدَّان لما استجمعا حَسُنَا . . . والضِّدُّ يُظهِر حُسْن الضِّدُّ

وبعد أن ذكر الحق فضائح المنافقين ومعايبهم ، وحنثهم فيما يحلفون ، وخلفهم فيها يعاهدون ، أراد أن يجعل تقابلاً بينهم وبين المؤمنين والمؤمنات . لكن التقابل هنا اختلف في شيء ؛ لأنه سبحانه قال في المنافقين :

﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ ، وحين تكلم عن المؤمنين قال : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ فالمنافقون والمنافقات وصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُمْ مِّن بَعْضٍ ﴾ أي أنهم كلهم متشابهون وسلوكهم مبني على التقليد والاتباع ، فهم يقلدون بعضهم بعضاً . وبما أنهم قد أقاموا عقيدتهم على الشر ، فكلهم شر ، ولا يوجد بينهم من ينصحهم بالخير أو يحاول رَدَّهم عن النفاق ، بل هم يمضون في تيار الشر إلى آخر مدى .

أما المؤمن فعقيدته مبنية على الاقتناع وعلى الخير . فإن وُجد في مؤمن شر ؛ فَوليُّه من المؤمنين يبعده عن الشر ويعيده إلى طريق الخير ؛ ذلك لأن النفس البشرية لها أغيار متعددة ، ولا يسلك كل مؤمن السلوك الملتزم تمام الالتزام بمنهج الله في كل شيء . بل هناك خصلة ضعف في كل نفس بشرية . فإن وُجِدَ في المؤمن ضعف فأولياؤه من المؤمنين يُبيّنون له نقطة ضعفه ويُبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويبصِّرونه وينصحون له ، ويُرد في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويبصِّره ، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه ، والمؤمن أيضاً يُنبِّه غيره ويبصِّره ، وهكذا نجد أنه في المجتمع المؤمن ، كل واحد يرد الآخر في نقطة ضعفه ، وكل منهم ينصح الآخر ويعظه ، ليكتمل إيمان الجميع ، ومَنْ يقصر في شيء يجد القريب منه ؛ وهو يسد الثغرة الطارئة في سلوكه . أما المنافقون فيصفهم الحق ﴿ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ﴾ أي : أنهم جميعاً من بعض ، فلا يتناهَوْنَ عن منكر فعلوه ، ولا يوجد بينهم ناصح .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ لم يبين لنا من المولى ومن الموَالي ، فكل مؤمن وهو ولي وهو موال ؛ لأن الولاية مأخوذة من " يليه " ، أي صار قريباً ، وضدها عاداهُ أي بَعُدَ عنه وتركه . إذن : فالموالاة ضدها العداوة . وفائدة القرب أن يكون الولي نصير أخيه المؤمن في الأمر الذي هو ضعيف فيه .

فإذا كنت ضعيفاً في أمر ما ، فأخي المؤمن ينصرني فيه . وما دام أخي المؤمن ينصرني في أمر ما ، فإن صار هو ضعيفاً في شيء أنصره أنا فيه ، فنتفاعل ونتكامل ويصبح كل منا ولياً ومُوَالَى .

(24/343)

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والعصر * إِنَّ الإنسان لَفِى خُسْرٍ * إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 1-3]

ولو قيل : " وصَّوْا " لكان هناك أناس يوصون وأناس يتواصون ، لكن الحق قال : ﴿ وَتَوَاصَوْاْ ﴾ ومعناها أن كل مؤمن عليه أن يوصي أخاه المؤمن . فإن كان عندي نقطة ضعف فأنت توصيني وتقول : اعدل عن هذا ولا تفعله فأنت مؤمن . وإن كانت فيك نقطة ضعف أقول لك : لا تفعل هذا فأنت مؤمن .

إذن : فكل واحد منا مُوص ومُوصىً . كذلك الولاية فأنت وليي ، أي قريب مني تنصرني في ضعفي ، وأنا وليُّك ، أي قريب منك ، أنصرك في ضعفك لأننا أبناء أغيار ؟ وكل واحد منا فيه نقطة ضعف تختلف عن نقطة ضعف الآخر .

والوَلاية تكون أيضاً في الحق ، فقد أميل إلى الباطل في نقطة فيقول لي أخي المؤمن : اعدل .

وقد يميل هو إلى الباطل فأقول له : اعدل . وهكذا يتكامل الإيمان ، ولذلك تجد كلمة الوَلاية بمعنى القرب والنصرة في قول الحق في ذاته : ﴿ هُنَالِكَ الولايةِ للَّهِ الحق . . . ﴾ [الكهف : 44]

أي : أن النصر الحقيقي والقرب الحقيقي لله ؛ لأننا نعيش في عالم أغيار ، فقد تطلب النصر عندي فتكون قوتي قد ذهبت ، أو يكون مالي قد فنى ، أو يكون نفوذي قد انتهى ، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو وحده القوي دائماً ، والغني دائماً ، الذي يُغيّر ولا يتغير ، وعندما ينصرك الله فهذا هو النصر الحقيقي الدائم الذي لا نصر الأغيار .

وتجد الحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَآءَ الله لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس : 62]

أي : أن الحق سبحانه وتعالى جعل أولياء لله .

وكذلك يقول تبارك وتعالى : ﴿ الله وَلِيُّ الذين آمَنُواْ . . . ﴾ [البقرة : 257]

(25/343)

إذن : فالحق سبحانه وتعالى مرة يكون موالياً . ومرة يكون مُوَالىً ، فإن واليت الله بطاعتك يواليك سبحانه بنصره . ويقول تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [

محمد : 7]

أي : إذا تقربت إلى الطاعة بطاعته ونصرة منهجه ، فهو يقرب منك في أزماتك وينصرك ويُثبِّت أقدامك .

إذن : فالولاية في الأصل هي القرب والتناصر ، وما دام هناك تناصر فلا بد أن تكون هناك نقطة ضعف في مؤمن ، ونقطة قوة في مؤمن آخر ، ولكن مَن الذي سيكون في ضعف دائماً ، أو في قوة دائماً ؟ لا أحد . إذن : فكل واحد يَنصر ، وكل واحد يُنصر .

وما دام الحق سبحانه وتعالى قد قال : ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ولم يعين البعض ؛ فكل واحد صالح لأن يكون ناصراً ومنصوراً .

ولكي يتضح المعنى اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِي الحياوة الدنيا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً . . . ﴾ [الزخرف : 32]

وشاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل منكم السادة والعبيد ، ويجعل منكم الأغنياء والفقراء ، وذلك في أمور الدنيا ، فإن كنتم تريدون أن تُقسموا أمور الدين ، فاقسموا أولاً معايشكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الذي قسمها بينكم ، وحياتكم في الدنيا تتبع قوانين الأسباب ، ومن السهل عليكم أن تقسموها بدلاً من أن تأتوا لتقسموا رحمة الله التي هي حق لله سبحانه وتعالى وحده .

ونلاحظ في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ أن البعض مرفوع والبعض الآخر مرفوع عليه ، وما دامت كلمة ﴿ بَعْضٍ ﴾ مبهمة ، فإن كلاً منا مرفوع عليه . ولا يوجد واحد من البشر مرفوع على الجميع ، بحيث يكون وحده مجموعة متكاملة من المواهب . ولكن كلاّ منا متميز في ناحية أخرى ، حتى يكون التلاحم في الكون تلاحم ضرورة حياة وليس تفضلاً ؛ ولذلك فإن الإنسان المؤمن إذا كان فاعلاً مرفوعاً عليه في شيء فلا بد أن يسأل نفسه : في أي الأشياء أنا مرفوع فيه ؟ وفي أي الأشياء الناس أحسن مني ؟

ونقول له : أنت تتقن عملاً معيناً ولذلك أنت مرفوع فيه ، ولكن في باقي الأشياء لا تعلم شيئاً ، فأنت مرفوع عليك . إذن : فأنا في الشيء الذي لا أجيده مرفوع عليّ ، وفي الشيء الذي أجيده مرفوع على الناس ؛ ولذلك تجد كل واحد في كون الله مرفوعاً مرة ومرفوعاً عليه مرة ، وهذا هو معنى : ﴿ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ .

ولكن الآفة أننا لا ننظر في الرفعة إلا في مجال واحد ؛ هذا غني وهذا فقير ، ولكننا لا ننظر إلى الصحة ، أو العلم ، أو الأولاد ، أو صلاح الزوجة أو البركة في الحياة ، وزوايا كثيرة ،

وبعضنا إذا أخذ درجة عالية في زاوية ، فإنه قد يأخذ صفراً في زاوية أخرى . ومجموع كل إنسان في نهاية الأمر يساوي مجموع أي إنسان آخر ، ولا تفاضل إلا بالتقوى . فإن رأيت واحداً متفوقاً عليك في شيء . فإياك أن تحسده ولكن اسأل نفسك في أي مجال أنت تتفوق عليه ، وستجد هناك مجالات وزوايا أخرى تكون فيها أفضل من غيرك .

إذن : فكل منا مرفوع ومرفوع عليه ، ولا بد أن نفهم أن كل صاحب موهبة يفيد المجتمع بموهبته ، وربما كان نفعه للمجتمع خيراً من نفعه لنفسه . انظر إلى النجار مثلاً يجده يتقن عمل الأبواب والنوافذ للناس ، أما لنفسه فلا يتقنها ، لماذا ؟ لأن الباب الذي يصنعه لنفسه هو الباب الوحيد الذي لا يتقاضى عليه أجراً .

(27/343)

ولقد ضربنا مثلاً باليد اليمنى واليد اليسرى ، فعند غالبية الناس تجد أن اليد اليمنى تؤدي الأعمال بسهولة ، واليسرى تزاولها ببطء وتعثر ، فإذا أردت أن تقص أظافر يديك مثلاً ، فأنت تمسك المقص بيمينك وتقص أظافر اليد اليسرى بسهولة ، ثم تمسك المقص بشمالك وتتعثر في قَصِّ أظافر اليد اليمنى .

وهكذا نرى أنه لا يوجد إنسان يستمتع بالمواهب المكتملة . بل هو يتقن شيئاً ولا يتقن

أشياء ، ولكن مجموع مواهب كل إنسان ، تساوي مجموع مواهب كل إنسان آخر .

والعدل الإلهي يتدخل هنا ، فنجد – على سبيل المثال – الرجل الغني الذي يأكل خبزاً من الدقيق الأبيض الفاخر ، يم يأتي عليه وقت من الأوقات لا يستطيع أن يأكل إلا الدقيق الأسود أو السّن . وتجد من يسرف في الطعام ؛ لا بد أن يأتي عليه وقت ويحرمه الأطباء من الطعام ؛ لأنه أخذ منه أكثر من حقه . وتكون صحته في أن يُحرم . والحق سبحانه وتعالى وضع نظاماً كونياً يتساند فيه الجميع ؛ لكي يلتحم الجميع . فأنت تحتاج لي فيما أتقنه وأنا أحتاج إليك فيما تتقنه ، وهكذا يتساند الناس ويتكون المجتمع السليم .

ولذلك يقال : الناس بخير ما تباينوا ؛ لأنهم لو لم يختلفوا وأصبحوا أصحاب موهبة واحدة أو عمل واحد لفسد الكون ، كأن نكون كلنا قضاة مثلاً ، فمن الذي يعالج المريض ؟ ومن الذي يحفر الأرض ؟ ومن الذي يحمل الطوب ؟ ومن الذي ينظف الطريق ؟ إننا لو تشابهنا في الموهبة أو الثراء أو العمل فلن نجد أحداً يقوم بهذه الأعمال ؛ لأننا لو كنا كلنا أطباء أو مهندسين أو صيادلة أو قضاة أو مشرعين لما استطعنا أن نعيش ، بل لا بد أن نختلف لأكون أنا محتاجاً لك وأنت محتاج لي . وبذلك يتماسك المجتمع ، وتُقضَى مصالح الكون بسبب الحاجة ، وليس بالتفضل بين الناس .

(28/343)

ويصف الحق سبحانه المؤمنين بأنهم : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ فإذا فعل مؤمن منكراً ؛ جاء أخوه المؤمن فنهاه عنه ، وإذا لم يفعل معروفاً جاء أخوه المؤمن وأمره بالمعروف وكل واحد منا ناهٍ عن منكر ، ومنهي عن منكر .

وأنت لا يمكن أن تأمر بمعروف وأنت تفعل عكسه ، أو أنت بعيد عنه ، فلا يمكن أن تكون في يدك كأس من الخمر ؛ ثم تطلب من إنسان آخر يمسك كأس خمر أن يحطم الكأس التي في يده ، لا يمكن إذن أن تنهي عن منكر وأنت تفعله ؛ والذي يأمر بمعروف لا بد أن يكون فاعله ، والذي ينهى عن المنكر لا بد أن يكون بعيداً عنه . فكل مؤمن آمر ومأمور بالمعروف . وناهٍ عن المنكر .

ويضيف الحق وصفاً للمؤمنين : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة ﴾ وإقامة الصلاة هي إعلان الولاء للخالق الأعلى ، ومن له ديمومة لا نهاية لها . والمؤمنون أولياء بعض ، ولكن مَنْ وليُّهم جميعاً ؟ إنه الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن يلتحموا بمنهج الولي الأعلى الذي لا نستغني عنه يوماً .

والله سبحانه وتعالى حين وصف المؤمنين أولياء بعض ، قال لنا : ﴿ إِن تَنصُرُواْ الله يَنصُرْكُمْ . . . ﴾ [محمد : 7]

إذن : فلا بد أن نتجه جميعاً إلى الوالي الكبير . فهو سبحانه فوق أسبابنا ، وفوق قوتنا وهو

الذي ينصرنا إنْ عزَّتْ ولاية الأفراد المؤمنين لبعضهم البعض ، فنلجأ للولي الكبير . وما دامت الولاية لله الحق ، فلا بد أن نستديم في ولائنا له سبحانه وتعالى .

واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة . وساعة تسمع المؤذن يقول : " الله أكبر " تسرع إلى الصلاة . لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى – وهو ربك وصانعك ووليك – قد دعاك إلى الصلاة ، فلا بد أن تجيب الدعوة .

(29/343)

فإذا أحببت أن تزيد على الصلوات الخمس وتكون في معية الله دائماً فافعل ، بعد أن تكون قد أدَّيتَ ما فرضه سبحانه عليك من خمس صلوات في اليوم الواحد ، وحين تُعْرَض الصنعة على صانعها خمس مرات كل يوم ففي هذا صلاح الإنسان . وأنت إنْ جئتَ بأي آلة وجعلتَ المهندس الذي صنعها يراها كل يوم خمس مرات فلن تعطب أبداً .

كذلك الإنسان وهو صنعة الله ، إذا عرض نفسه على الله خمس مرات كل يوم فإن العطب لا يدخل إلى نفسه . والصانع من البشر حين تعرض عليه الآلة فيصلحها بماديات ، سواء كان باكتشاف نقص في الوصلات الكهربية أو كسر في أي شيء ، فالمادة تصلح بالمادة ، ولكن الله سبحانه غيب ، ولذلك فهو يصلحنا بالغيب ، فلا تعرف ماذا فعل بك وأنت

واقف أمامه تصلي . لكنك تشعر بلا شك أن شيئاً فيك قد انصلح .

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر – أي كان هذا الأمر فوق طاقته – قام إلى الصلاة ؛ لأن أسبابه لم تستطع أن تفعل شيئاً فيتجه إلى المسبب ، ويقف بين يديه ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الذي يملك الحل . ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يقول لبلال : أرحنا بها يا بلال كأن الراحة بها ، أي اجعل ملكاتنا تعتدل بالصلاة .

لذلك كان لا بد أن يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاوة ﴾ لأن الصلاة استدامة الولاء لله ، والحق تبارك وتعالى يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه ، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضاً خمس مرات في اليوم ، وترك سبحانه الباب مفتوحاً لتطوعك ، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدي الله إلا فعلت .

ولكي تعرف الفرق بين سيادة الله وسيادة البشر ، فإنك إذا ضعفت أسبابك أمام شيء ، فإنك تطلب أن تقابل من هو أعلى منك مركزاً ، فهو يملك أسباباً لقضاء حاجتك ، فإذا طلبت مقابلته قد يقول نعم ، وقد يقول لا . . فإذا قال نعم ، يسألك عم ستتكلم فيه . . فإذا قلت : إنك ستتكلم في كذا ، حدد لك الساعة واليوم والمكان ومدة المقابلة .

(30/343)

ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يفعل هذا . أنت تذهب له في أي وقت تشاء ، وفي أي مكان تشاء ، وتتكلم فيما تريد ، وهو سبحانه لا ينهي المقابلة أبداً ، أنت الذي تنهي المقابلة مع ربك .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يمل الله حتى تملوا " .

والحق جل جلاله لا يشغله شيء عن شيء ؛ ولذلك فهو يقابل كل عباده في وقت واحد ، ويستمع إليهم في وقت واحد ، ويُجيبهم إلى ما يطلبون في وقت واحد .

ويقول سبحانه : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة ﴾ والصلاة تأتي مع الزكاة باستمرار ؛ لأن في الصلاة استدامة ولاء لله المعطي ، وفي الزكاة استبقاء حياة من يستحق أن تعطيه ، فأنت تعطيه لتستبقي له حياته فيواصل الولاء لله معك ؛ لأنه لا ولاء إلا بحياة ، وأنت تساعده على استبقاء هذه الحياة ؛ ولأن الزكاة إعطاء مال للفقير ، والمال يأتي بالعمل ، والعمل يحتاج إلى وقت ، إذن : فأنت ضحيت بجزء من وقتك لتتصدق به ، وفي الصلاة ضحيت بوقتك في أوقات محددة .

وفي الأوقات التي تعمل فيها هناك استدامة الولاء ، بأن تخصص جزءاً من أثر هذا الوقت للزكاة ، فلا يكون كل وقتك للعمل ، وإنما يكون وقتك فيه عمل وفيه عبادة ، فحين تخصص جزءاً من مالك الذي سيأتيك من العمل للزكاة تكون قد زكَّيت الوقت بالصلان ، وزكيت المال بالعطاء .

ويقول الحق : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة وَيُطِيعُونَ الله وَرَسُولَهُ ﴾ . وقد ذكر الحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة . وهذه كلها طاعة لله بإقامة أركان الإسلام ، فلماذا يقول سبحانه : ﴿ وَيُطِيعُونَ الله ﴾ ؟

(31/343)

نقول : الله سبحانه ينبهنا إلى أن أركان الإسلام الخمسة وهي : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليع سبيلاً ، هذه الأركان ليست هي كل الإسلام . بل هي القواعد التي بُني عليها الإسلام ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بني الإسلام على خمس " . إذن : فهذه هي الأعمدة أو الأسس التي بُني عليها الإسلام . ولكن الإسلام هو كل حركة في الحياة تصلح ولا تفسد ، وتسعد ولا تشقي ، ولذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن نفهم أن الإسلام ليس فقط بالأسس التي وضعت ، ولكن لا بد من طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فيما أمرنا به في كل حركة الحياة .

وحركات الحياة كلها متكاملة ، وإذا نظرت للشيء الذي تستفيد به تجده وليد حركات متعاقبة ممن سبقوك حتى آدم عليه السلام ، فإذا أخذنا أبسط الأشياء وهي وضع خميرة في

عجينة الخبز ؛ وكيف عرفنا هذا ؟ نجد أننا أخذناها جيلاً عن جيل . والذي بدأها ألهمه الله بحادث يقع أو بخطأ يتم إلى أن وصل إلى قيمة وضع الخميرة في العجين ليكسب الخبز طعماً ، ومعظم مبتكرات الحياة قد أتت بالصدفة أو نتيجة أخطاء . فالبنسلين – على سبيل المثال – اكتُشِف نتيجة خطأ . وقاعدة أرشميدس التي بنيت عليها نظريات الغواصات اكتشفت نتيجة ملاحظة ألهمها الله لأرشميدس . وحين يأتي ميلاد كشف جديد للبشرية ، فسبحانه يهدي خلقه إلى هذا الكشف ولو كان بخطأ يقع منهم .

ومثال آخر : ما الذي جعلك تفهم أن اللحم حين ينضج على النار أو يُشوى يكون طعمه أحلى ؟ ما الذي جعلك تطهو بعض أنواع الخضراوات ولا تطهو أنواعاً أخرى .

كل هذا هدانا إليه الله .

﴿ الذي خَلَقَ فسوى * والذي قَدَّرَ فهدى ﴾ [الأعلى : 2-3]

(32/343)

إذن : فكل ما ننتفع به في حركة الحياة ، قد أتانا من أجيال مضت ؛ ولذلك من يأتي ليقول : سأنقطع للعبادة صلاة وصوماً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قال في كتابه العزيز : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56]

نقول : سنوافقك على انقطاعك للصلاة والصوم فقط . ولكنك لكي تصلي ؛ أنت تحتاج إلى طعام يعطيك القوة والقدرة لتصلي وإلا فسيستحيل عليك أداء الصلاة . هَبْ أنك ستأكل رغيفاً من الخبز فقط ، من أين تأتي بهذا الرغيف ؟ من البقال . ومن أين أتى به البقال ؟ من المخبز . ومن أين جاء المخبز بالدقيق ؟ من المطحن . ومن أين جاء المطحن بالقمح ؟ من مخزن الغلال . ومن أين جاء المخزن بالقمح ؟ من المزارع . والمزارع أتى بمحاريث وآلات من المصانع لكي يحرث الأرض ، وجاء بآلات لكي يسقي .

إذن : فأنت لا تستطيع الانقطاع للعبادة إلا إذا استنفدْتَ بحركة غيرك ، وكل عمل ذكرت فيه الله هو عبادة ، وكل حركة في الحياة تعينك على أداء العبادة هي عبادة .

ومثال آخر : لكي تصلي لا بد أن تستر عورتك في الصلاة ، إذن : فأنت تحتاج إلى قماش تأتي به من التاجر ، والتاجر أتى به من مصنع النسيج ، ومصنع النسيج أتى به من مصنع الغزل ، ومصنع الغزل أتى بالقطن من المحلج ، والمحلج جاء به من الحقل ، والحقل جُنِّدَتْ له معامل الدنيا ليعطيك أوفر محصول ، ويقي القطن مكن الآفات . كل هذه من حركات الحياة التي مكَّنَتْكَ أن تستر عورتك في الصلاة ، وكل منها عبادة .

إذن : كان من الضروري أن يقول ﴿ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ . بعد ﴿ وَيُقِيمُونَ الصلاوة وَيُؤْتُونَ الزكاوة ﴾ . . . فبعد أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة عليهم أن يطيعوا الله في الإسلام الذي بني على هذه الأركان .

ثم يقول الحق : ﴿ أولئك سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ وأولئك إشارة إلى كل المؤمنين والمؤمنات الذين هم أولياء بعض ، والذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ، والذين يؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، هؤلاء سيرحمهم الله . وأيهما أبلغ : أن يقال أولئك يرحمهم الله ، أو يقال سيرحمهم الله ؟

الأبلغ أن يقال : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ لأن السين تهتك ستار الزمن ؛ وبذلك يحيا المؤمن دائماً في رحمة الله التي لا تنقطع .

ولذلك حكى الحق سبحانه وتعالى عن المؤمنين الذين يعملون الصالحات فقال : ﴿ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرحمن وُدّاً ﴾ [مريم : 96]

أي أن الود سيكون مستمرّاً ، حتى لمن استمع إلى هذه الآية ثم مات ، إنه أيضاً ينتفع بود الله . وأيضاً قال سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فترضى ﴾ [الضحى : 5]

ولم يقل : يعطيك ربك ، بل جاء ب ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ ﴾ لترى عطاء الحق مستمرّاً .

وأنت حين تهدد أحداً لا تقل له : أنا أنتقم منك ، بل تقول : سأنتقم منك ، أي : أن الانتقام

سيستمر مع الزمن .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ﴾ تعطي أن صفة الرحمة في حق الله سبحانه أعلى من صفة الرحمة في المخلوق ؛ لأن التراحم من الخلق على قدر الأسباب ، أما الرحمة من الحق سبحانه فتكون بصفات الكمال التي لا تتناهى ولا تنتهي . ومن الرحمة ألا يقع داء ، والشفاء أن يوجد داء فيشفى ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ . . . ﴾ [الإسراء : 82]

والاثنان يؤديان إلى سلامة المجتمع من الأمراض الاجتماعية التي تُشْقي الإنسان ، وهناك سلامة من أول الأمر . وهناك سلامة ليست من أول الأمر . ومن عنده خصلة سيئة – وهي داء – يشفيه منها القرآن ، أما الرحمة فهي ألا يأتي داء ابتداء ، ولذلك فالرحمة ممتدة .

(34/343)

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ ومعنى عزيز : أنه غالب على أمره ، وما يريده يقع ؛ ولا يُغلب . ولكن إياك أن تفهم أن ذلك عن جبروت ظالم ، لا ؛ لأنه سبحانه لا يظلم أحداً ، ولأنه عزيز بحكمة . وهناك عزيز بلا حكمة ، تغريه عزته أن يطغى

. لكن الله عزيز حكيم ، وعزته ليس فيها ظلم ولا طغيان ، ولكنها بحكمة إلهية . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(35/343)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [71] قال : موالاته مع المؤمنين كف الأذى عنهم .

قال : واعلموا أن العبد لا يبلغ حقيقة الإيمان حتى يكون لعباد الله كالأرض ، إذ هم عليها ومنافعهم منها .

وقال : الأصول عندنا سبع : التمسك بكتاب الله ، والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التسترى صـ 73 ﴾

(36/343)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

وقوله تعالى : ﴿ [بَعْضُهُمْ] أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ : وقال في المنافقين ﴿ مِّن بَعْضٍ ﴾ [التوبة : 67] إذ لا ولايةَ بين المنافقين . وقوله "يَأْمُرون" كما تقدم في نظيره . والسينُ في " سيرحمهم الله " للاستقبال ، إذ المراد رحمةٌ خاصةٌ وهي ما خبَّأه لهم في الآخرة . وادعى الزمخشري أنها تفيد وجوبَ الرحمةِ وتوكيدَ الوعيد والوعيد نحو : سأنتقم منك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 85.86 ﴾

(37/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ (71) ﴾

يُعين بعضُهم بعضاً على الطاعات ، ويتواصَوْن بينهم بترك المحظورات ؛ فَتَحَابُّهم في الله ، وقيامُهم بحقّ الله ، وصحبتُهم لله ، وعداوتُهم لأجْلِ الله ؛ تركوا حظوظَهم لحقّ الله ؛ وآثروا على هواهم رِضاءَ الله . أولئك الذين عَصَمَهم اللهُ في الحالِ ، وسيرحمهم في المآل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 45 ﴾

(38/343)

قوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم الآية بوصف العزة والحكمة المناسب لافتتاحها بالموالاة وتعقيبها بآية الجهاد ، وذلك بعد الوعد بالرحمة إجمالاً ، أتبعها بما هو أشد التئاماً بها بياناً للرحمة وتفصيلاً لها ترغيباً للمؤمنين بالإنعام عليهم بكل ما رامه المنافقون بنفاقهم في الحياة الدنيا ، وزادهم بأنه دائم ، وأخبر بأن ذلك هو الفوز لا غيره فقال : ﴿ وعد الله ﴾ أي الصادق الوعد الذي له

الكمال كله ﴿ المؤمنين والمؤمنات ﴾ أي الراسخين في التصديق بكل ما أتاهم به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ أي فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة ؛ ولما كان النعيم لا يكمل إلا بالدوام ، قال : ﴿ خالدين فيها ﴾ كانت الجنان لا تروق إلا بالمنازل والدور الفسيحة والمعازل قال : ﴿ ومساكن طيبة ﴾ ولما كان بعض الجنان أعلى من بعض ، وكان أعلاها ما شرف بوصف العندية المؤذن بالقرب من بنائه مما يؤكد معنى الدوام ، قال : ﴿ في جنات عدن ﴾ أي إقامة دائمة وهناء وصحة جسم وطيب مقر وموطن ومنبت ، وذلك كما قال في حق أضدادهم ﴿ عذاب مقيم ﴾ وما أنسب ذكر هذه الجنة في سياق التعبير بالوصف المؤذن بالرسوخ فإنه ورد في الحديث أنها خاصة بالنبيين والصديقين والشهداء .

ولما كان ذلك لا يصفو عن الكدر مع تجويز نوع من الغضب قال مبتدئاً إشارة إلى أنهى التعظيم – : ﴿ ورضوان ﴾ أي رضى لا يبلغه وصف واصف بما تشير إليه صيغة المبالغة ولو كان على أدنى الوجوه بما أفاده التنوين – ﴿ من الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه عندهم ﴿ أكبر ﴾ أي مطلقاً ، فهو أكبر من ذلك كله لأن رضاه سبب كل فوز ، ولا يقع السرور الذي هو أعظم النعيم إلا برضى السيد ، وإذا كان القليل منه أكبر فما ظنك بالكثير .

(39/343)

ولما تم ذلك على أحسن مقابلة بما وصف به أضدادهم ، قال يصفه زيادة في الترغيب فيه : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿ هو ﴾ أي خاصة لا غيره ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي الذي يستصغر دونه كل شيء من أمور الدنيا والآخرة ، وفي كون ذلك وعداً لمن اتصف لأجل ما اتصف به ترغيب في الجهاد المأمور به بعدها لكونه من أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والداعي الأعظم إلى الموالاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 360.359 ﴾

(40/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر الوعد في الآية الأولى على سبيل الإجمال ذكره في هذه الآية على سبيل التفصيل ، وذلك لأنه تعالى وعد بالرحمة ، ثم بين في هذه الآية أن تلك الرحمة هي هذه

الأشياء .

فأولها قوله : ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ والأقرب أن يقال إنه تعالى أراد بها البساتين التي يتناولها المناظر لأنه تعالى قال بعده : ﴿ ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه ، فتكون مساكنهم في جنات عدن ، ومناظرهم الجنات التي هي البساتين ، فتكون فائدة وصفها بأنها عدن ، أنها تجري مجرى الدار التي يسكنها الإنسان .

وأما الجنات الآخرة فهي جارية مجرى البساتين التي قد يذهب الإنسان إليها لأجل التنزه وملاقاة الأحباب .

وثانيها : قوله : ﴿ ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ قد كثر كلام أصحاب الآثار في صفة جنات عدن .

قال الحسن : سألت عمران بن الحصين وأبا هريرة عن قوله : ﴿ ومساكن طَيِّبَةً ﴾ فقالا : على الخبير سقطت ، سألنا الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : " هو قصر في الجنة من اللؤلؤ ، فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، على كل مائدة سبعون لوناً من

الطعام ، وفي كل بيت سبعون وصيفة ، يعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع " وعن ابن عباس أنها دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر .

(41/343)

وأقول لعل ابن عباس قال : إنها دار المقربين عند الله فإنه كان أعلم بالله من أن يثبت له داراً ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قلت يا رسول الله حدثني عن الجنة ما بناؤها فقال : " لبنة من ذهب ولبنة من فضة وملاطها المسك الأذفر وترابها الزعفران وحصاؤها الدر والياقوت .

فيها النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه " وقال ابن مسعود : جنات عدن بطنان الجنة ، قال الأزهري : بطنانها وسطها ، وبطنان الأودية المواضع التي يستنفع فيها ماء السيل واحدها بطن ، وقال عطاء عن ابن عباس : هي قصبة الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي المدينة التي فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، وسائر الجنات حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأذفر .

وقال عبد الله بن عمرو : إن في الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج وله خمسة آلاف

باب على كل باب خمسة آلاف حرة ، لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد ، وأقول حاصل الكلام إن في جنات عدن قولان : أحدهما : أنه اسم علم لموضع معين في الجنة ، وهذه الأخبار والآثار التي نقلناها تقوي هذا القول .

قال صاحب "الكشاف" : وعدن علم بدليل قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن ﴾ [مريم : 61] .

والقول الثاني : أنه صفة للجنة قال الأزهري : العدن مأخوذ من قولك عدن فلان بالمكان إذا أقام به ، يعدن عدونا .

والعرب تقول : تركت إبل بني فلان عودان بمكان كذا ، وهو أن تلزم الإبل المكان فتألفه ولا تبرحه ، ومنه المعدن وهو المكان الذي تخلق الجواهر فيه ومنبعها منه ، والقائلون بهذا الاشتقاق قالوا : الجنات كلها جنات عدن .

(42/343)

والنوع الثالث : من المواعيد التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية قوله : ﴿ ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ﴾ والمعنى أن رضوان الله أكبر من كل ما سلف ذكره ، واعلم أن هذا هو البرهان القاطع على أن السعادات الروحانية أشرف وأعلى من السعادات الجسمانية ، وذلك لأنه

إما أن يكون الابتهاج بكون مولاه راضياً عنه ، وأن يتوسل بذلك الرضا إلى شيء من اللذات الجسمانية أو ليس الأمر كذلك ، بل علمه بكونه راضياً عنه يوجب الابتهاج والسعادة لذاته من غير أن يتوسل به إلى مطلوب آخر ، والأول باطل ، لأن ما كان وسيلة إلى الشيء لا يكون أعلى حالاً من ذلك المقصود ، فلو كان المقصود من رضوان الله أن يتوسل به إلى اللذات التي أعدها الله في الجنة من الأكل والشرب لكان الابتهاج بالرضوان ابتهاجاً بحصول الوسيلة .

ولكان الابتهاج بتلك اللذات ابتهاجاً بالمقصود ، وقد ذكرنا أن الابتهاج بالوسيلة لا بد وأن يكون أقل حالاً من الابتهاج بالمقصود .

فوجب أن يكون رضوان الله أقل حالاً وأدون مرتبة من الفوز بالجنات والمساكن الطيبة ، لكن الأمر ليس كذلك ، لأنه تعالى نص على أن الفوز بالرضوان أعلى وأعظم وأجل وأكبر ، وذلك دليل قاطع على أن السعادات الروحانية أكمل وأشرف من السعادات الجسمانية .

واعلم أن المذهب الصحيح الحق وجوب الإقرار بهما معاً كما جمع الله بينهما في هذه الآية .

ولما ذكر تعالى هذه الأمور الثلاثة قال : ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن الإنسان مخلوق من جوهرين ، لطيف علوي روحاني ، وكثيف سفلي جسماني وانضم إليهما حصول سعادة وشقاوة ، فإذا حصلت الخيرات الجسمانية وانضم إليها حصول

السعادات الروحانية كانت الروح فائزة بالسعادات اللائقة بها ، والجسد واصلاً إلى السعادات اللائقة به ، ولا شك أن ذلك هو الفوز العظيم .

الثاني : أنه تعالى بين في وصفه المنافقين أنهم تشبهوا بالكفار الذين كانوا قبلهم في التنعم بالدنيا وطيباتها .

(43/343)

ثم إنه تعالى بين في هذه الآية وصف ثواب المؤمنين ، ثم قال : ﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ والمعنى : أن هذا هو الفوز العظيم ، لا ما يطلبه المنافقون والكفار من التنعم بطيبات الدنيا .

وروي أنه تعالى يقول لأهل الجنة : " هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول أما أعطيكم أفضل من ذلك ، قالوا وأي شيء أفضل من ذلك .

قال أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً " واعلم أن دلالة هذا الحديث على أن السعادات الروحانية أفضل من الجسمانية كدلالة الآية وقد تقدم تقريره على الوجه الكامل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 105 . 107 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات ﴾

أي المصدقين من الرجال والمصدقات من النساء .

﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ومساكن طَيِّبَةً ﴾ ، يعني : منازل طاهرة تطيب فيها النفس .

﴿ فِى جنات عَدْنٍ ﴾ في قصور من الدُّر والياقوت ؛ وقال الفقيه : حدثنا محمد بن الفضل ، وعبد الله بن محمد قالا : حدثنا فارس بن مردويه قال : حدثنا محمد بن الفضيل العابد قال : حدثنا يزيد بن هارون قال : حدثنا سفيان بن حصين ، عن يعلى بن مسلم ، عن مجاهد قال : قرأ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وهو على المنبر ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ ، فقال هل تدرون ما جنات عدن ؟ قال : قصر في الجنة من ذهب ، له خمسمائة ألف باب ، وعلى كل باب خمسة وعشرون ألفاً من الحور العين ؛ لا يدخلها إلا نبي وهنيئاً لصاحب القبر ، وأشار إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أو صديقٍ وهنيئاً لأبي بكر ؛ أو شهيد وأنَّى لعمر بالشهادة .

ثم قال : ﴿ ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ﴾ ، يقول رضاء الرب عنهم أعظم مما هم فيه من الثواب والنعيم في الجنة .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ ، يعني : النجاة الوافرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(45/343)

وقال الثعلبى :

قال الحسن : سألت أبا هريرة وعمران بن حصين عن قول الله ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ . قالا : على الخبير سقطت ، سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال : " قصر في الجنة من لؤلؤ فيه سبعون دار من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زبرجدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً ، على كل فراش زوجة من الحور العين ، وفي كل بيت مائدة وعلى كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، وفي كل بيت وصيفة ، ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع " .

﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ في بساتين ظلال وإقامة ، يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ، ومنه المعدن ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر

على قلب بشر ، لايسكنها غير ثلاثة من النبيّين والصدّيقين والشهداء ، يقول الله : طوبى لمن دخلك " .

وقال عبد الله بن مسعود : هي بطنان الجنة أي وسطها ، وقال ابن عباس : سألت كعباً عن جنات عدن فقال : هي الكروم والأعناب بالسريانية ، وقال عبد الله بن عمر : إنّ في الجنة قصراً يقال له عدن ، حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب ، على كل باب (حبرة) لايدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

قال الحسن : جنات عدن ، وما أدراك ما جنات عدن ، قصر من ذهب لايدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل ، ورفع به صوته .

[في حديث آخر قصر] في الجنة يقال له : عدن ، حوله البروج والمروج له خمسون ألف باب ، وقال الضحاك : هي مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنان حولها .

(46/343)

وقال عطاء بن السايب : عدن نهر في الجنة جناته على حافتيه ، وقال مقاتل والكلبي : أعلى درجة في الجنة وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من يوم

خلقها الله عز وجل حتى ينزلها أهلها الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن شاء الله ، وفيها قصور الدرّة والياقوت والذهب ، فتهب الريح الطيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأحلى ، وقال عطاء الخراساني في قوله : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ قال : قصر من الزبرجد والدرّ والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام في جنات عدن ، وهي قصبة الجنة وسقفها عرش الرحمن .

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ رفع على الابتداء ، أي رضا الله عنهم أكبر من ذلك كله .

روى مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك ربّنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم فيقولون : ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من رضاك ؟ فيقول : ألا أعلمكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(47/343)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ . . وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن المساكن الطيبة قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد الأخضر مبنية بهذه الجواهر .

الثاني : أنها المساكن التي يطيب العيش فيها ، وهو محتمل .

وأما جنات عدن فيها خمسة أوجه :

أحدها : أنها جنات خلود وإقامة ، ومنه سمي المعدن لإقامة جوهره فيه ، ومنه قول الأعشى :

فإن تستضيفوا إلى حِلمِه . . . تضافوا إلى راجح قد عدَن

يعني ثابت الحلم . وهذا مروي عن ابن عباس .

والثاني : أن جنات عدن هي جنات كروم وأعناب بالسريانية ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

والثالث : أن عدن اسم لبطنان الجنة اي وسطها ، قاله عبد الله بن مسعود . والرابع : أن عدن اسم قصر في الجنة ، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص والحسن .

والخامس : أن جنة عدن في السماء العليا لا يدخلها إلا نبيّ أو صديق أو شهيد أو إمام

عدل .

وجنة المأوى في السماء الدنيا تأوي إليها أرواح المؤمنين رواه معاذ بن جبل مرفوعاً . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(48/343)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ وعد الله المؤمنين ﴾ الآية

وعد في هذه الآية صريحة في الخير ، وقوله ﴿ من تحتها ﴾ إما من تحت أشجارها وإما من تحت علياتها وإما من تحتها بالإضافة إلى مبدأ كما تقول في دارين متجاورتين متساويتي المكان هذه تحت هذه ، وذكر الطبري في قوله ﴿ ومساكن طيبة ﴾ عن الحسن أنه قال سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة ، فقالا على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : قصر في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ أو يقرب منها فاختصرتها طلب الإيجاز ، وإما قوله ﴿ في جنات عدن ﴾ فمعناه في جنات إقامة وثبوت يقال عدن الشيء في المكان إذا أقام به وثبت ، ومنه المعدن

أي موضع ثبوت الشيء ، ومنه قول الأعشى :

وإن يستضيفوا إلى حلمه . . . يضافوا إلى راجح قد عدن

هذا الكلام اللغوي ، وقال كعب الأحبار ﴿ جنات عدن ﴾ هي بالفارسية جنات الكروم والأعناب .

قال القاضي أبو محمد : وأظن هذا وهماً اختلط بالفردوس ، وقال الضحاك ﴿ جنات عدن ﴾ هي مدينة الجنة وعظمها فيها الأنبياء والعلماء والشهداء وأئمة العدل والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، وقال ابن مسعود : " عدن " هي بطنان الجنة وسرتها ، وقال عطاء : " عدن " نهر في الجنة جناته على حافته ، وقال الحسن : " عدن " قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل ومد بها صوته .

(49/343)

قال القاضي أبو محمد : والآية تأبى هذا التخصيص إذ قد وعد الله بها جمع المؤمنين ، وأما قوله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ فروي فيه أن الله عز وجل يقول لعباده إذ استقروا في الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون وكيف لا نرضى يا ربنا ؟ فيقول إني سأعطيكم أفضل من هذا كله ، رضواني أرضى عليكم فلا أسخط عليكم أبداً ، الحديث ، وقوله ﴿ أكبر ﴾

يريد أكبر من جميع ما تقدم ، ومعنى الآية والحديث متفق ، وقال الحسن بن أبي الحسن وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألذ عندهم وأقر لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة .

قال القاضي أبو محمد : ويظهر أن يكون قوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ إشارة إلى منازل المقربين الشاربين من تسنيم والذين يرون كما يرى النجم الفائز في الأفق ، وجميع من في الجنة راض والمنازل مختلفة ، وفضل الله تعالى متسع و ﴿ الفوز ﴾ النجاة والخلاص ومن ﴿ أدخل الجنة فقد فاز ﴾ [آل عمران : 185] والمقربون هم في الفوز العظيم ، والعبارة عندي عن حالهم بسرور وكمال أجود من العبارة عنها بلذة ، واللذة أيضاً مستعملة في هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(50/343)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ في جنات عدن ﴾

قال أبو عبيدة : في جنات خُلْد ، يقال : عَدَن فلان بأرض كذا ، أي : أقام ؛ ومنه : المْعِدنُ ، وهو في مَعْدِن صدق ، أي : في أصل ثابت .

قال الأعشى :

وإن تَستضيفوا إلى حِلْمه . . .

تُضافوا إلى راجح قد عَدَن

أي : رزين لا يُستخف .

قال ابن عباس : جنات عدن ، هي بُطنان الجنة ، وبُطنانها : وسطها ، وهي أعلى درجة في الجنة ، وهي دار الرحمن عز وجل ، وسقفها عرشه ، خلقها بيده ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محدقة بها .

قوله تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ قال ابن عباس : أكبر مما يوصف .

وقال الزجاج : أكبر مما هم فيه من النعيم .

فإن قيل : لم كان الرضوان أكبر من النعيم ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن سرور القلب برضى الرب نعيم يختص بالقلب ، وذاك أكبر من نعيم الأكل والشرب .

وفي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يقول الله عز وجل لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ومالنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أفلا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أُحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم أبداً " .

والثاني : أن الموجِب للنعيم الرضوان ، والموجَب ثمرة الموجِب ، فهو الأصل . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(51/343)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ ﴾

أي بساتين ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ أي من تحت أشجارها وغرفها الأنهار .

وقد تقدّم في "البقرة" أنها تجري منضبطة بالقدرة في غير أُخدود .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ قصور من الزبرجد والدّرّ والياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام .

﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي في دار إقامة .

يقال : عَدَن بالمكان إذا أقام به ؛ ومنه المَعْدِن .

وقال عطاء الخُرَاسانِيّ : "جنات عدن" هي قصبة الجنة ، وسقفُها عرش الرحمن جل وعز .

وقال ابن مسعود : هي بُطْنان الجنة ، أي وسطها .

وقال الحسن : هي قصر من ذهب لا يدخلها إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حَكَمٌ عَدْل ؛ ونحوه عن الضحاك .

وقال مُقاتل والكَلْبِيّ : عدن أعلى درجة في الجنة ، وفيها عين التسنيم ، والجنان حولها محفوفة بها ، وهي مغطاة من يوم خلقها الله حتى ينزلها الأنبياء والصدّيقون والشهداء والصالحون ومن يشاء الله .

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ أي أكبر من ذلك .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(52/343)

وقال الخازن :

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾

لما ذكر الله في الآيات المتقدمة وعيد المنافقين وما أعد لهم في نار جهنم من العذاب ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية ما وعد به المؤمنين من الخير والثواب والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يتحير في حسنها الناظر لأنه سبحانه وتعالى قال ومساكن طيبة في جنات عدن والمعطوف يجب أن يكون مغايراً للمعطوف عليه فتكون مساكنهم في

جنات عدن ومناظرهم الجنات التي هي البساتين فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الآخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه والفرق بينهما ﴿ ومساكن طيبة ﴾ يعني ومنازل يسكنونها طيبة ﴿ في جنات عدن ﴾ يعني في بساتين خلد وإقامة يقال عدن بالمكان إذا أقام به .

(53/343)

روى الطبري بسنده عن عمران بن حصين وأبي هريرة قال : " سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن هذه الآية ومساكن طيبة في جنات عدن قال : قصر من لؤلؤة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين " وفي رواية : " كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من طعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك كله أجمع " وروي بسنده عن أبي الدرداء قال : " قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عدن داره يعني دار الله التي لم ترها عين ولا تخطر على قلب بشر وهي مسكنه ولا يسكنها مع بني آدم غير ثلاثة النبيين والصديقين والشهداء يقول الله طوبى لمن دخلك " هكذا رواه الطبري فإن

صحت هذه الرواية فلا بد من تأويلها فقوله عدن داره يعني دار الله وهو من باب حذف المضاف تقديره عدن دار أصفياء الله تعالى التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقربين من عباده .

عن أبي موسى الأشعري : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن "

أخرجه البخاري ومسلم .

وقال عبد الله بن مسعود : عدن بطنان الجنة يعني وسطها .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

(54/343)

وقال عطاء بن السائب : عدن نهر في الجنة خيامه على حافتيه ، وقال مقاتل والكلبي : عدن أعلى درجة في الجنة فيها عين التسنيم والجنان حولها محدقة بها وهي مغطاة من حيث خلقها الله حتى ينزلها أهلها وهم الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ومن

شاء الله وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الأبيض .

قال الإمام فخر الدين الرزي : حاصل هذا الكلام أن في جنات عدن قولين :

أحدهما : أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذ الأخبار والآثار تقوي هذا القول قال صاحب الكشاف وعدن علم بدليل قوله ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده ﴾ والقول الثاني إنه صفة للجنة .

قال الأزهري : العدن مأخوذ من قولك : عدن بالمكان إذا أقام به .

يعدن عدواناً فبهذا الاشتقاق قالوا : الجنات كلها جنات عدن .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ يعني أن رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كل ما سلف ذكره من نعيم الجنة ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره من نعيم الجنة والرضوان (ق) .

عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله في يديك فيقول هل رضيتم فيقولون وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون وأي شيء أفضل من ذلك فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط بعده عليكم أبداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾

لمّا أعقب المنافقين بذكر ما وعدهم به من نار جهنم ، أعقب المؤمنين بذكر ما وعدهم به من نعيم الجنان .

ولما كان قوله : ﴿ سيرحمهم الله ﴾ وعداً إجمالياً فصله هنا تنبيهاً على أنّ تلك الرحمة هي هذه الأشياء ، ومساكن طيبة .

قال ابن عباس : هي دور المقربين .

وقيل : دور في جنات عدن مختلفة في الصفات باختلاف حال الحالين بها .

وقيل : قصور زبرجد ودر وياقوت يفوح طيبها من مسيرة خمسمائة عام في أماكن إقامتهم .

وفي الحديث : " قصر في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوته حمراء ، وفي كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً " وذكر في آخر هذا الحديث أشياء ، وإن صحّ هذا النقل عن الرسول وجب المصير إليه .

في جنات عدن أي : إقامة .

وقال كعب الأحبار : هي بالفارسية الكروم والأعناب .

قال ابن عطية : وأظن هذا ما اختلط بالفردوس .

وقال ابن مسعود : عدن بطنان الجنة وشرقها ، وعنه : وسط الجنة .

وقال عطاء : نهر في الجنة ، جنانه على حافيته .

وقال الضحاك وأبو عبيدة : مدينة الجنة ، وعظمها فيها الأنبياء والعلماء والشهداء وأئمة العدل والناس حولهم بعد ، والجنات حولها .

وقال الحسن : قصر في الجن لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد أو حكم عدل ، ومدتها صوته .

وعنه : قصور من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد .

وروى أبو الدرداء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، ولا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصديقون ، والشهداء يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك " وإن صحّ هذا عن الرسول وجب المصير إليه .

وقال مقاتل : هي أعلى درجة في الجنة .

وقال عبد الله بن عمرو : قصر حوله البروج والمروج ، له خمسة آلاف باب ، على كل باب خيرة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وقي : قصته الجنة فيها نهر على حافتيه بساتين .

وقيل : التسنيم ، وفيه قصور الدر والياقوت والذهب ، والأرائك عليها الخيرات الحسان ، سقفها عرش الرحمن لا ينزلها إلا الأنبياء والصديقون والشهداء والصالحون ، يفوح ريحها من مسيرة خمسمائة عام .

وهذه أقوال عن السلف كثيرة الاختلاف والاضطراب ، وبعضها يدل على التخصيص وهو مخالف لظاهر الآية ، إذ وعد الله بها المؤمنين والمؤمنات .

وقال الزمخشري : وعدن علمٌ لقوله تعالى : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده ﴾ ويدل عليه ما روى أبو الدرداء ، وساق الحديث المتقدم الذكر عن أبي الدرداء ، وإنما استدل بالآية على أنّ عدناً علم ، لأن المضاف إليها وصف بالتي وهي معرفة ، فلو لم تكن جنات مضافة لمعرفة لم توصف بالمعرفة ولا يتعين ذلك ، إذ يجوز أن تكون التي خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوباً بإضمار أعني : أو أمدح ، أو بدلاً من جنات .

ويبعد أن تكون صفة لقوله : الجنة للفصل بالبدل الذي هو جنات ، والحكم أنه إذا اجتمع النعت والبدل قدم النعت ، وجيء بعده بالبدل .

وقرأ الأعمش ورضوان : بضمتين .

قال صاحب اللوامح : وهي لغة ، ورضوان مبتدأ .

وجاز الابتداء به لأنه موصوف بقوله : من الله ، وأتى به نكرة ليدل على مطلق أي : وشيء من رضوانه أكبر من كل ما ذكر .

والعبد إذا علم برضا مولاه عنه كان أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم ، وإنما يتهيأ له النعيم بعامه برضاه عنه .

كما أنه إذا علم بسخطه تنغصت حاله ، ولم يجد لها لذة .

ومعنى هذه الجملة موافق لما روي في الحديث : " أن الله تعالى يقول لعباده إذا استقروا في الجنة : هل رضيتم ؟ فيقولون : وكيف لا نرضى يا ربنا ؟ فيقول : إني سأعطيكم أفضل من هذا كله رضواني ، أرضى عنكم فلا أسخط عليكم أبداً " وقال الحسن : وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألذ عندهم وأقر لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة .

(57/343)

قال ابن عطية : ويظهر أن يكون قوله تعالى : ورضوان من الله أكبر ، إشارة إلى منازل المقربين الشاربين من تسنيم ، والذين يرون كما يرى النجم الغائر في الأفق ، وجميع من في الجنة راض ، والمنازل مختلفة ، وفضل الله تعالى متسع انتهى .

وقال الزمخشري : رضاه تعالى هو سبب كل فوز وسعادة انتهى .

والإشارة بذلك إلى جميع ما سبق ، أو إلى الرضوان قولان ، والأظهر الأول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(58/343)

وقال ابن كثير :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾

يخبر تعالى بما أعده للمؤمنين به والمؤمنات من الخيرات والنعيم المقيم في ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي : ماكثين فيها أبدا ، ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي : حسنة البناء ، طيبة القرار ، كما جاء في الصحيحين من حديث أبي عمران الجوني ، عن أبي بكر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن" (1)

وبه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن للمؤمن في الجنة لَخَيْمَة من لؤلؤة واحدة مُجَوَّفة ، طولها ستون ميلا في السماء ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم ، لا يرى بعضهم

بعضا" أخرجاه (2)

وفي الصحيحين أيضا ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من آمن بالله ورسوله ، وأقام الصلاة وصام رمضان ، فإن حقا على الله أن يدخله الجنة ، هاجر في سبيل الله ، أو جلس في أرضه التي ولد فيها" . قالوا : يا رسول الله ، أفلا نخبر الناس ؟ قال : "إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله ، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس ، فإنه أعلى الجنة وأوسط الجنة ، ومنه تَفَجَّر أنهار الجنة ، وفوقه عرش الرحمن" (3)

وعند الطبراني والترمذي وابن ماجه ، من رواية زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يَسَار ، عن معاذ بن جبل ، رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . . . فذكر مثله (4)

وللترمذي عن عبادة بن الصامت ، مثله (5)

---

(1) صحيح البخاري برقم (4878) وصحيح مسلم برقم (180) .

(2) صحيح البخاري برقم (4879) وصحيح مسلم برقم (2838) .

(3) صحيح البخاري برقم (7423) من طريق فليح عن هلال ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(4) المعجم الكبير (158/20) وسنن الترمذي برقم (2530) وعند ابن ماجه

القطعة الثانية منه برقم (4331) ، وقد أشار الحافظ إلى الاختلاف على عطاء بن يسار .

(5) سنن الترمذي برقم (2531) .

(59/343)

وعن أبي حازم ، عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أهل الجنة ليتراءون الغُرفة في الجنة ، كما تراؤون الكوكب في السماء" . أخرجاه في الصحيحين (1)

ثم ليعلم أن أعلى منزلة في الجنة مكانٌ يقال له : "الوسيلة" لقربه من العرش ، وهو مسكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجنة ، كما قال الإمام أحمد [بن حنبل]

حدثنا عبد الرازق ، أخبرنا سفيان ، عن ليث ، عن كعب ، عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إذا صليتم علي فسلوا الله لي الوسيلة" قيل : يا رسول الله ، وما الوسيلة ؟ قال : "أعلى درجة في الجنة ، لا ينالها إلا رجل واحد ، وأرجو أن أكون أنا هو" (2)

وفي صحيح مسلم ، من حديث كعب بن علقمة ، عن عبد الرحمن بن جُبَير ، عن عبد الله

بن عمرو بن العاص ؛ أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول : "إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ثم صلُّوا عليَّ ، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ، ثم سلوا لي الوسيلة ، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله ، وأرجو أني أكون أنا هو ، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه الشفاعة يوم القيامة" (3)

[وفي صحيح البخاري ، من حديث محمد بن المنكدر ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته ، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة"] (4)

---

(1) صحيح البخاري برقم (6555) وصحيح مسلم برقم (2830) .

(2) المسند (256/2) .

(3) صحيح مسلم برقم (1384) .

(4) في صحيح البخاري برقم (614) .

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني : حدثنا أحمد بن علي الأبار ، حدثنا الوليد بن عبد الملك الحراني ، حدثنا موسى بن أعين ، عن ابن أبي ذئب ، عن محمد بن عمرو بن عطاء ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "سلوا الله لي الوسيلة ، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له شهيدا - أو شفيعا - يوم القيامة" (1)

وفي مسند الإمام أحمد ، من حديث سعد أبي مجاهد الطائي ، عن أبي المدله ، عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قلنا : يا رسول الله ، حدثنا عن الجنة ، ما بناؤها ؟ قال : "لبنة ذهب ، ولبنة فضة ، وملاطها المسك ، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت ، وترابها الزعفران ، من يدخلها ينعم لا يبأس ، ويخلد لا يموت ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه" (2)

وروي عن ابن عمر مرفوعا ، نحوه (3)

---

(1) المعجم الأوسط برقم (639) "مجمع البحرين" .

(2) المسند (304/2) .

(3) رواه أبو نعيم في صفة الجنة برقم (96) من طريق عمر بن ربيعة عن الحسن البصري عن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعا نحو حديث أبي هريرة .

وعند الترمذي من حديث عبد الرحمن بن إسحاق ، عن النعمان بن سعد ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن في الجنة لغُرفا يرى ظهورها من بطونها ، وبطونها من ظهورها" . فقام أعرابي فقال : يا رسول الله ، لمن هي ؟ فقال : "لمن طيب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام" (1) ثم قال : حديث غريب .

ورواه الطبراني ، من حديث عبد الله بن عمرو وأبي مالك الأشعري ، كل منهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، بنحوه (2) وكل من الإسنادين جيد حسن ، وعنده أن السائل هو "أبو مالك" ، فالله أعلم .

وعن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ألا هل مُشَمِّر إلى الجنة ؟ فإن الجنة لا خَطَر لها ، هي – ورب الكعبة – نور يتلألأ وريحانة تَهْتَزّ ، وقصر مَشيدٌ ، ونهر مُطَّرد ، وثمرة نَضِيجة ، وزوجة حسناء جَميلة ، وحُلَل كثيرة ، ومقام في أبد ، في دار سليمة ، وفاكهة وخضرة وحبرة ونعمة في محلة عالية بهية" . قالوا : نعم يا رسول الله ، نحن المشمرون لها ، قال : "قولوا : إن شاء الله" . فقال القوم : إن شاء الله . رواه ابن ماجه (3)

وقوله تعالى : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ أي : رضا الله عنهم أكبر وأجل وأعظم مما هم فيه من النعيم ، كما قال الإمام مالك ، رحمه الله ، عن زيد بن أسلم ، عن عطاء بن يسار ، عن أبي سعيد الخُدْري ، رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إن

الله ، عز وجل ، يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك ، والخير في يدك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ، وقد أعطيتنا ما لم تُعط أحدا من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبدا" أخرجاه من حديث مالك (4)

وقال أبو عبد الله الحسين بن إسماعيل المحاملي : حدثنا الفضل الرُّخاميّ ، حدثنا الفِرْياني ، عن سفيان ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر بن عبد الله ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله ، عز وجل : هل تشتهون شيئًا فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا ، ما خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر" .

---

(1) سنن الترمذي برقم (2527) .

(2) أما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ، فرواه أيضا الإمام أحمد في مسنده (173/2) من طريق حيي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما . وأما حديث أبي مالك الأشعري فهو في المعجم الكبير (301/3) وسيأتي عند تفسير الآية : 20 من سورة الزمر .

(3) سنن ابن ماجه برقم (4332) من طريق الضحاك المعافري ، عن سليمان بن موسى ، عن كريب ، عن أسامة بن زيد به . وقال البوصيري في الزوائد (325/3) :

"هذا إسناد فيه مقال" .

(4) صحيح البخاري برقم (6549) وصحيح مسلم برقم (2829) .

(62/343)

ورواه البزار في مسنده ، من حديث الثوري (1) وقال الحافظ الضياء المقدسي في كتابه "صفة الجنة" : هذا عندي على شرط الصحيح ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 175.178 ﴾

---

(1) ورواه أبو نعيم في صفة الجنة برقم (238) والحاكم في المستدرك (82/1) من طريق محمد بن يوسف الفريابي به نحوه ، وقال الحاكم : "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" .

(63/343)

وقال أبو السعود :

﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات ﴾

تفصيلٌ لآثار رحمتِه الدنيوية ، والإظهارُ في موقع الإضمارِ لزيادة التقريرِ والإشعارِ بعلية وصفِ الإيمان لحصول ما تعلق به الوعدُ ، وعدمُ التعرض لذكر ما مر من الأمر بالمعروف وغيرِ ذلك للإيذان بأنه من لوازمه ومستتبعاته أي وعَدهم وعداً شاملاً لكل أحدٍ منهم على اختلاف طبقاتِهم في مراتب الفضل كيفاً وكماً ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ فإن كلَّ أحد منهم فائزٌ بها لا محالة ﴿ ومساكن طَيِّبَةً ﴾ أي وعد بعضَ الخواصِّ الكمل منهم منازل تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش . في الخبر (أنها قصورٌ من اللؤلؤ والزبرجدِ والياقوتِ الأحمر) ﴿ فِى جنات عَدْنٍ ﴾ هي أبهى أماكنِ الجناتِ وأسناها . عن النبي صلى الله عليه وسلم : " عدْنٌ دارُ الله لم ترها عينٌ ولم تخطُرْ على قلب بشر لا يسكنها غيرُ ثلاثة النبيون والصديقون والشهداء يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك " وعن ابن عمرو رضى الله عنهما إن في الجنة قصراً يقال له عدْن حوله البروج والمروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلافِ حَوْراء لا يدخُله إلا نبيٌّ أو صدّيقٌ أو شهيد ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه هي بُطنانُ الجنة وسُرَّتُها . فعدن على هذا عَلَم . وقيل : هو بمعناه اللغوي أعني الإقامة والخلود فمرجعُ العطفِ إلى اختلاف الوصفِ وتغايُرِه فكأنه وصَفه أولاً بأنه من جنس ما هو أشرفُ الأماكنِ المعروفة عندهم من الجنات ذاتِ الأنهار الجارية ليميل إليها طباعُهم أولَ ما يقرع أسماعَهم ، ثم وصفه بأنه محفوفٌ بطيب العيشِ مُعرّى عن شوائب الكدوراتِ التي لا تكاد تخلو عنها أماكنُ الدنيا وفيها ما تشتهي الأنفسُ

وتلذ الأعينُ ثم وصفه بأنه دارُ إقامةٍ وثباتٍ في جوار العلّيين لا يعتريهم فيها فناءٌ ولا تغيُّرٌ ثم وعدهم بما هو أعلى من ذلك كله فقال : ﴿ ورضوان مّنَ الله ﴾ أي وشيء يسيرٌ من رضوانه تعالى ﴿ أَكْبَرُ ﴾ إذ عليه يدور فوز كُل خيرٍ وسعادة وبه يُناط

(64/343)

نيل كُلِّ شرفٍ وسيادة ولعل عدمَ نظمِه في سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحققٌ في ضمن كل موعودٍ ولأنه مستمرٌّ في الدارين . روي أنه تعالى يقول لأهل الجنة : (هل رضِيتم ؟ فيقولون : ما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطِ أحداً من خلقك فيقول : أنا أُعطيكم أفضلَ من ذلك قالوا : وأيُّ شيء أفضلُ من ذلك قال : أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخطُ عليكم أبداً .

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ذكرُه وما فيه من معنى البعد للإيذان ببُعدِ درجتِه في العِظَم والفخامة ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ دون ما يعده الناس فوزاً من حظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظرِ عن فنائها وتغيُّرِها وتنغُّصِها وتكدّرِها ليست بالنسبة إلى أدنى شيءٍ من نعيم الآخرة بمثابة جناحِ البعوض ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو كانَتِ الدنيَا تَزِنُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ما سقى الكافرَ منها شربة ماء " ونِعمّا قال من قال :

تالله لو كانت الدنيا بأجمعها . . . تبقي علينا ويأتي رزقُها رغَدا

ما كان من حق حرٍ أن يذِلّ بها . . . فكيف وهي متاعٌ يضمحلّ غدا . انتهى انتهى . اهـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(65/343)

وقال الآلوسى :

وقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

في مقابلة الوعيد السابق للمنافقين المعبر عنه بالوعد تهكماً كما مر ، ويفهم من كلام البعض أن قوله سبحانه : ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ ﴾ [التوبة : 71] بيان لإفاضة آثار الرحمة الدنيوية من التأييد والنصر وهذا تفصيل لآثار رحمته سبحانه الأخروية ، والاظهار في مقام الإضمار لزيادة التقرير والأشعار بعلية الإيمان لما تعلق به الوعد ، ولم يضم إليه باقي الأوصاف للإيذان بأنه من لوازمه ومسيتبعاته ، والكلام في خالدين هنا كالكلام فيما مر ﴿ ومساكن طَيِّبَةً ﴾ أي تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش فالاسناد اما حقيقي أو مجازي .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين .

وأبا هريرة عن تفسير ﴿ ومساكن طَيِّبَةً ﴾ فقالا : على الخبير سقطت سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قصر من لؤلؤة في الجنة في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون على كل فراش امرأة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة فيعطي المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله " ﴿ فِي جنات عَدْنٍ ﴾ قيل : هو علم لمكان مخصوص بدليل قوله تعالى : ﴿ جنات عَدْنٍ التى وَعَدَ الرحمن ﴾ [مريم : 61] حيث وصف فيه بالمعرفة ، ولما أخرجه البزار .

والدارقطني في المختلف والمؤتلف .

وابن مردويه من حديث أبي الدرداء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " عدن دار الله تعالى لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون .

والصديقون .

(66/343)

والشهداء يقول الله سبحانه طوبى لمن دخلك " وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد .

وعن ابن مسعود أنها بطنان الجنة وسرتها .

وقال عطاء بن السائب : عدن نهر في الجنة جناته على حافاته .

وقيل : العدن في الأصل الاستقرار والثبات ويقال : عدن بالمكان إذا أقام .

(67/343)

والمراد به هنا الإقامة على وجه الخلود لأنه الفرد الكامل المناسب لمقام المدح أي في جنات إقامة وخلود ، وعلى هذا الجنات كلها جنات عدن لاَ يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً والتغاير بين المساكن والجنات المشعر به العطف إما ذاتي بناء على أن يراد بالجنات غير عدن وهي لعامة المؤمنين وعدن للنبيين عليهم الصلاة والسلام والصديقين والشهداء أو يراد بها البساتين أنفسها وهي غير المساكن كما هو ظاهر ، فالوعد حينئذ صريحاً بشيئين والمساكن فلكل أحد جنة ومسكن وإما تغاير وصفي فيكون كل منهما عاماً ولكن الأول باعتبار اشتمالها على الأنهاء والبساتين والثاني لا بهذا الاعتبار ، وكأنه وصف ما

وعدوا به أولاً بأنه من جنس ما هو أشرف الأماكن المعروفة عندهم من الجنات ذات الأنهار الجارية لتميل إليه طباعهم أول ما يقرع أسماعهم ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش معرى عن سوائب الكدورات التي لا تكاد تخلو عنها أماكن الدنيا وأهلها وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ثم وصف بأنه دار إقامة بلا ارتحال وثبات بلا زوال ولا يعد هذا تكراراً لقوله سبحانه : ﴿ خالدين فِيهَا ﴾ كما لا يخفى ثم وعدهم جل شأنه كما يفهم من الكلام هو ما أجل وأعلى من ذلك كله بقوله تبارك وتعالى : ﴿ ورضوان مّنَ الله ﴾ أي وقدر يسير من رضوانه سبحانه ﴿ أَكْبَرَ ﴾ ولقصد إفادة ذلك عدل عن رضوان الله الأخضر إلى ما في النظم الجليل ، وقيل : إفادة العدول كون ما ذكر أظهر في توجه الرضوان إليهم ، ولعله إنما لم يعبر بالرضا تعظيماً لشأن الله تعالى في نفسه لأن في الرضوان من المبالغة ما لا يخفى ولذلك لم يستعمل في القرآن إلا في رضاء الله سبحانه ، وإنما كان ذلك أكبر لأنه مبدأ لحلول دار الإقامة ووصول كل سعادة وكرامة وهو غاية أرب المحبين ومنتهى أمنية الراغبين .

وقد أخرج الشيخان .

وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك .

فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك فيقولون : وأي شيء أفضل من ذلك يا ربنا ؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " ولعل عدم نظم هذا الرضوان في سلك الوعد على طرز ما تقدم مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موجود ولأنه مستمر في الدارين ﴿ ذلك ﴾ أي جميع ما ذكر ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ دون ما يعده الناس فوزاً من خظوظ الدنيا فإنها مع قطع النظر عن فنائها وتغيرها وتنغصها بالآلام ليست بالنسبة إلى أدنى شيء من نعيم الآخرة إلا بمثابة جناح البعوض ، وفي الحديث " لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقي منها كافراً شربة ماء " ولله در من قال :

تالله لو كانت الدنيا باجمعها . . .

تبقى علينا وما من رزقها رغدا

ما كان من حق حر أن يذل بها . . .

فكيف وهي متاع يضمحل غدا

وجوز أن تكون الإشارة إلى الرضوان فهو فوز عظيم يستحقر عنده نعيم الدنيا وحظوظها أيضاً أو الدنيا ونعيمها والجنة وما فيها ، وعلى الاحتمالين لا ينافي قوله سبحانه : ﴿ أَعَدَّ

الله لَهُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 89]

فقد فسر فيه العظيم بما يستحقر عنده نعيم الدنيا فتدبر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(69/343)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

قوله : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ أي : قلوبهم متحدة في التوادد ، والتحبابب ، والتعاطف بسبب ما جمعهم من أمر الدين وضمهم من الإيمان بالله ، ثم بيّن أوصافهم الحميدة كما بيّن أوصاف من قبلهم من المنافقين فقال : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ أي : بما هو معروف في الشرع غير منكر ، ومن ذلك توحيد الله سبحانه وترك عبادة غيره ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ أي : عما هو منكر في الدين غير معروف ، وخصص إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر من جملة العبادات ؛ لكونهما الركنين العظيمين فيما يتعلق بالأبدان والأموال ، وقد تقدّم معنى هذا .

﴿ وَيُطِيعُونَ الله ﴾ في صنع ما أمرهم بفعله أو نهاهم عن تركه ، والإشارة ب ﴿ أولئك

﴿ إلى المؤمنين والمؤمنات المتصفين بهذه الأوصاف ، والسين في ﴿ سَيَرْحَمُهُمُ الله ﴾ للمبالغة في إنجاز الوعد ﴿ أَنَّ الله عَزِيزٌ ﴾ لا يغالب ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أقواله وأفعاله .

ثم ذكر تفصيل ما يدخل تحت الرحمة إجمالاً باعتبار الرحمة في الدار الآخرة ، فقال : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ والإظهار في موقع الإضمار لزيادة التقرير ؛ ومعنى جري الأنهار من تحت الجنات : أنها تجري تحت أشجارها وغرفها ، وقد تقدّم تحقيقه في البقرة ﴿ ومساكن طَيِّبَةً ﴾ أي : منازل يسكنون فيها من الدرّ والياقوت ، و ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ يقال : عدن بالمكان : إذا أقام به ، ومنه : المعدن .

قيل : هي أعلى الجنة .

وقيل : أوسطها ، وقيل : قصور من ذهب لا يدخلها إلا نبيّ ، أو صدّيق ، أو شهيد .

وصف الجنة بأوصاف ، الأوّل : جري الأنهار من تحتها ، والثاني : أنهم فيها خالدون ، والثالث : طيب مساكنها ، والرابع : أنها دار عدن : أي إقامة غير منقطعة ، هذا على ما هو معنى عدن لغة .

(70/343)

وقيل : هو علم ، والتنكير في ﴿ رضوان ﴾ للتحقير ، أي ﴿ ورضوان ﴾ حقير يستر " من " رضوان ﴿ اللهُ أَكْبَرُ ﴾ من ذلك كله الذي أعطاهم الله إياه ، وفيه دليل على أنه لا شيء من النعم ، وإن جلت وعظمت ، يماثل رضوان الله سبحانه ، وأن أدنى رضوان منه لا يساويه شيء من اللذات الجسمانية ، وإن كانت على غاية ليس وراءها غاية ، اللهم ارض عنا ، رضا لا يشوبه سخط ، ولا يكدّره نكد ، يا من بيده الخير كله دقه وجله ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم مما وعد الله به المؤمنين والمؤمنات ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ دون كل فوز مما يعدّه الناس فوزاً .

وقد أخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بالمعروف ﴾ قال : يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله ، والنفقات في سبيل الله ، وما كان من طاعة الله ﴿ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المنكر ﴾ عن الشرك والكفر قال : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ ﴾ قال : إخاؤهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله ، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الأحاديث ما هو معروف .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين ، وأبا هريرة عن تفسير قوله تعالى : ﴿ ومساكن طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ قالا : على الخبير سقطت ، سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قصر من لؤلؤة في الجنة ، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمرّدة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله "

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ جنات عَدْنٍ ﴾ قال : معدن الرجل الذي يكون فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عنه ، قال : معدنهم فيها أبداً .

وأخرج أبو الشيخ ، عن سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿ ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ﴾ يعني : إذا أخبروا أن الله عنهم راض ، فهو أكبر عندهم من التحف والتسنيم .

وأخرج البخاري ومسلم ، وغيرهما ، من حديث أبي سعيد ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا وما لنا لا نرضى ، وقد أعطيتنا ما لم

تعطه أحداً من خلقك ، فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا ربنا وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أحلّ عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(72/343)

وقال القاسمي :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

أي : من تحت شجرها ومسكنها أنهار الخمر والماء والعسل واللبن ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي : منازل حسنة تستطيبها النفوس أو يطيب فيها العيش ، ﴿ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : إقامة وثبات ويقال : ﴿ عَدْنٍ ﴾ علم لموضع معين في الجنة ، لآثارٍ فيه ، ولما كان

﴿ وَمَسَاكِنَ ﴾ معطوفاً على : ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ ، قيل : إن المتعاطفين إما أن يتغايرا بالذات ، فيكونوا وُعِدُوا بشيئين ، وهما الجنات بمعنى البساتين ومساكن في الجنة ، فلكل أحد جنة ومسكن ، أو الجنات المقصود بها غير عدن ، وهي لعامة المؤمنين ، وعَدْنٍ للنبيين عليهم الصلاة والسلام ، والشهداء والصديقين ، وإما أن يتحدا ذاتاً ويتغايرا صفة ، فينزل

التغاير الثاني منزلة الأول ، ويعطف عليه ، فكل منهما عام ، ولكن الأول باعتبار اشتمالها على الأنهار والبساتين ، والثاني باعتبار الدور والمنازل .

قال القاضي : فكأنه وصف الموعود أولاً بأنه من جنس ما هو أبهى الأماكن التي يعرفونها لتميل إليه طباعهم ، أول ما يقرع أسماعهم ، ثم وصفه بأنه محفوف بطيب العيش ، معرى من شوائب الكدورات التي لا تخلو عن شيء منها أماكن الدنيا ، وفيها ما تشتهي الأنفس ، وتلذ الأعين .

(73/343)

ثم وصفه بأنه دار إقامة وتذكر ، ي جوار العلّيين ، لا يعتريهم فيها فناء ولا تغيّر ، ثم وعدهم بما هو أكبر من ذلك فقال : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ إذ عليه يدور فوز كل خير وسعادة ، وبه يناط نيل كل شرف وسيادة ، لعل عدم نظمه في سلك الوعد مع عزته في نفسه لأنه متحقق في ضمن كل موعود ، ولأنه مستمر في الدارين . أفاده أبو السعود .

وإيثار رضوان الله على ما ذكر ، إشارة إلى إفادة أن قدراً يسيراً منه خير من ذلك .

وقد روى الإمام مالك والشيخان عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله عزَّ وجلَّ يقول لأهل الجنة : < يا أهل الجنة ! فيقولون :

لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب ؛ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون : يا رب ، وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني ، فلا أسخط عليكم بعده أبداً > .

وروى المحاملي والبزار عن جابر ، رفعه : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال الله عزَّ وجلَّ : < هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا ! ما هو خير مما أعطيتنا ؟ قال : رضواني أكبر > .

﴿ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : لا ما يعدّه الناس فوزاً من حظوظ الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 467.468 ﴾

(74/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

موقع هذه الجملة بعد قوله : ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ [التوبة : 71] ، كموقع جملة : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات ﴾ [التوبة : 68] بعد قوله : ﴿

المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ [التوبة : 67] الآية .

وهي أيضاً كالاستئناف البياني الناشىء عن قوله : ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ [التوبة : 71] مثل قوله في الآية السابقة ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم ﴾ [التوبة : 21] الآية .

وفعل المضي في قوله : ﴿ وعد الله ﴾ إمّا لأنّه إخبار عن وَعد تقدّم في آي القرآن قُصد من الإخبار به التذكيرُ به لتحقيقه ، وإمّا أن يكون قد صيغ هذا الوعد بلفظ المضي على طريقة صِيَغ العقود مثل بِعتُ وتَصدّقتُ ، لكون تلك الصيغة معهودة في الالتزام الذي لا يَتخلّف .

وقد تقدّم نظيره آنفاً في قوله : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ [التوبة : 68] .

والإظهار في مقام الإضمار دون أن يقال : وعَدهم الله : لتقريرهم في ذهن السامع ليتمكّن تعلّق الفعل بهم فضلَ تمكّن في ذهن السامع .

وتقدّم الكلام على نحو قوله : ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ عند قوله تعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ في سورة البقرة (25) .

وعطفُ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ على ﴿ جنات ﴾ للدلالة على أن لهم في الجنّات قصوراً ومساكن طيّبة ، أي ليس فيها شيء من خبث المساكن من الأوساخ وآثار

علاج الطبخ ونحوه نظير قوله : ﴿ ولهم فيها أزواج مطهرة ﴾ [البقرة : 25] .

و(العدن) : الخلد والاستقرار المستمرّ ، فجنّات عدن هي الجنات المذكورة قبلُ ، فذكرها بهذا اللفظ من الإظهار في مقام الإضمار مع التفنّن في التعبير والتنويه بالجنّات ، ولذلك لم يقل : ومساكن طيبة فيها .

(75/343)

وجملة : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ معطوفة على جملة ﴿ وعد الله المؤمنين ﴾ .

والرضوان بكسر الراء ويجوز ضمها .

وكسرُ الراء لغة أهل الحجاز ، وضمّها لغة تميم .

وقرأه الجمهور بكسر الراء وقرأه أبو بكر عن عاصم بضمّ الراء ونظيره بالكسر قليل في المصادر ذات الألف والنون .

وهو مصدر كالرضى وزيادة الألف والنون فيه تدلّ على قوته ، كالغُفران والشكران .

والتنكير في ﴿ رضوان ﴾ للتنويع ، يدلّ على جنس الرضوان ، وإنّما لم يقرن بلام تعريف الجنس ليتوسّل بالتنكير إلى الإشعار بالتعظيم فإنّ رضوان الله تعالى عَظيم .

و ﴿ أكبرُ ﴾ تفضيل لم يذكر معه المفضَّل عليه لظهوره من المقام ، أي أكبر من الجنّات لأنّ

رضوان الله أصل لجميع الخيرات .

وفيه دليل على أنّ السعادات الروحانية أعلى وأشرف من الجثمانية .

و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر من الجنّات والمساكن وصفاتهما والرضوانِ الإلهي .

والقصر في ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ قصر حقيقي باعتبار وصف الفوز بعظيم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(76/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾

والوعد : بشارة بخير يأتي زمانه بعد الكلام . والوعيد : إنذار بسوء يأتي بعد الكلام

الوعد يشجع السامع على أن يبذل جهده ويعمل ؛ حتى يتحقق له الخير الذي وُعِد به .

والوعيد يعطي السامع فرصة أن يمتنع عما يغضب الله فلا يناله عذاب الله .

على أننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ والمنافقات ﴾ ثم ذكر العذاب الذي ينتظرهم ، وبعد ذلك قال :

﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات ﴾ ثم وصف النعيم الذي ينتظرهم ، مع أن الشائع في اللغة

أن الوعد يكون بالخير والوعيد يكون بالشر ، فكان من المناسب في عرف البشر أن يقول الحق سبحانه وتعالى : " أوعد الله المنافقين " ؛ لأن الذي سيأتي بعد ذلك عذاب ونار وشر ، وأن يقول في المؤمنين : وَعَدَ اللهُ لأن الذي سيأتي بعد ذلك جنة ونعيم وخير .

ولكن الأسلوب جاء مخالفاً للعرف البشري ، فجاء بكلمة " وعد " ، وهي تقال دائماً للخير في حديثه سبحانه وتعالى عن المنافقين والمؤمنين ، واستخدام وعد بالنسبة للمؤمنين والمؤمنات موافق للنطق البشري ؛ لأنه وعد بخير .

ولكن بالنسبة للمنافقين فقد جاء الحق سبحانه وتعالى بكلمة " وعد " مكان " أوعد " .

فالذي يتكلم هنا هو الحق سبحانه ، فلا تَقِسْ كلام الله على كلام البشر ؛ لأن البشر يفوتهم في كلامهم ملاحظَ ، ولكنها لا تفوت ولا تخفى على الله ، والبشر يتفاوتون في الأداء وأساليبه ولكن الحق أسلوبه واحد .

فلماذا جاء سبحانه – إذن – بكلمة " وعد " بدلاً من " أوعد " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى بعد أن عرَّف المنافقين والمنافقات ، ثم تكلم عن جزائهم إن إصرُّوا على نفاقهم ، كان ذلك تحذيراً حتى لا يصروا على النفاق مخافة العذاب الذي ينتظرهم ؛ عَلَّهم يقلعون عن النفاق وينصرفون إلى الخير من الإيمان .

إذن : فالحق سبحانه وتعالى حين حذرهم بالوعيد نصحهم ، كما تقول لمن يهمل في دروسه : سترسب إذا أهمات دروسك . فتكون بذلك قد خدمت إقباله على المذاكرة .

أوصلته بالوعيد إلى أن يتجنب الأمر الذي أوعد به ؛ ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنتَصِرَانِ * فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن : 35-36]

هل الشواظ من النار نعمة حتى يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاء رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ أي : فبأي نعم ربك تكذب ؟ نقول : نعم إنه نعمة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يوضح لك : إن خالفت هذا فستذهب إلى النار ، يكون قد قدم لك العظة والنصيحة ، والعظة والنصيحة نعمة ؛ لأنه يجعلك تتجنب طريق النار وتختار طريق الجنة .

إذن : فحين يحذر الله المنافقين والمنافقات بالمصير الذي ينتظرهم ، يكون هذا خيراً ونعمة ؛ لأنهم إذا اتعظوا وأقلعوا عن النفاق إلى الإيمان فهم ينجون أنفسهم من عذاب النار ، وفي هذا خير عميم .

ولذلك استخدم الحق سبحانه وتعالى كلمة " وعد " ولم يستخدم " أوعد " ، وتكون الكلمة مؤدية للمعنى الذي أراده الله .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات ﴾ والوعد كما قلنا

بشارة بخير مستقبلي ، والوعيد إنذار بشرٍّ يأتي في المستقبل ، والوعد والإيعاد هما ميزان الوجود دنيا وآخرة ؛ لأنك إن وعدت من يلتزم بمنهج الله خيراً ، استحسن الناس جميعاً أن يصلوا إلى الخير باتباعهم المنهج ، وإن أوعدتهم بشر إن خالفوا منهج الله ؛ نفر الناس من المخالفة والمعصية خوفاً من العذاب وتجنبوا الشر . فإن صدق وعدك لأهل الخير بالخير ، وصدق وعيدك لأهل الشر بالشر ؛ استقام ميزان الحياة .

(78/343)

ولذلك نقول للذي يذاكر : إنك ستنجح ، فإن أتقنت المذاكرة حصلت على المجموع الذي يؤهلك لدخول الكلية التي تختارها ، وإن أهملت دروسك رسبت وفُصِلْتَ من التعليم وضاع مستقبلك . هنا وعد ووعيد . إن وفَّيْتَ ما وعدت ووقيت ما توعدت ، استقام ميزان الحياة . ولكن إذا جئت لإنسان لم يذاكر وأنجحته وأعطيته أعلى الدرجات مخالفاً بذلك وعيدك له ، فأنت تهدم قضية كونية يترتب عليها مصالح الخلق كلهم .

وإن وعدت من يحصل على 90% مثلاً أنه سيدخل كلية الطب ، ثم أخلفت وعدك فدخل كلية الطب من حصل على 70% واستُبعِدَ الحاصل على 90% بسبب تدخل الأهواء تكون أيضاً قد اعتديت على حركة الحياة كلها وتفسد قضية العمل الجاد في حركة

الحياة ، وكل من لا يملك القدرة على تنفيذ ما وعد به أو أوعد به ، لا يكون لكلامه وزن في حركة الحياة .

على أنه إذا كان الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى فإنه مختلف مع منطق البشر ؛ لأننا أهل أغيار ، فقد أعد بخير لا استطيع تنفيذه ، وقد أعد بعقاب ثم أضعف بسبب ظروف معينة فلا أقوى على التنفيذ . إذن : فلكي تستقيم حركة الحياة ، لا بد أن يأتي الوعد والوعيد من القادر دائماً ، القوي دائماً ، الموجود دائماً ؛ صاحب الكلمة العليا بحيث لا يوجد شيء يمكن أن يجعله لا يفي بوعده أو لا يُتمُّ وعيده ، فإذا قرأت سورة المسد تجد الحق سبحانه يقول فيها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ * وامرأته حَمَّالَةَ الحطب * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ [المسد : 1-5]

(79/343)

وقد حكم الله سبحانه وتعالى في هذه السورة الكريمة ؛ بأن أبا لهب وامرأته سيموتان كافرين وسيدخلان النار ، ولكن كثيراً ممن كانوا كفاراً وقت نزول هذه السورة مثل : خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، وعمرو بن العاص وغيرهم ؛ آمنوا وحَسُنَ إسلامهم

وجاهدوا في سبيل الله ، فلماذا حكم رسول الله بأن أبا لهب وامرأته لن يؤمنا كما آمن عمرو ، وكما آمن عكرمة ، وكما آمن خالد بن الوليد وغيرهم ؟ نقول : إن هذا ليس حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه الحق سبحانه وتعالى ، وإذا حكم الله فإياك أن تشُكَّ في هذا الحكم ؛ لأنه لا إله إلا الله وهو على كل شيء قدير .

لذلك جاءت هذه السورة ، وبعدها في المصحف الشريف في سورة الإخلاص : ﴿ قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصمد ﴾ [الإخلاص : 1-2]

وما دام الله أحداً فأمره نافذ حتى في الأمور الاختيارية في الحياة ، فإذا قال الله : ﴿ لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ . وإذا وعد بخير فإنه سيأتي لا محالة ، وإذا أوعد بشرّ فسوف يقع حتماً .

إذن : فلكي تستقيم موازين الحياة ، كان لا بد أن يأتي الوعد والوعيد من الحق سبحانه وتعالى حتى نكون على يقين بأنه سيحدث ؛ لأنه لا أحد يشارك الله في مُلْكه ، ولا يوجد قوي إلا الله ، ولا غالب إلا الله ؛ لأنه هو الله أحد .

وقد يأتي الحق سبحانه وتعالى بسنة كونية واقعة ، فأنت حين تزرع الأرض وتُحسن حَرْثها ، وريِّها ووضع البذور فيها يأتيك المحصول بخير عميم . وإذا أهملت الأرض وتركتها بلا حرث ولا زرع ولا بذور فهي لا تعطيك شيئاً .

إذن : فالسُّنة الكونية هنا أعطت وعداً للذي يجدُّ في زراعة أرضه بالمحصول الوفير ، وأعطتْ وعيداً للذي لا يُقبل على زراعة أرضه بأنه لا يحصل على ثمرة واحدة منها . ولو اختلف الأمر ووجدنا من زرع وحرث وسقي لم يحصل على الثمار ، ومن لم يزرع ولم يفعل شيئاً أعطته الأرض من ثمارها الكثير ، لانقلبت المعايير في الكون ، وما وجدنا أحداً يزرع أرضه .

إذن : فلكي تستقيم سنة الحياة ، إما أن يكون الوعد والوعيد من قادر على التنفيذ لا يضعف ولا يتغير . وإما أن يكون بسنة كونية نراها أمامنا في كل يوم ولا يقع ما هو مخالف لها . فالذي يجتهد ينجح ، والذي لا يذاكر يرسب . سُنة كونية . لو صدقت مع الواقع يعتدل ميزان الحياة . ولو لم تصدق مع الواقع وتدخلت الأهواء لتجعل من لا يذاكر يرسب ؛ اختلف حركة الحياة المثمرة الناجحة .

إذن : فميزان الوعد والوعيد هو دولاب حركة الحياة ، فإن اختل هذا الميزان وجاء الوعد مكان الوعيد ؛ أي كوفئ الذي لا يعمل وعوقب الذي يعمل فسد الكون . لماذا ؟ لأن كل إنسان يحب النفع لنفسه ، ولا يختلف في ذلك مؤمن أو عاصٍ أو كافر ، ولكن العاصي والكافر يحبان نفسيهما حبّاً أحمق ؛ فيحققان لها نفعاً قليلاً زمنه محدود ؛ بعذاب مستمر زمنه بلا حدود . أما المؤمن فهو إنسان يمتاز بالذكاء وبُعْد النظر ؛ لذلك فهو حرم نفسه من

متعة عاجلة في زمن محدود ، ليحقق لها متعة أكبر في زمن لا ينتهي .

ولقد ضربنا مثلاً لذلك – ولله المثل الأعلى – فقلنا : هَبْ أن هناك أخوين : أحدهما يستيقظ من النوم مبكراً ، فيصلي ويفطر ويأخذ كتبه ويذهب إلى المدرسة ، ويحسن الإنصات للمدرسين ويعود إلى البيت ليذاكر دروسه .

والآخر يظل نائماً يتمتع بالنوم ، ويقوم عند الضحى ، فيخرج ليتسكع في الشوارع ، وحين تُحدِّثه نفسه بأي متعة فهو يحققها بصرف النظر عن منهج الله وقيم الحياة .

(81/343)

إن كلا الأخوين يحب نفسه ، لكن الأول أحب نفسه فأعطاها مشقة محتملة في سنوات الدراسة ؛ لتعطيه راحة ومركزاً ومالاً بقية حياته ، أما الأخ الثاني فقد أحب نفسه أيضاً وأعطاها المتعة العاجلة ولكنه أضاع مستقبله كله ، فلم يَعُدْ يساوي شيئاً في المجتمع .

إذن : فكل منا يحب نفسه ، ولكن مقاييس الحب هي التي تختلف . فمنا مَنْ يأخذ المقياس السليم ، فيحتمل مشقة قليلة ليأخذ نعيماً أبديّاً ، ومنا من يعطي نفسه متعة عابرة ليفقد نعيماً مقيماً .

والعجيب أنك تجد أن هذه هي سنة الحياة الدنيا ، فلا تجد إنساناً ارتاح في حياته إلا إذا

كان قد أجهد نفسه في سنواته الأولى ؛ ليصل إلى الراحة بقية عمره ، ولا تجد إنساناً فاشلاً عالة على المجتمع إلا إذا كان قد أخذ حظه من الحياة في أولها ليشقى بقية عمره .

لذلك يقال دائماً : إنه لا يوجد من يأخذ حظه من الحياة مرتين أبداً ، فالذي يتعب في أول حياته يرتاح بقية عمره ، والذي يرتاح أول حياته يتعب بقية عمره . والمثل الشائع يقول : من جار على شبابه ، أي : ضيَّعه فيما لا يفيد ؛ جارت عليه شيخوخته . والقائمون على الأمر عليهم أن ينبهوا المقبلين على الحياة بالوعد والوعيد حتى يستقيم أمر حياتهم ، وعليهم ألا يُؤجِّلوا الوعد إلى أن تنضج الثمرة . ولا الوعيد إلى أن يحدث الشر ويقع . وعلى كل ولي أمر ؛ في أي مكان ؛ أن يراقب حركة المقبلين على الحياة من أبنائه أو من يتولى أمرهم ، فيشجع ويعد المجتهد ، ولا ينتظر حتى ينجح ، بل لا بد من الوعد لكي يتم الاجتهاد . ولا بد من الوعيد قبل أن يرسب الابن أو يضيع حياته ، فلا ننتظر حتى يفسد الإنسان ثم بعد ذلك نتوعده ؛ لأن الوعد والوعيد هما اللذان يَزِنَانِ حركة الحياة .

(82/343)

ولكن إذا رأينا في مجتمع ما أن الذي يعمل لا يأخذ شيئاً ، والذي لا يعمل يأخذ كل شيء ، نعرف أن مقاييس العمل قد اختلت . وأن المتاعب قد بدأت في المجتمع ؛ لأن الذي يعمل

حين يجد أن العمل لا يوصله إلى شيء فهو يوجه حركة حياته إلى غير عمله ، فيبذل جهده كله في النفاق والرياء ، وقَلْب الحقائق وإرضاء الذي يملك الأمر . وتكون النتيجة هي فقدان المجتمع لقيمة العمل فيصبح المجتمع بلا عمل منتج ، ويصير مجتمعاً بارعاً في النفاق والرياء وضياع الحق .

وقد وضع الحق سبحانه وتعالى مقياس حركة الحياة في الوعد والوعيد ؛ فلا تُعْطِ حافزاً إلا لمستحق ، ولا مكافأة إلا لمجتهد ؛ ولكنك إذا بعثرت الحوافز على المنافقين ، والذين يحققون لك أهدافك الشخصية ، كأن يخدموك في بيتك أو يقضوا لك مصالحك الخاصة ، ومنعت الحوافز عن الذي يعمل في جد ، تكون بذلك قد أفسدت حركة الوعد والوعيد ؛ فتختل حركة الحياة في المجتمع ؛ لأن حركة كل إنسان يتقن العمل ويجيده ، هي حركة تنفع المجتمع كله ، بصرف النظر عن صاحب الحركة نفسه ، فإذا وُجد عامل نشيط أنجز مصالح عشرات الناس ، أو موظف مخلص ارتاح كل من يتعاملون معه ، فإن أضعْتَ أنت هؤلاء ، فكأن المجتمع هو الذي خسر .

لذلك نجد الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف – ومعنى الكهف مغارة في جبل ، والحقائق أيضاً لها كهوف – حين ضرب سبحانه وتعالى مثلاً عن ذي القرنين قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴾ [الكهف : 83] فما هو الذكر الذي يعنيه الله سبحانه وتعالى هنا ؟

بعض الناس يحاول أن يُدخل نفسه في متاهة بالسؤال عمَّنْ يكون ذو القرنين ، هل هو قورش ؟ أو الإسكندر الأكبر أو غيرهما ؟ نقول : إن هذا لا يعنينا ، بل ما يعنينا هو أن نلتفت إلى أن ذا القرنين هو إنسان مكَّنه الله في الأرض . وهذا ينطبق على كل إنسان مكَّنه الله في الأرض ؛ في أي زمان ، وفي أي مكان . ومهمة من يمكنه الله في الأرض ألا يكتفي بعطاء الله من الأسباب ، بل عليه أن يُولد من الأسباب قوة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً * فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ [الكهف : 84-85]

مهمته – إذن – أن يثيب من يحسن عمله ، ويعاقب من أساء عمله ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً * قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴾ [الكهف : 86-88]

وأول ما يجب أن يهتم به كل مُمكَّن في الأرض ، بعد توليد الطاقة من الأسباب ، هو معاقبة الظالم لتستقيم الأمور بالضرب على يده . وفي هذا إصلاح لحركة الحياة في الدنيا ، أما في الآخرة فللظالم عذاب آخر ، ذلك أن الذين يعيثون فساداً في الأرض لا يمكن أن نتركهم

لعذاب الآخرة ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة . ولو تركناهم ؛ ولم نضرب على أيديهم ؛ لملأوا الأرض فساداً . والفساد في المجتمع لا يصيب المفسد فقط ، ولكن يكتوي به المجتمع كله .

(84/343)

إذن : فلا بد أن نُعجِّل هم بالعقوبة في الدنيا ، لنحمي المجتمع من الفساد ، ثم يعذبهم الله في الآخرة ، وهو سبحانه لم يؤمنوا به ، ولم يحسبوا حساب لقائه يوم القيامة ، وأما من آمن وأصلح في المجتمع وصلح المجتمع بإيمانه ، فلا بد أن نجازيه خيراً ونشجعه . هذا هو قانون صلاح الكون ، وتلك هي معاييره .

وكما قلنا ، يشترط فيمن يقوم بتنفيذ الوعد والوعيد القدرة الدائمة وعدم التغيير والوجود الدائم ، فإذا كانت القدرة مطلوبة ، فلا يوجد أقدر من الله ، أما التغير فالله يُغير ولا يتغير ، وأما البقاء فلا بقاء ولا دوام لغير الله ؛ ولذلك نجد أن المؤمن الحق هو من يعلم أن وعد الله لا تمسُّه الأغيار ، أما وعد البشر فهو عُرْضة للأغيار . لذلك يطلب منك الحق أن تقول : " إن شاء الله " حين تعد بشيء لتكون صادقاً . ويقول سبحانه : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴾ [الكهف : 23-24]

وليس معنى هذا أن نمتنع عن التخطيط ووضع خطط لعام قادم أو لخمس سنوات قادمة ، ولكن قل : إن شاء الله سوف أفعل ذلك غداً ، و : إن شاء الله سأفعل كذا في العام القادم ؛ لأن الذي تَعِدُ به ، قد يأتي وقت الوفاء ولا تجد عندك القدرة على أن تفعله .

فإذا قلت – مثلاً – لإنسان : سنتقابل غداً في مسجد السيدة زينب رضي الله عنها وتتكلم في موضوع كذا . هل أملك أن أعيش لغد ؟ أو يملك مَنْ وعدته أن يعيش لغد ؟ أو أملك أن يظل سبب اللقاء موجوداً ؟ يجوز أني كنت سأقابله لأقترض منه عشرة جنيهات ، وجاءني مال في أثناء الليل ، أو غيَّرت رأيي .

إذن : فساعة تقول " سأفعل ذلك غداً " ، قل : " إن شاء الله " ؛ لأنك لا تملك شيئاً من أسباب الفعل . فكل فعل إنما يحتاج لفاعل وأنت لا تضمن بقاءك كفاعل .

(85/343)

ويحتاج كل فعل إلى مفعول يقع عليه ، وأنت لا تضمن بقاء المفعول ، وكل فعل يحتاج إلى قوة ليتم ، وأنت لا تضمن بقاء قوتك ؛ فيجوز أن تمرض ولا تقدر على الحركة . كذلك يحتاج كل فعل إلى سبب كي تفعله ، وقد يتغير السبب .

إذن : فأنت لا تضمن شيئاً من أسباب الفعل ؛ لذلك لا تقل سأفعل ذلك غداً ؛ لأن الذي

يملك أن يبقيه لغد ، أو يُبقي السبب أو يُبقي القدرة هو الله ، إذن : فكل شيء تقوله لا بد أن نقول : " إن شاء الله " ؛ لأنه سبحانه وتعالى وحده الذي يملك عناصر الفعل .

ولكن إذا كان الذي وعد هو الحق سبحانه وتعالى ، فوعده محقق التنفيذ ؛ لأنه باق لا يموت ، قادر دائماً لا تضعف قدرته ، فعَّال لما يريد .

وبعد أن تكلم الحق جل جلاله عن المؤمنين والمؤمنات بأنهم أولياء بعض ، وأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، وقد وعد سبحانه بأنه سيرحمهم . فكيف ستكون هذه الرحمة ؟

لذلك يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾

إذن : فالحق سبحانه وتعالى وعد المؤمنين والمؤمنات بالجنة ، والجنة تطلق على البستان والأماكن الجميلة تملؤها الزهور والأشجار ، وهذه عامة للمؤمنين يتمتعون بها جميعاً ، ثم يأتي قوله تعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ وهذه المساكن زيادة على هذه الجنة ، وهنا وعد من الله لكل مؤمن بجنة خاصة بمفرده يكون له فيها مسكن طيب .

إذن : فعندنا جنات ، وهي لجميع المؤمنين ، ثم مساكن طيبة ، أي مسكن طيب لكل مؤمن ، وما هو الطيب في هذه المساكن ؟

لنا أن نلاحظ أن الإنسان يحب الشيوع أولاً ، ثم يحب الانكماش ثانياً ، وإذا أراد أن يملك

فهو يريد أن يملك مكاناً متسعاً خاصاً به ، ثم يخصص في هذا المكان مأوى طيباً خاصّاً به

.

(86/343)

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي : ليس فيها ما يسيء أو يضايق ، بل كل ما فيها يملأ النفس بالسرور والبهجة . وكلمة " جنة " هي المكان الذي فيه زروع وخضرة ، وهذه الزروع تسترك وتخفيك عن الأعين ، أو أنها تسترك فلا تحتاج إلى أن تخرج منها ؛ لأن فيها كل مقومات حياتك من طعام وشراب . والحق سبحانه وتعالى أطلق لفظ " الجنة " على بساتين الأرض ، فقال : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ . . . ﴾ [البقرة : 266]

ويقول تعالى أيضاً : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة . . . ﴾ [القلم : 17]

وعندما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطينا صورة الجنة في الآخرة ؛ كيف بيَّنها لنا سبحانه مع أن الجنة فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ؟

نقول : الوجود المعروف في الكون هو الوجود الذي تراه أو تسمعه ، وفي هذه الحالة يكون الوجود أوسع ؛ لأنك ستسمع الذي رآه غيرك حين يقصه عليك . إذن : فالسماع أوسع من

الرؤية لأنه يأخذ مجالك ومجال غيرك . فأنت إذا قلت : إنك ذهبت إلى نيويورك مثلاً تكون قد رأيت ، فإذا لم تذهب ونقل إليك أحد أصحابك صورة هذه المدينة ، تكون دائرة معلوماتك أوسع ؛ لأنك أضفت إلى علمك ما رأيته وما رآه غيرك . وأما الأشياء التي لا تخطر على بال بشر ، فهي أوسع كثيراً مما ترى وتسمع ؛ لأنها أشياء فوق الحصر .

(87/343)

والكلمات توضع لمعانٍ معلومة ، فألفاظ اللغة لا بد أن توضع لمعانٍ مرت على العين ، أو مرت على السمع ، أو مرت على الخاطر . فقبل أنّ يخترع التليفزيون لم يكن له اسم ، إذن : فلا يمكن أن يكون هناك اسم ، إلا إذا كان هناك وجود أولاً ، ولكن قبل الوجود لا يكون هناك في اللغة ما يعبر عن شيء غير موجود . ولكن الألفاظ تضاف إلى اللغة بعد وجود الشيء . وهذه مهمة المجامع اللغوية في العالم . فالأشياء توجد أولاً ، ثم تجتمع هذه المجامع لتختار لها أسماء .

ولكن الجنة في الآخرة سيكون فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، فليس عندنا ألفاظ تعبر عما في جنة الآخرة ، فإذا أضفنا إلى ذلك " ولا خطر على قلب بشر " تكون اللغة عاجزة تماماً عن أن تعبر عما في جنة الآخرة .

وسبحانه وتعالى حين يريد أن يعطينا صورة عن الجنة التي وعد بها المتقين فهو يوضح : أنتم لا تستطيعون أن تأخذوا هذه الصورة من لغتكم ؛ لأن لغتكم قاصرة فأنتم لم تروا هذه الأشياء ، ولم تسمعوا عنها ولا تستطيع عقولكم أن تستوعب ما في جنة الآخرة ؛ لأن فيها ما لم يخطر على قلب بشر . ولذلك فهو سبحانه وتعالى يعطينا فقط مثلاً ليقرب لنا الصورة فلا يقول الجنة ، وإنما يقول : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون ﴾ [محمد : 15]

أي : أن هذا مثل فقط يقرب الصورة ، ولكنه ليس حقيقة ما هو موجود في الجنة .

وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ و ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ جمع "جنة" . ومادة الجيم والنون هذه مأخوذة من الستر والتغطية . اقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ الليل رَأَى كَوْكَباً قَالَ هذا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفلين ﴾ [الأنعام : 76]

(88/343)

يعني : ستر وأظلم ، والجنون ستر العقل . والجنة تستر من فيها ؛ لأن أشجارها كبرت ونمت وترعرعت . بحيث يكون من يسير فيها مستوراً بأغصان الشجر وأوراقه ؛ فلا يراه أحد . ويكون مستوراً في كل مطلوبات حياته . فلا يحتاج أن يخرج منها ؛ لأن فيها كل

مطلوبات الحياة من الماء والطعام والمكان يجلس أو يتريض فيه ، وغيرها من النعم التي أنعم الله بها عليه .

فإذا كان الحق سبحانه وتعالى قد وعد المؤمنين والمؤمنات جنات ، فإن المؤمنين جماعة ، والمؤمنات جماعة ، والموعود به جنات جمع ، وتقابل الجمع بالجمع يقتضي القسمة لآحاد ، فيكون المعنى : أن الله وعد كل مؤمن جنة ، ووعد كل مؤمنة جنة ، والأفراد ستتكرر .

إذن : فالموعود به جنات لا بد أن تتكرر ، فإذا قسمناها عرفنا نصيب كل مؤمن ومؤمنة ، تماماً مثلما يقول الأستاذ لتلاميذه ، أخرجوا كتبكم . و " أخرجوا " أمر لجماعة ، وكتبكم جمع ، أيك أن يخرج كل تلميذ كتابه . وقول المعلم " أمسكوا أقلامكم " يعني : أن يمسك كل تلميذ قلمه .

إذن : فقول الحق سبحانه ﴿ وَعَدَ اللهُ المؤمنين والمؤمنات جَنَّاتٍ ﴾ أي : أن لكل واحد جنة . ولكن الحق سبحانه وتعالى يقول في سورة الرحمن : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46]

وهنا لا بد أن ننتبه لمعطيات الألفاظ في سياقها ومقامها ؛ فسورة الرحمن لا تتكلم عن الإنس فقط ، وإنما تتكلم عن الإنس والجن . فسبحانه وتعالى يقول : ﴿ خَلَقَ الإنسان مِن صَلْصَالٍ كالفخار * وَخَلَقَ الجآن مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ [الرحمن : 14-15]

وكذلك قوله جل جلاله : ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثقلان ﴾ [الرحمن : 31]

إذن : فيكون للإنس جنة وللجن جنة ؛ لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : 46]

من خاف مقام ربه من الإنس له جنة ، ومن خاف مقام ربه من الجن له جنة .

(89/343)

ويمكن أن يكون المعنى أن لكل واحد جنتين ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى علم أزلاً ما سيصير إليه من أمر عباده من التقوى أو الفجور ، ولكنه تبارك وتعالى لم يخلق للمتقين جنات تكفيهم وحدهم ، أو يخلق للكفار ناراً تكفيهم وحدهم ، بل خلق لكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة جنة ، ولكل واحد من خلقه إلى أن تقوم الساعة ناراً ، فإذا دخل أهل الجنة الجنة ؛ بقيت الجنات التي خلقت ولم يدخلها أحد ؛ لأن أصحابها من أهل النار ، فيقوم الحق بتوزيعه على المؤمنين أصحاب الجنة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الجنة التي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الزخرف : 72]

أي : أنها لم تكن مخلوقة لكم ، ولكنكم ورثتموها ؛ لأن أصحابها من أهل النار .

ونزيد الأمر هنا توضيحاً ، فالقرآن الكريم له أسلوب مميز ؛ لأن الذي يتكلم هو الله سبحانه وتعالى . ولذلك فإن كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم يأتي مطابقاً للمعنى تماماً . وفي اللغة

، قبل أن تتكلم لا بد أن تكون عالماً بمعنى اللفظ . وأن يكون محدثك أيضاً عارفاً معناه حتى يستطيع أن يفهمك . فإذا قلت لإنسان مثلاً : أحضر لي كوباً من الماء لأشرب ، فلا بد أن يكون عارفاً لمعنى الماء ومعنى الكوب ، وإلا فإنه لن يفهم .

إذن : فبالتخاطب توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعندما اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فاعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوي ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

(90/343)

نقول لهم : إن الله موجود في كل لغة ؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك ؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله والستر لا يكون إلا لموجود

.

إذن : فبالتخاطب توجد المعاني أولاً ثم توجد لها الألفاظ ؛ ولذلك قبل أن يتم اختراع التليفزيون لم يكن المعنى موجوداً ، وعند اخترع وفهمنا معناه وضع له الاسم . فإذا وجدت لفظاً في اللغة ، فعلم أن المعنى قد وجد أولاً قبل أن يوضع اللفظ أو الاسم ، ولعل هذا هو أكبر دليل لغوي ضد من ينكرون وجود الواجد الأعلى .

نقول لهم : إن الله موجود في كل لغة ؛ وبما أن المعنى في اللغة يوجد أولاً . فوجود الله سبحانه وتعالى سابق لمعرفتنا باسمه سبحانه وتعالى ؛ لأن الاسم لا يمكن أن يوجد إلا بعد أن يوجد المعنى ، وما دمت قد نطقت بالاسم ، فهذا دليل على أن الله موجود . إذن : فقولك : إن الله غير موجود باطل ؛ لأنك ما دمت قلت : " الله " ، ووجد لفظ الجلالة في لغتك ؛ فلا بد أن الله سبحانه وتعالى موجود قبل وجود لفظ الجلالة . والكفر طرأ على اللفظ ، فحاول أن يستره ؛ ولذلك سمى الكفر ستراً لوجود الله . والستر لا يكون إلا لموجود .

إذن : فالذي كفر ، ستر موجوداً ؛ فأعطى دليل الإيمان ؛ لأنك أيها الكافر – والعياذ بالله – تعرف لفظ الله في لغتك ، ولو لم يكن الله موجوداً ما وُجد لفظ " الله " سبحانه وتعالى في اللغة .

إذن : فوجود الله سابق لمعرفتنا اسم الله ، ومحاولة ستر ذلك بالكفر إنما هي دليل على وجود الله ، لأنك لا تستر إلا ما هو موجود .

(91/343)

ولفظ الجنة في القرآن الكريم أطلق على معان كثيرة ، في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَابَ الجنة إِذْ أَقْسَمُواْ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴾ [القلم : 17]

وقوله جل جلاله : ﴿ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ . . . ﴾ [الكهف : 32]

إذن : فالجنة أطلقت في القرآن على المكان الذي فيه زروع وثمار وأشجار ، فهو يحجب من دخله ، أو يمنع الإنسان بالخير الذي في داخله من الحاجة للخروج إلى مكان آخر ؛ لأن فيه كل مقومات الحياة . وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يبشرنا بشيء في الآخرة ، لا بد أن يشبهه لنا بشيء نفهم معناه في الدنيا ؛ لأن اللغة مكونة من ألفاظ وأسماء سبقتها مَعَانٍ حتى نستطيع أن نفهمها ، ولذلك إياك أن تفهم أن جنة الدنيا هي جنة الآخرة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يستخدم اللفظ الذي تفهم أنت معناه . ولكن جنة الآخرة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ولكن من أين نأتي بالألفاظ التي يمكن أن تعبر لنا عن ذلك ؟ إن اللفظ لا يوجد إلا إذا كان المعنى موجوداً أولاً ، ومن يستطيع أن يأتي بلفظ لم تره عين ، ولا سمعته أذن ولا خطر على قلب بشر ؟ مستحيل ؛ لأن المعنى غير موجود .

ولذلك ينبهنا الحق سبحانه إلى هذه النقطة ، ويوضح لنا أنه يعطينا معنى تقريبيّاً حتى نستطيع أن نفهمه ؛ فيقول سبحانه وتعالى : ﴿ مَّثَلُ الجنة التي وُعِدَ المتقون . . . ﴾ [محمد : 15]

أي : أنها ليست هي ، ولكنه مثل فقط ؛ يقرب المعنى إلى ذهنك . خذ صورة من المجتمع الذي تعيش فيه ، أنت تحتاج إلى مسكن لتسكن وتستريح فيه من عناء الحياة . وهناك من عنده مسكن من حجرة واحدة ، فإذا ترقى يكون المسكن من حجرة وصالة أو حجرتين وصالة ، ثم بعد ذلك يزداد الرقي ، فيبحث عن شقة واسعة ، فإذا ارتقى كان له مسكن خاص (فيلا) ، فإذا ارتقى جعل حول مسكنه حديقة ، وهكذا يزداد الرقي .

(92/343)

إذن : فالمسألة لم تَعُدْ مكاناً تأوي إليه فقط ، بل ترتقي في الإيواء كلما ارتقيت في الحياة . فتتحقق لك المتعة في الإيواء ، وهذا موضوع آخر .

ولهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً ﴾ أي : هناك جنات وهناك مساكن ؛ لأن الإنسان يحب في بعض الأوقات أن يجلس بمفرده وحوله المتعة التي تخصه ، وفي أحيان أخرى يحب أن يجلس مع الناس في مكان جميل ؛ مثلما يحدث في الأعياد والمناسبات ، عندما نخرج إلى الحدائق والبساتين ، ونجلس معاً ، فكأن الجنات هي للرفاهية الزائدة ؛ عندما تحب أن تجتمع مع الناس ؛ أتمتع بها أنا وأنت وغيرنا . أما المساكن فهي للخصوصية . فيكون لكل واحد مكان خاص يجلس فيه ويتمتع بما حوله .

إذن : فالجنات صورة من البساتين ، ولكنها ليست مصنوعة بالأسباب ، بل هي من صناعة المسبب جل وعلا .

ونحن حينما نذهب إلى بيت إنسان ثري ، قد نجد أن للبيت حديقة ؛ يشرف عليها بستاني متمكن من عمله ؛ ويقوم بتنسيق الزهور والأشجار بشكل يناسب ثراء المالك . ويكون إعجابنا في هذه الحالة بالحديقة إعجاباً كبيراً ، بحيث نجلس فيها ، ونكره أن نغادرها ، فإذا كان هذا هو ما يحدث بقدرات البشر ، فكيف بهذه الحقائق التي صُنعت بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ وكيف يكون جمالها وحلاوتها والمتعة فيها ؟

(93/343)

إن الذي وعدنا بهذه الجنات هو الحق سبحانه وتعالى . وهو قادر على أن ينفذ ما وعدنا به ، من جنات فيها من الكماليات والرفاهية مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . وجعل هذه الجنات واسعة شاسعة ، فيها زروع وأزهار وأشكال ؛ تسرُّ العين بجمالها ، وتمتع اللمس بنعومتها ؛ وتملأ الأنوف برائحتها الزكية . ومن ميزات جمالها أن الأنهار تجري من خلالها ، ولكنها لا تجري من فوقها بل تجري من تحتها ، ومنابعها من مكان آخر ، أو تحتها ، ومنابعها ذاتية ، أي ينبع من نفس المكان . وكأن كل نهر ينبع من تحت جنة خاصة به . وإذا أردت أن تعرف جمال هذه الأنهار ؛ فهو جمال قد صنعه الحق سبحانه وتعالى .

وإذا كنا في حياتنا نرى أن لكل نهر شاطئين ، فإن أنهار الجنة تجري من غير شواطئ ؛ وإنما يمسكها الذي أمسك السماء أن تقع على الأرض ، ثم تجد الأنهار قد تشترك في المجرى ؛ نهر اللبن ، ونهر العسل ، ونهر الماء ، ونهر الخمر ، وكلها تجري في مجرى واحد ولكنها لا تختلط ببعضها البعض ، فكل منها منفصل ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو الصانع وتبارك من صنع .

ويعطينا سبحانه وتعالى بعد كل ذلك ، ميزة الخلود في هذه الجنات فيقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ ونحن نعلم أن المتعة في الدنيا قد توجد للإنسان ، ولكنها لا توجد خالدة أبداً ؛ فقد تزول عنك النعمة وتذهب المتعة ؛ كأن تصاب بكارثة مالية مثلاً أو تخسر خسارة كبيرة في

تجارتك أو غير ذلك ، وقد تزول أنت عن النعمة بالموت .

ولكنك في جنات الآخرة تستمتع بقدر ما فيها من كمال وجمال ، ويزيدك الله فيها بأن يعطيك الخلود ، فلا تفارق النعمة ولا تفارقك ؛ لأنه ليس هناك أغيار ، وليس هناك موت .

(94/343)

وكل إنسان في الدنيا يتمتع على قدر قدراته ، وتصورات الخلق لأنواع النعيم تختلف باختلاف بيئاتها ومقاماتها ، فقد تكون من الفلاحين ؛ وكل متعتك أن تجلس على مصطبة أمام بيتك ، وقد يكون عند إنسان آخر بيت فيه صالون كبير ، والثالث له بيت فيه عدة صالونات ، فكل واحد على قدر إمكاناته في الدنيا ، ولكننا في الآخرة نتمتع كلنا على قدر قدرات الحق سبحانه وتعالى ، ويكون متاعنا بقدرة لا تفوقها قدرة ، ويكون الجزاء بقدر ما فعلْتَ من خير في الدنيا ، واتبعت منهج الله .

إذن : فأنت الذي تحدد المساحة التي لك في الجنة ، وتحدد المسكن وأنواع النعيم بقدر عملك .

ثم ما الذي يهددك في نعيم الدنيا ؟

الذي يهدد الناس في الدنيا أحد شيئين : إما أن تزول عنهم النعمة فيفتقروا ، وإما أن يزولوا هم عن النعمة بالموت . ولكن نعمة الآخرة ليس فيها هذا التهديد . إنها النعمة الخالدة وأهل الجنة فيها خالدون . لذلك يقال : يا أهل الجنة ، خلود بلا موت ونعيم بلا بؤس .

ولقد زاد الحق تبارك وتعالى في وصف الخلود فقال ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ والخلود بقاء طويل جداً ، والأبدية لا تنتهي . وسبحانه حين تكلم عن الخلود استثنى فيه ، فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين سُعِدُواْ فَفِي الجنة خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ . . . ﴾ [هود : 108]

أيُّ سماء وأيُّ أرض تلك التي تحدَّث عنها الحق سبحانه وتعالى ؟ هل هي السماء التي نراها ؟ إننا نعلم أن الأرض التي نعيش عليها ستبدل وأن السموات ستمور . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يتحدث عن السموات والأرض بالنسبة للآخرة . فهو يتحدث عن السموات والأرض المبدلتين ؛ مصداقاً لقوله تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات وَبَرَزُواْ للَّهِ الواحد القَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : 48]

(95/343)

إذن : فما دامت السموات والأرض ستتبدل ، فالله سبحانه وتعالى يحدثنا عن السموات والأرض في الآخرة ؛ غير حديثه عن السموات والأرض في الدنيا . ولكن بعض السطحيين يقول : إن القرآن يتحدث عن بقاء المؤمنين في الجنة ما دامت السموات والأرض ؛ ثم يقول :

﴿ إِذَا الشمس كُوِّرَتْ * وَإِذَا النجوم انكدرت * وَإِذَا الجبال سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : 1-3]

فكأن هذه الأرض التي نعيش فيها ، والسماء التي تظلنا ستُدمَّر يوم القيامة ، فلماذا يقول الحق : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض . . . ﴾ [هود : 108]

فأين هو الخلود إذن ؟

نقول لهؤلاء : اقرأوا القرآن كله لتعرفوا أن الحق سبحانه وتعالى قال :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأرض غَيْرَ الأرض والسموات . . . ﴾ [إبراهيم : 48]

إذن : فهذه الأرض هي أرض معاش وما فوقها من سماء هي سماء معاش ؛ ستتبدل بأرض مَعَاد ؛ لأن الأرض التي نعيش عليها فيها مقومات الحياة بالأسباب ، تزرع وتحصد وتصنع ، أما في الآخرة فحياتك كلها بدون أسباب منك ؛ ولذلك ساعة يخطر الشيء على بالك تجده أمامك دون أن تتحرك أو تحرث أو تزرع أو تتحمل أي مشقة . أما هنا في هذه الدنيا ، الأرض أرض المعاش تنعم فيها وتأخذ منها بقدر إمكاناتك ، ولكن أرض المعاد تأخذ منها بإمكانات الحق سبحانه وتعالى . ومهما ارتقت الدنيا وارتقت أسبابها ، لا يمكن أن

تصل إلى أنك يخطر على بالك الشيء فتجده أمامك . وسبحانه يقول : ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السماوات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ ﴾ فكأنه استثنى بعض الناس من الخلود .

﴿ فَأَمَّا الذين شَقُواْ فَفِي النار لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السموات والأرض إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ . . . ﴾ [هود : 106-107]

(96/343)

أي : أن الجنة والنار لهما خطان ، وبمجرد أن يحاسب الإنسان ، إما إلى الجنة وإما إلى النار ، فإن كان الذي يحاسب من الكفار أو المنافقين ، يكون بدء خلوده من أول لحظة دخل فيها النار ويبقى فيها خالداً . وأما إن كان الذي يُحاسب مؤمناً عاصياً ، فهو يدخل النار على قدر ما عمل من السيئات ، ثم بعد ذلك يدخل الجنة .

إذن : فالذي دخل النار أولاً حالتان : حالة أبدية وهم المنافقون والكفار ، وحالة مؤقتة وهم عصاة المؤمنين ، والخلود في النار بالنسبة لعصاة المؤمنين ناقص من الآخر ، أما الذين عملوا الصالحات فهم يدخلون الجنة ابتداء وخلوداً ، أما عصاة المؤمنين فلا يدخلون إلا بعد أن يناولوا جزاءهم من العقاب . وبذلك يكون خلود عصاة المؤمنين في الجنة ناقصاً من البداية ؛ لأنهم لم يدخلوها بعد الحساب مباشرة ، وخلودهم في النار ناقص من الآخر ؛

لأنهم لم يخلدوا فيها :

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ أي : أن مساكن المؤمنين في الجنة ستكون أيضاً جنات خاصة بها ، وكلمة ﴿ عَدْنٍ ﴾ ؛ مادتها العين والدال والنون معناها الإقامة . و " عَدَنَ في المكان " ، أي أقام فيه . إذن : فهي جنات إقامة ؛ لأن هناك فارقاً بين أن تسكن في فندق مثلاً ، أو في مكان مؤقت ، وبين أن تقيم خالداً .

وحين يعطي الحق سبحانه للمؤمن بُشْرى بأشياء ، فهو يريد دائماً ألا ننسى أنها منسوبة إلى قدرته سبحانه ، والشيء يتناسب مع قدرة صاحبه أو فاعله . فالرجل الفقير حين يبني مسكناً يكون المسكن متواضعاً ؛ مجرد حوائط تستر الإنسان ، أما صاحب الإمكانات الضخمة فيبني قصراً كبيراً ، فإن كان واجد الوجود الأعلى هو الذي صنع ، فكل شيء إنما يتم على مقتضى قدرته وإمكاناته ؛ فهو الذي يمسك الأمور كلها ، ويأتي تنفيذه لأي شيء وفق ما يريد .

(97/343)

إذن : فالخلود في جنات عدن خلود دائم ، وهي جنات يعلو فيها التنعيم لدرجة من علوها لا يحب الإنسان أن يتركها أبداً ؛ لأنها أعلى مراتب الجنة ولا يوجد أحسن منها .

والإنسان حينما يكون بمكان فإنه لا ينتقل منه إلا إذا زهد ما فيه ، فلو كان في جنات عدن مما يُزْهَدُ فيه بعد فترة ما وصفها الله بهذا الوصف .

ولكي يصل الإنسان إلى النعيم لابد من موجد لهذا النعيم وهو الله سبحانه وتعالى ، وما يتمتع الإنسان به وهو الجنة ، والمنْعَمُ عليهم بالنعمة ، وهم المؤمنون والمؤمنات . ومن أطاع الله طمعاً في الحصول على نعيم الله في الآخرة ، يأخذ هذا النعيم . والذي أطاع الله لذات الله ، ولأنه سبحانه وتعالى يستحق أن يعبد لذاته ويطاع ، يكون في الآخرة مع التعظيم والتكريم والمحبة واللقاء بالمُنْعِم .

إذن : فكل إنسان لما عمل له ، فإذا زادت عبادتك عما فرض الله عليك ، وأحببت أن تكون دائماً في لقاء مع الله ، بأن تقوم الليل وتتهجد ، وتقرأ القرآن وتصلي والناس نيام ، وتتقن العمل الذي ترتقي به حياتك وحياة غيرك ، وتفعل ذلك محبة في الله الذي يستحق التعظيم ، فأنت تستحق المنزلة الأعلى ، وهي أن تكون في معيَّة الله . ويقول سبحانه : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : 22-23]

والحق سبحانه وتعالى يتجلى على أهل الجنة فترات ، ويتجلى على أهل محبوبية ذاته دائماً ، وعندما يتجلى الحق سبحانه على أهل الجنة ويقول : " يا أهل الجنة . فيقولون : لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا مالم تعط أحداً من خلقك . فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون :

يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً "

(98/343)

ولذلك نجد أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تحدث عن المتعة والنعيم والجنات التي تجري من تحتها الأنهار ، والمساكن الطيبة التي في جنات عدن . أوضح سبحانه أن هناك شيئاً أكبر من هذا كله ، وهو رضوان الله في قوله تعالى :

﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ فالذي عمل للجنة يعطيه الله الجنة ، والذي عمل لذات الله يعيش في معية الله سبحانه .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ فما هو المقصود بالفوز العظيم ؟ لقد تقدمت أشياء كثيرة ؛ تقدمت جنات تجري من تحتها الأنهار ، وجنات عدن ، ومساكن طيبة ، ورضوان الله ، فأيها هو الفوز العظيم ؟

نقول : كلها فوز عظيم ، فالذي فاز بالنعيم الأول في الجنة أخذ فوزاً عظيماً ، والذي فاز بالمساكن الطيبة في جنات عدن أخذ فوزاً عظيماً ، والذي أخذ رضوان الله يكون قد

أخذ الفوز الكبير والعظيم .

ونلحظ أن القرآن حين يعرض منهج الله ، فهو لا يتحدث عن الجزاء في باب منفصل ، والمنهج في باب منفصل ، بل يجمع بين المنهج والجزاء بين الوعد والوعيد ؛ لأنه ساعة يصف لي الجنة وما فيها من نعيم ، لابد أن ينبهني إلى المنهج الذي يوصلني إليها . وحين يعطيني صورة من المنزلة العالية التي تنتظر المؤمن في الآخرة ، لا بد أن ينبهني – أيضاً – إلى العذاب الذي ينتظر المنافق والكافر ؛ حتى أتجنب الطريق الذي يؤدي بي إلى النار والعياذ بالله . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/343)

" فصل "

قال السيوطى :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) ﴾

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ يدعون إلى الإيمان بالله ورسوله والنفقات في سبيل الله وما كان من طاعة الله ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ ينهون عن الشرك والكفر ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فريضة من فرائض الله كتبها الله على المؤمنين .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ قال : اخاؤهم في الله يتحابون بجلال الله والولاية لله .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج والطبراني عن سلمان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة " وأخرجه ابن أبي شيبة عن أبي عثمان مرسلاً .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي موسى " أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إن المعروف والمنكر خليقتان ينصبان يوم القيامة ، فأما المعروف فيبشر أهله ويعدهم الخير ، وأما المنكر فيقول لأصحابه : إليكم وما تستطيعون له إلا لزوماً " .

(100/343)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا عن سعيد بن المسيب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " رأس العقل بعد الإِيمان بالله مداراة الناس ، ولن يهلك رجل بعد مشورة ، وأهل المعروف في الدنيا أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة ، وأهل المنكر في الدنيا أهل المنكر في الآخرة ، أن الله ليبعث المعروف يوم القيامة في صورة الرجل المسافر ، فيأتي صاحبه إذا انشق قبره فيمسح عن وجهه التراب ويقول : ابشر يا ولي الله بأمان الله وكرامته ، لا يهولنَّك ما ترى من أهوال يوم القيامة . فلا يزال يقول له : احذر هذا واتق هذا يسكن بذلك روعه حتى يجاوز به الصراط ، فإذا جاوز به الصراط عدل ولي الله إلى منازله في الجنة ، ثم يثنى عنه المعروف فيتعلق به فيقول : يا عبد الله من أنت خذلني الخلائق في أهوال القيامة غيرك فمن أنت ؟ فيقول له : أما تعرفني ؟ ! فيقول : لا . فيقول : أنا المعروف الذي عملته في الدنيا ، بعثني الله خلقاً لأجازيك به يوم القيامة " .

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم ، ولا تطلبوه من القاسية قلوبهم ، فإن اللعنة تنزل عليهم ، يا علي إن الله خلق المعروف وخلق له أهلاً ، فحببه إليهم وحبب

إليهم فعاله ، ووجه إليهم طلابه كما وجه الماء في الأرض الجدبة لتحيا به ويحيى به أهلها ، إن أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة " .

وأخرج الحاكم وصححه وضعفه الذهبي عن علي قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " اطلبوا المعروف من رحماء أمتي تعيشوا في أكنافهم " .

(101/343)

وأخرج الحاكم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " صنائع المعروف تقي مصارع السوء والآفات والهلكات ، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا كان يوم القيامة جمع الله الأوّلين والآخرين ، ثم أمر منادياً ينادي : ألا ليقم أهل المعروف في الدنيا . فيقومون . حتى يقفوا بين يدي الله ، فيقول الله : أنتم أهل المعروف في الدنيا ؟ فيقولون : نعم . فيقول : وأنتم أهل المعروف في الآخرة فقوموا مع الأنبياء والرسل فاشفعوا لمن أحببتم فادخلوه الجنة حتى تدخلوا عليهم المعروف في الآخرة كما أدخلتم عليهم المعروف في الدنيا " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب قضاء الحوائج عن بلال قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل معروف صدقة ، والمعروف يقي سبعين نوعاً من البلاء ويقي ميتة السوء ، والمعروف والمنكر خلقان منصوبان للناس يوم القيامة ، فالمعروف لازم لأهله والمنكر لازم لأهله ، يقودهم ويسوقهم إلى النار " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن أحب عباد الله إلى الله عز وجل من حبَّب إليه المعروف وحبَّب إليه فعاله " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله جعل للمعروف وجوهاً من خلقه ، وحبب إليهم فعاله ووجه طلاب المعروف إليهم ، ويسر عليهم إعطاءه كما يسر الغيث إلى الأرض الجدبة ليحييها ويحيي به أهلها ، وإن الله جعل للمعروف أعداء من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله ، وحظر عليهم اعطاءه كما يحظر الغيث عن الأرض الجدبة ليهلكها ويهلك بها أهلها ، وما يعفو الله أكثر " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " عليكم باصطناع المعروف فإنه يمنع مصارع السوء ، وعليكم بصدقة السر فإنها تطفىء غضب الله عز وجل " .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل معروف صدقة" .

وأخرج ابن أبي شيبة والقضاعي والعسكري وابن أبي الدنيا من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

"كل معروف صدقة ، وكل ما أنفق الرجل على نفسه وأهله كتب له به صدقه ، وما وقى به عرضه كتب له به صدقة ، وقد قيل لمحمد بن المنكدر ما يعني ما وقى به عرضه ؟ قال : الشيء يعطى الشاعر وذا اللسان المتقى" .

وأخرج ابن أبي الدنيا والبزار والطبراني عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل معروف صنعته إلى غني أو فقير فهو صدقة" .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل معروف يصنعه أحدكم إلى غني فقير فهو صدقة" .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كل معروف صدقة" .

وأخرج ابن أبي الدنيا عن جابر الجعفي رفعه قال : المعروف خلق من خلق الله تعالى كريم .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن الحسن قال : سألت عمران بن حصين وأبا هريرة عن

تفسير ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ قالا : على الخبير سقطت . سألنا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال " قصر من لؤلؤة في الجنة ، في ذلك القصر سبعون داراً من ياقوتة حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً ، على كل سرير سبعون فراشاً من كل لون ، على كل فراش امرأة من الحور العين ، في كل بيت سبعون مائدة ، في كل مائدة سبعون لوناً من كل طعام ، في كل بيت سبعون وصيفاً ووصيفة ، فيعطى المؤمن من القوة في كل غداة ما يأتي على ذلك كله " .

(103/343)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سليم بن عامر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " الجنة مائة درجة : فأولها من فضة أرضها فضة ، ومساكنها فضة ، وآنيتها فضة ، وترابها مسك . والثانية من ذهب أرضها ذهب ، ومساكنها ذهب ، وآنيتها ذهب ، وترابها مسك . والثالثة لؤلؤ أرضها لؤلؤ ، وآنيتها لؤلؤ ، وترابها مسك . وسبع وتسعون بعد ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي حازم قال : إن الله ليعد للعبد من عبيده في الجنة لؤلؤة مسيرة أربعة برد ، أبوابها وغرفها ومغاليقها ليس فيها قضم ولا قصم ، والجنة مائة درجة : فثلاث

منها ورق وذهب ولؤلؤ وزبرجد وياقوت ، وسبع وتسعون لا يعلمها إلا الذي خلقها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : إن أدنى أهل الجنة منزلة رجل له ألف قصر ، ما بين كل قصرين مسيرة سنة ، يرى أقصاها كما يرى أدناها ، في كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعو شيئاً إلا أتى به .

وأخرج ابن أبي شيبة عن مغيث بن سمي قال : إن في الجنة قصوراً من ذهب ، وقصوراً من فضة ، وقصوراً من ياقوت ، وقصوراً من زبرجد ، جبالها المسك ، وترابها الورس والزعفران .

وأخرج ابن أبي شيبة عن كعب قال : إن في الجنة ياقوتة ليس فيها صدع ولا وصل ، وفيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألفاً من الحور العين لا يدخلها إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد ، أو إمام عادل ، أو محكم في نفسه . قيل لكعب : وما المحكم في نفسه ؟ قال : الرجل يأخذه العدوّ فيحكمونه بين أن يكفر أو يلزم الإِسلام فيقتل ، فيختار أن يلزم الإِسلام .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ جنات عدن ﴾ قال : معدن الرجل الذي يكون فيه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ جنات عدن ﴾ قال : معدنهم فيها .

وأخرج ابن أبي حاتم عن خالد بن معدان قال : إن الله خلق في الجنة جنة عدن دملج لؤلؤة ، وغرس فيها قضيباً ثم قال لها : امتدي حتى أرضى . ثم قال لها : أخرجي ما فيك من الأنهار والثمار ففعلت . فقالت ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾ [المؤمنون : 1] .

وأخرج أبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ يعني إذا أخبروا أن الله عنهم راض فهو أكبر عندهم من التحف والتسليم .

وأخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إذا دخل أهل الجنة الجنة قال الله : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربنا وهل بقي شيء إلا قد أنلتناه ؟ ! فيقول : نعم . رضائي فلا أسخط عليكم أبداً " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي عبد الملك الجهني قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لنعيم أهل الجنة برضوان الله عنهم أفضل من نعيمهم بما في الجنان " .

وأخرج أبو الشيخ عن شمر بن عطية قال : يجيء القرآن يوم القيامة في صورة الرجل الشاحب حين ينشق عنه قبره فيقول : أبشر بكرامة الله تعالى . قال : فله حلة الكرامة . فيقول : يا رب زدني . فيقول : رضواني ورضوان من الله أكبر .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل

الجنة . فيقولون : لبيك يا ربنا وسعديك والخير في يديك . فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ربنا ، وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعطه أحداً من خلقك ؟ فيقول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟ ! قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً " .

وأخرج أحمد في الزهد عن الحسن قال : بلغني أن أبا بكر الصديق كان يقول في دعائه : اللهمَّ أسألك الذي هو خير في عاقبة الخير ، اللهمَّ اجعل آخر ما تعطيني الخير رضوانك والدرجات العلى في جنات النعيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(105/343)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾

وقوله تعالى : ﴿ خَالِدِينَ ﴾ : حالٌ مقدرة كما تقدم . والعَدْن : الإِقامة يُقال : عَدَنَ بالمكان يَعْدِن عَدْناً أي ثَبَتَ واستقرَّ ، ومنه المَعْدِن لمُسْتَقَرِّ الجواهر ويُقال : عَدَن عُدُوناً فله مصدران ، هذا أصلُ هذه اللفظة لغةً ، وفي التفسير ذكروا لها معانيَ كثيرةً . وقال

الأعشى في معنى الإقامة :

2516 وإن يَسْتَضيفوا إلى حِلْمِهِ . . . يُضافُوا إلى راجحٍ قد عَدَنْ

أي : ثَبَتَ واستقرَّ ، ومنه " عَدَن " لمدينة باليمن لكثرة المقيمين بها .

قوله : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ ، التكثير يفيد التعليل ، أي : أقلُّ شيء من الرضوان أكبر من جميع ما تقدَّم مِنَ الجنَّات ومساكنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 86 ﴾

(106/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72) ﴾

وَعَدَهُم جميعاً الجنةَ ، ومساكنَ طيبة ، ولا يطيب المَسْكَنُ إلا برؤيةِ المحبوب ، وكلُّ مُحِبٍ يطيب مَسْكَنُه برؤية محبوبه ، ولكنهم مختلفون في الهمم ؛ فَمِنْ مربوطٍ بحظِّ مردودٍ إلى الخَلْق ، ومِنْ مجذوب بحقِّ موصول بالحق ، وفي الجملة كما يقال :

أجيرانَنَا ما أوحشَ الدارَ بَعْدَكُم . . . إذا غِبْتُمُ عنها ونحن حضورُ !

ويقال قومٌ يطيب مسكنُهم بوجودِ عَطَائِه ، وقومٌ يطيب مسكنُهم بشهود لقائه ، وأنشدوا :

وإنّي لأَهْوى الدارَ لا يستقرُّ لي . . . بها الودُّ إلا أنَّها من دِيارِكا

ثم قال : ﴿ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ : وأمارةُ أهلِ الرضوانِ وجدانُ طَعْمِه ؛ فهم في روْح الأُنسِ ، وروْحِ الأُنْسِ لا يتقاصر عن راحة دار القُدْس بل هو أتمُّ وأعظم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 46.45 ﴾

(107/343)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ثبتت موالاة المؤمنين ومقاطعتهم للمنافقين والكافرين ، وكان ما مضى من الترغيب والترهيب كافياً في الإنانة ، وكان من لم يرجع بذلك عظيم الطغيان غريقاً في الكفران ، أتبع ذلك الأمر بجهادهم بما يليق بعنادهم فقال آمراً لأعظم المتصفين بالأوصاف المذكروة

مفخماً لمقداره بأجل أفراد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ﴿ يا أيها النبي ﴾ أي العالي المقدار بما لا يزال يتجدد له منا من الأنباء وفينا من المعارف ؛ ولما كان الجهاد أعرف في المصارحين ، وكانوا أولى به لشدة شكائمهم وقوة نفوسهم وعزائمهم بدأ بهم فقال ؛ ﴿ جاهد الكفار ﴾ أي المجاهرين ﴿ والمنافقين ﴾ أي المسائرين كلاًّ بما يليق به من السيف واللسان .

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ مطبوعاً على الرفق موصى به ، قال تعالى : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أي في الجهادين ولا تعاملهم بمثل ملاعاملتهم به من اللين عند استئذانهم في العقود ، وهذا بخلاف ما مضى في وعيد المنافقين حيث قدمهم فقال ﴿ المنافقين والمنافقات والكفار ﴾ فقدم في كل سياق الأليق به ؛ ولما كان المعنى : فإنك ظاهر عليهم وقاهر لهم وهم طعام السيف وطوع العصا ، عطف عليه قوله : ﴿ ومأواهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 360 ﴾

(108/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

واعلم أنا ذكرنا أنه تعالى لما وصف المنافقين بالصفات الخبيثة وتوعدهم بأنواع العقاب ، وكانت عادة الله تعالى في هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد ، لا جرم ذكر عقيبه وصف المؤمنين بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ، ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجات العالية ، ثم عاد مرة أخرى إلى شرح أحوال الكفار والمنافقين في هذه الآية فقال : ﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين ﴾ وفي الآية سؤال ، وهو أن الآية تدل على وجوب مجاهدة المنافقين وذلك غير جائز ، فإن المنافق هو الذي يستر كفره وينكره بلسانه ومتى كان الأمر كذلك لم يجز محاربته ومجاهدته .

واعلم أن الناس ذكروا أقوالاً بسبب هذا الإشكال .

فالقول الأول : أنه الجهاد مع الكفار وتغليظ القول مع المنافقين وهو قول الضحاك .

وهذا بعيد لأن ظاهر قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ يقتضي الأمر بجهادهما معاً ، وكذا ظاهر قوله : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ راجع إلى الفريقين .

القول الثاني : أنه تعالى لما بين للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحكم بالظاهر ، قال عليه السلام : " نحن نحكم بالظاهر " والقوم كانوا يظهرون الإسلام وينكرون الكفر ، فكانت المحاربة معهم غير جائزة" .

والقول الثالث : وهو الصحيح أن الجهاد عبارة عن بذل الجهد ، وليس في اللفظ ما يدل على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر فنقول : إن الآية تدل على وجوب الجهاد مع الفريقين ، فأما كيفية تلك المجاهد فلفظ الآية لا يدل عليها ، بل إنما يعرف من دليل آخر . وإذا ثبت هذا فنقول : دلت الدلائل المنفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ، ومع المنافقين بإظهار الحجة تارة ، وبترك الرفق ثانياً ، وبالانتهار ثالثاً .

(109/343)

قال عبد الله في قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال تارة باليد ، وتارة باللسان ، فمن لم يستطع فليكشر في وجهه ، فمن لم يستطع فبالقلب ، وحمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

قال القاضي : وهذا ليس بشيء ، لأن إقامة الحد واجبة على من ليس بمنافق ، فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق ، ثم قال : وإنما قال الحسن ذلك ، لأحد أمرين ، إما لأن كل فاسق منافق ، وإما لأجل أن الغالب ممن يقام عليه الحد في زمن الرسول عليه السلام كانوا منافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 107 . 108 ﴾

(110/343)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدْ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : [الْمُجَاهَدَةُ] : فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : جَاهِدْهُمْ بِيَدِك ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِك ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَطِّبْ فِي وُجُوهِهِمْ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : جَاهِدْ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ ، وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ .

الثَّالِثُ : قَالَ الْحَسَنُ : جَاهِدْ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ ، وَالْمُنَافِقِينَ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ .

وَاخْتَارَهُ قَتَادَةُ ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مَنْ يُصِيبُ الْحُدُودَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ مَا تَقَدَّمَ ، فَأَشْكَلَ ذَلِكَ وَاسْتَبْهَمَ ، وَلَا أَدْرِي صِحَّةَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ فِي السَّنَدِ .

أَمَّا الْمَعْنَى فَإِنَّ مِنْ الْمَعْلُومِ فِي الشَّرِيعَةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُجَاهِدُ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، حَسَبَ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ فَكَانَ مَعَ عِلْمِهِ بِهِمْ يُعْرِضُ عَنْهُمْ ، وَيَكْتَفِي بِظَاهِرِ إِسْلَامِهِمْ ، وَيَسْمَعُ أَخْبَارَهُمْ فَيُلْغِيهَا بِالْبَقَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَانْتِظَارِ الْفَيْئَةِ إِلَى الْحَقِّ بِهِمْ ، وَإِبْقَاءً عَلَى قَوْمِهِمْ ، لِئَلَّا تَثُورَ نُفُوسُهُمْ عِنْدَ قَتْلِهِمْ ، وَحَذَرًا مِنْ سُوءِ الشُّنْعَةِ فِي أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ ؛ فَكَانَ لِمَجْمُوعِ هَذِهِ الْأُمُورِ يَقْبَلُ ظَاهِرَ إِيمَانِهِمْ ، وَبَادِئَ صَلَاتِهِمْ ، وَغَزْوَهُمْ ، وَيَكِلُ سَرَائِرَهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ، وَتَارَةً كَانَ يَبْسُطُ لَهُمْ وَجْهَهُ الْكَرِيمَ ، وَأُخْرَى كَانَ يُظْهِرُ التَّغْيِيرَ عَلَيْهِمْ .

وَأَمَّا إِقَامَةُ الْحُجَّةِ بِاللِّسَانِ فَكَانَتْ دَائِمَةً ، وَأَمَّا قَوْلُ مَنْ قَالَ : إِنَّ جِهَادَ الْمُنَافِقِينَ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ فِيهِمْ لِأَنَّ أَكْثَرَ إِصَابَةِ الْحُدُودِ كَانَتْ عِنْدَهُمْ ، فَإِنَّهُ دَعْوَى لَا بُرْهَانَ عَلَيْهَا ، وَلَيْسَ الْعَاصِي بِمُنَافِقٍ ، إِنَّمَا الْمُنَافِقُ بِمَا يَكُونُ فِي قَلْبِهِ مِنْ النِّفَاقِ كَامِنًا ، لَا بِمَا تَتَلَبَّسُ بِهِ الْجَوَارِحُ ظَاهِرًا ، وَأَخْبَارُ الْمَحْدُودِينَ يَشْهَدُ مَسَاقُهَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا مُنَافِقِينَ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ : الْغِلْظَةُ نَقِيضُ الرَّأْفَةِ ، وَهِيَ شِدَّةُ الْقَلْبِ وَقُوَّتُهُ عَلَى إِحْلَالِ الْأَمْرِ بِصَاحِبِهِ .

وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي اللِّسَانِ .

؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ وَلَا يُثَرِّبْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(112/343)

وقال السمرقندى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

يعني : جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالقول الشديد .

قال ابن مسعود في قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال : جاهد بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فبقلبك والقه بوجه مكفهر ، وعن الحسن قال : جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحدود ، يعني : أقم عليهم حدود الله .

﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : أشدد عليهم ، يعني : على الفريقين جميعاً في المنطق .

ثم بيَّن مرجعهم جميعاً في الآخرة وقال : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ ، يعني : مصيرهم ومآلهم إلى جهنم ، ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ الذي صاروا إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ﴾

بالسيف والقتال ﴿ والمنافقين ﴾ . اختلفوا في صفة جهاد المنافقين ، قال ابن مسعود : بيده فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فإن لم يستطع فاكفهر في وجهه . قال ابن عباس : باللسان وشدة الزجر بتغليظ الكلام ، قال الحسن وقتادة : بإقامة الحدود عليهم ، ثم قال ﴿ وَمَأْوَاهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ قال [ابن مسعود وابن عباس] وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو [والصلح] والصفح . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(113/343)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

أما جهاد الكفار فبالسيف وأما جهاد المنافقين ففيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : جهادهم بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه وقلبه ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجوههم ، قاله ابن مسعود .

والثاني : جهادهم باللسان ، وجهاد الكفار بالسيف ، قاله ابن عباس .

والثالث : أن جهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قاله الحسن وقتادة . وكانوا أكثر من يصيب الحدود .

﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : تعجيل الانتقام منهم .

والثاني : ألا يصدق لهم قولاً ، ولا يبر لهم قسماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(114/343)

وقال ابن عطية :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

قوله ﴿ جاهد ﴾ مأخوذ من بلوغ الجهد وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة ، وتتنوع بحسب المجاهد فجهاد الكافر المعلن بالسيف ، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف والاكفهرار في وجهه ، ونحو ذلك ، ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله صلى الله عليه وسلم " والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله " ، فجهاد النفس إنما هو مصابرتها باتباع الحق وترك الشهوات ، فهذا الذي يليق بمعنى هذه الآية لكنا نجلب قول المفسرين نصاً لتكون

معرضة للنظر ، قال الزجّاج : وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود : أمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف ، وأبيح له فيها قتل المنافقين ، قال ابن مسعود : إن قدر وإلا فباللسان وإلا فبالقلب والاكفهرار في الوجه .

قال القاضي أبو محمد : والقتل لا يكون إلا مع التجليح ومن جلح خرج عن رتبة النفاق ، وقال ابن عباس : المعنى " جاهد المنافقين " باللسان ، وقال الحسن بن أبي الحسن : المعنى جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، قال : وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين .

(115/343)

قال القاضي أبو محمد : ووجه ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم المنافقين بالمدينة أنهم لم يكونوا مجلحين بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام ، فكان في تركهم إبقاء وحياطة للإسلام ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أن محمداً صلى الله عليه وسلم يقتل من يظهر الإسلام ، وقد أوجبت هذا المعنى في صدر سورة البقرة ، ومذهب الطبري أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعرفهم ويسترهم ، وأما قوله تعالى : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ فلفظة عامة تتصرف الأفعال والأقوال واللحظات ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ولو كنت فظاً

غليظ القلب ﴾ [آل عمران : 159] ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب : أنت أفظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى الغلظ خشن الجانب فهي ضد قوله تعالى : ﴿ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ﴾ [الشعراء : 215] ثم جرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم ، والمعنى هم أهل لجميع ما أمرت أن تفعل بهم ، و" المأوى " حيث يأوي الإنسان ويستقر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(116/343)

وقال ابن الجوزى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ أما جهاد الكفار ، فبالسيف وفي جهاد المنافقين قولان .

أحدهما : أنه باللسان ، قاله ابن عباس ، والحسن ، والضحاك ، والربيع بن أنس .

والثاني : جهادهم باقامة الحدود عليهم ، روي عن الحسن ، وقتادة .

فإن قيل : إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر بجهادهم وهو يعلم أعيانهم ،

فكيف تركهم بين أظهر أصحابه فلم يقتلهم ؟ .

فالجواب : أنه إنما أُمر بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام عليها ، فأما من إذا أُطلع على كفره ، أنكر وحلف وقال : إني مسلم ، فانه أُمر أن يأخذه بظاهر أمره ، ولا يبحث عن سِرّه .

قوله تعالى : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ قال ابن عباس : يريد : شدة الانتهار لهم ، والنظر بالبغضة والمقت .

وفي الهاء والميم من "عليهم" قولان .

أحدهما : أنه يرجع إلى الفريقين ، قاله ابن عباس .

والثاني : إلى المنافقين ، قاله مقاتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(117/343)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

فيه مسألتان :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبي جَاهِدِ الكفار ﴾ الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم

وتدخل فيه أُمّته من بعده .

قيل : المراد جاهد بالمؤمنين الكفارَ .

وقال ابن عباس : أمر بالجهاد مع الكفار بالسيف ، ومع المنافقين باللسان وشدّة الزجر والتغليظ .

ورُوي عن ابن مسعود أنه قال : جاهد المنافقين بيدك ، فإن لم تستطع فبلسانك ، فإن لم تستطع فاكْفَهِرّ في وجوههم .

وقال الحسن : جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم وباللسان واختاره قتادة وكانوا أكثر من يصيب الحدود .

ابن العربيّ : "أما إقامة الحجة باللسان فكانت دائمة ، وأما بالحدود لأن أكثر إصابة الحدود كانت عندهم فدعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامِناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

الثانية قوله تعالى : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ الغِلظ : نقيض الرأفة ، وهي شدّة القلب على إحلال الأمر بصاحبه .

وليس ذلك في اللسان ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " إذا زنت أَمَة أحدكم فلْيجلدها الحدّ ولا يُثَرِّب عليها " ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القلب لانْفَضُّوا

مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : 159] .

ومنه قول النِّسوة لعمر : أنت أفظّ وأغلظ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومعنى الغِلظ خشونة الجانب .

فهي ضدّ قولِه تعالى : "واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين" .

﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] .

وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(118/343)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾

يعني بالسيف والمحاربة والقتال ﴿ والمنافقين ﴾ يعني وجاهد المنافقين واختلفوا في صفة جهاد المنافقين وسبب هذا الاختلاف أن المنافق هو الذي يبطن الكفر ويظهر الإسلام ولما كان الأمر كذلك لم تجز مجاهدته بالسيف والقتال لإظهار الإسلام فقال ابن عباس : أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمداً (صلى الله عليه وسلم) بجهاد الكفار بالسيف والمنافقين

باللسان وإذهاب الرفق عنهم وهذا قول الضحاك أيضاً وقال ابن : مسعود بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه .

وقال الحسن وقتادة : بإقامة الحدود عليهم بعين إذا تعاطوا أسبابها وهذا القول فيه بعد لأن إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق وإنما قال الحسن وقتادة وذلك لأن غالب من كان يتعاطى أسباب الحدود فتقام عليهم في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) المنافقون .

قال الطبري : وأولى الأقوال قول ابن مسعود لأن الجهاد عبارة عن بذل الجهد وقد دلت الآية على وجوب جهاد المنافقين وليس في الآية ذكر كيفية ذلك الجهاد فلا بد من دليل آخر وقد دلت الدلائل المنفصلة أن الجهاد مع الكفار إنما يكون بالسيف ومع المنافقين بإظهار الحجة عليهم تارة وبترك الرفق بهم تارة وبالانتهار تارة وهذا هو قول ابن مسعود ﴿ واغلظ عليهم ﴾ يعني شدد عليهم بالجهاد والإرهاب ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ بمعنى أن جهنم مسكنهم وبئس المصير مصيرهم إليها .

فإن قلت كيف ترك النبي (صلى الله عليه وسلم) بين أظهر أصحابه مع علمه بهم وبحالهم .

قلت : إنما أمر الله نبيه سيدنا محمداً (صلى الله عليه وسلم) بقتال من أظهر كلمة الكفر وأقام على إظهارها .

(119/343)

فأما من تكلم بالكفر في السر فإذا اطلع عليه أنكره ورجع عنه وقال : إني مسلم فإنه يحكم بإسلامه في الظاهر في حقن دمه وماله وولده وإن كان معتقداً غير ذلك في الباطن لأن الله سبحانه وتعالى أمر بإجراء الأحكام على الظواهر فلذلك أجرى النبي (صلى الله عليه وسلم) المنافقين على ظواهرهم ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه وتعالى لأنه العالم بأحوالهم وهو يجازيهم في الآخرة بما يستحقون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(120/343)

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير ﴾ لما ذكر وعيد غير المؤمنين وكانت السورة قد نزلت في المنافقين بدأ بهم في ذلك بقوله : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ ولما ذكر أمر الجهاد ، وكان الكفار غير المنافقين أشد شكيمة وأقوى أسباباً في القتال وإنكاء بتصديهم للقتال ، قال : جاهد

الكفار والمنافقين فبدأ بهم .

قال ابن عباس وغيره : جاهد الكفار بالسيف ، والمنافقين باللسان .

وقال الحسن وقتادة : والمنافقين بإقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

وقال ابن مسعود : جاهدهم باليد ، فإن لم تستطع فباللسان ، فإن لم تستطع فبالقلب ، وإلاكفرار في وجوههم ، وأغلظ عليهم في الجهادين .

والغلظ ضد الرقة ، والمراد خشونة الكلام وتعجيل الانتقام على خلاف ما أمر به في حق المؤمنين .

واخف جناحك للمؤمنين وكل من وقف منه على فساد في العقائد ، فهذا حكمه يجاهد بالحجة ، ويستعمل معه الغلظ ما أمكن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها النبى جاهد الكفار ﴾

أي المجاهرين منهم بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالحجة وإقامة الحدود ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ في ذلك ولا تأخُذْك بهم رأفة . قال عطاء : نسَخت هذه الآيةُ كلَّ شيء من العفو والصفح ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ لبيان آجل أمرِهم إثرَ بيانِ عاجلِه ، وقيل : حالية ﴿ وَبِئْسَ المصير ﴾ تذييلٌ لما قبله والمخصوصُ بالذم محذوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

ظاهره يقتضي مقاتلة المنافقين وهم غير مظهرين للكفر ولا نحكم بالظاهر لأنا نحكم بالظاهر كما في الخبر ولذا فسر ابن عباس .

والسدى .

ومجاهد جهاد الأولين بالسيف والآخرين باللسان وذلك بنحو الوعظ والزام الحجة بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى وهو أعم من أن يكون بالقتال أو بغيره فإن كان حقيقة فظاهر والأحمل على عموم المجاز .

وروي عن الحسن .

وقتادة أن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم .

واستشكل بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً فلا يختص ذلك بهم .

وأشار في الأحكام إلى دفعه بأن أسباب الحد في زمنه صلى الله عليه وسلم أكثر ما صدرت عنهم ، وأما القول بأن المنافق بمعنى الفاسق عند الحسن فغير حسن .

وروي والعهدة على الراوي أن قراءة أهل البيت رضي الله تعالى عنهم ﴿ جاهد الكفار ﴾ والظاهر أنها لم تثبت ولم يروها إلا الشيعة وهم بيت الكذب ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على الفريقين في الجهاد بقسميه ولا ترفق بهم .

عن عطاء نسخت هذه الآية كل شيء من العفو والصفح ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ استئناف لبيان أجل أمرهم إثر بيان عاجله .

وذكر أبو البقاء في هذه الثلاثة أوجه : أحدها أنها واو الحال والتقدير افعل ذلك في حال استحقاقهم جهنم وتلك الحال حال كفرهم ونفاقهم ، والثاني أنها جيء بها تنبيهاً على إرادة فعل محذوف أي واعلم أن مأواهم جهنم ، والثالث أن الكلام محمول على المعنى وهو أنه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة بجعل جهنم مأواهم ﴿ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ تذييل لما قبله والمخصوص بالذم محذوف أي مصيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(122/343)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾

قيل : مجاهدة المنافقين بالحجة لا بالسيف .

قال في " العناية " : ظاهر الآية يقتضي مقاتلة المنافقين ، وهم غير مظهرين للكفر ، ونحن مأمورون بالظاهر ، فلذا فسر الآية السلفُ بما يدفع ذلك ، بناء على أن الجهاد بذل الجهد في دفع ما لا يرضى ، سواء كان بالقتال أو بغيره ، وهو إن كان حقيقة فظاهر ، وإلا حمل على عموم المجاز ، فجهاز الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين بإلزامهم الحجج ، وإزالة الشبه ونحوه ، أو بإقامة الحدود عليهم ، إذا صدر منهم موجبها ، كما روي عن الحسن في الآية . وقيل عليه بأن إقامتها واجبة على غيرهم أيضاً ، وأجيب بأنها في زمنه صلى الله عليه وسلم أكثر ما صدرت عنهم . انتهى .

قال ابن العربي : هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق كامناً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين يشهد سياقها أنهم لم يكونوا منافقين .

وقال ابن كثير : روي علن عليّ رضي الله عنه قال : بُعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربعة أسياف ، سيف للمشركين : ﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ ﴾ ، وسيف للكفار أهل الكتاب : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية ، وسيف للمنافقين : ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾ ، وسيف للبغاة : ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي ﴾ الآية ، وهذا يقتضي أنهم يجاهدون بالسيوف إذا أظهروا النفاق ، وهو اختيار ابن جرير . انتهى .

وفي " الإكليل " استدل بالآية من قال بقتل المنافقين . انتهى .

﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : اشدد على كلا الفريقين بالقول والفعل ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 469 ﴾

(123/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

لمّا أشعر قوله تعالى في الآية السابقة ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها هي حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم ﴾ [التوبة : 68] .

بأنّ لهم عذابين عذاباً أخروياً وهو نار جهنم ، تعيَّن أنّ العذاب الثاني عذاب دنيوي وهو عذاب القتل ، فلمّا أعقب ذلك بشنائع المنافقين وبضرب المثل لهم بالأمم البائدة ، أمر نبيَّهُ بجهاد المنافقين وهذا هو الجهاد الذي أنذروا به في سورة الأحزاب (60 ، 61) في قوله : ﴿ ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ فبعد أن أنذرهم الله بذلك فلم يرتدعوا ومضى عليهم من المدّة ما كُشفت فيه دخيلتُهم بما تكرّر

منهم من بوادر الكفر والكيد للمسلمين ، أنجز الله ما أنذرهم به بأن أمر رسوله بجهادهم .

والجهاد القتال لنصر الدين ، وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لآئم ﴾ في سورة العقود (54) .

وقُرن المنافقون هنا بالكفار : تنبيهاً على أنّ سبب الأمر بجهاد الكفار قد تحقّق في المنافقين ، فجهادهم كجهاد الكفار ، ولأنّ الله لمّا قرنهم في الوعيد بعذاب الآخرة إذ قال : ﴿ وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم ﴾ [التوبة : 68] وأومأ قوله هنالك بأنّ لهم عذاباً آخرَ ، لا جرم جَمعَهم عند شرع هذا العذاب الآخرِ لهم .

فالجهاد المأمور للفريقين مختلف ، ولفظ (الجهاد) مستعمل في حقيقتِه ومجازه .

وفائدة القرن بين الكفّار والمنافقين في الجهاد : إلقاء الرعب في قلوبهم ، فإنّ كلّ واحد منهم يخشى أن يظهر أمره فيعامَلَ معاملة الكفار المحاربين فيكون ذلك خاضداً شوكتَهم .

(124/343)

وأمّا جهادهم بالفعل فمتعذر ، لأنّهم غير مظهرين الكفر ، ولذلك تأوّل أكثر المفسّرين الجهادَ بالنسبة إلى المنافقين بالمقاومة بالحجّة وإقامة الحدود عند ظهور ما يقتضيها ، وكان غالبُ من أقيم عليه الحدّ في عهد النبوءة من المنافقين .

وقال بعض السلف جهادهم ينتهي إلى الكشر في وجوههم .

وحملها الزجّاج والطبري على ظاهر الأمر بالجهاد ، ونسبه الطبري إلى عبد الله بن مسعود ، ولكنّهما لم يأتيا بمقنع من تحقيق المعنى .

وهذه الآية إيذان للمنافقين بأنّ النفاق يوجب جهادهم قطعاً لشأفتهم من بين المسلمين ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَعلمهم ويعرّفهم لحذيفةَ بن اليَمان ، وكان المسلمون يعرفون منهم مَن تكرّرت بوادر أحواله ، وفلتات مقاله .

وإنّما كان النبي ممسكاً عن قتلهم سَدّا لذريعة دخول الشكّ في الأمان على الداخلين في الإسلام كما قال لعُمر : "لا يتحدّث الناس أنّ محمّداً يقتل أصحابه" لأنّ العامّة والغائبين عن المدينة لا يَبْلغون بعلمهم إلى معرفة حقائق الأمور الجارية بالمدينة ، فيستطيع دعاة الفتنة أن يشوّهوا الأعمال النافعة بما فيها من صورة بشيعة عند من لا يعلم الحقيقة ، فلمّا كثر الداخلون في الإسلام واشتهر من أمان المسلمين ما لا شكّ معه في وفاء المسلمين ، وشاع من أمر المنافقين وخيانتهم ما تسامعتْه القبائل وتحقّقه المسلم والكافر ، تمحّضت المصلحة في استئصال شافتهم ، وانتفت ذريعة تطرّق الشكّ في أمان المسلمين ، وعلم الله أنّ أجل رسوله عليه الصلاة والسلام قد اقترب ، وأنّه إن بقيت بعده هذه الفئة ذات الفتنة تفاقم أمرها وعسر تداركها ، واقتدى بها كلّ من في قلبه مرض ، لا جرم آذنهم بحرب ليرتدعوا ويقلعوا عن النفاق .

والذي يوجب قتالهم أنّهم صرّحوا بكلمات الكفر ، أي صرّح كلّ واحد بما يدلّ على إبطانه الكفر وسمعها الآخرون فرضوا بها ، وصدرت من فريق منهم أقوال وأفعال تدلّ على أنّهم مستخفون بالدين ، وقد توفّي رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرب نزول هذه الآية .

ولعلّ من حكمة الإعلام بهذا الجهاد تهيئةَ المسلمين لجهاد كلّ قوم ينقضون عُرى الإسلام وهم يزعمون أنّهم مسلمون ، كما فعل الذين منعوا الزكاة وزعموا أنّهم لم يكفروا وإنّما الزكاة حقّ الرسول في حياته ، وما ذلك إلاّ نفاقٌ من قادَتهم اتَّبعه دَهماؤهم ، ولعلّ هذه الآية كانت سبباً في انزجار معظم المنافقين عن النفار وإخلاصِهم الإيمانَ كما ورد في قصّة الجُلاَس بن سُويد .

وكان قد كفَى الله شرّ متولّي كِبْر النفاق عبدِ اللَّه بنِ أبي بنِ سَلول بموته فكان كلّ ذلك كافياً عن إعمال الأمرِ بجهادهم في هذه الآية ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ [الأحزاب : 25] .

وهذه الآية تدلّ على التكفير بما يدلّ على الكفر من قائله أو فاعله دلالةً بيّنة ، وإن لم يكن أعلن الكفر .

﴿ واغلظ عليهم ﴾ أمر بأنْ يكون غليظاً معهم .

والغلظة يأتي معناها عند قوله : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ في هذه السورة (123) .

وإنّما وجه هذا الأمر إلى الرسول عليه الصلاة والسلام لأنّه جُبل على الرحمة فأمر بأن يتخلّى عن جبلّته في حقّ الكفار والمنافقين وأن لا يغضي عنهم كما كان شأنه من قبل .

وهذه الآية تقتضي نسخ إعطاء الكفارِ المؤلّفةِ قلوبهم على الإسلام وإنّما يبقى ذلك للداخلين في الإسلام حديثاً .

وجملة : وبئس المصير ﴾ تذييل .

وتقدّم نظيره مرات .

والمأوى ما يأوي إليه المرء من المكان ، أي يرجع إليه .

والمصير المكان الذي يصير إليه المرء ، أي يرجع فالاختلاف بينه وبين المأوى بالاعتبار ، والجمع بينهما هنا تفنّن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(126/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

إذن : فيعد ان ذكر الحق لنا الجنة وما فيها ، وما يجعل النفس مشتاقة إلى الجنة ، فهو يُذكِّرنا بما يجب علينا أن نفعله لخدمة منهج الله – ولله المثل الأعلى – مثلما تقول لابنك : عندما تتخرج طبيباً ستكون لك عيادة كبيرة ثم مستشفى ، وترتقي معه فيما ينتظره من مستقبل كبير ، وتُذكِّره بضرورة أن يجتهد في المذاكرة حتى يصل إلى ما يتمناه . وبذلك تكون قد حبَّبته في الغاية التي سيصل إليها ، ثم انتقلت لتحببه في الوسيلة التي ستوصله إلى هذه الغاية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يا أَيُّهَا النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ والحق جَلَّ وعلا يخص رسوله صلى الله عليه وسلم بالتكريم والتعظيم ، فلم يُناده باسمه . بل قال : ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ وفي مواقع أخرى يناديه : ﴿ يا أَيُّهَا الرسول ﴾ .

ولكن النداء من الحق لباقي الأنبياء ، يكون مثل قوله تعالى : ﴿ وَقُلْنَا يَآءَادَمُ اسكن أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنة . . . ﴾ [البقرة : 35]

وقوله تعالى : ﴿ قِيلَ يا نوح اهبط بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ . . . ﴾ [هود : 48]

ونادى الحق إبراهيم : ﴿ يا إبراهيم * قَدْ صَدَّقْتَ الرؤيآ . . . ﴾ [الصافات : 104-105]

ونادى الحق موسى : ﴿ يا موسى * إني أَنَاْ رَبُّكَ . . . ﴾ [طه : 11-12]

وخاطب الحق سيدنا عيسى : ﴿ يا عيسى ابن مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتخذوني وَأُمِّيَ إلهين مِن دُونِ الله . . . ﴾ [المائدة : 116]

فكل رسول ناداه الحق سبحانه وتعالى باسمه ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ناداه بقوله ﴿ يا أَيُّهَا النبي ﴾ ، و ﴿ يا أَيُّهَا الرسول ﴾ تكريماً للرسول عليه الصلاة والسلام ، ورفعاً لمقامه عند ربه .

(127/343)

وهنا يطلب الحق من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين .

ونحن نعلم أن السماء لا تتدخل لإرسال رسول إلا فسد المجتمع فساداً عامّاً . ونعلم أن النفس الإنسانية فيها قد فُطِرتْ على محبة الخير ، فإن لم يحكمها هواها فهي تفعل الخير وتحبه ، فإن حكمها هواها ستر عنها الخير وفتح الهوى للنفس أبواب الشر . وقد يطيع الإنسان هواه في أمر من الأمور ، ثم يفيق ؛ فتلومه نفسه على ما فعل ، هذه هي النفس اللوامة ، التي تلوم صاحبها على الشر ، وتدفعه إلى الخير . ولكن هناك نفس تتوقف فيها ملكات الخير فتفعل الشر ، ولا تندم عليه ، ثم ترتقي النفس في الشر فتصبح أمَّارة بالسوء ،

وتأبى ألا نكتفي بفعل الشر ، بل تأمر به الناس وتُحبِّبه لهم . إذن : فمراحل النفس البشرية كثيرة ، فهناك النفس التي تطمئن لمنهج الله وتطيعه . وهذه هي النفس المطمئنة ؛ التي يقول فيها الحق : ﴿ ياأيتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فادخلي فِي عِبَادِي * وادخلي جَنَّتِي ﴾ [الفجر : 27-30]

وإذا وُجدت النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، فاعلم أن المجتمع بخير ؛ لأن النفس المطمئنة تطيع ، وتأمر بالطاعة ، والنفس اللوامة تلوم صاحبها على الشر ، ولكل مؤمن نقطة ضعف ، فإذا ضعف مؤمن ، يسرع له أخوه المؤمن ليلومه على ضعفه ، ويصحح له مساره ؛ ولأن نقط الضعف مختلفة ، نجد أن المجتمع يستقيم كلما وُجد من يلتفت النظر إلى المنكر وينهى عنه ، وهؤلاء هم الذين يقول الحق عنهم :

﴿ إِلاَّ الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصبر ﴾ [العصر : 3]

ولكن عندما تصدأ النفوس جميعاً ، ولا يصبح هناك من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، بل تجد من ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ، حينئذ لا بد أن يتدخل الحق سبحانه ليعيد للحق مكانه في الدنيا .

(128/343)

إذن : فرب العزة لا يتدخل في حالة وجود نفوس مطمئنة تطبق منهج الله وتأمر بطاعته ، أو وجود نفوس لوامة ، سواء في ذات النفس البشرية أو في المجتمع تراجع من يرتكب الإثم وتلومه ، ولكن إذا عَمَّ الفساد في المجتمع ، ولم يصبح هناك من ينهى عن المنكر ويأمر بالمعروف ، وأصبح أهل الخير فيه عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً ، جاءت الرسل لتعيد منهج الحق لينظم حياة هذا المجتمع .

وحين يأتي الرسول فهو يعلم أنه ما أُرسل إلا بعد أن عَمَّ الشر في الكون ، وأن أهل الفساد هم الأغلبية ، وهم أصحاب النفوذ والسلطان ، وينتفعون بالفساد والانحراف المستشري في المجتمع . وهؤلاء إذا سمعوا بصيحة الحق ؛ فلن يقفوا متفرجين ، بل سيحاربون كل من يحمل منهج الحق إليهم . ولا بد للرسول من أن يصمد أمامهم ، وأن يجاهدهم .

و" جاهد " من " فاعل " ، مثل " شارك " ، فأنت تشارك فلاناً ، ومثل : " قاتل " فأنت تقاتل فلاناً ، إذن : فلابد أن تحدث مفاعلة بين الرسول ومن ابتعوه ، وبين أئمة الكفر والفساد في المجتمع .

ولابد أن يستعد الرسول والمؤمنون بمنهجه لتحمُّل الإيذاء من غير المؤمنين بالمنهج ؛ لأن الكفار منتفعون بالفساد ، ولكي يستمر هذا الانتفاع ، لابد أن يقف الكفار ضد حَمَلَة منهج الحق ، وأن يقاوموهم ليضمنوا لأنفسهم استمرار الميزات التي يعطيها الباطل لهم .

وينبه الله سبحانه وتعالى لرسوله إلى حقيقة هؤلاء الكفار المنتفعين بالفساد ، وأنهم

سيحاربونه . ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : اتحد معهم ، ولكنه قال : ﴿ جَاهِدِ الكفار والمنافقين ﴾ ، أي : اصمد أمامهم في المعركة ، وجاءت الكثير من الآيات التي أمر فيها الله رسوله والمؤمنين بالصبر على الجهاد ، والجهاد يقتضي المواجهة ، لذلك قال سبحانه : ﴿ اصبروا ﴾ .

(129/343)

ولكن لنفرض أن عدوِّي صبر أيضاً في الحرب ، إن أنا صبرت وعدوي صبر تساوت الكفتان ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اصبروا وَصَابِرُواْ . . . ﴾ [آل عمران : 200]

أي : إن واجهكم عدوكم بالصبر ، فليكن صبركم أقوى منه ، فتغلبوه بالصبر والتحمل ، فقف صابراً في مواجهتهم ومعك المؤمنون برسالتك ، فمعسكر الإيمان لا بد أن يواجه معسكر الكفر والنفاق ، والكافر هو الذي جحد الإيمان بقلبه وأعلن الكفر بلسانه ، أما المنافق فهو من كفر في باطنه ويعلن الإيمان في ظاهره .

وهذا هو الذي يجب أن نحذر منه أشد الحذر ؛ لأننا لا نعرفه فنتقي شره مثل الكافر ، فقد يطعنَا المنافق من الخلف ونحن آمنون له مطمئنون إليه ، فتكون طعنته مؤثرة وأليمة .

ويوضح الحق لرسوله صلى الله عليه وسلم : إن العداوة التي سيواجهها وهو يبشّرِ بمنهج الله ستأتيه من اثنين ؛ من كافر أو منافق ، أي من مجاهر بعدم الإيمان ، أو ممن كفر بقلبه وتظاهر بالإيمان بلسانه . أما المنافق فإنه عدو صعب ؛ لأنه يغشنا فلا نأمنه ، رغم أن النفاق في حد ذاته بالنسبة لمنهج الله هو دليل قوة هذا المنهج ؛ لأنه لا ينافَق إلا القوي ، أما الضعيف فلا ينافقه أحد .

ولذلك لم يكن هناك منافقون أثناء وجوده صلى الله عليه وسلم في مكة قبل الهجرة ؛ لأن المسلمين كانوا قلة ضعافاً ، وكانوا مُعذَّبين مضطهدين . ولم يكن هناك ما يغري أحداً بنفاقهم ؛ لأنه لا توجد استفادة من هذا النفاق ، بل سيتعرض من يتعاطف معهم للتعذيب والاضطهاد . والمنافق في إظهاره غير ما يبطن إنما يحقق لنفسه مصلحة ذاتية .

واختلف الحال بعد أن هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، وظهر المنافقون بعد أن أصبح للإسلام دولة وقوة . والمنافق في هذه الحالة إنما يعلن إيمانه زَيْفاً ، ليستفيد من قوة المسلمين لصالحه . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية في المنافق ، ولكنها دليل قوة للمؤمن الذي ينافقه .

(130/343)

ونلحظ أنه سبحانه وتعالى قد قدَّم في هذه الآية ذكر الكفار على المنافقين . وقدَّم في آيات أخرى المنافقين على الكفار . والصدام – كما نعلم – قد حدث أولاً مع الكفار ، ففي أول الدعوة لم يوجد هذا الصنف المنافق ، بل كان هناك مؤمنون وكفار ، وجهاد الكفار جاء على مراحل ، وليس على مرحلة واحدة ، وكانت أولى مراحل الجهاد هي الجهاد بالحجة ؛ لأن المؤمنين في أول الأمر كانوا قلة ضعيفة لا يملكون قوة يواجهون بها هذا المد الكبير من الكفار . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض قضايا الإيمان بالحجة لإقناع العقل ؛ لعل عقولهم تفيق فيؤمنون بمنهج الحق . فيسألهم مثلاً عمَّنْ خلق السموات والأرض ؟ وحين يديرها الكافر في عقله لا يجد أن أحداً ادعى – أو يستطيع أن يدعي – أنه خلق السموات والأرض ، فلا يكون جوابهم إلا أن الخالق هو الله سبحانه وتعالى ، لماذا ؟ لأن الإنسان في تكوينه قد يدعي أشياء ليست له ، ولكنه لا ينفي أمراً هو صاحبه . فمخترع أي شيء أو صانعه لا يمكن أن ينكر أنه صنع أو اخترع ، بل يجب أن تعرف الدنيا كلها أنه اخترع أو صنع ؛ ولهذا فأنت لا تجد شيئاً ينتفع به في الكون مهما كان تافهاً إلا وعرفنا تاريخه ، ومن أين جاء ، ومن الذي طوره . وكذلك اختراع الطائرة ، ومعروف لنا كيف نشأت فكرة الطيران بعباس بن فرناس ؛ الذي حاول الطيران بذاته بواسطة أجنحة كبيرة ، وهكذا كانت البداية .

إذن : فكل شيء نافع في الكون معروف من الذي اكتشفه أو صنعه أو اخترعه . فإذا كان

هذا هو الحال بالنسبة للصناعات البشرية المحدودة ، فما بالك بالنسبة للكون ؟ وحين نسأل : من الذي أوجد الشمس ؟ ألا يستحق خالقها أن نعرف من هو ، خصوصاً ونحن نعرف من الذي اخترع مصباح الكهرباء وأوجده في حياتنا ؟

(131/343)

وإذا كنا نملأ الدنيا بالحديث عن مخترع مصباح الكهرباء الذي ينير حجرة محدودة لوقت ، وقامت مصانع كبيرة لتنتج هذا الاختراع ، أفلا نستحق أن نعرف من الذي أوجد الشمس التي تنير نصف الكرة الأرضية في نفس اللحظة ؟ هذه الشمس التي تشرق منذ ملايين السنين ، ولم تنطفئ مرة واحدة ، ولا احتاجت قطعة غيار طوال هذ العمر الطويل ، ولا بد أن يكون لها صانع ؛ تتناسب قوته وقدرته مع ذلك الإعجاز الذي نراه سواء في الضوء ، أو في خصائص هذا الضوء ، أو في دقة الصنع ؛ فهي لا تتأخر ثانية ولا تتقدم ثانية عن الظهور ، ولا بد أن يكون صانعها له من القوة ما يتناسب مع عظمة هذا الخلق .

فإذا جاء الرسول وأبلغنا أن الله هو الذي خلق الشمس ، فإما أن يكون صادقاً ؛ فنسلم جميعاً بأن الله هو الخالق والموجد . وإما أنه غير صادق ، فنقول : لماذا لم يخرج إذن أحد يدعي أنه هو الذي خلقها .

ولكن دقة وإعجاز الخلق الذي لا يمكن أن تصل إليه قوة بشرية مفردة ، أو قوى بشرية متعددة متعاونة ، جعل القضية محسومة له سبحانه وتعالى . وإلى أن يأتي من يدعي أنه خلق الشمس ، ولن يأتي ؛ فقضية الخلق محسومة لله سبحانه وتعالى ، ولا يوجد هناك منازع .

ويأتي رسول ليقول : إن خالق الأرض والشمس والسموات والكون هو الحق سبحانه وتعالى ، فلم يَأتِ أحد ويدَّعي أنه قد خلق شيئاً من هذا ، مما يؤكد صحة دعوى الرسول ، مما يؤكد أن من أوجد هذا الكون هو قوة بلا حدود ، وقدرة بلا قيود ، وهو الأحق بالعبادة من هذه الأصنام والآلهة التي يدعونها .

وتمضي الدعوة بالمنطق ليسألهم من الذي خلقهم ؟ مصداقاً لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالقون ﴾ [الطور : 35]

(132/343)

فإذا كان الجواب : لا هذا ولا هذه ، إذن : فلا بد أن هناك خالقاً وموجداً لنا ، فإذا جاء لنا الرسول وأبلغنا : إن خالق هذا الكون وخالقنا هو الله ، فلا بد أن نصدقه ؛ لأنه لم يدَّعِ أحد ولا يستطيع أن يدعي أنه خلق هذا الكون أو خلق نفسه ، تماماً كما نكون قد جلسنا

في مكان . وبعد أن انصرفنا ، وُجدَت حافظة نقود ، فجاء صاحب المكان وسأل كل الذين كانوا حاضرين ، فنفوا جميعاً ملكيتهم لحافظة النقود ، عدا واحداً ، حينئذ تكون حافظة النقود ملكه ؛ لأنه هو وحده الذي ادعاها ولا يوجد معارض .

وفي خلق السموات والأرض وخلق الإنسان لا يجرؤ بشر أن يعارض الحق سبحانه وتعالى ؛ ويدعي أنه خلق . إذن : فالقضية محسومة تماماً لله . هذا هو جهاد الحجة حيث يقتنع العقلاء بالمنطق ، أو يقتنع من يستمع إليه فيفهمه ، فإذا وصلنا إلى أن الحق سبحانه وتعالى هو الخالق والموجد ، يمكننا أن نتساءل : من الذي يضع المنهج للإنسان على الأرض ؟ لا بد أن نُقدِّر أن من يضع المنهج للإنسان على الأرض هو خالقه وموجده ، تماماً كما نثق أن صانع أي آلة هو الأقدر على وضع أسلوب عملها ، فهو يعلم ما يصلحها وما يفسدها .

والمثال : أن الإنسان منا يعطي ساعة يده لمن تخصص في إصلاح الساعات ، ويستدعي المتخصص في إصلاح الثلاجة إن أصابها عطب ، ويستدعي الإنسان كل متخصص لإصلاح الآلة التي درس تفاصيلها ، وكل متخصص يعود إلى كتاب التصميم الذي وضعه مَنْ اخترع الآلة ، وبيّن فيه ما يصلحها وما يفسدها ، ولذلك فأنت لن تستدعي نجاراً ليصلح التليفزيون .

إذن : فما دام سبحانه وتعالى قد وضع منهجاً فلا بد أن نتبعه ؛ لأنه هو موجد هذا الكون وموجدنا ، ويعلم ما يصلحنا وما يفسدنا .

فإن فشل جهاد الحجة ، يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ وبماذا يغلظ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم ؟ إنه يغلظ لإيضاح المصير الذي ينتظرهم ، وكل كافر هو عابد للدنيا ويخاف أن تضيع منه الدنيا لأنه لا يؤمن بالآخرة ، فأنذره بالآخرة ، وانذره بالعذاب الذي ينتظره ، وقُلْ له : أنت لست خالداً في الدنيا ، وما ينتظرك في الآخرة هول كبير .

ولكن المؤمن يعرف أن الدنيا وراءها آخرة وجنة ؛ ولذلك وجدنا المؤمن الذي يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب : ادع لي يا رسول الله لأستشهد . ويقول آخر : أليس بيني وبين دخول الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلوني ؟ فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، فيلقي الرجل بتمرة كان يأكلها وينطلق إلى المعركة ويستشهد .

هذا هو معنى الإيمان ، ولو لم يكن المؤمن واثقاً تمام الثقة أنه سيذهب إلى نعيم ليس بعده نعيم ، لما انطلق إلى المعركة طالباً الشهادة .

إذن : وهم يُقْدمون على الشهادة بهذه الشجاعة تمتلئ أعماقهم بالإيمان وبأحكام الله فيه ، وتدفعهم القناعة التامة – بأن هناك جنة في الآخرة – إلى الاستشهاد ، وفي المقابل نعرف أن

الذي ينتظر الكفار هو النار . وهكذا نفهم قوله الحق : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : أنذرهم بالعذاب الرهيب الذي ينتظرهم عَلَّهُمْ يفيقون . والشاعر يقول :

أَنَاةٌ فإنْ لَمْ تُغْنِ عقّب وَعيداً . . . فإنْ لَمْ يُغْنِ أغنَتْ عَزَائِمه

وَمَا هُو إلاَّ السيف أو حَدُّ طَرْفه . . . يقيمُ زباه أخْدعَ كُلِّ مَائِلِ

فَهذا دَوَاءُ الدَّاءِ منْ كُلِّ جَاهِل . . . وذَاك دَواءُ الداءِ منْ كُلِّ عَاقِل

فمن آمن بالمنطق آمن ، ومن لا يؤمن نقول له : دع كلمة الحق تُعلَنُ على الناس جميعاً ، وأنت حر في أن تؤمن أو لا تؤمن ، وإنْ أردتَ الحياة في كنف الأمة الإسلامية فأهلاً بك ، ولا يهم أن تؤمن أو لا تؤمن ؛ لأن الحق قال :

(134/343)

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ . . . ﴾ [الكهف : 29]

واعلم أنه يشترط في كل من يدخل الإسلام أن يكون مقتنعاً بهذا الدين ، ومقتنعاً أيضاً بأنه الدين الحق .

والذي لا يؤمن ، يعيش في كنف الأمة الإسلامية وله حريته الكاملة في اتباع عقيدته ، ولكن منهج الحياة وحركتها لابد أن تسير وفقاً لمنهج الله ، وما دام الإيمان هو الذي يسيطر على

حركة الحياة ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ ؛ فذلك لا يؤثر في حركة المجتمع المؤمن ؛ ما دام المجتمع كله سائراً بالمنهج ، وتسير الحياة كما أرادها الحق سبحانه وتعالى .

والله هو خالق الإنسان ، وهو الذي جعله خليفة في الأرض ، وهو يغار على خلقه ، تماماً كما تأتي لشيء جميل صنعه فنان أو عامل ، وتحطم أنت هذا الشيء أمام صانعه . إن قلب الصانع – في هذه الحالة – يمتلئ بالغضب ، ويسرع بعقابك .

والحق سبحانه وتعالى عندما يرى إنساناً يفسد صنعته في الكون ، ويحاول أن يحطمها ، فسبحانه يغار على صنعته ؛ لأن الله خلقنا مختارين ، ولكي يكون الحساب عَدْلاً ، لا بد من البلاغ أولاً ، وأن تصل الدعوة إلى آذان الناس ، فمتى وصلت الدعوة فهذا إتمام لرسالة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يختار الإنسان من بعد ذلك أن يؤمن أو لا يؤمن ، لذلك طلب الحق من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار والمنافقين ، وأن تكون الدعوة أولاً بالبرهان والإقناع . فإن لم يَأْتِ البرهان بنتيجة ، وحاول أحدهم أن يقاوم الدعوة بالسلاح فَلْيُردع بالسلاح .

(135/343)

لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ ولا تأخذك بهم رأفة ؛ لأن الرأفة قد تغرى بالذنب ؛ والمثال : حين يسرق الإنسان ثم تتركه بلا عقاب فقد يغريه ذلك ويغري غيره على السرقة . ولكن تنفيذ العقوبة ولو مرة واحدة ، إنما يمثل رادعاً وحماية للمجتمع كله ، ولذلك نجد أن عقاب القاتل بالقتل أنفى للقتل ، وأنت حين تأتي بالقاتل وتقتله أمام عدد من الناس ، فهذا العمل يمنع أي إنسان أن يفكر في القتل ، أو أن يقتل .

إذن : فنحن بالعقوبة نحمي المجتمع من أن تنتشر فيه الجرائم .

وبعض السطحيين يقول لك : هل مَنْ يسرق تُقطع يده ؟ نقول لهم : نعم ؛ لأنني لو قطعت يد فرد لمنعت جريمة السرقة في المجتمع ، فليس الهدف أن أقطع يداً . ولكن الهدف هو ألا يسرق أحد ، وأنت حين تأتي بالعقوبة وتتأكد من الجريمة ؛ إياك أن تأخذ الرحمة في تنفيذ العقاب . فلو أخذتك الرحمة في هذه اللحظة فأنت تشجع الجريمة . وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ واليوم الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ المؤمنين ﴾ [النور : 2]

ولكن الحوار حول العقوبات في الإسلام لا يتوقف ، ونقول لهؤلاء : هل هناك مجتمع ليس فيه تجريم أو عقوبات ؟ وانظر إلى المجتمعات غير الدينية ، ألا توجد بها جرائم وعقوبات ؟ إن

كل مجتمع إنما يحمي نفسه بتوصيف الأفعال التي تعتبر جرائم ، ويضع لها عقوبات ، ولا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص .

(136/343)

إذن : فكل دولة وكل مجتمع لا بد أن تكون فيه عقوبات ، وإلا أصبحت الحياة فوضى يستحيل معها العيش في أمان . فإذا كان حاكم أي دولة بسيطة قد وضع تجريماً وعقوبات ، وهو يحكم فيما لا يملك ، أفليس لله أن يضع التوصيف لما يرى أنه جرائم ، وأن يُشرِّع العقوبة الملائمة لكل جريمة ، وهو سبحانه يحكم فيما يملك ؟ وإذا كان سبحانه قد حكم بقطع يد هو خالقها ؛ فهو أراد ذلك ليمنع ملايين الأيدي من أن تمتد إلى مال الغير .

ولذلك يجب ألا تطول الفترة بين تنفيذ العقوبة ووقت وقوع الجريمة ؛ لأن الذي يتعب الناس في الدنيا ، هو طول الإجراءات والأخذ والرد ، فينسى النساس الجريمة ، وتأخذهم الشفقة والرحمة بالمجرم ، مع أنه لو وُقِّعتْ العقوبة فور حدوث الجريمة ؛ لما طلب أحد الرأفة بالمجرم .

والحق تبارك وتعالى يقول : ﴿ يا أَيُّهَا النبي جَاهِدِ الكفار والمنافقين واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ وقد عرفنا كيف يكون الجهاد مع الكافرين ، فماذا يكون الجهاد مع المنافقين وهم الذين

يتظاهرون بالإيمان ؟

نقول : إن الجهاد معهم هو توقيع العقاب عليهم ، وقد كان المنافقون يرتكبون الإثم ، ويسألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فينكرونه ، فيصفح عنهم ، ويوضح الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم : اغلظ عليهم إذا ارتكبوا إثماً ، وقد وجدنا في سورة التوبة أن المنافقين يحلفون كذباً في كثير من الأمور ، فيذكر الحق سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 56]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر . . . ﴾ [التوبة : 74]

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ واللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ . . . ﴾ [التوبة : 62]

(137/343)

وفي سورة المجادلة يقول سبحانه : ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الكذب وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ فكأنما كلما حلفوا صدَّقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعفا عنهم ، ففضحهم الله بأنهم كاذبون ، وطلب من رسوله صلى الله عليه وسلم أن يُغلظ عليهم في العقوبة . ولكن هل غلظة الرسول صلى الله عليه وسلم معهم تعفيهم من عقاب الآخرة ؟ نقول : لا لأن الغلظة عليهم في الدنيا لضمان سلامة حركة الحياة ، وليعلم كل منافق أنه مفضوح من الله . ولكن هذا لا

يعفي من عذاب الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المصير ﴾ والمصير هو المرجع الأخير لأي شيء ، وكل عقوبة يكون لها مظنة ألا تمتد إلى الفترة المقررة لها ، فالذي عاقب قد يعفو ، وقد يخرج الإنسان قبل انتهاء مدة العقوبة ؛ كأن يكون هناك إفراج صحي ، أو بقضاء ثلاثة أرباع المدة أو غير ذلك . ولكن العقوبة للمنافقين تكون بلا خروج ، وفي هذا ترهيب منها ؛ لأنك لو علمت يقيناً أن العقوبة أبدية ، فسوف تخشى الإقدام على الجريمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(138/343)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس في قوله ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار ﴾ قال : بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ قال : باللسان ﴿ واغلظ

عليهم ﴾ قال : اذهب الرفق عنهم .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود في قوله ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ قال : بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وليلقه بوجه مكفهر .

وأخرج البيهقي في شعب الإِيمان عن ابن مسعود قال : لما نزلت ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين ﴾ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاهد بيده ، فإن لم يستطع فبقلبه ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهر .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ جاهد الكفار ﴾ قال : بالسيف ﴿ والمنافقين ﴾ بالقول باللسان ﴿ واغلظ عليهم ﴾ قال : على الفريقين جميعاً ، ثم نسخها فأنزل بعدها ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾ [التوبة : 123] .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في الآية قال : أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجاهد الكفار بالسيف ، ويغلظ على المنافقين في الحدود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(139/343)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ : قال أبو البقاء : " إن قيل : كيف حَسُنَتِ الواوُ هنا ، والفاء أشبه بهذا الموضع ؟ ففيه ثلاثة أجوبة . أحدُها : أن الوَاوَ واو الحال والتقدير : افعل ذلك في حال استحقاقِهم جهنم ، وتلك الحال حال كفرهم ونفاقهم . والثاني : أن الواوَ جيْءَ بها تنبيهاً على إرادة فعلٍ محذوف تقديره : واعلمْ أنَّ مأواهم جهنم . الثالث : أنَّ الكلامَ قد حُمل على المعنى ، والمعنى : أنه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذابُ الآخرةَ بجَعْلِ جهنم مأواهم " ، ولا حاجةَ إلى هذا كلِّه ، بل هذه جملةٌ استئنافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 86 ﴾

(140/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) ﴾

دعا نَبِيُّنا – صلى الله عليه وسلم – كافةَ الخَلْقِ إلى حُسْنِ الخُلُق .

قال لموسى عليه السلام : ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا ﴾ [طه : 44] .

وقال لنبيّنا – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ واغلُظْ عليهم ﴾ [التحريم : 9] ويقال إنما هذا بعد إظهار الحجج ، وبعد أن أزاح عُذْرَهُم بأيام المهلة ؛ ففي الأول أَمَرَه بالرِّفق حيث قال : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ [سبأ : 46] ، فلما أصروا واستكبروا أَمَرَه بالغِلظة عليهم . والمجاهدة أولها اللسان لشرح البرهان ، وإيضاح الحجج والبيان ، ثم إنْ حَصَلَ من العدوّ جُحْدٌ بعد إزاحة العذر ، فبالوعيد والزجر ، ثم إنْ لم ينجعْ الكلامُ ولم ينفع الملامُ فالقتالُ والحربُ وبَذْلُ الوسعِ في الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 46 ﴾

(141/343)

قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ

اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أتى بالدليل العام على إجرمهم ، أتبعه الدليل الخاص عليه وهو أيضاً دليل على دليل فقال : ﴿ يحلفون بالله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا شيء أعظم منه قدراً ﴿ ما قالوا ﴾ أي ما وقع منهم قول ، فقصر الفعل تعميماً للمفعول إعلاماً بأنهم مهما عنفوا على قول كائناً ما كان بادروا إلى الحلف على نفيه كذباً لأنهم مردوا على النفاق فتطبعوا بأعلى الكذب ومرنوا على سيىء الأخلاق ، فصار حاصل هذا أنهم أطعموا في العفو وحذروا من عذاب الباقين بسبب إجرامهم لأنهم يأمرون بالمنكر وما يلائمه مقتفين آثار من قبلهم في الانهماك في الشهوات غير مقلعين خوفاً من الله أن يصيبهم بمثل ما أصابهم ولا رجاء له أن ينيلهم مما أعد للمؤمنين مجترئين على الأيمان الباطلة بأعظم الحلف على أيّ شيء فرض سواء كان يستحق اليمين أو لا غير خائفين من الله أن يهتكهم كما هتك غيرهم ممن فعل مثل أفعالهم ؛ ثم دل على عظيم إجرامهم وما تضمنه قوله ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ – الآية ، من كبائر آثامهم ، ويجوز أن تكون هذه الاية واقعة موقع التعليل للآية التي قبلها بأنهم يقدمون على ما يستحقون به الجهاد والغلظة والنار من الحلف كذباً على نفي كل ما ينقل عنهم استخفافاً بالله وبأسمائه ﴿ اتخذوا أيمانهم جنة ﴾ [المجادلة : 6] فتكون

جواباً لمن كأنه قال : أما جهاد الكفار فالأمر فيه واضح ، وأما المنافقون فكيف يجاهدون وهم يتكلون بلفظ الإيمان ويظهرون أفعال أهل الإسلام فقال : لأنهم يحلفون ﴿ ولقد ﴾ أي والحال أنهم كاذبون لقد ﴿ قالوا كلمة الكفر ﴾ أي الذي لا أكبر في الكفر منه ، وهي تكذيب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

(142/343)

ولما كان هذا السياق لصنف يجددون الاستخفاف بالله تعالى – بما دل عليه المضارع كل وقت ، دل على أن إقرارهم بالإيمان كذب وأفعالهم صور لا حقائق لها ، فعبر بالإسلام فقال : ﴿ وكفروا ﴾ أي اظهروا الكفر ﴿ بعد إسلامهم ﴾ أي بما ظهر من أفعالهم وأقوالهم ، وذلك غاية الفجور ؛ ولما كان أعلى شغف الإنسان بشيء ان تحدثه نفسه فيه بما لا يصل إليه ، فيكون ذلك ضرباً من الهوس قال : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أي من قتل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو إخراجه من المدينة ، فجمعوا بين أنواع الكفر القول والفعل والاعتقاد ، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿ مأواهم ﴾ والتقدير على هذا : يدخلون جهنم حالفين بالله : ما قالوا كلمة الكفر ، ولقد قالوها ، فيكون كقوله ﴿ ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين ﴾ [الأنعام : 23] .

ولما بين من أحوالهم التي لا يحمل على فعلها إلا أمر عظيم ، قال : ﴿ وما ﴾ أي قالوا وفعلوا والحال انهم ما ﴿ نقموا ﴾ أي كرهوا شيئاً من الأشياء التي أتتهم من الله ﴿ إلا أن أغناهم الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال وهو غني عن العالمين ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي هو أحق الخلق بأن يجوز عظمة الإضافة إليه سبحانه ، وكان أذاهم هذا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهمهم بقتله مع إعطائه لهم ما أغناهم بخلاف الآية السابقة ، فكان الأقعد في ذمهم تأخير قوله : ﴿ من فضله ﴾ فهو من باب : ولا عيب فيهم .

ولما نبه على أن هذه المساوىء قابلوا بها المحسن إليهم ، رغبهم بأنه قابل المتاب عليهم ، ورهبهم بأنه لا مرد لما يريد من العذاب بقوله : ﴿ فإن يتوبوا ﴾ ولما كان المقام جديراً بأن يشتد تشوف السامع إلى معرفة حالهم فيه ، حذف نون الكون اختصاراً تنبيهاً على ذلك فقال ﴿ يك ﴾ أي ذلك ﴿ خيراً لهم ﴾ من إصرارهم .

(143/343)

ولما كان للنفوس من أصل الفطرة الأولى داعية شديدة إلى المتاب ، وكان القرآن في وعظه زاجراً مقبول العتاب عظيم الأخذ بالقلوب والعطف للألباب ، أشار إلى ذلك بصيغة التفعيل فقال : ﴿ وإن يتولوا ﴾ أي يكلفوا أنفسهم الإعراض عن المتاب ﴿ يعذبهم الله ﴾

أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً بحوله وقوته ﴿ عذاباً أليماً ﴾ أي لا صبر لهم عليه ﴿ في الدنيا ﴾ أي بما هم فيه من الخوف والخزي والكلف وغيرها ﴿ والآخرة ﴾ أي بالعذاب الأكبر الذي لا خلاص لهم منه ﴿ وما لهم في الأرض ﴾ أي التي لا يعرفون غيرها لسفول هممهم ﴿ من وليّ ﴾ أي يتولى أمورهم فيصلح ما أفسد العذاب منهم أو يشفع لهم ﴿ ولا نصير ﴾ أي ينقذهم ؛ وأما السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها بشيء ناصر أو غيره وأغلظ أكباداً من أن يرتقي فكرهم إلى ما لها من العجائب وما بها من الجنود ؛ وسبب نزول الآية على ما قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان جالساً في ظل شجرة فقال : سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله .

(144/343)

ما قالوا ، فأنزل الله الآية ؛ وقال الكلبي : نزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين فسماهم رجساً وعابهم فقال الجلاس : لئن كان محمداً صادقاً لنحن شر من الحمير ، فسمعه عامر بن قيس فقال : أجل ،

إن محمداً لصادق وأنتم شر من الحمير ، فلما انصرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قاله الجلاس ، فقال الجلاس : كذب عليّ يا رسول الله ! فأمرهما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب علي عامر ، وقام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ، ثم رفع عامر ـ رضى الله عنهم ـ يديه إلى السماء فقال : اللهم ! أنزل على نبيك تصديق الصادق منا ، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنون : آمين ! فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿ فإن يتوبوا يك ﴾ أي التوب ﴿ خيراً لهم ﴾ فقام الجلاس فقال : يا رسول الله ! أسمع الله قد عرض عليّ التوبة ، صدق عامر بن قيس فيما قاله ، لقد قلته ، وانا أستغفر الله وأتوب إليه ، فقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ذلك منه ثم تاب وحسنت توبته .

ولا مانع من أن يكون كل ذلك سبباً لها كما تقدم ويأتي ، والأوفق لها في السببية الخبر الأول للتعبير في الكفر ب " أل " المؤذنة بالكمال ، ومن شتم نبينا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد ارتكب كل كفر ، وفي الاية دليل على قبول توبة الزنديق المسر للكفر المظهر للايمان – كما قال أبو حيان وقال : وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي ، وقال مالك : لا تقبل ، فإن جاء تائباً من قبل نفسه من قبل أن يعثر عليه قبلت توبته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 360 ـ 363 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾

اعلم أن هذه الآية تدل على أن أقواماً من المنافقين ، قالوا كلمات فاسدة ، ثم لما قيل لهم إنكم ذكرتم هذه الكلمات خافوا ، وحلفوا أنهم ما قالوا ، والمفسرون ذكروا في أسباب النزول وجوهاً : الأول : روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين .

فقال الجلاس بن سويد : والله لئن كان ما يقوله محمد في إخواننا الذين خلفناهم في المدينة حقاً مع أنهم أشرافنا ، فنحن شر من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل والله إن محمداً صادق ، وأنت شر من الحمار .

وبلغ ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحضر الجلاس ، فحلف بالله أنه ما قال ، فرفع عامر يده وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب ، فنزلت هذه الآية .

فقال الجلاس : لقد ذكر الله التوبة في هذه الآية ، ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ، فتاب الجلاس ، وحسنت توبته .

الثاني : روي أنها نزلت في عبد الله بن أبي لما قال لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم .

فسمع زيد بن أرقم ذلك وبلغه إلى الرسول ، فهم عمر بقتل عبد الله بن أبي ، فجاء عبد الله وحلف أنه لم يقل ، فنزلت هذه الآية .

الثالث : روى قتادة أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، فظهر الغفاري على الجهيني ، فنادى عبد الله بن أبي : يا بني الأوس انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قيل : سمن كلبك يأكلك .

فذكروه للرسول عليه السلام ، فأنكر عبد الله ، وجعل يحلف .

(146/343)

قال القاضي : يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الوقائع وذلك لأن قوله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر ﴾ إلى آخر الآية كلها صيغ الجموع ، وحمل صيغة الجمع على الواحد ، خلاف الأصل .

فإن قيل : لعل ذلك الواحد .

قال في محفل ورضي به الباقون .

قلنا : هذا أيضاً خلاف الظاهر لأن إسناد القول إلى من سمعه ورضي به خلاف الأصل ، ثم قال : بلى الأولى أن تحمل هذه الآية على ما روي : أن المنافقين هموا بقتله عند رجوعه من تبوك وهم خمسة عشر تعاهدوا أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل ، وكان عمار بن ياسر آخذاً بالخطام على راحلته وحذيفة خلفها يسوقها ، فسمع حذيفة وقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فالتفت ، فإذا قوم متلثمون .

فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله ، فهربوا .

والظاهر أنهم لما اجتمعوا لذلك الغرض ، فقد طعنوا في نبوته ونسبوه إلى الكذب والتصنع في ادعاء الرسالة ، وذلك هو قول كلمة الكفر وهذا القول اختيار الزجاج .

فأما قوله : ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم ﴾ فلقائل أن يقول : إنهم أسلموا ، فكيف يليق بهم هذا الكلام ؟

والجواب من وجهين : الأول : المراد من الإسلام السلم الذي هو نقيض الحرب ، لأنهم لما نافقوا ، فقد أظهروا الإسلام ، وجنحوا إليه ، فإذا جاهروا بالحرب ، وجب حربهم .

والثاني : أنهم أظهروا الكفر بعد أن أظهروا الإسلام .

وأما قوله : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ المراد إطباقهم على الفتك بالرسول ، والله تعالى أخبر

الرسول عليه السلام بذلك حتى احترز عنهم ، ولم يصلوا إلى مقصودهم .

وأما قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ففيه بحثان :

(147/343)

البحث الأول : أن في هذا الفضل وجهين : الأول : أن هؤلاء المنافقين كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالأموال ووجدوا الدولة ، وذلك يوجب عليهم أن يكونوا محبين له مجتهدين في بذل النفس والمال لأجله .

والثاني : روي أنه قتل للجلاس مولى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى .

البحث الثاني : أن قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ تنبيه على أنه ليس هناك شيء ينقمون منه ، وهذا كقول الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلا . . أنهم يحلمون إن غضبوا

وكقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . بهن فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب ، ثم قال تعالى : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ والمراد استعطاف قلوبهم بعد ما صدرت الجناية العظيمة عنهم ، وليس في الظاهر إلا أنهم إن تابوا فازوا بالخير ، فأما أنهم تابوا فليس في الآية ، وقد ذكرنا ما قالوه في توبة الجلاس .

ثم قال : ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أي عن التوبة ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدنيا والأخرة ﴾ أما عذاب الآخرة ، فمعلوم .

وأما العذاب في الدنيا ، فقيل : المراد به أنه لما ظهر كفرهم بين الناس صاروا مثل أهل الحرب ، فيحل قتالهم وقتلهم وسبي أولادهم وأزواجهم واغتنام أموالهم .

وقيل بما ينالهم عند الموت ومعاينة ملائكة العذاب .

وقيل : المراد عذاب القبر ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الأَرض مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يعني أن عذاب الله إذا حق لم ينفعه ولي ولا نصير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 108 . 110 ﴾

(148/343)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا

لَمْ يَنَالُوا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ : فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَوْلُ الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْدٍ : إنْ كَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ حَقًّا فَلَنَحْنُ شَرٌّ مِنْ الْحُمُرِ .

ثُمَّ إنَّهُ حَلَفَ مَا قَالَ ؛ قَالَهُ عُرْوَةُ وَمُجَاهِدٌ وَابْنُ إسْحَاقَ .

الثَّانِي : أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ حِينَ قَالَ : ﴿ لَئِنْ رَجَعْنَا إلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ ؛ قَالَهُ قَتَادَةُ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ جَمَاعَةُ الْمُنَافِقِينَ قَالُوا ذَلِكَ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ؛ لِعُمُومِ الْقَوْلِ ، وَوُجُودِ الْمَعْنَى فِيهِ وَفِيهِمْ ، وَجُمْلَةُ ذَلِكَ اعْتِقَادُهُمْ وَقَوْلُهُمْ إنَّهُ لَيْسَ بِنَبِيٍّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ يَكُونُ بِكُلِّ مَا يُنَاقِضُ التَّصْدِيقَ وَالْمَعْرِفَةَ ، وَإِنْ كَانَ الْإِيمَانُ لَا يَكُونُ إلَّا بِلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَذَلِكَ لِسَعَةِ الْحِلِّ وَضِيقِ الْعَقْدِ ، وَذَلِكَ كَالطَّلَاقِ يَقَعُ بِالنِّيَّةِ وَالْقَوْلِ ، وَلَيْسَ يَقَعُ النِّكَاحُ إلَّا بِاللَّفْظِ الْمَخْصُوصِ مَعَ الْقَوْلِ بِهِ .

(149/343)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ : فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى تَوْبَةِ الْكَافِرِ الَّذِي يُسِرُّ الْكُفْرَ وَيُظْهِرُ الْإِيمَانَ ، وَهُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْفُقَهَاءُ الزِّنْدِيقَ .

وَقَدْ اخْتَلَفَ فِي ذَلِكَ الْعُلَمَاءُ ، فَقَالَ مَالِكٌ : لَا تُقْبَلُ لَهُ تَوْبَةٌ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : تُقْبَلُ .

وَلَيْسَتْ الْمَسْأَلَةُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَقُولُ مَالِكٌ : إِنَّ تَوْبَةَ الزِّنْدِيقِ لَا تُعْرَفُ ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَيُسِرُّ الْكُفْرَ ، وَلَا يُعْلَمُ إِيمَانُهُ إِلَّا بِقَوْلِهِ .

وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ الْآنَ ، وَفِي كُلِّ حِينٍ ، يَقُولُ : أَنَا مُؤْمِنٌ ، وَهُوَ يُضْمِرُ خِلَافَ مَا يُظْهِرُ ، فَإِذَا عَثَرْنَا عَلَيْهِ وَقَالَ : تُبْت لَمْ يَتَغَيَّرْ حَالُهُ .

وَقَبُولُ التَّوْبَةِ لَا يَكُونُ إِلَّا لِتَوْبَةٍ تَتَغَيَّرُ فِيهَا الْحَالَةُ الْمَاضِيَةُ بِنَقِيضِهَا فِي الْآتِيَةِ .

وَلِهَذَا قُلْنَا : إِنَّهُ إِذَا جَاءَ تَائِبًا مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يُعْثَرَ عَلَيْهِ قَبِلْنَا تَوْبَتَهُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْآيَةِ ، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِعُمُومٍ ، فَتَتَنَاوَلُ كُلَّ حَالَةٍ ؛ وَإِنَّمَا تَقْتَضِي الْقَبُولَ الْمُطْلَقَةَ فَيَكْفِي فِي تَحْقِيقِ الْمَعْنَى لِلَّفْظِ وُجُودُهُ مِنْ جِهَةٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْمَسْأَلَةَ عَلَى الِاسْتِيفَاءِ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَهَذَا الْقَدْرُ يَتَعَلَّقُ بِالْأَحْكَامِ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ2 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

ثم بيّن خبثهم وسوء معاملتهم وفعالهم ، فقال الله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾ ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك ، فذكر المنافقين وسماهم رجساً ، فقال الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً فيما يقول ، لنحن شر من الحمير فسمع عامر بن قيس ذلك ، فقال : والله إن محمداً لصادق ، ولأنتم شر من الحمير .

فلما رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتاه عامر بن قيس فأخبره .

فقال الجلاس : بل كذب عليّ ، وأمرهما أن يحلفا عند المنبر ، فقام الجلاس وحلف ، ثم قام عامر بن قيس وحلف أنه قد قاله ، وما كذبت عليه ، ثم رفع يديه فقال : اللهم انزل على نبيك صلى الله عليه وسلم وبيّن الصادق منا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون "آمين" فنزل جبريل قبل أن يتفرقوا بهذه الآية ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم ﴾ ، يقول كفروا في السر بعد أن أقروا في العلانية ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ، يعني : أرادوا قتل عامر بن قيس ؛ ويقال : قتل النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم اجتمعوا ذات ليلة في مضيق جبل ، ليقتلوه إذا مرّ بهم ، فدفعهم الله عنه ؛

ويقال : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ وهو قول عبد الله بن أُبي ابن سلول لأصحابه : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الاعز مِنْهَا الاذل وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ولكن المنافقين لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : 8] .

وقال : سَمِّن كلبك يأكلك ، يعني : سلطناهم على أنفسنا فنزل : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾

وقال مقاتل : كان المنافقون أصحاب العقبة هموا ليلاً بقتل النبي صلى الله عليه وسلم بالعقبة في غزوة تبوك ، فنزل : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ وهكذا قال الضحاك .

(151/343)

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ ﴾ ، يعني : وما عابوا وما طعنوا على محمد صلى الله عليه وسلم .

﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ ؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وكان أهل المدينة في شدة من عيشهم ، لا يركبون الخيل ، ولا يحوزون الغنيمة ؛ فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة استغنوا ؛ فذلك قوله : ﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

ثم قال الله تعالى : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ ، يعني : إن تابوا من الشرك والنفاق يكون

خيراً لهم من الإقامة عليه .

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أبوا عن التوبة ، ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدنيا والآخرة ﴾ ؛ يعني : في الدنيا بإظهار حالهم ، وفي الآخرة في نار جهنم .

﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الأرض مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ، يعني : مانع يمنعهم من العذاب .

وذكر أنه لما نزلت هذه الآية ، تاب الجلاس بن سويد وحسنت توبته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(152/343)

وقال الثعلبى :

﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾

قال ابن عباس : " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر اليكم بعينيّ شيطان ، إذا جاء فلا تكلّموه ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . "

وقال الضحاك : " خرج المنافقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وكانوا إذا

خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال النبي : يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم ؟ فحلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوا بشيء من ذلك ، فأنزل الله تعالى هذه الآية إكذاباً لهم "

وقال الكلبي : نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت [لأنّ] " رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم ، فقال الجلاس : والله إن كان محمد صادقاً فيما يقول فنحن شر من الحمير فسمعه عامر بن قيس ، فقال : أجل والله إن محمداً لصادق مصدق وأنتم شر من الحمير .

(153/343)

فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس ، فقال الجلاّس : كَذِب يا رسول الله عليّ ، ما قلتُ شيئاً من ذلك ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحلفا عند المنبر بعد العصر ، فحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو ما قاله ، وإنه كذب عليّ عامر ، ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلاّ هو لقد قاله وما كذبت عليه ، ثم رفع عامر بيديه إلى السماء فقال : اللهم أنزل على نبيك الصادق منا

المصدّق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون : آمين ، فنزل جبرئيل على النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ فقام الجلاس ، فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليّ التوبة ، صدق عامر بن قيس في ذلك ، لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه ، فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه ثم تاب فحسن توبته " .

قال قتادة : ذُكر لنا أن رجلين اقتتلا : رجلا من جهينة ، ورجلاً من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، وظفر الغفاري على الجهيني ، فنادى عبد الله بن أُبي : أيها الأوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلاّ كما قال القائل : سمّن كلبك يأكلك .

ثم قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل صلى الله عليه وسلم إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال ، فأنزل الله عز وجل : يحلفون بالله ما قالوا ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ﴾ .

قال مجاهد : هم المنافقون بنقل المؤمن الذي يقول لنحن شر من الحمير لكي لا يفشيه عليه .

(154/343)

قال السدي : قالوا إذا قدمنا المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أُبي تاجاً يباهي به [. . . . .] إليه . وقال الكلبي : هم خمسة عشر رجلاً منهم عبد الله بن أُبي ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وطعمة بن أُبيرق والجلاس بن سويد وعامر بن النعمان وأبو الاحوص ، همّوا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأخبر جبرائيل بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل : إنهم من قريش هموا في قتل النبي صلى الله عليه وسلم فمنعه الله عز وجل .

جابر عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنه في هذه الآية قال : هَمَّ رجل من قريش يقال له الاسود بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا نقموا ﴾ منه ، ما أنكروا منه ولا (ينقمون) ﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِه ﴾ (ويقال : إنّ القتيل) مولى الجلاس قُتل ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفا فاستغنى ، وقال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم في ضنك من عيشهم ، لايركبون الخيل ولايحوزون الغنيمة ، فلمّا قدم النبي صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم ، وهذا مثل مشهور : اتّقِ شر من أحسنت إليه .

ثم قال الله عز وجل ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ ﴾ من نفاقهم وكفرهم ﴿ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ يعرضوا عن الإيمان ﴿ يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا ﴾ بالقتل والخزي ﴿ والآخرة

﴿ بالنار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(155/343)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾

فيهم ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه الجلاس بن سويد بن الصامت ، قال : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن شر من الحمير ، ثم حلف أنه ما قال ، وهذا قول عروة ومجاهد وابن إسحاق .

والثاني : أنه عبد الله بن أبي بن سلول . قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قاله قتادة .

والثالث : أنهم جماعة من المنافقين قالوا ذلك ، قاله الحسن .

﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ يعني ما أنكروه مما قدمنا ذكره تحقيقاً لتكذيبهم فيما أنكروه وقيل بل هو قولهم إن محمداً ليس بنبي .

﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسلامهم ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : كفروا بقلوبهم بعد أن آمنوا بأفواههم .

والثاني : جرى عليهم حكم الكفر بعد أن جرى عليهم حكم الإيمان .

﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أن المنافقين هموا بقتل الذي أنكر عليهم ، قاله مجاهد .

والثاني : أنهم هموا بما قالوه ﴿ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنهَا الأَذَلَّ ﴾ وهذا قول قتادة .

والثالث : أنهم هموا بقتل النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا مروي عن مجاهد أيضاً وقيل إنه كان ذلك في غزوة تبوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(156/343)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ الآية

هذه الآية نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ، وذلك كأنه كان يأتي من قباء ومعه ابن امرأته عمير بن سعد فيما قال ابن إسحاق ، وقال عروة اسمه مصعب ، وقال غيره وهما على حمارين .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد سمى قوماً ممن اتهمهم بالنفاق ، وقال إنهم رجس ، فقال الجلاس للذي كان يسير معه : والله ما هؤلاء الذين سمى محمد إلا كبراؤنا وسادتنا ، ولئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه فقال له ربيبة أو الرجل الآخر ؟ والله إنه لحق ، وإنك لشر من حمارك ، ثم خشي الرجل من أن يلحقه في دينه درك ، فخرج وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصة فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في الجلاس فقرره فحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية ، والإشارة ب ﴿ كلمة الكفر ﴾ إلى قوله : إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمر ، إن التكذيب في قوة هذا الكلام ، قال مجاهد وكان الجلاس لما قال له صاحبه إني سأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك هم بقتله ، ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك فإلى هذا هي الإشارة بقوله ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ ، وقال قتادة بن دعامة : نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي ابن سلول ، وذلك أن سنان بن وبرة الأنصاري والجهجاه الغفاري كسع أحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع ، فثاروا ، فصاح جهجاه بالأنصار وصاح سنان بالمهاجرين ، فثار الناس فهدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله بن أبي ابن سلول : ما أرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا ، ما مثلنا

ومثلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فوقفه فحلف أنه لم يقل ذلك ، فنزلت الآية مكذبة له ، والإشارة ب ﴿ كلمة الكفر ﴾ إلى تمثيله : سمن كلبك يأكلك ، قال قتادة والإشارة ب ﴿ هموا ﴾ إلى قوله لئن رجعنا إلى المدينة ، وقال الحسن هم المنافقون من إظهار الشرك ومكابرة النبي صلى الله عليه وسلم بما لم ينالوا ، وقال تعالى : ﴿ بعد إسلامهم ﴾ ولم يقل بعد إيمانهم لأن ذلك لم يتجاوز ألسنتهم ، وقوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله ﴾ ، معناه أن

(158/343)

رسول الله صلى الله عليه وسلم أنفذ لعبد الله بن أبي ابن سلول دية كانت قد تعطلت له ، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً ، وقيل بل كانت للجلاس .

قال القاضي أبو محمد : وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أولها ، وتقدم اختلاف القراء في ﴿ نقموا ﴾ في سورة الأعراف ، وقرأها أبو حيوة وابن أبي عبلة بكسر القاف ، وهي لغة ، وقوله ﴿ إلا أن أغناهم الله ﴾ استثناء من غير الأول كما قال النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهن فلول من قراع الكتائب

فكأن الكلام وما نقموا إلا ما حقه أن يشكر ، وقال مجاهد في قوله ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا لا يناسب الآية ، وقالت فرقة إن الجلاس هو الذي هم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السند ، وحكى الزجّاج أن اثني عشر من المنافقين هموا بذلك فأطلع الله عليهم ، وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم في إغنائهم من حيث كثرت أموالهم من الغنائم ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم سبب في ذلك وعلى هذا الحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأنصار "كنتم عالة فأغناكم الله بي " ، ثم فتح عز وجل لهم باب التوبة رفقاً بهم ولطفاً في قوله ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ .

وروي أن الجلاس تاب من النفاق فقال إن الله قد ترك لي باب التوبة فاعترف وأخلص ، وحسنت توبته ، و" العذاب الأليم " اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(159/343)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾

في سبب نزولها ثلاثة أقوال .

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر المنافقين فعابهم ؛ فقال الجُلاس بن سويد : إن كان ما يقول على إخواننا حقاً ، لنحن شرٌّ من الحمير ، فقال عامر بن قيس : والله إنه لصادق ، ولأنتم شرٌّ من الحمير ؛ وأخبر رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فأتى الجلاسُ فقال : ما قلت شيئاً ، فحلفا عند المنبر ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، وذهب إلى نحوه الحسن ، ومجاهد ، وابن سيرين .

والثاني : أن عبد الله بن أُبيٍّ قال : والله لئن رجعنا إلى المدينة ، ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل ، فسمعه رجل من المسلمين ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه ، فجعل يحلف بالله ما قال ، فنزلت هذه الآية ، قاله قتادة .

والثالث : أن المنافقين كانوا إذا خَلَوْا ، سبُّوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وطعنوا في الدين ؛ فنقل حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض ذلك ، فحلفوا ما قالوا شيئاً ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

فأما كلمة الكفر ، فهي سبُّهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطعنهم في الدين .

وفي سبب قوله : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أربعة أقوال .

أحدها : أنها نزلت في ابن أُبيّ حين قال : لئن رجعنا إلى المدينة ، رواه أبو صالح عن ابن عباس ، وبه قال قتادة .

والثاني : أنها نزلت فيهم حين همُّوا بقتل رسول الله ، رواه مجاهد عن ابن عباس ، قال : والذي همَّ رجل يقال له : الأسود .

وقال مقاتل : هم خمسة عشر رجلاً ، هَمُّوا بقتله ليلة العقبة .

والثالث : أنه لما قال بعض المنافقين : إن كان ما يقول محمد حقاً ، فنحن شرٌّ من الحمير ؛ وقال له رجل من المؤمنين : لأنتم شرٌّ من الحمير ، همَّ المنافق بقتله ؛ فذلك قوله : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ هذا قول مجاهد .

(160/343)

والرابع : أنهم قالوا في غزوة تبوك : إذا قدمنا المدينة ، عقدنا على رأس عبد الله بن أُبيّ تاجاً نباهي به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلم ينالوا ما همُّوا به .

قوله تعالى : ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ﴾ قال ابن قتيبة : أي : ليس ينقمون شيئاً ، ولا يتعرفون من الله إلا الصنع ، ومثله قول الشاعر :

مَا نَقَمَ النَّاسُ مِنْ أُمَيَّةَ إلاَّ . . .

أَنَّهُمْ يَحْلُمونَ إِنْ غَضِبُوا

وأَنَّهم سَادَةُ المُلُوْكِ ولاَ . . .

تَصْلُحُ إلاّ عَلَيْهِمُ العَرَبُ

وهذا ليس مما يُنقم ، وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً ، وكقول النابغة :

ولا عَيْبَ فِيْهِم غَيْرَ أَنَّ سُيوفَهم . . .

بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

أي : ليس فيهم عيب .

قال ابن عباس : كانوا قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة في ضَنْك من معاشهم ، فلما قدم عليهم ، غنموا ، وصارت لهم الأموال .

فعلى هذا ، يكون الكلام عامّاً .

وقال قتادة : هذا في عبد الله بن أُبيّ .

وقال عروة : هو الجلاس بن سويد ، قُتل له مولى ، فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته ، فاستغنى ؛ فلما نزلت : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ قال الجلاس : أنا أتوب إلى الله .

قوله تعالى : ﴿ وإن يتولَّوا ﴾ أي : يعرضوا عن الإيمان .

قال ابن عباس : كما تولَّى عبد الله بن أُبي ، ﴿ يعذبْهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ بالقتل ، وفي الآخرة بالنار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(161/343)

وقال القرطبى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾

فيه ست مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ رُوي أن هذه الآية نزلت في الجُلاَس بن سُويد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت ؛ وقعوا في النبيّ صلى الله عليه وسلم وقالوا : والله لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شر من الحمير .

فقال له عامر بن قيس : أجل ! والله إن محمداً لصادق مصدَّق ؛ وإنك لشر من حمار .

وأخبر عامر بذلك النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وجاء الجُلاَس فحلف بالله عند منبر النبيّ صلى الله عليه وسلم إن عامراً لكاذب .

وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللّهُمّ أنزل على نبيّك الصادق شيئاً ، فنزلت .

وقيل : إن الذي سمعه عاصم بن عدِيّ .

وقيل حذيفة .

وقيل : بل سمعه ولد امرأته واسمه عمير بن سعد ؛ فيما قال ابن إسحاق .

وقال غيره : اسمه مصعب .

فهمّ الجُلاَس بقتله لئلا يخبر بخبره ؛ ففيه نزل : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ .

قال مجاهد : وكان الجُلاَس لما قال له صاحبه إني سأُخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولك همّ بقتله ، ثم لم يفعل ، عجز عن ذلك .

قال ، ذلك هي الإشارة بقوله ، ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ .

وقيل : إنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ ، رأى رجلاً من غِفار يتقاتل مع رجل من جُهينة ، وكانت جُهينة حلفاء الأنصار ، فعلا الغِفاريُّ الجُهَنِيّ .

فقال ابن أُبيّ : يا بني الأَوْسِ والخزرج ، انصروا أخاكم ! فوالله ما مَثَلُنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : "سَمِّن كَلْبَك يأكلك" ، ولئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزُّ منها الأذَلَّ .

فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاءه عبد الله بن أُبيّ فحلف أنه لم يقله ؛ قاله قتادة .

وقول ثالث أنه قول جميع المنافقين ؛ قاله الحسن .

ابن العربيّ : وهو الصحيح ؛ لعموم القول ووجود المعنى فيه وفيهم ، وجملة ذلك اعتقادهم فيه أنه ليس بنبيّ .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر ﴾ قال النقاش : تكذيبهم بما وعد الله من الفتح .

وقيل : "كلمة الكفر" قول الجُلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن أشر من الحمير .

وقول عبد الله بن أُبيّ : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل .

قال القشيريّ : كلمة الكفر سبُّ النبيّ صلى الله عليه وسلم والطعنُ في الإسلام .

﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ ﴾ أي بعد الحكم بإسلامهم .

فدلّ هذا على أن المنافقين كفار ، وفي قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ [المنافقون : 3] دليل قاطع .

ودلّت الآية أيضاً على أن الكفر يكون بكل ما يناقض التصديق والمعرفة ؛ وإن كان الإيمان لا يكون إلا بلا إله إلا الله دون غيره من الأقوال والأفعال إلا في الصلاة .

قال إسحاق ابن رَاهْوَيه : ولقد أجمعوا في الصلاة على شيء لم يجمعوا عليه في سائر الشرائع ؛ لأنهم بأجمعهم قالوا : من عُرف بالكفر ثم رأُوه يصلي الصلاة في وقتها حتى صلّى صلوات كثيرةً ، ولم يعلموا منه إقراراً باللسان أنه يحكم له بالإيمان ، ولم يحكموا له في الصوم والزكاة

بمثل ذلك .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ يعني المنافقين من قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك ، وكانوا اثني عشر رجلاً .

" قال حذيفة : سمّاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عدّهم كلهم .

فقلت : ألاَ تبعثُ إليهم فتقتلَهم ؟ فقال : "أكره أن تقول العرب لمّا ظفِر بأصحابه أقبل يقتلهم بل يكفيهم الله الدُّبَيْلة" .

قيل : يا رسول الله وما الدُّبيلة ؟ قال : "شهاب من جهنم يجعله على نِياط فؤاد أحدهم حتى تزهق نفسه" .

فكان كذلك " خرّجه مسلم بمعناه .

وقيل هَمّوا بعقد التّاج على رأس ابن أُبَيّ ليجتمعوا عليه .

(163/343)

وقد تقدّم قول مجاهد في هذا .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي ليس ينقمون شيئاً ؛ كما قال النابغة :

ولا عَيْبَ فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهنّ فُلول من قِراع الكتائب

ويقال : نَقَم ينقِم ، ونَقِم ينقَم ، قال الشاعر في الكسر :

ما نقِموا من بني أُميّة إلا . . .

أنهم يحلمُون إن غضبوا

وقال زهير :

يؤخّرْ فيوضع في كتاب فَيُدَّخَرْ . . .

ليوم الحساب أو يُعَجّلْ فينقَمِ

ينشد بكسر القاف وفتحها .

قال الشعبِيّ : كانوا يطلبون دِيَةً فيقضي لهم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستغنوا :

ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً .

ويقال : إن القتيل كان مَوْلَى الجُلاَس .

وقال الكلبيّ : كانوا قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم في ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة ، فلما قدم عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم استغنوا بالغنائم .

وهذا المثل مشهور (اتق شر من أحسنت إليه) .

قال القشيرِيّ أبو نصر : قيل للبَجَلِيّ أتجد في كتاب الله تعالى اتق شر من أحسنت إليه ؟ قال

نعم ، ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ روي أن الجلاس قام حين نزلت الآية فاستغفر وتاب .

فدل هذا على توبة الكافر الذي يُسِر الكفر ويُظهر الإيمان ؛ وهو الذي يسميه الفقهاء الزنديق .

وقد اختلف في ذلك العلماء ؛ فقال الشافعيّ : تقبل توبته .

وقال مالك : توبة الزنديق لا تعرف ؛ لأنه كان يظهر الإيمان ويُسِرّ الكفر ، ولا يعلم إيمانه إلا بقوله .

وكذلك يُفعل الآن في كل حين ، يقول : أنا مؤمن وهو يضمر خلاف ما يظهر ؛ فإذا عثر عليه وقال : تبت ، لم يتغيّر حاله عما كان عليه .

فإذا جاءنا تائباً من قِبل نفسه قَبْل أن يعثر عليه قُبلت توبته ؛ وهو المراد بالآية .

والله أعلم .

(164/343)

السادسة قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أي يعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار .

﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ ﴾ أي مانع يمنعهم ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ أي معين . وقد تقدّم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(165/343)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية فقال عروة بن الزبير : نزلت في الجلاس بن سويد أقبل هو وابن امرأته مصعب من قباء .

فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه التي نحن عليها فقال مصعب : أما والله يا عدو الله لأخبرن النبي (صلى الله عليه وسلم) بما قلت وخفت أن ينزل في القرآن أو أن تصيبني قارعة أو أن أخلط بخطيئته فأتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فقلت : يا رسول الله أقبلت أنا والجلاس من قباء فقال كذا وكذا ولولا مخافة أن أخلط بخطيئته أو تصيبني قارعة ما أخبرتك .

قال فدعا الجلاس ، فقال له : يا جلاس أقلت ما قال مصعب ؟ فحلف ما قال ، فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا : الآية .

وروي عن مجاهد ونحوه .

وقال ابن عباس : كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) جالساً في ظل حجرة فقال : " إنه سيأتينكم إنسان فينظر إليكم بعين الشيطان فإذا جاء فلا تكلموه " ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : " علام تشتمني أنت وأصحابك " ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا وما فعلوا حتى تجاوز عنه فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا .

ثم نعتهم جميعاً إلى آخر الآية .

وقال قتادة : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي سلول للأوس : انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك ، وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأرسل إليه فسأله فحلف بالله ما قال فأنزل الله هذه الآية ، هذه روايات الطبري .

وذكر البغوي عن الكلبي قال : نزلت في الجلاس بن سويد وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خطب ذات يوم بتبوك فذكر المنافقين وسماهم رجساً وعابهم فقال الجلاس : لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير فلما انصرف رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس .

فقال الجلاس : كذب يا رسول الله عليّ فأمرهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر بعد العصر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو ما قاله ولقد كذب على عامر ثم قام عامر فحلف بالله الذي لا إله إلا هو لقد قاله وما كذبت عليه ثم رفع عامر يده إلى السماء فقال : اللهم أنزل على نبيك تصديق الصادق منا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون آمين فنزل جبريل عليه السلام قبل أن يتفرقا بهذه الآية حتى بلغ فإن يتوبوا يك خيراً لهم فقام الجلاس فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض علي التوبة صدق عامر بن قيس فيما قاله لقد قلته وأنا أستغفر الله وأتوب إليه فقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك منه فتاب وحسنت توبته فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ يعني أظهروا كلمة الكفر بعد إسلامهم وتلك الكلمة هي سب النبي (صلى الله عليه وسلم) فقيل : هي كلمة الجلاس بن سويد لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحمير وقيل هي كلمة عبد الله بن أبي

سلول لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل وستأتي القصة في موضعها في سورة المنافقين إن شاء الله تعالى .

(167/343)

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال مجاهد : همَّ الجلاس بقتل الذي سمع مقالته خشية أن يفشيها عليه وقيل همَّ عبد الله بن أبي بن سلول وكان همه قوله لئن رجعنا إلى المدينة فلم ينله وقيل : همَّ اثنا عشر رجلاً من المنافقين بقتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوقفوا على العقبة وقت رجوعه من تبوك ليقتلوه فجاء جبريل عليه السلام فأخبره وأمره أن يرسل إليهم من يضرب وجوه رواحلهم فأرسل حذيفة لذلك .

وقال السدي : قال المنافقون إذا رجعنا إلى المدينة عقدنا على رأس عبد الله بن أبي سلول تاجاً فلم يصلوا إليه ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ يعني وما أنكروا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) شيئاً إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله

والمعنى أن المنافقين علموا بضد الواجب فجعلوا موضع شكر النبي (صلى الله عليه وسلم) أن نقموا عليه وقيل إنهم بطروا النعمة فنقموا أشراً وبطراً وقال ابن قتيبة : معناه ليس ينقمون شيئاً ولا يتعرفون إلا الصنع وهذا كقول الشاعر :

ما نقم الناس من أمية إلا . . .

أنهم يحلمون إن غضبوا

وهذا ليس مما ينقم وإنما أراد أن الناس لا ينقمون عليهم شيئاً فهو كقول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

بهنَّ فلول من قراع الكتائب

أي ليس فيهم عيب .

قال الكلبي : كانوا قبل قدوم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة في ضنك من العيش فلما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) استغنوا بالغنائم .

فعلى هذا القول يكون الكلام عاماً .

وقال عروة : كان الجلاس قتل له مولى فأمر له النبي (صلى الله عليه وسلم) بديته فاستغنى .

وقال قتادة : كانت لعبد الله بن أبي دية فأخرجها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) له .

(168/343)

وقال عكرمة إن مولى لبني عدي قتل رجلاً من الأنصار فقضى له النبي (صلى الله عليه وسلم) بالدية اثني عشر ألفاً وفيه نزلت ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ يعني : فإن يتوبوا من كفرهم ونفاقهم يك ذلك خيراً لهم في العاجل والآجل ﴿ وإن يتولوا ﴾ يعني وإن يعرضوا عن الإيمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ يعني بالخزي والإذلال ﴿ والآخرة ﴾ أي ويعذبهم في الآخرة بالنار ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ يعني وليس لهم أحد يمنعهم من عذاب الله أو ينصرهم في الدنيا والآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(169/343)

وقال أبو حيان :

﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ﴾

الضمير عائد على المنافقين .

فقيل : هو حلف الجلاس ، وتقدمت قصته مع عامر بن قيس .

وقيل : حلف عبد الله بن أبي أنه ما قال ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ﴾ الآية .

وقال الضحاك : حلفهم حين نقل حذيفة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصحابه وإياه في خلوتهم ، وأما وهموا بما لم ينالوا فنزلت قيل : في ابن أبي في قوله : ليخرجن ، قاله قتادة ، وروي عن ابن عباس .

وقيل : بقتل الرسول ، والذي همّ به رجل يقال له : الأسود من قريش ، رواه مجاهد عن ابن عباس .

وقال مجاهد : نزلت في خمسة عشر هموا بقتله وتوافقوا على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذ تسنم العقبة ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها ، وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة يوقع أخفاف الإبل وقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال : إليكم يا أعداء الله فهربوا ، وكان منهم عبد الله بن أبي ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، وطعيمة بن أبيرق ، والجلاس بن سويد ، وأبو عامر بن نعمان ، وأبو الأحوص .

وقيل : همهم بما لم ينالوا ، هو أن يتوجوا عبد الله بن أبي إذا رجعوا من غزوة تبوك يباهون به الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فلم ينالوا ما هموا به ، فنزلت .

وعن ابن عباس : كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) جالساً في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه ، فلم يلبثوا أنْ طلع رجل

أزرق فدعاه فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، فأنزل الله هذه الآية .

(170/343)

وكلمة الكفر قول ابن أبي لما شاور الجهجاه الغفاري وسنان بن وبرة الجهني ، وقد كسع أحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع ، فصاح الجهجاه : يا للأنصار ، وصاح سنان : يا للمهاجرين ، فثار الناس ، وهدأهم الرسول فقال ابن أبي : ما أرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أو الاستهزاء ، أو قول الجلاس المتقدم ، أو قولهم : نعقد التاج ، أو قولهم : ليس بنبي ، أو القول : لئن رجعنا إلى المدينة أقوال .

وكفروا : أي أظهروا الكفر بعد إسلامهم ، أي إظهار إسلامهم .

ولم يأت التركيب بعد إيمانهم لأنّ ذلك لم يتجاوز ألسنتهم .

والهم دون العزم ، وتقدم الخلاف في الهام والمهموم به .

وقيل : هو همّ المنافقين أو الجلاس بقتل ناقل حديث الجلاس إلى الرسول ، وفي تعيين اسم الناقل خلاف ، فقيل : عاصم بن عدي .

وقيل : حذيفة .

وقيل : ابن امرأة الجلاس عمير بن سعد .

وقيل : اسمه مصعب .

وقيل : هموا بالرسول والمؤمنين أشياء لم ينالوها "وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله" هذا مثل قوله : ﴿ هل تنقمون منا إلا أن آمنا ﴾ ﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا ﴾ وكان حق الغني من الله ورسوله أن يشكر لا أين ينقم ، جعلوا الغنى سبباً ينتقم به ، فهو كقوله :

ولا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم . . .

بهن فلول من قراع الكتائب

وكان الرسول قد أعطى لعبد الله بن أبي دية كانت قد تغلظت له ، قال عكرمة : اثنا عشر ألفاً .

وقيل : بل كانت للجلاس .

وكانت الأنصار حين قدم الرسول (صلى الله عليه وسلم) المدينة في ضنك من العيش ، لا يركبون الخيل .

ولا يجوزون الغنيمة ، فأثروا وقال الرسول للأنصار : ﴿ وكنتم عالة فأغناكم الله بي ﴾

وقيل : كان على الجلاس دين كثير فقضاه الرسول ، وحصل له من الغنائم مال كثير .

وقوله : وما نقموا الجملة كلام أجري مجرى التهكم به ، كما تقول : ما لي عندك ذنب إلا إني أحسنت إليك ، فإن فعلهم يدل على أنهم كانوا لئاماً .

(171/343)

وقال الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلا . . .

أنهم يحلمون إن غضبوا

وأنهم سادة الملوك ولا . . .

يصلح إلا عليهم العرب

وقال الآخر وهو نظير البيت السابق :

ولا عيب فينا غير عرق لمعشر . . .

كرام وإنا لا نحط على النمل

﴿ فإن يتوبوا ﴾ هذا إحسان منه تعالى ورفق ولطف بهم ، حيث فتح لهم باب التوبة بعد ارتكاب تلك الجرائم العظيمة .

وكان الجلاس بعد حلفه وإنكاره أن قال ما نقل عنه قد اعترف ، وصدق الناقل عنه وتاب

وحسنت توبته ، ولم يرد أنّ أحداً قبلت توبته منهم غير الجلاس .

قيل : وفي هذا دليل على قبول توبة الزنديق المس الكفر المظهر للإيمان ، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي .

وقال مالك : لا تقبل فإن جاء تائباً من قبل نفسه قبل أن يعثر عليه قبلت توبته بلا خلاف ،

وإن يتولوا أي : عن التوبة ، أو الإيمان ، أو الإخلاص ، أو الرسول .

والمعنى : وإنْ يديموا التولي إذ هم متولون في الدنيا بإلحاقهم بالحربيين إذ أظهروا الكفر ،

فيحل قتالهم وقتلهم ، وسبي أولادهم وأزواجهم ، وغنم أموالهم .

وقيل : ما يصيبهم عند الموت ومعاينة ملائكة العذاب .

وقيل : عذاب القبر .

وقيل : التعب والخوف والهجنة عند المؤمنين ، وفي الآخرة بالنار . انتهى انتهى . اهـ

﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(172/343)

وقال أبو السعود :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُواْ ﴾

استئنافٌ لبيان ما صدر عنهم من الجرائمِ الموجبةِ لما مر من الأمر بالجهاد والغِلظة عليهم ودخولِ جهنم . (روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام في غزوة تبوكَ شهرين ينزلِ عليه القرآنُ ويَعيب المنافقين المتخلّفين فيسمعه مَنْ كان منهم معه عليه الصلاة والسلام فقال الجُلاَّس بنُ سويد منهم : لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلّفناهم وهم سادتُنا وأشرافنا فنحن شرٌّ من الحمير) ، فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل والله إن محمداً لصادقٌ وأنت شرٌّ من الحمار ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستُحضر فحلف بالله ما قال فرفع عامرٌ يده فقال : اللهم أنزِل على عبدك ونبيّك تصديقَ الصادق وتكذيبَ الكاذب فنزل . وإيثارُ صيغةِ الاستقبالِ في يحلفون لاستحضار الصورةِ أو للدلالة على تكرير الحلف ، وصيغةُ الجمعِ في قالوا مع أن القائلَ هو الجلاس للإيذان بأن بقيتَهم برضاهم بقوله : صاروا بمنزلة القائل .

(173/343)

﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر ﴾ هي ما حُكي آنفاً والجملةُ مع ما عطف عليها اعتراضٌ ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم ﴾ أي وأظهروا ما في قلوبهم من الكفر بعد إظهارِهم الإسلامَ ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ هو الفتكُ برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وذلك أنه (توافقَ

خمسةَ عشرَ منهم على أن يدفعوه عليه الصلاة والسلام عن راحلته إذا تسنّم العقبةَ بالليل وكان عمارُ بنُ ياسر آخذاً بخِطام راحلته يقودها وحذيفةُ بنُ اليمان خلفها يسوقُها فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفافِ الإبل وبقعقعة السلاحِ فالتفت فإذا قومٌ متلثّمون فقال : إليكم إليكم يا أعداءَ الله فهربوا) . وقيل : هم المنافقون همّوا بقتل عامر لرده على الجلاس ، وقيل : أرادوا أن يتوّجوا عبدَ اللَّه بنَ أبيّ بنِ سَلول وإن لم يرضَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَمَا نَقَمُواْ ﴾ أي وما أنكروا وما عابوا أو ما وجدوا ما يورث نِقمتَهم ﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ سبحانه وتعالى وذلك أنهم كانوا حين قدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ في غاية ما يكون من ضنْك العيشِ لا يركبون الخيلَ ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقُتل للجلاس مولى فأمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بديته اثنى عشرَ ألفَ درهم فاستغنى ، والاستثناء مفرَّغٌ من أعم المفاعيل أو من أعم العلل أي وما أنكروا شيئاً من الأشياء إلا إغناءَ الله تعالى إياهم أو وما أنكروا لعلة من العلل إلا لإغناء الله إياهم ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ ﴾ عما هم عليه من الكفر والنفاق ﴿ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ في الدارين .

(174/343)

قيل : لما تلاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قال الجلاس : يا رسول الله لقد عرض الله عليّ التوبةَ والله لقد قلت وصدق عامرٌ فتاب الجلاسُ وحسُنت توبته ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أي استمروا على ما كانوا عليه من التولي والإعراض عن الدين أو أعرضوا عن التوبة بعد هذا العرض ﴿ يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدنيا ﴾ بالقتل والأسرِ والنهب وغيرِ ذلك من فنون العقوبات ﴿ والآخرة ﴾ بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الأرض ﴾ مع سعتها وتباعُدِ أقطارِها وكثرة أهلِها المصحّحة لوجدان ما نُفيَ بقوله عز وجل : ﴿ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(175/343)

وقال الآلوسى :

﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾

استئناف لبيان ما صدر منهم من الجرائم الموجبة لما مر .

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة خلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهيني فقال عبد الله بن أبي للأوس انصروا أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقول هذا المنافق إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فجعل يحلف بالله تعالى ما قاله فنزلت .

وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير فسمعهما عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثراً ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن سكت عنها لتهلكني ولاحداهما أشد علي من الأخرى فمشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال الجلاس فحلف بالله تعالى ما قال ولقد كذب عليّ عمير فنزلت :

وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أنها لما نزلت أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن عمير قال : وفت اذنك يا غلام وصدقك ربك وكان يدعو حين حلف الجلاس اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب .

وأخرج عن عروة أن الجلاس تاب بعد نزولها وقبل منه ، وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ .

والطبراني .

(176/343)

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة فقال : انه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله تعالى ما قالوا حتى تجاوز عنهم وأنزل الله تعالى الآية ، وإسناد الحلف إلى ضمير الجمع على هذه الرواية ظاهر وأما على الروايتين الأوليين فقيل : لأنهم رضوا بذلك واتفقوا عليه فهو من إسناد الفعل إلى سببه أو لأنه جعل الكلام لرضاهم به كأنهم فعلوه ولا حاجة إلى عموم المجاز لأن الجمع بين الحقيق والمجاز جائز في المجاز العقلي وليس محلاً لخلاف ، وإيثار صيغة الاستقبال في ﴿ ﴾ استئناف لبيان ما صدر منهم من الجرائم الموجبة لما مر .

أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة خلفاء الأنصار فظهر الغفاري على الجهيني فقال عبد الله بن أبي للأوس انصروا أخاكم والله ما مثلنا ومثل محمد صلى الله عليه وسلم وحاشاه مما يقول هذا المنافق إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الاعز منها الأذل فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فجعل يحلف بالله تعالى ما قاله فنزلت .

(177/343)

وأخرج ابن اسحق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين الجلاس بن سويد : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير فسمعهما عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي وأحسنهم عندي أثراً ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن سكت عنها لتهلكني ولاحداهما أشد علي من الأخرى فمشي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال الجلاس فحلف بالله تعالى ما قال ولقد كذب عليّ عمير فنزلت :

وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين أنها لما نزلت أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن

عمير قال : وفت اذنك يا غلام وصدقك ربك وكان يدعو حين حلف الجلاس اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب .

وأخرج عن عروة أن الجلاس تاب بعد نزولها وقبل منه ، وأخرج ابن جرير .

وأبو الشيخ .

والطبراني .

(178/343)

وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة فقال : انه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان فإذا جاء فلا تكلموه فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق العينين فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق فجاء بأصحابه فحلفوا بالله تعالى ما قالوا حتى تجاوز عنهم وأنزل الله تعالى الآية ، وإسناد الحلف إلى ضمير الجمع على هذه الرواية ظاهر وأما على الروايتين الأوليين فقيل : لأنهم رضوا بذلك واتفقوا عليه فهو من إسناد الفعل إلى سببه أو لأنه جعل الكلام لرضاهم به كأنهم فعلوه ولا حاجة إلى عموم المجاز لأن الجمع بين الحقيق والمجاز جائز في المجاز العقلي وليس محلاً لخلاف ، وإيثار صيغة الاستقبال

في ﴿ يَحْلِفُونَ ﴾ على سائر الروايات لاستحضار الصورة أو للدلالة على تكرير الفعل وهو قائم مقام القسم ، و ﴿ مَا قَالُواْ ﴾ جوابه ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر ﴾ هي ما حكي من قولهم والله ما مثلنا الخ أو والله لئن كان هذا الرجل صادقاً الخ أو الشتم الذي وبخ عليه عليه الصلاة والسلام ، والجملة مع ما عطف عليها اعتراض ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم ﴾ أظهروا ما فيقلوبهم من الكفر بعد إظهار الإسلام وإلا فكفرهم الباطن كان ثابتاً قبل والإسلام الحقيق لا وجود له ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ من الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم حين رجع من غزوة تبوك .

(179/343)

أخرج البيهقي في الدلائل عن حذيفة بن اليمان قال "كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به وعمار يسوق أو أنا أسوق وعمار يقود حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثنى عشر راكباً قد اعترضوا فيها فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل عرفتم القوم ؟ قلنا : لا يا رسول الله كانوا متلثمين ولكن قد عرفنا الركاب قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة . هل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا ، قال : أرادوا أن يزلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في

العقبة فيلقوه منها قلنا : يا رسول الله أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث لك كل قوم برأس صاحبهم قال : أكره أن يتحدث العرب عنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله تعالى بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهم ارمهم بالدبيلة ، قلنا : يا رسول الله وما الدبيلة ؟ قال : شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك " وكانوا كلهم كما أخرج ابن سعد عن نافع بن جبير من الأنصار أو من حلفائهم ليس فيهم قرشي ، ونقل الطبرسي عن الباقر رضي الله تعالى عنه أن ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب لا يعول عليه .

وقد ذكر البيهقي من رواية ابن إسحاق أسماءهم وعد منهم الجلاس بن سويد ، ويشكل عليه رواية أنه تاب وحسنت توبته مع قوله عليه الصلاة والسلام في الخبر " هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة " إلا أن يقال : إن ذلك باعتبار الغالب ، وقيل : المراد بالموصول إخراج المؤمنين من المدينة على ما تضمنه الخبر المار عن قتادة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى . وأبو الشيخ عنه وعن أبي صالح أنهم أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي بتاج ويجعلوه حكماً ورئيساً بينهم وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل : أرادوا أن يقتلوا عميراً رده على الجلاس كما مر .

﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ أي ما كرهوا وعابوا شيئاً ﴿ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ فالاستثناء مفرغ من أعم المفاعيل أي وما نقموا الإيمان لأجل شيء إلا لإغناء الله تعالى إياهم فيكون الاستثناء مفرغاً من أعم العلل وهو على حد قولهم : مالي عندك ذنب إلا أني أحسنت إليك .

وقوله :

ما نقم الناس من أمية إلا . . .

أنهم يحملون إن غضبوا

وهو متصل على إدعاء دخوله بناء على القول بأن الاستثناء المفرغ لا يكون منقطعاً ، وفيه تهكم وتأكيد الشيء بخلافة كقوله :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . .

البيت ، وأصل النقمة كما قال الراغب الإنكار باللسان والعقوبة والأمر على الأول ظاهر وأما على الثاني فيحتاج إلى الاتكاب المجاز بأن يراد وجدان ما يورث النقمة ويقتضيه ، وضمير ﴿ أَغْنَاهُمُ ﴾ للمنافقين على ما هو الظاهر ، وكان إغناؤهم بأخذ الدية ، فقد روي أنه كان للجلاس مولى قتل وقد غلب على ديته فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بها اثنى عشر ألفاً فأخذها واستغنى ، وعن قتادة أن الدية كانت لعبد الله بن أبي وزيادة

الألفين كانت على عادتهم في الزيادة على الدية تكرماً وكانوا يسمونها شنقاً كما في الصحاح.

(181/343)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال: كان جلاس تحمل حمالة أو كان عليه دين فأدى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك قوله سبحانه: ﴿ وَمَا نَقَمُواْ ﴾ الآية، ولا يخفى أن الاغناء على الأول أظهر، وقيل: كان إغناؤهم بما من الله تعالى به من الغنائم فقد كانوا كما قال الكلبي قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة محاويج في ضنك من العيش فلما قدم عليه الصلاة والسلام أثروا بها، والضمير على هذا يجوز أن يكون للمؤمنين فيكون الكلام متضمناً ذم المنافقين بالحسد كما أنه على الأول متضمن لذمهم بالكفر وترك الشكر، وتوحيد ضير فضله لا يخفى وجهه ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ ﴾ عما عم عليه من القبائح ﴿ يَكُ ﴾ أي التوب، وقيل: أي التوبة ويغتفر مثل ذلك في المصادر.

وقد يقال: التذكير باعتبار الخبر أعني قوله سبحانه: ﴿ خَيْراً لَّهُمْ ﴾ أي في الدارين، وهذه الآية على ما في بعض الروايات كانت سبباً لتوبته وحسن إسلامه لطفاً من الله تعالى به وكرماً ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أي استمروا على ما كانوا عليه من التولي والاعراض عن

إخلاص الإيمان أو أعرضوا عن التوبة .

﴿ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدنيا ﴾ بمتاعب النفاق وسوء الذكر ونحو ذلك ، وقيل : المراد بعذاب الدنيا عذاب القبر أو ما يشاهدونه عند الموت ، وقيل : المراد به القتل ونحوه على معنى أنهم يقتلون إن أظهروا الكفر بناءاً على أن التولي مظنة الإظهار فلا ينافي ما تقدم من أنهم لا يقتلون وأن الجهاد في حقهم غير ما هو المتبادر .

﴿ والاخرة ﴾ وعذابهم فيها بالنار وغيرها من أفانين العقاب ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الأرض ﴾ أي في الدنيا ، والتعبير بذلك للتعميم أي ما لهم في جميع بقاعها وسائر أقطارها ﴿ مِن وَلِىّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ينقذهم من العذاب بالشفاعة أو المدافعة ، وخص ذلك في الدنيا لأنه لا ولي ولا نصير لهم في الآخرة قطعاً فلا حاجة لنفيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(182/343)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾

الأمر للنبي صلى الله عليه وسلم بهذا الجهاد أمر لأمته من بعده ، وجهاد الكفار يكون بمقاتلتهم حتى يسلموا .

وجهاد المنافقين يكون بإقامة الحجة عليهم ، حتى يخرجوا عنه ويؤمنوا بالله ، وقال الحسن : إن جهاد المنافقين بإقامة الحدود عليهم ، واختاره قتادة .

قيل في توجيهه : إن المنافقين كانوا أكثر من يفعل موجبات الحدود .

قال ابن العربي : إن هذه دعوى لا برهان عليها ، وليس العاصي بمنافق ، إنما المنافق بما يكون في قلبه من النفاق دائماً ، لا بما تتلبس به الجوارح ظاهراً ، وأخبار المحدودين تشهد بسياقتها أنهم لم يكونوا منافقين .

قوله : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ الغلظ : نقيض الرأفة ، وهو شدّة القلب وخشونة الجانب ، قيل : وهذه الآية نسخت كل شيء من العفو والصلح والصفح ، ثم ذكر من خصال المنافقين أنهم يحلفون الأيمان الكاذبة ، فقال : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ .

(183/343)

وقد اختلف أئمة التفسير في سبب نزول هذه الآية ، فقيل نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت ، ووديعة بن ثابت ، وذلك أنه كثر نزول القرآن في غزوة تبوك في شأن المنافقين

وذمهم ، فقالا : لئن كان محمد صادقاً على إخواننا الذين هم ساداتنا وخيارنا لنحن شرّ من الحمير ، فقال له عامر بن قيس : أجل ، والله إن محمداً لصادق مصدّق ، وإنك لشرّ من الحمار ، وأخبر عامر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء الجلاس فحلف بالله أن عامراً لكاذب ، وحلف عامر لقد قال ، وقال : اللهم أنزل على نبيك شيئاً فنزلت ، وقيل : إن الذي سمع ذلك عاصم بن عدي ، وقي : حذيفة ، وقيل : بل سمعه ولد امرأته : أي امرأة الجلاس ، واسمه عمير بن سعد ، فهم الجلاس بقتله لئلا يخبر بخبره .

وقيل : إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن أبيّ رأس المنافقين لما قال : ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : "سمن كلبك يأكلك" ، و ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك ، فجاء عبد الله بن أبيّ ، فحلف أنه لم يقله .

وقيل : إنه قول جميع المنافقين ، وأن الآية نزلت فيهم ، وعلى تقدير أن القائل واحد أو اثنان فنسبة القول إلى جميعهم هي باعتبار موافقة من لم يقل ، ولم يحلف من المنافقين لمن قد قال وحلف .

ثم ردّ الله على المنافقين وكذبهم وبين أنهم حلفوا كذباً ، فقال : ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر ﴾ وهي ما تقدّم بيانه على اختلاف الأقوال السابقة ﴿ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إسلامهم ﴾ أي : كفروا بهذه الكلمة بعد إظهارهم للإسلام ، وإن كانوا كفاراً في الباطن .

والمعنى : أنهم فعلوا ما يوجب كفرهم على تقدير صحة إسلامهم .

قوله : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ قيل : هو همهم بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة في غزوة تبوك .

وقيل : هموا بعقد التاج على رأس عبد الله بن أبيّ .

(184/343)

وقيل : هو همّ الجلاس بقتل من سمعه يقول تلك المقالة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ أي : وما عابوا وأنكروا إلا ما هو حقيق بالمدح والثناء ، وهو إغناء الله لهم من فضله ، والاستثناء مفرّغ من أعمّ العامّ ، وهو من باب قول النابغة :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . بهنّ فلول من قراع الكتائب

ومن باب قول الشاعر :

ما نقموا من بني أمية إلا . . . أنهم يحلمون إن غضبوا

فهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم .

وقد كان هؤلاء المنافقون في ضيق من العيش ، فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة اتسعت معيشتهم ، وكثرت أموالهم .

قوله : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي : فإن تحصل منهم التوبة والرجوع إلى الحق يكن ذلك الذي فعلوه من التوبة خيراً لهم في الدين والدنيا ، وقد تاب الجلاس بن سويد ، وحسن إسلامه ، وفي ذلك دليل على قبول التوبة من المنافق والكافر .

وقد اختلف العلماء في قبولها من الزنديق ، فمنع من قبولها مالك وأتباعه ، لأنه لا يعلم صحة توبته إذ هو في كل حين يظهر التوبة والإسلام ﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا ﴾ أي : يعرضوا عن التوبة والإيمان ﴿ يُعَذِّبْهُمُ الله عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدنيا ﴾ بالقتل والأسر ، ونهب الأموال " و " في ﴿ الآخرة ﴾ بعذاب النار ﴿ وَمَا لَهُمْ فِى الأرض مِن وَلِيّ ﴾ يواليهم ﴿ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ ينصرهم .

(185/343)

وقد أخرج ابن إسحاق ، وابن أبي حاتم ، عن كعب بن مالك ، قال : لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شرّ من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليّ وأحسنهم عندي أثراً ،

وأعزّهم عليّ أن يدخل عليه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ، ولئن سكت عنها لتهلكني ، ولإحداهما أشدّ عليّ من الأخرى ، فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قال الجلاس ، فحلف بالله ما قال ولكن كذب عليّ عمير ، فأنزل الله : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، نحوه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أنس بن مالك قال : سمع زيد بن أرقم رجلاً من المنافقين يقول والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب : إن كان هذا صادقاً لنحن شرّ من الحمير ؛ قال زيد : هو والله صادق ، وأنت شرّ من الحمار ، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجحد القائل ، فأنزل الله : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظلّ شجرة فقال : " إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاءكم فلا تكلموه " ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " علام تشتمني أنت وأصحابك " ، فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، وأنزل الله : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله مَا قَالُواْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة قال : ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ، فظهر الغفاري على الجهني ، فقال عبد الله بن أبيّ للأوس : انصروا أخاكم ، والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : "سمن كلبك يأكلك" والله ﴿ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله : ﴿ يَحْلِفُونَ بالله ﴾ الآية ، وفي الباب أحاديث مختلفة في سبب نزول هذه الآية ، وفيما ذكرناه كفاية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ قال : همّ رجل يقال له الأسود بقتل النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ قال : أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبيّ بتاج .

وأخرج ابن ماجه ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في سننه ، عن ابن عباس ، قال : قتل رجل على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل

ديته اثني عشر ألفاً ، وذلك قوله : ﴿ وَمَا نَقَمُواْ إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ قال : بأخذهم الدية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(187/343)

وقال القاسمى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا ﴾

أي : فيك شيئاً يسوءُك ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ ﴾ قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبيّ ، وذلك أنه اقتتل رجلان : جهني وأنصاري ، فعلا الجُهَنِي على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصار : ألا تنصرون أخاكم ! والله ، ما مثلنا ومثل محمد إلّا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزُّ منها الأذلّ ، فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

وروى الأموي في " مغازيه " عن ابن إسحاق أن الجلاس بن سويد بن الصامت

ـ وكان ممن تخلف من المنافقين – لما سمع ما ينزل فيهم قال : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً فيما يقول ، لنحن شرٌّ من الحمير ، فسمعها عمير بن سعد ، وكان في حجره ، فقال : والله يا

جلاس إنك لأحب الناس إليّ ، وأحسنهم عندي بلاءً ، وأعزهم عليّ أن يصله شيئاً تكرهه ، ولقد قلت مقالة ، فإن ذكرتها لتفضحني ، ولئن كتمتها لتهلكنّي ، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى .

(188/343)

فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذكر له ما قال الجلاس ، فلما بلغ ذلك الجلاس ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلف بالله ما قالها ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ﴾ الآية ، فوقفه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها ، فزعموا أن الجلاس تاب فحسنت توبته ونزع فأحسن النزوع .

وهاتان الروايتان وغيرهما مما روي هنا ، كله مما يفيد تنوع مقالات وكلمات مكفرة لهم مما هو من هذا القبيل ، وإن لم يمكنّا تعيين شيء منها في هذه الآية .

وقوله تعالى : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾ قال ابن كثير : قيل أنزلت في الجلاس بن سويد ، وذلك أنه هم بقتل عمير ابن امرأته ، لما رفع كلمته المتقدمة إلى النبيّ صلوات الله عليه .

وقد ورد أن نفراً من المنافقين هموا بالفتك بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، وهو في غزوة تبوك ، في بعض تلك الليالي ، في حال السير ، وكانوا بضعة عشر رجلاً .

قال الضحاك : ففيهم نزلت هذه الآية .

قال الإمام أحمد في مسنده : حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع ، عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك ، أمر منادياً فنادى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد .

فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ، ويسوق به عمّار ، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، غشوا عماراً ، وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقبل عمار رضي الله عنه يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحذيفة : < قُدْ ، قُدْ > ، حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل ، ورجع عمار ! فقال : يا عمار ! هل عرفت القوم ؟ فقال : قد عرفت عامة الرواحل ، والقوم متلثمون .

(189/343)

قال : هل تدري ما أرادوا ؟ قال : الله ورسوله أعلم . قال : أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيطرحوه . فقل : فسابَّ عمار رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : < نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة > ؟ قال : أربعة

عشر رجلاً . فقل : < إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر > .

قال فعدّد رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة ، قالوا : والله ما سمعنا مناديَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما علمنا ما أراد القوم .

فقال عمار : أشهد أن الإثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

﴿ وَمَا نَقَمُوا ﴾ أي : ما أنكروا وما عابوا ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فإنهم كانوا قبل مقدمه صلى الله عليه وسلم المدينة في ظنك من العيش ، فأثروا بالغنائم ، وقتل للجلاس مولى ، فأمر له النبيّ صلى الله عليه وسلم بديته فاستغنى .

والمعنى أن المنافقين عملوا بضد الواجب ، فجعلوا موضع شكر النبيّ صلى الله عليه وسلم ما همّوا به ، ولا ذنب إلا تفضله عليهم ، فهو على حد قولهم : ما لي عندك ذنب إلا أني أحسنت إليك ، وقول ابن قيس الرقيّات :

~ما نَقِمَ الناسُ من أُمَيَّة إلا أَنَّهم يحملُونَ إنْ غضِبُوا

وقول النابغة :

~ولا عيْب فيهِم غيرَ أنَّ سُيُوفَهُم بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكتائب

ويقال : نقم من فلان الإحسان ، كعلم إذا جعله مما يؤديه إلى كفر النعمة كما في " التاج " .

ثم دعاهم تعالى إلى التوبة بقوله : ﴿ فَإِنْ يَتُوبُوا ﴾ أي : من الكفر والنفاق ﴿ يَكُ خَيْراً لَهُمْ

وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بالقتل والهم والغم ﴿ وَالْآخِرَةِ ﴾ أي : بالنار وغيرها ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ أي : يشفع لهم في دفع العذاب . ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ أي : فيدفعه بقوته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 472.470 ﴾

(190/343)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾

هَاتَانِ الْآيَتَانِ مَعْطُوفَتَانِ عَلَى الْآيَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي قَبْلَهَا ; لِبَيَانِ الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّضَادِّ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي يَقْتَضِيهَا الْإِيمَانُ - الَّذِي يَدَّعِيهِ الْمُنَافِقُونَ كَذِبًا وَتَقِيَّةً - وَالْجَزَاءُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهَا . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ تَقَدَّمَ بَيَانُ مَعْنَى الْوِلَايَةِ

(191/343)

بِمَعْنَاهَا الْعَامِّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا (2 : 257) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ أَجْزَاءِ التَّفْسِيرِ وَوِلَايَةُ النُّصْرَةِ الْحَرْبِيَّةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَا فِي مَوَاضِعَ أَهَمُّهَا فِي شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (5 : 51) وَفِي وِلَايَةِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ وَالْكُفَّارِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (8 : 72 و73) وِلَايَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَعُمُّ وِلَايَةَ النُّصْرَةِ وَوِلَايَةَ الْأُخُوَّةِ وَالْمَوَدَّةِ ، وَلَكِنَّ نُصْرَةَ النِّسَاءِ تَكُونُ فِيمَا دُونَ الْقِتَالِ بِالْفِعْلِ ، فَلِلنُّصْرَةِ أَعْمَالٌ كَثِيرَةٌ ، مَالِيَّةٌ وَبَدَنِيَّةٌ وَأَدَبِيَّةٌ ، وَكَانَ نِسَاءُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنِسَاءُ أَصْحَابِهِ يَخْرُجْنَ مَعَ الْجَيْشِ يَسْقِينَ الْمَاءَ وَيُجَهِّزْنَ الطَّعَامَ ، وَيُضَمِّدْنَ جِرَاحَ الْجَرْحَى ، وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ كَانَتْ هِيَ وَأُمُّ سُلَيْمٍ وَغَيْرُهُمَا يَنْقُزْنَ قِرَبَ الْمَاءِ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ ، وَيُسْرِعْنَ بِهَا إلَى الْمُقَاتِلَةِ وَالْجَرْحَى يَسْقِينَهُمْ وَيَغْسِلْنَ جِرَاحَهُمْ ، وَكَانَ النِّسَاءُ يُحَرِّضْنَ عَلَى الْقِتَالِ ، وَيَرْدُدْنَ الْمُنْهَزِمَ مِنْ رِجَالٍ ، قَالَ حَسَّانُ :

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَمَطِّرَاتٌ . . . يُلَطِّمْهُنَّ بِالْخُمُرِ النِّسَاءُ

(192/343)

وَفِي سِيرَةِ الْخَنْسَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا كَانَتْ تُحَرِّضُ أَبْنَاءَهَا عَلَى الْقِتَالِ بِشِعْرِهَا كُلَّمَا قُتِلَ وَاحِدٌ ، حَتَّى إذَا مَا قُتِلَ الثَّالِثُ قَالَتْ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَكْرَمَنِي بِشَهَادَتِهِمْ . هَذَا شَأْنُ الْخَنْسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَكَانَتْ مِنْ أَرَقِّ النِّسَاءِ قَلْبًا ، وَأَكْمَدِهِنَّ حُزْنًا ، وَرِثَاؤُهَا لِأَخَوَيْهَا مَلَأَ أَنْدِيَةَ الْأَدَبِ شَجْوًا وَشَجَنًا . وَنُكْتَةُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْوَصْفِ الْمُتَقَابِلِ هُنَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا وِلَايَةَ بَيْنَهُمْ بِأُخُوَّةٍ تَبْلُغُ فَضِيلَةَ الْإِيثَارِ ، وَلَا تَنَاصُرٍ يَبْلُغُ الْإِقْدَامَ عَلَى الْقِتَالِ ؛ لِأَنَّ النِّفَاقَ شُكُوكٌ وَذَبْذَبَةٌ مِنْ لَوَازِمِهِمَا الْجُبْنُ وَالْبُخْلُ وَهُمَا الْخُلُقَانِ الْمَانِعَانِ مِنَ التَّنَاصُرِ ، بِبَذْلِ النَّفْسِ وَالْمَالِ ، بَلْ قِصَارَاهُ التَّعَاوُنُ بِالْكَلَامِ وَمَا لَا يَشُقُّ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ وِلَايَةُ التَّنَاصُرِ بِالْقِتَالِ لِأَصْحَابِ الْعَقَائِدِ الثَّابِتَةِ ، وَالْمِلَّةِ الرَّاسِخَةِ ، سَوَاءٌ كَانَتْ حَقًّا أَوْ بَاطِلَةً ؛ وَلِذَلِكَ أَثْبَتَهَا الْقُرْآنُ لِلْيَهُودِ

(193/343)

وَالنَّصَارَى بَعْضَ كُلٍّ مِنْهُمَا لِبَعْضٍ وَلِلْكُفَّارِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَلَمْ يُثْبِتْهَا لِلْمُنَافِقِينَ الْخُلَّصِ بَعْضِهِمْ مَعَ بَعْضٍ ، بَلْ كَذَّبَ مُنَافِقِي الْمَدِينَةِ فِي وَعْدِهِمْ لِلْيَهُودِ حُلَفَائِهِمْ بِنَصْرِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ إذَا قَاتَلُوهُمْ فِي قَوْلِهِ : أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا

أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (59 : 11 ، 12) فَهَذَا مَا يَتَعَلَّقُ بِالْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي عَلَاقَةِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَخُلَاصَتُهُ : أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُشْبِهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِي شَكِّهِمْ وَارْتِيَابِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ وَآثَارِهِ مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ فِي الْوِلَايَةِ الْعَامَّةِ مِنْ أُخُوَّةٍ وَمَوَدَّةٍ وَتَعَاوُنٍ وَتَرَاحُمٍ ، حَتَّى شَبَّهَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَمَاعَتَهُمْ بِالْجَسَدِ الْوَاحِدِ ، وَبِالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَوِلَايَةُ النُّصْرَةِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَالْمِلَّةِ وَالْوَطَنِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَفِي آثَارِ ذَلِكَ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ الْمُضَادِّ لِمَا عَلَيْهِ الْمُنَافِقُونَ وَهُوَ مَا يُبَيِّنُهُ بَيَانًا مُسْتَأْنَفًا

(194/343)

بِقَوْلِهِ : يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ كَمَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مِنْ أَخَصِّ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي يَمْتَازُونَ بِهَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، هُمَا سِيَاجُ حِفْظِ الْفَضَائِلِ ، وَمَنْعُ فُشُوِّ الرَّذَائِلِ ، فَرَاجِعْ مَزَايَا هُمَا فِي تَفْسِيرِ : وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ (3 : 104) وَقَدْ فَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِمَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ فِي

قَوْلِهِ : كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ (3 : 110) الْآيَةَ وَوَرَدَ فِي فَرْضِيَّتِهِمَا وَفَوَائِدِهِمَا آيَاتٌ أُخْرَى وَأَحَادِيثُ حَكِيمَةٌ .

(195/343)

وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ أَيْ : يُؤَدُّونَ الصَّلَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَمَا شَاءُوا مِنَ التَّطَوُّعِ ، عَلَى أَقْوَمِ وَجْهٍ وَأَكْمَلِهِ فِي شُرُوطِهَا وَأَرْكَانِهَا وَآدَابِهَا ، وَلَاسِيَّمَا الْخُشُوعِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِهِ فِيهَا ، وَمَا يُوجِبُهُ الْإِيمَانُ مِنْ حُضُورِ الْقَلْبِ فِي مُنَاجَاتِهِ ، وَيُعْطُونَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ عَلَيْهِمْ لِمَنْ فُرِضَتْ لَهُمْ فِي الْآيَةِ السِّتِّينَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمَا وُفِّقُوا لَهُ مِنَ التَّطَوُّعِ . وَفَائِدَةُ إِقَامَةِ هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ مَعَ الْإِخْلَاصِ فِي الْإِيمَانِ قَدْ بَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ (70 : 19 – 26) الْآيَاتِ . فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ عِلَاجٌ لِمَا فِي جِبِلَّةِ الْإِنْسَانِ مِنَ الْهَلَعِ وَالْجُبْنِ الْحَاجِمِ لَهُ عَنِ الْإِقْدَامِ فِي الدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَمِنَ الشُّحِّ الصَّادِّ لَهُ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ; وَلِذَلِكَ كَانَ الْمُنَافِقُونَ أَجْبَنَ النَّاسِ وَأَبْخَلَهُمْ .

(196/343)

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ الْأَرْبَعَ غَايَةً لِلْإِذْنِ لِلْمُؤْمِنِينَ بِقِتَالِ مَنْ يُقَاتِلُونَهُمْ وَيُعَادُونَهُمْ فِي الدِّينِ وَسَبَبًا لِنَصْرِهِمْ وَتَمْكِينِهِمْ فِي الْأَرْضِ بِالْمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ ; إذْ قَالَ بَعْدَ أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْإِذْنِ لَهُمْ فِي الْقِتَالِ : الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ (22 : 41) وَبِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَتَحَ الْمُسْلِمُونَ الْفُتُوحَاتِ ، وَدَانَتْ لَهُمُ الْأُمَمُ طَوْعًا ، وَبِتَرْكِهَا سُلِبَ أَكْثَرُ مُلْكِهِمْ ، وَالْبَاقِي عَلَى وَشْكِ الزَّوَالِ إنْ لَمْ يَتُوبُوا إلَى رَبِّهِمْ ، وَيَرْجِعُوا إلَى هِدَايَةِ دِينِهِمْ ، وَلَا سِيَّمَا إقَامَةِ هَذِهِ الْأَرْكَانِ مِنْهُ .

وَإِقَامَةُ الْمُؤْمِنِينَ لِلصَّلَاةِ يُقَابِلُ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ نِسْيَانَهُمْ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ; لِأَنَّ رُوحَ الصَّلَاةِ مُرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَذِكْرُهُ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ ، وَلَا فَائِدَةَ لَهَا بِدُونِ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : إنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (29 : 45) أَيْ أَنَّ ذِكْرَهُ الَّذِي شُرِعَتِ الصَّلَاةُ لَهُ هُوَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ; إذْ بِهِ يَسْتَحْكِمُ لِلْمُؤْمِنِ مَلَكَةُ الْمُرَاقَبَةِ لِلَّهِ تَعَالَى فِي جُمْلَةِ أَحْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ ، فَيَنْتَهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ،

(197/343)

وَتَزْكُو نَفْسُهُ ، وَتَعْلُو هِمَّتُهُ ، وَتَكْمُلُ شَجَاعَتُهُ ، وَيَتِمُّ سَخَاؤُهُ وَنَجْدَتُهُ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (87 : 14 و15) وَقَالَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (20 : 14) وَإِيتَاءُ الْمُؤْمِنِينَ لِلزَّكَاةِ يُقَابِلُ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ قَوْلَهُ : وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ (67) وَلَقَدْ كَانَ الْمُنَافِقُونَ يُصَلُّونَ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَكَانُوا يُزَكُّونَ وَيُنْفِقُونَ . وَلَكِنْ خَوْفًا أَوْ رِيَاءً لَا طَاعَةً لِلَّهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي هَذَا السِّيَاقِ : وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (54) وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ : وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا

(198/343)

(4 : 142) وَمَنْ لَمْ يَتَدَبَّرْ هَذِهِ الْآيَاتِ كُلَّهَا ، وَالْمُقَارَنَةَ بَيْنَ صَلَاةِ الْمُؤْمِنِينَ وَصَلَاةِ الْمُنَافِقِينَ وَزَكَاتِهِمَا لَا يَفْقَهُ حِكْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَيْنِ الرُّكْنَيْنِ اللَّذَيْنِ هُمَا أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ ، وَهَذَا الْفِقْهُ لَا يَجِدُهُ طَالِبُهُ فِيمَا يُسَمِّيهِ النَّاسُ كُتُبَ الْفِقْهِ ، وَإِنْ زَعَمَ الْخَاسِرُونَ الْجَاهِلُونَ أَنَّهَا تُغْنِي عَنْ هِدَايَةِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ لَمْ يَبْقَ لِلْمُسْلِمِينَ فَائِدَةٌ مِنْهُ إِلَّا التَّعَبُّدُ بِتِلَاوَتِهِ ، وَالتَّبَرُّكُ بِمَصَاحِفِهِ ، وَكَذَا اتِّجَارُ بَعْضِ حُفَّاظِ أَلْفَاظِهِ بِتَغَنِّيهِمْ بِهِ ! .

ثُمَّ قَالَ : وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَيْ : يَسْتَمِرُّونَ عَلَى الطَّاعَةِ ، بِتَرْكِ مَا نُهُوا عَنْهُ وَفِعْلِ مَا أُمِرُوا بِهِ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ ، وَهُوَ يُقَابِلُ وَصْفَهُ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ هُمُ الْفَاسِقُونَ ، فَإِنَّ الْفِسْقَ هُوَ الْخُرُوجُ مِنْ حَظِيرَةِ الطَّاعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ يُقَابِلُ نِسْيَانَهُ تَعَالَى لِلْمُنَافِقِينَ وَلَعْنَهُ لَهُمْ كَمَا عُلِمَ مِمَّا فَسَّرْنَاهُمَا بِهِ آنِفًا . وَالْمُرَادُ : أَنَّهُ تَعَالَى يَتَعَهَّدُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِرَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ الْمُسْتَمِرَّةِ فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِاسْتِمْرَارِهِمْ عَلَى طَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ ، وَقَدْ قَالَ الْمُحَقِّقُونَ مِنْ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ : إِنَّ " السِّينَ " فِي مِثْلِ سَيَرْحَمُهُمُ لِتَأْكِيدِ الْإِثْبَاتِ كَمَا أَنَّ " لَنْ " لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ ، وَكِلْتَاهُمَا لِلْمُسْتَقْبَلِ . وَقَوْلُهُ : إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

تَذْيِيلٌ لِتَعْلِيلِ هَذَا الْوَعْدِ الْمُؤَكَّدِ ، وَهُوَ أَنَّهُ تَعَالَى عَزِيزٌ لَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ وَعْدِهِ ، وَلَا مِنْ وَعِيدِهِ ، وَحَكِيمٌ لَا يَضَعُ شَيْئًا مِنْهُمَا إِلَّا فِي مَوْضِعِهِ . وَلَوْلَا أَنَّ الْوَعْدَ هُنَا لِلْمُقَابَلَةِ بِالْوَعِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ لَكَانَ الْمُنَاسِبُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ .

وَلَمَّا ذَكَرَ صِفَاتِهِمْ وَرَحِمَتَهُ لَهُمْ بِالْإِجْمَالِ ، بَيْنَ مَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْجَزَاءِ الْمُفَسِّرِ لِرَحْمَتِهِ الْمُؤَكَّدَةِ بِالتَّفْصِيلِ ، فِي مُقَابَلَةِ مَا أَوْعَدَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ وَإِخْوَانَهُمِ الْكُفَّارَ تَفْسِيرًا لِنِسْيَانِهِ لَهُمْ ، فَقَالَ : وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ الْآيَةُ نَصٌّ فِي مُسَاوَاةِ النِّسَاءِ لِلرِّجَالِ فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ كُلِّهِ حَتَّى أَعْلَاهُ ، بِالتَّبَعِ لِمُسَاهَمَتِهِنَّ لَهُمْ فِي التَّكْلِيفِ وَوِلَايَةِ الْإِيمَانِ ، إلَّا مَا خَصَّهُنَّ الشَّرْعُ بِهِ لِضَعْفِهِنَّ ، وَانْفِرَادِهِنَّ بِوَظَائِفِهِنَّ الْخَاصَّةِ بِهِنَّ ، إذْ حَطَّ عَنْهُنَّ وُجُوبَ الْقِتَالِ ، وَالصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، وَهَذَا مِنَ الْمَعْلُومِ بِالضَّرُورَةِ مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ جَهِلَهُ أَوْ تَجَاهَلَهُ أَعْدَاؤُهُ الطَّغَامُ ، وَالْجَنَّاتُ : الْبَسَاتِينُ الْمُلْتَفَّةُ الْأَشْجَارِ بِحَيْثُ تَجِنُّ الْأَرْضَ ، أَيْ تُغَطِّيهَا وَتَسْتُرُهَا . وَجَرَيَانُ الْأَنْهَارِ مِنْ تَحْتِ أَشْجَارِهَا ، مَزِيدٌ فِي جَمَالِهَا ، وَمَانِعٌ مَنْ أُسُونِ مَائِهَا ، وَالْخُلُودُ فِيهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْمُقَامِ الدَّائِمِ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ مِرَارًا .

(201/343)

وَأَمَّا الْمَسَاكِنُ الطَّيِّبَةُ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ فَهِيَ الدُّورُ وَالْخِيَامُ ، الَّتِي يَطِيبُ لِسَاكِنِيهَا بِهَا الْمُقَامُ فِي ذَلِكَ الْمُقَامِ ، لِاشْتِمَالِهَا عَلَى جَمِيعِ الْمَرَافِقِ وَالْأَثَاثِ وَالرِّيَاشِ وَالزِّينَةِ وَالرِّزْقِ الَّذِي تَتِمُّ بِهِ رَاحَةُ الْمُقِيمِ فِيهَا وَغِبْطَتُهُ ، وَمِنْهَا الْغُرُفَاتُ الَّتِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا : وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ

آمِنُونَ

(43 : 37) وَقَالَ : وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (29 : 58) وَقَالَ : لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ (39 : 20) .

وَأَمَّا إِضَافَةُ هَذِهِ الْجَنَّاتِ إِلَى (عَدْنٍ) فَقَدْ تَعَدَّدَتْ فِي التَّنْزِيلِ بِمَا جَاوَزَ جَمْعَ الْقِلَّةِ ، وَمَعْنَى الْعَدْنِ فِي اللُّغَةِ الْإِقَامَةُ وَالِاسْتِقْرَارُ وَالثَّبَاتُ ، يُقَالُ : عَدَنَ فِي مَكَانِ كَذَا

(202/343)

(مِنْ بَابَيْ ضَرَبَ وَقَعَدَ) أَقَامَ وَثَبَتَ فِيهِ ، وَمِنْهُ الْمَعْدِنُ لِمُسْتَقَرِّ الْجَوَاهِرِ كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْمَاسِ وَغَيْرِهَا . وَفَسَّرُوهَا بِقَوْلِهِمْ : جَنَّاتُ إِقَامَةٍ وَخُلُودٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : جَنَّةُ الْخُلْدِ (25 : 15) وَجَنَّةُ الْمَأْوَى (53 : 15) وَلَكِنَّ هَاتَيْنِ وَرَدَتَا بِاللَّفْظِ الْمُفْرَدِ مُضَافًا إِلَى مَعْرِفَةٍ ، فَهُمَا اسْمَانِ لِدَارِ النَّعِيمِ كَلَفْظِ الْجَنَّةِ فِي مِثْلِ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ وَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَسَيَأْتِي فِي سُورَةِ يُونُسَ : تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (10 : 9) وَأَمَّا جَنَّاتِ عَدْنٍ فَهُوَ جَمْعٌ أُضِيفَ إِلَى هَذَا اللَّفْظِ الْمُفْرَدِ (عَدْنٍ) فَجَعَلَهُ بِمَعْنَى إِقَامَةٍ - كَمَا قِيلَ - يَقْتَضِي جَعْلَهُ مُكَرَّرًا مَعَ قَوْلِهِ قَبْلُ : جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ؛ لِأَنَّهَا وُصِفَتْ بِالْإِقَامَةِ وَبِالْخُلُودِ

فِيهَا أَيْضًا ، عَلَى مَا فِي تَنْكِيرِ عَدْنٍ بِهَذَا الْمَعْنَى مِنَ الضَّعْفِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ عَدْنٍ مَعْرِفَةً ، وَمَعْنَى التَّرْكِيبِ : فِي جَنَّاتِ الْمَكَانِ الْمُسَمَّى بِهَذَا الِاسْمِ (عَدْنٍ) .

وَقَدْ وَرَدَ فِي الْأَحَادِيثِ مَا يُفَسِّرُ هَذَا ، وَهُوَ ذِكْرُ جَنَّةِ عَدْنٍ بِاللَّفْظِ الْمُفْرَدِ الْمُضَافِ ، وَفِي بَعْضِهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا مَكَانٌ أَوْ مَنْزِلٌ مِنْ مَنَازِلِ دَارِ النَّعِيمِ كَالْفِرْدَوْسِ الَّذِي هُوَ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ أَوْ أَعْلَاهَا ، وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي تَجَلِّي الرُّؤْيَةِ ، الَّتِي هِيَ أَعْلَى النَّعِيمِ وَأَكْمَلُ الْمَعْرِفَةِ .

(203/343)

رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي بَكْرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ عَنْ أَبِيهِ (وَهُوَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-) فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ سُورَةِ الرَّحْمَنِ : وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (55 : 46) وَقَوْلُهُ بَعْدَ وَصْفِهِمَا : وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (55 : 62) عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ : جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ ، آنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا مِنْ فِضَّةٍ ، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ ، آنِيَتُهُمَا عَدْنٌ أَيْ : حَالَةَ كَوْنِهِمْ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ ، فَالْمُتَبَادِرُ مِنْ هَذَا أَنَّ جَنَّةَ عَدْنٍ مَكَانٌ سَامٍ فِي طَبَقَةٍ مِنْ طَبَقَاتِ الْجَنَّةِ ؛ لِأَنَّهَا نَكِرَةٌ مُضَافَةٌ إِلَى نَكِرَةٍ ، وَمَجْمُوعُ الْحَدِيثِ وَالْآيَاتِ يَدُلُّ عَلَى

أَنَّ عَدْنًا مَنْزِلٌ فِي أَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَأَنَّ فِيهِ جَنَّاتٍ أَيْ بَسَاتِينَ مُتَعَدِّدَةً ، لِكُلِّ مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ مِنْهَا جَنَّتَانِ ، وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ وَهِيَ كَالْأَرْبَعِ الْمَوْصُوفَةِ فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ .

(204/343)

وَيَقْرُبُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَيْضًا إِنَّ فِي الْجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ ، كُلُّ دَرَجَتَيْنِ مَا بَيْنَهُمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ فَيُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْفِرْدَوْسَ هُوَ جَنَّةُ عَدْنٍ ، وَهَذَا مَا قَالَهُ مُقَاتِلٌ وَالْكَلْبِيُّ قَالَا : عَدْنٌ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ وَفِيهَا عَيْنُ التَّسْنِيمِ وَالْجَنَّاتُ مُحْدَقَةٌ حَوْلَهَا إلخ . وَتَتِمَّتُهُ فِي تَفْسِيرِ الْبَغَوِيِّ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الْمَرْفُوعِ أَنَّ أَعْلَى دَرَجَةٍ فِي الْجَنَّةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ تُسَمَّى الْوَسِيلَةُ ، وَهِيَ دَرَجَةُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي طَلَبَ مِنَّا أَنْ نَسْأَلَهَا لَهُ فِي دُعَاءِ الْأَذَانِ : " اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ ، وَالدَّرَجَةَ الرَّفِيعَةَ . وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ " فَهَذِهِ دَرَجَةٌ خَاصَّةٌ .

(205/343)

وَمِنْ هُنَا يُعْلَمُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ بَعْدَ ذِكْرِ جَنَّاتِ عَدْنٍ يُرَادُ بِهِ أَعْلَى دَرَجَاتِ الرِّضْوَانِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا مَقَامُ رُؤْيَةِ الرَّبِّ تَعَالَى الَّتِي تَكْمُلُ بِهَا مَعْرِفَةُ الرَّحْمَنِ ، وَتَتِمُّ سَعَادَةُ الْإِنْسَانِ ، فَالْإِنْسَانُ جَسَدٌ وَرُوحٌ ، فَفِي الْجَنَّاتِ وَمَسَاكِنِهَا أَعْلَى النَّعِيمِ الْجُسْمَانِيِّ ، وَرِضْوَانُ اللهِ الْأَكْبَرُ هُوَ أَعْلَى النَّعِيمِ الرُّوحَانِيِّ ، فَالتَّنْوِينُ فِيهِ لِلتَّعْظِيمِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَى مَا حَرَّرْتُهُ أَنَّهُ لَمْ يُعْطَفْ مُفْرَدًا عَلَى مَا قَبْلَهُ مِمَّا وُعِدُوا بِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَأَعْمَالِهِ ؛ لِأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ جَزَاءٍ ، كَمَا أُشِيرَ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ (10 : 26) بَلْ جَاءَ مَرْفُوعًا فِي اللَّفْظِ كَرِفْعَةِ مَعْنَاهُ ، فِي جُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ تَقْدِيرُهَا : وَهُنَالِكَ رِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ تِلْكَ الْجَنَّاتِ وَمَا فِيهَا ، لَا يُقَدَّرُ قَدْرُهُ ، وَلَا يُكْتَنَهُ سِرُّهُ .

فَهَذَا مَا يُفْهَمُ بِمَعُونَةِ الْحَدِيثِ مِنَ اخْتِلَافِ إِعْرَابِهِ وَوَصْفِهِ بِاسْمِ التَّفْضِيلِ (أَكْبَرُ) وَقَدْ وَرَدَ لَفْظُ (وَرِضْوَانٌ) مَعْطُوفًا عَلَى مَا قَبْلَهُ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِهَذَا الْوَصْفِ ، وَلَا مَوْصُولًا بِكَوْنِهِ مِنَ اللهِ فِي آيَةِ : يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ (21) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَذَكَرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا مَا وَرَدَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ

وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ (3 : 15) مَعْطُوفًا عَلَى الْجَنَّاتِ وَالْأَزْوَاجِ ، فَهَلْ يَجُوزُ فِي بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ أَنْ يَكُونَ مَا هُنَا مِنِ اخْتِلَافِ الْإِعْرَابِ وَوَصْفِ (أَكْبَرُ) بِغَيْرِ فَائِدَةٍ ؟ وَهَلْ نَجِدُ لَهُ مِنَ الْفَائِدَةِ مَا هُوَ أَلْيَقُ بِهِ مِمَّا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنْ نِعْمَةِ الرُّؤْيَةِ ؟ ، كَلَّا وَلَمْ يُبَيِّنْ هَذَا بِنَصٍّ صَرِيحٍ فِي الْقُرْآنِ ، لِئَلَّا يَكُونَ فِتْنَةً لِمَنْ لَمْ تَسْمُ أَرْوَاحُهُمْ إِلَى إِدْرَاكِ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَحِكْمَتُهُ الرَّحْمَةُ بِضَعْفِ الْإِنْسَانِ ، وَاللَّبِيبُ يَفْهَمُ بِالْإِشَارَةِ ، مَا لَا يَفْهَمُهُ الْغَبِيُّ بِأَفْصَحِ عِبَارَةٍ ، أَفَلَمْ تَرَ كَيْفَ اخْتَلَفَ الْأَلِبَّاءُ فِي فَهْمِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (75 : 22و23) .

وَأَمَّا تَحْقِيقُ مَعْنَى الرُّؤْيَةِ وَالْحُكْمِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ ، وَمَعْنَى رِدَاءِ الْكِبْرِيَاءِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْحُجُبِ الَّتِي تَحْجُبُ الْعَبْدَ عَنْ رَبِّهِ ، فَقَدْ فَصَّلْتُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ تَفْصِيلًا يُقَرِّبُهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ (ص112 - 154 ج9 ط الْهَيْئَةِ) فَهُوَ وَمَا هُنَا مِمَّا انْفَرَدَ هَذَا التَّفْسِيرُ بِتَحْقِيقِهِ بِإِلْهَامِ اللهِ تَعَالَى وَفَضْلِهِ وَلَهُ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

(207/343)

وَوَجْهُ الْمُقَابَلَةِ الضِّدِّيَّةِ بَيْنَ مَا هُنَا وَمَا فِي وَعِيدِ الْمُنَافِقِينَ قَبْلَهُ ظَاهِرٌ ، فَالْجَنَّاتُ الَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالْخُلُودُ فِيهَا مُقَابِلٌ لِنَارِ جَهَنَّمَ وَالْخُلُودِ فِيهَا ، وَالْمَسَاكِنُ الطَّيِّبَةُ فِي

جَنَّاتِ عَدْنٍ مُقَابِلٌ لِلْعَذَابِ الْمُقِيمِ ، وَرِضْوَانُ اللهِ الْأَكْبَرُ لِلْمُؤْمِنِينَ مُقَابِلٌ لِلَعْنَةِ اللهِ لِلْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ ، إِذْ هِيَ الطَّرْدُ وَالْحِرْمَانُ مِنْ رَحْمَتِهِ الْخَاصَّةِ ، نَعُوذُ بِوَجْهِهِ .

ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ أَيْ : ذَلِكَ الَّذِي ذَكَرَ مِنَ الْوَعْدِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِالنَّعِيمِ الْجُسْمَانِيِّ وَالرُّوحَانِيِّ ، هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ الَّذِي يُجْزَى بِهِ أُولَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ الصَّالِحُونَ الْمُصْلِحُونَ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ هَذِهِ الْحُظُوظِ الدُّنْيَوِيَّةِ الْخَسِيسَةِ الْفَانِيَةِ ، الَّتِي يَتَكَالَبُ عَلَيْهَا الْكُفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ الْفَاسِدُونَ الْمُفْسِدُونَ ، وَإِنَّمَا هِيَ فِي نَظَرِ الْمُتَّقِينَ بُلْغَةُ عَامِلٍ ، وَزَادُ مُسَافِرٍ .

فَمَا عَلَى الْمُؤْمِنِ إِلَّا أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ ، وَيَنْصِبَ لَهَا الْمِيزَانَ ، مِنْ كِفَّةِ الْمُؤْمِنِينَ وَكِفَّةِ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ ، وَيَحْكُمَ لَهَا أَوْ عَلَيْهَا بِحُكْمِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا بِهَوَاهَا ، وَلَا يَغْتَرَّنَّ أَحَدٌ بِلَقَبِ الْإِسْلَامِ وَلَا بِدَعْوَى الْإِيمَانِ ، إِلَّا شَهِدَ بِصِدْقِهِ الْقُرْآنُ .

(208/343)

وَقَدْ وَرَدَ فِي وَصْفِ الْجَنَّةِ وَدَرَجَاتِهَا وَحُورِهَا رِوَايَاتٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا الْمُنْكَرُ وَالْمَوْضُوعُ ، وَالْمُرْسَلُ وَالْمَوْقُوفُ ، وَمِنَ الْمَرْفُوعِ مِنْهَا مَا أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ سَأَلَ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ وَأَبَا هُرَيْرَةَ عَنْ تَفْسِيرِ : وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ فَذَكَرَ أَنَّهُمَا قَالَا لَهُ : عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطْتَ ، وَأَنَّهُمَا سَأَلَا عَنْهَا رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ،

وَذَكَرَ وَصْفًا طَوِيلًا ، مِنْهُ : أَنَّهُ يُوجَدُ هُنَالِكَ أُلُوفٌ مِنَ الْبُيُوتِ ، فِي كُلٍّ مِنْهَا أُلُوفٌ مِنَ الْحُورِ الْعِيْنِ . . وَهُوَ مُنْكَرٌ لَا يَصِحُّ لَهُ مَتْنٌ وَلَا سَنَدٌ ، وَقَدْ قَالَ الْمُحَقِّقُ ابْنُ الْقَيِّمِ : إِنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ فِي نِسَاءِ الْجَنَّةِ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِأَكْثَرَ مِنْ زَوْجَيْنِ لِكُلِّ رَجُلٍ ، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ كَعْبِ الْأَحْبَارِ مَعْنَى هَذَا الْحَدِيثِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمَرْفُوعَ مِنْ دَسَائِسِهِ أَيْضًا .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

(209/343)

هَاتَانِ الْآيَتَانِ تَهْدِيدٌ لِلْمُنَافِقِينَ ، وَإِنْذَارٌ لَهُمْ بِالْجِهَادِ كَالْكُفَّارِ الْمُجَاهِرِينَ ، إِذَا اسْتَرْسَلُوا بِهَذِهِ الْجُرْأَةِ فِي إِظْهَارِ مَا يُنَافِي الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ ، مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، كَالْقَوْلِ الَّذِي أَنْكَرُوهُ بَعْدَ أَنْ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ ، وَكَذَّبَهُمُ اللهُ تَعَالَى فِي إِنْكَارِهِمْ ، أَوْ بِجِهَادٍ دُونَ جِهَادِ الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ وَأَقَلُّهُ أَلَّا يُعَامَلُوا بَعْدَ هَذَا الْأَمْرِ كَمُعَامَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، وَأَنْ يُقَابَلُوا بِالْغِلْظَةِ وَالتَّجَهُّمِ لَا بِالطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ وَاللِّينِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي بَيَانُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(210/343)

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ أَيْ : ابْذُلْ جَهْدَكَ فِي مُقَاوَمَةِ الْفَرِيقَيْنِ الَّذِينَ يَعِيشُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بِمِثْلِ مَا يَبْذُلُونَ مِنْ جُهْدِهِمْ فِي عَدَاوَتِكَ ، وَعَامِلْهُمْ بِالْغِلْظَةِ وَالشِّدَّةِ الْمُوَافِقَةِ لِسُوءِ حَالِهِمْ ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْكُفَّارِ فِي جِهَادِ الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّهُمُ الْمُسْتَحِقُّونَ لَهُ بِإِظْهَارِهِمْ لِعَدَاوَتِهِمْ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِمَا جَاءَ بِهِ ، وَالْمُنَافِقُونَ يُخْفُونَ كُفْرَهُمْ وَعَدَاءَهُمْ وَيُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ فَيُعَامَلُونَ مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ فِي الدُّنْيَا ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ الْمُنَافِقِينَ فِي جَزَاءِ الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّ كُفْرَهُمْ أَشَدُّ ، وَعُذْرَهُمْ فِيهِ أَضْعَفُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ الْجِهَادِ بِمَعْنَاهُ الْعَامِّ الْمُسْتَعْمَلِ فِي الْقُرْآنِ ، وَبِمَعْنَاهُ الْخَاصِّ بِالْقِتَالِ فِي مَوَاضِعَ أَجْمَعَهَا الِاسْتِطْرَادُ الَّذِي كَتَبْنَاهُ فِي آخِرِ آيَةِ الْجِزْيَةِ (ص269 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) وَفِيهَا أَنَّ الْجِهَادَ مُشَارَكَةٌ مِنَ الْجُهْدِ وَهُوَ الطَّاقَةُ وَالْمَشَقَّةُ كَالْقِتَالِ مِنَ الْقَتْلِ ، وَأَنَّهُ حِسِّيٌّ وَمَعْنَوِيٌّ ، وَقَوْلِيٌّ وَفِعْلِيٌّ ، وَاتَّفَقَ عُلَمَاءُ الْمِلَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يُعَامَلُونَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ كَالْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ ، فَلَا يُقَاتَلُونَ إِلَّا إِذَا أَظْهَرُوا الْكُفْرَ الْبَوَاحَ بِالرِّدَّةِ ، أَوْ بَغَوْا عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ بِالْقُوَّةِ ، أَوِ امْتَنَعَ بَعْضُ طَوَائِفِهِمْ مِنْ إِقَامَةِ شَعَائِرِ الْإِسْلَامِ

(211/343)

وَأَرْكَانِهِ ، وَرُوِيَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْمَأْثُورُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : جِهَادُ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ ، وَجِهَادُ الْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ ، فَفَسَّرَ الْكُفَّارَ هُنَا بِالْحَرْبِيِّينَ ، وَسَيَأْتِي مِنْ جِهَادِ الْمُنَافِقِينَ حِرْمَانُهُمْ مِنَ الْخُرُوجِ وَالْقِتَالِ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَمِنْ صَلَاتِهِ عَلَى جَنَائِزِهِمْ ، وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ لَمَّا نَزَلَتْ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ أُمِرَ رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يُجَاهِدَ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَلْقَهُ بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ ، فَقَوْلُهُ : " فَلْيَلْقَهُ " يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ هَذَا فِي جِهَادِ الْأَفْرَادِ بِالْمُعَامَلَةِ ، لَا فِي جِهَادِ الْجَمَاعَاتِ بِالْمُقَاتَلَةِ ، فَهُوَ إِذًا بِمَعْنَى إِزَالَةِ الْمُنْكَرِ فِي قَوْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ - إِلَّا الْبُخَارِيَّ - مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، وَزَادَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لِقَاءُ الْكَافِرِ أَوِ الْمُنَافِقِ بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ أَيْ : عَبُوسٍ مُقَطَّبٍ ، وَلَكِنْ لَا يَظْهَرُ جَعْلُهُ دُونَ

كَرَاهَةِ الْقَلْبِ ، وَلَا أَنَّ كَرَاهَةَ الْقَلْبِ لَا تُسْتَطَاعُ ، وَلَمْ نَقِفْ عَلَى سَنَدِ هَذَا الْحَدِيثِ فَنَعْرِفُ مَكَانَهُ مِنَ الصِّحَّةِ .

(212/343)

وَكَانَ مِنْ شَمَائِلِهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالْبَشَاشَةُ فِي وُجُوهِ جَمِيعِ مَنْ يَلْقَاهُمْ حَتَّى الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ، رَوَى الشَّيْخَانِ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَائِشَةَ : " أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلَى النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَلَمَّا رَآهُ قَالَ : بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ ، وَبِئْسَ ابْنُ الْعَشِيرَةِ ، فَلَمَّا جَلَسَ تَطَلَّقَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطَ إلَيْهِ ، فَلَمَّا انْطَلَقَ الرَّجُلُ قَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ حِينَ رَأَيْتَ الرَّجُلَ قُلْتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا ، ثُمَّ تَطَلَّقْتَ فِي وَجْهِهِ وَانْبَسَطْتَ إلَيْهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " يَا عَائِشَةُ مَتَى عَهِدْتِنِي فَاحِشًا ؟ إنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ اتِّقَاءَ شَرِّهِ " وَكَانَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى الرَّاجِحِ عُيَيْنَةَ ابْنَ حِصْنٍ الَّذِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ فِي سِيَاقِ قِسْمَةِ الْغَنَائِمِ بَعْدَ غَزْوَةِ حُنَيْنٍ وَسِيَاقِ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ ، وَكَانَ سَيِّدَ قَوْمِهِ عَلَى حَمَاقَتِهِ ، فَلُقِّبَ بِالْأَحْمَقِ الْمُطَاعِ وَقَدْ أَسْلَمُوا تَبَعًا لَهُ ، فَكَانَ إسْلَامُهُمْ أَصَحَّ مِنْ إسْلَامِهِ . وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ لِأَنَّ حَدِيثَ عَائِشَةَ مِنْ شَمَائِلِ النَّبِيِّ وَآدَابِهِ الْعَامَّةِ .

(213/343)

وَحَدِيثُ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي مُعَامَلَةٍ خَاصَّةٍ بِالْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْعُقُوبَةِ ، فَالْأَوَّلُ بِمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ

حَوْلَكَ (3 : 159) وَفِي مَعْنَاهُ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ ، وَالثَّانِي مُفَسِّرٌ لِلْآيَةِ الَّتِي نَحْنُ بِصَدَدِ تَفْسِيرِهَا ، وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً (9 : 123) وَالْغِلْظَةُ فِي اللُّغَةِ : الْخُشُونَةُ وَالشِّدَّةُ ، وَمُعَامَلَةُ الْعَدُوِّ الْمُحَارِبِ بِهِمَا مِنَ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ ، وَمُعَامَلَتُهُ بِاللِّينِ وَالرَّحْمَةِ وَضْعٌ لَهُمَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِمَا .

وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ فِي الْعُلَا . . . مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى

وَأَمَّا الْأَعْدَاءُ غَيْرُ الْمُحَارِبِينَ كَالْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِرَسُولِهِ : هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (63 : 4) وَالْكُفَّارُ الْمُعَاهَدِينَ وَالذِّمِّيِّينَ الْخَائِنِينَ فَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعَامِلُهُمْ أَوَّلًا بِلُطْفِهِ وَلِينِهِ بِنَاءً عَلَى حُكْمِ الْإِسْلَامِ الظَّاهِرِ ، وَكَانَتْ هَذِهِ

(214/343)

الْمُعَامَلَةُ هِيَ الَّتِي جَرَّأَتِ الْمُنَافِقِينَ عَلَى أَذَاهُ بِمَا تَقَدَّمَ فِي هَذَا السِّيَاقِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ فِيهِ : " هُوَ أُذُنٌ " (61) وَكَذَلِكَ كُفَّارُ الْيَهُودِ ، كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَاهَدَهُمْ وَوَفَّى لَهُمْ ، وَكَانُوا يُؤْذُونَهُ حَتَّى بِتَحْرِيفِ السَّلَامِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ : السَّامُّ عَلَيْكُمْ ، وَهُوَ الْمَوْتُ ، فَيَقُولُ : " وَعَلَيْكُمْ " ثُمَّ تَكَرَّرَ نَقْضُهُمْ لِعَهْدِهِ حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ (ص46 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْغِلْظَةِ عَلَى الْفَرِيقَيْنِ

فِي جِهَادِهِ التَّأْدِيبِيِّ لَهُمْ - وَمِثْلُهَا بِنَصِّهَا فِي سُورَةِ التَّحْرِيمِ - وَهُوَ جِهَادٌ فِيهِ مَشَقَّةٌ عَظِيمَةٌ ; لِأَنَّهُ مَوْقِفٌ وَسَطٌ بَيْنَ رَحْمَتِهِ وَلِينِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ الْمُخْلِصِينَ ، وَشِدَّتِهِ فِي قِتَالِهِ لِلْأَعْدَاءِ الْحَرْبِيِّينَ ، يَجِبُ فِيهِ إقَامَةُ الْعَدْلِ ، وَاجْتِنَابُ الظُّلْمِ ، وَمِنْ كَلَامِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِيهِ : أَذِلُّوهُمْ وَلَا تَظْلِمُوهُمْ ، وَهَذِهِ الْغِلْظَةُ الْإِرَادِيَّةُ (أَيْ غَيْرُ الطَّبِيعِيَّةِ) تَرْبِيَةٌ لِلْمُنَافِقِينَ وَعُقُوبَةٌ ، يُرْجَى أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِهِدَايَةِ مَنْ لَمْ يَطْبَعِ الْكُفْرُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَتُحِيطُ بِهِ خَطَايَا نِفَاقِهِ ، فَإِنَّ اكْفِهْرَارَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي وُجُوهِهِمْ تَحْقِيرٌ لَهُمْ يَتْبَعُهُ فِيهِ الْمُؤْمِنُونَ ، وَبِهِ وَبِمَا سَيَأْتِي يَفْقِدُونَ جَمِيعَ مَنَافِعِ إظْهَارِ الْإِسْلَامِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَمَظَاهِرَ أُخُوَّةِ الْإِيمَانِ وَعَطْفِهِ ، فَمَنْ رَأَى

(215/343)

أَنَّهُ مُحْتَقَرٌ بَيْنَ قَوْمِهِ وَأَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، مِنَ الرَّئِيسِ وَالْإِمَامِ الْأَعْظَمِ وَغَيْرِهِ يَضِيقُ صَدْرُهُ ، وَيَرْجِعُ إلَى نَفْسِهِ بِالْمُحَاسَبَةِ ، فَيَرَاهَا إذَا أَنْصَفَ وَتَدَبَّرَ مُلِيمَةً مُذْنِبَةً فَلَا يَزَالُ يُنْحِي عَلَيْهَا بِاللَّائِمَةِ ، حَتَّى تَعْرِفَ ذَنْبَهَا ، وَتَثُوبَ إلَى رُشْدِهَا ، فَتَثُوبَ إلَى رَبِّهَا ، وَهِيَ سِيَاسَةٌ حِكْمَةٌ كَانَتْ سَبَبُ تَوْبَةِ أَكْثَرِ الْمُنَافِقِينَ ، وَإِسْلَامِ أُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنَ الْكَافِرِينَ .

هَذَا وَإِنَّ مُعَاشَرَةَ الرَّئِيسِ مِنْ إمَامٍ وَمَلِكٍ وَأَمِيرٍ لِمُنَافِقِي قَوْمِهِ بِمِثْلِ مَا يُعَاشِرُ بِهِ الْمُخْلِصِينَ

مِنْهُمْ ، فِيهِ تَوْطِينٌ لِأَنْفُسِهِمْ عَلَى النِّفَاقِ ، وَحَمْلٌ لِغَيْرِهِمْ عَلَى الشِّقَاقِ ، فَكَيْفَ إِذَا وَضَعَ الْمُحَاسَنَةَ مَوْضِعَ الْمُخَاشَنَةِ ، وَالْإِيثَارَ لَهُمْ حَيْثُ تَجِبُ الْأَثَرَةُ عَلَيْهِمْ ، وَبَالَغَ فِي تَكْرِيمِهِمْ بِالْحِبَاءِ وَالِاصْطِفَاءِ ، لِمُبَالَغَتِهِمْ فِي التَّمَلُّقِ لَهُ ، وَدِهَانِ الدَّهَاءِ ، وَالْإِطْرَاءِ فِي الثَّنَاءِ ؟ فَإِنَّ هَذِهِ الْمُعَامَلَةَ مُفْسِدَةٌ لِأَخْلَاقِ الدَّهْمَاءِ ، وَمُثِيرَةٌ لِحَفَائِظِ الْمُخْلِصِينَ الْفُضَلَاءِ ، وَكَمْ أَفْسَدَتْ عَلَى الْمُلُوكِ الْجَاهِلِينَ أَمْرَهُمْ ، وَكَانَتْ سَبَبًا لِإِضَاعَةِ مُلْكِهِمْ .

(216/343)

وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هَذَا جَزَاؤُهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَطَفَهُ عَلَى جَزَائِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَهُمْ لَا مَأْوَى لَهُمْ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ هُنَالِكَ إِلَّا دَارَ الْعَذَابِ الْكُبْرَى ، الَّتِي لَا يَمُوتُ مَنْ أَوَى إِلَيْهَا وَلَا يَحْيَا ، فَهُمْ يَصِيرُونَ إِلَيْهَا مَعْتُولِينَ ، وَيُدْعَوْنَ إِلَيْهَا مَقْهُورِينَ ، لَا يَأْوُونَ إِلَيْهَا مُخْتَارِينَ ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ هِيَ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (25 : 66) .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ

(217/343)

هَذَا اسْتِئْنَافٌ لِبَيَانِ السَّبَبِ الْمُقْتَضِي لِجِهَادِهِمْ كَالْكُفَّارِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ أَظْهَرُوا الْكُفْرَ بِالْقَوْلِ ، وَهَمُّوا بِشَرِّ مَا يُغْرِي بِهِ مِنَ الْفِعْلِ ، وَهُوَ الْفَتْكُ بِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ أَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ ، وَأَنْبَأَهُ بِأَنَّهُمْ سَيُنْكِرُونَهُ إِذَا سَأَلَهُمْ عَنْهُ ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى إِنْكَارِهِمْ لِيُصَدَّقُوا كَدَأْبِهِمُ الَّذِي سَبَقَ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً (58 : 16) وَكَانُوا يَحْلِفُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ لِيُرْضُوهُمْ ، وَكَانُوا يَخُوضُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ ، وَفِي رَسُولِهِ بِمَا هُوَ اسْتِهْزَاءٌ خَرَجُوا بِهِ مِنْ حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَدْعُونَهُ إِلَى مَحْظُورِ الْكُفْرِ الَّذِي يَكْتُمُونَهُ . وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ إِسْنَادُ قَوْلٍ آخَرَ مِنَ الْكُفْرِ إِلَيْهِمْ يُنَافِي الْإِسْلَامَ الظَّاهِرَ ، فَضْلًا عَنِ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ ، وَالْمَعْنَى : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ أَنَّهُمْ مَا قَالُوا تِلْكَ الْكَلِمَةَ الَّتِي أُسْنِدَتْ إِلَيْهِمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُكَذِّبُهُمْ وَيَثْبُتُ بِتَأْكِيدِ الْقَسَمِ وَ " قَدْ " أَنَّهُمْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ الَّتِي رُوِيَتْ عَنْهُمْ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْكَلِمَةَ الَّتِي نَفَوْهَا وَأَثْبَتَهَا ؛ لِأَنَّهَا لَا يَنْبَغِي أَنْ تُذْكَرَ فِي نَصِّ الْكِتَابِ فَيَتَعَبَّدُ الْمُسْلِمُونَ بِتِلَاوَتِهَا .

(218/343)

وَقَدِ اخْتَلَفَ رُوَاةُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فِي تَعْيِينِهَا وَالْقَائِلِينَ لَهَا ، فَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَأَنَسٍ وَعُرْوَةَ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِيمَنْ قَالَ مِنْهُمْ : لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ صَادِقًا لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، وَفِيهِ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ تَقَدَّمَ بَعْضُهَا فِي الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ (65) وَأَشْهَرُهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ مَا

أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنْ عُرْوَةَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ يُقَالُ لَهُ الْجُلَاسُ (بِضَمِّ الْجِيمِ) بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ لَيْلَةً فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ : وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مُحَمَّدٌ حَقًّا لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، فَسَمِعَهُ غُلَامٌ لَهُ يُقَالُ لَهُ عُمَيْرُ بْنُ سَعْدٍ - وَكَانَ رَبِيبَهُ - فَقَالَ : أَيْ عَمِّ تُبْ إِلَى اللَّهِ ، وَجَاءَ

(219/343)

الْغُلَامُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَخْبَرَهُ ، فَأَرْسَلَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَحْلِفُ وَيَقُولُ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَقَالَ الْغُلَامُ : بَلَى وَاللَّهِ لَقَدْ قُلْتَهُ فَتُبْ إِلَى اللَّهِ ، وَلَوْلَا أَنْ يَنْزِلَ الْقُرْآنُ فَيَجْعَلَنِي مَعَكَ مَا قُلْتُهُ ، فَجَاءَ الْوَحْيُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَكَتُوا فَلَا يَتَحَرَّكُونَ إِذَا نَزَلَ الْوَحْيُ ، فَرُفِعَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ إِلَى قَوْلِهِ : يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ فَقَالَ : قَدْ قُلْتُهُ وَقَدْ عَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ التَّوْبَةَ فَأَنَا أَتُوبُ ، فَقُبِلَ مِنْهُ ذَلِكَ ، وَقُتِلَ لَهُ قَتِيلٌ فِي الْإِسْلَامِ فَوَدَاهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَعْطَاهُ دِيَتَهُ فَاسْتَغْنَى بِذَلِكَ ، وَكَانَ هَمَّ أَنْ يَلْحَقَ بِالْمُشْرِكِينَ وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْغُلَامِ : " وَعَتْ أُذُنُكَ " وَأَخْرَجَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ : لَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ أَخَذَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأُذُنِ عُمَيْرٍ فَقَالَ لَهُ : " يَا

غُلَامُ وَعَتْ أُذُنُكَ وَصَدَّقَكَ رَبُّكَ " اهـ . وَقَدْ أَشَارَ الْحَافِظُ الذَّهَبِيُّ إِلَى ضَعْفِ حَدِيثِ جُلَاسَ هَذَا مَعَ قَوْلِهِ : إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَتَابَ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ لَمْ يَحْضُرْ غَزْوَةَ تَبُوكَ .

(220/343)

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَالطَّبَرَانِيُّ وَأَبُو الشَّيْخِ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ : " كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ جَالِسًا فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فَقَالَ : إِنَّهُ سَيَأْتِيكُمْ إِنْسَانٌ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ بِعَيْنَيْ شَيْطَانٍ ، فَإِذَا جَاءَ فَلَا تُكَلِّمُوهُ " فَلَمْ يَلْبَثُوا أَنْ طَلَعَ رَجُلٌ أَزْرَقُ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ : عَلَامَ تَشْتُمُنِي أَنْتَ وَأَصْحَابُكَ ؟ فَانْطَلَقَ الرَّجُلُ فَجَاءَ بِأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا بِاللَّهِ مَا قَالُوا حَتَّى تَجَاوَزَ عَنْهُمْ وَأَنْزَلَ اللَّهُ : يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا الْآيَةَ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلَيْنِ اقْتَتَلَا أَحَدُهُمَا مِنْ جُهَيْنَةَ وَالْآخَرُ مِنْ غِفَارٍ ، وَكَانَتْ جُهَيْنَةُ حُلَفَاءَ الْأَنْصَارِ فَظَهَرَ الْغِفَارِيُّ عَلَى الْجُهَنِيِّ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ لِلْأَوْسِ : انْصُرُوا أَخَاكُمْ ، وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ : سَمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ ، وَاللَّهِ : " لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ

" فَسَعَى بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ فَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللهِ مَا قَالَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ : يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ الْآيَةَ .

(221/343)

وَأَقُولُ : إِنَّ قَوْلَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ هَذَا قَدْ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ وَغَيْرُهُمَا فَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ " الْمُنَافِقُونَ " وَأَنَّهُ كَانَ فِي غَزَاةٍ ، وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ مُرْسَلًا عِنْدَ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ أَنَّهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ وَأَنَّ الَّذِي عَلَيْهِ أَهْلُ الْمَغَازِي أَنَّهَا فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ . وَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ كَانَ سَبَبَ نُزُولِ سُورَةِ " الْمُنَافِقُونَ " ، وَلَيْسَ فِيهِ أَنَّ آيَةَ بَرَاءَةَ الَّتِي نُفَسِّرُهَا نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ . وَحَدِيثُ الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ مِنْ طَرِيقَيْنِ أَنَّ الْخِصَامَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ قَوْلِ ابْنِ أُبَيٍّ (لَعَنَهُ اللهُ) مَا قَالَ كَانَ بَيْنَ مُهَاجِرِيٍّ وَأَنْصَارِيٍّ ، وَذَكَرَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ رِوَايَةَ قَتَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَفِي الْمَسْأَلَةِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى ، وَلَا مَانِعَ مِنَ التَّعَدُّدِ عَقْلًا ، وَإِنْ لَمْ يَصِحَّ نَقْلًا . وَابْنُ أُبَيٍّ كَانَ مِنَ الْمُخَلَّفِينَ لَمْ يَخْرُجْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَالْجُلَاسِ .

(222/343)

وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَهُوَ اغْتِيَالُ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي الْعَقَبَةِ مُنْصَرَفَهُ مِنْ تَبُوكَ . ذَكَرَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ " زَادِ الْمَعَادِ " مَا نَصُّهُ : - " ذَكَرَ أَبُو الْأَسْوَدِ فِي مُغَازِيهِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ : رَجَعَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِبَعْضِ الطَّرِيقِ مَكَرَ بِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ نَاسٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، فَتَآمَرُوا أَنْ يَطْرَحُوهُ مِنْ عَقَبَةٍ فِي الطَّرِيقِ ، فَلَمَّا بَلَغُوا الْعَقَبَةَ أَرَادُوا أَنْ يَسْلُكُوهَا مَعَهُ ، فَلَمَّا غَشِيَهُمْ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أُخْبِرَ خَبَرَهُمْ فَقَالَ : " مَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ

(223/343)

يَأْخُذَ بِبَطْنِ الْوَادِي فَإِنَّهُ أَوْسَعُ لَكُمْ " وَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ الْعَقَبَةَ وَأَخَذَ النَّاسُ بِبَطْنِ الْوَادِي إِلَّا النَّفَرَ الَّذِينَ هَمُّوا بِالْمَكْرِ بِرَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لَمَّا سَمِعُوا بِذَلِكَ اسْتَعَدُّوا وَتَلَثَّمُوا وَقَدْ هَمُّوا بِأَمْرٍ عَظِيمٍ ، وَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ وَعَمَّارَ بْنَ يَاسِرٍ فَمَشَيَا مَعَهُ ، وَأَمَرَ عَمَّارًا أَنْ يَأْخُذَ بِزِمَامِ النَّاقَةِ ، وَأَمَرَ حُذَيْفَةَ أَنْ يَسُوقَهَا ، فَبَيْنَمَا هُمْ يَسِيرُونَ إِذْ سَمِعُوا وَكْزَةَ الْقَوْمِ مِنْ وَرَائِهِمْ قَدْ غَشَوْهُ ، فَغَضِبَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَأَمَرَ حُذَيْفَةَ أَنْ يَرُدَّهُمْ ، وَأَبْصَرَ حُذَيْفَةُ غَضَبَ

رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَرَجَعَ وَمَعَهُ مِحْجَنٌ ، وَاسْتَقْبَلَ وُجُوهَ رَوَاحِلِهِمْ فَضَرَبَهَا ضَرْبًا بِالْمِحْجَنِ ، وَأَبْصَرَ الْقَوْمَ

(224/343)

وَهُمْ مُتَلَثِّمُونَ وَلَا يَشْعُرُ إلَّا أَنَّ ذَلِكَ فِعْلُ الْمُسَافِرِ ، فَأَرْعَبَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ حِينَ أَبْصَرُوا حُذَيْفَةَ ، وَظَنُّوا أَنَّ مَكْرَهُمْ قَدْ ظَهَرَ عَلَيْهِ فَأَسْرَعُوا حَتَّى خَالَطُوا النَّاسَ ، وَأَقْبَلَ حُذَيْفَةُ حَتَّى أَدْرَكَ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَلَمَّا أَدْرَكَهُ قَالَ : " اضْرِبِ الرَّاحِلَةَ يَا حُذَيْفَةَ وَامْشِ أَنْتَ يَا عَمَّارُ وَرَاءَهَا " فَأَسْرَعُوا حَتَّى اسْتَوَوْا بِأَعْلَاهَا ، فَخَرَجُوا مِنَ الْعَقَبَةِ يَنْتَظِرُونَ النَّاسُ فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِحُذَيْفَةَ : " هَلْ عَرَفْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ الرَّهْطِ أَوِ الرَّكْبِ أَحَدًا " ؟ قَالَ حُذَيْفَةُ : عَرَفْتُ رَاحِلَةَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ ، وَقَالَ : كَانَتْ ظُلْمَةُ اللَّيْلِ وَغَشْيَتُهُمْ وَهُمْ مُتَلَثِّمُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " هَلْ عَلِمْتُمْ مَا كَانَ شَأْنُ الرَّكْبِ وَمَا أَرَادُوا " ؟ قَالُوا : لَا وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ : " فَإِنَّهُمْ مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِي حَتَّى إذَا طَلَعْتُ فِي الْعَقَبَةِ طَرَحُونِي مِنْهَا " قَالُوا : أَوَلَا تَأْمُرُ بِهِمْ يَا رَسُولَ اللهِ إذًا فَنَضْرِبُ أَعْنَاقَهُمْ ؟ قَالَ : " أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ وَيَقُولُونَ : إنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَضَعَ يَدَهُ فِي أَصْحَابِهِ " فَسَمَّاهُمْ لَهُمَا وَقَالَ : " اكْتُمَاهُمْ " .

وَهَذَا السِّيَاقُ رَوَاهُ الْبَيْهَقِيُّ وَغَيْرُهُ مِنْ هَذِهِ الطَّرِيقِ ، وَقَدْ رَوَى الْقِصَّةَ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي سِيرَتِهِ ، وَذَكَرَ أَسْمَاءَ أُولَئِكَ الرَّهْطِ بِمَا أَنْكَرُوا عَلَيْهِ بَعْضُهُ ، وَالصَّحِيحُ فِي عَدَدِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَمَّارٍ وَحُذَيْفَةَ اللَّذَيْنِ كَانَا مَعَ رَاحِلَةِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي الْعَقَبَةِ ، وَقَدْ أَخْبَرَهُمَا بِأَسْمَائِهِمْ وَأَمْرَهُمَا بِكِتْمَانِهَا فَقَدْ رَوَى فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ قَيْسِ بْنِ عَبَّادٍ قَالَ : قُلْنَا لِعَمَّارٍ : أَرَأَيْتَ قِتَالَكُمْ أَرَأْيًا رَأَيْتُمُوهُ فَإِنَّ الرَّأْيَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ ؟ أَوْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ؟ فَقَالَ : مَا عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً . وَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ : " إِنَّ فِي أُمَّتِي " – قَالَ شُعْبَةُ : وَأَحْسَبُهُ قَالَ : حَدَّثَنِي حُذَيْفَةُ ، وَقَالَ غُنْدَرٌ : أَرَاهُ قَالَ : فِي أُمَّتِي اثْنَا عَشَرَ مُنَافِقًا

لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدُونَ رِيحَهَا حَتَّى يَلِجَ

الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، ثَمَانِيَةٌ مِنْهُمْ تَكْفِيكَهُمُ الدُّبَيْلَةُ . سِرَاجٌ مِنَ النَّارِ يَظْهَرُ فِي أَكْتَافِهِمْ حَتَّى يَنْجُمَ مِنْ صُدُورِهِمْ .

وَرَوَى بَعْدَهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ : كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعَقَبَةِ وَبَيْنَ حُذَيْفَةَ بَعْضَ مَا يَكُونُ بَيْنَ النَّاسِ ، فَقَالَ : أَنْشُدُكَ بِاللهِ كَمْ كَانَ أَصْحَابُ الْعَقَبَةِ ؟ قَالَ فَقَالَ لَهُ الْقَوْمُ أَخْبِرْهُ إِذْ سَأَلَكَ . قَالَ كُنَّا نُخْبَرُ أَنَّهُمْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَقَدْ كَانَ الْقَوْمُ خَمْسَةَ عَشَرَ ، وَأَشْهَدُ بِاللهِ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ مِنْهُمْ حَرْبٌ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَعُذِرَ ثَلَاثَةٌ (؟) قَالُوا : مَا سَمِعْنَا مُنَادِيَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا عَلِمْنَا بِمَا أَرَادَ الْقَوْمُ ، وَقَدْ كَانَ فِي حَرَّةٍ فَمَشَى فَقَالَ : " إِنَّ الْمَاءَ قَلِيلٌ فَلَا يَسْبِقْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ " فَوَجَدَ قَوْمًا قَدْ سَبَقُوهُ فَلَعَنَهُمْ يَوْمَئِذٍ اهـ .

(227/343)

وَقَدْ ذَكَرَ الطَّبَرَانِيُّ فِي مُسْنَدِ حُذَيْفَةَ أَسْمَاءَ أَصْحَابِ الْعَقَبَةِ ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ بَكَّارٍ أَنَّهُ قَالَ : هُمْ مُعْتِبُ بْنُ بَشِيرٍ ، وَوَدِيعَةُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَجَدُّ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَالْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ الطَّائِيُّ ، وَأَوْسُ بْنُ قَيْظِيٍّ ، وَالْحَارِثُ بْنُ سُوَيْدٍ وَسَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ ، وَقَيْسُ بْنُ فَهْدٍ ، وَسُوَيْدٌ وَدَاعِسٌ مِنْ بَنِي الْحُبْلَى ، وَقَيْسُ بْنُ عَمْرِو بْنِ سَهْلٍ ، وَزَيْدُ بْنُ اللَّصِيتِ ، وَسَلَالَةُ بْنُ الْحُمَامِ ، وَهُمَا مِنْ بَنِي قَيْنُقَاعَ أَظْهَرُوا

الْإِسْلَامَ انْتَهَى مِنْ تَفْسِيرِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْتُ عَدَدَهُمْ وَأَسْمَاءَهُمْ حَتَّى لَا يَكُونَ لِخُلَفَائِهِمْ مِنْ مُنَافِقِي الرَّوَافِضِ سَبِيلٌ إِلَى تَضْلِيلِ عَوَامِّ الْمُسْلِمِينَ ، بِمَا اعْتَادُوا مِنَ الطَّعْنِ فِي خَيْرِ أَصْحَابِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ .

وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ نَقِمَ مِنْهُ الشَّيْءُ : أَنْكَرَهُ

(228/343)

وَعَابَهُ كَمَا فِي الْأَسَاسِ ، وَكَذَا عَاقَبَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ الرَّاغِبُ : نَقَمْتَ الشَّيْءَ إِذَا نَكِرْتَهُ إِمَّا بِاللِّسَانِ ، وَإِمَّا بِالْعُقُوبَةِ . أَيْ : وَمَا أَنْكَرَ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ مِنْ أَمْرِ الْإِسْلَامِ ، وَبِعْثَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِمْ شَيْئًا يَقْتَضِي الْكَرَاهَةَ وَالْكُفْرَ وَالْهَمَّ بِالِانْتِقَامِ إِلَّا إِغْنَاءَ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ وَرَسُولَهُ مِنْ فَضْلِهِ تَعَالَى بِالْغَنَائِمِ الَّتِي هِيَ عِنْدَهُمْ غَايَةُ الْغَايَاتِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ ، وَكَانُوا كَسَائِرِ الْأَنْصَارِ مِنَ الْفُقَرَاءِ فَالْإِغْنَاءُ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ بِبِعْثَةِ الرَّسُولِ وَالنَّصْرِ لَهُ ، وَمَا فِيهِ مِنَ الْغَنَائِمِ كَمَا وَعَدَهُ . وَتَقَدَّمَ شَرْحُهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ : وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ (59) كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى قِسْمَةِ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ قَوْلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْأَنْصَارِ : " وَكُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بِي " .

وَالَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْجُلَاسِ بْنِ سُوَيْدٍ حَمَلُوا الْإِغْنَاءَ عَلَى الدِّيَةِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِي

قِصَّتِهِ ، وَهُوَ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ الْكَلَامَ فِي تَوْبِيخِ الْمُنَافِقِينَ كَافَّةً ، وَلَاسِيَّمَا الَّذِينَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَلَمْ يَكُنْ جُلَاسٌ مِنْهُمْ ، وَغَايَةُ مَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْإِغْنَاءِ ، فَيَحْمِلُ جُلَاسٌ مِنْ تَوْبِيخِهَا عِلَاوَةً عَلَى مَا يَحْمِلُهُ سَائِرُ الْمُنَافِقِينَ ، وَقَدْ تَابَ وَأَنَابَ . رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

.

(229/343)

وَهَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ نَوْعِ الْبَدِيعِ الَّذِي يُسَمُّونَهُ الْمَدْحَ فِي مَعْرِضِ الذَّمِّ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ فِي كُرْهِ سَاسَةِ التُّرْكِ فِي الْآسِتَانَةِ لِلْعَرَبِ :

وَمَا نَقَمُوا مِنَّا بَنِي الْعُرْبِ خُلَّةً . . . سِوَى أَنْ خَيَّرَ الْخَلْقَ لَمْ يَكُ أَعْجَمَا

فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ أَيْ : فَإِنْ يَتُوبُوا مِنَ النِّفَاقِ ، وَمَا يَصْدُرُ عَنْهُ مِنْ مَسَاوِئِ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ يَكُنْ ذَلِكَ الْمَتَابُ خَيْرًا لَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مُقَابِلُهُ فِي الْجُمْلَةِ التَّالِيَةِ ، أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَبِمَا فِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ الرُّوحِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ ، وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلَائِهِ وَالشُّكْرِ لِنَعْمَائِهِ ، وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ ، وَالتَّوَجُّهِ إِلَى سَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، وَمُعَاشَرَةِ الرَّسُولِ الْأَعْظَمِ ، وَمُشَاهَدَةِ مَا حَجَبَهُ النِّفَاقُ عَنْهُمْ مِنْ أَنْوَارِهِ ، وَمَعَارِفِهِ وَفَضَائِلِهِ ، وَمِنَ الْفَوَائِدِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِأُخُوَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْوُدِّ الْخَالِصِ وَالْوَفَاءِ

الْكَامِلِ ،

وَالْإِيثَارِ عَلَى النَّفْسِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَزَايَا التَّعَاوُنِ وَالِاتِّحَادِ ، وَالْحُبِّ وَالْإِخْلَاصِ ، الَّتِي قَلَّمَا تُوجَدُ أَوْ تَكْمُلُ فِي غَيْرِ الْإِسْلَامِ - وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَبِمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ قَرِيبًا مِنْ وَعْدِ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ .

(230/343)

وَإِنْ يَتَوَلَّوْا عَمَّا دُعُوا إِلَيْهِ مِنَ التَّوْبَةِ بِالْإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ ، وَمُسَاوِيهِ الْمُدَنِّسَةِ لِلْأَرْوَاحِ الْمُفْسِدَةِ لِلْأَخْلَاقِ : يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَمَّا فِي الدُّنْيَا فَبِمِثْلِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (55) وَسَيَأْتِي مِثْلُهُ قَرِيبًا ، وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ فِي وَصْفِ مَا يُلَازِمُ قُلُوبَهُمْ مِنَ الْفَرَقِ : لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) وَفِي مَعْنَاهُ : يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ (63 : 4) فَهُمْ فِي جَزَعٍ دَائِمٍ ، وَهَمٍّ مُلَازِمٍ ، وَكَذَا مَا ذَكَرَ آنِفًا فِي تَفْسِيرِ جِهَادِهِمْ ، وَمَا تَرَى فِي بَقِيَّةِ الْآيَةِ مِنْ حِرْمَانِهِمْ مِنْ كُلِّ وَلِيٍّ وَنَصِيرٍ فِي الْعَالَمِ ، وَمَا سَيَأْتِي مِنَ الْآيَاتِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الشِّدَّةِ فِي مُعَامَلَتِهِمْ - وَأَمَّا فِي الْآخِرَةِ فَحَسْبُكَ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا مِنْ وَعِيدِهِمْ .

وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ أَيْ : وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا أَدْنَى وَلِيٍّ يَتَوَلَّاهُمْ وَيَهْتَمُّ بِشَأْنِهِمْ ، وَلَا أَضْعَفُ نَصِيرٍ يَنْصُرُهُمْ وَيُدَافِعُ عَنْهُمْ ; لِأَنَّ مَنْ خَذَلَهُ اللَّهُ وَآذَنَهُ بِحَرْبٍ مِنْهُ لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُخَيِّرَهُ مِنْهُ ، وَأَمَّا نَاحِيَةُ الْأَسْبَابِ الدُّنْيَوِيَّةِ فَأَبْوَابُهَا قَدْ أُغْلِقَتْ فِي وُجُوهِهِمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَصَرَ وِلَايَةَ الْأُخُوَّةِ وَالْمَوَدَّةِ وَوِلَايَةَ النَّصْرِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ دُونَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ فَلَنْ يَجِدُوا بَعْدَ الْآنَ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَتَوَلَّاهُمْ أَوْ يَنْصُرُهُمْ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْهُمْ مَا كَانَ ، وَلَا مِنْ قَبَائِلِهِمْ وَأُولِي أَرْحَامِهِمْ ; لِأَنَّ الْإِسْلَامَ قَدْ أَبْطَلَ عَصَبِيَّةَ الْأَنْسَابِ - وَلَا مِنَ الْغُرَبَاءِ بِمَا كَانَ يَكُونُ عِنْدَ الْعَرَبِ مِنَ الْجِوَارِ وَالْحِلْفِ ، فَقَدْ قَضَى الْإِسْلَامُ عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ وَجُوَارِهَا - وَلَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَيْضًا ; فَإِنَّ أَحْلَافَهُمْ مِنْهُمْ قَدْ قُضِيَ عَلَيْهِمْ فِي الْحِجَازِ ، بِالْقَتْلِ وَالْجَلَاءِ ، وَلَا سَبِيلَ لَهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ فِي شَاسِعِ الْأَمْصَارِ ، عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِمُلْكِ قَيْصَرَ وَكِسْرَى وَهَكَذَا كَانَ ،

وَصَدَقَ مَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ مِن انْتِقَاءِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْصَارِ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كُلِّهَا ، وَهَذَا مِنْ نَبَأِ الْغَيْبِ الَّذِي يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ ، وَلَمْ يَفْطِنْ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ لِجَمِيعِ أَفْرَادِهِ . هَذَا مَا يَخُصُّ حِرْمَانَهُمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْأَنْصَارِ فِي الدُّنْيَا كُلِّهَا – وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالنُّصُوصِ الْأُخْرَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْمُنَافِقِينَ وَلَا لِلْكُفَّارِ وَلِيٌّ وَلَا نَصِيرٌ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا خَصَّ أَمْرَ الدُّنْيَا بِالذِّكْرِ هُنَا ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يُهِمُّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ دُونَ الْآخِرَةِ الَّتِي لَا يُوقِنُونَ بِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 10 صـ 466. 481 ﴾

(233/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسلامهم ﴾ .

لمّا كان معظم ما أخِذ على المنافقين هو كلماتٍ دالّةً على الطعن في الرسول صلى الله عليه وسلم ونحو ذلك من دلائل الكفر وكانوا إذا نُقِل ذلك عنهم تنصّلوا منه بالأيمان الكاذبة ، عُقّبت آية الأمر بجهادهم بالتنبيه على أنّ ما يتنصّلون به تنصلٌ كاذب وأن لا ثِقة بحَلفهم ، وعلى إثبات أنّهم قالوا ما هو صريح في كفرهم .

فجملة ﴿ يحلفون ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً يثيره الأمر بجهادهم مع مشاهدة ظاهر

أحوالهم من التنصّل ممّا نقل عنهم ، إن اعتبر المقصود من الجملة تكذيبهم فِي حلفهم .

وقد تكون الجملة في محلّ التعليل للأمر بالجهاد إن اعتبر المقصود منها قوله : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ وما بعده ، وأن ذلك إنّما أخّر للاهتمام بتكذيب أيمانهم ابتداء ، وأتي بالمقصود في صورة جملة حاليّة .

ومعلوم أنّ القيد هو المقصود من الكلام المقيَّد .

ويرجّح هذا أنّ معظم ما في الجملة هو شواهد كفرهم ونقضِهم عهد الإسلام ، إذ لو كان المقصود خصوص تكذيبهم فيما حلفوا لاقتُصر على إثبات مقابله وهو ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ ، ولم يكن لما بعده مزيد اتّصال به .

وأيّاً ما كان فالجملة مستحقّة الفصل دون العطف .

ومفعول ما قالوا محذوف دلّ عليه قوله : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ .

وأُكِّد صدور كلمة الكفر منهم ، في مقابلة تأكيدهم نفي صدورها ، بصيغة القَسم ليكون تكذيب قولهم مساوياً لقولهم في التأكيد .

وكلمةُ الكفر الكلام الدالّ عليه ، وأصل الكلمة اللفظ الواحد الذي يتركّب منه ومن مثله الكلام المفيد ، وتطلق الكلمة على الكلام إذا كان كلاماً جامعاً موجَزاً كما في قوله تعالى : ﴿ كلا إنها كلمة هو قائلها ﴾ [المؤمنون : 8] وفي الحديث : " أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد : ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل "

فكلمة الكفر جنس لكلّ كلام فيه تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم كما أطلقت كلمة الإسلام على شهادة أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله .

فالكلمات الصادرة عنهم على اختلافها ، ما هي إلاّ أفرادٌ من هذا الجنس كما دلّ عليه إسناد القول إلى ضمير جماعةِ المنافقين .

فعن قتادة : لا عِلْمَ لنا بأنّ ذلك من أيّ إذ كان لا خبر يوجب الحجّة وتتوصّل به إلى العلم .

وقيل : المراد كلمة صدرت من بعض المنافقين تدلّ على تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم فعن عروة بن الزبير ، ومجاهد ، وابن إسحاق أنّ الجُلاَسَ بضم الجيم وتخفيف اللام بنَ سُويد بننِ الصامت قال : لئن كان ما يقول محمد حقّاً لنحن أشرّ من حميرنا هذه التي نحن عليها ، فأخبَر عنه ربيبُه النبي فدعاه النبي وسأله عن مقالته ، فحلف بالله ما قال ذلك ، وقيل : بل نزلت في عبد الله بن أُبي بن سَلُول لقوله الذي حكاه الله عنه بقوله:

﴿ يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخْرِجَنّ الأعز منها الأذلّ ﴾ [المنافقون : 8] فسعى به رجل من المسلمين فأرسل إليه رسول الله فسأله فجعل يحلف بالله ما قال ذلك .

فعلى هذه الروايات يكون إسناد القول إلى ضمير جمعٍ كناية عن إخفاء اسم القائل كما

يقال ما بال أقوام يفعلون كذا .

وقد فعله واحد ، أو باعتبار قولِ واحدٍ وسماع البقية فجُعلوا مشاركين في التبعة كما يقال : بنو فلان قتلوا فلاناً وإنّما قتله واحد من القبيلة ، وعلى فرض صحّة وقوع كلمة من واحد معيّن فذلك لا يقتضي أنّه لم يشاركه فيها غيره لأنّهم كانوا يتآمرون على ما يختلقونه .

وكان ما يصدر من واحد منهم يتلقفه جلساؤه وأصحابه ويشاركونه فيه .

وأمّا إسناد الكفر إلى الجمع في قوله : ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ فكذلك .

ومعنى ﴿ بعد إسلامهم ﴾ بعد أن أظهروا الإسلام في الصورة ، ولذلك أضيف الإسلام إليهم كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم ﴾ [التوبة : 66] .

(235/343)

والهَمّ : نيّة الفعل سواء فُعل أم لم يفعل .

ونوال الشيء حصوله ، أي همّوا بشيء لم يحصّلوه والذي همّوا به هو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك تواثقَ خمسةَ عشرَ منهم على أن يترصّدوا له في عَقبة بالطريق تحتها وادٍ فإذا اعتلاها ليْلاً يدفعونه عن راحلته إلى الوادي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سائراً وقد أخذ عَمّار بن يَاسِر بخطام راحلته يقودها .

وكان حذيفة بن اليمان يسوقها فأحس حذيفة بهم فصاح بهم فهربوا .

وجملة : ﴿ وما نقموا ﴾ عطف على ﴿ ولقد قالوا ﴾ أي والحال أنّهم ما ينقمون على النبي صلى الله عليه وسلم ولا على دخول الإسلامِ المدينةَ شيئاً يدعوهم إلى ما يصنعونه من آثار الكراهية والعداوة .

والنقْم الامتعاض من الشيء واستنكاره وتقدّم في قوله تعالى : ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا ﴾ في سورة الأعراف (126) .

وقوله : إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ استثناء تهكّمي .

وهو من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه كقول النابغة:

ولا عيبَ فيهم غير أنّ سيوفهم . . .

بِهِنَّ فُلُول من قِراع الكتائب

ونكتته أنّ المتكلّم يظهر كأنّه يبحث عن شيء ينقض حكمَه الخبري ونحوَه فيذكر شيئاً هو من مؤكدات الحكم للإشارة إلى أنّه استقصى فلم يجد ما ينقضه .

وإنّما أغناهم الله ورسوله بما جلبه حلول النبي عليه الصلاة والسلام بينهم من أسباب الرزق بكثرة عمل المهاجرين وبوفرة الغنائم في الغزوات وبالأمْن الذي أدخله الإسلام فيهم إذ جعل المؤمنين إخوة فانتفت الضغائن بينهم والثارات ، وقد كان الأوس والخزرج قبل الإسلام أعداء وكانت بينهم حروبٌ تفانَوا فيها قُبيل الهجرة وهي حروب بعاث .

والفضل : الزيادة في البذل والسخاء .

و﴿ مِن ﴾ ابتدائية .

وفي جعل الإغناء من الفضل كنايةٌ عن وفرة الشيء المغنَى به لأنّ ذا الفضلِ يعطي الجَزل .

وعطف الرسول على اسم الجلالة في فعل الإغناء لأنّه السبب الظاهر المباشر .

(236/343)

---

(74) ﴿ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْراً لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا والاخرة وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

التفريع على قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين ﴾ [التوبة : 73] على عادة القرآن في تعقيب الوعيد بالوعد والعكس فلمّا أمر بجهادهم والغِلظة عليهم وتوعّدهم بالمصير إلى النار ، فرّع على ذلك الإخبارَ بأنّ التوبة مفتوحة لهم وأنّ تدارك أمرهم في مكنتهم ، لأنّ المقصود من الأمر بجهادهم قطع شافة مضرّتهم أو أن يصلح حالهم .

والتوبة هي إخلاصهم الأيمانَ .

والضمير يعود إلى الكفّار والمنافقين ، والضمير في ﴿ يك ﴾ عائد إلى مصدر ﴿ يتوبوا ﴾ وهو التوبُ .

والتولّي : الإعراض والمراد به الإعراض عن التوبة .

والعذاب في الدنيا عذاب الجهاد والأسر ، وفي الآخرة عذاب النار .

وجيء بفعل ﴿ يك ﴾ في جواب الشرط دون أن يقال فإن يتوبوا فهو خيرٌ لهم لتأكيد وقوع الخَيْر عند التوبة ، والإيماءِ إلى أنّه لا يحصل الخير إلاّ عند التوبة لأنّ فعل التكوين مؤذن بذلك .

وحَذف نون "يكن" للتخفيف لأنّها لسكونها تهيّأت للحذف وحسَّنه وقوع حركة بعدها والحركة ثقيلة فلذلك شاع حذف هذه النون في كلامهم كقوله : ﴿ وإن تك حسنة يضاعفها ﴾ في سورة النساء (40) .

وجملة : وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ عطف على جملة ﴿ يعذبهم الله ﴾ الخ فتكون جواباً ثانياً للشرط ، ولا يريبك أنّها جملة اسمية لا تصلح لمباشرة أداة الشرط بدون فاء رابطة .

لأنّه يغتفر في التوابع ما لا يغتفر في المتبوعات فإنّ حرف العطف كاف في ربط الجملة تبعاً للجملة المعطوف عليها .

والمعنى أنّهم إن تولّوا لم يجدوا من ينصرهم مِن القبائل إذ لم يبق من العرب من لم يدخل في الإسلام إلاّ من لا يعبأ بهم عَدداً وعُدداً ، والمراد نفي الولي النافع كما هو مفهوم الولي وأمّا من لا ينفع فهو حبيب وودود وليس بالولي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(238/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾

وفي هذه الآية الكريمة يبين لنا الحق سبحانه وتعالى حلقات الحلف بالكذب للمنافقين ؛ فهم يحلفون أنهم ما قالوا ، ويجعلون الله عرضة لأيمانهم ؛ مع أنهم قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد أن أعلنوا الإسلام بلسانهم ، وإسلامهم إسلامٌ مُدَّعًى .

ولهذه الآية الكريمة قصة وقعت أحداثها في غزوة تبوك التي حارب المسلمون فيها الروم ، وكانت أول قتال بين المسلمين وغير العرب ، حيث دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هذه الغزوة في فترة شديدة الحرارة ، وكان كل واحد في هذه الفترة يفضل الجلوس في

الأخياف ، أي الحدائق الصغيرة ، ويجلسون تحت النخيل والشجر في جو رطب ولا يرغبون في القيام من الظل .

(239/343)

وعندما دعا رسول الله للجهاد في سبيل الله ، والذهاب إلى قتال الروم ، تلمَّس المنافقون الأعذار الكاذبة حتى لا يذهبوا للجهاد ؛ فظلَّ القرآن ينزل في هؤلاء الذين تخلفوا عن هذه الغزوة شهرين كاملين ، فقال رجل اسمه الجلاس بن سويد : والله إن كان ما يقوله محمد عن الذين تخلفوا عن القتال صِدْقاً فنحن شرٌّ من الحمير . وهنا قال عامر بن قيس الأنصاري : لقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنتم شر من الحمير . وأنت يا جلاس شر من الحمار . وهنا قام عدد من المنافقين ليفتكوا بعامر بن قيس الأنصاري ؛ لأن الجلاس بن سويد كان من سادة قومه . وذهب عامر بن قيس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره بما حدث ، فاستدعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابن سويد وسأله عن الخبر ، فحلف بالله أن كل ما قاله عامر بن قيس لم يحدث . وتركه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أن حلف بالله . وهنا رفع عامر بن قيس يده إلى السماء ، وقال : اللهم إني أسألك أن تنزل على عبدك ونبيك محمد صلى الله عليه وسلم تصديق الصادق وتكذيب

الكاذب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "آمين" . ولم ينتهوا من الدعاء حتى نزل الوحي بقول الحق جل جلاله : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ الكفر وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ .

وهكذا حسمت هذه الآية الكريمة الموقف . وأظهرت من هو الصادق ومن هو الكاذب ؛ فيما رواه عامر بن قيس وأنكره الجلاس .

(240/343)

ولكن الآية الكريمة تجاوزت ما عُرف من الحادثة إلى ما لم يبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يُعلم المنافقين أن سبحانه يخبر نبيه بما يخفيه المنافقون عنه ، ولو نزلت الآية فقط في حادثة الحلف الكذب ، لقال المنافقون : ما عرف محمد – عليه الصلاة والسلام – إلا ما قاله عامر ، ولكن هناك أشياء لم يسمعها عامر ؛ وهم قالوها ، ذلك أن المنافقين كانوا قد تآمروا على حياة النبي صلى الله عليه وسلم واتفقوا على قتله عند عبوره العقبة ، والعقبة هذه هي مجموعة من الصخور العالية التي تعترض الطريق ، فيتحايلون على اجتياز هذه العقبة بأن يعبروها أحياناً من أنفاق منخفضة ، وأحياناً يعبرونها بأن يصعدوا فوقها ثم ينزلوا .

ودبر المنافقون أن يدفعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعلى الصخور ، فيسقط في الوادي ، ولكن حذيفة بن اليمان الذي كان يسير خلف ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم تنبه للمؤامرة ، فهرب المنافقون ، وهكذا لم ينالوا ما يريدون ، مثلما لم ينالوا ما أرادوه عندما أتى رسول الله صلى الله مهاجراً إلى المدينة ، فقد كانوا يعدّون العُدَّة ليجعلوا عبد الله بن أبيّ ملكاً عليهم ، ولكن مجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُمكنهم من ذلك .

وقيل : إنهم تآمروا على قتل عامر بن قيس ؛ لأنه أبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قاله الجلاس بن سويد ، ولكنهم لم يتمكنوا .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا نقموا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ الله وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ و ﴿ نقموا ﴾ تعني : كرهوا ، والغنى – كما نعلم – أمر لا يُكره ، ولكن وروده هنا دليل على فساد طبعهم وعدم الإنصاف في حكمهم ؛ لأن الغنى والأمن الذي أصابهم ليس عيباً ولا يولد كراهية . بل كان من الطبيعي أن يولد حباً وتفانياً في الإيمان .

(241/343)

والحق سبحانه وتعالى يوضح لهم : ماذا تعيبون على محمد ؟ وماذا تكرهون فيه ؟ هل تكرهونه وقد جاءكم بالعزة والغنى ؟

وقبل أن يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الذين كرهوا مجيء الرسول إلى المدينة فقراء لا يملكون شيئاً ، ولكنهم لما نافقوا ودخلوا في الإسلام ، أخذوا من الغنائم ، وأغناهم الله ؛ بل إن الجلاس بن سويد لما قُتِل له غلام دفع له رسول الله صلى الله عليه وسلم اثني عشر ألف درهم دّية . إذن : فقد جاء على يد الرسول صلى الله عليه وسلم الغنى للجميع ، فهل هذا أمر تكرهونه ؟ طبعاً لا . ولكنه دليل على فساد طباعكم وعدم إنصافكم في الحكم ، وما دام الله سبحانه وتعالى قد أغناكم بمجيء رسوله ؛ ما كان يصح أن يُعاب ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كان يجب أن يُمدح به ، وأن تتفانوا في الإيمان به ونصرته .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ يلفتنا إلى أسلوب القرآن الكريم . ولقد قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ وكان قياس كلام البشر أن يقال " الله ورسوله من فضلهما " ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الله لا يُثنَّى مع أحد ، ولو كان محمد بن عبد الله .

ولذلك عندما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يخطب ويقول : من أطاع الله ورسوله فقد نجا ، ومن عصاهما فقد هلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بئس خطيب القوم أنت ؛ لأن الخطيب جمع جَمْعَ تثنية بين الله ورسوله .

وهنا توقف الخطيب وقال : فماذا أقول يا رسول الله ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : قل ومَنْ يعْص الله ورسوله فقد هلك ، ولا تقل : عصاهما ، لا تجمع مع الله أحداً ولا تُثنِّ مع الله أحداً ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يَقُلْ " أغناهما الله ورسوله من فضلهما " ، ولكنه قال : ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لأن الفضل واحد . فإن كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فضل ؛ فهو من فضل الله .

(242/343)

وعلى أية حال فالله لا يُثنَّى معه أحد ؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : 62]

وهنا نرى أيضاً أن الحق سبحانه قد استخدم صيغة المفرد في الرضا ؛ لأن رضا الله سبحانه وتعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم يتحدان ، ولأنه إذا جاء اسم الله فلا يُثنَّى معه أحد .

وبعد أن فضح الحق سبحانه وتعالى المنافقين وبيّن ما في قلوبهم ؛ لم تتخلَّ رحمته عنهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى رحيم بعباده ، ولذلك فتح لهم باب التوبة فقال : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ ، وفَتْحُ باب التوبة رحمة لحركة الحياة كلها ؛ فلو أغلق الله باب التوبة لأصبح كل من ارتكب ذنباً مصيره للنار . وإذا علم الإنسان أن مصيره للعذاب مهما فعل ، فلا بد أن

يستشري في الذنب ، ويزداد في الإثم ، ما دام لا فرق بين ذنب واحد وذنوب متعددة .

ولكن حين يعلم أن أي إنسان يخطئ أن باب التوبة مفتوح ؛ فهو لا يستشري في الإثم ، ثم إن الذي يعاني من الشرور والآثام حقيقة هو المجتمع ككل ، فإذا وُجد لص خطير مثلاً ؛ فالذي يعاني من سرقاته هو المجتمع . وإذا وُجد قاتل محترف فالذي يعاني من جرائمه هم الذين سيقتلهم من أفراد المجتمع .

إذن : ففتح باب التوبة رحمة للمجتمع ؛ لأنها لا تدفع المجرم إلى الاستشراء في إجرامه . وإذا نظرت إلى الآية الكريمة ، فالله سبحانه وتعالى بعد أن أظهر الحق ، وبيّن للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أشياء كان المنافقون يخفونها ؛ فتح للمنافقين باب التوبة ، وحينئذ قال الجلاس بن سويد زعيم المنافقين : يا رسول الله . لقد عرض الله عليّ التوبة . والله قد قلت ما قاله عامر ، وإن عامراً لَصَادقٌ فيما قاله عني . وتاب الجلاس وحسُن إسلامه .

أما الذين تُعرَض عليهم التوبة ولا يتوبون إلى الله ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدنيا والآخرة وَمَا لَهُمْ فِي الأَرض مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ . إذن : فجزاء من يرفض التوبة ولا يعترف بخطئه هو العذاب الأليم ، لا في الآخرة

فقط ، ولكن في الدنيا والآخرة .

وعذاب الدنيا إما بالقتل وإما بالفضيحة ، وعذاب الآخرة في الدرك الأسفل من النار .

ولكن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ قد يفهمه بعض الناس فهماً خاطئاً ، بأن العذاب في الدنيا فقط ، ولكن هناك أرض في الدنيا ؛ وأرض في الآخرة هي أرض المعاد ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ والسموات . . . ﴾ [إبراهيم : 48]

إذن : فكلمة ﴿ الأرض ﴾ تعطينا صورتين في الدنيا وفي الآخرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ يوضح لنا أن الوليّ هو القريب منك الذي تفزع إليه عند الشدائد ، ولا تفزع عند الشدائد إلا لمن تطمع أن ينصرك ، أو لمن هو أقوى منك ، أما النصير فهو من تطلب منه النصرة . وقد يكون من البعيدين عنك ولا ترتبط به ولاية ، إذن : فلا الوليّ القريب منك ، ولا الغريب الذي قد تفزع إليه لينصرك يستطيعان أن يفعلا لك شيئاً ، فلا نجاة من عذاب الله لمن كفر أو نافق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(244/343)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ﴾

أخرج ابن إسحق وابن أبي حاتم عن كعب بن مالك قال " لما نزل القرآن فيه ذكر المنافقين قال الجلاس : والله لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير . فسمعه عمير بن سعد فقال : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إليَّ وأحسنهم عندي أثراً وأعزهم علي أن يدخل عليه شيء يكرهه ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحنك ولئن سكت عنها لتهلكني ، ولأحدهما أشد عليَّ من الأخرى . فمشى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر له ما قال ، فأتى الجلاس فجعل يحلف بالله ما قال ، ولقد كذب على عمير فأنزل الله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال " كان الجلاس بن سويد بن الصامت ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وقال : لئن كان هذا الرجل صادقاً لنحن شر من الحمير . فرفع عمير بن سعد مقالته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحلف الجلاس بالله لقد كذب عليَّ وما قلت . فأنزل الله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ الآية . فزعموا أنه تاب ، وحسنت توبته " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أنس بن مالك رضي

الله عنه قال " سمع زيد بن أرقم رضي الله عنه رجلاً من المنافقين يقول – والنبي صلى الله عليه وسلم يخطب – : إن كان هذا صادقاً لنحن شر من الحمير . فقال زيد رضي الله عنه : هو – والله – صادق ولأنت أشر من الحمار ، فرفع ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجحد القائل ، فأنزل الله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا . . . ﴾ الآية . فكانت الآية في تصديق زيد " .

(245/343)

وأخرج ابن جرير والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعيني شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه . فلم يلبثوا إلا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم ، وأنزل الله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه قال " ذكر لنا أن رجلين اقتتلا ، أحدهما من جهينة والآخر من غفار ، وكانت جهينة حلفاء الأنصار ،

فظهر الغفاري على الجهني فقال عبد الله بن أبي للأوس : انصروا أخاكم ، والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك .

والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسل إليه فسأله فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ قال : نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول .

(246/343)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عروة " أن رجلاً من الأنصار يقال له الجلاس بن سويد قال ليلة في غزوة تبوك " والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير . فسمعه غلام يقال له عمير بن سعد وكان ربيبه فقال له : أي عم ، تب إلى الله . وجاء الغلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم إليه فجعل يحلف ويقول : والله ما قلت يا رسول الله . فقال الغلام : بلى ، والله لقد قلته فتب إلى الله ، ولولا أن ينزل القرآن فيجعلني معك ما قلته ، فجاء الوحي إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فسكتوا فلا يتحركون إذا نزل الوحي ، فرفع عن النبي فقال ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ إلى قوله ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ فقال : قد قلته وقد عرض الله عليّ التوبة فأنا أتوب ، فقبل ذلك منه ، وقتل له قتيل في الإِسلام فوداه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاه ديته فاستغنى بذلك وكان همَّ أن يلحق بالمشركين ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للغلام : وعت أذنك " " .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن سيرين رضي الله عنه قال : " لما نزل القرآن أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بأذن عمير فقال " وعت أذنك يا غلام وصدقك ربك " " .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن سيرين رضي الله عنه قال : " قال رجل من المنافقين : لئن كان محمد صادقاً فيما يقول لنحن شر من الحمير . فقال له زيد بن أرقم رضي الله عنهما : إن محمداً صادق ولأنت شر من الحمار . فكان فيما بينهما في ذلك كلام ، فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأتاه الآخر فحلف بالله ما قال ، فنزلت ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن أرقم " وعت أذناك " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في الآية قال :

قال أحدهم : إن كان ما يقول محمد حقاً لنحن شر من الحمير .

فقال رجل من المؤمنين : فوالله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت شر من الحمار . فهمَّ بقتله المنافق ، فذلك همهم بما لم ينالوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه في قوله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ قال " هم الذين أرادوا أن يدفعوا النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، وكانوا قد أجمعوا أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم معه في بعض أسفاره ، فجعلوا يلتمسون غرته حتى أخذ في عقبة ، فتقدم بعضهم وتأخر بعضهم وذلك ليلاً قالوا : إذا أخذ في العقبة دفعناه عن راحلته في الوادي ، فسمع حذيفة رضي الله عنه وهو يسوق النبي صلى الله عليه وسلم وكان قائده تلك الليلة عمار ، وسائقه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، فسمع حذيفة وقع اخفاف الابل ، فالتفت فإذا هو بقوم متلثمين : فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله فأمسكوا . ومضى النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل منزله الذي أراد ، فلما أصبح أرسل إليهم كلهم فقال : أردتم كذا وكذا ؟ فحلفوا بالله ما قالوا ولا أرادوا الذي سألهم عنه ، فذلك قوله ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في

قوله ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال : همَّ رجل يقال له الأسود بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(248/343)

وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة رضي الله عنه قال " رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق مَكَرَ برسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه فتآمروا أن يطرحوه من عقبة في الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم فقال : من شاء منكم أن يأخذ بطن الوادي فإنه أوسع لكم ، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ، وأخذ الناس ببطن الوادي إلا النفر الذين مكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم لما سمعوا ذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان رضي الله عنه وعمار بن ياسر رضي الله عنه فمشيا معه شيئاً ، فأمر عمار أن يأخذ بزمام الناقة ، وأمر حذيفة بسوقها .

(249/343)

فبينما هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد غشوه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة رضي الله عنه غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه محجن ، فاستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون لا يشعرون إنما ذلك فعل المسافر ، فرعبهم الله حين أبصروا حذيفة رضي الله عنه وظنوا أن مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعوا حتى خالطوا الناس وأقبل حذيفة رضي الله عنه حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أدركه قال : اضرب الراحلة يا حذيفة وامشِ أنت يا عمار ، فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة : هل عرفت يا حذيفة من هؤلاء الرهط أحداً ؟ قال حذيفة : عرفت راحلة فلان وفلان ، وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل علمتم ما كان شأنهم وما أرادوا ؟ قالوا : لا والله يا رسول الله . . . ! قال : فإنهم مكروا ليسيروا معي حتى إذا طلعت في العقبة طرحوني منها . قالوا : أفلا تأمر بهم يا رسول الله فنضرب أعناقهم ؟ قال : أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمد وضع يده في أصحابه فسماهم لهما ، وقال : اكتماهم " .

وأخرج البيهقي في الدلائل عن ابن إسحق نحوه وزاد بعد قوله لحذيفة " هل عرفت من القوم أحدا " فقال : لا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله قد أخبرني بأسمائهم وأسماء آبائهم وسأخبرك بهم إن شاء الله عند وجه الصبح ، فلما أصبح سماهم له : عبد الله بن أبي سعد ، وسعد بن أبي سرح ، وأبا حاصر الأعرابي ، وعامراً ، وأبا عامر ، والجلاس بن سويد بن صامت ، ومجمع بن حارثة ، ومليحاً التيمي ، وحصين بن نمير ، وطعمة بن أبيرق ، وعبد الله بن عيينة ، ومرة بن ربيع . فهم اثنا عشر رجلاً حاربوا الله ورسوله وأرادوا قتله ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، وذلك قوله عز وجل ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ وكان أبو عامر رأسهم ، وله بنوا مسجد الضرار وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة " .

وأخرج ابن سعد عن نافع بن جبير بن مطعم قال : لم يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأسماء المنافقين الذين تحسوه ليلة العقبة بتبوك غير حذيفة رضي الله عنه ، وهم اثنا عشر رجلاً ليس فيهم قرشي ، وكلهم من الأنصار ومن حلفائهم .

وأخرج البيهقي في الدلائل " عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : كنت آخذاً بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به وعمار يسوقه أو أنا أسوقه وعمار يقوده ، حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكباً قد اعترضوا فيها قال : فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين ، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم " هل عرفتم القوم ؟ قلنا لا يا رسول الله كانوا متلثمين ولكنا قد عرفنا الركاب . قال : هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة . هل تدرون ما أرادوا ؟ قلنا : لا . قال : أرادوا أن يزحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة فيلقوه منها . قلنا يا رسول الله ، ألا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم ؟ قال : لا ، إني أكره أن تحدث العرب بينها : أن محمداً قاتل بقوم حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم ، ثم قال : اللهمَّ ارمهم بالدبيلة . قلنا يا رسول الله ، وما الدبيلة ؟ قال : شهاب من نار يوضع على نياط قلب أحدهم فيهلك " " .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال : أرادوا أن يتوّجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض محمد صلى الله عليه وسلم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي صالح ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ قال : هموا أن يتوجوا عبد الله بن أبي بتاج .

وأخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عكرمة رضي الله عنه . أن مولى لبني عدي بن كعب قتل رجلاً من الأنصار ، فقضى النبي صلى الله عليه وسلم بالدية اثني عشر ألفاً ، وفيه نزلت ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ .

(252/343)

وأخرج ابن ماجة وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قتل رجل على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فجعل ديته اثني عشر ألفاً ، وذلك قوله ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ قال : بأخذهم الدية .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ قال : كانت له دية قد غلب عليها فأخرجها له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عروة قال : كان جلاس يحمل حمالة أو كان عليه دين فأدى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فذلك قوله ﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من

فضله ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : ثم دعاهم إلى التوبة فقال ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ﴾ فاما عذاب الدنيا فالقتل ، وأما عذاب الآخرة فالنار .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ان قوماً قد هموا بهم سوءاً وأرادوا أمراً فليقوموا فليستغفروا فلم يقم أحد ثلاث مرار ، فقال : قم يا فلان قم يا فلان . فقالوا : نستغفر الله تعالى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لانا دعوتكم إلى التوبة والله أسرع إليكم بها وأنا أطيب لكم نفساً بالاستغفار أخرجوا " .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : قال لي ابن عباس رضي الله عنهما : احفظ عني كل شيء في القرآن ﴿ وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ فهي للمشركين ، فأما المؤمنون فما أكثر شفعاءهم وأنصارهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(253/343)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ ﴾ : فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ به ، أي : وما كَرِهوا وعابُوا إلا إغناءَ الله إياهم ، وهو من بابِ قولِهم : ما لي عندك ذنبٌ إلا أَنْ أَحْسَنْت إليك ، أي : إن كان ثَمَّ ذنبٌ فهو هذا ، فهو تهكمٌ بهم ، كقوله :

2517 ولا عيبَ فينا غيرُ عِرْقٍ لمعشرٍ . . . كرامٍ وأَنَّا لا نَخُطُّ على النمل

وقول الآخر :

2518 ما نِقموا من بني أميةَ إلا . . . أنهمْ يَحْلُمون إنْ غَضِبوا

وأنهم سادةُ الملوكِ ولا . . . يَصْلحُ إلا عليهم العَرَبُ

والثاني : أنه مفعولٌ من أجله ، وعلى هذا فالمفعول به محذوف تقديره : وما نقموا منهم الإيمان إلا لأجلِ إغناء الله إياهم . وقد تقدَّم الكلامُ على نَقِم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 87 ﴾

(254/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ ﴾ .

تَسَتَّروا بأَيْمانِهم فَهَتَكَ اللهُ أَستارهم وكشف أسرارهم .

قوله : ﴿ وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ ﴾ : وهي طَعْنُهُم في نُبوَّةِ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وكلُّ مَنْ وَصَفَ المعبودَ بصفاتِ الخَلْق أو أضاف إلى الخَلْق ما هو من خصائص نعت الحقّ فقد قال كلمة الكفر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ .

أي أظهروا من شعار الكفر ما دَلَّ على جُحْدِهم بقلوبهم بعد ما كانوا يُظْهِرون الموافقة والاستسلامَ ، وهمُّوا بما لم ينالوا من قتلٍ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما سوَّلَت أنفسهم أنه يُخرِجِ الأَعَزُّ منها الأذلَّ ، وغير ذلك .

يقال تمنوا زوالَ دولةِ الإسلام فأبى اللهُ إلا إعلاء أمْرِها .

ثم قال : ﴿ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ ﴾ : أي ما عابوه إلا بما هو أَجَلّ خصاله ، فلم يحصلوا من ذلك إلا على ظهور شأنهم للكافة بما لا عذر لهم فيه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى الدُّنْيَا

وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ .

وأقوى أركان التوبة حلُّ عقْدة الإصرار عن القلب ، ثم القيام بجميع حقِّ الأمر على وجه الاستقصاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 47 ﴾

(255/343)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها «1» لا يتجاوزها إلى غيرها ، كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم . ونحوه قولك . إنما الخلافة لقريش . تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن تصرف إلى بعضها ، وعليه مذهب أبى حنيفة رضى اللّه عنه . وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما من الصحابة والتابعين رضى اللّه عنهم أنهم قالوا : في أى صنف منها وضعتها أجزأك . وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : لو نظرت إلى أهل بيت من

المسلمين فقراء متعففين فأبرتهم بها

---

(1) . قال محمود : «هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المعدودة وأنها مختصة بها الخ» قال أحمد : وهو مذهب مالك رضى اللّه عنه ، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذا من إشعار اللام بالتمليك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فان الآية مصدرة بكلمة الحصر الدالة على أن غيرهم لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذي سبقت له فلا اقتضاء فيها لما سواء واللّه أعلم .

(256/343)

كان أحب إلىّ . وعند الشافعىّ رضى اللّه عنه ، لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية . وعن عكرمة رضى اللّه عنه . أنها تفرّق في الأصناف الثمانية . وعن الزهري أنه كتب لعمر ابن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية وَالْعامِلِينَ عَلَيْها السعاة الذين يقبضونها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ أشراف من العرب كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة . والرقاب : المكاتبون يعانون منها . وقيل :

الأسارى . وقيل : تبتاع الرقاب فتعتق وَالْغارِمِينَ الذين ركبتهم الديون ولا يملكون بعدها ما

يبلغ النصاب . وقيل الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم وَابْنِ السَّبِيلِ المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غنىّ حيث ماله فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ في معنى المصدر المؤكد ، لأنّ قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض اللّه الصدقات لهم . وقرئ فريضة بالرفع على : تلك فريضة . فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى «في» في الأربعة الأخيرة «1» ؟ قلت : للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصدق عليهم ممن سبق ذكره ، لأنّ «في» للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير «في» في قوله وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين . فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دل بكون هذه الأصناف مصارف

---

(1) . عاد كلامه . قال : فان قلت لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة . . . الخ» قال أحمد : وثم سر آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكا ، فكان دخول اللام لائقا بهم . وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم . ولكن في مصالح تتعلق بهم ، فالمال

الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم . وأما سبيل اللّه فواضح فيه ذلك . وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل اللّه ، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب واللّه أعلم . وكان جدي أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير استنبط من تغاير الحرفين المذكورين وجها في الاستدلال لما لك على أن الغرض بيان المصرف ، واللام لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجار الواقع خبرا عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره ، فاما أن يكون التقدير : إنما الصدقات مصروفة لفقراء ، كقول مالك : أو مملوكة للفقراء ، كقول الشافعي ، لكن الأول متعين ، لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي معا ، فيصح أن تقول : هذا الشيء مصروف في كذا وكذا ، بخلاف تقديره مملوكة ، فانه إنما يلتئم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى «في» يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتئم بها ، فتقديره من اللام عام التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، واللّه الموفق . [. . . . .]

(257/343)

الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسما لأطماعهم وإشعاراً باستيجابهم الحرمان ، وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فما لهم وما لها ؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاسمها صلوات اللّه عليه وسلامه ؟ .

[سورة التوبة (9) : آية 61]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61)

الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع «1» ويقبل قول كل أحد ، سمى بالجارحة التي هي آلة السماع ، كأنّ جملته أذنٌ سامعة ، ونظيره قولهم للربيئة «2» . عين . وإيذاؤهم له : هو قولهم فيه هُوَ أُذُنٌ . وأذن خير ، كقولك : رجل صدق ، تريد الجودة والصلاح . كأنه قيل : نعم هو أذن ولكن نعم الأذن . ويجوز أن يريد : هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه وقبوله ، وليس بأذن في غير ذلك ودلّ عليه قراءة حمزة وَرَحْمَةٌ بالجرّ عطفاً عليه أى : هو أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق باللّه ، لما قام عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخلص من المهاجرين والأنصار ، وهو رحمة لمن آمن منكم ، أى أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين ، مراعاة لما رأى اللّه من المصلحة

في الإبقاء عليكم ، فهو أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء فسلم لهم قولهم فيه ، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمّة والتقصير بفطنته وشهامته ، وأنه من أهل سلامة القلوب والغرّة .

وقيل : إنّ جماعة منهم ذمّوه صلوات اللّه عليه وسلامه وبلغه ذلك ، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم :

لا عليكم ، فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن ، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا أيضاً فيرضى ، فقيل : هو أذن خير لكم . وقرئ : أذن خير لكم ، على أن أذن خبر مبتدإ محذوف ، وخير كذلك ، أى هو أذن هو خير لكم يعنى إن كان كما تقولون فهو خير لكم ، لأنه يقبل

---

(1) . قال محمود : «الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع . . . سمى الرجل بالجارحة التي هي آلة السماع . . .

الخ» قال أحمد : لا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه في الأول إطماع لهم بالموافقة ، ثم كر على طمعهم بالحسم واعقبهم في تنقصه باليأس منه ، ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء : القول بالموجب ، لأن في أوله إطماعا للحصم بالتسليم ، ثم بتا الطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الاطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «الربيئة» في الصحاح : الربيئة الطليعة . (ع)

معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم «1» . وقرأ نافع بتخفيف الذال . فإن قلت : لم عدّى فعل الإيمان بالباء إلى اللّه تعالى ، وإلى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق باللّه الذي هو نقيض الكفر به ، فعدّى بالباء وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدّقه ، لكونهم صادقين عنده ، فعدّى باللام ألا ترى إلى قوله وَما أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنا وَلَوْ كُنَّا صادِقِينَ ما أنبأه «2» عن الباء . ونحوه : فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ، آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ . فإن قلت : ما وجه قراءة ابن أبى عبلة : ورحمة بالنصب ؟ قلت : هي علة معللها محذوف تقديره : ورحمة لكم يأذن لكم ، فحذف لأنّ قوله أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يدل عليه .

[سورة التوبة (9) : آية 62]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62)

لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم اللّه ورسوله بالطاعة والوفاق . وإنما

وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا اللّه ورضا رسوله صلى اللّه عليه وسلم ، فكانا في حكم مرضىّ واحد ، كقولك : إحسان زيد وإجماله نعشني وجبر مني . أو واللّه أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك .

[سورة التوبة (9) : آية 63]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

المحادّة مفاعلة من الحدّ كالمشاقة من الشقّ فَأَنَّ لَهُ على حذف الخبر ، أى . فحق أن له نارَ جَهَنَّمَ وقيل . معناه فله ، وأنّ : تكرير ، لأن في قوله أَنَّهُ تأكيداً ، ويجوز أن يكون فَأَنَّ لَهُ معطوفا على أنه ، على أن جواب مَنْ محذوف تقديره : ألم يعلموا أنه من يحادد اللّه ورسوله يهلك فأن له نار جهنم . وقرئ : ألم تعلموا بالتاء

---

(1) . قوله «على سوء دخلتكم» أى مذمتكم . وفي الصحاح أن دخلة الرجل بالضم : باطن أمره اه ، ولعلها غلبت في المذمة . (ع)

(2) . قوله «ما أنباه عن الباء ونحوه» أى : ما أبعده . (ع)

[سورة التوبة (9) : آية 64]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64)

كانوا يستهزؤن بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم اللّه بالوحي فيهم ، حتى قال بعضهم : واللّه لا أرانا إلا شر خلق اللّه ، لوددت أنى قدمت فجلدت مائة جلدة ، وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا . والضمير في عليهم وتنبئهم للمؤمنين . وفي قلوبهم : للمنافقين . وصحّ ذلك لأن المعنى يقود إليه . ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين ، لأن السورة إذا نزلت في معناهم فهي نازلة عليهم . ومعنى تنبئهم بما في قلوبهم ، كأنها تقول لهم : في قلوبكم كيت وكيت ، يعنى أنها تذيع أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها . وقيل : معنى يحذر :

الأمر بالحذر ، أى ليحذر المنافقون . فإن قلت : الحذر واقع على إنزال السورة في قوله : يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ فما معنى قوله مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ ؟ قلت : معناه محصل مبرز إنزال السورة . أو أنّ اللّه مظهر ما كنتم تحذرونه ، أى تحذرون إظهاره من نفاقكم .

[سورة التوبة (9) : الآيات 65 إلى 66]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65) لا

تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (66)

بينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسيرون بين يديه فقالوا : انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتتح قصور الشام وحصونه ، هيهات هيهات ، فأطلع اللّه نبيه عليه السلام على ذلك فقال : احبسوا عليّ الركب ، فأتاهم فقال : قلتم كذا وكذا ، فقالوا :

يا نبى اللّه لا واللّه ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك ، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر « 1 » أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ لم يعبأ باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه ، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم ، وبأنه موجود منهم ، حتى وبخوا بأخطائهم موقع الاستهزاء ، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير ، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته لا تَعْتَذِرُوا لا تشتغلوا باعتذاراتكم الكاذبة ، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم قَدْ كَفَرْتُمْ قد ظهر كفركم باستهزائكم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ بعد إظهاركم الإيمان إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ بإحداثهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ

---

(1) . ذكره الواحدي عن قتادة بغير سند ، ووصله الطبري .

مصرين على النفاق غير تائبين منه . أو إن نعف عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولم يستهزءوا فلم نعذبهم في العاجل ، نعذب في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذين لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مستهزئين . وقرأ مجاهد : إن تعف عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيث ، والوجه التذكير ، لأن المسند إليه الظرف ، كما تقول : سير بالدابة ، ولا تقول : سيرت بالدابة ، ولكنه ذهب إلى المعنى ، كأنه قيل : إن ترحم طائفة «فأنث لذلك وهو غريب ، والجيد قراءة العامّة : إن يعف عن طائفة ، بالتذكير . وتعذب طائفة ، بالتأنيث . وقرئ : إن يعف عن طائفة يعذب طائفة ، على البناء للفاعل وهو اللّه عزّ وجل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 67 إلى 68]

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68)

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ أريد به نفى أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ

لَمِنْكُمْ وتقرير قوله وَما هُمْ مِنْكُمْ ثم وصفهم بما يدل على مضادّة حالهم لحال المؤمنين يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ بالكفر والمعاصي وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ عن الإيمان والطاعات وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ شحا بالمبارّ والصدقات والإنفاق في سبيل اللّه نَسُوا اللَّهَ أغفلوا ذكره فَنَسِيَهُمْ فتركهم من رحمته وفضله هُمُ الْفاسِقُونَ هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف اللّه به المنافقين حين بالغ في ذمهم، وإذا كره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم للمسلم أن يقول كسلت «1»، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله كُسالى

فما ظنك بالفسق خالِدِينَ فِيها مقدّرين الخلود هِيَ حَسْبُهُمْ دلالة على عظم عذابها، وأنه لا شيء أبلغ منه، وأنه بحيث لا يزاد عليه، نعوذ باللّه منسخطه وعذابه وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وأهانهم من التعذيب، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشياطين الملاعين، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة «2» المكرمين وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ ولهم نوع من العذاب سوى الصلى بالنار، مقيم دائم كعذاب النار. ويجوز أن يريد:

---

(1). تقدم في أواخر البقرة.

(2). قوله «وألحقهم بالملائكة» مبنى على مذهب المعتزلة، من تفضيل الملك على البشر. (ع)

ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن ، خوفا من المسلمين وما يحذرونه أبدأ من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم .

[سورة التوبة (9) : آية 69]

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69)

الكاف محلها رفع على : أنتم مثل الذين من قبلكم . أو نصب على : فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا . ونحوه قول النمر :

كَالْيَوْمِ مَطْلُوباً وَلَا طَلَبَا «1»

بإضمار «لم أر» وقوله كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً تفسير لتشبيههم بهم ، وتمثيل فعلهم بفعلهم .

والخلاق : النصيب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدّر من خير ، كما قيل له «قسم» لأنه قسم .

ونصيب ، لأنه نصب ، أى أثبت . والخوض : الدخول في الباطل واللهو كَالَّذِي خاضُوا كالفوج الذي خاضوا ، وكالخوض الذي خاضوه . فإن قلت : أى فائدة في قوله فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ وقوله كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ مغن عنه كما أغنى قوله كَالَّذِي خاضُوا عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذي خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأوّلين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائهم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخسس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلمة على سماجة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله . وأما وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن

---

(1) حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلباً

لأوس بن حجر . وقيل : للنمر بن تولب ، وفيه حذف لا يستقيم إلا به ، أى قال لها : لم أنظر كاليوم مطلوباً ، والضمير لكلبة الصيد . والكلاب : معلم الكلاب أو الصياد بها ، أى ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلهما في غيره بل أعظم ، ولعل المراد بالطلب الطالب ، ثم يحتمل أن هذا مقول القول ، ويحتمل أنه جواب إذا ومقول القول محذوف ، إشارة إلى سرعتها : أى قال لها : اذهبي مثلا .

باستناده إليه عن تلك التقدمة حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ نقيض قوله وَآتَيْناهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

[سورة التوبة (9) : آية 70]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وأهل مدين وهم قوم شعيب وَالْمُؤْتَفِكاتِ مدائن قوم لوط. وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح، وائتفاكهنّ: انقلاب أحوالهنّ عن الخير إلى الشر فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ فما صحّ منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم، ولكن ظلموا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 71 إلى 72]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ

طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ في مقابلة قوله في المنافقين بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ . سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ السين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهي تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد في قولك : سأنتقم منك يوماً ، تعنى أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك ، ونحوه سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا ، وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى ، سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ . عَزِيزٌ غالب على كل شيء قادر عليه ، فهو يقدر على الثواب والعقاب حَكِيمٌ واضع كلا موضعه على حسب الاستحقاق وَمَساكِنَ طَيِّبَةً عن الحسن قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزبرجد . وعَدْنٍ علم ، بدليل قوله جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمنُ ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضى اللّه عنه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «عدن دار اللّه التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصدّيقون ، والشهداء . يقول اللّه تعالى : طوبى لمن دخلك» «1» وقيل : هي مدينة

---

(1) . أخرجه البزار من طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عنه ، وقال : لا نعلمه إلا من هذا الوجه وزيادة لا يعلم وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبراني والدارقطني في المؤتلف وابن مردويه من هذا الوجه .

في الجنة . وقيل : نهر جناته على حافاته وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ وشيء من رضوان اللّه أكبر من ذلك كله ، لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة ، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته ، والكرامة أكبر أصناف الثواب ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم ، وإنما تتهنأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت . وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المرّة «1» من مشايخنا يقول : لا تطمح عينى ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد اللّه في دار الكرامة ، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عنى ، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده ذِلكَ إشارة إلى ما وعد اللّه ، أو إلى الرضوان :

أى هو الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وحده دون ما يعدّه الناس فوزاً . وروى «أن اللّه عز وجلّ يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول :

أنا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : وأى شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أُدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا» «2»

[سورة التوبة (9) : آية 73]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

جاهِدِ الْكُفَّارَ بالسيف وَالْمُنافِقِينَ بالحجة «3» وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ في الجهادين جميعاً ، ولا تحابهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه ، يجاهد بالحجة ، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها . عن ابن مسعود : إن لم يستطع بيده فبلسانه ، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه «4» فإن لم يستطع فبقلبه «5» . يريد الكراهة والبغضاء والتبرأ منه . وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

[سورة التوبة (9) : آية 74]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74)

---

(1) . قوله «و النفس المرة» أى القوية الشديدة العقل ، من المرة بالكسر ، وهي القوة وشدة العقل ، كما في الصحاح . (ع)

(2) . متفق عليه من حديث أبى سعيد .

(3) . قال محمود : «معناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة . . . الخ» قال أحمد : والحمد للّه الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظنا عليه أحيانا ، واللّه الموفق .

(4) . قوله «فليكفهر في وجهه» في الصحاح «اكفهر الرجل» إذا عبس . (ع)

(5) . أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمرو بن أبى جندب عنه . [. . . . .]

(264/343)

أقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم ، منهم الجلاس بن سويد . فقال الجلاس : واللّه لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا ، فنحن شر من الحمير . فقال عامر بن قيس الأنصارى للجلاس : أجل ، واللّه إنّ محمداً لصادق وأنت شرّ من الحمار . وبلغ ذلك رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فاستحضر فحلف باللّه ما قال : فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق «1» فنزلت يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا فقال الجلاس :

يا رسول اللّه ، لقد عرض اللّه علىّ التوبة . واللّه لقد قلته وصدق عامر ، فتاب الجلاس وحسنت «2» توبته وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وهو الفتك برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وذلك عند مرجعه من تبوك : تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل ،

فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء اللّه «3» ، فهربوا . وقيل :

---

(1) . قوله «تصديق الكاذب وتكذيب الصادق» لعله تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . ويمكن أنه جعل نفسه كاذبا ، والجلاس صادقا ، لأنه مقتضى ظاهر الحلف .

(ع)

(2) . أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب . وروى ابن سعد وعبد الرزاق والطبري من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد . فقال الجلاس بن سويد في غزوة تبوك إن كان ما يقول محمد حقا فنحن شر من الحمير . فقال له عامر بن قيس الأنصارى ، وهو ابن عمه - فذكره . وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي ليس فيه كانت أم عمير إلى آخره ، بل أوله في قصة تبوك إلى أن قال :

وقال الجلاس حين سمع ما أنزل اللّه في المنافقين .

(3) . أخرجه أحمد من حديث أبى الطفيل قال «لما قفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من غزوة تبوك أمر مناديا ينادى لا يأخذن العقبة أحد ، فان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يسير وحده ، فكان النبي صلى اللّه عليه وسلم يسير وحذيفة رضى اللّه عنه يقود به

، وعمار رضى اللّه عنه يسوق به . فأقبل رهط متلثمين على الرواحل حتى غشوا النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل . فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم لحذيفة : قد قد – فلحقه عمار فقال : سق سق حتى أناخ . فقال لعمار : هل تعرف القوم فقال : لا ، كانوا متلثمين . وقد عرفت علمة الرواحل . فقال : أتدري ما أرادوا برسول اللّه ؟ قلت : اللّه ورسوله أعلم . فقال : أرادوا أن يمكروا برسول اللّه فطرحوه من العقبة . فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار رضى اللّه عنه وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس .

فقال : أنشدكم اللّه ، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . فقال : ترى أنهم أربعة عشر ، فان كنت فيهم فهم خمسة عشر» ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبزار وقال روى من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسنادا . ورواه ابن إسحاق في المغازي ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبى البختري عن حذيفة بن اليمان . قال : كنت آخذا بخطام ناقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أقود به . وعمار رضى اللّه عنه يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقبة وإذا اثنى عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال :

فانتهت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين .

همّ المنافقون بقتل عامر لردّه على الجلاس . وقيل : أرادوا أن يتوّجوا عبد اللّه بن أبىّ وإن لم يرض رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم وَمَا نَقَمُوا وما أنكروا وما عابوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بديته اثنى عشر ألفاً فاستغنى فَإِنْ يَتُوبُوا هي الآية التي تاب عندها الجلاس فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ بالقتل والنار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 292.282 ﴾

(266/343)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] الخ فيه إشارة إلى علو مقامه صلى الله عليه وسلم ورفعة شأنه على سائر الأحباب حيث آذنه بالعفو قبل العتاب ، ولو قال له : لم أذنت لهم عفى الله عنك لذاب ، وعبر سبحانه بالماضي

المشير إلى سبق الاصطفاء لئلا يوحشه عليه الصلاة والسلام الانتظار ويشتغل قلبه الشريف باستمطار العفو من سحاب ذلك الوعد المدرار ، وانظر كم بين عتابه جل شأنه لحبيبه عليه الصلاة والسلام على الأذن لأولئك المنافقين وبين رده تعالى على نوح عليه السلام قوله :

﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى ﴾ [هود : 45] بقوله سبحانه : ﴿ قَالَ يا نوح إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ إلى قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجاهلين ﴾ [هود : 46] ومن ذلك يعلم الفرق وهو لعمري غير خفي بين مقام الحبيب ورتبة الصفى ، وقد قيل : إن المحب يعتذر عن حبيبه ولا ينقصه عنده كلام معيبه ، وأنشد :

ما حطك الواشون عن رتبة . . .

كلا وما ضرك مغتاب

كأنهم أثنوا ولم يعلموا . . .

عليك عندي بالذي عابوا

وقال الآخر :

في وجهه شافع يمحو إساءته . . .

عن القلوب ويأتي بالمعاذير

وقال :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد . . .

جاءت محاسنه بألف شفيع

وقوله سبحانه : ﴿ لاَ يَسْتَأْذِنُكَ الذين يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 44] فيه إشارة إلى أن المؤمن إذا سمع بخبر خير طار إليه وأتاه ولو مشيا على رأسه ويديه ولا يفتح فيه فاه بالاستئذان ، وهل يستأذن في شرب الماء ظمآن ؟

وقال الواسطي : إن المؤمن الكامل مأذون في سائر أحواله إن قام قام بإذن وإن قعد قعد بإذن وإن لله سبحانه عباداً به يقومون وبه يقعدون ، ومن شأن المحبة امتثال أمر المحبوب كيفما كان :

لو قال تيها قف على جمر الغضى . . .

لوقفت ممتثلاً ولم أتوقف

(267/343)

﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 45] الخ أي إنما يستأذنك المنافقون رجاء أن لا تأذن لهم بالخروج فيستريحوا من نصب الجهاد ﴿ وَلَوْ أَرَادُواْ الخروج لاعَدُّواْ لَهُ عُدَّةً ﴾ فقد قيل :

لو صح منك الهوى أرشد للحيل . . .

ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم إشارة إلى خذلانهم لسوء استعدادهم ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بالكافرين ﴾ [التوبة : 49] لأن الأخلاق السيئة والأعمال القبيحة محيطة بهم وهي النار بعينها غاية الأمر انها ظهرت في هذه النشأة بصورة الأخلاق والأعمال وستظهر في النشأة الأخرى بالصورة الأخرى ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاة إِلاَّ وَهُمْ كسالى ﴾ [التوبة : 54] فيه إشارة إلى حرمانهم لذة طعم العبودية واحتجابهم عن مشاهدة جمال معبودهم وأنهم لم يعلموا أن المصلي يناجي ربه وأن الصلاة معراج العبد إلى مولاه ، ومن هنا قال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : " وجعلت قرة عيني في الصلاة " .

وقال محمد بن الفضل : من لم يعرف الآمر قام إلى الأمر على حد الكسل ومن عرف الآمر قام إلى الأمر على حد الاستغنام والاسترواح ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يقول لبلال : ارحنا يا بلال وقول تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ فيه تحذير للمؤمنين أن يستحسنوا ما مع أهل الدنيا من الأموال والزينة فيحتجبوا بذلك عن عمل الآخرة ورؤيتها ، وقد ذكروا أن الناظر إلى الدنيا بعين الاستحسان من حيث الشهوة والنفس والهوى يسقط في ساعته عن مشاهدة أسرار الملكوت وأنوار الجبروت ، وقوله سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَا ءاتاهم الله وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة : 59] الخ فيه إرشاد إلى آداب

الصادقين والعارفين والمريدين ، وعلامة الراضي النشاط بما استقبله من الله تعالى والتلذذ بالبلاء ، فكل ما فعل المحبوب محبوب .

(268/343)

رؤى أعمى أقطع مطروح على التراب يحمد الله تعالى ويشكره ، فقيل له في ذلك فقال :

وعزته وجلاله لو قطعني إرباً إرباً ما اذددت له إلا حباً ، ولله تعالى در من قال :

أنا راض بالذي ترضونه لكم المنة عفواً وانتقاماً . . .

ثم إنه سبحانه قسم جوائز فضله على ثمانية أصناف من عباده فقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا الصدقاتِ لِلْفُقَرَاء ﴾ الخ ، والفقراء في قول المتجردون بقلوبهم وأبدانهم عن الكونين ﴿ والمساكين ﴾ هم الذين سكنوا إلى جمال الانس ونور القدس حاضرين في العبودية بنفوسهم غائبين في أنوار الربوبية بقلوبهم فمن رآهم ظنهم بلا قلوب ولم يدر أنها تسرح في رياض جمال المحبوب ، وأنشد :

مساكين أهل العشق ضاعت قلوبهم . . .

فهم أنفس عاشوا بغير قلوب

﴿ والعاملين ﴾ هم أهل التمكين من العارفين وأهل الاستقامة من الموحدين الذين وقعوا

في نور البقاء فأورثهم البسط والانبساط ، فيأخذون منه سبحانه ويعطون له ، وهم خزان خزائن جودة المنفقون على أوليائه ، قلوبهم معلقة بالله سبحانه لا بغيره من العرش إلى الثرى ﴿ والمؤلفة قُلُوبُهُمْ ﴾ هم المريدون السالكون طريق محبته تعالى برقة قلوبهم وصفاء نياتهم وبذلوا مهجهم في سوق شوقه وهم عند الأقوياء ضعفاء الأحوال ﴿ وَفِي الرقاب ﴾ هم الذين رهنت قلوبهم بلذة محبة الله تعالى وبقيت نفوسهم في المجاهدة في طريقه سبحانه لم يبلغوا بالكلية إلى الشهود فتارة تراهم في لجج بحر الإرادة ، وأخرى في سواحل بحر القرب ، وطوراً هدف سهام القهر ، ومرة مشرق أنوار اللطف ولا يصلون إلى الحقيقة ما دام عليهم بقية من المجاهدة والمكاتب عبد ما بقي عليه درهم والأحرار ما وراء ذلك وقليل ما هم :

أتمنى على الزمان محالا . . .

ان ترى مقلتاي طلعة حر

(269/343)

﴿ والغارمين ﴾ هم الذين ما قضوا حقوق معارفهم في العبودية وما أدركوا في إيقانهم حقائق الربوبية ، والمعرفة غريم لا يقضي دينه ﴿ وَفِى سَبِيلِ الله ﴾ هم المحاربون نفوسهم بالمجاهدات والمرابطون بقلوبهم في شهود الغيب لكشف المشاهدات ﴿ وابن السبيل ﴾

هم السافرون بقلوبهم في بوادي الأزل وبأرواحهم في قفار الأبد وبعقولهم في طرق الآيان وبنفوسهم في طلب أهل الولايات ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ ﴾ على أهل الإيمان أن يعطوا هؤلاء الأصناف من مال الله سبحانه لدفع احتياجهم الطبيعي ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال هؤلاء وغيبتهم عن الدنيا

﴿ حيكم ﴾ [التوبة : 60] حيث أوجب لهم ما أوجب ، ومن الناس من فسر هذه الأصناف بغير ما ذكر ولا أرى التفاسير بأسرها متكفلة بالجمع والمنع ﴿ حَكِيمٌ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ﴾ عابوه عليه الصلاة والسلام وحاشاه من العيب بسلامة القلب وسرعة القبول والتصديق لما يسمع ، فصدقهم جل شأنه ورد عليهم بقوله سبحانه : ﴿ قُلْ ﴾ هو ﴿ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ أي هو كذلك لكن بالنسبة إلى الخير ، وهذا من غاية المدح فإن النفس القدسية الخيرية تتأثر بما يناسبها ، أي أنه عليه الصلاة والسلام يسمع ما ينفعكم وما فيه صلاحكم دون غيره ، ثم بين ذلك بقوله تعالى : ﴿ يُؤْمِنُ بالله ﴾ [التوبة : 61] الخ ، وقد غرهم قاتلهم الله تعالى حتى قالوا ما قالوا كرم النبي صلى الله عليه وسلم لم يشافههم برد ما يقولون رحمة منهم بهم ، وهو عليه الصلاة والسلام الرحمة الواسعة ، وعن بعضهم أنه سئل عن العاقل فقال : الفطن المتغافل وأنشد :

وإذا الكريم أتيته بخديعة . . .

فرأيته فيما تروم يسارع

فاعلم بأنك لم تخادع جاهلا . . .

إن الكريم لفضله متخادع

(270/343)

﴿ المنافقون والمنافقات بَعْضُهُمْ مّن بَعْضٍ ﴾ أي هم متشابهون في القبح والرداءة وسوء الاستعداد ﴿ يَأْمُرُونَ بالمنكر وَيَنْهَوْنَ عَنِ المعروف وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ أي يبخلون أو يبغضون المؤمنين فهو إشارة إلى معنى قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ الانامل مِنَ الغيظ ﴾ [آل عمران : 119] أو لا ينصرون المؤمنين أو لا يخشعون لربهم ويرفعون أيديهم في الدعوات ﴿ نَسُواْ الله ﴾ لاحتجابهم بما هم فيه ﴿ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : 67] من رحمته وفضله ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : 68] وهو عذاب الاحتجاب بالسوى ﴿ وَعَدَ الله المؤمنين والمؤمنات جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ هي جنات النفوس ﴿ ومساكن طَيّبَةً ﴾ مقامات أرباب التوكل في جناب الأفعال ﴿ ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ﴾ إشارة إلى جنات الصفات ﴿ ذلك ﴾ أي الرضوان ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 72] لكرامة أهله عند الله تعالى وشدة قربهم ولا بأس بإبقاء الكلام على ظاهره ويكون في قوله سبحانه : ﴿ ومساكن طَيّبَةً ﴾ إشارة إلى الرؤية فإن المحب لا تطيب له

الدار من غير رؤية محبوبه :

أجيراننا ما أوحش الدار بعدكم . . .

إذا غبتم عنها ونحن حضور

ولكون الرضوان هو المدار لكل خير وسعادة والمناط لكل شرف وسيادة كان أكبر من

ها تيك الجنات والمساكن .

إذا كنت عني يا منى القلب راضيا . . .

أرى كل من في الكون لي يتبسم

نسأل الله تعالى رضوانه وأن يسكننا جنانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ

﴾

(271/343)

قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ

(75) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أقام سبحانه الدليل على ما ذكر بهذه الآية التي ختمها بأنه أغناهم من فضله ، أتبها بإقامة الدليل عليها وعلى أنهم يقبضون أيديهم وعلى اجترائهم على اقبح الكذب فقال : ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ أي الذي لا أعظم منه ﴿ لئن آتانا ﴾ أي من خير ما عنده ، واعتراف بأنه لا حق لأحد عليه بقوله : ﴿ من فضله ﴾ أي بأي طريق كان من تجارة أو غنيمة أو زراعة أو غيرها ، وأكد لأنه كاذب يظن أن الناس يكذبونه ، وهكذا كل كاذب فقال : ﴿ لنصدقن ﴾ أي مما آتانا من غير رياء - بما يشير إليه الإدغام ﴿ ولنكونن ﴾ أي كوناً هو الدال على أنا مجبولون على الخير ﴿ من الصالحين ﴾ أي لكل خير نندب إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 363 ﴾

(272/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

اعلم أن هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ولا شك أنهم أقسام وأصناف ، فلهذا السبب يذكرهم على التفصيل فيقول : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبى ﴾ [التوبة : 61]

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ [التوبة : 58] ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّى ﴾ [التوبة : 49] ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : أن حاطب بن أبي بلتعة أبطأ عنه ماله بالشأم ، فلحقه شدة ، فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس الأنصار ، لئن آتانا من فضله لأصدقن ولأؤدين منه حق الله ، إلى آخر الآية ، والمشهور في سبب نزول هذه الآية أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً .

فقال عليه السلام : " يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه " فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنماً ، فنمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل وادياً بها ، فجعل يصلي الظهر والعصر ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة .

(273/343)

وطفق يتلقى الركبان يسأل عن الأخبار ، وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه ، فأخبر بخبره فقال : " يا ويح ثعلبة " فنزل قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ فبعث إليه رجلين وقال : " مرا بثعلبة فخذا صدقاته " فعند ذلك قال لهما : ما هذه إلا جزية أو أخت

الجزية ، فلم يدفع الصدقة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ فقيل له : قد أنزل فيك كذا وكذا ، فأتى الرسول عليه السلام وسأله أن يقبل صدقته ، فقال : إن الله منعني من قبول ذلك فجعل يحثي التراب على رأسه ، فقال عليه الصلاة والسلام : " قد قلت لك فما أطعتني " فرجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم أتى أبا بكر بصدقته ، فلم يقبلها اقتداء بالرسول عليه السلام ثم لم يقبلها عمر اقتداء بأبي بكر ، ثم لم يقبلها عثمان ، وهلك ثعلبة في خلافة عثمان .

فإن قيل : إن الله تعالى أمره بإخراج الصدقة ، فكيف يجوز من الرسول عليه السلام أن لا يقبلها منه ؟

قلنا : لا يبعد أن يقال : إنه تعالى منع الرسول عليه السلام عن قبول الصدقة منه على سبيل الإهانة له ليعتبر غيره به ، فلا يمتنع عن أداء الصدقات ، ولا يبعد أيضاً أنه إنما أتى بتلك الصدقة على وجه الرياء ، لا على وجه الإخلاص ؛ واعلم الله الرسول عليه السلام ذلك فلم يقبل تلك الصدقة ، لهذا السبب ، ويحتمل أيضاً أنه تعالى لما قال : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ وكان هذا المقصود غير حاصل في ثعلبة مع نفاقه ، فلهذا السبب امتنع رسول الله عليه السلام من أخذ تلك الصدقة ، والله أعلم .

المسألة الثانية :

ظاهر الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله في أنه لو آتاه مالاً لصرف بعضه إلى

مصارف الخيرات ، ثم إنه تعالى آتاه المال ، وذلك الإنسان ما وفى بذلك العهد ، وههنا سؤالات :

السؤال الأول : المنافق كافر ، والكافر كيف يمكنه أن يعاهد الله تعالى ؟

(274/343)

والجواب : المنافق قد يكون عارفاً بالله ، إلا أنه كان منكراً لنبوة محمد عليه السلام ، فلكونه عارفاً بالله يمكنه أن يعاهد الله ، ولكونه منكراً لنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ، كان كافراً .

وكيف لا أقول ذلك وأكثر هذا العالم مقرون بوجود الصانع القادر ؟ ويقل في أصناف الكفار من ينكره ، والكل معترفون بأنه تعالى هو الذي يفتح على الإنسان أبواب الخيرات ، ويعلمون أنه يمكن التقرب إليه بالطاعات وأعمال البر والإحسان إلى الخلق ، فهذه أمور متفق عليها بين الأكثرين ، وأيضاً فلعله حين عاهد الله تعالى بهذا العهد كان مسلماً ، ثم لما بخل بالمال ، ولم يف بالعهد صار منافقاً ، ولفظ الآية مشعر بما ذكرناه حيث قال : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ .

السؤال الثاني : هل من شرط هذه المعاهدة أن يحصل التلفظ بها باللسان ، أو لا حاجة إلى

التلفظ حتى لو نواه بقلبه دخل تحت هذه المعاهدة ؟

الجواب : منهم من قال : كل ما ذكره باللسان أو لم يذكره ، ولكن نواه بقلبه فهو داخل في هذا العهد .

يروى عن المعتمر بن سليمان قال : أصابتنا ريح شديدة في البحر ، فنذر قوم منا أنواعاً من النذور ، ونويت أنا شيئاً وما تكلمت به ، فلما قدمت البصرة سألت أبي ، فقال : يا بني ف به .

وقال أصحاب هذا القول إن قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ كان شيئاً نووه في أنفسهم ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وقال المحققون : هذه المعاهدة مقيدة بما إذا حصل التلفظ بها باللسان ، والدليل عليه قوله عليه السلام : " إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به نفوسها ولم يتلفظوا به " أو لفظ هذا معناه وأيضاً فقوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا الله مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إخبار عن تكلمه بهذا القول ، وظاهره مشعر بالقول باللسان .

(275/343)

السؤال الثالث : قوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ المراد منه إخراج مال ، ثم إن إخراج المال على قسمين قد يكون واجباً ، وقد يكون غير واجب .

والواجب قسمان : قسم وجب بإلزام الشرع ابتداء ، كإخراج الزكاة الواجبة ، وإخراج النفقات الواجبة ، وقسم لم يجب إلا إذا التزمه العبد من عند نفسه مثل النذور .

إذا عرفت هذه الأقسام الثلاثة ، فقوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ هل يتناول الأقسام الثلاثة ، أو ليس الأمر كذلك ؟

والجواب : قلنا أما الصدقات التي لا تكون واجبة ، فغير داخلة تحت هذه الآية ، والدليل عليه أنه تعالى وصفه بقوله : ﴿ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ والبخل في عرف الشرع عبارة عن منع الواجب ، وأيضاً أنه تعالى ذمهم بهذا الترك وتارك المندوب لا يستحق الذم .

وأما القسمان الباقيان ، فالذي يجب بإلزام الشرع داخل تحت الآية لا محالة ، وهو مثل الزكوات والمال الذي يحتاج إلى إنفاقه في طريق الحج والغزو ، والمال الذي يحتاج إليه في النفقات الواجبة .

بقي أن يقال : هل تدل هذه الآية على أن ذلك القائل ، كان قد التزم إخراج مال على سبيل النذر ؟ والأظهر أن اللفظ لا يدل عليه ، لأن المذكور في اللفظ ليس إلا قوله : ﴿ لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ وهذا لا يشعر بالنذر ، لأن الرجل قد يعاهد ربه في أن يقوم بما يلزمه من الإنفاقات الواجبة إن وسع الله عليه ، فدل هذا على أن الذي لزمهم إنما لزمهم بسبب

هذا الالتزام ، والزكاة لا تلزم بسبب هذا الالتزام ، وإنما تلزم بسبب ملك النصاب وحولان الحول .

(276/343)

قلنا : قوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ لا يوجب أنهم يفعلون ذلك على الفور ، لأن هذا إخبار عن إيقاع هذا الفعل في المستقبل ، وهذا القدر لا يوجب الفور ، فكأنهم قالوا : لنصدقن في وقت كما قالوا ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ أي في أوقات لزوم الصلاة ، فخرج من التقدير الذي ذكرناه أن الداخل تحت هذا العهد ، إخراج الأموال التي يجب إخراجها بمقتضى إلزام الشرع ابتداء ، ويتأكد ذلك بما روينا أن هذه الآية إنما نزلت في حق من امتنع من أداء الزكاة ، فكأنه تعالى بين من حال هؤلاء المنافقين أنهم كما ينافقون الرسول والمؤمنين ، فكذلك ينافقون ربهم فيما يعاهدونه عليه ، ولا يقومون بما يقولون والغرض منه المبالغة في وصفهم بالنفاق ، وأكثر هذه الفصول من كلام القاضي .

السؤال الرابع : ما المراد من الفضل في قوله : ﴿ لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ ﴾ .

والجواب : المراد إيتاء المال بأي طريق كان ، سواء كان بطريق التجارة ، أو بطريق الاستنتاج أو بغيرهما .

السؤال الخامس : كيف اشتقاق ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ .

الجواب : قال الزجاج : الأصل لنتصدقن .

ولكن التاء أدغمت في الصاد لقربها منها .

قال الليث : المصدق المعطي والمتصدق السائل .

قال الأصمعي والفراء : هذا خطأ فالمتصدق هو المعطي قال تعالى : ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ [يوسف : 88] السؤال السادس : ما المراد من قوله : ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

الجواب : الصالح ضد المفسد ، والمفسد عبارة عن الذي يخل بما يلزمه في التكليف فوجب أن يكون الصالح عبارة عما يقوم بما يلزمه في التكليف .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : كان ثعلبة قد عاهد الله تعالى لئن فتح الله عليه أبواب الخير ليصدقن وليجعن ، وأقول التقييد لا دليل عليه .

(277/343)

بل قوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إشارة إلى إخراج الزكاة الواجبة وقوله : ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ إشارة إلى إخراج كل مال يجب إخراجه على الإطلاق . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 112.110 ﴾

(278/343)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾

قال في رواية الكلبي : نزلت الآية في شأن حاطب بن أبي بلتعة ، كان له مال بالشام فجهد بذلك جهداً شديداً فحلف بالله ﴿ لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، يعني : المال الذي بالشام ، ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ منه ولأؤدين حق الله تعالى منه ، فلم يفعل لَمَّا أعطاه الله المال .

قال مقاتل : نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري كان محتاجاً ، فقال : ﴿ لَئِنْ ءاتانا الله مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فابتلاه الله فرزقه ذلك ، وذلك أن مولى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأً ، فدفع النبي صلى الله عليه وسلم ديته إلى عصبته وهو ثعلبة ، فبخل ومنع حق الله تعالى .

قال الفقيه : حدثنا أبو الفضل بن أبي حفص قال : حدثنا أبو جعفر الطحاوي قال : حدثنا

الربيع بن سليمان المرادي قال : حدثنا أسد بن موسى قال : حدثنا الوليد بن مسلم قال : حدثنا معاذ بن رفاعة ، عن عليّ بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ادع الله لي أن يرزقني مالاً .

فقال : " وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لا تُطِيقُهُ " .

قال : ثم رجع إليه فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال : " وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلِي ؟ وَاللهِ لَوْ سَأَلْتُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُسِيلَ عَلَيَّ الْجِبَالَ ذَهَباً وَفِضَّةً لَسَالَتْ " .

ثم رجع إليه فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، فوالله لئن آتاني الله مالاً لأؤدين لكل ذي حق حقه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللَّهُمَّ ارْزُقْ ثَعْلَبَةَ مَالاً " .

(279/343)

فاتَّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود ، حتى ضاقت بها أزقة المدينة فتنحى بها وكان يشهد الصلوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يخرج إليها ثم نمت حتى تعذرت عليها

مراعي المدينة فتنحى بها ، وكان يشهد الجمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يخرج إليها ثم نمت ، فترك الجمعة والجماعات وجعل يتلقى الركبان ويقول : ماذا عندكم من الخير ؟ وما كان من أمر الناس ؟ فأنزل الله تعالى على رسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 103] فاستعمل النبي صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقات : رجلاً من الأنصار ، ورجلاً من بني سليم ، وكتب لهما كتاب الصدقة ، وأمرهما أن يصدقا الناس ، وأن يمرا بثعلبة فيأخذا منه صدقة ماله .

فأتيا ثعلبة وطلبا منه ، فقال : صدّقا الناس ، فإذا فرغتما فمرا بي .

ففعلا ، فلما رجعا إليه وطلبا منه فأبى وقال : ما هذه إلا أخية الجزية .

فانطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين فَلَمَّا ءاتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ .

فركب رجل من الأنصار هو ابن عم لثعلبة راحلته حتى أتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة هلكت قد أنزل الله فيك من القرآن كذا وكذا : فأقبل ثعلبة بن حاطب وجعل على رأسه التراب وهو يبكي ويقول : يا رسول الله اقبض مني صدقة مالي .

فلم يقبض منه صدقة حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أتى إلى أبي بكر فلم يقبل منه صدقته ؛ ثم أتى إلى عمر فلم يقبل صدقته ؛ ثم أتى إلى عثمان فلم يقبل صدقته ومات في خلافة عثمان ، فذلك قوله : ﴿ فَلَمَّا ءاتَاهُمْ ﴾ يعني : لما أعطاهم ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ . يعني : من المال ﴿ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ بمنع حق الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(281/343)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله ﴾ الآية .

روى القاسم بن عبد الرحمن عن أبي أُمامة الباهلي قال : " جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويحك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه " ثم أتاه بعد ذلك . فقال : يا رسول الله أدع الله أن يرزقني مالا ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : " ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب : 21] ، والذي نفسي بيده لو أردت أن تصير الجبال معي ذهباً وفضة لصارت " ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كلّ ذي حق حقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم ارزق ثعلبة مالاً " . قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ، فنزل وادياً من أوديتها وهي تنمو كما تنمو الدود ، وكان يصلّي مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر ، ويصلّي في غنمه ساير الصلوات ، ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت ونمت فتباعد حتى كان لايشهد جمعة ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة يمر على الناس يسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأل ذات يوم فقال : مافعل ثعلبة ؟ قالوا يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً مايسعها واد .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا ويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة " وأنزل الله تعالى آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من بني سليم ورجل من جهينة وكتب لهما إتيان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مُرّا بثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما " .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وقرءا له كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أُخت الجزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ ، فانطلقا وسمع بهما السلمي فنظر إلى خيار أسنان ابله ، فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلمّا زادها قالا : ما هذا عليك ، قال : خذاه فإن نفسي بذلك طيبة ، فمرّا على الناس وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه ثم قال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه الا أُخت الجزية ، إذهبا حتى أرى رأيي ، قال : فأقبلا فلمّا رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتكلّما قال : " ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة ، ياويح ثعلبة " ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة ، فأنزل الله فيه ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ إلى قوله ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة فسمع قوله فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه الصدقة .

فقال : " إن الله تعالى منعني أن أقبل منك صدقتك " فجعل يحثي على رأسه التراب ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني " فلما نهى أن

يُقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم رجع إلى منزله وقُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبض ولم يقبل منه شيئاً "

(283/343)

ثم أتى أبا بكر رضي الله عنه حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم موضعي من الأنصار فاقبل صدقتي ، فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقبلها ؟ فلم يقبل ، وقُبض أبو بكر فلم يقبلها ، فلمّا ولي عمر رضي الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ، أنا لا أقبلها ، فقُبض عمر ولم يقبلها ، ثم ولي عثمان فأتاه فسأله أن يقبل صدقته فقال : لم يقبلها منك رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر ، أنا لا أقبلها منك ، فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان .

وقال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة : أتى ثعلبة مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله أتيت منه كل ذي حق حقه ، تصدّقت منه ، ووصلت القرابة ، فمات ابن عم له فورثه مالاً فلم يوف بما قال ، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

وقال مقاتل : مرّ ثعلبة على الأنصار وهو محتاج ، فقال : لئن آتاني الله من فضله لأصّدقن

ولأكونّ من الصالحين فآتاه الله من فضله وذلك أن مولى لعمر بن الخطاب قتل رجلاً من المنافقين خطأً فدفع النبي صلى الله عليه وسلم ديته إلى ثعلبة ، وكان قرابة المقتول فبخل ومنع حق الله فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

وقال الحسن ومجاهد : نزلت هذه الآية في ثعلبة بن حاطب ومعتب بن قشيو وهما رجلان من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا : والله لئن رزقنا الله لنصّدقنّ ، فلمّا رزقهما الله تعالى بخلا .

وقال الضحاك : نزلت في رجال من المنافقين [نبتل] بن الحرث وجدّ بن قيس وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير قالوا : لئن آتانا الله من فضله لنصّدقنّ ، فلمّا آتاهم الله من فضله وبسط لهم الدنيا بخلوا به ومنعوا الزكاة .

(284/343)

وقال الكلبي : نزلت في حاطب بن أبي بلتعة ، كان له مال بالشام فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله : لئن آتانا الله من فضله من رزقه يعني المال الذي بالشام لأصدّقن منه ولأصلنّ ولآتين حق الله منه ، فآتاه الله ذلك المال فلم يفعل ما قال ، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ يعني من المنافقين ﴿ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ ولنوفّينّ حق الله منه ﴿

وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ أي نعمل ما يعمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم والنفقة في الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(285/343)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ الآية والتي بعدها نزلت في ثعلبة ابن حاطب الأنصاري . وفي سبب نزولها قولان :

أحدهما : أنه كان له مال بالشام خاف هلاكه فنذر أن يتصدق منه ، فلما قدم عليه بخل به ، قاله الكلبي .

والثاني : أن مولى لعمر قتل رجلاً لثعلبة فوعد إن أوصل الله الدية إليه أخرج حق الله تعالى منها ، فلما وصلت إليه بخل بحق الله تعالى أن يخرجه ، قاله مقاتل .

وقيل إن ثعلبه لما بلغه ما نزل فيه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَنَعَنِي أَن أَقْبَلَ مِنكَ صَدَقَتَكَ " فجعل يحثي على رأسه التراب . وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : " أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، فقال : ويحك يا ثعلبة ، قليلٌ تؤدي شكرَهُ ، خير من كثير لا تطيقه قال : ثم قال مرة أخرى ، فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ؟ فوالذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة ، لسارت فقال : والذي بعثك بالحق ، لئن دعوتَ الله أن يرزقني مالاً ، لأُوتينّ كل ذي حق حقه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ غنماً ، فنمت ، فضاقت عليه المدينة ، فتنحَّى عنها ، ونزل وادياً من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، ويترك ما سواهما .

ثم نَمت ، حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، ثم نمت ، فترك الجمعة .

فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأُخبر خبره ، فقال : يا ويح ثعلبة ، يا ويح

ثعلبة ، يا ويح ثعلبة وأنزل الله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : 9] وأنزل فرائض الصدقة ؛ فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة ، وكتب لهما كتاباً يأخذان الصدقة ، وقال : مُرّا بثعلبة ، وبفلان رجل من بني سُليم ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة ، فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذا إلا جزية ، ما هذه إلا أُخت الجزية ، ما أدري ما هذا ، انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إليَّ ، فانطلقا .

فأُخبر السُلَميّ ، فاستقبلهما بخيار ماله ، فقالا : لا يجب هذا عليك ؛ فقال : خذاه ، فإن نفسي بذلك طيبة ؛ فأخذا منه .

(287/343)

فلما فرغا من صدقتهما ، مرّا بثعلبة ، فقال : أروني كتابكما ، فقال : ما هذه إلا أُخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلَقا ، فأخبرا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كان ، فنزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ بما كانوا يكذبون ﴾ ، وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فخرج إلى ثعلبة ، فأخبره ، فأتى رسولَ الله ، وسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك ؛ فجعل يحثو التراب

على رأسه .

فقال : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني .

فرجع إلى منزله ، وقُبض رسول الله ، ولم يقبل منه شيئاً " ، فلما ولي أبو بكر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى ، فلما ولي عمر ، سأله أن يقبل منه ، فأبى ، فلما ولي عثمان ، سأله أن يقبلها ؛ فقال : لم يقبلها رسول الله ، ولا أبو بكر ، ولا عمر ، فلم يقبلها .

وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه .

روى هذا الحديث القاسم عن أبي أمامة الباهلي .

وقال ابن عباس : مرّ ثعلبة على مجلس ، فأشهدهم على نفسه : لئن آتاني الله من فضله ، آتيت كل ذي حق حقه ، وفعلت كذا وكذا .

فآتاه الله من فضله ، فأخلف ما وعد ؛ فقص الله علينا شأنه .

والثاني : أن رجلاً من بني عمرو بن عوف ، كان له مال بالشام ، فأبطأ عنه ، فجُهد له جُهداً شديداً ، فحلف بالله لئن آتانا من فضله ، أي : من ذلك المال ، لأصَّدقَّن منه ، ولأصِلَنَّ ، فأتاه ذلك المال ، فلم يفعل ، فنزلت هذه الآية ، قاله ابن السائب عن أبي صالح عن ابن عباس .

قال ابن السائب : والرجل حاطب بن أبي بلتعة .

والثالث : أن ثعلبة ، ومُعتِّب بن قُشير ، خرجا على ملأٍ ، فقالا : والله لئن رزقنا الله

لنصَّدَّقنَّ .

فلما رزقهما ، بخلا به ، فنزلت هذه الآية ، قاله الحسن ، ومجاهد .

والرابع : أن نبتل بن الحارث ، وجَدّ بن قيس ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتِّب ابن قشير ، قالوا : لئن آتانا الله من فضله لنصدقن .

(288/343)

فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، فنزلت هذه الآية ، قاله الضحاك .

فأما التفسير : فقوله : ﴿ ومنهم ﴾ يعني : المنافقين ﴿ من عاهد الله ﴾ أي : قال عليَّ عهدُ الله ﴿ لنصّدَّقنَّ ﴾ الأصل : لنتصدقن ، فأدغمت التاء في الصاد لقربها منها .

﴿ ولنكوننَّ من الصالحين ﴾ أي : لنعملنَّ ما يعمل أهل الصلاح في أموالهم من صلة الرحم والإِنفاق في الخير .

وقد روى كَهْمَس عن معبد بن ثابت أنه قال : إنما هو شيء نوَوْه في أنفسهم ، ولم يتكلموا به ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرَّهم ونجواهم ﴾ ؟ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(289/343)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الآية .

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي أمامة الباهلي قال : " جاء ثعلبة بن حاطب الأنصاري إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه " ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أمالك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت " ثم أتاه بعد ذلك فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " اللهم ارزق ثعلبة مالاً " قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها وهي تنموا كما ينمو الدود فكان يصلي مع رسول الله صل الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه سائر الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً حتى صار لا يشهد جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم جمعة خرج فتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) ذات يوم فقال : " ما فعل ثعلبة " ؟ فقالوا : يا رسول الله اتخذ ثعلبة غنماً ما يسعها وادٍ .

(290/343)

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يا ويح ثعلبة يا ويح ثعلبة " فأنزل الله سبحانه وتعالى آية الصدقة ، فبعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجلاً من بني سليم ورجلاً من جهينة وكتب لهما أسنان الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما : " مرا على ثعلبة بن حاطب ورجل من بني سليم فخذا صدقاتهما " ، فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا وسمع بها السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا : ما هذه عليك .

قال : خذاها فإن نفسي بذلك طيبة فمرا على الناس وأخذا الصدقات ثم رجعا إلى ثعلبة فقال أروني كتابكما فقرأه ثم قال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية اذهبا حتى أرى رأيي .

قالا : فأقبلا فملا رآهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال قبل أن يتكلما : ويح ثعلبة

يا ويح ثعلبة ثم دعا للسلمي بخير فأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله سبحانه وتعالى فيه :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الآية إلى قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ وعند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رجل من أقارب ثعلبة فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة لقد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبي فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني " ، فلما أبى أن يقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأتى أبا بكر فقال : اقبل صدقتي . فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنا لا أقبلها .

(291/343)

فقبض أبو بكر ولم يقبلها منه فلما ولي عمر أتاه فقال : اقبل صدقتي فقال : لم يقبلها منك رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها منك فلم يقبلها .

ثم ولي عثمان فأتاه فلم يقبلها منه وهلك في خلافة عثمان " .

وأخرجه الطبري أيضاً بسنده .

قال بعض العلماء : إنما لم يقبل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صدقة ثعلبة ، لأن الله سبحانه وتعالى منعه من قبولها منه مجازاة له على إخلافه وما وعد الله عليه وإهانة له على قوله : إنما هي جزية أو أخت الجزية ، فلما صدر هذا القول منه ردت صدقته عليه إهانة له وليعتبر غيره فيه فلا يمتنع من بذل الصدقة عن طيب نفس بإخراجها ويرى أنها واجبة عليه وأنه يثاب على إخراجها ويعاقب على منعها .

وقال ابن عباس : إن ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله من فضله آتيت منه كل ذي حق حقه وتصدقت منه ووصلت القرابة فمات ابن عم له فورث منه مالاً فلم يف بما عاهد الله عليه فأنزل الله فيه هذه الآية .

وقال الحسن ومجاهد : نزلت في ثعلبة ومعتب بن قشير وهما من بني عمرو بن عوف خرجا على ملأ قعود فقالا لئن رزقنا الله من فضله لنصدقن فلما رزقهما الله بخلا به .

(292/343)

وقال ابن السائب : إن حاطب بن أبي بلتعة (1) كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله لئن آتاني الله من فضله يعني ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن فلما آتاه ذلك المال لم يف بما عاهد الله عليه فنزلت هذه الآية وحاصله أن ظاهر

الآية يدل على أن بعض المنافقين عاهد الله لئن آتاه من فضله ليصدقن وليفعلن فيه أفعال الخير والبر والصلة فلما آتاه الله من فضله ما سأل لم يف بما عاهد الله عليه ومعنى الآية ومن المنافقين من أعطى الله عهداً رزقنا من فضله بأن يوسع علينا في الرزق لنصدقن يعني لنتصدقن ولنخرجن من ذلك المال صدقته ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ يعني : ولنعملن في ذلك المال ما يعمله أهل الصلاح بأموالهم من صلة الأرحام والإنفاق في سبيل الله وجميع وجوه البر والخير وإخراج الزكاة وإيصالها إلى أهلها والصالح ضد المفسد والمفسد هو الذي يبخل بما يلزمه في حكم الشرع .

وقيل : إن المراد بقوله لنصدقن ، إخراج الزكاة الواجبة ، وقوله : ولنكونن من الصالحين إشارة إلى كل ما يفعله أهل الصلاح على الإطلاق من جميع أعمال البر والطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

---

(1) قوله إن حاطب إلخ لم يذكر البغوي هذا القول وأصاب فإن حاطبا مهاجري بدري وفضل آل بدر لا يخفى ا ه .

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

بيان لقبائح بعض آخر من المنافقين ، والآية نزلت في ثعلب بن حاطب ويقال له ابن أبي حاطب وهو من بني أمية بن زيد ، وليس هو البدري لأنه قد استشهد بأحد رضي الله تعالى عنه .

أخرج الطبراني .

والبيهقي في الدلائل .

وابن المنذر .

وغيرهم عن أبي أمامة الباهلي قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يرزقني مالاً .

فقال عليه الصلاة والسلام : ويحك يا ثعلبة أما تحب أن تكون مثلي فلو شئت أن يسير الله تعالى ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت .

قال : يا رسول الله ادع الله تعالى أن يرزقني مالاً فوالذي بعثك بالحق أن آتاني الله سبحانه مالاً لأعطين كل ذي حق حقهُ ، فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه .

قال : يا رسول الله ادع الله تعالى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم أرزقه مالاً

فاتخذ غنما فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى بها فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى وكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار فقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنه فأخبروه أنه اشترى غنماً وأن المدينة ضاقت به .

(294/343)

فقال عليه الصلاة والسلام : ويح ثعلبة بن حاطب ويح ثعلبة بن حاطب قم إن الله تعالى أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الصدقات وأنزل ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ [التوبة : 103] الآية فبعث رجلين رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سلمة بأخذان الصدقات وكتب لهما اسنان الإبل والغنم ويكف يأخذانها وأمرهما أن يمرا على ثعلبة ورجل من بني سليم فخرجا فمرا بثعلبة فسألاه الصدقة فقال : أرياني كتابكما ؟

فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية انطلقا حتى تفرغا ثم مرا بي فانطلقا وسمع بهما السليمي فاستقبلهما بخيار ابله فقالا : إنما عليك دون هذا فقال : ما كنت أتقرب إلى الله تعالى إلا بخير مالي فقبلا فلما فرغا مرا بثعلبة فقال : أرياني كتابكما ؟ فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي فانطلقا حتى قدما المدينة فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يكلمهما : ويح ثعلبة بن حاطب ودعا للسليمي بالبركة وأنزل الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ الآيات الثلاث فسمع بعض من أقاربه فأتاه فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك كذا وكذا فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي .

فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله قد منعني أن أقبل منك فجعل يبكي ويحثو التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر رضي الله تعالى عنه فقال : يا أبا بكر أقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار .

(295/343)

فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلها فلم يقبلها أبو بكر ، ثم ولى عمر رضي الله تعالى عنه فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل من صدقتي فقال : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر أقبلها أنا فأبى أن يقبلها ، ثم ولى عثمان رضي الله تعالى عنه فلم يقبلها منه وهلك في خلافته .

وفي بعض الروايات أن ثعلبة هذا كان قبل ذلك ملازماً لمسجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى لقب حمامة المسجد ثم رآه النبي صلى الله عليه وسلم يسرع الخروج منه عقيب الصلاة فقالا عليه الصلاة والسلام له : مالك تعمل عمل المنافقين ؟ فقال : إني افتقرت ولي ولامرأتي ثوب واحد أجيء به للصلاة ثم أذهب فأنزعه لتلبسه وتصلي به فادع الله تعالى أن يوسع على رزقي إلى آخر ما في الخبر .

والظاهر أن منع الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام عن القبول منه كان بوحي منه تعالى له بأنه منافق والصدقة لا تؤخذ منهم وان لم يقتلوا لعدم الإظهار ، وحثوه للتراب ليس للتوبة من نفاقه بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين .

ومعنى هذا عملك هذا جزاء عملك وما قلته ، وقيل : المراد بعمله طلبه زيادة رزقه وهذا إشارة إلى المنع أي هو عاقبة عملك ، وقيل : المراد بالعمل عدم إعطائه للمصدقين .

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ثعلبة أتى مجلساً من مجالس الأنصار فأشهدهم لئن آتاني الله تعالى من فضله تصدقت منه وآتيت كل ذي حق حقه فمات ابن عم له فورث

منه مالاً فلم يف بما عاهد الله تعالى عليه فأنزل الله تعالى فيه هذه الآيات .

وقال الحسن : إنها نزلت في ثعلبة .

ومعتب بن قشير خارجا على ملأ قعود فحلفا بالله تعالى لئن آتانا من فضله لنصدقن فلما آتاهما بخلا .

(296/343)

وقال السائب : إن حاطب بن أبي بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهداً شديداً فحلف بالله لئن أتانا الله من فضله يعني ذلك المال لأصدقن ولأصلن فلما آتاه ذلك لم يف بما عاهد الله تعالى عليه وحكى ذلك عن الكلبي ، والأول أشهر وهو الصحيح في سبب النزول ، والمراد بالتصدق قيل : إعطاء الزكاة الواجبة وما بعده إشارة إلى فعل سائر أعمال البر من صلة الأرحام ونحوها .

وقيل : المراد بالتصدق إعطاء الزكاة وغيرها من الصدقات وما بعده إشارة إلى الحج على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أو إلى ما يعمه والنفقة في الغزو كما قيل .

وقرىء ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ ﴾ بالنون الخفيفة فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

وقال صاحب التفسير الحديث :

ولقد روى المفسرون «1» أن شخصا اسمه ثعلبة بن حاطب طلب من رسول

---

(1) انظر الطبري والبغوي والطبرسي .

اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يدعو اللّه ليرزقه مالا فقال له ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه . فأعاد عليه السؤال فقال له أما ترضى أن تكون مثل نبي اللّه والذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبا وفضة لسارت . فقال له والذي بعثك بالحق لئن دعوت اللّه فرزقني مالا لأعطين كلّ ذي حق حقه . فقال رسول اللّه اللّهمّ ارزق ثعلبة مالا . فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل واديا وصار يقصر في واجبات الصلاة . وظلّ ماله ينمو وعلم النبي صلى اللّه عليه وسلم بأمره فأرسل من يأخذ صدقة ماله منه فأبى وقال ما هذه إلا جزية أو أختها ، فأنزل اللّه فيه

الآيات . ورووا إلى هذه الرواية روايات أخرى منها أن ثعلبة نذر بما نذر أمام ملأ من قومه ثم ورث مالا فلم يف بما وعد . ومنها أن هذا النذر كان من جماعة من بني عوف فآتاهم اللّه من فضله فبخلوا . ومنها أنها نزلت في حاطب بن بلتعة . كان له مال في الشام فأبطأ عليه وجهد لذلك جهدا شديدا فحلف لئن أتاه ذلك المال ليصدقن فأتاه فلم يفعل .

وليس شيء من هذه الروايات واردا في كتب أحاديث معتبرة . ولقد روينا قصة لحاطب بن بلتعة في سياق سورة الممتحنة تفيد أنه كان مخلصا وممن شهدوا بدرا . لذلك نستبعد صحة الرواية عنه . وفي الرواية التي ذكر فيها ثعلبة أن بعض أقاربه قال له ويحك قد أنزل اللّه فيك قرآنا فخرج حتى أتى النبي صلى اللّه عليه وسلم فسأله أن يقبل صدقته فقال له إن اللّه منعني من ذلك فجعل يحثو التراب على رأسه فقال له رسول اللّه هذا عملك فقد أمرتك فلم تطعني . وقبض رسول اللّه ولم يقبض صدقته . فأتى أبا بكر فعرض عليه صدقته فقال له لم يقبلها رسول اللّه وأنا أقبلها مستنكرا . وقبض أبو بكر ولم يقبضها ، فجاء إلى عمر فرفضها ، ثم جاء بعده إلى عثمان فرفضها .

ومات في زمن عثمان . وهذا التفصيل عجيب . فالروايات لا تذكر أنه كان من المنافقين .

والآية السابقة تشجع المنافقين على التوبة وتعدهم بالخير إذا فعلوا .

والآية الثانية إلى كل هذا تلهم أن الذين عاهدوا اللّه وأخلفوه أكثر من واحد وأنهم كانوا من المنافقين .

وعلى كلّ حال فالآيات تضمنت حكاية مشهد أو صورة خبيثة من مشاهد

(300/343)

المنافقين ومواقفهم . والذي نرجحه أن ذلك كان مما وقع قبل غزوة تبوك فاحتوت الآيات تذكيرا بذلك في معرض سرد أخلاق المنافقين كما هو الحال في الآيات السابقة . وأن الآيات والحكمة هذه جزء من السلسلة ولم تنزل لحدتها في مناسبة إحدى الروايات المروية واللّه تعالى أعلم .

وواضح أن الآيات تنطوي كسابقاتها على تلقين مستمر المدى بتقبيح هذه الصورة وتقرير كونها من أخلاق المنافقين .

ولقد أورد الطبري في سياقها بعض الأحاديث من ذلك حديث مرفوع رواه قتادة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : «تكفلوا لي بست أتكفل لكم بالجنة . قالوا ما هي يا رسول اللّه

قال إذا حدثتم فلا تكذبوا وإذا وعدتم فلا تخلفوا وإذا اؤتمنتم فلا تخونوا وكفوا أبصاركم وأيديكم وفروجكم. أبصاركم عن الخيانة. وأيديكم عن السرقة.

وفروجكم عن الزنا» وحديث مرفوع آخر رواه الحسن عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: «ثلاث من كنّ فيه صار منافقا وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم. إذا حدّث كذب وإذا أؤتمن خان وإذا وعد أخلف». وهناك حديثان من باب الثاني رواهما الشيخان والترمذي وأبو داود جاء في أحدهما عن أبي هريرة عن النبي صلى اللّه عليه وسلم: «آية المنافق ثلاث إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان» «1». وثانيهما عن عبد اللّه بن عمر عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال: «أربع من كنّ فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهنّ كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها. إذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر» «2».

وفي الأحاديث مقاييس بليغة للمنافقين. ومن الحكمة المنطوية فيها كما هو المتبادر تقبيح هذه الصفات والتحذير منها وتقرير كونها لا يمكن أن تكون في مؤمن مخلص. انتهى انتهى. ا هـ ﴿التفسير الحديث حـ 9 صـ 501. 503﴾

---

(1) التاج ج 5 ص 41.

(2) المصدر نفسه. [. . . . .]

(301/343)

وقال الشيخ محمد سيد طنطاوى :

وقد ضعف بعض العلماء هذا الحديث ، لأسباب تتعلق بسنده ، وبصاحب القصة وهو ثعلبة بن حاطب .

والذي نراه أن هذه الآيات الكريمة تحكى صورة حقيقية وواقعية لبعض المنافقين المعاصرين للعهد النبوي . والذين عاهدوا اللّه فنقضوا عهودهم معه ، وقابلوا ما أعطاهم من نعم بالبخل والجحود . .

(302/343)

ج6 ، ص : 358

وتلك الصورة قد تكون لثعلبة بن حاطب وقد تكون لغيره ، لأن المهم هو حصولها فعلا من بعض المنافقين .

وهذه الآيات - أيضا - تنطبق في كل زمان ومكان على من يقابل نعم اللّه بالكفران ، إذ

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

وإلى هذا المعنى أشار صاحب المنار بقوله : هذا بيان لحال طائفة من أولئك المنافقين الذين أغناهم اللّه ورسوله من فضله بعد الفقر والإملاق ، ويوجد مثلهم في كل زمان ، وهم الذين يلجئون إلى اللّه – تعالى – في وقت العسرة والفقر ، أو الشدة والضر ، فيدعونه ويعاهدونه على الشكر له ، والطاعة لشرعه ، إذا هو كشف ضرهم ، وأغنى فقرهم . فإذا استجاب لهم نكسوا على رءوسهم ، ونكصوا على أعقابهم ، وكفروا النعمة ، وبطروا الحق ، وهضموا حقوق الخلق وهذا مثل من شر أمثالهم » « 1 » .

ومعنى الآيات الكريمة : ومن المنافقين قوم « عاهدوا اللّه » وأكدوا عهودهم بالأيمان المغلظة فقالوا : « لئن آتانا » اللّه – تعالى – من فضله مالا وفيرا ، لنصدقن منه على المحتاجين ، ولنعطين كل ذي حق حقه ولنكونن من عباده « الصالحين » الذين يؤدون واجبهم نحو اللّه والناس ، والذين يصلحون في الأرض ولا يفسدون .

قال الجمل وقوله : مَنْ عاهَدَ اللَّهَ فيه معنى القسم ، وقوله : لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ تفسير لقوله : عاهد اللّه . واللام موطئة لقسم مقدر . وقد اجتمع هنا قسم وشرط ، فالمذكور وهو قوله : « لنصدقن » . . جواب القسم ، وجواب الشرط محذوف . . . واللام في قوله « لنصدقن » . . . واقعة في جواب القسم « 2 » .

وقوله : فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ . . . بيان لموقفهم الجحودى من عطاء اللّه وكرمه .

أى : فلما أعطى اللّه – تعالى – من فضله هؤلاء المنافقين ما تمنوه من مال وفير « بخلوا به »

أى : بخلوا بهذا المال ، فلم ينفقوا منه شيئا في وجوهه المشروعة ، ولم يعترفوا فيه بحقوق اللّه

أو حقوق الناس ، ولم يكتفوا بذلك بل « تولوا وهم معرضون » .

أى : أدبروا عن طاعة اللّه وعن فعل الخير ، وهم قوم دأبهم التولي عن سماع الحق ، وشأنهم

الانقياد للهوى والشيطان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التفسير الوسيط / لطنطاوى حـ 6 صـ

357.356 ﴾

---

(1) تفسير المنار ج 10 ص 646 .

(2) حاشية الجمل على الجلالين ج 2 ص 301 .

وقال الدكتور / وهبة الزحيلى :

سبب النزول :

هناك قصة مشهورة بين الناس تروي سبب نزول هذه الآيات رددتها كتب التفسير ، لكنها لم تصح لدى المحدثين ، وهي

ما أخرجه الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل بسند ضعيف عن أبي أمامة : أن ثعلبة بن أبي حاطب قال : يا رسول اللّه ، ادع اللّه أن يرزقني مالا ، قال : ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، قال : واللّه ، لئن آتاني اللّه مالا ، لأوتين كل ذي حقّ حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنما ، فنمت ، حتى ضاقت عليه أزقّة المدينة ، فتنحّى بها ، وكان يشهد الصلاة ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ، ثم يخرج إليها ، ثم نمت فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعة ، ثم أنزل الله على رسوله : خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتابا ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتما ، فمرا بي ، ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ! فانطلقا ، فأنزل

(305/343)

اللّه : وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ ، لَئِنْ آتانا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إلى قوله :

يَكْذِبُونَ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس نحوه .

فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال النبي صلّى اللّه عليه وآله وسلم : إن اللّه منعني أن أقبل منك صدقتك .

فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال : هذا جزاء عملك ، قد أمرتك ، فلم تطعني ، فقبض رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي اللّه تعالى عنه ، فلم يقبلها ، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان رضي اللّه عنه .

والحقيقة أن ما روي عن ثعلبة هذا غير صحيح لدى المحدثين ، وثعلبة بدري أنصاري ، وممن شهد اللّه له ورسوله بالإيمان . قال ابن عبد البر : ولعلّ قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، واللّه أعلم .

وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث ، وجدّ بن قيس ، ومعتّب بن قشير . قال القرطبي : وهذا أشبه بنزول الآية فيهم ، إلا أن قوله : فَأَعْقَبَهُمْ نفاقاً يدل على أن الذي عاهد اللّه تعالى لم يكن منافقا من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقا ثبتوا عليه إلى الممات ، وهو قوله تعالى : إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ «1» .

وذكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن ثعلبة بن أبي حاطب أبطأ عنه

ماله بالشام ، فحلف في مجلس من مجالس الأنصار : إن سلم ذلك لأتصدقن منه ، ولأصلنّ منه ، فلما سلم بخل بذلك ، فنزلت . وهذا أيضا غير صحيح . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ التفسير المنير حـ 10 صـ 318.319 ﴾

---

(1) تفسير القرطبي : 8/ 210

(306/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾

قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب من المنافقين سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو له بسعة الرزق فدعا له فأثرى إثرَاءً كثيراً فلمّا جاءه المصدّقون ليعطي زكاة أنعامه امتنع من ذلك ثم ندم فجاء بصدقته فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبلها منه .

وذكروا من قصته أنّه تاب ولكن لم تقبل صدقته في زمن النبي ولا في زمن الخلفاء الثلاثة بعده عقوبة له وإظهاراً للاستغناء عنه حتّى مات في خلافة عثمان ، وقد قيل : إنّ قائل ذلك هو معتِّب بن قشير ، وعلى هذا فضمائر الجمع في لنصدّقنّ وما بعده مراد بها واحد وإنّما نسبت الفعل إلى جماعة المنافقين على طريقة العرب في إلصاق فعل الواحد بقبيلته .

ويحتمل أنّ ثعلبة سأل ذلك فتبعه بعض أصحابه مثل معتب بن قشير فأوتي مثل ما أوتي ثعلبة وبخل مثل ما بخل وإن لم تجيء فيه قصة كما تقدّم آنفاً .

وجملة ﴿ لنصدقن ﴾ بيان لجملة ﴿ عاهد الله ﴾ وفعل ﴿ لنصدقن ﴾ أصله لنتصدقن فأدغم للتخفيف .

والإعراض : إعراضهم عن عهدهم وعن شكر نعمة ربّهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(307/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ أي : من المنافقين الذين عرض الله صوراً كثيرة لهم في هذه السورة الكريمة ، فقال : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، و ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ و ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، واختلفت روايات المفسرين والرواة في مدلول قوله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ . فقال بعضهم : إنه ثعلبة بن حاطب ، وقال آخرون : إنه مُعتِّب بن قشير ، وقال رأى ثالث : إنه الجد بن قيس ، وقال قائل رابع : إنه حاطب بن أبي بلتعة . كل هذه خلافات تحتملها الآية الكريمة ؛ لأن الحق

سبحانه وتعالى قال :

﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ ولم يقل الحق : " فلما آتيناه من فضلنا بخل به " بحيث ينطبق على حالة واحدة ، ولكن الحق تبارك وتعالى جاء بها بصيغة الجمع فقال سبحانه : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ . . . ﴾ [التوبة : 76]

إنّ : فهناك جمع . والروايات كلها يمكن أن تكون صحيحة في أن الآية الكريمة نزلت في أفراد متعددين ، وسبحانه يقول : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ فكيف يكون للمنافقين عهد مع الله ؟ نقول : لقد عُومل هؤلاء المنافقون بظواهر ألسنتهم ، فهم قد أعلنوا إسلامهم ، وكان الواحد منهم يقول : أعاهد الله على كذا وكذا ؛ تماماً كما يأتي الواحد منهم للصلاة ويحرص بعضهم على التواجد في الصف الأول للمصلين ، فهل منعه النفاق من الصلاة ظاهراً ؟ لم يمنعه أحد ، كذلك عندما يعاهد الله فهو يعاهده بظاهر لسانه .

(308/343)

وقصة الآية : أن رجلاً فقيراً من الأنصار ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إني فقير مملق – أي شديد الفقر – فادع لي الله يا رسول الله أن يوسع عليّ دنياي . وبفطنة

النبوة قال صلى الله عليه وسلم : إن قليلاً تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاوده وقال : ادع الله لي أن يوسّع عليّ . فدعا له فوسّع الله عليه .

ولسائل أن يسأل : كيف يستجيب الرسول ويدعو لمنافق ؟ وإذا كان الرسول قد دعا ترضية له وتأليفاً لقلبه ؛ فكيف يجيب الله رسوله في طلب منافق منه ؟

ونقول : ربما كان ذلك ؛ لأن المنافق أراد أن يجرب : أرسول الله رسول حق ، بحيث إن دعا الله أجيب ؟

فلما دعا رسول الله ؛ أراد الحق سبحانه وتعالى أن يُعلم هذا المنافق أنه : نعم هو رسول الله ؛ وإن دعا لأي أحد يُجِبْه الله ، فتكون هذه للنبي صلى الله عليه وسلم .

فلما دعا رسول الله لثعلبة ، أو للجد بن قيس ، أو لحاطب بن أبي بلتعة ؛ استجاب الله لدعاء رسوله ؛ وأعطى مَنْ سأل الدعاء مالاً وفيراً ، وقالوا : ولقد تكاثر مال ثعلبة ، وكانت ثروته من الأغنام قد تناسلت حتى ضاقت بها شعَاب المدينة ؛ فهرب بها إلى شعاب الجبال ، وإلى الصحراء الواسعة ، فامتلأت ، فشغلته أمواله أول ما شغلته عن صلاة الجماعة ، وأصبح لا يذهب للصلاة إلا في يوم الجمعة ؛ فلما كثرت كثرة فاحشة ؛ شغلته أيضاً عن صلاة الجمعة .

وفي ذلك دليل صدق لتنبؤ رسول الله له . إذن : فكل الأمر إنما جاء تأييداً لمنطق الرسول معهم ؛ حتى يُسفِّههم في أنهم نافقوا في الإسلام .

وبعد ذلك سأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنه في الشعاب شغله ماله . فقال : يا ويح ثعلبة . وأرسل إليه عامل الصدقة ؛ لأن ثعلبة قد عاهد الله وقال : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ فذهب عامل الصدقة إليه ، فلما قال له : هات ما كتب الله عليك من الصدقة من مالك . قال : أهي أخت الجزية ؟ وذكَّره عامل الصدقة : أنت الذي عاهدت ، ومن ضمن عهدك أنك إن أوتيت تصدقت وكنت من الصالحين ، فما لك لا توفي بالعهد . ورد ثعلبة على عامل الصدقة : اذهب حتى أرى رأيي .

إذن : هو قد عاهد الله ، ودعا رسول الله ، واستجاب الله له ، وكثرت أمواله ، وبعد ذلك صدَّقَ الله نبيه في قوله : " قليل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه " ، فلما عاد عامل الصدقة إلى رسول الله بردِّ ثعلبة . قال صلى الله عليه وسلم : ويح ثعلبة . فلما علم ثعلبة أن قرآناً قد نزل فيه ، انزعج انزعاجاً شديداً ، وأسرع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرض عليه الزكاة . فلم يقبلها رسول الله منه ، فأخذ يتردد عليه للقبول ، فلم يقبلها رسول الله منه . لقد أراد صلى الله عليه وسلم بذلك أن يثبت أن الله وفقراء الله في غنى عن مالك يا ثعلبة .

فلما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى جاء ثعلبة بالصدقات المؤخرة عليه كلها إلى أبي بكر ، فقال أبو بكر : ما كان لرسول الله أن يمتنع عنها ثم يأخذها أبو بكر .

لما توفي أبو بكر جاء إلى عمر ، فقال عمر مقالة أبي بكر . وجاء لعثمان ، إلا أنه قبل أن يصل إليه كان قد هلك في عهد عثمان .

(310/343)

﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ ﴾ ، وكلمة ﴿ لَئِنْ ﴾ قَسَم ، والقَسَم هو صورة العهد ، فكأنه قال : أقسم بالله إن أتاني الله مالاً لأفعلنّ كذا . وقد فهمنا أنها قَسَم من وجود اللام في جواب القَسَم ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ و " الصدقة " هي الصدقة الواجبة أي الزكاة ، و ﴿ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ أي : نزيد في التطوعات ، والمروءة ، والأريحية ، وكل ما يدل على الصلاح. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(311/343)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ : فيه معنى القسم فلذلك أُجيب بقوله : " لنصَّدَّقَنَّ " ، وحُذِفَ جوابُ الشرطِ لدلالة هذا الجوابِ عليه ، وقد عَرَفْتَ قاعدة ذلك . واللام للتوطئة . ولا يمتنع الجمعُ بين القسم واللام الموطئة له . وقال أبو البقاء ؛ " فيه وجهان أحدهما : تقديره فقال : لئن آتانا .

والثاني : أنْ يكونَ " عاهد " بمعنى " قال " فإنَّ العهد قول " . ولا حاجة إلى هذا الذي ذكره .

قوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ ﴾ قرأهما الجمهور بالنون الثقيلة ، والأعمش بالخفيفة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 87 . 88 ﴾

(312/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ ءَاتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّآ ءَاتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

منهم مَنْ أَكَّدَ العَقْدَ مع الله ، ثم نَقَضَه ، فَلَحِقَه شُؤْمُ ذلك ؛ فَبَقِي خالداً في نِفاقِه .

ويقال تطلَّبَ إحسانَ ربّه ، وتقرَّبَ إليه بإبرام عهده فلمَّا حقَّق اللهُ مسؤولَه واستجاب مأموله ، فَسخَ ما أبرمه ، وانسلخ عما التزمه ، واستولى عليه البُخْلُ ، فَضَنَّ بإخراج حقه ، فَلَحِقَه شؤمُ نفاقِه ، بأن بَقِيَ إلى الأبد في أَسْرِه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 48 ﴾

(313/343)

قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

﴿ فلما آتاهم ﴾ وكرر قوله : ﴿ من فضله ﴾ تقريراً لما قاله المعاهد تأكيداً للإعلام بأنه لا حق عليه لأحد ولا صنع فيما ينعم به ولا قدرة عليه بوجه ﴿ بخلوا به ﴾ أي كذبوا فيما عاهدوا عليه وأكدوه غاية التأكيد ، فلم يتصدقوا بل منعوا الحق الواجب إظهاره فضلاً عن

صدقة السر ﴿ وتولوا ﴾ أي كلفوا أنفسهم الإعراض عن الطاعة لمن تفضل عليهم مع معرفتهم بقبح نقض العهد ؛ ولما كان التولي قد يحمل على ما بالجسد فقط قال : ﴿ وهم معرضون ﴾ أي بقلوبهم ، والإعراض وصف لهم لازم لم يتجدد لهم ، بل كان غريزة فيهم ونحن عالمون بها من حين أوقعوا العهد ؛ قال أبو حيان : قال الضحاك : هم نبتل ابن الحارث وجد بن قيس ومعتب بن قشير وثعلبة بن حاطب وفيهم نزلت الآية – انتهى .

وحسن تعقيبها بها أيضاً أن في الأولى كفران نعمة الغني من غير عهد ، وفي هذه كفرانها مع العهد فهو ترق من الأدنى إلى الأعلى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 363 .

364 ﴾

(314/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلَمَّا ءَاتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ وهذا يدل على أنه تعالى وصفهم بصفات ثلاثة :

الصفة الأولى : البخل وهو عبارة عن منع الحق .

والصفة الثانية : التولي عن العهد .

والصفة الثالثة : الإعراض عن تكاليف الله وأوامره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 112.113 ﴾

(315/343)

وقال الآلوسى :

﴿ فَلَمَّا ءاتاهما مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ ﴾

أم منعوا حق الله تعالى منه ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله سبحانه ، ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

أي وعم قوم عادتهم الأعراض عن الطاعات فلا ينكر منهم هذا ؛ والجملة مستأنفة أو حالية والاستمرار المقتضى للتقدم لا ينافي ذلك ، والمراد على ما قيل : تولوا باجرامهم وهم معرضون بقولبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(316/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) ﴾

ولله عطاءان : عطاء الأسباب ، وعطاء التفضل . و " عطاء الأسباب " يتمثل في أن يَجدَّ الإنسان في أي عمل من الأعمال ؛ فيعطيه الله ثمرة عمله ؛ مؤمناً كان أو كافراً ؛ طائعاً أو عاصياً ؛ لأن الإنسان قد أخذ الأسباب وأتقنها ، ولذلك تجد بعضاً من الكافرين بالله وهم يعيشون في سعة ؛ لأنهم يحسنون الأسباب ، وما داموا قد أحسنوا الأسباب ، وهم عبيد الله أيضاً ، وسبحانه هو الذي استدعاهم للوجود ، فضمن لهم أن تستجيب لهم الأسباب ، ولا تضِنّ عليهم ؛ فالشمس تشرق على المؤمن والكافر ، وعلى الطائع والعاصي ، والمطر ينزل على الأرض . وكذلك كل شيء في الأرض تستجيب عناصره لما يزرعون أو لما يفعلون ، إذن فهذا عطاء الأسباب .

ولكن الحق سبحانه يستر عطاء الفضل في عطاء الأسباب ، كمن يسير في طريق مجهول فيجد كنزاً ، أو أن ثمار محصوله لا يأتي عليها ريح أو إعصار يقلل من ناتج المحصول .

ويبارك له الحق سبحانه في بيع محصوله ، ويبارك له في رزقه منه ، فلا يصرفه فيما يضيع ويذهب ماله . وهذا كله اسمه عطاء الفضل . وعطاء الأسباب عَامٌّ للناس جميعاً . أما عطاء الفضل فهو خاص بأولياء الله الذين أخلصوا عملهم لله طاعة وامتثالاً .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ دليل على أن الرزق الذي جاءهم لم يخضع للأسباب وحدها . بل زاد عما تعطيه الأسباب بفضل من الله . فالتكاثر الذي حدث في أغنام ثعلبة لم يكن تكاثراً بالأسباب فقط ، بل فيه بركة جعلت البطن الواحدة من الشاة تأتي بأكثر من وليد ، والعشب الذي ترعاه يُدِرّ كمية كبيرة من اللبن .

(317/343)

﴿ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ ما هو البخل ؟ هناك في اللغة أسماء للامتناع عن العطاء ، فهناك بُخْل ، وشُح ، وكزازة ، وكلها أسماء للامتناع عن عطاء شيء ، لكن منازل العطاء والبخل تختلف ؛ بمعنى أن هناك إنساناً لا يعطي إلا من سأله ؛ تلك منزلة ، وإنساناً آخر لا يعطي كل من سأله ، بل يعطي من سأله بأسباب تثير عواطفه نحوه ، كأن يقول : ولدي مريض ، أو احترق بيتي ، فالسائل هنا لا يسأل فقط ، ولكنه يجيء بعلة السؤال مثيرة للعواطف . وهناك من يعطي بغير سؤال .

هي إذن : ثلاث مراحل للعطاء ؛ واحد يعطي من يراه هكذا ؛ مظنة أن حالته رقيقة من غير أن يسأل ، وهذه منزلة من منازل القرب من الله ، ينير الله بها بصائر قوم لتكون يدهم هي يد الله عند خلق الله . بل إن هناك أناساً يعاتبون أنفسهم إذا جاء إنسان فسألهم

صدقة أو معونة ؛ كالرجل الذي ذهب فطرق الباب ، فخرج إليه صاحب البيت فسأله عما يريد ، فطلب السائل منه مالاً فدخل صاحب البيت بيته وأخذ شيئاً من مال وأعطاه للسائل ، فعلمت امرأته أنه جاء يسأله مالاً فأعطاه ، ولكن الزوج الذي أعطى مالاً رجع يبكي .

فقالت له : وما يبكيك وقد أجبْتَهُ إلى مطلبه ؟ فقال : يبكيني أنني تركته ليسألني ، أي : أنه يبكي لأنه لم يملك فِطْنَةً تجعله يستشفُّ مسائل الناس من حوله ليعطي المحتاجين بغير سؤال .

إذن : فواحد يعطي عن مسألة ؛ تلك مرتبة ، وهناك من يعطي من غير مسألة ، بل يعطي عن فضل عنده ، أي : يملك الكثير ويعطي منه . وثالث : يعطي نصف ما عنده ؛ يقاسمه فيما يملك ، أو يعطي أكثر ما عنده حسب ما ينقدح في ذهنه من حاجة الإنسان المعطي .

هي إذن ثلاث مراحل : رجل يعطي من غير سؤال ، ورجل يعطي بسؤال فيه أسباب مثيرة ومُهيِّجة للعاطفة ، ورجل يعطي بمجرد السؤال .

فمن هو البخيل ؟

(318/343)

أفظع درجة للبخل ؛ أن يبخل الرجل على من يسأله مسألة مُسبّبة بأحداث تهيج العواطف ، ومع ذلك لا يرق قلبه ، هذا هو البخيل . ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ واحد من هؤلاء لم يبخل فقط ، بل انصرف عن الذي يسأله ، مثل الذي انصرف عن العامل الذي جاء يأخذ الصدقة ، وقد كان عليه – مثلاً – أن يُجلس العامل ، ويقدم له التحية الواجبة ؛ ثم يقول له سنرى رأينا ، ولكنه تولَّى وأعرض عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(319/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) ﴾

وحدُّ البخل – على لسان العلم – مَنْعُ الواجب . وبُخْلِ كلِّ أحدٍ على ما يليق بحاله ، وكلُّ مَنْ آثر شيئاً من دون رضاء ربِّه فقد اتصف ببخله ، فَمَنْ يَبْخَلْ بماله تَزلْ عنه البركةُ حتى يؤول إلى وارثٍ أو يزول بحارث . ومَنْ يبخلْ بنَفْسِه ويتقاعس عن طاعته تفارقه الصحةُ

حتى لا يستمتع بحيائه . والذي يبخل بروحِه عنه يُعاقَبُ بالخذلان حتى تكون حياتُه سبباً لشقائه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 48 ﴾

(320/343)

قوله تعالى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ودل عظيم شأن العهد بتعظيم الجزاء على خيانته بقوله : ﴿ فأعقبهم ﴾ أي الله أو التمادي على البخل جزاء على ذلك ﴿ نفاقاً ﴾ متمكناً ﴿ في قلوبهم ﴾ أي بأن لا يزالوا يقولون ما لا يفعلون ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ أي بالموت عند فوت الفوت ﴿ بما أخلفوا الله ﴾ أي وهو الملك الأعظم ﴿ ما وعدوه ﴾ لأن الجزاء من جنس العمل ؛ ولما كان إخلاف الوعد شديد القباحة ، وكان مرتكبه غير متحاش من مطلق الكذب ، قال : ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أي يجددون الكذب دائماً مع الوعد ومنفكاً عنه ، فقد استكملوا النفاق :

عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدثوا فكذبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 364 ﴾

(321/343)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ فعل ولا بد من إسناده إلى شيء تقدم ذكره .

والذي تقدم ذكره هو الله جل ذكره ، والمعاهدة والتصدق والصلاح والبخل والتولي والإعراض ولا يجوز إسناد أعقاب النفاق إلى المعاهدة أو التصدق أو الصلاح ، لأن هذه الثلاثة أعمال الخير فلا يجوز جعلها مؤثره في حصول النفاق ، ولا يجوز إسناد هذا الإعقاب إلى البخل والتولي والإعراض ، لأن حاصل هذه الثلاثة كونه تاركاً لأداء الواجب وذلك لا يمكن جعله مؤثراً في حصول النفاق في القلب ، لأن ذلك النفاق عبارة عن الكفر وهو جهل

وترك بعض الواجب لا يجوز أن يكون مؤثراً في حصول الجهل في القلب .

أما أولاً : فلأن ترك الواجب عدم ، والجهل وجود العدم لا يكون مؤثراً في الوجود .

وأما ثانياً : فلأن هذا البخل والتولي والإعراض قد يوجد في حق كثير من الفساق ، مع أنه لا يحصل معه النفاق .

وأما ثالثاً : فلأن هذا الترك لو أوجب حصول الكفر في القلب لأوجبه سواء كان هذا الترك جائزاً شرعاً أو كان محرماً شرعاً ، لأن سبب اختلاف الأحكام الشرعية لا يخرج المؤثر عن كونه مؤثراً .

وأما رابعاً : فلأنه تعالى قال بعد هذه الآية ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ فلو كان فعل الأعقاب مسند إلى البخل والتولي والإعراض لصار تقدير الآية فأعقبهم بخلهم وإعراضهم وتوليهم نفاقاً في قلوبهم بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ، وذلك لا يجوز ، لأنه فرق بين التولي وحصول النفاق في القلب بسبب التولي ومعلوم أنه كلام باطل .

(322/343)

فثبت بهذه الوجوه أنه لا يجوز إسناد هذا الإعقاب إلى شيء من الأشياء التي تقدم ذكرها إلا إلى الله سبحانه ، فوجب إسناده إليه ، فصار المعنى أنه تعالى هو الذي يعقب النفاق في قلوبهم ، وذلك يدل على أن خالق الكفر في القلوب هو الله تعالى ، وهذا هو الذي قال الزجاج إن معناه : أنهم لما ضلوا في الماضي ، فهو تعالى أضلهم عن الدين في المستقبل ، والذي يؤكد القول بأن قوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ مسند إلى الله جل ذكره أنه قال : ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ والضمير في قوله تعالى : ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ عائد إلى الله تعالى ، فكان الأولى أن يكون قوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ مسنداً إلى الله تعالى .

قال القاضي : المراد من قوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي فأعقبهم العقوبة على النفاق ، وتلك العقوبة هي حدوث الغم في قلوبهم وضيق الصدر وما ينالهم من الذل والذم ، ويدوم ذلك بهم إلى الآخرة .

قلنا : هذا بعيد لأنه عدول عن الظاهر من غير حجة ولا شبهة ، فإن ذكر أن الدلائل العقلية دلت على أن الله تعالى لا يخلق الكفر ، قابلنا دلائلهم بدلائل عقلية ، لو وضعت على الجبال الراسيات لاندكت .

المسألة الثانية :

قال الليث : يقال : أعقبت فلاناً ندامة إذا صيرت عاقبة أمره ذلك .

قال الهذلي :

أودى بني وأعقبوني حسرة . . بعد الرقاد وعبرة لا تقلع

ويقاتل : أكل فلان أكلة أعقبته سقماً ، وأعقبه الله خيراً .

وحاصل الكلام فيه أنه إذا حصل شيء عقيب شيء آخر يقال أعقبه الله .

المسألة الثالثة :

(323/343)

ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به ، ومذهب الحسن البصري رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية وبقوله عليه السلام : " ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن ، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان " وعن النبي عليه السلام : " تقبلوا لي ستاً أتقبل لكم الجنة إذا حدثتم فلا تكذبوا وإذا وعدتم فلا تخلفوا وإذا ائتمنتم فلا تخونوا وكفوا أبصاركم وأيديكم وفروجكم .

أبصاركم عن الخيانة وأيديكم عن السرقة وفروجكم عن الزنا " قال عطاء بن أبي رباح : حدثني جابر بن عبد الله أنه صلى الله عليه وسلم إنما ذكر قوله ثلاث من كن فيه فهو منافق

في المنافقين خاصة الذين حدثوا النبي صلى الله عليه وسلم فكذبوه وائتمنهم على سره فخانوه ووعدوا أن يخرجوا معه فأخلفوه ، ونقل أن عمرو بن عبيد فسر الحديث فقال : إذا حدث عن الله كذب عليه وعلى دينه ورسوله وإذا وعد أخلف كما ذكره فيمن عاهد الله وإذا ائتمن على دين الله خان في السر فكان قلبه على خلاف لسانه ونقل أن واصل بن عطاء قال : أتى الحسن رجل فقال له : إن أولاد يعقوب حدثوه في قولهم أكله الذئب وكذبوه ووعدوه في قولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لحافظون ﴾ فأخلفوه وائتمنهم أبوهم على يوسف فخانوه فهل نحكم بكونهم منافقين ؟ فتوقف الحسن رحمه الله .

المسألة الرابعة :

﴿ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ يدل على أن ذلك المعاهد مات منافقاً ، وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له ، فإنه روي أن ثعلبة أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقته فقال : إن الله تعالى منعني أن أقبل صدقتك ، وبقي على تلك الحالة ، وما قبل صدقته أحد حتى مات ، فدل على أن مخبر هذا الخبر وقع موافقاً ، فكان إخباراً عن الغيب فكان معجزاً .

المسألة الخامسة :

قال الجبائي : إن المشبهة تمسكوا في إثبات رؤية الله تعالى بقوله : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلام ﴾ قال واللقاء ليس عبارة عن الرؤية ، بدليل أنه قال في صفة المنافقين : ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ وأجمعوا على أن الكفار لا يرونه ، فهذا يدل على أن اللقاء ليس عبارة عن الرؤية .

قال : والذي يقويه قوله عليه السلام : " من حلف على يمين كاذبة ليقطع بها حق امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان " وأجمعوا على أن المراد من اللقاء ههنا : لقاء ما عند الله من العقاب فكذا ههنا .

والقاضي استحسن هذا الكلام .

وأقول : أنا شديد التعجب من أمثال هؤلاء الأفاضل كيف قنعت نفوسهم بأمثال هذه الوجوه الضعيفة ؟ ! وذلك لأنا تركنا حمل لفظ اللقاء على الرؤية في هذه الآية ، وفي هذا الخبر لدليل منفصل ، فلم يلزمنا ذلك في سائر الصور .

ألا ترى أنا لما أدخلنا التخصيص في بعض العمومات لدليل منفصل ، لم يلزمنا مثله في جميع العمومات أن نخصصها من غير دليل ، فكما لا يلزم هذا لم يلزم ذلك فإن قال هذا الكلام إنما يقوى لو ثبت أن اللقاء في اللغة عبارة عن الرؤية ، وذلك ممنوع .

فنقول : لا شك أن اللقاء عبارة عن الوصول ومن رأى شيئاً فقد وصل إليه فكانت الرؤية لقاء ، كما أن الإدراك هو البلوغ .

قال تعالى : ﴿ قَالَ أَصحاب موسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : 61] أي لملحقون ، ثم

حملناه على الرؤية فكذا ههنا ، ثم نقول : لا شك أن اللقاء ههنا ليس هو الرؤية ، بل المقصود أنه تعالى ﴿ فأعقبهم نفاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي حكمه وقضاءه ، وهو كقول الرجل ستلقى عملك غداً ، أي تجازى عليه ، قال تعالى : ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ والمعنى : أنه تعالى عاقبهم بتحصيل ذلك النفاق في قلوبهم لأجل أنهم أقدموا قبل ذلك على خلف الوعد وعلى الكذب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 113.114 ﴾

(325/343)

وقال ابن العربى فى الآيات السابقة :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنْ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ .

فِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ اخْتُلِفَ فِي شَأْنِ نُزُولِهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي شَأْنِ مَوْلًى لِعُمَرَ قَتَلَ حَمِيمًا لِثَعْلَبَةَ ، فَوَعَدَ إِنْ وَصَلَ إِلَى الدِّيَةِ أَنْ يُخْرِجَ حَقَّ اللَّهِ فِيهَا ، فَلَمَّا

وَصَلَتْ إِلَيْهِ الدِّيَةُ لَمْ يَفْعَلْ .

الثَّانِي : أَنَّ ثَعْلَبَةَ كَانَ لَهُ مَالٌ بِالشَّامِ فَنَذَرَ إِنْ قَدِمَ مِنْ الشَّامِ أَنْ يَتَصَدَّقَ مِنْهُ ، فَلَمَّا قَدِمَ لَمْ يَفْعَلْ .

الثَّالِثُ : وَهُوَ أَصَحُّ الرِّوَايَاتِ أَنَّ ﴿ ثَعْلَبَةَ بْنَ حَاطِبٍ الْأَنْصَارِيَّ الْمَذْكُورَ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا أَتَصَدَّقُ مِنْهُ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُهُ .

ثُمَّ عَاوَدَ ثَانِيَةً ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمَّا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلَ نَبِيِّ اللَّهِ ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ شِئْت أَنْ تَصِيرَ مَعِي الْجِبَالُ ذَهَبًا وَفِضَّةً لَصَارَتْ .

فَقَالَ : وَالَّذِي بَعَثَك بِالْحَقِّ لَئِنْ دَعَوْت اللَّهَ فَرَزَقَنِي لَأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ .

(326/343)

فَدَعَا لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَّخَذَ غَنَمًا فَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ ، فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْمَدِينَةُ ، فَتَنَحَّى عَنْهَا ، وَنَزَلَ وَادِيًا مِنْ أَوْدِيَتِهَا ، حَتَّى جَعَلَ يُصَلِّي الظُّهْرَ وَالْعَصْرَ فِي جَمَاعَةٍ ، وَيَتْرُكُ مَا سِوَاهُمَا ، ثُمَّ نَمَتْ وَكَثُرَتْ حَتَّى تَرَكَ الصَّلَوَاتِ إلَّا الْجُمُعَةَ ، وَهِيَ تَنْمُو

حَتَّى تَرَكَ الْجُمُعَةَ ،

وَطَفِقَ يَلْقَى الرُّكْبَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَسْأَلُهُمْ عَنْ الْأَخْبَارِ ، فَسَأَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ ، فَأُخْبِرَ بِكَثْرَةِ غَنَمِهِ وَبِمَا صَارَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ .

وَنَزَلَتْ فَرَائِضُ الصَّدَقَةِ ، فَبَعَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلَيْنِ عَلَى الصَّدَقَةِ : رَجُلٌ مِنْ جُهَيْنَةَ ، وَآخَرُ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَمُرَّا بِثَعْلَبَةَ وَبِرَجُلٍ آخَرَ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، يَأْخُذَانِ مِنْهُمَا صَدَقَاتِهِمَا ، فَخَرَجَا حَتَّى أَتَيَا ثَعْلَبَةَ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ إِلَّا جِزْيَةٌ ، مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْتُ الْجِزْيَةِ ، مَا أَدْرِي مَا هَذَا ؟ انْطَلِقَا حَتَّى تَفْرُغَا وَعُودَا .

وَسَمِعَ بِهِمَا السُّلَمِيُّ ، فَعَمَدَ إِلَى خِيَارِ إِبِلِهِ ، فَعَزَلَهَا لِلصَّدَقَةِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُمَا بِهَا ، فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا : مَا يَجِبُ عَلَيْكَ هَذَا ، وَمَا نُرِيدُ أَنْ نَأْخُذَ مِنْكَ هَذَا .

قَالَ : بَلْ فَخُذُوهُ .

(327/343)

فَإِنَّ نَفْسِي بِذَلِكَ طَيِّبَةٌ ، فَأَخَذُوهَا مِنْهُ ، فَلَمَّا فَرَغَا مِنْ صَدَقَاتِهِمَا رَجَعَا حَتَّى مَرَّا بِثَعْلَبَةَ ، فَقَالَ : أَرُونِي كِتَابَكُمَا وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ لَهُمَا كِتَابًا فِي حُدُودِ الصَّدَقَةِ

، وَمَا يَأْخُذَانِ مِنْ النَّاسِ فَأَعْطَيَاهُ الْكِتَابَ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ : مَا هَذِهِ إِلَّا أُخْتُ الْجِزْيَةِ ، فَانْطَلِقَا عَنِّي حَتَّى أَرَى رَأْيِي .

فَأَتَيَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا رَآهُمَا قَالَ : يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمَا ، وَدَعَا لِلسُّلَمِيِّ بِالْبَرَكَةِ ، فَأَخْبَرَاهُ بِالَّذِي صَنَعَ ثَعْلَبَةُ ، وَالَّذِي صَنَعَ السُّلَمِيُّ ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ الْآيَةَ ؛ وَعِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ أَقَارِبِ ثَعْلَبَةَ ، فَخَرَجَ حَتَّى

(328/343)

أَتَاهُ ، فَقَالَ : وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَسَأَلَ أَنْ يَقْبَلَ صَدَقَتَهُ مِنْهُ ، فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ صَدَقَتَكَ فَقَامَ يَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : قَدْ أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي فَرَجَعَ ثَعْلَبَةُ إِلَى مَنْزِلِهِ ، وَقُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يَقْبَضْ مِنْهُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَتَى إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَلَمْ يَقْبَضْ مِنْهُ شَيْئًا ، ثُمَّ أَتَى إِلَى عُثْمَانَ بَعْدَ عُمَرَ فَلَمْ يَقْبَضْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَتُوُفِّيَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ﴾ .

وَهَذَا الْحَدِيثُ مَشْهُورٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ : قِيلَ : إنَّهُ عَاهَدَ بِقَلْبِهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ وَهَذَا اسْتِنْبَاطٌ ضَعِيفٌ ، وَاسْتِدْلَالٌ عَلَيْهِ فَاسِدٌ فَإِنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَاهَدَ اللَّهَ بِلِسَانِهِ ، وَلَمْ يَعْتَقِدْ بِقَلْبِهِ الْعَهْدَ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَاهَدَ اللَّهَ بِهِمَا جَمِيعًا ، ثُمَّ أَدْرَكَتْهُ سُوءُ الْخَاتِمَةِ فَإِنَّ الْأَعْمَالَ بِخَوَاتِيمِهَا ، وَالْأَيَّامَ بِعَوَاقِبِهَا .

(329/343)

وَلَفْظُ الْيَمِينِ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ ، وَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ الْقُرْآنِ يَمِينٌ إلَّا مُجَرَّدُ الِارْتِبَاطِ وَالِالْتِزَامِ ، أَمَّا أَنَّهُ بِصِيغَةِ الْقَسَمِ فِي الْمَعْنَى فَإِنَّ اللَّامَ تَدُلُّ عَلَيْهِ ، وَقَدْ أَتَى بِلَامَيْنِ : اللَّامُ الْوَاحِدَةُ الْأُولَى لَامُ الْقَسَمِ بِلَا كَلَامٍ ، وَالثَّانِيَةُ لَامُ الْجَوَابِ ، وَكِلَاهُمَا لِلتَّأْكِيدِ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إنَّهُمَا لَامَا الْقَسَمِ ، وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إلَى ذَلِكَ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ ، وَكَيْفَمَا كَانَ الْأَمْرُ بِيَمِينٍ أَوْ بِالْتِزَامٍ مُجَرَّدٍ عَنْ الْيَمِينِ ، أَوْ بِنِيَّةٍ ، فَإِنَّهُ عَهْدٌ .

وَكَذَلِكَ قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ الْعَهْدَ وَالطَّلَاقَ وَكُلَّ حُكْمٍ يَنْفَرِدُ بِهِ الْمَرْءُ وَلَا يَفْتَقِرُ فِي عَقْدِهِ إلَى غَيْرِهِ ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُهُ مِنْهُ مَا يَلْتَزِمُهُ بِقَصْدِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَلَفَّظْ بِهِ .

قَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : لَا يَلْزَمُ أَحَدًا حُكْمٌ إلَّا بَعْدَ أَنْ يَلْفِظَ بِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَهَبْنَا إلَيْهِ مَا رَوَاهُ أَشْهَبُ عَنْ مَالِكٍ ، وَقَدْ سُئِلَ : إذَا نَوَى رَجُلٌ الطَّلَاقَ بِقَلْبِهِ وَلَمْ يَلْفِظْ بِهِ بِلِسَانِهِ ، يَلْزَمُهُ ذَلِكَ أَمْ لَا ؟ فَقَالَ يَلْزَمُهُ ، كَمَا يَكُونُ مُؤْمِنًا بِقَلْبِهِ ، وَكَافِرًا بِقَلْبِهِ .

وَهَذَا أَصْلٌ بَدِيعٌ ، وَتَحْرِيرُهُ أَنْ يُقَالَ عَقْدٌ لَا يَفْتَقِرُ الْمَرْءُ فِيهِ إلَى غَيْرِهِ فِي الْتِزَامِهِ ، فَانْعَقَدَ عَلَيْهِ

بِنِيَّةٍ .

أَصْلُهُ الْإِيمَانُ وَالْكُفْرُ .

(330/343)

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي كِتَابِ الْإِنْصَافِ أَحْسَنَ بَيَانٍ ، فَلْيُنْظَرْ هُنَاكَ إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ أَشَرْنَا إلَى هَذَا الْغَرَضِ قَبْلَ هَذَا بِمِرْمَاةٍ مِنْ النَّظَرِ تُصِيبُهُ ، وَهَذَا يُعَضِّدُهُ وَيُقَوِّيهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إنْ كَانَ نَذْرًا فَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ وَاجِبٌ مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ ، وَتَرْكُهُ مَعْصِيَةٌ .

وَإِنْ كَانَتْ يَمِينًا فَلَيْسَ الْوَفَاءُ بِالْيَمِينِ بِاتِّفَاقٍ ، بَيْدَ أَنَّ الْمَعْنَى فِيهِ [إنْ كَانَ نَذَرَ الرَّجُلُ أَوْ] إنْ كَانَ فَقِيرًا لَا يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ فَرْضُ الزَّكَاةِ ، فَسَأَلَ اللَّهَ مَالًا يَلْتَزِمُ فِيهِ مَا أَلْزَمَهُ مِنْ الصَّدَقَةِ ، وَيُؤَدِّي

مَا تَعَيَّنَ عَلَيْهِ فِيهِ مِنْ الزَّكَاةِ ، فَلَمَّا آتَاهُ اللَّهُ مَا سَأَلَ تَرَكَ مَا الْتَزَمَ مِمَّا كَانَ يَلْزَمُهُ فِي أَصْلِ الدِّينِ لَوْ لَمْ يَلْتَزِمْهُ ، لَكِنَّ التَّعَاطِيَ بِطَلَبِ الْمَالِ لِأَدَاءِ الْحُقُوقِ هُوَ الَّذِي أَوْرَطَهُ ، إذْ كَانَ وَاَللَّهُ أَعْلَمُ بِغَيْرِ نِيَّةٍ خَالِصَةٍ ، أَوْ كَانَ بِنِيَّةٍ لَكِنْ سَبَقَتْ فِيهِ الْبِدَايَةُ الْمَكْتُوبُ عَلَيْهِ فِيهَا الشَّقَاوَةُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : إنْ كَانَ هَذَا الْمُعَاهِدُ عَارِفًا بِاَللَّهِ فَيَفْهَمُ وَجْهَ الْمُعَاهَدَةِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ عَارِفٍ بِاَللَّهِ فَكَيْفَ يَصِحُّ مُعَاهَدَةُ اللَّهِ مَعَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ .

(331/343)

قُلْنَا : إنْ كَانَ وَقْتَ الْمُعَاهَدَةِ عَارِفًا بِاَللَّهِ ، ثُمَّ أَذْهَبَ الْمَعْرِفَةَ سُوءُ الْخَاتِمَةِ فَلَا كَلَامَ ، وَإِنْ كَانَ فِي وَقْتِ الْمُعَاهَدَةِ مُنَافِقًا يُظْهِرُ الْإِيمَانَ وَيُسِرُّ الْكُفْرَ فَإِنْ قُلْنَا : إنَّ الْكُفَّارَ يَعْرِفُونَ اللَّهَ فَالْمُعَاهَدَةُ مَفْهُومَةٌ ، وَإِنْ قُلْنَا : لَا يَعْرِفُونَهُ وَهُوَ الصَّحِيحُ فَإِنَّ حَقِيقَةَ الْمُعَاهَدَةِ عِنْدَ عُلَمَائِنَا مُعَاقَدَةٌ بِعَزِيمَةٍ مُحَقَّقَةٍ بِذِكْرِ اللَّهِ ، فَإِنْ عَاهَدَ اللَّهَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ فَإِنَّمَا ذَلِكَ إذَا ذَكَرَهُ فِي الْمُعَاقَدَةِ فَخَاصٌّ مِنْ خَوَاصِّ أَوْصَافِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَتَحَقَّقْ رَبُّهُ فَيَنْعَقِدُ ذَلِكَ عَلَيْهِ ، وَيَلْزَمُهُ حُكْمُهُ ، وَيَنْفُذُ عَلَيْهِ عِقَابُهُ ؛ لِأَنَّ الْعَقْدَ يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الذِّكْرِ اللَّازِمِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ بَخِلُوا بِهِ ﴾ : اُخْتُلِفَ فِيهِ ؛ فَقِيلَ : الْبُخْلُ مَنْعُ الْوَاجِبِ ، وَالشُّحُّ مَنْعُ الْمُسْتَحَبِّ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ ﴾ إلَى :

﴿ الْقِيَامَةِ ﴾ .

وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ ﴾ .

وَقِيلَ : هُمَا وَاحِدٌ .

وَقَدْ سَبَقَتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ فِي الْمُتَقَدِّمِ مِنْ الْقَوْلِ ، وَمَا حَكَيْنَاهُ هَاهُنَا هُوَ الصَّحِيحُ ، وَعَلَيْهِ تَدُلُّ الْأَحَادِيثُ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِيهَا ، وَظَوَاهِرُ الْقُرْآنِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِيهَا .

(332/343)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ : النِّفَاقُ فِي الْقَلْبِ هُوَ الْكُفْرُ ، وَإِذَا كَانَ فِي الْأَعْمَالِ فَهُوَ مَعْصِيَةٌ ، وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي شَرْحِ الصَّحِيحِ وَالْأُصُولِ ، وَفِيهِ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذَا ائْتُمِنَ خَانَ ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ ﴾ .

رَوَتْهُ الصِّحَاحُ وَالْأَئِمَّةُ ، وَتَبَايَنَ النَّاسُ فِيهِ حِزْقًا ، وَتَفَرَّقُوا فِرَقًا ، بِسَبَبِ أَنَّ الْمَعَاصِيَ بِالْجَوَارِحِ لَا تَكُونُ كُفْرًا عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَلَا فِي دَلِيلِ التَّحْقِيقِ .

وَظَاهِرُ هَذَا الْحَدِيثِ يَقْتَضِي أَنَّهُ إذَا اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ صَحَّ نِفَاقُهُ وَخَلَصَ ، وَإِذَا

كَانَ مِنْهُنَّ وَاحِدَةٌ كَانَتْ فِيهِ مِنْ النِّفَاقِ خَصْلَةٌ ، وَخَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ نِفَاقٌ ، وَعُقْدَةٌ مِنْ الْكُفْرِ كُفْرٌ ، وَعَلَيْهِ يَشْهَدُ ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَالَ فِيهِ مِنْ نَكْثِهِ لِعَهْدِهِ ، وَغَدْرِهِ الْمُوجِبِ لَهُ حُكْمَ النِّفَاقِ ؛ فَقَالَتْ طَائِفَةٌ : إنَّ ذَلِكَ إنَّمَا هُوَ لِمَنْ يُحَدِّثُ بِحَدِيثٍ يَعْلَمُ كَذِبَهُ ، وَيَعْهَدُ بِعَهْدٍ لَا يَعْتَقِدُ الْوَفَاءَ بِهِ ، وَيَنْتَظِرُ الْأَمَانَةَ لِلْخِيَانَةِ فِيهَا .

(333/343)

وَتَعَلَّقُوا فِيمَا ذَهَبُوا إلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ بِحَدِيثٍ خَرَّجَهُ الْبَزَّارُ عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : ﴿ دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : مِنْ خِلَالِ الْمُنَافِقِينَ ثَلَاثٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ .

فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَقِيلَيْنِ ، فَلَقِيَهُمَا عَلِيٌّ فَقَالَ لَهُمَا : مَالِي أَرَاكُمَا ثَقِيلَيْنِ ؟ قَالَا : حَدِيثًا سَمِعْنَاهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مِنْ خِلَالِ الْمُنَافِقِينَ إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ

، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ .

فَقَالَ عَلِيٌّ : أَفَلَا سَأَلْتُمَاهُ ؟ فَقَالَا : هِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ : لَكِنِّي سَأَسْأَلُهُ .

فَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ ، وَهُمَا ثَقِيلَانِ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَا قَالَا : فَقَالَ : قَدْ حَدَّثْتُهُمَا ، وَلَمْ أَضَعْهُ عَلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَضَعُونَهُ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقَ إِذَا حَدَّثَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَكْذِبُ ، وَإِذَا وَعَدَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يُخْلِفُ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَخُونُ ﴾ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : هَذَا لَيْسَ بِمُمْتَنِعٍ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا ضَعْفُ سَنَدِهِ .

وَالثَّانِي أَنَّ الدَّلِيلَ الْوَاضِحَ قَدْ قَامَ عَلَى أَنَّ مُتَعَمِّدَ هَذِهِ الْخِصَالِ لَا يَكُونُ كَافِرًا ، وَإِنَّمَا يَكُونُ كَافِرًا بِاعْتِقَادٍ يَعُودُ إِلَى الْجَهْلِ بِاللَّهِ وَصِفَاتِهِ أَوْ التَّكْذِيبِ لَهُ .

(334/343)

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : إِنَّمَا ذَلِكَ مَخْصُوصٌ بِالْمُنَافِقِينَ زَمَانَ رَسُولِ اللَّهِ .

أَفَادَنِي أَبُو بَكْرٍ الْفِهْرِيُّ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى : ﴿ أَنَّ مُقَاتِلَ بْنَ حَيَّانَ قَالَ خَرَجْتُ زَمَانَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ ، فَلَمَّا كُنْتُ بِالرَّيِّ أُخْبِرْتُ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ بِهَا مُخْتَفٍ مِنْ الْحَجَّاجِ ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ ، فَإِذَا هُوَ فِي نَاسٍ مِنْ أَهْلِ وُدِّهِ .

قَالَ : فَجَلَسْتُ حَتَّى تَفَرَّقُوا .

ثُمَّ قُلْتُ : إِنَّ لِي وَاللَّهِ مَسْأَلَةً قَدْ أَفْسَدَتْ عَلَيَّ عَيْشِي .

فَفَزِعَ سَعِيدٌ ، ثُمَّ قَالَ : هَاتِ .

فَقُلْت : بَلَغَنَا أَنَّ الْحَسَنَ وَمَكْحُولًا وَهُمَا مَنْ قَدْ عَلِمْت فِي فَضْلِهِمَا وَفِقْهِهِمَا فِيمَا يَرْوِيَانِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ ، وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ : إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ .

وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَ فِيهِ ثُلُثُ النِّفَاقِ .

وَظَنَنْت أَنِّي لَا أَسْلَمُ مِنْهُنَّ أَوْ مِنْ

بَعْضِهِنَّ ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ .

قَالَ : فَضَحِكَ سَعِيدٌ ، وَقَالَ : هَمَّنِي وَاَللَّهِ مِنْ الْحَدِيثِ مِثْلُ الَّذِي أَهَمَّكَ .

فَأَتَيْت ابْنَ عُمَرَ وَابْنَ عَبَّاسٍ فَقَصَصْت عَلَيْهِمَا مَا قَصَصْتَ عَلَيَّ ، فَضَحِكَا وَقَالَا : هَمَّنَا وَاَللَّهِ مِنْ الْحَدِيثِ مِثْلُ الَّذِي أَهَمَّكَ .

(335/343)

فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أُنَاسٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إنَّك قَدْ قُلْت : ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُؤْمِنٌ : مَنْ إذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وَإِذَا ائْتُمِنَ خَانَ ، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ فَفِيهِ ثُلُثُ النِّفَاقِ

، فَظَنَنَّا أَنَّا لَمْ نَسْلَمْ مِنْهُنَّ أَوْ مِنْ بَعْضِهِنَّ وَلَنْ يَسْلَمَ مِنْهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ .

قَالَ : فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : مَا لَكُمْ وَلَهُنَّ ؟ إِنَّمَا خَصَصْتُ بِهِ الْمُنَافِقِينَ ، كَمَا خَصَّهُمْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ .

أَمَّا قَوْلِي : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ﴾ لَا يَرَوْنَ نُبُوَّتَكَ فِي قُلُوبِهِمْ ، أَفَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : فَقُلْنَا : لَا .

قَالَ : فَلَا عَلَيْكُمْ ، أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ بُرَآءُ .

وَأَمَّا قَوْلِي : إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، فَذَلِكَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ إِلَى : يَكْذِبُونَ .

أَفَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ؟ قَالَ : فَقُلْنَا : لَا ، وَاَللَّهِ لَوْ عَاهَدْنَا اللَّهَ عَلَى شَيْءٍ لَوَفَّيْنَا بِعَهْدِهِ .

قَالَ : فَلَا عَلَيْكُمْ ، أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ بُرَآءُ .

وَأَمَّا قَوْلِي : إِذَا ائْتُمِنَ خَانَ ، فَذَلِكَ فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ ﴾ إِلَى : ﴿ جَهُولًا ﴾ .

(336/343)

فَكُلُّ مُؤْمِنٍ مُؤْتَمَنٌ عَلَى دِينِهِ ، وَالْمُؤْمِنُ يَغْتَسِلُ مِنْ الْجَنَابَةِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيَصُومُ وَيُصَلِّي فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَالْمُنَافِقُ لَا يَفْعَلُ ذَلِكَ إلَّا فِي الْعَلَانِيَةِ ،

أَفَأَنْتُمْ كَذَلِكَ ؟ قُلْنَا : لَا .

قَالَ : فَلَا عَلَيْكُمْ ، أَنْتُمْ مِنْ ذَلِكَ بُرَآءُ .

قَالَ : ثُمَّ خَرَجْت مِنْ عِنْدِهِ فَقَضَيْت مَنَاسِكِي ، ثُمَّ مَرَرْت بِالْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ ، فَقُلْت لَهُ : حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْك .

قَالَ : وَمَا هُوَ ؟ قُلْت : مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ .

قَالَ : فَحَدِّثْنِي بِالْحَدِيثِ .

قَالَ : فَقُلْت : أَعِنْدَك فِيهِ شَيْءٌ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَ : لَا .

قُلْت : أَلَا أُحَدِّثُك حَدِيثًا حَدَّثَنِي بِهِ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ ، فَحَدَّثْته بِهِ ، فَتَعَجَّبَ مِنْهُ ، وَقَالَ : إنْ لَقِينَا سَعِيدًا سَأَلْنَاهُ عَنْهُ ، وَإِلَّا قَبِلْنَاك .

﴿ قَالَ الْقَاضِي : هَذَا حَدِيثٌ مَجْهُولُ الْإِسْنَادِ ، وَأَمَّا مَعْنَاهُ فَفِيهِ نَحْوٌ مِنْ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ تَخْصِيصُهُ مِنْ عُمُومِهِ ، وَتَحْقِيقُهُ بِصِفَتِهِ ، أَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إذَا جَاءَك الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إنَّك لَرَسُولُ اللَّهِ ﴾ الْآيَةَ ، فَإِنَّهُ كَذِبٌ فِي الِاعْتِقَادِ ، وَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ ﴾ فَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي نَتَكَلَّمُ فِيهَا الْآنَ ،

وَهِيَ مُحْتَمِلَةٌ يُمْكِنُ أَنْ يَصْحَبَهَا الِاعْتِقَادُ ، بِخِلَافِ مَا عَاهَدَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْعَهْدِ .

وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بِنِيَّةِ الْوَفَاءِ حِينَ الْعَهْدِ ، وَطَرَأَ عَلَيْهِ ذَلِكَ بَعْدَ تَحْصِيلِ الْمَالِ .

(337/343)

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ ﴾ .

وَقَوْلُهُ فِيهِ : إنَّ الْمُؤْمِنَ يُصَلِّي فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، وَيَغْتَسِلُ وَيَصُومُ كَذَلِكَ ، فَقَدْ يَتْرُكُ الصَّلَاةَ وَالْغُسْلَ تَكَاسُلًا إذَا أَسَرَّ ، وَيَفْعَلُهَا رِيَاءً إذَا جَهَرَ وَلَا يُكَذِّبُ بِهِمَا ، وَكَذَلِكَ فِي الصَّوْمِ مِثْلُهُ ، وَلَا يَكُونُ مُنَافِقًا بِذَلِكَ ، لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ أَنَّ الْمُنَافِقَ مَنْ أَسَرَّ الْكُفْرَ ، وَالْعَاصِي مَنْ آثَرَ الرَّاحَةَ ، وَتَثَاقَلَ فِي الْعِبَادَةِ .

وَقَالَتْ طَائِفَةٌ : هَذَا فِيمَنْ كَانَ الْغَالِبُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْخِصَالَ .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّهُ لَوْ غَلَبَتْ عَلَيْهِ

الْمَعَاصِي مَا كَانَ بِهَا كَافِرًا مَا لَمْ تُؤَثِّرْ فِي الِاعْتِقَادِ .

وَالَّذِي عِنْدِي أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّ النِّفَاقَ كَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَإِنَّمَا هُوَ الْكُفْرُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدًا لَا يُعْلَمُ مِنْهُ هَذَا ، كَمَا كَانَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْلَمُهُ مِنْهُ النَّبِيُّ ، وَإِنَّمَا هُوَ الْقَتْلُ دُونَ تَأْخِيرٍ ، فَإِنْ ظَهَرَ

ذَلِكَ مِنْ أَحَدٍ فِي زَمَانِنَا فَيَكُونُ كَقَوْلِهِ : ﴿ مَنْ تَرَكَ الصَّلَاةَ فَقَدْ كَفَرَ ، وَأَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ مِنْ مَوَالِيهِ فَقَدْ كَفَرَ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : إنَّ أُخُوَّةَ يُوسُفَ عَاهَدُوا أَبَاهُمْ فَأَخْلَفُوهُ ، وَحَدَّثُوهُ فَكَذَّبُوهُ ، وَائْتَمَنَهُمْ عَلَيْهِ فَخَانُوهُ ، وَمَا كَانُوا مُنَافِقِينَ .

وَقَدْ حَقَّقْنَا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُشْكِلَيْنِ .

(338/343)

تَحْقِيقُهُ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ أَبِي الْحَسَنِ الْبَصْرِيَّ عَالِمٌ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ قَالَ : النِّفَاقُ نِفَاقَانِ : نِفَاقُ الْكَذِبِ ، وَنِفَاقُ الْعَمَلِ ، فَأَمَّا نِفَاقُ الْكَذِبِ فَكَانَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا نِفَاقُ الْعَمَلِ فَلَا يَنْقَطِعُ إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الضَّمِيرَ عَائِدٌ إلَى اللَّهِ تَعَالَى .

وَالثَّانِي : أَنَّهُ عَائِدٌ عَلَى النِّفَاقِ .

عَبَّرَ عَنْهُ بِجَزَائِهِ ، كَأَنَّهُ قَالَ : فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَ جَزَاءَهُ .

وَعَلَى ذِكْرِ هَذِهِ الْآيَةِ أُنَبِّئُكُمْ أَنِّي كُنْت بِمَجْلِسِ الْوَزِيرِ الْعَادِلِ أَبِي مَنْصُورِ بْنِ حُمَيْرٍ عَلَى رُتْبَةِ

بَيَّنَّاهَا فِي كِتَابِ " تَرْتِيبِ الرِّحْلَةِ لِلتَّرْغِيبِ فِي الْمِلَّةِ " ، فَقَرَأَ الْقَارِئُ : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ وَكُنْت فِي الصَّفِّ الثَّانِي مِنْ الْحَلْقَةِ ، فَظَهَرَ أَبُو الْوَفَاءِ عَلِيُّ بْنُ عَقِيلٍ إمَامُ الْحَنْبَلِيَّةِ بِهَا ، وَكَانَ مُعْتَزِلِيَّ الْأُصُولِ ، فَلَمَّا سَمِعْت الْآيَةَ قُلْت لِصَاحِبٍ لِي كَانَ يَجْلِسُ عَلَى يَسَارِي : هَذِهِ الْآيَةُ دَلِيلٌ عَلَى رُؤْيَةِ اللَّهِ فِي الْآخِرَةِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَا تَقُولُ : " لَقِيت فُلَانًا " إلَّا إذَا رَأَتْهُ . فَصَرَفَ وَجْهَهُ أَبُو الْوَفَاءِ الْمَذْكُورُ إلَيْنَا مُسْرِعًا ، وَقَالَ : تَنْتَصِرُ لِمَذْهَبِ الِاعْتِزَالِ فِي أَنَّ [اللَّهَ] لَا يُرَى فِي الْآخِرَةِ ، فَقَدْ قَالَ : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ .

(339/343)

وَعِنْدَك أَنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَرَوْنَ اللَّهَ فِي الْآخِرَةِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا وَجْهَ الْآيَتَيْنِ فِي الْمُشْكِلَيْنِ ، وَتَقْدِيرُ الْآيَةِ : فَأَعْقَبَهُمْ هُوَ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ، فَيَحْتَمِلُ عَوْدُ ضَمِيرِ " يَلْقَوْنَهُ " إلَى ضَمِيرِ الْفَاعِلِ فِي أَعْقَبَهُمْ الْمُقَدَّرُ بِقَوْلِنَا هُوَ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ إلَى النِّفَاقِ مَجَازًا عَلَى تَقْدِيرِ الْجَزَاءِ كَمَا بَيَّنَّاهُ .

.

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ : يُرِيدُ بِهِ تَحْرِيمَ مُخَالَفَةِ الْعَهْدِ وَنَكْثِ الْعَهْدِ كَيْفَمَا تَصَرَّفَتْ حَالُهُ .

رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ نَافِعٍ قَالَ : لَمَّا خَلَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ جَمَعَ ابْنُ عُمَرَ حَشَمَهُ وَوَلَدَهُ ، فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ﴿ يُنْصَبُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وَإِنَّا قَدْ بَايَعْنَا هَذَا الرَّجُلَ عَلَى بَيْعَةِ اللَّهِ وَبَيْعَةِ رَسُولِهِ ؛ وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ غَدْرًا أَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُبَايِعَ رَجُلٌ عَلَى بَيْعَةِ اللَّهِ وَبَيْعَةِ رَسُولِهِ ، ثُمَّ يَنْصِبُ لَهُ الْقِتَالَ ، وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنْكُمْ خَلَعَهُ ، وَلَا بَايَعَ فِي هَذَا الْأَمْرِ إلَّا كَانَتْ الْفَيْصَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ .

(340/343)

وَقَالَ ابْنُ خَيَّاطٍ : إنَّ بَيْعَةَ عَبْدِ اللَّهِ لِيَزِيدَ كَانَتْ كُرْهًا ، وَأَيْنَ يَزِيدُ مِنْ ابْنِ عُمَرَ ، وَلَكِنْ رَأَى بِدِينِهِ وَعِلْمِهِ التَّسْلِيمَ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالْفِرَارَ عَنْ التَّعَرُّضِ لِفِتْنَةٍ فِيهَا مِنْ ذَهَابِ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ مَا لَا يَفِي بِخَلْعِ يَزِيدَ .

وَلَوْ تَحَقَّقَ أَنَّ الْأَمْرَ يَعُودُ بَعْدَهُ فِي نِصَابِهِ ، فَكَيْفَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ ؟ وَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ فَتَفَهَّمُوهُ وَالْتَزِمُوهُ تَرْشُدُوا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ : دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ مَنْ قَالَ : إنْ مَلَكْت كَذَا فَهُوَ صَدَقَةٌ ، أَوْ عَلَيَّ صَدَقَةٌ ، إنَّهُ يَلْزَمُهُ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ لَا يَلْزَمُهُ ذَلِكَ ، وَالْخِلَافُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلُهُ ، وَكَذَلِكَ فِي الْعِتْقِ ، إلَّا أَنَّ أَحْمَدَ

بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ : إنَّهُ يَلْزَمُ ذَلِكَ فِي الْعِتْقِ ، وَلَا يَلْزَمُ فِي الطَّلَاقِ .

وَظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْنَاهُ خِلَافًا لِلشَّافِعِيِّ ، وَتَعَلَّقَ الشَّافِعِيُّ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَا طَلَاقَ قَبْلَ نِكَاحٍ ، وَلَا نَذْرَ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ ﴾ .

وَسَرَدَ أَصْحَابُهُ فِي هَذَا الْبَابِ أَحَادِيثَ كَثِيرَةً لَمْ يَصِحَّ شَيْءٌ مِنْهَا ، فَلَا مُعَوَّلَ عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إلَّا ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالْمَعَانِي مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَنَا .

وَقَدْ حَقَّقْنَا الْمَسْأَلَةَ بِطُرُقِهَا فِي كِتَابِ التَّخْلِيصِ .

(341/343)

وَأَمَّا أَحْمَدُ فَزَعَمَ أَنَّ الْعِتْقَ قُرْبَةٌ ، وَهِيَ تَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ بِالنَّذْرِ ، بِخِلَافِ الطَّلَاقِ فَإِنَّهُ تَصَرُّفٌ فِي مَحَلِّهِ ، وَهُوَ لَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ .

وَقَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنْ كَانَ الطَّلَاقُ لَا يَثْبُتُ فِي الذِّمَّةِ فَإِنَّ الْقَوْلَ يَنْعَقِدُ مِنْ الْمُتَكَلِّمِ إذَا صَادَفَ مَحَلًّا ، وَرَبَطَهُ بِمِلْكٍ ، كَمَا لَوْ قَالَ رَجُلٌ لِامْرَأَتِهِ : إنْ دَخَلْت الدَّارَ فَأَنْتِ طَالِقٌ ، فَإِنَّ الْقَوْلَ يَنْعَقِدُ وَيَصِحُّ وَيَلْزَمُ ، وَإِذَا دَخَلَتْ الدَّارَ وَقَعَ الطَّلَاقُ بِالْقَوْلِ السَّابِقِ لَهُ ، اللَّازِمُ الْمُنْعَقِدُ ، الْمُضَافُ إلَى مَحَلٍّ صَحِيحٍ تَصِحُّ إضَافَةُ الطَّلَاقِ إلَيْهِ ، وَهِيَ الزَّوْجَةُ ؛ فَكَذَلِكَ إذَا قَالَ لَهَا : إذَا تَزَوَّجْتُكِ فَأَنْتِ طَالِقٌ ، وَإِذَا مَلَكْت هَذَا الْعَبْدَ فَهُوَ حُرٌّ ؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ التَّصَرُّفَ إلَى

مَحَلِّهِ فِي وَقْتٍ يَصِحُّ وُقُوعُهُ فِيهِ ؛ فَيَلْزَمُهُ كَمَا لَوْ قَالَ لِزَوْجَتِهِ : إذَا دَخَلْت الدَّارَ فَأَنْتِ طَالِقٌ ، أَوْ قَالَ لِعَبْدِهِ : إذَا دَخَلْت الدَّارَ فَأَنْتَ حُرٌّ .

(342/343)

الْمَسْأَلَةُ الْعَاشِرَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ : حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، وَصَرَّحَ بِنِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ؛ فَلِذَلِكَ لَمْ تُقْبَلْ صَدَقَاتُهُمْ ؛ لِأَنَّ صِحَّةَ الْإِيمَانِ شَرْطٌ لِقَبُولِ الصَّدَقَةِ وَالصَّلَاةِ وَسَائِرِ الْأَعْمَالِ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ وَلَا عُثْمَانُ ؛ اقْتِدَاءً بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعِلْمِهِ بِسَرِيرَتِهِ ، وَاطِّلَاعِهِ عَلَى بُنَيَّاتِ صَدْرِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(343/343)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فأعقبهم ﴾

أي : صيَّر عاقبة أمرهم النفاق .

وفي الضمير في "أعقبهم" قولان .

أحدهما : أنها ترجع إلى الله ، فالمعنى : جازاهم الله بالنفاق ، وهذا قول ابن عباس ، ومجاهد .

والثاني : أنها ترجع إلى البخل ، فالمعنى : أعقبهم بخلُهم بما نذروا نفاقاً ، قاله الحسن . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(344/343)

وقال القرطبى فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ قال قتادة : هذا رجل من الأنصار قال : لئن رزقني الله شيئاً لأؤدّين فيه حقّه ولأتصدقنّ ؛ فلما آتاه الله ذلك فعل ما نُصّ عليكم ،

فاحذروا الكذب فإنه يؤدّي إلى الفجور .

وروى علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة الباهِلي : " أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري (فسماه) قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : ادْعُ الله أن يرزقني مالاً .

فقال عليه السلام ؛ "وَيْحَك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه" .

ثم عاود ثانياً فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أمَا ترضى أن تكون مثل نبيّ الله لو شئتُ أن تسير معي الجبال ذهباً لسارت" .

فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوتَ الله فرزقني مالاً لأعطينّ كلّ ذِي حقّ حقَّه .

فدعا له النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فاتخذ غنماً فنَمَت كما تَنْمِي الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها ونزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ، وترك ما سواهما .

ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تَنَمِي حتى ترك الجمعة أيضاً ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا وَيْحَ ثعلبة" ثلاثاً .

ثم نزل ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ .

فبعث صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة ، وقال لهما : "مرّا بثعلبة وبفلان رجل من بني سُليم فخذا صدقاتهما" .

فأتيا ثعلبة وأقرآه كتاب رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما هذه إلا أُخت الجزية !

انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا " الحديث ، وهو مشهور .

وقيل : سبب غناء ثعلبة أنه ورِث ابن عم له .

قال ابن عبد البر : قيل إن ثعلبة بن حاطب هو الذي نزل فيه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ الآية ؛ إذ منع الزكاة ، فالله أعلم .

(345/343)

وما جاء فيمن شاهد بدراً يعارضه قوله تعالى في الآية : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : 77] الآية .

قلت : وذُكر عن ابن عباس في سبب نزول الآية أن حاطب بن أبي بَلْتَعة أبطأ عنه ماله بالشام ، فحلف في مجلس من مجالس الأنصار : إن سَلِم ذلك لأتصدقنّ منه ولأصِلنّ منه . فلما سَلِم بَخِل بذلك فنزلت .

قلت : وثعلبة بَدْرِي أنصاري وممن شهد الله له ورسوله بالإيمان ؛ حسب ما يأتي بيانه في أوّل الممتحنة ؛ فما روي عنه غير صحيح .

قال أبو عمر : ولعل قول من قال في ثعلبة أنه مانع الزكاة الذي نزلت فيه الآية غير صحيح ، والله أعلم .

وقال الضحاك : إن الآية نزلت في رجال من المنافقين نَبْتَل بن الحارث وجَدّ بن قيس ومُعَتِّب بن قشير .

قلت : وهذا أشبه بنزول الآية فيهم ؛ إلا أن قوله ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ يدلّ على أن الذي عاهد الله لم يكن منافقاً من قبل ، إلا أن يكون المعنى : زادهم نفاقاً ثبتوا عليه إلى الممات ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ على ما يأتي .

الثانية قال علماؤنا : لما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ احتمل أن يكون عاهد الله بلسانه ولم يعتقده بقلبه .

واحتمل أن يكون عاهد الله بهما ثم أدركته سوء الخاتمة ؛ فإن الأعمال بخواتيمها والأيام بعواقبها .

و"من" رفع بالابتداء والخبر في المجرور .

ولفظ اليمين ورد في الحديث وليس في ظاهر القرآن يمين إلا بمجرد الارتباط والالتزام ، أما إنه في صيغة القسم في المعنى فإن اللام تدلّ عليه ، وقد أتى بلامين الأُولى للقسم والثانية لام الجواب ، وكلاهما للتأكيد .

ومنهم من قال : إنهما لاما القسم ؛ والأول أظهر ، والله أعلم .

الثالثة العهد والطلاق وكل حكم ينفرد به المرء ولا يفتقر إلى غيره فيه فإنه يلزمه منه ما يلتزمه بقصده وإن لم يلفظ به ؛ قاله علماؤنا .

وقال الشافعيّ وأبو حنيفة : لا يلزم أحداً حكم إلا بعد أن يلفظ به ؛ وهو القول الآخر لعلمائنا .

ابن العربيّ : والدليل على صحة ما ذهبنا إليه ما رواه أشهب عن مالك ، وقد سئل : إذا نوى الرجل الطلاق بقلبه ولم يلفظ به بلسانه فقال : يلزمه ؛ كما يكون مؤمناً بقلبه ، وكافراً بقلبه .

قال ابن العربيّ : وهذا أصل بديع ، وتحريره أن يقال .

عَقْدٌ لا يفتقر فيه المرء إلى غيره في التزامه فانعقد عليه بنيّة .

أصله الإيمان والكفر .

قلت : وحجة القول الثاني ما رواه مسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به " ورواه الترمذيّ وقال : حديث حسن صحيح ، والعمل على هذا عند أهل العلم أن الرجل إذا حدّث نفسه بالطلاق لم يكن شيئاً حتى يتكلم به .

قال أبو عمر : ومن اعتقد بقلبه الطلاق ولم ينطق به لسانه فليس بشيء .

هذا هو الأشهر عن مالك .

وقد روي عنه أنه يلزمه الطلاق إذا نواه بقلبه ؛ كما يكفر بقلبه وإن لم ينطق به لسانه .

والأوّل أصح في النظر وطريق الأثر ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تجاوز الله لأمتي عما وسوست به نفوسُها ما لم ينطق به لسان أو تعمله يد " .

الرابعة إن كان نذراً فالوفاء بالنذر واجب من غير خلاف وتركه معصية .

وإن كانت يميناً فليس الوفاء باليمين واجباً باتفاق .

بَيْدَ أن المعنى فيه إن كان الرجل فقيراً لا يتعيّن عليه فرض الزكاة ؛ فسأل الله ما لا تلزمه فيه الزكاة ويؤدّي ما تعيّن عليه من فرضه ، فلما آتاه الله ما شاء من ذلك ترك ما التزم مما كان يلزمه في أصل الدين لو لم يلتزمه ، لكن التعاطي بطلب المال لأداء الحقوق هو الذي أورطه إذ كان طلبه من الله تعالى بغير نية خالصة ، أو نية لكن سبقت فيه البداية المكتوب عليه فيها الشقاوة .

نعوذ بالله من ذلك .

(347/343)

قلت : ومن هذا المعنى قوله عليه السلام : " إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى فإنه لا يدري ما كُتب له في غيب الله عز وجل من أمنيته " أي من عاقبتها ، فرُبّ أمنية يفتتن بها أو يطغي فتكون سبباً للهلاك دنيا وأخرى ، لأن أمور الدنيا مبهمة عواقبها خطرة غائلتها .

وأما تمني أمور الدِّين والأخرى فتمنيها محمود العاقبة مخضوض عليها مندوب إليها .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ دليل على أن من قال : إن مَلَكْتُ كذا وكذا فهو صدقة فإنه يلزمه ؛ وبه قال أبو حنيفة : وقال الشافعيّ : لا يلزمه والخلاف في الطلاق مثله ، وكذلك في العتق .

وقال أحمد بن حنبل : يلزمه ذلك في العتق ولا يلزمه في الطلاق ؛ لأن العتق قُرْبة وهي تثبت في الذمة بالنذر ؛ بخلاف الطلاق فإنه تصرّف في محل ، وهو لا يثبت في الذّمة .

احتج الشافعيّ بما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا نَذْرَ لابن آدم فيما لا يملك ولا عتق له فيما لا يملك ولا طلاق له فيما لا يملك " لفظ الترمذيّ .

وقال : وفي الباب عن عليّ ومعاذ وجابر وابن عباس وعائشة حديثُ عبد الله بن عمرو حديثٌ حسن ، وهو أحسن شيء روي في هذا الباب .

وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم وغيرهم .

ابن العربيّ : وسرد أصحاب الشافعيّ في هذا الباب أحاديث كثيرة لم يصحّ منها شيء فلا

يعوّل عليها ، ولم يبق إلا ظاهر الآية .

السادسة قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّآ آتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ ﴾ أي أعطاهم .

﴿ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ أي بإعطاء الصدقة وبإنفاق المال في الخير ، وبالوفاء بما ضمنوا والتزموا .

وقد مضى البخل في "آل عمران" .

﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أي عن طاعة الله ﴿ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي عن الإسلام ، أي مظهرون للإعراض عنه .

(348/343)

السابعة قوله تعالى : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ مفعولان ؛ أي أعقبهم الله تعالى نفاقاً في قلوبهم .

وقيل : أي أعقبهم البخل نفاقاً ؛ ولهذا قال : "بَخِلُوا به" .

﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ في موضع خفض ؛ أي يلقون بخلهم ، أي جزاء بخلهم ؛ كما يقال : أنت تلقى غداً عملك .

وقيل : ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي يلقون الله .

وفي هذا دليل على أنه مات منافقاً .

وهو يبعد أن يكون المنزّل فيه ثعلبة أو حاطب ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لعمر : "

وما يدريك لعلّ الله اطلّع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

وثعلبة وحاطب ممن حضر بدراً وشهدها .

﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ كذبهم نقضهم العهد وتركهم الوفاء بما التزموه من ذلك .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ نِفَاقاً ﴾ النفاق إذا كان في القلب فهو الكفر .

فأما إذا كان في الأعمال فهو معصية .

قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " أربع من كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا ائتمن خان وإذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " خرجه البخاريّ .

وقد مضى في "البقرة" اشتقاق هذه الكلمة ، فلا معنى لإعادتها .

واختلف الناس في تأويل هذا الحديث ؛ فقالت طائفة : إنما ذلك لمن يحدث بحديث يعلم أنه كذب ، ويعهد عهداً لا يعتقد الوفاء به ، وينتظر الأمانة للخيانة فيها .

وتعلقوا بحديث ضعيف الإسناد : " وأن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه لقي أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خارجين من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما ثقيلان فقال عليّ : ما لي أراكما ثقيلين ؟ قالا حديثاً سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلال المنافقين "إذا حدّث كذب وإذا عاهد غدر وإذا ائتمن خان وإذا وعد

أخلف" .

فقال عليّ : أفلا سألتماه ؟ فقالا : هِبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(349/343)

قال : لكني سأسأله ؛ فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، خرج أبو بكر وعمر وهما ثقيلان ، ثم ذكر ما قالاه ، فقال : "قد حدثتهما ولم أضعه على الوضع الذي وضعاه ولكن المنافق إذا حدّث وهو يحدث نفسه أنه يكذب وإذا وعد وهو يحدّث نفسه أنه يُخلف وإذا ائتمن وهو يحدث نفسه أنه يخون" " ابن العربيّ : قد قام الدليل الواضح على أن متعمّد هذه الخصال لا يكون كافراً ، وإنما يكون كافراً باعتقاد يعود إلى الجهل بالله وصفاته أو التكذيب له تعالى الله وتقدّس عن اعتقاد الجاهلين وعن زيغ الزائغين .

وقالت طائفة : ذلك مخصوص بالمنافقين زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتعلقوا بما رواه مقاتل بن حيان عن سعيد بن جُبَيْر " عن ابن عمرو وابن عباس قالا : أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أناس من أصحابه فقلنا : يا رسول الله ، إنك قلت "ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن إذا حدّث كذب وإذا وعد

أخلف وإذا ائتمن خان ومن كانت فيه خَصْلة منهنّ ففيه ثلث النفاق" فظننا أنا لم نسلم منهن أو من بعضهن ولم يسلم منهن كثير من الناس ؛ قال : فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : "ما لكم ولهن إنما خصصت بهن المنافقين كما خصهم الله في كتابه أما قولي إذا حدث كذب فذلك قوله عز وجل ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون ﴾ الآية أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا .

قال : "لا عليكم أنتم من ذلك براء وأما قولي إذا وعد أخلف فذلك فيما أنزل الله عليّ "وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِن آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ" الآيات الثلاث "أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا ، والله لو عاهدنا الله على شي أوفينا به .

(350/343)

قال : "لا عليكم أنتم من ذلك برآء وأما قولي وإذا ائمتن خان فذلك فيما أنزل الله عليّ ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السماوات والأرض والجبال ﴾ الآية فكلّ إنسان مؤتمن على دينه فالمؤمن يغتسل من الجنابة في السر والعلانية (والمنافق لا يفعل ذلك إلا في العلانية) أفأنتم كذلك" ؟ قلنا لا .

قال : "لا عليكم أنتم من ذلك بُرآء" "

وإلى هذا صار كثير من التابعين والأئمة .

قالت طائفة : هذا فيمن كان الغالب عليه هذه الخصال .

ويظهر من مذهب البخاريّ وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة .

قال ابن العربيّ : والذي عندي أنه لو غلبت عليه المعاصي ما كان بها كافراً ما لم يؤثر في الاعتقاد .

قال علماؤنا : إن إخوة يوسف عليه السلام عاهدوا أباهم فأخلفوه ، وحدّثوه فكذبوه ، وائتمنهم على يوسف فخانوه وما كانوا منافقين .

قال عطاء بن أبي رباح : قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء .

وقال الحسن بن أبي الحسن البصريّ : النفاق نفاقان ، نفاق الكذب ونفاق العمل ؛ فأما نفاق الكذب فكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما نفاق العمل فلا ينقطع إلى يوم القيامة .

وروى البخاريّ عن حذيفة أن النفاق كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأما اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(351/343)

وقال الخازن :

﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم ﴾

يعني فأعقبهم الله نفاقاً بأن صيرهم منافقين يقال أعقبت فلاناً ندامة إذا صارت عاقبة أمره إلى ذلك وقيل معناه أنه سبحانه وتعالى عاقبهم بنفاق قلوبهم ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى حرمهم التوبة إلى يوم القيامة فيوافونه على النفاق فيجازيهم عليه ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ يعني الصدقة والإنفاق في سبيله ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ يعني في قولهم لنصدقن ولنكونن من الصالحين عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد اخلف وإذا ائتمن خان " عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ومن كانت فيه خلة وفي رواية خصلة منهن كان فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر منهن كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا خاصم فجر " قال الشيخ محيي الدين النووي : هذا الحديث مما عده جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال قد توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر

ولا هو منافق مخلد في النار فإن أخوة يوسف عليه السلام جمعوا هذه الخصال وكذا قد يوجد لبعض السلف ولبعض العلماء بعض هذه أو كله .

(352/343)

قال الشيخ : هذا ليس بحمد الله إشكالاً ولكن اختلف العلماء في معناه فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار أن معناه هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في هذه الخصال ويتخلق بأخلاقهم فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه وهذا موجود في صاحب هذه الخصال فيكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ولم يرد النبي (صلى الله عليه وسلم) بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار وقوله (صلى الله عليه وسلم) كان منافقاً خالصاً معناه كان شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال قال بعض العلماء وهذا فيمن كانت هذه الخصال غالبة عليه فأما من ندر ذلك منه فليس ذلك حاصلاً فيه هذا هو المختار في معنى الحديث .

وقال جماعة من العلماء : المراد به المنافقون الذين كانوا في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم) فإنهم حدثوا في أيمانهم فكذبوا وائتمنوا على دينهم فخافوا ووعدوا في أمر الدين ونصره

فأخلفوا وفجروا في خصوماتهم وهذا قول سعيد بن جبير وعطاء بن أبي رباح ورجع إليه الحسن البصري بعد أن كان على خلافه ، وهو مروي عن ابن عباس وابن عمر ورواه أيضاً عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال القاضي عياض : وإليه مال أكثر أئتمنا .

وحكى الخطابي قولاً آخر : إن معناه التحذير للمسلم أن يعتاد هذه الخصال وحكى أيضاً عن بعضهم أن الحديث ورد في رجل بعينه منافق وكان النبي (صلى الله عليه وسلم) لا يواجههم بصريح القول فيقولا فلان منافق وإنما يشير إشارة كقوله (صلى الله عليه وسلم) : " ما بال أقوام يفعلون كذا " والله أعلم .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : ظاهر هذه الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق فيجب على المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(353/343)

وقال أبو السعود فى الآيات :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾

﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ بيانٌ لقبائح بعضٍ آخرَ منهم ﴿ مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ

﴿ لنؤتين الزكاةَ وغيرَها من الصدقات ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : يريد الحج وقرىء بالنون الخفيفة فيهما . قيل : نزلت في ثعلبةَ بنِ حاطب أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله : ادعُ الله أن يرزُقَني مالاً فقال عليه الصلاة والسلام : " يا ثعلبةُ قليلٌ تؤدّي حقه خيرٌ من كثير لا تطيقه " فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطين كلَّ ذي حق حقَّه فدعا له فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدودُ حتى ضاقت بها المدينةُ فنزل وادياً وانقطع عن الجماعة والجمعة فسأل عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقيل : كثُرَ مالُه حتى لا يسعُه وادٍ فقال : "يا ويحَ ثعلبةَ" فبعث مصدّقين لأخذ الصدقات فاستقبلها الناسُ بصدقاتهم ومرا بثعلبةَ فسألاه الصدقة وأقرآه كتابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائضُ فقال : ما هذه إلا أختُ الجزية وقال : ارجعا حتى أرى رأيي وذلك قوله عز وجل : ﴿ فَلَمَّا ءاتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ أي منعوا حق الله منه ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أي أعرضوا عن طاعة الله سبحانه فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه : "يا ويحَ ثعلبةَ" مرتين فنزلت فجاء ثعلبةُ بالصدقة فقال عليه الصلاة والسلام : "إن الله منعني أن أقبل منك" فجعل يحثو التراب على رأسه فقال عليه الصلاة والسلام : "هذا عملُك قد أمرتك فلم تُطعني" فقُبض عليه الصلاة والسلام فجاء بها إلى أبي بكر رضى الله عنه فلم يقبلها وجاء بها إلى عمرَ رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها وهلك في خلافة عثمانَ رضي الله عنه وقيل : نزلت فيه وفي

سهل بن الحارثِ وجَدّ بنِ قيس ومعتب بن قُشير والأول هو الأشهرُ ﴿ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ جملة معترضة أي وهم قوم عادتُهم الإعراضُ

(354/343)

أو حالية أي تولوا بإجرامهم وهم معرضون بقلوبهم .

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أي جعل الله عاقبةَ فعلِهم ذلك ﴿ نِفَاقاً ﴾ راسخاً ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ إلى يوم موتِهم الذي يلقون الله تعالى عنده أو يلقَون فيه جزاءَ عملِهم وهو يومُ القيامة وقيل : فأورثهم البخلَ نفاقاً متمكناً في قلوبهم ولا يلائمه قوله عز وجل : ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ ﴾ أي بسبب إخلافِهم ما وعده تعالى من التصدق والسلاح ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ أي وبكونهم مستمرِّين على الكذب في جميع المقالاتِ التي من جملتها وعدُهم المذكورُ ، وتخصيصُ الكذبِ به يؤدّي إلى تخلية الجمعِ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ عن المزية فإن تسببَ الإعقابِ المذكورِ بالإخلاف والكذب يقضي بإسناده إلى الله عز وجل إذ لا معنى لكونهما سببين لإعقاب البخلِ للنفاق ، والتحقيقُ أنه لما كانت الفاءُ الدالةُ على الترتيب والتفريعِ منبئةً عن ترتب إعقابِ النفاقِ المخلّدِ على أفعالهم المحكيةِ عنهم من المعاهدة بالتصدق والصلاح والبخل والتولي والإعراض وفيها ما لا دخل له في الترتيب

المذكور كالمعاهدة أزيح ما في ذلك من الإبهام بتعيين ما هو المدارُ في ذلك والله تعالى أعلم وقرىء بتشديد الذال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(355/343)

وقال الآلوسى :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) ﴾

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أي جعل الله تعالى عاقبة فعلهم ذلك ﴿ نِفَاقاً ﴾ أي سوء عقيدة وكفراً مضمراً ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي الله تعالى ، والمراد بذلك اليوم وقت الموت ؛ فالضمير المستتر في أعقب لله تعالى وكذا الضمير المنصوب في ﴿ يَلْقَوْنَهُ ﴾ ، والكلام على حذف مضاف ، والمراد بالمفاق بعض معناه وتمامه إظهار الإسلام وإضماء الكفر ، وليس بمراد كما أشرنا إلى ذلك كله ، ونقل الزمخشري عن الحسن .

وقتادة أن الضمير اوول للبخل وهو خلاف الظاهر بل قال بعض المحققين : إنه يأباه قوله تعالى :

﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ إذ ليس لقولنا أعقبهم البخل نفاقاً

بسبب اخلافهم الخ كثير معنى ، ولا يتصور على ما قيل أن يعلل النفاق بالبخل أولاً ثم يعلل بأمرين غيره بغير عطف ، ألا ترى لو قلت : حملني على إكرام زيد علمه لأجل أنه شجاع وجواد كان خلفاً حتى تقول حملني على إكرام زيد علمه وشجاعته وجوده .

وقال الإمام : ولأن غاية البخل ترك بعض الواجبات وهو لا يوجب حصول النفاق الذي هو كفر وجهل فيالقلب كمل في حق كثير من الفساق ، وكون هذا البخل بخصوصه يعقب النفاق والكفر لما فيه من عدم إطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وخلف وعده كما قيل لا يقتضي الأرجحية بل الصحة ولعلها لا تنكر ، واختيار الزمخشري كان لنزغة اعتزالية هي أنه تعالى لا يقضي بالنفاق ولا يخلقه لقاعدة التحسين والتقبيح ، وجوز أن يكون الضمير المنصوب للبخل أيضاً ، والمراد باليوم يوم القيامة ، وهناك مضاف محذوف أي يلقون جزاءه و﴿ مَا ﴾ مصدرية .

(356/343)

والجمع بين صيغتي الماضي والمضارع للإيذان بالاستمرار أي بسبب اخلافهم ما وعدوه تعالى من التصدق والصلاح وبسبب كونهم مستمرين على الكذب في جميع المقالات التي من جملتها وعدهم المذكور ، وقيل : المراد كذبهم فيما تضمنه خلف الوعد فإن الوعد وإن

كان إنشاء لكنه متضمن للخبر فإذا تخلف كان قبيحاً من وجهين الخلف والكذب الضمني ، وفيه نظر لأن تخصيص بذلك يؤدي إلى تخلية الجمع بين الصيغتين عن المزية ، وقد اشتملت الآية على خصلتين من خصال المنافقين ، فقد أخرج الشيخان .

وغيرهما عن أبي هررة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان " ويستفاد من الصحاح آية أخرى له " إذا خاصم فجر " .

واستشكل ذلك بأن هذه الخصال قد توجد في المسلم الذي لا شك فيه ولا شبهة تعتريه بل كثير من علمائنا اليوم متصفون بأكثرها أو بها كلها ، وأجيب بأن المعنى أن هذه الخصال خصال نفاق وصاحبها يشبه المنافقين في التخلق بها ، والمراد بقوله عليه الصلاة والسلام على ما في بعض الروايات الصحيحة

" أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً " أنه كان شديد الشبه بالمنافقين لا أنه كان منافقاً حقيقة .

وقيل : إن الأخبار الواردة في هذا الباب إنما هي فيمن كانت تلك الخصال غالبة عليه غير مكترث بها ولا نادم على ارتكابها ومثله لا يبعد أن يكون منافقاً حقيقة ، وقيل : هي في المنافقين الذين كانوا في زمنه عليه الصلاة والسلام فانهم حدثوا في أيمانهم فكذبوا واؤتمنوا

على دينهم فخانوا ووعدوا في النصرة للحق فأخلفوا وخاصموا ففجروا ، وروي هذا عن ابن عباس .

(357/343)

وابن عمر ، وهو قول سعيد بن جبير ، وعطاء بن أبي رباح ، وإليه رجع الحسن بعد أن كان علا خلافه ، قال القاضي عياض : وإليه مال أكثر أئمتنا ، وقيل : كان ذلك في رجل بعينه وهو خارج مخرج قوله صلى الله عليه وسلم : " ما بال أقوام يفعلون كذا " لأناس مخصوصين منعه كرمه عليه الصلاة والسلام أن يواجههم بصريح القول .

وحكى الخطابي عن بعضهم أن المقصود من الأخبار تحذير المسلم أن يعتاد هذه الخصال ولعله راجع إلى ما أجيب به أولا ، وبالجلمة يجب على المؤمن اجتناب هذه الخصال فإنها في غاية القبح عند ذوي الكمال :

مساو لو قسمن على الغواني . . .

لما أمهرن إلا بالطلاق

وقرى ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ بتشديد الذال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(358/343)

وقال ابن عاشور :

و﴿ فأعقبهم نفاقاً ﴾

جعل نفَاقاً عَقب ذلك أي إثْرَه ولمّا ضمن أعقب معنى أعطى نصب مفعولين والأصل أعقبهم بنفاق .

والضمير المستتر في أعْقَبهم للمذكور من أحوالهم ، أو للبخل المأخوذ من بَخلوا ، فإسناد الإعقاب مجاز عقلي ، أو يعود إلى اسم الله تعالى في قوله ﴿ من عاهد الله ﴾ أي جَعل فعلهم ذلك سبباً في بقاء النفاق في قلوبهم إلى مَوتهم ، وذلك جزاء تمرّدهم على النفاق .

وهذا يقتضي إلى أنّ ثعلبة أو معتِّبا ماتَ على الكفر وأنّ حرصه على دفع صدقته رياء وتقية وكيف وقد عُدّ كلاهما في الصحابة وأوّلهما فيمن شَهد بدراً ، وقيل : هما آخران غيرهما وافقا في الاسم .

فيحتمل أن يكون أطلق النفاق على ارتكاب المعاصي في حالة الإسلام وهو إطلاق موجود في عصر النبوءة كقول حنظلة بن الربيع للنبيء صلى الله عليه وسلم يا رسول الله "نافَق حنظلة" .

وذكر ارتكابه في خاصّته ما ظنّه معصية ولم يغيّر عليه النبي صلى الله عليه وسلم ولكن بَيَّن له أنّ ما توهّمه ليس كما توهّمه ، فيكون المعنى أنّهم أسلموا وبقُوا يرتكبون المعاصي خلاف

حال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد يومىء إلى هذا تنكير ﴿ نفاقاً ﴾ المفيد أنّه نفاق جديد وإلاّ فقد ذُكروا منافقين فكيف يكون النفاق حاصلاً لهم عقب فعلهم هذا .

واللقاء مصادفة الشيءِ شيئاً في مكان واحد .

فمعنى إلى يوم يلقونه إلى يوم الحشر لأنّه يومُ لقاء الله للحساب ، أو إلى يوم الموت لأنّ الموت لقاء الله كما في الحديث " من أحبّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه "

، وفسّره بأنّه محبّة تعرض للمؤمن عند الاحتضار .

وقال بعض المتقدّمين من المتكلّمين : إنّ اللقاء يقتضي الرؤية ، فاستدلّ على ثبوت رؤية الله تعالى بقوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ من سورة الأحزاب (44) فنقَض عليهم الجُبَّائي بقول : إلى يوم يلقونه ﴾ في هذه الآية فإنّ الاتّفاق على أنّ المنافقين لا يَرون الله .

(359/343)

وقد تصدّى الفخر لإبطال النقض بما يصيّر الاستدلال ضعيفاً ، والحقّ أنّ اللقاء لا يستلزم الرؤية .

وقد ذكر في "نفح الطيب" في ترجمة أبي بكر بن العربي قصةً في الاستدلال بآية الأحزاب

على بعض معتزلة الحنابلة ونقض الحنبلي المعتزلي عليه بهذه الآية .

والباء للسببية أو للتعليل ، أي بسبب إخلافهم وعد ربّهم وكذبهم .

وعبّر عن كذبهم بصيغة ﴿ كانوا يكذبون ﴾ لدلالة كان على أنّ الكذب كائن فيهم ومتمكّن منهم ودلالة المضارع على تكرّره وتجدّده .

وفي هذا دلالة على وجوب الحذر من إحداث الأفعال الذميمة فإنّها تفسد الأخلاق الصالحة ويزداد الفساد تمكّناً من النفس بطبيعة التولّد الذي هو ناموس الوجود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(360/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) ﴾

قوله سبحانه : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾ أي : جعل العاقبة لهذا التصرف ؛ أن جعل في قلوبهم النفاق ﴿ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ أي : إلى يوم القيامة . وما دام الله قد قال هذا فمعناه أن الذي عمل مثل هذا العمل ، وسئل الصدقة فمنعها وبخل وتولى وأعرض ، فهذا إعلام من الله أن

هذا الإنسان لا يموت على إيمان أبداً . ولم يمت واحد من هؤلاء على الإيمان ، وقد كان هذا العقاب بسبب أنهم أخلفوا الله ما وعدوه فقال سبحانه : ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ اللّهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ وكذلك جاءهم العقاب بسبب أنهم : ﴿ كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ فكأن الواحد منهم قد كذب كلمة العهد أولاً ، وكذب ثانياً في أنه قال : أهي أخت الجزية ؟ مع أنه يعرف أن الزكاة عن المال هي ركن من أركان الإسلام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(361/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) ﴾

أعقبهم ببخلهم نفاقاً في قلوبهم ، ويصحُّ أعقبهم الله نفاقاً في قلوبهم ، وفي الجملة : مَنْ نَقَضَ عهده في نفسه رفض الودَّ من أصله ، وكلُّ من أظهر في الجملة خيراً واستبطن شراً فقد نافق

بقسطه . والمنافق في الصف الأخير في دنياه ، وفي الدَرْكِ الأسفل من النار في عقباه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 48 ﴾

(362/343)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت المعاهدة سبباً للإغناء في الظاهر ، وكان ذلك ربما كان مظنة لأن يتوهم من لا علم له أن ذلك لخفاء أمر البواطن عليه سبحانه ، وكان الحكم هنا وارداً على القلب بالنفاق الذي هو أقبح الأخلاق مع عدم القدرة لصاحبه على التخلص منه ، كان ذلك أدل دليل على أنه تعالى أعلم بما في كل قلب من صاحب ذلك القلب ، فعقب ذلك بالإنكار على من لا يعلم ذلك والتوبيخ له والتقريع فقال : ﴿ ألم يعلموا أن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يعلم سرهم ﴾ وهو ما أخفته صدورهم ﴿ ونجواهم ﴾ أي ما فاوض فيه بعضهم بعضاً ، لا يخفى عليه شيء منه ﴿ وأن الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ علام الغيوب ﴾ أي كلها ، أي ألم يعلموا أنه تعالى لا يخادع لعلمه بالعواقب فيخشوا

عاقبته فيوفوا بعهده ، وفائدة الإعطاء مع علمه بالخيانة إقامة الحجة ؛ قال أبو حيان : وقرأ علي وأبو عبد الرحمن والحسن ﴿ ألم تعلموا ﴾ بالتاء ، وهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير – انتهى .

وفائدة الالتفات الإشارة إلى أن هذا العلم إنما ينفع من هيىء للإيمان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 364 ﴾

(363/343)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾

السر ما ينطوي عليه صدورهم ، والنجوى ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجوة وهو الكلام الخفي كأن المتناجيين منعا إدخال غيرهما معهما وتباعدا من غيرهما ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً ﴾ [مريم : 52] وقوله : ﴿ فَلَمَّا استيأسوا مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّا ﴾ [يوسف : 80] وقوله : ﴿ فَلاَ تتناجوا بالإثم والعدوان . . . وتناجوا بالبر والتقوى ﴾ [المجادلة : 9] وقوله : ﴿ إِذَا ناجيتم الرسول فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ

نجواكم صَدَقَةً ﴾ [المجادلة : 12] .

إذا عرفت الفرق بين السر والنجوى ، فالمقصود من الآية كأنه تعالى قال : ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم فكيف يتجرؤن على النفاق الذي الأصل فيه الاستسرار والتناجي فيما بينهم مع علمهم بأنه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر ، وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر ؟

ثم قال : ﴿ وَأَنَّ الله علام الغيوب ﴾ والعلام مبالغة في العالم ، والغيب ما كان غائباً عن الخلق .

والمراد أنه تعالى ذاته تقتضي العلم بجميع الأشياء .

فوجب أن يحصل له العلم بجميع المعلومات ، فيجب كونه عالماً بما في الضمائر والسرائر ، فكيف يمكن الاخفاء منه ؟ ونظير لفظ علام الغيوب ههنا قول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ أَنتَ علام الغيوب ﴾ [المائدة : 116] فأما وصف الله بالعلامة فإنه لا يجوز لأنه مشعر بنوع تكلف فيها يعلم والتكلف في حق الله محال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 115 ﴾

(364/343)

وقال السمرقندى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾

قال مقاتل : نزلت هذه الآية في أصحاب العقبة حين هموا بما لم ينالوا وهذا عطف على قوله : ﴿ لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ . ﴿ وَأَنَّ اللهَ علام الغيوب ﴾ ، أي علم غيب كل شيء مما هموا به . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(365/343)

وقال الثعلبى :

قول الله عزّ وجلّ ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ ؟

عن مسروق عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خصم فجر " .

الأشعث عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كُنَّ فيه فهو منافق وإن صلّى وصام وزعم أنه مؤمن . إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، إذا أؤتمن

خان " .

وقال عبد الله بن مسعود اعتبروا المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، أنزل الله تصديق ذلك في كتابه ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ ﴾ إلى قوله ﴿ كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ ، وهذا خبر صعب الظاهر . فمن لم يعلم تأويله عظم خطؤه وتفسيره .

أخبرني شيخي الحسن بن محمد بن الحسن بن جعفر ، قال : أخبرني أبي عن جدي الحسين بن جعفر ، قال : حدّثنا محمد بن يزيد السلمي ، قال : حدّثنا عمار بن قيراط عن بكير بن معروف عن مقاتل بن حيان قال : كنت على قضاء سمرقند فقرأت يوماً حديث المقبري عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كُنّ فيه فهو منافق : إذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف " .

(366/343)

فتوزع فيه فكري وانقسم قلبي وخفت على نفسي وعلى جميع الناس وقلت من ينجو من هذه الخصال ؟ [فأخللت] بالقضاء وأتيت بخارى وسألت علماءها فلم أجد فرجاً ، فأتيت مرو فلم أجد فرجاً ، فأتيت نيشابور فلم أجد عند علمائها فرجاً ، فبلغني أن شهر بن حوشب بجرجان فأتيته وعرضت عليه قصتي وسألت عن الخبر ، فقال لي : لم [أكن]

أنا [حين] سمعت هذا الخبر كالحبة على المقلاة خوفاً فأدركْ سعيد بن جبير فأنه متولد بالريّ فاطلبه وسله لعلك تجد لي ولك ، وسمعت أن عنده فرجاً ، فأتيت الري وطلبت سعيداً فأتيته وعرضت عليه القصة وسألته عن معنى الخبر .

(367/343)

فقال : أنا كذلك خائف على نفسي منذ بلغني هذا الخبر ، وأنا خائف عليك وعلى نفسي من هذه الخصال : ولقد قاسيت وعانيت سفراً طويلاً وبلاياً فعليك بالحسن البصري فإني أرجو أنك تجد عنده لي ولك وللمسلمين فرجاً ، فأتيت البصرة وطلبت الحسن وقصصت عليه القصة بطولها ، فقال رحم الله شهراً قد بلغها النصف من الخبر ولم يبلغهما النصف ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال هذا الخبر شغل قلوب أصحابه (وهابوا) أن يسألوه ، فأتوا فاطمة وذكروا لها شغل قلوبهم بالخبر ، فأتت فاطمة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته شغل قلوب أصحابه ، فأمر سلمان فنادى الصلاة جامعة ، فلمّا اجتمعوا صعد المنبر فقال : " يا أيها الناس أما إنّي كنت قلت : ثلاث من كُنّ فيه فهو منافق : إذا حدّث كذب ، وإذا أؤتمن خان ، وإذا وعد أخلف ، ما عنيتكم بها ، إنّما عنيت بها المنافقين ، إنما قولي : إذا حدّث كذب فإن المنافقين أتوني وقالوا لي : والله إن

إيماننا كإيمانك وتصديق قلوبنا كتصديق قلبك ، فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ المنافقون قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ الله ﴾ [المنافقون : 1] الآية ، وأما قولي : إذا أؤتمن خان : فإن الأمانة الصلاة والدين كلّه أمانة ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ المنافقين يُخَادِعُونَ الله وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قاموا إِلَى الصلاة قَامُواْ كسالى يُرَآءُونَ الناس وَلاَ يَذْكُرُونَ الله إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : 142] وفيهم قال : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الذين هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون : 4-5] وأما قولي : إذا وعد أخلف ، فإنّ ثعلبة بن حاطب أتاني فقال : إني فقير ولي غنيمات فادع الله أن يبارك فيهن ، فدعوت الله فنمتْ وزادت حتى ضاقت الفجاج بها ، فسألته الصدقات فأبى عليّ وبخل بها ، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ الله ﴾ إلى قوله ﴿ بِمَآ أَخْلَفُواْ الله

(368/343)

مَا وَعَدُوهُ ﴾ " . فسُرّ أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكبّروا وتصدّقوا بمال عظيم .

وروى القاسم بن بشر عن أُسامة عن محمد [المخرمي] قال : سمعت الحسن يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كن فيه فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه

مسلم : [من] إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان "

فقال الحسن : يا أبا سعيد والله لئن كان لرجل عليَّ دين فلقيني فتقاضاني وليس عندي فخفت أن يحبسني ويهلكني فوعدته أن أقضيه رأس الهلال فلم أفعل أمنافق أنا ؟ ! هكذا جاء الحديث .

ثم حدّث عن عبد الله بن عمرو أن أباه لما حضره الموت قال : زوّجوا فلاناً فإني وعدته أن أزوجه ، لا ألقى الله بثلث النفاق ، قال : قلت : يا أبا سعيد ويكون ثلث الرجل منافقاً وثلثاه مؤمناً ؟ قال : هكذا جاء الحديث .

قال محمد : فحججت فلقيت عطاء بن أبي رباح فأخبرته بالحديث الذي سمعته من الحسن وما الذي قلت له عن المنافق وما قال لي : فقال لي أعجزت أن تقول له : أخبرني عن إخوة يوسف ألم يَعِدُوا أباهم فأخلفوه وحدثوه فكذبوه وائتمنهم فخانوه أفمنافقين كانوا ألم يكونوا أنبياء ، أبوهم نبيّ وجدّهم نبيّ ؟

(369/343)

فقلت لعطاء : يا أبا مُحَمّد حَدّثَني بأصل هذا الحديث ، فقال : حَدّثَني جابر بن عبد الله أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال هذا الحديث في المنافقين خاصة الذين حدثوا

النبي صلى الله عليه وسلم فكذبوه وائتمنهم على سرّه فخانوه ووعدوه أن يخرجوا معه إلى الغزو فأخلفوه ، قال : فخرج أبو سفيان من مكة فأتى جبريل فقال : إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " إن أبا سفيان في مكان كذا وكذا فاخرجوا إليه واكتموا " فكتب رجل من المنافقين إليه : إن محمداً يريد بعثكم فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿ لاَ تَخُونُواْ اللهَ والرسول وتخونوا أَمَانَاتِكُمْ ﴾ [الأنفال : 27] وأنزل في المنافقين ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ . قال : إذا أتيت الحسن فاقرأه مني السلام فأخبره أصل هذا الحديث وبما قلت لك .

فقدمت على الحسن وقلت : يا أبا سعيد إن أخاك محمّداً يقرئك السلام ، فأخبرته بالحديث الذي حدث . فأخذ الحسن يدي فأحالها وقال : يا أهل العراق أعجزتم أن تكونوا مثل هذا ، سمع منا حديثاً فلم يقبله حتى استنبط أصله ، صدق عطاء هكذا الحديث في المنافقين خاصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(370/343)

وقال ابن عطية فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري ، وقال الحسن : وفي معتب بن قشير معه ، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أمره " أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله ادع الله أن يجعل لي مالاً فإني لو كنت ذا مال لقضيب حقوقه وفعلت فيه الخير ، فراده رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فعاود فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألا تريد أن تكون مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو دعوت الله أن يسير الجبال معي ذهباً لسارت ، فأعاد عليه حتى دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة ، فتنحى عنها وكثرت غنمه ، فكان لا يصلي إلا الجمعة ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه ، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعث مصدقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم ، فلما بلغوا ثعلبة وقرأ الكتاب قال : هذه أخت الجزية ، ثم قال لهم : دعوني حتى أرى رأيي ، فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه ، قال " ويح ثعلبة " ثلاثاً ، ونزلت الآية فيه ، فحضر القصة قريب لثعلبة فخرج إليه فقال أدرك أمرك ، فقد نزل كذا وكذا ، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرغب أن يؤدي زكاته فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال إن أمرني الله أن لا آخذ زكاتك " ، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر ثم على عمر ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأخذ منه الزكاة ،

فكلهم رد ذلك وأباه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان . وفي قوله تعالى : ﴿ فأعقبهم ﴾ نص المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه ، وقوله : ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق ، ولذلك لم يقبل الخلفاء رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة ،

(371/343)

ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله ، وقرأ الأعمش " لنصدقن " بالنون الثقيلة مثل الجماعة " ولنَكونَن " خفيفة النون ، والضمير الذي في قوله ﴿ فأعقبهم ﴾ يعود على الله عز وجل .

ويحتمل أن يعود على " البخل " المضمن في الآية ، ويضعف ذلك الضمير في ﴿ يلقونه ﴾ ، وقوله ﴿ نفاقاً في قلوبهم ﴾ ، يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا النص والإبقاء عليه لمكان إظهاره الإسلام وتعلقه بما فيه احتمال .

ويحتمل أن يكون قوله ﴿ نفاقاً ﴾ يريد به نفاق معصية وقلة استقامة ، فيكون تقريره صحيحاً ويكون ترك في أول الزكاة عقاباً له ونكالاً .

وهذا نحو ما روي أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز أن فلاناً يمنع الزكاة ، فكتب إليه أن

دعه واجعل عقوبته أن لا يؤدي الزكاة مع المسلمين ، يريد لما يلحقه من المقت في ذلك ، وقرأ الحسن والأعرج وأبو عمرو وعاصم ونافع وسائرهم ﴿ يكذبون ﴾ قرأ أبو رجاء " يكذبون " وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، إذا وعد أخلف وإذا حدث كذب وإذا اؤتمن خان " وفي حديث آخر " وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر " ونحو هذا من الأحاديث ، ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة .

وروي أن عمرو بن العاص لما احتضر قال زوجوا فلاناً فإني قد وعدته لا ألقى الله بثلث النفاق ، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أبي الحسن ، وقال عطاء بن أبي رباح قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين بل كانوا أنبياء ، وهذه الأحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، الذين شهد الله عليهم ، وهذه هي الخصال في سائر الأمة معاص لا نفاق .

(372/343)

قال القاضي أبو محمد : ولا محالة أنها كانت مع التوحيد والإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، معاص لكنها من قبيل النفاق اللغوي ، وذكر الطبري عن فرقة أنها قالت : كان العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاء المنافقون شيئاً نووه في أنفسهم ولم يتكلموا به .

قال القاضي أبو محمد : وهذا فيه نظر ، وقوله : ﴿ ألم يعلموا ﴾ الآية ، لفظ به تعلق من قال في الآية المتقدمة إن العهد كان من المنافقين بالنية لا بالقول ، وقرأ الجمهور " يعلموا " بالياء من تحت ، وقرأ أبو عبد الرحمن والحسن " ألم تعلموا " بالتاء ، من فوق ، وهذه الآية تناسب حالهم وذلك أنها تضمنت إحاطة علم الله بهم وحصره لهم ، وفيها توبيخهم على ما كانوا عليه من التحدث في نفوسهم من الاجتماع على ثلب الإسلام ، وراحة بعضم مع بعض في جهة النبي صلى الله عليه وسلم وشرعه ، فهي تعم المنافقين أجمع ، وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أنها تختص بالفرقة التي عاهدت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(373/343)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألم يعلموا ﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿ أن الله يعلم سرهم ﴾

يعني ما تنطوي عليه صدورهم من النفاق ﴿ ونجواهم ﴾ يعني ويعلم ما يفاوض به بعضهم بعضاً فيما بينهم والنجوى هو الخفي من الكلام يكون بين القوم والمعنى أنهم يعلمون أن الله يعلم جميع أحوالهم لا يخفى عليه شيء منها ﴿ وأن الله علام الغيوب ﴾ وهذا مبالغاً في العلم يعني أن الله عالم بجميع الأشياء فكيف تخفى عليه أحوالهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(374/343)

وقال أبو حيان فى الآيات السابقة :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصَّدقنّ ولنكوننّ من الصالحين ﴾

قال الضحاك : هم نبتل بن الحرث ، وجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، وثعلبة بن حاطب ، وفيهم نزلت الآية .

وقال الحسن ومجاهد : في معتب وثعلبة خرجا على ملأ فقالا ذلك .

وقال ابن السائب : في رجل من بني عمرو بن عوف كان له مال بالشام فأبطأ عنه ، فجهد لذلك جهداً شديداً ، فحلف بالله لئن آتانا من فضله أي من ذلك المال لأصدقن منه ولأصلن ، فآتاه فلم يفعل .

والأكثر على أنها نزلت في ثعلبة ، وذكروا له حديثاً طويلاً وقد لخصت منه : أنه سأل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يدعو الله أن يرزقه مالاً فقيل له : قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه ، فألح عليه ، فدعا الله ، فاتخذ غنماً كثرت حتى ضاقت عنها المدينة ، فنزل وادياً وما زالت تنمو ، واشتغل بها حتى ترك الصلوات ، وبعث إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) المصدق فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، فنزلت هذه الآية .

فأخبره قريب له بها ، فجاء بصدقته إلى الرسول فلم يقبلها ، فلما قبض الرسول أتى أبا بكر فلم يقبلها ، ثم عمر فلم يقبلها ، ثم عثمان فلم يقبلها ، وهلك في أيام عثمان .

وقرأ الأعمش : لنصدقنّ ولنكوننّ بالنون الخفيفة فيهما ، والظاهر والمستفيض من أسباب النزول أنهم نطقوا بذلك ولفظوا به .

وقال معبد بن ثابت وفرقة : لم يتلفظوا به ، وإنما هو شيء نووه في أنفسهم ولم يتكلموا به ، ألم تسمع إلى قوله : ﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ﴾ "من الصالحين" : أي من أهل الصلاح في أموالهم بصلة الرحم والإنفاق في الخير والحج وأعمال البر .

وقيل : من المؤمنين في طلب الآخرة .

بخلوا به أي : بإخراج حقه منه ، وكلُّ بخل أعقب بوعيد فهو عبارة عن منع الحق الواجب .

والظاهر أنّ الضمير في فأعقبهم هو عائد على الله ، عاقبهم على الذنب بما هو أشد منه .

قال الزمخشري : خذلهم حين نافقوا ، وتمكن من قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أنْ يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا الله من التصدق والصلاح وكونهم كاذبين ، ومنه خلف الموعد ثلث النفاق انتهى .

وقوله : خذلهم هو لفظ المعتزلة .

وقال الحسن وقتادة : الضمير في فاعقبهم للبخل ، أي فأورثهم البخل نفاقاً متمكناً في قلوبهم .

وقال أبو مسلم : فأعقبهم أي البخل والتولي والإعراض .

قال ابن عطية : يحتمل أن يكون نفاق كفر ، ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا النص والإبقاء عليه لمكان إظهاره الإسلام ، وتعلقه بما فيه احتمال .

ويحتمل أن يكون نفاق معصية وقلة استقامة ، فيكون تقريره صحيحاً ، ويكون ترك قبول الزكاة منه عقاباً له ونكالاً .

وهذا نحو ما روي أنّ عاملاً كتب إلى عمر بن عبد العزيز أنّ فلاناً يمنع الزكاة ، فكتب إليه : أن دَعه ، واجعل عقوبته أن لا يؤدي الزكاة مع المسلمين ، يريد لما يلحقه من المقت في ذلك .

والظاهر عود الضمير في : يلقونه ، على الله تعالى .

وقيل : يلقون الجزاء .

فقيل : جزاء بخلهم .

وقيل : جزاء أفعالهم .

وقرأ أبو رجاء : يكذبون بالتشديد .

ولفظه : فأعقبهم نفاقاً ، لا تدل ولا تشعر بأنه كان مسلماً ، ثم لما بخل ولم يف بالعهد صار منافقاً كما قال أبو عبد الله الرازي ، لأن المعقب نفاق متصل إلى وقت الموافاة ، فهو نفاق مقيد بغاية ، ولا يدل المقيد على انتفاء المطلق قبله .

وإذا كان الضمير عائداً على الله فلا يكون اللقاء متضمناً رؤية الله لإجماع العلماء على أنّ الكفار لا يرون الله ، فالاستدلال باللقاء على الرؤية من قوله تعالى : ﴿ تحيتهم يوم يلقونه سلام ﴾ ليس بظاهر ، ولقوله : "من حلف على يمين كاذبة ليقطع حق امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان" وأجمعوا على أنّ المراد هنا لقي ما عند الله من العقاب .

ألم يعلموا هذا استفهام تضمن التوبيخ والتقريع .

وقرأ علي وأبو عبد الرحمن والحسن : تعلموا بالتاء ، وهو خطاب للمؤمنين على سبيل التقرير .

وأنه تعالى فاضح المنافقين ، ومعلم المؤمنين أحوالهم التي يكتمونها شيئاً فشيئاً سرهم ونجواهم .

هذا التقسيم عبارة عن إحاطة علم الله بهم .

والظاهر أنّ الآية في جميع المنافقين من عاهد وأخلف وغيرهم ، وخصتها فرقة بمن عاهد وأخلف .

فقال الزمخشري : ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه ، وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية ، وتدبير منعها .

وقيل : أشار بسرهم إلى ما يخفونه من النفاق ، وبنجواهم إلى ما يفيضون به بينهم من تنقيص الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وتعييب المؤمنين .

وقيل : سرهم ما يسار به بعضهم بعضاً ، ونجواهم ما تحدثوا به جهراً بينهم ، وهذه أقوال متقاربة متفقة في المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(377/343)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾

أي المنافقون أو من عاهد الله وقرىء بالتاء الفوقانية خطاباً للمؤمنين فالهمزةُ على الأول للإنكار والتوبيخِ والتهديد أي ألم يعلموا ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي ما أسرُّوا به في أنفسهم وما تناجَوا به فيما بينهم من المطاعن وتسميةِ الصدقةِ جزيةً وغيرِ ذلك مما لا خيرَ فيه ، وسرُّ تقديمِ السر على النجوى سيظهر في قوله سبحانه : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ ﴿ وَأَنَّ الله علام الغيوب ﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ من الأشياء حتى اجترأوا على ما اجترأوا عليه من العظائم ، وإظهارُ اسمِ الجلالةِ في الموقعين لإلقاء الروعةِ وتربيةِ المهابةِ ، وفي إيراد العلم المتعلّق بسرهم ونجواهم بصيغة الفِعلِ الدالِّ على الحدوث والتجدد ، والعلمِ المتعلقِ بالغيوب الكثيرةِ الدائمةِ بصيغة الاسم الدالِّ على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالةِ ما لا يخفى وعلى الثاني لتقرير عِلمِ المؤمنين بذلك وتنبُّههم على أنه تعالى مؤاخِذُهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(378/343)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ أي المنافقون أو من عاهد الله تعالى ، وعن علي كرم الله تعالى وجهه أنه قرأ بالتاء على أنه خطاب للمؤمنين ، وقيل : للأولين على الالتفات ويأباه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الله سِرَّهُمْ ونجواهم ﴾ وجعله التفاتا آخر تكلف ، والمراد من السر على تقدير أن يكون الضمير المنافقين ما أسروه في أنفسهم من النفاق ومن النجوى ما يتناجون به من المطاعن ، وعلى التقدير الآخر المراد من الأول العزم على الاخلاف ومن الثاني تسمية الزكاة جزية ، وتقديم السر على النجوى لأن العلم به أعظم في الشاهد من العلم بها مع ما في تقديمه وتعليق العلم به من تعجيل إدخال الروعة أو السرور على اختلاف القراءتين وسيأتي إن شاء الله تعالى ما ينفعك هنا أيضاً ﴿ وَأَنَّ الله علام الغيوب ﴾ فلا يخفى عليه سبحانه شيء من الأشياء .

والهمزة إما للإنكار والتوبيخ والتهديد أي ألم يعلموا ذلك حتى اجترأوا على ما اجترأوا عليه من العظائم أو للتقرير والتنبيه على أن الله سبحانه مؤاخذهم ومجازيهم بما علم من أعمالهم ، واظهار الاسم الجليل لإلقاء الروعة وتربية المهابة أو لتعظيم أمر المؤاخذة والمجازاة ، وفي إيراد العلم المتعلق بسرهم ونجواهم احلادثين شيئاً فشيئاً بصيغة الفعل الدال على الحدوث

والتجدد والعلم المتعلق بالغيوب الكثيرة بصيغة الاسم الدال على الدوام والمبالغة من الفخامة والجزالة ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(379/343)

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾

أي : ما أسروه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ أي : ما غاب عن العباد .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " لباب النقول " : أخرج الطبراني وابن مردويه وابن أبي حاتم والبيهقي في " الدلائل " بسند ضعيف عن أبي أمامة ، أن ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول الله ! ادع الله أن يرزقني مالاً . قال : < ويحك يا ثعلبة ! قليل تؤدي شكره ، خير من كثير لا تطيقه > . قال : والله لئن آتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه . فدعا له ، فاتخذ غنماً ، فنمت حتى ضاقت عليه أزقة المدينة ، فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ثم يخرج إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة فتنحى بها ، وكان يشهد الصلاة ثم يخرج

إليها ، ثم نمت حتى تعذرت عليه مراعي المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الجمعة ثم يخرج إليها ، ثم نمت ، فتنحى بها ، فترك الجمعة والجماعات ، ثم أنزل الله على رسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ، فاستعمل على الصدقات رجلين ، وكتب لهما كتاباً ، فأتيا ثعلبة ، فأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : انطلقا إلى الناس ، فإذا فرغتم فمروا بي ففعلا ، فقال : ما هذه إلا أخت الجزية ، فانطلقا ، فأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ ﴾ إلى قوله : ﴿ يَكْذِبُونَ ﴾ الحديث .

(380/343)

وأخرج ابن جرير وابن مردويه ، من طريق العوفي عن ابن عباس نحوه ، وفيه أنه جاء بعدُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقته له : < إن الله منعني أن أقبل منك > ، فجعل التراب على رأسه . فقال : < هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني > ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وكذا عمر وعثمان ، ثم إنه هلك في أيام عثمان .

قال الشهاب : مجيء ثعلبة وحثوه التراب ، ليس للتوبة من نفاقه ، بل للعار من عدم قبول زكاته مع المسلمين ، وقوله صلوات الله عليه : < هذا عملك > ، أي : جزاء عملك ،

وهو عدم إعطائه المصدقين ، مع مقالته الشنعاء .

قال الحاكم : إن قيل : كيف لم تقبل صدقته وهو مكلف بالتصدق ؟ أجيب :

بأنه يحتمل أن الله تعالى أمر بذلك ، كيلا يجترئ الناس على نقض العهد ، ومخالفة أمر الله تعالى ، وردّ سعاة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويكون لطفاً في ترك البخل والنفاق .

الثاني : قال بعض المفسرين من الزيدية : ثمرة الآية وسبب نزولها أحكام :

منها : أن الوفاء بالوعد واجب ، إذا تعلق العهد بواجب ، والعهد إن حمل على اليمين بالله ، فذلك ظاهر ، وإن حمل النذر ، ففي ذلك تأكيد لما أوجب الله .

ومنها : أن للإمام أن يفعل مثل ذلك لمصلحةٍ ، أي : يمتنع من أخذ الواجب إذا حصل له وجه شابه الوجهَ الذي حصل في قصة ثعلبة . انتهى .

الثالث : قال السيوطي في " الإكليل " : فيها أن إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق ، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان .

وفيها المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه لقوله : ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً ﴾ واستدل به قوم على أن من حلف إن فعل كذا فلله علي كذا ، أنه يلزمه .

وآخرون على أن مانع الزكاة يعاقب بترك أخذها منه ، كما فعل بمن نزلت الآية فيه . انتهى .

(381/343)

الرابع : قال الرازي : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد ، وخلف الوعد ، يورث النفاق ، فيجب على المسلم أن يبالغ في الإحتراز عنه ، فإذا عاهد الله في أمر فليجتهد في الوفاء به .

ومذهب الحسن البصري رحمه الله أنه يوجب النفاق لا محالة ، وتمسك فيه بهذه الآية ، وبقوله عليه السلام : < ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان > .

الخامس : دل قوله تعالى : ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ على أن ذلك المعاهد مات منافقاً .

قال الرازي : وهذا الخبر وقع مخبره مطابقاً له ، فإنه روي أن ثعلبة أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصدقته فقال : < إن الله تعالى منعني أن أقبل صدقتك > . وبقي على تلك الحالة ، وما قَبِلَ أحدٌ من الخلفاء رضي الله عنهم صدقته حتى مات ، فكان إخباراً عن غيب ، فكان معجزاً .

السادس : الضمير في يلقونه للفظ الجلالة ، والمراد باليوم يوم القيامة ، وله نظائر كثيرة في التنزيل .

وأعرب بعض المفسرين حيث قال : الضمير في يلقونه

إما لله ، والمراد باليوم وقت الموت ، أو للبخل والمراد يوم القيامة والمضاف محذوف ، وهو

الجزاء . انتهى .

واللقاء إذا أضيف إلى الكفار كان لقاءً مناسباً لحالهم من وقوفهم للحساب مع حجبهم عنه تعالى ، لأنهم ليسوا أهلاً لرؤيته ، تقدس اسمه .

وإذا أضيف إلى المؤمنين ، كما في قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ ، كان لُقْياً مناسباً لمقامهم من رؤيته تعالى ، وذلك لما أفصحت عنه آيات أخر من حال الفريقين ، مما يتنزل مثل ذلك عليها .

فمن وقف في بعض الآيات على لفظة ، وأخذ يستنبط منها ، ولم يراع من استعملت فيه ، وأطلقت عليه ، كان ذلك جموداً وتعصباً ، لا أخذاً بيد الحق .

(382/343)

نقول ذلك ردّاً لقول الجبائي : إن اللقاء في هذه الآية لا يفيد رؤيته تعالى ، للإجماع على أن الكفار لا يرونه تعالى ، فلا يفيدها أيضاً في قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ .

وللرازي معه مناقشة من طريق أخرى . وما ذكرناه أمتن . والله أعلم .

السابع : قال الرازي : السر ما ينطوي عليه صدورهم ، والنجوى ما يفاوض فيه بعضهم بعضاً فيما بينهم ، وهو مأخوذ من النجو ، وهو الكلام الخفي ، كأن المتناجيين مَنَعَا إدخال

غيرهما معهما ، وتباعدا من غيرهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 475.473 ﴾

(383/343)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

استئناف لأجل التقرير .

والكلامُ تقرير للمخاطَب عنهم لأنّ كونهم عالمين بذلك معروف لدى كلّ سامع .

والسر ما يخفيه المرء من كلام وما يضمر في نفسه فلا يُطلع عليه الناس وتقدم في قوله ﴿ سراً وعلانية ﴾ في سورة البقرة (274) .

والنجوى : المحادثة بخفاء أي يعلم ما يضمرونه في أنفسهم وما يتحادثون به حديثَ سر لئلا يطلع عليه غيرهم .

وإنّما عطفت النجوى على السرّ مع أنّه أعمّ منها لينبئهم باطّلاعه على ما يتناجَون به من الكيد والطعن .

ثم عَمّم ذلك بقوله : وأن الله علام الغيوب ﴾ أي قوي علمُه لجميع الغيوب .

والغيوب : جمع غيب وهو ما خفي وغاب عن العيان .

وتقدّم قوله : ﴿ الذين يؤمنون بالغيب ﴾ في سورة البقرة (3) . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(384/343)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

والعلم هنا مقصود به معرفة الخبر الذي لم يكن معروفاً قبل ذلك ، وقوله سبحانه : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ فيه همزة الاستفهام ؛ ولم النافية مثل قول الحق سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ﴾ [الفيل : 1]

ونحن نعرف أن الإخبار بين المتكلم والمخاطب له عدة صور : الصورة الأولى ؛ ان يخبر المتكلم المخاطب بما عنده ، وهذا " خبر " . والصورة الثانية : أن لا يخبر المتكلم مخاطبة بالخبر ، بل يجعل المتكلم نفسه يقو الخبر ، مثل قول أحد المحسنين : ألم أحسن إليك ؟ وكان في استطاعته أن يقول " أنا أحسنت إليك " ، فيكون خبراً من جهته ، لكنه يريد أن يعطي للخبر قوة ، فجعل الكلام من المسْتَفهَم منه ، وكأن عرض الأمر مَعْرِض السؤال في معرض

النفي ؛ ثقة في أن المخاطَب لن يجد إلا جواباً واحداً هو : نعم أحسنت إليّ .

إذن : فالخبر إما أن يكون خبراً مجرداً عن النفي ، أو خبراً معه النفي ، أو خبراً معه الاستفهام . وأقوى أنواع الإخبار : الخبر الموجود معه النفي ، والموجود مع النفي الاستفهام ؛ لأن الخبر على الصورة الأولى يكون من المتكلم ، والخبر من المتكلم قابل لأن يكون صادقاً وأن يكون كاذباً . ولكن الاستفهام يقتضي جواباً من المخاطَب ، ولا يجيب المخاطَب إلا بما كان في نفس المتكلم ؛ ولو كان المتكلم يعلم أن المخاطَب قد ينكر فلن يسأله . أو يقول لإنسان : أنا راضي ذمتك ، وهذا القول يعني أن قائله علم أنه لا حق غير هذا ، ومن يدير الكلام في عقله لن يجد إلا أن ما يسمعه هو الحق .

(385/343)

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ وما هو السر ؟ وما هي النحوى ؟ السر : هو ما تكتمه في نفسك ولا تطلع عليه أحداً ، فليس السر هو ما تُسِرُّ به للغير ؛ لأن هذه هي النجوى ، وأصل النجوى البُعْد .

ويقال : فلان بنجوة عن كذا ، أي : بعيد عن كذا . وأصل النجوى أيضاً المكان المرتفع في الجبل ، فكأن المرتفع بالجبل بعيد عن مستوى سطح الأرض . وحين يرغب إنسان أن يكلم

أحداً بكلام لا يسمعه غيرهما ؛ فهو يستأذنه في الابتعاد عن بقية الجلوس ليتكلم معه كما يريد ، أو يُخفض من صوته فلا يسمعه سوى الإنسان الذي يريد أن يهمس له بكلمة ، ولا يسمعها أحد آخر ، ولذلك سموها المناجاة ؛ وهي كلام لا يسمعه القريب ؛ لأنك خفضت صوتك خَفْضاً يخفي على القريب ، فكأنه صار بعيداً .

إذن : فالسر : هو ما احتفظت به في نفسك ، والنجوى : هو ما أسررت به للغير بحيث لا يعلمه من يجالسك .

والذين منعوا الصدقة ، لا بد أنهم اتفقوا على ذلك فيما بينهم ، وأنهم تكلموا في هذا الأمر – منع الصدقة – بعد أن صاروا أغنياء ولهم أموال كثيرة ، وتمردوا على منطق الإسلام مع أنهم كانوا حريصين دائماً أن يظهروا في إسلامهم مظهراً يفوق المسلمين الحقيقيين ، فكانوا دائماً في الصفوف الأولى للصلاة كي يستروا نفاقهم .

وحين يوضح الحق سبحانه وتعالى أنهم أسرّوا في نفوسهم كلاماً ؛ فهذا الإسرار في النفس حين يُخبر به الله ؛ هو هتك لحجاب المكان والزمان معاً ، وأعلم سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما دار في هذا الإسرار ، كما هتك له من قبل حجب الزمان الماضي . وذلك في الأمور التي لم يشهدها ، ولم يسمعها من معلم ، ولم يقرأها في كتاب لأنه أمّي ، فأخبر رسول الله عن أكثر من أمر لم يشهده ولم يسمعه ولم يقرأه .

إذن : من أين جاء بذلك ؟ أعلمه به الحق سبحانه الذي يعلم خُبْأة السموات والأرض ، وهتك له أيضاً حجاب الزمن المستقبل ؛ فعلم صلى الله عليه وسلم الأحداث قبل أن تقع ، وأعلمه إياها مَنْ ملكَ ناصية الزمان ، وملك ناصية المكان ، وملك ناصية الأحداث .

وهذا هو هَتْكُ حجاب الزمن المستقبل ، وهتك سبحانه لرسوله حجاب المكان ، فكان صلى الله عليه وسلم يخبرهم عن شيء في نفوسهم ، فقد أوحى له الحق : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ . . . ﴾ [المجادلة : 8]

بالله عندما يسمع الرجل من هؤلاء لما قاله في نفسه ، ويخبره رسول الله بما قال ، فمن اذلي هتك الحجاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

إن الذي هتك الحجاب لرسول الله هو من يعلم السرّ وأخفى ؛ فلا توجد حجب غائبة عن الله ؛ لأن حجب الغيب إنما تكون على البشر ؛ حجاب ماضٍ ، وحجاب مستقبل ، وحجاب مكان ، وحجاب زمان .

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ أي : أن علم الله ليس مقصوراً على معرفة أمورهم هم ، بل علم الله سرّهم ونجواهم ؛ لأن صفته القيومية ، وأنه علام الغيوب ؛ يعلم غيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وغيب هذا ، وجاءت المبالغة من تكرار علم غيب كل أحد .

إذن : ﴿ عَلاَّمُ الغيوب ﴾ تعني أنه يعلم حتى ما حاولْتَ كتمه وستره ، فقد قال سبحانه :

﴿ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السماوات أَوْ فِي الأرض يَأْتِ بِهَا الله . . . ﴾ [لقمان : 16]

إذن : فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(387/343)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتَاهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُم مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

(388/343)

أخرج الحسن بن سفيان وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والعسكري في الأمثال والطبراني وابن منده والباوردي وأبو نعيم في معرفة الصحابة وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال " جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا . قال : ويحك يا ثعلبة . . . ! أما ترضى أن تكون مثلي ؟ فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي لسارت . قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالاً لأعطين كل ذي حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة . . . ! قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيق شكره . فقال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمَّ ارزقه مالاً . فاتَّجَرَ واشترى غنماً فبورك له فيها ونمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتنحى بها – فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما ينمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالنهار ولا بالليل إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نمت كما ينمو الدود فضاق به مكانه فتنحى به ، فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار . وفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنه ؟ فأخبروه أنه اشترى غنماً ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه بخبره .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويح ثعلبة بن حاطب . . . ! ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات ، وأنزل الله تعالى ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : 103] الآية . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين ، رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سلمة يأخذان الصدقات ، فكتب لهما اسنان الابل والغنم كيف يأخذانها على وجهها ، وأمرهما أن يمرا على ثعلبة بن حاطب وبرجل من بني سليم ، فخرجا فمرا

(389/343)

بثعلبة فسألاه الصدقة . فقال : ارياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية ، انطلقا حتى تفرغا ثم مرا بي . قال : فانطلقا وسمع بهما السليمي فاستقبلهما بخيار إبله فقالا : إنما عليك دون هذا . فقال : ما كنت أتقرب إلى الله إلا بخير مالي ! فقبلاه ، فلما فرغا مرا بثعلبة فقال : أرياني كتابكما . فنظر فيه فقال : ما هذا إلا جزية . انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يكلمهما : ويح ثعلبة بن حاطب . ودعا للسليمي بالبركة ، وأنزل الله ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ الثلاث آيات . قال : فسمع بعض من أقارب ثعلبة فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة . . . ! أنزل الله فيك كذا وكذا . قال : فقدم ثعلبة على رسول

الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى قد منعني أن أقبل منك قال : فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك بنفسك أمرتك فلم تطعني ، فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى .

ثم أتى أبا بكر فقال : يا أبا بكر اقبل مني صدقتي ، فقد عرفت منزلتي من الأنصار . فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلها ؟ ! فلم يقبلها أبو بكر ، ثم ولي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي . وتوسل إليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم . فقال عمر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ ! فأبى أن يقبلها ، ثم ولي عثمان فهلك في خلافة عثمان ، وفيه نزلت ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ [التوبة : 79] قال : وذلك في الصدقة " .

(390/343)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾ وذلك أن رجلاً

كان يقال له ثعلبة من الأنصار ، أتى مجلساً فاشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه وتصدقت منه وجعلت منه للقرابة . فابتلاه الله فأتاه من فضله . فخلف ما وعده ، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده نقص الله شأنه في القرآن .

وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود قال : اعتبروا المنافق بثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وذلك بأن الله تعالى يقول ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمر قال : ثلاث من كن فيه فهو منافق . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان . وتلا هذه الآية ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " آية المنافق ثلاث . إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " .

وأخرج أبو الشيخ والخرائطي في مكارم الأخلاق عن محمد بن كعب القرظي قال : سمعت بالثلاث التي تذكر في المنافق .

إذا ائتمن خان ، وإذا وعد أخلف ، وإذا حدث كذب ، فالتمستها في الكتاب زماناً طويلاً حتى سقطت عليها بعد حين ، وجدنا الله تعالى يذكر فيه ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا

من فضله ﴾ إلى قوله ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ و ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض ﴾ [الأحزاب : 72] إلى آخر الآية ﴿ إذا جاءك المنافقون ﴾ [المنافقون : 1] إلى قوله ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون : 1] .

(391/343)

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا ، فمات ابن عم له فورث منه مالاً فبخل به ولم يف الله بما عاهد عليه ، فأعقبه بذلك نفاقاً إلى أن يلقاه قال : ذلك ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي قلابة قال : مثل أصحاب الأهواء مثل المنافقين كلامهم شتى وجماع أمرهم النفاق ، ثم تلا ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ ﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ [التوبة : 58] ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [التوبة : 61] .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ قال : " اجتنبوا الكذب فإنه باب من النفاق ، وعليكم بالصدق فإنه باب من الإيمان ، وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حدث " أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاء بالتوراة لبني إسرائيل قالت بنو إسرائيل : إن التوراة كثيرة ، وانا لا نفرغ لها فسل لنا جماعاً من الأمر

نحافظ عليه ونتفرغ لمعايشنا . قال : مهلاً مهلاً أي قوم ، هذا كتاب الله وبيان الله ونور الله وعصمة الله . فردوا عليه مثل مقالتهم ، فعل ذلك ثلاث مرات فقال الرب تبارك وتعالى : فإني آمرهم إن هم حافظوا عليهن دخلوا الجنة بهن : أن يتناهوا إلى قسمة مواريثهم ولا يتظالموا فيها ، وأن لا يدخلوا أبصارهم البيوت حتى يؤذن لهم ، وأن لا يطعموا طعاماً حتى يتوضأوا كوضوء الصلاة . فرجع موسى عليه السلام إلى قومه بهن ففرحوا ، ورأوا أن سيقومون بهن ، فوالله إن لبث القوم إلا قليلاً حتى جنحوا فانقطع بهم فلما حدث نبي الله صلى الله عليه وسلم هذا عن بني إسرائيل قال : تكفلوا لي بست أتكفل لكم بالجنة . إذا حدثتم فلا تكذبوا ، وإذا وعدتم فلا تخلفوا ، وإذا ائتمنتم فلا تخونوا ، وغضوا أبصاركم ، وكفوا أيديكم ، وفروجكم " قال قتادة : شداد والله إلا من عصم الله " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(392/343)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78) ﴾

خوَّفَهم بعلمه كما خوَّفهم بفعله في أكثر من موضعٍ من كتابه .

و ﴿ سِرَّهُمْ ﴾ ما لا يطلع عليه غير الله .

و ﴿ نَجْوَاهُمْ ﴾ ما يتسارون بعضهم مع بعض . ويحتمل أن يكونَ ما لنفوسهم عليه إشرافٌ من خواطرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 48 ﴾

(393/343)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الرابع والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/344)

الجزء الرابع والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 79 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 85 ﴾ من نفس السورة

(4/344)

قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أخبر تعالى أنه لم يكفهم كفران نعمة الغنى من غير معاهدة حتى ارتكبوا الكفران بمنع

الواجب مع المعاهدة ، أخبر أنه لم يكفهم أيضاً ذلك حتى تعدوه إلى عيب الكرماء الباذلين بصفة حبهم لربهم ما لم يوجبه عليهم ، فقال تعالى معبراً بصيغة تصليح لجميع ما مضى من أقسامهم إفهاماً لأنهم كلهم كانوا متخلقين بذلك وإن لم يقله إلا بعضهم : ﴿ الذين يلمزون ﴾ أي يعيبون في خفاء ﴿ المطوعين ﴾ أي الذين ليس عليهم واجب في أموالهم فهم يتصدقون ويحبون إخفاء صدقاتهم – بما يشير إليه الإدغام ﴿ من المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان ﴿ في الصدقات ﴾ ولما كان ما مضى شاملاً للموسر والمعسر ، نص على المعسر لزيادة فضله وإشارة إلى أن الحث على قليل الخير كالحث على كثيره فقال عاطفاً على ﴿ المطوعين ﴾ : ﴿ والذين لا يجدون ﴾ أي من المال ﴿ إلا جهدهم ﴾ أي طاقتهم التي أجهدوا أنفسهم فيها حتى بلغوها .

ولما كان اللمز هو العيب ، وهو ينظر إلى الخفاء كالغمز ، ومادته بكل ترتيب تدور على اللزوم ، والمعنى : يلزمون المطوعين عيباً ولا يظهرون ذلك لكل أحد وإنما يتخافتون به فيما بينهم ، وهو يرجع إلى الهزء والسخرية ، سبب عنه قوله : ﴿ فيسخرون منهم ﴾ ولما كان لا شيء أعظم للشخص من أن يتولى العظيم الانتقام له من ظالمه ، قال : ﴿ سخر الله ﴾ أي وهو الذي له الأمر كله ولا أمر لغيره ﴿ منهم ﴾ أي جازاهم على فعلهم بأهل حزبه ، وزادهم قوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ أي بما كانوا يؤلمون القلوب من ذلك وإذا حوققوا عليه دفعوا عن أنفسهم ما يردعهم عنه بالأيمان الكاذبة ، روى البخاري في التفسير عن أبي

مسعود ـ رضى الله عنهم ـ قال : لما أمرنا بالصدقة كنا نتحامل ، فجاء أبو عقيل بنصف صاع ، وجاء إنسان بأكثر منه ، فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء ، فنزلت ﴿ الذين يلمزون ﴾ – الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 364 . 365 ﴾

(5/344)

فصل

قال الفخر :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من أعمالهم القبيحة ، وهو لمزهم من يأتي بالصدقات طوعاً وطبعاً .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ذات يوم وحث على أن يجمعوا الصدقات ، فجاءه عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وقال : كان لي ثمانية آلاف درهم ، فأمسكت لنفسي وعيالي أربعة وهذه الأربعة أقرضتها ربي ، فقال : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت .

قيل : قبل الله دعاء الرسول فيه حتى صالحت امرأته ناضر عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ،

وجاء عمر بنحو ذلك ، وجاء عاصم بن عدي الأنصاري بسبعين وسقاً من تمر الصدقة ، وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، وقال : آجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله ، فأخذت صاعين من تمر ، فأمسكت أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر ربي ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه في الصدقات .

فقال المنافقون على وجه الطعن ما جاؤوا بصدقاتهم إلا رياء وسمعة .

وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر ، والله غني عن صاعه ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، والكلام في تفسير اللمز مضى عند قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصدقات ﴾ والمطوعون المتطوعون ، والتطوع التنفل ، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب ، وسبب إدغام التاء في الطاء قرب المخرج .

قال الليث : الجهد شيء قليل يعيش به المقل ، قال الزجاج : ﴿ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ وجهدهم بالضم والفتح .

قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز والفتح لغيرهم ، وحكى ابن السكيت عنه الفرق بينهما فقال الجهد الطاقة .

تقول هذا جهدي أي طاقتي .

إذا عرفت هذا فالمراد بالمطوعين في الصدقات ، أولئك الأغنياء الذين أتوا بالصدقات الكثيرة وبقوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ أبو عقيل حيث جاء بالصاع من التمر .

ثم حكى عن المنافقين أنهم يسخرون منهم ، ثم بين أن الله تعالى سخر منهم .

واعلم أن إخراج المال لطلب مرضاة الله ، قد يكون واجباً كما في الزكوات وسائر الإنفاقات الواجبة وقد يكون نافلة ، وهو المراد من هذه الآية ، ثم الآتي بالصدقة النافلة قد يكون غنياً فيأتي بالكثير ، كعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان .

وقد يكون فقيراً فيأتي بالقليل وهو جهد المقل ولا تفاوت بين البابين في استحقاق الثواب ، لأن المقصود من الأعمال الظاهرة كيفية النية واعتبار حال الدواعي والصوارف .

فقد يكون القليل الذي يأتي به الفقير أكثر موقعاً عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به الغني .

ثم إن أولئك الجهال من المنافقين ما كان يتجاوز نظرهم عن ظواهر الأمور فعيروا ذلك الفقير الذي جاء بالصدقة القليلة ، وذلك التعيير يحتمل وجوهاً : الأول : أن يقولوا إنه لفقره محتاج إليه ، فكيف يتصدق به ؟ إلا أن هذا من موجبات الفضيلة ، كما قال تعالى :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ على أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : 9] وثانيها : أن يقولوا أي أثر

لهذا القليل ؟ وهذا أيضاً جهل ، لأن هذا الرجل لما لم يقدر إلا عليه فإذا جاء به فقد بذل كل ما يقدر عليه فهو أعظم موقعاً عند الله من عمل غيره ، لأنه قطع تعلق قلبه عما كان في يده من الدنيا ، واكتفى بالتوكل على المولى .

وثالثها : أن يقولوا إن هذا الفقير إنما جاء بهذا القليل ليضم نفسه إلى الأكابر من الناس في هذا المنصب ، وهذا أيضاً جهل ، لأن سعي الإنسان في أن يضم نفسه إلى أهل الخير والدين ، خير له من أن يسعى في أن يضم نفسه إلى أهل الكسل والبطالة .

وأما قوله : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ فقد عرفت القانون في هذا الباب .

وقال الأصم : المراد أنه تعالى قبل من هؤلاء المنافقين ما أظهروه من أعمال البر مع أنه لا يثيبهم عليها ، فكان ذلك كالسخرية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 116.115 ﴾

(7/344)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين ﴾

يعني : يطعنون ويعيبون ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصدقات ﴾ ، وذلك أن النبي صلى الله عليه

وسلم حين أراد أن يخرج إلى غزوة تبوك ، حثَّ الناس على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وزن كل درهم مثقالاً ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم : " أَكْثَرْتَ هَلْ تَرَكْتَ لأَهْلِكَ شَيْئاً " فقال : يا رسول الله ، كان مالي ثمانية آلاف درهم فأما أربعة آلاف درهم فأقرضتها ربي عز وجل ، وأما أربعة آلاف فأمسكتها لنفسي .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بَارَكَ اللهُ لك فِيمَا أَعْطَيْتَ ، وَفِيمَا أَمْسَكْتَ ".

فبارك الله فيه ، حتى إنّه بلغ ماله حين مات أنه طلق إحدى نسائه الثلاث في مرضه ، فصالحوها عن ثلث الثمن لها بثمانين ألف درهم ونيف .

وفي رواية أُخرى ثمانين ألف دينار ونيف .

وجاء عاصم بن عدي بسبعين وسقاً من تمر ، وكل واحد منهم جاء بمقدار طاقته ، حتى جاء أبو عقيل بن قيس بصاع من تمر وقال : آجرت نفسي الليلة بصاعين ، فصاع أقرضته لربي ، وصاع تركته لأهلي فأمره بأن ينثره في الصدقة .

وروي أن امرأة ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمرةٍ واحدة ، فلم ينظر النبي صلى الله عليه وسلم إليها فنزل : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ إلى آخره .

وكان نفر من المنافقين جلوساً يستهزئون فقالوا : لقد تصدق عبد الرحمن وعاصم بن عدي على الرَّب ، فلقد كان الله غنياً عن صاع أبي عقيل ، فنزل : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني : يطعنون المتصدقين الذين يتصدقون بأموالهم وهم عبد الرحمن وعاصم وغيرهما .

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ ، قال أهل اللغة : الجُهْدُ بالضم الطاقة ، والجَهْدُ بالفتح المشقة .

وقال الشعبي : الجُهْدُ هو العسرة يعني : القلة ، والجَهْد بالنصب هو الجَهْدُ في العمل .

(8/344)

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ ، يقول يستهزئون بهم .

﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ ، يعني : يجازيهم جزاء سخريتهم .

وهذا كقوله : ﴿ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طغيانهم يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : 15] ثم قال : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، يعني : وجيع دائم ، فلما نزلت هذه الآية ، جاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله استغفر لنا فنزل : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(9/344)

وقال الثعلبى :

﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

قال أهل التفسير : " حثَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف فجئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله ، فأمسكت أربعة آلاف لعيالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت " .

فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى مات وعنده امرأتين يوم مات فبلغ ثمن مالهما مائة وستون ألف درهم لكل واحدة منهما ثمانون ألفاً ، وتصدّق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وستين وسقاً من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري واسمه الحباب بصاع من تمر وقال : يا رسول الله بتُ ليلتي أجرّ بالجرير أحبلا حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لأهلي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثره في الصدقات ، فلمزهم المنافقون ، وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاّ رياء ، ولقد كان الله ورسوله غنيين عن صاع أبي عقيل ، ولكنه أحبَّ أن يزكي نفسه ليعطي الصدقة فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ ﴾ أي يعيبون ويغتابون المطوعين المتبرعين من المؤمنين في الصدقات .

وقال النضر بن شميل : هو الطيب نفسه في الصدقة يعني عبد الرحمن وعاصم .

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ طاقتهم يعني أبا عقيل . قرأ عطاء والأعرج : جهدهم بفتح الجيم ، وهما لغتان مثل الجهد والجهيد ، والضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغة أهل نجد .

وكان الشعبي يفرق بينهما فيقول الجُهد : في العمل والجَهد في القوة ، وقال القتيبي في الجُهد : الطاقة والجَهد المشقة ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ أو جازاهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

(10/344)

روى ابن عليّة عن الحريري عن أبي العليل قال : " وقف على الحجر رجل فقال : حدثني أبي أو عمّي قال : شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : من يصّدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة " . قال : وعليَّ عمامة لي فنزعت منها لوثاً أو لوثين لأتصدق بها ثم أدركني بما يدرك ابن آدم فعصّبت بها رأسي ، قال : فجاء رجل لا أرى بالبقيع رجلا أقصر قامة ولا أشدّ سواد ولا أَدم منه يقود ناقة لم أرَ بالبقيع ناقة أحسن ولا أجمل منها . فقال : هي وما في بطنها صدقة يا رسول الله ، فألقى إليه بخطامها قال :

فلمزه رجل جالس فقال : والله لِمَ يتصدق بها ولهي خير منه . فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " بل هو خير منك ومنها " ، يقول ذلك ملياً فأنزل الله عزّوجل هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(11/344)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾

قرىء بضم الجيم وفتحها وفيه وجهان :

أحدهما : أنهما يختلف لفظهما ويتفق معناهما ، قاله البصريون .

والثاني : أن معناهما مختلف ، فالجهد بالضم الطاقة ، وبالفتح المشقة ، قاله بعض الكوفيين .

وقيل : كان ذلك في غزاة تبوك نزلت في عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي وأبي عقيل الأراشي وسبب ذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة ليتجهز للجهاد ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال هذا شطر مالي صدقة ،

وجاء عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر وقال : إني آجرت نفسي بصاعين فذهبت بأحدهما إلى عيالي وجئت بالآخر صدقة ، فقال قوم من المنافقين حضروه : أما عبد الرحمن وعاصم فما أعطيا إلا رياءً ، وأما صاع أبي عقيل فالله غني عنه ، فنزلت فيهم هذه الآية .

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنهم أظهروا حمدهم واستبطنوا ذمهم .

والثاني : أنهم نسبوا إلى الرياء وأعلنوا الاستهزاء .

﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنه ما أوجبه عليهم من جزاء الساخرين .

والثاني : بما أمهلهم من المؤاخذة .

قال ابن عباس : وكان هذا في الخروج إلى غزاة تبوك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(12/344)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ الذين يلمزون ﴾

رد على الضمائر في قول ﴿ يكذبون ﴾ [التوبة : 77] و ﴿ ألم يعلموا ﴾ [التوبة : 87] و ﴿ سرهم ونجواهم ﴾ [التوبة : 78] و ﴿ يلمزون ﴾ معناه ينالون بألسنتهم ، وقرأ السبعة " يلمِزون " بكسر الميم ، وقرأ الحسن وأبو رجاء ويعقوب وابن كثير فيما روي عنه " يلمُزون " بضم الميم ، و ﴿ المطوعين ﴾ لفظة عموم في كل متصدق ، والمراد به الخصوص فيمن تصدق بكثير دل على ذلك قوله ، عطفاً على ﴿ المطوعين ﴾ ، ﴿ والذين لا يجدون ﴾ ، ولو كان ﴿ الذين لا يجدون ﴾ قد دخلوا في ﴿ المطوعين ﴾ لما ساغ عطف الشيء على نفسه ، وهذا قول أبي علي الفارسي في قوله عز وجل : ﴿ من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل ﴾ [البقرة : 98] فإنه قال المراد بالملائكة من عدا هذين .

وكذلك قال في قوله : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ [الرحمن : 68] وفي هذا كله نظر ، لأن التكرار لقصد التشريف يسوغ هذا مع تجوز العرب في كلامها ، وأصل ﴿ المطوعين ﴾ المتطوعين فأبدل التاء طاء وأدغم ، وأما المتصدق بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر الروايات " أنه عبد الرحمن بن عوف ، تصدق بأربعة آلاف وأمسك مثلها ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ، بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أنفقت " .

وقيل هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه تصدق بنصف ماله ، وقيل عاصم بن عدي تصدق بمائة وسق ، وأما المتصدق بقليل فهو أبو عقيل حبحاب الأراشي ، تصدق بصاع من تمر وقال يا رسول الله جررت البارحة بالجرير وأخذت صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت بالآخر صدقة .

فقال المنافقون : الله غني عن صدقة هذا ، وقال بعضهم : إن الله غني عن صاع أبي عقيل ، وقيل : إن الذي لمز في القليل أبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك صاحب النبي صى الله عليه وسلم ، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقيل بأربعمائة أوقية من فضة ، وقيل أقل من هذا .

(13/344)

فقال المنافقون : ما هذا إلا رياء ، فنزلت الآية في هذا كله ، وقوله : ﴿ فيسخرون ﴾ معناه يستهزئون ويستخفون ، وهو معطوف على ﴿ يلمزون ﴾ ، واعترض ذلك بأن المعطوف على الصلة فهو من الصلة وقد دخل بين هذا المعطوف والمعطوف عليه قوله ﴿ والذين لا يجدون ﴾ ، وهذا لا يلزم ، لأن قوله ﴿ والذين ﴾ معمول للذي عمل في ﴿ المطوعين ﴾ فهو بمنزلة قوله جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلهما ، وقوله : ﴿ سخر

الله منهم ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب وهي عبارة عما حل بهم من المقت والذل في نفوسهم ، وقوله : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ معناه مؤلم ، وهي آية وعيد محض ، وقرأ جمهور " جُهدهم " بضم الجيم ، وقرأ الأعرج وجماعة معه " جَهدهم " بالفتح ، وقيل هما بمعنى واحد ، وقاله أبو عبيدة ، وقيل هما لمعنيين الضم في المال والفتح في تعب الجسم ، ونحوه عن الشعبي ، وقوله : ﴿ الذين يلمزون ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداء تقديره هم الذين ، ويصح أن يكون ابتداء وخبره ﴿ سخر ﴾ ، وفي ﴿ سخر ﴾ معنى الدعاء عليهم .

ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاء ، ويحتمل أن يكون ﴿ الذين ﴾ صفة جارية على ما قبل كما ذكرت أول الترجمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(14/344)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يلمزون المطوّعين ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنه لما نزلت آية الصدقة ، جاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لَغَنِيٌّ عن صاع هذا ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو مسعود .

والثاني : أن عبد الرحمن بن عوف جاء بأربعين أوقية من ذهب ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام ؛ فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلا رياءً ، وإنْ كان اللهُ ورسولهُ لَغنيَّين عن هذا الصاع ، قاله ابن عباس .

وفي هذا الأنصاري قولان .

أحدهما : أنه أبو خيثمة ، قاله كعب بن مالك .

والثاني : أنه أبو عقيل .

وفي اسم أبي عقيل ثلاثة أقوال .

أحدها : عبد الرحمن بن بِيْجَان ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

ويقال : ابن بِيْحان .

ويقال : سِيْحَان .

وقال مقاتل : هو أبو عقيل بنُ قيس .

والثاني : أن اسمه الحَبْحَاب ، قاله قتادة .

والثالث : الحُبَاب .

قال قتادة : جاء عبد الرحمن بأربعة آلاف ، وجاء عاصم ابن عدي بن العَجلان بمائة وَسق من تمر .

و﴿ يلمزون ﴾ بمعنى : يعيبون و ﴿ المطوِّعين ﴾ أي : المتطوعين ، قال الفراء : أدغمت

التاء في الطاء ، فصارت طاءً مشددة .

والجُهد : لغة أهل الحجاز ، ولغة غيرهم الجَهد .

قال أبو عبيدة : الجهد ، بالفتح والضم سواء ، ومجازه : طاقتهم .

وقال ابن قتيبة : الجُهد : الطاقة ؛ والجَهد : المشقة .

قال المفسرون : عُني بالمطوّعين عبدُ الرحمن ، وعاصم ، وبالذين لا يجدون إلا جهدهم : أبو عقيل .

وقوله : ﴿ سخر الله منهم ﴾ أي : جازاهم على فعلهم .

وقد سبق هذا المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(15/344)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

هذا أيضاً من صفات المنافقين .

قال قتادة : "يَلْمِزُونَ" يعيبون .

قال : وذلك أن عبد الرحمن بن عوف تصدق بنصف ماله وكان مالُه ثمانية آلاف فتصدق

منها بأربعة آلاف .

فقال قوم : ما أعظم رياءه ؛ فأنزل الله : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ .

وجاء رجل من الأنصار بنصف صُبرة من تمره فقالوا : ما أغنى الله عن هذا ؛ فأنزل الله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ الآية .

وخرّج مسلم عن أبي مسعود قال : أمرنا بالصدقة قال : كنا نحامل ، في رواية : على ظهورنا قال : فتصدّق أبو عقيل بنصف صاع .

قال : وجاء إنسان بشيء أكثر منه فقال المنافقون : إن الله لغنيٌ عن صدقة هذا ، وما فعل هذا الآخر إلا رياء : فنزلت : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ .

يعني أبا عقيل .

واسمه الحَبْحاب .

والجُهْد : شيء قليل يعيش به المُقِلّ .

والجُهْد والجَهْد بمعنىً واحد .

وقد تقدّم .

و "يَلْمِزُونَ" يعيبون .

وقد تقدّم و "الْمُطَّوِّعِينَ" أصله المتطوعين أدغمت التاء في الطاء ؛ وهم الذين يفعلون الشيء تبرعاً من غير أن يجب عليهم .

"وَالَّذِينَ" في موضع خفض عطف على "الْمُؤْمِنِينَ" .

ولا يجوز أن يكون عطفاً على الاسم قبل تمامه .

و ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ عطف على "يَلْمِزُونَ" .

﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ خبر الابتداء ، وهو دعاء عليهم .

وقال ابن عباس : هو خبر ؛ أي سخر منهم حيث صاروا إلى النار .

ومعنى سخر الله مجازاتهم على سخريتهم .

وقد تقدّم في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(16/344)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ الآية

(ق) عن أبي مسعود البدري قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نحمل على ظهورنا فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء وجاء رجل فتصدق بصاع فقالوا إن الله لغني عن صاع

هذا فنزلت ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ الآية وقال ابن عباس وغيره من المفسرين : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حث على الصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت " فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمان ماله لهما مائة وستين ألف درهم وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال : يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير الماء حتى نلت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن ينثره في الصدقات فلمزهم المنافقون .

(17/344)

فقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء وإن الله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطي من الصدقة فأنزل الله سبحانه وتعالى الذين يلمزون يعيبون المطوعين يعني المتبرعين من المؤمنين يعني عبد الرحمن بن عوف وعاصم بن عدي في

الصدقات والتطوع التنفل بما ليس بمواجب عليه ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ يعني أبا عقيل الأنصاري والجهد بالضم الطاقة وهي لغة أهل الحجاز وبالفتح لغيرهم وقيل : الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة وقد يكون القليل من المال الذي يأتي به فيتصدق به أكثر موقعاً عند الله تعالى من الكثير الذي يأتي به فيتصدق به لأن الغني أخرج ذلك المال الكثير عن قدرة وهذا الفقير أخرج القليل إنما أخرجه عن ضعف وجهد وقد يؤثر المحتاج إلى المال غيره رجاء ما عند الله تعالى كما قال سبحانه وتعالى ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴿ فيسخرون منهم ﴾ يعني أن المنافقين كانوا يستهزئون بالمؤمنين في إنفاقهم المال في طاعة الله تعالى وطاعة رسوله (صلى الله عليه وسلم) وهو قولهم لقد كان الله عن صدقة هؤلاء غنياً وكان يعيرون الفقير الذي يتصدق بالقليل ويقولون : إنه لفقير محتاج إليه فكان يتصدق به وجوابهم إن كل من يرجو ما عند الله من الخير والثواب يبذل الموجود لينال ذلك الثواب الموعود به وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ سخر الله منهم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى جازاهم على سخريتهم ثم وصف ذلك وهو قوله تعالى : ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ يعني في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(18/344)

وقال أبو حيان :

﴿ الذين يلمزون المطوّعِين من المؤمنين في الصدقات ﴾

نزلت فيمن عاب المتصدقين .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حث على الصدقة ، فتصدّق عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف وأمسك مثلها ، فبارك له الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيما أمسك وفيما أعطى .

وتصدق عمر بنصف ماله ، وعاصم بن عدي بمائة وسق ، وعثمان بصدقة عظيمة ، وأبو عقيل الأرلشي بصاع تمر ، وترك لعياله صاعاً ، وكان آجر نفسه لسقي نخيل بهما ، ورجل بناقة عظيمة قال : هي وذو بطنها صدقة يا رسول الله ، وألقى إلى الرسول خطامها فقال المنافقون : ما تصدق هؤلاء إلا رياء وسمعة ، وما تصدّق أبو عقيل إلا ليذكر مع الأكابر ، أو ليذكر بنفسه فيعطي من الصدقات ، والله غني عن صاعه .

وقال بعضهم : تصدق بالناقة وهي خير منه .

وكان الرجل أقصر الناس قامة وأشدهم سواداً ، فنظر إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وقال : قل هو خير منك ، ومنها يقولها ثلاثاً .

وأصل المطوعين المتطوعين ، فأدغمت التاء في الطاء ، وهم المتبركون كعبد الرحمن وغيره .

والذين لا يجدون إلا جهدهم هم مندرجون في المطوعين ، ذكروا تشريفاً لهم ، حيث ما فاتتهم الصدقة بل تصدقوا بالشيء ، وإن كانوا أشد الناس حاجة إليه ، وأتعبهم في تحصيل ما تصدقوا به كأبي عقيل ، وأبي خيثمة ، وكان قد لمز في التصدق بالقليل ونظر أيهما .

وكان أبو علي الفارسي يذهب إلى أنّ المعطوف في هذا وشبهه لم يندرج فيما عطف عليه قال : لأنه لا يسوغ عطف الشيء على مثله .

وكذلك كان يقول في وملائكته ورسله وجبريل وميكال ، وفي قوله : ﴿ فيهما فاكهة ونخل ورمان ﴾ وإلى هذا كان يذهب تلميذه ابن جني ، وأكثر الناس على خلافهما .

وتسمية بعضهم التجريد ، جردوا بالذكر على سبيل التشريف ، وقد تقدم الكلام على ذلك في قوله : ﴿ وملائكته ورسله وجبريل وميكال ﴾ وقرأ ابن هرمز وجماعة : جهدهم بالفتح .

فقيل : هما لغتان بمعنى واحد .

(19/344)

وقال القتبي بالضم الطاقة ، وبالفتح المشقة .

وقال الشعبي : بالضم القوت ، وبالفتح في العمل .

وقيل : بالضم شيء قليل يعاش به .

والأحسن في الإعراب أن يكون الذين يلمزون مبتدأ ، وفي الصدقات متعلق بيلمزون ، والذين لا يجدون معطوف على المطوعين ، كأنه قيل : يلمزون الأغنياء وغيرهم .

وفيسخرون معطوف على يلمزون ، وسخر الله منهم وما بعده خبر عن الذين يلمزون .

وذكر أبو البقاء أن قوله : والذين لا يجدون ، معطوف على الذين يلمزون ، وهذا غير ممكن ، لأن المعطوف على المبتدأ مشارك له في الخبر ، ولا يمكن مشاركة الذين لا يجدون إلا جهدهم مع الذين يلمزون إلا إن كانوا مثلهم نافقين .

قال : وقيل : والذين لا يجدون معطوف على المؤمنين ، وهذا بعيد جداً .

قال : وخبر الأول على هذه الوجوه فيه وجهان : أحدهما فيسخرون .

ودخلت الفاء لما في الذين من التشبيه بالشرط انتهى هذا الوجه .

وهذا بعيد ، لأنه إذ ذاك يكون الخبر كأنه مفهوم من المبتدأ ، لأنّ من عاب وغمز أحداً هو ساخر منه ، فقرب أن يكون مثل سيد الجارية مالكها ، وهو لا يجوز .

قال : والثاني : أن الخبر سخر الله منهم ، قال : وعلى هذا المعنى يجوز أن يكون الذين يلمزون في موضع نصب بفعل محذوف يفسره سخر ، تقديره عاب الذين يلمزون .

وقيل : الخبر محذوف تقديره : منهم الذين يلمزون .

وقال أبو البقاء أيضاً : من المؤمنين حال من الضمير في المطوعين ، وفي الصدقات متعلق

بيلمزون ، ولا يتعلق بالمطوعين لئلا يفصل بينهما بأجنبي انتهى .

وليس بأجنبي لأنه حال كما قرر ، وإذا كان حالاً جاز الفصل بها بين العامل فيها ، وبين المعمول أخر ، لذلك العامل نحو : جاءني الذي يمر راكباً بزيد .

والسخرية : الاستهزاء .

والظاهر أن قوله : سخر الله منهم خبر لفظاً ومعنى ، ويرجحه عطف الخبر عليه .

وقيل : صيغته خبر ، ومعناه الدعاء .

ولما قال : فيسخرون منهم قال : سخر الله منهم على سبيل المقابلة ، ومعناه : أمهلهم حتى ظنوا أنه أهملهم .

(20/344)

قال ابن عباس : وكان هذا في الخروج إلى غزوة تبوك .

وقيل : معنى سخر الله منهم جازاهم على سخريتهم ، وجزاء الشيء قد يسمى باسم الشيء كقوله : ﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها ﴾ قال ابن عطية : تسمية للعقوبة باسم الذنب ، وهي عبارة عما حل بهم من المقت والذل في نفوسهم انتهى .

وهو قريب من القول الذي قبله .

وقال الأصم : أمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يقبل معاذيرهم الكاذبة في الظاهر ، ووبال فعلهم عليهم كما هو ، فكأنه سخر منهم ولهذا قال : ولهم عذاب أليم ، وهو عذاب الآخرة المقيم انتهى .

وفي هذه الآية دلالة على أن لمز المؤمن والسخرية منه من الكبائر ، لما يعقبهما من الوعيد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(21/344)

وقال أبو السعود :

﴿ الذين يَلْمِزُونَ ﴾

نصبٌ أو رفع على الذم ، ويجوز جرُّه على البدلية من الضمير في سرَّهم ونجواهم وقرىء بضم الميم وهي لغة أي يعيبون ﴿ المطوعين ﴾ أي المتطوعين المتبرِّعين ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ حالٌ من المطّوعين وقوله تعالى : ﴿ فِي الصدقات ﴾ متعلق بيلمزون . (روي أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم حث الناسَ على الصدقة فأتى عبدُ الرحمن بنُ عوف بأربعين أوقيةً من ذهب وقيل : بأربعةِ آلافِ درهم وقال : لي ثمانيةُ آلافٍ فأقرضتُ ربي أربعة وأمسكتُ لعيالي أربعة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "بارك الله لك فيما

أعطيت وفيما أمسكت" فبارك له حتى صولحت تُماضِرُ رابعةُ نسائِه عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ، وتصدق عاصمُ بنُ عدي بمائة وَسْقٍ من تمر وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر ، فقال : بتُّ ليلتي أجرُّ بالجرير على صاعين فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينثُره على الصدقات فلمَزَهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبدُ الرحمن وعاصمٌ إلا رياءً وإنْ كان الله ورسولُه لغنيَّيْن عن صاع أبي عقيل ولكنه أحب أن يذكّر بنفسه ليعطى من الصدقات فنزلت) .

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ عطف على المطوعين أي ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقاتِهم وقرىء بفتح الجيم وهو مصدر جهد في الأمر إذا بالغ فيه وقيل : هو بالضم الطاقةُ وبالفتح المشقة ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ عطف على يلمِزون أي يهزءون بهم والمرادُ بهم الفريقُ الأخير ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ إخبارٌ بمجازاته تعالى إياهم على ما فعلوا من السخرية والتعبيرُ عنها بذلك للمشاكلة ﴿ وَلَهُمْ ﴾ أي ثابت لهم ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التنوينُ للتهويل والتفخيم ، وإيرادُ الجملةِ اسميةً للدلالة على الاستمرار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(22/344)

وقال الآلوسى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾

مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وقيل : أي منهم الذين ، وقيل : مبتدأ خبره ﴿ فيسخرون ﴾ مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين وقيل : أي منهم الذين ، وقيل : مبتدأ خبره ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ والفاء لما في الموصول من شبه الشرط أو ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أو منصوب بفعل محذوف أعني أعني أو أذم أو مجرور على الدلية من ضمير ﴿ سِرَّهُمْ ﴾ [التوبة : 78] على أنه للمنافقين مطلقا .

وقرىء بضم الميم وهو لغة كما علمت أي يعيبون ﴿ المطوعين ﴾ أي المتطوعين ، والمراد بهم من يعطي تطوعاً ﴿ مِنَ المؤمنين ﴾ حال من الضمير ، وقوله سبحانه : ﴿ فِي الصدقات ﴾ متعلق بيلمزون ، ولا يجوز كما قال أبو البقاء تعلقه بالمطوعين للفصل ، أخرج البغوي في معجمه .

(23/344)

وأبو الشيخ عن الحسن قال "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً للناس فقال : يا أيها الناس تصدقوا أشهد لكم بها يوم القيامة ألا لعل أحدكم أن يبيت فصاله رواء وابن له طاو

إلى جنبه ألا لعل أحدكم أن يثمر ماله وجاره مسكين لا يقدر على شيء ألا رجل منح ناقة من إبله يغدو برفد ويروح برفد يغدو بصبوح أهل بيته ويروح بغبوقهم ألا إن اجرها لعظيم فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي أبعرة عندي أربعة ذود فقام آخر قصير القامة قبيح الشبه يقود ناقة له حسناء جملاء فقال له رجل من المنافقين كلمة خفية لا يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمعها ناقته خير منه فسمعها عليه الصلاة والسلام فقال : كذبت هو خير منك ومنها ، ثم قام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله عندي ثمانية آلاف تركت منها أربعة لعيالي وجئت بأربعة أقدمها إلى الله تعالى فتكاثر المنافقون ما جاء به ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال : يا رسول الله عندي سبعون وسقا من تمر فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : جاء هذا بأربعة آلاف وجاء هذا بسبعين وسقا للرياء والسمعة فهلا أخفياها فهلا فرقاها ، ثم قام رجل من الأنصار اسمه الحبحاب يكنى أبا عقيل فقال : يا رسول الله مالي من مال غير اني آجرت نفسي البارحة من بني فلان أجر الجرير في عنقي على صاعين من تمر فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى فلمزه المنافقون وقالوا : جاء أهل الإبل بالإبل وجاء أهل الفضة بالفضة وجاء هذا بتميرات يحملها فأنزل الله تعالى الآية ، ولم يبين الآلاف التي ذكرها عبد الرحمن في هذه الرواية وكانت على ما أخرجه ابن المنذر عن مجاهد دنانير وفي رواية أنها دراهم ، وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس أن عبد الرحمن جاء بأربعمائة أوقية من ذهب وهي نصف ما كان عنده

وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : اللهم بارك له فيما أعطى وبارك له فيما أمسك ، وجاء في رواية الطبراني أن الله بارك له حتى صولحت

(24/344)

إحدى امرأتيه عن نصف الثمن على ثمانين ألف درهم ، وفي الكشاف وعزاه الطيبي للاستيعاب أن زوجته تماضر صولحت عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ، فعلى الأول يكون له زوجتان وعلى الثاني يكون له أربع زوجات ، ويختلف مجموع المالين على الروايتين اختلافاً كثيراً ، وفي رواية ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان أحد المطوعين وأنه جاء بمال كثير يحمله فقال له رجل من المنافقين : أترائي يا عمر ؟ فقال : نعم أرائي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فأما غيرهما فلا .

وقوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ عطف على ﴿ المطوعين ﴾ وهو من عطف الخاص على العام ، وقيل : عطف على المؤمنين .

وتعقبه إلا جهوري بأن فيه ايهام أن المعطوف ليس من المؤمنين .

وقال أبو البقاء : هو عطف على ﴿ الذين يَلْمِزُونَ ﴾ وأراه خطأ صرفا .

(25/344)

والجهد بالضم الطاقة أي ويلمزون الذين لا يجدون إلا طاقتهم وما تبلغه قوتهم وهم الفقراء كأبي عقيل واسمه ما مر آنفاً ، وعن ابن إسحاق أن اسمه سهل بن رافع ، وعن مجاهد أنه فسر الموصول برفاعة بن سعد ، ولعل الجمع حينئذ للتعظيم ، ويحتمل أن يكون على ظاهره والمذكور سبب النزول ، وقرأ ابن هرمز ﴿ جُهْدَهُمْ ﴾ بالفتح وهو إحدى لغتين في الجهد فمعنى المضموم والمفتوح واحد ، وقيل : المفتوح بمعنى المشقة والمضموم بمعنى الطاقة قاله القتبي ، وقيل : المضمون شيء قليل يعاش به والمفتوح العمل ، وقوله تعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ عطف على ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ أو خبر على ما علمت أي يستهزئون بهم ، والمراد بهم على ما قيل الفريق الأخير ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ أي جازاهم على سخريتهم ، فالجملة خبرية والتعبير بذلك للمشاكلة وليس إنسائية للدعاء عليهم لأن يصيروا ضحكة لأن قوله تعالى جده : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ جملة خبرية معطوفة عليها فلو كانت دعاء لزم عطف الاخبارية على الإنشائية وفي ذلك كلام ، وإنما اختلفتا فعلية واسمية لأن السخرية في الدنيا وهي متجددة والعذاب في الآخرة وهو دائم ثابت ، والتنوين في العذاب للتهويل والتفخيم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(26/344)

وقال القاسمي :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾

أي : يعيبون ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ أي : المتبرعين ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ فيزعمون أنهم تصدقوا رياءً ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ أي : ويلمزون الذين ﴿ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي : لا يجدون ما يتصدقون به إلا قليلاً ، وهو مقدار طاقتهم .

﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ أي : يهزؤون بهم ، ويقولون إن الله غنّي عن صدقتهم ، ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ أي : جازاهم على سَخَرهم ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

روى البخاري في " صحيحه " عن أبي

مسعود رضي الله عنه قال : لما نزلت آية الصدقة ، كنا نحامل فجاء رجل فتصدق بشيء كثير ، فقالوا : مرائي . وجاء رجل فتصدق بصاع ، فقالوا : إن الله لغنيّ عن صدقة هذا ، فنزلت : ﴿ الْذِينَ يَلْمِزُنَ ﴾ الآية ، رواه مسلم أيضاً .

وروى الإمام أحمد عن أبي السليل ، عن رجل حدثه عن أبيه أو عمه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : < من يتصدق بصدقة أشهدُ له بها يوم القيامة > ؟ فجاء رجل لم أرى رجلاً أشدّ منه سواداً ، ولا أصغر منه ولا أدمّ ، بناقة لم أر أحسن منها ، فقال : يا رسول الله ، دونك هذه الناقة . قال : فلمزه رجل فقال : هذا يتصدق بهذه ، فوالله لهي

خير منه ، فسمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : < كذبت ! به هو خير منك ومنها ثلاث مرات > ، ثم قال : < ويل لأصحابك إلا من قال بالمال هكذا وهكذا > ، وجمع بين كفيه عن يمينه وعن شماله .

(27/344)

قال ابن إسحاق : كان المطّوّعون من المؤمنين في الصدقات عبد الرحمن بن عوف ، وعاصم بن عدي أخا بني عجلان ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رغَّب في الصدقة ، وحضّ عليها ، فقام عبد الرحمن بن عوف فتصدق بأربعة آلاف ، وقام عاصم بن عديّ وتصدق بمائة وسق من تمر ، فلمزوها وقالوا : ما هذا إلا رياءً .

وكان الذي تصدق بجهده أبا عقيل ، أخا بني أُنَيْف ، أتى بصاع من تمر ، فأفرغها في الصدقة فتضاحكوا به ، وقالوا : إن الله لغنيّ عن صاع أبي عقيل .

وروى الحافظ البزار في مسنده عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً > ، فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ! عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما لربي ، وألفين لعيالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت > .

وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، فقال : يا رسول الله ! أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربي ، وصاع لعيالي . قال ، فلمزه المنافقون وقالوا : ما أعطى الذي أعطى ابن عوف إلا رياءً ، وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله الآية

.

وقوله صلى الله عليه وسلم < أريد أن أبعث بعثاً > أي : لغزو الروم ، وَذَلك في غزوة تبوك

.

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في هذه الآية تحريم اللمز والسخرية بالمؤمنين . انتهى

.

(28/344)

الثاني : في : ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ وجوه الإعراب : خبر مبتدأ بتقدير : ﴿ هُمُ الَّذِينَ ﴾ أو مفعول أعني أو أذم الذين ، أو مجرور بدل من ضمير : ﴿ سِرَّهُم ﴾ ، وجوّز أيضاً أن يكون مبتدأ خبره : ﴿ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ ، وقيل : ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ ، ودخلت الفاء لما في الذين من الشبه بالشرط . وأما : ﴿ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ ﴾ الخ فقيل : معطوف على : ﴿

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ ﴾ وقيل : على : ﴿ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، والأحسن أنه معطوف على المطوعين .

قال في " الفتح " : ويكو من عطف الخاص على العام ، والنكتة فيه التنويه بالخاص ، لأن السخرية من المقلّ أشدّ من المكثر غالباً .

الثالث : قال في " الفتح " : قراءة الجمهور : ﴿ الْمُطَّوِّعِينَ ﴾ بتشديد الطاء والواو .

وأصله المتطوعين ، أدغمت التاء في الطاء . انتهى .

أي : لقرب المخرج ، والتطوع التنفّل ، وهو الطاعة لله تعالى بما ليس بواجب .

والجهد ، قال الليث : هو شيء قليل يعيش به المقلّ ، وبضم الجيم قرأ الجمهور . وقرأ ابن هرمز وجماعة بالفتح ، فقيل : هما لغتان بمعنى واحد .

وقيل : المفتوح بمعنى المشقة ، والمضموم بمعنى الطاقة ، وقيل : المضموم قليل يعاش به ، والمفتوح : العمل .

والمختار أنهما بمعنى ، وهو الطاقة وما تبلغه القوة . قال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز ، والفتح لغيرهم . والهزء والسخرية بمعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 478.476 ﴾

(29/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

استئناف ابتدائي ، نزلت بسبب حادث حدث في مدّة نزول السورة ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حثّ الناس على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم ، وجاء عَاصم بن عَدِي بأوسقٍ كثيرة من تمر ، وجاء أبو عَقيل بصاع من تمر ، فقال المنافقون : ما أعطَى عبدُ الرحمن وعاصم إلاّ رياءً وأحَبَّ أبو عَقيل أن يُذكِّر بنفسه ليُعطى من الصدقات فأنزل الله فيهم هذه الآية .

فالذين يلمزون مبتدأ وخبره جملة ﴿ سخر الله منهم .

واللمز : الطعن .

وتقدّم في هذه السورة في قوله : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] .

وقرأه يعقوب بضمّ الميم كما قرأ قوله : ﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ [التوبة : 58] .

و ﴿ المُطّوّعين ﴾ أصله المُتَطَوّعين ، أدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما .

و ﴿ في ﴾ للظرفية المجازية بجعل سبب اللمز كالظرف للمسبَّب .

وعُطف الذين لا يجدون إلاّ جهدهم على المطوعين وهم منهم ، اهتماماً بشأنهم والجُهد بضمّ الجيم الطاقة .

وأطلقت الطاقة على مسبّبها الناشىءِ عنها .

وحُذف مفعول ﴿ يجدون ﴾ لظهوره من قوله : ﴿ الصدقات ﴾ أي لا يجدون ما يتصدّقون به إلاّ جهدهم .

والمراد لا يجدون سبيلاً إلى إيجاد ما يتصدّقون به إلاّ طاقتهم ، أي جُهد أبدانهم .

أو يكونُ وجَدَ هنا هو الذي بمعنى كان ذا جدة ، أي غنىً فلا يقدر له مفعول ، أي الذين لا مال لهم إلاّ جُهدهم وهذا أحسن .

وفيه ثناء على قوة البدن والعمل وأنّها تقوم مقام المال .

وهذا أصل عظيم في اعتبار أصول الثروة العامة والتنويه بشأن العامل .

والسخرية : الاستهزاء .

يقال : سخر منه ، أي حصلت السخرية له من كذا ، فمن اتّصالية .

واختير المضارع في يلمزون ويسخَرون للدلالة على التكرر .

(30/344)

وإسناد سخر إلى الله تعالى على سبيل المجاز الذي حسَّنَتْه المشاكلة لفعلهم ، والمعنى أنّ الله عامَلَهم معاملةً تُشبه سخرية الساخر ، على طريقة التمثيل ، وذلك في أنْ أمر نبيه

بإجراء أحكام المسلمين على ظاهرهم زمناً ثم أمْرِه بفضحهم .

ويجوز أن يكون إطلاق سَخر الله منهم على طريقة المجاز المرسل ، أي احتقرهم ولعنهم ولمّا كان كلّ ذلك حاصلاً من قبل عبّر عنه بالماضي في ﴿ سخر الله منهم

وجملة : ولهم عذاب أليم ﴾ عطف على الخبر ، أي سخر منهم وقضى عليهم بالعذاب في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(31/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

واللمز : معناه العيب ، ولكن بطريق خفي ، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك .

إذن : فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون في المطوِّعين لجمع الزكاة من المؤمنين ، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول ، ومن يعيب بالفعل ، ومن يعيب بالإشارة ، والمطوِّعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله .

فالله فرض مثلاً خمس صلوات ، وهناك من يصلي خمس صلوات أخرى تطوعاً ، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة ، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً ، وفرض الحق

صيام شهر رمضان ، وهناك من يصوم فوق كل ذلك اثنين وخميس . وهذا ما نسميه دخول المؤمن في مقام الإحسان ؛ بان تتقرب إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك ، من جنس ما فرضه الله .

وأنت إذ أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن فرائض الإسلام ثم قال : لا ازيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : " أفلح إن صدق "

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِضَ يكون له ملحظان : الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق . والملحظ الثاني : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة : " أرحنا بها يا بلال "

إذن : فالمطوّع هو الذي يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 15 – 19]

فالمنهج لا يلزمني بأن أنام قليلاً من الليل وأقضي بقيته في الصلاة ، ولم يلزمني أحد بالاستغفار في الأسحار . ولم يقل الله سبحانه في هذه الآية إن في المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطي بأكثر مما فُرِض . وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنّه اختلال موازين المنافقين في الحكم على الأشياء . لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذي يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه " إنه أبله " ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله في المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأَفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه .

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك في مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه في ماله .

ولما جاء عبدالرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار : أقاسمك مالي . قال : بارك الله لك في مالك ، دُلَّني على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له في تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقي لأهلي أربعة ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت " . وحينما مات عبدالرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف في تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها " تماضر " بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أي : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً . وكان عبدالرحمن لا يتاجر إلا في ماله .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبدالرحمن بن عوف قالوا : ما تصدق عبدالرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدي ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصاري إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لقد بِتُّ ليلتي أعمل ، وأخذت أجري صاعين من

التمر ، احتفظت لأهلي بصاعٍ وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غني عن صاعك يا أبا عقيل .

(34/344)

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذي تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عديّ قالوا : يرائي بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غني عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاً منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيء الذي تمثل في مقابلة السلوك الإيماني بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً . والسخرية هي الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لهم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوي للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله .

وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذي يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين في إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذي سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

(35/344)

وقلنا من قبل : إن الذي يخطئ في حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذي يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذي ينتقم ويرد على من أخطأ في حقه ، إنما يأخذ على قدر قوّته ، وأما الذي يعفو

فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذي وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته .

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذي أساء إليك في حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذي اعتدى عليه وأسيء إليه فتحاول ان ترضيه ، وتأتي إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك – الإسلام – أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمتَ فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ . . . ﴾ [آل عمران : 54]

وحين يقول : ﴿ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ . . . ﴾ [النساء : 142]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر .

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتي لك بزهرة ، فيسقط في الحفرة وتتكسر عظامه .

إذن : فأنت قد كِدْتَ له كَيْداً خَفِيّاً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشجاع القوي هو الذي يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذي يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول في النساء : ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف : 28]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوي لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتي بك عندما أريد ، لا يوجد مكان تهرب فيه مني ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضي عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر .

ولذلك قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أَصَابَتْ فُرْصة . . . قتلت كذلِكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاءِ

أما القوي فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء .

والأصل في المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التي تراها من أي فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر ، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك .

(37/344)

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم في الأمور العلنية في المعارك ، ونصره أيضاً في كل أمر مكروا فيه وبيَّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقتلوه في ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج صلى الله عليه وسلم ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج صلى الله عليه وسلم من وسطهم . ويأخذ التراب ، ويلقيه عليهم وهو يقول : " شاهت الوجوه " .

وعندما يبتعد صلى الله عليه وسلم عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفي .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز في فعله أكثر من العيب في غيره . ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب . ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز في فعل الله عن فعل البشر ، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه ، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلق جميعاً ، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم .

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً ، وهناك عذاب عظيم ، وعذاب مهين ، وكلها صفات للعذاب ، فالعذاب هو الإيلام ، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ . وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل ؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ ، وفي هذه الحالة يكون عذابه مهيناً ؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم ؛ فيُهَانُ في كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً .

(38/344)

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً ، وهناك عذاب عظيم في الإيلام وعظيم في الإهانة . والعذاب العظيم في الإيلام ؛ أي مبالغ فيه من ناحية الألم . والعذاب العظيم في الإهانة

مبالغ فيه من ناحية الإهانة . والعذاب العظيم في الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن ، ولذلك يقال عنه " عذاب مقيم " أي : يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل .

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المنافقين . ومع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين ، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ . . . ﴾ [محمد : 30]

أي : بمجرد نظر رسول الله إليهم ، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة " منافق " وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . ﴾ [محمد : 30] وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم صلى الله عليه وسلم من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر ، بدون انقباض عن أحد ، حت يتجلى نوره على الجميع ، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم .

(39/344)

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوّج ملكاً على المدينة . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ . وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ حين علم أنه صلى الله عليه وسلم سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات . ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] وكان ابن أبيّ يعني ب " الأعز " المنافقين في المدينة ؛ وب " الأذل " المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ العزة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . . ﴾ [المنافقون : 8] فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذي سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة .

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبيّ ، ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : يا رسول الله إن كنت

ولابد آمراً بقتل أبي فأمرني أنا بقتله ؛ لأني أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً .

(40/344)

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبي ، أي : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبيّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(41/344)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴾

اللام الأولى، وهي ﴿ لَئِنْ آتانا ﴾ الله ﴿ مِن فَضْلِهِ ﴾ لام القسم، واللام الثانية، وهي ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ لام الجواب للقسم والشرط.

ومعنى: ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾ لنخرج الصدقة، وهي أعمّ من المفروضة وغيرها ﴿ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ أي: من جملة أهل الصلاح من المؤمنين القائمين بواجبات الدّين التاركين لمحرّماته ﴿ فَلَمَّا ءاتَاهُمْ مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلَّواْ وَّهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ أي: لما أعطاهم ما طلبوا من الرزق بخلوا به: أي بما آتاهم من فضله، فلم يتصدّقوا بشيء منه كما حلفوا به ﴿ وَتَوَلَّواْ ﴾ أي: أعرضوا عن طاعة الله وإخراج صدقات ما أعطاهم الله من فضله، والحال أنهم ﴿ مُّعْرِضُونَ ﴾ في جميع الأوقات قبل أن يعطيهم الله ما أعطاهم من الرزق وبعده.

قوله: ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ الفاعل: هو الله سبحانه، أي فأعقبهم الله بسبب البخل الذي وقع منهم والإعراض، نفاقاً كائناً في قلوبهم، متمكناً منها، مستمراً فيها ﴿ إلى يوم يلقون ﴾ الله عزّ وجلّ، وقيل: إن الضمير يرجع إلى البخل، أي فأعقبهم البخل بما عاهدوا الله عليه نفاقاً كائناً في قلوبهم إلى يوم يلقون بخلهم: أي جزاء بخلهم.

ومعنى ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ ﴾: أن الله سبحانه جعل النفاق المتمكن في قلوبهم إلى تلك الغاية عاقبة ما وقع منهم من البخل، والباء في ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ اللهَ مَا وَعَدُوهُ ﴾ للسببية، أي

بسبب إخلافهم لما وعدوه من التصدّق والصلاح، وكذلك الباء في ﴿ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ أي: وبسبب تكذيبهم بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(42/344)

ثم أنكر عليهم فقال ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ أي المنافقون، وقرىء بالفوقية خطاباً للمؤمنين ﴿ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ﴾ أي: جميع ما يسرونه من النفاق، وجميع ما يتناجون به فيما بينهم من الطعن على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه، وعلى دين الإسلام ﴿ وَأَنَّ اللهَ علام الغيوب ﴾ فلا يخفى عليه شيء من الأشياء المغيبة كائناً ما كان، ومن جملة ذلك ما يصدر عن المنافقين.

قوله: ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين ﴾ الموصول محله النصب، أو الرفع على الذم، أو الجرّ بدلاً من الضمير في سرّهم ونجواهم، ومعنى ﴿ يَلْمِزُونَ ﴾ يعيبون.

وقد تقدّم تحقيقه، والمطوّعين: أي المتطوّعين، والتطوّع: التبرّع.

والمعنى: أن المنافقين كانوا يعيبون المسلمين إذا تطوّعوا بشيء من أموالهم وأخرجوه للصدقة، فكانوا يقولون: ما أغنى الله عن هذا، ويقولون: ما فعلوا هذا إلا رياء، ولم يكن لله خالصاً، و ﴿ فِي الصدقات ﴾ متعلق بيلمزون: أي يعيبونهم في شأنها.

قوله : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ ﴾ معطوف على المطوّعين : أي يلمزون المتطوّعين ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم ؛ وقيل : معطوف على المؤمنين : أي يلمزون المتطوّعين من المؤمنين ، ومن الذين لا يجدون إلا جهدهم ، وقرىء "جهدهم" بفتح الجيم ، والجهد بالضم الطاقة ، وبالفتح المشقة ، وقيل : هما لغتان ومعناهما واحد ، وقد تقدّم بيان ذلك .

والمعنى : أن المنافقين كانوا يعيبون فقراء المؤمنين الذين كانوا يتصدّقون بما فضل عن كفايتهم .

(43/344)

قوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ﴾ معطوف على يلمزون : أي يستهزءون بهم لحقارة ما يخرجونه في الصدقة مع كون ذلك جهد المقلّ ، وغاية ما يقدر عليه ويتمكن منه ، قوله : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ أي : جازاهم على ما فعلوه من السخرية بالمؤمنين بمثل ذلك ، فسخر الله منهم بأن أهانهم وأذلهم وعذبهم ، والتعبير بذلك من باب المشاكلة كما في غيره .

وقيل : هو دعاء عليهم بأن يسخر الله بهم كما سخروا بالمسلمين ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : ثابت مستمر شديد الألم .

وقد أخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والعسكري في الأمثال ، والطبراني ، وابن منده ، والبارودي ، وأبو نعيم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، وابن عساكر ، عن أبي أمامة الباهلي قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : " ويلك يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لا تطيقه " قال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالاً ، قال : " ويحك يا ثعلبة : أما تحبّ أن تكون مثلي ، فلو شئت أن يسير ربي هذه الجبال معي ذهباً لسارت " ، فقال : يا رسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا ، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، قال : " ويحك يا ثعلبة ، قليل تطيق شكره خير من كثير لا تطيقه " ، قال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى .

(44/344)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " اللهمّ ارزقه مالاً " ؛ قال : فاتخذ غنماً فنمت كما تنمو الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فتنحى بها ، فكان يشهد الصلاة بالنهار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يشهدها بالليل ، ثم نمت كما تنمو الدود فتنحى بها ، فكان لا يشهد الصلاة بالليل ولا بالنهار إلا من جمعة إلى جمعة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

، ثم نمت كما تنمو الدود فضاق بها مكانه ، فتنحى بها فكان لا يشهد جمعة ولا جنازة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يتلقى الركبان ويسألهم عن الأخبار ، وفقده رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأل عنه ، فأخبروه أنه اشترى غنماً ، وأن المدينة ضاقت به وأخبروه خبره ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ويح ثعلبة بن حاطب ، ويح ثعلبة بن حاطب " ؛ ثم إن الله تعالى أمر رسوله أن يأخذ الصدقات ، وأنزل : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ [التوبة : 103] الآية ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين ، رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سلمة يأخذان الصدقات ، وكتب لهما أسنان الإبل والغنم كيف يأخذانها وجوهها ، وأمرهما أن يمرّا على ثعلبة بن حاطب ، وبرجل من بني سليم ، فخرجا فمرا بثعلبة فسألا الصدقة ، فقال : أرياني كتابكما ، فنظر فيه فقال : ما هذه إلا جزية ، انطلقا حتى أرى رأيي ، فانطلقا حتى قدما المدينة ، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قبل أن يكلمهما :

(45/344)

" ويح ثعلبة بن حاطب " ، ودعا للسلميّ بالبركة ، وأنزل الله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ الثلاث الآيات ، قال : فسمع بعض أقارب ثعلبة ، فأتى ثعلبة فقال : ويحك يا ثعلبة أنزل فيك

كذا وكذا ، قال : فقدم ثعلبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله هذه صدقة مالي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله قد منعني أن أقبل منك " ، فجعل يبكي ويحثي التراب على رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا عملك بنفسك ، أمرتك فلم تطعني " ، فلم يقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى مضى ، ثم أتى أبا بكر ، فقال : يا أبا بكر : إقبل مني صدقتي فقد عرفت منزلتي من الأنصار ، فقال أبو بكر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبلها ؟ فلم يقبلها أبو بكر ؛ ثم ولي عمر بن الخطاب ، فأتاه فقال : يا أبا حفص يا أمير المؤمنين اقبل مني صدقتي ، قال : ويثقل عليه بالمهاجرين والأنصار وأزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر أقبلها أنا ؟ فأبى أن يقبلها ؛ ثم ولي عثمان فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله ولا أبو بكر ولا عمر وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه ، فهلك في خلافة عثمان ، وفيه نزلت : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصدقات ﴾ قال : وذلك في الصدقة ، وهذا الحديث هو مرويّ من حديث معاذ بن رفاعة ، عن عليّ بن زيد ، عن أبي عبد الرحمن القاسم بن عبد الرحمن مولى عبد الله بن يزيد بن معاوية ، عن أبي أمامة الباهلي .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عاهد الله ﴾ الآية ، وذلك أن رجلاً كان يقال له ثعلبة من الأنصار أتى مجلساً فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله آتيت كل ذي حق حقه ، وتصدّقت منه ، وجعلت منه للقرابة ؛ فابتلاه الله فآتاه من فضله ، فأخلف ما وعده ، فأغضب الله بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه في القرآن .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الحسن ، أن رجلاً من الأنصار هو الذي قال هذا ، فمات ابن عمّ له فورث منه مالاً فبخل به ، ولم يف بما عاهد الله عليه ، فأعقبه بذلك نفاقاً في قلبه إلى أن يلقاه .

قال ذلك ﴿ بِمَا أَخْلَفُواْ الله مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ .

وأخرج البخاري ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن مسعود ، قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير ، فقالوا : مراء ؛ وجاء أبو عقيل بنصف صاع ، فقال المنافقون : إن الله لغنيّ عن صدقة هذا ، فنزلت : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين ﴾ الآية ، وفي الباب روايات كثيرة .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة في قوله : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ المطوعين ﴾ أي : يطعنون على المطوّعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

أخرج البخاري ومسلم وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن ابن مسعود قال : لما نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا ، فجاء رجل فتصدق بشيء كثير فقالوا مراء ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون : إن الله لغني عن صدقة هذا . فنزلت ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج البزار وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً ، فجاء عبد الرحمن فقال : يا رسول الله ، عندي أربعة آلاف ، ألفين أقرضهما ربي وألفين لعيالي . فقال : بارك الله لك فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أمسكت ، وجاء رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله ، إني بت أجر الحرير فأصبت صاعين من تمر ، فصاعاً أقرضه ربي وصاعاً لعيالي ، فلمزه

المنافقون قالوا : والله ما أعطى ابن عوف الذي أعطى إلا رياء . وقالوا : أو لم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوعين ﴾ الآية " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بصدقته ، وجاء المطوعون من المؤمنين ، وجاء أبو عقيل بصاع فقال : يا رسول الله ، بت أجر الحرير فأصبت صاعين من تمر ، فجئتك باحدهما وتركت الآخر لأهلي قوتهم فقال المنافقون : ما جاء عبد الرحمن وأولئك إلا رياء ، وإن الله لغني عن صدقة أبي عقيل ، فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين ﴾ الآية " .

(48/344)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم والبغوي في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن أبي عقيل قال " بت أجر الحرير على ظهري على صاعين من تمر ، فانقلبت بأحدهما إلى أهلي يتبلغون به ، وجئت بالآخر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أتقرب به إلى ربي ، فاخبرته بالذي كان فقال : انثره في المسجد . فسخر القوم وقالوا : لقد كان الله غنياً عن صاع هذا المسكين ؟ فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين . . . ﴾ الآيتين " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين . . . ﴾ الآية . قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وجاء رجل من الأنصار بصاع من طعام فقال بعض المنافقين : والله ما جاء عبد الرحمن بما جاء به إلاّ رياء ، وقالوا : إن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع .

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك قال : الذي تصدق بصاع التمر فلمزه المنافقون : أبو خيثمة الأنصاري .

وأخرج البغوي في معجمه وابن قانع وابن مردويه عن سعيد بن عثمان البلوي عن جدته ليلى بنت عدي . أن أمها عميرة بنت سهل بن رافع صاحب الصاعين الذي لمزه المنافقون ، أخبرتها أنه خرج بصاع من تمر وابنته عميرة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بصاع من تمر فصبه .

(49/344)

وأخرج عبد الرزاق وابن عساكر عن قتادة في قوله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله ثمانية آلاف دينار ، فقال

ناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء . فقال الله عز وجل ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر ، فجاء بأحدهما فقال ناس من المنافقين : إن كان الله عن صاع هذا لغني ! وكان المنافقون يطعنون عليهم ويسخرون منهم فقال الله عز وجل ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم ﴾ الآية .

وأخرج أبو نعيم في المعرفة عن قتادة قال " أقبل رجل من فقراء المسلمين يقال له الحجاب أبو عقيل قال : يا نبي الله بت أجر الحرير الليلة على صاعين من تمر ، فاما صاع فأمسكته لأهلي وأما صاع فهو ذا . فقال المنافقون : إن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع هذا ، فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس " أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا الناس للصدقة ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله هذه صدقة . فلمزه بعض القوم فقال : ما جاء بهذه عبد الرحمن إلا رياء ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال بعض القوم : ما كان الله أغنى عن صاع أبي عقيل ، فنزلت ﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ إلى قوله ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ " .

(50/344)

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : " أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يجمعوا صدقاتهم ، وكان لعبد الرحمن بن عوف ثمانية آلاف دينار ، فجاء بأربعة آلاف دينار صدقة فقال : هذا ما أفرضه الله وقد بقي مثله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " بورك لك فيما أعطيت وفيما أمسكت ، وجاء أبو نهيك رجل من الأنصار بصاع تمر نزع عليه ليله كله ، فلما أصبح جاء به إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل من المنافقين : إن عبد الرحمن بن عوف لعظيم الرياء ، وقال للآخر : إن الله لغني عن صاع هذا . فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ عبد الرحمن بن عوف ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ صاحب الصاع " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن أنس في الآية قال : " أصاب الناس جهد عظيم ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتصدقوا فقال " أيها الناس تصدقوا . فجعل أناس يتصدقون ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعمائة أوقية من ذهب فقال : يا رسول الله كان لي ثمانمائة أوقية من ذهب فجئت بأربعمائة أوقية . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهمَّ بارك له فيما أعطى وبارك فيما أمسك " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : لما كان يوم فطر أخرج عبد الرحمن بن عوف مالاً عظيماً ، وأخرج عاصم بن عدي كذلك ، وأخرج رجل صاعين ، وآخر صاعاً . فقال

قائل من الناس : إن عبد الرحمن إنما جاء بما جاء به فخراً ورياء ، واما صاحب الصاع أو الصاعين فإن الله ورسوله غنيان عن صاع وصاع ، فسخروا بهم فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿ الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ .

(51/344)

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين أن يتصدقوا فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انما ذلك مال وافر فأخذ نصفه . قال : فجئت أحمل مالاً كثيراً . فقال له رجل من المنافقين : أترائي يا عمر ؟ قال : نعم . أرائي الله ورسوله فاما غيرهما فلا . قال : وجاء رجل من الأنصار لم يكن عنده شيء فأجر نفسه بجر الحرير على رقبته بصاعين ليلته ، فترك صاعاً لعياله وجاء بصاع يحمله ، فقال له بعض المنافقين : إن الله ورسوله عن صاعك لغنيان . فذلك قوله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ الذين يلمزون المطوّعين ﴾ أي يطعنون على المطوعين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ قال : هو رفاعة بن سعد .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الشعبي في قوله ﴿ والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ قال : الجهد في القوت ، والجهد في العمل .

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان في الآية قال : الجهد جهد الإِنسان ، والجهد في ذات اليد .

وأخرج ابن المنذر عن ابن إسحق قال : كان الذي تصدق بجهده أبو عقيل واسمه سهل بن رافع ، أتى بصاع من تمر فافرغها في الصدقة ، فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغني عن صدقة أبي عقيل .

(52/344)

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاماً للناس فقال " يا أيها الناس تصدقوا أشهد لكم بها يوم القيامة ، ألا لعل أحدكم أن يبيت فصاله راو وابن عمه طاو ، ألا لعل أحدكم أن يثمر ماله وجاره مسكين لا يقدر على شيء ، الا رجل منح ناقة من ابله يغدو برفد ويروح برفد ، يغدو بصبوح أهل بيت ويروح بغبوقهم ، ألا إن أجرها لعظيم . فقام رجل فقال : يا رسول الله عندي أربعة ذود . فقام آخر قصير القامة قبيح السنة يقود ناقة له حسناء جميلة فقال رجل من المنافقين كلمة خفية لا يرى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمعها : ناقته خير منه . فسمعها النبي صلى الله عليه وسلم فقال : كذبت

هو خير منك ومنها ثم قام عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله عندي ثمانية آلاف ، تركت أربعة منها لعيالي وجئت بأربعة أقدمها لله ، فتكاثر المنافقون ما جاء به ، ثم قام عاصم بن عدي الأنصاري فقال : يا رسول الله عندي سبعون وسقاً جذاذ العام ، فتكاثر المنافقون ما جاء به وقالوا : جاء هذا بأربعة آلاف وجاء هذا بسبعين وسقاً للرياء والسمعة فهلا أخفياها فهلا فرقاها . ثم قام رجل من الأنصار اسمه الحجاب يكنى أبا عقيل فقال : يا رسول الله مالي من مال غير اني أجرت نفسي من بني فلان ، أجر الحرير في عنقي على صاعين من تمر ، فتركت صاعاً لعيالي وجئت بصاع أقربه إلى الله تعالى ، فلمزه المنافقون وقالوا : جاء أهل الابل بالابل ، وجاء أهل الفضة بالفضة ، وجاء هذا بتمرات يحملها ، فأنزل الله ﴿ الذين يلمزون المطوّعين . . . ﴾ الآية " .

(53/344)

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أبي السليل قال : وقف علينا شيخ في مجلسنا فقال : حدثني أبي أو عمي أنه شهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبقيع قال " من يتصدق اليوم بصدقة أشهد له بها عند الله يوم القيامة . فجاء رجل – لا والله ما بالبقيع رجل أشد سواد وجه منه ، ولا أقصر قامة ، ولا أذم في عين منه – بناقة – لا والله ما

بالبقيع شيء أحسن منها – فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه صدقة ؟ قال : نعم يا رسول الله . فلمزه رجل فقال : يتصدق بها والله لهي خير منه . فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمته فقال : كذبت بل هو خير منك ومنها ، كذبت بل هو خير منك ومنها ثلاث مرات ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الا من قال بيده هكذا وهكذا وقليل ما هم ، ثم قال :

" قد أفلح المزهد المجهد ، قد أفلح المزهد المجهد " .

وأخرج أبو داود وابن خزيمة والحاكم وصححه " عن أبي هريرة . أنه قال : يا رسول الله أي الصدقة أفضل ؟ قال " جهد المقل ، وابدأ بمن تعول " " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(54/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ الذين يَلْمِزُونَ ﴾ :

فيه أوجه :

أحدهما : أنه مرفوعٌ على إضمارِ مبتدأ ، أي : هم الذين . الثاني : أنه في محل رفع بالابتداء و " من المؤمنين " حالٌ مِن " المطَّوِّعين " ، و " في الصدقات " متعلق ب " يَلْمِزون " . و ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ ﴾ نسقٌ على " المطَّوِّعين " أي : يَعيبون المياسير والفقراء .

وقال مكي : " والذين " خفضٌ عطفاً على " المؤمنين " ، ولا يَحْسُن عَطْفُه على " المطَّوِّعين " ، لأنه لم يتمَّ اسماً بعد ، لأن " فيسخرون " عطف على " يَلْمِزُون " هكذا ذكره النحاس في " الإِعراب " له ، وهو عندي وهمٌ منه " . قلت : الأمر فيه كما ذكر فإن " المطَّوِّعين " قد تَمَّ من غيرِ احتياجٍ لغيره .

وقوله : ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ نسقٌ على الصلة ، وخبر المبتدأ الجملةُ من قوله : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ ، هذا أظهرُ إعرابٍ قيل هنا . وقيل : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ ﴾ نسقٌ على " الذين يَلْمزون " ، ذكره أبو البقاء . وهذا لا يجوزُ ؛ لأنه يلزمُ الإِخبارُ عنهم ، بقوله : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ وهذا لا يكون إلا بأَنْ كان الذين لا يَجِدون منافقين ، وأمَّا إذا كانوا مؤمنين كيف يَسْخر الله منهم ؟ وقيل : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ ﴾ نسقٌ على المؤمنين ، قاله أبو البقاء . وقال الشيخ : " وهو بعيدٌ جداً " ، قلت : وَجْهُ بُعْدِ أنه يُفْهِمُ أن الذين لا يجدون ليسوا مؤمنين ؛ لأنَّ أصلَ العطفِ الدلالةُ على المغايرة فكأنه قيل : يَلْمِزون المطَّوِّعين من هذين الصنفين : المؤمنين والذين لا يجدون ، فيكون الذين لا يجدون مطَّوِّعين غيرَ مؤمنين .

وقال أبو البقاء : " في الصدقات " متعلق ب "يَلْمِزون " ، ولا يتعلق بالمطَّوِّعين لئلا يُفْصَل بينهما بأجنبي " ، وهذا الردُّ فيه نظر ، إذ قولُه : " من المؤمنين " حال ، والحال ليست/ بأجنبي ، وإنما يظهر في رَدِّ ذلك أن " يطَّوَّع " إنما يتعدى بالباء لا ب " في " ، وكونُ " في " بمعنى الباء خلافُ الأصل .

وقيل : ﴿ فَيَسْخَرُونَ ﴾ خبرُ المبتدأ ، ودَخَلَتِ الفاءُ لِما تضمَّنه المبتدأ من معنى الشرط ، وفي هذا الوجهِ بُعْدٌ من حيث إنه يَقْرُب من كونِ الخبر في معنى المبتدأ ، فإنَّ مَنْ عاب إنساناً وغَمَزَه علم أنه يسخر منه فيكون كقولهم : " سيد الجارية مالكها " .

الثالث : أن يكونَ محلُّه نصباً على الاشتغال بإضمار فعل يُفَسِّره ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ مِنْ طريقِ المعنى نحو : عاب الذين يَلْمِزون سخر الله منهم . الرابع : أَنْ ينتصبَ على الشتم . الخامس : أن يكونَ مجروراً بدلاً من الضمير في " سِرَّهم ونجواهم " .

وقرىء "يُلْمزون " بضم الميم ، وقد تقدَّم أنها لغة .

وقوله : ﴿ سَخِرَ اللهُ ﴾ يُحْتمل أن يكونَ خبراً محضاً ، وأن يكون دعاءً . وقرأ الجمهور " جُهدهم " بضم الجيم . وقرأ ابن هرمز وجماعة " جَهْدهم " بالفتح . فقيل : لغتان بمعنى

واحد . وقيل : المفتوحُ المشقَّة ، والمضمومُ الطاقةُ قاله القتبي . وقيل : المضمومُ شيءٌ قليلٌ يُعاشُ به ، والمفتوحُ العملُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 88.90 ﴾

(56/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) ﴾

عابوا الذين قَصُرَتْ أيديهم عن الإكثار في الصَدَقة وجادوا بما وصَلَتْ إليه أيديهم ، فَشَكَرَ اللهُ سَعْيَ من أخلص في صدقته بعد ما عَلِمَ صِدْقَه فيها . وقليلُ أهلِ الإخلاص أفضلُ مِنْ كثيرِ أهلِ النفاقِ .

ولَمَّا أوجدوا المسلمين بسخريتهم وَصَفَ اللهُ – سبحانه وتعالى – نفْسَه بما يستحيل في وصفه – على التحقيق – هو السخرية بأحدٍ . . تطيباً لقلوبِ أوليائه ، فقد تقدَّس عن ذلك لِعِزَّة ربوبيته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 49 ﴾

(57/344)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (79) ﴾

(58/344)

التفسير : لما شبه المنافقين بالكفار المتقدمين في تكذيب الأنبياء والاشتغال بالنعيم الزائل بين أن أولئك الكفار من هم فذكر ست طوائف سمع العرب أخبارهم لأن بلادهم – وهي الشام – قريبة من بلادهم وقد بقيت آثارهم مشاهدة ، ولهذا صدر الكلام بحرف الاستفهام للتقرير . فأوّلهم قوم نوح وقد أهلكوا بالإغراق ، وثانيهم : قوم عاد وأهلكوا بالريح

العقيم ، وثالثهم : ثمود وأخمدوا بالصيحة ، ورابعهم : قوم إبراهيم سلط الله عليهم البعوض وكفى شر ملكهم وهو نمرود ببعوضة واحدة سلطها على دماغه . وخامسهم : أَصحاب مدين قوم شعيب أخذتهم الرجفة ، وسادسهم : أصحاب المؤتفكات قوم لوط أمطر الله عليهم الحجارة بعد أن جعل مدائنهم عاليها سافلها . والائتفاك الانقلاب سميت مدائنهم بذلك لأن الله تعالى قلبها عليهم . ويمكن أن يراد بالمؤتفكات الناس لانقلاب أحوالهم من الخير إلى الشر . ثم قال ﴿ أتتهم رسلهم بالبينات ﴾ أي بالمعجزات ولا بد بعد هذا من إضمار والتقدير فكذبوهم فأهلكهم الله . ﴿ فما كان الله ليظلمهم ﴾ قالت المعتزلة : أي ما صح منه الظلم ولكنهم استحقوا ذلك بسبب كفرهم ، وقد مر الكلام في أمثال ذلك . ثم بين أن شأن المؤمنين في الدنيا والآخرة بخلاف المنافقين فقال ﴿ والمؤمنون ﴾ الآية قال بعض العلماء : إنما قال ههنا ﴿ أولياء بعض ﴾ وهناك ﴿ من بعض ﴾ [الآية : 66] لأن نفاق أتباع المنافقين حصل بسبب التقليد لأكابرهم بمقتضى الطبع والعادة بخلاف الموافقة بين المؤمنين فإنها بسبب المشاركة في الاستدلال والتوفيق والهداية . وأقول : كون بعض المنافقين من بعض يوجب اشتراكهم في أمر من الأمور بالجملة كالدار أو حكم من الأحكام الشرعية أو سيرة وطريقة وهذا هو المقصود ، ولكنه يحتمل أن يكون تكلفاً أو بطريق النفاق لأن سببه انعقاد غرض من الأغراض الدنيوية العاجلة فذكر الله تعالى

اشتراكهم في ذلك بلفظ " من " لمكان الاحتمال المذكور . وأما تشارك المؤمنين في السيرة فلما

(59/344)

كان سببه الإخلاص والعصبية للدين والاجتماع على ما يفضي إلى سعادة الدارين كانت الموالاة بينهم محققة فصرح الله تعالى بذلك .

(60/344)

ثم وصفهم بأضداد صفات المنافقين فقال ﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ وهاتان الصفتان بالنسبة إلى غيرهم . ثم قال المنافقين ﴿ ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ﴾ وهاتان لهم في أنفسهم وهما بإزاء قوله في صفة المنافقين ﴿ ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ [التوبة : 54] . ثم وصفهم بالطاعة على الإطلاق فقال ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أي في كل ما يأتون ويذرون . ثم ذكر ما أعدّ لهم من الثواب على سبيل الإجمال فقال ﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ والسين تفيد المبالغة في إنجاز

الوعد بالرحمة كما يؤكد الوعيد به إذا قلت سأنتقم منك يوماً يعني أنك لا تفوتني وإن تباطأ ذلك . ثم ختم الآية بقوله ﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ وفيه ترغيب للمؤمنين وترهيب للكافرين لأن العزيز هو من لا يمنع من مرادة في عباده من رحمة أو عقوبة . والحكيم هو الذي يدبر عباده على وفق ما يقتضيه العدل والصلاح . ثم فصل ما أجمل من الرحمة بقوله ﴿ وعد الله المؤمنين ﴾ لآية . وقد كثر كلام أصحاب الآثار في معنى جنات عدن فقال الحسن : سألت عمران بن الحصين وأبا هريرة عن ذلك فقالا : على الخبير سقطت سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " هو قصر في الجنة من اللؤلؤ وفيه سبعون داراً من ياقوته حمراء ، في كل دار سبعون بيتاً من زمردة خضراء ، في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً على كل فراش زوجة من الحور العين ، وفي كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام ، وفي كل بيت سبعون وصيفة يعطى المؤمن من القوة ما يأتي على ذلك أجمع " وعن ابن عباس أنها دار الله لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر . وقال ابن مسعود : جنات عدن بطنان الجنة أي وسطها قاله الأزهري . وبطنان الأودية المواضع التي يستنقع فيها السيل واحدها بطن . وقال عطاء عن ابن عباس : هي قصبة الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي المدينة التي فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى . وسائر

الجنات حولها . وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدار والياقوت والذهب . فتهب الريح من تحت العرش فتدخل عليها كثبان المسك الأبيض . وقال عبد الله بن عمر : وإن في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج وله خمسة آلاف باب على كل باب خمسة آلاف حبرة لا يدخله إلا نبي أو صدّيق أو شهيد . وفي هذه الأخبار دلالة على أن عدناً علم ويؤيده قوله ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب ﴾ [مريم : 61] ولو لم يكن علماً لم يوصف بالمعرفة . ولا ريب أن أصله صفة من قولك عدن بالمكان إذا أقام به ، ومنه المعدن للمكان الذي تخلق فيه الجواهر .

(62/344)

وعلى هذا فالجنات كلها جنات عدن . إلا أن يغلب الاسم على بعضها . ﴿ ورضوان من الله ﴾ شيء يسير من رضاه ﴿ أكبر ﴾ من ذلك كله لأن رضاه سبب كل فوز وكرامة وكل خطب مع رضا المولى هين ، وكل نعيم مع سخطه منغص . وفيه دليل على أن السعادات الروحانية أعلى حالاً وأشرف مآلاً من السعادات الجسمانية بل لا نسبة لتلك اللذة والابتهاج إلى هذه على أن الاعتراف بالسعادات الجسمانية واجب من حيث الشرع

﴿ ذلك ﴾ الموعود والرضوان ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ وحده دون ما يعده الناس فوزاً .

في الحديث " إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك فيقول أنا أعطيكم أفضل من ذلك قالوا وأي شيء أفضل من ذلك قال أدخل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً " ثم عاد مرة أخرى إلى شرح أحوال المنافقين فقال ﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ قال الضحاك : أي جاهد الكفار واغلظ على المنافقين لأن المنافق لا تجوز محاربته في ظاهر الشرع . وضعف بأن النسق يأباه . وقيل : المراد بهؤلاء المنافقين هم الذين عرفه الله حالهم فصاروا كسائر الكفرة فجاز قتالهم ، وزيف بأنه وإن علم حالهم بالوحي إلا أنه مأمور بأن يحكم بالظاهر والقوم كانوا يظهرون الإسلام فكيف يجوز قتالهم ؟ والصحيح أن الجهاد بذل المجهود في حصول المقصود وهو شامل للسيف واللسان ، فالمراد جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة واغلظ عليهم في الجهادين جميعاً عن ابن مسعود : إن لم يستطع بيده فبلسانه ، فإن لم يستطع فليكفهر في وجهه ، فإن لم يستطع فبقلبه بأن يكرهه ويبغضه ويتبرأ منه . وحمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

واعترض عليه بأن إقامة الحدود واجبة على كل فاسق فلا يكون لهذا تعلق بالنفاق .

واعتذر عنه بأنه قال ذلك لأن عنده أن كل فاسق منافق أو لأن الغالب ممن يقام عليه الحد في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم

كونه منافقاً . قال الضحاك : خرج المنافقون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ، وكانوا إذا خلا بعضهم إلى بعض سبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وطعنوا في الدين ، فنقل ما قالوا حذيفة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أهل النفاق ما هذا الذي بلغني عنكم . فحلفوا ما قالوا شيئاً من ذلك فأنزل الله تعالى ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ وعن قتادة أن رجلين اقتتلا رجل من جهينة ورجل من غفار فظهر الغفاري على الجهني فنادى عبد الله بن أبيّ يا بني الأوس انصروا أخاكم فوالله ما مثلنا محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك وقال ﴿ لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : 8] فسعى بها رجل من المسلمين إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فجعل يحلف بالله ما قال فنزلت الآية . ومعنى قوله ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ أنهم أظهروا الكفر بعد ما كانوا يظهرون الإسلام . أما قوله ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ فهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك ، وذلك أنه توافق خمسة عشر رجلاً منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل ، وكان عمار بن ياسر أخذ بخطام راحلته يقودها وحذيفة

خلفها يسوقها ، فبيناهم كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلام فالتفت فإذا هم قوم متلثمون فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله فهربوا . وقيل : همّ المنافقون بقتل عامر بن قيس لرده على الجلاس بن سويد وقد مر في تفسير قوله ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ [التوبة : 62] وقيل : أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما نقموا ﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿ إلا أن أغناهم ﴾ كقول القائل .

(64/344)

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم . . . وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فظفروا بالغنائم وجمعوا الأموال . وروي أنه قُتل للجلاس مولى فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى ، ثم استعطف قلوبهم بعد صدور هذه الجنايات العظيمة عنهم فقال ﴿ فإن يتوبوا يك ﴾ يعني ذلك الرجوع ﴿ خيراً لهم ﴾ وكان الجلاس ممن تاب فحسنت توبته ﴿ وإن يتولوا ﴾ يعرضوا عن التوبة ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ بالقتل والسبي واغتنام الأموال . وقيل : بما ينالهم عند الموت ومعاينة ملائكة العذاب .

وقيل : في القبر وأما عذاب الآخرة فمعلوم ﴿ وما لهم في الأرض ﴾ يحتمل أرض الدنيا وأرض القيامة .

ثم بين أن هؤلاء كما ينافقون الرسول والمؤمنين فكذلك ينافقون ربهم فيما يعاهدونه عليه فقال ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ يروى عن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم قال مرة أخرى فقال : أما ترضى أن تكون مثل نبي الله ، فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير معي الجبال فضة وذهباً لسارت . فقال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتين كل ذي حق حقه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبة مالاً . فاتخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها ونزل وادياً من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما .

(65/344)

ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبره فقال : يا ويح ثعلبة ثلاثاً وأنزل

الله عز وجل ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : 103] فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين على الصدقة رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة وقال لهما . مرا بثعلبة وبفلان رجل من بني سليم فخذا صدقاتهما . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه إلا جزية ما هذه إلا أخت الجزية ما أدري ما هذا ، انطلقاً حتى تفرغا ثم تعودان إليّ . فانطلقا وأخبرا السلمي فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها فلما رأوها قالوا : ما يجب هذا عليك وما نريد أن نأخذ هذا منك . قال : بلى خذوه فإن نفسي بها طيبة . فأخذوها منه ثم رجعا على ثعلبة فقال : أروني كتابكما ثم قال : ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى أتيا النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآهما قال : يا ويح ثعلبة قبل أن يكلمهما ودعا للسلمي بالبركة ثم نزلت الآية وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فخرج إليه وقال : يا ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله قد منعني أن أقبل منك صدقتك . فجعل يحثوا التراب على رأسه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني . فلما أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقبل منه شيئاً ، ثم أتى أبا بكر حين استخلف فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله

صلى الله عليه وسلم وموضعي من الأنصاري فاقبل صدقتي . فقال : لم يقبلها رسول الله وأنا أقبلها ؟ فقبض أبو بكر وأبى أن يقبلها ، ثم جاء بها إلى عمر في خلافته فلم يقبلها

(66/344)

في خلافة عثمان ولم يقبل صدقته واحد من الخلفاء اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم . وأقول وما ذاك إلا بشؤم اللجاج أولاً وآخراً . قال بعض العلماء : المعاهدة أعم من أن تكون باللسان أو بالقلب . وقال المحققون . إنه لا بد من التلفظ بها لما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به نفوسهم ولم يتلفظوا به " ولأن قوله عز من قائل ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ﴾ ظاهره مشعر بالقول اللساني .

(67/344)

والمراد بالفضل إيتاء المال بطريق التجارة أو الاستغنام ونحوهما . وأصل ﴿ لنصدقن ﴾ لنتصدقن أدغمت التاء في الصاد . والمصدق المعطي لا السائل كقوله تعالى ﴿ وتصدق

علينا أن الله يجزي المتصدقين ﴾ [يوسف : 88] ومعنى قوله ﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ عن ابن عباس أنه أراد الحج . ولعل المراد إخراج كل ما يجب إخراجه إذ لا دليل على التقييد . ثم وصفهم بصفات ثلاث فقال ﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾ فالبخل عبارة عن منع الحق الشرعي ، والتولي نقض العهد ، والإعراض أراد به الإحجام عن تكاليف الله وأن ذلك منهم عادة معتادة ، ولترتب هذا الذم عل أمنع الصدقة ولإطلاق لفظة البخل عليه وهو في عرف الشرع عبارة عن منع الواجب . ذكر العلماء أن الصدقة الملتزمة في قوله ﴿ لنصدقن ﴾ هي الصدقة الواجبة . وأن الرجل قد عاهد ربه أن يقول بما يلزمه من الإنفاقات الواجبة . إن وسع الله عليه دون ما يلتزنه الإنسان بالنذر من المندوبات إذ لا دليل في الآية على ذلك مع أن سبب النزول يأباه . فإن قيل : الزكاة لا تلزم بسبب الالتزام وإنما تلزم بسبب ملك النصاب وحلول الحول . قلنا إن قوله ﴿ لنصدقن ﴾ لا دليل فيه على الفور بل المراد لنصدقن في وقته الذي يليق به . وفي الآية دلالة على أن الرجل حين عاهد بهذا العهد كان مسلماً ثم إنه لما بخل بالمال ولم يف بالعهد صار منافقاً ويؤكده قوله سبحانه ﴿ فاعقبهم نفاقاً ﴾ عن الحسن وقتادة أن أعقب مسند إلى ضمير البخل أي أورثهم البخل نفاقاً متمنكاً في قلوبهم لأنه كان سبباً فيه وباعثاً عليه ، وكذا التأويل إن جعل عائداً إلى التولي أو الإعراض . وضعت بأن حاصل هذه الأمور كونه تاركا لأداء الواجب وذلك لا يمكن جعله مؤثراً في حصول النفاق فى القلب لأن ترك

الواجب عدم والنفاق جهل وكفر وهو أمر وجودي والعدم لا يؤثر في الوجود ، ولأن هذه الترك قد يوجد في حق كثير من الفساق مع أنه لا يحصل معه النفاق ، ولأنه لو أوجب حصول

(68/344)

الكفر في القلب لأوجبه سواء كان الترك جائزاً شرعاً أو محرماً فسبب اختلافات الأحكام الشرعية لا يخرج السبب عن كونه مؤثراً ، ولأن البخل أو التولي أو الإعراض هو بعينه خلاف ما وعدوا الله به فيصير تقدير الآية إن التولي أوجب النفاق بسبب التولي وهذا كلام كما ترى فلم يبق إلا أن يسند الفعل إلى الله تعالى فيكون فيه دليل على أن خالق الكفر في القلوب هو الله ، ومن هنا قال الزجاج : معناه أنهم لما ضلوا في الماضي فالله تعالى يضلهم عن الدين في المستقبل ومما يؤكد القول بأن الضمير في ﴿ أعقب ﴾ لله أن الضمير في قوله ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ عائد إلى الله . وللمعتزلة أن يقولوا : النفاق وإن سلم أنه وجودي لكنه أمر شرعي ولا يبعد جعل شيء عدمي أمارة عليه .

(69/344)

وأيضاً الترك المقرون بالتولي والإعراض لا نسلم أنه لا يحصل معه النفاق ، ولا يلزم من كون الترك المحرم موجباً للكفر بجعل الشارع كون الترك الجائز كذلك ، ولا نسلم أن البخل هو بعينه إخلاف الوعد والكذب بل قد يقع البخل من غير سبق وعد . سلمنا عود الضمير إلى الله لكن من أين يلزم كونه خالقاً للكفر والنفاق ، ولم لا يجوز أن يراد فأعقبهم الله العقوبة على النفاق بإحداث الغم في قلوبهم وضيق الصدور ما ينالهم من الذل والخوف ، أو يراد فخذلهم حتى نافقوا وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا ؟ ولأهل السنة أن يقولوا هذا عدول عن الظاهر مع أن الدلائل الدالة على وجوب انتهاء الكل إلى مشيئة الله وتقديره تعضد ما قلناه . قال العلماء : ظاهر الآية يدل على أن نقض العهد وخلف الوعد يورث النفاق ، فعلى المسلم أن يبالغ في الاحتراز عنه . ومذهب الحسن البصري أن نقض العهد يوجب النفاق لا محالة تمسكاً بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم " ثلاث من كنّ فيه فهو منافق وإن صلى وصام وزعم أنه مؤمن إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان " وقال عطاء بن أبي رباح : حدثني جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ذكر قوله " ثلاث من كن فيه فهو منافق " في المنافقين خاصة الذين حدثوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فكذبوه واؤتمنوا على سره فخانوه ووعدوه أن يخرجوا معه إلى الغزو فأخلفوه . ونقل أن عمرو بن عبيد فسر الحديث فقال : إذا حدث عن الله

كذب عليه وعلى دينه ورسوله ، وإذا وعد أخلف كما ذكره الله فيمن عاهده ، وإذا أؤتمن على دين الله خان في السر وكان قلبه على خلاف لسانه . ونقل أن واصل بن عطاء أرسل إلى الحسن رجلاً فقال : إن أولاد يعقوب حدثوه في قولهم ﴿ فأكله الذئب ﴾ [يوسف : 17] فكذبوا ، ووعدوه في قولهم ﴿ وإنّا له لحافظون ﴾ [يوسف : 12] فأخلفوا وائتمنهم أبوهم على يوسف فخانوه ، فهل تحكم بكونهم منافقين ؟ فتوقف الحسن

(70/344)

في مذهبه . قال أهل التفسير : قوله ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ دل على أن ذلك المعاهد يموت على ذلك وكان كما أخبر فيكون إخباراً بالغيب ومعجزاً . قال الجبائي : هذا اللقاء لا شك أنه ليس بمعنى الرؤية لأن الكفار لا يرونه بالاتفاق فدل على أن اللقاء في القرآن ليس بمعنى الرؤية ، وضعف بأنه لا يلزم من عدم كون هذا اللقاء بمعنى الرؤية كون كل لقاء ورد في القرآن كذلك كقوله ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾ [البقرة : 46] .

ثم وبخهم على التجاهل أو عدم العلم بعلم الله وإحاطته بضمائرهم وتناجيهم فقال ﴿ ألم يعلموا ﴾ الآية .

(71/344)

والسر ما ينطوي عليه الصدر ، والنجوى ما يكون بين اثنين وأكثر مع الإخفاء عن غيرهم . والترتيب يدل على التخليص كما مر في الإنجاء كان المتناجيين تخلصا عن غيرهما ومنه ﴿ خلصوا نجياً ﴾ [يوسف : 80] ومعنى الآية كيف تتجرؤون على النفاق الذي الأصل فيه الاستسرار والتناجي فيما بينهم مع أنه تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر ويعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر لأنه العالم بجميع المعلومات على أي وجه يفرض ؟ !

عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبهم ذات يوم وحثهم على أن يجمعوا الصدقات ، فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالي ثمانية آلاف جئتك بنصفها فاجعلها في سبيل الله وأمسكت نصفها لعيالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت فبارك الله في مال عبد الرحمن حتى إنه خلف امرأتين يوم مات فبلغ ثمن ماله فهما مائة وستين ألف درهم . وقيل ؛ صولحت إحداهما على ثمانين ألفاً . وتصدق يومئذ عاصم بن عدي العجلاني بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري بصاع من تمر وقال : أجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخيله فأخذت صاعين من تمر ، أمسكت أحدهما لعيالي وأقرضت الآخر لربي ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه في الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلاَّ رياء وسمعة ، وأما

أبو عقيل فإنه جاء بصاعه ليذكر مع سائر الأكابر والله غني عن صاعه فأنزل الله سبحانه ﴿ الذين يلمزون المطوعين ﴾ أي المتطوعين فأدغمت . والتطوع التنفل وهو الطاعة لله بما ليس بواجب . والجهد بالضم والفتح شيء قليل يعيش به المقل ، قاله الليث . وقال الفراء : الضم لغة أهل الحجاز والفتح لغيرهم . وفرق ابن السكيت بينهما فقال : الجهد بالضم الطاقة وبالفتح المشقة . وقال الشعبي : الأول في العمل والثاني في القوة ﴿ سخر الله منهم ﴾ خير لا دعاء

(72/344)

كقوله ﴿ الله يستهزىء بهم ﴾ [البقرة : 15] وقد عرفت أن هذا من قبيل المشاكلة ، أو المراد منه لازم السخرية وهو إيقاع الذل والهوان بهم . وقال الأصم : المراد أنه تعالى يكلفهم إنفاق المال مع أنه لا يثيبهم عليه ، وإنما توجه الذم على المنافقين في هذا اللمز لأن الحكم بالرياء لمن يعطي الكثير كعبد الرحمن بن عوف وعاصم حكم على بواطن الأمور وذلك أمر استأثر الله به ورسوله . وأيضاً لمز الفقير على جهد المقل سفه لأنه لما لم يقدر إلا عليه فقد بذل كل ما له فعلم منه غالباً أنه إن قدر على أكثر من ذلك لم يكن منه منع ، وسعي الإنسان في أن يضم نفسه إلى أهل الخير والدين خير له من أن يضم نفسه إلى أهل الكسل والبطالة ،

ولو لم تكن فيه إلا الثقة بالله والدخول في زمرة من يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة لكفى به منقبة وفضلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 501.409 ﴾

(73/344)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ لأن التعارف في عالم الأرواح يوجب التآلف في عالم الأشباح ﴿ يأمرون بالمعروف ﴾ الحقيقي أي بطلبه والمطلوب هو الله لقوله " فأحببت أن أعرف " ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ وهو ما يقطع العبد عن الله ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ الحقيقة ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ يعني ما فضل عن كفافهم الضروري ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ بخلاف المنافقين فإنهم يطيعون النفس والهوى ﴿ ومساكن طيبة ﴾ على مراتب النفوس الطيبة فإن الطيبات للطيبين ﴿ يا أيها النبي ﴾ يعني القلب الذي له نبأ من مقام الانباء ﴿ جاهد ﴾ النفوس الكافرة بسيف الصدق والمخالفات ، وجاهد نفوس المريدين الذين يدعون الإرادة في الظاهر دون الباطن ﴿ واغلظ عليهم ﴾ في المؤخذات بأحكام الشريعة والطريقة حتى تتمرن نفوسهم وإلا ﴿ فمأواهم جهنم ﴾ القطيعة ﴿

ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ وهي التي توجب الإنكار والاعتراض على الشيخ ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أي أثبتوا لأنفسهم مرتبة الشخيوخة قبل أوانها ﴿ وما نقموا ﴾ إلا أن الشيخ رباهم بلبان فضل الله عن حلمة الولاية فلم يحتملوا لضيق حوصلة الهمة ، ومربد الطريقة أعظم من مربد الشريعة فلهذا يكون عذابه أليماً في الدنيا والآخرة كما قال الجنيد : لو أقبل صديق إلى الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة فإن ما فاته أكثر مما ناله ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ باستعداده الفطري ﴿ لئن آتانا من فضله ﴾ جعلنا متمكنين من اكتساب الكمال ﴿ لنصدقن ﴾ لنصرفن كل ما أعطانا فيما أعطى لأجله ﴿ إلى يوم يلقونه ﴾ أي يلقون جزاء النفاق ﴿ وأن الله علام الغيوب ﴾ يعلم ما توسوس به أنفسهم وهو غيب عن الخلف ويعلم ما يستكن في قلوبهم وهو غيب في نفوسهم ولهذا قال ﴿ الغيوب ﴾ . ﴿ سخر الله منهم ﴾ ذكره بلفظ الماضي ليعلم ان سخرية المنافقين نتيجة سخرية الله بهم في الأزل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 509 ﴾

(74/344)

قوله تعالى ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ معروفاً بكثرة الاحتمال وشدة اللين المشير إليه ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ للمبالغة في استجلابهم والحرص على نجاة جميع الخلق فكان معروفاً بالاستغفار لهم تارة على وجه الخصوص بسؤالهم عند اعتذارهم وحلفهم وتارة على وجه العموم عند استغفاره لجميع المسلمين ، أخبره تعالى من عاقبة أمره بما يزهده فيهم ليعرض عنهم أصلاً ورأساً ، لأنهم تجاوزوا حق الله في ترك الجهاد ومنع الصدقة وحقه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في لمزه في الصدقات ووصفه بما يجل عنه إلى حقوق المجاهدين الذين هو سبحانه خليفتهم في أنفسهم وأهليهم وأموالهم مع ما سبق في علمه للمنافقين من أنه لا يغفر لهم فقال : ﴿ استغفر ﴾ أي اطلب الغفران ﴿ لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ أي استوى في أمرهم استغفارك لهم وتركه ﴿ إن تستغفر ﴾ أي تسأل الغفران ﴿ لهم سبعين مرة ﴾ أي على سبيل الحقيقة أو المبالغة ؛ ولما كان الإخبار باستواء الأمرين : الاستغفار وتركه ربما كان مسبباً عن الغفران وربما كان مسبباً عن الخسران ، عينه في هذا الثاني فقال : ﴿ فلن يغفر الله ﴾ أي الذي قضى بشقائهم وهو الذي لا يرد أمره ﴿ لهم ﴾ وهو يحتمل أن يكون جواباً للأمر ، وجواب الشرط محذوف لدلالته عليه ، والمراد بالسبعين على ما ظهر في المآل المبالغة في أنه لا يغفر لهم لشيء من الأشياء ولو غفر لهم لشيء لكان لقبول شفاعة نبيه ـ

صلى الله عليه وسلم. ، والعرب تبالغ بما فيه لفظ السبعة لأنها غاية مستقصاة جامعه لأكثر أقسام العدد ، وهي تتمة عدد الخلق كالسماوات والأرض والبحار والأقاليم والأعضاء .

(75/344)

ولما كان. صلى الله عليه وسلم. شديد الحرص على رشدهم ونفعهم ، وكان حقيقة نظم الآية التخيير في الاستغفار وتركه ونفي المغفرة بالاستغفار بالعدد المحصور في سبعين ، جعل. صلى الله عليه وسلم. الآية مقيدة لما في سورة المنافقين فاستغفر لابن أبيّ وصلى عليه وقام على قبره وصرح بأنه لو يعلم انه لو زاد على السبعين قبل لزاد ، واستعظم عمر. رضى الله عنهم. ذلك منه. صلى الله عليه وسلم. وشرع يمسكه بثوبه ويقول : أتصلي عليه وقد نهاك الله عن ذلك ! لأنه لم يفهم من الآية غير المجاز لما عنده من بغض المنافقين ، وأما النبي. صلى الله عليه وسلم. فرأى التمسك بالحقيقة لما في الرفق بالخليفة من جميل الطريقة بتحصيل الائتلاف الواقع للخلاف وغيره من الفوائد وجليل العوائد ، ولذلك كان عمر. رضى الله عنهم. يقول لما نزل النهي الصريح : فعجبت بعد من جراءتي على رسول الله. صلى الله عليه وسلم. .

(76/344)

أي تفطنت بعد هذا الصريح أن ذلك الأول كان محتملاً وإلا لأنكر الله الصلاة عليه ، وفي موافقة الله تعالى لعمر ـ رضى الله عنهم ـ منقبة شريفة له ، وقد وافقه الله تعالى مع هذا في أشياء كثيرة ، روى البخاري في التفسير وغيره عن ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما توفى عبد الله بن أبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله ـ رضى الله عنهم ـ – إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فسأله ان يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ؛ وفي رواية في اللباس ، فأعطاه قميصه وقال : إذا فرغت فآذنا ، فلما فرغ آذنه فجاء ، وفي رواية : فقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا رسول الله ! تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما خيرني الله فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ وسأزيده على السبعين ؛ وفي رواية ؛ لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها ، قال : إنه منافق ، فصلى عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، قال : فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ إلى ﴿ وهم فاسقون ﴾ فترك الصلاة عليهم ، قال : فعجيب بعد من جراءتي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والله ورسوله أعلم : وله في أواخر الجهاد عن جابر بن عبد الله ـ رضى الله عنهما ـ قال : لما كان يوم بدر أتي بالأسارى وأتي

بالعباس ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياه ، فلذلك نزع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قميصه الذي ألبسه ، قال ابن عيينة : كانت له عند النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يد فأحب أن يكافئه ، وفي رواية عنه في اللباس أنه قال : أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابن أبيّ

(77/344)

بعد ما أدخل قبره فأمر به فأخرج ووضع على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه قميصه ـ انتهى .

فكأن ابنه ـ رضى الله عنهم ـ استحى من أن يؤذن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ به لما كان يعلم من نفاقه ، أو آذنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ به فصادف منه شغلاً فدفنه فجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إدخاله القبر وقبل تمام الدفن فأخرجه تطييباً لخاطر ابنه الرجل الصالح ودفعاً لما قد يتوهمه من إحنة عليه وتأليفاً لغيره ، فقد روي أنه قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إني أؤمل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب ، فأسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ففي بعض الروايات

أنه هو الذي طلب من النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يكفنه في قميصه ، وتعطفه عليه ، أدعى إلى تراحم المسلمين وتعاطف بعضهم على بعض ، وقوله : وألبسه قميصه – بالواو لا ينافي الرواية الأولى ، وتحمل الرواية الأولى على أنه وعده إعطاء القميص لمانع كان من التنجيز وقت السؤال ، فحمل الجزم بالإعطاء على الوعد الصادق ثم أنجزه بعد إخراجه من القبر – والله أعلم ؛ ووردت هذه الآية على طريق الجواب لمن كأنه قال : ما تقدم من أحوال المنافقين كان انتهاكاً لحرمة الله أو لحق الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يرد فيه أنه يهينهم بالإماتة على النفاق ، فكان يكفي فيه استغفار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم ، وأما هذان القسمان فأحدهما أخبر بأنه يميتهم منافقين ، والثاني انتهك حرمة المخلصين من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ م أجمعين فهل ينفعهم الاستغفار لهم ؟ فكأنه قيل : استوى الاستغفار وعدمه في أنه لا ينفعهم ، وختمها بعلة عدم المغفرة في قوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر الذي يبعد فعله من الحكيم الكريم ﴿ بأنهم كفروا بالله ﴾ أي وهو الملك الأعظم ﴿ ورسوله ﴾ أي فهم لا يستأهلون الغفران لأنهم لم يهتدوا لإصرارهم على الفسق وهو معنى قائم بهم في الزيادة على السبعين كما هو قائم بهم في الاقتصار على السبعين ﴿ والله ﴾ أي المحيط علماً وقدرة ﴿ لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي أنه لا يهديهم لأنه جبلهم على الفسق ، وكل من لا يهديه لأنه جلبه على الفسق لا يغفر له ، فهو لا يغفر لهم لما علم منهم مما لا يعلمه غيره ، فهو تمهيد لعذر النبي ـ

صلى الله عليه وسلم - في استغفاره قبل العلم بالطبع الذي لا يمكن معه رجوع . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 365 . 367 ﴾

(78/344)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ معي أبداً ﴾ بفتح الياء : أبو جعفر ونافع وابن كثير وأبو عمرو وحفص والمفضل ﴿ معي عدو ﴾ بالفتح : حفص فقط .

الوقوف : ﴿ أو لا تستغفر لهم ﴾ ط ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ ط ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ في الحر ﴾ ط ﴿ حراً ﴾ م لأن المعنى لو كانوا يفقهون حرارة النار لما قالوا لا تنفروا في الحر . ولو وصل لأوهم أن جهنم لا يكون نارها أشد حراً إذا لم يفقهوا ذلك ﴿ يفقهون ﴾ ه ﴿ كثيراً ﴾ ج لأن ﴿ جزاء ﴾ يصلح أن يكون مفعولاً له أو مصدر محذوف أي يجزون جزاء ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ معي عدوّاً ﴾ ط ﴿ الخالفين ﴾ ه ﴿ على قبره ﴾ ط ﴿ فاسقون ﴾ ه ﴿ وأولادهم ﴾ ط ﴿ كافرون ﴾ ه ﴿ القاعدين ﴾ ه ﴿ لا يفقهون ﴾ ه ﴿ وأنفسهم ﴾ ط ﴿ الخيرات ﴾ ز لابتداء وعد الفلاح على

التعظيم بدليل تكرار ﴿ أولئك ﴾ مع اتفاق الجملتين . ﴿ المفلحون ﴾ ه ﴿ خالدين فيها ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 510 ﴾

(79/344)

فصل

قال الفخر :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن عند نزول الآية الأولى في المنافقين ، قالوا : يا رسول الله استغفر لنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سأستغفر لكم ، وأشتغل بالاستغفار لهم ، فنزلت هذه الآية ، فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار .

وقال الحسن : كانوا يأتون رسول الله ، فيعتذرون إليه ويقولون إن أردنا إلا الحسنى وما أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ، فنزلت هذه الآية .

وروى الأصم : أنه كان عبد الله بن أبي بن سلول إذا خطب الرسول .

قام وقال هذا رسول الله أكرمه الله وأعزه ونصره ، فلما قام ذلك المقام بعد أحد قال له عمر : اجلس يا عدو الله ، فقد ظهر كفرك وجبهه الناس من كل جهة ، فخرج من المسجد ، ولم يصل فلقيه رجل من قومه .

فقال له : ما صرفك ؟ فحكى القصة .

فقال : ارجع إلى رسول الله يستغفر لك .

فقال : ما أبالي أستغفر لي أو لم يستغفر لي فنزل ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللّهِ لَوَّوْاْ رُؤُوسَهُمْ ﴾ [المنافقون : 5] وجاء المنافقون بعد أحد يعتذرون ويتعللون بالباطل أن يستغفر لهم .

المسألة الثانية :

﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾ وروى الشعبي قال : دعا عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة أبيه فقال له عليه السلام : "من أنت ؟ " فقال : أنا الحباب بن عبد الله قال : بل أنت عبد الله بن عبد الله ، إن الحباب هو الشيطان ، ثم قرأ هذه الآية .

قال القاضي : ظاهر قوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ كالدلالة على طلب القوم منه الاستغفار ، وقد حكيت ما روي فيه من الأخبار ، والأقرب في تعلق هذه الآية بما قبلها ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما أن الذين كانوا يلمزون هم الذين طلبوا الاستغفار ، فنزلت هذه الآية .

المسألة الثالثة :

من الناس من قال إن التخصيص بالعدد المعين ، يدل على أن الحال فيما وراء ذلك العدد بخلافه ، وهو مذهب القائلين بدليل الخطاب .

قالوا : والدليل عليه أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ قال عليه السلام : " والله لأزيدن على السبعين " ولم ينصرف عنه حتى نزل قوله تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] الآية فكف عنهم .

ولقائل أن يقول : هذا الاستدلال بالعكس أولى ، لأنه تعالى لما بين للرسول عليه السلام أنه لا يغفر لهم ألبتة .

ثبت أن الحال فيما وراء العدد المذكور مساو للحال في العدد المذكور ، وذلك يدل على أن التقييد بالعدد لا يوجب أن يكون الحكم فيما وراءه بخلافه .

المسألة الرابعة :

من الناس من قال : إن الرسول عليه السلام اشتغل بالاستغفار للقوم فمنعه الله منه ، ومنهم من قال : إن المنافقين طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يستغفر لهم فالله تعالى نهاه عنه والنهي عن الشيء لا يدل على كون المنهي مقدماً على ذلك الفعل ، وإنما قلنا إنه عليه السلام ما اشتغل بالاستغفار لهم لوجوه : الأول : أن المنافق كافر ، وقد ظهر في شرعه عليه السلام أن الاستغفار للكافر لا يجوز .

(81/344)

ولهذا السبب أمر الله رسوله بالاقتداء بإبراهيم عليه السلام إلا في قوله لأبيه ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] وإذا كان هذا مشهوراً في الشرع فكيف يجوز الإقدام عليه ؟

الثاني : أن استغفار الغير للغير لا ينفعه إذا كان ذلك الغير مصراً على القبح والمعصية .

الثالث : أن إقدامه على الاستغفار للمنافقين يجري مجرى إغرائهم بالإقدام على الذنب .

الرابع : أنه تعالى إذا كان لا يجيبه إليه بقي دعاء الرسول عليه السلام مردوداً عند الله ، وذلك يوجب نقصان منصبه .

الخامس : أن هذا الدعاء لو كان مقبولاً من الرسول لكان قليله مثل كثيره في حصول الإجابة .

فثبت أن المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه ، وليس المقصود من ذكر هذا العدد تحديد المنع ، بل هو كما يقول القائل لمن سأله الحاجة : لو سألتني سبعين مرة لم أقضها لك ، ولا يريد بذلك أنه إذا زاد قضاها فكذا ههنا ، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى في الآية : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله ﴾ فبين أن العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول وإن بلغ سبعين مرة ، كفرهم وفسقهم ، وهذا المعنى قائم في الزيادة على السبعين ، فصار هذا التعليل شاهداً بأن المراد إزالة الطمع في أن ينفعهم استغفار الرسول عليه السلام مع إصرارهم على الكفر ، ويؤكده أيضاً قوله تعالى : ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ والمعنى أن فسقهم مانع من الهداية .

فثبت أن الحق ما ذكرناه .

المسألة الخامسة :

قال المتأخرون من أهل التفسير ، السبعون عند العرب غاية مستقصاة لأنه عبارة عن جمع السبعة عشر مرات ، والسبعة عدد شريف لأن عدد السموات والأرض والبحار والأقاليم والنجوم والأعضاء ، هو هذا العدد .

وقال بعضهم : هذا العدد إنما خص بالذكر ههنا لأنه روي أن النبي عليه السلام كبر على حمزة سبعين تكبيرة ، فكأنه قيل : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ بإزاء صلاتك على حمزة ، وقيل الأصل فيه قوله تعالى : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : 261] وقال عليه السلام : " الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة " فلما ذكر الله تعالى هذا العدد في معرض التضعيف لرسوله صار أصلاً فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 116.118 ﴾

(83/344)

وقال السمرقندى :

﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ .

اللفظ لفظ الأمر ومعناه معنى الخبر ، أي إن شئت استغفر لهم ، وإن شئت فلا تستغفر لهم ، يعني : للمنافقين .

﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ ، ثم بَيَّنَ المعنى الذي لم يغفر لهم بسببه ، فقال تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، يعني : في السر .

وقال قتادة ومجاهد : لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأَزِيدَنَّ عَلَى

سَبْعِينَ" فاستغفر لهم ، أكثر من سبعين مرة لعل الله يغفر لهم فأنزل الله تعالى : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] ثم قال تعالى : ﴿ واللهُ لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ ، يعني : المنافقين الذين كفروا بالله ورسوله في السر ، والله تعالى لا يهديهم ما داموا ثابتين على النفاق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(84/344)

وقال الثعلبى :

﴿ استغفر لَهُمْ ﴾

يعني لهؤلاء المنافقين ﴿ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ لفظه [أمر ومعناه] جزاء تقديره : إن أستغفرت لهم أو لم تستغفر لهم ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ والسبعون عند العرب غاية تستقصا بالسبعة ، والأعضاء ، والسبعة تتمة عدد الخلق ، كالسموات والأرض والبحار والأقاليم .

ورأيت في بعض التفاسير : إن تستغفر لهم سبعين مرّة بأزاء صلواتك على [قبر] حمزة لن يغفر الله لهم .

قال الضحاك : لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنِّ الله قد رخّص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم " .

فأنزل الله عزّ وجلّ : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] .

وذكر عروة بن الزبير أن هذه الآيات نزلت في عبد الله بن أُبي حين قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضّوا من حوله ، ثمّ قال : ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] . فأنزل الله تعالى ﴿ استغفر ﴾ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأزيدن على السبعين " فأنزل الله : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] فأبى الله أن يغفر لهم ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(85/344)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ

﴾

وهذا على وجه المبالغة في اليأس من المغفرة وإن كان على صيغة الأمر ، ومعناه أنك لو طلبتها لهم طلب المأمور بها أو تركتها ترك المنهي عنها لكان سواء في أن الله تعالى لا يغفر لهم .

قوله ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ ليس بحد لوقوع المغفرة بعدها ، وإنما هو على وجه المبالغة بذكر هذا العدد لأن العرب تبالغ بالسبع والسبعين لأن التعديل في نصف العقد وهو خمسة إذا زيد عليه واحد كان لأدنى المبالغة ، وإذا زيد عليه اثنان كان لأقصى المبالغة ، ولذلك قالوا للأسد سبُع أي قد ضوعفت قوته سبع مرات ، وهذا ذكره علي بن عيسى . وحكى مجاهد وقتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَكْثَرَ مِن سَبْعِينَ مَرَّةً " فأنزل الله تعالى ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ فكف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(86/344)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾

يحتمل معنيين ، أحدهما أن يكون لفظ أمر ومعناه الشرط ، بمعنى إن استغفرت أو لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ، فيكون مثل قوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴾ [التوبة : 53] وبمنزلة قول الشاعر : [الكثير]

أسيئي لنا أو أحسني لا ملومة . . . لدينا ولا مقلية إن تقلت

وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره في معنى الآية ، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخييراً ، كأنه قال له : إن شئت فاستغفر وإن شئت لا تستغفر ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر ﴿ سبعين مرة ﴾ وهذا هو الصحيح لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبيينه ذلك .

وذلك أن عمر بن الخطاب سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم فقال يا رسول الله ، أتستغفر للمنافقين وقد أعلمك الله أنه لا يغفر لهم ، فقال له " يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت ، ولو علمت أني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت " ، ونحو هذا من مقاولة عمر في وقت إرادة النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة على عبد الله بن أبي ابن سلول ، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده ، ومحال أن يصلي على كافر ، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار ووكل سريرته إلى الله عز وجل ، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر .

وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله صلى الله عليه وسلم رفض إلزام دليل الخطاب ، وذلك أن

دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يغفر معها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو علمت فجعل ذلك مما لا يعلمه ، ومما ينبغي أن يتعلم ويطلب علمه من الله عز وجل ، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب ، وإذا ترتب كما قلنا التخيير في هذه الآية صح أن ذلك التخيير هو الذي نسخ بقوله تعالى : في سورة المنافقون

(87/344)

﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب ، منها قوله : إن المدرك للتشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام لأن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة " فاقتضى دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك ، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب ، منها قول النبي صلى الله عليه وسلم ، " وفي سائمة الغنم الزكاة " فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة ، ومالك يرى الزكاة في غير السائمة ، ومنها أن الله عز وجل يقول في الصيد ﴿ من قتله منكم متعمداً ﴾ [المائدة : 95] فقال مالك : حكم المخطىء والمتعمد سواء ودليل الخطاب يقتضي غير هذا ، وأما تمثيله " السبعين " دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيء غاية

وتحقيقاً في الكثرة ، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى وإلى أصحاب العقبة وقد قال بعض اللغويين إن التصريف الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمر ، من ذلك السبعة فإنها عدد مقنع هي في السماوات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطيع الله وبها يعصيه ، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس ، وهي عيناه وأذناه ولسانه وبطنه وفرجه ويداه ورجلاه ، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم وغير ذلك .

ومن ذلك السبع والعبوس والعنبس ونحو هذا من القول ، وقوله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى امتناع الغفران ، وقوله : ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ إما من حيث هم فاسقون ، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(88/344)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ استغفرْ لهم أو لا تستغفرْ لهم ﴾

سبب نزولها : " أنه لما نزل وعيد اللامزين قالوا : يا رسول الله استغفر لنا ، فنزلت هذه الآية

، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سوف أستغفر لهم أكثر من سبعين ، لعل الله يغفر لهم فنزل قوله : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ [المنافقون : 6] " ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وظاهر قوله : "استغفر لهم" الأمر ، وليس كذلك ؛ إنما المعنى : إن استغفرت ، وإن لم تستغفر ، لا يُغفَر لهم ، فهو كقوله : ﴿ أنفقوا طوعاً أو كرها ﴾ [التوبة : 53] ، وقد سبق شرح هذا المعنى هناك ، هذا قول المحققين .

وذهب قوم إلى أن ظاهر اللفظ يعطي أنه إن زاد على السبعين ، رجي لهم الغفران .

ثم نسخت بقوله : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ .

فإن قيل : كيف جاز أن يستغفر لهم ، وقد أُخبر بأنهم كفروا ؟

فالجواب : أنه إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إِسلامهم من غير أن يتحقق خروجهم عن الإسلام ، ولا يجوز أن يقال : علم كفرهم ثم استغفر .

فإن قيل : ما معنى حصر العدد بسبعين ؟

فالجواب : أن العرب تستكثر في الآحاد من سبعة ، وفي العشرات من سبعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

قال المفسرون : لما نزلت الآيات المتقدمة في المنافقين وبان نفاقهم وظهر للمؤمنين جاؤوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعتذرون إليه ويقولون استغفر لنا فنزلت استغفر لهم أو لا تستغفر فلن يغفر الله لهم وإنما خص سبحانه وتعالى السبعين من العدد بالذكر لأن العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لما صلى على عمه حمزة رضي الله تعالى عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبعة وهو عدد شريف فإن السموات والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم السيارة سبع فلهذا خص الله تبارك وتعالى السبعين بالذكر للمبالغة في اليأس من طمع المغفرة لهم .

قال الضحاك ولما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله قد رخص لي فسأزيدن على السبعين لعل الله أن يغفر لهم " فأنزل الله سبحانه وتعالى سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم (ق) عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله يعني بن أبي بن سلول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله (صلى الله عليه وسلم

) ليصلي عليه فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا رسول الله نصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما خيرني الله فقال استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة وسأزيد على السبعين " قال إنه منافق فصلى عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله ولا تصلي على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون زاد في رواية فترك الصلاة عليهم .

(90/344)

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ يعني أن هذا الفعل من الله وهو ترك العفو عنهم وترك المغفرة لهم من أجل أنهم اختاروا الكفر على الإيمان بالله ورسوله ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ يعني والله لا يوافق للإيمان به وبرسوله من اختار الكفر والخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(91/344)

وقال أبو حيان :

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان رجلاً صالحاً أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : " قد رخص لي فأزيد على السبعين " فنزلت سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم .

وقيل : لما نزل سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ، سألوا الرسول أن يستغفر لهم فنزلت .

وعلى هذا فالضمائر عائدة على الذين سبق ذكرهم ، أو على جميع المنافقين قولان .

والخطاب بالأمر للرسول ، والظاهر أنّ المراد بهذا الكلام التخيير ، وهو الذي روي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقد قال له عمر : كيف تستغفروا لعدو الله وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم ؟ فقال (صلى الله عليه وسلم) : " ما نهاني ولكنه خيرني " فكأنه قال له عليه السلام : إن شئت فاستغفر ، وإن شئت فلا تستغفر ، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة .

وقيل : لفظه أمر ومعناه الشرط ، بمعنى إنْ استغفرت أو لم تستغفر لن يغفر الله ، فيكون مثل قوله : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم ﴾ وبمنزلة قول الشاعر :

أسيء بنا أو أحسني لا ملومة . . .

لدينا ولا مقلية إن تقلت

ومر الكلام في هذا في قوله : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ وإلى هذا المعنى ذهب الطبري وغيره ، وهو اختيار الزمخشري قال : وقد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر كأنه قيل : لن يغفر الله لهم استغفرت أم لم تستغفر ، وإن فيه معنى الشرط ، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر انتهى .

يعني في تفسير قوله تعالى : ﴿ قل أنفقوا ﴾ وكان قال هناك .

(92/344)

(فإن قلت) : كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال : لن يتقبل ؟ (قلت) : هو أمر في معنى الخبر كقوله : ﴿ قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدًّا ﴾ ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً ، ونحوه قوله : أستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وقوله :

أسيء بنا أو أحسبني لا ملومة . . .

أي : لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أو لا تستغفر لهم ، ولا نلومك أحسنت إلينا أو أسأت .

فإن قيل : متى يجوز نحو هذا ؟ قلت : إذا دل الكلام عليه كما كان في قولك : غفر الله لزيد ورحمه .

(فإن قلت) : لم فعل ذلك ؟ (قلت) : لنكتة وهي أنّ كثيراً كأنه يقول لعزة : امتحني لطف

محلك عندي ، وقوة محبتي لك ، وعامليني بالإساءة والإحْسان ، وانظري هل تتفاوت حالي معك مسيئة كنت أو محسنة .

وفي معناه قول القائل :

أحول الذي إن قمت بالسيف عامداً . . .

لتضربه لم يستغشك في الودّ

وكذلك المعنى أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ، واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم .

وانظر هل ترى خلافاً بين حالي الاستغفار وتركه ؟ انتهى .

وقيل : هو أمر مبالغة في الإياس ومعناه : إنك لو طلبت الاستغفار لهم طلب المأمور ، أو تركته ترك المنهى عنه ، لم يغفر لهم .

وقيل : معناه الإستواء أي : استغفارك لهم وترك الاستغفار سواء .

(فإن قلت) : كيف جاز أن يستغفر لهم وقد أخبر أنهم كفروا ؟ فالجواب قالوا من وجوه :

أحدها : أن ذلك كان على سبيل التأليف ليخلص إيمان كثير منهم .

وقد روي أنه لما استغفر لابن سلول وكساه ثوبه ، وصلى عليه ، أسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب الاستشفاء بثوب الرسول ، وكان رأس المنافقين وسيدهم .

وقيل : فعل ذلك تطييباً لقلب ولده ومن أسلم منهم ، وهذا قريب مما قبله .

وقيل : كان المؤمنون يسألون الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يستغفر لقومهم المنافقين في حياتهم رجاء أن يخلصوا في إيمانهم ، وبعد مماتهم رجاء الغفران ، فنهاه الله عن ذلك وأيأسهم منه ، وقد سأل عبد الله بن عبد الله الرسول أن يستغفر لأبيه رجاء أن يخفف عنه .

وقيل : إنما استغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير أن يحقق خروجهم عن الإسلام ، ورد هذا القول بأنه تعالى أخبر بأنهم كفروا فلا يصح أن يقال إنه غير عالم بكفرهم .

وقال أبو عبد الله الرازي : الأقرب في تعلق هذه الآية بما قبلها ما ذكره ابن عباس : أنّ الذين كانوا يلمزون هم الذين طلبوا الاستغفار ، ولا يجوز أن يكون الرسول (صلى الله عليه وسلم) اشتغل بالاستغفار فنهاه عنه لوجوه : الأول : أن المنافق كافر ، وقد ظهر في شرعه عليه السلام أن الاستغفار للكافر لا يجوز ، فلهذا السبب أمره الله تعالى بالاقتداء بإبراهيم عليهما السلام إلا في قوله : ﴿ لأستغفرن لك ﴾ وإذا كان هذا مشهوراً في الشرع ، فكيف يجوز الإقدام عليه ؟ الثاني : أنّ استغفار الغير للغير لا ينفعه إذا كان ذلك الغير مصراً على القبيح والمعصية .

الثالث : أن إقدامه على الاستغفار للمنافقين يجري مجرى إغرائهم بالإقدام على الذنب .

الرابع : أنه إذا كان لا يجيبه بقي دعاء الرسول مردوداً عند الله ، وذلك يوجب نقصان

منصبه (صلى الله عليه وسلم) .

الخامس : أن هذا الدعاء لو كان مقبولاً من الرسول لكان قليله مثل كثيره في حصول الإجابة ، فثبت أنّ المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه ، وليس المقصود من ذكر هذا العدد تحديد المنع ، بل هو كما يقول القائل : إنْ سألته حاجة لو سألتني سبعين مرة لم أقضها لك لا يريد بذلك أنه إذا زاد قضاها ، فكذا ههنا .

والذي يؤكد ذلك قوله تعالى في الآية : ذلك بأنهم كفروا .

(94/344)

فبيّن أن العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول لهم ، وإن بلغ سبعين مرة ، هي كفرهم وفسقهم .

وهذا المعنى قائم في الزيادة على السبعين ، فصار هذا القليل شاهداً بأن المراد إزالة الطمع أن ينفعهم استغفار الرسول مع إصرارهم على كفرهم ، ويؤكد : والله لا يهدي القوم الفاسقين .

والمعنى : أنّ فسقهم مانع من الهداية ، فثبت أنّ الحق ما ذكرناه .

وقال الأزهري في جماعة من أهل اللغة : السبعون هنا جمع السبعة المستعملة للكثرة ، لا

السبعة التي فوق الستة انتهى .

والعرب تستكثر في الآحاد بالسبعة ، وفي العشرات بالسبعين ، وفي المئين بسبعمائة .

قال الزمخشري : والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير .

قال عليّ رضي الله تعالى عنه :

لأصبحن العاص وابن العاصي . . .

سبعين ألفاً عاقدي النواصي

قال ابن عطية : وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيء غاية ومقنعاً في الكثرة .

ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى ، وإلى أصحاب العقبة ؟ وقد قال بعض اللغويين : إنّ التصريف الذي يكون من السين والباء والعين شديد الأمر من ذلك السبعة ، فإنها عدد مقنع هي في السموات وفي الأرض ، وفي خلق الإنسان ، وفي بدنه ، وفي أعضائه التي بها يطيع الله ، وبها يعصيه ، وبها ترتيب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس ، وهي : عيناه ، وأذناه ، وأسنانه ، وبطنه ، وفرجه ، ويداه ، ورجلاه .

وفي سهام الميسر ، وفي الأقاليم ، وغير ذلك ومن ذلك السبع العبوس ، والعنبس ، ونحو هذا من القول انتهى واستدل القائلون بدليل الخطاب وأنّ التخصيص بالعدد يدل على أنّ الحكم

فيما وراء ذلك بخلافه بما روى أنه قال : "والله لأزيدن على السبعين" ولم ينصرف حتى نزل : ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ فكف عنه .

(95/344)

قيل : ولقائل أن يقول هذا الاستدلال بالعكس أولى ، لأنه تعالى لمّا بين أنه لا يغفر لهم البتة ثبت أنّ الحال فيما وراء العدد مساوٍ للحال في العدد ، وذلك يدل على أن التقييد بالعدد لا يوجب أن يكون الحكم فيما رآه بخلافه .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : كيف خفي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار كيف ؟ وقد تلاه بقوله تعالى ذلك بأنهم كفروا الآية ، فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : " رخص لي ربي فأزيد على السبعين " ؟ (قلت) : لم يخف عليه (صلى الله عليه وسلم) ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه كما قال إبراهيم عليه السلام : ﴿ ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ وفي إظهار النبي (صلى الله عليه وسلم) الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض انتهى .

وفي هذا السؤال والجواب .

غض من منصب النبوة ، وسوء أدب على الأنبياء ، ونسبته إليهم ما لا يليق بهم .

وإذا كان (صلى الله عليه وسلم) يقول : " لم يكن لنبي خائنة الأعين " أو كما قال : وهي الإشارة ، فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التحييل ؟ حاشا منصب الأنبياء عن ذلك ، ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بجالهم ، ولقد تكلم عند تفسير قوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ بكلام في حق الرسول نزهت كتابي هذا أنْ أنقله فيه ، والله تعالى يعصمنا من الزلل في القول والعمل ، ذلك إشارة إلى انتفاء الغفران وتبيين العلة الموجبة لذلك ، وانتفاء هداية الله الفاسقين هو للذين حتم لهم بذلك ، فهو عام مخصوص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(96/344)

وقال أبو السعود :

﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

إخبارٌ باستواء الأمرَين الاستغفارُ لهم وتركُه في استحالة المغفرة ، وتصويرُه بصورة الأمر للمبالغة في بيان استوائِهما كأنه عليه الصلاة والسلام أُمر بامتحان الحالِ بأن يستغفر تارة

ويتركَ أخرى ليظهرَ له جليةُ الأمر كما في قوله عز وجل : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾ بيانٌ لاستحالة المغفرة بعد المبالغةِ في الاستغفار إثرَ بيانِ الاستواءِ بينه وبين عدمِه . (روي أن عبدَ اللَّه بنَ عبدِ اللَّه بنِ أُبيّ وكان من المخلِصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفرَ له ففعل عليه الصلاة والسلام فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام محافظةً على ما هو الأصلُ من أن مراتبَ الأعداد حدودٌ معينةٌ يخالف حكمُ كلَ منها حكمَ ما فوقها : " إن الله قد رخّص لي فسأزيد على السبعين " فنزلت ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللّهُ لَهُمْ ﴾ وقد شاع استعمالُ السبعةِ والسبعين والسبعِمائةِ في مطلق التكثيرِ لاشتمال السبعة على جملة أقسام العددِ فكأنها العددُ بأسره وقيل : هي أكملُ الأعدادِ لجمعها معانيَها ولأن الستة أولُ عددٍ تامَ لتعادل أجزائِها الصحيحةِ إذ نصفُها ثلاثة وثلثُها اثنان وسدسُها واحد وجملتها ستةٌ وهي مع الواحد سبعةٌ فكانت كاملةً إذ لا مرتبةَ بعد التمام إلا الكمالُ ثم السبعون غايةُ الكمالِ إذ الآحادُ غايتُها العشرات والسبعُمائة غايةُ الغايات .

(97/344)

﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى امتناع المغفرة لهم ولو بعد المبالغةِ في الاستغفار ، أي ذلك الامتناعُ ليس لعدم الاعتدادِ باستغفارك بل ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ كفراً متجاوزاً عن الحد كما يلوح به وصفُهم بالفسق في قوله تعالى عز وجل : ﴿ واللهُ لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ فإن الفسقَ في كل شيء عبارةٌ عن التمرُّد والتجاوز عن حدوده أي لا يهديهم هدايةً مُوصلةً إلى المقصد ألبتةَ لمخالفة ذلك للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوينِ والتشريعِ ، وأما الهدايةُ بمعنى الدِلالة على ما يوصِل إليه فهي متحققةٌ لا محالة ولكنهم بسوء اختيارِهم لم يقبلوها فوقعوا فيما وقعوا ، وهو تذييلٌ مؤكدٌ لما قبله من الحُكم فإن مغفرةَ الكافرِ إنما هي بالإقلاع عن الكفر والإقبالِ إلى الحق ، والمنهمكُ فيه المطبوعُ عليه بمعزل من ذلك ، وفيه تنبيهٌ على عذر النبيِّ صلى الله عليه وسلم في استغفاره لهم وهو عدمُ يأسِه من إيمانهم حيث لم يعلم أنهم مطبوعون على الغي والضلالِ إذ الممنوعُ هو الاستغفارُ لهم بعد تبيُّن حالِهم كما سيتلى من قوله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(98/344)

وقال الآلوسى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

الظاهر أن المراد به وبمثله التخيير ، ويؤيد إرادته هنا فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ستعلم إن شاء الله تعالى ذلك منه فكأنه قال سبحانه له عليه الصلاة والسلام .

إن شئت فاستغفر لهم وإن شئت فلا ، وكلام النسفي تنسفه صحة الأخبار نسفاً .

واختار غير واحد أن المراد التسوية بين الأمرين كما في قوله تعالى : ﴿ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ [التوبة : 53] والبيت المار :

أسيئي بنا أو أحسني . . .

الخ ، والمقصود الأخبار بعدم الفائدة في ذلك وفيه من المبالغة ما فيه ، وقال بعض المحققين بعد اختياره للتسوية في مثل ذلك : إنها لا تنافي التخيير فإن ثبت فهو بطريق الاقتضاء لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما فلا بد من أحدهما ويختلف الحال فتارة يكون الإثبات كما في قوله تعالى : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنذرتهم أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : 6] وأخرى النفي كما هنا وفي قوله سبحانه : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ بيان لعدم المغفرة وإن استغفر لهم حسبما أريد إثر التخيير أو بيان لاستحالة المغفرة بعد المبالغة في الاستغفار اثر بيان الاستواء بين الاستغفار وعدمه .

وسبب النزول على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لما نزل قوله سبحانه : ﴿ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : 79] الخ سأله عليه الصلاة والسلام اللامزون الاستغفار لهم فهم أن يفعل فنزلت فلم يفعل .

وقيل : نزلت بعد أن فعل ، واختار الإمام عدمه وقال : إنه لا يجوز الاستغفار للكافر فكيف يصدر عنه صلى الله عليه وسلم .

(99/344)

ورد بأنه يجوز لأحيائهم بمعنى طلب سبب الغفران ، والقول بأن الاستغفار للمصر لا ينفع لا ينفع لأنه لا قطع بعدم نفعه إلا أن يوحي إليه عليه الصلاة والسلام بأنه لا يؤمن كأبي لهب ، والقول بأن الاستغفار للمنافق إغراء له على النفاق لا نفاق له أصلاً وإلا لامتنع الاستغفار لعصاة المؤمنين ولا قائل به ، وقال بعضهم : إنه على تقدير وقوع الاستغفار منه عليه الصلاة والسلام والقول بتقديم النهي المفاد بقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] لا اشكال فيه إذ النهي ليس للتحريم بل لبيان عدم الفائدة وهو كلام واه لأن قصارى ما تدل عليه الآية المنع من الاستغفار للكفار وهو لا يقتضي المنع عن الاستغفار لمن ظاهر حاله الإسلام ، والقول بأنه حيث لم يستجب يكون

نقصاً في منصب النبوة ممنوع لأنه عليه الصلاة والسلام قد لا يجاب دعاؤه لحكمة كما لم يجب دعاء بعض إخوانه الأنبياء عليهم السلام ولا يعد ذلك نقصاً كما لا يخفى ، ومناسبة الآية لما قبلها على هذه الرواية في غاية الوضوح إلا أنه قيل : إن الصحيح المعول عليه في ذلك أن عبد الله وكان اسمه الحباب وكان من املخلصين ابن عبد الله بن أبي سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام : لأزيدن على السبعين فنزلت

﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] الخ ، وفيه رد على الإمام أيضاً في اختياره عدم الاستغفار وكذا في إنكاره كون مفهوم العدد حجة كما نقله عنه الاسنوي في التمهيد مخالفاً في ذلك الشافعي رضي الله تعالى عنه فإنه قائل بحجيته كما نقله الغزالي عنه في المنخول وشيخه إمام الحرمين في البرهان وصرح بأن ذلك قول الجمهور .

(100/344)

وفي المطلب لابن الرفعة أن مفهوم العدد هو العمدة عندنا في عدم تنقيص الحجارة في الاستنجاء على الثلاثة والزيادة على ثلاثة أيام في الخيار ، وما نقل عن النووي من أن مفهوم

العدد باطل عند الأصوليين محمول على أن المراد باطل عند جمع من الأصوليين كما يدل عليه كلامه في "شرح مسلم" في "باب الجنائز" وإلا فهو عجيب منه .

(101/344)

وكلام العلامة البيضاوي مضطرب ، ففي المنهاج التحصيص بالعدد لا يدل على الزائد والناقص أي انه نص في مدلوله لا يحتمل الزيادة والنقصان ، وفي التفسير عند هذه الآية بعد سوق خبر سبب النزول أنه عليه الصلاة والسلام فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل فجاز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه فبين عليه الصلاة والسلام أن المراد به التكثير لا التحديد ، وذكر في تفسير سورة البقرة عند قوله سبحانه : ﴿ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سموات ﴾ [البقرة : 29] أنه ليس في الآية نفي الزائد ، وإرادة التكثير من السبعين شائع في كلامهم وكذا إرادته من السبعة والسبعمائة ، وعلل في "شرح المصابيح" ذلك بأن السبعة مشتملة على جملة أقسام العدد فإنه ينقسم إلى فرد وزوج وكل منهما إلى أول ومركب فالفرد الأول ثلاثة والمركب من خمسة والزوج الأول إثنان والمركب أربعة ، وينقسم أيضاً إلى منطق كالأربعة وأصم كالستة ؛ والسبعة تشتمل على جميع هذه الأقسام ، فم إن أريد المبالغة جعلت آحادها اعشاراً واعشارها مئات ، وأريد بالفرد الأول الذي لا يكون

مسبوقاً بفرد آخر عددي كالثلاثة إذ الواحد ليس بعدد بناء على أنه ما ساوى نصف مجموع حاشيته الصحيحتين ، وبالفرد المركب الذي يكون مسبوقاً بفرد آخر فإن الخمسة مسبوق بثلاثة ، وأريد بالزوج الأول الغير مسبوق بزوج آخر كالاثنين وبالمركب ما يكون مسبوقاً به كالأربعة المسبوقة بالاثنين ، وقد يقسم العدد ابتداء إلى أول ومركب ويراد بالأول ما لا يعده إلا الواحد كالثلاثة والخمسة والسبعة وبالمركب ما يعده غير الواحد كالأربعة فإنه يعدها الاثنان والتسعة فإنه يعدها الثلاثة ، وللمنطق اطلاقان فيطلق ويراد به ما له كسر صحيح من الكسور التسعة ، والأصم الذي يقابله ما لا يكون كذلك كأحد عشر ، ويطلق ويراد به المجذور وهو ما يكون حاصلاً من ضرب عدد في نفسه كالأربعة الحاصلة من ضرب الاثنين في نفسها والتسعة الحاصلة من ضرب الثلاثة في

(102/344)

نفسها والأصم الذي يقابله ما لا يكون كذلك كالاثنين والثلاثة وهذا مراد شارح المصابيح حيث مثل الأصم بالستة مع أن لها كسراً صحيحاً بل كسران النصف والسدس لكنها ليست حاصلة من ضرب عدد في نفسه ، ومعنى اشتمال السبعة على هذه الأقسام أنه إذا جمع الفرد الأول مع الزوج المركب أو الفرد المركب مع الزوج الأول كان سبعة ، وكذا إذا

جمع المنطق كالأربعة مع الأصم كالثلاثة كان الحاصل سبعة وهذه الخاصة لا توجد في العدد قبل السبعة ، فمن ظن أن الأنسب بالاعتبار بحسب هذا الاشتمال هو الستة لا السبعة لأنها المشتملة على ما ذكر فهو لم يحصل معنى الاشتمال أو لم يعرف هذه الاصطلاحات لكونها من وظيفة علم الاتماطيقي .

ومما ذكرنا من معنى الاشتمال يندفع أيضاً ما يتوهم من أن التحقيق ان كل عدد مركب من الوحدات لا من الاعداد التي تحته إذ ليس المراد من الاشتمال التركيب على أن في هذا التحقيق مقالاً مذكوراً في محله .

(103/344)

وقال ابن عيسى الربعي : إن السبعة أكمل الأعداد لأن الستة أول عدد تام وهي مع الواحد سبعة فكانت كاملة إذ ليس بعد التمام إلا الكمال ، ولذا سمي الأسد سبعاً لكمال قوته ، وفسر العدد التام بما يساوي مجموع كسوره وكون الستة كذلك ظاهر فإن كسورها سدس وهو واحد وثلث وهو إثنان ونصف وهو ثلاثة ومجموعها ستة ، لكن استبعد عدم فهو من هو أفصح الناس وأعرفهم باللسان صلى الله عليه وسلم إرادة التكثير من السبعين هنا ، ولذا قال البعض : إنه عليه الصلاة والسلام لم يخف عليه ذلك لكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية

رأفته ورحمته لمن بعث إليه كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ ﴾ [إبراهيم : 36] يعني أنه صلى الله عليه وسلم أوقع في خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير فجوز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة كما جعل إبراهيم عليه السلام جزاء من عصاني أي لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام قوله : ﴿ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ دون إنك شديد العقاب مثلاً فخيل أنه سبحانه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم وحثاً على الاتباع ، وتعقب بأن ذكره للتمويه والتخييل بعد ما فهم عليه الصلاة والسلام منه التكثير لا يليق بمقامه الرفيع ، وفهم المعنى الحقيقي من لفظ اشتهر مجازه لا ينافي الفصاحة والمعرفة باللسان فإنه لا خطأ فيه ولا بعد إذ هو الأصل ، ورجحه عنده عليه الصلاة والسلام شغفه بهدايتهم ورأفته بهم واستعطاف من عداهم ، ولعل هذا أولى من القول بالتمويه بلا تمويه ، وأنكر إمام الحرمين صحة ما يدل عليه أنه عليه الصلاة والسلام فهم على أن حكم ما زاد على السبعين بخلافه وهو غريب منه ، فقد جاء ذلك من رواية البخاري .

ومسلم .

وابن ماجه .

(104/344)

والنسائي وكفى بهم ، وقول الطبرسي : إن خبر "لأزيدن" الخ خبر واحد لا يعول عليه لا يعول عليه ، وتمسك في ذلك بما هو كحبل الشمس وهو عند القائلين بالمفهوم كجبال القمر ، وأجاب المنكرون له بمنع فهم ذلك لأن ذكر السبعين للمبالغة وما زاد عليه مثله في الحكم وهو مبادرة عدم المغفرة فكيف يفهم منه املخالفة ، ولعله علم صلى الله عليه وسلم أنه غير مراد ههنا بخصوصه سلمناه لكن لا نسلم فهمه منه ، ولعله باق على أصله في الجواز إذ لو لم يتعرض له بنفي ولا إثبات والأصل جواز الاستغفار للرسول عليه الصلاة والسلام وكونه مظنة الإجابة ففهم من حيث أنه الأصل لا من التخصيص بالذكر ، وحاصل الأول منه فهمه منه مطلقاً بل إنما فهم من الخارج ، وحاصل الثاني تسليم فهمه منه في الجلمة لكن لا بطريق المفهوم بل من جهة الأصل .

(105/344)

وأنت تعلم أن ظاهر الخبر مع القائلين بالمفهوم غاية الأمر أن الله سبحانه أعلم نبيه عليه الصلاة والسلام بأية المنافقين أن المراد بالعدد هنا التكثير دون التحديد ليكون حكم الزائد مخالفاً لحكم المذكور فيكون المراد بالآيتين عند الله تعالى واحداً وهو عدم المغفرة لهم

مطلقاً ، لكن في دعوى نزول آية المنافقين بعد هذه الآية اشكال ، أما على القول بأن براءة آخر ما نزل فظاهر وأما على القول بأن أكثرها أو صدرها كذلك وحينئذ لا مانع من تأخر نزول بعض الآيات منها عن نزول بعض من غيرها فلأن صدر ما في سورة المنافقين يقتضي أنها نزلت في غير قصة هذه التي سلفت آنفاً ، وظاهر الأخبار كما ستعلم إن شاء الله تعالى يقتضي أنها نزلت في ابن أبي ولم يكن مريضاً ، وما تقدم في سبب تزول ما هنا نص في أنه نزل وهو مريض ، والقول بأن تلك تزلت مرتين يحتاج إلى النقل ولا يكتفي في مثله بالرأي وأنى به ، على أنه يشكل حينئذ قوله عليه الصلاة والسلام " لأزيدن على السبعين " مع تقدم تزول المبين للمراد منه ، والقول بالغفلة لا أراه إلا ناشئاً من الغفلة عن قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تنسى ﴾ [الأعلى : 6] بل الجهل بمقامه الرفيع عليه الصلاة والسلام ومزيد اعتنائه بكلام ربه سبحانه ، ولم أر من تعرض لدفع هذا الإشكال ، ولا سبيل إلى دفعه إلا بمنع نزول ما في سورة المنافقين في قصة أخرى ومنع دلالة الصدر على ذلك .

نعم ذكروا أن الصدر نزل في ابن أبي ولم يكن مريضاً إذ ذاك ؛ ولم نقف على نص في أن العجز نزل فيه كذلك ، والظاهر نزوله بعد قوله سبحانه :

(106/344)

﴿ ولا تصل على أحد منهم ﴾ [التوبة : 84] الخ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يؤيد ذلك عند تفسير الآية فافهم ﴿ ذلك ﴾ الخ وسيأتي إن شاء الله تعالى ما يؤيد ذلك عند تفسير الآية فافهم ﴿ ذلك ﴾ أي امتناع المغفرة لهم ولو بعد ذلك الاستغفار ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ يعني ليس الامتناع لعدم الاعتداد باستغفارك بل بسبب عدم قابليتهم لأنهم كفروا كفراً متجاوزاً للحد كما يشير إليه وصفهم بالفسق في قوله سبحانه : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ فإن الفسق في كل شيء عبارة عن التمرد والتجاوز عن حدوده ، والمراد بالهداية الدلالة الموصلة لا الدلالة على ما يوصل لأنها واقعة لكن لم يقبلوها لسوء اختيارهم ، والجملة تذييل مؤكد لما قبله من الحكم فإن مغفرة الكفار بالاقلاع عن الكفر والإقبال إلى الحق والمنهمك فيه المطبوع عليه بمعزل من ذلك ، وفيه تنبيه على عذر النبي صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم وهو عدم يأسه من إيمانهم حيث لم يعلم إذ ذاك أنهم مطبوعون على الغي لا ينجع فيهم العلاج ولا يفيدهم الإرشاد ، والممنوع هو الاستغفار بعد العلم بموتهم كفاراً كما يشهد له قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِى قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : 113] ولعل نزول قوله سبحانه : ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ الخ متراخ عن نزول قوله سبحانه : ﴿ استغفر لَهُمْ ﴾ الخ كما قيل وإلا لم يكن له صلى الله عليه وسلم عذر في الاستغفار بعد النزول .

والقول بأن هذا العذر إنما يصح لو كان الاستغفار للحي كما مر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فيه نظر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعاني حـ 10 صـ ﴾

(107/344)

وقال القاسمي :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي : لهؤلاء المنافقين ﴿ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ أي : فإنما في حقهما سواء .

ثم بيّن استحالة المغفرة لهم وإن بولغ في الإستغفار بقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ ﴾ أي : عدم الغفران لهم ﴿ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ أي : الخارجين عن حدوده .

تنبيهات :

الأول : جملة قوله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الخ ، إنشائية لفظاً ، خبرية معنى .

والمراد التسوية بين الإستغفار لهم ، وتركه ، في استحالة المغفرة .

وتصويره بصورة

الأمر ، للمبالغة في بيان استوائهما ، كأنه عليه الصلاة والسلام أمر بامتحان الحال ، بأن

يستغفر تارة ، ويترك أخرى ، ليظهر له جلية الأمر ، كما مر في قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ﴾ ، وقد وردت بصيغة الخبر في سورة المنافقون في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

الثاني : قال الزمخشري : السبعون جارٍ مجرى المثل في كلامهم للتكثير . قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام :

~لأَصْبَحَنَّ العاصَ وابن العاصِي سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِي النَّوَاصِي

(108/344)

أي : فذكرها للمبالغة في حسم مادة الإستغفار لهم ، جريا على أساليب العرب في ذكرها للمبالغة لا للتحديد ، بأن يكون ما زاد عليها بخلافها .

وقال أبو السعود : شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة في مطلق التكثير ، لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد ، فكأنها العدد بأسره .

وقيل : هي أكمل الأعداد ، لجمعها معانيها ، ولأن الستة أول عدد تامّ ، لتعادل أجزائها

الصحيحة ، إذ نصفها ثلاثة ، وثلثها اثنان ، وسدسها واحد ، وجملتها سبعة ، وهي مع الواحد سبعة ، فكانت كاملة ، إذ لا مرتبة بعد التمام إلا الكمال ، ثم السبعون غاية الكمال ، إذ الآحاد غايتها العشرات ، والسبعمائة غاية الغايات – انتهى .

الثالث : روى البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما أراد أن يصدّه عن الصلاة على عبد الله بن أبيّ : إنما خيّرني الله فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية ، وسأزيده على السبعين .

فظاهر هذا أن أو للتخيير ، وأن السبعين له حدٌ يخالفه حكم ما وراءه ، وهو من الإشكال بمكان .

ولذا قال الزمخشري : فإن قلت : كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته ؟ والذي يفهم من هذا العدد كثرة الإستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا ﴾ الآية ، فبين الصارف عن المغفرة لهم ، حتى قال : قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين .

ثم أجاب الزمخشري بقوله : قلت لم يخف

عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وفي إظهار النبيّ صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة لطف لأمته ، ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض . انتهى .

(109/344)

قال الشراح : يعني أنه أوقع في خيال السامع أنه فهم العدد المخصوص دون التكثير ، فجوّز الإجابة بالزيادة قصداً إلى إظهار الرأفة والرحمة ، كما جعل إبراهيم صلى الله عليه وسلم جزاء من عصاني أي : لم يمتثل أمر ترك عبادة الأصنام .

قوله : ﴿ فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ دون أن يقول : شديد العقاب ، فخيل أنه يرحمهم ويغفر لهم رأفة بهم ، وحثّاً على الإتباع .

وفهمُ المعنى الحقيقي من لفظ اشتهر مجازه ، لا ينافي فصاحته ، ومعرفته باللسان فإنه لا خطأ فيه ، ولا بعد ، إذ هو الأصل ، ورجحه عنده شغفه بهدايتهم ، ورأفته بهم ، واستعطاف من عداهم .

قال الناصر : وقد أنكر القاضي رضي الله عنه حديث الإستغفار ، ولم يصححه وتغالى قوم في قبوله ، حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفي الغفران بالسبعين ، ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي

عليهم وقيل : لما سوى الله بين الإستغفار وعدمه ، ورتب عليه عدم القبول ، ولم ينه عنه ، فهم أنه خير ومرخص فيه ، وهذا مراده صلى الله عليه وسلم ، لا أنه فهم التخيير من أو ، حتى ينافي التسوية بينهما ، المرتب عليها عدم المغفرة ، وذلك تطيباً لخاطرهم ، وأنه لم يأل جهداً في الرأفة بهم .

قال الشهاب : والتحقيق أن المراد التسوية في عدم الفائدة ، وهي لا تنافي التخيير ، ثبت فهو بطريق الإقتضاء ، لوقوعها بين ضدين لا يجوز تركهما ولا فعلهما ، فلا بد من أحدهما ، فقد يكون في الإثبات كقوله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ ﴾ ، لأنه مأمور بالتبليغ ، وقد يكون في النفي كما هنا ، وفي قوله : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ الآية ، فهو محتاج إلى البيان ، ولذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : < إنه رخص لي > ، ولعله رخص له في ابن أبيّ لحكمة ، وإن لم يترتب عليه فائدة القبول . انتهى .

(110/344)

وقال الحافظ ابن حجر في " الفتح " : روى عبد الرزاق عن معمر ، عن قتادة قال : لما نزلت : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : < لأزيدنّ على السبعين > ، فأنزل الله تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ

أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

ثم قال : ويحتمل أن تكون الأيتان معاً نزلتا في ذلك . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 478.480 ﴾

(111/344)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾

هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ طَائِفَةٍ أُخْرَى مِنْ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ بَعْدَ الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ . وَيُوجَدُ مِثْلُهُمْ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَهُمُ الَّذِينَ يَلْجَئُونَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي وَقْتِ الْعُسْرَةِ وَالْفَقْرِ ، أَوِ الشِّدَّةِ وَالضُّرِّ ، فَيَدْعُونَهُ وَيُعَاهِدُونَهُ عَلَى الشُّكْرِ لَهُ ، وَالطَّاعَةِ لِشَرْعِهِ ، إِذَا هُوَ كَشَفَ ضُرَّهُمْ ، وَأَغْنَى فَقْرَهُمْ ، فَإِذَا اسْتَجَابَ لَهُمْ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ، وَنَكَصُوا عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، وَكَفَرُوا النِّعْمَةَ ، وَبَطَرُوا الْحَقَّ ، وَهَضَمُوا حُقُوقَ الْخَلْقِ ، وَهَذَا مَثَلٌ مِنْ شَرِّ أَمْثَالِهِمْ .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ أَيْ : وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ تَعَالَى وَأَقْسَمَ أَوْكَدَ الْأَيْمَانِ ، لَئِنْ آتَاهُمْ مَنْ فَضْلِهِ مَالًا وَثَرْوَةً

لَيَشْكُرَنَّ لَهُ

نِعْمَتَهُ بِالصَّدَقَةِ مِنْهَا ، وَالْأَعْمَالِ الشَّرْعِيَّةِ النَّافِعَةِ الَّتِي

(112/344)

يَنْتَظِمُونَ بِهَا فِي سِلْكِ الصَّالِحِينَ الْقَائِمِينَ بِحُقُوقِ اللهِ وَحُقُوقِ عِبَادِهِ . وَأَعَادَ " اللَّامَ " الْوَاقِعَةَ فِي جَوَابِ الْقَسَمِ فِي (لَنَكُونَنَّ) لِتَأْكِيدِ الْعَزْمِ عَلَى الِاسْتِعَانَةِ وَالتَّوَسُّلِ بِفَضْلِ الْمَالِ . إلَى الِاسْتِقَامَةِ عَلَى مَنْهَجِ الصَّلَاحِ ، بِمَا هُوَ وَرَاءَ الصَّدَقَاتِ ، الَّتِي عَقَدُوا الْعَهْدَ وَالْقَسَمَ عَلَيْهَا أَوَّلًا وَبِالذَّاتِ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ مَا طَلَبُوا مِنْ سَعَةِ رِزْقِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا أَيْ : مَا لَبِثُوا أَنْ بَخِلُوا بِمَا آتَاهُمْ عَقِبَ حُصُولِهِ ، وَأَمْسَكُوهُ فَلَمْ يَتَصَدَّقُوا بِشَيْءٍ مِنْهُ : وَتَوَلَّوْا وَانْصَرَفُوا عَنِ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَإِصْلَاحِ حَالِهِمْ وَحَالِ أُمَّتِهِمْ كَمَا عَاهَدُوا وَأَقْسَمُوا ، وَلَمْ يَكُنْ تَوَلِّيهِمْ هَذَا أَمْرًا عَارِضًا شَغَلَهُمْ عَنْهُ شَاغِلٌ يَزُولُ بِزَوَالِهِ بَلْ تَوَلَّوْا : وَهُمْ مُعْرِضُونَ بِكُلِّ قُوَاهُمْ عَنِ الصَّدَقَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَكَانَ الْإِعْرَاضُ صِفَةً رَاسِخَةً فِيهِمْ حَاكِمَةً عَلَيْهِمْ ، بِحَيْثُ إذَا ذُكِّرُوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ لَا يَذْكُرُونَ ، وَإِذَا دُعُوا إلَيْهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ .

(113/344)

فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ يُقَالُ : أَعْقَبَهُ الشَّيْءَ إذَا جَعَلَهُ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ وَثَمَرَتَهُ أَيْ : فَأَعْقَبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ، أَوْ أَعْقَبَهُمْ ذَلِكَ الْبُخْلَ وَتَوَلِّي الْإِعْرَاضِ ، بَعْدَ الْعَهْدِ الْمُوَثَّقِ بِأَوْكَدِ الْإِيمَانِ ، نِفَاقًا رَاسِخًا فِي قُلُوبِهِمْ مُتَمَكِّنًا مِنْهَا مُلَازِمًا لَهَا : إلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ لِلْحِسَابِ فِي الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُ بَلَغَ الْمُنْتَهَى الَّذِي لَا رَجَاءَ مَعَهُ فِي التَّوْبَةِ . ذَلِكَ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ فَذَكَرَ سَبَبَيْنِ هُمَا أَخَصُّ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَظْهَرُ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ : إخْلَافُ الْوَعْدِ ، وَالْكَذِبُ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَنُصُوصُ الْأَحَادِيثِ فِيهِ ، فَكَيْفَ إذَا كَانَ الْوَعْدُ لِلَّهِ تَعَالَى مَعَ الْعَهْدِ وَالْقَسَمِ ، وَقَدْ عَبَّرَ عَنْ إخْلَافِهِمُ الْوَعْدَ بِالْفِعْلِ الْمَاضِي ؛ لِأَنَّهُ فِي حَادِثَةٍ وَقَعَتْ ، وَعَبَّرَ عَنْ كَذِبِهِمْ بِصِيغَةِ الْمُضَارِعِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاسْتِمْرَارِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ شَأْنُهُمُ الدَّائِمُ الَّذِي هُوَ أَخَصُّ لَوَازِمِ النِّفَاقِ فَالْمُنَافِقُ مُضْطَرٌّ إلَى الْكَذِبِ فِي كُلِّ وَقْتٍ ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهُ يُخَالِفُ بَاطِنَهُ ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ كِتْمَانِ مَا فِي بَاطِنِهِ ، وَإِظْهَارِ خِلَافِهِ دَائِمًا لِئَلَّا يَظْهَرَ

(114/344)

فَيُفْتَضَحَ وَيُعَاقَبَ ، وَلَا يَحْصُلُ ذَلِكَ إلَّا بِالْكَذِبِ . وَإِسْنَادُ إعْقَابِهِمُ النِّفَاقَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى أَوْ إلَى الْبُخْلِ وَالتَّوَلِّي عَنِ الطَّاعَةِ قَوْلَانِ لِلْمُفَسِّرِينَ مَآلُهُمَا وَاحِدٌ ، إلَّا أَنَّ الثَّانِي آدَبُ . وَذَلِكَ أَنَّ

سُنَّتَهُ تَعَالَى فِي الْبَشَرِ أَنَّ الْعَمَلَ بِمَا يَقْتَضِيهِ النِّفَاقُ يُمَكِّنُ النِّفَاقَ وَيُقَوِّيهِ فِي الْقَلْبِ . كَمَا أَنَّ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ يَزِيدُهُ قُوَّةً وَرُسُوخًا فِي النَّفْسِ ، وَهَكَذَا جَمِيعُ صِفَاتِ النَّفْسِ وَأَخْلَاقِهَا وَعَقَائِدِهَا ، تُقَوِّي وَتُرَسِّخُ الْعَمَلَ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهَا ، فَإِسْنَادُهَا إلَى الْعَمَلِ يَكُونُ صَحِيحًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ لَا بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ الْقَدَرِيَّةُ ، كَمَا أَنَّ إسْنَادَهَا إلَى اللَّهِ تَعَالَى يَكُونُ صَحِيحًا ؛ لِأَنَّهَا مُقْتَضَى سُنَّتِهِ وَتَقْدِيرِهِ ، لَا بِالْمَعْنَى الَّذِي تَقُولُهُ الْجَبْرِيَّةُ وَالصُّوفِيَّةُ ، فَالْمُرَادُ مِنَ التَّقْدِيرَيْنِ وَاحِدٌ . وَيُؤَيِّدُهُ مَا وَرَدَ فِي سَبَبِ النُّزُولِ وَهُوَ : أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الدَّلَائِلِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ

(115/344)

تَعَالَى : وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ الْآيَةَ . أَنَّ رَجُلًا كَانَ يُقَالُ لَهُ ثَعْلَبَةُ مِنَ الْأَنْصَارِ أَتَى مَجْلِسًا فَأَشْهَدَهُمْ فَقَالَ : لَئِنْ آتَانِي اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ آتَيْتُ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ، وَتَصَدَّقْتُ وَجَعَلْتُ مِنْهُ لِلْقَرَابَةِ ، فَابْتَلَاهُ اللَّهُ فَآتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَأَخْلَفَ مَا وَعَدَهُ ، فَأَغْضَبَ اللَّهَ بِمَا أَخْلَفَهُ مَا وَعَدَهُ ، فَقَصَّ اللَّهُ شَأْنَهُ فِي الْقُرْآنِ اهـ .

وَأَخْرَجَ الْحَسَنُ بْنُ سُفْيَانَ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ وَالْعَسْكَرِيُّ فِي الْأَمْثَالِ ، وَالطَّبَرَانِيُّ وَابْنُ مَنْدَهْ وَالْبَارُودِيُّ وَأَبُو نُعَيْمٍ فِي مَعْرِفَةِ الصَّحَابَةِ ، وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي

الدَّلَائِلِ ، وَابْنُ عَسَاكِرَ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ : جَاءَ ثَعْلَبَةُ بْنُ حَاطِبٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا ، قَالَ : " وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِثْلِي ؟ فَلَوْ شِئْتُ أَنْ يُسَيِّرَ رَبِّي هَذِهِ الْجِبَالَ مَعِيَ لَسَارَتْ " قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالًا فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ إِنْ آتَانِي اللهُ مَالًا لَأُعْطِيَنَّ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ . قَالَ : " وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ ، قَلِيلٌ تُطِيقُ شُكْرَهُ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُ شُكْرَهُ " فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ لِي فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالًا " فَاتَّجَرَ وَاشْتَرَى غَنَمًا

(116/344)

فَبُورِكَ لَهُ فِيهَا ، وَنَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ ، حَتَّى ضَاقَتْ بِهَا الْمَدِينَةُ فَتَنَحَّى بِهَا فَكَانَ يَشْهَدُ الصَّلَاةَ بِالنَّهَارِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَا يَشْهَدُهَا بِاللَّيْلِ . ثُمَّ نَمَتْ كَمَا يَنْمُو الدُّودُ فَضَاقَ بِهَا مَكَانُهُ ، فَتَنَحَّى بِهِ فَكَانَ لَا يَشْهَدُ جُمُعَةً وَلَا جِنَازَةً مَعَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَجَعَلَ يَتَلَقَّى الرُّكْبَانَ ، وَيَسْأَلُهُمْ عَنِ الْأَخْبَارِ ، وَفَقَدَهُ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَسَأَلَ عَنْهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّهُ اشْتَرَى غَنَمًا ، وَأَنَّ الْمَدِينَةَ ضَاقَتْ بِهِ وَأَخْبَرُوهُ بِخَبَرِهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ " وَيْحَ ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ " .

ثُمَّ إِنَّ اللهَ تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنْ يَأْخُذَ الصَّدَقَاتِ ، وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً (9 : 103) الْآيَةَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ رَجُلَيْنِ رَجُلًا مِنْ جُهَيْنَةَ ، وَرَجُلًا مِنْ بَنِي سَلَمَةَ يَأْخُذَانِ الصَّدَقَاتِ ، فَكَتَبَ لَهُمَا أَسْنَانَ الْإِبِلِ وَالْغَنَمِ كَيْفَ يَأْخُذَانِهَا عَلَى وَجْهِهَا ، وَأَمَرَهُمَا أَنْ يَمُرَّا عَلَى ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ وَبِرَجُلٍ مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ ، فَخَرَجَا فَمَرَّا بِثَعْلَبَةَ فَسَأَلَاهُ الصَّدَقَةَ ، فَقَالَ : أَرِيَانِي كِتَابَكُمَا ، فَنَظَرَ فِيهِ فَقَالَ : مَا هَذَا إِلَّا جِزْيَةٌ انْطَلِقَا حَتَّى تَفْرَغَا ثُمَّ مُرَّا بِي ، قَالَ : فَانْطَلَقَا وَسَمِعَ بِهِمَا السُّلَمِيُّ فَاسْتَقْبَلَهُمَا بِخِيَارِ إِبِلِهِ فَقَالَا : إِنَّمَا عَلَيْكَ دُونَ هَذَا . فَقَالَ مَا كُنْتُ أَتَقَرَّبُ إِلَى اللهِ إِلَّا بِخَيْرِ مَالِي فَقَبِلَاهُ ، فَلَمَّا فَرَغَا مَرَّا بِثَعْلَبَةَ فَقَالَ : أَرِيَانِي كِتَابَكُمَا . فَنَظَرَ فِيهِ فَقَالَ : مَا هَذَا إِلَّا جِزْيَةٌ انْطَلِقَا حَتَّى أَرَى رَأْيِي فَانْطَلَقَا حَتَّى قَدِمَا الْمَدِينَةَ فَلَمَّا رَآهُمَا رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ قَبْلَ أَنْ يُكَلِّمَهُمَا : " وَيْحَ

ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ " وَدَعَا لِلسُّلَمِيِّ بِالْبَرَكَةِ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ الثَّلَاثَ الْآيَاتِ . قَالَ : فَسَمِعَ بَعْضٌ مِنْ أَقَارِبِ ثَعْلَبَةَ ، فَأَتَى ثَعْلَبَةَ فَقَالَ وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيكَ كَذَا وَكَذَا . قَالَ : فَقَدِمَ ثَعْلَبَةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ صَدَقَةُ مَالِي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ مَنَعَنِي أَنْ أَقْبَلَ مِنْكَ " قَالَ : فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَحْثِي التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : " هَذَا عَمَلُكَ بِنَفْسِكَ

(119/344)

أَمَرْتُكَ فَلَمْ تُطِعْنِي " فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ حَتَّى مَضَى . ثُمَّ أَتَى أَبَا بَكْرٍ فَقَالَ : يَا أَبَا بَكْرٍ اقْبَلْ مِنِّي صَدَقَتِي فَقَدْ عَرَفْتَ مَنْزِلَتِي مِنَ الْأَنْصَارِ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : لَمْ يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَأَقْبَلُهَا ؟ فَلَمْ يَقْبَلْهَا أَبُو بَكْرٍ . ثُمَّ وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ فَأَتَاهُ فَقَالَ : يَا أَبَا حَفْصٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اقْبَلْ مِنِّي صَدَقَتِي ، وَتَوَسَّلْ إِلَيْهِ بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَزْوَاجِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ، فَقَالَ عُمَرُ : لِمَ يَقْبَلْهَا رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَلَا أَبُو بَكْرٍ أَقْبَلُهَا أَنَا ؟ فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا . ثُمَّ وَلِيَ

عُثْمَانُ فَهَلَكَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ وَفِيهِ نَزَلَتْ : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ (79) قَالَ : وَذَلِكَ فِي الصَّدَقَةِ اهـ .

(120/344)

وَفِي الْحَدِيثِ إِشْكَالَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِسَبَبِ نُزُولِ الْآيَاتِ ، وَظَاهِرُ سِيَاقِ الْقُرْآنِ أَنَّهُ كَانَ فِي سَفَرِ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَظَاهِرُهُ أَنَّهَا نَزَلَتْ عَقِبَ فَرْضِيَّةِ الزَّكَاةِ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهَا فُرِضَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ ، وَفِيهِ خِلَافٌ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ – وَبِعَدَمِ قَبُولِ تَوْبَةِ ثَعْلَبَةَ وَظَاهِرُ الْحَدِيثِ وَلَاسِيَّمَا بُكَائِهِ أَنَّهَا تَوْبَةٌ صَادِقَةٌ ، وَكَانَ الْعَمَلُ جَارِيًا عَلَى مُعَامَلَةِ الْمُنَافِقِينَ بِظَوَاهِرِهِمْ ، وَظَاهِرُ الْآيَاتِ أَنَّهُ يَمُوتُ عَلَى نِفَاقِهِ ، وَلَا يَتُوبُ عَنْ بُخْلِهِ وَإِعْرَاضِهِ ، وَأَنَّ النَّبِيَّ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَخَلِيفَتَيْهِ عَامَلَاهُ بِذَلِكَ لَا بِظَاهِرِ الشَّرِيعَةِ ، وَهَذَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي الْإِسْلَامِ .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ أَيْ : أَلَمْ يَعْلَمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ يُعْلِنُونَ غَيْرَ مَا يُسِرُّونَ ، وَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَتَنَاجَوْنَ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَلَمْزِ الرَّسُولِ ، أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمُ الْكَامِنَ فِي أَعْمَاقِ قُلُوبِهِمْ ، وَنَجْوَاهُمُ الَّتِي يَخُصُّونَ بِهَا مَنْ يَثِقُونَ بِمُشَارَكَتِهِ إِيَّاهُمْ فِي نِفَاقِهِمْ : وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ كُلِّهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ

(3 : 5) وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (40 : 19) فَهُمْ يَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ فِيمَا يُعَاهِدُونَهُ بِهِ وَعَلَى النَّاسِ فِيمَا يَحْلِفُونَ عَلَيْهِ بِاسْمِهِ .

(121/344)

الِاسْتِفْهَامُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : أَلَمْ يَعْلَمُوا لِلتَّوْبِيخِ وَالْإِنْذَارِ ، أَوْ لِلتَّنْبِيهِ الْقَاطِعِ لِطَرِيقِ الِاعْتِذَارِ فَإِنَّ الْمُنَافِقِينَ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِوُجُودِ اللهِ وَعِلْمِهِ إيمَانًا إجْمَالِيًّا تَقْلِيدِيًّا .

وَإِنَّمَا كَانُوا يَرْتَابُونَ فِي الرِّسَالَةِ وَالْوَحْيِ وَالْبَعْثِ ، وَلَكِنْ مَا ذَكَرَ مِنْ عَمَلِهِمْ وَأَيْمَانِهِمِ الْكَاذِبَةِ بِاسْمِهِ هُوَ عَمَلُ مَنْ

لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَلَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُ وَنَجْوَاهُ ، وَأَنَّهُ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ; فَإِنَّ مَنْ يَعْلَمُ هَذَا عِلْمًا صَحِيحًا فَلَا بُدَّ أَنْ يَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ ، وَيَخَافَ عِقَابَهُ إنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ذَاكَ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِهَذَا .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ

(122/344)

هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ فِيمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي الصَّدَقَاتِ لِلْجِهَادِ ; إذْ لَمْ يَقِفِ الْمُنَافِقُونَ عِنْدَ حَدِّ بُخْلِهِمْ وَتَخَلُّفِهِمْ ، بَلْ تَعَدَّوْهُ إلَى لَمْزِ الْمُؤْمِنِينَ وَذَمِّهِمْ ، بِمَا بَذَلَهُ غَنِيُّهُمْ وَفَقِيرُهُمْ ، وَلِحُكْمِ مَنْ تَرَدَّوْا فِي هَذِهِ الْهَاوِيَةِ مِنَ النِّفَاقِ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُمْ أَدْنَى حَظٍّ مِنَ التَّلَبُّسِ بِالْإِسْلَامِ ، وَلَا أَدْنَى نَفْعٍ مِنِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ وَدُعَائِهِ لَهُمْ ; لِرُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَعَدَمِ الرَّجَاءِ فِي إيمَانِهِمْ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ أَيْ : أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُتَطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَيُعِيبُونَهُمْ فِي أَمْرِ الصَّدَقَاتِ الَّتِي هِيَ أَظْهَرُ آيَاتِ الْإِيمَانِ - أَوْ أَعْنِي بِمَا ذُكِرَ مِنَ الذَّمِّ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُتَطَوِّعِينَ ، أُدْغِمَتِ التَّاءُ فِي الطَّاءِ فَهِيَ

(123/344)

كَالْمُطَّهِّرِينَ بِتَشْدِيدِ الطَّاءِ وَالْمُتَطَهِّرِينَ ، وَالتَّطَوُّعُ فِي الْعِبَادَةِ : مَا زَادَ عَلَى الْفَرِيضَةِ ، وَالصَّدَقَاتُ جَمْعُ صَدَقَةٍ تُطْلَقُ عَلَى الْأَنْوَاعِ وَالْأَفْرَادِ مِنْهَا . وَقَوْلُهُ : فِي الصَّدَقَاتِ كَقَوْلِهِ : وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ (58) وَلَكِنَّ اللَّمْزَ هُنَالِكَ فِي قِسْمَتِهَا ، وَهَاهُنَا فِي صِفَةِ

أَدَائِهَا وَمِقْدَارِهَا ، وَالنِّيَّةِ فِيهَا ، كَمَا يُذْكَرُ فِي سَبَبِ النُّزُولِ قَرِيبًا . وَقَالَ الْمُفَسِّرُونَ : إنَّهُ مُتَعَلِّقٌ بِـ (يَلْمِزُونَ) وَلَا يَجُوزُ تَعَلُّقُهُ بِـ (الْمُطَّوِّعِينَ) لِلْفَصْلِ بِكَوْنِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا الْفَصْلُ لَيْسَ بِأَجْنَبِيٍّ بَلْ هُوَ بَيَانٌ لِلْمُطَّوِّعِينَ ، وَلَكِنَّ التَّطَوُّعَ وَاللَّمْزَ كِلَاهُمَا يَتَعَدَّيَانِ بِـ " الْبَاءِ " لَا بِـ " فِي " فَلَا بُدَّ مِنَ التَّقْدِيرِ كَمَا فَعَلْنَا . وَالْمُتَطَوِّعُونَ وَالْمُطَّوِّعَةُ يُطْلَقُ عَلَى الَّذِينَ يَتَبَرَّعُونَ بِالْجِهَادِ وَالْغَزْوِ مِنْ تِلْقَاءِ أَنْفُسِهِمْ بِدُونِ أَنْ يَدْعُوَهُمُ الْإِمَامُ أَوِ السُّلْطَانُ لِذَلِكَ بِالتَّعْيِينِ ، وَتَكُونُ نَفَقَتُهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ ، هَذَا هُوَ الْمَعْنَى الِاصْطِلَاحِيُّ ، وَالْمُتَطَوِّعُونَ بِالْحَرْبِ فِي هَذَا الْعَصْرِ تَتَوَلَّى نَفَقَتَهُمْ إدَارَةُ الْعَسْكَرِ مِنْ مَالِ الْحُكُومَةِ ; إذْ لَا يُمْكِنُهُمْ فِي النِّظَامِ الْعَسْكَرِيِّ الْحَدِيثِ أَنْ يَتَوَلَّوْا أَمْرَ النَّفَقَةِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

(124/344)

وَالتَّطَوُّعُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ : تَكَلُّفُ الطَّاعَةِ أَوِ الْإِتْيَانُ بِمَا فِي الطَّوْعِ مِنَ الْعَمَلِ ، وَقَدْ يُطْلَقُ فِي اللُّغَةِ عَلَى مَا يَعُمُّ الْوَاجِبَ ، كَمَا قِيلَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ السَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ : وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ (2 : 158) وَاسْتُعْمِلَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ بِمَعْنَى النَّفْلِ ، أَيِ : الزِّيَادَةُ عَلَى الْوَاجِبِ . قَالَ تَعَالَى فِي آيَاتِ الصِّيَامِ : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ (2 : 184) أَيْ : فَمَنْ زَادَ فِي الْفِدْيَةِ عَلَى طَعَامِ

مِسْكِينٍ وَاحِدٍ ، وَفِي الصِّيَامِ عَلَى شَهْرِ رَمَضَانَ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ ، وَفِي حَدِيثِ الْأَعْرَابِيِّ الْمُسْتَفِيضِ فِي كُتُبِ الْفِقْهِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَمَا ذَكَرَ لَهُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ وَصِيَامَ رَمَضَانَ ، وَشَرَائِعَ الْإِسْلَامِ ، وَسَأَلَهُ هَلْ عَلَيْهِ غَيْرُهَا ؟ قَالَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لَا ، إلَّا أَنْ تَطَوَّعْ " أَيْ : تَتَطَوَّعُ وَتَتَبَرَّعُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِكَ .

وَلَا يَظْهَرُ كَوْنُ التَّطَوُّعِ هُنَا بِمَعْنَى التَّبَرُّعِ بِالْغَزْوِ ؛ إذِ الْكَلَامُ خَاصٌّ بِغَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ النَّفْرَ إلَيْهَا كَانَ وَاجِبًا عَلَى كُلِّ مَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدِ اسْتَنْفَرَ

(125/344)

الْمُؤْمِنِينَ لَهَا ، وَوَبَّخَ الْمُتَثَاقِلِينَ عَنْهَا ، وَقَالَ : انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (41) وَلَكِنْ يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِالْمُطَّوِّعِينَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى اللُّغَوِيُّ الْعَامُّ ، وَهُمُ الَّذِينَ نَفَرُوا لِلْجِهَادِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُكْرَهَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ أَوْ يُطْلَبَ بِشَخْصِهِ لَهُ . وَأَظْهَرُ مِنْهُ أَنْ يُرَادَ هُنَا التَّطَوُّعُ بِالصَّدَقَاتِ وَهُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا ، عَلَى أَنَّ اللَّمْزَ وَاقِعٌ فِي شَأْنِهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِصِفَتِهَا وَمِقْدَارِهَا ، لَا مُتَعَلِّقٌ بِهَا نَفْسِهَا ، وَهُوَ الْوَاقِعُ الْمَعْقُولُ وَالْمَنْقُولُ فِي سَبَبِ النُّزُولِ الْآتِي .

وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ أَيْ : وَيَلْمِزُونَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ ، وَالْجُهْدُ بِالضَّمِّ

وَالْفَتْحِ : الطَّاقَةُ ، وَهِيَ أَقْصَى مَا يَسْتَطِيعُهُ الْإِنْسَانُ ، مَأْخُوذٌ مِنْ طَاقَةِ الْحَبْلِ وَهِيَ الْفَتْلَةُ الْوَاحِدَةُ وَالْفَتِيلُ مِنَ الْفَتْلِ الَّتِي يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ، وَتُسَمَّى قُوَّةً ، وَجَمْعُهَا قُوًى - كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ : وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ (2 : 184) مِنْ آيَاتِ الصِّيَامِ . وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ تَصَدَّقُوا بِقَلِيلٍ هُوَ مَبْلَغُ جُهْدِهِمْ وَآخِرُ طَاقَتِهِمْ ، وَعَطْفُهُمْ عَلَى الْمُطَّوِّعِينَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ تَنْوِيهًا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ مَجَالَ لَمْزِهِمْ وَعَيْبِهِمْ عِنْدَ الْمُنَافِقِينَ أَوْسَعُ ، وَالسُّخْرِيَةَ مِنْهُمْ فِي عُرْفِهِمْ أَشَدُّ ، وَإِنْ

(126/344)

كَانُوا أَجْدَرَ بِالثَّنَاءِ وَالْإِكْبَارِ عِنْدَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِذَلِكَ قِيلَ : إِنَّهُمْ هُمُ الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ أَيْ : يَسْتَهْزِئُونَ بِهِمُ احْتِقَارًا لِمَا جَاءُوا بِهِ وَعَدًّا لَهُ مِنَ الْحَمَاقَةِ وَالْجُنُونِ فِي الدِّينِ ، وَقِيلَ : إِنَّهُ عَامٌّ يَشْمَلُ الْمُكْثِرِينَ وَالْمُقِلِّينَ .

قَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ جَزَاءِ هَؤُلَاءِ اللَّامِزِينَ السَّاخِرِينَ : سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ هَذَا التَّعْبِيرُ يُسَمَّى مُشَاكَلَةً ، وَمَا هُوَ إِلَّا الْعَدْلُ فِي جَزَاءِ الْمُمَاثِلَةِ ، أَيْ : جَزَاهُمْ بِمِثْلِ ذَنْبِهِمْ فَجَعَلَهُمْ سُخْرِيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، بِفَضِيحَتِهِ لَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِبَيَانِ هَذَا الْخِزْيِ وَغَيْرِهِ مِنْ مَخَازِيهِمْ وَعُيُوبِهِمْ ، وَلَهُمْ فَوْقَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ . تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي هَذَا السِّيَاقِ

بِهَذَا اللَّفْظِ وَغَيْرِهِ .

لَا يَتَجَلَّى الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إلَّا بِبَيَانِ مَا نَزَلَتْ فِيهِ ، وَمَنْ نَزَلَتْ فِيهِمْ ، وَقَدْ رُوِيَ فِيهِ عِدَّةُ رِوَايَاتٍ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالتَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ . أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

(127/344)

وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مَسْعُودٍ الْبَدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ فَجَاءَ أَبُو عُقَيْلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ ، وَجَاءَ إنْسَانٌ بِأَكْثَرَ مِنْهُ ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : إنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا ، وَمَا فَعَلَ الْآخَرُ هَذَا إلَّا رِيَاءً ، فَنَزَلَتِ : الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إلَّا جُهْدَهُمْ الْآيَةَ .

(128/344)

هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ ، وَقَالَ فِي الزَّكَاةِ : لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ إلَخْ . وَفِي رِوَايَةٍ : كُنَّا نَتَحَامَلُ عَلَى ظُهُورِنَا ، قَالَ الْحَافِظُ فِي تَفْسِيرِ " نَتَحَامَلُ " مِنْ فَتْحِ الْبَارِي : أَيْ : يَحْمِلُ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ بِالْأُجْرَةِ ، وَقَالَ صَاحِبُ الْمُحْكَمِ : تَحَامَلَ فِي الْأَمْرِ تَكَلَّفَهُ عَلَى مَشَقَّةٍ

، وَمِنْهُ تَحَامَلَ عَلَى فُلَانٍ أَيْ : كَلَّفَهُ مَا لَا يُطِيقُ ، وَذَكَرَ الرِّوَايَاتِ فِي اسْمِ أَبِي عُقَيلٍ وَلَقَبِهِ – وَهُوَ الْحَبْحَابُ – وَمَا وَرَدَ فِيهِ ، ثُمَّ لَخَّصَ الرِّوَايَاتِ فِي ذَلِكَ بِمَا نَخْتَارُهُ عَلَى مَا جَمَعَهُ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ لِبَيَانِ طُرُقِهِ وَصِفَتِهِ فَقَالَ : وَرَوَى الْبَزَّارُ مِنْ طَرِيقِ عُمَرَ بْنِ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : تَصَدَّقُوا فَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ بَعْثًا قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عِنْدِي أَرْبَعَةُ آلَافٍ ، أَلْفَيْنِ أُقْرِضُهُمَا رَبِّي ، وَأَلْفَيْنِ أُمْسِكُهُمَا لِعِيَالِي ، فَقَالَ : " بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَفِيمَا أَمْسَكْتَ " قَالَ : وَبَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَصَابَ صَاعَيْنِ مِنْ تَمْرٍ – الْحَدِيثَ – قَالَ الْبَزَّارُ : لَمْ يُسْنِدْهُ إِلَّا طَالُوتُ ابْنُ عَبَّادٍ عَنْ أَبِي عَوَانَةَ عَنْ عُمَرَ ، قَالَ : وَحَدَّثَنَاهُ أَبُو كَامِلٍ عَنْ أَبِي عَوَانَةَ فَلَمْ يَذْكُرْ أَبَا هُرَيْرَةَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ عَنْ يُونُسَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِي عَوَانَةَ ، وَأَخْرَجَهُ ابْنُ

(129/344)

أَبِي حَاتِمٍ وَالطَّبَرِيُّ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طُرُقٍ أُخْرَى عَنْ أَبِي عَوَانَةَ مُرْسَلًا ، وَذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ فِي الْمَغَازِي بِغَيْرِ إِسْنَادٍ . وَأَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ ، وَمِنْ طَرِيقِ سَعِيدٍ عَنْ قَتَادَةَ وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الْحَكَمِ بْنِ أَبَانٍ عَنْ عِكْرِمَةَ وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ ، قَالَ

: وَحَثَّ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الصَّدَقَةِ ، يَعْنِي فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعَةِ آلَافٍ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ مَالِي ثَمَانِيَةُ آلَافٍ جِئْتُكَ بِنِصْفِهَا ، وَأَمْسَكْتُ نِصْفَهَا ، فَقَالَ : " بَارَكَ اللهُ

(130/344)

لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ وَفِيمَا أَعْطَيْتَ " وَتَصَدَّقَ يَوْمَئِذٍ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ بِمِائَةِ وَسْقٍ مِنْ تَمْرٍ ، وَجَاءَ أَبُو عُقَيْلٍ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ - الْحَدِيثَ . وَكَذَا أَخْرَجَهُ الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْعَوْفِيِّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَهُ ، وَمِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً مِنْ ذَهَبٍ بِمَعْنَاهُ ، وَعِنْدَ عَبْدِ بْنِ حُمَيْدٍ ، وَابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ قَالَ : جَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِأَرْبَعِمِائَةِ أُوقِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ : إِنَّ لِي ثَمَانِمِائَةِ أُوقِيَّةٍ مِنْ ذَهَبٍ - الْحَدِيثَ ، وَأَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ قَتَادَةَ فَقَالَ : ثَمَانِيَةُ آلَافِ دِينَارٍ ، وَمِثْلُهُ لِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ مُجَاهِدٍ ، وَحَكَى عِيَاضٌ فِي " الشِّفَاءِ " أَنَّهُ جَاءَ يَوْمَئِذٍ بِتِسْعِمِائَةِ بَعِيرٍ . وَهَذَا اخْتِلَافٌ شَدِيدٌ فِي الْقَدْرِ الَّذِي أَحْضَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ، وَأَصَحُّ الطُّرُقِ فِيهِ ثَمَانِيَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ أَوْ غَيْرِهِ وَاللهُ أَعْلَمُ ، وَوَقَعَ فِي مَعَانِي الْفَرَّاءِ أَنَّ

النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَثَّ النَّاسَ عَلَى الصَّدَقَةِ ، فَجَاءَ عُمَرُ بِصَدَقَةٍ وَعُثْمَانُ بِصَدَقَةٍ عَظِيمَةٍ ، وَبَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ ، ثُمَّ جَاءَ أَبُو عُقَيْلٍ بِصَاعٍ مِنْ تَمْرٍ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ : مَا أَخْرَجَ هَؤُلَاءِ

(131/344)

صَدَقَاتِهِمْ إلَّا رِيَاءً . وَأَمَّا أَبُو عُقَيْلٍ فَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاعِهِ لِيُذْكَرَ بِنَفْسِهِ ، فَنَزَلَتْ . وَلِابْنِ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ أَبِي سَعِيدٍ فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ بِصَدَقَتِهِ وَجَاءَ الْمُطَّوِّعُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَدِيثَ اهـ .

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى عِقَابَهُمْ الْخَاصَّ بِأَمْرِ الدِّينِ بِمَا جَعَلَ حُكْمَهُمْ فِي ذُنُوبِهِمْ حُكْمَ الْكَافِرِينَ ، فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَعْنَى آيَةِ سُورَةِ " الْمُنَافِقُونَ " : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (63 : 6) وَفِيهَا زِيَادَةُ تَأْكِيدٍ بِذِكْرِ السَّبْعِينَ مَرَّةً وَالتَّصْرِيحُ بِأَنَّ سَبَبَ عَدَمِ الْمَغْفِرَةِ هُوَ الْكُفْرُ إلَخْ . وَعَدَدُ السَّبْعِينَ يُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْكَثْرَةِ الْمُطْلَقَةِ فِي عُرْفِ الْعَرَبِ ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ هَذَا الْعَدَدَ بِعَيْنِهِ ، بَلِ الْمَعْنَى مَهْمَا تُكْثِرْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ فَلَنْ يُسْتَجَابَ لَكَ فِيهِمْ .

وَحَسُنَتْ هَذِهِ الزِّيَادَةُ فِيهَا لِتَأَخُّرِ نُزُولِهَا ، فَهِيَ أَمْرٌ مَعْنَاهُ الْخَبَرُ ، كَمَا قَالَ الْجُمْهُورُ - تَقْدِيرُهُ - الِاسْتِغْفَارُ لِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الْمُعَيَّنِينَ وَعَدَمُهُ سِيَّانِ ، فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وَإِنْ كَثُرَ الِاسْتِغْفَارُ .

وَالظَّاهِرُ أَنَّهُ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، رَجَاءَ أَنْ يَهْدِيَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فَيَتُوبَ عَلَيْهِمْ

(132/344)

وَيَغْفِرَ لَهُمْ ، كَمَا كَانَ يَدْعُو لِلْمُشْرِكِينَ كُلَّمَا اشْتَدَّ إِيذَاؤُهُمْ لَهُ وَيَقُولُ : " اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ، وَرَوَى مِثْلَهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَحْكِي نَبِيًّا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ - وَذَكَرَهُ . وَفِي مُسْلِمٍ " رَبِّ اغْفِرْ " إِلَخْ . قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إِنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي نَفْسَهُ حِينَ شَجُّوا رَأْسَهُ فِي أُحُدٍ ، فَهُوَ الْحَاكِي وَالْمَحْكِيُّ عَنْهُ . وَالِاسْتِغْفَارُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي جُمْلَتِهِمْ لَا يَدْخُلُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى الْآتِي فِي هَذِهِ السُّورَةِ : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) ; لِأَنَّ

النَّهْيَ هُنَا عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِمَنْ تَبَيَّنَ لِلنَّبِيِّ أَنَّهُ مِنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ، وَلَا سِيَّمَا بَعْدَ الْمَوْتِ عَلَى الشِّرْكِ لَا لِلْأَحْيَاءِ غَيْرِ الْمُعَيَّنِينَ ، وَهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الْمَعْنِيُّونَ هُنَا مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ; لِأَنَّهُمْ هُمُ الْمُعَيَّنُونَ الَّذِينَ أَخْبَرَهُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فِيمَا تَقَدَّمَ وَفِيمَا سَيَأْتِي ، وَلِذَلِكَ بَيَّنَ سَبَبَ عَدَمِ مَغْفِرَتِهِ لَهُمْ بِقَوْلِهِ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أَيْ : ذَلِكَ الِامْتِنَاعُ مِنَ الْمَغْفِرَةِ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ بِاللَّهِ

(133/344)

وَرَسُولِهِ ، فَهُمْ لَا يُوقِنُونَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِسِرِّهِمْ وَنَجْوَاهُمْ وَبِسَائِرِ الْغُيُوبِ ، وَلَا بِوَحْيِهِ لِرَسُولِهِ ، وَمَا أَوْجَبَهُ مِنِ اتِّبَاعِهِ ، وَلَا بِبَعْثِهِ لِلْمَوْتَى وَحِسَابِهِمْ وَجَزَائِهِمْ ، وَلَيْسَ سَبَبُهُ عَدَمَ الِاعْتِدَادِ بِاسْتِغْفَارِكَ أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُمْ ; فَإِنَّ شَرْطَ قَبُولِهِ مَعَ قَابِلِيَّةِ الْمَغْفِرَةِ وَضْعُهُ فِي مَوْضِعِهِ وَهُوَ مَا سَبَقَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا

رَحِيمًا (4 : 64) يَعْنِي أَنَّ الْمَغْفِرَةَ إِنَّمَا وُعِدَ بِهَا التَّائِبُونَ الْمُسْتَغْفِرُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ إِذَا اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ . وَهَؤُلَاءِ كُفَّارٌ فِي بَاطِنِهِمْ ، مُصِرُّونَ عَلَى كُفْرِهِمْ ، فَاسِقُونَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ أَيْ : جَرَتْ سُنَّتُهُ فِي الرَّاسِخِينَ فِي الْفُسُوقِ وَتَمَرُّدِهِمْ

الْمُصِرِّينَ عَلَى نِفَاقِهِمْ ، الَّذِينَ أَحَاطَتْ بِهِمْ خَطَايَاهُمْ ، أَنْ يَفْقِدُوا الِاسْتِعْدَادَ لِلتَّوْبَةِ وَالْإِيمَانَ فَلَا يَهْتَدُونَ إِلَيْهِمَا سَبِيلًا ، وَتَقَدَّمَ وَصْفُهُمْ بِهَذَا الْفُسُوقِ فِي الْآيَةِ (67) وَمِثْلُ هَذِهِ الْجُمْلَةِ بِنَصِّهَا فِي الْآيَةِ (24) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(134/344)

وَقَدْ ذَكَرَ الرَّازِيُّ وَتَبِعَهُ الْآلُوسِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ سَأَلَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ اللَّامِزُونَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُمْ فَهَمَّ أَنْ يَفْعَلَ ، فَنَزَلَتْ فَلَمْ يَفْعَلْ . وَقِيلَ : نَزَلَتْ بَعْدَ أَنْ فَعَلَ ، وَاخْتَارَ الرَّازِيُّ عَدَمَهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجُوزُ الِاسْتِغْفَارُ لِلْكَافِرِ . وَفِي التَّعْلِيلِ بَحْثٌ ، وَهُوَ أَنَّ مَنْ ظَاهِرُهُ الْإِسْلَامُ كَالْمُنَافِقِينَ لَا يُحْكَمُ بِكُفْرِهِ إلَّا بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ صُدُورِ مَا يَدُلُّ عَلَى الْكُفْرِ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً ، وَلَمْزُ الْمُطَّوِّعِينَ لَيْسَ مِنْهُ عَلَى أَنَّ طَلَبَهُمُ الِاسْتِغْفَارَ إظْهَارٌ لِلتَّوْبَةِ . وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ لَمْ نَرَهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ فَلَا نَدْرِي مِنْ أَيْنَ جَاءَ بِهَا الرَّازِيُّ وَهُوَ لَمْ يَعْزُهَا إلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ، وَلَا مِنْ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ كَعَادَتِهِ ، وَهِيَ مُعَارَضَةٌ بِمَا وَرَدَ فِي سَبَبِ نُزُولِهَا مِنْ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ رَئِيسِ الْمُنَافِقِينَ وَزَعِيمِهِمْ . رَوَى هَذَا بَعْضُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَعُرْوَةَ وَالشَّعْبِيِّ وَالسُّدِّيِّ فَيُرَاجَعُ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَسَنُبَيِّنُ ذَلِكَ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَبَاحِثِ

وَالْإِشْكَالِ بَعْدَ تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا (84) وَمَا هُوَ بِبَعِيدٍ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 481. 490 ﴾

(135/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

هذا استئناف ابتدائي ليس متصلاً بالكلام السابق ، وإنّما كان نزوله لسبب حدث في أحوال المنافقين المحكية بالآيات السالفة ، فكان من جملة شرح أحوالهم وأحكامهم ، وفي الآية ما يدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان يستغفر لهم .

روى المفسّرون عن ابن عباس أنّه لمّا نزلت بعض الآيات السابقة في أحوالهم إلى قوله : ﴿ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ [التوبة : 79] .

قال فريق منهم : استغفر لنا يا رسول الله ، أي ممّن صدر منه عمل وبِّخوا عليه في القرآن دون تصريح بأنّ فاعله منافق فوعدهم النبي عليه الصلاة والسلام بأن يستغفر للذين سألوه .

وقال الحسن : كانوا يأتون رسول الله فيعتذرون إليه ، ويقولون : إن أردْنا إلاّ الحسنى .

وذلك في معنى الاستغفار ، أي طلب مَحْوِ مَا عُدّ عليهم أنّه ذنب ، يريدون أنّه استغفار من

ظاهر إيهام أفعالهم .

وعن الأصمّ أنّ عبد الله بنَ أُبي بن سَلول لمّا ظهر ما ظهر من نفاقه وتنكّر الناس له من كلّ جهة لقيه رجل من قومه فقال له : ارجع إلى رسول الله يستغفر لك ، فقال : ما أبالي استغفر لي أم لم يستغفر لي .

فنزل فيه قوله تعالى في سورة المنافقين (5 ، 6) : ﴿ وإذا قيل لهم تعالَوا يستغفر لكم رسولُ الله لَوَوْا رُؤُوسَهم ورأيتَهم يَصُدُّون وهم مستكبرون سواءٌ عليهم أسْتَغْفَرْتَ لهم أم لم تستغفر لهم لَن يغفرَ الله لهم ﴾ يعني فتكون هذه الآية مؤكّدةً لآية سورة المنافقين عند حدوث مثل السبب الذي نزلت فيه آية سورة المنافقين جمعاً بين الروايات .

وعن الشعبي ، وعروة ، ومجاهد ، وابن جبير ، وقتادة أنّ عبد الله بن أُبَيْ بن سلول مرض فسألَ ابنُه عبدُ الله بنُ عبد الله النبي أن يستغفر له ففعل .

فنزلت .

(136/344)

فقال النبي إنّ الله قد رخّص لي فسأزيدُ على السبعين فنزلت ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون : 6] .

والذي يظهر لي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا أوحي إليه بآية سورة المنافقين ، وفيها أنّ استغفاره وعدمه سواء في حقّهم .

تأوّلَ ذلك على الاستغفار غيرِ المؤكّد وبعثته رحمته بالناس وحرصه على هداهم وتكدّره من اعْتراضهم عن الإيمانِ أن يستغفر للمنافقين استغفاراً مكرّراً مؤكّداً عسى أن يغفر الله لهم ويزول عنهم غضبه تعالى فيهديهم إلى الإيمان الحقّ .

بما أنّ مخالطتهم لأحوال الإيمان ولو في ظاهر الحال قد يجرّ إلى تعلّق هديه بقلوبهم بأقلّ سبب ، فيكون نزول هذه الآية تأييساً من رضى الله عنهم ، أي عن البقية الباقية منهم تأييساً لهم ولمن كان على شاكلتهم ممّن اطّلع على دخائلهم فاغتبط بحالهم بأنّهم انتفعوا بصحبة المسلمين والكفار ، فالآية تأييس من غير تعيين .

وصيغة الأمر في قوله : ﴿ استغفر ﴾ مستعملة في معنى التسوية المراد منها لازمها وهو عدم الحذر من الأمر المباح ، والمقصود من ذلك إفادة معنى التسوية التي تَرد صيغة الأمر لإفادتها كثيراً ، وعدّ علماءُ أصول الفقه في معاني صيغة الأمر معنى التسوية ومثّلوه بقوله تعالى:

﴿ اصلوها فاصبروا أو لا تصبروا ﴾ [الطور : 16] .

فأمّا قوله : ﴿ أو لا تستغفر لهم ﴾ فموقعه غريب ولم يُعْنَ المفسّرون والمعربون ببيانه فإنّ كونه بعد ﴿ لا ﴾ مجزوماً يجعله في صورة النهي ، ومعنى النهي لا يستقيم في هذا المقام إذ

لا يستعمل النهي في معنى التخيير والإباحة .

فلا يتأتّى منه معنىً يعادل معنى التسوية التي استُعمل فيها الأمر .

ولذلك لم نر علماء الأصول يذكرون التسوية في معاني صيغة النهي كما ذكروها في معاني صيغة الأمر

وتأويل الآية:

(137/344)

إمّا أن تكون ﴿ لا ﴾ نافية ويكون جزم الفعل بعدها لكونه معطوفاً على فعل الأمر فإن فعل الأمر مجزوم بلام الأمر المقدرة على التحقيق وهو مذهب الكوفيين واختاره الأخفش من البصريين ، وابن هشام الأنصاري وأبو علي بن الأحوص ، شيخ أبي حيّان ، وهو الحقّ لأنّه لو كان مبنياً للزم حالةً واحدةً ، ولأنّ أحوال آخره جارية على أحوال علامات الجزم فلا يبعد أن يكون ذلك التقدير ملاحظاً في كلامهم فيعطف عليه بالجزم على التوهّم .

ولا يصح كون هذا من عطف الجمل لأنّه لا وجهِ لجزم الفعل لو كان كذلك ، لا سيما والأمر مؤول بالخبر ، ثم إنّ ما أفاده حرف التخيير قد دلّ على تخيير المخاطب في أحد الأمرين مع انتفاء الفائدة على كليهما .

وإمّا أن تكون صيغة النهي استعملت لمعنى التسوية لأنّها قارنت الأمر الدالّ على إرادة التسوية ويكون المعنى : أمرك بالاستغفار لهم ونهيُك عنه سواء ، وذلك كناية عن كون الآمِر والناهي ليس بمغيِّر مراده فيهم سواء فُعل المأمور أو فُعل المنهي ويجوز أن يكون الفعلان معمولين لفعل قول محذوف .

والتقدير : نقول لك : استغفر لهم ، أو نقول لا تستغفر لهم .

و﴿ سبعين مرة ﴾ غير مراد به المقدارُ من العدد بل هذا الاسم من أسماء العدد التي تستعمل في معنى الكثرة .

قال "الكشاف" : "السبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثر" .

ويدل له قول النبي صلى الله عليه وسلم " لو أعلم أنّي لو زدت على السبعين غُفر له لزدت " وهو ما رواه البخاري والترمذي من حديث عمر بن الخطاب .

وأمّا ما رواه البخاري من حديث أنس بن عياض وأبي أسامة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : " وسأزيد على السبعين " فهو توهم من الراوي لمنافاته روايةَ عمرَ بن الخطاب ، وروايةُ عمَر أرجح لأنّه صاحب القصّة ، ولأنّ تلك الزيادة لم تُرو من حديث يحيى بن سعيد عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر عند الترمذي وابن ماجة والنسائي .

وانتصب ﴿ سبعين مرة ﴾ على المفعولية المطلقة لبيان العدد .

وتقدّم الكلام على لفظ مرّة عند قوله تعالى : ﴿ وهم بدأوكم أول مرة ﴾ في هذه السورة (13) .

وضمائر الغيبة راجعة إلى المنافقين الذين علم اللَّهُ نفاقهم وأعلم نبيئَه عليه الصلاة والسلام بهم .

وكان المسلمون يحسبونهم مسلمين اغتراراً بظاهر حالهم .

وكان النبي يُجري عليهم أحكام ظاهر حالهم بين عامّة المسلمين ، والقرآن ينعتهم بسيماهم كيلا يطمئنّ لهم المسلمون وليأخذوا الحذر منهم ، فبذلك قُضي حقّ المصالح كلّها .

ومن أجل هذا الجري على ظاهر الحال اختلف أسلوب التأييس من المغفرة بين ما في هذه الآية وبين ما في آية ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] لأنّ المشركين كفرُهم ظاهر فجاء النهي عن الاستغفار لهم صريحاً ، وكُفر المنافقين خفي فجاء التأييس من المغفرة لهم منوطاً بوصف يعلمونه في أنفسهم ويعلمه الرسول عليه الصلاة والسلام ولأجل هذا كان يستغفر لمن يسأله الاستغفار من المنافقين لئلا يكون امتناعه من الاستغفار له إعلاماً بباطن حاله الذي اقتضت حكمةُ الشريعة عدمَ كشفه .

وقال في أبي طالب : "لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك" فلمّا نهاه الله عن ذلك أمسك عن الاستغفار له .

(139/344)

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي صلاة الجنازة على من مات من المنافقين لأنّ صلاة الجنازة من الاستغفار ولمّا مات عبدُ الله بن أبي بن سلول رأسُ المنافقين بعد نزول هذه الآية وسألَ ابنُه عبدُ الله بنُ عبد الله النبي صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه ، فصلّى عليه كرامة لابنه وقال عمر للنبيء صلى الله عليه وسلم قد نهاك ربك أن تصلي عليه ، قال له على سبيل الرد "إنّما خَيّرني الله" ، أي ليس في هذه الآية نهي عن الاستغفار ، فكان لصلاته عليهم واستغفاره لهم حكمة غير حصول المغفرة بل لمصالح أخرى ، ولعلّ النبي صلى الله عليه وسلم أخذ بأضعف الاحتمالين في صيغة ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ وكذلك في لفظ عدد ﴿ سبعين مرة ﴾ استقصاء لمظنّة الرحمة على نحو ما أصّلناه في المقدمة التاسعة من مقدّمات هذا التفسير .

والإشارةُ في قوله : ﴿ ذلك بأنهم كفروا ﴾ لانتفاء الغفران المستفاد من قوله : ﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ .

والباء للسببية ، وكفرهم بالله هو الشرك .

وكفرهم برسوله جحدهم رسالته صلى الله عليه وسلم وفي هذه الآية دليل على أن جاحد نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم يطلق عليه كافر .

ومعنى ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أنّ الله لا يُقَدّر لهم الهدي إلى الإيمان لأجل فسقهم ، أي بُعدهِم عن التأمّل في أدلّة النبوءة ، وعن الإنصاف في الاعتراف بالحق فمن كان ذلك ديدنه طُبع على قلبه فلا يقبل الهُدى فمعنى ﴿ لا يهدي ﴾ لا يخلق الهُدى في قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(140/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾

ووقف العلماء في هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فلأزيد على السبعين قليلاً وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام

لعبد الله بن عبد الله بن أبي الذي أسلم وحَسُنَ إسلامه .

وكانت السبعة دائماً هي نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتي عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل في العدد هو مكررات الواحد ، أي : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هي : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هي : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع .

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف . ونجد قول الحق سبحانه وتعالى في سورة الكهف : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بالغيب وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ . . . ﴾ [الكهف : 22]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر .

وحين سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم " السبعين " ؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ؛ الذي طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا : كيف يغيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذي يقول عن نفسه : " أنا أفصح العرب بيد أنِّي من قريش " ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول :

أسِيئي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لاَ مَلُومَةَ . . . أي : افعلي ما تشائين .

فكأن الحق سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ شاء أن يأتي بمضاعفات العدد النهائية وهي السبعون ليحسم الأمر .

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . . ﴾ [المنافقون : 6]

أي : مهما استغفرت بأي عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم .

ونقول : إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول : أن يغفر الله . والشق الثاني : هو مجاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ، فهو صلى الله عليه وسلم يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين . وفي استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ .

ولكن ألا توجد ذاتية للأب ؟

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ [الكهف : 30]

وجزاء العمل يُعطي للبعض في الدنيا ، ويُعْطي للبعض في الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخرة نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدنيا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخرة مِن نَّصِيبٍ ﴾ [الشورى : 20]

(142/344)

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين " ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغنى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سيصلى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ [المسد : 1-3]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبي لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد سُرَّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التي بشَّرته بميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبي لهب يوم الاثنين جزاء عمله .

كما أن عبد الله بن أبيّ كان له موقف يحسب له في واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون

لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ؛ وانتهت بصلح الحديبية وهي أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما في يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة في الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة .

نعود إلى قصة عبد الله بن أبيّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم منع تتويج عبد الله بن أبيّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة في نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبيّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبيّ وقال : إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا موقف يُحمد له .

(143/344)

كذلك كان له موقف آخر في غزوة بدر ، حينما أُسر العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت في المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبيّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم يَنْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك ممحصات للذنب ، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظلموا أَنْفُسَهُمْ جَآءُوكَ فاستغفروا الله واستغفر لَهُمُ الرسول لَوَجَدُواْ الله تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾ [النساء : 64]

فالذي يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهو لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبيّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن يأتي لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار .

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ وحين ينفي الحق سبحانه وتعالى الهداية عن

إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق : الله لم يَهْدِني فماذا أفعل ؟ ويُحمّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك ؟ لأنك فسقت .

(144/344)

إذن : فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة في هذه الآية ؛ ليست هي الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتي من الله للمؤمن والكافر فمنهج الله الذي يبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التي يعطيها الحق لمن دخل في رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل في قوله الحق : ﴿ والذين اهتدوا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : 17]

إذن : فكل مَنْ مشى في طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفي المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [الأحقاف : 10]

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [التوبة : 37]

وأيضاً قوله الكريم : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [الصف : 5]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدِهم ؛ لأنه سبحانه وتعالى قد هداهم

ودَلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق .

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴾ [فصلت : 17]

فماذا صنعوا في هدايته لهم : ﴿ فاستحبوا العمى عَلَى الهدى ﴾ ، أي : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(145/344)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم " عن عروة أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل ﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ [المنافقون : 8] فأنزل الله عز وجل ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم

سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ قال النبي " لأزيدن على السبعين . فأنزل الله ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ " [المنافقون : 6] .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : " لما نزلت ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ قال النبي صلى الله عليه وسلم " سأزيد على سبعين ، فأنزل الله في السورة التي يذكر فيها المنافقون ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون : 6] " .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لما نزلت هذه الآية أسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوالله لأستغفرن أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم . فقال الله من شدة غضبه عليهم ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ [المنافقون : 6] " .

(146/344)

وأخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن أبي حاتم والنحاس وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبي ، دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه ، فقام عليه فلما وقف قلت أعلى عدوّ الله عبد الله بن أبي القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ ! أعدد أيامه ورسول الله صلى

الله عليه وسلم يتبسم ، حتى إذا أكثرت قال " يا عمر أخر عني اني قد خيرت ، قد قيل لي ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشى معه حتى قام على قبره حتى فرغ منه ، فعجبت لي ولجراءتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم – والله رسوله أعلم – فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ [التوبة : 84] فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل " .

وأخرج ابن أبي حاتم " عن الشعبي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لقد أصبت في الإِسلام هفوة ما أصبت مثلها قط ، أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على عبد الله بن أبي ، فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا ، لقد قال الله ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد خيرني ربي فقال ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ فقعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفير القبر ، فجعل الناس يقولون لابنه : يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الحباب اسم شيطان أنت عبد الله " " .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ استغفر لهم . . . ﴾ الآية . قال : نزلت في الصلاة على المنافقين قال : " لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق قال النبي صلى الله عليه وسلم لو أعلم إن استغفرت له إحدى وسبعين مرة غفر له لفعلت فصلى عليه الله الصلاة على المنافقين والقيام على قبورهم ، فأنزل الله ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ [التوبة : 84] ونزلت العزمة في سورة المنافقين ﴿ سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ [المنافقون : 6] الآية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(148/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ : منصوبٌ على المصدر كقولك : " ضربتُه عشرين ضربةً " فهو لعددِ مراته . وقوله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ ، قد تقدَّم الكلامُ على هذا

بُعَيْدَ قوله : ﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ [التوبة : 53] وأنه نظيرُ قوله :

2519 أَسِيْئِي بنا أو أَحْسِنِي لا مَلومةٌ . . . لدينا ولا مَقْلِيَّةٌ إنْ تَقَلَّتِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 90 ﴾

(149/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80) ﴾

خَتَمَ القضايا بأنَّه لا يغفر لأهل الشِرْكِ والنفاق ، فلا تنفعهم الوسائل ، ولا ينتعش منهم الساقط .

ويقال : مَنْ غَلَبَتْه شِقْوتُنا لم ينفعه تضرعه ودعوته .

ويقال : صريعُ القدرة لا يُنْعِشُه الجُهد والحيلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 49 ﴾

(150/344)

قوله تعالى ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علل سبحانه عدم المغفرة بفسقهم ، وأتى بالظاهر موضع المضمر إشارة إلى اتصافهم به وتعليقاً للحكم بالوصف ، علل رسوخهم في الفسق بعد أن قدم أن المنافقين بعضهم من بعض فهم كالجسد الواحد بقوله : ﴿ فرح المخلفون ﴾ أي الذين وقع تخليفهم بإذنك لهم وكراهة الله لانبعاثهم ﴿ بمقعدهم ﴾ أي قعودهم عن غزوة تبوك ، ولعله عبر بهذا المصدر لصلاحيته لموضع القعود ليكون بدلالته على الفرح أعظم دلالة على الفرح بالموضوع ، وهو مروي عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وأظهر الوصف بالتخلف موضع الضمير زيادة في تهجين ما رضوا به لأنفسهم ، وزاده تهجيناً أيضاً بقوله : ﴿ خلاف ﴾ أي بعد وخلف أو لأجل خلاف ﴿ رسول الله ﴾ أي الملك الأعظم الذي من تخلف عن حزبه هلك ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا ﴾ .

ولما كان هذا في سياق الأموال تارة بالرضى بنيلها والسخط بحرمانها ، وتارة بقبض اليد عن بذلها ، وتارة بالاستمتاع بالخلاف الذي هو النصيب أعم من أن يكون بالمال أو النفس ، وتارة بعيب الباذلين وغير ذلك من شأنها قدم قوله : ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ على قوله : ﴿ في سبيل الله ﴾ أي طريق الملك الذي له صفات الكمال ، لأنه ليس فيهم باعث الإيمان وداعي الإيقان الذي بعث المؤمنين ، ودل ذلك على عراقتهم في الفسق بأن الإنسان قد يفعل المعصية ويحزن على فعلها وهؤلاء سروا بها مع ما فيها من الدناءة ، وقد يسر الإنسان بالمعصية ولا يكره أن يكون بدلها أو معها طاعة وهؤلاء ضموا إلى سرورهم بها كراهية الطاعة ، وقد يكره ولا ينهى غيره وهؤلاء جمعوا إلى ذلك كله نهي غيرهم ، ففعلوا ذلك كله ﴿ وقالوا ﴾ أي لغيرهم ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ بعداً من الإسلام وعمّى عن سيد الأحكام ، لأن غزوة تبوك كانت في شدة الحر .

ولما كان هذا قول من لم تخطر الآخرة على باله ، أمره تعالى أن يحذر من يصغي إليهم أو يقبل عليهم بقوله : ﴿ قل ﴾ أي يا أعلم بخلقنا استجهالاً لهم ﴿ نار جهنم ﴾ أي التي أعدها الله لمن خالف أمره ﴿ أشد حرّاً ﴾ ولفت الكلام إلى الغيبة يدل على أن أعظم المراد بهذا

الوعظ ضعفاء المؤمنين لئلا يتشبهوا بهم طعماً في الحلم فقال تعالى : ﴿ لو كانوا ﴾ أي المنافقون ﴿ يفقهون ﴾ أي لو كان بهم فهم يعلمون به صدق الرسول وقدرة مرسله على ما توعد به لعلموا ذلك فما كانوا يفرون من الحر إلى أشد حراً منه ، لأن من فر من حر ساعة إلى حر الأبد كان أجهل الجهال ، وقال أبو حيان : لما ذكر تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه ، يعني في قوله ﴿ فرح المخلفون ﴾ - انتهى .

فتكون الآية حينئذ جواباً لمن كأنه قال : هذه أحوال من خرج فما حال من قعد ؟ وقد خرج بما في هذه الآية من الأوصاف كعب بن مالك ورفيقاه - رضى الله عنهم - م ونحوهم ممن لم يفرح بالقعود ولا اتصف بما ذكر معه من أوصافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 368 . 369 ﴾

(152/344)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين ، وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، والمخلف المتروك ممن مضى .

فإن قيل : إنهم احتالوا حتى تخلفوا ، فكان الأولى أن يقال فرح المتخلفون .

والجواب من وجوه : الأول : أن الرسول عليه السلام منع أقواماً من الخروج معه لعلمه بأنهم يفسدون ويشوشون ، فهؤلاء كانوا مخلفين لا متخلفين .

والثاني : أن أولئك المتخلفين صاروا مخلفين في الآية التي تأتي بعد هذه الآية ، وهي قوله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ [التوبة : 83] فلما منعهم الله تعالى من الخروج معه صاروا بهذا السبب مخلفين .

الثالث : أن من يتخلف عن الرسول عليه السلام بعد خروجه إلى الجهاد مع المؤمنين يوصف بأنه مخلف من حيث لم ينهض فبقي وأقام .

وقوله : ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد المدينة ، فعلى هذا المقعد اسم للمكان .

وقال مقاتل : ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ بقعودهم وعلى هذا ، هو اسم للمصدر .

وقوله : ﴿ خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ ﴾ فيه قولان : الأول : وهو قول قطرب والمؤرج والزجاج ،

يعني مخالفة لرسول الله حين سار وأقاموا .

قالوا : وهو منصوب لأنه مفعول له ، والمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(153/344)

والثاني : قال الأخفش : إن ﴿ خلاف ﴾ بمعنى خلف ، وأن يونس رواه عن عيسى بن عمر ومعناه بعد رسول الله ، ويقوي هذا الوجه قراءة من قرأ ﴿ خلف رَسُولِ الله ﴾ وعلى هذا القول ، الخلاف اسم للجهة المعينة كالخلف ، والسبب فيه أن الإنسان متوجه إلى قدامه فجهة خلفه مخالفة لجهة قدامه في كونها جهة متوجهاً إليها ، وخلاف بمعنى خلف مستعمل أنشد أبو عبيدة للأحوص :

عقب الربيع خلافهم فكأنما . . بسط الشواطب بينهن حصيرا

وقوله : ﴿ وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الذهاب إلى الغزو .

واعلم أن الفرح بالإقامة على كراهة الذهاب إلا أنه تعالى أعاده للتأكيد ، وأيضاً لعل المراد أنه مال طبعه إلى الإقامة لأجل إلفه تلك البلدة واستئناسه بأهله وولده وكره الخروج إلى

الغزو لأنه تعريض للمال والنفس للقتل والإهدار ، وأيضاً مما منعهم من ذلك الخروج شدة الحر في وقت خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو المراد من قوله : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ .

فأجاب الله تعالى عن هذا السبب الأخير بقوله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أي إن بعد هذه الدار داراً أخرى ، وإن بعد هذه الحياة حياة أخرى ، وأيضاً هذه مشقة منقضية ، وتلك مشقة باقية ، وروى صاحب "الكشاف" لبعضهم :

مسرة أحقاب تلقيت بعدها . . مساءة يوم أنها شبه أنصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة . . وراء تقضيها مساءة أحقاب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 118.119 ﴾

(154/344)

وقال السمرقندى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾

يقول عجب ورضي المتخلفون عن الغزو وهم المنافقون .

﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خلاف رَسُولِ الله ﴾ ، يعني : بتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى الحر ﴾ ، يعني : قال بعضهم لبعض : لا تخرجوا إلى الغزو ، فإن الحر شديد .

قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ ﴾ لهم يا محمد : ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ يعني : لو كانوا يفهمون ويعقلون .

وفي قراءة ابن مسعود ﴿ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَرِحَ المخلفون ﴾

عن غزوة تبوك ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ بقعودهم ﴿ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ قال قطرب والمؤرخ : يعني مخالفة لرسول الله حين سار وأقاموا ، وقال أبو عبيدة : يعني بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وأنشد الحرث بن خالد :

عقب الربيع خلافهم فكأنما . . . بسط الشواطب بينهن حصيرا

أي بعدهم ، ويدل على هذا التأويل قراءة عمرو بن ميمون : خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحر ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ يعلمون ذلك ، هُو في مصحف عبد الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ أي المتروكون .

﴿ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يعني مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول الأكثرين .

والثاني : معناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله أبو عبيدة وأنشد .

عفت الديار خلافهم فكأنما . . . بسط الشواطب بينهن حصيراً

أي بعدهم .

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : هذا قول بعضهم لبعض حين قعدوا .

والثاني : أنهم قالوه للمؤمنين ليقعدوا معهم ، وهؤلاء المخلفون عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك وكانوا أربعة وثمانين نفساً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد ، وقوله ﴿ المخلفون ﴾ لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه وهذا أمكن في هذا من أن يقال المتخلفون ، ولم يفرح إلا منافق ، فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر ، و" مقعد " مصدر بمعنى القعود ، ومثله :

من كان مسروراً بمقتل مالك . . . وقوله ﴿ خلاف ﴾ معناه بعد وأنشد أبو عبيدة في ذلك : [الكامل]

عقب الربيع خِلافَهُمْ فكأنَّما . . . بسط الشواطب بينهنَّ حصير

يريد بعدهم ومنه قول الشاعر : [الطويل]

فقل للذي يبقى خلاف الذي مضى . . . تأهَّبْ لأخرى مثلَها فَكَأَنْ قدِ

وقال الطبري هو مصدر خالف يخالف .

قال القاضي أبو محمد : فعلى هذا هو مفعول له ، والمعنى ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم ﴾ لخلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مصدر ونصبه في القول الأول كأنه على الظرف ، وكراهيتهم " لما ذكر هي شح إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله فهم يظنون بالدنيا ، وقولهم

﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ كان لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب الثمار والظلال ، قاله ابن عباس وكعب بن مالك والناس ، فأقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم فإذا كنتم تجزعون من حر القيظ فنار جهنم التي هي أشد أحرى أن تجزعوا منها لو فهمتم ، وقرأ ابن عباس وأبو حيوة " خلف " وذكرها يعقوب ولم ينسبها وقرىء " خُلف " بضم الخاء ، ويقوي قول الطبري أن لفظة " الخلاف " هي مصدر من خالف ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم بالنفر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأذنين .

وقال محمد بن كعب : قال ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ رجل من بني سلمة .

وقال ابن عباس : قال رجل يا رسول الله الحر شديد فلا تنفر في الحر ، قال النقاش : وفي قراءة عبد الله " يعلمون " بدل ﴿ يفقهون ﴾ ، وقال ابن عباس وأبو رزين والربيع بن خيثم وقتادة وابن زيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(157/344)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم ﴾

يعني : المنافقين الذين تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك .

والمخلَّف : المتروك خلفَ من مضى .

﴿ بمقعدهم ﴾ أي : بقعودهم .

وفي قوله : ﴿ خلافَ رسول الله ﴾ قولان .

أحدهما : أن معناه : بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو عبيدة .

والثاني : أن معناه : مخالَفَةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو منصوب ، لأنه مفعول له ، فالمعنى : بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله الزجاج .

وقرأ ابن مسعود ، وابن يعمر ، والأعمش ، وابن أبي عبلة : "خَلْفَ رسول اللهِ" ومعناها : أنهم تأخَّروا عن الجهاد .

وفي قوله : ﴿ لا تنفروا في الحرِّ ﴾ قولان .

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض ، قاله ابن اسحاق ، ومقاتل .

والثاني : أنهم قالوه للمؤمنين ، ذكره الماوردي .

وإنما قالوا هذا ، لأن الزمان كان حينئذ شديد الحر .

﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ لمن خالف أمر الله .

وقوله : ﴿ يفقهون ﴾ معناه : يعلمون .

قال ابن فارس : الفقه : العلم بالشيء .

تقول : فَقِهْتُ الحديث أَفْقَهُهُ ؛ وكل علم بشيء : فقه ، ثم اختص به علم الشريعة ، فقيل

لكل عالم بها : فقيه .

قال المصنف : وقال شيخنا علي بن عبيد الله : الفقه في إطلاق اللغة : الفهم ، وفي عرف الشريعة : عبارة عن معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بأفعال المكلَّفين ، بنحو : التحليل ، والتحريم ، والإيجاب ، والإجزاء ، والصحة ، والفساد ، والغرم ، والضمان ، وغير ذلك .

وبعضهم يختار أن يقال : الفِقْه : فَهْمُ الشيء .

وبعضهم يختار أن يقال : عِلْمُ الشيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(158/344)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ ﴾

أي بقعودهم .

قعد قعوداً ومقعداً ؛ أي جلس .

وأقعده غيره ؛ عن الجوهريّ : والمخلّف المتروك ؛ أي خلّفهم الله وثبّطهم ، أو خلفهم رسول الله والمؤمنون لمّا علموا تثاقلهم عن الجهاد ؛ قولان ، وكان هذا في غزوة تبوك .

﴿ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ مفعول من أجله ، وإن شئت كان مصدراً .

والخلاف المخالفة .

ومن قرأ "خَلْفَ رسولِ اللَّهِ" أراد التأخر عن الجهاد .

﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ أي قال بعضهم لبعض ذلك .

﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أي قل لهم يا محمد نار جهنم .

﴿ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ ابتداء وخبر .

"حراً" نصب على البيان ؛ أي من ترك أمر الله تعرض لتلك النار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(159/344)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾

يعني فرح المتخلفون عن غزوة تبوك والمخلف المتروك بمقعدهم يعني بقعودهم في المدينة خلاف رسول الله يعني بعده وعلى هذا المعنى خلاف بمعنى خلف فهو اسم للجهة المعينة لأن الإنسان إذا توجه إلى قدامه فمن تركه خلفه فقد تركه بعده وقيل معنه مخالفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين سار إلى تبوك وأقاموا بالمدينة لأن رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) كان قد أمرهم بالخروج إلى الجهاد فاختاروا القعود مخالفة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ والمعنى أنهم فرحوا بسبب التخلف وكرهوا الخروج إلى الجهاد وذلك أن الإنسان يميل بطبعه لى إيثار الراحة والقعود مع الأهل والولد ويكره إتلاف النفس والمال وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وقالوا لا تنفروا في الحر ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدة الحر فأجاب الله عن هذا بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ يعني : قل يا محمد لهؤلاء الذين اختاروا الراحة والقعود خلافك عن الجهاد في الحر أن نار جهنم التي هي موعد في الآخرة أشد حراً من حر الدنيا لو كانوا يعلمون .

قال ابن عباس : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف .

فقال رجال : يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفر في الحر فقال الله قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون فأمره الله تعالى بالخروج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(160/344)

وقال أبو حيان :

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾

لما ذكر تعالى ما ظهر من النفاق والهزء من الذين خرجوا معه إلى غزوة تبوك من المنافقين ، ذكر حال المنافقين الذين لم يخرجوا معه وتخلفوا عن الجهاد ، واعتذروا بأعذار وعلل كاذبة ، حتى أذن لهم ، فكشف الله للرسول (صلى الله عليه وسلم) عن أحوالهم وأعلمه بسوء فعالهم ، فأنزل الله عليه : فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله الآية : أي : عن غزوة تبوك .

وكان الرسول قد خلفهم بالمدينة لما اعتذروا ، فأذن لهم .

وهذه الآية تقتضي التوبيخ والوعيد .

ولفظة المخلفون تقتضي الذم والتحقير ، ولذلك جاء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، وهي أمكن من لفظة المتخلفين ، إذ هم مفعول بهم ذلك ، ولم يفرح إلا منافق فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العذر .

ولفظ المقعد يكون للزمان والمكان ، والمصدر وهو هنا للمصدر أي : بقعودهم ، وهو عبارة عن الإقامة بالمدينة .

وانتصب خلاف على الظرف ، أي بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقال : فلان أقام خلاف الحي ، أي بعدهم .

إذا ظعنوا ولم يظعن معهم .

قاله أبو عبيدة ، والأخفش ، وعيسى بن عمرو .

قال الشاعر :

عقب الربيع خلافهم فكأنما . . .

بسط السواطب بينهنّ حصيرا

ومنه قول الشاعر :

فقل للذي يبغي خلاف الذي مضى . . .

تأهب لأخرى مثلها وكأن قد

ويؤيد هذا التأويل : قراءة ابن عباس ، وأبي حيوة ، وعمرو بن ميمون خلف رسول الله .

وقال قطرب ، ومؤرج ، والزجاج ، والطبري : انتصب خلاف على أنه مفعول لأجله أي : لمخالفة رسول الله ، لأنهم خالفوه حيث نهض للجهاد وقعدوا .

ويؤيد هذا التأويل قراءة من قرأ خُلف بضم الخاء ، وما تظاهرت به الروايات من أنه أمرهم بالنفر فغضبوا وخالفوا وقعدوا مستأذنين وغير مستأذنين ، وكراهتهم للجهاد هي لكونهم لا يرجون به ثواباً ، ولا يدفعون بزعمهم عنهم عقاباً .

وفي قوله : فرح وكرهوا مقابلة معنوية ، لأن الفرح من ثمرات المحبة .

وفي قوله : أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم تعريض بالمؤمنين ويتحملهم المشاق العظيمة أي : كالمؤمنين الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم في الجهاد في سبيل الله ، وآثروا ذلك على الدعة والخفض ، وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان .

والفرح بالقعود يتضمن الكراهة للخروج ، وكأن الفرح بالقعود هو لمثل الإقامة ببلده لأجل الألفة والإيناس بالأهل والولد ، وكراهة الخروج إلى الغزو لأنه تعريض بالنفس والمال للقتل والتلف .

واستعذروا بشدّة الحر ، فأجاب الله تعالى عما ذكروا أنه سبب لترك النفر ، وقالوا : إنه قال بعضهم لبعض وكانوا أربعة وثمانين رجلاً .

وقيل : قالوا للمؤمنين لم يكفهم ما هم عليه من النفاق والكسل حتى أرادوا أن يكسلوا غيرهم وينبهوهم على العلة الموجبة لترك النفر .

قال ابن عباس ، وأبو رزين والربيع : قال رجل : يا رسول الله ، الحر شديد ، فلا ننفر في الحر .

وقال محمد بن كعب هو رجل من بني سلمة انتهى .

أي : قال ذلك عن لسانهم ، فلذلك جاء وقالوا بلفظ الجمع .

وكانت غزوة تبوك في وقت شدّة الحر وطيب الثمار والظلال ، فأمر الله نبيه أن يقول لهم : قل نار جهنم أشد حراً ، أقام الحجة عليهم بأنه قيل لهم : إذا كنتم تجزعون من حر القيظ ، فنار جهنم التي هي أشدّ أحرى أن تجزعوا منها لو فقهتم .

قال الزمخشري : قل نار جهنم أشدّ حراً استجهال لهم ، لأنّ من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بذلك التصوّن في مشقة الأبد كان أجهل من كل جاهل .

ولبعضهم :

مسرّة أحقاد تلقيت بعدها . . .

مساءة يوم إربها شبه الصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة . . .

وراء تقضيها مساءة أحقاب

انتهى .

وقرأ عبيد الله : يعلمون مكان يفقهون ، وينبغي أن يحمل ذلك على معنى التفسير ، لأنه مخالف لسواد ما أجمع المسلمون عليه ، ولما روي عنه الأئمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَرِحَ المخلفون ﴾

أي الذين خلّفهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالإذن لهم في القعود عند استئذانِهم أو خلّفهم الله بتثبيطه إياهم لما علم في ذلك من الحِكمة الخفية أو خلّفهم كسلُهم أو نفاقُهم ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ متعلقٌ بفرِحَ أي بقعودهم وتخلّفِهم عن الغزو ﴿ خلاف رَسُولِ الله ﴾ أي خلفه وبعد خروجِه حيث خرج ولم يخرُجوا يقال : أقام خلافَ الحيِّ أي بعدهم ، ظعنوا ولم يظعَن ، ويؤيده قراءةُ من قرأ خلفَ رسولِ الله ، فانتصابُه على أنه ظرفٌ لمقعدهم إذ لا فائدة في تقييد فرحِهم بذلك ، وقيل : هو بمعنى المخالفة ويعضُده قراءة من قرأ خُلفَ رسولِ الله بضم الخاء فانتصابُه على أنه مفعولٌ له والعاملُ إما (فرح) أي فرحوا لأجل مخالفتِه عليه الصلاة والسلام بالقعود وإما (مقعدِهم) أي فرحوا بقعودهم لأجل مخالفته عليه الصلاة والسلام أو على أنه حالٌ والعامل أحدُ المذكورَيْن أي فرحوا مخالفين له عليه الصلاة والسلام أو فرحوا بالقعود مخالفين له عليه الصلاة والسلام ﴿ وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ لا إيثاراً للدعةِ والخفْضِ على طاعة الله تعالى فقط بل مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاقِ ، فإن إيثارَ أحدِ الأمرين قد يتحقق بأدنى رُجْحانٍ منه من غير أن يبلُغ الآخرُ مرتبةَ الكراهيةِ وإنما أوثر ما عليه النظمُ الكريمُ على أن يقال : وكرهو

أن يخرُجوا إلى الغزو إيذاناً بأن الجهادَ في سبيل الله مع كونه من أجلّ الرغائبِ وأشرفِ المطالبِ التي يجب أن يتنافسَ فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائحِ الذي هو القعودُ خلافَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي لإخوانهم تثبيتاً لهم على التخلف والقعودِ وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد أو للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ونهياً عن المعروف وإظهاراً لبعض العللِ الداعيةِ لهم إلى ما فرِحوا به من القعود ، فقد جمَعوا ثلاثَ خلالٍ من خصال الكفر والضلالِ

(163/344)

: الفرحُ بالقعودِ وكراهيةُ الجهاد ونهيُ الغير عن ذلك ﴿ لاَ تَنفِرُواْ فِى الحر ﴾ فإنه لا يستطاع شدّته ﴿ قُلْ ﴾ رداً عليهم وتجهيلاً لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي ستدخُلونها بما فعلتم ﴿ أَشَدُّ حَرّا ﴾ مما تحذرون من الحر المعهودِ وتحذّرون الناسَ منه ، فما لكم لا تحذَرونها وتعرّضون أنفسَكم لها بإيثار القعودِ على النفير ﴿ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ اعتراضٌ تذييليٌّ من جهته سبحانه وتعالى غيرُ داخلٍ تحت القولِ المأمور به مؤكدٌ لمضمونه وجوابُ لو إما مقدرٌ أي لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هي أو إنْ آل مآلُهم إليها لَما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزامِ ، وإما غيرُ منويَ على أن لو لمجرد التمني المنبىء عن امتناع تحققِ

مدخولِها أي لو كانوا من أهل الفَطانةِ والفِقه كما في قوله عز وجل : ﴿ قُلِ انظروا مَاذَا فِى السموات والأرض وَمَا تُغْنِى الآيات والنذر عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(164/344)

وقال الآلوسى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

﴿ فَرِحَ المخلفون ﴾ أي الذين خلفهم النبي صلى الله عليه وسلم وأذن لهم في التخلف أو خلفهم الله تعالى بتثبيطه إياهم لحكمة علمها أو خلفهم الشيطان باغرائه أو خلفهم الكسل والنفاق ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ متعلق بفرح وهو مصدر ميمي بمعنى القعود .

وقيل : اسم مكان ، والمراد منه المدينة ، والأكثرون على الأول أي فرحوا بقعودهم عن الغزو ﴿ خلاف رَسُولِ الله ﴾ أي خلفه عليه الصلاة والسلام وبعد خروجه حيث خرج ولم يخرجوا ، فهو نصب على الظرفية بمعنى بعد وخلف وقد استعملته العرب في ذلك ، والعامل فيه كما قال أبو البقاء ﴿ مَقْعَدِ ﴾ وجوز أن يكون ﴿ فَرِحَ ﴾ .

وقيل : هو بمعنى المخالفة فيكون مصدر خالف كالقتال وحينئذ يصح أن يكون حالاً

بمعنى مخالفين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يكون مفعولاً له والعامل إما ﴿ فَرِحَ ﴾ أي فرحوا لأجل مخالفته صلى الله عليه وسلم بالقعود وإما ﴿ مقعدهم ﴾ أي فرحوا بقعودهم لأجل المخالفة ، وجعل المخالفة علة باعتبار أن قصدهم ذلك لنفاقهم ولا حاجة إلى أن يقال قصدهم الاستراحة ولكن لما آل أمرهم إلى ذلك جعل علة كما قالوا في لام العاقبة وجوز أن يكون نصباً على المصدر بفعل دل عليه الكلام .

﴿ وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ إيثاراً للراحة والتنعم بالمآكل والمشارب مع ما في قلوبهم من الكفر والنفاق ، وبين الفرح والكراهة مقابلة معنوية لأن الفرح بما يحب .

(165/344)

وإيثار ما في النظم على أن يقال وكرهوا أن يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إيذان بأن اجلهاد في سبيل الله تعالى مع كونه من أجل الرغائب التي ينبغي أن يتنافس فيها المتنافسون قد كرهوه كما فرحوا بأقبح القبائح وهو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي الكلام تعريض بالمئمنين الذين آثروا ذلك وأحبوه ابتغاء لرضا الله تعالى ورسوله ﴿ وَقَالُواْ ﴾ أي لاخوانهم تثبيتاً لهم على القعود وتواصياً بينهم بالفساد أو

للمؤمنين تثبيطاً لهم على الجهاد ونهياً عن المعروف وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به ، والقائل رجال من المنافقين كما روي عن جابر بن عبد الله وهو الذي يقتضيه الظاهر .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي أن القائل رجل من بني سلمة ، ووجه ضمير الجمع على هذا يعلم بما مر غير مرة ﴿ لاَ تَنفِرُواْ ﴾ لا تخرجوا إلى الغزو ﴿ فِى الحر ﴾ فإنه لا يستطاع شدته ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد رداً عليهم وتجهيلاً لهم ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ التي هي مصيركم بما فعلتم ﴿ أَشَدُّ حَرّا ﴾ من هذا الحر الذي ترونه مانعاً من النفير فما لكم لا تحذرونها وتعرضون أنفسكم لها بإيثار القعود والمخالفة لله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام ﴿ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ تذييل من جهته تعالى غير داخل على القول المأمور به مؤكد لمضمونه ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ مقدر وكذا مفعول ﴿ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لو كانوا يعلمون أنها كذلك أو أحوالها وأهوالها أو أن مرجعهم إليها لما آثروا راحة زمن قليل على عذاب الأبد ، وأجهل الناس من صان نفسه عن أمير يسير يوقعه في ورطة عظيمة ، وأنشد الزمخشري لابن أخت خالته :

مسرة أحقاب تلقيت بعدها . . .

مساءة يوم أريها شبه الصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة . . .

وراء تقضيها مساءة أحقاب

(166/344)

وقدر بعضهم الجواب لتأثروا بهذا الالزام وهو خلاف الظاهر ، وجوز أن تكون ﴿ لَوْ ﴾ لمجرد التمني المنبىء عن امتناع تحقق مدخولها ، وينزل الفعل المتعدي منزلة اللازم فلا جواب ولا مفعول ويؤول المعنى إلى أنهم ما كانوا من أهل الفطانة والفقه ، ويكون الكلام نظير قوله تعالى : ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ [يونس : 101] وهو خلاف الظاهر أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(167/344)

وقال القاسمى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

المخلفون : هم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين ، فأذن لهم في التخلف كما قلنا ، أو لأنه خلفهم في المدينة في غزوة تبوك .

وإيثار : ﴿ الْمُخَلَّفُونَ ﴾ على المتخلفون ، لأنه صلى الله عليه وسلم منع بعضهم من الخروج ، فغلب على غيرهم ، أو المراد من خلفهم كسلُهم أو نفاقهم ، أو لأن الشيطان أغراهم بذلك ، وحملهم عليه .

وقوله تعالى : ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ متعلق بفرح ، أي : بقعودهم عن غزوة تبوك . فمقعد على هذا ، مصدر ميميّ ، أو هو اسم مكان ، والمراد به المدينة .

وقوله : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي : خلفه ، وبعد خروجه ، حيث خرج ولم يخرجوا . فخلاف ظرف بمعنى خلف وبعد .

يقال : فلان أقام خلاف الحي أي : بعدهم ، ظعنوا ولم يظعن ، ويؤيده قراءة من قرأ : ﴿ خلف رسول الله ﴾ ، فانتصابه على أنه ظرف لمقعدهم ، إذ لا فائدة لتقييد فرحهم بذلك

.

قال الشهاب : واستعمال خلاف بمعنى خلف ، لأن جهة الخلف خلاف الأمام ، وجوز أن يكون الخلاف بمعنى المخالفة ، فهو مصدر خالف ، كالقتال ، ويعضده قراءة من قرأ (خُلف رسول الله) بضم الخاء ، وفي نصبه وجهان :

الأول : أنه مفعول له ، والعامل إما فرح ، أي : فرحوا لأجل مخالفته صلى الله عليه وسلم بالقعود ، وإما مقعدهم ، لأجل مخالفته صلى الله عليه وسلم ، فهو علة إما للفرح أو للقعود .

(168/344)

والثاني : أنه حال ، والعامل أحد المذكورين ، أي : فرحوا مخالفين له صلى الله عليه وسلم بالقعود ، أو فرحوا بالقعود مخالفين له .

وقوله تعالى : ﴿ وَكَرِهُوا ﴾ الخ أي : لما في قلوبهم من مرض النفاق .

قال أبو السعود : وإنما أوثر ما عليه النظم الكريم على أن يقال : وكرهوا أن يخرجوا إلى الغزو ، إيذاناً بأن الجهاد في سبيل الله ، مع كونه من أجلّ الرغائب ، وأشرف المطالب ، التي يجب أن يتنافس بها المتنافسون ، قد كرهوه ، كما فرحوا بأقبح القبائح ، الذي هو القعود خلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الزمخشري : في قوله تعالى : ﴿ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾ تعريض بالمؤمنين ، وبتحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى ، وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض - أي : الراحة والتنعم بالمآكل

والمشارب.وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهونه ؟ وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان ، وداعي الإيقان .

قال الشهاب : ووجه التعريض ظاهر ، لأن المراد كرهوه ، لا كالمؤمنين الذين أحبوه .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أي : قالوا لإخوانهم لا تنفروا إلى الجهاد في الحر ، فإنه لا يستطاع شدته .

وذلك أن الخروج في غزوة تبوك كان في شدة الحر ، عند طيب الظلال والثمار ، وذلك تثبيتاً لهم على التخلف ، وتواصياً فيما بينهم بالشر والفساد ، أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً لهم عن الجهاد ، ونهياً عن المعروف ، وإظهاراً لبعض العلل الداعية لهم إلى ما فرحوا به من القعود وكراهية الجهاد ، ونهي الغير عن ذلك – أفاده أبو السعود – .

(169/344)

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ أي : ردّاً عليهم وتجهيلاً لهم : ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ أي : التي ستدخلونها بما فعلتم : ﴿ أَشَدُّ حَرّاً ﴾ أي : مما تحذرون من الحرّ المعهود ، وتحذّرون الناس منه ، فما لكم لا تحذرونها ، وتعرضون أنفسكم لها ، بإيثار القعود على النفير .

وقوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ اعتراض تذييلي من جهته تعالى ، غير داخل تحت

القول المأمور به ، مؤكد لمضمونه .

وجواب لو إما مقدر ، أي : لو كانوا يفقهون أنها كذلك ، أو كيف هي ، أو أن مآلهم إليها لما فعلوا ما فعلوا ، أو لتأثروا بهذا الإلزام ، وإما غير منويّ ، على أن لو لمجرد التمني المنبئ علن امتناع تحقق مدخولها ، أي : لو كانوا من أهل والفقه الفطانة ، كما في قوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْأَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

كذا في أبي السعود .

تنبيهان :

الأول : قال الزمخشري : قوله تعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ الخ ، استجهال لهم ، لأن من تصوّن من مشقة ساعة ، فوقع بسبب ذلك التصون في مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل . ولبعضهم :

~مسرة أحقاب تلقيت بعدها مساءة يوم ، أريها شبَه الصاب

~فكيف بأن تلقي مسرة ساعة وراء تقضيها مساءةُ أحقاب

– انتهى –

أي : فهم كما قال الآخر :

كالمستجير من الرمضاء بالنار

وقال آخر :

~عمرك بالحمية أفنيته خوفاً من البارد والحار

~وكان أولى لك أن تتقي من المعاصي حَذر النار

الثاني : روى الإمام مالك والشيخان عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال :

< نار بني آدم التي يوقدون بها جزء من سبعين جزءاً > ، زاد الإمام أحمد :

< من نار جهنم > .

وروى الشيخان عن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(170/344)

< إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة ، لَمَن له نعلان وشراكان من نار يغلي منهما دماغه كما يغلي المرجل ، لا يرى أن أحداً من أهل النار أشد عذاباً منه ، وإنه أهونهم عذاباً > .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 481.483 ﴾

(171/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

استئناف ابتدائي .

وهذه الآية تشير إلى ما حصل للمنافقين عند الاستنفار لغزوة تبوك فيكون المراد بالمخلّفين خصوص من تخلّف عن غزوة تبوك من المنافقين .

ومناسبة وقوعها في هذا الموضع أنّ فرحهم بتخلّفهم قد قَوِي لمّا استغفر لهم النبي صلى الله عليه وسلم وظنّوا أنّهم استغفلوه فقضَوا مأربهم ثم حصّلوا الاستغفار ظنّاً منهم بأنّ معاملة الله إياهم تجري على ظواهر الأمور .

فالمخلَّفون هم الذين تخلّفوا عن غزوة تبوك استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم فأذِن لهم وكانوا من المنافقين فلذلك أطلق عليهم في الآية وصف المخلّفين بصيغة اسم المفعول لأنّ النبي خلَّفهم ، وفيه إيماء إلى أنّه ما أذن لهم في التخلّف إلاّ لعلمه بفساد قلوبهم ، وأنّهم لا يغنون عن المسلمين شيئاً كما قال : ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ﴾ [التوبة : 47] .

وذكر فرحهم دلالة على نفاقهم لأنّهم لو كانوا مؤمنين لكان التخلّف نكداً عليهم ونغصاً كما وقع للثلاثة الذين خلّفوا فتاب الله عليهم .

والمَقْعد هنا مصدر ميمي أي بقعودهم .

و﴿ خِلاَف ﴾ لغة في خَلْف .

يقال : أقام خلاف الحي بمعنى بَعدهم ، أي ظعنوا ولم يظعن .

ومن نكتة اختيار لفظ خلاف دون خَلْف أنّه يشير إلى أن قعودهم كان مخالفة لإرادة رسول الله حين استنفر الناس كلّهم للغزو .

ولذلك جعله بعضُ المفسّرين منصوباً على المفعول له ، أي بمقعدهم لمخالفة أمر الرسول .

وكراهيتُهم الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله خصلة أخرى من خصال النفاق لأنّ الله أمر بذلك في الآية المتقدمة ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ﴾ [التوبة : 41] الآية ، ولكونها خصلةً أخرى جُعلت جملتها معطوفة ولم تجعل مقترنة بلام التعليل مع أنّ فرحهم بالقعود سببه هو الكراهية للجهاد .

(172/344)

وقولُهم : ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ خطابُ بعضهم بعضاً وكانت غزوة تبوك في وقت الحرّ حين طابت الظلال .

وجملة : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ مستأنفة ابتدائية خطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود قرع أسماعهم بهذا الكلام .

وكونُ نار جهنّم أشدّ حرّاً من حرّ القيظ أمر معلوم لا يتعلّق الغرض بالإخبار عنه .

فتعيّن أنّ الخبر مستعمل في التذكير بما هو معلوم تعريضاً بتجهيلهم لأنّهم حذروا من حرّ قليل وأقحموا أنفسهم فيما يصير بهم إلى حرّ أشدّ .

فيكون هذا التذكير كناية عن كونهم واقعين في نار جهنّم لأجل قعودهم عن الغزو في الحرّ ، وفيه كناية عُرضية عن كونهم صائرين إلى نار جهنّم .

وجملة : ﴿ لو كانوا يفقهون ﴾ تتميم ، للتجهيل والتذكير ، أي يقال لهم ذلك لو كانوا يفقهون الذكرى ، ولكنّهم لا يفقهون ، فلا تجدي فيهم الذكرى والموعظة ، إذا ليس المراد لو كانوا يفقهون أنّ نار جهنم أشدّ حرّاً لأنّه لا يخفى عليهم ولو كانوا يفقهون أنّهم صائرون إلى النار ولكنّهم لا يفقهون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(173/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير

الكاذبة التي قالوها ، وقد تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . ﴾ [التوبة : 47]

ومن لا يريد أن يجاهد في سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك .

وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفي خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفي نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة .

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله : ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء في أي مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة في البقاء في أماكنهم .

ويقول تعالى : ﴿ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خِلاَفَ ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهي إما أن تكون مخالفة في الرأي ، كأن تقول : فلان في خلاف مع فلان ، أي : أن لكل منهما رأياً . وإما أن

تكون في السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشي .

(174/344)

والخلاف من ناحية الرأي هون عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القلب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى في نفوسهم وارتاحوا لها وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفآء وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ . . . ﴾ [التوبة : 91]

وقوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ . . . ﴾ [التوبة : 92]

أي : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ [التوبة : 92]

إذن فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حرموا ثواب الجهاد في سبيل الله . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .

وقوله سبحانه : ﴿ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿ خِلاَفَ ﴾ تستعمل أيضاً بمعنى " بعد " ، أي بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . وبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : ﴿ وكرهوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ .

(175/344)

أي : انهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يثبّطوا المؤمنين ويُكرّهوهم في القتال في سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لاَ تَنفِرُوا فِي الحر ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزي ، بل أخذوا في تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة " غزوة تبوك " في أيام الحر . وكانت المدينة تمتلئ بظلال البساتين وثمارها ، بينما

الطريق إلى الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهي غزوة كلها مشقة .

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لاَ تَنفِرُواْ ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أي : يكره وجوده معه في مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أي : يكرهان وجودهما في مكان واحد . والذي يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذي يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس في سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ أي : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا في الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

(176/344)

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو

أعواماً ، ثم يأتي بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعاني من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليُؤمِّن مستقبله .

ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلي . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم في النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿ لاَ تَنفِرُواْ فِي الحر ﴾ في خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذي أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه ؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار في خواطرهم .

وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في نفوسهم . وشاء أن يفضح ما في سرائرهم ، لعل هذا يُدخل الخوف في قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا . . . ﴾ [التوبة : 28]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتي من كل مكان إلى مكة في موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت في ثيابهم عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا

يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

(177/344)

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفي معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ المسجد الحرام بَعْدَ عَامِهِمْ هذا ﴾ . فالخاطر الذي يأتي في النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتي على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذي خلقهم عليم بما يدور في خواطرهم . وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [التوبة : 28]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور في خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه . كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته ، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد في الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشيء وهو الحر الذي ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها .

ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآني ، رد الإمام علي كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : " أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف " .

ثم يقول بعد ذلك : " إن قلت لكم : اغزوهم في الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أي برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم في الصيف ، قلتم : أنظرنا – أي أمهلنا – حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم في البرد والحر تفرون ، فأنتم والله في النار . يا أشباه الرجال ولا رجال " .

(178/344)

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أي : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا في الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ،

مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(179/344)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ قال : عن غزوة تبوك .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية قال : يعني المتخلفون بأن قعدوا خلاف رسول الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : كانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي غزوة الحر . قالوا : لا تنفروا في الحر ، وهي غزوة العسرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف . فقال رجال : يا رسول الله الحر شديد ولا نستطيع الخروج فلا تنفروا في الحر . فقال الله ﴿ قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون

﴿ فأمره بالخروج " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ قال : قول المنافقين يوم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد إلى تبوك ، فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحر . فأنزل الله ﴿ قل نار جهنم أشد حراً . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : استدار برسول الله صلى الله عليه وسلم رجال من المنافقين حين أذن للجد بن قيس ليستأذنوه ويقولوا : يا رسول الله ائذن لنا فإنا لا نستطيع أن ننفر في الحر ، فأذن لهم واعرض عنهم . فأنزل الله ﴿ قل نار جهنم أشد حراً . . . ﴾ الآية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(180/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي

سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ : متعلقٌ ب " فرح " ، وهو يصلح لمصدر قعد وزمانِه ومكانِه ، والمرادُ به ههنا المصدرُ ، أي : بقعودهم وإقامتها بالمدينة .

قوله : ﴿ خِلاَفَ ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ :

أحدها : أنه منصوبٌ على المصدر بفعلٍ مقدرٍ مدلولٍ عليه بقوله : " مَقْعدهم " ، لأنه في معنى تخلَّفوا ، أي : تخلفوا خلاف رسول الله . الثاني : أنَّ " خلاف " مفعولٌ من أجله ، والعامل فيه : إمَّا فرح ، وإما مَقْعد ، أي : فَرِحوا لأجل مخالفتهم رسول الله حيث مضى هو للجهاد وتَخَلَّفوا هم عنه ، أو بقعودِهم لمخالفَتهم له ، وإليه ذهب الطبري والزجاج ومؤرِّج ، ويؤيد ذلك قراءةُ منْ قرأ " خُلْف " بضم الخاءِ وسكون اللام ، والثالث : أنْ ينتصب على الظرف ، أي : بعد رسول الله . يُقال : " أقام زيد خلاف القوم " ، أي : تخلف بعد ذهابهم ، و " خلافَ " يكون ظرفاً قال :

2520 عَقَبَ الربيعُ خِلافَهُمْ فكأنما . . . بَسَطَ الشَّواطِبُ بينهن حصيرا

وقال الآخر :

2521 فقلْ للذي يَبْقى خِلاَفَ الذي مضى . . . تَهَيَّأْ لأخرى مِثلها وكأنْ قَدِ

وإليه ذهب أبو عبيدة وعيسى بن عمر والأخفش ، ويؤيد هذا قراءة ابن عباس وأبي حيوة

وعمرو بن ميمون " خَلْفَ " بفتح الخاء وسكون اللام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 90.91 ﴾

(181/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (81) ﴾

استحوذ عليهم سرورُهم بتخلفهم ، ولم يعلموا أن ثبورَهم في تأخرهم وما آثروه من راحة نفوسهم على أداء حق الله ، والخروج في صحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم ، فنزع الله الراحةَ بما عاقَبَهم ، وسَيَصْلَوْنَ سعيراً في الآخرة بما قدَّموه من نفاقهم ، وسوف يتحسَّرُون ولات حينَ تحسُّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 50 ﴾

(182/344)

قوله تعالى ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان غاية السرور الضحك ، وكان اللازم لهم في الآخرة البكاء في دار الشقاء الذي هو غاية الحزن لهم ، فيها زفير وشهيق وهم يصطرخون فيها ، قال تعالى مهدداً لهم مسبباً عن قبيح ما ذكر من فعلهم مخبراً في صورة الأمر إيذاناً بأنه أمر لا بد من وقوعه : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ أي فليتمتعوا في هذه الدار بفرحتهم بمقعدهم التمتع الذي غاية السرور به الضحك - يسيراً ، فإنها دار قلعة وزوال وانزعاج وارتحال ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ أي في نار جهنم التي أغفلوا ذكر حرورها وأهملوا الاتقاء من شديد سعيرها بدل ذلك الضحك القليل كما استبدلوا حرها العظيم بحر الشمس الحقير ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ أي من الفرح بالمعاصي والسرور بالشهوات والانهماك في اللذات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 369 ﴾

(183/344)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ وهذا وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار بأنه ستحصل هذه الحالة ، والدليل عليه قوله بعد ذلك : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ومعنى الآية أنهم ، وإن فرحوا وضحكوا في كل عمرهم ، فهذا قليل لأن الدنيا بأسرها قليلة ، وأما حزنهم وبكاؤهم في الآخرة فكثير ، لأنه عقاب دائم لا ينقطع ، والمنقطع بالنسبة إلى الدائم قليل ، فلهذا المعنى قال : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ قال الزجاج : قوله : ﴿ جَزَاء ﴾ مفعول له ، والمعنى وليبكوا لهذا الغرض .

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي في الدنيا من النفاق واستدلال المعتزلة بهذه الآية على كون العبد موجداً لأفعاله ، وعلى أنه تعالى لو أوصل الضرر إليهم ابتداء لا بواسطة كسبهم لكان ظالماً ، مشهور ، وقد تقدم الرد عليهم قبل ذلك مراراً تغني عن الإعادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 119 ﴾

(184/344)

وقال السمرقندى :

ثم قال عز وجل : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾ اللفظ لفظ الأمر والمراد به التوبيخ .

قال الحسن : يعني : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾ في الدنيا ، ﴿ وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ في الآخرة في النار .

﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ، يعني : عقوبة لهم بما كانوا يكفرون .

وعن أبي رزين أنه قال في قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ قال : يقول الله تعالى : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا : فإذا صاروا إلى النار بكوا بكاءً لا ينقطع فذلك الكثير .

وروى الأعمش ، عن عمارة بن عمير ، عن أبي عامر ، عن عمرو بن شرحبيل قال : مرّ النبي صلى الله عليه وسلم على ملأ من قريش ، وفيهم أبو جهل بن هشام ، وعتبة بن ربيعة فقال أبو جهل : هذا نبيكم يا بني عبد مناف .

فقال عتبة : وما تنكر أن يكون منا نبي أو ملك ؟ فسمعه النبي صلى الله عليه وسلم ، فأقبل عليهم وقال : " أَمَّا أَنْتَ يا عُتْبَةُ ، فَلَمْ تَغْضَبْ للهِ وَلا لِرَسُولِهِ ، وَإِنَّمَا غَضِبْتَ لِلأَصْلِ . وَأَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا جَهْلٍ ، فَوَاللهِ لا يَأْتِي عَلَيْكَ إِلاَّ غَيْرُ كَثِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى تَبْكِيَ كَثِيراً وَتَضْحَكَ قَلِيلاً .

وَأَمَّا أَنْتُمْ يَا مَلأَ قُرَيْشٍ ، فَوَاللهِ لا يَأْتِي عَلَيْكُمْ إِلاَّ غَيْرُ كَثِيرٍ مِنَ الدَّهْرِ ، حَتَّى تَدْخُلُوا فِي هذا

الأَمْرِ الَّذِي تُنْكِرُونَ طَائِعِينَ أَوْ كَارِهِينَ " .

قال : فسكتوا كأنما ذرّ على رؤوسهم التراب ، فلم يردوا عليه شيئاً .

وروى أنس بن مالك ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "يُرْسِلُ اللهُ تَعَالَى الْبُكَاءَ عَلَى أَهْلِ النَّارِ ، فَيَبْكُونَ حَتَّى تَنْقَطِعَ الدُّمُوعُ ، ثُمَّ يَبْكُونَ الدَّمَ حَتَّى يُرَى فِي وُجُوهِهِمْ كَهَيْئَةِ الأَخْدُودِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(185/344)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾

هذا تهديد وإن خرج مخرج الأمر ، وفي قلة ضحكهم وجهان :

أحدهما : أن الضحك في الدنيا لكثرة حزنها وهمومها قليل ، وضحكهم فيها أقل لما يتوجه إليهم من الوعيد .

الثاني : أن الضحك في الدنيا وإن دام إلى الموت قليل ، لأن الفاني قليل .

﴿ وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : في الآخرة لأنه يوم مقداره خمسون ألف سنة ، وهم فيه يبكون ، فصار بكاؤهم

كثيراً ، وهذا معنى قول الربيع بن خيثم .

الثاني : في النار على التأبيد لأنهم إذا مسهم العذاب بكوا من ألمه ، وهذا قول السدي .

ويحتمل أن يريد بالضحك السرور ، وبالبكاء الغم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(186/344)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾

إشارة إلى مدة العمر في الدنيا ، وقوله ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ إشارة إلى تأبيد الخلود في النار ، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم ، ويحتمل أن يكون صفة حالهم أي هم لما هم عليه من الخطر مع الله ، وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً ، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا على نحو قوله صلى الله عليه وسلم ، لأمته

" لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً " .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما قال هذا الكلام أوحى الله إليه يا محمد لا

تقنط عبادي ، و﴿ جزاء ﴾ متعلق بالمعنى الذي تقديره ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ إذ هم معذبون ﴿ جزاء ﴾ ، وقوله : ﴿ يكسبون ﴾ نص في أن التكسب هو الذي يتعلق به العقاب والثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾

لفظه لفظ الأمر ، ومعناه التهديد .

وفي قلَّة ضحكهم وجهان .

أحدهما : أن الضحك في الدنيا ، لكثرة حزنها وهمومها ، قليل ، وضحكهم فيها أقل ، لِما يتوجه إليهم من الوعيد .

والثاني : أنهم إنما يضحكون في الدنيا ، وبقاؤها قليل .

﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ في الآخرة .

قال أبو موسى الأشعري : إن أهل النار ليبكون الدموع في النار ، حتى لو أُجريت السفن في دموعهم لجرت ، ثم إنهم ليبكون الدم بعد الدموع ، فلمثل ما هم فيه فليُبكي .

قوله تعالى : ﴿ جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ أي : من النفاق والمعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قوله تعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾ أمرٌ ، معناه معنى التهديد وليس أمراً بالضحك .

والأصل أن تكون اللام مكسورة فحذفت الكسرة لثقلها .

قال الحسن : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾ في الدُّنْيَا "وَلْيَبْكُوا كَثِيراً" في جهنم .

وقيل : هو أمر بمعنى الخبر .

أي إنهم سيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً .

﴿ جَزَآءً ﴾ مفعول من أجله ؛ أي للجزاء .

الثانية من الناس من كان لا يضحك اهتماماً بنفسه وفساد حاله في اعتقاده من شدّة الخوف ، وإن كان عبداً صالحاً .

قال صلى الله عليه وسلم : " والله لو تعلمون ما أعلم لضحِكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى لوِددت أني كنت شجرة تُعْضَد " خرجه الترمذيّ .

وكان الحسن البصريّ رضي الله عنه ممن قد غلب عليه الحزن فكان لا يضحك .

وكان ابن سِيرِين يضحك ويحتجّ على الحسن ويقول : الله أضحك وأبكى .

وكان الصحابة يضحكون ؛ إلا أن الإكثار منه وملازمته حتى يغلب على صاحبه مذموم منهيّ عنه ، وهو من فعل السفهاء والبطالة .

وفي الخبر : " أن كثرته تميت القلب " وأما البكاء من خوف الله وعذابه وشدّة عقابه فمحمود ؛ قال عليه السلام : " ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سُفُناً أجريت فيها لجرت " خرّجه ابن المبارك من حديث أنس ، وابن ماجه أيضاً . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(188/344)

وقال الخازن :

﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾

يعني فليضحك هؤلاء الذين تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرحين قليلاً في الدنيا الفانية بمقعدهم خلافه ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ يعني مكان ضحكهم في الدنيا وهذا

وإن ورد بصيغة الأمر إلا أن معناه الإخبار والمعنى : إنهم وإن فرحوا وضحكوا طول أعمارهم في الدنيا فهو قليل بالنسبة إلى بكائهم في الآخرة لأن الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يعني أن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيثة في الدنيا (خ) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً "

وروى البغوي بسنده عن أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا أن تبكوا فتباكوا فإن أهل النار يبكون في النار حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتقرح العيون فلو أن سفناً أجريت فيها لجرت " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(189/344)

وقال أبو حيان :

والأمر بالضحك والبكاء في معنى الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلاً ويبكون كثيراً ، إلا

أنه أخرج على صيغة الأمر للدلالة على أنه حتم لا يكون غيره .

روي أنّ أهل النفاق يكونون في النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ، ولا يكتحلون بنوم .

والظاهر أنّ قوله : فليضحكوا قليلاً إشارة إلى مدّة العمر في الدنيا ، وليبكوا كثيراً إشارة إلى تأبيد الخلود ، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم .

قال ابن عطية : ويحتمل أن تكون صفة حالهم أي : هم لما هم عليه من الحظر مع الله وسوء الحال ، بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم كثيراً من أجل ذلك ، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا نحو قوله عليه السلام لأمته : " لو يعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً " وانتصب قليلاً وكثيراً على المصدر ، لأنهما نعت للمصدر أي : ضحكاً قليلاً وبكاء كثيراً .

وهذا من المواضع التي يحذف فيها المنعوت ، ويقوم نعته مقامه ، وذلك لدلالة الفعل عليه .

وقال أبو البقاء : ويجوز أن يكونا نعتاً لظرف محذوف أي : زماناً قليلاً ، وزماناً كثيراً انتهى .

والأول أجود ، لأن دلالة الفعل على المصدر بحروفه ودلالته على الزمان بهيئته ، فدلالته على المصدر أقوى .

وانتصب جزاء على أنه مفعول لأجله ، وهو متعلق بقوله : وليبكوا كثيراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾

إخبارٌ عن عاجل أمرِهم وآجِله من الضحِك القليلِ والبكاءِ الطويلِ المؤدّي إليه أعمالُهم السيئةُ التي من جملتها ما ذكر من الفرح ، والفاءُ لسببية ما سبق للإخبار بما ذُكر من الضحِك والبكاءِ لا لنفسهما ، إذ لا يُتصوَّر السببيةُ في الأول أصلاً ، وقليلاً وكثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية أي ضَحِكاً قليلاً وبكاءً كثيراً أو زماناً قليلاً وزماناً كثيراً ، وإخراجُه في صورة الأمرِ للدِلالة على تحتم وقوعِ المُخبَرِ به ، فإن أمرَ الآمرِ المطاعِ مما لا يكاد يتخلّف عنه المأمورُ به خلا أن المقصودَ إفادتُه في الأول هو وصفُ القِلة فقط وفي الثاني وصفُ الكثرةِ مع الموصوف .

يروى أن أهلَ النفاق يبكون في النار عمُرَ الدنيا لا يرقأ لهم دمعٌ ولا يكتحلون بنوم . ويجوز أن يكون الضحِكُ كنايةً عن الفرح والبكاءُ عن الغم وأن تكون القِلةُ عبارةً عن العدم والكثرةُ عن الدوام ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ من فنون المعاصي ، والجمعُ بين صيغتي الماضي والمستقبلِ للدلالة على الاستمرار التجدّدي ما داموا في الدنيا ، وجزاءً مفعولٌ له للفعل الثاني أي ليبكوا جزاءً أو مصدرٌ حُذف ناصبُه أي يُجزَون بما ذكر من البكاء الكثيرِ جزاءً بما كسبوا من المعاصي المذكورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾

إخبار عن عاجل أمرهم وآجله من الضحك القليل في الدنيا والبكاء الكثير في الأخرى ، وإخراجه في صورة الأمر للدلالة على تحتم وقوع المخبر به وذلك لأن صيغة الأمر للوجوب في الأصل والأكثر فاستعمل في لازم معناه أو لأنه لا يحتمل الصدق والكذب بخلاف الخبر كذا قرره الشهاب ثم قال : فإن قلت : الوجوب لا يقتضي الوجود وقد قالوا : إنه يعبر عن الأمر بالخبر للمبالغة لاقتضائه تحقق المأمور به فالخبر آكد وقد مر مثله فما باله عكس . قلت : لا منافاة بينهما كما قيل لأن لكل مقام مقالاً والنكت لا تتزاحم فإذا عبر عن الأمر بالخبر لإفادة أن المأمور لشدة امتثاله كأنه وقع منه ذلك وتحقق قبل الأمر كان أبلغ ، وإذا عبر عن الخبر بالأمر لإفادة لزومه ووجوبه كأنه مأمور به أفاد ذلك مبالغة من جهة أخرى ، وقيل : الأمر هنا تكويني كما في قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : 82] ولا يخفى ما فيه .

والفاء لسببية ما سبق للأخبار بما ذكر من الضحك والبكاء لا لنفسهما إذ لا يتصور في

الأول أصلاً ، وجعل ذلك سبباً لاجتماع الأمرين بعيد ، ونصب ﴿ قَلِيلاً وأكدى كَثِيراً ﴾ على المصدرية أو الظرفية أي ضحكاً أو زماناً قليلاً وبكاء أو زماناً كثيراً ، والمقصود بإفادته في الأول على ما قيل هو وصف القلة فقط وفي الثاني هو وصف الكثرة مع الموضوف ، فيروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم .

وجوز أن يكون الضحك كناية عن الفرح والبكاء كناية عن الغم والأول في الدنيا والثاني في الأخرى أيضاً ، والقلة على ما يتبادر منها ، ولا حاجة إلى حملها على العدم كما حملت الكثرة على الدوام .

(192/344)

نعم إذا اعتبر كل من الأمرين في الآخرة احتجنا إلى ذلك إذ لا سرور فيها لهم أصلا ، ويفهم من كلام ابن عطية أن البكار والضحك في الدنيا كما في حديث الشيخين ، وغيرهما "لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً" أي أنهم بلغوا في سوء الحال والخطر مع الله تعالى إلى حيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً وبكاؤهم من أجل ذلك كثيراً .

﴿ جَزَاء بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي من فنون المعاصي ، والجمع بين صيغتي الماضي

والمستقبل للدلالة على الاستمرار التجددي ، و﴿ جَزَاء ﴾ مفعول له للفعل الثاني ولك أن تجعله مفعولاً له للفعلين أو مصدر من المبني للمفعول حذف ناصبه أي يجزون مما ذكر من البكاء الكثير أو منه ومن الضحك القليل جزاء بما استمروا عليه من المعاصي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(193/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) ﴾

تفريع كلام على الكلام السابق مِن ذِكر فَرحهم ، ومِن إفادة قوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ [التوبة : 81] من التعريض بأنّهم أهلها وصائرون إليها .

والضحك هنا كناية عن الفرح أو أريد ضحكهم فرحاً لاعتقادهم ترويج حيلتهم على النبي صلى الله عليه وسلم إذْ أذن لهم بالتّخلّف .

والبكاء : كناية عن حزنهم في الآخرة فالأمر بالضحك وبالبكاء مستعمل في الإخبار بحصولهما قطعاً إذ جعلا من أمر الله أو هو أمر تكوين مثل قوله : ﴿ فقال لهم الله موتوا ﴾ [البقرة : 243] والمعنى أنّ فرحهم زائل وأنّ بكاءهم دائم .

والضحك : كيفية في الفم تتمدّد منها الشفتان وربّما أسفرتا عن الأسنان وهي كيفية تعرض عند السرور والتعجّب من الحُسن .

والبكاءُ : كيفية في الوجه والعينين تنقبض بها الوجنتان والأسارير والأنف .

ويسيل الدمع من العينين ، وذلك يعرض عند الحزن والعجز عن مقاومة الغلب .

وقوله : ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ حال من ضميرهم ، أي جزاء لهم ، والمجعول جزاء هو البكاء المعاقب للضحك القليل لأنّه سلب نعمة بنقمة عظيمة .

وما كانوا يكسبون هو أعمال نفاقهم ، واختير الموصول في التعبير عنه لأنّه أشمل مع الإيجاز .

وفي ذكر فعل الكَون ، وصيغة المضارع في ﴿ يكسبون ﴾ ما تقدّم في قوله : ﴿ ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [التوبة : 70] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(194/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) ﴾

والضحك هو انفعال غريزي فطري ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزي أيضاً تجاه أحداث تدخل

الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان . كلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أي أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسي وبكاء أمريكي ، أو ضحك روسي وضحك إنجليزي ، أو ضحك شرقي وضحك غربي . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعي موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذي يحيي ، وهو سبحانه وحده الذي يميت . فهو سبحانه وحده الذي يضحك ، وهو سبحانه وحده الذي يبكي . مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى * وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا * وَأَنَّهُ خَلَقَ الزوجين الذكر والأنثى ﴾ [النجم : 43-45]

ولذلك فالضحك والبكاء يأتيان بل مقدمات ، لا أقول لنفسي : سأضحك الآن فأضحك ، ولا أقول : سأبكي الآن فأبكي ؛ لأن هذا انفعال غريزي لا دخل للإرادة ولا للاختيار فيه . ولكننا أحياناً نلجأ إلى التضاحك أو إلى التباكي وهو مجرد ادعاء بلا حقيقة . ويكون ظاهراً فيه الافتعال . فحين يروي لك إنسان نكتة سخيفة ، والمفروض أنه قالها لتضحك ، ولكنها لا تضحك ، وفي نفس الوقت أنت تريد أن تجامله فتفتعل الضحك ، أي تضحك بافتعال . وكذلك البكاء فيه افتعال أيضاً مثل بكاء النادبة التي تجلس وسط أهل الميت

وتبكي . وقد تضع بعض نقط الجلسرين في عينيها لتفتعل الدموع ، وهذا كله افتعال . أما الضحك والبكاء الحقيقي ، فأمران بالفطرة يملكهما الله سبحانه وتعالى وحده .

(195/344)

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ جاء بعد قوله : ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ الله ﴾ أي : أنهم فرحوا عندما بَقَوْا هم في المدينة ، وخرج المؤمنون للجهاد . جلسوا في حدائق المدينة وهم فرحون في راحة وسرور يضحكون ؛ لأنهم يعتقدون أنهم قد فازوا بعدم اشتراكهم في الجهاد . ولكن هذا الضحك هو لفترة قليلة . وسيأتي بعدها بكاء وندم لفترة طويلة وأبدية ، عندما يدخلون جهنم والعياذ بالله .

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ ولم يقل : سيضحكون قليلاً وسيبكون كثيراً ، لماذا ؟

نقول : عندما يُسند الفعل إلى المخلوق الذي يعيش في عالم الأغيار ، والمختار في عدد من أفعاله ، يُحتمل أن يحدث أو يجوز ألا يحدث . ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ ﴾ أي : أمر بالضحك ، ثم يجيء في البكاء ويقول : ﴿ وَلْيَبْكُواْ ﴾ أي :

ابكوا والأمر بالضحك والبكاء هو أمر اختياري من الله سبحانه وتعالى ، تجوز فيه الطاعة وتجوز فيه المعصية ؟

إذا كان كذلك ، فهل سيطيع المنافقون أمراً اختيارياً لله ؟ ونقول : إن ذلك أمر غير اختياري ؛ لأن الحق سبحانه هو وحده الذي يضع في النفس البشرية انفعال الضحك أو انفعال البكاء للأحداث .

وكما بيَّنا فإن الإنسان لا يستطيع الانفعال بالضحك أو البكاء .

والحق حين يقول : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً ﴾ معناها : أن انفعال الضحك قضاء عليهم لا بد أن يحدث . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً ﴾ فلا بد أن يبكوا ؛ لأن انفعال البكاء مكتوب عليهم من الله ، وكما يقولون : إن الذي يضحك أخيراً يضحك كثيراً ، وكذلك الذي يبكي أخيراً يبكي كثيراً .

(196/344)

إذن : فالأمور كلها مرهونة بالخاتمة . فقد يأتي للإنسان حادث يسرّه ، ثم تأتيه ساعة بؤس تمحو هذا السرور كله ، والعكس صحيح . وإذا كان هؤلاء المنافقون قد ضحكوا قليلاً في الدنيا . فعمر كل منهم في الدنيا قليل ؛ لأنه حتى وإن عاش في الدنيا ضاحكاً طوال عمره

فكم سيضحك ؟ أربعين سنة ؟ خمسين سنة ؟

إن كلاّ منه له في الدنيا مدة محدودة ، فأنت إذا نسبت الحدث إلى الدنيا على إطلاقها فهو قليل . وإذا نسبته إلى عمرك في الدنيا فهو أقل القليل ، ثم تأتي الآخرة بالخلود الطويل الذي لا ينتهي ، ويكون بكاء المنافق فيه طويلاً طويلاً .

ولذلك فلا بد لكل إنسان ان يضع مع المعصية عقوبتها ، ومع الطاعة ثوابها ؛ لأن الإنسان قد يرتكب المعصية لإرضاء شهوات نفسه ، وساعة ارتكاب المعصية فهو لا يستحضر العقوبة عليها ، ولو أنه استحضر العقوبة لامتنع عن المعصية . فالسارق لو استحضر ساعة قيامه بالسرقة ، أنه قد يضبط ، وقد يحاكم وتقطع يده ، لو تأكد من هذا فلن يسرق أبداً . ولكنه يقوم بالسرقة لأنه يعتقد أنه سيفلت من العقاب . وما من لص خطط لسرقة وفي باله أنه سيضبط ، بل يكون متأكداً أنه سيسرق ويفلت .

ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن "

لأنه ساعة يزني لو تخيل أو تأكد أنه سيُلْقى في النار جزاء ما فعل ، فلن يقدم على الزنا أبداً .

وكذلك شارب الخمر لا يمكن أن يضع الكأس في فمه . إذا تخيل النار وهو يُعذَّب فيها .

ولكن الغفلة عن الإيمان تحدث لحظة ارتكاب المعصية ؛ لأن الإيمان يقتضي أن تستحضر

العقوبة ساعة تُقدِم على المعصية ، وأن تعلم يقيناً أن كل ما تفعله ستُحاسب عليه في الآخرة ، وسيكون هناك جزاء .

(197/344)

فإذا ضحكت من مطلوبات الإيمان فلابد أن تبكي في الآخرة . فإن فرحت – مثلاً – بترك الصلاة أو الزكاة ، واعتقدت أنك قد غنمت في الدنيا ، فلا بد أن تندم ويصيبك الغمُّ في الآخرة . وإذا تنعمت بمال حرام فلا بد أن تُعذب به في الآخرة . والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّ الذين أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ الذين آمَنُواْ يَضْحَكُونَ * وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ * وَإِذَا انقلبوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقلبوا فَكِهِينَ ﴾

[المطففين : 29-31]

هكذا يعطينا الله عدة صور من السخرية التي يتعرض لها المؤمنون في الدنيا ، وأولى هذه الصور هي ضحك المنافقين والكفار من المؤمنين ، كأن يقول أحدهم لإنسان مؤمن يقوم إلى الصلاة : خذنا على جناحك في الآخرة . ثم بعد ذلك يأتي الغمز واللمز ، ثم إذا ذهب المنافق إلى أهله أخذ يسخر من الطائعين ويقول : لقد فعلت كذا وكذا لإنسان متدين . وسخرت منه ولمن لم يستطع أن يرد . ويشعر بالسرور وهو يحكي القصة فرحاً بما عمل .

وينسى أنه قد ارتكب ثلاثة جرائم : جريمة العمل ، وجريمة الفرح بالعمل ، وجريمة الإخبار بالعمل . فلو أنه سخر من المؤمن ، ثم ندم بعد ذلك ، ربما كانت عقوبته هيِّنة . ولكن ما دام قد فرح بذلك تكون له عقوبة أكبر ، فإذا انقلب إلى أهله يروي لهم ما حدث ، وهو فخور مسرور تكون له عقوبة ثالثة .

وليتهم توقفوا عند ذلك بل اتهموا المؤمنين بالضلال ؛ مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلاءِ لَضَالُّونَ * وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴾ [المطففين : 32-33]

أي : أنهم زادوا على كل هذا باتهام المؤمنين بالضلال . هذا ما صنعوه في الدنيا . وهي فانية وعمرها قليل . ثم يأتي سبحانه وتعالى بالمقابل في الآخرة ؛ فيقول : ﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : 34-36]

(198/344)

فكما ضحك الكفار من المؤمنين في الدنيا ؛ سيضحك المؤمنون من الكفار في الآخرة ، وسيجلس المؤمنون على الأرائك في الجنة وهم ينظرون إلى الكفار وهو يُعذَّبون في النار ، أي : أن الله جزاهم بمثل عملهم مع الفارق بين قدراتهم المحدودة وقدراته – سبحانه – التي

لا حدود لها .

ولم يقل الحق سبحانه وتعالى : " سيضحكون " ككلام خبري ، يجوز أن يحدث أو لا يحدث ، بل جاء به مُؤكداً . وقوله هنا في المنافقين ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ ﴾ . يعني : أن الضحك لابد أن يحدث ؛ لأن هذا كلام من الله سبحانه وتعالى .

فقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ يعطينا العلة أو السبب في أن ضحكهم سيكون قليلاً ، وبكاءهم سيكون كثيراً ؛ لأن هذا جزاء ما فعلوه في الدنيا . لقد فرحوا بالفرار من الجهاد . وسُرّوت بالراحة في المدينة ، فلابد أن يُلاَقوا في الآخرة جزاءهم عن هذا العمل ، كما سَيُثاب المؤمنون على ذهابهم للجهاد في الحرِّ .

إذن : فالحق سبحانه لم يظلمهم ، بل أعطاهم جزاء ما عملوه . كما قال : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وكلمة ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ هنا لها ملحظ لا بد أن نُبيِّنه ، فقد كان من الممكن أن يُقال " جزاء ما كانوا يعملون " أو " جزاء ما كانوا يفعلون " ، فلماذا جاء الحق ب ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ ، وما الفرق بينها وبين " ما يفعلون " و " ما يعملون " ؟

نعلم أن لكل جارحة من جوارح الإنسان مجالَ عمل ؛ فالأذن تسمع ، والعين ترى ، واليد تمسك ، والقدم تمشي ، والأنف يشُمُّ ، والأنامل تملس .

إذن : فكل عضو له مهمة . فإن كانت المهمة هي النطق باللسان نسميها القول . وإن كانت

مهمة من مهام باقي الجوارح عدد اللسان نسميها الفعل . فاللسان وحده أخذ القول ، وكل الجوارح أخذت الفعل . والقول والفعل معاً نسميهما عملاً .

(199/344)

فإذا قال الحق سبحانه وتعالى : " يفعلون " يكون ذلك مقابل يقولون ؛ لأن الإنسان قد يقول بلسانه ولا يفعل بجوارحه . وتوضح ذلك الآية الكريمة : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2-3]

ولكن إذا اتحد القول والفعل يكون هناك عمل . وكل شيء لا يتسق منطقياً مع قيم المنهج يكون فيه افتعال ، فالكسب عمل ، والاكتساب افتعال الكسب ؛ لأن الكسب عمل طبيعي ، والاكتساب هو افتعال الكسب . وسبحانه يقول : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . ﴾ [البقرة : 286]

لأن الاكتساب بالحرام فيه افتعال يتعب النفس ، ولا يجعلها منسجمة مع جوارحها ، فالرجل مع زوجته في البيت مستقر الجوارح لا يخشى شيئاً . لكنه مع زوجة غيره يهيج جوارحه ؛ فيقفل النوافذ ويُطفئ الأنوار . وإنْ دقَّ جرس الباب يصاب بالذعر والهلع ؛ لأن ملكات النفس ليست منسجمة مع العمل .

أما إذا اعتادت النفس الإثم مثل من اعتاد الإجرام ، فلا يهيجها الحرام . وفي هذه الحالة تنقلب عملية الاكتساب إلى كسب ، وتعتاد النفس على المعصية وعلى الإثم ، ويصبح جزاؤها عند الله أليماً وعذابها عظيماً .

ويقول الحق سبحانه في هذه الآية : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ وكان مقتضى الكلام أن يقال : " جزاء بما كانوا يكسبون " لأن هذه عملية فيها إثم وفيها معصية ، فلا بد أن يكون فيها افتعال ، ولكن الحق سبحانه وتعالى يلفتنا إلى أن هؤلاء المنافقين قد اعتادوا المعصية ، وعاشوا في الكفر ، فأصبحت العملية سهلة بالنسبة لهم ، ولا تحتاج منهم أي افتعال .

واقرأ قول الحق : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله . . ﴾ [المائدة : 38]

(200/344)

والسرقة ليست أمراً طبيعياً ، لذلك يقوم بها السارق وخفية ويُبيِّت لها ويفتعل ؛ ولذلك كان من المنطقي أن يقال " اكتسبوا " لكن شاء الحق أن نعرف أن السرقة قد أصبحت في دم هؤلاء ، ومن كثرة ما ارتكبوها فهي بالنسبة لهم عملية آلية سهلة . وقد وضع التشريع لها نطاقاً وهو ربع دينار مثلاً . والذي يسرق دون هذا النطاق لا يُطبق عليه حَدُّ قطع اليد

. لماذا ؟ لأن ربع الدينار في ذلك الوقت كان يكفي لقوت أسرة متوسطة العدد لمدة يوم واحد . فإذا سرق أي إنسان ما يكفي قوت أسرة لمدة يوم واحد ، يقال : ربما فعلها لأن أسرته لا تجد ما تأكله ، فإذا أخذ أكثر من الضرورة ، يكون قد أخذ أكثر مما يحتاج إليه ، وتكون السرقة قد حدثت ويقام عليه الحد .

ونحن نعلم أن العقل البشري وظيفته الاختيار بين البدائل ، ومفروض أن يُقَدِّر الإنسان العقوبة ويستحضرها ساعة وقوع المعصية ، وأن يستحضر الثواب ساعة القيام بالطاعات ترغيباً للإنسان في الطاعة . ونحن نأتي للطالب المجتهد ونطلب منه أن يُخفِّف من المذاكرة ، لكنه لا يترك الكتاب لأنه استحضر النجاح ؛ وما سيحدث بعد النجاح من دخوله الكلية التي يريدها ، أو بعد تخرجه من الجامعة إن كان قد وصل إلى مرحلة التخرج ، وكذلك استحضر نظرة أهله وأساتذته وزملائه إليه ، وهو يستحضر كل ذلك ؛ مما يدفعه لقضاء ساعات طويلة في المذاكرة دون أن يشعر بالتعب .

إذن : فالذي يُحبِّبك في الطاعة هو استحضار لذة الثواب القادم . والذي يُكرِّهك في المعصية هو استحضار ألم العقاب الذي لابد أن يحدث .

(201/344)

ولكن هؤلاء المنافقين والكفار قد اعتادوا المعصية والكفر ؛ حتى أصبح سلوكهم المخالف للإيمان إنما يحدث منهم دون أن يستحضروا عقوبة المعصية ، فهم يرتكبون المعاصي بغير فعل . ولو قال : " يفعلون " لكان فعلاً لا يشترك فيه اللسان بالقول . ولو قال " يعملون " لكان فعلاً وقولاً فقط . ولو قال " يكتسبون " لفهمنا أن المعصية تثير انفعالاً وتهيجاً في داخلهم ؛ لأنهم لم يعتادوها . ولكن جاء قوله تعالى : ﴿ يَكْسِبُونَ ﴾ ليعطينا المعنى الصحيح في أنهم قد اعتادوا المعصية ؛ حتى أصبحوا يفعلونها بلا افتعال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(202/344)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً ﴾ قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا من دينهم هزواً ولعباً ، يقول الله تعالى ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ في الدنيا ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ في

الآخرة .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ قال : الدنيا قليل فليضحكوا فيها ما شاؤوا ، فإذا انقطعت الدنيا وصاروا إلى الله تعالى استأنفوا بكاء لا ينقطع أبداً .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي رزين . مثله .

وأخرج البخاري والترمذي وابن مردويه عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون ، أطت السماء وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته لله ساجداً ، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجارون إلى الله ، لوددت أني كنت شجرة تعضد " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن ماجة وأبو يعلى عن أنس " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل فتقرح العيون ، فلو أن سفناً أرخيت فيها لجرت " .

وأخرج ابن أبي الدنيا في صفة النار عن زيد بن رفيع رفعه قال : إن أهل النار إذا دخلوا النار بكوا الدموع زماناً ، ثم بكوا القيح زماناً فتقول لهم الخزنة : يا معشر الأشقياء تركتم البكاء في الدار المرحوم فيها أهلها في الدنيا ، هل تجدون اليوم من تستغيثون به ؟ فيرفعون أصواتهم : يا أهل الجنة يا معشر الآباء والأمهات والأولاد خرجنا من القبور عطاشاً ، وكنا طول الموقف ، عطاشاً ونحن عطاشاً ، فافيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . فيدعون أربعين سنة لا يجيبهم ، ثم يجيبهم إنكم ماكثون . فييأسون من كل خير .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد في الزهد عن أبي موسى الأشعري . أنه خطب الناس بالبصرة فقال : يا أيها الناس ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا ، فإن أهل النار يبكون الدموع حتى تنقطع ، ثم يبكون الدماء حتى لو أجري فيها السفن لجرت .

وأخرج أحمد في الزهد عن عبد الله بن عمر قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، ولو تعلمون حق العلم لصرخ أحدكم حتى ينقطع صوته ، ولسجد حتى ينقطع صلبه .

وأخرج أحمد في الزهد عن أبي الدرداء قال : لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم

كثيراً ، ولخرجتم تبكون لا تدرون تنجون أو لا تنجون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(204/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جل ذكره ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ .

بدل الله مَسَرَّتهم بِحَسرة ، وفَرْحَتَهم بتَرْحَةٍ ، وراحتهم بعَبْرَةٍ ، حتى يكثر بكاؤهم في العقبى كما كثر ضحكهم في الدنيا ، وذلك جزاءُ مَنْ كَفَرَ بربِّه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 50 ﴾

(205/344)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (83) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان المسرور بشيء الكاره لضده الناهي عنه لا يفعل الضد إلا تكلفاً ولا قلب له ، إليه وكان هذا الدين مبنياً على العزة والغنى ، أتبع ذلك بقوله مسبباً عن فرحهم بالتخلف : ﴿ فإن رجعك الله ﴾ أي الملك الذي له العظمة كلها فله الغنى المطلق عن سفرك هذا ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ أي وهم الذين يمد الله في أعمارهم إلى أن ترجع إليهم ، وهذا يدل على أنه أهلك سبحانه في غيبته بعضهم ، فأردت الخروج إلى سفر آخر ﴿ فاستأذنوك ﴾ أي طلبوا أن تأذن لهم ﴿ للخروج ﴾ أي معك في سفرك ذلك ﴿ فقل ﴾ عقوبة لهم وغنى عنهم وعزة عليهم ناهياً لهم بصيغة الخبر ليكون صدقك فيه علماً من أعلام النبوة وبرهاناً من براهين الرسالة ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ﴾ أي في سفر من الأسفار لأن الله قد أغناني عنكم وأحوجكم إليّ ﴿ ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ لأنكم جعلتم أنفسكم في عداد ربات الحجال ولا تصلحون لقتال ؛ والتقييد بالمعية كما يؤذن باستثقالهم يخرج ما كان بعده ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أصحابه رضي الله عهنم من سفرهم وقتالهم .

ولما أخزاهم سبحانه بما أخزوا به أنفسهم ، علله بقوله : ﴿ إنكم رضيتم بالقعود ﴾ أي عن التشرف بمصاحبتي ، ولما كانت الأوليات أدل على تمكن الغرائز من الإيمان والكفران وغيرها قال : ﴿ أول مرة ﴾ أي في غزوة تبوك ، ومن فاتنا يكفيه أنا نفوته ؛ قال أبو حيان :

فعلل بالمسبب وهو الرضى الناشىء عن السبب وهو النفاق – انتهى .

ولما أنهى الحكم والعلة ، سبب عنه قوله : ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي الذين رضوا لأنفسهم بهذا الوصف الذي من جملة معانيه : الفاسد فهم لا يصلحون لجهاد ولا يلفون أبداً في مواطن الامجاد ، وقال بعضهم : المراد بهم الذين تخلفوا بغير عذر في غزوة تبوك ، أو النساء والصبيان أو أدنياء الناس أو المخالفون أو المرضى والزمنى أو أهل الفساد ، والأولى الحمل على جميع ، أي لأن المراد تبكيتهم وتوبيخهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 369 . 370 ﴾

(206/344)

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾

واعلم أنه تعالى لما بين مخازي المنافقين وسوء طريقتهم بين بعد ما عرف به الرسول أن الصلاح في أن لا يستصحبهم في غزواته ، لأن خروجهم معه يوجب أنواعاً من الفساد . فقال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين ﴿ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ

أَبَدًا ﴾ قوله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾ يريد إن ردك الله إلى المدينة ، ومعنى الرجع مصير الشيء إلى المكان الذي كان فيه ، يقال رجعته رجعاً كقولك رددته رداً .

وقوله : ﴿ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ إنما خصص لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان بعضهم مخلصين معذورين .

(207/344)

وقوله : ﴿ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ أي للغزو معك ﴿ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ إلى غزوة ، وهذا يجري مجرى الذم واللعن لهم ، ومجري إظهار نفاقهم وفضائحهم ، وذلك لأن ترغيب المسلمين في الجهاد أمر معلوم بالضرورة من دين محمد عليه السلام ، ثم إن هؤلاء إذا منعوا من الخروج إلى الغزو بعد إقدامهم على الاستئذان ، كان ذلك تصريحاً بكونهم خارجين عن الإسلام موصوفين بالمكر والخداع ، لأنه عليه السلام إنما منعهم من الخروج حذراً من مكرهم وكيدهم وخداعهم ، فصار هذا المعنى من هذا الوجه جارياً مجرى اللعن والطرد ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ﴾ [الفتح : 15] إلى قوله : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] ثم إنه تعالى علل ذلك المنع بقوله : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ والمراد منه القعود عن غزوة تبوك ، يعني أن

الحاجة في المرة الأولى إلى موافقتكم كانت أشد ، وبعد ذلك زالت تلك الحاجة ، فلما تخلفتم عند مسيس الحاجة إلى حضوركم ، فعند ذلك لا نقبلكم ، ولا نلتفت إليكم ، وفي اللفظ بحث ذكره صاحب "الكشاف" ، وهو أن قوله : ﴿ مَرَّةٍ ﴾ في ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ وضعت موضع المرات ، ثم أضيف لفظ الأول إليها ، وهو دال على واحدة من المرات ، فكان الأولى أن يقال أولى مرة .

وأجاب : عنه بأن أكثر اللغتين أن يقال : هند أكبر النساء ، ولا يقال هند كبرى النساء .

ثم قال تعالى : ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ ذكروا في تفسير الخالف أقوالاً : الأول : قال الأخفش وأبو عبيدة : الخالفون جمع .

واحدهم خالف ، وهو من يخلف الرجل في قومه ، ومعناه مع الخالفين من الرجال الذين يخلفون في البيت ، فلا يبرحون ، والثاني : أن الخالفين مفسر بالمخالفين .

قال الفراء يقال عبد خالف وصاحب خالف إذا كان مخالفاً .

وقال الأخفش : فلان خالفة أهل بيته إذا كان مخالفاً لهم .

(208/344)

وقال الليث هذا الرجل خالفة ، أي مخالف كثير الخلاف ، وقوم خالفون ، فإذا جمعت قلت الخالفون .

والقول الثالث : الخالف هو الفاسد .

قال الأصمعي : يقال : خلف عن كل خير يخلف خلوفاً إذا فسد ، وخلف اللبن وخلف النبيذ إذا فسد .

وإذا عرفت هذه الوجوه الثلاثة : فلا شك أن اللفظ يصلح حمله على كل واحد منها ، لأن أولئك المنافقين كانوا موصوفين بجميع هذه الصفات .

واعلم أن هذه الآية تدل على أن الرجل إذا ظهر له من بعض متعلقيه مكر وخداع وكيد ورآه مشدداً فيه مبالغاً في تقرير موجباته ، فإنه يجب عليه أن يقطع العلقة بينه وبينه ، وأن يحترز عن مصاحبته . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 120 ﴾

(209/344)

وقال السمرقندى :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾

يعني : إن رجعك الله من تبوك إلى طائفة من المنافقين الذين تخلفوا ﴿ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ

﴿ معك إلى غزوة أُخرى .

﴿ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ إلى الغزو ، ﴿ وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوّا ﴾ .

ويقال : معناه لن تخرجوا إلاّ مطوعين من غير أن تكون لكم شركة في الغنيمة .

﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، بالتخلف عن غزوة تبوك ، ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ ، يعني : مع المتخلفين الذين تخلفوا بغير عذر ؛ ويقال : الخالف الذي يخلف الرجل في أهله وماله ؛ ويقال : الخالف الذي خالف قومه ؛ ويقال : الخالف الفاسد ؛ ويقال : الخالف المرأة .

والخوالف النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(210/344)

وقال الثعلبى :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ الله ﴾

رجعك الله من غزوة تبوك ﴿ إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني من المخلّفين فإنما قال طائفة منهم لأنه ليس كل من تخلّف عن تبوك كان منافقاً ﴿ فاستأذنوك ﴾ في أن يكونوا في غزاة أخرى ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ عقوبة لهم على تخلّفهم

﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ بمعنى تخلّفوا عن غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ قال ابن عباس : الرجال الذين تخلفوا بغير عذر .

الضحاك : النساء والصبيان والمرضى والزمنى ، وقيل : مع الخالفين . قال الفراء : يقال : عبد خالف وتخالف إذ كان مخالفاً ، وقيل : (ضعفاء) الناس ويقال : خلاف أهله إذ كان ذويهم ، وقيل مع أهل الفساد من قولهم : خلف الرجل على أهله يخلف خلوفاً إذ فسد ، ونبيذ خَالِفٌ أي فاسد (من قولك) : خلف اللبن خلوفاً إذا حمض من طول وضعه في السقاء ، وخلف فَمُ الصائم إذا تغيَّرت ريحه ، ومنه خلف سوء ، وقرأ مالك بن دينار : مع المخالفين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ . . . إِنَّكُم رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾

فيه قولان :

أحدهما : أول مرة دعيتم .

الثاني : يعني قبل استئذانكم .

﴿ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ فيهم قولان :

أحدهما : أنهم النساء والصبيان ، قاله الحسن وقتادة .

الثاني : هم الرجال الذين تخلفوا بأعذار وأمراض ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(211/344)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ الآية

﴿ رجع ﴾ يستوي مجاوزه وغير مجاوزه ، وقوله تعالى : ﴿ إن ﴾ مبينة أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يعلم بمستقبلات أمره من أجل وسواه وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه وأمر الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم ، بأن يقول لهم ﴿ لن تخرجوا معي ﴾ ، هو عقوبة لهم وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم ، وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته ، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب ، وقوله : ﴿ إلى طائفة ﴾ يقتضي عندي أن المراد رؤوسهم والمتبوعون ، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً ، وكرر معنى قتال العدو لأنه عظم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة ، ولولا تخصيص الطائفة لكان الكلام " فإن رجعك الله إليهم " ، ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد ختم عليها بالموافاة

على النفاق ، وعينوا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وإلا فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله ، وقوله : ﴿ وماتوا وهم فاسقون ﴾ ونص في موافاتهم ، ومما يؤيد هذا ما روي أن ما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم ، عينهم لحذيفة بن اليمان وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها .

وروي عن حذيفة أنه قال يوماً : بقي من المنافقين كذا وكذا ، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنشدك الله أنا منهم ؟ فقال لا ، والله ، لا أمنه منها أحداً بعدك ، وقرأ جمهور الناس " معي " بسكون الياء في الموضعين ، وقرأ عاصم فيما قال المفضل " معيَ " بحركة الياء في الموضعين ، وقوله ﴿ أول ﴾ هو الإضافة إلى وقت الاستئذان .

(212/344)

و " الخالفون " جميع من تخلف من نساء وصبيان وأهل عذر غلب المذكر فجمع بالياء والنون وإن كان ثم نساء ، وهو جمع خالف ، وقال قتادة " الخالفون " النساء ، وهذا مردود ، وقال ابن عباس : هم الرجال ، وقال الطبري : يحتمل قوله ﴿ مع الخالفين ﴾ أن يريد مع الفاسدين ، فيكون ذلك مأخوذاً من خلف الشيء إذا فسد ومنه خلوف فم الصائم .

قال القاضي أبو محمد : وهذا تأويل مقحم والأول أفصح وأجرى على اللفظة ، وقرأ مالك

بن دينار وعكرمة " مع الخلفين " وهو مقصور من الخالفين ، كما قال : عرداً وبرداً عارداً وبارداً ، وكما قال الآخر : [الرجز]

مثل النقا لبده برد الظلال . . . يريد الظلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(213/344)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن رجعك الله ﴾

أي : ردك من غزوة تبوك إلى المدينة ، ﴿ إلى طائفة ﴾ من المنافقين الذين تخلَّفوا بغير عذر .

وإنما قال : ﴿ إلى طائفة ﴾ لأنه ليس كل من تخلَّف عن تبوك كان منافقاً .

﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ معك إلى الغزو ، ﴿ فقل لن تخرجوا معيَ أبداً ﴾ إلى غَزاة ، ﴿ إنكم رضيتم بالقعود ﴾ عني ﴿ أول مرة ﴾ حين لم تخرجوا إلى تبوك .

وذكر الماوردي في قوله : ﴿ أول مرة ﴾ قولين .

أحدهما : أول مرة دُعيتم .

والثاني : قبل استئذانكم .

فأما الخالفون ، فقال أبو عبيدة : الخالف : الذي خلف بعد شاخص ، فقعد في رحله ، وهو الذي يتخلَّف عن القوم .

وفي المراد بالخالفين قولان .

أحدهما : أنهم الرجال الذين تخلَّفوا لأعذار ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنهم النساء والصبيان ، قاله الحسن ، وقتادة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(214/344)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾

أي المنافقين .

وإنما قال : "إلى طَائِفَةٍ" لأن جميع من أقام بالمدينة ما كانوا منافقين ، بل كان فيهم معذورون ومن لا عذر له ، ثم عفا عنهم وتاب عليهم ؛ كالثلاثة الذين خُلِّفوا .

وسيأتي .

﴿ فاستأذنوكِ لِلْخرُوجِ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً ﴾ أي عاقبهم بألا تصحبهم أبداً .

وهو كما قال في "سورة الفتح" : ﴿ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا ﴾ [الفتح : 15] .

و﴿ الخالفين ﴾ جمع خالف ؛ كأنهم خلفوا الخارجين .

قال ابن عباس : "الْخَالِفِينَ" من تخلف من المنافقين .

وقال الحسن : مع النساء والضعفاء من الرجال ، فغلّب المذكر .

وقيل : المعنى فاقعدوا مع الفاسدين ؛ من قولهم فلانٌ خالِفةُ أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم ؛ من خُلوف فَم الصائم .

ومن قولك : خلف اللبن ؛ أي فسد بطول المكث في السِّقاء ؛ فعلى هذا يعني فاقعدوا مع الفاسدين .

وهذا يدّل على أن استصحاب المخذِّل في الغزوات لا يجوز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(215/344)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فإن رجعك الله ﴾

يعني فإن ردك الله يا محمد من غزاتك هذه ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ يعني إلى المتخلفين عنك وإنما قال منهم لأنه ليس كل من تخلف بالمدينة عن غزوة تبوك كان منافقاً مثل أصحاب الأعذار ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ يعني فاستأذنك المنافقون الذين تخلفوا عنك وتحقق نفاقهم في الخروج معك إلى غزوة أخرى ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾ يعني فقل يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج وهم مقيمون على نفاقهم لن تخرجوا معي أبداً لا إلى غزوة ولا إلى سفر ﴿ ولن تقاتلوا معي عدواً إنكم ﴾ يعني لأنكم ﴿ رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ يعني أنكم رضيتم بالتخلف عن غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ يعني : مع المتخلفين من النساء والصبيان .

وقيل : مع المرضى والزمنى .

وقال ابن عباس : مع الذين تخلفوا بغير عذر .

وقيل : مع المخالفين يقال صاحب خالف إذا كان مخالفاً كثير الخلاف وفي الآية دليل على أن الرجل إذا ظهر منه مكروه وخداع وبدعة يجب الانقطاع عنه وترك مصاحبته لأن الله سبحانه وتعالى منع المنافقين من الخروج مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى الجهاد وهو مشعر بإظهار نفاقهم وذمهم وطردهم وإبعادهم لما علم من مكرهم وخداعهم إذا خرجوا إلى الغزوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾

الخطاب للرسول والمعنى : فإن رجعك الله من سفرك هذا وهو غزوة تبوك .

قيل : ودخول إنْ هنا وهي للممكن وقوعه غالباً إشارة إلى أنه (صلى الله عليه وسلم) لا يعلم بمستقبلات أمره من أجل وغيره ، إلا أن يعلمه الله ، وقد صرح بذلك في قوله تعالى : ﴿ قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ﴾ قال نحوه ابن عطية وغيره ، إلى طائفة منهم لأنّ منهم من مات ، ومنهم من تاب وندم ، ومنهم من تخلف لعذر صحيح .

فالطائفة هنا الذين خلصوا في النفاق وثبتوا عليه هكذا قيل .

وإذا كان الضمير في منهم عائداً على المخلفين الذين خرجوا وكرهوا أن يجاهدوا ، فالذي يظهر أنّ ذكر الطائفة هو لأجل أنّ منهم من مات .

قال ابن عطية : ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حتم عليها بالموافاة على النفاق ، وعينوا للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وإلا فكيف يترتب على أن يصلي على موتاهم إنْ لم يعينهم .

وقوله : وماتوا وهم فاسقون ، نص في موافاتهم .

ومما يؤيد هذا أنّ النبي (صلى الله عليه وسلم) عينهم لحذيفة بن اليمان ، وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها .

وروي عن حذيفة أنه قال يوماً : بقي من المنافقين كذا وكذا .

وقال له عمرو بن الخطاب : أنشدك الله أنا منهم ؟ فقال : لا والله ، لا أمنت منها أحداً بعدك .

وأمر الله نبيه أن يقول لهم : لن تخرجوا معي هو عقوبة لهم وإظهار لدناءة منزلتهم وسوء حالهم ، وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته ، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب .

(217/344)

قال الزمخشري : فاستأذنوك للخروج يعني إلى غزوة بعد غزوة تبوك ، وكان إسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله تعالى أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق ، بخلاف غيرهم من المخلفين انتهى .

وانتقل بالنفي من الشاق عليهم وهو الخروج إلى الغزاة ، إلى الأشق وهو قتال العدو ، لأنه عظم الجهاد وثمرة الخروج وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة ، ثم علل انتفاء الخروج

والقتال بكونهم رضوا بالقعود أول مرة ، ورضاهم ناشىء عن نفاقهم وكفرهم وخداعهم وعصيانهم أمر الله في قوله : ﴿ وانفروا خفافاً وثقالاً ﴾ وقالوا هم : لا تنفروا في الحر ، فعلل بالمسبب وهو الرضا الناشىء عن السبب وهو النفاق .

وأول مرة هي الخرجة إلى غزوة تبوك ، ومرة مصدر كأنه قيل : أو خرجة دعيتم إليها ، لأنها لم تكن أول خرجة خرجها الرسول للغزاة ، فلا بد من تقييدها ، إذ الأولية تقتضي السبق .

وقيل : التقدير أول خرجة خرجها الرسول لغزوة الروم بنفسه .

وقيل : أول مرة قبل الاستئذان .

وقال أبو البقاء : أول مرة ظرف ، ونعني ظرف زمان ، وهو بعيد .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : مرة نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل ، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات ؟ (قلت) : أكثر اللغتين هند أكبر النساء ، وهي أكبرهن .

ثم إنّ قولك هي كبرى امرأة لا تكاد تعثر عليه ، ولكن هي أكبر امرأة ، وأول مرة ، وآخر مرة انتهى .

فاقعدوا مع الخالفين أي : أقيموا ، وليس أمراً بالقعود الذي هو نظير الجلوس ، وإنما المراد منعهم من الخروج معه .

قال أبو عبيدة : الخالف الذي خلف بعد خارج فقعد في رحله ، وهو الذي يتخلف عن

القوم .

وقيل : الخالفين المخالفين من قولهم : عبد خالف أي : مخالف لمولاه .

وقيل : الإخساء الأدنياء من قولهم : فلان خالفة قومه لاخسهم وأرذلهم .

ودلت هذه الآية على توقي صحبة من يظهر منه مكر وخداع وكيد ، وقطع العلقة بينهما ، والاحتراز منه .

(218/344)

وعن قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً .

قال ابن عطية : والخالفون جميع من تخلف من نساء وصبيان وأهل عذر .

غلب المذكر ، فجمع بالواو والنون ، وإن كان ثمّ نساء وهو جمع خالف .

وقال قتادة : الخالفون النساء ، وهذا مردود .

وقال ابن عباس : هم الرجال .

وقال الطبري : يحتمل قوله في الحالتين أن يريد الفاسدين ، فيكون ذلك مأخوذاً من خلف الشيء إذا فسد ، ومنه خلوف فم الصائم .

وقرأ مالك بن دينار وعكرمة : مع الخلفين ، وهو مقصور من الخالفين كما قال : عدداً وبدداً

يريد عاددا وباددا ، وكما قال الآخر :

مثل النقي لبده ضرب الظلل . . .

يريد الظلال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(219/344)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾

الفاء لتفريع الأمرِ الآتي على ما بيّن من أمرهم والفعلُ من الرجْع المتعدّي دون الرجوع اللازم أي فإن ردّك الله تعالى ﴿ إلى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي إلى المنافقين من المتخلفين في المدينة فإنّ تخلّف بعضهم إنما كان لعذر عائقٍ مع الإسلام أو إلى من بقيَ من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضُهم بالموت أو بالغَيبة عن البلد أو بأن لم يستأذِن البعضُ . عن قتادة أنهم كانوا اثنيْ عشرَ رجلاً قيل فيهم ما قيل ﴿ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ فَقُلْ ﴾ إخراجاً لهم عن ديوان الغُزاةِ وإبعاداً لمحلهم عن محفِل صُحبتِك ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾ من الأعداء ، وهو إخبارٌ في معنى النهي للمبالغة وقد وقع كذلك ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ تعليلٌ لما سلف أي لأنكم ﴿ رَضِيتُمْ بالقعود ﴾ أي

عن الغزوة وفرِحتم بذلك ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هي غزوةُ تبوكَ ﴿ فاقعدوا ﴾ الفاءُ لتفريع الأمرِ بالقعود بطريق العقوبةِ على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أي إذا رضِيتم بالقعود أولَ مرة فاقعُدوا من بعدُ ﴿ مَعَ الخالفين ﴾ أي المتخلّفين الذين ديدنُهم القعودُ والتخلفُ دائماً وقرىء الخَلِفين على القصر ، فكان محوُ أساميهم من دفتر المجاهدين ولزُّهم في قَرن الخالفين عقوبةً لهم أيَّ عقوبةٍ ، وتذكيرُ اسم التفضيل المضاف إلى المؤنث هو الأكثرُ الدائرُ على الألسنة فإنك لا تكاد تستمع قائلاً يقول : هي كبرى امرأةٍ أو أُولى مرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(220/344)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ ﴾

أي من سفرك ، والفاء لتفريع الأمر الآتي على ما بين من أمرهم و﴿ رَجْعُ ﴾ هنا متعد بمعنى رد ومصدره الرجع وقد يكون لازماً ومصدره الرجوع ، وأوثر استعمال المتعدي وإن كان استعمال اللازم كثيراً إشارة إلى أن ذلك السفر لما فيه من الخطر يحتاج الرجوع منه لتأييد الهي ولذا أوثرت كلمة ﴿ إن ﴾ على إذا أي فإن ردك الله سبحانه ﴿ إلى طَائِفَةٍ

مّنْهُمْ ﴾ أي إلى المنافقين من المتخلفين بناء على أن منهم من لم يكن منافقاً أو إلى من بقي من المنافقين المتخلفين بأن ذهب بعضهم بالموت أو بالغيبة عن البلد أو بأن لم يستأذنك البعض ، وقيل : المراد بتلك الطائفة من بقي من المنافقين على نفاقه ولم يتب وليس بذاك .

أخرج ابن المنذر .

وغيره عن قتادة أنه قال في الآية : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلاً من المنافقين وفيهم قيل ما قيل .

﴿ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد غزوتك هذه التي ردك الله منها بتأييده ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم إهانة لهم على أتم وجه ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا ﴾ ما دمت ودمت ﴿ وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوّا ﴾ من الأعداء ، وهو أخبار في معنى النهي للمبالغة .

وذكر القتال كما قال بعض المحققين لأنه المقصود من الخروج فلو اقتصر على احدهما لكفي إسقاطاً لهم عن مقام الصحبة ومقام الجهاد أو عن ديونا الغزاة وديوان المجاهدين وإظهاراً لكراهة صحبتهم وعدم من الجند أو ذكر الثاني للتأكيد لأنه أصرح في المراد والأول لمطابقته للسؤال ، ونظير ذلك :

أقول له ارحل لا تقين عندنا . . .

فإن الثاني أدل على الكراهة ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود ﴾ عن الخروج معي وفرحتم به ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ أي من الخروج فنصب أفعل المضاف على المصدرية ، وقيل : على الظرفية الزمانية واستبعده أبو حيان ، والظاهر أن هذا الاختلاف للاختلاف في ﴿ مَرَّةٍ ﴾ ونقل عن أبي البقاء أنها في الأصل مصدر مريمر ثم استعملت ظرفاً ، واختار القاضي البيضاوي بيض الله غرة أحواله النصب على المصدرية وأشار إلى تأنيث الموصوف حيث قال : وأول مرة هي الخرجة إلى غزوة تبوك وذكر أفعل لأن التذكير هو الأكثر في مثل ذلك . وفي الكشاف أن ﴿ مَرَّةٍ ﴾ نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل ، وذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات لأن أكثر اللغتين هند أكبر النساء وهي أكبرهن ، وهي كبرى مرأة لا تكاد تعثر عليه ولكن هي أكبر امرأة وأول مرة وآخر مرة ، وعلل في الكشف عدم العثور على نحو هي كبرى امرأة بأن أفعل فيه مضاف إلى غير المفضل عليه بل إلى العدد المتلبس هو به بياناً له فكأنه قيل : هي امرأة أكبر من كل واحدة واحدة من النساء ، وفي مثله لا يختلف أفعل التفضيل ، فالتحقيق أنه لا يشبه ما فيه اللام وإنما المطابقة بين موصوفة وما أضيف إليه ولا مدخل لطباقه في اللفظ والمعنى فتدبر ، والجملة في موضع التعليل لما سلف فهي مستأنفة استئنافاً بيانياً أي لأنكم رضيتم ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ أي المتخلفين لعدم لياقتهم كالنساء والصبيان والرجال العاجزين ،

وجمع المذكر للتغليب ، واقتصر ابن عباس على الأخير ، وتفسير الخالف بالمتخلف هو المأثور عن أكثر المفسرين السلف ، وقيل : إنه من خلف بمعنى فسد .

ومنه خلوف فم الصائم لتغير رائحته ، والظرف متعلق بما عنده أو بمحذوف وقع حالاً من ضمير الجمع ، والفاء لتفريع الأمر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر منهم من الرضا بالقعود أي إذا رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد .

وقرأ عكرمة ﴿ الخافين ﴾ بوزن حذرين ولعله صفة مشبهة مثله ، وقيل : هو مقصور من الخالفين إذ لم يثبت استعماله كذلك على أنه صفة مشبهة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(222/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ﴾

الفاء للتفريع على ما آذن به قوله : ﴿ قل نار جهنم أشد حراً ﴾ [التوبة : 81] إذ فرّع على الغضب عليهم وتهديدهم عقاب آخر لهم ، بإبعادهم عن مشاركة المسلمين في غزواتهم .

وفعل رجع يكون قاصراً ومتعدّياً مرادفاً لأرجع .

وهو هنا متعدّ ، أي أرجعك الله .

وجعل الإرجاع إلى طائفة من المنافقين المخلّفين على وجه الإيجاز لأنّ المقصود الإرجاع إلى الحديث معهم في مثل القصة المتحدّث عنها بقرينة قوله : ﴿ فاستئذنوك للخروج ﴾ ولمّا كان المقصود بيان معاملته مع طائفة ، اختُصر الكلام ، فقيل : ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ ، وليس المراد الإرجاع الحقيقي كما جرت عليه عبارات أكثر المفسّرين وجعلوه الإرجاع من سفَر تبوك مع أنّ السورة كلّها نزلت بعد غزوة تبوك بل المراد المجازي ، أي تكرّر الخوض معهم مرّة أخرى .

والطائفة : الجماعة وتقدّمت في قوله تعالى : ﴿ يغشى طائفة منكم ﴾ في سورة آل عمران (154) .

أو قوله : ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ في سورة النساء (102) .

والمراد بالطّائفة هنا جماعة من المخلّفين دل عليها قوله : فاستئذنوك للخروج ﴾ أي إلى طائفة منهم يبتغون الخروج للغزو ، فيجوز أن تكون هذه الطائفة من المنافقين أرادوا الخروج للغزو طمعاً في الغنيمة أو نحو ذلك .

ويجوز أن يكون طائفة من المخلّفين تابوا وأسلموا فاستأذنوا للخروج للغزو .

وعلى الوجهين يحتمل أُنّ منعهم من الخروج للخوف من غدرهم إن كانوا منافقين أو لمجرّد

التأديب لهم إن كانوا قد تابوا وآمنوا .

وما أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يقوله لهم صالح للوجهين .

والجمع بين النفي بـ ﴿ لن ﴾ وبين كلمة ﴿ أبداً ﴾ تأكيد لمعنى لن لانتفاء خروجهم في المستقبل إلى الغزو مع المسلمين .

وجملة : ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ مستأنفة للتعداد عليهم والتوبيخ ، أي إنّكم تحبّون القعود وترضون به فقد زدتُكم منه .

(223/344)

وفعل : ﴿ رضيتم ﴾ يدلّ على أنّ ما ارتكبوه من القعود عمل من شأنه أن يأباه الناس حتّى أطلق على ارتكابه فعل رَضِي المشعرُ بالمحاولة والمراوضة .

جُعلوا كالذي يحاول نفسه على عمل وتأبى حتّى يرضيها كقوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] وقد تقدّم ذلك .

وانتصب ﴿ أول مرة ﴾ هنا على الظرفية لأنّ المرّة هنا لمّا كانت في زمن معروف لهم وهو زمن الخروج إلى تبوك ضمنت معنى الزمان .

وانتصاب المصدر بالنيابة عن اسم الزمان شائع في كلامهم ، بخلاف انتصابها في قوله : ﴿

وهم بدأوكم أول مرة ﴾ [التوبة : 13] وفي قوله : ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة ﴾ [التوبة : 80] كما تقدّم .

و ﴿ أول مرة ﴾ هي غزوة تبوك التي تخلّفوا عنها .

وأفعل التفضيل إذا أضيف إلى نكرة اقتصر على الإفراد والتذكير ولو كان المضاف إليه غير مفرد ولا مذكر لأنّ في المضاف إليه دلالة على المقصود كافية .

والفاء في ﴿ فاقعدوا ﴾ تفريع على ﴿ إنكم رضيتم بالقعود ﴾ ، أي لمَّا اخترتم القعود لأنفسكم فاقعدوا الآن لأنّكم تحبّون التخلّف .

و ﴿ الخالفين ﴾ جمع خالف وهو الذي يخلُف الغازي في أهله وكانوا يتركون لذلك .

من لا غناء له في الحرب .

فكونهم مع الخالفين تعيير لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(224/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾

والله سبحانه وتعالى يوضح لرسوله صلى الله عليه وسلم : عندما تنتهي الغزوة وتعود إلى

المدينة ، فهناك حكم لابد أن تطبقه مع هؤلاء المنافقين ، الذي تخلفوا وفرحوا بعدم الجهاد

.

وقوله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ﴾ كلمة " رجع " من الأفعال ، وكل فعل يجب أن يكون له فاعل ومفعول ، فلا يمكن أن تقول : " ضرب محمد " ثم تسكت ؛ لأنه عليك أن تبين من المضروب . ولا يمكن أن تقول " قطف محمد " ، بل لابد أن تقول ماذا قطف ؟ وهكذا تحتاج إلى مفعول يقع عليه الفعل . ولكن هناك أفعالاً لا تحتاج إلى مفعول . كأن تقول : " جلس فلان " والفعل الذي يحتاج إلى مفعول اسمه " فعل مُتَعَدٍّ " أما الفعل الذي لا يحتاج إلى مفعول فاسمه " فعل لازم " . إذن : فناك فعل متعد وفعل لازم .

وهنا في هذه الآية الكريمة يقول الحق سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ والحق سبحانه هو الفاعل ، والكاف في ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ هي المفعول به . ولكن لأنها ضمير ملتصق بالفعل يتقدم المفعول على الفاعل . إذن : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ ﴾ رجع فعل متعد ، والفاعل لفظ الجلالة . والمفعول هو الضمير العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أي : أن الله رجعك يا محمد .

ولكن هناك آية في القرآن الكريم تقول : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً . . . ﴾ [الأعراف : 150]

في الآية التي نحن بصددها ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾ الفاعل هو الله ، أما في قوله الحق : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى ﴾ نجد أن موسى هو الفاعل ولا يوجد مفعول به ، إذن ف " رجع " يمكن أن يكون فعلاً لازماً ، كأن تقول : " رجع محمد من الغزوة " . ويمكن أن يكون فعلاً متعدياً كقوله سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾ أي : يا محمد من الغزوة . إذن : فرجع تستعمل لازمة وتستعمل متعدية . ولكن في قصة سيدنا موسى عليه السلام ؛ عندما ألقته أمه في البحر والتقطه آل فرعون ؛ ومشت أخته تتبعه ؛ ثم حرَّم الله عليه المراضع ليعيده إلى أمه كي يزيل حزنها ن يقل الحق سبحانه : ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ على مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ . . . ﴾ [طه : 40]

ما هو الفرق بين الآيات الثلاث ؟ ولماذا استعمل فعل " رجع " لازماً ومتعدياً ؟

نقول : إنه في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى إلى قَوْمِهِ ﴾ هنا هيئ لموسى من ذاته أن يرجع ، أي : انه قرار اختياري من موسى ، أما قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلى أُمِّكَ ﴾ ، فموسى في هذه المرحلة ؛ كان طفلاً رضيعاً لا يستطيع أن يرجع بذاته ، ولا بد أن يهيئ له الحق طريقة لإرجاعه ، أي : من يحمله ويرجعه .

أما قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إلى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ فقد كان من الممكن أن يقال : " وإذا رجع إلى طائفة منهم " مثلما قال في موسى عليه السلام : ﴿ وَلَمَّا رَجَعَ موسى ﴾ ولكن

الحق استخدم ﴿ رَّجَعَكَ ﴾ ليدل على أن زمام محمد عليه الصلاة والسلام في الفعل والترك ليس بيده .

(226/344)

وكأنه سبحانه وتعالى يوضح : إياكم أن تنسبوا الأحداث إلى بشرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن محمداً إذا ذهب إلى مكان فالله هو الذي أذهب إليه . وإن عاد من مكان فهو لا يعود إلا إذا أرجعه الله منه . كما كانت هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بإذن من الله ، فقبل أن يأذن الله له بالهجرة ، لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببشريته يستطيع أن يهاجر . إذن : فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يعرف دائماً : أن ذهاب محمد صلى الله عليه وسلم ورجوعه من أي مكان ، ليس ببشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل بإرادة الحق سبحانه .

ولكن لماذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ وكان من الممكن أن يقول " فإن رجعك الله إليهم " أة : " فإن رجعك الله إلى المدينة " ؟ نقول : إن الحق سبحانه وتعالى يريد الحديث هنا عن الطائفة التي حدثت منها المخالفة ، فهناك من بقوا في المدينة رغماً عنهم ولم يكن لديهم ما ينفقونه أو لم يكن لدى رسول الله صلى الله عليه

وسلم ما يحملهم عليه . كذلك المرضى وكبار السن الذين لا يستطيعون قتالاً . وهؤلاء حَسُنَ إسلامهم وقَبِل الله ورسوله أعذارهم .

ولكن الحق سبحانه يتحدث هنا عن الطائفة التي تخلفت عن الجهاد وهي قادرة ، والتي امتنعت عن الخروج ، وهي تملك المال والسلاح وكل مقومات الجهاد ، هذه الطائفة هي التي فرحت بالتخلف عن القتال . أما الطوائف الأخرى ؛ فكانت عيونها تفيض بالدمع من الحزن على عدم اشتراكهم في الجهاد .

إذن : فالحق يقصد هنا طائفة المنافقين الذين استمروا على نفاقهم ، فمن تاب منهم قبل نزول هذه الآية قبلت توبته ، ومن مات منهم قبل نزول هذه الآية فإنما حسابه على الله .

وبقيت طائفة المنافقين الذي فرحوا وضحكوا عندما بقوا في المدينة ، وكان عقاب الله لهم بأن مسح أسماءهم من ديوان المجاهدين في سبيل الله ، ومنعهم الثواب الكبير للجهاد .

(227/344)

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ فكيف استأذنوا أول الأمر للقعود وتحايلوا عليه ، وكيف يستأذنون الآن للخروج ؟ نقول : إنهم عندما رأوا المؤمنين وقد عادوا بالغنائم ، كان ذلك حسرة في قلوبهم ؛ لأنهم أهل دنيا .

وحينئذ طلبوا الخروج حتى يحصلوا على الغنائم والمغانم الدنيوية . ولكن الحق سبحانه وتعالى طلب من رسوله عليه الصلاة والسلام ألا يأذن لهم بالجهاد مع المسلمين ، فقال : ﴿ فَقُلْ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً ﴾ أي : أن أسماءكم قد شطبت من ديوان المجاهدين والغزاة ، ولما قرر الحق سبحانه وتعالى ألا يعطيهم شرف الجهاد وثواب الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ .

ولكن الحق يقول أيضاً هنا : ﴿ فاستأذنوكَ لِلْخُرُوجِ ﴾ وهذا أمر لا يحدث إلا في الغزوات ، فما هو موقفهم إذا حدث اعتداء على المدينة ؟ ويبين الحق سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم ألا يقبل قتالاً حتى في هذه الحالة ، فطلب من رسوله عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم بذلك ، ويقول لهم : ﴿ وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً ﴾ إذن : فقد حسمت المسألة ، فلا هم مسموح لهم بالخروج في الغزوات ، ولا بقتال الأعداء إذا هاجموا المدينة ؛ لأنهم أُسقطوا تماماً من ديوان المجاهدين ، ولا جهاد لهم داخل المدينة أو خارجها ؛ ما داموا قد فرحوا بالقعود ، ورفضوا أن يشتركوا في الجهاد وهم قادرون ؛ لذلك حكم الحق أن يبقوا مع الخالفين .

(228/344)

وما معنى خالفين ؟ المادة هي " خاء " و " لام " و " فاء " ، فيها " خلف " و " خلاف " و " خلوف " وغير ذلك . و " خالفين " إما أن يكونوا قد تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإما أن يكونوا خالفوا الرسول بأنهم رفضوا الخروج ، وإما أن يكونوا خلوفاً . ويقول : صلى الله عليه وسلم في حديث عن الصيام : " الخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك "

والخلوف هو تغير الرائحة ، وتغير الرائحة يدل على فساد الشيء ، فكأنهم أصبحوا فاسدين . ومخالفين تعني فاسدين لأنهم قد خالفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ول يقتصر جزاء هؤلاء المتخلفين فقط أن تشطب أسماؤهم من سجلات المجاهدين ، بل هناك جزاء آخر يبينه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(229/344)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾

أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بأن صدور الاستغفار منه للمنافقين وعدمه سواء ، وذلك لأنهم ليسوا بأهل لاستغفاره صلى الله عليه وسلم ، ولا للمغفرة من الله سبحانه لهم ، فهو كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ ﴾ [التوبة : 53] ، ثم قال : ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وفيه بيان لعدم المغفرة من الله سبحانه للمنافقين ، وإن أكثر النبي من الاستغفار لهم ، وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً ، كما في سائر مفاهيم الأعداد ، بل المراد بهذا المبالغة في عدم القبول .

فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير ، والمعنى : أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة ، غاية المبالغ ، وقد ذهب بعض الفقهاء إلى أن التقييد بهذا العدد المخصوص يفيد قبول الزيادة عليه ، ويدل لذلك ما سيأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لأزيدنّ على السبعين " وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً فقال : إن السبعة عدد شريف ؛ لأنها عدد السموات ، والأرضين ، والبحار ، والأقاليم ، والنجوم السيارة ، والأعضاء ، وأيام الأسبوع ، فصير كل واحد من السبعة إلى عشرة ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها .

وقيل : خصت السبعون بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبر على عمه الحمزة سبعين

تكبيرة ، فكأنه قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة بإذاء تكبيراتك على حمزة .

وانتصاب ﴿ سبعين ﴾ على المصدر كقولهم : ضربته عشرين ضربة .

(230/344)

ثم علل عدم المغفرة لهم بقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ أي : ذلك الامتناع بسبب كفرهم بالله ورسوله ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الفاسقين ﴾ أي : المتمرّدين الخارجين عن الطاعة المتجاوزين لحدودها ، والمراد هنا : الهداية الموصلة إلى المطلوب ، لا الهداية التي بمعنى الدلالة وإراءة الطريق .

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من قبائح المنافقين ، فقال : ﴿ فَرِحَ المخلفون بِمَقْعَدِهِمْ خلاف رَسُولِ الله ﴾ المخلفون : المتروكون ، وهم الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين ، فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم الله وثبطهم ، أو الشيطان ، أو كسلهم ، أو المؤمنون ، ومعنى ﴿ بِمَقْعَدِهِمْ ﴾ أي : بقعودهم يقال : قعد قعوداً ومقعداً : أي جلس ، وأقعده غيره ، ذكر معناه الجوهري فهو متعلق بفرح : أي فرح المخلفون بقعودهم ، وخلاف رسول الله منتصب على أنه ظرف لمقعدهم .

قال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف : أي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وذلك أن جهة الإمام التي يقصدها الإنسان تخالفها جهة الخلف .

وقال قطرب والزجاج : معنى خلاف رسول الله : مخالفة الرسول حين سار وأقاموا ، فانتصابه على أنه مفعول له : أي قعدوا لأجل المخالفة ، أو على الحال مثل : وأرسلها العراك : أي مخالفين له ، ويؤيد ما قاله الأخفش ويونس قراءة أبي حيوة " خلف رسول الله " .

(231/344)

قوله : ﴿ وَكَرِهُواْ أَن يجاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ سبب ذلك الشحّ بالأموال والأنفس ، وعدم وجود باعث الإيمان ، وداعي الإخلاص ، ووجود الصارف عن ذلك ، وهو ما هم فيه من النفاق ، وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين لأموالهم وأنفسهم في سبيل الله لوجود الداعي معهم ، وانتفاء الصارف عنهم ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى الحر ﴾ أي : قال المنافقون لإخوانهم هذه المقالة تثبيطاً لهم ، وكسراً لنشاطهم ، وتواصياً بينهم بالمخالفة لأمر الله ورسوله ، ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم : ﴿ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ والمعنى : أنكم أيها المنافقون كيف تفرّون من هذا الحرّ اليسير ، ونار جهنم التي ستدخلونها خالدين فيها أبداً أشدّ حرّاً مما فررتم منه ، فإنكم إنما فررتم من

حرّ يسير في زمن قصير ، ووقعتم في حرّ كثير في زمن كبير ، بل غير متناه أبد الآبدين ، ودهر الداهرين .

فكنت كالساعي إلى مثعب . . . موائلاً من سبل الراعد

وجواب " لو " في ﴿ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ مقدّر ، أي : لو كانوا يفقهون أنها كذلك لما فعلوا ما فعلوا .

(232/344)

قوله : ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا ﴾ هذان الأمران معناهما الخبر ، والمعنى : فسيضحكون قليلاً ، ويبكون كثيراً ، وإنما جيء بهما على لفظ الأمر ، للدلالة على أن ذلك أمر محتوم لا يكون غيره ، وقليلاً كثيراً منصوبان على المصدرية أو الظرفية : أي ضحكاً قليلاً ، وبكاءً كثيراً ، أو زماناً قليلاً ، وزماناً كثيراً ﴿ وَجَزَاء بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ أي : جزاء بسبب ما كانوا يكسبونه من المعاصي ، وانتصاب ﴿ جزاء ﴾ على المصدرية : أي يجزون جزاء ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ الله إلى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ الرجع متعدّ كالردّ ، والرجوع : لازم ، والفاء لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، وإنما قال ﴿ إلى طَائِفَةٍ ﴾ لأن جميع من أقام بالمدينة لم يكونوا منافقين بل كان فيهم غيرهم من المؤمنين لهم أعذار صحيحة

، وفيهم من المؤمنين من لا عذر له ، ثم عفا عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتاب الله عليهم كالثلاثة الذين خلفوا ، وسيأتي بيان ذلك ، وقيل : إنما قال : ﴿ إلى طائفة ﴾ ، لأن منهم من تاب عن النفاق ، وندم على التخلف ﴿ فاستأذنوكِ لِلْخُرُوجِ ﴾ معك في غزوة أخرى بعد غزوتك هذه ﴿ فَقُلْ ﴾ لهم : ﴿ لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تقاتلوا مَعِيَ عَدُوّا ﴾ أي : قل لهم ذلك عقوبة لهم ، ولما في استصحابهم من المفاسد ، كما تقدم في قوله : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾ [التوبة : 47] ، وقرىء بفتح الياء من معي في الموضعين ، وقرىء بسكونها فيهما ، وجملة : ﴿ إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالقعود أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ للتعليل ، أي لن تخرجوا معي ، ولن تقاتلوا ، لأنكم رضيتم بالقعود والتخلف أوّل مرّة ، وهي غزوة تبوك ، والفاء في ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ لتفريع ما بعدها على ما قبلها ، والخالفين جمع خالف ، كأنهم خلفوا الخارجين ، والمراد بهم : من تخلف عن الخروج ، وقيل : المعنى : فاقعدوا مع الفاسدين .

(233/344)

من قولهم : فلان خالف أهل بيته إذا كان فاسداً فيهم ، من قولك : خلف اللبن : أي فسد بطول المكث في السقاء .

ذكر معناه الأصمعي ، وقرىء : " فاقعدوا مع الخلفين " وقال الفراء : معناه : المخالفين .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن عروة أن عبد الله بن أبيّ قال : لولا أنكم تنفقون على محمد وأصحابه لانفضوا من حوله ، وهو القائل : ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الأعز مِنْهَا الأذل ﴾ [المنافقون : 8] فأنزل الله : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأزيدنّ على السبعين " فأنزل الله : ﴿ سَوَاء عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عن مجاهد نحوه .

وأخرج ابن جرير ، عن ابن عباس ، نحوه .

وأخرج أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والنسائي ، وابن ماجه ، وابن أبي حاتم ، والنحاس ، وابن حبان ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في الحلية ، عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفي عبد الله بن أبيّ دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام عليه ، فلما وقف قلت : أعلى عدوّ الله عبد الله بن أبيّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتبسم حتى إذا أكثرت قال : " يا عمر أخر عني ، إني قد خيرت ، قد قيل لي : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له ، لزدت عليها

" ثم صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومشى معه حتى قام على قبره ، حتى فرغ منه ، فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم .

(234/344)

فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعد حتى قبضه الله عزّ وجلّ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَرِحَ المخلفون ﴾ الآية قال : عن غزوة تبوك .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه ، وذلك في الصيف ، فقال رجال : يا رسول الله الحر شديد ، ولا نستطيع الخروج ، فلا تنفروا في الحرّ ، فقال الله : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّاً لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فأمره بالخروج .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ

قَلِيلاً وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا ﴾ قال : هم المنافقون والكفار الذين اتخذوا دينهم هزواً ولعباً ، يقول الله : فليضحكوا قليلاً في اللدنيا ، وليبكوا كثيراً في الآخرة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين ، وفيهم قيل ما قيل .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن الغزو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(235/344)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين ، وفيهم قيل ما قيل .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في الآية يقول : أرأيت إن نفرت فاستأذنوك أن ينفروا معك ؟ فقل : لن تخرجوا معي أبداً .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ قال : هم الرجال الذين تخلفوا عن النفور . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(236/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ ﴾ : " رجع " يتعدى ، كهذه الآية الكريمة ، ومصدرُه الرَّجْع ، كقوله : ﴿ والسمآء ذَاتِ الرجع ﴾ [الطارق : 11] ، ولا يتعدى نحو : ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء : 35] ، في قراءة مَنْ بناه للفاعل ، والمصدر الرجوع كالدخول .

قوله : ﴿ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ، قد تقدَّم ذلك . وقال أبو البقاء : " هي ظرفٌ " ، قال الشيخ : " ويعني ظرفَ زمان وهو بعيد " . / لأن الظاهرَ أنها منصوبةٌ على المصدر ، وفي التفسير : أولَ خَرْجَةٍ خَرَجَها رسول الله ، فالمعنى : أولَ مرة من الخروج . قال الزمخشري : " فإن

قلت " مرة " نكرة وُضِعَتْ موضع المرات من التفضيل ، فلِمَ ذُكِرَ اسمُ التفضيلِ المضافُ إليها وهو دالٌّ على واحدةٍ من المرات ؟ قلت : أكثر اللغتين : " هند أكبرُ النساء وهي أكبرُهن " ، ثم إنَّ قولَك : " هي كبرى امرأة " ، لا تكاد تعثر عليه ، ولكن " هي أكبر امرأة وأول مرة وآخر مرة " .

قوله : ﴿ مَعَ الخالفين ﴾ هذا الظرفُ يجوز أن يكونَ متعلقاً ب " اقعدوا " ، ويجوز أن يتعلَّق بمحذوفٍ لأنه حال من فاعل " اقعدوا " . والخالِفُ : المتخلِّفُ بعد القوم . وقيل : الخالف : الفاسد . " مَنْ خَلَفَ " ، أي : فَسَد ، ومنه " خُلوف فم الصائم " ، والمراد بهم النساءُ والصبيانُ والرجالُ العاجزون ، فلذلك جاز جمعُه للتغليب . وقال قتادة : " الخالِفُون : النساء " ، وهو مردودٌ لأجل الجمع . وقرأ عكرمة ومالكُ بن دينار " مع الخَلِفين " مقصوراً مِنَ الخالِفين كقوله :

2523 مثل النَّقَا لَبَّده بَرْدُ الظِّلَلْ . . . وقوله :

2524 . . . . . عَرِدا . . . . . بَرِدا

يريد : الظلال وعارِداً بارداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 92.94 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَداً وَلَن تُقَاتِلُواْ مَعِيَ عَدُوّاً إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُواْ مَعَ الْخَالِفِينَ ﴾ .

يقول : بعدما ظهرت خيانتُهم ، وتقرر كذبهم ونفاقهم ، لا تَنْخدِعْ بتملقهم ، ولا تَثِقْ بقولهم ، ولا تُمَكِّنْهم مِنْ صُحبتك فيما يُظْهِرونه مِنْ وفاقك . فإذا وَهَنَ سِلْكُ العهدِ فلا يَحْتَمل بَعْدَهُ الشَّدَّ ، وإذا اتسع الخَرْقُ لا ينفع بَعْدَهُ الرَّقْعُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 50 ﴾

(238/344)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أتم سبحانه الكلام في الاستغفار وتعليله إلى أن ختم بإهانة المتخلفين ، وكان القتل المسبب عن الجهاد سبباً لترك الصلاة على الشهيد تشريفاً له ، جعل الموت الواقع في القعود المرضي به عن الجهاد سبباً لترك الصلاة إهانة لذلك القاعد ، فقال عاطفاً على ما أفهمت جملة : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ الآية ، من نحو : فلا تستغفر لهم أصلاً : ﴿ ولا تصلِّ ﴾ أي الصلاة التي شرعت لتشريف المصلى عليه والشفاعه فيه ﴿ على أحد منهم ﴾ ثم وصف الأحد بقوله : ﴿ مات ﴾ وقوله ﴿ أبداً ﴾ متعلق بالنهي لا بالموت ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ أي لأن قيامك رحمة وهم غير أهل لها ، ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إنهم كفروا بالله ﴾ أي الذي له العظمة كلها ولما كان الموت على الكفر مانعاً من الصلاة على الميت بجميع معانيها لم يحتج إلى التأكيد باعادة الجار فقيل - : ﴿ ورسوله ﴾ أي الذي هو أعظم الناس نعمة عليهم بما له من نصائحهم بالرسالة ، والمعنى أنهم لعظم ما ارتكبوا من ذلك لم يهدهم الله فاستمروا على الضلالة حتى ماتوا على صفة من وقع النهي على الاستغفار لهم المشار إليها بقوله ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ وذلك المراد من قوله معبراً بالماضي والمعنى على المضارع تحقيقاً للخبر وأنه واقع لا محالة : ﴿ وماتوا وهم ﴾ أي والحال أنهم بضمائرهم وظواهرهم ﴿ فاسقون ﴾ أي غريقون في الفسق . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 370 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) ﴾

اعلم أنه تعالى أمر رسوله بأن يسعى في تخذيلهم وإهانتهم وإذلالهم ، فالذي سبق ذكره في الآية الأولى وهو منعهم من الخروج معه إلى الغزوات سبب قوي من أسباب إذلالهم وإهانتهم ، وهذا الذي ذكره في هذه الآية ، وهو منع الرسول من أن يصلي على من مات منهم ، سبب آخر قوي في إذلالهم وتخذيلهم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما اشتكى عبد الله بن أبي بن سلول عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره ، ثم إنه أرسل إلى الرسول عليه الصلاة والسلام يطلب منه قميصه ليكفن فيه ، فأرسل إليه القميص الفوقاني فرده وطلب الذي يلي جلده ليكفن فيه ، فقال عمر رضي الله عنه : لم تعطي قميصك الرجس النجس ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : " إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً فلعل الله أن يدخل به ألفاً في الإسلام " وكان المنافقون لا يفارقون عبد الله ، فلما رأوه يطلب هذا القميص ويرجو أن ينفعه ، أسلم منهم يومئذ ألف .

فلما مات جاء ابنه يعرفه فقال عليه الصلاة والسلام لابنه : " صل عليه وادفنه " فقال : إن لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل عليه مسلم ، فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه ، فقام عمر فحال بين رسول الله وبين القبلة لئلا يصلي عليه ، فنزلت هذه الآية .

وأخذ جبريل عليه السلام بثوبه وقال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ واعلم أن هذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله عنه ، وذلك لأن الوحي نزل على وفق قوله في آيات كثيرة منها آية أخذ الفداء عن أسارى بدر وقد سبق شرحه .

وثانيها : آية تحريم الخمر .

وثالثها : آية تحويل القبلة .

ورابعها : آية أمر النسوان بالحجاب .

وخامسها : هذه الآية .

(240/344)

فصار نزول الوحي على مطابقة قول عمر رضي الله عنه منصباً عالياً ودرجة رفيعة له في الدين .

فلهذا قال عليه الصلاة والسلام في حقه : " لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبياً "

فإن قيل : كيف يجوز أن يقال إن الرسول رغب في أن يصلي عليه بعد أن علم كونه كافراً وقد مات على كفره ، وأن صلاة الرسول عليه تجري مجرى الإجلال والتعظيم له ، وأيضاً إذا صلى عليه فقد دعا له ، وذلك محظور ، لأنه تعالى أعلمه أنه لا يغفر للكفار ألبتة ، وأيضاً دفع القميص إليه يوجب إعزازه ؟

والجواب : لعل السبب فيه أنه لما طلب من الرسول أن يرسل إليه قميصه الذي مس جلده ليدفن فيه ، غلب على ظن الرسول عليه الصلاة والسلام أنه انتقل إلى الإيمان ، لأن ذلك الوقت وقت يتوب فيه الفاجر ويؤمن فيه الكافر ، فلما رأى منه إظهار الإسلام وشاهد منه هذه الأمارة التي دلت على دخوله في الإسلام ، غلب على ظنه أنه صار مسلماً ، فبنى على هذا الظن ورغب في أن يصلي عليه ، فلما نزل جبريل عليه السلام وأخبره بأنه مات على كفره ونفاقه ، امتنع من الصلاة عليه .

وأما دفع القميص إليه فذكروا فيه وجوهاً : الأول : أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيراً ببدر ، لم يجدوا له قميصاً ، وكان رجلاً طويلاً ، فكساه عبد الله قميصه .

الثاني : أن المشركين قالوا له يوم الحديبية ، إنا لا ننقاد لمحمد ولكنا ننقاد لك ، فقال لا ، إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، فشكر رسول الله له ذلك .

والثالث : أن الله تعالى أمره أن لا يرد سائلاً بقوله :

﴿ وَأَمَّا السائل فَلاَ تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : 10] فلما طلب القميص منه دفعه إليه لهذا المعنى .

الرابع : أن منع القميص لا يليق بأهل الكرم .

الخامس : أن ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي ، كان من الصالحين ، وأن الرسول أكرمه لمكان ابنه .

(241/344)

السادس : لعل الله تعالى أوحى إليه أنك إذا دفعت قميصك إليه صار ذلك حاملاً لألف نفر من المنافقين في الدخول في الإسلام ففعل ذلك لهذا الغرض ، وروى أنهم لما شاهدوا ذلك أسلم ألف من المنافقين .

السابع : أن الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه كما قال : ﴿ وَمَا أرسلناك إِلاَّ رَحْمَةً للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وقال : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مّنَ الله لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران : 159] فامتنع من الصلاة عليه رعاية لأمر الله تعالى ، ودفع إليه القميص لإظهار الرحمة والرأفة .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَلاَ تُصَلّ على أَحَدٍ مّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ قال الواحدي :

﴿ مَّاتَ ﴾ في موضع جر لأنه صفة للنكرة كأنه قيل على أحد منهم ميت وقوله :

﴿ أَبَدًا ﴾ متعلق بقوله : ﴿ أَحَدٍ ﴾ والتقدير ولا تصل أبداً على أحد منهم .

واعلم أن قوله : ولا تصل أبداً يحتمل تأبيد النفي ويحتمل تأبيد المنفي ، والمقصود هو الأول ، لأن قرائن هذه الآيات دالة على أن المقصود منعه من أن يصلي على أحد منهم منعاً كلياً دائماً .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ وفيه وجهان : الأول : قال الزجاج : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ، فمنع ههنا منه .

الثاني : قال الكلبي لا تقم بإصلاح مهمات قبره ، وهو من قولهم ، قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وتولاه ، ثم إنه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فاسقون ﴾ وفيه سؤالات :

السؤال الأول : الفسق أدنى حالاً من الكفر ، ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافراً فما الفائدة في وصفه بعد ذلك بكونه فاسقاً ؟

والجواب أن الكافر قد يكون عدلاً في دينه .

وقد يكون فاسقاً في دينه خبيثاً ممقوتاً عند قومه ، والكذب والنفاق والخداع والمكر والكيد ، أمر مستقبح في جميع الأديان ، فالمنافقون لما كانوا موصوفين بهذه الصفات وصفهم الله تعالى بالفسق بعد أن وصفهم بالكفر ، تنبيهاً على أن طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العالم .

السؤال الثاني : أليس أن المنافق يصلى عليه إذا أظهر الإيمان مع قيام الكفر فيه ؟

والجواب : أن التكاليف مبنية على الظاهر قال عليه الصلاة والسلام : " نحن نحكم بالظاهر والله تعالى يتولى السرائر "

السؤال الثالث : قوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ تصريح بكون ذلك النهي معللاً بهذه العلة ، وذلك يقتضي تعليل حكم الله تعالى وهو محال ، لأن حكم الله قديم ، وهذه العلة محدثة ، وتعليل القديم بالمحدث محال .

والجواب : الكلام في أن تعليل حكم الله تعالى بالمصالح هل يجوز أم لا ؟ بحث طويل ، ولا شك أن هذا الظاهر يدل عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 121 . 122 ﴾

(243/344)

قال ابن العربى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : سَبَبُ نُزُولِهَا : ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ وَالْمُصَنَّفَاتِ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِ قَالَ : ﴿ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ يَقُولُ : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ دُعِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا وَقَفَ عَلَيْهِ يُرِيدُ الصَّلَاةَ تَحَوَّلْتُ حَتَّى قُمْتُ فِي صَدْرِهِ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَعَلَى عَدُوِّ اللَّهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ الْقَائِلِ كَذَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا يُعَدِّدُ عَلَيْهِ أَيَّامَهُ قَالَ : وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَبَسَّمُ ، حَتَّى إِذَا أَكْثَرْتُ عَلَيْهِ قَالَ : أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ ، إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ ، قَدْ قِيلَ لِي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ .

لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ .

قَالَ : ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ ، وَمَشَى مَعَهُ ، فَقَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُ قَالَ : فَعَجِبْتُ لِي وَلِجَرَاءَتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ .

قَالَ : فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدُ عَلَى مُنَافِقٍ ، وَلَا قَامَ عَلَى قَبْرِهِ ، حَتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ ﴾ .

(244/344)

وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : ﴿ جَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ مَاتَ أَبُوهُ ، فَقَالَ : أَعْطِنِي قَمِيصَك أُكَفِّنْهُ فِيهِ ، وَصَلِّ عَلَيْهِ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُ .

فَأَعْطَاهُ قَمِيصَهُ ، وَقَالَ : إذَا فَرَغْتُمْ فَآذِنُونِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ جَذَبَهُ عُمَرُ ، وَقَالَ : أَلَيْسَ قَدْ نَهَى اللَّهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى الْمُنَافِقِينَ ؟ فَقَالَ : أَنَا بَيْنَ خِيَرَتَيْنِ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ .

فَصَلَّى عَلَيْهِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ فَتَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ هَلْ هُوَ إيَاسٌ أَوْ تَخْيِيرٌ ؟ فَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ إيَاسٌ بِدَلِيلِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ : أَحَدُهَا : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ .

الثَّانِي : أَنَّهُ قَالَ : إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ مُبَالَغَةً ، كَقَوْلِ الْقَائِلِ : لَوْ سَأَلْتَنِي مِائَةَ مَرَّةٍ مَا أَجَبْتُك .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ عَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وَهَذِهِ الْعِلَّةُ مَوْجُودَةٌ بَعْدَ الزِّيَادَةِ عَلَى السَّبْعِينَ ، وَحَيْثُ تُوجَدُ الْعِلَّةُ يُوجَدُ الْحُكْمُ .

(245/344)

وَقَالَ قَوْمٌ : هُوَ تَخْيِيرٌ مِنْ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعُمَرَ : ﴿ إنِّي خُيِّرْت فَاخْتَرْت ؛ قَدْ قِيلَ لِي : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنَّ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْت عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْت ﴾ .

وَهَذَا أَقْوَى ؛ لِأَنَّ هَذَا نَصٌّ صَرِيحٌ صَحِيحٌ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّخْيِيرِ ، وَتِلْكَ اسْتِنْبَاطَاتٌ ، وَالنَّصُّ الصَّرِيحُ أَقْوَى مِنْ الِاسْتِنْبَاطِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّهُ قَالَ : ﴿ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ فَهَذَا فِي السَّبْعِينَ ، وَلَيْسَ مَا وَرَاءَ السَّبْعِينَ كَالسَّبْعِينَ ، لَا مِنْ دَلِيلِ الْخِطَابِ وَلَا مِنْ غَيْرِهِ ؛ أَمَّا مِنْ دَلِيلِ الْخِطَابِ فَإِنَّ دَلِيلَ الْخِطَابِ لَا يَكُونُ فِي الْأَسْمَاءِ ؛ وَإِنَّمَا يَكُونُ فِي الصِّفَاتِ ، حَسْبَمَا بَيَّنَّاهُ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ، وَرَدَدْنَاهُ عَلَى الدَّقَّاقِ مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ الَّذِي يَجْعَلُهُ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَهُوَ خَطَأٌ صِرَاحٌ وَأَمَّا

مِنْ غَيْرِ دَلِيلِ الْخِطَابِ فَظَاهِرٌ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ إذَا عُلِّقَ عَلَى اسْمٍ عَلَمٍ بَقِيَ غَيْرُهُ خَالِيًا عَنْ ذَلِكَ الْحُكْمِ ، فَيُطْلَبُ الْحُكْمُ فِيهِ مِنْ دَلِيلٍ آخَرَ .

وَأَمَّا

قَوْلُهُمْ : إنَّهَا مُبَالَغَةٌ فَدَعْوَى .

(246/344)

وَلَعَلَّهُ تَقْدِيرٌ لِمَعْنًى ، حَتَّى لَقَدْ قَالَ [فِي] ذَلِكَ الْأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرِ بْنُ فُورَكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ : إنَّ التَّعْدِيلَ فِي الْخَمْسَةِ ؛ لِأَنَّهَا نِصْفُ الْعَقْدِ ، وَزِيَادَةُ الْوَاحِدَةِ أَدْنَى الْمُبَالَغَةِ ، وَزِيَادَةُ الِاثْنَيْنِ لِأَقْصَى الْمُبَالَغَةِ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ الْأَسَدُ سَبْعًا ، عِبَارَةٌ عَنْ غَايَةِ الْقُوَّةِ ، وَفِي الْأَمْثَالِ : أَخَذَهُ أَخْذَةَ سَبْعَةٍ أَيْ : غَايَةَ الْأَخْذِ ، عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَاتِ ، وَهَذَا تَحَكُّمٌ ؛ إذْ يَحْتَمِلُ أَنْ يَقُولَ : إنَّ الِاثْنَيْنِ أَوْسَطُ الْمُبَالَغَةِ ، وَالثَّلَاثَةُ نِهَايَتُهَا ، وَذَلِكَ فِي الثَّمَانِيَةِ ، وَمِنْهُ يُقَالُ فِي الْمَثَلِ لِمَنْ بَالَغَ فِي عِوَضِ السِّلْعَةِ : أَثْمَنْتَ .

أَيْ : بَلَغْتَ الْغَايَةَ فِي الثَّمَنِ ، وَهَذِهِ التَّحَكُّمَاتُ لَا قُوَّةَ فِيهَا ، وَالِاشْتِقَاقَاتُ لَا دَلِيلَ عَلَيْهَا ؛ وَإِنَّمَا هِيَ مُلَحٌ ، فَإِذَا عَضَّدَهَا الدَّلِيلُ كَانَتْ صَحِيحَةً .

وَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّهُ عَلَّلَهُ بِالْكُفْرِ ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ بَعْدَ السَّبْعِينَ ، وَالْكَافِرُ لَا يُغْفَرُ لَهُ .

قُلْنَا : أَمَّا قَوْلُهُمْ : إنَّ ذَلِكَ مَوْجُودٌ بَعْدَ السَّبْعِينَ ، فَيُقَالُ لَهُ : هَذَا الْحُكْمُ مِنْ عَدَمِ الْمَغْفِرَةِ إنَّمَا كَانَ مُعَلَّقًا بِالسَّبْعِينَ ، وَالزِّيَادَةُ غَيْرُ مُعْتَبَرَةٍ بِهِ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ ، وَإِنَّمَا عُلِمَ عَدَمُ الْمَغْفِرَةِ فِي الْكَافِرِ بِدَلِيلٍ آخَرَ ، وَرَدَ مِنْ طُرُقٍ ، مِنْهَا قَوْلُهُ : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ ﴾ الْآيَةَ .

(247/344)

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فِي إعْطَاءِ الْقَمِيصِ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : رُوِيَ ﴿ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ إذْ طَلَبَ الْقَمِيصَ كَانَ عَلَى النَّبِيِّ قَمِيصَانِ قَالَ : أَعْطِهِ الَّذِي يَلِي جِلْدَك ﴾ .

وَقَالُوا : ﴿ إنَّهُ إنَّمَا أَعْطَاهُ قَمِيصَهُ مُكَافَأَةً عَلَى إعْطَائِهِ قَمِيصَهُ يَوْمَ بَدْرٍ لِلْعَبَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَمَا أُسِرَ وَاسْتُلِبَ ثَوْبُهُ رَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَذَلِكَ ، فَأَشْفَقَ ، وَطَلَبَ لَهُ قَمِيصًا ، فَمَا وَجَدَ لَهُ فِي الْجُمْلَةِ قَمِيصًا يُقَادِرُهُ إلَّا قَمِيصَ عَبْدِ اللَّهِ ، لِتَقَارُبِهِمَا فِي طُولِ الْقَامَةِ ، فَأَرَادَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِإِعْطَائِهِ الْقَمِيصَ أَنْ تَرْتَفِعَ الْيَدُ عَنْهُ فِي الدُّنْيَا ، حَتَّى لَا يَلْقَاهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَلَهُ عِنْدَهُ يَدٌ يُكَافِئُهُ بِهَا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ الْآيَةَ : نَصٌّ فِي الِامْتِنَاعِ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى الْكُفَّارِ ، وَلَيْسَ فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى الصَّلَاةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وَقَدْ وَهَمَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا فَقَالَ : إنَّ الصَّلَاةَ عَلَى الْجِنَازَةِ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ فَنَهَى اللَّهُ عَنْ الصَّلَاةِ عَلَى الْكُفَّارِ ، فَدَلَّ عَلَى وُجُوبِهَا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذِهِ غَفْلَةٌ عَظِيمَةٌ ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ بِالشَّيْءِ نَهْيٌ عَنْ أَضْدَادِهِ كُلِّهَا عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ لَفْظًا ، وَبِاتِّفَاقِهِمْ مَعْنًى .

(248/344)

فَأَمَّا النَّهْيُ عَنْ الشَّيْءِ فَقَدْ اتَّفَقُوا فِي الْوَجْهَيْنِ عَلَى أَنَّهُ أَمْرٌ بِأَحَدِ أَضْدَادِهِ لَفْظًا أَوْ مَعْنًى ، وَلَيْسَتْ الصَّلَاةُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ضِدًّا مَخْصُوصًا لِلصَّلَاةِ عَلَى الْكَافِرِينَ ؛ بَلْ كُلُّ طَاعَةٍ ضِدٌّ لَهَا ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ تَخْصِيصُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ دُونَ سَائِرِ الْأَضْدَادِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : صَلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ اخْتُلِفَ فِيهَا عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهُ خُيِّرَ فَاخْتَارَ .

الثَّانِي : مَا رُوِيَ أَنَّهُ فَعَلَ ذَلِكَ مُرَاعَاةً لِوَلَدِهِ ، وَعَوْنًا لَهُ عَلَى صِحَّةِ إيمَانِهِ ، إينَاسًا لَهُ وَتَأْلِيفًا لِقَوْمِهِ ؛ فَقَدْ رُوِيَ ﴿ أَنَّهُ لَمَا صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسْلَمَ مِنْ الْخَزْرَجِ أَلْفُ رَجُلٍ ﴾ .

الثَّالِثُ : مَا رَوَى أَبُو دَاوُد عَنْ عِكْرِمَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : ﴿ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ ، فَقَالَ : قَدْ كُنْت أَسْمَعُ قَوْلَك ، فَامْنُنْ عَلَيَّ الْيَوْمَ

، وكَفِّنِّي بِقَمِيصِك ، وَصَلِّ عَلَيَّ .

فَكَفَّنَهُ رَسُولُ اللَّهِ بِقَمِيصِهِ ، وَصَلَّى عَلَيْهِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَاللَّهُ أَعْلَمُ أَيُّ صَلَاةٍ هِيَ ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يُخَادِعْ إنْسَانًا قَطُّ .

قَالَ عِكْرِمَةُ : غَيْرَ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَلِمَةً حَسَنَةً قَالَ الْمُشْرِكُونَ : إنَّا مَنَعْنَا مُحَمَّدًا أَنْ يَطُوفَ بِالْبَيْتِ ، وَإِنَّا نَأْذَنُ لَك .

(249/344)

فَقَالَ : لَا ، لِي فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .

﴿ قَالَ الْقَاضِي : وَاتِّبَاعُ الْقُرْآنِ أَوْلَى فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ ﴾ الْآيَةَ .

فَأَخْبَرَ عَنْهُ بِالْكُفْرِ وَالْمَوْتِ عَلَى الْفِسْقِ .

وَهَذَا عُمُومٌ فِي الَّذِي نَزَلَتْ الْآيَةُ بِسَبَبِهِ ، وَفِي كُلِّ مُنَافِقٍ مِثْلِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(250/344)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾

يعني : لا تصل أبداً على من مات من المنافقين .

﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ ، يعني : لا تدفنه .

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بالله وَرَسُولِهِ ﴾ في السر ، ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فاسقون ﴾ ؛ يعني : ماتوا على الكفر .

قال مقاتل : ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم جاء إليه عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول ، وهو رأس المنافقين حين مات أبوه ، فقال : أنشدك الله أن لا تشمت بي الأعداء .

فطلب منه أن يصلي على أبيه ، فأراد النبي أن يفعل ، فنزلت هذه الآية ، فانصرف النبي عليه السلام ولم يصل عليه .

وقال في رواية الكلبي : لما اشتكى عبد الله بن أُبي ابن سلول ، عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فطلب منه عبد الله أن يصلي عليه إذا مات ، وأن يقوم على قبره ، وأن يكفنه في القميص الذي يلي جلده فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ قال عمر : فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد أن يصلي عليه فقلت : يا رسول الله ، أتصلي عليه وهو صاحب كذا وكذا ؟ فقال : " دَعْنِي يا عُمَر " ثم عدت ثانياً ، ثم عدت ثالثاً ،

فنزلت هذه الآية .

وروى عكرمة ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قد صلى عليه ، وقام على قبره ، وكفنه في قميصه ، فنزل ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ الآية فنهي أن يصلي على أحد من المنافقين بعده .

قال ابن عباس : والله لا أعلم أي صلاة كانت ؟ وما خادع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنساناً قط .

وفي خبر آخر أنّ عمر قال يا رسول الله أتصلي عليه ، وتعطيه قميصك وهو كافر منافق ؟

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وَمَا عَلِمْتَ يا عُمَرُ ، عَسَى أَنْ يُسْلِمَ بِسَبَبِ هذا القَمِيصِ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، وَلاَ يُغْنِيهِ قَمِيصٌ مِنْ عَذابِ الله شَيْئاً " .

فأسلم من أهاليه ومن بني الخزرج خلق كثير .

وقالوا : لولا أن عبد الله عرفه حقاً ، ما تبرك بقميصه ، وما طلب منه أن يصلي عليه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(251/344)

وقال الثعلبي :

﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾

قال المفسرون بروايات مختلفة : " بعث عبد الله بن أُبي بن سلول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مريض فلما دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أهلكك يهود ، فقال : يا رسول الله إني لم أبعث اليك لتؤنبني ولكن بعثت اليك لتستغفر لي وسأله أن يكفنه في قميصه ويصلي عليه ، فلما مات عبد الله بن أُبي إنطلق ابنه إلى النبي (عليه السلام) ودعاه إلى جنازة أبيه فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما اسمك ؟ قال : الحباب بن عبد الله فقال صلى الله عليه وسلم : أنت عبد الله بن عبد الله ، فإنَّ الحباب هو الشيطان " . ثم انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قام قال له عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : يا رسول الله تصلي على عدو الله ابن أُبي القائل يوم كذا وكذا ، وجعل يعد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم حتى إذا أكثر عليه قال : عني يا عمر إنما خيرني الله فاخترت ، قيل لي ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ﴾ هو أعلم فإن زدت على السبعين غفر له ؟ ؟ ثم شهَّده وكفَّنه في قميصه ونفث في جنازته ودلاه في قبره " .

قال عمر (رضي الله عنه) : فعجبت من جرأتي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . فما لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ يسيراً حتى نزلت ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ

مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ ﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ أي لا تصلي على قبره بمحل لا تتولَّ دفنه : من قولهم قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره .

(252/344)

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قبض ، " وعُيِّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يُسلم به ألف من قومه " .

قال الزجاج : فأسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب الإستغفار بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكروا أنّ النبي صلى الله عليه وسلم أسرّ إلى حذيفة أثني عشر رجلا من المنافقين فقال ستة يكفيهم الله بألف مائة شهاب من نار تأخذ كتف أحدهم حتى يفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتاً . فسأل عمر حذيفة عنهم فقال : ما أنا بمخبرك أحدٌ منهم ما كان حياً . فقال عمر : يا حذيفة أمنهم أنا ؟ قال : لا . قال : أفي أصحابي منهم أحد . فقال : رجل واحد . قال : قال : فكأنما دلّ عليهم عمر حتى نزعه من غير أن يخبره به .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾

لما احتضر عبد الله بن أبي بن سلول أتى ابنُه النبي صلى الله عليه وسلم فسأله أن يصلي عليه وأن يعطيه قميصه ليكفن فيه فأعطاه إياه وهو عرق فكفنه فيه وحضره ، فقيل إنه أدركه حياً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَهْلَكَهُمُ اليَهُودُ " فقال : يا رسول الله لا تؤنبني واستغفر لي ، فلما مات ألبسه قميصه وأراد الصلاة عليه فجذبه عمر رضي الله عنه وقال : يا رسول الله أليس الله قد نهاك عن الصلاة عليهم ؟ فقال : "يَا عُمَرُ خَيَّرَنِي رَبِّي فَقَالَ : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ لأَزِيدَنَّ عَلَى السَّبعِينَ " فصلى عليه . فنزلت ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ الآية ، فما صلى بعدها على منافق ، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وجابر وقتادة .

وقال أنس بن مالك : أراد أن يصلي عليه فأخذ جبريل بثوبه وقال ﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّاتَ أَبَداً ﴾ .

﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ يعني قيام زائر ومستغفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(254/344)

وقال ابن عطية :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾

هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فروى أنس بن مالك أن رسول الله عليه وسلم لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريل عليه السلام ، فجذبه بثوبه وتلا عليه ، ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية ، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يصل عليه ، وتظاهرت الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الآية نزلت بعد ذلك ، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر ، قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج ووضعه على ركبته ونفث عليه من ريقه ، وألبسه قميصه ، وروي في ذلك أن عبد الله بن أبي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه " .

وروي أن ابنه عبد الله بن عبد الله جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موت أبيه فرغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه ، ففعل ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه قام إليه عمر رضي الله عنه ، فقال يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم ؟ وجعل يعدد أفعال عبد الله ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " أخر عني يا عمر ، فإني خيرت ، ولو أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت " وفي حديث آخر " إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً وإني لأرجو أن يسلم بفعلي هذا ألف رجل من قومي " ، كذا في بعض الروايات ، يريد من منافقي العرب ، والصحيح أنه قال رجال من قومه ، فسكت عمر وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله ، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك ، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم لموضع إظهاره الإيمان ، ومحال أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره وبعد هذا والله أعلم ، عين له من لا يصلي عليه .

(255/344)

ووقع في معاني أبي إسحاق وفي بعض كتب التفسير ، فأسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرغبة من عبد الله ألف رجل من الخزرج .

قال القاضي أبو محمد : وهذا ضعيف ، قاله من لم يعرف عدة الأنصار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(256/344)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم ﴾

سبب نزولها : أنه " لما توفي عبد الله ابن أُبيّ ، جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أعطني قميصك حتى أكفنه فيه ، وصلِّ عليه ، واستغفر له .

فأعطاه قميصه ؛ فقال : آذِنِّي أصلي عليه ، فآذنه ، فلما أراد أن يصلي عليه ، جذبه عمر بن الخطاب ، وقال : أليس قد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : أنا بين خيرتين : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 81] فصلى عليه ، فنزلت هذه الآية ، رواه نافع عن ابن عمر .

قال قتادة : ذُكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : ما يُغْني عنه قميصي من عذاب الله تعالى ، والله إني لأرجو أن يُسْلِمَ به ألف من قومه " قال الزجاج : فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لمَّا رأوه يطلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأراد

الصلاة عليه .

فأما قوله : ﴿ منهم ﴾ فانه يعني المنافقين .

وقوله ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ قال المفسرون : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا دُفن الميت ، وقف على قبره ودعا له ؛ فنهي عن ذلك في حق المنافقين .

وقال ابن جرير : معناه : لا تتولَّ دفنه ؛ وهو من قولك : قام فلان بأمر فلان ، وقد تقدم تفسيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(257/344)

وقال القرطبى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأولى روي أن هذه الآية نزلت في شأن عبد الله بن أبي بن سَلُول وصلاةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ثبت ذلك في الصحيحين وغيرهما .

وتظاهرت الروايات بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأن الآية نزلت بعد ذلك .

وُروي عن أنس بن مالك " أن النبيّ صلى الله عليه وسلم لما تقدّم ليصلي عليه جاءه جبريل فَجبذ ثوبه وتلا عليه ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ الآية ؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يصلّ عليه " والروايات الثابتة على خلاف هذا ؛ ففي البخاري عن ابن عباس قال : " فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم انصرف ، فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من "براءة" " ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ .

ونحوه عن ابن عمر ؛ خرّجه مسلم .

قال ابن عمر : " لما تُوُفِّيَ عبد الله بن أبيّ بن سَلُول جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلّي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلّي عليه ، فقام عمر وأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما خيّرني الله تعالى فقال : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ وسأزيد على سبعين" قال : إنه منافق .

(258/344)

فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل ﴿ وَلَا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ فترك الصلاة عليهم " وقال بعض العلماء : إنما صلى النبيّ صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبيّ بناء على الظاهر من لفظ إسلامه .

ثم لم يكن يفعل ذلك لمّا نُهي عنه .

الثانية إن قال قائل فكيف قال عمر : أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؛ ولم يكن تقدّم نهي عن الصلاة عليهم .

قيل له : يحتمل أن يكون ذلك وقع له في خاطره ، ويكون من قبيل الإلهام والتحدّث الذي شهد له به النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقد كان القرآن ينزل على مراده ، كما قال : وافقتُ ربيِّ في ثلاث .

وجاء : في أربع .

وقد تقدّم في البقرة .

فيكون هذا من ذلك .

ويحتمل أن يكون فهم ذلك من قوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية .

لا أنه كان تقدّم نهي على ما دلّ عليه حديث البخاريّ ومسلم .

والله أعلم .

قلت : ويحتمل أن يكون فهِمه من قوله تعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] لأنها نزلت بمكة .

وسيأتي القول فيها .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ استغفر لَهُمْ ﴾ الآية .

بيّن تعالى أنه وإن استغفر لهم لم ينفعهم ذلك وإن أكثر من الاستغفار .

قال القُشَيريّ : ولم يثبت ما يروى أنه قال : " لأزيدنّ على السبعين " .

قلت : وهذا خلاف ما ثبت في حديث ابن عمر " وسأزيد على سبعين " وفي حديث ابن عباس " " لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر لهم لزدت عليها " .

قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم " خرّجه البخاري .

الرابعة واختلف العلماء في تأويل قوله : ﴿ استغفر لَهُمْ ﴾ هل هو إياس أو تخيير ؛ فقالت طائفة : المقصود به اليأس بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ .

وذِكر السبعين وفاقٌ جرى ، أو هو عادتهم في العبارة عن الكثرة والإغياء .

فإذا قال قائلهم : لا أكلمه سبعين سنة صار عندهم بمنزلة قوله : لا أكلمه أبداً .

ومثله في الإغياء قوله تعالى : ﴿ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً ﴾ [الحاقة : 32] ، وقوله عليه السلام : " من صام يوماً في سبيل الله باعد الله وجهه عن النار سبعين خريفاً "

وقالت طائفة : هو تخيير منهم الحسن وقتادة وعُروة إن شئت استغفر لهم وإن شئت لا تستغفر .

ولهذا لما أراد أن يصلّي على ابن أبيّ قال عمر : أتصلّي على عدوّ الله ، القائل يوم كذا كذا وكذا ؟ فقال : " إني خُيّرت فاخترت " قالوا : ثم نسخ هذا لما نزل ﴿ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [المنافقون : 6] .

﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ أي لا يغفر الله لهم لكفرهم .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية .

وهذه الآية نزلت بمكة عند موت أبي طالب ، على ما يأتي بيانه .

وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافراً .

وهو متقدّم على هذه الآية التي فهم منها التخيير بقوله : " إنما خيّرني الله " وهذا مشكل .

فقيل : إن استغفاره لعمه إنما كان مقصوده استغفاراً مرجوّ الإجابة حتى تحصل له المغفرة .

وفي هذا الاستغفار استأذن عليه السلام ربّه في أن يأذن له فيه لأمّه فلم يأذن له فيه .

وأما الاستغفار للمنافقين الذي خُير فيه فهو استغفار لسانِيّ لا ينفع ، وغايته تطييب قلوب

بعض الأحياء من قرابات المستغفر له .

والله أعلم .

السادسة واختلف في إعطاء النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه لعبد الله ؛ فقيل : إنما أعطاه لأن عبد الله كان قد أعطى العباس عمّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه يوم بدر .

(260/344)

وذلك أن العباس لما أسِر يوم بدر على ما تقدّم وسُلب ثوبه رآه النبي صلى الله عليه وسلم كذلك فأشفق عليه ، فطلب له قميصاً فما وُجد له قميص يقادره إلا قميص عبد الله ، لتقاربهما في طول القامة ؛ فأراد النبي صلى الله عليه وسلم بإعطاء القميص أن يرفع اليد عنه في الدنيا ، حتى لا يلقاه في الآخرة وله عليه يد يكافئه بها ، وقيل : إنما أعطاه القميص إكراماً لابنه وإسعافاً له في طِلبته وتطييباً لقلبه .

والأوّل أصح ؛ خرّجه البخاريّ عن جابر بن عبد الله قال : لما كان يوم بدر أُتي بأسارى وأُتي بالعباس ولم يكن عليه ثوب ؛ فطلب النبيّ صلى الله عليه وسلم له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أُبَيّ يَقدر عليه ، فكساه النبيّ صلى الله عليه وسلم إياه ؛ فلذلك نزع النبيّ صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

" إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً وإني لأرجو أن يسلم بفعلي هذا ألف رجل من قومي

"كذا في بعض الروايات " من قومي " يريد من منافقي العرب .

والصحيح أنه قال : " رجال من قومه " ووقع في مغازي ابن إسحاق وفي بعض كتب التفسير

: فأسلم وتاب لهذه الفعلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف رجل من الخزرج .

السابعة لما قال تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ قال علماؤنا : هذا نص

في الامتناع من الصَّلاة على الكفار ، وليس فيه دليل على الصَّلاة على المؤمنين .

واختلف هل يؤخذ من مفهومه وجوب الصَّلاة على المؤمنين على قولين .

يؤخذ لأنه علّل المنع من الصَّلاة على الكفار لكفرهم لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ

وَرَسُولِهِ ﴾ ؛ فإذا زال الكفر وجبت الصَّلاة .

ويكون هذا نحو قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ [المطففين : 15]

يعني الكفار ؛ فدلّ على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون ؛ فذلك مثله .

والله أعلم .

(261/344)

أو تؤخذ الصَّلاة من دليل خارج عن الآية ، وهي الأحاديث الواردة في الباب ، والإجماع .

ومنشأ الخلاف القول بدليل الخطاب وتركه .

روى مسلم " عن جابر بن عبد الله قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلّوا عليه" قال : فقمنا فصففنا صفين ؛ يعني النجاشي " وعن أبي هريرة : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نعى للناس النجاشيّ في اليوم الذي مات فيه ، فخرج بهم إلى المصلّى وكبر أربع تكبيرات " وأجمع المسلمون على أنه لا يجوز ترك الصَّلاة على جنائز المسلمين ، من أهل الكبائر كانوا أو صالحين ؛ وراثةً عن نبيّهم صلى الله عليه وسلم قولاً وعملاً .

والحمد لله .

واتفق العلماء على ذلك إلاَّ في الشهيد كما تقدّم ؛ وإلا في أهل البدع والبغاة .

الثامنة والجمهور من العلماء على أن التكبير أربع .

قال ابن سيرين : كان التكبير ثلاثاً فزادوا واحدة .

وقالت طائفة : يكبر خمساً ؛ ورُوي عن ابن مسعود وزيد بن أرقْم .

وعن عليّ : ست تكبيرات .

وعن ابن عباس وأنس بن مالك وجابر بن زيد : ثلاث تكبيرات والمعوّل عليه أربع .

روى الدَّارَقُطْنِيّ عن أُبَي بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إن الملائكة

صلّت على آدم فكبّرت عليه أربعاً وقالوا هذه سنتكم يا بني آدم " .

التاسعة ولا قراءة في هذه الصَّلاة في المشهور من مذهب مالك ، وكذلك أبو حنيفة والثوريّ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا صلّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء " رواه أبو داود من حديث أبي هريرة .

وذهب الشافعيّ وأحمد وإسحاق ومحمد بن مسلمة وأشهب من علمائنا وداود إلى أنه يقرأ بالفاتحة ؛ لقوله عليه السَّلام : " لا صلاة إلاَّ بفاتحة الكتاب " حملاً له على عمومه .

وبما خرّجه البخاريّ عن ابن عباس وصلّى على جنازة فقرأ بفاتحة الكتاب وقال : لتعلموا أنها سنة .

(262/344)

وخرّج النّسائيّ من حديث أبي أمامة قال : السنة في الصَّلاة على الجنائز أن يقرأ في التكبيرة الأُولى بأُمّ القرآن مخافتة ، ثم يكبر ثلاثاً ، والتسليم عند الآخرة .

وذكر محمد بن نصر المْروَزِيّ عن أبي أُمامة أيضاً قال : السنة في الصَّلاة على الجنائز أن تكبر ، ثم تقرأ بأُمّ القرآن ، ثم تصلّي على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم تخلص الدعاء للميت . ولا يقرأ إلاَّ في التكبيرة الأُولى ثم يسلم .

قال شيخنا أبو العباس : وهذان الحديثان صحيحان ، وهما ملحقان عند الأُصوليين بالمسند .

والعمل على حديث أبي أُمامة أولى ؛ إذ فيه جمع بين قوله عليه السَّلام : " لا صلاة " وبين إخلاص الدعاء للميت .

وقراءة الفاتحة فيها إنما هي استفتاح للدعاء .

والله أعلم .

العاشرة وسنة الإمام أن يقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ، لما رواه أبو داود عن أنس وصلّى على جنازة فقال له العلاء بن زياد : يا أبا حمزة ، هكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلّي على الجنائز كصلاتك ، يكبر أربعاً ويقوم عند رأس الرجل وعجيزة المرأة ؟ قال ؛ نعم .

ورواه مسلم عن سَمُرة بن جُنْدُب قال : صلّيت خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم على أُمّ كعب ماتت وهي نُفَساء ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم للصَّلاة عليها وسَطها .

الحادية عشرة قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دُفن الميت وقف على قبره ودعا له بالتثبت ، على ما بيناه (في التذكرة) والحمد لله .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية

قال قتادة : بعث عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو مريض ليأتيه قال فنهاه عمر عن ذلك فأتاه نبي الله (صلى الله عليه وسلم) فلما دخل عليه نبي الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " أهلكك حب اليهود " فقال يا نبي الله إني لم أبعث إليك لتؤنبني ولكن بعثت إليك لتستغفر لي وسأله قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه واستغفر له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمات فكفنه في قميصه (صلى الله عليه وسلم) ونفث في جلده ودلاه في قبره فأنزل الله سبحانه وتعالى ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره الآية (خ) .

عن عمر بن الخطاب : قال لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله صلى الله علي وسلم ليصلي عليه فلما قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي عليه فلما قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وثبت إليه فقلت يا رسول الله أتصلي على ابن أبي سلول وقد قال يوم كذا كذا وكذا عدد عليه وقوله فتبسم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقال : " أخر عني يا عمر " فلما أكثرت عليه قال : " إني خيرت فاخترت لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها " قال فصلى

عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إلى قوله وهم فاسقون قال فعجبت بعد من جرأتي على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يومئذ والله ورسوله أعلم .

وأخرجه الترمذي وزاد فيه فما صلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعده على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه الله تعالى (ق) عن جابر قال : أتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبد الله بن أبي بعد ما أدخل حفرته فأمر به فاخرج فوضعه على ركبتيه ونفث فيه من ريقه وألبسه قميصه والله أعلم .

(264/344)

قال : وكان كسا عباساً قميصاً قال سفيان وقال أبو هارون : وكان على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قميصان فقال له ابن عبد الله يا رسول الله ألبس عبد الله قميصك الذي يلي جلدك .

قال سفيان : فيرون أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ألبس عبد الله قميصه مكافأة لما صنع وفي رواية عن جابر قال : لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس ولم يكن عليه

ثوب فنظر النبي (صلى الله عليه وسلم) له قميصاً فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي إياه فلذلك نزع النبي (صلى الله عليه وسلم) قميصه الذي ألبسه .

(فصل)

قد وقع في هذه الأحاديث التي تتضمن قصة موت عبد الله بن أبي بن سلول المنافق صورة اختلاف في الروايات ففي حديث ابن عمر المتقدم ، أنه لما توفي عبد الله بن أبي سلول أتى ابنه عبد الله إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه وصلى عليه وفي حديث عمر بن الخطاب من إفراد البخاري أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) دعى له ليصلي عليه .

وفي حديث جابر : أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أتاه بعد ما أدخل حفرته فأمر به فأخرج فوضعه على ركبتيه ونفث عليه من ريقه وألبسه .

قميصه ووجه الجمع بين هذه الروايات أنه (صلى الله عليه وسلم) أعطاه قميصه فكفن فيه ثم إنه (صلى الله عليه وسلم) صلى عليه وليس في حديث جابر ذكر الصلاة عليه فالظاهر والله أعلم أنه صلى عليه أولاً كما في حديث عمر وابن عمر ثم إن رسول الله (

صلى الله عليه وسلم) أتاه ثانياً بعد ما أدخل حفرته فأخرجه منها ونزع عنه القميص الذي أعطاه وكفن فيه لينفث عليه من ريقه ثم إنه (صلى الله عليه وسلم) ألبسه قميصه بيده الكريمة فعل هذا كله بعبد الله بن أبي تطييباً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً مسلماً صالحاً مخلصاً ، وأما قول قتادة : إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عاده في مرضه وأنه سأله أن يستغفر له وأن يعطيه قميصه وأن يصلي عليه فأعطاه قميصه واستغفر له وصلى عليه ونفث في جلده ودلاه في حفرته فهذه جمل من القول ظاهرها الترتيب وما المراد بهذا الترتيب إلا توفيقاً بين الأحاديث فيكون قوله : ونفث في جلده ودلاه في قبره جملة منقطعة عما قبلها .

يعني أنه (صلى الله عليه وسلم) فعل ذلك بعد ما أعطاه القميص وبعد أن صلى عليه والله أعلم .

(266/344)

وقال القرطبي في شرح صحيح مسلم له أن عبد الله بن أبي بن سلول كان سيد الخزرج في آخر جاهليتهم فلما ظهر النبي (صلى الله عليه وسلم) وانصرف إليه الخزرج وغيرهم حسده وناصبه العداوة غير أن الإسلام غلب عليه فنافق وكان رأساً في المنافقين

وأعظمهم نفاقاً وأشدهم كفراً وكان المنافقون كثيراً حتى لقد روى عن ابن عباس أنهم كانوا ثلثمائة رجل ومائة وسبعين امرأة وكان ولده عبد الله يعني ولد عبد الله بن أبي من فضلاء الصحابة وأصدقهم إسلاماً وأكثرهم عبادة وأشرحهم صدراً وكان أبر الناس بأبيه ومع ذلك فقد قال يوماً للنبي (صلى الله عليه وسلم) : يا رسول الله إنك لتعلم أني من أبر الناس بأبي وإن أمرتني أن آتيك برأسه فعلت فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : بل نعفو عنه وكان من أحرص الناس على إسلام أبيه وعلى أن ينتفع من بركات النبي (صلى الله عليه وسلم) بشيء ولذلك لما مات أبوه سأل النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يعطيه قميصه لكيفنه فيه فينال من بركاته فأعطاه وسأله أن يصلي عليه فصلى عليه كل ذلك إكراماً لابنه عبد الله وإسعافاً له ولطلبته من قول عمر تصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه يحتمل أن يكون قبل نزول ولا تصل على أحد منهم مات أبداً .

ويظهر من هذا السياق أن عمر وقع في خاطره أن الله نهاه عن الصلاة عليه فيكون هذا من قبيل الإلهام والتحديث الذي شهد له به النبي (صلى الله عليه وسلم) .

ويحتمل أن يكون فهمه من سياق قوله : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وهذان التأويلان فيهما بعد .

قال القرطبي : والذي يظهر لي ، والله أعلم ، أن البخاري ذكر هذا الحديث من رواية ابن عباس وساقة سياقة هي أبين من هذه وليس فيها هذا اللفظ فقال عن ابن عباس عن عمر لما مات عبد الله بن أبي بن سلول دعى له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فلما قام رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال عمر : وثبت إليه الحديث ، إلى قوله فصلى عليه ثم انصرف فلم يلبث إلا يسيراً حتى أنزلت عليه الآيتان من براءة .

قال القرطبي : وهذا مساق حسن وتنزيل متقن ليس فيه شيء من الإشكال المتقدم فهو الأولى وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " سأزيد على السبعين " وعد بالزيادة وهو مخالف لما في حديث ابن عباس عن ابن عمر فإنه فيه لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت وهذا تقييد لذلك الوعد المطلق فإن الأحاديث يفسر بعضها بعضاً ويقيد بعضها بعضاً فلذلك قال لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت فقد علم أنه لا يغفر له .

وقوله (صلى الله عليه وسلم) : " إني خيرت " مشكل مع قوله تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية وهذا يفهم منه النهي عن الاستغفار لمن مات كافراً وهو متقدم على الآية التي فيها التخيير والجواب عن هذا الإشكال أن المنهى عنه استغفاره لمن تحقق موته على الكفر والشرك .

وأما استغفاره لأولئك المنافقين المخير فيهم فهو قد علم (صلى الله عليه وسلم) أنه لا يقع

ولا ينفع وغايته وإن وقع كان تطييباً لقلوب الأحياء من قراباتهم فانفصل الاستغفار المنهى عنه من المخير فيه وارتفع الإشكال بحمد الله والله أعلم .

(268/344)

وقال الشيخ محيي الدين النووي : إنما أعطاه قميصه ليكفنه فيه تطييباً لقلب ابنه عبد الله فإنه كان صحابياً صالحاً وقد سأل ذلك فأجابه إليه وقيل بل أعطاه مكافأة لعبد الله بن أبي المنافق الميت لأنه ألبس العباس حين أسر يوم بدر قميصاً وفي الحديث بيان مكارم أخلاق النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد علم ما كان من هذا المنافق من الإيذاء له وقابله بالحسنى وألبسه قميصه كفناً وصلى عليه واستغفر له قال الله سبحانه وتعالى وإنك لعلى خلق عظيم وقال البغوي : قال سفيان بن عيينة كانت له يد عند رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأحب ان يكافئه بها ويروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كلم فيما فعل بعبد الله بن أبي فقال (صلى الله عليه وسلم) : " وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه " فيروى أنه أسلم ألف من قومه لما رأوه يتبرك بقميص النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ يعني لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم

قام فلان بأمر فلان إذا كفاه أمره وناب عنه فيه ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ وهذا تعليل لسبب المنع من الصلاة عليه والقيام على قبرة ولما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله عليه وسلم على منافق ولا قام على قبره وبعدها .

فإن قلت : الفسق أدنى حالاً من الكفر ولما ذكر في تعليل هذا النهي كونه كافراً دخل تحته الفسق وغيره فما الفائدة في وصفه بكونه فاسقاً بعد ما وصفه بالكفر قلت إن الكافر قد يكون عدلاً في نفسه بأن يؤدي الأمانة ولا يضمر لأحد سوءاً وقد يكون خبيثاً في نفسه كثير الكذب والمكر والخداع وإضمار السوء للغير وهذ أمر مستقبح عند كل أحد ولما كان المنافقون بهذه الصفة الخبيثة وصفهم الله سبحانه وتعالى بكونهم فاسقين بعد أن وصفهم بالكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(269/344)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾

النهي عن الصلاة على المنافقين إذا ماتوا عقوبة ثانية وخزي متأبد عليهم .

وكان فيما روي يصلي على المنافقين إذا ماتوا ، ويقوم على قبورهم بسبب ما يظهرونه من الإسلام ، فإنهم كانوا يتلفظون بكلمتي الشهادة ، ويصلون ، ويصومون ، فبنى الأمر على ما ظهر من أقوالهم وأفعالهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، ولم يزل على ذلك حتى وقعت واقعة عبد الله بن أبي .

وطول الزمخشري وغيره في قصته ، فتظافرت الروايات أنه صلى عليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فنزلت هذه الآية بعد ذلك .

وروى أنس أنه لما تقدم ليصلي عليه جاءه جبريل فجذبه بثوبه وتلا عليه : ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، فانصرف ولم يصل .

وذكروا محاورة عمر لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين جاء ليصلي عليه .

ومات صفة لاحد ، فقدم الوصف بالمجرور ثم بالجملة ، وهو ماض بمعنى المستقبل ، لأن الموت غير موجود لا محالة .

نهاه الله عن الصلاة عليه ، والقيام على قبره وهو الوقوف عند قبره حتى يفرغ من دفنه .

وقيل : المعنى ولا تتولوا دفنه وقبره ، فالقبر مصدر .

كان (صلى الله عليه وسلم) إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له ، فنهي عن ذلك في حق المنافقين ، فلم يصل بعد على منافق ، ولا قام على قبره .

إنهم كفروا تعليل للمنع من الصلاة والقيام بما يقتضي الامتناع من ذلك ، وهو الكفر والموافاة عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(270/344)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلَا تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ ﴾

صفةٌ لأحد وإنما جيء بصيغة الماضي تنبيهاً على تحقق الوقوعِ لا محالة ﴿ أَبَدًا ﴾ متعلقٌ بالنهي أي لا تدْعُ ولا تستغفرْ لهم أبداً ﴿ وَلَا تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ أي لا تقِفْ عليه للدفن أو للزيارة والدعاء . (روي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم فلما مرِض رأسُ النفاق عبدُ اللَّه بنُ أُبيِّ بنِ سَلول بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليأتيَه فلما دخل عليه قال عليه السلام : " أهلكك حبُّ اليهود " فقال : يا رسول بعثتُ إليك لتستغفرَ لي لا لتؤنِّبني وسأله أن يكفِّنه في شِعاره الذي يلي جلدَه ويصليَ عليه ، فلما مات دعاه ابنُه وكان مؤمناً صالحاً فأجابه عليه السلام تسليةً له ومراعاةً لجانبه وأرسل إليه قميصَه فكُفِّن فيه فلما همّ بالصلاة أو صلّى نزلت) وعن عمرَ رضي الله عنه أنه قال : لما هلك عبدُ اللَّه بن أبيّ ووضعناه ليصلى عليه قام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقلت :

أتصلي على عدوّ الله القائلِ يومَ كذا كذا وكذا والقائلِ يوم كذا كذا وكذا وعدّدتُ أيامَه الخبيثةَ فتبسم عليه السلام وصلى عليه ثم مشى معه وقام على حُفرته حتى دُفن فوالله ما لبث إلا يسيراً حتى نزل ﴿ وَلَا تُصَلِّ ﴾ الخ فما صلى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على منافق ولا قام على قبره ، وإنما لم يُنْهَ عن التكفين بقميصه صلى الله عليه وسلم لأن الضنَّةَ بالقميص كانت مظِنّةَ الإخلالِ بالكرم على أنه كان مكافأةً لقميصه الذي كان ألبسه العباسَ رضي الله تعالى عنه حين أُسر ببدر والخبرُ مشهور ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ تعليلٌ للنهي على معنى أن الاستغفارَ للميت والوقوفَ على قبره إنما يكون لاستصلاحه وذلك مستحيلٌ في حقهم لأنهم استمرّوا على الكفر بالله ورسوله مدةَ حياتِهم ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي متمرّدون في الكفر خارجون عن حدوده كما بين من معنى الفسق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(271/344)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾

إشارة إلى إهانتهم بعد الموت .

أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال : " لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما خيرني الله فقال : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ [التوبة : 08] وسأزيده على السبعين قال : إنه منافق قال فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ الآية " .

(272/344)

وفي رواية أخرى له عن ابن عباس عن عمر بن الخطاب أنه لما مات عبد الله بن أبي ابن سلول دعى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه فلما قام وثبت إليه فقلت : يا رسول الله أتصلي على ابن أبي وقد قال يوم كذا كذا وكذا أعدد عليه قوله فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : " أخر عني يا عمر " فلما أكثرت عليه قال : " أخر عني لو أعلم لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها " قال فصلي عليه عليه الصلاة والسلام ثم

انصرف فلم يمكث إلا يسيراً حتى نزلت الآيتان من براءة ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُمْ فاسقون ﴾ فعجبت من جراءتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهر هذين الخبرين أنه لم ينزل بين ﴿ استغفر لَهُمْ أَوَلاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 80] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ شيء ينفع عمر رضي الله تعالى عنه وإلا لذكر ، والظاهر أن مراده بالنهي في الخبر الأول ما فهمه من الآية الأولى لا ما يفهم كما قيل من قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] لعدم مطابقة الجواب حينئذ كما لا يخفى ، وأخرج أبو يعلى .

(273/344)

وغيره عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يصلي على ابن أبي فأخذ جبريل عليه السلام بثوبه فقال : دولا تصل ﴾ الآية ، وأكثر الروايات أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وأن عمر رضي الله تعالى عنه أحب عدم الصلاة عليه وعد ذلك أحد موافقاته للوحي وإنما لم ينه صلى الله عليه وسلم عن التكفين بقميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الإخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذي ألبسه العباس رضي الله تعالى عنه حين أسر ببدر فإنه جيء به رضي الله تعالى عنه ولا

ثوب عليه وكان طويلاً جسيماً فلم يكن ثوب بقدر قامته غير ثوب ابن أبي فكساه إياه ، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنهم ذكروا القميص بعد نزول الآية فقال عليه الصلاة والسلام : "وما يغنى عنه قميصي والله إني لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج" وقد حقق الله تعالى رجاء نبيه كما في بعض الآثار ، والأخبار فيما كان منه عليه الصلاة والسلام مع ابن أبي من الصلاة عليه وغيرها لا تخلو عن التعارض ، وقد جمع بينهما حسبما أمكن علماء الحديث ، وفي لباب التأويل نبذة من ذلك فليراجع .

(274/344)

والمراد من الصلاة المنهى عنها صلاة الميت المعروفة وهي متضمنة للدعاء والاستغفار والاستشفاع له قيل : والمنع عنها لمنعه عليه الصلاة والسلام من الدعاء للمنافقين المفهوم من الآية السابقة أو من قوله سبحانه : ﴿ ﴾ الآية ، وأكثر الروايات أنه صلى الله عليه وسلم صلى عليه وأن عمر رضي الله تعالى عنه أحب عدم الصلاة عليه وعد ذلك أحد موافقاته للوحي وإنما لم ينه صلى الله عليه وسلم عن التكفين بقميصه ونهى عن الصلاة عليه لأن الضنة بالقميص كانت مظنة الإخلال بالكرم على أنه كان مكافأة لقميصه الذي ألبسه العباس رضي الله تعالى عنه حين أسر ببدر فإنه جيء به رضي الله تعالى عنه ولا

ثوب عليه وكان طويلاً جسيماً فلم يكن ثوب بقدر قامته غير ثوب ابن أبي فكساه إياه ، وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنهم ذكروا القميص بعد نزول الآية فقال عليه الصلاة والسلام : " وما يغنى عنه قميصي والله إني لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني الخزرج " وقد حقق الله تعالى رجاء نبيه كما في بعض الآثار ، والأخبار فيما كان منه عليه الصلاة والسلام مع ابن أبي من الصلاة عليه وغيرها لا تخلو عن التعارض ، وقد جمع بينهما حسبما أمكن علماء الحديث ، وفي لباب التأويل نبذة من ذلك فليراجع .

(275/344)

والمراد من الصلاة المنهى عنها صلاة الميت المعروفة وهي متضمنة للدعاء والاستغفار والاستشفاع له قيل : والمنع عنها لمنعه عليه الصلاة والسلام من الدعاء للمنافقين المفهوم من الآية السابقة أو من قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ [التوبة : 113] الخ ، وقيل : هي هنا بمعنى الدعاء ، وليس بذاك ، و ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف متعلق بالنهي ، وقيل : متعلق بمات ، والموت الأبدي كناية عن الموت على الكفر لأن المسلم يبعث ويحيا حياة طيبة ، والكافر وإن بعث لكنه للتعذيب فكأنه لم يحي ، وزعم بعضهم أنه لو تعلق بالنهي لزم أن لا تجوز الصلاة على من تاب منهم ومات على الإيمان مع أنه لا حاجة للنهي عن الصلاة عليهم إلى

قيد التأبيد ، ولا يخفى أنه أخطأ ولم يشعر بأن دمنهم ﴾ حال من الضمير في مات أي مات حال كونه منهم أي متصفاً بصفتهم وهي النفاق كقولهم : أنت مني يعني على طريقتي وصفتي كما صرحوا به على أنه لو جعل الجار والمجرور صفة لأحد لا يكاد يتوهم ما ذكر وكيف يتوهم مع قوله تعالى الآتي ﴿ منهم ﴾ حال من الضمير في مات أي مات حال كونه منهم أي متصفاً بصفتهم وهي النفاق كقولهم : أنت مني يعني على طريقتي وصفتي كما صرحوا به على أنه لو جعل الجار والمجرور صفة لأحد لا يكاد يتوهم ما ذكر وكيف يتوهم مع قوله تعالى الآتي ﴿ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ الخ ، وقوله : مع أنه لا حاجة إلى النهي الخ لظهور ما فيه لا حاجة إلى ذكره ، و ﴿ مَّاتَ ﴾ ماض باعتبار سبب النزول وزمان النهي ولا ينافي عمومه وشموله لمن سيموت ، وقيل : إنه بمعنى المستقبل وعبر به لتحققه ؛ والجملة في موضع الصفة لأحد ﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ أي لا تقف عليه ولا تتول دفنه من قولهم : قام فلان بأمر فلان إذا كفاه إياه وناب عنه فيه ، ويفهم من كلام بعضهم أن ﴿ على ﴾ بمعنى عند ، والمراد لا تقف عند قبره للدفن أو للزيارة ، والقبر في المشهور مدفن الميت ويكون بمعنى الدفن وجوزوا إرادته هنا أيضاً .

(276/344)

وفي فتاوي الجلال السيوطي هل يفسر القيام هنا بزيارة القبور وهل يستدل بذلك على أن الحكمة في زيارته صلى الله عليه وسلم قبر أمه أنه لاحيائها لتؤمن به بدليل أن تاريخ الزيارة كان بعد النهي ؟

الجواب المراد بالقيام على القبر الوقوف عليه حالة الدفن وبعده ساعة ، ويحتمل أن يعم الزيارة أيضاً أخذاً من الإطلاق وتاريخ الزيارة كان قبل النهي لا بعده فإن الذي صح في الأحاديث أنه صلى الله عليه وسلم زارها عام الحديبية والآية نازلة بعد غزوة تبوك ، قم الضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ خاص بالمنافقين وإن كان بقية المشركين يلحقون بهم قياساً ، وقد صح في حديث الزيارة أنه استأذن ربه في ذلك فأذن له وهذا الاذن عندي يستدل به على أنها من الموحدين لا من المشركين كما هو اختياري ، ووجه الاستدلال به أنه نهاه عن القيام على قبور الكفار وأذن له في القيام على قبر أمه فدل على أنها ليست منهم وإلا لما كان يأذن له فيه ، واحتمال التخصيص خلاف الظاهر ويحتاج إلى دليل صريح ، ولعله عليه الصلاة والسلام كان عنده وقفة في صحة توحيد من كان في الجاهلية حتى أوحى إليه صلى الله عليه وسلم بصحة ذلك ، فلا يرد أن استئذانه يدل على خلاف ذلك وإلا لزارها من غير استئذان اه وفي كون المراد بالقيام على القبر الوقوف عليه حالة الدفن وبعده ساعة خفاء إذ المتبادر من القيام على القبر ما هو أعم من ذلك نعم كان الوقوف بعد الدفن قدر نحر جزور مندوباً ولعله لشيوع ذلك إذ ذاك أخذ في مفهوم القيام على القبر ما أخذ .

وفي جواز زيارة قبور الكفار خلاف وكثير من القائلين بعدم الجواز حمل القيام على ما يعم الزيارة ومن أجاز استدل بقوله صلى الله عليه وسلم : "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة " فإنه عليه الصلاة والسلام علل الزيارة بتذكير الآخرة ولا فرق في ذلك بين زيارة قبور المسلمين وقبور غيرهم ، وتمام البحث في موضعه والاحتياط عندي عدم زيارة قبور الكفار ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ جملة مستأنفة سيقت لتعليل النهي على معنى أن الصلاة على الميت والاحتفال به إنما يكون لحرمته وهم بمعزل عن ذلك لأنهم استمروا على الكفر بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مدة حياتهم ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي متمردون في الكفر خارجون عن حدوده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ﴾

قال المهايمي : لأنها شفاعة ، ولا شفاعة في حقهم ﴿ وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾ أي : لا تقف عليه للدفن أو للزيارة والدعاء .

قال الشهاب : القبر مكان وضع الميت ، ويكون بمعنى الدفن ، وجوّز هنا :

﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ في الحياة في الباطن ﴿ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي : خارجون عن الإيمان الظاهر ، الذي كانوا به في حكم المؤمنين .

تنبيهات :

الأول : روى الشيخان في سبب نزول الآية عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما توفي عبد الله ابن أبيّ ، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه ، فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! تصلي عليه ، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إنما خيرني الله فقال : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ وسأزيده على السبعين > .

قال : إنه منافق . قال : فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله عزَّ وجلَّ

آية : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ الخ .

قال الحافظ أبو نعيم : وقع في رواية في قول عمر : أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين ؟ ، ولم يبيّن محل النهي ، فوقع بيانه في رواية أبي ضَمْرَة عن العمري : وهو أن مراده بالصلاة عليهم الإستغفار لهم ، ولفظه : وقد نهاك الله أن تستغفر لهم . انتهى .

(279/344)

يعني في قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ ، فإنها نزلت في قصة أبي طالب حين قال صلى الله عليه وسلم : < لأستغفرنّ لك ، ما لم أُنْهَ عنك > . وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة اتفاقاً ، ووفاة عبد الله بن أبيّ في ذي القعدة ، سنة تسع بعد قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك . كذا في " فتح الباري " .

ووقع في مسند الإمام أحمد ما تقدم من حديث عمر نفسه .

قال عمر : لما توفي عبد الله بن أبيّ دُعي له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عليه ، فلما وقف عليه يريد الصلاة عليه ، تحولت حتى قمتُ في صدره فقلت : يا رسول الله ! أعلى عدوّ الله : عبد الله بن أبيّ القائل يوم كذا ، كذا وكذا ؟ يعدّد أيامه ، قال : و رسول

الله صلى الله عليه وسلم يبتسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : < أَخِّرْ عني يا عمر ، إني خيرت فاخترت ، قد قيل لي : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ ﴾ الآية ، لو أعلم أني لو زدت على السبعين ، غُفِرَ له ، لزدت > .

قال : ثم صلى عليه ومشى معه وقام على قبره ، حتى فرغ منه . قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله ورسوله أعلم .

قال : فوالله ! ما كان إلا يسيراً حتى نزلت هاتان الآيتان : ﴿ وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً ﴾ الآية ، فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ، ولا قام على قبره ، حتى قبضه الله عزَّ وجلَّ .

ورواه البخاري والترمذي أيضاً .

(280/344)

وروي الإمام أحمد عن جابر قال : لما مات عبد الله بن أبيّ ، أتى ابنه النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إنك إن لمحفرته ، م نزل نُعيِّر به ، فأتاه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فوجده قد أدخل في حفرته فقال : < أَفَلَا قَبْلَ أن تدخلوه ؟ > فأخرج من حفرته ، وتفل عليه من ريقه من قرنه إلى قدمه ، وألبسه قميصه . ورواه النسائي ، وروى نحوه البخاري

والبزار في مسنده ، وزاد : فأنزل الله الآية .

زاد ابن إِسحاق في " المغازي " بسنده قال : فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله ، ولا قام على قبره .

وقد روى الإمام أحمد عن أبي قتادة قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذا دعي إلى جنازة سأل عنها ، فإِن أُثْنِيَ عليها خير قام فصلى عليها ، وإِن كان غير ذلك ، قال لأهلها : < شأنكم بها > . ولم يصل عليها .

الثاني : إِنما منع صلى الله عليه وسلم من الصلاة على أحدهم إِذا مات ، لأن صلاة الميت دعاء واستغفار واستشفاع له ، والكافر ليس بأهل لذلك .

الثالث : قال : السيوطي في " الإِكليل " : في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ الآية ، تحريم الصلاة على الكافر ، والوقوف على قبره ، وأن دفنه جائز ، ومفهومه وجوب الصلاة على المسلم ودفنه ، ومشروعية الوقوف على قبره ، والدعاء له ، والإِستغفار . انتهى .

قال عثمان رضي الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إِذا فرغ من دفن الميت ، وقف عليه وقال : < استغفروا لأخيكم ، واسألوا له التثبيت ، فإِنه الآن يُسْأَل > . - انفرد بإِخراجه أبو داود - .

الرابع : قال الحافظ ابن حجر في " الفتح " ظاهر الآية أنها نزلت في جميع المنافقين ، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم .

(281/344)

قال الواقدي : أنبأنا معمر عن الزهري قال : حذيفة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : < إِني مُسِرٌّ إليك سراً ، فلا تذكره لأحد ، إِني نهيت أن أصلي على فلان ، رهطٍ ذوي عدد من المنافقين > .

قال ، فلذلك كان عمر إِذا أراد أن يصلي على أحد استتبع حذيفة ، فإِن مشى معه ، وإِلا لم يصلّ عليه .

ومن طريق أخرى ، عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً .

وقال حذيفة مرة : إِنه لم يبق منهم غير رجل واحد . ولعل الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك ، أن الله علم أنهم يموتون على الكفر ، بخلاف من سواهم ، فإِنهم تابوا . انتهى .

انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 485.488 ﴾

(282/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) ﴾

لمّا انقضى الكلام على الاستغفار للمنافقين الناشىء ، عن الاعتذار والحلف الكاذبيْن وكان الإعلام بأن الله لا يغفر لهم مشوباً بصورة التخيير في الاستغفار لهم ، وكان ذلك يبقي شيئاً من طمعهم في الانتفاع بالاستغفار لأنهم يحسبون المعاملة الربانية تجري على ظواهر الأعمال والألفاظِ كما قدمناه في قوله : ﴿ فرح المخلفون ﴾ [التوبة : 81] ، تهيَّأ الحال للتصريح بالنهي عن الاستغفار لهم والصلاةِ على موتاهم ، فإنّ الصلاة على الميت استغفار .

فجملة ﴿ ولا تصل ﴾ عطف على جملة ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] عطفَ كلام مراد إلحاقه بكلام آخر لأنّ القرآن ينزل مراعىً فيه مواقع وضع الآي .

وضمير ﴿ منهم ﴾ عائد إلى المنافقين الذين عُرفوا بسيماهم وأعمالهم الماضية الذكر .

وسبب نزول هذه الآية ما رواه البخاري والترمذي من حديث عبد الله بن عباس عن عمر بن الخطاب قال : "لما مات عبد الله بنُ أُبَيّ بن سَلُول دُعِي له رسول الله ليصلي عليه ، فلمّا قام رسول الله وثَبْتُ إليه فقلت : يا رسول الله أتصلّي على ابن أُبيّ وقد قال يومَ كذا وكذا ،

كذا وكذا أعَدّدُ عليه قولَه ، فتبسّم رسول الله وقال : " أخِّرْ عنّي يا عمرُ " فلمّا أكثرت عليه قال : " إنّي خُيِّرتُ فاخترتُ ، لو أعلم أنّي لو زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها " قال : فصلى عليه رسول الله ثم انصرف فلم يمكث إلاّ يسيراً حتّى نزلتْ الآيتان من براءة ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ إلى قوله : ﴿ وهم فاسقون ﴾ قال : فعجبت بعدُ من جُرْأتي على رسول الله واللَّهُ ورسوله أعلم اه" .

(283/344)

وفي رواية أخرى فلم يصل رسول الله على أحد منهم بعد هذه الآية حتى قُبض صلى الله عليه وسلم وإنّما صلّى عليه وأعطاه قميصه ليكفّن فيه إكراماً لابنه عبدِ الله وتأليفاً للخزرج.

وقوله : ﴿ منهم ﴾ صفة ﴿ أحدٍ ﴾ .

وجملة ﴿ مات ﴾ صفة ثانية ل ﴿ أحد ﴾ .

ومعنى ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ لا تقفْ عليه عند دفنه لأنّ المشاركة في دفن المسلم حقّ على المسلم على الكفاية كالصلاة عليه فتركُ النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة عليهم وحضور دفنهم إعلان بكفر من ترك ذلك له .

وجملة : ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ تعليلية ولذلك لم تعطف وقد أغنى وجود (إنَّ) في أولها عن فاء التفريع كما هو الاستعمال .

والفسق مراد به الكفر فالتعبير بـ ﴿ فاسقون ﴾ عوض (كافرون) مجرّد تفنّن .

والأحسن أن يفسّر الفسق هنا بالخروج عن الإيمان بعد التلبّس به ، أي بصورة الإيمان فيكون المراد من الفسق معنى أشنعَ من الكفر .

وضمائر ﴿ إنهم كفروا وماتوا وهم فاسقون ﴾ عائد إلى ﴿ أحدٍ ﴾ لأنّه عام لكونه نكرة في سياق النهي والنهي كالنفي .

وأمّا وصفه بالإفراد في قوله ﴿ مات ﴾ فجرى على لفظ الموصوف لأنّ أصل الصفة مطابقة الموصوف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(284/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾

وصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم على ميت هي رحمة له ، وغفران لذنوبه ؛ لأن الصلاة على الميت أن تطلب له الرحمة والمغفرة ، وأن تطلب له من الله أن يُلحقَه بالصالحين

. وإذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلام ، ودعا بهذا الدعاء ، فإن دعوة رسول الله مستجابة من الله . وهكذا حرمهم الله سبحانه وتعالى من رحمة يكون الإنسان في أشد الحاجة إليها حين ينتقل من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ .

وقول الحق لرسوله : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ معناها نهي عن فعل لم يأت زمنه . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ أي : لا تذهب إلى قبره وتطلب له الرحمة ، ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ مع أن النهي عن المستقبل ، أي : من مات بعد نزول هذه الآيات ، فلماذا لم يقل الحق " يميت " أو " يموتوا " واستخدم الفعل الماضي ﴿ مَّاتَ ﴾ ؟ . ونقول : لأن الموت عملية حتمية مقررة عند الله ومُقدَّرة ، فموعد الموت مكتوب ومعروف عند الله ، وهو شيء لا يقرره الله مستقبلاً ، بمعنى أن موعد الموت لا يحدد قبل حدوث بليلة أو ليلتين ، ولكن الموعد قد حُدِّد وانتهى الأمر .

(285/344)

أما قوله الحق : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ فهو يدلنا على أن هذا الأمر ليس خاصّاً بسبب ، ولكنه عموم حكم ، فهناك : سبب للحكم ، وهناك عموم حكم . وسبب الحكم

مثل الآية التي نزلت في زعيم المنافقين عبد الله ابن أبيّ ، فعندما مرض عبد الله بن أبيّ مرض الموت ؛ جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلب منه أن يعطيه قميصه يُكفِّن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه ليصلي عليه ويستغفر له . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم مجاملة لابنه عبد الله بن أبيّ الذي أسلم وحَسُن إسلامه .

وعندما وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بجوار عبد الله بن أبيّ ، قال له : " أهلك حب يهود " ؛ لأن ابن أبيّ كان يجامل اليهود ويعاونهم ، ونفاقه في الإسلام كان مجاملة لليهود وكان يُظهِر أمام اليهود الكفر ، ويُظهِر أمام المسلمين الإيمان . وهنا قال ابن أبيّ : يا رسول الله ، إنما أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتؤنبني .

فاستغفر له الرسول صلى الله علهي وسلم ، وهنا نزلت الآية الكريمة : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 80]

وطلب عبد الله بن أبيّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يهبه ثوبه لكي يُكفَّن به ، فلما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته ، أرسل له الثوب الأعلى .

وقد كان صلى الله عليه وسلم يلبس ثوبين ؛ ثوباً يلي جسده وثوباً فوقه . فلما جاء ابن أبيّ الثوب الأعلى ، قال : أنا أريد الثوب الذي لامس جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

انظر إلى زعيم المنافقين والذي كان يملؤه الكبرياء في حياته ، كبرياء على المؤمنين ؛ ها هو ذا يطلب كل هذه الطلبات ساعة احتضاره . فماذا صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أرسل له القميص الذي لامس جسده الشريف . وكان كل هذا إرضاء لابنه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ .

ولم يتقبل هذا الفعل عدد المؤمنين ولم يشعروا بالارتياح ، فعندما مات ابن أبيّ جاء ابنه عبد الله ، وطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه .

وعندما هَمَّ النبي أن يصلي عليه ، وقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين الرسول وبين القبلة . وهنا حسم الحق سبحانه وتعالى الموقف ونزلت الاية الكريمة : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ فقد أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على أبيّ ؛ لأنه رسول رحمة للعالمين . ولكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقف بينه وبين القبلة حتى لا يصلي ، فأنزل الحق قوله : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ وقالوا : تلك من الأمور التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ومن المسائل التي وافق الوحي فيها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تغيير القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام . فقد كان عمر يرجوها ، وكان يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، لو اتخذت مقام إبراهيم مصلّى .

ومن هذه الأمور أيضاً رأى في أسرى بدر ، وأن من الواجب قتلهم ، وكان رأي أبي بكر أن يقوم الأسرى بتعليم المسلمين القراءة والكتابة ؛ أو يؤخذ فيهم الفداء ، فنزلت الآية الكريمة : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسرى حتى يُثْخِنَ فِي الأرض تُرِيدُونَ عَرَضَ الدنيا والله يُرِيدُ الآخرة ﴾ [الأنفال : 67]

(287/344)

بعض الناس يتساءل : كيف يستدرك عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ نقول : لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لن يُخلَّد في أمته ؛ لذلك أراد أن يعطيهم الأُسْوة بأنه صلى الله عليه وسلم متى رأى رأياً حسناً نزل عليه . وبعض المستشرقين يقولون : إنكم تقولون دائماً عمر فعل كذا ، ولماذا لا تقولون لنا محمد فعل كذا ؟ ونقول : إذا فعل محمد فهو رسول الله ، أما غير الرسول عندما يفعل فهو دليل على أن الفطرة الإسلامية من الممكن أن ترى شيئاً يتفق مع ما يريده الله .

وبعد أن نزل قول الحق : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ صار الحكم عاماً في ألا يصلى رسول الله على المنافقين . لكن من أراد من الناس أن يصلي فليُصلِّ .

وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يكرم كل مسلم بالصلاة عليه ، فلما نزلت هذه الآية امتنع

عن الصلاة على المنافقين .

كذلك امتنع صلى الله عليه وسلم عن الصلاة على الميت وعليه دين ، " فكان يسأل أهل الميت : هل عليه دَيْن ؟ فإن قالوا : نعم . سأل : هل تريد ما يسده ؟ . فإن قالوا : لا ، قال : " صَلُّوا على صاحبكم " ، وامتنع هو عن الصلاة . "

ولكن ما ذنب من عليه دين أن يُحرَم صلاة رسول الله عليه ؟ نجد الإجابة في قوله صلى الله عليه وسلم :

" مَنْ أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومَنْ أخذها يريد إتلافها أتلفه الله "

فلو كان هذا الميت المدين ينوي سداد دينه لأعانه الله على أن يُسدِّده ، أما إذا ترك ما يفي بهذا الدين من عقارات أو أراض أو أموال في البنوك فلا يكن مديناً .

(288/344)

ويقول الحق سبحانه هنا : ﴿ وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ ونحن نعلم أن رسول الله عليه الصلاة والسلام كان يذهب إلى قبر حمزة رضي الله عنه ، ويقف على قبور المؤمنين : " السلام عليكم دار قوم مؤمنين " ومنعه الحق من ذلك العمل على قبور المنافقين . ويعطينا الحق سبحانه العلة في ذلك فيقول : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وعرفنا

كيف كفروا بالله ورسوله ، لكن ماذا عن قوله الحق : ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ . فهل ماتوا وهم خارجون عن المنهج ؟ نعم ، تماماً مثلما نقول : فسقت الرطبة ؛ لأن البلح في نضجه يكون أحمر اللون أو أصفر وتلتصق قشرته به ، فإذا رطب انفصلت القشرة عن البلحة ، بحيث تستطيع أن تنزعها بسهولة ، فكأن منهج الله بالنسبة للمؤمنين لا بد أن يلتصق به كقشرة البلحة الحمراء ، وإذا انفصل عنه مثل قشرة الرطبة يُصَابُ بالفساد .

ولكن هنا نتساءل : أليس الكفر أكبر مرتبة من الفسق ؟ لأننا نعلم أنه ليس بعد الكفر ذنب ؟ فكيف يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ مع أنهم كفروا ، والكفر أكبر الذنوب ؟

ونقول : إن الكفر هو عدم الإيمان بالله ورسوله وعدم الدخول في الإسلام ، ولكن الفسق هو عدم الالتزام بأية قيم ، ذلك أن الدين قد أوجد في النفوس عامة قيماً معروفة يتبعها حتى الذين كفروا ، فمثلاً عندما أرادوا بناء الكعبة قبل الإسلام ، قالوا : نريد أن نبنيها بمال حلال ، لا يدخل فيه مال بَغيٍّ . وكانوا في الماضي يُحضرون البغايا ، ويُقيمون لهن الرايات ، ويأخذون من أموالهن . لم يكن الإسلام قد جاء بَعْد ، ولكن كانت هناك قيم من مناهج السماء التي جاءت قبل الإسلام . وجاء الإسلام موافقاً لبعضها .

إذن : فقوله الحق : ﴿ كَفَرُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، أي : لم يكونوا مسلمين . ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ أي : لم يلتزموا بأية قيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(289/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّنْهُم ﴾ : صفةٌ ل " أحد " ، وكذلك الجملة من قوله : " مات " . ويجوز أن يكون " منهم " حالاً من الضمير في " مات " ، أي : مات حال كونِه منهم ، مُتَّصفاً بصفةِ النفاق كقولهم : " أنت مني " ، يَعْني على طريقتي . و " أبداً " ظرف منصوب بالنهي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 94 ﴾

(290/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا

وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) ﴾

ليس بعد التَّبَرِّي التولي ، ولا بعدَ الفراق والوفاق ، ولا بعد الحجبة قربة . مضى لهم من الزمان ما كان لأملهم فيه فسحة ، أو لرجائهم مساغ ، أو لظنّهم تحقيق ، ولكن سَبَقَ لهم القضاءُ بالشقاوة ، ونعوذ بالله مِنْ سوءِ الخاتمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 51 ﴾

(291/344)

قوله تعالى ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان ابن أبيّ سبب النهي عن الاستغفار لهم ، وكان ابنه عبد الله بن عبد الله من خيار المؤمنين وخلص المحسنين وكان لبعض المنافقين أبناء مثله ، وكان من طبع البشر أن يذكر في كثير من مقاله غلطاً ما يندم عليه ، وكان شديد الوقوف لما حف به من العلائق البدنية وشمله من العوائق بالأوهام النفسانية مع أوهامه وعوائقه قاصراً على قيوده وعلائقه ،

فكان لإعادة الكلام وتكريره وترديده ومزيد تقريره تأكيد في النفوس وتعزية وتثبيت في القلوب ، كرر آية الإعجاب لهذه الأسباب لأن يكون حكمها على بال من المخاطب لا ينساه لاعتقاد أن العمل به مهم جداً يفتقر إلى فضل عناية ، وأن ذلك شبيه بما أوهم صاحبه فهو يتكلم فيه ثم ينتقل إلى غيره لغرض صحيح ثم يرجع إليه في أثناء حديثة لشدة اهتمامه به تنبيهاً على ذلك ، ولا يرجع إليه إلا على غاية ما يكون من حسن الربط وبراعة التناسب ، وعطفها بالواو دون الفاء لأن ذلك ليس مسبباً عما قبله كما سبق في الآية الأولى ، أي لا تستغفر لهم ولا تصل عليهم ولا تعجبك قولهم : مستعطفين لك في طلب محبتك وإن زخرفوه وأكدوه بالأيمان التي اتخذوها جنة ﴿ ولا تعجبك أموالهم ﴾ وأسند النهي إليها إبلاغاً فيه .

(292/344)

ولما لم يكن هنا ما اقتضى تأكيد النفي مما مضى في الآية الأولى ، لم يعد النافي ولا أثبت اللام ولا الحياة فقال : ﴿ وأولادهم ﴾ أي وإن أظهروا أنهم يجاهدون بها معك ويتقربون بها إلى الله فإن الله لا يريد بهم ذلك فلا ييسره لهم لما علم من مباعدتهم للخير وعدم قابليتهم له فلا يحملك الإعجاب بشيء من ذلك على فعل شيء مما تقدم النهي عنه تأليفاً لأمثالهم

للمساعدة بأولادهم وأموالهم وتطييباً لقلوب المؤمنين من أولادهم ، فإنهم إن كانوا مؤمنين لم يضرهم ترك ذلك وإلا فبعداً لهم وسحقاً ﴿ إنما يريد الله ﴾ أي بعزه وعظمته وعلمه وإحاطته ﴿ أن يعذبهم ﴾ أي تعذيبهم ﴿ بها ﴾ فالفعل واقع بخلافه في الآية السابقة ﴿ في الدنيا ﴾ أي بجمعها ومحبة الإخلاد إليها وإلى الأولاد إن كانوا مثلهم في الاعتقاد وإلا كانوا زيادة عذاب لهم في الدارين ﴿ وتزهق ﴾ أي تخرج بغاية العسر ﴿ أنفسهم وهم ﴾ لاغترارهم بها ﴿ كافرون ﴾ ولا شك أن خطاب الرأس بغاية العسر ﴿ أنفسهم وهم ﴾ لاغترارهم بها ﴿ كافرون ﴾ ولا شك أن خطاب الرأس بشيء أوقع في قلوب أصحابه فلذلك وقع الخطاب للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمراد غيره من أتباعه وجماعته وأشياعه ممن قد يجنح إلى الأسباب ويقف عنده كما هو طبع النفوس في تأمل ما شهد ونسيان ما غاب وعهد تدريباً لهم على الحب في الله والبغض فيه لأنه من أدق أبواب الدين فهماً وأجلها قدراً ، وعليه تبتنى غالب أبوابه ، ومنه تجتنى أكثر ثمراته وآدابه ، وذلك أنه ربما ظن الناظر فيمن بسطت عليه الدنيا أنه من الناجين فيوادّه لحسن قوله غافلاً عن سوء فعله ، أو يظن أن أهل الدين فقراء إلى مساعدته لهم في جهاد أو غيره بما له وذويه روية فيداريه ، فأعلمهم تعالى أن ما هذا سبيله مقطوع البركة نهياً عن النظر إلى الصور وتنبيهاً على قصر الأنظار على المعاني ﴿ قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ [المائدة : 100] ـ الآية ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع

لقولهم ﴿ [المنافقون: 41]. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 370.

371 ﴾

(293/344)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

اعلم أن هذه الآية قد سبق ذكرها بعينها في هذه السورة وذكرت ههنا، وقد حصل التفاوت بينهما في ألفاظ: فأولها: في الآية المتقدمة قال: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ بالفاء. وههنا قال: ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ بالواو وثانيها: أنه قال هناك ﴿ أموالهم ولا أولادهم ﴾ وههنا كلمة ﴿ لا ﴾ محذوفة.

وثالثها: أنه قال هناك ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ وههنا حذف اللام وأبدلها بكلمة ﴿ أن ﴾ ورابعها: أنه قال هناك ﴿ في الحياة ﴾ وههنا حذف لفظ الحياة وقال: ﴿ فِى الدنيا ﴾ فقد حصل التفاوت بين هاتين الآيتين من هذه الوجوه الأربعة، فوجب علينا أن

نذكر فوائد هذه الوجوه الأربعة في التفاوت ، ثم نذكر فائدة هذا التكرير .

أما المقام الأول : فنقول :

أما النوع الأول : من التفاوت وهو أنه تعالى ذكر قوله : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾ بالفاء في الآية الأولى وبالواو في الآية الثانية ، فالسبب أن في الآية الأولى إنما ذكر هذه الآية بعد قوله : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق ، وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الأموال .

فلهذا المعنى نهاه الله عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب ، فقال : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو .

وأما النوع الثاني : وهو أنه تعالى قال في الآية الأولى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وَلاَ أولادهم ﴾ فالسبب فيه أن مثل هذا الترتيب يبتدأ بالأدون ثم يترقى إلى الأشرف ، فيقال لا يعجبني أمر الأمير ولا أمر الوزير ، وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم ، وفي هذه الآية يدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم .

(294/344)

أما النوع الثالث : وهو أنه قال هناك : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ وههنا قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ ﴾ فالفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله تعالى محال ، وأنه أينما ورد حرف التعليل فمعناه "أن" كقوله : ﴿ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللهَ ﴾ [البينة : 5] أي وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله .

وأما النوع الرابع : وهو أنه ذكر في الآية الأولى ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ وههنا ذكر ﴿ فِى الدنيا ﴾ وأسقط لفظ الحياة ، تنبيهاً على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى أنها لا تستحق أن تسمى حياة ، بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهاً على كمال دناءتها ، فهذه وجوه في الفرق بين هذه الألفاظ ، والعالم بحقائق القرآن هو الله تعالى .

وأما المقام الثاني : وهو بيان حكمة التكرير فهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب وجلباً للخواطر ، إلى الاشتغال بالدنيا ، هو الاشتغال بالأموال والأولاد ، وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرة بعد أخرى ، إلا أنه لما كان أشد الأشياء في المطلوبية والمرغوبية للرجل المؤمن هو مغفرة الله تعالى ، لا جرم أعاد الله قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ في سورة النساء مرتين ، وبالجملة فالتكرير يكون لأجل التأكيد فههنا للمبالغة في التحذير ، وفي آية المغفرة للمبالغة في التفريح ، وقيل أيضاً إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين لهم أموال وأولاد في وقت نزولها ، وأراد بهذه الآية أقواماً آخرين ، والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة ، لم يكن ذكره

مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع الآخرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 124.123 ﴾

(295/344)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وأولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدنيا ﴾

يعني : بالأموال في الآخرة على وجه التقديم ، ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيا ﴾

يحتمل ثلاثة أوجه :

أحدها : يعذبهم بحفظها في الدنيا والإشفاق عليها .

والثاني : يعذبهم بما يلحقهم منها من النوائب والمصائب .

والثالث : يعذبهم في الآخرة بما صنعوا بها في الدنيا عند كسبها وعند إنفاقها .

وحكى ابن الأنباري وجهاً رابعاً : أنه على التقديم والتأخير ، وتقديره : ولا تعجبك

أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم ﴾ الآية

تقدم تفسير مثل هذه الآية ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، إذ هو إجماع ممن لا تفتنه زخارف الدنيا .

ويحتمل أن يكون معنى الآية ولا تعجبك أيها الإنسان ، والمراد الجنس ، ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه ، لأن الناس كانوا يفتنون بصلاح حال المنافقين في دنياهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(296/344)

وقال الخازن :

قوله تعالى : ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾

(297/344)

الكلام على هذه الآية في مقامين المقام الأول في وجه التكرار والحكمة فيه أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولاً وتأكيده وإرادة أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه وأن يعتقد أن العمل به مهم وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه وهو أن أشد الأشياء جذباً للقلوب والخواطر الاشتغال بالأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير منه مرة بعد أخرى وبالجملة فالتكرير يراد به التأييد والمبالغة في التحذير من ذلك الشيء الذي وقع الاهتمام به وقيل أيضاً إنما كرر هذا المعنى لأنه أراد بالآية الأولى قوماً من المنافقين كان لهم أموال وأولاد عند نزولها وبالآية الأخرى أقواماً آخرين منهم المقام الثاني في وجه بيان ما حصل من التفاوت في الألفاظ في هاتين الآيتين وذلك أنه قال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك بالفاء وقال هنا ولا تعجبك بالواو والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله ولا ينفقون إلا وهم كارهون وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء في قوله فلا تعجبك وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بحرف الواو وقال سبحانه وتعالى في الآية الأولى فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم وأسقط حرف لا هنا قال سبحانه وتعالى وأولادهم والسبب فيه أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وكان إعجابهم بأولادهم أكثر وفي إسقاط حرف لا هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين قال

سبحانه وتعالى في الآية الأولى إنما يريد الله ليعذبهم بحرف اللام وقال سبحانه وتعالى هنا أن يعذبهم بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف اللام فمعناه أن كقوله سبحانه وتعالى وما أمروا إلا ليعبدوا الله ومعناه وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله وقال تبارك وتعالى في الآية الأولى في الحياة الدنيا

(298/344)

وقال تعالى هنا في الدنيا والفائدة في إسقاط لفظة الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة إلى حيث إنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهاً على كمال دنائتها فهذه جمل في ذكر الفرق بين هذه الألفاظ الله أعلم بمراده وأسرار كتابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(299/344)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم

كافرون ﴾

تقدّم نظير هذه الآية وأعيد ذلك لأن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين .

فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ، ويتخلص إليه .

وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه قاله : الزمخشري .

وقال ابن عطية : ووجه تكريرها توكيد هذا المعنى .

وقال أبو علي : ظاهره أنه تكرير وليس بتكرير ، لأن الآيتين في فريقين من المنافقين ، ولو كان تكريراً لكان مع تباعد الآيتين لفائدة التأكيد والتذكير .

وقيل : أراد بالأولى لا تعظمهم في حال حياتهم بسبب كثرة المال والولد ، وبالثانية لا تعظمهم بعد وفاتهم لمانع الكفر والنفاق .

وقد تغايرت الآيتان في ألفاظ هنا ، ولا ، وهناك ، فلا ومناسبة الفاء أنه عقب قوله : ولا ينفقون إلا وهم كارهون أي : للإنفاق ، فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهاه عن الإعجاب بفاء التعقيب .

ومناسبة الواو أنه نهي عطف على نهي قبله .

ولا تصلّ ، ولا تقم ، ولا تعجبك ، فناسبت الواو وهنا وأولادهم وهناك ، ولا أولادهم ،

فذكر لا مشعر بالنهي عن الإعجاب بكل واحد واحد على انفراد .

ويتضمن ذلك النهي عن المجموع ، وهنا سقطت ، فكان نهياً عن إعجاب المجموع .

ويتضمن ذلك النهي عن الإعجاب بكل واحد واحدٍ .

فدلت الآيتان بمنطوقهما ومفهومهما على النهي عن الإعجاب بالأموال والأولاد مجتمعين ومنفردين .

وهنا أن يعذبهم ، وهناك ليعذبهم ، فأتى باللام مشعرة بالتعليل .

ومفعول يريد محذوف أي : إنما يريد الله ابتلاءهم بالأموال والأولاد لتعذيبهم .

وأتى بأن لأنّ مصب الإرادة هو التعذيب أي : إنما يريد الله تعذيبهم .

(300/344)

فقد اختلف متعلق الفعل في الآيتين هذا الظاهر ، وإن كان يحتمل زيادة اللام .

والتعليل بأنّ وهناك الدنيا ، وهنا في الحياة الدنيا ، فأثبت في الحياة على الأصل ، وحذفت هنا تنبيهاً على خسة الدنيا ، وأنها لا تستحق أن تسمى حياة ، ولا سيما حين تقدمها ذكر موت المنافقين ، فناسب أنْ لا تسمى حياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ

﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وأولادهم ﴾

تكريرٌ لما سبق وتقريرٌ لمضمونه بالإخبار بوقوعه ويجوز أن يكون هذا في حق فريقٍ غيرِ الفريقِ الأولِ ، وتقديمُ الأموالِ في أمثال هذه المواقعِ على الأولاد مع كونهم أعزَّ منها إما لعموم مِساسِ الحاجةِ إليها بحسب الذاتِ وبحسب الأفراد والأوقات ، فإنها مما لا بد منه لكل أحدٍ من الآباء والأمهاتِ والأولادِ في كل وقت وحينٍ حتى إن من له أولادٌ ولا مالَ له فهو وأولادُه في ضيق ونَكالٍ وأما الأولادُ فإنما يَرغب فيهم مَنْ بلغ مبلغَ الأُبوةِ وإما لأن المالَ مناطٌ لبقاء النفسِ والأولادُ لبقاء النوعِ وإما لأنها أقدمُ في الوجود من الأولاد لأن الأجزاءَ المَنويةَ إنما تحصُل من الأغذية كما سيأتي في سورة الكهف ﴿ أَنَّمَا يُرِيدُ الله ﴾ بما متعهم به من الأموال والأولاد ﴿ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدنيا ﴾ بسبب معاناتِهم المشاقَّ ومكابدتِهم الشدائدَ في شأنها ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾ أي فيموتوا كافرين باشتغالهم بالتمتع بها والالتهاء عن النظر والتدبّرِ في العواقب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أموالهم وأولادهم إِنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِى الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كافرون ﴾

تأكيد لما تقدم من نظيره والأمر حقيق بذلك لعموم البلوى بمحبة ما ذكر والاعجاب به ،

وقال الفارسي : إن ما تقدم في قوم وهذا في آخرين فلا تأكيد ، وجيء بالواو هنا لمناسبة عطف نهى على نهي قبله أعنى قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ ﴾ [التوبة : 84] الخ ، وبالفاء هناك لمناسبة التعقيب لقوله تعالى : قبل ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارهون ﴾ [التوبة : 54] فإن حاصله لا ينفقون إلا وهم كارهون للانفاق فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد فنهى عن الإعجاب المتعقب له .

وقيل : هنا ﴿ وأولادهم ﴾ دون لا لأنه نهى عن الإعجاب بهما مجتمعين وهناك بزيادة لا لأنه نهى عن كل واحد واحد فدل مجموع الآيتين على النهي عن الاعجاب بهما مجتمعين ومنفردين وهنا ﴿ أَن يُعَذِّبَهُمْ ﴾ وهناك ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ [التوبة : 55] للإشارة إلى أن إرادة شيء لشيء راجعة إلى إرادة ذلك الشيء بناء على أن متعلق الإرادة هناك الإعطاء

واللام للتعليل أي إنما يريد إعطاءهم للتعذيب ، وأما إذا قلنا : إن اللام فيما تقدم زائدة فالتغاير يحتمل أن يكون لأن التأكيد هناك لتقدم ما يصلح سبباً للتعذيب بالأموال أوقع منه هنا لعدم تقدم ذلك وجاء هناك ﴿ فِى الحياة الدنيا ﴾ وهنا ﴿ فِى الدنيا ﴾ تنبيهاً على أن حياتهم كلا حياة فيها ويشير ذلك هنا إلى أنهم بمنزلة الأموات .

وبين ابن الخازن سر تغاير النظمين الكريمين بما لا يخفى ما فيه ، وتقديم الأموال على الأولاد مع أنهم أعز منها لعموم مساس الحاجة إليها دون الأولاد ، وقيل : لأنها أقدم في الوجود منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(303/344)

وقال القاسمى :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ﴾

أي : لأنه لم يرد الله الإنعام عليهم بها ، ليدل على رضاه عنهم ، بل الإنتقام منهم ، قال : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا ﴾ أي : بالمشقة في تحصيلها وحفظها والحزن عليها ﴿ وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي : فيموتون كافرين غافلين عن التدبر في العواقب .

وقد تقدمت الآية في هذه السورة مع تغاير في ألفاظها .

قال الزمخشري : أعيد قوله : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ ﴾ ، لأن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بالٍ من المخاطب لا ينساه ، ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم ، يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين ، فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ، ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه . انتهى .

وقال الفارسي : ليست للتأكيد ، لأن تيك في قوم وهذه في آخرين . وقد تغاير نطقها ، فهنا : ﴿ وَلَا ﴾ ، بالواو لمناسبة عطف نهي على نهي قبله في قوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ ﴾ الخ ، فناسب الواو ، وهناك بالفاء لمناسبة التعقيب لقوله قبله :

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ أي : للإنفاق . فهم معجبون بكثرة الأموال والأولاد ، فنهى عن الإعجاب المتعقب له . وهنا : وأولادهم ، دون لا ، لأنه نهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادة لا ، لأنه نهي كل واحدٍ واحدٍ ، فدل مجموع الآيتين على النهي عن الإعجاب بهما مجتمعين ومنفردين ، وهنا : ﴿ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ وهناك

﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ بلام التعليل وحذف المفعول ، أي : إنما يريد اختيارهم بالأموال والأولاد ، وهنا المراد التعذيب ، فقد اختلف متعلق الإرادة فيهما ظاهراً ، وهناك : ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ ، وهنا : ﴿ فِي الدُّنْيَا ﴾ ، تنبيهاً على أن حياتهم كلا حياة فيها ، وناسب ذكرها بعد الموت ، فكأنهم أموات أبداً . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 489.488 ﴾

(305/344)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

الخطاب للنبيء صلى الله عليه وسلم والمقصود به المسلمون ، أي لا تعجبكم ، والجملة معطوفة على جملة النهي عن الصلاة عليهم .

ومناسبة ذكر هذا الكلام هنا أنّه لما ذُكر ما يدلّ على شقاوتهم في الحياة الآخرة كان ذلك قد يثير في نفوس الناس أنّ المنافقين حصلوا سعادة الحياة الدنيا بكثرة الأموال والأولاد وخسروا الآخرة .

وربما كان في ذلك حيرة لبعض المسلمين أن يقولوا : كيف مَنَّ الله عليهم بالأموال والأولادِ وهم أعداؤه وبُغضاء نبيئه .

وربما كان في ذلك أيضاً مسلاة لهم بين المسلمين ، فأعلم الله المسلمين أنّ تلك الأموال والأولاد وإن كانت في صورة النعمة فهي لهم نقمة وعذاب ، وأنّ الله عذّبهم بها في الدنيا بأن سلبهم طمأنينة البال عليها لأنّهم لما اكتسبوا عداوة الرسول والمسلمين كانوا يحذرون أن يُغريَ اللَّهُ رسوله بهم فيستأصلهم ، كما قال : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً ﴾ [الأحزاب : 60 ، 61] ، ثم جعل ذلك مستمراً إلى موتهم على الكفر الذي يصيرون به إلى العذاب الأبدي .

وقد تقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة عند ذكر شحّهم بالنفقة في قوله : ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ [التوبة : 53] الآيتين ، فأفيد هنالك عدم انتفاعهم بأموالهم وأنّها عذاب عليهم في الدنيا ، ثم أعيدت الآية بغالب ألفاظها هنا تأكيداً للمعنى الذي اشتملت عليه إبلاغاً في نفي الفتنة والحيرة عن الناس .

ولكن هذه الآية خالفت السابقة بأمور :

أحدها : أنّ هذه جاء العطف في أولها بالواو والأخرى عطفت بالفاء .

ومناسبة التفريع هنالك تقدّم بيانها ، ومناسبَة عدم التفريع هنا أنّ معنى الآية هذه ليس مفرّعاً على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط .

ثانيها : أنّ هذه الآية عطف فيها الأولادُ على الأموال بدون إعادة حرف النفي ، وفي الآية السالفة أعيدت (لا) النافية ، ووجه ذلك أنّ ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد إذ المقام مقام ذمّ أموالهم إذ لم ينتفعوا بها فلمّا كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيهاً بالأمر المستقلّ فأعيد حرف النفي في عطفه ، بخلاف مقام هذه الآية فإنّ أموالهم وأولادهم معاً مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين .

ثالثها : أنّه جاء هنا قوله : ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم ﴾ بإظهار ﴿ أن ﴾ دون لام ، وفي الآية السالفة ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ [التوبة : 55] بذكر لام التعليل وحذف (أن) بعدها وقد اجتمع الاستعمالان في قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ إلى قوله ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ﴾ في سورة النساء (26 ، 27) .

وحذف حرف الجرّ مع (أنْ) كثير .

وهنالك قدرت أنْ بعد اللام وتقدير (أن) بعد اللام كثير .

ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ وهو تفنّن على أنّ تلك اللام ونحوها قد اختلف فيها فقيل هي زائدة ، وقيل : تفيد التعليل .

وسمّاها بعض أهل اللغة (لامَ أنْ) ، وتقدّم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ يريد الله ليبين لكم ﴾ في سورة النساء (26) .

رابعها : ﴿ أنّه جاء في هذه الآية ﴿ أن يعذّبهم بها في الدنيا ﴾ وجاء في الآية السالفة ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 55] ونكتة ذلك أنّ الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة .

وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ [التوبة : 84] فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثاً .

وبقية تفسير هذه الآية كتفسير سالفتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(307/344)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

ونعلم أن الحق قال في آية سابقة : ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ

بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55]

والنص القرآني إذا ما اتفق مع نص آخر ، نقول : إن الأداء الخاص ومقتضيات الأحوال تختلف ، ومن ينظر إلى خصوصيات ومقتضيات الأحوال يعلم أن هذا تأسيس وليس تكراراً ، فقد تحمل آيتان معنى عامّاً واحداً ، ولكن كل آية تمس خصوصية العطاء ، ولنأخذ مثالاً من قوله الحق : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . . . ﴾ [الأنعام : 151]

وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم . . . ﴾ [الإسراء : 31]

وقد ادعى بعض المستشرقين أن في القرآن تكراراً ، وهذا غير صحيح ؛ لأنهم ينظرون إلى عموم الآية ولا ينظرون إلى خصوصية العطاء . وخصوصية العطاء في الآية توافق مقتضى كل حال . ففي قوله سبحانه عن رزق الأولاد لم يلتفتوا إلى صدري الآيتين بل التفتوا إلى عجُز الآيتين ، وذلك من جهلهم بملكة الأداء في البيان العربي .

(308/344)

ولنا أن نسأل هؤلاء المستشرقين الذي يثيرون مثل هذه الأقاويل : هل ترون أن آية من الآيتين أقل بلاغة من الأخرى ؟ ولن نجد إجابة عندهم ؛ لأنهم لا يعرفون دقة البيان العربي .

ونقول لهم : أنتم إن نظرتم إلى عَجُز كل آية وصدرها لوجدتم أن آخر الآية يقتضي أولها ، وإلا لما استقام المعنى ، فالله سبحانه وتعالى لم يَقُلِ في الآيتين : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ وإنما قال : ﴿ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ ، وقال : ﴿ خَشْيَةَ إمْلاقٍ ﴾ ولم يقل في الآيتين : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ بل قال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ وقال : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ .

إذن : فبداية الآيتين مختلفة ؛ الآية الأولى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إمْلاَقٍ ﴾ . والإملاق هو الفقر ، فكأن الفقر موجود فعلاً . وقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تقتلوا أَوْلاَدَكُمْ خَشْيَةَ إمْلاقٍ ﴾ ، فكأن الفقر غير موجود ، ولكن الإنسان قد يخشى أن يأتي الفقر بمجيء الأولاد .

إذن : فالآية الأولى تخاطب الفقراء فعلاً ، والآية الثانية تخاطب غير الفقراء الذين يخشوْنَ مجيء الفقر إن رُزِقوا بأولاد ؛ والفقير – كما نعلم – يُشغل برزقه أولاً قبل أن يُشغلَ برزق أولاده . ولذلك يطمئنه الحق سبحانه وتعالى على أن أولاده لن يأخذوا من رزقه شيئاً ، فيقول : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ أي : اطمئن أيها الفقير على رزقك فلن يأخذ أولادك منه شيئاً ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى يرزقك أولاً ويرزق أولادك أيضاً .

أما غير الفقير الذي يخشى أن يجيء الولد ومعه الفقر فقد ينشغل بأن المولود الجديد سيأتي

ليُحوِّل غناه إلى فقر . ويخاطبه الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ أي : أن رزقهم يأتي من عند الله قبل رزقكم أنتم ، فلا تخشوا الفقر وتقتلوا أولادكم ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى سيرزقهم ، فلن يصيبكم الفقر بسبب الأولاد .

(309/344)

وهكذا نرى أن معنى الآيتين مختلف تماماً وليس هناك تكرار .

كذلك في الآية التي نحن بصددها ، يقول بعض الناس : إن هذه الآية قد رودت في نفس السورة ، نقول لهم : نعم . ولكن هذه لها معنى والأخرى لها معنى آخر ؛ فأين الاختلاف في الآيتين ؛ حتى نعرف أنهما ليستا مكررتين ؟ الآية الأولى تقول : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 55]

والآية الثانية التي نحن بصددها تقول : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : 85]

أول اختلاف نجده في بداية الآيتين ؛ ففي الآية الأولى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْك ﴾ ، والثانية : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ ﴾ .

ففي الآية الأولى جاء الحق سبحانه وتعالى بالفاء ، والفاء تقتضي الترتيب . إذن : فهذه الآية مترتبة على ما قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصلاوة إِلاَّ وَهُمْ كسالى وَلاَ يُنفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴾ [التوبة : 54]

فكأن هذه حيثيات كفرهم ؛ فهم لا يُصلُّون إلا نفاقاً ، ولا ينفقون مالاً في سبيل الله إلا وهم يكرهون ذلك .

والمتعة في المال أن تنفقه فيما تحب ، فإذا أحببت طعاماً أشتريته ، وإذا أحببت ثوباً ابتعته . وتكون في هذه الحالة مسروراً وأنت تنفق مالك ، ولكن هؤلاء ينفقون المال وهم كارهون .

والمؤمن عندما ينفق ماله في صدقة أو زكاة فهو يفعل ذلك إيماناً منه بأن الله سبحانه وتعالى سيعطيه أضعاف أضعاف الأجر في الدنيا والآخرة . إذن : فحين ينفق المؤمن ماله في الزكاة ، يكون فرحاً لأنه عمل لدنياه ولآخرته .

(310/344)

أما المنافق الذي يضمر الكفر في قلبه ، فهو لا يؤمن بالآخرة ولا يعرف البركة في الرزق ، فكأنه أنفق ماله دون أن يحصل على شيء ، أي : أن المسألة في نظره خسارة في المال ولا شيء غير ذلك . وإن أنفق الإنسان وهو كاره ، فالمال الموجود لديه هو ذلة وتعب ؛ لأنه حصل على المال بعد عمل ومشقة ، ثم ينفقه وهو لا يؤمن بآخرة ولا بجزاء .

ويريد الحق سبحانه أن يلفتنا إلى أن رزقه لهؤلاء الناس هو سبب في شقائهم وإذلالهم في الدنيا فيجعلهم يجمعون المال بعمل وتعب ثم ينفقونه بلا ثواب ، أي : يخسرونه . والواحد منهم يذهب إلى الحرب نفاقاً ، فينفق على سلاحه وراحلته ، ولا يأخذ ثواباً ، ويُربِّي أولاده ثم تأتي الحرب ، فيذهبون نفاقاً للقتال ؛ فيموتون دون استشهاد إن كانوا منافقين مثل آبائهم . وهكذا نجد أن كل أموال المنافق الذي يتظاهر بالإسلام ، وهو كافر ، تكون حسرة عليه .

ومن هنا فإياك أيها المؤمن أن تعجبك أموالهم ؛ لأنها ذلة لهم في الدنيا ؛ فهم يبذلونها نفاقاً ؛ فإذا امتنعوا عنا الإنفاق وعن الجهاد وهم يتظاهرون بالإسلام ؛ فكأنهم قد أعلنوا أنهم منافقون ، وهكذا نجد إنفاقهم كرهاً هو إذلال لهم ، وإن لم ينفقوا فهذا أمر يفضحهم ، فكأن الأموال والأولاد عذاب لهم ، وهذا أمر لا يقتضي الإعجاب ، وإنما يقتضي الإشفاق عليهم .

ولا تظن أنك حين حذفتهم من ديوان الغُزاة والمجاهدين بعدم الخروج معك وأنهم لن يقاتلوا

معك عدوّاً ، أن في أموالهم عوضاً عن الخروج ، فلا تعجبك فإنها عقاب وفضيحة وإذلال لهم .

ولكن في الآية الأولى ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لماذا ؟ لأن منهم من له مال يعتز به ، ومنهم من له أولاد كثيرون هم عِزْوته ، ومنهم من له المال والولد .

(311/344)

إذن : فهم مختلفون في أحوالهم ؛ لذلك جاء القول : ﴿ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ﴾ لتؤدي المعاني كلها . ولتشمل من عنده مال فقط ، ومن عنده أولاد فقط ، ومن عنده المال والولد .

أما في الآية الثانية التي نحن بصددها :

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾

إذن : فالحقُّ سبحانه وتعالى قد أعطاهم المال والولد للعذاب . ولكن هناك من يقول : ما دام الحق يريد تعذيبهم بالأموال والأولاد ، فهل المال والأولاد علة للعذاب ؟ وهل لأفعال الله

علة ؟ ألا يقول المسلمون : إن أفعال الله لا علة لها ؛ ونقول : لقد قالوا مثل ذلك القول في قوله الحق : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56]

ولم يلتفتوا إلى أن العلة في الخلق لا تعود إلى الله ، ولكنها علة ترجع للمخلوق ؛ لأن في العبادة مصلحة ومنفعة للمخلوق . فسبب الخلق هو العبادة ، وهذا السبب ليس راجعاً إلى الخالق ولا تعود على الله أدنى منفعة ، فلا شيء يزيد في ملكه ولا شيء ينقصه . أو هي لام العاقبة . ومعنى " لام العاقبة " أن تفعل شيئاً فتأتي العاقبة بغير ما قصدت مصداقاً لقوله الحق : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ﴾ [القصص : 8]

هل التقط آل فرعون موسى ليكون لهم عدوّاً ؟ أم التقطوه ليكون لهم قرة عين ؟ . لقد التقطوه ليكون قرة عَيْن لهم ، ولكن النهاية جاءت بغير ما قصدوا ؛ فأصبح الذي التقطوه ليكون وليّاً ونصيراً لهم هو الذي جاءت على يديه نهايتهم ، ولو كان فرعون يعلم الغيب لما التقط موسى بل لقَتله ، وشاء الحق أن يخفي عنه الغيب ليقوم هو بتربية من سيقضي على مُلكه ، تماماً كما تُدخل ابنك إلى المدرسة فيفشل ، وتنفق عليه فلا يتخرج ، هل أنت أدخلته المدرسة ليخيب ؟ طبعاً لا .

(312/344)

كذلك قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ لِيُعَذِّبَهُمْ ﴾ ويريدنا الله أن نفهم أن العذاب ليس هو سبب جمعهم المال ، وإنما السبب هو في ذلك هو حُبُّهم للمال والمتعة ، وكذلك الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد ليس الهدف منهم أن يكونوا سبباً في عذاب آبائهم ، بل هم يريدون الأولاد عِزْوة لهم . ولكن الحق سبحانه وتعالى شاء أن يعذبهم بالمال والأبناء في الدنيا .

فالمال يجمعه المنافق من حلال ومن حرام ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقه المال بكارثة تصيبه ، وإما أن يفارق هو المال بالموت ، وإما أن يكون هذا المال عذاباً له ؛ فيعيش مع خشية الفقر وزوال النعمة ، كذلك الأولاد يربيهم ويتعب في تربيتهم ، ثم بعد ذلك إما أن يفارقوه بالموت ، وإما أن يكبروا فاسدين ؛ فيكونوا مصدر عذاب لهم .

فكأن قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ هو كلام من الحق سبحانه وتعالى للمؤمنين ؛ لأن هؤلاء المنافقين قد يعطيهم الله الأموال والأولاد ؛ ولكنها ليست خيراً لهم ، بل هي عذاب لهم ؛ لأنهم بإبطائهم الكفر وتظاهرهم بالإيمان ؛ يفرضون على أنفسهم تكاليف تأخذ جزءاً من أموالهم وأولادهم ، وحينئذ تكون عذاباً لهم لأنهم خسروا كل شيء ولم يكسبوا شيئاً ، فليس لهم أجر على موت أبنائهم إن قتلوا ، ولا أجر الزكاة والصدقة فيما ينفقونه رياء ونفاقاً

.

أما الآية الثانية :

(313/344)

﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ فهي حكم عام على من يعطيهم الله نعمة الدنيا ويكفرون به ، وتكون هذه النعمة عليهم عذاباً ، فهم في خوف من ضياع المال أو فقد الولد ؛ لذلك يعانون من العذاب . وهم من خوفهم من الموت وترك النعمة مُعذَّبون ، فهم لا يريدون أن يموتوا لأنهم لا يعتقدون في الآخرة ، ويكون المال والولد حسرة عليهم ؛ لأن المؤمن إن مات منه ولد ، علم أن افتقاد الابن إنما يسد طاقة جهنم ، ويقوده إلى رحمة الله ، وله أجر على ذلك ، فإن كان الولد صغيراً كان ذخراً له في الآخرة ، وإن كان كبيراً فهو يتذكر قول الحق : ﴿ والذين آمَنُواْ واتبعتهم ذُرِّيَّتُهُم . . . ﴾ [الطور : 21]

وفي هذا سلوى عن افتقاد الولد ، لكن المنافق يحيا في خوف وحسرة . وفي هذا عذاب . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أن مال الكافر هو حسرة عليه دائماً فيقول : ﴿ إِنَّ الذين كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ الله فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ والذين

كفروا إلى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : 36]

أي أن الله سبحانه وتعالى يعاقب من ينفق لمحاربة دينه بأن يتركه ينفق ، ثم ينصر الله دينه ليجعل ذلك حسرة في نفسه حين يرى المال الذي أنفقه وقد جاء بنتيجة عكسية هي انتصار الدين وانتشاره .

(314/344)

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ وهذه هي الحسرة الكبرى ، فحين يموت الكافر ولا يجد له رصيداً في الآخرة إلا النار ؛ لأنه مات على غير يقين بالجنة وعلى غير يقين بأنه قد قدم شيئاً ، يُلْقَى في النار محسوراً على ما تركه في الدنيا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك ، بل نقرأ قول الله : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 50]

وهكذا يذوقون العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(315/344)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (84) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

أخرج البخاري ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبي ابن سلول أتى ابنه عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه . فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عمر بن الخطاب فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال " إن ربي خيَّرني وقال ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة : 80] وسأزيد على السبعين فقال : إنه منافق فصلى عليه . فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ فترك الصلاة عليهم " .

(316/344)

وأخرج الطبراني وابن مردويه والبيهقي في الدلائل " عن ابن عباس أن عبد الله بن عبد الله بن أبي قال له أبوه : أي بني ، اطلب لي ثوباً من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم فكفني فيه ، ومره أن يصلي عليَّ . قال " فأتاه فقال : يا رسول الله قد عرفت شرف عبد الله ، وهو يطلب إليك ثوباً من ثيابك نكفنه فيه وتصلي عليه ؟ فقال عمر : يا رسول الله قد عرفت عبد الله ونفاقه . أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه ؟ فقال : وابني ؟ ! فقال ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ [التوبة : 80] قال : فإني سأزيد على سبعين . فأنزل الله عز وجل ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره . . . ﴾ الآية . قال : فأرسل إلى عمر فأخبره بذلك ، وأنزل الله ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ﴾ [المنافقون : 6] " .

وأخرج ابن المنذر عن عمر بن الخطاب قال : لما مرض عبد الله بن أبي بن سلول مرضه الذي مات فيه عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مات صلى عليه وقام على قبره . قال : فوالله إن مكثنا إلا ليالي حتى نزلت ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن ماجة والبزار وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه عن جابر قال " مات رأس المنافقين بالمدينة ، فأوصى أن يصلي عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأن يكفنه في قميصه ، فجاء ابنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أبي أوصى أن يكفن في قميصك ، فصلى

عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ " .

وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن مردويه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي ، فأخذ جبريل عليه السلام بثوبه وقال ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ﴾ " .

(317/344)

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : " وقف نبي الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله بن أبي ، فدعاه فأغلظ له وتناول لحية النبي صلى الله عليه وسلم فقال أبو أيوب : كف يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لئن أذن لأضعن فيك السلاح ، وأنه مرض فأرسل إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم يدعوه ، فدعا بقميصه فقال عمر : والله ما هو بأهل أن تأتيه . قال : بلى . فأتاه فقال : أهلكتك موادّتك اليهود ؟ قال : إنما دعوتك لتستغفر لي ولم أدعك لتؤنبني . قال : أعطني قميصك لأكفن فيه . فأعطاه ونفث في جلده ، ونزل في قبره ، فأنزل الله ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً . . . ﴾ الآية قال : فذكروا القميص . قال : وما يغني عنه قميصي ، والله إني لأرجو أن يسلم به أكثر من ألف من بني

الخزرج، فأنزل الله ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ﴾ الآية" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(318/344)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ : قيل : هذه تأكيد للآية السابقة . وقال الفارسي : " ليست للتأكيد لأن تِيْكَ في قوم ، وهذه في آخرين ، وقد تغاير لفظاً الاثنتين فههنا " ولا " بالواو لمناسبة عطفِ نهيٍ على نهيٍ قبلَه في قوله : " ولا تُصَلِّ ، ولا تَقُمْ ، ولا تُعْجبك " ، فناسب ذلك الواو ، وهناك بالفاءِ لمناسبةِ تعقيبِ قولِه : ولا يُنْفِقون إلا وهم كارهون " ، أي : للإنفاقِ فهم مُعْجَبون بكثرة الأموالِ والأولادِ فنهاه عن الإعجاب بفاء التعقيبِ . وهنا " وأولادهم " دون " لا " لأنه نهيٌ عن الإعجاب بهما مجتمعين ، وهناك بزيادةِ " لا " لأنه نهيٌ عن كل واحد واحد فَدَلَّ مجموعُ الاثنين على النهي بهما مجتمعَيْن ومنفردين . وهنا " أنْ

يُعَذِّبهم " وهناك " لِيُعَذِّبهم " ، فأتى باللام مُشْعرةً بالغلبة ، ومفعولُ الإرادةِ محذوفٌ ، أي : إنما يريد الله اختبارَهم بالأموال والأولاد ، وأتى ب " أن " لأنَّ مَصَبَّ الإرادة التعذيبُ ، أي : إنما يريد الله تعذيبَهم . فقد اختلف متعلَّقُ الإرادة في الآيتين . هذا هو الظاهر وإن كان يُحتمل أن تكونَ اللامُ زائدة ، وأن تكونَ " أَنْ " على حذف لام علة . وهناك " في الحياة الدنيا " وهنا سقطت " الحياة " ، تنبيهاً على خِسِّيَّة الدنيا ، وأنها لا تستحق أن تُسَمَّى حياة ، لا سيما وقد ذُكِرَت بعد ذِكر موتِ المنافقين فناسَبَ ألاَّ تُسَمَّى حياة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 94.95 ﴾

(319/344)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (85) ﴾

يقول لا تحسبنَّ تمكينَ أهل النّفاق مِنْ تنفيذ مرادهم ، وتكثيرَ أموالهم إسداءَ معروف مِنَّا إليهم ، أو إسباغَ إنعام مِنْ لَدُنَّا عليهم ، إنما ذلك مَكْرٌ بهم ، واستدراجٌ لهم ، وإمهالٌ لا

إهمال . وسيلقون غِبه عن قريب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 51 ﴾

(320/344)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/345)

الجزء الخامس والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 86 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 89 ﴾ من نفس السورة

(4/345)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما افتتحت قصتهم بأن المتقين لا يتوقفون في الانتداب إلى الجهاد على أمر جديد ولا استئذان ، بل يكتفون بما سبق من عموم الحث عليه والندب إليه فيبادرون إليه الطرف ولا يحاذرون الحتف ، وأن من المنافقين من يستأذن في الجهاد جاعلاً استئذانه فيه باباً

للاستئذان في التخلف عنه ، ومنهم من يصرح بالاستئذان في العقود ابتداء من غير تستر ، وعقب ذلك بالنهي عن الإعجاب بأموالهم وأولادهم ثم مر في ذكر أقسامهم وما لزمهم من فضائحهم وآثامهم ، إلى أن ختم القصة بأن أموالهم إنما هي لفتنتهم لا لرحمتهم ، ولمحنتهم لا لمنحتهم ، أتبع ذلك بدليله من أنهم لا يتوصلون بها إلى جهاد ، ولا يتوسلون إلى دار المعاد ، فقال عاطفاً على ما أفهمه السياق من نحو أن يقال لأنهم لا يفعلون بها خيراً ولا يكسبون أجراً ، أو بانياً حالاً من الكاف في " تعجبك " : ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ أي وقع إنزال قطعة من القرآن .

ولما كان الإنزال يدل على المنزل حتماً ، فسره بقوله : ﴿ أن آمنوا بالله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ وجاهدوا ﴾ أي أوقعوا الجهاد ﴿ مع رسوله استأذنك ﴾ أي في التخلف من لا عذر له وهم ﴿ أولوا الطول ﴾ أي أهل الفضل من الأموال والسعة والثروة في غالب الأحوال ﴿ منهم ﴾ وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم ولا سيما بعد سماع القرآن ، ويجوز أن يكون معطوفاً على خبر ﴿ أن ﴾ في قوله ﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ هذا مع ما تضمن استئذانهم من رذائل الأخلاق ودنايا الهمم المحكي بقوله : ﴿ وقالوا ذرنا ﴾ أي اتركنا ولو على حالة سيئة ﴿ نكن ﴾ أي بما يوافق جبلاتنا ﴿ مع القاعدين ﴾ أي بالعذر المتضمن – لاسيما مع التعبير بذرنا الذي مادته تدور على ما يكره دون " دعنا " – لما

استأنف به أو بين من قوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 372 ﴾

(5/345)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾

واعلم أنه تعالى بين في الآيات المتقدمة أن المنافقين احتالوا في رخصة التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الغزو ، وفي هذه الآية زاد دقيقة أخرى ، وهي أنه متى نزلت آية مشتملة على الأمر بالإيمان وعلى الأمر بالجهاد مع الرسول ، استأذن أولو الثروة والقدرة منهم في التخلف عن الغزو ، وقالوا لرسول الله ذرنا نكن مع القاعدين أي مع الضعفاء من الناس والساكنين في البلد .

أما قوله : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءامِنُواْ بالله وجاهدوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ ففيه أبحاث :

البحث الأول : يجوز أن يراد بالسورة تمامها وأن يراد بعضها ، كما يقع القرآن والكتاب على

كله وبعضه ، وقيل المراد بالسورة هي سورة براءة ، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد .

البحث الثاني : قوله : ﴿ أن آمنوا بالله ﴾ قال الواحدي : موضع ﴿ أن ﴾ نصب بحذف حرف الجر .

والتقدير بأن آمنوا أي بالإيمان ؟

البحث الثالث : لقائل أن يقول : كيف يأمر المؤمنين بالإيمان ، فإن ذلك يقتضي الأمر بتحصيل الحاصل وهو محال .

(6/345)

أجابوا عنه : بأن معنى أمر المؤمنين بالإيمان الدوام عليه والتمسك به في المستقبل ، وأقول لا حاجة إلى هذا الجواب ، فإن الأمر متوجه عليهم ، وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأن التقدير كأنه قيل للمنافقين الإقدام على الجهاد قبل الإيمان لا يفيد فائدة أصلاً ، فالواجب عليكم أن تؤمنوا أولاً ، ثم تشتغلوا بالجهاد ثانياً حتى يفيدكم اشتغالكم بالجهاد فائدة في الدين ، ثم حكى تعالى أن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون ، فقال : ﴿ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ وفي ﴿ أُوْلُواْ الطول ﴾ قولان : الأول : قال ابن عباس والحسن : المراد أهل السعة في المال : الثاني : قال الأصم : يعني الرؤساء

والكبراء المنظور إليهم ، وفي تخصيص ﴿ أُوْلُواْ الطول ﴾ بالذكر قولان : الأول : أن الذم لهم ألزم لأجل كونهم قادرين على السفر والجهاد ، والثاني : أنه تعالى ذكر أولوا الطول لأن من لا مال له ولا قدرة على السفر لا يحتاج إلى الاستئذان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 124 ﴾

(7/345)

وقال السمرقندى :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ ، يعني : سورة براءة .

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ ، صدقوا بقلوبكم كما أقررتم بلسانكم ، ﴿ وجاهدوا مَعَ رَسُولِهِ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ ، يعني : استأذنك في القعود أهل السعة والغنى من المنافقين .

﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ ، يعني : دعنا وائذن لنا نتخلف ونقعد مع القاعدين الذين تخلفوا في المدينة عن الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : استديموا الإيمان بالله .

والثاني : افعلوا فعل من آمن بالله .

والثالث : آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بأفواهكم ، ويكون خطاباً للمنافقين .

﴿ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوْا الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أهل الغنى ، قاله ابن عباس وقتادة .

والثاني : أهل القدرة . وقال محمد بن إسحاق . نزلت في عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(8/345)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ الآية

العامل في ﴿ إذا ﴾ ﴿ استأذنك ﴾ ، " والسورة " المشار إليها هي براءة فيما قال بعضهم ، ويحتمل أن يكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ، وسورة القرآن أجمع على ترك همزها في الاستعمال واختلف هل أصلها الهمز أم لا فقيل أصلها

الهمز فهي من أسأر إذا بقيت له قطعة من الشيء ، فالسورة قطعة من القرآن ، وقيل أصلها أن لا تهمز فهي كسورة البناء وهي ما يبنى منه شيئاً بعد شيء ، فهي الرتبة بعد الرتبة ، ومن هذا قول النابغة : [الطويل]

أَلَمْ تر أَنَّ اللهَ أَعْطَاكَ سَوْرَةً . . . ترى كلَّ مَلْكٍ دُونَها يَتَذَبْذَبُ

وقد مضى هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب ، و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن آمنوا ﴾ يحتمل أن تكون مفسرة بمعنى أي فهي على هذا لا موضع لها ، ويحتمل أن يكون التقدير ب " أن " فهي في موضع نصب ، و﴿ الطول ﴾ في هذه الآية المال ، قاله ابن عباس وابن إسحاق وغيرهما ، والإشارة بهذه الآية إلى الجد بن قيس وعبد الله بن أبي ومعتب بن قشير ونظرائهم ، و" القاعدون " الزمنى وأهل العذر في الجملة ومن ترك لضبط المدينة لأن ذلك عذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(9/345)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ هذا عامّ في كل سورة .

وقال مقاتل : المراد بها : سورة (براءة) .

قوله تعالى : ﴿ أن آمنوا ﴾ أي : بأن آمنوا .

وفيه ثلاثة أوجه .

أحدها : استديموا الإيمان .

والثاني : افعلوا فعل من آمن .

والثالث : آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم .

فعلى هذا يكون الخطاب للمنافقين .

قوله تعالى : ﴿ استأذنك ﴾ أي : في التخلف ﴿ أولو الطَّول ﴾ يعني : الغنى ، وهم الذين لا عذر لهم في التخلُّف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾

انتدب المؤمنون إلى الإجابة وتعلّل المنافقون .

فالأمر للمؤمنين باستدامة الإيمان وللمنافقين بابتداء الإيمان .

و ﴿ أَنْ ﴾ في موضع نصب ؛ أي بأن آمِنوا .

و ﴿ الطول ﴾ الغنى ؛ وقد تقدّم .

وخصّهم بالذكر لأن من لا طول له لا يحتاج إلى إذْن لأنه معذور .

﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ أي العاجزين عن الخروج. انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(10/345)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ يحتمل أن يراد بالسورة بعضها لأن إطلاق لفظ الجمع على البعض جائز ويحتمل أن يراد جميع السورة .

فعلى هذا المراد بالسورة براءة لأنها مشتملة على الأمر بالإيمان والأمر بالجهاد ﴿ أن ﴾ أي بأن ﴿ آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ﴾ .

فإن قلت : كيف يأمرهم بالإيمان مع كونهم مؤمنين فهو من باب تحصيل الحاصل قلت : معناه الأمر بالدوام على الإيمان والجهاد في المستقبل .

وقيل : إن الأمر بالإيمان يتوجه على كل أحد في كل ساعة .

وقيل : إن هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون والمعنى أن أخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسوله وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأن الجهاد بغير إيمان لا يفيد أصلاً فكأنه قيل للمنافقين : الواجب عليكم أن تؤمنوا بالله أولاً

وتجاهدوا مع رسوله ثانياً حتى يفيدكم ذلك الجهاد فائدة يرجع عليكم نفعها في الدنيا والآخرة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ قال ابن عباس : يعني أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال وقيل : هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم وفي تخصيص أولى الطول بالذكر قولان : أحدهما أن الذم لهم ألزم لكونهم قادرين على أهبة السفر والجهاد .

والقول الثاني : إنما خص أولي الطول بالذكر لأن العاجز عن السفر والجهاد لا يحتاج إلى الاستئذان ﴿ وقالوا ﴾ يعني أولي الطول ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ يعني في البيوت مع النساء والصبيان وقيل مع المرضى والزمنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(11/345)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّول منهم ﴾

الجمهور على أنّ السورة هنا كل سورة كان فيها الأمر بالإيمان والجهاد .

وقيل : براءة لأنّ فيها الأمر بهما .

وقيل : بعض سورة ، فأطلق عليه سورة ، كما يطلق على بعض القرآن قرآن وكتاب .

وهذه الآية وإن تقدم أنهم كانوا استأذنوا الرسول في القعود ، فيها تنبيه على أنهم كانوا متى تنزل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد استأذنوا ، وليست هنا إذاً تفيد التعليق فقط ، بل انجرَّ معها معنى التكرار سواء كان ذلك فيها بحكم الوضع أنه بحكم غالب الاستعمال ، لا الوضع .

وهي مسألة خلاف في النحو ، ومما وجد معها التكرار قول الشاعر :

إذا وجدت أوار النار في كبدي . . .

أقبلت نحو سقاء القوم أبترد

ألا ترى أنّ المعنى متى وجدت وإن آمنوا يحتمل أنْ أنْ تكون تفسيرية ، لأن قبلها شرط ذلك ؟ ويحتمل أن تكون مصدرية أي : بأن آمنوا أي : بالإيمان .

والظاهر أنّ الخطاب للمنافقين أي : آمنوا بقلوبكم كما آمنتم بألسنتكم .

قيل : ويحتمل أن يكون خطاباً للمؤمنين ومعناه : الاستدامة والطول .

قال ابن عباس والحسن : الغنى .

وقيل : القوة والقدرة .

وقال الأصم : أولوا الطول الكبراء والرؤساء .

وأولو الأمر منهم أي : من المنافقين كعبد الله بن أبي ، والجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، وأضرابهم .

وأخص أولوا الطول لأنهم القادرون على التنفير والجهاد ، ومن لا مال له ، ولا قدرة لا يحتاج إلى الاستئذان ، والاستئذان مع القدرة على الحركة أقبح وأفحش .

والمعنى : استأذنك أولوا الطول منهم في القعود ، وفي استأذنك التفات ، إذ هو خروج من لفظ الغيبة وهو قوله : ورسوله ، إلى ضمير الخطاب .

وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين الزمني وأهل العذر ، ومن ترك لحراسة المدينة ، لأن ذلك عذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(12/345)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من القرآن ويجوز أن يُراد بها بعضُها ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِاللهِ ﴾ (أنْ) مفسرةٌ لما في الإنزال من معنى القولِ والوحي ، أو مصدريةٌ حذف عنها الجارُّ أي بأن آمِنوا ﴿ وجاهدوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾ لإعزاز دينه وإعلاءِ كلمتِه ﴿ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ أي ذووا الفضل والسَّعةِ

والقُدرة على الجهاد بدناً ومالاً ﴿ وَقَالُواْ ﴾ عطفٌ تفسيريٌّ لاستأذنك مغنٍ عن ذكر ما استأذنوا فيه يعني القعودَ ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ أي الذين قعدوا عن الغزو لما بهم من عذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(13/345)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من القرآن والمراد بها على ما قيل : سورة معينة وهي براءة ، وقيل : المراد كل سورة ذكر فيها الإيمان والجهاد وهو أولى وأفيد لأن استئذانهم عند نزول آيات براءة علم مما مر ، و ﴿ إِذَا ﴾ تفيد التكرار بقرينة المقام وإن لم تفده بالوضع كما نص عليه بعض المحققين ، وجوز أن يراد بالسورة بعضها مجازاً من باب إطلاق الجزء على الكل ، ويوهم كلام الكشاف إن إطلاق السورة على بعضها بطريق الاشتراك كإطلاق القرآن على بعضه وليس بذاك ، والتنوين للتفخيم أي سورة جليلة الشأن ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ ﴾ أي بأن آمنوا ﴿ فَانٍ ﴾ مصدرية حذف عنها الجار وجوز أن تكون مفسرة لتقدم الإنزال وفيه معنى القول دون حروفه ، والخطاب للمنافقين ، والمراد أخلصوا الإيمان ﴿ بالله وجاهدوا مَعَ رَسُولِهِ ﴾

لإعزاز دينه وإعلاء كلمته ، وأما التعميم أو إرادة المؤمنين بمعنى دوموا على الإيمان بالله الخ كما ذهب إليه الطبرسي وغيره فلا يناسب المقام ويحتاج فيه ارتباط الشرط والجزاء إلى تكلف ما لا حاجة إليه كاعتبار ما هو من حال المؤمنين الخلص في النظم الجليل ﴿ استأذنك ﴾ أي طلب الاذن منك وفيه التفات ﴿ أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ أي أصحاب الفضل والسعة من المنافقين وهم من له قدرة مالية ويعلم من ذلك البدنية بالقياس وخصوا بالذكر لأنهم الملومون ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا ﴾ أي دعنا ﴿ نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ أي الذين لم يجاهدوا لعذر من الرجال والنساء ففيه تغليب ، والعطف على استأذنك للتفسير مغن عن ذكر ما استأذنوا فيه وهو القعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(14/345)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ ﴾

هذا عطف غرض على غرض قصد به الانتقال إلى تقسيم فرق المتخلّفين عن الجهاد من المنافقين وغيرهم وأنواع معاذيرهم ومراتبها في القبول .

دعا إليه الإغلاظ في تقريع المتخلّفين عن الجهاد نفاقاً وتخذيلا للمسلمين ، ابتداء من قوله :

﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] ثم قوله : ﴿ لو كان عرضاً قريباً ﴾ [التوبة : 42] وكلّ ذلك مقصود به المنافقون .

ولأجل كون هذه الآية غرضاً جديداً ابتدأت بذكر نزول سورة داعية إلى الإيمان والجهاد .

والمراد بها هذه السورة ، أي سورة براءة ، وإطلاق اسم السورة عليها في أثنائها قبل إكمالها مجاز متّسع فيه كإطلاق الكتاب على القرآن في أثناء نزوله في نحو قوله : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾ [البقرة : 2] وقوله : ﴿ وهذا كتاب أنزلناه مبارك ﴾ [الأنعام : 92] فهذا الوصف وصف مقدّر شبيه بالحال المقدّرة .

وابتدأ بذكر المتخلّفين من المنافقين بقوله : ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ .

والسورة طائفة معينة من آيات القرآن لها مبدأ ونهاية وقد مضى الكلام عليها آنفاً وقبيل هذا .

ولمّا كانت السورةُ ألفاظاً وأقوالاً صحّ بيانها ببعض ما حوته وهو الأمر بالإيمان والجهاد فقوله : ﴿ أن آمنوا بالله ﴾ تفسير للسورة و ﴿ أنْ ﴾ فيه تفسيرية كالتي في قوله تعالى حكاية عن عيسى ﴿ ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم ﴾ [المائدة : 117] ويجوز تفسير الشيء ببعضه شبهُ بدل البعض من الكلّ .

وليس المراد لفظ ﴿ آمنوا ﴾ وما عطف عليه بل ما يراد فهما مثل قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ [التوبة : 38] الآيات وقوله : ﴿ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ [التوبة : 44] .

والطَّوْل : السعة في المال قال تعالى : ﴿ ومن لم يستطع منكم طَوْلا أن ينكح المحصنات المؤمنات ﴾ [النساء : 25] وقد تقدّم .

والاقتصار على الطّول يدلّ على أنّ أولي الطول مراد بهم من له قدرة على الجهاد بصحة البدن .

فبوجود الطول انتفى عذرهم إذ من لم يكن قادراً ببدنه لا ينظر إلى كونه ذا طول كما يدلّ عليه قوله بعدُ ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج ﴾ [التوبة : 91] .

والمراد بأولِي الطول أمثال عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول ، ومعتّب بن قشير ، والجِدّ بن قيس .

وعطف ﴿ وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ على ﴿ استئذنك ﴾ لما بينهما من المغايرة في الجملة بزيادة في المعطوف لأن الاستئذان مجمل ، وقولهم المحكي فيه بيان ما استأذنوا فيه وهو القعود .

وفي نظمه إيذان بتلفيق معذرتهم وأنّ الحقيقة هي رغبتهم في القعود ولذلك حكي قولهم بأنْ

ابتُدىء بـ ﴿ ذَرْنَا ﴾ المقتضي الرغبة في تركهم بالمدينة .

وبأن يكونوا تبعاً للقاعدين الذين فيهم العُجَّز والضعفاء والجبناء ، لما تؤذن به كلمة ﴿ مع ﴾ من الإلحاق والتبعية .

وقد تقدّم أن (ذَرْ) أمر من فعل مات وهو (وَذَرَ) استغنَوا عنه بمرادفه وهو (تَرك) في قوله تعالى : ﴿ وذر الذين اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ في سورة الأنعام (70) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(16/345)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) ﴾

وهكذا شاء الحق أن يفضح المنافقين ، هؤلاء الذين استمرأوا الاستمتاع بنفس حقوق المؤمنين لمجرد إعلانهم الإسلام ، بينما تبطن قلوبهم الكفر والكيد للمسلمين . وقوله الحق : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُواْ بِاللهِ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ هو خطاب للمنافقين يكشف بطلان إيمانهم ؛ ولذلك جاء قوله الحق : ﴿ أَنْ آمِنُواْ ﴾ أي : اجعلوا قلوبكم صادقة مع

ألسنتكم ، فالله يريد إيماناً بالقلب واللسان ، فيتفق السلوك مع العقيدة . وقول الحق : ﴿ وَجَاهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ﴾ أي : انفروا للجهاد مع رسول الله ، فهذا هو التعبير العملي عن الإيمان ، ولا تفرحوا بتخلفكم عن القتال في سبيل الله ؛ لأن الجهاد والقتال في سبيل الله شرف كبير له ثواب عظيم . وامتناع إنسان عن الجهاد هو تنازل عن خير كبير ، فالحق سبحانه يعطي جزيل الأجر لمن جاهد جهاداً حقيقيّاً .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ و " استأذن " من مادة استفعل ، وتأتي للطلب ، كأن تقول : " استفهم " أي : طلب أن يفهم ، و " استعلم " أي : طلب أن يعلم . إذن : فقوله : ﴿ استأذنك ﴾ أي : طلبوا الإذن ، ولأنهم يتظاهرون بالإيمان ويبطنون الكفر ، تجدهم ساعة النداء للجهاد لا يقفون مع المؤمنين ، وكان من المفروض أن يكونوا بين المجاهدين ، وأن يجدوا في ذلك فرصة لإعلان توبتهم ؛ ورجوعهم إلى الحق فيكون جهادهم تكفيراً عما سبقه من نفاق ، ولكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل طلبوا الإذن بالقعود .

ومن الذي طلب الإذن ؟

(17/345)

إنهم أولو الطَّوْل . و " أولو " معناها أصحاب القوة والقدرة . و " الطَّوْل " هو أن تطول الشيء ، أيك تحاول أن تصل إليه ، فإذا لم تصل يدك إليه ؛ يقال : إن هذا الشيء يدك لم تَطُلْه ، أي : لم يكن في متناول يدك .

و ﴿ أُوْلُواْ الطول ﴾ أي : الذين يملكون مقومات الجهاد من سلامة البدن من الأمراض ووجود القوة ، ولا يعانون من ضعف الشيخوخة ، وأن يكون الإنسان قد بلغ مبلغ الرجولة وليس صبيّاً صغيراً ؛ لأن الشيخ الكبير ضعيف لا يقدر على الجهاد ، وكذلك الصبي الصغير لا يملك جَلَداً على الحرب . وأيضاً نجد المريض الذي قد يعوقه مرضه عن الحركة

.

أما أولو الطول فهم الذين يملكون كل مقومات الحرب ، من قوة بدنية وسلاح ، والذين لم يبلغوا سن الشيخوخة ، ولا هم صبيان صغار ولا مرضى .

إذن : فعندما تنزل آية فيها الجهاد ، فالذين يستأذنون ليسوا أصحاب أعذار – لأنهم معفون – لكن الاستئذان يأتي من المنافقين الذي تتوافر فيهم كل شروط القتال ، ويستأذنون في القعود وعدم الخروج للقتال . ويقولون ما يخبرنا الحق به : ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ والقاعد مقابله القائم . والقيام – كما نعلم – هو مقدمة للحركة . فإذا أراد الإنسان أن يمشي ، قام من مكانه أولاً ، ثم بدأ المشي والحركة ، ومن القيام أخذتْ مادة (القوم) أي : الجماعة القائمة على شئونها ، والقوم هم الرجال ، أما النساء فلا يدخلن في القوم ، مصداقاً

لقول الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عسى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عسى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ . . . ﴾ [الحجرات : 11]

إذن : فالقيام يقابله القعود ، والقوم يقابلهم النساء . والقعود هو مقدمة للسكون ، فمتى جلس الإنسان فهناك مقدمة لفترة من السكون ، وقعود المنافقين وتخلفهم واستئذانهم أن يبقوا مع النساء والعجزة والمرضى والصبية هو حَطٌّ من شأنهم .

ولذلك يقول عنهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف . . . ﴾ [التوبة : 87] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(18/345)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله سبحانه وتعالى : "وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون "

وقال بعدها : "إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون " فيهما سؤالان : قوله فى الأولى "وطبع على قلوبهم " ببناء الفعل للمفعول مكتفى به ، وفى الثانية "وطبع الله " ببناء الفعل على الأصل ؟ والثانى قوله فى الأولى "فهم لا يفقهون " وفى الثانية "فهم لا يعلمون " .

والجواب عن الأول : أن مطلع الآية قبلها قوله تعالى : " وإذا أنزلت سورة " على بناء الفعل للمفعول فجاء قوله "وطبع على قلوبهم " على ذلك ونوسب بختام هذه الآية بداءة ما قبلها وأما الثانية فلم يقع قبلها فعل بنى للمفعول وقد ذكر الفاعل فيها فجرى الكلام على ما يجب فقيل "وطبع الله على قلوبهم " .

والجواب عن الثانى : أن قوله "وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله " لما اجتمع ذكر إنزال السورة والاشارة إلى ذكر المراد بها بقوله : "أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله " استدعى ذلك نظر من بلغه هذا المنزل واعتباره وتفهم المقصود به إلى الكمال ليقع الامتثال على وجهه فلما تراموا إلى الخلود إلى الراحة وترك الجهاد الذى تحملت الآية الأمر به ناسب ذلك أن ينفى عنه الفهم والتدبر فقيل : "وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون " والتفقه التفكر والاعتبار ولما لم يقع فى الآية بعد ذكر تدبره وتفهمه لقرب المعنى المراد منه وذلك قوله : "إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء " صرف النفى إلى الحاصل على التفهم

وهو العلم فقيل : "وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 232.233 ﴾

(19/345)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ :

" إذا " لا تقتضي تكراراً بوضعها ، وإن كان بعضُ الناس فَهِمَ ذلك منها ههنا ، وقد تقدَّم ذلك أولَ البقرة وأنشدْت عليه :

2525 إذا وجدْتُ أوارَ الحُبِّ في كَبِدي . . . . . .

. . . . . .

وأنَّ هذا إنما يُفْهَمُ من القرائن لا مِنْ وَضْع " إذا " له .

قوله : ﴿ أَنْ آمِنُواْ ﴾ :

فيه وجهان ، أحدهما : أنها تفسيريةٌ لأنه قد تقدَّمها ما هو بمعنى القول لا حروفه . والثاني : أنها مصدريةٌ على حذف حرف الجر ، أي : بأنْ آمنوا . وفي قوله : " اسْتَأْذَنَكَ " ؛

التفاتٌ من غَيْبة إلى خطاب ، وذلك أنه قد تقدَّم لفظُ " رسوله " فلو جاء على الأصل لقيل : استأذنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 95 ﴾

(20/345)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (86) ﴾

إذا تَوَجَّه عليهم الأمرُ بالجهاد ، واشتدَّ عليهم حكمُ الإلزام ، تعلَّلوا إلى السَّعَةِ ، وركنوا إلى اختيار الدَّعَة واحتالوا في موجبَاتِ التَّخَلُّفِ ، أولئك الذين خَصَّهم بخذلانه ، وصَرَفَ قلوبهم عن ابتغاء رضوانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 51 ﴾

(21/345)

قوله تعالى ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

أي كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ مع الخوالف ﴾ أي النساء ﴿ وطبع ﴾ أي وقع الطبع المانع ﴿ على قلوبهم ﴾ أي حتى رضوا لأنفسهم بالتخلف عن سبب السعادة مع الكون في عداد المخدرات بما هو عار في الدنيا ونار في العقبى .

ولما أبهم فاعل الطبع ، نفى دقيق العلم فقال : ﴿ فهم ﴾ أي بسبب هذا الطبع ﴿ لا يفقهون ﴾ أي لا فقه لهم يعرفون به ما في الجهاد من العز والسعادة في الدارين ، وما في التخلف من الشقاء والعار فلذلك لا يجاهدون ، فلا شيء أضر من هذه الأموال والأولاد التي أبعدت عن الممادح وألزمت المذام والقوادح ، فقد اكتنفت آية الأموال في أول قصة وآخرها ما يدل على مضمونها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 372 . 373 ﴾

(22/345)

فصل

قال الفخر :

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾

ذكرنا الكلام المستقصى في الخالف في قوله : ﴿ فاقعدوا مَعَ الخالفين ﴾ وههنا فيه وجهان :

الأول : قال الفراء : ﴿ الخوالف ﴾ عبارة عن النساء اللاتي تخلفن في البيت فلا يبرحن ، والمعنى : رضوا بأن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء .

الثاني : يجوز أيضاً أن يكون الخوالف جمع خالفة في حال .

والخالفة الذي هو غير نجيب .

قال الفراء : ولم يأت فاعل صيغة جمعه فواعل ، إلا حرفان : فارس وفوارس ، وهالك وهوالك ، والقول الأول أولى ، لأن أدل على القلة والذلة .

قال المفسرون : وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف .

ثم قال : ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ وقد عرفت أن الطبع والختم عبارة عندنا عن حصول الداعية القوية للكفر المانعة من حصول الإيمان ، وذلك لأن الفعل بدون الداعي لما كان محالاً ، فعند حصول الداعية الراسخة القوية للكفر ، صار القلب كالمطبوع على الكفر ، ثم حصول تلك الداعية إن كان من العبد لزم التسلسل ، وإن كان من الله فالمقصود حاصل .

وقال الحسن : الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان ، وعند المعتزلة عبارة عن علامة تحصل في القلب ، والاستقصاء فيه مذكور في سورة البقرة في قوله : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي لا يفهمون أسرار حكمة الله في الأمر بالجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 125 ﴾

(23/345)

وقال السمرقندى :

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾

يعني : بأن يجالسوا النساء بالمدينة .

يقال : الخوالف هم خساس الناس ودناتهم ، يقال : خالف أهله ، إذا كان دونهم .

﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ التوحيد ، ويقال : لا يعلمون ثواب الخروج إلى الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾

فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : مع المنافقين ، قاله مقاتل .

والثاني : أنهم خساس الناس وأدناهم مأخوذ من قولهم فلان خالفه أهله إذا كان دونهم ، قاله ابن قتيبة .

والثالث : أنهم النساء ، قاله قتادة والكلبي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ الآية

تقريع وإظهار شنعة كما يقال على وجه التعيير رضيت يا فلان ، و ﴿ الخوالف ﴾ النساء جمع خالفة ، هذا قول جمهور المفسرين ، وقال أبو جعفر النحاس يقال للرجل الذي لا خير فيه خالفة ، فهذا جمعه بحسب اللفظ والمراد أخسة الناس وأخالفهم ، وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش : ﴿ الخوالف ﴾ من لا خير فيه ، وقالت فرقة ﴿ الخوالف ﴾ جمع خالف فهو جار مجرى فوارس ونواكس وهوالك ، ﴿ وطبع ﴾ في هذه الآية مستعار ، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحفاظاً عليه شبه القلب الذي قد غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه ، ومن هذا

استعارة القفل والكنان للقلب ، و﴿ لا يفقهون ﴾ معناه لا يفهمون . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(24/345)

وقال ابن الجوزى :

، وفي "الخوالف" قولان .

أحدهما : أنهم النساء ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وشمر بن عطية ، وابن زيد ، والفراء .

وقال أبو عبيدة : يجوز أن تكون الخوالف هاهنا النساء ، ولا يكادون يجمعون الرجال على تقدير فواعل ، غير أنهم قد قالوا : فارس ، والجميع : فوارس ، وهالك [في قوم] هوالك .

قال ابن الأنباري : الخوالف لا يقع إلا على النساء ، إذ العرب تجمع فاعلة : فواعل ، فيقولون : ضاربة ، وضوارب ، وشاتمة ، وشواتم ؛ ولا يجمعون فاعلاً : فواعل ، إلا في حرفين : فوارس ، وهوالك ؛ فيجوز أن يكون مع الخوالف : المتخلفات في المنازل .

ويجوز أن يكون : مع المخالفات العاصيات .

ويجوز أن يكون : مع النساء العجزة اللاتي لا مدافعة عندهن .

والقول الثاني : أن الخوالف خساس الناس وأدنياؤهم ، يقال : فلان خالفة أهله : إذا كان دونهم ، ذكره ابن قتيبة ؛ فأما "طَبَع" فقال أبو عبيدة : معناه : ختم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾

"الخوالف" جمع خالفة ؛ أي مع النساء والصبيان وأصحاب الأعذار من الرجال .

وقد يُقال للرجل : خالفة وخالف أيضاً إذا كان غير نجيب ؛ على ما تقدّم .

يُقال : فلان خالفة أهله إذا كان دونهم .

قال النحاس : وأصله من خَلَف اللبنُ يخلف إذا حَمُض من طول مكثه .

وخَلَف فمُ الصائم إذا تغيّر ريحه ؛ ومنه فلان خَلَف سوء ؛ إلاَّ أن فواعل جمع فاعلة .

ولا يجمع "فاعل" صفة على فواعل إلاَّ في الشعر ؛ إلاَّ في حرفين ، وهما فارس وهالك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(25/345)

وقال الخازن :

﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾

قيل : الخوالف النساء اللواتي يتخلفن في البيوت فلا يخرجن منها ، والمعنى رضوا بأن يكونوا في تخلفهم عن الجهاد كالنساء وقيل : خوالف جمع خالفة وهم أدنياء الناس وسفلتهم يقال فلان خالفة قومه إذا كان دونهم ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ يعني : وختم على قلوب هؤلاء المنافقين فهم لا يفقهون مراد الله في الأمر بالجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(26/345)

وقال أبو حيان :

وفي قوله : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ، تهجين لهم ، ومبالغة في الذم .

والخوالف : النساء قاله : الجمهور كابن عباس ، ومجاهد وقتادة ، وشمر بن عطية ، وابن زيد ، والفراء ، وذلك أبلغ في الذم كما قال :

وما أدري وسوف إخال أدري . . .

أقوم آل حصن أم نساء

فإن تكن النساء مخبآت . . .

فحق لكل محصنة هداء

وقال آخر :

كتب القتل والقتال علينا . . .

وعلى الغانيات جر الذيول

فكونهم رضوا بأنْ يكونوا قاعدين مع النساء في المدينة أبلغ ذم لهم وتهجين ، لأنهم نزلوا أنفسهم منزلة النساء العجزة اللواتي لا مدافعة عندهنّ ولا غنى .

وقال النضر بن شميل : الخوالف من لا خير فيه .

وقال النحاس : يقال للرجل الذي لا خير فيه خالفة ، وهذا جمعه بحسب اللفظ ، والمراد أخساء الناس وأخلافهم .

وقالت فرقة : الخوالف جمع خالف ، فهو جار مجرى فوارس ونواكس وهوالك ، والظاهر أن قوله : وطبع خبر من الله بما فعل بهم .

وقيل : هو استفهام أي : أو طبع على قلوبهم ، فلأجل الطبع لا يفقهون ولا يتدبرون ولا يتفهمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة ، وما في التخلف من الشقاء والضلال . انتهى انتهى . اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ رَضُواْ ﴾

استئنافٌ لبيان سوءِ صنيعِهم وعدمِ امتثالِهم لكلا الأمرين وإن لم يرُدّوا الأول صريحاً ﴿ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ مع النساء اللاتي شأنُهن القعودُ ولزومُ البيوتِ ، جمعُ خالفةٍ وقيل : الخالفةُ من لا خير فيه ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ ما في الإيمان بالله وطاعتِه في أوامره ونواهيه واتباعِ رسولِه عليه السلام والجهادِ من السعادة وما في أضداد ذلك من الشقاوة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾

أي النساء كما روي عن ابن عباس .

وقتادة وهو جمع خالفة وأطلق على المرأة لتخلفها عن أعمال الرجال كالجهاد وغيره ، والمراد ذمهم والحاقهم بالنساء في التخلف عن اجلهاد ، ويطلق الخالفة على من لا خير فيه ، والتار فيه للنقل للاسمية ، وحمل بعضهم الآية على ذلك فالمقصود حينئذ من لا فائدة فيه للجهاد وجمعه على فواعل على الأول ظاهر وأما على الثاني فلتأنيث لفظه لأن فاعلا لا يجمع على فواعل في العقلاء الذكور إلا شذوذاً ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ ﴾ بسبب ذلك

﴿ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ ما ينفعهم وما يضرهم في الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(28/345)

وقال ابن عاشور :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلّة رجلتهم بأنّهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعاً للنساء .

وفي اختيار فعل ﴿ رضوا ﴾ إشعار بأنّ ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردّد العاقل في قبوله كما تقدّم في قوله تعالى : ﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ﴾ [التوبة : 38] وقوله : ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ [التوبة : 83] .

والخوالف : جمع خالفة وهي المرأة التي تتخلّف في البيت بعد سفر زوجها فإن سافرت معه فهي الظعينة ، أي رضوا بالبقاء مع النساء .

والطبع تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم .

والطبع مرادف الختم .

وقد تقدّم بيانه عند قوله تعالى : ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ في سورة البقرة (7) .

وأسند الطبع إلى المجهول إمّا للعلم بفاعله وهو الله ، وإمّا للإشارة إلى أنّهم خلقوا كذلك وجبلوا عليه وفرع على الطبع انعدام علمهم بالأمور التي يختصّ بعلمها أهل الأفهام ، وهو العلم المعبّر عنه بالفقه ، أي إدراك الأشياء الخفيّة ، أي فآثروا نعمة الدعة على سُمعة الشجاعة وعلى ثواب الجهاد إذ لم يدركوا إلاّ المحسوسات فلذلك لم يكونوا فاقهين وذلك أصل جميع المَضار في الداريْن .

وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي للدلالة على تقوّي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكّنه منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(29/345)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

و﴿ الخوالف ﴾ ليست جمع " خَالِف " ولكنها جمع " خالفة " ؛ لأن " خَالف : لا تجمع على " فواعل " ، وإنما " خالفه " هي التي تُجمَعُ على " فواعل " ، وهم قد ارتضوا لأنفسهم أن يطبق عليهم الحكم الذي يُطبق على النساء .

ولذلك كانوا ﴿ لاَيَفْقَهُونَ ﴾ لأنهم ارتضوا لأنفسهم وصفاً لا يليق بالرجال وفرحوا بهذا الوصف دون أن ينتبهوا لما فيه من إهانة لهم ؛ لأنهم يهربون من القتال كما تهرب النساء .

والمنافق – كما قلنا – له ملكتان : ملكية قولية ، وملكة قلبية . فقول المنافق إعلان بالإيمان ، أما قلبه فهو ممتلئ بالكفر ؛ وفي هذه الحالة تتضارب ملكاته .

والله سبحانه وتعالى يوضح لهم : سوف نعاملكم في الدنيا بظاهر كلامكم ، ونعاملكم في الآخرة بباطن قلوبكم ، وسوف نطبع على هذه القلوب ؛ فلا يخرج منها كفر ، ولا يدخل إليها إيمان ، ولذلك قال الحق سبحانه هنا ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وقد قال الحق سبحانه : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ [البقرة : 7]

وقال سبحانه : ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ [التوبة : 93]

وما دام الكافر قد أعجبه كفر قلبه ؛ فالحق سبحانه يختم على قلبه ، بحيث لا يخرج ما فيه من كفر ، ولا يدخل إلى قلبه ؛ ما هو خارجه من إيمان ، تماماً كما تختم الشيء بالشمع الأحمر ؛ فيظل ما في داخله كما هو ، وما في خارجه كما هو . ويطبع الله على قلبه ؛ فيمنع ما فيه من الكفر أن يخرج ، ويمنع ما في خارجه من الإيمان أن يدخل إليه .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَهُمْ لاَيَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم ، أي : لا يفهمون ما حُرِموا منه من ثواب ونعيم الآخرة ؛ لأنهم قد فرحوا بتخلفهم عن الجهاد ، وهم يحسبون أن هذا خيراً لهم ولكنه شر لهم .

(30/345)

ثم يريد الحق سبحانه أن يضع الطمأنينة في نفوس المؤمنين ، ويطلب منهم ألا يفزعوا ؛ لتخلف هؤلاء القادرين عن القتال رغم أنهم أصحاب الطَّوْل الذين يملكون الأموال والأولاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(31/345)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

قوله : ﴿ مَّاتَ ﴾ صفة لأحد ، و ﴿ أَبَدًا ﴾ ظرف لتأبيد النفي .

قال الزجاج : معنى قوله : ﴿ وَلَا تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دفن الميت وقف على قبره ، ودعا له ، فمنع ها هنا منه ؛ وقيل : معناه : لا تقم

بمهمات إصلاح قبره ، وجملة : ﴿ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ ﴾ تعليل للنهي .

وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر ؛ لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه ، والكذب ، والنفاق ، والخداع ، والجبن ، والخبث ، مستقبحة في كل دين .

ثم نهى رسوله عن أن تعجبه أموالهم وأولادهم .

وهو تكرير لما سبق في هذه السورة وتقرير لمضمونه ؛ وقيل : إن الآية المتقدّمة في قوم ، وهذه في آخرين .

وقيل : هذه في اليهود ، والأولى : في المنافقين .

وقيل : غير ذلك .

وقد تقدّم في الآية الأولى جميع ما يحتاج إليه في تفسير هذه الآية .

(32/345)

ثم عاد الله سبحانه إلى توبيخ المنافقين ، فقال : ﴿ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي : من القرآن ، ويجوز أن يراد بعض السورة ، وأن يراد تمامها ؛ وقيل : هي هذه السورة : أي سورة براءة ، و "أن" في ﴿ أَنْ آمِنُواْ بِاللّهِ ﴾ مفسرة لما في الإنزال من معنى القول ، أو مصدرية حذف منها الجارّ : أي : بأن آمنوا ، وإنما قدّم الأمر بالإيمان ، لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان

: ﴿ استأذنك أُوْلُواْ الطول مِنْهُمْ ﴾ أي : ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولاً ، كذا قال ابن عباس والحسن ، وقال الأصمّ : الرؤساء والكبراء المنظور إليهم ، وخصهم بالذكر لأن الذم لهم ألزم ، إذ لا عذر لهم في القعود ﴿ وَقَالُواْ ذَرْنَا ﴾ أي اتركنا ﴿ نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ أي : المتخلفين عن الغزو من المعذورين ، كالضعفاء والزمنى ، والخوالف : النساء اللاتي يخلفن الرجال في القعود في البيوت .

جمع خالفة ، وجوّز بعضهم أن يكون جمع خالف ، وهو من لا خير فيه : ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ هو كقوله : ﴿ خَتَمَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ [البقرة : 7] وقد مرّ تفسيره ﴿ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ شيئاً مما فيه نفعهم وضرهم ، بل هم كالأنعام .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما ، عن ابن عمر قال : لما توفي عبد الله بن أبيّ ابن سلول ، أتى ابنه عبد الله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه قميصه ليكفنه فيه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام عمر فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله ، أتصلي عليه ، وقد نهاك الله أن تصلي على المنافقين ؟ فقال : " إن ربي خيرني وقال : ﴿ استغفر لَهُمْ أَوْ لاَ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ الله لَهُمْ ﴾ وسأزيد على السبعين " فقال : إنه منافق ، فصلى عليه ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ الآية ، فترك الصلاة عليهم .

وأخرج ابن ماجه ، والبزار ، وابن جرير ، وابن مردويه ، عن جابر ، قال : مات رأس المنافقين بالمدينة فأوصى أن يصلي عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأن يكفنه في قميصه ، فجاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن أبي أوصى أن يكفن في قميصك ، فصلى عليه وألبسه قميصه وقام على قبره ، فأنزل الله : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ على قَبْرِهِ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مرديه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أُوْلُواْ الطول ﴾ قال : أهل الغنى .

وأخرج هؤلاء ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ قال : مع النساء .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في الآية قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء .

وأخرج أبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : الخوالف النساء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(34/345)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ قال : مع النساء .

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص " أن علي بن أبي طالب خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء ثنية الوداع يريد تبوك ، وعلي يبكي ويقول : تخلفني مع الخوالف ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى إلا النبوة ؟ " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ قال : رضوا بأن يقعدوا كما قعدت النساء .

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ أي النساء ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ أي بأعمالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(35/345)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَعَ الخوالف ﴾ : الخَوَالِفُ : جمع خالفة من صفة النساء ، وهذه صفةُ ذَمّ كقول زهير :

2526 وما أَدْري وسوف إخالُ أَدْري . . . أقومٌ آلُ حِصْنٍ أم نساءُ

فإنْ تكنِ النساءُ مُخبَّآتٍ . . . فَحُقَّ لكل مُحْصَنَةٍ هِداءُ

وقال آخر :

2527 كُتِبَ القَتْلُ والقتالُ علينا . . . وعلى الغانيات جَرُّ الذيولِ

وقال النحاس : " يجوز أن تكونَ " الخوالِف " من صفة الرجال ، بمعنى أنها جمع خالفة . يقال : " رجل خالِفَة " ، أي : لا خير فيه ، فعلى هذا تكونُ جمعاً للذكور باعتبار لفظِهِ " . وقال بعضهم : إنه جمع خالف ، يقال : رجلٌ خالفٌ ، أي : لا خير فيه ، / وهذا مردودٌ ؛ فإن فواعل لا يكونُ جمعاً ل فاعل وَصْفاً لعاقل إلا ما شذَّ من نحو : فوارس ونواكس وهوالك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 95.96 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (87) ﴾

بَعُدُوا عن بِساط العِبادة فاستطابوا الدّعة ، ورضوا بالتعريج في منازل الفرقة ، ولو أنهم رجعوا إلى الله تعالى بِصِدقِ النَّدم لَقَابَلَهُم بالفضل والكرم ، ولكنْ القضاءَ غالِبٌ ، والتكلفَ ساقطٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 52 ﴾

(37/345)

قوله تعالى ﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما افتتح القصة بمدح المتقين لمسابقتهم إلى الجهاد من دون استئذان ختمها بذلك وذكر ما أعد لهم فقال معلماً بالغنى عنهم بمن هو الخير المحض تبكيتاً لهم وتقريعاً : ﴿ لكن

الرسول ﴾ أي والذي بعثه لرد العباد عن الفساد إلى السداد ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي إيماناً عظيماً كائناً أو كائنين ﴿ معه ﴾ أي مصاحبين له ذاتاً وحالاً في جميع ما أرسلناه إليهم به ﴿ جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أي بذلوا كلاً من ذلك في حبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتحققوا بشرط الإيمان و " لكن " واقعة موقعها بين متنافسين لأن ما مضى من حالهم كله ناطق بأنهم لم يجاهدوا .

ولما كان السياق لبخلهم بالنفس والمال ، ولسلب النفع من أموالهم وأولادهم ، اقتصر في مدح أوليائه على الجهاد بالنفس والمال ولم يذكر السبيل وقال : ﴿ أولئك ﴾ دالاً على أنه معطوف على ما تقديره : فأولئك الذين نورت قلوبهم فهم يفقهون ، وقوله : ﴿ لهم ﴾ أي لا لغيرهم ﴿ الخيرات ﴾ تعرض بذوي الأموال من المنافقين لأن الخير يطلق على المال وتحليته ب " ال " على استغراقه لجميع منافع الدارين ، والتعبير بأداة البعد إشارة إلى علو مقام أوليائه وبعد مناله إلا بفضل منه تعالى ، وكذا التعريض بهم بقوله : ﴿ وأولئك هم ﴾ أي خاصة ﴿ المفلحون ﴾ أي الفائزون بجميع مرادهم ، لا غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 373 ﴾

(38/345)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

واعلم أنه تعالى لما شرح حال المنافقين في الفرار عن الجهاد بين أن حال الرسول والذين آمنوا معه بالضد منه ، حيث بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله والتقرب إليه .

وقوله : ﴿ لَكِنِ ﴾ فيه فائدة ، وهي : أن التقدير أنه إن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو ، فقد توجه من هو خير منهم ، وأخلص نية واعتقاداً ، كقوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً ﴾ [الأنعام : 89] وقوله : ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ ﴾ [فصلت : 38] ولما وصفهم بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع .

وهو أنواع : أولها : قوله : ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخيرات ﴾ واعلم أن لفظ الخيرات ، يتناول منافع الدارين ، لأجل أن اللفظ مطلق .

وقيل : ﴿ الخَيْرَاتُ ﴾ الحور ، لقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70]

وثانيها : قوله : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ فقوله : ﴿ لَهُمُ الخيرات ﴾ المراد منه الثواب .

وقوله : ﴿ هُمُ المفلحون ﴾ المراد منه التخلص من العقاب والعذاب . انتهى انتهى . اهـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 125 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ لكن الرسول ﴾

يعني : إن لم يجاهد المنافقون فالله تعالى غني عنهم ويجاهد الرسول .

﴿ والذين ءامَنُواْ مَعَهُ جاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ، يعني : إن لم تخرجوا أنتم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخيرات ﴾ ، يعني : الحسنات ، ويقال : زوجات حسان في الجنة .

والخيرة : الزوجة ، والخيرة : الثواب .

وقال القتبي والأخفش : الخيرات واحدها خيرة : وهن الفواصل .

وروى مسروق ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : في قوله : ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخيرات ﴾ قال : لكل مسلم خيرةٌ ولكل خيرةٌ خيمة ، ولكل خيمة أربعة أبواب ، يدخل عليها في كل يوم من الله تعالى تحفة وكرامة وهدية ، لم يكن قبل ذلك لا طمحات ولا مرحات ولا بخرات ولا دفرات ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ [الواقعة : 22] الآية .

قال أهل اللغة : طمحات يعني : ناكسات رؤوسهن ، مرحات خفيفات الروح ، بخرات منتن ريح الفم ، ودفرات منتن ريح الإبط .

ثم قال تعالى : ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ ، يعني : الناجون في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ ﴾

وهو جمع خيرة ، وفيها أربعة أوجه :

أحدها : أنها غنائم الدنيا ومنافع الجهاد .

والثاني : فواضل العطايا .

والثالث : ثواب الآخرة .

والرابع : حُور الجنان ، من قوله تعالى ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(40/345)

وقال ابن عطية :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾

الأكثر في ﴿ لكن ﴾ أن تجيء بعد نفي ، وهو ها هنا في المعنى ، وذلك أن الآية السالفة

معناها أن المنافقين لم يجاهدوا فحسن بعدها " لكن الرسول والمؤمنون جاهدوا " ، و ﴿ الخيرات ﴾ جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء ، وكثر استعماله في النساء ، فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ [الرحمن : 70] ومن ذلك قول الشاعر أنشده الطبري : [الكامل]

ربلات هند خيرة الملكات . . . و ﴿ المفلحون ﴾ الذين أدركوا بغيتهم من الجنة ، والفلاح يأتي بمعنى إدراك البغية ، من ذلك قول لبيد : [الرجز]

أفلح بما شئت فقد يبلغ بالض . . . عف وقد يخدع الأريب

ويأتي بمعنى البقاء ومن ذلك قول الشاعر : [المنسرح]

لكل همٍّ من الهموم سعهْ . . . والمسى والصبح لا فلاح معهْ

أي لا بقاء .

قال القاضي أبو محمد : وبلوغ البغية يعم لفظة الفلاح حيث وقعت فتأمله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(41/345)

وقال القرطبى :

قوله تعالى في وصف المجاهدين : ﴿ وأولئك لَهُمُ الخيرات ﴾

قيل : النساء الحسان ؛ عن الحسن .

دليله قوله عزّ وجلّ : ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] .

ويُقال : هي خَيْرة النّساء .

والأصل خيّرة فخفّف ؛ مثل هَيّنة وهَيْنة .

وقيل : جمع خير .

فالمعنى لهم منافع الدارين .

وقد تقدّم معنى الفلاح .

والجنات : البساتين .

وقد تقدّم أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾

أي إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فقد جاهد من هو خير منهم يعني الرسول والمؤمنين ﴿

وأولئك لهم الخيرات ﴾ منافع الدارين النصر والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة

وقيل الحور لقوله فيهن خيرات حسان وهي جمع خيرة تخفيف خيرة ﴿ وأولئك هم

المفلحون ﴾ أي الفائزون بالمطالب .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ بيان لما لهم من الخيرات الأخروية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(42/345)

وقال أبو حيان :

﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾

لما ذكر أنّ أولئك المنافقين اختاروا الدعة وكرهوا الجهاد ، وفروا من القتال ، وذكر ما أثر ذلك فيهم من الطبع على قلوبهم ، ذكر حال الرسول والمؤمنين في المثابرة على الجهاد ، وذلك ما لهم من الثواب .

ولكن وضعها أنْ تقع بين متنافيين .

ولما تضمن قول المنافقين ذرنا ، واستئذانهم في القعود ، كان ذلك تصريحاً بانتفاء الجهاد .

فكأنه قيل : رضوا بكذا ولم يجاهدوا ، ولكنّ الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا .

والمعنى : إنْ تخلف هؤلاء المنافقون فقد توجه إلى الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية .

كقوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ ﴿ فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار ﴾ والخيرات : جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء ، فيتناول محاسن الدنيا والآخرة لعموم اللفظ ، وكثرة استعماله في النساء ومنه فيهن خيرات حسان .

وقال الشاعر :

ولقد طعنت مجامع الربلات . . .

ربلات هند خيرة الملكات

وقيل : المراد بالخيرات هنا الحور العين .

وقيل : المراد بها الغنائم من الأموال والذراري .

وقيل : أعدّ الله لهم جنات ، تفسير للخيرات إذ هو لفظ مبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(43/345)

وقال أبو السعود :

﴿ لكن الرسول والذين ءامَنُواْ مَعَهُ ﴾

بالله وبما جاء من عنده تعالى ، وفيه إيذانٌ بأنهم ليسوا من الإيمان بالله في شيء وإن لم يُعرضوا عنه صريحاً إعراضَهم عن الجهاد باستئذانهم في القعود ﴿ جاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ ﴾ أي إنْ تخلّف هؤلاء عن الغزو فقد نهَدَ إليه ونهضَ له من هو خيرٌ منهم وأخلصُ نيةً ومعتقَداً وأقاموا أمرَ الجهادِ بكلا نوعيه كقوله تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمْ ﴾ بواسطة نعوتهم المزبورة ﴿ الخَيْرَاتِ ﴾ أي منافعُ الدارين النصرُ والغنيمةُ في الدنيا والجنةُ والكرامة في العُقبى ، وقيل : الحورُ كقوله عز قائلاً : ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾ وهي جمعُ خَيْرة تخفيف خيّرة ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ أي الفائزون بالمطلوب لا مَنْ حاز بعضاً من الحظوظ الفانية عما قليل ، وتكريرُ اسمِ الإشارة تنويهٌ لشأنهم وربْءٌ لمكانهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(44/345)

وقال الآلوسى :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾

استدراك لما فهم من الكلام ، والمعنى إن تخلف هؤلاء ولم يجاهدوا فلا ضير لأنه قد نهض

على أتم وجه من هو خير منهم فهو على حد قوله تعالى : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] وفي الآية تعريض بأن القوم ليسوا من الإيمان بالله تعالى في شيء وإن لم يعرضوا عنه صريحاً اعراضهم عن اجلهاد باستئذانهم في القعود ﴿ وَأُوْلَئِكَ ﴾ أي المنعوتون بالنعوت الجليلة ﴿ لَهُمْ ﴾ بواسطة ذلك ﴿ الخَيْرَاتِ ﴾ أي المنافع التي تسكن النفس إليها وترتاح لها ، وظاهر اللفظ عمومها هنا لمنافع الدارين كالنصر والغنيمة في الدنيا والجنة ونعيمها في الأخرى ، وقيل .

المراد بها الحور لقولهتعالى : ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] فإنها فيه بمعنى الحور فتحمل عليه هنا أيضاً .

ونص المبرد على أن الخيرات تطلق على الجواري الفاضلات وهي جمع خيرة بسكون الياء مخفف خيرة المشددة تأنيث خير وهو الفاضل من كل شيء المستحسن منه ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ أي الفائزون بالمطالب دون من حاز بعضاً يفنى عما قليل ، وكرر اسم الإشارة تنويهاً بشأنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(45/345)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ﴾

افتتاح الكلام بحرف الاستدراك يؤذن بأنّ مضمون هذا الكلام نقيض مضمون الكلام الذي قبله أصلاً وتفريعاً .

فلمّا كان قعود المنافقين عن الجهاد مسبباً على كفرهم بالرسول صلى الله عليه وسلم كان المؤمنون على الضدّ من ذلك .

وابتدىء وصف أحوالهم بوصف حال الرسول لأنّ تعلّقهم به واتّباعهم إياه هو أصل كمالهم وخيرِهم ، فقيل : ﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا ﴾ .

وقوله : ﴿ بأموالهم وأنفسهم ﴾ مقابل قوله : ﴿ استأذنك أولُوا الطَّوْل منهم ﴾ [التوبة : 86] .

وقوله : ﴿ وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون ﴾ مقابل قوله : ﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ [التوبة : 87] كما تقدّم .

وفي حرفِ الاستدراك إشارة إلى الاستغناء عن نصرة المنافقين بنصرة المؤمنين الرسولَ كقوله : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكّلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] .

وقد مضى الكلام على الجهاد بالأموال عند قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا

بأموالهم وأنفسكم ﴾ [التوبة : 41] .

وفي قوله : ﴿ والذين آمنوا معه ﴾ تعريض بأنّ الذين لم يجاهدوا دون عذر ليسوا بمؤمنين .

و﴿ معه ﴾ في موضع الحال من ﴿ الذين ﴾ لتدلّ على أنّهم أتباع له في كلّ حال وفي كلّ أمر ، فإيمانهم معه لأنّهم آمنوا به عند دعوته إيّاهم ، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم معه ، وفيه إشارة إلى أنّ الخيرات المبثوثة لهم في الدنيا والآخرة تابعة لخيراته ومقاماته .

وعُطفت جملة : ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ على جملة ﴿ جاهدوا ﴾ ولم تُفصل مع جواز الفصل ليُدَلّ بالعطف على أنّها خبر عن الذين آمنوا ، أي على أنّها من أوصافهم وأحوالهم لأنّ تلك أدلّ على تمكّن مضمونها فيهم من أن يُؤتى بها مستأنفة كأنّها إخبار مستأنف .

(46/345)

والإتيان باسم الإشارة لإفادة أنّ استحقاقهم الخيرات والفلاح كان لأجل جهادهم .

والخيرات : جمع خَيْر على غير قياس .

فهو ممّا جاء عَلى صيغة جمع التأنيث مع عدم التأنيث ولا علامَته مثل سرادقات وحمَّامات .

وجعله كثير من اللغويين جمع (خَيْرَة) بتخفيف الياء مُخفّف (خَيِّرة) المشدّد الياء التي هي أنثى (خَيِّر) ، أو هي مؤنّث (خَيْر) المخفّف الياء الذي هو بمعنى أخْير .

وإنّما أنّثوا وصف المرأة منه لأنّهم لم يريدوا به التفضيل ، وعلى هذا كلّه يكون خيرات هنا مؤولاً بالخصال الخيّرة ، وكلّ ذلك تكلّف لا داعي إليه مع استقامة الحمل على الظاهر .

والمراد منافع الدنيا والآخرة .

فاللام فيه للاستغراق .

والقول في ﴿ وأولئك هم المفلحون كالقول في نظيره في أول سورة البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴾ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(47/345)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) ﴾

أي : إياكم أن تحزنوا على هؤلاء المنافقين بسبب قعودهم عن الجهاد معكم ولا تقولوا : نحن خسرناهم في قتالنا ؛ لأن الحق لا يحتاج إليهم ولا إلى جهادهم . وسبحانه القائل : ﴿ فَإِن

يَكْفُرْ بِهَا هؤلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ ﴾ [الأنعام : 89]

ويقول سبحانه : ﴿ فَإِنِ استكبروا فالذين عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بالليل والنهار وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : 38]

وكذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ هَا أَنتُمْ هؤلاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ الله فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ والله الغني وَأَنتُمُ الفقرآء وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم ﴾ [محمد : 38]

وأيضاً نجد قوله الحق : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . . ﴾ [المائدة : 54]

إذن : فتخلف بعض أصحاب القوة والمال والجاه عن الجهاد ، يجب ألا يشيع الفزع أو الحزن في نفوس المؤمنين ؛ لأن الله معهم ، ولأنهم لهم الخيرات ، أي : لهم كل ما يطلق عليه خير : ﴿ وأولئك لَهُمُ الخيرات وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ والمفلح : هو الفائز الناجي المستفيد بثمرة عمله ، وأصلها فلح الأرض أي : شقها ؛ لأن الزراعة تقتضي أن تحرث الأرض أولاً ، وهذه مهمة الإنسان ليخرج الزرع . والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزارعون ﴾ [الواقعة : 64]

ونحن حيث نحرث الأرض نهيجها ، وبدلاً من أن تكون صلبة لا يدخلها هواء ولا تتخللها أشعة الشمس ، تصير بعد الحرث مستقبلة للهواء وتتخللها أشعة الشمس ؛ فتخلصها من أي ماء راكد في داخلها ، وبذلك يتوافر للأرض الهواء اللازم لنمو جذور النبات ؛ لأن إذا وضعت الحَبّ في أرض غير محروثة ، فالزرع لا ينبت ؛ لعدم وجود الهواء الذي تتنفس منه الجذور . ولكن إذا حرثت الأرض ؛ جعلت أشعة الشمس تتخلل ما هو تحت السطح ؛ وتبخر الماء المخزون ؛ ليدخل الهواء بدلاً منه ؛ فتستطيع جذور النبات أن تنمو . إذن : فكل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نُسمّيه فَلاحاً . وهو مأخوذ من الأمر الحسّي ، الذي نراه كل يوم وهو الفِلاحة .

وحين يريد الحق سبحانه وتعالى أن يوضح لنا أمراً معنويّاً ، فهو سبحانه يستحضر لنا صورة محسّة من الذي نراه أمامنا ؛ حتى نستطيع أن نُقرِّب المعنى إلى الأذهان ؛ خصوصاً في الغيبيات التي لا نراها ، فإذا أراد سبحانه أن يقرّبها إلى أذهاننا ؛ فهو يضرب لنا الأمثال بأمور حسّية . والإنسان حين يفلح الأرض ويشقها ويبذر فيها الحب ، تعطيه محصولاً وفيراً . وكذلك فإن كل عمل يؤدي إلى نتيجة طيبة نسميه فلاحاً .

وعندما يحدثنا الحق سبحانه ، فهو يعطينا المثل مما نراه كل يوم ؛ ليقرب إلى أذهاننا جزاء الصدقة والزكاة ، ومضاعفته لنا الأجرَ ، فيقول : ﴿ مَّثَلُ الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ

اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ واللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ . . .

﴿

[البقرة : 261]

فإذا كانت الحبة عندما تضعها في الأرض تنبت سبعمائة حبة ، وإذا كانت الأرض ، وهي مخلوقة لله ، قد أعطتك عن الشيء الواحد سبعمائة ضعف ، فكم يعطي خالق الأرض ؟ وكم يضاعف ؟

(49/345)

إنها صورة مُحَسّة للجزاء على الصدقة والزكاة . وأنت ساعة تزرع الأرض لا تقول : أنا أنقصت المخزون عندي كيلة من القمح أو إردباً من القمح ؛ لأنك تعلم أنك تأخذ مما عندك إردباً من القمح ؛ لتزرعه في الأرض . ولكنك لا تنظر إلى الإردب الذي أخذته من المخزون عندك ، بل انظر إلى ما سوف يجيء لك من هذا الإردب ساعة الحصاد ، وكذلك الزكاة : إياك أن تنظر إلى ما سينقص من مالك عندما تؤدي الزكاة ، ولكن انظر إلى كم سيضاعف الله لك من هذا المال .

وقد ضرب الحق مثلاً بشيء مُحِسٍّ يعلمه الجميع ، ومن صورة ما نراه أمامنا لنفهم ما

ينتظرنا ، فإذا كانت الأرض – وهي المصدر الأول للاقتيات – تُلقى فيها الحبة الواحدة ، فتعطي لك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، وإذا كانت الأرض المخلوقة لله تعوضك عما وضعته فيها بسبعمائة ضعف ، فكم يعطيك خالق الأرض ؟

إذن : فهو سبحانه قادر أن يضاعف لمن يشاء بغير حساب . ولذلك يبشر الحق سبحانه وتعالى المؤمنين بقوله :

﴿ وأولئك لَهُمُ الخيرات وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ وهذا جزاء المؤمنين في الدنيا ، ولكن هناك جزاءاً آخر في الآخرة . وفي هذا يُبشّرِنا الحق سبحانه في قوله : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(50/345)

" فوائد لغوية "

قال السمين :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) ﴾

والخَيْرات : جمع خَيْرة على فَعْلة بسكون العين وهو المستحسَنْ من كل شيء ، وغَلَبَ

استعماله في النساء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ﴾ وقول الشاعر :

2528 ولقد طَعَنْتُ مَجامِعَ الرَّبَلاتِ . . . رَبَلاتِ هندٍ خَيْرةِ الملَكاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 96 ﴾

(51/345)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) ﴾

ليس مَنْ أَقْبَلَ كَمَنْ أعرض وصُدَّ ، ولا مَنْ قُبِلَ أَمْرُه كَمَنْ رُدَّ ، ولا من وحَّدَ كمن جَحَد ، ولا من عَبَدَ كَمن عَنَدَ ، ولا مَنْ أَتَى كمن أَبَى . . . فلا جَرَمَ رَبِحَتْ تِجَارَتُهم ، وجَلَتْ رُتْبَتُهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 52 ﴾

(52/345)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (80) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

(53/345)

التفسير : عن ابن عباس ان عند نزول الآية الأولى في المنافقين قالوا : يا رسول الله استغفر لنا واشتغل بالاستغفار لهم فنزل ﴿ استغفر لهم ﴾ الآية ، ومن المفسرين من قال : إنهم طلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لهم وإن الله نهاه عنه . والنهي عن الشيء لا يدل على أن المنهي أقدم على ذلك الفعل . ثم إن الدليل قد يدل على أنه ما اشتغل بالاستغفار لأن المنافق كافر ، وقد ظهر في شرعه أن الاستغفار للكافر غير جائز ، ولأن

الاستغفار للمنافق يجري مجرى اغرائه على مزيد النفاق ولأنه يلزم أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم غير مجاب الدعوة وإن أكثر في الدعاء . ومن الفقهاء من قال : التخصيص بالعدد المعين يدل على أن الحال فيما وراء ذلك العدد بخلافه لما روي أنه لما نزلت الآية قال صلى الله عليه وسلم : " لأزيدن على السبعين " فنزل ﴿ سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ﴾ [المنافقون : 6] فكف عنه . فلولا أنه فهم بدليل الخطاب أن الأمر فيما وراء السبعين بالخلاف لم يقل لأزيدنّ على ذلك . وأجيب بأنه أراد إظهار الرحمة والرأفة بأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم لبعض لا أنه فهم منه ذلك ، كيف وقد قال تعالى ﴿ لن يغفر الله لهم ﴾ وأردفه بقوله ﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ . فليس المقصود بهذا العدد تحديد المنع وإنما هو كقول القائل لمن يسأله حاجة : لو سألتني سبعين مرة لم أقضها . ولهذا بين العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول وهي كفرهم وفسقهم ، وهذا المعنى قائم في الزيادة على السبعين . وذكر بعضهم لتخصيص السبعين وجهاً هو أن السبعة عدد شريف لأنه عدد السموات والأرضين والبحار والأقاليم والنجوم السيارة والأعضاء وأيام الأسبوع ، فضرب السبعة في عشرة لأن الحسنة بعشر أمثالها .

(54/345)

وقيل : خص بالذكر لأنه صلى الله عليه وسلم كبّر على حمزة سبعين تكبيرة وكأنه قال : إن تستغفر لهم سبعين مرة بإزاء تكبيراتك على حمزة : هذا وقد مر في تفسير قوله ﴿ قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً ﴾ [التوبة : 53] أن هذا أمر في معنى الخبر كأنه قيل : لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لا ، وانتصاب سبعين على المصدر كقولك : ضربته عشرين ضربة . ثم ذكر نوعاً آخر من قبائح أفعالهم فقال ﴿ فرح المخلفون ﴾ قيل : إنهم احتالوا أن يتخلفوا وكان الأولى أن يقال فرح المتخلفون . وأجيب بأنهم استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأذن لهم وخلفهم بالمدينة في غزوة تبوك ، أو أريد خلفهم كسلهم ونفقاهم والشيطان ، أو المجاهدون لما لم يوافقوهم في القعود فكأنهم خلفوهم ، أو أطلق عليهم المخلفون باعتبار أنهم سيصيرون ممنوعين من الخروج في الآية الآتية ﴿ فإن رجعك الله ﴾ إلى قوله ﴿ ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ ومعنى ﴿ بمقعدهم ﴾ بقعودهم قاله مقاتل . أو بموضع قعودهم وهو المدينة قاله ابن عباس . ومعنى ﴿ خلاف رسول الله ﴾ صلى الله عليه وسلم مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار وأقاموا قاله قطرب والزجاج فانتصابه على أنه مفعول له أي قعد والأجل خلافه أو على الحال مثل " فأرسلها العراك " أي مخالفين له ، وقال الأخفش ويونس : الخلاف بمعنى الخلف أي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أن جهة الأمام التي يقصدها الإنسان يخالفها جهة الخلف ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا ﴾ كيف لا يكرهون وليس فيهم باعث الإيمان وداعي الإخلاص ومعهم صارف الكفر

والنفاق ؟ وفيه تعريض بالمؤمنين الباذلين أموالهم وأرواحهم في الله المؤثرين ذلك على الدعة والخفض . واعلم أن الفرح بالإقامة يدل على كراهية الذهاب إلا أنه صريح بذلك للتوكيد ، ولعل المراد أنه مال طبعهم إلى الإقامة لإلفهم بالبلد واستئناسهم بالأهل والولد ، وكرهوا الخروج إلى الغزو لأنه تعريض بالنفس والمال للقتل والإهدار . ﴿ قل نار

(55/345)

جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ أن بعد هذه الدار دار أخرى وبعد هذه الحياة حياة أخرى . وهذه المشقة منقضية سهلة وتلك باقية صعبة ولبعضهم وكأنه صاحب الكشاف :

مسرة أحقاب تلقيت بعدها . . . مساءة يوم أنها شبه أنصاب

فكيف بأن تلقى مسرة ساعة . . . وراء تقضيها مساءة أحقاب

وفي هذا استجهال عظيم لهم . ثم قال ﴿ فليضحكوا ﴾ وهو خبر إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم لا يكون غيره ومعناه فسيضحكون قليلاً أي ضحكاً قليلاً أو زماناً قليلاً وسيبكون كثيراً . يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع

ولا يكتحلون بنوم . ثم عرف نبيه وجه الصلاح في سائر الغزوات فقال ﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم ﴾ أي إن ردّك إلى المدينة .

(56/345)

الرجع متعد مثل الرد ، والرجوع لازم . وإنما قال طائفه لأن منهم من تاب عن النفاق وندم أو اعتذر بعذر صحيح . وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين فأراد بالطائفة المخلفين من المنافقين . ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ إلى غزوة أخرى بعد غزوة تبوك ﴿ فقل لن تخرجوا معي أبداً ﴾ عاقبهم بإسقاط عن ديوان الغزاة جزاء على تخلفهم لما فيه من الذم والطرد وصلاحاً لأمر الجهاد لما في استصحابهم من المفاسد المذكورة في قوله ﴿ لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاَّ خبالاً ﴾ [التوبة : 47] ويعني بأول مرة غزوة تبوك . وإنما لم يقل أول المرات معرفاً مجموعاً لأن المعنى إن فصلت المرات مرة مرة كانت هذه أولها نظيره " هو أفضل رجل " يعني إن عدّ الرجال رجلاً رجلاً كان هو أفضلهم . وإنما لم يقل " أولى مرة " لأن أكثر اللغتين " هند أكبر النساء " ولا يكاد يقال " هي أكبر امرأة " ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ كقوله ﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾ ﴿ التوبة : 46] والخالف من يخلف الرجل في قومه . وعن الأصمعي أنه الفاسد من خلف اللبن والنبيذ إذا فسد . وعن الفراء معناه

المخالف . قال قتادة : ذكر لنا أن الخالفين الذين أمروا بالقعود كانوا اثني عشر رجلاً . عن ابن عباس أنه لما اشتكى عبد الله ابن أبيّ ابن سلول عاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فطلب منه أن يصلي عليه إذا مات ويقوم على قبره ويعطيه قميصه الذي يلي جلده ليكفن فيه ففعل كل ذلك . وعنه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول : لما توفي عبد الله بن أبيّ دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم للصلاة عليه فقام إليه ، فلما وقف علي يريد الصلاة تحوّلت حتى قمت في صدره فقلت : يا رسول الله أعلى عدوّ الله عبد الله ابن أبيّ القائل يوم كذا كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسوله صلى الله عليه وسلم يتبسم ، حتى إذا أكثرت عليه قال : أخر عني يا عمر إني خيرت فاخترت ، قد قيل لي استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ولو

(57/345)

أعلم أني إن زدت على السبعين غفر له لزدت . قال : ثم صلى عليه ومشى معه فقام على قبره حتى فرغ منه قال : فعجبت من جرأتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم . قال : فوالله ما كان إلا يسيراً حتى نزل ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ الآية . فما صلى الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده على منافق ولا قام

على قبره حتى قبضه الله . قال المفسرون : وكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما فعل بعبد الله بن أيّ قال : وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله ، والله إن كنت لأرجو أن يسلم به ألف من قومه وكان كما قال .

وقيل : لعل السبب فيه أنه لما طلب من الرسول قميصه الذي مس جلده ليدفن فيه غلب على ظن الرسول أنه انتقل إلى الإيمان لأنه وقت يتوب فيه الكافرة فرغب أن يصلي عليه . وذكر من أسباب دفع القميص أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أسيراً ببدر ولم يجدوا له قميصاً طويلاً فكساه عبد الله قميصه ، ومنها أن المشركين قالوا له يوم الحديبية إنا لا ننقاد لمحمد ولكنا ننقاد لك . فقال : إن لي في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة ، فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعه . ومنها أنه كان لا يرد السائل لقوله تعالى ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ [الضحى : 10] ومنها أن ابنه عبد الله كان من الصالحين فالرسول أكرمه لمكان ابنه . ومنها إظهار الرأفة والرحمة كما مر .

(58/345)

قوله ﴿ مات ﴾ صفة لأحد ﴿ وأبداً ﴾ ظرف لقوله ﴿ لا تصل ﴾ وإنه يحتمل تأبيد النفي ونفي التأبيد والظاهر الأول ، لأن القرائن تدل على منعه من أن يصلي على أحد منهم

منعاً كلياً دائماً . قال الزجاج : معنى قوله ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه . وقال الكلبي : معناه لا تقم بإصلاح مهمات قبره و ﴿ أنهم كفروا ﴾ تعليل للنهي ويرد عليه أن الكفر حادث وحكم الله قديم والحادث لا يكون علة للقديم . وأجيب بأن العلة ههنا بمعنى الإمارة المعرفة للحكم . قال في الكشاف : وإنما قيل مات وماتوا بلفظ الماضي والمعنى على الاستقبال على تقدير لكون والوجود لأنه كائن موجود لا محالة . وإنما وصفهم بالفسق بعد وصفهم بالكفر لأن الكافر قد يكون عدلاً في دينه ، والكذب والنفاق والخداع والجبن والخبث مستقبح في جميع الأديان . أما قوله ﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ﴾ فقد سبق مثله في هذه السورة بتفاوت ألفاظ فوجب علينا أن نذكر سبب التفاوت ، ثم فائدة التكرار فنقول والله تعالى أعلم بمراده : إنما ذكر النهي ههنا بالواو وهناك بالفاء لأنه لا تعلق له ههنا بما قبله وهو موتهم على حالة الفسق خلاف ما هنالك . وإنما قال ههنا ﴿ وأولادهم ﴾ بدون " لا " لأن المراد هنالك الترقي من الأدون إلى الأعلى وهو أن إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم كقولك : لا يعجبني أمر النائب ولا أمر المنوب . وههنا أراد المعية فقط إما اكتفاء بما سبق هناك ، وإما لأن هؤلاء أقوام آخرون لم يكن عندهم تفاوت بين الأمرين . وقيل : إنه هناك لما علق الثاني بالأول تعليق الجزاء

بالشرط أكد معنى النهي بتكرار " لا " ، وإنما قال ههنا ﴿ إن يعذبهم ﴾ لأنه إخبار عن قوم ماتوا على الكفر فتعلق الإرادة بما هم فيه وهو العذاب .

(59/345)

وأما في الآية المتقدمة فالمفعول محذوف وقد مر . وقيل : الفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله محال وأنه أينما ورد حرف التعليل فمعناه " أن " ، وإنما حذف الحياة ههنا اكتفاء بما ذكر هنالك وقيل تنبيهاً على أن الحياة الدنيا لا تستحق أن تسمى حياة لخستها . وأما فائدة التكرير فهي المبالغة في التحذير من الأموال والأولاد لأنها جذابة للقلوب فتحتاج إلى صارف قوي ، ويحتمل أن تكون الأولى في قوم والثانية في آخرين . وقيل : الثانية في اليهود والأولى في المنافقين . ثم عاد إلى توبيخ المنافقين فقال ﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ أي تمامها ويجوز أن يزاد عليها كما يقع القرآن والكتاب على بعضه . وقيل : هي براءة لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿ أن آمنوا ﴾ " أن " هي المفسرة لأن إنزال السورة في معنى القول . وقال الواحدي : تقديره بأن آمنوا وإنما قدم الأمر بالإيمان لأن الاشتغال بالجهاد لا يفيد إلا بعد الإيمان ﴿ أولوا الطول ﴾ ذو الفضل والسمعة من طال عليه طولاً قاله ابن عباس والحسن . وقال الأصم : الرؤساء والكبراء المنظور إليهم ، وخصوا بالذكر لأن الذم لهم ألزم

إذ لا عذر لهم في القعود ﴿ مع القاعدين ﴾ مع أصحاب الأعذار من الضعفة والزمنى . والخوالف النساء اللواتي تخلفن في البيت ، وجوز بعضهم أن يكون الخوالف جمع خالف وكان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف . ثم قال ﴿ وطبع على قلوبهم ﴾ كقوله ﴿ ختم الله على قلوبهم ﴾ [البقرة : 7] وقد مر البحث فيه ، وقال الحسن : البطع بلوغ القلب في الكفر إلى حد كأنه مات عن الإيمان . وقالت الأشاعرة : هو حصول داعية الكفر المانعة من الإيمان . والطبع في اللغة الختم وهو التأثير في الطين ونحوه ، ومنه الطبع للسجية التي جبل عليها الإنسان ﴿ فهم لا يفقهون ﴾ أسرار حكمة الله في الجهاد أو في الذهاب من السعادة وما في التخلف من الشقاء . وفي قوله ﴿ لكن الرسول ﴾ نكتة هي أنه إن تخلف هؤلاء فقد أنهض إلى الغزو

(60/345)

من هو خير منهم وأصدق نية كقوله ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] ثم ذكر منافع الجهاد على الإجمال فقال ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ وهي شاملة لمنافع الدارين . وقيل : هي الحور لقوله ﴿ فيهن خيرات حسان ﴾ [الرحمن : 70] وقوله ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ المراد منه الخلاص من المكاره .

ثم فصل ما أجمل فقال ﴿ أعد الله ﴾ الآية وقيل : الخيرات الفلاح في الدنيا وهذه في الآخرة . و ﴿ الفوز العظيم ﴾ عبارة عن كون تلك الحالة مرتبة رفيعة ودرجة عالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 510.515 ﴾

(61/345)

" فصل "

قال العلامة نظام الدين النيسابوري :

التأويل : إنما لم يؤثر استغفار الرسول في حقهم لقصور في القائل لا لتقصير في الفاعل ، والأثر يتوقف على الأمرين ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ من رين القلوب وكدورة الأرواح بظلمة الصفات الحيوانية . ﴿ وهم كافرون ﴾ مستورو القلوب بحجاب حب الأموال والأولاد . لهم الخيرات لما سعوا سعي العبودية نالوا خيرات الربوبية ، ﴿ هم المفلحون ﴾ المتخلصون عن حجب صفات النفس ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ إذ لا حجاب أعظم من حجاب النفس والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 515 ﴾

(62/345)

قوله تعالى ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم بين الإفلاح الأعظم بقوله : ﴿ أعد الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لهم ﴾ أي الآن لينعمهم بها بعد موتهم وانتقالهم من هذه الدار التي هي معدن الأكدار ﴿ جنات تجري ﴾ أي دائماً ﴿ من تحتها ﴾ أي مع قربها ﴿ الأنهار ﴾ ثم عرض بهذه الدنيا السريعة الزوال فقال : ﴿ خالدين فيها ﴾ ثم رغب فيها بقوله : ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي الرتبة ﴿ الفوز العظيم ﴾ أي لا غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 373 ﴾

(63/345)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابورى رحمه الله :

القراءات : ﴿ المعذرون ﴾ من الأعذار : قتيبة ويعقوب . الباقون : بالتشديد ﴿ دائرة

السوء ﴾ بضم السين وكذلك في الفتح : أبو عمرو وابن كثير . الآخرون بفتحها ﴿ قرية ﴾ بضم الراء : نافع غير قالون : الباقون بإسكانها وكلاهما بمعنى .

الوقوف : ﴿ ورسوله ﴾ ط ﴿ أليم ﴾ ه ﴿ لله ورسوله ﴾ ط ﴿ من سبيل ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه لا للعطف ، ﴿ ما ينفقون ﴾ ه ﴿ أغنياء ﴾ ج لاحتمال أن يكون ﴿ رضوا ﴾ مستأنفاً أو وصفاً . ﴿ مع الخوالف ﴾ لا لأن الواو إما للعطف أو للحال . ﴿ لا يعلمون ﴾ ه ﴿ إليهم ﴾ ط ﴿ من أخباركم ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ ط ﴿ عنهم ﴾ ط ﴿ رجس ﴾ ز لاختلاف الجملتين مع شدة اتصال المعنى في إتمام الوعيد . ﴿ جهنم ﴾ ج لأن جزاء يصلح أن يكون مفعولاً له أو مفعولاً مطلقاً محذوف أي يجزون جزاء ﴿ يكسبون ﴾ ه ﴿ لترضوا عنهم ﴾ ط لابتداء الشرط مع فاء التعقيب . ﴿ الفاسقين ﴾ ه ﴿ على رسوله ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ الدوائر ﴾ ط ﴿ دائرة السوء ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ الرسول ﴾ ط ﴿ لهم ﴾ ط ﴿ في رحمته ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 516.517 ﴾

فصل

قال الفخر :

قوله : ﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾

يحتمل أن تكون هذه الجنات كالتفسير للخيرات وللفلاح ، ويحتمل أن تحمل تلك الخيرات والفلاح على منافع الدنيا ، مثل الغزو ، والكرامة ، والثروة ، والقدرة ، والغلبة ، وتحمل الجنات على ثواب الآخرة و ﴿ الفوز العظيم ﴾ عبارة عن كون تلك الحالة مرتبة رفيعة ، ودرجة عالية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 125.126 ﴾

(65/345)

وقال أبو السعود :

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾

استئنافٌ لبيان كونهم مفلحين أي هيأ لهم في الآخرة ﴿ جنات تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ حالٌ مقدرةٌ من الضمير المجرورِ والعامل أعدّ ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما فُهم من إعداد الله سبحانه لهم الجناتِ المذكورةَ من نيل الكرامةِ العظمى ﴿ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ ﴾

استئناف لبيان كونهم مفلحين ، وقيل : يجوز أن يكون بياناً لما لهم من المنافع الأخروية ويخص ما قبل بمنافع الدنيا بقرينة المقابلة ، والاعداد التهيئة أي هيأ لهم ﴿ جنات تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار خالدين فِيهَا ﴾ حال مقدرة من الضمير في ﴿ لَهُمْ ﴾ والعامل ﴿ أَعَدَّ ﴾ ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما فهم من الكلام من نيل الكرامة العظمى ﴿ الفوز ﴾ أي الظفر ﴿ العظيم ﴾ الذي لا فوز وراءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(66/345)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

المقصود من الاستدراك بقوله : ﴿ لكن الرسول ﴾ إلى آخره : الإشعار بأن تخلف هؤلاء

غير ضائر ، فإنه قد قام بفريضة الجهاد من هو خير منهم وأخلص نية كما في قوله : ﴿ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بكافرين ﴾ [الأنعام : 89] .

وقد تقدّم بيان الجهاد بالأموال والأنفس ، ثم ذكر منافع الجهاد فقال : ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخيرات ﴾ وهي : جمع خير ، فيشمل منافع الدنيا والدّين ، وقيل : المراد به : النساء الحسان ، كقوله تعالى : ﴿ فِيهِنَّ خيرات حِسَانٌ ﴾ [الرحمن : 70] ومفرده خيرة بالتشديد ، ثم خففت مثل هينة وهينة : وقد تقدّم معنى الفلاح ، والمراد به هنا : الفائزون بالمطلوب ، وتكرير اسم الإشارة لتفخيم شأنهم وتعظيم أمرهم ، والجنات : البساتين .

وقد تقدم بيان جري الأنهار من تحتها ، وبيان الخلود والفوز ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما تقدّم من الخيرات والفلاح ، وإعداد الجنات الموصوفة بتلك الصفة ، ووصف الفوز بكونه عظيماً يدلّ على أنه الفرد الكامل من أنواع الفوز .

وقد أخرج القرطبي في تفسيره ، عن الحسن أنه قال : الخيرات : هنّ النساء الحسان . انتهى انتهى . اهـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(67/345)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

كَانَتِ الْآيَاتُ مِنْ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى الْآيَةِ 28 مِنْهَا فِي شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقِتَالِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ ، وَاضْمِحْلَالِ دَوْلَةِ الشِّرْكِ ، وَجَاءَتْ بِضْعُ آيَاتٍ بَعْدَهَا فِي شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْقِتَالِ وَالْجِزْيَةِ ، مَعَ بَيَانِ حَالِهِمْ فِي الْخُرُوجِ عَنْ هِدَايَةِ دِينِ أَنْبِيَائِهِمْ ، يَتْلُوهَا مَا كَانَ مِنْ إِعْلَانِ النَّفِيرِ الْعَامِّ لِقِتَالِ الرُّومِ فِي تَبُوكَ مِنْ أَرْضِ الشَّامِ الْمَعْرُوفِ . وَفِي الْكَلَامِ عَلَيْهَا بَيَانُ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مِنِ اسْتِثْقَالِهِمْ لِلْجِهَادِ وَاسْتِئْذَانِهِمْ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ ، وَظُهُورِ أَمَارَاتِ نِفَاقِهِمْ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ وَفَضِيحَتِهِمْ فِيهَا ، وَوَعِيدِهِمْ عَلَيْهَا ، وَعَلَى نِفَاقِهِمُ الصَّادِرَةِ عَنْهُ . وَمَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ فِي أَثْنَاءِ السَّفَرِ وَالْعَوْدَةِ مِنْهُ . وَانْتَهَى ذَلِكَ بِالْآيَةِ الثَّمَانِينَ .

وَعَادَ الْكَلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ إِلَى بَيَانِ حَالِ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْقِتَالِ وَظَلُّوا فِي الْمَدِينَةِ . وَمَا يَجِبُ مِنْ مُعَامَلَتِهِمْ بَعْدَ الرُّجُوعِ إِلَيْهَا ، وَكُلُّ هَذَا قَدْ نَزَلَ فِي أَثْنَاءِ السَّفَرِ . قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ

يُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الْفَرَحُ : شُعُورُ النَّفْسِ بِالِارْتِيَاحِ وَالسُّرُورِ ، وَالْخِلَافُ : مَصْدَرُ خَالَفَهُ يُخَالِفُهُ كَالْمُخَالَفَةِ

وَاسْتُعْمِلَ ظَرْفًا بِمَعْنَى بَعْدَ وَخَلْفَ . قَالَ فِي الْأَسَاسِ : وَجَلَسْتُ خِلَافَ فُلَانٍ وَخَلْفَهُ أَيْ : بَعْدَهُ ، وَمِنْهُ

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (17 : 76) وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ عَامِرٍ وَحَمْزَةَ وَالْكِسَائِيِّ وَيَعْقُوبَ وَحَفْصٍ . قَرَأَ الْبَاقُونَ (خَلْفَكَ) اسْتَشْهَدَ اللِّسَانُ عَلَى هَذِهِ اللُّغَةِ بِبِضْعَةِ شَوَاهِدَ ، وَهَاهُنَا يَصِحُّ الْمَعْنَيَانِ .

(69/345)

وَالْمُخَلَّفُونَ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ خَلَّفَ فُلَانًا وَرَاءَهُ (بِالتَّشْدِيدِ) إِذَا تَرَكَهُ خَلْفَهُ وَالْمَعْنَى : فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ - أَيِّ الَّذِينَ تَرَكَهُمُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ ، بِقُعُودِهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ مُخَالِفِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلَهُ . وَهَذَا الْمَعْنَى أَصَحُّ هُنَا ، وَإِنَّمَا فَرِحُوا ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا فِي الْخُرُوجِ مَعَهُ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا تُذْكَرُ بِجَانِبِهِ رَاحَةُ الْقُعُودِ فِي الْبُيُوتِ شَيْئًا وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ أَيْ : قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ فِي النِّفَاقِ

لَا تَنْفِرُوا مَعَهُ فِي الْحَرِّ ، نَهْيًا لَهُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَإِغْرَاءً بِالثَّبَاتِ عَلَى الْمُنْكَرِ . وَهُوَ عَدَمُ النَّفْرِ ، أَوْ قَالُوهُ تَثْبِيتًا لَهُمْ فِيهِ ، وَتَثْبِيطًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا أَيْ : قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ تَفْنِيدًا لِقَوْلِهِمْ وَتَسْفِيهًا لِحُلُومِهِمْ : نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ تَعَالَى لِمَنْ عَصَاهُ وَعَصَى رَسُولَهُ أَشَدُّ حَرًّا مِنْ تِلْكَ الْأَيَّامِ فِي أَوَائِلِ فَصْلِ الْخَرِيفِ ، فَهُوَ لَا يَلْبَثُ أَنْ يَخِفَّ وَيَزُولَ ، عَلَى كَوْنِهِ مِمَّا تَحْتَمِلُهُ الْجُسُومُ ، وَأَمَّا نَارُ جَهَنَّمَ فَحَرُّهَا عَلَى شِدَّتِهِ دَائِمٌ ، فَهُوَ يَلْفَحُ وُجُوهَهُمْ ، وَيُنْضِجُ جُلُودَهُمْ ، وَيَنْزِعُ شَوَاهُمْ ، وَفِي هَذَا أَكْبَرُ عِبْرَةٍ لِمَنْ يَتْرُكُونَ الْجِهَادَ وَغَيْرَهُ مِنَ الْوَاجِبَاتِ إِيثَارًا لِلرَّاحَةِ وَالنَّعِيمِ ، وَمَا يَفْعَلُهُ فِي حَالِ وُجُوبِهِ عَلَيْهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ . ثُمَّ

(70/345)

قَالَ : لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أَيْ : لَوْ كَانُوا يَعْقِلُونَ ذَلِكَ وَيَعْتَبِرُونَ بِهِ لَمَا خَالَفُوا وَقَعَدُوا ، وَلَمَا فَرِحُوا بِقُعُودِهِمْ إِذْ أَجْرَمُوا فَقَعَدُوا ، بَلْ لَحَزِنُوا وَاكْتَأَبُوا ، وَبَكَوْا وَانْتَحَبُوا ، كَمَا فَعَلَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَرَادُوا الْخُرُوجَ وَالنَّفَقَةَ فَعَجَزُوا ، وَسَيَأْتِي بَيَانُ حَالِهِمْ قَرِيبًا .

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا فِي هَذَا الْأَمْرِ بِقِلَّةِ الضَّحِكِ وَكَثْرَةِ الْبُكَاءِ وُجُوهٌ : (أَحَدُهَا) وَهُوَ الْمُخْتَارُ عِنْدَنَا ، أَنَّ هَذَا هُوَ الْأَجْدَرُ بِهِمْ ، بَلِ الْوَاجِبُ

عَلَيْهِمْ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ ، وَتَسْتَوْجِبُهُ جَرِيمَتُهُمْ ، لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ مَا فَاتَهُمْ بِالتَّخَلُّفِ وَالْخِلَافِ مِنْ أَجْرٍ ، وَمَا سَيَحْمِلُونَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ وِزْرٍ ، وَمَا يُلَاقُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ خِزْيٍ وَضُرٍّ ، فَهُوَ خَبَرٌ فِي صِيغَةِ أَمْرٍ ، نُكْتَتُهُ أَنَّهُ أَمْرٌ مَبْنِيٌّ عَلَى وَاجِبٍ مُقَرَّرٍ . (ثَانِيهَا) أَنَّ هَذَا مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، فَلَنْ يَطِيبَ لَهُمْ فِيهَا عَيْشٌ بَعْدَ أَنْ هَتَكَ الْوَحْيُ أَسْتَارَهُمْ ، وَكَشَفَ عَوَارَهُمْ ، وَأُمِرَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِمُعَامَلَتِهِمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ نِفَاقُهُمْ ، وَعَدَمِ الِاعْتِدَادِ بِمَا يُظْهِرُونَ مِنْ إِسْلَامِهِمْ . (ثَالِثُهَا) أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّحِكِ الْقَلِيلِ مَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ فِي الدُّنْيَا بَعْدَ الْفَضِيحَةِ ، وَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا كَانَ مِنْ مَاضِيهِمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَبِالنِّسْبَةِ إِلَى حَيَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَبِالْبُكَاءِ الْكَثِيرِ مَا سَيَكُونُ مِنْهُمْ

(71/345)

فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ إِنْذَارٌ مُقَابِلٌ لِمَا ذَكَرَ مِنْ فَرَحِهِمْ بِالتَّخَلُّفِ ، مُثْبِتٌ أَنَّهُ فَرَحٌ عَاقِبَتُهُ الْحُزْنُ وَالْكَآبَةُ وَالْخَيْبَةُ وَالنَّدَامَةُ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُهُ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ : لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ ، بَلْ رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إِلَّا أَبَا دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ وَرَوَاهُ الْحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِلَفْظِ لَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَلَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا : يَظْهَرُ النِّفَاقُ وَتَرْتَفِعُ الْأَمَانَةُ ، وَتُقْبَضُ الرَّحْمَةُ

، وَيُتَّهَمُ الْأَمِينُ ، وَيُؤْتَمَنُ غَيْرُ الْأَمِينِ ، أَنَاخَ بِكُمُ الشُّرُفُ الْجُونُ ، الْفِتَنُ كَأَمْثَالِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ الشُّرُفُ بِضَمَّتَيْنِ جَمْعُ شَارِفٍ وَهِيَ النَّاقَةُ الْعَالِيَةُ السِّنِّ ، وَالْجُونُ السَّوْدَاءُ ، أَيِ : الْفِتَنُ الْكَبِيرَةُ الْمُظْلِمَةُ ، فَهُوَ تَشْبِيهٌ ، وَرُوِيَ بِالْقَافِ أَيِ الَّتِي مِنْ قِبَلِ مَشْرِقِ الْمَدِينَةِ .

وَإِنَّمَا كَانَ الْأَمْرُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَى الْخَبَرِ ; لِأَنَّهُ إِنْذَارٌ بِالْجَزَاءِ لَا تَكْلِيفٌ ، وَقَدْ قِيلَ فِي فَائِدَةِ هَذَا التَّعْبِيرِ عَنِ الْخَبَرِ بِالْإِنْشَاءِ : إِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ حَتْمٌ لَا يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ وَالْكَذِبَ كَمَا هُوَ شَأْنُ الْخَبَرِ لِذَاتِهِ فِي احْتِمَالِهِمَا ; لِأَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَمْرِ أَنْ يَكُونَ لِلْإِيجَابِ وَهُوَ حَتْمٌ . وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ بِمَا ذُكِرَ يَتَضَمَّنُ الْإِخْبَارَ بِسَبَبِهِ

(72/345)

فَيَكُونُ مُؤَكِّدًا لِلْخَبَرِ بِبِنَاءِ الْحُكْمِ عَلَيْهِ ، وَيُقَابِلُهُ التَّعْبِيرُ عَنِ الْأَمْرِ بِصِيغَةِ الْخَبَرِ لِلتَّفَاؤُلِ بِمَضْمُونِهِ كَأَنَّهُ وَقَعَ بِالْفِعْلِ .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الْأَمْرَ هُنَا لِلتَّكْوِينِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ (96 : 1) أَيْ كُنْ قَارِئًا بَعْدَ إِذْ كُنْتَ أُمِّيًّا بِاسْمِ اللَّهِ مُبَلِّغًا عَنْهُ ، ثُمَّ وَصَفَ رَبَّهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى قُدْرَتِهِ عَلَى جَعْلِ الْأُمِّيِّ قَارِئًا بِأَنَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، فَجَعَلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ سَمِيعًا بَصِيرًا ، وَعَلَّمَ الْإِنْسَانَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَهُ مَا لَمْ يَعْلَمْ ، فَكَمَا فَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ يَجْعَلُكَ قَارِئًا بِاسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَالْمَعْنَى عَلَى هَذَا : فَلْيَكُونُوا بِقُدْرَتِنَا وَتَقْدِيرِنَا قَلِيلِي الضَّحِكِ كَثِيرِي الْبُكَاءِ ; لِأَنَّ سَبَبَ سُرُورِهِمْ وَفَرَحِهِمْ بِتَخَلُّفِهِمْ وَنِفَاقِهِمْ قَدْ زَالَ ، وَأَعْقَبَهُمُ الْفَضِيحَةَ وَالنَّكَالَ ; وَيُؤَيِّدُ كَوْنَهُ تَكْوِينًا قَدَرِيًّا ، لَا تَكْلِيفًا شَرْعِيًّا ، جَعْلُهُ عِقَابًا جَزَائِيًّا لَهُمْ عَلَى عَمَلِهِمْ بِقَوْلِهِ : جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فَإِنَّ جَزَاءَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْ جِنْسِهِ ، وَكَمَا يَدِينُ الْمَرْءُ يُدَانُ .

(73/345)

ثُمَّ بَيَّنَ تَعَالَى مَا يَجِبُ مِنَ الْجَزَاءِ الَّذِي يُعَامَلُونَ بِهِ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، مِمَّا يَقْتَضِي انْقِضَاءَ عَهْدِ فَرَحِهِمْ وَغِبْطَتِهِمْ فِي دُنْيَاهُمْ بِالتَّمَتُّعِ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ الصُّورِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ فَقَالَ : فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فِعْلُ " رَجَعَ " يُسْتَعْمَلُ لَازِمًا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ (20 : 86) وَقَوْلِهِ : فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ (12 : 63) وَمَصْدَرُهُ الرُّجُوعُ وَيُسْتَعْمَلُ مُتَعَدِّيًا كَهَذِهِ الْآيَةِ ، وَقَوْلِهِ : فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ (20 : 40) وَمَصْدَرُهُ الرَّجْعُ وَالْفَاءُ لِلتَّفْرِيعِ عَلَى مَا قَبْلَهُ ; لِأَنَّهُ مُرَتَّبٌ عَلَيْهِ . وَالْمَعْنَى : فَإِنْ رَدَّكَ اللَّهُ أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ سَفَرِكَ هَذَا إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ ، أَيِ الْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَا كُلُّ مَنْ تَخَلَّفَ كَانَ مُنَافِقًا : فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ مَعَكَ فِي غَزَاةٍ أَوْ غَيْرِ غَزَاةٍ مِمَّا تَخْرُجُ لِأَجْلِهِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا أَيْ : لَنْ

يَكُونَ لَكُمْ شَرَفُ صُحْبَةِ الْإِيمَانِ بِالْخُرُوجِ مَعِي إِلَى الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَلَا إِلَى غَيْرِهِ كَالنُّسُكِ أَبَدًا مَا بَقِيتُ : وَلَنْ تُقَاتِلُوا

(74/345)

مَعِيَ عَدُوًّا مِنَ الْأَعْدَاءِ بِصِفَةٍ مَا ، لَا بِالْخُرُوجِ وَالسَّفَرِ إِلَيْهِمْ ، وَلَا بِغَيْرِ ذَلِكَ كَأَنْ يُهَاجِمُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي عَاصِمَتِهِمْ ، كَمَا فَعَلُوا يَوْمَ الْأَحْزَابِ مَثَلًا ، فَكُلٌّ مِنَ الْخُرُوجِ الْمُطْلَقِ الَّذِي حُذِفَ مُتَعَلِّقُهُ ، وَالْقِتَالِ الَّذِي ذُكِرَ مُتَعَلِّقُهُ نَكِرَةٌ مَنْفِيَّةٌ عَامٌّ فَيَصْدُقَانِ بِكُلِّ خُرُوجٍ ، وَكُلِّ قِتَالٍ لِعَدُوٍّ فِي أَيِّ مَكَانٍ ، وَقَدْ يَكُونُ كُلٌّ مِنْهُمَا بِدُونِ الْآخَرِ ، فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مُطْلَقٌ ، وَقَدْ غَفَلَ عَنْ هَذَا مَنْ غَفَلَ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ فَزَعَمُوا أَنَّ الثَّانِي تَأْكِيدٌ لِلْأَوَّلِ ، ثُمَّ بَيَّنَ سَبَبَ هَذَا الْحِرْمَانِ مِنْ شَرَفِ الْجِهَادِ فَقَالَ : إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَيْ : إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ بِخِزْيِ الْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ دُعِيتُمْ فِيهَا إِلَى الْخُرُوجِ ، وَاسْتُنْفِرْتُمْ فَلَمْ تَنْفِرُوا عِصْيَانًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ مَا حَيِيتُمْ أَبَدًا أَيْ : مَعَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّفْرِ ، أَوْ مَعَ الْأَشْرَارِ الْفَاسِدِينَ ، الَّذِينَ خَرَجُوا عَنْ سَبِيلِ الْمُهْتَدِينَ ، قَالَ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ : وَخَلَفَ اللَّبَنُ : تَغَيَّرَ ، وَمَعْنَاهُ خَلَفَ طِيبَهُ تَغَيُّرُهُ أَيْ : صَارَ الْمُتَغَيِّرُ الْفَاسِدُ خَلَفًا لِلطَّيِّبِ وَخَلَفَ فُوهُ خُلُوفًا ، وَخَلَفَ عَنْ خُلُقِ أَبِيهِ ، وَخَلَفَ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ : تَحَوَّلَ وَفَسَدَ ، وَهُوَ

خَالِفَةُ أَهْلِ بَيْتِهِ ، أَيْ فَاسِدُهُمْ وَشَرُّهُمُ اهـ . وَالْخَالِفُ فِي الْأَصْلِ اسْمٌ لِمَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ أَيْ يَأْتِي بَعْدَهُ ، وَمِثْلُهُ الْخَلَفُ بِالتَّحْرِيكِ وَبِفَتْحٍ

(75/345)

فَسُكُونٌ ، وَقَدِ اسْتُعْمِلَ الْأَوَّلُ فِيمَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ فِي الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ ، وَالثَّانِي فِيمَنْ يَخْلُفُ غَيْرَهُ فِي الشَّرِّ وَالطَّلَاحِ . قَالَ فِي اللِّسَانِ : فَأَمَّا الْخَالِفَةُ فَهُوَ الَّذِي لَا غِنَاءَ عِنْدَهُ ، وَلَا خَيْرَ فِيهِ ، وَكَذَلِكَ الْخَالِفُ وَقِيلَ : هُوَ الْكَثِيرُ الْخِلَافِ ثُمَّ قَالَ نَقْلًا عَنِ ابْنِ الْأَثِيرِ : وَقَدْ يَكُونُ الْخَالِفُ الْمُتَخَلِّفُ عَنِ الْقَوْمِ فِي الْغَزْوِ وَغَيْرِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (87) اهـ . وَيُرَادُ بِالْخَوَالِفِ الصِّبْيَانُ وَالْعَجَزَةُ وَالنِّسَاءُ ، الَّذِينَ لَا يُكَلَّفُونَ الْقِيَامَ بِشَرَفِ الْجِهَادِ ، لِلدِّفَاعِ عَنِ الْحَقِّ وَالْحَقِيقَةِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ . وَيَجُوزُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ الْحَقِيقِيِّ وَالْمَجَازِيِّ وَهُوَ مَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَالطَّبَرِيِّ الَّذِي جَرَيْنَا عَلَيْهِ فِي مِثْلِ هَذَا .

وَالْمَرَّةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : أَوَّلَ مَرَّةٍ قَدِ اسْتُعْمِلَتْ فِي كَلَامِهِمْ ظَرْفًا ، وَأَصْلُهَا الْفَعْلَةُ الْوَاحِدَةُ مِنَ الْمَرِّ وَالْمُرُورِ . قَالَ فِي الْقَامُوسِ : الْمَرَّةُ الْفَعْلَةُ الْوَاحِدَةُ جَمْعُهَا مَرٌّ وَمِرَارٌ وَمِرَرٌ بِكَسْرِهَا وَمُرُورٌ بِالضَّمِّ . " وَلَقِيَهُ ذَاتَ مَرَّةٍ " قَالَ سِيبَوَيْهِ : لَا يُسْتَعْمَلُ إِلَّا ظَرْفًا ، وَ " ذَاتَ الْمِرَارَةِ " أَيْ : مِرَارًا كَثِيرَةً . انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(76/345)

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ

(77/345)

هَذَا بَيَانُ مَا شَرَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَأْنِ مَنْ يَمُوتُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ فِي إِثْرِ مَا شَرَعَهُ فِي شَأْنِ الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ كَسَابِقِهِ خَاصٌّ بِمَنْ نَزَلَتْ فِيهِمُ الْآيَاتُ وَهُمُ الَّذِينَ ثَبَتَتْ أَدِلَّةُ كُفْرِهِمْ أَوْ إِعْلَامِهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ بِحَقِيقَةِ أَمْرِهِمْ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ زَعِيمُهُمُ الْأَكْبَرُ الْأَكْفَرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ وَالِاثْنَى عَشَرَ الَّذِينَ أَرَادُوا اغْتِيَالَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ أَيْ : لَا تُصَلِّ أَيُّهَا الرَّسُولُ بَعْدَ الْآنَ عَلَى أَحَدٍ مَاتَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ عَرَّفْنَاكَ شَأْنَهُمْ صَلَاةَ الْجِنَازَةِ أَبَدًا مَا حَيِيتَ - وَلَا تَقِفْ عَلَى قَبْرِهِ عِنْدَ الدَّفْنِ لِلدُّعَاءِ لَهُ بِالتَّثْبِيتِ ، كَمَا تَقُومُ عَلَى قُبُورِ الْمُؤْمِنِينَ

عِنْدَ دَفْنِهِمْ ، وَيَلْزَمُ هَذَا النَّهْيَ عَدَمُ تَشْيِيعِ جَنَائِزِهِمْ . رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَالْبَزَّارُ مِنْ حَدِيثِ عُثْمَانَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذَا فَرَغَ مِنْ دَفْنِ الْمَيِّتِ وَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ : " اسْتَغْفِرُوا لِأَخِيكُمْ وَسَلُوا لَهُ التَّثْبِيتَ فَإِنَّهُ الْآنَ يُسْأَلُ " وَقَدْ نَصَّ الْفُقَهَاءُ عَلَى الْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، وَلَا نَعْرِفُ شَيْئًا مِنَ السُّنَّةِ فِي مَعْنَى الْقِيَامِ عَلَى الْقَبْرِ غَيْرَهُ ، فَانْتِظَارُ الدَّفْنِ أَعَمُّ مِنْهُ ، وَأَدْخَلَ فِيهِ بَعْضُهُمْ

(78/345)

زِيَارَةَ الْقُبُورِ وَهُوَ غَيْرُ ظَاهِرٍ ، فَقَدْ وَرَدَ فِي زِيَارَةِ الْقُبُورِ أَحَادِيثُ مُتَعَدِّدَةٌ بِلَفْظِ الزِّيَارَةِ لَا بِلَفْظِ الْقِيَامِ .

وَقَدْ عَلَّلَ تَعَالَى هَذَا النَّهْيَ بِبَيَانٍ مُسْتَأْنَفٍ فَقَالَ : إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ أَيْ : إنَّهُمْ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ، أَيْ : وَهُمْ فِي حَالِ خُرُوجِهِمِ السَّابِقِ مِنْ حَظِيرَةِ الْإِيمَانِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ مِثْلِهِ مِنْ هَذَا السِّيَاقِ (وَالْجُمْلَةُ الْحَالِيَّةُ تَدُلُّ عَلَى وُقُوعِ مَضْمُونِهَا قَبْلَ حُدُوثِ الْعَامِلِ فِيهَا) وَالنَّهْيُ يَتَعَلَّقُ بِالْحَالِ وَالِاسْتِقْبَالِ ، وَلَا سِيَّمَا إذَا أُكِّدَ بِكَلِمَةِ أَبَدًا الَّتِي هِيَ نَصٌّ فِي مَعْنَى الِاسْتِقْبَالِ ، وَلَكِنْ قَالَ فِي تَعْلِيلِ النَّهْيِ : وَمَاتُوا وَهُوَ فِعْلٌ مَاضٍ ، وَالْقَاعِدَةُ فِي التَّعْبِيرِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ بِلَفْظِ الْمَاضِي أَنْ يَكُونَ لِتَأْكِيدِهِ وَتَحَقُّقِهِ حَتَّى

كَأَنَّهُ وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، أَيْ : وَسَيَمُوتُونَ وَهُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِكُفْرِهِمْ ، وَلَعَلَّ فِيهِ إِشَارَةً إِلَى مَا رُوِيَ فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ ، وَهُوَ صَلَاتُهُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ، فَيَكُونُ الْمَعْنَى : وَمَاتَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ عَلَى كُفْرِهِ ، وَسَيَمُوتُ الْآخَرُونَ كَذَلِكَ ، وَفِيهِ بَحْثٌ نُبَيِّنُهُ بَعْدَ إِجْمَالِ الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِهِ .

(79/345)

وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ قَدْ تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا بِنَصِّهِ وَهُوَ الْآيَةُ 55 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَّا أَنَّهُ قَالَ فِيهَا : وَلَا أَوْلَادُهُمْ وَتَفْسِيرُهُمَا وَاحِدٌ ، إِلَّا أَنَّ زِيَادَةَ " لَا " فِي تِلْكَ الْآيَةِ لِلنَّهْيِ عَنِ الْإِعْجَابِ بِكُلٍّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَلَى حِدَتِهِ ، وَهُوَ يَصْدُقُ بِمَنْ كَانَ لَهُ إِحْدَى الزِّينَتَيْنِ ، وَالنَّهْيُ فِي هَذِهِ عَنِ الْإِعْجَابِ بِهِمَا مُجْتَمِعَتَيْنِ ، وَهُوَ أَدْعَى إِلَى الْإِعْجَابِ ، وَأُعِيدَ هَذَا النَّهْيُ هُنَا ; لِاقْتِضَاءِ الْمَقَامِ لَهُ كَاقْتِضَائِهِ هُنَاكَ التَّأْثِيرَ الَّذِي يَكُونُ لَهُ فِي نَفْسِ التَّالِي وَالسَّامِعِ ; وَلِأَنَّ السِّيَاقَ هُنَا فِي طَائِفَةٍ مِنْهُمْ غَيْرِ الطَّائِفَةِ الَّتِي جَاءَتْ فِي السِّيَاقِ الْأَوَّلِ .

رَوَى أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ

يَقُولُ : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ دُعِيَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ لِلصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عَلَيْهِ

(80/345)

فَلَمَّا وَقَفَ قُلْتُ : أَتُصَلِّي عَلَى عَدُوِّ اللهِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ الْقَائِلِ كَذَا وَكَذَا ، وَالْقَائِلِ كَذَا وَكَذَا - أُعَدِّدُ أَيَّامَهُ - وَرَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَتَبَسَّمُ - حَتَّى إِذَا أَكْثَرْتُ قَالَ : "يَا عُمَرُ أَخِّرْ عَنِّي إِنِّي قَدْ خُيِّرْتُ ، قَدْ قِيلَ لِي : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً (80) فَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا " ثُمَّ صَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَمَشَى مَعَهُ حَتَّى قَامَ عَلَى قَبْرِهِ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُ فَعَجِبْتُ لِي وَلِجَرَاءَتِي عَلَى رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ وَاللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، فَوَاللهِ مَا كَانَ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى نَزَلَتْ هَاتَانِ الْآيَتَانِ : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ فَمَا صَلَّى رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى مُنَافِقٍ بَعْدَهُ حَتَّى قَبَضَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ .

(81/345)

وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ : لَمَّا تُوُفِّيَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولٍ ، جَاءَ ابْنُهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبْدِ اللهِ إلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَسَأَلَهُ أَنْ يُعْطِيَهُ قَمِيصَهُ يُكَفِّنُ فِيهِ أَبَاهُ فَأَعْطَاهُ ، ثُمَّ سَأَلَهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِيُصَلِّيَ عَلَيْهِ ، فَقَامَ عُمَرُ فَأَخَذَ بِثَوْبِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ : أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - " إنَّمَا خَيَّرَنِي اللهُ فَقَالَ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً (80) وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ " قَالَ : إنَّهُ مُنَافِقٌ . قَالَ : فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ (84) زَادَ مُسْلِمٌ فِي رِوَايَةٍ أُخْرَى " فَتَرَكَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ " .

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ كَانَ يَقُولُ : أَتَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْرَ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ - وَفِي رِوَايَةٍ جَاءَ إلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ فِي حُفْرَتِهِ - فَأَخْرَجَهُ مِنْ قَبْرِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَنَفَثَ عَلَيْهِ مِنْ رِيقِهِ وَأَلْبَسَهُ قَمِيصَهُ . اهـ .

(82/345)

وَقَدْ وَرَدَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى فَنَقْتَصِرُ عَلَى هَذَا الَّذِي فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِمَّا فِي مَعْنَاهُ ، وَمَا اسْتَشْكَلَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْهُ . وَمَا أَجَابُوا بِهِ عَنْهُ ، فَإِنَّ وُرُودَ هَذَا فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَاتِ ، وَبَيَانِ الْمُرَادِ مِنْهَا مِمَّا يُخَالِفُ ظَاهِرَهَا ، وَهِيَ لَا إِشْكَالَ فِي شَيْءٍ

مِنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ ، وَلَكِنْ حَدِيثُ مُعَارَضَةِ عَمَرَ بِطَرِيقَيْهِ مُشْكِلٌ وَمُضْطَرِبٌ مِنْ وُجُوهٍ :

(1) جَعَلَ الصَّلَاةَ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ سَبَبًا لِنُزُولِ آيَةِ النَّهْيِ ، وَسِيَاقُ الْقُرْآنِ صَرِيحٌ فِي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي سَفَرِ غَزْوَةِ تَبُوكَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، وَإِنَّمَا مَاتَ ابْنُ أُبَيٍّ فِي السَّنَةِ الَّتِي بَعْدَهَا .

(2) قَوْلُ عُمَرَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ نَهَاكَ رَبُّكَ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَيْهِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ النَّهْيَ عَنْ هَذِهِ الصَّلَاةِ سَابِقٌ لِمَوْتِ ابْنِ أُبَيٍّ - وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ : فَصَلَّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ إلَخْ . صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ نَزَلَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ .

(83/345)

---

(3) قَوْلُهُ : إنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ . إنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَيَّرَهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَعَدَمِهِ ، إنَّمَا يَظْهَرُ التَّخْيِيرُ لَوْ كَانَتِ الْآيَةُ كَمَا ذُكِرَ فِي الْحَدِيثِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهَا بَقِيَّتُهَا ، أَيْ : التَّصْرِيحُ

بِأَنَّهُ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْمُتَبَادَرُ مِنْ (أَوْ) فِيهَا أَنَّهُ لِلتَّسْوِيَةِ بَيْنَ مَا بَعْدَهَا وَمَا قَبْلَهَا لَا لِلتَّخْيِيرِ ، وَبِهِ فَسَّرَهَا الْمُحَقِّقُونَ كَمَا فَهِمَهَا عُمَرُ ، وَاسْتَشْكَلُوا الْحَدِيثَ إذْ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ فَهْمُ عُمَرَ أَوْ غَيْرِهِ أَصَحَّ مِنْ فَهْمِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِخِطَابِ اللهِ لَهُ ; وَلِذَلِكَ أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ صِحَّتَهُ .

(4) التَّعَارُضُ بَيْنَ رِوَايَةِ " فَلَوْ أَعْلَمُ أَنِّي لَوْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ غُفِرَ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا " وَرِوَايَةِ " وَسَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ " .

(5) التَّعَارُضُ بَيْنَ إعْطَائِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَمِيصَهُ لِابْنِهِ لِتَكْفِينِهِ فِيهِ وَحَدِيثِ جَابِرٍ إخْرَاجُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِابْنِ أُبَيٍّ مِنْ قَبْرِهِ وَإِلْبَاسُهُ قَمِيصَهُ .

(6) إذَا أَمْكَنَ أَنْ تَكُونَ الصَّلَاةُ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ قَبْلَ نُزُولِ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ ، فَلَا شَكَّ فِي أَنَّهَا كَانَتْ بَعْدَ آيَةِ : سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ (63 : 6) وَآيَةِ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ (80) وَالْجَزْمُ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا بِأَنَّ اللهَ لَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ .

(84/345)

وَقَدْ لَخَّصَ الْحَافِظُ فِي فَتْحِ الْبَارِي مَا وَرَدَ وَمَا قَالَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ إشْكَالٍ وَجَوَابٍ بِمَا هُوَ أَجْمَعُ مِمَّا قَالَهُ مَنْ قَبْلَهُ وَمَنْ بَعْدَهُ مِمَّنِ اطَّلَعْنَا عَلَى أَقْوَالِهِمْ ، وَهُوَ مَا كَتَبَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَوْلِ

الْبُخَارِيّ (بَابُ قَوْلِهِ : وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ وَهَذَا نَصُّهُ : " ظَاهِرُ الْآيَةِ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ ، لَكِنْ وَرَدَ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا

(85/345)

نَزَلَتْ فِي عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِنْهُمْ . قَالَ الْوَاقِدِيُّ : أَنْبَأَنَا مَعْمَرٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ : قَالَ حُذَيْفَةُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ : إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ " رَهْطٍ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . قَالَ : فَلِذَلِكَ كَانَ عُمَرُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَى أَحَدٍ اسْتَتْبَعَ حُذَيْفَةَ ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ وَإِلَّا لَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ . وَمِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ أَنَّهُمُ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ حَدِيثُ حُذَيْفَةَ قَرِيبًا أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرُ رَجُلٍ وَاحِدٍ . وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي اخْتِصَاصِ الْمَذْكُورِينَ بِذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّهُمْ يَمُوتُونَ عَلَى الْكُفْرِ ، بِخِلَافِ مَنْ سِوَاهُمْ فَإِنَّهُمْ تَابُوا . ثُمَّ أَوْرَدَ الْمُصَنِّفُ حَدِيثَ ابْنِ عُمَرَ الْمَذْكُورَ فِي الْبَابِ قَبْلَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ . وَقَوْلُهُ فِيهِ : " إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ " أَوْ " أَخْبَرَنِي اللَّهُ " كَذَا وَقَعَ بِالشَّكِّ . وَالْأَوَّلُ بِمُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ وَتَحْتَانِيَّةٍ ثَقِيلَةٍ مِنَ التَّخْيِيرِ وَالثَّانِي بِمُوَحَّدَةٍ مِنَ الْإِخْبَارِ . وَقَدْ أَخْرَجَهُ الْإِسْمَاعِيلِيُّ مِنْ طَرِيقِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَبِي أُوَيْسٍ عَنْ أَبِي ضَمْرَةَ الَّذِي

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ طَرِيقِهِ بِلَفْظِ " إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ " بِغَيْرِ شَكٍّ ، وَكَذَا فِي أَكْثَرِ الرِّوَايَاتِ بِلَفْظِ التَّخْيِيرِ ، أَيْ بَيْنَ الِاسْتِغْفَارِ وَعَدَمِهِ كَمَا تَقَدَّمَ .

(86/345)

" وَاسْتُشْكِلَ فَهْمُ التَّخْيِيرِ مِنَ الْآيَةِ حَتَّى أَقْدَمَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَكَابِرِ عَلَى الطَّعْنِ فِي صِحَّةِ هَذَا الْحَدِيثِ مَعَ كَثْرَةِ طُرُقِهِ ، وَاتِّفَاقِ الشَّيْخَيْنِ وَسَائِرِ الَّذِينَ خَرَّجُوا الصَّحِيحَ عَلَى تَصْحِيحِهِ ، وَذَلِكَ يُنَادِي عَلَى مُنْكِرِي صِحَّتِهِ بِعَدَمِ مَعْرِفَةِ الْحَدِيثِ وَقِلَّةِ الِاطِّلَاعِ عَلَى طُرُقِهِ .

" قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ : مَفْهُومُ الْآيَةِ زَلَّتْ فِيهِ الْأَقْدَامُ ، حَتَّى أَنْكَرَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ صِحَّةَ الْحَدِيثِ وَقَالَ : لَا يَجُوزُ أَنْ يُقْبَلَ هَذَا وَلَا يَصِحُّ أَنَّ الرَّسُولَ قَالَهُ اهـ . وَلَفْظُ الْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ فِي التَّقْرِيبِ : هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ الَّتِي لَا يُعْلَمُ ثُبُوتُهَا . وَقَالَ إِمَامُ الْحَرَمَيْنِ فِي مُخْتَصَرِهِ : هَذَا الْحَدِيثُ غَيْرُ مُخَرَّجٍ فِي الصَّحِيحِ ، وَقَالَ فِي الْبُرْهَانِ : لَا يُصَحِّحُهُ أَهْلُ الْحَدِيثِ ، وَقَالَ الْغَزَالِيُّ فِي الْمُسْتَصْفَى : الْأَظْهَرُ أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ غَيْرُ صَحِيحٍ . وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ الشَّارِحُ : هَذَا الْحَدِيثُ غَيْرُ مَحْفُوظٍ . وَالسَّبَبُ

(87/345)

فِي إِنْكَارِهِمْ صِحَّتَهُ مَا تَقَرَّرَ عِنْدَهُمْ مِمَّا قَدَّمْنَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي فَهِمَهُ عُمَرُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مِنْ حَمْلِ (أَوْ) عَلَى التَّسْوِيَةِ لِمَا يَقْتَضِيهِ سِيَاقُ الْقِصَّةِ ، وَحَمْلُ السَّبْعِينَ عَلَى الْمُبَالَغَةِ . قَالَ ابْنُ الْمُنِيرِ : لَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ الْبَيَانِ تَرَدُّدٌ أَنَّ التَّخْصِيصَ بِالْعَدَدِ فِي هَذَا السِّيَاقِ غَيْرُ مُرَادٍ انْتَهَى ، وَأَيْضًا فَشَرْطُ الْقَوْلِ بِمَفْهُومِ الصِّفَةِ ، وَكَذَا الْعَدَدِ عِنْدَهُمْ مُمَاثَلَةُ الْمَنْطُوقِ لِلْمَسْكُوتِ ، وَعَدَمُ فَائِدَةٍ أُخْرَى ، وَهُنَا لِلْمُبَالَغَةِ فَائِدَةٌ وَاضِحَةٌ . فَأَشْكَلَ قَوْلُهُ : " سَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ " مَعَ أَنَّ حُكْمَ مَا زَادَ عَلَيْهَا حُكْمُهَا .

(88/345)

وَقَدْ أَجَابَ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنَّمَا قَالَ : " سَأَزِيدُ عَلَى السَّبْعِينَ " اسْتِمَالَةً لِقُلُوبِ عَشِيرَتِهِ ، لَا أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّهُ إِنْ زَادَ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُمْ ، وَيُؤَيِّدُهُ تَرَدُّدُهُ فِي ثَانِي حَدِيثَيِ الْبَابِ حَيْثُ قَالَ : لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُمْ لَزِدْتُ لَكِنْ قَدَّمْنَا أَنَّ الرِّوَايَةَ ثَبَتَتْ بِقَوْلِهِ : " سَأَزِيدُ " وَوَعْدُهُ صَادِقٌ ، وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ ثَبَتَ قَوْلُهُ : " لَأَزِيدَنَّ " الْمُبَالَغَةُ فِي التَّأْكِيدِ بِصِيغَتِهِ . وَأَجَابَ بَعْضُهُمْ بِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ فِعْلُ ذَلِكَ اسْتِصْحَابًا لِلْحَالِ ؛ لِأَنَّ جَوَازَ الْمَغْفِرَةِ بِالزِّيَادَةِ كَانَ ثَابِتًا قَبْلَ مَجِيءِ الْآيَةِ ، فَجَازَ أَنْ يَكُونَ بَاقِيًا عَلَى أَصْلِهِ فِي

الْجَوَازِ وَهَذَا جَوَابٌ حَسَنٌ . وَحَاصِلُهُ أَنَّ الْعَمَلَ بِالْبَقَاءِ عَلَى حُكْمِ الْأَصْلِ مَعَ فَهْمِ الْمُبَالَغَةِ لَا يَتَنَافَيَانِ ، فَكَأَنَّهُ جَوَّزَ أَنَّ الْمَغْفِرَةَ تَحْصُلُ بِالزِّيَادَةِ عَلَى السَّبْعِينَ ؛ لِأَنَّهُ جَازِمٌ بِذَلِكَ ، وَلَا يَخْفَى مَا فِيهِ . وَقِيلَ : إنَّ الِاسْتِغْفَارَ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الدُّعَاءِ ، وَالْعَبْدُ إذَا سَأَلَ رَبَّهُ حَاجَةً فَسُؤَالُهُ إيَّاهُ يَتَنَزَّلُ مَنْزِلَةَ الذِّكْرِ ، لَكِنَّهُ مِنْ حَيْثُ طَلَبَ تَعْجِيلَ حُصُولِ الْمَطْلُوبِ لَيْسَ عِبَادَةً ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ ، وَالْمَغْفِرَةُ فِي نَفْسِهَا مُمْكِنَةٌ ، وَتَعَلُّقُ الْعِلْمِ بِعَدَمِ نَفْعِهَا لَا يُغَيِّرُ ذَلِكَ ، فَيَكُونُ طَلَبُهَا لَا لِغَرَضِ حُصُولِهَا بَلْ لِتَعْظِيمِ الْمَدْعُوِّ ، فَإِذَا تَعَذَّرَتِ الْمَغْفِرَةُ عُوِّضَ الدَّاعِي عَنْهَا مَا

(89/345)

يَلِيقُ بِهِ مِنَ الثَّوَابِ أَوْ دَفْعِ السُّوءِ كَمَا ثَبَتَ فِي الْخَبَرِ ، وَقَدْ يَحْصُلُ بِذَلِكَ عَنِ الْمَدْعُوِّ لَهُمْ تَخْفِيفٌ كَمَا فِي قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ .

" هَذَا مَعْنَى مَا قَالَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ وَفِيهِ نَظَرٌ ؛ لِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ مَشْرُوعِيَّةَ طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لِمَنْ تَسْتَحِيلُ الْمَغْفِرَةُ لَهُ شَرْعًا ، وَقَدْ وَرَدَ إنْكَارُ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ (113) .

" وَوَقَعَ فِي أَصْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ إشْكَالٌ آخَرُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَطْلَقَ أَنَّهُ خُيِّرَ بَيْنَ الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَعَدَمِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ (80) وَأَخَذَ بِمَفْهُومِ

الْعَدَدِ مِنَ السَّبْعِينَ فَقَالَ : " سَأَزِيدُ عَلَيْهَا " مَعَ أَنَّهُ قَدْ سَبَقَ قَبْلَ ذَلِكَ بِمُدَّةٍ طَوِيلَةٍ نُزُولُ قَوْلِهِ تَعَالَى : مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى (113) فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ - كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ قَرِيبًا - نَزَلَتْ فِي قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ حِينَ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " لِأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ " فَنَزَلَتْ ، وَكَانَتْ وَفَاةُ أَبِي طَالِبٍ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ اتِّفَاقًا ، وَقِصَّةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ هَذِهِ فِي السَّنَةِ التَّاسِعَةِ مِنَ الْهِجْرَةِ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَكَيْفَ يَجُوزُ مَعَ ذَلِكَ الِاسْتِغْفَارُ لِلْمُنَافِقِينَ مَعَ الْجَزْمِ بِكُفْرِهِمْ فِي نَفْسِ الْآيَةِ ؟ ! .

(90/345)

" وَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى جَوَابٍ لِبَعْضِهِمْ عَنْ هَذَا حَاصِلُهُ : أَنَّ الْمَنْهِيَّ عَنْهُ اسْتِغْفَارٌ تُرْجَى إِجَابَتُهُ ، حَتَّى يَكُونَ مَقْصُودُهُ تَحْصِيلُ الْمَغْفِرَةِ لَهُمْ كَمَا فِي قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ ، بِخِلَافِ الِاسْتِغْفَارِ لِمِثْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ، فَإِنَّهُ اسْتِغْفَارٌ لِقَصْدِ تَطْيِيبِ قُلُوبِ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ ، وَهَذَا الْجَوَابُ لَيْسَ بِمَرْضِيٍّ

عِنْدِي ، وَنَحْوُهُ قَوْلُ الزَّمَخْشَرِيِّ ، فَإِنَّهُ قَالَ : (فَإِنْ قُلْتَ) كَيْفَ خَفِيَ عَلَى أَفْصَحِ الْخَلْقِ ، وَأَخْبَرَهُمْ بِأَسَالِيبِ الْكَلَامِ وَتَمْثِيلَاتِهِ أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذَا الْعَدَدِ أَنَّ الِاسْتِغْفَارَ وَلَوْ كَثُرَ لَا يُجْدِي ، وَلَا سِيَّمَا وَقَدْ تَلَاهُ قَوْلُهُ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ (80) الْآيَةَ . فَبَيَّنَ الصَّارِفَ عَنِ

الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ ؟ (قُلْتُ) لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّهُ فَعَلَ مَا فَعَلَ ، وَقَالَ مَا قَالَ إِظْهَارًا لِغَايَةِ رَحْمَتِهِ وَرَأْفَتِهِ عَلَى مَنْ بُعِثَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ كَقَوْلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14 : 36) وَفِي إِظْهَارِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الرَّأْفَةَ الْمَذْكُورَةَ لُطْفٌ بِأُمَّتِهِ ، وَبَاعِثٌ عَلَى رَحْمَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا انْتَهَى . وَقَدْ تَعَقَّبَهُ ابْنُ الْمُنِيرِ وَغَيْرُهُ قَالُوا : لَا يَجُوزُ نِسْبَةُ مَا قَالَهُ إِلَى الرَّسُولِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِلْكُفَّارِ ، وَإِذَا كَانَ لَا يَغْفِرُ لَهُمْ فَطَلَبُ الْمَغْفِرَةِ لَهُمْ مُسْتَحِيلٌ ، وَطَلَبُ الْمُسْتَحِيلِ

(91/345)

لَا يَقَعُ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ النَّهْيَ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِمَنْ مَاتَ مُشْرِكًا لَا يَسْتَلْزِمُ النَّهْيَ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِمَنْ مَاتَ مُظْهِرًا لِلْإِسْلَامِ ، لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ مُعْتَقَدُهُ صَحِيحًا . وَهَذَا جَوَابٌ جَيِّدٌ . وَقَدْ قَدَّمْتُ الْبَحْثَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فِي كِتَابِ الْجَنَائِزِ ، وَالتَّرْجِيحُ أَنَّ نُزُولَهَا كَانَ مُتَرَاخِيًا عَنْ قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ جِدًّا ، وَأَنَّ الَّذِي نَزَلَ فِي قِصَّتِهِ : إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ (28 : 56) وَحَرَّرْتُ دَلِيلَ ذَلِكَ هُنَاكَ ، إِلَّا أَنَّ فِي بَقِيَّةِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ التَّصْرِيحِ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نُزُولَ ذَلِكَ وَقَعَ مُتَرَاخِيًا عَنِ الْقِصَّةِ ، وَلَعَلَّ الَّذِي نَزَلَ أَوَّلًا ، وَتَمَسَّكَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا

تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (80) إِلَى هُنَا خَاصَّةً ; وَلِذَلِكَ اقْتَصَرَ فِي جَوَابِ عُمَرَ عَلَى التَّخْيِيرِ ، وَعَلَى ذِكْرِ السَّبْعِينَ ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْقِصَّةُ الْمَذْكُورَةُ كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الْغِطَاءَ وَفَضَحَهُمْ عَلَى رُءُوسِ الْمَلَأِ ، وَنَادَى عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ . وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ السِّرُّ فِي اقْتِصَارِ الْبُخَارِيِّ فِي التَّرْجَمَةِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى هَذَا الْقَدْرِ إِلَى قَوْلِهِ : فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (80) وَلَمْ يَقَعْ فِي شَيْءٍ مِنْ نُسَخِ كِتَابِهِ تَكْمِيلُ الْآيَةِ كَمَا جَرَتْ بِهِ الْعَادَةُ مِنِ اخْتِلَافِ

(92/345)

الرُّوَاةِ عَنْهُ فِي ذَلِكَ .

" وَإِذَا تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ الْمُنْصِفُ ، وَجَدَ الْحَامِلَ عَلَى مَنْ رَدَّ الْحَدِيثَ أَوْ تَعَسَّفَ فِي التَّأَمُّلِ ظَنَّهُ بِأَنَّهُ قَوْلُهُ : ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ (80) نَزَلَ مَعَ قَوْلِهِ : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَيْ : نَزَلَتِ الْآيَةُ كَامِلَةً ; لِأَنَّهُ لَوْ فُرِضَ نُزُولُهَا كَامِلَةً لَاقْتَرَنَ النَّهْيُ بِالْعِلَّةِ وَهِيَ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ قَلِيلَ الِاسْتِغْفَارِ وَكَثِيرَهُ لَا يُجْدِي ، وَإِلَّا فَإِذَا فُرِضَ مَا حَرَّرْتُهُ أَنَّ هَذَا الْقَدْرَ نَزَلَ مُتَرَاخِيًا عَنْ صَدْرِ الْآيَةِ ارْتَفَعَ الْإِشْكَالُ . وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَحُجَّةُ الْمُتَمَسِّكِ مِنَ الْقِصَّةِ بِمَفْهُومِ

الْعَدَدِ صَحِيحٌ ، وَكَوْنُ ذَلِكَ وَقَعَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَمَسِّكًا بِالظَّاهِرِ عَلَى مَا هُوَ

(93/345)

الْمَشْرُوعُ فِي الْأَحْكَامِ إلَى أَنْ يَقُومَ الدَّلِيلُ الصَّارِفُ عَنْ ذَلِكَ لَا إشْكَالَ فِيهِ . فَلِلَّهِ الْحَمْدُ عَلَى مَا أَلْهَمَ وَعَلَّمَ .

" وَقَدْ وَقَفْتُ لِأَبِي نُعَيْمٍ الْحَافِظِ صَاحِبِ " حِلْيَةِ الْأَوْلِيَاءِ " عَلَى جُزْءٍ جَمَعَ فِيهِ طُرُقَ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَتَكَلَّمَ عَلَى مَعَانِيهِ فَلَخَّصْتُهُ ، فَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ قَالَ : وَقَعَ فِي رِوَايَةِ أَبِي أُسَامَةَ وَغَيْرِهِ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ الْعُمَرِيِّ فِي قَوْلِ عُمَرَ : " أَتُصَلِّي عَلَيْهِ وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ " وَلَمْ يُبَيِّنْ مَحَلَّ النَّهْيِ ، فَوَقَعَ بَيَانُهُ فِي رِوَايَةِ أَبِي ضَمْرَةَ عَنِ الْعُمَرِيِّ ، وَهُوَ أَنَّ مُرَادَهُ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِمُ الِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ وَلَفْظُهُ : " وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ أَنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ " قَالَ : وَفِي قَوْلِ ابْنِ عُمَرَ : " فَصَلَّى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَصَلَّيْنَا مَعَهُ " أَنَّ عُمَرَ تَرَكَ رَأْيَ نَفْسِهِ ، وَتَابَعَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ ابْنَ عُمَرَ حَمَلَ هَذِهِ الْقِصَّةَ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ ، بِخِلَافِ ابْنِ عَبَّاسٍ فَإِنَّهُ إنَّمَا حَمَلَهَا عَنْ عُمَرَ إذْ لَمْ يَشْهَدْهَا ، انْتَهَى الْمُرَادُ مِنْهُ .

(94/345)

(أَقُولُ) حَاصِلُ مَا لَخَّصَهُ الْحَافِظُ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ - وَهُوَ مِنْ أَوْسَعِ حُفَّاظِ الْمِلَّةِ اطِّلَاعًا - أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ الْجَمْعُ بَيْنَ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ فِيهَا عَلَى وَجْهٍ مَقْبُولٍ ، إلَّا إذَا فَرَضْنَا أَنَّ آيَةَ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَيْهِمْ قَدْ نَزَلَتْ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ خِلَافَ ظَاهِرِ السِّيَاقِ لَا مَانِعَ مِنْهُ عَقْلًا ، وَلَكِنْ يَبْعُدُ جِدًّا أَنْ تَكُونَ آيَةُ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُنَافِقِينَ قَدْ نَزَلَ صَدْرُهَا أَوَّلًا ثُمَّ نَزَلَ بَاقِيهَا مُتَرَاخِيًا بَعْدَ سَنَةٍ أَوْ أَكْثَرَ ، أَيْ بَعْدَ الصَّلَاةِ عَلَى ابْنِ أُبَيٍّ ، وَكَذَا تَأْوِيلُ قَوْلِ عُمَرَ : " وَقَدْ نَهَاكَ اللَّهُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ " بِأَنَّهُ يَعْنِي بِالصَّلَاةِ الِاسْتِغْفَارَ ، وَإِذَا سَلَّمْنَا نُزُولَ صَدْرِ آيَةٍ مِنْ سِيَاقٍ طَوِيلٍ كَآيَةِ بَرَاءَةَ فِي سَنَةٍ ، وَنُزُولَ بَاقِيهَا فِي سَنَةٍ أُخْرَى عَلَى بُعْدِهِ ، فَمَاذَا نَقُولُ فِي آيَةِ سُورَةِ " الْمُنَافِقُونَ " . وَقَدْ نَزَلَتْ قَبْلَ آيَةِ بَرَاءَةَ بِأَرْبَعِ سِنِينَ فِي غَزْوَةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ ، وَكَانَتْ سَنَةَ خَمْسٍ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَهِيَ أَصْرَحُ فِي التَّسْوِيَةِ بَيْنَ الِاسْتِغْفَارِ وَعَدَمِهِ ؟ .

(95/345)

الْحَقُّ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ مُعَارِضٌ لِلْآيَتَيْنِ ، فَالَّذِينَ يُعْنَوْنَ بِأُصُولِ الدِّينِ وَدَلَائِلِهِ الْقَطْعِيَّةِ أَكْثَرَ مِنَ الرِّوَايَاتِ وَالدَّلَائِلِ الظَّنِّيَّةِ ، لَمْ يَجِدُوا مَا يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا التَّعَارُضِ إِلَّا الْحُكْمَ بِعَدَمِ صِحَّةِ الْحَدِيثِ وَلَوْ مِنْ جِهَةِ مَتْنِهِ ، وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ أَكْبَرُ أَسَاطِينِ النُّظَّارِ كَالْقَاضِي أَبِي بَكْرٍ الْبَاقِلَّانِيِّ ، وَإِمَامِ الْحَرَمَيْنِ وَالْغَزَالِيِّ ، وَوَافَقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ الدَّاوُدِيُّ مِنْ شُرَّاحِ الْبُخَارِيِّ . وَأَمَّا الَّذِينَ يُعْنَوْنَ بِالْأَسَانِيدِ أَكْثَرَ مِنْ عِنَايَتِهِمْ بِالْمُتُونِ ، وَبِالْفُرُوعِ أَكْثَرَ مِنَ الْأُصُولِ ، فَقَدْ تَكَلَّفُوا مَا بَيَّنَّا خُلَاصَتَهُ عَنْ أَحْفَظِ حُفَّاظِهِمْ . وَمِنَ الْأُصُولِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهَا أَنَّهُ مَا كُلُّ مَا صَحَّ سَنَدُهُ يَكُونُ مَتْنُهُ صَحِيحًا ، وَمَا كُلُّ مَا لَمْ يَصِحَّ سَنَدُهُ يَكُونُ مَتْنُهُ غَيْرَ صَحِيحٍ ، وَإِنَّمَا يُعَوَّلُ عَلَى صِحَّةِ السَّنَدِ إِذَا لَمْ يُعَارِضِ الْمَتْنَ مَا هُوَ قَطْعِيٌّ فِي الْوَاقِعِ أَوْ فِي النُّصُوصِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مُقَدَّمٌ عَلَى الْأَحَادِيثِ عِنْدَ التَّعَارُضِ ، وَعَدَمِ إِمْكَانِ الْجَمْعِ ، فَمَنِ اطْمَأَنَّ قَلْبُهُ لِمَا ذَكَرُوا مِنَ الْجَمْعِ أَوْ لِوَجْهٍ آخَرَ ظَهَرَ لَهُ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ رَدِّ الْحَدِيثِ ، وَمَنْ لَمْ يَظْهَرْ لَهُ ذَلِكَ فَلَا مَنْدُوحَةَ لَهُ عَنِ الْجَزْمِ بِتَرْجِيحِ الْقُرْآنِ ، وَالْتِمَاسِ عُذْرٍ لِرُوَاةِ الْحَدِيثِ بِنَحْوِ مَا ذَكَرْنَاهُ فِي تَعَارُضِ أَحَادِيثِ الدَّجَّالِ (ص408 وَمَا بَعْدَهَا ج9 ط الْهَيْئَةِ) .

(96/345)

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

هَذَا بَيَانٌ لِحَالَةِ الْمُنَافِقِينَ فِي أَمْرِ الْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ، الَّذِي هُوَ أَقْوَى آيَاتِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَمَا يُقَابِلُهُ مِنْ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ فِيهِ ، وَمَا بَيْنَ الْحَالَيْنِ مِنَ التَّضَادِّ فِي الْعَمَلِ وَالْأَثَرِ فِي الْقَلْبِ اللَّذَيْنِ هُمَا مَنَاطُ الْجَزَاءِ ، قَالَ تَعَالَى : وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ شَرْطِيَّةٌ " إِذَا " فِي هَذَا الْمَقَامِ تُفِيدُ التَّكْرَارَ ، وَالْآيَةُ مَعْطُوفَةٌ عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنْ خَبَرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْجِهَادِ لِلْجَمْعِ بَيْنَ تِلْكَ الْحَالِ الْخَاصَّةِ ، وَهَذِهِ الشَّنْشَنَةِ الْعَامَّةِ ، وَالْمَعْنَى :

(97/345)

أَنَّهُ كُلَّمَا نَزَلَتْ سُورَةٌ تَدْعُو النَّاسَ أَوِ الْمُنَافِقِينَ بِبَعْضِ آيَاتِهَا إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَالْجِهَادِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَيْ : نَاطِقَةٌ بِأَنْ آمِنُوا وَجَاهِدُوا اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ الطَّوْلُ : بِالْفَتْحِ يُطْلَقُ عَلَى الْغِنَى وَالثَّرْوَةِ ، وَعَلَى الْفَضْلِ وَالْمِنَّةِ ، وَهُوَ مِنْ

مَادَّةِ الطُّولِ (بِالضَّمِّ) ضِدُّ الْقِصَرِ . وَالْمُرَادُ بِهِمْ هُنَا أُولُو الْمَقْدِرَةِ عَلَى الْجِهَادِ الْمَفْرُوضِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، أَيِ : اسْتَأْذَنُوكَ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ أَيْ : دَعْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ فِي بُيُوتِهِمْ مِنَ الضُّعَفَاءِ وَالزَّمْنَى الْعَاجِزِينَ عَنِ الْقِتَالِ ، وَالصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ غَيْرِ الْمُخَاطَبِينَ بِهِ .

وَفِي مَعْنَى الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْقِتَالِ - أَوْ مُحَمَّدٍ : وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (47 : 20 و 21) وَالْآيَاتُ دَلِيلٌ عَلَى جُبْنِ الْمُنَافِقِينَ وَضُعَفَاءِ الْإِيمَانِ ، وَرِضَاهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ بِالذُّلِّ وَالْهَوَانِ .

(98/345)

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ مِنَ النِّسَاءِ - وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَتَادَةَ - وَمَنْ لَا خَيْرَ فِيهِمْ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ ، فَهُوَ جَمْعُ خَالِفَةٍ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُ مَا قَالَهُ عُلَمَاءُ اللُّغَةِ فِيهِ فِي تَفْسِيرِ : فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ مِنْ آيَةِ (83) .

وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ الطَّبْعُ عَلَى الْقُلُوبِ وَالْخَتْمُ عَلَيْهَا عِبَارَةٌ عَنْ عَدَمِ قَبُولِهَا لِشَيْءٍ جَدِيدٍ مِنَ

الْعِلْمِ وَالْمَوْعِظَةِ غَيْرِ مَا اسْتَقَرَّ فِيهَا وَاسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا ، وَصَارَ وَصْفًا وَوُجْدَانًا لَهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا الِاسْتِعْمَالَ اللُّغَوِيَّ حَقِيقَتَهُ وَمَجَازَهُ لِلْكَلِمَةِ فِي تَفْسِيرِ : خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ (2 : 7) وَفِي مَوَاضِعَ أُخْرَى مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ وَالْأَعْرَافِ .

فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ أَيْ : فَلِأَجْلِ ذَلِكَ هُمْ لَا يَفْهَمُونَ مَا يُخَاطَبُونَ بِهِ فَهْمَ تَدَبُّرٍ وَاعْتِبَارٍ فَيَعْمَلُوا بِهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ مَعْنَى الْفِقْهِ فِي مَوَاضِعَ أَبْسَطُهَا تَفْسِيرُ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا (7 : 179) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَفِيهِ تَحْقِيقُ مَعْنَى الْقَلْبِ .

لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ هَذَا اسْتِدْرَاكٌ عَلَى قُعُودِ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْجِهَادِ مَعَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَمَلًا بِدَاعِي الْإِيمَانِ ، وَأَمْرِ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّ مَا جَرَوْا عَلَيْهِ مِنَ النِّفَاقِ قَدْ طُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ بِمُقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي التَّأْثِيرِ وَالِارْتِبَاطِ

(99/345)

بَيْنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالْفِعْلِ وَالِانْفِعَالِ ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ مَا أُمِرُوا بِهِ فَيَعْمَلُوا بِهِ ، لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ ، وَكَانُوا مَعَهُ فِي كُلِّ أُمُورِ الدِّينِ لَا يُفَارِقُونَهُ ، قَدْ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَقَامُوا بِالْوَاجِبِ خَيْرَ قِيَامٍ ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الْإِيمَانُ وَالْإِسْلَامُ ، وَمَا كَانَ أُولَئِكَ الْمُنَافِقُونَ

الْجُبَنَاءُ الْبُخَلَاءُ بِأَهْلٍ لِلْقِيَامِ بِهَذِهِ الْأَعْبَاءِ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِيمَا وُصِفُوا بِهِ مِنَ الْآيَاتِ ، وَلَا سِيَّمَا آيَةُ : لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا (47) .

وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ عَطَفَ جَزَاءَهُمْ عَلَى جِهَادِهِمْ ، وَلَمْ يَذْكُرْهُ مَفْصُولًا مُسْتَأْنَفًا ، كَقَوْلِهِ السَّابِقِ فِي الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ : أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ (71) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ (2 : 5) الْآيَةَ . لِأَنَّهُ تَتِمَّةٌ لِبَيَانِ حَالِهِمُ الْمُخَالِفَةِ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ بَدْءًا وَانْتِهَاءً عَمَلًا وَجَزَاءً ، أَيْ : وَأُولَئِكَ الْمُجَاهِدُونَ بَعِيدُو الْمَنَالِ فِي مَعَارِجِ الْكَمَالِ ، لَهُمْ دُونَ الْمُنَافِقِينَ الْخَيْرَاتُ الَّتِي هِيَ ثَمَرَاتُ الْإِيمَانِ وَالْجِهَادِ ، مِنْ شَرَفِ النَّصْرِ ، وَمَحْوِ كَلِمَةِ الْكُفْرِ . وَاجْتِثَاثِ شَجَرَةِ الشِّرْكِ ، وَإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ بِدِينِ اللَّهِ ، وَالتَّمَتُّعِ بِالْغَنَائِمِ وَالسِّيَادَةِ فِي الْأَرْضِ : وَأُولَئِكَ هُمُ

(100/345)

الْمُفْلِحُونَ أَيِ الْفَائِزُونَ بِسِيَادَةِ الدُّنْيَا مَعَ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ - دُونَ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ حُرِمُوا مِنْهُمَا بِنِفَاقِهِمْ ، وَمَا لَهُ مِنْ سُوءِ الْأَثَرِ فِي أَعْمَالِهِمْ وَأَخْلَاقِهِمْ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا وَمَا يُنَاسِبُهُ وَيُؤَيِّدُهُ مُكَرَّرًا فِي هَذَا السِّيَاقِ .

أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . تَقَدَّمَ مَعْنَى

هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا هُوَ أَوْسَعُ مِنْ هَذِهِ فِي الْآيَةِ 72 وَسَيَأْتِي مِثْلُهَا فِي آخِرِ الْآيَةِ الْمُتَمِّمَةِ لِلْمِائَةِ .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

هَذِهِ الْآيَةُ فِي بَيَانِ حَالِ الْأَعْرَابِ خَاصَّةً ، وَهُمْ بَدْوُ الْعَرَبِ طَلَبُوا الْإِذْنَ بِالتَّخَلُّفِ ، وَالَّذِينَ تَخَلَّفُوا بِغَيْرِ إِذْنٍ ، عَقِبَ بَيَانِ حَالِ مُنَافِقِي الْحَضَرِ فِي مَدِينَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وَسَتَأْتِي آيَاتٌ أُخْرَى فِي مُنَافِقِي الْأَعْرَابِ وَمُؤْمِنِيهِمْ فِي الْآيَاتِ 97 ، 98 ، 99 . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 490 . 504 ﴾

(101/345)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

استئناف بياني لجواب سؤال ينشأ عن الإخبار بـ ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ [التوبة : 88] .

والإعداد : التهيئة .

وفيه إشعار بالعناية والتهمّم بشأنهم .

وتقدّم القول في نظير هذه الآية في قوله قبلُ ﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة ﴾ [التوبة : 72] الآية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(102/345)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

وقد عرفنا من قبل أخبار الجنات والأنهار ، وهنا يوضح لنا الحق الخير الذي يخلد فيه المؤمنون .

ولماذا سمى الله سبحانه وتعالى جزاء الآخرة بأنه : ﴿ الفوز العظيم ﴾ .

ذلك لأن هناك فارقاً بين الخير والفلاح في الدنيا ، والفوز في الآخرة ؛ فالدنيا موقوتة بعمرك وتتمتع فيها بقدر أسبابك . إذن : ففيها فوز محدود لا يسمى فوزاً عظيماً . أما الآخرة فالنعمة فيها لا تفارقك ، ولا تفارقها أنت ، فالنعمة خالدة ، وأنت خالد ، وهذه النعمة – في الوقت نفسه – ليست بقدراتك أنت ، بل بقدرات خالقك سبحانه وتعالى ، ولا تحتاج

منك أي تعب أو عمل أو اجتهاد ، بل يأتيك الشيء بمجرد أن يخطر على بالك ، وهذا لا يحدث إلا في الآخرة وفي الجنة وهذا هو الفوز العظيم ؛ لأنه دائم وبلا نهاية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(103/345)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89) ﴾

تشير الآية إلى أن راحاتِهم موعودة ، وإنْ كانت الأتعابُ في الحال موجودةً مشهودة .

ويقال صادِقُ يقينهم بالثوابِ يُهوِّن عليهم مقاساةَ ما يلقونه – في الوقت – من الأتعاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 52 ﴾

(104/345)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة التوبة (9) : آية 38]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38)

الإعراب :

" يأيها الذين آمنوا) مرّ إعرابها " 1 " ، (ما) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (إذا) ظرف محض مجرّد من الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (اثّاقلتم) " 2 " ، (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (لكم) مثل الأول متعلّق بـ (قيل) ، (انفروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (في سبيل اللّه) جارّ ومجرور ومضاف إليه متعلّق بـ (انفروا) ، (اثّاقلتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) فاعل (إلى الأرض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اثّاقلتم) ، (أرضيتم) همزة استفهام للتوبيخ وفعل وفاعل (بالحياة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رضيتم) ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (من الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رضيتم) بتضمينه معنى استعضتم " 3 " ، (الفاء) استئنافيّة تعليليّة (ما) نافية (متاع) مبتدأ مرفوع (الحياة) مضاف إليه مجرور (الدنيا) مثل الأول (في الآخرة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قليل) ، (إلّا) أداة

(1) في الآية (23) من هذه السورة.

(2) لأنّ جملة اثّاقلتم لها محلّ من الإعراب كما سيأتي.

(3) يجوز أن يكون الجارّ حالا من الحياة أي بديلا من الآخرة.

(105/345)

حصر (قليل) خبر المبتدأ مرفوع.

جملة النداء: "يأيّها . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "آمنوا "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "ما لكم . . . "لا محلّ لها جواب النداء.

وجملة: "قيل لكم . . . "في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "انفروا . . . "في محلّ رفع نائب الفاعل "1".

وجملة: "اثّاقلتم . . . "في محلّ نصب حال من ضمير الخطاب في (لكم) "2".

وجملة: "رضيتم "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ما متاع . . إلّا قليل "لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة.

الصرف:

" اثّاقلتم) ، أصله تثاقلتم ، ثمّ قلبت التاء ثاء للإدغام بعد سكونها وزيادة همزة الوصل لمناسبة السكون وكان وزنه تفاعلتم ثمّ أصبح افّاعلتم أو أ تفاعلتم قياسا على وزن اضطرب افتعل حيث لا يتغيّر الوزن بوجود الإبدال في الكلمة " 3 " .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى : ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تدعو هذه الآية المؤمنين إلى أن ينفروا في سبيل اللّه ، وتبيّن حالة التثاقل التي تعتريهم عند ذلك ، ويستعمل القرآن الكريم الفعل (اثّاقلتم) ، وإذا تدبّرنا هذا الفعل بجرسه وإيحائه ، فإننا نراه يعبّر عن حالة التباطؤ والالتصاق

---

(1) لأنها في حال البناء للفاعل هي جملة مقول القول .

(2) أي ما لكم متثاقلين في كل وقت يقال لكم فيه انفروا .

(3) انظر الصرف لكلمة (ادّارأتم) ، الآية (72) من البقرة .

بالأرض التي تعتري الإنسان عند ما يدعى إلى أمر ثقيل على نفسه ، ونكاد نشعر بجرس هذا الفعل وإيحائه أنه يصوّر ذلك الجسم الثقيل المشدود إلى الأرض ونحن نحاول إنهاضه

ولكنه يفلت من يدنا ويعود ليلتصق بالأرض ، وتأتي التاء المشدّدة في أوّل الفعل لتشارك في رسم هذه الحالة وإبرازها ، ولو استبدلنا بالفعل تثاقلتم الفعل (اثاقلتم) الوارد في الآية لتلاشى ذلك الجرس والإيحاء وقوة التعبير وانطفأت القوة السارية في معنى هذا الفعل ، وهذا جانب من جوانب إعجاز كلام اللّه عز وجل وتميّزه عن كلام البشر .

[سورة التوبة (9) : آية 39]

(107/345)

إِلاَّ تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39)

الإعراب :

" إن) حرف شرط جازم (لا) نافية (تنفروا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (يعذّب) مضارع مجزوم جواب الشرط و(كم) ضمير مفعول به والفاعل هو (عذابا) مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو اسم مصدر ، منصوب (أليما) نعت لـ (عذابا) منصوب (الواو) عاطفة (يستبدل) مثل يعذّب ومعطوف عليه (قوما) مفعول به منصوب (غير) نعت لـ (قوما) منصوب و(كم) ضمير مضاف إليه " 1 " ،

(الواو) عاطفة (لا) نافية (تضرّوا) مثل تنفروا ومعطوف على فعل يعذّبكم و(الهاء) ضمير مفعول به (شيئا) مفعول مطلق منصوب نائب عن المصدر أي لا تضرّوه ضررا ما . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (على كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (قدير) (شيء) مضاف إليه مجرور (قدير) خبر مرفوع.

---

(1) إضافة (غير) إلى الضمير لم تزده معرفة ، ولهذا صحّ إعرابه نعتا لـ (قوما) ، أمّا المفعول الآخر لفعل يستبدل فمحذوف تقديره يستبدل بكم قوما غيركم. [. . . . .]

(108/345)

جملة : " تنفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة : " يعذّبكم . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " يستبدل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّبكم.

وجملة : " لا تضرّوه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّبكم.

وجملة : " اللّه . . . قدير " لا محلّ لها استئنافيّة.

[سورة التوبة (9) : آية 40]

إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ

لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

الإعراب :

" إلّا تنصروا) مثل إلّا تنفروا " 1 " ، و(الهاء) ضمير مفعول به (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قد) حرف تحقيق (نصر) فعل ماض و(الهاء) مثل الأول (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إذ) ظرف للزمن الماضي مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (نصره) ، (أخرجه) مثل نصره ، والفاعل هو اسم الموصول (الذين) في محلّ رفع ، (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (ثاني) حال منصوبة من ضمير الغائب في (أخرجه) ، (اثنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (إذ) مثل الأول وبدل منه (هما) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في الغار) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر (إذ) مثل الأول وبدل من الثاني (يقول)

---

(1) في الآية السابقة (39) .

(109/345)

مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو أي النبيّ عليه السلام (لصاحب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقول) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (لا) ناهية جازمة (تحزن) مضارع

مجزوم ، والفاعل أنت (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر إنّ و(نا) ضمير مضاف إليه . (الفاء) استئنافيّة (انزل مثل نصر (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (سكينة) مفعول به منصوب و(الهاء ضمير مضاف إليه (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنزل) والضمير في (عليه) يعود على أبي بكر (الواو) عاطفة (أيّد) مثل نصر و(الهاء) ضمير مفعول به ويعود إلى الرسول عليه السلام (الجنود) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أيّد) ، (لم) حرف نفي وجزم (تروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل و(ها) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (جعل) مثل نصر ، والفاعل هو (كلمة) مفعول به منصوب (الذين) موصول في محلّ جرّ مضاف إليه (كفروا) مثل الأول (السفلى) مفعول به ثان منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة . (الواو) استئنافيّة (كلمة) مبتدأ مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (هي) ضمير فصل " 1 " ، (العليا) خبر المبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) استئنافيّة (اللّه عزيز) مثل اللّه قدير " 2 " ، (حكيم) خبر ثان مرفوع .

---

(1) أو ضمير منفصل مبنيّ مبتدأ خبره العليا ، والجملة الاسميّة هي العليا خبر المبتدأ كلمة اللّه .

(2) انظر في الآية السابقة (39) .

جملة : " إلّا تنصروه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد نصره اللّه " لا محلّ لها تعليليّة لجملة الجواب المحذوفة ، والتقدير إلّا تنصروه فسوف ينصره اللّه لأنّ اللّه قد نصره . . .

وجملة : " أخرجه الذين . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هما في الغار " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " يقول . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لا تحزن " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه معنا " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أنزل اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أيّده . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل .

وجملة : " لم تروها " في محلّ جرّ نعت لجنود .

وجملة : " جعل . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أنزل اللّه .

وجملة : "كفروا (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : "كلمة اللّه . . . العليا " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اللّه عزيز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

" ثاني) اسم عدديّ على وزن فاعل يدلّ على الترتيب .

(الغار) ، اسم للكهف أو المغارة يجمع على غيران ، وألف الغار منقلبة عن واو حيث يفتش عنه في مادة (غ ور) .

(السفلى) ، مؤنّث الأسفل ، وهو اسم تفضيل ، وقد أنّث وجوبا لأنه محلّى بـ (أل) وصف لكلمة (كلمة) ، ووزن السفلى فعلى بضمّ الفاء .

(العليا) ، مؤنّث الأعلى ، وهو اسم تفضيل ، وقد أنّث وجوبا أيضا مثل السفلى وهو وصف لـ (كلمة) ووزن العليا فعلى بضمّ الفاء ، والياء فيه أصليّة وليست منقلبة عن واو - كما في الدنيا " 1 " - لأنّ فعله واويّ اللام ويائيّها . . علا يعلو وعلي يعلى باب فرح ، وعلى يعلي باب ضرب .

[سورة التوبة (9) : آية 41]

انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41)

الإعراب :

"

(111/345)

انفروا) فعل أمر . . والواو فاعل (خفافا) حال منصوبة من فاعل انفروا (ثقالا) معطوف بالواو على (خفافا) منصوب مثله (الواو) عاطفة (جاهدوا) مثل انفروا (بأموال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (جاهدوا) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أنفسكم) معطوفة على أموالكم ويعرب مثله مجرور (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بفعل (جاهدوا) (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (ذلكم) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ و(اللام) للبعد ، و(الكاف) للخطاب (خير) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خير) ، (إن) حرف شرط جازم (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون في محلّ جزم فعل الشرط . . و(تم) ضمير اسم كان في محلّ رفع . . (تعلمون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : "انفروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) انظر الآية (85) من سورة البقرة .

وجملة: " جاهدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة.

وجملة: " ذلكم خير . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: " إن كنتم تعلمون " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي إن كنتم تعلمون أنّه خير لكم فلا تثّاقلوا . . .

وجملة: " تعلمون . . . " في محلّ نصب خبر كنتم.

[سورة التوبة (9) : آية 42]

لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42)

الإعراب:

(لو) حرف شرط غير جازم (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – واسمه محذوف دلّ عليه سياق الكلام أي كان ما دعوتم إليه (عرضا) خبر كان منصوب (قريبا) نعت لـ (عرضا) منصوب (الواو) عاطفة (سفرا) معطوف على الخبر منصوب مثله (قاصدا) نعت لـ (سفرا) منصوب (اللام) رابطة لجواب لو (اتّبعوا) فعل ماض مبنيّ لا محلّ له . . . والواو فاعل و(الكاف) مفعول به (الواو) عاطفة (لكن) حرف للاستدراك (بعدت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث ، (على حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (بعدت) ، (الشقّة) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (السين) حرف استقبال (يحلفون) مضارع مرفوع . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحلفون) ، (لو) مثل الأول (استطعنا فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (اللام) مثل الأول (خرجنا) مثل استطعنا (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (خرجنا) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (يهلكون) مثل يحلفون (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه . (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يعلم) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (كاذبون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : "كان عرضا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اتّبعوك . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير الجازم .

وجملة : " بعدت عليهم الشقّة " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " سيحلفون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لو استطعنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر دلّ عليه قوله سيحلفون وجملة القسم وجوابه في محلّ نصب مقول القول أي :

سيحلفون باللّه قائلين . .

وجملة : " خرجنا . . . " لا محلّ لها جواب لو " 1 " .

وجملة : " يهلكون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 2 " .

وجملة : " اللّه يعلم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " انّهم لكاذبون " في محلّ نصب سدّت مسدّ مفعولي يعلم . . وقد كسرت همزة (انّ) لدخول اللام في الخبر .

الصرف :

(قاصدا) ، على وزن اسم الفاعل ، اسم مشتقّ بمعنى

---

(1) وهي جواب القسم وجواب الشرط بآن واحد على رأي أبي حيّان .

(2) وجعلها الزمخشريّ حالا من فاعل يحلفون أو بدلا من جملة يحلفون ، وقد رفض أبو حيّان الوجهين .

السهل القريب أو الوسط .

(الشقّة) ، اسم للمسافة التي تقطع بمشقّة إذ هي مشتقّة من المشقّة ، وزنه فعلة بضمّ فسكون .

[سورة التوبة (9) : آية 43]

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (43)

الإعراب :

(عفا) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (عفا) ، (اللام) حرف جرّ (ما) اسم استفهام في محلّ جرّ متعلّق بـ (أذنت) وحذفت الألف من اسم الاستفهام لدخول حرف الجرّ عليه (أذنت) فعل ماض مبنيّ على السكون . . . و(التاء) فاعل (لهم) مثل عنك متعلّق بـ (أذنت) " 1 " ، (حتّى) حرف غاية وجرّ (يتبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (لك) مثل عنك متعلّق بـ (يتبيّن) ، (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (صدقوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (تعلم) مثل يتبيّن

ومعطوف عليه ، والفاعل أنت (الكاذبين) مفعول به منصوب .

والمصدر المؤوّل (أن يتبيّن) في محلّ جرّ بـ (حتّى) متعلّق بفعل محذوف يقتضيه سياق الكلام أي هلّا أخرجتهم معك ، أو هلّا توقّفت عن الإذن .

جملة : " عفا اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) اللام في (لم) للتعليل ، واللام في (لهم) للتبليغ ، ولهذا جاز التعليق فيهما بالفعل نفسه .

(115/345)

وجملة : " أذنت لهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . أو هي تعليل للعتاب المتقدّم .

وجملة : " يتبيّن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " صدقوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " تعلم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول الحرفيّ .

[سورة التوبة (9) : آية 44]

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44)

لإعراب :

(لا) نافية (يستأذن) مضارع مرفوع (الكاف) ضمير مفعول به (الذين) مثل الذين صدقوا " 1 " ، (يؤمنون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمنون) ، (الواو) عاطفة (اليوم) معطوف على لفظ الجلالة مجرور (الآخر) نعت لليوم مجرور (أن) حرف مصدريّ ونصب (يجاهدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (بأموالهم وأنفسهم) مثل بأموالهم وأنفسكم " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أن يجاهدوا) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف تقديره (في) أي : في أن يجاهدوا . . . متعلّق بـ (يستأذنك) أي يستأذنوك في الجهاد " 3 " .

---

(1) في الآية السابقة (43) .

(2) في الآية (41) من هذه السورة .

(3) يجوز أن يكون الجارّ المحذوف هو (عن) ، فيتعلّق بمحذوف تقديره التخلف أو القعود أي يستأذنوك في التخلّف أو القعود عن الجهاد .

(116/345)

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (بالمتّقين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عليم) وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " لا يستأذنك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يجاهدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة التوبة (9) : آية 45]

إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (يستأذنك الذين . . . الآخر) مثل نظيرها " 1 " و(لا) نافية (الواو) عاطفة (ارتابت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث (قلوب) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (في ريب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتردّدون) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (يتردّدون) مثل يؤمنون " 2 " .

جملة : " يستأذنك الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يؤمنون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ارتابت قلوبهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هم . . . يتردّدون " لا محلّ لها معطوفة على جملة ارتابت .

وجملة: "يتردّدون" في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

[سورة التوبة (9): آية 46]

وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46)

(1، 2) في الآية السابقة (44).

(117/345)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (لو) حرف شرط غير جازم (أرادوا) فعل ماض وفاعله (الخروج) مفعول به منصوب (اللام) رابطة لجواب لو (أعدّوا) مثل أرادوا (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعدّوا)، (عدّة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (لكن كره) مثل لكن بعدت "1"، (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (انبعاث) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (ثبّط) فعل ماض، والفاعل هو و(هم) ضمير مفعول به (الواو) عاطفة (قيل) فعل ماض مبنيّ للمجهول (اقعدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (اقعدوا)، (القاعدين) مضاف إليه

مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " أرادوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أعدّوا . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " كره اللّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ثبّطهم " لا محلّ لها معطوفة على كره اللّه . . .

وجملة : " قيل . . . " لا محلّ لها معطوفة على كره اللّه .

وجملة : " اقعدوا . . . " في محلّ رفع نائب الفاعل " 2 " .

الصرف :

(الخروج) ، مصدر سماعيّ لفعل خرج يخرج باب نصر ،

---

(1) في الآية (42) من هذه السورة .

(2) لأنها مقول القول للفعل المبنيّ للمعلوم . . أو هي تفسير للنائب الفاعل المقدّر وهو المصدر (القول) .

وزنه فعول بضمّ الفاء .

(العدّة) ، اسم بمعنى ما أعددته من مال وسلاح ، وقد يكون اسم مصدر لفعل أعدّ الرباعيّ بمعنى الاستعداد ، وزنه فعلة بضمّ فسكون ، وجمعه إذا كان اسما العدد بضمّ العين .

(انبعاث) ، مصدر قياسيّ لفعل انبعث الخماسيّ ، فهو على وزن الماضي بكسر ثالثة وزيادة ألف قبل آخره .

البلاغة

2 - التتميم : في الآية الكريمة بذكر مع القاعدين وعدم الاكتفاء بذكر اقعدوا ، وهذا من تنبيهاته الحسنة ونزيده بسطا فنقول : لو قيل اقعدوا مقتصرا عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود ، وكذلك ، كونوا مع القاعدين ، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم بهؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتخلف والتقاعد ، الموسومين بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية . .

[سورة التوبة (9) : آية 47]

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)

الإعراب :

(لو خرجوا) مثل لو أرادوا " 1 " ، (في) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ

(خرجوا) على حذف مضاف أي في جيشكم (ما) حرف نفي (زادوا) مثل أرادوا ، و(كم) ضمير مفعول به (الّا) أداة حصر (خبالا) مفعول به ثان منصوب " 2 " ، (الواو) عاطفة (اللام) رابطة لجواب لو (أوضعوا) مثل أرادوا ، (خلال) ظرف

---

(1) في الآية (46) السابقة. [. . . . .]

(2) هو على رأي الزمخشريّ مستثنى بـ (إلا) متّصل ، والمفعول الثاني محذوف أي ما زوّدوكم شيئا إلا خبالا .

(119/345)

مكان مبنيّ متعلّق بـ (أوضعوا) ، و(كم) مضاف إليه (يبغون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به " 1 " ، (الفتنة) مفعول به منصوب (الواو) حاليّة (فيكم) مثل الأول متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (سمّاعون) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الواو (لهم) مثل فيكم متعلّق بـ (سمّاعون) ، (الواو) استئنافيّة (اللّه عليم بالظالمين) مثل اللّه عليم بالمتّقين " 2 " .

جملة : " خرجوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما زادوكم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " أوضعوا . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط .

وجملة : " يبغونكم " في محلّ نصب حال من فاعل أوضعوا .

وجملة : " فيكم سمّاعون . . . " في محلّ نصب حال من مفعول يبغونكم أو فاعله " 3 " .

وجملة : " اللّه عليم " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(خلال) ، اسم ظرف غير متصرّف مبنيّ ، فإذا أصبح ذا معان أخرى غدا معربا وخرج عن الظرفيّة .

البلاغة

استعارة مكنية : في قوله تعالى وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ ففي الكلام استعارة مكنية حيث شبهت النمائم بالركائب في جريانها وانتقالها ، وأثبت لها الإيضاح

---

(1) هذا الضمير مجرور باللام في الأصل أي يبغون لكم ، فلمّا حذفت اللام اتّصل الضمير بالفعل فكان مفعولا به على السعة .

(2) في الآية (44) من هذه السورة .

(3) يجوز أن تكون مستأنفة فلا محلّ لها .

على سبيل التخييل ، والمعنى ولسعوا بينكم بالنميمة وإفساد ذات البين .

وقيل : فيه استعارة تبعية ، حيث شبه سرعة إفسادهم ذات البين بالنمائم بسرعة سير الراكب ، ثم أستعير لها الإيضاع وهو للإبل ، والأصل ولأوضعوا ركائب نمائمهم خلالكم ، ثم حذف النمائم ، وأقيم المضاف إليه مقامه ، فقيل لأوضعوا ركائبهم ثم حذفت الركائب .

[سورة التوبة (9) : آية 48]

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (48)

الإعراب :

(121/345)

(اللام) واقعة في جواب قسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (ابتغوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (الفتنة) مفعول به منصوب (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (ابتغوا) ، (الواو) عاطفة (قلّبوا) مثل ابتغوا (اللام) حرف جرّ

و(الكاف) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(قلّبوا) ، (الأمور) مفعول به منصوب (حتّى) حرف غاية وجر " 1 " ، (جاء) فعل ماض (الحقّ) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (ظهر أمر) مثل جاء الحقّ (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبتدأ (كارهون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

والمصدر المؤوّل (أن جاء . . .) في محلّ جرّ بـ(حتّى) متعلّق بـ(قلّبوا) " 2 " .

جملة : " ابتغوا . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " قلّبوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ابتغوا . . .

---

(1) أو حرف ابتداء ، والجملة بعده استئنافيّة لا محلّ لها .

(2) أو متعلّق بمحذوف أي : استمرّوا في تقليب الأمور حتّى جاء .

(122/345)

وجملة : " جاء الحقّ " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " ظهر أمر اللّه " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاء الحقّ .

وجملة : " هم كارهون " في محلّ نصب حال .

الصرف :

(ابتغوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله ابتغاوا ، التقى ساكنان فحذفت الألف لهذه المناسبة وبقي ما قبلها مفتوحا دلالة عليها ، وزنه افتعوا .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ أي المكايد ، وتقليبها مجاز عن تدبيرها أو الآراء ، وهو مجاز عن تفتيشها ، أي دبروا لك المكايد والحيل ، أو دوروا الآراء في إبطال أمرك .

الفوائد

فائدة هامة في (حتى) :

(123/345)

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ لـ (حتى) حالات كثيرة .

ولكننا سنوضح حالتها في هذه الآية ، توخيا للفائدة ، ولأن ذلك يفوت كثيرا من الناس .

وقد أورد ابن هشام عدة حالات لحتى ، ومن جملة ما قال :

ومن أوجه حتى أن يقع حرف ابتداء ، أي حرفا تستأنف بعده الجملة فيدخل على الجملة الاسمية كقول الفرزدق :

فوا عجبا حتى كليب تسبّني كأنّ أباها نهشل أو مجاشع

كما أنها تدخل على الجملة الفعلية التي فعلها مضارع، كقول حسان:

يغشون حتى ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

وكذلك تدخل على الجملة الفعلية التي فعلها ماض، كما ورد في الآية التي نحن بصددها،

وكذلك قوله تعالى ثُمَّ بَدَّلْنا مَكانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقالُوا

قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ

وقد زعم ابن مالك أن حتى هنا حرف غاية وجر وأنّ بعدها أن مضمرة، ولا أعرف له في ذلك سلفا، وفيه تكلف إضمار من غير ضرورة وكذا قال ابن مالك في حتى الداخلة على إذا في قوله تعالى حَتَّى إِذا فَشِلْتُمْ وَتَنازَعْتُمْ واعتبر (إذا) في موضع جر بحتى، وهذه المقالة سبقه إليها الأخفش وغيره، والجمهور على خلافها وأنها حرف ابتداء.

[سورة التوبة (9): آية 49]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لخبر محذوف مقدّم أي بعض منهم . . (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يقول) مضارع مرفوع ، والفاعل هو وهو العائد (ائذن) فعل أمر دعائيّ والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(الياء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(ائذن) ، (الواو) عاطفة (لا) ناهية جازمة دعائية (تفتن) مضارع مجزوم و(النون) للوقاية و(الياء) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (ألا) حرف تنبيه (في الفتنة) جارّ ومجرور متعلّق بـ(سقطوا) وهو فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (الواو) عاطفة (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (جهنّم) اسم إنّ منصوب وهو ممنوع من التنوين (اللام) المزحلقة للتوكيد (محيطة) خبر مرفوع (بالكافرين) جارّ ومجرور متعلّق بـ(محيطة) ، وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " منهم من يقول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ائذن . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا تفتّني . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة ائذن .

وجملة : " سقطوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّ جهنّم لمحيطة . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سقطوا .

البلاغة

1 - المجاز المرسل : في قوله تعالى أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا والعلاقة الحالية ، أي في جهنم ، فأطلق الحال وأريد المحل ، لأن الفتنة لا يسقط فيها الإنسان ، لأنها معنى من المعاني ، وإنما يحل في مكانها ، فاستعمال الفتنة في مكانها مجاز أطلق فيه الحال وأريد المحل .

(125/345)

---

2 - التمثيل : في قوله تعالى وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ فقد يجعل الكلام تمثيلا بأن تشبه حالهم في احاطة الأسباب بحالهم عند احاطة النار ، وكون الأعمال التي هم فيها هي النار بعينها ، لكنها ظهرت بصورة الأعمال في هذه النشأة ، وتظهر بالصورة النارية في النشأة الأخرى ، كما قيل نظيره في قوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً

[سورة التوبة (9) : آية 50]

إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50)

الإعراب :

(إن) حرف شرط جازم (تصب) مضارع مجزوم فعل الشرط ، (الكاف) ضمير مفعول به

(حسنة) فاعل مرفوع (تسؤ) مضارع مجزوم جواب الشرط و(هم) ضمير مفعول به والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الواو) عاطفة (إن تصبك مصيبة) مثل إن تصبك حسنة (يقولوا) مضارع مجزوم جواب الشرط الثاني وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (قد) حرف تحقيق (أخذنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (أمرنا) مفعول به منصوب . . و(نا) مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ(أخذنا) ، (الواو) عاطفة (يتولّوا) مثل يقولوا ومعطوف عليه (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (فرحون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " تصبك حسنة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تسؤهم " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترن بالفاء .

وجملة : " تصبك مصيبة . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يقولوا . . . " لا محلّ لها جواب الشرط الثاني غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " قد أخذنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يتولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقولوا .

وجملة : " هم فرحون " في محلّ نصب حال من فاعل يتولّوا .

الصرف :

(يتولّوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله يتولّاوا . . . التقى ساكنان الألف والواو فحذفت الألف وزنه يتفعّوا .

[سورة التوبة (9) : آية 51]

قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاَّ ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

الإعراب :

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لن) حرف نفي ونصب (يصيب) مضارع منصوب (ونا) ضمير مفعول به (إلّا) أداة حصر (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كتب) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع والعائد

محذوف أي كتبه (اللام) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كتب) ، (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (مولى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف و(نا) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (على اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتوكّل) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 1 " ، (اللام) لام الأمر (يتوكّل) مضارع مجزوم وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (المؤمنون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لن يصيبنا إلّا ما . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كتب اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " هو مولانا . . . " لا محلّ لها تعليليّة - أو اعراضيّة - .

وجملة : " ليتوكّل المؤمنون " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كانت الاصابة من اللّه ، أو إن كان المكتوب من اللّه فليتوكّل المؤمنون على اللّه .

البلاغة

الإظهار في مقام الإضمار في قوله تعالى وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ .

حيث إظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار لإظهار التبرك والاستلذاذ به .

[سورة التوبة (9) : آية 52]

---

(1) قال الجمل في حاشيته على تفسير الجلالين ، " الفاء سببيّة . . للدلالة على استحبابه تعالى للتوكّل كما في قوله " فإيّاي فارهبون " اه .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي (تربّصون) مضارع مرفوع محذوف منه إحدى التاءين . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(نا) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تربّصون) " 2 " ، (إلا) أداة حصر (إحدى) مفعول به منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الحسنيين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة (نحن) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (نتربّص) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (بكم) مثل بنا متعلّق بـ (نتربّص) ، (أن) حرف مصدري ونصب (يصيب) مضارع منصوب و(كم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (بعذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يصيب) ، (من عند) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (عذاب) و(الهاء) مضاف إليه (أو) حرف عطف للتخيير (بأيدي) جارّ ومجرور متعلّق بنعت لـ (عذاب) معطوف على الجارّ قبله و(نا) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يصيبكم) في محلّ نصب مفعول به عامله نتربّص .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (تربّصوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّا نصب اسم انّ (مع) ظرف

منصوب متعلّق بـ (متربّصون) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (متربّصون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هل تربّصون بنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

---

(1) في الآية السابقة (51) .

(2) أو متعلّق بفعل محذوف ، والتقدير هل تربّصون أن يقع بنا إلّا إحدى الحسنيين .

(128/345)

وجملة : " نحن نتربّص . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة : " نتربّص . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (نحن) .

وجملة : " يصيبكم اللّه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تربّصوا . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن كان كلّ يلقى ما ينتظره فتربّصوا . . .

وجملة : " إنّا . . متربّصون " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

الصرف :

(الحسنيين) ، مثنّى الحسنى مؤنّث الأحسن . . وانظر الآية (95) من سورة النساء .

(متربّصون) ، جمع متربّص ، اسم فاعل من تربّص الخماسيّ ، وزنه متفعّل بضم الميم وكسر العين .

البلاغة

فن التعطف أو المشاركة : وهو أن يعلن المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر ، وهما مفترقتان كل لفظة منهما في طرف من الكلام ، وهو في قوله تعالى قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ فقد أتى التعطف من صدر الآية في قوله تَرَبَّصُونَ بِنا ومن عجزها في قوله : فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ مع تجنيس الازدواج .

ووقع مع التعطف مقابلة معنوية ، خرج الكلام فيها مخرج إيجاز الحذف ، فإن مقتضى البلاغة أن يكون تقدير ترتيب اللفظ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين : أن يصيبنا اللّه بعذاب من عنده أو بأيديكم ، ونحن نتربص بكم أن

يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فحذف لتوخي الإيجاز وتفسير الحسنيين من الجملة الأولى ، وأثبته في الجملة الثانية فرارا من تكرار اللفظ وتكثيره كما حذف الحسنيين من الجملة الثانية استغناء بذكرها أولا ، فحصل في الآية التعطف والمقابلة والإيجاز ، فاكتملت فيها أربعة أضرب من البديع وهذا هو السحر الحلال ، وإن من البيان لسحرا .

[سورة التوبة (9) : آية 53]

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53)

الإعراب :

(قل) مثل السابق " 1 " ، (أنفقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف (النون . . والواو فاعل (طوعا) مصدر في موضع الحال منصوب (الواو) عاطفة (كرها) معطوفة على (طوعا) منصوب " 2 " ، (لن) حرف نفي ونصب (يتقبّل) مضارع مبنيّ للمجهول منصوب ، ونائب الفاعل محذوف دلّ عليه قوله (أنفقوا) أي : لن يتقبّل منكم ما أنفقتموه (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتقبّل) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - و(تم) ضمير اسم كان (قوما) خبر كان منصوب (فاسقين) نعت لـ (قوما) منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أنفقوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لن يتقبّل منكم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " إنّكم كنتم قوما . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كنتم قوما . . . " في محلّ رفع خبر إنّكم .

---

(1) في الآية (51) من هذه السورة .

(2) انظر الآية (83) من سورة آل عمران .

(130/345)

[سورة التوبة (9) : آية 54]

وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (54)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما) نافية (منع) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (أن) حرف مصدريّ ونصب (تقبل) مضارع منصوب مبنيّ للمجهول (منهم) مثل منكم " 1 " متعلّق بـ (تقبل) ، (نفقات) نائب الفاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن تقبل) في محلّ جرّ بحرف جرّ محذوف أي من أن تقبل " 2 " متعلّق بـ

(منع) .

(إلّا) أداة حصر (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) ، (الواو) عاطفة (برسول) جارّ ومجرور متعلّق بـ (كفروا) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) نافية (يأتون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (الصلاة) مفعول به منصوب (إلّا) أداة حصر (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (كسالى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (لا ينفقون إلّا وهم كارهون) مثل لا يأتون . . . هم كسالى .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كفروا . .) في محلّ رفع فاعل منع " 3 " .

---

(1) في الآية السابقة (53) .

(2) أو في محلّ نصب مفعول به ثان عامله منع .

(3) يجوز أن يكون الفاعل هو اللّه ، (أنّهم كفروا) مفعول لأجله أي لأنّهم كفروا .

[. . . . .]

وجملة : " ما منعهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل في الآية السابقة .

وجملة : " تقبل . . . نفقاتهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " كفروا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " لا يأتون " في محلّ رفع معطوفة على جملة كفروا .

وجملة : " هم كسالى " في محلّ نصب حال من فاعل يأتون .

وجملة : " لا ينفقون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يأتون .

وجملة : " هم كارهون . . . " في محلّ نصب حال من فاعل ينفقون .

[سورة التوبة (9) : آية 55]

(132/345)

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55)

الإعراب :

(الفاء) استئنافيّة " 1 " (لا) ناهية جازمة (تعجب) مضارع مجزوم و(الكاف) ضمير

مفعول به (أموال) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (أولادهم) معطوفة على أموالهم مرفوع مثله . (إنّما) كافّة ومكفوفة (يريد) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (اللام) زائدة " 2 " (يعذب) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(هم) ضمير مفعول به والفاعل هو (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعذّب) أي بسببها (في الحياة) جارّ

---

(1) أو رابطة لجواب شرط مقدّر أي : إن نظرت إليهم فلا تعجبك أموالهم .

(2) جاءت بعد فعل متعدّ أي يريد اللّه أن يعذّبهم بها . . .

ومجرور متعلّق بـ (يعذّب) ، (الدنيا) نعت للحياة مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (تزهق) مضارع منصوب معطوف على (يعذّب) ، (أنفسهم) فاعل مرفوع ومضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يعذّبهم) في محل نصب مفعول به عامله يريد وهو المحلّ البعيد ، والجرّ وهو القريب .

(الواو) حاليّة (هم) منفصل مبتدأ (كافرون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو.

جملة: "لا تعجبك أموالهم" لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يريد اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "يعذّبهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

وجملة: "تزهق أنفسهم" لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّبهم.

وجملة: "هم كافرون" في محلّ نصب حال.

[سورة التوبة (9) : آية 56]

وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (يحلفون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحلفون) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة وهي مؤكدّة للقسم (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر إنّ (الواو) حاليّة (ما) نافية (هم) ضمير منفصل مبتدأ " 1 " (منكم) مثل

(1) أو في محلّ رفع اسم (ما) العاملة عمل ليس ، ومنكم الخبر .

(135/345)

الأول متعلّق بمحذوف خبر هم (الواو) عاطفة (لكنّ) حرف مشبّه بالفعل للاستدراك - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لكنّ (قوم) خبر لكنّ مرفوع (يفرقون) مثل يحلفون .

جملة : " يحلفون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " إنّهم لمنكم " لا محلّ لها جواب القسم ، وجملة القسم وجوابه مقول القول لقول مقدّر هو حال من فاعل يحلفون .

وجملة : " ما هم منكم " في محلّ نصب حال .

وجملة : " لكنّهم قوم . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال " 1 " .

وجملة : " يفرقون " في محلّ رفع نعت لقوم .

[سورة التوبة (9) : آية 57]

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

الإعراب :

(لو) حرف شرط غير جازم (يجدون) مضارع مرفوع.

والواو فاعل (ملجأ) مفعول به منصوب (أو) حرف عطف (مغارات) معطوف على ملجأ منصوب مثله وعلامة النصب الكسرة، ومثله (مدّخلا)، (اللام) واقعة في جواب لو (ولّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ.. والواو فاعل (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ(ولّوا)، (الواو) حاليّة (هم) ضمير مبتدأ (يجمحون) مثلا يجدون.

جملة: "يجدون... "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ولّوا... "لا محلّ لها جواب الشرط.

---

(1) أو استئنافيّة لا محلّ لها.

(136/345)

وجملة: "هم يجمحون" في محلّ نصب حال من فاعل ولّوا.

وجملة: "يجمحون" في محلّ رفع خبر المبتدأ هم.

الصرف:

(ملجأ)، اسم مكان من فعل لجأ الثلاثيّ وزنه مفعل بفتح الميم والعين، فهو صحيح مضارعه مفتوح العين" 1 ".

(مغارات) ، جمع مغارة بفتح الميم وضمّها ، أو جمع مغار بفتح الميم وضمّها ، اسم مكان من غار الثلاثيّ والألف منقلبة عن واو أصلها مغورة – بفتح الواو – جاءت الواو متحرّكة بعد فتح قلبت ألفا .

(مدّخلا) ، اسم مكان من ادّخل الخماسيّ ، فهو على وزن مفتعل بضمّ الميم وفتح العين .

[سورة التوبة (9) : آية 58]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58)

الإعراب :

(ومنهم من يلمز) مثل ومنهم من يقول " 2 " ، و(الكاف) ضمير مفعول به (في الصدقات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يلمز) على حذف مضاف أي في قسم الصدقات (الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (أعطوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول في محلّ جزم فعل الشرط . . والواو نائب الفاعل (من) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أعطوا) والجارّ للتبعيض أو للبيان (رضوا) فعل ماض مبني على الضمّ . .

والواو فاعل ، وهو في محلّ جزم جواب الشرط (الواو) عاطفة (إنّ) مثل

---

(1) يصحّ في (ملجأ) أن يكون هو وما بعده مصادر ميميّة بمعنى اللجوء والاختباء

والدخول ، أي لو استطاعوا ذلك لولّوا . .

(2) في الآية (49) من هذه السورة .

(137/345)

الأول (لم) حرف للنفي (يعطوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو نائب الفاعل (منها) مثل الأول متعلّق بـ (يعطوا) ، (إذا) فجائيّة (هم يسخطون) مثل هم يجمحون " 1 " جملة : " منهم من يلمزك . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف في الآية السابقة .

وجملة : " يلمزك " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إن أعطوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة منهم من يلمزك .

وجملة : " رضوا " لا محلّ لها جواب شرط جازم غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن لم يعطوا " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن أعطوا .

وجملة : " هم يسخطون " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بـ (إذا) الفجائيّة .

وجملة : " يسخطون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(أعطوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله أعطيوا بضمّ الهمزة والياء ، استثقلت الضمّة على الياء فنقلت حركتها إلى الطاء - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة فأصبح أعطوا وزنه أفعوا .

(يعطوا) ، فيه إعلال بالحذف أصله يعطاوا ، التقى ساكنان الألف والواو فحذفت الألف فأصبح يعطوا وزنه يفعوا بفتح العين ، وقد تركت الفتحة على الطاء دلالة على الألف المحذوفة .

---

(1) في الآية السابقة (57) .

(138/345)

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ فقد أعرب النحويون (إذا) حرف للمفاجاة . وسنوضح شيئا مما يتعلق بهذا الحرف ، لأنه قد يخفى على الكثير .

1 - إذا الفجائية تختص بالجمل الاسمية ، ولا تحتاج إلى جواب ، ولا تقع في ابتداء الكلام ، وتدل على الحال لا على الاستقبال ، مثل : خرجت فإذا الأسد بالباب . ومنه قوله تعالى

فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى وقد اختلف العلماء فيها إلى عدة أقوال :

أ – هي حرف عند الأخفش ، ويرجح هذا القول قولهم : خرجت فإذا إنّ زيدا بالباب ، بكسر إن لأنّ (إنّ) لا يعمل ما بعدها فيما قبلها .

(139/345)

ب – وظرف مكان عند المبرّد ، وظرف زمان عند الزجاج ، وقد اختار ابن مالك أنها حرف للمفاجاة ، واختار ابن عصفور أنها ظرف مكان ، واختار الزمخشري أنها ظرف زمان . والقول الأول الذي يعتبرها حرفا للمفاجاة هو أرجح الأقوال ، لعدم احتياجه إلى تأويل ، أما الذين اعتبروها ظرفا فقد قدّروا لها عاملا محذوفا ونحن مع علم أصول النحو حيث قرر الأصوليون القاعدة التالية :

إذا استوى مسألتان إحداهما تحتاج إلى تقدير والثانية لا تحتاج إلى تقدير فعدم التقدير أولى .

2 – إذا وقعت (إذا) الفجائية مقترنة بجملة جواب الشرط الجازم ، كما في هذه الآية الكريمة ، فالجملة في محلّ جزم جواب الشرط ، ومن المعلوم أن جملة جواب الشرط الجازم يجب أن تقترن بالفاء أو إذا الفجائية حتى تكون في محلّ جزم جواب الشرط .

[سورة التوبة (9) : آية 59]

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (لو) حرف شرط غير جازم (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (رضوا) مثل السابق " 1 " ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (آتى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف (هم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (رسول) معطوفة على لفظ الجلالة مرفوع و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (حسب) مبتدأ مرفوع و(نا) ضمير مضاف إليه (اللّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع.

والمصدر المؤوّل (أنّهم رضوا) في محلّ رفع فاعل لفعل محذوف تقديره ثبت أي لو ثبت رضاهم . . .

(السين) حرف استقبال (يؤتي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء و(نا) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (من فضل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤتي) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة الأخير و(الهاء) مثل الأخير (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (إلى اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (راغبون) وهو خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " (ثبت) رضاهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم .

وجملة : " رضوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : آتاهم اللّه . . . لا محلّ لها صلة الموصول .

وجملة : " وقالوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة رضوا .

وجملة : " حسبنا اللّه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

(1) في الآية السابقة (58) .

وجملة : " سيؤتينا اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف فيه معنى التعليل أو الشرح لمقول القول .

وجملة : " إنّا . . . راغبون " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة أو تفسيريّة .

وجواب الشرط (لو) محذوف أي لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم .

الصرف :

(راغبون) ، جمع راغب ، اسم فاعل من رغب وزنه فاعل .

[سورة التوبة (9) : آية 60]

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

الإعراب :

(141/345)

(انّما) كافّة ومكفوفة (الصدقات) مبتدأ مرفوع (للفقراء) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (الواو) عاطفة في المواضع السبعة الآتية (المساكين ، العاملين ، المؤلّفة الغارمين ، ابن . . .) ألفاظ مجرور معطوفة على الفقراء ، وعلامة الجرّ الياء في الألفاظ ، المساكين ، العاملين ، الغارمين (على) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (العاملين) ، (قلوب) نائب فاعل لاسم المفعول المؤلّفة ، مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (في الرقاب) جارّ ومجرور متعلّق بالخبر المحذوف ومعطوف على الجارّ الأول (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بالخبر المحذوف ومعطوف على الجارّ الأول (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور ومثله (السبيل) ، (فريضة) مفعول مطلق لفعل محذوف " 1 " منصوب (من اللّه) جارّ

ومجرور متعلّق بـ (فريضة) ، (الواو)

---

(1) أو مصدر في موضع الحال . . وقد يكون (فريضة) بمعنى مفروضة فهو جار مجرى

(142/345)

استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (حكيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " الصدقات للفقراء . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " (فرض) فريضة . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(المؤلّفة) ، اسم مفعول من الرباعيّ أَلّف ، وزنه مفعّلة بضم الميم وفتح العين .

(الغارمين) ، جمع الغارم ، اسم فاعل من الثلاثيّ غرم ، ومنه فاعل .

البلاغة

مخالفة الحروف : في قوله تعالى إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ إلى آخر الآية ، وهو فن طريف من فنون البلاغة لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، فقد عدل عن " اللام " إلى " في " في الأربعة الأخيرة ، وذلك لسرّ يخفى على المتأمل السطحي ، وهو أن الأصناف الأربعة الأوائل ملاك

لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكا ، فكان دخول اللام لائقا بهم . وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم ، ولكن في مصالح تتعلق بهم فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون ، فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبّر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محالّ لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم . وأما سبيل اللّه فواضح فيه ذلك . وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل اللّه ، وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعا

الاسم المشتقّ ، وهذه الحال من الضمير المستكنّ في خبر الصدقات .

(143/345)

وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكن على القريب منه أقرب .

الفوائد

مصارف الزكاة .

حددت هذه الآية الأصناف الثمانية الذين تجب لهم الزكاة وهم :

1 – الفقراء .

2 – المساكين : وهم المحتاجون الذين لا يفي دخلهم بحاجتهم ، ثم اختلف العلماء في الفرق بين الفقير والمسكين ، فقال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة والزهري : الفقير الذي لا يسأل والمسكين السائل ، وقال الشافعي : الفقير من لا مال له ولا حرفة ، والمسكين من له مال أو حرفة ، ولكن لا تقع منه موقعا لكفايته . وقال الفقهاء الفقير من كان مورده أقل من نصف حاجته ، والمسكين من كان مورده أكثر من نصف حاجته .

(144/345)

---

3 – الْعامِلِينَ عَلَيْها : وهم السعاة الذين يتولون جباية الصدقات وقبضها من أهلها ووضعها في جهتها ، فيعطون من مال الصدقات بقدر أجور أعمالهم ، سواء كانوا فقراء أم أغنياء . وهذا قول ابن عمر ، وبه قال الشافعي .

4 – الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ : وهم قسمان : مسلمون وكفار ، فالمسلمون قسمان : قسم من أشراف العرب ووجوه القبائل كان (صلى اللّه عليه وسلّم) يعطيهم ليتألف قلوبهم ، وكان إسلامهم ضعيفا وقوم أسلموا وكان إسلامهم قويا ، لكن النبي (صلى اللّه عليه وسلّم) كان يعطيهم تألفا لقومهم . وأما القسم الثاني ، فهم المسلمون البعيدون عن إخوانهم ،

والمتاخمون للكفار ، وهم ضعفاء ، فيعطون ليبقى إيمانهم قويا ، وكي لا يغرّر بهم الكفار ، وأما المؤلفة من الكفار فهم قوم يخشى شرهم ويرجى إسلامهم .

5 - وَفِي الرِّقابِ : وهم المكاتبون ، يعطون ليعتقوا . وهذا قول الشافعي وأكثر الفقهاء . وقول آخر بأنه يشتري عبيد ويعتقهم .

6 - الغارمين : الذين عجزوا عن وفاء الدين ، بشرط ألا يكون سبب الدين معصية اللّه .

7 - في سبيل اللّه : أي في الجهاد أو كل عمل يرضي اللّه عز وجل .

8 - ابن السبيل : المسافر المنقطع عن ماله ، يعطى ما يبلغه مقصده .

[سورة التوبة (9) : آية 61]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (61)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ وهو نعت لخبر مقدّم محذوف أي بعض منهم (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يؤذون) مضارع مرفوع

. . والواو فاعل (النبيّ) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (يقولون) مثل يؤذون (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أذن) خبر مرفوع (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (أذن) خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو (خير) مضاف إليه مجرور (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (أذن) (يؤمن) مضارع مرفوع ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) عاطفة (يؤمن) مثل الأول (للمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمن) بتضمينه معنى يصدّق أو يسلّم (الواو) عاطفة (رحمة) معطوفة على أذن مرفوع (اللام) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بـ (رحمة) (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (منكم) مثل منهم متعلّق بحال من فاعل آمنوا (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ رفع مبتدأ (يؤذون رسول اللّه) مثل يؤذون النبيّ ، ولفظ الجلالة مضاف إليه (لهم) مثل لكم متعلّق بمحذوف خبر

مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع .

جملة : " منهم الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤذون . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " يقولون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الصلة .

وجملة : " هو أذن . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " (هو) أذن خير " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " يؤمن باللّه " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ المحذوف " 1 " .

وجملة : " يؤمن للمؤمنين " في محلّ رفع معطوفة على جملة يؤمن باللّه .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " الذين يؤذون . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " يؤذون رسول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثالث .

وجملة : " لهم عذاب . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ الذين) .

الصرف :

(أذن) ، اسم للعضو المعروف ، واستعمل في الآية الكريمة مجازا أي مستمع ، وزنه فعل بضمّتين .

البلاغة

المجاز المرسل : في قوله تعالى هُوَ أُذُنٌ وهي في الأصل اسم للجارحة ، وإطلاقها على الشخص بالمعنى المذكور من باب المجاز المرسل ، كاطلاق العين

---

(1) أو في محلّ رفع نعت ثان لأذن .

على ربيئة القوم حيث كانت العين هي المقصودة منه ، وذلك من اطلاق الجزء على الكل ، والعلاقة تسمى الجزئية ، قال الشاعر :

إذا ما بدت ليلى فكلي أعين وإن هي ناجتني فكلي مسامع

[سورة التوبة (9) : آية 62]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (62)

الإعراب :

(يحلفون باللّه) مرّ إعرابها " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحلفون) ، (اللام) للتعليل (يرضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام . . . والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن يرضوكم) في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحلفون) .

(الواو) حاليّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة مرفوع (الهاء) مضاف إليه (أحقّ) خبر المبتدأ مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (يرضوا) مثل الأول و(الهاء) مفعول به .

والمصدر المؤوّل (أن يرضوه) في محلّ رفع بدل من اسم الجلالة أو من رسول " 2 " .

---

(1) في الآية (56) من هذه السورة .

(147/345)

---

(2) وإذا كان بدلا من أحدهما فثمّة وجه ليكون بدل الآخر . . . والمعنى : إرضاء اللّه وإرضاء رسوله أحقّ من إرضاء غيرهما . . . وفي الآية توجيهات أخرى في الإعراب منها : (أحقّ) خبر مقدّم والمصدر المؤوّل مبتدأ مؤخّر ، والجملة خبر لـ (اللّه ورسوله) أي : اللّه ورسوله إرضاؤهما أحقّ . . وقيل : (أحق) خبر الرسول لأنه الأقرب ، وخبر لفظ الجلالة محذوف دل عليه المذكور . . وقيل : المصدر المؤوّل في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (أحقّ) ، أي أحقّ بالإرضاء – وقد رفض ابن هشام هذا التخريج الأخير – هذا وقد جاء لفظ (أحقّ) خبرا عن الاسمين (اللّه ، رسوله) لأن أمر الرسول تابع لأمر اللّه ، وقد أفرد وهو في موضع التثنية ، أو لأنّ (أحقّ) وهو اسم تفضيل جاء مجرّدا من (ال) والإضافة ومن التفضيليّة مقدّرة .

(إن) حرف شرط جازم (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . . والواو ضمير اسم كان ، والفعل في محلّ جزم فعل الشرط (مؤمنين) خبر منصوب وعلامة النصب

الياء .

جملة : " يحلفون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يرضوكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " اللّه ورسوله أحقّ . . . " في محلّ نصب حال من فاعل يحلفون .

وجملة : " يرضوه " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) الظاهر .

وجملة : " كانوا مؤمنين " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إن كانوا مؤمنين فاللّه ورسوله أحقّ بالإرضاء .

الصرف :

(يرضوكم) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يرضيوكم - بضمّ الياءين - استثقلت الضمّة على الياء فسكّنت ونقلت الحركة إلى الضاد - إعلال بالتسكين - ثمّ حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة - إعلال بالحذف - فأصبح يرضوكم ، وزنه يفعوكم .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ فقد أعرب النحويون : اللّه لفظ الجلالة مبتدأ ، ورسوله : اسم معطوف . أما الخبر فقد تضاربت فيه أقوال النحاة : ما يقوله أبو البقاء العكبري :

الخبر هو (أحقّ) وهو خبر للمبتدأ الذي هو (اللّه) ، والرسول مبتدأ ثان وخبره محذوف دل عليه خبر الأول ويصبح التقدير (واللّه أحق أن ترضوه ورسوله أحق) .

ما يقوله سيبويه :

أما سيبويه فقد قال أحق خبر الرسول وخبر الأول محذوف ، لأن (رسوله أقرب للخبر .

وهذا أقوى ، إذ لا يلزم منه التفريق بين المبتدأ وخبره ، وفيه أيضا أنه خبر الأقرب إليه ،

ومثله قول الشاعر :

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راض والرأي مختلف

فالشاهد أن (راض) خبر أنت ولا تصلح أن تكون خبر نحن . وهذا يؤيد قول سيبويه ، لأن راض أقرب إلى المبتدأ (أنت) .

وقيل (أحقّ) خبر عن الاسمين لأن أمر الرسول تابع لأمر اللّه تعالى ، وقيل أفرد كلمة (أحقّ) وهي بمعنى التثنية ، والمصدر المؤول من (أن ترضوه) في محلّ جر بالياء المقدرة ويصبح التقدير (أحق بالرضا) .

[سورة التوبة (9) : آية 63]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

الإعراب :

(149/345)

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ الإنكاريّ (لم) حرف نفي وجزم (يعلموا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ - وهو ضمير الشأن - (من) اسم شرط جازم مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (يحادد) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (الفاء) رابطة لجواب الشرط (أنّ) مثل الأول (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر أنّ (نار) اسم أنّ مؤخّر منصوب (جهنّم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (خالدا) حال منصوبة من الضمير في (له) ، (فيها) مثل له متعلّق بـ (خالدا) .

والمصدر المؤوّل (أنّه من . . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلموا . . أو مفعوله بمعنى يعرفوا .

والمصدر المؤوّل (أنّ له نار . . .) في محلّ رفع خبر لمبتدأ محذوف - أو مبتدأ والخبر محذوف - والتقدير : فأمره كون نار جهنّم له . . . أو فكون نار جهنّم له أمر حقّ .

(ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والاشارة إلى العذاب ، و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الخزي) خبر مرفوع (العظيم) نعت للخزي مرفوع .

جملة : " يعلموا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " من يحادد . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يحادد اللّه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (من) " 1 " .

وجملة : " (أمره) أنّ له نار " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ذلك الخزي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

[سورة التوبة (9) : آية 64]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64)

الإعراب :

(يحذر) مضارع مرفوع (المنافقون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (أن) حرف مصدريّ ونصب (تنزّل) مضارع مبنيّ للمجهول

---

(1) يجوز أن يكون الخبر جملتي الشرط والجواب معا . [. . . . .]

منصوب (على) جارّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تنزّل) " 1 " ، (سورة) نائب الفاعل مرفوع (تنبّئ) مثل يحذر و(هم) ضمير مفعول به والفاعل هي (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (تنبّئهم) ، (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة ما ، و(هم) ضمير مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن تنزّل) في محلّ نصب مفعول به " 2 " .

(قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (استهزءوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (مخرج) خبر إنّ مرفوع (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به لاسم الفاعل مخرج ، والعائد محذوف (تحذرون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " يحذر المنافقون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تنزّل . . . سورة " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " تنبئّهم . . . " في محلّ رفع نعت لسورة .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " استهزءوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " إنّ اللّه مخرج . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ . . . أو تعليليّة .

---

(1) قال الزمخشري : الضمير في (عليهم) يعود إلى المؤمنين ، والضمير في (تنبّئهم) يعود إلى المنافقين . . . وقال غيره : الضمير فيهما يعود إلى المنافقين لأنّ السورة إذا نزلت في حقّهم فهي نازلة عليهم تنبّئهم .

(2) الفعل يحذر عند المبرّد لازم ، والمصدر المؤوّل مجرور بحرف جرّ محذوف تقديره (من) أي يحذر المنافقون من أن تنزّل . . . ولكنّ أبا حيّان ردّ رأي المبرّد .

(151/345)

وجملة : " تحذرون " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

[سورة التوبة (9) : آية 65]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (اللام) موطّئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (سألت) فعل ماض مبنيّ على السكون في محل جزم فعل الشرط . . . و(التاء) فاعل و(هم) ضمير مفعول به

والمفعول الثاني محذوف أي : عن استهزائهم بك (اللام) لام القسم (يقولنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون وقد حذفت لتوالي الأمثال . . . والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل . . و(النون) نون التوكيد (إنّما) كافّة ومكفوفة (كنّا) فعل ماض ناقص – ناسخ – و(نا) ضمير في محلّ رفع اسم كان (نخوض) مضارع مرفوع ، والفاعل نحن (الواو) عاطفة (نلعب) مثل نخوض (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (الهمزة) للاستفهام التقريعيّ الإنكاريّ (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تستهزئون) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (آيات ، (رسول) معطوفان بالعاطفين على لفظ الجلالة مجروران مثله ، و(الهاء) فيهما مضاف إليه (كنتم) مثل كنّا (تستهزئون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : "إن سألتهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "يقولنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر ، وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : "كنّا نخوض . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نخوض . . . " في محلّ نصب خبر كنّا .

وجملة : " نلعب " في محلّ نصب معطوفة على جملة نخوض .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كنتم تستهزئون " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " تستهزئون " في محلّ نصب خبر كنتم .

الفوائد

عبث المنافقين :

(152/345)

قال ابن إسحاق : كان جماعة من المنافقين ، منهم وديعة بن ثابت ورجل من أشجع يقال له مخشّن بن حميّر يشيرون إلى رسول (صلّى اللّه عليه وسلّم) وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أ تحسبون جلاد بني الأصفر (أي الروم) كقتال العرب بعضهم بعضا ؟ واللّه لكأنا بكم غدا مقرنين في الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين . فقال مخشّن واللّه لوددت أني أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وإنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلّم) - فيما بلغني - لعمار بن ياسر :

أدرك القوم ، فإنهم قد احترقوا ، فسلهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى ، قلتم كذا وكذا ، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) يعتذرون إليه ، فقال وديعة :

يا رسول اللّه إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل اللّه عز وجل وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ

وَتَلْعَبُ فقال مخشّن بن حميّر : يا رسول اللّه ، قعد بي اسمي واسم أبي ، فكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشّن ، فتسمى عبد الرحمن ، وسأل اللّه أن يقتل شهيدا لا يعلم بمكانه ، فقتل يوم اليمامة في قتال المرتدين ، فلم يوجد له أثر .

[سورة التوبة (9) : آية 66]

لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (تعتذروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (قد) حرف تحقيق (كفرتم) فعل ماض مبنيّ على السكون وفاعله (بعد) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (كفرتم) ،

(153/345)

(إيمان) مضاف إليه مجرور و(كم) ضمير مضاف إليه (إن) حرف شرط جازم (نعف) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف حرف العلّة ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (عن طائفة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نعف) ، (من) حرف جرّ و(كم) ضمير في

محلّ جرّ متعلّق بنعت لـ (الطائفة (نعذّب) مضارع مجزوم جواب الشرط والفاعل نحن

(طائفة) مفعول به منصوب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير اسم

أنّ (كانوا) ماض ناقص . . . والواو اسم كان (مجرمين) خبر كان منصوب وعلامة النصب

الياء .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (نعذّب) .

جملة : "لا تعتذروا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " قد كفرتم " لا محلّ لها تعليليّة أو استئناف بيانيّ .

وجملة : " إن نعف . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " نعذّب . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : "كانوا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

الصرف :

(نعف) ، فيه إعلال بالحذف بسبب الجزم وأصله نعفو وزنه نفع بضمّ العين .

[سورة التوبة (9) : آية 67]

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67)

الإعراب :

(المنافقون) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو (الواو) عاطفة (المنافقات) معطوف على المبتدأ مرفوع (بعض) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (من بعض) جارّ ومجرور خبر بعضهم على حذف مضاف أي من جنس بعض (يأمرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (بالمنكر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يأمرون) ، (الواو) عاطفة (ينهون عن المعروف) مثل يأمرون بالمنكر ، والجارّ متعلّق بـ (ينهون) ، (الواو) عاطفة (يقبضون) مثل يأمرون (أيديهم) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (نسوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (نسي) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل (المنافقين) اسم إنّ منصوب وعلامة النصب الياء (هم) ضمير فصل " 1 " ، (الفاسقون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " المنافقون . . بعضهم من بعض " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بعضهم من بعض " في محلّ رفع خبر المبتدأ (المنافقون) .

وجملة : " يأمرون . . . " في محلّ رفع خبر ثان للمبتدأ " 2 " .

وجملة : " ينهون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون .

وجملة : " يقبضون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون .

وجملة : " نسوا . . . " في محلّ رفع خبر ثالث للمبتدأ " 3 " .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الفاسقون) ، والجملة الاسميّة خبر إن .

(2) يحتمل أن تكون بدلا من جملة (بعضهم من بعض) . . . ويجوز أن تكون استئنافا بيانيّا فلا محلّ لها .

(3) يجوز أن تكون استئنافيّة فلا محلّ لها .

(155/345)

وجملة : " نسيهم " في محلّ رفع معطوفة على جملة نسوا .

وجملة : " إنّ المنافقين . . . الفاسقون " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

1 - الكناية : في قوله تعالى (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) عن الإنفاق في طاعة اللّه ومرضاته ، وقبض اليد كناية عن الشح والبخل ، كما أن بسطها كناية عن الجود ، لأن من يعطي يمد يده بخلاف من يمنع .

2 - المجاز : في قوله تعالى نَسُوا اللَّهَ والنسيان مجاز عن الترك ، وهو كناية عن ترك الطاعة ، فالمراد لم يطيعوه سبحانه .

3 - المشاكلة : في قوله تعالى فَنَسِيَهُمْ أي منع لطفه وفضله عنهم والتعبير بالنسيان للمشاكلة .

[سورة التوبة (9) : آية 68]

وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68)

الإعراب :

(وعد) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (المنافقين) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (المنافقات) معطوف على المنافقين منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (الكفّار) معطوف على المنافقين منصوب (نار) مفعول به ثان منصوب (جهنّم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (خالدين) حال منصوبة من المنافقين - وهي حال مقدّرة - وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدين) (هي) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (حسب) خبر مرفوع (وهم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (لعن) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة

(اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب) مبتدأ مؤخّر مرفوع (مقيم) نعت لعذاب مرفوع.

جملة: "وعد اللّه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "هي حسبهم "في محلّ نصب حال من نار جهنم.

وجملة: "لعنهم اللّه "لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف.

وجملة: "لهم عذاب "لا محلّ لها معطوفة على جملة الاستئناف.

البلاغة

(156/345)

المجاز العقلي: في قوله تعالى وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ فهي كما في قوله تعالى عِيشَةٍ راضِيَةٍ والمجاز هنا في وصف العذاب بالإقامة.

[سورة التوبة (9): آية 69]

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69)

الإعراب :

(الكاف) حرف جرّ (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر لمبتدأ محذوف تقديره أنتم " 1 " (من) حرف جر (قبل) اسم مجرور بحرف الجرّ متعلّق بمحذوف صلة أي مضوا من قبلكم و(كم) ضمير مضاف إليه (كانوا) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على الضمّ . .

والواو ضمير في محلّ رفع اسم كان (أشدّ) خبر كانوا منصوب (من)

---

(1) جعل العكبريّ الجارّ والمجرور نعتا لمصدر محذوف بحذف مضاف أي وعدا كوعد الذين من قبلكم.

(157/345)

حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أشدّ) ، (قوّة) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (أكثر أموالا) مثل أشدّ قوّة فهو معطوف عليه (الواو) عاطفة (أولادا) معطوف على (أموالا) منصوب (الفاء) عاطفة (استمعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (بخلاق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استمتعوا) ، و(هم) ضمير متّصل مضاف إليه (الفاء)

عاطفة (استمتعتم) فعل ماض وفاعله (بخلاقكم) مثل بخلافهم متعلّق بـ (استمتعتم) ، (الكاف) مثل الأول (ما) حرف مصدريّ (استمتع) مثل الأول (الذين) موصول فاعل في محلّ رفع (من قبلكم) مثل الأول متعلّق بـ (استمتع) (بخلافهم) مثل الأول متعلّق بـ (استمتع) .

(158/345)

والمصدر المؤوّل (ما استمتع) في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي استمتعتم استمتاعا كاستمتاع الذين من قبلكم .

(الواو) عاطفة (خضتم) مثل استمتعتم (كالذي) مثل كالذين متعلّق بمحذوف مفعول مطلق أي خوضا كالذي خاضوه (خاضوا) مثل استمتعوا ، والعائد محذوف أي خاضوه (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . . و(الكاف) حرف خطاب (حبطت) فعل ماض . . . و(التاء) للتأنيث (أعمال) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (حبطت) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (الآخرة) معطوف على الدنيا مجرور (الواو) عاطفة (أولئك) مثل الأول (هم) ضمير فصل " 1 " ، (الخاسرون) خبر المبتدأ مرفوع .

جملة : " (أنتم) كالذين من قبلكم " لا محلّ لها استئنافيّة .

---

(1) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الخاسرون) ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ (أولئك) .

(159/345)

وجملة : "كانوا أشدّ . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " استمتعوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة كانوا .

وجملة : " استمتعتم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة استمتعوا .

وجملة : " استمتع الذين . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " خضتم " لا محلّ لها معطوفة على جملة استمتعتم .

وجملة : " خاضوا " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " أولئك حبطت أعمالهم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " حبطت أعمالهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " أولئك . . . الخاسرون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك حبطت .

الصرف :

(خضتم) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء على السكون لأنه معتلّ أجوف ، وأصله خوضتم بسكون الواو والضاد ، حذفت الواو لالتقاء الساكنين ، وزنه فلتم بضمّ الفاء لأنّ الحرف المحذوف هو الواو .

البلاغة

(160/345)

---

1 - الالتفات : في قوله تعالى كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ التفات من الغيبة إلى الخطاب للتشديد .

2 - التكرير : في ترديد استمتعوا ، ذلك أنه شبه حالهم بحال الأولين ، ففي التكرير تأكيد ومبالغة في ذم المخاطبين ، وتقبيح حالهم واستهجان أمرهم .

3 - الاستعارة : في خضتم ، حيث شبه الباطل بماء واستعار له كلمة خضتم أي دخلتم في الباطل .

[سورة التوبة (9) : آية 70]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (لم) حرف نفي وجزم (يأت) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلّة و(هم) ضمير مفعول به (نبأ) فاعل مرفوع (الذين) موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (من قبل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف صلة و(هم) ضمير مضاف إليه (قوم) بدل من الموصول مجرور (نوح) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة في المواضع الخمسة (عاد ، ثمود) معطوفان على نوح مجروران (قوم) معطوف على قوم الأول مجرور (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (أصحاب) معطوف على قوم مجرور (مدين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة ممتنع من التنوين (المؤتفكات) معطوف على قوم مجرور وهو على حذف مضاف أي أهل المؤتفكات " 1 " ، (أتت) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . و(التاء) للتأنيث (رسل) فاعل مرفوع ، و(هم) ضمير مضاف إليه (بالبيّنات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أتتهم) ، (الفاء) عاطفة (ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم كان مرفوع (اللام) لام الجحود (يظلم) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الواو) عاطفة (لكن) حرف استدراك

(1) المؤتفكات : قرى قوم لوط .

(كانوا) مرّ إعرابه " 1 " . (أنفس) مفعول به مقدّم منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه

(يظلمون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل .

جملة : " لم يأتهم نبأ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أتتهم رسلهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " ما كان اللّه ليظلمهم) لا محلّ لها معطوفة على جمل مقدّرة أي فكذّبوهم فأهلكوا فما كان اللّه . . .

وجملة : " يظلمهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " لكن كانوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان . . .

وجملة : " يظلمون " في محلّ نصب خبر كانوا .

والمصدر المؤوّل (أن يظلمهم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

الصرف :

(نبأ) ، مفرد أنباء . . انظر الآية (44) من سورة آل عمران .

(المؤتفكات) ، جمع المؤتفكة مؤنّث المؤتفك بمعنى المنقلب الذي يجعل عالية سافلة ، وهو اسم فاعل من الخماسيّ ائتفك . . . ويقال : أفكته فأتفك أي قلبته فانقلب . . . ووزن المؤتفك مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

---

(1) في الآية السابقة (69) .

(163/345)

[سورة التوبة (9) : آية 71]

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (المؤمنون والمؤمنات . . . ويطيعون اللّه) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة و(الهاء) مضاف إليه (أولئك سيرحمهم اللّه) مثل أولئك حبطت أعمالهم " 2 " ، و(السين) حرف استقبال ، و(هم) ضمير مفعول به (إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (عزيز) خبر إنّ

مرفوع (حكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "المؤمنون . . . بعضهم أولياء . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: (بعضهم أولياء بعض) في محلّ رفع خبر المبتدأ (المؤمنون).

وجملة: "يأمرون . . . "في محلّ رفع خبر ثان "3".

وجملة: "ينهون . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون.

وجملة: "يقيمون . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون.

وجملة: "يؤتون . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون.

وجملة: "يطيعون . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة يأمرون.

وجملة: "أولئك سيرحمهم اللّه "لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (67) من هذه السورة.

(2) في الآية (69) من هذه السورة.

(3) أو هي استئناف بيانيّ فلا محلّ لها، وكذلك الجمل المعطوفة عليها.

وجملة : " سيرحمهم اللّه " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " إنّ اللّه عزيز . . . " لا محلّ لها في الحكم التعليليّة .

[سورة التوبة (9) : آية 72]

وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

الإعراب :

" وعد اللّه . . . جنّات) مرّ إعراب نظيرها " 1 " ، وعلامة نصب جنّات الكسرة (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (من تحت) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تجري) " 2 " ، و(ها) ضمير مضاف إليه على حذف مضاف أي من تحت أشجارها (الأنهار) فاعل مرفوع (خالدين) حال من المؤمنين منصوبة – وهي حال مقدّرة – وعلامة النصب الياء (في) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خالدين) ، (الواو) عاطفة (مساكن) معطوف على جنّات منصوب مثله ومنع من التنوين لكونه على صيغة منتهى الجمع (طيّبة) نعت لمساكن منصوب (في جنّات) جارّ ومجرور نعت ثان لمساكن (عدن) مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (رضوان) مبتدأ مرفوع (من اللّه) جارّ ومجرور نعت لرضوان (أكبر) خبر مرفوع (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الفوز) خبر المبتدأ ذلك (العظيم) نعت للفوز

مرفوع مثله.

جملة: "وعد اللّه . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

---

(1) في الآية (68) من هذه السورة.

(2) أو متعلّق بمحذوف حال من الأنهار - نعت تقدّم على المنعوت - [. . . . .]

(165/345)

وجملة: "تجري . . . "في محلّ نصب نعت لجنّات.

وجملة: "رضوان . . . أكبر "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "ذلك الفوز . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

الصرف:

"طيّبة) ، مؤنّث طيّب جمعه طيّبات . . . انظر الآية (57) من سورة البقرة.

(عدن) ، مصدر استعمل صفة ، ولذا فهو يبقى مفردا مع المفرد والمثنّى والجمع وهو بمعنى إقامة وزنه فعل بفتح فسكون ، وثمّة مصدر آخر لفعل عدن يعدن باب نصر وباب ضرب هو عدون بضمّ العين.

[سورة التوبة (9) : آية 73]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)

الإعراب :

" يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (النبيّ) بدل من أيّ أو عطف بيان تبعه في الرفع لفظا (جاهد) فعل أمر ، والفاعل أنت ، وحرّك بالكسر لالتقاء الساكنين (الكفّار) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (المنافقين) معطوف على الكفّار منصوب وعلامة النصب الياء (الواو) عاطفة (اغلظ) مثل جاهد (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (اغلظ) ، (الواو) استئنافيّة " 1 " ، (مأوى) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة

---

(1) قال العكبريّ : إن قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء أشبه بهذا الموضع ففيه ثلاثة أجوبة : أحدها أنّها واو الحال والتقدير أفعل ذلك في حال استحقاقهم جهنّم وهي حال كفرهم ، والثاني أنّ الواو جيء بها تنبيها على إرادة فعل محذوف أي واعلم أنّ مأواهم ، والثالث أن الكلام محمول على المعنى وهو أنّه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد وعذاب الآخرة بجهنّم) اه .

المقدّرة على الألف و(هم) ضمير مضاف إليه (جهنّم) خبر مرفوع (الواو) عاطفة (بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذمّ (المصير) فاعل مرفوع ، والمخصوص بالذمّ محذوف تقديره هي أي جهنّم .

وجملة : " يأيها النبي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " جاهد . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " اغلظ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جاهد .

وجملة : " مأواهم جهنّم " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بئس المصير " لا محلّ لها معطوفة على جملة مأواهم جهنّم " 1 " .

[سورة التوبة (9) : آية 74]

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74)

الإعراب :

" يحلفون) مضارع مرفوع . . . والواو فاعل (بالله) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحلفون) ، (ما) نافية (قالوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل ، ومفعول قالوا محذوف أي ما بلغك عنهم من السبّ (الواو) استئنافيّة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق

(قالوا) مثل الأول (كلمة) مفعول به منصوب (الكفر) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (كفروا) مثل قالوا (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (كفروا) ،

---

(1) أو خبر مقدّم إن أعرب المخصوص مبتدأ .

(167/345)

(إسلام) مضاف إليه مجرور و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (همّوا) مثل قالوا (الباء) حرف جرّ (ما) اسم موصول " 1 " مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (همّوا) ، (لم) حرف نفي وجزم (ينالوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل . (الواو) استئنافيّة (ما نقموا) مثل ما قالوا (إلّا) أداة حصر (أن) حرف مصدريّ (أغنى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر و(هم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة مرفوع و(الهاء) مضاف إليه . (الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (يتوبوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (يك) مضارع مجزوم ناقص جواب الشرط وعلامة الجزم السكون على النون المحذوفة للتخفيف ، واسمه ضمير مستتر تقديره هو أي طلب التوبة (خيرا) خبر يكن منصوب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (خيرا) ،

(الواو) عاطفة (إن يتولّوا) مثل إن يتوبوا (يعذّب) مضارع مجزوم جواب الشرط الثاني و(هم) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عذابا) مفعول مطلق نائب عن المصدر لأنه ملاقيه في الاشتقاق منصوب (أليما) نعت منصوب (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعذّب) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (الآخرة) معطوف على النداي مجرور (الواو) عاطفة (ما) نافية (لهم) مثل الأول متعلّق بخبر مقدّم (في الأرض) جارّ ومجرور حال من (وليّ) - نعت تقدّم على المنعوت - (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف على وليّ

---

(1) أو نكرة موصوفة والعائد محذوف

تبعه في الجرّ لفظا .

جملة : "يحلفون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " ما قالوا "لا محلّ لها جواب القسم .

وجملة : " قالوا . . . (الثانية) "لا محلّ لها جواب القسم المقدّر .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " همّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة قالوا .

وجملة : " لم ينالوا " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " ما نقموا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

والمصدر المؤوّل (أن أغناهم) في محلّ نصب مفعول به عامله نقموا .

وجملة : " أغناهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " إن يتوبوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يك . . . " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " إن يتولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة إن يتوبوا .

وجملة : " يعذّبهم اللّه " لا محلّ لها جواب الشرط غير مقترنة بالفاء .

وجملة : " ما لهم . . . من وليّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة يعذّبهم .

البلاغة

تأكيد المدح بما يشبه الذم : في قوله تعالى وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ففيه تهكم وتأكيد الشيء بخلافه ، كقوله : ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم – البيت . والمقصود وما نقموا الإيمان لأجل شيء إلا لإغناء اللّه تعالى إياهم .

الفوائد

ورد في هذه الآية قوله تعالى وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ ونحن هنا بخصوص (من) حيث وردت زائدة ، والاسم بعدها (ولي) مجرور لفظا مرفوع محلا على أنه مبتدأ مؤخر ، وسنبيّن فيما يلي بعض أحكام (من) الزائدة :

1 - هناك ثلاثة شروط لزيادتها :

آ - أن يتقدمها نفي أو نهي أو استفهام بهل ، مثل قوله تعالى وَما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُها ما تَرى فِي خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ .

ب - تنكير مجرورها كما ورد في الأمثلة السابقة .

ج - ومجرورها يقع في محلّ رفع فاعل ، أو نصب مفعول به ، أو مبتدأ .

(169/345)

---

2 - القياس أنها لا تزاد في ثاني مفعولي ظن ، ولا ثالث مفعولات أعلم ، لأنهما في الأصل خبر ، وهي تدخل على المبتدأ كما علمنا .

[سورة التوبة (9) : آية 75]

وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75)

الإعراب :

" الواو) استئنافيّة (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (عاهد) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (اللام) موطئة للقسم (إن) حرف شرط جازم (آتى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف في محلّ جزم فعل الشرط و(نا) ضمير متصل في محلّ نصب مفعول به والفاعل هو (من فضل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آتى) ، و(الهاء) ضمير مضاف إليه (اللام) لام القسم (نصدّقنّ) مضارع مبنيّ على الفتح في محلّ رفع . . . و(النون) نون

---

(1) أو هي استئناف بيانيّ لا محلّ لها .

(170/345)

التوكيد ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (الواو) عاطفة (لنكوننّ) مثل لنصدّقنّ وهو ناقص ، واسمه ضمير مستتر تقديره نحن (من الصالحين) جارّ ومجرور متعلّق بخبر نكوننّ ، وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " منهم من . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عاهد . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " إن آتانا . . . " لا محلّ لها تفسير لمعنى عهد اللّه .

وجملة : " نصدّقنّ . . . " لا محلّ لها جواب القسم . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه جواب القسم .

وجملة : " نكوننّ " لا محلّ لها معطوفة على جملة نصدّقنّ .

الصرف :

" نصدّقنّ) ، فيه إدغام تاء التفعّل في الصاد ، وأصله نتصدقنّ ، وزنه نتفعّلن .

[سورة التوبة (9) : آية 76]

فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76)

الإعراب :

"

الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن معنى الشرط (آتاهم من فضله) مثل آتانا من فضله " 1 " ، (بخلوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (بخلوا) ، (الواو) عاطفة (تولّوا) ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . . والواو فاعل (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (معرضون) خبر مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " أتاهم " في محلّ جرّ مضاف إليه .

(1) في الآية السابقة (75) ، والفعل لا محلّ له .

(171/345)

وجملة : " بخلوا " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " تولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بخلوا .

وجملة : " هم معرضون " في محلّ نصب حال .

الفوائد

قصة ثعلبة :

اسمه ثعلبة بن حاطب ، وقد أورد المفسرون قصته ، ومفادها

أنه كان رجلا فقيرا ، وكان لا يبرح المسجد حتى لقب بحمامة المسجد ، وكان يقول لرسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) : ادع اللّه أن يرزقني مالا ، ولئن رزقني لأعطينّ كل ذي حق حقه ، فكان يقول له رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) : أما ترضى أن تكون مثلي ، والذي نفسي بيده ، لو شئت أن تسير معي الجبال ذهبا وفضة لسارت . ثم سأله فقال له : ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه فألح على النبي (صلى اللّه عليه وسلّم) فدعا له فقال اللهم ارزق ثعلبة مالا ، فاتخذ غنما فنمت بسرعة كما ينمو الدود ،

فضاقت عليه المدينة فتنحى ، فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمو كما ينمو الدود ، حتى ترك الجمعة ، فقال رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) ما فعل ثعلبة ؟ فأخبروه ، فقال : يا ويح ثعلبة . وأنزل اللّه جل ثناؤه خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها فبعث رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) رجلين لجباية الزكاة وقال لهما : مرّا بثعلبة وبفلان السلمي . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فأقرآه كتاب رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) وسألاه الصدقة ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ، ثم مرّا علي . فرجعا إليه ، فقال مثل مقالته الأولى ، فلما أتيا النبي (صلّ اللّه عليه وسلّم) قال لهما : يا ويح ثعلبة قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، لأنه (أعطى واتقى وصدّق بالحسنى) فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والسلمي ، فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية ولم يقبل منه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) ولا الخلفاء من بعده الصدقة ، حتى توفي في خلافة عثمان رضي اللّه عنه .

(172/345)

[سورة التوبة (9) : آية 77]

فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77)

الإعراب :

" الفاء) عاطفة (أعقب) فعل ماض و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو أي اللّه " 1 " ، (نفاقا) مفعول به ثان منصوب (في قلوب) جارّ ومجرور نعت لـ (نفاقا) ، و(هم) مضاف إليه (إلى يوم) جارّ ومجرور متعلّق بنعت ثان لـ (نفاقا) أي متّصل ، (يلقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (أخلفوا) فعل ماض وفاعله (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان (وعدوا) مثل أخلفوا و(الهاء) ضمير مفعول به .

والمصدر المؤوّل (ما أخلفوا) في محلّ جرّ بالباء – وهي للسببيّة – متعلّق بـ (أعقبهم) .

(الواو) عاطفة (بما كانوا) مثل بما أخلفوا . . والواو اسم الفعل الناقص (يكذبون) مثل يلقون .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بما تعلّق به المصدر الأول فهو معطوف عليه .

جملة : " أعقبهم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة بخلوا أو تولّوا " 2 " عطف المسبّب على السبب .

وجملة : " يلقونه " في محلّ جرّ مضاف إليه .

---

(1) يجوز أن يكون الضمير عائدا على البخل أي أورثهم البخل نفاقا متمكّنا في قلوبهم متّصلا إلى يوم يلقونه .

(2) في الآية السابقة (76) .

(173/345)

وجملة : " أخلفوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " وعدوه " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " كانوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) الثاني .

وجملة : " يكذبون " في محلّ نصب خبر (كانوا) .

الصرف :

(نفاقا) ، مصدر سماعي لفعل نافق الرباعيّ وزنه فعال بكسر الفاء . . . أما القياسيّ فهو المنافقة .

[سورة التوبة (9) : آية 78]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (78)

الإعراب :

" الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ التقريعيّ (لم) حرف نفي وجزم (يعلموا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل . ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (يعلم) مضارع مرفوع والفاعل هو (سرّ) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (نجواهم) معطوفة على سرّهم منصوب وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (أنّ اللّه) مثل الأول (علّام) خبر أنّ مرفوع (الغيوب) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه يعلم) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلموا .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه علّام . .) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول عطف تعليل أي ولأنّ اللّه . . .

وجملة : " لم يعلموا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يعلم . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

[سورة التوبة (9) : آية 79]

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79)

الإعراب :

"

(175/345)

الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (يلمزون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (المطّوّعين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء (من المؤمنين) جارّ ومجرور حال من المطّوّعين (في الصدقات) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يلمزون) على حذف مضاف أي في دفع الصدقات (الواو) عاطفة (الذين) معطوف على المطّوّعين في محلّ نصب (لا) نافية (يجدون) مثل يلمزون (إلّا) أداة حصر (جهد) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة (يسخرون) مثل يلمزون (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يسخرون) ، (سخر) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (منهم) مثل الأول متعلّق بـ (سخر) و(الواو) عاطفة (لهم) مثل منهم متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (عذاب)

مبتدأ مؤخّر مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع.

وجملة: "الذين يلمزون . . . "لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يلمزون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين).

وجملة: "لا يجدون . . . "لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني.

وجملة: "يسخرون منهم "لا محلّ لها معطوفة على جملة يلمزون.

---

(1) يجوز أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف تقديره هم.

(176/345)

وجملة: "سخر اللّه منهم . . . "في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين يلمزون) "1".

وجملة: "لهم عذاب . . . "في محلّ رفع معطوفة على جملة الخبر.

الصرف:

"المطّوّعين)، جمع المطّوّع، اسم فاعل من الخماسيّ تطوّع . . فيه إبدال تاء التفعّل طاء وأصله المتطوّع، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين.

[سورة التوبة (9): آية 80]

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا

بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80)

الإعراب :

"

استغفر) فعل أمر ، والفاعل أنت (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (استغفر) ، (أو) حرف للتخيير (لا) ناهية جازمة (تستغفر) مضارع مجزوم والفاعل أنت (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (تستغفر) ، (إن) حرف شرط جازم (تستغفر لهم) مثل الأول وهو فعل الشرط (سبعين) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب وعلامة النصب الياء فهو ملحق بجمع المذكّر (مرّة) تمييز منصوب (الفاء) رابطة لجواب الشرط (لن) حرف نفي ونصب (يغفر) مضارع منصوب (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لهم) مثل الأول متعلّق بـ (يغفر) ، (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، والإشارة إلى امتناع المغفرة لهم . . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل

---

(1) أو هي استئنافيّة إذا لم تكن خبرا ، أو كانت جملة يسخرون هي الخبر على زيادة : الفاء . . . أو هي تفسيريّة إذا أعرب (الذين يلمزون) مفعولا به لفعل محذوف يفسّره : سخر اللّه منهم .

و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (كفروا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ(كفروا) ، (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة مجرور و(الهاء) مضاف إليه (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (لا) نافية (يهدي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (القوم) مفعول به منصوب (الفاسقين) نعت للقوم منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " استغفر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا تستغفر . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " ان تستغفر لهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " لن يغفر اللّه . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " كفروا . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّهم كفروا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ .

وجملة : " اللّه لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها معنى التعليل .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

البلاغة

خروج الأمر والنهي عن معناهما الأصلي إلى معنى آخر وهو التسوية بين الأمرين : كما في قوله تعالى : أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً والبيت :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية أثقلت

كأنه يقول لها امتحني محلك عندي وقوة محبتي لك ، وعامليني بالاساءة والإحسان ، وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة أو محسنة . وكذلك معنى الآية استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه ، وهو من أبلغ الكلام .

[سورة التوبة (9) : آية 81]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81)

الإعراب :

" فرح) فعل ماض (المخلّفون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (بمقعد) جارّ ومجرور متعلّق

بـ (فرح) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (خلاف) ظرف زمان أو مكان منصوب متعلّق بالمصدر الميميّ مقعد "

(179/345)

، (رسول) مضاف إليه مجرور (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (كرهوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ والواو فاعل (أن) حرف مصدريّ (يجاهدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (بأموال) جارّ ومجرور بـ (يجاهدوا) ، و(هم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (أنفسهم) معطوف على أموال مجرور ومضاف إليه (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يجاهدوا) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (قالوا) مثل كرهوا (لا) ناهية جازمة (تنفروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . . والواو فاعل (في الحرّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تنفروا) " 2 " . (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (نار) مبتدأ

---

(1) يجوز أن يكون (خلاف) مصدر بمعنى المخالفة ، فهو حينئذ مفعول لأجله عامله فرح أو مقعد أي فرحوا لأجل مخالفتهم رسول اللّه أو بقعودهم لمخالفتهم له . أو هو مفعول مطلق

نائب عن المصدر لفعل دلّ عليه الكلام لأنّ مقعدهم تخلّف .

(2) أو بمحذوف حال من فاعل تنفروا أي كائنين في الحرّ .

(180/345)

مرفوع (جهنّم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (أشدّ) خبر مرفوع (حرّا) تمييز منصوب (لو) حرف شرط غير جازم (كانوا) ماض ناقص . .

والواو اسم كان (يفقهون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " فرح المخلّفون " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كرهوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

والمصدر المؤوّل (أن يجاهدوا) في محلّ نصب مفعول به عامله كرهوا .

وجملة : " يجاهدوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " لا تنفروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نار جهنّم أشد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " كانوا يفقهون " لا محلّ لها استئنافيّة .

(181/345)

وجملة : " يفقهون " في محلّ نصب خبر كانوا . . . وجواب الشرط محذوف تقديره ما تخلّفوا .

الصرف :

(المخلّفون) ، جمع المخلّف ، اسم مفعول من خلّف الرباعيّ ، وزنه مفعّل وزنه مفعّل بضمّ الميم وفتح العين .

(مقعد) ، مصدر ميمي من قعد ، وزنه مفعل بفتح الميم والعين .

(خلاف) ، إمّا مصدر خالف الرباعيّ ، فهو مصدر سماعيّ بمعنى المخالفة وزنه فعال بكسر الفاء ، أو اسم دالّ على الظرفية ، أو اسم مصدر لفعل تخلّف الخماسيّ .

(الحرّ) ، اسم منقول عن المصدر لفعل حرّ يحرّ باب نصر وباب ضرب وباب فتح ضدّ البرد ، وزنه فعل بفتح فسكون .

[سورة التوبة (9) : آية 82]

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82)

الإعراب :

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر " 1 " ، (اللام) لام الأمر (يضحكوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (قليلا) مفعول مطلق نائب عن المصدر " 2 " ، (الواو) عاطفة (ليبكوا كثيرا) مثل ليضحكوا قليلا (جزاء) مفعول لأجله منصوب عامله الضحك والبكاء " 3 " ، (الباء) حرف جرّ للسببيّة (ما) حرف مصدريّ (كانوا يكسبون) مثل كانوا يفقهون " 4 " .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (جزاء) .

جملة : " يضحكوا . . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن فرحوا وكروا وقالوا . . . فليضحكوا . . . " 5 " .

البلاغة

1 – الطباق : بين الضحك والبكاء وبين قليل وكثير فهو مقابلة . . .

2 – إخراج الخبر في صورة الأمر : للدلالة على تحتم وقوع المخبر به ، وذلك لأن صيغة الأمر للوجوب في الأصل والأكثر ، فاستعمل في لازم معناه ، وذلك في

---

(1) أو عاطفة لربط المسبّب بالسبب .

(2) أو ظرف زمان نائب عن لفظ الظرف الأصليّ أي زمنا قليلا .

(3) أو مفعول مطلق لفعل محذوف أي يجزون جزاء . [. . . . .]

(4) في الآية السابقة (81) .

(182/345)

---

(5) أو معطوفة على جملة فرح وما عطف عليها في الآية السابقة . . . وجملة قل . . . اعتراضيّة . قال أبو حيّان : الأمر بالضحك والبكاء في معنى الخبر والمعنى فسيضحكون قليلا ويبكون كثيرا . . .

قوله تعالى فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً .

3 - الكناية : في قوله تعالى فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً فالضحك كناية عن الفرح ، والبكاء كناية عن الغم ، وأن تكون القلة عبارة عن العدم ، والكثرة عبارة عن الدوام .

الفوائد

المنصوبات المتشابهة :

يرد أحيانا اسم منصوب في جملة يحتمل أكثر من وجه ، وهذا يؤدي أحيانا إلى الحيرة والاضطراب ، أو الخلاف . ولما كان لهذا الأمر شأن خطير ، فأحببنا أن نكشف عنه القناع ، فقد ورد في هذه الآية قوله تعالى فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا فإنه يجوز في إعراب قليلا نائب

مفعول مطلق والتقدير فليضحكوا ضحكا قليلا ، كما يجوز في إعرابها الظرفية الزمانية بتقدير زمنا قليلا ، وقد عقد ابن هشام فصلا لهذا الموضوع في المغني فقال :

1 – ما يحتمل نائب المفعول المطلق أو المفعول به ، مثل : ولا يظلمون نقيرا ، ثم لم ينقصوكم شيئًا .

2 – ما يحتمل أن يكون نائب مفعول مطلق أو ظرفا أو حالا : مثل سرت طويلا : أي سيرا طويلا ، أو زمنا طويلا ، أو سرته طويلا ، ومثله قوله تعالى وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ فغير تحتمل الأوجه الثلاثة التي ذكرناها .

3 – ما يحتمل نائب المفعول المطلق والحال : مثل : جاء زيد ركضا والتقدير يركض ركضا أو راكضا . ومثله قوله تعالى : ائْتِيا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قالَتا أَتَيْنا طائِعِينَ فجاءت الحال في قوله أَتَيْنا طائِعِينَ في موضع المصدر السابق ذكره ، وطوعا يجوز فيها : نائب مفعول مطلق ، أو حال حسب التقدير السابق . . .

(183/345)

---

4 – ما يحتمل نائب مفعول مطلق والحال أو المفعول لأجله : من ذلك قوله تعالى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً والتقدير فتخافون خوفا ، أو خائفين أو لأجل الخوف . ونقول جاء زيد رغبة

والتقدير : يرغب رغبة ، أو مجي ء رغبة ، أو راغبا ، أو للرغبة .

5 - ما يحتمل المفعول به والمفعول معه : مثل : أكرمتك وزيدا يجوز اعتبار (وزيدا) معطوف على المفعول به وهو الكاف ، ويجوز أن يكون مفعولا معه أي أكرمتك مع زيد ، ونستطيع اعتبار (زيدا) مفعولا به بإضمار فعل والتقدير أكرمتك وأكرمت زيدا .

[سورة التوبة (9) : آية 83]

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83)

الإعراب :

(184/345)

(الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (رجع) فعل ماض في محلّ جزم فعل الشرط و(الكاف) ضمير مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (إلى طائفة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رجع) ، (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لطائفة (الفاء) عاطفة (استأذنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ في محلّ جزم معطوف على رجع . . والواو فاعل و(الكاف) مثل الأول (للخروج) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استأذنوك) ، (الفاء) رابطة لجواب

الشرط (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لن) حرف نفي ونصب (تخرجوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (لن تخرجوا) ، وعلامة النصب الفتحة المقدّرة على ما قبل الياء ، و(الياء) ضمير مضاف إليه (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تخرجوا) ، (الواو) عاطفة (لن تقاتلوا معي) مثل لن تخرجوا معي (عدوّا) مفعول به منصوب (إنّ) حرف مشبّه بالفعل و(كم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (رضيتم) فعل ماض مبنيّ على السكون و(تم) فاعل (بالقعود) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رضيتم) ، (أوّل) مفعول مطلق نائب عن المصدر عامله القعود ، منصوب (مرّة) مضاف إليه

مجرور (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (اقعدوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (مع) مثل الأول متعلّق بـ (اقعدوا) " 1 " ، (الخالفين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

وجملة : " رجعك اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " استأذنوك " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " لن تخرجوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لن تقاتلوا . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة مقول القول .

وجملة: "إنّكم رضيتم . . . "لا محلّ لها تعليليّة.

وجملة: "رضيتم . . . "في محلّ رفع خبر إنّ.

وجملة: "اقعدوا . . . "في محلّ جزم جواب شرط مقدّر . . . أي إن رضيتم بالقعود أوّل مرّة فاقعدوا مع الخالفين في كلّ مرّة.

الصرف:

(الخالفين)، جمع المخالف، اسم فاعل من خلف الثلاثيّ، وزنه فاعل.

[سورة التوبة (9): الآيات 84 إلى 85]

وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85)

"2"

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة - أو عاطفة - (لا) ناهية جازمة (تصلّ)

---

(1) أو متعلّق بمحذوف حال من فاعل اقعدوا.

(2) هذه الآية الثانية تكرار وتأكيد للآية (55) من هذه السورة.

مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف حرف العلة ، والفاعل أنت (على أحد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (لا تصلّ) ، (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف نعت لـ (أحد) " 1 " ، (مات) فعل ماض ، والفاعل هو (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (لا تصلّ) ، (الواو) عاطفة (لا تقم على قبره) مثل لا تصل على أحد ، و(الهاء) مضاف إليه (إنّهم كفروا باللّه ورسوله) مرّ إعراب نظيرها " 2 " (الواو) عاطفة (ماتوا) مثل كفروا (الواو) حاليّة (هم فاسقون) مثل هم معرضون " 3 " .

وجملة : " لا تصلّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . . أو معطوفة على جملة إن رجعك اللّه . . . في الآية السابقة .

وجملة : " مات " في محلّ جرّ نعت لأحد .

وجملة : " لا تقم . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تصلّ .

وجملة : " إنّهم كفروا . . . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " كفروا . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " ماتوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة كفروا " 4 " .

وجملة : " هم فاسقون " في محلّ نصب حال .

(الواو) عاطفة (لا تعجب) مثل لا تصلّ وعلامة الجزم السكون و(الكاف) ضمير مفعول به (أموالهم) فاعل مرفوع و(هم) ضمير مضاف

---

(1) أو بمحذوف حال من فاعل مات أي مات حال كونه منهم أي منافقا .

(2) في الآية (80) من هذه السورة .

(3) في الآية (76) من هذه السورة .

(4) أو لا محلّ لها معطوفة على التعليليّة .

(186/345)

إليه (أولادهم) معطوف على أموالهم بالواو مرفوع (إنّما) كافّة ومكفوفة (يريد) مضارع مرفوع (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (يعذّب) مضارع منصوب و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هو (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعذّب) والباء للسببيّة (في الدنيا) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يعذّبهم) وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف .

والمصدر المؤوّل (أن يعذّبهم) في محلّ نصب مفعول به عامله يريد .

(الواو) عاطفة (تزهق) مثل يعذّب ومعطوف عليه (أنفس) فاعل مرفوع و(هم) مضاف إليه (وهم كافرون) مثل وهم فاسقون.

وجملة: "لا تعجبك أموالهم" لا محلّ لها معطوفة على جملة لا تصلّ . . .

وجملة: "إنّما يريد اللّه . . . "لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة: "يعذّبهم . . . "لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "تزهق أنفسهم" لا محلّ لها معطوفة على جملة صلة الموصول.

وجملة: "هم كافرون" في محلّ نصب حال.

الصرف:

(تصلّ)، فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجزم حذفت الياء لام الكلمة وزنه تفعّ.

البلاغة

المخالفة والفرق بين الألفاظ: في قوله تعالى وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ

(187/345)

إلخ وفي الآية التي سبق ذكرها وهي " فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ " وسر التكرار والحكمة فيه فهو أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه .

الفوائد

البراءة من المنافقين :

أمر اللّه تعالى رسوله (صلى اللّه عليه وسلّم) أن يبرأ من المنافقين ، وأن لا يصلي على أحد منهم إذا مات ، وأن لا يقوم على قبره ليستغفر له أو يدعو له ، لأنهم كفروا ، باللّه ورسوله وماتوا عليه ، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه ، وإن كان سبب نزول الآية في عبد اللّه ابن أبيّ رأس المنافقين – كما قال البخاري – فالعبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب .

و

قد روي بسبب نزول هذه الآية عن ابن عمر قال : لما توفي عبد اللّه بن أبي جاء ابنه عبد اللّه إلى رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) فسأله أن يعطيه قميصه عليه ، فقام رسول اللّه (صلّ اللّه عليه وسلّم) ليصلي عليه ، فقام عمر فأخذ بثوب رسول اللّه (صلّ اللّه عليه وسلّم) فقال : يا رسول اللّه تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه ؟ ! فقال رسول اللّه

(صلى اللّه عليه وسلّم) إنما خيّرني اللّه فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ وسأزيد على السبعين قال : إنه منافق ! قال : فصلى عليه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية . فما صلى بعده رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلّم) على منافق ولا قام على قبره حتى قبضه اللّه عز وجل .

[سورة التوبة (9) : آية 86]

(188/345)

وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذا) ظرف المستقبل متضمّن معنى الشرط متعلّق بـ (استأذنك) ، (أنزلت) فعل ماض مبنيّ للمجهول . . و(التاء) للتأنيث (سورة) نائب الفاعل مرفوع (أن) حرف تفسير " 1 " ، (آمنوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . . والواو فاعل (باللّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (آمنوا) ، (الواو) عاطفة (جاهدوا) مثل آمنوا (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (جاهدوا) ، و(رسول) مضاف إليه مجرور و(الهاء) مضاف إليه (استأذن) فعل

ماض و(الكاف) ضمير مفعول به (أولو) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو فهو ملحق بجمع المذكّر (الطول) مضاف إليه مجرور (منهم) مثل السابق " 2 " متعلّق بحال من (أولو الطول) ، (الواو) عاطفة (قالوا) فعل ماض وفاعله (ذر) فعل أمر و(نا) ضمير مفعول به والفاعل أنت (نكن) مضارع ناقص مجزوم جواب الطلب (مع القاعدين) مثل مع الخالفين " 3 " .

جملة : " أنزلت سورة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " آمنوا " لا محلّ لها تفسيريّة .

وجملة : " جاهدوا " لا محلّ لها معطوفة على التفسيريّة .

وجملة : " استأذنك أولو . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " قالوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب الشرط .

وجملة : " ذرنا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " نكن . " لا محلّ لها جواب شرط مقدّر غير مقترنة بالفاء .

الفوائد

الجزم بجواب الطلب .

ورد في هذه الآية قوله تعالى ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ فالفعل (نكن) فعل

---

(1) لأنّ فعل (أنزلت) فيه معنى القول دون حروفه . . . ويجوز أن يكون حرفا مصدريا ، والمصدر المؤوّل مجرور بباء محذوفة ، والجار والمجرور متعلّق بـ (أنزلت) .

(2) في الآية (84) من هذه السورة .

(3) في الآية (83) من هذه السورة .

(189/345)

مضارع ناقص ، يرفع الأول وينصب الثاني ، مجزوم بجواب الطلب . وهذا الأسلوب وارد عند العرب ويسبق الفعل المجزوم بطلب ، ويشتمل الطلب على فعل أمر كقولنا : ادرس تنجح ، أو مضارع مقترن بلام الأمر مثل لتزرع الخير تحصد الحمد ، أو مضارع مقترن بـ (لا) الناهية مثل (لا تدن من الأشرار تسلم) . والجزم بجواب الطلب يشبه الجزم بأدوات الشرط التي تجزم فعلين ، وعلى هذا نخرّج الأمثلة السابقة : إن تدرس تنجح ، إن تزرع الخير تحصد الحمد ، إن لم تدن من الأشرار تسلم . ولا يجوز أن نقول : لا تدن من الأشرار تؤذ لأنه يفسد المعنى ويصبح (إن لم تدن من الأشرار تؤذّ) كما أجاز النحويون أن اسم فعل الأمر يكون سببا لجزم المضارع بجواب الطلب ، واستدلوا بقول الشاعر عمرو بن الإطنابة :

وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

في هذا البيت الشاعر يخاطب نفسه ، ومعنى جشأت وجاشت أي اضطربت .

والشاهد فيه قوله (مكانك تحمدي) حيث جزم الفعل تحمدي بالطلب الذي هو (مكانك)

وهو اسم فعل أمر بمعنى اثبتي ، وجملة الطلب نقول فيها :

جواب الطلب لا محل لها من الاعراب .

[سورة التوبة (9) : آية 87]

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87)

الإعراب :

(رضوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . . والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (أن) حرف مصدريّ ونصب (يكونوا) مضارع ناقص منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو اسم يكون (مع الخوالف) مثل مع الخالفين " 1 " . (الواو) عاطفة (طبع) فعل ماض مبنيّ للمجهول (على قلوب) جارّ ومجرور في محلّ رفع نائب الفاعل و(هم) ضمير مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالمسبب (هم) ضمير منفصل

---

(1) في الآية (83) من هذه السورة .

مبتدأ (لا) نافية (يفقهون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يكونوا . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (رضوا) .

جملة : " رضوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة فيها تعليل لما سبق .

وجملة : " يكونوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " طبع على قلوبهم) لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : " هم لا يفقهون " لا محلّ لها معطوفة على جملة طبع على قلوبهم .

وجملة : " لا يفقهون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

الصرف :

(الخوالف) ، جمع الخالفة وهي المرأة المتخلّفة وهو مؤنّث خالف ، اسم فاعل من خلف الثلاثيّ وزنه فاعل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 88 إلى 89]

لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

الإعراب :

(لكن) حرف استدراك وحرك آخره بالكسرة لالتقاء الساكنين (الرسول) مبتدأ مرفوع (الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع معطوف على الرسول (آمنوا) مثل رضوا " 1 " (مع) ظرف منصوب متعلّق بـ (آمنوا) و(الهاء) ضمير مضاف إليه (جاهدوا)

مثل رضوا " 2 " ، (بأموال) جارّ ومجرور متعلّق بـ(جاهدوا) ، و(هم) مضاف إليه

(الواو) عاطفة (أنفسهم) معطوف على أموالهم مجرور ، ومضاف إليه

(1 ، 2) في الآية السابقة (87) .

(191/345)

(الواو) استئنافيّة (أولئك) اسم إشارة مبنيّ في محل رفع مبتدأ . . .

و(الكاف) حرف خطاب (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف

خبر مقدّم (الخيرات) مبتدأ مؤخّر مرفوع (الواو) عاطفة (أولئك) مثل الأول (هم) ضمير

فصل " 2 " ، (المفلحون) خبر المبتدأ أولئك .

جملة : " الرسول . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " جاهدوا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ .

وجملة : " أولئك لهم الخيرات " في محلّ لها استئنافيّة " 3 " .

وجملة : " لهم الخيرات " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أولئك) .

وجملة : " أولئك . . . المفلحون " لا محلّ لها معطوفة على جملة أولئك لهم . . .

(أعدّ) فعل ماض (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (لهم) مثل المتقدّم " 4 " متعلّق بـ (أعدّ) ، (جنّات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (تجري . . . العظيم) مرّ إعرابها " 5 " .

وجملة : " أعدّ اللّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ للفلاح.

وجملة : " تجري . . . " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " ذلك الفوز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجدول حـ 10 صـ 339.416 ﴾

---

(2) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (المفلحون) ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ أولئك .

[. . . . .]

(3) أو معطوفة على الاستئنافيّة لكن الرسول . .

(4) في الآية السابقة (88) .

(5) في الآية (72) من هذه السورة .

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة التوبة (9) : الآيات 38 إلى 40]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (39) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40)

اللغة :

(اثَّاقَلْتُمْ) أصله تثاقلتم فأبدلت التاء ثاء ثم أدغمت في الثاء ثم اجتلبت همزة الوصل توصلا للنطق بالساكن وأنشد الكسائي :

تولي الضجيع إذا ما اشتاقها خصرا عذب المذاق إذا ما اثّابع القبل

(الغار) الكهف ويجمع على أغوار وغيران ، وألفه منقلبة عن واو وغار حراء نقب في جبل ثور عن يمين مكة على مسيرة ساعة .

الاعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقدم إعرابها . (ما لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ) ما اسم استفهام مبتدأ ولكم خبر وإذا طرف مستقبل متعلق باثاقلتم وقيل فعل ماض مبني للمجهول ولكم جار ومجرور متعلقان به وانفروا فعل أمر وفاعل والجملة مقول القول وفي سبيل اللّه متعلقان بانفروا وجملة اثاقلتم حال وإلى الأرض متعلقان باثاقلتم ، والمعنى : أي شيء لكم من الأعذار حالة كونكم متثاقلين في وقت قول الرسول لكم انفروا أي اخرجوا إلى الجهاد في سبيل اللّه وكان ذلك في غزوة تبوك في سنة تسع بعد رجوعهم من الطائف وقد استنفروا في وقت عسرة وقحط وقيظ مع بعد الشقة وتكالب العدو فشق عليهم .

(أَرَضِيتُمْ بِالْحَياةِ الدُّنْيا مِنَ الْآخِرَةِ) الاستفهام للانكار والتوبيخ المقترنين بالتعجب ورضيتم فعل وفاعل وبالحياة جار ومجرور متعلقان برضيتم والدنيا صفة ومن الآخرة متعلقان بمحذوف حال أي بديلا

(194/345)

من الآخرة . (فَما مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ) الفاء الفصيحة وما نافية ومتاع مبتدأ والحياة مضاف إليه والدنيا صفة وفي الآخرة متعلقان بمحذوف حال أي محسوبا في جنب الآخرة وإلا أداة حصر وقليل خبر متاع ويجوز تعليق في الآخرة بقليل وقد سمى الشهاب " في " الداخلة على الآخرة قياسية أي بالقياس إلى الآخرة ولعمري ليس ببعيد . (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ) إن شرطية ولا نافية وتنفروا فعل الشرط ويعذبكم جوابه وعذابا مفعول مطلق وأليما صفة ويستبدل عطف على يعذبكم وقوما مفعول به وغيركم صفة ل " قوما " . (وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ولا تضروه عطف على يستبدل والواو فاعل والهاء مفعول به وشيئا مفعول مطلق أي شيئا من الضرر والله مبتدأ وقدير خبره وعلى كل متعلقان بقدير . (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) إن شرطية ولا نافية وقد أدغمتا كما تقدم وتنصروه فعل الشرط والفاء رابطة وجملة قد نصره الله جواب الشرط وقد علله الزمخشري تعليلا حسنا إذ قال : " فإن قلت كيف يكون قد نصره الله جوابا للشرط قلت فيه وجهان أحدهما إلا تنصروه في المستقبل فسينصر من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد فدل بقوله قد نصره الله على أنه ينصره في المستقبل كما نصره في ذلك الوقت ، والثاني أنه أوجب له النصرة وجعله منصورا في ذلك الوقت فلن يخذل من بعده ، واتفق المفسرون على أن الجواب

محذوف لأن غزوة تبوك في التاسعة ، وقوله إذ أخرجه الذين كفروا قبل ذلك بكثير وقالوا فقد نصره اللّه بمثابة تعليل للجواب المحذوف وهذا قريب من قول الزمخشري الأول . (

(195/345)

إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الْغارِ) الظرف متعلق بنصره اللّه وجملة أخرجه في محل جر باضافة الظرف إليها والذين فاعل وجملة كفروا صلة

وثاني اثنين حال من الهاء في أخرجه والتقدير إذ أخرجه الذين كفروا حال كونه منفردا عن جميع الناس إلا أبا بكر ، واثنين مضاف إليه وإذ بدل من إذ الأولى أي فيفرض زمن إخراجه ممتدا بحيث يصدق على زمن استقرارهما في الغار وزمن القول المذكور فهو بدل بعض من كل ، وهما مبتدأ وفي الغار خبر والجملة في محل جر بإضافة الظرف إليها .

(إِذْ يَقُولُ لِصاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا) إذ بدل أيضا وجملة لا تحزن مقول القول وجملة إن اللّه معنا تعليلية وإن واسمها والظرف متعلق بمحذوف خبرها . (فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها) الفاء عاطفة وأنزل اللّه سكينته فعل وفاعل ومفعول به وعليه متعلقان بأنزل وأيده عطف على أنزل وبجنود جار ومجرور متعلقان بأيده وجملة لم تروها صفة لجنود (وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيا) الواو عاطفة أيضا

وجعل فعل ماض وفاعله مستتر يعود على اللّه وكلمة مفعول به والذين مضاف إليه وجملة كفروا صلة والسفلى مفعول به ثان لجعل وكلمة الواو حالية وكلمة اللّه مبتدأ وهي ضمير فصل أو مبتدأ والعليا خبر كلمة أو خبر هي والجملة خبر كلمة. (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) اللّه مبتدأ وعزيز حكيم خبراه.

[سورة التوبة (9) : الآيات 41 إلى 43]

(196/345)

انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ وَلكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (42) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ (43)

اللغة:

(خِفافاً وَثِقالًا) اختلفت عبارات المفسرين فيهما ولكنها ترجع إلى منبع واحد، أي انفروا على الصفة التي يخفّ عليكم فيها الجهاد، وعلى الصفة التي يثقل عليكم فيها الجهاد، وهذان الوصفان من العموم والشمول بحيث تندرج تحتهما جميع الأقسام وستأتي قصة

والي حمص في باب الفوائد .

(عَرَضاً) العرض ما عرض لك من منافع الدنيا ومتاعها ومن أقوالهم : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر .

(قاصِداً) : السفر القاصد هو الوسط المقارب .

(الشُّقَّةُ) : المسافة الشاطة الشاقة .

الاعراب :

(انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) انفروا فعل أمر مبني على حذف النون والواو فاعل وخفافا وثقالا حالان وجاهدوا عطف على انفروا وبأموالكم جار ومجرور متعلقان بجاهدوا وأنفسكم عطف على بأموالكم وفي سبيل اللّه جار ومجرور متعلقان بجاهدوا أيضا . (ذِلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ذلكم مبتدأ أي المذكور من الأمرين وهما انفروا وجاهدوا وخير خبر ولكم

(197/345)

متعلقان بخير وإن شرطية وكنتم فعل الشرط وجملة تعلمون خبر كنتم وجواب الشرط محذوف أي فجاهدوا أو فلا تثاقلوا . (لَوْ كانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قاصِداً لَاتَّبَعُوكَ) لو

شرطية امتناعية وكان عرضا كان واسمها مستتر تقديره الشأن أي ما دعوا إليه وعرضا خبرها ، وسفرا قاصدا عطف عليه ، لاتبعوك : اللام واقعة في جواب لو واتبعوك فعل وفاعل ومفعول به والجملة لا محل لها . (وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ) الواو حالية ولكن حرف استدراك مهمل للتخفيف وبعدت عليهم الشقة فعل وفاعل وعليهم متعلقان ببعدت والجملة حالية . (وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنا لَخَرَجْنا مَعَكُمْ) الواو استئنافية والسين للاستقبال وبالله متعلقان بيحلفون وجملة لو استطعنا جواب القسم وجملة لخرجنا جواب لو ولك أن تجعل جملة لو استطعنا مقول قول محذوف منصوب على الحال أي قائلين فتكون لخرجنا سادّة مسد القسم والشرط جميعا ومعكم ظرف متعلق بخرجنا . (يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ) جملة يهلكون أنفسهم بدل من سيحلفون أو حال أي مهلكين وأنفسهم مفعول به والله مبتدأ وجملة يعلم خبر وان واسمها وخبرها سدت مسد مفعولي يعلم . (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) جملة دعائية قدم " عفا " فيها في معرض المعاتبة تليينا لقلب الرسول ورأفة به وقد أخطأ الزمخشري إذ فسره بقوله : أخطأت وبئس ما فعلت ، ولقد أحسن من قال في هذه الآية إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب ولو قال له ابتداء لم أذنت لهم لتفطر قلبه . ولم : اللام حرف جر دخل على ما الاستفهامية فحذف ألفها وقد تقدم حكمها وكلتا اللامين متعلقة بالإذن لاختلافهما في

المعنى ، فالأولى للتعليل والثانية للتبليغ والضمير المجرور لجمع المستأذنين وتوجيه الإنكار إلى الإذن لشموله الجميع . (

(198/345)

حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكاذِبِينَ) حتى حرف

غاية وجر أي إلى أن يتبين لك من صدق في عذره ممن كذب فيه ولك متعلقان بيتبين والذين

فاعل وجملة صدقوا صلة وتعلم عطف على يتبين والكاذبين مفعول به .

الفوائد :

قصة والي حمص والدمشقي :

ونروي بصدد الجهاد والدعوة إلى الاستنفار القصة الرائعة التالية ونكتفي بها لأن مباحث

الجهاد والاستنفار مبسوطة في المطولات :

فعن صفوان بن عمر قال : كنت واليا على حمص فلقيت شيخا كبيرا قد سقط حاجباه

من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو فقلت :

يا عم لقد أعذر اللّه إليك فرفع حاجبيه وقال : يا ابن أخي استنفرنا اللّه خفافا وثقالا ، إلا

أن من يحبه اللّه يبتليه .

تكثير السواد وحفظ المتاع:

وعن الزهري: خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه فقيل له: انك عليل صاحب ضرر فقال: استنفرنا اللّه الخفيف والثقيل فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع.

[سورة التوبة (9): الآيات 44 إلى 47]

لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (44) إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (45) وَلَوْ أَرادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقاعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلاَّ خَبالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (47)

اللغة:

)

(199/345)

وَلَأَوْضَعُوا) أي لسعوا بينكم بالنمائم وإفساد ذات البين ، وأصل الإيضاع الإسراع .

الاعراب :

(لا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) الجملة استئنافية مسوقة لتقرير ما يستدل منه على أن المؤمنين ليس من عادتهم أن يستأذنوك في أن يجاهدوا ويستأذنك فعل مضارع ومفعول به والذين فاعل وجملة يؤمنون صلة وباللّه جار ومجرور متعلقان بيؤمنون واليوم الآخر معطوف على اللّه . (أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ) أن وما في حيزها منصوب بنزع الخافض أي في الجهاد وهو متعلق بيستأذنك وبأموالهم جار ومجرور متعلقان بيجاهدوا وأنفسهم عطف على أموالهم واللّه مبتدأ وعليم خبر وبالمتقين متعلقان بعليم .

(إِنَّما يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) إنما كافة ومكفوفة وما بعده تقدم إعرابه والمعنى إن الذين يستأذنون هم المترددون المتحيرون ، أما المستبصرون المؤمنون فهم مستقرون على ما عزموا عليه وما هو واجب عليهم ، وهذا من أرقى أفانين الأدب الواجبة الاحتذاء ، فانه لا يليق بالمرء أن يستأذن أخاه في أن يسدي إليه معروفا كما لا يليق بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه ، فإن الاستئذان في هذا الموطن دليل التكلف ، وخليق بذوي المروءة وأرباب الفتوة أن لا يتثاقلوا إذا ندبوا إلى أمر جدير بالمروءة قال طرفة :

إذا القوم قالوا من فتى خلت أنني عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

وقال آخر :

إن تبتدر غاية يوما لمكرمة تلق السوابق منا والمصلينا

وأشعارهم طافحة بذلك .

(وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ) عطف على لا يؤمنون وارتابت قلوبهم فعل وفاعل أي شكت في الدين ، فهم الفاء عاطفة وهم مبتدأ وفي ريبهم جار ومجرور متعلقان بيترددون وجملة يترددون خبر .

)

(200/345)

وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً) كلام معطوف أيضا ولك أن تجعله مستأنفا ولو شرطية وأرادوا الخروج فعل وفاعل ومفعول به واللام واقعة في جواب لو وأعدوا فعل وفاعل وله متعلقان بأعدوا وعدة مفعول به . (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ) الواو عاطفة على محذوف كأنه قيل ما خرجوا ولكن كره الله انبعاثهم . (فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) الفاء عاطفة وثبطهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به وقيل فعل ماض مبني للمجهول لأن القائل محتمل أن

يكون عائدا إلى اللّه ويحتمل أن يكون عائدا إلى ما ركز في أنفسهم من الشقاء وسوء المصير واقعدوا فعل أمر وفاعل ومع ظرف متعلق باقعدوا والقاعدين مضاف إليه وسيرد في باب البلاغة سر قوله مع القاعدين . (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ ما زادُوكُمْ إِلَّا خَبالًا) كلام مستأنف مسوق لتقرير المفاسد المترتبة على خروجهم وخرجوا فعل وفاعل وفيكم متعلقان بخرجوا وجملة ما زادوكم لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم وزادوكم فعل وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وخبالا مفعول به ثان والاستثناء هنا متصل لا منقطع لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير جنس المستثنى منه كقولك : ما زادوكم خيرا إلا خبالا والمستثنى منه غير مذكور في الآية وإذا لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء فكان استثناء متصلا لأن الخبال بعض أعمّ العام كأنه قيل ما زادوكم شيئا إلا خبالا ، والخبال الفساد والشر وذلك بتخذيل المؤمنين وإدخال الوهن في قلوبهم .

)

(201/345)

وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) ولأوضعوا معطوف على ما زادوكم واللام واقعة في جواب لو وخلالكم منصوب على الظرفية ومتعلق بأوضعوا أي سعوا بينكم بالنمائم

والإغراء ، وجملة يبغونكم حال من فاعل أوضعوا أي لأسرعوا فيما بينكم باغين فتنتكم ، والفتنة مفعول يبغونكم والكاف منصوب بنزع الخافض أي يبغون لكم الفتنة .

(وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) الواو للحال وفيكم خبر مقدم وسماعون مبتدأ مؤخر ولهم متعلقان بسماعون والمعنى وفيكم عيون لهم يتجسسون عليكم وينقلون إليهم أخباركم ويكشفون لهم خططكم ، والله مبتدأ وعليم خبر وبالظالمين متعلق بعليم .

البلاغة :

في الآية التميم بذكر مع القاعدين وعدم الاكتفاء بذكر اقعدوا ، لأنه لو اقتصر على الأمر لم يفد سوى القعود ، ولكنه أراد أن ينظمهم في سلك الزمنى والمرضى وأصحاب العاهات والمعتوهين والنساء والصبيان الذين من شأنهم الجثوم في البيوت بأنهم الموصوفون عند الناس بالتخلف والتقاعد والموسومون بسمة التلكو والجبانة . وسيرد المزيد من هذا الفن العجيب .

[سورة التوبة (9) : الآيات 48 إلى 51]

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ (48) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكافِرِينَ (49) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (50) قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلَّا ما كَتَبَ اللَّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (51)

الإعراب :

)

(202/345)

لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ) اللام جواب لقسم محذوف وابتغوا الفتنة فعل وفاعل ومفعول به ومن قبل متعلقان بابتغوا وبنيت على الضم لقطعها عن الإضافة لفظا لا معنى أي من قبل غزوة تبوك ، وقلبوا لك الأمور : عطف على ما سبقه وتقليب الإمر تصريفه على أوجه شتى لتدبير الحيلة والمكيدة ، ويقال للرجل المتصرف في وجوه الحيل : حول وقلب . (حَتَّى جاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كارِهُونَ) حتى حرف غاية وجر أي واستمروا على تقليب الأمور وحوك الدسائس وتبييت المكائد ، وجاء الحق فعل وفاعل وظهر أمر اللّه فعل وفاعل أيضا وهم كارهون الواو للحال وهم كارهون مبتدأ وخبر والجملة نصب على الحال . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي) الواو عاطفة ومنهم خبر مقدم ومن موصول مبتدأ مؤخر وجملة يقول صلة وائذن فعل أمر ولي جار ومجرور متعلقان به والواو عاطفة ولا ناهية وتفتني مجزوم بلا والنون للوقاية والياء

مفعول به . (أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا) ألا أداة تنبيه وفي الفتنة متعلقان بسقطوا وجمع الضمير والقائل واحد مراعاة للمعنى . (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) الواو عاطفة وان واسمها واللام المزحلقة ومحيطة خبر إن وبالكافرين متعلقان بمحيطة ، والكلام معطوف على الجملة السابقة داخل في نطاق التنبيه . (إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ) إن شرطية وتصبك فعل الشرط والكاف مفعول به وحسنة فاعل وتسؤهم جواب الشرط .

)

(203/345)

وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ) عطف على ما تقدم ومعنى أخذنا أمرنا أي تلافينا وتفادينا كل خطأ وأخذنا بأسباب الحيطة والحذر والتوقي والحزم . (وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ) ويتولوا عطف على يقولوا أي ويعرضوا عن مجلس النبي والواو للحال وهم فرحون مبتدأ وخبر والجملة الاسمية حالية من الضميرين في يقولوا ويتولوا لا من الأخير فقط لمقارنة الفرح لهما معا . (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا) جملة لن يصيبنا مقول القول وإلا أداة حصر وما فاعل وجملة كتب اللّه

لنا صلة أي قل لهم ذلك للإطاحة بما بنوا عليه مسرتهم وغبطتهم من اعتقاد مزيف (هُوَ

مَوْلانا) مبتدأ وخبر ، والجملة حال من اللّه (وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) الفاء للتعليل وعلى اللّه جار ومجرور متعلقان بيتوكل واللام لام الأمر ويتوكل مجزوم باللام والمتوكلون فاعل .

البلاغة :

المجاز المرسل في قوله تعالى " ألا في الفتنة سقطوا " والعلاقة الحالية أي في جهنم فأطلق الحال وأريد المحل لأن الفتنة لا يسقط فيها الإنسان لأنها معنى من المعاني وإنما يحل في مكانها فاستعمال الفتنة في مكانها مجاز أطلق فيه الحالّ وأريد المحل .

الفوائد :

روى التاريخ أن النبي صلى اللّه عليه وسلم لما تجهز إلى غزوة تبوك قال للجد بن قيس : يا أبا وهب هل لك في جلاد بني الأصفر ، وهم ملوك الروم ، فقال الجد : قد علمت الأنصار أني مستهتر بالنساء فلا تفتني ببنات الأصفر يعني نساء الروم ، ولكن أعينك بمالي فاتركني .

[سورة التوبة (9) : الآيات 52 إلى 54]

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (52) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فاسِقِينَ (53) وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسالى وَلا يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كارِهُونَ (54)

الاعراب :

(قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) هل حرف استفهام وتربصون فعل مضارع حذفت إحدى تاءيه أي تنتظرون وبنا متعلقان بتربصون وإلا أداة حصر وإحدى الحسنيين مفعول به . (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينا) الواو عاطفة أو حالية ونحن مبتدأ وجملة نتربص خبر وبكم متعلقان بنتربص وأن وما في حيزها مفعول به واللّه فاعل وبعذاب متعلقان بيصيبكم ومن عنده صفة لعذاب أو بأيدينا عطف على من عنده أي بعذاب بأيدينا .

(فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) بالبناء للمجهول مضارع منصوب بلن ومنكم متعلقان بيتقبل وان واسمها وجملة كنتم قوما من كان واسمها وخبرها خبر إن وفاسقين صفة قوما (وَما مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ) الواو عاطفة وما نافية ، منعهم فعل ومفعول به وأن تقبل أن وما في حيزها مفعول منع

الثاني ومنهم متعلقان بتقبل ونفقاتهم نائب فاعل وإلا أداة حصر وأن وما في حيزها فاعل منع أي ما منعهم قبول نفقاتهم شيء من الأشياء إلا كفرهم وما عطف عليه . (وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى) الواو عاطفة ولا نافية ويأتون الصلاة فعل مضارع وفاعل ومفعول به وإلا أداة حصر وهم كسالى مبتدأ وخبر والواو للحال والجملة حالية .

(وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) عطف على ما تقدم .

البلاغة :

فن التعطف أو المشاركة :

وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر ، وهما مفترقتان كل لفظة منهما في طرف من الكلام وهو في قوله تعالى : " قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده فتربصوا إنا معكم متربصون " فقد أتى التعطف من صدر الآية في قوله : " تربصون بنا " ومن عجزها في قوله : " فتربصوا إنا معكم متربصون " مع تجنيس الازدواج ووقع مع التعطف مقابلة معنوية خرج الكلام فيها مخرج إيجاز الحذف فإن مقتضى البلاغة أن يكون تقدير ترتيب اللفظ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين : أن يصيبنا اللّه بعذاب من عنده أو بأيديكم ونحن نتربص بكم أن يصيبكم اللّه بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فحذف لتوخي الإيجاز تفسير الحسنيين

من الجملة الأولى ، وأثبت في الجملة الثانية فرارا من تكرار اللفظ وتكثيره ، كما حذف الحسنيين من الجملة الثانية استغناء بذكرها أولا ، فحصل في الآية التعطف والمقابلة والإيجاز والتفسير فاكتملت فيها أربعة أضرب من البديع وهذا هو السحر الحلال ، وإن من البيان لسحرا .

[سورة التوبة (9) : الآيات 55 إلى 60]

(206/345)

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ (58) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ (59)

إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (60)

اللغة :

(تُعْجِبْكَ) الإعجاب بالشيء أن يسرّ به سرور راض به متعجب

من حسنة . والمعنى فلا تستحسن ولا يستهويك ما أوتوا من زينة الدنيا وبهارجها ، وفي

المصباح : ويستعمل التعجب على وجهين : أحدهما ما يحمده الفاعل ومعناه الاستحسان

والإخبار عن رضاه به ، والثاني ما يكرهه ومعناه الإنكار والذم له ، ففي الاستحسان يقال

: أعجبني ، وفي الذم والإنكار : عجبت وزان تعبت .

(يَفْرَقُونَ) يخافون ، وفي المختار : فرق فرقا من باب تعب خاف ويتعدى بالهمزة فيقال

أفرقته .

)

(207/345)

مَغاراتٍ) جمع مغارة وهي المكان المنخفض في الأرض أو في الجبل . والغور بالفتح من كل

شيء قعره ، والغور المطمئن في الأرض ، وغار الرجل غورا أتى الغور وهو المنخفض من

الأرض ، وأغار بالألف مثله ، والغار والمغار والمغارة كالكهف في الجبل ، والكهف كالبيت

في الجبل والجمع كهوف ، ثم انظر إلى الدقة في الترتيب مما يتناهى فيه نظم الكلام إلى أسمى

الحدود ، ذكر أولا الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان ثم ذكر الغيران التي يختفى فيها في أعلى الأماكن وهي الجبال ، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة وهي التي عبر عنها بالمدخل .

(يَجْمَحُونَ) يسرعون إسراعا لا يردهم شيء ، من الفرس الجموح وهو الذي إذا حمل لم يرده اللجام ، وفي المصباح : جمح الفرس براكبه يجمح بفتحتين من باب خضع جماحا بالكسر وجموحا استعصى حتى غلبه فهو جموح بالفتح وجامح يستوي فيه المذكر والمؤنث .

(يَلْمِزُكَ) يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك وفي المصباح :

" لمزه لمزا من باب ضرب عابه وقرأ بها السبعة ، ومن باب قتل لغة ، وأصله الإشارة بالعين ونحوها " فهو أخص من الغمز إذ هو الإشارة

بالعين ونحوها سواء أكان على وجه الاستنقاص أولا ، وأما اللمز فهو خاص بكونه على وجه العيب ، وفي المصباح : غمزه غمزا من باب ضرب أشار اليه بعين أو حاجب .

الاعراب :

)

فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ) الفاء عاطفة وسيأتي سر استعمالها ولا ناهية وتعجبك مضارع مجزوم بلا الناهية والفاعل مستتر تقديره أنت ، والخطاب وإن كان منصرفا إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم إلا أن المراد به جميع المؤمنين ، وأموالهم فاعل ولا أولادهم عطف عليه (إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا) إنما كافة ومكفوفة ويريد اللّه فعل مضارع وفاعل واللام للتعليل ويعذبهم منصوب بأن مضمرة وأورد اللام للتقوية والأصل يريد أن يعذبهم ، وبها متعلقان بيعذبهم وفي الحياة الدنيا حال . (وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ) عطف " تزهق " على " ليعذبهم " وأنفسهم فاعل والواو حالية وهم مبتدأ وكافرون خبر .

(وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَما هُمْ مِنْكُمْ) الواو استئنافية ويحلفون فعل مضارع وفاعل وباللّه جار ومجرور متعلقان بيحلفون وإن واسمها واللام المزحلقة ومنكم خبرها والواو للحال وما نافية حجازية وهم اسمها ومنكم خبرها والجملة حالية (وَلكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ) الواو عاطفة ولكن واسمها وقوم خبرها وجملة يفرقون صفة .

(لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغاراتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ) لو شرطية ويجدون ملجأ فعل مضارع وفاعل ومفعول به أو مغارات أو مدخلا معطوفان على ملجأ . لولوا اللام واقعة في جواب لو وإليه

(209/345)

متعلقان بولوا وهم الواو للحال وهم مبتدأ وجملة يحجمون خبر والجملة حالية وجملة لولوا لا محل لها . (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ) الواو عاطفة ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يلمزك صلة وفي الصدقات جار ومجرور متعلقان بيلمزك . (فَإِنْ أُعْطُوا مِنْها رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْها إِذا هُمْ يَسْخَطُونَ) الفاء عاطفة وإن شرطية وأعطوا فعل ماض مبني للمجهول في محل جزم فعل الشرط ومنها في محل نصب مفعول به ثان لأن الواو وهي نائب الفاعل مفعوله الأول وإن لم يعطوا منها عطف على الجملة الأولى وإذا فجائية وهم مبتدأ وجملة يسخطون خبر وجملة إذا هم يسخطون في محل جزم جواب الشرط لأن " إذا " تخلف الفاء (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ) أن وما في حيزها فاعل لفعل محذوف أي لو ثبت رضاهم ، وما مفعول به وجملة آتاهم اللّه ورسوله صلة . (وَقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ) حسبنا مبتدأ واللّه خبر أو بالعكس والجملة مقول القول ، سيؤتينا اللّه فعل مضارع ومفعول به وفاعل ومن فضله جار ومجرور متعلقان بيؤتينا ورسوله عطف على اللّه . (إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ) إن واسمها والى اللّه جار ومجرور متعلقان براغبون وراغبون خبر إنا . (إِنَّمَا الصَّدَقاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَساكِينِ وَالْعامِلِينَ عَلَيْها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ) إنما كافة ومكفوفة وهي للقصر قصرت الصدقات على الأصناف المعدودة والصدقات مبتدأ وللفقراء خبر والمساكين عطف على الفقراء والعاملين عليها عطف

أيضا وأراد بهم السعاة الذين يقبضونها من جاب وقاسم وكاتب وحاشر وحاسب ، والمؤلفة قلوبهم عطف على ما تقدم أيضا ، وقلوبهم نائب فاعل . (

(210/345)

وَفِي الرِّقابِ وَالْغارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ) وفي الرقاب معطوف على قوله للفقراء أي ومصروفة في الرقاب ولا بد من تقدير مضاف أي وفي فك الرقاب والغارمين عطف أيضا أي الذين فدحتهم

الديون إن استدانوا لغير معصية أو لإصلاح ذات البين وفي سبيل اللّه عطف أيضا أي القائمين بالجهاد وابن السبيل عطف أيضا وهو المنقطع فهو فقير حيث هو غني حيث ماله .

(فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) مفعول مطلق لفعل محذوف أي فرض اللّه ذلك فريضة ويجوز إعرابها حالا من الفقراء ومن بعدهم أي إنما الصدقات كائنة لهم حال كونها فريضة وهي فعيلة بمعنى مفروضة وإنما دخلتها التاء وحقها أن يستوي فيها المذكر والمؤنث لجريانها مجرى الأسماء كالنطيحة ، ومن اللّه صفة واللّه مبتدأ وعليم خبر أول وحكيم خبر ثان .

البلاغة :

مخالفة الحروف :

في قوله تعالى " إنما الصدقات للفقراء " إلى آخر الآية فن طريف من فنون البلاغة لطيف المأخذ ، دقيق المغزى ، قلّ من يتفطن إليه فقد عدل عن اللام إلى في ، في الأربعة الأخيرة وذلك لسرّ يخفى على المتأمل السطحي ، وهو أن الأصناف الأربعة الأوائل وهم الفقراء والمساكين والعاملون عليها والمؤلفة قلوبهم ملاك لما عساه يدفع إليهم فكان دخول اللام لائقا بهم ، وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلق بهم فالمال الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بتملكهم لما يصرف نحوهم

(211/345)

وإنما هم محالّ لهذا الصرف ، والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم وأما سبيل اللّه فواضح فيه ذلك ، وأما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل اللّه وإنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع أنه مجرد من الحرفين جميعا وعطفه على المجرور باللام ممكن ولكنه على القريب منه أقرب ، إذا تفرر

هذا تبين لك ما تميز به الأئمة الأربعة من رهافة ذوق وإصابة حدس في استنباط الأصول الفقهية من مخالفة الحروف ، ووجه آخر أشار اليه الزمخشري وذكره ابن الأثير في كتابه الممتع " المثل السائر " نلخصه فيما يلي :

إنما عدل عن اللام إلى " في " في الثلاثة الأخيرة للإيذان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره باللام لأن " في " للوعاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء ويجعلوا مظنة لها ، وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من التخليص والانقاذ ، وتكرير " في " في قوله " وفي سبيل اللّه " دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى الغارمين ، وسياق الكلام أن يقال :

وفي الرقاب والغارمين وسبيل اللّه وابن السبيل فلما جيء ب " في " مرة ثانيه وفصل بها بين الغارمين وبين سبيل اللّه علم أن سبيل اللّه أوكد في استحقاق النفقة فيه وهذه لطائف ودقائق لا توجد إلا في هذا الكلام الشريف .

الفوائد :

وفيما يلي فصل ممتع كتبه عالم جليل من علماء الأزهر نثبته لأصالته في الصدقات والزكوات قال :

" تدفع الزكاة لثمانية أصناف :

1 – الفقير : وهو الذي لا مال ولا كسب لائق يقع موقعا من كفايته بأن ينقص عن نصف ما

يحتاجه كمن يحتاج إلى عشرة لا يملك ولا يكسب إلا درهمين أو ثلاثة .

2- المسكين : من له مال أو كسب لا يكفيه كمن يحتاج إلى عشرة دراهم وعنده سبعة .

3- العاملين عليها : الساعين في تحصيلها كالكاتب لأموال الزكاة .

(212/345)

4- المؤلفة قلوبهم : وهم الذين أسلموا وإسلامهم ضعيف أو كان قويا ولكن يتوقع بإعطائهم إسلام غيرهم .

5- الرقاب : وهم المكاتبون من الأرقاء لغير المزكي كتابة صحيحة .

6- الغارم : وهو الذي تداين دينا لنفسه وحل الدين ولا قدرة له على وفائه وقصد صرفه في مباح أو صرفه فيه أو تداين لإصلاح ذات البين إن حل الدين ولم يوفه من ماله ولو كان غنيا ، أو تداين لضمان إن أعسر هو والمضمون .

7- وأهل سبيل اللّه : وهم الغزاة المتطوعون بالجهاد وإن كانوا أغنياء إعانة على الجهاد .

8- وابن السبيل : وهو المسافر سفرا مباحا من بلد الزكاة ولو مجتازا إلى وطنه أو غيره فيعطى من مال الزكاة ما يوصله إلى مقصده إن احتاج .

[سورة التوبة (9) : الآيات 61 إلى 63]

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (61) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (62) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (63)

اللغة :

(أُذُنٌ) بضمتين الجارحة المعروفة عضو السماع مؤنثة والجمع آذان ، وأذن الكوز عروته وتصغيرها أذينة ، وفلان أذن من الآذان إذا كان يسمع مقال كل أحد وتكون بلفظ واحد مع الجميع ويقال :

جاء لابسا أذنيه أي غافلا وسيأتي مزيد تفصيل عنها في باب البلاغة والفوائد .

(يُحادِدِ) يشاقق وفي القاموس وغيره : حادّه عاداه وغاضبه .

الاعراب :

)

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ) كلام مستأنف مسوق للحديث عن فرقة من المنافقين كما سيأتي في باب الفوائد ومنهم خبر مقدم والذين مبتدأ مؤخر وجملة يؤذون النبي صلة . (وَيَقُولُونَ : هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ) ويقولون عطف على يؤذون وجملة هو أذن من المبتدأ والخبر مقول القول وقل فعل أمر وأذن خبر والمبتدأ محذوف وخير مضاف إليه ولكم صفة . (يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) جملة يؤمن بالله تفسيرية لكونه أذن خير لهم ويؤمن للمؤمنين عطف على يؤمن بالله وعدى الإيمان إلى الله بالباء لتضمنه معنى التصديق ولموافقة ضده وهو الكفر في قوله " من كفر بالله " وعداه للمؤمنين باللام لتضمنه معنى الانقياد وموافقته لكثير من الآيات كقوله " وما أنت بمؤمن لنا " وقوله " أ فتطمعون أن يؤمنوا لكم " ويمكن أن يجاب بأنه عدى فعل الإيمان إلى الله بالباء وإلى المؤمنين باللام لأن إيمان الأمان من الخلود في النار وهو المقابل للكفر حقه أن يعدى بالباء وأما الايمان بمعنى التصديق والتسليم فانه يعدي باللام للتفرقة بينهما وإن كان حقه أن يعدى بنفسه كالتصديق حيث يقال صدقتك . ورحمة للذين آمنوا عطف على اذن خير وللذين آمنوا صفة لرحمة ومنكم حال من الضمير في آمنوا (وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) الذين مبتدأ وجملة يؤذون رسول الله صلة ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم صفة والجملة الاسمية خبر الذين . (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ) الجملة خبر ثان للذين

ولكم متعلقان بيحلفون واللام للتعليل ويرضوكم منصوب بأن مضمرة والواو فاعل والكاف مفعول به ولام التعليل ومجرورها متعلقان بيحلفون أيضا . (

(214/345)

وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ) الواو للحال والله مبتدأ ورسوله عطف على الله وأحق خبر مقدم وأن وما في حيزها مبتدأ مؤخر والجملة الاسمية خبر الله ووحد الضمير لتلازم الرضاءين وإفراد الضمير في يرضوه إما للتعظيم للجناب الإلهي بإفراده بالذكر ولكونه لا فرق بين إرضاء الله وإرضاء رسوله فإرضاء الله إرضاء لرسوله ، أو المراد الله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك كما قال سيبويه ورجحه النحاس ، أو لأن الضمير موضوع

موضع اسم الإشارة فإنه يشار به إلى الواحد والمتعدد ، أو الضمير راجع إلى المذكور وهو يصدق عليهما ، وقال الفراء : المعنى ورسوله أحق أن يرضوه والله افتتاح كلام كما تقول ما شاء الله وشئت . وإن شرطية وكانوا فعل الشرط ومؤمنين خبر كانوا والجواب محذوف أي فالله ورسوله أحق ، ويجوز أن يكون الكلام جملتين حذف خبر إحداهما لدلالة الثاني عليه والتقدير والله أحق أن يرضوه ورسوله كذلك . (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ)

الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعلموا مجزوم بلم وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلموا وأن واسمها ومن شرطية مبتدأ ويحادد فعل الشرط ولفظ الجلالة مفعوله ورسوله عطف على اللام . (فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذِلكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ) الفاء رابطة وإن حرف مشبه بالفعل وله خبرها المقدم ونار جهنم اسمها المؤخر وخالدا حال من الضمير المجرور باللام وفيها متعلقان بخالدا وجملة اسم الشرط وفعله وجوابه خبر انه الأولى وذلك مبتدأ والخزي خبره والعظيم صفة .

البلاغة :

المجاز المرسل :

(215/345)

في قوله تعالى " هو أذن " مجاز مرسل كما يراد بالعين الرجل إذا كان ربيئة لأن العين هي المقصودة منه فصارت كأنه الشخص كله ، وهو من إطلاق اسم الجزء على الكل للمبالغة والعلاقة تسمى الجزئية قال الشاعر :

كم بعثنا الجيش جرّا را وأرسلنا العيونا

وفي رد اللّه تعالى عليهم بقوله " قل أذن خير " إطماع لهم بالتسليم أولا ثم إيذان باليأس ثانيا

ولا شيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه يكر على طمعهم بعد الموافقة في الظاهر عليه بالحسم ويعقبه باليأس منه ، ويسمى " القول بالموجب " والموجب بكسر الجيم لأن المراد به الصفة الموجبة للحكم فهو اسم فاعل من أوجب ويحتمل فتح الجيم إن أريد بالقول الحكم الذي أوجبته الصفة فيكون اسم مفعول والمعنيان صحيحان ، وهو قسمان :

1- أن تقع صفة في كلام الآخر كناية عن شيء أثبت له حكم فتثبت في كلامك تلك الصفة من غير تعرض لثبوت ذلك الحكم وانتفائه عنه كقوله تعالى : " يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين " فالأعز صفة وقعت في كلام المنافقين كناية عن فريقهم والأذل كناية عن المؤمنين وقد أثبتوا لفريقهم ، المكنى عنه بالأعز ، الإخراج فأثبت الله تعالى في الرد عليهم صفة العزة لغير فريقهم وهو الله ورسوله والمؤمنون ولم يتعرض لثبوت ذلك الحكم الذي هو الإخراج للموصوفين بالعز ، أعني الله ورسوله والمؤمنين ولا لنفيه عنهم ومنه قول القبعثرى للحجاج لما توعده فقال :

لأحملنك على الأدهم يعني القيد فرأى القبعثرى أن الأدهم يصلح صفة للقيد والفرس فحمل كلامه على الفرس فقال مثل الأمير يحمل على الأدهم والأشهب فقال الحجاج : إنه أي الأدهم حديد فقال القبعثرى : لأن يكون حديدا خير من أن يكون بليدا فحمل الحديد على خلاف مراده أيضا .

2- حمل لفظ وقع في كلام الآخر على خلاف مراده بما يحتمله

يذكر متعلقه وقد شاع هذا الضرب على ألسنة الشعراء وتداولوه في أشعارهم كثيرا قال ابن حجاج :

قال : ثقلت إذ أتيت مرارا قلت : ثقلت كاهلي بالأيادي

قال : طوّلت قلت أوليت طولا قال : أبرمت قلت : حبل ودادي

وقد أوردنا في أواخر سورة الإنعام أبياتا لصفي الدين الحلي كرر فيها هذا الضرب ويصح حمل الآية الكريمة على هذا الضرب بذكر متعلق الأذن وهو خير .

الفوائد :

روى التاريخ أنه اجتمع ناس من المنافقين فيهم الجلاس بن سويد ووديعة بن ثابت فوقعوا في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وذموه ، وقال الجلاس بن سويد وهو بوزن غراب كما في القاموس : نقول ما شئنا ثم نأتيه فننكر ما قلنا ونحلف فيصدقنا فيما نقول فإنما محمد أذن ، وكان عندهم غلام يقال له عامر بن قيس فأتى النبي صلى اللّه عليه وسلم وأخبره فدعاهم وسألهم فأنكروا وحلفوا أن عامرا كذاب وحلف عامر أنهم كذبة فجعل عامر يدعو ويقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل اللّه هذه الآية .

[سورة التوبة (9) : الآيات 64 إلى 66]

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ (64) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (65) لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (66)

الاعراب :

)

(217/345)

يَحْذَرُ الْمُنافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِما فِي قُلُوبِهِمْ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما يضطرم في صدور المنافقين من حسد وعداوة للمؤمنين فهم يخشون أن تنزل عليهم تخبرهم بما تنطوي عليه نفوس المنافقين ، ولا تقل : إن الضمائر متفككة فما أسهل إرجاع كل ضمير إلى أصحابه ، ويحذر المنافقون فعل مضارع وفاعل وأن تنزل عليهم مفعول به ناصبه يحذر فإنه يتعدى بنفسه خلافا للمبرد الذي زعم أن حذر لا يتعدى ، وقال : انه من هيئات النفس كفزع والرد عليه من أوجه :

آ- ان ذلك غير لازم ولا مضطرد فكثير من هيئات النفس متعد كخاف وخشى .

ب- قوله تعالى : " ويحذركم اللّه نفسه " فلو لا أنه متعد في الأصل لواحد لما اكتسب بالتضعيف مفعولا ثانيا .

ج- أجمعت معاجم اللغة على أنه يتعدى بنفسه وبالحرف .

(218/345)

و عليهم متعلق بتنزل وسورة نائب فاعل وجملة تنبئهم صفة لسورة وبما في موضع المفعول الثاني لتنبئهم وفي قلوبهم متعلق بمحذوف صلة ما . (قُلِ اسْتَهْزِؤُا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرُونَ) استهزئوا فعل أمر يراد به التهديد وإن واسمها وخبرها وما موصول مفعول مخرج لأنه اسم فاعل وجملة تحذرون صلة ما . (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) مقول القول وجملة نخوض خبر كنا . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم وهو في محل جزم فعل الشرط وليقولن اللام واقعة في جواب القسم ويقولن فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه ثبوت النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو فاعل والنون المشددة للتوكيد وجملة إنما كنا نخوض ونلعب مقول القول وجملة نخوض خبر كنا . (قُلْ : أَبِاللَّهِ وَآياتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ) الهمزة للاستفهام الإنكاري التوبيخي وباللّه متعلقان بتستهزءون وآياته ورسوله عطف

على اللّه وكنتم تستهزئون كان واسمها والجملة الفعلية خبرها . (لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمانِكُمْ) لا ناهية وتعتذروا مضارع مجزوم بلا الناهية وقد حرف تحقيق وكفرتم فعل وفاعل وبعد متعلق بكفرتم وإيمانكم مضاف إليه . (إِنْ نَعْفُ عَنْ طائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طائِفَةً بِأَنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ)

إن شرطية ونعف فعل الشرط وعن طائفة متعلقان بنعف ومنكم صفة ونعذب جواب الشرط وطائفة مفعول به وبأنهم متعلقان بنعذب والباء للسببية وان واسمها وجملة كانوا مجرمين خبرها وكان واسمها وخبرها .

[سورة التوبة (9) : الآيات 67 إلى 69]

(219/345)

الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ (68) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوالاً وَأَوْلاداً فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاقِكُمْ كَما اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا أُولئِكَ حَبِطَتْ

أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (69)

اللغة :

(الخلاق) بفتح الخاء النصيب وهو ما خلق للإنسان أي قدر من خير .

الاعراب :

(الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) المنافقون مبتدأ والمنافقات عطف عليه وبعضهم مبتدأ ومن بعض خبر أي متشابهون كأبعاض الشيء الواحد . (يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) الجملة خبر ثان للمنافقون والأول هو الجملة

(220/345)

الاسمية وينهون عن المعروف عطف على الجملة السابقة ويقبضون أيديهم عطف أيضا وسيأتي معناها في باب البلاغة . (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ) نسوا اللّه فعل وفاعل ومفعول به فنسيهم عطف على نسوا وسيأتي بحث هذا المجاز المرسل ، وإن واسمها وهم مبتدأ ثان أو ضمير فصل والفاسقون خبر " هم " أو خبر إن والجملة الاسمية خبر إن . (وَعَدَ اللَّهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ) وعد اللّه المنافقين فعل وفاعل ومفعول والمنافقات عطف وكذلك الكفار ونار جهنم مفعول به ثان ، ووعد

يستعمل في الخير والشر (خالِدِينَ فِيها هِيَ حَسْبُهُمْ) خالدين حال من المفعول الأول وهي مبتدأ وحسبهم خبر والجملة حالية (وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذابٌ مُقِيمٌ) الواو عاطفة ولعنهم اللّه فعل ومفعول به وفاعل ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر ومقيم صفة. (كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً) الكاف اسم بمعنى مثل خبر لمبتدأ محذوف أي أنتم مثل الذين ويجوز أن تكون الكاف حرف جر والجار والمجرور خبرا للمبتدأ المقدر ومن قبلكم صلة الذين وكانوا أشد كان واسمها وخبرها ومنكم جار ومجرور متعلقان بأشد وقوة تمييز.

(وَأَكْثَرَ أَمْوالًا وَأَوْلاداً) عطف على أشد منكم قوة.

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ) الفاء عاطفة واستمتعوا فعل وفاعل وبخلاقهم متعلقان باستمتعوا.

(فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاقِهِمْ) عطف على ما تقدم.

)

كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاقِهِمْ) الكاف محلها النصب على المفعولية المطلقة والذين فاعل ومن قبلكم صلة الذين وبخلاقهم جار ومجرور متعلقان باستمتع (وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا) الكاف ومدخولها في محل نصب على المفعولية المطلقة. (أُولئِكَ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) أولئك مبتدأ وجملة حبطت خبر وأعمالهم فاعل وفي الدنيا

جار ومجرور متعلقان بحبطت . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ) مبتدأ وخبر وهم ضمير فصل أو مبتدأ ثان .

البلاغة :

في هذه الآيات فنون من البلاغة :

1- الكناية في قوله تعالى (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) كناية عن الشح والأصل في هذه الكناية أن المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء فقيل لمن منع وبخل قد قبض يده .

2- المجاز المرسل في قوله تعالى " نسوا اللّه فنسيهم " لأن النسيان هنا غير وارد فهو بالنسبة إليهم مسقط التكليف عنهم ، وهو بالنسبة إليه تعالى محال ، ولذلك لا بد من حمل الكلام على المجاز المرسل والعلاقة اللازمية فالمراد لازم النسيان وهو الترك أي أنهم أغفلوا ذكر اللّه فتركهم من رحمته وفضله أو يقال فيه فن المشاكلة لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على اللّه سبحانه وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة أي تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته وفضله .

3- التكرير في ترديد استمتعوا ، ذلك انه شبه حالهم بحال الأولين ففي التكرير تأكيد ومبالغة في ذم المخاطبين وتقبيح حالهم واستهجان أمرهم .

4- الاستعارة التصريحية في خضتم شبّه الباطل بماء وحذف المشبه وأبقى المشبه به وهو

الماء على طريق الاستعارة التصريحية التبعية .

5- التنكيت في قوله تعالى : " المنافقون والمنافقات " إلى آخر الآية ثم قوله بعد ذلك " والمؤمنون والمؤمنات " إلى آخر الآية فإن لقائل أن يقول : ما النكتة التي أوجبت وصف المنافقين والمنافقات بالتلاحم الشديد دون المؤمنين والمؤمنات بحيث لا يجوز التبديل في الخبرين فيجعل التلاحم بين المؤمنين وغيره بين المنافقين ؟ فيقال في الجواب :

(222/345)

لما كان المنافقون والمنافقات كلهم يهود وهم من بني إسرائيل كان اتصال بعضهم ببعض اتصال نسب أو ما نطلق عليه العنصرية والجنس ، ولما كان المؤمنون من شعوب متفرقة وأمم شتى كان اتصالهم اتصال سبب وهو جعل الإسلام بينهم من التحاب في اللّه والولاء فيه والتناحر في سبيله ، ومن ها هنا لم يجز التبديل بين الخبرين بأن يجعل اتصال النسب للمؤمنين واتصال السبب للمنافقين .

[سورة التوبة (9) : الآيات 70 إلى 72]

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)

اللغة :

)

الْمُؤْتَفِكَاتِ) مدائن قوم لوط وقيل قريات قوم لوط وهود وصالح وائتفاكهن انقلاب أحوالهن من الخير إلى الشر أو المنقلبات التي جعل اللّه عاليها سافلها ، ويقال : أفكه إذا قلبه وبابه ضرب ، ويقال :

أفكته فائتفك فهو مطاوعه أي قلبته فانقلب والمادة تدل على التحول والصرف .

(223/345)

(عَدْنٍ) إقامة ، وهي هنا علم على الجنة ، وأصلها من عدن القوم بالبلد أقاموا فيه ، وطال عدنهم فيه وعدونهم ، وفلان في معدن الخير والكرم ، وهو من مراكز الخير ومعادنه ، وعليه عدنيات أي ثياب كريمة وأصلها النسبة إلى عدن بفتحتين ، ومن أقوالهم : " مرت

جوار مدنيات عليهن رباط عدنيات " وكثر حتى قيل للرجل الكريم الأخلاق عدني كما قيل للشيء العجيب من كل فن عبقري ، قال ابن جابر المحاربي :

سرت ما سرت من ليلها ثم عرّست إلى عدنيّ ذي غناء وذي فضل

إلى ابن حصان لم تخضرم جدودها كريم النثا والخيم والعقل والأصل

الاعراب :

(أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويأتهم مجزوم بلم والهاء مفعول به ونبأ فاعل والذين مضاف إليه ومن قبلهم صلة (قَوْمِ نُوحٍ وَعادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْراهِيمَ وَأَصْحابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكاتِ) قوم بدل من الذين بدل بعض من كل وقوله وعاد إلى آخر المعطوفات كلها معطوفة على قوم نوح غير ان الأخير وهو المؤتفكات على حذف مضاف أي قريات قوم لوط وإنما اقتصر القرآن الكريم هذه الطوائف الست لأن آثارهم باقية وبلادهم بالشام واليمن والعراق وكل ذلك قريب من أرض العرب في شبه حزيرتهم فكانوا يعرجون بها ويتنسمون أخبار أهلها . (أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ) الجملة استئنافية لبيان أخبارهم وأحاديثهم ، ورسلهم فاعل .

)

فَما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) الفاء عاطفة وما نافية كان اللّه كان واسمها واللام للجحود ويظلمهم منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والجار والمجرور متعلقان بالخبر أي مريدا ليظلمهم ، ولكن الواو عاطفة ولكن مخففة مهملة وكان واسمها وأنفسهم مفعول مقدم ليظلمون وجملة يظلمون خبر كانوا وقدم المفعول به اهتماما به مع مراعاة الفاصلة . (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ) المؤمنون مبتدأ وبعضهم مبتدأ ثان وأولياء خبر والجملة خبر المؤمنون وقد مرت مقابلتها مع الإشارة إلى فن التنكيت بين الجملتين في الخبر .

(يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ) الجملة خبرية وقد تقدم إعرابها .

(وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ) عطف على ما تقدم . (وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) عطف أيضا . (أُولئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) أولئك مبتدأ وجملة سيرحمهم اللّه خبر وإن واسمها وخبراها .

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) وعد اللّه المؤمنين فعل وفاعل ومفعول به وجنات مفعول به ثان وجملة تجري صفة والأنهار فاعل ومن تحتها جار ومجرور متعلقان بتجري .

(خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ) خالدين فيها حال من المؤمنين ومساكن

عطف على جنات وطيبة صفة وفي جنات عدن صفة ثانية .

)

وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) مبتدأ ساغ الابتداء به لأنه وصف بقوله من اللّه وأكبر خبره ولم يسلكه في نظام الموعود به لأنه متحقق في ضمن كل موعود ولأنه قصارى ما ترقى إليه آمال النفوس . (ذِلكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) ذلك مبتدأ وهو مبتدأ ثان والفوز خبر هو والجملة خبر اسم الاشارة والعظيم صفة .

(225/345)

[سورة التوبة (9) : الآيات 73 إلى 74]

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73)
يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا وَما
نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ
عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (74)

الاعراب :

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ جاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنافِقِينَ) جاهد فعل أمر والكفار مفعول به والمنافقين

عطف (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) واغلظ عطف على جاهد أي لا تأخذك هوادة فيهم وحاربهم بالسيف وأقم زيفهم بالمنطق والحجة .

(وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) قال أبو البقاء في إعرابه : " إن قيل كيف حسنت الواو هنا والفاء أشبه بهذا الموضع ففيه ثلاثة أجوبة :

(226/345)

أحدها أن الواو واو الحال والتقدير افعل ذلك في حال استحقاقهم جهنم وتلك الحال حال كفرهم ونفاقهم . والثاني أن الواو جيء بها تنبيها على إرادة فعل محذوف تقديره واعلم أن جهنم مأواهم . والثالث أن الكلام قد حمل على المعنى ، والمعنى أنه قد اجتمع لهم عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة وعذاب الآخرة بجعل جهنم مأواهم " ولا حاجة إلى هذا كله لأن الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة لبيان مآل أمرهم بعد بيان عاجله ، وبئس المصير الواو عاطفة وبئس المصير فعل وفاعل والمخصوص بالذم محذوف للعلم به أي مصيرهم .

(يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ ما قالُوا) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما صدر عنهم من الأعمال المنكرة الموجبة للأمر بجهادهم والغلظة عليهم ، وباللّه جار ومجرور متعلقان بيحلفون وما نافية وقالوا فعل وفاعل وجملة ما قالوا جواب القسم .

(وَلَقَدْ قالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ) الواو عاطفة واللام جواب للقسم المحذوف وقالوا فعل وفاعل وكلمة الكفر مفعول قالوا ، قيل هي كلمة الجلاس بن سويد الآنفة الذكر وقد قيل هي كلمة عبد اللّه بن أبي بن سلول حيث قال : " لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل " ، وكفروا عطف على قالوا وبعد ظرف متعلق بكفروا (وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا) عطف على ما تقدم وبما متعلقان بهموا وجملة

(227/345)

لم ينالوا صلة وسيأتي نبأ هذا الهم وهو الفتك برسول اللّه في باب الفوائد . (وَما نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْناهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ) الواو عاطفة وما نافية ونقموا فعل وفاعل وإلا أداة حصر وأن وما في حيزها مفعول نقموا وأغناهم اللّه فعل ومفعول به وفاعل ورسوله عطف على اللّه ومن فضله متعلقان بأغناهم . (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ) الفاء عاطفة وإن شرطية ويتوبوا فعل الشرط ويك جواب الشرط مجزوم بالسكون على النون المحذوفة للتخفيف وقد تقدمت قاعدتها في خصائص كان ، واسم يك مستتر أي المتاب وخيرا خبر ولهم متعلقان ب " خيرا " . (وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ) الواو عاطفة وإن شرطية ويتولوا فعل الشرط ويعذبهم جواب الشرط والهاء مفعول به واللّه فاعل

وعذابا مفعول مطلق وأليما صفة وفي الدنيا متعلقان بيعذبهم والآخرة عطف على الدنيا .

(وَما لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) الواو عاطفة وما نافية ولهم خبر مقدم وفي الأرض حال ومن حرف جر زائد وولي مبتدأ مؤخر محلا ولا نصير عطف على ولي .

البلاغة :

في هذه الآية " وما نقموا إلا أن أغناهم اللّه ورسوله من فضله " تأكيد المدح بما يشبه الذم ، وقد تقدم مبحث هذا الفن في المائدة ، كأنه قال ليس له صفة تعاب وتكره إلا أنه ترتب على قدومه إليهم وهجرته عندهم إغناء اللّه إياهم بعد الخصاصة والفاقة وشدة الحاجة وهذه ليست صفة ذم فحينئذ ليس له صفة تذم أصلا .

الفوائد :

محاولة الفتك بالنبي (صلى اللّه عليه وسلم) :

(228/345)

روى التاريخ أنهم قرروا فيما بينهم الفتك بالنبي صلى اللّه عليه وسلم ليلة العقبة عند عوده من تبوك ، وهم بضعة عشر رجلا ، وقد اجتمع رأيهم على أن يدفعوه عن راحلته ليقع في الوادي فيموت ، فلما وصل إلى العقبة نادى مناديه بأمره : إن رسول اللّه يريد أن يسلك

العقبة فلا يسلكها أحد غيره ، واسلكوا يا معشر الجيش بطن الوادي فإنه أسهل لكم وأوسع ، فسلك الناس بطن الوادي ، وسلك النبي صلى اللّه عليه وسلم العقبة ، وكان ذلك في ليلة مظلمة ، فجاء المنافقون وتلثموا وسلكوا العقبة ، وكان النبي قد أمر عمار بن ياسر أن يأخذ بزمام ناقته ويقودها ، وأمر حذيفة أن يسوقها من خلفها فبينما النبي يسير في العقبة إذ غشيه المنافقون ، فنفرت ناقته حتى سقط بعض متاعه فصرخ بهم ، فولوا مدبرين وعلموا أنه اطلع على مكرهم فانحطوا من العقبة مسرعين إلى بطن الوادي ، واختلطوا بالناس ، فرجع حذيفة يضرب الناقة ، فقال له النبي : هل عرفت أحدا منهم ؟ قال : لا كانوا متلثمين ، والليلة مظلمة ، قال : هل علمت مرادهم ؟ قال : لا ، قال النبي : انهم مكروا وأرادوا أن يسيروا معي في العقبة فيزحمونني عنها وإن اللّه خبرني بهم وبمكرهم ، فلما رجع جمعهم ، وأخبرهم بما مكروا به فحلفوا باللّه ما قالوا ولا أرادوا . وهناك روايات أخرى لا تخرج عن هذا المعنى يرجع إليها في المطولات .

[سورة التوبة (9) : الآيات 75 إلى 80]

وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) فَلَمَّا آتاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (76) فَأَعْقَبَهُمْ نِفاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ (77) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80)

الإعراب :

(وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ) استئناف مسوق لبيان قصة ثعلبة بن حاطب وهو نموذج مجسّد للنفاق وسيأتي حديثه في باب الفوائد ، ومنهم خبر مقدم ومن موصول مبتدأ مؤخر وجملة عاهد اللّه صلة . (لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) اللام موطئة للقسم وإن شرطية وآتانا فعل ماض ونا مفعول به وهو فعل الشرط ولنصدقن جواب القسم وجواب الشرط محذوف واللام في لنصدقن واقعة في

جواب القسم ولا يمتنع الجمع بين القسم واللام الموطئة له . ولنكونن عطف على لنصدقن ومن الصالحين خبر نكونن والاسم مستتر تقديره نحن (فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) الفاء عاطفة ولما ظرفية حينية أو رابطة وآتاهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به ومن فضله جار ومجرور متعلقان بآتاهم وجملة بخلوا به لا محل لها وتولوا عطف على بخلوا والواو حالية وهم مبتدأ ومعرضون خبر . (فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ) الفاء عاطفة وأعقبهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به أول ونفاقا مفعول به ثان وفي قلوبهم صفة نفاقا أي متمكنا راسخا في قلوبهم والى يوم حال أي ممتدا وجملة يلقونه مضاف إليها الظرف . (بِما أَخْلَفُوا اللَّهَ ما وَعَدُوهُ وَبِما كانُوا يَكْذِبُونَ) الباء حرف جر للسببية وما مصدرية أي بسبب إخلافهم الله الوعد والله مفعول أخلفوا وما مصدرية وهي وما في حيزها مفعول أخلفوا وبما كانوا يكذبون عطف على ما تقدم مماثل له في الإعراب . (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) الهمزة للاستفهام الإنكاري ويعلموا مضارع مجزوم بلم وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلموا وسرهم مفعول يعلم ونجواهم عطف على سرهم وأن الله علام الغيوب أن واسمها وخبرها وهي معطوفة على أن الاولى (الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ) الذين في محل خبر لمبتدأ محذوف أي هم أو مبتدأ ويلمزون صلة والمطوعين مفعول به ومن المؤمنين حال وفي

الصدقات متعلقان بيلمزون أي يعيبونهم فيها .

)

(231/345)

وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ) عطف على الذين يلمزون وإلا أداة حصر وجهدهم مفعول يجدون . (فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ) عطف على يلمزون ومنهم متعلقان بيسخرون . (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) جملة سخر اللّه منهم خبر الذين ولهم خبر مقدم وعذاب مبتدأ مؤخر وأليم

صفة . (اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ) أمر يراد به الخبر كأنه قيل لن يغفر اللّه لهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وأو للتخيير والعطف ولا ناهية وتستغفر مجزوم بلا ولهم متعلقان بالفعل وسيأتي مزيد بحث عنه في باب البلاغة . (إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ) إن شرطية وتستغفر فعل الشرط ولهم متعلق بتستغفر وسبعين ظرف خلافا لأبي البقاء إذ أعربها مفعولا مطلقا ولكن ورود مرة بعدها وهي ظرف أكدت حتمية كونها ظرفا ومرة تمييز والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، قال علي بن أبي طالب :

لأصبحن العاصي وابن العاصي سبعين ألفا عاقدي النواصي

والفاء رابطة ولن حرف ناصب ويغفر منصوب بلن والله فاعل ولهم متعلق بيغفر . (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبر وأن وما في حيزها مصدر مجرور بالباء وجملة كفروا خبر أن وبالله متعلقان بكفروا ورسوله عطف على الله والله مبتدأ وجملة لا يهدي خبر والقوم مفعول به والفاسقين نعت .

البلاغة :

في قوله تعالى : " استغفر لهم أو لا تستغفر لهم " خروج الأمر والنهي عن معناهما الأصلي إلى معنى آخر وهو التسوية كقول كثير عزة :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلت

(232/345)

كأنه يقول لها امتحني محلك عندي وقوة محبتي لك وعامليني بالإساءة والإحسان وانظري هل يتفاوت حالي معك مسيئة أو محسنة وكذلك معنى الآية استغفر لهم أو لا تستغفر لهم وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه وهو من أبلغ الكلام .

الفوائد :

قصة ثعلبة بن حاطب :

1- وهذه قصة رائعة يتجسد فيها النفاق ونلخصها لطولها ولعل القارئ يرجع إليها في المطولات ، روى التاريخ أن ثعلبة بن حاطب سأل النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يدعو له أن يرزقه اللّه مالا ويؤدي منه كل ذي حق حقه فدعا له فوسع عليه وكان ثعلبة صحيح الإسلام في ابتداء أمره وكان ملازما لمسجد رسول اللّه حتى لقب بحمامة المسجد فلما تم له الرزق الوفير انقطع عن الجمعة والجماعة ومنع الزكاة إلى آخر تلك القصة الفريدة في التاريخ .

2- قاعدة هامة : قد يوضع الطلب موضع الخبر للرضاء بالواقع حتى كأنه مطلوب ، وعليه قول كثير :

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة لدينا ولا مقلية إن تقلّت

أي لا ملومة أنت لدينا ولا مبغوضة فذكر لفظ الأمر ثم عطف عليه بلفظ أو ، فالأمر يفيد الإساءة والمعنى على الإخبار أي نحن راضون بما تفعلين لا نلومك أسأت أم أحسنت ولا نبغضك إن أبغضت ففيه تنبيه على إظهار مزيد الرضا بكل ما اختارته عزة في حقه وتنبيه على عدم

تفاوت جواب كثير بتفاوت ما اختارت عزة وعليه الآية الكريمة الآنفة الذكر فإنه لا يتفاوت عدم غفران اللّه لهم بتفاوت استغفار الرسول عليه السلام وقوعا وعدم وقوع ، فإن

مقتضى المقام ها هنا هو الإخبار لا الأمر لأنه لا يصح أن يحمل ها هنا على حقيقة الأمر وهو طلب شيء مع ضده .

(233/345)

و قد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد وكأنه العدد بأسره ، وتوضيح هذا الكلام أن السبعة أول عدد كامل حيث جمعت العدد كله لأن العدد أزواج وأفراد ، فالأزواج والأفراد منها أول وثان فالاثنان أول الأزواج والأربعة زوج ثان والثلاثة أول الافراد والخمسة فرد ثان فإذا جمعت الزوج الأول مع الفرد الثاني أو الفرد الأول مع الزوج الثاني كانت سبعة ، وهذه الخاصة لا توجد في عدد قبل السبعة ، وقيل : إن العرب تبالغ

كَوُا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيراً)

الفاء الفصيحة واللام لام الأمر ويضحكوا مجزوم بها وقليلا مفعول مطلق أو ظرف زمان بمعنى ضحكا قليلا أو وقتا قليلا وليبكوا كثيرا عطف . (جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ)

جزاء مفعول لأجله أو مفعول مطلق لفعل محذوف وبما متعلق بجزاء أو بمحذوف صفة له وما مصدرية أو موصولة وكان واسمها وجملة يكسبون خبرها .

البلاغة :

1- الطباق بين الضحك والبكاء وبين قليل وكثير فهو مقابلة .

2- إخراج الخبر مخرج الإنشاء لأن معناه فسيضحكون قليلا وسيبكون كثيرا ولكنه أخرج الخبر مخرج الأمر للدلالة على أنه أمر حتمي لا بد منه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 83 إلى 85]

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83) وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85)

(234/345)

اللغة :

(رَجَعَكَ) ردّك اللّه إلى المدينة ورجع يستعمل لازما ومتعديا فاللازم من باب جلس والمتعدي من باب قطع ، ومعنى الرجع تصيير الشيء إلى المكان الذي كان فيه يقال رجعته

رجعا كقولك رددته ردّا .

الاعراب :

(فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ) الفاء تفريعية للأمر وإن شرطية ورجعك اللّه فعل ومفعول به وفاعل والفعل فعل الشرط والى طائفة متعلق برجعك وهم المنافقون ومنهم صفة فاستأذنوك عطف على رجعك وللخروج متعلق باستأذنوك . (فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً) الفاء رابطة لجواب الشرط ولن حرف نفي ونصب واستقبال وتخرجوا مضارع منصوب بلن والواو فاعل ومعي ظرف مكان متعلق بتخرجوا وأبدا ظرف زمان متعلق بتخرجوا أيضا . (وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا) عطف على لن تخرجوا وإعرابها مماثل لما تقدم (إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) إن واسمها وجملة رضيتم خبرها وبالقعود متعلق برضيتم وأول مرة ظرف زمان واستبعد أبو البقاء ذلك وقال : " ومرة مصدر كأنه قيل أول خرجة دعيتم إليها لأنها لم تكن أول خرجة خرجها الرسول للغزاة فلا بد من تقييدها إذ الأولية تقتضي السبق ، وقيل :

التقدير أول خرجة خرجها الرسول لغزوة الروم بنفسه ، وقيل : أول مرة قبل الاستئذان " فعلى هذا تعرب أول مرة مصدرا لمحذوف . (فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ) الفاء عاطفة واقعدوا فعل أمر والواو فاعل ومع ظرف متعلق باقعدوا أو بمحذوف حال من فاعل اقعدوا والخالفين مضاف اليه وهم المتخلفون فاللام للعهد ، وهم مجموعة الزمنى والنساء والأطفال

والمقعدون (وَلا تُصَلِّ عَلى

أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً)

(235/345)

الواو استئنافية ولا ناهية وتصلّ فعل مضارع مجزوم بلا وفاعله أنت وعلى أحد متعلق بتصل ومنهم صفة لأحد وجملة مات صفة ثانية وأبدا ظرف زمان متعلق بتصل . (وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ) عطف على ولا تصل وعلى قبره متعلقان بتقم . (إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ) إن واسمها وجملة كفروا خبرها وباللّه متعلق بكفروا ورسوله عطف عليه وماتوا عطف على كفروا والواو حالية وهم مبتدأ فاسقون خبر والجملة نصب على الحال وجملة إنهم تعليلية لا محل لها . (وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ) الواو عاطفة ولا ناهية وتعجبك مضارع مجزوم بلا والكاف مفعول به وأموالهم فاعل وأولادهم عطف على أموالهم . (إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا) إنما كافة ومكفوفة ويريد اللّه فعل مضارع وفاعل وأن وما في حيزها مفعول يريد والجملة تعليلية لا محل لها وبها متعلق بيعذبهم وفي الدنيا حال .

(وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ) وتزهق عطف على يعذبهم وأنفسهم فاعل والواو للحال

وهم مبتدأ وكافرون خبر والجملة حالية .

البلاغة :

المخالفة والفرق بين الألفاظ في قوله تعالى : " ولا تعجبك أموالهم وأولادهم " إلخ وفي الآية التي سبق ذكرها وهي " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد اللّه ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون " فأما سر التكرار والحكمة فيه فهو أن تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل أولا وتأكيده ، كأنما يريد أن يكون المخاطب به على بال ولا يغفل عنه ولا ينساه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم وإن أعيد

هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه ، وهو أن أشد الأشياء جذبا للقلوب واستهواء لها هو الاشتغال بالأموال والأولاد ، وما كان بهذه المثابة من التغرير والإغواء يجب التحذير منه مرة بعد مرة ، وأما سر سر المخالفة والفرق بين بعض ألفاظ الآيتين فنبين وجهه فيما يلي :

1 - قال تعالى في الآية الأولى " فلا تعجبك " بالفاء وقال هنا :

" ولا تعجبك " بالواو ، والفرق بينهما أنه عطف الآية الأولى على قوله : " ولا ينفقون إلا

وهم كارهون " وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق لشدة المحبة للأموال والأولاد فحسن العطف عليه بالفاء تعقيبا وترتيبا ، وأما هذه الآية فلا تعلق لها بما قبلها فلهذا أتى بالواو .

2- وقال تعالى في الآية الأولى : " فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم " وأسقط حرف لا في الثانية فقال " وأولادهم " والسبب أن حرف لا دخل هناك لزيادة التأكيد فيدل على أنهم كانوا معجبين بكثرة الأموال والأولاد وإعجابهم بأولادهم أكثر وفي إسقاط حرف لا هنا دليل على أنه لا تفاوت بين الأمرين .

3- وقال تعالى في الآية الأولى : " إنما يريد اللّه ليعذبهم " بحرف اللام وقال هنا : " أن يعذبهم " بحرف أن والفائدة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام اللّه محال وإنه وإن ورد فيه حرف اللام فمعناه " أن " كقوله : " وما أمروا إلا ليعبدوا اللّه " فإن معناه : وما أمروا إلا بأن يعبدوا اللّه .

4- وقال تعالى في الآية الأولى : " في الحياة الدنيا " وقال هنا :

" في الدنيا " والفائدة في إسقاط لفظ الحياة التنبيه على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة والمهانة إلى حيث أنها لا تستحق أن تذكر ولا تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيها على كمال ذمها .

[سورة التوبة (9) : الآيات 86 إلى 89]

وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

الإعراب :

(وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وأنزلت فعل ماض مبني للمجهول وسورة نائب فاعل ويجوز أن يراد بالسورة تمامها وأن يراد بعضها ، وأن مفسرة لأن في الانزال معنى القول دون حروفه ويجوز أن تكون مصدرية فتكون مع مدخولها في محل نصب بنزع الخافض أي بأن آمنوا ، وبالله جار ومجرور متعلقان بآمنوا ، وجاهدوا مع رسوله عطف على آمنوا بالله . (اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ) جملة استأذنك جواب إذا والكاف مفعول به وأولو الطول فاعل وهم الأغنياء وأصحاب البسطة في الجاه والقوة ، ومنهم حال . (وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ)

ذرنا فعل أمر أمات العرب ماضية فلم يأت منه إلا المضارع والأمر ، ونا مفعول به ونكن جواب الطلب فلذلك جزم واسم نكن ضمير مستتر تقديره نحن ومع القاعدين ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر نكن (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ) جملة رضوا استئنافية مسوقة لبيان سوء صنيعهم وبأن يكونوا متعلق برضوا والواو اسم يكونوا ومع الخوالف خبر .

(وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ) عطف على رضوا وعلى قلوبهم متعلق بطبع فهم الفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا يفقهون خبر . (لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) لكن مخففة مهملة والرسول مبتدأ والذين عطف عليه وجملة آمنوا صلة ومعه ظرف متعلق بآمنوا وجملة جاهدوا بأموالهم وأنفسهم خبر الرسول . (وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) أولئك مبتدأ ولهم خبر مقدم والخيرات مبتدأ مؤخر وجملة لهم الخيرات خبر أولئك ، وأولئك هم المفلحون عطف على ما تقدم وقد سبق إعرابها . (أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ) جملة مستأنفة لبيان مآلهم الطيب وأعد فعل ماض والله فاعله ولهم متعلق بأعد وجنات مفعول به وجملة تجري صفة . (خالِدِينَ فِيها ذلِكَ

الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) خالدين حال وفيها متعلق بخالدين وذلك مبتدأ والفوز العظيم خبره . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 99. 149 ﴾

(239/345)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/346)

الجزء السادس والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 90 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 97 ﴾ من نفس السورة

(4/346)

قوله تعالى ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ختم قصص أهل المدر بذم أولي الطول منهم بتخلفهم ، وكان ذمهم إنما هو لكونهم قادرين على الخروج في ذلك الوجه ، وقدمهم لكثرة سماعهم للحكمة ، وكان أهل الوبر أقدر الناس على السفر لأن مبنى أمرهم على الحل والارتحال ، فهم أجدر بالذم لأنهم في

غاية الاستعداد لذلك ، تلاهم بهم فقال : ﴿ وجاء المعذرون ﴾ أي المبالغون في إثبات الخفايا من الأعذار المانعة لهم من الجهاد - بما أشار إليه الإدغام ، وحقيقة المعذر أن يتوهم أن له عذراً ولا عذر له ، والعذر : إيساع الحيلة في وجه يدفع ما ظهر من التقصير ﴿ من الأعراب ﴾ قيل : هم رهط عامر بن الطفيل من بني عامر ، وقيل : اسد وغطفان ، قيل : رهط من غفار ﴿ ليؤذن ﴾ أي ليقع الإذن من أي آذن كان في تخلفهم عن الغزو ﴿ لهم ﴾ أي فاعتذروا بما كذبوا فيه وقعدوا عن الغزو معك ، هكذا كان الأصل فوضع موضعة : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ﴾ أي وهو المحيط علماً وقدرة ﴿ ورسوله ﴾ تنبيهاً على وصفهم وليكون أظهر في شمول الأعراب وغيرهم .

ولما كان منهم المحتوم بكفره وغيره قال : ﴿ سيصيب ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ الذين كفروا ﴾ أي حتم بكفرهم ﴿ منهم عذاب أليم ﴾ أي في الدارين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 373 . 374 ﴾

(5/346)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح أحوال المنافقين الذين كانوا في المدينة ابتدأ في هذه الآية بشرح أحوال المنافقين من الأعراب في قوله : ﴿ وَجَاء المعذرون ﴾ وقال : لعن الله المعذرين ، وذهب إلى أن المعذر هو المجتهد الذي له عذر ، والمعذر بالتشديد الذي يعتذر بلا عذر .

والحاصل : أن المعذر هو المجتهد البالغ في العذر ، ومنه قولهم : قد أعذر من أنذر ، وعلى هذه القراءة فمعنى الآية : أن الله تعالى فصل بين أصحاب العذر وبين الكاذبين ، فالمعذرون هم الذين أتوا بالعذر .

قيل : هم أسد وغطفان .

قالوا : إن لنا عيالاً وإنا بنا جهداً فائذن لنا في التخلف .

وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيء علينا ، فأذن رسول الله لهم .

وعن مجاهد : نفر من غطفان اعتذروا .

والذين قرؤوا ﴿ المعذرون ﴾ بالتشديد وهي قراءة العامة فله وجهان من العربية .

الوجه الأول : ما ذكره الفراء والزجاج وابن الأنباري : وهو أن الأصل في هذا اللفظ المعتذرون فحولت فتحة التاء إلى العين ، وأبدلت الذال من التاء ، وأدغمت في الذال التي بعدها ، فصارت التاء ذالاً مشددة .

والاعتذار قد يكون بالكذب ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 94] فبين كون هذا الاعتذار فاسداً بقوله : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ ﴾ وقد يكون بالصدق كما في قول لبيد :

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر . . يريد فقد جاء بعذر صحيح .

الوجه الثاني : أن يكون ﴿ المعذرون ﴾ على وزن قولنا : مفعلون من التعذير الذي هو التقصير .

يقال : عذراً تعذيراً إذا قصر ولم يبالغ .

يقال : قام فلان قيام تعذير ، إذا استكفيته في أمر فقصر فيه ، فإن أخذنا بقراءة الخفيف ، كان ﴿ المعذرون ﴾ كاذبين .

(6/346)

وأما إن أخذنا بقراءة التشديد ، وفسرناها بالمعتذرين ، فعلى هذا التقدير : يحتمل أنهم كانوا صادقين وأنهم كانوا كاذبين ، ومن المفسرين من قال : المعذرون كانوا صادقين بدليل أنه تعالى لما ذكرهم قال بعدهم : ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ فلما ميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا بكاذبين .

وروى الواحدي بإسناده عن أبي عمرو : أنه لما قيل له هذا الكلام قال : إن أقواماً تكلفوا عذراً بباطل ، فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَجَاء المعذرون ﴾ وتخلف الآخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جراءة على الله تعالى ، فهم المرادون بقوله : ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ والذي قاله أبو عمرو محتمل ، إلا أن الأول أظهر .

وقوله : ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا وما اعتذروا ، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان .

وقرأ أبي ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتشديد ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار ، وإنما قال : ﴿ مِنْهُمْ ﴾ لأنه تعالى كان عالماً بأن بعضهم سيؤمن ويتخلص عن هذا العقاب ، فذكر لفظة من الدالة على التبعيض . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 126 . 127 ﴾

(7/346)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاء المعذرون مِنَ الأعراب ﴾

قرأ ابن عباس ﴿ المعذرون ﴾ بالتخفيف وهكذا قرأ الحضرمي ، وقراءة العامة ﴿

المعذرون ﴾ بالتشديد فمن قرأ بالتخفيف يعني : الذين أعذروا وجاؤوا بالعذر ، ومن قرأ بالتشديد يعني : المعتذرين إلا أن التاء أدغمت في الذال لقرب المخرجين : يعني الذين يعتذرون كان لهم عذر أو لم يكن لهم .

وهذا قول الزجاج .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : وجاء ﴿ المعذرون ﴾ بالتخفيف وهم المخلصون أصحاب العذر وقال : لعن الله المُعْذِّرِين بالتشديد لأن المعذَّرين هم الذين يعتلُّون بلا علة ويعتذرون بلا عذر .

﴿ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ في التخلف ، ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ .

فمن قرأ بالتشديد يكون هذا نعتاً لهم ، ومن قرأ بالتخفيف يكون صنفين ويكون معناه : وجاء الذين لهم العذر ، وسألوا العذر ، وقعد الذين لا عذر لهم وهم الذين كفروا بالله ورسوله في السر .

ثم بيّن أمر الفريقين فقال : ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ، وهم الذين تخلفوا بغير عذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(8/346)

وقال الثعلبى :

﴿ وَجَآءَ المعذرون ﴾

قرأ ابن عباس وأبو عبد الرحمن والضحاك وحميد ويعقوب ومجاهد وقتيبة : المعذرون خفيفة ، ومنهم المجتهدون المبالغون في العذرة ، وقال الضحاك : " هم رهط عامر بن الطفيل تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم تبوك خوفاً على أنفسهم فقالوا : يا رسول الله إن نحن غزونا معك تُغِيرُ أعراب طيّ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم : قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنيني الله عنكم " .

قال ابن عباس : هم الذين تخلفوا بغير إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الميم لا تدغم في العين ، وقرأ مسلمة : المعذرون بتشديد العين والذال ولا وجه لها لأن الميم لا يدغم في العين لبعد مخرجيهما ، وقرأ الباقون : بتشديد الذال ، وهم المقصرون .

يقال : أعذر في الأمر بالمعذرة وعذر إذا قصر .

وقال الفراء : أصله المعتذر فأُدغمت التاء في الذال وقلبت حركة التاء إلى العين .

﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله ﴾ قراءة العامة بتخفيف الذال يعنون المنافقين ، وقرأ أُبي والحسن : كذبوا الله بالتشديد ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَجَآءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

فيها وجهان :

أحدهما : أنهم المعتذرون بحق اعتذروا به فعذروا ، قاله ابن عباس وتأويل قراءة من قرأها بالتخفيف .

والثاني : هم المقصرون المعتذرون بالكذب ، قاله الحسن وتأويل من قرأها بالتشديد ، لأنه إذا خفف مأخوذ من العذر ، وإذا شدد مأخوذ من التعذير ، والفرق بينهما أن العذر حق والعذير كذب .

وقيل إنهم بنو أسد وغطفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(9/346)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ الآية

اختلف المتأولون في هؤلاء الذى جاءوا هل كانوا مؤمنين أو كافرين ، فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد : كانوا مؤمنين وكانت أعذارهم صادقة ، وقرأ " وجاء المعْذرون " بسكون العين ، وهي قراءة الضحاك وحميد الأعرج وأبي صالح وعيسى بن هلال . وقرأ

بعض قائلي هذه المقالة " المعذّرون " بشد الذال ، قالوا وأصله المتعذرون فقلبت التاء ذالاً وأدغمت .

ويحتمل المعتذرون في هذا القول معنيين أحدهما المتعذرون بأعذار حق والآخر أن يكون الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا فيكون مثل قول لبيد : ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر . . . وقال قتادة وفرقة معه : بل الذين جاءوا كفرة وقولهم وعذرهم كذب ، وكل هذه الفرقة قرأ " المعذّرون " بشد الذال ، فمنهم من قال أصله المتعذرون نقلت حركة التاء إلى العين وأدغمت التاء في الذال ، والمعنى معتذرون بكذب ، ومنهم من قال هو من التعذير أي الذين يعذرون الغزو ويدفعون في وجه الشرع ، فالآية إلى آخرها في هذا القول إنما وصفت صنفاً واحداً في الكفر ينقسم إلى أعرابي وحضري ، وعلى القول الأول وصفت صنفين : مؤمناً وكافراً ، قال أبو حاتم : وقال بعضهم سألت مسلمة فقال " المعّذّرون " بشد العين والذال ، قال أبو حاتم : أراد المعتذرين والتاء لا تدغم في العين لبعد المخارج وهي غلط عنه أو عليه ، قال أبو عمرو : وقرأ سعيد بن جبير " المعتذرون " بزيادة تاء ، وقرأ الحسن بخلاف عنه وأبو عمرو ونافع والناس "كذَبوا " بتخفيف الذال ، وقرأ الحسن وهو المشهور عنه وأبي بن كعب ونوح وإسماعيل "كذّبوا " بتشديد الذال ، والمعنى لم يصدقوه تعالى ولا رسوله وردوا عليه أمره ، ثم توعد في آخر الآية الكافرين ب ﴿ عذاب أليم ﴾ ، فيحتمل أن يريد في الدنيا بالقتل والأسر .

(10/346)

ويحتمل أن يريد في الآخرة بالنار ، وقوله : ﴿ منهم ﴾ يريد أن المعذرين كانوا مؤمنين ويرجحه بعض الترجيح فتأمله ، وضعف الطبري قول من قال إن المعذرين من التعذير وأنحى عليه والقول منصوص ووجهه بين والله المعين ، وقال ابن إسحاق " المعذرون " نفر من بني غفار منهم خفاف بن إيماء بن رحضة .

قال القاضي أبو محمد : وهذا يقتضي أنهم مؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(11/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وجاء المعذِّرون ﴾

وقرأ ابن مسعود : "المعتذرون" .

وقرأ ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة ، وابن يعمر ، ويعقوب : "المُعْذِرون" بسكون العين

وتخفيف الذال .

وقرأ ابن السميفع : "المعاذرون" بألف .

قال أبو عبيدة : المعذِّرون من يعذِّر ، وليس بجادّ ، وإنما يعرِّض بما لا يفعله ، أو يُظهر غير ما في نفسه .

وقال ابن قتيبة : يقال : عذَّرتُ في الأمر : إذا قصَّرتَ ، وأعذرتُ : جَدَدْتَ .

وقال الزجاج : من قرأ "المعذِّرون" بتشديد الذال ، فتأويله : المعتذرون الذين يعتذرون ، كان لهم عذر ، أو لم يكن ، وهو هاهنا أشبه بأن يكون لهم عذر ، وأنشدوا :

إلى الحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلامِ عَلَيْكُما . . .

ومن يَبْكِ حوْلاً كاملاً فَقَدِ اعْتَذَرْ

أي : فقد جاء بعذر .

ويجوز أن يكون ﴿ المعذِّرون ﴾ الذين يعذِّرون ، يوهمون أن لهم عذراً ، ولا عذر لهم .

ويجوز في النحو : المِعذِّرون ، بكسر العين ، والمُعذِّرون ، بضم العين ، غير أنه لم يُقرأ بهما ، لأن اللفظ بهما يثقل .

ومن قرأ "المعْذرون" : بتسكين العين ، فتأويله : الذين أُعذروا وجاؤوا بعذر .

وقال ابن الأنباري : المعذِّرون هاهنا : المعتذرون بالعذر الصحيح .

وأصل الكلمة عند أهل النحو : المعتذرون ، فحوِّلت فتحة التاء إلى العين ، وأبدلت الذال

من التاء ، وأدغمت في الذال التي بعدها ، فصارتا ذالاً مشددة .

ويقال في كلام العرب : اعتذر : إذا جاء بعذر صحيح ، وإذا لم يأت بعذر .

قال الله تعالى : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾ فدل على فساد العذر ، وقال لبيد :

وَمَنْ يَبْكِ حَوْلاً كَاملاً فَقَد اعْتَذَر . . .

أي : فقد جاء بعذر صحيح .

وكان ابن عباس يقرأ : ﴿ المعذِّرون ﴾ ويقول : لعن الله المعذِّرين .

يريد : لعن الله المقصِّرين من المنافقين وغيرهم .

والمعْذرون : الذين يأتون بالعذر الصحيح ، فبان من هذا الكلام أن لهم عذراً على قراءة من خفف .

(12/346)

وهل يثبت لهم عذر على قراءة من شدد ؟ فيه قولان .

قال المفسرون : جاء هؤلاء ليؤذَن لهم في التخلُّف عن تبوك ، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقعد آخرون من المنافقين بغير عذر وإظهار علَّة ، جرأةً على الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب ﴾

قرأ الأعرج والضّحاك "الْمُعْذِرون" مخففاً .

ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم ، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس .

قال الجوهري : وكان ابن عباس يقرأ "وَجَاءَ المُعْذِرُون" مخففة ، من أعذر .

ويقول : والله لهكذا أنزلت .

قال النحاس : إلا أن مدارها عن الكلبي ، وهي من أعذر ؛ ومنه قد أعذر من أنذر ؛ أي قد بالغ في العذر من تقدّم إليك فأنذرك .

وأما "المعذّرون" بالتشديد ففيه قولان : أحدهما أنه يكون المحقّ ؛ فهو في المعنى المعتذر ، لأن له عذراً .

فيكون "المعذرون" على هذه أصله المعتذرون ، ولكن التاء قلبت ذالاً فأدغمت فيها وجعلت حركتها على العين ؛ كما قرىء "يَخَصّمون" بفتح الخاء .

ويجوز "المعِذّرون" بكسر العين لاجتماع الساكنين .

ويجوز ضمها اتباعاً للميم .

ذكره الجوهريّ والنحاس .

إلاَّ أن النحاس حكاه عن الأخفش والفراء وأبي حاتم وأبي عبيد .

ويجوز أن يكون الأصل المعتذرون ، ثم أدغمت التاء في الذال ؛ ويكونون الذين لهم عذر .

قال لَبيد :

إلى الحَوْل ثم اسم السلام عليكما . . .

ومن يَبْك حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر

والقول الآخر أن المعذِّر قد يكون غير محق ، وهو الذي يعتذر ولا عذر له .

قال الجوهري ؛ فهو المعَذِّر على جهة المُفَعِّل ؛ لأنه المُمَرِّض والمقصّر يعتذر بغير عذر .

قال غيره ؛ يُقال عذّر فلان في أمر كذا تعذيراً ؛ أي قصّر ولم يبالغ فيه .

والمعنى أنهم اعتذروا بالكذب .

قال الجوهري : وكان ابن عباس يقول : لعن الله المعذِّرين .

كأن الأمر عنده أن المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر ، اعتلالاً من غير حقيقة له في العذر .

النحاس : قال أبو العباس محمد بن يزيد ولا يجوز أن يكون الأصل فيه المعتذرين ، ولا يجوز الإدغام فيقع اللبس .

ذكر إسماعيل بن إسحاق أن الإدغام مجتنَب على قول الخليل وسيبويه ، بعد أن سياق الكلام يدل على أنهم مذمومون لا عذر لهم ، قال : لأنهم جاءوا ليؤذن لهم ، ولو كانوا من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون لم يحتاجوا أن يستأذنوا .

قال النحاس : وأصل المعذرة والإعذار والتعذير من شيء واحد وهو مما يصعب ويتعذر .

وقول العرب : مَن عَذِيري من فلان ، معناه قد أتى أمراً عظيماً يستحقّ أن أُعاقبه عليه ولم يعلم الناس به ؛ فمن يَعذِرُني إن عاقبته .

فعلى قراءة التخفيف قال ابن عباس : هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقيل : هم رهط عامر بن الطُّفَيل قالوا : يا رسول الله ، لو غزونا معك أغارت أعراب طَيء على حلائلنا وأولادنا ومواشينا ؛ فعذرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وعلى قراءة التشديد في القول الثاني ، هم قوم من غِفَار اعتذروا فلم يعذِرهم النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ لعلمه أنهم غير محقّين ، والله أعلم .

وقعد قوم بغير عذر أظهروه جرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم الذين أخبر الله تعالى عنهم فقال : ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ والمراد بكذبهم قولهم : إنا

مؤمنون .

و"لِيُؤْذَنَ" نصب بلام كَيْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(15/346)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم ﴾

يعني وجاء المعتذرون من أعراب البوادي إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعتذرون إليه في التخلف عن الغزو معه .

قال الضحاك : هم رهط عامر بن الطفيل جاؤوا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) معتذرين إليه دفاعاً عن أنفسهم فقالوا يا نبي الله إن نحن غزونا معك تغير أعراب طيئ على حلائلنا وأولادنا ومواشينا فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

" قد أنبأني الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم "

وقيل : هم نفر من بن غفار رهط خفاف بن إيماء بن رحضة .

وقيل : هم من أسد وغطفان .

وقال ابن عباس هم الذين تخلفوا بعذر فأذن لهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

وجاء المعذرون : أي المقصرون .

يعني : أنهم قصروا ولم يبالغوا فيما اعتذروا به والمعذر من يرى أن له عذراً ولا عذر له .

إن الأصل في هذا اللفظ عند النحاة المعتذرون أدغمت التاء في الذال لقرب مخرجيهما

والاعتذار في كلام العرب على قسمين يقال اعتذر إذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى

يعتذرون إليكم فرد الله عليهم بقوله قل لا تعتذروا فدل ذلك على فساد عذرهم وكذبهم

فيه ويقال اعتذر إذا أتى بعذر صحيح ومنه قول لبيد :

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر . . .

يعني فقد جاء بعذر صحيح .

وقيل : هو من التعذير الذي هو التقصير .

(16/346)

يقال : عذر تعذيراً إذا قصروا ولم يبالغ فعلى هذا المعنى ، يحتمل أنهم كانوا صادقين في

اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ومن المفسيرين من قال : إنهم كانوا صادقين ، بدليل أنه تعالى

لما ذكرهم قال بعده ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ فلما فصل بينهم وميزهم عن

الكاذبين دلَّ ذلك على أنهم ليسوا كاذبين ويروى عن أبي عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا

الكلام ، قال : إن قوماً تكلفوا عذراً بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله وجاء المعذورن وتخلف آخرون لا لعذر ولا لشبهة عذر جرأة على الله تعالى فهم المراد بقوله وقعد الذين كذبوا الله ورسوله وهم منافقو الأعراب الذين ما جاؤوا وما اعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله يعني في ادعائهم الإيمان ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ يعني في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار وإنما قال منهم لأنه سبحانه وتعالى علم أن منهم من سيؤمن ويخلص في إيمانه فاستثناهم الله من المنافقين الذي أصروا على الكفر والنفاق وماتوا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(17/346)

وقال أبو حيان :

﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾

ولما ذكر أحوال المنافقين الذين بالمدينة شرح أحوال المنافقين من الأعراب .

قرأ الجمهور : المعذرون بفتح العين وتشديد الذال ، فاحتمل وزنين : أحدهما : أن يكون فعل بتضعيف العين ومعناه : تكلف العذر ولا عذر له ، ويقال عذر في الأمر قصر فيه وتوانى ، وحقيقته أن يوهم أنّ له عذراً فيما يفعل ولا عذر له .

والثاني : أن يكون وزنه افتعل ، وأصله اعتذر كاختصم ، فأدغمت التاء في الذال .

ونقلت حركتها إلى العين ، فذهبت ألف الوصل .

ويؤيده قراءة سعيد بن جبير : المعتذرون بالتاء من اعتذر .

وممن ذهب إلى أن وزنه افتعل .

الأخفش ، والفراء ، وأبو عبيد ، وأبو حاتم ، والزجاج ، وابن الأنباري .

وقرأ ابن عباس ، وزيد بن علي ، والضحاك ، والأعرج ، وأبو صالح ، وعيسى بن هلال ، ويعقوب ، والكسائي ، في رواية المعذرون من أعذر .

وقرأ مسلمة : المعذرون بتشديد العين والذال ، من تعذر بمعنى اعتذر .

قال أبو حاتم : أراد المتعذرين ، والتاء لا تدغم في العين لبعد المخارج ، وهي غلط منه أو عليه .

واختلف في هؤلاء المعذرين أهم مؤمنون أم كافرون ؟ فقال ابن عباس ومجاهد وجماعة : هو مؤمنون ، وأعذارهم صادقة .

وقال قتادة وفرقة : هم كافرون وأعذارهم كذب .

وكان ابن عباس يقول : رحم الله المعذرين ولعن المعذرين .

قيل : هم أسد وغطفان قالوا .

إن لنا عيالاً وأن بنا جهداً ، فأذن لهم في التخلف .

وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إنْ غزونا معك غارت إعراب طي على أهالينا ومواشينا ، فقال (صلى الله عليه وسلم) : "سيغني الله عنكم" وعن مجاهد : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى .

قال ابن إسحاق : نفر من غفار منهم خفاف بن إيماء ، وهذا يقتضي أنهم مؤمنون ، والظاهر أن هؤلاء الجائين كانوا مؤمنين كما قال ابن عباس ، لأن التقسيم يقتضي ذلك .

(18/346)

ألا ترى إلى قوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ فلو كان الجميع كفاراً لم يكن لوصف الذين قعدوا بالكذب اختصاص ، وكان يكون التركيب سيصيبهم عذاب أليم .

ويحتمل أن يكونوا كفاراً كما قال قتادة ، فانقسموا إلى جاء معتذر وإلى قاعد ، واستؤنف إخبار بما يصيب الكافرين .

ويكون الضمير في منهم عائداً على الأعراب ، أو يكون المعنى : سيصيب الذين يوافون على الكفر من هؤلاء عذاب أليم في الدنيا بالقتل والسبي ، وفي الآخرة بالنار .

وقرأ الجمهور : كذبوا بالتخفيف أي : في إيمانهم فأظهروا ضد ما أخفوه .

وقرأ أبيّ والحسن في المشهور عنه : ونوح وإسماعيل كذبوا بالتشديد أي لم يصدقوه تعالى ولا رسوله ، وردوا عليه أمره والتشديد أبلغ في الذم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(19/346)

وقال أبو السعود :

﴿ وَجَاء المعذرون مِنَ الاعراب لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

شروعٌ في بيان أحوالِ منافقي الأعرابِ إثرَ بيانِ منافقي أهلِ المدينةِ ، والمعذّرون من عذّر في الأمر إذا قصّر فيه وتوانى ولم يجِدّ ، وحقيقتُه أن يوهِمَ أن له عذراً فيما يفعل ولا عذرَ له أو المعتذرون بإدغام التاءِ في الذال ونقلِ حركتِها إلى العين وهم المعتذرون بالباطل ، وقرىء المُعْذِرون من الإعذار وهو الاجتهاد في العذرُ والاحتشادُ فيه ، قيل : هم أسَدٌ وغطَفانُ قالوا : إن لنا عيالاً وإن بنا لجَهداً فائذن لنا في التخلف . وقيل : هم رهطُ عامِرِ بنِ الطفيل قالوا : إن غزَوْنا معك أغار أعرابُ طيءٍ على أهالينا ومواشينا فقال عليه السلام : " سيغنيني الله تعالى عنكم " وعن مجاهد : نفرٌ من غِفارٍ اعتذروا فلم يعذُرهم الله سبحانه . وعن قتادة : اعتذروا بالكذب . وقرىء المُعّذّرون بتشديد العين والذال من

تعذر بمعنى اعتذر وهو لحنٌ إذ التاءُ لا تُدغم في العين إدغامَها في الطاء والزاي والصاد في المطّوعين وازّكى واصّدق . وقيل : أريد بهم المعتذرون بالصحة وبه فُسّر المعذّرون والمُعْذِرون أي الذين لم يُفرطوا في العذر ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهم منافقوا الأعرابِ الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا فظهر أنهم كذبوا الله ورسولَه بادعائهم الإيمانَ والطاعة ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الأعراب أو من المعذّرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بالقتل والأسرِ في الدنيا والنارِ في الآخرة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(20/346)

وقال الآلوسى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

شروع في بيان أحوال منافقي الاعراب إثر بيان أحوال منافقي أهل المدينة .

والمُعذرون من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد ، وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له ، ويحتمل أن يكون من اعتذر والأصل المعتذون فادغمت التاء في الذال بعد نقل حركتها إلى العين ، ويجوز كسرها لالتقاء الساكنين وضمها إتباعاً للميم لكن

لم يقرأ بهما ، وقرأ يعقوب ﴿ المعذرون ﴾ بالتخفيف وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فهو من اعذر إذا كان له عذر .

وعن مسلمة أنه قرأ ﴿ المعذرون ﴾ بتشديد العين والذال من تعذر بمعنى اعتذر .

وتعقب ذلك أبو حيان فقال : هذه القراءة إما غلط من القارىء أو عليه لأن التاء لا يجوز إدغامها في العين لتضادهما ، وأما تنزيل التضاد منزلة التناسب فلم يقله أحد من النحاة ولا القراء فالاستغال بمثله عيب ، ثم إن هؤلاء الجائين كاذبون على أول احتمالي القراءة الأولى ، ويحتمل أن يكونوا كاذبين وإن يكونوا صادقين على الثاني منهما وكذا على القراءة الأخيرة ، وصادقون على القراءة الثانية .

واختلفوا في المراد بهم فعن الضحاك أنهم رهط عامر بن الطفيل جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا نبي الله إنا إن غزونا معك أغارت طي على أهالينا ومواشينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أنبأني الله من أخباركم وسيغني الله سبحانه عنكم .

وقيل : هم أسد .

وغطفان استأذنوا في التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن إسحاق أنه قال : ذكر لي أنهم نفر من بني غفار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم أهل العذر ولم يبين من هم ؛ ومما ذكرنا يعلم وقوع الاختلاف في أن هؤلاء الجائين هل كانوا صادقين في الاعتذار أم لا ، وعلى القول بصدقهم يكون المراد بالموصول في قوله سبحانه : ﴿ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ غيرهم وهم أناس من الاعراب أيضاً منافقون والأولون لا نفاق فيهم ، وعلى القول بكذبهم يكون المراد به الأولين ، والعدول عن الإضمار إلى الإظهار إظهار لذمهم بعنوان الصلة ، والكذب على الأول بإدعاء الإيمان وعلى الثاني بالاعتذار ، ولعل القعود مختلف أيضاً .

وقرأ أبي ﴿ كَذَّبُواْ ﴾ بالتشديد ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي من الاعراب مطلقاً وهم منافقوهم أو من المعتذرين ، ووجه التبعيض أن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره أي سيصيب المعتذرين لكفرهم ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة ولا ينافي استحقاق من تخلف لكسل ، ذلك عندنا لعدم قولنا بالمفهوم ومن قال به فسر العذاب الأليم بمجموع القتل والنار والأول منتف في المؤمن المتخلف للكسل فينتفي المجموع ، وقيل : المراد بالموصول المصرون على الكفر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

وقال الشوكاني :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

قرأ الأعرج والضحاك " المعذرون " بالتخفيف ، من أعذر ، ورواها أبو كريب عن أبي بكر عن عاصم ، ورواها أصحاب القراءات عن ابن عباس .

قال في الصحاح : وكان ابن عباس يقرأ " وجاء المعذرون " مخففة من أعذر ، ويقول : والله هكذا أنزلت .

قال النحاس : إلا أن مدارها على الكلبي ، وهي من أعذر : إذا بالغ في العذر ، ومنه : " من أنذر فقد أعذر " أي : بالغ في العذر .

وقرأ الجمهور ﴿ المعذرون ﴾ بالتشديد ففيه وجهان ، أحدهما : أن يكون أصله المعتذرون فأدغمت التاء في الذال ، وهم : الذين لهم عذر ، ومنه قول لبيد :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما . . . ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

فالمعذرون على هذا : هم المحقون في اعتذارهم .

وقد روي هذا عن الفراء ، والزجاج ، وابن الأنباري ، وقيل : هو من عذّر ، وهو الذي يعتذر ولا عذر له ، يقال عذر في الأمر : إذا قصر واعتذر بما ليس بعذر ، ذكره الجوهري وصاحب الكشاف ؛ فالمعذرون على هذا : هم المبطلون ، لأنهم اعتذروا بأعذار باطلة

لا أصل لها .

وروي عن الأخفش ، والفراء ، وأبي حاتم ، وأبي عبيد ، أنه يجوز كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها للاتباع .

والمعنى : أنه جاء هؤلاء من الأعراب بما جاءوا به من الأعذار بحق أو بباطل على كلا التفسيرين ؛ لأجل أن يأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتخلف عن الغزو ، وطائفة أخرى لم يعتذروا ، بل قعدوا عن الغزو لغير عذر ، وهم منافقو الأعراب الذين كذبوا الله ورسوله ، ولم يؤمنوا ولا صدّقوا ، ثم توعدهم الله سبحانه ، فقال : ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ ﴾ أي : من الأعراب ، وهم الذين اعتذروا بالأعذار الباطلة ، والذين لم يعتذروا ، بل كذبوا بالله ورسوله ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي : كثير الألم ، فيصدق على عذاب الدنيا ، وعذاب الآخرة .

(23/346)

وقد أخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَجَاء المعذرون مِنَ الأعراب ﴾ أي : أهل العذر منهم .

وروى ابن أبي حاتم ، عنه ، نحو ذلك .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب (الأضداد) عنه أيضاً أنه كان يقول : "لعن الله المعذرين" ويقرأ بالتشديد كأن الأمر عنده أن المعذر بالتشديد : هو المظهر للعذر اعتلالاً من غير حقيقة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن إسحاق ، في قوله : ﴿ وَجَاء المعذرون مِنَ الأعراب ﴾ قال : ذكر لي أنهم نفر من بني غفار ، جاءوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء ؛ وقيل : لهم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيىء على أهالينا ، ومواشينا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(24/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

عُطِفت جملة : وجاء المعذرون وَجَآءَ المعذرون مِنَ الاعراب لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * لَّيْسَ ﴾ على جملة ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ [التوبة : 86] ، وما بينهما اعتراض ، فالمراد بالمعذّرين فريق من المؤمنين الصادقين من الأعراب ، كما تدلّ عليه المقابلة بقوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله

ورسوله ﴾ .

وعلى هذا المعنى فسَّر ابن عبّاس ، ومجاهد ، وكثير .

وجعلوا من هؤلاء غفاراً ، وخالفهم قتادة فجعلهم المعتذرين كَذِباً ، وهم بَنو عامر رهطُ عامرٍ بن الطُفيل ، قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم إن خرجْنا معك أغارت أعراب طيء على بيوتنا .

ومن المعذّرين الكاذبين أسَد ، وغَطَفان .

وعلى الوجهين في التفسير يختلف التقدير في قوله : ﴿ المعذورون ﴾ فإن كانوا المحقين في العذر فتقدير ﴿ المعذرون ﴾ أنّ أصله المعتذرون ، من اعتذر أدغمت التاء في الذال لتقارب المخرجين لقصد التخفيف ، كما أدغمت التاء في الصاد في قوله : ﴿ وهم يخصمون ﴾ [يس : 49] ، أي يختصمون .

وإن كانوا الكاذبين في عذرهم فتقدير المعذرون : أنّه اسم فاعل من عَذَّر بمعنى تكلّف العذر فعن ابن عباس : لعن الله المعذرين .

قال الأزهري : ذهب إلى أنّهم الذين يعتذرون بلا عُذر فكأن الأمر عنده أنّ المعذّر بالتشديد هو المظهر للعذر اعتلالاً وهو لا عُذر له أ هـ .

وقال شارح "ديوان النابغة" عند قول النابغة:

وَدّعْ أمامة والتوديع تَعْذير . . .

أي لاَ يجد عُذراً غير التوديع .

ويجوز أن يكون اختيار صيغة المعذّرين من لطائف القرآن لتشمل الذين صدقوا في العذر والذين كذبوا فيه .

(25/346)

والاعتذار افتعال من باب ما استعمل فيه مادة الافتعال للتكلّف في الفعل والتصرّف مثل الاكتساب والاختلاق .

وليس لهذا المزيد فعل مجرّد بمعناه وإنّما المجرد هو عَذَر بمعنى قبل العذر .

والعذر البيّنة والحالة التي يتنصل المحتج بها من تبعة أو مَلام عند من يعتذر إليه .

وقرأ يعقوب ﴿ المعذِرون ﴾ بسكون العين وتخفيف الذال ، من أعذر إذا بالغ في الاعتذار .

والأعراب اسم جمع يقال في الواحد : أعرابي بياء النسب نسبة إلى اسم الجمع كما يقال مَجوسي لواحد المجوس .

وصيغة الأعراب من صيغ الجموع ولكنّه لم يكن جمعاً لأنّه لا واحد له من لفظ جمعه فلذلك جعل اسمَ جمع .

وهم سكان البادية .

وأمّا قوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ فهم الذين أعلنوا بالعصيان في أمر الخروج إلى الغزو من الأعراب أيضاً كما يُنبىء عنه السياق ، أي قعدوا دون اعتذار .

فالقعود هو عدم الخروج إلى الغزو .

وعلم أنّ المراد القعود دون اعتذار من مقابلته بقوله : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ .

وجملة : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ عطف على جملة : ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ وهذا فريق آخر من الأعراب خليط من مسلمين ومنافقين ﴿ كذبوا ﴾ بالتخفيف ، أي كانوا كاذبين ، والمراد أنّهم كذبوا في الإيمان الذي أظهروه من قبلُ ، ويحتمل أنّهم كذبوا في وعدهم النصر ثم قعدوا دون اعتذار بحيث لم يكن تخلّفهم مترقّباً لأنّ الذين اعتذروا قد علم النبي عليه الصلاة والسلام أنّهم غير خارجين معه بخلاف الآخرين فكانوا محسوبين في جملة الجيش .

وتخلّفُهم أشدّ إضرار لأنّه قد يَفُلّ من حِدّة كثير من الغزاة .

وجملة : ﴿ سيصيب الذين كفروا ﴾ مستأنفة لابتداءِ وعيد .

وضمير ﴿ منهم ﴾ يعود إلى المذكورين فهو شامل للذين كذبوا الله ورسوله ولمن كان عذره ناشئاً عن نفاق وكذب .

وتنكير عذاب للتهويل والمراد به عذاب جهنّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(26/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

والحديث هنا المنافقين الذين كانوا يعيشون حول المدينة وكانوا يُسمَّون " الأعراب " ، وقد تحدثت الآيات السابقة عن منافقي المدينة الذين جاء فيهم قول الحق : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق . . . ﴾ [التوبة : 101]

وهنا يأتي الحديث عن المنافقين الذين كانوا يسكنون في البوادي التي حول المدينة وهم الأعراب .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ المعذرون ﴾ ، وهناك " مُعْذِرون " و " معتذرون " ، والمعذِّرون هم المعتذرون ؛ فالمعتذر جمعه معتذرون بفتحة فوق التاء ، لكن إذا وُضعَتْ الفتحة فوق العين فالحرف الذي بعدها يُسكّن ، وعندما يُسكّن ما بعد العين ، فهذا يعني أن هناك افتعالاً .

إذن : فالمعذّرون أو المعتذرون هم الذين يريدون أن يتخلفوا عن القتال بأعذار مفتعلة ، وهم أرادوا القعود والسكون ولم يتحركوا للقتال ، وقد فعلوا ذلك دون عذر حقيقي .

ويقال : " المعذرون " ، و " المُعَذّر " ، و " أعذره " أي : أذهب عذره ، مثل : " أعجم الكتاب " أي : أذهب عُجْمته .

ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَجَآءَ المعذرون مِنَ الأعراب لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الذين كَذَبُواْ الله وَرَسُولَهُ ﴾ لقد كذبوا الرسول في الإيمان نفسه ؛ لأنهم لم يكلفوا أنفسهم حتى مجرد الاعتذار وتخلفوا ، ولو كانوا قد صدقوا في الإيمان لما تقاعسوا عن القتال ، أولا استأذنوا رسول الله في القعود .

(27/346)

ثم يقول الحق : ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ والكفر – كما نعلم – هو ستر الإيمان . والمنافقون من الإعراب أظهروا الإيمان وكانت قلوبهم تمتلئ بالكفر . ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَتِ الأعراب آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ ولكن قولوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإيمان فِي قُلُوبِكُمْ . . . ﴾ [الحجرات : 14]

أي أنهم يؤدون أمور الإسلام الظاهرية بينما قلوبهم لم يدخلها الإيمان .

ويعرفنا الحق سبحانه بالجزاء الذي ينتظر هؤلاء المتخلفين من الأعراب فيقول : ﴿ سَيُصِيبُ الذين كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وعرفنا من قبل أن وصف العذاب في القرآن إما أن يكون أليماً ، وإما أن يكون مهيناً ، وإما أن يكون عظيماً ، وإما أن يكون مقيماً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(28/346)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) ﴾

أخرج ابن المنذر عن ابن عباس في قوله ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ يعني أهل العذر منهم ليؤذن لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ قال : هم أهل الأعذار ، وكان يقرؤها ﴿ وجاء المعذرون ﴾ خفيفة .

وأخرج ابن الأنباري في كتاب الأضداد عن ابن عباس . أنه كان يقرأ ﴿ وجاء المعذرون

من الأعراب ﴾ ويقول : لعن الله المعذرين .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي قال : من قرأها ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ خفيفة قال : بنو مقرن ، ومن قرأها ﴿ وجاء المعذرون ﴾ قال : اعتذروا بشيء ليس لهم عذر بحق .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن . أنه كان يقرأ ﴿ وجاء المعذرون ﴾ قال : اعتذروا بشيء ليس بحق .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن إسحق في قوله ﴿ وجاء المعذرون من الأعراب ﴾ قال : ذكر لي أنهم نفر من بني غفار ، جاؤوا فاعتذروا ، منهم خفاف بن إيماء من خرصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(29/346)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾

قوله تعالى : ﴿ المعذرون ﴾ : قُرِىء بوجوهٍ كثيرة ، فمنها قراءة الجمهور : فَتْحُ العين

وتشديدُ الذال . وهذه القراءة تحتمل وجهين : أن يكون وزنه فَعَّل مضعّفاً ، ومعنى التضعيف فيه التكلف ، والمعنى : أنه تَوَهَّم أن له عُذْراً ، ولا عُذْرَ له . والثاني : أن يكون وزنه افتعل والأصل : اعتذرَ فأُدْغمت التاءُ في الذال بأنْ قُلبت تاءُ الافتعال ذالاً ، ونُقلت حركتها إلى الساكن قبلها وهو العين ، ويدلُّ على هذا قراءةُ سعيد بن جبير " المعتذرون " على الأصل . وإليه ذهب الأخفش والفراء وأبو عبيدة وأبو حاتم والزجاج .

وقرأ زيدُ بن علي والضحاك والأعرج وأبو صالح وعيسى بن هلال وهي قراءةُ ابنِ عباس أيضاً ويعقوب والكسائي " المُعْذِرون " بسكون العين وكسرِ الذال مخففةً مِنْ أَعْذَرَ يُعْذِر كأكرم يكرم .

وقرأ مسلمة " المُعَذَّرون " بتشديد العين والذال مِنْ تعذَّر بمعنى اعتذر . قال أبو حاتم : " أراد المتعذرون ، والتاء لا تدغم في العين لبُعْد المخارج ، وهي غلطٌ منه أو عليه " .

قوله : ﴿ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ متعلقٌ ب " جاء " وحُذِفَ الفاعلُ وأُقيم الجارُّ مُقَامه للعلمِ به ، أي : ليأذن لهم الرسول . وقرأ الجمهور " كَذَبوا " بالتخفيف ، أي : كذبوا في إيمانهم . وقرأ الحسن في المشهور عنه وأُبَيٌّ وإسماعيل " كذَّبوا " بالتشديد ، أي : لم يُصَدِّقوا ما جاء به الرسول عن ربه ولا امتثلوا أمره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 96 .

﴿ 97

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) ﴾

وهم أصحاب الأعذار – في قول أهل التفسير – طلبوا الإذنَ في التأخرِ عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في غزوة تبوك فسقط عنهم اللَّوْمُ .

أما الذين تأخروا بغير عُذْرٍ فقد توجَّه عليهم اللوم ، وهو لهم في المستقبل الوعيد . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 52.53 ﴾

(31/346)

قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان من القاعدين من أهل المدر والوبر من له عذر ، استثناهم سبحانه وساق ذلك مساق النتيجة من المقدمات الظاهرة فقال : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ أي بنحو الهرم ﴿ ولا على المرضى ﴾ أي بنحو الحمى والرمد ﴿ ولا على الذين لا يجدون ﴾ ولو بدين يؤدونه في المستقبل ﴿ ما ينفقون ﴾ أي لحاجتهم وفقرهم ﴿ حرج ﴾ أي إثم يميل بهم عن الصراط المستقيم ويخرج دينهم .

ولما كان ربما كان أحد من المنافقين بهذ الصفة احترز عنه بقوله : ﴿ إذا نصحوا ﴾ أي في تخلفهم وجميع أحوالهم ﴿ لله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ ورسوله ﴾ أي سراً وعلانية ، فإنهم حينئذ محسنون في نصحهم الذي منه تحسرهم على القعود على هذا الوجه وعزمهم على الخروج متى قدروا ، وقوله : ﴿ ما على المحسنين ﴾ في موضع " ما عليهم " لبيان إحسانهم بنصحهم مع عذرهم ﴿ من سبيل ﴾ أي طريق إلى ذمهم أو لومهم ، والجملة كلها بيان لـ ﴿ نصحوا لله ورسوله ﴾ وقوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ غفور ﴾ أي محاء للذنوب ﴿ رحيم ﴾ أي محسن مجمل إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير والعجز وإن اجتهد ، لا يسعه إلا العفو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 374 ﴾

(32/346)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين الوعيد في حق من يوهم العذر ، مع أنه لا عذر له ، ذكر أصحاب الأعذار الحقيقية ، وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط ، وهم أقسام :

القسم الأول : الصحيح في بدنه ، الضعيف مثل الشيوخ .

ومن خلق في أصل الفطرة ضعيفاً نحيفاً ، وهؤلاء هم المرادون بالضعفاء .

والدليل عليه : أنه عطف عليهم المرضى ، والمعطوف مباين للمعطوف عليه ، فما لم يحمل الضعفاء على الذين ذكرناهم ، لم يتميزوا عن المرضى .

وأما المرضى : فيدخل فيهم أصحاب العمى ، والعرج ، والزمانة ، وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من المحاربة .

والقسم الثالث : الذين لا يجدون الأهبة والزاد والراحلة ، وهم الذين لا يجدون ما ينفقون ، لأن حضوره في الغزو إنما ينفع إذا قدر على الإنفاق على نفسه .

أما من مال نفسه ، أو من مال إنسان آخر يعينه عليه ، فإن لم تحصل هذه القدرة ، صار كلاً

ووبالاً على المجاهدين ويمنعهم من الاشتغال بالمقصود ، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الأقسام الثلاثة قال : لا حرج على هؤلاء ، والمراد أنه يجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو ، وليس في الآية بيان أنه يحرم عليهم الخروج ، لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة . إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم ، بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم ، كان ذلك طاعة مقبولة .

(33/346)

ثم إنه تعالى شرط في جواز هذا التأخير شرطاً معيناً وهو قوله : ﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ومعناه أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إلقاء الأراجيف ، وعن إثارة الفتن ، وسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا ، إما بأن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم ، وإما بأن يسعوا في إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم ، فإن جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد .

ثم قال تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ وقد اتفقوا على أنه دخل تحت قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ هو أنه لا إثم عليه بسبب القعود عن الجهاد ، واختلفوا في أنه هل يفيد العموم في كل الوجوه ؟ فمنهم من زعم أن اللفظ مقصور على هذا المعنى ، لأن

هذه الآية نزلت فيهم ، ومنهم من زعم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمحسن هو الآتي بالإحسان ، ورأس أبواب الإحسان ورئيسها ، هو قول : لا إله إلا الله ، وكل من قال هذه الكلمة واعتقدها ، كان من المسلمين .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ يقتضي نفي جميع المسلمين ، فهذا بعمومه يقتضي أن الأصل في حال كل مسلم براءة الذمة ، وعدم توجه مطالبة الغير عليه في نفسه وماله ، فيدل على أن الأصل في نفسه حرمة القتل ، إلا لدليل منفصل ، والأصل في ماله حرمة الأخذ ، إلا لدليل منفصل ، وأن لا يتوجه عليه شيء من التكاليف ، إلا لدليل منفصل ، فتصير هذه الآية بهذا الطريق أصلاً معتبراً في الشريعة ، في تقرير أن الأصل براءة الذمة ، فإن ورد نص خاص يدل على وجوب حكم خاص ، في واقعة خاصة ، قضينا بذلك النص الخاص تقديماً للخاص على العام ، وإلا فهذا النص كاف في تقرير البراءة الأصلية ، ومن الناس من يحتج بهذا على نفي القياس .

(34/346)

قال : لأن هذا النص دل على أن الأصل هو براءة الذمة ، وعدم الإلزام والتكليف ، فالقياس إما أن يدل على براءة الذمة أو على شغل الذمة ، والأول باطل لأن براءة الذمة لما

ثبتت بمقتضى هذا النص ، كان إثباتها بالقياس عبثاً .

والثاني أيضاً باطل ، لأن على هذا التقدير يصير ذلك القياس مخصصاً لعموم هذا النص وأنه لا يجوز ، لما ثبت أن النص أقوى من القياس .

قالوا : وبهذا الطريق تصير الشريعة مضبوطة ، معلومة ، ملخصة ، بعيدة عن الاضطراب والاختلافات التي لا نهاية لها ، وذلك لأن السلطان إذا بعث واحداً من عماله إلى سياسة بلدة ، فقال له : أيها الرجل تكليفي عليك ، وعلى أهل تلك المملكة ، كذا وكذا ، وعد عليهم مائة نوع من التكاليف مثلاً ، ثم قال : وبعد هذه التكاليف ليس لأحد عليهم سبيل ، كان هذا تنصيصاً منه على أنه لا تكليف عليهم فيما وراء تلك الأقسام المائة المذكورة ، ولو أنه كلف ذلك السلطان بأن ينص على ما سوى تلك المائة بالنفي على سبيل التفصيل كان ذلك محالاً ، لأن باب النفي لا نهاية له ، بل كفاه في النفي أن يقول : ليس لأحد على أحد سبيل إلا فيما ذكرت وفصلت ، فكذا ههنا أنه تعالى لما قال : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ وهذا يقتضي أن لا يتوجه على أحد سبيل ، ثم إنه تعالى ذكر في القرآن ألف تكليف ، أو أقل أو أكثر ، كان ذلك تنصيصاً على أن التكاليف محصورة في ذلك الألف المذكور ، وأما فيما وراءه فليس لله على الخلق تكليف وأمر ونهي ، وبهذا الطريق تصير الشريعة مضبوطة سهلة المؤنة كثيرة المعونة ، ويكون القرآن وافياً ببيان التكاليف والأحكام ، ويكون قوله :

(35/346)

﴿ اليوم أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : 3] حقاً ، ويصير قوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : 44] حقاً ، ولا حاجة ألبتة إلى التمسك بالقياس في حكم من الأحكام أصلاً ، فهذا ما يقرره أصحاب الظواهر مثل داود الأصفهاني وأصحابه في تقرير هذا الباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 127.128 ﴾

(36/346)

وقال السمرقندى :

ثم بيّن حال الذين تخلفوا بعذر .

فقال تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء ﴾ ، يعني : على الزمنى والشيخ الكبير ، ﴿ وَلاَ على المرضى وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ في الجهاد ﴿ حَرَجٌ ﴾ ، أي لا إثم عليهم .

﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ، يعني : إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية .

﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ ، يعني : ليس على الموحدين المطيعين من حرج ، إذا

تخلفوا بالعذر .

﴿ واللهُ غَفُورٌ ﴾ لهم بتخلفهم ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى ﴾ الآية .

وفي الضعفاء ها هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : أنهم الصغار لضعف أبدانهم .

الثاني : المجانين لضعف عقولهم .

الثالث : العميان لضعف بصرهم . كما قيل في تأويل قوله تعالى في شعيب ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ [هود : 91] أي ضريراً .

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : إذا برئوا من النفاق .

الثاني : إذا قاموا بحفظ المخلفين من الذراري والمنازل .

فإن قيل بالتأويل الأول كان راجعاً إلى جميع من تقدم ذكره من الضعفاء . والمرضى الذين لا يجدون ما ينفقون .

وإن قيل بالتأويل الثاني كان راجعاً إلى الذين لا يجدون ما ينفقون خاصة .

وقيل إنها نزلت في عائذ بن عمرو وعبد الله ابن مُغَفّل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(37/346)

وقال ابن عطية :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

يقول تعالى ليس على أهل الأعذار الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو زمانة أو عدم نفقة إثم ، و" الحرج " الإثم ، وقوله : ﴿ إذا نصحوا ﴾ يريد بنياتهم وأقوالهم سراً وجهراً ، وقرأ حيوة " نصحوا الله ورسوله " بغير لام وبنصب الهاء المكتوبة ، وقوله تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ الآية ، في لائمة تناط بهم أو تذنيب أو عقوبة ، ثم أكد الرجاء بقوله ﴿ والله غفور رحيم ﴾ وقرأ ابن عباس " والله لأهل الإساءة غفور رحيم " .

قال القاضي أبو محمد : وهذا على جهة التفسير أشبه منه على جهة التلاوة لخلافه المصحف ، واختلف فيمن المراد بقوله : ﴿ الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ ، فقالت فرقة : نزلت في بني مقرن .

قال القاضي أبو محمد : وبنو مقرن ستة إخوة صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم ، وقيل كانوا سبعة ، وقيل نزلت في عبد الله بن مغفل المزني ، قاله ابن عباس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(38/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : أنها نزلت في عائذ بن عمرو وغيره من أهل العذر ، قاله قتادة .

والثاني : في ابن مكتوم ، قاله الضحاك .

وفي المراد بالضعفاء ثلاثة أقوال .

أحدها : أنهم الزمنى والمشايخ الكبار ، قاله ابن عباس ، ومقاتل .

والثاني : أنهم الصغار .

والثالث : المجانين ؛ سموا ضعافاً لضعف عقولهم ، ذكر القولين الماوردي .

والصحيح انهم الذين يضعفون لزَمانةٍ ، أو عَمىً ، أو سِنٍّ ، أو ضَعف في الجسم .

والمرضى : الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(39/346)

وقال الخازن :

قوله ﴿ ليس على الضعفاء ﴾

لما ذكر الله سبحانه وتعالى المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد واعتذروا بأعذار باطلة عقبه بذكر أصحاب الأعذار الحقيقية الصحيحة وعذرهم وأخبر أن فرض الجهاد عنهم ساقط فقال سبحانه وتعالى : ليس على الضعفاء والضعيف هو الصحيح في بدنه العاجز عن الغزو وتحمل مشاق السفر والجهاد مثل الشيوخ والصبيان والنساء ومن خلق في أصل الخلقة ضعيفاً نحيفاً ويدل على أن هؤلاء الأصناف هم الضعفاء أن الله سبحانه وتعالى عطف عليهم المرضى فقال سبحانه وتعالى : ﴿ ولا على المرضى ﴾ والمعطوف مغاير للمعطوف عليه فأما المرضى فيدخل فيهم أهل العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من الجهاد والسفر للغزو ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ يعني الفقراء العاجزين عن أهبة الغزو والجهاد ، فلا يجدون الزاد والراحلة

والسلاح ومؤنة السفر لأن العاجز عن نفقة الغزو معذور ﴿ حرج ﴾ أي ليس على هؤلاء الأصناف الثلاثة حرج أي إثم في التخلف عن الغزو .

(40/346)

وقال الإمام فخر الدين الرازي : ليس في الآية أنه يحرم عليهم الخروج لأن الواحد من هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بمقدار القدرة إما بحفظ متاعهم أو بتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم فإن ذلك طاعة مقبولة ثم إنه تعالى شرط على الضعفاء في جواز التخلف عن الغزو شرطاً معيناً وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ ومعناه : أنهم إذا أقاموا في البلد احترزوا عن إفشاء الأراجيف وإثارة الفتن وسعوا في إيصال الخير إلى أهل المجاهدين الذين خرجوا إلى الغزو وقاموا بمصالح بيوتهم وأخلصوا الإيمان والعمل لله وتابعوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) فإن جملة هذه الأمور تجري مجرى النصح لله ورسوله ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ أي ليس على من أحسن فنصح لله ولرسوله في تخلفه عن الجهاد بعذر قد أباحه الشارع طريق يتطرق عليه فيعاقب عليه والمعنى أنه سد بإحسانه طريق العقاب عن نفسه ويستنبط من قوله ما على المحسنين من سبيل أن كل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مخلصاً من قلبه ليس

عليه سبيل في نفسه وماله إلا ما أباحه الشرع بدليل منفصل ﴿ والله غفور ﴾ يعني لمن تخلف عن الجهاد بعذر ظاهر أباحه الشرع ﴿ رحيم ﴾ يعني : أنه تعالى رحيم بجميع عباده .

قال قتادة : نزلت هذه الآية في عائذ بن عمرو وأصحابه .

وقال الضحاك : نزلت في عبد الله بن أم مكتوم وكان ضرير البصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(41/346)

وقال أبو حيان :

﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ﴾

لما ذكر حال من تخلف عن الجهاد مع القدرة عليه ، ذكر حال من له عذر في تركه .

والضعفاء جمع ضعيف وهو الهرم ، ومن خلق في أصل البنية شديد المخافة والضؤولة ، بحيث لا يمكنه الجهاد .

والمريض من عرض له المرض ، أو كان زمِناً ويدخل فيه العمى والعرج .

والذين لا يجدون ما ينفقون هم الفقراء .

قيل : هم مزينة وجهينة وبنو عذرة ، ونفى الحرج عنهم في التخلف عن الغزو ، ونفي الحرج لا يتضمن المنع من الخروج إلى الغزو ، فلو خرج أحد هؤلاء ليعين المجاهدين بما يقدر عليه من حفظ متاعهم أو تكثير سوادهم ولا يكون كلاًّ عليهم ، كان له في ذلك ثواب جزيل .

فقد كان عمرو بنِ الجموح أعرج وهو من أتقياء الأنصار ، وهو في أول الجيش ، وقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "إن الله قد عذرك" فقال : والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة .

وكان ابن أم مكتوم أعمى ، فخرج إلى أحد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه ، فأصيبت يده التي فيها اللواء فأمسكه باليد الأخرى ، فضربت فأمسكه بصدره .

وقرأ : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ﴾ وشرط في انتفاء الحرج النصح لله ورسوله ، وهو أن يكون نياتهم وأقوالهم سراً وجهراً خالصة لله من الغش ، ساعية في إيصال الخير للمؤمنين ، داعية لهم بالنصر والتمكين .

ففي سنن أبي داود " لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا هم معكم فيه" قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : "حبسهم العذر " وقرأ أبو حيوة : إذا نصحوا الله ورسوله بنصب الجلالة ، والمعطوف ما على المحسنين من سبيل أي : من لائمة تناط بهم أو عقوبة .

ولفظ المحسنين عام يندرج فيه هؤلاء المعذورون الناصحون غيرهم ، وقيل : المحسنين هنا المعذورون الناصحون ، ويبعد الاستدلال بهذه الجملة على نفي القياس .

(42/346)

وإن المحسن هو المسلم ، لانتفاء جميع السبيل ، فلا يتوجه عليه شيء من التكاليف إلا بدليل منفصل ، فيكون يخص هذا العام الدال على براءة الذمة .

وقال الكرماني : المحسنين هم الذين أطاعوا الله ورسوله في أقوالهم وأفعالهم ، ثم أكد الرجاء فقال : والله غفور رحيم ، وقراءة ابن عباس : والله لأهل الإساءة غفور رحيم على سبيل التفسير ، لا على أنه قرآن لمخالفته سواد المصحف .

قيل : وقوله : ما على المحسنين من سبيل ، فيه نوع من أنواع البديع يسمى : التمليح ، وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثلٍ سائر ، أو شعرٍ نادر ، أو قصةٍ مشهورة ، أو ما يجري مجرى المثل .

ومنه قول يسار بن عدي حين بلغه قتل أخيه ، وهو يشرب الخمر :

اليوم خمر ويبدو في غد خبر . . .

والدهر من بين إنعام وإيئاس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(43/346)

وقال أبو السعود :

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى ﴾

كالهرمى والزَّمْنى ﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ لفقرهم كمُزَينة وجُهينة وبني عذرة ﴿ حَرَجٌ ﴾ إثمٌ في التخلف ﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وهو عبارةٌ عن الإيمان بهما والطاعةِ لهما في السر والعلنِ وتولّيهما في السراء والضراءِ والحبّ فيهما والبغضِ فيهما كما يفعل المَوْلى الناصحُ بصاحبه ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ استئنافٌ مقرّرٌ لمضمون ما سبق أي ليس عليهم جناحٌ ولا إلى معاتبتهم سبيلٌ ، ومن مزيدةٌ للتأكيد ، ووضْعُ المحسنين موضِعَ الضمير للدِلالة على انتظامهم بنُصحهم لله ورسولِه في سلك المحسنين ، أو تعليلٌ لنفي الحرجِ عنهم ، أي ما على جنس المحسنين من سبيل وهم من جملتهم ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييلٌ مؤيدٌ لمضمون ما ذُكر مشيرٌ إلى أن بهم حاجةً إلى المغفرة وإن كان تخلُّفهم بعذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(44/346)

وقال الآلوسى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾

كالشيوخ ومن فيه نحافة خلقية لا يقوى على الخروج معها وهو جمع ضعيف ويقال : ضعوف وضعفان وجاء في الجمع ضعاف وضعفة وضعفي وضعافي ﴿ وَلاَ على المرضى ﴾ جمع مريض ويجمع أيضاً على مراض ومراضي وهو من عراه سقم واضطراب طبيعة سواء كان مما يزول بسرعة ككثير من الأمراض أولا كالزمانة وعدوا منه ما لا يزول كالعمى والعرج الخلقيين فالأعمى والأعرج داخلان في المرضى وان أبيت فلا يبعد دخولهما في الضعفاء ، ويدل لدخول الأعمى في أحد المتعاطفين ما أخرج ابن أبي حاتم .

والدارقطني في الافراد عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت براءة فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه إذ جاءه أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء وَلاَ على المرضى ﴾ .

﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ أي الفقراء العاجزين عن أهبة السفر والجهاد قيل هم مزينة .

وجهينة .

وبنو عذرة ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي ذنب في التخلف وأصله الضيق وقد تقدم الكلام فيه ﴿ إِذَا

نَصَحُواْ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ بالإيمان والطاعة ظاهراً وباطناً كما يفعل الموالي الناصح فالنصح مستعار لذلك ، وقد يراد بنصحهم المذكور بذل جهدهم لنفع الإسلام والمسلمين بأن يتعهدوا أمورهم وأهلهم وإيصال خبرهم إليهم ولا يكونوا كالمنافقين الذين يشيعون الأراجيف إذا تخلفوا ، وأصل النصح في اللغة الخلوص يقال : نصحته ونصحت له ، وفي النهاية النصيحة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له وليس يمكن أن يعبر عن هذا المعنى بكلمة واحدة يجمعه غيرها ، والعامل في الظرف على ما قال أبو البقاء معنى الكلام أي لا يخرجون حينئذ .

(45/346)

﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ أي ما عليهم سبيل فالإحسان النصح لله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ووضع الظاهر موضع ضميرهم اعتناء بشأنهم ووصفاً لهم بهذا العنوان الجليل ، وزيدت ﴿ مِنْ ﴾ للتأكيد ، والجملة استئناف مقرر لمضمون ما سبق على أبلغ وجه وألطف سبك وهو من بليغ الكلام لأن معناه لا سبيل لعاتب عليهم أي لا يمر بهم العاتب ولا يجوز في أرضهم فما أبعد العتاب عنهم وهو جار مجرى المثل ، ويحتمل أن يكون تعليلاً لنفي الحرج عنهم و ﴿ المحسنين ﴾ على عمومه أي ليس عليهم حرج لأنه ما

على جنس المحسنين سبيل وهم من جملتهم ، قال ابن الفرس : ويستدل بالآية على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمنها ﴿ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر وفيه إشارة إلى أن كل أحد عاجز محتاج للمغفرة والرحمة إذ الإنسان لا يخلو من تفريط ما فلا يقال : إنه نفى عنهم الإثم أولا فما الاحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب فإن أريد ما تقدم من ذنوبهم دخلوا بذلك الاعتبار في المسيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(46/346)

وقال القاسمى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾

وهم العاجزون مع الصحة ، عن العدو ، وتحمل المشاق ، كالشيخ والصبي ، والمرأة والنحيف ﴿ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ أي : العاجزين بأمر عرض لهم ، كالعمى والعرج والزمانة ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ أي : ولا على الأقوياء والأصحاء الفقراء ، والعاجزين عن الإنفاق في السفر والسلاح ، ﴿ حَرَجٌ ﴾ أي : إثم في القعود ، و الحرج أصل معناه الضيق ، ثم استعمل للذنب ، وهو المراد : ﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : أخلصوا الإيمان والعمل الصالح ، فلم يرجفوا ، ولم يثيروا الفتن وأوصلوا الخيرات

للجاهدين ، وقاموا بصالح بيوتهم .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما سبق ، أي : ليس عليهم جناح ، ولا إلى معاتبتهم سبيل ، ومِنْ مزيدة للتأكيد ، ووضع ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ موضع الضمير ، للدلالة على انتظامهم ، بنصحهم لله ورسوله ، في سلك المحسنين ، أو تعليل لنفي الحرج عنهم ، أي : ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهم من جملتهم أفاده أبو السعود .

قال الشهاب : ليس على محسن سبيل ، كلام جارٍ مجرى المثل ، وهو إما عامّ ، ويدخل فيه من ذكر ، أو مخصوص بهؤلاء ، فالإحسان : النصح لله والرسول ، والإثم المنفي إثم التخلف ، فيكون تأكيداً لما قبله بعينه على أبلغ وجه ، وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب عليه ، أي : لا يمرّ به العاتب ، ويجوز في أرضه ، فما أبعد العتاب عنه ! فتفطن [في المطبوع : فتقطن] للبلاغة القرآنية كما قيل :

(47/346)

سُقْياً لأيامنَا الَّتي سَلَفَتْ إذ لا يَمُرُّ العذُولُ في بَلَدِي

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ تذييل مؤيد لمضمون ما ذكر ، مشير إلى أن بهم

حاجة إلى المغفرة ، وإن كان تخلفهم بعذر – أفاده أبو السعود . .

أي : لأن المرء لا يخلو من تفريط ما ، فلا يقال إنه نفى عنهم الإثم أولاً ، فما الإحتياج إلى المغفرة المقتضية للذنب ؟ أفاده الشهاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 492.491 ﴾

(48/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾

استئناف بياني لجواب سؤال مقدّر ينشأ عن تهويل القعود عن الغزو وما توجّه إلى المخلّفين من الوعيد .

استيفاءً لأقسام المخلّفين من ملوم ومعذور من الأعراب أو من غيرهم .

وإعادة حرف النفي في عطف الضعفاء والمرضى لتوكيد نفي المؤاخذة عن كلّ فريق بخصوصه .

والضعفاء : جمع ضعيف وهو الذي به الضعف وهو وهن القوة البدنية من غير مرض .

والمرضَى : جمع مريض وهو الذي به مرض .

والمرض تغيّر النظام المعتاد بالبدن بسبب اختلال يطرأ في بعض أجزاء المزاج ، ومن المرض المزمنُ كالعمى والزمانة وتقدم في قوله : ﴿ وإن كنتم مرضى أو على سفر ﴾ في سورة النساء (43) .

والحرج : الضِيق ويراد به ضيق التكليف ، أي النهي .

والنصح : العمل النافع للمنصوح وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ﴾ في سورة الأعراف (79) وتقدّم وجه تعديته باللام وأطلق هنا على الإيمان والسعي في مرضاة الله ورسوله والامتثال والسعي لما ينفع المسلمين ، فإنّ ذلك يشبه فعل الموالي الناصح لمنصوحه .

وجملة : ما على المحسنين من سبيل ﴾ واقعة موقع التعليل لنفي الحرج عنهم وهذه الجملة نُظِمت نَظْم الأمثال .

فقوله : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ دليل على علّة محذوفة .

والمعنى ليس على الضعفاء ولا على من عُطف عليهم حرج إذا نصحوا لله ورسوله لأنّهم محسنون غير مسيئين وما على المحسنين من سبيل ، أي مؤاخذة أو معاقبة والمحسنون الذين فَعلوا الإحسان وهو ما فيه النفع التامّ .

والسبيل : أصله الطريق ويطلق على وسائل وأسباب المؤاخذة باللوم والعقاب لأنّ تلك

الوسائل تشبه الطريق الذي يصل منه طالب الحقّ إلى مكان المحقوق ، ولمراعاة هذا الإطلاق جُعل حرف الاستعلاء في الخبر عن السبيل دون حرف الغاية .

(49/346)

ونظيره قوله تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً ﴾ [النساء : 34] وقوله : ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ كلاهما في سورة النساء (90) .

فدخل في المحسنين هؤلاء الذين نصحوا لله ورسوله .

وليس ذلك من وضع المظهر موضع المضمر لأنّ هذا مرمَى آخر هو أسمى وأبعد غاية .

ومِنْ ﴾ مؤكّدة لشمول النفي لكلّ سبيل .

وجملة ﴿ والله غفور رحيم ﴾ تذييل والواو اعتراضية ، أي شديد المغفرة ومن مغفرته أن لم يؤاخذ أهل الأعذار بالقعود عن الجهاد .

شديد الرحمة بالناس ومن رحمته أن لم يكلّف أهل الأعذار ما يَشق عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(50/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

ونحن نعلم أن الضعيف هو من لا يقدر على العمل ، لا بسبب المرض ، بل لكبر سنه ، أو هو صغير السن لا يقدر على الحرب ، وكذلك يعفي الحق المرضى من القتال ؛ وهم من أصيبوا بعاهة طارئة تجعلهم غير قادرين على القتال . وكذلك أعفى الله الذين لا يجدون ما ينفقون ؛ لأنهم من شدة فقرهم لا يستطيعون شراء دابة تحملهم أو معدات قتال يقاتلون بها .

والنفقة – كما نعلم – هي أن تقدر أن تعول نفسك في الذهاب والإقامة مدة الحرب والعودة . وكان على كل مجاهد أن يُعِدَّ مطلوبات الحرب . فالله سبحانه قد رفع الحرج عن الذين لا يجدون ما ينفقونه ، وجعل لهم وظيفة أخرى تخدم الجهاد ، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي : ينصحون ويشجعون أولئك القادرين على الجهاد ؛ ليُحَمِّسوهم على القتال ، ثم يكونون في عون أهل المجاهدين ، ويواجهون الإشاعات والأكاذيب التي يطلقها المنافقون في المدينة ؛ للنيل من الروح المعنوية للمسلمين فيردون عليها ليُخْرِسوا ألسنة السوء .

ثم يقول الحق : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ والسبيل : هو الطريق ،

ومعناها : ما عليهم من إثم أو لوم أو توبيخ أو تعنيف . وكل هذا لا يجد سبيلاً على المحسنين ، ولم يقل الحق : " مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ " ؛ لأن السبيل يمر عليهم ولا ينتهي إليهم بلوم ؛ لأن هناك فارقاً بين أن يمر عليهم وأن ينتهي إليهم ، فالمرور أمر عادي ، وليس هو الغاية ؛ لذلك يوضح الحق أنه لا يوجد سبيل إليهم ولا إلى عتابهم ؛ لأنهم أدوا كل ما تطلّبه الجهاد منهم ، ولكنهم لم يذهبوا إلى ميدان القتال ؛ لأسباب خارجة عن إراداتهم ، وفعلوا كل ما يتطلّبه الإيمان .

(51/346)

أما إذا كان المجاهد لديه ما ينفقه ، ولكنه لا يملك راحلة يركبها ، فعليه أن يذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلب منه راحلة ، فإذا قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فهذا إذن بالقعود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(52/346)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم والدارقطني في الافراد وابن مردويه عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم براءة ، فكنت أكتب ما أنزل الله عليه ، فإني لواضع القلم على أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ليس على الضعفاء . . . ﴾ الآية . قال نزلت في عائذ بن عمرو وفي غيره .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : نزل من عند قوله ﴿ عفا الله عنك ﴾ [التوبة : 43] إلى قوله ﴿ ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم ﴾ في المنافقين .

أما قوله تعالى : ﴿ إذا نصحوا لله ورسوله ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد في الزهد والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم عن أبي ثمامة الصائدي قال : قال الحواريون : يا روح الله أخبرنا من الناصح لله ؟ قال : الذي

يؤثر حق الله على حق الناس ، وإذا حدث له أمران أو بدا له أمر الدنيا وأمر الآخرة ، بدأ الذي للآخرة ثم تفرغ للذي الدنيا .

وأخرج مسلم وأبو داود والنسائي عن تميم الداري " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الدين النصيحة . قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

وأخرج ابن عدي عن ابن عمر " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الدين النصيحة . قيل : لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم " .

(53/346)

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي عن جرير قال " بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والنصح لكل مسلم " .

وأخرج أحمد والحكيم الترمذي عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قال الله عز وجل : أحب ما تعبدني به عبدي إلى النصح لي " .

وأخرج أحمد في الزهد عن وهب بن منبه . أن راهباً قال لرجل : أوصيك بالنصح لله نصح الكلب لأهله ، فإنهم يجيعونه ويطردونه ويأبى إلا أن يحوطهم وينصحهم .

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد ، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين ، ألم تسمع أن الله يقول ﴿ لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر ﴾ [النساء : 95] فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولي الضرر ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قفل من غزو تبوك ، فأشرف على المدينة قال : لقد تركتم بالمدينة رجالاً ما سرتم في مسير ، ولا أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً ، إلا كانوا معكم فيه . قالوا : يا رسول الله وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال : حبسهم العذر " .

وأخرج أحمد ومسلم وابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا شركوكم في الأجر حبسهم المرض " .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ والله لأهل الاساءة ﴿ غفور رحيم ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾

وقرأ أبو حيوة : " نصحوا اللَّهَ " بدون لام ، وقد تقدم أن " نَصَح " يتعدَّى بنفسِه وباللام .

وقوله : ﴿ مِن سَبِيلٍ ﴾ فاعل بالجارِّ لاعتماده على النفي ، ويجوز أن يكونَ مبتدأً والجارُّ قبلَه خبرُه ، وعلى كلا القولين ف " مِنْ " مزيدةٌ فيه ، أي : ما على المحسنين سبيل .

قال بعضُهم : وفي هذه الآيةِ نوعٌ من البديع يسمى التمليح وهو : أن يُشارَ إلى قصةٍ مشهورة أو مثلٍ سائرٍ أو شعر نادر في فحوى كلامك من غير ذِكْره ، ومنه قوله :

2529 اليومَ خمرٌ ويبدو بعده خَبَرٌ . . . والدهرُ مِنْ بين إنعامٍ وإبْآسِ

يشير لقول امرىء القيس لَمَّا بلغه قَتْلُ أبيه : " اليومَ خمرٌ وغداً أمره " ، وقول الآخر :

2530 فواللَّهِ ما أدري أأحلامُ نائمٍ . . . أَلَمَّت بنا أم كان في الركب يوشَعُ

يُشير إلى قصة يوشع عليه السلام واستيقافه الشمس . وقول الآخر :

2531 لعَمْرٌو مع الرَّمْضاءِ والنارُ تَلْتَظِي . . . أرقُّ وأحفى منكَ في ساعة الكَرْبِ

أشار إلى البيت المشهور :

2532 المستجيرُ بعمروٍ عند كُرْبته . . . كالمستجيرِ مِنَ الرَّمْضاءِ بالنار

وكأن هذا الكلامَ وهو " ما على المحسنين من سبيل " اشتهُر ما هو بمعناه بين الناس ، فأشار إليه مِنْ غير ذكر لفظه . ولمَّا ذكر الشيخ التمليح لم يُقَيِّده بقوله " من غير ذكره " ولا بد منه ، لأنه إذا ذكره بلفظه كان اقتباساً وتضميناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 98.97 ﴾

(55/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) ﴾

قيمةُ الفقرِ تظهر عند سقوط الأمر ، ولو لم يكن في القلة خيرٌ إلا هذا لكفي لها بهذا فضيلة ؛ بقوا في أوطانهم ولم يتوجَّه عليهم بالجهادِ أمرٌ ، ولا بمفارقة المنزل امتحان . واكتفى منهم بنصيحة القلب ، واعتقادِ أَنْ لو قدروا لخرجوا .

وأصحابُ الأموال امتُحِنوا – اليومَ – بِجَمْعِهَا ثم بِحِفْظِهَا ، ثم مَلَكَتْهُم محنتُها حتى شقَّتْ

عليهم الغيبةُ عنها ، ثم توجَّه اللومُ عليهم في تَرْكِ إنفاقها ، ثم ما يعقبه – غداً من الحسابِ والعذاب يربو على الجميع .

وإنَّما رفع الحَرَجَ عن أولئك بشرطٍ وهو قوله : ﴿ إِذَا نَصَحُوا للهِ وَرَسُولِهِ ﴾ فإذا لم يوجد هذا الشرطُ فالحرجُ غيرُ مرتفع عنهم .

قوله : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ﴾ : المُحْسِنُ الذي لا تكون للشرع منه مطالبة لا في حقِّ الله ولا في حقِّ الخَلْق .

ويقال هو الذي يعلم أَنَّ الحادثاتِ كلَّها من الله تعالى .

ويقال هو الذي يقوم بحقوقِ ما نِيط به أَمْرُه ؛ فلو كان طيرٌ في حكمه وقَصَّرَ في عَلَفِه – لم يكن محسناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 53.54 ﴾

(56/346)

قوله تعالى ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم عطف على ذلك قوله : ﴿ ولا على الذين إذا ﴾ وأكد المعنى بقوله : ﴿ ما أتوك ﴾ أي ولم يأتوا بغير قصدك راغبين في الجهاد معك ﴿ لتحملهم ﴾ وهم لا يجدون محملاً ﴿ قلت ﴾ أي أتوك قائلاً أو حال قولك ، " وقد " مضمرة كما قالوا في ﴿ حصرت صدورهم ﴾ [النساء : 90] ﴿ لا أجد ما ﴾ أي شيئاً ﴿ أحملكم عليه ﴾ وأجاب ﴿ إذا ﴾ بقوله ويجوز أن يكون استئنافاً و " قلت " هو الجواب ﴿ تولوا ﴾ أي عن سماع هذا القول منك ﴿ وأعينهم تفيض ﴾ أي تمتلىء فتسيل ، وإسناد الفيض إليها أبلغ من حيث أنها جعلت كلها دمعاً : ثم بين الفائض بقوله : ﴿ من الدمع ﴾ أي دمعاً والأصل : يفيض دمعها ، ثم علل فيضها بقوله ؛ ﴿ حزناً ﴾ ثم علل حزنهم بقوله : ﴿ ألا يجدوا ﴾ أي لعدم وجدانهم ﴿ ما ينفقون ﴾ فحزنهم في الحقيقة على فوات مرافقتك والكون في حزبك ، وهذه قصة الكبائين صرح بها وإن كانوا داخلين في ﴿ الذين لا يجدون ﴾ إظهاراً لشرفهم وتقريراً لأن الناصح - وإن اجتهد - لا غنى له عن العفو حيث بين أنهم - مع اجتهادهم في تحصيل الأسباب وتحسرهم عند فواتها بما أفاض أعينهم - ممن لا سبيل عليه أو ممن لا حرج عليه المغفور له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 374 . 375 ﴾

(57/346)

فصل

قال الفخر :

واعلم أنه تعالى لما ذكر الضعفاء والمرضى والفقراء ، بين أنه يجوز لهم التخلف عن الجهاد بشرط أن يكونوا ناصحين لله ورسوله ، وبين كونهم محسنين ، وأنه ليس لأحد عليهم سبيل ، ذكر قسماً رابعاً من المعذورين ، فقال : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ ﴾ .

فإن قيل : أليس أن هؤلاء داخلون تحت قوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ فما الفائدة في إعادته ؟

قلنا : الذين لا يجدون ما ينفقون ، هم الفقراء الذين ليس معهم دون النفقة ، وهؤلاء المذكورون في الآية الأخيرة هم الذين ملكوا قدر النفقة ، إلا أنهم لم يجدوا المركوب ، والمفسرون ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهاً : الأول : قال مجاهد : هم ثلاثة إخوة : معقل ، وسويد ، والنعمان بنو مقرن ، سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يحملهم على الخفاف المدبوغة ، والنعال المخصوفة ، فقال عليه السلام : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا وهم يبكون ، والثاني : قال الحسن : نزلت في أبي موسى الأشعري وأصحابه ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه ، ووافق ذلك منه غضباً ، فقال عليه السلام : " والله ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا وهم يبكون فدعاهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، فأعطاهم ذوداً خير الذود ، فقال أبو موسى : ألست حلفت يا رسول الله ؟ فقال : " أما أني إن شاء الله لا أحلف بيمين فأرى غيرها خيراً منها ، إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يمين "

والرواية الثالثة : قال ابن عباس رضي الله عنهما : سألوه أن يحملهم على الدواب فقال عليه السلام : " لا أجد ما أحملكم عليه " لأن الشقة بعيدة .

والرجل يحتاج إلى بعيرين ، بعير يركبه وبعير يحمل عليه ماءه وزاده .

(58/346)

قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً ﴾ كقولك : تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 128 . 129 ﴾

(59/346)

وقال ابن العربى فى الآيتين :

قَوْله تَعَالَى ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : فِيهِ خَمْسَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : نَزَلَتْ فِي الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ .

الثَّانِي : نَزَلَتْ فِي بَنِي مُقَرِّنٍ مِنْ مُزَيْنَةَ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

الثَّالِثُ : نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَزْرَقِ ، وَابْنِ أَبِي لَيْلَى .

الرَّابِعُ : نَزَلَتْ فِي سَبْعَةٍ مِنْ قَبَائِلَ شَتَّى ؛ قَالَهُ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ .

الْخَامِسُ : فِي أَبِي مُوسَى ، وَأَصْحَابِهِ ؛ قَالَهُ الْحَسَنُ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ .

ثَبَتَ أَنَّ ﴿ أَبَا مُوسَى قَالَ : أَتَيْنَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَشْعَرِيِّينَ ، فَاسْتَحْمَلْنَاهُ ، فَأَبَى أَنْ يَحْمِلَنَا ، فَاسْتَحْمَلْنَاهُ فَحَلَفَ أَلَّا يَحْمِلَنَا ، ثُمَّ لَمْ يَلْبَثِ النَّبِيُّ أَنْ أُتِيَ بِنَهْبِ إِبِلٍ ، فَأَمَرَ لَنَا بِخَمْسِ ذَوْدٍ ، فَلَمَّا قَبَضْنَاهَا قُلْنَا : تَغَفَّلْنَا النَّبِيَّ يَمِينَهُ ، لَا نُفْلِحُ بَعْدَهَا

أَبدًا ، فَأَتَيْتُهُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّكَ حَلَفْتَ أَلَّا تَحْمِلَنَا ، وَقَدْ حَمَّلْتَنَا .

قَالَ : أَجَلْ ، وَلَكِنِّي لَا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا ﴾ .

(60/346)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي الْمَعْنَى : إِنَّ اللَّهَ لَمَا اسْتَنْفَرَهُمْ لِغَزْوِ الرُّومِ ، وَدَعَاهُمْ إِلَى الْخُرُوجِ لِغَزْوَةِ تَبُوكَ بَادَرَ الْمُخْلِصُونَ ، وَتَوَقَّفَ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُتَثَاقِلُونَ ، وَجَعَلُوا يَسْتَأْذِنُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّخَلُّفِ ، وَيَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ بِأَعْذَارٍ مِنْهَا كُفْرٌ ، كَقَوْلِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ : ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي بِبَنَاتِ بَنِي الْأَصْفَرِ ؛ فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ عَلَى الصَّبْرِ عَنْهُنَّ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ﴾ .

وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : ﴿ لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ .

وَقَالَ فِي أَهْلِ الْعُذْرِ الصَّحِيحِ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ﴾ إِلَى : ﴿ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

وَهُمْ الَّذِينَ صَدَقُوا فِي حَالِهِمْ ، وَكَشَفُوا عَنْ عُذْرِهِمْ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الَّتِي بَيَّنَ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾ .

فَأَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنَّ النَّاسَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ : صِنْفٌ مُعَذَّرٌ ، وَهُوَ الْمُقَصِّرُ .

وَصِنْفٌ ذُو عُذْرٍ .

وَصِنْفٌ لَمْ يَعْتَذِرْ بِعُذْرِهِ ، وَلَا أَظْهَرَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ ، بَلْ أَعْرَضَ عَنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، يُقَالُ : عُذِّرَ الرَّجُلُ بِتَشْدِيدِ الذَّالِ : إذَا قَصَّرَ ، وَأَعْذَرَ إذَا أَبَانَ عَنْ عُذْرِهِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَدْخُلُ عَلَى صَاحِبِهِ .

(61/346)

وَقَدْ قُرِئَ الْمُعْذِرُونَ بِإِسْكَانِ الْعَيْنِ ، وَتَخْفِيفِ الذَّالِ ، وَبِذَلِكَ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ النَّاسِ ؛ لَكِنْ يَكْشِفُ الْمَعْنَى فِيهِ حَقِيقَةُ الْحَالِ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ أَبْدَوْا عَنْ عُذْرٍ صَحِيحٍ ، أَوْ عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ عُذْرِهِمْ فِيمَا لَمْ يَبْدُ عَلَيْهِمْ دَلِيلٌ مِنْ حَالِهِمْ .

وَالْعَجَبُ مِنْ الْقَاضِي أَبِي إسْحَاقَ يَقُولُ : إنَّ سِيَاقَ الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنَّهُمْ الَّذِينَ لَا عُذْرَ لَهُمْ : وَأَنَّهُمْ مَذْمُومُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ جَاءُوا لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَلَوْ كَانُوا مِنْ الضُّعَفَاءِ أَوْ الْمَرْضَى لَمْ يَحْتَاجُوا أَنْ يَسْتَأْذِنُوا ؛ وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ ؛ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ يَسْتَأْذِنُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُعْلِمُهُ بِحَالِهِ ، فَإِنْ كَانَ مَرْئِيًّا فَالْعِيَانُ شَاهِدٌ لِنَفْسِهِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَرْئِيٍّ مِثْلَ عَجْزِ الْبَدَنِ وَقِلَّةِ

الْمَالِ ، فَاللَّهُ شَهِيدٌ بِهِ ، وَهُوَ أَعْدَلُ الشَّاهِدِينَ ، يُلْقِي الْيَقِينَ عَلَى رَسُولِهِ بِصِدْقِ عُذْرِ الْمُعْتَذِرِينَ إِلَيْهِ ، وَيَخْلُقُ لَهُ الْقَبُولَ فِي قَلْبِهِ لَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ : يُرِيدُ مِنْ طَرِيقٍ إلَى الْعُقُوبَةِ عَلَى فِعْلِهِ ؛ لِأَنَّهُ إحْسَانٌ فِي نَفْسِهِ ، وَالْحَسَنُ مَا لَمْ يَنْهَ عَنْهُ الشَّرْعُ ، وَالْقَبِيحُ مَا نَهَى عَنْهُ وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ هَاهُنَا وَفِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : هَذَا عُمُومٌ مُمَهَّدٌ فِي الشَّرِيعَةِ ، أَصْلٌ فِي رَفْعِ الْعِقَابِ وَالْعِتَابِ عَنْ كُلِّ مُحْسِنٍ .

(62/346)

قَالَ عُلَمَاؤُنَا فِي الَّذِي يَقْتَصُّ مِنْ قَاطِعِ يَدِهِ فَيُفْضِي ذَلِكَ بِالسِّرَايَةِ إلَى إتْلَافِ نَفْسِهِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَلْزَمُهُ الدِّيَةُ .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالشَّافِعِيُّ : لَا دِيَةَ عَلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ مُحْسِنٌ فِي اقْتِصَاصِهِ مِنْ الْمُعْتَدِي عَلَيْهِ ، فَلَا سَبِيلَ إلَيْهِ .

وَكَذَلِكَ إذَا صَالَ فَحَلَّ عَلَى رَجُلٍ فَقَتَلَهُ فِي دَفْعِهِ عَنْ نَفْسِهِ فَلَا ضَمَانَ عَلَيْهِ عِنْدَنَا ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : يَلْزَمُهُ لِمَالِكِهِ قِيمَتُهُ ، وَكَذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الشَّرِيعَةِ كُلِّهَا .

وَقَدْ أَوْمَأْنَا إلَى ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَقَرَّرْنَا هَذَا الْأَصْلَ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

(63/346)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْك لِتَحْمِلَهُمْ قُلْت لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ : أَقْوَى دَلِيلٍ عَلَى قَبُولِ عُذْرِ الْمُعْتَذِرِ بِالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ عَنْ التَّخَلُّفِ فِي الْجِهَادِ إذَا ظَهَرَ مِنْ حَالِهِ صِدْقُ الرَّغْبَةِ ، مَعَ دَعْوَى الْمُعْجِزَةِ ، كَإِفَاضَةِ الْعَيْنِ ، وَتَغْيِيرِ الْهَيْئَةِ ؛ لِقَوْلِهِ : ﴿ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ الْآيَةَ ، وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَا يَلْزَمُ الْفَقِيرَ الْخُرُوجُ فِي الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ تَعْوِيلًا عَلَى النَّفَقَةِ مِنْ الْمَسْأَلَةِ ، حَاشَا مَا قَالَهُ عُلَمَاؤُنَا دُونَ سَائِرِ الْفُقَهَاءِ : إنَّ ذَلِكَ إذَا كَانَتْ عَادَةً لَزِمَهُ ذَلِكَ ، وَخَرَجَ عَلَى الْعَادَةِ ؛ وَهُوَ صَحِيحٌ ؛ لِأَنَّ إذَا لَمْ يَتَغَيَّرْ يَتَوَجَّهُ الْفَرْضُ عَلَيْهِ تَوَجُّهُهُ عَلَيْهِ ، وَلَزِمَهُ أَدَاؤُهُ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ : مِنْ قَرَائِنِ الْأَحْوَالِ مَا يُفِيدُ الْعِلْمَ الضَّرُورِيَّ ، وَمِنْهَا مَا يَحْتَمِلُ التَّرْدِيدَ ؛ فَالْأَوَّلُ كَمَنْ يَمُرُّ عَلَى دَارٍ قَدْ عَلَا فِيهَا النَّعْيُ ، وَخُمِشَتْ فِيهَا الْخُدُودُ ، وَحُلِقَتْ الشُّعُورُ ، وَسَلَقَتْ الْأَصْوَاتُ ، وَخُرِقَتْ الْجُيُوبُ ، وَنَادَوْا عَلَى صَاحِبِ الدَّارِ بِالثُّبُورِ ، فَيُعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ .

(64/346)

وَأَمَّا الثَّانِي فَكَدُمُوعِ الْأَيْتَامِ عَلَى أَبْوَابِ الْحُكَّامِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إِخْوَةِ يُوسُفَ : ﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴾ وَهُمْ الْكَاذِبُونَ ، وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ، وَمَعَ هَذَا فَإِنَّهَا قَرَائِنُ يُسْتَدَلُّ بِهَا فِي الْغَالِبِ ، وَتَنْبَنِي عَلَيْهَا الشَّهَادَةُ فِي الْوَقْتِ وَغَيْرِهِ بِنَاءً عَلَى ظَوَاهِرِ الْأَحْوَالِ وَغَالِبِهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(65/346)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين ﴾

يعني : ولا حرج على الذين .

﴿ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ على الجهاد .

روى أسباط ، عن السدي أنه قال : أقبل رجلان من الأنصار أحدهما عبد الله بن الأزرق ، والآخر أبو ليلى ، فسألاه أن يحملهما ، ﴿ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ .

وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : أتاه سبعة نفر من أصحابه ، سالم بن عمير ، وحزم بن عمرو ، وعبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، وسليمان بن صخر ، وعتبة بن

زيد ، وعمرو بن عتبة ، وعبد الله بن عمرو المزني يستحملونه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ " .

﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ، يعني : تسيل ﴿ مِنَ الدمع حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ في الخروج إلى الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(66/346)

وقال الثعلبى :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ﴾

قال قتادة نزلت في عايد بن عمرو وأصحابه ، وقال الضحاك : في عبد الله بن زايد وهو ابن أم مكتوم وكان ضرير البصر فقال : يا نبي الله إني شيخ ضرير البصر خفيف الحال نحيف الجسم وليس لي قائدة هل لي رخصة في التخلف عن الجهاد ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ نزلت في البكائين وكانوا سبعة : معقل بن يسار وصخر بن خنساء وهو الذي واقع امرأته في رمضان فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكفّر وعبد الله بن كعب الأنصاري وعلبة بن زيد

الأنصاري وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن معقل أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله إن الله عزّ وجلّ قد ندبنا للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزوا معك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فتولوا وهم يبكون فذلك قوله تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ قال مجاهد : نزلت هذه الآية (في عبد الله وعبد الرحمن وعقيل والنعمان وسويد وسنان) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(67/346)

وقال الماوردى :

﴿ وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾

فيه وجهان : أحدهما : أنه لم يجد لهم زاداً لأنهم طلبوا ما يتزودون به ، قاله أنس بن مالك .

والثاني : أنه لم يجد لهم نعالاً لأنهم طلبوا النعال ، قاله الحسن .

روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في هذه الغزاة وهي تبوك " أَكْثِرُوا مِنَ النِّعَالِ فَإِنَّ الرَّجُلَ لاَ يَزَالُ رَاكِباً مَا كَانَ مُنْتَعِلاً

" . وفيمن نزلت فيه خمسة أقاويل :

أحدها : في العرباض بن سارية ، قاله يحيى بن أبي المطاع .

والثاني : في عبد الله بن الأزرق وأبي ليلى ، قاله السدي .

والثالث : في بني مقرّن من مُزينة ، قاله مجاهد .

والرابع : في سبعة من قبائل شتى ، قاله محمد بن كعب .

والخامس : في أبي موسى وأصحابه ، قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(68/346)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾ الآية

اختلف فيمن نزلت هذه الآية فقيل نزلت في عرباض بن سارية ، وقيل نزلت في عبد الله بن مغفل ، وقيل في عائذ بن عمرو ، وقيل في أبي موسى الأشعري ورهطه ، وقيل في بني مقرن ، وعلى هذا جمهور المفسرين ، وقيل نزلت في سبعة نفر من بطون شتى ، فهم البكاؤون وهم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف ، وحرمي بن عمرو من بني واقف ، وأبو ليلى عبد الرحمن من بني مازن بن النجار ، وسليمان بن صخر من بني المعلى ، وأبو رعياة عبد

الرحمن بن زيد من بني حارثة وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه ، وعمرو بن غنمة من بني سلمة ، وعائذ بن عمرو المزني ، وقيل عبد الله بن عمرو المزني قال هذا كله محمد بن كعب القرظي ، وقال مجاهد : البكاؤون هم بنو مكدر من مزينة .

ومعنى قوله : ﴿ لتحملهم ﴾ أي على ظهر يركب ويحمل عليه الأثاث ، وقال بعض الناس : إنما استحملوه النعال ، ذكره النقاش عن الحسن بن صالح ، وهذا بعيد شاذ ، والعامل في ﴿ إذا ﴾ يحتمل أن يكون ﴿ قلت ﴾ ، ويكون قوله ﴿ تولوا ﴾ مقطوعاً .

ويحتمل أن يكون العامل ﴿ تولوا ﴾ ويكون تقدير الكلام فقلت ، أو يكون قوله ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ بمنزلة وجدوك في هذه الحال .

وفي الكلام اختصار وإيجاز ولا يدل ظاهر الكلام على ما اختصر منه ، وقال الجرجاني في النظم له إن قوله ﴿ قلت ﴾ في حكم المعطوف تقديره وقلت ، و ﴿ حزناً ﴾ نصب على المصدر ، وقرأ معقل بن هارون " لنحملهم " بنون الجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(69/346)

وقال ابن الجوزى :

و﴿ الذين لا يجدون ﴾ هم المُقِلُّون ، والحرج : الضيق في القعود عن الغزو بشرط النصح لله ولرسوله ، وفيه وجهان .

أحدهما : أن المعنى : إذا برئوا من النفاق .

والثاني : إذا قاموا بحفظ الذراري والمنازل .

فإن قيل : بالوجه الأول ، فهو يعم جميع المذكورين .

وإن قيل بالثاني ، فهو يخص المقلِّين .

وإنما شُرط النصح ، لأن من تخلف بقصد السعي بالفساد ، فهو مذموم ؛ ومن النصح لله : حث المسلمين على الجهاد ، والسعي في إصلاح ذات بينهم ، وسائر ما يعود باستقامة الدين .

قوله تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ أي : من طريق بالعقوبة ، لأن المحسن قد سد باحسانه باب العقاب .

قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ نزلت في البكَّائين ، واختُلف في عددهم وأسمائهم ، فروى أبو صالح عن ابن عباس قال : هم ستة : عبد الله بن مغفَّل ، وصخر بن سلمان ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وعُلَيَّة بن زيد الانصاري ، وسالم بن عُمير ، وثعلبة بن عنمة ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم ، فقال : " لا أجد

ما أحملكم عليه " فانصرفوا باكين .

وقد ذكر محمد بن سعد كاتب الواقدي مكان صخر بن سلمان : سلمة بن صخر ، ومكان ثعلبة بن عنمة : عمرو بن عنمة .

قال : وقيل : منهم معقل بن يسار .

وروى أبو إسحاق عن أشياخ له : أن البكَّائين سبعة من الأنصار : سالم بن عُمير ، وعُلَية بن زيد ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، وعمرو بن الحُمام بن الجموح ، وعبد الله بن مغفَّل ، وبعض الناس يقول : بل ، عبد الله بن عمرو المزني ، وعِرباض بن سارية ، وهرميّ ابن عبد الله أخو بني واقف .

(70/346)

وقال مجاهد : نزلت في بني مقرّن ، وهم سبعة ؛ وقد ذكرهم محمد بن سعد فقال : النعمان بن عمرو بن مقرن ، وقال أبو خيثمة : هو النعمان بن مقرن ، وسويد بن مقرن ، ومعقل بن مقرّن ، وسنان بن مقرّن ، وعقيل بن مقرّن ، وعبد الرحمن بن مقرن ، وعبد الرحمن بن عقيل بن مقرن ، وقال الحسن البصري : نزلت في أبي موسى وأصحابه .

وفي الذي طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحملهم عليه ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه الدواب ، قاله ابن عباس .

والثاني : الزاد ، قاله أنس بن مالك .

والثالث : النعال قاله الحسن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(71/346)

وقال القرطبى فى الآيتين :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفآء ﴾ الآية .

أصل في سقوط التكليف عن العاجز ؛ فكل من عجز عن شيء سقط عنه ، فتارة إلى بدل هو فعل ، وتارة إلى بدل هو غرم ، ولا فرق بين العجز من جهة القوة أو العجز من جهة المال ؛ ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] .

وروى أبو داود عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلاَّ وهم معكم فيه" .

قالوا ؛ يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ قال ؛ "حبسهم العذر" " فبيّنت هذه الآية مع ما ذكرنا من نظائرها أنه لا حرج على المعذورين ، وهم قوم عرف عذرهم كأرباب الزمانة والهرم والعمى والعرج ، وأقوام لم يجدوا ما ينفقون ؛ فقال : ليس على هؤلاء حرج.

﴿ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ إذا عرفوا الحق وأحبوا أولياءه وأبغضوا أعداءه قال العلماء : فعذر الحق سبحانه أصحاب الأعذار ، وما صبرت القلوب ؛ فخرج ابن أُم مكتوم إلى أُحُد وطلب أن يعطى اللواء فأخذه مصعب بن عمير ، فجاء رجل من الكفار فضرب يده التي فيها اللواء فقطعها ، فأمسكه باليد الأُخرى فضرب اليد الأُخرى فأمسكه بصدره وقرأ ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرسل ﴾ [آل عمران : 144] .

هذه عزائم القوم .

والحق يقول : "لَيْسَ على الأعمى حَرَجٌ" وهو في الأوّل .

"وَلاَ على الأَعْرَجِ حَرَجٌ" وعمرو بن الجَموح من نقباء الأنصار أعرج وهو في أوّل الجيش .

قال له الرسول عليه السَّلام : " إن الله قد عذرك " فقال : والله لأحفرن بعرجتي هذه في الجنة ؛ إلى أمثالهم حسب ما تقدّم في هذه السورة من ذكرهم رضي الله عنهم .

وقال عبد الله بن مسعود : ولقد كان الرجل يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف .

الثانية قوله تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُواْ ﴾ النصح إخلاص العمل من الغش .

ومنه التوبة النصوح .

قال نَفْطَوَيْه : نصح الشيء إذا خلص .

ونصح له القول أي أخلصه له .

وفي صحيح مسلم عن تميم الدّاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " "الدين النصيحة" ثلاثاً .

قلنا لمن ؟ قال : "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامّتهم" " قال العلماء : النصيحة لله إخلاص الإعتقاد في الوحدانية ، ووصفُه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائص والرغبة في مَحابّه والبعد من مساخطه .

والنصيحة لرسوله : التصديق بنبوّته ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه ، وتوقيره ، ومحبته ومحبة آل بيته ، وتعظيمه وتعظيم سنته ، وإحياؤها

بعد موته بالبحث عنها ، والتفقه فيها والذبّ عنها ونشرها والدعاء إليها ، والتخلّق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم .

وكذا النصح لكتاب الله : قراءته والتفقه فيه ، والذب عنه وتعليمه وإكرامه والتخلق به .

والنصح لأئمة المسلمين : ترك الخروج عليهم ، وإرشادهم إلى الحق وتنبيههم فيما أغفلوه من أُمور المسلمين ، ولزوم طاعتهم والقيام بواجب حقهم .

والنصح للعامة : ترك معاداتهم .

وإرشادُهم وحب الصالحين منهم ، والدعاء لجميعهم وإرادة الخير لكافتهم .

وفي الحديث الصحيح : " مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى " .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ ﴿ مِن سَبِيلٍ ﴾ في موضع رفع اسم "ما" اي من طريق إلى العقوبة .

وهذه الآية أصل في رفع العقاب عن كل محسن .

(73/346)

ولهذا قال علماؤنا في الذي يقتص مِن قاطع يده فيفضي ذلك في السراية إلى إتلاف نفسه : إنه لا دية له ؛ لأنه محسن في اقتصاصه من المعتدِي عليه .

وقال أبو حنيفة : تلزمه الدّية .

وكذلك إذا صال فحل على رجل فقتله في دفعه عن نفسه فلا ضمان عليه ؛ وبه قال الشافعيّ .

وقال أبو حنيفة ؛ تلزمه لمالكه القِيمة .

قال ابن العربيّ : وكذلك القول في مسائل الشريعة كلها .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ روي أن الآية نزلت في عِرباض بن سارِية .

وقيل : نزلت في عائذ بن عمرو .

وقيل : نزلت في بني مُقَرِّن وعلى هذا جمهور المفسرين وكانوا سبعة إخوة ، كلهم صحبوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وليس في الصحابة سبعة إخوة غيرهم ، وهم النعمان ومعقِل وعقيل وسويد وسنان وسابع لم يُسَمّ .

بنو مقرّن المُزنيون سبعة إخوة هاجروا وصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يشاركهم فيما ذكره ابن عبد البر وجماعة في هذه المكرمة غيرهم .

وقد قيل : إنهم شهدوا الخندق كلهم .

وقيل : نزلت في سبعة نفر من بطون شتّى ، وهم البكّاءون أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ليحملهم ، فلم يجد ما يحملهم عليه ؛ ف ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ فسُمّوا البكائين .

وهم سالم بن عمير من بني عمرو بن عوف وعُلْبة بن زيد أخو بني حارثة .

وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن بن النجّار .

وعمرو بن الحُمَام من بني سلمة .

وعبد الله بن المغَفّل المزنيّ ، وقيل : بل هو عبد الله بن عمرو المزني .

وهَرَميّ بن عبد الله أخو بني واقف ، وعِرْبَاض بن سارية الفزاري ، هكذا سماهم أبو عمر في كتاب الدرر له .

وفيهم اختلاف .

قال القشيريّ : معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن غَنَمة ، وعبد الله بن مغَفّل وآخر .

(74/346)

قالوا : يا نبي الله ، قد ندبتنا للخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة نَغْزُ معك .

فقال : " لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ " فتولّوْا وهم يبكون .

وقال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب ، وكان الرجل يحتاج إلى بعيرين ، بعير يركبه وبعير يحمل ماءه وزاده لبعد الطريق .

وقال الحسن : " نزلت في أبي موسى وأصحابه أتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ليستحملوه ، ووافق ذلك منه غضباً فقال : "والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا يبكون ؛ فدعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم ذَوْدا .

فقال أبو موسى : ألست حلفت يا رسول الله ؟ فقال : "إني إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلاَّ أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني " " .

قلت : وهذا حديث صحيح أخرجه البخاريّ ومسلم بلفظه ومعناه .

وفي مسلم : فدعا بنا فأمر لنا بخمس ذَوْدٍ غرِّ الذُّرَى . . .

الحديث .

وفي آخره : " فانطلِقوا فإنما حملكم الله " وقال الحسن أيضاً وبكر بن عبد الله : نزلت في عبد الله بن مُغَفَّل المُزَنيّ ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم يستحمله .

قال الجُرْجانيّ : التقدير أي ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم وقلت لا أجد .

فهو مبتدأ معطوف على ما قبله بغير واو ، والجواب "تَوَلَّوْا" .

﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ الجملة في موضع نصب على الحال .

﴿ حَزَناً ﴾ مصدر .

﴿ أَلاَّ يَجِدُواْ ﴾ نصب بأن .

وقال النحاس : قال الفراء يجوز أن لا يجدون ؛ يجعل لا بمعنى ليس .

وهو عند البصريين بمعنى أنهم لا يجدون .

الخامسة والجمهور من العلماء على أن من لا يجد ما ينفقه في غزوه أنه لا يجب عليه .

وقال علماؤنا : إذا كانت عادته المسألة لزمه كالحج وخرج على العادة لأن حاله إذا لم تتغير يتوجه الفرض عليه كتوجهه على الواجد .

والله أعلم .

(75/346)

السادسة في قوله تعالى : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ ما يستدل به على قرائن الأحوال .

ثم منها ما يفيد العلم الضروريّ ، ومنها ما يحتمل الترديد .

فالأوّل كمن يمرّ على دار قد علا فيها النعي وخُمشت الخدود وحُلقت الشعور وسُلِقت الأصوات وخرقت الجيوب ونادوا على صاحب الدار بالثُّبور ؛ فيُعلم أنه قد مات .

وأما الثاني فكدموع الأيتام على أبواب الحُكّام ؛ قال الله تعالى مخبراً عن إخوة يوسف عليه السَّلام : ﴿ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16] .

وهم الكاذبون ؛ قال الله تعالى مخبراً عنهم : ﴿ وَجَآءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ [يوسف : 18] .

ومع هذا فإنها قرائن يستدل بها في الغالب فتبنى عليها الشهادات بناء على ظواهر الأحوال وغالبها .

وقال الشاعر :

إذا اشتبكت دموع في خدود . . .

تبيّن مَن بَكَى ممن تَبَاكَى

وسيأتي هذا المعنى في "يوسف" مستوفى إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(76/346)

وقال الخازن :

ولما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة من المعذورين أتبعه بذكر قسم رابع وهو قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾ يعني ولا حرج ولا إثم في التخلف عنك على الذين إذا ما أتوك ﴿ لتحملهم ﴾ يعني يسألونك الحملان ليبلغوا إلى غزو عدوك وعدوهم والجهاد معك يا محمد .

قال ابن إسحاق : نزلت في البكائين وكانوا سبعة .

ونقل الطبري عن محمد بن كعب وغيره قالوا : جاء ناس من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يستحملونه فقال : لا أجد ما أحملكم عليه فأنزل الله هذه الآية وهم سبعة نفر من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ومن بني واقف جرمي بن عمير ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ومن بني المعلى سلمان بن صخر ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد وهو الذي تصدق بعرضه فقبل الله منه ذلك ومن بني سلمة عمرو بن عنمة وعبد الله بن عمر المزني .

وقال البغوي : هم سبعة نفس سمعوا البكائين معقل بن يسار ، وصخر بن خنساء ، وعبد الله بن كعب الأنصاري ، وعلية بن زيد الأنصاري ، وسالم بن عمير ، وثعلبة بن عنمة ، وعبد الله بن مغفل المزني ، قال : أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : يا رسول الله إن الله قد ندبنا إلى الخروج معك فاحملنا .

فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " وقال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة إخوة .

معقل ، وسويد ، والنعمان بنو مقرن .

وقيل : نزلت في العرباض بن سارية ، ويحتمل أنها نزلت في كل ما ذكر .

قال ابن عباس : سألوه أن يحملهم على الدواب .

وقيل : بل سألوه أن يحملهم على الخفاف المرفوعة والنعال المخصوفة فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " لا أجد ما أحملكم عليه " ، فولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين .

(77/346)

فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع ﴾ قال صاحب الكشاف : وكقولك تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض جمعها لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ومن البيان كقولك أفديك من رجل ﴿ حزناً ألاّ يجدوا ما ينفقون ﴾ يعني على أنفسهم في الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(78/346)

وقال أبو حيان :

﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾

معطوف على ما قبله ، وهم مندرجون في قوله : ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، وذكروا على سبيل نفي الحرج عنهم ، وأنهم بالغوا في تحصيل ما يخرجون به إلى الجهاد حتى أفضى بهم الحال إلى المسألة ، والحاجة لبذل ماء وجوههم في طلب ما يحملهم إلى الجهاد ، والاستعانة به حتى يجاهدوا مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، ولا يفوتهم أجر الجهاد .

ويحتمل أنْ لا يندرجوا في قوله : ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ، بأن يكون هؤلاء هم الذين وجدوا ما ينفقون ، إلا أنهم لم يجدوا المركوب ، وتكون النفقة عبارة عن الزاد لا عبارة عما يحتاج إليه المجاهد من زاد ومركوب وسلاح وغير ذلك مما يحتاج إليه .

وهذه نزلت في العرباض بن سارية .

وقيل : في عبد الله بن مغفل .

وقيل : في عائذ بن عمرو .

وقيل : في أبي موسى الأشعري ورهطه .

وقيل : في تسعة نفر من بطون شتى فهم البكاؤون وهم : سالم بن عمير من بني عمرو من بني عوف ، وحرمي بن عمرو من بني واقف ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب من بني مازن بن

النجار ، وسلمان بن صخر من بني المعلى وأبو رعيلة عبد الرحمن بن زيد بن بني حارثة ، وعمرو بن غنمة من بني سلمة ، وعائذ بن عمرو المزني .

وقيل : عبد الله بن عمرو المزني .

وقال مجاهد : البكاؤون هم بنو بكر من مزينة .

وقال الجمهور : نزلت في بني مقرن ، وكانوا ستة إخوة صحبوا النبي (صلى الله عليه وسلم) ، وليس في الصحابة ستة إخوة غيرهم .

ومعنى لتحملهم أي : على ظهر مركب ، ويحمل عليه أثاب المجاهد .

قال معناه : ابن عباس .

وقال أنس بن مالك : لتحملهم بالزاد .

وقال الحسن بن صالح : بالبغال .

وروي أنّ سبعة من قبائل شتى قالوا : يا رسول الله قد ندبتنا إلى الخروج معك ، فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزُ معك فقال : ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ فتولوا وهم يبكون .

(79/346)

وقرأ معقل بن هارون : لنحملهم بنون الجماعة ، وإذا تقتضي جواباً .

والأولى أن يكون ما يقرب منها وهو قلب ، ويكون قوله : تولوا جواباً لسؤال مقدر كأنه قيل : فما كان حالهم إذ أجابهم الرسول ؟ قيل : تولوا وأعينهم تفيض .

وقيل : جواب إذا تولوا ، وقلب جملة في موضع الحال من الكاف ، أي : إذا ما أتوك قائلاً لا أجد ، وقد قبله مقدر كما قيل في قوله : حصرت صدورهم قاله الزمخشري .

أو على حذف حرف العطف أي : وقلت ، قاله الجرجاني وقاله ابن عطية وقدره : فقلت بالفاء وأعينهم تفيض جملة حالية .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : فهل يجوز أن يكون قوله : قلت لا أجد استئنافاً مثله يعني : مثل رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ؟ كأنه قيل : إذا ما أتوك لتحملهم تولوا ، فقيل : ما لهم تولوا باكين ؟ قلت : لا أجد ما أحملهم عليه ، إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (قلت) : نعم ، ويحسن انتهى .

ولا يجوز ولا يحسن في كلام العرب ، فكيف في كلام الله وهو فهم أعجمي ؟ وتقدم الكلام على نحو وأعينهم تفيض من الدمع في أوائل حزب ﴿ لتجدن ﴾ من سورة المائدة .

وقال الزمخشري : هنا وأعينهم تفيض من الدمع كقولك : تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض .

ومن للبيان كقولك : أفديك من رجل ، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز انتهى .

ولا يجوز ذلك لأنّ التمييز الذي أصله فاعل لا يجوز جره بمن ، وأيضاً فإنه معرفة ، ولا يجوز إلا على رأي الكوفيين الذين يجيزون مجيء التمييز معرفة .

وانتصب حزناً على المفعول له ، والعامل فيه تفيض .

وقال أبو البقاء : أو مصدر في موضع الحال .

وأن لا يجدوا مفعول له أيضاً ، والناصب له حزناً ، قال أبو البقاء : ويجوز أن يتعلق بتفيض انتهى .

ولا يجوز ذلك على إعرابه حزناً مفعولاً له والعامل فيه تفيض ، لأن العامل لا يقض اثنين من المفعول له إلا بالعطف أو البدل .

وقوله : أن لا يجدوا ما ينفقون فيه دلالة على أنهم مندرجون تحت قوله : ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(80/346)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾

عطفٌ على المحسنين كما يُؤذِن به قولُه عز وجل فيما سيأتي : ﴿ إِنَّمَا السبيل ﴾ الآية ،

وقيل : عطفٌ على الضعفاء وهم البكّاؤون ، سبعةٌ من الأنصار : معقِلُ بنُ يسارَ وصخرُ بنُ خنساءَ وعبدُ اللّه بنُ كعبٍ وسالمُ بنُ عميرٍ وثعلبةُ بنُ غنمةَ وعبدُ اللّه بنُ معقِلٍ وعلبةُ بنُ زيد أتوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : نذرْنا الخروجَ فاحمِلنا على الخِفافِ المرقوعة والنعالِ المخصوفة نغْزُ معك فقال عليه السلام : "لا أجد" ، فتولَّوا وهم يبكون ، وقيل : هم بنو مُقرّنٍ معقِلٌ وسويدٌ ونُعمانُ وقيل : أبو موسى الأشعريُّ وأصحابُه رضي الله عنه تعالى عنهم ﴿ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ حالٌ من الكاف في أتوك بإضمار قد وما عامةٌ لما سألوه عليه السلام وغيرَه مما يُحمل عليه عادة وفي إيثار (لا أجد) على ليس عندي من تلطيف الكلامِ وتطييبِ قلوبِ السائلين ما لا يخفى كأنه عليه السلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ جوابُ إذا ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ أي تسيل بشدة ﴿ مِنَ الدمع ﴾ أي دمعاً فإن من البيانية مع مجرورها في حيز النصب على التمييز وهو أبلغُ من يفيض دمعُها لإفادتها أن العينَ بعينها صارت دمعاً فيّاضاً والجملةُ حاليةٌ وقوله عزّ اسمُه : ﴿ حَزَناً ﴾ نُصب على العلية أو الحالية أو المصدرية لفعل دل عليه ما قبله أي تفيض للحزن فإن الحزنَ يُسند إلى العين مجازاً كالفيض ، أو تولوا له أو حزنين أو يحزنون حزناً فتكون هذه الجملةُ حالاً من الضمير في تفيض ﴿ أَلاَّ يَجِدُواْ ﴾ على حذف لامٍ متعلقة بحَزَناً أو تفيض أي لئلا يجدوا ﴿ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه إذ لم يجدوه عندك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾

عطف على ﴿ المحسنين ﴾ [التوبة : 91] كما يؤذن به قوله تعالى الآتي إن شاء الله تعالى ﴿ إِنَّمَا السبيل ﴾ [التوبة : 93] الخ ، وهو من عطف الخاص على العام اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم لتميزهم جنس آخر .

وقيل : عطف على ﴿ الضعفاء ﴾ [التوبة : 91] وهم كما قال ابن إسحاق وغيره البكاءون وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير .

وعلية بن زيد أخو بني حارث .

وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار .

وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة .

وعبد الله بن معقل المزنى .

وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف .

وعرباض بن سارية الفزاري أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحملوه وكانوا أهل

حاجة فقال لهم عليه الصلاة والسلام ما قصه الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ فتولوا وهم يبكون كما أخبر سبحانه ، والظاهر أنه لم يخرج منهم أحد للغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن قال ابن إسحاق : بلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضرى لقي أبا ليلى .

وابن معقل وهم يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه فأعطاهما ناضحاً له فارتحلا وزودهما شيئاً من تمر فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي بعض الروايات أن الباقين أعينوا على الخروج فخرجوا .

وعن مجاهد أنهم بنو مقرن : معقل .

وسويد .

والنعمان ، وقيل : هم أبو موسى الأشعري وأصحابه من أهل اليمن وقيل وقيل : وظاهر الآية يقتضي أنهم طلبوا ما يركبون من الدواب وهو المروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

(82/346)

وأخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال : حدثني مشيخة من جهينة قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحملان فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال ، ومثل هذا ما أخرجه ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم عمن حدثه إنه قال : ما سألوه الدواب ما سألوه إلا النعال ، وجاء في بعض الروايات إنهم قالوا : احملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو معك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال ، ومن مال إلى الظاهر المؤيد بما روي عن الحبر قال : تجوز بالخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة عن ذي الخف والحافر فكأنهم قالوا : احملنا على ما يتيسر أو المراد احملنا ولو على نعالنا وأخفافنا مبالغة في القناعة ومحبة للذهاب معه عليه الصلاة والسلام .

وأنت تعلم أن ظاهر الخبرين السابقين يبعد ذلك على أنه في نفسه خلاف الظاهر نعم الأخبار المخالفة لظاهر الآية لا يخفى ما فيها على من له اطلاع على مصطلح الحديث ومغايرة هذا الصنف بناءاً على ما يقتضيه الظاهر من أنهم واجدون لما عدا المركب للذين لا يجدون ما ينفقون إذا كان المراد بهم الفقراء الفاقدين للزاد والمركب وغيره ظاهرة وبينهما عموم وخصوص إذا أريد بمن لا يجد النفقة من عدم شيئاً لا يطيق السفر لفقده وإلى الأول ذهب الإملم واختاره كثير من المحققين ، واختلف في جواب ﴿ إِذَا ﴾ فاختار بعض المحققين أنه ﴿ قُلْتَ ﴾ الخ فيكون قوله سبحانه : ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ الخ مستأنفاً استئنافاً بيانياً

، وقيل : هو الجواب و ﴿ قُلْتَ ﴾ مستأنف أو على حذف حرف العطف أي وقلت أو فقلت وهو معطوف على ﴿ أَتَوْكَ ﴾ أو في موضع الحال من الكاف في ﴿ أَتَوْكَ ﴾ وقد مضمرة كما في

(83/346)

﴿ جَاءوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [النساء : 90] وزمان الإتيان يعتبر واسعاً كيومه وشهره فيكون مع التولي في زمان واحد ويكفي تسببه له وإن اختلف زمانهما كما ذكره الرضى في قولك : إذا جئتني اليوم أكرمتك غداً أي كان مجيئك سبباً لإكرامك غداً ؛ وفي إيثار ﴿ لا أَجِدُ ﴾ على ليس عندي من تلطيف الكلام وتطييب قلوب السائلين ما لا يخفى كأنه عليه الصلاة والسلام يطلب ما يسألونه على الاستمرار فلا يجده وذلك هو اللائق بمن هو بالمؤمنين رؤوف رحيم صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ في موضع الحال من ضمير ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ والفيض انصباب عن امتلاء وهو هنا مجاز عن الامتلاء بعلاقة السببية ، والدمع الماء المخصوص ويجوز إبقاء الفيض على حقيقته ويكون إسناده إلى العين مجازاً كجرى النهر والدمع مصدر دمعت العين دمعاً و ﴿ مِنْ ﴾ للأجل والسبب ، وقيل : إنها للبيان وهي مع المجرور في محل نصب على التمييز وهو

محول عن الفاعل .

وتعقبه أبو حيان بأن التمييز الذي أصله فاعل لا يجوز جره بمن وأيضاً لا يجيز تعريف التمييز إلا الكوفيون .

وأجيب عن الأول بأنه منقوض بنحو قوله : عز من قائل وعن الثاني بأنه كفى إجازة الكوفيين ، وذكر القطب أن أصل الكلام أعينهم يفيض دمعها ثم أعينهم تفيض دمعاً وهو أبلغ لإسناد الفعل إلى غير الفاعل وجعله تمييزاً سلوكاً لطريق التبيين بعد الإبهام ولأن العين جعلت كأنها دمع فائض ثم ﴿ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ أبلغ مما قبله بواسطة من التجريدية فإنه جعل أعينهم فائضة ثم جرد الأعين الفائضة من الدمع باعتبار الفيض .

(84/346)

وتعقب بأن ﴿ مِنْ ﴾ هنا للبيان لما قد أبهم مما قد يبين بمجرد التمييز لأن معنى تفيض العين يفيض شيء من أشياء العين كما أن معنى قولك : طاب زيد طاب شيء من أشياء زيد والتمييز رفع إبهام ذلك الشيء فكذا من الدمع فهو في محل نصب على التمييز وحديث التجريد لا ينبغي أن يصدر ممن له معرفة بأساليب الكلام وقد مر بعض الكلام في المائدة على هذه الجملة فتذكر .

وقوله تعالى : ﴿ حَزَناً ﴾ نصب على العلية والحزن يستند إلى العين كالفيض فلا يقال : كيف ذاك وفاعل الفيض مغاير لفاعل الحزن ومع مغايرة الفاعل لا نصب ، وقيل : جاز ذلك نظراً إلى المعنى إذ حاصله تولوا وهم يبكون حزناً وجوز نصبه على الحال من ضمير ﴿ تَفِيضُ ﴾ أي حزينة وعلى المصدرية لفعل دال عليه ما قبله أي لا تحزن حزناً والجملة حال أيضاً من الضمير المشار إليه وقد يكون تعلق ذلك على احتمالات بتولوا أي تولوا للحزن أو حزنين أو يحزنون حزناً ﴿ أَلاَّ يَجِدُواْ ﴾ على حذف اللام وحذف الجار في مثل ذلك مطرد وهو متعلق بحزناً كيفما كان ، وقيل : لا يجوز تعلقه به إذا كان نصباً على المصدرية لأن المصدر المؤكد لا يعمل ولعل من قال بالأول يمنع ذلك ويقول : يتوسع في الظرف ما لا يتوسع في غيره وجوز تعلقه بتفيض وقيل : وهذا إذا لم يكن ﴿ حَزَناً ﴾ علة له وإلا فلا يجوز لأنه لا يكون لفعل واحد مفعولان لأجله والإبدال خلاف الظاهر أي لئلا يجدوا ﴿ مَا يُنْفِقُونَ ﴾ في شراء ما يحتاجون إليه في الخروج معك إذا لم يجدوه عندك وهذا بحسب الظاهر يؤيد كون هذا الصنف مندرجاً تحت قوله سبحانه : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة : 91] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(85/346)

وقال القاسمي :

﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾

عطف على : ﴿ الْمُحْسِنِينَ ﴾ ، أو على

﴿ الضُّعَفَاءِ ﴾ أي : لتعطيهم ظهراً يركبونه إلى الجهاد معك ﴿ قُلْتَ ﴾ أي : لهم ﴿ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي : إلى الجهاد .

قوله تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ جواب إذا ، أي : خرجوا من عندك ﴿ وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ أي : في الحملان ، فهؤلاء وإن كانت لهم ، قدرة على تحمل المشاق ، فما عليهم من سبيل أيضاً .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ الخ رفع الجهاد عن الضعيف والمريض ، ومن لا يجد نفقة ولا أهبة للجهاد ولا محملاً . انتهى .

وقال بعض الزيدية : هذه الآية الكريمة قاضية بنفي الحرج ، وهو الإثم على ترك الجهاد لهذه الأعذار ، بشرط النصيحة لله ولرسوله ، أي : بأن يريد لهم ما يريد لنفسه .

- عن أبي مسلم - .

الثاني : قال الحاكم : في الآية دلالة على أن النصح في الدين واجب ، وأنه يدخل في ذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والشهادات والأحكام والفتاوى وبيان الأدلة .

الثالث : قال ابن الفرس : يستدل بقوله تعالى : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ على أن قاتل البهيمة الصائلة لا يضمنها .

وقال بعض الزيدية : يدل على أن المستودع والوصيّ والملتقط ، لا ضمان عليهم مع عدم التفريط ، وأنه لا يجب عليهم الرد ، بخلاف المستعير .

(86/346)

الرابع : دل قوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ ﴾ الخ ، على أن العادم للنفقة ، الطالب للإعانة ، إذا لم تحصل له ، فلا حرج عليه ، وفيه إشارة إلى المعونة إذا بدلت له من الإمام ، لزمه الخروج .

الخامس : دلت الآية على جواز البكاء وإظهار الحزن على فوات الطاعة ، وإن كان معذوراً .

السادس : قوله تعالى : ﴿ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ أبلغ من يفيض دمعها ، لأن العين جعلت كأن كلها دمع فائض ، و من للبيان ، كقولك : أفديك من رجل . ومحلّ الجار والمجرور النصب على التمييز – أفاده الزمخشري – .

السابع : روى ابن أبي حاتم عن زيد بن ثابت قال : كنت أكتب براءة ، فإني لواضع القلم

على أذني ، إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه ، إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ الآية .

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه ، فيهم عبد الله بن مُغَفَّل بن مُقَرِّن المزني ، فقالوا : يا رسول الله ! احملنا . فقال لهم : < والله ! لا أجد ما أحملكم عليه ، > فتولوا وهم يبكون ، وعزّ عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله ، أنزل عذرهم في كتابه ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ﴾ .

وروى الإمام أحمد عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ، ما قطعتم وادياً ، ولا سلكتم طريقاً ، إلا أشركوكم في الأجر ، حبسهم المرض > . ورواه مسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 492 . 494 ﴾

(87/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾

عطف على ﴿ الضعفاء والمرضى ﴾ [التوبة : 91] وإعادة حرف النفي بعد العاطف للنكتة المتقدّمة هنالك .

والحَمل يطلق على إعطاء ما يُحمل عليه ، أي إذا أتوك لتعطيهم الحُمولة ، أي ما يركبونه ويحملون عليه سلاحهم ومُؤَنهم من الإبل .

وجملة : ﴿ قلت لا أجد ﴾ إلخ إمّا حال من ضمير المخاطب في ﴿ أتوك ﴾ وإمّا بدل اشتمال من فعل ﴿ أتوك ﴾ لأن إتيانهم لأجل الحمل يشتمل على إجابة ، وعلى منع .

وجملة ﴿ تولوا ﴾ جواب ﴿ إذا ﴾ والمجموع صلة الذين .

والتولّي الرجوع .

وقد تقدّم عند قوله تعالى : ﴿ ما ولاهم عن قبلتهم ﴾ [البقرة : 142] وقوله : ﴿ وإذا تولى سعى في الأرض ﴾ في سورة البقرة (205) .

والفيض والفيضان : خروج الماء ونحوه من قراره ووعائه ، ويسند إلى المائع حقيقة .

وكثيراً ما يسند إلى وعاء المائع ، فيقال : فاض الوادي ، وفاض الإناء .

ومنه فاضت العين دمعاً وهو أبلغ من فاض دمعها ، لأنّ العين جعلت كأنّها كلّها دمع فائض ، فقوله : تفيض من الدمع ﴾ جرى على هذا الأسلوب .

و﴿ من ﴾ لبيان ما منه الفيض .

والمجرور بها في معنى التمييز .

وقد تقدّم في قوله تعالى : ﴿ ترى أعينهم تفيض من الدمع ﴾ في سورة المائدة (83) .

وحَزَناً ﴾ نصب على المفعول لأجله ، و ﴿ أن لا يجدوا ما يُنفقون ﴾ مجرور بلام جرّ محذوف أي حزنوا لأنهم لا يجدون ما ينفقون .

والآية نزلت في نفر من الأنصار سبعة وقيل : فيهم من غير الأنصار واختلف أيضاً في أسمائهم بما لا حاجة إلى ذكره ولُقّبوا بالبكّائين لأنّهم بكَوا لمّا لم يجدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الحُملان حزناً على حرمانهم من الجهاد .

(88/346)

وقيل : نزلت في أبي موسى الأشعري ورهط من الأشعريين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك يستحملونه فلم يجد لهم حمولة وصادفوا ساعة غضب من النبي صلى الله عليه وسلم فحلف أن لا يحملهم ثم جاءه نهب إبل فدعاهم وحملهم وقالوا : استغفلْنا رسولَ الله يمينَه لا نفلح أبداً ، فرجعوا وأخبروه فقال : " ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم وإنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلاّ كفَّرت عن يميني وفعلتُ الذي هو

خير " والظاهر أنّ هؤلاء غير المعنيين في هذه الآية لأنّ الأشعريين قد حملهم النبي عليه الصلاة والسلام وعن مجاهد أنّهم بنو مقرّن من مزينة ، وهم الذين قيل : إنّه نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(89/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ﴾

إذن : فالمعفوْن من الجهاد هم : الضعيف والمريض ، والذي لا يجد قوتاً ، ولا يجد راحلة ؛ فيطلبها من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول له رسول الله : ﴿ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ومن في مثل هذه الحالة يحزن مرتين ولا يفرح ؛ الحزن الأول : بسبب عجز المسلمين في ذلك الوقت أن يملكوا ما ينهض بنفقات المقاتلين أو أن يجهزوا لهم وسائل الانتقال إلى ميدان القتال ، والحزن الثاني : بسبب عدم تواجده في ميدان القتال مشاركاً ومجاهداً ، ولا يبقى له إلا مشاركة الاستطاعة بجهاد يختلف عن الجهاد في ميدان القتال .

إنه جهاد حماية القاعدين من إشاعات المنافقين . ذلك أن المنافقين لن يسكتوا عن محاربة الإيمان ، بل سيرجفون بنقل الأخبار الكاذبة إلى أهالي المقاتلين ، وهم من نسميهم في الاصطلاح الحديث " الطابور الخامس " ، وهم من يُثبِّطون همم ومعنويات أهالي المقاتلين .

إذن : فمن قعد عن القتال بسبب عذر حقيقي فله جهاد آخر في حماية الجبهة الداخلية من أهالي المقاتلين في مواجهة حرب الإشاعات التي يقودها المنافقون .

(90/346)

وهكذا نجد الجهاد فريضة من فرائض الإسلام ، ومجاهدة غير المسلمين تكون لأمرين :

الأمر الأول : حين يعارض غير المسلمين الدعوة إلى الإيمان ، وأن يقفوا في سبيل الداعي ليسكتوه عن الدعوة إلى الله ، والأمر الثاني : أن ينتشر المسلمون في الأرض ليُعْلوا كلمة الله ، ليس إكراهاً عليها ، فالدين لا إكراه فيه ، والسيف الذي حُمل في الإسلام ، لم يُحمل ليفرض ديناً ، وإنما حُمل ليكفل حرية الاختيار الإنسان في أن يختار الدين الذي يريد اعتناقه بلا إكراه . وتحرير اختيار الإنسان ؛ إنما ينشأ بإزاحة العقبات التي تفرض عليه ديناً آخر ، ثم يستقبل الإنسان الأديان كلها ، فيختار بحرية الدين الذي يرتضيه .

إذن : فالإسلام لم يفرض بالسيف ، وإلا فمن الذي فرض الإسلام على الذين سبقوا إليه

حين كان ضعيفاً لا يملك أن يحمي من دخل فيه ؟ !

وما دام الجهاد فريضة بهذا المعنى ، فكل مسلم مكلف بأن يجاهد ، إما فرض عين – إن غلب المؤمنون على أمر مكروه ، وإما فرض كفاية – إن قام به البعض سقط عن الباقين .

ولم يعذر الله من الجهاد إلا هذه الطوائف ؛ الضعفاء بشيخوخة أو صغَر ، والمرضى أصحاب الداءات ، والذين لا يجدون ما ينفقون ، وهم قسمان : قسم لا يجد ما ينفقه على نفسه ، وقسم لا يجد ما ينفقه على الحرب ، أي : لا يجد أدوات القتال أو الراحلة التي يركبها

.

ورفع الحق سبحانه الحرج عن هؤلاء ، ووظَّفهم سبحانه في وظيفة إيمانية تخدم الجهاد بأن يكونوا في عون أهل المجاهدين ، ويقمعوا المرجفين الذين يريدون النيل من الروح المعنوية للمسلمين ، وأن يردوا عليها ، ويخرسوا ألسنة السوء ، هذا بالنسبة للذين لا يجدون ما ينفقونه على أنفسهم خلال الجهاد من طعام وسلاح وغير ذلك .

(91/346)

أما الذي يجد ما ينفق ، ولا يجد الوسيلة التي تنقله إلى ساحة القتال ؛ فعليه أن يذهب إلى ولي الأمر ليسأله الراحلة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو قائد الجهاد في حياته ،

فإن قال لأحد : ليس عندي ما أنقلك عليه إلى مكان القتال . فهذا إذن بالقعود ، لكنه إذن لا يكفي لرفع الحرج عنه ، بل يجب أن يعلن بوجدانه انفعاله في حب الجهاد ، وحزنه على أنه لم يكن مع الذين يجاهدون .

ولذلك قال الحق : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ وكلمة " تفيض أعينهم " توضح ما في قلب هؤلاء المؤمنين . والفيض دائماً للدموع ، والدموع هي ماء حول العين ؛ يهيجه الحزن فينزل ، فإذا اشتد الحزن ونفد الدمع وجمدت العين عن البكاء ؛ يؤخذ من سائل آخر فيقال : " بكيت دما " .

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا شدة حزن المؤمنين على حرمانهم من الجهاد ، فلم يقل سبحانه وتعالى : " فاضت دموعهم " ، ولم يقل : " بكوا دماً بدل الدموع " ، وإنما قال : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ ، فكأن العين ليس فيها ماء ، ولا دم ، ولم يعد إلا أن تفيض العين على الخد ، وذلك إظهار لشدة الحزن في القلب ، وهذا المجاهد لا لوم عليه ولا ذنب ؛ لأنه فعل ما في وسعه وما في طاقته وعبر عن ذلك بحرقة مواجيده على أنه لم يكن من أهل الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/346)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لقد خلفتم بالمدينة أقواماً ما أنفقتم من نفقة ، ولا قطعتم وادياً ، ولا نلتم من عدوّ نيلاً ، إلا وقد شركوكم في الأجر ، ثم قرأ ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك . . . ﴾ الآية " .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : " أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن معقل المزني ، فقالوا : يا رسول الله احملنا ؟ فقال " والله ما أجد ما أحملكم عليه . فتولوا ولهم بكاء وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً . فأنزل الله عذرهم ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك . . . ﴾ الآية " " .

وأخرج ابن سعد ويعقوب بن سفيان في تاريخه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن معقل قال : إني لمن الرهط الذين ذكر الله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير عن محمد بن كعب قال : " جاء ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحملونه فقال " لا أجد ما أحملكم عليه ، فأنزل الله ﴿ ولا على الذين إذا ما

أتوك لتحملهم . . . ﴾ الآية . قال : وهم سبعة نفر من بني عمر بن عوف سالم بن عمير ، ومن بني واقن حرميّ بن عمرو ، ومن بني مازن ابن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، ومن بني المعلي سلمان بن صخر ، ومن بني حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ، ومن بني سلمة عمرو بن غنمة ، وعبد الله بن عمرو المزني " " .

(93/346)

وأخرج ابن مردويه عن مجمع بن حارثة قال : الذين استحملوا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : لا أجد ما أحملكم عليه سبعة نفر . علية بن زيد الحارثي ، وعمر بن غنم الساعدي ، وعمرو بن هرمي الرافعي ، وأبو ليلى المزني ، وسالم بن عمرو العمري ، وسلمة بن صخر الزرقي ، وعبد الله بن عمرو المزني .

وأخرج عبد الغني بن سعيد في تفسيره وأبو نعيم في الحلية عن ابن عباس في قوله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك . . . ﴾ الآية . قال : منهم سالم بن عمير أحد بني عمرو بن عوف .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي وحجر بن حجر الكلاعي قال : أتينا العرباض بن سارية ، وكان من الذين أنزل الله فيهم ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم سبعة .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني عن أبيه عن جده قال : والله إني أحد النفر الذين أنزل الله فيهم ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن إسحق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الزهري ويزيد بن يسار وعبد الله بن أبي بكر وعاصم بن عمرو بن قتادة وغيرهم " أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم . من بني عمرو بن عوف سالم بن عمير ، ومن بني حارثة عتبة بن زيد ، ومن بني مازن ابن النجار أبو ليلى عبد الرحمن بن كعب ، ومن بني سلمة عمرو بن عمرو بن جهام بن الجموح ، ومن بني واقف هرمي بن عمرو ، ومن بني مزينة عبد الله بن معقل ، ومن بني فزارة عرباض بن سارية ، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا أهل حاجة ؟ قال : لا أجد ما أحملكم عليه " .

(94/346)

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن الحسن رضي الله عنه قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين قال الله ﴿ إذا ما أتوك لتحملهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن وبكر بن عبد الله المزني في هذه الآية ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ قالا : نزلت في عبد الله بن معقل من مزينة ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم ليحمله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن لهيعة . أن أبا شريح الكعبي كان من الذين قال الله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك في قوله ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ قال : الماء والزاد .

وأخرج ابن المنذر عن علي بن صالح قال : حدثني مشيخة من جهينة قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحملان . فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن إبراهيم بن أدهم في قوله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ قال : ما سألوه الدواب ، ما سألوه إلا النعال .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في الآية قال : استحملوه النعال . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

فصل

قال أبو العباس المقرىء :

ورد لفظ التَّوَلِّي في القرآن على أربعة أوجه :

الأول : بمعنى الانصراف ، قال تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ [التوبة : 92] ومثله قوله تعالى ﴿ ثُمَّ تولى إِلَى الظل ﴾ [القصص : 24] أي : انصرف .

الثاني : بمعنى : « أَبى » ، قال تعالى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فاعلم أَنَّمَا يُرِيدُ الله أَن يُصِيبَهُم ﴾ [المائدة : 49] أي : أَبَوْا أن يؤمنوا ؛ ومثله قوله تعالى

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ واقتلوهم ﴾ [النساء : 89] .

الثالث : بمعنى : « أعرض » قال تعالى ﴿ وَمَن تولى فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً ﴾ [النساء : 80] .

الرابع : الإعراض عن الإقبال ، قال تعالى ﴿ فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدبار ﴾ [الأنفال : 15] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن عادل حـ 10 صـ 173 ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين ﴾ : فيه أوجه :

أحدها : أن يكون معطوفاً على " الضعفاء " ، أي : ليس على الضعفاء ولا على الذين إذا ما أَتَوْك ، فيكونون داخلين في خبر ليس ، مُخبراً بمتعلقهم عن اسمِها وهو " حَرَج " . الثاني : أن يكون معطوفاً على " المحسنين " فيكونون داخلين فيما أُخْبر به عن قوله " من سبيل " ، فإنَّ " مِنْ سبيل " يحتمل أن يكون مبتدأً ، وأن يكون اسمَ " ما " الحجازية ، و " مِنْ " مزيدةٌ في الوجهين . الثالث : أن يكون ﴿ وَلاَ عَلَى الذين ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف تقديره : ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخرِ الصلةِ حرجٌ أو سبيل ، وحُذِفَ لدلالةِ الكلامِ عليه ، قاله أبو البقاء ، ولا حاجةَ إليه لأنه تقديرٌ مُسْتغنىً عنه ، إذ قد قَدَّر شيئاً يقومُ مقامَه هذا الموجودُ في اللفظ والمعنى . وهذا الموصولُ يحتمل أن يكونَ مندرجاً في قوله ﴿ وَلاَ عَلَى / الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ وذُكِروا على سبيل نفي الحرج عنهم وأن لا يكونوا مندرجين ، بأن يكون هؤلاء وجدوا ما ينفقون ، إلا أنهم لم يجدوا مَرْكوباً .

وقرأ معقل بن هرون " لنَحْملهم " بنونِ العظمة . وفيها إشكالٌ ، إذ كان مقتضى التركيبِ : قلت لا أجدُ ما يَحْملكم عليه الله .

(97/346)

قوله : " قلت " فيه أربعةُ أوجهٍ ، أحدُها : أنه جوابُ " إذا " الشرطية ، و " إذا " ، وجوابُها في موضعِ الصلة ، وقعت الصلةُ جملةً شرطيةً ، وعلى هذا فيكون قوله " تَوَلَّوا " جواباً لسؤالٍ مقدرٍ ، كأن قائلاً قال : " ما كان حالُهم إذا أُجيبوا بهذا الجواب ؟ فأُجيب بقوله " تولُّوا " . الثاني : أنه في موضع نصب على الحال من كاف " أَتَوْك " ، أي : إذا أَتَوْك وأنت قائلٌ : لا أجدُ ما أحملكم عليه ، و " قد " مقدرة عند مَنْ يشترط ذلك في الماضي الواقع حالاً كقوله : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ [النساء : 90] في أحد أوجهه ، كما تقدم تحقيقه ، وإلى هذا نحا الزمخشري . الثالث : أن يكونَ معطوفاً على الشرط ، فيكونَ في محلِّ جرٍ بإضافة الظرف إليه بطريق النَّسَق ، وحُذِفَ حرفُ العطفِ ، والتقدير : وقلت : وقد تقدم لك كلامٌ في هذه المسألةِ وما استشهد الناس به عليها . وإلى هذا ذهب الجرجانيُّ ، وتبعه ابن عطية ، إلا أنه قدَّر العاطفَ فاءً ، أي : فقلت . الرابع : أن يكونَ مستأنفاً . قال الزمخشري : " فإنْ قلت : هل يجوز أن يكونَ قولُه " قلت لا أجدُ " استئنافاً

مثله " يعني مثل ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ كأنه قيل : إذا ما أَتَوْكَ لتحملهم تَوَلَّوا ، فقيل : ما لهم تَوَلَّوا باكين [فقيل] قلت : لا أجد ما أحملكم عليه ، إلا أنه وسطٌ بين الشرطِ والجزاءِ كالاعتراض .

قلت : نعم ويَحْسُن " انتهى .

(98/346)

قال الشيخ : " ولا يجوزُ ولا يَحْسُن في كلام العرب فكيف في كلام الله ؟ وهو فَهْمُ أعجميٍّ " . قلت : وما أدري ما سَبَبُ منعه وعدم استحسانه له مع وضوحه وظهوره لفظاً ومعنى ؟ وذلك لأن تولِّيَهم على حاله ، فيصير الدمع ليس مترتباً على مجردِ مجيئهم له عليه السلام ليحملَهم ، بل على قوله لهم ﴿ لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ ﴾ ، وإذا كان كذلك فقوله عليه السلام لهم ذلك سببٌ في بكائهم ، فَحَسُن أن يُجْعَلَ قوله ﴿ قُلْتَ : لاَ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ ﴾ جواباً لَمَنْ سأل عن عِلة تَوَلِّيهم وأعينُهم فائضةٌ دمعاً ، وهو المعنى الذي قَصَدَه أبو القاسم . وعلى هذه الأوجهِ الثلاثة التي قَدَّمتها في " قلت " يكون جوابه قوله " تولَّوا " ، وقوله " لتحملَهم " علةٌ لـ " أَتَوْكَ " . وقوله " لا أجد " هي المتعديةُ لواحدٍ لأنها من الوُجْد . و " ما " يجوز أن تكونَ موصولةً أو موصوفةً .

قوله : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ ﴾ في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فاعل " تَوَلَّوا " ، قال الزمخشري : " تفيضُ من الدمع " كقولك : تفيض دمعاً ، وقد تقدَّم هذا في المائدة مستوفىً عند قوله : ﴿ ترى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ [التوبة : 83] وأنه جعل " من الدمع " تمييزاً ، و " مِنْ " مزيدةً ، وتقدَّم الردُّ عليه في ذلك هناك فعليك بالالتفات إليه .

(99/346)

قوله : ﴿ حَزَناً ﴾ في نصبه ثلاثةُ أوجه ، أحدها : أنه مفعولٌ مِنْ أجله والعاملُ في " تفيض " قاله الشيخ . لا يُقال إن الفاعلَ هنا قد اختلف ، فإن الفَيْضَ مسند للأعين والحزنَ صادرٌ من أصحاب الأعين ، وإذا اختلف الفاعل وَجَبَ جرُّه بالحرف لأنَّا نقول : إن الحزنَ يُسْنَدُ للأعين أيضاً مجازاً يقال : عين حزينةٌ وسخينة ، وعين مسرورةٌ وقريرة في ضدّ ذلك . ويجوز أن يكونَ الناصب له " تَوَلَّوا " وحينئذٍ يتحد فاعلا العلةِ والمعلول حقيقةً . الثاني : أنه في محلِّ نصبٍ على الحال ، أي : تَوَلَّوا حزينين أو تفيض أعينُهم حزينةً على ما تقدَّم من المجاز . الثالث : أنه مصدر ناصبُه مقدرٌ مِنْ لفظِه ، أي : يحزنون حزناً قاله أبو البقاء . وهذه/ الجملةُ التي قدَّرها ناصبة لهذا المصدر هي أيضاً في محلِّ نصبٍ على الحال : إمَّا من فاعل " تَوَلَّوا " وإمَّا من فاعل " تفيض " .

قوله : ﴿ أَلاَّ يَجِدُواْ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه مفعولٌ من أجله ، والعامل فيه " حَزَناً " إنْ أعربناه مفعولاً له أو حالٍ ، وأمَّا إذا أعربناه مصدراً فلا ، لأن المصدر لا يعمل إذا كان مؤكداً لعامِله ، وعلى القول بأنَّ " حَزَناً " مفعول من أجله يكون " أن لا يَجِدوا " علةً العلة ، يعني أنه يكون عَلَّلَ فَيْضَ الدمع بالحزن ، وعَلَّل الحزن بعدم وُجْدان النفقة ، وهذا واضحٌ ، وقد تقدَّم لك نظيرُ ذلك في قوله ﴿ جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللهِ ﴾ [المائدة : 38] .

والثاني : أنه متعلق ب " تفيض " . قال الشيخ : " قال أبو البقاء : " ويجوز أن يتعلَّق ب " تفيض " . ثم قال الشيخ : " ولا يجوز ذلك على إعرابه " حزناً " مفعولاً له ، والعامل فيه " تفيض " ، إذ العامل لا يقتضي اثنين من المفعول له إلا بالعطف أو البدل " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 98.102 ﴾

(100/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (92) ﴾

منَعَهم الفقرُ عن الحَرَاك فالتمسوا من الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يحملهم معه ويهيئ أسبابهم ، ولم يكن في الحال للرسول عليه السلام سَعَةٌ ليوافقَ سُؤْلَهم ، وفي حالة ضيق صدره – صلى الله عليه وسلم – حَلَفَ إنه لا يَحْمِلُهم ، ثم رآهم صلى الله عليه وسلم يتأهبون للخروج ، وقالوا في ذلك ، فقال عليه السلام : " إنما يحملكم الله " .

فلمَّا رَدَّهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن الإجابة في أن يحملهم رجعوا عنه بوصف الخيبة كما قال تعالى : ﴿ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ ﴾ كما قال قائلهم :

قال لي مَنْ أُحِبُّ والبيْن قد . . . حَلَّ ودمعي مرافِقٌ لشهيقي

ما تُرى في الطريق تصنع بعدي ؟ . . . قلتُ : أبكي عليك طول الطريق

قوله : ﴿ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴾ شقَّ عليهم أنْ يكونَ على قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بسببهم شُغْلٌ فتَمَنَّوْا أن لو أُزِيحَ هذا الشغلُ ، لا ميلاً إلى الدنيا ولكن لئلا تعودَ إلى قلبه – عليه السلام – مِنْ قِبَلِهم كراهةً ، ولهذا قيل :

مَنْ عَفَّ خَفَّ على الصديقِ لقاؤه . . . وأخو الحوائجِ مُمْجِجُ مَمْلولُ

ثم إنَّ الحقَّ – سبحانه – لمَّا عَلِمَ ذلك منهم ، وتمحضت قلوبُهم للتعلُّق بالله ، وخَلَتْ عقائدُهم عن مُساكنةِ مخلوقٍ تَدَارَكَ اللهُ أحوالَهم ؛ فأمر اللهُ رسوله عليه السلام أَنْ يَحْمِلَهم . . بذلك جَرَتْ سُنَّتُه ، فقال : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ [الشورى : 28] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 54 ﴾

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) ﴾

روى أنّ ثعلبة بن حاطب قال : يا رسول اللّه ، ادع اللّه أن يرزقني مالا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : «يا ثعلبة ، قليل تؤدّى شكره خير من كثير لا تطيقه «1»» فراجعه وقال : والذي بعثك بالحق لئن رزقني اللّه مالا لأعطينّ كل ذى حق حقه ، فدعا له ، فاتخذ غنما فنمت كما ينمى الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقيل : كثر ماله حتى لا يسعه واد . قال : يا ويح ثعلبة ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مصدّقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرّا بثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الذي فيه الفرائض ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، وقال : ارجعا حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل أن يكلماه : يا ويح ثعلبة مرّتين ، فنزلت ، فجاءه ثعلبة بالصدقة ، فقال : إنّ اللّه منعني أن

(1) . أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبى حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق على بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمامة . وهذا إسناد ضعيف جدا . فقال السهيلي عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب قمر البدريين . وعن ابن إسحاق أيضا في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه . فلعلهما اثنان .

(102/346)

أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني ، فقبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبى بكر رضى اللّه عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضى اللّه عنه في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان رضى اللّه عنه . وقرئ «لنصدقن ولنكونن» بالنون الخفيفة فيهما مِنَ الصَّالِحِينَ قال ابن عباس رضى اللّه عنه : يريد الحج فَأَعْقَبَهُمْ عن الحسن وقتادة رضى اللّه عنهما : أنّ الضمير للبخل . يعنى : فأورثهم البخل نِفاقاً متمكنا فِي قُلُوبِهِمْ لأنه كان سببا فيه وداعياً إليه . والظاهر أن الضمير للّه عزّ وجل . والمعنى : فخذلهم حتى نافقوا «1» .

وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافهم ما وعدوا اللّه من التصدّق والصلاح وكونهم كاذبين . ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق . وقرئ :

يكذبون ، بالتشديد .

وألم تعلموا ، بالتاء . عن عليّ رضى اللّه عنه .

[سورة التوبة (9) : آية 78]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (78)

سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ ما أسرّوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها .

[سورة التوبة (9) : آية 79]

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلاَّ جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (79)

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ محله النصب أو الرفع على الذمّ . ويجوز أن يكون في محل الجرّ بدلا من الضمير في سرهم ونجواهم . وقرئ : يلمزون ، بالضم الْمُطَّوِّعِينَ المتطوّعين المتبرعين .

روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حثّ على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب . وقيل : بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف ، فأقرضت ربى أربعة وأمسكت أربعة لعيالي ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : بارك اللّه لك فيما أعطيت وفيما أمسكت «2» فبارك اللّه له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفاً ،

(1) . قوله «و المعنى فخذلهم حتى نافقوا» فسره بذلك على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يخلق الشر . (ع)

(2) . أخرجه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس في قوله الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ – الآية قال : جاء عبد الرحمن بن عوف بأربعين أوقية . من ذهب إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر . فقال بعض المنافقين واللّه ما جاء عبد الرحمن بن عوف بما جاء به إلا رياء وإن كان اللّه ورسوله لغنيين عن هذا الصاع . ومن طريق عطية العوفى . وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوما إلى الناس ، فنادى فيهم : أن اجمعوا صدقاتكم . فجمع الناس صدقاتهم . وجاء رجل بصاع من تمر . فقال : يا رسول اللّه بت ليلتي أجر بالجرير – الحديث . وجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول اللّه مالى ثمانية آلاف ، فأربعة آلاف لي ، وأربعة آلاف أقرضها ربى – فذكره» وقال عبد الرزاق في تفسيره أخبرنا معمر عن قتادة قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله . وكان له ثمانية آلاف دينار . فتصدق بأربعة آلاف دينار . فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء . فقال اللّه عز وجل الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر . فجاء بأحدهما . فقال أناس من المنافقين : إن كان اللّه لغنيا عن صاع هذا . فقال اللّه عز وجل إِلَّا جُهْدَهُمْ وروى البزار من رواية عمر بن أبى مسلمة عن أبيه عن أبى

هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «تصدقوا فانى أريد أن أبعث بعثا فجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول اللّه ، عندي أربعة آلاف درهم ألفان أقرضها ربى وألفان لعيالي - الحديث» وفيه «وبات رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر» أخرجه عن طالوت بن عبادة عن أبى عوانة عنه وقال : تفرد طالوت بوصله ثم رواه عن أبى كامل عن أبى عوانة ومن طريقه ابن مردويه وفي المغازي بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدى فتصدق بمائة وسق من تمر فألقاه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن اللّه لغنى عن صاع أبى عقيل» انتهى وقصة أبى عقيل أخرجها إبراهيم الحربي والطبراني والطبري من رواية خالد بن يسار عن ابن أبى عقيل عن أبيه قال «بت أجر الجرير على ظهري على صاعين من تمر - الحديث» وفي إسناده موسى بن عبدة وهو ضعيف قلت : قصة أبى عقيل أخرجها البخاري من حديث أبى مسعود الأنصارى باختصار وفيه «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك» وفي رواية : بشيء كثير.

(103/346)

وتصدّق عاصم بن عدىّ بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصارى رضى اللّه عنه بصاع من تمر فقال : بت ليلتي أجرّ بالجرير «1» على صاعين ، فتركت صاعا لعيالي ،

وجئت بصاع فأمره رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن ينثره على الصدقات ، فلمزهم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان اللّه ورسوله لغنيين عن صاع أبى عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر بنفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت إِلَّا جُهْدَهُمْ إلا طاقتهم . قرئ بالفتح والضم سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ كقوله : اللّه يستهزئ بهم في أنه خبر غير دعاء . ألا ترى إلى قوله وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ .

[سورة التوبة (9) : آية 80]

اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفاسِقِينَ (80)

سأل عبد اللّه بن عبد اللّه بن أبىّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم - وكان رجلا صالحا - أن يستغفر لأبيه في مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «إنّ اللّه قد رخص لي فسأزيد على السبعين» «2» فنزلت سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وقد ذكرنا

---

(1) . قوله «بالجرير» هو حبل البعير . ويروى : أجر بالجرير الماء كذبها ، من أجر . (ع)

(2) . لم أجده بهذا السياق وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر رضى اللّه عنهما قال «لما توفى عبد اللّه بن أبى جاء ابنه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلى عليه ، فقام يصلى عليه فأخذ عمر رضى اللّه

عنه بثوبه فقال : أتصلي عليه وقد نهاك اللّه أن تصلى عليه فقال إنما خيرنى فقال : اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ الآية وسأزيده على السبعين فصلى عليه فأنزل اللّه تعالى وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً فتركت الصلاة عليهم - لفظ مسلم

(104/346)

أن هذا الأمر في معنى الخبر ، «1» كأنه قيل : لن يغفر اللّه لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وإن فيه معنى الشرط ، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر ، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، قال علىّ بن أبى طالب عليه السلام :

لَأُصْبِحَنَّ الْعَاصِ وَابْنَ الْعَاصِى سَبْعِينَ أَلْفاً عَاقِدِى النَّوَاصِى «2»

فإن قلت : كيف خفى على رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام «3» وتمثيلاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا . . . الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : «قد رخص لي ربى فسأزيد على السبعين» قلت : لم يخف عليه ذلك ، ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية

---

(1) . قال محمود : «قد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر . . . الخ» قال أحمد : وما

يدعيه الزمخشري في هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه ، كقول كثير عزة . أسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة .

كأنه يقول لها : امتحنى محلك عندي وقوة محبتي لك ، وعامليني بالاساءة والإحسان ، وانظري هل يتفاوت حالى معك مسيئة أو محسنة ؟ وكذلك معنى الآية اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه ؟

وهل يتفاوت الحالان أولا ؟ قال أحمد : وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى سَواءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ .

(2) لأصبحن العاصي وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدى النواصي

مستحقبين حلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص

آساد محل حين لا مناص

لعلى بن أبى طالب رضى اللّه عنه في عمرو بن العاص . وصبحه : سقاء الصبوح وقت الصباح . ويروى «لأصحبن» من الصحبة ولعله تحريف . شبه إنالة المكروه بانالة المحبوب على سبيل التهكم ، فهو استعارة تصريحية تهكمية . ويجوز أنه شبه الفرسان لإتيانهم صباحا بالصبوح على سبيل المكنية التهكمية . ولأصبحن : تخييل . وسبعين ألفاً : مفعول ثانى . والمراد به الكثرة . والعاقدين : جمع عاقد ، والمراد : نواصي خيلهم أو أطراف عمائمهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم . وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والاشاحة

في القتال . والحقاب : ما تلفه المرأة على وسطها ، ويطلق على ذات وسطها . والحقيبة : خرج صغير خلف الراكب . والحلق - بالكسر - : جمع حلقة . والدلاص : الدرع الملساء المضيئة ، يوصف به الواحد والجمع . فالمعنى : أنهم لابسون الدروع . أولا شيء في حقائبهم غيرها . والقلاص فتيات الإبل : أى جمعوا بين النوعين ، وجعلهم كآساد المحل ، أى الجدب ، ليفيد أنهم جياع وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم ، وحق اسم «لا» أن يبنى على الفتح ، فيجوز أنه كسره القافية . والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما في الصحاح ، أو حين غير مناص ، أو بنى على الكسر لنية الاضافة . وشبهه بنزال ، أو هو مجرور بمن الاستغراقية مقدرة كما مر في «ولات أوان» ويجوز - على بعد - أن يكون في الكلام مضاف محذوف ، أى لا حين لا وقت مناص ، أى تأخر عن الحرب ، ويمكن أن «لا» زائدة بين المتضايفين ، كافى «بثر لا حور سرى» أى حين مناص الفرسان وفرارهم .

(3) . عاد كلامه . قال : فان قلت كيف خفى على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو أفصح من نطق بالضاد . . .

الخ» قال أحمد : وقد أنكر القاضي رضى اللّه عنه حديث الاستغفار ولم يصححه ، وتعالى قوم في قبوله حتى إنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحديد نفى الغفران بالسبعين ثبوت الغفران بالزائد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضي عليهم .

رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام وَمَنْ عَصانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ وفي إظهار النبي صلى اللّه عليه وسلم الرأفة والرحمة : لطف لأمّته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض .

[سورة التوبة (9) : آية 81]

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقالُوا لا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كانُوا يَفْقَهُونَ (81)

الْمُخَلَّفُونَ الذين استأذنوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان بِمَقْعَدِهِمْ بقعودهم عن الغزو خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ خلفه . يقال : أقام خلاف الحي ، بمعنى بعدهم ظعنوا ولم يظعن معهم ، وتشهد له قراءة أبى حيوة : خلف رسول اللّه . وقيل : هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض ، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال ، أى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له أَنْ يُجاهِدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ تعريض بالمؤمنين وبتحملهم المشاق العظام لوجه اللّه تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل اللّه تعالى وإيثارهم ذلك على

الدعة والخفض.

وكره ذلك المنافقون. وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الايمان وداعى الإيقان قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا استجهال لهم، لأن من تصوّن من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصوّن في مشقة الأبد، كان أجهل من كل جاهل: ولبعضهم:

مَسَرَّةُ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَةَ يَوْمٍ أَرْيُهَا شِبْهُ الصَّابِ

فَكَيْفَ بِأَنْ تَلْقَى مَسَرَّةَ سَاعَةٍ وَرَاءَ تَقَضِّيهَا مَسَاءَةُ أَحْقَابِ «1»

[سورة التوبة (9): آية 82]

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (82)

معناه: فسيضحكون قليلا، ويبكون كثيرا جَزاءً إلا أنه أخرج على لفظ الأمر، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره. يروى أن أهل النفاق يبكون في النار عمر الدنيا، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم.

---

(1). للزمخشري. و«الأحقاب» الأزمان الكثيرة المتتابعة، جمع حقب بالضم بمعنى الدهر. و«الأرى» العسل. و«الشبه» المثل. و«الصاب» نبت مر الطعم. وقيل: هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساءة يوم واحد، حالها الشبيه بالعسل هو في الحقيقة شبيه بالحنظل، فكيف الحال بعكس ذلك؟.

[سورة التوبة (9) : آية 83]

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (83)

وإنما قال إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف ، أو اعتذر بعذر صحيح . وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين ، فأراد بالطائفة : المنافقين منهم فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ يعنى إلى غزوة بعد غزوة تبوك . وأَوَّلَ مَرَّةٍ هي الخروج إلى غزوة تبوك ، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم اللّه أنه لم يدعهم إليه إلا النفاق ، بخلاف غيرهم من المتخلفين مَعَ الْخالِفِينَ قد مرّ تفسيره . قرأ مالك بن دينار رحمه اللّه . مع الخلفين ، على قصر الخالفين . فإن قلت مَرَّةٍ نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل ، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات ؟ قلت : أكثر اللغتين : هند أكبر النساء ، وهي أكبرهنّ . ثم إنّ قولك : هي كبرى امرأة ، لا تكاد تعثر عليه . ولكن هي أكبر امرأة ، وأول مرة ، وآخر مرة . وعن قتادة : ذكر لنا أنهم كانوا اثنى عشر رجلا قيل فيهم ما قيل .

[سورة التوبة (9) : الآيات 84 إلى 85]

وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَماتُوا وَهُمْ فاسِقُونَ (84) وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الدُّنْيا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كافِرُونَ (85)

روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم «1» فلما

---

(1) . لم أجده هكذا فأما أوله وهو «كان يقوم ، إلى آخره» وأما قصة عبد اللّه ففي الجائز من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال «دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على عبد اللّه ابن أبى ليعوده في مرضه الذي مات فيه . فلما عرف فيه الموت قال له : أما واللّه إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال : قد أبغضتهم ، أسعد بن زرارة . فما نفعه ، فلما مات أتاه ابنه فقال : قد مات فأعطنى قميصك أكفنه فيه فنزع عليه الصلاة والسلام قميصه فأعطاه إياه» وأما قوله «بعثت إليك لتستغفر لي لا لتوبخنى» فزاده الطبراني من طريق معمر عن قتادة قال «أرسل عبد اللّه ابن أبى وهو مريض إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فلما دخل عليه قال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : أهلكك حب يهود . قال : يا رسول اللّه ، أرسالات إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبخنى ، وسأله قميصه أن يكفن فيه ، فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قميصه ، ونفث في جلده ودلاه في قبره ، فأنزل اللّه تعالى وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً

وفي الدلائل البيهقي من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال :

فقال «ليس هذا بحين عتاب ، هو الموت ، فان مت فاحضر غسلي وأعطنى قميصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال : وصل على واستغفر لي» وفي رواية له فقال له ابنه – وكان يقال له الحباب ، فسماه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عبد اللّه يا رسول اللّه أعطه قميصك الذي يلي جلدك» وأما قوله الحباب اسم شيطان فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال «لما ثقل عبد اللّه بن أبى انطلق ابنه فقال : إن أبى احتضر وأحب أن تشهده وتصلى عليه ، فقال له النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما اسمك ؟ قال : الحباب بن عبد اللّه قال : بلى ، أنت عبد اللّه ، إن الحباب اسم شيطان ، قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه وأما قول عمر فقد قدمنا أنه في الصحيحين .

(107/346)

مرض رأس النفاق عبد اللّه بن أبىّ بعث إليه ليأتيه ، فلما دخل عليه قال : أهلكك حب اليهود .

فقال : يا رسول اللّه بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنبنى «1» وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلى عليه ، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته ، فسأله عن اسمه

فقال : أنت عبد اللّه ابن عبد اللّه . الحباب اسم شيطان . فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر : أتصلي على عدوّ اللّه ، فنزلت وقيل : أراد أن يصلى عليه فجذبه جبريل «2» . فإن قلت : كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه ؟ قلت : كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له . وذلك أن العباس رضى اللّه عنه عم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما أخذ اسيراً ببدر لم يجدوا له قميصاً وكان رجلا طوالا «3» ، فكساه عبد اللّه قميصه «4» وقال له المشركون يوم الحديبية : إنا لا نأذن لمحمد «5» ولكنا نأذن لك ، فقال : لا ، إن لي في رسول اللّه أسوة حسنة «6» فشكر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم له ذلك ، وإجابة له إلى مسألته إياه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلا ، وكان يتوفر على دواعي المروءة ويعمل بعادات الكرام ، وإكراماً لابنه الرجل الصالح ، فقد روى أنه قال له : أسألك أن تكفنه في بعض قمصانك ، وأن تقوم على قبره ، لا يشمت به الأعداء «7» ، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إياه لطفاً

---

(1) . قوله «لا لتؤنبنى» أى تعنفني باللوم . [. . . . .]

(2) . أخرجه أبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أراد أن يصلى على عبد اللّه بن أبى فأخذ جبريل بثوبه وقال وَلا تُصَلِّ عَلى أَحَدٍ مِنْهُمْ ماتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ويزيد ضعيف .

(3) . قوله «وكان رجلا طوالا» في الصحاح: الطوال - بالضم: الطويل. (ع)

(4) . أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً «لما كان يوم بدر أتى بالأسارى وأتى بالعباس، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى اللّه عليه وسلم قميصا. فوجدوا قميص عبد اللّه بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صلى اللّه عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى اللّه عليه وسلم قميصه الذي ألبسه. قال ابن عتبة كانت له عند النبي صلى اللّه عليه وسلم يد فأحب أن يكافئه. ورواه الحاكم في المستدرك من حديث جابر وأدرج فيه الكلام الأخير.

(5) . قوله «إنا لا نأذن لمحمد» أي في دخوله مكة. (ع)

(6) . أخرجه الواقدي في المغازي: حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان قال «كانت قريش يوم الحديبية أرسالات إلى عبد اللّه بن أبي: إن أحببت أن تدخل فتطوف فافعل. وابنه جالس عنده. فقال له ابنه: يا أبت اذكر اللّه أن تطوف بالبيت قبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأبى ابن أبي وقال: لا أطوف حتى يطوف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كلامه فسر».

(7) . لم أجده. وأصل سؤال ابنه في الصحيح كما تقدم.

لغيره ، فقد روى أنه قيل له : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : «إنّ قميصي لن يغنى عنه من اللّه شيئاً ، وإن أؤمل في اللّه أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب» «1» فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» وكذلك ترحمه واستغفاره كان للدعاء إلى التراحم والتعاطف ، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان وباطنه على خلاف ذلك ، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتما عليه . فإن قلت : فكيف جازت الصلاة عليه ؟ قلت : لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم ، وكانوا يجرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم ، لما في ذلك من المصلحة . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : ما أدرى ما هذه الصلاة ، إلا أنى أعلم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لا يخادع «3» ماتَ صفة لأحد . وإنما قيل : مات ، وماتوا بلفظ الماضي - والمعنى على الاستقبال - على تقدير الكون والوجود ، لأنه كائن موجود لا محالة إِنَّهُمْ كَفَرُوا تعليل للنهى ، وقد أعيد قوله وَلا تُعْجِبْكَ لأنّ تجدد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيده ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهمّ يفتقر إلى فضل عناية به ، لا سيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه ، فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 86 إلى 89]

وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقالُوا ذَرْنا نَكُنْ مَعَ الْقاعِدِينَ (86) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطُبِعَ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ (87) لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولئِكَ لَهُمُ الْخَيْراتُ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (89)

---

(1) . لم أره هكذا ، وأصله أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبي صلى اللّه عليه وسلم كلمه في ذلك . فقال : وما يغنى عنه قميصي من اللّه ، وإنى لأرجو أن يسلم به ألف من قومه» .

(2) . لم أره هكذا إلا في مرسل قتادة الذي قبله .

(3) . أخرجه سعيد بن داود في تفسيره من طريقه . قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال «لما مرض عبد اللّه بن أبى مرضه الذي مات فيه قال للنبي صلى اللّه عليه وسلم امنن علي فكفني في قميصك وصل علي قال : فكفنه في قميصه وصلى عليه . قال ابن عباس : واللّه ما أدرى ما هذه الصلاة كانت : فاللّه أعلم ، وما خادع محمدا إنسان قط» .

يجوز أن يراد السورة بتمامها ، وأن يراد بعضها في قوله وَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه . وقيل هي براءة ، لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد أَنْ آمِنُوا هي أن المفسرة أُولُوا الطَّوْلِ ذوو الفضل والسعة ، من طال عليه طولا مَعَ الْقاعِدِينَ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك لكِنِ الرَّسُولُ أى إن تخلف هؤلاء فقد نهد «1» إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً ، كقوله فَإِنْ يَكْفُرْ بِها هؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنا بِها قَوْماً ، فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ . الْخَيْراتُ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ . وقيل : الحور ، لقوله فِيهِنَّ خَيْراتٌ .

[سورة التوبة (9) : آية 90]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90)

الْمُعَذِّرُونَ من عذر في الأمر ، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ : وحقيقته أنه يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له : أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في

العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم . ولكن لم تثبت بهما قراءة ، وهم الذين يعتذرون بالباطل ، كقوله : يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم وقرئ . المعذرون ، بالتخفيف :

وهو الذي يجتهد في العذر ويحتشد فيه ، قيل : هم أسد وغطفان . قالوا : إن لنا عيالا : وإن بنا جهدا فائذن لنا في التخلف . وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيّ على أهالينا ومواشينا ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : سيغنيني اللّه عنكم . وعن مجاهد .

نفر من غفار ، اعتذروا فلم يعذرهم اللّه تعالى : وعن قتادة : اعتذروا بالكذب : وقرئ : المعذرون بتشديد العين والذال ، من تعذر بمعنى اعتذر ، وهذا غير صحيح ، لأنّ التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاى والصاد ، في المطوّعين ، وأزكى وأصدق . وقيل : أريد المعتذرون بالصحة ، وبه فسر المعذرون والمعذرون ، على قراءة ابن عباس رضى اللّه عنه الذين لم يفرطوا في العذر وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ هم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا ، وظهر بذلك أنهم كذبوا اللّه ورسوله في ادعائهم الإيمان . وقرأ أبىّ : كذبوا ، بالتشديد سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ من الأعراب عَذابٌ أَلِيمٌ في الدنيا بالقتل ، وفي الآخرة بالنار

---

(1) . قوله «فقد نهد» أى نهض ، كما في الصحاح . (ع)

[سورة التوبة (9) : الآيات 91 إلى 92]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92)

الضُّعَفاءِ الهرمى والزمنى . والذين لا يجدون : الفقراء . وقيل : هم مزينة وجهينة وبنو عذرة . والنصح للّه ورسوله : الإيمان بهما ، وطاعتهما في السر والعلن ، وتوليهما ، والحب والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه عَلَى الْمُحْسِنِينَ على المعذورين الناصحين ، ومعنى : لا سبيل عليهم : لا جناح عليهم . ولا طريق للعاتب عليهم قُلْتَ لا أَجِدُ حال من الكاف في أَتَوْكَ وقد قبله مضمرة ، كما قيل في قوله أَوْ جاؤُكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أى إذا ما أتوك قائلا لا أجد تَوَلَّوْا ولقد حصر اللّه المعذورين في التخلف الذين ليس لهم في أبدانهم استطاعة ، والذين عدموا آلة الخروج ، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها . وقيل «المستحملون» أبو موسى الأشعرى وأصحابه . وقيل البكاءون ، وهم

ستة نفر من الأنصار تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ كقولك . تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأنّ العين جعلت كأن كلها دمع فائض ، و«من» للبيان كقولك : أفديك من رجل ، ومحل الجار والمجرور النصب على التمييز أَلَّا يَجِدُوا لئلا يجدوا . ومحله نصب على أنه مفعول له ، وناصبه المفعول له الذي هو حزناً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشاف حـ 2 صـ 292 . 301 ﴾

(111/346)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) ﴾

وفي مقابل المنافقين والكفار ، يقف المؤمنون الصادقون . طبيعة غير الطبيعة ، وسلوكاً غير السلوك ، ومصيراً غير المصير :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ؛ ويطيعون الله ورسوله . أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز

حكيم . وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

إذا كان المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض . إذا كانوا جبلة واحدة وطبيعة واحدة . . فالمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض . أن المنافقين والمنافقات مع وحدة طبيعتهم لا يبلغون أن يكونوا أولياء بعضهم لبعض . فالولاية تحتاج إلى شجاعة وإلى نجدة وإلى تعاون وإلى تكاليف . وطبيعة النفاق تأبى هذا كله ولو كان بين المنافقين أنفسهم . إن المنافقين أفراد ضعاف مهازيل ، وليسوا جماعة متماسكة قوية متضامنة ، على ما يبدو بينهم من تشابه في الطبيعة والخلق والسلوك . والتعبير القرآني الدقيق لا يغفل هذا المعنى في وصف هؤلاء وهؤلاء . .

﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ . .

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾ . .

إن طبيعة المؤمن هي طبيعة الأمة المؤمنة . طبيعة الوحدة وطبيعة التكافل ، وطبيعة التضامن ، ولكنه التضامن في تحقيق الخير ودفع الشر .

(112/346)

﴿ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾ . . وتحقيق الخير ودفع الشر يحتاج إلى الولاية والتضامن والتعاون . ومن هنا تقف الأمة المؤمنة صفاً واحداً . لا تدخل بينها عوامل الفرقة . وحيثما وجدت الفرقة في الجماعة المؤمنة فثمة ولا بد عنصر غريب عن طبيعتها ، وعن عقيدتها ، هو الذي يدخل بالفرقة . ثمة غرض أو مرض يمنع السمة الأولى ويدفعها . السمة التي يقررها العليم الخبير !

﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ . . يتجهون بهذه الولاية إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإعلاء كلمة الله ، وتحقيق الوصاية لهذه الأمة في الأرض .

﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ . .

الصلة التي تربطهم بالله .

﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ . .

الفريضة التي تربط بين الجماعة المسلمة ، وتحقق الصورة المادية والروحية للولاية والتضامن .

﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ . .

فلا يكون لهم هوى غير أمر الله وأمر رسوله ، ولا يكون لهم دستور إلا شريعة الله ورسوله . ولا يكون لهم منهج إلا دين الله ورسوله ، ولا يكون لهم الخيرة إذا قضى الله ورسوله . . وبذلك يوحدون نهجهم ويوحدون هدفهم ويوحدون طريقتهم ، فلا تتفرق بهم السبل عن

الطريق الواحد الواصل المستقيم .

﴿ أولئك سيرحمهم الله ﴾ . .

والرحمة لا تكون في الآخرة وحدها ، إنما تكون في هذه الأرض أولاً ورحمة الله تشمل الفرد الذي ينهض بتكاليف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ؛ وتشمل الجماعة المكونة من أمثال هذا الفرد الصالح . رحمة الله في اطمئنان القلب ، وفي الاتصال بالله ، وفي الرعاية والحماية من الفتن والأحداث . ورحمة الله في صلاح الجماعة وتعاونها وتضامنها واطمئنان كل فرد للحياة واطمئنانه لرضاء الله .

إن هذه الصفات الأربع في المؤمنين : الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، لتقابل من صفات المنافقين : الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ونسيان الله وقبض الأيدي .

(113/346)

. وإن رحمة الله للمؤمنين لتقابل لعنته للمنافقين والكفار . . وإن تلك الصفات لهي التي وعد الله المؤمنين عليها بالنصر والتمكين في الأرض ليحققوها في وصايتهم الرشيدة على البشرية :

﴿ إن الله عزيز حكيم ﴾ . .

قادر على إعزاز الفئة المؤمنة ليكون بعضها أولياء بعض في النهوض بهذه التكاليف ، حكيم في تقدير النصر والعزة لها ، لتصلح في الأرض ، وتحرس كلمة الله بين العباد .

وإذا كان عذاب جهنم ينتظر المنافقين والكافرين ، وكانت لعنته لهم بالمرصاد ، وكان نسيانه لهم يدمغهم بالضآلة والحرمان . فإن نعيم الجنة ينتظر المؤمنين :

﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ . .

للإقامة المطمئنة . ولهم فوقها ما هو أكبر وأعظم :

﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ . .

وإن الجنة بكل ما فيها من نعيم لتتضاءل وتتوارى في هالات ذلك الرضوان الكريم .

﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ . .

إن لحظة اتصال بالله . لحظة شهود لجلاله . لحظة انطلاق من حبسة هذه الأمشاج ، ومن ثقلة هذه الأرض وهمومها القريبة . لحظة تنبثق فيها في أعماق القلب البشري شعاعة من ذلك النور الذي لا تدركه الأبصار . لحظة إشراق تنير فيها حنايا الروح بقبس من روح الله . . إن لحظة واحدة من هذه اللحظات التي تتفق للندرة القليلة من البشر في ومضة صفاء ، ليتضاءل إلى جوارها كل متاع ، وكل رجاء . . فكيف برضوان من الله يغمر هذا الأرواح ، وتستشعره بدون انقطاع ؟

﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ . .

وبعد بيان صفة المؤمنين الصادقين وصفة المنافقين الذين يدّعون الإيمان . . يأمر الله نبيه أن يجاهد الكفار والمنافقين . ويقرر القرآن الكريم أن هؤلاء المنافقين قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بأمر خيبهم الله فيه ، وهو من وحي الكفر الذي صاروا إليه .

ويعجب من نقمتهم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما كان لهم من بعثته إلا الخير والغنى . ويرغبهم في التوبة ويخوفهم التمادي في الكفر والنفاق :

(114/346)

﴿ يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم وبئس المصير . يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم ، وهموا بما لم ينالوا . وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ . .

لقد كان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاين المنافقين كثيراً ، وأغضى عنهم كثيراً ، وصفح عنهم كثيراً . فها هو ذا يبلغ الحلم غايته ، وتبلغ السماحة أجلها ، ويأمره ربه أن يبدأ معهم خطة جديدة ، ويلحقهم بالكافرين في النص ، ويكلفه جهاد هؤلاء وهؤلاء جهاداً عنيفاً

غليظاً لا رحمة فيه ولا هوادة .

إن للين مواضعه وللشدة مواضعها . فإذا انتهى أمد اللين فلتكن الشدة ؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع . . وللحركة مقتضياتها ، وللمنهج مراحله ، واللين في بعض الأحيان قد يؤذي ، والمطاولة قد تضر .

وقد اختلف في الجهاد والغلظة على المنافقين . أتكون بالسيف كما روي عن علي – كرم الله وجهه – واختاره ابن جرير – رحمه الله – أم تكون في المعاملة والمواجهة وكشف خبيئاتهم للأنظار كما روي عن ابن عباس – رضي الله عنه – والذي وقع – كما سيجيء – أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يقتل المنافقين . .

﴿ يحلفون بالله ما قالوا . ولقد قالوا كلمة الكفر ، وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا ﴾ . .

والنص في عمومه يستعرض حالة المنافقين في كثير من مواقفهم ، ويشير إلى ما أرادوه مراراً من الشر للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وللمسلمين . . وهناك روايات تحدد حادثة خاصة لسبب نزول الآية :

قال قتادة : نزلت في عبد الله بن أبي . وذلك أنه اقتتل رجلان ، جهني وأنصاري ، فعلا الجهني على الأنصاري ، فقال عبد الله للأنصاري : ألا تنصرون أخاكم ؟ والله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل : سمن كلبك يأكلك . وقال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأرسل إليه فسأله ، فجعل يحلف بالله ما قاله ، فأنزل الله فيه هذه الآية .

ويروي الإمام أبو جعفر بن جرير بإسناده عن ابن عباس قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالساً تحت ظل شجرة ، فقال : " إنه سيأتيكم إنسان ، فينظر إليكم بعين الشيطان ، فإذا جاء فلا تكلموه " فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : " علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ " فانطلق الرجل فجاء بأصحابه ، فحلفوا بالله ما قالوا ، حتى تجاوز عنهم ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يحلفون بالله ما قالوا . . الآية ﴾ .

وروي عن عروة بن الزبير وغيره ما مؤداه : أنها نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت . كان له ربيب من امرأته اسمه عمير بن سعد ، فقال الجلاس : إن كان ما جاء به محمد حقاً فنحن أشر من حمرنا هذه التي نحن عليها . فقال عمير : والله يا جلاس إنك لأحب الناس إلي ، وأحسنهم عندي بلاء ، وأعزهم على أن يصله شيء يكره ، ولقد قلت مقالة لئن ذكرتها لتفضحني ، ولئن كتمتها لتهلكني ، ولإحداهما أهون عليّ من الأخرى . فأخبر بها

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنكرها وحلف بالله ما قالها ، فأنزل الله الآيات . فقال الرجل قد قلته ، وقد عرض الله عليّ التوبة ، فأنا أتوب ، فقبل منه ذلك .

ولكن هذه الروايات لا تنسجم مع عبارة : ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ وهذه تضافر الروايات على أن المعنيّ بها ما أراده جماعة من المنافقين في أثناء العودة من الغزوة ، من قتل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ غيلة وهو عائد من تبوك . فنختار إحداها .

(116/346)

قال الإمام أحمد – رحمه الله – حدثنا يزيد أخبرنا الوليد بن عبد الله بن جميع عن أبي الطفيل قال : لما أقبل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من غزوة تبوك أمر منادياً فنادى : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ العقبة ، فلا يأخذها أحد . فبينما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوده حذيفة ويسوقه عمار إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل ، فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل عمار – رضي الله عنه – يضرب وجوه الرواحل ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة " قد . قد " حتى هبط رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورجع عمار . فقال يا عمار : " هل عرفت القوم ؟ " فقال : لقد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون . قال : " هل تدري ما أرادوا ؟

" قال : الله ورسوله أعلم . قال : " أرادوا أن ينفروا برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ راحلته فيطرحوه " قال : فسأل عمار رجلاً من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : نشدتك بالله ، كم تعلم كان أصحاب العقبة ؟ قال : أربعة عشر رجلاً . فقال : إن كنت منهم فقد كانوا خمسة عشر . قال : فعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ منهم ثلاثة قالوا : والله ما سمعنا منادي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما علمنا ما أراد القوم . فقال عمار : أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد .

هذه الحادثة تكشف عن دخيلة القوم . وسواء كانت هي أو شيء مثلها هي الذي تعنيه الآية ، فإنه ليبدو عجيباً أن تنطوي صدور القوم على مثل هذه الخيانة . والنصر يعجب هنا منهم :

﴿ وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ . .

فما من سيئة قدمها الإسلام لهم ينقمون عليه هذه النقمة من أجلها . اللهم إلا أن يكون الغنى الذي غمرهم بعد الإسلام ، والرخاء الذي أصابهم بسببه هو ما ينقمون !

ثم يعقب على هذا التعجيب من أمرهم ، بعد كشف خبيئاتهم بالحكم الفاصل :

﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ . .

بعد هذا كله يظل باب التوبة مفتوحاً على مصراعيه . فمن شاء لنفسه الخير فليدلف إلى الباب المفتوح.

ومن أراد أن يمضي في طريقه الأعوج ، فالعاقبة كذلك معروفة : العذاب الأليم في الدنيا والآخرة . وانعدام الناصر والمعين في هذه الأرض . . ولمن شاء أن يختار ، وهو وحده الملوم :

﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ، وإن يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة ، وما لهم في الأرض من ولي ولا نصير ﴾ . .

ثم يمضي السياق في عرض نماذج من المنافقين وأحوالهم وأقوالهم من قبل الغزوة وفي ثناياها .

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به ، وتولوا وهم معرضون ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ .

من المنافقين من عاهد الله لئن أنعم الله عليه ورزقه ، ليبذلن الصدقة ، وليصلحن العمل .

ولكن هذا العهد إنما كان في وقت فقره وعسرته ، في وقت الرجاء والطمع . فلما أن استجاب الله له ورزقه من فضله نسي عهده ، وتنكر لوعده ، وأدركه الشح والبخل فقبض يده ، وتولى معرضاً عن الوفاء بما عاهد . فكان هذا النكث بالعهد مع الكذب على الله فيه سبباً في التمكين للنفاق في قلبه ، والموت مع هذا النفاق ، ولقاء الله به .

(118/346)

والنفس البشرية ضعيفة شحيحة ، إلا من عصم الله ؛ ولا تطهر من هذا الشح إلا أن تعمر بالإيمان ، وترتفع على ضرورات الأرض ، وتنطلق من قيود الحرص على النفع القريب ، لأنها تؤمل في خلف أعظم ، وتؤمل في رضوان من الله أكبر . والقلب المؤمن يطمئن بالإيمان ، فلا يخشى الفقر بسبب الإنفاق ، لأنه يثق بأن ما عند الناس ينفد وما عند الله باق . وهذا الاطمئنان يدفع به إلى إنفاق المال في سبيل الله تطوعاً ورضى وتطهراً ، وهو آمن مغبته . فحتى لو فقد المال وافتقر منه ، فإن له عوضاً أعظم عند الله .

فأما حين يقفر القلب من الإيمان الصحيح ، فالشح الفطري يهيج في نفسه كلما دعي إلى نفقة أو صدقة ، والخوف من الفقر يتراءى له فيقعد به عن البذل . ثم يبقى سجين شحه وخوفه بلا أمن ولا قرار .

والذي يعاهد الله ثم يخلف العهد ، والذي يكذب على الله فلا يفي بما وعد ، لا يسلم قلبه من النفاق : " آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان " . فلا جرم يعقب إخلاف العهد والكذب على الله نفاقاً دائماً في قلوب تلك الطائفة التي تشير إليها الآية :

﴿ فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾ . .

﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾ ؟

ألم يعلموا – وهم يدعون الإيمان – أن الله مطلع على السرائر ، عالم بما يدور بينهم من أحاديث ، يحسبونها سراً بينهم لأنهم يتناجون بها في خفية عن الناس ؟ وأن الله يعلم الغيب الخافي المستور ، فيعلم حقيقة النوايا في الصدور ؟ ولقد كان من مقتضى علمهم بهذا ، ألا يستخفوا عن الله بنية ، وألا تحدثهم نفوسهم بإخلاف ما عاهدوا الله عليه ، والكذب عليه في إعطاء العهود .

(119/346)

وقد وردت روايات عن سبب نزول الآيات الثلاث ، نذكر منها رواية عن ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث معان – بإسناده – عن أبي أمامة الباهلي عن ثعلبة بن حاطب

الأنصاري أنه قال لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ادع الله أن يرزقني مالاً . قال : فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه " قال : ثم قال مرة أخرى . فقال : " أما ترضى أن تكون مثل نبي الله فوالذي نفسي بيده لو شئت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت " قال : والذي بعثك بالحق لئن دعوت الله فرزقني مالاً لأعطين كل ذي حق حقه . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " اللهم ارزق ثعلبة مالاً " قال : فاتخذ غنماً فنمت كما ينمي الدود ، فضاقت المدينة ، فتنحى عنها فنزل وادياً من أوديتها ، حتى جعل يصلي الظهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت فتنحى حتى ترك الصلوات إلا الجمعة ، وهي تنمي كما ينمي الدود حتى ترك الجمعة ، فطفق يتلقى الركبان يوم الجمعة ليسألهم عن الأخبار . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " ما فعل ثعلبة ؟ " فقالوا يا رسول الله اتخذ غنماً فضاقت عليه المدينة ، فأخبروه بأمره ، فقال : " يا ويح ثعلبة ! يا ويح ثعلبة ! يا ويح ثعلبة ! " وأنزل الله جل ثناؤه : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية . . ونزلت فرائض الصدقة ، فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلين على الصدقة من المسلمين . رجلاً من جهينة ورجلاً من سليم ، وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة من المسلمين ؛ وقال لهما : " مرا بثعلبة وبفلان – رجل من بني سليم – فخذا صدقاتهما " فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة ، وأقرآه كتاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : ما هذه إلا جزية .

وما هذه إلا أخت الجزية . ما أدري ما هذا ؟ انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إليّ . وسمع بهما السلمي ، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهما بها ، فلما رأوها

(120/346)

قالوا : ما يجب عليك هذا ، وما نريد أن نأخذ هذا منك . فقال : بل فخذوها فإن نفسي بذلك طيبة وإنما هي له ، فأخذاها منه ومرا على الناس فأخذا الصدقات . ثم رجعا إلى ثعلبة فقال : أروني كتابكما فقرأه : فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى أرى رأيي . فانطلقا حتى أتيا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فلما رآهما قال : " يا ويح ثعلبة " قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمي بالبركة ، فأخبراه بالذي صنع ثعلبة والذي صنع السلمي . فأنزل الله عز وجل ﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . . . ﴾ الآية . وعند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجل من أقارب ثعلبة فسمع بذلك ، فخرج حتى أتاه ، فقال : ويحك يا ثعلبة ! أنزل الله فيك كذا وكذا ؛ فخرج ثعلبة حتى أتى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال : " إن الله منعني أن أقبل منك صدقتك " فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني " فلما أبى رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ أن يقبض صدقته رجع إلى منزله ؛ فقبض رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – ولم يقبل منه شيئاً . ثم أتى أبا بكر – رضي الله عنه – حين استخلف ، فقال : قد علمت منزلتي من رسول الله وموضعي من الأنصار فاقبل صدقتي ؛ فقال أبو بكر : لم يقبلها منك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبى أن يقبلها ؛ فقبض أبو بكر ولم يقبلها . فلما ولي عمر – رضي الله عنه – أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتي فقال : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ، وأنا أقبلها منك ؟ فقبض ولم يقبلها . فلما ولي عثمان – رضي الله عنه – أتاه فقال : اقبل صدقتي ، فقال : لم يقبلها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا أبو بكر ولا عمر ، وأنا أقبلها منك ؟ فلم يقبلها منه . فهلك ثعلبة في خلافة عثمان . .

(121/346)

وسواء كانت هذه الواقعة مصاحبة لنزول الآيات أو كان غيرها ، فإن النص عام ، وهو يصور حالة عامة ، ويرسم نموذجاً مكرراً للنفوس التي لم تستيقن ، ولم يبلغ الإيمان فيها أن يتمكن . وإذا كانت الرواية صحيحة في ربط الحادثة بنزول الآيات ، فإن علم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن نقض العهد والكذب على الله قد أورث المخلفين نفاقاً في قلوبهم

إلى يوم يلقونه ، يكون هو الذي منعه من قبول صدقة ثعلبة وتوبته التي ظهر بها ، ولم يعامله بالظاهر حسب الشريعة . إنما عامله بعلمه بحاله الذي لا شك فيه ، لأنه إخبار من العليم الخبير ، وكان تصرفه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تصرفاً تأديبياً برد صدقته . مع عدم اعتباره مرتداً فيؤخذ بعقوبة الردة ولا مسلماً فتقبل منه زكاته . ولا يعني هذا إسقاط الزكاة عن المنافقين شريعة .

إن الشريعة تأخذ الناس بظاهرهم . فيما ليس فيه علم يقيني ، كالذي كان في هذا الحادث الخاص ، فلا يقاس عليه .

غير أن رواية الحادث تكشف لنا كيف كان المسلمون الأوائل ينظرون إلى الزكاة المفروضة . إنهم كانوا يحتسبونها نعمة عليهم ، من يحرم أداءها أو يحرم قبولها منه ، فهو الخاسر . الذي يستحق الترحم مما أصابه من رفض زكاته ! مدركين لحقيقة المعنى الكامن في قوله تعالى :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ . .

فكانت لهم غنماً ينالونه لا غرماً يحملونه . وهذا هو الفارق بين فريضة تؤدى ابتغاء رضوان الله وضريبة تدفع لأن القانون يحتمها ويعاقب عليها الناس !

والآن يعرض السياق لوناً آخر من تصورات المنافقين للزكاة يخالفون به ذلك التصور الحق عند المؤمنين الصادقين ؛ ويكشف عن لون من طبيعة الغمز فيهم واللمز ، النابعين من

طبعهم المنحرف المدخول :

﴿ الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم ، فيسخرون منهم . سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ . .

(122/346)

والقصة المروية عن سبب نزول هذه الآية ، تصور نظرة المنافقين المنحرفة لطبيعة الإنفاق في سبيل الله وبواعثه في النفوس .

أخرج ابن جرير من طريق يحيى بن أبي كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبي حاتم من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة – بألفاظ مختلفة – قال : حث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصدقة (يعني في غزوة تبوك) فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف فقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها . فقال : " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يا رسول الله أصبت صاعين من تمر صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي . قال : فلمزه المنافقون ، وقالوا : ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا : ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟

وفي روايات أخرى أنهم قالوا عن أبي عقيل ، وهو الذي بات يعمل ليحصل على صاعين

أجر له ، جاء بأحدهما لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنه إنما أراد أن يذكر بنفسه !

وهكذا تقولوا على المؤمنين الذين انبعثوا إلى الصدقة عن طواعية نفس ، ورضا قلب ، واطمئنان ضمير ، ورغبة في المساهمة في الجهاد كل على قدر طاقته ، وكل على غاية جهده . ذلك أنهم لا يدركون بواعث هذا التطوع في النفوس المؤمنة . لا يدركون حساسية الضمير التي لا تهدأ إلا بالبذل عن طيب خاطر . لا يدركون المشاعر الرفرافة التي تنبعث انبعاثاً ذاتياً ، لتلبي دواعي الإيمان والتضحية والمشاركة . من أجل هذا يقولون عن المكثر : إنه يبذل رياء ، وعن المقل ! إنه يذكر بنفسه . يجرحون صاحب الكثير لأنه يبذل كثيراً ، ويحتقرون صاحب القليل لأنه يبذل القليل . فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيرين .

ذلك وهم قاعدون متخلفون منقبضو الأيدي شحيحو الأنفس ، لا ينفقون إلا رياء ، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير .

ومن ثم يجبههم الرد الحاسم الجازم :

﴿ سخر الله منهم ولهم عذاب أليم ﴾ . .

(123/346)

ويالهولها سخرية . ويالهولها عاقبة . فمن شر ذمة صغيرة هزيلة من البشر الضعاف الفانين وسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم وعذابه يترقبهم ؟ ! ألا إنه للهول المفزع الرهيب !

﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ، ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ، والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ . .

هؤلاء المنافقون الذين يلمزون المتطوعين بالصدقات على هذا النحو ، قد تقرر مصيرهم ، فما عاد يتبدل :

﴿ فلن يغفر الله لهم ﴾ . .

لن يجديهم استغفار ، فإنه وعدم الاستغفار لهم سواء .

ويبدو أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - كان يستغفر للمخطئين عسى أن يتوب الله عليهم . فأما هؤلاء فقد أخبر بأن مصيرهم قد تقرر ، فلا رجعة فيه :

﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ . . ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ .

أولئك الذين انحرفوا عن الطريق فلم تعد ترجى لهم أوبة . وفسدت قلوبهم فلم يعد يرجى لها صلاح . .

﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ . .

والسبعون تذكر عادة للتكثير . لا على أنها رقم محدد . والمعنى العام أن لا رجاء لهم في مغفرة ، لأنه لا سبيل لهم إلى توبة . والقلب البشري حين يصل إلى حد معين من الفساد لا

يصلح ، والضلال حين ينتهي إلى أمد معين لا يرجى بعده اهتداء . والله أعلم بالقلوب .

وينتقل السياق – مرة أخرى – إلى الحديث عن المتخلفين عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك :

(124/346)

﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وقالوا : لا تنفروا في الحر . قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون . فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً . إنكم رضيتم بالعقود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين . ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون . ولا تعجبك أموالهم وأولادهم ، إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ، وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ . .

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض . ثقلة الحرص على الراحة ، والشح بالنفقة . وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة ، وخواء القلب من الإيمان . . هؤلاء المخلفون – والتعبير يلقي ظل الإهمال كما لو كانوا متاعاً يخلف أو هملاً يترك – فرحوا بالسلامة والراحة ﴿ خلاف

رسول الله ﴾ وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد ، وحسبوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال ! ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ .

. ﴿ وقالوا : لا تنفروا في الحر ﴾ وهي قولة المسترخي الناعم الذي لا يصلح لشيء مما يصلح له الرجال .

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة ، وطراوة الإرادة ؛ وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب ، وينفرون من الجهد ، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم ، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز . وهم يتساقطون إعياء خلف الصفوف الجادة الزاحفة العارفة بتكاليف الدعوات . ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات والأشواك ، لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات والأشواك فطرة في الإنسان ، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال .

والنص يرد عليهم بالتهكم المنطوي على الحقيقة :

﴿ وقالوا : لا تنفروا في الحر . قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ﴾ . .

(125/346)

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض ، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال . فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حراً ، وأطول أمداً ؟ وإنها لسخرية مريرة ، ولكنها كذلك حقيقة .

فإما كفاح في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض ، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله :

﴿ فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ . .

وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة ، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة . وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما يعدون .

﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ . .

فهو الجزاء من جنس العمل ، وهو الجزاء العادل الدقيق .

هؤلاء الذين آثروا الراحة على الجهد – في ساعة العسرة – وتخلفوا عن الركب في أول مرة .

هؤلاء لا يصلحون لكفاح ، ولا يُرجون لجهاد ، ولا يجوز أن يؤخذوا بالسماحة والتغاضي ، ولا أن يتاح لهم شرف الجهاد الذي تخلوا عنه راضين :

﴿ فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ، إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ، فاقعدوا مع الخالفين ﴾ . .

إن الدعوات في حاجة إلى طبائع صلبة مستقيمة ثابتة مصممة تصمد في الكفاح الطويل الشاق . والصف الذي يتخلله الضعاف المسترخون لا يصمد لأنهم يخذلونه في ساعة

الشدة فيشيعون فيه الخذلان والضعف والاضطراب . فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف وقاية له من التخلخل والهزيمة . والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة ، ثم يعودون إليه في ساعة الرخاء ، جناية على الصف كله ، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحة المرير . .

﴿ فقل : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ﴾ .

لماذا ؟ .

﴿ إنكم رضيتم بالقعود أول مرة ﴾ . .

ففقدتم حقكم في شرف الخروج ؛ وشرف الانتظام في الكتيبة ، والجهاد عبء لا ينهض به إلا من هم له أهل . فلا سماحة في هذا ولا مجاملة :

﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ . .

المتجانسين معكم في التخلف والقعود .

(126/346)

هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، وإنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً . فليعرف أصحابها في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق . .

وكما أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بألا يسمح للمتخلفين في ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا في الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أي ظلال من ظلال التكريم :

﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره . إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ .

ولقد ذكر المفسرون حوادث خاصة عنتها هذه الآية . ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة . فهي تقرر أصلاً من أصول التقدير في نظام الجماعة المكافحة في سبيل العقيدة ، هو عدم التسامح في منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح الشاق ؛ وعدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصف . ومقياس هذا التقدير هو الصبر والثبات والقوة والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي ولا تلين .

والنص يعلل هذا النهي في موضعه هنا ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على قبر منافق . . ولكن القاعدة – كما ذكرنا – أوسع من المناسبة الخاصة . فالصلاة والقيام تكريم . والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف في ساعة الجهاد ، لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون في سبيل الله ، وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما في ساعة الشدة ، ثم يعودون في الصف مكرمين !

لا التكريم الظاهر ينالونه في أعين الجماعة ، ولا التكريم الباطن ينالونه في عالم الضمير :

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم . إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ . .

(127/346)

والمعنى العام للآية قد سبق في السياق . أما مناسبة ورودها فتختلف . فالمقصود هنا ألا يقام وزن لأموالهم وأولادهم ، لأن الأعجاب بها نوع من التكريم الشعوري لهم . وهم لا يستحقونه لا في الظاهر ولا في الشعور . إنما هو الاحتقار والإهمال لهم ولما يملكون .

﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم ، وقالوا : ذرنا نكن مع القاعدين : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون . لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، وأولئك لهم الخيرات ، وأولئك هم المفلحون ، أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ، ذلك الفوز العظيم ﴾ . .

إنهما طبيعتان . . طبيعة النفاق والضعف والاستخذاء . وطبيعة الإيمان والقوة والبلاء .

وإنهما خطتان . . خطة الالتواء والتخلف والرضى بالدون . وخطة الاستقامة والبذل

والكرامة .

فإذا أنزلت سورة تأمر بالجهاد جاء أولوا الطول ، الذين يملكون وسائل الجهاد والبذل .

جاءوا لا ليتقدموا الصفوف كما تقتضيهم المقدرة التي وهبها الله لهم ، وشكر النعمة التي أعطاها الله إياهم ، ولكن ليتخاذلوا ويعتذروا ويطلبوا أن يقعدوا مع النساء لا يذودون عن حرمة ولا يدفعون عن سكن .

دون أن يستشعروا ما في هذه القعدة الذليلة من صغار وهوان ، ما دام فيها السلامة ، وطلاب السلامة لا يحسون العار ، فالسلامة هدف الراضين بالدون :

﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ . .

﴿ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ . .

ولو كانوا يفقهون لأدركوا ما في الجهاد من قوة وكرامة وبقاء كريم ، وما في التخلف من ضعف ومهانة وفناء ذميم .

(128/346)

" إن للذل ضريبة كما أن للكرامة ضريبة . وإن ضريبة الذل لأفدح في كثير من الأحايين .

وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق ، فتختار الذل

والمهانة هرباً من هذه التكاليف الثقال ، فتعيش عيشة تافهة رخيصة ، مفزعة قلقة ، تخاف من ظلها ، وتفرق من صداها ، يحسبون كل صيحة عليهم ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . . هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة . إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة . يؤدونها من نفوسهم ، ويؤدونها من أقدارهم ، ويؤدونها من سمعتهم ، ويؤدونها من اطمئنانهم ، وكثيراً ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون " ومن هؤلاْ . . أولئك الذين ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ﴾ . .

﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه ﴾ . . وهم طراز آخر غير ذلك الطراز . . ﴿ جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ . . فنهضوا بتكاليف العقيدة ، وأدوا واجب الإيمان ؛ وعملوا للعزة التي لا تنال بالقعود ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ . . خيرات الدنيا والآخرة ، في الدنيا لهم العزة ولهم الكرامة ولهم المغنم ولهم الكلمة العالية . وفي الآخرة لهم الجزاء الأوفى ، ولهم رضوان الله الكريم ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ . . الفلاح في الدنيا بالعيش الكريم القويم والفلاح في الآخرة بالأجر العظيم : ﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ﴾ . . ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ .

﴿ وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم ، وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ . .

فأما الأولون فهم ذوو الأعذار الحقيقية فلهم عذرهم إن استأذنوا في التخلف ، وأما الآخرون فقعدوا بلا عذر . قعدوا كاذبين على الله والرسول . وهؤلاء ينتظر الذين كفروا منهم عذاب أليم . أما الذين يتوبون ولا يكفرون فمسكوت عنهم لعل لهم مصيراً غير هذا المصير .

(129/346)

وأخيراً يحدد التبعة . فليس الخروج ضربة لازب على من يطيقون ومن لا يطيقون . فالإسلام دين اليسر ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . والذين عجزوا عن النفرة لا تثريب عليهم ولا مؤاخذة لهم ، لأنهم معذورون :

﴿ ليس على الضعفاء ولا على المرضى ، ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله . ما على المحسنين من سبيل ، والله غفور رحيم . ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون ﴾ .

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة في تكوينهم ، أو لشيخوخة تقعدهم ؛ ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد ؛ ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون

به .

. ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان ، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله ، لا يغشون ولا يخدعون ، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه – دون القتال – من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية في دار الإسلام ، أو أعمال أخرى تعود بالنفع على المسلمين . ليس عليهم جناح ، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون ، فلا جناح على المحسنين ، إنما الجناح على المسيئين .

ولا جناح كذلك على القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة . فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ، ألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعاً ، لأنهم لا يجدون ما ينفقون .

وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه .

وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات عن جماعة من المسلمين في عهد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ تختلف الروايات في تعيين أسمائهم ، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة .

(130/346)

روى العوفي عن ابن عباس : " وذلك أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمر الناس أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءته عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل بن مقوى المازني ، فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال لهم : " والله لا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا وهم يبكون ، وعز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ولا يجدون نفقة ولا محملاً : فلما رأى الله حرصهم على محبته ومحبة رسوله أنزل عذرهم في كتابه .

وقال مجاهد : نزلت في بني مقرن من مزينة .

وقال محمد بن كعب كانوا سبعة نفر من بني عمرو بن عوف : سالم بن عوف ، ومن بني واقف : حرمي ابن عمر ، ومن بني مازن بن النجار : عبد الرحمن بن كعب ويكنى أبا ليلى ، ومن بني المعلى : فضل الله ومن بني سلمة : عمرو بن عتمة وعبد الله بن عمرو والمزني .

وقال ابن إسحاق في سياق غزوة تبوك : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم الباكون وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلية بن زيد أخو بني حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة ، وعبد الله بن المغفل المزني ، وبعض الناس يقول : بل هو عبد الله بن عمرو والمزني وحرمي بن عبد الله أخو بني واقف وعياض بن سارية الفزاري ، فاستحملوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانوا أهل حاجة : قال : " لا أجد ما أحملكم عليه " تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام ، وبمثل هذه الروح عزت كلمته . فلننظر أين نحن من هؤلاء . ولننظر أين روحنا من تلك العصبة . ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر . وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1675.1686 ﴾

(131/346)

قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما نفى السبيل عمن وصفه كر على ذم من انتفى عنه هذا الوصف فقال تعالى : ﴿ إنما السبيل ﴾ أي باللوم وغيره ﴿ على الذين يستأذنونك ﴾ أي يطلبون إذنك في التخلف عنك راغبين فيه ﴿ وهم أغنياء ﴾ أي فلا عذر لهم في التخلف عنك وعدم مواساتك ، وتضمن قوله تعالى مستأنفاً : ﴿ رضوا بأن يكونوا ﴾ أي كوناً كأنه جبلة لهم ﴿ مع الخوالف ﴾ انتفاء الضعف والمرض عنهم من حيث إنه علل فعلهم برضاهم بالتخلف

فأفهم ذلك أنه لا علة لهم سواه ، وأفهم أيضاً أن كل من كان كذلك كان مثلهم ولو أنه ضعيف أو مريض ، وكرر ذكر الخوالف تكريراً لعيبهم برضاهم بالكون في عداد النساء إذ كان ذلك من أعظم المعايب عند العرب ، وسمى الفاعل للطبع حيث حذفه من الأولى : ولما ذكره ، عظم الأمر فاقتضى ذلك عظم الطبع فنفى مطلق العلم فقال عاطفاً على " رضوا " : ﴿ وطبع الله ﴾ أي له القدرة الكاملة والعلم المحيط ﴿ على قلوبهم ﴾ ثم سبب عن ذلك الرضى والطبع قوله : ﴿ فهم لا يعلمون ﴾ أي لا علم له فلذلك جهلوا ما في الجهاد من منافع الدارين لهم فلذلك رضوا بما لا يرضى به عاقل ، وهو أبلغ من نفي الفقه في الأولى ، وزاد المناسبة حسناً ضم الأعراب في هذه الآيات إلى أهل الحاضرة وهم بعيدون من الفقه جديرون بعدم العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 375 ﴾

(132/346)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى لما قال في الآية الأولى : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ قال في هذه الآية إنما السبيل على من كان كذا وكذا ، ثم الذين قالوا في الآية الأولى المراد ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ في أمر الغزو والجهاد ، وأن نفي السبيل في تلك الآية مخصوص بهذا الحكم .

قالوا : السبيل الذي نفاه عن المحسنين ، هو الذي أثبته في هؤلاء المنافقين ، وهو الذي يختص بالجهاد ، والمعنى : أن هؤلاء الأغنياء الذين يستأذنونك في التخلف سبيل الله عليهم لازم ، وتكليفه عليهم بالذهاب إلى الغزو متوجه ، ولا عذر لهم ألبتة في التخلف .

فإن قيل : قوله : ﴿ رَضُواْ ﴾ ما موقعه ؟

قلنا : كأنه استئناف ، كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء .

فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ يعني أن السبب في نفرتهم عن الجهاد ، هو أن الله طبع على قلوبهم ، فلأجل ذلك الطبع لا يعلمون ما في الجهاد من منافع الدين والدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 130.129 ﴾

(133/346)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾

في السبيل ها هنا وجهان :

أحدهما : الإنكار .

الثاني : الإثم .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ يعني في التخلف عن الجهاد . ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ يعني بالمال والقدرة .

﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم الذراري من النساء والأطفال .

الثاني : أنهم المتخلفون بالنفاق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

قوله في هذه الآية ﴿ إنما ﴾ ليس بحصر وإنما هي للمبالغة فيما يريد تقريره عل نحو ذلك إنما الشجاع عنترة ويقضي بذلك انَّا نجد السبيل في الشرع على غير هذه الفرقة موجوداً ، و ﴿ السبيل ﴾ قد توصل ب ﴿ على ﴾ و ﴿ إلى ﴾ فتقول لا سبيل على فلان ولا سبيل إلى فلان غير أن وصولها ب ﴿ على ﴾ يقتضي أحياناً ضعف المتوصل إليه وقلة منعته ،

فلذلك حسنت في هذه الآية ، وليس ذلك في إلى ، ألا ترى أنك تقول فلان لا سبيل إلى الأمر ولا إلى طاعة الله ولا يحسن في شبه هذا على ، و ﴿ السبيل ﴾ في هذه الآية سبيل المعاقبة ، وهذه الآية نزلت في المنافقين المتقدم ذكرهم عبد الله بن أبيّ والجد بن قيس ومعتب وغيرهم ، وقد تقدم نظير تفسير الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(134/346)

وقال الخازن :

﴿ إنما السبيل ﴾

لما قال الله سبحانه وتعالى : ما على المحسنين من سبيل .

قال تعالى في حق من يعتذر ولا عذر له إنما السبيل يعني إنما يتوجه الطريق بالعقوبة ﴿ على الذين يستأذنوك ﴾ يا محمد في التخلف عنك والجهاد معك ﴿ وهم أغنياء ﴾ يعني قادرين على الخروج معك ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ يعني رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وهم النساء والصبيان والقعود معهم ﴿ وطبع الله على قلوبهم ﴾ يعني ختم عليها ﴿ فهم لا يعلمون ﴾ ما في الجهاد من الخير في الدنيا والآخرة أما

في الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو وأما في الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذي لا ينقطع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(135/346)

وقال أبو حيان :

﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنوك وهم أغنياء ﴾

أثبت في حق المنافقين ما نفاه في حق المحسنين ، فدل لأجل المقابلة أنّ هؤلاء مسيئون ، وأي إساءة أعظم من النفاق والتخلف عن الجهاد والرغبة بأنفسهم عن رسول الله ، وليست إنما للحصر ، إنما هي للمبالغة في التوكيد ، والمعنى : إنما السبيل في اللائمة والعقوبة والإثم على الذين يستأذنونك في التخلف عن الجهاد وهم قادرون عليه لغناهم ، وكان خبر السبيل على وإن كان قد فصل بإلى كما قالت :

هل من سبيل إلى خمر فاشربها . . .

أم من سبيل إلى نصر بن حجاج

لأنّ على تدل على الاستعلاء وقلة منعة من دخلت عليه ، ففرق بين لا سبيل لي على زيد ، ولا سبيل لي إلى زيد .

وهذه الآية في المنافقين المتقدم ذكرهم : عبد الله بن أبي ، والجد بن قيس ، ومعتب بن قشير ، وغيرهم .

ورضوا : استئناف كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا في القعود بالمدينة وهم قادرون على الجهاد ، فقيل : رضوا بالدناءة وانتظامهم في سلك الخوالف .

وعطف وطبع تنبيهاً على أنّ السبب في تخلفهم رضاهم بالدناءة ، وطبع على قلوبهم فهم لا يعلمون ما يترتب على الجهاد من منافع الدين والدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(136/346)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّمَا السبيل ﴾

بالمعاتبة ﴿ عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ في التخلف ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَاء ﴾ واجدون لأُهبة الغزوِ مع سلامتهم ﴿ رَضُواْ ﴾ استئنافٌ تعليليٌّ لما سبق كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء ؟ فقيل : رضوا ﴿ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ الذين شأنُهم الضَّعة والدناءة ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ أي خذلهم فغفَلوا عن وخامة العاقبة ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب

ذلك ﴿ لاَّيَعْلَمُونَ ﴾ أبداً غائلةَ ما رضُوا به وما يستتبعه آجلاً كما لم يعلموا بخساسة شأنِه عاجلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾

أي بالمعاتبة والمعاقبة ﴿ عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ في التخلف ﴿ وَهُمْ أَغْنِيَاء ﴾ واجدون للأهبة قادرون على الخروج معك ﴿ رَضُواْ ﴾ استئناف بياني كأنه قيل : لم استأذنوا أو لم استحقوا ما استحقوا ؟ فأجيب بأنهم رضوا ﴿ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ تقدم معناه ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ خذلهم فغفلوا عن سوء العاقبة ﴿ فَهُمُ ﴾ بسبب ذلك ﴿ لاَّيَعْلَمُونَ ﴾ أبداً وخامة ما رضوا به وما يستتبعه عاجلاً كما لم يعلموا نجاسة شأنه آجلا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(137/346)

وقال القاسمى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ ﴾

أي : بالعتاب والعقاب ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ أي : قادرون على

تحصيل الأهبة ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ أي : من النساء والصبيان وسائر أصناف العاجزين ، أي : رضوا بالدناءة والضعة والإنتظام في جملة الخوالف .

قال المهايميّ : وهذا الرضا ، كما هو سبب العتاب ، فهو أيضاً سبب العقاب ، لأنه لما كان عن قلة مبالاتهم بالله ، غضب الله عليهم ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ أي : ما يترتب عليه من الصائب الدينية والدنيوية ، أو لا يعلمون أمر الله فلا يصدقون .

لطيفة :

قال الشهاب : اعلم أن قولهم : لَا سَبِيلَ عَلَيْهِ ، معناه : لا حرج ولا عتاب ، وأنه بمعنى لا عاتب يمر عليه ، فضلاً عن العتاب ، وإذا تعدى بإلى كقوله :

~أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ إلى أُمِّ سَالِمٍ سبيل ؟ فَأَمَّا الصبرُ عَنْهَا فَلَا صَبْرُ

فمعنى الوصول كما قال :

~هَلْ مِنْ سَبِيلٍ إلى خَمْرٍ فَأَشْرَبَهَا أَمْ مِنْ سَبِيلٍ إلى نَصْرِ بْنِ حَجَّاجِ

ونحوه ، فتنبه لمواطن استعماله ، فإنه من مهمات الفصاحة . انتهى . اهـ

﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 494. 495 ﴾

(138/346)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

قَوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ﴾

الْمُعَذِّرُونَ بِالتَّشْدِيدِ : اسْمُ فَاعِلٍ مِنَ التَّعْذِيرِ كَالْمُقَصِّرُونَ مِنَ التَّقْصِيرِ . هَكَذَا قَرَأَ الْكَلِمَةَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ ، وَقَرَأَهَا يَعْقُوبُ بِالتَّخْفِيفِ مِنَ الْإِعْذَارِ ، وَرُوِيَ هَذَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَلَكِنْ مِنْ طَرِيقِ الْكَلْبِيِّ ، وَكَذَا عَنْ مُجَاهِدٍ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 66 مَعْنَى الْعُذْرِ وَالِاعْتِذَارِ . وَالْإِعْذَارُ إِبْدَاءُ الْعُذْرِ ، وَمِنْهُ الْمَثَلُ " أَعْذَرَ مَنْ أَنْذَرَ " وَأُعْذِرَ : ثَبَتَ لَهُ عُذْرٌ - وَقَصَّرَ وَلَمْ يُبَالِغْ وَهُوَ يَرَى أَنَّهُ مُبَالِغٌ ، كَأَنَّهُ ضِدٌّ - وَكَثُرَتْ ذُنُوبُهُ وَعُيُوبُهُ ، وَلَهُ مَعَانٍ أُخْرَى كَمَا فِي الْقَامُوسِ (قَالَ) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ بِتَشْدِيدِ

(139/346)

" الذَّالِ " الْمَكْسُورَةِ أَيِ : الْمُعْتَذِرُونَ الَّذِينَ لَهُمْ عُذْرٌ ، وَقَدْ يَكُونُ الْمُعَذِّرُ غَيْرَ مُحِقٍّ ، فَالْمَعْنَى : الْمُقَصِّرُونَ بِغَيْرِ عُذْرٍ اهـ . وَزَادَ شَارِحُهُ ، وَمَعْنَى الْمُعَذِّرُونَ الَّذِينَ يَعْتَذِرُونَ كَانَ لَهُمْ عُذْرٌ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَهُوَ هَاهُنَا شَبِيهٌ بِأَنْ يَكُونَ لَهُمْ عُذْرٌ ، وَيَجُوزُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْمُعِذِّرُونَ بِكَسْرِ الْعَيْنِ الْمُهْمَلَةِ . الَّذِينَ يُعَذِّرُونَ : يُوهِمُونَ أَنَّ لَهُمْ عُذْرًا وَلَا عُذْرَ لَهُمْ . قَالَ أَبُو بَكْرٍ : فَفِي الْمُعَذِّرِينَ وَجْهَانِ : إِذَا كَانَ الْمُعَذِّرُونَ مِنْ عَذِرَ الرَّجُلِ فَهُوَ مُعَذِّرٌ فَهُمْ لَا عُذْرَ

لَهُمْ ، وَإِذَا كَانَ الْمُعَذِّرُونَ أَصْلُهُ الْمُعْتَذِرُونَ فَأُلْقِيَتْ فَتْحَةُ التَّاءِ عَلَى الْعَيْنِ ، وَأُبْدِلَ مِنْهَا " ذَالٌ " وَأُدْغِمَتْ فِي " الذَّالِ " الَّتِي بَعْدَهَا فَلَهُمْ عُذْرٌ . وَقَالَ أَبُو الْهَيْثَمِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ مَعْنَاهُ الْمُعْتَذِرُونَ . يُقَالُ : عَذَرَ عِذَارًا فِي مَعْنَى اعْتَذَرَ ، وَيَجُوزُ عَذَرَ الرَّجُلُ يَعْذِرُ عُذْرًا فَهُوَ مُعَذَّرٌ . قَالَ وَمِثْلُهُ : هَدَى يَهْدِي هُدَاءً إذَا اهْتَدَى . قَالَ اللَّهُ : أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إلَّا أَنْ يُهْدَى (10 : 35) اهـ .

وَقَدْ أَطَالَ ابْنُ مَنْظُورٍ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَادَّةِ وَالْمُرَادِ مِنْهَا فِي الْآيَةِ .

(140/346)

وَالْحِكْمَةُ فِي الْقِرَاءَتَيْنِ عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِي الصِّيغَتَيْنِ بَيَانُ اخْتِلَافِ أَحْوَالِ أُولَئِكَ الْأَعْرَابِ فِي أَعْذَارِهِمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ عُذْرٌ صَحِيحٌ هُوَ مُوقِنٌ بِهِ ، وَمَنْ لَهُ عُذْرٌ صُورِيٌّ لَا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ يُوهِمُ أَنَّهُ حَقِيقِيٌّ عَالِمًا بِأَنَّهُ مُخَادِعٌ ، وَمِنْهُمْ مَنْ لَهُ عُذْرٌ ضَعِيفٌ هُوَ فِي شَكٍّ مِنْهُ إنْ نُوقِشَ فِيهِ عَجَزَ عَنْ إثْبَاتِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا عُذْرَ لَهُ فِي الْوَاقِعِ فَهُوَ كَاذِبٌ فِي انْتِحَالِهِ ، وَهَذَا مِنْ إيجَازِ الْقُرْآنِ الْعَجِيبِ بِالْإِتْيَانِ بِلَفْظٍ مُفْرَدٍ يَتَنَاوَلُ هَذِهِ الْأَقْسَامَ كُلَّهَا ، مُبْهَمَةً إلَّا عِنْدَ أَهْلِهَا لِلْحِكْمَةِ الْآتِيَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِإِبْهَامِهَا .

وَالْمَعْنَى : وَجَاءَ الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَأْذَنَ لَهُمْ فِي التَّخَلُّفِ

عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى تَبُوكَ امْتِثَالًا لِلنَّفِيرِ الْعَامِّ ، مِنْ أُولِي التَّعْذِيرِ وَالْإِعْذَارِ ، قَالَ الضَّحَّاكُ : هُمْ رَهْطُ

عَامِرِ بْنِ الطُّفَيْلِ جَاءُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دِفَاعًا عَنْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا يَا نَبِيَّ اللَّهِ : إِنْ نَحْنُ غَزَوْنَا مَعَكَ تُغِيرُ أَعْرَابُ طَيِّئٍ عَلَى حَلَائِلِنَا وَأَوْلَادِنَا وَمَوَاشِينَا ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " قَدْ أَنْبَأَنِي اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُمْ قَوْمٌ تَخَلَّفُوا بِعُذْرٍ بِإِذْنِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَقُولُ : وَظَاهِرُهُ أَنَّ عُذْرَهُمْ حَقٌّ ،

(141/346)

وَهُوَ يَصْدُقُ بِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ ، كَمُقَابِلِهِ الَّذِي يُذْكَرُ عَنْ أَبِي عَمْرٍو .

وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَيْ : وَقَعَدَ عَنِ الْقِتَالِ وَعَنِ الْمَجِيءِ لِلِاعْتِذَارِ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنَ الْأَعْرَابِ ، أَيْ : أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِهِمَا كَذِبًا وَإِيهَامًا ، يُقَالُ - كَمَا فِي الْأَسَاسِ - كَذَبَتْهُ نَفْسُهُ إِذَا حَدَّثَتْهُ بِالْأَمَانِيِّ وَالْأَوْهَامِ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا ، وَكَذَبَتْهُ عَيْنُهُ إِذَا أَرَتْهُ مَا لَا حَقِيقَةَ لَهُ . قَالَ الْأَخْطَلُ :

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيْتَ بِوَاسِطٍ . . . غَلَسَ الظَّلَامِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالًا

وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ الْأَقْحَاحُ . قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلَاءِ : كِلَا الْفَرِيقَيْنِ كَانَ مُسِيئًا : قَوْمٌ تَكَلَّفُوا عُذْرًا بِالْبَاطِلِ ، وَهُمُ الَّذِينَ عَنَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ وَقَوْمٌ تَخَلَّفُوا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ فَقَعَدُوا جَرْأَةً عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ، فَأَوْعَدَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ الظَّاهِرُ الْمُخْتَارُ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ يَعُودُ عَلَى مَا قَبْلَهُ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَامًّا فِي الْمُكَذِّبِينَ ، وَخَاصًّا بِبَعْضِ الْمُعَذِّرِينَ كَمَا هُوَ الْمُتَبَادِرُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (مِنْهُمْ) أَيِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اعْتَذَرَ بَعْضُهُمْ وَقَعَدَ بَعْضٌ ، فَإِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُلُّهُمْ كُفَّارٌ ، وَأَمَّا الْمُعْتَذِرُونَ فَمِنْهُمُ الصَّادِقُ فِي عُذْرِهِ وَالْكَاذِبُ فِيهِ لِمَرَضٍ فِي قَلْبِهِ ، أَوْ لِتَكْذِيبِهِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَعْرِفُ نَفْسَهُ فَيُحَاسِبُهَا إِذَا وَجَدَ الْوَعِيدَ مَوْضِعًا لِلْعِبْرَةِ مِنْهَا ، وَلَوْ جَعَلَ التَّبْعِيضَ لَهُمْ وَحْدَهُمْ لَظَلَّ الْقَاعِدُونَ الْكَاذِبُونَ بِغَيْرِ وَعِيدٍ وَهُمْ شَرٌّ مِنْ شَرِّهِمْ ، فَلَا يَصِحُّ التَّبْعِيضُ فِيهِمْ وَحْدَهُمْ ، وَمِنْ ثَمَّ اقْتَضَى التَّحْقِيقُ أَنْ يُوَجَّهَ الْوَعِيدُ إِلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لِكُفْرِهِمْ لَا لِاعْتِذَارِهِمْ ، وَإِلَى الَّذِينَ قَعَدُوا لِكُفْرِهِمْ لَا لِقُعُودِهِمْ ، بَلْ لِلْكَذِبِ الَّذِي كَانَ سَبَبَهُ وَهُوَ عَيْنُ الْكُفْرِ ، وَهُوَ لَمْ يُذْكَرْ بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ؛ لِأَنَّ مِنَ الْقُعُودِ مَا يَكُونُ بِعُذْرٍ مِنَ الْأَعْذَارِ الْمَنْصُوصَةِ

فِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ ، وَهُمْ أُولُو الضَّرَرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى (4 : 95) إلَخْ . فَالْإِبْهَامُ لِمُسْتَحَقِّي هَذَا الْوَعِيدِ

مِنَ الْفَرِيقَيْنِ مِنْ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا إعْجَازُهُ الْبَيَانِيُّ ، وَهَذَا الْعَذَابُ الْأَلِيمُ يُرَادُ بِهِ عَذَابُ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ جَمِيعًا كَمَا تَقَدَّمَ فِي آخِرِ الْآيَةِ (74) .

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَعْذَارَ الشَّرْعِيَّةَ الْمَقْبُولَةَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ رَسُولِهِ بِالتَّفْصِيلِ فَعُلِمَ مِنْهُ بُطْلَانُ مَا عَدَاهَا ، وَخُصَّ بِالذِّكْرِ شَرُّ مَا عَدَاهَا وَهُوَ اسْتِئْذَانُ الْأَغْنِيَاءِ فَقَالَ : لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ الضُّعَفَاءُ : جَمْعُ ضَعِيفٍ وَهُوَ ضِدُّ الْقَوِيِّ ، أَيْ : مَنْ لَا قُوَّةَ لَهُمْ فِي أَبْدَانِهِمْ تُمَكِّنُهُمْ مِنَ الْجِهَادِ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يَعْنِي الزَّمْنَى وَالشُّيُوخَ وَالْعَجَزَةَ ، وَقِيلَ : هُمُ الصِّبْيَانُ ، وَقِيلَ : النِّسْوَانُ . ذَكَرَهُ الْبَغَوِيُّ . وَالزَّمْنَى بِوَزْنِ الْمَرْضَى وَبِالتَّحْرِيكِ جَمْعُ زَمِينٍ كَمَرِيضٍ - وَيُقَالُ : زَمِنٌ (كَكَتِفٍ) وَزَمِنُونَ ; وَهُمْ مَنْ أَصَابَتْهُمُ الزَّمَانَةُ وَهِيَ الْعَاهَةُ الَّتِي لَا تَزَالُ بَلْ تَبْقَى عَلَى الزَّمَانِ . وَمِنْهَا الْكُسَاحُ (بِالضَّمِّ) وَالْعَمَى وَالْعَرَجُ ، وَقَدَّمَ ذِكْرَ هَؤُلَاءِ ; لِأَنَّ عُذْرَهُمْ دَائِمٌ لَا يَزُولُ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى جَمْعُ مَرِيضٍ ، وَهُمُ الَّذِينَ عَرَضَتْ لَهُمْ أَمْرَاضٌ لَا يَتَمَكَّنُونَ مَعَهَا مِنَ الْجِهَادِ كَالْحُمَّيَاتِ ، وَعُذْرُهُمْ يَنْتَهِي بِالشِّفَاءِ مِنْهَا وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ

مَا يُنْفِقُونَ وَهُمُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَالًا يُنْفِقُونَ مِنْهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ إذَا خَرَجُوا لِلْجِهَادِ وَيَتْرُكُونَ لِعِيَالِهِمْ مَا يَكْفِيهِمْ ، وَكَانَ الْمُؤْمِنُونَ يُجَهِّزُونَ أَنْفُسَهُمْ لِلْقِتَالِ ، فَالْفَقِيرُ يُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ

وَالْغَنِيُّ يُنْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ سِعَتَهُ كَمَا فَعَلُوا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، إذْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ بَيْتُ مَالٍ غَنِيٌّ يُنْفَقُ مِنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى الْغُزَاةِ وَهَذَا الْعُذْرُ خَاصٌّ بِالْمَالِ ، وَيَزُولُ إذَا كَانَ لِلْأُمَّةِ فِي بَيْتِ الْمَالِ مَا يُنْفِقُونَ مِنْهُ ، أَيْ لَيْسَ عَلَى هَذِهِ الْأَصْنَافِ الثَّلَاثَةِ (حَرَجٌ) أَيْ ضِيقٌ فِي حُكْمِ الشَّرْعِ يُعَدُّونَ بِهِ مُذْنِبِينَ ، وَلَا إثْمَ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ الْوَاجِبِ : إذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي حَالِ قُعُودِهِمْ لِعَجْزِهِمْ ، أَيْ : إذَا أَخْلَصُوا لِلَّهِ تَعَالَى فِي الْإِيمَانِ وَلِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الطَّاعَةِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَلَا سِيَّمَا الَّذِي تَقْتَضِيهِ حَالَةُ الْحَرْبِ فَالنَّصِيحَةُ وَالنُّصْحُ (بِالضَّمِّ) تَحَرِّي مَا يَصْلُحُ بِهِ الشَّيْءُ ، وَيَكُونُ خَالِيًا مِنَ الْغِشِّ وَالْخَلَلِ وَالْفَسَادِ مِنْ قَوْلِهِمْ : نَصَحَ الْعَسَلَ وَنُصِحَ إذَا كَانَ مُصَفًّى خَالِصًا " وَنَصَحَ الْخَيَّاطُ الثَّوْبَ إذَا أَنْعَمَ خِيَاطَتَهُ وَلَمْ يَتْرُكْ فِيهِ فَتْقًا وَلَا خَلَلًا " ذَكَرَهُ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ وَقَالَ " شَبَّهَ ذَلِكَ بِالنُّصْحِ " عَلَى طَرِيقَتِهِ فِي جَعْلِ الْمَعَانِي الْحِسِّيَّةِ مِنَ الْمَجَازِ ، وَالْمَعْنَوِيَّةِ مِنَ الْحَقِيقَةِ وَنَحْنُ نَرَى عَكْسَ هَذَا - أَعْنِي أَنَّ نُصْحَ الْعَسَلِ وَالْخَيَّاطِ حَقِيقَةٌ ، وَالنُّصْحُ فِي التَّوْبَةِ وَالطَّاعَةِ هُوَ الْمَأْخُوذُ مِنْهُ ، وَالْأَجْدَرُ بِأَنْ يَكُونَ مَجَازًا ، إلَّا أَنْ يَكْثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فَيُعَدَّ مِنَ الْحَقِيقَةِ . وَمِنْهُ

يُعْلَمُ أَنَّ مِنَ النُّصْحِ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ كُلُّ مَا فِيهِ مَصْلَحَةٌ لِلْأُمَّةِ ، وَلَا سِيَّمَا الْمُجَاهِدِينَ مِنْهَا ، مِنْ كِتْمَانِ سِرٍّ ، وَحَثٍّ عَلَى بِرٍّ ، وَمُقَاوَمَةِ خِيَانَةِ الْخَائِنِينَ فِي سِرٍّ وَجَهْرٍ ، فَالنُّصْحُ الْعَامُّ رُكْنٌ مِنَ الْأَرْكَانِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْإِسْلَامِ ، بِهِ عَزَّ السَّلَفُ وَبَزُّوا ، وَبِتَرْكِهِ ذَلَّ الْخَلَفُ وَابْتَزُّوا .

رَوَى مُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ عَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : الدِّينُ النَّصِيحَةُ - قَالُوا : لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ وَرَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ جَابِرٍ قَالَ : بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَالنُّصْحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ .

(147/346)

مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ السَّبِيلُ : الطَّرِيقُ السَّهْلُ يُطْلَقُ عَلَى الْحِسِّيِّ مِنْهُ وَالْمَعْنَوِيِّ فِي الْخَيْرِ وَفِي الشَّرِّ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ : وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (6 : 153) وَ (مِنْ) لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ الْعَامِّ ، وَهُوَ أَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُكَ " مَا عَلَيْهِ سَبِيلٌ " وَإِنْ كَانَ عَامًّا ، فَقَوْلُكَ مَا عَلَى فُلَانٍ مِنْ سَبِيلٍ - مَعْنَاهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَدْنَى طَرِيقٍ يَسْلُكُهَا لِمُؤَاخَذَتِهِ أَوِ النَّيْلِ مِنْهُ ، فَكُلُّ السُّبُلِ مَسْدُودَةٌ دُونَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، وَهَذَا الِاسْتِعْمَالُ مُكَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ .

وَالْمُحْسِنُونَ ضِدُّ الْمُسِيئِينَ ، وَهُوَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى : بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ

(148/346)

(2 : 112) الْآيَةَ . وَالشَّرْعُ الْإِلَهِيُّ يَجْزِي الْمُحْسِنَ بِأَضْعَافِ إحْسَانِهِ ، وَلَا يُؤَاخَذُ وَلَا يُعَاقَبُ الْمُسِيءُ إلَّا بِقَدْرِ إسَاءَتِهِ ، فَإِذَا كَانَ أُولَئِكَ الْمَعْذُورُونَ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ مُحْسِنِينَ فِي سَائِرِ أَعْمَالِهِمْ بِالنُّصْحِ الْمَذْكُورِ ، انْقَطَعَتْ طُرُقُ الْمُؤَاخَذَةِ دُونَهُمْ ، وَالْإِحْسَانُ أَعَمُّ مِنَ النُّصْحِ الْمَذْكُورِ ، فَالْجُمْلَةُ تَتَضَمَّنُ تَعْلِيلَ رَفْعِ الْحَرَجِ عَنْهُمْ بِمَا يَنْتَظِمُونَ بِهِ فِي سِلْكِ الْمُحْسِنِينَ ، فَيَكُونُ رَفْعُهُ عَنْهُمْ مَقْرُونًا بِالدَّلِيلِ ، فَكُلُّ نَاصِحٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مُحْسِنٌ ، وَلَا سَبِيلَ إلَى مُؤَاخَذَةِ الْمُحْسِنِ ، وَإِيقَاعِهِ فِي الْحَرَجِ ، وَهَذِهِ الْمُبَالَغَةُ فِي أَعْلَى مَكَانَةٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْبَلَاغَةِ .

(149/346)

وَلَمَّا ذُكِرَ رَفْعُ الْمُؤَاخَذَةِ عَنْهُمْ بِإِحْسَانِهِمُ السُّلُوكَ فِيمَا هُمْ مَعْذُورُونَ فِيهِ مِنَ الْقُعُودِ عَنِ الْجِهَادِ ، وَهُوَ الَّذِي اقْتَضَاهُ الْمَقَامُ ، قَفَّى عَلَيْهِ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِمْ ، وَالصَّفْحِ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ فِيمَا عَدَاهُ ، عَلَى قَاعِدَةِ : هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (55 : 60) ؟ فَقَالَ : وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَيْ : وَهُوَ تَعَالَى كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ ، فَهُوَ يَسْتُرُ عَلَى الْمُقَصِّرِينَ مَا لَا يَخْلُو مِنْهُ الْبَشَرُ مِنْ ضَعْفٍ - فِي أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ - لَا يُنَافِي الْإِخْلَاصَ وَالنُّصْحَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ ، وَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَتِهِ فِي عِبَادِهِ الصَّالِحِينَ . وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ الْمُسِيئُونَ عَمَلًا وَنِيَّةً ، فَإِنَّمَا يَغْفِرُ لَهُمْ وَيَرْحَمُهُمْ إِذَا تَابُوا مِنْ نِفَاقِهِمُ الْبَاعِثِ لَهُمْ عَلَى إِسَاءَتِهِمْ

.

(150/346)

وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ هَذَا مَعْطُوفٌ عَلَى نَفْيِ الْحَرَجِ عَنِ الضُّعَفَاءِ وَالْمَرْضَى وَالْفُقَرَاءِ ، وَنَفْيِ السَّبِيلِ عَنِ الْمُحْسِنِينَ ، أَيْ : لَا حَرَجَ عَلَى مَنْ ذُكِرَ بِشَرْطِهِ ، وَلَا سَبِيلَ عَلَى الْمُحْسِنِ مِنْهُمْ فِي قُعُودِهِ ، وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ عَلَى الرَّوَاحِلِ فَيَخْرُجُوا مَعَكَ فَلَمْ تَجِدْ مَا تَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ إِلَخْ . وَهَؤُلَاءِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْفُقَرَاءِ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ لِلْجِهَادِ فِي سَفَرٍ طَوِيلٍ كَغَزْوَةِ تَبُوكَ ،

وَهُوَ فَقْدُهُمُ الرَّوَاحِلَ الَّتِي تَحْمِلُهُمْ ، فَهُوَ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ . يُقَالُ : حَمَلَهُ عَلَى الْبَعِيرِ أَوْ غَيْرِهِ أَيْ : أَرْكَبَهُ إِيَّاهُ أَوْ أَعْطَاهُ إِيَّاهُ لِيَرْكَبَهُ ، وَكَانَ الطَّالِبُ لِظَهْرٍ يَرْكَبُهُ يَقُولُ لِمَنْ يَطْلُبُهُ مِنْهُ احْمِلْنِي .

ثُمَّ بَيَّنَ حَالَ هَؤُلَاءِ بَعْدَ جَوَابِ الرَّسُولِ لَهُمْ بَيَانًا مُسْتَأْنَفًا فَقَالَ : تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أَيْ : انْصَرَفُوا مِنْ مَجْلِسِكَ وَهُمْ فِي حَالِ بُكَاءٍ شَدِيدٍ هَاجَهُ حُزْنٌ عَمِيقٌ فَكَانَتْ أَعْيُنُهُمْ تَمْتَلِئُ دَمْعًا ، فَيَتَدَفَّقُ فَائِضًا مِنْ جَوَانِبِهَا تَدَفُّقًا ، حَتَّى كَأَنَّهَا ذَابَتْ فَصَارَتْ دَمْعًا ، فَسَالَتْ هَمَّهَا (حُزْنًا) مِنْهُمْ وَأَسَفًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ أَيْ : عَلَى عَدَمِ وُجْدَانِهِمْ عِنْدَكَ وَلَا عِنْدَهُمْ مَا يُنْفِقُونَ ، وَلَا مَا يَرْكَبُونَ فِي خُرُوجِهِمْ مَعَكَ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ .

(151/346)

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ : أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النَّاسَ أَنْ يَنْبَعِثُوا غَازِينَ ، فَجَاءَتْ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُغَفَّلٍ الْمُزَنِيُّ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ احْمِلْنَا ، فَقَالَ : " وَاللَّهِ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ " فَتَوَلَّوْا وَلَهُمْ بُكَاءٌ ، وَعَزَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يُحْبَسُوا عَنِ الْجِهَادِ ، وَلَا يَجِدُونَ نَفَقَةً وَلَا مَحْمَلًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ

عُذْرَهُمْ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْك لِتَحْمِلَهُمْ الْآيَةَ . وَخَرَّجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْتَحْمِلُونَهُ فَقَالَ : " لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ : وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْك لِتَحْمِلَهُمْ الْآيَةَ . وَذَكَرَ الْبُطُونَ الَّتِي يُنْسَبُونَ إلَيْهَا ، وَهُنَالِكَ رِوَايَاتٌ أُخْرَى فِي عَدَدِهِمْ وَبُطُونِهِمْ عِنْدَ ابْنِ إسْحَاقَ وَغَيْرِهِ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَمَّوْنَ الْبَكَّائِينَ ، وَهُنَالِكَ رِوَايَةٌ أُخْرَى أَنَّهُمْ مَا سَأَلُوهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَّا الْحُمْلَانَ عَلَى النِّعَالِ ، وَرِوَايَةٌ أُخْرَى أَنَّهُمْ سَأَلُوهُ الزَّادَ وَالْمَاءَ ، وَلَا مَانِعَ مِنْ وُقُوعِ كُلِّ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ الْكَبِيرَةِ ، وَلَكِنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ بِطِلَابِ الرَّوَاحِلِ ؛ لِأَنَّهُ هُوَ الْمُتَبَادَرُ مِنَ اللَّفْظِ .

(152/346)

وَالْحِكْمَةُ فِي التَّعْبِيرِ بِالْإِتْيَانِ لِأَجْلِ الْحَمْلِ ، وَالِاعْتِذَارِ عَنْهُ بِعَدَمِ وُجْدَانِ مَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ دُونَ ذِكْرِ جِنْسِهِ مِنْ رَاحِلَةٍ وَدَابَّةٍ ، هِيَ إفَادَةُ الْعُمُومِ فِيمَا يُحْمَلُ عَلَيْهِ مُرِيدُ السَّيْرِ فَتَدْخُلُ فِيهِ مَرَاكِبُ هَذَا الزَّمَانِ مِنْ مَرَاكِبِ النَّقْلِ الْبَرِّيَّةِ وَالْهَوَائِيَّةِ وَالْبَحْرِيَّةِ ، وَيَتَحَقَّقُ الْعُذْرُ بِفَقْدِ مَا يُحْتَاجُ إلَيْهِ مِنْهَا فِي كُلِّ سَفَرٍ بِحَسَبِهِ ، وَفَقْدِ الْعُذْرِ بِوُجُودِهِ ، فَوُجُودُ الْخَيْلِ وَالْجِمَالِ

وَالْبِغَالِ لَا يَنْفِي الْعُذْرَ فِي السَّفَرِ الَّذِي يُقْطَعُ فِي الْقِطَارَاتِ الْحَدِيدِيَّةِ أَوِ السَّيَّارَاتِ ، أَوِ الْمَنَاطِيدِ أَوِ الطَّيَّارَاتِ .

(153/346)

لَمَّا بَيَّنَ أَنَّ كُلَّ أُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ، بَقِيَ بَيَانُ مَنْ عَلَيْهِمُ السَّبِيلُ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، فَذَكَرَهُمْ بِقَوْلِهِ : إِنَّمَا السَّبِيلُ الْوَاضِحُ السَّوِيُّ أَوْصَلُ إِلَى الْمُؤَاخَذَةِ وَالْمُعَاقَبَةِ بِالْحَقِّ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَيْ : أَغْنِيَاءُ يَطْلُبُونَ الْإِذْنَ لَهُمْ فِي الْقُعُودِ وَالتَّخَلُّفِ عَنِ النَّفْرِ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ أَغْنِيَاءُ فِي حَالِ هَذَا الِاسْتِئْذَانِ وَمِنْ قَبْلِهِ ، قَادِرُونَ عَلَى إِعْدَادِ الْعُدَّةِ لَهُ مِنْ زَادٍ وَرَوَاحِلَ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَلِمَاذَا ؟ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ أَيْ : رَضُوا لِأَنْفُسِهِمْ بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَالْخَالِفِينَ ، مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالْمَعْذُورِينَ بَلْ مَعَ الْفَاسِدِي الْأَخْلَاقِ الْمُفْسِدِينَ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَأَحَاطَ بِهِمْ مَا جَرُّوا عَلَيْهِ مِنْ خَطَايَاهُمْ وَذُنُوبِهِمْ ، بِحَسَبِ سُنَنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي أَمْثَالِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ كُنْهَ حَالِهِمْ ، وَلَا سُوءَ مَآلِهِمْ ، وَمَا هُوَ سَبَبُهُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، فَأَمَّا حَالُهُمْ فِي التَّخَلُّفِ وَطَلَبِ الْقُعُودِ مَعَ الْخَوَالِفِ بِغَيْرِ أَدْنَى عُذْرٍ ، فَهُوَ رِضًا بِالذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ فِي الدُّنْيَا ؛ لِأَنَّ تَخَلُّفَ الْأَفْرَادِ عَنِ الْقِتَالِ الَّذِي تَقُومُ بِهِ الشُّعُوبُ

وَالْأَقْوَامُ ، وَرِضَاءَ الرِّجَالِ بِالِانْتِظَامِ فِي سِلْكِ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، يُعَدُّ فِي عُرْفِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ مِنْ

(154/346)

أَعْظَمِ مَظَاهِرِ الْخِزْيِ وَالْعَارِ ، وَهُوَ فِي حُكْمِ الْإِسْلَامِ أَقْوَى آيَاتِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ ، وَأَمَّا مَآلُهُمْ وَسُوءُ عَاقِبَتِهِمْ فَهُوَ مَا فَضَحَهُمُ اللهُ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمَا شَرَعَهُ لِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِهَادِهِمْ وَإِهَانَتِهِمْ ، وَعَدَمِ الْعَوْدِ إِلَى مُعَامَلَتِهِمْ بِظَاهِرِ إِسْلَامِهِمْ ، وَمَا أَعَدَّهُ لَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، وَالْخِزْيِ الدَّائِمِ فِي نَارِ الْجَحِيمِ .

وَهَاتَانِ الْآيَتَانِ بِمَعْنَى الْآيَاتِ (86 ، 87 ، 88) وَلَكِنْ أَسْنَدَ فِعْلَ الطَّبْعِ عَلَى الْقُلُوبِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهُنَالِكَ أَسْنَدَ إِلَى الْمَفْعُولِ ، وَالْمُرَادُ مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا وَاحِدٌ ، وَهُوَ بَيَانُ سُنَّةِ اللهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ فِي عَلَاقَةِ الْأَعْمَالِ ، بِالْعَقَائِدِ وَالسَّجَايَا وَالْأَخْلَاقِ ، إِلَّا أَنَّ التَّصْرِيحَ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى فِيهِ مَزِيدُ إِهَانَةٍ لَهُمْ . وَعَبَّرَ هُنَا بِالْعِلْمِ وَهُنَاكَ بِالْفِقْهِ ، وَالْمُرَادُ وَاحِدٌ وَهُوَ الْإِدْرَاكُ وَالْعِرْفَانُ الصَّحِيحُ الَّذِي يَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ ، وَلَكِنَّ الْمُتَبَادِرَ مِنَ الْعِلْمِ تَيَقُّنُ الْمَعْلُومِ ، وَمِنَ الْفِقْهِ تَأْثِيرُ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ .

(155/346)

نَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُوقِنِينَ ، الْفُقَهَاءِ الْمُعْتَبِرِينَ ، الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، الْعَامِلِينَ الْمُخْلِصِينَ ، وَأَنْ يُوَفِّقَنَا لِإِتْمَامِ تَفْسِيرِ كِتَابِهِ بِالْحَقِّ ، النَّافِعِ لِلْخَلْقِ ، وَيَهْدِينَا جَمِيعًا لِلْعَمَلِ بِهِ ، وَالِاسْتِضَاءَةِ بِنُورِهِ ، وَيُؤْتِي هَذِهِ الْأُمَّةَ بِهِ مَا وَعَدَهَا مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

تَمَّ تَفْسِيرُ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كِتَابَةً وَتَحْرِيرًا فِي الْعَشْرِ الْأُوَلِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ الْمُبَارَكِ سَنَةَ 1349 - وَقَدِ اعْتَمَدْنَا جَعْلَ آيَةِ 93 إِنَّمَا السَّبِيلُ إِلَخْ مِنْهُ مُرَاعَاةً لِلْمَعْنَى الَّذِي كَانَتْ بِهِ مُتَمِّمَةً لِمَا قَبْلَهَا ، وَهِيَ فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ أَوَّلُ الْجُزْءِ الْحَادِي عَشَرَ - وَكُنَّا بَدَأْنَا بِهِ فِي شَوَّالٍ سَنَةَ 1346 وَنُشِرَ فِي الْمُجَلَّدَاتِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ وَالثَّلَاثِينَ وَالْحَادِيَ وَالثَّلَاثِينَ مِنَ الْمَنَارِ .

وَنَرْجُو أَنْ يُوَفِّقَنَا اللهُ تَعَالَى لِإِنْجَازِ تَفْسِيرِ كُلِّ جُزْءٍ مِمَّا بَقِيَ فِي أَقَلَّ مِنْ سَنَةٍ .

مَعَ الِاخْتِصَارِ غَيْرِ الْمُخِلِّ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَبِهِ الْحَوْلُ وَالْقُوَّةُ . وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 10 صـ 504.510 ﴾

(156/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

لما نفت الآيتان السابقتان أن يكون سبيلٌ على المؤمنين الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون والذين لم يجدوا حمولة ، حصرت هذه الآية السبيل في كونه على الذين يستأذنون في التخلف وهم أغنياء ، وهو انتقال بالتخلص إلى العودة إلى أحوال المنافقين كما دل عليه قوله بعدُ ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ [التوبة : 94] ، فالقصر إضافي بالنسبة للأصناف الذين نُفي أن يكون عليهم سبيل .

وفي هذا الحصر تأكيد للنفي السابق ، أي لا سبيل عقابٍ إلا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء .

والمراد بهم المنافقون بالمدينة الذين يكرهون الجهاد إذ لا يؤمنون بما وعد الله عليه من الخيرات وهم أولو الطول المذكورون في قوله : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله ﴾ [التوبة : 86] الآية .

والسبيل : حقيقته الطريق .

ومرّ في قوله : ﴿ مَا على المحسنين من سبيل ﴾ [التوبة : 91] .

وقوله : ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ﴾ مستعار لمعنى السلطان والمؤاخذة بالتبعة ، شبه السلطان والمؤاخذة بالطريق لأن السلطة يَتوصل بها من هي له إلى

تنفيذ المؤاخذة في الغير .

ولذلك عُدّي بحرف (على) المفيد لمعنى الاستعلاء ، وهو استعلاء مجازي بمعنى التمكن من التصرف في مدخول (على) .

فكان هذا التركيب استعارةً مكنية رُمز إليها بما هو من مُلائمات المشبه به وهو حرف (على) .

وفيه استعارة تبعية .

والتعريف باللام في قوله : ﴿ إنما السبيل ﴾ تعريف العهد ، والمعهود هو السبيل المنفي في قوله تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ [التوبة : 91] على قاعدة النكرة إذا أعيدت معرفة ، أي إنما السبيل المنفي عن المحسنين مثبت للذين يستأذنونك وهم أغنياء .

(157/346)

ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم ﴾ في سورة الشورى (42) .

فدل ذلك على أن المراد بالسبيل العذاب .

والمعنى ليست التبعة والمؤاخذة إلا على الذين يستأذنونك وهم أغنياء ، الذين أرادوا أن

يتخلفوا عن غزوة تبوك ولا عذر لهم يخولهم التخلف .

وقد سبقت آية ﴿ فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً ﴾ من سورة النساء (90) ، وأحيل هنالك تفسيرها على ما ذكرناه في هذه الآية .

وجملة : رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ مستأنفة لجواب سؤال ينشأ عن علة استيذانهم في التخلف وهم أغنياء ، أي بعثهم على ذلك رضاهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء .

وقد تقدم القول في نظيره آنفاً .

وأسند الطبع على قلوبهم إلى الله في هذه الآية بخلاف ما في الآية السابقة ﴿ وطُبع على قلوبهم ﴾ [التوبة : 87] لعله للإشارة إلى أنه طبع غير الطبع الذي جبلوا عليه بل هو طبع على طبع أنشأه الله في قلوبهم لغضبه عليهم فحرمهم النجاة من الطبع الأصلي وزادهم عماية ، ولأجل هذا المعنى فرع عليه ﴿ فهم لا يعلمون ﴾ لنفي أصل العلم عنهم ، أي يكادون أن يساووا العجماوات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(158/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

هناك قال سبحانه : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ الذين كانت لهم أعذارهم في التخلف عن الجهاد ، ولكن كانوا محسنين في تخلفهم هذا فقال تعالى : ﴿ إِذَا نَصَحُواْ للَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ . إذن : فعلى من يكون السبيل ؟

وهنا تأتي إجابة الحق سبحانه : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ . أي : أن طريق الإثم واللوم والتعنيف والتوبيخ إنما يتجه إلى هؤلاء الأغنياء الذين استأذنوا في أن يقعدوا عن القتال ، ونعلم أن الغني إذا أطلق ينصرف إلى غنى المال ، ولكن الغني إذا جاء بالمعنى الخاص ، يكون معناه ما يدل عليه النص . فالذي لا يجد ما ينفقه أعْفيَ . إذن : فمن يجد ما ينفقه فهو غنيّ بطعامه . والضعيف قد أعفيَ ، إذن : فالقويّ غنيّ بقوته . والمريض أعْفيَ ، إذن : فالصحيح غنيّ بصحته ، ومن لا يجد ما ينقله إلى مكان الجهاد قد أعفيَ ، إذن : فمن يملك راحلة فهو غنيّ براحلته .

وعلى ذلك لا تأخذ كلمة " الغنى " على المال فقط ، بل انظر إلى من تنطبق عليه شروط الجهاد ؟ إذن : فاللوم والتوبيخ والتعنيف والإثم على الأغنياء بهذه الأشياء ، وطلبوا أن يقعدوا عن الجهاد .

ولسائل أن يقول : ولماذا يستأذنون وهم أغنياء ؟

نقول : لأنهم منافقون ، وقد وضعهم نفاقهم في موضع الهوان ، حتى قال الحق سبحانه وتعالى عنهم : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الخوالف ﴾ ومن يَرضَ أن يكون وضعه مع الخوالف

، فهو يتصف بدناءة النفس وانحطاط الهمة ؛ فهم رضوا ان يُعاملوا معاملة النساء ، والخوالف – كما نعلم – جاءت على مراحل ، فهم قالوا : ﴿ ذَرْنَا نَكُنْ مَّعَ القاعدين ﴾ [التوبة : 86]

(159/346)

وقلنا من قبل : إن القعود مقابل للقيام ، والقيام من صفات الرجولة ؛ لأن الرجل قَيِّم على أهله . والقعود للنساء ، والخوالف ليست جمع خالف ، وإنما هي جمع " خالفة " ، ولا يجمع بها إلا النساء ، وكذلك كلمة " القواعد " يقول سبحانه : ﴿ والقواعد مِنَ النسآء . . ﴾ [النور : 60]

أي : أنهم ارتضوا لأنفسهم دناءة وخسة ؛ فتنازلوا عن مهام الرجال ، وارتضوا أن يكونوا مع النساء هرباً من القتال ، والشاعر يقول :

وَمَا أدْرِي ولسْتُ إخَالُ أدْري . . . أقومٌ آلُ حِصْنٍ أمْ نسَاءُ

أي : " القوم " في مقابل " النساء " .

ثم يعلمنا الحق سبحانه وتعالى بعقابهم ، فيقول : ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وفي الآية السابقة يقول سبحانه : ﴿ وَطُبِعَ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَفْقَهُونَ . . . ﴾ [التوبة : 87]

ما الفرق بين النصين ؟

إذا رأيت فعلاً تكليفيّاً مبنيّاً للمجهول ، كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 216]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام . . . ﴾ [البقرة : 183]

قد يقول قائل : كان المفروض أن يقال : "كتب الله عليكم القتال " و "كتب الله عليكم الصيام " ، لأنه صار أمراً لازماً مفروضاً ، فكان الأولى أن يقول : كتب الله ، أي أن الذي يفرض هو الله .

رغم أن الحق سبحانه هو الذي يكلف ، إلا أن كل التكليفات تأتي بصيغة المبني للمجهول كقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القصاص فِي القتلى الحر بِالْحُرِّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . . . ﴾ [البقرة : 178]

وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الموت إِن تَرَكَ خَيْراً الوصية لِلْوَالِدَيْنِ والأقربين . . . ﴾ [البقرة : 180]

والسبب في ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يكلف كافراً بأي تكليفات إيمانية ؛ فسبحانه لم يكلف بأي حكم من أحكام الإيمان إلا من آمن به وأسلم له ؛ لذلك فعندما يخاطب سبحانه بالتكليف يقول : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ . . . ﴾ [البقرة : 178] ومن هذا نعلم أنه سبحانه لم يكتب فرضاً أو مهمة على من لم يؤمن ، والإنسان يدخل في الإيمان باختياره ، فإذا دخل في الإيمان كتب الله عليه . إذن : فالإيمان هو مدخل الفريضة . وما دُمْتَ قد آمنتَ فقد أصبحتَ طرفاً فيما فرضه الحق سبحانه وتعالى عليك ؛ لأنك لو لم تؤمن فليست عليك فرائض ، إذن : فأنت الذي ألزمتَ نفسك بحكم الله ؛ لأنك آمنت به إلهاً خالقاً معبوداً . وبإيمانك أنت ؛ فرض الله عليك ، فأنت طرف في كل فريضة عليك . ورغم أنه سبحانه وتعالى هو الذي فرض ، فقد أحبَّ فيك أنك دخلْتَ في نطاق التكليف بإيمانك ؛ فبنى الفعل للمجهول .

وإذا جئنا إلى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَطَبَعَ على قُلُوبِهِمْ ﴾ نجد أن الحق يلفتنا هنا إلى أن المنافقين هم الذي جلبوا لأنفسهم هذا الطبع على القلوب ؛ لأنهم وضعوا في قلوبهم الكفر ، ثم أخذوا يتحدثون بألسنتهم عن الإيمان ، ويحاولون خداع المؤمنين ، ويخادعون الله ؛ فأراد الله سبحانه وتعالى أن يوضح لهم : ما دمتم قد اخترتم النفاق والكفر في قلوبكم ؛ فسنطبع على هذه القلوب ، ونختم عليها حتى لا يخرج الكفر منها ولا يدخل إليها الإيمان

.

فسبحانه وتعالى – إذن – هو الذي طبع على قلوبهم ، ولكن بعد أن ملأوا قلوبهم بالكفر ونافقوا ، وهم الذين تسببوا بهذا الطبع لأنفسهم ، بعد أن بدأوا بالكفر ، فطبع الحق سبحانه وتعالى على قلوبهم بما فيها من مرض ، ولو لم يبدأوا بالكفر لما طبع الله على قلوبهم ؛ ولهذا جاء الفعل مبيّناً للمجهول ، فهم مشتركون فيه .

أما الآية التي نحن بصددها فيقول تعالى :

(161/346)

﴿ وَطَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ وساعة ينسب الطَّبْع إلى الله يكون أقوى طبع على القلوب ، ويأتي الطبع من الله سبحانه وتعالى كحكم نهائي من أن الله قضى عليهم به ، فلا يخرج من قلوبهم ولو كان قدراً ضئيلاً من النفاق ، ولا تغادر قلوبهم ذرة من كفر ، ولا يتسرب إلى قلوبهم ذرة من إيمان ؛ لأنهم لا يعلمون قدر الإيمان الحق ، والإنسان قد لا يفهم شيئاً ، أي : لا يفقهه . ولكن قد يفهمه غيره ويعلمه هو عنه .

لذلك فنفي الفقه أو الفهم لا ينفي العلم ، ولكن حين ينفي العلم فهو ينفي الفهم عن الذات ، وينفي الفهم عن الغير ، ولذلك حين يقال : ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يفهمون بذواتهم ، ولكن

قد يتعلمون العلم من غيرهم .

أما إذا قلنا : ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ فالمقصود أنهم يفهمون ولا يتعلمون . إذن : نفي العلم ينسب إلى طبع الله على قلوبهم ، أما نفي الفقه فينسب نسبة عامة للفعل المبني للمجهول .

فعندما نفى الحق سبحانه وتعالى الفقه عنهم بالفعل المبني للمجهول أوضح أنهم بنفاقهم لا يفقهون ، ولكنه سبحانه وتعالى لم يَنْفِ احتمال أن يعلموا من غيرهم في المستقبل . ولكن عندما قال الحق : ﴿ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ قد نفى عنهم – أيضاً – العلم بذواتهم ، وكذلك نفى قدرتهم على العلم من غيرهم ، وهذه أقوى أثراً ، وبذلك يكون الطبع على قلوبهم أقوى ؛ لأنهم رفضوا العلم من ذواتهم ورفضوه من غيرهم .

ولذلك نجد ﴿ لاَ يَفْقَهُونَ ﴾ في موضع ، ونجد ﴿ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ في موضع آخر ، وكلٌّ تناسب موقعها الذي قيلت فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(162/346)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا

نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

لما ذكر سبحانه المعذرين ، ذكر بعدهم أهل الأعذار الصحيحة المسقطة للغزو ، وبدأ بالعذر في أصل الخلقة .

فقال : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء ﴾ وهم : أرباب الزمانة ، والهرم ، والعمى ، والعرج ، ونحو ذلك ، ثم ذكر العذر العارض ، فقال : ﴿ وَلاَ على المرضى ﴾ والمراد بالمرضى : كل ما يصدق عليه اسم المرض لغة أو شرعاً .

وقيل : إنه يدخل في المرضى : الأعمى والأعرج ونحوهما .

ثم ذكر العذر الراجع إلى المال ، لا إلى البدن فقال : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ أي : ليست لهم أموال ينفقونها فيما يحتاجون إليه من التجهز للجهاد ، فنفى سبحانه عن هؤلاء الحرج ، وأبان أن الجهاد مع هذه الأعذار ساقط عنهم غير واجب عليهم ، مقيداً بقوله : ﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأصل النصح : إخلاص العمل من الغش ، ومنه التوبة النصوح .

قال نفطويه : نصح الشيء : إذا خلص ، ونصح له القول ، أي أخلصه له .

والنصح لله : الإيمان به ، والعمل بشريعته .

وترك ما يخالفها كائناً ما كان ، ويدخل تحته دخولاً أوّلياً نصح عباده .

ومحبة المجاهدين في سبيله ، وبذل النصيحة لهم في أمر الجهاد .

وترك المعاونة لأعدائهم بوجه من الوجوه ؛ ونصيحة الرسول صلى الله عليه وسلم : التصديق بنبوته وبما جاء به ، وطاعته في كل ما يأمر به ، أو ينهي عنه ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه ، ومحبته وتعظيم سنته ، وإحياؤها بعد موته بما تبلغ إليه القدرة .

(163/346)

وقد ثبت في الحديث الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : " الدين النصيحة " ثلاثاً ، قالوا : لمن ؟ قال : " لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم " وجملة : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ مقرّرة لمضمون ما سبق : أي ليس على المعذورين الناصحين من سبيل : أي طريق عقاب ومؤاخذة .

و" من " مزيدة للتأكيد ، وعلى هذا فيكون لفظ ﴿ المحسنين ﴾ موضوعاً في موضع الضمير الراجع إلى المذكورين سابقاً .

أو يكون المراد : ما على جنس المحسنين من سبيل ، وهؤلاء المذكورون سابقاً من جملتهم ، فتكون الجملة تعليلية .

وجملة : ﴿ والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تذييلية .

وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] ،

وقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأعرج حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المريض حَرَجٌ ﴾ [النور : 61] .

وإسقاط التكليف عن هؤلاء المعذورين ، لا يستلزم عدم ثبوت ثواب الغزو لهم الذي عذرهم الله عنه ، مع رغبتهم إليه لولا حبسهم العذر عنه ، ومنه حديث أنس عند أبي داود وأحمد ، وأصله في الصحيحين : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لقد تركتم بعدكم قوماً ما سرتم من مسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلا وهم معكم فيه " قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة ؟ فقال : " حبسهم العذر " وأخرجه أحمد ، ومسلم ، من حديث جابر .

ثم ذكر الله سبحانه من جملة المعذورين من تضمنه قوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ والعطف على جملة ﴿ مَا عَلَى المحسنين ﴾ أي : ولا على الذين إذا ما أتوك إلى آخره من سبيل .

ويجوز أن تكون عطفاً على الضعفاء : أي ولا على إذا ما أتوك إلى آخره حرج .

(164/346)

والمعنى : أن من جملة المعذورين هؤلاء الذين أتوك لتحملهم على ما يركبون عليه في الغزو ، فلم تجد ذلك الذي طلبوه منك .

قيل : وجملة ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ في محل نصب على الحال من الكاف في ﴿ أتوك ﴾ بإضمار قد : أي إذا ما أتوك قائلاً لا أجد .

وقيل : هي بدل من أتوك .

وقيل : جملة معترضة بين الشرط والجزاء ، والأوّل : أولى .

وقوله : ﴿ تَوَلَّوْاْ ﴾ جواب "إذا" ، وجملة : ﴿ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدمع ﴾ في محل نصب على الحال : أي تولوا عنك لما قلت لهم : لا أجد ما أحملكم عليه ، حال كونهم باكين ، و ﴿ حَزَناً ﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية ، أو الحالية ، و ﴿ أَن لاَّ يَجِدُواْ ﴾ مفعول له ، وناصبه ﴿ حَزَناً ﴾ وقال الفراء : إن "لا" بمعنى ليس ، أي حزناً أن ليس يجدوا .

وقيل المعنى : حزناً على أن لا يجدوا .

وقيل المعنى : حزناً أنهم لا يجدون ما ينفقون ، لا عند أنفسهم ولا عندك .

ثم ذكر الله سبحانه من عليه السبيل من المتخلفين فقال : ﴿ إِنَّمَا السبيل ﴾ أي : طريق العقوبة والمؤاخذة ﴿ عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ في التخلف عن الغزو ، والحال أنهم ﴿ أَغْنِيَاء ﴾ أي : يجدون ما يحملهم وما يتجهزون به ، وجملة : ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ

الخوالف ﴾ مستأنفة كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء .

وقد تقدّم تفسير الخوالف قريباً .

وجملة : ﴿ وَطَبَعَ الله على قُلُوبِهِمْ ﴾ معطوفة على ﴿ رَضُواْ ﴾ أي : سبب الاستئذان مع الغنى أمران : أحدهما : الرضا بالصفقة الخاسرة ، وهي أن يكونوا مع الخوالف ، والثاني : الطبع من الله على قلوبهم ﴿ فَهُمْ ﴾ بسبب هذا الطبع ﴿ لاَّ يَعْلَمُونَ ﴾ ما فيه الربح لهم ، حتى يختاروه على ما فيه الخسر .

(165/346)

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، والدارقطني في الإفراد ، وابن مردويه ، عن زيد ابن ثابت ، قال : كنت أكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت براءة ، فكنت أكتب ما أنزل عليه ، فإني لواضع القلم عن أذني إذ أمرنا بالقتال ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ما ينزل عليه إذ جاء أعمى فقال : كيف بي يا رسول الله وأنا أعمى ؟ فنزلت : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن قتادة ، قال : أنزلت هذه الآية في عابد بن عمر المزني .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، قال : نزل من عند قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ واللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ في المنافقين .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ قال : ما على هؤلاء من سبيل بأنهم نصحوا لله ورسوله ولم يطيقوا الجهاد ، فعذرهم الله وجعل لهم من الأجر ما جعل للمجاهدين ، ألم تسمع أن الله يقول : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي القاعدون مِنَ المؤمنين غَيْرُ أُوْلِي الضرر ﴾ [النساء : 95] .

فجعل الله للذين عذر من الضعفاء ، وأولي الضرر ، والذين لا يجدون ما ينفقون من الأجر مثل ما جعل للمجاهدين .

وأخرج أبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ مَا عَلَى المحسنين مِن سَبِيلٍ ﴾ قال : والله لأهل الإساءة ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ ﴾ الآية ، قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينبعثوا غازين معه ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مغفل المزني ، فقالوا : يا رسول الله احملنا ، فقال : والله ما أجد ما أحملكم عليه ، فتولوا ولهم بكاء وعزيز عليهم أن يجلسوا عن الجهاد ، ولا يجدون نفقة ولا محملاً ، فأنزل الله عذرهم ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن مغفل ، قال : إني لا أجد ارهط الذين ذكر الله ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب ، قال : هم سبعة نفر من بني : عمر بن عوف سالم بن عمير ، ومن بني : واقف حرميّ بن عمرو ، ومن بني : مازن بن النجار عبد الرحمن بن كعب يكنى أبا ليلى ، ومن بني : المعلى سلمان بن صخر ، ومن بني : حارثة عبد الرحمن بن زيد أبو عبلة ، ومن بني : سلمة عمرو بن غنمة وعبد الله بن عمرو المزني .

وقد اتفق الرواة على بعض هؤلاء السبعة .

واختلفوا في البعض ، ولا يأتي التطويل في ذلك بكثير فائدة .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن الزهري ، ويزيد بن رومان ، وعبد الله بن أبي بكر ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وغيرهم ؛ أن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم : البكاؤون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، ثم ذكروا أسماءهم ، وفيه ، فاستحملوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أهل حاجة .

قال : ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن الحسن ، قال : كان معقل بن يسار من البكائين الذين

قال الله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن أنس بن مالك ، في قوله : ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ قال : الماء والزاد .

وأخرج ابن المنذر ، عن عليّ بن صالح ، قال : حدّثني مشيخة من جهينة ، قالوا : أدركنا الذين سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحملان ، فقالوا : ما سألناه إلا الحملان على النعال .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن إبراهيم بن أدهم ، عمن حدّثه في قوله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ قال : ما سألوه الدوابّ ما سألوه إلا النعال .

(167/346)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن بن صالح ، في الآية قال : استحملوه النعال .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ إِنَّمَا السبيل عَلَى الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ ﴾ قال : هي وما بعدها إلى قوله ﴿ إِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ في المنافقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(168/346)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾

قولُه تعالى : ﴿ رَضُواْ ﴾ :

فيه وجهان :

أحدهما : أنه مستأنفٌ كأنه قال قائل : ما بالُهم استأذنوا في القعود وهم قادرون على الجهاد ؟ فأُجيب بقوله " رَضُوا بأن يكونوا مع الخوالِفِ " . وإليه مال الزمخشري . والثاني : أنه في محل نصب على الحال و " قد " مقدرةٌ في قوله [" رَضُوا "] .

وقوله : ﴿ وَطُبِعَ ﴾ نسقٌ على " رضُوا " تنبيهاً على أن السببَ في تخلُّفهم رضاهم بقعودهم وطَبْعُ الله على قلوبهم .

وقوله ﴿ إِنَّمَا السبيل على ﴾ فأتى ب " على " وإن كان قد يَصِل ب " إلى " لفَرْقٍ ذكروه : وهو أنَّ " على " تدل على الاستعلاء وقلة مَنَعَة مَنْ تدخل عليه نحو : لي سبيل عليك ، ولا سبيلَ لي عليك ، بخلافِ " إلى " . فإذا قلت : " لا سبيل عليك " فهو مغايرٌ لقولِك : لا سبيلَ إليك . ومن مجيء " إلى " معه ، قوله :

2533 ألا ليت شِعْري هل إلى أمِّ سالمٍ . . . سبيلٌ فأمَّا الصبرُ عنها فلا صبرا

وقوله :

2534 هل من سبيلٍ إلى خَمْرٍ فأشربَها . . . أم من سبيل إلى نَصْرِ بن حَجَّاجِ. انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 102. 103 ﴾

(169/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَئْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ﴾ .

يريد السبيل بالعقوبة والملامة على الذين يتأخرون عنك في الخروج إلى الجهادِ ولهم الأُهبة والمُكْنَة ، وتساعدهم على الخروج الاستطاعةُ والقدرةُ ؛ فإذا استأذنوك للخروج وأظهروا لم يَصْدقُوا ، فهم مُسْتَوجِبُونَ للنكير عليهم ، لأنَّ مَنْ صَدَقَ في الولاء لا يحتشم من مقاساةِ العناء ، والذي هو في الولاءِ مما ذِقٌ وللصِّدقِ مفَارِقٌ يتعلَّلُ بما لا أصل له ، لأنه حُرِمَ الخلوصَ فيما هو أَهْلٌ له ، وكذا قيل :

إنَّ الملولَ إذا أراد قطيعةً . . . مَلَّ الوصَالَ وقال كان وكانا

قوله جلّ ذكره : ﴿ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ ﴾ .

قيل في التفسير : مع النساء في البيوت .

والإسلام يثني على الشجاعة ، وفي الخبر : " إنْ الله تعالى يحب الشجاعة ، ولو على قتل حية " ، وفي معناه أنشدوا :

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا . . . وعلى المُحْصَنَاتِ جرُّ الذُّيولِ

ومَنْ استوطن مركبَ الكسلِ ، واكتسى لِبَاسَ الفَشَلِ ، وركَنَ إلى مخاريق الحِيَل – حُرِمَ استحقاقَ القُربة . ومَنْ أراد اللهُ – تعالى – هَوَانَه ، وأذاقه خِذْلانَه ، فليس له عن حكم الله مناصٌ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 55 ﴾

(170/346)

قوله تعالى ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم شرع يخبر عن أشياء تقع منهم عند الرجوع دلالة على أن هذا كلامه وأنه عالم بالمغيبات

كليها وجزئيها ، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون ، فقال مبيناً لعدم علمهم : ﴿ يعتذرون ﴾ أي يثبتون الأعذار لأنفسهم : وأشار إلى بعدهم بالقلوب بقوله : ﴿ إليكم ﴾ أي عن التخلف ﴿ إذا رجعتم إليهم ﴾ أي من هذه الغزوة ، كأنه قيل : فماذا يقال في جوابهم ؟ فقال للرأس الذي لا تأخذه في الله لومة لائم : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾ أي فإن أعذاركم كاذبة ، ولذلك علل النهي بقوله : ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ أي نصدقكم في شيء منها ، ثم علل عدم تصديقهم بما أوجب لهم القطع بذلك فقال : ﴿ من نبأنا الله ﴾ أي أعلمنا الملك الذي له الإحاطة الكاملة بكل شيء إعلاماً جليلاً ﴿ من أخباركم ﴾ أي التي ظننتم جهلاً بالله أنها تخفى فقد علمناها ؛ ثم هددهم بقوله : ﴿ وسيرى الله ﴾ أي لأنه عالم بكل شيء وإن دق قادر على كل شيء ﴿ عملكم ﴾ أي بعد ذلك أتتبينون أم تثبتون على حالكم هذا الخبيث كما رأى الذي قبل ﴿ ورسوله ﴾ أي بما يعلمه به سبحانه وحياً أو تفرساً ، ولما كان الكلام في المنافقين ، فكانت الرؤية لنفاقهم الذي يجتهدون في إخفائه ، وكان المؤمنون لا اطلاع لجميعهم عليهم ، لم يذكرهم بخلاف من يأتي بعد فإنهم مؤمنون . ولما كان هذا ربما أوهمهم أنه لا يعلم إلا ما أوقعوه بالفعل ، نفى ذلك بإظهار وصفه في موضع الإضمار مهدداً بقوله مشيراً بأداة التراخي إلى استبعادهم لقيامهم إلى معادهم : ﴿ ثم تردون ﴾ أي براد قاهر لا تقدرون على دفاعه بعد استيفاء آجالكم بالموت وإن طالت ثم

البعث ﴿إلى عالم الغيب﴾ وهو ما غاب عن الخلق ﴿والشهادة﴾ وهو ما اطلع عليه أحد منهم.

(171/346)

فصار بحيث يطلعون عليه وهذا ترجمة عن الذي يعلم الشيء قبل كونه ما يعلم بعد كونه ﴿فينبئكم﴾ أي يخبركم إخباراً عظيماً جليلاً مستوعباً ﴿بما كنتم﴾ أي بجبلاتكم ﴿تعملون﴾ أي مما أبرزتموه إلى الخارج ومما كان في جبلاتكم، ولو تأخرتم لبرز، وهو تهديد عظيم، ووقع ترتيبهم للاعتذار على الأسهل فالأسهل على ثلاث مراتب: الأولى مطلق الاعتذار وقد مضى ما فيها؛ الثانية تأكيد ذلك بالحلف للإعراض عنهم فقال سبحانه: ﴿سيحلفون بالله﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿نظم الدرر حـ 3 صـ 376﴾

(172/346)

فصل

قال الفخر:

ثم قال : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ علة للمنع من الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصير عذره مقبولاً .

فإذا علم بأن القوم يكذبونه فيه ، وجب عليه تركه .

وقوله : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ علة لانتفاء التصديق ، لأنه تعالى لما أطلع رسوله على ما في ضمائرهم من الخبث والمكر والنفاق ، امتنع أن يصدقهم الرسول عليه الصلاة والسلام في تلك الأعذار .

ثم قال : ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ والمعنى أنهم كانوا يظهرون من أنفسهم عند تقرير تلك المعاذير حباً للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين وشفقة عليهم ورغبة في نصرتهم ، فقال تعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أنكم هل تبقون بعد ذلك على هذه الحالة التي تظهرونها من الصدق والصفاء ، أو لا تبقون عليها ؟

ثم قال : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

فإن قيل : لما قال : ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فلم لم يقل ، ثم تردون إليه ، وما الفائدة من قوله : ﴿ ثُمَّ ﴾ .

قلنا : في وصفه تعالى بكونه : ﴿ عالم الغيب والشهادة ﴾ ما يدل على كونه مطلعاً على بواطنهم الخبيثة ، وضمائرهم المملوءة من الكذب والكيد ، وفيه تخويف شديد ، وزجر عظيم لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 130 ﴾

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بَعْدَ ذِكْرِ الْمُنَافِقِينَ هَاهُنَا ، وَنَزَلَتْ بَعْدَ ذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ هَذَا بِآيَاتٍ ، فَأَمَّا هَذِهِ الَّتِي أَعْقَبَتْ ذِكْرَ الْمُنَافِقِينَ فَمَعْنَاهَا التَّهْدِيدُ ، وَأَمَّا الْآيَةُ الَّتِي نَزَلَتْ بَعْدَ هَذَا فَمَعْنَاهَا الْأَمْرُ ، وَتَقْدِيرُهَا : اعْمَلُوا بِمَا يُرْضِي اللَّهَ ، وَذَلِكَ أَنَّ النِّفَاقَ مَوْضِعُ تَرْهِيبٍ ، وَالْإِيمَانُ مَحَلُّ تَرْغِيبٍ ، فَقُوبِلَ أَهْلُ كُلِّ مَحَلٍّ مِنْ الْخِطَابِ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ، كَمَا قِيلَ لِلْكُفَّارِ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ ، عَلَى مَعْنَى التَّهْدِيدِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ : الْبَارِي رَاءٍ مَرْئِيٌّ ، يَرَى الْخَلْقَ ، وَيَرَوْنَهُ ، فَأَمَّا رُؤْيَتُهُمْ لَهُ فَفِي مَحَلٍّ مَخْصُوصٍ ، وَمِنْ قَوْمٍ مَخْصُوصِينَ ، وَأَمَّا رُؤْيَتُهُ لِلْخَلْقِ فَدَائِمَةٌ ، فَهُوَ تَعَالَى يَعْلَمُ وَيَرَى .

وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُبْتَدِعَةِ : إنَّهُ يَعْلَمُ وَلَا يَرَى ، وَمَتَى أُخْبِرَ عَنْهُ بِالرُّؤْيَةِ فَإِنَّهَا رَاجِعَةٌ إلَى الْعِلْمِ ، وَقَدْ دَلَّلْنَا فِي كُتُبِ الْأُصُولِ عَلَى أَنَّهُ رَاءٍ بِرُؤْيَةٍ ، كَمَا أَنَّهُ عَالِمٌ بِعِلْمٍ ؛ لِأَنَّهُ أَخْبَرَ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ ، وَخَبَرُهُ صَادِقٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ رَائِيًا لَكَانَ مَئُوفًا ؛ لِأَنَّ الْحَيَّ إذَا لَمْ يَكُنْ مُدْرِكًا كَانَ مَئُوفًا ، وَهُوَ الْمُتَقَدِّسُ عَنْ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ ، وَهَذِهِ الْعُمْدَةُ الْعَقْلِيَّةُ لِعُلَمَائِنَا ؛ فَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ نَفْسِهِ بِمَا يَجِبُ لَهُ مِنْ صِفَتِهِ ، وَقَامَ الدَّلِيلُ عَلَيْهِ مِنْ نَعْتِهِ ، فَلَزِمَنَا اعْتِقَادُهُ وَالْإِخْبَارُ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ : ذَكَرَهُ بِصِيغَةِ الِاسْتِقْبَالِ ؛ لِأَنَّ الْأَعْمَالَ مُسْتَقْبَلَةٌ ، وَالْبَارِي يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُ قَبْلَ أَنْ يَعْمَلَ ، وَيَرَاهُ إذَا عَمِلَ ؛ لِأَنَّ الْعِلْمَ يَتَعَلَّقُ بِالْمَوْجُودِ وَالْمَعْدُومِ ، وَالرُّؤْيَةُ لَا تَتَعَلَّقُ إلَّا بِالْمَوْجُودِ ، وَقَدْ قَالَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ ، ﴿ عَنْ جِبْرِيلَ : مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ ؛ فَإِنَّك إنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ : قَوْلُهُ : ﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ : مَعْنَاهُ يَجْعَلُهُ فِي الظُّهُورِ مَحَلَّ مَا يَرَى .

وَرَوَى ابْنُ الْقَاسِمِ ، عَنْ مَالِكٍ فِي الْآيَةِ : أَنَّهُ كَانَ يُقَالُ : ابْنَ آدَمَ ، اعْمَلْ وَأَغْلِقْ عَلَيْك سَبْعِينَ بَابًا ، يُخْرِجْ اللَّهُ عَمَلَك إلَى النَّاسِ .

وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ الْأُسْتَاذُ أَبُو بَكْرٍ ،

وَالْإِمَامُ مَالِكٌ ، إنَّمَا يَكُونُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِرُؤْيَةِ النَّاسِ ، فَأَمَّا رُؤْيَةُ اللَّهِ فَإِنَّهَا تَتَعَلَّقُ بِمَا يَسُرُّهُ ، كَمَا تَتَعَلَّقُ بِمَا يُظْهِرُهُ ؛ لِأَنَّهُ لَا تُؤْثِرُ الْحُجُبُ فِي رُؤْيَتِهِ ، وَلَا تَمْنَعُ الْأَجْسَامَ عَنْ إدْرَاكِهِ .

وَفِي الْأَثَرِ ﴿ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبَدَ اللَّهَ فِي صَخْرَةٍ لَا بَابَ لَهَا ، وَلَا كُوَّةَ لَأَخْرَجَ اللَّهُ عَمَلَهُ إلَى النَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ ، وَاَللَّهُ يُطْلِعُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا فِي قُلُوبِ إخْوَانِهِمْ مِنْ خَيْرٍ فَيُحِبُّونَهُ ، أَوْ شَرٍّ فَيُبْغِضُونَهُ ﴾ .

وَقَالَ اللَّهُ : ﴿ إذَا تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي شِبْرًا تَقَرَّبْت إلَيْهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْت مِنْهُ بَاعًا ، وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي آتَيْته أُهَرْوِلُ ، وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْته كُنْت سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ﴾ .

(176/346)

وَفِي الصَّحِيحِ : ﴿ إذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى فِي السَّمَاءِ يَا جِبْرِيلُ ؛ إنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، ثُمَّ يُنَادِي جِبْرِيلُ : يَا مَلَائِكَةَ السَّمَاءِ ؛ إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ ؛ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَرَاهُ فِي الْبُغْضِ إلَّا مِثْلَ ذَلِكَ ﴾ .

إيضَاحٌ مُشْكِلٌ : قَوْلُهُ : " إذَا تَقَرَّبَ الْعَبْدُ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْت مِنْهُ ذِرَاعًا مَثَلٌ ؛ لِأَنَّ الْبَارِئَ سُبْحَانَهُ يَسْتَحِيلُ عَلَيْهِ الْقُرْبُ بِالْمِسَاحَةِ ؛ وَإِنَّمَا قُرْبُهُ بِالْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ لِلْجَمِيعِ ، وَبِالرَّحْمَةِ وَالْإِحْسَانِ لِمَنْ أَرَادَ ثَوَابَهُ .

وَقَوْلُهُ أَيْضًا : أَتَيْته أُهَرْوِلُ مِثْلُهُ فِي التَّمْثِيلِ ، وَالْإِشَارَةُ بِهِ إلَى أَنَّ الثَّوَابَ يَكُونُ أَكْثَرَ مِنْ الْعَمَلِ ، فَضَرَبَ زِيَادَةَ الْأَفْعَالِ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي الْمُجَازَاةِ عَلَى الْبَعْضِ مَثَلًا فِي زِيَادَةِ ثَوَابِهِ عَلَى أَعْمَالِهِمْ .

وَقَوْلُهُ : لَا يَزَالُ

الْعَبْدُ يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوَافِلِ ، إشَارَةٌ إلَى أَنَّ الْمُوَاظَبَةَ عَلَى الْعَمَلِ تُوجِبُ مُوَاظَبَةَ الثَّوَابِ ، وَتُطَهِّرُ الْمُوَاظَبَةُ الْأَعْضَاءَ عَنْ الْمَعَاصِي ؛ فَحِينَئِذٍ تَكُونُ الْجَوَارِحُ لِلَّهِ خَالِصَةً ؛ فَعَبَّرَ بِنَفْسِهِ تَعَالَى عَنْهَا تَشْرِيفًا لَهَا حِينَ خَلَصَتْ مِنْ الْمَعَاصِي .

وَمِثْلُهُ النُّزُولُ ، فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ إفَاضَةِ الْخَيْرِ وَنَشْرِ الرَّحْمَةِ . .

(177/346)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : أَمَّا الْآيَةُ الْأُولَى فِي الْمُنَافِقِينَ فَهِيَ عَلَى رَسْمِ التَّهْدِيدِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ ، وَمَعْنَاهَا أَنَّ الْمُنَافِقِينَ يَعْتَقِدُونَ الْكُفْرَ ، وَيُظْهِرُونَ أَعْمَالَ الْإِيمَانِ كَأَنَّهَا أَعْمَالُ بِرٍّ ، وَهِيَ رِيَاءٌ وَسُمْعَةٌ بِغَيْرِ اعْتِقَادٍ وَلَا نِيَّةٍ ، فَاللَّهُ يَرَاهَا كَذَلِكَ ، وَيُطْلِعُ عَلَيْهَا عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَأَمَّا اطِّلَاعُ رَسُولِهِ فَبِعَيْنَيْهِ ، وَأَمَّا اطِّلَاعُ الْمُؤْمِنِينَ فَبِالْعَلَامَاتِ مِنْ الْأَعْمَالِ وَالْأَمَارَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاعْتِقَادِ ، وَذَلِكَ كَمَا قَالَ : مَنْ أَسَرَّ سَرِيرَةً أَلْبَسَهُ اللَّهُ رِدَاءَهَا ، إنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ .

وَأَمَّا الْآيَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فَإِنَّ اللَّهَ يَرَاهُ وَيَعْلَمُهُ ، فَيَعْلَمُهُ رَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى النَّحْوِ الَّذِي تَقَدَّمَ ، وَنَرُدُّ الْعِلْمَيْنِ إلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَنَجْزِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَوَاقِعِهَا .

أَمَّا الْمُنَافِقُ فَنَقْدَمُ إلَى عَمَلِهِ فَنَجْعَلُهُ هَبَاءً مَنْثُورًا .

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الَّذِي خَلَطَ فِي أَعْمَالِهِ طَاعَةً بِمَعْصِيَةٍ فَإِنَّهُ يُوَازِنُ بِهَا فِي الْكِفَّتَيْنِ ، فَمَا رَجَحَ مِنْهَا عَلَى مِقْدَارِ عَمَلِهِ فِيهَا أَظْهَرَهُ عَلَيْهَا ، وَحَكَمَ بِهِ لَهَا .

وَالْمَرْءُ يَكُونُ فِي مَوْطِنَيْنِ : أَحَدُهُمَا : مَوْطِنُ الْخَاتِمَةِ عِنْدَ قَبْضِ الرُّوحِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فَإِنَّهُ وَقْتُ كَشْفِ الْغِطَاءِ ، وَسَلَامَةِ الْبَصَرِ عَنْ الْعَمَى ، فَيُقَالُ لَهُ : ﴿ فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ .

(178/346)

فَانْظُرْ إِلَى مَا كُنْت غَافِلًا عَنْهُ ، أَوْ بِهِ مُتَهَاوِنًا .

وَالْحَالَةُ الثَّانِيَةُ عِنْدَ الْوَزْنِ ، وَتَطَايُرِ الصُّحُفِ وَالْأَنْبَاءِ ، حِينَئِذٍ يَكُونُ بِإِظْهَارِ الْجَزَاءِ ، وَشَرْحِ صِفَةِ الْأَنْبَاءِ وَمَوَاطِنِهِ فِي كِتَابِ الذِّكْرِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(179/346)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من الغزو .

﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ ، يعني : لا نصدقكم أن لكم عذراً .

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ ، يعني : أخبرنا الله تعالى بأنه ليس لكم عذر ، ويقال : أخبرنا الله عن نفاقكم ، ويقال : أخبرنا الله عن أعمالكم وسرائركم .

﴿ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ ، فيما تستأنفون وسيرى المؤمنون .

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ ، يعني : ترجعون بعد الموت ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي يعلم ما غاب عن العباد وما شاهدوا ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(180/346)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ يعتذرون إليكم ﴾ الآية

هذه المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، وشرك معه المسلمون في بعض لأن المنافقين كانوا يعتذرون أيضاً إلى المؤمنين ولأن أنباء الله أيضاً تحصل للمؤمنين وقوله : ﴿ رجعتم ﴾ يريد من غزوة تبوك ، وقوله : ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ معناه لن نصدقكم ، ولكن لفظة ﴿ نؤمن ﴾ تتصل بلام أحياناً كما تقدم في قوله ﴿ يؤمن للمؤمنين ﴾ [التوبة : 61] ، و" نبأ " في هذه الآية قيل هي بمعنى عرف لا تحتاج إلى أكثر من مفعولين ، فالضمير مفعول أول ، وقوله ﴿ من أخباركم ﴾ مفعول ثان على مذهب أبي الحسن في زيادة ﴿ من ﴾ في الواجب ، فالتقدير قد نبأنا الله أخباركم ، وهو على مذهب سيبويه نعت لمحذوف هو المفعول الثاني تقديره قد نبأنا الله جلية من أخباركم ، وقيل " نبأ " بمعنى أعلم يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل ،

فالضمير واحد و﴿ من أخباركم ﴾ ثان حسب ما تقدم من القولين ، والثالث محذوف يدل الكلام عليه ، تقديره قد نبأنا الله من أخباركم كذباً أو نحوه .

وحذف هذا المفعول مع الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار ، وذلك أن الاقتصار إنما يجوز إما على المفعول الأول ويسقط الاثنان إذ هما الابتداء والخبر ، وإما على الاثنين الأخيرين ويسقط الأول ، وإما أن يقتصر على المفعولين الأولين ويسقط الثالث دون دلالة عليه ، فذلك لا يجوز ، ويجوز حذفه مع الدلالة عليه والإشارة بقوله : ﴿ قد نبأنا الله ﴾ إلى قوله ﴿ ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة ﴾ [التوبة : 47] ونحو هذا ، وقوله ﴿ وسيرى الله ﴾ توعد معناه وسيراه في حال وجوده ويقع الجزاء منه عليه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، وقوله ﴿ ثم تردون إلى إلى عالم الغيب ﴾ يريد البعث من القبور ، و﴿ الغيب ﴾ والشهادة يعمان جميع الأشياء وقوله : ﴿ فينبئكم ﴾ معناه التخويف ممن لا تخفى عليه خافية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(181/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم ﴾

قال ابن عباس : نزلت في المنافقين ، يعتذرون إليكم إذا رجعتم من غزوة تبوك ، فلا تعذروهم فليس لهم عذر .

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم أتوه يعتذرون ، فقال الله تعالى : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾ لن نصدقكم ، قد أخبرنا الله أنه ليس لكم عذر ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ إن عملتم خيراً وتبتم من تخلُّفكم ﴿ ثم تُردُّون ﴾ بعد الموت ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ فيخبركم بما كنتم تعملون في السر والعلانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يعني المنافقين .

﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدقكم .

﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أي أخبرنا بسرائركم .

﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما تستأنفون .

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي يجازيكم بعملكم .

وقد مضى هذا كله مستوفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾

يعني يعتذر هؤلاء المنافقون المتخلفون عنك يا محمد إليك وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له (صلى الله عليه وسلم) ويحتمل أنهم اعتذروا إليه وإلى المؤمنين فلهذا قال تعالى يعتذرون إليكم يعني بالأعذار الباطلة الكاذبة إذا رجعتم إليهم يعني من سفركم ﴿ قل ﴾ أي قل لهم يا محمد ﴿ لا تعتذروا ﴾ قال البغوي : روي أن المنافقين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك كانوا بضعة وثمانين فقال الله تعالى قل لا تعتذروا ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ يعني لن نصدقكم فيما اعتذرتم به ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ يعني قد أخبرنا الله فيما سلف من أخباركم ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ يعني في المستأنف أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه وقيل : يحتمل أنهم وعدوا بأن ينصروا المؤمنين في المستقبل فلهذا قال وسيرى الله عملكم ورسوله هل تفون بما قلتم أم لا ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم ﴾ يعني فيخبركم ﴿ بما كنتم تعلمون ﴾ لأنه هو المطلع على ما في ضمائركم في الخيانة والكذب وإخلاف الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾

لن نؤمن لكم علة للنهي عن الاعتذار ، لأنّ عرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكذب في اعتذاره كفَّ عنه .

قد نبأنا الله من أخباركم علة لانتفاء التصديق ، لأنه تعالى إذا أخبر الرسول والمؤمنين بما انطوت عليه سرائرهم من الشر والفساد ، لم يمكن تصديقهم في معاذيرهم .

قال ابن عطية : والإشارة بقوله : قد نبأ الله من أخباركم إلى قوله : ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم ، ونحو هذا .

ونبأ هنا تعدّت إلى مفعولين كعرف ، نحو قوله : من أنبأك هذا ؟ والثاني هو من أخباركم أي : جملة من أخباركم ، وعلى رأى أبي الحسن الأخفش تكون من زائدة أي أخباركم .

وقيل : نبأ بمعنى أعلم المتعدية إلى ثلاثة ، والثالث محذوف اختصاراً لدلالة الكلام عليه أي : من أخباركم كذباً أو نحوه .

وسيرى الله توعد أي : سيراه في حال وجوده ، فيقع الجزاء منه عليه إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر .

وقال الزمخشري : وسيرى الله عملكم أتنيبون أم تثبتون على الكفر ، ثم تردون إشارة إلى

البعث من القبور والتنبؤ بأعمالهم عبارة عن جزائهم عليها .

قال ابن عيسى : وسيرى لجعله من الظهور بمنزلة ما يرى ، ثم يجازى عليه .

وقيل : كانوا يظهرون للرسول عند تقريرهم معاذيرهم حباً وشفقة فقيل : وسيرى الله عملكم هل يبقون على ذلك أو لا يبقون ؟ والغيب والشهادة هما جامعان لأعمال العبد لا يخلو منهما .

وفي ذلك دلالة على أنه مطلع على ضمائرهم كاطلاعه على ظواهرهم ، لا تفاوت عنده في ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(184/346)

وقال أبو السعود :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾

استئنافٌ لبيان ما يتصدَّوْن له عند القفولِ إليهم . روي أنهم كانوا بضعةً وثمانين رجلاً فلما رجع عليه السلام إليهم جاؤوا يعتذرون إليه بالباطل والخطابُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِهِ فإنهم كانوا يعتذرون إليهم أيضاً لا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقط أي يعتذرون إليكم في التخلف ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ من الغزو منتهين ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ وإنما

لم يقل إلى المدينة إيذاناً بأن مدارَ الاعتذار هو الرجوعُ إليهم لا إلى الرجوع إلى المدينة فلعل منهم مَنْ بادر إلى الاعتذار قبل الرجوعِ إليها ﴿ قُلْ ﴾ تخصيصُ هذا الخطابِ برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد تعميمِه فيما سبق لأصحابه أيضاً لِما أن الجوابَ وظيفتُه عليه السلام ، وأما اعتذارُهم فكان شاملاً للمسلمين شمولَ الرجوعِ لهم ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾ أي لا تفعلوا الاعتذارَ كقوله تعالى : ﴿ اخسئوا فِيهَا وَلاَ تُكَلِّمُونِ ﴾ أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير ، وأما التعرُّضُ لعنوان كذبها فلا يساعُده قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي لن نصدِّقَكم في ذلك أبداً فإنه استئنافٌ تعليليٌّ للنهي مبنيٌّ على سؤال نشأ من قِبَلهم متفرّعٌ على ادعاء الصّدقِ في الاعتذار كأنهم قالوا : لِمَ نعتذر ؟ فقيل : لأنا لا نصدقكم أبداً فيكون عبثاً إذ لا يترتب عليه غرضُ المعتذِر وقوله عز وجل : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ تعليلٌ لانتفاء التصديقِ أي أُعلِمْنا بالوحي بعضَ أخباركم المنافيةِ للتصديق مما باشرتموه من الشر والفساد وأضمرتموه في ضمائركم وهيأتموه للإبراز في معرِض الاعتذارِ من الأكاذيب ، وجمعُ ضميرِ المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم أطماعِهم من التصديق رأساً ببيان عدمِ رواج اعتذارِهم عند أحدٍ من المؤمنين أصلاً فإن تصديقَ البعض لهم ربما يطمعهم في تصديق الرسولِ صلى الله عليه وسلم أيضاً بواسطة المصدّقين وللإيذان بأن افتضاحَهم بين المؤمنين كافة ﴾

وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ فيما سيأتي أتُنيبون إليه تعالى مما أنتم فيه من النفاق أم تثبُتون وكأنه استتابةٌ وإمهالٌ للتوبة ، وتقديمُ مفعول الرؤية على ما عطف على فاعله من قوله تعالى : ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ للإيذان باختلاف حالِ الرؤيتين وتفاوتِهما وللإشعار بأن مدارَ الوعيد هو علمُه عز وجل بأعمالهم ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ، ووضعُ المُظهرِ موضعَ المضمرِ لتشديد الوعيدِ فإن علمَه سبحانه وتعالى بجميع أعمالِهم الظاهرةِ والباطنةِ وإحاطتَه بأحوالهم البارزةِ والكامنةِ مما يوجب الزجرَ العظيم ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند ردِّكم إليه ووقوفِكم بين يديه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بما كنتم تعملونه في الدنيا على الاستمرار من الأعمال السيئةِ السابقةِ واللاحقة ، على أن ما موصولةٌ والعائدُ إليها محذوفٌ أو بعملكم على أنها مصدريةٌ ، والمرادُ بالتنبئة بذلك المجازاةُ به ، وإيثارُها عليها لمراعاة ما سبق من قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ ﴾ الخ ، فإن المنبأَ به الأخبارُ المتعلّقةُ بأعمالهم وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالِهم وإنما يعلمونها يومئذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ بيان لما يتصدون له عند الرجوع إليهم ، والخطاب قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ، والجمع للتعظيم ، والأولى أن يكون له عليه الصلاة والسلام ولأصحابه لأنهم كانوا يعتذرون للجميع أي يعتذرون إليكم في التخلف ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ من الغزو منتهين ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ وإنما لم يقل سبحانه إلى المدينة إيذاناً بأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة فلعل منهم من بادر إلى الاعتذار قبل الرجوع إليها ﴿ قُلْ ﴾ خطاب له صلى الله عليه وسلم ، وخص بذلك لما أن الجواب وظيفته عليه الصلاة والسلام ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾ أي لا تفعلوا الاعتذار أو لا تعتذروا بما عندكم من المعاذير ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ استئناف لبيان موجب النهي ، وقوله :

قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ

استئناف لبيان موجب النفي كأنه قيل : لم نهيتمونا عن الاعتذار ؟ فقيل : لأنا لم نصدقكم في عذركم فيكون عبثاً فقيل : لم لن تصدقونا ؟ فقيل : لأن الله تعالى قد أنبأنا بالوحي بما في ضمائركم من الشر والفساد .

و﴿ نَبَأَ ﴾ عند جمع متعدية إلى مفعولين الأول الضمير والثاني ﴿ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ أما

لأنه صفة المفعول الثاني ، والتقدير جملة من أخباركم أو لأنه بمعنى بعض أخباركم ، وليست ﴿ مِنْ ﴾ زائدة على مذهب الأخفش من زيادتها في الإيجاب .

(187/346)

وقال بعضهم : إنها متعدية لثلاثة ﴿ وَمِنْ أخباركم ﴾ ساد مسد مفعولين لأنه بمعنى إنكم كذا وكذا أو المفعول الثالث محذوف أي واقعاً مثلاً ، وتعقب بأن السد المذكور بعيد ، وحذف المفعول الثالث إذا ذكر المفعول الثاني في هذا الباب خطأ أو ضعيف ، ومعنى ﴿ نَبَّأَنَا ﴾ على الأول عرفنا كما قيل وعلى الثاني أعلمنا ، وقيل : معناه خبرنا ، و﴿ مِنْ ﴾ بمعنى عن وليس بشيء ، وجمع ضمير المتكلم في الموضعين للمبالغة في حسم اطماع المنافقين المعتذرين رأساً ببيان عدم رواج اعتذارهم عند أحد من المؤمنين أصلاً فإن تصديق البعض لهم ربما يطمعهم في تصديق الرسول عليه الصلاة والسلام أيضاً وللإيذان بافتضاحهم بين المؤمنين كافة وتعدية ﴿ نُؤْمِنُ ﴾ باللام مر بيانها ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أي سيعلمه سبحانه علماً يتعلق به الجزاء فالرؤية علمية ، والمفعول الثاني محذوف أي أتنيبون عما أنتم فيه من النفاق أم تثبتون عليه ، وكأنه لمكان السين المفيدة للتنفيس استتابة وإمهال للتوبة ، وتقديم مفعول الرؤية على الفاعل من قوله سبحانه : ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾

للإيذان باختلاف حال الرؤيتين وتفاوتهما وللإشعار بأن مدار الوعيد هو علمه عز وجل بأعمالهم .

﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ للجزاء بما ظهر منكم من الأعمال ، ووضع الوصف موضع الضمير لتشديد الوعيد فإن علمه سبحانه بجميع أعمالهم الظاهرة والباطنة وإحاطته بأحوالهم البارزة والكامنة مما يوجب الزجر العظيم ، وتقديم الغيب على الشهادة قيل : لتحقيق أن نسبة علمه تعالى المحيط إلى سائر الأشياء السر والعلن واحدة على أبلغ وجه وآكده ، كيف لا وعلمه تعالى بمعلوماته منزه عن أن يكون بطريق حصول الصورة بل وجود كل شيء وتحققه في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى ، وفي هذا المعنى لايختلف الحال بين الأمور البارزة والكامنة انتهى .

(188/346)

ولا يخفى عليك أن هذا قول بكون علمه سبحانه بالأشياء حضورياً لا حصولياً .

وقد اعترضوا عليه بشمول علمه جل وعلا الممتنعات والمعدومات الممكنة والعلم الحضوري يختص بالموجودات العينية لأنه حضور المعلوم بصورته العينية عند العالم فكيف لا يختلف الحال فيه بين الأمور البارزة والكامنة مع أن الكامنة تشمل المعدومات الممكنة

والممتنعة ، ولا يتصور فيها التحقق في نفسها حتى يكون علماً له تعالى كذا قيل وفيه نظر ، وتحقيق علم الواجب سبحانه بالأشياء من المباحث المشكلة والمسائل المعضلة التي كم تحيرت فيها أفهام وزلت من العلماء الاعلام أقدام ، ولعل النبوة إن شاء الله تعالى تفضي إلى تحقيق ذلك ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عند ردكم إليه سبحانه ووقوفكم بين يديه ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي بما تعملونه على الاستمرار في الدنيا من الأعمال السيئة السابقة واللاحقة على أن ﴿ مَا ﴾ موصولة أو بعملأبي كم المستمر على أن ﴿ مَا ﴾ مصدرية ، والمراد من التنبئة بذلك المجازاة عليه ، وإيثارها عليها لمراعاة ما سبق من قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ ﴾ الخ وللإيذان بأنهم ما كانوا عالمين في الدنيا بحقيقة أعمالهم وإنما يعلمونها يومئذ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(189/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾

استئناف ابتدائي لأن هذا الاعتذار ليس قاصراً على الذين يستأذنون في التخلف فإن الإذن لهم يُغنيهم عن التبرؤ بالحلف الكاذب ، فضمير ﴿ يعتذرون ﴾ عائد إلى أقرب

معاد وهو قوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ [التوبة : 90] فإنهم فريق من المنافقين فهم الذين اعتذروا بعد رجوع الناس من غزوة تبوك وجعل المسند فعلاً مضارعاً لإفادة التجدد والتكرير .

و ﴿ إذا ﴾ هنا مستعملة للزمان الماضي لأن السورة نزلت بعد القفول من غزوة تبوك وجعل الرجوع إلى المنافقين لأنهم المقصود من الخبر عند الرجوع .

والخطاب للمسلمين لأن المنافقين يقصدون بأعذارهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ويعيدونها مع جماعات المسلمين .

والنهي في قوله : ﴿ لا تعتذروا ﴾ مستعمل في التأييس .

وجملة : ﴿ لن نؤمن ﴾ في موضع التعليل للنهي عن الاعتذار لعدم جدوى الاعتذار ، يقال : آمن له إذا صدقه .

وقد تقدم في هذه السورة (61) قوله تعالى : ﴿ ويؤمن للمؤمنين ﴾

وجملة : قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ تعليل لنفي تصديقهم ، أي قد نبأنا الله من أخباركم بما يقتضي تكذيبكم ، فالإبهام في المفعول الثاني ل ﴿ نبأنا ﴾ الساد مسد مفعولين تعويل على أن المقام يبينه .

و ﴿ مِن ﴾ اسم بمعنى بعض ، أو هي صفة لمحذوف تقديره : قد نبأنا الله اليقين من أخباركم .

وجملة : ﴿ وسيرى الله عملكم ﴾ عطف على جملة ﴿ لا تعتذروا ﴾ ، أي لا فائدة في اعتذاركم فإن خشيتم المؤاخذة فاعملوا الخيرَ للمستقبل فسيرى الله عملكم ورسوله إن أحسنتم ؛ فالمقصود فتح باب التوبة لهم ، والتنبيه إلى المكنة من استدراك أمرهم .

وفي ذلك تهديد بالوعيد إن لم يتوبوا .

فالإخبار برُؤية الله ورسوله عملهم في المستقبل مستعمل في الكناية عن الترغيب في العمل الصالح ، والترهيب من الدوام على حالهم .

(190/346)

والمراد : تمكنهم من إصلاح ظاهر أعمالهم ، ولذلك أردف بقوله : ﴿ ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ ، أي تصيرون بعد الموت إلى الله .

فالرد بمعنى الإرجاع ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثم ردّوا إلى الله مولاهم الحق ﴾ في سورة الأنعام (62) .

والرد : الإرجاع .

والمراد به هنا مصير النفوس إلى عالم الخلد الذي لا تصرف فيه لغير الله ولو في ظاهر الأمر .

ولما كانت النفوس من خلق الله وقد أنزلها إلى عالم الفناء الدنيوي فاستقلت بأعمالها مدة

العمر كان مصيرها بعد الموت أو عند البعث إلى تصرف الله فيها شبيهاً برد شيء إلى مقره أو إرجاعه إلى مالكه .

والغيب : ما غاب عن علم الناس .

والشهادة : المشاهدة .

واللام في الغيب ﴾ و ﴿ الشهادة ﴾ للاستغراق ، أي كل غيب وكل شهادة .

والعدول عن أن يقال : لم تردون إليه ، أي إلى الله ، لما في الإظهار من التنبيه على أنه لا يعزب عنه شيء من أعمالهم ، زيادة في الترغيب والترهيب ليعلموا أنه لا يخفى على الله شيء .

والإنباء : الإخبار .

وما كنتم تعملون : علم كل عمل عملوه .

واستعمل ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في لازم معناه ، وهو المجازاة على كل ما عملوه ، أي فتجدونه عالماً بكل ما عملتموه .

وهو كناية ؛ لأن ذكر المجازاة في مقام الإجرام والجناية لازم لعموم علم مَلك يوم الدين بكل ما عملوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(191/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾

ومعنى " يعتذر " أي : يبدي عذراً عن شيء يُخرجه من اللوم أو التوبيخ ، ويقال : " اعتذر فلان " أي : فعل شيئاً مظنة أنه ذم ، فيريد أن يعتذر عنه . والحق هنا يقول : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ وفي آية سابقة يقول مخاطباً النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ إِلَى طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ . . . ﴾ [التوبة : 83]

وهكذا نلاحظ أنه سبحانه حين نسب الرجوع إلى الصحابة والمجاهدين قال : ﴿ رَجَعْتُمْ ﴾ ، وعندما نسبه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ فَإِن رَّجَعَكَ اللهُ ﴾ مما يدلنا على أن زمام محمد صلى الله عليه وسلم بيد ربه وحده ، ولكن زمام أتباعه يكون باختيارهم .

وهنا يقول الحق : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ ويأتي بعدها ذلك الرد الواضح على محاولة المنافقين في الاعتذار : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ ﴾ ، وفي هذا رد حاسم ، فأنت حين يعتذر إليك إنسان فقد تستمع لعذره ولكنك لا تقبله ، ومجرد استماعك للعذر معناه أن هناك احتمالاً في أن يكون هذا العذر مقبولاً أو مرفوضاً ، ولكن حين ترفض مجرد سماع العذر ، فمعنى ذلك ألاَّ وجه للمعذرة .

والحق سبحانه وتعالى يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فكأنما ساعة أقبل المنافقون على رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرمنين ؛ وتهيأوا للاعتذار ؛ وقبل أن ينطقوا بالعذر ؛ أوضح لهم الرسول عليه الصلاة والسلام : لا تعتذروا ، ورفض مجرد إبدائهم للعذر . ثم فاجأهم بالحكم في قوله تعالى : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾

ومادة " آمن " تدور حول عدة معان ، نقول " آمن " أي : اعتقد وصدق مثل قولنا : " آمن بالله " ، ويقال : " آمن بالشيء " أي : صدّقه ، و " آمن بكذا " أي : صدّق ما قيل . والحق هو القائل : ﴿ فَمَا آمَنَ لموسى . . . ﴾ [يونس : 83]

وقال إخوة يوسف لأبيهم : ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ [يوسف : 17] أي : لن تصدقنا . وآمن إذا تعدَّت بالباء فمعناها الاعتقاد ، وإن تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدت بغير الباء وغير اللام فمعناها إعطاء الأمان ، مثل قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3-4]

وتجيء أيضاً " آمن " و " أمن " بمعنى الائتمان ، مثل قول الحق سبحانه وتعالى على لسان يعقوب : ﴿ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ على أَخِيهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [يوسف : 64]

إذن : ف " آمن " إن تعدت بالباء فيكون معناها الاعتقاد الإيماني ، وإنْ تعدَّتْ باللام فمعناها التصديق ، وإن تعدَّتْ بنفسها إلى الفعل فهي إعطاء الأمان والسلام والاطمئنان ، وإن تعدت بالمفعول أيضاً ؛ فمعناها القدرة على أداء الأمانات ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً . . . ﴾ [آل عمران : 75]

(193/346)

وفي الآية التي نحن بصددها يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي : لن نصدقكم . فقد جاء المنافقون ليعتذروا بأعذار كاذبة ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفض مجرد سماع الاعتذار ، وأعلن لهم : لن نصدقكم . ولو امتلك المنافقون ذرة من ذكاء لفهموا أن رب محمد عليه الصلاة والسلام قد أخبره بكل شيء ؛ حتى بما في قلوبهم قبل أن ينطقوه ، ولو امتلكوا ذرة من فطنة لرجعوا عن نفاقهم ، ولدخلوا في الإيمان ، ولكنهم لم يستوعبوا الدرس ، فجاء الحق سبحانه وتعالى بالأمر واضحاً في قوله سبحانه : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ فكأن المسألة ليست فراسة استنتاج ، ولكنها وحي من الله .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ .

ما هو العمل الذي سيراه الله سبحانه وتعالى ورسوله ، بعد أن رفض رسول الله عذرهم ، وأخبرهم بأن الله قد أخبره بما يُخْفونه من كذب في صدورهم ؟ فسبحانه العالم بالسرائر كلها ، لقد شاء سبحانه ألا يغلق أمامهم باب المرجع إليه ، وكان يجب من بعد ذلك أن يرتدعوا وأن يتيقنوا أن رب محمد صلى الله عليه وسلم لا تخفى عليه حتى نواياهم . وما دُمْتم قد علمتم صدق محمد صلى الله عليه وسلم في كل ما أبلغكم به ، أصبح عليكم – إذن – أن ترجعوا وتخرجوا من دائرة النفاق لتدخلوا حظيرة الإيمان ؛ وتراكم الدنيا من بعد ذلك وقد اختلفت أعمالكم من النفاق إلى الإيمان ، أما إن أصررتم على ما أنتم فيه ؛ فمعنى ذلك أنكم لم تستفيدوا من العملية الإعجازية التي أنبأ الله فيها رسوله بكذبكم .

إذن : فقد فتح الله باب التوبة أمامكم رحمة منه سبحانه ، فانتهزوا هذه الفرصة ؛ لأنه سبحانه سيرى أعمالكم في المستقبل ، وعلى أساس هذه الرؤية يرتب لكم الجزاء على ما يكون منكم .

(194/346)

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغيب والشهادة فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 94]

وما دام سبحانه عالم الغيب ، فمن باب أوْلى أنه عليم بعالم الشهادة . والغيب – كما نعرف – هو ما غاب عنك ، فلم تعرف عنه شيئاً . ولكن إنْ غاب عنك ولم يَغِبْ عن غيرك فهو غَيْبٌ نسبي ؛ لأن هناك حجباً منعت عنك العلم ، والمثَال : إن سُرق منك شيء فأنت لا تعرف السارق ؛ ولكن السارق نفسه يعرف ، ومن شاركه يعرف . والذي أخفى السارق عنده المسروقات يعرف . والذي ابتاع المسروقات يعرف .

إذن : فهو غيب عنك وليس غيباً على غيرك . أما الغيب المطلق فهو ما غاب عنك وعن غيرك ، وهناك من يلجأ إلى الدجالين ممن يدّعون قراءة الأفكار ، ويسمونهم المنوِّمين المغناطيسيين ، ويطلب المنوّم من أي واحد أن يُخرج ما في جيبه من نقود وأن يقوم بعدّها ، ثم يخبره بعددها ، وإن أردت أن تكشف ألاعيبه ؛ ضع يدك في جيبك وأخرج كمية من النقود لا تعرف أنت مقدارها ، واسأله عن هذا المقدار فلن يعرف ، لماذا ؟ لأنك نقلت المسألة من غيب قد يعرفه غيرك إلى غيب مطلق .

إذن : فالغيب المطلق هو ما غاب عنك عن غيرك ، وهو أيضاً ما لا تكون له مقدمات توصلك إليه ، فأنت إذا أعطيت ابنك تمريناً هندسيّاً ليحله ؛ فالحل غيب عنه ساعة يقرأ المسألة ، ثم يستخدم المقدمات والنظريات حتى يصل إلى الحل ، فكأن هناك أشياء لها

مقدمات توصل إلى النتائج ، وهذه ليست غيباً ؛ لذلك لا يقال لمن اكتشف الكهرباء والذي اكتشف تفتيت الذرة أنهما علما الغيب . فقد كانت هناك مقدمات في الكون أوصلتهما إلى كشف بعض القوانين الموجودة بالفعل ، لكنّنا لم نكُنْ نعرفها .

وفي بعض التدريبات ، نجد من يضع المسألة المطلوب حلّها ، ويضع النتيجة الأخيرة بجانبها ؛ لأنه لا يهدف إلى معرفة النتيجة ، ولكنه يهدف لتعليم التلميذ كيف يصل إلى أسلوب الحل الصحيح .

(195/346)

ولذلك إذا أردت أن تحلّ شيئاً في الهندسة مثلاً ، فلا بد لك من معطيات توصلك إلى الحل ؛ كأن يُطلب منك – مثلاً – إثبات أن الخطين متوازيان ، وفي هذه الحالة يجب أن تكون كل زاويتين متناظرتين متساويتين ، وكل زاويتين متبادلتين متساويتين . إذن : فانت قد أخذت مقدمات أو معطيات أوصلتك إلى النتيجة ، وكذلك في تساوي ضلعي المثلث أو أضلاعه ؛ يكون إثباته بتساوي الزوايا . فهل في هذه الحالة يقال : إنك اهتديت إلى الغيب ؟ أم أنك استخدمت مقدمات أوصلتك إلى نتائج ؟

وأنت حين تبرهن على صحة النظرية المباشرة ، تقول : إن هذا يساوي هذا حسب

النظرية رقم تسعة مثلاً ، وإن هذا مقابل لهذا حسب النظرية الجديدة ، وإذا وصلت في براهينك إلى نظرية رقم واحد فهي النظرية التي لا مقدمات لها ، ولا بد أن تكون بديهية .

وهكذا نجد أن كل علم في هذا الكون بُني على نظريات أو مقدمات بديهية ، ثم تطورت بعد ذلك إلى اكتشاف ما أودعه الله في كونه من أسرار . أما الحق سبحانه وتعالى فهو يقول عن نفسه : ﴿ عَالِمِ الغيب والشهادة ﴾ أي أنه سبحانه عالم بالغيب المطلق ، الذي لا توجد له مقدمات توصلنا إليه ؛ ولذلك لا نستطيع أن نعرف الغيب المطلق ؛ لأنه ليس معروفاً عند البعض ، ومجهولاً عند غيرهم ، وليس له مقدمات توصلنا إليه ؛ لأنه الغيب الذي ينفرد به الحق عزّ وجلّ .

ونجد الحق سبحانه يقول : ﴿ عَالِمُ الغيب فَلاَ يُظْهِرُ على غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاَّ مَنِ ارتضى مِن رَّسُولٍ . . . ﴾ [الجن : 26-27]

فسبحانه عالم الغيب المطلق ، وهو يختلف عن الغيب المستور عن البعض ، ويقول الحق عن مواعيد الكشف عن أسرار الغيب المستور : ﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَآءَ . . . ﴾ [البقرة : 255]

وحين يشاء الله أن يكشف عن بعض أسرار الغيب فهو يحدد الوقت الذي يشاؤه لذلك ، وكل شيء في الكون له ميعاد ميلاد ؛ مثل : الكهرباء ، والذرة ، والوصول إلى القمر ، وغزو الفضاء ، وهذه كلها أشياء لها مواعيد ميلاد .

ويبحث العلماء عنها باستخدام المقدمات . ولكنهم لا يصلون إلى سر ميلاد أي اكتشاف إلا بإذن الله حين يلفتهم إلى هذا السرّ ؛ إما بالبحث العلمي ، وإما أن يتم معرفته صدفة . وهكذا نجد أن البشر يُحَاطون عِلْماً بهذه الأسرار بعد مقدمات وبإذن من الله .

وما دام الحق سبحانه هو عالم الغيب ؛ فيكون سبحانه عالماً بالشهادة من باب أولى ، وقد يظن ظان أنه جلس في مكان معزول مستور ويفعل ما يريد ، فلن يشهده الله ؛ لأنه قد يفعل ما يريد دون أن يراه أحد ، لكن ذلك غير حقيقي ؛ لأن الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ، فلا يوجد مستور عنه في هذا الكون ، فلا الغيب يغيب عن علمه ، ولا العالم المشهود يغيب عن علمه .

وما دام قد جاء الحق هنا بقوله : ﴿ عَالِمِ الغيب والشهادة ﴾ فلا بد أن يأتي من بعدها ﴿ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : يخبركم مقدماً بجزاء ما ستفعلونه من خير أو شر حتى لا يقول أحد : إنه لم يكن يعرف ، أو أنه لو علم أن فعله يؤدي إلى الشر لما فعل ؛ وحتى يكون كل إنسان شهيداً على نفسه ؛ لأن الله أبلغه بالجزاء ، فيكون الجزاء عدلاً لا ظلماً .

ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14]

فأنت الذي تحكم على نفسك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(197/346)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : " قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون "

وقال بعد هذا : "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة . . . "الآية فيها أربع سؤالات : الأول : قوله فى الأولى "وسيرى الله عملكم " بواو النسق ولم يرد فيها "والمؤمنون " وقال فيها "ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة " وقال فى الثانية "فسيرى الله " بفاء التعقيب وفيها "والمؤمنون " ولم يقل فى الأولى "والمؤمنون " وقال "وستردون " بالواو وفى الأولى "ثم تردون " .

فاختلفت الآيتان فى ثلاثة مواضع فيسأل عنها وهل كان يصح وقوع الأولى فى موضع الثانية ؟ والثانية فى موضع الأولى ؟ وكل منهما على ما بنى ؟ فهذه أربعة أسئلة .

والجواب عنها على الجملة أن الآية الأولى فى المنافقين لم يخالطهم سواهم والثانية فى طائفة من المؤمنين كان فيهم تقصير ولهم إيمان فأنسوا وقوى رجاؤهم قال الطبرى : "هى فيمن تاب من المخلفين " قلت ويشهد لهذا ما اتصل بالآية مما قبلها والواقع قبل الأولى من قوله : "قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم " أى لستم صادقين فى اعتذاركم ثم قال : "قد نبأنا الله من أخباركم " أى قد أطلعنا على نفاقكم وسوء سرائركم ثم قال : "وسيرى الله عملكم ورسوله " وهذا تهديد عطف على مثله وقصد تعريفهم بالمجموع مما استوجبوا به المقت ولم يعطف بالفاء إذ ليس ما تعطيه من المعنى مقصودا هنا ولم يقل هنا والمؤمنون إذ النفاق عمل يخفيه المنافق فلا يطلع عليه إلا الله سبحانه وقد يطلع عليه رسوله ومن شاء من عباده وإنما كانوا يتظاهرون بخلاف ما يبطنون ثم قال "ثم تردون " فعطف ردهم إلى الله بثم المعطية مع مهلة الزمان هنا تفاوتا فى التهديد والوعيد ولم تكن الواو لتعطى هذا المعنى وتحرزه وقد بينت المواضع الثلاثة التى خالفت فيها هذه الآية الآية التى بعدها .

وأما الثانية فهى فى المتخلفين عن غزوة تبوك قال الطبرى : "فيمن تاب منهم "كما تقدم وقد وقع قبلها قوله تعالى : " وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى

الله أن يتوب عليهم " ثم قال : "خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم " فأمره سبحانه بأخذ زكواتهم وأخبره أنها تطير لهم وتزكية وأمره أن يدعوا لهم بقوله : "وصل عليهم " ثم زادهم تأنيسا بقوله : "ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات " .

(199/346)

فإن قيل إنك قد عضدت هذا المأخذ فى هذه الآية لما اتصل بها من قوله : "خذ من أموالهم " وهذه الآية مطلقة يراد بها جميع من امر بالزكاة وهم المؤمنون ولم تختص بأهل تبوك ولا غيرهم قات إنما دليلى فى اتصال بالآية عقبها المتكلم فيها وفى اتصالها بها بل تحصل الشهادة ويعتضد المراد ويلتئم النظم لأن من كان مقصودا بالآية الثانية وهى قوله : "قل اعملوا " على ما تمهد من جملة المؤمنين المخاطبين بالزكاة فالمعنى ومقتضى النظم وجلالة التركيب وتناسب السياق تحصل الشهادة فنقول قال تعالى : "وقل اعملوا " والمراد بالدأب على أعمال البر ما سلف من تقصيرهم ونظير هذا ما وقع عقب قوله تعالى : " قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . . . "الآية ثم قال تعالى : "وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب " فليس قوله : "وقل اعملوا " وإن كان قد يبدو

منه تهديد كالواقع فى الآية قبل إنما هو فى الحقيقة أمر بالعمل المرجو محوه لما سلف من تقصير وتهذيد لمن لم يتب .

(200/346)

وقوله : "فسيرى الله عملكم " جواب للأمر من قوله : "اعملوا " فالفاء فاء جواب وكأن قد قيل تأنيسا لهم : اعملوا فلن يضيع عملكم ، وقيل هنا "والمؤمنون " لأن الاعمال الاسلامية يشاهدها المسلمون بعضهم من بعض كالصلاة والزكاة والحج وغير ذلك من الأعمال فيرى المسلمون ما تظوهر به من هذه الأعمال ويشهدون لما وراءها مما يرجع إلى قبيل الإيمان من الاعتقادات القلبية وما يرجع اليها قال عليه السلام : "إذا رأيتم الرجل يشهد المسجد فاشهدوا له بالايمان " وقال تعالى : "إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله . . . "الآية فلهذا قيل فى هذه الآية "والمؤمنون " ولم يقل ذلك فى أعملا المنافقين لأنها مما لا يتظاهرون بها للمؤمنين وهذا مما يعضد قول الطبرى : أن هذه الآية فى التائبين من المتخلفين " لأن أعمال المنافقين قل ما يتظاهرون بها للمؤمنين إنما يبدونها إخواهم قال تعالى : "وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم " .

(201/346)

وقال تعالى : "وإذا جاؤوك قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به " وقال تعالى : "يخفون فى أنفسهم ما لا يبدون لك " فإنما يشاهده المؤمنون ويرو ما يتظاهر به من الأعمال وفى هذا يشاركون نبيهم عليه السلام فى رويته فتلك أعمال المسلمين لا أعمال المنافقين فقوله : "فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون " على هذه الصفة من التشريك بينهم وبين نبيهم عليه السلام فى رؤيته إنما هى أعمال الطاعة فهى التى تشاهد ويشاهد التفوت فيها بين المحافظ والمقصر ألا ترى قوله تعالى فى الآية الأولى : "قد نبأنا الله من أخباركم " فإنما نبأهم سبحانه وتعالى بما لم يشاهدوه ولا رأوه من مضمرات المنافقين ولما كان وصول المؤمنين إلى تعرف ذلك باخبار الله تعالى من غير رؤية من المؤمنين لذلك ما قال تعالى : "وسيرى الله عملكم ورسوله " ولم يقل هنا "والمؤمنون " لأنهم لم يحصل لهم شئ من أخبار المنافقين إلا بإنباء الله تعالى لا بإدراك رؤيته .

أما الآية الثانية فقيل فيها "المؤمنون " لأن الواقع من هؤلاء – والله أعلم – أعمال مرئية كما قدمنا فشهد هذا السياق – والله أعلم – أن الآية الأولى فى المنافقين المستمرين على نفاقهم وان الثانية فى التائبين بعد على أعمال محمودة تشاهد وترى هذا حاصل قول الطبرى وان قلنا بما قال أبو محمد بن عطية ورغم أنه الظاهر من أن الماد بقوله "وقل اعملوا . . . "الآية المعتدون الذين لم يتوبوا المتوعدون المعنيون بقوله : "ألم يعلموا أن الله يعلم

سرهم ونجواهم " فيعارضنا اتصالها بما اتصلت به وأما على قول الطبرى فلا اشكال وهة أظهر ، والله أعلم بما أراد .

وقد استمر كلام من وقفنا على كلامه من المفسرين على عبور الموضع دون نزول للاعتبار وهو من المواضع التى يجب أن يتعرض لها وقد جرى فيها كلام الزمخشرى على مقتضى قول الطبرى من غير تعرض لذلك وهو ظاهر والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 236.233 ﴾

(202/346)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾

فيها وجهان :

أحدهما : أنها المتعدية إلى مفعولين أولهما " ن " والثاني : قوله " مِنْ أخباركم " . وعلى

هذا ففي "مِنْ" وجهان، أحدهما: أنها غيرُ زائدةٍ، والتقدير: قد نَبَّأنا اللَّهُ أخباراً مِنْ أخباركم، أو جملةً من أخباركم، فهو في الحقيقة صفةٌ للمفعول المحذوف. والثاني: أن "مِنْ" مزيدةٌ عند الأخفش لأنه لا يَشْترط فيها شيئاً. والتقدير: قد نبَّأنا الله أخباركم. الوجه الثاني من الوجهين الأوَّلَيْن: أنها متعديةٌ لثلاثة كأعلم، فالأولُ والثاني ما تقدَّم، والثالث محذوف اختصاراً للعلم به والتقدير: نَبَّأنا الله مِنْ أخباركم كَذِباً ونحوه. قال أبو البقاء: "قد تتعدَّى إلى ثلاثةٍ، والاثنان الآخران محذوفان، تقديره: أخباراً مِنْ أخباركم مُثْبَتَة، و"مِنْ أخباركم" تنبيه على المحذوف وليست "مِنْ" زائدة، إذ لو كانت زائدة لكانت مفعولاً ثانياً، والمفعول الثالث محذوفٌ، وهو خطأ لأن المفعول الثاني متى ذُكِر في هذا البابِ لَزِم ذِكْرُ الثالث. وقيل: "مِنْ" بمعنى عن". قلت: قوله: "إنَّ حذف الثالث خطأ" إنْ عنى حَذْفَ الاقتصارِ فمسلَّم، وإن عنى حَذْفَ الاختصار فممنوعٌ، وقد مَرَّ بك في هذه المسألة مذاهبُ الناس. انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 103. 104﴾

(203/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾

أراد إذا تَقَوَّلُوا بما هم فيه كاذبون ، وضللوا عما كانوا في تخلفهم به يتَّصِفون – فأَخْبِرُوهم أنَّا عَرَّفَنَا اللهُ كَذِبَكم فيما تقولون ، واتضحت لَنَا فضائحُكم ، وتَمَيَّزَ – بما أظهره الله لنا – سَيِّئُكُم وصالِحُكم ، فإِنَّ اللهَ تعالى لا يَخْفَى عليه شيءٌ مِنْ أحوالكم ، وسَتَلْقَوْنَ غِبَّ أعمالكم في آجلكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 56 ﴾

(204/346)

قوله تعالى ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

أي الذي لا أعظم منه ﴿ لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ أي جهد إيمانهم أنهم كانوا معذورين في

التخلف كذباً منهم إرادة أن يقلبوا قلوبكم عما اعتقدتم فيهم ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ أي إعراض الصفح عن معاتبتهم ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ إعراض المقت ؛ روي أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال " لا تجالسوهم ولا تكلموهم " ثم علل وجوب الإعراض بقوله ﴿ إنهم رجس ﴾ أي لا يطهرهم العتاب فهو عبث .

ولما كان من المقرر أنه لا بد لهم من جزاء ، وأن النفس تتشوف إلى معرفته ، قال :

﴿ ومأواهم ﴾ أي في الآخرة ﴿ جهنم جزاء ﴾ أي لأجل جزائهم ﴿ بما كانوا يكسبون ﴾ أي فلا تتكلفوا لهم جزاء غير ذلك بتوبيخ ولا غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 376 . 377 ﴾

(205/346)

فصل

قال الفخر :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حكى عنهم في الآية الأولى أنهم يعتذرون ، ذكر في هذه الآية أنهم كانوا يؤكدون تلك الأعذار بالأيمان الكاذبة .

أما قوله : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾

فاعلم أن هذا الكلام يدل على أنهم حلفوا بالله ، ولم يدل على أنهم على أي شيء حلفوا ؟

فقيل : إنهم حلفوا على أنهم ما قدروا على الخروج ، وإنما حلفوا على ذلك لتعرضوا عنهم أي لتصفحوا عنهم ، ولتعرضوا عن ذمهم .

ثم قال تعالى : ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد ترك الكلام والسلام .

قال مقاتل : قال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : " لا تجالسوهم ولا تكلموهم " قال أهل المعاني : هؤلاء طلبوا إعراض الصفح ، فأعطوا إعراض المقت ، ثم ذكر العلة في وجوب الإعراض عنهم ، فقال : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ والمعنى : أن خبث باطنهم رجس روحاني ، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية ، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى ، خوفاً من سريانها إلى الإنسان ، وحذراً من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ ومعناه ظاهر . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 130 . 131 ﴾

(207/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ سيحلفون بالله لكم ﴾

قال مقاتل : حلف منهم بضعة وثمانون رجلاً ، منهم جَدّ بن قيس ، ومُعتِّب بن قشير .

قوله تعالى : ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : لتصفحوا عن ذنبهم .

والثاني : لأجل إعراضكم وقد شرحنا في [المائدة : 90] معنى الرجس . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ ﴾

أي من تبوك .

والمحلوف عليه محذوف ؛ أي يحلفون أنهم ما قدروا على الخروج .

﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ أي لتصفحوا عن لومهم .

وقال ابن عباس ؛ أي لا تكلموهم .

وفي الخبر أنه قال عليه السَّلام لما قدِم من تبوك : " ولا تجالسوهم ولا تكلموهم " ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي عملهم رجس ؛ والتقدير : إنهم ذوو رجس ؛ أي عملهم قبيح .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ أي منزلهم ومكانهم .

قال الجوهري : المأوى كل مكان يأوِي إليه شيء ليلاً أو نهاراً .

وقد أوى فلان إلى منزله يأوِي أوِيّاً ، على فعول ، وإواء .

ومنه قوله تعالى : ﴿ سآوِي إلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ المآء ﴾ [هود : 43] .

وآويته أنا إيواء .

وأويته إذا أنزلته بك ؛ فعلت وأفعلت ، بمعنى ؛ عن أبي زيد .

ومأوِي الإبل (بكسر الواو) لغة في مأوى الإبل خاصة ، وهو شاذ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(208/346)

وقال أبو حيان :

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فاعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ لما ذكر أنهم يصدر منهم الاعتذار أخبر أنهم سيؤكدون ذلك الاعتذار الكاذب بالحلف ، وأنّ سبب الحلف هو طلبتهم أنْ يعرضوا عنهم فلا يلوموهم ولا يوبخوهم ، فاعرضوا عنهم أي : فأجيبوهم إلى طلبتهم .

وعلل الإعراض عنهم بأنهم رجس ، أي مستقذرون بما انطووا عليه من النفاق ، فتجب مباعدتهم واجتنابهم كما قال : ﴿ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ﴾ فمن كان رجساً لا تنفع فيه المعاتبة ، ولا يمكن تطهير الرجس .

ويحتمل أن يكون سبب الحلف مخافتهم أنْ يعرضوا عنهم فلا يقبلوا عليهم ولا يوادوهم ، فأمر تعالى بالإعراض عنهم وعدم توليهم ، وبيَّن العلة في ذلك برجسيتهم ، وبأنّ مآل أمرهم إلى النار .

قال ابن عباس : فاعرضوا عنهم لا تكلموهم .

وفي الخبر أنه عليه السلام لما قدم من تبوك قال : " لا تجالسوهم ولا تكلموهم "

قيل : إنّ هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك ، وكان قد اعتذر بعض المنافقين واستأذنوه في القعود قبل مسيره ، فأذن فخرجوا وقال أحدهم : ما هو إلا شحمة لأول آكل ، " فلما خرج الرسول نزل فيهم القرآن ، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في

مجلس منهم : نزل فيكم قرآن فقالوا له : وما ذلك ؟ قال : لا أحفظ ، إلا إني سمعت وصفكم فيه بالرجس ، فقال لهم مخشي : لوددت أنْ أجلد مائة ولا أكون معكم ، فخرج حتى لحق بالرسول (صلى الله عليه وسلم) فقال له : "ما جاء بك" ؟ فقال له : وجه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تسفعه الريح ، وأنا في الكن " فروي أنه ممن تاب .

قال ابن عطية : فاعرضوا عنهم أمر بانتهارهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق ، وهذا مع إجمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله ، بل كان لكل واحد منهم ميدان المقالة مبسوطاً .

وقوله : رجس أي نتن وقذر .

وناهيك بهذا الوصف محطة دنيوية ، ثم عطف لمحطة الآخرة .

ومن حديث كعب بن مالك : أنهم جاءوا يعتذرون ويحلفون لما قدم المدينة ، وكانوا بضعة وثمانين ، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله . انتهى انتهى .

اهـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(209/346)

وقال أبو السعود :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ ﴾

تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبةِ وتقريراً لها ، والسين للتأكيد ، والمحلوفُ عليه محذوفٌ يدل عليه الكلامُ وهو ما اعتذروا به من الأكاذيب ، والجملةُ بدلٌ من يعتذرون أو بيانٌ له ﴿ إِذَا انقلبتم ﴾ أي انصرفتم من الغزو ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ ومعنى الانقلابِ هو الرجوعُ والانصرافُ مع زيادة معنى الوصولِ والاستيلاء ، وفائدةُ تقييدِ حَلِفِهم به الإيذانُ بأنه ليس لدفع ما خاطبهم النبي عليه السلام به من قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾ الخ ، بل هو أمرٌ متبدأ ﴿ لِتُعْرِضُواْ ﴾ وتصفحوا ﴿ عَنْهُمْ ﴾ صفحَ رضا فلا توبّخوهم ولا تعاتبوهم كما يُفصح عنه قوله تعالى : ﴿ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ لكن لا إعراضَ رضا كما هو طِلْبتُهم بل إعراضَ اجتنابٍ ومقتٍ كما يعرب عنه قوله عز وجل : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ فإنه صريحٌ في أن المرادَ بالإعراض عنهم إما الاجتنابُ عنهم لما فيهم من الرجس الروحاني ، وإما تركُ استصلاحِهم بترك المعاتبةِ لأن المقصودَ بها التطهيرُ بالحمل على الإنابة ، وهؤلاء أرجاسٌ لا تقبل التطهير ، فلا يُتعرّضُ لهم بها وقوله عز وعلا : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ إما من تمام التعليلِ فإن كونَهم من أهل النارِ من دواعي الاجتناب عنهم وموجباتِ تركِ استصلاحِهم باللوم والعتاب ، وإما تعليلٌ مستقلٌ أي وكفتْهم النارُ عتاباً وتوبيخاً فلا تتكلفوا أنتم في ذلك ﴿ جَزَاء ﴾ نُصب على أنه مصدرٌ مأكدٌ لفعل مقدر من لفظه وقع حالاً أي

يُجزَون جزاءً أو لمضمون الجملةِ السابقة فإنها مفيدةٌ لمعنى المجازاةِ قطعاً كأنه قيل : مجزّيون جزاءً ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ في الدنيا من فنون السيئاتِ أو على أنه مفعولٌ له . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(210/346)

وقال الآلوسى :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ ﴾

تأكيداً لمعاذيرهم الكاذبة وترويجاً لها .

والسين للتأكيد على ما مر ، والمحلوف عليه ما يفهم من الكلام وهو ما اعتذروا به الأكاذيب ، والجملة بدل من ﴿ يعتذرون ﴾ [التوبة : 94] أو بيان لهه ﴿ إِذَا انقلبتم ﴾ من سفركم ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ والانقلاب هو الرجوع والانصراف مع زيادة معنى الوصول والاستيلاء ، وفائدة تقييد حلفهم كما قال بعض المحققين به الإيذان بأنه ليس لرفع ما خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم به من قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْتَذِرُواْ ﴾ [التوبة : 94] الخ بل هو أمر مبتدأ ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ فلا تعاتبوهم وتصفحوا عما فرط منهم صفح رضا كما يفصح عنه قوله تعالى : ﴿ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : 96] ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ لكن

لا اعراض رضا كما طلبوا بل إعراض اجتناب ومقت كما ينبىء عنه التعليل بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ فانه صريح في أن المراد بالاعراض إما الاجتناب عنهم لما يفهم من القذارة الروحانية وإما ترك استصلاحهم بترك المعاملة المقصود منها التطهير بالحمل على التوبة وهؤلاء أرجاس لا تقبل التطهير ، وقيل : إن ﴿ لِتُعْرِضُواْ ﴾ بتقدير للحذر عن أن تعرضوا على أن الإعراض فيه أعراض مقت أيضاً ولا يخفى أنه تكلف لا يحتاج إليه ، وقوله تعالى : ﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ﴾ إما من تمام التعليل فإن كونهم من أهل النار من دواعي الاجتناب عنهم وموجبات ترك استصلاحهم باللوم والعتاب وإما تعليل مستقل أي وكفتهم النار عتاباً على حد عتابه السيف ووعظه الصفع فلا تتكلفوا أنتم بذلك ﴿ جَزَاء ﴾ نصب على أنه مفعول مطلق مؤكد لفعل مقدر من لفظه وقع حالا أي يجزون جزاء أو لمضمون ما قبله فإنه مفيد لمعنى المجازاة كأنه قيل : مجزيون جزاء ﴿ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ أي بما يكسبونه على سبيل الاستمرار من فنون السيآت في الدنيا أو بكسبهم المستمر لذلك .

وجوز أن يكون مفعولاً له وحالاً من الخبر عند من يرى ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(211/346)

وقال القاسمى :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾

أي : فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم .

﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ أي : فأعطوهم طلبتهم ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ تعليل لترك معاتبتهم ، يعني أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، وإنما يعاتب الأديمُ ذو البشَرة ، والمؤمن يوبَّخ على زلة تفرط منه ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والإستغفار ، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم – أفاده الزمخشري – .

وقال الشهاب : يعني أنهم يتركون ، ويجتنب عنهم كما تجتنب النجاسة ، وهم طلبوا إعراض الصفح ، فأعطوا إعراض مقت .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل ، فالعلة نجاسة جبلّتهم التي لا يمكن تطهيرها ، لكونهم من أهل النار ، فاللوم يغريهم ولا يجديهم ، والكلب أنجس ما يكون إذا اغتسل ، أو تعليل ثان يعني وكَفَتْهُمُ النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تكلفوا عتابهم .

وقوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ يجوز أن يكون مصدراً وأن يكون علة . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 496 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾

الجملة مستأنفة ابتدائية تعداد لأحوالهم .

ومعناها ناشىء عن مضمون جملة ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ [التوبة : 94] تنبيهاً على أنهم لا يرعَوُون عن الكذب ومخادعة المسلمين ، فإذا قيل لهم ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ [التوبة : 94] حلفوا على أنهم صادقون ترويجاً لخداعهم : وهذا إخبار بما سيلاقِي به المنافقون المسلمين قبل وقوعه وبعد رجوع المسلمين من الغزو .

و ﴿ إذا ﴾ هنا ظرف للزمن الماضي .

وحذف المحلوف عليه لظهوره ، ولتقدم نظيره في قوله : ﴿ وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ [التوبة : 42] إلا أن ما تقدم في حلفهم قبل الخروج .

والانقلاب : الرجوع ، وتقدم في قوله ﴿ انقلبتم على أعقابكم ﴾ في آل عمران (144) .

وصرح بعلة الحلف هنا أنه لقصد إعراض المسلمين عنهم ، أي عن عتابهم وتقريعهم ، للإشارة إلى أنهم لا يقصدون تطييب خواطر المسلمين ولكن أرادوا التملّص من مسبة

العتاب ولَذْعِه .

ولذلك قال في الآيتين الأخريين ﴿ يحلفون بالله لكم ليرضوكم ﴾ [التوبة : 62] ﴿ يحلفون لكم لترضَوا عنهم ﴾ [التوبة : 96] لأنّ ذلك كان قبل الخروج إلى الغزو فلما فات الأمر وعلموا أن حلفهم لم يصدقه المسلمون صاروا يحلفون لقصد أن يُعرض المسلمون عنهم .

وأدخل حرف (عن) على ضمير المنافقين بتقدير مضاف يدل عليه السياق لظهور أنهم يريدون الإعراض عن لومهم .

ففي حذف المضاف تهيئة لتفريع التقريع الواقع بعده بقوله : ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ ، أي فإذا كانوا يرومون الإعراض عنهم فأعرضوا عنهم تماماً .

(213/346)

وهذا ضرب من التقريع فيه إطماع للمغضوب عليه الطالب بأنّه أجيبت طِلبته حتى إذا تأمّل وجد ما طمع فيه قد انقلب عكس المطلوب فصار يأساً لأنهم أرادوا الإعراض عن المعاتبة بالإمساك عنها واستدامة معاملتهم معاملةَ المسلمين ، فإذا بهم يواجهون بالإعراض عن مكالمتهم ومخالطتهم وذلك أشد مما حلفوا للتفادي عنه .

فهم من تأكيد الشيء بما يشبه ضدّه أو من القول بالموجَب .

وجملة : ﴿ إنهم رجس ﴾ تعليل للأمر بالإعراض .

ووقوع (إنّ) في أولها مؤذن بمعنى التعليل .

والرجس : الخبث .

والمراد تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس .

فهو رجس معنوي .

كقوله : ﴿ إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ﴾ [المائدة : 90] .

والمأوى : المصير والمرجع .

و ﴿ جزاء ﴾ حال من ﴿ جهنم ﴾ ، أي مجازاة لهم على ما كانوا يعملون . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(214/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾

وكلمة ﴿ سَيَحْلِفُونَ ﴾ فيها سرّ إعجازي من الله ؛ لأن حرف " السين " هنا تدلنا على أنهم لم يحلفوا بعد ، أي أن الآية نزلت وقُرئت وسمعها المؤمنون والمنافقون قبل أن يحلف المنافقون ، وآيات القرآن تُتْلى وتُقرأ في الصلاة ، ولا تتغير ولا تتبدل إلى يوم القيامة .

ولو كان للمنافقين قدرة على التدبر لما جاءوا وحلفوا . ولقالوا : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في قرآن يوحي إليه : إننا سنأتي ونحلف ، ونحن لن نأتي ولن نحلف ؛ ولكن لأن الله هو القائل وهو الخالق وهو الفاعل ، فقد شاء أن تغيب الفطنة عن أذهانهم ، مثلما قال سبحانه من قبل : ﴿ سَيَقُولُ السفهآءُ مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ . . . ﴾ [البقرة : 142]

وهم قد قالوا ذلك بعد نزول الآية .

والحق سبحانه وتعالى يقول هنا : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ ﴾ والانقلاب معناه التحول من حال إلى حال . ومعنى الانقلاب في هذه الآية مقصود به العودة إلى المدينة مقر السلام والأمن بعد الحرب ، فكأن الاعتدال في القتال والانقلاب في العودة إلى المدينة .

ولكن لماذا سيحلف المنافقون بالله للمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه : ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ أي : لتعرضوا عن توبيخهم ولومهم وتعنيفهم ؛ لأنهم لم يجاهدوا معكم .

فقال الحق : ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ أي أعطوهم مطلوبهم من الإعراض ولكنه لون آخر من الإعراض ، فلا تولموهم ولا توبخوهم ولا تؤثموهم ، بل أعرضوا عنهم إعراض احتقار وإهانة ، لا إعراض صفح ومغفرة ؛ جزاءً لهم على ما فعلوا ؛ لأن التأنيب والتوبيخ هما من ألوان الجزاء على المخالفة ، ولكنه قد يحمل الأمل في المخالف ليعود إلى الصواب . فأنت إن لم يذهب ابنك إلى المدرسة مثلاً تُوبِّخه وتُعنِّفه ، وأنت تفعل ذلك لأنك تأمل في أن ينصلح حاله ، ولكن إذا استمر على مثل هذه الحال فأنت تهمله ، والإهمال دليل على أنك فقدت الأمل في إصلاحه .

كذلك كان الأمر بالنسبة للمنافقين ، لو أن التوبيخ والإهانة كانت ستجعلهم يفيقون ويعودون إلى حظيرة الإيمان ، فهذا دليل على أن هناك أملاً في الإصلاح ، وهم لن ينصلح حالهم ، وهم في ذلك يختلفون عن المؤمنين ، فالمؤمن إن ارتكب إثماً فهو يستحق العتاب والتوبيخ من إخوته في الإيمان ، وفي هذا إيلام له . والمؤمن عرضة أن تصيبه غفلة فيرتكب إثماً ، فإذا حدث بعد هذا الألم إيلام له من نفسه ، أو بواسطة إخوانه المؤمنين ، فهو يفيق ويشعر بالذنب ، وشعوره بالذنب وصول إلى التوبة .

أما هؤلاء المنافقون فلا ينفع معهم التوبيخ أو الإيلام النفسي ؛ لأنهم لن يعودوا أبداً إلى حظيرة الإيمان ، ولذلك جاء الأمر : فأعرضوا عنهم ؛ لأنهم لا يستحقون – حتى – اللوم ، فالتوبيخ

جزاء على ذنب قد يُقلع عنه من ارتكبه . ولكن هؤلاء لا أمل فيهم ، والعلة يأتي بها القرآن : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ والرجس يطلق على معان متعددة ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ أي : هم الخباثة بذاتها ، ويقول العلماء : أي أن فيهم خبثاً وقذارة .

(216/346)

وأقول : إن الرجس هو القذارة نفسها ، فلا نقول : إنهم قذرون ؛ لأننا إن قلنا ذلك فالمعنى يفيد أنهم طُهْرٌ أصابهم قذر ، وهم ليسوا كذلك ، إنهم " قذر " في حد ذواتهم ، ولا يطهرهم شيء ؛ لأن الذي يخرج من القذارة يكون مثلها ؛ فهم خباثة لا يطهرها لَوْم أو توبيخ . وأطلق الرجس هنا مثلما قال الحق : ﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ . . . ﴾ [التوبة : 28]

ولم يقل : " نجسون " بل هم أنفسهم نجس .

والرجس يطلق أيضاً على الشيء القذر حسيّاً ؛ مثل الميتة ، والحق سبحانه يقول : ﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً على طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ . . . ﴾ [الأنعام : 145]

إذن : فالميتة قذارة حسّية ، كذلك الخمر التي يقول فيها الحق : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان . . . ﴾ [المائدة : 90]

فالخمر نفسها رجس ، أي : قذارة حسّية ، وعطف عليها الحق – سبحانه – الميسر والأنصاب ، والأزلام ؛ وأخذوا حكم الخمر ، وهكذا نفهم أن الخمر رجس حسّي ، بينما الأنصاب والأزلام والميسر رجس معنوي .

وهناك أيضا الرجز ، ويطلق على وسوسة الشيطان ، فالحق يقول : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان . . . ﴾ [الأنفال : 11]

إذن : فالرجس له متعلقات ؛ معناه الكفر ، والكافر هو قذارة في حَدّ ذاته لا أنه إنسان أصابته قذارة .

(217/346)

ويقول الحق : ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾

والمأوى : هو المكان الذي يؤويك من شر يلحقك ، ويقال : " آوى إلى كذا " أي : هرب من شر يُراد به ، فإذا كان المأوى الذي يفزعون إليه هو جهنم ، فمعنى ذلك أنهم بحثوا عن منفذ

فلم يجدوا منفذاً إلا أن يدخلوا جهنم ، وهي بطبيعة الحال بئس المصير .

وهل ذلك افتئات عليهم أم جزاء ؟ يقول الحق : ﴿ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ ونعرف أن الحسنة يقال عنها : "كسب" ، والسيئة يقال عنها "اكتسب" ، والحق هو القائل : ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكتسبت . . . ﴾ [البقرة : 286]

وذلك لأن عمل الحرام المخالف لمنهج الله لا بد أن يشوبه الافتعال ، أما عمل الحلال فهو أمر فطري لا يكلف النفس مشقة ، ولا تتنازع فيه مَلَكَات ، لكن بعض الناس الذين يعملون السيئات يألفونها إلْفاً بحيث تصبح سهلة ؛ فلا تكلفهم شيئاً ، ويعتبر الواحد منهم السيئة كسباً ، كأن تأتي لإنسان ، فيحدثك بمغامراته في الخارج ، ويروي عن رحلاته في باريس ولندن ، وما فعل فيهما من منكرات . هو يظن أنه يحكي عن مكاسب ، ولا يعلم أنه يحكي عن مصائب وقع فيها باختياره .

مثل هذا الإنسان يفعل السيئة ، وهو معتاد عليها ؛ فتصير كَسْباً . وهو عكس إنسان آخر وقعت عليه المعصية ؛ فيظل يبكي ويبكي ويبكي ، ويندم ، وقد يضرب نفسه كلما تذكر المعصية ، ويبدم عليها . فالأول فرح بخطاياه ومعاصيه واعتبرها كسباً وصارت له دُرْبة وله رياضة وله إلْفٌ بتلك المعاصي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(218/346)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ إنما السبيل على الذين يستأذنونك ﴾ قال : هي وما بعدها إلى قوله ﴿ إن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ في المنافقين .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالاً وفي قوله ﴿ فأعرضوا عنهم إنهم رجس ﴾ قال : لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم قال " لا تكلموهم ولا تجالسوهم ، فأعرضوا عنهم كما أمر الله " .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ لتتجاوزوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(219/346)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) ﴾

قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً ﴾ : يجوز أن ينتصبَ على المصدر بفعل مِنْ لفظه مقدرٍ ، أي : يُجْزَوْنَ جزاء ، وأن ينتصب بمضمونِ الجملة السابقة لأنّ كونَهم يَأْوُوْن في جهنم في معنى المجازاة . ويجوز أن يكون مفعولاً من أجله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 104 ﴾

(220/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95) ﴾

يريد أنهم في حَلِفِهم بالله لكم أن يدفع السوءَ مِنْ قِبَلِكم ، وليس قصْدهم بذلك خلوصاً في اعتذارهم ، ولا ندامةً على ما احتقبوه من أوزارهم ، إنما ذلك لتُعْرِضُوا عنهم . . .

فأَعْرِضوا عنهم ؛ فإنَّ ذلك ليس بمُنْجيهم مما سيلقونه غداً من عقوبة الله لهم ، فإنَّ اللهَ يُمْهِلُ العاصيَ حتى يتوهَّمَ أنه قد تَجاوَزَ عنه ، وما ذلك إلا مَكْرٌ عُومِل به ، فإذا أذاقه ما يستوجِبُه عَلِمَ أن الأمرَ بخلاف ما ظنّه ، وما ينفع ظاهرٌ مغبوطٌ ، والحال – في الحقيقة – يأسٌ من الرحمة وقنوطٌ ، وفي معناه قالوا :

وقد حسدوني في قُرْبِ داري مِنْهُمُ . . . وكم مِن قريبِ الدارِ وهو بعيدُ ! . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 56 ﴾

(221/346)

قوله تعالى ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) ﴾

" فصل "

قال البقاعى :

المرتبة الثالثة الحلف للرضى عنهم فقال : ﴿ يحلفون لكم ﴾ أي مجتهدين في الحلف بمن تقدم أنهم يحلفون به وهو الله ﴿ لترضوا عنهم ﴾ خوفاً من غائلة غضبكم ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ أي لمجرد أيمانهم المبني على عدم إيمانهم ﴿ فإن الله ﴾ أي الذي له الغنى المطلق ﴿ لا يرضى ﴾ عنهم ، هكذا كان الأصل ولكنه قال : ﴿ عن القوم الفاسقين ﴾ إشارة إلى تعليق الحكم بالوصف وتعميماً لكل من اتصف بذلك ، والمعنى أنه لا ينفعهم رضاكم وتكونون به مخالفين الله ، فهو في الحقيقة نهي للمؤمنين عن الرضى عنهم ، أبرز في هذا الأسلوب العجيب المرقص ، وفي ذلك رد على من يتوهم أن رضى المؤمنين لو رضوا عنهم يقتضي رضى الله ، فإن ذلك رد نزعة مما يفعل الأحبار والرهبان في رضاهم وغضبهم وتحليلهم وتحريمهم الذي يعتقد أتباعهم أنه عن الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 377 ﴾

(222/346)

فصل

قال الفخر :

ولما بين في الآية أنهم يحلفون بالله ليعرض المسلمون عن إيذائهم ، بين أيضاً أنهم يحلفون ليرضى المسلمون عنهم ، ثم إنه تعالى نهى المسلمين عن أن يرضوا عنهم ، فقال : ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يَرضَى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ والمعنى : أنكم إن رضيتم عنهم مع أن الله لا يرضى عنهم ، كانت إرادتكم مخالفة لإرادة الله ، وأن ذلك لا يجوز .

وأقول : إن هذه المعاني مذكورة في الآيات السالفة ، وقد أعادها الله ههنا مرة أخرى ، وأظن أن الأول خطاب مع المنافقين الذين كانوا في المدينة ، وهذا خطاب مع المنافقين من الأعراب وأصحاب البوادي ، ولما كانت طرق المنافقين متقاربة سواء كانوا من أهل الحضر أو من أهل البادية ، لا جرم كان الكلام معهم على مناهج متقاربة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 130 . 131 ﴾

(223/346)

وقال ابن عطية فى الآيتين :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾

قيل إن هذه الآية من أول ما نزل في شأن المنافقين في غزوة تبوك وذلك أن بعض المنافقين اعتذروا إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، واستأذنوه في القعود قبل مسيره فأذن لهم

فخرجوا من عنده وقال أحدهم والله ما هو إلا شحمة لأول آكل ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نزل فيهم القرآن ، فانصرف رجل من القوم فقال للمنافقين في مجلس منهم : والله لقد نزل على محمد صلى الله عليه وسلم فيكم قرآن ، فقالوا له وما ذلك ؟ فقال لا أحفظ إلا أني سمعت وصفكم فيه بالرجس ، فقال لهم مخشي والله لوددت أن أجلد مائة جلدة ولا أكون معكم ، فخرج حتى لحق برسول الله صلى اله عليه وسلم ، فقال له ما جاء بك ؟ فقال : وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم تسفعه الريح وأنا في الكنّ ، فروي أنه ممن تاب وقوله : ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ أمرنا بانتهارهم وعقوبتهم بالإعراض والوصم بالنفاق .

(224/346)

وهذا مع إجمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله ، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً ، وقوله ﴿ رجس ﴾ أي نتن وقذر ، وناهيك بهذا الوصف محطة دنياوية ، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ أي مسكنهم ، ثم جعل ذلك جزاء بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه ، وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه

وسلم من تبوك جلس للناس فجاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى وقوله ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ ، هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول ، والمعنى يحلفون لكم مبطلين ومقصدهم أن ترضوا لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر ، ولقوله ﴿ فإن ترضوا ﴾ إلى آخر الآية ، شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم ، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها ، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(225/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يحلفون لكم لتَرْضَوْا عنهم ﴾

قال مقاتل : حلف عبد الله بن أُبيّ للنبي صلى الله عليه وسلم : لا أتخلف عنك ، ولأكونَنَّ معك على عدوِّك ، وطلب منه أن يرضى عنه ، وحلف عبد الله بن سعد بن أبي سرح لعمر بن الخطاب ، وجعلوا يترضَّون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكان رسول

الله صلى الله عليه وسلم قال لما قدم المدينة : " لا تجالسوهم ولا تكلِّموهم " . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(226/346)

وقال الخازن فى الآيتين :

قوله : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾

يعني إذا رجعتم من سفركم إليهم يعني إلى المتخلفين بالمدينة من المنافقين ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ يعني لتصفحوا عنهم ولا توبخوهم ولا توبخوهم بسبب تخلفهم ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ يعني فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق .

وقيل : يريد ترك الكلام يعني لا تكلموهم ولا تجالسوهم فلما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة قال لا تجالسوهم ولا تكلموهم قال أهل المعاني إن هؤلاء المنافقين طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت ثم ذكر العلة في سبب الإعراض عنهم فقال تعالى : ﴿ إنهم رجس ﴾ يعني أن بواطنهم خبيثة نجسة وأعمالهم قبيحة ﴿ ومأواهم ﴾ يعني مسكنهم في الآخرة ﴿ جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ يعني من الأعمال الخبيثة في الدنيا .

قال ابن عباس : نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما وكانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبي : (صلى الله عليه وسلم) " لا تجالسوهم ولا تكلموهم " وقال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي (صلى الله عليه وسلم) الذي لا إله إلا هو أنه لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبي (صلى الله عليه وسلم) أن يرضى عنه فأنزل الله هذه الآية والتي بعدها ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ يعني : يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ يعني فإن رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا لكم وقبلتم عذرهم ﴿ فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(227/346)

وقال أبو حيان :

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾

قال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أبي حلف بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها ، وحلف بن أبي سرح لنكونن معه على عدوه ، وطلب من الرسول أن يرضى عنه ، فنزلت ،

وهنا حذف المحلوف به ، وفي قوله : ﴿ سيحلفون بالله ﴾ أثبت كقوله : ﴿ إذ أقسموا ليصرمنها ﴾ وقوله : ﴿ وأقسموا بالله ﴾ فلا فرق بين حذفه وإثباته في انعقاد ذلك يميناً .

وغرضهم في الحلف رضا الرسول والمؤمنين عنهم لنفعهم في دنياهم ، لا أنّ مقصدهم وجه الله تعالى .

والمراد : هي أيمان كاذبة ، وأعذار مختلفة لا حقيقة لها .

وفي الآية قبلها لما ذكر حلفهم لأجل الإعراض ، جاء الأمر بالإعراض نصاً ، لأنّ الإعراض من الأمور التي تظهر للناس ، وهنا ذكر الحلف لأجل الرضا فأبرز النهي عن الرضا في صورة شرطية ، لأن الرضا من الأمور القلبية التي تخفى ، وخرج مخرج المتردّد فيه ، وجعل جوابه انتفاء رضا الله عنهم ، فصار رضا المؤمنين عنهم أبعد شيء في الوقوع ، لأنه معلوم منهم أنهم لا يرضون عمن لا يرضى الله عنهم .

ونص على الوصف الموجب لانتفاء الرضا وهو الفسق ، وجاء اللفظ عامًّا ، فيحتمل أن يراد به الخصوص كأنه قيل : فإنّ الله لا يرضى عنهم ، ويحتمل بقاؤه على العموم فيندرجون فيه ويكونون أولى بالدخول ، إذ العام إذا نزل على سبب مخصوص لا يمكن إخراج ذلك السبب من العموم بتخصيص ولا غيره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾

بدلٌ مما سبق ، وعدمُ ذكر المحلوفِ به لظهوره أي يحلِفون به لظهوره أي يحلفون به تعالى ﴿ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم .

﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ حسبما راموا وساعدتموهم في ذلك ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ أي فإن رضاكم عنهم لا يُجديهم نفعاً لأن الله ساخطٌ عليهم ولا أثرَ لرضاكم عند سخطِه سبحانه ، ووضعُ الفاسقين موضعَ ضميرِهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجبِ لما حل بهم من السُخط وللإيذان بشمول الحُكمِ لمن شاركهم في ذلك والمرادُ به نهيُ المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترارِ بمعاذيرهم الكاذبةِ على أبلغ وجهٍ وآكدِه فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدرُ عن المؤمن ، وقيل ذلك لئلا يَتوهمَ متوهمٌ أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى . قيل : هم جدُّ بنُ قيس ومعتبُ بنُ قشير وأصحابُهما وكانوا ثمانين منافقاً فقال النبي صلى الله عليه وسلم للمؤمنين حين قدم المدينةَ : " لا تجالسوهم ولا تكلموهم " ، وقيل : جاء عبد اللَّه بن أبي يحلف أن لا يتخلفُ عنه أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾

بدل مما سبق ، والمحلوف عليه محذوف لظهوره كما تقدم أي يحلفون به تعالى على ما اعتذروا ﴿ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ بحلفهم وتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ حسبما طلبوا ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ أي فرضاكم لا ينتج لهم نفعا لأن الله تعالى ساخط عليهم ولا أثر لرضا أحد من سخطه تعالى ، وجوز بعضهم كون الرضا كناية عن التلبيس أي أن أمكنهم أن يلبسوا عليكم بالأيمان الكاذبة حتى يرضوكم لا يمكنهم أن يلبسوا على الله تعالى بذلك حتى يرضى عنهم فلا يهتك أستارهم ولا يهينهم وهو خلاف الظاهر ، ووضع الفاسقين موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجبة لما حل بهم ، والمراد من الآية نهى المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجه وآكده فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى مما لا يكاد يصدر عن المؤمن ، والآية نزلت على ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في جد بن قيس .

ومعتب بن قشير .

وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين لما رجعوا إلى المدينة أن لا يجالسوهم ولا يكلموهم فامتثلوا ، وعن مقاتل أنها نزلت في عبد الله بن أبي حلف للنبي صلى الله عليه وسلم أن لا يتخلف عنه أبداً وطلب أن يرضى فلم يفعل صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(230/346)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ .

هَذِهِ الْآيَاتُ بَيَانٌ لِمَا سَيَكُونُ مِنْ أَمْرِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا فِي الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ دَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِمْ ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ) : يَعْتَذِرُ إِلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ أَصِحَّاءُ لَا عُذْرَ لَهُمْ (إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ) مِنْ سَفَرِكُمْ هَذَا عَنْ جَمِيعِ سَيِّئَاتِهِمْ (قُلْ) أَيُّهَا الرَّسُولُ لَهُمْ حِينَئِذٍ (لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ) لَنْ نُصَدِّقَكُمْ

تَصْدِيقَ جُنُوحٍ وَائْتِمَانٍ لَكُمْ بِتَلَبُّسِكُمْ بِالْإِسْلَامِ تَحْسِينًا لِلظَّنِّ ، وَلَا عَمَلًا بِالظَّوَاهِرِ ، وَلِمَاذَا ؟ (قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ) بِوَحْيِهِ إلَى رَسُولِهِ

(231/346)

الْمُهِمَّ (مِنْ أَخْبَارِكُمْ) الَّتِي تُسِرُّونَهَا فِي ضَمَائِرِكُمْ ، وَهِيَ مُخَالِفَةٌ لِظَوَاهِرِكُمُ الَّتِي تَعْتَذِرُونَ بِهَا ، وَنَبَأُ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ الْيَقِينُ ، وَمَنْ عَرَفَ الْحَقَّ لَا يَقْبَلُ الْبَاطِلَ ، وَلَا يُصَدِّقُ الْكَاذِبَ ، وَلَمْ يَقُلْ (نَبَّأَنِي) وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُنَبَّأُ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ أَنَّهُ أَمَرَهُ أَنْ يُنْبِئَ بِذَلِكَ أَصْحَابَهُ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّبَأُ خَاصًّا بِهِ ، وَاعْتِذَارُهُمْ لِلْجَمِيعِ يَقْتَضِي أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْجَمِيعَ عَالِمُونَ بِمَا فَضَحَهُمُ اللَّهُ بِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْمُبَلِّغُ لَهُمْ هُوَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا لَهُ مِنَ الرِّيَاسَةِ ، وَمَا لِخَبَرِهِ مِنَ الثِّقَةِ الَّتِي لَا يَشُكُّ فِيهَا أَحَدٌ ، وَالتَّأْثِيرِ الَّذِي يُحْسَبُ لَهُ كُلُّ حِسَابٍ . فَهُوَ مِنْ قَبِيلِ التَّبْلِيغَاتِ الرَّسْمِيَّةِ الْعُلْيَا الصَّادِرَةِ عَنِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، دَعْ كَوْنَهُ أَسْمَى وَأَعْلَى لِأَنَّهُ نَبَأُ الرَّسُولِ الْمَعْصُومِ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) بَعْدَ الْآنَ . وَهُوَ الَّذِي يَدُلُّ : إمَّا عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى النِّفَاقِ ، وَإِمَّا عَلَى التَّوْبَةِ وَالْإِذْعَانِ فِي الْإِيمَانِ ، الَّذِي تَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْأَعْمَالُ . وَأَمَّا أَقْوَالُكُمْ فَلَا قِيمَةَ لَهَا وَإِنْ أَكَّدْتُمُوهَا

بِالْأَيْمَانِ ، فَإِنْ تُبْتُمْ وَأَنَبْتُمْ ، وَشَهِدَ لَكُمْ عَمَلُكُمْ بِصَلَاحِ سَرِيرَتِكُمْ ، فَإِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَكُمْ ، وَيُعَامِلُكُمْ رَسُولُهُ بِمَا يُعَامِلُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ تَشْهَدُ لَهُمْ أَعْمَالُهُمْ بِإِخْلَاصِهِمْ

(232/346)

وَصِدْقِهِمْ ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الْإِصْرَارَ عَلَى نِفَاقِكُمْ وَالِاعْتِمَادَ عَلَى نِفَاقِ سُوقِ كَذِبِكُمْ بِأَعْذَارِكُمْ وَأَيْمَانِكُمْ ، فَسَيُعَامِلُكُمْ رَسُولُهُ بِمَا أَمَرَهُ اللهُ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ جِهَادِكُمْ وَالْإِغْلَاظِ عَلَيْكُمْ كَإِخْوَانِكُمُ الْكُفَّارِ الْمُجَاهِرِينَ ، وَعَدَمِ السَّمَاحِ لَكُمْ بِالْخُرُوجِ مَعَهُ أَبَدًا وَلَا بِأَنْ تُقَاتِلُوا مَعَهُ عَدُوًّا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ إِهَانَةٍ وَاحْتِقَارٍ (ثُمَّ تُرَدُّونَ) مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ عَلَى الذُّلِّ وَالْمَوْتِ عَلَيْهِ : (إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) الَّذِي يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، وَمَا تَكْتُمُونَ وَمَا تُظْهِرُونَ .

وَالْغَيْبُ : مَا غَابَ عَنِ الْمُخَاطَبِينَ عِلْمُهُ ، وَالشَّهَادَةُ :

مَا يَشْهَدُونَهُ وَيَعْرِفُونَهُ (1) (فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) عِنْدَمَا تُحْشَرُونَ وَتُحَاسَبُونَ ، وَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ بِمَا تَسْتَحِقُّونَ ، وَهُوَ مَا أَوْعَدَكُمْ بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي غَيْرِهَا كَقَوْلِهِ : (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ) (4 : 145) .

وَمِنَ الْفِقْهِ فِي الْآيَةِ أَنَّ مِنْ آدَابِ الْإِسْلَامِ تَحَامِيَ كُلِّ ذَنْبٍ أَوْ تَقْصِيرٍ يَحْتَاجُ فَاعِلُهُ إِلَى

الِاعْتِذَارِ ، وَوَرَدَ فِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ (إِيَّاكَ وَكُلَّ أَمْرٍ يُعْتَذَرُ مِنْهُ) رَوَاهُ الضِّيَاءُ فِي الْأَحَادِيثِ الْمُخْتَارَةِ عَنْ أَنَسٍ ، وَرَوَى غَيْرُهُ مِثْلَهُ فِي أَثْنَاءِ حَدِيثٍ آخَرَ .

(233/346)

(سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) سَيُؤَكِّدُونَ لَكُمُ اعْتِذَارَهُمْ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ إِذَا انْقَلَبْتُمْ وَتَحَوَّلْتُمْ إِلَيْهِمْ مِنْ سَفَرِكُمْ لِأَجْلِ أَنْ تُعْرِضُوا عَنْ عَتْبِهِمْ وَتَوْبِيخِهِمْ عَلَى قُعُودِهِمْ مَعَ الْخَالِفِينَ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ وَالْعَجَزَةِ ، وَبُخْلِهِمْ بِالنَّفَقَةِ ، وَلَمْ يُذْكَرِ الْمَحْلُوفُ عَلَيْهِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى شُمُولِهِ لِكُلِّ مَا يُعْتَذَرُ عَنْهُ : (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ) إِعْرَاضَ إِهَانَةٍ وَاحْتِقَارٍ ، لَا إِعْرَاضَ صَفْحٍ وَإِعْذَارٍ ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ مِنْ أُسْلُوبِ الْحَكِيمِ ، وَهُوَ قَبُولُ مَا يَبْغُونَ مِنَ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَلَكِنْ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي يَرْجُونَهُ مِنْهُ بَلْ عَلَى ضِدِّهِ ، وَقَدْ عَلَّلَ الْأَمْرَ بِقَوْلِهِ : (إِنَّهُمْ رِجْسٌ) أَيْ قَذَرٌ مَعْنَوِيٌّ يَجِبُ الْإِعْرَاضُ عَنْهُ تَنَزُّهًا عَنِ الْقُرْبِ مِنْهُ بِأَشَدَّ مِمَّا يَتَنَزَّهُ الطَّاهِرُ الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ عَنْ مُلَابَسَةِ الْأَرْجَاسِ وَالْأَقْذَارِ الْحِسِّيَّةِ . وَهَذَا بِمَعْنَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِ : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ) (28) وَسَبَقَ بَيَانُ مَعْنَى الرِّجْسِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ (إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ) (5 : 90) مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) أَيْ وَمَلْجَؤُهُمُ الْأَخِيرُ نَارُ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فِي الدُّنْيَا مِنْ أَعْمَالِ النِّفَاقِ الَّتِي

دَنَّسَتْ أَنْفُسَهُمْ ، وَالْإِعْرَاضِ عَنْ آيَاتِ اللهِ الَّذِي زَادَهُمْ رِجْسًا عَلَى رِجْسِهِمْ ، كَمَا تَرَاهُ فِي الْآيَةِ (125) الْآتِيَةِ .

(234/346)

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) فَتَسْتَدِيمُوا مُعَامَلَتَهُمُ السَّابِقَةَ بِظَاهِرِ إِسْلَامِهِمْ وَهَذَا غَرَضٌ آخَرُ وَرَاءَ غَرَضِ الْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ لَا يَهْنَأُ عَيْشُهُمْ بِدُونِهِ ، وَلَا حَظَّ لَهُمْ مِنْ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ غَيْرَهُ وَلَوْ كَانَ إِسْلَامُهُمْ عَنْ إِيمَانٍ لَكَانَ غَرَضُهُمُ الْأَوَّلُ إِرْضَاءَ اللهِ وَرَسُولِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي آيَةِ (يَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ) (62) إِلَخْ . وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ وَهَذِهِ حَالَتُهُمْ (فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ) فَرْضًا وَقَدْ أَعْلَمَكُمُ اللهُ بِحَالِهِمْ (فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) عَنْ أَمْرِهِ مِنْهُمْ وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ ، فَإِنَّ هَذَا الْفُسُوقَ سَبَبٌ أَوْ عِلَّةٌ لِسُخْطِ اللهِ تَعَالَى ، فَالْحُكْمُ بِعَدَمِ رِضَاهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ لَا بِذَوَاتِهِمْ وَشُخُوصِهِمْ ، وَمُقْتَضَاهُ أَنَّهُ إِذَا فُرِضَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ عَنْهُمْ وَآمَنَ لَهُمْ بِاعْتِذَارِهِمْ بَعْدَ النَّهْيِ عَنْهُ كَانَ فَاسِقًا مِثْلَهُمْ ، مَحْرُومًا مِنْ رِضَائِهِ تَعَالَى ، كَمَا أَنَّ مَنْ يَتُوبُ مِنْهُمْ وَيُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ يَخْرُجُ مِنْ حُدُودِ سُخْطِهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَدْخُلُ فِي حَظِيرَةِ مَرْضَاتِهِ ؛ إِذْ لَا يُعَدُّ بَعْدَ ذَلِكَ فَاسِقًا . فَأَحْكَامُ اللهِ الْعَامَّةُ وَوَعْدُهُ وَوَعِيدُهُ تَتَعَلَّقُ بِالْأَعْمَالِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ وَالْبَدَنِيَّةِ لَا بِالذَّوَاتِ وَالْأَعْيَانِ ، وَلَوْ قَالَ : (فَإِنَّ

اللهَ لَا يَرْضَى عَنْهُمْ) لَمَا أَفَادَ التَّعْبِيرُ هَذِهِ الْحَقَائِقَ وَالْمَعَانِيَ ، بَلْ كَانَ يَكُونُ حُكْمًا عَلَى أَفْرَادٍ مُعَيَّنِينَ ، مُسَجِّلًا عَلَيْهِمُ الْمَوْتَ عَلَى

(235/346)

كُفْرِهِمْ وَعَدَمِ قَبُولِ تَوْبَةِ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَمَا أَبْعَدَ هَذَا عَنْ حِكْمَةِ اللهِ وَعَنْ هِدَايَةِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ ؟ وَلَا يُنَافِي هَذَا التَّحْقِيقُ مَا يُرْوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ فِي الْجَدِّ بْنِ قَيْسٍ وَمُعَتِّبِ بْنِ قُشَيْرٍ وَأَصْحَابِهِمَا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَانُوا ثَمَانِينَ رَجُلًا أَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا رَجَعُوا إلَى الْمَدِينَةِ بِأَلَّا يُجَالِسُوهُمْ وَلَا يُكَلِّمُوهُمْ ; إذْ لَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ مَقْصُودُونَ مِنَ الْآيَاتِ بِذَوَاتِهِمْ وَشُخُوصِهِمْ كَالَّذِينَ نُهِيَ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَعَلَّلَهُ بِمَوْتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ، وَقَدْ قَالَ قَتَادَةُ : إنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ نَزَلَتْ فِيهِ ، فَإِنَّهُ حَلَفَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَ عَوْدَتِهِ بِأَلَّا يَتَخَلَّفَ عَنْهُ ، وَطَلَبَ أَنْ يَرْضَى عَنْهُ فَلَمْ يَفْعَلْ . وَالْآيَاتُ أَعَمُّ مِنْ هَذَا وَذَاكَ . وَهِيَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ بِمَا فِيهَا مِنْ بَيَانِ مَقَاصِدِهِمُ الْخَفِيَّةِ ، وَإِنْ كَانَ الِاعْتِذَارُ وَالْحَلِفُ مِنْ سَجَايَاهُمْ الْمَعْرُوفَةِ ، وَإِنَّ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ كَثْرَةَ الْحَلِفِ ; لِشُعُورِ الْمُنَافِقِ دَائِمًا بِأَنَّهُ مُتَّهَمٌ بِالْكَذِبِ .

(236/346)

وَيَجِبُ التَّنَبُّهُ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِجَهْلٍ فَظِيعٍ - وَقَفْنَا عَلَيْهِ بِمُذَاكَرَةِ بَعْضِ الْمُشْتَغِلِينَ بِعُلُومِ الدِّينِ التَّقْلِيدِيَّةِ - مُخَالِفٍ لِهَذِهِ الْآيَةِ وَأَمْثَالِهَا مِنْ كِتَابِ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ زَعْمُهُمْ أَنَّ مَا عَابَهُ الْكِتَابُ الْحَكِيمُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالْكَافِرِينَ مِنْ أَعْمَالِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ كَدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ وَاتِّخَاذِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يُقَرِّبُونَهُمْ إِلَيْهِ وَيَشْفَعُونَ لَهُمْ عِنْدَهُ فِيمَا يَطْلُبُونَ مِنْ دَفْعِ ضُرٍّ وَجَلْبِ نَفْعٍ مِمَّا لَا يُنَالُ بِالْكَسْبِ ، فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَبِأَوْلِيَائِهِمْ وَشُفَعَائِهِمْ وَأَنَّ وُقُوعَ مِثْلِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَا يُنَافِي صِحَّةَ إِيمَانِهِمْ ، وَالِاعْتِدَادَ بِإِسْلَامِهِمْ ؛ لِلْفَرْقِ الْوَاضِحِ بَيْنَ مَنْ يَدْعُو الْأَصْنَامَ وَالْأَوْثَانَ وَيَجْعَلُهَا وَاسِطَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ تَعَالَى تَشْفَعُ لَهُ عِنْدَهُ وَتُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ زُلْفَى ، وَمَنْ يَدْعُو الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ لِذَلِكَ وَهُمْ عِبَادُ اللهِ الْمُكْرَمُونَ ، الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ؟ ؟

(237/346)

جَهِلَ هَؤُلَاءِ أَنَّ الشِّرْكَ وَالْكُفْرَ لَا يَخْتَلِفُ حُكْمُهُ بِاخْتِلَافِ مُتَعَلَّقِهِ فَمَنْ يَدْعُو مَعَ اللهِ صَنَمًا أَوْ كَوْكَبًا ، كَمَنْ يَدْعُو نَبِيًّا أَوْ مَلَكًا ، عَلَى أَنَّ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ كَانَتْ تَمَاثِيلَ لِذِكْرَى بَعْضِ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَالْقُبُورِ الْمَنْسُوبَةِ إِلَى بَعْضِهِمْ نِسْبَةً صَحِيحَةً أَوْ مُزَوَّرَةً ، وَلَكِنْ مَاذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ الْمُدَافِعُونَ عَنِ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ فِي أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ يَدْعُونَ

وَيَسْتَغِيثُونَ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ ، مُتَوَسِّلِينَ بِهِمْ وَمُسْتَشْفِعِينَ ، وَهُمُ الَّذِينَ اتَّبَعَ الْقُبُورِيُّونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ سُنَنَهُمْ فِي شِرْكِهِمْ كَمَا أَخْبَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَلِكَ تَحْذِيرًا وَإِنْذَارًا بِقَوْلِهِ (لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ) الْحَدِيثَ وَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِرَارًا ، وَفُصِّلَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا) (31) فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهَا .

وَيَذْكُرُ هَؤُلَاءِ الْجَاهِلُونَ بِالْقُرْآنِ وَتَارِيخِ الْإِسْلَامِ فَرْقًا آخَرَ بَيْنَ شِرْكِ الْمُسْلِمِينَ وَشِرْكِ مَنْ قَبْلَهُمْ ، وَهُوَ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقِينَ اتَّخَذُوا أَوْثَانَهُمْ وَأَنْبِيَاءَهُمْ وَأَوْلِيَاءَهُمْ آلِهَةً وَأَرْبَابًا ، وَأَنَّ الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الْأَوْلِيَاءَ وَيَسْتَغِيثُونَهُمْ فِي الشَّدَائِدِ طَلَبًا لِشَفَاعَتِهِمْ لَمْ يَتَّخِذُوهُمْ آلِهَةً وَلَا أَرْبَابًا وَإِنَّمَا يَتَّخِذُونَهُمْ وَسَائِلَ وَوَسَائِطَ وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ مَخْلُوقُونَ مِثْلُهُمْ .

(238/346)

وَالْجَوَابُ عَنْ هَذَا : أَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ عَمَلِ الْفَرِيقَيْنِ إِلَّا فِي التَّسْمِيَةِ وَلَكِنْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَمُشْرِكُو الْعَرَبِ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ أَصْنَامَهُمْ أَرْبَابًا ، بَلْ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ وَيَقُولُونَ : إِنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَخَالِقَهُمْ وَمُدَبِّرَ أُمُورِهِمُ الَّذِي يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ هَذَا مُقْتَضَى لُغَتِهِمْ ؛ وَإِنَّمَا كَانُوا يُسَمُّونَهَا آلِهَةً لِأَنَّ الْإِلَهَ فِي لُغَتِهِمْ هُوَ الْمَعْبُودُ ، وَالْمَعْبُودُ هُوَ مَنْ يُتَوَجَّهُ إِلَيْهِ وَيُدْعَى فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ النَّاسُ بِكَسْبِهِمْ فِي دَائِرَةِ الْأَسْبَابِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُمْ ،

وَيُعَظَّمُ وَيُتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِالذَّبَائِحِ وَغَيْرِهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ ، سَوَاءٌ كَانَ سُلْطَانُهُ عَلَى النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّرِّ بِذَاتِهِ لِذَاتِهِ وَهُوَ اللهُ تَعَالَى أَوْ بِشَفَاعَتِهِ عِنْدَ اللهِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَسْطُ هَذَا الْمَعْنَى مِرَارًا .

وَسَيُعَادُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ يُونُسَ لِلنُّصُوصِ الصَّرِيحَةِ فِيهِ ، فَتَسْمِيَةُ هَذِهِ الْعِبَادَةِ لِغَيْرِ اللهِ تَوَسُّلًا فِي عُرْفِ بَعْضِ النَّاسِ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ حَقِيقَتِهَا ، وَلَا عَنْ كَوْنِ اسْمِهَا فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عِبَادَةً وَهُوَ مَا كَانَ يُسَمِّيهَا بِهِ أَهْلُ هَذِهِ اللُّغَةِ . وَإِنَّمَا التَّوَسُّلُ الشَّرْعِيُّ التَّقَرُّبُ إِلَى اللهِ تَعَالَى بِمَا شَرَعَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، لَا بِالْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَلَا بِالتَّقَالِيدِ الْمُتَّبَعَةِ . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 3.7 ﴾

(239/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم ﴾ [التوبة : 95] لأنهم إذا حلفوا لأجل أن يعرض عنهم المسلمون فلا يلوموهم ، فإن ذلك يتضمن طلبهم رضى المسلمين .

وقد فرّع الله على ذلك أنه إن رضي المسلمون عنهم وأعرضوا عن لومهم فإن الله لا يرضى عن المنافقين .

وهذا تحذير للمسلمين من الرضى عن المنافقين بطريق الكناية إذ قد علم المسلمون أن ما لا يُرضي الله لا يكون للمسلمين أن يرضوا به .

والقوم الفاسقون هم هؤلاء المنافقون .

والعدول عن الإتيان بضمير (هم) إلى التعبير بصفتهم للدلالة على ذمهم وتعليل عدم الرضى عنهم ، فالكلام مشتمل على خبر وعلى دليله فأفاد مفاد كلامين لأنه ينحلّ إلى : فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عنهم لأن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(240/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) ﴾

والرضا هو اطمئنان القلب إلى أمر فيه نفعٌ ؛ فحين أقول : أنا راضٍ بالشيء الفلاني ، فمعنى

هذا أن كمية النفع التي آخذها منه تكفيني . ومرحلة الإرضاء تختلف من إنسان إلى آخر ، فقد ترضى أنت بنفع ما ، وعند غيرك ما هو أحسن منه لكنه غير راضٍ ، ويتميز المؤمن بأن كل ما يجري عليه من غير كسب منه ، لا بد أن يرضى به ؛ لأن مجريه رحيم . وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه وقد تكون الرحمة لأمر لا يعلمه المؤمن الآن ؛ فقد يُضَن عليه بمال ؛ لأنه سبحانه لو زوَّده بالمال فقد يبعثره على أولاده ، ويصبح المال وسيلة انحرافهم ، فالحق سبحانه يعطيه المال بقدر ما يطعم أولاده إلى أن يمر أبناؤه من فترة المراهقة ، ثم ينعم ربنا عليه بالمال بعد أن وصل الأبناء إلى النضج ، وضنَّ الحق على العبد أحياناً هو عين العطاء ، ولذلك يقال : " إذا لم يكُنْ ما تريد ، فَلْتُرِدْ ما يكون " .

ولماذا يحلف المنافقون ؟ وتأتي الإجابة من الحق : ﴿ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ وماذا يحقق رضا المؤمنين لهؤلاء المنافقين ؟ ثم هل للمؤمن رضاء من خلف رضاء رسول الله ؟ وهل لرسول الله رضا من خلف رضاء ربه ؟

إن ما يُفرح هو رضا مَنْ يملك النفع ، فأنتم حين ترضون عنهم بعد أن يحلفوا لكم ، وتقتنعوا ببشريتكم ؛ فترضوا عنهم ، فليس لكم رضا ينفعهم ، ولا لرسول الله رضا من وراء رضا ربه ، فالرضا الحق هنا هو رضا الله ، فإياكم أن يخدعوكم بمعسول الكلام ، وزيف

الأساليب ؛ كي ترضوا عنهم .

ثم يقول الحق : ﴿ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ﴾ .

(241/346)

أي : إن تحقق هذا الرضا منكم عنهم ، فهو رضاً بعيد عن رضا الله ورسوله ، وليس من باطن رضا رسول الله ، ولا من باطن رضا الله ؛ بذلك يُنْهي الحق الآية بقوله : ﴿ فَإِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ وإن لم يَرْضَ الله فرضاكم لن ينفعكم ، وطلبهم الرضا منكم غباء منهم ، فإن رضاكم عنهم لن يقدم ، ولن يؤخر ؛ إلا إن كان من باطن رضا الله ، ورضا رسوله .

وهنا ملحظ : هم فاسقون أم كافرون ؟ نقول : إن الحق سبحانه أوضح لنا : ﴿ إِنَّ المنافقين فِي الدرك الأسفل مِنَ النار . . . ﴾ [النساء : 145]

أي أن مكان المنافق في النار أسفل من مكان الكافر . وكيف يكون المنافق فاسقاً مع أن المؤمن قد يكون فاسقاً ؟ فالمؤمن قد يفسق بأن يرتكب كبيرة من الكبائر ، وسبحانه يقول : ﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أَيْدِيَهُمَا جَزَآءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ الله . . . ﴾ [المائدة : 38]

فالمؤمن قد يسرق ، وقد يزني أيضاً . فسبحانه يقول : ﴿ الزانية والزاني . . . ﴾ [النور : 2]

وما دام سبحانه قد جرّم الفعل ، ووضع له عقوبة ؛ فمن الممكن أت يرتكبه المؤمن ، ولكن علينا أن نُفرِّق بين الفاسق والعاصي ، فمن يرتكب الكبائر فهو فاسق ، ومن يرتكب الصغائر فهو عاص . فكيف يصف الله المنافقين بالفسق ؟ ولنذكر ما نقوله دائماً من أن الكفر ، إنما هو كفر بمحمد وبالإسلام ، والفسق إذا جاء مع الكفر فهو ليس فسق ارتكاب المعصية والإنسان على دين الإسلام ، لكنه الخروج عن الطاعة حتى في الأديان التي يتبعها أي قوم ، فالأديان كلها تضم قدراً من القيم ، وأتباعها محاسبون على القيم التي في أديانهم ، لكنهم أيضاً يفسقون عنها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(242/346)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (96) ﴾

من كان مسخوطَ الحقِّ لا ينفعه أن يكون مرضيَّ الخَلْقِ ، وليست العِبْرَةُ بقولِ غيرِ الله إنَّما المدارُ على ما سَبَقَ من السعادة في حُكْمِ الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 56 ﴾

(243/346)

قوله تعالى ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ترتب سبحانه الاستئذان في العقود والرضى بما فيه من الدناءة على عدم الفقه تارة والعلم أخرى وختم بصنف الأعراب ، بين أن الأعراب أولى بذلك لكونهم أعرق في هذا الوصف وأجرأ على الفسق لبعدهم عن معدن العلم وصرفهم أفكارهم في غير ذلك من أنواع المخازي لتحصيل المال الذي كلما داروا عليه طار عنهم فأبعد .

(244/346)

فهم لا يزالون في همه قد شغلهم ذلك عن كل هم وهم يحسبون انهم يحسنون صنعاً فقال تعالى : ﴿ الأعراب ﴾ أي أهل البدو ﴿ أشد ﴾ أي من أهل المدر ﴿ كفراً ونفاقاً ﴾ لبعدهم عن دار الهجرة ومعدن العلم وجفائهم بأن مرائي قلوبهم لم تصقل بأنوار الكتاب والسنة ﴿ وأجدر أن ﴾ أي وأحق بأن ﴿ لا يعلموا ﴾ ولما كان الإحجام أصعب من الإقدام ، وأطراف الأشياء المختلطة في غاية الإلباس ، قال : ﴿ حدود ما أنزل الله ﴾ أي المحيط علماً وحكمة بكل شيء ﴿ على رسوله ﴾ أي الذي أعلم الخلق من القرآن والشرائع والأحكام لعدم إقبالهم عليه شغلاً بغيره فإن الله يعلم ذلك منهم ﴿ والله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم بكل شيء ﴿ حكيم ﴾ أي بالغ الحكمة فهو يضع الأشياء في أتم محالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 377 . 378 ﴾

(245/346)

فصل

قال الفخر :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

اعلم أن هذه الآية تدل على صحة ما ذكرنا من أنه تعالى إنما أعاد هذه الأحكام ، لأن المقصود منها مخاطبة منافقي الأعراب ، ولهذا السبب بين أن كفرهم ونفاقهم أشد وجهلهم بحدود ما أنزل الله أكمل ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال العلماء من أهل اللغة ، يقال : رجل عربي .

إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب .

كما تقول مجوسي ويهودي ، ثم يحذف ياء النسبة في الجمع ، فيقال : المجوس واليهود ، ورجل أعرابي ، بالألف إذا كان بدوياً ، يطلب مساقط الغيث والكلأ ، سواء كان من العرب أو من مواليهم ، ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب ، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي : فرح ، والعربي إذا قيل له : يا أعرابي ، غضب له ، فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ، ومن نزل البادية فهم أعراب ، والذي يدل على الفرق وجوه : الأول : أنه عليه السلام قال : " حب العرب من الإيمان " وأما الأعراب فقد ذمهم الله في هذه الآية .

والثاني : أنه لا يجوز أن يقال : للمهاجرين والأنصار أعراب ، إنما هم عرب ، وهم متقدمون في مراتب الدين على الأعراب .

قال عليه السلام : " لا تؤمن امرأة رجلاً ولا فاسق مؤمناً ولا أعرابي مهاجراً " الثالث : قيل إنما سمي العرب عرباً لأن أولاد إسمعيل نشأوا بعربة ، وهي من تهامة .

(246/346)

فنسبوا إلى بلدهم وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم ، لأنهم إنما تولدوا من أولاد إسمعيل وقيل : سموا بالعرب ، لأنه ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ، ولا شك أن اللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الألسنة ، ورأيت في بعض الكتب عن بعض الحكماء أنه قال : حكمة الروم في أدمغتهم وذلك لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة ، وحكمة الهند في أوهامهم ، وحكمة يونان في أفئدتهم . وذلك لكثرة ما لهم من المباحث العقلية ، وحكمة العرب في ألسنتهم ، وذلك لحلاوة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم .

المسألة الثانية :

من الناس من قال : الجمع المحلى بالألف واللام الأصل فيه أن ينصرف إلى المعهود السابق ، فإن لم يوجد المعهود السابق ، حمل على الاستغراق للضرورة .

قالوا : لأن صيغة الجمع يكفي في حصول معناها الثلاثة فما فوقها ، والألف واللام للتعريف

، فإن حصل جمع هو معهود سابق وجب الانصراف إليه ، وإن لم يوجد فحينئذ يحمل على الاستغراق دفعاً للإجمال .

قالوا إذا ثبت هذا فنقول : قوله : ﴿ الأعراب ﴾ المراد منه جمع معينون من منافقي الأعراب ، كانوا يوالون منافقي المدينة فانصرف هذا اللفظ إليهم .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى حكم على الأعراب بحكمين :

الحكم الأول

أنهم أشد كفراً ونفاقاً ، والسبب فيه وجوه : الأول : أن أهل البدو يشبهون الوحوش .

والثاني : استيلاء الهواء الحار اليابس عليهم ، وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم ، والثالث : أنهم ما كانوا تحت سياسة سائس ، ولا تأديب مؤدب ، ولا ضبط ضابط فنشاؤا كما شاؤوا ، ومن كان كذلك خرج على أشد الجهات فساداً .

والرابع : أن من أصبح وأمسى مشاهداً لوعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبياناته الشافية ، وتأديباته الكاملة ، كيف يكون مساوياً لمن لم يؤاثر هذا الخير ، ولم يسمع خبره .

والخامس : قابل الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لتعرف الفرق بين أهل الحضر والبادية .

الحكم الثاني

قوله : ﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ وقوله : ﴿ أجدر ﴾ أي أولى وأحق ، وفي الآية حذف ، والتقدير : وأجدر بأن لا يعلموا .

وقيل في تفسير حدود ما أنزل الله مقادير التكاليف والأحكام .

وقيل : مراتب أدلة العدل والتوحيد والنبوة والمعاد ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بما في قلوب خلقه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما فرض من فرائضه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 132.131 ﴾

(248/346)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاَللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي قَوْله تَعَالَى ﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ لِسَبِيلِ الْعِلْمِ تَسْلُكُونَهَا

، وَصَرَفَكُمْ عَنْ الْجِهَالَاتِ تَرْتَكِبُونَهَا أَنَّ بِنَاءَ " عَرَبٍ " يَنْطَلِقُ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ عَلَى مَعَانٍ لَا تَنْتَظِمُ فِي مَسَاقٍ وَاحِدٍ ، وَعَلَى رَأْيِ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَ الْأَبْنِيَةَ تَنْظُرُ إلَى الْمَعَانِي مِنْ مِشْكَاةٍ وَاحِدَةٍ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَدْ يَجِدُهُ الطَّالِبُ لَهُ ، وَقَدْ يَعْسُرُ عَلَيْهِ ، وَقَدْ يَعْدَمُهُ وَيَنْقَطِعُ لَهُ .

وَهَذَا الْبِنَاءُ مِمَّا لَمْ يَتَّفِقْ لِي رَبْطُ مَعَانِيهِ بِهِ .

وَقَدْ جَاءَ ذِكْرُ الْأَعْرَابِ فِي الْقُرْآنِ هَاهُنَا ، وَجَاءَ فِي السُّنَّةِ ذِكْرُ الْعَرَبِ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ ؛ وَلُغَةُ الْعَرَبِ مَنْسُوبَةٌ إلَى الْعَرَبِ ، وَالْعَرَبُ اسْمٌ مُؤَنَّثٌ ، فَإِذَا صَغَّرُوهُ أَسْقَطُوا الْهَاءَ فَقَالُوا : عُرَيْبٌ .

وَيُقَالُ : عَرَبٌ وَعُرْبٌ بِفَتْحِ الْفَاءِ وَالْعَيْنِ ، وَبِضَمِّ الْفَاءِ وَبِإِسْكَانِ الْعَيْنِ .

وَالْعَارِبَةُ وَالْعَرْبَاءُ ؛ وَهُمْ أَوَائِلُهُمْ ، أَوْ قَبَائِلُ مِنْهُمْ ، يُقَالُ إنَّهُمْ سَبْعٌ ، سَمَّاهُمْ ابْنُ دُرَيْدٍ وَغَيْرُهُ .

وَيُقَالُ الْأَعْرَابُ وَالْأَعَارِيبُ .

(249/346)

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ : الْأَعْرَابِيُّ لَزِمَ الْبَادِيَةَ ، وَالْعَرَبِيُّ مَنْسُوبٌ إلَى الْعَرَبِ وَكَأَنَّهُ يُشِيرُ إلَى أَنَّ هَذِهِ النِّسْبَةَ قَدْ تَكُونُ نِسْبَةَ جِنْسٍ كَالْأَعْرَابِيِّ ، وَقَدْ تَكُونُ نِسْبَةَ لِسَانٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ الْأَعَاجِمِ إذَا تَعَلَّمَهَا .

وَتَحْقِيقُ الْقَوْلِ أَنَّ الْأَعْرَابَ جَمْعٌ ، وَهُوَ بِنَاءٌ لَهُ فِي الْوَاحِدِ أَمْثَالٌ مِنْهَا : فُعْلٌ وَفَعْلٌ وَفِعْلٌ وَفَعَلٌ ، كَقُفْلٍ وَأَقْفَالٍ ، وَفَلْسٍ وَأَفْلَاسٍ ، وَحِمْلٍ وَأَحْمَالٍ ، وَجَمَلٍ وَأَجْمَالٍ ، وَلَمْ أَجِدْ عَرَبًا بِكَسْرِ الْفَاءِ إلَّا فِي نَوْعٍ مِنْ النَّبَاتِ لَا يَسْتَجِيبُ مَعَ سَائِرِ الْأَبْنِيَةِ ، وَيَا لَيْتَ شَعْرِي ، مَا الَّذِي يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الْأَعْرَابِيُّ مَنْسُوبًا إلَى الْأَعْرَابِ ، وَالْعَرَبِيُّ مَنْسُوبًا إلَى الْعَرَبِ ، وَيَكُونُ الْأَعْرَابُ هُمْ الْعَرَبَ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَا سَلْمَانُ ؛ لَا تَبْغَضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَك .

قَالَ : وَكَيْفَ أَبْغُضُك يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : تَبْغُضُ الْعَرَبَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ مَنْ غَشَّ الْعَرَبَ لَمْ يَدْخُلْ فِي شَفَاعَتِي ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ مِنْ اقْتِرَابِ السَّاعَةِ هَلَاكُ الْعَرَبِ ﴾ .

وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَتَفُرُّنَّ مِنْ الدَّجَّالِ حَتَّى تَلْحَقُوا بِالْجِبَالِ .

قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ فَأَيْنَ الْعَرَبُ يَوْمَئِذٍ ؟ قَالَ : هُمْ قَلِيلٌ ﴾ .

وَقَالَ أَيْضًا : ﴿ سَامٌ أَبُو الْعَرَبِ ، وَيَافِثُ أَبُو الرُّومِ ، وَحَامٌ أَبُو الْحَبَشِ ﴾ .

وَمِنْ غَرِيبِ هَذَا الِاسْمِ أَنَّ بِنَاءَهُ فِي التَّرْكِيبِ لِلتَّعْمِيمِ بِنَاءَ الْحُرُوفِ فِي الْمَخَارِجِ عَلَى التَّرْتِيبِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : وَهِيَ فَائِدَةُ الْقَوْلِ : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمْ اللَّهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ، فَكَانَ مِمَّا عَلَّمَ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْعَرَبُ وَالْأَعْرَابُ وَالْعَرَبِيَّةِ ، وَلَا نُبَالِي كَيْفَ كَانَتْ كَيْفِيَّةُ التَّعَلُّمِ مِنْ لَدُنْ آدَمَ إلَى الْأَزْمِنَةِ الْمُتَقَادِمَةِ قَبْلَنَا ، وَقَبْلَ فَسَادِ اللُّغَةِ ، فَكَانَ هَذَا اسْمَ اللِّسَانِ ، وَاسْمَ الْقَبِيلَةِ ، حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا سَيِّدَهَا ، بَلْ سَيِّدَ الْأُمَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَى اللَّهُ لَهَا اسْمًا شَرِيفًا ، وَهُوَ نَبِيٌّ ، رَسُولٌ إلَى سَائِرِ أَسْمَائِهِ حَسْبَمَا بَيَّنَّاهَا فِي شَرْحِ الصَّحِيحِ وَالْقَبَسِ وَغَيْرِهِ ، وَأَعْطَى مَنْ آثَرَ دِينَهُ عَلَى أَهْلِهِ وَمَالِهِ اسْمًا أَشْرَفَ مِنْ " عَرَبٍ " وَمِنْ " قُرَشٍ " وَهُوَ " هَجَرَ " فَقَالَ : الْمُهَاجِرُونَ ، وَأَعْطَى مَنْ آوَى وَنَاضَلَ اسْمًا أَشْرَفَ مِنْ الَّذِي كَانَ وَهُوَ " نَصْرٌ " فَقَالَ : الْأَنْصَارُ ، وَعَمَّهُمْ بِاسْمٍ كَرِيمٍ شَرِيفِ الْمَوْضِعِ وَالْمَقْطَعِ ، وَهُوَ " صَحْبٌ " فَقَالَ : أَصْحَابِي ، وَأَعْطَى مَنْ لَمْ يَرَهُ حَظًّا فِي التَّشْرِيفِ بِاسْمٍ عَامٍّ يَدْخُلُونَ بِهِ فِي الْحُرْمَةِ ، وَهِيَ الْأُخُوَّةُ ، فَقَالَ : ﴿ وَدِدْتُ أَنِّي رَأَيْت إخْوَانَنَا .

قُلْنَا : أَلَسْنَا بِإِخْوَانِك يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي ، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدُ ﴾ فَمَنْ دَخَلَ فِي الْهِجْرَةِ أَوْ تَرَسَّمَ بِالنُّصْرَةِ فَقَدْ كَمُلَ لَهُ شَرَفُ الصُّحْبَةِ ، وَمَنْ بَقِيَ عَلَى رَسْمِهِ الْأَوَّلِ بَقِيَ عَلَيْهِ اسْمُهُ الْأَوَّلُ ، وَهُمْ الْأَعْرَابُ .

وَلِذَلِكَ قِيلَ ﴿ لَمَّا صَارَ سَلَمَةُ بْنُ الْأَكْوَعِ فِي الرَّعِيَّةِ قَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ : يَا سَلَمَةُ ، تَعَرَّبْت ، ارْتَدَدْت عَلَى عَقِبَيْك .

فَقَالَ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَذِنَ لِي فِي التَّعْرِيبِ ، ﴾ وَبَعْدَ هَذَا فَاعْلَمُوا وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ كَانَ عَلَيْهِ فَرْضًا أَنْ يَأْتِيَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَيَكُونَ مَعَهُ ، حَتَّى تَتَضَاعَفَ النُّصْرَةُ ، وَتَنْفَسِحَ الدَّوْحَةُ ، وَتَحْتَمِيَ الْبَيْضَةُ ، وَيَسْمَعُوا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دِينَهُمْ ، وَيَتَعَلَّمُوا شَرِيعَتَهُمْ حَتَّى يُبَلِّغُوهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ تَسْمَعُونَ وَيُسْمَعُ مِنْكُمْ ﴾ ، وَيُسْمَعُ مِمَّنْ سَمِعَ مِنْكُمْ ، فَمَنْ تَرَكَ ذَلِكَ ، وَبَقِيَ فِي إبِلِهِ وَمَاشِيَتِهِ ، وَآثَرَ مَسْقَطَ رَأْسِهِ ، فَقَدْ غَابَ عَنْ هَذِهِ الْحُظُوظِ ، وَخَابَ عَنْ سَهْمِ الشَّرَفِ ، وَكَانَ مَنْ صَارَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ صَارَ إلَيْهِ مُؤَهَّلًا لِحَمْلِ الشَّرِيعَةِ وَتَبْلِيغِهَا ، مُتَشَرِّفًا بِمَا تَقَلَّدَ مِنْ عُهْدَتِهَا ، وَكَانَ مَنْ بَقِيَ فِي مَوْضِعِهِ خَائِبًا مِنْ هَذَا الْحَظِّ مُنْحَطًّا عَنْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ .

وَالَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ يُشَاهِدُونَ آيَاتِهِ ، وَيُطَالِعُونَ غُرَّتَهُ الْبَهِيَّةَ ، كَانَ الشَّكُّ يَخْتَلِجُ فِي صُدُورِهِمْ ، وَالنِّفَاقُ يَتَسَرَّبُ إلَى قُلُوبِهِمْ ، فَكَيْفَ

بِمَنْ غَابَ عَنْهُ ، فَعَنْ هَذَا وَقَعَ الْبَيَانُ بِقَوْلِهِ : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَعَلَى إعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ مَغْرَمًا لَا مَغْنَمًا ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْلَمُ لَهُ اعْتِقَادُهُ ؛ فَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ وَسِيلَةً إلَى اللَّهِ ، وَقُرْبَةً وَرَغْبَةً فِي صَلَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرِضَاهُ عَنْهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(253/346)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

يعني : أسد وغطفان وأعراب حاضري المدينة هم أشد في كفرهم ونفاقهم من غيرهم .

﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ ﴾ ، يعني : أحرى وأولى وأحق أَلاَّ يَعْلَمُوا ، ﴿ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ ، لأنهم كانوا أجهل وأقل علماً من غيرهم .

وقال الكلبي : يعني : لا يعلمون الفرائض التي أنزل الله على رسوله .

وقال مقاتل : هم أقلّ علماً بالسنن من غيرهم .

وروى الأعمش ، عن إبراهيم قال : كان زيد بن صوحان جالساً يحدث وقد أصيبت يده يوم نهاوند ، فجاء أعرابي وقال : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني .

فقال له زيد : أو ليس الشمال ؟ قال الأعرابي : والله لا أدري الشمال يقطعون أو اليمين ؟

فقال زيد : صدق الله ﴿ الاعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَن لا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ ، ويقال : أن لا يعلموا أحكام الله في كتابه .

﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بهم ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في أمرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ الأعراب ﴾ يعني أهل البدو ﴿ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ من أهل الحضر ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أحرى وأولى ﴿ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ قال قتادة : هم أقل علماً بالسنن .

وروى الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو مع أصحابه وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند فقال الأعرابي : والله ما أدري إن حديثك ليعجبني وإنَّ يدك لترعبني فقال : أي يد من يدي إنها الشمال ، فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال ؟ فقال زيد بن صوحان : صدق الله ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون الكفر والنفاق فيهم أكثر منه في غيرهم لقلة تلاوتهم القرآن وسماعهم السنن .

الثاني : أن الكفر والنفاق فيهم أشد وأغلظ منه في غيرهم لأنهم أجفى طباعاً وأغلظ قلوباً .

﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ ﴾ ومعنى أجدر أي أقرب ، مأخوذ من الجدار الذي يكون بين مسكني المتجاورين .

وفي المراد بحدود الله ما أنزل الله وجهان :

أحدهما : فروض العبادات المشروعة .

الثاني : الوعد والوعيد في مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم والتخلف عن الجهاد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله ﴾ الآية

﴿ الأعراب ﴾ لفظة عامة ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عز وجل ، وهذا معلوم بالوجود وكيف كان الأمر ، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بحسب بعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع ، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي ، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة ، فألسنتهم لذلك مطلقة ونفاقهم أنجم ، وأسند الطبري أن زيد بن صوحان كان يحدث أصحابه بالعلم وعنده أعرابي وكان زيد قد أصيبت يده اليسرى يوم نهاوند فقال الأعرابي والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني وقال زيد : وما يريبك من يدي وهي الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين تقطعون أم الشمال ؟ فقال زيد صدق الله ﴿ الأعراب أشد كفاراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ ، ﴿ وأجدر ﴾ معناه أحرى وأقمن ، و" الحدود " هنا السنن والأحكام ومعالم الشريعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(255/346)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ الأعراب أشد كفراً ﴾

قال ابن عباس : نزلت في أعاريب أسد وغطفان وأعراب من حول المدينة ، أخبر الله أن كفرهم ونفاقهم أشد من كفر أهل المدينة ، لأنهم أقسى وأجفى من أهل الحضر .

قوله تعالى : ﴿ وأجدر ألا يعلموا ﴾ قال الزجاج : "أن" في موضع نصب ، لأن الباء محذوفة من "أن" المعنى : أجدر بترك العلم .

تقول : جدير أن تفعل ، وجدير بأن تفعل ، كما تقول : أنت خليق بأن تفعل ، أي : هذا الفعل ميسَّر فيك ، فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا ب "أن" ، وإن أتيت بالباء صلح ب "أن" وغيرها ، فنقول : أنت جدير بأن تقوم ، وجدير بالقيام .

فإذا قلت : أنت جديرٌ القيامَ ، كان خطأً ، وإنما صلح مع "أن" لأن "أن" تدل على الاستقبال ، فكأنها عوض من المحذوف .

فأما قوله : ﴿ حدودَ ما أنزل الله ﴾ فيعني به : الحلال والحرام والفرائض .

وقيل : المراد بالآية : أن الأعم في العرب هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(256/346)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾

فيه مسألتان :

الأُولى لما ذكر جل وعز أحوال المنافقين بالمدينة ذكر من كان خارجاً منها ونائياً عنها من الأعراب ؛ فقال كفرهم أشد .

قال قتادة : لأنهم أبعد عن معرفة السنن .

وقيل : لأنهم أقسى قلباً وأجفى قولاً وأغلظ طبعاً وأبعد عن سماع التنزيل ؛ ولذلك قال الله تعالى في حقهم : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أي أخلق .

﴿ أَلاَّ يَعْلَمُواْ ﴾ "أن" في موضع نصب بحذف الباء ؛ تقول : أنت جدير بأن تفعل وأن تفعل ؛ فإذا حذفت الباء لم يصلح إلا ب "أن" ، وإن أتيت بالباء صلح ب "أن" وغيره ؛ تقول : أنت جدير أن تقوم ، وجدير بالقيام .

ولو قلت : أنت جدير القيام كان خطأ .

وإنما صلح مع "أن" لأن أن يدل على الاستقبال فكأنها عوض من المحذوف .

﴿ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ الله ﴾ أي فرائض الشرع .

وقيل : حجج الله في الربوبية وبعثة الرسل لقلة نظرهم .

الثانية ولما كان ذلك ودل على نقصهم وحطهم عن المرتبة الكاملة عن سواهم ترتبت على ذلك أحكام ثلاثة :

أوّلها لا حق لهم في الفيء والغنيمة ؛ كما قال النبيّ صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم من حديث بريدة ، وفيه : " ثم ادعهم إلى التحوّل من دارهم إلى دار المهاجرين وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يتحوّلوا عنها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين " .

وثانيها إسقاط شهادة أهل البادية عن الحاضرة ؛ لما في ذلك من تحقق التهمة .

وأجازها أبو حنيفة قال : لأنها لا تراعي كل تُهمَة ، والمسلمون كلهم عنده على العدالة .

وأجازها الشافعيّ إذا كان عدلاً مرضياً ؛ وهو الصحيح لما بيناه في "البقرة" .

وقد وصف الله تعالى الأعراب هنا أوصافاً ثلاثة : أحدها بالكفر والنفاق .

(257/346)

والثاني بأنه يتخذ ما ينفِق مغرماً ويتربص بكم الدوائر .

والثالث بالإيمان بالله وباليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول ؛ فمن

كانت هذه صفته فبعيد ألا تقبل شهادته فيلحق بالثاني والأوّل ، وذلك باطل .

وقد مضى الكلام في هذا في "النساء" .

وثالثها أن إمامتهم بأهل الحاضرة ممنوعة لجهلهم بالسنة وتركهم الجمعة .

وكره أبو مِجْلَز إمامة الأعرابي .

وقال مالك : لا يؤم وإن كان أقرأهم .

وقال سفيان الثوريّ والشافعيّ وإسحاق وأصحاب الرأي : الصلاة خلف الأعرابي جائزة .

واختاره ابن المنذر إذا أقام حدود الصلاة .

قوله تعالى : ﴿ أَشَدُّ ﴾ أصله أشْدَد ؛ وقد تقدّم .

﴿ كُفْراً ﴾ نصب على البيان .

﴿ وَنِفَاقاً ﴾ عطفٌ عليه .

﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ عطف على أشدّ ، ومعناه أخلق ؛ يقال : فلان جدير بكذا أي خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع جدراء وجديرون .

وأصله من جدر الحائط وهو رفعه بالبناء .

فقوله : هو أجدر بكذا أي أقرب إليه وأحق به .

﴿ أَلاَّ يَعْلَمُواْ ﴾ أي بألاّ يعلموا .

والعرب : جيل من الناس ، والنسبة إليهم عربِيّ بين العروبة ، وهم أهل الأمصار .

والأعراب منهم سكان البادِية خاصة .

وجاء في الشعر الفصيح أعاريب .

والنسبة إلى الأعْرَاب أعرابيّ لأنه لا واحد له ، وليس الأعراب جمعاً للعرب كما كان الأنباط جمعاً لنَبَط ؛ وإنما العرب اسم جنس .

والعرب العاربة هم الخلص منهم ، وأخِذ من لفظه وأكِّد به ؛ كقولك : لَيْل لائل .

وربما قالوا : العرب العَرْبَاء .

وتعرّب أي تشبه بالعرب .

وتعرّب بعد هجرته أي صار أعرابياً .

والعرب المستعرِبة هم الذين ليسوا بخلص ، وكذلك المتعربة ، والعربية هي هذه اللغة .

ويَعْرُب بن قحطان أوّل من تكلم بالعربية ، وهو أبو اليمن كلهم .

والعُرْب والعَرَب واحد : مثل العُجْم والعَجَم .

والعُرَيْب تصغير العرب ؛ قال الشاعر :

ومَكْن الضِّباب طعام العرَيْبِ . . .

ولا تشتهِيه نفوسُ العجَمْ

إنما صغرهم تعظيماً ؛ كما قال : أنا جُذَيْلُها المحَكَّكُ ، وعُذَيْقُها المرَجَّب كله عن الجوهرِيّ .

وحكى القشيرِيّ وجمع العربي العَرَب ، وجمع الأعرابي أعراب وأعاريب .

والأعرابي إذا قيل له يا عَرَبِيّ فرِح ، والعربيّ إذا قيل له يا أعرابي غضب .

والمهاجرون والأنصار عرب لا أعراب .

وسميت العرب عَرَباً لأن ولد إسماعيل نشَئوا من عَرَبَة وهي من تهامة فنسبوا إليها .

وأقامت قريش بعَرَبة وهي مكة ، وانتشر سائر العرب في جزيرتها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(259/346)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾

نزلت في سكان البادية يعني أن أهل البدو أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر .

قال أهل اللغة : يقال رجل عربي إذا كان نسبه في العرب وجمعه العرب .

ورجل أعرابي إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيب والكلأ .

ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب فمن استوطن القرى والمدن العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم الأعراب ، فالأعرابي إذا قيل له يا عربي فرح بذلك .

العربي إذا قيل له : يا أعرابي غضب والعرب أفضل من الأعراب ، لأن المهاجرين والأنصار وعلماء الدين من العرب .

والسبب في كون الأعراب أشد كفراً ونفاقاً بُعدهم عن مجالسة العلماء وسماع القرآن والسنن والمواعظ وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأجدر ﴾ يعني وأخلق وأحرى ﴿ ألا يعلموا ﴾ يعني بأن لا يعلموا ﴿ حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ يعني الفرائض والسنن والأحكام ﴿ والله عليم ﴾ يعني بما في قلوب عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما فرض من فرائضه وأحكامه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(260/346)

وقال أبو حيان :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم ﴾

نزلت في أعراب من أسد ، وتميم ، وغطفان .

ومن أعراب حاضري المدينة أي : أشد كفراً من أهل الحضر .

وإذا كان الكفر متعلقاً بالقلب فقط ، فالتقدير أشد أسباب كفر ، وإذا دخلت فيه أعمال الجوارح تحققت فيه الشدة .

وكانوا أشد كفراً ونفاقاً لتوحشهم واستيلاء الهواء الحار عليهم ، فيزيد في تيههم ونخوتهم وفخرهم وطيشهم وتربيتهم بلا سائس ولا مؤدب ولا ضابط ، فنشأوا كما شاؤا لبعدهم عن مشاهدة العلماء ومعرفة كتاب الله وسنة رسول الله ، ولبعدهم عن مهبط الوحي .

كانوا أطلق لساناً بالكفر والنفاق من منافقي المدينة ، إذ كان هؤلاء يستولي عليهم الخوف من المؤمنين ، فكان كفرهم سراً ولا يتظاهرون به إلا تعريضاً .

وأجدر أي : أحق أنْ لا يعلموا أي بأن لا يعلموا .

والحدود : هنا الفرائض .

وقيل : الوعيد عل مخالفة الرسول ، والتأخر عن الجهاد .

وقيل : مقادير التكاليف والأحكام .

وقال قتادة : أقل علماً بالسنن .

وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إن الجفاء والقسوة في الفدادين " والله عليم يعلم كل أحد من أهل الوبر والمدر ، حكيم فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم من ثواب وعقاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

﴿ الأعراب ﴾ هي صيغةُ جمعٍ وليست بجمع للعرب قاله سيبويه لئلا يلزمَ كونُ الجمع أخصَّ من الواحد فإن العربَ هو هذا الجيلُ الخاصُّ سواء سكنَ البواديَ أم القرى ، وأما الأعرابُ فلا يطلق إلا على من يسكن البواديَ ولهذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل : أعرابيٌّ وقال أهلُ اللغة : رجلٌ عربيٌ وجمعُه العَرَبُ كما يقال : مَجوسيٌّ ويهوديٌّ ثم يحذف ياء النسب في الجمع فيقال : المجوس واليهود ورجلٌ أعرابي ويجمع على الأعراب والأعاريب أي أصحاب البدو ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من أهل الحضَر لجفائهم وقسوةِ قلوبهم وتوحُّشهم ونشئِهم في معزل من مشاهدة العلماء ومفاوضتهم ، وهذا من باب وصف الجنسِ بوصف بعض أفرادِه كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ إذ ليس كلُّهم كما ذُكر على ما ستحيط به خُبراً ﴿ وَأَجْدَرُ أَن لا يَعْلَمُواْ ﴾ أي أحقُّ وأخلقُ بأن لا يعلموا ﴿ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ لبعدهم عن مجلسه صلى الله عليه وسلم وحِرمانِهم من مشاهدة معجزاتِه ومعاينةِ ما ينزل عليه من الشرائع في تضاعيف

الكتابِ والسنة ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوال كلَ من أهل الوَبر والمدَر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يصيب به مسيئَهم ومحسنَهم من العقاب والثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(262/346)

وقال الآلوسى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

﴿ الأعراب ﴾ هي صيغة جمع وليست بجمع للعرب على ما روي عن سيبويه لئلا يلزم كون الجمع أخص من الواحد ، فإن العرب هذا الجيل المعروف مطلقاً والأعراب ساكن البادية منهم ، ولذا نسب إلى الأعراب على لفظه فقيل أعرابي ، وقيل : العرب سكان المدن والقرى والأعراب سكان البادية من هذا الجيل أو مواليهم فهما متباينان ، ويفرق بين الجمع والواحد بالياء فيهما فيقال للواحد عربي وأعرابي وللجماعة عرب وأعراب وكذا أعاريب وذلك كما يقال الواحد : مجوسي ويهودي ثم تحذف الياء في الجمع فيقال المجوس واليهود ، أي أصحاب البدو ﴿ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ من أهل الحضر الكفار والمنافقين لتوحشهم وقساوة قلوبهم وعدم مخالطتهم أهل الحكمة وحرمانهم استماع الكتاب والسنة

وهم أشبه شيء بالبهائم ، وفي الحديث عن الحسن عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سكن البادية جفا ومن اتبع الصيد غفل ومن أتي السلطان افتتن " وجاء "ثلاثة من الكبائر" وعد منها التعرب بعد الهجرة وهو أن يعود إلى البادية ويقيم مع الأعراب بعد أن كان مهاجراً ، وكان من رجع بعد الهجرة إلى موضعه من غير عذر يعدونه كالمرتد ، وكان ذلك لغلبة الشر في أهل البادية والطبع سراق أو للبعد عن مجالس العلم وأهل الخير وإنه ليفضي إلى شر كثير ، والحكم على الأعراب بما ذكر من باب وصف الجنس بوصف بعض أفراده كما في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الإنسان كَفُورًا ﴾ [الإسراء : 67] إذ ليس كلهم كما ذكر ، ويدل عليه قوله تعالى الآتي : ﴿ وَمِنَ الاعراب مَن يُؤْمِنُ ﴾ [التوبة : 99] الخ ، وكان ابن سيرين كما أخرج أبو الشيخ عنه يقول : إذا تلا أحدكم هذه الآية فليتل الآية الأخرى يعنى بها ما أشرنا إليه ، والآية المذكورة كما روي عن الكلبي نزلت في أسد .

وعطفان ، والعبرة بعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

(263/346)

﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ أي أحق وأخلق ، وهو على ما قال الطبرسي مأخوذ من جدر الحائط بسكون الدال وهو أصله وأساسه ويتعدى بالباء فقوله تعالى : ﴿ أَلَّا يَعْلَمُوا ﴾ بتقدير بأن لا يعلموا ﴿ حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللهُ على رَسُولِهِ ﴾ وهي كما أخرج أبو الشيخ عن الضحاك الفرائض وما أمروا به من الجهاد ، وأدرج بعضهم السنن في الحدود ، والمشهور أنها تخص الفرائض ، أو الأوامر والنواهي لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة : 229] و ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ﴾ [البقرة : 187] ، ولعل ذلك من باب التغليب ولا بعد فيه فإن الأعراب أجدر أن لا يعلموا كل ذلك لبعدهم عمن يقتبس منه ، وقيل : المراد منها بقرينة المقام وعيده تعالى على مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، وقيل : مقادير التكاليف .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ يعلم أحوال كل من أهل الوبر والمدر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ بما سيصيب به مسيئهم ومحسنهم من العقاب والثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(264/346)

وقال القاسمى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴾

﴿ الْأَعْرَابُ ﴾ وهم أهل البدو ﴿ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً ﴾ أي : من أهل الحضر ، لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بعدٍ من مشاهدة العلماء ، ومعرفة الكتاب والسنة : ﴿ وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ أي : وأحق بجهل حدود الدين ، وما أنزل الله من الشرائع والأحكام ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ، مخطئهم ومصيبهم ، من عقابه وثوابه .

لطائف :

الأولى : قال الشهاب : العرب ، هذا الجيل المعروف مطلقاً ، والأعراب سكان البادية منهم ، فهو أعم .

وقيل : العرب سكان المدن والقرى ، والأعراب سكان البادية من العرب ، أو مواليهم ، فهما متباينان ، ويفرق بين جمعه وواحده بالياء فيهما .

الثانية : ما ذكر في الآية من أجدرية جهل

الأعراب من بعدهم عن سماع الشرائع ، وملابسة أهل الحق ، يشير إلى ذم سكان البادية وهو يطابق ما رواه الإمام أحمد ، وأصحاب السنن ، عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : < من سكن البادية جفا > ، وتتمته : < ومن اتبع الصيد غفل ،

ومن أتى السلطان افتتن > . وقوله صلى الله عليه وسلم : < إن الجفاء والقسوة في الفدادين > .

قال ثعلب : الفدادون أصحاب الوبر ، لغلظ أصواتهم ، وهم أصحاب البادية ، ويقال : من صحب الفدادين ، فلا دنيا نال ولا دين .

مأخوذ من الفديد ، وهو رفع الصوت أو شدته .

(265/346)

قال ابن كثير : ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي ، لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ﴾ .

ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فردّ عليه أَضعافها حتى رضي قال : < لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي > ، لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب ، لما في طباع الأعراب من الجفاء .

الثالثة : روي الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان وهو

يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم نهاوند ، فقال الأعرابي : والله ! إن حديثك ليعجبني وإن يدك لتريبني ! فقال زيد : ما يريبك من يدي ، إنها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ! ما أدري اليمين يقطعون أو الشمال ؟ فقال زيد من صوحان : صدق الله : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 497 . 498 ﴾

(266/346)

وقال ابن عاشور :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

استئناف ابتدائي رجع به الكلام إلى أحوال المعذّرين من الأعراب والذين كذبوا الله ورسوله منهم ، وما بين ذلك استطراد دعا إليه قرن الذين كذبوا الله ورسوله في الذكر مع الأعراب .

فلما تقضَّى الكلام على أولئك تخلص إلى بقية أحوال الأعراب .

وللتنبيه على اتصال الغرضين وقع تقديم المسند إليه ، وهو لفظ (الأعراب) للاهتمام به من هذه الجهة ، ومن وراء ذلك تنبيه المسلمين لأحوال الأعراب لأنهم لبعدهم عن

الاحتكاك بهم والمخالطة معهم قد تخفى عليهم أحوالهم ويظنون بجميعهم خيراً .

و(أشد) و (أجدر) اسما تفضيل ولم يذكر معهما ما يدل على مفضل عليه ، فيجوز أن يكونا على ظاهرهما فيكون المفضل عليه أهل الحضر ، أي كفار ومنافقي المدينة .

وهذا هو الذي تواطأ عليه جميع المفسرين .

وازديادهم في الكفر والنفاق هو بالنسبة لكفار ومنافقي المدينة .

ومنافقوهم أشد نفاقاً من منافقي المدينة .

وهذا الازدياد راجع إلى تمكن الوصفين من نفوسهم ، أي كفرهم أمكن في النفوس من كفر كفار المدينة ، ونفاقهم أمكن من نفوسهم كذلك ، أي أمكن في جانب الكفر منه والبعدِ عن الإقلاع عنه وظهور بوادر الشر منهم ، وذلك أن غلظ القلوب وجلافة الطبع تزيد النفوس السيئة وحشة ونفوراً .

ألا تعلم أن ذا الخويصرة التميمي ، وكان يدعى الإسلام ، لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم أعطى الأقرع بن حابس ومن معه من صناديد العرب من ذهب قَسمَه قال ذو الخويصرة مواجهاً النبي صلى الله عليه وسلم "اعدل" فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " ويحك ومَن يعدل إن لم أعْدِل "

فإن الأعراب لنشأتهم في البادية كانوا بعداء عن مخالطة أهل العقول المستقيمة وكانت أذهانهم أبعد عن معرفة الحقائق وأملأ بالأوهام ، وهُم لبعدهم عن مشاهدة أنوار النبي صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وآدابه وعن تلقي الهدى صباحَ مساءَ أجهلُ بأمور الديانة وما به تهذيب النفوس ، وهم لتوارثهم أخلاق أسلافهم وبعدهم عن التطورات المدنية التي تؤثّر سُمّوا في النفوس البشرية ، وإتقاناً في وضع الأشياء في مواضعها ، وحكمة تقليدية تتدرج بالأزمان ، يكونون أقرب سيرة بالتوحش وأكثر غلظة في المعاملة وأضيع للتراث العلمي والخلقي ؛ ولذلك قال عثمان لأبي ذرّ لما عزم على سكنى الربذة : تَعَهَّد المدينةَ كيلا ترتَدَّ أعرابياً .

فأما في الأخلاق التي تحمد فيها الخشونة والغلظة والاستخفاف بالعظائم مثل الشجاعة ؛ والصراحة وإباء الضيم والكرم فإنها تكون أقوى في الأعراب بالجبلة ، ولذلك يكونون أقرب إلى الخير إذا اعتقدوه وآمنوا به .

ويجوز أن يكون ﴿ أشد ﴾ و ﴿ أجدر ﴾ مسلوبَيْ المفاضلة مستعملين لقوة الوصفين في الموصوفِين بهما على طريقة قوله تعالى : ﴿ قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه ﴾ [يوسف : 33] .

فالمعنى أن كفرهم شديد التمكن من نفوسهم ونفاقهم كذلك ، من غير إرادة أنهم أشد كفراً

ونفاقاً من كفار أهل المدينة ومنافقيها .

وعلى كلا الوجهين فإن ﴿ كفراً ونفاقاً ﴾ منصوبان على التمييز لبيان الإبهام الذي في وصف ﴿ أشد ﴾ .

سلك مسلك الإجمال ثم التفصيل ليتمكن المعنى أكمل تمكن .

والأجدر : الأحق .

والجَدارة : الأولوية .

وإنما كانوا أجدر بعدم العلم بالشريعة لأنهم يبعدون عن مجالس التذكير ومنازل الوحي ، ولقلة مخالطتهم أهل العلم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذفت الباء التي يتعدى بها فعل الجدارة على طريقة حذف حرف الجر مع (أن) المصدرية .

والحدود : المقادير والفواصل بين الأشياء .

والمعنى أنهم لا يعلمون فواصل الأحكام وضوابط تمييز متشابهها .

(268/346)

وفي هذا الوصف يَظهر تفاوت أهل العلم والمعرفة .

وهو المعبر عنه في اصطلاح العلماء بالتحقيق أو بالحكمة المفسرة بمعرفة حقائق الأشياء

على ما هي عليه ، فزيادة قيد (على ما هي عليه) للدلالة على التمييز بين المختلطات والمتشابهات والخفيات .

وجملة : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل لهذا الإفصاح عن دخيلة الأعراب وخلقهم ، أي عليم بهم وبغيرهم ، وحكيم في تمييز مراتبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(269/346)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾

وقد تكلم الحق من قبل في المنافقين من غير الأعراب ، وهم العرب الذين نزل لهم وللناس كافة منهج الله ، وهنا يتكلم سبحانه من الأعراب ، فما الفرق بين العرب والإعراب ؟

العرب هم سكان القرى المتوطنون في أماكن ، يذهبون منها أو فيها إلى مصالحهم ؛ ويأوون إليها ؛ وهذه مظهرها البيوت الثابتة ، والتأهيل المستقر ، لكن الأعراب هم سكان البوادي ، وليس لهم استقرار في مكان ، إنما يتتبعون مواضع الكلأ ؛ وليس لهم توطُّن ، ولا أنس لهم بمقام ولا بمكان .

ومعنى ذلك أن كلاّ منهم ليس له سياسة عامة تحكمه في تلك البادية ، وكل واحد منهم – كما يقال – صوته من دماغه ، أو من دماغ رئيس القبيلة ، وما داموا بهذا الشكل ، وليس عندهم توطن ؛ يوحي بالمعاشرة التي تقتضي لين الجانب وحسن التعامل ؛ لذلك يقال عن كل واحد منهم " مستوحش " أي : ليس له ألفة بمكان أو جيران أو قانون عام .

أما الذي يحيا في القرية ويتوطنها فله جيران ، وله قانون يحكمه ، وله إلف بالمكان ، وإلف بالمكين ، ويتعاون مع غيره ، ويتطبع بسكان القرية ويألفهم ويألفونه ومع الإلف والائتلاف يكون اللين في التعامل ، عكس من يحيا في البادية ، فهو يمتلئ بالقسوة ، والفظاظة ، والشراسة ؛ لأن بيئته نضحت عليه والوحدة عزلته .

فإذا سمعت " أعراب " فاعلم أنهم سكان البادية المشهورون بالغلظة ؛ لأنه لا يوجد لهم تجمع يوحي لهم بلطف سلوك ، وأدب تعامل ، وكلمة " الأعراب " مفردها " أعرابيّ " .

وهناك أشياء الفرق بين مفردها وجمعها التاء ، مثل " عنب " و " عنبة " هي المفرد ، وقد يفرق بين الجمع والمفرد " ياء " مثل " روم " والمفرد " رومي " .

(270/346)

ف " أعراب " – إذن – هي جمع " أعرابي " وليس جمع عرب . وهؤلاء مقسومون قسمين : قسم له إلف بالحضر ؛ لأن كل أهل حضر قد يكون لهم بادية يلجأون إليها ، أي أن الأعرابي حين يذهب إلى البادية فهو ينزل ضيفاً عليهم ، ويسمون " المعارف " ، وكل واحد في البادية قد يكون له واحد في الحضر ، إذا اضطر للذهاب للمدينة أو للقرية فهو ينزل عنده . وهناك قسم آخر لا بادية لهم ولا حاضرة .

وبعد أن تكلم الحق عن العرب ونفاقهم ، يتكلم هنا عن الأعراب فيقول : ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ ولماذا هم أشد كفراً ونفاقاً ؟ لأنهم بعيدون عن مواطن العلم والدعوة ، وعندهم غِلْظة ، وعندهم جفاء ، وقوله سبحانه : ﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ يعني : أحق ألاّ يعلموا حدود ما أنزل الله ؛ لأن عرفان حدود ما أنزل الله من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، يأتي من التواصل مع العلم ، وهذا لا يتأتَّى بالتنقل من مكان إلى آخر ، بل لا بد من الاستقرار .

والعلم – كما نعرف – ألا تغيب عن العالم قضية من قضايا الكون ؛ وكل واحد منا يعلم علماً على قدر تجربته ومراسه في الحياة ، وعلى قدر جلوسه إلى العلماء ، لكن الله وحده لا يعلم علم الجميع .

والعلم عند البشر قد يوظِّف ، وقد لا يوظِّف ، وكثير من الناس عندهم العلم لكنهم لا

يوظِّفونه ، ومن لا يوظِّف علمه يصير علمه حُجة عليه . أما من يُوظِّف علمه ، ويضع الأمر في محله ، والنهي في محله ، والحلال في محله ، والحرام في محله ، والمشتبه يضع له حكماً مناسباً ، فهو يوصف بالحكيم ؛ لأنه وضع كل شيء في محله .

(271/346)

فإذا شرع الله أمراً ، فسبحانه قد شرع عن " علم " وعن " حكمة " ، وما دام قد شرع يجب ألا نخالفه ؛ لأن كل تشريع ينزله الله على رسوله إنما هو لتنظيم حركة الحياة ؛ لأنه سبحانه هو الذي خلق الحياة وخلق كل المخلوقات ، وإياك أن تدس أنت أنفك فتشرِّع ما يغضب الحق ؛ لأن فساد الكون كله قد جاء من الذين أرادوا أن يُقنِّنوا للخلق ، رغم أنهم لم يخلقوهم . ونقول لهم : دعوا التقنين للخلق لمن خلق الخلق ، فهو الصانع العالم بحدود ما صنع ووضع قوانين صيانة ما خلق ، وهو سبحانه هو الذي يمكنه أن يصلحها إن أصابها عطب أو فساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(272/346)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ ثم استثنى منهم فقال ﴿ من الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] الآية .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ قال : هم أقل علماً بالسنن .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي قال : كان زيد بن صوحان يحدث فقال اعرابي : إن حديثك ليعجبني وأن يدك لتريبني . فقال : أما تراها الشمال ؟ فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال ؟ قال زيد : صدق الله ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ قال : من منافقي المدينة ﴿ وأجدر ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ يعني الفرائض وما أمر به من الجهاد .

وأخرج أبو الشيخ عن الكلبي في الآية : أنها أنزلت في أسد وغطفان .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن سيرين قال : إذا تلا أحدكم هذه الآية ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ فليتل الآية الأخرى ولا يسكت ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] .

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي وحسنه والنسائي والبيهقي في الشعب عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن " .

وأخرج أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعداً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(273/346)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الأعراب ﴾ : صيغة جمعٍ وليس جمعاً لعرب قاله سيبويه ؛ وذلك لئلا يلزمَ أن يكونَ الجمعُ أخصَّ من الواحد ، فإن العرب هذا الجيل الخاص سواء سكن البوادي أم سكن القرى ، وأما الأعرابُ فلا يُطْلق إلى على مَنْ يَسْكن البواديَ فقط . وقد تقدَّم لك في أوائل هذا الموضوع عند قوله تعالى : ﴿ رَبِّ العالمين ﴾ [الفاتحة : 1] ، ولهذا الفرقِ نُسِب إلى الأعراب على لفظه فقيل : أعرابيّ . ويُجْمع / على أعاريب .

وقوله : ﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ ، أي : أحقُّ وأَوْلى ، يقال : هو جديرٌ وأجدر وحقيق وأحقّ وقمين وأَوْلى وخليق بكذا ، كلُّه بمعنى واحد . قال الليث : " جَدَرَ يَجْدُرُ جَدارةً فهو جديرٌ ، ويؤنَّث ويثنَّى ويُجمع قال الشاعر :

2535 بِخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عَبْقَرِيَّةٌ . . . جديرون يوماً أن يَنَالوا وَيَسْتَعْلوا

وقد نبَّه الراغب على أصلِ اشتقاقِ هذه المادة وأنها من الجِدار أي الحائط ، فقال : " والجديرُ : المنتهى لانتهاء الأمر إليه انتهاءَ الشيء إلى الجدار " والذي يظهر أن اشتقاقَه مِنَ الجَدْر وهو أصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجَدرْ في قولك " جدير بكذا " .

قوله : ﴿ أَلَّا يَعْلَمُواْ ﴾ ، أي : بأن لا يَعْلموا فحذف حرفَ الجر فجرى الخلافُ المشهور بين الخليل والكسائي مع سيبويه والفراء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 104 . 105 ﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾

جُبِلَتْ قلوبُهم على القسوةِ فلم تَقْرَعْها هواجِمُ الصفوة ، وكانوا عن أشكالهم في الخِلْقَةِ مستأخرين بما (. . . .) من سوء الخُلُق ؛ فَهُمْ مِنَ استبانةِ الحقائق أبعد ، ومن استيجاب الهوان أقرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 57 ﴾

(275/346)

فصل

قال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ﴾

في الدين واتفاق الكلمة والعون والنصرة وهذا في مقابلة قوله تعالى : ﴿ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض ﴾ (التوبة ،)

فإن قيل : لم قال تعالى في وصف المنافقين : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ وقال في وصف المؤمنين : ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ ما الحكمة في ذلك ؟

أجيب : بأنه لما كان نفاق الإتباع حصل بسبب التقليد لأولئك الأكابر لسبب مقتضى الهوى والطبيعة والعادة قال فيهم : ﴿ بعضهم من بعض ﴾ ولما كانت الموافقة الخالصة بين المؤمنين بتوفيق الله تعالى وهدايته لا بمقتضى الطبيعة وهوى النفس وصفهم بأنّ بعضهم أولياء بعض فظهر الفرق بين الفريقين وظهرت الحكمة ، وقوله تعالى : ﴿ يأمرون بالمعروف ﴾ أي : بالإيمان بالله ورسوله واتباع أمره والمعروف كل ما عرف من الشرع من خير وطاعة ﴿ وينهون عن المنكر ﴾ أي : الشرك والمعاصي ، والمنكر كل ما ينكره الشرع وينفر منه الطبع في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿ يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ﴾ ﴿ ويقيمون الصلاة ﴾ أي : المفروضة ويتمون أركانها وشروطها ﴿ ويؤتون الزكاة ﴾ أي : الواجبة عليهم في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ المعبر به عن البخل وقوله تعالى : ﴿ ويطيعون الله ورسوله ﴾ أي : فيما يأمرهم به في مقابلة قوله تعالى في المنافقين : ﴿ نسوا الله فنسيهم ﴾ ، ولما ذكر تعالى ما وعد به المنافقين من العذاب في نار جهنم ذكر ما وعد به المؤمنين من الرحمة المستقبلة وهي ثواب الآخرة بقوله تعالى : ﴿ أولئك ﴾ أي : المؤمنون والمؤمنات الموصوفون بهذه الصفات ﴿ سيرحمهم الله ﴾ بوعد لا خلف فيه ﴿ إنّ الله عزيز ﴾ أي : غالب على كل شيء لا يمتنع عليه ما

يريده ﴿ حكيم ﴾ أي : لا يقدر أحد على نقض ما يحكمه وحل ما يبرمه ، ولما ذكر سبحانه وتعالى الوعد على سبيل الإجمال ذكره على سبيل التفصيل بقوله تعالى:

(276/346)

﴿ وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ فذكر في هذه الآية أنّ الرحمة هي هذه الأنواع المذكورة في هذه الآية أوّلها قوله تعالى : ﴿ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴾ فهي لا تزال خضرة ذات بهجة نضرة ، ولما كان النعيم لا يكمل إلا بالدوام قال تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ والمراد بالجنات التي تجري من تحتها الأنهار البساتين التي يحير في حسنها الناظر لأنه تعالى قال : ﴿ ومساكن طيبة في جنات عدن ﴾ أي : إقامة وخلود وهذا هو النوع الثاني فتكون جنات عدن هي المساكن التي يسكنونها والجنات الأخر هي البساتين التي يتنزهون فيها فهذه فائدة المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه .

(277/346)

قد كثر كلام أصحاب الآثار في صفة جنات عدن فقال الحسن : سألت عمران بن الحصين عن قوله تعالى : ﴿ ومساكن طيبة ﴾ فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : "قصر في الجنة من اللؤلؤ فيه سبعون داراً من ياقوتة حمراء في كل دار سبعون بيتاً من زمرّدة خضراء في كل بيت سبعون سريراً على كل سرير سبعون فراشاً على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لوناً من الطعام وفي كل بيت سبعون وصيفة ويعطى المؤمن من القوّة في غداة واحدة ما يأتي على ذلك أجمع" ، وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر" أي : دار الله تعالى التي أعدها لأوليائه وأهل طاعته والمقرّبين من عباده ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قلت : يا رسول الله حدّثني عن الجنة ما بناؤها قال : "لبنة من ذهب ولبنة من فضة وبلاطها المسك الإذفر وتربتها الزعفران وحصباؤها الدر والياقوت فهي النعيم بلا بؤس والخلود بلا موت لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه" . وقال ابن مسعود : جنات عدن بطنان الجنة ، قال الأزهري : بطنانها وسطها ، وقال عطاء عن ابن عباس : هي قصر في الجنة وسقفها عرش الرحمن وهي المدينة التي فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى وسائر الجنان حولها وفيها عين التسنيم وفيها قصور الدر والياقوت والذهب فتهب ريح طيبة من تحت العرش فتدخل عليهم كثبان المسك الإذفر ، وقال عبد

الله بن عمرو بن العاصي رضي الله تعالى عنهما : إنّ في الجنة قصراً يقال له عدن حوله البروج والمروج له خمسة آلاف باب لا يدخله إلا نبيّ أو صدّيق أو شهيد أو حكم عدل .

(278/346)

وقال عطاء بن السائب : عدن نهر في الجنة قبابه على حافتيه ، وقال الرازي : حاصل الكلام أنّ في جنات عدن قولين : أحدهما : أنه اسم علم لموضع معين في الجنة وهذه الأخبار والآثار تقوي هذا القول ، وقال في "الكشاف" : وعدن علم بدليل قوله تعالى : ﴿ جنات عدن التي وعد الرحمن عباده ﴾ (مريم ،)

والقول الثاني : أنه صفة الجنة .

قال الأزهري : مأخوذ من قولك : عدن بالمكان ، إذا أقام به يعدن عدوناً فبهذا الاشتقاق قالوا الجنات كلها جنات عدن جعلنا الله تعالى ومن نحبه من أهلها وأحل علينا رضوانه فإنه المقصود الأعظم كما قال تعالى : ﴿ ورضوان من الله أكبر ﴾ لأنه المبدأ لكل سعادة وكرامة والمؤدّي إلى نيل الوصول والفوز باللقاء .

روي عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "إنّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ، فيقولون : لبيك وسعديك والخير في يديك

، فيقول : هل رضيتم ، يقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون : وأيّ شيء أفضل من ذلك ؟ قال تعالى : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً" وهذا هو النوع الثالث وقرأ شعبة ورضوان بضم الراء ، والباقون بالكسر ﴿ ذلك ﴾ أي : الرضوان أو جميع ما تقدّم ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ الذي تستصغر دونه الدنيا وما فيها ، ولما وصف الله تعالى المنافقين بالصفات الخبيثة وتوعدهم بأنواع العقاب وكانت عادة الله تعالى في هذا الكتاب الكريم جارية بذكر الوعد مع الوعيد لا جرم ذكر عقبه وصف المؤمنين بالصفات الشريفة الطاهرة الطيبة ووعدهم بالثواب الرفيع والدرجة العالية ثم عاد إلى شرح أحوال الكفار والمنافقين بقوله تعالى:

﴿ يا أيها النبيّ جاهد الكفار ﴾ أي : المجاهرين ﴿ والمنافقين ﴾ أي : الساترين كفرهم بظهور الإسلام .

(279/346)

فإن قيل : الآية تدلّ على وجوب مجاهدة المنافقين وهو غير جائز فإن المنافق كما مرّ من يستر كفره ويقرّ بلسانه ومن كان كذلك لم تجز محاربته ومجاهدته أجيب : بأن ليس في الآية

ما يدلّ على أن ذلك الجهاد بالسيف أو باللسان أو بطريق آخر وإنما تدلّ على وجوب الجهاد مع الفريقين وكيفية تلك المجاهدة إنما تعرف من دليل آخر وقد دلت الدلائل المفصلة على أن المجاهدة مع الكفار يجب أن تكون بالسيف ومع المنافقين بالحجة والبرهان وحمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

قال القاضي : وهذا ليس بشيء لأنّ إقامة الحدود واجبة على من ليس بمنافق فلا يكون لها تعلق بالنفاق . ولما كان صلى الله عليه وسلم مطبوعاً على الرفق وحسن الخلق قال تعالى : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ أي : بالانتهار والمقت في الجهادين لا تعاملهم بمثل ما عاملتهم به من اللين عند استئذانهم في القعود وهذا بخلاف ما مضى في وعيد المنافقين حيث قدمهم فقال : ﴿ المنافقون والمنافقات ﴾ فقدم في كل سياق الأليق به ﴿ ومأواهم ﴾ أي : مسكنهم في الآخرة ﴿ جهنم وبئس المصير ﴾ أي : المرجع هي .

﴿ يحلفون ﴾ أي : المنافقون ﴿ با ما قالوا ﴾ أي : ما بلغك عنهم من السب والمفسرون ذكروا في أسباب نزول هذه الآية وجوهاً .

الأوّل : روي أنه عليه الصلاة والسلام أقام في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ويعيب المتخلفين فقال الجلاس بن سويد : لئن كان ما يقول محمد في إخواننا الذين خلفناهم بالمدينة حقاً لنحن شرّ من الحمير ، فقال عامر بن قيس الأنصاريّ للجلاس : أجل والله إنّ محمداً صادق وأنت شرّ من الحمار ، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستحضره فحلف

بالله عز وجل ما قاله فرفع عامر يده وقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الصادق وتكذيب الكاذب فنزلت فقال الجلاس : لقد ذكر الله تعالى التوبة في هذه الآية ولقد قلت هذا الكلام وصدق عامر ثم تاب وحسنت توبته .

(280/346)

الثاني : أنها نزلت في عبد الله بن أبي لما قال : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأراد به الرسول صلى الله عليه وسلم فسمع زيد بن أرقم ذلك فبلغه النبيّ صلى الله عليه وسلم فهم عمر رضي الله عنه بقتل عبد الله بن أبي فجاء عبد الله بن أبي وحلف أنه لم يقل .

الثالث : روى قتادة أن رجلين اقتتلا أحدهما من جهينة والآخر من غفار وكانت جهينة حلفاء الأنصار فظهر الجهني على الغفاري فقال عبد الله بن أبي للأوس : انصروا أخاكم فو الله ما مثلنا ومثل محمد إلا كما قال القائل سمن كلبك يأكلك فسعى بها رجل من المسلمين إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فأرسل إليه فسأله فحلف بالله ما قاله فنزلت ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر ﴾ وهي سب النبيّ صلى الله عليه وسلم وقيل : هي كلمة الجلاس بن سويد ، وقيل : هي كلمة عبد الله بن أبيّ ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ أي : وأظهروا كفرهم بعد

إظهارهم الإسلام ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ أي : من قتل النبيّ صلى الله عليه وسلم عند مرجعه من تبوك توافق خمسة عشر منهم إذا تسنم العقبة أي : علاها بالليل فأخذ عمار بن ياسر بخطام ناقته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها فبينما هم كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السلاح فالتفت فإذا قوم متلثمون فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله ، فهربوا .

وقيل : هم المنافقون هموا بقتل عامر حين ردّ على الجلاس .

(281/346)

وقيل : أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما نقموا ﴾ أي : وما أنكروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ﴿ إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله ﴾ فإنّ أكثر أهل المدينة كانوا قبل قدوم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة وبعد قدومه أخذوا الغنائم وفازوا بالأموال ووجدوا الدولة وذلك يوجب أن يكونوا محبين له مجتهدين في بذل النفس والمال لأجله وقتل للجلاس مولى فأمر له رسول الله صلى الله عليه وسلم بديته اثني عشر ألفاً فاستغنى فالمنافقون عملوا بضدّ الواجب فوضعوا موضع شكره صلى الله عليه

وسلم أن نقموا منه .

وقال ابن قتيبة معناه ليس هناك شيء ينقمون منه ولا يعيبون من الله إلا الصنيع وهذا كقول الشاعر:

*ما نقموا من بني أمية إلا ** أنهم يحلمون إن غضبوا*

وكقول النابغة:

*ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم ** بهنّ فلول من قراع الكتائب*

أي : ليس فيها عيب ﴿ فإن يتوبوا ﴾ أي : من كفرهم ونفاقهم ﴿ يك خيراً لهم ﴾ في العاجل والآجل من إصرارهم على ذلك وهذا الذي حمل الجلاس على التوبة والضمير في يك للتوبة ﴿ وإن يتولوا ﴾ أي : يعرضوا عن الإيمان والتوبة ويصروا على النفاق والكفر ﴿ يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا ﴾ بالقتل والأسر والإذلال ﴿ والآخرة ﴾ بالعذاب الأكبر الذي لا خلاص لهم منه وهو خلودهم في النار ﴿ وما لهم في الأرض ﴾ أي : التي لا يعرفون غيرها لسفول همتهم ﴿ من ولي ﴾ يحفظهم منه ﴿ ولا نصير ﴾ يمنعهم وأمّا السماء فهم أقل من أن يطمعوا منها في شيء ناصر أو غيره وأغلظ أكباداً من أن يرتقي فكرهم إلى ما بها من العجائب وما بها من الجنود واعلم أنّ هذه السورة أكثرها في شرح أحوال المنافقين ولا شك أنهم أقسام وأصناف فلهذا السبب يذكرهم الله تعالى على التفصيل

فيقول تعالى : ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبيّ ﴾ (التوبة ،)

﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات ﴾ (التوبة ،)

(282/346)

﴿ ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ﴾ (التوبة/)

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقنّ ﴾ فيه إدغام التاء في الأصل في الصاد

﴿ ولنكونن من الصالحين ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : إن ثعلبة بن حاطب أبطأ عنه ماله بالشام فلحقه شدّة فحلف بالله وهو واقف ببعض مجالس الأنصار لئن آتانا الله من فضله لأصدقنّ ولأؤدّينّ منه حق الله تعالى والمشهور في سبب نزول هذه الآية أنّ ثعلبة بن حاطب الأنصاريّ قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه . فراجعه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما لك في رسول الله أسوة حسنة والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً وفضة لسارت" ثم أتاه بعد ذلك وقال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالاً لأعطينّ كل ذي حق حقه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اللهم ارزق ثعلبة مالاً فاتخذ غنماً فنمت كما تنمى الدود حتى كثرت

ونزل بها وادياً من أودية المدينة واشتغل بها حتى صار يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ويصلي في غنمه باقي الصلوات ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً فصار لا يشهد إلا الجمعة ثم كثرت ونمت حتى تباعد عن المدينة أيضاً فصار لا يشهد لا جمعة ولا جماعة فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : "ما فعل ثعلبة" فقالوا : يا رسول الله اتخذ غنماً ما يسعها واد فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا ويح ثعلبة ثلاثاً" فنزلت آية الصدقة فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين لأخذ الصدقة" وكتب لهما أصناف الصدقة وكيف يأخذان وقال لهما : "مرّا بثعلبة وخذا صدقاته فأتياه وسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ما هذه إلا جزية أو أخت الجزية انطلقا حتى

(283/346)

تفرغا ثم عودا إليّ فانطلقا فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ثم رجعا إلى ثعلبة فقال كمقالته الأولى ولم يدفع إليهما شيئاً فرجعا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبراه بالذي صنع ثعلبة فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وعند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة

فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك كذا وكذا فخرج ثعلبة حتى أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم وسأله أن يقبل صدقته فقال : إن الله تعالى منعني من أن أقبل صدقتك ، فجعل يحثو على رأسه التراب ، فقال صلى الله عليه وسلم "لقد قلت لك فما أطعتني" فرجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ثم جاء بها إلى عمر أيام خلافته فلم يقبلها فلما ولى عثمان أتاه بها فلم يقبلها وهلك ثعلبة في خلافة عثمان رضي الله عنه .

فإن قيل : العبد إذا تاب تاب الله عليه فلماذا منع الله تعالى من قبول صدقته أجيب : بأنّ الله تعالى لما قال : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ (التوبة ،)

وكان هذا المقصود غير حاصل في ثعلبة مع نفاقه فلهذا السبب امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذ تلك الصدقة ثم قال الله تعالى:

﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به ﴾ أي : منعوا حق الله تعالى منه ﴿ وتولوا ﴾ عن طاعة الله تعالى ﴿ وهم معرضون ﴾ أي : عن طاعة الله تعالى .

﴿ فأعقبهم ﴾ أي : صير عاقبتهم ﴿ نفاقاً ﴾ متمكناً ﴿ في قلوبهم إلى يوم يلقونه ﴾ أي : الله يوم القيامة ﴿ بما أخلفوا الله ما وعدوه ﴾ أي : بسبب إخلافهم ما وعدوه من التصدق والصلاح لأنّ الجزاء من جنس العمل ﴿ وبما كانوا يكذبون ﴾ أي : يجددون الكذب دائماً مع الوعد ومنفكاً عنه فقد استكملوا النفاق عاهدوا فغدروا ووعدوا فأخلفوا وحدّثوا

فكذبوا وقد قال صلى الله عليه وسلم "آية المنافق ـ أي : علامته ـ ثلاث إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان" .

(284/346)

﴿ ألم يعلموا ﴾ أي : المنافقون ﴿ أنّ الله يعلم سرّهم ﴾ أي : ما أسروا في أنفسهم من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه ﴿ ونجواهم ﴾ أي : ما تناجوا بينهم من المطاعن في الدين وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها فكيف يجترؤن على النفاق الذي الأصل فيه الاستمرار والتناجي فيما بينهم مع علمهم بأنّ الله تعالى يعلم ذلك من حالهم كما يعلم الظاهر وأنه يعاقب عليه كما يعاقب على الظاهر ﴿ وإنّ الله علام الغيوب ﴾ والعلام مبالغة في العالم والغيب ما كان غائباً عن الخلق فكيف يمكن الإخفاء عنه وقوله تعالى: ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ﴿ يلمزون ﴾ أي : يعيبون ﴿ المطوّعين ﴾ المتنفلين ﴿ من المؤمنين ﴾ أي : الراسخين في الإيمان ﴿ في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم ﴾ أي : طاقتهم فيأتون به ﴿ فيسخرون منهم ﴾ أي : يستهزؤن بهم والخبر ﴿ سخر الله منهم ﴾ أي : جازاهم على سخريتهم ﴿ ولهم عذاب أليم ﴾ على كفرهم وهذا نوع آخر من أعمال المنافقين القبيحة وهو لمزهم لمن يأتي بالصدقات .

روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب ذات يوم وحث على الصدقة فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله مالي ثمانية آلاف درهم جئتك بأربعة آلاف درهم فاجعلها في سبيل الله وأمسكت أربعة آلاف لعيالي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت" فبارك الله تعالى في مال عبد الرحمن حتى أنه خلف امرأتين يوم مات بلغ ثمن ماله لهما مائة وتسعين ألف درهم ، وجاء عاصم بن عدي الأنصاريّ بسبعين وسقاً من تمر وجاء عثمان بن عفان بصدقة عظيمة وجاء أبو عقيل الأنصاريّ بصاع من تمر وقال : أجرت الليلة الماضية نفسي من رجل لإرسال الماء إلى نخله فأخذت صاعين من تمر فأمسكت أحدهما لعيالي وأتيتك بالآخر فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعه في الصدقات فلمزهم المنافقون وقالوا عبد الرحمن وعثمان ما يعطيان إلا رياء والله ورسوله لغنيان عن صاع أبي عقيل ولكن أحب أن يذكر نفسه ليعطى من مال الصدقات فنزلت ، وقوله تعالى:

﴿ أو لا تستغفر لهم ﴾ تخيير للنبيّ صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لهم وتركه قال صلى

الله عليه وسلم "إني خيرت فاخترته" يعني : الاستغفار رواه البخاريّ ﴿ إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ .

(286/346)

روي أن عبد الله بن عبد الله بن أبي وكان من المخلصين سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض أبيه أن يستغفر له ففعل فنزلت فقال عليه الصلاة والسلام : "سأزيد على السبعين" وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل لجواز أن يكون ذلك حداً يخالفه حكم ما وراءه فبين تعالى أن المراد التكثير دون التحديد وإنما خص السبعين من العدد بالذكر لأنّ العرب كانت تستكثر السبعين ولهذا كبر رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة رضي الله عنه سبعين تكبيرة ولأن آحاد السبعين سبع وهو عدد شريف فإن السموات سبع والأرضين سبع والأيام سبع والأقاليم سبع والبحار سبع والنجوم سبع وقد شاع استعمال السبعة والسبعين والسبعمائة ونحوها في التكثير لاشتمال السبعة على جملة أقسام العدد أي عدّة مراتبه الأصلية والفرعية مع ذكر أول فروع فروعه وهي سبعة آحاد عشرات مئين آحاد ألوف عشرات ألوف مئين ألوف آحاد ألوف الألوف وقوله تعالى : ﴿ ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله ﴾ إشارة إلى أن اليأس

من المغفرة وعدم قبول استغفارك ليس لبخل منا ولا قصور فيك بل لعدم قابليتهم بسبب الكفر الصارف عنها ﴿ والله لا يهدي القوم الفاسقين ﴾ أي : المتمردين في كفرهم وهو كالتنبيه على عذر النبيّ صلى الله عليه وسلم في استغفاره وهو عدم يأسهم عن إيمانهم ما لم يعلم أنهم مطبوعون على الضلالة والممنوع هو الاستغفار بعد العلم لقوله تعالى : ﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ (التوبة ،)

﴿ فرح المخلفون ﴾ عن غزوة تبوك ﴿ بمقعدهم ﴾ أي : بقعودهم فهو اسم للمصدر ﴿ خلاف رسول الله ﴾ هذا نوع آخر من قبائح أعمال المنافقين وهو فرحهم بالقعود وكراهتهم الجهاد والمخلف المتروك ممن مضى .

(287/346)

فإن قيل : إنهم احتالوا حتى تخلفوا فكانوا متخلفين . لا مخلفين أجيب : بأنّ من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خروجه إلى الجهاد مع المؤمنين يوصف بأنه مخلف حيث لم ينهض وأقام .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ خلاف ﴾ فيه قولان:

الأوّل : وهو قول الزجاج بمعنى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سار وأقاموا قال وهو منصوب لأنه مفعول له والمعنى بأن قعدوا لمخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم والثاني : قال الأخفش : إن خلاف بمعنى خلف ومعناه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى : ﴿ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ﴾ تعريض للمؤمنين بتحملهم المشاق لوجه الله تعالى بما فعلوا من بذل أنفسهم وأموالهم وإيثارهم ذلك على السكون والراحة وكره ذلك المنافقون وكيف لا يكرهون وما فيهم ما في المؤمنين من باعث الإيمان وداعي الإيقان ﴿ وقالوا ﴾ أي : قال بعض المنافقين لبعض أو قالوا للمؤمنين تثبيطاً ﴿ لا تنفروا ﴾ أي : لا تخرجوا إلى الجهاد ﴿ في الحرّ ﴾ وكانت غزوة تبوك في شدّة الحر فأجاب الله تعالى عن هذا بقوله تعالى : ﴿ قل نار جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون ﴾ أي : يعلمون أنّ بعد هذه الدار داراً أخرى وأن بعد هذه الحياة حياة أخرى وأنّ هذه مشقة منقضية وتلك مشقة باقية ما تخلفوا ولبعضهم

*مسرة أحقاب تلقيت بعدها ** مساءة يوم اربها شبه الصابي*

*فكيف بأن تلقى مسرة ساعة ** وراء تقضيها مساءة أحقاب*

وقوله تعالى:

﴿ فليضحكوا قليلاً ﴾ أي : في الدنيا ﴿ وليبكوا كثيراً ﴾ أي : في الآخرة ورد بصيغة الأمر ومعناه الإخبار بأنه ستحصل لهم هذه الحالة ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ جزاء بما

كانوا يكسبون ﴾ أي : أن ذلك البكاء في الآخرة جزاء لهم على ضحكهم وأعمالهم الخبيث في الدنيا .

(288/346)

روي أن أهل النفاق يبكون في الآخرة في النار عمر الدنيا لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم ففرحهم وضحكهم طول أعمارهم في الدنيا قليل بالنسبة إلى الآخرة لأنّ الدنيا فانية والآخرة باقية والمنقطع الفاني بالنسبة إلى الدائم الباقي قليل .

روي عن أنس أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يا أيها الناس ابكوا فإن لم تستطيعوا فتباكوا فإنّ أهل النار يبكون حتى تسيل دموعهم في وجوههم كأنها جداول حتى تنقطع الدموع فتسيل الدماء فتنفرغ العيون حتى لو أن سفناً أجريت فيها لجرت" قال البيضاوي : ويجوز أن يكون الضحك والبكاء كنايتين عن السرور والغمّ والمراد من القلة العدم .

(289/346)

﴿ فإن رجعك ﴾ أي : ردّك ﴿ الله ﴾ من غزوة تبوك ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ أي : ممن تخلف بالمدينة من المنافقين وإنما قال : ﴿ إلى طائفة منهم ﴾ لأنّ منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف أو اعتذر بعذر صحيح ، وقيل : لم يكن المخلفون كلهم منافقين وأراد بالطائفة المنافقين منهم ﴿ فاستأذنوك للخروج ﴾ معك إلى غزوة أخرى بعد تبوك ﴿ فقل ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين طلبوا الخروج معك وهم مقيمون على نفاقهم ﴿ لن تخرجوا معي أبداً ﴾ أي : في سفر من الأسفار إنّ الله تعالى قد أغناني عنكم وأحوجكم إلي ﴿ ولن تقاتلوا معي عدوّاً ﴾ إخبار بمعنى النهي للمبالغة وقوله تعالى : ﴿ إنكم رضيتم بالقعود أوّل مرّة ﴾ تعليل له وكان إسقاطهم من ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم وأوّل مرة هي الخرجة إلى غزوة تبوك ﴿ فاقعدوا مع الخالفين ﴾ أي : المتخلفين عن الغزو من النساء والصبيان وغيرهم ، قال الرازي : واعلم أنّ هذه الآية تدل على أن الرجل إذا ظهر له من بعض إخوانه مكر وخداع ورآه مشدّداً فيه مبالغاً في تقرير موجباته فإنه يجب عليه أن يقطع العلقة بينه وبينه وأن يحترز عن مصاحبته ، ولما أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بمنع المنافقين من الخروج معه إلى الغزوات إذلالاً لهم أمره بمنع الصلاة على من مات منهم إذلالاً لهم أيضاً بقوله تعالى : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ .

(290/346)

روي أن ابن أبي - رأس المنافقين - دعا النبي صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي مات فيه فلما دخل عليه النبيّ صلى الله عليه وسلم سأله أن يصلي عليه وإذا مات يقوم على قبره ثم أرسل للنبيّ صلى الله عليه وسلم يطلب منه قميصه ليكفن فيه فأرسل إليه القميص الفوقاني فردّه وطلب الذي يلي جلده ليكفن فيه فقال عمر رضي الله عنه : لم تعطي قميصك للرجس النجس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "إنّ قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً وإني أؤمّل من الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب" فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما مات جاء ابنه يعرفه وكان ابنه صحابياً خالصاً صالحاً فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم "صل عليه وادفنه" فقال : إن لم تصل عليه يا رسول الله لم يصل عليه مسلم فقام عليه الصلاة والسلام ليصلي عليه فقام عمر رضي الله عنه بينه وبين القبلة فنزلت هذه الآية وأخذ جبريل عليه السلام بثوب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ﴿ لا تصل على أحد منهم مات أبداً ﴾ قال عمر : فعجبت من جراءتي على النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ وهذا يدل على منقبة عظيمة من مناقب عمر رضي الله عنه وذلك أنّ الوحي ينزل وفق قوله في آيات كثيرة منها آية أخذ الفدية من أسارى بدر وقد سبق شرحه ، ومنها آية تحريم الخمر ، ومنها آية تحويل القبلة ، ومنها آية أمر النساء بالحجاب ، ومنها هذه الآية ، فصار نزول الوحي على

مطابقة قول عمر منصباً عالياً ودرجة رفيعة له في الدارين ولهذا قال في حقه عليه الصلاة والسلام : "لو لم أبعث لبعثت يا عمر نبياً" وإنما لم ينه صلى الله عليه وسلم عن التكفين في القميص ونهى عن الصلاة عليه لأن الضنة بالقميص كانت تخل بالكرم وكان الله تعالى أمره أن لا يردّ سائلاً بقوله تعالى : ﴿ وأما السائل فلا تنهر ﴾ (الضحى ،)

(291/346)

ولأنّ ابنه كان بالوصف المتقدم فأكرمه النبي صلى الله عليه وسلم لمكان ابنه ولأن الرحمة والرأفة كانت غالبة عليه صلى الله عليه وسلم ولأنها كانت مكافأة لإلباسه العباس قميصه حين كان أسر ببدر والمراد من الصلاة الدعاء للميت والاستغفار له وهو ممنوع في حق الكافر ، قال الواحدي : مات في موضع جر لأنه صفة للنكرة كأنه قيل : على أحد منهم ميت ، وقوله تعالى : ﴿ أبداً ﴾ متعلق بقوله : ﴿ ولا تصل ﴾ والتقدير ولا تصل أبداً على أحد منهم منعاً كلياً دائماً ، وقال البيضاوي : مات أبداً يعني : الموت على الكفر فإن إحياء الكافر للتعذيب لا للتمتع فكأنه لم يحيى واختلف في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولا تقم على قبره ﴾ فقال الزجاج : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دفن الميت وقف على قبره ودعا له فمنع ههنا منه قال الكلبي : لا تقم لإصلاح مهمات قبره وهو من قولهم قام فلان

بأمر فلان إذا كفاه أمره وتولاه ، وقيل : لا تقم عند قبره لدفن أو زيارة والأوّل أولى لأنّ النهي للتحريم ثم إنه تعالى علل المنع من الصلاة عليه والقيام على قبره بقوله تعالى : ﴿ إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ أي : كافرون يعني : لم يتوبوا قبل موتهم عن كفرهم فسقط بذلك ما قيل : إن الفسق أدنى من الكفر فما الفائدة في وصفهم بعد ذلك بالفسق ، وأجيب أيضاً : بأنّ الكافر قد يكون عدلاً في دينه وقد يكون فاسقاً فوصف الله تعالى المنافق بالفسق بعد أن وصفه بالكفر تنبيهاً على أن طريقة النفاق طريقة مذمومة عند كل أهل العلم .

فإن قيل : كيف همّ صلى الله عليه وسلم أن يصلي على هذا المنافق مع قيام الكفر فيه وقيل : إنه صلى عليه ؟

أجيب : بأنّ التكاليف مبنية على قوله صلى الله عليه وسلم "نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر" فإنه كان ظاهره الإسلام فلما أعلمه الله تعالى بذلك امتنع فلم يصل على منافق بعد ذلك ولا قام على قبره حتى قبض .

(292/346)

﴿ ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون ﴾ سبق ذكر هذه الآية في هذه السورة بعينها ولكن حصل بينهما تفاوت في ألفاظ أربعة : أوّلها : أنّ في الآية المتقدّمة ﴿ فلا تعجبك ﴾ بالفاء وههنا بالواو لأنّ الآية الأولى ذكرت بعد قوله تعالى : ﴿ ولا ينفقون إلا وهم كارهون ﴾ وصفهم بكونهم كارهين للإنفاق وإنما كرهوا ذلك الإنفاق لكونهم معجبين بكثرة تلك الأموال والأولاد فلهذ المعنى نهاه الله تعالى عن ذلك الإعجاب بفاء التعقيب وأما ههنا فلا تعلق لهذا الكلام بما قبله فجاء بحرف الواو . ثانيها : أنه قال تعالى في الآية الأولى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم ﴾ وههنا كلمة لا محذوفه لأنّ مثل هذا الترتيب يبدأ فيه بالأدون ثم يترقى إلى الأشرف فيقال : لا يعجبني أمر الأمير ولا أمر الوزير وهذا يدل على أنه كان إعجاب أولئك الأقوام بأولادهم فوق إعجابهم بأموالهم وهذه الآية تدل على عدم التفاوت بين الأمرين عندهم . ثالثها : أنه تعالى قال هناك : ﴿ إنما يريد الله ليعذبهم ﴾ وههنا قال : ﴿ إنما يريد الله أن يعذبهم ﴾ فالفائذة فيه التنبيه على أن التعليل في أحكام الله تعالى محال وإن ورد حرف التعليل ومعناه أنه كقوله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله ﴾ وما أمروا إلا بأن يعبدوا الله . رابعها : أنه ذكر في الآية الأولى ﴿ في الحياة الدنيا ﴾ وههنا أسقط لفظ الحياة تنبيهاً على أن الحياة الدنيا بلغت في الخسة مبلغاً إلى أنها لا تستحق أن تسمى حياة بل يجب الاقتصار عند ذكرها على لفظ الدنيا تنبيهاً على كمال دناءتها ، قال الرازي : فهذه وجوه في الفرق بين

هذه الألفاظ والعالم بتحقيق القرآن هو الله تعالى .

فإن قيل : ما الحكمة في التكرير ؟

(293/346)

أجيب : بأنه أشدّ الأشياء جذباً وطلباً للخواطر الاشتغال بالدنيا وهي الأموال والأولاد وما كان كذلك يجب التحذير عنه مرّة بعد أخرى في المطلوبية والمرغوبية كما أعاد تعالى قوله في سورة النساء : ﴿ إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لما يشاء ﴾ (النساء ،)

مرّتين وقيل : إنما كرّر هذا المعنى لأنّ الآية الأولى في قوم منافقين لهم أموال وأولاد في وقت نزولها وهذه الآية في قوم آخرين والكلام الواحد إذا احتيج إلى ذكره مع أقوام كثيرين في أوقات مختلفة لم يكن ذكره مع بعضهم مغنياً عن ذكره مع آخرين ، وقوله تعالى:

﴿ وإذا أنزلت سورة ﴾ يحتمل أن يراد بالسورة تمامها وأن يراد بعضها أي : طائفة من القرآن وقيل : المراد بالسورة سورة براءة لأنّ فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿ أن آمنوا با ﴾ أي : بأن آمنوا ويجوز أن تكون أن المفسرة ﴿ وجاهدوا مع رسوله ﴾ .

فإن قيل : كيف يأمر المؤمنين بالإيمان فإنّ ذلك يقتضي الأمر بتحصيل الحاصل وهو محال ؟

أجيب : بأنّ معناه الدوام على الإيمان والجهاد في المستقبل ، وقيل : هذا الأمر وإن كان ظاهره العموم لكن المراد به الخصوص وهم المنافقون أي : اخلصوا الإيمان بالله وجاهدوا مع رسوله صلى الله عليه وسلم وإنما قدم الأمر بالإيمان على الأمر بالجهاد لأنّ الجهاد بغير الإيمان لا يفيد شيئاً ثم حكى الله تعالى أن عند نزول هذه السورة ماذا يقولون فقال تعالى : ﴿ استأذنك أولو الطول منهم ﴾ قال ابن عباس يعني : أهل الغنى وهم أهل القدرة والثروة والسعة من المال ، وقيل : هم رؤساء المنافقين وكبراؤهم ﴿ وقالوا ﴾ أي : أولو الطول ﴿ ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ أي : الذين قعدوا لعذر كالمرضى والزمنى ، وقيل : مع النساء والصبيان ثم ذمّهم الله تعالى بقوله:

(294/346)

﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ جمع خالفة أي : النساء اللاتي تخلفن في البيوت ، وقيل : الخوالف أدنياء الناس وسفلتهم يقال : فلان خالفه قومه إذا كان دونهم وإنما خص أولو الطول بالذكر لأنّ الذم لهم لازم لكونهم قادرين على السفر والجهاد وأمّا من لا مال له ولا قدرة له على السفر فلا يحتاج إلى الاستئذان قال المفسرون : كان يصعب على المنافقين تشبيههم بالخوالف ﴿ وطبع ﴾ أي : وختم ﴿ على قلوبهم ﴾ أي : هؤلاء المنافقين ﴿ فهم

لا يفقهون ﴾ أي : لا يعلمون ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاوة والخذلان ولما شرح الله سبحانه وتعالى حال المنافقين من الفرار عن الجهاد بين حال الرسول والذين آمنوا معه بالضدّ منه بقوله تعالى:

﴿ لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ﴾ أي : بذلوا المال والنفس في طلب رضوان الله تعالى والتقرب إليه وفي قوله تعالى : ﴿ لكن ﴾ فائدة وهي تقرير أنه وإن تخلف هؤلاء المنافقون عن الغزو فقد توجه إليه من هو خير منهم وأخلص نية واعتقاداً كقوله تعالى : ﴿ فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ﴾ (الأنعام ،) ، ولما وصفهم الله تعالى بالمسارعة إلى الجهاد ذكر ما حصل لهم من الفوائد والمنافع وهو أنواع : أوّلها : ما ذكره تعالى بقوله سبحانه : ﴿ وأولئك لهم الخيرات ﴾ أي : منافع الدارين النصرة والغنيمة في الدنيا والجنة والكرامة في الآخرة ، وقيل : الخيرات الحور العين لقوله تعالى : ﴿ فيهنّ خيرات حسان ﴾ (الرحمن ،)

ثانيها : ما ذكره الله تعالى بقوله : ﴿ وأولئك هم المفلحون ﴾ أي : الفائزون بالمطالب المتخلصون من العقاب والعتاب وثالثها : ما ذكره بقوله تعالى:

﴿ أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾ هذا بيان ما لهم من الخيرات الأخروية .

﴿ وجاء المعذرون ﴾ بإدغام التاء في الأصل في الذال أي : المعتذرون بمعنى المعذورين ﴿ من الأعراب ﴾ إلى النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ ليؤذن لهم ﴾ في القعود لعذرهم فأذن لهم واختلف في هؤلاء المعذرين فقيل : هم أسد وغطفان قالوا : إنّ لنا عيالاً وإن بنا جهداً فائذن لنا في التخلف ، وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال صلى الله عليه وسلم "سيغنيني الله عنكم" وقيل : نفر من غفار اعتذروا فلم يعذرهم الله ، وعن قتادة : اعتذروا بالكذب والاعتذار في كلام العرب على قسمين : يقال : اعتذر إذا كذب في عذره ومنه قوله تعالى :

﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ (التوبة ،)

فردّ الله تعالى عيهم بقوله : ﴿ قل لا تعتذروا ﴾ (التوبة ،)

فدلّ ذلك على فساد عذرهم وكذبهم فيه . ويقال : اعتذر إذا أتى بعذر صحيح كما في قول لبيد :

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

يريد : فقد جاء بعذر صحيح . وقيل : هو التعذير الذي هو التقصير ، يقال : عذر يعذر إذا قصر ولم يبالغ فعلى هذا المعنى يحتمل أنهم كانوا صادقين في اعتذارهم وأنهم كانوا كاذبين ، ومن المفسرين من قال : إنهم كانوا صادقين بدليل أنه تعالى لما ذكره قال بعده :

﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ أي : في ادعاء الإيمان من منافقي الأعراب عن المجيء للاعتذار فلما فصل بينهم وميزهم عن الكاذبين دل ذلك على أنهم ليسوا كاذبين . ويروى عن عمرو بن العلاء أنه لما قيل له هذا الكلام فقال : إن أقواماً تكلفوا عذراً بباطل فهم الذين عناهم الله تعالى بقوله : ﴿ وجاء المعذرون ﴾ وتخلف الآخرون لا لعذر ولا لشبه عذر جراءة على الله وهم المراد بقوله تعالى : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ ﴿ سيصيب الذين كفروا منهم ﴾ أي : من الأعراب أو من المعذرين فإن منهم من اعتذر لكسله لا لكفره ﴿ عذاب أليم ﴾ في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار .

(296/346)

ولما بين سبحانه وتعالى الوعيد في حق من توهم العذر مع أنه لا عذر له ذكر أصحاب الأعذار الحقيقة وبين أن تكليف الله تعالى بالغزو والجهاد عنهم ساقط بقوله تعالى : ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ كالشيوخ ومن خلق في أصل الفطرة ضعيفاً نحيفاً ﴿ ولا على المرضى ﴾ كالزمنى والعرج والعمي ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ في الجهاد ﴿ حرج ﴾ أي : إثم في التخلف عنه فنفى سبحانه وتعالى عن هذه الأقسام الثلاثة الحرج فيجوز لهم أن يتخلفوا عن الغزو وليس في الآية بيان أنه يحرم عليهم الخروج لأنّ الواحد من

هؤلاء لو خرج ليعين المجاهدين بقدر قدرته إما لحفظ متاعهم أو لتكثير سوادهم بشرط أن لا يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم كان ذلك طاعة مقبولة ثم إنه سبحانه وتعالى شرط في جواز هذا التأخر عن الغزو شرطاً بقوله : ﴿ إذا نصحوا ورسوله ﴾ في حال قعودهم بالإيمان والطاعة في السرّ والعلانية وأن يحترزوا عن إلقاء الإرجافات وعن إثارة الفتن ويسعوا في إيصال الخير إلى المجاهدين الذين سافروا إما أن يقوموا بإصلاح مهمات بيوتهم وإما أن يسعوا إلى إيصال الأخبار السارة من بيوتهم إليهم فإن جملة هذه الأمور جارية مجرى الإعانة على الجهاد وقوله تعالى : ﴿ ما على المحسنين ﴾ في موضع ما عليهم لبيان إحسانهم بنصحهم مع عذرهم ﴿ من سبيل ﴾ أي : طريق إلى ذمهم أو لومهم والمعنى أنه سدّ بإحسانه طريق العتاب ومن أعظم الإحسان من شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله مخلصاً من قلبه فإن ما عليه من سبيل في نفسه وماله لإباحة الشرع بدليل منفصل إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، والمحسن هو الآتي بالإحسان ورأس أبواب الإحسان ورئيسها هو قول : لا إله إلا الله محمد رسول الله ﴿ والله غفور ﴾ أي : محاء للذنوب ﴿ رحيم ﴾ أي : بجميع عباده ، وفي ذلك إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير وإن اجتهد فلا يسعه إلا العفو ولما ذكر الله سبحانه وتعالى الضعفاء والمرضى والفقراء وبين أنه يجوز لهم التخلف عن

الجهاد بشرط

أن يكونوا ناصحين لله ورسوله وهو كونهم محسنين وأنه ليس لأحد عليهم سبيل ذكر قسماً رابعاً من المعذورين بقوله تعالى:

﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ إلى الغزو وهم البكاؤن سبعة من الأنصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وسالم بن عمير وثعلبة بن غنمة وعبد الله بن مغفل وعلية بن زيد أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بدرنا بالخروج أي : أسرعنا فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا أجد ما أحملكم عليه" فتولوا وهم يبكون ولذلك سموا البكائين وقيل : هم بنو مقرن من مزينة وكانوا ثلاثة أخوة معقل وسويد والنعمان وقيل : أبو موسى وأصحابه وقيل : نزلت في العرباض بن سارية ، ويحتمل أنها نزلت في كل من ذكر ، وقوله تعالى : ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ حال من الكاف في أتوك بإضمار قد وقوله تعالى : ﴿ تولوا ﴾ جواب إذا ﴿ وأعينهم تفيض ﴾ أي : تسيل ﴿ من الدمع ﴾ أي : دمعها فان ، ومن للبيان كقولك : أفديك من رجل ، وهو أبلغ من يفيض دمعها لأنه يدلّ على أن العين صارت دمعاً فياضاً وقوله تعالى : ﴿ حزناً ﴾ منصوب على العلة ﴿ أن لا يجدوا ﴾ أي : لئلا يجدوا محله نصب على أنه مفعول له وناصبه المفعول له الذي هو حزناً ﴿ ما ينفقون ﴾

في الجهاد ولما قال تعالى : ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ قال تعالى في حق من يعتذر : ﴿ ولا عذر له ﴾ .

(298/346)

﴿ إنما السبيل ﴾ أي : إنما يتوجه الطريق بالعقوبة ﴿ على الذين يستأذنونك ﴾ يا محمد في التخلف عنك والجهاد ﴿ وهم أغنياء ﴾ أي : قادرون على أهبة الخروج معك وقوله تعالى : ﴿ رضوا بأن يكونوا مع الخوالف ﴾ استئناف كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وهم النساء والصبيان ﴿ وطبع الله على قلوبهم ﴾ فلأجل ذلك الطبع قال الله تعالى : ﴿ فهم لا يعلمون ﴾ أي : ما في الجهاد من منافع الدارين ، أمّا في الدنيا فالفوز بالغنيمة والظفر بالعدو ، وأمّا في الآخرة فالثواب والنعيم الدائم الذي لا ينقطع .

﴿ يعتذرون ﴾ أي : هؤلاء المنافقون ﴿ إليكم ﴾ أي : في التخلف ﴿ إذا رجعتم ﴾ من الغزو ﴿ إليهم ﴾ بالأعذار الباطلة والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له ويحتمل أن يكون له وللمؤمنين .

يروى أن الذين تخلفوا عن غزوة تبوك من المنافقين كانوا بضعة وثلاثين رجلاً فلما رجع النبيّ

صلى الله عليه وسلم جاؤوا يعتذرون إليه بالباطل قال تعالى : ﴿ قل ﴾ لهم يا محمد ﴿ لا تعتذروا ﴾ بالمعاذير الباطلة ﴿ لن نؤمن لكم ﴾ أي : لن نصدّقكم فيما اعتذرتم به وقوله تعالى : ﴿ قد نبأنا ﴾ أي : أعلمنا ﴿ الله من أخباركم ﴾ أي : بعض أحوالكم التي أنتم عليها من الشرّ والفساد علة لانتفاء تصديقهم لأنّ الله تعالى إذا أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم الإعلام بأحوالهم وما في ضمائرهم من الشرّ والفساد لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ أي : أتتوبون من نفاقكم أم تقيمون عليه ﴿ ثم تردّون ﴾ أي : بالبعث ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ أي : الله المطلع على ما في ضمائركم من الخيانة والكذب وإخلاف الوعد وغير ذلك من الخبائث التي أنتم عليها فيجازيكم عليه .

(299/346)

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم ﴾ أي : رجعتم ﴿ إليهم ﴾ من تبوك إنهم معذورون في التخلف ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ أي : لتصفحوا عنهم فلا تعاتبوهم ﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ أي : فدعوهم وما اختاروا لأنفسهم من النفاق ، قال ابن عباس : يريد ترك الكلام والسلام قال مقاتل : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : "لا تجالسوهم ولا تكلموهم"

قال أهل المعاني : هؤلاء طلبوا إعراض الصفح فأعطوا إعراض المقت ثم ذكر تعالى علة الإعراض بقوله : ﴿ إنهم رجس ﴾ أي : قذر لخبث باطنهم فكما يجب الاحتراز عن الأنجاس الجسمانية يجب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية خوفاً من سريانها إلى الإنسان وحذراً من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال وقوله تعالى : ﴿ ومأواهم جهنم ﴾ من تمام العلة ﴿ جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ من الأعمال الخبيثة في الدنيا واختلفوا فيمن نزلت فيه هذه الآية فقال ابن عباس : نزلت في الجد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما كانوا ثمانين رجلاً من المنافقين فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : "لا تجالسوهم ولا تكلموهم" وقال مقاتل : نزلت في عبد الله بن أبيّ حلف للنبي صلى الله عليه وسلم بالله الذي لا إله إلا هو لا يتخلف عنه بعدها وطلب من النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يرضى عنه فأنزل الله تعالى هذه الآية ونزل .

﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ أي : يحلف لكم هؤلاء المنافقون لترضوا عنهم بحلفهم فتستديموا عليهم ما كنتم تفعلون بهم ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ أي : فإن رضيتم عنهم أيها المؤمنون بما حلفوا إليكم وقبلتم عذرهم ﴿ فإنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين ﴾ لأنه تعالى يعلم ما في قلوبهم من النفاق والشك فلا يرضى عنهم والمقصود من الآية عدم الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم بعد الأمر بالإعراض عنهم وعدم الالتفات نحوهم .

ونزل في سكان البادية:

﴿ الأعراب ﴾ أي : أهل البدو ﴿ أشدّ كفراً ونفاقاً ﴾ أي : من أهل الحضر لجفائهم وغلظ طباعهم وبعدهم عن أهل العلم وقلة استماعهم الكتاب والسنة واستيلاء الهواء الحار اليابس عليهم وذلك يوجب مزيد التيه والتكبر والنخوة والفخر والطيش عليهم وليسوا تحت سياسة سائس ولا تأديب مؤدّب ولا ضبط ضابط فنشؤوا كما شاؤوا ومن كان كذلك خرج على أشدّ الجهات نفاقاً ولو قابلت الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية لعرفت الفرق بين أهل الحضر وأهل البادية .

قال العلماء من أهل اللغة : يقال : رجل عربي إذا كان له نسب في العرب وجمعه العرب كما يقال : مجوسي ويهودي ثم تحذف ياء النسب في الجمع فيقال : المجوس واليهود ورجل أعرابي بالألف إذا كان بدوياً يطلب مساقط الغيث والكلأ وسواء كان من العرب أم من مواليهم ويجمع الأعرابي على الأعراب والأعاريب .

والأعرابي إذا قيل له : يا عربي فرح والعربي إذا قيل له : يا أعرابي غضب له فمن استوطن القرى العربية فهم عرب ومن نزل البادية فهم أعراب والذي يدل على الفرق بينهما أنه صلى الله عليه وسلم قال : "حب العرب من الإيمان" وأما الأعراب فقد ذمّهم الله تعالى في هذه

الآية.

وقيل: سموا بالعرب لأنّ ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم ولا شك أنّ اللسان العربي مختص بأنواع من الفصاحة والجزالة لا توجد في سائر الألسنة.

(301/346)

قال الرازي: ورأيت في بعض الكتب عن بعض الحكماء أنه قال: حكمة الروم في أدمغتهم وذلك لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة، وحكمة الهند في أوهامهم، وحكمة اليونان في أفئدتهم وذلك لكثرة ما لهم من المباحث العقلية، وحكمة العرب في ألسنتهم وذلك لحلاوة ألسنتهم وعذوبة عباراتهم ثم حكم الله تعالى على الأعراب بحكم آخر بقوله تعالى: ﴿وأجدر﴾ أي: أحق وأولى ﴿أن﴾ أي: بأن ﴿لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله﴾ من الأحكام والشرائع فرائضها وسننها ﴿والله عليم﴾ بما في قلوب عباده ﴿حكيم﴾ فيما فرض من فرائضه وأحكامه. انتهى انتهى. اهـ ﴿السراج المنير حـ 2 صـ 443.423﴾

(302/346)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السابع والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/347)

الجزء السابع والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 98 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 102 ﴾ من نفس السورة

(4/347)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أثبت هذا الوصف لهذا الصنف بين أن أفراده انقسموا إلى من ثبت على ما هو الأليق بحالهم ، وقسم نزع إلى ما هو الأليق بأهل المدر ، كما انقسم أهل المدر إلى مثل ذلك ، وبدأ بالخبيث لأنه الأصل فيهم فقال : ﴿ ومن الأعراب ﴾ أي المذكورين ﴿ من يتخذ ﴾ أي يتكلف غير ما تدعو إليه الفطرة الأولى من الأريحية والهمم العلية بأن يعد ﴿ ما ينفق مغرماً ﴾ أي فلا يبذله إلا كرهاً ولا يرى له فائدة أخروية بل يراه مثل الصنائع بالنهب ونحوه ﴿ ويتربص ﴾ أي يكلف نفسه الربص ، وهو أن يسكن ويصبر وينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾

أي الدواهي التي تدور بصاحبها فلا يتخلص منها ، وذلك ليستريح من الإنفاق وغيره مما ألزمه به الدين .

ولما تربصوا هذا التربص ، دعا عليهم بمثل ما تربصوا فقال : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ أي دائماً لا تنفك إما بإذلال الإسلام وإما بعذاب الاصطلام ، فهم فيما أرادوه بكم على الدوام ، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو بضم السين على أن معناه الشر والضر ، وقراءة الباقين بالفتح على أنه مصدر ، فهو ذم للدائرة .

ولما كان الانتقام من الأعداء وإيقاع البأس بهم لا يتوقف من القادر غالباً إلا على سماع أخبارهم والعلم بها ، جرت سنته تعالى في ختم مثل بقوله : ﴿ والله ﴾ أي الملك الأعلى الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ سميع ﴾ يسمع ما يقولون ﴿ عليم ﴾ أي فهو يعلم ما يضمرون عطفاً على نحو أن يقال : فالله على كل شيء قدير ، ونحوه قوله ﴿ إنني معكما أسمع وأرى ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 378 ﴾

(5/347)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾

والمغرم مصدر كالغرامة ، والمعنى : أن من الأعراب من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران ، وإنما يعتقد ذلك لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه الله وابتغاء ثوابه ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ يعني الموت والقتل ، أي ينتظر أن تنقلب الأمور عليكم بموت الرسول ، ويظهر عليكم المشركون .

ثم إنه أعاده إليهم فقال : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ والدائرة يجوز أن تكون واحدة ، ويجوز أن تكون صفة غالبة ، وهي إنما تستعمل في آفة تحيط بالإنسان كالدائرة ، بحيث لا يكون له منها مخلص ، وقوله : ﴿ السوء ﴾ قرىء بفتح السين وضمه .

قال الفراء : فتح السين هو الوجه ، لأنه مصدر قولك : ساء يسوء سوأ أو مساءة ومن ضم السين جعله اسماً ، كقولك : عليهم دائرة البلاء والعذاب ، ولا يجوز ضم السين في قوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ [مريم : 28] ولا في قوله : ﴿ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السوء ﴾ [الفتح : 12] وإلا لصار التقدير : ما كان أبوك امرأ عذاب ، وظننتم ظن العذاب ، ومعلوم أنه لا يجوز ، وقال الأخفش وأبو عبيد : من فتح السين ، فهو كقولك : رجل سوء ، وامرأة سوء . ثم يدخل الألف واللام .

فيقول : رجل السوء وأنشد الأخفش :

وكنت كذئب السوء لما رأى دماً . . بصاحبه يوماً أحال على الدم

ومن ضم السين أراد بالسوء المضرة والشر والبلاء والمكروه ، كأنه قيل : عليهم دائرة الهزيمة والمكروه ، وبهم يحيق ذلك .

قال أبو علي الفارسي : لو لم تضف الدائرة إلى السوء أو السوء عرف منها معنى السوء ، لأن دائرة الدهر لا تستعمل إلا في المكروه .

إذا عرفت هذا فنقول : المعنى يدور عليهم البلاء والحزن ، فلا يرون في محمد عليه الصلاة والسلام ودينه إلا ما يسوءهم .

ثم قال : ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لقولهم : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 132.133 ﴾

(6/347)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾

يعني : ما ينفق في الجهاد يحسبه غُرْماً ، ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ ، يعني : ينتظر بكم الموت ، يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم خاصة .

وقال القتبي : الدوائر ، دوائر الزمان ، وهي صروفه التي تأتيه مرة بالخير ومرة بالشر .

يقول الله تعالى : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ ، يعني : عاقبة السوء والهلاك .

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿ دَائِرَةُ السوء ﴾ بضم السين ، يعني : عاقبة المضرة والشر ، وقرأ الباقون بالنصب .

يقال : رجل سوء ، إذا كان خبيثاً .

وعن الفراء أنه قال : الفتح مصدر والضم اسم .

﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ لمقالتهم ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بهلاكهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾

قال عطاء : لا يرجو على إعطائه ثواباً ولا يخاف على إمساكه لها إنما ينفق خوفاً رياءً ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ يعني صروف الزمان التي تأتي مرّة بالخير ومرّة بالشرّ . قال : أن متى ينقلب الزمان عليكم فيموت الرسول ويظهر المشركون ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ قرأ ابن كثير وابن محصن ومجاهد وأبو عمرو بضم السين ههنا وفي سورة الفتح ، ومعناه الشر والضر والبلاء والمكروه ، وقرأ الباقون على الفتح بالمصدر واختاره أبو عبيد وأبو حاتم في هذه الآية ﴿ مِّنَ الأعراب ﴾ أسد وغطفان وتميم واعراب حاضري المدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : ما يدفع من الصدقات .

الثاني : ما ينفق في الجهاد مع الرسول صلى الله عليه وسلم مغرماً ، والمغرم التزام ما لا يلزم ، ومنه قوله تعالى ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] أي لازماً ، قال الشاعر :

فَمَا لَكَ مَسْلُوبَ العَزَاءِ كَأَنَّمَا . . . تَرَى هَجْرَ لَيْلَى مَغْرَماً أَنْتَ غَارِمُهُ

﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَآئِرَ ﴾ جمع دائرة وهي انقلاب النعمة إلى ضدها ، مأخوذة من الدور

ويحتمل تربصهم الدوائر وجهين :

أحدهما : في إعلان الكفر والعصيان .

والثاني : في انتهاز الفرصة بالانتقام .

﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾ رد لما أضمروا وجزاء لما مكروا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾

هذا نص من المنافقين منهم ، ومعنى ﴿ يتخذ ﴾ في هذه الآيات أي يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك ، وأصل " المغرم " الدين ، ومنه تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغرم والمأثم ، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه بحق ، وفي اللفظ معنى اللزوم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إن عذابها كان غراماً ﴾ [الفرقان : 65] أي مكروهاً لازماً ، و ﴿ الدوائر ﴾ المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة ، وقد يحتمل أن تشتق من دور الزمان ، والمعنى ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به ، ثم قال على جهة الدعاء ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء ، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته ومن هذا ، ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ [الهمزة : 1] وللمطففين ، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تعالى ، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم " دائرة السَّوء " بفتح السين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن محيصن واختلف عنه عاصم والاعمش بخلاف عنهما "

دائرة السُّوء " بضم السين ، واختلف عن ابن كثير ، وقيل الفتح المصدر والضم الاسم ، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة ، وقال أبو علي معنى الدائرة يقتضي معنى السوء فإنما هي إضافة بيان وتأكيد كما قالوا شمس النهار ولحيا رأسه .

قال القاضي أبو محمد : ولا يقال رجل سَوء بفتح السين ، هذا قول أكثرهم وقد حكي " رجل سُوء " بضم السين وقد قال الشاعر [الفرزدق] : [الطويل]

وكنت كذئبِ السَّوْءِ لما رأى دماً . . . بصاحبه يوماً أحال على الدم

ولم يختلف القراء في فتح السين من قوله ﴿ ما كان أبوك امرأ سوء ﴾ [مريم : 28] .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(9/347)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق ﴾

إذا خرج في الغزو ، وقيل : ما يدفعه من الصدقة ﴿ مَغْرماً ﴾ لأنه لا يرجو له ثواباً .

قال ابن قتيبة : المغرم : هو الغُرم والخُسر .

وقال ابن فارس : الغُرم : ما يلزم أداؤه ، والغرام : اللازم ، وسمي الغريم لإلحاحه .

وقال غيره : الغرم : التزام مالا يلزم .

قوله تعالى : ﴿ ويتربَّص ﴾ أي : وينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾ أي : دوائر الزمان بالمكروه ، بالموت ، أو القتل ، أو الهزيمة .

وقيل : ينتظر موت الرسول صلى الله عليه وسلم ، وظهور المشركين .

قوله تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو بضم السين .

وقرأ نافع ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "السَّوء" بفتح السين ؛ وكذلك قرؤوا في [سورة الفتح : 6] ، والمعنى : عليهم يعود ما ينتظرونه لك من البلاء .

قال الفراء : وفتح السين من السَّوء هو وجه الكلام .

فمن فتح ، أراد المصدر : من سُؤْتُه سَوْءاً ومَساءَةً .

ومن رفع السين ، جعله اسماً : كقولك عليهم دائرة البلاء والعذاب .

ولا يجوز ضم السين في قوله : ﴿ ما كان أبوكِ امرأ سوءٍ ﴾ [مريم : 28] ولا في قوله ﴿ وظننتم ظن السَّوء ﴾ [الفتح : 12] لأنه ضدٌّ لقولك : رجُلُ صِدْق .

وليس للسوء هاهنا معنى في عذاب ولا بلاء ، فيضم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ ﴾

"من" في موضع رفع بالابتداء .

﴿ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ مفعولان ؛ والتقدير ينفقه ، فحذفت الهاء لطول الاسم .

"مَغْرَماً" معناه غرما وخسراناً ؛ وأصله لزوم الشيء ؛ ومنه : ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] أي لازماً ، أي يرون ما ينفقونه في جهاد وصدقة غرماً ولا يرجون عليه ثواباً .

﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ التربص الانتظار ؛ وقد تقدّم .

والدوائر جمع دائرة ، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية ، أي يجمعون إلى الجهل بالإنفاق سوء الدخلة وخبث القلب .

﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ قرأه ابن كثير وأبو عمرو بضم السين هنا وفي الفتح ، وفتحها الباقون .

وأجمعوا على فتح السين في قوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ [مريم : 28] .

والفرق بينهما أن السُّوء بالضم المكروه .

قال الأخفش : أي عليهم دائرة الهزيمة والشر .

وقال الفرّاء : أي عليهم دائرة العذاب والبلاء .

قالا : ولا يجوز امرأ سوء بالضم ؛ كما لا يقال : هو امرؤ عذاب ولا شر .

وحكي عن محمد بن يزيد قال : السَّوء بالفتح الرداءة .

قال سيبويه : مررت برجل صدقٍ ، ومعناه برجل صلاحٍ .

وليس من صدق اللسان ، ولو كان من صدق اللسان لما قلت : مررت بثوبِ صدقٍ .

ومررت برجل سَوْء ليس هو من سُؤْته ، وإنما معناه مررت برجل فسادٍ .

وقال الفراء : السَّوء بالفتح مصدر سُؤْته سَوْءاً ومساءة وسوائية .

قال غيره : والفعل منه ساء يسوء .

والسُّوء بالضم اسم لا مصدر ؛ وهو كقولك : عليهم دائرة البلاء والمكروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(11/347)

وقال الخازن :

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾

يعني لا يرجو على إنفاقه ثواباً ولا يخاف على إمساكه عقاباً إنما ينفق خوفاً أو رياء .

والمغرم : التزام ما لا يلزم .

والمعنى : أن من الأعراب من يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة لأنه لا ينفق ذلك إلا خوفاً من المسلمين أو مرآة لهم ولم يرد بذلك الإنفاق وجه الله وثوابه ﴿ ويتربص ﴾ يعني : ينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾ يعني بالدوائر تقلب الزمان وصروفه التي تأتي مرة بالخير ومرة بالشر .

قال يمان بن رباب : يعني تقلب الزمان فيموت الرسول وتظهر المشركون ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ يعني : بل يتقلب عليهم الزمان ويدور السوء والبلاء والحزن بهم ولا يرون في محمد صلى الله عيله وسلم وأصحابه ودينه ما يسوءهم ﴿ والله سميع ﴾ يعني لأقوالهم ﴿ عليم ﴾ يعني بما يخفون في ضمائرهم من النفاق والغش وإرادة السوء للمؤمنين نزلت هذه الآية في أعراب أسد وغطفان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(12/347)

وقال أبو حيان :

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم ﴾

نزلت في أعراب أسد ، وغطفان ، وتميم ، كانوا يتخذون ما يؤخذ منهم من الصدقات .

وقيل : من الزكاة ، ولذلك قال بعضهم : ما هي إلا جزية أو قريبة من الجزية .

وقيل : كل نفقة لا تهواها أنفسهم وهي مطلوبة شرعاً ، وهو ما ينفقه الرجل وليس يلزمه ، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده .

فعل هذا المغرم إلزام ما لا يلزم .

وقيل : المغرم الغرم والخسر ، وهو قول : ابن قتيبة ، وقريب من الذي قبله .

وقال ابن فارس : المغرم ما لزم أصحابه والغرام اللازم ، ومنه الغريم للزومه وإلحاحه .

والتربص : الانتظار .

والدوائر : هي المصائب التي لا مخلص منها ، تحيط به كما تحيط الدائرة .

وقيل : تربص الدوائر هنا موت الرسول (صلى الله عليه وسلم) وظهور الشرك .

وقال الشاعر :

تربص بها ريب المنون لعلها . . .

تطلق يوماً أو يموت حليلها

وتربص الدوائر ليخلصوا من إعياء النفقة ، وقوله : عليهم دائرة السوء ، دعا معترض ، دعاء عليهم بنسبة ما أخبر به عنهم كقوله : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ﴾ والدعاء من الله هو بمعنى إنجاب الشيء ، لأنه تعالى لا يدعو على مخلوقاته وهي في

قبضته .

وقال الكرماني : عليهم تدور المصائب والحروب التي يتوقعونها على المسلمين ، وهنا وعد للمسلمين وإخبار .

وقيل : دعاء أي : قولوا عليهم دائرة السوء أي المكروه ، وحقيقة الدائرة ما تدور به الأيام .

وقيل : يدور به الفلك في سيره ، والدوائر انقلاب النعمة إلى ضدها .

وفي الحجة يجوز أن تكون الدائرة مصدراً كالعاقبة ، ويجوز أن تكون صفة .

وقرأ ابن كثير وأبو عمر : والسوء هنا .

وفي سورة الفتح ثانية بالضم ، وباقي السبعة بالفتح ، فالفتح مصدر .

(13/347)

قال الفراء : سوأته سوأ ومساءة وسوائية ، والضم الاسم وهو الشر والعذاب ، والفتح ذم الدائرة وهو من باب إضافة الموصوف إلى صفته ، وصفت الدائرة بالمصدر كما قالوا : رجل سوء في نقيض رجل صدق ، يعنون في هذا الصلاح لا صدق اللسان ، وفي ذلك الفساد .

ومنه ﴿ ما كان أبوك أمرأ سوء ﴾ أي أمرأً فاسداً .

وقال المبرد : لسوء بالفتح الرداءة ، ولا يجوز ضم السين في رجل سوء ، قاله أكثرهم .

وقد حكي بالضم وقال الشاعر :

وكنت كذيب السوء لما رأى دما . . .

بصاحبه يوماً أحال على الدم

والله سميع لأقوالهم عليم بنياتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(14/347)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الأعراب ﴾

شروعٌ في بيان تشعّبِ جنسِ الأعرابِ إلى فريقين وعدم انحصارِهم في الفريق المذكورِ كما يتراءى من ظاهر النظم الكريم ، وشرحٌ لبعض مثالبِ هؤلاء المتفرعةِ على الكفر والنفاق بعد بيانِ تماديهم فيهما ، وحملُ الأعراب على الفريق المذكورِ خاصةً وإن ساعده كونُ من يحكي حالَه بعضاً منهم وهم الذين بصدد الإنفاقِ من أهل النفاقِ دون فقرائهم أو أعرابِ أسدٍ وغطفانَ وتميم كما قيل لكن لا يساعده ما سيأتي من قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الاعراب مَن يُؤْمِنُ ﴾ الخ ، فإن أولئك ليسوا من هؤلاء قطعاً وإنما هم من الجنس أي ومن جنس

الأعرابِ الذي نُعت بنعت بعضِ أفردِه ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ من المال أي يعُدّ ما يصرِفه في سبيل الله ويتصدق به صورةً ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أي غرامةً وخُسراناً لازماً إذ لا ينفقه احتساباً ورجاءً لثواب الله تعالى ليكون له مغنماً وإنما ينفقه رياءً وتقيّةً فهي غرامةٌ محضةٌ ، وما في صيغة الاتخاذِ من معنى الاختيارِ والانتفاعِ بما يتخذ إنما هو باعتبار غرضِ المنفقِ من الرياء والتقيةِ لا باعتبار ذاتِ منفِقَةٍ أعني كونَها غرامة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ أصلُ الدائرة ما يحيط بالشيء والمرادُ ما لا محيص عنه من مصائب الدهرِ أي ينتظر بكم دوائرَ الدهرِ ونُوَبَه ودَوَلَه ليذهب غلَبتُكم عليه فليتخلص مما ابتُلي به ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ دعاءٌ عليهم بنحو ما أرادوا بالمؤمنين على نهج الاعتراض كقوله سبحانه : ﴿ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بعد قول اليهود ما قالوا والسوءُ مصدرٌ ثم أطلق على كل ضُرَ وشر وأضيفت إليه الدائرةُ ذماً كما يقال : رجلُ سوءٍ لأن مَن دارت عليه يذمّها ، وهي من باب إضافةِ الموصوفِ إلى صفتِه فوصفت في الأصل بالمصدر مبالغةً ثم أضيفت إلى صفتِها كقوله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء ﴾ وقيل : معنى الدائرة يقتضي معنى السَّوءِ فإنما هي إضافةُ بيانٍ وتأكيدٍ كما قالوا : "شمسُ النهارِ

(15/347)

ولَحْيا رأسِه" وقرىء بالضم وهو العذابُ كما قيل له سيئة ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لما يقولونه عند الإنفاقِ مما لا خيرَ فيه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يُضمِرونه من الأمور الفاسدةِ التي من جملتها أن يتربّصوا بكم الدوائرَ وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(16/347)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾

﴿ وَمِنَ الأعراب ﴾ أي من جنسهم الذي نعت بنعت بعض أفراده .

وقيل : من الفريق المذكور ﴿ مَن يَتَّخِذُ ﴾ أي يعد ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ أي يصرفه في سبيل الله تعالى ويتصدق به كما يقتضيه المقام ﴿ مَغْرَمًا ﴾ أي غرامة وخسراناً من الغرا بمعنى الهلاك ، وقيل : من الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غير جناية ، وأصله من الملازمة ومنه قيل لكل من المتداينين غريم ، وإنما أعدوه كذلك لأنهم لا ينفقونه احتساباً ورجاء لثواب الله تعالى ليكون لهم مغنما وإنما ينفقونه تقية ورئاء الناس فيكون غرامة محضة ، وما في صيغة الاتخاذ من معنى الاختيار والانتفاع بما يتخذ إنما هو باعتبار غرض المنفق من الرياء والتقية

لا باعتبار ذات النفقة أعني كونها غرامة ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ أي ينتظر بكم نوب الدهر ومصائبه التي تحيط بالمرء لينقلب بها أمركم ويتبدل بها حالكم فيتخلص مما ابتلي به ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ دعاء عليهم بنحو ما يتربصون به ، وهو اعتراض بين كلامين كما في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَتِ اليهود يَدُ الله مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ ﴾ [المائدة : 64] الخ ، وجوز أن تكون الجملة اخباراً عن وقوع ما يتربصون به عليهم ، والدائرة اسم للنائبة وهي في الأصل مصدر كالعافية والكاذبة أو اسم فاعل من دار يدور وقدم تمام الكلام عليها ، و ﴿ السوء ﴾ في الأصل مصدر أيضاً ثم أطلق على كل ضرر وشر وقد كان وصفاً للدائرة ثم أضيفت إليه فالإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته كما في قولك : رجل صدق وفيه من المبالغة ما فيه ، وعلى ذلك قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْء ﴾ [مريم : 28] وقيل : معنى الدائرة يقتضي معنى السوء فالإضافة للبيان والتأكيد كما قالوا : شمس النهار ولحيا رأسه .

وقرأ ابن كثير .

(17/347)

وأبو عمرو ﴿ السوء ﴾ هنا وفي ثانية الفتح بالضم وهو حينئذ اسم بمعنى العذاب وليس بمصدر كالمفتوح وبذلك فورق الفراء بينهما : وقال أبو البقاء : السوء بالضم الضرر وهو مصدر في الحقيقة يقال : سؤته سوءا ومساءة ومسائية وبالفتح الفساد والرداءة ، وكأنه يقول بمصدرية كل منهما في الحقيقة كما فهمه الشهاب من كلامه ، وقال مكي : المفتوح معناه الفساد والمضمون معناه الهزيمة والضرر وظاهره كما قيل إنهما اسمان ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ بمقالاتهم الشنيعة عند الانفاق ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم الفاسدة التي من جملتها أن يتربصوا بكم الدوائر ، وفيه من شدة الوعيد ما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(18/347)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

هذا فريق من الأعراب يُظهر الإيمان ويُنفق في سبيل الله .

وإنما يفعلون ذلك تقية وخوفاً من الغزو أو حباً للمحمدة وسلوكاً في مسلك الجماعة ، وهم

يبطنون الكفر وينتظرون الفرصة التي تمكّنهم من الانقلاب على أعقابهم .

وهؤلاء وإن كانوا من جملة منافقي الأعراب فتخصيصهم بالتقسيم هنا منظور فيه إلى ما اختصوا به من أحوال النفاق ، لأن التقاسيم في المقامات الخَطابية والمجادلات تعتمد اختلافاً مّا في أحوال المقسّم ، ولا يُعبأ فيها بدخول القسم في قسِيمه .

فقوله : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ هو في التقسيم كقوله : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ [التوبة : 99] .

ومعنى ﴿ يتخذ ﴾ يَعُد ويجعل ، لأن اتخذ من أخوات جعل .

والجعل يطلق بمعنى التغيير من حالة إلى حالة نحو جعلت الشقة برداً .

ويطلق بمعنى العد والحسبان نحو ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ [النحل : 91] فكذلك ﴿ يَتخذ ﴾ هنا .

والمَغرم : ما يدفع من المال قهراً وظُلماً ، فهؤلاء الأعراب يؤتون الزكاة وينفقون في سبيل الله ويعُدون ذلك كالأتاوات المالية والرزايا يدفعونها تقية .

ومن هؤلاء من امتنعوا من إعطاء الزكاة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال قائلهم من طيء في زمن أبي بكر لما جاءهم الساعي لإحصاء زكاة الأنعام:

فَقُولاَ لهذا المرءِ ذُو جاءَ ساعياً . . .

هَلُمَّ فإن المَشْرفيَّ الفرائض

أي فرائض الزكاة هي السيف ، أي يعطون الساعي ضربَ السيف بدلاً عن الزكاة .

والتربص : الانتظار .

والدوائر : جمع دائرة وهي تغير الحالة من استقامة إلى اختلال .

وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة ﴾ في سورة العقود (52) .

(19/347)

والباء للسببية كقوله تعالى : ﴿ نتربص به ريب المنون ﴾ [الطور : 30] وجُعل المجرور بالباء ضمير المخاطبين على تقدير مضاف .

والتقدير : ويتربص بسبب حالتكم الدوائر عليكم لظهور أن الدوائر لا تكون سبباً لانتظارِ الانقلاب بل حالهم هي سبب تربصهم أن تنقلب عليهم الحال لأن حالتهم الحاضرة شديدة عليهم .

فالمعنى أنهم ينتظرون ضعفكم وهزيمتكم أو ينتظرون وفاة نبيكم فيظهرون ما هو كامن فيهم من الكفر .

وقد أنبأ الله بحالهم التي ظهرت عقب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهم أهل الردة من

العرب .

وجملة : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم وتحقير ، ولذلك فُصلت .

والدعاء من الله على خلقه : تكوين وتقدير مشوبٌ بإهانة لأنه لا يعجزه شيء فلا يحتاج إلى تمني ما يريده .

وقد تقدم الكلام عليه عند قوله تعالى : ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾ في سورة البقرة (89) .

وقد كانت على الأعراب دائرة السوء إذ قاتلهم المسلمون في خلافة أبي بكر عام الردة وهزموهم فرجعوا خائبين .

وإضافة دائرة ﴾ إلى ﴿ السوء ﴾ من الإضافة إلى الوصف اللازم كقولهم : عِشاءُ الآخِرة .

إذ الدائرة لا تكون إلا في السوء .

قال أبو علي الفارسي : لو لم تضف الدائرة إلى السوء عُرف منها معنى السوء لأن دائرة الدهر لا تستعمل إلا في المكروه .

ونظيره إضافة السوء إلى ذئب في قول الفرزدق:

فكنتَ كذئب السَّوء حين رأى دَماً . . .

بصاحبه يوماً أحال على الدم

إذ الذئب متمحض للسوء إذ لا خير فيه للناس .

والسَّوء بفتح السين المصدر ، وبضمها الاسم .

وقد قرأ الجمهور بفتح السين .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحدهما بضم السين .

والمعنى واحد .

وجملة : ﴿ والله سميع عليم ﴾ تذييل ، أي سميع ما يتناجون به وما يدبرونه من الترصد ، عليم بما يبطنونه ويقصدون إخفاءه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(20/347)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

وعلى سبيل المثال : إذا ذهب إليهم داعية من الدعاة ، وقال لهم فكرة عن الإسلام .

فالواحد من هؤلاء الأعراب يدَّعي في ظاهر الأمر أنه يتبع الإسلام ، وإن عُلِمَ أن في الإسلام زكاة فهو يعطي عامل الزكاة النصاب المقرر عليه ، ويعتبر ما دفعه " مغرما " أي غرامة ؛ لأنه

أعطى النصاب وهو كاره . وما دُمْتُ كارهاً فأنت لا تؤمن بحكمته ، وتظن أن ما دفعته مأخوذ منك . وتقول : " أخذوا عرقي " و " أخذوا ناتج حركتي " وأعطوه لمن لم يعرق ولم يتحرك في الحياة ، متناسياً أن هذا الأخذ هو تأمين لحياتك ؛ لأنك حين تعجز ستجد من يعطيك ، والإسلام يأخذ منك وأنت قادر ، ويعطيك إذا عجزت ، وفي هذا تأمين لحياتك .

وأنت تعلم أن الأشياء أعراض في الكون ؛ القوة عرض ، والمرض عرض ، والصحة عرض ، والعجز عرض ، وأنت عُرْضة إن كنت قادراً أن تصير عاجزاً ، وإن كنت صحيح الجسد فأنت عرضة لأن تمرض ، فإذا ما طمأنك المشرع على أن أخاك العاجز حين عجز أخذنا منك له حين قدرت ؛ وبذلك تواجه أنت الحياة برصيد قوي من الإيمان والشجاعة ، ويبين الحق لك أنك لا تعيش وحدك ، ولكنك تعيش في مجتمع متكافل ، إن أصابك شيء من عجز ، فقدرة الباقي هي المرجع لك .

وكان الواحد من هؤلاء الأعراب يؤدي نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مَغْرماً ، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المسلمين كارثة ؛ حتى لا يأخذوا منه الزكاة ، وهكذا كان الواحد منهم يتربص بالمسلمين الدوائر ، مصداقاً لقول الحق : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ . أي يتمنى وينتظر أن يصيب الملسمين كارثة ؛ فلا يأخذوا منه الزكاة التي اعتبرها مغرماً .

ولماذا قال الحق : ﴿ الدوائر ﴾ ؟ نعلم أن الخَطْبَ الشديد حين يصيب الإنسان أو القوم إن كان فظيعاً وقويّاً يقال : " دارت عليهم الدوائر " . أي أن المصيبة أحاطت بهم ؛ فلا منفذ لهم يخرجون منه ، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر ؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة ، ولا يستوعبون أن الزكاة تُكْتب في الميزان ، وأنها تطهير ونماء للمال ، وأنها حمل لعجز العاجز ، إن عجز الواحد منهم ؛ فسوف يجد من يحمله .

والذي يتربص بكم الدوائر ، ولا يفطن إلى حكمة الأخذ منه ، هو الذي تأتي عليه دائرة السوء مصداقاً لقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ لأن أياً منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود في المجتمع الإيماني الذي يعطي له الزكاة إن عجز ، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك ، ولم تفطن إلى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك ؛ فسوف تأتي الدائرة عليك .

وقوله الحق : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ تبدو كأنها دعوة ، ومن الذي يدعو ؟ إنه الله . وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر ، وبين أن يدعو قادراً . إن كان ربنا هو من يقول : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة .

وينهي الحق الآية : ﴿ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ، فسبحانه يسمع كلماتهم حين يأتي عامل

الزكاة ليأخذ نصاب الزكاة ، وكيف كانوا يستقبلونه بما يكره ، وقد يكرهون في طي نفوسهم ولا يتكلمون ، فإن تكلموا فالله سميع ، وإن لم يتكلموا ، وكتموا الكراهية في قلوبهم ، فالله عليم ، إذن : فهم محاصرون بعلم الله وسمعه .

وبعد ذلك جاء الحق سبحانه للصنف الثاني ، وهم من لهم قليل من الإلف ، فإن كان من أهل البادية فله أهل من الحضر ، أو كان من الحضر فله أهل من البادية فيقول سبحانه : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(22/347)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

أخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ يعني أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطي ما يعطي من صدقات ماله كرهاً ﴿ ويتربص

بكم الدوائر ﴾ الهلكات .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب ، الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا ويقاتلوا ، ويرون نفقاتهم مغرماً .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ يعد ما ينفق في سبيل الله غرامة يغرمها ﴿ ويتربص ﴾ بمحمد صلى الله عليه وسلم الهلاك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(23/347)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَماً ﴾ : " مَنْ " مبتدأ وهي : إمَّا موصولةٌ وإمَّا موصوفةٌ . ومَغْرَماً مفعول ثانٍ لأنَّ " اتخذ " هنا بمعنى صَيَّر . والمَغْرَمُ : الخُسْران ، مشتق

مِنَ الغَرام وهو الهلاك لأنه سيئةٌ ، ومنه ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً ﴾ [الفرقان : 65] .

وقيل : أصلُه الملازمةُ ومنه " الغَريمُ " للزومه مَنْ يطالبه .

قوله : ﴿ وَيَتَرَبَّصُ ﴾ عطفٌ على " يَتَّخِذ " فهو : إمَّا صلة وإمَّا صفة . والتربُّصُ : الانتظار . والدوائر : جمعُ دائرة ، وهي ما يُحيط بالإنسان مِنْ مصيبة ونكبة ، تصوُّراً من الدائرة المحيطةِ بالشيء من غير انفلاتٍ منها . وأصلها داوِرَة لأنها مِنْ دار يدور ، أي : أحاط . ومعنى " تربُّص الدوائر " ، أي : انتظار المصائب قال :

2536 تَرَبَّصْ بها رَيْبَ المَنون لعلها . . . تُطَلَّقُ يوماً أو يموتُ حليلُها

(24/347)

قوله : ﴿ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السوء ﴾ هذه الجملةُ معترضة بين جمل هذه القصة وهي دعاءٌ على الأعراب المتقدمين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو هنا " السُّوء " وكذا الثانية في الفتح بالضم ، والباقون بالفتح . وأما الأولى في الفتح وهي " ظنَّ السَّوْ " فاتفق على فتحها السبعة . فأما المفتوح ، فقيل : هو مصدر . قال الفراء : " يقال : سُؤْتُه سُوْءاً ومَساءةً وسَوائِية ومَسَائِية ، وبالضم الاسم " قال أبو البقاء : " وهو الضَّرر وهو مصدر في الحقيقة " . قلت : يعني أنه في الأصل كالمفتوح في أنه مصدرٌ ثم أُطْلِق على كل ضررٍ وشرٍّ . وقال

مكي : " مَنْ فتح السينَ فمعناه الفساد والرداءة ، ومَنْ ضمَّها فمعناه الهزيمةُ والبلاءُ والضرر " . وظاهر هذا أنهما اسمانِ لما ذكر ، ويحتمل أن يكونا في الأصل مصدراً ثم أُطْلِقا على ما ذكر . وقال غيرُه : الضموم : العذاب والضرر ، والمفتوح : الذم ، ألا ترى أنه أُجْمع على فتح ﴿ ظَنَّ السوء ﴾ [الفتح : 6] وقوله : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ [مريم : 28] ولا يليق ذِكْرُ العذاب بهذين الموضعين .

وقال الزمخشري فأحسن : " المضموم : العذاب ، والمفتوحُ ذمٌّ لدائرة ، كقولك : " رجلُ سَوْء " في نقيض " رجل عدل " ، لأنَّ مَنْ دارَتْ عليه يَذُمُّها " يعني أنها من باب إضافة الموصووف إلى صفته فوُصِفَتْ في الأصل بالمصدر مبالغةً ، ثم أُضِيْفَتْ لصفتِها كقولِه تعالى : ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امرأ سَوْءٍ ﴾ [مريم : 28] . قال الشيخ : " وقد حُكي بالضم " وأنشد :

2537 وكنت كذئبِ السُّوء لمَّا رأى دماً . . . بصاحبه يوماً أَحال على الدَّم

وفي الدائرة مذهبان أظهرهُما : أنها صفةٌ على فاعِلة كقائمة . وقال الفارسي : " إنها يجوز أن تكون مصدراً كالعافية " .

(25/347)

وقوله : ﴿ بِكُمُ الدوائر ﴾ فيه وجهان ، أظهرهُما : أن الباء متعلقة بالفعل قبلها . والثاني : أنها حالٌ من " الدوائر " قاله أبو البقاء . وليس بظاهرٍ ، وعلى هذا فيتعلَّقُ/ بمحذوف على ما تقرر غير مرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 105.107 ﴾

(26/347)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) ﴾

خَبُثَت عقائدُهم فانتظروا للمسلمين ما تعلقت به مناهم من حلول المِحن بهم ، فأبى اللهُ إلا أن يَحيقَ بهم مكرُهم ، ولهذا قيل في المثل : إذا حَفَرْتَ لأخيك فَوَسِّعْ فربما يكون ذلك مقيلَك !

ويقال مَنْ نَظَرَ إلى ورائه يُوَفَّقْ في كثيرٍ من تدبيره ورأيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 57 ﴾

(27/347)

قوله تعالى ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما افتتح الآية الثانية بقوله : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن ﴾ أي لا يزال يجدد إيمانه آثار الدين ﴿ بالله واليوم الآخر ﴾ علم أن القسم الأول غير مؤمن بذلك ، وإنما وقع منهم الإقرار باللسان من غير إذعان ، والإيمان هو الأصل الذي يترتب عليه الإنفاق عن طيب نفس لما يرجى من ثوابه في اليوم الآخر الذي لولا هو انتفت الحكمة من هذا الخلق على هذا الترتيب : ثم عطف عليه ما يثمره الإيمان فقال : ﴿ ويتخذ ﴾ أي يحث نفسه ويجاهدها إن عرضت له الوساوس الشيطانية على أن يعد ﴿ ما ينفق ﴾ أي فيما أمر الله به ﴿ قربات ﴾ جمع قربة لما تقرب إليه سبحانه ﴿ عند الله ﴾ أي الذي لا أشرف من القرب منه لأنه الملك الأعظم ﴿ وصلوات ﴾ أي دعوات ﴿ الرسول ﴾ أي الذي وظيفته التبليغ فهو لا يقول لهم شيئاً إلا عن الله ، وأطلق القربة والصلاة على سببها .

ولما أخبر عن أفعالهم ، أخبر عن عاقبتهم ومآلهم ؛ قال مستأنفاً محققاً لرجائهم ترغيباً في الصدقة بأبلغ تأكيد لما لأعدائهم من التكذيب : ﴿ ألا إنها ﴾ أي نفقاتهم ﴿ قربة لهم ﴾

أي كما أرادوا ؛ ثم بين ثمرة كونها قربة بقوله : ﴿ سيدخلهم الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال بوعد لا خلف فيه ﴿ في رحمته ﴾ أي إكرامه فتكون محيطة بهم ثم علل ذلك بقوله معبراً بالاسم الأعظم تنبيهاً على أنه لا يسع الإنسان إلا العفو وإن أعظم الاجتهاد : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي الذي لا يقدر أحد على أن يقدره حق قدره ﴿ غفور ﴾ أي بليغ الستر لقبائح من تاب ﴿ رحيم ﴾ أي بليغ الإكرام ، ذلك وصف له ثابت ، يجلله كل من يستأهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 378 . 379 ﴾

(28/347)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أنه حصل في الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرماً ، بين أيضاً أن فيهم قوماً مؤمنين صالحين مجاهدين يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغنماً .

واعلم أنه تعالى وصف هذا الفريق بوصفين : فالأول : كونه مؤمناً بالله واليوم الآخر ، والمقصود التنبيه على أنه لا بد في جميع الطاعات من تقدم الإيمان ، وفي الجهاد أيضاً كذلك .

والثاني : كونه بحيث يتخذ ما ينفقه قربات عند الله وصلوات الرسول ، وفيه بحثان : الأول : قال الزجاج : يجوز في القربات ثلاثة أوجه ، ضم الراء ، وإسكانها وفتحها .

الثاني : قال صاحب "الكشاف" : قربات مفعول ثان ليتخذ ، والمعنى : أن ما ينفقه لسبب حصول القربات عند الله تعالى وصلوات الرسول ، لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم .

كقوله : " اللهم صل على آل أبي أوفى " وقال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ فلما كان ما ينفق سبباً لحصول القربات والصلوات ، قيل : إنه يتخذ ما ينفق قربات وصلوات .

وقال تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ وهذا شهادة من الله تعالى للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات ، وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه ، وهو قوله : ﴿ أَلا ﴾ وبحرف التحقيق ، وهو قوله : ﴿ إِنَّهَا ﴾ ثم زاد في التأكيد ، فقال : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ وقد ذكرنا أن إدخال هذا السين يوجب مزيد التأكيد .

ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لسيآتهم ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم حيث وفقهم لهذه الطاعات .

وقرأ نافع ﴿ أَلا إِنَّهَا قُرُبَةٌ ﴾ بضم الراء وهو الأصل ، ثم خففت نحو : كتب ، ورسل ، وطنب ، والأصل هو الضم ، والإسكان تخفيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 133 ﴾

وقال السمرقندى :

ثم ذكر من أسلم من الأعراب جهينة وغفار وأسلم .

فقال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ ﴾

فى الجهاد ﴿ قربات عِندَ الله ﴾ ، يعني : قربة إلى الله تعالى ، ﴿ وصلوات الرسول ﴾ ، يعني : طلب دعاء الرسول عليه السلام واستغفاره .

يقول الله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ ، أي نفقاتهم قربة لهم إلى الله تعالى وفضيلة ونجاة لهم .

﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ ، يعني : في جنته ﴿ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ ﴾ لذنوبهم ، ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم قرأ نافع في رواية ورش ﴿ قُرُبَةٌ ﴾ بضم الراء ، وقرأ الباقون بجزم الراء ، ومعناهما واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

ثم استثنى فقال ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة وقال الضحاك : يعني عبد الله ذا النجادين ورهطه .

وقال الكلبي أسلم وغفار بنو جهينة ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ الله ﴾ جمع قرابة ﴿

وَصَلَوَاتِ الرسول ﴾ يعني دعاءه واستغفاره ﴿ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(30/347)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾

قال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة .

﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أنها تقربة من طاعة الله ورضاه .

الثاني : أن ثوابها مذخور لهم عند الله تعالى فصارت قربات عند الله ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ فيها وجهان :

أحدهما : أنه استغفاره لهم ، قاله ابن عباس .

الثاني : دعاؤه لهم ، قاله قتادة .

﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أن يكون راجعاً إلى إيمانهم ونفقتهم أنها قربة لهم .

الثاني : إلى صلوات الرسول أنها قربة لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(31/347)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله ﴾ الآية

قال قتادة : هذه ثنية الله تعالى من الأعراب ، و﴿ يتخذ ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى يجعله مقصداً ، والمعنى ينوي بنفقته في سبيل الله القربة عند الله عز وجل واستغنام دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم ، ف ﴿ صلوات ﴾ على هذا عطف على ﴿ قربات ﴾ ، ويحتمل أن يكون عطفاً على ما ينفق ، أي ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قربة ، والأولى أبين ، و﴿ قربات ﴾ جمع قرْبة أو قرُبه بسكون الراء وضمها وهما لغتان و" الصلاة " في هذه الآية الدعاء إجماعاً .

وقال بعض العلماء : الصلاة من الله رحمة ومن النبي والملائكة دعاء ، ومن الناس عبادة ، والضمير في قوله ﴿ إنها ﴾ يحتمل أن يعود على النفقة وهذا في انعطاف ﴿ الصلوات ﴾

على ﴿ القربات ﴾ ، ويحتمل أن يعود على ﴿ الصلوات ﴾ وهذا في انعطافه على ما ينفق ، وقرأ نافع " قرُبة " بضم الراء ، واختلف عنه وعن عاصم والأعمش ، وقرأ الباقون " قرْبة " بسكون الراء ولم يختلف ﴿ قربات ﴾ ، ثم وعد تعالى بقوله ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ الآية ، وروي أن هذه الآية نزلت في بني مقرن من مزينة وقاله مجاهد ، وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مقرن أنه قال : كنا عشرة ولد مقرن ، فنزلت فينا ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله ﴾ إلى آخر الآية .

قال القاضي أبو محمد : وقوله عشرة ولد مقرن يريد الستة أولاد مقرن لصلبة أو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مقرن ، وبنيهم لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(32/347)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله ﴾

قال ابن عباس : وهم من أسلم من الأعراب ، مثل جُهينة ، وأسلم ، وغِفار .

وفي قوله : ﴿ ويتخذ ما ينفق ﴾ قولان .

أحدهما : في الجهاد .

والثاني : في الصدقة .

فأما القربات ، فجمع قُربة ، وهي : ما يقرِّب العبدَ من رضى الله ومحبته .

قال الزجاج : وفي القربات ثلاثة أوجه : ضم الراء ، وفتحها ، وإسكانها .

وفي المراد بصلوات الرسول قولان .

أحدهما : استغفاره ، قاله ابن عباس .

والثاني : دعاؤه ، قاله قتادة ، وابن قتيبة ، والزجاج .

وأنشد الزجاج :

عليكِ مثلُ الذي صَلَّيتِ فاغْتَمِضِي . . .

نَوْماً ، فانَّ لِجَنْبِ المَرْءِ مضطَجَعا

قال : إن شئتَ قلتَ : مثلَ الذي ، ومثلُ الذي ؛ فالأول أَمْرٌ لها بالدعاء ، كأنه قال : ادعي لي مثل الذي دعوتِ .

والثاني : بمعنى : عليكِ مثلُ هذا الدعاء .

قوله تعالى : ﴿ ألا إنها قُرْبَةٌ لهم ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "قربةٌ لهم" خفيفة .

وروى ورش ، وإسماعيل ابن جعفر عن نافع ، وأبان ، والمفضل عن عاصم "قُرُبةٌ" لهم بضم

الراء .

وفي المشار إليها وجهان .

أحدهما : أن الهاء ترجع إلى نفقتهم وإيمانهم .

والثاني : إلى صلوات الرسول .

قوله تعالى : ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ قال ابن عباس : في جنته . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(33/347)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله ﴾

أي صدق .

والمراد بنو مُقَرِّن من مُزَينة ؛ ذكره المهدوِيّ .

﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ جمع قُرْبة ، وهي ما يتقرّب به إلى الله تعالى ؛ والجمع قُرَب وقُرُبات وقَرَبات وقُرْبات ؛ حكاه النحاس .

والقُرُبات (بالضم) ما تُقرّب به إلى الله تعالى ؛ تقول منه : قرّبت لله قرباناً .

والقِربة بكسر القاف ما يستقي فيه الماء ؛ والجمع في أدنى العدد قِرْبات وقِربات وقِرَبات ، وللكثير قِرَب .

وكذلك جمع كل ما كان على فِعْلة ؛ مثل سِدْرة وفِقرة ، لك أن تفتح العين وتكسر وتسكّن ؛ حكاها الجوهري .

وقرأ نافع في رواية وَرْش "قُرُبة" بضم الراء وهي الأصل .

والباقون بسكونها تخفيفاً ؛ مثل كُتْب ورُسْل ، ولا خلاف في قربات .

وحكى ابن سعدان أن يزيد بن القَعْقاع قرأ ﴿ ألا إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَّهُمْ ﴾ .

ومعنى ﴿ وَصَلَوَاتِ الرسول ﴾ استغفاره ودعاؤه .

والصلاة تقع على ضروب ؛ فالصلاة من الله جل وعز الرحمة والخير والبركة ؛ قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ ﴾ [الأحزاب : 43] .

والصلاة من الملائكة الدعاء ، وكذلك هي من النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ كما قال : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي دعاؤك تثبيت لهم وطمأنينة .

﴿ ألا إِنَّهَا قُرُبَةٌ لَّهُمْ ﴾ أي تقرّبهم من رحمة الله ؛ يعني نفقاتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(34/347)

وقال الخازن :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ .

قال مجاهد : هم بنو مقرن من مزينة .

وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " أرأيتم إن كان جهينة ومزينة وأسلم وغفار خيراً من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة فقال رجل : خابوا وخسروا .

قال : نعم هم خير من بني تميم وبني أسد وبني عبد الله بن غطفان ومن بني عامر بن صعصعة "

وفي رواية " أن الأقرع بن حابس قال للنبي (صلى الله عليه وسلم) : إنما تابعك سراق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال وجهينة .

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : أرأيت إن كان أسلم وغفار ومزينة وأحسبه قال : وجيهنة خيراً من بني تميم وبني عامر وأسد وغطفان قال خبوا وخسروا قال نعم " (ق)

عن أبي هريرة أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " أسلم سالمها الله وغفار غفر الله لها " زاد مسلم في رواية له : " أما إني لم أقلها لكن الله قالها " (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار موالي ليس لهم مولى دون الله ورسوله " وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويتخذ ما ينفق قربات عند الله ﴾ جمع قربة أي يطلب بما ينفق القربة إلى الله تعالى : ﴿ وصلوات الرسول ﴾ يعني ويرغبون في دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) وذلك أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) " اللهم صل على آل أبي أوفى " ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في إنها إلى صلوات الرسول ويحتمل أن يعود إلى الإنفاق وكلاهما قربة لهم عند الله وهذه شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات عند الله وصلوات الرسول له مقبولة عند الله لأن الله سبحانه وتعالى أكد ذلك بحرف التنبيه وهو قوله تعالى ألا وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى إنها قربة لهم ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ وهذه النعمة هي أقصى مرادهم ﴿ إن الله غفور ﴾ للمؤمنين المنفقين في سبيله ﴿ رحيم ﴾ يعني بهم حيث وفقهم لهذه الطاعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾

نزلت في بني مقرن من مزينة قاله مجاهد .

وقال عبد الرحمن بن مغفل بن مقرن : كنا عشرة ولد مقرن فنزلت : ومن الأعراب من يؤمن الآية يريد : الستة والسبعة الإخوة على الخلاف في عددهم وبنيهم .

وقال الضحاك : في عبد الله ذي النجادين ورهطه .

وقال الكلبي : في أسلم وغفار وجهينة .

ولما ذكر تعالى من يتخذ ما ينفق مغرماً ذكر مقابله وهو من يتخذ ما ينفق مغنماً ، وذكر هنا الأصل الذي يترتب عليه إنفاق المال في القربات وهو الإيمان بالله واليوم الآخر ، إذ جزاء ما ينفق إنما يظهر ثوابه الدائم في الآخرة .

وفي قصة أولئك اكتفى بذكر نتيجة الكفر وعدم الإيمان ، وهو اتخاذه ما ينفق مغرماً وتربصه بالمؤمنين الدوائر .

والأجود تعميم القربات من جهاد وصدقة ، والمعنى : يتخذه سبب وصل عند الله

وأدعية الرسول ، وكان يدعو للمصدقين بالخير والبركة ، ويستغفر لهم كقوله (صلى الله عليه وسلم) :

" اللهم صل على آل أبي أوفى " وقال تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ والظاهر عطف وصلوات على قربات .

قال ابن عطية : ويحتمل أن يكون وصلوات الرسول عطفاً على ما ينفق ، أي : ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قربة .

قال ابن عباس : صلوات الرسول هي استغفاره لهم .

وقال قتادة : أدعيته بالخير والبركة سماها صلوات جرياً على الحقيقة اللغوية ، أو لأنّ الدعاء فيها ، وحين جاء ابن أبي أوفى بصدقته قال : " آجرك الله فيما أعطيت ، وجعله لك طهوراً " والضمير في أنها قيل : عائد على الصلوات .

وقيل : عائد على النفقات .

وتحرير هذا القول أنه عائد على ما على معناها ، والمعنى : قربة لهم عند الله .

وهذه شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق رجائه على طريق الاستئناف مع حرف التنبيه ، وهو ألا وحرف التوكيد وهو أنّ .

(37/347)

قال الزمخشري : وما في السين من تحقيق الوعد ، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأنّ الصدقة منه تعالى بمكان إذا خلصت النية من صاحبها انتهى .

وتقدم الكلام معه في دعواه أنّ السين تفيد تحقيق الوعد .

وقرأ ورش : قربة بضم الراء ، وباقي السبعة بالسكون ، وهما لغتان .

ولم يختلفوا في قربات أنه بالضم ، فإن كان جمع قربة فجاء الضم على الأصل في الوضع ، وإن كان جمع قربة بالسكون فجاء الضم اتباعاً لما قبله ، كما قالوا : ظلمات في جمع ظلمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(38/347)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

أي من جنسهم على الإطلاق ﴿ مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر وَيَتَّخِذُ ﴾ أي يأخذ لنفسه على وجه الاصطفاءِ والادخارِ ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ أي ينفقه في سبيل الله تعالى ﴿ قربات ﴾ أي ذرائعَ إليها وللإيذان بما بينهما من كمال الاختصاصِ جُعل كأنه نفسُ القرُبات ، والجمعُ

باعتبار أنواعِ القرُباتِ أو أفرادِها ، وهي ثاني مفعولَي يتخذ وقولُه تعالى : ﴿ عندَ الله ﴾ صفتُها أو ظرفٌ ليتخذ ﴿ وصلوات الرسول ﴾ أي وسائلَ إليها فإنه عليه الصلاة والسلام كان يدعو للمتصدّقِين بالخير والبركة ويستغفرُ لهم ولذلك سُنّ للمُصدّقِ أن يدعوَ للمتصدّقِ عند أخذِ صدقتِه لكن ليس له أن يصليَ عليه كما فعله عليه الصلاة والسلام حين قال : "اللهم صلَّ على آل أبي أوْفى" فإن ذلك منصِبُه فله أن يتفضلَ به على من يشاء ، والتعرُّضُ لوصف الإيمان بالله واليوم الآخر في الفريق الأخيرِ مع أن مساقَ الكلامِ لبيان الفرقِ بين الفريقين في شأن اتخاذِ ما ينفقانه حالاً ومآلاً وأن ذكرَ اتخاذِه ذريعةً إلى القربات والصلوات مغنٍ عن التصريح بذلك لكمال العنايةِ بإيمانهم وبيانِ اتصافِهم به وزيادةِ الاعتناءِ بتحقيق الفرق بين الفرقين من أول الأمر ، وأما الفريقُ الأولُ فاتصافُهم بالكفر والنفاقِ معلومٌ من سياق النظم الكريمِ صريحاً ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ شهادةٌ لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديقٌ لرجائهم ، والضميرُ لما ينفَق والتأنيثُ باعتبار الخبرِ مع ما مر من تعدّده بأحد الوجهين ، والتنكيرُ للتفخيم المغني عن الجمع أي قربةٌ عظيمةٌ لا يُكتَنه كُنهُها . وفي إيراد الجملةِ اسميةً وتصديرِها بحرفي التنبيهِ والتحقيقِ من الجزالة ما لا يخفى ، والاقتصارُ على بيان كونِها قربةً لهم لأنها الغايةُ القصوى وصلواتُ الرسول من ذرائعها ، وقوله تعالى : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ وعدٌ لهم بإحاطة رحمتِه الواسعةِ بهم وتفسيرٌ للقربة كما أن قوله

(39/347)

عز وعلا : ﴿ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وعيدٌ للأولين عَقيبَ الدعاءِ عليهم والسينُ للدلالة على تحقق ذلك وتقررِه ألبتةَ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليلٌ لتحقق الوعدِ على نهج الاستئنافِ التحقيقيّ قيل هذا في عبد اللَّه ذي البجادَيْن وقومِه ، وقيل : في بني مُقَرِّنٍ من مُزينةَ وقيل : في أسلمَ وغِفارٍ وجُهينةَ . وروى أبو هريرة رضى الله عنه أنه قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : " أسلمُ وغفارٌ وشيءٌ من جُهينةَ ومُزينةَ خيرٌ عند الله يومَ القيامة من تميمٍ وأسدِ بنِ خزيمةَ وهوازنَ وغَطَفان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(40/347)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

أي من جنسهم على الإطلاق ﴿ مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ على الوجه المأمور به ﴿

وَيَتَّخِذُ ﴾ على وجه الاصطفاء والاختيار ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ في سبيل الله تعالى ﴿ قربات ﴾ جميع قربة بمعنى التقرب ، وهو مفعول ثان ليتخذ ، والمراد اتخاذ ذلك سبباً للتقرب على التجوز في النسبة أو التقدير ، وقد تطلق القربة على ما يتقرب به والأول اختيار الجمهور ، والجمع باعتبار الأنواع والأفراد ، وقوله سبحانه : ﴿ عَندَ الله ﴾ صفة ﴿ قربات ﴾ أو ظرف ليتخذ .

وجوز أبو البقاء كونه ظرفا لقربات على معنى مقربات عند الله تعالى ، وقوله تعالى : ﴿ وصلوات الرسول ﴾ عطف على ﴿ قربات ﴾ أي وسبباً لدعائه عليه الصلاة والسلام فإنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، ولذلك يسن للمتصدق عليه أن يدعو للمتصدق عند أخذ صدقته لكن ليس له أن يصلي عليه ، فقد قالوا : لا يصلي على غير الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام إلا بالتبع لأن في الصلاة من التعظيم ما ليس في غيرها من الدعوات وهي لزيادة الرحمة والقرب من الله تعالى فلا تليق بمن يتصور منه الخطايا والذنوب ولاقت عليه تبعاً لما في ذلك من تعظيم المتبوع ، واختلف هل هي مكروهة تحريماً أو تنزيهاً أو خلافاً الأولى ؟ صحح النووي في الأذكار الثاني ، لكن في خطبة شرح الاشباه للبيري من صلى على غيرهم أثم وكره وهو الصحيح .

وما رواه الستة غير الترمذي من قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهم صل على ل أبي أوفي "

لا يقوم حجة على المانع لأن ذلك كما في المستصفى حقه عليه الصلاة والسلام فله أن يتفضل به على من يشاء ابتداءاً وليس الغير كذلك .

(41/347)

وأما السلام فنقل اللقاني في "شرح جوهرة التوحيد" عن الإمام الجويني أنه في معنى الصلاة فلا يستعمل في الغائب ، ولا يفرد به غير الأنبياء والملائكة عليهم السلام فلا يقال : عليّ عليه السلام بل يقال : رضي الله تعالى عنه ، وسواء في هذا الأحياء والأموات إلا في الحاضر فيقال : السلام أو سلام عليك أو عليكم ، وهذا مجمع عليه انتهى ، أقول : ولعل من الحاضر ﴿ السلام عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادَ الله الصالحين ﴾ و ﴿ سلام عَلَيْكُمُ دَارَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ وإلا فهو مشكل ، والظاهر أن العلة في منع السلام ما قاله النووي في علة منع الصلاة من أن ذلك شعار أهل البدع وأنه مخصوص في لسان السلف بالأنبياء والملائكة عليهم السلام كما أن قولنا : عز وجل مخصوص بالله سبحانه فلا يقال محمد عز وجل وإن كان عزيزاً جليلاً صلى الله عليه وسلم ، ثم قال اللقاني : وقال القاضي عياض : الذي ذهب إليه المحققون وأميل إليه ما قاله مالك .

وسفيان ، واختاره غير واحد من الفقهاء والمتكلمين أنه يجب تخصيص النبي صلى الله

عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالصلاة والتسليم كما يختص الله سبحانه عند ذكره بالتقديس والتنزيه ويذكر من سواهم بالغفران والرضا كما قال تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ [المائدة : 119] ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ [الحشر : 10] وأيضاً أن ذلك في غير من ذكر لم يكن في الصدر الأول وإنما أحدثه الرافضة في بعض الأئمة والتشبيه بأهل البدع منهى عنه فتجب مخالفتهم انتهى ، ولا يخفى أن مذهب الحنابلة جواز ذلك في غير الأنبياء والملائكة عليهم السلام استقلالاً عملا بظاهر الحديث السابق ، وكراهة التشبيه بأهل البدع مقررة عندنا أيضاً لكن لا مطلقاً بل في المذموم وفيما قصد به التشبه بهم كما ذكره الحصكفي في الدر المختار فافهم .

(42/347)

ثم التعرض لوصف الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر في هذا الفريق مع أن مساق الكلام لبيان الفرق بين الفريقين في بيان شأن اتخاذ ما ينفقانه حالا ومآلا وأن ذكر اتخاذه سبباً للقربات والصلوات مغن عن التصريح بذلك لكمال العناية بإيمانهم وبيان اتصافهم به وزيادة الاعتناء بتحقق الفرق من أول الأمر ، وأما الفريق الأول فاتصافهم بالكفر والنفاق معلوم من سياق النظم الكريم صريحاً .

وجوز عطف ﴿ وصلوات ﴾ على ﴿ مَا يُنفِقُ ﴾ وعليه اقتصر أبو البقاء أي يتخذ ما ينفق وصلوات الرسول عليه الصلاة والسلام قربات ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ شهادة لهم من جناب الله تعالى بصحة ما اعتقدوه وتصديق لرجائهم ، والضمير إما للنفقة المعلومة مما تقدم أو لما التي هي بمعناها فهو راجع لذلك باعتبار المعنى فلذا أنث أو لمراعاة الخبر .

وجوز ابن الخازن رجوعه للصلوات والأكثرون على الأول ، وتنوين ﴿ قُرْبَةٌ ﴾ للتفخيم المغنى عن الجمع أي قربة لا يكتنه كنهها ، وفي إيراد الجملة اسمية بحرفي التنبيه والتحقيق من الجزالة ما لا يخفى .

والاقتصار على بيان كونها قربة لهم لأنها الغاية القصوى وصلوات الرسول عليه الصلاة والسلام من ذرائعها وقرىء ﴿ قُرُبَةٌ ﴾ بضم الراء للاتباع ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِى رَحْمَتِهِ ﴾ وعد لهم بإحاطة رحمته سبحانه بهم كما يشعر بذلك ﴿ فِى ﴾ الدالة على الظرفية وهو في مقابلة الوعيد للفرقة السابقة المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 98] وفيه تفسير للقربة أيضاً ، والسين للتحقيق والتأكيد لما تقدم أنها في الإثبات في مقابلة لن في النفي ، وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تقرير لما تقدم كالدليل عليه ، والآية كما أخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وأبو الشيخ .

وغيرهم عن مجاهد نزلت في بني مقرن من مزينة .

وقال الكلبي : في أسلم .

وغفار .

وجهينة وقيل : نزلت التي قبلها في أسد .

وغطفان .

وبني تميم وهذه في عبد الله ذي البجادين بن نهم المزنى رضي الله تعالى عنه . انتهى انتهى .

اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(43/347)

وقال القاسمى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ .

امتثالاً لأمره ، وترجيحاً لحبه ، وقطعاً لحب ما سواه .

و: ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ مفعول ثان ليَتَّخِذُ ، وجمعها باعتبار أنواعها ، أو أفرادها .

قال الشهاب : القُربة بالضم ، ما يتقرب به إلى الله ، ونفس التقرب ، فعلى الثاني يكون معنى اتخاذها سبباً له ، على التجوز في النسبة أو التقدير .

و: ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ صفة لقُرُبَاتٍ، أي: ظرف ليَتَّخِذُ ﴿ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ﴾ أي: سبب دعواته بالرحمة المكملة لقصوره، وكان صلى الله عليه وسلم يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: < اللهم صلِّ على آل أبي أوفى > ﴿ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ ﴾ الضمير لما ينفق، والتأنيث باعتبار الخير، والتنكير للتفخيم، أي: قربة عظيمة جامعة لأنواع القربات، يكملها الله بدعوة الرسول، ويزيد على مقتضاها بما أشار إليه بقوله: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ أي: جنته.

﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ ﴾ يستر عيب المخلّ: ﴿ رَحِيمٌ ﴾ يقبل جهد المقلّ.

قال الزمخشري: قوله تعالى: ﴿ أَلَا إِنَّهَا ﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديقاً لرجائه، على الإستئناف، مع حرفي التنبيه والتحقيق، المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه.

وكذلك: ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ﴾ وما في السين من تحقيق الوعد.

(44/347)

وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين، وأن الصدقة منه بمكان، إذا خلصت النية من صاحبها. انتهى.

وفيه " الإنتصاف " : النكتة في إشعار السين بالتحقيق أن معنى الكلام معها : أفعل كذا ، وإن أبطأ الأمر ، أي : لا بد من فعله ، قال الشهاب : وفيه تأمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 499.500 ﴾

(45/347)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

هؤلاء هم المؤمنون من الأعراب وفَّاهم الله حقهم من الثناء عليهم ، وهم أضداد الفريقين الآخَرين المذكورين في قوله : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ﴾ [التوبة : 97] وقوله ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مَغرماً ﴾ [التوبة : 97] .

قيل : هم بنو مُقَرّن من مزينة الذين نزل فيهم قوله تعالى : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ [التوبة : 92] الآية كما تقدم .

ومن هؤلاء عبد الله ذو البجادين المزَني هو ابن مغفل .

والإنفاق هنا هو الإنفاق هناك .

وتقدم قريباً معنى ﴿ يتخذ ﴾ .

و﴿ قربات ﴾ بضم القاف وضم الراء : جمع قربة بسكون الراء .

وهي تطلق بمعنى المصدر ، أي القرب وهو المراد هنا ، أي يتخذون ما ينفقون تقرباً عند الله .

وجَمْع قربات باعتبار تعدد الإنفاق ، فكل إنفاق هو قربة عند الله لأنه يوجب زيادة القرب .

قال تعالى : ﴿ يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيُّهم أقرب ﴾ [الإسراء : 57] .

ف ﴿ قربات ﴾ هنا مجاز مستعمل في رضى الله ورفع الدرجات في الجنة ، فلذلك وصفت بـ ﴿ عند ﴾ الدالة على مكان الدنو .

و(عند) مجاز في التشريف والعناية ، فإن الجنة تشبّه بدار الكرامة عند الله .

قال تعالى : ﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : 54 ، 55] .

و﴿ وصلوات الرسول ﴾ دعواته .

وأصل الصلاة الدعاء .

وجمعت هنا لأن كل إنفاق يقدمونه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو لهم بسببه دعوة ، فبتكرر الإنفاق تتكرر الصلاة .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي على كل من يأتيه بصدقته وإنفاقه امتثالاً لما أمره الله

بقوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ﴾ [التوبة : 103] .

وجاء في حديث ابن أبي أوفَى أنه لما جاء بصدقته قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهم صل على آل أبي أوْفَى "

(46/347)

ويجوز عطف ﴿ صلوات الرسول ﴾ على اسم الجلالة معمولاً ل ﴿ عند ﴾ ، أي يتخذون الإنفاق قربة عند صلوات الرسول ، أي يجعلونه تقرباً كائناً في مكان الدنو من صلوات الرسول تشبيهاً للتسبب في الشيء بالاقتراب منه ، أي يجعلون الإنفاق سبباً لدعاء الرسول لهم .

فظرف (عند) مستعمل في معنيين مجازيين .

ويجوز أن يكون ﴿ وصلوات الرسول ﴾ عطفاً على ﴿ قربات عند الله ﴾ ، أي يتخذ ما ينفق دعوات الرسول .

أخبر عن الإنفاق باتخاذه دعوات الرسول لأنه يتوسل بالإنفاق إلى دعوات الرسول إذ أمر بذلك في قوله تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ [التوبة : 103] .

وجملة : ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ مستأنفة مسوقة مساق البشارة لهم بقبول ما رجوه .

وافتتحت الجملة بحرف الاستفتاح للاهتمام بها ليعيها السامع ، وبحرف التأكيد لتحقيق مضمونها ، والضمير الواقع اسم (إنَّ) عائد إلى ما (ينفق) باعتبار النفقات .

واللام للاختصاص ، أي هي قربة لهم ، أي عند الله وعند صلوات الرسول .

وحذف ذلك لدلالة سابق الكلام عليه .

وتنكير ﴿ قربة ﴾ لعدم الداعي إلى التعريف ، ولأن التنكير قد يفيد التعظيم .

وجملة : ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ واقعة موقع البيان لجملة ﴿ إنها قربة لهم ﴾ ، لأن القربة عند الله هي الدرجات العلى ورضوانه ، وذلك من الرحمة .

والقربة عند صلوات الرسول صلى الله عليه وسلم إجابة صلاته .

والصلاة التي يدعو لهم طلب الرحمة ، فمآل الأمرين هو إدخال الله إياهم في رحمته .

وأوثر فعل الإدخال هنا لأنه المناسب للكون في الجنة ، إذ كثيراً ما يقال : دخل الجنة .

قال تعالى : ﴿ وادخلي جنتي ﴾ [الفجر : 30] .

وجملة : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ تذييل مناسب لما رجوه وما استجيب لهم .

وأثبت بحرف التأكيد للاهتمام بهذا الخبر ، أي غفور لما مضى من كفرهم ، رحيم بهم يفيض النعم عليهم .

وقرأ الجمهور ﴿ قرْبة ﴾ بسكون الراء ، وقرأه ورش وحده بضم الراء لاتباع القاف .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(47/347)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

ومن هؤلاء من يؤمن بالله ، ويؤمن باليوم الآخر ، وما ينفقه من زكاة أو صدقة فهو يتخذه قربى إلى الله الذي آمن به ، وكنزاً له في اليوم الآخر ، و " قربى " : أي : شيء يقربه إلى الله ؛ يدخره له في اليوم الآخر ، وقوله الحق : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرسول ﴾ أي : يجعل ما ينفق قربة إلى الله وكذلك طلباً لدعاء الرسول ؛ لأن الصلاة في الأصل هي الدعاء ، فساعة يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة للمسلمين الضعاف ممن يعتبرها قربة ، فهو صلى الله عليه وسلم يدعو له .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : " اللهم اغفر لآل أبي أوفى ، وبارك لهم "

وقد دعا بذلك حين جاء له ما تزكى وتصدق به بنو أبي أوفى ، ودعوة الرسول مجابة إلا ما قال الله إنه سبحانه لا يجيبه لحكمة .

ولقائل أن يقول ألا يعلم من يقدم الزكاة والصدقة قربى ، أنه سبحانه غير مستفيد من هذا الحمل ؟ ألا يعلم أنها قربى له شخصيّاً ؟ نعم إنه يعلم ، ويعلم أن الله يثيبه على أمر ينتفع به الفقراء ، وفي هذه إشارة إلى أن كل تكليف من الله إنما يعود نفعه إلى المكلَّف لا إلى المكلِّف . وما دام العائد إلى المكلَّف ؛ فالله يدعو لصالح ذاتك وإلى خير لك .

ومن اعتبرها قربى إلى الله يأت لهم القول الحق : ﴿ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ وقد قال ذلك للأعراب الذين أنفقوا قربى لله ، وطمعاً في دعوات الرسول صلى الله عليه وسلم ، فأوضح لهم سبحانه أنها قربى لهم ؛ لأنهم المنتفعون بها ، وأنه سيدخلهم في رحمته . ورحمة الله هي نعيم مقيم ، وهي دائمة وباقية ببقاء الله الذي لا يُحَدّ ، أما الجنة فباقية وخالدة . بإبقاء الله لها . إذن : فدخولك في رحمة الله أعلى من دخولك جنته .

فحين يقال : " دخل في الرحمة " فمعنى ذلك أن الرحمة ستظله إلى ما لا نهاية .

(48/347)

وحينما يسمع أي أعرابي قول الحق : ﴿ وَمِنَ الأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرسول أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ ؛

فعندما سمع الأعرابي هذه الآية جلس يحدث نفسه بالعطاءات الإلهية . فيكبح جماح خطرات السوء في نفسه ، أو بالزلات أو بالهفوات التي قد ينطق بها ، وقد يقول الأعرابي لنفسه : إني أخاف ألا يغفر الله الخطرات أو السيئات والهفوات ، فتأتي الآية مطمئنة له ما دام قد فعل السيئة بغفلة أو بسهو ، وعليه أن يعلم أن الله غفور رحيم ، ولا داعي أن يعكر على نفسه بالظن بأنه لن يدخل في رحمة الله .

لذلك جاء سبحانه بالقول : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ لعل واحداً ممن يسمع هذا ؛ يظن أن الجزاء والقربى والدخول في رحمة الله خاصٌّ بمن لم يذنب ذلك أبداً ، فيوضح له القول : اطمئن . إن كنت قد حصلت منك هفوة أو غفلة ، فاعلم أن الله غفور رحيم ، فلا يعكر عليك ذنبك إيمانك بأنك سوف تدخل في رحمة الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(49/347)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾

أخرج سنيد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ قال : هم بنو مقرن من مزينة ، وهم الذين قال الله ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ [التوبة : 92] الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ وصلوات الرسول ﴾ يعني استغفار النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله ﴾ قال : هذه ثنية الله من الأعراب ، وفي قوله ﴿ وصلوات الرسول ﴾ قال : دعاء الرسول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(50/347)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُرُبَاتٍ ﴾ : مفعولٌ ثان ليتخذ كما مرَّ في " مَغْرَما " . ولم يختلف قُرَّاء السبعة في ضم الراء من " قُرُبات " مع اختلافهم في راء " قربة " كما سيأتي ، فيحتمل أن

تكون هذه جمعاً لقُرُبة بالضم كما هي قراءة ورش عن نافع ، ويحتمل أن تكون جمعاً للساكنها ، وإنما ضُمَّت اتباعاً ل " غرفات " وقد تقدم التنبيه على هذه القاعدة وشروطها عند قوله تعالى ﴿ فِي ظُلُمَاتٍ ﴾ [الآية : 17] أول البقرة .

قوله : ﴿ عِندَ الله ﴾ في هذا الظرفِ ثلاثة أوجه ، أظهرها : أنه متعلقٌ ب " يَتَّخذ " . والثاني : أنه ظرف ل " قربات " قاله أبو البقاء ، وليس بذاك . الثالث : أنه متعلقٌ بمحذوف لأنه صفةٌ ل " قربات " .

قوله : ﴿ وَصَلَوَاتِ الرسول ﴾ فيه وجهان أظهرهما : أنه نسق على " قربات " وهو ظاهرُ كلام الزمخشري فإنه قال : " والمعنى أنَّ ما ينفقه سببٌ لحصول القربات عند الله " وصلوات الرسول " لأنه كان يدعو للمتصدِّقين بالخير كقوله : " اللهم صل على آل أبي أوفى " والثاني : وجَوَّزَه ابن عطية ولم يذكر أبو البقاء غيره أنها منسوقةٌ على " ما ينفق " ، أي : ويتخذ بالأعمال الصالحة وصلوات الرسول قربة .

قوله : ﴿ ألا إِنَّهَا قُرْبَةٌ ﴾ الضمير في " إنها " قيل : عائد على " صلوات " وقيل : على النفقات أي المفهومة من " يُنفقون " .

(51/347)

وقرأ ورش " قُرُبَة " بضم الراء ، والباقون بسكونها فقيل : لغتان . وقيل : الأصل السكون والضمة إتباع ، وهذا قد تقدم لك فيه خلاف بين أهل التصريف : هل يجوز تثقيل فُعْل إلى فُعُل ؟ وأن بعضَهم جعل عُسُراً يُسُراً بضم السين فَرْعين على سكونها . وقيل : الأصل قُرُبة بالضم ، والسكون تخفيف ، وهذا أَجْرى على لغة العرب إذ مبناها الهرب مِنَ الثِّقَل إلى الخفة .

وفي استئناف هذه الجملة وتصدُّرِها بحرفَيْ التنبيه والتحقيق المُؤْذنين بثبات الأمر وتمكُّنه شهادةٌ من الله بصحة ما اعتقده من إنفاقه ، قال معناه الزمخشري قال : " وكذلك سيُدْخلهم ، وما في السين من تحقيق الوعد " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 109.108 ﴾

(52/347)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) ﴾

تَنَوَّعُوا ؛ فمنهم مَنْ غَشَّ ولم يربح ، ومنهم مَنْ نَصَحَ فلم يَخْسِرْ ، فأمَّا الذين مذقوا فهم في مهواةِ هوانِهم ، وأما الذين صَدَقُوا ففي رَوْحِ إحسانهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 57 ﴾

(53/347)

" فصل "

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) ﴾

التفسير : لما شرح أحوال منافقي المدينة شرع في أحوال المنافقين من أهل البدو فقال ﴿ وجاء المعذرون ﴾ من قرأ بالتخفيف فهو من أعذر إذا اجتهد في العذر وبالغ فيه ومنه قولهم : من أنذر فقد أعذر . فكأنه تعالى فصل بين أصحاب العذر وبين الكافرين ؛

فالمعذرون هم الذين أتوا بالعذر وهم أسد وغطفان قالوا : إن لنا أتباعاً وعيالاً وإن بنا جهداً فأذن لنا في التخلف . وقيل : هم رهط عامر بن الطفيل قالوا : إن غزونا معك أغارت أعراب طيء على أهالينا ومواشينا فقال صلى الله عليه وآله : سيغنيني الله عنكم . وعن مجاهد : نفر من غفار . ومن قرأ بالتشديد ففيه وجهان : الأوّل أن يكون من التعذير وهو التقصير في الأمر والتواني فيه وحقيقته أن يوهم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذر له . الثاني وقد ذكره الفراء والزجاج وابن الأنباري أنه من الاعتذار والأصل فيه المعتذرون أدغمت التاء في الذال بعد نقل حركتها إلى العين . والاعتذار قد يكون بالكذب كقوله تعالى : ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا ﴾ وقد يكون صحيحاً كقول القائل :

(54/347)

ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر . . . أي ما جاء بعذر صحيح . فإذا أخذنا بقراءة التخفيف كان المعذرون صادقين ، وإذا أخذنا بقراءة التشديد وفسرناها بالمعتذرين فاحتمل الأمران . ومن المفسرين من رجح جانب صدقهم لأنه تعالى ميزهم من الكاذبين بقوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ ومنهم من مال إلى أنهم كاذبون . روى الواحدي بإسناده عن أبي عمرو أنه قال : إن أقواماً تكلفوا عذراً بباطل وهم الذين عناهم

الله بقوله ﴿ وجاء المعذرون ﴾ وتخلف آخرون لا بعذر ولا بشبهة عذر جراءة على الله وهم الذين أرادهم الله بقوله : ﴿ وقعد الذين كذبوا الله ورسوله ﴾ وهم منافقو الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان .

(55/347)

﴿ سيصيب الذين كفروا منهم ﴾ أي من الأعراب ﴿ عذاب أليم ﴾ في الدنيا بالقتل وفي العقبى بالنار . وإنما قال : ﴿ منهم ﴾ لعلمه بأن بعضهم سيؤمن ويتخلص من هذا العقاب . ثم ذكر أن تكليف ساقط عن أصحاب الأعذار الحقيقية فقال ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ وهم الذين في أبدانهم ضعف في أصل الخلقة أو لهرم ﴿ ولا على المرضى ﴾ ويدخل فيه أصحاب العمى والعرج والزمانة وكل من كان موصوفاً بمرض يمنعه من التمكن من المحاربة ﴿ ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون ﴾ في الغزو على أنفسهم ﴿ حرج ﴾ قيل : هم مزينة وجهينة وبنو عذرة ، وفيه دليل على أنه لا يحرم عليه الخروج إذا أمكنه الإعانة بمقدار القدرة كحفظ متاع المجاهدين وتكثير سوادهم وإنما يكون ذلك طاعة مقبولة منه إذا لم يجعل نفسه كلاً ووبالاً عليهم . ثم إنه شرط في جواز العقود النصح لله ورسوله ليحترزوا بعدهم عن إلقاء الإرجاف وإثارة الفتن ويقوموا على إصلاح مهمات

بيوتهم . وبالجملة على كل ما له مدخل في طاعة الله ورسوله وموافقة السر العلن كما يفعل المولى . الناصح بصاحبه . ثم قال : ﴿ ما على المحسنين ﴾ أي المعذورين الناصحين ﴿ من سبيل ﴾ للعتاب والمؤاخذة . قال بعض أهل الظاهر كداود الأصفهاني وغيره : إن المحسن هو الآتي بالإحسان ورأس الإحسان وسنامه هو قول لا إله إلا الله محمد رسول الله . فهذا يدل على أن الملكف إذا تكلم بهذه الكلمة برئت ذمته عن مطالبة نفسه وماله إلا بدليل منفصل كما أن السلطان لو قال لأهل مملكته تكليفي عليكم كذا وكذا وبعد ذلك لا سبيل لأحد على أحد كان ذلك دليلاً على أنه لا تكليف عليهم فيما وراء ذلك لأن باب النفي لا نهاية له فلا ينضبط إلا بهذا الطريق . وعلى هذا لو ورد في القرآن ألف تكليف أو أقل أو أكثر كان ذلك تنصيصاً على أن التكاليف محصورة فيها وفيما وراءها ليس لله على الخلق تكليف وأمر ونهي ، وبهذا الطريق تصير الشريعة مضبوطة ويكون القرآن وافياً ببيان التكاليف والأحكام ، ولا حاجة

(56/347)

إلى التمسك بالقياس لأن هذا النص دل على أن الأصل براءة الذمة . فإن كان القياس مفيداً للبراءة أيضاً فضائع ، وإن كان يفيد شغل الذمة صار مخصصاً لعموم النص ، وإنه لا

يجوز لأن النص أقوى من القياس . ولما ذكر الضعفاء والمرضى والفقراء بيّن قسماً رابعاً وهم الذين لا يجدون الراحلة وإن قدروا على الزاد فقال : ﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم ﴾ أي على المركوب . قلت : قال في الكشاف : هو حال من الكاف في ﴿ أتوك ﴾ بإضمار " قد " أي إذا ما أتوك قائلاً ﴿ لا أجد ما أحملكم عليه تولوا ﴾ وجوز أن يكون واسطة بين الشرط والجزاء كالاعتراض .

(57/347)

قلت : ويحتمل أن يكون بدلاً من ﴿ أتوك ﴾ . قال مجاهد : هم أبناء مقرن معقل وسويد والنعمان ، وقيل : أبو موسى الأشعري وأصحابه أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله يستحملونه ووافق منه غضباً فقال : والله ما أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وهم مدبرون يبكون فدعاهم وأعطاهم ذو داغر الذري . فقال أبو موسى : ألست حلفت يا رسول الله فقال : أما إني إن شاء الله لا أحلف بيمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وكفرت عن يميني . وقيل : هم البكاؤون سبعة نفر من الأنصار معقل بن يسار وصخر بن خنساء وعبد الله بن كعب وعلبة بن زيد وسالم بن عمير وثعلبة بن عنمة وعبد الله بن مغفل ، أتوا رسول الله صلى الله عيه وآله فقالوا : يا نبي الله إن الله عز وجل قد ندبنا

للخروج معك فاحملنا على الخفاف المرقوعة والنعال المخصوفة نغزو معك . فقال : لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وهم يبكون . وقوله ﴿ تفيض من الدمع ﴾ كقولك تفيض دمعاً وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كلها فائضة . و " من " للبيان والجار والمجرور في محل النصب على التمييز . ﴿ حزناً أن لا يجدوا ﴾ أي على أن لا يجدوا . ﴿ إنما السبيل ﴾ أي سبيل الخطاب والعتاب في أمر الغزو والجهاد ﴿ على الذين يستأذنوك ﴾ في التخلف وهم أغنياء . ثم قال على سبيل الاستئناف ﴿ رضوا ﴾ كأنه قيل ما لهم استأذنوا وهم قادرون على الاستعداد ؟ فقيل : رضوا بالدناءة والانتظام في جملة الخوالف ومن جملة أسباب الاستئذان أن طبع الله تعالى على قلوبهم . قال لأهل العلم : لما قال في الآية الأولى و ﴿ إذا أنزلت سورة ﴾ [التوبة : 86] قال هناك ﴿ وطبع ﴾ [التوبة : 87] ليكون المجهول مبنياً على المجهول بخلافه في هذه الآية . ثم إن العلم فوق الفقه فكان أنسب بالمقام الذي جرى فيه ذكر الله . أما قوله ﴿ قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم ﴾ فإنه علة المنع من الاعتذار لأن غرض المعتذر أن يصير عذره مقبولاً فإذا علم بأن القوم يكذبونه

(58/347)

وجب عليه تركه . وقوله ﴿ قد نبأنا الله ﴾ علة لانتفاء التصديق . ﴿ وسيرى الله عملكم ﴾ يعني رؤية وقوع أي سيقع أنكم هل تبقون على الحالة التي تظهرونها أم لا . وفي قوله ﴿ ثم تردّون على عالم الغيب ﴾ تخويف شديد وفيه أنه مطلع على بواطنهم الخبثة وضمائرهم المملوءة من النفاق والكذب . وإنما لم يقل في هذه الآية و " المؤمنون " كما في الآية التي تجيء ، لأن هذه في المنافقين ولا يطلع على ما في باطنهم إلا الله ثم رسوله باطلاع الله إياه أو بنور نبوته كما قال ﴿ قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ والآية الأخرى في المؤمنين وعباداتهم ظاهرة للكل .

وختم آية المنافقين بقوله ﴿ ثم تردون ﴾ لأنه وعيد فقطعه عن الأول بخلاف آية المؤمنين حيث وصلها بالواو لأنه وعد من الله . ثم ذكر أن منافقي الأعراب سيؤكدون أعذارهم بالأيمان الكاذبة مثل ما حكى تعالى عن منافقي المدينة فقال : ﴿ سيحلفون بالله لكم ﴾ أي لأجلكم ﴿ إذا انقلبتم ﴾ أي رجعتم ﴿ إليهم ﴾ ولم يذكر المحلوف عليه . والظاهر أنهم حلفوا على أنهم ما قدروا على الخروج ولكن بين غرضهم من الحلف فقال ﴿ لتعرضوا عنهم ﴾ أرادوا الصفح والعفو فأمر الله المؤمنين بإعطاء طلبتهم ولكن على سبيل المقت لا الصفح ولهذا قال ابن عباس : أراد ترك الكلام والسلام . وقال مقاتل : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة : لا تجالسوهم ولا تكلموهم وكانوا ثمانين رجلاً منهم جد بن قيس ومعتب بن قشير . ثم بين علة الاجتناب عنهم فقال : ﴿ إنهم رجس

﴿ فكأنهم نجس العين فلا سبيل إلى تطهيرهم بالعتاب والتوبيخ وفي أمثالهم إنما يعاتب الأديم ذو البشرة . المعاتبة المعاودة وبشرة الأديم ظاهره الذي عليه الشعر أي إنما يعاد الدباغ من الأديم ما سلمت بشرته ، يضرب لمن فيه مراجعة ومستعتب وإذا لم تكن المعاتبة نافعة فيهم فتركها هو الصواب ﴿ ومأواهم ﴾ جهنم منقلبهم النار عتاباً توبيخاً .

(59/347)

ثم بين أنهم طلبوا إعراض الصفح بقوله ﴿ يحلفون لكم لترضوا عنهم ﴾ نهاهم عن الرضا بقوله ﴿ فإن ترضوا عنهم ﴾ الآية ، ذلك أن إرادة المؤمن يجب أن تكون موافقة لإرادة الله ، وأي فائدة في رضا المؤمنين إذا كان الله تعالى ساخطاً عليهم ؟ . ثم عدد مثالب الأعراب وأراد بهم جمعاً معينين كانوا يوالون منافقي المدينة . قال أهل اللغة : رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً ، ورجل أعرابي إذا كان بدوياً سواء كان من العرب أو من مواليهم وجمعه أعراب كالمجوسي والمجوس واليهودي واليهود . فالأعرابي إذا قيل له يا أعرابي فرح ، وإذا قيل للعربي يا أعرابي غضب ، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي ومن نزل البادية فهو أعرابي ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب وإنما هم عرب . قال صلى الله عليه وسلم : " لا تؤمنّ امرأة رجلاً ولا فاسق مؤمناً ولا أعرابي مهاجراً " قيل :

إنما سمى العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشؤا بالعربة وهي من تهامة ونسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب وينطق بلسانهم فهو منهم . وقيل : لأن ألسنتهم معربة عما في ضمائرهم لما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة ، يحكى عن بعض الحكماء أنه قال : حكمة الروم في أدمغتهم وذلك لأنهم يقدرون على التركيبات العجيبة ، وحكمة الهند في أوهامهم ، وحكمة اليونان في أفئدتهم وذلك لكثرة ما لهم من المباحث العقلية ، وحكمة العرب في ألسنتهم وذلك لحلاوة ألفاظهم وعذوبة عباراتهم . وإنما حكم على الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً لأنهم يشبهون الوحوش .

(60/347)

سئل بعض الحكماء ما بال أهل البادية لا يحتاجون إلى الطبيب ؟ فقال : كما لا يحتاج حمر الوحش الى البياطرة ولاستيلاء الهواء الحار عليهم الموجب لكثرة الطيش والخروج عن الاعتدال ، وإن من أصبح وأمسى مشرفاً عليه أنوار النبوة ومشرفاً باستماع مواعظه وآدابه كيف يكون مساوياً لمن نشأ كما يشاء من غير سياسة سائس ولا تأديب مؤدب ؟ ! وإن شئت فقس الفواكه الجبلية بالفواكه البستانية ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " إن الجفاء والقسوة في الفدّادين " أي الأكارين لأنهم يفدّون أي يصيحون . وقوله : ﴿ وأجدر

﴿ أي أولى وأحق ﴿ بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله ﴾ أي مقادير تكاليفه وأحكامه وما تنتهي إليه الأدلة العقلية والسمعية ﴿ والله عليم ﴾ بما في قلوب أهل البدو والحضر وأصحاب الوبر والمدر ﴿ حكيم ﴾ في كل ما قدر من الشرائع وما يتبعها من الجزاء . ثم نوع جنس الأعراب فقال : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ هو مفعول ثانٍ ليتخذ لأنه بمعنى الجعل والاعتقاد والزعم أي يعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران . وقد عرفت أن أصل الغرم اللزوم كأنه اعتقد أنه لزمه لأمر من خارج كتقية أو رياء ليس مما ينبعث من النفس ، والمغرم إما مصدر أو موضع . ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ نوب الزمان وتصاريفه ودوله وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه تشبيهاً بالدائرة التي تحيط بما في ضمنها بحيث لا يوجد منها مخلص . ثم خيّب الله ظنونهم بالإسلام وذويه بأن دعا عليهم بقوله : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ وإنها جملة معترضة كقوله ﴿ غلت أيديهم ﴾ [المائدة : 64] والسوء بالفتح مصدر أضيف إليه الدائرة للملابسة كقولك " رجل صدق " . قال في الكشاف : وهو ذم للدائرة لأن من دارت عليه ذامّ لها وبالضم اسم بمعنى البلاء . والعذاب ، والمراد أنهم لا يرون في محمد ودينه إلا ما يسوءهم . ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالهم ﴿ عليم ﴾ بنياتهم . قيل : هم أعراب أسد وغطفان وتميم . ثم ختم الكلام بذكر الصالحين

منهم فقال : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن ﴾ الآية . والمعنى أنهم يعتقدون ما ينفقونه سبباً لحصول القربات عند الله وسبباً لصلوات الرسول عليهم لأنه كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله : اللهم صل على آل أبي أوفى . ثم إنه تعال شهد لهم ولأمثالهم بصحة ما اعتقدوه فقال على طريق الاستئناف مؤكداً بحرفي التنبيه والتحقيق ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ ثم فسر القربة بقوله : ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ والسين لتحقيق الوعد . قيل : هم عبد الله ذو البجاد بن ورهطه ، أخذت أمه بجاداً وهو كساء مخطط فشقته نصفين فردّته بأحدهما وأزرته بالثاني وبعثته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان قائده والله أعلم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 517. 521 ﴾

(62/347)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) ﴾

قوله : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ إخبار من الله سبحانه عن المنافقين المعتذرين بالباطل ، بأنهم يعتذرون إلى المؤمنين إذا رجعوا من الغزو ، وهذا كلام مستأنف ، وإنما قال : ﴿ إِلَيْهِمُ ﴾ أي : إلى المعتذرين بالباطل ، ولم يقل إلى المدينة ؛ لأن مدار الاعتذار هو الرجوع إليهم لا الرجوع إلى المدينة ، وربما يقع الاعتذار عند الملاقاة قبل الوصول إليها .

ثم أخبر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يجيب به عليهم ، فقال : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ فنهاهم أوّلا عن الاعتذار بالباطل ، ثم علله بقوله : ﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ ﴾ أي : لن نصدقكم ، كأنهم ادّعوا أنهم صادقون في اعتذارهم ، لأن غرض المعتذر أن يصدّق فيما يعتذر به ، فإذا عرف أنه لا يصدّق ترك الاعتذار ، وجملة ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا اللهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ تعليلية للتي قبلها : أي لا يقع منا تصديق لكم لأن الله قد أعلمنا بالوحي ما هو مناف لصدق اعتذاركم ، وإنما خصّ الرسول صلى الله عليه وسلم بالجواب عليهم ، فقال : ﴿ قُل لاَّ تَعْتَذِرُواْ ﴾ مع أن الاعتذار منهم كائن إلى جميع المؤمنين ، لأنه صلى الله عليه وسلم رأسهم ، والمتولي لما يرد عليهم من جهة الغير ، ويحتمل أن يكون المراد بالضمير في قوله : ﴿ إِلَيْكُمْ ﴾ هو الرسول صلى الله عليه وسلم على التأويل المشهور في مثل هذا .

قوله : ﴿ وَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أي : ما ستفعلونه من الأعمال فيما بعد هل تقلعون عما أنتم عليه الآن من الشرّ أم تبقون عليه ؟ .

وقوله : ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ معطوف على الاسم الشريف ، ووسط مفعول الرؤية إيذانا ، بأن رؤية الله سبحانه لما سيفعلونه من خير أو شرّ هي التي يدور عليها الإثابة أو العقوبة ، وفي جملة : ﴿ ثُمَّ تُرَدُّونَ إلى عالم الغيب ﴾ إلى آخرها تخويف شديد ، لما هي مشتملة عليه من التهديد ، ولا سيما ما اشتملت عليه من وضع الظاهر موضع المضمر ، لإشعار ذلك بإحاطته بكل شيء يقع منهم مما يكتمونه ويتظاهرون به ، وإخباره لهم به ومجازاتهم عليه .

ثم ذكر أن هؤلاء المعتذرين بالباطل سيؤكدون ما جاءوا به من الأعذار الباطلة بالحلف عند رجوع المؤمنين إليهم من الغزو ، وغرضهم من هذا التأكيد هو : أن يعرض المؤمنون عنهم ، فلا يوبخونهم ولا يؤاخذونهم بالتخلف ، ويظهرون الرضا عنهم ، كما يفيده ذكر الرضا من بعد ، وحذف المحلوف عليه لكون الكلام يدلّ عليه ، وهو اعتذارهم الباطل ، وأمر المؤمنين بالإعراض عنهم المراد به : تركهم والمهاجرة لهم .

لا الرضا عنهم والصفح عن ذنوبهم ، كما تفيده جملة ﴿ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ الواقعة علة للأمر بالإعراض .

والمعنى : أنهم في أنفسهم رجس لكون جميع أعمالهم نجسة ، فكأنها قد صيرت ذواتهم رجساً ، أو أنهم ذوو رجس : أي ذوو أعمال قبيحة ، ومثله :

﴿ إِنَّمَا المشركون نَجَسٌ ﴾ [التوبة : 28] وهؤلاء لما كانوا هكذا كانوا غير متأهلين

لقبول الإرشاد إلى الخير، والتحذير من الشرّ، فليس لهم إلا الترك.

وقوله: ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ من تمام التعليل؛ فإن من كان من أهل النار لا يجدي فيه الدعاء إلى الخير، والمأوى كل مكان يأوي إليه الشيء، ليلاً أو نهاراً.

وقد أوى فلان إلى منزله، يأوي أوياً وإيواء.

و﴿ جَزَاء ﴾ منصوب على المصدرية، أو على العلية، والباء في ﴿ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ للسببية، وجملة: ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ بدل مما تقدّم.

(64/347)

وحذف هنا المحلوف به لكونه معلوماً مما سبق، والمحلوف عليه لمثل ما تقدّم، وبين سبحانه أن مقصدهم بهذا الحلف هو رضا المؤمنين عنهم، ثم ذكر ما يفيد أنه لا يجوز الرضا عن هؤلاء المعتذرين بالباطل، فقال: ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ كما هو مطلوبهم مساعدة لهم ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يَرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ وإذا كان هذا هو ما يريده الله سبحانه من عدم الرضا على هؤلاء الفسقة العصاة، فينبغي لكم أيها المؤمنون أن لا تفعلوا خلاف ذلك، بل واجب عليكم أن لا ترضوا عنهم على أن رضاكم عنهم لو وقع لكان غير معتدّ به، ولا مفيد لهم.

والمقصود من إخبار الله سبحانه بعدم رضاه عنهم ، نهي المؤمنين عن ذلك ؛ لأن الرضا على من لا يرضى الله عليه مما لا يفعله مؤمن .

قوله : ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ لما ذكر الله سبحانه أحوال المنافقين بالمدينة ، ذكر حال من كان خارجاً عنها من الأعراب ، وبين أن كفرهم ونفاقهم أشدّ من كفر غيرهم ومن نفاق غيرهم ، لأنهم أقسى قلباً وأغلظ طبعاً وأجفى قولاً ، وأبعد عن سماع كتب الله ، وما جاءت به رسله .

والأعراب : هم من سكن البوادي بخلاف العرب ، فإنه عام لهذا النوع من بني آدم ، سواء سكنوا البوادي أو القرى ، هكذا قال أهل اللغة ، ولهذا قال سيبويه : إن الأعراب صيغة جمع وليست بصيغة جمع العرب .

قال النيسابوري : قال أهل اللغة : رجل عربي إذا كان نسبه إلى العرب ثابتاً ، وجمعه عرب ، كالمجوسيّ والمجوس ، واليهوديّ واليهود ؛ فالأعرابي إذا قيل له : يا عربي ، فرح ، وإذا قيل للعربي : يا أعرابي غضب ، وذلك أن من استوطن القرى العربية فهو عربي ، ومن نزل البادية فهو أعرابي ، ولهذا لا يجوز أن يقال للمهاجرين والأنصار أعراب ، وإنما هم عرب .

قال : قيل : إنما سمي العرب عرباً لأن أولاد إسماعيل عليه السلام نشئوا بالعرب ، وهي من تهامة فنسبوا إلى بلدهم ، وكل من يسكن جزيرة العرب ، وينطق بلسانهم فهو منهم .

وقيل : لأن ألسنتهم معربة ، عما في ضمائرهم ، ولما في لسانهم من الفصاحة والبلاغة .

انتهى .

﴿ وَأَجْدَرُ ﴾ معطوف على ﴿ أشد ﴾ ، ومعناه : أخلق ، يقال : فلان جدير بكذا : أي خليق به ، وأنت جدير أن تفعل كذا ، والجمع : جدر ، أو جديرون ، وأصله من جدر الحائط ، وهو رفعه بالبناء .

والمعنى : أنهم أحق وأخلق بألا يعلموا حدود ما أنزل الله من الشرائع والأحكام ، لبعدهم عن مواطن الأنبياء ، وديار التنزيل ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوال مخلوقاته على العموم .

وهؤلاء منهم : ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يجازيهم به من خير وشرّ .

قوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ هذا تنويع لجنس إلى نوعين ، الأوّل : هؤلاء ، والثاني : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله ﴾ والمغرم : الغرامة والخسران ، وهو ثاني مفعولي يتخذ ، لأنه بمعنى الجُعل ، والمعنى : اعتقد أن الذي ينفقه في سبيل الله غرامة وخسران ، وأصل الغرم والغرامة ، ما ينفقه الرجل وليس بلازم له في اعتقاده ، ولكنه ينفقه للرياء والتقية .

وقيل : أصل الغرم : اللزوم ، كأنه اعتقد أنه يلزمه لأمر خارج لا تنبعث له النفس .

و﴿ الدوائر ﴾ جمع دائرة ، وهي الحالة المنقلبة عن النعمة إلى البلية ، وأصلها : ما يحيط

بالشيء ، ودوائر الزمان : نوبه وتصاريفه ، ودوله ، وكأنها لا تستعمل إلا في المكروه ، ثم دعا سبحانه عليهم بقوله : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ وجعل ما دعا به عليهم مماثلاً لما أرادوه بالمسلمين ، و ﴿ السوء ﴾ بالفتح عند جمهور القراء مصدر أضيفت إليه الدائرة للملابسة ، كقولك رجل صدق .

وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، بضم السين ، وهو المكروه .

قال الأخفش : أي : عليهم دائرة الهزيمة والشرّ .

وقال الفراء : ﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السوء ﴾ : العذاب والبلاء .

(66/347)

قال : والسوء بالفتح مصدر سؤته سوءاً ومساءة ، وبالضم اسم لا مصدر ، وهو كقولك : دائرة البلاء والمكروه ﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ لما يقولونه ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما يضمرونه .

قوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله واليوم الآخر ﴾ هذا النوع الثاني من أنواع الأعراب كما تقدّم : أي : يصدّق بهما ﴿ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ ﴾ أي : يجعل ما ينفقه في سبيل الله ﴿ قربات ﴾ وهي : جمع قربة ، وهي ما يتقرب به إلى الله سبحانه ، تقول منه قربت لله قرباناً ، والجمع : قرب وقربات .

والمعنى : أنه يجعل ما ينفقه سبباً لحصول القربات ﴿ عِندَ الله ﴾ وسبباً ل ﴿ صلوات الرسول ﴾ أي : لدعوات الرسول لهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان يدعو للمتصدقين ، ومنه قوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : 103] ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " اللهمّ صلّ على آل أبي أوفى " ثم إنه سبحانه بين بأن ما ينفقه هذا النوع من الأعراب تقرّباً إلى الله مقبول واقع على الوجه الذي أرادوه ، فقال : ﴿ أَلا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ فأخبر سبحانه بقبولها خبراً مؤكداً باسمية الجملة ، وحرفي التنبيه والتحقيق ، وفي هذا من التطييب لخواطرهم ، والتطمين لقلوبهم ما لا يقادر قدره ، مع ما يتضمنه من النعي على من يتخذ ما ينفق مغرماً ، والتوبيخ له بأبلغ وجه ، والضمير في ﴿ إنها ﴾ راجع إلى "ما" في ﴿ ما ينفق ﴾ وتأنيثه باعتبار الخبر .

وقرأ نافع ، في رواية عنه "قُربة" بضم الراء ، وقرأ الباقون : بسكونها تخفيفاً ، ثم فسر سبحانه القربة بقوله : ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ الله فِى رَحْمَتِهِ ﴾ والسين لتحقيق الوعد .

(67/347)

وقد أخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ في قوله : ﴿ قَدْ نَبَّأَنَا الله مِنْ أَخْبَارِكُمْ ﴾ قال : أخبرنا أنكم لو خرجتم ما زدتمونا إلا خبالاً ، وفي قوله : ﴿ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾

قال : لما رجع النبي صلى الله عليه وسلم ، قال للمؤمنين " لا تكلموهم ولا تجالسوهم " ، فأعرضوا عنهم كما أمر الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ قال : لتجاوزوا عنهم .

وأخرج أبو الشيخ ، عنه ، في قوله : ﴿ الأعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ قال : من منافقي المدينة ﴿ وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَا أَنزَلَ الله على رَسُولِهِ ﴾ يعني : الفرائض ، وما أمر به من الجهاد .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الكلبي ، أن هذه الآية نزلت في أسد وغطفان .

وأخرج أحمد ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : " من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن " وإسناد أحمد هكذا : حدّثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدّثنا سفيان عن أبي موسى ، عن وهب بن منبه ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فذكره .

قال في التقريب : وأبو موسى عن وهب بن منبه مجهول من السادسة ، ووهم من قال إنه إسرائيل بن موسى ، وقال الترمذي بعد إخراجه : حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري .

وأخرج أبو داود ، والبيهقي ، من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم : " من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلطانه قرباً إلا ازداد من الله بعداً " وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ قال : يعني بالمغرم أنه لا يرجو له ثواباً عند الله ولا مجازاة ، وإنما يعطي من يعطي من الصدقات كرهاً ﴿ وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدوائر ﴾ الهلكات .

(68/347)

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في الآية قال : هؤلاء المنافقون من الأعراب الذين إنما ينفقون رياء اتقاء على أن يغزوا ويحاربوا ، ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مغرماً .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله ﴾ قال : هم بنو مقرّن من مزينة ، وهم الذين قال الله : ﴿ وَلاَ عَلَى الذين إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، عن عبد الرحمن بن معقل ، قال : كنا عشرة ولد مقرن ، فنزلت فينا : ﴿ وَمِنَ الأعراب مَن يُؤْمِنُ بالله ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله

: ﴿ وصلوات الرسول ﴾ يعني : استغفار النبي صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(69/347)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : الناس ثلاثة : المتضررون المعذرون المعترفون بتقصيرهم ، والقاعدون الكذابون ، والناصحون المخلصون في الطلب ولكن فيهم الضعفاء والمرضى والفقراء فلا حرج عليهم في القعود عن طلب الكمال بالظواهر مع اشتغال البواطن في الطلب بقدر الاستعداد .

﴿ ولا على الذين إذا ما أتوك ﴾ بطريق المتابعة ﴿ لتحملهم ﴾ على جناح الهمة النبوية وتوصلهم إلى مقامات لم يكونوا بالغيها بجناحي البشرية والروحانية ﴿ قلت لا أجد ما أحملكم عليه ﴾ ترفاً ودلالاً واستيراء لزناد أشواقهم كما قيل لموسى لن تراني زيادة لشوقه وهم أغنياء لهم الاتسعدادات الكاملة فلم يستعملوها في طلب الكمال كسلاً وميلاً إلى اللذات العاجلة . ﴿ الأعراب أشد كفراً ﴾ إن في عالم الإنسانية بدواً هو نفسه وحضراً هو قلبه ، والكفر والنفاق للنفس مقتضى الذات كما أن الإيمان للقلب لذاته بالفطرة ، وقد

يصير القلب كافراً بسراية النفس وقد تصير النفس مؤمنه بسراية القلب ، ولكن النفس تكون أشد كفراً من القلب الكافر كما أن القلب يكون أشد أيماناً من النفس المؤمنة . ﴿ حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ يعني الواردات النازلة على الروح فإن القلب حضر الروح كما أن المدينة حضر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن النفوس من يعتقد أن ما يصرف من أوقاته في طلب الكمال ضائع وخسار وينتظر بالقلب اشتغالاً وفترة . ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ باستيلاء القلب عليها وقهرها بما يخالف هواها ﴿ والله سميع ﴾ يجيب هذا الدعاء ﴿ عليم ﴾ بمن ينبغي أن يسمع في حقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 521.522 ﴾

(70/347)

قوله تعالى ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما ذكر القسم الصالح منهم وكانوا متفاوتين فمنهم السابق وأكثرهم التابع اللاحق ، أتبعه السابقين على وجه شامل حاصر لصنفي البادي والحاضر إشارة إلى أنه – وإن أجره – أصله فقد قدمه وصفه بحيث ساوى أهل الكمال في مطلق الانخراط في ملكهم والفوز بدرجتهم لإحسانه في اتباعهم ترغيباً لأهل القدرة والرحمة في اتباع أهل الرضوان والنعمة فقال : ﴿ والسابقون ﴾ ولما دل على سبقهم بالعلو في مراتبه دل على قديم دخولهم فيه فقال : ﴿ الأولون ﴾ أي إلى هذا الدين القيم ﴿ من المهاجرين ﴾ أي لدار الكفر فضلاً عن أهلها ﴿ والأنصار ﴾ أي الذين آووا ونصروا ﴿ والذين اتبعوهم ﴾ أي الفريقين ﴿ بإحسان ﴾ أي في اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقهم ﴿ رضي الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ عنهم ﴾ أي بأفعالهم هذه التي هي وفق ما أمر به ﴿ ورضوا عنه ﴾ أي بما أتاهم عنه من البشرى وقذف في قلوبهم من النور بلطيف الوعظ والذكرى ﴿ وأعد لهم ﴾ أي جزاء على فعلهم ﴿ جنات تجري ﴾ ونبه على عموم ريّها وكثرة مائها بنزع الجار على قراءة الجماعة فقال : ﴿ تحتها الأنهار ﴾ أي هي كثيرة المياه .

فكل موضع أردته نبع منه ماء فجرى منه نهر ؛ ولما كان المقصود من الماء إنما هو السهولة في إنباطه بقربه ويسر جريه وانبساطه أثبته ابن كثير دلالة على ذلك كسائر المواضع ، ولعل تخصيص هذا الموضع بالخلاف لأنه يخص هذه الأمة ، فلعلها تخص بجنة هي أعظم الجنان رياً وحسناً وزياً .

ولما كان أعظم العيوب الانقطاع، نفاه بقوله: ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد المراد من الخلود بقوله: ﴿ أبداً ﴾ ثم استأنف مدح هذا الذي أعده لهم بقوله: ﴿ ذلك ﴾ أي الأمر العالي المكانة خاصة ﴿ الفوز العظيم ﴾. انتهى انتهى. اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 379. 380 ﴾

(71/347)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله:

القراءات: ﴿ من تحتها ﴾ بزيادة من: ابن كثير. والباقون بحذفها وبالنصب على الظرف. ﴿ والأنصار ﴾ بالرفع: يعقوب: الآخرون بالجر. ﴿ إن صلاتك ﴾ على التوحيد: حمزة وعلي وخلف وعاصم غير أبي بكر وحماد. الباقون على الجمع بكسر التاء علامة للنصب ﴿ مرجون ﴾ بواو ساكنة بعد الجيم: أبو جعفر ونافع وحمزة وعلي وخلف وعاصم سوى أبي بكر وحماد. الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم. ﴿ الذين اتخذوا ﴾ بغير واو: أبو جعفر ونافع وابن عامر ﴿ أسس بنيانه ﴾ مجهولاً في الحرفين: ابن عامر ونافع ﴿ حرف ﴾ بسكون الراء: ابن عامر وحمزة وخلف ويحيى وحماد.

الباقون بالضم ﴿ هار ﴾ بالإمالة : أبو عمرو وحمزة في رواية ابن سعدان وأبي عمرو وعلي غير ليث ، وابن حمدون وحمدويه والنجاري عن ورش وابن ذكوان غير ابن مجاهد والنقاش ويحيى وحماد ﴿ إلى أن ﴾ قرأها يعقوب . الباقون ﴿ إلا أن ﴾ ﴿ تقطع ﴾ فعلاً ماضياً أو مضارعاً بحذف التاء من التفعل : ابن عامر ويزيد وحمزة وحفص والمفضل وسهل ورويس . ﴿ تقطع ﴾ مضارعاً مجهولاً من التقطع : روح . الباقون ﴿ تقطع ﴾ مضارعاً مجهولاً من التقطيع .

(72/347)

الوقوف : ﴿ بإحسان ﴾ لا لأن قوله : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ خبر ﴿ والسابقون ﴾ ﴿ أبداً ﴾ ط ه ﴿ العظيم ﴾ ه ﴿ منافقون ﴾ ط لمن قدر ومن أهل المدينة قوم مردوا ، ومن وصل وقف على ﴿ أهل المدينة ﴾ تقديره هم مردوا ﴿ على النفاق ﴾ ط ﴿ ومن قدر ومن أهل المدينة قوم احتمل أن يجعل ﴿ لا تعلمهم ﴾ صفة للقوم فلم يقف ﴿ لا تعلمهم ﴾ ط ﴿ نحن نعلمهم ﴾ ط ﴿ عظيم ﴾ ه ج لاحتمال أن يكون التقدير ومنهم آخرون وأن يكون معطوفاً على ﴿ منافقون ﴾ أو على قوم المقدر ﴿ سيئاً ﴾ ط ﴿ عليهم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ﴿ وصل عليهم ﴾ ط ﴿ لهم ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿

الرحيم ﴾ ه ﴿ والمؤمنون ﴾ ط ﴿ تعملون ﴾ ه ﴿ يتوب عليهم ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه ﴿ من قبل ﴾ ط ﴿ الحسنى ﴾ ط ﴿ لكاذبون ﴾ ه ﴿ أبدا ﴾ ط ﴿ أن تقوم فيه ﴾ ط ﴿ أن يتطهروا ﴾ ط ﴿ المطهرين ﴾ ه ﴿ في نار جهنم ﴾ ط ﴿ الظالمين ﴾ ط ﴿ قلوبهم ﴾ ط ﴿ حكيم ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 523 ﴾

(73/347)

فصل

قال الفخر:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وصلوات الرسول، وما أعد لهم من الثواب، بين أن فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها، وهي منازل السابقين الأولين.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى :

اختلفوا في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من هم ؟ وذكروا وجوهاً : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً وعن الشعبي هم الذين بايعوا بيعة الرضوان .

والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة ، وفي النصرة ، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون فيماذا فبقي اللفظ مجملاً إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ ، وأيضاً فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولاً صار قدوة لغيره من هذه الطاعة ، وكان ذلك مقوياً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره ، وكذلك السبق في النصرة ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة ، فازوا بمنصب عظيم ، فلهذه الوجوه يجب أن يكون المراد والسابقون الأولون في الهجرة .

إذا ثبت هذا فنقول : إن أسبق الناس إلى الهجرة هو أبو بكر ، لأنه كان في خدمة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان مصاحباً له في كل مسكن وموضع ، فكان نصيبه من هذا المنصب أعلى من نصيب غيره ، وعلي بن أبي طالب ، وإن كان من المهاجرين الأولين إلا أنه إنما هاجر بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أنه إنما بقي بمكة لمهمات الرسول إلا أن السبق إلى الهجرة إنما حصل لأبي بكر ، فكان نصيب أبي بكر من هذه الفضيلة أوفر ، فإذا ثبت هذا صار أبو بكر محكوماً عليه بأنه رضي الله عنه ، ورضي هو عن الله ، وذلك في أعلى الدرجات من الفضل .

وإذا ثبت هذا وجب أن يكون إماماً حقاً بعد رسول الله ، إذ لو كانت إمامته باطلة لاستحق اللعن والمقت ، وذلك ينافي حصول مثل هذا التعظيم ، فصارت هذه الآية من أدل الدلائل على فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعلى صحة إمامتهما .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من سبق إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، لأن هؤلاء آمنوا ، وفي عدد المسلمين في مكة والمدينة قلة وضعف .

فقوي الإسلام بسببهم ، وكثر عدد المسلمين بسبب إسلامهم ، وقوي قلب الرسول بسبب دخولهم في الإسلام واقتدى بهم غيرهم ، فكان حالهم فيه كحال من سن سنة حسنة فيكون له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ؟ ثم نقول : هب أن أبا بكر دخل تحت

هذه الآية بحكم كونه أول المهاجرين ، لكن لم قلتم أنه بقي على تلك الحالة ؟ ولم لا يجوز أن يقال : إنه تغير عن تلك الحالة ، وزالت عنه تلك الفضيلة بسبب إقدامه على تلك الإمامة ؟

والجواب عن الأول : أن حمل السابقين على السابقين في المدة تحكم لا دلالة عليه ، لأن لفظ السابق مطلق ، فلم يكن حمله على السبق في المدة أولى من حمله على السبق في سائر الأمور ، ونحن بينا أن حمله على السبق في الهجرة أولى .

قوله : المراد منه السبق في الإسلام .

(75/347)

قلنا : السبق في الهجرة يتضمن السبق في الإسلام ، والسبق في الإسلام لا يتضمن السبق في الهجرة ، فكان حمل اللفظ على السبق في الهجرة أولى .

وأيضاً فهب أنا نحمل اللفظ على السبق في الإيمان ، إلا أنا نقول : قوله : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ صيغة جمع فلا بد من حمله على جماعة ، فوجب أن يدخل فيه علي رضي الله عنه وغيره ، وهب أن الناس اختلفوا في أن إيمان أبي بكر أسبق أم إيمان علي ؟ لكنهم اتفقوا على أن أبا بكر من السابقين الأولين ، واتفق أهل الحديث على أن أول من أسلم من

الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الموالي زيد ، فعلى هذا التقدير : يكون أبو بكر من السابقين الأولين ، وأيضاً قد بينا أن السبق في الإيمان إنما أوجب الفضل العظيم من حيث إنه يتقوى به قلب الرسول عليه السلام ، ويصير هو قدوة لغيره ، وهذا المعنى في حق أبي بكر أكمل ، وذلك لأنه حين أسلم كان رجلاً كبير السن مشهوراً فيما بين الناس ، واقتدى به جماعة من أكابر الصحابة رضي الله عنهم ، فإنه نقل أنه لما أسلم ذهب إلى طلحة والزبير وعثمان بن عفان ، وعرض الإسلام عليهم ، ثم جاء بهم بعد أيام إلى الرسول عليه السلام ، وأسلموا على يد الرسول عليه السلام ، فظهر أنه دخل بسبب دخوله في الإسلام قوة في الإسلام ، وصار هذا قدوة لغيره ، وهذه المعاني ما حصلت في علي رضي الله عنه ، لأنه في ذلك الوقت كان صغير السن ، وكان جارياً مجرى صبي في داخل البيت ، فما كان يحصل بإسلامه في ذلك الوقت مزيد قوة للإسلام ، وما صار قدوة في ذلك الوقت لغيره ، فثبت أن الرأس والرئيس في قوله : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين ﴾ ليس إلا أبا بكر ، أما قوله لم قلتم إنه بقي موصوفاً بهذه الصفة بعد إقدامه على طلب الإمامة ؟

قلنا : قوله تعالى : ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ يتناول جميع الأحوال والأوقات بدليل أنه لا وقت ولا حال إلا ويصح استثناؤه منه .

فيقال رضي الله عنهم إلا في وقت طلب الإمامة ، ومقتضى الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل تحت اللفظ .

أو نقول : إنا بينا أنه تعالى وصفهم بكونهم سابقين مهاجرين ، وذلك يقتضي أن المراد كونهم سابقين في الهجرة ، ثم لما وصفهم بهذا الوصف أثبت لهم ما يوجب التعظيم ، وهو قوله : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ والسبق في الهجرة وصف مناسب للتعظيم ، وذكر الحكم عقيب الوصف المناسب ، يدل على كون ذلك الحكم معللاً بذلك الوصف ، فدل هذا على أن التعظيم الحاصل من قوله : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ معلل بكونهم سابقين في الهجرة ، والعلة ما دامت موجودة ، وجب ترتب المعلول عليها ، وكونهم سابقين في الهجرة وصف دائم في جميع مدة وجودهم ، فوجب أن يكون ذلك الرضوان حاصلاً في جميع مدة وجودهم ، أو نقول : إنه تعالى قال : ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ وذلك يقتضي أنه تعالى قد أعد تلك الجنات وعينها لهم ، وذلك يقتضي بقاءهم على تلك الصفة التي لأجلها صاروا مستحقين لتلك الجنات ، وليس لأحد أن يقول : المراد أنه تعالى أعدها لهم لو بقوا على صفة الإيمان ، لأنا نقول : هذا زيادة إضمار وهو خلاف الظاهر .

وأيضاً فعلى هذا التقدير : لا يبقى بين هؤلاء المذكورين في هذا المدح ، وبين سائر الفرق فرق ، لأنه تعالى : ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ ولفرعون وهامان وأبي جهل

وأبي لهب ، لو صاروا مؤمنين ، ومعلوم أنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام في معرض المدح العظيم والثناء الكامل ، وحمله على ما ذكروه يوجب بطلان هذا المدح والثناء ، فسقط هذا السؤال .

فظهر أن هذه الآية دالة على فضل أبي بكر ، وعلى صحة القول بإمامته قطعاً .

المسألة الثانية :

(77/347)

اختلفوا في أن المدح الحاصل في هذه الآية هل يتناول جميع الصحابة أم يتناول بعضهم ؟

فقال قوم : إنه يتناول الذين سبقوا في الهجرة والنصرة ، وعلى هذا فهو لا يتناول إلا قدماء الصحابة ، لأن كلمة ﴿ مِنْ ﴾ تفيد التبعيض ، ومنهم من قال : بل يتناول جميع الصحابة ، لأن جملة الصحابة موصوفون بكونهم سابقين أولين بالنسبة إلى سائر المسلمين ، وكلمة ﴿ مِنْ ﴾ في قوله : ﴿ مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ ليست للتبعيض ، بل للتبيين ، أي والسابقون الأولون الموصوفون بوصف كونهم مهاجرين وأنصاراً كما في قوله تعالى : ﴿ فاجتنبوا الرجس مِنَ الأوثان ﴾ [الحج : 30] وكثير من الناس ذهبوا إلى هذا القول ، روي عن حميد بن زياد أنه قال : قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب

الرسول عليه السلام فيما كان بينهم ، وأردت الفتن ، فقال لي : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة في كتابه ، محسنهم ومسيئهم ، قلت له : وفي أي موضع أوجب لهم الجنة ؟ قال : سبحان الله ! ألا تقرأ قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ إلى آخر الآية ؟ فأوجب الله لجميع أصحاب النبي عليه السلام الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً شرطه عليهم .

قلت : وما ذاك الشرط ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان في العمل ، وهو أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدوا بهم في غير ذلك ، أو يقال : المراد أن يتبعوهم بإحسان في القول ، وهو أن لا يقولوا فيهم سوءا ، وأن لا يوجهوا الطعن فيما أقدموا عليه .

قال حميد بن زياد : فكأني ما قرأت هذه الآية قط ! .

المسألة الثالثة :

(78/347)

روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقرأ ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ فكان يعطف قوله : ﴿ الأنصار ﴾ على قوله : ﴿ والسابقون ﴾ وكان يحذف الواو من قوله : ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ ويجعله

وصفاً للأنصار ، وروي أن عمر رضي الله عنه كان يقرأ هذه الآية على هذا الوجه .

قال أبي : والله لقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الوجه ، وإنك لتبيع القرظ يومئذ ببقيع المدينة ، فقال عمر رضي الله عنه : صدقت ، شهدتم وغبنا ، وفرغتم وشغلنا ، ولئن شئت لتقولن نحن أوينا ونصرنا .

وروي أنه جرت هذه المناظرة بين عمر وبين زيد بن ثابت واستشهد زيد بأبي بن كعب ، والتفاوت أن على قراءة عمر ، يكون التعظيم الحاصل من قوله : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ مختصاً بالمهاجرين ولا يشاركهم الأنصار فيها فوجب مزيد التعظيم للمهاجرين ، والله أعلم .

وروي أن أبيا احتج على صحة القراءة المشهورة بآخر الأنفال وهو قوله : ﴿ والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ ﴾ [الأنفال : 75] بعد تقدم ذكر المهاجرين والأنصار في الآية الأولى ، وبأواسط سورة الحشر وهو قوله : ﴿ والذين جاؤوا مّن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] وبأول سورة الجمعة وهو قوله : ﴿ وَءاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة : 3] .

المسألة الرابعة :

قوله : ﴿ والسابقون ﴾ مرتفع بالابتداء وخبره قوله : ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ ومعناه : رضي الله عنهم لأعمالهم وكثرة طاعاتهم ، ورضوا عنه لما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدين والدنيا ، وفي مصاحف أهل مكة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ وهي قراءة ابن كثير

، وفي سائر المصاحف ﴿ تَحْتِهَا ﴾ من غير كلمة ﴿ مِنْ ﴾ .

المسألة الخامسة :

(79/347)

قوله : ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهم : يريد ، يذكرون المهاجرين والأنصار بالجنة والرحمة والدعاء لهم ، ويذكرون محاسنهم ، وقال في رواية أخرى والذين اتبعوهم بإحسان على دينهم إلى يوم القيامة ، واعلم أن الآية دلت على أن من اتبعهم إنما يستحقون الرضوان والثواب ، بشرط كونهم متبعين لهم بإحسان ، وفسرنا هذا الإحسان بإحسان القول فيهم ، والحكم المشروط بشرط ، ينتفي عند انتفاء ذلك الشرط ، فوجب أن من لم يحسن القول في المهاجرين والأنصار لا يكون مستحقاً للرضوان من الله تعالى ، وأن لا يكون من أهل الثواب لهذا السبب ، فإن أهل الدين يبالغون في تعظيم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يطلقون ألسنتهم في اغتيابهم وذكرهم بما لا ينبغي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 134 . 137 ﴾

(80/347)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾

ف

يهِ الدَّلَالَةُ عَلَى تَفْضِيلِ السَّابِقِ إلَى الْخَيْرِ عَلَى التَّالِي ؛ لِأَنَّهُ دَاعٍ إلَيْهِ يَسْبِقُهُ وَالتَّالِي تَابِعٌ لَهُ فَهُوَ إمَامٌ لَهُ وَلَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً فَعَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، وَكَذَلِكَ السَّابِقُ إلَى الشَّرِّ أَسْوَأُ حَالًا مِنْ التَّابِعِ لَهُ ؛ لِأَنَّهُ فِي مَعْنَى مَنْ سَنَّهُ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ يَعْنِي أَثْقَالَ مَنْ اقْتَدَى بِهِمْ فِي الشَّرِّ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ ، أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَا مِنْ قَتِيلٍ ظُلْمًا إلَّا وَعَلَى ابْنِ آدَمَ الْقَاتِلِ كِفْلٌ مِنْ دَمِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ ﴾ وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِيمَنْ نَزَلَتْ الْآيَةُ ، فَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ وَابْنِ سِيرِينَ وَقَتَادَةَ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ صَلَّوْا إلَى الْقِبْلَتَيْنِ .

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : " فِيمَنْ بَايَعَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ " .

وَقَالَ غَيْرُهُمْ : " فِيمَنْ أَسْلَمَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(81/347)

وقال ابن العربى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ .

وَفِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَحْقِيقِ السَّبْقِ : وَهُوَ التَّقَدُّمُ فِي الصِّفَةِ ، أَوْ فِي الزَّمَانِ ، أَوْ فِي الْمَكَانِ ، فَالصِّفَةُ الْإِيمَانُ ، وَالزَّمَنُ لِمَنْ حَصَلَ فِي أَوَانٍ قَبْلَ أَوَانٍ ، وَالْمَكَانُ مَنْ تَبَوَّأَ دَارَ النُّصْرَةِ ، وَاتَّخَذَهُ بَدَلًا عَنْ مَوْضِعِ الْهِجْرَةِ ، وَهُمْ عَلَى ثَمَانِي مَرَاتِبَ : الْأُولَى : أَبُو بَكْرٍ ، وَعُمَرُ ، وَعُثْمَانُ ، وَعَلِيٌّ ، وَسَعْدٌ ، وَبِلَالٌ ، وَغَيْرُهُمْ .

الثَّانِيَةُ : دَارُ النَّدْوَةِ .

الثَّالِثَةُ : مُهَاجِرَةُ أَصْحَابِ الْحَبَشَةِ ، كَعُثْمَانَ ، وَالزُّبَيْرِ .

الرَّابِعَةُ : أَصْحَابُ الْعَقَبَتَيْنِ ، وَهُمْ الْأَنْصَارُ .

الْخَامِسَةُ : قَوْمٌ أَدْرَكُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِقُبَاءَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ الْمَدِينَةَ .

السَّادِسَةُ : مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ .

السَّابِعَةُ : أَهْلُ بَدْرٍ .

الثَّامِنَةُ : أَهْلُ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَبِهِمْ انْقَطَعَتْ الْأَوَّلِيَّةُ .

وَاخْتَارَ الشَّافِعِيُّ الثَّامِنَةَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ ، وَاخْتَارَ فِي تَفْسِيرِهَا ابْنُ الْمُسَيِّبِ ، وَقَتَادَةُ ، وَالْحَسَنُ مَنْ صَلَّى إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : الْقِرَاءَةُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَالْأَنْصَارِ ﴾ : بِالْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ ، فَيَكُونُونَ أَيْضًا فِيهَا عَلَى مَرَاتِبَ مِنْهُمْ الْعُقْبِيُّونَ ، وَمِنْهُمْ أَهْلُ الْقِبْلَتَيْنِ ، وَمِنْهُمْ الْبَدْرِيُّونَ ، وَمِنْهُمْ الرِّضْوَانِيَّةُ ، وَيَكُونُ الْوَقْفُ فِيهِمَا وَاحِدًا .

(82/347)

وَقُرِئَ : وَالْأَنْصَارُ بِرَفْعِ الرَّاءِ ، عَطْفًا عَلَى " وَالسَّابِقُونَ " وَيُعْزَى ذَلِكَ إِلَى عُمَرَ وَقِرَاءَةِ الْحَسَنِ ، وَاخْتَارَهُ يَعْقُوبُ ، وَسَوَاءٌ كَانَتْ الْقِرَاءَةُ بِرَفْعِ الرَّاءِ أَوْ خَفْضِهَا فَفِي الْأَنْصَارِ سَابِقٌ وَمُصَلٍّ فِي كُلِّ طَائِفَةٍ وَاحِدٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : أَوَّلُ السَّابِقِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ .

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ ﴿ قَوْلُ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَنْ اتَّبَعَكَ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ ؟ قَالَ : حُرٌّ وَعَبْدٌ ﴾ .

وَبِهَذَا احْتَجَّ شَيْخُ السُّنَّةِ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ الْجُبَّائِيِّ فِي مَجْلِسِ ابْنِ وَرْقَاءَ أَمِيرِ الْبَصْرَةِ حِينَ ادَّعَى أَنَّ عَلِيًّا أَوَّلُهُمْ إسْلَامًا وَكَانَا شِيعِيَّيْنِ .

وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ حَسَّانَ أَنْشَدَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَضْرَتِهِمْ : إذَا تَذَكَّرْت شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ فَاذْكُرْ أَخَاك أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا الثَّانِيَ التَّالِيَ الْمَحْمُودَ مَشْهَدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلَا فَلَمْ يُنْكِرْ ذَلِكَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا قَالَ لَهُ : إنَّمَا كَانَ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ .

(83/347)

وَقَدْ رَوَى أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْجَارُودِ ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ حَسَّانَ النَّيْسَابُورِيُّ ، أَنْبَأَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَعْدِيٍّ عَنْ مُجَالِدٍ ، عَنْ الشَّعْبِيِّ ، قَالَ : سَأَلْت ابْنَ عَبَّاسٍ ، مَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إسْلَامًا ؟ قَالَ : أَبُو بَكْرٍ ، أَوَمَا سَمِعْت قَوْلَ حَسَّانَ : إذَا تَذَكَّرْت شَجْوًا مِنْ أَخِي ثِقَةٍ فَاذْكُرْ أَخَاك أَبَا بَكْرٍ بِمَا فَعَلَا خَيْرَ الْبَرِيَّةِ أَتْقَاهَا وَأَعْدَلَهَا بَعْدَ النَّبِيِّ وَأَوْفَاهَا بِمَا حَمَلَا الثَّانِيَ التَّالِيَ الْمَحْمُودَ مَشْهَدُهُ وَأَوَّلَ النَّاسِ مِنْهُمْ صَدَّقَ الرُّسُلَا وَهَذَا خَبَرٌ اشْتَهَرَ وَانْتَشَرَ ، فَقَالَ

أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ ، حَدَّثَنَا أَبُو مَعْمَرٍ ، أَنْبَأَنَا أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ مُجَالِدٍ عَنْ الشَّعْبِيِّ قَالَ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَوَّلُ مَنْ صَلَّى أَبُو بَكْرٍ ، ثُمَّ تَمَثَّلَ بِأَبْيَاتِ حَسَّانَ ، وَذَكَرَهَا ثَلَاثَةً ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُبَيِّنًا فَضْلَ أَبِي بَكْرٍ وَسَبْقَهُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ حِينَ غَامَرَهُ : ﴿ دَعُوا لِي صَاحِبِي ، فَإِنِّي بُعِثْت إلَى النَّاسِ كَافَّةً ، فَقَالُوا : كَذَبْت ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : صَدَقْت ﴾ ، وَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ خَلْقٌ كَثِيرٌ ، مِنْهُمْ الزُّبَيْرُ ، وَطَلْحَةُ ، وَسَعْدٌ ، وَعُثْمَانُ ، وَأَهْلُ الْعَقَبَتَيْنِ ، وَلَيْسَ فِي تَقْدِمَةِ إسْلَامِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَدِيثٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ، لَا عَنْ سَلْمَانَ ، وَلَا عَنْ الْحَسَنِ ، وَلَا عَنْ أَحَدٍ .

(84/347)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ : وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قَرَأَ ﴿ الَّذِينَ ﴾ بِإِسْقَاطِ الْوَاوِ نَعْتًا لِلْأَنْصَارِ ، فَرَاجَعَهُ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ ، فَسَأَلَ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ ، فَصَدَّقَ زَيْدًا فَرَجَعَ إلَيْهِ عُمَرُ ، وَثَبَتَتْ الْوَاوُ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ : أُنْزِلَ الْقُرْآنُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ .

وَقَدْ اخْتُلِفَ فِي التَّابِعِينَ ؛ فَقِيلَ : هُمْ مَنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْحُدَيْبِيَةِ ؛ كَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ، وَمَنْ دَانَاهُمْ مِنْ مُسْلِمَةِ الْفَتْحِ ؛ وَقَدْ ثَبَتَ ﴿ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ شَكَا

إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ وَعَمْرَو بْنَ الْعَاصِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِخَالِدٍ : دَعُوا لِي أَصْحَابِي ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ كُلَّ يَوْمٍ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ﴾ .

خَرَّجَهُ الْبَرْقَانِيُّ وَغَيْرُهُ .

وَقِيلَ : هُمْ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَلَا عَايَنُوا مُعْجِزَاتِهِ ؛ وَلَكِنَّهُمْ سَمِعُوا خَبَرَهُ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي مِنْ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ اسْمٌ مَخْصُوصٌ بِالْقَرْنِ الثَّانِي ، فَيُقَالُ صَحَابِيٌّ وَتَابِعِيٌّ بِهَذِهِ الْخُطَّةِ ، لِمَا ذُكِرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ، وَكَفَانَا أَنْ اتَّقَيْنَا اللَّهَ ، وَاهْتَدَيْنَا بِهَدْيِ رَسُولِ اللَّهِ ، وَاقْتَفَيْنَا آثَارَهُ ، وَاسْمُ الْأُخُوَّةِ الَّتِي قَدَّمْنَا تِبْيَانًا لَنَا .

(85/347)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : إذَا ثَبَتَتْ هَذِهِ الْمَرَاتِبُ ، وَبُيِّنَتْ الْخُطَطُ فَإِنَّ السَّابِقَ إلَى كُلِّ خَيْرٍ ، وَالْمُتَقَدِّمَ إلَى الطَّاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ الْمُصَلِّي فِيهَا وَالتَّالِي بِهَا .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾ .

وَلَكِنْ مَنْ سَبَقَ أَكْرَمُ عِنْدَ اللَّهِ مَرْتَبَةً ، وَأَوْفَى أَجْرًا ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلسَّابِقِ مِنْ الْفَضْلِ إلَّا اقْتِدَاءُ

التَّالِي بِهِ ، وَاهْتِدَاؤُهُ بِهَدْيِهِ ، فَيَكُونُ لَهُ ثَوَابُ عَمَلِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَمِثْلُ ثَوَابِ مَنْ اتَّبَعَهُ مُقْتَدِيًا بِهِ ؛ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ مَنْ سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً فِي الْإِسْلَامِ كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا ﴾ .

وَلِذَلِكَ قُلْنَا : إنَّ الصَّلَاةَ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ أَفْضَلُ مِنْ تَأْخِيرِهَا عَنْهُ ، وَلَا خِلَافَ فِي الْمَذْهَبِ فِيهِ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ الصَّلَاةُ لِأَوَّلِ وَقْتِهَا ﴾ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ السَّبْقَ يَكُونُ بِالصِّفَاتِ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ ، وَأَفْضَلُ هَذِهِ الْوُجُوهِ سَبْقُ الصِّفَاتِ .

(86/347)

وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا ، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ .

فَهَذَا الْيَوْمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ، فَهَدَانَا اللَّهُ لَهُ ، فَالْيَهُودُ غَدًا وَالنَّصَارَى بَعْدَ غَدٍ .

﴿ فَأَخْبَرَ النَّبِيُّ أَنَّ مَنْ سَبَقَنَا مِنْ الْأُمَمِ بِالزَّمَانِ فَجِئْنَا بَعْدَهُمْ سَبَقْنَاهُمْ بِالْإِيمَانِ ، وَالِامْتِثَالِ لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَالِانْقِيَادِ إلَيْهِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ لِأَمْرِهِ ، وَالرِّضَا بِتَكْلِيفِهِ ، وَالِاحْتِمَالِ لِوَظَائِفِهِ ، لَا

نَعْتَرِضُ عَلَيْهِ ، وَلَا نَخْتَارُ مَعَهُ ، وَلَا نُبَدِّلُ بِالرَّأْيِ شَرِيعَتَهُ ، كَمَا فَعَلَ أَهْلُ الْكِتَابِ .

وَذَلِكَ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ لِمَا قَضَاهُ ، وَبِتَيْسِيرِهِ لِمَا يَرْضَاهُ ، وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : لَمَّا ذَمَّ اللَّهُ الْأَعْرَابَ بِنَقْصِهِمْ وَحَطَّهُمْ عَنْ الْمَرْتَبَةِ الْكَامِلَةِ لِسِوَاهُمْ تَرَتَّبَتْ عَلَى ذَلِكَ أَحْكَامٌ ثَلَاثَةٌ : أَوَّلُهَا : أَنَّهُ لَا حَقَّ لَهُمْ فِي الْفَيْءِ وَالْغَنِيمَةِ ، حَسْبَمَا يَأْتِي فِي سُورَةِ الْحَشْرِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثَانِيهَا : أَنَّ إمَامَتَهُمْ بِأَهْلِ الْحَضَرِ مَمْنُوعَةٌ لِجَهْلِهِمْ بِالسُّنَّةِ وَتَرْكِهِمْ لِلْجُمُعَةِ .

ثَالِثُهَا : إسْقَاطُ شَهَادَةِ الْبَادِيَةِ عَنْ الْحَضَارَةِ .

(87/347)

وَاخْتُلِفَ فِي تَعْلِيلِ ذَلِكَ ؛ فَقِيلَ : لِأَنَّ الشَّهَادَةَ مَرْتَبَةٌ عَالِيَةٌ ، وَمَنْزِلَةٌ شَرِيفَةٌ ، وَوِلَايَةٌ كَرِيمَةٌ ، فَإِنَّهَا قَبُولُ قَوْلِ الْغَيْرِ عَلَى الْغَيْرِ ، وَتَنْفِيذُ كَلَامِهِ عَلَيْهِ ؛ وَذَلِكَ يَسْتَدْعِي كَمَالَ الصِّفَةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا نُقْصَانَ صِفَتِهِ فِي عِلْمِهِ وَدِينِهِ .

وَقِيلَ : إنَّمَا رُدَّتْ شَهَادَتُهُ عَلَيْهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَحْقِيقِ التُّهْمَةِ إذَا شَهِدَ أَهْلُ الْبَادِيَةِ بِحُقُوقِ أَهْلِ الْحَاضِرَةِ ، وَتِلْكَ رِيبَةٌ ؛ إذْ لَوْ كَانَ صَحِيحًا لَكَانَ أَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ الْحَضَرِيُّونَ ، فَعَدَمُ الشَّهَادَةِ عِنْدَهُمْ وَوُجُودُهَا عِنْدَ الْبَدْوِيِّينَ رِيبَةٌ تَقْتَضِي التُّهْمَةَ ، وَتُوجِبُ الرَّدَّ ، وَعَنْ هَذَا

قَالَ عُلَمَاؤُنَا : إنَّ شَهَادَتَهُمْ عَلَيْهِمْ فِيمَا يَكُونُ بَيْنَهُمْ كَالْجِرَاحِ وَنَحْوِهَا مِمَّا لَا يَكُونُ فِي الْحَضَرِ مَاضِيَةٌ .

وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : تَجُوزُ شَهَادَةُ الْبَدْوِيِّ عَلَى الْحَضَرِيِّ ؛ لِأَنَّهُ لَا يُرَاعِي كُلَّ تُهْمَةٍ ؛ أَلَا تَرَاهُ يَقْبَلُ شَهَادَةَ الْعَدُوِّ عَلَى عَدُوِّهِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، فَلْيَنْظُرْهُ هُنَالِكَ مَنْ أَرَادَ اسْتِيفَاءَهُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(88/347)

وقال السمرقندى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾

وهم الذين صلوا إلى القبيلتين ، ﴿ مِنَ المهاجرين والانصار ﴾ ، وشهدوا بدراً .

عن قتادة قال : قلت لسعيد بن المسيب من المهاجرون الأولون ؟ قال : من صلَّى إلى القبلتين مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو من المهاجرين الأولين وقال السدي : كانت الهجرة قبل أن تفتح مكة ، فلما فتحت مكة كان من أسلم بعده ولحق بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو تابع .

وروي عن مجاشع بن مسعود النهدي أنه جاء بابن أخيه ليبايعه على الهجرة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لا بَلْ بَايِعْ عَلَى الإِسْلامِ ، فَإِنَّهُ لا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ وَيَكُونُ مِنَ التَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ " .

قرأ العامة ﴿ والأنصار ﴾ بالكسر ، وقرأ الحضرمي ﴿ والانصار ﴾ بالضم .

فمن قرأ بالضم فهو عطف على السابقين التابعين ومعناه والسابقون والأنصار ، ومن قرأ بالكسر فهو عطف على المهاجرين ومعناه ومن المهاجرين ومن الأنصار .

وروي عن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ : ﴿ الذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ بغير واو ، وقراءة العامة بالواو ، فمن قرأ بغير واو يكون نعتاً للأنصار ، ومن قرأ بالواو يكون نعتاً لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة .

وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : سمع عمر رضي الله عنه رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ فقال له عمر : من أقرأك هذه الآية ؟ فقال : أقرأنيها أُبيّ بن كعب .

فقال لا تفارقني حتى أذهب بك إليه .

فلما جاءه قال : يا أُبَيّ ، أنت أقرأته هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم .

قال : أنت سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم .

قال : كنت أظن أنا قد ارتفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا .

قال أُبيّ : تصديق هذه الآية أول سورة الجمعة ، وأوسط سورة الحشر وآخر سورة الأنفال .

(89/347)

أما أول سورة الجمعة ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة : 3] وأوسط سورة الحشر ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا ولإخواننا الذين سَبَقُونَا بالإيمان وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : 10] وآخر سورة الأنفال ﴿ والذين ءَامَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وجاهدوا مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ وَأُوْلُواْ الأرحام بَعْضُهُمْ أولى بِبَعْضٍ فِي كتاب الله إِنَّ الله بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : 75] .

وقال الشعبي : السابقون الأولون من أدرك بيعة الرضوان وبايع تحت الشجرة .

﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ ، يعني : على دينهم بإحسانهم ، ﴿ رَّضِىَ الله عَنْهُمْ ﴾ بأعمالهم ، ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ ، يعني : عن الله تعالى بثوابه لهم في الجنة .

﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ .

قرأ ابن كثير ﴿ مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ بزيادة من ، وقرأ الباقون ﴿ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا

الأنهار ﴾ بغير من صار ﴿ تَحْتِهَا ﴾ نصباً لنزع الخافض .

﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ذلك الفوز العظيم ﴾ ، يعني : الثواب الوافر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(90/347)

وقال الثعلبى :

﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين ﴾

الذين هاجروا قومهم وعشيرتهم وفارقوا منازلهم وأوطانهم ﴿ والأنصار ﴾ الذين نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه من أهل المدينة وأيّدوا أصحابه وقد كانوا آمنوا قبل أن يهاجروا إليهم بحولين ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ يعني الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة .

وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين بالوفاء والترحّم والدعاء ويذكرون مجاورتهم ويسألون الله أن يجمع بينهم .

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان برفع الواو وحذف الواو من الذين ، قال له أُبيّ بن كعب : إنما هو

والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان وإنه قد كرّرها مراراً ثلاثة ، فقال له : إني والله لقد قرأتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين اتبعوهم بإحسان ، وإنك يومئذ شيخ تسكن ببقيع الغرقد ، قال : حفظتم ونسينا وتفرغتم وشغلنا وشهدتم وغبنا ثم قال عمر لأُبيّ : أفيهم الأنصار ؟ قال : نعم ولم يستأ من الخطاب ومن ثمّ قال عمر : قد كنت أظن إنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا فقال أبي : بلى ، تصديق ذلك أول سورة الجمعة وأواسط سورة الحشر وآخر سورة الأنفال . قوله : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة : 3] إلى آخره وقوله تعالى : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] إلى آخر الآية ، وقوله :

﴿ والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : 75] ، وقرأ الحسن وسلام ويعقوب : ﴿ والأنصار ﴾ رفعاً عطفاً على السابقين ولم يجعلوهم منهم وجعلوا السبق للمهاجرين خاصة والمقاسة على الخبر نسقاً على المهاجرين .

(91/347)

واختلف العلماء في السابقين الأولين من هم . فقال أبو موسى الأشعري وسعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين : هم الذين صلّوا القبلتين جميعاً .

وقال عطاء بن أبي رباح : هم الذين شهدوا بدراً .

وقال الشعبي : هم الذين شهدوا حجة الرضوان .

واختلفوا أيضاً في أول من آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد امرأته خديجة بنت خويلد مع اتفاقهم أنها أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم وصدّقته . فقال بعضهم : أول ذكر آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم وصلّى معه علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وهو قول ابن عباس وجابر وزيد بن أرقم ومحمد بن المنكدر وربيعة الرأي وأبي حازم المدني .

وقال الكلبي : أسلم علي وهو ابن تسع سنين ، وقال مجاهد وابن إسحاق : أسلم وهو ابن عشر سنين .

وقال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد قال : كان نعمة الله على علي ابن أبي طالب (رضي الله عنه) وما صنع الله له وأراد به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله للعباس وكانا من أيسر بني هاشم : " يا عباس إن أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله آخذ من بنيه رجلا وتأخذ من بنيه رجلا فنكفيهما عنه " . فقال العباس : نعم ، فانطلقا حتى أتيا أبا طالب [فقالا : إنا نريد أن نخفّف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب] : إن تركتما لي عقيلاً

فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه فضمّه إليه وأخذ العباس جعفراً يضمّه إليه فلم يزل علي (رضي الله عنه) مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله نبيًّا فاتبعه علي (رضي الله عنه) .

فآمن به وصدقه ولم يزل جعفر مع العباس ذ حتى أسلم واستغنى عنه .

(92/347)

وروى إسماعيل بن أياس بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف قال : كنت أمرءاً تاجراً فقدمت مكة أيام الحج فنزلت على العباس بن عبد المطلب وكان العباس لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشتري القطن فيبيعه أيام الموسم ، فبينما أنا والعباس بمنى إذ جاء رجل شاب حين حلقت الشمس في السماء فرمى ببصره إلى السماء ثم استقبل الكعبة فلبث مستقبلها ، حتى جاء غلام فقام عن يمينه فلم يلبث أن جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب وركع الغلام والمرأة فخرّ الشاب ساجداً فسجدا معه فرفع فرفع الغلام والمرأة فقلت : يا عباس أمرٌ عظيم فقال : أمرٌ عظيم .

فقلت : ويحك ما هذا ؟ فقال : هذا ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم أن الله تعالى بعثه رسولا وأن كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه ، وهذا الغلام ابن أخي علي بن

أبي طالب ، وهذه المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد قد تابعاه على دينه ، ما على ظهر الأرض كلها على هذا الدين غير هؤلاء .

قال عبد الله الكندي بعد ما رسخ الإسلام في قلبه : ليتني كنت رابعاً . فيروي أن أبا طالب قال لعلي (رضي الله عنه) : أي بني ما هذا الذي أنت عليه قال : آمنت بالله ورسوله وصدقته فيما جاء وصليت معه لله . فقال له : أما أن محمداً لا يدعو إلاّ إلى خير فالزمه .

وروى عبد الله بن موسى عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عبّاد بن عبد الله قال : سمعت عليًّا يقول : أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلاّ كذاب مفتر ، صلّيت قبل الناس بسبع سنين .

وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر (رضي الله عنه) وهو قول إبراهيم النخعي وجماعة يدلّ عليه ما روى أبو أمامة الباهلي " عن عمرو بن عنبسة قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بعكاظ ، قلت : يا رسول الله من تبعك في هذا الأمر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : اتبعني رجلان حر وعبد أبو بكر وبلال " فأسلمت عند ذلك ، فلقد رأيتي إذ ذاك ربع الإسلام .

(93/347)

قال : وسمعت أبا القاسم الحبيبي يقول : سمعت أبا الحسن علي بن عبد الله البدخشي يقول سمعت أبا هريرة مزاحم بن محمد بن شاردة الكشي يقول : سمعت غياث بن معاذ يقول : سمعت وكيع بن الجراح يقول : عن إسماعيل بن خالد عن الشفهي قال : قال رجل لابن عباس : مَن أول الناس إسلاماً قال : أبو بكر (رضي الله عنه) أما سمعت قول حسان بن ثابت :

إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة . . . فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أزكاها وأعدلها . . . بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده . . . وأول الناس منهم صدّق الرسلا

قال بعضهم : أول من أسلم من الرجال زيد بن حارثة ، وهو قول الزهري وسليمان بن يسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس ، وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي جمع بين الأخبار فيقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن الموالي زيد بن حارثة .

قال ابن إسحاق : فلما أسلم أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) أظهر إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله . قال : وكان أبو بكر رجلا مؤالفاً لقومه محباً سهلا وكان أنسب قريش لقريش ، أعلم قريش بها وبما كان منها من خير أو شر ، وكان رجلا (ناجياً) ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يهابونه ويأتونه لغير واحد من الأمر لعلمه وتجاربه وحسن

مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه ، فأسلم على يديه فيما بلغني عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن ابن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبد الله ، فجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجابوا له فأسلموا وصلوا فكان هؤلاء الثمانية النفر الذين سبقوا إلى الاسلام من المهاجرين .

(94/347)

فأما سبّاق الأنصار فأهل بيعة العقبة الأولى فكانوا سبعة ، والثانية كانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد الدار فعلّمهم القرآن ، فهو أول من جمع الصلاة بالمدينة وكانت الأنصار تحبه فأسلم معه سعد بن معاذ وعمرو بن الجموح وبنو عبد الأشهل كلهم وخلقٌ من النساء الصبيان ، " وكان مصعب بن عمير صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر ويوم أحد وكان وقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه يوم أحد حيث انهزم الناس ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نفذت المشاقص في جوفه ، فاستشهد يومئذ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عند الله أحتسبه ما رأيت قط أشرف منه لقد رأيته بمكة وإن عليه بردين ما يدري

ما قيمتهما وإنّ شراك نعليه من ذهب ، وإنّ عن يمينه غلامين وعن يساره غلامين بيد كل واحد منهما [جفنة] من [طعام] يأكل ويطعم الناس ، فآثره الله بالشهادة " .

(95/347)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا [أُهديت إليه طرفة حناها] لمصعب بن عمير فأنزل الله تعالى فيه : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ﴾ [النازعات : 40] الآية ، وأُخذ أخوه يوم بدر أسيراً فقال : أنا أبو غدير بن عمير أخو مصعب فلم يشدد من الوثاق مع الأسرى وقالوا : هذا الطريق فاذهب حيث شئت ، فقال : إني أخاف أن تقتلني قريش فذهبوا به إلى [. . .] فيمدّ يده بالخبز والتمر وكان يمدّ يده إلى التمر ويدع الخبز ، والخبز عند أهل المدينة أعزّ من التمر ، والتمر عند أهل مكة أعزّ من الخبز فلما أصبحوا حدّثوا مصعب بن عمير وقالوا له : أخوك عندنا وأخبروه بما فعلوا به . فقال : ما هو لي بأخ ولا كرامة ، فشدّوا وثاقه فإن أمه أكثر أهل البطحاء حليًا فأرسلت أمه في طلبه ثمّ أقبل يوم أحد فلما رأى أخاه مصعب بن عمير . قال في نفسه : والله لا يقتلك غيري فما زال حتى قتله وفيه أنزل الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن طغى * وَآثَرَ الحياة الدنيا * فَإِنَّ الجحيم هِيَ المأوى ﴾ [النازعات : 37-39] ثمّ جمعهم في الثواب فقال ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ

وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ وقرأ أهل مكة : من تحتها الأنهار [وكذا هو في مصاحفهم] ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذلك الفوز العظيم ﴾ .

قال الحسن بن الفضل : والفرق بينهما أن قوله ﴿ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ معناه تجري من تحت الأشجار ، وقوله : تجري من تحتها أي ينبع الماء من تحتها ثمّ تجري من تحت الأشجار .

وروي في هذه الآية " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل : أين السابقون ؟ قال معاذ : قد مضى ناس فقال : السابقون المستهترون بذكر الله من أراد أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(96/347)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأنصَارِ ﴾

فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم الذين صلّوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو موسى

الأشعري وسعيد بن المسيب .

الثاني : أنهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، قاله الشعبي وابن سيرين .

الثالث : أنهم أهل بدر ، قاله عطاء .

الرابع : أنهم السابقون بالموت والشهادة من المهاجرين والأنصار سبقوا إلى ثواب الله تعالى وحسن جزائه .

ويحتمل خامساً : أن يكون السابقون الأولون من المهاجرين هم الذين آمنوا بمكة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، والسابقون الأولون من الأنصار هم الذين آمنوا برسول الله ورسوله قبل هجرته إليهم .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : من الإيمان .

الثاني : من الأفعال الحسنة .

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : رضي الله عنهم بالإيمان ، ورضوا عنه بالثواب ، قاله ابن بحر .

الثاني : رضي الله عنهم في العبادة . ورضوا عنه بالجزاء ، حكاه علي بن عيسى .

الثالث : رضي الله عنهم بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ورضوا عنه بالقبول .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(97/347)

وقال ابن عطية :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

قال أبو موسى الأشعري وابن المسيب وابن سيرين وقتادة ﴿ السابقون الأولون ﴾ من صلى القبلتين ، وقال عطاء ﴿ السابقون الأولون ﴾ من شهد بدراً .

قال القاضي أبو محمد : وحولت القبلة قبل بدر بشهرين ، وقال عامر بن شراحيل الشعبي : ﴿ السابقون الأولون ﴾ من أدرك بيعة الرضون ، ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ يريد سائر الصحابة ، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الامة لكن بشريطة الإحسان ، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت من رأى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولو قال قائل إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللفظ وتكون ﴿ من ﴾ لبيان الجنس ، و ﴿ والذين ﴾ في هذه الآية عطف على قوله ﴿ والسابقون ﴾ ، وقرأ عمر بن الخطاب والحسن بن أبي الحسن وقتادة وسلام

وسعيد ويعقوب بن طلحة وعيسى الكوفي " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصارُ " برفع الراء عطفاً على ﴿ والسابقون ﴾ ، وكذلك ينعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى : ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ وجعل الأتباع عديلاً للأنصار ، وأسند الطبري أن زيد بن ثابت سمعه فرده فبعث عمر في أبي بن كعب فسأله فقال أبي بن كعب ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ ، فقال عمر ما كنا نرى إلا أنَّا قد رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد ، فقال أبي إن مصداق هذا في كتاب الله في أول سورة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ [الآية : 3] وفي سورة الحشر ﴿ والذين جاءو من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ﴾ [الآية : 10] وفي سورة الأنفال في قوله ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ [الآية : 75] ، فرجع عمر إلى قول أبي ، ونبهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كما نبه من ذكرهم قوله صلى الله عليه وسلم " اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار " فتأمله ، وقرأ ابن كثير " من تحتها الأنهار " وقرأ الباقون " تحتها " بإسقاط " من " ومعنى هذه الآية الحكم بالرضى عنهم

بإدخالهم الجنة

وغفر ذنوبهم والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له

جعلنا الله من الفائزين برحمته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(99/347)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأوّلون ﴾

فيهم ستة أقوال .

أحدها : أنهم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله أبو موسى الأشعري ، وسعيد بن المسيب ، وابن سيرين ، وقتادة .

والثاني : أنهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، وهي الحديبية ، قاله الشعبي .

والثالث : أنهم أهل بدر ، قاله عطاء بن أبي رباح .

والرابع : أنهم جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حصل لهم السبق بصحبته .

قال محمد بن كعب القرظي : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوجب لهم الجنة محسِنهم ومسيئهم في قوله : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ .

والخامس : أنهم السابقون بالموت والشهادة ، سبقوا إلى ثواب الله تعالى ، وذكره الماوردي .

والسادس : أنهم الذين أسلموا قبل الهجرة ، ذكره القاضي أبو يعلى .

قوله تعالى : ﴿ من المهاجرين والأنصار ﴾ قرأ يعقوب "والأنصارُ" برفع الراء .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتَّبعوهم باحسان ﴾ من قال : إن السابقين جميع الصحابة ، جعل هؤلاء تابعي الصحابة ، وهم الذين لم يصحبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد روي عن ابن عباس أنه قال : والذين اتَّبعوهم باحسان إلى أن تقوم الساعة .

ومن قال : هم المتقدمون من الصحابة ، قال : هؤلاء تبعوهم في طريقهم ، واقتدَوْا بهم في أفعالهم ، ففضِّل أولئك بالسبق ، وإن كانت الصحبة حاصلة للكل .

وقال عطاء : اتباعهم إياهم باحسان : أنهم يذكرون محاسنهم ويترحَّمون عليهم .

قوله تعالى : ﴿ تجري تحتَها الأنهار ﴾ قرأ ابن كثير : "من تحتها" فزاد "من" وكسر التاء الثانية .

قوله تعالى : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ يعم الكل .

قال الزجاج : رضي الله أفعالهم ، ورضوا ما جازاهم به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

فيه سبع مسائل :

الأُولى لما ذكر جل وعز أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة وأن منهم التابعين ، وأثنى عليهم .

وقد اختلف في عدد طبقاتهم وأصنافهم .

ونحن نذكر من ذلك طرفاً نبيّن الغرض فيه إن شاء الله تعالى .

وروى عمر بن الخطاب أنه قرأ "والأنصارُ" رفعا عطفاً على السابقين .

قال الأخفش : الخفض في الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهما .

والأنصار اسم إسلامي .

قيل لأنس بن مالك : أرأيت قول الناس لكم : الأنصار ، اسم سماكم الله به أم كنتم تُدْعَوْنَ به في الجاهلية ؟ قال : بل اسم سمانا الله به في القرآن ؛ ذكره أبو عمر في الإستذكار .

الثانية نص القرآن على تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار وهم الذين صلوا إلى

القبلتين ؛ في قول سعيد بن المسيّب وطائفة .

وفي قول أصحاب الشافعيّ هم الذين شهدوا بيعة الرضوان ، وهي بيعة الحُدَيْبِيَة ؛ وقاله الشعبيّ .

وعن محمد بن كعب وعطاء بن يسار : هم أهل بدر .

واتفقوا على أن من هاجر قبل تحويل القبلة فهو من المهاجرين الأوّلين من غير خلاف بينهم .

وأما أفضلهم وهي :

الثالثة فقال أبو منصور البغداديّ التميمي : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ، ثم البدريون ثم أصحاب أُحُد ثم أهل بيعة الرضوان بالحُدَيْبِيَة .

الرابعة وأما أوّلهم إسلاماً فروى مجالد عن الشعبي قال : سألت ابن عباس مَن أوّل الناس إسلاماً ؟ قال أبو بكر ، أو ما سمعت قول حسان :

إذا تذكّرتَ شَجْواً من أخي ثقة . . .

فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلاَ

خيرَ البرية أتقاها وأعدلها . . .

بعد النبيّ وأوفاها بما حَملاَ

الثانِيَ التالِيَ المحمودَ مشهدُه . . .

وأوّلَ الناس منهم صدّق الرسلاَ

(101/347)

وذكر أبو الفرج الجَوْزِي عن يوسف بن يعقوب بن الماجشون أنه قال : أدركت أبي وشَيخنا محمد بن المنكدر وربيعةَ بن أبي عبد الرحمن وصالح بن كَيْسان وسعد بن إبراهيم وعثمان بن محمد الأخْنَسِيّ وهم لا يشكّون أن أوّل القوم إسلاماً أبو بكر ؛ وهو قول ابن عباس وحسّان وأسماء بنت أبي بكر ، وبه قال إبراهيم النَّخَعِيّ .

وقيل : أوّل من أسلم عليّ ؛ رُوي ذلك عن زيد بن أرْقم وأبي ذرّ والمِقْداد وغيرهم .

قال الحاكم أبو عبد الله : لا أعلم خلافاً بين أصحاب التواريخ أن عليّاً أوّلهم إسلاماً .

وقيل : أوّل من أسلم زيد بن حارثة .

وذكر مَعْمَر نحو ذلك عن الزُّهْرِيّ .

وهو قول سليمان بن يَسار وعروة بن الزبير وعمران بن أبي أنس .

وقيل : أول من أسلم خديجة أُم المؤمنين ؛ روي ذلك من وجوه عن الزهري ، وهو قول قتادة ومحمد بن إسحاق بن يَسار وجماعة ، وروي أيضاً عن ابن عباس .

وادعى الثَّعلبيّ المفسّر اتفاق العلماء على أن أول من أسلم خديجة ، وأن اختلافهم إنما هو فيمن أسلم بعدها .

وكان إسحاق بن إبراهيم بن رَاهْوَيْه الحنظَلِيّ يجمع بين هذه الأخبار ، فكان يقول : أوّل من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان عليّ ، ومن الموالي زيد بن حارثة ، ومن العبيد بلال .

والله أعلم .

وذكر محمد بن سعد قال : أخبرني مصعب بن ثابت قال حدثني أبو الأسود محمد بن عبد الرحمن ابن نوفل قال : كان إسلام الزبير بعد أبي بكر وكان رابعاً أو خامساً .

قال الليث بن سعد وحدّثني أبو الأسود قال : أسلم الزبير وهو ابن ثمان سنين .

وروي أن عليّاً أسلم ابن سبع سنين .

وقيل : ابن عشر .

الخامسة والمعروف عن طريقة أهل الحديث أن كل مسلم رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من أصحابه .

قال البخاري في صحيحه : من صحب النبيّ صلى الله عليه وسلم أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه .

وروي عن سعيد بن المسيّب أنه كان لا يعد الصحابيّ إلا من أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة أو سنتين ، وغزا معه غزوة أو غزوتين .

وهذا القول إن صح عن سعيد بن المسيّب يوجب ألا يعد من الصحابة جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ أو من شاركه في فقد ظاهر ما اشترطه فيهم ممن لا نعرف خلافاً في عدّه من الصحابة .

السادسة لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصدّيق .

وقال ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء : الصفة وهو الإيمان ، والزمان ، والمكان .

وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات ؛ والدِليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح : " نحن الآخرون الأوّلون بَيْد أنهم أُوتوا الكتاب مِن قَبْلنا وأوتيناه من بعدهم فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غداً والنصارى بعد غد " فأخبر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن من سبقنا من الأُمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والامتثال لأمر الله تعالى والانقياد إليه ، والإستسلام لأمره والرضا بتكليفه والاحتمال لوظائفه ، لا نعترض عليه ولا نختار معه ، ولا نبدّل بالرأي شريعته كما فعل أهل الكتاب ؛ وذلك بتوفيق الله لما قضاه ، وبتيسيره لما يرضاه ؛ وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

السابعة قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد : تضمّنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب

الشريعة ، في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك ، من العطاء في المال والرتبة في الإكرام .

وفي هذه المسألة خلاف بين أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .

واختلف العلماء في تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم ؛ فَرُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس في العطاء بعضَهم على بعض بحسب السابقة .

وكان عمر يقول له : أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له ؟ فقال أبو بكر : إنما عملوا لله وأجرهم عليه .

وكان عمر يفضل في خلافته ؛ ثم قال عند وفاته : لئن عشت إلى غد لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم ؛ فمات من ليلته .

(103/347)

والخلافة إلى يومنا هذا على هذا الخلاف .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ فيه مسألتان :

الأُولى قرأ عمر "والأنصارُ" رفعا .

"الذين" بإسقاط الواو نعتا للأنصار ؛ فراجَعه زيد بن ثابت ، فسأل عُمر أُبَيّ بن كعب فصدّق زيداً ؛ فرجع إليه عمر وقال : ما كنا نرى إلا أنا رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد .

فقال أُبَيّ : إني أجد مصداق ذلك في كتاب الله في أول سورة الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الجمعة : 3] وفي سورة الحشر : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان ﴾ [الحشر : 10] .

وفي سورة الأنفال بقوله : ﴿ والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فأولئك مِنكُمْ ﴾ [الأنفال : 75] .

فثبتت القراءة بالواو .

وبيّن تعالى بقوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ ما يتبعون فيه من أفعالهم وأقوالهم ، لا فيما صدر عنهم من الهفوات والزلات ؛ إذ لم يكونوا معصومين رضي الله عنهم .

الثانية واختلف العلماء في التابعين ومراتبهم ؛ فقال الخطيب الحافظ : التابِعيّ من صحب الصحابي ؛ ويقال للواحد منهم : تابع وتابعيّ .

وكلام الحاكم أبي عبد الله وغيره مُشْعر بأنه يكفي فيه أن يسمع من الصحابي أو يلقاه وإن لم توجد الصحبة العرفية .

(104/347)

وقد قيل : إن اسم التابعين ينطلق على من أسلم بعد الحُدَيْبِيَة ؛ كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ومن داناهم من مُسْلمة الفتح ؛ لما ثبت أن عبد الرحمن بن عوف شكا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم لخالد : " دَعُوا لي أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أُحُد ذهباً ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفه " ومن العجب عَدّ الحاكم أبو عبد الله النعمانَ وسويداً ابني مُقَرِّن المزنيّ في التابعين عند ما ذكر الإخوة من التابعين ، وهما صحابيان معروفان مذكوران في الصحابة ، وقد شهدا الخندق كما تقدم .

والله أعلم .

وأكبر التابعين الفقهاء السبعة من أهل المدينة ، وهم سعيد بن المسيّب ، والقاسم بن محمد ؛ وعروة بن الزبير ، وخارجة بن زيد ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن عتبة بن مسعود ، وسليمان بن يسار .

وقد نظمهم بعض الأجلة في بيت واحد فقال :

فخذهم عبيدُ اللَّه عروةُ قاسمٌ . . .

سعيدٌ أبو بكر سليمانُ خارجهْ

وقال أحمد بن حنبل : أفضل التابعين سعيد بن المسيّب ؛ فقيل له : فعلقمة والأسود .

فقال : سعيد بن المسيّب وعلقمة والأسود .

وعنه أيضاً أنه قال : أفضل التابعين قيس وأبو عثمان وعلقمة ومسروق ؛ هؤلاء كانوا فاضلين ومن عِلْية التابعين .

وقال أيضاً : كان عطاء مفتي مكة والحسن مفتي البصرة ، فهذان أكثر الناسُ عنهم ؛ وأَبْهَمَ .

وروي عن أبي بكر بن أبي داود قال : سيدتا التابعين من النساء حفصة بنت سِيرين وعمرة بنت عبد الرحمن ، وثالثتهما وليست كهما أم الدَّرْداء .

وروي عن الحاكم أبي عبد الله قال : طبقة تعدّ في التابعين ولم يصح سماع أحد منهم من الصحابة ؛ منهم إبراهيم بن سويد النَّخَعِيّ وليس بإبراهيم بن يزيد النخعيّ الفقيه .

وبكير بن أبي السَّميط ، وبكير بن عبد الله الأشج .

(105/347)

وذكر غيرهم قال : وطبقة عدادهم عند الناس في أتباع التابعين ، وقد لقوا الصحابة منهم أبو الزناد عبد الله بن ذَكْوان ، لِقِي عبد الله بن عمر وأنساً .

وهشامُ بن عروة ، وقد أُدخِل على عبد الله بن عمر ، وجابر بن عبد الله وموسى بن عقبة ، وقد أدرك أنس بن مالك .

وأُم خالد بنت خالد بن سعيد .

وفي التابعين طبقة تسمى بالمخضرمين ، وهم الذين أدركوا الجاهلية وحياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلموا ولا صحبة لهم .

واحدهم مخضرم بفتح الراء كأنه خضرِم ، أي قطع عن نظرائه الذين أدركوا الصحبة وغيرها .

وذكرهم مسلم فبلغ بهم عشرين نفساً ، منهم أبو عمرو الشيبانيّ ، وسُويد بن غَفَلة الكندِيّ ، وعمرو بن ميمون الأوْدِيّ ، وأبو عثمان النهْدِيّ وعبد خير بن يزيد الخيراني بفتح الخاء ، بطن من هَمْدان ، وعبد الرحمن بن مُلٍّ .

وأبو الحلاَل العتكي ربيعة بن زُرَارة .

وممن لم يذكره مسلم ؛ منهم أبو مسلم الخولانيّ عبد الله بن ثُوَبَ ، والأحنف بن قيس .

فهذه نبذة من معرفة الصحابة والتابعين الذين نطق بفضلهم القرآن الكريم ، رضوان الله عليهم أجمعين .

وكفانا نحن قوله جل وعز : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : 110] على ما تقدّم .

وقوله عز وجل : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ [البقرة : 143] الآية .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وددت أنا لو رأينا إخواننا . . .

.

" الحديث .

فجعلنا إخوانه ؛ إن اتقينا الله واقتفينا اثاره حشرنا الله في زمرته ولا حاد بنا عن طريقته وملته بحق محمد وآله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(106/347)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾

اختلف العلماء في السابقين الأولين فقال سعيد بن المسيب وقتادة وابن سيرين وجماعة : هم الذين صلوا إلى القبلتين .

وقال عطاء بن أبي رباح : هم أهل بدر .

وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان وكانت بيعة الرضوان بالحديبية .

وقال محمد بن كعب القرظي هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال حميد بن زياد : قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيما بينهم وأردت الفتن فقال : إن الله قد غفر لجميعهم محسنهم

ومسيئهم وأوجب لهم الجنة في كتابه فقلت له في أي موضع أوجب لهم الجنة فقال سبحان الله ألا تقرأ والسابقون الأولون إلى آخر الآية فأوجب الله الجنة لجميع أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) زاد فرواية في قوله والذين اتبعوهم بإحسان قال شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أعمالهم الحسنة دون السيئة .

قال حميد : فكأني لم أقرأ هذه الآية قط .

واختلف العلماء في أول الناس إسلاماً بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق إسلاماً وأول من صلى مع رسول الله عليه وسلم فقال بعض العلماء أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر بن عبد الله ثم اختلفوا في سنة وقت إسلامه فقيلك كان ابن عشر سنين .

وقيل : أقل من ذلك .

وقيل : أكثر .

وقيل : كان بالغاً .

والصحيح ، أنه لم يكن بالغاً وقت إسلامه .

(107/347)

وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي وقال الزهري وعروة بن الزبير : أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ، ومن العبيد زيد بن حارثة رضي الله تعالى عنهم فهؤلاء الأربعة سباق الخلق إلى الإسلام .

(108/347)

قال ابن إسحاق : فلما أسلم أبو بكر أظهر إسلامه ودعا الناس إلى الله ورسوله وكان رجلاً محبباً سهلاً وكان أنسب قريش لقريش وأعلمها بما كان فيها وكان رجلاً تاجراً وكان ذا خلق حسن ومعروف وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لعلمه وحسن مجالسته فجعل يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه فأسلم على يديه عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله فجاء بهم إلى النبي (صلى الله عليه وسلم) فأسلموا على يده وصلوا معه فكان هؤلاء النفر الثمانية أول من سبق الناس إلى

الإسلام ثم تتابع الناس بعدهم في الدخول إلى الإسلام وأما السابقون من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة العقبة وهي العقبة الأولى وكانوا ستة نفر (1)

أسعد بن زرارة وعوف بن مالك ورافع بن مالك بن العجلان وقطبة بن عامر وجابر بن عبد الله بن رباب ثم أصحاب العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلاً ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر وسعد بن عبادة وسعد بن الربيع وعبد الله بن رواحة فهؤلاء سباق الأنصار ثم بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مصعب بن عمير إلى أهل المدينة يعلمهم القرآن فأسلم على يده خلق كثير من الرجال والنساء والصبيان من أهل المدينة وذلك قبل أن يهاجر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى المدينة وقيل : إن المراد بالسابقين الأولين من سبق إلى الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أن الله سبحانه وتعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين بماذا سبقوا فبقي اللفظ مجملاً فلما قال تعالى من المهاجرين والأنصار ووصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً وجب صرف اللفظ المجمل إليه وهو الهجرة والنصرة والذي يدل عليه أيضاً أن الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية من حيث إن الهجرة أمر شاق على النفس لمفارقة الوطن والعشيرة وكذلك النصرة فإنها مرتبة عالية

---

(1) قوله ستة نفر المعدود هنا خمسة والسادس عقبة بن عامر كما في المواهب .

ومنقبة شريفة لأنهم نصروا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله عليهم ومدحهم فقال سبحانه وتعالى : ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ قيل : هم بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأولين فعلى هذا القول ، يكون الجميع من الصحابة .

وقيل : هم الذين سلكوا سبيل المهاجرين والأنصار في الإيمان والهجرة والنصرة إلى يوم القيامة وقال عطاء هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار فيترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم (ق) عن عمران بن حصين أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم " قال عمران فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثاً (ق) عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لا تسبوا أصحابي فلو أن أحداً " وفي رواية " أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه "

أراد بالقرن في الحديث الأول أصحابه .

والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضاً واختلفوا في مدته من الزمان .

فقيل : من عشر سنين إلى عشرين .

وقيل : من مائة إلى مائة وعشرين سنة .

والمد : المذكور في الحديث الثاني هو ربع صاع .

والنصيف : نصفه .

والمعنى : لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البر والإنفاق في الحاجة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾ يعني رضى أعمالهم ورضوا عنه بما جازاهم عليها من الثواب وهذا اللفظ عام يدخل فيه كل الصحابة ﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(110/347)

وقال أبو حيان :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾

قال أبو موسى الأشعري ، وابن المسيب ، وابن سيرين ، وقتادة : السابقون الأولون من

صلى إلى القبلتين .

وقال عطاء : من شهد بدراً قال : وحوّلت القبلة قبل بدر بشهرين .

وقال الشعبي : من أدرك بيعة الرضوان ، بيعة الحديبية ما بين الهجرتين .

ومن فسر السابقين بواحد كأبي بكر أو عليّ ، أو زيد بن حارثة ، أو خديجة بنت خويلد ، فقوله بعيد من لفظ الجمع ، وإنما يناسب ذلك في أول من أسلم .

والظاهر أنّ السبق هو إلى الإسلام والإيمان .

وقال ابن بحر : هم السابقون بالموت أو بالشهادة من المهاجرين والأنصار ، سبقوا إلى ثواب الله وحسن جزائه ، ومن المهاجرين والأنصار أي : ومن الأنصار وهم أهل بيعة العقبة أولاً وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن .

قال ابن عطية : ولو قال قائل : إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر إلى أن انقضت الهجرة ، لكان قولاً يقتضيه اللفظ ، وتكون من لبيان الجنس .

والذين اتبعوهم بإحسان هم سائر الصحابة ، ويدخل في هذا اللفظ التابعون ، وسائر الأمة لكن بشرط الإحسان .

وقد لزم هذا الاسم الذي هو التابعون من رأى من رأى النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وقال أبو عبد الله الرازي : الصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة والنصرة ، لأن في لفظ

السابقين إجمالاً ، ووصفهم بالمهاجرين والأنصار يوجب صرف ذلك إلى ما اتصف به وهي الهجرة والنصرة ، والسبق إلى الهجرة صفة عظيمة من حيث كونها شاقة على النفس ومخالفة للطبع ، فمن أقدم أولاً صار قدوة لغيره فيها ، وكذلك السبق في النصرة فازوا بمنصب عظيم انتهى ملخصاً .

(111/347)

ولما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين المتصدقين ، وما أعد لهم من النعيم ، بين حال هؤلاء السابقين وما أعد لهم ، وشتان ما بين الإعدادين والثناءين ، هناك قال : ﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ وهنا ﴿ رضي الله عنهم ﴾ ، وهناك ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ وهنا ﴿ وأعد لهم جنات تجري ﴾ ، وهناك ختم : ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وهنا ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ .

وقرأ عمر بن الخطاب ، والحسن ، وقتادة ، وعيسى الكوفي ، وسلام ، وسعيد بن أبي سعيد ، وطلحة ، ويعقوب ، والأنصار : برفع الراء عطفاً على والسابقون ، فيكون الأنصار جميعهم مندرجين في هذا اللفظ .

وعلى قراءة الجمهور وهي الجر ، يكونون قسمين : سابق أول ، وغير أول .

ويكون المخبر عنهم بالرضا سابقوهم ، والذين اتبعوهم الضمير في القراءتين عائد على المهاجرين والأنصار .

والظاهر أن السابقون مبتدأ ورضي الله الخبر ، وجوّزوا في الخبر أنْ يكون الأولون أي : هم الأولون من المهاجرين .

وجوّزوا في قوله : والسابقون ، أن يكون معطوفاً على قوله : من يؤمن أي : ومنهم السابقون .

وجوزوا في والأنصار أنْ يكون مبتدأ ، وفي قراءة الرفع خبره رضي الله عنهم ، وذلك على وجهين .

والسابقون وجه العطف ، ووجه أنْ لا يكون الخبر رضي الله ، وهذه أعاريب متكلفة لا تناسب إعراب القرآن .

وقرأ ابن كثير : من تحتها بإثبات من الجارة ، وهي ثابتة في مصاحف مكة .

وباقي السباعة بإسقاطها على ما رسم في مصاحفهم .

(112/347)

وعن عمر أنه كان يرى : والذين اتبعوهم بإحسان ، بغير واو صفة للأنصار ، حتى قال له زيد بن ثابت : إنها بالواو فقال : ائتوني بأبيّ فقال : تصديق ذلك في كتاب الله في أول الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ وأوسط الحشر : ﴿ والذين جاءُوا من بعدهم ﴾ وآخر الأنفال : ﴿ والذين آمنوا من بعد ﴾ وروي أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو فقال : من أقرأك ؟ فقال : أُبيّ فدعاه فقال : أقرأنيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، ومن ثم قال عمر : لقد كنت أرانا وقعنا وقعة لا يبلغها أحد بعدنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(113/347)

وقال ابن كثير :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان ، ورضاهم عنه بما أعدَّ لهم من جنات النعيم ، والنعيم المقيم .

قال الشعبي : السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار من أدرك بيعة الرضوان عام

الحديبية .

وقال أبو موسى الأشعري ، وسعيد بن المسيب ، ومحمد بن سيرين ، والحسن ، وقتادة : هم الذين صلوا إلى القبلتين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال محمد بن كعب القرظي : مرَّ عمر بن الخطاب برجل يقرأ : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ فقال : أبيُّ بن كعب . فقال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه . فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم . قال : وسمعتَها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، فقال أبيُّ : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة : 3] وفي سورة الحشر : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ ﴾ [الحشر : 10] وفي الأنفال : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ﴾ [الأنفال : 75] إلى آخر الآية ، رواه ابن جرير (1)

قال : وذكر عن الحسن البصري أنه كان يقرؤها برفع "الأنصار" عطفا على ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ ﴾

فقد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان : فيا ويل من أبغضهم أو سَبَّهم أو أبغض أو سبَّ بعضهم ، ولا سيما سيدُ الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم ، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ، رضي الله عنه ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويُبغضونهم ويَسُبُّونهم ، عياذاً بالله من ذلك . وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة ، وقلوبهم منكوسة ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن ، إذ يسبُّون من رضي الله عنهم ؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه ، ويسبون من سبه الله ورسوله ، ويوالون من يوالي الله ، ويعادون من يعادي الله ، وهم متبعون لا مبتدعون ، ويقتدون ولا يبتدون ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 203 ﴾

(115/347)

وقال أبو السعود :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾

بيانٌ لفضائل أشرافِ المسلمين إثرَ بيانِ فضيلةِ طائفةٍ منهم ، والمرادُ بهم الذين صلَّوا إلى القبلتين أو الذين شهدوا بدْراً أو الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿ والانصار ﴾ أهل بُيْعةِ العقبةِ الأولى وكانوا سبعين رجلاً والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زُرارةَ مصعبُ بنُ عمير . وقرىء بالرفع عطفاً على والسابقون ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ أي ملتبسين به ، والمرادُ به كلُّ خَصلةٍ حسنة وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن (من) تبعيضيةٌ أو الذين اتبعوهم بالإيمان والطاعةِ إلى يوم القيامة ، فالمرادُ بالسابقين جميعُ المهاجرين والأنصارِ ومن بيانية ﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ ﴾ خبرٌ للمبتدأ أي رضي الله عنهم بقَبول طاعتِهم وارتضاءِ أعمالِهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بما نالوه من رضاه المستتبِعِ لجميع المطالبِ طراً ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ ﴾ في الآخرة ﴿ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ وقرىء من تحتها كما في سائر المواقع ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ من غير انتهاءٍ ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ وراءه وما في اسم الإشارةِ من معنى البُعد لبيان بُعدِ منزلتِهم في مراتب الفضلِ وعظمِ الدرجةِ من مؤمني الأعراب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(116/347)

وقال الآلوسى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ﴾

بيان لفضائل أشراف المسلمين إثر بيان طائفة منهم ، والمراد بهم كما روي عن سعيد .

وقتادة .

وابن سيرين .

وجماعة الذين صلوا إلى القبلتين ، وقال عطاء بن رباح : هم أهل بدر ، وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان وكانت بالحديبية ، وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة ﴿ والانصار ﴾ أهل بيعة العقبة الأولى وكانت في سنة إحدى عشرة من البعة وكانوا على ما في بعض الروايات سبعة نفر وأهل بيعة العقبة الثانية وكانت في سنة اثنتي عشرة وكانوا سبعين رجلاً وامرأتين .

والذين أسلموا حين جاءهم من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو زرارة مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف وكان قد أرسله عليه الصلاة والسلام مع أهل العقبة الثانية يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ أي متلبسين به ، والمراد كل خصلة حسنة ، وهم اللاحقون بالسابقين من الفريقين على أن ﴿ مِنْ ﴾ تبعيضة أو الذين أتبعوهم بالإيمان والطاعة إلى يوم القيامة فالمراد بالسابقين جميع المهاجرين والأنصار رضي

الله تعالى عنهم ، ومعنى كونهم سابقين أنهم أولون بالنسبة إلى سائر المسلمون وكثير من الناس ذهب إلى هذا .

(117/347)

روي عن حميد بن زياد أنه قال : قلت : يوماً لمحمد بن كعب القرظي ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما كان بينهم من الفتن فقال لي : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم فقلت له : في أي موضع أوجب لهم الجنة ؟ فقال : سبحان الله الا تقرأ قوله تعالى : ﴿ والسابقون الاولون ﴾ الآية فتعلم أنه تعالى أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان وشرط على التابعين شرطاً قلت : وما ذلك الشرط ؟ قال : شرط عليهم أن يتبعوهم باحسان وهو أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ولا يقتدوا بهم في غير ذلك أو يقال : هو أن يتبعوهم بإحسان في القول وان لا يقولوا فيهم سوءاً وأن لا يوجهوا الطعن فيما أقدموا عليه ، قال حميد بن زياد : فكأني ما قرأت هذه الآية قط ، وعلى هذا تكون الآية متضمنة من فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ما لم تتضمنه على التقدير الأول .

واعترض القطب على التفاسير السابقة للسابقين من المهاجرين بأن الصلاة إلى القبلتين

وشهود بدر وبيعة الرضوان مشتركة بين المهاجرين والأنصار .

وأجيب بأن مراد من فسر تعيين سبقهم لصحبتهم ومهاجرتهم له صلى الله عليه وسلم على من عداهم من ذلك القبيل .

(118/347)

واختار الإمام أن المراد بالسابقين من المهاجرين السابقون في الهجرة ومن السابقين من الأنصار السابقون في النصرة وادعى أن ذلك هو الصحيح عنده ، واستد عليه بأنه سبحانه ذكر كونهم سابقين ولم يبين أنهم سابقون فيما ذا فبقى اللفظ مجملاً إلا أنه تعالى لما وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً علم أن المراد من السبق السبق في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ ، وأيضاً كل واحدة من الهجرة والنصرة لكونه فعلاً شاقاً على النفس طاعة عظيمة فمن أقدم عليه أولاً صار قدوة لغيره في هذه الطاعة وكان ذلك مقوياً لقلب الرسول صلى الله عليه وسلم وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره الشريف عليه الصلاة والسلام فلذلك أثني الله تعالى على كل من كان سابقاً إليهما وأثبت لهم ما أثبت ، وكيف لا وهم آمنوا وفي عدد المسلمين في مكة والمدينة قلة وضعف فقوى الإسلام بسببهم وكثر عدد المسلمين بإسلامهم وقوى قلبه صلى الله عليه وسلم بسبب دخولهم في الإسلام

واقتداء غيرهم بهم فكان حالهم في ذلك كحال من سن سنه حسنة ؛ وفي الخبر "من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة" ولا يخفى أنه حسن .

ويجوز عندي أن يراد بالسابقين الذين سبقوا إلى الإيمان بالله واليوم الآخر واتخاذ ما ينفقون قربات والقرينة على ذلك ظاهرة ، وأياما كان فالسابقون مبتدأ خبره قوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ أي بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بما نالوه من النعم الجليلة الشأن .

وجوز أبو البقاء أن يكون الخبر ﴿ الاولون ﴾ أو ﴿ مِنَ المهاجرين ﴾ وأن يكون ﴿ السابقون ﴾ معطوفاً على ﴿ مَن يُؤْمِنُ ﴾ [التوبة : 99] أي ومنهم السابقون وما ذكرناه أظهر الوجوه .

وعن عمر رضي الله تعالى عنه انه قرأ ﴿ والانصار ﴾ بالرفع على أنه معطوف على السابقون .

وأخرج أبو عبيدة .

وابن جرير .

وابن المنذر .

وغيرهم عن عمرو بن عامر الأنصاري أن عمر رضي الله تعالى عنه كان يقرأ بأسقاط الواو من ﴿ والذين اتبعوهم ﴾ فيكون الموصول صفة الأنصار جنى قال له زيد : إنه بالواو فقال ائتوني بأبي بن كعب فأتاه فسأله عن ذلك فقال : هي بالواو فتابعه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي أسامة .

ومحمد بن إبراهيم التيمي قالا : مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ ﴿ والذين ﴾ بالواو فقال : من أقرأك هذه ؟ فقال : أبي فأخذ به إليه فقال : يا أبا المنذر أخبرني هذا أنك أقرأته هكذا قال أبي : صدق وقد تلقنتها كذلك من في رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر : أنت تلقنتها كذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم فأعاد عليه فقال في الثالثة وهو غضبان : نعم والله لقد أنزلها الله على جبريل عليه السلام وأنزلها جبريل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه فخرج عمر رافعاً يديه وهو يقول الله أكبر الله أكبر .

وفي رواية أخرجها أبو أبي شيخ أيضاً عن محمد بن كعب أن أبياً رضي الله تعالى عنه : تصديق هذه الآية في أول الجمعة

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ ﴾ [الجمعة : 3] وفي أوسط الحشر ﴿ والذين جَاءوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الحشر : 10] وفي آخر الأنفال ﴿ والذين ءامَنُواْ مِن بَعْدُ ﴾ [الأنفال : 75] الخ ،

ومراده رضي الله تعالى عنه أن هذه الآيات تدل على أن التابعين غير الأنصار ، وفيها أن عمر رضي الله تعالى عنه قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا وأراد اختصاص السبق بالمهاجرين ، وظاهر تقديم المهاجرين على الأنصار مشعر بأنهم أفضل منهم وهو الذي يدل عليه قصة السقيفة ، وقد جاء في فضل الأنصار ما لا يحصى من الأخبار .

ومن ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آية الإيمان حب الأنصار وآية النفاق بغض الأنصار " .

(120/347)

وأخرج الطبراني عن السائب بن يزيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم الفيء الذي أفاء الله تعالى بحنين في أهل مكة من قريش وغيرهم فغضب الأنصار فأتاهم فقال : "يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناساً أتألفهم على الإسلام لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم وقد أدخل الله تعالى قلوبهم الإسلام ثم قال : يا معشر الإسلام ألم يمن الله تعالى عليكم بالإيمان وخصكم بالكرامة وسماكم بأحسن الأسماء أنصار الله تعالى وأنصار روسله عليه الصلاة والسلام ولولا الهجرة لكنت أمرءاً من الأنصار ولو

سلك الناس وادياً وسلكتم وادياً لسلكت واديكم أفلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم البعير والشاء وتذهبون برسول الله ؟ فقالوا : رضينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أجيبوني فيما قلت .

قالوا : يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور ، وجدتنا على شفا حفرة من النار فانقذنا الله بك ، وجدتنا ضلالاً فهدانا الله تعالى بك فرضينا بالله تعالى ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ، فقال عليه الصلاة والسلام : لو اجبتموني بغير هذا القول لقلت : صدقتم لو قلتم ألم تأتنا طريدا فآويناك ؟ ومكذبا فصدقناك ؟ ومخذولا فنصرناك وقبلنا ما رد الناس عليك لصدقتم ، قالوا : بل لله تعالى ولرسوله المن والفضل علينا وعلى غيرنا " فانظر كيف قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أجابوه رضي الله تعالى عنهم ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ أي هيأ لهم ذلك في الآخرة .

(121/347)

وقرأ ابن كثير ﴿ مِن تَحْتِهَا ﴾ وأكثر ما جاء في القرآن موافق لهذه القراءة ﴿ خالدين فِيهَا أَبَداً ﴾ من غير انتهاء ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ أي الذي لا فوز وراءه ، وما في ذلك من

معنى البعد قيل لبيان بعد منزلتهم في الفضل وعظم الدرجة من مؤمني الأعراب ، ولا يخفى أن هذا لا يكاد يصح إلا بتكلف ما إذا أريد من الذين اتبعوهم صنف آخر غير الصحابة لأن الظاهر أن مؤمني الأعراب صحابة ولا يفضل غير صحابي صحابياً كما يدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : " لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه " وقوله صلى الله عليه وسلم : " أمتي كالمطر لا يدري أوله خير أم آخره " من باب المبالغة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعاني حـ 11 صـ ﴾

(122/347)

وقال القاسمي :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

أي : ممن تقدم بالهجرة والنصرة . وقيل : عني بالفريق الأول من صلى إلى القبلتين ، أو من شهد بدراً ، أو من أسلم قبل الهجرة وبالثاني أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية ، وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير ، فعلمهم القرآن .

واختار الرازي الوجه الأول ، وقال : والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة

، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين ، ولم يبين أنهم سابقون فلماذا ؟

فبقي اللفظ مجملاً ، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصاراً ، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصاراً ، وهو الهجرة والنصرة ، فوجب أن يكون المراد منه : ﴿ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ ﴾ في الهجرة والنصرة ، إزالة للإجمال عن اللفظ .

وأيضاً فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة ، من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس ، ومخالف للطبع ، فمن أقدم عليه أولاً ، صار قدوة لغيره في هذه الطاعة ، وكان ذلك مقوّياً لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام ، وسبباً لزوال الوحشة عن خاطره ، وكذلك السبق في النصرة ، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة ، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة فازوا بمنصب عظيم .

وقرئ (الأنصارُ) بالرفع ، عطفاً على السابقون .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ أي : سلكوا سبيلهم بالإيمان والطاعة ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ لأن الهجرة أمر شاق على النفس ، لمفارقة الأهل والعشيرة .

(123/347)

والنصرة منقبة شريفة ، لأنها إعلاء كلمة الله ، ونصر رسوله وأصحابه ، والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم – قاله المهايمي – .

﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما وفقهم إليه من الإيمان والإحسان ، وما آتاهم من الثواب والكرامة ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ ﴾ وذلك بدل ما تركوا من دورهم وأهليهم ، وبدل ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم ، ولغرسهم جنات القرب في قلوبهم ، وإجرائهم أنهار المعارف في قلوبهم وقلوب من اتبعوهم بهذه الهجرة والنصرة والإحسان – قاله المهايمي . .

وقرأ ابن كثير : ﴿ مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ كما هو في سائر المواضع .

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ لتخليدهم هذا الدين بإقامة دلائله ، وتأسيس قواعده ، إلى يوم القيامة ، والعمل بمقتضاه ، واختيار الباقي على الفاني ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : الذي لا فوز وراءه .

تنبيهات :

الأول : قال في " الإكليل " : في هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة ، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم .

الثاني : قيل : المراد بالسابقين الأولين جميع المهاجرين والأنصار ، فمن بيانية لتقدمهم على من عداهم .

وقيل : بعضهم – وهم قدماء الصحابة – و من تبعيضية ، وقد اختار كثيرون الثاني ،

واختلفوا في تعيينهم على ما ذكرناه أولاً ، ورأى آخرون الأول .

روي عن حميد بن زياد قال : قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي : ألا تخبرني عن الصحابة فيما كان بينهم ؟ وأرد الفتن – فقال لي : إن الله تعالى قد غفر لجميعهم ، وأوجب لهم الجنة في كتابه ، محسنهم ومسيئهم .

قلت له : ﴿ والسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ ﴾ الآية ، فأوجب للجميع الجنة والرضوان ، وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسناً لا سوءاً .

(124/347)

أي : لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ .

الثالث : قال الشهاب : تقديم المهاجرين لفضلهم على الأنصار كما ذكر في قصة السقيفة ، ومنه علم فضل أبي بكر رضي الله عنه على من عداه ، لأنه أول من هاجر معه صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 500.502 ﴾

(125/347)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

عُقِّب ذكر الفرق المتلبسة بالنقائص على تفاوت بينها في ذلك بذكر القدوة الصالحة والمثل الكامل في الإيمان والفضائل والنصرة في سبيل الله ليحتذِي مُتطلب الصلاح حذوَهم ، ولئلا يخلوَ تقسيم القبائل الساكنة بالمدينة وحَواليها وبَواديها ، عن ذكر أفضل الأقسام تنويهاً به . وبهذا تم استقراء الفرق وأحوالها .

فالجملة عطف على جملة : ﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ [التوبة : 98] .

والمقصود بالسبق السبق في الإيمان ، لأن سياق الآيات قبلها في تمييز أحوال المؤمنين الخالصين ، والكفار الصرحاء ، والكفار المنافقين ؛ فتعين أن يراد الذين سبقوا غيرهم من صنفهم ، فالسابقون من المهاجرين هم الذين سبقوا بالإيمان قبل أن يهاجِر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، والسابقون من الأنصار هم الذين سبقوا قومهم بالإيمان ، وهم أهل العقبتين الأولى والثانية .

وقد اختلف المفسرون في تحديد المدة التي عندها ينتهي وصف السابقين من المهاجرين والأنصار معاً ، فقال أبو موسى وابن المسيب وابن سيرين وقتادة : من صلى القبلتين .

وقال عطاء : من شهد بدراً .

وقال الشعبي : من أدركوا بيعة الرضوان .

وهذه الأقوال الثلاثة تعتبر الواو في قوله : ﴿ والأنصار ﴾ للجمع في وصف السبق لأنه متحد بالنسبة إلى الفريقين ، وهذا يخص المهاجرين .

وفي "أحكام ابن العربي" ما يشبه أنَّ رأيه أن السابقين أصحاب العقبتين ، وذلك يخص الأنصار .

وعن الجبائي : أن السابقين مَن أسلموا قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة .

ولعله اختيار منه إذ لم يسنده إلى قائل .

واختار ابن عطية أن السابقين هم من هاجر قبل أن تنقطع الهجرة ، أي بفتح مكة ، وهذا يَقصر وصفَ السبق على المهاجرين .

ولا يلاقي قراءة الجمهور بخفض ﴿ الأنصار ﴾ .

و﴿ من ﴾ للتبعيض لا للبيان .

والأنصار : جمع نصير ، وهو الناصر .

(126/347)

والأنصار بهذا الجمع اسم غلب على الأوْس والخزرج الذين آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته أو بعد وفاته وعلى أبنائهم إلى آخر الزمان .

دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف ، فيطلق على أولاد المنافقين منهم الذين نشأوا في الإسلام كولد ابن صياد .

وقرأ الجمهور ﴿ والأنصار ﴾ بالخفض عطفاً على المهاجرين ، فيكون وصف السابقين صفة للمهاجرين والأنصار .

وقرأ يعقوب ﴿ والأنصارُ ﴾ بالرفع ، فيكون عطفاً على وصف ﴿ السابقون ﴾ ويكون المقسَّم إلى سابقين وغيرهم خصوص المهاجرين .

والمراد بالذين اتبعوهم بقية المهاجرين وبقية الأنصار اتبعوهم في الإيمان ، أي آمنوا بعد السابقين : ممن آمنوا بعد فتح مكة ومن آمنوا من المنافقين بعد مدة .

والإحسان : هو العمل الصالح .

والباء للملابسة .

وإنما قيد هذا الفريق خاصة لأن السابقين الأولين ما بعثهم على الإيمان إلا الإخلاص ، فهم محسنون ، وأما الذين اتبعوهم فمن بينهم من آمن اعتزازاً بالمسلمين حين صاروا أكثر أهل المدينة ، فمنهم من آمن وفي إيمانه ضعف وتردد ، مثل المؤلفة قلوبهم ، فربما نزل بهم إلى النفاق وربما ارتقى بهم إلى الإيمان الكامل ، وهم المذكورون مع المنافقين في قوله تعالى:

﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ [الأحزاب : 60] فإذا بلغوا رتبة الإحسان دخلوا في وعد الرضى من الله وإعداد الجنات .

وجملة : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ خبر عن ﴿ السابقون ﴾ .

وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي لقصد التقوي والتأكيد .

ورضَى الله عنهم عنايته بهم وإكرامه إياهم ودفاعه أعداءَهم ، وأما رضاهم عنه فهو كناية عن كثرة إحسانه إليهم حتى رضيت نفوسهم لما أعطاهم ربهم .

والإعداد : التهيئة .

وفيه إشعار بالعناية والكرامة .

وتقدم القول في معنى جري الأنهار .

(127/347)

وقد خالفت هذه الآية عند معظم القراء أخواتها فلم تذكر فيها (مِنْ) مع (تَحتِها) في غالب المصاحف وفي رواية جمهور القراء ، فتكون خالية من التأكيد إذ ليس لحرف (من) معنى مع أسماء الظروف إلا التأكيد ، ويكون خلو الجملة من التأكيد لحصول ما يغني عنه من إفادة التقوي بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ، ومن فعل (أعد) المؤذن بكمال العناية

فلا يكون المعد إلا أكمل نوعه .

وثبتت (مِن) في مصحف مَكة ، وهي قراءة ابن كثير المكي ، فتكون مشتملة على زيادة مؤكدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(128/347)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

و" السابق " هو الذي حصل منه الفعل – بصدد ما هو فيه – قبل غيره ، وكلنا والحمد لله مؤمنون ، ومن أمنوا أولاً ، ومن آمنوا بعد ذلك كلهم مؤمنون ، لكنْ هناك أناس سبقوا إلى الإيمان ، فهل كان سبقهم سبق زمان أم سبق اتباع ؟ إن سبق الزمان يتحدد في الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن ظن ظان أن المقصود بالسابقين هم الذين سبقونا سبق زمان ، فقد يقول منا قائل : وما ذنبنا نحن وقد جئنا بعد زمانهم ؟

ولذلك نقول : إنما السبق يعتبر من معاصر ، أي : كان معهم أناس غيرهم وهم سبقوهم ؛ ولذلك جاء القول : ﴿ مِنَ المهاجرين ﴾ ونعلم أن الذين هاجروا مع الرسول لم يكن كل مسلمي مكة ، وجاء قوله : ﴿ مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ وأيضاً لم يكن كل الأنصار من

أهل المدينة هم من السابقين .

وينحصر المعنى في الذين سبقوا إلى الإيمان في مكة ، وسبقوا إلى النصرة في المدينة ، هؤلاء هم ﴿ السابقون ﴾ .

وفي سورة الواقعة يقول الحق : ﴿ والسابقون السابقون * أولئك المقربون * فِي جَنَّاتِ النعيم ﴾ [الواقعة : 10-12]

ثم يأتي من بعدهم في المرتبة : ﴿ وَأَصْحَابُ اليمين مَا أَصْحَابُ اليمين ﴾ [الواقعة : 27]

ثم يحدد الحق هؤلاء فيقول : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ [الواقعة : 13-14]

(129/347)

ولذلك حينما يأتي من يقول : لن يستطيع واحد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم تأخر عن عصر محمد صلى الله عليه وسلم أن يصل إلى منزلة الصحابة ؛ لأن الله قال : ﴿ والسابقون ﴾ ، نقول له : لا ، بل افطن إلى بقية قوله سبحانه : ﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الأولين * وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخرين ﴾ ، وهذا دليل على أن بعضاً من الذين جاءوا بعد زمان رسول الله صلى

الله عليه سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد صلى الله

عليه وسلم سينالون المرتبة الرفيعة ، وهكذا لم يمنع الحق أن يكون من أمة محمد صلى الله

عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة مَنْ يصل إلى منزلة الصحابة .

وقد طمأن النبي صلى الله عليه وسلم الناس الذين لم يدركوا عهده حين قال :

" وددت أنِّي لقيت إخواني " . فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : أو ليس نحن إخوانك ؟ . قال : " أنتم أصحابي ، ولكن إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني "

وهذا قول صادق من المصطفى صلى الله عليه وسلم ؛ لأن منا من تنحصر أمنيته في أن يحُجَّ ويزور القبر الشريف . ويضيف النبي صلى الله عليه وسلم في وصف أحبابه :

" عمل الواحد منهم كخمسين " . قالوا : منهم يا رسول الله أم مِنَّا ؟ قال : بل منكم ؛ لأنكم تجدون على الخير أعواناً ، وهم لا يجدون على الخير أعواناً "

وهذا ما يحدث في زماننا بالفعل .

ولكن من هم السَّابِقُونَ المقصودون في الآية التي نحن بصددها ؟

﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين ﴾ ونعلم أن السابقين من المهاجرين هم أهل بدر ، الذين دخلوا أول معركة في الإسلام ، مع أنهم خرجوا من المدينة ، لا ليشهدوا حرباً ، ولكن ليعترضوا عيراً تحمل بضائع ، ويرجعوا بالغنائم . ومع ذلك دخلوا الحرب ، لا مع القوافل التي ضمَّتْ العير والحراس والرعاة ، ولكن دخلوا الحرب مع النفير ، وهم من جاءوا ونفروا من

مكة ، وهم صناديد قريش . وهكذا كانت منزلة أهل بدر ، أنهم من سبقوا إلى الجهاد في أول معركة للإسلام .

(130/347)

" ولذلك حين وشى حاطب بن أبي بلتعة بغزوة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ، فجاء به صلى الله عليه وسلم وقال له : ما الذي حملك على هذا ؟ وكان صلى الله عليه وسلم يريد أن يفتح مكة دون أن يعلم أحد ؛ حتى لا يقاتل المسلمون القادمون بعضاً من المؤمنين الموجودين في مكة ولم يعرفهم أحد ؛ لذلك أراد صلى الله عليه وسلم المفاجأة في الفتح ؛ حتى تهبط الشراسة الكفرية ، لكن حاطب بن أبي بلتعة كتب خطاباً إلى بعض أهل قريش ، فأخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعليٍّ رضي الله عنه ومن معه : اذهب إلى مكان اسمه " روضة خاخ " في الطريق بين مكة والمدينة ، فستجد ظعينة (مسافرة) معها كتاب إلى أهل مكة ، خبأته في عقيصتها . فلما ذهب علي – رضي الله عنه – ومن معه يبحثون عن المرأة في الموضع الذي ذكره لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدوا المرأة ولكنها أنكرت أن معها كتاباً ، فهددوها ؛ فأخرجته من عقيصتها ؛ فوجده من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس من مشركي قريش .

وعاد به إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأحضر النبي صلى الله عليه وسلم حاطبا ، وقال له : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ قال له : يا رسول الله : أنا لصيق بقريش ولي فيها أهل ومال ، وليس لي بها غزوة ؛ فأردت أن أتخذ يداً عند قريش يعرفونها لي ؛ فيحافظوا على أهلي وعلى مالي ، وعرفت أن ذلك لا يضرك شيئاً وأن الله ناصرك . وما فعلته ينفعني ولا يضرك ، قال : صدقت . وأراد عمر – رضي الله عنه – أن ينزل عله بسيفه ، فقال النبي صلى الله عيله وسلم : " إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك لعل الله اطّلَع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

لأن أهل بدر دخلوا المعركة بدون عُدَّة ، وبدون استعداد ، ومع ذلك هانت نفوسهم عليهم ، فكأن الله قال : أنتم عملتم ما عليكم ، وقد غفرت لكم ما تفعلونه من السيئات .

(131/347)

إذن : فالسابقون من المهاجرين هم أهل بدر وأهل الحديبية ، وهم أهل بيعة الرضوان الذين رُدُّوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن العمرة ، ثم عقد النبي صلى الله عليه وسلم مع القرشيين المعاهدة .

والسابقون من الأنصار هم من جاءوا للنبي في مكة ، وأعطوا له العزوة وأعطوا له الأمان

والعهد ، وكانوا اثني عشر في بيعة العقبة الأولى ، وخمسة وسبعين في العقبة الثانية . هؤلاء هم السابقون ، وأضاف الحق إليهم ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ أي : من يأتي من بعدهم .

وسيدنا عمر له وقفة في هذه الآية ، فقد رضي الله عنه يقرأها هكذا : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار " أي : يعطف كلمة الأنصار على " السابقون " وكانت قد نزلت : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ ويكمل سيدنا عمر بعد " والأنصار " " الذين اتبعوهم بإحسان " أي : أنه جَعل " الذين ابتعوهم " صفة للأنصار .

وجاء زيد بن ثابت ليقول لسيدنا عمر : " قرأناها على غير هذا الوجه يا ابن الخطاب " .

قال : فماذا ؟ قال : ﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم ﴾ .

فقال عمر : ابعث إلى أبيّ بن كعب ، وكان ابن كعب حجة في القرآن فقال أبيّ : هكذا سمعتها – كا قال زيد – من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع القَرَظ في البقيع .

أي أن أبيّ بن كعب كان ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم بينما عمر يبيع القرظ ، فضحك عمر وقال : لو قلت شَهِدت أنت وغِبْنا نحن ، وقرأها عمر من بعد ذلك كما نزلت .

﴿ والسابقون الأولون مِنَ المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ خصوصاً أن سيدنا أبيّاً البصير بالقرآن جاء بأكثر من دليل من غير هذه الآية فقد قال الحق : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ . . . ﴾ [الجمعة : 3]

(132/347)

وقوله الحق في سورة الحشر : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفر لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الذين سَبَقُونَا بالإيمان . . . ﴾ [الحشر : 10]

وهي معطوفة أيضاً .

وهنا في الآية التي نحن بصددها يقول الحق :

﴿ رَّضِيَ الله عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 100]

وفي هذا القول ما يطمئن أمة محمد صلى الله عليه وسلم فلم يَأْتِ لنا فقط بخبر الفئة السيئة من المنافقين من العرب ، والمنافقين من الأعراب ، ولكنه أوضح لنا أن هناك أناساً وصلوا لنا جمال هذا الإيمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(133/347)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

أخرج أبو عبيد وسنيد وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمرو بن عامر الأنصاري . أن عمر بن الخطاب قرأ " والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان " فرفع الأنصار ولم يلحق الواو في الذين ، فقال له زيد بن ثابت : والذين . فقال عمر : الذين . فقال زيد : أمير المؤمنين اعلم . فقال عمر رضي الله عنه : ائتوني بأُبي بن كعب ، فأتاه فسأله عن ذلك ؟ فقال أبي : والذين . فقال عمر رضي الله عنه : فنعم إذن فتابع أُبيا .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي قال : مر عمر رضي الله عنه برجل يقرأ ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ فأخذ عمر بيده فقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب . قال : لا تفارقني حتى أذهب بك إليه ، فلما جاءه قال عمر : أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم . قال : وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : نعم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ! فقال أبي : تصديق ذلك في أول سمرة الجمعة ﴿ وآخرين منهم لما يلحقوا بهم ﴾ [الجمعة :

3] وفي سورة الحشر ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإِخواننا الذين سبقونا بالإِيمان ﴾ [الحشر : 10] وفي الأنفال ﴿ والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ [الأنفال : 75] .

(134/347)

وأخرج أبو الشيخ عن أبي أسامة ومحمد بن إبراهيم التيمي قالا : مر عمر بن الخطاب برجل وهو يقرأ ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ فوقف عمر ، فلما انصرف الرجل قال : من أقرأك هذه ؟ قال : أقرأنيها أبي بن كعب . قال : فانطلق إليه فانطلقا إليه فقال : يا أبا المنذر أخبرني هذا أنك أقرأته هذه الآية . قال : صدق تلقيتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عمر : أنت تلقيتها من في رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فقال في الثالثة وهو غضبان : نعم . والله لقد أنزلها الله على جبريل عليه السلام ، وأنزلها جبريل عليه السلام على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه . فخرج عمر رافعاً يديه وهو يقول : الله أكبر الله أكبر .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو نعيم في المعرفة عن أبي موسى . أنه سئل

عن قوله ﴿ والسابقون الأوّلون ﴾ قالوا : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿ والسابقون الأولون ﴾ قال : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً .

وأخرج ابن المنذر وأبو نعيم عن الحسن ومحمد بن سيرين في قوله ﴿ والسابقون الأولون ﴾ قال : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً ، وهم أهل بدر .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين ﴾ قال : أبو بكر ، وعمر ، وعلي ، وسلمان ، وعمار بن ياسر .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو الشيخ وأبو نعيم في المعرفة عن الشعبي في قوله ﴿ والسابقون الأولون ﴾ قال : من أدرك بيعة الرضوان ، وأول من بايع بيعة الرضوان سنان بن وهب الأسدي .

وأخرج ابن مردويه عن غيلان بن جرير قال : قلت لأنس بن مالك هذا الاسم الأنصار أنتم سميتموه أنفسكم أو الله تعالى سماكم من السماء ؟ قال : الله تعالى سمانا من السماء .

(135/347)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي عن معاوية بن أبي سفيان " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من أحب الأنصار أحبه الله ، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله " .

وأخرج أحمد والبخاري ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار " .

وأخرج أحمد عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأزواج الأنصار ولذراري الأنصار الأنصار كرشي وعيبتي ، ولو أن الناس أخذوا شعباً وأخذت الأنصار شعباً لأخذت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة كنت امرأ من الأنصار " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن الحارث بن زياد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أحب الأنصار أحبه الله حين يلقاه ، ومن أبغض الأنصار أبغضه الله حين يلقاه " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن قيس بن سعد بن عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم . أنه قال " اللهمَّ صل على الأنصار ، وعلى ذرية الأنصار ، وعلى ذرية ذرية الأنصار " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لو سلك الناس وادياً وشعباً وسلكتم وادياً وشعباً لسلكت واديكم

وشعبكم ، أنتم شعار والناس دثار ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ثم رفع يديه حتى اني لأرى بياض ابطيه فقال : اللهمَّ اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ولأبناء أبناء الأنصار " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق ، ومن أحبهم أحبه الله ، ومن أبغضهم أبغضه الله " .

(136/347)

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إلا إن عيبتي التي آوي إليها أهل بيتي ، وإن كرشي الأنصار ، فاعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن سعد بن عبادة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن هذا الحي من الأنصار حبهم إيمان وبغضهم نفاق " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن أنس رضي الله عنه " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : اللهمَّ اغفر للأنصار ، ولأبناء الأنصار ، ولنساء الأنصار ، ولنساء أبناء الأنصار ، ولنساء أبناء أبناء الأنصار " .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي وحسنه والنسائي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن معاذ بن رفاعة عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " اللهمَّ اغفر للأنصار ، ولذراري الأنصار ، ولذراري ذراريهم ، ولمواليهم ، ولجيرانهم " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وغفار ، موالي الله ورسوله لا مولى لهم غيره " .

وأخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يبغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر " .

(137/347)

وأخرج الطبراني عن السائب بن يزيد رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قسم الفيء الذي أفاء الله بحنين في أهل مكة من قريش وغيرهم ، فغضبت الأنصار فأتاهم فقال : يا معشر الأنصار قد بلغني من حديثكم في هذه المغانم التي آثرت بها أناساً أتألفهم

على الإِسلام لعلهم أن يشهدوا بعد اليوم وقد أدخل الله قلوبهم الإِسلام ، يا معشر الأنصار ألم يمن الله عليكم بالإِيمان وخصكم بالكرامة وسماكم بأحسن الأسماء أنصار الله وأنصار رسوله ؟ ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وسلكتم وادياً لسلكت واديكم . أفلا ترضون أن يذهب الناس بهذه الغنائم والشاء والنعم والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقالوا : رضينا . فقال : أجيبوني فيما قلت . قالوا : يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأخرجنا الله بك إلى النور ، ووجدتنا على شفا حفرة من النار فأنقذنا الله بك ، ووجدتنا ضلالاً فهدانا الله بك . فرضينا بالله رباً ، وبالإِسلام ديناً ، وبمحمد نبياً . فقال : أما والله لو أجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم ، لو قلت ألم تأتنا طريداً فآويناك ، ومكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وقبلنا ما رد الناس عليك ، لو قلتم هذا لصدقتم . قالوا : بل لله ورسوله المن والفضل علينا وعلى غيرنا ".

وأخرج ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال : كان الناس على ثلاث منازل . المهاجرون الأولون ، والذين اتبعوهم بإحسان ، والذين جاؤوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإِخواننا الذين سبقونا بالإِيمان .

فأحسن ما يكون أن يكون بهذه المنزلة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما . أنه أتاه رجل فذكر بعض الصحابة

فتنقصه ، فقال ابن عباس ﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ .

وأخرج عن ابن زيد في قوله ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ قال : من بقي من أهل الإِسلام إلى أن تقوم الساعة .

(138/347)

وأخرج أبو الشيخ عن عصمة رضي الله عنه قال : سألت سفيان عن التابعين قال : هم الذين أدركوا أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم يدركوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وسألته عن الذين اتبعوهم بإحسان قال : من يجيء بعدهم . قلت : إلى يوم القيامة ؟ قال : أرجو .

وأخرج أبو الشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي رضي الله عنه : أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما أريد الفتن ؟ فقال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم قلت له : وفي أي موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابهم ؟ قال : ألا تقرأ ﴿ والسابقون الأولون . . . ﴾ الآية . أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله

عليه وسلم الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان . يقول : يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال أبو صخر : لكأني لم أقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها على محمد بن كعب .

وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي حدثني يحيى بن أبي كثِير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسان بن عطية . أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون " لما أنزلت هذه الآية ﴿ والسابقون الأولون ﴾ إلى قوله ﴿ ورضوا عنه ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " هذا لأمتي كلهم وليس بعد الرضا سخط " " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(139/347)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والسابقون ﴾ : فيه وجهان ، أظهرهما : أنه مبتدأ ، وفي خبره ثلاثة أوجه

، أحدُهما وهو الظاهر أنه الجملة الدعائية من قوله : " رضي الله عنهم " . والثاني : أن الخبر قوله : " الأوّلون " والمعنى : والسابقون أي بالهجرة [هم] الأوّلون مِنْ أهل هذه المِلَّة ، أو السابقون إلى الجنة الأولون من أهل الهجرة . الثالث : أن الخبرَ قولُه : ﴿ مِنَ المهاجرين والأنصار ﴾ والمعنى فيه الإعلام بأن السَّابقين من هذه/ الأمة من المهاجرين والأنصار ، ذكر ذلك أبو البقاء ، وفي الوجهين الأخيرين تكلُّفٌ .

الثاني من وجهي " السابقين " : أن يكون نَسَقاً على ﴿ مَن يُؤْمِنُ بالله ﴾ أي : ومنهم السابقون . وفيه بُعْدٌ .

والجمهورُ على جَرِّ " الأنصار " نسقاً على المهاجرين . يعني أن السابقين من هذين الجنسين . وقرأ جماعة كثيرة أَجِلاَّء : عمر بن الخطاب وقتادة والحسن وسلام وسعيد بن أبي سعيد وعيسى الكوفي وطلحة ويعقوب : " والأنصارُ " برفعها . وفيه وجهان أحدهما : أنه مبتدأ ، وخبرُه " رضيَ الله عنهم " . والثاني : عطف على " السابقون " . وقد تقدم ما فيه فيُحكم عليه بحكمه .

(140/347)

قوله : ﴿ بِإِحْسَانٍ ﴾ متعلقٌ بمحذوف ؛ لأنه حالٌ من فاعل " اتَّبعوهم " . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرى أن الواوَ ساقطةٌ من قوله : " والذين اتبعوهم " ويقول : إن الموصول صفةٌ لمن قبله ، حتى قال له زيد بن ثابت إنها بالواو فقال : ائتوني بأُبَيّ . فأتَوه به فقال له : تصديق ذلك في كتاب الله في أول الجمعة : ﴿ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ﴾ [الآية : 3] ، وأوسط الحشر : ﴿ والذين جَآءُوا مِن بَعْدِهِمْ ﴾ [الآية : 10] ، وآخر الأنفال : ﴿ والذين آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ ﴾ [الآية : 75] . ورُوِي أنه سمع رجلاً يقرؤها بالواو فقال : مَنْ أقرأك ؟ قال : أُبَيّ . فدعاه فقال : أَقْرَأنيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وإنك لتبيع القَرَظ بالبقيع . قال : صَدَقْتَ وإن شئت قل : شهدنا وغِبْتم ، ونَصَرْنا وخَذَلْتم ، وآوَيْنا وطَرَدْتم . ومن ثَمَّ قال عمر : لقد كنتُ أرانا رُفِعْنا رَفْعةً لا يَبْلُغها أحدٌ بعدنا .

وقرأ ابن كثير : ﴿ تجري من تحتها ﴾ ب " مِنْ " الجارة ، وهي مرسومةٌ في مصاحف مكة . والباقون " تحتها " بدونها ، ولم تُرْسَمْ في مصاحفهم ، وأكثرُ ما جاء القرآن موافقاً لقراءة ابن كثير هنا : ﴿ تجري مِنْ تحتها ﴾ في غير موضع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 109 . 111 ﴾

(141/347)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

السابقون مختلفون ؛ فَمِنْ سابقٍ بِصِدقِ قَدَمِه ، ومِنْ سابقٍ بصدقِ هِمَمِه . ويقال السابقُ مَنْ ساعَدَتْه القسمةُ بالتوفيق ، وأسعَدَتْه القضية بالتحقيق ، فسبقت له من الله رحمتُه .

ويقال سبقهم بعنايته ثم سبقوا بطاعتهم له .

ويقال جَمَعَ الرِّضَاءُ صَفَّيْهِم : السابقَ منهم واللاحقَ بهم ؛ قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ .

ويقال ليس اللاحق كالسابق ، فالسابقُ في روحِ الطلبِ ، واللاحِقُ في مقاساتِ التعبِ ، ومُعاناة النَّصَبِ ، وأنشدوا :

السِّبَاق السِّبَاق قولاً وفعلاً . . . حَذِّروا النَّفسَ حَسْرَةَ المسبوقِ

ويقال رِضَاهُم عن اللهِ قضيةُ رضاء الله عنهم ؛ فلولا أنه رَضِيَ عنهم في آزاله . . . فمتى وصلوا إلى رضاهم عنه ؟ ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 58 ﴾

(142/347)

قوله تعالى ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما استوفى الأقسام الأربعة : قسمي الحضر وقسمي البدو ثم خلط بين قسمين منهم تشريفاً للسابق وترغيباً للاحق ، خلط بين الجميع على وجه آخر ثم ذكر منهم فرقاً منهم من نجز الحكم بجزائه بإصرار أو متاب .

(143/347)

ومنهم من أخر أمره إلى يوم الحساب ، وابتدأ الأقسام بالمستور عن غير علمه ليعلم أهل ذلك القسم أنه سبحانه عالم بالخفايا فلا يزالوا أذلاء خوفاً مما هددهم به فقال مصرحاً بما لم يتقدم التصريح به من نفاقهم : ﴿ وممن حولكم ﴾ أي حول بلدكم المدينة ﴿ من الأعراب ﴾ أي

الذين قدمنا أنهم أشد كفراً لما لهم من الجفاء ﴿ منافقون ﴾ أي راسخون في النفاق ، وكأنه قدمهم لجلافتهم وعتوهم ، وأتبعهم من هو أصنع منهم في النفاق فقال : ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ أي منافقون أيضاً ؛ ثم بين أنهم لا يتوبون بوصفهم بقوله : ﴿ مردوا ﴾ أي صُلبوا وداموا وعتوا وعسوا وعصوا وصار لهم به دربة عظيمة وضراوة حتى ذلت لهم فيه جميع أعضائهم الظاهرة والباطنة وصار لهم خلقاً ﴿ على النفاق ﴾ أي استعلوا على هذا الوصف بحيث صاروا في غاية المكنة منه ؛ ثم بين مهارتهم فيه بقوله : ﴿ لا تعلمهم ﴾ أي بأعيانهم مع ما لك من عظيم الفطنة وصدق الفراسة لفرط توقيهم وتحامي ما يشكل من أمره ؛ ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله : ﴿ نحن ﴾ أي خاصة ﴿ نعلمهم ﴾ ثم استأنف جزاءهم بقوله : ﴿ سنعذبهم ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ مرتين ﴾ أي إحداهما برجوعك سالماً وشفوف أمرك وعلو شأنه وضخامة أركانه وعز سلطانه وظهور برهانه ، فإنهم قطعوا لغباوتهم وجلافتهم وقساوتهم كما أشرت إليه بقولي ﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ - أنك لا ترجع هذه المرة من هذه السفرة لما يعرفونه من ثباتك للأقران ، وإقدامك على الليوث الشجعان ، واقتحامك للأهوال ، إذا ضاق المجال ، ونكص الضراغمة الأبطال ، ومن عظمة الروم وقوتهم وتمكنهم وكثرتهم ، وغاب عن الأغبياء وخفي عن الأشقياء الأغنياء أن الله الذي خلقهم أعظم منهم وأكبر ، وجنوده أقوى من جنودهم وأكثر ؛ والثانية بعد وفاتك بقهر أهل لردة ومحقهم ورجوع ما أصلته بخليفتك

الصديق ـ رضى الله عنهم ـ إلى ما كان عليه في أيامك من الظهور وانتشار الضياء والنور والحكم على من خالفه بالويل والثبور ، وسيأتي أنه يمكن أن تكون المرة

(144/347)

الثانية إخراب مسجد الضرار والإخبار بما أضمروا في شأنه من خفي الأسرار ﴿ ثم يردون ﴾ أي بعد الموت ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ أي لا يعلم عظمة حق علمه إلا الله تعالى ، وهو العذاب الأكبر الدائم الذي لا ينفك أصلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 381.380 ﴾

(145/347)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى شرح أحوال منافقي المدينة ، ثم ذكر بعده أحوال منافقي الأعراب ، ثم بين أن

في الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص ، ثم بين أن رؤساء المؤمنين من هم ؟ وهم السابقون المهاجرون والأنصار .

فذكر في هذه الآية أن جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق ، وإن كنتم لا تعلمون كونهم كذلك فقال : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعراب منافقون ﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار ، وكانوا نازلين حولها .

وأما قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ ففيه بحثان :

البحث الأول : قال الزجاج : أنه حصل فيه تقديم وتأخير ، والتقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق .

الثاني : قال ابن الأنباري : يجوز أن يكون التقدير : ومن أهل المدينة من مردوا على النفاق فأضمر "من" لدلالة ﴿ مِنْ ﴾ عليها كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ [الصافات : 164] يريد إلا من له مقام معلوم .

البحث الثاني : يقال : مرد يمرد مردوا فهو مارد ومريد إذا عتا ، والمريد من شياطين الإنس والجن ، وقد تمرد علينا أي عتا ، وقال ابن الأعرابي : المراد التطاول بالكبر والمعاصي ، ومنه : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ وأصل المرود الملاسة ، ومنه صرح ممرد ، وغلام أمرد ، والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئاً ، كأن من لم يقبل قول غيره ولم يلتفت إليه ، بقي كما كان على صفته الأصلية من غير حدوث تغير فيه ألبتة ، وذلك هو الملاسة .

إذا عرفت أصل اللفظ فنقول : قوله : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ أي ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه .

(146/347)

ثم قال تعالى : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ وهو كقوله : ﴿ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُمْ ﴾ والمعنى أنهم تمردوا في حرفة النفاق فصاروا فيها أستاذين ، وبلغوا إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع قوة خاطرك وصفاء حدسك ونفسك .

ثم قال : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ وذكروا في تفسير المرتين وجوهاً كثيرة :

الوجه الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد الأمراض في الدنيا ، وعذاب الآخرة ، وذلك أن مرض المؤمن يفيده تكفير السيئات ، ومرض الكافر يفيده زيادة الكفر وكفران النعم .

الوجه الثاني : روى السدي عن أنس بن مالك أن النبي عليه السلام قام خطيباً يوم الجمعة فقال : " اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق " فأخرج من المسجد ناساً وفضحهم فهذا هو العذاب الأول ، والثاني عذاب القبر .

والوجه الثالث : قال مجاهد : في الدنيا بالقتل والسبي وبعد ذلك بعذاب القبر .

والوجه الرابع : قال قتادة بالدبيلة وعذاب القبر ، وذلك أن النبي عليه السلام أسر إلى حذيفة اثني عشر رجلاً من المنافقين ، وقال : ستة يبتليهم الله بالدبيلة سراج من نار يأخذ أحدهم حتى يخرج من صدره ، وستة يموتون موتاً .

والوجه الخامس : قال الحسن : يأخذ الزكاة من أموالهم ، وعذاب القبر .

والوجه السادس : قال محمد بن إسحق : هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه من غير حسنة ، ثم عذابهم في القبور .

والوجه السابع : أحد العذابين ضرب الملائكة الوجوه والأدبار .

والآخر عند البعث ، يوكل بهم عنق النار .

والأولى أن يقال مراتب الحياة ثلاثة : حياة الدنيا ، وحياة القبر ، وحياة القيامة ، فقوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ المراد منه عذاب الدنيا بجميع أقسامه ، وعذاب القبر .

وقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ المرا دمنه العذاب في الحياة الثالثة ، وهي الحياة في القيامة .

ثم قال تعالى في آخر الآية : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ يعني النار المخلدة المؤبدة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 137 . 138 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ .

قَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ : " فِي الدُّنْيَا وَفِي الْقَبْرِ " ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ " وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : " فِي الدُّنْيَا بِالْفَضِيحَةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ رِجَالًا مِنْهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ ، وَالْأُخْرَى فِي الْقَبْرِ " .

وَقَالَ مُجَاهِدٌ : " بِالْقَتْلِ وَالسَّبْيِ ، وَالْجُوعِ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(148/347)

وقال السمرقندى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾

يعني : الأعراب الذين حوالي المدينة .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ ، وهو عبد الله بن أُبي وأصحابه ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ ،

يعني : مرنوا وثبتوا على النفاق ، فلا يرجعون عنه ولا يتوبون .

﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ ﴾ ، يقول لا تعرفهم أنت لسبب إيمانهم بالعلانية .

﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ، لأني عالم السر والعلانية ونعلم نفاقهم ونعرفك حالهم .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال مقاتل : أحد العذابين عند الموت ضرب الملائكة الوجوه والأدبار ، والعذاب الثاني عذاب القبر ، وهو ضرب منكر ونكير .

وقال الكلبي : أوَل العذابين أنه أخرجهم من المسجد ، والعذاب الثاني عذاب القبر .

وروى أسباط بن النضر الهمداني ، عن إسماعيل بن عبد الملك السدي قال : عن أبي مالك ، عن ابن عباس أنه قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة ، فقال : "يَا فُلانُ اخْرُجْ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ" .

ثم قال : "يَا فُلانُ اخْرُجْ إِنَّكَ مُنَافِقٌ" .

ثم قال : "يَا فُلانُ اخْرُجْ فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ" .

فأخرجهم بأسمائهم ، وكان عمر لم يشهد الجمعة لحاجة كانت له ، فلقيهم وهم يخرجون من المسجد ، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن أن الناس قد انصرفوا واختبؤوا من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد فإذا الناس لم يصلوا ، فقال له رجل من المسلمين : أبشر يا عمر ، قد فضح الله المنافقين ، وهذا هو العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر .

وروى ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ ، قال : الجوع والقتل ،

ويقال القتل والسبي ، وقال الحسن : عذاب الدنيا وعذاب الآخرة .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ، يعني : عذاب جهنم أعظم مما كان في الدنيا . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(149/347)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ ﴾

نزلت في مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وكانت منازلهم حول المدينة ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ فيه اختصار وإضمار تقديره ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، أي مرّنوا وتربّوا عليه يُقال : تمرّد فلان على ربّه ومرد على معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ومنه : تمريد ومارد وفي المثل : تمرّد مارد وعزّ الإباق ، وقال ابن إسحاق : لجّوا فيه وأبوا غيره ، وقال ابن زيد وابان بن تغلب : أقاموا عليه ولم يتوبوا كما تاب الآخرون ، وأنشد الشاعر :

مرد القوم على حيهم . . . أهل بغي وضلال وأشر

﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ ﴾ أنت يا محمد ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ قال قتادة في هذه الآية : ما بال أقوام

يتكلّفون على الناس يقولون فلان في الجنة وفلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري أخبرني أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك قال نبي الله نوح (عليه السلام) : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : 112] وقال نبي الله شعيب (عليه السلام) : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : 86] وقال الله لنبيه عليه السلام : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ واختلفوا في هذين العذابين وروي عن أبي مالك عن ابن عباس قال : " قام رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال : أخرج يا فلان فإنك منافق . اخرج يا فلان فإنك منافق " .

فأخرج من المسجد ناساً وفضحهم " فهذا العذاب الأول ، والثاني عذاب القبر .

وقال مجاهد : بالجوع وعذاب القبر ، وعنه أيضاً : بالجوع والقتل وعنه بالجوع مرّتين ، وعنه : بالخوف والقتل .

وقال قتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر ، وفيه قصة الأثني عشر في حديث حذيفة .

(150/347)

وقال ابن زيد : المرّة الأولى المصائب في الأموال والأولاد ، والمرة الأخرى في جهنم .

وقال ابن عباس : إن المرة الأولى إقامة الحدود عليهم والثاني عذاب القبر .

قال الحسن : إحدى المرتين أخذ الزكاة من أموالهم والأخرى عذاب القبر ، فيقول تفسيره في سورة النحل ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وقال ابن إسحاق : هو ما يدخل عليهم في الإسلام ، ودخولهم من غير حسبة ثمّ عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ثمّ العذاب العظيم في الآخرة والخلد فيه .

وفي بعض التفاسير : الأولى ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم والأخرى عذاب القبر .

وقيل : تفسيره في سورة النحل ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ العذاب ﴾ [النحل : 88] .

وقال مقاتل بن حيان : الأول بالسيف يوم بدر والثاني عند الموت .

معمر عن الزهري عن الحسن قال : عذاب النبي وعذاب الله . يعني بعذاب النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : ﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثقفوا أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴾ [الأحزاب : 61] . قال عطاء : الأمراض في الدنيا والآخرة فإن من مرض من المؤمنين كفّر الله سيّئاته ومحض ذنوبه فأبدله لحماً من لحمه ودماً كثيراً من دمه وأعقبه ثواباً عظيماً ، ومن مرض من المنافقين زاده الله نفاقاً وإثماً وضعفاً كما قال في هذه السورة : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ﴾ يريد أنهم يمرضون في كل عام مرة أو مرتين فيردّون إلى عذاب عظيم شديد فظيع .

وقال الربيع : بلايا الدنيا وعذاب الآخرة ثم يردون الى عذاب عظيم عذاب جهنم .

وقال إسماعيل بن زياد : أحد العذابين ضرب الملائكة والوجوه والأدبار ، والثاني عند البعث يوكل بهم عتق من النار .

(151/347)

وقال الضحاك : مرّة في القبر ومرّة في النار ، وقيل : المرّة الاولى بإحراق مسجدهم مسجد ضرار والثانية بإحراقهم بنار جهنم ، وقيل : مرّة بإنفاق أموالهم ومرّة بقتلهم بالسيف إن أظهروا مافي قلوبهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(152/347)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرابِ مُنَافِقُونَ ﴾

يعني حوله المدينة : قال ابن عباس : مزينة وجهينة وأسلم وغِفار وأشجع كان فيهم بعد إسلامهم منافقون كما كان من الأنصار لدخول جميعهم تحت القدرة فتميزوا بالنفاق وإن

عمتهم الطاعة .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثاني : مردوا عليه أي عتوا فيه ، ومنه قوله عز وجل ﴿ وَإِن يَدْعُونَ إِلاَّ شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [النساء : 117] .

الثالث : تجردوا فيه فظاهروا ، مأخوذ منه تجرد خد الأمرد لظهوره وهو محتمل .

﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : لا تعلمهم حتى نعلمك بهم .

الثاني : لا تعلم أنت عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ، وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ﴾ فيه أربعة أوجه :

أحدهما : أن أحد العذابين الفضيحة في الدنيا والجزع من المسلمين ، والآخر عذاب القبر ، قاله ابن عباس .

والثاني : أن أحدهما عذاب الدنيا والآخر عذاب الآخرة ، قاله قتادة .

والثالث : أن أحدهما الأسر والآخر القتل ، قاله ابن قتيبة .

والرابع : أن أحدهما الزكاة التي تؤخذ منهم والآخر الجهاد الذي يؤمرون به لأنهم بالنفاق

يرون ذلك عذاباً . قال الحسن .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدهما : أنه عذاب النار في الآخرة .

الثاني : أنه إقامة الحدود في الدنيا .

الثالث : إنه أخذ الزكاة منهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(153/347)

وقال ابن عطية :

﴿ وممن حولكم من الأعراب ﴾ الآية

مخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم شرك في بعضها أمته ، والإشارة بقوله ﴿ وممن حولكم من الأعراب ﴾ هي إلى جهينة ومزينة وأسلم وغفار وعصية ولحيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة ، فأخبر الله عن منافقيهم ، وتقدير الآية : ومن أهل المدينة قوم أو منافقون هذا أحسن ما حمل اللفظ ، و ﴿ مردوا ﴾ قال أبو عبيدة : معناه مرنوا عليه ولجوا فيه ، وقيل غير هذا مما هو قريب منه ، وقال ابن زيد : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون . والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشيء أو التمرد في الشيء أو المرود عليه إنما هو

اللجاج والاستهتار به والعتو على الزاجر وركوب الرأ في ذلك ، وهو مستعمل في الشر لا في الخير ، ومن ذلك قولهم شيطان مارد ومريد ، ومن هذا سميت مراد لأنها تمردت ، قال بعض الناس : يقال تمرد الرجل في أمر كذا إذا تجرد له ، وهو من قولهم شجرة مرداء إذا لم يكن عليها ورق ، ومنه ﴿ صرح ممرد ﴾ [النمل : 44] ومنه قولهم : تمرد مارد وعز الأبلق ومنه الأمرد الذي لا لحية له ، فمعنى ﴿ مردوا ﴾ في هذه الآية لجوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم ، ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على التعيين ، وأسند الطبري عن قتادة في قوله ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ قال : فما بال أقوام يتكلفون علم الناس فلان في الجنة فلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال لا أدري ، أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الرسل ، قال نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم ﴿ وما علمي بما كانوا يعلمون ﴾ [الشعراء : 112] وقال نبي الله شعيب صلى الله عليه وسلم ﴿ بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [هود : 86] وقال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ .

(154/347)

قال القاضي أبو محمد : وقوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرتين ثم يردهم إلى عذاب عظيم ﴾ في مصحف أنس بن مالك " سيعذبهم " بالياء والكلام على القراءتين وعيد ، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب ، ولا خلاف بين المتأولين أن " العذاب العظيم " الذي يردون إليه هو عذاب الآخرة ، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر ، واختلف في عذاب المرة الأولى فقال مجاهد وغيره : هو عذابهم بالقتل والجوع ، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا ، وقال ابن عباس أيضاً : عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه ، وقال ابن إسحاق : عذابهم هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته ، وقال ابن عباس وهو الأشهر عنه : عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق ، وروي في هذا التأويل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب يوم جمعة فندد بالمنافقين وصرح وقال اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق واخرج أنت يا فلان واخرج أنت يا فلان حتى أخرج جماعة منهم ، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياء ، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تقض وفهم الأمر .

(155/347)

قال القاضي أبو محمد : وفعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا بهم على جهة التأديب اجتهاداً منه فيهم ، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يخرج العصاة والمتهمون ، ولا عذاب أعظم من هذا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين ، فهذا أيضاً من العذاب ، وقال قتادة وغيره : العذاب الأول هو علل وأدواء أخبر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أنه يصيبهم بها ، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين وقال " ستة منهم تكفيكهم الدبيلة سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتاً " ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يظن أنه منهم نظر إلى حذيفة فإن صلى صلى عمر عليه وإلا ترك . وذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال لحذيفة أنشدك بالله أمنهم أنا ؟ قال لا والله ولا أؤمن منها أحداً بعدك ؟ وقال ابن زيد في قوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد ، لكل صنف عذاب ، فهو مرتان ، وقرأ قول الله تعالى : ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 55] وقال ابن زيد أيضاً " المرتان " هي في الدنيا ، الأولى القتل والجوع والمصائب ، والثانية الموت إذ هو للكفار عذاب ، وقال الحسن : الأولى هي أخذ الزكاة من أموالهم ، و" العذاب العظيم " هو

جميع ما بعد الموت ، وأظن الزجّاج أشار إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(156/347)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ﴾

قال ابن عباس : مُزَينة ، وجُهَينة ، وأسلَم ، وغِفار ، وأشجع ، كان فيهم بعد إسلامهم منافقون .

قال مقاتل : وكانت منازلهم حول المدينة .

قوله تعالى : ﴿ ومن أهل المدينة مَرَدُوا على النفاق ﴾ قال ابن عباس : مرنوا عليه وثبتوا ، منهم عبد الله بن أُبَيّ ، وجَدّ بن قيس ، والجلاس ، ومعتِّب ، ووَحْوَح ، وأبو عامر الراهب .

وقال أبو عبيدة : عَتَوْا ومَرَنُوا عليه ، وهو من قولهم : تمرَّد فلان ، ومنه : شيطان مريد .

فإن قيل : كيف قال ﴿ ومن أهل المدينة مردوا ﴾ ، وليس يجوز في الكلام : مِن القوم قعدوا ؟ فعنه ثلاثة أجوبة .

أحدهن : أن تكون ﴿ من ﴾ الثانية مردودة على الأولى ؛ والتقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، ثم استأنف ﴿ مردوا ﴾ .

والثاني : أن يكون في الكلام "مَنْ" مضمر تقديره : ومن أهل المدينة مَنْ مردوا ؛ فأُضمرت "مَنْ" لدلالة ﴿ مِنْ ﴾ عليها كقوله : ﴿ وما منَّا إلا له مقام معلوم ﴾ [الصافات : 164] يريد : إلا مَنْ له مقام معلوم ؛ وعلى هذا ينقطع الكلام عند قوله : ﴿ منافقون ﴾ .

والثالث : أن ﴿ مَرَدُوا ﴾ متعلق بمنافقين تقديره : ومِنْ أهل المدينة منافقون مَرَدُوا ، ذكر هذه الأجوبة ابن الأنباري .

قوله تعالى : ﴿ لا تعلمهم ﴾ فيه وجهان .

أحدهما : لا تعلمهم أنت حتى نُعْلِمَكَ بهم .

والثاني : لا تعلم عواقبهم .

قوله تعالى : ﴿ سنعذِّبهم مرتين ﴾ فيه عشرة أقوال .

أحدها : أن العذاب الأول في الدنيا ، وهو فضيحتهم بالنفاق ، والعذاب الثاني : عذاب القبر ، قاله ابن عباس .

قال : " وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيباً ، فقال : يا فلان اخرج فانك منافق ، ويا فلان اخرج " ففضحهم .

والثاني : أن العذاب الأول : إقامة الحدود عليهم .

والثاني : عذاب القبر ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

(157/347)

والثالث : أن أحد العذابين : الزكاة التي تؤخذ منهم ، والآخر : الجهاد الذي يُؤْمَرون به ، قاله الحسن .

والرابع : الجوع ، وعذاب القبر ، رواه شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وبه قال أبو مالك .

والخامس : الجوع والقتل ، رواه سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

والسادس : القتل والسبي ، رواه معمر عن ابن أبي نجيح عن مجاهد .

وقال ابن قتيبة : القتل والأسر .

والسابع : أنهم عُذِّبوا بالجوع مرتين ، رواه خُصَيف عن مجاهد .

والثامن : أن عذابهم في الدنيا بالمصائب في الأموال والأولاد ، وفي الآخرة بالنار ، قاله ابن زيد .

والتاسع : أن الأول : عند الموت تضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم ، والثاني : في القبر

بمنكر ونكير ، قاله مقاتل بن سليمان .

والعاشر : أن الأول : بالسيف ، والثاني : عند الموت ، قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : ﴿ ثم يُردُّون إلى عذاب عظيم ﴾ يعني : عذاب جهنم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(158/347)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ ﴾

ابتداء وخبر .

أي قوم منافقون ؛ يعني مُزَينة وجُهَينة وأَسْلَم وغِفَار وأَشْجَعَ .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ أي قوم مردوا على النفاق .

وقيل : "مردوا" من نعت المنافقين ؛ فيكون في الكلام تقديم وتأخير ، المعنى .

وممن حولكم من الأعراب منافقون مردوا على النفاق ، ومن أهل المدينة مثل ذلك .

ومعنى : "مرَدُوا" أقاموا ولم يتوبوا ؛ عن ابن زيد .

وقال غيره : لَجوَّا فيه وأَبوْا غيره ؛ والمعنى متقارب .

وأصل الكلمة من اللّين والملامسة والتجرّد ؛ فكأنهم تجرّدوا للنفاق .

ومنه رملة مرداء لا نبت فيها .

وغُصن أمْرَد لا ورق عليه .

وفرس أمْرد لا شعر على ثُنّتِه .

وغلام أمرد بيّن المَرَد ؛ ولا يقال : جارية مرداء .

وتمريد البناء تمليسه ؛ ومنه قوله : ﴿ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ ﴾ [النمل : 44] .

وتمريد الغصن تجريده من الورق ؛ يقال : مَرَد يَمْرُد مُروداً ومَرَادة .

قوله تعالى : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ هو مثل قوله : ﴿ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : 60] على ما تقدّم .

وقيل : المعنى لا تعلم يا محمد عاقبة أمورهم وإنما نختص نحن بعلمها ؛ وهذا يمنع أن يحكم على أحد بجنة أو نار .

قوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ قال ابن عباس : بالأمراض في الدنيا وعذاب الآخرة .

فمرض المؤمن كفارة ، ومرض الكفار عقوبة .

وقيل : العذاب الأوّل الفضيحة باطلاع النبيّ صلى الله عليه وسلم عليهم ؛ على ما يأتي بيانه في المنافقين .

والعذاب الثاني عذاب القبر .

الحسن وقتادة : عذاب الدنيا وعذاب القبر .

ابن زيد : الأوّل بالمصائب في أموالهم وأولادهم ، والثاني عذاب القبر .

مجاهد : الجوع والقتل .

الفراء : القتل وعذاب القبر .

(159/347)

وقيل : السباء والقتل وقيل : الأوّل أخذ الزكاة من أموالهم وإجراء الحدود عليهم ، والثاني عذاب القبر .

وقيل : أحد العذابين ما قال تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الحياة الدنيا ﴾ .

والغرض من الآية اتباع العذاب ، أو تضعيف العذاب عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(160/347)

وقال الخازن :

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ﴾

ذكر جماعة من المفسرين المتأخرين كالبغوي والواحدي وابن الجوزي أنهم من أعراب مزينة وجهينة وأشجع وغفار وأسلم وكانت منازلهم حول المدينة ويعني ومن هؤلاء الأعراب منافقون وما ذكروه مشكل لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) دعا لهؤلاء القبائل ومدحهم فإن صح نقل المفسرين فيحمل قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ﴾ على القليل لأن لفظة من للتبعيض ويحمل دعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم على الأكثر والأغلب وبهذا يمكن الجمع بين قول المفسرين ودعاء النبي (صلى الله عليه وسلم) لهم .

وأما الطبري ، فإنه أطلق القول ولم يعين أحداً من القبائل المذكورة بل قال في تفسير هذه الآية : من القوم الذين حول مدينتكم أيها المؤمنون من الأعراب منافقون ومن أهل مدينتكم أيضاً أمثالهم أقوام منافقون وقال البغوي : ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ من الأوس والخزرج منافقون ﴿ مردوا على النفاق ﴾ فيه تقديم وتأخير تقديره وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق يعني مرنوا عليه يقال تمرد فلان على ربه إذا عتا وتجبر

ومنه الشيطان المارد وتمرد في معصيته أي مرن وثبت عليها واعتادها ولم يتب منها قال ابن إسحاق : لجوا فيه وأبو غيره .

(161/347)

وقال ابن زيد : أقاموا عليه ولم يتوبوا منه ﴿ لا تعلمهم ﴾ يعني أنهم بلغوا في النفاق إلى حيث أنك لا تعلمهم يا محمد مع صفاء خاطرك واطلاعك على الأسرار ﴿ نحن نعلمهم ﴾ يعني لكن نحن نعلمهم لأنه لا تخفى علينا خافية وإن دقت ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ اختلف المفسرون في العذاب الأول مع اتفاقهم على العذب الثاني هو عذاب القبر بدليل قوله ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ وهو عذاب النار في الآخرة فثبت بهذا أنه سبحانه وتعالى يعذب المنافقين ثلاث مرات مرة في الدنيا ومرة في القبر ومرة في الآخرة أما المرة الأولى وهي التي اختلفوا فيها فقال الكلبي والسدي " قام النبي (صلى الله عليه وسلم) خطيباً في يوم جمعة فقال اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد أناساً وفضحهم " فهذا هو العذاب الأول .

والثاني : هو عذاب القبر لإن صح هذا القول فيحتمل أن يكون بعد أن أعلمه الله حالهم وسماهم له لأن الله سبحانه وتعالى قال لا تعلمهم نحن نعلمهم ثم بعد ذلك أعمله بهم .

وقال مجاهد : هذا العذاب الأول هو القتل والسبي وهذا القول ضعيف ، لأن أحكام الإسلام في الظاهر كانت جارية على المنافقين فلم يقتلوا ولم يسبوا وعن مجاهد رواية أخرى أنهم عذبوا بالجوع مرتين .

وقال قتادة : المرة الأولى هي الدبيلة في الدنيا وقد جاء تفسيرها في الحديث بأنها خراج من نار تظهر في أكتافهم حتى تنجم من صدورهم يعني تخرج من صدورهم .

وقال ابن زيد : الأولى هي المصائب في الأموال والأولاد في الدنيا والأخرى عذاب القبر .

وقال ابن عباس : الأولى إقامة الحدود عليهم في الدنيا والأخرى عذاب القبر .

وقال ابن إسحاق : الأولى هي ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام ودخولهم فيه كرهاً غير حسبة والأخرى عذاب القبر .

وقيل : إحداهما ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم ، والأخرى عذاب القبر .

وقيل : الأولى إحراق مسجدهم مسجد الضرار ، والأخرى إحراقهم بنار جهنم وهو قوله سبحانه وتعالى : ثم يردون إلى عذاب جهنم يخلدون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(162/347)

وقال أبو حيان :

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ﴾

لما شرح أحوال منافقي المدينة ، ثم أحوال منافقي الأعراب ، ثم بين أنّ في الأعراب ، من هو مخلص صالح ، ثم بين رؤساء المؤمنين من هم ذكر في هذه الآية أن منافقين حولكم من الإعراب ، وفي المدينة لا تعلمونهم أي : لا تعلمون أعيانهم ، أو لا تعلمونهم منافقين .

ومعنى حولكم : حول بلدتكم وهي المدينة .

والذين كانوا حول المدينة جهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، ومزينة ، وعصية ، ولحيان ، وغيرهم ممن جاوز المدينة .

ومن أهل المدينة يجوز أن يكون من عطف المفردات ، فيكون معطوفاً على من في قوله : وممن ، فيكون المجرور أن يشتركان في المبتدأ الذي هو منافقون ، ويكون مردوا استئنافاً ، أخبر عنهم أنهم خريجون في النفاق .

ويبعد أن يكون مردوا صفة للمبتدأ الذي هو منافقون ، لأجل الفصل بين الصفة والموصوف بالمعطوف على وممن حولكم ، فيصير نظير في الدار زيد وفي القصر العاقل ، وقد أجازه الزمخشري تابعاً للزجاج .

ويجوز أن يكون من عطف الجمل ، ويقدر موصوف محذوف هو المبتدأ أي : ومن أهل

المدينة قوم مردوا ، أو منافقون مردوا .

قال الزمخشري : كقوله : أنا ابن جلا . انتهى .

فإن كان شبهه في مطلق حذف الموصوف ، وإن كان شبهه في خصوصيته فليس بحسن ، لأن حذف الموصوف مع من وإقامة صفته مقامه ، وهي في تقدير الاسم ، ولا سيما في التفصيل منقاس كقولهم : منا ظعن ومنا أقام .

وأما أنا ابن جلا فضرورة شعر كقوله :

يرمي بكفي كان من أرمى البشر . . .

أي بكفي رجل .

وكذلك أنا ابن جلا تقديره : أنا ابن رجل جلا أي كشف الأمور .

وبينها وعلى الوجه الأول يكون مردوا شاملاً للنوعين ، وعلى الوجه الثاني يكون مختصاً بأهل المدينة .

وتقدم شرح مردوا في قوله : ﴿ شيطاناً مريداً لعنه الله ﴾ وقال هنا ابن عباس : مردوا ، مرنوا وثبتوا ، وقال أبو عبيدة : عتوا من قولهم تمرد .

(163/347)

وقال ابن زيد : أقاموا عليه لم يتوبوا لا تعلمهم أي : حتى نعلمك بهم ، أو لا تعلم عواقب أمرهم ، حكاه ابن الجوزي .

أو لا تعلمهم منافقين ، لأن النفاق مختص بالقلب .

وتقدم لفظ منافقين فدل على المحذوف ، فتعدت إلى اثنين قاله : الكرماني .

وقال الزمخشري : يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشككك في أمرهم .

وأسند الطبري عن قتادة في قوله : لا تعلمهم نحن نعلمهم قال : فما بال أقوام يتكلفون علم الناس ؟ فلان في الجنة ، فلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري أنت لعمري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الرسل .

قال نبي الله نوح : ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ وقال نبي الله شعيب : ﴿ بقيت الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ وقال الله تعالى لنبيه : ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ انتهى .

فلو عاش قتادة إلى هذا العصر الذي هو قرن ثمانمائة وسمع ما أحدث هؤلاء المنسوبون إلى الصوف من الدعاوى والكلام المبهرج الذي لا يرجع إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، والتجري على الإخبار الكاذب عن المغيبات ، لقضى من ذلك العجب .

وما كنت أظن أنّ مثل ما حكى قتادة يقع في ذلك الزمان لقربه من الصحابة وكثرة الخير ، لكن شياطين الإنس يبعد أن يخلو منهم زمان .

نحن نعلمهم .

قال الزمخشري : نطلع على سرهم ، لأنهم يبطنون الكفر في سويداء قلوبهم إبطاناً ، ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه في إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروبه ، ولهم فيه اليد الطولى انتهى .

وفي قوله : نحن نعلمهم تهديد وترتب عليه بقوله : سنعذبهم مرتين .

والظاهر إرادة التثنية ويحتمل أن يكون لا يراد بها شفع الواحد ، بل يكون المعنى على التكثير كقوله : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ أي كرة بعد كرة .

كذلك يكون معنى هذا سنعذبهم مرة بعد مرة .

(164/347)

وإذا كانت التثنية مرادة فأكثر الناس على أنّ العذاب الثاني هو عذاب القبر ، وأما المرة الأولى فقال ابن عباس في الأشهر عنه : هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق .

وروي في هذا التأويل أنه عليه السلام خطب يوم جمعة بدر فندر بالمنافقين وصرح وقال : "

اخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق ، واخرج أنت يا فلان ، واخرج أنت يا فلان " حتى أخرج جماعة منهم ، فرآهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة فظن أن الناس انتشروا ، وأن الجمعة فاتته ، فاختفى منهم حياء ، ثم وصل المسجد فرأى أنّ الصلاة لم تقض وفهم الأمر .

قال ابن عطية : وفعله (صلى الله عليه وسلم) على جهة التأديب اجتهاد منه فيهم ، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام ، وإنما هو كما يخرج العصاة والمتهمون ، ولا عذاب أعظم من هذا .

وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كثيراً ما يتكلم فيهم على الإجمال دون تعيين ، فهذا أيضاً من العذاب انتهى .

ويبعد ما قال ابن عطية لأنه نص على نفاق من أخرج بعينه ، فليس من باب إخراج العصاة . بل هؤلاء كفار عنده وإنْ أظهروا الإسلام .

وقال قتادة وغيره : العذاب الأول علل وأدواء أخبر الله نبيه أنه سيصيبهم بها ، وروي أنه أسرّ إلى حذيفة باثني عشر منهم وقال : " سنة منهم تكفيهم الدبيلة سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره ، وستة يموتون موتاً " وقال مجاهد : هو عذابهم بالقتل والجوع .

قيل : وهذا بعيد ، لأن منهم من لم يصبه هذا .

وقال ابن عباس أيضاً : هو هو أنهم بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه .

وقال ابن إسحاق : هو همهم بظهور الإسلام وعلو كلمته .

وقيل : ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم .

وقال الحسن : الأول ما يؤخذ من أموالهم قهراً ، والثاني الجهاد الذي يؤمرون به قسراً لأنهم يرون ذلك عذاباً .

وقال ابن زيد : مرتين هما عذاب الدنيا بالأموال والأولاد كل صنف عذاب فهو مرتان ، وقرأ ﴿ فلا تعجبك ﴾ الآية .

(165/347)

وقيل : إحراق مسجد الضرار ، والآخر إحراقهم بنار جهنم .

ولا خلاف أن قوله : إن عذاب عظيم هو عذاب الآخرة وفي مصحف أنس سيعذبهم بالياء ، وسكن عياش عن أبي عمر والياء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(166/347)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعراب ﴾

شروعٌ في بيان أحوالِ منافقي أهلِ المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيانِ حالِ أهلِ الباديةِ أي ممن حول بلدِتكم ﴿ منافقون ﴾ "وهم جهينةُ ومزينةُ وأسلمُ وأشجَعُ وغفارٌ" كانوا نازلين حولها ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ عطفٌ على ممن حولكم عطفَ مفردٍ على مفرد وقوله تعالى : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ إما جملةٌ مستأنفةٌ لا محل لها من الإعراب مَسوقةٌ لبيان غلوِّهم في النفاق إثرَ بيانِ اتصافِهم به وإما صفةٌ للمبتدأ المذكورِ فُصل بينهما وبينه بما عُطفَ على خبره ، أو صفةٌ لمحذوف أقيمت هي مُقامه وهو مبتدأ خبرُه من أهل المدينة كما في قوله :

(167/347)

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . . والجملةُ عطفٌ على الجملة السابقة أي ومن أهل المدينةِ قومٌ مردوا على النفاق أي تمهّروا فيه من مرَن فلانٌ على عمله ومرَد عليه إذا درب به وضرِي حتى لانَ عليه ومهَر فيه ، غير أن مرَدَ لا يكاد يستعمل إلا في الشر ، فالتمرّدُ على الوجهين

الأولين شاملٌ للفريقين حسب شمولِ النفاقِ وعلى الوجه الأخير خاصٌّ بمنافقي أهلِ المدينةِ وهو الأظهر والأنسبُ بذكر منافقي أهلِ البادية أولاً ثم ذكرِ منافقي الأعرابِ المجاورين للمدينة ثم ذكرِ منافقي أهلِها والله تعالى أعلم وقوله عز شأنه : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ بيانٌ لتمرّدهم أي تعرِفهم أنت لكن لا بأعيانهم وأسمائِهم وأنسابِهم بل بعنوان نفاقِهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوُّق في مراعاة التقيةِ والتحامي عن مواقع التهم إلى مبلغ يخفى عليك حالُهم مع ما أنت عليه من علو الكعبِ وسموّ الطبقة في كمال الفِطنةِ وصِدقِ الفِراسةِ ، وفي تعليق نفي العلمِ بهم مع أنه متعلقٌ بحالهم مبالغةٌ في ذلك وإيماءٌ إلى أن ما هم فيه من صفة النفاقِ لعَراقتهم ورسوخِهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتِهم أو مشخَّصاتِهم بحيث لا يُعَدّ من لا يعرِفهم بتلك الصفة عالماً بهم ، وحُمل عدم علمِه عليه الصلاة والسلام بأعيانهم على عدم علمِه عليه الصلاة والسلام بعد مجيء هذا البيانِ على أنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن فيهم منافقين لكن لا يعلمهم بأعيانهم وهو مع كونه خلافَ الظاهر عارٍ عما ذكر من المبالغة .

(168/347)

وقوله عز وجل : ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ تقريرٌ لما سبق من مهارتهم في فن النفاقِ أي لا يقف على سرائرهم المركوزةِ في ضمائرهم إلا مَنْ لا تخفى عليه خافيةٌ لِما هم عليه من شدة الاهتمامِ بإبطان الكفرِ وإظهارِ الإخلاصِ ، وفي تعليق العلمِ بهم مع أن المقصودَ بيانُ تعلقِه بحالهم ما مر في تعليق نفيه بهم ، وقولُه عز شأنُه : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ وعيدٌ لهم وتحقيقٌ لعذابهم حسبما علم الله فيهم من موجباته ، والسين للتأكيد ﴿ مَّرَّتَيْنِ ﴾ عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قام خطيباً يوم الجمعة فقال : "اخرُجْ يا فلانُ فإنك منافقٌ اخرجْ يا فلان فإنك منافقٌ" فأخرج ناساً وفضحَهم فهذا هو العذابُ الأولُ ، والثاني إما القتلُ وإما عذابُ القبرِ أو الأولُ هو القتلُ والثاني عذابُ القبرِ أو الأولُ أخذُ الزكاةِ لما أنهم يعُدّونها مغرماً بحتاً والثاني نهكُ الأبدان وإتعابُها بالطاعات الفارغةِ عن الثواب . ولعل تكريرَ عذابِهم لما فيهم من الكفر المشفوعِ بالنفاق أو النفاقِ المؤكدِ بالتمرد فيه ، ويجوز أن يكون المرادُ بالمرتين مجردَ التكثيرِ كما في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي كرةً بعد أخرى ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ هو عذابُ النارِ ، وفي تغيير السبكِ بإسناد عذابِهم السابقِ إلى نونِ العظمةِ حسب إسنادِ ما قبله من العلم وإسناد ردّهم إلى العذاب اللاحقِ إلى أنفسهم إيذانٌ باختلافهم حالاً وأن الأولَ خاصٌّ بهم وقوعاً وزماناً يتولاه سبحانه وتعالى والثاني شاملٌ لعامة الكفرةِ وقوعاً وزماناً وإن اختلفت طبقاتُ عذابِهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مّنَ الاعراب ﴾ شروع في بيان منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال أهل البادية منهم أي وممن حول بلدكم ﴿ منافقون ﴾ والمراد بالموصول كما أخرج ابن المنذر عن عكرمة : جهينة .

ومزينة .

وأشجع .

وأسلم .

وغفار ؛ وكانت منازلهم حول المدينة ، وإلى هذا ذهب جماعة من المفسرين كالبغوي .

والواحدي .

وابن الجوزي .

وغيرهم .

واستشكل ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم مدح هذه القبائل ودعا لبعضها .

فقد أخرج الشيخان .

وغيرهما عن أبي هريرة عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : " قريش .

والأنصار .

وجهينة .

ومزينة .

واشجع .

وأسلم .

وغفار موالي الله تعالى ورسوله لا موالي لهم غيره " ، وجاء عنه أيضاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : " اسلم سالمها الله تعالى وغفار غفر الله لها أما إني لم أقلها لكن قالها الله تعالى " وأجيب بأن ذلك باعتبار الأغلب منهم ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ عطف على ﴿ مِمَّنْ حَوْلَكُم ﴾ فيكون كالمعطوف عليه خبراً عن المنافقون كأنه قيل : المنافقون من قوم حولكم ومن أهل المدينة ، وهو من عطف مفرد على مفلد ويكون قوله سبحانه : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب مسوقة لبيان غلوهم في النفاق إثر بيان اتصافهم به أو صفة لمنافقون ، واستبعده أبو حيان بأن فيه الفصل بين الصفة وموصوفها ، وجوز أن يكون ﴿ مّنْ أَهْلِ المدينة ﴾ خبر مقدم والمبتدأ بعده محذوف قامت صفته مقامه والتقدير ومن أهل المدينة قوم مردوا ، وحذف الموصوف وإقامة صفته مقامه إذا

كان بعض اسم مجرور بمن أو في مقدم عليه مقيس شائع نحو منا أقام ومنا ظعن ، وفي غير ذلك ضرورة أو نادر ، ومنه قول سحيم

: أنا ابن جلا وطلاع الثنايا . . .

متى أضع العمامة تعرفوني

(170/347)

على أحد التأويلات فيه ، وأصل المرود على ما ذكره علي بن عيسى الملاسة ومنه صرح ممرد ، والأمرد الذي لا شعر على وجهه ، والمرداء الرملة التي لا تنبت شيئاً ، وقال ابن عرفة : أصله الظهور ومنه قولهم : شجرة مرداء إذا تساقط ورقها وأظهرت عيدانها ، وفي القاموس مرد كنصر وكرم مرودا ومرودة ومرادة فهو ما رد ومريد ومتمرد أقدم وعتا أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف ، وفسروه بالاعتياد والتدرب في الأمر حتى يصير ماهرا فيه وهو قريب مما ذكره في القاموس من بلوغ الغاية ، ولا يكاد يستعمل إلا في الشر .

وهو على الوجهين الأولين شامل للفريقين حسب شمول النفاق وعلى الوجه الأخير خاص بمنافقي أهل المدينة واستظهر ذلك ، وقيل : إنه الأنسب بذكر منافقي أهل البادية أولا ثم

ذكر منافقي الاعراب المجاورين ثم ذكر منافقي أهل المدينة ويبقى على هذا أنه لم يبين مرتبة المجاورين في النفاق بخلافه على تقدير شموله للفريقين ؛ ثم لا يخفى أن التمرد على النفاق إذا اقتضى الأشدية فيه أشكل عليه تفسيرهم المفضل في قوله سبحانه :

﴿ الاعراب أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة : 97] بأهل الحضر ، ولعل المراد تفضيل المجموع على المجموع أو يلتزم عدم الاقتضاء .

(171/347)

وقوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ بيان لتمردهم أي لا تعرفهم أنت بعنوان نفاقهم يعني أنهم بلغوا من المهارة في النفاق والتنوق في مراعاة التقية والتحامي عن مواقع التهم إلى حيث يخفى عليك مع كمال فطنتك وصدق فراستك حالهم ، وفي تعليق نفي العلم بهم مع أنه متعلق بحالهم مبالغة في ذلك وإيماء إلى أن ما هم عليه من صفة النفاق لعراقتهم ورسوخهم فيها صارت بمنزلة ذاتياتهم أو مشخصاتهم بحيث لا يعد من لا يعرفهم بتلك الصفة عالماً بهم ، ولا حاجة في هذا المعنى إلى حمل العلم على المتعدي لمفولين وتقدير المفعول الثاني أي لا تعلمهم منافقين ، وقيل : المراد لا تعرفهم بأعيانهم وإن عرفتهم إجمالاً ، وما ذكرناه لما فيه من المبالغة ما فيه أولى وحاصله لا تعرف نفاقهم ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ أي نعرفهم بذلك العنوان

وإسناد العلم بمعنى المعرفة إليه تعالى مما لا ينبغي أن يتوقف فيه وإن وهم فيه من وهم لا سيما إذا خرج ذلك مخرج المشاكلة ، وقد فسر العلم هنا بالمعرفة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما كما أخرجه عند أبو الشيخ .

نعم لا يمتنع حمله على معناه المتبادر كما لا يمتنع حمله على ذلك فيما تقدم لكنه محوج إلى التقدير وعدم التقدير أولى من التقدير .

والجملة تقرير لما سبق من مهارتهم في النفاق أي لا يقف على سرائرهم المركوز فيهم إلا من لا تخفى عليه خافية لما هم عليه من شدة الاهتمام بإبطال الكفر وإظهار الإخلاص ، وأمر تعليق العلم هنا كومر تعليق نفيه فيما مر .

واستدل بالآية على أنه لا ينبغي الإقدام على دعوى الأمور الخفية من أعمال القلب ونحوها .

وقد أخرج عبد الرزاق .

وابن المنذر وغيرهما عن قتادة أنه قال : ما بال أقوام يتكلفون على الناس يقولون .

(172/347)

فلان في الجنة وفلان في النار فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري لعمري أنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه نبي قال نوح عليه السلام و ﴿ مَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الشعراء : 112] وقال شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ [هود : 86] وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ وهذه الآيات ونحوها أقوى دليل في الرد على من يزعم الكشف والاطلاع على المغيبات بمجرد صفاء القلب وتجرد النفس عن الشواغل وبعضهم يتساهلون في هذا الباب جدا ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ ولا بد لتحقيق المقتضى فيهم عادة ﴿ مَّرَّتَيْنِ ﴾ أخرج ابن أبي حاتم .

والطبراني في الأوسط .

وغيرهما عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : "قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيباً فقال قم يا فلان فأخرج فإنك منافق أخرج يا فلان فإنك منافق فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يك عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة وظن أن الناس قد انصرفوا واختبأوا هم منه وظنوا أنه قد علم بأمرهم فدخل المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله تعالى المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر" .

وفي رواية ابن مردويه عن ابن مسعود الأنصاري أنه صلى الله عليه وسلم أقام في ذلك اليوم وهو على المنبر ستة وثلاثين رجلاً .

وأخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم عن مجاهد أنه فسر العذاب مرتين بالجوع والقتل ، ولعل المراد به خوفه وتوقعه ، وقيل : هو فرضى إذا أظهروا النفاق وفي رواية أخرى عنه أنهم عذبوا بالجوع مرتين ، وعن الحسن أن العذاب الأول أحد الزكاة والثاني عذاب القبر .

(173/347)

وعن ابن إسحاق أن الأول غيظهم من أهل الإسلام والثاني عذاب القبر ، ولعل تكرير عذابهم لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه .

وجوز أن يراد بالمرتين التكثير كما في قوله تعالى : ﴿ فارجع البصر كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 4] لقوله سبحانه : ﴿ أَوْلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة : 126] ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ ﴾ يوم القيامة الكبرى ﴿ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ هو عذاب النار ، وتغيير الأسلوب على ما قيل بإسناد عذابهم السابق إلى نون العظمة حسب أسناد ما قبله من العلم وإسناد ردهم إلى العذاب اللاحق إلى أنفسهم إيذان باختلافهما حالاً وإن الأول

خاص بهم وقوعاً وزماناً يتولاه الله سبحانه وتعالى ؛ والثاني شامل لعامة الكفرة وقوعاً وزماناً وإن اختلفت طبقات عذابهم ، ولا يخفى أنه إذا فسر العذاب العظيم بعذاب الدرك الأسفل من النار لم يكن شاملاً لعامة الكفرة نعم هو شامل لعامة المنافقين فقط ، وقد يقال : إن في بناء ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ لما لم يسم فاعله من التعظيم ما فيه فيناسب العذاب العظيم فلذا غير السبك إليه والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(174/347)

وقال القاسمى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾

يعني حول بلدتكم ، وهي المدينة ﴿ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾

أي : مرنوا ومهروا فيه وقوله عز شأنه ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ ﴾ دليل لمرانتهم عليه ، ومهارتهم فيه ، أي : يخفون عليك ، مع علوّ كعبك في الفطنة وصدق الفراسة ، لفرط تأنقهم وتصنعهم في مراعاة التقية ، والتحامي عن مواقع التهم .

قال في " الإنتصاف " وكأن قوله تعالى : ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ توطئة لتقرير خفاء

حالهم عنه صلى الله عليه وسلم ، لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ تقرير لما سبق من مهارتهم في النفاق ، أي : لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لما هم عليه من شدة الإهتمام بإبطان الكفر ، وإظهار الإخلاص .

وقوله تعالى : ﴿ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ للمفسرين في المرتين وجوه : إظهار نفاقهم وإحراق مسجد الضرار ، أو الفضيحة وعذاب القبر ، أو أخذ الزكاة لما أنهم يعدّونها مغرماً بحتاً ، ونهك الأبدان ، وإتعابها بالطاعات الفارغة عن الثواب .

وقال محمد بن إسحاق : هو – فيما بلغني عنهم – ما هم من أمر الإسلام ، وما يدخل عليهم من غيظ ذلك على غير حسبة ، ثم عذابهم في القبور إذا صاروا إليها ، ثم العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه ، عذاب الآخرة ، ويخلدون فيه .

قال أبو السعود : ولعل تكرير عذابهم ، لما فيهم من الكفر المشفوع بالنفاق ، أو النفاق المؤكد بالتمرد فيه .

(175/347)

ويجوز أن يكون المراد بالمرتين مجرد التكثير ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ أي : كرة بعد أخرى ، لقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ ﴾ .

تنبيه :

لا ينافي قوله تعالى : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ ، لأن هذا من باب التوسم فيهم بصفات يعرفون بها ، لا أنه يعرف جميع من عنده من أهل النفاق والريب على التعيين ، وقد كان يعلم أن في بعض من يخالطه من أهل المدينة نفاقاً ، وإن كان يراه صباحاً ومساءً ، وشاهد هذا بالصحة ، ما رواه الإمام أحمد عن جبير

ابن مطعم رضي الله عنه قال : قلت : يا رسول الله ! إنهم يزعمون أنه ليس لنا أجر بمكة ، فقال : < لتأتينكم أجوركم ، ولو كنتم في حجر ثعلب > .

وأصغى إليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم برأسه فقال : < إن في أصحابي منافقين ، أي : يرجفون ويتكلمون بما لا صحة له > .

وروى ابن عساكر عن أبي الدرداء ، أن رجلاً يقال له حرملة أتى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : الإيمان هاهنا ، وأشار بيده إلى لسانه والنفاق هاهنا ، وأشار بيده إلى قلبه ، ولم يذكر الله إلا قليلاً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < اللهم اجعل له لسانا ذاكراً ، وقلباً شاكراً ، ارزقه حبي وحب من يحبني ، وصيّر أمره إلى خير > . فقال : يا

رسول الله ! إنه كان لي أصحاب من المنافقين ، وكنت رأساً فيهم ، أفلا آتيك بهم ؟ قال : < من أتانا استغفرنا له ، ومن أصرّ على دينه ، فالله أولى به ، ولا تخرقنّ على أحد ستراً > - ورواه الحاكم أيضاً - .

(176/347)

وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال : ما بال أقوام يتكلفون علم الناس ، فلان في الجنة وفلان في النار ، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري ! لعمري أنت بنصيبك أعلم منك بأحوال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الأنبياء قبلك ! قال نبيّ الله نوح عليه السلام : ﴿ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ، وقال نبي الله شعيب عليه السلام : ﴿ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ .

لطيفة :

قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ عطف على : ﴿ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ عطف مفرد على مفرد .

وقوله تعالى : ﴿ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ إما جملة مستأنفة لا محل لها من الإعراب ، مسوقة

لبيان علوّهم في النفاق إثر بيان اتصافهم به ، وإما صفة للمبتدأ المذكور فصل بينها وبينه به عطف على خبره ، وإما صفة لمحذوف أقيمت هي مقامه ، وهو مبتدأ خبره .

﴿ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ والجملة عطف على الجملة السابقة ، أي : ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق – أفاده أبو السعود – . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 504.502 ﴾

(177/347)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾

كانت الأعراب الذين حول المدينة قد خلصوا للنبيء صلى الله عليه وسلم وأطاعوه وهم جهينة ، وأسلم ، وأشجع ، وغفار ، ولحيان ، وعصية ، فأعلم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن في هؤلاء منافقين لئلا يغتر بكل من يظهر له المودة .

وكانت المدينة قد خلص أهلها للنبيء صلى الله عليه وسلم وأطاعوه فأعلمه الله أن فيهم بقية مردوا على النفاق لأنه تأصل فيهم من وقت دخول الإسلام بينهم .

وتقديم المجرور للتنبيه على أنه خبر ، لا نعت .

و(مِن) في قوله ﴿ وممن حولكم ﴾ للتبعيض و (مِن) في قوله : ﴿ من الأعراب ﴾ لبيان (مَن) الموصولة .

و(مِن) في قوله : ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ اسم بمعنى بعض .

و ﴿ مردوا ﴾ وخبر عنه ، أو تجعل (مِن) تبعيضية مؤذنة بمبعض محذوف ، تقديره : ومن أهل المدينة جماعة مردوا ، كما في قوله تعالى : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ﴾ في سورة النساء (46) .

ومعنى مرد على الأمر مَرِن عليه ودَرِب به ، ومنه الشيطان المارد ، أي في الشيطنة .

وأشير بقوله : لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ إلى أن هذا الفل الباقي من المنافقين قد أراد الله الاستيثار بعلمه ولم يُطلع عليهم رسوله صلى الله عليه وسلم كما أطلعه على كثير من المنافقين من قبلُ .

وإنما أعلمه بوجودهم على الإجمال لئلا يغتر بهم المسلمُون ، فالمقصود هو قوله : ﴿ لا تعلمهم ﴾ .

وجملة ﴿ نحن نعلمهم ﴾ مستأنفة .

والخبر مستعمل في الوعيد ، كقوله : ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ [التوبة : 94] ، وإلا فإن الحكم معلوم للمخاطب فلا يحتاج إلى الإخبار به .

وفيه إشارة إلى عدم الفائدة للرسول صلى الله عليه وسلم في علمه بهم ، فإن علم الله بهم

كاف .

وفيه أيضاً تمهيد لقوله بعده ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ .

(178/347)

وجملة : ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ استيناف بياني للجواب عن سؤال يثيره قوله : ﴿ نحن نعلمهم ﴾ ، وهو أن يسأل سائل عن أثر كون الله تعالى يعلمهم .

فأعلم أنه سيعذبهم على نفاقهم ولا يفلتهم منه عدمُ علم الرسول عليه الصلاة والسلام بهم .

والعذاب الموصوف بمرتين عذاب في الدنيا لقوله بعده ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ .

وقد تحير المفسرون في تعيين المراد من المرتين .

وحملوه كلهم على حقيقة العدد .

وذكروا وجوهاً لا ينشرح لها الصدر .

والظاهر عندي أن العدد مستعمل لمجرد قصد التكرير المفيد للتأكيد كقوله تعالى : ﴿ ثم ارجع البصر كرتين ﴾ [الملك : 4] أي تأمل تأملاً متكرراً .

ومنه قول العرب : لبيك وسعديك ، فاسم التثنية نائب مناب إعادة اللفظ .

والمعنى : سنعذبهم عذاباً شديداً متكرراً مضاعفاً ، كقوله تعالى : ﴿ يضاعَف لها

العذاب ضعفين ﴾ [الأحزاب : 30] .

وهذا التكرر تختلف أعداده باختلاف أحوال المنافقين واختلاف أزمان عذابهم .

والعذاب العظيم : هو عذاب جهنم في الآخرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(179/347)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾

أوضح سبحانه : وطِّنوا أنفسكم على أن من حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون ، وهذا التوطين يعطي مناعة اليقظة ؛ حتى لا يندس واحد من المنافقين على أصحاب الغفلة الطيبين من المؤمنين ، فينبههم الحق : انتبهوا فأنتم تعيشون في مجتمع محاط بالمنافقين . والتطعيم ضد الداءات التي تصيب الأمم وسيلة من وسائل محاربة العدو ، ونحن نفعل ذلك ماديّاً حين نسمع عن قرب انتشار وباء ؛ فنأخذ المصل الواقي منه ، رغم أنه داء إلا أنه يعطينا مناعة ضد المرض .

وهكذا يربي الحق المناعة بحيث لا يمكن أن يُهاجَم المؤمنون عن غفلة ، فيقول : ﴿ وَمِمَّنْ

حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ و " مرد " يمرد أي : تدرب وتمرن ، ويبقى الأمر عند حرفة ، وكأن الواحد منهم يجيد النفاق إجادة تامة . وكل ذلك ليوجد مناعة في الأمة الإسلامية ؛ حتى يكون المؤمن على بصيرة في مواجهة أي شيء ، فإذا رأى أي سلوك فيه نفاق اكتشفه على الفور . واليقظة تدفع عنك الضر ، ولا تمنع عنك الخير .

وافرض أن واحداً قال لك : إن هذا الطريق مَخُوف لا تمشِ فيه وحدك بالليل . ثم جاء آخر وقال : إنه طريق آمن ومشينا فيه ولم يحدث شيء ، فلو أنك احتطْتَ وأخذت معك سلاحاً أو رفيقاً فقد استعددت للشر لتتوقاه ، فَهَبْ أنه لم يحدث شيء ، فما الذي خسرته ؟ إنك لن تخسر شيئاً .

وهذه قضية منطقية فلسفية يُردّ بها على الذين يشككون في دين الله ، مثل المنجّمين ، ومَن يدَّعون الفلسفة ، ويزعمون أنه لا يوجد حساب ولا حشر ولا يوم آخر ، فيقول الشاعر :

زَعَم المنجّم والطّبيبُ كلاهما . . . لا تُحْشَرُ الأجسَاد قلْتُ إليكُمَا

إنْ صَحَّ قولكُمَا فَلسْتُ بخَاسرٍ . . . أوْ صَحَّ قَوْلِي فَالخسَار عليكُما

(180/347)

أي : إن كان كلامكم صحيحاً من أنه لا يوجد بعث – والعياذ بالله – فلن أخسر شيئاً ؛ لأني أعمل الأعمال الطيبة . وإن كان هناك بعث – وهو حق – فسوف ألقى الجزاء في الجنة ؛ وبذلك لم أخسر ، بل كسبت . لكن افرضوا أنكم عملتم الشر كله وجاء البعث فأنتم الخاسرون . والقضية الفلسفية المنطقية هنا هي : إن لم أكسب فلن أخسر ، وأنتم إن لم تخسروا فلن تكسبوا .

والحق في هذه الآية يقول :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق . . ﴾ وكلمة ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ تفيد أنكم محاصرون ، لا ممن حولكم فقط ، بل أيضاً ببعض من الموجودين بينكم في المدينة ، وهم من تدربوا على النفاق حتى صارت لهم ألفة به .

وهذه الآيات – كما نعلم – قد نزلت تحكي حال المنافقين . والنفاق تتعارض في ملكات النفس الإنسانية بأن توجد ملكة كفر في القلب ، بينما توجد ملكة إيمان في اللسان ، فلا يتفق اللسان مع القلب ، فالذين آمنوا يوافق ما ينطقون به ما في قلوبهم ، والذين كفروا وافقت قلوبهم ألسنتهم .

أما الصنف الثالث : وهم الذين نطقوا بالإيمان بألسنتهم ، ولم تؤمن قلوبهم ، فهؤلاء المنافقون

.

وهو لفظ مأخوذ من " نافقاء اليربوع " وهو حيوان صحراوي يشبه الفأر ، ويخدع من يريد

صيده ، فيجعل لبيته أو جحره عدة فجوات ، فإذا طارده حيوان أو إنسان يدخل من فجوة ، فيتوهم الصائد أنه سيخرج منها ، ويبقى منتظراً خروجه ، بينما يخرج اليربوع من فجوة أخرى ، فكأنه خادع الصائد ، فالصائد يظن أن للجحر باباً واحداً ، ولكن الحقيقة أن للجحر أكثر من مدخل ومخرج . والنفاق بهذه الصورة فيه ظاهرتان : ظاهرة مَرَضيّة في المنافق ، وظاهرة صحية في المنافَق ؛ ولذلك لم ينشأ النفاق في مكة ، وإنما نشأ في المدينة .

(181/347)

ومن العجيب أن ينشأ النفاق في المدينة التي آوت الإسلام وانتشر منها ، وانساح إلى الدنيا كلها ، ولم يظهر في مكة التي أرادت أن تطمس الإسلام ، وحارب سادتُها وصناديدُها الدعوةَ .

إذن : فلا بد أن نأخذ من النفاق ظاهرتين : الظاهرة الأولى وهي الظاهرة المرضيّة ، حيث قال الحق : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً . . . ﴾ [البقرة : 10]

أما الظاهرة الثانية فهي الظاهرة الصحية ، فقد أصبح الإسلام قويّاً بالمدينة غيره عند بدء الدعوة في مكة . إنما يُنَافَق القوي ؛ لأن المنافق يريد أن ينتفع بقوة القوى ، كما أن المنافق

يعرف أنه لن يستطيع مواجهة القوي ، أو أن يقف منه موقف العداء الظاهر .

إذن : فالنفاق حين يظهر ، إنما يظهر في مجالات القوة ، لا في مجالات الضعف ، فالرجل الضعيف لا ينافقه أحد ، والرجل القوي ينافقه الناس . إذن : فالنفاق ظاهرة مرضية بالنسبة للمنافق ، وظاهرة صحية في المنافَق .

وأراد الحق سبحانه أن يكشف للمؤمنين أمر المنافقين الذين يتلصصون عليهم ، أي : يتخذون مسلك اللصوص ؛ في أنهم لا يُواجهون إلا في الظلام ، ويحاولون أن يدخلوا من مداخل لا يراهم منها أحد ، ويتلمَّسون تلك المداخل التي لا تظهر ، ويُخْفون غير ما يظهرون .

أما مواجهة الكافر فهي مسألة واضحة ، صريحة ؛ فهو يعلن ما يبطن ، ويواجهك بالعداء . وأنت تواجهه بجميع قوتك وكل تفكيرك ؛ لأنه واضح الحركة . أما المنافق الذي يُظهر الإيمان وفي قلبه الكفر ، فهو يتلصص عليك ، وعليك أن تحتاط لمداخله ؛ لأنه ينتظر اللحظة التي يطعنك فيها من الخلف .

(182/347)

وينبهنا الحق إلى ضرورة الاحتياط ، وأن يمتلك المؤمنون الفطنة والفراسة وصدق النظر إلى الأشياء ، فكشف لنا سبحانه كل أوجه النفاق ؛ كشف منافقي المدينة حيث يوجد منافقون وغير منافقين ، ومنافقي الأعراب الذين يوجد بينهم منافقون وغير منافقين ، وعَلّم الحق سبحانه المؤمنين كيف يتعرفون على المنافقين بالمظاهر التي تكشف ما يدور في صدورهم .

وسبحانه القائل عن المنافقين : ﴿ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القول . . . ﴾ [محمد : 30]

ولكنْ هناك لون من النفاق ، نفاق فني دقيق ، يغيب على فطنة المتفطن ، وعلى كياسته . ولذلك يوضح لنا سبحانه : أنا لا أكلُكم إلى فطنتكم لتعلموا المنافقين ، وإنما أنا أعلمه وأنتم لا تعلمونه ؛ لأنهم قد برعوا في النفاق ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ ورغم فطنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكياسته فقد أوضح له الحق أنه سيغيب عنه أمرهم ؛ لأنهم احتاطوا بفنيّة النفاق فيهم حتى لا يظهر .

لقد عبّر القرآن التعبير الدقيق ، فقال : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ والمادة نفسها في كلمة ﴿ مَرَدُواْ ﴾ هي من مرد ، يمرد ، مروداً ، وماردا ، ومريداً ، هذه المادة تصف الشيء الناعم الأملس الذي لا تظهر فيه نتوءات ، ومنه الشاب الأمرد ، يعني الذي لم ينبت له شعر يخترق بشرته ، إذن : المادة كلها تدل على الثبات على شيء ، وعدم وجود شيء فيه يخدش

هذا الثبات .

ويوضح سبحانه : تنبَّهوا ، فممَّن حولكم من الأعراب منافقون ، وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ يشعر بأنهم محاطون بالنفاق ، ولماذا يحاطون بالنفاق ؟ لأن الدعوات الإيمانية لا تظهر إلا إذا طمّ الفساد في بيئة .

(183/347)

ونعلم أن الحق قد جعل في النفس أشياء تطرد الباطل ، وإن الحّ الباطل عليها فترة ، تتنبه النفس إليه وتطرده . وهؤلاء هم الذين يتوبون ، يقترفون الذنب ثم ترجع إليهم نفوسهم الإيمانية فتردعهم . إذن : فالردع إما أن يكون ذاتيّاً في النفس ، وإما أن يكون من المجتمع للنفس التي لا يأتيها الردع من الذات ، فهي نفس أمَّارة بالسوء ، وهي لا تأمر بالسوء مرة وتنتهي ، بل هي أمّارة به ، أي : اتخذت الأمر بالسوء حرفة ؛ لأن صيغة " فعّال " تدلنا على المزاولة والمداومة .

وإذا كانت المناعة في النفس فهذا أمر يسير ويأتي من النفس اللوامة ، وقد يكون المجتمع الذي حول الإنسان هو الذي يردع النفس إن ضعفت في شيء . وبهذا تكون المناعة رادعاً ذاتيّاً ، ولا المجتمع فيه رادع ؛ هنا لا بد أن تتدخل السماء ، وتأتي دعوة الحق بآياتها

، وبيناتها ، ومعجزة الرسول .

هنا يقف أصحاب الفساد – وتكون نفوسهم أمّارة بالسوء – موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء – موقفاً ينافقون به القوة الطارئة الجديدة ، بينما تظل نفوسهم أمّارة بالسوء ، فتظهر ظاهرة النفاق .

وقوله الحق : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِّنَ الأعراب مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ أي أنكم مطوقون في ذاتكم ومن حولكم ، فالنفاق في ذات المكان الذي تقيمون فيه ، وفيما حولكم أيضاً .

وأخشى ما يخشاه الإنسان ، أن يوجد الأمر الضار حوله وفيه ؛ لأنه إن كان الأمر الضار في المكان الذي يعيش فيه ، فمن حوله يستطيعون إنقاذه أو يستطيع هو أن يهجر المكان ، لكن إذا كان محاصراً بالضرر ممن حوله ومن المكان الذي يحيا فيه ، فإلى أين يذهب ؟

(184/347)

ويريد سبحانه أن ينبه المؤمنين إلى أن ظاهرة النفاق متفشية ؛ منها ما تستطيعون – أيها المؤمنون – معرفته بمعرفة حركات المنافقين وسكناتهم ولحن قولهم وتصرفاتهم ، ومنها أمر دقيق خفي لا تعلمونه ، ولكنه سبحانه يعلمه ؛ ولأنكم غير مسلمين لأنفسكم ، ولكم رب يعلمكم ما لا تعلمون فاطمئنوا ؛ فسوف يفضحهم لكم .

ونتيجة هذا العلم أنكم سترون فيهم العقوبات ؛ فيأتي فيهم القول الحق : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ .

هم إذن سيعذبون مرتين في الدنيا ، ثم يردون لعذاب الآخرة ، وأول عذاب لمن يستر نفاقه أن يفضح نفاقه ؛ ولذلك خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق ، قم يا فلان فأنت منافق "

أو تأتي له مصائب الدنيا . ولقائل أن يقول : وهل المصائب عذاب للمنافق ، إن المصائب قد تصيب المؤمن أيضاً ؟

ونرد : إن المصائب تاتي للمؤمن لإفادته ، ولكنها تأتي للمنافق لإبادته . فالمؤمن حين يصاب ؛ إما أن يكفر الله به عنه ذنباً ؛ وإما أن يرفعه درجة به لكن المصائب حين تصيب المنافق فهي مغرم فقط ؛ لأن المنافق لا يرجو الآخرة ؛ ولذلك يقال :

إن المصاب ليس من أصيب فيما يجب ، ولكن المصاب هو من حرم الثواب .

فإن استقبل المؤمن المصيبة بالرضا ، وعلم أن الذي أجراها عليه حكيم ، ولا يجري عليه إلا ما يعلم الخير وإن لم يعلمه ؛ فهو ينال الثواب على الصبر والأجر على الرضا ، وهكذا يخرج من دائرة الألم العنيف . أما غير المؤمن فهو يتمرد على القدر ، وبعدم إيمانه يُحْرَم من الثواب .

أو أن العذاب مرتين ، وغير الفضيحة بنفاقهم ، فيتمثل في محاولتهم أن يظهروا بمظهر الإيمان والإسلام ، فيخرج الواحد منهم الزكاة من ماله ، والمال محبب للنفس ؛ لذلك فهو يخرج الزكاة مرغماً ؛ ويشعر أنه قد خسر المال لأنه لا يؤمن بإله ؛ لذلك فمصيبته كبيرة . وقد يرسل المنافق ابنه للحرب وهو يعلم أنه ليس له في ذلك ثواب ، وهذا لون آخر من العذاب .

وهذا العذاب متحقق بقول الحق : ﴿ وَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدنيا . . . ﴾ [التوبة : 85]

أو أن يكون العذاب في الدنيا هو ما يرونه حين تغرغر النفس ، لحظة أن تبلغ الروح الحلقوم ، ويرى المُغَرْغِر الملائكة مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَلَوْ ترى إِذْ يَتَوَفَّى الذين كَفَرُواْ الملائكة يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الحريق ﴾ [الأنفال : 50]

وكل هذه ألوان من العذاب في الدنيا .

والإنسان – كما نعلم – في استقبال الزمن له ثلاث حالات : زمن هو حياته الدنيا ، وزمن هو زمن موته ، وزمن هو زمن آخرته . فحين يصاب المؤمن في الزمن الأول – زمن حياته – يُعزِّيه في مصابه الزمنُ الأخير ، وهو زمن آخرته .

أما حين يصاب الكافر أو المنافق في زمن حياته ، فلا شيء يعزيه أبداً ؛ لأنه لا يؤمن بالله ولا هو يطمع في شيء من خيره سبحانه .

ويأتيه الزمن الثاني ، وهو زمن الموت ، وفيه عذاب القبر .

والعذاب إنما يكون بأحد اثنين : إما عرض ما يعذب به ، أو دخول فيما يعذب به ، وهذا يكون في الآخرة . أما عرض العذاب فهو القبر كأنه يقول لك : انظر ما ينتظرك . وما دام الإنسان يرى الشر الذي ينتظره ، أليس هذا عذاباً ؟

إنه عذاب مؤكد .

(186/347)

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ولو قال الحق : " نعذبهم مرتين " فقط بدون السين ، لصار لها معنى آخر مختلف تماماً . يتلخص في أن من يصيبه عذاب ، فقد انتهى حسابه . لكن قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم ﴾ يؤكد لنا كلما قرأناه أن العذاب متصل .

ويُنهي الحق الآية الكريمة بقوله :

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وكلمة ﴿ يُرَدُّونَ ﴾ مثلها مثل ﴿ يُرْجعون ﴾ أو ﴿ يَرْجعون ﴾ ونحن نقول مرة : "يُرْجعون " وأخرى "يَرْجعون " ، فكأن النفس البشرية تألف جزاءها في قولنا : "يَرْجعون " ، أما قولنا : "يُرْجعون " ففي الكلمة قوة عليا تدفعهم ألا يتقاعسوا .

وهكذا نجد المعذَّب إما مدفوع بقوة عُليا ، وإما أن توجد فيه بقوة ذاتية تجعله يذهب إلى العذاب . والإنسان قد يتصرف تصرفاً ما ، ثم يرد إلى أفكاره فلا يعجبه هذا التصرف ، ويستقبل نفسه بالتوبيخ وبالتعنيف ؛ لأن هناك إلحاحاً من النفس على العقوبة ، وهو إلحاح يأتي من ذات النفس .

والنفس الأمارة بالسوء قد تقضي حياتك معها في أمر بالسوء ، ثم حين يأتي العقاب فأنت تقول لها : " اشربي أيتها النفس نتيجة ما فعلت " .

إذن فالمعذَّب يُدفع مرة للعذاب ، وأخرى يندفع بذاته .

﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومثلما قلنا من قبل : فإن هناك ألواناً متعددة من العذاب ، فهناك العذاب العظيم ، والأليم ، والمهين ، والمقيم . والعذاب العظيم يأتي إما بأسباب وإما بمسبِّب ، وعذاب الدنيا كله بأسباب ، فقد يكون العذاب بالعصا ، أو بالكرباج ، أو بالإهانة ، والأسباب تختلف قوة وضعفاً ، أما عذاب الآخرة فهو بمسبِّب ، والمعذِّب في الآخرة واحد وقوته لا نهاية لها ، وإن قسْتَ عذاب الآخرة بالعذاب في الدنيا فمن المؤكد أن عذاب الآخرة عذاب عَظيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(187/347)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (101) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون . . . ﴾ الآية . قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيباً فقال : قم يا فلان فاخرج فإنك منافق . فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ولم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له ، فلقيهم عمر رضي الله عنه وهم يخرجون من المسجد ، فاختبأ منهم استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا واختبأوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر رضي الله عنه المسجد فإذا الناس لم ينصرفوا . . . ! فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم فهذا العذاب الأول ، والعذاب الثاني عذاب القبر .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة رضي الله عنه في قوله ﴿ وممن حولكم من الأعراب ﴾ قال : جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ قال : أقاموا عليه لم يتوبوا كما تاب آخرون .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ مردوا على النفاق ﴾ قال : ماتوا عليه عبد الله بن أبي ، وأبو عامر الراهب ، والجد بن قيس .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ نحن نعلمهم ﴾ يقول : نحن نعرفهم .

(188/347)

وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ قال : فما بال أقوام يتكلمون على الناس يقولون : فلان في الجنة وفلان في النار ؟ فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال : لا أدري . . . لعمري لأنت بنفسك أعلم منك بأعمال الناس ، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه نبي قال نوح عليه السلام ﴿ وما علمي بما كانوا يعملون ﴾ [الشعراء : 112] وقال شعيب عليه السلام ﴿ وما أنا عليكم بحفيظ ﴾ [الأنعام : 104] وقال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : بالجوع والقتل .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : بالجوع وعذاب القبر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : عذاب في القبر ، وعذاب في النار .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في (عذاب القبر) عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : عذاب في القبر وعذاب في النار .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الربيع رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : يبتلون في الدنيا وعذاب القبر ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ قال : عذاب جهنم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن زيد رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : عذاب في الدنيا بالأموال والأولاد ، وقرأ ﴿ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ﴾ [التوبة : 55] بالمصائب فهي لهم عذاب وهي للمؤمنين أجر . قال : وعذاب الآخرة في النار ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ النار .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه قال : بلغني أن ناساً يقولون ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ يعني القتل وبعد القتل البرزخ ، والبرزخ ما بين الموت إلى البعث ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ يعني عذاب جهنم .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يعذب المنافقين يوم الجمعة بلسانه على المنبر ، وعذاب القبر .

وأخرج ابن مردويه عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال : لقد خطبنا النبي صلى الله عليه وسلم خطبة ما شهدت مثلها قط فقال " أيها الناس إن منكم منافقين فمن سميته فليقم ، قم يا فلان ، قم يا فلان ، حتى قام ستة وثلاثون رجلاً . ثم قال : إن منكم وإن منكم وإن منكم فسلوا الله العافية . فلقي عمر رضي الله عنه رجلاً كان بينه وبينه إخاء فقال : ما شأنك ؟ فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبنا فقال كذا وكذا . فقال عمر رضي الله عنه : أبعدك الله سائر اليوم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(190/347)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ ﴾ : خبر مقدم . و " منافقون " مبتدأ ، و " مَنْ " يجوز أن تكون الموصولةَ والموصوفة ، والظرف صلة أو صفة .

وقوله : ﴿ مِّنَ الأعراب ﴾ لبيان الجنس . وقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ يجوز أن يكونَ نسقاً على " مَنْ " المجرورة ب " مِنْ " فيكونَ المجروران مشتركَيْن في الإخبارِ عن المبتدأ وهو " منافقون " ، كأنه قيل : المنافقون من قومٍ حولَكم ومِنْ أهل المدينة ، وعلى هذا هو من عطف المفردات إذ عَطَفَتْ خبراً على خبر ، وعلى هذا فيكون قوله " مَرَدُوا " مستأنفاً لا محلَّ له . ويجوز أن يكون الكلامُ تمَّ عند قوله " منافقون " ، ويكون قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ خبراً مقدماً ، والمبتدأ بعده محذوفٌ قامت صفتُه مَقامه/ وحَذْفُ الموصوفِ وإقامةُ صفتِه مُقامَه وهي جملة مطردٌ مع " مِنْ " التبعيضية وقد مَرَّ تحريره نحو " منا ظَعَن ومنا أقام " والتقدير : ومن أهلِ المدينة قومٌ أو ناسٌ مردوا ، وعلى هذا فهو من عطفِ الجمل . ويجوز أن يكون " مَرَدُوا " على الوجه الأول صفةً ل " مافقون " ، وقد فُصِل بينه وبين صفته بقوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة ﴾ . والتقدير : وممَّن حولَكم ومِنْ أهلِ المدينة منافقون ماردون . قال ذلك الزجاج ، وتبعه الزمخشري وأبو البقاء أيضاً . واستبعده الشيخ للفصلِ

بالمعطوف بين الصفة وموصوفها ، قال : " فيصير نظيرَ : " في الدار زيدٌ وفي القصرِ العاقلُ " يعني فَفَصَلْتَ بين زيد والعاقل بقولك : " وفي القصر " . وشبَّه الزمخشري حَذْفَ المبتدأ الموصوف في الوجه الثاني وإقامة صفته مُقامَه بقوله :

(191/347)

2538 أنا ابنُ جلا . . . . . .

. . . . . .

قال الشيخ : " إن عنى في مطلق حذف الموصوف فَحَسَنٌ ، وإن كان شبَّهه به في خصوصيته فليس بحسنٍ ؛ لأن حَذْفِ الموصوف مع " مِنْ " مطردٌ ، وقوله : " أنا ابن جلا " ضرورة كقوله :

2539 يَرْمِي بكفَّيْ كان مِنْ أَرْمَى البشَرْ . . . قلت : البيتُ المشار إليه هو قوله :

2540 أنا ابن جَلا وطَلاَّعُ الثَّنايا . . . متى أَضَعِ العِمامةَ تعرفوني

وللنحاةِ في هذا البيت تأويلات ، أحدها : ما تقدم . والآخر : أن هذه الجملة محكية لأنها قد سُمِّي بها هذا الرجل ، فإنَّ " جلا " فيه ضمير فاعل ، ثم سُمِّيَ بها وحُكِيَتْ كما قالوا : " شاب قَرْناها " و " ذرى حَبَّا " وقوله :

2541 نُبِّئْتُ أخوالي بني يزيدُ . . . ظُلْماً علينا لهمُ فَدِيدُ

والثالث : وهو مذهب عيسى بن عمر أنه فعلٌ فارغ من الضمير ، وإنما لم يُنَوَّنْ لأنه عنده غيرُ منصرفٍ فإنه يُمْنع بوزن الفعل المشترك ، فلو سُمِّي بضرب وقتل مَنَعَهما . أمَّا مجردُ الوزنِ من غير نقلٍ مِنْ فعل فلا يُمنع به البتةَ نحو جَمَل وجَبَل .

و" مَرَدوا " أي : مَهَروا وتمرَّنوا . وقد تقدم الكلام على هذه المادة في النساء عند قوله : ﴿ شَيْطَاناً مَّرِيداً ﴾ [الآية : 117] .

قوله : ﴿ لاَ تَعْلَمُهُمْ ﴾ هذه الجملةُ في محلِّ رفعٍ أيضاً صفة ل " منافقون " ويجوز أن تكونَ مستأنفةً ، والعلم هنا يحتمل أن يكونَ على بابه فيتعدَّى لاثنين أي : لا نعلمهم منافقين ، فحذف الثاني للدلالة عليه بتقدُّم ذِكْرِ المنافقين ، ولأن النافقَ من صفات القلب لا يُطَّلع عليه . وأن تكون العِرْفانية فتتعدَّى لواحد ، قاله أبو البقاء . وأمَّا " نحن نعلمهم " فلا يجوز أن تكون إلا على بابها لبحثٍ ذكرتُه لك في الأنفال ، وإن كان الفارسيُّ في " إيضاحه " صرَّح بإسناد المعرفة إليه تعالى ، وهو محذورٌ لما عرفته .

(192/347)

وقوله : ﴿ مَّرَّتَيْنِ ﴾ قد تقدَّم الكلام في نصب " مرة " وأنه من وجهين : إمَّا المصدريةِ وإمَّا الظرفيةِ فكذلك هذا . وهذه التثنية يحتمل أن يكون المرادُ بها شَفْعَ الواحد وعليه الأكثر ، واختلفوا في تفسيرهما ، وأن لا يراد بها التثنية الحقيقية بل يُراد بها التكثيرُ كقوله تعالى : ﴿ فارجعِ البَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ [الملك : 4] أي : كَرَّاتٍ ، بدليل قوله : " ينقلبْ إليك البصرُ خاسئاً وهو حسير " أي مزدجراً وهو كليلٌ ، ولا يصيبُه ذلك " إلا بعد كَرَّات ، ومثلُه . لَبَّيْك وسَعْدَيْك وحنانَيْكَ .

وروى عباس عن أبي عمرو : " سنعذِّبْهم " بسكون الباء وهو على عادته في تخفيفِ توالي الحركات كينصركم وبابه/ وإن كان باب " ينصركم " أحسنَ تسكيناً لكونِ الراءِ حرفَ تكرار ، فكأنه توالي ضمَّتان بخلاف غيره . وقد تقدَّم تحريرُ هذا . وقال الشيخ : " وفي مصحفِ أنس : " سيعذبهم " بالياء " . وقد تقدم أن المصاحف كانت مهملةً من النَّقْط والضبط بالشكل فكيف يُقال هذا ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 111 114. ﴾

(193/347)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾

تشاكل المخلِصُ والمنافِقُ في الصورة فلم يَتَمَيَّزا بالمباني ، وإن تنافيا في الحقائق والمعاني وتقاصر عِلْمُهم عن العرفان فَهَتَك الله لنبيّه أستارَهم . . فَعَرَفَهم ، وهم بإشرافه عليهم جاهلون ، وعلى الإقامة في أوطان نفاقهم مصروفون ، فلم ينفعهم طولُ إمهاله لهم .

﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ : الأولى في الدنيا بالفضيحة فيما ينالهم من المحن والفتن والأمراض ، ولا يحصل لهم عليها في الآخرة عِوَضٌ ولا أَجْرٌ ولا مَسَرَّةٌ ، والثانية عذابُ القبر .

وقيل المرة الأولى بِقَبْضِ أرواحهم ، والثانية عذاب القبر ثم يوم القيامة يُمْتحنون بالعذاب الأكبر .

ويقال المرة الأولى ظنُّهم أنهم على شيء ، والمرة الثانية بخيبة آمالهم وظهور ما لم يحتسبوه لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 58 . 59 ﴾

(194/347)

قوله تعالى ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر هذا القسم المارد الجافي ، ثنى بمقابلة اللين الصافي ، وهي الفرقة التي نجز المتاب عليها والنظر بعين الرحمة إليها فقال : ﴿ وآخرون ﴾ أي ممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة آخرون ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي كلفوا أنفسهم ذكرها توبة منهم ندماً وإقلاعاً وعزماً ولم يفزعوا إلى المعاذير الكاذبة وهو المقتصدون .

ولما كان الخلط جمعاً في امتزاج ، كان بمجرد ذكره يفهم أن المخلوط امتزج بغيره ، فالإتيان بالواو في ﴿ آخر ﴾ يفهم أن المعنى : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً ﴾ بسيىء ﴿ وآخر سيئاً ﴾ بصالح ، فهو من ألطف شاهد لنوع الاحتباك ، ولعل التعبير بما أفهم ذلك إشارة إلى تساوي العملين وأنه ليس أحدهما بأولى أحدهما بأولى من الآخر أن يكون أصلاً ، وقد فسرها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك في أناس رآهم في المنام شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح كما رواه البخاري في التفسير عن سمرة ـ رضى الله عنهم ـ ثم أوجب تحقيق توبتهم الملزومة للاعتراف بقبولها بقوله : ﴿ عسى الله ﴾ أي بما له من الإحاطة بأوصاف الكمال ﴿ أن يتوب عليهم ﴾ فإن ﴿ عسى ﴾ منه سبحانه وتعالى واجبه لأن هذا دأب

الملوك ولعل التعبير بها يفيد – مع الإيذان بأنه لا يجب عليه لأحد شيء وأن كل إحسان يفعله فإنما هو على سبيل الفضل إشارة إلى أنهم صاروا كغيرهم من خلص المؤمنين غير المعصومين في مواقعة التقصير وتوقع الرحمة من الله بالرجوع بهم إلى المراقبة ، فكما أن أولئك معدودون في حزب الله مع هذا التقصير المرجو له العفو فكذلك هؤلاء ؛ ثم علل فعله بهم مرجياً للمزيد بقولع : ﴿ إن الله ﴾ أي ذا الجلال والإكرام ﴿ غفور رحيم ﴾ أي لم يزل موصوفاً بقبول المعرض إذا أقبل وإبدال سيئه بحسن فضلاً منه وإكراماً ؛ روى البخاري في صحيحه في التفسير عن سمرة بن جندب ـ رضى الله عنهم ـ قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لنا : " أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهيا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذاك منزلك ، قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عفا الله عنهم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 381 . 382 ﴾

(195/347)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قوله : ﴿ وَءاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ فيه قولان : الأول : أنهم قوم من المنافقين .

تابوا عن النفاق .

والثاني : أنهم قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك ، لا للكفر والنفاق ، لكن للكسل ، ثم ندموا على ما فعلوا ثم تابوا ، واحتج القائلون بالقول الأول بأن قوله : ﴿ وَءاخَرُونَ ﴾ عطف على قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعراب منافقون ﴾ والعطف يوهم التشريك إلا أنه تعالى وفقهم حتى تابوا ، فلما ذكر الفريق الأول بالمرود على النفاق والمبالغة فيه .

وصف هذه الفرقة بالتوبة والإقلاع عن النفاق .

المسألة الثانية :

روي أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، وقيل : كانوا عشرة .

فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم لما بلغهم ما نزل من المتخلفين فأيقنوا بالهلاك ، وأوثقوا أنفسهم على سواري المسجد فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين وكانت هذه عادته ، فلما قدم من سفره ورآهم موثقين ، سأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله هو الذي يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أني لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزلت هذه الآية فأطلقهم وعذرهم ، فقالوا يا رسول الله هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها ، فتصدق بها وطهرنا ، فقال : " ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً " فنزل قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ [التوبة : 103] الآية .

المسألة الثالثة :

(196/347)

قوله : ﴿ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ قال أهل اللغة : الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء عن معرفة ، ومعناه أنهم أقروا بذنبهم ، وفيه دقيقة ، كأنه قيل لم يعتذروا عن تخلفهم بالأعذار الباطلة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئسما فعلوا وأظهروا الندامة وذموا أنفسهم على ذلك التخلف .

فإن قيل : الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا ؟

قلنا : مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة ، فأما إذا اقترن به الندم على الماضي ، والعزم على تركه في المستقبل ، وكان هذا الندم والتوبة لأجل كونه منهياً عنه من قبل الله تعالى ، كان هذا المجموع توبة ، إلا أنه دل الدليل على أن هؤلاء قد تابوا بدليل قوله تعالى : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ والمفسرون قالوا : إن عسى من الله يدل على الوجوب .

ثم قال تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا وَءاخَرَ سَيِّئاً ﴾ وفيه بحثان :

البحث الأول : في هذا العمل الصالح وجوه : الأول : العمل الصالح هو الاعتراف بالذنب والندامة عليه والتوبة منه ، والسيء هو التخلف عن الغزو .

والثاني : العمل الصالح خروجهم مع الرسول إلى سائر الغزوات والسيء هو تخلفهم عن غزوة تبوك .

والثالث : أن هذه الآية نزلت في حق المسلمين كان العمل الصالح إقدامهم على أعمال البر التي صدرت عنهم .

البحث الثاني : لقائل أن يقول : قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيء مخلوطاً . فما المخلوط به .

وجوابه أن الخلط عبارة عن الجمع المطلق ، وأما قولك خلطته ، فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد منهما بالآخر ، ويتغير كل واحد منهما بسبب تلك المخالطة عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن .

واللائق بهذا الموضع هو الجمع المطلق ، لأن العمل الصالح والعمل السيء إذا حصلا بقي كل واحد منهما كما كان على مذهبنا ، فإن عندنا القول بالإحباط باطل ، والطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب ، والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب ، فقوله تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا وَءاخَرَ سَيّئاً ﴾ فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة ، وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر ، ومما يعين هذه الآية على نفي القول بالمحابطة أنه تعالى وصف العمل الصالح والعمل السيء بالمخالطة .

والمختلطان لا بد وأن يكونا باقيين حال اختلاطهما ، لأن الاختلاط صفة للمختلطين ، وحصول الصفة حال عدم الموصوف محال ، فدل على بقاء العملين حال الاختلاط .

ثم قال تعالى : ﴿ عَسَى الله أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : ههنا سؤال ، وهو أن كلمة ﴿ عَسَى ﴾ شك وهو في حق الله تعالى محال ، وجوابه من وجوه :

الوجه الأول : قال المفسرون : كلمة عسى من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ فَعَسَى الله أَن يَأْتِىَ بالفتح ﴾ [المائدة : 52] وفعل ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن

نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة عسى ، أو لعل ، تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً وأن يكلفني بشيء بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطول ، فذكر كلمة ﴿ عَسَى ﴾ الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثاني : في الجواب ، المقصود منه بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الإنكار والإهمال .

(198/347)

البحث الثاني : قال أصحابنا قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ صريح في أن التوبة لا تحصل إلا من خلق الله تعالى ، والعقل أيضاً دليل عليه ، لأن الأصل في التوبة الندم ، والندم لا يحصل باختيار العبد لأن إرادة الفعل والترك إن كانت فعلاً للعبد افتقر في فعلها إلى إرادة أخرى ، وأيضاً فإن الإنسان قد يكون عظيم الرغبة في فعل معين ، ثم يصير عظيم الندامة عليه ، وحال كونه راغباً فيه لا يمكنه دفع تلك الرغبة عن القلب ، وحال صيرورته نادماً عليه لا يمكنه دفع تلك الندامة عن القلب ، فدل هذا على أنه لا قدرة للعبد على تحصل الندامة ، وعلى تحصيل الرغبة ، قالت المعتزلة : المراد من قوله : يتوب الله أنه يقبل توبته .

والجواب : أن الصرف عن الظاهر إنما يحسن ، إذا ثبت بالدليل أنه لا يمكن إجراء اللفظ على ظاهره ، أما ههنا ، فالدليل العقلي أنه لا يمكن إجراء اللفظ إلا على ظاهره ، فكيف يحسن التأويل .

البحث الثالث : قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ يقتضي أن هذه التوبة إنما تحصل في المستقبل .

وقوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ دل على أن ذلك الاعتراف حصل في الماضي ، وذلك يدل على أن ذلك الاعتراف ما كان نفس التوبة ، بل كان مقدمة للتوبة ، وأن التوبة إنما تحصل بعدها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 139 . 140 ﴾

(199/347)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

وَالِاعْتِرَافُ الْإِقْرَارُ بِالشَّيْءِ عَنْ مَعْرِفَةٍ ؛ لِأَنَّ الْإِقْرَارَ مِنْ قَرَّ الشَّيْءُ إذَا ثَبَتَ ، وَالِاعْتِرَافُ مِنْ الْمَعْرِفَةِ وَإِنَّمَا ذَكَرَ الِاعْتِرَافَ بِالْخَطِيئَةِ عِنْدَ التَّوْبَةِ ؛ لِأَنَّ تَذَكُّرَ قُبْحِ الذَّنْبِ أَدْعَى إلَى إخْلَاصِ

التَّوْبَةِ مِنْهُ وَأَبْعَدُ مِنْ حَالِ مَنْ يُدْعَى إِلَى التَّوْبَةِ مِمَّنْ لَا يَدْرِي مَا هُوَ وَلَا يَعْرِفُ مَوْقِعَهُ مِنْ الضَّرَرِ ، فَأَصَحُّ مَا يَكُونُ مِنْ التَّوْبَةِ أَنْ تَقَعَ مَعَ الِاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ وَلِذَلِكَ حَكَى اللَّهُ تَعَالَى عَنْ آدَمَ وَحَوَّاءَ عِنْدَ تَوْبَتِهِمَا : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنْ الْخَاسِرِينَ ﴾ وَإِنَّمَا قَالَ : ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ لِيَكُونُوا بَيْنَ الطَّمَعِ ، وَالْإِشْفَاقِ فَيَكُونُوا أَبْعَدَ مِنْ الِاتِّكَالِ ، وَالْإِهْمَالِ وَقَالَ الْحَسَنُ : " عَسَى " مِنْ اللَّهِ وَاجِبٌ .

(200/347)

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْمُذْنِبَ لَا يَجُوزُ لَهُ الْيَأْسُ مِنْ التَّوْبَةِ ، وَإِنَّمَا يَعْرُضُ مَا دَامَ يَعْمَلُ مَعَ الشَّرِّ خَيْرًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ وَأَنَّهُ مَتَى كَانَ لِلْمُذْنِبِ رُجُوعٌ إلَى اللَّهِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ ، وَإِنْ كَانَ مُقِيمًا عَلَى الذَّنْبِ أَنَّهُ مَرْجُوُّ الصَّلَاحِ مَأْمُونُ خَيْرِ الْعَاقِبَةِ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ فَالْعَبْدُ ، وَإِنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ فَغَيْرُ جَائِزٍ لَهُ الِانْصِرَافُ عَنْ الْخَيْرِ يَائِسًا مِنْ قَبُولِ تَوْبَتِهِ ؛ لِأَنَّ التَّوْبَةَ مَقْبُولَةٌ مَا بَقِيَ فِي حَالِ التَّكْلِيفِ ، فَأَمَّا مَنْ عَظُمَتْ ذُنُوبُهُ وَكَثُرَتْ مَظَالِمُهُ وَمُوبِقَاتُهُ فَأَعْرَضَ عَنْ فِعْلِ الْخَيْرِ وَالرُّجُوعِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى يَائِسًا مِنْ قَبُولِ تَوْبَتِهِ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وَرُوِيَ أَنَّ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ قَالَ لِحَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيِّ وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ مُعَاوِيَةَ : رُبَّ مَسِيرٍ لَكَ فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ فَقَالَ : أَمَّا مَسِيرِي إلَى أَبِيك فَلَا فَقَالَ الْحَسَنُ : بَلَى ، وَلَكِنَّك اتَّبَعْت مُعَاوِيَةَ عَلَى عَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا يَسِيرٍ وَاَللَّهِ لَئِنْ قَامَ بِك مُعَاوِيَةُ فِي دُنْيَاك قَدْ قَعَدَ بِك فِي دِينِك وَلَوْ كُنْت إذْ فَعَلْت شَرًّا قُلْت خَيْرًا كُنْت مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وَلَكِنَّك أَنْتَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي نَفَرٍ تَخَلَّفُوا عَنْ تَبُوكَ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانُوا عَشَرَةً فِيهِمْ أَبُو لُبَابَةَ بْنُ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ، فَرَبَطَ سَبْعَةٌ مِنْهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِسَوَارِي الْمَسْجِدِ إلَى أَنْ نَزَلَتْ تَوْبَتُهُمْ .

وَقِيلَ : كَانُوا سَبْعَةً فِيهِمْ أَبُو لُبَابَةَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ

﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾

يعني : بتخلفهم عن الغزو وهم : أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن خزام .

﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا ﴾ ، وهو التوبة ، ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا ﴾ بتخلفهم عن غزوة تبوك .

وروى عبد الرزاق ، عن معمر ، عن الزهري قال : تخلف أبو لبابة عن غزوة تبوك ، فربط نفسه بسارية المسجد ، ثم قال : والله لا أحلّ نفسي منها ، ولا أذوق طعاماً ، ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ .

فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً ، حتى كاد يخر مغشياً عليه ، حتى تاب الله عليه فقيل له : قد تيب عليك .

فقال : والله لا أحل نفسي ، حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني .

فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فحلّه بيده .

ثم قال أبو لبابة : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب ، وأن انخلع من مالي كله وأجعله صدقة لله تعالى ولرسوله .

فقال : "يُجْزِيكَ الثُّلُثُ يا أبا لُبَابَة" .

وروي عن الزهري ، عن كعب بن مالك قال : أول أمر عتب على أبي لبابة أنه كان بينه وبين يتيم عذق ، فاختصما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : فقضى به لأبي لبابة فبكى اليتيم ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : " دَعْهُ " فأبى .

قال : " فَأَعْطِهِ إيّاهُ وَلَكَ مِثْلُهُ فِي الْجَنَّةِ " .

قال : لا .

فانطلق أبو الدحداحة ، فقال لأبي لبابة : بعني هذا العذق بحديقتي ؟ قال : نعم .

ثم انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله أرأيت إن أعطيت هذا اليتيم هذا العذق ألي مثله في الجنة ؟ قال : " نَعَمْ " .

فأعطاه إيّاه قال وأشار أبو لبابة إلى بني قريظة حين نزلوا على حكم سعد بن معاذ .

(203/347)

وأشار إلى حلقه يعني : الذبح ، والثالث أنه تخلف عن غزوة تبوك ثم تيب عليه ، فذلك قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، وعسى من الله واجب أن يتجاوز عنهم .

﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(204/347)

وقال الثعلبى :

﴿ وَآخَرُونَ ﴾

يعني ومن أهل المدينة آخرون أو من الأعراب وليس براجع إلى المنافقين ﴿ اعترفوا ﴾ أقرّوا بك وبربّهم ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً ﴾ وهو إقرارهم وتوبتهم ﴿ وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ أي بعمل سيّء وضع الواو موضع الياء فكما يُقال : إستوى الماء والخبث أي بالخبث وخلطت الماء واللبن أي باللبن فالعمل السيء تخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركهم الجهاد ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وعسى ولعل من الله واجب وهما حرف ترجّ. ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ نزلت هذه الآية في " قوم كانوا تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ثم ندموا عليه وتذمموا ، وقالوا : نكون في الكن والظلال مع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد والله لنوثقنّ أنفسنا بالقيود في أيدينا حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا أو يعذبنا ، وبقوا أنفسهم بسواري المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ بهم فرآهم فقال : مَن هؤلاء ؟ قالوا : تخلّفوا عنك فعاهدوا الله ألاّ يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وتعذرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " وأنا أقسم بالله لا أُطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ، رغبوا عني وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين " فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فلما

نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم فلما أُطلقوا قالوا : يا رسول الله هذه أموالنا التي خلّفتنا عنك فتصدّق بها عنا وطهّرنا واستغفر لنا .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً " فأنزل الله عزّوجل : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(205/347)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾

فيهم قولان :

أحدهما : أنهم سبعة من الأنصار منهم أو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، كانوا من جملة العشرة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك ، فربطوا أنفسهم لما ندموا على تأخرهم إلى سواري المسجد ليطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إن عفا عنهم ، فلما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بهم وكانوا على طريقة فسأل عنهم فأخبر بحالهم فقال : " لاَ أَعذرُهُمْ وَلاَ أُطْلِقُهم حَتَّى يَكونَ اللَّهَ تعالَى هُوَ

الَّذِي يَعْذُرُهم ويُطْلِقُهُمْ " فنزلت هذه الآية فيهم فأطلقهم ، وهذا قول ابن عباس .

الثاني : أنه أبو لبابة وحده قال لبني قريظة حين أرادوا النزول على حكم النبي صلى الله عليه وسلم إنه ذابحكم إن نزلتم على حكمه ، قاله مجاهد .

﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : أن الصالح : الجهاد ، والسيء ، التأخر عنه ، قاله السدي .

الثاني : أن السيىء : الذنب والصالح : التوبة ، قاله بعض التابعين .

الثالث : ما قاله الحسن : ذنباً وسوطاً لا ذهباً فروطاً ، ولا ساقطاً سقوطاً . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(206/347)

وقال ابن عطية :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

(207/347)

المعنى ومن هذه الطوائف ﴿ آخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ ، واختلف في تأويل هذه الآية فقال ابن عباس فيما روي عنه وأبو عثمان : هي في الأعراب وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ، فهي آية ترج على هذا ، وأسند الطبري هذا عن حجاج بن أبي زينب قال سمعت أبا عثمان يقول : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ ، وقال قتادة بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة ، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله فأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد ، وأقسم أن لا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحله ، وذكر هذا الطبري عن مجاهد ، وذكره ابن إسحاق في كتاب السير أوعب وأتقن ، وقالت فرقة عظيمة : بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك ، فكان عملهم السيىء التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة ، واختلفوا في " الصالح " فقال الطبري وغيره الاعتراف والتوبة والندم ، وقالت فرقة بل " الصالح " غزوهم فيما سلف من غزو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عنوا بهذه الآية ، فقال ابن عباس : كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة ، وبقي

الثلاثة الذين خلفوا دون ربط المذكورون بعد هذا ، وقال زيد بن أسلم كانوا ثمانية منهم كردم ومرداس وأبو قيس وأبو لبابة ، وقال قتادة : كانوا سبعة ، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة : كانوا خمسة ، وكلهم قال كان فيهم أبو لبابة ، وذكر قتادة فيهم الجد بن قيس وهو فيما أعلم وهم لأن الجد لم يكن نزوله توبة ، وأما قوله ﴿ وآخر ﴾ فهو بمعنى بآخر وهما متقاربان ، و﴿ عسى ﴾ من الله واجبة .

(208/347)

وروي في خبر الذين ربطوا أنفسهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل المسجد فرآهم قال ما بال هؤلاء ؟ فقيل له إنهم تابوا وأقسموا أن لا ينحلوا حتى يحلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعذرهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وأنا والله لا أحلهم ولا أعذرهم إلا أن يأمرني الله بذلك ، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(209/347)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾

اختلفوا فيمن نزلت على قولين .

أحدهما : " أنهم عشرة رهط تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فلما دنا رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أوثق سبعةٌ منهم أنفسَهم بسواري المسجد .

فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من هؤلاء ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلَّفوا عنك ، فأقسموا بالله لا يطلقون أنفسهم حتى تطلقهم أنت وتعذرهم ، فقال : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلَّفوا عن الغزو مع المسلمين فنزلت هذه الآية ، فأرسل إليهم فأطلقهم وعذرهم " ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وروى العوفي عن ابن عباس : أن الذين تخلفوا كانوا ستة ، فأوثق أبو لبابة نفسه ورجلان معه ، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم فلما نزلت هذه الآية ، أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم .

وروى أبو صالح عن ابن عباس : أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس ابن ثعلبة ، ووديعة بن خِذام الأنصاري .

وقال سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وزيد ابن أسلم : كانوا ثمانية .

وقال قتادة : ذُكر لنا أنهم كانوا سبعة .

والثاني : أنها نزلت في أبي لبابة وحده .

واختلفوا في ذنبه على قولين .

أحدهما : أنه خان الله ورسوله باشارته إلى بني قريظة حين شاوروه في النزول على حكم سعد أنه الذبح ، وهذا قول مجاهد ، وقد شرحناه في [الأنفال : 27] .

والثاني : أنه تخلُّفه عن تبوك ، قاله الزهري .

فأما الاعتراف ، فهو الاقرار بالشيء عن معرفة .

والاعتراف بالذنب أدعى إلى صدق التوبة والقبول .

قوله تعالى : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قال ابن جرير : وُضع الواوُ مكان الباء ، والمعنى : بآخر سيء ، كما تقول : خلطت الماءَ واللبن .

وفي ذلك العمل قولان .

(210/347)

أحدهما : أن العمل الصالح : ما سبق من جهادهم ، والسيء : التأخر عن الجهاد ، قاله السدي .

والثاني : أن العمل الصالح : توبتهم ، والسيء : تخلُّفهم ، ذكره الفراء .

وفي قوله "عسى" قولان .

أحدهما : أنه واجب من الله تعالى ، قاله ابن عباس .

والثاني : أنه ترديد لهم بين الطمع والإشفاق ، وذلك يصد عن اللهو والإهمال . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(211/347)

وقال القرطبى :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

أي ومن أهل المدينة وممن حولكم قوم أقروا بذنوبهم ، وآخرون مرجون لأمر الله يحكم فيهم بما يريد .

فالصنف الأول يحتمل أنهم كانوا منافقين وما مردوا على النفاق ، ويحتمل أنهم كانوا مؤمنين

، وقال ابن عباس : نزلت في عشرة تخلّفوا عن غزوة تبوك فأوثق سبعة منهم أنفسهم في سواري المسجد .

وقال بنحوه قتادة وقال : وفيهم نزل : "خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً" ؛ ذكره المهدوي .

وقال زيد بن اسلم : كانوا ثمانية .

وقيل : كانوا ستة .

وقيل : خمسة .

وقال مجاهد : نزلت الآية في أبي لُبابة الأنصاريّ خاصة في شأنه مع بني قُريظة ؛ وذلك أنهم كلّموه في النزول على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فأشار لهم إلى حلَقه .

يريد أن النبيّ صلى الله عليه وسلم يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد ، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ؛ فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ، ونزلت هذه الآية ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحلّه ؛ ذكره الطبريّ عن مجاهد ، وذكره ابن إسحاق في السيرة أَوْعَب من هذا .

وقال أشهب عن مالك : نزلت "وآخرُون" في شأن أبي لبابة وأصحابه .

وقال حين أصاب الذنب : يا رسول الله ، أجاورك وأنخلع من مالي ؟ فقال : "يجزيك من ذلك الثلث" وقد قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ورواه ابن القاسم وابن وهب عن مالك .

والجمهور أن الآية نزلت في شأن المتخلّفين عن غزوة تبوك ، وكانوا ربطوا أنفسهم كما فعل أبو لُبابة ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقهم ويرضى عنهم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم رَغبوا عنّي وتخلّفوا عن الغزو مع المسلمين " فأنزل الله هذه الآية ؛ فلما نزلت أرسل إليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم .

فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلّفتْنا عنك ، فتصدّق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا .

فقال : " ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً " فأنزل الله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية .

قال ابن عباس : كانوا عشرة أنفس منهم أبو لبابة ؛ فأخذ ثلث أموالهم وكانت كفارة الذنوب التي أصابوها .

فكان عملهم السيء التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة .

واختلفوا في الصالح ؛ فقال الطبريّ وغيره : الاعتراف والتوبة والندم .

وقيل : عملهم الصالح الذي عملوه أنهم لحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربطوا أنفسهم بسواري المسجد وقالوا : لا نقرب أهلاً ولا ولداً حتى ينزل الله عذرنا .

وقالت فرقة : بل العمل الصالح غزْوُهم فيما سلف من غزو النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهذه الآية وإن كانت نزلت في أعرابٍ فهي عامّة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة ؛ فهي ترجى .

ذكر الطبري عن حجاج بن أبي زينب قال : سمعت أبا عثمان يقول : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ .

(213/347)

وفي البخاري عن سُمرة بن جُنْدبُ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : " أتاني الليلة آتيان فابتعثاني فانتهينا إلى مدينة مبنية بِلبنٍ ذهبٍ ولبنٍ فضّة فتلقانا رجال شَطْرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راءٍ وشَطْرٌ كأقبح ما أنت راءٍ قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السُّوء عنهم فصاروا في أحسن صورة قالا لي هذه جنة عَدْن وهذاك منزلك قالا : أمّا القوم الذي كانوا شَطْر منهم حَسَن وشطر منهم قبيح

فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم " وذكر البيهقي من حديث الربيع بن أنس عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حديث الإسراء وفيه قال : " ثم صعد بي إلى السماء . . .

.

" ثم ذكر الحديث إلى أن ذكر صعوده إلى السماء السابعة فقالوا : " حَيّاه الله من أخ وخليفة ، فنعم الأخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء فإذا برجل أشْمط جالسٍ على كرسي عند باب الجنة وعنده قوم بيض الوجوه وقوم سود الوجوه وفي ألوانهم شيء فأتوا نهراً فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خَلَص من ألوانهم شيء ثم إنهم أتوا نهراً آخر فاغتسلوا فيه فخرجوا منه وقد خلص من ألوانهم شيء ثم دخلوا النهر الثالث فخرجوا منه وقد خلصت ألوانهم مثلَ ألوان أصحابهم فجلسوا إلى أصحابهم فقال يا جبريل من هؤلاء بيض الوجوه وهؤلاء الذين في ألوانهم شيء فدخلوا النهر وقد خلصت ألوانهم فقال هذا أبوك إبراهيم هو أوّل رجل شَمَط على وجه الأرض وهؤلاء بيض الوجوه قوم لم يلبسوا إيمانهم بظلم قال وأما هؤلاء الذين في ألوانهم شيء خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم .

فأما النهر الأول فرحمة الله وأما النهر الثاني فنعمة الله .

وأما النهر الثالث فسقاهم ربهم شراباً طهوراً " وذكر الحديث .

والواو في قوله : ﴿ وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ قيل : هي بمعنى الباء ، وقيل : بمعنى مع ؛ كقولك استوى الماء والخشبة .

(214/347)

وأنكر ذلك الكوفيون وقالوا : لأن الخشبة لا يجوز تقديمها على الماء ، و "آخَرَ" في الآية يجوز تقديمه على الأوّل ؛ فهو بمنزلة خلطت الماء باللبن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(215/347)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾

فيه قولان : أحدهما : أنهم قوم من المنافقين تابوا من نفاقهم وأخلصوا وحجة هذا القول أن قوله تعالى وآخرون عطف على قوله وممن حولكم من الأعراب منافقون والعطف موهم ويعضده ما نقله الطبري .

عن ابن عباس أنه قال : هم الأعراب .

والقول الثاني : وهو قول جمهور المفسرين إنها نزلت في جماعة من المسلمين من أهل المدينة تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك ثم ندموا على ذلك .

واختلف المفسرون في عددهم فروي عن ابن عباس أنهم كانوا عشرة منهم أبو لبابة وروي أنهم كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم كانوا ثمانية أحدهم أبو لبابة وثقال وقال قتادة والضحاك : كانوا سبعة أحدهم أبو لبابة .

وقيل : كانوا ثلاثة : أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، وذلك أنهم كانوا تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك ثم ندموا بعد ذلك وتابوا وقالوا أنكون في الظلال ومع النساء ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في الجهاد واللأواء ؟ فلما رجع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من سفره وقرب من المدينة قالوا : والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يطلقنا ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع النبي (صلى الله عليه وسلم) مرَّ بهم فرآهم فقال : " من هؤلاء " ؟ فقالوا : هؤلاء الذين تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم " ، ورغبوا عني وتخلفوا عن الغزوة مع المسلمين .

فأنزل الله هذه الآية فأرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إليهم فأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك خذها فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً " فأنزل الله : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم الآية .

وقال قوم : نزلت هذه الآية في أبي لبابة خاصة واختلفوا في ذنبه الذي تاب منه فقال مجاهد : نزلت في أبي لبابة حين قال لبني قريظة : إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى حلقه فندم على ذلك وربط نفسه بسارية .

وقال : والله لا أحل نفسي ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ، فإنزل الله هذه الآية فقيل له قد تيب عليك فقال : والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يحلني فجاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فحله بيده فقال أبو لبابة : يا رسول الله إن من توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله (صلى الله عليه وسلم) فقال يجزيك الثلث يا أبا لبابة .

قالوا جميعاً فأخذ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثلث أموالهم وترك لهم الثلثين لأن الله سبحانه وتعالى قال : خذ من أموالهم ولم يقل خذ أموالهم .

لأن لفظة " من " تقتضي التبعيض .

وقال الحسن وقتادة : وهؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلفوا وسيأتي خبرهم .

أما تفسير الآية : فقوله تعالى : وآخرون اعترفوا بذنوبهم قال أهل المعاني : الاعتراف عبارة عن الإقرار بالشيء ومعناه أنهم أقروا بذنبهم وفيه دقيقة وهي أنهم لم يعتذروا عن تخلفهم بأعذار باطلة كغيرهم من المنافقين ولكن اعترفوا على أنفسهم بذنوبهم وندموا على ما فعلوا .

فإن قلت : الاعتراف بالذنب هل يكون توبة أم لا ؟

(217/347)

قلت : مجرد الاعتراف بالذنب لا يكون توبة فإذا اقترن الاعتراف بالندم على الماضي من الذنب والعزم على تركه في المستقبل يكون ذلك الاعتراف والندم توبة .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قيل : أراد بالعمل الصالح إقرارهم بالذنب وتوبتهم منه والعمل السيئ هو تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله (صلى الله

عليه وسلم) .

وقيل : العمل الصالح هو خروجهم مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى سائر الغزوات والسيئ هو تخلفهم عنه في غزوة تبوك .

وقيل : إن العمل الصالح يعم جميع أعمال البر والطاعة والسيئ ما كان ضده فعلى هذا تكون الآية في حق جميع المسلمين والحمل على العموم أولى وإن كان السبب مخصوصاً بمن تخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك .

وروى الطبري عن أبي عثمان قال ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله وآخرون اعترفوا بذنوبهم .

فإن قلت قد جعل كل واحد من العمل الصالح والسيئ مخلوطاً فما المخلوط به .

قلت : إن الخلط عبارة عن الجمع المطلق فأما قولك خلطته فإنما يحسن في الموضع الذي يمتزج كل واحد من الخليطين بالآخر ويتغير به عن صفته الأصلية كقولك خلطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن فتنوب الواو عن الباء فيكون معنى الآية على هذا خلطوا عملاً صالحاً بآخر ذكره غالب المفسرين وأنكره الإمام فخر الدين الرازي .

وقال : اللائق بهذا الموضع الجمع المطلق لأن العمل الصالح والعمل السيئ إذا حصلا معاً بقي كل واحد منهما على حاله كما هو مذهبنا فإن عندنا القول بالإحباط باطل فالطاعة تبقى موجبة للمدح والثواب والمعصية تبقى موجبة للذم والعقاب فقوله سبحانه وتعالى خلطوا

عملاً صالحاً وآخر سيئاً فيه تنبيه على نفي القول بالمحابطة وأنه بقي كل واحد منهما كما كان من غير أن يتأثر أحدهما بالآخر فليس إلا الجمع الملطق .

(218/347)

وقال الواحدي : العرب تقول خالطت الماء باللبن وخلطت الماء واللبن كما تقول جمعت زيداً وعمراً .

والواو في الآية أحسن من الباء لأنه أريد معنى الجمع لا حقيقة الخلط .

ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيئ كما يختلط الماء باللبن لكن قد يجمع بينهما وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ قال ابن عباس وجمهور المفسرين : عسى من الله واجب والدليل عليه قوله سبحانه وتعالى : فعسى الله أن يأتي بالفتح وقد فعل ذلك .

وقال أهل المعاني : لفظة عسى هنا تفيد الطمع والإشفاق لأنه أبعد من الاتكال والإهمال .

وقيل : إن الله سبحانه وتعالى لا يجب عليه شيء بل كل ما يفعله على سبيل التفضل والتطول والإحسان فذكر لفظة عسى التي هي للترجي والطمع حتى يكون العبد بين

الترجي والإشفاق ولكن هو إلى نيل ما يرجوه منه أقرب لأنه ختم الآية بقوله ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ وهذا يفيد إنجاز الوعد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(219/347)

وقال أبو حيان :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾

نزلت في عشرة رهط تخلفوا عن غزوة تبوك فلما دنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) من المدينة أوثق سبعة منهم .

وقيل : كانوا ثمانية منهم : كردم ، ومرداس ، وأبو قيس ، وأبو لبابة .

وقيل : سبعة .

وقيل : ستة أوثق ثلاثة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، فيهم أبو لبابة .

وقيل : كانوا خمسة .

وقيل : ثلاثة أبو لبابة بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن خذام الأنصاري .

وقيل : نزلت في أبي لبابة وحده .

ويبعد ذلك من لفظ وآخرون ، لأنه جمع ، فدخل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المسجد حين قدم فصلى فيه ركعتين ، وكانت عادته كلما قدم من سفر ، فرآهم موثقين فسأل عنهم : فذكروا أنهم أقسموا لا يحلون أنفسهم حتى يكون رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هو الذي يحلهم ، فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، رغبوا عني ، وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين " فنزلت ، فأطلقهم وعذرهم .

وقال مجاهد : نزلت في أبي لبابة في شأنه مع بني قريظة حين استشاروه في النزول على حكم الله ورسوله ، فأشار هو لهم إلى حلقه يريد أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) يذبحهم إن نزلوا ، فلما افتضح تاب وندم ، وربط نفسه في سارية في المسجد ، وأقسم أن لا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت ، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه .

والاعتراف : الإقرار بالذنب عملاً صالحاً توبة وندماً ، وآخر سيئاً .

أي تخلفاً عن هذه الغزاة قاله : الطبري ، أو خروجاً إلى الجهاد قبل .

وتخلفاً عن هذه قاله : الحسن وغيره .

أو توبة وإثماً قاله : الكلبي .

وعطف أحدهما على الآخر دليل على أنّ كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، وهو بخلاف خلطت الماء باللبن ، فليس فيه إلا أنّ الماء خلط باللبن ، قال معناه الزمخشري : ومتى خلطت شيئاً بشيء صدق على كل واحد منهما أنه مخلوط ومخلوط به ، من حيث مدلولية الخلط ، لأنها أمر نسبي .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهماً ، بمعنى شاة بدرهم .

والاعتراف بالذنب دليل على التوبة ، فلذلك قيل : عسى الله أن يتوب عليهم .

قال ابن عباس : عسى من الله واجب انتهى .

وجاء بلفظ عسى ليكون المؤمن على وجل ، إذ لفظة عسى طمع وإشفاق ، فأبرزت التوبة في صورته ، ثم ختم ذلك بما دل على قبول التوبة وذلك ، صفة الغفران والرحمة .

وهذه الآية وإن نزلت في ناس .

مخصوصين فهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة .

وقال أبو عثمان : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله : وآخرون اعترفوا بذنوبهم .

وفي حديث الإسراء والمعراج من تخريج البيهقي : أنّ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً وتابوا رآهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) حول إبراهيم ، وفي ألوانهم شيء ، وأنهم

خلطت ألوانهم بعد اغتسالهم في أنهر ثلاثة ، وجلسوا إلى أصحابهم البيض الوجوه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(221/347)

وقال أبو السعود :

﴿ وَءاخَرُونَ ﴾

بيانٌ لحال طائفةٍ من المسلمين ضعيفةِ الهِمَمِ في أمور الدينِ وهو عطفٌ على منافقون أي ومنهم يعني وممن حولَكم ومن أهل المدينة قومٌ آخرون ﴿ اعترفوا بِذنُوبِهِمْ ﴾ التي هي تخلُّفهم عن الغزو ، وأيثارُ الدعةِ عليه والرضا بسوء جِوارِ المنافقين ، وندموا على ذلك ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبةِ ولم يُخفوا ما صدر عنهم من الأعمال السيئةِ كما فعله من اعتاد إخفاءَ ما فيه وإبرازَ ما ينافيه من المنافقين الذين اعتذروا بما لا خيرَ فيه من المعاذير المؤكدةِ بالأيمان الفاجرةِ حسب ديدِنهم المألوفِ (وهم رهطٌ من المتخلفين أوثقوا أنفسَهم على سواري المسجدِ عندما بلغهم ما نزل في المتخلّفين فقدم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فدخل المسجد فصلى ركعتين حسب عادتِه الكريمةِ ورآهم كذلك فسأل عن شأنهم فقيل : أنهم أقسموا أن لا يَحُلوا أنفسَهم حتى تحُلَّهم فقال عليه الصلاة والسلام : " وأنا أقسم أن لا

أحُلَّهم حتى أُومرَ فيهم " فنزلت) ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا ﴾ هو ما سبق منهم من الأعمال الصالحةِ والخروجِ إلى المغازي السابقةِ وغيرِها وما لحِق من الاعتراف بذنوبهم في التخلف عن هذه المرة وتذمُّمِهم وندامتِهم على ذلك وتخصيصُه بالاعتراف لا يناسب الخَلْطَ لا سيما على وجه يُؤذِن بتوارد المختلطَيْن وكونِ كلَ منهما مخلوطاً ومخلوطاً به كما يؤذن به تبديلُ الواوِ بالباء في قوله تعالى : ﴿ وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ فإن قولك : خلطتُ الماءَ باللبن يقتضي إيرادَ الماءِ على اللبن دون العكس وقولك : خلطتُ الماءَ واللبنَ معناه إيقاعُ الخلطِ بينهما من غير دلالةٍ على اختصاص أحدِهما بكونه مخلوطاً والآخرِ بكونه مخلوطاً به ، وتركُ تلك الدلالةِ للدلالةِ على جعل كلَ منهما متصفاً بالوصفين جميعاً وذلك فيما نحن فيه بورود كلَ من العملين على الآخر مرةً بعد أخرى ، والمرادُ بالعمل السيء ما صدر عنهم من الأعمال السيئة أولاً وآخراً . وعن الكلبي التوبةُ

(222/347)

والإثمُ وقيل : الواوُ بمعنى الباء كما في قولهم : بعتُ الشاءَ شاةً ودرهماً بمعنى شاةً بدرهم ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يقبل توبتَهم المفهومةَ من اعترافِهم بذنوبهم ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن سيئات التائبِ ويتفضل عليه وهو تعليلٌ لما تفيده كلمةُ عسى

من وجوب القَبولِ فإنها للإطماع الذي هو من أكرم الأكرمين إيجابٌ وأيُّ إيجاب . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(223/347)

وقال الآلوسي :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

﴿ وَءاخَرُونَ ﴾ بيان لحال طائفة من المسلمين ضعيفة الهمم في أمر الدين ولم يكونوا منافقين على الصحيح .

وقيل : هم طائفة من المنافقين إلا أنهم وفقوا للتوبة فتاب الله عليهم .

قيل : وهو مبتدأ خبره جملة ﴿ خَلَطُواْ ﴾ وهي حال بتقدير قد والخبر جملة ﴿ عَسَى الله ﴾ الخ ، والمحققون على أنه معطوف على ﴿ منافقون ﴾ [التوبة : 101] أي ومنهم يعني ممن حولكم أو من أهل المدينة قوم آخرون ﴿ اعترفوا ﴾ أي أقروا عن معرفة ﴿ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ التي هي تخلفهم عن الغزو وإيثار الدعة عليه والرضا بسوء جوار المنافقين ولم يعتذروا بالمعاذير الكاذبة المؤكدة بالإيمان الفاجرة وكانوا على ما أخرج البيهقي في الدلائل .

وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عشرة تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حشر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسوارى المسجد وكان ممر النبي عليه الصلاة والسلام إذا رجع في المسجد عليهم فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله وقد أقسموا أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأنا أقسم بالله تعالى لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم فأنزل الله تعالى الآية فأرسل عليه الصلاة والسلام إليهم فأطلقهم وعذرهم .

وفي رواية أخرى عنه أنهم كانوا ثلاثة ، وأخرج ابن أبي حاتم عن زيد أنهم كانوا ثمانية ، وروي أنهم كانوا خمسة ، والروايات متفقة على أن أبا لبابة بن عبد المنذر منهم ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا ﴾ خروجاً إلى الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَءاخَرَ سَيّئاً ﴾ تخلفاً عنه عليه الصلاة والسلام روي هذا عن الحسن .

(224/347)

والسدى ، وعن الكلبي أن الأول التوبة والثاني الاثم ، وقيل : العمل الصالح يعم جميع البر والطاعة والسيء ما كان ضده ، والخلط المزج وهو يستدعي مخلوطاً ومخلوطاً به والأول هنا هو الأول والثاني هو الثاني عند بعض ، والواو بمعنى الباء كما نقل عن سيبويه في قولهم : بعت الشاء شاة ودرهما ، وهو منا باب الاستعارة لأن الباء للالصاق والواو وللجمع وهما من واد واحد ، ونقل شارح اللبان عن ابن الحاجب إن أصل المثال بعت الشاة بدرهم أي مع درهم ثم كثر ذلك فأبدلوا من باء المصاحبة واواً فوجب أن يعرب ما بعدها بإعراب ما قبلها كما في قولهم : كل رجل وضيعته ، ولا يخفى ما فيه من التكلف .

وذكر الزمخشري أن كل واحد من المتعاطفين مخلوط ومخلوط به لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر كقولك : خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه ، وفيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به وإذا قلته بالواو وجعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما كأنك قلت خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، وحاصله أن المخلوط به في كل واحد من الخلطين هو المخلوط في الآخر لأن الخلط لما اقتضى مخلوطاً به فهو إما الآخر أو غيره والثاني منتف بالأصل والقرينة لدلالة سياق الكلام إذا قيل : خلطت هذا وذاك على أن كلا منهما مخلوط ومخلوط به وهو أبلغ من أن يقال خلطت أحدهما بالآخر إذ فيه خلط واحد وفي الواو خلطان .

واعترض بأن خلط أحدهما بالآخر يستلزم خلط الآخر به ففي كل من الواو والباء خلطان فلا فرق ، وأجيب بأن الواو تفيد الخلطين صريحاً بخلاف الباء فالفرق متحقق ، وفيه تسليم حديث الاستلزام ولا يخفى أن فيه خلطاً حيث لم يفرق فيه بين الخلط والاختلاط ، والحق أن اختلاط أحد الشيئين بالآخر مستلزم لاختلاط الآخر به وأما خلط أحدهما بالآخر فلا يستلزم خلط الآخر به لأن خلط الماء باللبن مثلاً معناه أن يقصد الماء أو لا يجعل مخلوطاً باللبن وظاهر أنه لا يستلزم أن يقصد اللبن أولا بل ينافيه ، فعلى هذا معنى خلط العمل الصالح بالسيء أنهم أتوا أولاً بالصالح ثم استعقبوه سيئاً ومعنى خلط السيء بالصالح أنهم أتوا أولا بالسيء ثم أردفوه بالصالح ، وإلى هذا يشير كلام السكاكي حيث جعل تقدير الآية خلطوا عملاً صالحاً بسيء وآخر سيئاً بصالح أي تارة أطاعوا واحبطوا الطاعة بكبيرة وأخرى عصوا وتداركوا المعصية بالتوبة وهو ظاهر في أن العمل الصالح والسيء في أحد الخلطين غيرهما في الخلط الآخر ، وكلام الزمخشري ظاهر في اتحادهما وفيه ما فيه ، ولذلك رجح ما ذهب إليه السكاكي لكن ما ذكره من الإحباط ميل إلى مذهب المعتزلة ، وادعى بعضهم أن ما في الآية نوع من البديع يسمى الاحتباك والأصل خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيء وخلطوا آخر سيئاً بعمل صالح ، هو خلاف الظاهر .

واستظهر ابن المنير كون الخلط مضمناً معنى العمل والعدول عن الباء لذلك كأنه قيل : عملوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وأنا اختار أن الخلط بمعنى الجمع هنا وإذا اعتبر السياق وسبب النزول يكون المراد من العمل الصالح الاعتراف بالذنوب من التخلف عن الغزو وما معه من السيء تلك الذنوب أنفسها ويكون المقصود بالجمع المتوجه إليه أولاً بالضم هو الاعتراف ، والتعبير عن ذلك بالخلط للاشارة إلى وقوع ذلك الاعتراف على الوجه الكامل حتى كأنه تخلل الذنوب وغير صفتها ، وإذا لم يعتبر سبب النزول يجوز أن يراد من العمل الصالح الاعتراف بالذنوب مطلقاً ومن السيء الذنوب كذلك وتمام الكلام بحاله ، ويجوز أن يراد من العمل الصالح والسيء ما صدر من الأعمال الحسنة والسيئة مطلقاً ، ولعل المتوجه إليه أولى على هذا أيضاً ليجمع العمل الصالح إذ بضمه يفتح باب الخير ، ففي الخبر "أتبع السيئة بالحسنة تمحها" ، وقد حمل بعضهم الحسنة فيه على مطلقها ، وأخرج ابن سعد عن الأسود بن قيس قال : لقي الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما يوماً حبيب بن مسلمة فقال : يا حبيب رب مسير لك في غير طاعة الله تعالى فقال : أما مسيري إلى أبيك فليس من ذلك قال : بلى ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة فلئن قام بك في دنياك فلقد

قعد بك في دينك ولو كنت إذ فعلت شراً فعلت خيراً كان ذلك كما قال الله تعالى : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا وَءاخَرَ سَيّئاً ﴾ ولكنك كما قال الله تعالى :

(227/347)

﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ على قُلُوبِهِمْ مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : 14] والتعبير بالخلط حينئذ يمكن أن يكون لما في ذلك من التغيير أيضاً ، وربما يراد بالخلط مطلق الجمع من غير اعتبار أولية في البين والتعبير بالخلط لعله لمجرد الإيذان بالتخلل فإن الجمع لا يقتضيه ، ويشعر بهذا الحمل ما أخرجه أبو الشيخ والبيهقي عن مطرف قال : إني لأستلقي من الليل على فراشي وأتدبر القرآن فأعرض أعمالي على أعمال أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ [الذاريات : 17] ﴿ يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ [الفرقان : 64] ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ [الزمر : 9] فلا أراني منهم فأعرض نفسي على هذه الآية ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ المصلين ﴾ إلى قوله سبحانه : ﴿ نُكَذّبُ بِيَوْمِ الدين ﴾ [المدثر : 42-46] فأرى القوم مكذبين فلا أراني فيهم فأمر بهذه الآية ﴿ وَءاخَرُونَ الله بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الخ وأرجو أن أكون أنا وأنتم يا اخوتاه منهم ، وكذا ما أخرجاه وغيرهما عن أبي عثمان النهدي قال : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة

من قوله سبحانه : ﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾ الخ والظاهر أنه لم يفهم منها صدور التوبة من هؤلاء الآخرين بل ثبت لهم الحكم المفهوم من قوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ مطلقاً وإلا فهي وكثير من الآيات التي في هذا الباب سواء وأرجى منها عندي قوله تعالى : ﴿ قُلْ يا أهل عِبَادِى الذين أَسْرَفُواْ على أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً ﴾ [الزمر : 53] والمشهور أن الآية يفهم منها ذلك لأن التوبة من الله سبحانه بمعنى قبول التوبة وهو يقتضي صدورها عنهم فكأنه قيل : وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً فتابوا عسى الخ .

(228/347)

وجعل غير واحد الاعتراف دالا على التوبة ولعل ذلك لما بينهما من اللزوم عرفا ، وقال الشهاب : لأنه توبة إذا اقترن بالندم والعزم على عدم العود ، وفيه أن هذا قول بالعموم والخصوص وقد ذكروا أن العام لا يدل على الخاص بإحدى الدلالات الثلاث ، وكلمة ﴿ عَسَى ﴾ للإطماع وهو من أكرم الأكرمين إيجاب وأي إيجاب ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تعليل لما أفادته من وجوب القبول ، وليس هو الوجوب الذي يقول المعتزلة

كما لا يخفى أي إنه تعالى كثير المغفرة والرحمة يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(229/347)

وقال القاسمى :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾

أي : أقروا بها ، وهي تخلفهم عن الغزو ، وإيثار الدعة عليه ، والرضا بسوء جوار المنافقين ، أي : لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً ﴾ كالندم وما سبق من طاعتهم ﴿ وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ كالتخلف عن الجهاد ﴿ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : يقبل توبتهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه .

تنبيهات :

(230/347)

الأول : أخرج ابن مردويه وابن أبي حاتم ، من طريق العوفي عن ابن عباس قال : غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتخلف أبو لبابة وخمسة معه ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلاك وقالوا : نحن في الظلال والطمأنينة مع النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه في الجهاد ! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري ، فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذي يطلقها ، ففعلوا وبقي ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته فقال : < من هؤلاء الموثقون بالسواري > ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا ، فعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم . فقال : < لا أطلقهم ، حتى أومر بإطلاقهم > ، فأنزل الله : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ ، فلما نزلت أطلقهم وعذرهم ، وبقي الثلاثة الذين لم يوثقوا أنفسهم ، لم يذكروا بشيء ، وهم الذين قال الله فيهم : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ الآية ، فجعل أناس يقولون : هلكوا ، إذ لم ينزل عذرهم ، وآخرون يقولون : عسى الله أن يتوب عليهم ، حتى نزلت : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طحلة عن ابن عباس نحوه ، وزاد : فجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم حين أطلقوا ، فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا ، فتصدق بها عنا ، واستغفر لنا فقال : < ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً > ، فأنزل الله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الآية .

وأخرج هذا القدر وحده عن سعيد بن جبير ، والضحاك وزيد بن أسلم وغيرهم .

وأخرج عبد عن قتادة أنها نزلت في سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم

بالسواري ، وهم أبو لبابة ومرداس ، وأوس بن خذام وثعلبة بن وديعة .

(231/347)

وأخرج أبو الشيخ وابن منده في " الصحابة " من طريق الثوري ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : كان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك ستة : أبو لبابة ، وأوس بن خذام ، وثعلبة بن وديعة ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

فجاء أبو لبابة وأوس بن ثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسواري ، وجاءوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ! خذ هذا الذي حبسنا عنك ، فقال : لا أحلهم حتى يكون قتال ، فنزل القرآن : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية ، إسناده قوي ، كذا في " اللباب " .

قال ابن كثير : هذه الآية ، وإن كانت نزلت في أناس معينين ، إلا أنها عامة في كل المذنبين الخاطئين المخلصين .

وقد قال مجاهد : إنها نزلت في أبي لبابة لما قال لبني قريظة إنه الذبح ، وأشار بيده إلى حلقة ، ثم نقل ما تقدم .

الثاني : روى البخاري في التفسير في هذه الآية ، عن سَمُرة بن جُنْدب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنا : < أتاني الليلة آتيان ، فابتعثاني ، فانتهيا إلى مدينة مبنية بلَبِن ذهب ، ولَبِن فضة ، فتلقانا رجل ، شطرٌ من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ، ثم رجعوا إلينا ، قد ذهب ذلك السوء عنهم ، فصاروا في أحسن صورة ، قالا لي : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك . قالا : أما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وتجاوز الله عنهم > .

(232/347)

الثالث : قال الزمخشري : فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، فما المخلوط به ؟ قلت : كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد كل واحد منهما بصاحبه ، فيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً ، واللبن مخلوطاً به ؟ وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن بالماء .

وناقشه الناصر في " الإنتصاف " فقال : التحقيق في هذا أنك إذا قلت : خلطت

الماء باللبن ، فالمصرح به في هذا الكلام أن الماء مخلوط ، واللبن مخلوط به ، والمدول عليه لزوماً ، لا تصريحاً ، كون الماء مخلوطاً به ، واللبن مخلوطاً .

وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً ، وأما ما خلط به كل واحد منهما ، فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما له مخلوط به ، يحتمل أن يكون قرينه أو غيره .

فقول الزمخشري : إن قولك : ـ خلطت الماء واللبن ، يفيد ما يفيد مع الباء ، وزيادة – ليس كذلك .

فالظاهر في الآية – والله أعلم – أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل : عملوا صالحاً وآخر سيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط ، فعبر عنهما معاً به . انتهى .

قال النحرير : يريد الزمخشري أن الواو كالصريح في خلط كلّ بالآخر ، بمنزلة ما إذا قلت : خلطت الماء باللبن ، و خلطت اللبن بالماء ، بخلاف الباء ، فإن مدلولها لفظاً إلا خلط الماء مثلاً باللبن ، وأما خلط اللبن بالماء ، فلو ثبت لم يثبت إلا بطريق الإلتزام ودلالة العقل . انتهى .

وهو متجه ولا حاجة للتضمين المذكور .

ثم قال الزمخشري : ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهماً ، بمعنى شاة بدرهم ، أي : فالواو بمعنى الباء ، ونقل ذلك سيبويه .

(233/347)

وقالوا : إنه استعارة ، لأن الباء للإلصاق ، والواو للجمع ، وهما من واد واحد . وقال ابن الحاجب في قولهم المذكور : أصله شاة بدرهم ، أي : كل شاة بدرهم ، وهو بدل من الشاة ، أي : مع درهم ، ثم كثر فأبدلوا من باء المصاحبة واواً ، فوجب نصبه وإعرابه بإعراب ما قبله ، كقولهم : كل رجل وضيعته .

قال الشهاب : وهو تكلف ، ولذا قالوا : إنه تفسير معنى ، لا إعراب . انتهى .

قال الواحدي : العرب تقول : خلطت الماء باللبن ، وخلطت الماء واللبن ، كما تقول : جمعت زيداً وعمراً . والواو في الآية أحسن من الباء ، لأنه أريد معنى الجمع ، لا حقيقة الخلط ، ألا ترى أن العمل الصالح لا يختلط بالسيئ ، كما يختلط الماء باللبن ، لكن قد يجمع بينهما . انتهى .

وفي الآية نوع من البديع يسمى الإحتباك ، هو مشهور ، لأن المعنى : خلطوا عملاً صالحاً بسيِّئ وآخر سيئاً بصالح .

الرابع : قال الرازي : ههنا سؤال ، وهو أن كلمة عسى شك ، هو في حق الله تعالى محال .

وجوابه من وجوه :

الأول : قال المفسرون : كلمة عسى من الله واجب ، والدليل عليه قوله تعالى :

﴿ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ ﴾ ، وفعل ذلك ، وتحقيق القول فيه أن القرآن نزل على عرف الناس في الكلام ، والسلطان العظيم إذا التمس المحتاج منه شيئاً ، فإنه لا يجيب إليه إلا على سبيل الترجي مع كلمة عسى ، أو لعل تنبيهاً على أنه ليس لأحد أن يلزمني شيئاً ، وأن يكلفني بشيء ، بل كل ما أفعله فإنما أفعله على سبيل التفضل والتطوّل ، فذكر كلمة عسى ، الفائدة فيه هذا المعنى ، مع أنه يفيد القطع بالإجابة .

الوجه الثاني : أن المقصود بيان أنه يجب أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق ، لأنه أبعد من الإتكال والإهمال .

(234/347)

الخامس : قال القاشاني : الإعتراف بالذنب هو إبقاء نور الإستعداد ، ولين الشكيمة ، وعدم رسوخ ملكة الذنب فيه ، لأنه ملك الرجوع والتوبة ، ودليل رؤية قبح الذنب التي لا تكون إلا بنور البصيرة ، وانفتاح عين القلب ، إذ لو ارتكمت الظلمة ورسخت الرذيلة ، ما

استقبحه ، ولم يره ذنباً ، بل رآه فعلاً حسناً ، لمناسبته لحاله ، فإذا عرف أنه ذنب ففيه خير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 505.508 ﴾

(235/347)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي بَيَانِ حَالِ الْأَعْرَابِ مُنَافِقِيهِمْ وَمُؤْمِنِيهِمْ وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا قَدْ نَزَلَتْ هِيَ وَمَا بَعْدَهَا إِلَى آخِرِ السُّورَةِ بَعْدَ وُصُولِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَهِيَ بَدْءُ سِيَاقٍ جَدِيدٍ فِي تَفْصِيلِ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، بُدِئَ

(236/347)

بِذِكْرِ الْأَعْرَابِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ لِمُنَاسَبَةِ مَا قَبْلَهُ وَفَصْلٍ عَنْهُ لِأَنَّهُ سِيَاقٌ جَدِيدٌ مَعَ مَا بَعْدَهُ .

(الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ) بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِحَالِ سُكَّانِ الْبَادِيَةِ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يُسْأَلُ عَنْهُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ فِي مُنَافِقِي

الْحَضَرِ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْقُرَى . فَالْأَعْرَابُ اسْمُ جِنْسٍ لِبَدْوِ الْعَرَبِ ، وَاحِدُهُ أَعْرَابِيٌّ ، وَالْأُنْثَى أَعْرَابِيَّةٌ ، وَالْجَمْعُ أَعَارِيبُ أَوِ الْعَرَبُ اسْمُ جِنْسٍ لِهَذَا الْجِيلِ الَّذِي يَنْطِقُ بِهَذِهِ اللُّغَةِ ، بَدْوِهِ وَحَضَرِهِ ، وَاحِدُهُ عَرَبِيٌّ . وَقَدْ وَصَفَ الْأَعْرَابَ بِأَمْرَيْنِ اقْتَضَتْهُمَا طَبِيعَةُ الْبَدَاوَةِ (الْأَوَّلُ) أَنَّ كُفَّارَهُمْ وَمُنَافِقِيهِمْ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا مِنْ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ . وَلَا سِيَّمَا الَّذِينَ يُقِيمُونَ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ نَفْسِهَا – لِأَنَّهُمْ أَغْلَظُ طِبَاعًا ، وَأَقْسَى قُلُوبًا وَأَقَلُّ ذَوْقًا وَآدَابًا – كَدَأْبِ أَمْثَالِهِمْ مِنْ بَدْوِ سَائِرِ الْأُمَمِ – بِمَا يَقْضُونَ جُلَّ أَعْمَارِهِمْ فِي رَعْيِ الْأَنْعَامِ وَحِمَايَتِهَا مِنْ ضَوَارِي الْوُحُوشِ وَمِنْ تَعَدِّي أَمْثَالِهِمْ عَلَيْهَا وَعَلَى نِسَائِهِمْ وَذَرَارِيِّهِمْ ، فَهُمْ

(237/347)

مَحْرُومُونَ مِنْ وَسَائِلِ الْعُلُومِ الْكَسْبِيَّةِ ، وَالْآدَابِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ (الثَّانِي) أَنَّهُمْ أَجْدَرُ : أَيْ أَحَقُّ وَأَخْلَقُ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ بِأَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فِي كِتَابِهِ وَمَا آتَاهُ مِنَ الْحِكْمَةِ الَّتِي بَيَّنَ بِهَا تِلْكَ الْحُدُودَ بِسُنَنِ أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ . وَفَهْمُ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ اللُّغَوِيَّةِ لَا يَكْفِي فِي عِلْمِ حُدُودِهِ الْعَمَلِيَّةِ . كَانَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا مِنَ الْقُرَى يَتَلَقَّوْنَ عَنْهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كُلَّ مَا يَنْزِلُ مِنَ الْقُرْآنِ وَقْتَ نُزُولِهِ ، وَيَشْهَدُونَ سُنَّتَهُ

فِي الْعَمَلِ بِهِ ، وَكَانَ يُرْسِلُ الْعُمَّالَ إِلَى الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ يُقِيمُونَ فِيهَا وَيُبَلِّغُونَ الْقُرْآنَ ، وَيَحْكُمُونَ بَيْنَ النَّاسِ بِهِ وَبِالسُّنَّةِ الْمُبَيِّنَةِ لَهُ فَيَعْرِفُ أَهْلُهَا تِلْكَ الْحُدُودَ الَّتِي حَدَّهَا اللهُ تَعَالَى وَنَهَاهُمْ أَنْ يَعْتَدُوهَا . وَلَمْ يَكُنْ هَذَا كُلُّهُ مَيْسُورًا لِأَهْلِ الْبَوَادِي ، وَهُمْ مَأْمُورُونَ بِالْهِجْرَةِ ؛ لِأَجْلِ الْعِلْمِ وَالنُّصْرَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ عِلْمٍ وَحَضَارَةٍ .

فَالْأَعْرَابُ أَجْدَرُ بِالْجَهْلِ مِنَ الْحَضَرِ بِطَبِيعَةِ الْبَدَاوَةِ لَا بِضَعْفِ أَفْهَامِهِمْ ، أَوْ بَلَادَةِ أَذْهَانِهِمْ أَوْ ضِيقِ نِطَاقِ بَيَانِهِمْ ، فَقَدْ كَانُوا مَضْرِبَ الْأَمْثَالِ فِي قُوَّةِ الْجَنَانِ ، وَلَوْذَعِيَّةِ الْأَذْهَانِ ، وَذَرَابَةِ اللِّسَانِ وَسَعَةِ بَيْدَاءِ الْبَيَانِ ، وَعَنْهُمْ أَخَذَ رُوَاةُ الْعَرَبِيَّةِ أَكْثَرَ مُفْرَدَاتِ الْعَرَبِيَّةِ وَأَسَالِيبَهَا .

(238/347)

وَالْجَدَارَةُ بِالشَّيْءِ قَدْ تَكُونُ طَبْعِيَّةً ، وَقَدْ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ كَسْبِيَّةٍ ، مِنْ فَنِّيَّةٍ وَشَرْعِيَّةٍ وَأَدَبِيَّةٍ ، وَقَدْ تَكُونُ بِأَسْبَابٍ سَلْبِيَّةٍ اقْتَضَتْهَا حَالَةُ الْمَعِيشَةِ وَالْبِيئَةِ ، قِيلَ : إِنَّهَا مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْجِدَارِ وَهُوَ الْحَائِطُ الَّذِي يَكُونُ حَدًّا لِلْبُسْتَانِ أَوِ الدَّارِ ، وَقِيلَ : مِنْ جُدُرِ الشَّجَرَةِ ، وَيُرَادِفُ الْجَدِيرُ بِالشَّيْءِ وَالْأَجْدَرُ ، الْحَقِيقَ وَالْأَحَقَّ ، وَالْخَلِيقَ وَالْأَخْلَقَ ، وَقَدْ يُسْتَعْمَلُ أَفْعَلُ فِي كُلٍّ مِنْهَا لِلتَّفْضِيلِ مَعَ التَّصْرِيحِ بِالْمُفَضَّلِ عَلَيْهِ غَالِبًا كَحَدِيثِ (وَالثَّيِّبُ أَحَقُّ بِنَفْسِهَا مِنْ وَلِيِّهَا) وَمَعَ تَرْكِهِ لِلْعِلْمِ بِهِ أَحْيَانًا ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ

أَكْبَرُ) (9 : 72) .

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) وَاسِعُ الْعِلْمِ بِأُمُورِ عِبَادِهِ وَصِفَاتِهِمْ وَأَحْوَالِهِمُ الظَّاهِرَةِ مِنْ بَدَاوَةٍ وَحَضَارَةٍ وَعِلْمٍ وَجَهْلٍ ، وَالْبَاطِنَةِ مِنْ إِيمَانٍ وَكُفْرٍ ، وَإِخْلَاصٍ وَنِفَاقٍ تَامِّ الْحِكْمَةِ فِيمَا يَحْكُمُ بِهِ عَلَيْهِمْ ، وَمَا يَشْرَعُهُ لَهُمْ وَمَا يَجْزِيهِمْ بِهِ ، مِنْ نَعِيمٍ مُقِيمٍ ، أَوْ عَذَابٍ أَلِيمٍ .

رَوَى أَحْمَدُ وَأَصْحَابُ السُّنَنِ . مَا عَدَا ابْنَ مَاجَهْ . وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ (مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا ، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ) قَالَ التِّرْمِذِيُّ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ .

(239/347)

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا (مَنْ بَدَا جَفَا ، وَمَنِ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتُتِنَ ، وَمَا ازْدَادَ أَحَدٌ مِنْ سُلْطَانِهِ قُرْبًا إِلَّا ازْدَادَ مِنَ اللَّهِ بُعْدًا) وَسَبَبُ الْأَخِيرِ أَنَّ السَّلَاطِينَ قَلَّمَا يَرْضَوْنَ عَمَّنْ يَلْتَزِمُ الْحَقَّ وَالصِّدْقَ وَالنُّصْحَ الصَّرِيحَ ، وَقَلَّمَا يَأْتِيهِمْ وَيَزْدَادُ قُرْبًا مِنْهُمْ إِلَّا الَّذِي يَمْدَحُهُمْ بِالْبَاطِلِ وَيُعِينُهُمْ عَلَى الظُّلْمِ وَلَوْ بِالتَّأَوُّلِ لَهُمْ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا الْمَعْنَى فِي تَفْسِيرِ (وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ) (61) .

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا) تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ (90) أَنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ

جَاءُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُعَذِّرِينَ لِيَأْذَنَ لَهُمْ فِي الْقُعُودِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ حَالَ الَّذِينَ كَانُوا يُنْفِقُونَ بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ الْجِهَادِ رِيَاءً وَتَقِيَّةً فَيَعُدُّونَ مَا يُنْفِقُونَهُ مِنَ الْمَغَارِمِ وَهِيَ مَا يَلْزَمُهُ الْمَرْءُ مِمَّا يَثْقُلُ عَلَيْهِ فَيَلْتَزِمُهُ كُرْهًا أَوْ طَوْعًا لِدَفْعِ مَكْرُوهٍ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ عَنْ قَوْمِهِ وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ مَنْفَعَةٌ ذَاتِيَّةٌ . وَلَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابُ الْمُنَافِقُونَ يَرْجُونَ بِهَذِهِ النَّفَقَةِ جَزَاءً فِي الْآخِرَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ .

(240/347)

وَلِهَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ : يَعْنِي بِالْمَغْرَمِ أَنَّهُ لَا يَرْجُو ثَوَابًا عِنْدَ اللَّهِ وَلَا مُجَازَاةً وَإِنَّمَا يُعْطِي مَا يُعْطِي مِنَ الصَّدَقَاتِ كُرْهًا . وَعَنِ ابْنِ زَيْدٍ إِنَّمَا يُنْفِقُونَ رِيَاءً اتِّقَاءَ أَنْ يُغْزَوْا وَيُحَارَبُوا وَيُقَاتَلُوا وَيَرَوْنَ نَفَقَاتِهِمْ مَغْرَمًا (قَالَ) وَهُمْ بَنُو أَسَدٍ وَغَطَفَانَ .

(وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ) أَيْ يَنْتَظِرُونَ دَوَائِرَ الزَّمَانِ : أَيْ تَصَارِيفَهُ وَنَوَائِبَهُ الَّتِي تَدُورُ بِالنَّاسِ وَتُحِيطُ بِهِمْ بِشُرُورِهَا أَنْ تَنْزِلَ بِكُمْ فَتُبَدِّلَ قُوَّتَكُمْ ضَعْفًا ، وَعِزَّكُمْ ذُلًّا ، وَانْتِصَارَكُمْ هَزِيمَةً وَكَسْرًا ، فَيَسْتَرِيحُوا مِنْ أَدَاءِ هَذِهِ الْمَغَارِمِ لَكُمْ ، بِالتَّبَعِ لِلْخُرُوجِ مِنْ طَاعَتِكُمْ ، وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ نِفَاقًا لَكُمْ . كَانُوا أَوَّلًا يَتَوَقَّعُونَ ظُهُورَ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَمَّا يَئِسُوا مِنْ ذَلِكَ صَارُوا يَنْتَظِرُونَ مَوْتَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَظُنُّونَ أَنَّ

الْإِسْلَامَ يَمُوتُ بِمَوْتِهِ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - . وَهَكَذَا يُعَلِّلُ الْجَاهِلُ الضَّعِيفُ نَفْسَهُ الْخَبِيثَةَ بِالْأَمَانِيِّ وَالْأَوْهَامِ .

(241/347)

وَإِذَا كَانَ مُنَافِقُو الْمَدِينَةِ الَّذِينَ هُمْ أَجْدَرُ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ أَنْ يَعْلَمُوا مَا فِي الْإِسْلَامِ مِنَ الْقُوَّةِ الذَّاتِيَّةِ ، وَمَا فِي اعْتِصَامِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ بِهِ مِنَ الْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ ، كَانُوا يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ الْهَزِيمَةَ مِنَ الرُّومِ فِي تَبُوكَ ، وَكَانُوا إِنْ أَصَابَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُصِيبَةٌ مِمَّا لَا يَخْلُو عَنْهُ الْبَشَرُ يَفْرَحُونَ وَيَقُولُونَ : (قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ) (9 : 5) أَيِ احْتَطْنَا لِهَذِهِ الْعَاقِبَةِ قَبْلَ وُقُوعِهَا ، فَهَلْ يُسْتَغْرَبُ مِثْلُ هَذَا التَّرَبُّصِ مِنَ الْأَعْرَابِ سُكَّانِ الْبَادِيَةِ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ مَا ذُكِرَ ؟ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَاتِ 50 - 45) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ .

(عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) دُعَاءٌ عَلَيْهِمْ بِمَا يَتَرَبَّصُونَهُ بِالْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ خَبَرٌ بِحَقِيقَةِ حَالِهِمْ مَعَهُمْ ، وَمَآلُ الِاحْتِمَالَيْنِ وَاحِدٌ ؛ لِأَنَّ الْخَبَرَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى حَقٌّ وَمَضْمُونُهُ كَمَضْمُونِ الدُّعَاءِ وَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ، وَالدُّعَاءُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ يُرَادُ بِهِ مَآلُهُ وَهُوَ وُقُوعُ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ وَإِحَاطَتُهُ بِهِمْ .

(242/347)

وَالسَّوْءُ بِالْفَتْحِ فِي قِرَاءَةِ الْجُمْهُورِ : وَهُوَ مَصْدَرُ سَاءَهُ الْأَمْرُ ضِدَّ سَرَّهُ ، وَقَرَأَهُ ابْنُ كَثِيرٍ وَأَبُو عَمْرٍو هَاهُنَا وَفِي سُورَةِ الْفَتْحِ بِالضَّمِّ وَهُوَ اسْمٌ لِمَا يَسُوءُ ، وَالْإِضَافَةُ : كَرَجُلِ صِدْقٍ وَقَدَمِ صِدْقٍ . وَتَقْدِيمُ الْخَبَرِ يُفِيدُ الْحَصْرَ : أَيْ عَلَيْهِمْ وَحْدَهُمُ الدَّائِرَةُ السَّوْأَى تُحِيطُ بِهِمْ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَهَا بِهِمْ ; فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَا عَاقِبَةَ لَهُمْ تَتَرَبَّصُ بِهِمْ إِلَّا مَا يَسُرُّهُمْ وَيُفْرِحُهُمْ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ

وَتَوْفِيقِهِ لَهُمْ ، وَمَا يَسُوءُ أَعْدَاءَهُمْ مِنْ خِذْلَانٍ وَخَيْبَةٍ وَتَعْذِيبٍ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ حَتَّى بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ) (52) وَقَوْلِهِ (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ) (55) .

(وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِهِمُ الْمُعَبِّرَةِ عَنْ شُعُورِهِمْ وَاعْتِقَادِهِمْ فِي نَفَقَاتِهِمْ إِذَا تَحَدَّثُوا بِهَا فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَأَقْوَالِهِمُ الَّتِي يَقُولُونَهَا لِلرَّسُولِ أَوْ لِعُمَّالِهِ عَلَى الصَّدَقَاتِ ، أَوْ لِغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مُرَاءَاةً لَهُمْ ، وَلَا مِنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي يَعْمَلُونَهَا وَمِنْ نِيَّاتِهِمْ وَسَرَائِرِهِمُ الَّتِي يُخْفُونَهَا ، فَهُوَ سَيُحَاسِبُهُمْ عَلَى مَا يَسْمَعُ وَيَعْلَمُ - أَيْ عَلَى كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ - وَيَجْزِيهِمْ بِهِ .

وَلَمَّا ذَكَرَ حَالَ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ الْمُنَافِقِينَ عَطَفَ عَلَيْهِ بَيَانَ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ فَقَالَ .

(وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) إيمَانًا صَادِقًا إذْعَانِيًّا تَصْدُرُ عَنْهُ آثَارُهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . قَالَ مُجَاهِدٌ : هُمْ بَنُو مُقَرِّنٍ مِنْ مُزَيْنَةَ وَهُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ (وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ) (92) الْآيَةَ . وَقَالَ الْكَلْبِيُّ : هُمْ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَجُهَيْنَةُ وَمُزَيْنَةُ ، وَثَمَّ رِوَايَاتٌ أُخْرَى فِيهِمْ وَالنَّصُّ يَشْمَلُ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنْهُمْ وَمِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَقَدْ ذَكَرَ مِنْ وَصْفِهِمْ ضِدَّ مَا ذَكَرَهُ فِي وَصْفِ مَنْ قَبْلَهُمْ فِي أَمْرِ النَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَالَ (وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) أَيْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُهُ وَسِيلَةً لِأَمْرَيْنِ عَظِيمَيْنِ أَوَّلُهُمَا الْقُرُبَاتُ وَالزُّلْفَى عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَثَانِيهِمَا صَلَوَاتُ الرَّسُولِ ، أَيْ أَدْعِيَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَانَ يَدْعُو لِلْمُتَصَدِّقِينَ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ، وَلَمْ يَثْبُتْ فِي النَّصِّ انْتِفَاعُ أَحَدٍ بِعَمَلِ غَيْرِهِ إلَّا الدُّعَاءَ وَمَا يَكُونُ الْمَرْءُ سَبَبًا فِيهِ كَالْوَلَدِ الصَّالِحِ ، وَالسُّنَّةُ الْحَسَنَةُ يُتَّبَعُ فِيهَا . فَهَذَا

الْقَصْدُ فِي اتِّخَاذِ الصَّدَقَاتِ ضِدُّ اتِّخَاذِ الْمُنَافِقِينَ إِيَّاهَا مَغْرَمًا . وَالْقُرُبَاتُ كَالْقُرَبِ جَمْعُ قُرْبَةٍ (بِضَمِّ الْقَافِ) وَهِيَ فِي الْمَنْزِلَةِ وَالْمَكَانَةِ . كَالْقُرْبِ فِي الْمَكَانِ وَالْقُرْبَى فِي الرَّحِمِ ، وَالْأَصْلُ فِي الْكُلِّ وَاحِدٌ : وَهُوَ الدُّنُوُّ مِنَ الشَّيْءِ مُطْلَقًا ، فَقَصْدُ الْقُرْبَةِ فِي الْعَمَلِ هُوَ الْإِخْلَاصُ وَابْتِغَاءُ مَرْضَاةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَثُوبَتِهِ فِيهِ ، وَجَمْعُهَا بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ النَّفَقَاتِ فَفِيهِ إِيمَاءٌ إِلَى إِخْلَاصِهِمْ فِي كُلِّ فَرْدٍ مِنْهَا وَالصَّلَوَاتُ جَمْعُ صَلَاةٍ وَمَعْنَاهَا ، أَوْ أَحَدُ مَعَانِيهَا فِي أَصْلِ اللُّغَةِ الدُّعَاءُ ، وَإِطْلَاقُهَا عَلَى الْعِبَادَةِ الْمَخْصُوصَةِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ شَرْعِيٌّ وَجْهُهُ أَنَّ الدُّعَاءَ هُوَ رُوحُهَا الْأَعْظَمُ ؛ لِأَنَّهُ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَسِرُّهَا الَّذِي تَتَحَقَّقُ بِهِ الْعُبُودِيَّةُ عَلَى أَكْمَلِ وُجُوهِهَا وَهُوَ فِي الْفَاتِحَةِ فَرِيضَةٌ ، وَفِي السُّجُودِ فَضِيلَةٌ وَيَأْتِي قَرِيبًا بَيَانُ هَذِهِ الصَّلَوَاتِ عَلَى الْمُتَصَدِّقِينَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ : (103) .

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى جَزَاءَ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ عَلَى مَا يُشْهَدُ لَهُمْ بِهِ مِنْ صِدْقِ الْإِيمَانِ وَإِخْلَاصِ النِّيَّةِ فِي الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَأَدَائِهِمْ بِهِ حَقَّ اللهِ ، وَهُوَ قَصْدُ الْقُرْبَةِ عِنْدَهُ . وَحَقُّ الرَّسُولِ وَهُوَ طَلَبُ دُعَائِهِ لَهُمْ بِقَبُولِ نَفَقَتِهِمْ وَإِثَابَتِهِمْ عَلَيْهَا ، فَقَالَ بِأُسْلُوبِ الِاسْتِئْنَافِ الْمُشْعِرِ بِالِاهْتِمَامِ

(أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ) وَهُوَ إِخْبَارٌ بِقَبُولِهِ تَعَالَى لِنَفَقَتِهِمْ . مُؤَكَّدٌ بِافْتِتَاحِهِ بِأَدَاةِ التَّنْبِيهِ الدَّالَّةِ عَلَى الِاهْتِمَامِ بِمَا بَعْدَهَا وَهِيَ (أَلَا) وَبِـ (إِنَّ) الدَّالَّةِ عَلَى تَحْقِيقِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ ، وَبِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّهَا قُرْبَةٌ) رَاجِعٌ إِلَى النَّفَقَةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنْ قَوْلِهِ : (مَا يُنْفِقُ) فَإِفْرَادُ الْقُرْبَةِ لِأَنَّهَا خَبَرٌ لِضَمِيرِ الْمُفْرَدِ .

وَقَوْلُهُ : (سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ) تَفْسِيرٌ لِهَذِهِ الْقُرْبَةِ ، وَالْمُرَادُ بِالرَّحْمَةِ هُنَا الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ بِمَنْ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهِيَ هِدَايَةُ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَمَا تَنْتَهِي إِلَيْهِ مِنْ دَارِ نَعِيمٍ وَمَعْنَى إِدْخَالِهِمْ فِيهَا أَنْ يَكُونُوا مَغْمُورِينَ فِيهَا وَتَكُونُ هِيَ مُحِيطَةً بِهِمْ شَامِلَةً لَهُمْ .

وَهَذَا أَبْلَغُ مِنْ مَثَلِ (يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ) (9 : 21) وَالسِّينُ فِي قَوْلِهِ : (سَيُدْخِلُهُمْ) لِتَأْكِيدِ الْوَعْدِ وَتَحْقِيقِهِ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ . وَعَلَّلَهُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أَيْ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ يَغْفِرُ لِلْمُخْلِصِينَ فِي أَعْمَالِهِمْ مَا يُلِمُّونَ بِهِ مِنْ ذَنْبٍ أَوْ تَقْصِيرٍ ، وَيَرْحَمُ الصَّادِقِينَ فِي إِيمَانِهِمْ فَيَهْدِيهِمْ بِهِ إِلَى أَحْسَنِ الْعَمَلِ وَخَيْرِ الْمَصِيرِ . وَفِي الْآيَةِ مِنْ بَلَاغَةِ الْإِيجَازِ مَا يَدُلُّ عَلَى عُلُوِّ مَقَامِ هَؤُلَاءِ الْأَعْرَابِ .

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

هَذَا تَقْسِيمٌ آخَرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْحَضَرِ وَالْبَدْوِ جَمِيعًا ، عَطَفَ عَلَى تَقْسِيمِ الْأَعْرَابِ لِمُشَارَكَتِهِ لَهُ فِي بَيَانِ حَقِيقَةِ جَمَاعَاتِ الْمُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ ، قَالَ :

(247/347)

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) هَذِهِ طَبَقَاتٌ ثَلَاثٌ هِيَ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ الَّتِي هِيَ فِي جُمْلَتِهَا خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (فَالْأُولَى) السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ قِيلَ : هُمُ الَّذِينَ صَلَّوْا إِلَى الْقِبْلَتَيْنِ وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَابْنِ سِيرِينَ وَالْحَسَنِ وَقَتَادَةَ وَغَيْرِهِمْ . وَقِيلَ : هُمْ أَهْلُ بَدْرٍ ، وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَعَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ ، وَقِيلَ : هُمُ الَّذِينَ شَهِدُوا بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ فِي

الْحُدَيْبِيَةِ وَعَلَيْهِ الشَّعْبِيُّ وَلَكِنَّ هَذَا الْقَوْلَ وَمَا قَبْلَهُ فِي السَّابِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ جَمِيعًا وَأَمَّا السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَحْدَهُمْ فَهُمُ الَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ ; لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا إلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ يَضْطَهِدُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي بِلَادِهِمْ وَيُقَاتِلُونَهُمْ فِي دَارِ الْهِجْرَةِ وَمَا حَوْلَهَا ، وَلَا يُمَكِّنُونَ أَحَدًا مِنَ الْهِجْرَةِ مَا وَجَدُوا إلَى صَدِّهِ سَبِيلًا ، وَلَا مَنْجَاةَ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ شَرِّهِمْ إلَّا بِالْفِرَارِ أَوِ الْجِوَارِ ، فَالَّذِينَ هَاجَرُوا قَبْلَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ

(248/347)

وَأَنْفُسِهِمْ كَانُوا كُلُّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ ، لَيْسَ فِيهِمْ مُنَافِقٌ كَمَا قُلْنَا ; إذْ لَمْ يَكُنْ لِلنِّفَاقِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مُقْتَضًى وَلَا سَبَبٌ ، وَلَا لِلْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ دَاعٍ غَيْرَ الْإِخْلَاصِ فِي الْإِيمَانِ وَإِقَامَةِ بِنَاءِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنْ كَانَ هَؤُلَاءِ يَتَفَاضَلُونَ فِي السَّبْقِ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، فَأَفْضَلُهُمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ فَسَائِرُ الَّذِينَ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْجَنَّةِ بِأَشْخَاصِهِمْ ، وَمَا كُلُّ سَابِقٍ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَسْبُوقٍ ، وَمِنَ السَّابِقِينَ بِالْإِيمَانِ مَنْ سَبَقَهُ غَيْرُهُ بِالْهِجْرَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ آمَنَ عَلَى الْإِطْلَاقِ خَدِيجَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَلَّغَهَا خَبَرَ بَعْثَتِهِ قَبْلَ كُلِّ أَحَدٍ فَصَدَّقَتْ وَآمَنَتْ ، وَيَلِيهَا مَنْ كَانَ مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَيْتِهَا ، وَهُمْ عَلِيٌّ وَكَانَ ابْنَ 10 سِنِينَ ، وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ ، وَمِنْ خَارِجِهِ أَبُو بَكْرٍ

الصِّدِّيقُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّهُ آمَنَ عِنْدَمَا دَعَاهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِغَيْرِ أَدْنَى تَرَيُّثٍ أَوْ تَرَدُّدٍ ، وَلَا فِي أَنَّهُ أَوَّلُ الْمُهَاجِرِينَ مَعَ الرَّسُولِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْغَارِ ، وَأَوَّلُ الدُّعَاةِ إِلَى الْإِسْلَامِ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(249/347)

(الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ) السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُمُ الَّذِينَ بَايَعُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ الْعَقَبَةِ فِي مِنًى فِي الْمَرَّةِ الْأُولَى سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ وَكَانُوا سَبْعَةً ، وَفِي الْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ وَكَانُوا سَبْعِينَ رَجُلًا وَامْرَأَتَيْنِ ، وَيَلِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا حِينَ قَدِمَ عَلَيْهِمْ أَبُو زُرَارَةَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرِ بْنِ هَاشِمٍ مِنْ قِبَلِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُقْرِئُهُمُ الْقُرْآنَ وَيُفَقِّهُهُمْ فِي الدِّينِ ، وَأَرْسَلَهُ مَعَ أَهْلِ الْعَقَبَةِ الثَّانِيَةِ سَنَةَ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ مِنَ الْبَعْثَةِ وَكَذَا مَنْ آمَنَ عِنْدَ قُدُومِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَقَبْلَ أَنْ تَكُونَ لِلْمُسْلِمِينَ قُوَّةٌ غَالِبَةٌ تَتَّقِي وَتَرْتَجِي ، وَهَذِهِ الْقُوَّةُ رَسَخَتْ عَقِبَ هِجْرَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَصَارَ بَعْضُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ نِفَاقًا ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي شَأْنِ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَكَانَتْ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ (إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ) (8 : 49)

وَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَلَا مِنَ الْأَنْصَارِ السَّابِقِينَ وَإِنْ كَانُوا كُلُّهُمْ مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ .

(250/347)

(الطَّبَقَةُ الثَّالِثَةُ) الَّذِينَ اتَّبَعُوا هَؤُلَاءِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي الْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ اتِّبَاعًا بِإِحْسَانٍ ، أَوْ مُحْسِنِينَ فِي الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ ، فَتَضَمَّنَ هَذَا الْقَيْدُ الشَّهَادَةَ لِلسَّابِقِينَ بِكَمَالِ الْإِحْسَانِ ؛ لِأَنَّهُمْ صَارُوا فِيهِ أَئِمَّةً مَتْبُوعِينَ ، وَخَرَجَ بِهِ مَنِ اتَّبَعُوهُمْ فِي ظَاهِرِ الْإِسْلَامِ مُسِيئِينَ غَيْرَ مُحْسِنِينَ فِي هَذَا الِاتِّبَاعِ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ ،

وَمَنِ اتَّبَعُوهُمْ مُحْسِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَعْمَالِ وَمُسِيئِينَ فِي بَعْضٍ وَهُمُ الْمُذْنِبُونَ وَالْآيَاتُ مُبَيِّنَةٌ حَالَ الْفَرِيقَيْنِ .

هَؤُلَاءِ الطَّبَقَاتُ الثَّلَاثُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فِي إِيمَانِهِمْ وَإِسْلَامِهِمْ وَإِحْسَانِهِمْ وَأَعْلَاهُ مَا كَانَ مِنْ هِجْرَتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ ، فَقَبِلَ طَاعَاتِهِمْ ، وَغَفَرَ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَتَجَاوَزَ عَنْ زَلَّاتِهِمْ ، إِذْ بِهِمْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ ، وَنَكَّلَ بِأَعْدَائِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ (وَرَضُوا عَنْهُ) بِمَا وَفَّقَهُمْ لَهُ ، وَأَسْبَغَهُ عَلَيْهِمْ مَنْ نِعَمِهِ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ فَأَنْقَذَهُمْ مِنْ شِرْكٍ وَهَدَاهُمْ مِنْ ضَلَالٍ ، وَأَغْنَاهُمْ مِنْ فَقْرٍ وَأَعَزَّهُمْ مِنْ ذُلٍّ . (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ) تَقَدَّمَ مِثْلُ هَذَا الْوَعْدِ الْكَرِيمِ فِي الْآيَةِ (72) وَفِي آيَاتٍ أُخْرَى ، وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ ، وَأَيُّ فَوْزٍ أَعْظَمُ مِنْ نَعِيمِ الْجَنَّةِ الْخَالِدِ مِنْ بَدَنِيٍّ وَرُوحَانِيٍّ ؟

(251/347)

قَرَأَ الْجُمْهُورُ : (وَالْأَنْصَارِ) بِالْخَفْضِ عَطْفًا عَلَى : (الْمُهَاجِرِينَ) ، وَقَرَأَهَا يَعْقُوبُ بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى (وَالسَّابِقُونَ) وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصَرِيِّ ، بَلْ رُوِيَ أَيْضًا - وَفِيهِ نَظَرٌ عِنْدِي أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَرَأَهَا كَذَلِكَ مَعَ جَعْلِ (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ) صِفَةً لِلْأَنْصَارِ وَأَنْكَرَ عَلَى رَجُلٍ قَرَأَهَا بِالْخَفْضِ ، فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ تَلَقَّاهَا عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ كَاتِبِ الْوَحْيِ وَجَامِعِ الْقُرْآنِ فَسَأَلَ عُمَرُ أُبَيًّا فَصَدَّقَهُ وَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ هَكَذَا سَمِعَهَا مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهَا هَكَذَا أَنْزَلَهَا اللَّهُ عَلَى جِبْرِيلَ وَنَزَلَ بِهَا جِبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ عُمَرُ : لَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَنَّا رُفِعْنَا رِفْعَةً لَا يَبْلُغُهَا أَحَدٌ بَعْدَنَا - يَعْنِي الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ - فَقَالَ أُبَيٌّ : تَصْدِيقُ هَذِهِ الْآيَةِ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْجُمُعَةِ (وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (62 : 3) .

(252/347)

وَلَفْظُ الِاتِّبَاعِ فِيهَا نَصٌّ فِي الصَّحَابَةِ الْمُتَأَخِّرِينَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ فِي صِفَتَيْهِمْ : الْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ ، وَهُوَ بِصِيغَةِ الْمَاضِي فَلَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِهِ التَّابِعُونَ الَّذِينَ تَلَقَّوُا الدِّينَ وَالْعِلْمَ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَلَمْ يَنَالُوا شَرَفَ الصُّحْبَةِ وَالْهِجْرَةِ وَالنُّصْرَةِ ، وَتَسْمِيَةُ هَؤُلَاءِ بِالتَّابِعِينَ اصْطِلَاحِيَّةٌ حَدَثَتْ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ وَانْتِقَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى الرَّفِيقِ الْأَعْلَى .

وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي آخِرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، وَعَبَّرَ فِيهِ عَنِ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بِقَوْلِهِ : (وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ) (8 : 75) وَذَكَرْتُ فِي تَفْسِيرِهَا آيَاتُ سُورَةِ الْحَشْرِ وَقَدْ عَبَّرَ فِيهَا عَنِ الطَّبَقَةِ الثَّالِثَةِ بِقَوْلِهِ : (وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ) (59 : 10) إلَخْ وَلَا شَكَّ فِي مُشَارَكَةِ سَائِرِ

(253/347)

الْمُؤْمِنِينَ لِأُولَئِكَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ فِي رِضَاءِ اللَّهِ وَثَوَابِهِ بِقَدْرِ اتِّبَاعِهِمْ لَهُمْ فِي الْهِجْرَةِ إنْ وُجِدَتْ أَسْبَابُهَا وَالْجِهَادِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ لِنُصْرَةِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهَا نُصْرَتُهُ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ

، وَفِي سَائِرِ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ ، وَإِنَّ الْآيَاتِ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ ؛ لِأَنَّ الْجَزَاءَ فِي حُكْمِ اللهِ الْحَقُّ وَشَرْعُهُ الْعَدْلُ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَلِلسَّابِقِينَ فِي كُلِّ عَمَلٍ فَضِيلَةُ السَّبْقِ وَالْإِمَامَةِ فِي كُلِّ عَصْرٍ ، وَيَمْتَازُ عَصْرُ الرَّسُولِ الَّذِي وُجِدَ فِيهِ الْإِسْلَامُ وَأُقِيمَ بُنْيَانُهُ ، وَرُفِعَتْ أَرْكَانُهُ ، وَنُشِرَتْ فِي الْخَافِقَيْنِ أَعْلَامُهُ ، عَلَى كُلِّ عَصْرٍ بَعْدَهُ ، وَهُمُ الْأَقَلُّونَ الْمُقَرَّبُونَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ) (56 : 10 - 14) .

(254/347)

هَذِهِ الشَّهَادَةُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ لِلطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَدْمَغُ حَقُّهَا بَاطِلَ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يَطْعَنُونَ فِيهِمْ ، وَيَحْثُونَ التُّرَابَ فِي أَفْوَاهِهِمْ ، وَالَّذِي سَنَّ لَهُمْ هَذَا الطَّعْنَ فِي جُمْهُورِهِمُ الْأَعْظَمِ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَبَأٍ الْيَهُودِيُّ الَّذِي أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ لِأَجْلِ إِيقَاعِ الشِّقَاقِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَإِفْسَادِ أَمْرِهِمْ ، ثُمَّ نَظَّمَ الدَّعْوَةَ لِذَلِكَ زَنَادِقَةُ الْمَجُوسِ بَعْدَ فَتْحِ الْمُسْلِمِينَ لِبِلَادِهِمْ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا . ثُمَّ جَعَلَ الرَّفْضَ مَذْهَبًا لَهُ فِرَقٌ ذَاتُ عَقَائِدَ ، مِنْهَا مَا هُوَ كُفْرٌ صَرِيحٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ ابْتِدَاعٌ قَبِيحٌ . وَمِنْهَا مَا هُوَ دُونَ ذَلِكَ .

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي صَخْرٍ حُمَيْدِ بْنِ زِيَادٍ قَالَ : أَتَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ كَعْبٍ الْقُرَظِيَّ فَقُلْتُ لَهُ : مَا

قَوْلُكَ فِي أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ؟ فَقَالَ : جَمِيعُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْجَنَّةِ مُحْسِنُهُمْ وَمُسِيئُهُمْ . فَقُلْتُ : مِنْ أَيْنَ تَقُولُ هَذَا ؟ قَالَ اقْرَأْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) - إِلَى أَنْ قَالَ : (رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا

عَنْهُ) وَقَالَ : (وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ) شَرَطَ فِي التَّابِعِينَ شَرِيطَةً وَهِيَ أَنْ يَتَّبِعُوهُمْ فِي أَفْعَالِهِمُ الْحَسَنَةِ دُونَ السَّيِّئَةِ . قَالَ أَبُو صَخْرٍ : فَكَأَنِّي لَمْ أَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ قَطُّ .

(255/347)

وَالتَّحْقِيقُ مَا قُلْنَاهُ . فَإِنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ وَمَا بَعْدَهَا فِي بَيَانِ حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي عَهْدِ نُزُولِهَا مُؤْمِنِيهِمْ وَمُنَافِقِيهِمْ . وَمُحْسِنِيهِمْ وَمُسِيئِيهِمْ وَالَّذِينَ خَلَطُوا مِنْهُمْ عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا وَالَّذِينَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَالَّذِينَ أُرْجِئَ تَوْبَتُهُمْ . وَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثَ مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ فِي الْإِيمَانِ وَالْهِجْرَةِ وَالْجِهَادِ - عِنْدَمَا أُبِيحَتِ الْهِجْرَةُ وَتَيَسَّرَتْ أَسْبَابُهَا بِصُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ قَدْ فَازُوا كُلُّهُمْ بِرِضَاءِ اللهِ وَوَعْدِهِ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِمْ أَحَدٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ بَلْ كَانَ جَمِيعُ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَا حَوْلَهَا إِلَى أَنْ فُتِحَتْ مَكَّةُ وَأَعْتَقَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَهْلَهَا فَأَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَالسُّيُوفُ تَقْطُرُ مِنْ

دِمَائِهِمْ فَكَانَ مِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ وَضُعَفَاءُ الْإِيمَانِ الْمُقَلِّدُونَ ، وَهُمُ الَّذِينَ كَانُوا سَبَبَ الْهَزِيمَةِ فِي حُنَيْنٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ (25 - 27) ثُمَّ حَسُنَ إِسْلَامُ الْأَكْثَرِينَ ، فَفَتَحُوا الْفُتُوحَاتِ وَنَشَرُوا الْإِسْلَامَ فِي الْعَالَمِينَ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ جَمِيعَ أَفْرَادِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ الثَّلَاثِ ، قَدْ جَازُوا الْقَنْطَرَةَ وَاسْتَبَقُوا

(256/347)

الصِّرَاطَ ، وَمَا عَادَ يُؤَثِّرُ فِي كَمَالِ إِيمَانِهِمْ شَيْءٌ ؛ لِأَنَّ نُورَهُمْ يَمْحُو كُلَّ ظُلْمَةٍ تَطْرَأُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ بِإِلْمَامِهِ بِذَنْبٍ . وَإِذَا كَانَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ يَقُولُ : إِنَّ مَنِ اتَّفَقَ الشَّيْخَانِ عَلَى تَعْدِيلِهِ فِي الرِّوَايَةِ - أَيِ اعْتَمَدَا عَلَيْهِ فِي أُصُولِهِمَا الْمُسْنَدَةِ - قَدْ جَازَ قَنْطَرَةَ الْجَرْحِ ، فَمَاذَا يُقَالُ فِيمَنْ عَدَّلَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَشَهِدَ لَهُمْ بِأَنَّهُ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ؟ ؟ وَسَيَأْتِي أَنَّ اللهَ تَعَالَى تَابَ عَلَى الْمُذْنِبِينَ وَالْمُقَصِّرِينَ وَغَفَرَ لَهُمْ وَلِلشَّيْخِ مُحْيِي الدِّينِ بْنِ عَرَبِيٍّ مُنَاظَرَةٌ مَعَ نَفْسِهِ بَسَطَهَا فِي كِتَابِهِ (رُوحُ الْقُدُسِ) ذَكَرَ فِيهَا أَنَّهُ فِي أَثْنَاءِ مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُكَرَّمَةِ حَدَثَ لِنَفْسِهِ مِنَ الْإِعْجَابِ بِعِبَادَتِهَا وَمَعْرِفَتِهَا مَا دَعَاهُ إِلَى مُنَاظَرَتِهَا وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهَا بِغُرُورِهَا ، فَعَرَضَهَا أَوَّلًا عَلَى الْقُرْآنِ ، فَاعْتَرَفَتْ بِضَعْفِهَا عَنْ بُلُوغِ مَا قَرَّرَهُ مِنْ أَوْجِ الْكَمَالِ ، فَعَرَضَهَا

عَلَى سِيرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَعْذَرَتْ بِحَدِيثِ عَائِشَةَ (كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ) وَهُوَ مَا يَعْجِزُ عَنْهُ مِنْ دُونِهِ

(257/347)

كُلُّ إِنْسَانٍ ، فَعَرَضَهَا عَلَى فَضَائِلِ الصَّحَابَةِ فَأَقَرَّتْ بِعَجْزِهَا عَنِ الرُّجْحَانِ فِي هَذَا الْمِيزَانِ ، وَمُسَابَقَةِ مَنْ رَبَّاهُمُ الْمُصْطَفَى بِكِتَابِ اللهِ وَآيَاتِهِ ، وَزَكَّاهُمْ بِحِكْمَتِهِ فَاقْتَبَسُوا نُورَهُ مِنْ مِشْكَاتِهِ ، وَلَكِنَّهَا أَبَتْ أَنْ تَعْتَرِفَ لِكِبَارِ التَّابِعِينَ بِمِثْلِ هَذَا السَّبْقِ ، كَانَ لَهُ مَعَهَا حِجَاجٌ فِي أُوَيْسٍ الْقَرَنِيِّ ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى حَقَائِقِ عِلْمِ النَّفْسِ .

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ) بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ تَعَالَى حَالَ كَمَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ قَفَّى عَلَيْهِ بِذِكْرِ مَرَدَةِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ أَهْلِ الْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، وَعَطْفُهُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ بَابِ عَطْفِ الضِّدِّ عَلَى الضِّدِّ ، فَهُوَ يَقُولُ : إِنَّ بَعْضَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ مُنَافِقُونَ .

(258/347)

قَالَ الْبَغَوِيُّ : وَهُمْ مِنْ مُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَغِفَارَ ، كَانَتْ مَنَازِلُهُمْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ ، أَيْ كَمَا كَانَ فِيهِمْ مُؤْمِنُونَ صَادِقُونَ دَعَا لَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نَفْسِهَا مُنَافِقِينَ أَيْضًا مِنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ غَيْرَ مَنْ أَعْلَمَ اللهُ وَرَسُولُهُ بِهِمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِمَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الْمُنَافِيَةِ لِلْإِيمَانِ ، وَقَدْ وَصَفَ هَؤُلَاءِ بِقَوْلِهِ : (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) أَيْ مُرِّنُوا عَلَيْهِ وَحَذَقُوهُ حَتَّى بَلَغُوا الْغَايَةَ مِنْ إِتْقَانِهِ وَجَعْلِهِ بِحَيْثُ لَا يَشْعُرُ أَحَدٌ بِهِ لِاتِّقَائِهِمْ جَمِيعَ الْأَمَارَاتِ وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهِ . يُقَالُ : مَرَدَ عَلَى الشَّيْءِ يَمْرُدُ (كَقَعَدَ يَقْعُدُ) مُرُودًا إِذَا مُرِّنَ عَلَيْهِ . وَإِذَا عَتَا وَاشْتَدَّ فِيهِ حَتَّى يَتَعَذَّرَ إِرْجَاعُهُ عَنْهُ . وَمِنَ الْأَوَّلِ الْغُلَامُ الْأَمْرَدُ الَّذِي لَمْ يَنْبُتِ الشَّعْرُ فِي وَجْهِهِ ، وَالشَّجَرَةُ الْمَرْدَاءُ الَّتِي لَا وَرَقَ فِيهَا ، وَمِنْهُ مَرَّدَ الشَّيْءَ تَمْرِيدًا إِذَا صَقَّلَهُ وَمَلَّسَهُ حَتَّى صَارَ أَمْلَسَ لَا حُرْشَةَ فِيهِ وَلَا خُشُونَةَ ، وَمِنْهُ (صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ) (27 : 44) قَالَ فِي اللِّسَانِ وَتَأْوِيلُ الْمُرُودِ أَنْ يَبْلُغَ الْغَايَةَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْ جُمْلَةِ مَا عَلَيْهِ الصِّنْفُ . ثُمَّ قَالَ : وَالْمُرُودُ عَلَى الشَّيْءِ الْمُرُونُ عَلَيْهِ ، وَمَرَدَ عَلَى الْكَلَامِ : أَيُّ مَرُنَ عَلَيْهِ لَا يَعْبَأُ بِهِ - أَيْ لَا يُعْنَى أَنْ يَتَكَلَّفَ لَهُ - قَالَ اللهُ تَعَالَى : (وَمِنْ أَهْلِ

الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) ، قَالَ الْفَرَّاءُ : يُرِيدُ مَرَنُوا عَلَيْهِ وَجُرِّبُوا كَقَوْلِكَ : تَمَرَّدُوا ، وَقَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : الْمَرَدُ التَّطَاوُلُ بِالْكِبْرِ وَالْمَعَاصِي وَمِنْهُ قَوْلُهُ (مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ) أَيْ تَطَاوَلُوا . اهـ .

(لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ) أَيْ لَا تَعْرِفُهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ بِفِطْنَتِكَ وَدِقَّةِ فِرَاسَتِكَ الَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا بِنُورِ اللهِ لِحِذْقِهِمْ وَتَجَنُّبِ مَثَارَاتِ الشُّبْهَةِ ، وَأَكَّدَ هَذَا النَّفْيُ بِإِثْبَاتِ الْعِلْمِ بِأَعْيَانِهِمْ لَهُ وَحْدَهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَعَلَّهُمْ أَخْفَى نِفَاقًا وَأَشَدُّ تَقِيَّةً مِمَّنْ قَالَ فِيهِمْ : (أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ) (47 : 29 ، 30) .

(260/347)

فَهَؤُلَاءِ مِمَّنْ لَمْ يُعْلِمْهُ اللهُ بِأَعْيَانِهِمْ كَمَا أَعْلَمَهُ بِمَنْ أُشِيرَ إِلَيْهِمْ فِي الْآيَةِ (74) وَلَا فَضَحَهُمْ بِأَقْوَالٍ قَالُوهَا وَلَا بِأَفْعَالٍ فَعَلُوهَا كَمَا فَضَحَ غَيْرَهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ بِمُرُودِهِمْ عَلَى النِّفَاقِ يَتَحَامَوْنَ مَا يَكُونُ شُبْهَةً عَلَى إِيمَانِهِمْ ، فَضَرَرُهُ قَاصِرٌ عَلَيْهِمْ ، وَحِكْمَةُ إِخْبَارِهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِذَلِكَ أَنْ يَعْلَمُوا هُمْ أَنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يُسِرُّونَ مِنْ نِفَاقِهِمْ ، وَيَحْذَرُوا أَنْ يَفْضَحَهُمْ كَمَا فَضَحَ غَيْرَهُمْ ؛ لِيَتُوبَ الْمُسْتَعِدُّ لِلْإِيمَانِ مِنْهُمْ وَهُوَ فِي سِتْرِ اللهِ تَعَالَى قَبْلَ أَنْ يُنْجِزَ مَا

أَوْعَدَهُمْ بِقَوْلِهِ : (سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) أَيْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، إحْدَاهُمَا : مَا يُصِيبُهُمْ مِنَ الْمَصَائِبِ وَتَوْبِيخِ الضَّمَائِرِ ، وَانْتِظَارِ الْفَضِيحَةِ بِهَتْكِ أَسْتَارِ السَّرَائِرِ وَمَا يَتْلُو ذَلِكَ مِنْ جِهَادِهِمْ إذَا ظَهَرَ نِفَاقُهُمْ كَغَيْرِهِمْ ، وَالثَّانِيَةُ : آلَامُ الْمَوْتِ ، وَزُهُوقُ أَنْفُسِهِمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ، وَضَرْبُ الْمَلَائِكَةِ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ عِنْدَ مَوْتِهِمْ ، فَأَقْرَبُ مَا يُفَسَّرُ بِهِ الْعَذَابُ مَرَّتَيْنِ هُوَ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ (55 ، 73 ، 74 ، 82 ، 85) فَفِيهِ بَيَانٌ لِكُلِّ مَا يُصِيبُ الْمُنَافِقِينَ فِي الدُّنْيَا مِنْ عَذَابِ الْوِجْدَانِ الْبَاطِنِ ، وَعَذَابِ مَنْ يَفْتَضِحُ أَمْرُهُمْ فِي الظَّاهِرِ ، وَوَرَدَ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَقْوَالٌ فِي هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ بَعْضُهَا فِي مَعْنَى مَا ذَكَرْنَا وَبَعْضُهَا مَرْدُودٌ وَمُتَنَاقِضٌ . (ثُمَّ يُرَدُّونَ إلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ) أَيْ فِي

(261/347)

الْآخِرَةِ وَهُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ ، وَهُمْ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنْهَا كَمَا تَقَدَّمَ .

جَاءَ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَطَبَ النَّاسَ مَرَّةً فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ : (إنَّ مِنْكُمْ مُنَافِقِينَ فَمَنْ سَمَّيْتُهُ فَلْيَقُمْ) ثُمَّ قَالَ قُمْ يَا فُلَانُ - حَتَّى سَمَّى 36 رَجُلًا فَإِنْ صَحَّ فَهُوَ عَدَدُ الَّذِينَ سَبَقَ تَهْدِيدُهُمْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ لِظُهُورِ نِفَاقِهِمْ دُونَ الَّذِينَ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، وَلَكِنْ لَمْ يُرْوَ لَنَا مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ هَؤُلَاءِ بَعْدَ هَذِهِ

الْفَضِيحَةِ بِكُفْرِهِمْ وَمَنْعِهِمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَمُقْتَضَاهُ أَنْ تَجْرِيَ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْمُرْتَدِّينَ ، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى وَتَتَوَفَّرُ الدَّوَاعِي عَلَى نَقْلِهِ بِالتَّوَاتُرِ أَوِ الِاسْتِفَاضَةِ ، وَلَمْ يَرْوِ لَنَا الْمُحَدِّثُونَ شَيْئًا فِيهِ ، وَالَّذِي أَرَاهُ أَنَّ الرِّوَايَةَ غَيْرُ صَحِيحَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(262/347)

وَالْعِبْرَةُ فِي هَذَا السِّيَاقِ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ فَرِيقَانِ : فَرِيقٌ عُرِفُوا بِأَقْوَالٍ قَالُوهَا وَأَعْمَالٍ عَمِلُوهَا ، وَفَرِيقٌ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ وَحَذَقُوهُ حَتَّى صَارَ أَمْلَسَ نَاعِمًا لَا يَكَادُ يَشْعُرُ أَحَدٌ بِشَيْءٍ يَسْتَنْكِرُهُ مِنْهُ فَيَظْهَرُ عَلَيْهِ ، وَكُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يُوجَدُ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَلَا سِيَّمَا مُنَافِقِي السِّيَاسَةِ فِي هَذَا الْعَهْدِ ، وَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمُ الْأَجَانِبُ الْمُعْتَدُونَ عَلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ دُعَاةً وَوَلَائِجَ وَأَعْوَانًا عَلَى اسْتِعْبَادِ أُمَّتِهِمْ وَاسْتِعْمَارِ أَوْطَانِهِمْ ، فَمَا مِنْ قُطْرٍ مِنْ هَذِهِ الْأَقْطَارِ الَّتِي رُزِئَتْ بِالْأَجَانِبِ

إِلَّا وَلَهُمْ فِيهَا أَعْوَانٌ وَأَنْصَارٌ مِنْ أَهْلِهَا يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَخْدِمُونَ أُمَّتَهُمْ وَوَطَنَهُمْ مِنْ طَرِيقِ اسْتِمَالَتِهِمْ وَاسْتِرْضَائِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ لَوْلَا هُمْ لَمَا وُفِّقُوا مِنَ الظُّلْمِ وَهَضْمِ الْحُقُوقِ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي هُمْ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْدِمُونَ الْأَجَانِبَ خِدَمًا خَفِيَّةً لَا تَشْعُرُ بِهَا الْأُمَّةُ لِأَنَّهُمْ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، وَإِنَّمَا يَحْتَاجُ الْخَوَنَةُ الْخَادِمُونَ لِلْأَجَانِبِ إِلَى نِفَاقٍ ، وَتَلْبِيسِ خِيَانَتِهِمْ وَإِخْفَائِهَا

بِالْكَذِبِ وَالِاخْتِلَاقِ ، إِذَا كَانَ لِلرَّأْيِ الْعَامِّ فِطْنَةٌ وَقُوَّةٌ يَخْشَوْنَهَا ، وَأَمَّا الْبِلَادُ الَّتِي اسْتَحْوَذَ عَلَيْهَا الْجَهْلُ وَالضَّعْفُ فَلَا يُبَالِي الْخَائِنُونَ بِرِضَاءِ أَهْلِهَا وَلَا بِسُخْطِهِمْ .

(263/347)

وَأَشَدُّ الْمُنَافِقِينَ مُرُودًا وَإِتْقَانًا لِلنِّفَاقِ أَعْوَانُ الْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ الْمُسْتَبِدِّينَ ، وَشَرُّهُمْ وَأَضَرُّهُمُ الَّذِينَ يَلْبَسُونَ لِبَاسَ عُلَمَاءِ الدِّينِ .

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ) أَيْ وَثَمَّ آخَرُونَ ، أَوْ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ أُنَاسٌ آخَرُونَ لَيْسُوا مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَلَا مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ ، وَلَا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ لَا إِسَاءَةَ فِيهِ ، بَلْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُذْنِبِينَ : (خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) أَيْ خَلَطُوا فِي أَعْمَالِهِمْ بِأَنْ عَمِلُوا عَمَلًا صَالِحًا وَعَمَلًا سَيِّئًا ، وَقِيلَ : مَعْنَاهُ خَلَطُوا صَالِحًا بِسَيِّئٍ وَسَيِّئًا بِصَالِحٍ أَوْ خَلَطُوا فِي كُلٍّ مِنْهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَكَانَ نَاقِصًا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُغَلِّبِ الْآخَرَ وَيَنْدَغِمْ فِيهِ ، فَلَمْ يَكُونُوا مِنَ الصَّالِحِينَ الْخُلَّصِ وَلَا مِنَ الْفَاسِقِينَ أَوِ الْمُنَافِقِينَ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، وَاقْتَرَفُوا بَعْضَ السَّيِّئَاتِ ، وَهُمْ أَوْ مِنْهُمْ بَعْضُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ النَّفْرِ وَالْخُرُوجِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ صَحِيحٍ كَالضُّعَفَاءِ وَالْمَرْضَى وَغَيْرِ الْوَاجِدِينَ ، وَلَا اسْتِئْذَانٍ كَاسْتِئْذَانِ الْمُرْتَابِينَ وَلَا اعْتِذَارٍ كَاذِبٍ كَالْمُنَافِقِينَ ، ثُمَّ كَانُوا نَاصِحِينَ لِلَّهِ فِي أَثْنَاءِ قُعُودِهِمْ

شَاعِرِينَ بِذُنُوبِهِمْ ، خَائِفِينَ مِنْ رَبِّهِمْ ، فَكَانَ كُلٌّ مِنْ قُعُودِهِمْ وَنُصْحِهِمْ مُقْتَرِنًا بِالْآخَرِ ، كَالَّذِي يَدْخُلُ أَرْضًا مَغْصُوبَةً فَيُصْلِحُ فِيهَا ، وَيَعْتَرِفُ بِأَنَّهُ مُذْنِبٌ بِدُخُولِهَا وَيَأْتِي بِالْإِصْلَاحِ لِتَكْفِيرِ ذَنْبِ الِاعْتِدَاءِ وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يُؤَدِّيهِ قَوْلُكَ : خَلَطَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ بِالسَّيِّئِ ، كَمَا تَقُولُ خَلَطَ الْقَمْحَ بِالشَّعِيرِ أَوِ الْمَاءَ بِاللَّبَنِ ؛ لِأَنَّ هَذَا الضَّرْبَ مِنَ الْخَلْطِ يَصِيرُ فِيهِ الْمَخْلُوطُ وَالْمَخْلُوطُ بِهِ شَيْئًا وَاحِدًا أَوْ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ فَلَا يَقُولُ صَاحِبُهُ : عِنْدِي مَاءٌ فُرَاتٌ ، وَلَا لَبَنٌ مَحْضٌ .

وَأَمَّا الضَّرْبُ الْأَوَّلُ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ فَقَدْ بَقِيَ فِيهِ كُلُّ نَوْعَيْنِ مُمْتَازًا بِنَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا خَلْطُهُ مَعَ الْآخَرِ عِبَارَةٌ عَنِ الْجَمْعِ بَيْنَهُمَا وَعَدَمِ انْفِرَادِ أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، وَالْوَاوُ الْعَاطِفَةُ هِيَ الَّتِي تُؤَدِّي هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْجَمْعِ ، وَهُوَ مِنْ دَقَائِقِ بَلَاغَةِ الْقُرْآنِ بِالْعُدُولِ عَنِ التَّعْدِيَةِ بِالْبَاءِ إِلَى الْعَطْفِ .

(عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ) أَيْ هُمْ مَحَلُّ الرَّجَاءِ لِقَبُولِ اللَّهِ تَوْبَتَهُمْ ، الَّتِي يُشِيرُ إِلَى وُقُوعِهَا اعْتِرَافُهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ (فِي ص 190 ج 10 . ط الْهَيْئَةِ) أَنَّ كَلِمَةَ (عَسَى) وُضِعَتْ لِلتَّقْرِيبِ وَالْإِطْمَاعِ ، ثُمَّ اسْتُعْمِلَتْ فِي الرَّجَاءِ كَلَعَلَّ ، وَقَوْلُ بَعْضِهِمْ : إِنَّهَا مِنَ اللَّهِ

لِلْإِيجَابِ - غَيْرُ صَحِيحٍ ، أَوْ لِتَوْفِيقِهِمْ لِلتَّوْبَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي هِيَ سَبَبُ الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، وَإِنَّمَا تَتَحَقَّقُ

(265/347)

التَّوْبَةُ : بِالْعِلْمِ الصَّحِيحِ بِقُبْحِ الذَّنْبِ وَسُوءِ عَاقِبَتِهِ وَأَلَمِ الْوِجْدَانِ مِنْ تَصَوُّرِ سَخَطِ اللَّهِ وَالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ ، وَالْإِقْلَاعِ عَنِ الذَّنْبِ أَوِ الذُّنُوبِ ؛ بِبَاعِثِ هَذَا الْأَلَمِ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ ذَلِكَ الْعِلْمِ ، وَالْعَزْمِ عَلَى عَدَمِ الْعَوْدِ إِلَى اقْتِرَافِهَا ، ثُمَّ الْعَمَلِ بِضِدِّهَا ؛ لِيُمْحَى مِنَ النَّفْسِ أَثَرُهَا ، وَالرِّوَايَاتُ صَرِيحَةٌ بِأَنَّ اعْتِرَافَ مَنْ ذَكَرَ بِذُنُوبِهِمْ قَدِ اسْتَتْبَعَ كُلَّ هَذَا .

(إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) تَعْلِيلٌ لِرَجَاءِ قَبُولِ تَوْبَتِهِمْ ، إِذْ مَعْنَاهُ أَنَّهُ كَثِيرُ الْمَغْفِرَةِ لِلتَّائِبِينَ وَاسِعُ الرَّحْمَةِ لِلْمُحْسِنِينَ ، كَمَا قَالَ : (وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى) (20 : 82) وَكَمَا قَالَ : (إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ) (7 : 56) وَكَمَا قَصَّ عَلَيْنَا مِنْ خَبَرِ اسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ قَوْلَهُمْ : (رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ) (40 : 7 - 9) .

قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ : إنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَرْجَى آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ ، وَقَالَ آخَرُونَ أَرْجَى الْآيَاتِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ

(266/347)

رَحْمَةِ اللَّهِ إنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (39 : 53) وَإِنَّمَا هَذَا عِلَاجٌ لِمَنِ اشْتَدَّ عَلَيْهِمُ الْخَوْفُ مِنْ إسْرَافِهِمْ فِي شَهَوَاتِهِمْ ، حَتَّى كَادُوا يَقْنَطُونَ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِمْ لَا لِلْمُصِرِّينَ عَلَى ذُنُوبِهِمْ بِغَيْرِ مُبَالَاةٍ ، وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْدَهَا : (وَأَنِيبُوا إلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ) (39 : 54) إلَى آخِرِ الْآيَاتِ .

وَمِنَ الْعِبْرَةِ فِي هَذِهِ الْأَقْسَامِ لِلْمُسْلِمِينَ أَنَّ قِسْمَ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ ، كَقِسْمِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ الْأَوَّلُونَ الَّذِينَ أَقَامَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهِمْ بِنَاءَ الْإِسْلَامِ فَهُمُ الَّذِينَ لَا يَلْزَبُهُمْ قَرِينٌ . وَلَا يَلْحَقُهُمْ لَاحِقٌ مِنَ الْعَالَمِينَ ، وَلَعَلَّ أَكْثَرَ الْمُسْلِمِينَ الصَّادِقِينَ فِي هَذَا الزَّمَانِ مِنَ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، وَلَعَلَّ أَسْوَأَ سَيِّئَاتِهِمْ تَرْكُ الْجِهَادِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَجِبُ أَنْ يَسْتَرْشِدُوا بِهَذِهِ الْآيَةِ ، وَبِمَا وَرَدَ فِي

سَبَبِ نُزُولِهَا مِنْ تَوْبَةِ أَبِي لُبَابَةَ وَأَصْحَابِهِ ، وَلَا تَتِمُّ الْعِبْرَةُ بِهَا ، إلَّا بِتَدَبُّرِ مَا بَعْدَهَا ، وَهُوَ تَطْهِيرُ النَّفْسِ مِنَ النِّفَاقِ وَضَعْفِ الْإِيمَانِ ، بِبَذْلِ الصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهِ مِنْ صَالِحِ الْأَعْمَالِ .

(267/347)

وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ فِي صَحِيحِهِ عَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا : أَتَانِي اللَّيْلَةَ (أَيْ فِي النَّوْمِ) مَلَكَانِ فَابْتَعَثَانِي فَانْتَهَيَا بِي إلَى مَدِينَةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ ، وَلَبِنِ فِضَّةٍ فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ قَالَا لَهُمْ : اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ ، فَوَقَعُوا فِيهِ ثُمَّ رَجَعُوا إلَيْنَا قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ ، قَالَا لِي : هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهَذَا مَنْزِلُكَ ، قَالَا : وَأَمَّا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا تَجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُمْ) اهـ

فَهَذَا تَمْثِيلٌ فِي الرُّؤْيَا لِتَحْسِينِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَجْمِيلِهِ لِلنَّفْسِ وَتَشْوِيهِ الْعَمَلِ الْقَبِيحِ لَهَا ، وَلِتَطْهِيرِهَا ، بِالتَّوْبَةِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ حَتَّى تَكُونَ كُلُّهَا حَسَنَةً جَمِيلَةً وَأَهْلًا لِدَارِ الْكَرَامَةِ بَعْدَ أَنْ تُبْعَثَ فِي الصُّورَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهَا قَبْلَ التَّوْبَةِ . وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (إنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ

السَّيِّئَاتِ) (11 : 114) وَشَبَّهَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ بِنَهْرٍ يَفِيضُ عَلَى عَتَبَةِ الْإِنْسَانِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلَّ يَوْمٍ (فَهَلْ يُبْقِي عَلَيْهَا وَسَخًا أَوْ قَذَرًا) ؟

(268/347)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الثَّلَاثُ فِي بَيَانِ فَوَائِدِ صَدَقَةِ الْأَمْوَالِ وَمَنَافِعِهَا ، وَالْحَثِّ عَلَيْهَا وَعَلَى التَّوْبَةِ لِمَنْ قَصَّرَ فِي الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَالِهِ وَنَفْسِهِ ، أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ . وَفِي الْحَثِّ عَلَى الْعَمَلِ ، وَكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي عَلَيْهِ الْمُعَوَّلُ .

(269/347)

أَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ طَرِيقِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَلْحَةَ أَنَّ أَبَا لُبَابَةَ وَأَصْحَابَهُ جَاءُوا رَسُولَ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ أُطْلِقُوا فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا وَاسْتَغْفِرْ لَنَا ، فَقَالَ : (مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا) فَأَنْزَلَ اللهُ : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) وَأَخْرَجَ مِثْلَهُ عَنْهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدٍ عَنْ آبَائِهِ وَزَادَ : فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ أَخَذَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جُزْءًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَتَصَدَّقَ بِهَا عَنْهُمْ وَلَهُ فِي سَبَبِ النُّزُولِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى . وَهَذَا النَّصُّ حُكْمُهُ عَامٌّ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهُ خَاصًّا ، عَامٌّ فِي الْآخِذِ يَشْمَلُ خُلَفَاءَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِهِ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَفِي الْمَأْخُوذِ مِنْهُمْ وَهُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُوسِرُونَ ، قَالَ الْعِمَادُ بْنُ كَثِيرٍ : وَهَذَا عَامٌّ وَإِنْ عَادَ الضَّمِيرُ فِي : (أَمْوَالِهِمْ) إِلَى الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَخَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا .

وَلِهَذَا اعْتَقَدَ بَعْضُ مَانِعِي الزَّكَاةِ

مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ أَنَّ دَفْعَ الزَّكَاةِ إِلَى الْإِمَامِ لَا يَكُونُ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا خَاصًّا بِالرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَاحْتَجُّوا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) الْآيَةَ . وَقَدْ رَدَّ عَلَيْهِمْ هَذَا التَّأْوِيلَ وَالْفَهْمَ

الْفَاسِدَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ - وَقَاتَلُوهُمْ حَتَّى أَدَّوُا الزَّكَاةَ إِلَى الْخَلِيفَةِ كَمَا كَانُوا يُؤَدُّونَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . حَتَّى قَالَ الصِّدِّيقُ : وَاللهِ لَوْ مَنَعُونِي عَنَاقًا - وَفِي رِوَايَةٍ عِقَالًا - كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى مَنْعِهِ . انْتَهَى . وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي الصِّحَاحِ وَالسُّنَنِ وَالسِّيَرِ وَمُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَهَاكَ مَعْنَى الْآيَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 19.7 ﴾

(271/347)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾

الأظهر أن جملة : ﴿ وءاخرون اعترفوا ﴾ عطف على جملة : ﴿ وممن حولكم ﴾ [التوبة : 101] ، أي وممن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة آخرون أذْنبوا بالتخلف فاعترفوا ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ بذنوبهم بالتقصير .

فقوله : إيجاز لأنه يدل على أنهم أذنبوا واعترفوا بذنوبهم ولم يكونوا منافقين لأن التعبير

بالذنوب بصيغة الجمع يقتضي أنها أعمال سيئة في حالة الإيمان ، وكذلك التعبير عن ارتكاب الذنوب بخلط العمل الصالح بالسيّىء .

وكان من هؤلاء جماعة منهم الجِد بن قيس ، وكردم ، وأرس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام ، ومرداس ، وأبو قيس ، وأبو لُبابة في عشرة نفر اعترفوا بذنبهم في التخلف عن غزوة تبوك وتابوا إلى الله وربطوا أنفسهم في سوارى المسجد النبوي أياماً حتى نزلت هذه الآية في توبة الله عليهم .

والاعتراف : افتعال من عَرف .

وهو للمبالغة في المعرفة ، ولذلك صار بمعنى الإقرار بالشيء وترك إنكاره ، فالاعتراف بالذنب كناية عن التوبة منه ، لأن الإقرار بالذنب الفائت إنما يكون عند الندم والعزم على عدم العود إليه ، ولا يُتصور فيه الإقلاع الذي هو من أركان التوبة لأنه ذنب مضى ، ولكن يشترط فيه العزم على أن لا يعود .

وخلطهم العمل الصالح والسيّىء هو خلطهم حسنات أعمالهم بسيئات التخلف عن الغزو وعدم الإنفاق على الجيش .

وقوله : ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ جاء ذكر الشيئين المختلطين بالعطف بالواو على اعتبار استوائهما في وقوع فعل الخلط عليهما .

ويقال : خلط كذا بكذا على اعتبار أحد الشيئين المختلطين متلابسين بالخلط ، والتركيبان

متساويان في المعنى ، ولكن العطف بالواو أوضح وأحسن فهو أفصح .

وعسى : فعل رجاء .

(272/347)

وهي من كلام الله تعالى المخاطب به النبي صلى الله عليه وسلم فهي كناية عن وقوع المرجو ، وأن الله قد تاب عليهم ؛ ولكن ذكر فعل الرجاء يستتبع معنى اختيار المتكلم في وقوع الشيء وعدم وقوعه .

ومعنى : ﴿ أن يتوب عليهم ﴾ أي يقبل توبتهم ، وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ في سورة البقرة (37) .

وجملة : إن الله غفور رحيم ﴾ تذييل مناسب للمقام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(273/347)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) ﴾

وقوله الحق : ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ معطوفة على قوله : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ ، فهل يظلون جميعاً على النفاق ، أم أن منهم من يثوب إلى رشده ؛ ليجد أن موقفه محزٍ حتى أمام نفسه ؟ لأن أول ما ينحط المنافق إنما ينحط أمام نفسه ؛ لأنه نافق ولم يقدر على المواجهة ، واعتبر نفسه دون من يواجهه ؛ فيحتقر نفسه ، ولا بد أن منهم من يأنف من هذا الموقف ، ويرغب في حسم المسألة : إما أن يؤمن وإما أن يكفر ، ثم يرجح الإيمان ، ويتخلص من النفاق ؛ بأن يعترف بذنوبه .

وبذلك يصبح ممن يقول الحق عنهم : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : ممن لم يُصرّوا على النفاق ، واعترفوا بذنوبهم ، والاعتراف لون من الإقرار . والإقرار بالذنب أنواع ، فهناك من يقر بالذنب إفاقة ، وآخر يقر الذنب في صفاقة ، مثلما تقول لواحد : هل ضربت فلاناً ؟ فيقول : نعم ضربته ، أي أنه اعترف بذنبه ، وقد يضيف : وسأضرب من يدافع عنه أيضاً ، وهذا اعتراف فيه صفاقة .

أما من يعترف اعتراف إفاقة ، فهو يقر بأنه ارتكب الذنب ويطلب الصفح عنه ، وهذا هو الاعتراف المقبول عند الله . وهم قد ﴿ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ اعتراف إفاقة ، بدليل أن الله

قال فيهم : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ وعملهم الصالح هنا هو إقرارهم بالذنب ومعرفتهم أن فضيحة الدنيا أهون من فضيحة الآخرة ، أما عملهم السيء فهو التخلف عن الجهاد والإنفاق .

واعترافهم هذا هو اعتراف الإفاقة ، واختلف العلماء : هل هذا الاعتراف يعتبر توبة أم لا ؟

(274/347)

نقول : إن الحق سبحانه وتعالى حينما قال : ﴿ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ ثم قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : رجاء أن يتوب عليهم ، وهذه مقدمات توبة وليست توبة ، فإن صاحبها الندم على ما مضى ، والإصرار على عدم العودة في المستقبل فيُنظر هل هذا كان منه مخافة أن يُفضح أم موافقة لمنهج الله ؟

إن كان الأمر موافقة لمنهج الله فتكون التوبة مرجوَّة لهم .

وكلمة ﴿ خَلَطُواْ ﴾ تؤدي معنى جمع شيئين كانا متفرقين ، وجمع الشيئين أو الأشياء التي كانت متفرقة له صورتان ؛ الصورة الأولى : أن يجمعهم على هيئة الافتراق ، كأن تأتي

بالأشياء التي لا تمتزج ببعضها مثل : الحمص واللب والفول ، وتخلط بعضها ببعض في وعاء واحد ، لكن يظل كل منها على هيئة الانفصال ، فأنت لم تدخل حبة اللب في حبة الحمص ، ولم يتكون منهما شيء واحد ؛ لأنه لو حدث هذا لصار مزيجاً لا خلطاً ، مثلما تخلط الشاي باللبن ؛ لأنك بعد أن تجمعهما يصيران شيئاً واحداً ، بحيث لا تستطيع أن تفصل هذا عن ذاك .

إذن : فهم حين خطلوا العمل الصالح والعمل السَّيِّئ ، لم يجعلوا من العمل الصالح والعمل السَّيِّئ مزيجاً واحداً .

لكن العمل الصالح ظل صالحاً ، والعمل الفاسد ظل فاسداً .

وقوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ كلمة ﴿ عَسَى ﴾ معناها الرجاء وهو ترجيح حصول الخير . وهو لون من توقع حصول شيء محبوب . والرجاء يخالف التمني ؛ لأن التمني هو أن تحب شيئاً وتتمنى أن يكون موجوداً ، لكنه لا يأتي أبداً ، مثل قول الشاعر :

ألا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْماً . . . فَأَخبِرُه بِمَا فعلَ المشِيبُ

(275/347)

إنه قد تمنى أن يعود شبابه ، وهذا دليل على أن فترة الشباب محبوبة ، لكن ذلك لا يحدث .

إذن : فإظهار الشيء المحبوب له لونان : لون يتأتى ، ولون لا يتأتى ، فالذي يتأتى اسمه (رجاء) ، والذي لا يتأتى نسميه (التمني) ، مثل قول الشاعر :

لَيْتَ الكَوَاكِب تَدْنُو لِي فَأَنظِمَهَا . . . عُقُودَ مَدْحٍ فما أرضَى لَكُمْ كَلَما

فالشاعر يتمنى حدوث ذلك ، ولكنه لن يحدث . أما الرجاء فهو أمل يمكن أن يحدث ، والرجاء له منازل ومراحل بالنسبة للنفس الإنسانية . فأنت عندما ترجو لواحد شيئاً فتقول : " عسى فلان أن يمنحك كذا " ، فأنت مُترَجٍّ ، وهناك مترجّىً له ، هو من تخاطبه ، ومترجّىً منه ، وهو من يعطي ، فهذه ثلاثة عناصر .

لكن ألك ولاية على من يمنح ؟ لا ، لكن إن قلت : عسى أن أمنحك أنا كذا ، فأنت ترجو لواحد غيرك أن تمنحه أنت ، وهذا أرجى أن يتحقق . وحين تقول : " عسى أن أمنحك " فقد تقولها في لحظة إرضاء للذي تتحدث معه . ثم قد يبلغك عنه شيء يغير من نفسك ، أو جئت ؛ لتعطيه ، فلم تجد ما تعطيه له ، هنا لم يتحقق الرجاء .

لكن عندما تقول : " عسى الله أن يمنحك " ، فأنت ترجو له من الله ، وهو القادر على كل شيء ولا تؤثِّر فيه أغيار ، أما إذا قال الله عن نفسه : " عسى الله أن يفعل " ، فهذا أقوى وسائل الرجاء .

إذن : فنحن أمام أربع وسائل للرجاء . أن تقول : " عسى فلان أن يمنحك " أو أن تقول : "

عسى أن أمنحك أنا " ، أو تقول : " عسى الله أن يمنحك " وقد يجيبني الله ، أو لا يجيب دعائي ، لكن حين يقول الحق : " عسى أن أفعل " فهذا هو اللون الرابع من ألوان الرجاء ، وقالوا : الرجاء من الله إيجاب .

(276/347)

﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، فهذا رجاء أن يتوب الله عليهم ، أما توبة العبد فمسألة تقتضي الندم على ما فات ، والرجوع إلى منهج الله ، والعزم ألا يغضب الله في المستقبل .

أما توبة الله فهي تضم أنواع التوبة ، فتشريع الله للتوبة رحمة بمن ارتكب الذنب ، ورحمة بالناس الذين وقع عليهم السلوك الذي استوجب التوبة . فإن تُبْتُ ؛ فقبول التوبة رحمة ثانية ، فلو لم يشرع الله التوبة لاستشرى كل من ارتكب ذنباً واصطلى المجتمع بشروره . لكن حين يشرع الله التوبة ؛ فهناك أمل أن يرجع العبد إلى الله ، ويتخلص المجتمع من إمكانية عودته للذنب ، وانتهى هو من أن يوقع مصائب بغيره .

فإذا قَبِلَ الله التوبة ، يقال : " تاب الله على فلان " ، فلله إذن أكثر من توبة ، ولذلك حين تقرأ قوله الحق : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . . . ﴾ [التوبة : 118]

أي : شرع لهم التوبة ؛ ليتوبوا ، فإذا تابوا فسبحانه قابل التوب . إذن : فالتوبة ثلاث مراحل

: تشريع للتوبة ، ثم توبة واقعة ، فقبول للتوبة . والتوبة رجوع عن شيء ، وهي بالنسبة للعبد رجوع عن ذنب ، وبالنسبة لله إن كان الذنب يستحق أن يعاقب الله به ، فإذا تبت أنت ، فالحق يعفو ويرجع عن العقوبة .

ويُنهي الحق الآية : ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ؛ لأن المغفرة بالنسبة للعبد صعبة ، فإن سرق واحد منك شيئاً فهو يضرك ، ويلحّ عليك حب الانتقام منه ؛ لأن الضرر أتعبك ، لكن أيُتْعبُ أحد ربه بالمعصية ؟ لا ؛ لأنك إن كنت قد أضررت بأحد فإنما أضررت بنفسك ، ولم تضر الله سبحانه ؛ لأنه سبحانه لا يلحقه ضرر بذنبك ، وإنما الذنب لحقك أنت .

(277/347)

فحين يقول سبحانه : ﴿ غَفُورٌ ﴾ فهو غفور لك ، و ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بك . والمصائب أو الكوارث نوعان ؛ نوه للإنسان فيه غريم ، ونوع يصيب الإنسان ولا غريم له . فإن مرض إنسان فليس له غريم في المرض ، أما إذا سرق إنسان فاللص هو غريمه ، ومصيبة الإنسان التي فيها غريم تدفع النفس إلى الانفعال برد العقوبة إليه ، أما حين تكون المصيبة من غير غريم هي التي تحتاج لشدة إيمان ، والحق يقول : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ

الأمور ﴾ [الشورى : 43]

هنا يؤكدها ؛ لأن غريمه يلح عليه ، فساعة يراه يتذكر ما فعله غريمه به ، فتكون هناك إهاجة على الشر .

أما قوله سبحانه : ﴿ واصبر على مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ [لقمان : 17] فلم يؤكدها ، فالمصيبة هنا من سيكون غريمه فيها ؟ والذين اعترفوا بذنوبهم هم قوم تخلفوا بغير عذر ، ثم جاءوا وقالوا : ليس لنا عذر ، ولم يختلقوا أعذاراً ؛ لأننا نعلم أن هناك أناساً لم يعتذروا ، وأناساً آخرين اعتذروا بأعذار صادقة ، وآخرين اعتذروا باعتذارات كاذبة ، وهم قد ﴿ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي : أعلنوا أن اعتذاراتهم عن الغزوة لم تكن حقيقية وأنه لم يكن عندهم ما يبرر تخلفهم عن الغزو ؛ فهؤلاء تاب الله عليهم في نفوسهم أولاً ، ورسول الله لا يزال في الغزوة في تبوك التي تخلفوا عنها .

ثم عاد الرسول من الغزوة ، ودخل المسجد كعادته حين يرجع إلى المدينة ، وأول عمل كان يعمله بعد العودة هو أن يدخل المسجد ، ويصلي فيه ركعتين . فوجد أناساً قد ربطوا أنفسهم بسواري المسجد وهي الأعمدة فسأل عن هؤلاء ، فقالوا : هؤلاء قوم تخلفوا وكانت أعذارهم كاذبة كلنهم اعترفوا بذنوبهم ، وقد عاهدوا الله ألا يحلوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تحلهم وترضى عنهم فقال صلى الله عليه وسلم : " وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أؤمر بإطلاقهم ؛ رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين " .

فلما أنزل الله هذه الآية حلهم رسول الله ومنهم : أبو لبابة .

ولذلك من يذهب ليزور المدينة إن شاء الله ، سيجد أسطوانة اسمها " أسطوانة أبي لبابة " وهو أول من ربط نفسه على الساري ، وقلده الآخرون . وهذا يدلك على أن المؤمن حين تختمر في نفسه قضايا الإيمان فهو لا ينتظر أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب من الله ، بل يبادر هو إلى أن يعاقب نفسه .

ومثال ذلك : المرأة التي زنت ، والرجل الذي زنا ، واعترفا لرسول الله ليرجمهما ، ومعنى ذلك أنهما لم ينتظرا حتى يعذبهما الله ، بل ذهب كل منهما بنفسه . ولذلك حين جاء سيدنا عمر ، وكاد أن يركل جثة أحدهما قال الرسول : " دعها يا عمر فقد تابت توبة لو وزعت على أهل الأرض لوسعتهم " .

وكون أبي لبابة يربط نفسه بالسارية ، فهذا يدل على أن المؤمن إذا اختمرت في نفسه قضية الإيمان ، فإنه لا يترك نفسه إلى أن يلقاه الله بعذابه ، بل يقول : لا ، أنا أعذب نفسي كي أنجو من عذاب الله ، فهو قد تيقن أن هناك عذاباً في الآخرة أقسى من هذا العذاب . فلما اعترفوا بذنوبهم وراجعوا أنفسهم متسائلين : ما الذي شغلنا عن الغزو ، وجعلنا نعتذر

بالكذب ؟ وجدوا أنهم في أثناء غزوة تبوك وقد كانت في الحر ، وفيه كانت تطيب جلسات العرب تحت الظلال وأن يأكلوا من التمر . فقالوا : والله ، إن المال هو الذي شغلنا عن الغزو وجعلنا نرتكب هذا الذنب ، ولا بد أن نتصدق به ؛ لذلك قلنا : إن هذه لم تكن الصدقة الواجبة ، بل هي صدقة الكفارة .

وهؤلاء قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : خذ هذا المال الذي شغلنا عن الجهاد ، فلم يقبل حتى ينزل قول من الله ، فأنزل الحق قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً . . . ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(279/347)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) ﴾

(280/347)

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قال "كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان ممر النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع في المسجد عليهم ، فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا : هذا أبو لبابة وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله ، أوثقوا أنفسهم وحلفوا أنهم لا يطلقهم أحد حتى يطلقهم النبي صلى الله عليه وسلم ويعذرهم . قال : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى يكون الله تعالى هو الذي يطلقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا . فأنزل الله عز وجل ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ وعسى من الله وإنه هو التوّاب الرحيم ، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا . قال : ما أمرت أن آخذ أموالكم . فأنزل الله عز وجل ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم

الصدقة واستغفر لهم ، وكان ثلاثة نفر منهم لم يوثقوا أنفسهم بالسواري فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ [التوبة : 117] إلى آخر الآية ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ [التوبة : 118] إلى ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [التوبة : 118] يعني إن استقاموا " .

(281/347)

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك رضي الله عنه . مثله سواء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن مجاهد في قوله ﴿ فاعترفوا بذنوبهم ﴾ قال : هو أبو لبابة إذ قال لقريظة ما قال ، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبحكم إن نزلتم على حكمه .

وأخرج البيهقي عن سعيد بن المسيب . أن بني قريظة كانوا حلفاء لأبي لبابة فاطلعوا إليه وهو يدعوهم إلى حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا أبا لبابة أتأمرنا أن ننزل ؟ فأشار بيده إلى حلقه أنه الذبح ، فأخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم

" أحسبت أن الله غفل عن يدك حين تشير إليهم بها إلى حلقك ؟ فلبث حيناً حتى غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك – وهي غزوة العسرة – فتخلف عنه أبو لبابة فيمن تخلف ، فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم منها جاءه أبو لبابة يسلم عليه ، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ففزع أبو لبابة ، فارتبط بسارية التوبة التي عند باب أم سلمة سبعاً من بين يوم وليلة في حر شديد لا يأكل فيهن ولا يشرب قطرة ، قال : لا يزال هذا مكاني حتى أفارق الدنيا أو يتوب الله عليَّ . فلم يزل كذلك حتى ما يسمع الصوت من الجهد ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إليه بكرة وعشية ، ثم تاب الله عليه فنودي أن الله قد تاب عليك ، فأرسل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليطلق عنه رباطه ، فأبى أن يطلقه أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأطلقه عنه بيده ، فقال أبو لبابة حين أفاق : يا رسول الله إني أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب وانتقل إليك فأساكنك ، وإني أختلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم . فقال : يجزي عنك الثلث . فهجر أبو لبابة دار قومه وساكن رسول

الله صلى الله عليه وسلم وتصدق بثلث ماله ثم تاب ، فلم ير منه في الإِسلام بعد ذلك إلا خيراً حتى فارق الدنيا " .

(283/347)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال " إن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا غزوة تبوك ، فتخلف أبو لبابة ورجلان معه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم إن أبا لبابة ورجلين معه تفكروا وندموا وأيقنوا بالهلكة ، وقالوا : نحن في الظل والطمأنينة مع النساء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه في الجهاد ، والله لنوثقن أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا ويعذرنا ، فانطلق أبو لبابة فأوثق نفسه ورجلان معه بسواري المسجد وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم ، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته وكان طريقه في المسجد ، فمر عليهم فقال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم بالسواري ؟ فقال رجل : هذا أبو لبابة وصاحبان له تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاهدوا الله لا يطلقون أنفسهم حتى تكون الذي أنت تطلقهم وترضى عنهم وقد اعترفوا بذنوبهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا أطلقهم حتى أُؤْمَر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يكون الله

يعذرهم وقد تخلفوا ورغبوا عن المسلمين بأنفسهم وجهادهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ الآية . وعسى من الله واجب ، فلما نزلت الآية أطلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعذرهم ، فانطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم ، فأتوا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصل علينا .

(284/347)

يقولون : استغفر لنا وطهرنا . فقال : لا آخذ منها شيئاً حتى أومر به . فأنزل الله ﴿ خذ من أموالهم صدقة . . . ﴾ الآية . قال : وبقي الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة ولم يتوبوا ولم يذكروا بشيء ولم ينزل عذرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وهم الذين قال الله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ [التوبة : 106] الآية . فجعل الناس يقولون : هلكوا إذا لم ينزل لهم عذر ، وجعل آخرون يقولون : عسى الله أن يتوب عليهم . فصاروا مرجئين لأمر الله حتى نزلت ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ [التوبة : 117] إلى قوله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ [التوبة : 118] يعني المرجئين لأمر الله ، نزلت عليهم التوبة فعملوا بها " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ قال : هم الثمانية

الذين ربطوا أنفسهم بالسواري ، منهم كردم ومرداس وأبو لبابة .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قال : ذكر لنا أنهم كانوا سبعة رهط تخلفوا عن غزوة تبوك ، منهم أربعة خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً : جد بن قيس ، وأبو لبابة ، وحرام ، وأوس ، كلهم من الأنصار تيب عليهم ، وهم الذين قيل ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ قال : غزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وآخر سيئاً ﴾ قال تخلفهم عنه .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي الدنيا في التوبة وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي عثمان النهدي قال : ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ الآية .

(285/347)

وأخرج أبو الشيخ والبيهقي عن مطرف قال : إني لاستلقي من الليل على فراشي وأتدبر القرآن ، فأعرض أعمالي على أعمال أهل الجنة فإذا أعمالهم شديدة ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴾ [الذاريات : 17] . ﴿ يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ [الفرقان :

64] . ﴿ أمن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ﴾ [الزمر : 9] فلا أراني منهم . . . ! فأعرض نفسي على هذه الآية ﴿ ما سلككم في سقر ﴾ ﴿ قالوا لم نك من المصلين ﴾ [المدثر : 42 – 46] إلى قوله ﴿ نكذب بيوم الدين ﴾ فأرى القوم مكذبين فلا أراني منهم ، فأمر بهذه الآية ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ فأرجو أن أكون أنا وأنتم يا اخوتاه منهم .

وأخرج أبو الشيخ وابن منده وأبو نعيم في المعرفة وابن عساكر بسند قوي عن جابر بن عبد الله قال : "كان ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ستة : أبو لبابة ، وأوس بن جذام ، وثعلبة بن وديعة ، وكعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . فجاء أبو لبابة ، وأوس بن جذام ، وثعلبة ، فربطوا أنفسهم بالسواري ، وجاؤوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله ، خذ هذا الذي حبسنا عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا أحلهم حتى يكون قتال . فنزل القران ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . . . ﴾ الآية . وكان ممن أرجىء عن التوبة وخلف كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . فأرجئوا أربعين يوماً ، فخرجوا وضربوا فساطيطهم ، واعتزلهم نساؤهم ، ولم يتولهم المسلمون ولم يقربوا منهم ، فنزل فيهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ [التوبة : 118] إلى قوله ﴿ التوّاب الرحيم ﴾ [التوبة : 118] فبعثت أم سلمة إلى كعب فبشرته " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب قال : قال الأحنف بن قيس : عرضت نفسي على القرآن فلم أجدني بآية أشبه مني بهذه الآية ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . . . ﴾ الآية .

(286/347)

وأخرج أبو الشيخ عن مالك بن دينار قال : سألت الحسن عن قول الله ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ فقال : يا مالك ، تابوا ، عسى الله أن يتوب عليهم ، وعسى من الله واجبة .

وأخرج البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن مردويه عن سمرة بن جندب قال "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن يكثر أن يقول لأصحابه : هل رأى أحد منكم رؤيا ؟ وإنه قال لنا ذات غداة : إنه أتاني الليلة آتيان فقالا لي : انطلق . فانطلقت معهما ، فاخرجاني إلى الأرض المقدسة فأتينا على رجل مضطجع وإذا آخر قائم عليه بصخرة ، وإذا هو يهوي بالصخرة لرأسه فيثلغ رأسه فيتدهده الحجر ههنا ، فيتبع الحجر فيأخذه فلا يرجع إليه حتى يصح رأسه كما كان ، ثم يعود إليه فيفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى . قلت لهما : سبحان الله ما هذان . . . ؟ ! قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على رجل

مستلق لقفاه وآخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتي أحد شقي وجهه فيشرشر شدقه إلى قفاه ومنخره إلى قفاه وعينه إلى قفاه ، ثم يتحوّل إلى الجانب الآخر فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، فما يفرغ من ذلك الجانب حتى يصبح ذلك الجانب كما كان ، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل في المرة الأولى . قلت : سبحان الله ما هذان . . . ؟ ! قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على مثل التنور فإذا فيه لغط وأصوات ، فاطلعنا فيه فإذا فيه رجال ونساء عراة ، فإذا هم يأتيهم لهب من أسفل منهم ، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضوضوا قلت : ما هؤلاء . . . ؟ ! فقالا لي : انطلق .

فانطلقنا ، فأتينا على نهر أحمر مثل الدم ، وإذا في النهر رجل سابح يسبح ، وإذا على شاطىء النهر رجل عنده حجارة كثيرة ، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح ، ثم يأتي الذي قد جمع عنده الحجارة فيفغر له فاه فيلقمه حجراً فينطلق فيسبح ، ثم يرجع إليه كلما رجع فغر له فاه فألقمه حجراً . قلت لهما : ما هذان . . . ؟ !

(287/347)

قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا على رجل كريه المرآة كأكره ما أنت راء ، وإذا هو عنده نار يحشها ويسعى حولها . قلت لها : ما هذا . . . ؟ ! قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فأتينا

على روضة معتمة فيها من كل نور الربيع ، وإذا بين ظهري الروضة رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً في السماء ، وإذا حول الرجل من أكثر ولدان رأيتهم قط . قالا لي : انطلق . فانطلقنا ، فانتهينا إلى روضة عظيمة لم أر قط روضة أعظم منها ولا أحسن . قالا لي : ارق فيها . فارتقينا فيها ، فانتهينا إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة ، فأتينا باب المدينة فاستفتحنا ففتح لنا ، فدخلناها فتلقانا فيها رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء . قالا لهم : اذهبوا فقعوا في ذلك النهر . فإذا نهر معترض يجري كأن ماءه المخض في البياض فذهبوا فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا ، فذهب السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة . . . ! قالا لي : هذه جنة عدن وهذاك منزلك ، فسما بصري صعداً فإذا قصر مثل الربابة البيضاء قالا لي : هذا منزلك . قلت لهما : بارك الله فيكما ذراني فأدخله . قالا : أما الآن فلا ، وأنت داخله .

(288/347)

قلت لهما : فإني رأيت منذ الليلة عجباً ، فما هذا الذي رأيت ؟ ! قالا لي : أما الرجل الأول الذي أتيت عليه يثلغ رأسه بالحجر فإنه الرجل يأخذ القرآن فيرفضه ، وينام عن الصلاة المكتوبة ، يفعل به إلى يوم القيامة . وأما الرجل الذي أتيت عليه يشرشر شدقه إلى

قفاه ، ومنخراه إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق فيصنع به إلى يوم القيامة . وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل التنور فإنهم الزناة والزواني . وأما الرجل الذي أتيت عليه يسبح في النهر ويلقم الحجارة فإنه آكل الربا . وأما الرجل الكريه المرآة الذي عنده النار يحشها فإنه مالك خازن النار . وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإنه إبراهيم عليه السلام . وأما الولدان الذين حوله فكل مولود مات على الفطرة . وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فإنهم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً تجاوز الله عنهم ، وأنا جبريل وهذا ميكائيل " .

وأخرج الخطيب في تاريخه عن أبي موسى " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت رجالاً تقرض جلودهم بمقاريض من نار . قلت : ما هؤلاء ؟ ! قال : هؤلاء الذين يتزينون إلى ما لا يحل لهم . ورأيت خباء خبيث الريح وفيه صباح . قلت : ما هذا ؟ ! قال : هن نساء يتزين إلى ما لا يحل لهن . ورأيت قوماً اغتسلوا من ماء الجناة . قلت : ما هؤلاء ؟ ! قال : هم قوم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً " .

(289/347)

وأخرج ابن سعد عن الأسود بن قيس العبدي قال : لقي الحسن بن علي يوماً حبيب بن مسلمة فقال : يا حبيب رب ميسر لك في غير طاعة الله . فقال : أما ميسري إلى أبيك فليس من ذلك قال : بلى ولكنك أطعت معاوية على دنيا قليلة زائلة ، فلئن قام بك في دنياك لقد قعد بك في دينك ، ولو كنت إذ فعلت شراً قلت خيراً كان ذلك كما قال الله ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ ولكنك كما قال الله ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ [المطففين : 14] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(290/347)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ ﴾ : نسقٌ على " منافقون " أي : وممن حولكم آخرون ، أو ومن أهلِ المدينة آخرون . ويجوز أن يكون مبتدأ و " اعترفوا " صفتَه ، والخبر قولُه " خلطوا " .

قوله : ﴿ وَآخَرَ ﴾ نسقٌ على " عملاً " . قال الزمخشري : " فإن قلت : قد جُعِل كلُّ

واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به؟ قلت: كلُّ واحدٍ مخلوطٌ ومخلوطٌ به، لأن المعنى: خلط كل واحدٍ منهما بالآخر كقولك: "خَلَطْتُ الماء واللبن" تريد: خَلَطْتُ كلَّ واحد منهما بصاحبه، وفيه ما ليس في قولك: "خَلَطْتُ الماءَ باللبن" لأنك جَعَلْتُ الماءَ مخلوطاً واللبن مخلوطاً به. وإذا قلته بالواو جَعَلْتَ الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما، كأنك قلت: خَلَطْتُ الماء باللبن واللبن بالماء". ثم قال: "ويجوز أن يكونَ مِنْ قولهم: "بِعْتُ الشاء: شاةً ودرهماً" بمعنى: شاة بدرهم" قلت: لا يريد أن الواو بمعنى الباء، وإنما هذا تفسيرُ معنى. وقال أبو البقاء: "ولو كان بالباء جاز أن تقول: خلطْتُ الحِنْطة والشعير، وخلطت الحنطةَ بالشعير".

قوله: ﴿عسى الله﴾ يجوز أن تكون الجملةُ مستأنفةً، ويجوز أن تكونَ في محل رفع خبراً ل"آخرون"، ويكون قولُه: "خلطوا" في محلِّ نصبٍ على الحال، و"قد" معه مقدرةٌ أي: قد خلطوا. فتلخَّص في "آخرون" أنه معطوفٌ على "منافقون"، أو مبتدأٌ مخبر عنه ب"خلطوا" أو الجملةِ الرجائية. انتهى انتهى. اهـ ﴿الدر المصون حـ 6 صـ 114.

115﴾

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) ﴾

إنْ اتصفوا بعيوبهم فلقد اعترفوا بذنوبهم . والإقرارُ توكيدُ الحقوق فيما بين الخَلْق في مشاهد الحكم ، ولكن الإقرار بحق الله – سبحانه – يوجِبُ إسقاط الجُرْم في مقتضى سُنَّةِ . كَرَم الحقِّ – سبحانه ، وفي معناه أنشدوا :

قيل لي : قد أَسَاءَ فيكَ فلانٌ . . . وسكوتُ الفتى على الضيم عارُ

قلتُ : قد جاءني فأَحْسَنَ عُذرا . . . دِيَةُ الذَّنبِ عندنا الاعتذار

﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ : ففي قوله : ﴿ وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ بعد قوله : ﴿ صَالِحًا ﴾ دليلٌ على أن الزَّلَّةَ لا تحبِطُ ثوابَ الطاعةِ ؛ إذ لو أحبطته لم يكن العملُ صالحاً .

وكذلك قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ : وعسى تفيد أنه لا يجب على الله شيء فقد يتوب وقد لا يتوب . ولأنَّ قوله صِدْقٌ . . فإذا أخبر أَنَّه يجِيبُ فإنه يفعل ، فيجب منه لا يجب عليه .

ويقال قوله : ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا ﴾ : يحتمل معناه أنهم يتوبون ؛ فالتوبة عملٌ صالح .

وقوله : ﴿ وَآخَرَ سَيِّئًا ﴾ : يحتمل أنه نَقْضُهم التوبة ، فتكون الإشارة في قوله : ﴿ عَسَى

اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ أنهم إن نقضوا توبتهم وعادوا إلى ما تركوه من زلّتهم فواجبٌ مِنَّا أن نتوب عليهم ، ولئن بطلت – بنَقْضِهم – توبتُهم . . لَمَا اخْتَلَّتْ – بفضلنا – توبتُنا عليهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 59 . 60 ﴾

(292/347)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثامن والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/348)

الجزء الثامن والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 103 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 107 ﴾ من نفس السورة

(4/348)

قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان من شأن الرضوان قبول القربان ، أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ تطهيراً لهم وتطييباً

لقلوبهم بقوله : ﴿ خذ ﴾ ورحمهم بالتبعيض فقال : ﴿ من أموالهم صدقة ﴾ أي تطيب أنفسهم بإخراجها ﴿ تطهرهم ﴾ أي هي من ذنوبهم وتجري بهم مجرى الكفارة ﴿ وتزكيهم ﴾ أي أنت تزيدهم وتنميهم ﴿ بها ﴾ بتكثير حسناتهم ﴿ وصل ﴾ أي اعطف ﴿ عليهم ﴾ وأظهر شرفهم بدعائك لهم ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ إن صلواتك ﴾ أي دعواتك التي تصلهم بها فتكون موصلة لهم إلى الله ﴿ سكن لهم ﴾ أي تطمئن بها قلوبهم بعد قلق الخوف من عاقبة الذنب لما يعلمون من أن القبول لا يكون إلا ممن حصل له الرضى عنهم ومن أن الله سمع قولك إجابة لك ويعلم صدقك في صلاحهم ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء ﴿ سميع عليم ﴾ أي لكل ما يمكن أن يسمع وما يمكن أن يعلم منك ومنهم ومن غيركم ، فهو جدير بالإجابة والإثابة ، وذلك أن هذا الصنف لما اشتد ندمهم على التخلف أوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فسأل عنهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين قدم فقيل : ندموا على التخلف عنك فحلفوا : لا يطلقهم إلا أنت ، فقال : وأنا أطلقهم حتى أومر بذلك ، فأنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات فقالوا : يا رسول الله ! هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها ! فقال : ما أمرت بذلك ، فلما أنزل الله هذه الآية أخذ الثلث فتصدق به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 382 ـ 383 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اختلف الناس في المراد .

فقال بعهضم : هذا راجع إلى هؤلاء الذين تابوا ، وذلك لأنهم بذلوا أموالهم للصدقة ، فأوجب الله تعالى أخذها ، وصار ذلك معتبراً في كمال توبتهم لتكون جارية في حقهم مجرى الكفارة ، وهذا قول الحسن ، وكان يقول ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة ، وإنما هي صدقة كفارة الذنب الذي صدر منهم .

والقول الثاني : أن الزكوات كانت واجبة عليهم ، فلما تابوا من تخلفهم عن الغزو وحسن إسلامهم ، وبذلوا الزكاة أمر الله رسوله أن يأخذها منهم .

والقول الثالث : أن هذه الآية كلام مبتدأ ، والمقصود منها إيجاب أخذ الزكاة من الأغنياء وعليه أكثر الفقهاء إذ استدلوا بهذه الآية في إيجاب الزكوات .

وقالوا في الزكاة إنها طهرة ، أما القائلون بالقول الأول : فقد احتجوا على صحة قولهم بأن الآيات لا بد وأن تكون منتظمة متناسقة ، أما لو حملناها على الزكوات الواجبة ابتداء ، لم

يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ، ولا بما بعدها ، وصارت كلمة أجنبية ، وذلك لا يليق بكلام الله تعالى ، وأما القائلون بأن المراد منه أخذ الزكوات الواجبة ، قالوا : المناسبة حاصلة أيضاً على هذا التقدير ، وذلك لأنهم لما أظهروا التوبة والندامة ، عن تخلفهم عن غزوة تبوك ، وهم أقروا بأن السبب الموجب لذلك التخلف حبهم للأموال وشدة حرصهم على صونها عن الإنفاق ، فكأنه قيل لهم إنما يظهر صحة قولكم في ادعاء هذه التوبة والندامة لو أخرجتم الزكاة الواجبة ، ولم تضايقوا فيها ، لأن الدعوى لا تتقرر إلا بالمعنى ، وعند الامتحان يكرم الرجل أو يهان ، فإن أدوا تلك الزكوات عن طيبة النفس ظهر كونهم صادقين في تلك التوبة والإنابة ، وإلا فهم كاذبون مزورون بهذا الطريق .

(6/348)

لكن حمل هذه الآية على التكليف بإخراج الزكوات الواجبة مع أنه يبق نظم هذه الآيات سليماً أولى ، ومما يدل على أن المراد الصدقات الواجبة .

قوله : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ والمعنى تطهرهم عن الذنب بسبب أخذ تلك الصدقات ، وهذا إنما يصح لو قلنا إنه لو لم يأخذ تلك الصدقة لحصل الذنب ، وذلك إنما يصح حصوله في الصدقات الواجبة .

وأما القائلون بالقول الأول : فقالوا : إنه عليه الصلاة والسلام لما عذر أولئك التائبين وأطلقهم قالوا يا رسول الله هذه أموالنا التي بسببها تخلفنا عنك فتصدق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا ، فقال عليه الصلاة والسلام

" ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، " فأنزل الله تعالى هذه الآيات فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلث أموالهم ، وترك الثلثين لأنه تعالى قال : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ ولم يقل خذ أموالهم ، وكلمة ﴿ مِنْ ﴾ تفيد التبعيض .

واعلم أن هذه الرواية لا تمنع القول الذي اخترناه كأنه قيل لهم إنكم لما رضيتم بإخراج الصدقة التي هي غير واجبة فلأن تصيروا راضين بإخراج الواجبات أولى .

المسألة الثانية :

هذه الآية تدل على كثير من أحكام الزكاة .

الحكم الأول

أن قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم ﴾ يدل على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال لا كلها إذ مقدار ذلك البعض غير مذكور ههنا بصريح اللفظ ، بل المذكور ههنا قوله : ﴿ صَدَقَةٍ ﴾ ومعلوم أنه ليس المراد منه التنكير حتى يكفي أخذ أي جزء كان ، وإن كان في غاية القلة ، مثل الحبة الواحدة من الحنطة أو الجزء الحقير من الذهب ، فوجب أن يكون المراد منه

صدقة معلومة الصفة والكيفية والكمية عندهم ، حتى يكون قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ أمراً بأخذ تلك الصدقة المعلومة ، فحينئذ يزول الإجمال .

(7/348)

ومعلوم أن تلك الصدقة ليست إلا الصدقات التي وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين كيفيتها ، والصدقة التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أنه أمر بأن يؤخذ في خمس وعشرين بنت مخاض ، وفي ستة وثلاثين بنت لبون ، إلى غير ذلك من المراتب ، فكان قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ أمراً بأن يأخذ تلك الأشياء المخصوصة والأعيان المخصوصة ، وظاهر الآية للوجوب ، فدل هذا النص على أن أخذها واجب ، وذلك يدل على أن القيمة لا تكون مجزئة على ما هو قول الشافعي رحمه الله .

الحكم الثاني

أن قوله : ﴿ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ يقتضي أن يكون المال مالاً لهم ، ومتى كان الأمر كذلك لم يكن الفقير شريكاً للمالك في النصاب ، وحينئذ يلزم أن تكون الزكاة متعلقة بالذمة .

وأن لا يكون لها تعلق ألبتة بالنصاب .

وإذا ثبت هذا فنقول : إنه إذا فرط في الزكاة حتى هلك النصاب ، فالذي هلك ما كان محلاً

للحق ، بل محل الحق باق كما كان ، فوجب أن يبقى ذلك الوجوب بعد هلاك النصاب كما كان ، وهذا قول الشافعي رحمه الله .

الحكم الثالث

ظاهر هذا العموم يوجب الزكاة في مال المديون ، وفي مال الضمان ، وهو ظاهر .

الحكم الرابع

ظاهر الآية يدل على أن الزكاة إنما وجبت طهرة عن الآثام ، فلا تجب إلا حيث تصير طهرة عن الآثام ، وكونها طهرة عن الآثام لا يتقرر إلا حيث يمكن حصول الآثام ، وذلك لا يعقل إلا في حق البالغ ، فوجب أن لا يثبت وجوب الزكاة إلا في حق البالغ كما هو قول أبي حنيفة رحمه الله ، إلا أن الشافعي رحمه الله يجيب ويقول إن الآية تدل على أخذ الصدقة من أموالهم ، وأخذ الصدقة من أموالهم يستلزم كونها طهرة ، فلم قلتم إن أخذ الزكاة من أموال الصبي ، والمجنون طهرة لأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقاً ؟

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ أقوال :

القول الأول : أن يكون التقدير : خذ يا محمد من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم .

القول الثاني : أن يكون تطهرهم معلقاً بالصدقة ، والتقدير : خذ من أموالهم صدقة مطهرة ، وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة أوساخ الناس ، فإذا أخذت الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ فكان اندفاعها جارياً مجرى التطهير ، والله أعلم .

إن على هذا القول وجب أن نقول : إن قوله : ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ يكون منقطعاً عن الأول ، ويكون التقدير ﴿ خُذْ ﴾ يا محمد ﴿ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ تلك الصدقة ، وتزكيهم أنت بها .

القول الثالث : أن يجعل التاء في ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ ضمير المخاطب ، ويكون المعنى : تطهرهم أنت أيها الآخذ بأخذها منهم وتزكيهم بواسطة تلك الصدقة .

المسألة الرابعة :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ من أطهره بمعنى طهره ﴿ وتطهرهم ﴾ بالجزم جواباً للأمر ، ولم يقرأ ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ إلا بإثبات الياء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ واعلم أن التزكية لما كانت معطوفة على التطهير وجب حصول المغايرة ، فقيل : التزكية مبالغة في التطهير ، وقيل : التزكية بمعنى الإنماء ، والمعنى : أنه تعالى يجعل النقصان الحاصل بسبب إخراج قدر الزكاة سبباً للإنماء ، وقيل : الصدقة تطهرهم عن نجاسة الذنب والمعصية ، والرسول عليه السلام يزكيهم ويعظم شأنهم ويثني

عليهم عند إخراجها إلى الفقراء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿ إن صلاتك ﴾ بغير واو وفتح التاء على التوحيد ، والمراد منه الجنس ، وكذلك في سورة هود ﴿ أَصَلاتكَ تَأْمُرُكَ ﴾ بغير واو وعلى التوحيد ، والباقون ﴿ صلواتك ﴾ وكذلك في هود على الجمع ، قال أبو عبيدة : والقراءة الأولى أولى لأن الصلاة أكثر .

(9/348)

ألا ترى أنه قال : ﴿ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ والصلوات جمع قلة ، تقول ثلاث صلوات وخمس صلوات ، قال أبو حاتم : هذا غلط لأن بناء الصلوات ليس للقلة لأنه تعالى قال : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كلمات الله ﴾ [لقمان : 27] ولم يرد القليل وقال : ﴿ وَهُمْ فِى الغرفات ءامِنُونَ ﴾ [سبأ : 37] وقال : ﴿ إِنَّ المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : 35] .

المسألة الثانية :

احتج مانعو الزكاة في زمان أبي بكر بهذه الآية ، وقالوا إنه تعالى أمر رسوله بأخذ الصدقات

، ثم أمره بأن يصلي عليهم وذكر أن صلاته سكن لهم ، فكان وجوب الزكاة مشروطاً بحصول ذلك السكن ، ومعلوم أن غير الرسول لا يقوم مقامه في حصول ذلك السكن .

فوجب أن لا يجب دفع الزكاة إلى أحد غير الرسول عليه الصلاة والسلام ، واعلم أنه ضعيف لأن سائر الآيات دلت على أن الزكاة إنما وجبت دفعاً لحاجة الفقير كما في قوله : ﴿ إِنَّمَا الصدقات لِلْفُقَرَاء ﴾ [التوبة : 60] وكما في قوله : ﴿ وَفِى أموالهم حَقٌّ لِّلسَّائِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 19] .

المسألة الثالثة :

لا شك أن الصلاة في أصل اللغة عبارة عن الدعاء ، فإذا قلنا صلى فلان على فلان ، أفاد الدعاء بحسب اللغة الأصلية .

(10/348)

إلا أنه صار بحسب العرف يفيد أنه قال له اللهم صل عليه ، فلهذا السبب اختلف المفسرون ، فنقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : معناه ادع لهم ، قال الشافعي رحمه الله : والسنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت ، وقال آخرون : معناه أن يقول اللهم صل على فلان ، ونقلوا

عن النبي عليه الصلاة والسلام ، أن آل أبي أوفى لما أتوه بالصدقة قال : " اللهم صل على آل أبي أوفى " ونقل القاضي في "تفسيره" عن الكعبي في "تفسيره" أنه قال علي لعمر وهو مسجى عليك الصلاة والسلام ، ومن الناس من أنكر ذلك ، ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد إلا في حق النبي عليه الصلاة والسلام .

المسألة الرابعة :

أن أصحابنا يمنعون من ذكر صلوات الله عليه وعليه الصلاة والسلام إلا في حق الرسول ، والشيعة يذكرونه في علي وأولاده ، واحتجوا عليه بأن نص القرآن دل على أن هذا الذكر جائز في حق من يؤدي الزكاة ، فكيف يمنع ذكره في حق علي والحسن والحسين رضي الله عنهم ؟ ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال سلام عليكم يقال له وعليكم السلام ؟ فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين ، فكيف يمتنع ذكره في حق آل بيت الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ قال القاضي : إنه جائز في حق الرسول عليه الصلاة والسلام ، والدليل عليه أنهم قالوا : يا رسول الله قد عرفنا السلام عليك ، فكيف الصلاة عليك ؟ فقال على وجه التعليم قولوا : " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم " ومعلوم أنه ليس في آل محمد نبي ، فيتناول علياً ذلك كما يجوز مثله في آل إبراهيم ، والله أعلم .

المسألة الخامسة :

كنت قد ذكرت لطائف في قول بعضهم لبعض سلام عليكم وهي غير لائقة بهذا الموضع إلا أني رأيت أن أكتبها ههنا لئلا تضيع ، فقلت : إذا قال الرجل لغيره سلام عليكم .

(11/348)

فقوله : سلام عليكم مبتدأ وهو نكرة ، وزعموا أن جعل النكرة مبتدأ لا يجوز ، قالوا لأن الأخبار إنما يفيد إذا أخبر على المعلوم بأمر غير معلوم ، إلا أنهم قالوا : النكرة إذا كانت موصوفة حسن جعلها مبتدأ كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ ﴾ [البقرة : 221] .

إذا عرفت هذا فههنا وجهان : الأول : أن التنكير يدل على الكمال ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ الناس على حياة ﴾ [البقرة : 96] والمعنى : ولتجدنهم أحرص الناس على حياة دائمة كاملة غير منقطعة .

إذا ثبت هذا فقوله : "سلام" لفظة منكرة ، فكان المراد منه سلام كامل تام ، وعلى هذا التقدير : فقد صارت هذه النكرة موصوفة ، فصح جعلها مبتدأ ، وإذا كان كذلك فحينئذ يحصل الخبر وهو قوله : "عليكم" والتقدير : سلام كامل تام عليكم .

والثاني : أن يجعل قوله : "عليكم" صفة لقوله : "سلام" فيكون مجموع قوله : "سلام

عليكم" مبتدأ ويضمر له خبر ، والتقدير : سلام عليكم واقع كائن حاصل ، وربما كان حذف الخبر أدل على التهويل والتفخيم .

إذا عرفت هذا فنقول : إنه عند الجواب يقلب هذا الترتيب فيقال وعليكم السلام ، والسبب فيه ما قاله سيبويه أنهم يقدمون الأهم والذي هم بشأنه أعنى ، فلما قال وعليكم السلام دل على أن اهتمام هذا المجيب بشأن ذلك القائل شديد كامل ، وأيضاً فقوله : "وعليكم السلام" يفيد الحصر ، فكأنه يقول إن كنت قد أوصلت السلام إلي فأنا أزيد عليه وأجعل السلام مختصاً بك ومحصوراً فيك امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : 86] ومن لطائف قوله : "سلام عليكم" أنها أكمل من قوله : "السلام عليك" وذلك لأن قوله : "سلام عليك" معناه : سلام كامل تام شريف رفيع عليك .

(12/348)

وأما قوله : السلام عليك ، فالسلام لفظ مفرد محلى بالألف واللام ، وأنه لا يفيد إلا أصل الماهية ، واللفظ الدال على أصل الماهية لا إشعار فيه بالأحوال العارضة للماهية وبكمالات الماهية ، فكان قوله : "سلام عليك" أكمل من قوله : "السلام عليك" ومما يؤكد

هذا المعنى أنه أينما جاء لفظ "السلام" من الله تعالى ورد على سبيل التنكير، كقوله: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الذين يُؤْمِنُونَ بآياتنا فَقُلْ سلام عَلَيْكُمْ ﴾ [الأنعام: 54] وقوله: ﴿ قُلِ الحمد لِلَّهِ وسلام على عِبَادِهِ الذين اصطفى ﴾ [النمل: 59] وفي القرآن من هذا الجنس كثير.

أما لفظ "السلام" بالألف واللام، فإنما جاء من الأنبياء عليهم السلام، كقول موسى عليه السلام: ﴿ قَدْ جئناك بِآيَةٍ مّن رَّبِّكَ والسلام على مَنِ اتبع الهدى ﴾ [طه: 47] وأما في سورة مريم فلما ذكر الله يحيى عليه السلام قال: ﴿ وسلام عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ ﴾ [مريم: 15] وهذا السلام من الله تعالى، وفي قصة عيسى عليه السلام قال: ﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ ﴾ [مريم: 33] وهذا كلام عيسى عليه السلام.

(13/348)

فثبت بهذه الوجوه أن قوله: "سلام عليك" أكمل من قوله: "السلام عليك" فلهذا السبب اختار الشافعي رحمه الله في قراءة التشهد قوله: سلام عليك أيها النبي على سبيل التنكير، ومن لطائف السلام أنه لا شك أن هذا العالم معدن الشرور والآفات والمحن والمخالفات، واختلف العلماء الباحثون عن أسرار الأخلاق، أن الأصل في جبلة الحيوان الخير أو الشر

؟ فمنهم من قال : الأصل فيها الشر ، وهذا كالإجماع المنعقد بين جميع أفراد الإنسان ، بل نزيد ونقول : إنه كالإجماع المنعقد بين جميع الحيوان ، والدليل عليه أن كل إنسان يرى إنساناً يعدو إليه مع أنه لا يعرفه ، فإن طبعه يحمله على الاحتراز عنه والتأهب لدفعه ، ولولا أن طبعه يشهد بأن الأصل في الإنسان الشر ، وإلا لما أوجبت فطرة العقل التأهب لدفع شر ذلك الساعي إليه ، بل قالوا : هذا المعنى حاصل في كل الحيوانات ، فإن كل حيوان عدا إليه حيوان آخر فر ذلك الحيوان الأول واحترز منه ، فلو تقرر في طبعه أن الأصل في هذا الواصل هو الخير لوجب أن يقف ، لأن أصل الطبيعة يحمل على الرغبة في وجدان الخير ، ولو كان الأصل في طبع الحيوان أن يكون خيره وشره على التعادل والتساوي ، وجب أن يكون الفرار والوقوف متعادلين ، فلما لم يكن الأمر كذلك بل كل حيوان نوجه إليه حيوان مجهول الصفة عند الأول ، فإن ذلك الأول يحترز عنه بمجرد فطرته الأصلية ، علمنا أن الأصل في الحيوان هو الشر .

إذا ثبت هذا فنقول : دفع الشر أهم من جلب الخير ، ويدل عليه وجوه : الأول : أن دفع الشر يقتضي إبقاء الأصل أهم من تحصيل الزائد .

(14/348)

والثاني : أن إيصال الخير إلى كل أحد ليس في الوسع ، أما كف الشر عن كل أحد داخل في الوسع ، لأن الأول فعل والثاني ترك ، وفعل ما لا نهاية له غير ممكن ، أما ترك ما لا نهاية له ممكن ، والثالث : أنه إذا لم يحصل دفع الشر فقد حصل الشر ، وذلك يوجب حصول الألم والحزن ، وهو في غاية المشقة ، وأما إذا لم يحصل أيضاً إيصال الخير بقي الإنسان لا في الخير ولا في الشر ، بل على السلامة الأصلية ، وتحمل هذه الحالة سهل .

فثبت أن دفع الشر أهم من إيصال الخير ، وثبت أن الدنيا دار الشرور والآفات والمحن والبليات ، وثبت أن الحيوان في أصل الخلقة وموجب الفطرة منشأ للشرور ، وإذا وصل إنسان إلى إنسان كان أهم المهمات أن يعرفه أنه منه في السلامة والأمن والأمان ، فلهذا السبب وقع الاصطلاح على أن يقع ابتداء الكلام بذكر السلام ، وهو أن يقول "سلام عليكم" ومن لطائف قولنا "سلام عليكم" أن ظاهره يقتضي إيقاع السلام على جماعة ، والأمر كذلك بحسب العقل ، وبحسب الشرع .

أما بحسب الشرع فلأن القرآن دل على أن الإنسان لا يخلو عن جمع من الملائكة يحفظونه ويراقبون أمره ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لحافظين * كِرَاماً كاتبين ﴾ [الانفطار : 10 ، 11] والعقل أيضاً يدل عليه ، وذلك لأن الأرواح البشرية أنواع مختلفة ، فبعضها أرواح خيرة عاقلة ، وبعضها كدرة خبيثة ، وبعضها شهوانية ، وبعضها غضبية ، ولكل طائفة من طوائف الأرواح البشرية

السفلية روح علوي قوي يكون كالأب لتلك الأرواح البشرية ، وتكون هذه الأرواح بالنسبة إلى ذلك الروح العلوي كالأبناء بالنسبة إلى الأب ، وذلك الروح العلوي هو الذي يخصها بالإلهامات ، تارة في اليقظة ، وتارة في النوم .

وأيضاً الأرواح المفارقة عن أبدانها المشاكلة لهذه الأرواح في الصفات والطبيعة والخاصية .

(15/348)

يحصل لها نوع تعلق بهذا البدن بسبب المشاكلة والمجانسة ، وتصير كالمعاونة لهذه الروح على أعمالها إن خيراً فخير وأن شراً فشر .

وإذا عرفت هذا السر فالإنسان لا بد وأن يكون مصحوباً بتلك الأرواح المجانسة له ، فقوله : "سلام عليكم" إشارة إلى تسليم هذا الشخص المخصوص على جميع الأرواح الملازمة المصاحبة إياه بسبب المصاحبة الروحانية .

ومن لطائف هذا الباب أن الأرواح الإنسانية إذا اتصفت بالمعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة ، وقويت وتجردت ، ثم قوي تعلق بعضها ببعض انعكس أنوارها بعضها على بعض على مثال المرآة المشرقة المتقابلة .

فلهذا السبب فإن من أراد أن يقرأ وظيفة على أستاذه فالأدب أن يبدأ بحمد الله والثناء على الملائكة الأنبياء ، ثم يدعو لأستاذه ثم يشرع في القراءة ، والمقصود منها أن يقوي التعلق بين روحه وبين هذه الأرواح المقدسة الطاهرة ، حتى أن بسبب قوة ذلك التعلق ربما ظهر شيء من أنوارها وآثارها في روح هذا الطالب ، فيستقر في عقله من الأنوار الفائضة منها ، ويقوي روحه بمدد ذلك الفيض على إدراك المعارف والعلوم .

إذا عرفت هذا فإذا قال لغيره : "سلام عليكم" حدث بينهما تعلق شديد ، وحصل بسبب ذلك التعلق تطابق الأرواح وتعاكس الأنوار ، ولنكتف بهذا القدر في هذا الباب ، فإنا قد ذكرنا أن هذا الفصل أجنبي عن هذا الكلام ، والله أعلم .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قال الواحدي : السكن في اللغة ما سكنت إليه ، والمعنى : أن صلاتك عليهم توجب سكون نفوسهم إليك ، وللمفسرين عبارات : قال ابن عباس رضي الله عنهما : دعاؤك رحمة لهم .

وقال قتادة : وقار لهم .

وقال الكلبي : طمأنينة لهم ، وقال الفراء : إذا استغفرت لهم سكنت نفوسهم إلى أن الله تعالى قبل توبتهم .

وأقول : إن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا محمد لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت أسرارهم ، وانتقلوا من الظلمة إلى النور ، ومن الجسمانية إلى الروحانية ، وتقريره ما تقدم في المسألة الخامسة .

ثم قال : ﴿ واللهُ سَمِيعٌ ﴾ لقولهم : ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بنياتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 140.146 ﴾

(17/348)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

ظَاهِرُهُ رُجُوعُ الْكِنَايَةِ إلَى الْمَذْكُورِينَ قَبْلَهُ وَهُمْ الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ ؛ لِأَنَّ الْكِنَايَةَ لَا تَسْتَغْنِي عَنْ مَظْهَرٍ مَذْكُورٍ قَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِي الْخِطَابِ ، فَهَذَا هُوَ ظَاهِرُ الْكَلَامِ وَمُقْتَضَى اللَّفْظِ .

وَجَائِزٌ أَنْ يُرِيدَ بِهِ جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَتَكُونَ الْكِنَايَةُ عَنْهُمْ جَمِيعًا لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ يَعْنِي الْقُرْآنَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ وَهُوَ يَعْنِي الْأَرْضَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ يَعْنِي الشَّمْسَ ، فَكَنَّى عَنْ هَذِهِ الْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ ذِكْرِهَا مُظْهَرَةً فِي الْخِطَابِ لِدَلَالَةِ الْحَالِ عَلَيْهَا كَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يُحْتَمَلُ أَنْ يُرِيدَ بِهِ أَمْوَالَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ ، فَإِنْ كَانَتْ الْكِنَايَةُ عَنْ الْمَذْكُورِينَ فِي الْخِطَابِ مِنْ الْمُعْتَرِفِينَ بِذُنُوبِهِمْ ، فَإِنَّ دَلَالَتَهُ ظَاهِرَةٌ عَلَى وُجُوبِ الْأَخْذِ مِنْ سَائِرِ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِاسْتِوَاءِ الْجَمِيعِ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ إلَّا مَا خَصَّهُ الدَّلِيلُ وَذَلِكَ لِأَنَّ كُلَّ حُكْمٍ حَكَمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِهِ فِي شَخْصٍ ، أَوْ عَلَى شَخْصٍ مِنْ عِبَادِهِ ، أَوْ غَيْرِهَا فَذَلِكَ الْحُكْمُ لَازِمٌ فِي سَائِرِ الْأَشْخَاصِ إلَّا مَا قَامَ دَلِيلُ التَّخْصِيصِ فِيهِ وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ يَعْنِي إزَالَةَ نَجَسِ الذُّنُوبِ بِمَا يُعْطِي مِنْ الصَّدَقَةِ وَذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا أَطْلَقَ اسْمَ النَّجَسِ عَلَى الْكُفْرِ تَشْبِيهًا لَهُ بِنَجَاسَةِ الْأَعْيَانِ ، أَطْلَقَ فِي مُقَابَلَتِهِ وَإِزَالَتِهِ اسْمَ التَّطْهِيرِ كَتَطْهِيرِ نَجَاسَةِ الْأَعْيَانِ بِإِزَالَتِهَا ، وَكَذَلِكَ حُكْمُ الذُّنُوبِ فِي إطْلَاقِ اسْمِ النَّجَسِ عَلَيْهَا ، وَأَطْلَقَ اسْمَ التَّطْهِيرِ عَلَى إزَالَتِهَا بِفِعْلِ

(19/348)

مَا يُوجِبُ تَكْفِيرَهَا ، فَأَطْلَقَ اسْمَ

التَّطْهِيرِ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْخُذُهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ صَدَقَاتِهِمْ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُمْ يَسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ بِأَدَائِهَا إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ إلَّا فِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَخْذِ لَمَا اسْتَحَقُّوا التَّطْهِيرَ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ ثَوَابٌ لَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ الصَّدَقَةَ ، وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ التَّطْهِيرَ وَلَا يَصِيرُونَ أَزْكِيَاءَ بِفِعْلِ غَيْرِهِمْ ، فَعَلِمْنَا أَنَّ فِي مَضْمُونِهِ إعْطَاءَ هَؤُلَاءِ الصَّدَقَةَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلِذَلِكَ صَارُوا بِهَا أَزْكِيَاءَ مُتَطَهِّرِينَ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي مُرَادِ الْآيَةِ هَلْ هِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ ، أَوْ هِيَ كَفَّارَةٌ مِنْ الذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا ، فَرُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ كَفَّارَةُ الذُّنُوبِ الَّتِي أَصَابُوهَا ، وَقَالَ غَيْرُهُ : " هِيَ الزَّكَاةُ الْمَفْرُوضَةُ " .

(20/348)

وَالصَّحِيحُ أَنَّهَا الزَّكَوَاتُ الْمَفْرُوضَاتُ إذْ لَمْ يَثْبُتْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ ، أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً دُونَ سَائِرِ النَّاسِ سِوَى زَكَوَاتِ الْأَمْوَالِ ، وَإِذَا لَمْ يَثْبُتْ بِذَلِكَ خَبَرٌ فَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ وَسَائِرَ النَّاسِ سَوَاءٌ فِي الْأَحْكَامِ ، وَالْعِبَادَاتِ وَأَنَّهُمْ غَيْرُ مَخْصُوصِينَ بِهَا دُونَ غَيْرِهِمْ مِنْ النَّاسِ وَلِأَنَّهُ إذَا كَانَ مُقْتَضَى الْآيَةِ وُجُوبُ هَذِهِ الصَّدَقَةِ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ لِتَسَاوِي النَّاسِ فِي الْأَحْكَامِ إلَّا مَنْ خَصَّهُ دَلِيلٌ فَالْوَاجِبُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصَّدَقَةُ وَاجِبَةً عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ غَيْرَ مَخْصُوصٍ بِهَا قَوْمٌ دُونَ قَوْمٍ ، وَإِذَا ثَبَتَ ذَلِكَ كَانَتْ هِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ إذْ لَيْسَ فِي أَمْوَالِ سَائِرِ النَّاسِ حَقٌّ سِوَى الصَّدَقَاتِ الْمَفْرُوضَةِ ، وَقَوْلُهُ : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ لَا دَلَالَةَ فِيهِ عَلَى أَنَّهَا صَدَقَةٌ مُكَفِّرَةٌ لِلذُّنُوبِ غَيْرُ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ ؛ لِأَنَّ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ أَيْضًا تُطَهِّرُ وَتُزَكِّي مُؤَدِّيَهَا ، وَسَائِرُ النَّاسِ مِنْ الْمُكَلَّفِينَ مُحْتَاجُونَ إلَى مَا يُطَهِّرُهُمْ وَيُزَكِّيهِمْ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ عُمُومٌ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَمُقْتَضٍ لِأَخْذِ الْبَعْضِ مِنْهَا ، إذْ كَانَتْ مِنْ مُقْتَضَى التَّبْعِيضِ ، وَقَدْ دَخَلَتْ عَلَى عُمُومِ الْأَمْوَالِ فَاقْتَضَتْ إيجَابَ الْأَخْذِ مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ بَعْضَهَا .

(21/348)

وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ : إنَّهُ مَتَى أَخَذَ مِنْ صِنْفٍ وَاحِدٍ فَقَدْ قَضَى عُهْدَةَ الْآيَةِ ، وَالصَّحِيحُ عِنْدَنَا هُوَ الْأَوَّلُ ، وَكَذَلِكَ كَانَ يَقُولُ شَيْخُنَا أَبُو الْحَسَنِ الْكَرْخِيُّ .

(22/348)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى إيجَابَ فَرْضِ الزَّكَاةِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ بِلَفْظٍ مُجْمَلٍ مُفْتَقِرٍ إلَى الْبَيَانِ فِي الْمَأْخُوذِ ، وَالْمَأْخُوذِ مِنْهُ وَمَقَادِيرِ الْوَاجِبِ ، وَالْمُوجَبِ فِيهِ وَوَقْتِهِ وَمَا يَسْتَحِقُّهُ وَمَا يَنْصَرِفُ فِيهِ ، فَكَانَ لَفْظُ الزَّكَاةِ مُجْمَلًا فِي هَذِهِ الْوُجُوهِ كُلِّهَا وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ فَكَانَ الْإِجْمَالُ فِي لَفْظِ الصَّدَقَةِ دُونَ لَفْظِ الْأَمْوَالِ ؛ لِأَنَّ الْأَمْوَالَ اسْمُ عُمُومٍ فِي مُسَمَّيَاتِهِ ، إلَّا أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ خَاصٌّ فِي بَعْضِ الْأَمْوَالِ دُونَ جَمِيعِهَا ، وَالْوُجُوبَ فِي وَقْتٍ مِنْ الزَّمَانِ دُونَ سَائِرِهِ ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ ، وَالْمَحْرُومِ ﴾ وَكَانَ مُرَادُ اللَّهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ ذَلِكَ مَوْكُولًا إلَى بَيَانِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ قَالَ : حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا صُرَدُ بْنُ أَبِي الْمَنَازِلِ قَالَ : سَمِعْت حَبِيبًا الْمَالِكِيَّ قَالَ : قَالَ رَجُلٌ لِعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ : يَا أَبَا نُجَيْدٍ إنَّكُمْ لَتُحَدِّثُونَنَا بِأَحَادِيثَ مَا نَجِدُ

لَهَا أَصْلًا فِي الْقُرْآنِ فَغَضِبَ عِمْرَانُ وَقَالَ لِلرَّجُلِ : أَوَجَدْتُمْ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمًا وَمِنْ كُلِّ كَذَا وَكَذَا شَاةً شَاةً وَمِنْ كَذَا وَكَذَا بَعِيرًا كَذَا وَكَذَا

(23/348)

أَوَجَدْتُمْ هَذَا فِي الْقُرْآنِ ؟ قَالَ : لَا قَالَ : فَعَمَّنْ أَخَذْتُمْ هَذَا ؟ أَخَذْتُمُوهُ عَنَّا وَأَخَذْنَاهُ عَنْ نَبِيِّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَذَكَرَ أَشْيَاءَ نَحْوَ هَذَا فَمِمَّا نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنْ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ الذَّهَبُ ، وَالْفِضَّةُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ ، وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ فَنَصَّ عَلَى وُجُوبِ الْحَقِّ فِيهِمَا بِأَخَصِّ أَسْمَائِهِمَا تَأْكِيدًا وَتَبْيِينًا وَمِمَّا نَصَّ عَلَيْهِ زَكَاةُ الزَّرْعِ وَالثِّمَارِ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ فَالْأَمْوَالُ الَّتِي تَجِبُ فِيهَا الزَّكَاةُ الذَّهَبُ ، وَالْفِضَّةُ وَعُرُوضُ التِّجَارَةِ ، وَالْإِبِلُ ، وَالْبَقَرُ ، وَالْغَنَمُ السَّائِمَةُ ، وَالزَّرْعُ وَالثَّمَرُ عَلَى اخْتِلَافٍ مِنْ الْفُقَهَاءِ فِي بَعْضِ ذَلِكَ ، وَقَدْ ذَكَرَ بَعْضُ صَدَقَةَ الزَّرْعِ ، وَالثَّمَرِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ .

وَأَمَّا الْمِقْدَارُ ، فَإِنَّ نِصَابَ الْوَرِقِ مِائَتَا دِرْهَمٍ ، وَنِصَابَ الذَّهَبِ عِشْرُونَ دِينَارًا ، وَقَدْ رُوِيَ

ذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا الْإِبِلُ ، فَإِنَّ نِصَابَهَا خَمْسٌ مِنْهَا ، وَنِصَابُ الْغَنَمِ أَرْبَعُونَ شَاةً ، وَنِصَابُ الْبَقَرِ ثَلَاثُونَ .

(24/348)

وَأَمَّا الْمِقْدَارُ الْوَاجِبُ فَفِي الذَّهَبِ ، وَالْفِضَّةِ وَعُرُوضِ التِّجَارَةِ رُبْعُ الْعُشْرِ إذَا بَلَغَ النِّصَابَ وَفِي خَمْسٍ مِنْ الْإِبِلِ شَاةٌ وَفِي أَرْبَعِينَ شَاةً شَاةٌ وَفِي ثَلَاثِينَ بَقَرَةً تَبِيعٌ ، وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَسَنَذْكُرُهُ بَعْدَ هَذَا إنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَأَمَّا الْوَقْتُ فَهُوَ حَوَلُ الْحَوْلِ عَلَى الْمَالِ مَعَ كَمَالِ النِّصَابِ فِي ابْتِدَاءِ الْحَوْلِ وَآخِرِهِ ، وَأَمَّا مَنْ تَجِبُ عَلَيْهِ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْمَالِكُ حُرًّا بَالِغًا عَاقِلًا مُسْلِمًا صَحِيحَ الْمِلْكِ لَا دَيْنَ عَلَيْهِ يُحِيطُ بِمَالِهِ ، أَوْ بِمَا لَا يَفْضُلُ عَنْهُ مِائَتَا دِرْهَمٍ

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا الْقَعْنَبِيُّ قَالَ : قَرَأْت عَلَى مَالِك بْنِ أَنَسٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ يَحْيَى الْمَازِنِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : سَمِعْت أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ ذَوْدٍ صَدَقَةٌ ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسَةِ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ ﴾ وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُد الْمَهْرِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ : أَخْبَرَنِي جَرِيرُ بْنُ حَازِمٍ عَنْ أَبِي إسْحَاقَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ ، وَالْحَارِثُ الْأَعْوَرُ عَنْ

عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ فَإِذَا كَانَتْ لَك مِائَتَا دِرْهَمٍ وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ فَفِيهَا خَمْسَةُ دَرَاهِمَ ، وَلَيْسَ عَلَيْك شَيْءٌ فِي الذَّهَبِ حَتَّى يَكُونَ

(25/348)

لَك عِشْرُونَ دِينَارًا ، فَإِذَا كَانَتْ لَك عِشْرُونَ دِينَارًا وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ فَفِيهَا نِصْفُ دِينَارٍ ، وَلَيْسَ فِي مَالٍ زَكَاةٌ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ ﴾ وَهَذَا الْخَبَرُ فِي الْحَوْلِ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ ، فَإِنَّ الْفُقَهَاءَ قَدْ تَلَقَّتْهُ بِالْقَبُولِ وَاسْتَعْمَلُوهُ فَصَارَ فِي حَيِّزِ الْمُتَوَاتِرِ الْمُوجِبِ لِلْعِلْمِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي رَجُلٍ مَلَكَ نِصَابًا : " أَنَّهُ يُزَكِّيهِ حِينَ يَسْتَفِيدُهُ " وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعَلِيٌّ وَعُمَرُ وَابْنُ عُمَرَ وَعَائِشَةُ " لَا زَكَاةَ فِيهِ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ وَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ لَا زَكَاةَ عَلَيْهِ بَعْدَ الْأَدَاءِ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ عَلِمْنَا أَنَّ وُجُوبَ الزَّكَاةِ لَمْ يَتَعَلَّقْ بِالْمَالِ دُونَ الْحَوْلِ وَأَنَّهُ بِهِمَا جَمِيعًا يَجِبُ ، وَقَدْ اسْتَعْمَلَ ابْنُ عَبَّاسٍ خَبَرَ الْحَوْلِ بَعْدَ الْأَدَاءِ وَلَمْ يُفَرِّقْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُ قَبْلَ الْأَدَاءِ وَبَعْدَهُ بَلْ نَفَى إيجَابَ الزَّكَاةِ فِي سَائِرِ الْأَمْوَالِ نَفْيًا عَامًّا إلَّا بَعْدَ حَوَلِ الْحَوْلِ فَوَجَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي كُلِّ نِصَابٍ قَبْلَ الْأَدَاءِ وَبَعْدَهُ وَمَعَ ذَلِكَ يُحْتَمَلُ أَنْ لَا يَكُونَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَرَادَ إيجَابَ الْأَدَاءِ بِوُجُودِ مِلْكِ النِّصَابِ وَأَنَّهُ أَرَادَ جَوَازَ تَعْجِيلِ الزَّكَاةِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْخَبَرِ ذِكْرُ الْوُجُوبِ .

وَاخْتُلِفَ فِيمَا زَادَ عَلَى الْمِائَتَيْنِ مِنْ الْوَرِقِ فَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَابْنِ عُمَرَ فِيمَا زَادَ عَلَى الْمِائَتَيْنِ بِحِسَابِهِ وَهُوَ قَوْلُ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ وَمَالِكٍ وَالشَّافِعِيِّ .

(26/348)

وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي الزِّيَادَةِ حَتَّى تَبْلُغَ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا وَهُوَ قَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَحْتَجُّ مَنْ اعْتَبَرَ الزِّيَادَةَ أَرْبَعِينَ بِمَا رَوَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَنْمٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَلَيْسَ فِيمَا زَادَ عَلَى الْمِائَتَيْ الدِّرْهَمِ شَيْءٌ حَتَّى يَبْلُغَ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا ﴾ وَحَدِيثِ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ هَاتُوا زَكَاةَ الرِّقَةِ مِنْ كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمًا ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خَمْسِ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ ﴾ فَوَجَبَ اسْتِعْمَالُ قَوْلِهِ ﴿ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ دِرْهَمًا دِرْهَمٌ ﴾ عَلَى أَنَّهُ جَعَلَهُ مِقْدَارَ الْوَاجِبِ فِيهِ كَقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ وَإِذَا كَثُرَتْ الْغَنَمُ فَفِي كُلِّ مِائَةِ شَاةٍ شَاةٌ ﴾ وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ أَنَّ هَذَا مَالٌ لَهُ نِصَابٌ فِي الْأَصْلِ فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ لَهُ عَفْوٌ بَعْدَ النِّصَابِ كَالسَّوَائِمِ ، وَلَا يَلْزَمُ أَبَا حَنِيفَةَ ذَلِكَ فِي زَكَاةِ الثِّمَارِ ؛ لِأَنَّهُ لَا نِصَابَ لَهُ فِي الْأَصْلِ عِنْدَهُ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ لَمَّا كَانَ عِنْدَهُمَا أَنَّ لِزَكَاةِ الثِّمَارِ نِصَابًا فِي الْأَصْلِ ثُمَّ لَمْ يَجِبْ اعْتِبَارُ مِقْدَارٍ بَعْدَهُ بَلْ الْوَاجِبُ فِي الْقَلِيلِ ، وَالْكَثِيرِ ، كَذَلِكَ الدَّرَاهِمُ وَالدَّنَانِيرُ وَلَوْ سَلِمَ لَهُمَا ذَلِكَ كَانَ قِيَاسُهُ عَلَى السَّوَائِمِ ، أَوْلَى مِنْهُ عَلَى الثِّمَارِ

؛ لِأَنَّ السَّوَائِمَ يَتَكَرَّرُ وُجُوبُ الْحَقِّ فِيهَا بِتَكَرُّرِ السِّنِينَ وَمَا تُخْرِجُ الْأَرْضُ لَا يَجِبُ فِيهِ الْحَقُّ إلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَمُرُورُ

(27/348)

الْأَحْوَالِ لَا يُوجِبُ تَكْرَارَ وُجُوبِ الْحَقِّ فِيهِ فَإِنْ قِيلَ : فَوَاجِبٌ أَنْ يَكُونَ مَا يَتَكَرَّرُ وُجُوبُ الْحَقِّ فِيهِ ، أَوْلَى بِوُجُوبِهِ فِي قَلِيلِ مَا زَادَ عَلَى النِّصَابِ وَكَثِيرِهِ مِمَّا لَا يَتَكَرَّرُ وُجُوبُ الْحَقِّ فِيهِ .

قِيلَ لَهُ : هَذَا مُنْتَقَضٌ بِالسَّوَائِمِ ؛ لِأَنَّ الْحَقَّ يَتَكَرَّرُ وُجُوبُهُ فِيهَا وَلَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ اعْتِبَارُ الْعَفْوِ بَعْدَ النِّصَابِ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قِيَاسَهُ عَلَى السَّوَائِمِ ، أَوْلَى مِنْ قِيَاسِهِ عَلَى مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ أَنَّ الدَّيْنَ لَا يُسْقِطُ الْعُشْرَ ، وَكَذَلِكَ مَوْتُ رَبِّ الْأَرْضِ وَيُسْقِطُ زَكَاةَ الدَّرَاهِمِ وَالسَّوَائِمِ ، فَكَانَ قِيَاسُهَا عَلَيْهَا ، أَوْلَى مِنْهُ عَلَى مَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ .

وَاخْتُلِفَ فِيمَا زَادَ مِنْ الْبَقَرِ عَلَى أَرْبَعِينَ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ : " فِيمَا زَادَ بِحِسَابِهِ " وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ : " لَا شَيْءَ فِيهِ حَتَّى يَبْلُغَ سِتِّينَ " وَرَوَى أَسَدُ بْنُ عُمَرَ عَنْ أَبِي حَنِيفَةَ مِثْلَ قَوْلِهِمَا .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي لَيْلَى وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ كَقَوْلِ أَبِي يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ .

(28/348)

وَيُحْتَجُّ لِأَبِي حَنِيفَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ فِي سَائِرِ الْأَمْوَالِ ، لَا سِيَّمَا ، وَقَدْ اتَّفَقَ الْجَمِيعُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْمَالَ دَاخِلٌ فِي حُكْمِ الْآيَةِ مُرَادٌ بِهَا ، فَوَجَبَ فِي الْقَلِيلِ ، وَالْكَثِيرِ بِحَقِّ الْعُمُومِ ، وَقَدْ رَوَى عَنْهُ الْحَسَنُ بْنُ زِيَادٍ أَنَّهُ لَا شَيْءَ فِي الزِّيَادَةِ حَتَّى تَبْلُغَ خَمْسِينَ فَتَكُونَ فِيهَا مُسِنَّةٌ وَرُبْعَ مُسِنَّةٍ ، وَيَحْتَجُّ لِقَوْلِهِ الْمَشْهُورِ أَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ إثْبَاتِ الْوَقَصِ تِسْعًا فَيَنْتَقِلُ إلَيْهِ بِالْكَسْرِ ، وَلَيْسَ ذَلِكَ فِي فُرُوضِ الصَّدَقَاتِ ، أَوْ بِجَعْلِ الْوَقَصِ تِسْعَةَ عَشَرَ فَيَكُونُ خِلَافُ ، أَوْقَاصِ الْبَقَرِ ، فَلَمَّا بَطَلَ هَذَا ، وَهَذَا ثَبَتَ الْقَوْلُ الثَّالِثُ وَهُوَ إيجَابُهُ فِي الْقَلِيلِ ، وَالْكَثِيرِ مِنْ الزِّيَادَةِ وَرُوِيَ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَأَبِي قِلَابَةَ وَالزُّهْرِيِّ وَقَتَادَةَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ : " فِي خَمْسٍ مِنْ الْبَقَرِ شَاةٌ " ، وَهُوَ قَوْلٌ شَاذٌّ لِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى خِلَافِهِ وَوُرُودِ الْآثَارِ الصَّحِيحَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِبُطْلَانِهِ .

وَرَوَى عَاصِمُ بْنُ ضَمْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ : فِي خَمْسٍ وَعِشْرِينَ مِنْ الْإِبِلِ خَمْسُ شِيَاهٍ " ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَقَالَ : عَلِيٌّ أَعْلَمُ مِنْ أَنْ يَقُولَ هَذَا ، هَذَا مِنْ غَلَطِ الرِّجَالِ .

وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْآثَارِ الْمُتَوَاتِرَةِ أَنَّ فِيهَا ابْنَةُ مَخَاضٍ ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَخَذَ خَمْسَ شِيَاهٍ عَنْ قِيمَةِ بِنْتِ

(29/348)

مَخَاضٍ فَظَنَّ الرَّاوِي أَنَّ ذَلِكَ فَرْضُهَا عِنْدَهُ .

وَاخْتُلِفَ فِي الزِّيَادَةِ عَلَى الْعِشْرِينَ وَمِائَةٍ مِنْ الْإِبِلِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا جَمِيعًا : " تَسْتَقْبِلُ الْفَرِيضَةَ " وَهُوَ قَوْلُ الثَّوْرِيِّ .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مَالِكٍ : " إذَا زَادَتْ عَلَى عِشْرِينَ وَمِائَةٍ وَاحِدَةٌ فَالْمُصَدِّقُ بِالْخِيَارِ إنْ شَاءَ أَخَذَ ثَلَاثَ بَنَاتِ لَبُونٍ ، وَإِنْ شَاءَ حِقَّتَيْنِ " .

وَقَالَ ابْنُ شِهَابٍ : إذَا زَادَتْ وَاحِدَةً فَفِيهَا ثَلَاثُ بَنَاتِ لَبُونٍ إلَى أَنْ تَبْلُغَ ثَلَاثِينَ وَمِائَةً فَتَكُونُ فِيهَا حِقَّةٌ وَابْنَتَا لَبُونٍ " ، يَتَّفِقُ قَوْلُ ابْنِ شِهَابٍ وَمَالِكٍ فِي هَذَا وَيَخْتَلِفَانِ فِيمَا بَيْنَ وَاحِدٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ إلَى تِسْعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَةٍ .

وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : " مَا زَادَ عَلَى الْعِشْرِينَ ، وَالْمِائَةِ فَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ ، وَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ " قَالَ أَبُو بَكْرٍ : قَدْ ثَبَتَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مِنْ مَذْهَبِهِ اسْتِئْنَافُ الْفَرِيضَةِ بَعْدَ الْمِائَةِ ، وَالْعِشْرِينَ بِحَيْثُ لَا يُخْتَلَفُ فِيهِ ، ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَيْضًا أَنَّهُ

أَخَذَ أَسْنَانَ الْإِبِلِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ سُئِلَ فَقِيلَ لَهُ : هَلْ عِنْدَكُمْ شَيْءٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ : مَا عِنْدَنَا إلَّا مَا عِنْدَ النَّاسِ ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ ، فَقِيلَ لَهُ : وَمَا فِيهَا ؟ فَقَالَ : فِيهَا أَسْنَانُ الْإِبِلِ أَخَذْتهَا عَنْ النَّبِيِّ .

(30/348)

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمَّا ثَبَتَ قَوْلُ عَلِيٍّ بِاسْتِئْنَافِ الْفَرِيضَةِ وَثَبَتَ أَنَّهُ أَخَذَ أَسْنَانَ الْإِبِلِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَارَ ذَلِكَ تَوْقِيفًا لَازِمًا لَا يُخَالِفُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَيْضًا قَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكِتَابِ الَّذِي كَتَبَهُ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ اسْتِئْنَافُ الْفَرِيضَةِ بَعْدَ الْمِائَةِ ، وَالْعِشْرِينَ .

وَأَيْضًا غَيْرُ جَائِزٍ إثْبَاتُ هَذَا الضَّرْبِ مِنْ الْمَقَادِيرِ إلَّا مِنْ طَرِيقِ التَّوْقِيفِ ، أَوْ الِاتِّفَاقِ ، فَلَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى وُجُوبِ الْحِقَّتَيْنِ فِي الْمِائَةِ ، وَالْعِشْرِينَ وَاخْتَلَفُوا عِنْدَ الزِّيَادَةِ لَمْ يَجُزْ لَنَا إسْقَاطُ الْحِقَّتَيْنِ ؛ لِأَنَّهُمَا فَرْضٌ قَدْ ثَبَتَ بِالنَّقْلِ الْمُتَوَاتِرِ وَاتِّفَاقِ الْأُمَّةِ إلَّا بِتَوْقِيفٍ ، أَوْ اتِّفَاقٍ .

فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آثَارٍ كَثِيرَةٍ ﴿ : وَإِذَا زَادَتْ الْإِبِلُ عَلَى مِائَةٍ وَعِشْرِينَ فَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ ابْنَةُ لَبُونٍ ﴾ .

قِيلَ لَهُ : قَدْ اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهُ ، فَقَالَ فِي بَعْضِهَا : ﴿ وَإِذَا كَثُرَتْ الْإِبِلُ ﴾ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِبِلَ لَا

تَكْثُرُ بِزِيَادَةِ الْوَاحِدَةِ ، فَعُلِمَ أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِقَوْلِهِ : " وَإِذَا زَادَتْ الْإِبِلُ " إلَّا زِيَادَةً كَثِيرَةً يُطْلَقُ عَلَى مِثْلِهَا أَنَّ الْإِبِلَ قَدْ كَثُرَتْ بِهَا ، وَنَحْنُ قَدْ نُوجِبُ ذَلِكَ عِنْدَ ضَرْبٍ مِنْ الزِّيَادَةِ الْكَثِيرَةِ وَهُوَ أَنْ تَكُونَ الْإِبِلُ مِائَةً وَتِسْعِينَ فَتَكُونُ فِيهَا ثَلَاثُ حِقَاقٍ وَبِنْتُ لَبُونٍ .

(31/348)

وَأَيْضًا فَمُوجِبُ تَغْيِيرِ الْفَرْضِ بِزِيَادَةِ الْوَاحِدِ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يُغَيِّرَهُ بِالْوَاحِدَةِ الزَّائِدَةِ فَيُوجِبُ فِيهَا وَفِي الْأَصْلِ ، أَوْ يُغَيِّرُهُ فَيُوجِبُ فِي الْمِائَةِ ، وَالْعِشْرِينَ وَلَا يُوجِبُ فِي الْوَاحِدَةِ الزَّائِدَةِ شَيْئًا ، فَإِنْ ، أَوْجَبَ فِي الزِّيَادَةِ مَعَ الْأَصْلِ ثَلَاثَ بَنَاتِ لَبُونٍ فَهُوَ لَمْ يُوجِبْ فِي الْأَرْبَعِينَ ابْنَةَ لَبُونٍ ، وَإِنَّمَا أَوْجَبَهَا فِي أَرْبَعِينَ وَفِي الْوَاحِدَةِ ، وَذَلِكَ خِلَافُ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَإِنْ كَانَ إنَّمَا يُوجِبُ تَغْيِيرَ الْفَرْضِ بِالْوَاحِدَةِ فَيَجْعَلُ ثَلَاثَ بَنَاتِ لَبُونٍ فِي الْمِائَةِ ، وَالْعِشْرِينَ ، وَالْوَاحِدَةُ عَفْوٌ فَقَدْ خَالَفَ الْأُصُولَ ، إذْ كَانَ الْعَفْوُ لَا يُغَيِّرُ الْفَرْضَ

وَاخْتُلِفَ فِي فَرَائِضِ الْغَنَمِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَاللَّيْثُ وَالشَّافِعِيُّ : " فِي مِائَتَيْنِ وَشَاةٍ ثَلَاثُ شِيَاهٍ إلَى أَرْبَعِمِائَةٍ فَتَكُونُ فِيهَا أَرْبَعُ شِيَاهٍ " .

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ : " إذَا كَانَتْ الْغَنَمُ ثَلَاثَ مِائَةِ شَاةٍ وَشَاةٍ فَفِيهَا أَرْبَعُ شِيَاهٍ ، وَإِذَا كَانَتْ أَرْبَعِمِائَةِ شَاةٍ وَشَاةٍ فَفِيهَا خَمْسُ شِيَاهٍ " ، وَرَوَى إبْرَاهِيمُ نَحْوَ ذَلِكَ ، وَقَدْ ثَبَتَتْ آثَارٌ

مُسْتَفِيضَةٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْقَوْلِ الْأَوَّلِ دُونَ قَوْلِ الْحَسَنِ بْنِ صَالِحٍ .

وَاخْتُلِفَ فِي صَدَقَةِ الْعَوَامِلِ مِنْ الْإِبِلِ ، وَالْبَقَرِ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا وَالثَّوْرِيُّ وَالْأَوْزَاعِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالشَّافِعِيُّ : " لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ " .

وَقَالَ مَالِكٌ وَاللَّيْثُ : " فِيهَا صَدَقَةٌ " .

(32/348)

وَالْحُجَّةُ لِلْقَوْلِ الْأَوَّلِ مَا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ إِسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا حَمَوَيْهِ قَالَ : حَدَّثَنَا سَوَّارُ بْنُ مُصْعَبٍ عَنْ لَيْثٍ عَنْ طَاوُسٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَيْسَ فِي الْبَقَرِ الْعَوَامِلِ صَدَقَةٌ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ النُّفَيْلِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو إِسْحَاقَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ وَعَنْ الْحَارِثِ الْأَعْوَرِ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ زُهَيْرٌ : أَحْسَبُهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ وَفِي الْبَقَرِ فِي كُلِّ ثَلَاثِينَ تَبِيعٌ ، وَفِي الْأَرْبَعِينَ مُسِنَّةٌ ، وَلَيْسَ عَلَى الْعَوَامِلِ شَيْءٌ ﴾ وَأَيْضًا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : لَيْسَ فِي النَّخَّةِ وَلَا فِي الْكَسْعَةِ وَلَا فِي الْجَبْهَةِ صَدَقَةٌ ﴾ .

وَقَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : النَّخَّةُ الْبَقَرُ الْعَوَامِلُ ، وَالْكَسْعَةُ الْحَمِيرُ ، وَالْجَبْهَةُ الْخَيْلُ .

وَأَيْضًا فَإِنَّ وُجُوبَ الصَّدَقَةِ فِيمَا عَدَا الذَّهَبَ ، وَالْفِضَّةَ مُتَعَلِّقٌ بِكَوْنِهِ مَرْصَدًا لِلنَّمَاءِ مِنْ نَسْلِهَا ، أَوْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَالسَّائِمَةُ يُطْلَبُ نَمَاؤُهَا إمَّا مِنْ نَسْلِهَا ، أَوْ مِنْ أَنْفُسِهَا ، وَالْعَامِلَةُ غَيْرُ مُرْصَدَةٍ لِلنَّمَاءِ ، وَهِيَ بِمَنْزِلَةِ دُورِ الْغَلَّةِ وَثِيَابِ الْبِذْلَةِ وَنَحْوِهَا .

(33/348)

وَأَيْضًا الْحَاجَةُ إلَى عِلْمِ وُجُوبِ الصَّدَقَةِ فِي الْعَوَامِلِ كَهِيَ إلَى السَّائِمَةِ ، فَلَوْ كَانَ مِنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوْقِيفٌ فِي إيجَابِهَا فِي الْعَامِلَةِ لَوَرَدَ النَّقْلُ بِهِ مُتَوَاتِرًا فِي وَزْنِ وُرُودِهِ فِي السَّائِمَةِ ، فَلَمَّا لَمْ يَرِدْ بِذَلِكَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا عَنْ الصَّحَابَةِ نَقْلٌ مُسْتَفِيضٌ عَلِمْنَا أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ النَّبِيِّ تَوْقِيفٌ فِي إيجَابِهَا ، بَلْ قَدْ وَرَدَتْ آثَارٌ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي نَفْيِ الصَّدَقَةِ عَنْهَا ، مِنْهَا مَا قَدَّمْنَاهُ وَمِنْهَا مَا رَوَى يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ عَنْ الْمُثَنَّى بْنِ الصَّبَّاحِ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ لَيْسَ فِي ثَوْرِ الْمُثِيرَةِ صَدَقَةٌ ﴾ .

(34/348)

وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ وَجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُجَاهِدٍ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَالزُّهْرِيِّ نَفْيُ صَدَقَةِ الْبَقَرِ الْعَوَامِلِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ حَدِيثُ أَنَسٍ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَتَبَ لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ كِتَابًا فِي الصَّدَقَاتِ : هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، فَمَنْ سُئِلَهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى وَجْهِهَا فَلْيُعْطِهَا وَمَنْ سُئِلَ فَوْقَهَا فَلَا يُعْطِهِ صَدَقَةُ الْغَنَمِ فِي سَائِمَتِهَا إذَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ فِيهَا شَاةٌ ﴾ ، فَنَفَى بِذَلِكَ الصَّدَقَةَ عَنْ غَيْرِ السَّائِمَةِ ؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ السَّائِمَةَ وَنَفَى الصَّدَقَةَ عَمَّا عَدَاهَا فَإِنْ قِيلَ : رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِي خَمْسٍ مِنْ الْإِبِلِ شَاةٌ ﴾ وَذَلِكَ عُمُومٌ يُوجِبُ فِي السَّائِمَةِ وَغَيْرِهَا .

قِيلَ لَهُ : يَخُصُّهُ مَا ذَكَرْنَا ، وَلَمْ يَقُلْ بِقَوْلِ مَالِكٍ فِي إيجَابِهِ الصَّدَقَةَ فِي الْبَقَرِ الْعَوَامِلِ أَحَدٌ قَبْلَهُ .

فَصْلٌ قَالَ أَصْحَابُنَا وَعَامَّةُ أَهْلِ الْعِلْمِ " فِي أَرْبَعِينَ شَاةً مَسَانَّ وَصِغَارٍ مُسِنَّةٌ " وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : " لَا شَيْءَ فِيهَا حَتَّى تَكُونَ الْمَسَانُّ أَرْبَعِينَ ثُمَّ يُعْتَدُّ بَعْدَ ذَلِكَ بِالصِّغَارِ " وَلَمْ يَسْبِقْهُ إلَى هَذَا الْقَوْلِ أَحَدٌ .

وَقَدْ رَوَى عَاصِمُ بْنُ ضَمْرَةَ عَنْ عَلِيٍّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

(35/348)

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي ، فَقَالَ فِيهِ : وَيُعَدُّ صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا ﴾ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَ النِّصَابِ وَمَا زَادَ وَأَيْضًا الْآثَارُ الْمُتَوَاتِرَةُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِي أَرْبَعِينَ شَاةً شَاةٌ ﴾ ، وَمَتَى اجْتَمَعَ الصِّغَارُ ، وَالْكِبَارُ أُطْلِقَ عَلَى الْجَمِيعِ الِاسْمُ فَيُقَالُ : عِنْدَهُ أَرْبَعُونَ شَاةً ، فَاقْتَضَى ذَلِكَ وُجُوبَهَا فِي الصِّغَارِ ، وَالْكِبَارِ إذَا اجْتَمَعَتْ وَأَيْضًا لَمْ يَخْتَلِفُوا فِي الِاعْتِدَادِ بِالصِّغَارِ بَعْدَ النِّصَابِ لِوُجُودِ الْكِبَارِ مَعَهَا ، فَكَذَلِكَ حُكْمُ النِّصَابِ

وَاخْتُلِفَ فِي الْخَيْلِ السَّائِمَةِ ، فَأَوْجَبَ أَبُو حَنِيفَةَ فِيهَا إذَا كَانَتْ إنَاثًا ، أَوْ ذُكُورًا وَإِنَاثًا فِي كُلِّ فَرَسٍ دِينَارًا ، وَإِنْ شَاءَ قَوَّمَهَا وَأَعْطَى عَنْ كُلِّ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ خَمْسَةَ دَرَاهِمَ .

وَقَالَ أَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٍ وَمَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالشَّافِعِيُّ : " لَا صَدَقَةَ فِيهَا " .

(36/348)

وَرَوَى عُرْوَةُ السَّعْدِيُّ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ فِي الْخَيْلِ السَّائِمَةِ فِي كُلِّ فَرَسٍ دِينَارٌ ﴾ ، وَحَدِيثُ مَالِكٍ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ

عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ الْخَيْلَ وَقَالَ : هِيَ ثَلَاثَةٌ : لِرَجُلٍ أَجْرٌ ، وَلِآخَرَ سِتْرٌ ، وَعَلَى رَجُلٍ وِزْرٌ فَأَمَّا الَّذِي هِيَ لَهُ سِتْرٌ فَالرَّجُلُ يَتَّخِذُهَا تَكَرُّمًا وَتَجَمُّلًا ، وَلَا يَنْسَى حَقَّ اللَّهِ فِي رِقَابِهَا وَلَا فِي ظُهُورِهَا ﴾ فَأَثْبَتَ فِي الْخَيْلِ حَقًّا ، وَقَدْ اتَّفَقُوا عَلَى سُقُوطِ سَائِرِ الْحُقُوقِ سِوَى صَدَقَةِ السَّوَائِمِ ، فَوَجَبَ أَنْ تَكُونَ هِيَ الْمُرَادَةَ ، فَإِنْ قِيلَ : يَجُوزُ أَنْ يُرِيدَ زَكَاةَ التِّجَارَةِ .

قِيلَ لَهُ : ﴿ قَدْ سُئِلَ عَنْ الْحَمِيرِ بَعْدَ ذِكْرِهِ الْخَيْلَ فَقَالَ : مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ فِيهَا إلَّا الْآيَةَ الْجَامِعَةَ : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ ﴾ فَلَمْ يُوجِبْ فِيهَا شَيْئًا ، وَلَوْ أَرَادَ زَكَاةَ التِّجَارَةِ لَأَوْجَبَهَا فِي الْحَمِيرِ .

(37/348)

فَإِنْ قِيلَ : فِي الْمَالِ حُقُوقٌ سِوَى الزَّكَاةِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ أَرَادَ حَقًّا غَيْرَهَا ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ حَدِيثُ الشَّعْبِيِّ عَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيْسٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ فِي الْمَالِ حَقٌّ سِوَى الزَّكَاةِ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ ﴾ رَوَى سُفْيَانُ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ أَنَّهُ ذَكَرَ الْإِبِلَ فَقَالَ : إنَّ فِيهَا حَقًّا فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : إطْرَاقُ فَحْلِهَا وَإِعَارَةُ دَلْوِهَا وَمَنِيحَةُ سَمِينِهَا ﴾ ،

فَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الْمَذْكُورُ فِي الْخَيْلِ مِثْلَ ذَلِكَ .

قِيلَ لَهُ : لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَمَا اخْتَلَفَ حُكْمُ الْحَمِيرِ ، وَالْخَيْلِ ؛ لِأَنَّ هَذَا الْحَقَّ لَا يَخْتَلِفَانِ فِيهِ ، فَلَمَّا فَرَّقَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَهُمَا دَلَّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يُرِدْ بِهِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ إنَّمَا أَرَادَ الزَّكَاةَ .

(38/348)

وَعَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ أَنَّ الزَّكَاةَ نَسَخَتْ كُلَّ حَقٍّ كَانَ وَاجِبًا حَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ إسْحَاقَ التُّسْتَرِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْمُسَيَّبُ بْنُ شَرِيكٍ عَنْ عُبَيْدِ الْمُكَتِّبِ عَنْ عَامِرٍ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : نَسَخَتْ الزَّكَاةُ كُلَّ صَدَقَةٍ " وَأَيْضًا قَدْ رُوِيَ أَنَّ أَهْلَ الشَّامِ سَأَلُوا عُمَرَ أَنْ يَأْخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ خَيْلِهِمْ ، فَشَاوَرَ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : " لَا بَأْسَ مَا لَمْ تَكُنْ جِزْيَةً عَلَيْهِمْ " فَأَخَذَهَا مِنْهُمْ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى اتِّفَاقِهِمْ عَلَى الصَّدَقَةِ فِيهَا ؛ لِأَنَّهُ شَاوَرَ الصَّحَابَةَ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُشَاوِرْهُمْ فِي صَدَقَةِ التَّطَوُّعِ ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ أَخَذَهَا وَاجِبَةً بِمُشَاوَرَةِ الصَّحَابَةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ عَلِيٌّ : " لَا بَأْسَ مَا لَمْ تَكُنْ جِزْيَةً عَلَيْهِمْ " ؛ لِأَنَّهُ لَا يُؤْخَذُ عَلَى وَجْهِ الصَّغَارِ بَلْ عَلَى وَجْهِ الصَّدَقَةِ وَاحْتَجَّ مَنْ لَمْ يُوجِبْهَا بِحَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ عَفَوْت لَكُمْ عَنْ صَدَقَةِ الْخَيْلِ وَالرَّقِيقِ ﴾ ، وَحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فِي فَرَسِهِ صَدَقَةٌ ﴾ ، وَهَذَا عِنْدَ أَبِي حَنِيفَةَ عَلَى خَيْلِ الرُّكُوبِ ، أَلَا تَرَى أَنَّهُ لَمْ يَنْفِ صَدَقَتَهَا إذَا كَانَتْ لِلتِّجَارَةِ بِهَذَا الْخَبَرِ ؟ .

(39/348)

وَاخْتُلِفَ فِي زَكَاةِ الْعَسَلِ ، فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَبُو يُوسُفَ وَمُحَمَّدٌ وَالْأَوْزَاعِيُّ : " إذَا كَانَ فِي أَرْضِ الْعُشْرِ فَفِيهِ الْعُشْرُ " .

وَقَالَ مَالِكٌ وَالثَّوْرِيُّ وَالْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ وَالشَّافِعِيُّ : " لَا شَيْءَ فِيهِ " وَرُوِيَ عَنْ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِثْلُهُ ، وَرُوِيَ عَنْهُ الرُّجُوعُ عَنْ ذَلِكَ ، وَأَنَّهُ أَخَذَ مِنْهُ الْعُشْرَ حِينَ كَشَفَ عَنْ ذَلِكَ وَثَبَتَ عِنْدَهُ مَا رُوِيَ فِيهِ وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ عَنْ يُونُسَ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ : " بَلَغَنِي أَنَّ فِي الْعَسَلِ الْعُشْرُ " قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : وَأَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ عَنْ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ وَرَبِيعَةَ بِذَلِكَ .

وَقَالَ يَحْيَى : إنَّهُ سَمِعَ مَنْ يَقُولُ فِيهِ الْعُشْرُ فِي كُلِّ عَامٍ بِذَلِكَ مَضَتْ السُّنَّةُ .

قَالَ أَبُو بَكْرٍ : ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يُوجِبُ الصَّدَقَةَ فِي الْعَسَلِ ، إذْ هُوَ مِنْ مَالِهِ ، وَالصَّدَقَةُ إنْ كَانَتْ مُجْمَلَةً ، فَإِنَّ الْآيَةَ قَدْ اقْتَضَتْ إيجَابَ صَدَقَةٍ مَا ، وَإِذَا وَجَبَتْ الصَّدَقَةُ كَانَتْ الْعُشْرَ إذْ لَا يُوجِبُ أَحَدٌ غَيْرَهُ .

(40/348)

وَيَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ السُّنَّةِ مَا حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ أَبِي شُعَيْبٍ الْحَرَّانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا مُوسَى بْنُ أَعْيَنَ عَنْ عَمْرِو بْنِ الْحَارِثِ الْمِصْرِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ : ﴿ جَاءَ هِلَالٌ أَحَدُ بَنِي مُتْعَانَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعُشُورِ نَحْلٍ لَهُ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَحْمِيَ وَادِيًا لَهُ يُقَالُ لَهُ سَلَبَةَ فَحَمَى لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ الْوَادِيَ فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ كَتَبَ سُفْيَانُ بْنُ وَهْبٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَسْأَلُهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَكَتَبَ عُمَرُ إِنْ أَدَّى إِلَيْكَ مَا كَانَ يُؤَدِّي إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ عُشُورِ نَحْلِهِ فَاحْمِ لَهُ سَلَبَةَ وَإِلَّا ، فَإِنَّمَا هُوَ ذُبَابُ غَيْثٍ يَأْكُلُهُ

مَنْ يَشَاءُ ﴾ .

(41/348)

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبِي قَالَ : حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى عَنْ أَبِي سَيَّارَةَ الْمُتَعِيِّ قَالَ : ﴿ قُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ لِي نَحْلًا ، قَالَ : أَدِّ الْعُشْرَ قَالَ : فَقُلْت : يَا رَسُولَ اللَّهِ احْمِهَا لِي فَحَمَاهَا لِي ﴾ وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ شَاذَانَ قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَلَّى قَالَ : أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو عَنْ عَبْدِ الْكَرِيمِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ قَالَ : ﴿ كَتَبَ إلَيْنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَأْمُرُنَا أَنْ نُعْطِيَ زَكَاةَ الْعَسَلِ وَنَحْنُ بِالطَّوَافِ الْعُشْرَ ، يُسْنِدُ ذَلِكَ إلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

وَحَدَّثَنَا عَبْدُ الْبَاقِي بْنُ قَانِعٍ قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ يَعْقُوبَ إمَامُ مَسْجِدِ الْأَهْوَازِ قَالَ : حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ السِّجِسْتَانِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو حَفْصٍ الْعَبْدِيُّ قَالَ : حَدَّثَنَا صَدَقَةُ عَنْ مُوسَى بْنِ يَسَارٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ فِي كُلِّ عَشَرَةِ أَزْقَاقٍ مِنْ الْعَسَلِ زِقٌّ ﴾ .

(42/348)

وَلَمَّا أَوْجَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْعَسَلِ الْعُشْرَ دَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ أَجْرَاهُ مَجْرَى الثَّمَرِ وَمَا تُخْرِجُهُ الْأَرْضُ مِمَّا يَجِبُ فِيهِ الْعُشْرُ ، فَقَالَ أَصْحَابُنَا : إذَا كَانَ فِي أَرْضِ الْعُشْرِ

فَفِيهِ الْعُشْرُ ، وَإِذَا كَانَ فِي أَرْضِ الْخَرَاجِ فَلَا شَيْءَ فِيهِ ؛ لِأَنَّ الثَّمَرَةَ فِي أَرْضِ الْخَرَاجِ لَا يَجِبُ فِيهَا شَيْءٌ ، وَإِذَا كَانَ فِي أَرْضِ الْعُشْرِ يَجِبُ فِيهَا الْعُشْرُ ، فَكَذَلِكَ الْعَسَلُ .

وَقَدْ اسْتَقْصَيْنَا الْقَوْلَ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ وَنَظَائِرِهَا مِنْ مَسَائِلِ الزَّكَاةِ فِي شَرْحِ مُخْتَصَرِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّحَاوِيِّ ، وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا هُنَا جُمَلًا مِنْهَا بِمَا يَتَعَلَّقُ الْحُكْمُ فِيهِ بِظَاهِرِ الْآيَةِ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ أَخْذَ الصَّدَقَاتِ إلَى الْإِمَامِ ، وَأَنَّهُ مَتَى أَدَّاهَا مَنْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ إلَى الْمَسَاكِينِ لَمْ يُجْزِهِ ؛ لِأَنَّ حَقَّ الْإِمَامِ قَائِمٌ فِي أَخْذِهَا فَلَا سَبِيلَ لَهُ إلَى إسْقَاطِهِ ، وَقَدْ ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوَجِّهُ الْعُمَّالَ عَلَى صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَيَأْمُرُهُمْ بِأَنْ يَأْخُذُوهَا عَلَى الْمِيَاهِ فِي مَوَاضِعِهَا ﴾ ، وَهَذَا مَعْنَى مَا شَرَطَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِوَفْدِ ثَقِيفٍ بِأَنْ لَا يَحْشُرُوا وَلَا يُعَشِّرُوا ، يَعْنِي لَا يُكَلَّفُونَ إحْضَارَ الْمَوَاشِي إلَى الْمُصَدِّقِ وَلَكِنَّ الْمُصَدِّقَ يَدُورُ عَلَيْهِمْ فِي مِيَاهِهِمْ وَمَظَانِّ مَوَاشِيهِمْ فَيَأْخُذُهَا مِنْهُمْ ، وَكَذَلِكَ صَدَقَةُ الثِّمَارِ .

(43/348)

وَأَمَّا زَكَوَاتُ الْأَمْوَالِ فَقَدْ كَانَتْ تُحْمَلُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ، ثُمَّ خَطَبَ عُثْمَانُ فَقَالَ : هَذَا شَهْرُ زَكَوَاتِكُمْ فَمَنْ كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَلْيُؤَدِّهِ ثُمَّ لِيُزَكِّ

بَقِيَّةَ مَالِهِ " فَجَعَلَ لَهُمْ أَدَاءَهَا إلَى الْمَسَاكِينِ ، وَسَقَطَ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَقُّ الْإِمَامِ فِي أَخْذِهَا ؛ لِأَنَّهُ عَقَدَ عَقْدَهُ إمَامٌ مِنْ أَئِمَّةِ الْعَدْلِ ، فَهُوَ نَافِذٌ عَلَى الْأُمَّةِ لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَيَعْقِدُ عَلَيْهِمْ أَوَّلُهُمْ ﴾ ، وَلَمْ يَبْلُغْنَا أَنَّهُ بَعَثَ سُعَاةً عَلَى زَكَوَاتِ الْأَمْوَالِ كَمَا بَعَثَهُمْ عَلَى صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَالثِّمَارِ فِي ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ سَائِرَ الْأَمْوَالِ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ لِلْإِمَامِ ، وَإِنَّمَا تَكُونُ مَخْبُوءَةً فِي الدُّورِ ، وَالْحَوَانِيتِ ، وَالْمَوَاضِعِ الْحَرِيزَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ جَائِزًا لِلسُّعَاةِ دُخُولُ أَحْرَازِهِمْ وَلَمْ يَجُزْ أَنْ يُكَلِّفُوهُمْ إحْضَارَهَا كَمَا لَمْ يُكَلَّفُوا إحْضَارَ الْمَوَاشِي إلَى الْعَامِلِ ، بَلْ كَانَ عَلَى الْعَامِلِ حُضُورُ مَوْضِعِ الْمَالِ فِي مَوَاضِعِهِ وَأَخْذِ صَدَقَتِهِ هُنَاكَ ، فَلِذَلِكَ لَمْ يَبْعَثْ عَلَى زَكَوَاتِ الْأَمْوَالِ

(44/348)

السُّعَاةَ ، فَكَانُوا يَحْمِلُونَهَا إلَى الْإِمَامِ ، وَكَانَ قَوْلُهُمْ مَقْبُولًا فِيهَا ، وَلَمَّا ظَهَرَتْ هَذِهِ الْأَمْوَالُ عِنْدَ التَّصَرُّفِ بِهَا فِي الْبُلْدَانِ أَشْبَهَتْ الْمَوَاشِيَ فَنُصِبَ عَلَيْهَا عُمَّالٌ يَأْخُذُونَ مِنْهَا مَا وَجَبَ مِنْ الزَّكَاةِ ، وَلِذَلِكَ كَتَبَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ إلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَأْخُذُوا مِمَّا يَمُرُّ بِهِ الْمُسْلِمُ مِنْ التِّجَارَاتِ مِنْ كُلِّ عِشْرِينَ دِينَارًا نِصْفُ دِينَارٍ وَمِمَّا يَمُرُّ بِهِ الذِّمِّيُّ يُؤْخَذُ مِنْهُ مِنْ كُلِّ عِشْرِينَ دِينَارًا دِينَارٌ ، ثُمَّ لَا يُؤْخَذُ مِنْهُ شَيْءٌ إلَّا بَعْدَ حَوْلٍ ، أَخْبَرَنِي بِذَلِكَ مَنْ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إلَى عُمَّالِهِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْ الْمُسْلِمِ رُبْعَ الْعُشْرِ وَمِنْ الذِّمِّيِّ نِصْفَ الْعُشْرِ وَمِنْ الْحَرْبِيِّ الْعُشْرَ وَمَا يُؤْخَذُ مِنْ الْمُسْلِمِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ الزَّكَاةُ الْوَاجِبَةُ تُعْتَبَرُ فِيهَا شَرَائِطُ وُجُوبِهَا مِنْ حَوْلٍ وَنِصَابٍ وَصِحَّةِ مِلْكٍ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ الزَّكَاةُ قَدْ وَجَبَتْ عَلَيْهِ لَمْ تُؤْخَذْ مِنْهُ ، فَاحْتَذَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي ذَلِكَ فِعْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَعُشُورِ الثِّمَارِ وَالزُّرُوعِ ، إذْ قَدْ صَارَتْ أَمْوَالًا ظَاهِرَةً يُخْتَلَفُ بِهَا فِي دَارِ الْإِسْلَامِ كَظُهُورِ الْمَوَاشِي السَّائِمَةِ وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ، وَلَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ وَلَا خَالَفَهُ ، فَصَارَ إجْمَاعًا مَعَ مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ .

(45/348)

فَإِنْ قِيلَ : رَوَى عَطَاءُ بْنُ السَّائِبِ عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ جَدِّهِ أَبِي أُمِّهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ عُشُورٌ إنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ﴾ ، وَرَوَى حُمَيْدٌ عَنْ الْحَسَنِ عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ أَنَّ ﴿ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِوَفْدِ ثَقِيفٍ : لَا تُحَشَّرُوا وَلَا تُعَشَّرُوا ﴾ ، وَرَوَى إسْرَائِيلُ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُهَاجِرِ عَنْ عَمْرِو بْنِ حُرَيْثٍ

عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ احْمَدُوا اللَّهَ إِذْ دَفَعَ عَنْكُمْ الْعُشُورَ ﴾ .

(46/348)

وَرُوِيَ أَنَّ مُسْلِمَ بْنَ يَسَارٍ قَالَ لِابْنِ عُمَرَ : أَكَانَ عُمَرُ يُعَشِّرُ الْمُسْلِمِينَ ؟ قَالَ : لَا قِيلَ لَهُ : لَيْسَ الْمُرَادُ بِذِكْرِ هَذِهِ الْعُشُورِ الزَّكَاةَ ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ الْمَكْسِ ، وَهُوَ الَّذِي أُرِيدَ فِي حَدِيثِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ شِمَاسَةَ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ صَاحِبُ مَكْسٍ ﴾ يَعْنِي عَاشِرًا ، وَإِيَّاهُ عَنَى الشَّاعِرُ بِقَوْلِهِ : وَفِي كُلِّ أَمْوَالِ الْعِرَاقِ إِتَاوَةٌ وَفِي كُلِّ مَا بَاعَ امْرُؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ فَالَّذِي نَفَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الْعُشْرِ هُوَ الْمَكْسُ الَّذِي كَانَ يَأْخُذُهُ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَمَّا الزَّكَاةُ فَلَيْسَتْ بِمَكْسٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ حَقٌّ وَجَبَ فِي مَالِهِ يَأْخُذُهُ الْإِمَامُ فَيَضَعُهُ فِي أَهْلِهِ كَمَا يَأْخُذُ صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَعُشُورَ الْأَرْضِينَ ، وَالْخَرَاجَ .

(47/348)

وَأَيْضًا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الَّذِي نَفَى أَخْذَهُ مِنْ الْمُسْلِمِينَ مَا يَكُونُ مَأْخُوذًا عَلَى وَجْهِ الصَّغَارِ ، وَالْجِزْيَةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ : ﴿ إنَّمَا الْعُشُورُ عَلَى أَهْلِ الذِّمَّةِ ﴾ يَعْنِي مَا يُؤْخَذُ عَلَى وَجْهِ الْجِزْيَةِ وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَحْتَجُّ لِلْفَرْقِ بَيْنَ صَدَقَاتِ الْمَوَاشِي وَالزُّرُوعِ ، وَبَيْنَ زَكَوَاتِ الْأَمْوَالِ أَنَّهُ قَالَ فِي الزَّكَاةِ : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ وَلَمْ يَشْرُطْ فِيهَا أَخْذَ الْإِمَامِ لَهَا ، وَقَالَ فِي الصَّدَقَاتِ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿ إنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ وَنَصْبُ الْعَامِلِ عَلَيْهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَهُ إسْقَاطُ حَقِّ الْإِمَامِ فِي أَخْذِهَا .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ آخُذَ الصَّدَقَةَ مِنْ أَغْنِيَائِكُمْ وَأَرُدَّهَا فِي فُقَرَائِكُمْ ﴾ ، فَإِنَّمَا شَرَطَ أَخْذَهُ فِي الصَّدَقَاتِ وَلَمْ يَذْكُرْ مِثْلَهُ فِي الزَّكَوَاتِ ، وَمَنْ يَقُولُ هَذَا يَذْهَبُ إلَى أَنَّ الزَّكَاةَ ، وَإِنْ كَانَتْ صَدَقَةً ، فَإِنَّ اسْمَ الزَّكَاةِ أَخَصُّ بِهَا ، وَالصَّدَقَةُ اسْمٌ يَخْتَصُّ بِالْمَوَاشِي وَنَحْوِهَا ، فَلَمَّا خَصَّ الزَّكَاةَ بِالْأَمْرِ بِالْإِيتَاءِ دُونَ أَخْذِ الْإِمَامِ وَأَمَرَ فِي الصَّدَقَةِ بِأَنْ يَأْخُذَهَا الْإِمَامُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ أَدَاءُ الزَّكَوَاتِ مَوْكُولًا إلَى أَرْبَابِ الْأَمْوَالِ إلَّا مَا يَمُرُّ بِهِ عَلَى الْعَاشِرِ ، فَإِنَّهُ يَأْخُذُهَا بِاتِّفَاقِ السَّلَفِ وَيَكُونُ أَخْذُ الصَّدَقَاتِ إلَى الْأَئِمَّةِ

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَك سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ رَوَى شُعْبَةُ عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ عَنْ ابْنِ أَبِي ، أَوْفَى قَالَ : ﴿ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَتَاهُ رَجُلٌ بِصَدَقَةِ مَالِهِ صَلَّى عَلَيْهِ ، قَالَ : فَأَتَيْته بِصَدَقَةِ مَالِ أَبِي فَقَالَ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى .

﴾ وَرَوَى ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ عَنْ خَارِجَةَ بْنِ إِسْحَاقَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جَابِرٍ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ يَأْتِيكُمْ رَكْبٌ مُبْغَضُونَ ، فَإِنْ جَاءُوكُمْ فَرَحِّبُوا بِهِمْ وَخَلُّوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَبْغُونَ ، فَإِنْ عَدَلُوا فَلِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِنْ ظَلَمُوا فَعَلَيْهِمْ ، وَأَرْضُوهُمْ ، فَإِنَّ تَمَامَ زَكَاتِهِمْ رِضَاهُمْ وَلْيَدْعُوا لَكُمْ ﴾ .

وَرَوَى سَلَمَةُ بْنُ بَشِيرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا الْبَخْتَرِيُّ قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبِي أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إِذَا أَعْطَيْتُمْ الزَّكَاةَ فَلَا تَنْسَوْا ثَوَابَهَا قَالُوا : وَمَا ثَوَابُهَا ؟ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مَغْنَمًا وَلَا تَجْعَلْهَا مَغْرَمًا ﴾ .

(49/348)

وَهَذِهِ الْأَخْبَارُ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ هُوَ الدُّعَاءُ وَقَوْلُهُ : ﴿ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ يَعْنِي وَاَللَّهُ أَعْلَمُ : مِمَّا تَسْكُنُ قُلُوبُهُمْ إلَيْهِ وَتَطِيبُ بِهِ نُفُوسُهُمْ ، فَيُسَارِعُونَ

إِلَى أَدَاءِ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَفِيمَا يَنَالُونَهُ مِنْ بَرَكَةِ دُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُمْ وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي لِعَامِلِ الصَّدَقَةِ إِذَا قَبَضَهَا أَنْ يَدْعُوَ لِصَاحِبِهَا اقْتِدَاءً بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(50/348)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَك سَكَنٌ لَهُمْ وَاَللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ خُذْ ﴾ : هُوَ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقْتَضِي بِظَاهِرِهِ اقْتِصَارُهُ عَلَيْهِ ، فَلَا يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ سِوَاهُ ، وَيَلْزَمُ عَلَى هَذَا سُقُوطُهَا بِسُقُوطِهِ ، وَزَوَالُ تَكْلِيفِهَا بِمَوْتِهِ ، وَبِهَذَا تَعَلَّقَ مَانِعُو الزَّكَاةِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ، وَقَالُوا عَلَيْهِ : إِنَّهُ كَانَ يُعْطِينَا عِوَضًا عَنْهَا التَّطْهِيرَ ، وَالتَّزْكِيَةَ لَنَا ، وَالصَّلَاةَ عَلَيْنَا ، وَقَدْ عَدِمْنَاهَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَنَظَمَ فِي ذَلِكَ شَاعِرُهُمْ فَقَالَ : أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا فَيَا عَجَبًا مَا بَالُ

مُلْكِ أَبِي بَكْرٍ وَإِنَّ الَّذِي سَأَلُوكُمْ فَمَنَعْتُمْ لَكَالتَّمْرِ أَوْ أَحْلَى لَدَيْهِمْ مِنْ التَّمْرِ سَنَمْنَعُهُمْ مَا دَامَ فِينَا بَقِيَّةٌ كِرَامٌ عَلَى الضَّرَّاءِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ وَهَذَا صِنْفٌ مِنْ الْقَائِمِينَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ أَمْثَالُهُمْ طَرِيقَةً ، وَغَيْرُهُمْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ غَيْرِ تَأْوِيلٍ ، وَأَنْكَرَ النُّبُوَّةَ ، وَسَاعَدَ مُسَيْلِمَةَ ، وَأَنْكَرَ وُجُوبَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ .

(51/348)

وَفِي هَذَا الصِّنْفِ الَّذِي أَقَرَّ بِالصَّلَاةِ ، وَأَنْكَرَ الزَّكَاةَ وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ لِعُمَرَ حِينَ خَالَفَ أَبَا بَكْرٍ فِي قِتَالِهِمْ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِقَبُولِ الصَّلَاةِ مِنْهُمْ وَتَرْكِ الزَّكَاةِ ، حَتَّى يَتَعَهَّدَ الْأَمْرَ ، وَيَظْهَرَ حِزْبُ اللَّهِ ، وَتَسْكُنَ سَوْرَةُ الْخِلَافِ ؛ فَشَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْحَقِّ ، وَقَالَ : وَاَللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ؛ فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقٌّ فِي الْمَالِ ، وَاَللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلَى رَسُولِ اللَّهِ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَيْهِ .

قَالَ عُمَرُ : فَوَاَللَّهِ مَا هُوَ إلَّا أَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ ، فَعَرَفْت أَنَّهُ الْحَقُّ .

وَبِهَذَا اعْتَرَضَتْ الرَّافِضَةُ عَلَى الصِّدِّيقِ ، فَقَالُوا : عَجِلَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَبَذَ السِّيَاسَةَ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ، وَأَرَاقَ الدِّمَاءَ .

قُلْنَا : بَلْ جَعَلَ كِتَابَ اللَّهِ بَيْنَ عَيْنَيْهِ ، وَهَدْيَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ ، وَالْقُرْآنَ يَسْتَنِيرُ بِهِ ، وَالسِّيَاسَةَ تُمَهِّدُ سُبُلَهَا فَإِنَّهُ قَالَ : وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ .

وَصَدَقَ الصِّدِّيقُ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ﴾ ؛ فَشَرْطُهُمَا ، وَحَقَّقَ الْعِصْمَةَ بِهِمَا ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، فَإِذَا قَالُوهَا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلَّا بِحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ ﴾ .

(52/348)

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ حِينَ تَعَلَّقَ بِهَذَا الْحَدِيثِ : فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إلَّا بِحَقِّهَا ﴾ .

وَالزَّكَاةُ حَقُّ الْمَالِ ، فَالصَّلَاةُ تَحْقِنُ الدَّمَ ، وَالزَّكَاةُ تَعْصِمُ الْمَالَ .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ أُمِرْت أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ ﴾ .

وَأَمَّا السِّيَاسَةُ فَمَا عَدَاهَا فَإِنَّهُ لَوْ سَاهَلَهُمْ فِي مَنْعِ الزَّكَاةِ لَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُمْ ، وَتَمَكَّنَتْ فِي

الْقُلُوبِ بِدْعَتُهُمْ ، وَعَسُرَ إِلَى الطَّاعَةِ صَرْفُهُمْ ، فَعَاجَلَ بِالدَّوَاءِ قَبْلَ اسْتِفْحَالِ الدَّاءِ .

فَأَمَّا إِرَاقَتُهُ لِلدِّمَاءِ فَبِالْحَقِّ الَّذِي كَانَ عَصَمَهَا قَبْلَ ذَلِكَ ، وَإِرَاقَةُ الدِّمَاءِ يَا مَعْشَرَ الرَّافِضَةِ فِي تَوْطِيدِ الْإِسْلَامِ وَتَمْهِيدِ الدِّينِ آكَدُ مِنْ إِرَاقَتِهَا فِي طَلَبِ الْخِلَافَةِ ، وَكُلٌّ عِنْدَنَا حَقٌّ ، وَعَلَيْكُمْ فِي إِبْطَالِ كَلَامِكُمْ ، وَضِيقِ مَرَامِكُمْ خَنْقٌ .

فَأَمَّا قَوْلُهُمْ : إِنَّ هَذَا خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَا يَلْتَحِقُ غَيْرُهُ

(53/348)

فِيهِ بِهِ ، فَهَذَا كَلَامُ جَاهِلٍ بِالْقُرْآنِ غَافِلٍ عَنْ مَأْخَذِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَلَاعِبٍ بِالدِّينِ ، مُتَهَافِتٍ فِي النَّظَرِ ؛ فَإِنَّ الْخِطَابَ فِي الْقُرْآنِ لَمْ يَرِدْ بَابًا وَاحِدًا ، وَلَكِنْ اخْتَلَفَتْ مَوَارِدُهُ عَلَى وُجُوهٍ مِنْهَا فِي غَرَضِنَا هَذِهِ ثَلَاثَةٌ : الْأَوَّلُ : خِطَابٌ تَوَجَّهَ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَّةِ ، كَقَوْلِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ وَنَحْوِهِ .

الثَّانِي : خِطَابٌ خُصَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ ﴾ .

وَكَقَوْلِهِ فِي آيَةِ الْأَحْزَابِ : ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ؛ فَهَذَانِ مِمَّا أُفْرِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِمَا ، وَلَا يُشْرِكُهُ فِيهِمَا أَحَدٌ لَفْظًا وَمَعْنًى ، لِمَا وَقَعَ الْقَوْلُ بِهِ كَذَلِكَ .

الثَّالِثُ : خِطَابٌ خُصَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْلًا وَيُشْرِكُهُ فِيهِ جَمِيعُ الْأُمَّةِ مَعْنًى وَفِعْلًا ، كَقَوْلِهِ : ﴿ أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ﴾ .

وَكَقَوْلِهِ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ وَكَقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذَا كُنْت فِيهِمْ فَأَقَمْت لَهُمْ الصَّلَاةَ ﴾ .

فَكُلُّ مَنْ دَلَكَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ مُخَاطَبٌ بِالصَّلَاةِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ مُخَاطَبٌ بِالِاسْتِعَاذَةِ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ خَافَ يُقِيمُ الصَّلَاةَ بِتِلْكَ الصِّفَةِ .

(54/348)

وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ قَوْلُهُ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْآمِرُ بِهَا ، وَالدَّاعِي إلَيْهَا ، وَهُمْ الْمُعْطُونَ لَهَا ، وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى جَاءَ قَوْلُهُ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ ﴾ وَ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ .

وَقَدْ قِيلَ لَهُ : ﴿ فَإِنْ كُنْت فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إلَيْك فَاسْأَلْ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِك ﴾ .

وَمَا كَانَ لِيَشُكَّ ، وَلَكِنَّ الْمُرَادَ مَنْ شَكَّ مِنْ النَّاسِ مِمَّنْ كَانَ مَعَهُ فِي وَقْتِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ : الْأَصْلُ فِي فِعْلِ كُلِّ إمَامٍ

يَأْخُذُ الصَّدَقَةَ أَنْ يَدْعُوَ لِلْمُتَصَدِّقِ بِالْبَرَكَةِ ؛ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ " عَنْ ابْنِ أَبِي أَوْفَى ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إذَا أَتَاهُ رَجُلًا بِصَدَقَتِهِ قَالَ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلَانٍ فَجَاءَهُ ابْنُ أَبِي أَوْفَى بِصَدَقَتِهِ ، فَأَخَذَهَا مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى ﴾ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ فَإِنَّهُ مِنْ صِفَةِ الصَّدَقَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : تُزَكِّيهِمْ . يَعْنِي أَنَّ الصَّدَقَةَ تَكُونُ سَبَبًا فِي طَهَارَتِهِمْ وَتَنْمِيَتِهِمْ .

(55/348)

وَأَهْلُ الصِّنَاعَةِ يَرَوْنَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خِطَابًا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَالَغُوا فَقَالُوا : إنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يُقْرَأَ تُطَهِّرْهُمْ بِجَزْمِ الرَّاءِ ، لِيَكُونَ جَوَابَ الْأَمْرِ ، وَالَّذِي نَرَاهُ أَنَّ كَوْنَهُ صِفَةً أَبْلَغُ فِي نَعْتِ الصَّدَقَةِ ، وَأَقْطَعُ لِشَغَبِ الْمُخَالِفِ ، وَأَبْعَدُ مِنْ الْمَجَازِ بِمَنْزِلَةٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ إنَّ صَلَاتَك سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ : يَعْنِي : دُعَاءَك .

وَقَدْ تَكُونُ الصَّلَاةُ بِمَعْنَى الدُّعَاءِ فِي الْأَظْهَرِ مِنْ مَعَانِيهَا ؛ قَالَ الْأَعْشَى : تَقُولُ بِنْتِي وَقَدْ يَمَّمْت مُرْتَحِلًا يَا رَبِّ جَنِّبْ أَبِي الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا عَلَيْك مِثْلُ الَّذِي صَلَّيْت فَاغْتَمِضِي نَوْمًا فَإِنَّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا وَالسَّكَنُ : مَا تَسْكُنُ إلَيْهِ النُّفُوسُ ، وَتَطْمَئِنُّ بِهِ الْقُلُوبُ .

وَقَالَ قَتَادَةُ : وَقَارٌ لَهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : اخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الصَّدَقَةِ الْمَأْمُورِ بِهَا ؛ فَقِيلَ : هِيَ الْفَرْضُ ، أَمَرَ اللَّهُ بِهَا هَاهُنَا أَمْرًا مُجْمَلًا لَمْ يُبَيِّنْ فِيهَا الْمِقْدَارَ ، وَلَا الْمَحَلَّ ، وَلَا النِّصَابَ ، وَلَا الْحَوْلَ ؛ وَبَيَّنَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ الْمَحَلَّ وَحْدَهُ ، وَوَكَّلَ بَيَانَ سَائِرِ ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَتَّبَ الشَّرِيعَةَ بِالْحِكْمَةِ فِي الْعِبَادَاتِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَنْحَاءٍ ؛ مِنْهَا مَا يَجِبُ مَرَّةً فِي الْعُمْرِ كَالْحَجِّ ، وَمِنْهَا مَا يَجِبُ مَرَّةً فِي الْحَوْلِ كَالزَّكَاةِ ، وَمِنْهَا مَا يَجِبُ كُلَّ يَوْمٍ كَالصَّلَاةِ .

وَقِيلَ : الْمُرَادُ بِهَا التَّطَوُّعُ .

(56/348)

قِيلَ : نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ تِيبَ عَلَيْهِمْ فَرَأَوْا أَنَّ مِنْ تَوْبَتِهِمْ أَنْ يَتَصَدَّقُوا ؛ فَأَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِهَذِهِ الْأَوَامِرِ .

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿ أَتَى أَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ حِينَ أُطْلِقُوا ، وَتِيبَ عَلَيْهِمْ بِأَمْوَالِهِمْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذِهِ أَمْوَالُنَا فَتَصَدَّقْ بِهَا عَنَّا ، وَاسْتَغْفِرْ لَنَا .

فَقَالَ : مَا أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ شَيْئًا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ ﴾

وَكَانَ ذَلِكَ مَرْجِعَهُ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ .

وَأَبُو لُبَابَةَ مِمَّنْ فَرَّطَ فِي قُرَيْظَةَ ، وَفِي تَخَلُّفِهِ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، وَحِينَ تِيبَ عَلَيْهِ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَتَصَدَّقَ بِمَالِي ، وَأَهْجُرَ دَارَ قَوْمِي الَّتِي أَصَبْتُ فِيهَا الذَّنْبَ .

﴿ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَجْزِيكَ الثُّلُثُ ﴾ .

وَكَذَلِكَ ﴿ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ .

قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَمْسِكْ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ ﴾ .

قَالَ : فَإِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَلَا نَعْلَمُ هَلْ هُوَ بِقَدْرِ ثُلُثِ مَالِهِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ أَوْ أَقَلَّ .

قَالَ الْفَقِيهُ الْإِمَامُ : وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ فِي مَعْنَى الصَّدَقَةِ مُحْتَمَلَةٌ .

(57/348)

وَالْأَظْهَرُ أَنَّهَا صَدَقَةُ الْفَرْضِ ؛ لِأَنَّ التَّعَلُّقَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِدَلِيلٍ يُبَيِّنُ أَنَّ هَذَا مُرْتَبِطٌ بِمَا قَبْلَهُ مُتَعَلِّقٌ بِهِ مَا بَعْدَهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ أَشْهَبُ : قَالَ مَالِكٌ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

نَزَلَتْ فِي شَأْنِ ﴿ أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ ؛ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ أَصَابَهُ الذَّنْبُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ أُجَاوِرُكَ ، وَأَنْخَلِعُ مِنْ مَالِي .

فَقَالَ : يُجْزِئُكَ مِنْ ذَلِكَ الثُّلُثُ ﴾ .

وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ وَرَوَى ابْنُ وَهْبٍ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ ، نَحْوَهُ .

وَرَوَى الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ قَالَ : ﴿ ارْتَبَطَ أَبُو لُبَابَةَ إلَى جِذْعٍ مِنْ جُذُوعِ الْمَسْجِدِ بِسِلْسِلَةٍ بِضْعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً ، فَكَانَتْ ابْنَتُهُ تَأْتِيهِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ فَتَحِلُّهُ فَيَتَوَضَّأُ ، وَهِيَ الْأُسْطُوَانُ الْمُخَلَّقُ نَحْوٌ مِنْ ثُلُثِهَا يُدْعَى أُسْطُوَانُ التَّوْبَةِ ، وَمِنْهَا حَلَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا لُبَابَةَ حِينَ نَزَلَتْ تَوْبَتُهُ ﴾ ، وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَبْرِ أُسْطُوَانٌ ، وَكَانَ مَالِكٌ يَقُولُ : الْجِدَارُ مِنْ الْمَشْرِقِ فِي حَدِّ الْقَنَادِيلِ الَّتِي بَيْنَ الْأَسَاطِينِ الَّتِي فِي وَصْفِهَا أُسْطُوَانُ التَّوْبَةِ وَبَيْنَ الْأَسَاطِينِ الَّتِي تَلِي الْقَبْرَ .

(58/348)

وَهَذَا غَرِيبٌ مِنْ رِوَايَةِ الزُّبَيْرِ عَنْ مَالِكٍ ، وَجَمَعَ الرِّوَايَاتِ نَصٌّ عَنْ مَالِكٍ فِي أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : إذَا تَصَدَّقَ الرَّجُلُ بِجَمِيعِ مَالِهِ أَجْزَأَهُ إخْرَاجُ الثُّلُثِ .

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ وَأَبُو حَنِيفَةَ : يَلْزَمُهُ إخْرَاجُ الْكُلِّ ، وَتَعَلَّقَ مَالِكٌ بِقِصَّةِ أَبِي لُبَابَةَ فِي أَنَّ رَدَّهُ إلَيْهِ مِنْ الْجَمِيعِ إلَى الثُّلُثِ ، وَهَذَا كَانَ قَوِيًّا لَوْلَا أَنَّهُ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ مَالِكٍ : أَمْسِكْ عَلَيْك بَعْضَ مَالِك مِنْ غَيْرِ تَحْدِيدٍ ، وَهُوَ أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي لُبَابَةَ .

وَقَدْ نَاقَضَ عُلَمَاؤُنَا ؛ فَقَالُوا : إنَّهُ إذَا كَانَ مَالُهُ مُعَيَّنًا دَابَّةً أَوْ دَارًا أَوْ ضَيْعَةً فَتَصَدَّقَ بِجَمِيعِهَا مَضَى ، وَهَذِهِ صَدَقَةٌ بِالْكُلِّ ، فَتَخَمَّشَ وَجْهُ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَمْ يَتَبَلَّجْ مِنْهُ وَضَحٌ ، وَقَدْ أَشَرْنَا إلَيْهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ ، وَالْحَقُّ يُعَوِّدُ صَدَقَةَ الْكُلِّ عَلَيْهِ ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(59/348)

وقال السمرقندى :

﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾

يعني : من الذين قبلت توبتهم ، جاؤوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : هذه أموالنا فخذها ، وتصدق بها عنا فكره أن يأخذها فنزل ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً

تُطَهِّرُهُمْ ﴾ بها من ذنوبهم ، ويقال : هذا ابتداء ، يعني : خذ من أموال المسلمين صدقة ، يعني : الصدقة المفروضة .

﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ ، يعني : تطهر أموالهم ، ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ، يعني : تصلح بها أعمالهم .

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : استغفر لهم وداعُ لهم ﴿ إن صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ يعني دعاءك واستغفارك سكن لهم يعني : طمأنينة لهم إن الله تعالى قد قبل منهم الصدقة ، ويقال : إن الله قبل منهم التوبة .

﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ لقولهم ، ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بثوابهم .

قرأ نافع ، وابن كثير ، وأبو عمرو وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ إِنَّ صلواتك ﴾ بلفظ الجماعة ، وقرأ الباقون ﴿ صَلاَتَكَ ﴾ وقال أبو عبيدة : وهذا أحبَ إليّ ، لأن الصلاة أكثر من الصلوات .

ألا ترى إلى قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِيمُواْ الصلاة واتقوه وَهُوَ الذى إِلَيْهِ تُحْشَرُون ﴾ [الأنعام : 72] وإنّما هي صلاة الأبد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(60/348)

وقال الثعلبي :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

واختلفوا في أعداد هؤلاء الناس وأسمائهم فروى علي بن ابي طلحة عن ابن عباس قال : كانوا عشرة رهط منهم أبو لبابة ، وقال سعيد بن جبير وزيد بن أسلم أبو (منية) : منهم هلال وأبو لبابة وكردم ومرداس وأبو قيس ، وقال قتادة والضحاك : كانوا سبعة منهم جد بن قيس وأبو لبابة وجدام وأوس ، كلّهم من الأنصار .

وقال عطية عن ابن عباس : كانوا خمسة أحدهم أبو لبابة ، وقال آخرون : نزلت في أبي لبابة واختلفوا في ذنبه . فقال مجاهد : نزلت هذه الآية في أبي لبابة حين قال لقريظة : إن نزلتم على حكمه فهو الذبح وأشار إلى رقبته ، وقد مضت القصة في سورة الأنفال . فندم وتاب فأقرّ بذنبه فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية .

قال الزهري : نزلت في تخلّفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فربط نفسه بسارية فقال : والله لا أحل نفسي منها ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ . فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتّى خرّ مغشياً عليه فأنزل الله تعالى ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الآية فقيل له : قد تيب عليك يا أبا لبابة فقال : والله لا أحل نفسي منها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلّني ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فحلّهُ بيده ، ثمّ قال أبو لبابة : يا رسول الله إن من توبتي أن أبرّ دار

قومي التي أصبت بها الذنب وأن انخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلى رسوله ، فقال : " يجزيك يا أبا لبابة الثلث " .

قالوا جميعاً : وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلث أموالهم وترك الاثنين لأن الله عزّ وجلّ قال : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ولم يقل : أموالهم ، فلذلك لم يأخذ كلها .

(61/348)

وقال الحسن وقتادة : هؤلاء سوى الثلاثة الذين تخلّفوا ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ من ذنوبهم والقراءة بالرفع حالاً لا جواباً ، أي خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكّية كقول الحطيئة :

متى تأته تعشو الى ضوء ناره . . . تجد خير نار عندها خير موقف

وقرأ مسلمة بن محارب : تطهرهم وتزكيهم بالجزم على الجواب ، وقرأ الحسن : تطهرهم خفيفة من أطهر تطهير ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ أي تطهرهم ، وقيل : تصلحهم ، وقيل : ترفعهم من منازل المنافقين الى منازل المخلصين ، وقيل : هي أموالهم .

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي استغفر لهم وادعُ لهم ، وقيل : هو قول الوالي إذا أخذ الصدقة : آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت ، والصلاة في اللغة الدعاء ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

" إذا دُعي أحدكم الى طعام فليجبه فإن كان مفطراً فليأكل وإن كان صائماً فليصلِ " أي فليدع ، وقال الأعشى :

وقابلها الريح في دنّها . . . وصلّي على دنّها وارتسم

أي دعا لها بالسلامة والبركة .

وقال أيضاً :

تقول بنتي وقد قربت مرتحلا . . . يارب جنب أبي الأوصاب والوجعا

عليك مثل الذي صليت فاغتمضي . . . نوماً فإن لجنب المرء مضطجعا

﴿ إِنَّ صلاتك ﴾ قرأ أهل الكوفة : صلاتك على الواحد هاهنا وفي سورة هود والمؤمنين بإضماره .

أبو عبيد قال : لأن الصلاة هي من الصلوات ، وروى ذلك عن ابن عباس ، ألا تسمع الله يقول : ﴿ أَقِيمُواْ الصلاة ﴾ فهذه صلاة الأبد ، والصلوات للجمع كقوله : صليت صلوات أربع وخمس صلوات ، وقرأ الباقون كلها بالجمع واختاره أبو حاتم ، قال : ومن زعم أنّ الصلوات من الصلاة لأن الجمع بالتاء قليل فقد غلط ، لأن الله تعالى قال : ﴿ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ الله ﴾ [لقمان : 27] ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا ﴾ [التحريم : 12] لم يرد القليل .

﴿ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قال ابن عباس : رحمة لهم ، وقال قتادة : وقار لهم ، وقال الكلبي : طمأنينة لهم إن الله قد قبل منهم ، وقال معاذ : تزكية لهم منك ، أبو عبيدة : تثبيت .

﴿ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ شعبة عن عمرو بن مرّة عن عبد الله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة : " أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقاتهم قال : " اللهم صلّ عليهم " ، فأتيته بصدقتي فقال : " اللهم صلّ على أبي أوفى " قال ابن عباس : ليس هذا صدقة الفرض ، إنما هو كصدقة كفارة اليمين ، وقال عكرمة : هو صدقة الفرض . فلما نزلت توبة هؤلاء قال الذين لم يذنبوا متخلّفين : هؤلاء كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم ؟ فقال الله عزّ وجلّ : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(63/348)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

قال ابن عباس : لما نزل في أبي لبابة وأصحابه ﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِم ﴾ الآية . ثم

تاب عليهم قالوا يا رسول الله خذ منا صدقة أموالنا لتطهرنا وتزكينا ، قال : لا أفعل حتى أؤمر ، فأنزل الله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ وفيها وجهان :

أحدهما : أنها الصدقة التي بذلوها من أموالهم تطوعاً ، قاله ابن زيد .

والثاني : أنها الزكاة التي أوجبها الله تعالى في أموالهم فرضاً ، قاله عكرمة . ولذلك قال :

﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لأن الزكاة لا تجب في الأموال كلها وإنما تجب في بعضها .

﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ أي تطهر ذنوبهم وتزكي أعمالهم .

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : استغفر لهم : قاله ابن عباس .

الثاني : ادع لهم ، قاله السدي .

﴿ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : قربة لهم ، قاله ابن عباس في رواية الضحاك .

الثاني : رحمة لهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : وقار لهم ، قاله قتادة .

الرابع : تثبت لهم ، قاله ابن قتيبة .

الخامس : أمن لهم ، ومنه قول الشاعر :

يَا جَارَةَ الحَيِّ كُنتِ لِي سَكَناً . . . إذْ لَيْسَ بعضُ الجِيرَانِ بِالسَّكَنِ

وفي الصلاة عليهم والدعاء لهم عند أخذ الصدقة منهم ستة أوجه :

أحدها : يجب على الآخذ الدعاء للمعطي اعتباراً بظاهر الأمر .

الثاني : لا يجب ولكن يستحب لأن جزاءها على الله تعالى لا على الآخذ .

والثالث : إن كانت تطوعاً وجب على الآخذ الدعاء ، وإن كانت فرضاً استحب ولم يجب .

والرابع : إن كان آخذها الوالي استحب له الدعاء ولم يجب عليه ، وإن كان آخذها الفقير وجب عليه الدعاء له ، لأن الحق في دفعها إلى الوالي معيّن ، وإلى الفقير غير معيّن .

(64/348)

والخامس : إن كان آخذها الوالي وجب ، وإن كان الفقير استحب ولم يجب . لأنه دفعها إلى الوالي إظهار طاعة فقوبل عليها بالشكر وليس كذلك الفقير .

والسادس : إن سأل الدافع الدعاء وجب ، وإن لم يسأل استحب ولم يجب .

روى عبد الله بن أبي أوفى قال : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم بصدقات قومي فقلت يا رسول الله صلِّ عليّ ، فقال : " اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى " . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ الآية

روي أن أبا لبابة والجماعة التائبة التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ جاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تيب عليها فقالت يا رسول الله إنَّا نريد أن نتصدق بأموالنا زيادة في توبتنا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله فتركهم حتى نزلت هذه الآية فهم المراد بها ، فروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى : ﴿ من أموالهم ﴾ ، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين ، ابن عباس رضي الله عنه وغيره ، وقالت جماعة من الفقهاء : المراد بهذه الزكاة المفروضة ، فقوله على هذا ﴿ خذ من أموالهم ﴾ ضميره لجميع الناس ، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالثياب والرباع ونحوه ، والضمير الذي في ﴿ أموالهم ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص ، إذ يخرج منه العبيد وسواهم ، وقوله ﴿ صدقة ﴾ مجمل يحتاج إلى تفسير ، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها ، و ﴿ من ﴾ في هذه الآية

للتبعيض ، هذا أقوى وجوهها ، وقوله ﴿ تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي صلى الله عليه وسلم ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿ خذ ﴾ ، ويحتمل أن تكون من صفة " الصدقة " وهذا مترجح بحسب رفع الفعل ويكون قوله ﴿ بها ﴾ أي بنفسها أي يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها ، ويحتمل أن يكون حالاً من " الصدقة " ، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة ، وحكى مكي أن يكون ﴿ تطهرهم ﴾ من صفة الصدقة ، وقوله ﴿ وتزكيهم بها ﴾ حالاً من الضمير في ﴿ خذ ﴾ .

(66/348)

قال القاضي أبو محمد : وهذا مردود لمكان واو العطف لأن ذلك يتقدر خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكياً بها ، وهذا فاسد المعنى ، ولو لم يكن في الكلام واو العطف جاز ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن " تطْهرهم " بسكون الطاء ، وقوله ﴿ وصل عليهم ﴾ معناه ادع فهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً ، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد ، وحكى مكي والنحاس وغيرهما أنه قيل إن هذه الآية منسوخة بقوله ﴿ ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ﴾ [التوبة : 84] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا وهم بعيد وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين ، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين فلا تناسخ بين الآيتين ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ونافع وابن عامر " إن صلواتك " بالجمع ، وكذلك في هود وفي المؤمنين وقرأ حفص عن عاصم وحمزة والكسائي " ان صلاتك " بالإفراد ، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في هود وفي المؤمنين ، وقرأ عاصم في المؤمنين وحدها جمعاً ، ولم يختلفوا في سورة الأنعام وسأل سائل ، وهو مصدر أفردته فرقو وجمعته فرقة ، وقوله ﴿ سميع ﴾ لدعائك ﴿ عليم ﴾ أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما تقتضيه هاتان الصفتان وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية فعل ما أمر به من الدعاء والاستغفار لهم ، قال ابن عباس ﴿ سكن لهم ﴾ رحمه لهم ، وقال قتادة ﴿ سكن لهم ﴾ أي وقار لهم . قال القاضي أبو محمد : وإنما معناه أن من يدعو له النبي صلى الله عليه وسلم فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه ، ويروى أنه قد صحت وسيلته إلى الله تعالى وهذا بين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(67/348)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾

قال المفسرون : " لما تاب الله عز وجل على أبي لبابة وأصحابه قالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها عنا ، فقال : "ما أُمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً" " فنزلت هذه الآية .

وفي هذه الصدقة قولان .

أحدهما : أنها الصدقة التي بذلوها تطوعاً ، قاله ابن زيد ، والجمهور .

والثاني : الزكاة ، قاله عكرمة .

قوله تعالى : ﴿ تطهرهم ﴾ وقرأ الحسن "تطهرْهم بها" بجزم الراء .

قال الزجاج : يصلح أن يكون قوله : ﴿ تطهرهم ﴾ نعتاً للصدقة ، كأنه قال : خذ من أموالهم صدقة مطهِرة .

والأجود أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم ، المعنى : فانك تطهرهم بها .

ف "تطهرْهم" بالجزم ، على جواب الأمر ، المعنى : إن تأخذ من أموالهم ، تطهرْهم .

ولا يجوز في : ﴿ تُزكّيهم ﴾ إلا إثبات الياء ، اتّباعاً للمصحف .

قال ابن عباس : ﴿ تطهرهم ﴾ من الذنوب ، ﴿ وتزكيهم ﴾ : تصلحهم .

وفي قوله ﴿ وصلّ عليهم ﴾ قولان .

أحدهما : استغفر لهم ، قاله ابن عباس .

والثاني : ادع لهم ، قاله السدي .

قوله تعالى : ﴿ إن صلواتك ﴾ قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، ونافع ، وابن عامر ، وأبو بكر عن عاصم : "إن صلواتك" على الجمع .

وقرأ حمزة ، والكسائي ، وحفص عن عاصم ، "إن صلاتك" على التوحيد .

وفي قوله : ﴿ سكنٌ لهم ﴾ خمسة أقوال .

أحدها : طمأنينة لهم أن الله قد قَبِلَ منهم ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال أبو عبيدة : تثبيت وسكون .

والثاني : رحمة لهم ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : قُرْبَةٌ لهم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والرابع : وَقَارٌ لهم ، قاله قتادة .

والخامس : تزكية لهم .

حكاه الثعلبي .

قال الحسن ، وقتادة : وهؤلاء سوى الثلاثة الذين خُلِّفوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

فيه ثمان مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ اختلف في هذه الصدقة المأمور بها ؛ فقيل : هي صدقة الفرض ؛ قاله جُويبر عن ابن عباس ، وهو قول عكرمة فيما ذكر القشيري .

وقيل : هو مخصوص بمن نزلت فيه ؛ فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم أخذ منهم ثلث أموالهم ، وليس هذا من الزكاة المفروضة في شيء ؛ ولهذا قال مالك : إذا تصدّق الرجل بجميع ماله أجزأه إخراج الثلث ؛ متمسكاً بحديث أبي لُبابة .

وعلى القول الأوّل فهو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم يقتضي بظاهره اقتصاره عليه فلا يأخذ الصدقة سواه ، ويلزم على هذا سقوطها بسقوطه وزوالها بموته .

وبهذا تعلق مانعو الزكاة على أبي بكر الصدّيق (رضي الله عنه) وقالوا : إنه كان يعطينا عوضاً منها التطهير والتزكية والصلاة علينا وقد عدمناها من غيره .

ونظم في ذلك شاعرهم فقال :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا . . .

فيا عجباً ما بال مُلْك أبي بكر

وإن الذي سألوكُم فمنعتُم . . .

لكالتمر أو أحلى لديهم من التمر

سنمنعهم ما دام فينا بقيّة . . .

كرامٌ على الضّراء في العسر واليسر

وهذا صنف من القائمين على أبي بكر أمثلهم طريقة ، وفي حقهم قال أبو بكر : والله لأقاتلنّ من فرّق بين الصلاة والزكاة .

ابن العربيّ : أما قولهم إن هذا خطاب للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلا يلتحق به غيره فهو كلام جاهل بالقرآن غافل عن مأخذ الشريعة متلاعب بالدين ؛ فإن الخطاب في القرآن لم يرد باباً واحداً ولكن اختلفت موارده على وجوه ، فمنها خطاب توجه إلى جميع الأمة كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصلاة ﴾ وقوله : ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصيام ﴾ ونحوه .

(69/348)

ومنها خطاب خُصَّ به ولم يشركه فيه غيره لفظاً ولا معنى كقوله : ﴿ وَمِنَ الليل فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : 79] وقوله : "خَالِصَةً لَّكَ" .

ومنها خطاب خُصّ به لفظاً وشَرَكه جميع الأمة معنىً وفعلاً ؛ كقوله : ﴿ أَقِمِ الصلاةِ لِدُلُوكِ الشمس ﴾ [الإسراء : 78] الآية .

وقوله : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ القرآن فاستعذ بالله ﴾ [النحل : 98] وقوله : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصلاة ﴾ [النساء : 102] فكل من دَلَكَتْ عليه الشمس مخاطب بالصلاة .

وكذلك كل من قرأ القرآن مخاطب بالاستعاذة .

وكذلك كل من خاف يقيم الصلاة بتلك الصفة .

ومن هذا القبيل قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ .

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا النبي اتق الله ﴾ [الأحزاب : 1] و ﴿ يا أيها النبي إِذَا طَلَّقْتُمُ النسآء ﴾ [الطلاق : 1] .

الثانية قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ ذهب بعض العرب وهم دوسٌ : إلى أن المال الثيابُ والمتاع والعُروض .

ولا تسمّي العين مالاً .

وقد جاء هذا المعنى في السُّنة الثابتة من رواية مالك عن ثور بن زيد الدّيلي عن أبي الغيث

سالم مولى ابن مطيع عن أبي هريرة قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عامَ خيبر فلم نغنم ذهباً ولا وَرِقاً إلا الأموال الثياب والمتاع .

الحديث : وذهب غيرهم إلى أن المال الصامت من الذهب والورق .

وقيل : الإبل خاصة ؛ ومنه قولهم : المال الإبل .

وقيل : جميع الماشية .

وذكر ابن الأنباري عن أحمد بن يحيى ثعلب النحوي قال : ما قصر عن بلوغ ما تجب فيه الزكاة من الذهب والورق فليس بمال ؛ وأنشد :

والله ما بلغتْ لي قطُّ ماشيةٌ . . .

حدّ الزكاة ولا إبل ولا مال

(70/348)

قال أبو عمر : والمعروف من كلام العرب أن كل ما تُمُوِّل وتُمُلِّك هو مال ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم : " يقول ابن آدم مالي مالي وإنما له من ماله ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو تصدّق فأمضى " وقال أبو قتادة : فأعطاني الدرع فابتعت به مَخرَفا في بني سلمة ؛ فإنه لأوّل مال تأثلته في الإسلام .

فمن حلف بصدقة ماله كله فذلك على كل نوع من ماله ، سواء كان مما تجب فيه الزكاة أو لم يكن ؛ إلا أن ينوي شيئاً بعينه فيكون على ما نواه .

وقد قيل : إن ذلك على أموال الزكاة .

والعلم محيط واللسان شاهد بأن ما تملك يسمى مالاً .

والله أعلم .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ مطلق غير مقيد بشرط في المأخوذ والمأخوذ منه ، ولا تبيين مقدار المأخوذ ولا المأخوذ منه .

وإنما بيان ذلك في السنة والإجماع .

حسب ما نذكره .

فتؤخذ الزكاة من جميع الأموال .

وقد أوجب النبي صلى الله عليه وسلم الزكاة في المواشي والحبوب والعين ، وهذا ما لا خلاف فيه .

واختلفوا فيما سوى ذلك كالخيل وسائر العُروض .

وسيأتي ذكر الخيل والعسل في "النحل" إن شاء الله .

روى الأئمة عن أبي سعيد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ليس فيما دون خمسة أوسُق من التمر صدقة وليس فيما دون خمس أواق من الورق صدقة وليس فيما دون

خمس ذَوْد من الإبل صدقة " وقد مضى الكلام في "الأنعام" في زكاة الحبوب وما تنبته الأرض مستوفى .

وفي المعادن في "البقرة" وفي الحليّ في هذه السورة .

وأجمع العلماء على أن الأوقية أربعون درهماً ؛ فإذا ملك الحر المسلم مائتي درهم من فضة مضروبة وهي الخمس أواق المنصوصة في الحديث حولا كاملاً فقد وجبت عليه صدقتها ، وذلك ربع عشرها خمسة دراهم .

وإنما اشتُرط الحول لقوله عليه السلام : " ليس في مال زكاةٌ حتى يحول عليه الحول " أخرجه الترمذي .

(71/348)

وما زاد على المائتي درهم من الورق فبحساب ذلك في كل شيء منه رُبُع عُشُره قلّ أو كثر ؛ هذا قول مالك والليث والشافعي وأكثر أصحاب أبي حنيفة وابن أبي ليلى والثَّوْرِي والأوزاعي وأحمد بن حنبل وأبي ثَوْر وإسحاق وأبي عبيد .

وروي ذلك عن علي وابن عمر .

وقالت طائفة : لا شيء فيما زاد على مائتي درهم حتى تبلغ الزيادة أربعين درهماً ؛ فإذا

بلغتها كان فيها درهم وذلك ربع عشرها .

هذا قول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وطاوس والشعبي والزهري ومكحول وعمرو بن دينار وأبي حنيفة .

الرابعة وأما زكاة الذهب فالجمهور من العلماء على أن الذهب إذا كان عشرين ديناراً قيمتها مائتا درهم فما زاد أن الزكاة فيها واجبة ؛ على حديث عليّ ، أخرجه الترمذي عن ضَمْرة والحارث عن عليّ .

قال الترمذي : سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث فقال كلاهما عندي صحيح عن أبي إسحاق ، يحتمل أن يكون عنهما جميعاً .

وقال الباجِي في المنتقي : وهذا الحديث ليس إسناده هناك ، غير أن اتفاق العلماء على الأخذ به دليل على صحة حكمه ، والله أعلم .

وروي عن الحسن والثوري ، وإليه مال بعض أصحاب داود بن عليّ على أن الذهب لا زكاة فيه حتى يبلغ أربعين ديناراً .

وهذا يردّه حديث عليّ وحديث ابن عمر وعائشة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يأخذ من كل عشرين ديناراً نصف دينار ، ومن الأربعين ديناراً ديناراً ؛ على هذا جماعة أهل العلم إلا من ذُكر .

الخامسة اتفقت الأمة على أن ما كان دون خمس ذَودٍ من الإبل فلا زكاة فيه .

فإذا بلغت خمساً ففيها شاة .

والشاة تقع على واحدة من الغنم ، والغنم الضأن والمعز جميعاً .

وهذا أيضاً اتفاق من العلماء أنه ليس في خمس إلا شاة واحدة ؛ وهي فريضتها .

وصدقة المواشي مبَّينة في الكتاب الذي كتبه الصدّيق لأنس لما وجهه إلى البحرين ؛

أخرجه البخاري وأبو داود والدّارَقُطْني والنَّسائي وابن ماجه وغيرهم ، وكله متفق عليه .

(72/348)

والخلاف فيه في موضعين أحدهما في زكاة الإبل ، وهي إذا بلغت إحدى وعشرين ومائة

فقال مالك : المصدّق بالخيار إن شاء أخذ ثلاث بنات لَبُون ، وإن شاء أخذ حِقّتين .

وقال ابن القاسم : وقال ابن شهاب : فيها ثلاث بنات لبون إلى أن تبلغ ثلاثين ومائة فتكون

فيها حقة وابنتا لبون .

قال ابن القاسم : ورأيي على قول ابن شهاب .

وذكر ابن حبيب أن عبد العزيز بن أبي سلمة وعبد العزيز بن أبي حازم وابن دينار يقولون

بقول مالك .

وأما الموضع الثاني فهو في صدقة الغنم ، وهي إذا زادت على ثلثمائة شاةٍ وشاةٍ ؛ فإن

الحسن بن صالح بن حيّ قال : فيها أربع شياه ، وإذا كانت أربعمائة شاةٍ وشاة ففيها خمس شياه ؛ وهكذا كلما زادت ، في كل مائةٍ شاةٌ ، وروي عن إبراهيم النخعي مثله .

وقال الجمهور : في مائتي شاة وشاةٍ ثلاث شياه ، ثم لا شيء فيها إلى أربعمائةٍ فيكون فيها أربع شياه ؛ ثم كلما زادت مائة ففيها شاة ؛ إجماعاً واتفاقاً .

قال ابن عبد البر : وهذه مسألة وهم فيها ابن المنذر ، وحكى فيها عن العلماء الخطأ ، وخلط وأكثر الغلط .

السادسة لم يذكر البخاري ولا مسلم في صحيحهما تفصيل زكاة البقر .

وخرّجه أبو داود والترمذي والنّسائي والدّارَقُطْني ومالك في مُوَطَّئه وهي مرسلة ومقطوعة وموقوفة .

قال أبو عمر : وقد رواه قوم عن طاوس عن معاذ ، إلا أن الذين أرسلوه أثبت من الذين أسندوه .

وممّن أسنده بقية عن المسعودي عن الحكم عن طاوس .

وقد اختلفوا فيما ينفرد به بقية عن الثقات .

ورواه الحسن بن عُمارة عن الحكم كما رواه بقيّة عن المسعودي عن الحكم ، والحسن مجتمع على ضعفه .

وقد روى هذا الخبر بإسناد متصل صحيح ثابت من غير رواية طاوس ؛ ذكره عبد الرزاق قال : أخبرنا معمر والثوري عن الأعمش عن أبي وائل عن مسروق عن معاذ بن جبل قال : بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن ؛ فأمره أن يأخذ من كل ثلاثين بقرة تَبِيعاً أو تبِيعة ، ومن أربعين مُسِنّة ، ومن كل حالم دينار أو عِدْله مَعَافر ؛ ذكره الدّارَقُطْني وأبو عيسى الترمذي وصححه .

قال أبو عمر .

ولا خلاف بين العلماء أن الزكاة في زكاة البقر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ما قال معاذ بن جبل : في ثلاثين بقرة تبيع ، وفي أربعين مُسِنّةٌ ؛ إلا شيء رُوي عن سعيد بن المسيّب وأبي قِلابة والزُّهْرِي وقتادة ؛ فإنهم يوجبون في كل خَمس من البقر شاةً إلى ثلاثين . فهذه جملة من تفصيل الزكاة بأصولها وفروعُها في كتب الفقه .

ويأتي ذكر الخُلْطة في سورة "صا" إن شاء الله تعالى .

السابعة قوله تعالى : ﴿ صَدَقَةً ﴾ مأخوذ من الصدق ، إذ هي دليل على صحة إيمانه وصدق باطنه مع ظاهره ، وأنه ليس من المنافقين الذين يَلْمِزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات .

﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ حالين للمخاطب ؛ التقدير : خذها مطهِّراً لهم ومُزَكياً لهم

بها .

ويجوز أن يجعلهما صفتين للصدقة ؛ أي صدقة مطهرةً لهم مُزَّكِية ، ويكون فاعل تزكيهم المخاطب ، ويعود الضمير الذي في "بها" على الموصوف المنكر .

وحكى النحاس ومَكّيّ أن "تُطَهِّرُهُمْ" من صفة الصدقة "وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا" حال من الضمير في "خُذْ" وهو النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن تكون حالاً من الصدقة ، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة .

وقال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ أي فإنك تطهرهم وتزكيهم بها ، على القطع والاستئناف .

ويجوز الجزم على جواب الأمر ، والمعنى : إن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ، ومنه قول امرىء القيس :

(74/348)

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل . . .

وقرأ الحسن تُطْهِرهم (بسكون الطاء) وهو منقول بالهمزة من طَهَر وأطهرته ، مثل ظهر وأظهرته .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أصلٌ في فعل كلّ إمام يأخذ الصدقة أن يدعو للمتصدّق بالبركة .

روى مسلم عن عبد الله بن أبي أوفى قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : "اللَّهُمَّ صل عليهم" فأتاه ابن أبي أوفى بصدّقته فقال : "اللهم صلّ على آل أبي أوفى" " ذهب قوم إلى هذا ، وذهب آخرون إلى أن هذا منسوخ بقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تُصَلِّ على أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَداً ﴾ .

قالوا : فلا يجوز أن يصلَّى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم وحده خاصّة ؛ لأنه خُصّ بذلك .

واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ لاَّ تَجْعَلُواْ دُعَآءَ الرسول بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً ﴾ [النور : 63] الآية .

وبأنّ عبد الله بن عباس كان يقول : لا يصلى على أحد إلا على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

والأوّل أصح ؛ فإن الخطاب ليس مقصوراً عليه كما تقدّم ؛ ويأتي في الآية بعد هذا .

فيجب الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتأسّي به ؛ لأنه كان يمتثل قوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي إذا دعوت لهم حين يأتون بصدقاتهم سكّن ذلك قلوبهم وفرِحوا به .

وقد " روى جابر بن عبد الله قال : أتاني النبيّ صلى الله عليه وسلم فقلت لامرأتي : لا تسألي رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً ؛ فقالت : يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندنا ولا نسأله شيئاً ا فقالت : يا رسول الله ؛ صلّ على زوجي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "صلى الله عليكِ وعلى زوجك" " والصلاة هنا الرحمة والترحم .

قال النحاس : وحكى أهل اللغة جميعاً فيما علمناه أن الصلاة في كلام العرب الدعاء ؛ ومنه الصلاة على الجنائز .

وقرأ حفص وحمزة والكسائي "إن صلاتك" بالتوحيد .

وجمع الباقون .

(75/348)

وكذلك الاختلاف في ﴿ أصلاوتك تَأْمُرُكَ ﴾ [هود : 87] وقُرِىء "سكْن" بسكون الكاف .

قال قتادة : معناه وقار لهم .

والسّكن : ما تسكن به النفوس وتطمئن به القلوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(76/348)

وقال الخازن :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

قال ابن عباس : لما أطلق رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أبا لبابة وصاحبيه انطلق أبو لبابة وصاحبة فأتوا بأموالهم إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالوا : خذ أموالنا وتصدق بها عنا وصل علينا يريدون استغفر لنا وطهرنا .

فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لا آخذ شيئاً منها حتى أومر به " ، فأنزل الله : خذ من أموالهم صدقة الآية ، وهذا قول زيد بن أسلم وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك .

ثم اختلف العلماء في المراد بهذه الصدقة فقال بعضهم : هو راجع إلى هؤلاء الذين تابوا وذلك أنهم بذلوا أموالهم صدقة فأوجب الله سبحانه وتعالى أخذها وصار ذلك معتبراً في كمال توبتهم لتكون جارية مجرى الكفارة .

وأصحاب هذا القول يقولون ليس المراد بها الصدقة الوجبة .

وقال بعضهم : إن الزكاة كانت واجبة عليهم فلما تابوا من تخلفهم عن الغزوة وحسن إسلامهم وبذلوا الزكاة أمر الله سبحانه وتعالى رسوله (صلى الله عليه وسلم) أن يأخذها منهم وقال بعضهم إن الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذها من الأغنياء ودفعها إلى الفقراء وهذا قول أكثر الفقهاء واستدلوا بها على إيجاب أخذ الزكاة .

أما حجة أصحاب القول الأول ، فإنهم قالوا : إن الآيات لا بد وأن تكون منتظمة متناسبة فلو حملناها على أخذ الزكاة الواجبة ، لم يبق لهذه الآية تعلق بما قبلها ولا بما بعدها .

ولأن جمهور المفسرين ذكروا في سبب نزولها أنها نزلت في شأن التائبين وأما أصحاب القول الأخير فإنهم قالوا : المناسبة حاصلة أيضاً على هذا التقدير وذلك أنهم لما تابوا وأخلصوا وأقروا أن السبب الموجبة للتخلف وحب المال أمروا بإخراج الزكاة التي هي طهرة فلما أخرجوها علمت صحة قولهم وصحة توبتهم .

(77/348)

ولا يمنع من خصوص السبب عموم الحكم فإن قالوا : إن الزكاة قدر معلوم لا يبلغ ثلث المال وقد أخذ منهم ثلث أموالهم قلنا : لا يمنع هذا صحة ما قلناه لأنهم رضوا ببذل الثلث من أموالهم فلأن يكونوا راضين بإخراج الزكاة أولى .

ثم في هذه الآية أحكام : الأول قوله سبحانه وتعالى : خذ من أموالهم صدقة ، الخطاب فيه للنبي (صلى الله عليه وسلم) أي خذ يا محمد من أموالهم صدقة فكان النبي (صلى الله عليه وسلم) وتعالى : يأخذها منهم أيام حياته ثم أخذها من بعده الأئمة فيجوز للإمام أو نائبه أن يأخذ الزكاة من الأغنياء ويدفعها إلى الفقراء .

الحكم الثاني : قوله من أموالهم ، ولفظة " من " تقتضي التبعيض وهذا البعض المأخوذ غير معلوم ولا مقدر بنص القرآن فلم يبق إلا الصدقة التي بيَّن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قدرها وصفتها في أخذ الزكاة .

الحكم الثالث : ظاهر قوله خذ من أموالهم صدقة يفيد العموم فتجب الزكاة في جميع المال حتى في الديون وفي مال الركاز .

الحكم الرابع : ظاهر قوله تطهرهم ، أن الزكاة إنما وجبت لكونها طهرة من الآثام وصدور الآثام لا يمكن حصولها إلا من البالغ دون الصبي فوجب أن تجب الزكاة في مال البالغ دون الصبي وهذا قول أبي حنيفة ثم أجاب أصحاب الشافعي : بأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقاً

وللعلماء في قوله سبحانه وتعالى تطهرهم أقوال :

الأول : أن معناه خذ يا محمد من أموالهم صدقة فإنك تطهرهم بأخذها من دنس الآثام .

القول الثاني : أن يكون تطهرم متعلقاً بالصدقة تقديره خذ من أموالهم صدقة فإنها طهرة لهم

وإنما حسن جعل الصدقة مطهرة لما جاء أن الصدقة من أوساخ الناس فإذا أخذ الصدقة فقد اندفعت تلك الأوساخ وكان ذلك الاندفاع جارياً مجرى التطهير : فعلى هذا القول يكون قوله سبحانه وتعالى وتزكيهم بها متقطعاً عن قوله تطهرهم ويكون التقدير : خذ يا محمد من أموالهم صدقة تطهرهم تلك الصدقة وتزكيهم أنت بها .

(78/348)

القول الثالث : أن تجعل التاء في قوله تطهرهم وتزكيهم ضمير المخاطب ويكون المعنى تطهرهم أنت يا محمد بأخذها منهم وتزكيهم أنت بواسطة تلك الصدقة .

القول الرابع : أن معناه تطهرهم من ذنوبهم وتزكيهم يعني ترفع منازلهم عن منازل المنافقين إلى منازل الأبرار المخلصين وقيل معنى وتزكيهم أي تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم .

الحكم الخامس : قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ يعني ادع لهم واستغفر لهم لأن أصل الصلاة في اللغة الدعاء .

قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه : السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق فيقول : آجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت .

وقال بعضهم : يجب على الإمام أن يدعو للمتصدق .

وقال بعضهم : يستحب ذلك .

وقيل : يجب في صدقة الفرض ويستحب في صدقة التطوع .

وقيل : يجب على الإمام ويستحب للفقير أن يدعو للمعطي .

وقال بعضهم : يستحب أن يقول اللهم صلِّ على فلان .

ويدل عليه ما روي عن بعد الله بن أبي أوفى وكان من أصحاب الشجرة قال : كان النبي (صلى الله عليه وسلم) إذا أتاه قوم بصدقة قال : " اللهم صلِّ عليهم " فأتاه أبي بصدقته فقال " اللهم صلِّ على آل أبي أوفى " أخرجاه في الصحيحين .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ إن صلاتك ﴾ وقرئ : صلواتك على الجمع ﴿ سكن لهم ﴾ يعني إن دعاءك رحمة لهم .

وقال ابن عباس : طمأنينة لهم .

وقيل : إن الله قد قبل منهم .

وقال أبو عبيدة : تثبيت لقلوبهم .

وقيل : إن السكن ما سكنت إليه النفس والمعنى إن صلواتك توجب سكون نفوسهم إليها والمعنى أن الله قد قبل توبتهم أو قبل زكاتهم ﴿ والله سميع ﴾ يعني لأقوالهم أو لدعائك لهم ﴿ عليم ﴾ يعني بنياتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم إن صلواتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾

الخطاب للرسول ، والضمير عائد على الذين خلطوا قالوا : يا رسول الله هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال : " ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً " فنزلت .

فيروى أنه أخذ ثلث أموالهم مراعاة لقوله : خذ من أموالهم .

والذي تظاهرت به أقوال المتأولين ابن عباس وغيره : أنها في هؤلاء المتخلفين ، وقال جماعة من الفقهاء : المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة .

فقوله : على هذا من أموالهم هو لجميع الأموال ، والناس عام يراد به الخصوص في الأموال ، إذ يخرج عنه الأموال التي لا زكاة فيها كالرباع والثياب .

وفي المأخوذ منهم كالعبيد ، وصدقة مطلق ، فتصدق بأدنى شيء .

وإطلاق ابن عطية على أنه مجمل فيحتاج إلى تفسير ليس بجيد .

وفي قوله : خذ ، دليل على أنّ الإمام هو الذي يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها .

ومن أموالهم : متعلق بخذ وتطهرهم ، وتزكيهم حال من ضمير خذ ، فالفاعل ضمير خذ .

وأجازوا أن يكون من أموالهم في موضع الحال ، لأنه لو تأخر لكان صفة ، فلما تقدم كان

حالاً ، وأجازوا أن يكون تطهرهم صفة ، وأن يكون استئنافاً ، وأن يكون ضمير تطهرهم عائداً على صدقة ، ويبعد هذا العطف ، وتزكيهم فيختلف الضمير أن ، فأما ما حكى مكي من أنّ تطهرهم صفة للصدقة وتزكيهم حال من فاعل خذ ، فقدر ردّ بأنّ الواو للعطف ، فيكون التقدير : صدقة مطهرة ومزكياً بها ، وهذا فاسد المعنى ، ولو كان بغير واو جاز انتهى .

ويصح على تقدير مبتدأ محذوف ، والواو للحال أي : وأنت تزكيهم ، لكن هذا التخريج ضعيف لقلة نظيره في كلام العرب .

والتزكية مبالغة في التطهر وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال .

وقرأ الحسن : تطهرهم من أطهر وأطهر وطهر للتعدية من طهر .

وصلِّ عليهم أي ادع لهم ، أو استغفر لهم ، أو صل عليهم إذا ماتوا ، أقوال .

(80/348)

ومعنى سكن : طمأنينة لهم ، إنّ الله قبل صدقتهم مقاله : ابن عباس .

أو رحمة لهم قاله أيضاً ، أو قربة قاله أيضاً ، أو زيادة وقار لهم قاله : قتادة ، أو تثبيت لقلوبهم قاله : أبو عبيدة ، أو أمن لهم .

قال :

يا جارة الحي إن لا كنت لي سكناً . . .

إذ ليس بعض من الجيران أسكنني

وهذه أقوال متقاربة .

وقال أبو عبد الله الرازي : إنما كانت صلاته سكناً لهم لأنّ روحه (صلى الله عليه وسلم) كانت روحاً قوية مشرقة صافية ، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير ثارت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت سرائرهم ، وانقلبوا من الظلمة إلى النور ، ومن الجسمانية إلى الروحانية .

قال الشيخ جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليمان عرف بابن النقيب في كتابه التحرير والتحبير : كلام الرازي كلام فلسفي يشير فيه إلى أنَّ قوى الأنفس مؤثرة فعالة ، وذلك غير جائز على طريقة أهل التفسير انتهى .

وقال الحسن وقتادة : في هؤلاء المعترفين المأخوذ منهم الصدقة هم سوى الثلاثة الذين خُلفوا .

وقرأ الأخوان وحفص : إن صلاتك هنا ، وفي هود صلاتك بالتوحيد ، وباقي السبعة بالجمع .

والله سميع باعترافهم ، عليم بندامتهم وتوبتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(81/348)

وقال أبو السعود :

﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾

روي أنهم لما أُطلقوا قالوا : يا رسولَ الله هذه أموالُنا التي خلَّفَتْنا عنك فتصدقْ بها وطهِّرْنا فقال عليه الصلاة والسلام : " ما أُمرتُ أن آخذَ من أموالكم شيئاً " فنولت فليست هي الصدقةُ المفروضةُ لكونها مأموراً بها ولِما رُوي أنه عليه الصلاة والسلام أخذ منهم الثلثَ وتركَ لهم الثلثين فوقع ذلك بياناً لِما في صدقةٍ من الإجمال ، وإنما هي كفارةٌ لذنوبهم حسبما ينبىء عنه قولُه عز وجل : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ أي عما تلطخوا به من أوضار التخلفِ ، والتاءُ للخطاب والفعل مجزومٌ على أنه جواب للأمر وقرىء بالرفع على أنه حالٌ من ضمير المخاطبِ في خذ أو صفةٌ لصدقةٍ والتاء للخطاب أو للصدقة والعائدُ على الأول محذوفٌ ثقةً بما بعده وقرىء تُطْهِرهم من أطْهره بمعنى طَهّره ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ بإثبات الياءِ وهو خبرٌ لمبتدإٍ محذوفٍ والجملةُ حال من الضمير في الأمر أو في جوابه ، أي وأنت تزكيهم بها أي

تُنْمي بتلك الصدقةِ حسناتِهم إلى مراتب المخلِصين أو أموالَهم أو تبالغ في تطهيرهم ، هذا على قراءة الجزم في تطهرْهم وأما على قراءة الرفع فسواءٌ جُعلت التاءُ للخطاب أو للصدقة وكذا جعلت الجملةُ الأولى حالاً من ضمير المخاطَب أو صفةً للصدقة على الوجهين فالثانيةُ عطفٌ على الأولى حالاً وصفةً من غير حاجةٍ إلى تقدير المبتدأ لتوجيه دخولِ الواو في الجملة الحالية ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي واعطِف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم ﴿ أن ﴾ وقرىء صلواتِك مراعاةً لتعدد المدعوِّ لهم ﴿ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ تسكُن نفوسُهم إليها وتطمئن قلوبُهم بها ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتَهم ، والجملةُ تعليلٌ للأمر بالصلاة عليهم ﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ يسمع ما صدر عنهم من الاعتراف بالذنب والتوبةِ والدعاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في ضمائرهم من الندم والغمّ لما فرَط منهم ومن الإخلاص في التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءَك لهم عليم بما تقتضيه الحكمةُ ، والجملةُ حينئذ تذييلٌ للتعليل مقررٌ لمضمونه ، وعلى الأول تذييلٌ لما سبق من الآيتين محقِّقٌ لما فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(82/348)

وقال الآلوسى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾

أخرج غير واحد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم لما أطلقوا انطلقوا فجاؤا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزلت الآية فأخذ صلى الله عليه وسلم منها الثلث كما جاء في بعض الروايات ، فليس المراد من الصدقة الصدقة المفروضة أعني الزكاة لكونها مأموراً بها وإنما هي على ما قيل كفارة لذنوبهم حسبما ينبىء عنه قوله عز وجل : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ أي عما تطلخوا به من أوضار التخلف .

وعن الجبائي أن المراد بها الزكاة وأمر صلى الله عليه وسلم بأخذها هنا دفعا لتوهم الحاقهم ببعض المنافقين فإنها لم تكن تقبل منه كما علمت وأمر التطهير سهل ، وأياماً كان فضمير أموالهم لهؤلاء المعترفين ، وقيل : إنه على الثاني راجع لأرباب الأموال مطلقاً ، وجمع الأموال للإشارة إلى أن الأخذ من سائر أجناس المال ، والجار والمجرور متعلق بخذ ويجوز أن يتعلق بمحذوف وقع حالا من ﴿ صَدَقَةٍ ﴾ والتاء في ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ للخطاب .

وقرىء بالجزم على أنه جواب الأمر والرفع على أن الجملة حال من فاعل ﴿ خُذِ ﴾ أو صفة لصدقة بتقدير بها لدلالة ما بعده عليه أو مستأنفة كما قال أبو البقاء ، وجوز على احتمال الوصفية أن تكون التاء للغيبة وضمير المؤنث للصدقة فلا حاجة بنا إلى بها .

وقرىء تطهرهم من أطهره بمعنى طهره ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ بإثبات الياء وهو خبر مبتدأ محذوف والجملة حال من الضمير في الأمر أو في جوابه وقيل استئناف أي وأنت تزكيهم بها أي تنمي بتلك الصدقة حسناتهم وأموالهم أو تبالغ في تطهيرهم ، وكون المراد ترفع منازلهم من منازل المنافقين إلى منازل الإبرار المخلصين ظاهر في أن القوم كانوا منافقين والمصحح خلافه ، هذا على قراءة الجزم ﴿ فِى تُطَهِّرُهُمْ ﴾ وأما على قراءة الرفع فتزكيهم عطف عليه ، وظاهر ما في الكشاف يدل على أن التاء هنا للخطاب لا غير لقوله سبحانه : ﴿ بِهَا ﴾ والحمل على أن الصدقة تزكيهم بنفسها بعيد عن فصاحة التنزيل .

وقرأ مسلمة بن محارب ﴿ تزكهم ﴾ بدون الياء ﴿ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي ادع لهم واستغفر ، وعدى الفعل بعلي لما فيه من معنى العطف لأنه من الصلوين ، وإرادة المعنى اللغوي هنا هو المتبادر ، والحمل على صلاة الميت بعيد وان روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، ولذا استدل بالآية على استحباب الدعاء لمن يتصدق ، واستحب الشافعي في صفته أن يقول للمتصدق آجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهوراً وبارك لك فيما أبقيت .

وقال بعضهم : يجب على الإمام الدعاء إذا أخذ ، وقيل : يجب في صدقة الفرض ويستجب في صدقة التطوع ، وقيل : يجب على الإمام ويستحب للفقير والحق الاستحباب مطلقاً ﴿ إن صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ تعليل للأمر بالصلاة ، والسكن السكون وما تسكن النفس إليه من الأهل والوطن مثلا وعلى الأول جعل الصلاة نفس السكن ، والاطمئنان مبالغة وعلى الثاني يكون المراد تشبيه صلاة عليه الصلاة والسلام في الالتجاء إليها بالسكن والأول أولى أي إن دعاءك تسكن نفوسهم إليه وتطمئن قلوبهم به إلى الغاية ويثقون بأنه سبحانه قبلهم .

(84/348)

وقرأ غير واحد من السبعة ﴿ صلواتك ﴾ بالجمع مراعاة لتعدد المدعو لهم ﴿ والله سَمِيعٌ ﴾ يسمع الاعتراف بالذنب والتوبة والدعاء ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في الضمائر من الندم والغم لما فرط وبالإخلاص في التوبة والدعاء أو سميع يجيب دعاءك لهم عليم بما تقتضيه الحكمة ، والجملة حينئذ تذييل للتعليل مقرر لمضمونه وعلى الأول تذييل لما سبق من الآيتين محقق لما فيهما . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(85/348)

وقال القاسمي :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾

أي : بعضها ﴿ صَدَقَةً ﴾ .

قال المهايمي : لتصدق توبتهم إذ : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ ، أي : عما تلطخوا به من أوضار التخلف . وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ أي : عن سائر الأخلاق الذميمة التي حصلت عن المال .

قال الزمخشري : التزكية مبالغة في التطهير وزيادة فيه ، أو بمعنى الإنماء والبركة في المال ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحّم ﴿ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ أي : تسكن نفوسهم إليها ، وتطمئن قلوبهم بها ، ويثقون بأنه سبحانه قبل توبتهم .

وقال قتادة : سكن ، أي : وقار .

وقال ابن عباس : رحمة لهم . وقد روى

الإمام أحمد عن حذيفة أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا للرجل ، أصابته وأصابت ولده وولد ولده . وفي رواية : إن صلاة النبيّ صلى الله عليه وسلم لتدرك الرجل وولده وولد ولده .

والجملة تعليل للأمر بالصلاة عليهم ﴿ وَاللَّهُ سَمِيعٌ ﴾ أي : يسمع اعترافهم بذنوبهم

ودعاءهم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ أي : بما في ضمائرهم من الندم والغم ، لما فرط منهم .

تنبيهات :

الأول : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ ﴾ قرئ مجزوما على أنه جواب للأمر ، وأما بالرفع فعلى أنه حال من ضمير المخاطب في خذ . أو صفة لصدقة ، والتاء للخطاب أو للصدقة .

والعائد على الأول محذوف ثقة بما بعده ، أي : بها .

وقرئ تطهرهم ، من أطهره بمعنى طهّره ، ولم يُقرأ : وتزكيهم ، إلا بإثبات الياء وهو خبر لمحذوف ، والجملة حال من الضمير في الأمر أو في جوابه ، أي : وأنت تزكيهم بها ، هذا على قراءة (تطهرهم) بالجزم .

وأما على قراءة الرفع فـ (تزكيهم) عطف على (تطهرهم) حالاً أو صفة .

(86/348)

الثاني : قرئ (صلاتك) بالتوحيد ، و (صلواتك) بالجمع ، مراعاة لتعدد المدعوّ لهم .

وقال الشهاب : جمع صلاة ، لأنها إسم جنس ، والتوحيد لذلك ، أو لأنها مصدر في الأصل .

الثالث : قال الشهاب : السكن السكون ، وما يسكن إليه من الأهل والوطن ، فإن كان

المراد الأول ، فجعلها نفس السكن والإطمئنان مبالغة ، وهو الظاهر ، وإن كان الثاني فهو مجاز بتشبيه دعائه ، في الإلتجاء إليه بالسكن ، انتهى .

قال أبو البقاء : سكن بمعنى مسكون إليها ، فلذلك لم يؤنثه ، وهو مثل القبض بمعنى المقبوض .

الرابع : قيل : المأمور به في الآية الزكاة . ومن تبعيضية ، وكانوا أرادوا التصدق بجميع مالهم ، فأمره الله أن يأخذ بعضها لتوبتهم ، لأن الزكاة لم تقبل من بعض المنافقين ، فترتبط الآية بما قبلها .

وقيل : ليست هذه الصدقة المفروضة ، بل هم لما تابوا ، بذلوا جميع مالهم كفارة للذنب الصادر منهم ، فأمره الله تعالى بأخذ بعضها وهو الثلث ، وهذا ما روي عن الحسن ، وهو المختار عندهم . ونقل الرازي أن

أكثر الفقهاء على أن هذه الآية كلام مبتدأ قصد به إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء ، إذ هي حجتهم في إيجاب الزكاة ، ثم نظر فيه بأن حملها على ما ذكروه يوجب ألا تنتظم الآية مع سابقها ولاحقها .

وأقول : لا ريب في ارتباط الآية بما قبلها ، كما أفصحت عنه الرواية السابقة . وخصوص سببها لا يمنع عموم لفظها ، كما هو القاعدة في مثل ذلك ، ولذا رد الصديق رضي الله عنه ، على من تأول من بعض العرب هذه الآية أن دفع الزكاة لا يكون إلا للرسول صلوات الله عليه

، لأنه المأمور بالأخذ ، وبالصلاة على المتصدقين ، فغيره لا يقوم مقامه وأمر بقتالهم ، فوافقته الصحابه ، وقاتلوهم حتى أدوا الزكاة إلى الخلفية ، كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(87/348)

فاستدل من ذلك على وجوب دفع الزكاة إلى الإمام ، ومثله نائبه ، وهؤلاء المتأولون المرتدون غاب عنهم أن الزكاة إنما أوجبها الله تعالى سدّاً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، فاستلَّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ، على من فضلوا عليهم في الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة في نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فالإمام لا خصوصية لذاته فيها ، بل لأنه يجمع ما يرد منها لديه ، فينفقها في سبلها المذكورة .

الخامس : استدل بقوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ على ندب الدعاء للمتصدق .

قال الشافعي رحمه الله : السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ، ويقول : آجرك الله فيما أعطيت وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت ، وقال آخرون : يقول : اللهم صلِّ على فلان ، ويدل عليه ما روي عن عبد الله بن أبي أوفى ، وكان من أصحاب الشجرة قال

: كان النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقة قال :

< اللهم صلِّ عليهم > ، فأتاه أبي بصدقته فقال : < اللهم صلِّ على آل أبي أوفى > .

أخرجاه في الصحيحين .

قال ابن كثير : وفي الحديث الآخر أن امرأة قالت : يا رسول الله ! صلِّ علي وعلى زوجي ، فقال : < صلى الله عليك وعلى زوجك > .

أقول : وبهذين الحديثين يردّ على من زعم أن المراد بـ : ﴿ صَلَّ عَلَيْهِمْ ﴾ الصلاة على الموتى حكاه السيوطي في " الإكليل " .

السادس : دلت الآية كالحديثين ، على جواز الصلاة على غير الأنبياء استقلالاً .

قال الرازي : روى الكعبي في " تفسيره " أن عليّاً رضي الله عنه قال لعمر رضي الله عنه وهو مسجّى : عليك الصلاة والسلام . ومن الناس من أنكر ذلك .

ونقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : لا تنبغي الصلاة من أحد على أحد ، إلا في حق النبيّ صلى الله عليه وسلم .

(88/348)

ثم قال الرازي : إن أصحابنا يمنعون من ذكر صلوات الله عليه ، و عليه الصلاة والسلام ، إلا في حق الرسول ، والشيعة يذكرونه في عليّ وأولاده ، واحتجوا بأن نص القرآن دلَّ على جوازه فيمن يؤدي الزكاة ، فكيف يمنع في حق عليّ والحسن والحسين عليهم رضوان الله ؟ قال : ورأيت بعضهم قال : أليس أن الرجل إذا قال : سلام عليكم ، يقال له : وعليكم السلام ، فدل هذا على أن ذكر هذا اللفظ جائز في حق جمهور المسلمين ، فأوْلى آل البيت . انتهى .

وأقول : إِن المنع من ذلك أدبي لا شرعي ، لأنه صار – في العرف – دعاءً خاصاً به صلى الله عليه وسلم ، وشعاراً له ، كالعَلم بالغلبة ، فغيره لا يطلق عليه ، إلا تبعية له ، أدباً لفظياً .

السابع : قال الرازي : في سر كون صلاته عليه السلام سكناً لهم : أن روح محمد عليه السلام كانت روحاً قوية مشرقة صافية باهرة ، فإذا دعا لهم وذكرهم بالخير ، فاضت آثار من قوته الروحانية على أرواحهم ، فأشرقت بهذا السبب أرواحهم ، وصفت أسرارهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 508. 511 ﴾

(89/348)

وقال ابن عاشور :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾

لما كان من شرط التوبة تدارك ما يمكن تداركه مما فات وكان التخلف عن الغزو مشتملاً على أمرين هما عدم المشاركة في الجهاد ، وعدم إنفاق المال في الجهاد ، جاء في هذه الآية إرشاد لطريق تداركهم ما يُمكن تَدَارُكه مما فات وهو نفع المسلمين بالمال ، فالانفاقُ العظيم على غزوة تبُوك استنفد المال المعد لنوائب المسلمين ، فإذا أخذ من المخلفين شيء من المال انجبر به بعض الثلم الذي حلّ بمال المسلمين .

فهذا وجه مناسبة ذكر هذه الآية عقب التي قبلها .

وقد روي أن الذين اعترفوا بذنوبهم قالوا للنبيء صلى الله عليه وسلم هذه أموالنا التي بسببها تخلفنا عنك خذها فتصدق بها وطهرنا واستغفر لنا ، فقال لهم : لم أومر بأن آخذ من أموالكم .

حتى نزلت هذه الآية فأخذ منهم النبي صلى الله عليه وسلم صدقاتهم ، فالضمير عائد على آخرين اعترفوا بذنوبهم .

والتاء في ﴿ تطهّرهم ﴾ تحتمل أن تكون تاء الخطاب نظراً لقوله : ﴿ خذ ﴾ ، وأن تكون تاء الغائبة عائدة إلى الصدقة .

وأياماً كان فالآية دالة على أن الصدقة تطهر وتزكي .

والتزكية : جعل الشيء زكياً ، أي كثير الخيرات .

فقوله : ﴿ تطهرهم ﴾ إشارة إلى مقام التخلية عن السيئات .

وقوله : ﴿ تزكيهم ﴾ إشارة إلى مقام التحلية بالفضائل والحسنات .

ولا جرم أن التخلية مقدمة على التحلية .

فالمعنى أن هذه الصدقة كفارة لذنوبهم ومجلبة للثواب العظيم .

والصلاة عليهم : الدعاء لهم .

وتقدم آنفاً عند قوله تعالى : ﴿ وصلوات الرسول ﴾ [التوبة : 99] .

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية إذا جاءه أحد بصدقته يقول : اللهم صل على آل فلان .

كما ورد في حديث عبد الله بن أبي أوفى يجمع النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه في هذا الشأن بين معنى الصلاة وبين لفظها فكان يُسْأل من الله تعالى أن يصلي على المتصدِق .

(90/348)

والصلاة من الله الرحمة ، ومن النبي الدعاء .

وجملة : ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ تعليل للأمر بالصلاة عليهم بأن دعاءه سكن لهم ،

أي سبب سَكَن لهم ، أي خير .

فإطلاق السكن على هذا الدعاء مجاز مرسل .

والسكن : بفتحتين ما يُسكَن إليه ، أي يُطمأن إليه ويُرتاح به .

وهو مشتق من السكون بالمعنى المجازي ، وهو سكون النفس ، أي سلامتها من الخوف ونحوه ، لأن الخوف يوجب كثرة الحذر واضطراب الرأي فتكون النفس كأنها غير مستقرة ، ولذلك سمي ذلك قلقاً لأن القلق كثرة التحرك .

وقال تعالى : ﴿ وجاعل الليل سكناً ﴾ [الأنعام : 96] وقال : ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكَناً ﴾ [النحل : 80] ، ومن أسماء الزوجة السكن ، أو لأن دعاءه لهم يزيد نفوسهم صلاحاً وسكوناً إلى الصالحات لأن المعصية تردد واضطراب ، كما قال تعالى : ﴿ فهم في ريبهم يترددون ﴾ [التوبة : 45] ، والطاعة اطمئنان ويقين ، كما قال تعالى : ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾

[الرعد : 28] .

وجملة : ﴿ والله سميع عليم ﴾ تذييل مناسب للأمر بالدعاء لهم .

والمراد بالسميع هنا المجيب للدعاء .

وذكره للإشارة إلى قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم ففيه إيماء إلى التنويه بدعائه .

وذكر العليم إيماء إلى أنه ما أمره بالدعاء لهم إلا لأن في دعائه لهم خيراً عظيماً وصلاحاً في

الأمور .

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر وأبو جعفر ويعقوب ﴿ صلواتك ﴾ بصيغة الجمع .

وقرأه حفص عن عاصم وحمزة والكسائي وخلف ﴿ صلاتك ﴾ بصيغة الإفراد .

والقراءتان سواء ، لأن المقصود جنس صلاته عليه الصلاة والسلام .

فمن قرأ بالجمع أفاد جميع أفراد الجنس بالمطابقة لأن الجمع المعرف بالإضافة يعم ، ومن قرأ بالإفراد فهمت أفراد الجنس بالالتزام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(91/348)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

هذه هي الصدقة غير الواجبة ؛ لأنها لو كانت الصدقة الواجبة لما احتاجت إلى أمر جديد ، بل هي صدقة الكفارة .

وقوله الحق : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ يعني أموال من اعترفوا بذنوبهم ، وقد نسب الأموال وملكيتها لهم ، رغم أن المال كله لله ، مصداقاً لقوله : ﴿ وَآتُوهُمْ مِّن مَّالِ اللهِ الذي آتَاكُمْ . . . ﴾ [النور : 33]

ولكن الحق ينقله إلى خلقه تفضلاً منه ، وأوضح سبحانه إذا قلت لكم : أخرجوا شيئاً من المال الذي وهبتكم إياه فلن أرجع فيما وهبته لكم ، ولذلك إذا احتاج مؤمن شيئاً من مؤمن مثله ، فالحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ . . . ﴾ [البقرة : 245]

وسبحانه واهب المال وهو يحترم هبته لصاحب المال .

وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ لاحظ فيه العلماء أن المال حين يضاف إلى صاحبه فهو تطمين له ، حتى يتحرك في الحياة حركة فوق ما يحتاج ، ويبقى له شيء يتموّله ، وبذلك يحرص الإنسان على الحركة التي ينتفع بها الغير ، وإن لم يقصد . فيوضح له الحق : اطمئن إلى أن كل شيء سيزيد عن حاجتك يصبح ملكاً لك ، ولا يخرج المال عن ملكية صاحبه إلا إذا كان صاحبه غير أهل للتصرّف ، مصداقاً لقوله الحق : ﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهاء أَمْوَالَكُمُ . . . ﴾ [النساء : 5]

لأن السفيه لا يصح أن يتملك ؛ لأنه بالحمق قد يضيع كل شيء ، فينزل الحق الحكم : إن مال السفيه الذي يملكه ليس ماله إنما هو مالكم . ولكن إلى متى ؟ فيأتي القول الحق : ﴿ فَإِنْ

آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ . . . ﴾ [النساء : 6]

أي : ردوا إليهم أموالهم متى عادوا إلى الرشد وصاروا أهلاً للملكية .

والحق في هذه الآية يقول :

(92/348)

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ والله سبحانه وتعالى هو صاحب المال ، وهو يأتي بالمال ، بالأسباب التي جعلها للبشر في حركة الحياة ، وأمَّنهم على عرقهم ، وأمَّنهم على ما يملكون ؛ حتى لا يزهد أحد في الحركة ؛ فلو أخذ كل واحد من حركته على قدر نفسه ، ولم يتملك المال ؛ لضنّ الناس بالحركة . وإذا ضن الناس بالحركة ؛ فلن يستفيد غير القادرين على الحركة ، فأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعل ما يزيد على حاجات الناس ملْكاً لهم ؛ لأن النفس تحب أن تتملك ، والتملك أمر غريزي في النفس ؛ بدليل أن الله سبحانه وتعالى هو الذي طلب أن يؤخذ من الأموال ، وأوضح أنه يضاعفها له ، ومعنى أنه يضاعفها عنده أنه يُنمي فيه غريزة التملك .

وقوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ نلحظ فيه أن الأموال أضيفت لأصحابها ، ما لم يكن فيهم سفه في التصرف أو عدم رشد ؛ بأن يكون وارث المال قاصراً لا يقدر على التصرف

فيه ، فأوضح لنا سبحانه : لا تعتبروا مال السفيه ولا مال القاصر ماله ، ولكن ليرعى الوصيّ المال باعتبار أنه ماله هو ، وحذَّر سبحانه الوصيَّ : إياك أن تتعدى في ملكية هذا المال ؛ لأن الذي جعله مالك ، إنما جعل الملكية من أجل القيامة على المال ، ولأجل هو أن يبلغ القاصر رشده ، أو يرجع السفيه إلى عقله .

﴿ وَلاَ تُؤْتُواْ السفهآء أَمْوَالَكُمُ التي جَعَلَ الله لَكُمْ قِيَاماً . . . ﴾ [النساء : 5]

فإياك أيها الوصي ، أن تظن أن الله قد أعطى لك هذا المال ، بل جعل لك حق القيام عليه فقط ، ثم يقول سبحانه : ﴿ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْداً فادفعوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ ولم يقل : " فادفعوا إليهم أموالكم " وإلا كان الأمر صعباً على الناس .

(93/348)

وهنا ملحظية لحظها العلماء رضي الله عنهم ، وهو أن المال إذا كان فيه حق معلوم للسائل والمحروم ، فلا يصح أن ينسب الإنسان المال كله لنفسه ؛ لأن له شركاء فيه هما السائل والمحروم ، فالمال – إذن – ملكية صاحبه باستثناء حق السائل والمحروم .

وفي آية أخرى قال الحق : ﴿ والذين في أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [المعارج : 24-25]

و" الحق المعلوم " هو الزكاة المفترضة من نصاب معلوم بقدر معلوم ، وأما الأمر الثاني فهو حق أيضاً ، ولكن الذي يوجبه ويحدده هو صاحب المال على نفسه ، وهو التطوع ، ولذلك لم يقل : حق معلوم كما في سورة الذاريات : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَآ آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ * كَانُواْ قَلِيلاً مِّن الليل مَا يَهْجَعُونَ * وبالأسحار هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّآئِلِ والمحروم ﴾ [الذاريات : 15-19]

لقد ذكر سبحانه هنا الحق ولم يقل إنه معلوم ؛ لأن صاحب المال داخل في مقام الإحسان ، وهو المقام الذي يلزم الإنسان فيه نفسه بشيء فوق ما فرض الله من جنس ما فرض الله .

والله سبحانه لم يفرض على الإنسان أن يقوم الليل كله ، أو يظل الليل يستغفر ، بل إن المسلم له أن يصلي العشاء وينام ، ثم يقوم لصلاة الفجر . لكن إن وجد في نفسه نشاطاً ، فهو يقوم الليل ؛ لأنه يريد أن يدخل في مرتبة الإحسان .

وكذلك يؤدي المسلم الزكاة وهذا حق معلوم ، أما إن رغب المسلم في أن يدخل في مقام الإحسان فهو يزيد على الزكاة ، وقد جعل الله هذا حقّاً لكنه غير معلوم ؛ ليفسح لأريحيات الكرام أن يتجاوزوا الحق المعلوم ، فبدلاً من اثنين ونصف بالمائة ، قد يجعلها الداخل إلى مقام الإحسان ضعف ذلك أو أكثر .

(94/348)

ووقف العلماء رضي الله عنهم هنا قالوا : إن قوله الحق : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ لا يعني اعتبار الجزء المأخوذ من المال للفقير هو حق الفقير ، بل هو مال المؤدي ، ولو بيّن الله حق الفقير وعزله عن مال صاحبه ، فهذا يعني أن المال إن هلك فليس للفقير شيء ، ولكن لأن المال مال الغني فحق الفقير محفوظ في ذمة صاحب المال ، وهذا أفضل للفقير ، فإن الغني لو لم يؤد الزكاة في ساعتها ، وبعد ذلك حدث أن هلك المال ، فالغني ضامن لحق الفقير .

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ ﴾ والصدقة تطهرهم ؛ لأن الذنب الذي فعلوه واعترفوا به تسبّب في تقذير أنفسهم بالمعصية ، وما داموا قد قذروا أنفسهم بالمعصية ، فهم في حاجة أن يُطهَّرُوا بالمال الذي كان سبباً في عدم ذهابهم إلى الغزوة .

وانظر هناك إلى ملحظ " الأداء البياني " في القرآن ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ خُذْ ﴾ وهو أمر للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويقول : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً ﴾ من أموال الأغنياء ، هذه الصدقة ستذهب للمحتاج ، إذن هنا أربعة عناصر : آخذٌ هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومأخوذ منه هو صاحب المال ، ومأخوذ هو المال ، ومأخوذ له هو الفقير المحتاج .

وما دام الأمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهذا الأمر ينسحب بالتالي على كل من وَلِيَ أمراً من أمور المسلمين . ولقائل أن يقول : ولكنها صدقة وليست زكاة . ونقول : ما دام الله هو الذي أمر بها تطهيراً فقد صارت واجباً ، والآية صريحة ، وتقتضي أنه ما دامت هناك ولاية شرعية ، فولي الأمر هو الذي يأخذ من الناس ويؤدي للفقراء ، أو لأوجه الصرف التي شرعها الله ؛ لأن الله لا يريد أن يعذب الفقير بأن يمد يده آخذاً من مُسَاوِله ، أما إن أخذ من الوالي وهو المسئول عن الفقراء ، فلن يكون عيباً ، كما أن الحق سبحانه يريد أن يحمي أهل الفقير من أن يعلموا أن البيت الفلاني يعطي لهم زكاة ، فيعاني أولاد الآخذ من المذلة أمام أولاد المعطي ، ويعيش أبناء المعطي في تعال لا لزوم له . إذن : فحين يكون الوالي هو الذي يعطي فلن يكون هناك مُسْتعلٍ أو مُستعلىً عليه .

أما إن لم تكن هناك ولاية إسلامية ، ولا يعلم الإنسان إلى أين ستذهب الأموال ، فهنا يصبح كل إنسان أن يراعي محيط دينه وهو يخرج الزكاة وحينئذ يكون عندنا مُعْطٍ هو صاحب المال ، ومال مُعْطىً ، ومعطىً له هو الفقير .

وعلى من يعود قوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ ؟ السطحيون في الفهم يقولون : إنها تطهر من نأخذ منه المال ، وتزكّى المال الذي نأخذ منه . لكن من يملك عمقاً في الفهم يقول : ما دامت هناك في هذه الآية عناصر ، فضروري أن يعود التطهير والتزكية عليها ، وإنها

تطهر وتزكي المأخوذ منه صاحب المال ، وكذلك تطهر وتزكي المال المأخوذ ، وأيضاً تظهر وتزكي المأخوذ له وهو الفقير ، لأن التطهير معناه إزالة قَذَر ، والتزكية نماء .

(96/348)

القذارة أمر عارض على الشيء الذي نغسله ونطهره ، وتنمية له بشيء عائد عليه فيزداد ، وهكذا تُطهر الصدقة وتزكى عناصر الفعل كلها . والتطهير لمن يعطي ، له معنى مع ، والزكاة لها معنى معه ؛ لأنك إن أخذت منه المال ، فقد يكون قد ل وأدخل في ماله شيئاً فيه شبهة ، فالصدقة والزكاة تطهران هذا المال .

أما كيف تنمّي صاحب المال ؟ أنت إن أخذت منه وهو قادر ، معنى ذلك أنك تطمئنه أنه إذا احتاج فستعطيه ، وبهذا يعرف أنه لا يعيش في المجتمع بمفرده ، ولا يخاف أن يضيع منه المال ، واطمأن لحظة أن أخذت منه المال وهو قادر كي تعطي المحتاج ، فكأنك تطمئنه وتقول له : أنت لو احتجت فلن تضيع ، وبذلك تُنمِّي تواجده وثقته ، وطهرته أيضاً من أن يكون في ماله شبهة ، هذا من ناحية صاحب المال .

أما من ناحية المال نفسه ، فالصدقة تطهر المال ؛ لأن المال قد يزيد فيه شيء فيه شبهة فالزكاة تطهره .

وقد يخيل إليك أنك حين تأخذ من المال فهو ينقص ، عكس الربا الذي يزيد المال ، فالربا مثلاً يحقق زيادة للمائة جنيه فتصبح مائة وعشرة مثلاً ، أما المزكّي فالمائة جنيه تصير سبعة وتسعين ونصفاً ، والسطحي يرى أن الزكاة أنقصت المال وأن الربا يزيده ، ولكن هذا بمقاييس البشر ، لا بمقاييس من يملك الأشياء ؛ فالزكاة التي تعتبرونها نقصاً تنمّي ، والربا الذي تعتبرونه ينمّي إنما يُنقص ، والحق يقول : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا وَيُرْبِي الصدقات . . . ﴾ [البقرة : 276]

(97/348)

إذن : فهناك مقاييس عند البشر ، ومقاييس أخرى عند الحق ، فما رأيته منقصاً لك ، هو عند الله زيادة ، وما رأيته مزيداً لك ، هو في الواقع نقصٌ ، كيف ؟ لأن الناس لا ينظرون إلا إلى رزق الوارد الإيجابي ، ويظنون أن هذا هو الرزق ، ولا يتذكرون أن هناك رزقاً اسمه " رزق السلب " ، فرزق الإيجاب قد يزيد دخلك مثلاً من مائة إلى مائة وعشرة . ورزق السلب يتمثل في أنك تصرف سبعين فقط ، بدلاً من أن تصرف مائةً ، فيبقى لك ثلاثون ، بالإضافة إلى أنه يمنع عنك مصارف الشر ، هذا من ناحية المال .

والحق يقول : ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ الناس فَلاَ يَرْبُو عِندَ الله وَمَا آتَيْتُمْ مِّن زَكَاةٍ

تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فأولئك هُمُ المضعفون ﴾ [الروم : 39]

وكيف تكون الصدقة تطهيراً للآخذ وهو لم يذنب ذنباً يحتاج إلى تطهير ، بل هو مُعطىً له لأنه محتاج ؟ ونقول : إن الآخذ حين يأخذ من مال غيره ، وهو عاجز عن الكسب فهو يتطهر من الحقد على ذي النعمة ؛ لأنه وصله بعض من المال الذي عند ذي النعمة ، فلا يحقد عليه ولا يحسده ، فهو إن رأى عنده خيراً ، دعا له بالزيادة ؛ لأن بعضاً من الخير يعود عليه .

والفلاحون في ريف مصر يهدون بعضهم بعضاً من لبن ماشيتهم ، أو بعضاً من الخير الخارج من لبنها ، وساعة أن تمرَّ إحداهما على أهل القرية يدعون الله بحمايتها ، وهكذا تتطهر نفس الفقير من الحقد والحسد .

هذا عن التطهير ، فماذا عن التزكية والنماء ؟ إن الفقير ساعة يرى نفسه فقيراً ، ويرى أن المجتمع الإيماني يقوم برعايته ولا يتركه وحيداً ، ويتسابق أهل الخير لنجدته ، فنفسه تنمو بالاطمئنان ؛ لأنه في مجتمع إيماني .

إذن : فقوله الحق : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ راجع لكل العناصر في الآية .

(98/348)

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ادع لهم بالخير ؛ ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما أتاه قوم بأي صدقة قال : " اللهم صَلِّ عليهم " فأتاه أبو أوفى بصدقته ، فقال : " اللهم صَلِّ على آل أبي أوفى " ، هذه هي التزكية القولية التي يحب كل مسلم أن يسمعها فيعطِي ، ويجِدّ ويجتهد من ليس عنده ؛ ليسمعها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله الحق : ﴿ إِنَّ صلاوتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ أي : اطمئنان لهم ، وما دام الرسول صلى الله عليه وسلم قد دعا له ، فهو قد اطمأن إلى أن صدقته وصلت إلى مرتبة القبول حيث جازاها رسول الله بالدعاء . وإذا ما سمعها الآخذ للصدقة يقول بينه وبين نفسه : ولماذا لا أجِدّ في حياتي وأجتهد ؛ حتى أظفر بتلك الدعوة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ ويُنهي الحق الآية بقوله : ﴿ والله سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي أنه سبحانه ﴿ سَمِيعٌ ﴾ لكل ما تعتبره قولاً . و ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بكل ما تعتبره فعلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(99/348)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ قال : من ذنوبهم التي أصابوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وصل عليهم ﴾ قال : استغفر لهم من ذنوبهم التي أصابوها ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ قال : رحمة لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ وصل عليهم ﴾ يقول : ادع لهم ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ قال : استغفارك يسكن قلوبهم ويطمن لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة وابن المنذر وابن مردويه عن عبد الله بن أبي أوفى قال : "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بصدقة قال : اللهمَّ صل على آل فلان . فأتاه أبي بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفي ".

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ سكن لهم ﴾ قال : أمن لهم .

وأخرج ابن أبي شيبة " عن جابر بن عبد الله قال : أتانا النبي صلى الله عليه وسلم فقالت له

امرأتي : يا رسول الله صل عليذ وعلى زوجي . فقال " صلى الله عليك وعلى زوجك " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن خارجة بن زيد عن عمه يزيد بن ثابت – وكان أكبر من زيد – قال : " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وردنا البقيع إذا هو بقبر جديد ، فسأل عنه فقالوا : فلانة . فعرفها فقال " أفلا آذنتموني بها ؟ قالوا : كنت قائلاً فكرهنا أن نؤذيك . فقال : لا تفعلوا . ما مات منكم ميت ما دمت بين أظهركم إلا آذنتموني به ، فإن صلاتي عليه رحمة " " .

(100/348)

وأخرج الباوردي في معرفة الصحابة وابن مردويه عن دلسم السدوسي قال : قلنا لبشير بن الخصاصية : إن أصحاب الصدقة يعتدون علينا ، أفنكتم من أموالنا بقدر ما يعتدون علينا ؟ فقال : إذا جاؤوكم فاجمعوها ثم مروهم فليصلوا عليكم ، ثم تلا هذه الآية ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصلِّ عليهم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(101/348)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ : يجوز فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلقٌ ب " خُذْ " و " مِنْ " تبعيضية . والثاني : أن تتعلق بمحذوف لأنها حالٌ مِنْ " صدقة " إذ هي في الأصل صفةٌ لها فلمَّا قُدِّمت نُصِبَتْ حالاً .

قوله : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ يجوز أن تكونَ التاء في " تُطَهِّرهم " خطاباً للنبي عليه السلام ، وأن تكون للغَيْبة ، والفاعل ضمير الصدقة . فعلى الأول تكونُ الجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحال مِنْ فاعل " خذ " . ويجوز أيضاً أن تكونَ صفةً ل " صدقةً " ، ولا بد حينئذ من حذف عائد تقديره تطهِّرهم بها . وحُذِف " بها " لدلالة ما بعده عليه . وعلى الثاني تكون الجملة صفةً لصدقة ليس إلا . وأما " وتُزَكِّيهم " فالتاءُ فيه للخطاب لا غير لقوله " بها " فإن الضميرَ يعود على الصدقة فاستحالَ أن يعودَ الضمير مِنْ " تزكِّيهم " إلى الصدقة ، وعلى هذا فتكون الجملةُ حالاً مِنْ فاعل " خُذْ " على قولنا إنَّ " تُطَهِّرهم " حال منها وإن

التاء فيه للخطاب . ويجوز أيضاً أن تكون صفة إن قلنا إن " تطهّرهم " صفةٌ ، والعائدُ منها محذوفٌ .

(102/348)

وجَوَّز مكي أن يكون " تُطَهِّرهم " صفةً لصدقة على أن التاء للغيبة ، و " تُزَكِّيهم " حالاً من فاعل " خُذْ " على أن التاء للخطاب . وقد رَدُّوه عليه بأن الواوَ عاطفةٌ أي : صدقةً مطهِّرةً ومُزَكِّياً باه ، ولو كان بغير واوٍ جاز . قلت : ووجهُ الفسادِ ظاهرٌ فإن الواوَ مُشَرِّكَةٌ لفظاً ومعنى ، فلو كانت " وتزكيهم " عطفاً على " تُطَهِّرهم " لَلَزِمَ أن تكونَ صفةً كالمعطوف عليه ، إذ لا يجوز اختلافُهما ، ولكن يجوزُ ذلك على أن " تزكّيهم " خبر مبتدأ محذوف ، وتكون الواوُ للحال تقديره : وأنت تزكّيهم . وفيه ضعفٌ لقلةِ نظيرِه في كلامهم .

فتلخَّص من ذلك أن الجملتين يجوز أن تكونا حالَيْن من فاعل " خُذْ " على أن تكونَ التاءُ للخطاب ، وأن تكونا صفتين لصدقة ، على أن التاء للغيبة ، والعائد محذوفٌ من الأولى ، وأن تكون " تطهّرهم " حالاً أو صفةً ، و " تزكّيهم " حالاً على ما جَوَّزه مكي ، وأن تكونَ " تزكّيهم " خبرَ مبتدأ محذوف ، والواوُ للحال .

وقرأ الحسن : " تُطْهِرهم " مخففاً مِنْ " أطهر " عَدّاه بالهمزة .

قوله : ﴿ إِنَّ صلاوتك ﴾ قرأ الأخوان وحفص : " إنَّ صلاتَكَ " ، وفي هود : " أصلاتك تأمُرك " بالتوحيد ، والباقون : " إنَّ صلواتك " " أصلواتُك " بالجمع فيهما وهما واضحتان ، إلا أنَّ الصلاةَ هنا الدعاء وفي تِيْكَ العبادة .

والسَّكَنُ : الطمأنينة قال :

2542 يا جارةَ الحيِّ ألاَّ كنتِ لي سَكَناً . . . إذ ليس بعضٌ من الجيران أَسْكَنني

ففَعَل بمعنى مفعول كالقَبْض بمعنى المقبوض والمعنى : يَسْكنون إليها . قال أبو البقاء : " ولذلك لم يؤنِّثْه " لكن الظاهر أنه هنا بمعنى فاعل / لقولِه " لهم " ، ولو كان كما قال لكان التركيب " سكنٌ إليها " أي مَسْكون إليها ، فقد ظهر أن المعنى : مُسَكِّنة لهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 115 . 117 ﴾

(103/348)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) ﴾

تطهرهم مِنْ طَلَبِ الأَعواض عليها ، وتزكيهم عن ملاحظتهم إياها .

تطهرهم بها عن شُحِّ نفوسهم ، وتزكيهم بها بألا يتكاثروا بأموالهم ؛ فَيَرَوْا عظيم مِنَّةِ الله عليهم بوجدان التجرُّد منها .

﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ : إنْ تُعاشِرْهم بِهِمَّتِكَ معهم أَثْمنُ لهم من استقلالهم بأموالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 60 ﴾

(104/348)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى ﴿ وصل عليهم ﴾

في بيان معنى الصلاة على النبي

وأصل هذه اللفظة في اللغة يرجع إلى معنيين

أحدهما الدعاء والتبريك

والثاني العبادة فمن الأول قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم التوبة 103 وقوله تعالى في حق المنافقين ولا تصل على أحد

منهم مات أبدا ولا تقم على قبره التوبة 84 وقول النبي إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب فإن كان صائما فليصل فسر بهما قيل فليدع لهم بالبركة وقيل يصلي عندهم بدل أكله وقيل إن الصلاة في اللغة معناها الدعاء

والدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة والعابد داع كما أن السائل داع وبهما فسر قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم غافر 60 قيل أطيعوني أثبكم وقيل سلوني أعطكم وفسر بهما قوله تعالى وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان البقرة 186

والصواب أن الدعاء يعم النوعين وهذا لفظ متواطئ لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض سبأ 22 وقوله تعالى والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون النحل 20 وقوله تعالى قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم الفرقان 77

والصحيح من القولين لولا أنكم تدعونه وتعبدونه أي أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل وقال تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا الأعراف 55 56

وقال تعالى إخبارا عن أنبيائه ورسله إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا الأنبياء 90 وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى ودعوى الاختلاف في مسمى الدعاء

وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازا شرعيا

(105/348)

فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة وهو الدعاء والدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة فهو في صلاة حقيقية لا مجازا ولا منقولة لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة والرأس ونحوهما فهذا غايته تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه ولهذا لا يوجب نقلا ولا خروجا عن موضوعه الأصلي والله أعلم

فصل

هذه صلاة الآدمي وأما صلاة الله سبحانه على عبده فنوعان عامة وخاصة

أما العامة فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى هو الذي يصلي عليكم وملائكته الأحزاب 43 ومنه دعاء النبي بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى وفي حديث آخر أن امرأة قالت له صل علي وعلى زوجي قال صلى الله عليك

وعلى زوجك وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى

النوع الثاني صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصا على خاتمهم وخيرهم محمد

فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال

أحدها أنها رحمته قال إسماعيل حدثنا نصر بن علي حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك قال صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء // سنده ضعيف //

وقال المبرد أصل الصلاة الرحم فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين

والقول الثاني أن صلاة الله مغفرته قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر ثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك هو الذي يصلي عليكم قال صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الدعاء // ضعيف جدا //

وهذا القول من جنس الذي قبله وهما ضعيفان لوجوه

(106/348)

أحدها أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته فقال تعالى وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم

ورحمة وأولئك هم المهتدون البقرة 157 فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما هذا أصل العطف وأما قولهم

وألفى قولها كذبا ومينا

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب

الوجه الثاني أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وأما رحمته فوسعت كل شيء فليست الصلاة مرادفة للرحمة لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها وهذا كثيرا ما يأتي في تفسير ألفاظ القرآن والرسول يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك والشك جزء مسمى الريب وتفسير المغفرة بالستر وهو جزء مسمى المغفرة وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان وهو لازم الرحمة ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير

الوجه الثالث أنه لا خلاف في جواز الترحم على المؤمنين واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على الأنبياء على ثلاثة أقوال سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى فعلم أنهما ليسا بمترادفين

الوجه الرابع أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال اللهم ارحم محمدا وآل محمد وليس الأمر كذلك

الوجه الخامس أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه إنه صلى عليه

ويقال إنه قد رحمه

الوجه السادس أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه

الوجه السابع أن الصلاة لا بد فيها من كلام فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه وتنويه به وإشارة لمحاسنه ومناقبه وذكره

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة // سنده قابل للتحسن //

(107/348)

وقال إسماعيل في كتابه حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية إن الله وملائكته يصلون على النبي الأحزاب 56 قال صلاة الله عز وجل ثناؤه عليه وصلاة الملائكة عليه الدعاء

الوجه الثامن أن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما في فعل واحد فقال إن الله وملائكته يصلون على النبي وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة وإنما هي ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه ولا يقال الصلاة لفظ مشترك ويجوز أن يستعمل في معنييه معا

لأن في ذلك محاذير متعددة

أحدها أن الاشتراك خلاف الأصل بل لا يعلم انه وقع في اللغة من واضع واحد كما نص على ذلك أئمة اللغة منهم المبرد وغيره وإنما يقع وقوعا عارضا اتفاقيا بسبب تعدد الواضعين ثم تختلط اللغة فيقع الاشتراك

الثاني أن الأكثرين لا يجووزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز وما حكي عن

الشافعي رحمه الله من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه وإنما أخذ من قوله إذا أوصى لمواليه وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما وأنه عند التجرد يحمل عليهما وهذا ليس بصحيح فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة فالشافعي في ظاهر مذهبه وأحمد يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ وهو عنده عام متواطئ لا مشترك

واما ما حكي عن الشافعي رحمه الله أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله أو لامستم النساء وقد قيل له قد يراد بالملامسة المجامعة قال هي محمولة على الجس باليد حقيقة وعلى الوقاع مجازا فهذا لا يصح عن الشافعي ولا هو من جنس المألوف من كلامه وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معا بضعة عشر دليلا في مسألة القرء في – كتاب التعليق على الأحكام –

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته كما هو المعروف من هذه اللفظة لم يكن لفظ الصلاة في الآية مشتركا محمولا على معنييه بل قد يكون مستعملا في معنى واحد وهذا هو الأصل وسنعود إلى هذه المسألة إن شاء الله تعالى في الكلام على تفسير قوله تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبي الأحزاب 56

الوجه التاسع أن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته

يصلون على رسوله فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم فينقض اللفظ والمعنى فإن التقدير يصير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه فادعوا أنتم له وسلموا وهذا ليس مراد الآية قطعا بل الصلاة المأمور بها فيها هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه فهي تتضمن الخبر والطلب وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين

أحدهما أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشادة بذكر شرفه وفضله والإرادة والمحبة لذلك من الله تعالى فقد تضمنت الخبر والطلب

والوجه الثاني أن ذلك سمي منا صلاة لسؤالنا من الله أن يصلي عليه فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به وضد هذا في لعنة أعدائه الشانئين لما جاء به فإنها تضاف إلى الله وتضاف إلى العبد كما قال تعالى إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون البقرة 159 فلعنة الله تعالى لهم تتضمن ذمه وإبعاده وبغضه لهم ولعنة العبد تتضمن سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل للعنته

(109/348)

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي

الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله مصليا وإنما يقال له مسترحما له كما يقال لطالب المغفرة مستغفرا له ولطالب العطف مستعطفا ونظائره ولهذا لا يقال لمن سأل الله المغفرة لغيره قد غفر له فهو غافر ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه وهنا قد سمي العبد مصليا فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحما لمن صلى عليه وكان قد رحمه برحمة ومن

رحم النبي مرة رحمه الله بها عشرا وهذا معلوم البطلان

فإن قيل ليس معنى صلاة العبد عليه رحمته وإنما معناها طلب الرحمة له من الله قيل هذا باطل من وجوه

أحدها أن طلب الرحمة مطلوب لكل مسلم وطلب الصلاة من الله يختص رسله صلوات الله وسلامه عليهم عند كثير من الناس كما سنذكره إن شاء الله تعالى

الثاني أنه لو سمي طالب الرحمة مصليا لسمي طالب المغفرة غافرا وطالب العفو عافيا وطالب الصفح صافحا ونحوه

فإن قيل فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصليا

قيل إنما سمي مصليا لوجود حقيقة الصلاة منه فإن حقيقتها الثناء وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة وهذا حاصل من صلاة العبد لكن العبد يريد ذلك من الله عز وجل والله سبحانه وتعالى يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله

وأما على الوجه الثاني وأنه سمي مصليا لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبري والإرادة وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة فإنها أفعال لا تحصل من الطالب وإنما تحصل من المطلوب منه والله أعلم

(110/348)

الوجه العاشر أنه قد ثبت عن النبي في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا وأنه سبحانه وتعالى قال له إنه من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشرا وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ليست هي رحمة من العبد لتكون صلاة الله عليه من جنسها وإنما هي ثناء على الرسول وإرادة من الله تعالى أن يعلي ذكره ويزيده تعظيما وتشريفا والجزاء من جنس العمل فمن أثنى على رسول جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له كقوله من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة

ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار // حديث صحيح // ومن صلى على النبي مرة صلى الله عليه بها عشرا ونظائره كثيرة

الوجه الحادي عشر أن أحدا لو قال عن رسول الله رحمه الله أو قال رسول الله رحمه الله بدل لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وسموه مبتدعا غير موقر للنبي ولا مصل عليه ولا مثن

عليه بما يستحقه ولا يستحق أن يصلي الله عليه بذلك عشر صلوات ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك

(111/348)

الوجه الثاني عشر أن الله سبحانه وتعالى قال لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا النور 63 فأمر سبحانه ألا يدعى رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضا بل يقال يا رسول الله ولا يقال يا محمد وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه يا رسول الله وإذا كان هذا في خطابه فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض بل يدعى له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه ومعلوم أن الرحمة يدعى بها لكل مسلم بل ولغير الآدمي من الحيوانات كما في دعاء الاستسقاء اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك

الوجه الثالث عشر أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلا والمعروف عند العرب من معناها

إنما هو الدعاء والتبريك والثناء قال

وإن ذكرت صلى عليها وزمزما . . .

أي برك عليها ومدحها ولا تعرف العرب قط صلى عليه بمعنى الرحمة فالواجب حمل اللفظة على معناها المتعارف في اللغة

الوجه الرابع عشر أنه يسوغ بل يستحب لكل أحد أن يسأل الله تعالى أن يرحمه فيقول اللهم ارحمني

كما علم النبي الداعي أن يقول اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني فلما حفظها قال أما هذا فقد ملأ يديه من الخير

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول اللهم صل علي بل الداعي بهذا معتد في دعائه والله لا يحب المعتدين بخلاف سؤال الرحمة فإن الله تعالى يحب أن يسأله عبده مغفرته ورحمته فعلم أنه ليس معناهما واحدا

الوجه الخامس عشر أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء الأعراف 156

وقوله إن رحمتي سبقت غضبي

وقوله إن رحمة الله قريب من المحسنين الأعراف 56

وقوله وكان بالمؤمنين رحيما الأحزاب 43

وقوله إنه بهم رؤوف رحيم التوبة 117

وقول النبي لله ارحم بعباده من الوالدة بولدها

وقوله ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء // الحديث صحيح //

وقوله من لا يرحم لا يرحم

(112/348)

وقوله لا تنزع الرحمة إلا من شقي // سنده حسن //

وقوله والشاة إن رحمتها رحمك الله // إسناده صحيح //

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في كثير منها بل في أكثرها فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة والله أعلم

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما إن الله وملائكته يصلون على النبي قال يباركون عليه وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم فإن التبريك من الله يتضمن ذلك ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه وقالت الملائكة لإبراهيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت هود 73

وقال المسيح وجعلني مباركا أينما كنت مريم 31

قال غير واحد من السلف معلما للخير أينما كنت وهذا جزء المسمى فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليما وإقدارا ونصحا وإرادة واجتهادا ولهذا يكون العبد

مباركا لأن الله بارك فيه وجعله كذلك والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه فعبده مبارك وهو المتبارك تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الفرقان 1 وقوله تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الملك 1 وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال الرحمة معناها رقة الطبع وهي مستحيلة في حق الله سبحانه وتعالى كما أن الدعاء منه سبحانه مستحيل وهذا الذي

قاله هذا عرق عرق جهمي ينضح من قلبه على لسانه وحقيقته إنكار رحمة الله جملة وكان جهم يخرج إلى الجذمي ويقول أرحم الراحمين يفعل هذا إنكارا لرحمته سبحانه

(113/348)

وهذا الذي ظنه هذا القائل هو شبهة منكري صفات الرب سبحانه وتعالى فإنهم قالوا الإرادة حركة النفس لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها والرب تعالى يتعالى عن ذلك فلا إرادة له والغضب غليان دم القلب طلبا للانتقام والرب منزه عن ذلك فلا غضب له وسلكوا هذا المسلك الباطل في حياته وكلامه وسائر صفاته وهو من أبطل الباطل فإنه أخذ في مسمى

الصفة خصائص المخلوق ثم نفاها جملة عن الخالق وهذا في غاية التلبيس والإضلال فإن الخاصة التي أخذها في الصفة لم يثبت لها لذاتها وإنما يثبت لها بإضافتها إلى المخلوق الممكن ومعلوم أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه سبحانه ولا إثبات أصل الصفة له يقتضي إثبات خصائص المخلوق له كما أن ما نفي عن صفات الرب تعالى من النقائص والتشبيه لا يقتضي نفيه عن صفة المخلوق ولا ما ثبت لها من الوجوب والقدم والكمال يقتضي ثبوته للمخلوق ولا إطلاق الصفة على الخالق والمخلوق وهذا مثل الحياة والعلم فإن حياة العبد تعرض لها الآفات المضادة لها من المرض والنوم والموت وكذلك علمه يعرض له النسيان والجهل المضاد له وهذا محال في حياة الرب وعلمه فمن نفى علم الرب وحياته لما يعرض فيهما للمخلوق فقد أبطل وهو نظير نفي من نفى رحمة الرب وعلمه فمن نفى رحمة الرب عنه لما يعرض في رحمة المخلوق من رقة الطبع وتوهم المتوهم أنه لا تعقل رحمة إلا هكذا نظير توهم المتوهم أنه لا يعقل علم ولا حياة ولا إرادة إلا مع خصائص المخلوق

(114/348)

وهذا الغلط منشؤه إنما هو توهم صفة المخلوق المقيدة به أولا وتوهم أن إثباتها لله هو مع هذا القيد وهذان وهمان باطلان فإن الصفة الثابتة لله مضافة إليه لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين لا في لفظها ولا في ثبوت معناها وكل من نفى عن الرب تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل لزمه نفي جميع صفات كماله لأنه لا يعقل منها إلا صفة المخلوق بل ويلزمه نفي ذاته لأنه لا يعقل من الذوات إلا الذوات المخلوقة

ومعلوم أن الرب سبحانه وتعالى لا يشبهه شيء منها وهذا الباطل قد التزمه غلاة المعطلة وكلما أوغل النافي في نفيه كان قوله أشد تناقضا وأظهر بطلانا ولا يسلم على محك العقل الصحيح الذي لا يكذب إلا ما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما قال تعالى سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين الصافات 159 فنزه سبحانه وتعالى عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده وهم الرسل ومن تبعهم كما قال في الآية الأخرى سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الصافات 180 182 فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون وسلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كل نقص وعيب وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد ومنزه عن كل نقص ينافي كمال حمده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ 119 . 132 ﴾

(115/348)

قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ساق توبتهم سبحانه في حيز ﴿ عسى ﴾ ، وكان الأصل فيها الترجية في المحبوب والإشفاق في المكروه ، وأمر سبحانه بالأخذ من أموالهم لذلك ، وكان إخراج المال شديداً على النفوس لا سيما في ذلك الزمان ، كان ربما استوقف الشيطان من لم يرسخ قدمه في الإيمان عن التوبة وما يترتب عليها من الصدقة لعدم الجزم بأنها تقبل ، فأتبع ذلك سبحانه بقوله : ﴿ ألم يعلموا ﴾ أي المعترفون بالذنوب حتى تسمح أنفسهم بالصدقة أو غيرهم حتى يرغبوا في التوبة والصدقة ﴿ أن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ يقبل ﴾ أي من شأنه أن يقبل ﴿ التوبة ﴾ تجاوزاً ﴿ عن عباده ﴾ أي التائبين المخلصين ﴿ ويأخذ ﴾ أي يقبل قبول الآخذ لنفسه ﴿ الصدقات ﴾ أي ممن يتقرب بها إليه بنية خالصة ﴿ وأن الله ﴾ أي المحيط بصفتي الجلال والإكرام ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ التواب الرحيم ﴾ أي لم يزل التجاوز والإكرام من شأنه وصفته ، وفي ذلك إنكار على غيرهم من المختلفين في كونهم لم يفعلوا مثل فعلهم من الندم الحامل على أن يعذبوا أنفسهم بالإيثاق في

السواري ويقربوا بعض أموالهم كما فعل هؤلاء أو نحو ذلك مما يدل على الاعتراف والندم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 383 ﴾

(116/348)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن القوم الذين تقدم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدقوا وهناك لم يذكر إلا قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وما كان ذلك صريحاً في قبول التوبة ذكر في هذه الآية أنه يقبل التوبة وأنه يأخذ الصدقات ، والمقصود ترغيب من لم يتب في التوبة ، وترغيب كل العصاة في الطاعة .

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قال أبو مسلم قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ وإن كان بصيغة الاستفهام ، إلا أن المقصود منه التقرير

في النفس ، ومن عادة العرب في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته .

أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ، فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم .

ثم زاده تأكيداً بقوله : ﴿ وَهُوَ التواب الرحيم ﴾ .

المسألة الثانية :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ بالياء والتاء ، وفيه وجهان : الأول : أن يكون المراد من هذه الآية هؤلاء الذين تابوا يعني ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ، أن الله يقبل التوبة الصحيحة ، ويقبل الصدقات الصادرة عن خلوص النية ، والثاني : أن يكون المراد من هذه الآية غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة .

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حكم بصحة توبتهم قال : " الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم " فنزلت هذه الآية .

المسألة الثالثة :

قوله : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ في فوائد :

الفائدة الأولى : أنه تعالى سمى نفسه ههنا باسم الله .

ثم قال عقيبه : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ وفيه تنبيه على أن كونه إلهاً يوجب قبول التوبة ، وذلك لأن الإله هو الذي يمتنع تطرق الزيادة والنقصان إليه ، ويمتنع أن يزداد حاله بطاعة المطيعين وأن ينتقص حاله بمعصية المذنبين ، ويمتنع أيضاً أن يكون له شهوة إلى الطاعة ، ونفرة عن المعصية ، حتى يقال : إن نفرته وغضبه يحمله على الانتقام ، بل المقصود من النهي عن المعصية والترغيب في الطاعة ، هو أن كل ما دعا القلب إلى عالم الآخرة ومنازل السعداء ، ونهاه عن الاشتغال بالجسمانيات الباطلة ، فهو العبادة والعمل الحق والطريق الصالح ، وكل ما كان بالضد منه فهو المعصية والعمل الباطل ، فالمذنب لا يضر إلا نفسه ، والمطيع لا ينفع إلا نفسه .

كما قال تعالى : ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : 7] فإن كان الإله رحيماً حكيماً كريماً ولم يكن غضبه على المذنب لأجل أنه تضرر بمعصيته ، فإذا انتقل العبد من المعصية إلى الطاعة كان كرمه كالموجب عليه قبول توبته .

فثبت أن الإلهية لما كانت عبارة عن الاستغناء المطلق ، وكان الاستغناء المطلق ممتنع الحصول لغيره ، كان قبول التوبة من الغير كالممتنع إلا لسبب آخر منفصل ، أو لمعارض أو لمباين .

الفائدة الثانية : في هذا التخصيص هو أن قبول التوبة ليس إلى رسول الله صلى الله عليه

وسلم إنما إلى الله الذي هو يقبل التوبة تارة ويردها أخرى .

فاقصدوا الله بها ووجهوها إليه ، وقيل لهؤلاء التائبين اعملوا فإن عملكم لا يخفى على الله خيراً كان أو شراً .

المسألة الرابعة :

قالت المعتزلة : قبول التوبة واجب عقلاً على الله تعالى .

وقال أصحابنا : قبول التوبة واجب بحكم الوعد والتفضل والإحسان ، أما عقلاً فلا .

(118/348)

وحجة أصحابنا على عدم وجوب قبول التوبة وجوه : الأول : أن الوجوب لا يتقرر معناه ألا إذا كان بحيث لو لم يفعله الفاعل لاستحق الذم ، فلو وجب قبول التوبة على الله تعالى لكان بحيث لو لم يقبلها لصار مستحقاً للذم ، وهذا محال ، لأن من كان كذلك فإنه يكون مستكملاً بفعل القبول ، والمستكمل بالغير ناقص لذاته وذلك في حق الله تعالى محال .

الثاني : أن الذم إنما يمنع من الفعل إذا كان بحيث يتأذى عن سماع ذلك الذم وينفر عنه طبعه ، ويظهر له بسببه نقصان حال ، أما من كان متعالياً عن الشهوة والنفرة والزيادة والنقصان لا يعقل تحقق الوجوب في حقه بهذا المعنى ، الثالث : أنه تعالى تمدح بقبول التوبة في هذه الآية ،

ولو كان ذلك واجباً لما تمدح به ، لأن أداء الواجب لا يفيد المدح والثناء والتعظيم .

المسألة الخامسة :

﴿ عَنْ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ فيه وجهان : الأول : أنه لا فرق بين قوله : ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وبين قوله : من عباده يقال : أخذت هذا منك وأخذت هذا عنك .

والثاني : قال القاضي : لعل ﴿ عَنْ ﴾ أبلغ لأنه ينبىء عن القبول مع تسهيل سبيله إلى التوبة التي قبلت ، وأقول : إنه لم يبين كيفية دلالة لفظة ﴿ عَنْ ﴾ على هذا المعنى ، والذي أقوله إن كلمة ﴿ عَنْ ﴾ وكلمة "من" متقاربتان ، إلا أن كلمة ﴿ عَنْ ﴾ تفيد البعد ، فإذا قيل : جلس فلان عن يمين الأمير ، أفاد أنه جلس في ذلك الجانب لكن مع ضرب من البعد فقوله : ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ يفيد أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه صار مبعداً عن قبول الله تعالى له بسبب ذلك الذنب ، ويحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه ، وبعده عن حضرة نفسه ، فلفظة ﴿ عَنْ ﴾ كالتنبيه على أنه لا بد من حصول هذا المعنى للتائب .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ فيه سؤال : وهو أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الآخذ هو الله وقوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ يدل على أن الآخذ هو الرسول عليه الصلاة والسلام وقوله عليه السلام لمعاذ :

" خذها من أغنيائهم " يدل على أن آخذ تلك الصدقات هو معاذ وإذا دفعت الصدقة إلى الفقير فالحس يشهد أن آخذها هو الفقير فكيف الجمع بين هذه الألفاظ ؟

والجواب من وجهين : الأول : أنه تعالى لما بين في قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ أن الآخذ هو الرسول ، ثم ذكر في هذه الآية أن الآخذ هو الله تعالى ، كان المقصود منه أن أخذ الرسول قائم مقام أخذ الله تعالى ، والمقصود منه التنبيه على تعظيم شأن الرسول من حيث إن أخذه للصدقة جار مجرى أن يأخذها الله ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ [الفتح : 10] وقوله : ﴿ إِنَّ الذين يُؤْذُونَ الله ﴾ [الأحزاب : 57] والمراد منه إيذاء النبي عليه السلام .

والجواب الثاني : أنه أضيف إلى الرسول عليه السلام بمعنى أنه يأمر بأخذها ويبلغ حكم الله في هذه الواقعة إلى الناس ، وأضيف إلى الفقير بمعنى أنه هو الذي يباشر الأخذ ، ونظيره أنه تعالى أضاف التوفي إلى نفسه بقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يتوفاكم ﴾ [الأنعام : 60] وأضافه إلى ملك الموت ، وهو قوله تعالى : ﴿ قُلْ يتوفاكم مَّلَكُ الموت ﴾ [السجدة : 11] وأضافه إلى الملائكة الذين هم أتباع ملك الموت ، وهو قوله : ﴿ حتى إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ

الموت تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا ﴾ [الأنعام : 61] فأضيف إلى الله بالخلق وإلى ملك الموت للرياسة في ذلك النوع من العمل ، وإلى أتباع ملك الموت ، يعني أنهم هم الذين يباشرون الأعمال التي عندها يخلق الله الموت ، فكذا ههنا .

(120/348)

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ تشريف عظيم لهذه الطاعة ، والأخبار فيه كثيرة عن النبي عليه السلام أنه قال : " إن الله يقبل الصدقة ولا يقبل منها إلا طيباً وأنه يقبلها بيمينه ويربيها لصاحبها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله حتى أن اللقمة تكون عند الله أعظم من أحد " وقال عليه السلام : " والذي نفس محمد بيده ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة فتصل إلى الذي يتصدق بها عليه حتى تقع في كف الله " ولما روى الحسن هذين الخبرين قال : ويمين الله وكفه وقبضته لا توصف ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : 11] واعلم أن لفظ اليمين والكف من التقديس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 146 . 148 ﴾

(121/348)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ .

هَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْآخِذُ لِلصَّدَقَاتِ ، وَأَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ ، وَالنَّبِيُّ وَاسِطَةٌ ، فَإِنْ تُوُفِّيَ فَعَامِلُهُ هُوَ الْوَاسِطَةُ ، وَاَللَّهُ حَيٌّ لَا يَمُوتُ ، فَلَا يَبْطُلُ حَقُّهُ كَمَا قَالَتْ الْمُرْتَدَّةُ .

وَفِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ : ﴿ إنَّ الصَّدَقَةَ لَتَقَعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ فِي كَفِّ السَّائِلِ فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ ، وَاَللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ .

وَكَنَّى بِكَفِّ الرَّحْمَنِ عَنْ الْقَبُولِ ؛ إذْ كُلُّ قَابِلٍ لِشَيْءٍ يَأْخُذُهُ بِكَفِّهِ ، أَوْ يُوضَعُ لَهُ فِيهِ ، كَمَا كَنَّى بِنَفْسِهِ عَنْ الْمَرِيضِ تَعَطُّفًا عَلَيْهِ بِقَوْلِ : "يَقُولُ اللَّهُ عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي " حَسْبَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(122/348)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾

يعني : ويقبل الصدقات .

ومعناه : وما منعهم عن التوبة والصدقة ، فكيف لم يتوبوا ولم يتصدقوا ؟ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده والصدقة ؟ وروى أبو هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ الصَّدَقَةَ إِذَا كَانَتْ مِنْ طَيِّبٍ ، فَيُرَبِّيهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ أَوْ مُهْرَهُ ، حَتَّى تَكُونَ اللُّقْمَةُ مِثْلَ أُحُدٍ " ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التواب الرحيم ﴾ يعني : المتجاوز لمن تاب الرحيم بالمؤمنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾

ومعنى أخذ الصدقات . قبولها .

الشافعي عن سفيان بن عيينة عن ابن عجلان عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة قال : سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وسلم قال : " والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة من كسب قوته ولا يقبل الله [عمله] ولا يصعد الى السماء إلاّ طيّب إلاّ كان إنما يضعها في يدي الرحمن فيربيها كما يربي أحدكم فلوه حتى أن [اللقمة] لتأتي يوم القيامة وإنها كمثل الجبل العظيم " . ثم قرأ : ﴿ أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ ، وتصديق ذلك في كتاب الله المنزل ﴿ يَمْحَقُ الله الربا وَيُرْبِي الصدقات ﴾ [البقرة : 276] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(123/348)

وقال ابن عطية :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾

قرأ جمهور الناس " ألم يعلموا " على ذكر الغائب ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بخلاف عنه " ألم تعلموا " على معنى قل لهم يا محمد " ألم تعلموا " ، وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب بالتاء من فوق ، والضمير في ﴿ يعلموا ﴾ قال ابن زيد : يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين ، وذلك أنهم لما تيب على بعضهم قال الغير ما هذه الخاصة التي خص بها هؤلاء ؟ فنزلت هذه الآية ، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿ يعلموا ﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أنفسهم ، وقوله هو تأكيد لانفراد الله بهذه الأمور وتحقيق لذلك ، لأنه لو قال إن الله يقبل التوبة لاحتمل ، ذلك أن يكون قبوله رسوله قبولاً منه فبينت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك ، وقوله ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ معناه يأمر بها ويشرعها كما تقول أخذ السلطان من الناس كذا إذا حملهم على أدائه .

(124/348)

وقال الزجّاج : معناه ويقبل الصدقات ، وقد وردت أحاديث في أخذ الله صدقة عبيده ، ومنها قوله صلى الله عليه وسلم الذي رواه عبد الله بن أبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه : " إن العبد إذا تصدق بصدقة وقعت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل " ، ومنها قوله الذي رواه أبو هريرة : " إن الصدقة تكون قدر اللقمة يأخذها الله بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله حتى تكون مثل الجبل " ، ونحو هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفي بصدقة العبد ، فقد يحتمل أن تخرج لفظة ﴿ ويأخذ ﴾ على هذا ، ويتعلق بهذه الآية القول في قبول التوبة ، وتلخيص ذلك أن قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عز وجل إجماعاً ، وهذه نازلة هذه الآية ، وهذه الفرقة التائبة من النفاق تائبة من كفر ، وأما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بأن الله تعالى يقبل من طائفة من الأمة توبتهم ، واختلف هل تقبل توبة الجميع ، وأما إذا عين إنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله ، وأما إذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة فهل يقطع على الله بقبول توبته أم لا ، فاختلف فقالت فرقة فيها الفقهاء والمحدثون – وهو كان مذهب أبي رضي الله عنه – يقطع على الله بقول توبته لأنه تعالى أخبر بذلك عن نفسه ، وعلى هذا يلزم أن تقبل توبة جميع التائبين ، وذهب أبو المعالي وغيره من الأئمة إلى أن ذلك لا يقطع به على الله تعالى بل يقوى فيه الرجاء ، ومن حجتهم أن الإنسان إذا قال في الجملة إني لا أغفر لمن ظلمني ثم جاء من قد سبه وآذاه فله تعقب حقه ، وبالغفران لقوم يصدق وعده ولا يلزمه الغفران لكل ظالم .

قال القاضي أبو محمد : ونحو هذا من القول ، والقول الأول أرجح والله الموفق للصواب ، وقوله تعالى ﴿ عن عباده ﴾ هي بمعنى " من " وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه ، تقول لا صدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وفعل فلان ذلك من أشره وبطره وعن أشره وبطره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ألم يعلموا ﴾

تقرير ، والمعنى حق لهم أن يعلموا ، وقوله ﴿ وقل اعملوا ﴾ الآية ، صيغة أمر مضمنها الوعيد ، وقال الطبري : المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا .

قال القاضي أبو محمد : والظاهر أن المراد بها الذين اعتذورا ولم يتوبوا وهم المتوعدون وهم الذين في ضمير قوله ﴿ ألم يعلموا ﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أن الآيات كلها في ﴿ الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ [التوبة : 84] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة ﴾

قرأ الجمهور "يعلموا" بالياء .

وروى عبد الوارث : ﴿ تعلموا ﴾ بالتاء .

وقوله : ﴿ يقبل التوبة عن عباده ﴾ قال أبو عبيدة : أي : من عَبيده .

تقول : أخذته منك ، وأخذته عنك .

قوله تعالى : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ قال ابن قتيبة : أي : يقبلها .

ومثله : ﴿ خذ العفو ﴾ [الأعراف : 199] أي اقبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(127/348)

وقال القرطبى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

فيه مسألتان :

الأولى قيل : قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس ، لا يُكلّمون ولا يجالسون ، فما لهم الآن ؟ وما هذه الخاصّة التي خُصُّوا بها دوننا ؛ فنزلت : "أَلَمْ يَعْلَمُوا" فالضمير في "يعلموا" عائد إلى الذين لم يتوبوا من المتخلفين .

قال معناه ابن زيد .

ويحتمل أن يعود إلى الذين تابوا وربطوا أنفسهم .

وقوله تعالى : ﴿ هُوَ ﴾ تأكيد لانفراد الله سبحانه وتعالى بهذه الأمور .

وتحقيق ذلك أنه لو قال : أن الله يقبل التوبة لاحتمل أن يكون قبولُ رسوله قبولاً منه ؛ فبينت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبيّ ولا ملك .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ هذا نصّ صريح في أن الله تعالى هو الآخذ لها والمثِيب عليها وأن الحق له جل وعز ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم واسطة ، فإن تُوُفّي فعامله هو الواسطة بعده ، والله عز وجل حيّ لا يموت .

وهذا يبيّن أن قوله سبحانه وتعالى : "خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً" ليس مقصوراً على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذِيّ عن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيُربِيها لأحدكم كما يربِي أحدكم مُهْره حتى أن اللقمة لتصير مثلَ

أُحُد وتصديق ذلك في كتاب الله وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربي الصدقات " قال : هذا حديث حسن صحيح .

وفي صحيح مسلم : " لا يتصدّق أحد بتمرة من كسبٍ طيّب إلا أخذها الله بيمينه في رواية فتربُو في كفّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل " الحديث .

وروي .

(128/348)

" إن الصدقة لتقع في كف الرحمن قبل أن تقع في كف السائل فيربيها كما يربي أحدكم فَلُوَّه أو فَصِيله والله يضاعف لمن يشاء " قال علماؤنا رحمة الله عليهم في تأويل هذه الأحاديث : إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها ؛ كما كنى بنفسه الكريمة المقدسة عن المريض تعطفاً عليه بقوله : " يا ابن آدم مَرِضت فلم تَعُدْني " الحديث .

وقد تقدّم هذا المعنى في "البقرة" .

وخصّ اليمين والكف بالذكر إذ كل قابل لشيء إنما يأخذه بكفه وبيمينه أو يوضع له فيه ؛ فخرج على ما يعرفونه ، والله جل وعز منزّه عن الجارحة .

وقد جاءت اليمين في كلام العرب بغير معنى الجارحة ؛ كما قال الشاعر :

إذا ما رايةٌ رفعت لمجْدٍ . . .

تلقّاها عَرابة باليمينِ

أي هو مؤهل للمجد والشرف ، ولم يُرد بها يمين الجارحة ، لأن المجد معنًى فاليمين التي تتلقى به رايته معنى .

وكذلك اليمين في حق الله تعالى .

وقد قيل : إن معنى " تربو في كف الرحمن " عبارة عن كِفة الميزان التي توزن فيها الأعمال ، فيكون من باب حذف المضاف ؛ كأنه قال : فتربو كِفّة ميزان الرحمن .

وروي عن مالك والثوري وابن المبارك أنهم قالوا في تأويل هذه الأحاديث وما شابهها : أَمِرُّوها بلا كَيْف ؛ قاله الترمذِي وغيره .

وهكذا قول أهل العلم من أهل السنة والجماعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(129/348)

وقال الخازن :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ هذه صيغة استفهام إلا أن المقصود منه التقرير فبشر الله هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ومعنى الآية ألم يعلم الذين تابوا أن الله تعالى يقبل التوبة الصادقة والصدقة الخالصة .

وقيل : إن المراد بهذه الآية غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما بالهم اليوم فأنزل الله هذه الآية ترغيباً لهم في التوبة .

وقوله سبحانه وتعالى عن عباده قيل : لا فرق بين عن عباده ومن عباده إذا لا فرق بين قولك أخذت هذا العلم عنك أو منك .

وقيل : بينهما فرق ولعل عن في هذا الموضع أبلغ لأن فيه تبشيراً بقبول التوبة مع تسهيل سبيلها وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ يعني يقبلها ويثيب عليها وإنما ذكر لفظ الأخذ ترغيباً في بذل الصفقة وإعطائها الفقراء وقيل معنى أخذ الله الصدقات تضمنه الجزاء عليها .

ولما كان هو المجازي عليها والمثيب بها ، أسند الأخذ إلى نفسه وإن كان الفقير أو السائل هو الآخر لها وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله تعالى يقبلها من عبده المتصدق (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما تصدق أحدكم بصدقة

من كسب حلال طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا اخذها الرحمن بيمينه وإن كان تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله " لفظ مسلم .

(130/348)

وفي البخاري : " من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب " وفي رواية : " ولا يقبل الله إلا الطيب فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل " وأخرجه الترمذي ولفظه : " إن الله سبحانه وتعالى يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربي أحدكم فلوه حتى اللقمة لتصير مثل جبل أحد " وتصديق ذلك في كتاب الله سبحانه وتعالى : ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ويمحق الله الربا ويربى الصدقات .

وقوله : من كسب طيب .

أي : حلال .

وذكر اليمين والكف في الحديث كناية عن قبول الصدقة وأن الله سبحانه وتعالى قد قبلها من المعطي ، لأن من عادة الفقير أو السائل ، أخذ الصدقة بكفه اليمين ، فكأن المتصدق قد وضع صدقته في القبول والإثابة .

وقوله : فتربو أي تكبر .

يقال : ربا الشيء يربو إذا زاد وكبر .

والفُلوا : بضم الفاء وفتحها لغتان المهر أول ما يولد والفصيل ولد الناقة إلى أن ينفصل عنها .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ تأكيد لقوله سبحانه وتعالى : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ وتبشير لهم بأن الله هو التواب الرحيم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(131/348)

وقال أبو حيان :

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله هو التواب الرحيم ﴾

قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون ، فنزلت .

وفي مصحف أبي وقراءة الحسن بخلاف عنه : ألم تعلموا بالتاء على الخطاب ، فاحتمل أن يكون خطاباً للمتخلفين الذين قالوا : ما هذه الخاصة التي يخص بها هؤلاء ؟ واحتمل أن

يكون على معنى : قل لهم يا محمد ، وأن يكون خطاباً على سبيل الالتفات من غير إضمار للقول ، ويكون المراد به التائبين كقراءة الجمهور بالياء .

وهو تخصيص وتأكيد أنّ الله من شأنه قبول توبة من تاب ، فكأنه قيل : أما علموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أنه تعالى يقبل التوبة الصحيحة ، ويقبل الصدقات الخالصة النية لله ؟ وقيل : وجه التخصيص بهو ، هو أن قبول التوبة وأخذ الصدقات إنما هو لله لا لغيره ، فاقصدوه ووجهوها إليه .

قال الزجاج : وأخذ الصدقات معناه قبولها ، وقد وردت أحاديث كنى فيها عن القبول بأن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل ، وأن الصدقة تكون قدر اللقمة ، فيأخذها الله بيمينه فيربيها حتى تكون مثل الجبل .

وقال ابن عطية : المعنى يأمر بها ويشرعها كما تقول : أخذ السلطان من الناس كذا إذا حملهم على أدائه .

وعن بمعنى مِن ، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه ، وهذه تقول : لا صدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وفعل ذلك فلان من أسره ونظره ، وعن أسره ونظره انتهى .

وقيل : كلمة مِن وكلمة عَن متقاربتان ، إلا أنّ عن تفيد البعد .

فإذا قيل : جلس عن يمين الأمير أفاد أنه جلس في ذلك الجانب ، ولكن مع ضرب من البعد فيفيدها أن التائب يجب أن يعتقد في نفسه أنه بعيد عن قبول الله توبته بسبب ذلك الذنب ،

فيحصل له انكسار العبد الذي طرده مولاه وبعده عن حضرته .

فلفظة عن كالتنبيه على أنه لا بد من حصول هذا المعنى للتائب انتهى .

والذي يظهر من موضوع عن أنها للمجاوزة .

(132/348)

فإن قلت : أخذت العلم عن زيد فمعناه أنه جاوز إليك ، وإذا قلت : من زيد دل على ابتداء الغاية ، وأنه ابتداء أخذك إياه من زيد .

وعن أبلغ لظهور الانتقال معه ، ولا يظهر مع من .

وكأنهم لما جاوزت توبتهم عنهم إلى الله ، اتصف هو تعالى بالتوبة عليهم .

ألا ترى إلى قوله : وأن الله هو التواب الرحيم ، فكل منهما متصف بالتوبة وإن اختلفت جهتا النسبة .

ألا ترى إلى ما روي : " ومَن تقرب إليّ شبراً تقربت منه ذراعاً ، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(133/348)

وقال أبو السعود :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾

وقرىء بالتاء ، والضمير إما للتائبين فهو تحقيقٌ لما سبق من قبول توبتِهم وتطهيرِ الصدقة وتزكيتِها لهم ، وتقريرٌ لذلك وتوطينٌ لقلوبهم ببيان أن المتوليَ لقبول توبتِهم وأخذِ صدقاتِهم هو الله سبحانه وإن أُسند الأخذُ والتطهيرُ والتزكيةُ إليه عليه الصلاة والسلام أي ألم يعلمْ أولئك التائبون ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ الصحيحةَ الخالصةَ ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ المخلِصين فيها ويتجاوز عن سيئاتهم كما يُفصح عنه كلمةُ عن والمرادُ بهم إما أولئك التائبون ، ووضعُ المظهرِ في موضع المضمرِ للإشعار بعلّية العبادةِ لقبولها ، وإما كافةُ العباد وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ أي يقبل صدقاتِهم على أن اللامَ عوضٌ عن المضاف إليه أو جنسُ الصدقاتِ المندرجُ تحته صدقاتُهم اندراجاً أولياً أي هو الذي يتولى قَبولَ التوبةِ وأخذَ الصدقاتِ وما يتعلق بها من التطهير والتزكية ، وإن كنتَ أنتَ المباشرَ لها ظاهراً ، وفيه من تقرير ما ذكر ورفعِ شأنِ النبيّ صلى الله عليه وسلم على نهج قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ الله ﴾ ما لا يخفى ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التواب الرحيم ﴾ تأكيدٌ لما عُطف عليه وزيادةُ تقريرٍ لما يقرره مع زيادةِ معنى ليس فيه ، أي ألم يعلموا أنه المختصُّ المستأثرُ ببلوغ الغايةِ القصوى من قبول التوبةِ والرحمةِ وأن ذلك سُنةٌ

مستمرةٌ له وشأنٌ دائم ، والجملتان في حيز النصبِ بيعلموا بسدّ كلِّ واحدةٍ منهما مسدّ مفعوليه . وإما لغير التائبين من المؤمنين فقد روي أنهم قالوا لما تِيب على الأولين : هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلَّمون ولا يجالَسون فما لهم فنزلت . أي ألم يعلموا ما للتائبين من الخصال الداعيةِ إلى التكرِمة والتقريبِ والانتظامِ في سلك المؤمنين والتلقّي بحسن القَبولِ والمجالسة فهو ترغيبٌ لهم في التوبة والصدقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(134/348)

وقال الآلوسى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ الضمير إما للمتوب عليهم والمراد تمكين قبول توبتهم في قلوبهم والاعتداد بصدقاتهم وإما لغيرهم والمراد التحضيض على التوبة والصدقة والترغيب فيهما .

وقرىء ﴿ تَعْلَمُواْ ﴾ بالتاء وهو على الأول التفات وعلى الثاني بتقدير قل ، وجوز أن يكون الضمير للتائبين وغيرهم على أن يكون المقصود التمكين والتحضيض لا غير ، واختار بعضهم كونه للغير لا غير لما روي أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من

المتخلفين هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم فنزلت ، ويشعر صنيع الجمهور باختيار الأول وهو الذي يقتضيه سياق الآية ، والخبر لما نقف على سند له يعول عليه أي ألم يعلم هؤلاء التائبون ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ الصحيحة الخالصة ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ المخلصين فيها ، وتعدية القبول بعن لتضمنه معنى التجاوز والعفو أي يقبل ذلك متجاوزاً عن ذنوبهم التي تابوا عنها ، وقيل : عن بمعنى من والضمير إما للتأكيد أوله مع التخصيص بمعنى ان الله سبحانه يقبل التوبة لا غيره أي إنه تعالى يفعل ذلك البتة لما قرر أن ضمير الفصل يفيد ذلك والخبر المضارع من مواقعه ، وجعل بعضهم التخصيص بالنسبة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أي أنه جل وعلا يقبل التوبة لا رسوله عليه الصلاة والسلام لأن كثرة رجوعهم إليه مظنة لتوهم ذلك ، والمراد بالعباد إما أولئك التائبون ووضع الظاهر موضع الضمير للإشعار بعلية ما يشير إليه القبول وإما كافة العباد وهم داخلون في ذلك دخولاً أولياً ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ أي يقبلها قبول من يأخذ شيئاً ليؤدي بدله فالأخذ هنا استعارة للقبول ، وجوز أن يكون إسناد الأخذ إلى الله تعالى مجازاً مرسلاً ، وقيل : نسبة الأخذ إلى الرسول في قوله سبحانه : ﴿ خُذِ ﴾ [التوبة : 103] ثم نسبته إلى ذاته تعالى إشارة إلى أن أخذ الرسول عليه الصلاة والسلام قائم مقام أخذ الله تعالى تعظيماً لشأن نبيه صلى الله عليه وسلم كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ [الفتح : 10] فهو على حقيقته وهو معنى حسن إلا أن في دعوى

الحقيقة ما لا يخفى ، والمختار عندي أن المراد بأخذ الصدقات الاعتناء بأمرها ووقوعها عنده سبحانه موقعاً حسناً ، وفي التعبير به ما لا يخفى من الترغيب .

وقد أخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة أن الله تعالى يقبل الصدقة إذا كانت من طيب ويأخذها بيمينه وإن الرجل ليتصدق بمثل اللقمة فيربيها له كما يربي أحدكم فصيله أو مهره فتربو في كف الله تعالى حتى تكون مثل أحد .

وأخرج الدارقطني في الأفراد عن ابن عباس قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " تصدقوا فإن أحدكم يعطي اللقمة أو الشيء فيقع في يد الله عز وجل قبل أن يقع في يد السائل ثم تلا هذه الآية " .

وفي بعض الروايات ما يدل على أنه ليس هناك أخذ حقيقة ، فقد أخرج ابن المنذر . وغيره عن أبي هريرة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب طيب ولا يقبل الله تعالى إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا طيب فيضعها في حق إلا كانت كأنما يضعها في يد الرحمن فيربيها له كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى ان اللقمة أو التمرة لتأتي يوم القيامة مثل الجبل العظيم .

"

وتصديق ذلك في كتاب الله تعالى ألم يعلموا إن الله يقبل التوبة الآية .

و﴿ ءالَ ﴾ في الصدقات يحتمل أن تكون عوضاً عن المضاف إليه أي صدقاتهم وإن تكون للجنس أي جنس الصدقات المندرج فيه صدقاتهم اندراجاً أولياً وهو الذي يقتضيه ظاهر الأخبار ﴿ وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ تأكيد لما عطف عليه وزيادة تقرير لما يقرره مع زيادة معنى ليس فيه أي ألم يعلموا أنه سبحانه المختص المستأثر ببلوغ الغاية القصوى من قبول التوبة والرحمة وذلك شأن من شؤونه وعادة من عوائده المستمرة ، وقيل غير ذلك ، والجملتان في حيز النصب بيعلموا يسد كل واحدة منهما مسد مفعوليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(136/348)

وقال القاسمى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هذا تهييج إلى التوبة والصدقة اللتين كلٌّ منهما يحط الذنوب ويمحصها ويمحقها ، وإخبار

بأن كل من تاب إليه ، تاب عليه ، ومن تصدق تقبل منه .

تنبيهات :

الأول : الضمير في : ﴿ يَعْلَمُوا ﴾ للمتوب عليهم ، فيكون ذكر قبول توبتهم ، مع أنه تقدم ما يشير إليه ، تحقيقاً لما سبق من قبول توبتهم ، وتطهير الصدقة وتزكيتها لهم ، وتقريراً لذلك ، وتوطيناً لقلوبهم ببيان أن المتولي لقبول توبتهم ، وأخذ صدقاتهم هو الله سبحانه ، وإن أسند الأخذ والتطهير والتزكية ، إليه صلى الله عليه وسلم .

قال أبو مسلم : المقصود من الإستفهام التقرير في النفس ، ومن عادة العرب ، في إيهام المخاطب وإزالة الشك عنه ، أن يقول : أما علمت أن من علمك يجب عليك خدمته ؟ أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره ؟ فبشّر تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم . انتهى .

وجوز عَود الضمير لغيرهم من المنافقين فالإستفهام توبيخٌ وتقريعٌ لهم على عدم التوبة ، وترغيب فيها ، وإزالة لما يظنون من عدم قبولها وقرئ بالتاء .

وهو على الأول التفات ، وعلى الثاني بتقدير قل ، ويجوز أن يكون الضمير للمنافقين والتائبين معاً ، للتمكن والتخصص .

الثاني : الضمير ـ أعني هو ـ إما للتأكيد ، أو له مع التخصص ، بمعنى أنه يفعل ذلك البتة ، لأن ضمير الفصل يفيد ذلك ، والخبر المضارع من مواقعه .

وقيل : معنى التخصيص في هو ، أن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوه ، ووجهوها إليه ، لأن كثرة رجوعهم إليه ، صلوات الله عليه ، مظنة لتوهم ذلك .

الثالث : تعدية القبول بعن ، لتضمنه معنى التجاوز ، والعفو عن ذنوبهم التي تابوا عنها ، وقيل : عن هنا بمعنى من ، كما يقال : أخذت هذا منك وعنك .

الرابع : الأخذ هنا استعارة للقبول والإثابة ، لأن الكريم والكبير إذا قبل شيئاً عوّض عنه ، وقد يجعل الإسناد إلى الله مجازاً مرسلاً .

وقيل : في نسبة الأخذ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : خُذْ ، ثم إلى ذاته تعالى ، إشارة إلى أن أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم ، قائم مقام أخذ الله ، تعظيماً لشأن نبيه ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

الخامس : جملة : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تأكيد لما عطف عليه ، وزيادة تقرير لما يقرره ، مع زيادة معنى ليس فيه ، كما أفادته صيغة المبالغة التي تفيد تكرر ذلك منه أي : ألم يعلموا أنه المختص بقبول التوبة ، وأن ذلك سنة مستمرة له ، وشأن دائم ؟

لطيفة :

نقل ابن كثير عن الحافظ ابن عساكر ، عن حَوْشَب قال : غزا الناس في زمن معاوية ، وعليهم عبد الرحمن بن الخالد بن الوليد ، فغلَّ رجل من المسلمين مائة دينار رومية ، فلما قفل الجيش ندم ، وأتى الأمير ، فأبى أن يقبلها منه ، وقال : قد تفرق الناس ، ولن أقبلها منك حتى تأتي الله بها يوم القيامة ، فجعل الرجل يأتي الصحابة ، فيقولون له مثل ذلك .

(138/348)

فلما قدم دمشق ذهب إلى معاوية ليقبلها منه ، فأبى عليه ، فخرج من عنده وهو يبكي ويسترجع ، فمرَّ بعبد الله ابن الشاعر السّكسكي ، فقال له : ما يبكيك ؟ فذكر له أمره ، فقال له : أو مطيعي أنت ؟ فقال نعم . فقال : اذهب إلى معاوية فقل له : اقبل مني خمسك ، فادفع إليه عشرين ديناراً ، وانظر إلى الثمانين الباقية ، فتصدق بها عن ذلك الجيش ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ، وهو أعلم بأسمائهم ومكانهم ، ففعل الرجل .

فقال معاوية : لأن أكون أفتيتُ بها ، أحب إليَّ من كل شيء أملكه . أحسن الرجل . انتهى .

في هذه الرواية إثبات ولد لخالد ، وفي ظني أن صاحب " أسد الغابة " ذكر أنه أم يعقب ، فليحقق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 512.513 ﴾

(139/348)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾

إن كان الذين اعترفوا بذنوبهم وعرضوا أموالهم للصدقة قد بقي في نفوسهم اضطراب من خوف أن لا تكون توبتهم مقبولة وأن لا يكون الرسول عليه الصلاة والسلام قد رضي عنهم وكان قوله : ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ [التوبة : 103] مشيراً إلى ذلك ، وذلك الذي يشعر به اقتران قبول التوبة وقبول الصدقات هنا ليناظر قوله : ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ [التوبة : 102] وقوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ [التوبة : 103] كانت جملة : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة ﴾ استينافاً بيانياً ناشئاً عن التعليل بقوله : ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ [التوبة : 103] ، لأنه يثير سؤال من يسأل عن موجب اضطراب نفوسهم بعد أن تابوا ، فيكون الاستفهام تقريراً مشوباً بتعجيبٍ من ترددهم في قبول توبتهم .

والمقصود منه التذكير بأمر معلوم لأنهم جروا على حال نسيانه ، ويكون ضمير ﴿ يعلموا ﴾ عائداً إلى الذين اعترفوا بذنوبهم .

وإن كان الذين اعترفوا بذنوبهم لم يخطر ببالهم شك في قبول توبتهم وكان قوله : ﴿ إن صلواتك سكن لهم ﴾ [التوبة : 103] مجرد إرشاد من الله لرسوله إلى حكمة دعائه لهم بأن دعاءه يصلح نفوسهم ويقوي إيمانهم كان الكلام عليهم قد تم عند قوله : ﴿ والله سميع عليم ﴾ [التوبة : 103] ، وكانت جملة : ﴿ ألم يعلموا ﴾ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً على طريقة الاستطراد لترغيب أمثال أولئك في التوبة ممن تأخروا عنها ، وكان ضمير ﴿ ألم يعلموا ﴾ عائداً إلى ما هو معلوم من مقام التنزيل وهو الكلام على أحوال الأمة ، وكان الاستفهام إنكارياً .

ونُزل جميعهم منزلة من لا يعلم قبول التوبة ، لأن حالهم حال من لا يعلم ذلك سواء في ذلك من يعلم قبولها ومن لا يعلم حقيقةً ، وكان الكلام أيضاً مسوقاً للتحْضيض .

(140/348)

وقوله : ﴿ وأن الله هو التواب الرحيم ﴾ عطف على ﴿ أن الله هو يقبل التوبة ﴾ ، تنبيهاً على أنه كما يجب العلم بأن الله يفعل ذلك يجب العلم بأن من صفاته العُلى أنه التواب

الرحيم ، أي الموصوف بالإكثار من قبول توبة التائبين ، الرحيم لعباده ، ولا شك أن قبول التوبة من الرحمة فتعقيب ﴿ التواب ﴾ بـ ﴿ الرحيم ﴾ في غاية المناسبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(141/348)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

و ﴿ أَلَمْ يعلموا ﴾ مكونة من ثلاث كلمات هي : همزة استفهام ، " لم " حرف نفي " ، و " يعلم " وهو فعل . فهل يريد الله هنا ان ينفي عنهم العلم أم يقرر لهم العلم ؟ لقد جاء سبحانه بهمزة يسمونها " همزة الاستفهام الإنكاري " والإنكار نفي ، فإذا دخل نفي على نفي فهو إثبات ، أي " فليعلموا " .

ولماذا لم يأت بالمسألة كأمر ؟ نقول : إن الحق حين يعرضها معرض الاستفهام فهو واثق من أن المجيب لا يجيب إلا بهذا ، وبدلاً من أن يكون الأمر إخباراً من الله ، يكون إقراراً من السامع

.

﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ لماذا جاء الحق بكلمة ﴿ هُوَ ﴾ ، وكان يستطيع سبحانه أن يقول : " ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة " ولن يختل الأسلوب ؟

أقول : لقد شاء الحق أن يأتي بضمير الفصل ، مثلما نقول : فلان يستطيع أن يفعل لك كذا . وهذا القول لا يمنع أن غيره يستطيع إنجاز نفس العمل ، لكن حين تقول : فلان هو الذي يستطيع أن ينجز لك كذا . فهذا يعني أنه لا يوجد غيره . وهذا هو ضمير الفصل الذي يعني الاختصاص والقصر ويمنع المشاركة .

لذلك قال الحق : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة . . . ﴾ [التوبة : 104]

(142/348)

وهل كانت هناك مظنة أن أحداً غير الله يقبل التوبة ؟ لا . بل الكل يعلم أننا نتوب إلى الله ، ولا نتوب إلى رسول الله . ونحن إذا استعرضنا أساليب القرآن ، وجدنا أن ضمير الفصل أو ضمير الاختصاص هو الذي يمنع المشاركة فيما بعدها لغيرها ؛ وهو واضح في قصة سيدنا إبراهيم حين قال : ﴿ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ آبَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَآؤُكُمُ الأقدمون * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ

لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ [الشعراء : 70-77]

ولم يقل سيدنا إبراهيم : " إنهم أعداء " ، بل جمعهم كلهم في عصبة واحدة وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ .

و﴿ إِنَّهُمْ ﴾ - كما نعلم - جماعة ، ثم يقول بعدها ﴿ عَدُوٌّ ﴾ وهو مفرد ، فجمعهم سيدنا إبراهيم وكأنهم شيءٌ واحد . وكان بعضٌ من قوم إبراهيم يعبدون إلهاً منفرداً ، وجماعة أخرى يعبدون الأصنام ويقولون : إنهم شركاء للإله . إذن : كانت ألوان العبادة في قوم إبراهيم عليه السلام تتمثل في نوعين اثنين .

ولما كان هناك من يعبدون الله ومعه شركاء ، فقول إبراهيم قد يُفسر على أن الله داخل في العداوة ؛ لذلك استثنى سيدنا إبراهيمُ وقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ ، أي : أن الله سبحانه ليس عَدُوّا لإبراهيم عليه السلام ، وإنما العداوة مقصورة على الأصنام .

أما إن كان قومه يعبدون آلهة دون الله ، أي : لا يعبدون الله ، لم يكن إبراهيم ليستثنى .

والاستثناء هنا دليل على أن بعضاً من قومه هم الذين قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى الله زلفى . . . ﴾ [الزمر : 3]

(143/348)

وهكذا تبرأ سيدنا إبراهيم عليه السلام من الشركاء فقال : ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ العالمين ﴾ وهذا كلام دقيق محسوب . وأضاف : ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : 78]

ولم يقل : " الذي خلقتني يهديني " ، بل ترك " خلقني " بدون " هو " وخَصَّ الله سبحانه وحده بالهداية حين قال : ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ ؛ لأن " هو " لا تأتي إلا عند مظنة أنك ترى شريكاً له ، أما مسألة الخلق فلا أحدٌ يدّعي أنه خلق أحداً . فالخلق لا يُدَّعى ، ولذلك لم يقل " الذي هو خلقني " .

والحق سبحانه هو القائل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ الله . . . ﴾ [الزخرف : 87]

فليس هناك خالق إلا هو سبحانه . إذن : فالأمر الذي لا يقول به أحد غير الله لا يأتي فيه الضمير . لكن الأمر الذي يأتي فيه واحد مع الله ، فهو يخصّص ب " هو " تأكيداً على تخصيصه لله وحده ﴿ الذي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ فليس لأحد أن يُدخل أنفه في هذه المسألة ؛ لأن أحداً لم يدّع أنه خلق أحداً ، فمجيء الاختصاص – إذن – كان في مجال الهداية بمنهج الحق ، لا بقوانين من الخلق . فمن الممكن أن يقول بشر : أنا أضع القوانين التي تسعد البشر ، وتنفع المجتمع ، وتقضي على آفاته ، ونقول : لا ، إن الذي خلقنا هو وحده سبحانه الذي يهدينا بقوانينه .

إذن : فما لا يُدَّعى فلا تأتي فيه (هو) ، أما ما يمكن أن يُدَّعى فتأتي فيه (هو) . وقوله سبحانه : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ [الشعراء : 79]

(144/348)

وجاء هنا أيضاً بضمير الفصل ؛ لأن الإنسان قد يرى والده وهو يأتي له بالطعام والشراب فيظن أن الأب شريك لله ؛ لذلك جاء ب ﴿ هُوَ ﴾ ، فأنت إن نسبت كل رزق يأتي به أبوك ، لانتهيت إلى ما لم يأتي به الأب ؛ لأن كل شيء فيه سببٌ للبشر ينتهي ما إلى ما ليس للبشر فيه أسباب ، فكل شيء من الله ؛ لذلك قال سيدنا إبراهيم : ﴿ والذي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء : 79-80]

وخصص الشفاء أيضاً ؛ حتى لا يظن ظان أن الطبيب هو الذي يشفي ، وينسى أن الله وحده هو الشافي ، أما الطبيب فهو معالج فقط ؛ ولذلك تجد أننا قد نأخذ إنساناً لطبيب ، فيموت بين يدي الطبيب ؛ ولذلك يقول الشاعر عن الموت :

إنْ نَام عنْكَ فَأيُّ طِبٍّ نَافِعٌ . . . أوْ لمْ يَنَمْ فالطِّبُّ مِن أذنَابِه

فقد يعطي الطبيب دواءً للمريض ، فيموت بسببه هذا المريض . وجاء سيدنا إبراهيم بالقصر في الشفاء لله ؛ حتى لا يظن أحد أن الشفاء في يد أخرى غير يد الله سبحانه .

ثم يقول سيدنا إبراهيم : ﴿ والذي يُمِيتُنِي . . . ﴾ [الشعراء : 81]

ولم يقل : " هو " يميتني ؛ لأن الموت مسألة تخص الحق وحده ، وقد يقول قائل : كان يجب أن يقول : " هو يمتني " ، ونقول : انتبه إلى أن إلا بنقض البنية ، ويضيف الحق على لسان سيدنا إبراهيم :

﴿ والذي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ [الشعراء : 81] .

وأيضاً لم يقل : " هو يحييني " ؛ لأن هذا أمر خارج عن أي توهم للشركة فيه ، فقد جاء ب " هو " في الأمور التي قد يُظن فيها الشركة ، وهو كلام بالميزان : ﴿ والذي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدين ﴾ [الشعراء : 82]

لم يأت أيضاً ب " هو " ؛ لأن المغفرة لا يملكها إلا الله .

إذن فكل أمر معلوم أنه لا يشارك فيه جاء بدون " هو " ، وكل ما يمكن أن يُدَّعى أن فيه شركة يجيء ب " هو " .

(145/348)

وهنا يقول الحق : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ وظاهر الأمر أن يقال : ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة " من " عبادة ، ولكنه ترك " من " وجاء ب " عن " . والبعض

يقولون : إن الحروف تنوب عن بعضها ، فتأتي " من " بدلاً من " عن " . ونقول : لا ، إنه كلام الحق سبحانه وتعالى ولا حرف فيه يغني عن حرف آخر ؛ لأن معنى التوبة ، أن ذنباً قد حدث ، واستوجب المذنب العقوبة ، فإذا قَبل الله التوبة ، فقد تجاوز الله عن العقوبة ؛ ولذلك جاء القول من الحق محدداً : ﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ أي : متجاوزاً بقبول التوبة عن العقوبة .

وهكذا جاءت " عن " بمعناها ؛ لأنه سبحانه هو الذي قَبِل التوبة ، وهو الذي تجاوز عن العقوبة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ صحيح أن الله هو الذي قال للرسول : ﴿ خُذْ ﴾ ولكن الرسول هو مناول ليد الله فقط ، و " يأخذ " هنا معناها " يتقبل " واقرأ قول الحق : ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ . . . ﴾ [الذاريات : 15-16]

أي : متلقين ما آتاهم الله . ومثال ذلك ما يُروى عن السيدة فاطمة حينما دخلا عليها سيدنا رسول الله عليه وسلم فوجدها تجلو درهماً ، والدرهم عملة من فضة . والفضة من المعادن التي لا تصدأ ، والفضة على أصلها تكون لينة لذلك يخلطونها بمعدن آخر يكسبها شيئاً من الصلابة . والمعدن الذي يعطي الصلابة هو الذي يتأكسد ؛ فتصدأ الفضة ؛ لذلك أخذت سيدتنا فاطمة تجلو الدرهم . فلما دخل عليها سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم سألها : ما هذا ؟ قالت : إنه درهم . واستفسر منها لماذا تجلو الدرهم ؟ فقالت : كأني رأيت أن أتصدق به ، وأعلم أن الصدقة قبل أن تقع في يد الفقير تقع في يد الله فأنا أحب أن تكون لامعة .

فعلت سيدتنا فاطمة ذلك ؛ لأنها تعلم أن الله وحده هو الذي يأخذ الصدقة .

(146/348)

﴿ أَلَمْ يعلموا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصدقات وَأَنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ . كل هذه الآية نفي لمظنة أن يتشككوا إذا فعلوا ذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخذ رسول الله الصدقات ، فإن توبتهم قد قُبِلَتْ ، ولكن الذي يقبل التوبة هو الله ، والذي يأخُذ الصدقات هو الله ؛ لأنه هو التواب الرحيم ؛ لذلك جاء قول الحق من بعد ذلك : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(147/348)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال : قال الآخرون : هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم ؟ فأنزل الله ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده . . . ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق والحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن أبي حاتم والطبراني عن ابن مسعود قال : ما تصدق رجل بصدقة إلا وقعت في يد الله قبل أن تقع في يد السائل . قال : وهو يضعها في يد السائل ، ثم قرأ ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ .

وأخرج عبد الرزاق عن أبي هريرة في قوله ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ قال : إن الله هو يقبل الصدقة إذا كانت من طيب ويأخذها بيمينه ، وإن الرجل ليصدق بمثل اللقمة فيربيها به كما يربي أحدكم فصيله أو مهره ، فتربو في كف الله حتى تكون مثل أحد .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة طيبة من كسب

طيب – ولا يقبل الله إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا طيب – فيضعها في حق إلا كانت كأنما يضعها في يد الرحمن ، فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله ، حتى أن اللقمة أو التمرة لتأتي يوم القيامة مثل الجبل العظيم ، وتصديق ذلك في كتاب الله العظيم ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ " .

(148/348)

وأخرج الدارقطني في الافراد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " تصدقوا فإن أحدكم يعطي اللقمة أو الشيء فتقع في يد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل ، ثم تلا هذه الآية ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ فيربيها كما يربي أحدكم مهره أو فصيله فيوفيها إياه يوم القيامة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(149/348)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

قوله تعالى : ﴿ هُوَ يَقْبَلُ ﴾ : " هو " مبتدأ ، و " يَقْبَلُ " خبره والجملةُ خبر أنَّ ، وأنَّ وما في حيِّزها سادةٌ مَسَدَّ المفعولين أو مسدَّ الأول . ولا يجوز أن يكونَ " هو " فصلاً لأنَّ ما بعده لا يوهم الوصفيَّة ، وقد تحرَّر مِنْ ذلك فيما تقدم .

وقرأ الحسن قال الشيخ : وفي مصحف أُبي " ألم تعلموا " بالخطاب . وفيه احتمالات ، أحدها : أن يكون خطاباً للمتخلِّفين الذين قالوا : ما هذه الخاصية التي اختصَّ بها هؤلاء ؟ و [الثاني] : أن يكون التفاتاً من غير إضمارِ قولٍ ، والمرادُ التائبون . و [الثالث] : أن يكون على إضمارِ قولٍ أي : قل لهم يا محمد ألم تعلموا .

قوله : ﴿ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ متعلقٌ ب " يَقْبَل " ، وإنما تعدَّى ب " عن " فقيل : لأنَّ معنى " مِنْ " ومعنى " عن " متقاربان . قال ابن عطية : " وكثيراً ما يُتَوَصَّل في موضع واحد بهذه وبهذه نحو " لا صدقةَ إلا عن غني ومِنْ غني " ، و " فعل ذلك فلانٌ مِنْ أَشَره وبَطَره ، وعن أَشَره وبَطَره " . وقيل : لفظه " عن " تُشعر ببُعْدٍ ما ، تقول : " جلس عن يمين الأمير " أي مع نوعٍ من البعد . والظاهرُ أنَّ " عن " هنا للمجاوزة على بابها ، والمعنى : يتجاوز عن عباده

بقبول توبتهم ، فإذا قلت : " أخذت العلم عن زيد " ، فمعناه المجاوزةُ ، وإذا قلت : منه فمعناه ابتداء الغاية .

قوله : ﴿ هُوَ التواب ﴾ يجوز أن يكون فصلاً ، وأن يكون مبتدأ بخلافِ ما قبلَه . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 117.118 ﴾

(150/348)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104) ﴾

تمدَّحَ – سبحانه – بقبول توبة العاصين إذ بها يُظْهِرُ كَرَمَه ، كما تمدَّح بجلال عِزِّه ونبَّههم على أَنْ يَعرِفوا به جَلاله وقِدَمَه .

وكما تَوحَّدَ باستحقاق كبريائه وعظمته تَفَرَّدَ بقبول توبة العبد عن جُرْمِه وزلَّته . فكما لا شبيهَ له في جماله وجلاله لا شريكَ له في أفضاله وإقباله ؛ يأخذ الصدقاتِ – قَلَّتْ أو كَثُرَتْ ، فَقَدْرُ الصَّدَقَةِ وخَطَرُها بِأَخْذِه لها لا بكثرتها وقِلَّتها ؛ قَلَّتْ في الصورة صَدَقَتُهم ولكِنْ لَمَّا

أَخَذَها وقبلها جَلَّتْ بقبوله لها ، كما قيل :

يكون أُجاجاً – دونكم ، فإذا انتهى . . . إليكم تَلَقى طيبَكم فيطيبُ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 60 ﴾

(151/348)

قوله تعالى ﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أمره من تطهيرهم بما يعيدهم إلى ما كانوا عليه قبل الذنب ، عطف على قوله ﴿ خذ ﴾ قوله تحذيراً لهم من مثل ما وقعوا فيه : ﴿ وقل اعملوا ﴾ أي بعد طهارتكم ﴿ فسيرى الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ عملكم ﴾ أي بما له من إحاطة العلم والقدرة فاعملوا عمل من يعلم أنه بعين الله ﴿ ورسوله ﴾ أي بإعلام الله له .

ولما كان هذا القسم من المؤمنين فكانت أعمالهم لاخفاء فيها ، قال ﴿ والمؤمنون ﴾ فزينوا أعمالكم جهدكم وأخلصوا ، وفي الأحاديث " لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها لأظهر

الله علمه للناس كائناً ما كان " .

ولما كان هذا السياق للمؤمنين حذف منه " ثم " لكنه لما كان للمذنبين ، أكد بالسين فقال : ﴿ وستردون ﴾ أي بوعد لا خلف فيه ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ أي بعد الموت والبعث ﴿ فينبئكم ﴾ أي بعلمه بكل شيء ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ أي ما أظهرتم عمله وما كان في غرائزكم ، فلو تأخرتم تظهرتم ، يجاريكم على حسنة ويزيد من فضله ، وعلى سيئة عدلاً إن شاء ولا يظلم مثقال ذرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 383 . 384 ﴾

(152/348)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أن هذا الكلام جامع للترغيب والترهيب ، وذلك لأن المعبود إذا كان لا يعلم أفعال

العباد لم ينتفع العبد بفعله ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه : ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يَبْصِرُ وَلاَ يُغْنِى عَنكَ شَيْئاً ﴾ [مريم : 42] وقلت في بعض المجالس ليس المقصود من هذه الحجة التي ذكرها إبراهيم عليه السلام القدح في إلهية الصنم ، لأن كل أحد يعلم بالضرورة أنه حجر وخشب وأنه معرض لتصرف المتصرفين ، فمن شاء أحرقه ، ومن شاء كسره ، ومن كان كذلك كيف يتوهم العاقل كونه إلهاً ؟ بل المقصود أن أكثر عبدة الأصنام كانوا في زمان إبراهيم عليه السلام أتباع الفلاسفة القائلين بأن إله العالم موجب بالذات ، وليس بموجد بالمشيئة والاختيار ، فقال : الموجب بالذات إذا لم يكن عالماً بالخيرات ولم يكن قادراً على الإنفاع والإضرار ، ولا يسمع دعاء المحتاجين ولا يرى تضرع المساكين ، فأي فائدة في عبادته ؟ فكان المقصود من دليل إبراهيم عليه السلام الطعن في قول من يقول : إله العالم موجب بالذات .

أما إذا كان فاعلاً مختاراً وكان عالماً بالجزئيات فحينئذ يحصل للعباد الفوائد العظيمة ، وذلك لأن العبد إذا أطاع علم المعبود طاعته وقدر على إيصال الثواب إليه في الدنيا والآخرة ، وإن عصاه علم المعبود ذلك ، وقدر على إيصال العقاب إليه في الدنيا والآخرة ، فقوله : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ﴾ ترغيب عظيم للمطيعين ، وترهيب عظيم للمذنبين ، فكأنه تعالى قال : اجتهدوا في المستقبل ، فإن لعملكم في الدنيا حكماً وفي الآخرة حكماً .

أما حكمه في الدنيا فهو أنه يراه الله ويراه الرسول ويراه المسلمون ، فإن كان طاعة حصل منه الثناء العظيم والثواب العظيم في الدنيا والآخرة ، وإن كان معصية حصل منه الذم العظيم في الدنيا والعقاب الشديد في الآخرة .

فثبت أن هذه اللفظة الواحدة جامعة لجميع ما يحتاج المرء إليه في دينه ودنياه ومعاشه ومعاده .

المسألة الثانية :

دلت الآية على مسائل أصولية .

الحكم الأول

إنها تدل على كونه تعالى رائياً للمرئيات ، لأن الرؤية المعداة إلى مفعول واحد ، هي الإبصار ، والمعداة إلى مفعولين هي العلم ، كما تقول رأيت زيداً فقيهاً ، وههنا الرؤية معداة إلى مفعول واحد فتكون بمعنى الإبصار ، وذلك يدل على كونه مبصراً للأشياء كما أن قول إبراهيم عليه السلام : ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ﴾ [مريم : 42] يدل على كونه تعالى مبصراً ورائياً للأشياء ، ومما يقوي أن الرؤية لا يمكن حملها ههنا على العلم أنه تعالى وصف

نفسه بالعلم بعد هذه الآية فقال : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ ولو كانت هذه الرؤية هي العلم لزم حصول التكرير الخالي عن الفائدة وهو باطل .

الحكم الثاني

مذهب أصحابنا أن كل موجود فإنه يصح رؤيته ، واحتجوا عليه بهذه الآية وقالوا : قد دللنا على أن الرؤية المذكورة في هذه الآية معداة إلى مفعول واحد ، والقوانين اللغوية شاهدة بأن الرؤية المعداة إلى المفعول الواحد معناها الإبصار .

فكانت هذه الرؤية معناها الإبصار .

ثم إنه تعالى عدى هذه الرؤية إلى عملهم والعمل ينقسم إلى أعمال القلوب ، كالإرادات والكراهات والأنظار .

وإلى أعمال الجوارح ، كالحركات والسكنات .

(154/348)

فوجب كونه تعالى رائياً للكل وذلك يدل على أن هذه الأشياء كلها مرئية لله تعالى ، وأما الجبائي فإنه كان يحتج بهذه الآية على كونه تعالى رائياً للحركات والسكنات والاجتماعات والافتراقات ، فلما قيل له : إن صح هذا الاستدلال ، فيلزمك كونه تعالى رائياً لأعمال

القلوب ، فأجاب عنه أنه تعالى عطف عليه قوله : ﴿ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ وهم إنما يرون أفعال الجوارح ، فلما تقيدت هذه الرؤية بأعمال الجوارح في حق المعطوف وجب تقييدها بهذا القيد في حق المعطوف عليه ، وهذا بعيد لأن العطف لا يفيد إلا أصل التشريك .

فأما التسوية في كل الأمور فغير واجب ، فدخول التخصيص في المعطوف ، لا يوجب دخول التخصيص في المعطوف عليه ، ويمكن الجواب عن أصل الاستدلال فيقال : رؤية الله تعالى حاصلة في الحال .

والمعنى الذي يدل عليه لفظ الآية وهو قوله : ﴿ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ﴾ أمر غير حاصل في الحال ، لأن السين تختص بالاستقبال .

فثبت أن المراد منه الجزاء على الأعمال .

فقوله : ﴿ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ﴾ أي فسيوصل لكم جزاء أعمالكم .

ولمجيب أن يجيب عنه ، بأن إيصال الجزاء إليهم مذكور بقوله : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ فلو حملنا هذه الرؤية على إيصال الجزاء لزم التكرار ، وأنه غير جائز .

المسألة الثالثة :

في قوله : ﴿ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ سؤال : وهو أن عملهم لا يراه كل أحد ، فما معنى هذا الكلام ؟

والجواب : معناه وصول خبر ذلك العمل إلى الكل .

قال عليه السلام " لو أن رجلاً عمل عملاً في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان "

فإن قيل : فما الفائدة في ذكر الرسول والمؤمنين بعد ذكر الله في أنهم يرون أعمال هؤلاء التائبين ؟

قلنا : فيه وجهان :

(155/348)

الوجه الأول : أن أجدر ما يدعو المرء إلى العمل الصالح ما يحصل له من المدح والتعظيم والعز الذي يلحقه عند ذلك ، فإذا علم أنه إذا فعل ذلك الفعل عظمه الرسول والمؤمنون ، عظم فرحه بذلك وقويت رغبته فيه ، ومما ينبه على هذه الدقيقة أنه ذكر رؤية الله تعالى أولاً ، ثم ذكر عقيبها رؤية الرسول عليه السلام والمؤمنين ، فكأنه قيل : إن كنت من المحقين المحققين في عبودية الحق ، فاعمل الأعمال الصالحة لله تعالى ، وإن كنت من الضعفاء المشغولين بثناء الخلق فاعمل الأعمال الصالحة لتفوز بثناء الخلق ، وهو الرسول والمؤمنون .

الوجه الثاني : في الجواب ما ذكره أبو مسلم : أن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة كما قال : ﴿ وكذلك جعلناكم أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : 143] الآية ، والرسول شهيد الأمة ، كما

قال : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء : 41] فثبت أن الرسول والمؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر الله أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والمقصود التنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة عند حضور الأولين والآخرين ، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ثم قال تعالى : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قال ابن عباس رضي الله عنهما : الغيب ما يسرونه ، والشهادة ما يظهرونه .

وأقول لا يبعد أن يكون الغيب ما حصل في قلوبهم من الدواعي والصوارف ، والشهادة الأعمال التي تظهر على جوارحهم ، وأقول أيضاً مذهب حكماء الإسلام أن الموجودات الغائبة عن الحواس علل أو كالعلل للموجودات المحسوسات ، وعندهم أن العلم بالعلة علة للعلم بالمعلول .

فوجب كون العلم بالغيب سابقاً على العلم بالشهادة ، فلهذا السبب أينما جاء هذا الكلام في القرآن كان الغيب مقدماً على الشهادة .

المسألة الثانية :

إن حملنا قوله تعالى : ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ على الرؤية ، فحينئذ يظهر أن معناه مغاير لمعنى قوله : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ وإن حملنا تلك الرؤية على العلم أو على إيصال الثواب جعلنا قوله : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ جارياً مجرى التفسير لقوله : ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ معناه : بإظهار المدح والثناء والإعزاز في الدنيا ، أو بإظهار أضدادها .

وقوله : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ معناه : ما ينظره في القيامة من حال الثواب والعقاب .

ثم قال : ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ والمعنى يعرفكم أحوال أعمالكم ثم يجازيكم عليها ، لأن المجازاة من الله تعالى لا تحصل في الآخرة إلا بعد التعريف .

ليعرف كل أحد أن الذي وصل إليه عدل لا ظلم ، فإن كان من أهل الثواب كان فرحه وسعادته أكثر ، وإن كان من أهل العقاب كان غمه وخسرانه أكثر .

وقال حكماء الإسلام ، المراد من قوله تعالى : ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ الإشارة إلى الثواب الروحاني ، وذلك لأن العبد إذا تحمل أنواعاً من المشاق في الأمور التي أمره بها مولاه ، فإذا علم العبد أن مولاه يرى كونه متحملاً لتلك المشاق ، عظم فرحه وقوي ابتهاجه بها ، وكان ذلك عنده ألذ من الخلع النفيسة والأموال العظيمة .

وأما قوله : ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ فالمراد منه تعريف عقاب الخزي والفضيحة .

ومثاله أن العبد الذي خصه السلطان بالوجوه الكثيرة من الإحسان إذا أتى بأنواع كثيرة من المعاصي ، فإذا حضر ذلك العبد عند ذلك السلطان وعدد عليه أنواع قبائحه وفضائحه ، قوي حزنه وعظم غمه وكملت فضيحته ، وهذا نوع من العذاب الروحاني ، وربما رضي العاقل بأشد أنواع العذاب الجسماني حذراً منه .

والمقصود من هذه الآية تعريف هذا النوع من العقاب الروحاني نسأل الله العصمة منه ومن سائر العذاب . انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 149 . 151 ﴾

(157/348)

وقال السمرقندى :

﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾

يعني : ويراه رسوله ويراه المؤمنون .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه إن الناس قد أحسنوا القول كلهم ؛ فمن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه ، ومن خالف قوله فعله فإنما يذبح نفسه .

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ ، يعني : يوم القيامة ، ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

ومعنى ﴿ فسيرى الله ﴾ أي موجوداً معوضاً للجزاء عليه بخير أو شر ، وأما الرسول والمؤمنون فرؤيتهم رؤية حقيقة لا تجوز ، وقال ابن المبارك رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المرء بعد موته وهي ثناؤهم عند الجنائز ، وقال الحسن ما معناه : إنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي صلى الله عليه وسلم " اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله " ، وقوله تعالى ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ يريد البعث من القبور ، و ﴿ الغيب والشهادة ﴾ معناه ما غاب وما شوهد ، وهي حالتان تعم كل شيء ، وقوله ﴿ فينبئكم ﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإظهارها للجزاء عليها وهذا وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(158/348)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعملوا ﴾ خطاب للجميع .

﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ أي بإطلاعه إياهم على أعمالكم .

وفي الخبر : " لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها ولا كُوّة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وقل ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء التائبين ﴿ اعملوا ﴾ يعني لله بطاعته وأداء فرائضه ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال اجتهدوا في العمل في المستقبل فإن الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ ورسوله والمؤمنون ﴾ يعني ويرى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنون أعمالكم أيضاً .

أما رؤية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فباطلاع الله إياه على أعمالكم .

وأما رؤية المؤمنين ، فبما يقذف الله في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المذنبين ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ يعني : وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سركم وعلانيتكم ولا يخفى عليه شيء من بواطنكم وظواهركم ﴿ فينبئكم ﴾ أي فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ يعني في الدنيا من خير أو شر فيجازيكم عن أعمالكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾

صيغة أمر ضمنها الوعيد ، والمعتذرون التائبون من المتخلفين ، هم المخاطبون .

وقيل : هم المعتذرون الذين لم يتوبوا .

وقيل : المؤمنون والمنافقون .

فسيرى الله إلى آخرها تقدم شرح نظيره .

وإذا كان الضمير للمعتذرين الخالطين التائبين وهو الظاهر ، فقد أبرزوا بقوله : فسيرى الله عملكم ، إبراز المنافقين الذين قيل لهم : ﴿ لا تعتذروا قد نبأنا الله من أخباركم ﴾ وسيرى الآية تنقيصاً من حالهم وتنفيراً عما وقعوا فيه من التخلف عن الرسول ، وأنهم وإن تابوا ليسوا كالذين جاهدوا معه بأموالهم وأنفسهم لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(160/348)

وقال ابن كثير :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

قال مجاهد : هذا وَعيد ، يعني من الله تعالى للمخالفين أوامره بأن أعمالهم ستعرَضُ عليه تبارك وتعالى ، وعلى الرسول ، وعلى المؤمنين . وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة : 18] ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق : 9] ، وقال ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات : 10] وقد يظهر ذلك للناس في الدنيا ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لَهِيعة ، حدثنا دَرَّاج ، عن أبي الهيثم ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : "لو أن أحدكم يعمل في صخرة صَماء ليس لها باب ولا كُوَّة ، لأخرج الله عمله للناس كائنًا ما كان" . (1) .

وقد ورد : أن أعمال الأحياء تُعرَض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ ، كما قال أبو داود الطيالسي : حدثنا الصلت بن دينار ، عن الحسن ، عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن أعمالكم تعرض على أقربائكم وعشائركم في قبورهم ، فإن كان خيرًا استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : "اللهم ، ألهمهم أن يعملوا بطاعتك" . (2)

وقال الإمام أحمد : أخبرنا عبد الرزاق ، عن سفيان ، عمَّن سمع أنسًا يقول : قال النبي

صلى الله عليه وسلم : "إن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات ، فإن كان خيرًا استبشروا به ، وإن كان غير ذلك قالوا : اللهم ، لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا" . (3)

وقال البخاري : قالت عائشة ، رضي الله عنها : إذا أعجبك حُسن عمل امرئ ، فقل : ﴿ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ (4) .

---

(1) المسند (28/3) ودراج عن أبي الهيثم ضعيف .

(2) مسند الطيالسي برقم (1794) .

(3) المسند (164/3) وقال الهيثمي في المجمع (228/2) : "وفيه رجل لم يسم" .

(4) صحيح البخاري (503/13 "فتح") .

(161/348)

وقد ورد في الحديث شبيه بهذا ، قال الإمام أحمد :

حدثنا يزيد ، حدثنا حُمَيد ، عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا عليكم أن تعجبوا بأحد حتى تنظروا بم يختم له ؟ فإن العامل يعمل زمانًا من عمره – أو : بُرهَة من دهره – بعمل صالح لو مات عليه لدخل الجنة ، ثم يتحول فيعمل عملا سيئًا ، وإن

العبد ليعمل البرهة من دهره بعمل سيئ ، لو مات عليه دخل النار ، ثم يتحول فيعمل عملا صالحًا ، وإذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله قبل موته" . قالوا : يا رسول الله وكيف يستعمله : قال : "يوفقه لعمل صالح ثم يقبضه عليه" (1) تفرد به أحمد من هذا الوجه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 209 . 210 ﴾

---

(1) المسند (120/3) وقال الهيثمي في المجمع (211/7) : "ورجاله رجال الصحيح" .

(162/348)

وقال أبو السعود :

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعملوا ﴾

زيادةُ ترغيبٍ لهم في العمل الصالحِ الذي من جملته التوبةُ وللأولين في الثبات على ما هم عليه أي قل لهم بعد ما بان لهم شأنُ التوبةِ : اعملوا ما تشاؤون من الأعمال فظاهرُه ترخيصٌ وتخييرٌ وباطنُه ترغيبٌ وترهيبٌ وقوله عز وجل : ﴿ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ﴾ أي خيراً كان أو شراً وتعليلٌ لما قبله وتأكيدٌ للترغيب والترهيب ، والسينُ للتأكيد ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾ عطفٌ على الاسم الجليل وتأخيرُه عن المفعول للإشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت .

﴿ والمؤمنون ﴾ في الخبر (لو أن رجلاً عمل في صخرة لا باب لها ولا كوة لخرج عمله إلى الناس كائناً ما كان) . والمعنى أن أعمالَكم غيرُ خافيةٍ عليهم كما رأيتم وتبين لكم ، ثم إن كان المرادُ بالرؤية معناها الحقيقيَّ فالأمرُ ظاهرٌ وإن أريد بها مآلُها من الجزاء خيراً أو شراً فهو خاصٌّ بالدنيوي من إظهار المدحِ والثناءِ والذكرِ الجميلِ والإعزازِ ونحو ذلك من الأجزية وأضدادها ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ أي بعد الموتِ ﴿ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ في وضع الظاهِرِ موضِعَ المضمَرِ من تهويل الأمرِ وتربية المهابةِ ما لا يخفى .

(163/348)

ووجهُ تقديمِ الغيبِ في الذكر لسعة عالَمِه وزيادةِ خطرِه على الشهادة غنيٌّ عن البيان . وقيل : إن الموجوداتِ الغائبةَ عن الحواس عللٌ أو كالعلل للموجودات المحسوسةِ والعلمُ بالعلل علةٌ للعلم بالمعلومات فوجب سبقُ العلمِ بالغيب على العلم بالشهادة . وعن ابن عباس رضي الله عنهما الغيبُ ما يُسِرّونه من الأعمال ، والشهادةُ ما يظهرونه كقوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ فالتقديمُ حينئذ لتحقيق أن نسبةَ علمِه المحيطِ بالسر والعلنِ واحدةٌ على أبلغ وجهٍ وآكَدِه لا لإيهام أن علمَه سبحانه بما يسرونه أقدمُ منه بما يعلنونه كيف لا وعلمه سبحانه بمعلوماته منزهٌ عن أن يكون بطريق حصولِ الصورة بل وجودُ

كل شيءٍ وتحققُه في نفسه علمٌ بالنسبة إليه تعالى ، وفي هذا المعنى لا يختلف الحالُ بين الأمور البارزةِ والكامنةِ ، وإما للإيذان بأن رتبةَ السرِّ متقدمةٌ على رتبة العلن ، إذ ما من شيء يُعلن إلا وهو أو مباديه القريبةُ أو البعيدةُ مضمرٌ قبل ذلك في القلب فتعلقُ علْمِه تعالى به في حالته الأولى متقدمٌ على تعلقه به في حالته الثانية ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ عقّب الردّ الذي هو عبارةٌ عن الأمر الممتد إلى يوم القيامة ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قبل ذلك في الدنيا والمرادُ بالتنبئة بذلك الجزاءُ بحسَبه إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر فهو وعدٌ ووعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(164/348)

وقال الآلوسى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

﴿ وَقُلِ اعملوا ﴾ ما تشاؤون من الأعمال ﴿ فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ ﴾ خيراً كان أو شراً ، والجملة تعليل لما قبله أو تأكيد لما يستفاد منه من الترغيب والترهيب والسين للتأكيد كما قررنا أي يرى الله تعالى البتة ﴿ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ عطف على الاسم الجليل ، والتأخير عن المفعول للاشعار بما بين الرؤيتين من التفاوت ، والمراد من رؤية العمل عند جمع

الاطلاع عليه وعلمه علماً جلياً ، ونسبة ذلك للرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين باعتبار أن الله تعالى لا يخفى ذلك عنهم ويطلعهم عليه أما بالوحي أو بغيره .

وأخرج أحمد .

وابن أبي الدنيا في الاخلاص عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله تعالى عمله للناس كائناً ما كان" وتخصيص الرسول عليه الصلاة والسلام والمؤمنين بالذكر على هذا لأنهم الذين يعبأ المخاطبون باطلاعهم ، وفسر بعضهم المؤمنين بالملائكة الذين يكتبون الأعمال وليس بشيء ، ومثله بل أدهى وأمر ما زعمه بعض الأمامية إنهم الأئمة الطاهرون ورووا أن الأعمال تعرض عليهم في كل اثنين وخميس بعد أن تعرض على النبي صلى الله عليه وسلم .

وجوز بعض المحققين أن يكون العلم هنا كناية عن المجازاة ويكون ذلك خاصاً بالدنيوي من إظهار المدح والاعزاز مثلاً وليس بالردىء ، وقيل : يجوز إبقاء الرؤية على ما يتبادر منها .

وتعقب بأن فيه التزام القول برؤية المعاني وهو تكلف وإن كان بالنسبة إليه تعالى غير بعيد ، وأنت تعلم أن من الأعمال ما يرى عادة كالحركات ولا حاجة فيه إلى حديث الالتزام المذكور على أن ذلك الالتزام في جانب المعطوف لا يخفى ما فيه .

وأخرج ابن أبي شيبة .

وغيره عن سلمة بن الأكوع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أي فسيظهره ﴿ وَسَتُرَدُّونَ ﴾ أي بعد الموت ﴿ إلى عالم الغيب ﴾ ومنه ما سترونه من الأعمال ﴿ والشهادة ﴾ ومنها ما تظهرونه ، وفي ذكر هذا العنوان من تهويل الأمر وتربية المهابة ما لا يخفى .

﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ بعد الرد الذي هو عبارة عن الأمر الممتد ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ قبل ذلك في الدنيا والأنباء مجاز عن المجازاة أو كناية أي يجازيكم حسب ذلك إن خيراً فخير وإن شراً فشر ففي الآية وعد ووعيد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(166/348)

وقال القاسمى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

﴿ وَقُلِ ﴾ أي : لأهل التوبة والتزكية والصلاة ، لا تكتفوا بها ، بل : ﴿ اعْمَلُوا ﴾ جميع ما تؤمرون به ﴿ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ﴾ أي : فيزيدكم قرباً على قرب ، ﴿ وَرَسُولُهُ ﴾

فيزيدكم صلوات ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ فيتبعونكم ، فيحصل لكم أجرهم ، من غير أن ينقص من أجورهم شيء – هكذا قاله المهايمي – وهو قوي في الإرتباط .

وقال أبو مسلم : إن المؤمنين شهداء الله يوم القيامة ، كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ الآية ، والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية ، فذكر تعالى أن الرسول عليه السلام والمؤمنين يرون أعمالهم ، والتنبيه على أنهم يشهدون يوم القيامة ، عند حضور الأولين والآخرين ، بأنهم أهل الصدق والسداد والعفاف والرشاد .

ونقل عن مجاهد أن الآية وعيد للمخالفين أوامره ، بأن أعمالهم ستعرض عليه تبارك وتعالى وعلى الرسول والمؤمنين .

قال ابن كثير : وهذا كائن لا محالة يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ . وقد ظهر الله تعالى ذلك للناس في الدنيا ، كما روى الإمام أحمد عن أبي سعيد مرفوعاً : < لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ، ليس لها باب ولا كوّة ، لأخرج الله عمله للناس كائناً من كان > .

وروي أن أعمال الأحياء تعرض على الأموات من الأقرباء والعشائر في البرزخ – كما في مسند أحمد والطيالسي – .

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ أي : بالموت ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي : بالمجازاة عليه .

(167/348)

قال أبو السعود : في وضع الظاهر موضع المضمر - أي : حيث لم يقل : إليه - من تهويل الأمر ، وتربية المهابة ، ما لا يخفى . ووجه تقديم الغيب في الذكر لسعة علمه ، وزيادة خطره على الشهادة ، غني عن البيان .

وعن ابن عباس : الغيب ما يسرونه من الأعمال ، والشهادة ما يظهرونه ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ ، فالتقدم حينئذ لتحقق أن نسبة علمه المحيط بالسر والعلن واحدة ، على أن أبلغ وجه وآكده ، أو للإيذان بأن رتبة السر متقدمة على رتبة العلن ، إذ ما من شيء يعلن إلا وهو ، أو مبادئه القريبة أو البعيدة ، مضمر قبل ذلك في القلب . فتعلقُ علمه تعالى به في حالته الأولى ، متقدم على تعلقه به في حالته الثانية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 514.515 ﴾

(168/348)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

عطف على جملة : ﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة ﴾ [التوبة : 104] الذي هو في قوة إخبارهم بأن الله يقبل التوبة وقل لهم اعملوا ، أي بعد قبول التوبة ، فإن التوبة إنما ترفع المؤاخذة بما مضى فوجب على المؤمن الراغب في الكمال بعد توبته أن يزيد من الأعمال الصالحة ليجبر ما فاته من الأوقات التي كانت حقيقة بأن يعمرها بالحسنات فعمرها بالسيئات فإذا وردت عليها التوبة زالت السيئات وأصبحت تلك المدة فارغة من العمل الصالح ، فلذلك أمروا بالعمل عقب الإعلام بقبول توبتهم لأنهم لما قُبلت توبتهم كان حقاً عليهم أن يدلوا على صدق توبتهم وفرط رغبتهم في الارتقاء إلى مراتب الكمال حتى يَلحقوا بالذين سبقوهم ، فهذا هو المقصود ، ولذلك كان حذف مفعول ﴿ اعملوا ﴾ لأجل التعويل على القرينة ، ولأن الأمر من الله لا يكون بعمل غير صالح .

والمراد بالعمل ما يشمل العمل النفساني من الاعتقاد والنية .

وإطلاق العمل على ما يشمل ذلك تغليب .

وتفريع ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ زيادة في التحْضيض .

وفيه تحذير من التقصير أو من ارتكاب المعاصي لأن كون عملهم بمرأى من الله مما يبعث

على جعله يرضي الله تعالى .

وذلك تذكير لهم باطلاع الله تعالى بعلمه على جميع الكائنات .

وهذا كقول النبي صلى الله عليه وسلم في بيان الإحسان : " هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "

وعطف ﴿ ورسوله ﴾ على اسم الجلالة لأنه عليه الصلاة والسلام هو المبلغ عن الله وهو الذي يتولى معاملتهم على حسب أعمالهم .

وعطف ﴿ المؤمنون ﴾ أيضاً لأنهم شهداء الله في أرضه ولأن هؤلاء لما تابوا قد رجعوا إلى حضيرة جماعة الصحابة فإن عملوا مثلهم كانوا بمحل الكرامة منهم وإلا كانوا ملحوظين منهم بعين الغضب والإنكار .

وذلك مما يحذره كل أحد هو من قوم يرمقونه شزراً ويرونه قد جاء نكراً .

(169/348)

والرؤية المسندة إلى الله تعالى رؤية مجازية .

وهي تعلق العلم بالواقعات سواء كانت ذواتٍ مبصَراتٍ أم كانت أحداثاً مسموعات ومعاني مدركات ، وكذلك الرؤية المسندة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين

المعنى المجزى لقوله : ﴿ عملكم ﴾ .

وجملة : ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ من جملة المقول .

وهو وعد ووعيد معاً على حسب الأعمال ، ولذلك جاء فيه ﴿ بما كنتم تعملون ﴾

وقد تقدم القول في نظيره آنفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(170/348)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾

إذن : هم أعلنوا التوبة بعد أن اعترفوا بذنوبهم ، وخلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، وقالوا : لا نحل انفسنا حتى يحلّنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : خذ من أموالنا صدقة لتطهرنا ؛ كل هذا جعل هناك فاصلاً بني ماضٍ ندموا عليه ، ومستقبل يستأنفونه قد ولدت الآن . وبدأت صفحة جديدة ، فهل أنتم ستسيرون على مقتضى هذه التوبة أم لا ؟

ولا تظنوا أن أموركم ستكون في الخفية بل ستكون في العلن أيضاً ، أم أموركم الخفية فسيعلمها الله ؛ لذلك قال : ﴿ فَسَيَرَى الله ﴾ . أما الأمور التي تحتاج لفطنة النبوة

فالرسول صلى الله عليه وسلم سيراها بنوره في سلوككم . أما الأمور الظاهرة الأخرى فسيراها ﴿ المؤمنون ﴾ .

نحن هنا أمام ثلاثة أعمال : عمل يراه المؤمنون جميعاً ، فالتزموا بهذا المنهج حتى يشهد لكم المؤمنون بما يرون من أعمالكم ، وإياكم أن تخادعوا المؤمنين ؛ لأن رسول الله بفطنته ونورانيته وصفائه وشفافيته سيعرف الخديعة ، أما إن كانت المسألة قد تتعمَّى على المؤمنين وعلى الرسول ، فالله هو الذي يعلم .

﴿ وَقُلِ اعملوا ﴾ أي : اعملوا عملاً جديداً يناسب اعترافكم بذنوبكم ، ويناسب إعلانكم التوبة ، ويناسب أنكم ربطتم أنفسكم في المسجد ، ويناسب أنكم تصدقتم بالأموال ، عمل تستأنفون به حياتكم بصفحة جديدة ، واعلموا أننا سنرقب عملكم ، الله يرقبه فيما لا يعلمه البشر ، وهو النيَّات ، ورسول الله يعلمه فيما يطابق نورانيته وإشراقه ، والمؤمنون يعلمونه في عاديات الأمور .

(171/348)

وهذه الرؤية من الله ومن الرسول ومن المؤمنين لا تكون لها قيمة إلا إذا ترتب عليها الجزاء ثواباً أو عقاباً ، فهي ليست مجرد رؤية ، بل إن الرائي يملك أن يثيب أو أن يعاقب . وأنكم

راجعون إليه لا محالة . وإذا كنتم في الدنيا تعيشون في الأسباب التي يعيش فيها الكافر والمؤمن ، ويعيش فيها الطائع والعاصي ، فهناك عالم الغيب الذي يملكه الله وحده : ﴿ لِّمَنِ الملك اليومِ للَّهِ الواحد القهار ﴾ [غافر : 16]

إذن : سيعامل التائب معاملة جديدة ، وما دام قد تاب ، فلعله بسبب الغفلة التي طرأت عليه فأذنب ؛ غفل عن اليوم الآخر ، فيحتاج إلى تجديد التذكير بالإيمان .

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ .

قوله سبحانه : (فَسَيَرَى) ذكر الفعل مرة واحدة ، فالرؤية واحدة ملتحمة بعضها ببعض لتروا هل أنتم على المنهج أم لا ؟

﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عَالِمِ الغيب والشهادة ﴾ أما علم الغيب فانفرد به الله سبحانه ، وأما عالم الشهادة فالرسول سوف يعلم عنكم أشياء ، وكذلك المؤمنون يعلمون أشياء ، وربنا عالم بالكل . وسبحانه لا يجازي على مجرد العلم ، بل بنية كل إنسان بما فعل ، وسبحانه يقول : ﴿ كفى بِنَفْسِكَ اليوم عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : 14]

ولذلك يُنهي الحق هذه الآية بقوله :

﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ وهؤلاء الذين اعترفوا بذنوبهم ، وربطوا أنفسهم في السواري ، وتصدقوا بالأموال ، وأعطى الله فيهم حكمه بأن جعل رسول الله هو من يحل وثاقهم من السواري ، وقبل منهم الصدقات ؛ ليسوا وحدهم ، فهناك أناس آخرون فعلوا

نفس الأمر ، لكنهم لم يربطوا أنفسهم في سواري المسجد ، ولا اعترفوا بذنوبهم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(172/348)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ قال : هذا وعيد من الله عز وجل .

وأخرج ابن أبي شيبة والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن سلمة بن الأكوع " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه " عن سلمة بن الأكوع قال : مرَّ بجنازة فأثنى عليها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " وجبت . ثم مر بجنازة أخرى فأثنى عليها ، فقال : وجبت . فسئل عن ذلك فقال : إن الملائكة شهداء الله في السماء وأنتم شهداء الله

في الأرض ، فما شهدتم عليه من شيء وجب ، وذلك قول الله ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عائشة قالت : ما احتقرت أعمال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نجم القراء الذين طعنوا على عثمان ، فقالوا قولاً لا نحسن مثله ، وقرأوا قراءة لا نقرأ مثلها ، وصلوا صلاة لا نصلي مثلها ، فلما تذكرت إذن والله ما يقاربون عمل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا أعجبك حسن قول امرىء منهم ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ ولا يستخفنك أحد .

وأخرج أحمد وأبو يعلى وابن حبان والحاكم والبيهقي في الشعب وابن أبي الدنيا في الإخلاص والضياء في المختارة عن أبي سعيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(173/348)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) ﴾

خوَّفهم برؤيته – سبحانه – لأعمالهم ، فلمَّا عَلِمَ أَنَّ فيهم مَنْ تتقاصر حالتُه عن الاحتشام لاطِّلاع الحقِّ قال : ﴿ وَرَسُولِهِ ﴾ ، ثم قال لِمَنْ نَزَلَتْ رتبتُه : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴾ . وقد خَسِرَ مَنْ لا يمنعه الحياءُ ، ولا يردعه الاحتشامُ ، وسَقَطَ من عينِ الله مَنْ هَتَكَ جلبابَ الحياءِ ، كما قيل :

إذا قَلَّ ماءُ الوَجْهِ قَلَّ حياؤه . . . ولا خيرَ في وجهٍ إذا قَلَّ ماؤه

ومَنْ لم يَمْنَعْه الحياءُ عن تعاطي المكروهاتِ في العاجل سيلقى غِبَّ ذلك ، وخسرانُه عن قريبٍ في الآجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 61 ﴾

(174/348)

قوله تعالى ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر القسمين المنجز عذابهم ومثابهم ، ذكر المؤخر أمرهم وهو القسم الظالم لنفسه في الذي بدأ به في سورة فاطر سورة الحشر الآخر ، ولا يبعد أن تكون هذه سورة الحشر الأول لأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساق الناس إلى أرض المحشر فقال : ﴿ وآخرون ﴾ أي ومنهم آخرون ﴿ مرجون ﴾ أي مؤخرون بين الرجاء والخوف ﴿ لأمر الله ﴾ أي لما يأمر به فيهم الملك الأعظم الذي له الأمر كله لا يدرون أيعذبون أم يرحمون ؛ وقدم قوله – : ﴿ إما يعذبهم ﴾ إن أصروا – تخويفاً لهم حملاً على المبادرة إلى التوبة وتصفيتها والإخلاص فيها وحثاً على أن يكون الخوف ما دام الإنسان صحيحاً أغلب وثنى بقوله : ﴿ وإما يتوب عليهم ﴾ أي إن تابوا ترجية لهم وترقيقاً لقلوبهم بالتذكير بمنزل الأُنس الذي أخرجوا أنفسهم منه ومنعوها من حلوله وطيب مستقره ومقيله وحليّ أوقاته وعليّ مقاماته وشهيّ أقواته .

ولما كان ربما قال قائل : ما فائدة التأخير وما المانع من التنجيز ؟ قال : ﴿ والله ﴾ أي المحيط بكل شيء قدرة وعلماً ﴿ عليم حكيم ﴾ ترهيباً وترغيباً وتبعيداً وتقريباً واحتراساً مما قد يوهمه الترديد من الشك وتدريباً ، وقراءة غفور رحيم للزيادة في الترجية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 384 ﴾

(175/348)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة ونافع والكسائي وحفص عن عاصم مرجون بغير همز والباقون بالهمز وهما لغتان .

أرجأت الأمر وأرجيته بالهمز وتركه ، إذا أخرته .

وسميت المرجئة بهذا الاسم لأنهم لا يجزمون القول بمغفرة التائب ولكن يؤخرونها إلى مشيئة الله تعالى .

وقال الأوزاعي : لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام :

القسم الأول : المنافقون الذين مردوا على النفاق .

القسم الثاني : التائبون وهم المرادون بقوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وبين تعالى أنه

قبل توبتهم .

والقسم الثالث : الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون في هذه الآية ، والفرق بين القسم الثاني وبين هذا الثالث ، أو أولئك سارعوا إلى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا إليها .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : نزلت هذه الآية في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، فقال كعب : أنا أفره أهل المدينة جملاً ، فمتى شئت لحقت الرسول ، فتأخر أياماً وأيس بعدها من اللحوق به فندم على صنيعه وكذلك صاحباه ، فلما قدم رسول الله قيل لكعب اعتذر إليه من صنيعك ، فقال : لا والله حتى تنزل توبتي ، وأما صاحباه فاعتذرا إليه عليه السلام فقال : " ما خلفكم عني " فقالا : لا عذر لنا إلا الخطيئة فنزل قوله تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ فوقفهم الرسول بعد نزول هذه الآية ونهى الناس عن مجالستهم ، وأمرهم باعتزال نسائهم وإرسالهن إلى أهاليهن ، فجاءت امرأة هلال تسأل أن تأتيه بطعام فإنه شيخ كبير ، فأذن لها في ذلك خاصة ، وجاء رسول من الشأم إلى كعب يرغبه في اللحاق بهم ، فقال كعب : بلغ من خطيئتي أن طمع في المشركون ، قال : فضاقت عليَّ الأرض بما رحبت .

(176/348)

وبكى هلال بن أمية حتى خيف على بصره ، فلما مضى خمسون يوماً نزلت توبتهم بقوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبى ﴾ [التوبة : 117] وبقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض ﴾ [التوبة : 118] الآية .

وقال الحسن : يعني بقوله : ﴿ وَءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ قوماً من المنافقين أرجأهم رسول الله عن حضرته .

وقال الأصم : يعني المنافقين وهو مثل قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعراب منافقون ﴾ أرجأهم الله فلم يخبر عنهم ما علمه منهم وحذرهم بهذه الآية إن لم يتوبوا أن ينزل فيهم قرآناً .

فقال الله تعالى : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

لقائل أن يقول : إن كلمة "إما" و "أما" للشك ، والله تعالى منزه عنه .

وجوابه المراد منه ليكن أمرهم على الخوف والرجاء ، فجعل أناس يقولون هلكوا إذا لم ينزل الله تعالى لهم عذراً ، وآخرون يقولون عسى الله أن يغفر لهم .

المسألة الثانية :

لا شك أن القوم كانوا نادمين على تأخرهم عن الغزو وتخلفهم عن الرسول عليه اسلام ، ثم إنه تعالى لم يحكم بكونهم تائبين بل قال : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك يدل على

أن الندم وحده لا يكون كافياً في صحة التوبة .

فإن قيل : فما تلك الشرائط ؟

قلنا : لعلهم خافوا من أمر الرسول بإيذائهم أو خافوا من الخجلة والفضيحة ، وعلى هذا التقدير فتوبتهم غير صحيحة ولا مقبولة ، فاستمر عدم قبول التوبة إلى أن سهل أحوال الخلق في قدحهم ومدحهم عندهم ، فعند ذلك ندموا على المعصية لنفس كونها معصية ، وعند ذلك صحت توبتهم .

المسألة الثالثة :

(177/348)

احتج الجبائي بهذه الآية على أنه تعالى لا يعفو عن غير التائب ، وذلك لأنه قال في حق هؤلاء المذنبين ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ وذلك يدل على أنه لا حكم إلا أحد هذين الأمرين ، وهو إما التعذيب وإما التوبة ، وأما العفو عن الذنب من غير التوبة ، فهو قسم ثالث .

فلما أهمل الله تعالى ذكره دل على أنه باطل وغير معتبر .

والجواب : أنا لا نقطع بحصول العفو عن جميع المذنبين ، بل نقطع بحصول العفو في الجملة ،

وأما في حق كل واحد بعينه ، فذلك مشكوك فيه .

ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾ فقطع بغفران ما سوى الشرك ، لكن لا في حق كل أحد ، بل في حق من يشاء .

فلم يلزم من عدم العفو في حق هؤلاء ، عدم العفو على الإطلاق .

وأيضاً فعدم الذكر لا يدل على العدم ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضاحكة مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴾ [عبس : 38 ، 39] وهم المؤمنون ﴿ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُوْلَئِكَ هُمُ الكفرة الفجرة ﴾ [عبس : 40 - 42] فههنا المذكورون ، إما المؤمنون ، وإما الكافرون ، ثم إن عدم ذكر القسم الثالث ، لم يدل عند الجبائي على نفيه ، فكذا ههنا .

وأما قوله تعالى : ﴿ والله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بما في قلوب هؤلاء المؤمنين ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يحكم فيهم ويقضي عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 151.153 ﴾

(178/348)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ ﴾

يعني : موقوفون لأمر الله ؛ وقال القتبي : مؤخرون على أمر الله ، ويقال : متروكون لأمر الله ماذا يأمر الله تعالى لهم ؛ ويقال مؤخر أمرهم ؛ ولم يتبيَّن شيء .

فنزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا ، وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع .

ثم بيَّن توبتهم في الآية التي بعدها ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ .

قرأ حمزة والكسائي ونافع ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ بغير همز وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالهمز ، واختلف عن عاصم وابن عامر وأصله من التأخير ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ بتخلفهم ، ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : يتجاوز عنهم .

﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بهم ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾ يحكم في أمرهم ما يشاء . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾

أي مؤخرون لأمر الله ليقضي فيهم ما هو قاض ، وهم الثلاثة الذين خلفوا وربطوا بالسواري أنفسهم ولم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فرفق بهم رسول الله صلى

الله عليه وسلم ونهى الناس عن مكالمتهم ومخالطتهم وأمر نساءهم باعتزالهم حتى شقهم القلق وتهتكهم الحزن وضاقت عليهم الارض برحبها وكانوا من أهل [بدر ، فجعل الناس] يقولون : هلكوا إذا لم ينزل لهم عذر ، وجعل آخرون يقولون : عسى أن يغفر الله لهم ، فصاروا فرحين لأمر الله لا يدرون يعذبون أو يرحمون حتى تاب الله عليهم بعد خمسين ليلة ونزلت ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(179/348)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾

وهم الثلاثة الباقون من العشرة المتأخرين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك ولم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة ، وهم هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك .

﴿ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي مؤخرون موقوفون لما يرد من أمر الله تعالى فيهم .

﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : يميتهم على حالهم ، قاله السدي .

الثاني : يأمر بعذابهم إذا لم يعلم صحة توبتهم .

﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يعلم صدق توبتهم فيطهر ما فيهم .

الثاني : أن يعفو عنهم ويصفح عن ذنوبهم .

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بما يؤول إليه حالهم ، حكيم فيما فعله من إرجائهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(180/348)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ وآخرون ﴾

عطف على قوله أولاً ﴿ وآخرون ﴾ [التوبة : 84] ، وقرأ نافع والأعرج وابن نصاح وأبو جعفر وطلحة والحسن وأهل الحجاز " مرجون " من أرجى دون همز ، وقرأ أبو عمرو وعاصم وأهل البصرة " مرجؤون " من أرجأ يرجىء بالهمز ، واختلف عن عاصم ، وهما لغتان ، ومعناهما التأخير ومنه المرجئة لأنهم أخروا الأعمال أي أخروا حكمها ومرتبتها ، وأنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأخير وليس كما قال ، والمراد بهذه الآية فيما قال ابن

عباس وعكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة وابن إسحاق الثلاثة الذين خلفوا وهم هلال بن أمية الواقفي ومرارة بن الربيع العامري وكعب بن مالك ، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم ، وقيل إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار ، وعلى هذا يكون الذين اتخذوا بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿ آخرون ﴾ ، أو خبر ابتداء تقديره هم الذين ، فالآية على هذا فيها ترج لهم واستدعاء إلى الإيمان والتوبة ، و ﴿ عليم ﴾ معناه بمن يهدي إلى الرشد ، و ﴿ حكيم ﴾ فيما ينفذه من تنعيم من شاء وتعذيب من شاء لا رب غيره ولا معبود سواه ، وقرأ عاصم وعوام القراء والناس في كل قطر إلا بالمدينة " والذين اتخذوا " ، وقرأ أهل المدينة نافع وأبو جعفر وشيبة وغيرهم " الذين اتخذوا " بإسقاط الواو ، وكذلك في مصحفهم ، قاله أبو حاتم ، وقال الزهراوي : وهي قراءة ابن عامر وهي في مصاحف أهل الشام بغير واو ، فأما من قرأ بالواو فذلك عطف على قوله ﴿ وآخرون ﴾ أي ومنهم الذين اتخذوا ، وأما من قرأ بإسقاطها فرفع ﴿ الذين ﴾ بالابتداء .

(181/348)

واختلف في الخبر فقيل الخبر ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ [التوبة : 108] قاله الكسائي ويتجه بإضمار إما في أول الآية وإما في آخرها ، بتقدير لا تقم في مسجدهم وقيل الخبر لا يزال بنيانهم قاله النحاس وهذا أفصح ، وقد ذكرت كون ﴿ الذين ﴾ بدلاً من ، ﴿ آخرون ﴾ ، آنفاً ، وقال المهدوي : الخبر محذوف تقديره معذبون أو نحوه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(182/348)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وآخرون مرجَوْن ﴾

وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائي : "مرجَوْن" بغير همز .

والآية نزلت في كعب بن مالك ، ومُرارةَ بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا فيمن تخلف عن تبوك من غير عذر ، ثم لم يبالغوا في الاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، ولم يوثقوا أنفسهم بالسواري ؛ فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرهم ، ونهى الناس عن كلامهم ومخالطتهم حتى نزل قوله : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا ﴾ [التوبة : 118] قال الزجاج : ﴿ وآخرون ﴾ عطف على قوله : "ومن أهل المدينة" فالمعنى : منهم منافقون ، ومنهم

﴿ آخرون مرجَوْن ﴾ أي : مؤخَّرون ؛ و ﴿ إما ﴾ لوقوع أحد الشيئين ، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم ، لكنه خاطب العباد بما يعلمون ، فالمعنى : ليكن أمرهم عندكم على الخوف والرجاء .

قوله تعالى : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ أي : عليم بما يؤول إليه حالهم ، حكيم بما يفعله بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(183/348)

وقال القرطبى :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

نزلت في الثلاثة الذين تيب عليهم : كعب بن مالك وهلال بن أُميّة من بني واقف ومُرارة بن الربيع ؛ وقيل : ابن رِبْعِي العَمْرِيّ ؛ ذكره المهدوِي .

كانوا قد تخلفوا عن تبوك وكانوا مياسر ؛ على ما يأتي من ذكرهم .

والتقدير : ومنهم آخرون مُرْجَوْن ؛ من أرجأته أي أخرته .

ومنه قيل : مُرْجِئة ؛ لأنهم أخّروا العمل .

وقرأ حمزة والكسائي "مُرْجَوْن" بغير همز ؛ فقيل : هو من أرجيته أي أخرته .

وقال المبرد : لا يقال أرجيته بمعنى أخرته ، ولكن يكون من الرجاء .

﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ "إمّا" في العربية لأحد أمرين ، والله عز وجل عالم بمصير الأشياء ، ولكن المخاطبة للعباد على ما يعرفون ؛ أي ليكن أمرهم عندكم على الرجاء لأنه ليس للعباد أكثر من هذا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(184/348)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وآخرون مرجون ﴾

أي مؤخرون والإرجاء التأخير ﴿ لأمر الله ﴾ يعني لحكم الله فيهم قال بعضهم إن الله سبحانه وتعالى قسم المتخلفين على ثلاثة أقسام :

أولهم : المنافقون وهم الذين مردوا على النفاق واستمروا عليه .

والقسم الثاني : التائبون وهم الذين سارعوا إلى التوبة بعد ما اعترفوا بذنوبهم وهم أبو لبابة وأصحابه فقبل الله توبته .

والقسم الثالث : موقوفون ومؤخرون إلى أن يحكم الله تعالى فيهم وهم المراد بقوله : وآخرون مرجون لأمر الله .

والفرق بين القسم الثاني والقسم الثالث ، أن القسم الثاني سارعوا إلى التوبة فقبل الله توبتهم ، والقسم الثالث توقفوا ولم يسارعوا إلى التوبة فأخر الله أمرهم .

نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين تخلفوا وهم : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وستأتي قصتهم عند قوله تعالى : وعلى الثلاثة الذين خلفوا وذلك أنهم لم يبالغوا في التوبة والاعتذار كما فعل أبو لبابة وأصحابه فوقفهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) خمسين ليلة ونهى الناس عن كلامهم وكانوا من أهل بدر ، فجعل بعض الناس يقول هلكوا وبعضهم يقول : عسى الله أن يتوب عليهم ويغفر لهم وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ يعني أن أمرهم إلى الله تعالى إن شاء عذبهم بسبب تخلفهم وإن شاء غفر لهم وعفا عنهم ﴿ والله عليم ﴾ يعني بما في قلوبهم ﴿ حكيم ﴾ يعني بما يقضي عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(185/348)

وقال أبو حيان :

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾

قال ابن عباس ، وعكرمة ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وابن إسحاق : نزلت في

الثلاثة الذين خُلفوا قبل التوبة عليهم هلال بن أمية الواقفي ، ومرارة بن الربيع العامري ، وكعب بن مالك .

وقيل : نزلت في المنافقين المعرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار .

وقرأ الحسن ، وطلحة ، وأبو جعفر ، وابن نصاح ، والأعرج ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي ، وحفص : مرجون وترجي بغير همز .

وقرأ باقي السبعة : بالهمز ، وهما لغتان ، لأمر الله أي الحكمة ، إما يعذبهم إن أصروا ولم يتوبوا ، وإما يتوب عليهم إن تابوا .

وقال الحسن : هم قوم من المنافقين أرجأهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن حضرته .

وقال الأصم : يعني المنافقين أرجأهم الله فلم يخبر عنهم بما علم منهم ، وحذرهم بهذه الآية إن لم يتوبوا .

وإما معناها الموضوعة له هو أحد الشيئين أو الأشياء ، فينجر مع ذلك أن تكون للشك أو لغيره ، فهي هنا على أصل موضوعها وهو القدر المشترك الذي هو موجود في سائر ما زعموا أنها وضعت له وضع الاشتراك .

والله عليم بما يؤول إليه أمرهم ، حكيم فيما يفعله بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ وَءَاخَرُونَ ﴾

عطفٌ على آخرون قبله أي ومن المتخلفين من أهل المدينةِ ومَنْ حولها من الأعراب قومٌ آخرون غيرُ المعترفين المذكورين ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ وقرىء مُرْجَئون من أرجيتُه وأرجأتُه أي أخرتُه ومنه المُرْجِئة الذين لا يقطعون بقبول التوبة ﴿ لأمْرِ الله ﴾ في شأنهم . قال ابن عباس رضي الله عنهما : هم كعبُ بنُ مالك ومَرارةُ بنُ الربيع وهلالُ بنُ أمية لم يسارعوا إلى التوبة والاعتذار كما فعل أبو لُبابةَ وأصحابُه من شد أنفسِهم على السواري وإظهارِ الغمّ والجزَعِ والندمِ على ما فعلوا فوقَفهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ونهى أصحابَه عن أن يسلّموا عليهم ويكلموهم وكانوا من أصحاب بدر فهجروهم ، والناسُ في شأنهم على اختلاف فمن قائلٍ : هلكوا وقائل : عسى الله أن يغفرَ لهم فصاروا عندهم مُرجَئين لأمره تعالى ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ إن بقوُا على ما هم عليه من الحال وقيل : إن أصروا على النفاق وليس بذاك فإن المذكورين ليسوا من المنافقين ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ إن خلَصت نيتُهم وصحت توبتُهم والجملةُ في محل النصبِ على الحالية أي منهم هؤلاء إما معذَّبين وإما مَتوباً

عليهم ، وقيل : آخرون مبتدأٌ ومرجون صفتُه وهذه الجملةُ خبره ﴿ واللهُ عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما فعل بهم من الإرجاء وما بعده وقرىء واللهُ غفور رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(187/348)

وقال الآلوسى :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

﴿ وَءاخَرُونَ ﴾ عطف على ﴿ آخرون ﴾ [التوبة : 102] قبله أي ومنهم قوم آخرون غير المعترفين المذكورين دمُرْجَوْنَ ﴾ أي مؤخرون وموقوف أمرهم ﴿ ﴾ أي مؤخرون وموقوف أمرهم ﴿ لأمْرِ الله ﴾ أي إلى أن يظهر أمر الله تعالى في شأنهم .

وقرأ أهل المدينة .

والكوفة غير أبي بكر ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ بغير همزة والباقون ﴿ مرجئون ﴾ بالهمز وهما لغتان يقال : أرجئته وأرجيته كأعطيته ، ويحتمل أن يكون الياء بدلاً من الهمزة كقولهم : قرأت وقريب وتوضأت وتوضيت وهو في كلامهم كثير ، وعلى كونه لغة أصلية هو يائي ، وقيل : إنه واوي ، ومن هذه المادة المرجئة احدى فرق أهل القبلة وقد جاء فيه الهمز

وتركه ، وسموا بذلك لتأخيرهم المعصية عن الاعتبار في استحقاق العذاب حيث قالوا : لا عذاب مع الإيمان فلم يبق للمعصية عندهم أثر ، وفي المواقف سموا مرجئة لأنهم يرجون العمل عن النية أي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد ، أو لأنهم يعطون الرجاء في قولهم : لا يضر مع الإيمان معصية انتهى .

وعلى التفسيرين الأولين يحتمل أن يكون بالهمز وتركه ، وأما على الثالث فينبغي أن يقال مرجئة بفتح الراء وتشديد الجيم ، والمراد بهؤلاء المرجون كما في الصحيحين هلال بن أمية .

وكعب بن مالك .

(188/348)

ومرارة بن الربيع وهو المروى عن ابن عباس وكبار الصحابة رضي الله تعالى عنهم ، وكانوا قد تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمر ما مع الهم باللحاق به عليه الصلاة والسلام فلم يتيسر لهم ولم يكن تخلفهم عن نفاق وحاشاهم فقد كانوا من المخلصين فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم وكان ما كان من المتخلفين قالوا : لا عذر لنا إلا الخطيئة ولم يعتذروا له صلى الله عليه وسلم ولم يفعلوا كما فعل أهل السواري وأمر رسول الله صلى الله

عليه وسلم باجتنابهم وشدد الأمر عليهم كما ستعلمه إن شاء الله تعالى إلى أن نزل قوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبى والمهاجرين والانصار ﴾ [التوبة : 117] الخ ، وقد وقف أمرهم خمسين ليلة لا يدرون ما الله تعالى فاعل بهم ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ في موضع الحال أي منهم هؤلاء إما معذبين وإما متوبا عليهم .

وقيل : خبر ﴿ ءاخَرُونَ ﴾ على أنه مبتدأ و ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ صفته ، والأول أظهر ، واما للتنويع على معنى أن أمرهم دائر بين هذين الأمرين ، وقيل : للترديد بالنظر للفساد ؛ والمعنى ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء والخوف ، والمقصود تفويض ذلك إلى إرادة الله تعالى ومشيئته إذ لا يجب عليه سبحانه تعذيب العاصي ولا مغفرة التائب وإنما شدد عليهم مع إخرصهم ، والجهاد فرض كفاية لما نقل عن ابن بطال في الروض الأنف وارتضاه أن الجهاد كان على الأنصار خاصة فرض عين لأنهم بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، ألا ترى قول راجزهم في الخندق

: نحن الذين بايعوا محمدا . . .

على الجهاد ما بقينا أبدا

وهؤلاء من أجلتهم فكان تخلفهم كبيرة ، وروي عن الحسن أن هذه الآية في المنافقين وحينئذ لا يراد بالآخرين من ذكرنا لأنهم من علمت بل يراد به آخرون منافقون ، وعلى هذا

ينبغي أن يكون قول من قال في ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ أي إن أصروا على النفاق .

وقد علمت أن ذلك خلاف ما في الصحيحين .

(189/348)

وحمل النفاق في كلام القائل على ما يشبهه بعيد ودعوى بلا دليل ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما فعل بهم من الارجاء وفي قراءة عبد الله ﴿ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(190/348)

وقال القاسمى :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

﴿ وَآخَرُونَ ﴾ يعني من المتخلفين : ﴿ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي : مؤخرون أمرهم انتظاراً لحكمه تعالى فيهم ، لتردّد حالهم بين أمرين ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ لتخلفهم عن غزوة تبوك .

﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ يتجاوز عنهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : بأحوالهم ، ﴿ حَكِيمٌ ﴾

أي : فيما يحكم عليهم .

تنبيهات :

الأول : قرئ في السبعة : ﴿ مُرْجَؤُونَ ﴾ بهمزة مضمومة ، بعدها واو ساكنة . وقرئ ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ بدون همزة . كما قرئ : ﴿ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ ﴾ بهما ، وهما لغتان ، يقال : أرجأته وأرجيته ، وكأعطيته .

ويحتمل أن تكون الياء بدلا من الهمزة ، كقولهم : قرأت وقريت ، وتوضأت وتوضيت ، وهو في كلامهم كثير .

وعلى كونه لغة أصلية فهو يائي ، وقيل : إنه واوي كذا في " العناية " .

الثاني : روي عن الحسن أنه عني بهذه الآية قوم من المنافقين . وكذا قال الأصم : إنهم منافقون أرجأهم الله ، فلم يخبر عنهم ما علمه منهم ، وحذرهم بهذه الآية ، إن لم يتوبوا ، أن ينزِل فيهم قرآناً ، فقال : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

(191/348)

وعن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وغير واحد : إنهم الثلاثة الذي خلفوا ، أي : عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، قعدوا في غزوة تبوك في جملة من

قعد ، كسلاً وميلاً إلى الدّعة وطيب الثمار والظلال ، لا شكّاً ونفاقاً ، فكانت منهم طائفة ربطوا أنفسهم بالسواري ، كما فعل أبو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك ، وهم هؤلاء الثلاثة ، فنزلت توبة أولئك قبل هؤلاء ، وأرجئ هؤلاء عن التوبة ، حتى نزلت الآية الآتية وهي قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ .

قال في " العناية " : وإنما اشتد الغضب عليهم مع إخلاصهم ، والجهادُ فرض كفاية ، لما قيل إنه كان على الأنصار خاصة فرضَ عين ، لأنهم بايعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عليه .

ألا ترى قول راجزهم في الخندق :

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَاً على الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

وهؤلاء من أجلّهم ، فكان تخلفهم كبيرة .

الثالث : إما في الآية ، إما للشك بالنسبة إلى المخاطب ، أو للإبهام بالنسبة إليه أيضاً ، بمعنى أنه تعالى أبهم على المخاطبين أمرهم .

والمعنى : ليكن أمرهم عندكم بين الرجاء والخوف ، والمراد تفويض ذلك إلى إرادته تعالى ومشيئته ، أو للتنويع ، أي : أمرهم دائر بين هذين الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 515.516 ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً)

أَيْ خُذْ أَيُّهَا الرَّسُولُ مِنْ أَمْوَالِ مَنْ ذُكِرَ ، وَمِنْ سَائِرِ أَمْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ - عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا ، وَمِنْهَا مَالُ التِّجَارَةِ - صَدَقَةً مُعَيَّنَةً كَالزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ أَوْ غَيْرَ مُعَيَّنَةٍ وَهِيَ التَّطَوُّعُ - فَالصَّدَقَةُ مَا يُنْفِقُهُ الْمُؤْمِنُ قُرْبَةً لِلَّهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي نَفَقَةِ مُؤْمِنِي الْأَعْرَابِ (تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) أَيْ تُطَهِّرُهُمْ بِهَا مِنْ دَنَسِ الْبُخْلِ وَالطَّمَعِ وَالدَّنَاءَةِ وَالْقَسْوَةِ عَلَى الْفُقَرَاءِ الْبَائِسِينَ وَمَا يَتَّصِلُ بِذَلِكَ مِنَ الرَّذَائِلِ ، وَتُزَكِّي أَنْفُسَهُمْ بِهَا : أَيْ تُنَمِّيهَا وَتَرْفَعُهَا بِالْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ الْخُلُقِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ حَتَّى تَكُونَ بِهَا أَهْلًا لِلسَّعَادَةِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْأُخْرَوِيَّةِ ، فَالْمُطَهِّرُ هُنَا الرَّسُولُ وَالْمُطَهَّرُ بِهِ الصَّدَقَةُ . وَالتَّزْكِيَةُ صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ مِنَ الزَّكَاءِ وَهُوَ نَمَاءُ الزَّرْعِ وَنَحْوُهُ ، قَالَ فِي مَجَازِ الْأَسَاسِ : رَجُلٌ زَكِيٌّ زَائِدُ الْخَيْرِ وَالْفَضْلِ بَيِّنُ الزَّكَاءِ وَالزَّكَاةِ ، (وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً) (19 : 13) اهـ .

(193/348)

وَالتَّزْكِيَةُ لِلْأَنْفُسِ بِالْفِعْلِ تُسْنَدُ إِلَى اللهِ تَعَالَى ; لِأَنَّهُ هُوَ الْخَالِقُ الْمُقَدِّرُ الْمُوَفِّقُ لِلْعَبْدِ لِفِعْلِ مَا تَزْكُو بِهِ نَفْسُهُ وَتَصْلُحُ ، قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) 2 (4 : 21) وَتُسْنَدُ إِلَى الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُ هُوَ الْمُرَبِّي لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا تَزْكُو بِهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَيَعْلُو قَدْرُهَا بِسُنَّتِهِ الْعَمَلِيَّةِ وَالْقَوْلِيَّةِ فِي بَيَانِ كِتَابِ اللهِ ، وَمَا لَهُمْ فِيهِ مِنَ الْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ وَمِنْهُ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَالَ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (62 : 2) فَتَزْكِيَتُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْأُمَّةِ مِنْ مَقَاصِدِ الْبَعْثَةِ وَتُسْنَدُ إِلَى الْعَبْدِ لِكَوْنِهِ هُوَ الْفَاعِلَ لِمَا جَعَلَهُ اللهُ سَبَبًا لِطَهَارَةِ نَفْسِهِ وَزَكَائِهَا كَالصَّدَقَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (91 : 9 ، 10) وَقَوْلُهُ : (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى) (87 : 14 و15) وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى :

(194/348)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ) (4 : 49) وَقَوْلُهُ (فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) (53 : 32) فَهُوَ فِي زَكَاءِ النَّفْسِ بِدَعْوَى اللِّسَانِ ، فَالتَّزْكِيَةُ تُطْلَقُ عَلَى الْفِعْلِ الْمُزَكَّى وَهِيَ الْأَصْلُ وَعَلَى الْقَوْلِ الدَّالِّ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ تَزْكِيَةُ الشُّهُودِ .

(وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ) قَرَأَ حَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ : (صَلَاتُكَ) بِالْمُفْرَدِ أَيْ جِنْسُهَا وَالْبَاقُونَ : (صَلَوَاتُكَ) بِالْجَمْعِ وَهُوَ بِاعْتِبَارِ جَمَاعَةِ الْمُتَصَدِّقِينَ . وَالصَّلَاةُ اسْمٌ مِنْ صَلَّى يُصَلِّي تَصْلِيَةً ، وَقَدْ هُجِرَ لَفْظُ التَّصْلِيَةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُ :

تَرَكْتُ الدِّنَانَ وَعَزْفَ الْقِيَانِ . . . وَأَدْمَنْتُ تَصْلِيَةً وَابْتِهَالًا .

(195/348)

وَمَعْنَاهَا الْأَصْلِيُّ الدُّعَاءُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ ، وَسُمِّيَتِ الْعِبَادَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْمَخْصُوصَةُ صَلَاةً مِنْ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِأَهَمِّ أَجْزَائِهِ ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ مُخُّ الْعِبَادَةِ وَرُوحُهَا ، وَقِيلَ فِي التَّعْلِيلِ غَيْرُ ذَلِكَ . وَالصَّلَاةُ مِنَ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ الرَّحْمَةُ وَالْحَنَانُ ، وَمِنْ مَلَائِكَتِهِ الدُّعَاءُ وَالِاسْتِغْفَارُ ، قَالَ تَعَالَى : (هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا) (33 : 43) ثُمَّ قَالَ : (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) (33 : 56) وَصَلَاتُنَا عَلَى نَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - دُعَاؤُنَا لَهُ بِمَا أَمَرَنَا بِهِ فِي الصَّلَاةِ بَعْدَ التَّشَهُّدِ الْأَخِيرِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهُ كَقَوْلِنَا فِي دُعَاءِ الْأَذَانِ الْمَأْثُورِ : (اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ

وَالْفَضِيلَةَ وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ) رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ إلَّا مُسْلِمًا ، وَالسَّكَنُ : مَا تَسْكُنُ إلَيْهِ النَّفْسُ وَتَرْتَاحُ مِنْ أَهْلٍ وَمَالٍ وَمَتَاعٍ وَثَنَاءٍ .

(196/348)

وَالْمَعْنَى ادْعُ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمُتَصَدِّقِينَ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ عَاطِفًا عَلَيْهِمْ : إنَّ دُعَاءَك وَاسْتِغْفَارَك سَكَنٌ لَهُمْ ، يَذْهَبُ بِهِ اضْطِرَابُ أَنْفُسِهِمْ إذَا أَذْنَبُوا ، وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِأَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ إذَا تَابُوا وَيَرْتَاحُونَ إلَى قَبُولِ اللَّهِ صَدَقَاتِهِمْ بِأَخْذِك لَهَا ، وَوَضْعِك إيَّاهَا فِي مَوَاضِعِهَا (وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) أَيْ سَمِيعٌ لِدُعَائِك سَمَاعَ قَبُولٍ وَإِجَابَةٍ ، عَلِيمٌ بِمَا فِيهِ مِنَ الْخَيْرِ وَالْمَصْلَحَةِ ، فَالْمُرَادُ مِنَ السَّمَاعِ وَالْعِلْمِ لَازِمُهُمَا . وَسَمِيعٌ لِاعْتِرَافِهِمْ بِذُنُوبِهِمْ ، عَلِيمٌ بِنَدَمِهِمْ وَتَوْبَتِهِمْ مِنْهَا ، وَبِإِخْلَاصِهِمْ فِي صَدَقَتِهِمْ وَطِيبِ أَنْفُسِهِمْ بِهَا ، فَهُوَ الَّذِي يُثِيبُهُمْ عَلَيْهَا ، فَجُمْلَةُ (إنَّ صَلَاتَك) تَعْلِيلٌ لِلْأَمْرِ بِالدُّعَاءِ ، وَتَذْيِيلُهَا بِالتَّذْكِيرِ بِسَمْعِ اللَّهِ وَعِلْمِهِ إشْعَارٌ بِقَبُولِ الدُّعَاءِ وَقَبُولِ الطَّاعَاتِ وَالْجَزَاءِ عَلَيْهَا ، وَتُصَرِّحُ بِهِ الْآيَةُ التَّالِيَةُ .

(197/348)

رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذَا أَتَاهُ قَوْمٌ بِصَدَقَتِهِمْ قَالَ : (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى فُلَانٍ) فَأَتَاهُ أَبِي بِصَدَقَتِهِ فَقَالَ : (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى) فَقَوْلُهُ : بِصَدَقَتِهِ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا زَكَاةُ الْفَرِيضَةِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْآيَةِ صَدَقَةُ الْفَرِيضَةِ أَوْ مَا يَعُمُّ الْفَرِيضَةَ وَغَيْرَهَا ، وَعَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ مُوَاظِبًا عَلَى هَذَا الدُّعَاءِ ; وَلِذَلِكَ قِيلَ إنَّ الْأَمْرَ فِي الْآيَةِ لِلْوُجُوبِ وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالَ بَعْضُ الظَّاهِرِيَّةِ بِوُجُوبِ الدُّعَاءِ عَلَى آخِذِي الزَّكَاةِ مِنَ الْأَئِمَّةِ أَيْضًا ، وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَحَبٌّ لَهُمْ . وَقَدْ بَوَّبَ الْبُخَارِيُّ لِلْحَدِيثِ بِقَوْلِهِ : (بَابُ صَلَاةِ الْإِمَامِ وَدُعَائِهِ لِصَاحِبِ الصَّدَقَةِ) ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) - إلَى قَوْلِهِ : - (سَكَنٌ لَهُمْ) وَالْجُمْهُورُ

(198/348)

عَلَى أَنَّ الدُّعَاءَ بِلَفْظِ الصَّلَاةِ خَاصٌّ بِدُعَائِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِغَيْرِهِ وَبِدُعَاءِ الْمُسْلِمِينَ لَهُ ، وَقَيَّدَ الْأَوَّلَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ بِمَا عَدَا هَذَا اللَّفْظَ الَّذِي كَانَ يَدْعُو بِهِ لِلْمُتَصَدِّقِينَ (اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى فُلَانٍ) عِنْدَ إعْطَاءِ الصَّدَقَةِ . وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَانَ

يَدْعُو بِغَيْرِهِ أَيْضًا فَقَدْ رَوَى النَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ وَائِلِ بْنِ حُجْرٍ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ فِي رَجُلٍ بَعَثَ بِنَاقَةٍ حَسَنَةٍ فِي الزَّكَاةِ (اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ وَفِي إِبِلِهِ) وَقَالَ الشَّافِعِيُّ : السُّنَّةُ لِلْإِمَامِ إِذَا أَخَذَ الصَّدَقَةَ أَنْ يَدْعُوَ لِلْمُتَصَدِّقِ وَيَقُولَ : آجَرَكَ اللَّهُ فِيمَا أَعْطَيْتَ وَبَارَكَ لَكَ فِيمَا أَبْقَيْتَ .

(199/348)

وَالْأَفْضَلُ الْجَمْعُ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَعَلَى آلِهِ ، وَأَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ يَخُصُّ بِالسَّلَامِ الْأَنْبِيَاءَ وَالْمَلَائِكَةَ ، وَكَذَا جَمَاعَةُ آلِ بَيْتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالشِّيعَةُ يَلْتَزِمُونَ السَّلَامَ عَلَى السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ وَبَعْلِهَا وَوَلَدَيْهِمَا وَالْأَئِمَّةِ الْمَشْهُورِينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ السِّبْطَيْنِ ، وَيُوَافِقُهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ فِي الزَّهْرَاءِ وَالسِّبْطَيْنِ وَوَالِدِهِمَا سَلَامُ اللَّهِ وَرِضْوَانُهُ عَلَيْهِمْ إِذَا ذُكِرُوا جَمَاعَةً أَوْ أَفْرَادًا ، وَأَمَّا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى الْآلِ بِالتَّبَعِ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ ، وَمِنْهُ صَلَاةُ التَّشَهُّدِ ، وَكَذَا عَطْفُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ عَلَى الْآلِ ذَائِعٌ فِي الْكُتُبِ وَالْخُطَبِ وَالْأَقْوَالِ .

(فَصْلٌ فِي فَوَائِدِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْإِصْلَاحِ الْمَالِيِّ لِلْبَشَرِ)

وَامْتِيَازِ الْإِسْلَامِ بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ

مَا ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ تَطْهِيرِ الصَّدَقَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَزْكِيَتِهِمْ بِهَا يَشْمَلُ أُفْرَادَهُمْ وَجَمَاعَتَهُمْ ، فَهِيَ تُطَهِّرُ أَنْفُسَ الْأَفْرَادِ مِنْ أَرْجَاسِ الْبُخْلِ وَالدَّنَاءَةِ وَالْقَسْوَةِ وَالْأَثَرَةِ وَالطَّمَعِ وَالْجَشَعِ ، وَمِنْ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ مِنْ خِيَانَةٍ وَسَرِقَةٍ وَغَصْبٍ وَرِبًا وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَتَرَبَّى بِالْإِيمَانِ عَلَى بَذْلِ بَعْضِ مَا فِي يَدِهِ أَوْ مَا أَوْدَعَهُ فِي خِزَانَتِهِ وَصُنْدُوقِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ وَمَغْفِرَةِ ذُنُوبِهِ وَرَفْعِ دَرَجَاتِهِ جَدِيرٌ بِأَنْ يُنَزِّهَ نَفْسَهُ عَنْ أَخْذِ مَالِ غَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ .

وَهَذَا التَّطْهِيرُ لِأَنْفُسِ الْأَفْرَادِ وَتَزْكِيَتِهَا بِالْعِلْمِ ، وَالتَّقْوَى الَّتِي هِيَ مَجْمُوعُ ثَمَرَاتِ الْإِيمَانِ ، يَسْتَلْزِمُ تَطْهِيرَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ (وَمَا يُعَبَّرُ عَنْهُ فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ) مِنْ أَرْجَاسِ الرَّذَائِلِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَثَارُ التَّحَاسُدِ وَالتَّعَادِي وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ وَالْفِتَنِ وَالْحُرُوبِ .

ذَلِكَ بِأَنَّ الْأَمْوَالَ قِوَامُ حَيَاةِ النَّاسِ وَقُطْبُ الرَّحَى لِمَعَايِشِهِمْ وَمَرَافِقِهِمُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَهُمْ مُتَفَاوِتُونَ فِي الِاسْتِعْدَادِ لِلْكَسْبِ وَالتَّثْمِيرِ ، وَالْإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيرِ ، وَالْقَصْدِ وَالتَّدْبِيرِ ، وَالْجُودِ وَالْبُخْلِ ، وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ ، فَلَا يَنْفَكُّ بَعْضُهُمْ مُحْتَاجًا إِلَى بَعْضٍ فِي كَسْبِ الرِّزْقِ وَفِي

إِنْفَاقِهِ ، وَأَشَدُّهُمُ اسْتِعْدَادًا لِجَمْعِ الثَّرْوَةِ الَّذِينَ يَغْلِبُ عَلَى طِبَاعِهِمُ الْحِرْصُ وَالْبُخْلُ حَتَّى عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأُولِي قُرْبَاهُمْ ، وَبِهَذَا يَكُونُ بَعْضُهُمْ فِتْنَةً - أَيِ امْتِحَانًا - لِبَعْضٍ وَمَثَارًا لِلتَّنَازُعِ وَالتَّخَاصُمِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ) (25 : 20) أَيْ ذَلِكَ مُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي تَفَاوُتِ الْبَشَرِ فِي الِاسْتِعْدَادِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَعْمَالِ . وَقَدْ بَيَّنَّا حِكْمَةَ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ .

وَلَمَّا كَانَ الدِّينُ مُرْشِدًا لِلْبَشَرِ إِلَى تَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ وَتَقْوِيمِ أَخْلَاقِهِمْ بِمَا تَصْلُحُ بِهِ فِطْرَتُهُمْ ، وَيَرْتَقِي بِهِ أَفْرَادُهُمْ وَجَمَاعَتُهُمْ - شَرَعَ اللهُ فِيهِ مِنَ الْأَحْكَامِ التَّعَبُّدِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَا يَقِيهِمْ شَرَّ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَيُنْقِذُهُمْ مِمَّا يَتَرَتَّبُ عَلَى إِهْمَالِهَا مِنَ الْمِحْنَةِ فَأَوْجَبَ

عَلَى أَصْحَابِ الْأَمْوَالِ مِنَ النَّفَقَاتِ وَالصَّدَقَاتِ مَا يُبَدِّلُ سَيِّئَاتِ الثَّرْوَةِ فِي الْإِسْلَامِ حَسَنَاتٍ ، وَإِنَّنَا لَمْ نَجِدْ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَلَا كُتُبِ الْفِقْهِ وَلَا دَوَاوِينِ التَّارِيخِ بَيَانًا عِلْمِيًّا لِحِكْمَةِ

الشَّرِيعَةِ فِي السِّيَاسَةِ الْمَالِيَّةِ وَمَا انْفَرَدَتْ بِهِ مِنَ الْإِصْلَاحِ الْمَعْقُولِ فِيهَا ، وَكُنْتُ عَازِمًا عَلَى شَرْحِ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ فَلَمَّا وَصَلْتُ إِلَيْهِ وَفَكَّرْتُ فِي أُصُولِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَفُرُوعِهَا تَبَيَّنَ لِي أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَفْصِيلُ الْقَوْلِ فِيهَا إِلَّا بِتَأْلِيفِ سِفْرٍ مُسْتَقِلٍّ وَرَأَيْتُ أَنْ أَكْتَفِيَ هُنَا بِإِيرَادِ أَهَمِّ الْحَقَائِقِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ وَإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِ فِيهَا فَأَقُولُ :

(203/348)

إِنَّ اتِّسَاعَ دَوَائِرِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ قَدِ اضْطَرَّ الْبَاحِثِينَ إِلَى انْفِرَادِ بَعْضِ الْأَفْرَادِ وَالْجَمَاعَاتِ لِلْإِحْصَاءِ فِي كُلِّ فَرْعٍ مِنْ فُرُوعِهَا لِتَمْحِيصِ مَسَائِلِهَا وَالْإِحَاطَةِ بِهَا بِقَدْرِ الْإِمْكَانِ ، حَتَّى إِنَّ الرِّجَالَ الْمَالِيِّينَ لَا يَسْتَحِقُّونَ هَذَا اللَّقَبَ فِيهِ (أَيْ لَقَبَ الْمَالِيِّ) إِلَّا بَعْدَ إِتْقَانِ عِدَّةِ عُلُومٍ مِنْهَا ، وَالتَّمَرُّنِ ، بِالْعَمَلِ فِي بَعْضِ فُرُوعِهَا ، وَإِنَّنَا نَرَى بَعْضَ الِاجْتِمَاعِيِّينَ مِنْهُمْ يَجْزِمُونَ بِأَنَّ جَمِيعَ الثَّوَرَاتِ وَالْحُرُوبِ السِّيَاسِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ ذَاتِ الشَّأْنِ فِي تَارِيخِ الْبَشَرِ قَدْ كَانَ الْمَالُ سَبَبَهَا الصَّحِيحَ ، أَوْ أَحَدَ الْأَسْبَابِ الْمُؤَثِّرَةِ فِيهَا أَشَدَّ التَّأْثِيرِ ، وَلَمْ يَسْتَثْنُوا مِنْ ذَلِكَ حُرُوبَ أُورُبَّةَ الدِّينِيَّةَ وَلَا حُرُوبَهَا الصَّلِيبِيَّةَ لِلْإِسْلَامِ .

(204/348)

بَلْ نُشِرَ مُنْذُ سِنِينَ كِتَابٌ عَرَبِيٌّ طُبِعَ فِي الْقُدْسِ مَوْضُوعُهُ (الْحَرَكَاتُ الْفِكْرِيَّةُ فِي الْإِسْلَامِ) زَعَمَ مُؤَلِّفُهُ تَابِعًا لِبَعْضِ مُؤَرِّخِي الْإِفْرِنْجِ : أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَكُنْ فِكْرَةً دِينِيَّةً مَحْضًا بَلْ كَانَ مَسْأَلَةً اقْتِصَادِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً أَيْضًا ، أَوْ كَانَ هَذَا هُوَ الْغَرَضَ الْأَوَّلَ الْمَقْصُودَ بِالذَّاتِ مِنْهُ وَلَمْ يَكُنِ الدِّينُ إِلَّا وَسِيلَةً لَهُ ، وَنُقِلَ عَنْ (كَايْتَانِي) الْمُؤَرِّخِ الْإِيطَالِيِّ الْمَشْهُورِ أَنَّ الْإِسْلَامَ لَمْ يَكُنْ دِينِيًّا إِلَّا فِي الظَّاهِرِ وَأَنَّ جَوْهَرَهُ كَانَ سِيَاسِيًّا وَاقْتِصَادِيًّا قَالَ (وَمِنْ فَضْلِ مُؤَسِّسِ الدِّينِ الْإِسْلَامِيِّ وَمَظَاهِرِ عَبْقَرِيَّتِهِ أَنَّهُ أَدْرَكَ مَصْدَرَ الْحَرَكَةِ الِاقْتِصَادِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي أَيَّامِهِ بِمَكَّةَ عَاصِمَةِ الْحِجَازِ ، وَعَرَفَ كَيْفَ يَسْتَفِيدُ مِنْهَا وَيُسَخِّرُهَا لِأَغْرَاضِهِ السَّامِيَةِ دِينِيَّةً كَانَتْ أَوِ اجْتِمَاعِيَّةً ، ثُمَّ بَسَطَ ذَلِكَ مِنْ طَرِيقِ ظَوَاهِرِ التَّارِيخِ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ فِي نَفْسِهِ ، خَادِعٌ

(205/348)

بِبَعْضِ مَظَاهِرِهِ ، وَمَا أَظُنُّ أَنَّ النَّاقِلَ عَنْهُ – وَهُوَ نَصْرَانِيُّ الدِّيَانَةِ . شُيُوعِيُّ السِّيَاسَةِ – يَعْتَقِدُ اعْتِقَادَهُ هَذَا ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ فِيمَا يَظْهَرُ نَشْرَ الشُّيُوعِيَّةِ الَّتِي ابْتَدَعَهَا بَلَا شِفَةُ دَوْلَتِهِ الرُّوسِيَّةِ فِي الْعَرَبِ وَزَلْزَلَةَ الْعَقَائِدِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَرُبَّمَا نَجِدُ فُرْصَةً لِلرَّدِّ عَلَى

كِتَابِهِ فِي الْمَنَارِ ، وَحَسْبِي هُنَا أَنْ أَقُولَ : لَوْ كَانَ الْإِسْلَامُ كَمَا ذَكَرَ لَظَهَرَ أَثَرُهُ فِي أَعْلَمِ النَّاسِ بِحَقِيقَتِهِ ، وَأَصْدَقِهِمْ فِي إِقَامَةِ أَرْكَانِهِ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَفِي طَلِيعَتِهِمُ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، وَالْأَئِمَّةُ الْمُجْتَهِدُونَ ، وَقَدْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْجَامِعُ بَيْنَ الْإِمَامَتَيْنِ فِي كِتَابٍ لَهُ إِلَى بَعْضِ عُمَّالِهِ الْمَالِيِّينَ : إِنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بُعِثَ هَادِيًا ، وَلَمْ يُبْعَثْ جَابِيًا .

(206/348)

وَالْحَقُّ أَنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الدِّينُ الْوَسَطُ ، الْجَامِعُ بَيْنَ مَصَالِحِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ، لِلسِّيَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةِ فِي الْآخِرَةِ ، فَهُوَ وَسَطٌ بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ الْمَالِيَّةِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَالنَّصْرَانِيَّةِ الرُّوحَانِيَّةِ الزُّهْدِيَّةِ ، وَأَنَّ مِنْ مَقَاصِدِهِ الْإِصْلَاحِيَّةِ فِي الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ هِدَايَةَ النَّاسِ إِلَى الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ فِي أَمْرِ الْمَالِ ؛ لِيَكْتَفِيَ النَّاسُ شَرَّ طُغْيَانِ الْأَغْنِيَاءِ ، وَذِلَّةِ الْفُقَرَاءِ ، وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي هَذَا هِيَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى فِي الْإِصْلَاحِ ، وَهِيَ هَادِمَةٌ لِمَزَاعِمِ هَؤُلَاءِ الْمُفْتَاتِينَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِالْجَهْلِ وَالْهَوَى .

غَلَا عُبَّادُ الْمَالِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْإِفْرِنْجِ فِي جَمْعِهِ وَاسْتِغْلَالِهِ ، وَاسْتِعْبَادِ الْأُلُوفِ وَأُلُوفِ الْأُلُوفِ مِنَ الْعُمَّالِ الْفُقَرَاءِ بِهِ ، بِجَعْلِهِ دُولَةً بَيْنَهُمْ ، وَغَلَا خُصُومُهُمْ مِنَ الِاشْتِرَاكِيِّينَ فِي مُقَاوَمَتِهِمْ

وَمُحَاوَلَةِ جَعْلِ النَّاسِ فِيهِ شَرْعًا ، وَجَعْلِهِ بَيْنَهُمْ حَقًّا شَائِعًا فَانْتَهَى هَذَا الْغُلُوُّ بِالشُّيُوعِيَّةِ الرُّوسِيَّةِ فِي عَصْرِنَا أَنِ اسْتَعْبَدَتْ أَكْثَرَ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ مِنَ الْبَشَرِ تُسَخِّرُهُمْ فِي تَنْفِيذِ مَذْهَبِهَا كَالْأَنْعَامِ وَالدَّوَابِّ ، وَتَبْذُلُ جُلَّ مَا تَنْتَزِعُهُ مِنْ ثَرْوَتِهِمْ فِي بَثِّ الدِّعَايَةِ لَهُ فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ . وَيَخْشَى الْعُقَلَاءُ مِنْ عَاقِبَةِ هَذَا الْإِسْرَافِ وَالْغُلُوِّ مِنَ الْجَانِبَيْنِ حَرْبًا عَامَّةً طَامَّةً ، وَفِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ خَاصَّةً .

(207/348)

وَلَا مُنْقِذَ لِلْأُمَمِ مِنْ هَذِهِ الْفِتْنَةِ وَعَوَاقِبِهَا إِلَّا بِدِينِ الْإِسْلَامِ أَعْنِي بِالتَّدَيُّنِ بِهِ وَالْعَمَلِ بِأَحْكَامِهِ الْمَالِيَّةِ وَغَيْرِهَا . وَلَا يُمْكِنُ الْتِزَامُهَا بِالْعَمَلِ إِلَّا بِإِذْعَانِ الدِّينِ ، وَقَدْ بَدَأَ عُقَلَاءُ الْإِفْرِنْجِ يَشْعُرُونَ بِالْحَاجَةِ إِلَى دِينٍ مَعْقُولٍ يَصْلُحُ بِالْتِزَامِهِ فَسَادُ هَذِهِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَادِّيَّةِ ، وَلَنْ يَجِدُوا حَاجَتَهُمْ إِلَّا فِي دِينِ الْقُرْآنِ ، وَسُنَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، وَأَخْشَى أَلَّا يَهْتَدُوا إِلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى وَالطَّامَّةِ الْعُظْمَى ، وَهِيَ حَرْبُ التَّدْمِيرِ الْمُنْتَظَرَةُ مِنْ تَنَازُعِ الْبُلْشُفِيَّةِ وَالرَّأْسِمَالِيَّةِ ، وَإِنَّنِي أَذْكُرُ هُنَا أَهَمَّ أُصُولِ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمَالِيَّةِ الَّتِي تَبْتَدِرُ فِكْرِي وَتَبْدَهُهُ فَأَقُولُ :

(1) إِقْرَارُ الْمِلْكِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ وَتَحْرِيمُ أَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .

(2) تَحْرِيمُ الرِّبَا وَالْقِمَارِ .

(3) مَنْعُ جَعْلِ الْمَالِ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ : أَيْ يَتَدَاوَلُونَهُ بَيْنَهُمْ مِنْ دُونِ الْفُقَرَاءِ وَلَمْ يَكُنْ هَذَا التَّدَاوُلُ فِي عَصْرٍ مِنْ أَعْصَارِ الْبَشَرِ كَمَا فِي عَصْرِ النِّظَامِ الْمَالِيِّ الْمُتَّبَعِ فِي الْحَضَارَةِ الْغَرْبِيَّةِ نِظَامِ الْبُيُوتِ الْمَالِيَّةِ (الْمَصَارِفِ) وَالشَّرِكَاتِ وَالِاحْتِكَارَاتِ الَّتِي يُحَارِبُهَا الْعُمَّالُ ، وَيُعَادُونَ لِأَجْلِهَا أَرْبَابَ الْأَمْوَالِ .

(4) الْحَجْرُ عَلَى السُّفَهَاءِ فِي أَمْوَالِهِمْ ، حَتَّى لَا يُضَيِّعُوهَا فِيمَا يَضُرُّهُمْ وَيَضُرُّ أُمَّتَهُمْ .

(208/348)

---

(5) فَرْضُ الزَّكَاةِ الْمُطْلَقَةِ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ، وَكَانَتِ اشْتِرَاكِيَّةً بَاعِثُهَا إِذْعَانُ الْوِجْدَانِ لَا إِكْرَاهُ الْحُكَّامِ ، ثُمَّ نُسِخَتْ أَوْ قُيِّدَتْ بِالْمُعَيَّنَةِ الْإِجْبَارِيَّةِ عِنْدَمَا صَارَ لِلْإِسْلَامِ دَوْلَةٌ ، وَلَوْ وُجِدَتْ تِلْكَ الْحَالُ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ فِي مَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ لَوَجَبَتْ عَلَيْهِمْ فِيهَا تِلْكَ الزَّكَاةُ الِاشْتِرَاكِيَّةُ ، أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِي مَكَانٍ جَمَاعَةٌ مَحْصُورُونَ مِنْهُمُ الْمُوسِرُ وَالْمُعْسِرُ ، وَصَاحِبُ الثَّرْوَةِ وَذُو الْفَقْرِ الْمُدْقِعِ ، وَجَبَ أَنْ يَقُومَ أَغْنِيَاؤُهُمْ بِكِفَايَةِ فُقَرَائِهِمْ وُجُوبًا دِينِيًّا إِذَا كَانَتِ الزَّكَاةُ الْمُعَيَّنَةُ لَا تَكْفِيهِمْ .

(6) جَعْلُ الزَّكَاةِ الْمُعَيَّنَةِ رُبْعَ الْعُشْرِ فِي النَّقْدَيْنِ وَالتِّجَارَةِ ، وَالْعُشْرَ أَوْ نِصْفَ الْعُشْرِ فِي

الْغَلَّاتِ الزِّرَاعِيَّةِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْأَقْوَاتِ ، وَزَكَاةُ الْأَنْعَامِ مَعْرُوفَةٌ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ .

(7) فَرْضُ نَفَقَةِ الزَّوْجِيَّةِ وَالْقَرَابَةِ .

(8) إِيجَابُ كِفَايَةِ الْمُضْطَرِّ مِنْ كُلِّ جِنْسٍ ، وَدِينٍ وَضِيَافَةِ الْغَرِيبِ حَيْثُ لَا مَأْوَى وَلَا فَنَادِقَ لِلْمُسَافِرِينَ ، إِلَّا إِذَا كَانَ مَهْدُورَ الدَّمِ أَوْ مُحَارِبًا لِلْمُسْلِمِينَ .

(9) جَعْلُ بَذْلِ الْمَالِ كَفَّارَةً لِبَعْضِ الذُّنُوبِ (وَمِنْهَا الظِّهَارُ وَإِفْسَادُ صِيَامِ يَوْمٍ مِنْ رَمَضَانَ بِشُرُوطِهَا الْمَعْرُوفَةِ) .

(10) نَدْبُ صَدَقَاتِ التَّطَوُّعِ وَالتَّرْغِيبُ فِيهَا .

(209/348)

---

(11) ذَمُّ الْإِسْرَافِ وَالتَّبْذِيرِ ، وَالْبُخْلِ وَالشُّحِّ وَالتَّقْتِيرِ ، وَعَدُّهُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَكَةِ وَسُوءِ الْمَصِيرِ ، أَيْ لِلْأَفْرَادِ وَلِلْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ .

(12) إِبَاحَةُ الزِّينَةِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ بِشَرْطِ اجْتِنَابِ الْإِسْرَافِ وَالْخُيَلَاءِ الْمُوقِعَيْنِ فِي الْأَمْرَاضِ وَالْأَدْوَاءِ الْبَدَنِيَّةِ ، الْمُضَيِّعِينَ لِلثَّرْوَةِ الْمَالِيَّةِ ، الْمُثِيرِينَ لِلْحَسَدِ وَالْعَدَاوَةِ وَالْمَفَاسِدِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ تَرَقِّي الثَّرْوَةِ .

(13) مَدْحُ الْقَصْدِ وَالِاعْتِدَالِ ، فِي النَّفَقَةِ عَلَى النَّفْسِ وَالْعِيَالِ .

(14) تَفْضِيلُ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ ، عَلَى الْفَقِيرِ الصَّابِرِ . بِجَعْلِ الْيَدِ الْعُلْيَا خَيْرًا مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى . وَأَعْمَالُ الْبِرِّ الْمُتَعَدِّي نَفْعُهَا إِلَى النَّاسِ أَفْضَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ الْقَاصِرِ نَفْعُهَا عَلَى فَاعِلِهَا ، وَجَعْلِ الصَّدَقَةِ الْجَارِيَةِ ، مِنَ الْمَثُوبَاتِ الدَّائِمَةِ الْبَاقِيَةِ .

أَرَأَيْتَ أُمَّةً مِنَ الْأُمَمِ تُقِيمُ هَذِهِ الْأَرْكَانَ وَيُوجَدُ فِيهَا فَقْرٌ مُدْقِعٌ ، أَوْ غُرْمٌ مُوجِعٌ ، أَوْ شَقَاءٌ مُفْظِعٌ ؟

أَلَمْ تَرَ أَنَّ زَكَاةَ النَّقْدَيْنِ الْوَاجِبَةَ – وَهِيَ رُبُعُ الْعُشْرِ – هِيَ أَوْسَطُ رِبْحٍ تَدْفَعُهُ الْمَصَارِفُ الْمَالِيَّةُ لِمُودِعِي نُقُودِهِمْ فِيهَا لِلِاسْتِغْلَالِ ، وَقَدْ يَقِلُّ عَنْ ذَلِكَ ؟

(210/348)

قَدِّرِ الثَّرْوَةَ الْقَوْمِيَّةَ فِي النَّقْدِ وَالتِّجَارَةِ لِلشَّعْبِ الْمِصْرِيِّ ، وَانْظُرْ مِقْدَارَ رُبُعِ عُشْرِهَا الْوَاجِبَ دَفْعُهُ فِي كُلِّ عَامٍ لِفُقَرَائِهَا وَمَصَالِحِهَا ، وَارْجِعِ الْبَصَرَ إِلَى سَائِرِ أَنْوَاعِ الزَّكَاةِ وَمَقَادِيرِهَا ، تَعْرِفْ قَدْرَ سَعَادَتِهِ إِذَا وَضَعَهَا فِي مَوَاضِعِهَا وَتَعْلَمْ صِدْقَ مَا قُلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ مَصَارِفِ الصَّدَقَاتِ مِنْ أَنَّ أَدَاءَ الزَّكَاةِ وَحْدَهُ كَافٍ لِإِعَادَةِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ الَّذِي أَضَاعَهُ الْمُسْلِمُونَ .

اقْرَأْ (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (2 : 195) وَاقْرَأْ (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (59 : 9) وَتَدَبَّرْ جِدَّ التَّدَبُّرِ (هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ) (47 : 38) .

وَقَدْ جَاءَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي بَذْلِ الْمَالِ فِي سُبُلِ الْبِرِّ ، وَجَعْلِهِ مِنْ أَكْبَرِ آيَاتِ الْإِيمَانِ ، وَمُوجِبَاتِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ ، وَتَبْوِيءِ غُرَفِ الْجِنَانِ وَتَسْمِيَتِهِ إِقْرَاضًا لِلرَّحْمَنِ مَا لَمْ يَجِئْ مِثْلُهُ فِي أَيِّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ .

وَتَجِدُ أَكْثَرَ الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ ثُمَّ فِي هَذِهِ السُّورَةِ (بَرَاءَةَ) مَا تَقَدَّمَ تَفْسِيرُهُ مِنْهَا وَمَا تَأَخَّرَ .

(211/348)

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ) أَيْ أَلَمْ يَعْلَمْ أُولَئِكَ التَّائِبُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ تَوْبَةَ التَّائِبِينَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَلَمْ يَجْعَلْ ذَلِكَ لِرَسُولِهِ بَلْهَ مَنْ دُونَهُ مِنْ خَلْقِهِ ، فَالِاسْتِفْهَامُ لِتَقْرِيرِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ وَكَوْنِهِ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى التَّوْبَةِ - أَوْ أَلَمْ يَعْلَمِ الْمُؤْمِنُونَ كَافَّةً هَذَا وَهُوَ مُقْتَضَى الْإِيمَانِ وَمُوجِبُهُ ؟ وَالِاسْتِفْهَامُ عَلَى هَذَا تَحْضِيضٌ عَلَى هَذَا الْعِلْمِ وَمَا

يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ التَّوْبَةِ . وَقَبُولُ التَّوْبَةِ عَنْهُمْ قِيلَ : إنَّهُ بِمَعْنَى قَبُولِهَا مِنْهُمْ ، نَحْوَ : لَا صَدَقَةَ إلَّا عَنْ غِنًى وَمِنْ غِنًى ، وَقِيلَ : إنَّ الْقَبُولَ هُنَا قَدْ تَضَمَّنَ مَعْنَى التَّجَاوُزِ وَالصَّفْحِ ، أَيْ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُهَا مِنْهُمْ مُتَجَاوِزًا عَنْ ذُنُوبِهِمْ عَفْوًا عَنْهَا وَهَذَا أَبْلَغُ (وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ) أَيْ يَتَقَبَّلُهَا بِأَنْوَاعِهَا وَيُثِيبُ عَلَيْهَا ، وَيَعُدُّهَا إقْرَاضًا لَهُ فَيُضَاعِفُ ثَوَابَهَا ، بِمُقْتَضَى وَعْدِهِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ : (إنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ) (64 : 17) وَقَوْلِهِ : (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً) (2 : 245) فَأَخْذُ الصَّدَقَاتِ لَهُ ثَلَاثُ صُوَرٍ (أَحَدُهَا) أَخْذُ

(212/348)

الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَغَيْرِهِمْ إيَّاهَا مِنَ الْمُسْتَحِقِّينَ إيَّاهَا مِنْ يَدِ الْمُتَصَدِّقِ (الثَّانِيَةُ) أَخْذُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَهْدِهِ وَالْأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ إيَّاهَا لِأَجْلِ وَضْعِهَا فِي مَصَارِفِهَا الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا (الثَّالِثَةُ) أَخْذُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إيَّاهَا وَهُوَ قَبُولُهَا لِلْإِثَابَةِ عَلَيْهَا بِالْمُضَاعَفَةِ الَّتِي وَعَدَهَا . وَفِي التَّعْبِيرِ بِأَخْذِ اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ قَوْلِهِ لِلنَّبِيِّ : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) تَشْرِيفٌ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِكَوْنِهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يَأْخُذُ مَا أَمَرَهُ بِأَخْذِهِ : (وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) أَيْ وَأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ بَعْدَ التَّوْبَةِ مِنْ كُلِّ مُذْنِبٍ

يَشْعُرُ بِضَرَرِ ذَنْبِهِ ، وَيَتُوبُ عَنْهُ مُنِيبًا إِلَى رَبِّهِ مَهْمَا يَتَكَرَّرُ ذَلِكَ . (الرَّحِيمُ) بِالتَّائِبِينَ الَّذِي يُثِيبُهُمْ . فَصِيغَةُ الْمُبَالَغَةِ (التَّوَّابُ) تَتَحَقَّقُ بِكَثْرَةِ التَّائِبِينَ وَبِتَكْرَارِ التَّوْبَةِ مِنَ الْمُذْنِبِ الْوَاحِدِ الَّذِي يَمْنَعُهُ

(213/348)

الْخَوْفُ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُصِرَّ عَلَى ذَنْبِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ الْمُتَّقِينَ : (وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (3 : 135) وَفِي الْحَدِيثِ : " مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً " . رَوَى الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا : (مَا تَصَدَّقَ أَحَدُكُمْ بِصَدَقَةٍ مِنْ كَسْبٍ حَلَالٍ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً ، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ أَوْ فَصِيلَهُ) وَالْحَدِيثُ تَمْثِيلٌ لِمُضَاعَفَتِهِ تَعَالَى لِلصَّدَقَةِ الْمَقْبُولَةِ :

وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الِاسْمِيَّةُ الْمُؤَكَّدَةُ بِأَنَّ وَبِضَمِيرِ الْفَصْلِ ، الدَّالَّةُ عَلَى الْحَصْرِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ صِيغَةِ الْمُبَالَغَةِ بِمَعْنَى الْكَثْرَةِ مِنَ التَّوْبَةِ ، وَمُبَالَغَةُ الصِّفَةِ الرَّاسِخَةِ مِنَ الرَّحْمَةِ تُفِيدُ أَعْظَمَ الْبُشْرَى لِلتَّائِبِينَ ، وَأَبْلَغَ التَّرْغِيبِ فِي التَّوْبَةِ لِلْمُذْنِبِينَ ، كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمُتَدَبِّرِينَ .

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) هَذَا عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً) ، إلَخْ ، أَيْ : وَقُلْ لَهُمْ أَيُّهَا الرَّسُولُ : اعْمَلُوا لِدُنْيَاكُمْ وَآخِرَتِكُمْ وَلِأَنْفُسِكُمْ وَأُمَّتِكُمْ (حَذْفُ مُتَعَلِّقِ الْعَمَلِ يَدُلُّ عَلَى الْعُمُومِ ، وَقَدَّرَهُ بَعْضُهُمْ : اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ) فَإِنَّمَا الْعِبْرَةُ بِالْعَمَلِ لَا بِالِاعْتِذَارِ عَنِ التَّقْصِيرِ ، وَلَا بِدَعْوَى الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ ، وَخَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَنُوطَانِ بِالْعَمَلِ ، وَهُوَ لَا يَخْفَى عَلَى اللهِ وَلَا عَلَى النَّاسِ أَيْضًا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ خَيْرًا كَانَ أَوْ شَرًّا ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُرَاقِبُوهُ تَعَالَى فِي أَعْمَالِكُمْ ، وَتَتَذَكَّرُوا أَنَّهُ نَاظِرٌ إلَيْكُمْ ، عَلِيمٌ بِمَقَاصِدِكُمْ وَنِيَّاتِكُمْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ، وَجَدِيرٌ بِمَنْ يُؤْمِنُ بِرُؤْيَةِ اللهِ لِعَمَلِهِ أَنْ يُتْقِنَهُ ، وَأَنْ يُخْلِصَ لَهُ النِّيَّةَ فِيهِ ، فَيَقِفُ فِيهِ عِنْدَ حُدُودِ شَرْعِهِ ، وَيَتَحَرَّى بِهِ تَزْكِيَةَ نَفْسِهِ وَالْخَيْرَ لِخَلْقِهِ ، وَلَا يَكْتَفِي فِيهِ

بِتَرْكِ مَعَاصِيهِ ، وَاجْتِنَابِ مَنَاهِيهِ ، رَاوَدَ رَجُلٌ امْرَأَةً عَنْ نَفْسِهَا فِي فَلَاةٍ قَائِلًا : إنَّهُ لَا يَرَانَا هُنَا إلَّا الْكَوَاكِبُ ، قَالَتْ : فَأَيْنَ مُكَوْكِبُهَا ؟ فَخَجِلَ وَانْصَرَفَ . وَسَيَرَاهُ رَسُولُهُ

وَالْمُؤْمِنُونَ وَيَزِنُونَهُ بِمِيزَانِ الْإِيمَانِ الْمُمَيِّزِ بَيْنَ الْإِخْلَاصِ وَالنِّفَاقِ ، وَهُمْ شُهَدَاءُ اللهِ عَلَى النَّاسِ ، قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو يَعْلَى وَابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِيُّ : (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ يَعْمَلُ فِي صَخْرَةٍ صَمَّاءَ لَيْسَ لَهَا بَابٌ وَلَا كُوَّةٌ لَأَخْرَجَ اللهُ عَمَلَهُ لِلنَّاسِ كَائِنًا مَا كَانَ) وَقَالَ زُهَيْرٌ :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ . . . وَإِنْ خَالَهَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمِ

فَإِذَا كَانَتِ الْخَلَائِقُ النَّفْسِيَّةُ ، وَالْأَعْمَالُ السِّرِّيَّةُ ، لَا تَخْفَى عَلَى النَّاسِ مَهْمَا يَكُنْ مِنْ مُحَاوَلَةِ صَاحِبِهَا لِإِخْفَائِهَا ، فَمَاذَا يُقَالُ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي هِيَ مُقْتَضَى الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَمَا انْطَبَعَتْ عَلَيْهِ النَّفْسُ مِنَ الْمَلَكَاتِ ، وَمُرِّنَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْعَادَاتِ ؟ نَرَى الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ يُخْفُونَ بَعْضَ أَعْمَالِ الْبِرِّ الَّتِي يُسْتَحَبُّ إِخْفَاؤُهَا كَالصَّدَقَةِ عَلَى الْفَقِيرِ الْمُتَعَفِّفِ سَتْرًا عَلَيْهِ ، وَمُبَالَغَةً فِي الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى الَّذِي يُنَافِيهِ الرِّيَاءُ وَحُبُّ السُّمْعَةِ وَلَكِنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَشْتَهِرُوا بِهَا ، وَنَرَى بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ يُخْفُونَ بَعْضَ أَعْمَالِ النِّفَاقِ خَوْفًا مِنَ النَّاسِ لَا مِنَ اللهِ ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يَلْبَثُونَ أَنْ يَفْتَضِحُوا بِهَا . وَمِنْ أَمْثَالِ الْعَوَامِّ : إِنَّ الَّذِي يَخْتَفِي هُوَ الَّذِي لَا يَقَعُ .

(216/348)

وَالْآيَةُ تَهْدِينَا إلَى أَنَّ مَرْضَاةَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْقَائِمِينَ بِحُقُوقِ الْإِيمَانِ ، الْمُقَرَّرَةِ صِفَاتُهُمْ فِي الْقُرْآنِ تَلِي مَرْضَاةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَأَنَّهُمْ لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى ضَلَالَةٍ . وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيثُ أَنَسٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ قَالَ : مَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (وَجَبَتْ) ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا فَقَالَ : (وَجَبَتْ) فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَا وَجَبَتْ ؟ قَالَ : (هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) وَفِي لَفْظِ مُسْلِمٍ تَكْرَارُ (وَجَبَتْ) ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فِي الْمَوْضِعَيْنِ وَكَذَا تَكْرَارُ (أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ) وَفِي مَعْنَاهُ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا : (إنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي - أَوْ قَالَ : أُمَّةَ مُحَمَّدٍ - عَلَى ضَلَالَةٍ ، وَيَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إلَى النَّارِ) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ سُلَيْمَانَ الْمَدِينِيِّ وَقَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ ، وَسُلَيْمَانُ الْمَدِينِيُّ عِنْدِي هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ سُفْيَانَ انْتَهَى . أَقُولُ : وَهُوَ ضَعِيفٌ مُنْكَرُ الْحَدِيثِ بِاتِّفَاقِهِمْ وَيُعْزَى الْحَدِيثُ إلَى الطَّبَرَانِيِّ بِلَفْظِ (لَا تَجْتَمِعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ) وَالْعُلَمَاءُ يَسْتَدِلُّونَ بِهِ عَلَى حُجِّيَّةِ

(217/348)

الْإِجْمَاعِ لِصِحَّةِ مَعْنَاهُ بِمُوَافَقَتِهِ لِلْآيَاتِ وَالصِّحَاحِ مِنَ الْأَخْبَارِ ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ ، أُمَّةِ الْإِجَابَةِ وَأَهْلِ الِاسْتِقَامَةِ ، لَا عَلَى الْإِجْمَاعِ الْمُصْطَلَحِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ (مَا رَآهُ الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ) رَوَاهُ عَنْهُ أَحْمَدُ فِي السُّنَّةِ لَا فِي الْمُسْنَدِ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ ، وَيَسْتَدِلُّ بِهِ الْجُهَّالُ حَتَّى مِنَ الْمُعَمَّمِينَ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ عَلَى اسْتِحْسَانِ الْبِدَعِ الْفَاشِيَةِ حَتَّى فِي الْعَقَائِدِ الثَّابِتَةِ كَبِدَعِ الْقُبُورِ الَّتِي كَانَ يَلْعَنُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَاعِلِيهَا فِي مَرَضِ مَوْتِهِ ، مِنْ بِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا ، وَالصَّلَاةِ إِلَيْهَا ، وَإِيقَادِ السُّرُجِ

وَالْمَصَابِيحِ عِنْدَهَا ، بَلْ مَا هُوَ شَرٌّ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ عِبَادَتُهَا بِالطَّوَافِ حَوْلَهَا ، وَدُعَاءِ أَصْحَابِهَا وَالنَّذْرِ لَهُمْ ، وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ ، حَتَّى فِي الشَّدَائِدِ وَهُوَ مَا لَمْ يَكُنْ يَفْعَلُهُ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ . بَلْ كَانُوا فِيهِ يُخْلِصُونَ الدُّعَاءَ لِلَّهِ ، فَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ .

(218/348)

بَعْدَ هَذَا الْإِرْشَادِ إِلَى مَا يَقْتَضِي الْإِحْسَانُ فِي الْأَعْمَالِ مِنْ مُرَاقَبَةِ اللهِ وَتَحَرِّي مَرْضَاتِهِ وَمَرْضَاةِ رَسُولِهِ وَجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْخَيْرِ لِعِبَادِهِ بِهَا – ذَكَّرَهُمْ تَعَالَى بِمَا يَقْتَضِي ذَلِكَ مِنْ جَزَاءِ الْآخِرَةِ عَلَيْهَا ، فَقَالَ : (وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ) بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ

(فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) فِي الدُّنْيَا مِمَّا كَانَ مَشْهُودًا لِلنَّاسِ مِنْهُ ، وَمَا كَانَ غَائِبًا عَنْ عِلْمِهِمْ مِنْهُ وَمِنْ نِيَّاتِكُمْ فِيهِ ، يُنَبِّئُكُمْ بِهِ عِنْدَ الْحِسَابِ ، وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مِنَ الْجَزَاءِ بِحُسْنِ الثَّوَابِ ، أَوْ سُوءِ الْعَذَابِ .

(وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

هَذِهِ الْآيَةُ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا) (102) وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْقِسْمُ الْأَخِيرُ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، فَقَدْ عُلِمَ مِمَّا تَقَدَّمَ أَنَّ الْمُتَخَلِّفِينَ مِنْهُمُ الْمُنَافِقُونَ وَهُمْ أَكْثَرُهُمْ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ أَقْسَامِهِمْ وَمَنِ اعْتَذَرَ وَمَنْ لَمْ يَعْتَذِرْ مِنْهُمْ وَمِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَهُمْ قِسْمَانِ (أَحَدُهُمَا) الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ وَتَابُوا وَزَكَّوْا تَوْبَتَهُمْ بِالصَّدَقَةِ وَطَلَبِ دُعَاءِ الرَّسُولِ

(219/348)

وَاسْتِغْفَارِهِ فَتَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَ (ثَانِيهِمَا) الَّذِينَ حَارُوا فِي أَمْرِهِمْ وَلَمْ يَعْتَذِرُوا لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِأَنَّهُمْ لَا عُذْرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَئُوا تَوْبَتَهُمْ فَأَرْجَأَ اللَّهُ الْحُكْمَ الْقَطْعِيَّ فِي أَمْرِهِمْ لِلْحِكْمَةِ الَّتِي يَأْتِي بَيَانُهَا قَرِيبًا . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ وَعِكْرِمَةُ وَالضَّحَّاكُ وَغَيْرُهُمْ : وَهُمُ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا : أَيْ عَنِ التَّوْبَةِ ، وَهُمْ مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَكَعْبُ بْنُ مَالِكٍ

، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ ، قَعَدُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِي جُمْلَةِ مَنْ قَعَدَ كَسَلًا وَمَيْلًا إلَى الدَّعَةِ وَالْحَظِّ وَطَيِّبِ الثِّمَارِ وَالظِّلَالِ لَا شَكًّا وَنِفَاقًا ، فَكَانَتْ طَائِفَةٌ رَبَطُوا أَنْفُسَهُمْ بِالسَّوَارِي كَمَا فَعَلَ أَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ ، وَطَائِفَةٌ لَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ وَهُمْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ الْمَذْكُورُونَ فَنَزَلَتْ تَوْبَةُ أُولَئِكَ قَبْلَ تَوْبَةِ هَؤُلَاءِ ، وَأُرْجِئَ هَؤُلَاءِ عَنِ التَّوْبَةِ حَتَّى نَزَلَتْ آيَتَا التَّوْبَةِ الْآتِيَتَيْنِ (117 ، 118) (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ) أَيْ وَثَمَّ أُنَاسٌ آخَرُونَ مِنَ الْمُتَخَلِّفِينَ مُؤَخَّرُونَ لِحُكْمِ اللَّهِ فِي أَمْرِهِمْ ، أَوْ لِأَمْرِهِ لِرَسُولِهِ بِمَا يُعَامِلُهُمْ بِهِ . قَرَأَ نَافِعٌ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ (مُرْجَوْنَ) بِحَذْفِ الْهَمْزَةِ لِلتَّخْفِيفِ ، وَالْآخَرُونَ (مُرْجَئُونَ) بِالْهَمْزَةِ عَلَى الْأَصْلِ ، فَهُوَ اسْمُ مَفْعُولٍ مِنْ أَرْجَأَهُ إذَا أَخَّرَهُ ، وَقِيلَ هُمَا لُغَتَانِ رَجَاهُ يَرْجُوهُ وَأَرْجَأَهُ يُرْجِئُهُ . وَرُوِيَ أَنَّ هَذَا الْإِرْجَاءَ كَانَ يَوْمًا .

(220/348)

(إمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) أَيْ أَبْهَمَ الْأَمْرُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ ، لَا يَدْرُونَ مَا يَنْزِلُ فِيهِمْ ، هَلْ تَنْصَحُ تَوْبَتُهُمْ فَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ كَمَا تَابَ عَلَى الَّذِينَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ أَمْ يَحْكُمَ بِعَذَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ كَمَا حَكَمَ عَلَى الْخَالِفِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ؟ فَالتَّرْدِيدُ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ هُوَ بِالنِّسْبَةِ إلَى النَّاسِ لَا إلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . وَحِكْمَةُ إبْهَامِ أَمْرِ هَؤُلَاءِ عَلَيْهِمْ إثَارَةٌ لِلْهَمِّ وَالْخَوْفِ فِي

قُلُوبِهِمْ لِتَصِحَّ تَوْبَتُهُمْ . وَحِكْمَةُ إِبْهَامِهِ عَلَى الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ تَرْكُهُمْ مُكَالَمَتَهُمْ وَمُخَالَطَتَهُمْ - تَرْبِيَةٌ لِلْفَرِيقَيْنِ عَلَى مَا يَجِبُ فِي أَمْثَالِهِمْ مِنَ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الرَّاحَةَ وَنِعْمَةَ الْعَيْشِ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ ؛ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَدَفْعِ عُدْوَانِ الْكُفَّارِ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ ، حَتَّى كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا بَيَّنَهُ فِي الْآيَةِ (118) (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) عَلِيمٌ بِحَالِ عِبَادِهِ وَمَا يُرَبِّيهِمْ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُصْلِحُ حَالَ أَفْرَادِهِمْ وَمَجْمُوعِهِمْ ، حَكِيمٌ فِيمَا يَشْرَعُهُ لَهُمْ مِنَ

(221/348)

الْأَحْكَامِ الْمُفِيدَةِ لِهَذَا الصَّلَاحِ مَا عَمِلُوا بِهَا . وَمِنْ آثَارِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ إِرْجَاءُ النَّصِّ عَلَى تَوْبَتِهِمْ فِي كِتَابِهِ . وَمِنْ هَذِهِ الْحِكْمَةِ تَكْرَارُ تَأْثِيرِ تِلَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ لِلْآيَاتِ فِي ذَلِكَ فِي الْأَوْقَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ ، فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ آيَاتِ الْقُرْآنِ تَرْهِيبًا وَتَخْوِيفًا ، وَعِظَةً وَتَهْذِيبًا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 19.30 ﴾

(222/348)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾

هذا فريق آخر عطف خبره على خبر الفرق الآخرين .

والمراد بهؤلاء من بقي من المخلَّفين لم يتب الله عليه ، وكان أمرهم موقوفاً إلى أن يقضي الله بما يشاء .

وهؤلاء نفر ثلاثة ، هم : كعب بن مالك ، وهِلال بن أمية ، ومُرارة بن الربيع ، وثلاثتهم قد تخلفوا عن غزوة تبوك .

ولم يكن تخلفهم نفاقاً ولا كراهية للجهاد ولكنهم شُغلوا عند خروج الجيش وهم يحسبون أنهم يلحقونه وانقضت الأيام وأيسوا من اللحاق .

وسأل عنهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو في تبوك .

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم أتوه وصَدَقوه ، فلم يكلمهم ، ونهى المسلمين عن كلامهم ومخالطتهم ، وأمرهم باعتزال نسائهم ، فامتثلوا وبقُوا كذلك خمسين ليلة ، فهم في تلك المدة مُرْجَون لأمر الله .

وفي تلك المدة نزلت هذه الآية ﴿ ثم تاب الله عليهم ﴾ [المائدة : 71] .

وأنزل فيهم قوله : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار إلى قوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة : 117 119] .

وعن كعب بن مالك في قصته هذه حديث طويل أغر في "صحيح البخاري" .

على التوبة والتنبيه إلى فتح بابها .

وقد جوز المفسرون عود ضمير ﴿ ألم يعلموا ﴾ [التوبة : 104] إلى الفريقين اللذين أشرنا إليهما .

وقوله : ﴿ هو يقبل التوبة ﴾ [التوبة : 104] (هو) ضمير فصل مفيد لتأكيد الخبر .

و﴿ عن عباده ﴾ [التوبة : 104] متعلقة بـ ﴿ يقبل ﴾ لتضمنه معنى يتجاوز ، إشارة إلى أن قبول التوبة هو التجاوز عن المعاصي المتوب منها .

فكأنه قيل : يقبل التوبة ويتجاوز عن عباده .

وكان حق تعدية فعل (يقبل) أن يكون بحرف (من) .

ونقل الفخر عن القاضي عبد الجبار أنه قال : لعل (عن) أبلغ لأنه ينبىء عن القبول مع تسهيل سبيله إلى التوبة التي قبلت .

ولم يبين وجه ذلك ، وأحسب أنه يريد ما أشرنا إليه من تضمين معنى التجاوز .

(223/348)

وجيء بالخبر في صورة كلية لأن المقصود تعميم الخطاب ، فالمراد بِ ﴿ عباده ﴾ جميع الناس مؤمنهم وكافرهم لأن التوبة من الكفر هي الإيمان .

والآية دليل على قبول التوبة قطعاً إذا كانت توبة صحيحة لأن الله أخبر بذلك في غير ما آية .

وهذا متفق عليه بالنسبة لتوبة الكافر عن كفره لأن الأدلة بلغت مبلغ التواتر بالقول والعمل .

ومختلفٌ فيه بالنسبة لتوبة المؤمن من المعاصي لأن أدلته لا تعدو أن تكون دلالة ظواهر ؛

فقال المحققون من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين .

مقبولة قطعاً .

ونقل عن الأشعري وهو قول المعتزلة واختاره ابن عطية وأبوه وهو الحق .

وادعى الإمام في "المعالم" الإجماعَ عليه وهي أولى بالقبول .

وقال الباقلاني وإمام الحرمين والمازري : إنما يقطع بقبول توبة طائفة غير معينة ، يعنون لأن أدلة قبول جنس التوبة على الجملة متكاثرة متواترة بلغت مبلغ القطع ولا يقطع بقبول توبة تائب بخصوصه .

وكأنَّ خلاف هؤلاء يرجع إلى عدم القطع بأن التائب المعين تاب توبة نصوحاً .

وفي هذا نظر لأن الخلاف في توبة مستوفيةٍ أركانها وشروطها .

وقد تقدم ذلك عند قوله تعالى : ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ﴾ الآية

في سورة النساء (17) .

والأخذ في قوله : ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ [التوبة : 104] مستعمل في معنى القبول ، لظهور أن الله لا يأخذ الصدقة أخذاً حقيقياً ، فهو مستعار للقبول والجزاء على الصدقة .

وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص عن عاصم وأبو جعفر وخلف ﴿ مرجَوْن ﴾ بسكون الواو بدون همز على أنه اسم مفعول من أرجَاه بالألف ، وهو مخفف أرجأه بالهمز إذا أخره ، فيقال في مضارعه المخفف : أرجيته بالياء ، كقوله : ﴿ تُرجي من تشاء منهن ﴾ [الأحزاب : 51] بالياء ، فأصل مُرجَون مُرْجَيُون .

وقرأ البقية ﴿ مُرجَئُون ﴾ بهمز بعد الجيم على أصل الفعل كما قرىء ﴿ ترْجيءُ من تشاء ﴾ [الأحزاب : 51] .

(224/348)

واللام في قوله : ﴿ لأمر الله ﴾ للتعليل ، أي مؤخرون لأجل أمر الله في شأنهم .

وفيه حذف مضاف ، تقديره : لأجل انتظار أمر الله في شأنهم لأن التأخير مشعر بانتظار شيء .

وجملة : ﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ بيان لجملة : ﴿ وآخرون مُرجَون ﴾ باعتبار

متعلق خبرها وهو ﴿ لأمر الله ﴾ ، أي أمر الله الذي هو إما تعذيبهم ، وإما توبته عليهم .

ويفهم من قوله ﴿ يتوب عليهم ﴾ أنهم تابوا .

والتعذيب مفيد عدم قبول توبتهم حينئذٍ لأن التعذيب لا يكون إلا عن ذنب كبير .

وذنبهم هو التخلف عن النفير العام ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله أثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] الآية .

وقبول التوبة عما مضى فضل من الله .

و ﴿ إما ﴾ حرف يدل على أحد شيئين أو أشياء .

ومعناها قريب من معنى (أو) التي للتخيير ، إلا أن (إما) تدخل على كلا الاسمين المخير بين مدلوليهما وتحتاج إلى أن تتلى بالواو ، و (أو) لا تدخل إلا على ثاني الاسمين .

وكان التساوي بين الأمرين مع (إما) أظهر منه مع (أو) لأن (أو) تشعر بأن الاسم المعطوف عليه مقصود ابتداء .

وتقدم الكلام عليها عند قوله تعالى : ﴿ قالوا يا موسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين ﴾ في سورة الأعراف (115) .

ويعذبهم ويتوب عليهم ﴾ فعلان في معنى المصدر حذفت (أن) المصدرية منهما فارتفعا كارتفاع قولهم : "تسمعُ بالمعيدي خير من أن تراه" لأن موقع ما بعد (إما) للاسم نحو ﴿ إما العذاب وإما الساعة ﴾ [مريم : 75] و ﴿ وإما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم

حسناً ﴾ [الكهف: 86].

وجملة: ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل مناسب لإبهام أمرهم على الناس، أي والله عليم بما يليق بهم من الأمرين، محكم تقديره حين تتعلق به إرادته. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(225/348)

وقال الشيخ الشعراوى:

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

والمقصودون بهذه الآية هم الثلاثة الذين سيخصهم القرآن بآيات خاصة يقول فيها: ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ [التوبة: 118]

وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومرارة بن الربيع. وهم قد تخلفوا أيضاً عن غزوة تبوك، ولم يكن لهم عذر في التخلف أبداً، فكل واحد يملك راحلته، وعندهم مالهم، وعندهم كل شيء، وقد قصّ واحد منهم حكايته، وبيّن لنا أنه لم يكن له

عذر : " وما كنت في يوم من الأيام أقدر على المال والراحلة مني في تلك الغزوة ، كنت أقول : أتجهز غداً ، ويأتي الغد ولا أتجهز ، حتى أنفصل الركب ، فقلت ألحق بهم ، ولم ألحق بهم " .

هؤلاء هم الثلاثة الذين جاء فيهم القول : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ ﴾

و﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ أو " مرجَئون " والإرجاء هو التأخير . أي : أن الحكم فيهم لم يظهر بعد ؛ لأن الله يريد أن يبين للناس أمراً ، وخاصَّةً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينشئ في الدولة الإسلامية سجناً يُعزَل فيه المجرم ؛ وهذا لحكمة ، فكونك تأخذ المجرم وتعزله عن المجتمع وتحبسه في مكان فهذا جائز . لكن النكال في أن تدعه طليقاً ، وتسجن المجتمع عنه .

وهكذا تتجلى عظمة الإيمان ؛ لذلك أصدر صلى الله عليه وسلم أمراً بأن يقاطعهم الناس ، فلا يكلمهم أحد ، ولا يسأل عنهم أحد ، حتى اقرباؤهم ولا يختلط بهم أحد في السوق أو في المسجد .

(226/348)

وكان أحدهم يتعمد أن يصلي قريباً من النبي صلى الله عليه وسلم ويختلس النظرات ليرى هل ينظر النبي له أم لا ؟ ثم يذهب لبيت ابن عمه ليتسلق السور ، ويقول له : أتعلم أنني أحب

الله ورسوله ؟ فيرد عليه : الله ورسوله أعلم . وهكذا عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم المجتمع عنهم ، ولم يعزلهم عن المجتمع . وكذلك عزلهم عن زوجاتهم ، وهو الأمر الذي يصعب التحكم فيه . وحذر صلى الله عليه وسلم زوجاتهم أن يقربوهم إلى أن يأتي الله بأمره .

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾

هذا بالنسبة لنا – إما أن يعذبهم وإما أن يتوب عليهم . لكن الحق سبحانه وحده هو الذي يعلم مصير كل واحد منهم .

فالتشكيك إذن هو بالنسبة لنا ؛ لأنهم مُرْجَوْن لأمر الله ولم يبت فيهم بحكم لا إلى النار ولا إلى الجنة ، ولم يبَت فيهم بالعفو . أما أمرهم فهو معلوم له سبحانه إما أن يعذب وإما أن يتوب ؛ لأن كل حكم من الله له ميعاد يولد فيه ، ولكل ميلاد حكمة ، وهناك قوم عجّل الله بالحكم فيهم ، وقوم أخّر الله الحكم فيهم ؛ ليصفى الموقف تصفية تربية ، لهم في ذاتهم ، ولمن يشهدونهم .

وقد استمرت هذه المسألة أكثر من خمسين يوماً ؛ ليتأدبوا الأدب الذي يؤدبهم به المجتمع الإيماني ، فلم يشأ الله أن يبين الحكم حتى يستوفي هذا التأديب .

وإذا أُدِّب هؤلاء ، فإن تأديبهم سيكون على مَرْأى ومسمع من جميع الناس ، فيأخذون الأسوة من هذا التأديب .

ولو أن الله عجّل بالحكم ، لمرّت المسألة بغير تأديب للمعتذرين كذباً وغيرهم ، فقال : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ وما دام سبحانه قد حكم هنا بأنهم مؤخَّرون لأمر الله ، فليس لنا أن نتعجل قصتهم ، إلى أن يأتي قول الله فيهم : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ . . . ﴾ [التوبة : 118] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(227/348)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

أخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ قال : هم الثلاثة الذين خلفوا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وآخرون مرجون ﴾ قال : هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، من الأوس والخزرج .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب . أن أبا لبابة أشار إلى بني قريظة باصبعه أنه الذبح ، فقال : خنت الله ورسوله . فنزلت ﴿ لا تخونوا الله والرسول ﴾ [الأنفال : 27] ونزلت

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ فكان ممن تاب الله عليه .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ إما يعذبهم ﴾ يقول : يميتهم على معصية ﴿ وإما يتوب عليهم ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ [التوبة : 118] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(228/348)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

قوله تعالى : ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ : قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر عن عاصم " مُرْجَؤُون " بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة . والباقون " مُرْجَوْن " دون تلك الهمزة ، وهذا كقراءتهم في الأحزاب : " تُرْجِىء " بالهمزة ، والباقون بدونه . وهما لغتان يقال : أَرْجَأْتُه وأَرْجَيْتُه كأَعْطيته . ويحتمل أن يكونا أصلين بنفسِهما ، وأن تكونَ الياءُ بدلاً من الهمزة ، ولأنه قد عُهِد تحقيقُها كثيراً كقَرَأْت وقَرَيْتُ ، وتوضَّأْت وتوضَّيْت .

قوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ يجوز أن تكونَ هذه الجملةُ في محل رفع خبراً ، و " مُرْجَوْن " يكون

على هذا نعتاً للمبتدأ ، ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر ، وأن يكونَ في محل نصبٍ على الحال أي : هم مُؤَخَّرون : إمَّا معذَّبين وإمَّا متوباً عليهم . و " إمَّا " هنا للشك بالنسبة إلى المخاطب ، وإمَّا للإبهام بالنسبة إلى أنه أَبْهَمَ على المخاطبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 118.119 ﴾

(229/348)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) ﴾

لم يُصَرِّحْ بقبول توبتهم ، ولم يَسِمْهُم باليأسِ من غفرانه ، فوقفوا على قَدَمِ الخَجلِ ، متميلين بين الرهبة والرغبة ، متردِّدِين بين الخوف والرجاءَ . أخبر اللهُ – سبحانه – أنَّه إنْ عَذَّبَهم فلا اعتراضَ يتوجّه عليه ، وإنْ رَحِمَهم فلا سبيلَ لأحدٍ إليه ، قال بعضهم :

ويشبعني من الأمال وعدٌ . . . ومن علمي بتقصيري وعيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 61 ﴾

(230/348)

فصل

قال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

لما ذكر سبحانه أصناف الأعراب ذكر المهاجرين والأنصار ، وبين أن منهم السابقين إلى الهجرة .

وأن منهم التابعين لهم .

وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ " والأنصار " بالرفع على ﴿ والسابقون ﴾ وقرأ سائر القراء من الصحابة فمن بعدهم بالجرّ .

قال الأخفش : الخفض في الأنصار الوجه ؛ لأن السابقين منهم يدخلون في قوله : ﴿ والسابقون ﴾ وفي الآية تفضيل السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار ، وهم الذين صلوا القبلتين في قول سعيد بن المسيب وطائفة ، أو الذين شهدوا بيعة الرضوان .

وهي بيعة الحديبية في قول الشعبي ، أو أهل بدر في قول محمد بن كعب ، وعطاء بن يسار ، ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها ، قال أبو منصور البغدادي : أصحابنا

مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ، ثم الستة الباقون ، ثم البدريون ؛ ثم أصحاب أحد ، ثم أهل بيعة الرضوان بالحديبية .

(231/348)

قوله : ﴿ والذين اتبعوهم بِإِحْسَانٍ ﴾ قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه " الذين اتبعوهم " محذوف الواو وصفاً للأنصار على قراءته برفع الأنصار ، فراجعه في ذلك زيد بن ثابت ، فسأل أبي بن كعب فصدّق زيداً ، فرجع عمر عن القراءة المذكورة كما رواه أبو عبيد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، ومعنى ﴿ الذين اتبعوهم بإحسان ﴾ : الذين اتبعوا السابقين الأوّلين من المهاجرين والأنصار ، وهم المتأخرون عنهم من الصحابة فمن بعدهم إلى يوم القيامة ، وليس المراد بهم التابعين اصطلاحاً ، وهم كل من أدرك الصحابة ولم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم ، بل هم من جملة من يدخل تحت الآية ، فتكون " من " في قوله : ﴿ مِنَ المهاجرين ﴾ على هذا للتبعيض ، وقيل : إنها للبيان ، فيتناول المدح جميع الصحابة ، ويكون المراد بالتابعين : من بعدهم من الأمة إلى يوم القيامة . وقوله : ﴿ بإحسان ﴾ قيد للتابعين : أي والذين اتبعوهم متلبسين بإحسان في الأفعال والأقوال اقتداء منهم بالسابقين الأوّلين .

قوله : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ﴾ خبر للمبتدأ وما عطف عليه ، ومعنى رضاه سبحانه عنهم : أنه قبل طاعاتهم وتجاوز عنهم ، ولم يسخط عليهم ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بما أعطاهم من فضله ، ومع رضاه عنهم فقد ﴿ أَعَدَّ لَهُمْ جنات تَجْرِي تَحْتَهَا الأنهار ﴾ في الدار الآخرة .

وقرأ ابن كثير " تجري من تحتها الأنهار " بزيادة " من " .

وقرأ الباقون بحذفها والنصب على الظرفية ، وقد تقدّم تفسير جري الأنهار من تحت الجنات ، وتفسير الخلود والفوز .

قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مّنَ الأعراب منافقون ﴾ هذا عود إلى شرح أحوال المنافقين من أهل المدينة ، ومن يقرب منها من الأعراب .

﴿ وممن حولكم ﴾ خبر مقدّم ، و ﴿ من الأعراب ﴾ بيان ، وهو في محل نصب على الحال ، ﴿ ومنافقون ﴾ هو المبتدأ .

(232/348)

وقيل : وهؤلاء الذين هم حول المدينة من المنافقين هم : جهينة ومزينة ، وأشجع ، وغفار ، وجملة : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ المدينة مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ معطوفة على الجملة الأولى ، عطف

جملة على جملة .

وقيل : إن من أهل المدينة عطف على الخبر في الجملة الأولى ، فعلى الأول : يكون المبتدأ مقدّراً : أي ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، وعلى الثاني : يكون التقدير : وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا ، ولكون جملة ﴿ مردوا على النفاق ﴾ مستأنفة لا محل لها ، وأصل مرد وتمرّد اللين والملاسة والتجرّد ، فكأنهم تجرّدوا للنفاق ، ومنه : غصن أمرد : لا ورق عليه ، وفرس أمرد : لا شعر فيه .

وغلام أمرد : لا شعر بوجهه ، وأرض مرداء : لا نبات فيها ، وصرح ممرّد : مجرّد ؛ فالمعنى : أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه .

قال ابن زيد : معناه لجوا فيه وأتوا غيره ، وجملة : ﴿ لَا تَعْلَمُهُمْ ﴾ مبينة للجملة الأولى ، وهي مردوا على النفاق : أي ثبتوا عليه ثبوتاً شديداً ، ومهروا فيه حتى خفي أمرهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف سائر المؤمنين ؟ والمراد عدم علمه صلى الله عليه وسلم بأعيانهم لا من حيث الجملة ، فإن للنفاق دلائل لا تخفى عليه صلى الله عليه وسلم ، وجملة : ﴿ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ مقرّرة لما قبلها لما فيها من الدلالة على مهارتهم في النفاق ورسوخهم فيه ، على وجه يخفى على البشر ، ولا يظهر لغير الله سبحانه لعلمه بما يخفى ، وما تجنه الضمائر وتنطوي عليه السرائر .

ثم توعدهم سبحانه فقال : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قيل : المراد بالمرّتين : عذاب الدنيا

بالقتل والسبي ، وعذاب الآخرة ، وقيل : الفضيحة بانكشاف نفاقهم ، والعذاب في الآخرة ؛ وقيل : المصائب في أموالهم وأولادهم ، وعذاب القبر .

وقيل : غير ذلك مما يطول ذكره مع عدم الدليل على أنه المراد بعينه .

(233/348)

والظاهر أن هذا العذاب المكرّر هو في الدنيا بما يصدق عليه اسم العذاب ، وأنهم يعذبون مرّة بعد مرّة ، ثم يردون بعد ذلك إلى عذاب الآخرة ، وهو المراد بقوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ ومن قال : إن العذاب في المرة الثانية هو عذاب الآخرة ، قال معنى قوله : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ أنهم يردّون بعد عذابهم في النار ، كسائر الكفار إلى الدرك الأسفل منها ؛ أو أنهم يعذبون في النار عذاباً خاصاً بهم دون سائر الكفار ، ثم يردون بعد ذلك إلى العذاب الشامل لهم ولسائر الكفار .

ثم ذكر سبحانه حال طائفة من المسلمين وهم المخلطون في دينهم فقال : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وهو معطوف على قوله ﴿ منافقون ﴾ : أي وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة قوم ﴿ آخرون ﴾ ، ويجوز أن يكون آخرون مبتدأ ، واعترفوا بذنوبهم صفته ، و ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ خبره ، والمعنى : أن هؤلاء الجماعة

تخلفوا عن الغزو لغير عذر مسوّغ للتخلف ، ثم ندموا على ذلك ، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة كما اعتذر المنافقون ، بل تابوا واعترفوا بالذنب ، ورجوا أن يتوب الله عليهم .

والمراد بالعمل الصالح : ما تقدّم من إسلامهم وقيامهم بشرائع الإسلام ، وخروجهم إلى الجهاد في سائر المواطن .

والمراد بالعمل السيء : هو تخلفهم عن هذه الغزوة ، وقد أتبعوا هذا العمل السيء عملاً صالحاً ، وهو الاعتراف به والتوبة عنه ، وأصل الاعتراف : الإقرار بالشيء .

ومجرد الإقرار لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي ، والعزم على تركه في الحال والاستقبال ، وقد وقع منهم ما يفيد هذا كما سيأتي بيانه إن شاء الله .

ومعنى الخلط : أنهم خلطوا كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء باللبن ، واللبن بالماء .

(234/348)

ويجوز أن تكون الواو بمعنى الباء ، كقولك : بعت الشاة شاة ودرهما : أي بدرهم ، وفي قوله : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ دليل على أنه قد وقع منهم مع الاعتراف ما يفيد التوبة ، أو أن مقدّمة التوبة وهي الاعتراف قامت مقام التوبة ، وحرف الترجي وهو " عسى " ، هو

في كلام الله سبحانه يفيد تحقق الوقوع ؛ لأن الإطماع من الله سبحانه إيجاب لكونه أكرم الأكرمين ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أي : يغفر الذنوب ويتفضل على عباده .

قوله : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً ﴾ اختلف أهل العلم في هذه الصدقة المأمور بها ، فقيل : هي صدقة الفرض ، وقيل : هي مخصوصة بهذه الطائفة المعترفة بذنوبها ؛ لأنهم بعد التوبة عليهم عرضوا أموالهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، و " من " للتبعيض على التفسيرين ، والآية مطلقة مبينة بالسنة المطهرة ، والصدقة مأخوذة من الصدق ، إذ هي دليل على صدق مخرجها في إيمانه .

قوله : ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ الضمير في الفعلين للنبي صلى الله عليه وسلم : أي تطهرهم وتزكيهم يا محمد بما تأخذه من الصدقة منهم .

وقيل : الضمير في ﴿ تطهرهم ﴾ للصدقة : أي تطهرهم هذه الصدقة المأخوذة منهم ، والضمير في ﴿ تزكيهم ﴾ للنبي صلى الله عليه وسلم : أي تزكيهم يا محمد بالصدقة المأخوذة ، والأوّل : أولى لما في الثاني من الاختلاف في الضميرين في الفعلين المتعاطفين ؛ وعلى الأوّل : فالفعلان منتصبان على الحال ، وعلى الثاني : فالفعل الأوّل صفة لصدقة ، والثاني : حال منه صلى الله عليه وسلم .

ومعنى التطهير : إذهاب ما يتعلق بهم من أثر الذنوب ، ومعنى التزكية : المبالغة في التطهير .

قال الزجاج : والأجود أن تكون المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم : أي فإنك يا محمد

تطهرهم وتزكيهم بها على القطع والاستئناف ، ويجوز الجزم على جواب الأمر .

والمعنى : أن تأخذ من أموالهم صدقة تطهرهم .

(235/348)

وقد قرأ الحسن : بجزم " تطهرهم " .

وعلى هذه القراءة فيكون ﴿ وَتُزَكِّيهِمْ ﴾ على تقدير مبتدأ : أي وأنت تزكيهم بها .

قوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : ادع لهم بعد أخذك لتلك الصدقة من أموالهم ، قال النحاس .

وحكى أهل اللغة جميعا فيما علمناه ، أن الصلاة في كلام العرب : الدعاء ، ثم علل سبحانه أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصلاة على من يأخذ منه الصدقة فقال : ﴿ إِنَّ صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قرأ حفص ، وحمزة ، والكسائي ﴿ صلاتك ﴾ بالتوحيد .

وقرأ الباقون بالجمع ، والسكن : ما تسكن : إليه النفس وتطمئن به .

قوله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ لما تاب الله سبحانه على هؤلاء المذكورين سابقاً .

قال الله : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ ﴾ أي : غير التائبين ، أو التائبون قبل أن يتوب الله عليهم ويقبل

صدقاتهم ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة ﴾ لاستغنائه عن طاعة المطيعين ، وعدم مبالاته بمعصية العاصين .

وقرىء : " ألم تعلموا " بالفوقية ، وهو إما خطاب للتائبين ، أو لجماعة من المؤمنين ، ومعنى : ﴿ وَيَأْخُذُ الصدقات ﴾ : أي يتقبلها منهم ، وفي إسناد الأخذ إليه سبحانه بعد أمره لرسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها تشريف عظيم لهذه الطاعة ، ولمن فعلها .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التواب الرحيم ﴾ معطوف على قوله : ﴿ أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ مع تضمنه لتأكيد ما اشتمل عليه المعطوف عليه : أي : أن هذا شأنه سبحانه .

وفي صيغة المبالغة في التواب ، وفي الرحيم مع توسيط ضمير الفصل .

والتأكيد من التبشير لعباده والترغيب لهم ما لا يخفى .

(236/348)

قوله : ﴿ وَقُلِ اعملوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ والمؤمنون ﴾ فيه تخويف وتهديد : أي إن عملكم لا يخفى على الله ، ولا على رسوله ولا على المؤمنين ، فسارعوا إلى أعمال الخير ، وأخلصوا أعمالكم لله عزّ وجلّ ، وفيه أيضاً ترغيب وتنشيط ، فإن من علم أن عمله لا

يخفى سواء كان خيراً أو شرّاً رغب إلى أعمال الخير، وتجنب أعمال الشرّ، وما أحسن قول زهير:

ومهما تكن عند امرىء من خليقة . . . وإن خالها تخفى على الناس تعلم

والمراد بالرؤية هنا: العلم بما يصدر منهم من الأعمال، ثم جاء سبحانه بوعيد شديد فقال: ﴿ وَسَتُرَدُّونَ إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ أي: وستردّون بعد الموت إلى الله سبحانه، الذي يعلم ما تسرّونه وما تعلنونه، وما تخفونه وما تبدونه.

وفي تقديم الغيب على الشهادة: إشعار بسعة علمه عزّ وجلّ، وأنه لا يخفى عليه شيء، ويستوي عنده كل معلوم.

ثم ذكر سبحانه ما سيكون عقب ردّهم إليه فقال: ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ ﴾ أي: يخبركم ﴿ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ في الدنيا، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته، ويتفضل على من يشاء من عباده.

قوله: ﴿ وَءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ ذكر سبحانه ثلاثة أقسام في المتخلفين: الأوّل: المنافقون الذين مردوا على النفاق، والثاني: التائبون المعترفون بذنوبهم، الثالث: الذين بقي أمرهم موقوفاً في تلك الحال، وهم المرجون لأمر الله، من أرجيته وأرجأته: إذا أخرته.

قرأ حمزة والكسائي ، ونافع وحفص ﴿ مُرْجَوْنَ ﴾ بالواو من غير همزة .

وقرأ الباقون بالهمزة المضمومة بعد الجيم .

(237/348)

والمعنى : أنهم مؤخرون في تلك الحال ، لا يقطع لهم بالتوبة لا و بعدمها ، بل هم على ما يتبين من أمر الله سبحانه في شأنهم ﴿ إما يُعَذّبُهُمْ ﴾ إن بقوا على ما هم عليه ، ولم يتوبوا ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ إن تابوا توبة صحيحة وأخلصوا إخلاصاً تاماً ، والجملة في محل نصب على الحال ، والتقدير ﴿ وَءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ حال كونهم ، إما معذبين ، وإما متوباً عليهم ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بأحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فيما يفعله بهم من خير أو شرّ .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن أبي موسى ، أنه سئل عن قوله : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ فقال : هم الذين صلوا القبلتين جميعاً .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، عن سعيد بن المسيب ، مثله .

وأخرج ابن المنذر ، وأبو نعيم ، عن الحسن ، ومحمد بن سيرين ، مثله أيضاً .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : هم أبو بكر ، وعمر ، وعليّ ، وسلمان ،

وعمار بن ياسر .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن الشعبي قال : هم من أدرك بيعة الرضوان .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة في قوله : ﴿ والذين اتبعوهم بإِحْسَانٍ ﴾ قال : التابعون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، قال : هم من بقي من أهل الإسلام ، إلى أن تقوم الساعة .

(238/348)

وأخرج أبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمد بن كعب القرظي : أخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما أريد الفتن ، قال : إن الله قد غفر لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم ، قلت له : وفي أيّ موضع أوجب الله لهم الجنة في كتابه ؟ قال : ألا تقرءون قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ الآية أوجب لجميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الجنة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشرطه فيهم .

قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتبعوهم بإحسان .

يقول : يقتدون بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك .

قال أبو صخر : فوالله لكأني لم أقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتى قرأها عليّ ابن كعب .

وأخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعي قال : حدّثني يحيى بن أبي كثير ، والقسم ومكحول ، وعبدة بن أبي لبابة ، وحسان بن عطية ، أنهم سمعوا جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يقولون لما أنزلت هذه الآية : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ إلى قوله : ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " هذا لأمتي كلهم ، وليس بعد الرضا سخط " .

(239/348)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والطبراني في الأوسط ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مّنَ الأعراب ﴾ الآية ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم جمعة خطيباً ، فقال : " قم يا فلان فاخرج ، فإنك منافق " ، اخرج يا فلان ، فإنك منافق ، فأخرجهم بأسمائهم ففضحهم ، ولم يكن عمر بن الخطاب يشهد تلك الجمعة لحاجة كانت له ، فلقيهم عمر وهم يخرجون من المسجد ، فاختبأ منهم

استحياء أنه لم يشهد الجمعة ، وظن الناس قد انصرفوا ، واختبئوا هم من عمر ، وظنوا أنه قد علم بأمرهم ، فدخل عمر المسجد ، فإذا الناس لم ينصرفوا ، فقال له رجل : أبشر يا عمر فقد فضح الله المنافقين اليوم ، فهو : العذاب الأوّل ، والعذاب الثاني : عذاب القبر .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة في قوله : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأعراب ﴾ قال : جهينة ومزينة ، وأشجع وأسلم وغفار .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ مَرَدُواْ عَلَى النفاق ﴾ قال : أقاموا عليه ، ولم يتوبوا كما تاب آخرون .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن جريج ، في الآية قال : ماتوا عليه : عبد الله بن أبيّ ، وأبو عامر الراهب ، والجدّ بن قيس .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ قال : بالجوع والقتل .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن أبي مالك ، قال : بالجوع وعذاب القبر .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والبيهقي ، عن قتادة قال : عذاب في القبر ، وعذاب في النار .

وقد روى عن جماعة من السلف نحو هذا في تعيين العذابين ، والظاهر ما قدّمنا .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَءَاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا ﴾ قال : كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك .

فلما حضر رجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد ، وكان ممرّ النبيّ صلى الله عليه وسلم إذا رجع عليهم فلما رآهم قال : من هؤلاء الموثقون أنفسهم ؟ قالوا : هذا أبو لبابة ، وأصحاب له تخلفوا عنك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تطلقهم وتعذرهم ، قال : وأنا أقسم بالله ، لا أطلقهم ، ولا أعذرهم حتى يكون الله هو الذي يطلقهم ، رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين ، فلما بلغهم ذلك قالوا : ونحن لا نطلق أنفسنا حتى يكون الله هو الذي يطلقنا ، فنزلت : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ و " عسى " من الله واجب ، فلما نزلت أرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأطلقهم وعذرهم ، فجاءوا بأموالهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا فتصدّق بها عنا ، واستغفر لنا ، قال :

" ما أمرت أن آخذ أموالكم " ، فأنزل الله عزّ وجل : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ

وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ يقول : استغفر لهم ﴿ إِنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ يقول : رحمة لهم ، فأخذ منهم الصدقة واستغفر لهم ، وكانوا ثلاثة نفر لم يوثقوا أنفسهم بالسواري ، فأرجئوا سنة لا يدرون أيعذبون أو يتاب عليهم ؟ فأنزل الله عزّ وجل : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ إلى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ يعني : إن استقاموا .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، مثله سواء .

(241/348)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل ، عن مجاهد في قوله : ﴿ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ قال : هو أبو لبابة إذ قال لقريظة ما قال ، وأشار إلى حلقه بأن محمداً يذبحكم إن نزلتم على حكمه ، والقصة مذكورة في كتب السير .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا ﴾ قال : غزوهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَآخَرَ سَيِّئاً ﴾ قال : تخلفهم عنه .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ قال : استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوها ﴿ إِنَّ صلاتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ قال : رحمة لهم .

وأخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما ، عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتى بصدقة قال : " اللهم صلّ على آل فلان " ، فأتاه أبي بصدقته فقال : " اللهم صلّ على آل أبي أوفى " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في قوله : ﴿ اعملوا فَسَيَرَى الله عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ﴾ قال : هذا وعيد من الله عزّ وجلّ .

وأخرج أحمد ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والحاكم ، والبيهقي في الشعب ، وابن أبي الدنيا ، والضياء في المختارة ، عن أبي سعيد ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوّة ، لأخرج الله عمله للناس كائناً ما كان "

وأخرج ابن المنذر ، عن عكرمة ، في قوله : ﴿ وَءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ قال : هم الثلاثة الذين خلفوا .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، في الآية قال : هم هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، من الأوس والخزرج .

(242/348)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ يقول : يميتهم على معصية ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ فأرجأ أمرهم ثم نسخها فقال : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(243/348)

قوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر الذين أقامهم في مقام الخطر أتبعه تعيين طائفة من القسم الأول المستور الموصوف بالمرود ، فألحق بهم الضرر فقال : ﴿ والذين ﴾ وهو معطوف في قراءة من أثبت الواو على قوله ﴿ وآخرون ﴾ وخبره على ما يليق بالقصة : منافقون ماردون ، وأما على قراءة المدنيين وابن عامر بحذفها فيكون على تقدير سؤال سائل ، وذلك أنه لما قال تعالى ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ تشوفت النفس إلى الإعلام بهم ، فلما قال ﴿ وآخرون اعترفوا

بذنوبهم ﴾ اشتغل السامع بتفهمه ، وربما ظن أنه يأتي في آخر الكلام من تسميتهم ما يغنيه عن السؤال ، فلما إنتقل بقوله ﴿ وآخرون مرجون ﴾ إلى قسم آخر ، وختم الآية بصفتي العلم والحكمة ليعلم أن الترديد للتقسيم وأنه إن كان شك فهو بالنسبة إلى العباد وأما الله تعالى فمنزه عنه فذكر السامع بالصفتين ما كان دار في خلده ومال إليه قلبه من الإعلام بالماردين على النفاق ، فاشتد تشوفه إليه فكان كأنه قال : منْ منَ الماردين منهم ؟ فقال تعالى الذين ﴿ اتخذوا مسجداً ﴾ أي من الماردين وهم من أعظمهم مهارة في النفاق وإخفاء الكيد والشقاق لأنهم توصلوا إلى ذلك بأن كلفوا أنفسهم الأخذ لأعظم عرى الدين مع المنازعة للفطرة الأولى والحذر من أن يفضحوا ، فكان ختام هذه الآية من بديع الختام فإن احتراس عما يتوهم فيما قلبه ودليل على ما بعده ، ولذلك ختم قصتهم أيضاً بصفتي العلم والحكمة ، ولاح من هذا أن قوله ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ يمكن أن يراد به : مرة برجوعك ، ومرة بإخرابك مسجدهم وتفريقك لشملهم بعد هتك سرائرهم بكشف ضمائرهم ، وبَيَّنَ سبحانه علة اتخاذهم بقوله : ﴿ ضراراً ﴾ أي لأهل مسجد قباء أو لحزب الله عامة ﴿ وكفراً ﴾ أي بالله لاتخاذ دينه هزؤاً ﴿ وتفريقاً ﴾ أي مما يبيتونه من المكايد باستجلابهم لبعض من يخدعونه من المؤمنين ويطمعون فيه ليأتي مسجدهم ويترك المسجد المؤسس على التقوى ﴿ بين المؤمنين ﴾ أي الراسخين في الإيمان بما جاء من عند الله ، لأنهم كانوا يجتمعون في

(244/348)

مسجد قباء فيغتص بهم ﴿ وإرصاداً ﴾ أي إعداداً وانتظاراً ﴿ لمن حارب الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ ورسوله ﴾ ولما لم تكن محاربتهم مستغرقة للزمن الماضي ، أدخل الجار فقال : ﴿ من قبل ﴾ أي قبل اتخاذهم لهذا المسجد بزمن قريب وهو أبو عامر الفاسق ليأتي إليهم فيزيدهم قوة على نفاقهم بأن يصير كهفاً يأوون إليه ورأساً لهم يتجمعون عليه

(245/348)

" وذلك أنه كان من بني غنم بن عوف ، وهو والد حنظلة الغسيل الذي كان من خيار الصحابة ، وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ، فلما قدم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة قال له : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ قال : الحنيفية دين إبراهيم ، قال : أبو عامر : أنا عليها ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : لست عليها ، قال : بلى ولكنك أدخلت فيها ما ليس منها ، قال : ما فعلت ، ولكني جئت بها بيضاء نقية ، قال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً شريداً وحيداً غريباً ! فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : آمين !

وسماه الفاسق ، ثم تحيز إلى قريش وقاتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم يوم أحد وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلما قاتل يوم حنين مع هوازن وانهزموا أيس وهرب إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا فإني ذاهب إلى قيصر فآت بجنود ومخرج محمداً ! وكانوا قد حسدوا إخوانهم بني عمرو بن عوف على مسجد قباء لما بنوه ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأتيه ويصلي فيه ، فبنوا مسجد الضرار وأرسلوا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليأتيهم فيصلي فيه ، وكان يتجهز لتبوك فقال : أنا على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا صلينا فيه إن شاء الله ! فلما قدم فكان قريباً من المدينة نزلت الآية ، فدعا مالك بن الدخشم وجماعة وقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، ففعلوا ، وأمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يتخذ مكانه كناسه يلقي فيها الجيف والقمامه ؛ ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً طريداً "

وقيل : كل مسجد بني مباهاة أو لغرض ليس به إخلاص أو بمال مشتبه فهو لاحق بمسجد الضرار .

(246/348)

ولما أخبر عن سرائرهم ، أخبر عن نفاقهم في ظواهرهم بقوله : ﴿ وليحلفن ﴾ أي جهد أيمانهم ﴿ إن ﴾ أي ما ﴿ أردنا ﴾ أي باتخاذ له ﴿ إلا الحسنى ﴾ أي من الخصال ؛ ثم كذبهم بقوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ يشهد ﴾ أي يخبر إخبار الشاهد ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ وقد بان بهذا كله أن سبب فضيحتهم ما تضمنه فعلهم من عظيم الضرر للإسلام وأهله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 384 .

386 ﴾

(247/348)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين ﴾ وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ نافع وابن عامر ﴿ الذين اتخذوا ﴾ بغير واو ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة ،

والباقون بالواو ، وكذلك هو في مصاحف مكة والعراق .

فالأول : على أنه بدل من قوله : ﴿ وءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ ﴾ والثاني أن يكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

المسألة الثانية :

قال الواحدي : قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير رضي الله عنهم : الذين اتخذوا مسجداً ضراراً كانوا اثني عشر رجلاً من المنافقين بنوا مسجداً يضارون به مسجد قباء ، وأقول إنه تعالى وصفه بصفات أربعة :

الصفة الأولى : ضراراً ، والضرار محاولة الضر ، كما أن الشقاق محاولة ما يشق .

قال الزجاج : وانتصب قوله : ﴿ ضِرَارًا ﴾ لأنه مفعول له ، والمعنى : اتخذوه للضرار ولسائر الأمور المذكورة بعده ، فلما حذفت اللام اقتضاه الفعل فنصب .

قال وجائز أن يكون مصدراً محمولاً على المعنى ، والتقدير : اتخذوا مسجداً ضروا به ضراراً .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ وَكُفْراً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : يريد به ضرراً للمؤمنين وكفراً بالنبي عليه السلام ، وبما جاء به .

وقال غيره اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبي عليه السلام والإسلام .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين ﴾ أي يفرقون بواسطته جماعة المؤمنين ،

وذلك لأن المنافقين قالوا نبني مسجداً فنصلي فيه ، ولا نصلي خلف محمد ، فإن أتانا فيه صلينا معه .

وفرقنا بينه وبين الذين يصلون في مسجده ، فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة ، وبطلان الألفة .

(248/348)

والصفة الرابعة : قوله : ﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قالوا : المراد أبو عامر الراهب ، والد حنظلة الذي غسلته الملائكة ، وسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وترهب وطلب العلم ، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاداه ، لأنه زالت رياسته وقال : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشأم ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فإن ذاهب إلى قيصر ، وآت من عنده بجند ، فأخرج محمداً وأصحابه .

فبنوا هذا المسجد ، وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد .

قال الزجاج : الإرصاد الانتظار .

وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة .

وقال الأكثرون : الإرصاد ، الأعداد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : 14] وقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ يعني من قبل بناء مسجد الضرار ، ثم إنه تعالى لما وصف هذا المسجد بهذه الصفات الأربعة قال : ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ أي ليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى وهو الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز ، عن المصير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الممطرة والليلة الشاتية .

ثم قال تعالى : ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ والمعنى : أن الله تعالى أطلع الرسول على أنهم حلفوا كاذبين .

واعلم أن قوله : ﴿ والذين ﴾ محله الرفع على الابتداء وخبره محذوف ، أي وممن ذكرنا الذين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 153 . 154 ﴾

(249/348)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ الْآيَةَ

رُوِيَ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْ السَّلَفِ أَنَّهُمْ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ الْأَوْسِ ، وَالْخَزْرَجِ قَدْ سُمُّوا اسْتَأْذَنُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ لِلَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ ، وَالْمَطَرِ ، وَالْحَرِّ ، وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ قَصْدَهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ مُرَادُهُمْ التَّفْرِيقَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْ يَتَحَزَّبُوا فَيُصَلِّي حِزْبٌ فِي مَسْجِدٍ وَحِزْبٌ فِي مَسْجِدٍ آخَرَ لِتَخْتَلِفَ الْكَلِمَةُ وَتَبْطُلَ الْأُلْفَةُ ، وَالْحَالُ الْجَامِعَةُ ، وَأَرَادُوا بِهِ أَيْضًا لِيُكَفِّرُوا فِيهِ بِالطَّعْنِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْإِسْلَامِ ، فَيَتَفَاوَضُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْلُونَ فِيهِ فَلَا يُخَالِطُهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ .

(250/348)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ : أَرَادَ بِهِ أَبَا عَامِرٍ الْفَاسِقَ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ قَبْلُ ؛ وَكَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنَادًا وَحَسَدًا لِذَهَابِ رِيَاسَتِهِ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأَوْسِ قَبْلَ هِجْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى الْمَدِينَةِ ، فَقَالَ لِلْمُنَافِقِينَ : سَيَأْتِي قَيْصَرُ وَآتِيكُمْ بِجُنْدٍ فَأُخْرِجُ بِهِ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ فَبَنَوْا الْمَسْجِدَ إرْصَادًا لَهُ ، يَعْنِي مُتَرَقِّبِينَ لَهُ ، وَقَدْ دَلَّتْ هَذِهِ

الْآيَةُ عَلَى تَرْتِيبِ الْفِعْلِ فِي الْحُسْنِ ، أَوْ الْقُبْحِ بِالْإِرَادَةِ ، وَأَنَّ الْإِرَادَةَ هِيَ الَّتِي تَعَلَّقَ الْفِعْلُ بِالْمَعَانِي الَّتِي تَدْعُو الْحِكْمَةُ إلَى تَعْلِيقِهِ بِهِ ، أَوْ تَزْجُرُ عَنْهَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَوْ أَرَادُوا بِبِنَائِهِ إقَامَةَ الصَّلَوَاتِ فِيهِ لَكَانَ طَاعَةً لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَلَمَّا أَرَادُوا بِهِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَنْهُمْ مِنْ قَصْدِهِمْ وَإِرَادَتِهِمْ كَانُوا مَذْمُومِينَ كُفَّارًا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(251/348)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إنْ أَرَدْنَا إلَّا الْحُسْنَى وَاَللَّهُ يَشْهَدُ إنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ وَالْمُقَصِّرِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فِي آيَاتٍ جُمْلَةٍ ، ثُمَّ طَبَّقَهُمْ طَبَقَاتٍ عُمُومًا وَخُصُوصًا ، فَقَالَ : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا ﴾ .

﴿ وَمِنْ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ ﴾ ؛ وَهَذَا مَدْحٌ يَتَمَيَّزُ

بِهِ الْفَاضِلُ مِنْ النَّاقِصِ وَالْمُحِقُّ مِنْ الْمُبْطِلِ ، ثُمَّ ذَكَرَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ﴾ أَيْ اسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ وَتَحَقَّقُوا بِهِ .

وَقَالَ : وَآخَرُونَ يَعْنِي عَلَى التَّوَسُّطِ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ﴾ وَهُمْ نَحْوٌ مِنْ سَبْعَةٍ ، مِنْهُمْ أَبُو لُبَابَةَ ، وَكَعْبٌ ، وَمُرَارَةُ ، وَهِلَالٌ ، جَعَلَهُمْ تَحْتَ الْمَشِيئَةِ وَرَجَّأَهُمْ بِالتَّوْبَةِ ، مُشِيرًا إلَى الْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ ، ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ .

(252/348)

أَسْقَطَ ابْنُ عَامِرٍ وَنَافِعٌ مِنْهُمَا الْوَاوَ ، كَأَنَّهُ رَدَّهُ إلَى مَنْ هُوَ أَهْلٌ مِمَّنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ ، وَزَادَ غَيْرُهُمَا الْوَاوَ ، كَأَنَّهُ جَعَلَهُمْ صِنْفًا آخَرَ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّ إسْقَاطَ الْوَاوِ تَجْعَلُهُ مُبْتَدَأً ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلْ هُوَ لِمَا تَقَدَّمَ وَصْفٌ ، وَلَنْ يَحْتَاجَ إلَى إضْمَارٍ ، وَقَدْ مَهَّدْنَاهُ فِي الْمُلْجِئَةِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي سَبَبِ نُزُولِ الْآيَةِ : رُوِيَ ﴿ أَنَّ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ الْمُنَافِقِينَ كُلُّهُمْ يَنْتَمُونَ إلَى الْأَنْصَارِ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ بَنَوْا مَسْجِدًا ضِرَارًا بِمَسْجِدِ قُبَاءَ ، وَجَاءُوا إلَى

النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ خَارِجٌ إِلَى تَبُوكَ ، فَقَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ بَنَيْنَا مَسْجِدًا لِذِي الْعِلَّةِ وَالْحَاجَةِ وَاللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ ، وَإِنَّا نُحِبُّ أَنْ تَأْتِيَنَا وَتُصَلِّيَ فِيهِ لَنَا .

فَقَالَ النَّبِيُّ : إِنِّي عَلَى جَنَاحِ سَفَرٍ وَشُغْلٍ ، وَلَوْ قَدِمْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُمْ فَصَلَّيْنَا لَكُمْ فِيهِ .

فَلَمَّا نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقُرْبِ الْمَدِينَةِ رَاجِعًا مِنْ سَفَرِهِ أَرْسَلَ قَوْمًا لِهَدْمِهِ ، فَهُدِمَ وَأُحْرِقَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ ضِرَارًا ﴾ : قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : ضِرَارًا بِالْمَسْجِدِ ، وَلَيْسَ لِلْمَسْجِدِ ضِرَارٌ ، إِنَّمَا هُوَ ضِرَارٌ لِأَهْلِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَكُفْرًا ﴾ : لَمَّا اتَّخَذُوا الْمَسْجِدَ ضِرَارًا لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ لَا حُرْمَةَ لِمَسْجِدِ قُبَاءَ وَلَا لِمَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَرُوا بِهَذَا الِاعْتِقَادِ .

(253/348)

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا جَمَاعَةً وَاحِدَةً فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ ، فَأَرَادُوا أَنْ يُفَرِّقُوا شَمْلَهُمْ فِي الطَّاعَةِ ، وَيَنْفَرِدُوا عَنْهُمْ لِلْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَهَذَا يَدُلُّك عَلَى أَنَّ الْمَقْصِدَ الْأَكْثَرَ وَالْغَرَضَ الْأَظْهَرَ مِنْ وَضْعِ الْجَمَاعَةِ تَأْلِيفُ الْقُلُوبِ ، وَالْكَلِمَةُ عَلَى الطَّاعَةِ ، وَعَقْدُ الذِّمَامِ وَالْحُرْمَةُ بِفِعْلِ الدِّيَانَةِ ، حَتَّى يَقَعَ الْأُنْسُ بِالْمُخَالَطَةِ ؛

وَتَصْفُوَ الْقُلُوبُ مِنْ وَضَرِ الْأَحْقَادِ وَالْحَسَادَةِ .

وَلِهَذَا الْمَعْنَى تَفَطَّنَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حِينَ قَالَ : " إنَّهُ لَا تُصَلِّي جَمَاعَتَانِ فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ ، وَلَا بِإِمَامَيْنِ ، وَلَا بِإِمَامٍ وَاحِدٍ " خِلَافًا لِسَائِرِ الْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الشَّافِعِيِّ الْمَنْعُ حَيْثُ كَانَ ذَلِكَ تَشْتِيتًا لِلْكَلِمَةِ ، وَإِبْطَالًا لِهَذِهِ الْحِكْمَةِ ، وَذَرِيعَةً إلَى أَنْ نَقُولَ : مَنْ أَرَادَ الِانْفِرَادَ عَنْ الْجَمَاعَةِ كَانَ لَهُ عُذْرٌ ، فَيُقِيمُ جَمَاعَتَهُ ، وَيُقِيمُ إمَامَتَهُ ؛ فَيَقَعُ الْخِلَافُ ، وَيَبْطُلُ النِّظَامُ ، وَخَفِيَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ ، وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُهُ مَعَهُمْ ، وَهُوَ أَثْبَتُ قَدَمًا مِنْهُمْ فِي الْحِكْمَةِ ، وَأَعْلَمُ بِمَقَاطِعِ الشَّرِيعَةِ .

(254/348)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ : يُقَالُ : أَرْصَدْتُ كَذَا لِكَذَا إذَا أَعْدَدْتَهُ مُرْتَقِبًا لَهُ ، وَالْخَبَرُ بِهَذَا الْقَوْلِ عَنْ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ ، سَمَّاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو عَامِرٍ الْفَاسِقُ ، كَانَ قَدْ حَزَّبَ الْأَحْزَابَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَاءَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْخَنْدَقِ ، فَلَمَّا خَذَلَهُ اللَّهُ لَحِقَ بِالرُّومِ يَطْلُبُ النَّصْرَ مِنْ مَلِكِهِمْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَتَبَ إلَى أَهْلِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ ، يَأْمُرُهُمْ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ الْمَذْكُورِ ، لِيُصَلِّيَ فِيهِ إذَا رَجَعَ ، وَأَنْ يَسْتَعِدُّوا قُوَّةً وَسِلَاحًا ؛

وَلِيَكُونَ فِيهِ اجْتِمَاعُهُمْ لِلطَّعْنِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ ، فَأَطْلَعَهُ اللَّهُ عَلَى أَمْرِهِمْ ، وَأَرْسَلَ لِهَدْمِهِ وَحَرْقِهِ ، وَنَهَاهُ عَنْ دُخُولِهِ ، فَقَالَ ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(255/348)

وقال السمرقندى :

﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾

يعني : بنوا مسجداً مضرة للمسلمين .

وقال القتبي : يعني مضارة ، ليضاروا به مخالفيهم ، ليدخلوا عليهم المضرة ، ﴿ وَكُفْراً ﴾ ؛ يعني : وإظهاراً للكفر ، ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين ﴾ .

قرأ نافع وابن عامر ﴿ الذين ﴾ بغير واو ، وقرأ الباقون بالواو ؛ ومعناهما واحد ، إلا أن الواو للعطف .

نزلت الآية في سبعة عشر من المنافقين من بني غنم بن عوف ، قالوا : تعالوا نبني مسجداً ، يكون فيه متحدثنا ومجمع رأينا .

فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسألوه أن يأذن لهم في بناء المسجد ، وقالوا : قد بعُد علينا المسير إلى الصلاة معك ، فتفوتنا الصلاة ، فاذن لنا أن نبني مسجداً لذوي العلّة والليلة المطيرة .

فأذن لهم ، وكانوا ينظرون رجوع أبي عامر الراهب من الشام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم سماه فاسقاً ، وقال : " لا تَقُولُوا رَاهِبٌ ولكن قُولُوا فَاسِقٌ " وقد كان آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم مرتين ثم رجع عن الإسلام ، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فمات كافراً .

فلما ظهر أمرهم ونفاقهم ، جاؤوا يحلفون ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ أي أردنا ببناء المسجد فنزل ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ يعني : بنوا المسجد للضرار والكفر وللتفريق بين المؤمنين لكي يصلي بعضهم في مسجد قباء وبعضهم في مسجدهم ، وليجتمع الناس إلى مسجدهم ويتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

﴿ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ الله وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، يعني : انتظاراً لمن هو كافر بالله ورسوله من قبل بناء المسجد ، أن يقدم عليهم من قبل الشام ، وهو أبو عامر الراهب .

﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ ، أي ما أردنا ببناء المسجد إلاَّ صواباً ، لكيلا تفوتنا الصلاة بالجماعة ، ولكي يرجع أبو عامر فيسلم .

﴿ واللهَ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما حلفوا ، وإنَّما اجتمعوا فيه لإظهار النفاق والكفر .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(256/348)

وقال الثعلبى :

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً ﴾ الآية

(257/348)

قال المفسرون : " إنّ بني عمر بن عوف اتخذوا مسجد قبا وبعثوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم فأتاهم فصلى فيهم فحسدهم إخوتهم بنو غنم ابن عوف ، وقالوا : نبني مسجداً ونرسل الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه كما صلى في مسجد إخوتنا وليصلي فيه أبو عامر النعمان الراهب إذا قدم من الشام وكان أبو عامر رجلاً منهم وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان قد ترهّب في الجاهلية وتنصّر ولبس المسوح . فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر : ما هذا الذي جئت به ؟ قال : "

جئت بالحنيفيّة دين إبراهيم " ، قال أبو عامر : فأنا عليها قال النبي صلى الله عليه وسلم : " فإنك لست عليها " قال : بلى ولكنك أدخلت في الحنيفيّة ما ليس منها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " ما فعلت ولكني جئت بها بيضاء نقية " ، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم أمات الله الكاذب منّا طريداً وحيداً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " آمين " ، وسمي العامر الفاسق . فلما كان يوم أُحد قال أبو عامر لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أجد قوماً يقاتلونك إلاّ قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج الى الروم يستنصر وأرسل الى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب الى قيصر ملك الروم فآت بجند من الروم فأُخرج محمداً وأصحابه ، وذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ فبنوا مسجداً الى جنب مسجد قبا وكان الذين بنوه اثنا عشر رجلاً : خذام بن خالد ومن داره أخرج المسجد ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وأبو الأرعد ، وعباد بن حنيف ، وحارثة بن عامر ، [وجارية وابناه] مجمّع وزيد ، ونبتل بن الحارث . ولحاد بن عثمان ، ووديعة ابن ثابت ، وكان يصلي بهم مجمع بن يسار ، فلما فرغوا أتوا رسول الله صلى الله عليه سلم هو يتجهز الى تبوك ، وقالوا : يا رسول الله

إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه وتدعو بالبركة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إني على جناح السفر ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه " .

فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من تبوك ونزل [بذي أوان] بلد بينه وبين المدينة ساعة ، فسألوه إتيان مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن فأخبره الله عزّ وجلّ خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن والوحشي قاتل حمزة وقال لهم : " انطلقوا الى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا سريعاً حتى اتوا سالم بن عوف واتوا رهط مالك بن الدخشم فقال مالك لهم : انتظروا حتى آتي لكم بنار من أهلي فدخل أهله فأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا ينشدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدّموه وتفرّق عنه أهله وامر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيه الجيف والدنس والقمامة ، "

ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً غريباً وفيه يقول كعب بن مالك :

معاذ الله من فعل الخبيث . . . كسعيك في العشيرة عبد عمرو

فاما قلت بأن لي شرف ونخل . . . قدما بعت إيماناً بكفر

قال عكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلاً منهم ماذا أعنت في هذا المسجد فقال : أعنت في سارية فقال عمر : أبشر بها في عنقك في نار جهنم .

(259/348)

ويروى أنّ بني عمر بن عوف الذين بنوا مسجد قبا سألوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمع بن حارثة فيؤمّهم في مسجدهم فقال : لا ولا نعمة عين أليس هو مسجد الضرار ، فقال له مجمّع : يا أمير المؤمنين لا تعجل عليَّ . فوالله لقد صليت فيه واني لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولقد علمت ما صلّيت معهم فيه كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا ثبوتاً قد رغبوا وكانوا لا يعلمون من القرآن شيئاً فصليت ولا أحسب منعوا شيئاً إلاّ أنهم يتضرعون الى الله ولم أعلم ما في أنفسهم .

فعذره عمر وصدّقه وأمره بالصلاة في مسجد قبا . فهذا قصة مسجد الضرار الذي أنزل الله عزّ وجلّ فيه ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِداً ﴾ قرأه العامة بالواو ، وقول أهل المدينة والشام بغير الواو ، وكذلك هو في مصاحف أهل المدينة والشام .

قال عطاء : لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم ألاّ يتخذوا في مدينتهم مسجدين مجاوراً أحدهما لصاحبه .

وروى ليث أن شقيقاً لم يدرك الصلاة في مسجد بني عامر فقيل له : مسجد بني فلان لم يصلوا بعد .

قال : لا أحب أن أُصلي فيه فإنه بني على ضرار وكل مسجد بني على ضرار أو رياءً أو سمعة فإن أصله ينتهي الى مسجد ضرار .

﴿ وَكُفْراً ﴾ نفاقاً ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين ﴾ يفرقون به جماعتهم لأنهم كانوا صلون جمعاً في مسجد قبا فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم دون مسجد قبا وبعضهم في مسجد قبا فيختلفوا بسبب ذلك ويفترقوا ﴿ وَإِرْصَاداً ﴾ وانتظاراً وإعداداً ﴿ لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْل ﴾ وهو أبو عامر الراهب الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام ويظهر على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

(260/348)

قرأ الأعمش وإرصاداً للذين حاربوا الله ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ ما أردنا ﴿ إِلاَّ الحسنى ﴾ إلاّ الفعلة الحسنى وهي للمرضى المسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز

عن المسير الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ في قولهم وحلفهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(261/348)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً ﴾

هؤلاء هم بنو عمرو بن عوف وهم اثنا عشر رجلاً من الأنصار المنافقين ، وقيل : هم خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق ، وثعلبة بن حاطب ، وَمُعَتِّب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وابناه مُجمّع وزيد ابنا جارية ، ونبتل بن الحارث ، وبجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت ، وبحرج وهو جد عبد الله بن حنيف ، وله قال النبي صلى الله عليه وسلم " وَيْلَكَ يَا بَحْرَجَ مَاذَا أَرَدْتَ بِمَا أَرَى ؟ " فقال يا رسول الله ما أردت إلا الحسنى ، وهو كاذب ، فصدقه ، فبنى هؤلاء مسجد الشقاق والنفاق قريباً من مسجد قباء .

﴿ ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني ضراراً ، وكفراً بالله ، وتفريقاً بين المؤمنين أن لا يجتمعوا كلهم في مسجد قباء فتجتمع كلمتهم ، ويتفرقوا فتتفرق كلمتهم ، ويختلفوا بعد

ائتلافهم .

﴿ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ . . . ﴾ وفي الإرصاد وجهان :

أحدهما : أنه انتظار سوء يتوقع .

الثاني : الحفظ المقرون بفعل .

وفي محاربة الله تعالى ورسوله وجهان :

أحدهما : مخالفتهما .

(262/348)

الثاني : عداوتهما . والمراد بهذا الخطاب أبو عامر الراهب والد حنظلة بن الراهب كان قد حزّب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم خاف فهرب إلى الروم وتنصر واستنجد هرقل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فبنوا هذا المسجد له حتى إذا عاد من هرقل صلى فيه ، وكانوا يعتقدون أنه إذا صلى فيه نُصِر ، وكانوا ابتدأوا بنيانه ورسول الله صلى الله عليه وسلم خارج إلى تبوك ، فسألوه أن يصلي لهم فيه فقال : " أَنَا عَلَى سَفَرٍ وَلَو قَدِمْنَا إِن شَآءَ اللَّهُ أَتَيْنَاكُم وَصَلَّيْنَا لَكُم فِيهِ " . فلما قدم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، وقالوا قد فرغنا منه ، فأتاه خبر المسجد

وأنزل الله تعالى فيه ما أنزل .

وحكى مقاتل أن الذي أمّهم فيه مجمع بن جارية وكان قارئاً ، ثم حسن إسلامه بعد ذلك فبعثه عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى الكوفة يعلمهم القرآن ، وهو علم ابن مسعود بقية القرآن .

﴿ . . . وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى ﴾ يحتمل ثلاثة أوجه : أحدها : طاعة الله تعالى .

والثاني : الجنة .

والثالث : فعل التي هي أحسن ، من إقامة الدين والجماعة والصلاة ، وهي يمين تحرُّج .

﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : والله يعلم إنهم لكاذبون في قولهم خائنون في إيمانهم .

والثاني : والله يعلمك أنهم لكاذبون خائنون . فصار إعلامه له كالشهادة منه عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(263/348)

وقال ابن عطية :

وأما الجماعة المرادة ب ﴿ الذين اتخذوا ﴾ ، فهم منافقو بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف ، وأسند الطبري عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره أنه قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك حتى نزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا يا رسول الله إنَّا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنَّا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال إني على جناح سفر وحال شغل ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما أقبل ونزل بذي أوان نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه ، فانطلقا مسرعين ففعلا وحرقاه بنار في سعف ، وذكر النقاش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر ووحشياً مولى المطعم بن عدي ، وكان بانوه اثني عشر رجلاً ، خذام بن خالد ، ومن داره أخرج مسجد الشقاق وثعلبة بن حاطب ومتعب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف ، وجارية بن عمرو وابناه مجمع بن جارية وهو كان

إمامهم ، وحلف لعمر بن الخطاب في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم وزيد بن جارية ونبتل بن الحارث ، ويخرج وهو من بني ضبيعة وبجاد بن عثمان ووديعة بن ثابت ويخرج منهم هو الذي حلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أردت إلا الحسنى " والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباء ، وقرأ ابن أبي عبلة " ما أردنا إلا الحسنى " ، والآية تقتضي شرح شيء من أمر هذه المساجد ، فروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف وهو مسجد قباء ، وقيل وجده مبنياً قبل وروده ، وقيل وجده موضع صلاة فبناه وتشرف القوم بذلك ، فحسدهم من

(265/348)

حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف ، فكان فيهم نفاق ، وكان موضع مسجد قباء مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية ، فكان المنافقون يقولون والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية ونحو هذا من الأقوال ، وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم ، وكانت أمه من الروم فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة وكان سيداً نظيراً وقريباً من عبد الله بن أبي ابن

سلول ، فلما جاء الله بالاسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزب على رسول الله صلى الله عليه وسلم الأحزاب ، فلما ردهم الله بغيظهم أقام أبو عامر بمكة مظهراً لعداوته ، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف .

(266/348)

فلما أسلم أهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مقاومة لمسجد قباء وتحقيراً له ، فإني سآتي بجيش من الروم أخرج به محمداً وأصحابه من المدينة فبنوه ، وقالوا سيأتي أبو عامر ويصلي فيه ويتخذه متعبداً ويسر به ، ثم إن أبا عامر هلك عند قيصر ونزل القرآن في أمر مسجد الضرار فذلك قوله ﴿ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ يعني أبا عامر وقولهم سيأتي أبو عامر ، وقرأ الأعمش " للذين حاربوا الله " وقوله ﴿ ضراراً ﴾ أي داعية للتضار من جماعتين فلذلك قال ﴿ ضراراً ﴾ وهو في الأكثر مصدر ما يكون من اثنين وإن كان المصدر الملازم لذلك مفاعلة كما قال سيبويه ، ونصب " ضرار " وما بعده على الصدر في موضع الحال ، ويجوز أن يكون على المفعول من أجله ، وقوله ﴿

بين المؤمنين ﴾ يريد بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباء فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصرفونه إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان ، وقيل أراد بقوله ﴿ بين المؤمنين ﴾ جماعة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى وسيأتي ذلك ، قال النقاش يلزم من هذا أن لا يصلى في كنيسة ونحوها لأنها بنيت على شر من هذا كله وقد قيل في هذا لا تقم فيه أبداً .

(267/348)

قال القاضي أبو محمد : وهذا تفقه غير قوي ، و" الإرصاد " الإعداد والتهيئة ، والذي حارب الله ورسوله هو أبو عامر الفاسق ، وقوله ﴿ من قبل ﴾ يريد في غزوة الأحزاب وغيرها ، والحالف المراد في قوله ﴿ ليحلفن ﴾ هو يخرج ومن حلف من أصحابه ، وكسرت الألف من قوله ﴿ إنهم لكاذبون ﴾ لأن الشهادة في معنى القول ، وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته فقيل له إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلي فيه فإنه بني على ضرار وكل مسجد بني ضراراً ورياء وسمعة فهو في حكم مسجد الضرار ، وروي أن مسجد الضرار

لما هدم وأحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأقذار والقمامات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(268/348)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "والذين" بواو .

وكذلك هي في مصاحفهم .

وقرأ نافع ، وابن عامر : "الذين" بغير واو ، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة والشام .

قال أبو علي : من قرأ بالواو ، فهو معطوف على ما قبله نحو قوله : ﴿ ومنهم من عاهد الله ﴾ [التوبة : 75] ﴿ ومنهم من يلمزك ﴾ [التوبة : 58] ﴿ ومنهم الذين يؤذون النبي ﴾ [التوبة : 61] والمعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً .

ومن حذف الواو فعلى وجهين .

أحدهما : أن يضمر ومنهم الذين اتخذوا كقوله : أكفرتم ، المعنى : فيقال لهم : أكفرتم .

والثاني : أن يضمر الخبر بعدُ ، كما أُضمر في قوله : ﴿ إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام ﴾ [الحج : 25] ، المعنى : يُنتقم منهم ويعذَّبون .

(269/348)

قال أهل التفسير : لما اتخذ بنو عمرو بن عوف مسجد قُباء ، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاهم ، فصلى فيه ، حسدهم إخوتهم بنو غَنْم بن عَوف ، وكانوا من منافقي الأنصار ، فقالوا : نبني مسجداً ، ونرسل إلى رسول الله فيصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ؛ وكان أبو عامر قد ترهَّب في الجاهلية وتنصَّر ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، عاداه ، فخرج إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن أعدُّوا من استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً ، فاني ذاهب إلى قيصر فآتي بجند الروم فأُخرج محمداً وأصحابه ، فبنوا هذا المسجد ، إلى جنب مسجد قباء ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خِذام بن خالد ومِن داره أُخرج المسجد ، ونَبْتَل بن الحارث ، وبِجاد بن عثمان ، وثعلبة بن حاطب ، ومُعتِّب بن قُشير ، وعبَّاد بن حُنَيف ، ووديعة بن ثابت ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وجارية بن عامر ، وابناه يزيد ومُجمِّع ، وكان مُجمِّع إمامهم فيه ، ثم صلحت حاله ، وبجزج جد عبد الله بن حنيف ، وهو الذي قال له

رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما أردتَ بما أرى " ؟ فقال : والله ما أردت إلا الحسنى ، وهو كاذب .

وقال مقاتل : الذي حلف مُجمّع .

وقيل : كانوا سبعة عشر ، فلما فرغوا منه ، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا قد ابتنينا مسجداً لذي العلَّة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصليَ فيه ، فدعى بقميصه ليلبسه ، فنزل عليه القرآن وأخبره الله خبرهم ، فدعا معن بن عدي ، ومالك بن الدُّخشُم في آخرين ، وقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وأحرِقوه ، " وأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتُخذ كُناسة تُلقى فيها الجيف .

ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً .

فأما التفسير : فقال الزجاج : ﴿ الذين ﴾ في موضع رفع ، المعنى : ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً .

(270/348)

و ﴿ ضراراً ﴾ انتصب مفعولاً له ، المعنى : اتخذوه للضرار والكفر والتفريق والإرصاد .

فلما حذفت اللام ، أفضى الفعل ، فنَصب .

قال المفسرون : والضرار : بمعنى المُضارّة لمسجد قباء ، ﴿ وكفراً ﴾ بالله ورسوله ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ لأنهم كانوا يصلُّون في مسجد قباء جميعاً ، فأرادوا تفريق جماعتهم ، والإرصاد : الانتظار ، فانتظروا به مجيء أبي عامر ، وهو الذي حارب الله ورسوله من قبل بناء مسجد الضرار .

﴿ وليحلفُنَّ إن أردنا ﴾ أي : ما أردنا ﴿ إلا الحسنى ﴾ أي : ما أردنا بابتنائه إلا الحسنى ؛ وفيها ثلاثة أوجه .

أحدها : طاعة الله .

والثاني : الجنة .

والثالث : فعل التي هي أحسن من إقامة الدين والاجتماع للصلاة .

وقد ذكرنا اسم الحالف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(271/348)

وقال القرطبى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

فيه عشر مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِداً ﴾ معطوف ، أي ومنهم الذين اتخذوا مسجداً ، عطف جملة على جملة .

ويجوز أن يكون رفعاً بالابتداء والخبر محذوف كإنهم "يعذّبون" أو نحوه .

ومن قرأ "الذين" بغير واو وهي قراءة المدنيين فهي عنده رفع بالابتداء ، والخبر "لاَ تَقُمْ" التقدير : الذين اتخذوا مسجداً لا تقم فيهِ أبداً ؛ أي لا تقم في مسجدهم ؛ قاله الكسائي .

وقال النحاس : يكون خبر الابتداء "لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ" .

وقيل : الخبر "يعذبون" كما تقدّم .

(272/348)

ونزلت الآية فيما روي فى أبي عامر الراهب ؛ لأنه كان خرج إلى قَيْصر وتنصّر ووعدهم قيصر أنه سيأتيهم ، فَبَنَوْا مسجد الضّرار يرصدون مجيئه فيه ؛ قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم ، وقد تقدّمت قِصته في الأعراف وقال أهل التفسير : إن بني عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قُبَاء وبعثوا للنبيّ صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلّى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غُنْم بن عوف وقالوا : نبني مسجداً ونبعث إلى النبيّ صلى الله عليه

وسلم يأتينا فيُصلّي لنا كما صلّى في مسجد إخواننا ، ويصلِّي فيه أبو عامر إذا قدم من الشام ؛ فأتوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله ، قد بنينا مسجداً لذي الحاجة ؛ والعِلّة والليلة المطيرة ، ونحب أن تصلّي لنا فيه وتدعو بالبركة ؛ فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إني على سفر وحالِ شغل فلو قدِمنا لأتيناكم وصلّينا لكم فيه " فلما انصرف النبيّ صلى الله عليه وسلم من تبوك أتوه وقد فرغوا منه وصلّوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضِّرار ؛ فدعا النبيّ صلى الله عليه وسلم مالك بن الدُّخْشُم ومعن بن عَدي وعامر بن السَّكَن ووحْشِيّاً قاتل حمزة ، فقال : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه " فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدُّخْشُم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه ، وكان الذين بنوه اثني عشر رجلاً : خِذام بن خالد من بني عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أُخرِج مسجد الضرار ، ومعتّب بن قُشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعَبّاد بن حُنيف أخو سهل بن حنيف من بني عمرو بن عوف . وجارية بن عامر ، وابناه مُجمّع وزيد ابنا جارية ، ونَبْتل بن الحارث ، وبَحْزَج ، وبَجَاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت ؛ وثعلبة بن حاطب مذكور فيهم .

قال أبو عمر بن عبد البر : وفيه نظر ؛ لأنه شهد بدراً .

وقال عِكرمة : سأل عمر بن الخطاب رجلاً منهم بماذا أعنت في هذا المسجد ؟ فقال : أعنت فيه بسارية .

فقال : أبشر بها ! سارية في عنقك من نار جهنم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ ضِرَاراً ﴾ مصدر مفعول من أجله .

﴿ وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين وَإِرْصَاداً ﴾ عطف كله .

وقال أهل التأويل : ضرار بالمسجد ، وليس للمسجد ضراراً ، إنما هو لأهله .

وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا ضَرَرَ ولا ضِرار مَن ضارّ ضَارّ الله به ومن شاقّ شَاقَّ الله عليه " قال بعض العلماء : الضرر : الذي لك به منفعة وعلى جارك فيه مضرة .

والضِّرار : الذي ليس لك فيه منفعة وعلى جارك فيه المضرة .

وقد قيل : هما بمعنى واحد ، تكلّم بهما جميعاً على جهة التأكيد .

الثالثة قال علماؤنا : لا يجوز أن يُبنى مسجد إلى جنب مسجد ، ويجب هدمه ؛ والمنع من بنائه لئلا ينصرف أهل المسجد الأوّل فيبقى شاغراً ، إلا أن تكون المَحلّة كبيرة فلا يكفي أهلَها مسجدٌ واحد فيبنى حينئذ .

وكذلك قالوا .

لا ينبغي أن يبنى في المصر الواحد جامعان وثلاثة ، ويجب منع الثاني ؛ ومن صلّى فيه الجمعة لم تُجْزِه .

وقد أحرق النبيّ صلى الله عليه وسلم مسجد الضّرار وهدمه .

وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلِّي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته ، فقيل له : إن مسجد بني فلان لم يصلّ فيه بعدُ ؛ فقال : لا أُحبّ أن أُصلِّي فيه ؛ لأنه بُني على ضرار .

قال علماؤنا : وكل مسجد بُني على ضرار أو رياء وسُمعة فهو في حكم مسجد الضرار لا تجوز الصلاة فيه .

وقال النقاش : يلزم من هذا ألاّ يصلَّى في كنيسة ونحوها ؛ لأنها بنيت على شرّ .

قلت : هذا لا يلزم ؛ لأن الكنيسة لم يقصد ببنائها الضّرر بالغير ، وإن كان أصل بنائها على شر ، وإنما اتخذ النصارى الكنيسة واليهودُ البيعة موضعاً يتعبدون فيه بزعمهم كالمسجد لنا فافترقا .

(274/348)

وقد أجمع العلماء على أن من صلّى في كنيسة أو بيعة على موضع طاهر أن صلاته ماضية جائزة .

وقد ذكر البخاري أن ابن عباس كان يصلِّي في البيعة إذا لم يكن فيها تماثيل .

وذكر أبو داود عن عثمان بن أبي العاص أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كانت طواغِيتهم .

الرابعة قال العلماء : إن من كان إماماً لظالم لا يصلَّى وراءه ؛ إلا أن يظهر عذره أو يتوب ؛ فإن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء سألوا عمر بن الخطاب في خلافته ليأذن لمجمّع بن جارية أن يصلّي بهم في مسجدهم ؛ فقال : لا ولا نعْمَة عين ! أليس بإمام مسجد الضرار ! فقال له مُجَمّع : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل عليّ ، فوالله لقد صلّيت فيه وأنا لا أعلم ما قد أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت بهم فيه ، كنت غلاماً قارئاً للقرآن ، وكانوا شيوخاً قد عاشوا على جاهليتهم ، وكانوا لا يقرؤون من القرآن شيئاً ، فصليت ولا أحسِب ما صنعتُ إثماً ، ولا أعلم بما في أنفسهم ؛ فعذره عمر رضي الله عنهما وصدّقه وأمره بالصلاة في مسجد قُباء .

الخامسة قال علماؤنا رحمة الله عليهم : وإذا كان المسجد الذي يُتّخذ للعبادة وحضّ الشرع على بنائه فقال : " من بنى لله مسجداً ولو كَمَفْحَص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة " يُهدَم وينزع إذا كان فيه ضرر بغيره ، فما ظنك بسواه ! بل هو أحْرَى أن يُزال ويُهدم حتى لا

يدخل ضرر على الأقدم .

وذلك كمن بنى فُرْناً أو رَحًى أو حفر بئراً أو غير ذلك مما يُدخل به الضرر على الغير .

وضابط هذا الباب : أن من أدخل على أخيه ضرراً مُنع .

فإن أدخل على أخيه ضرراً بفعل ما كان له فعله في ماله فأضر ذلك بجاره أو غير جاره نظر إلى ذلك الفعل ؛ فإن كان تركُه أكبر ضرراً من الضرر الداخل على الفاعل قُطع أكبر الضررين وأعظمهما حرمة في الأُصول .

(275/348)

مثال ذلك : رجل فتح كوّة في منزله يَطّلع منها على دار أخيه وفيها العيال والأهل ، ومن شأن النساء في بيوتهن إلقاء بعض ثيابهن والانتشار في حوائجهن ، ومعلوم أن الاطلاع على العورات محرّم وقد ورد النهي فيه ؛ فلحرمة الاطلاع على العورات رأى العلماء أن يغلقوا على فاتح الباب والكوّة ما فتح مما له فيه منفعة وراحة وفي غلقه عليه ضرر لأنهم قصدوا إلى قطع أعظم الضررين ، إذ لم يكن بُدٌّ من قطع أحدهما وهكذا الحكم في هذا الباب ، خلافاً للشافعيّ ومن قال بقوله .

قال أصحاب الشافعيّ : لو حفر رجل في ملكه بئراً وحفر آخر في ملكه بئراً يسرق منها ماء

البئر الأوّلة جاز ؛ لأن كل واحد منهما حفر في ملكه فلا يُمنع من ذلك .

ومثله عندهم : لو حفر إلى جنب بئر جاره كِنيفاً يُفسده عليه لم يكن له منعه ؛ لأنه تصرف في ملكه .

والقرآن والسنة يردّان هذا القول .

وبالله التوفيق .

ومن هذا الباب وجه آخر من الضرر منع العلماء منه ، كدخان الفرن والحمام وغبارِ الأندر والدودِ المتولّد من الزّبل المبسوط في الرّحاب ، وما كان مثل هذا فإنه يقطع منه ما بان ضرره وخشي تماديه .

وأما ما كان ساعة خفيفة مثل نفض الثياب والحصر عند الأبواب ؛ فإن هذا مما لا غِنًى بالناس عنه ، وليس مما يستحق به شيء ؛ فَنَفْيُ الضرر في منع مثل هذا أعظمُ وأكبر من الصبر على ذلك ساعةً خفيفة .

وللجار على جاره في أدب السنة أن يصبر على أذاه على ما يقدر ، كما عليه ألا يؤذيه وأن يحسن إليه .

السادسة ومما يدخل في هذا الباب مسألة ذكرها إسماعيل بن أبي أويس عن مالك أنه سئل عن امرأة عَرَض لها ، يعني مَسّاً من الجن ، فكانت إذا أصابها زوجُها وأجنبت أو دنا منها

يشتدّ ذلك بها .

فقال مالك : لا أرى أن يقربها ، وأرى للسلطان أن يحول بينه وبينها .

(276/348)

السابعة قوله تعالى : ﴿ وَكُفْراً ﴾ لما كان اعتقادهم أنه لا حرمة لمسجد قُباء ولا لمسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم كفروا بهذا الاعتقاد ؛ قاله ابن العربي .

وقيل : "وَكُفْراً" أي بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وبما جاء به ؛ قاله القشيرِيّ وغيره .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين ﴾ أي يفرّقون به جماعتهم ليتخلف أقوام عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهذا يدلكَ على أن المقصد الأكبر والغرضَ الأظهر من وضع الجماعة تأليفُ القلوب والكلمة على الطاعة ، وعقدُ الذّمام والحرمة بفعل الدّيانة حتى يقع الأنس بالمخالطة ، وتصفو القلوب من وَضَر الأحقاد .

التاسعة تفطّن مالك رحمه الله من هذه الآية فقال : لا تصلِّي جماعتان في مسجد واحد بإمامين ؛ خلافاً لسائر العلماء .

وقد رُوي عن الشافعيّ المنع ؛ حيث كان تشتيتاً للكلمة وإبطالاً لهذه الحكمة وذرِيعة إلى

أن نقول : من يريد الانفراد عن الجماعة كان له عذر فيقيم جماعته ويقدم إمامته فيقع الخلاف ويبطل النظام ، وخفي ذلك عليهم .

قال ابن العربي : وهذا كان شأنه معهم ، وهو أثبت قدماً منهم في الحكمة وأعلم بمقاطع الشريعة .

العاشرة قوله تعالى : ﴿ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ يعني أبا عامر الراهب ؛ وسُمِّيَ بذلك لأنه كان يتعبّد ويلتمس العلم فمات كافراً بِقِنَّسْرِين بدعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه كان قال للنبيّ صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ؛ فلم يزل يقاتله إلى يوم حُنين .

فلما انهزمت هوازِن خرج إلى الروم يستنصر ، وأرسل إلى المنافقين وقال : استعدّوا بما استطعتم من قوّة وسلاح ، وابنوا مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر فآت بجند من الروم لأخرج محمداً من المدينة ؛ فبنوا مسجد الضرار .

وأبو عامر هذا هو والد حنظلة غَسِيل الملائكة .

والإرصاد : الانتظار ؛ تقول : أرصدت كذا إذا أعددته مرتقباً له به .

قال أبو زيد : يقال رصدته وأرصدته في الخير ، وأرصدت له في الشر .

وقال ابن الأعرابي : لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه ارتقبت .

وقوله تعالى : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل بناء مسجد الضرار .

﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ أي ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى ، وهي الرفق بالمسلمين كما ذكروا لذي العِلة والحاجة .

وهذا يدلّ على أن الأفعال تختلف بالمقصود والإرادات ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى ﴾ .

﴿ واللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ أي يعلم خُبث ضمائرهم وكِذبَهم فيما يحلفون عليه .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(278/348)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ﴾

نزلت في جماعة من المنافقين بنوا مسجداً يضارّون به مسجد قباء وكانوا اثني عشر رجلاً من أهل النفاق وديعة بن ثابت وخذام بن خالد ومن داره أخرج هذا المسجد وثعلبة بن

حاطب وجارية بن عمرو وابناه مجمع وزيد ومعتب بن قشير وعباد بن حنيف أخو سهل بن حنيف وأبو حبيبة بن الأزعر ونبتل بن الحرث وبجاد بن عثمان وبجزج بنوا هذا المسجد ضراراً يعني مضارة للمؤمنين وكفراً يعني ليكفروا فيه بالله ورسوله ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ لأنهم كانوا جميعاً يصلون في مسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة وكان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شاباً يقرأ القرآن ولم يدر ما أرادوا ببنائه ، فلما فرغوا من بنائه ، أتوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه وتدعو لنا بالبركة فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إني على جناح سفر ولو قدمنا إن شاء الله تعالى أتيناكم فصلينا فيه "

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ يعني أنهم بنوا هذا المسجد للضرار والكفر وبنوه إرصاداً يعني انتظاراً وإعداداً لمن حارب الله ورسوله ﴿ من قبل ﴾ يعني من قبل بناء هذا المسجد وهو أبو عامر الراهب والد حنظلة غسيل الملائكة وكان أبو عامر قد ترهب في الجاهلية ولبس المسموح وتنصر ، فلما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) المدينة قال له أبو عامر ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) : " جئت بالحنيفية دين إبراهيم " .

فقال أبو عامر : فأنا عليها .

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : إنك لست عليها .

(279/348)

قال أبو عامر : بلى ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية .

فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طويداً وحيداً غريباً فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) : آمين " وسماه الناس : أبا عامر الفاسق .

فلما كان يوم أحد ، قال أبو عامر الفاسق للنبي (صلى الله عليه وسلم) : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن ، يئس أبو عامر وخرج هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا ما استطعتم من قوة وسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء ، فذلك وقوله : سبحانه وتعالى : ﴿ وإرصاداً ﴾ يعني انتظاراً لمن حارب الله ورسوله يعني أبا عامر الفاسق ليصلي فيه إذا رجع من الشام من قبل يعني أن أبا عامر الفاسق حارب الله ورسوله من قبل مسجد الضرار

﴿ وليحلفن ﴾ يعني الذين بنوا المسجد ﴿ إن أردنا ﴾ يعني ما أردنا ببنائه ﴿ إلا الحسنى ﴾ يعني إلا الفعلة الحسنى وهي : الرفق بالمسلمين والتوسعة على أهل الضعف والعجز عن الصلاة في مسجد قباء أو مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ يعني في قيلهم وحلفهم .

(280/348)

روي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما انصرف من تبوك راجعاً نزل بذي أوان وهو موضع قريب من المدينة فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم فأنزل الله هذه الآية خبر مسجد الضرار وما هموا به فدعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، فخرجوا مسرعين حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك أنظروني حتى أخرج إليكم بنار ، فدخل أهله فأخذ من سعف النخل فأشعله ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فأحرقوه وهدموه وتفرق عنه أهله وأمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيها الجيف والنتن والقمامة .

مات أبو عامر الراهب بالشام غريباً وحيداً .

وروي أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء أتوا عمر بن الخطاب في خلافته ، فسألوه أن يأذن لمجمع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم .

فقال : لا ولا نعمة عين أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين لا تعجل عليّ فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم فيه وكنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت بهم ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله ولو أعلم ما في أنفسهم فعذره عمر فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

قال عطاء : لما فتح الله على عمر بن الخطاب الأمصار أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأمرهم أن لا يبنوا في موضع واحد مسجدين يضار أحدهما الآخر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(281/348)

وقال أبو السعود :

﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ﴾

عطفٌ على ما سبق أي ومنهم الذين أو نصبٌ على الذم وقرىء بغير واو لأنها قصة على

حيالها ﴿ ضِرَارًا ﴾ أي مضارّةً للمؤمنين وانتصابُه على أنه مفعولٌ ثانٍ لاتخذوا أو على أنه مصدرٌ مؤكدٌ لفعل مقدر منصوبٍ على الحالية أي يضارّون بذلك ضراراً أو على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل وقع حالاً من ضمير اتخذوا أي مضارِّين للمؤمنين . (روي أن بني عمرو بنِ عَوْف لما بنَوا مسجدَ قُباءَ بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهَم فيصليَ بهم في مسجدهم فلما فعله عليه الصلاة والسلام حسدتْهم إخوتُهم بنو غنم بنِ عوف وقالوا : نبني مسجداً ونرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامرٍ الراهب أيضاً إذا قدم من الشام) وهو الذي سماه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الفاسقَ (وقد كان قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتُك معهم فلم يزل يفعل ذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازنُ يومئذ ولّى هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استعدتم من قوة وسلاح فإني ذاهبٌ إلى قيصرَ وآتٍ بجنود ومخرجٌ محمداً وأصحابَه من المدينة) (فبنَوا مسجداً إلى جنب مسجد قباءَ وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجةِ والليلةِ المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصليَ لنا فيه وتدعوَ لنا بالبركة فقال عليه الصلاة والسلام :

" إني على جناح سفر وحالِ شُغْلٍ وإذا قدِمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه " فلما قفَل عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوكَ سألوه إتيانَ المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بنِ الدخشم ومعنِ بن عدي وعامر بنِ السكن ووحشي فقال لهم : " انطلقوا إلى هذا المسجد الظالمِ أهلُه فاهدِموه وأحرِقوه " ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كُناسةٌ تلقى فيها الجيفُ والقُمامة وهلك أبو عامر الفاسقُ بالشام بِقِنَّسْرين) ﴿ وَكُفْراً ﴾ تقوية للكفر الذي يُضمِرونه ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين ﴾ الذين كانوا يصلون في مسجد قباءَ مجتمعين فيغص بهم فأرادوا أن يتفرقوا وتختلف كلمتُهم ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ إعداداً وانتظاراً وترقباً ﴿ لّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهو الراهبُ الفاسقُ أي لأجله حتى يجيءَ فيصليَ فيه ويظهرَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلقٌ باتخذوا أي اتخذوا من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك ، أو بحارب أي جارٍ بهما قبل اتخاذِ هذا المسجد ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ إِلاَّ الحسنى ﴾ إلا الخَصلةَ الحسنى وهي الصلاةُ وذكرُ الله والتوسعةُ على المصلين أو إلا الإرادةَ الحسنى ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ في حِلفهم ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ﴾

عطف على ما سبق أي ومنهم الذين ، وجوز أن يكون مبتدأ خبره ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ [التوبة : 109] والعائد محذوف للعلم به أي منهم أو الخبر محذوف أي فيمن وصفنا ، وأن يكون منصوباً بمقدر كأذم وأعني .

وقرأ نافع .

وابن عامر بغير واو ، وفيه الاحتمالات السابقة إلا العطف ، وأن يكون بدلاً من ﴿ ءاخَرُونَ ﴾ [التوبة : 106] على التفسير المرجوح ، وقوله سبحانه : ﴿ ضِرَارًا ﴾ مفعول له وكذا ما بعده وقيل : مصدر في موضع الحال أو مفعول ثان لا تخذوا على أنه بمعنى صيروا أو مفعول مطلق لفعل مقدر أي يضارون بذلك المؤمنين ضراراً ، والضرار طلب الضرر ومحاولته ، أخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس أن جماعة من الأنصار قال لهم أبو عامر : ابنوا مسجداً واستمدوا ما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم فأخرج محمداً عليه الصلاة والسلام وأصحابه فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة فنزلت .

وأخرج ابن إسحق .

وابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال أتى أصحاب مسجد الضرار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا ، يا رسول الله أنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الساتية وأنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه فقال صلى الله عليه وسلم : إني على جناح سفر وحال شغل أو كما قال عليه الصلاة والسلام ولو قدمنا إن شاء الله تعالى لآتيناكم فصلينا لكم فيه فلما رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره ونزل بذي أوان بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار أتاه خبر المسجد فدعا مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف .

(284/348)

ومعن بن عدي وأخاه عاصم بن عدي أحد بلعجان فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وأحرقاه فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك فقال مالك لصاحبه : أنظرني حتى أخرج لك بنار من أهلي فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله فأحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ونزل فيهم من القرآن ما نزل وكان البانون له اثنى عشر رجلاً : خذام بن خالد من بني

عبيد بن زيد أحد بني عمرو بن عوف ومن داره أخرج المسجد .

وعباد بن حنيف من بني عمرو بن عوف أيضاً .

وثعلبة بن حاطب .

ووديعة بن ثابت وهما من بني أمية بن زيد رهط أبي لبابة بن عبد المنذر .

ومعتب بن قشير .

وأبو حبيبة بن الأزعر .

وحارثة بن عامر .

وابناه مجمع .

وزيد .

ونبيل بن الحرث .

ونجاد بن عثمان ، وبجدح من بني ضيعة .

وذكر البغوي من حديث ذكره الثعلبي كما قال العراقي بدون سند "أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بعد حرق المسجد وهدمه أن يتخذ كناسة يلقى فيها الجيف والنتن والقمامة إهانة لأهله لما أنهم اتخذوه ضراراً ﴿ وَكُفْراً ﴾ أي وليكفروا فيه ، وقدر بعضهم التقوية أي وتقوية الكفر الذي يضمرونه ، وقيل عليه : أن الكفر يصلح علة فما الحاجة إلى التقدير .

واعتذر بأنه يحتمل أن يكون ذلك لما أن اتخاذه ليس بكفر بل مقوله لما اشتمل عليه فتأمل ﴿ وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين ﴾ وهم كما قال السدى أهل قباء فإنهم كانوا يصلون في مسجدهم جميعاً فأراد هؤلاء حسداً أن يتفرقوا وتختلف كلمتهم ﴿ وَإِرْصَادًا ﴾ أي ترقبا وانتظاراً ﴿ لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ وهو أبو عامر والد حنظلة غسيل الملائكة رضي الله تعالى عنه ، وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح وتنصر فلما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة قال له أبو عامر : ما هذا الدين الذي جئت به ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : الحنيفية البيضاء دين إبراهيم عليه السلام قال : فأنا عليها فقال له عليه الصلاة والسلام : إنك لست عليها فقال : بلى ولكنك أنت أدخلت فيها ما ليس منها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ما فعلت ولكن جئت بها بيضاء نقية فقال أبو عامر : أمات الله تعالى الكاذب منا طريداً وحيداً فأمن النبي صلى الله عليه وسلم فسماه الناس أبا عامر الكذاب وسماه النبي صلى الله عليه وسلم الفاسق فلما كان يوم أحد قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل كذلك إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن يومئذ ولى هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين يحثهم على بناء مسجد كما ذكرنا آنفاً عن الحبر فبنوه وبقوا منتظرين قدومه ليصلي فيه ويظهر على رسول الله صلى الله

عليه وسلم فهدم كما مر ومات أبو عامر وحيداً بقنسرين وبقي ما أضمروه حسرة في قلوبهم .

(286/348)

﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق بحارب أي حارب الله ورسوله عليه الصلاة والسلام قبل هذا الاتخاذ أو متعلق باتخذوا أي اتخذوه من قبل أن ينافقوا بالتخلف حيث كانوا بنوه قبل غزوة تبوك كما سمعت ، والمراد المبالغة في الذم ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ إِلاَّ الحسنى ﴾ أي إلا الخصلة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله تعالى والتوسعة على المصلين ؛ فالحسنى تأنيث الأحسن وهو في الأصل صفة الخصلة وقد وقع مفعولاً به لأردنا ، وجوز أن يكون قائماً مقام مصدر محذوف أي الإرادة الحسنى ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما حلفوا عليه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(287/348)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾

هذا كلام على فريق آخر من المؤاخَذين بأعمال عملوها غضب الله عليهم من أجلها ، وهم فريق من المنافقين بنوا مسجداً حول قباء لغرض سيء لينصرف إخوانهم عن مسجد المؤمنين وينفردوا معهم بمسجد يخصهم .

فالجملة مستأنفة ابتدائية على قراءة من قرأها غيرَ مفتتحة بواو العطف ، وهي قراءة نافع وابن عامر وأبي جعفر .

ونكتة الاستئناف هنا التنبيه على الاختلاف بين حال المراد بها وبين حال المراد بالجملة التي قبلها وهم المرجون لأمر الله .

وقرأها البقية بواو العطف في أولها ، فتكون معطوفةً على التي قبلها لأنها مثلها في ذكر فريق آخر مثل مَن ذكر فيما قبلها .

وعلى كلتا القراءتين فالكلام جملة أثر جملة وليس ما بعد الواو عطف مفرد .

وقوله ﴿ الذين ﴾ مبتدأ وخبره جملة : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ كما قاله الكسائي .

والرابط هو الضمير المجرور من قوله : ﴿ لا تقم فيه ﴾ لأن ذلك الضمير عائد إلى المسجد وهو مفعولُ صلةِ الموصول فهو سببي للمبتدأ ، إذ التقدير : لا تقم في مسجد اتخذوه ضراراً ، أو في مسجدهم ، كما قدره الكسائي .

ومن أعربوا ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ [التوبة : 109] خبراً فقد بعدوا عن المعنى .

والآية أشارت إلى قصة اتخاذ المنافقين مسجداً قُرب مسجد قُباء لقصد الضرار ، وهم طائفة من بني غُنْم بن عَوف وبني سالم بن عَوف من أهل العوالي .

كانوا اثني عشر رجلاً سماهم ابن عطية .

وكان سبب بنائهم إيَّاه أن أبا عامر واسمه عبد عمرو ، ويلقب بالراهب من بني غنم بن عوف كان قد تنصر في الجاهلية فلما جاء الإسلام كان من المنافقين .

ثم جاهر بالعداوة وخرج في جماعة من المنافقين فحزَّب الأحزاب التي حاصرت المدينة في وقعة الخندق فلما هزمهم الله أقام أبو عامر بمكة .

(288/348)

ولما فتحت مكة هرب إلى الطائف ، فلما فتحت الطائف وأسلمت ثقيف خرج أبو عامر إلى الشام يستنصر بقيصر ، وكتب إلى المنافقين من قومه يأمرهم بأن يبنوا مسجداً ليخلصوا فيه بأنفسهم ، ويعِدهم أنه سيأتي في جيش من الروم ويخرج المسلمين من المدينة .

فانتدب لذلك اثنا عشر رجلاً من المنافقين بعضهم من بني عمرو بن عوف وبعضهم من أحلافهم من بني ضبيعَة بن زيد وغيرهم ، فبنوه بجانب مسجد قباء ، وذلك قُبيل مخرج

رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تَبوك .

وأتوا النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ونحن نحب أن تصلي لنا فيه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه .

فلما قفل من غزوة تبوك سألوه أن يأتي مسجدهم فأنزل الله هذه الآية ، وحلفوا أنهم ما أرادوا به إلا خيراً .

والضرار : مصدر ضار مبالغة في ضر ، أي ضِراراً لأهل الإسلام .

والتفريق بين المؤمنين هو ما قصدوه من صرف بني غُنم وبني سالم عن قباء .

والإرصاد : التهيئة .

والمراد بمن حارب الله ورسوله أبو عامر الراهب ، لأنه حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحزاب وحاربه مع ثقيف وهوازنَ ، فقوله : ﴿ من قبلُ ﴾ إشارة إلى ذلك ، أي من قبل بناء المسجد .

وجملة : ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ معترضة ، أو في موضع الحال .

والحسنى : الخير .

وجملة : ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ معترضة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

يقص لنا القرآن هنا حالاً من أحوال المنافقين ، وأحوالهم مع الإيمان متعددة . وقد ذكر الحق سبحانه عنهم أشياء صدَّرها بقوله : ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمِنْهُمْ ﴾ و ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ؛ ولذلك يسميها العلماء " مناهم التوبة " ، مثل قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ عَاهَدَ اللهَ . . . ﴾ [التوبة : 75]

وقول الحق : ﴿ وَمِنْهُمُ الذين يُؤْذُونَ النبي . . . ﴾ [التوبة : 61]

وقوله الحق : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ ائذن لِّي وَلاَ تَفْتِنِّي . . . ﴾ [التوبة : 49]

وقال الحق عنهم أيضاً : ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ، ﴿ وَيَحْلِفُونَ ﴾ ويقولون عنها : " محالف التوبة " ، ويقص الحق هنا حالاً آخر من أحوال المنافقين ، وقد قص له نظيراً فيما سبق ، وهؤلاء المنافقون – كما قلنا – متعارضون في ملكاتهم ، ملكة لسانية تؤمن ، وملكة قلبية تكفر . والمزاوجة بين الملكات المتناقضة أمر عسير على النفس

وشاق ، ويتطلب مجهوداً عاطفيّاً ، ومجهوداً عقليّاً ، ومجهوداً حركيّاً ، فَهُم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا كلاماً ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا كلاماً ، ويقص الحق ذلك حين يعلنون الإيمان بألسنتهم في قوله : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الذين آمَنُواْ قالوا آمَنَّا . . . ﴾ [البقرة : 14] أما إذا خَلَوْا إلى أنفسهم فالحق يصف حالهم : ﴿ وَإِذَا خَلَوْاْ إلى شَيَاطِينِهِمْ قالوا إِنَّا مَعَكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 14]

(290/348)

وهكذا تُكْبَت ملكات لسانهم في أن يقولوا وقت يكونوا مع المؤمنين ، أما حين يكونون مع إخوانهم فهم يُنفِّسون عن ملكاتهم فيقولون قولاً مختلفاً ، وهذه مسألة متناقضة ؛ ولذلك قال القرآن فيما سبق : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة : 57]

أي : لو أنهم يجدون مكاناً أميناً ، لا يراهم فيه المؤمنون ، لنفَّسوا عن أنفسهم ، وسبّوا النبي ، وسبّوا المؤمنين ، وقالوا ما يريدون ، إلا أنهم لا يجدون هذا المكان ، إنهم يُنفِّسوا عن أنفسهم ؛ إذن : ﴿ لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ ، لكنهم لا يجدون .

ويقص الحق سبحانه وتعالى هنا قصة أخرى من أحوالهم فيقول عز وجل : ﴿ والذين

اتخذوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً . . . ﴾ [التوبة : 107]

نحن نعلم أن كلمة " مسجد " في عمومها هي مكان السجود ، وفي الخصوص هي مكان يحجز للسجود وللصلاة فقط ، فإن أردت المعنى العام ، فكل الأرض مسجد ، وتستطيع أن تصلي في أي مكان فيصير مسجداً ، لا بالمكان ولكن بالمكين ، وبعد ذلك تزاول فيه أعمال الحياة ، وقد تصلي في الفصل الدراسي أو المكتب أو المصنع أو الحقل أو في أي مكان تزاول فيه أسباب الحياة .

وبذلك يصبح المكان الذي تصلي فيه مسجداً بالمكين ، ولكن هناك مسجد آخر مخصص دائماً للصلاة حين يؤخذ حيز من المكان ، ويقال : " حجز ليكون مسجداً " ، فلا تباشر فيه أي عملية من عمليات الحياة إلا الصلاة وهو مسجد – بالمكان – ، ونحن نعلم أن أول مسجد أسِّس هو مسجد قباء والذين بنوه هم بنو عمرو بن عوف ، ثم أراد المنافقون أن يُنفِّسوا عن أنفسهم في صورة طاعة ، فبنوا مسجداً ضراراً ، وقد بناه بنو غُنْم بن عوف وأرادوا بهذا المسجد أن ينافسوا مسجد قباء .

(291/348)

ونعلم كيف يكون الضرار بين المتنافسين على شيء ، كما يحدث الآن تماماً ، وتسمع من يقول : ولماذا أقام الحي الفلاني مسجداً ، ولم نقُم نحن مسجداً ؟

وعلى ذلك فكل مسجد فيه هذه الصفة ؛ صفة التنافس للحصول على سمعة أو تحيز لجهة على جهة ، أو رياء ، فهذا يعتبر مسجداً ضراراً ؛ لأن كل هذه المسائل فرقت جماعة المسلمين .

وقد يقول قائل : ولكن هذا الأمر ظاهرة صحية ، ونقول : لا ، إن لنا أن نعرف أنها ظاهرة مرضية في الإيمان ؛ لأنك ترى المسجد وليس فيه صفان مكتملان ، ثم يوجد بعده بعدة أمتار مسجد ، وهناك مسجد ثالث بعد عدة أمتار ، ثم مسجد رابع ، فهذه كلها مساجد ضرار .

إذن : ف " المسجد " بمعناه الخاص هو المكان الذي يحيز حتى يصير مسجداً ، لا يزاول فيه شيء غير المسجدية ، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى واحداً ينشد ضالته في المسجد ، قال له : " لا رد عليك ضالتك " لأن المسجد حين تدخله فأنت تعلن نية الاعتكاف لتكون في حضرة ربك ، وعندك من الوقت خارج المسجد ما يكفيك لتتكلم في مسائل الدنيا .

إذن : فهؤلاء القوم أرادوا أن يُنفِّسوا عن نفاقهم بمظهر من مظاهر الطاعة ، فقالوا : نقيم مسجداً ، وبذلك نفرق جماعة الملسمين ، فجماعة يصلون هنا ، وجماعة يصلون هناك ،

وإن قعدنا نحن نصلي فيه فنكون أحراراً ، ونتكلم مثلما نريد ، أما حين نذهب للصلاة في المسجد الآخر ، فنحن نجلس هناك مكبوتين ، وغير قادرين على الكلام ، ونحن نريد أن ننفس عن أنفسنا .

(292/348)

فهم بَنَوْا المسجد ، ثم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي معهم في المسجد الجديد أثناء خروجه لغزوة تبوك فاعتذر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوضح لهم : إننا في حال لا يسمح بذلك ، وإن شاء الله عند عودتنا من الغزوة نصلي فيه . وبعد أن عاد من الغزوة حاولوا أن يستوفوه وعده ، ويطلبوا منه الوفاء بوعده ، فإذا بجبريل ينزل عليه بالآيات التي توضح حكاية هذا المسجد ، وكيف أنه مسجد ضرار ؛ لأن الله علم نيتهم في ذلك .

ومعنى " الضرار " من المضارة ، وأنهم أرادوا أن يأخذوا راحتهم في كل الزمن ، وأن يبتعدوا عن التواجد مع المؤمنين في المسجد الذي يصلي فيه رسول الله ، ويريدون أن يخلو بعضهم ببعض ، وأن يتكلموا كما يريدون في مضارة المسلمين ، ويفرقوا بين جماعة المسلمين . ثم يقول سبحانه : ﴿ وَتَفْرِيقاً بَيْنَ المؤمنين ﴾ .

إذن : فكل ما يفتت جماعة المسلمين هو أمر ضار بمصلحة الإسلام ؛ لأن الإسلام يريد أن يعلم الناس أنهم قوة مجتمعة ، ويكون أمر هذه القوة واضحاً ؛ ولهذا أباح الحق أن تصلي الصلوات في أي مكان ، وحتَّم أن نصلي جميعاً يوم الجمعة في مكان واحد ؛ ليفرح المسلمون حين يرون أنفسهم مقبلين على الدين ، ويلتقي كل واحد منهم بالآخر ؛ ولذلك كان مسجد الضرار هذا تفريقاً بين المسلمين .

ثم يقول سبحانه :

﴿ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ والإرصاد هو الترقب ، ولذلك يقال : لقد استمر القوم في المكان الفلاني لرصد فلان ، أي : أنهم أناس يترقبون مجيئه بمكان ليفتكوا به ، وهذا هو ترقب الكراهية لا ترقب الحب . والذين أقاموا هذا المسجد أرصدوه مترقبين ومنتظرين إنساناً له سابقة في عداء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي طلب منهم إقامة هذا المسجد وهو " أبو عامر الراهب " وقد سماه رسول الله " الفاسق " .

(293/348)

وأبو عامر هذا رجل تنصَّر في الجاهلية ، ولم تكن الجاهلية بيئة ديانات ، فمن كان مثلاً يسافر إلى مكان ويسمع بدين فهو يأتي به ليدعوا لهذا الدين ويترأس من يتبعونه ، وأبو عامر من هؤلاء الذين تنصَّروا وصاروا في المدينة ، فلما جاء رسول الله ليبطل كل هذه الأشياء في المدينة وزالت رياسته ، عادَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى قال له في أحد : ما رأيت قوماً يقاتلونك إلا قاتلك معهم . وحين تمكن الإسلام في المدينة فر إلى مكة ، ولما فتحت مكة فرّ إلى الطائف ، لم يجد له وطناً فذهب إلى الروم " بالشام " . ثم كتب للمافقين أن أعدوا مسجداً ؛ لأني سأتي لكم بقوة من ملك الروم ؛ لأهاجم محمداً وأحاربه وأخرجه من المدينة .

إذن : فهم قد بَنَوْا ذلك المسجد ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً ، وإرصاداً ، أي : ترقباً وانتظاراً لذلك الراهب الذي سيذهب إلى الشام ويأتي بجنود لمحاربة الله ورسوله . ورغم أنهم قد فعلوا ذلك ، فقد امتلكوا جراءة الطلب من رسول الله ان يصلي معهم فيه بهدف ترسيم هذا المكان مسجداً ليصلى فيه الناس ما دام رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صلى فيه ، وظنوا أن هذه المكيدة سوف تفلح ، ولكن الله الذي يحرس نبيه ، ويحرس دينه من المنافقين ، كشف له حقيقة هذا المسجد .

وقد يتغافل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين بعض الشيء لحكمة ، فهم قد أخذوا بالإسلام لوناً من الصحبة ، ولم يفضحهم أولا حتى لا يقال : إن محمداً يحارب

أصحابه ؛ لذلك فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم ما لم يكن يعلمه غيره ؛ لذلك أراد أن يحمي الإسلام من لسان من لم يعلم . ولكن بعد أن انكشف الأمر أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم " مالك بن الدُّخْشم " و " عامر بن السكن " ، و " وحشيّ " قاتل حمزة ، و " معن بن عدي " ليهدموا هذا المسجد ، وأن يجعلوا في موضعه مكان " القمامة " .

وبذلك فُضِحَ المنافقون ، فَأسرّوها في نفوسهم .

(294/348)

وأنت إذا رأيت من عدوك فعلاً تكرهه ، فعليك أولاً أن تفسد عليه الفعل ، هذه أول مرحلة ، فإذا تكرر الفعل منه ، ولم يرتدع ، لا بد أن تضعه في مكانه اللائق به . والمنافقون أرادوا بهذا المسجد الضرر والإضرار بالإسلام ، وكان يجب أن يكفوا عن مثل هذا العمل ما دام الحق قد كشفهم . لكنهم لم يكفوا ، وظلوا سادرين في العداوة للإسلام ؛ لذلك كان لا بد كما تخلصت أولاً من الفعل أن تتخلص من الفاعل ؛ لذلك أصبحوا خائفين من أن يتجه الردع إلى الفاعل ، والحق سبحانه يقول : ﴿ يَحْذَرُ المنافقون أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِم قُلِ استهزءوا إِنَّ الله مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 64]

ونعلم أن المريب يكاد أن يقول : خذوني . إنه بسلوكه إنما يدل على نفسه ، ويأتي القرآن في سورة ثانية فيقول : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [المنافقون : 4]

وهم يتصرفون هكذا لأن الريبة تملأ أعماقهم ، وكلما رأى واحد منهم مؤمناً يسير إلى ناحيته يظن أنه جاء ليؤدبه ضرباً أو قتلاً .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ﴾ ، وكلمة ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيها إيحاء بأن لهم سوابق في محاربة رسول الله بغرض ان يؤذوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الحق سبحانه يحميه دائماً ، ولم يعد هناك مكر أو حرب يمكن أن ينالوا بها منه صلى الله عليه وسلم .

وفي هذا الأمر أمثلة كثيرة ، فالقرآن حينما يقص على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحوال اليهود ويوضح له : ﴿ وَيَقْتُلُونَ النبيين بِغَيْرِ الحق . . . ﴾ [البقرة : 61]

أليس هذا القول يدفع في خاطره احتمال أن يقتلوه ؟ بلى فهم ما دامت عندهم الجرأة على قتل الأنبياء فما الذي يمنعهم من قتله ؟ لكن الحق يطمئنه ويكبتهم ويقطع عندهم الأمل ، ويأتي قوله الحق : ﴿ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ اللهِ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [البقرة : 91]

وقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ هنا يعني أن ذلك لن يحدث الآن ، فقد اختلف الموقف . وهكذا طمأن الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك كُبتت هذه الفكرة إن فكروا فيها .

وأيضاً حين يأتي القرآن بشيء في نيتهم أن يفعلوه ، ولم يفعلوا بعد ، ويفضحهم القرآن بإعلان ما في نيتهم ، ومن غبائهم فهم يفعلون الأمر المفضوح ، ولو كان عندهم قليل من ذكاء لامتنعوا عن فعل ما فضحهم به القرآن .

ويتمثل ذلك في أحد المواقف التي يحلفون فيها ، ولو كان فيهم رجل رشيد يملك التفكير المتوازن لقال لهم : إنكم سوف تحلفون : ﴿ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ فلا تحلفوا حتى يشك المسلمون في القرآن ، ومن غبائهم أيضا أنهم حلفوا في أمر لهم فيه اختيار أن يفعلوه أو لا يفعلوه ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ السفهآء مِنَ الناس مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ التي كَانُواْ عَلَيْهَا . . . ﴾ [البقرة : 142]

إنهم لم يكونوا قد قالوا بعد ، وأنزل الحق ذلك في قرآن يتلى كل صلاة ، ويعرفه كل مسلم ،

فيكف يقولون نفس القول بعد أن نزل به القرآن ؟ لقد فعل اليهود ذلك ؛ وهم بهذا الفعل قد اختاروا أن يكونوا سفهاء ، ولم يخرج منهم عاقل واحد يحثهم على ألا يقولوا .

(296/348)

وهنا يقول الحق : ﴿ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ والحق هنا قد أكد الأمر حين جاء بلام القطع . وهم قد أسهموا وقالوا : وما أردنا باتخاذ هذا المسجد إلا مصلحة المسلمين ولنيسر على المعذورين والمرضى ، والعاجزين عن السير إلى المسجد الآخر ، وإن كانت ليلة مطيرة أو ليلة شاتية ، فيستطيع الناس أن يجدوا مسجداً ثانياً ليصلوا فيه ، ولكن حكم الله ينزل ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(297/348)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (107) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ﴾ قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجنده من الروم فأخرج محمداً وأصحابه . فلما فرغوا من مسجدهم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فنحب أن تصلي فيه وتدعو بالبركة . فأنزل الله ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : " لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم يخدج جد عبد الله بن حنيف ، ووديعة بن حزام ، ومجمع بن جارية الأنصاري ، فبنوا مسجد النفاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخدج " ويلك يا يخدج . . . ! ما أردت إلى ما أرى ؟ قال : يا رسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى – وهو كاذب – فصدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعذره ، فأنزل الله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ يعني رجلاً يقال له أبو عامر ، كان محارباً لرسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وكان قد انطلق إلى هرقل وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه ، وكان قد خرج من المدينة محارباً لله ولرسوله " .

(298/348)

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال " ذكر أن بني عمرو بن عوف ابتنوا مسجداً ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلي في مسجدهم ، فأتاهم فصلى فيه ، فلما رأوا ذلك اخوتهم بنو غنم بن عوف حسدوهم ، فقالوا : نبني نحن أيضاً مسجداً كما بنى اخواننا فنرسل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصلي فيه ، ولعل أبا عامر أن يمر بنا فيصلي فيه . فبنوا مسجداً فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فيصلي في مسجدهم كما صلى في مسجد اخوتهم ، فلما جاء الرسول قام ليأتيهم أو همَّ ليأتيهم ، فأنزل الله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ﴾ إلى قوله ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ إلى آخر الآية " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ﴾ قال : المنافقون . وفي قوله ﴿ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ قال : لأبي عامر الراهب .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ﴾ قال : إن نبي

الله صلى الله عليه وسلم بنى مسجداً بقباء فعارضه المنافقون بآخر ، ثم بعثوا إليه ليصلي فيه فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك .

وأخرج ابن إسحق وابن مردويه عن ابن عباس قال : دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم فقال مالك لعاصم : انظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ، ثم خرجوا يشتدون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فحرقوه وهدموه وخرج أهله فتفرقوا عنه ، فأنزل الله في شأن المسجد ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ﴾ إلى قوله ﴿ عليم حكيم ﴾ .

(299/348)

وأخرج ابن إسحق وابن مردويه عن أبي رهم كلثوم بن الحصين الغفاري – وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة – قال " أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار وكان بنى مسجداً الضرار ، فأتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة الشاتية والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه . قال : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ، فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله

صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، وأخاه عاصم بن عدي أحد بلعجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه واحرقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك . فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل فاشعل فيه ناراً ، ثم خرج يشتدان وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، وفيهم نزل من القرآن ما نزل ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ﴾ إلى أخر القصة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ﴾ قال : هم ناس من الأنصار ، ابتنوا مسجداً قريباً من مسجد قباء ، بلغنا أنه أول مسجد بُنِيَ في الإِسلام .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال : كان الذين بنوا مسجد الضرار اثني عشر رجلاً . جذام بن خالد بن عبيد بن زيد ، وثعلبة بن حاطب ، وهزال بن أمية ، ومعتب بن قشير ، وأبو حبيبة بن الأزعر ، وعباد بن حنيف ، وجارية بن عامر ، وأبناء مجمع ، وزيد ، ونبتل بن الحارث ، ويخدج بن عثمان ، ووديعة بن ثابت .

(300/348)

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ﴾ قال : ضاروا أهل قباء ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ قال : فإن أهل قباء كانوا يصلون في مسجد قباء كلهم ، فلما بني أقصر من مسجد قباء من كان يحضره وصلوا فيه ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ فحلفوا ما أرداوا به إلا الخير .

أما قوله تعالى : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن خزيمة وابن حبان وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أبي سعيد الخدري قال : " اختلف رجلان رجل من بني خدرة ، وفي لفظ : تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى . فقال الخدري : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال العمري : هو مسجد قباء . فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال " هو هذا المسجد ، لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : في ذلك خير كثير ، يعني مسجد قباء " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وعبد بن حميد والزبير بن بكار في أخبار المدينة وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والحاكم في الكنى وابن مردويه عن سهل بن سعد الساعدي قال : " اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الذي أسس على التقوى . فقال أحدهما : هو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم . وقال الآخر : هو

مسجد قباء . فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال " هو مسجدي هذا " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والخطيب والضياء في المختارة " عن أبي بن كعب قال : سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال " هو مسجدي هذا " " .

(301/348)

وأخرج الطبراني والضياء المقدسي في المختارة عن زيد بن ثابت " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال " هو مسجدي هذا " " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه والطبراني من طريق عروة عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم . قال عروة : مسجد النبي صلى الله عليه وسلم خير منه ، إنما أنزلت في مسجد قباء .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن مردويه عن ابن عمر قال : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج الزبير بن بكار وابن جرير وابن المنذر من طريق عثمان بن عبيد الله عن ابن عمر وأبي سعيد الخدري وزيد بن ثابت قالوا : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب قال : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد المدينة الأعظم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ لمسجد أسس على التقوى ﴾ يعني مسجد قباء .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ لمسجد أسس على التقوى ﴾ قال : هو مسجد قباء .

وأخرج ابن أبي شيبة والترمذي والحاكم وصححه وابن ماجة عن أسيد بن ظهيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " صلاة في مسجد قباء كعمرة " قال الترمذي : لا نعرف لأسيد بن ظهيرة شيئاً يصح غير هذا الحديث .

وأخرج ابن سعد عن ظهير بن رافع الحارثي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " من صلى في قباء يوم الاثنين والخميس انقلب بأجر عمرة " .

وأخرج ابن أبي شيبة والحاكم وصححه عن ابن عمر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر الاختلاف إلى قباء راكباً وماشياً .

(302/348)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجة عن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من خرج حتى يأتي هذا المسجد – مسجد قباء – فيصلي فيه كان كعدل عمرة " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن سيرين . أنه كان يرى كل مسجد بني بالمدينة أسس على التقوى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمار الذهبي قال : دخلت مسجد قباء أصلي فيه فأبصرني أبو سلمة فقال : أحببت أن تصلي في مسجد أسس على التقوى من أول يوم . فأخبرني أن ما بين الصومعة إلى القبلة زيادة زادها عثمان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(303/348)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ : قرأ نافع وابن عامر : " الذين اتخذوا " بغير واو ، والباقون بواو العطف . فأمَّا قراءةُ نافع وابن عامر فلموافقة مصاحفِهم ، فإنَّ مصاحف المدينة والشام حُذفت منها الواوُ وهي ثابتةٌ في مصاحف غيرهم . و " الذين " على قراءة مَنْ أسقط الواوَ قبلها فيها أوجه ، أحدها : أنها بدلٌ مِنْ " آخرون " قبلها . وفيه نظر لأن هؤلاء الذين اتخذوا مسجداً ضِراراً ، لا يُقال في حَقِّهم إنهم مُرْجَوْن لأمر الله ، لأنه يُروى في التفسير أنهم من كبار المنافقين كأبي عامر الراهب .

الثاني : أنه مبتدأ وفي خبره حينئذٍ أقوالٌ أحدها : أنه " أفَمَنْ أَسَّسَ بنيانَه " والعائد محذوفٌ تقديره : بنيانَه منهم . الثاني : أنه " لا يزال بنيانُهم " قاله النحاس والحوفي ، وفيه بُعْدٌ لطول الفصل . الثالث : أنه " لا تقمْ فيه " قاله الكسائي . قال ابن عطية : " ويتجه بإضمارٍ : إمَّا في أول الآية ، وإمَّا في آخرها بتقدير : لا تقم في مسجدهم " . الرابع : أن الخبرَ محذوفٌ تقديرُه : معذَّبون ونحوه ، قاله المهدوي .

الوجه الثالث أنه منصوبٌ على الاختصاص . وسيأتي هذا الوجهُ أيضاً في قراءة الواو .

وأمَّا قراءةُ الواو ففيها ما تقدَّم ، إلا أنه يمتنع وجهُ البدل مِنْ " آخرون " لأجل العاطف .

وقال الزمخشري : " فإن قلت : " والذين اتخذوا " ما محلُّه من الإعراب ؟ قلت : محلُّه النصب على الاختصاص ، كقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ [النساء : 162] .

وقيل : هو مبتدأ وخبرُه محذوفٌ معناه : فيمَنْ وَصَفْنا الذين اتخذوا ، كقوله : ﴿ والسارق والسارقة ﴾ [المائدة : 38] ، قلت : يريد على مذهب سيبويه فإن تقديره : فيما يُتْلى عليكم السارق ، فحذف الخبرَ وأبقى المبتدأ كهذه الآية .

(304/348)

قوله : ﴿ ضِرَاراً ﴾ فيه ثلاثةُ أوجهٍ ، أحدها : / أنه مفعولٌ من أجله أي : مُضَارَّةً لإِخوانهم . الثاني : أنه مفعولٌ ثانٍ ل " اتَّخذ " قاله أبو البقاء . الثالث : أنه مصدر في موضع الحال من فاعل " اتخذوا " أي : اتخذوه مضارِّين لإِخوانهم ، ويجوز أن ينتصبَ على المصدرية أي : يَضُرُّون بذلك غيرهم ضِراراً ، ومتعلَّقاتُ هذه المصادرِ محذوفةٌ أي : ضِراراً لإِخوانهم وكفراً بالله .

قوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ فيه وجهان ، أحدهما وهو الذي لم يذكر الزمخشري غيره أنه متعلقٌ بقوله : " اتخذوا " أي : اتخذوا مسجداً مِنْ قبل أن ينافقَ هؤلاء . والثاني : أنه متعلقٌ ب " حارب " أي : حارب مِنْ قبل اتّخاذ هذا المسجد .

قوله : ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا ﴾ لَيَحْلِفُنَّ : جوابُ قسم مقدر أي : والله ليحلِفُنَّ . وقوله : " إن أَرَدْنا " جوابٌ لقولِه : " ليحلِفُنَّ " فوقع جوابُ القسم المقدر فعلَ قسم مجابٍ بقوله : " إنْ

أَرَدْنا " . " إنْ " نافية ولذلك وقع بعدها " إلا " . و " الحسنى " صفةً لموصوفٍ محذوفٍ أي : إلا الخصلة الحسنى أو إلا الإرادةَ الحسنى . وقال الزمخشري : " ما أَرَدْنا ببناء هذا المسجد إلا الخَصْلة الحسنى ، أو إلا لإرِدة الحسنى وهي الصلاة " . قال الشيخ : " كأنه في قوله : " إلا الخصلة الحُسْنى " جعله مفعولاً ، وفي قوله : " أو لإرِادة الحسنى " جعله علةً فكأنه ضَمَّن " أراد " معنى قَصَد أي : ما قصدوا ببنائه لشيء من الأشياء إلا لإرِادة الحسنى " قال : " وهذا وجهٌ متكلف " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 121.119 ﴾

(305/348)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

مَنْ لم يكن مخلصاً في ولائه لم يأنس القلبُ بكدّه وعنائه ، فَتَوَدُّدُه في الظاهر ينادي عليه بالتوائه

، وبقوله بالتكلُّفِ شهادةُ صِدْقٍ على عَدَمِ صَفَائه :

مَنْ لم يكنْ للوصال أهلاً . . . فكلُّ إحسانِه ذنوبُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 61.62 ﴾

(306/348)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء التاسع والأربعون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/349)

الجزء التاسع والأربعون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 108 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 110 ﴾ من نفس السورة

(4/349)

قوله تعالى ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم قال ناهياً عن إجابتهم إلى ما أرادوا به من التلبيس إنتاجاً عن هذا الكلام الذي هو

أمضى من السهام : ﴿ لا تقم فيه ﴾ أي مسجد الضرار ﴿ أبداً ﴾ أي سواء تابوا أو لا ، وأراد بعض المخلصين أن يأخذه أولاً ، اي لا بد من إخرابه ومحو أثره عن وجه الأرض .

ولما ذمه وذم أهله ، مدح مسجد النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إما الذي بالمدينة الشريفة وإما الذي ببني عمرو بن عوف بقباء على الخلاف في ذلك .

وهو الذي اتخذ في أول الإسلام مسجداً إحساناً وإيماناً وجمعاً بين المؤمنين وإعداداً لمن صادق الله ورسوله ، ومدح أهله إرشاداً لكل من كان مال إليه من المؤمنين لقرب أو غيره إلى العوض عنه ، ولعله أبهم تعيينه وذكر وصفه ليكون صالحاً لكل من المسجدين .

لما اتصف بهذا الوصف من غيرهما فقال مؤكداً تعريفاً بما له من الحق ولما للمنافقين من التكذيب : ﴿ لمسجد أُسس ﴾ أي وقع تأسيسه ﴿ على التقوى ﴾ أي فأحاطت التقوى به لأنها إذا أحاطت بأوله أحاطت بآخره ؛ ولما كان التأسيس قد تطول مدة أيامه فيكون أوله مخالفاً لآخره ، قال : ﴿ من أول يوم ﴾ أي من أيام تأسيسه ، وفيه إشارة إلى ما تقدم من احتمال أن يريد أحد من أهل الإخلاص أن يتخذه مصلى ، فبين أنه لا يصلح لذلك لأن تأسيسه كان لما هو مباعد له ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ أي بالصلاة والوعظ وغيره من مسجد لم يقصد به التقوى على التقدير فرض محال إلا في ثاني الحال .

ولما مدحه مدح أهله بقوله : ﴿ فيه رجال ﴾ أي لهم كمال الرجولية ﴿ يحبون أن يتطهروا ﴾ أي في أبدانهم وقلوبهم كمال الطهارة – بما أشار إليه الإظهار ، فهم دائماً في

جهاد أنفسهم في ذلك فأحبهم الله ﴿ والله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ يحب ﴾ أي يفعل ما يفعل المحب من الإكرام بالفضل والإحسان ، ولإثبات ما أفهم الاجتهاد حصل الغنى عن إظهار تاء التفعل أو للندب إلى الطهارة ولو على أدنى الوجوه المجزئة فقال :

﴿ المطهرين ﴾ أي قاطبة منهم ومن غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 387.386 ﴾

(5/349)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

قال المفسرون : إن المنافقين لما بنوا ذلك المسجد لتلك الأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة تبوك ، قالوا : يا رسول الله بنينا مسجداً لذي العلة والليلة المطرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة .

فقال عليه السلام : إني على جناح سفر وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه ، فلما رجع من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت هذه الآية ، فدعا بعض القوم وقال : انطلقوا إلى هذا

المسجد الظالم أهله ، فاهدموه وخربوه ، ففعلوا ذلك وأمر أن يتخذ مكانه كناسة يلقي فيها الجيف والقمامة .

وقال الحسن : هم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى ذلك المسجد فنادى جبريل عليه السلام لا تقم فيه أبداً .

إذا عرفت هذا فنقول : قوله : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ ﴾ نهي له عليه السلام عن أن يقوم فيه .

قال ابن جريج : فرغوا من إتمام ذلك المسجد يوم الجمعة ، فصلوا فيه ذلك اليوم ويوم السبت والأحد ، وانهار في يوم الاثنين .

ثم إنه تعالى بين العلة في هذا النهي ، وهي أن أحد المسجدين لما كان مبنياً على التقوى من أول يوم ، وكانت الصلاة في مسجد آخر تمنع من الصلاة في مسجد التقوى ، كان من المعلوم بالضرورة أن يمنع من الصلاة في المسجد الثاني .

فإن قيل : كون أحد المسجدين أفضل لا يوجب المنع من إقامة الصلاة في المسجد الثاني .

قلنا : التعليل وقع بمجموع الأمرين ، أعني كون مسجد الضرار سبباً للمفاسد الأربعة المذكورة ، ومسجد التقوى مشتملاً على الخيرات الكثيرة .

ومن الروافض من يقول : بين الله تعالى أن المسجد الذي بني من أول الأمر على التقوى أحق بالقيام فيه من المسجد الذي لا يكون كذلك .

وثبت أن علياً ما كفر بالله طرفة عين ، فوجب أن يكون أولى بالقيام بالإمامة ممن كفر بالله في أول أمره .

(6/349)

وجوابنا أن التعليل وقع بمجموع الأمور المذكورة ، فزال هذا السؤال .

واختلفوا في أن مسجد التقوى ما هو ؟ قيل : إنه مسجد قباء ، وكان عليه السلام يأتيه في كل سنة فيصلي فيه ، والأكثرون أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال سعيد بن المسيب : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد الرسول عليه السلام ، وذكر أن الرجلين اختلفا فيه ، فقال أحدهما : مسجد الرسول ، وقال آخر : قباء .

فسألاه عليه السلام فقال هو مسجدي هذا .

وقال القاضي : لا يمنع دخولهما جميعاً تحت هذا الذكر لأن قوله : ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى﴾ هو كقول القائل ، لرجل صالح أحق أن تجالسه .

فلا يكون ذلك مقصوراً على واحد .

فإن قيل : لم قال أحق أن تقوم فيه ، مع أنه لا يجوز قيامه في الآخر ؟

قلنا : المعنى أنه لو كان ذلك جائزاً لكان هذا أولى ، للسبب المذكور .

ثم قال تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : أنه تعالى رجح مسجد التقوى بأمرين : أحدهما : أنه بني على التقوى ، وهو الذي تقدم تفسيره .

والثاني : إن فيه رجالاً يحبون أن يتطهروا ، وفي تفسير هذه الطهارة قولان : الأول : المراد منه التطهر عن الذنوب والمعاصي ، وهذا القول متعين لوجوه : أولها : أن التطهر عن الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى واستحقاق ثوابه ومدحه .

والثاني : أنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر بالله والتفريق بين المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم .

وما ذاك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي .

والثالث : أن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر وقدر عند الله لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصي ، أما لو حصلت طهارة الباطن من الكفر والمعاصي ، ولم تحصل نظافة الظاهر ، كأن طهارة الباطن لها أثر ، فكان طهارة الباطن أولى .

(7/349)

الرابع : روى صاحب "الكشاف" : أنه لما نزلت هذه الآية مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس ، فقال : " أمؤمنون أنتم " فسكت القوم ثم أعادها .

فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ؛ فقال عليه السلام : " أترضون بالقضاء " قالوا نعم .

قال : " أتصبرون على البلاء " قالوا : نعم ، قال : " أتشكرون في الرخاء " قالوا : نعم ، قال عليه السلام : " مؤمنون ورب الكعبة " ثم قال : " يا معشر الأنصار إن الله أثنى عليكم فما الذي تصنعون في الوضوء " قالوا : نتبع الماء الحجر .

فقرأ النبي عليه السلام : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ الآية .

والقول الثاني : أن المراد منه الطهارة بالماء بعد الحجر .

وهو قول أكثر المفسرين من أهل الأخبار .

والقول الثالث : أنه محمول على كلا الأمرين ، وفيه سؤال : وهو أن لفظ الطهارة حقيقة في الطهارة عن النجاسات العينية ، ومجاز في البراءة عن المعاصي والذنوب ، واستعمال اللفظ الواحد في الحقيقة والمجاز معاً لا يجوز .

والجواب : أن لفظ النجس اسم للمستقذر ، وهو القدر مفهوم مشترك فيه بين القسمين

وعلى هذا التقدير ، فإنه يزول السؤال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 156.154 ﴾

(8/349)

وقال ابن العربى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ .

فِيهَا سَبْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ أَبَدًا ﴾ : ظَرْفُ زَمَانٍ ، وَظُرُوفُ الزَّمَانِ عَلَى قِسْمَيْنِ : ظَرْفٌ مُقَدَّرٌ كَالْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ ، وَظَرْفٌ مُبْهَمٌ عَلَى لُغَتِهِمْ ، وَمُطْلَقٌ عَلَى لُغَتِنَا ؛ كَالْحِينِ وَالْوَقْتِ .

وَالْأَبَدُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ ، وَكَذَلِكَ الدَّهْرُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْمُشْكِلَيْنِ وَشَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ ، وَمُلْجِئَةِ الْمُتَفَقِّهِينَ ، بَيْدَ أَنَّا نُشِيرُ فِيهِ هَاهُنَا إلَى نُكْتَةٍ مِنْ تِلْكَ الْجُمَلِ ، وَهِيَ أَنَّ " أَبَدًا " وَإِنْ كَانَ ظَرْفًا مُبْهَمًا لَا عُمُومَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ إذَا اتَّصَلَ بِالنَّهْيِ أَفَادَ الْعُمُومَ ، لَا مِنْ جِهَةِ مُقْتَضَاهُ ، وَلَكِنْ مِنْ جِهَةِ النَّهْيِ فَإِنَّهُ لَوْ قَالَ : لَا تَقُمْ فِيهِ لَكَفَى فِي الِانْكِفَافِ الْمُطْلَقِ ، فَإِذَا قَالَ " أَبَدًا "

فَكَأَنَّهُ قَالَ : لَا تَقُمْ فِي وَقْتٍ مِنْ الْأَوْقَاتِ ، وَلَا فِي حِينٍ مِنْ الْأَحْيَانِ ، وَقَدْ فَهِمَ ذَلِكَ أَهْلُ اللِّسَانِ ، وَقَضَى بِهِ فُقَهَاءُ الْإِسْلَامِ ، فَقَالُوا : لَوْ قَالَ رَجُلٌ لِامْرَأَتِهِ : أَنْتِ طَالِقٌ أَبَدًا طَلُقَتْ طَلْقَةً وَاحِدَةً .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ : اُخْتُلِفَ فِيهِ ، فَقِيلَ : هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ ؛ يُرْوَى عَنْ جَمَاعَةٍ مِنْهُمْ ابْنُ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنُ .

(9/349)

وَتَعَلَّقُوا بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ وَمَسْجِدُ قُبَاءَ كَانَ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ أُسِّسَ بِالْمَدِينَةِ .

وَقِيلَ : هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ قَالَهُ ابْنُ عُمَرَ ، وَابْنُ الْمُسَيِّبِ .

وَقَالَ ابْنُ وَهْبٍ عَنْ مَالِكٍ وَأَشْهَبُ عَنْهُ قَالَ مَالِكٌ : الْمَسْجِدُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ أَنَّهُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ إذْ كَانَ يَقُومُ رَسُولُ اللَّهِ وَيَأْتِيهِ أُولَئِكَ مِنْ هُنَالِكَ .

وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إلَيْهَا وَتَرَكُوك قَائِمًا ﴾ هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَنَزَعَ مَالِكٌ بِاسْتِوَاءِ اللَّفْظَيْنِ ؛ فَإِنَّهُ قَالَ فِي ذَلِكَ تَقُومُ فِيهِ .

وَقَالَ فِي هَذَا قَائِمًا ؛ فَكَانَا وَاحِدًا ، وَهَذِهِ نَزْعَةٌ غَرِيبَةٌ ، وَكَذَلِكَ رَوَى عَنْهُ ابْنُ الْقَاسِمِ أَنَّهُ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَدْ رَوَى التِّرْمِذِيُّ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ : ﴿ تَمَارَى رَجُلَانِ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ؛ فَقَالَ رَجُلٌ : هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ ؛ وَقَالَ آخَرُ : هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هُوَ مَسْجِدِي هَذَا ﴾ .

قَالَ أَبُو عِيسَى : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ ، وَجَزَمَ مُسْلِمٌ أَيْضًا بِمِثْلِهِ .

(10/349)

فَإِنْ قِيلَ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : فَقَوْلُهُ : ﴿ فِيهِ فِيهِ ﴾ : ضَمِيرَانِ يَرْجِعَانِ إلَى مُضْمَرٍ وَاحِدٍ بِغَيْرِ نِزَاعٍ ، وَضَمِيرُ الظَّرْفِ الَّذِي يَقْتَضِي الرِّجَالَ الْمُتَطَهِّرِينَ هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ ؛ فَذَلِكَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَهُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ .

وَالدَّلِيلُ

عَلَى أَنَّ ضَمِيرَ الرِّجَالِ الْمُتَطَهِّرِينَ هُوَ ضَمِيرُ مَسْجِدِ قُبَاءَ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ ؛ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءَ : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ .

قَالَ : كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِيهِمْ .

وَقَالَ قَتَادَةُ ﴿ : لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَهْلِ قُبَاءَ : إنَّ اللَّهَ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي الطُّهُورِ ؛ فَمَا تَصْنَعُونَ ؟ فَقَالُوا : إنَّا نَغْسِلُ أُثَرَ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْمَاءِ ﴾ .

قُلْنَا : هَذَا حَدِيثٌ لَمْ يَصِحَّ .

وَالصَّحِيحُ هُوَ الْأَوَّلُ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الطَّهَارَةِ الْمُثْنَى بِهَا عَلَى أَقْوَالٍ لَا تَعَلُّقَ لَهَا بِمَا نَحْنُ فِيهِ ، كَالتَّطَهُّرِ بِالتَّوْبَةِ مِنْ وَطْءِ النِّسَاءِ فِي أَدْبَارِهِنَّ وَشَبَهِهِ .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ فَإِنَّمَا مَعْنَاهُ أَنَّهُ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ مُبْتَدَأِ تَأْسِيسِهِ أَيْ لَمْ يُشْرَعْ فِيهِ ، وَلَا وُضِعَ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ مِنْهُ إلَّا عَلَى اعْتِقَادِ التَّقْوَى .

(11/349)

وَالَّذِينَ كَانُوا يَتَطَهَّرُونَ ، وَأَثْنَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ جُمْلَةٌ مِنْ الصَّحَابَةِ كَانُوا يَحْتَاطُونَ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالنَّظَافَةِ ، فَيَمْسَحُونَ مِنْ الْغَائِطِ وَالْبَوْلِ بِالْحِجَارَةِ تَنْظِيفًا لِأَعْضَائِهِمْ ، وَيَغْتَسِلُونَ بِالْمَاءِ تَمَامًا لِعِبَادَتِهِمْ ، وَكَمَالًا لِطَاعَتِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : هَذَا ثَنَاءٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى مَنْ أَحَبَّ الطَّهَارَةَ ، وَآثَرَ النَّظَافَةَ ، وَهِيَ مُرُوءَةٌ آدَمِيَّةٌ ، وَوَظِيفَةٌ شَرْعِيَّةٌ رَوَى التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ : " مُرْنَ أَزْوَاجَكُنَّ أَنْ يَسْتَطِيبُوا بِالْمَاءِ فَإِنِّي أَسْتَحْيِيهِمْ " .

وَفِي الصَّحِيحِ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَحْمِلُ مَعَهُ الْمَاءَ فِي الِاسْتِنْجَاءِ ، فَكَانَ يَسْتَعْمِلُ الْحِجَارَةَ تَخْفِيفًا ، وَالْمَاءَ تَطْهِيرًا ﴾ ، وَاللَّازِمُ فِي نَجَاسَةِ الْمَخْرَجِ التَّخْفِيفُ ، وَفِي نَجَاسَةِ سَائِرِ الْبَدَنِ أَوْ الثَّوْبِ التَّطْهِيرُ ؛ وَتِلْكَ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ فِي حَالَتَيْ وُجُودِ الْمَاءِ وَعَدَمِهِ .

وَبِهِ قَالَ عَامَّةُ الْعُلَمَاءِ .

وَقَالَ ابْنُ حَبِيبٍ : لَا يُسْتَجْمَرُ بِالْأَحْجَارِ إلَّا عِنْدَ عَدَمِ الْمَاءِ .

وَفِعْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْلَى .

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ وَمَسَائِلِ الْخِلَافِ .

وَأَمَّا إنْ كَانَتْ النَّجَاسَةُ عَلَى الْبَدَنِ أَوْ الثَّوْبِ فَلِعُلَمَائِنَا فِيهَا ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : فَقَالَ عَنْهُ ابْنُ وَهْبٍ : يَجِبُ غَسْلُهَا بِالْمَاءِ فِي حَالَتَيْ الذِّكْرِ وَالنِّسْيَانِ ؛ وَبِهِ قَالَ الشَّافِعِيُّ .

(12/349)

وَقَالَ أَشْهَبُ عَنْهُ : ذَلِكَ مُسْتَحَبٌّ غَيْرُ وَاجِبٍ ؛ وَبِهِ قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ فِي تَفْصِيلِ الْحَالَيْنِ جَمِيعًا .

وَقَالَ ابْنُ الْقَاسِمِ عَنْهُ : يَجِبُ فِي حَالَةِ الذِّكْرِ دُونَ النِّسْيَانِ ؛ وَهِيَ مِنْ مُفْرَدَاتِهِ .

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْوُجُوبِ الْمُطْلَقِ قَوْلُه تَعَالَى ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِطَهَارَةِ ثِيَابِهِ حَتَّى إِنْ أَتَتْهُ الْعِبَادَةُ وَجَدَتْه عَلَى حَالَةٍ مُهَيَّأَةٍ لِأَدَائِهَا .

وَقَدْ قَالَ قَوْمٌ : إِنَّ الثِّيَابَ كِنَايَةٌ ، وَذَلِكَ دَعْوَى لَا يُلْتَفَتُ إِلَيْهَا .

وَاحْتَجَّ أَبُو حَنِيفَةَ عَلَى سُقُوطِ طَهَارَتِهَا بِأَنَّ الِاسْتِنْجَاءَ لَوْ كَانَ وَاجِبًا لَغُسِلَ بِالْمَاءِ ؛ فَإِنَّ الْحَجَرَ لَا يُزِيلُهُ .

قُلْنَا : هَذِهِ رُخْصَةٌ مِنْ اللَّهِ أَمَرَ بِهَا ، وَعَفَا عَمَّا وَرَاءَهَا .

وَأَمَّا الْفَرْقُ بَيْنَ حَالِ الذِّكْرِ وَالنِّسْيَانِ فَفِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ بُرْهَانُهُ ، وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَنَّ رَفْعَ الْمُؤَاخَذَةِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي الْخِلَافِيَّاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : بَنَى أَبُو حَنِيفَةَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ عَلَى حَرْفٍ ، فَقَالَ : إِنَّ النَّجَاسَةَ إِذَا كَانَتْ كَثِيرَةً وَجَبَتْ إِزَالَتُهَا ، وَإِذَا كَانَتْ قَلِيلَةً لَمْ تَجِبْ إِزَالَتُهَا ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ بِقَدْرِ الدِّرْهَمِ الْبَغْلِيِّ يَعْنِي كِبَارَ الدَّرَاهِمِ الَّتِي هِيَ عَلَى قَدْرِ اسْتِدَارَةِ الدِّينَارِ ، قِيَاسًا عَلَى الْمَسْرَبَةِ .

وَهَذَا بَاطِلٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمُقَدَّرَاتِ عِنْدَهُ لَا تَثْبُتُ قِيَاسًا ؛ فَلَا يُقْبَلُ هَذَا التَّقْدِيرُ مِنْهُ .

(13/349)

الثَّانِي : أَنَّ هَذَا الَّذِي خُفِّفَ عَنْهُ فِي الْمَسْرُبَةِ رُخْصَةٌ لِلضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ ، وَالرُّخَصُ لَا يُقَاسُ عَلَيْهَا ، فَإِنَّهَا خَارِجَةٌ عَنْ الْقِيَاسِ : فَلَا تُرَدُّ إلَيْهِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْله تَعَالَى : ﴿ أَحَقُّ ﴾ : هُوَ أَفْعَلُ مِنْ الْحَقِّ ، وَأَفْعَلُ لَا يَدْخُلُ إلَّا بَيْنَ شَيْئَيْنِ مُشْتَرَكَيْنِ ، لِأَحَدِهِمَا فِي الْمَعْنَى الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ مَزِيَّةٌ عَلَى الْآخَرِ ، فَيُحَلَّى بِأَفْعَلَ ، وَأَحَدُ الْمَسْجِدَيْنِ وَهُوَ مَسْجِدُ الضِّرَارِ بَاطِلٌ لَا حَظَّ لِلْحَقِّ فِيهِ ، وَلَكِنْ خَرَجَ هَذَا عَلَى اعْتِقَادِ بَانِيهِ أَنَّهُ حَقٌّ ، وَاعْتِقَادُ أَهْلِ مَسْجِدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ قُبَاءَ أَنَّهُ حَقٌّ ، فَقَدْ اشْتَرَكَا فِي الْحَقِّ مِنْ جِهَةِ الِاعْتِقَادِ ، لَكِنَّ أَحَدَ الِاعْتِقَادَيْنِ بَاطِلٌ عِنْدَ اللَّهِ ، وَالْآخَرُ حَقٌّ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَهُوَ كَثِيرٌ كَقَوْلِهِ : ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ : يَعْنِي مِنْ أَهْلِ النَّارِ .

وَلَا خَيْرَ فِي مَقَرِّ النَّارِ وَلَا مَقِيلِهَا ، وَلَكِنَّهُ جَرَى عَلَى اعْتِقَادِ كُلِّ فِرْقَةٍ أَنَّهَا عَلَى خَيْرٍ ، وَأَنَّ مَصِيرَهَا إلَيْهِ ؛ إذْ كُلُّ حِزْبٍ فِي قَضَاءِ اللَّهِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ، حَتَّى يَتَمَيَّزَ بِالدَّلِيلِ لِمَنْ عُضِدَ

بِالتَّوْفِيقِ فِي الدُّنْيَا ، أَوْ بِالْعِيَانِ لِمَنْ ضَلَّ فِي الْآخِرَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(14/349)

وقال السمرقندى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾

يعني : لا تصلِّ فيه أبداً ، لأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي ويصلي فيه ، لكي يتبرك بصلاته فيه ، فنهاه الله عن ذلك ونزل ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ ثم قال : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ، يعني : المسجد الذي بني على التوحيد من أول يوم .

قال الأخفش : بني لوجه الله تعالى منذ أول يوم ، ويقال : بني للذكر والتكبير والتهليل وإظهار الإسلام وقهر الشرك من أول يوم بني .

ثم قال : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ ، يعني : أولى وأجدر أن تصلي فيه .

ثم قال : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ، يعني : الاستنجاء بالماء ، ويقال : يحبون أن يتطهروا يعني : يطهروا أنفسهم من الذنوب .

وذلك أن ناساً من أهل قباء كانوا إذا أتوا الخلاء ، استنجوا بالماء وهم أول من فعل ذلك واقتدى بهم من بعدهم وروي في الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف بباب المسجد بعد نزول الآية وقال لمن فيه :

" إنّ الله قَدْ أحْسَنَ عَلَيْكُمْ الثَّنَاءَ فِي طَهُورِكُمْ فَبِمَ تَطَهَّرُونَ " قالوا : نستنجي بالماء ، فقرأ عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية ، وذلك قوله : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين ﴾ .

وقال سعيد بن المسيب : المسجد الذي أسس على التقوى ، مسجد المدينة الأعظم .

وعن سهل بن سعد الساعدي قال : اختلف رجلان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد رسول الله ، وقال الآخر : هو مسجد قباء .

فذكر ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " هُوَ مَسْجِدِي هذا " .

وروي ، عن ابن عباس أنه قال : " هُوَ مَسْجِدُ قباء " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(15/349)

وقال الثعلبي :

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ ﴾

اللام فيه لام الابتداء والقسم تقديره والله لمسجد ﴿ أُسِّسَ عَلَى التقوى ﴾ أي بني أصله وابتدئ بناؤه ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أي من أول يوم بني ، وقيل معناه : منذ أول يوم وضع أساسه . قال المبرد : قيل في معنى البيت من حج وامن دهر . أي من هو حج وأمن دهر ، وأنشأ زهير :

لمن الديار بقنة الحجر . . . أقوين من حج ، ومن دهر

منذ حج ومنذ دهر . ﴿ أَحَقُّ ﴾ أولى ﴿ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ مصلياً ، واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى ما هو ؟ فقال قوم : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه منبره وقبره .

أخبرنا عبد الله بن حامد وأخبرنا العبدي . حدثنا أحمد بن نجدة ، حدثنا الجماني ، حدثنا عبد العزيز بن محمد عن عثمان بن عبد الله بن ابي رافع عن ابن عمر وزيد بن ثابت وأبي سعيد الخدري قالوا : المسجد الذي أسس على التقوى مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . يدل عليه ما روى حميد الخراط " عن ابي سلمة بن عبد الرحمن ، أن عبد الرحمن حدثه أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه قال : فقلت : يا رسول الله اي المسجد الذي أسس على التقوى ؟ فأخذ كفّاً من الحصى

فضرب به الأرض . ثم قال : هو مسجدكم هذا مسجد المدينة " .

وروى أنس بن ابي يحيى عن أبيه عن أبي سعيد الخدري : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال العوفي : هو مسجد قبا ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فقال : هو هذا ، يعني مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

قال ابن يزيد وابن زيد وعروة بن الزبير : هو مسجد قبا ، وهي رواية علي بن أبي طلحة وعطية عن ابن عباس .

(16/349)

﴿ فِيهِ ﴾ ومن حضر ﴿ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ من الأحداث والنجاسات بالماء ، قال الكلبي : هو غسل الأدبار بالماء ، وقال عطاء : كانوا يستنجون بالماء لايناموا بالليل على الجنابة .

يروى " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأهل قبا لما نزلت هذه الآية : إن الله عزّ وجلّ قد أثنى عليكم في الطهور فما هو ؟ قالوا : إنا نستنجي بالماء " .

﴿ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ اي المتطهرين فأدغمت التاء في الطاء لقرب مخرجيهما .

قال يزيد بن عجرة : " أتت الحمّى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة جارية سوداء

فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " من أنت ؟ " قالت : أم ملدم انشف الدم ، وآكل اللحم وأُصفر الوجه وأُرقق العظم . فقال النبي صلى الله عليه وسلم " فاقصدي الأنصار فإن لهم علينا حقوقاً " فَحُمّ الأنصار .

فلما كان الغد قال : " ما للأنصار ؟ " قال : فحموا عن آخرهم . فقال : " قوموا بنا نعودهم " فعادهم وجعل يقول : " أبشروا فإنها كفارة وطهور " .

قالوا : يا رسول الله ادعوا الله أن يديمها علينا [أعواماً] حتى تكون كفّارة لذنوبنا ، فأنزل الله تعالى عليهم ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ بالحمى عن معاصيهم ﴿ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ من الذنوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(17/349)

وقال الماوردى :

﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾

أي لا تصلَّ فيه أبداً ، يعني مسجد الشقاق والنفاق فعند ذلك أنفذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم وعاصم بن عدي فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه . فذهبا إليه وأخذا سعفاً وحرقاه . وقال ابن جريج : بل انهار المسجد في يوم

الاثنين ولم يُحرّق .

﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ وفيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، قاله أبو سعيد الخدري ورواه مرفوعاً .

الثاني : أنه مسجد قباء ، قاله الضحاك وهو أول مسجد بني في الإسلام ، قاله ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك .

الثالث : أنه كل مسجد بني في المدينة أسس على التقوى ، قاله محمد بن كعب ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : من المسجد الذي أسس على التقوى رجال يحبون أن يتطهروا من الذنوب والله يحب المتطهرين منها بالتوبة ، قاله أبو العالية .

والثاني : فيه رجال يحبون أن يتطهروا من البول والغائط بالاستنجاء بالماء . والله يحب المتطهرين بذلك .

روى أبو أيوب الأنصاري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للأنصار عند نزول هذه الآية : "يَا مَعْشَرَ الأَنصَارِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنى عَلَيكُم خَيراً فِي الطُّهُورِ فَمَا طَهُورُكُم هَذَا " قالوا : يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فَهَلْ مَعَ ذِلكَ غَيرُهُ ؟ " قالوا لا ، غير أن أحدنا إذا خرج

إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء ، فقال : " هُوَ ذِلكَ فَعَلَيكُمُوهُ " الثالث : أنه عني المتطهرين عن إتيان النساء في أدبارهن ، وهو مجهول ، قاله مجاهد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(18/349)

وقال ابن عطية :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد ، وهذا النهي إنما هو لأن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : بنينا مسجداً للضرورات والسيل الحائل بيننا وبين قومنا فنريد أن تصلي لنا فهو وتدعو بالبركة ، فهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمشي معهم إلى ذلك ، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ وقوله : ﴿ لمسجد ﴾ قيل إن اللام لام قسم ، وقيل هي لام الابتداء كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلاً ، وهي مقتضية تأكيداً ، وقال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين : المراد " بالمسجد الذي أسس على التقوى " هو مسجد قباء .

وروي عن عمر وأبي سعيد وزيد بن ثابت أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، ويليق القول الأول بالقصة ، إلا أن القول الثاني روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نظر مع الحديث ، وأسند الطبري في ذلك عن أبي سعيد الخدري أنه قال : اختلف رجل من بني خدرة ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري : هو مسجد الرسول وقال الآخر : هو مسجد قباء فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه فقال : هو مسجدي هذا ، وفي الآخر خير كثير إلى كثير من الآثار في هذا عن أبي بن كعب وسهل بن سعد .

(19/349)

قال القاضي أبو محمد : ومسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان في بقعته نخل وقبور مشركين ومربد ليتيمين كانا في حجر أسعد بن زرارة ، وبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، الأولى بالسميط وهي لبنة أمام لبنة ، والثانية بالصعيدة ، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط ، والثالثة بالأنثى والذكر ، وهي لبنتان تعرض عليهما لبنتان ، وكان في طوله سبعون ذراعاً وكان عمده النخل وكان عريشاً يكف في المطر ، وعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم بنيانه ورفعه فقال : لا بل يكون عريشاً كعريش أخي

موسى كان إذا قام ضرب رأسه في سقفه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل فيه اللبن على صدره ، ويقال إن أول من وضع في أساسه حجراً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وضع أبو بكر حجراً ، ثم وضع عمر حجراً ، ثم وضع عثمان حجراً ، ثم رمى الناس بالحجارة فتفاءل بذلك بعض الصحابة في أنها الخلافة فصدق فأله ، قوله : ﴿ من أول يوم ﴾ قيل معناه منذ أول يوم ، وقيل معناه من تأسيس أول يوم ، وإنما دعا إلى هذا الاختلاف أن من أصول النحويين أن " من " لا تجر بها الأزمان ، وإنما تجر الأزمان بمنذ ، تقول ما رأيته منذ يومين أو سنة أو يوم ، ولا تقول من شهر ولا من سنة ولا من يوم ، فإذا وقعت " من " من الكلام وهي تلي زمناً فيقدر مضمر يليق أن تجره " من " كقول الشاعر : [زهير بن أبي سلمى]

لمن الديار كقنة الحجر . . . أقوين من حجج ومن دهر

(20/349)

ومن شهر رواية ، فقدروه من مر حجج ومن مر دهر ، ولما كان " أول يوم " يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إلى تقدير من تأسيس ، ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير وأن تكون " من " تجر لفظة " أول " لأنها بمعنى البداءة كأنه قال من مبتدأ الأيام ، وهي

هاهنا تقوم المر في البيت المتقدم ، وهي كما تقول جئت من قبلك ومن بعدك وأنت لا تدل بهاتين اللفظتين إلا على الزمن ، وقد حكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو ، ومعنى ﴿ أن تقوم فيه ﴾ أي بصلاتك وعبادتك ، وقرأ جمهور الناس " أن تقوم فيهِ فيهِ رجال " بكسر الهاء ، وقرأ عبد الله بن زيد " أن تقوم فيه فيهُ " بضم الهاء الثانية على الأصل ويحسنه تجنب تكرار لفظ واحد ، وقال قتادة وغيره : الضمير عائد على مسجد الرسول ، و" الرجال " جماعة الأنصار .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : " يا معشر الأنصار إني رأيت الله أثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون ؟ " فقالوا يا رسول الله إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء .

قال القاضي أبو محمد : يريد الاستنجاء بالماء ، ففعلنا نحن ذلك فلما جاء الإسلام لم ندعه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " فلا تدعوه أبداً " ، وقال عبد الله بن سلام وغيره ما معناه : إن الضمير عائد على مسجد قباء والمراد بنو عمرو بن عوف .

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف والأول أكثر واختلف أهل العلم في الأفضل بين الاستنجاء بالماء أو بالحجارة فقيل هذا وقيل هذا ، ورأت فرقة من أهل العلم الجمع بينهما فينقي بالحجارة ثم يتبع بالماء ، وحدثني

أبي رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض علماء القيروان كانوا يتخذون في متوضياتهم أحجاراً في تراب ينقون بها ، ثم يستنجون بالماء أخذاً بهذا القول .

(21/349)

قال القاضي أبو محمد : وإنما يتصور الخلاف في البلا التي يمكن فيها أن تنقى الحجارة ، وابن حبيب لا يجيز الاستنجاء بالحجارة حيث يوجد الماء ، وهو قول شذ فيه ، وقرأ جمور الناس " يتطهروا " وقرأ طلحة بن مصرف والأعمش " يطهروا " بالإدغام ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " المتطهرين " بالتاء ، وأسند الطبري عن عطاء أنه قال : أحدث قوم من أهل قباء الاستنجاء بالماء فنزلت الآية فيهم .

وروي أن رسول الله صلة الله عليه وسلم قال : منهم عويم بن ساعدة ولم يسم أحد منهم غير عويم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(22/349)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا تقم فيه ﴾

أي : لا تصلِّ فيه أبداً .

﴿ لمسجد أُسِّس على التقوى ﴾ أي بني على الطاعة ، وبناه المتقون ﴿ من أول يوم ﴾

أي : منذ أول يوم .

قال الزجاج : ﴿ مِنْ ﴾ في الزمان ، والأصل : منذ ومذ ، وهو الأكثر في الاستعمال .

وجائز دخول ﴿ من ﴾ لأنها الأصل في ابتداء الغاية والتبعيض ، ومثله قول زهير :

لِمَنِ الديارُ بِقُنَّةِ الحِجْرِ . . .

أَقْوَيْنَ مِنْ حِجَجٍ وَمِنْ شَهْرِ

وقيل : معناه مِن مَرِّ حِجج ومِن مَرِّ شهر .

وفي هذا المسجد ثلاثة أقوال .

أحدها : أنه مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة الذي فيه منبره وقبره .

روى سهل بن سعد : أن رجلين اختلفا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال أحدهما : هو مسجد الرسول ، وقال الآخر : هو مسجد قباء ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : " هو مسجدي هذا " وبه قال ابن عمر ، وزيد بن ثابت ، وأبو سعيد الخدري ، وسعيد بن المسيب .

والثاني : أنه مسجد قباء ، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ، وبه قال سعيد بن جبير ، وقتادة ، وعروة ، وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، والضحاك ، ومقاتل .

والثالث : أنه كل مسجد بني في المدينة ، قاله محمد بن كعب .

قوله تعالى : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ سبب نزولها أن رجالاً من أهل قباء كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت هذه الآية ، قاله الشعبي قال ابن عباس : " لما نزلت هذه الآية ، أتاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالما الذي أثنى الله به عليكمفقالوا : إنا نستنجي بالماء " فعلى هذا ، المراد به الطهارة بالماء .

وقال أبو العالية : أن يتطهروا من الذنوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(23/349)

وقال القرطبى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

فيه إحدى عشرة مسألة :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ يعني مسجد الضِّرار ؛ أي لا تقم فيه للصلاة .

وقد يعبّر عن الصلاة بالقيام ؛ يقال : فلان يقوم الليل أي يصلّي ؛ ومنه الحديث الصحيح : "

من قام رمضان إيماناً واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه " أخرجه البخاريّ عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : . . .

، فذكره .

وقد رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية كان لا يمرّ بالطريق التي فيها المسجد ، وأمر بموضعه أن يُتخذ كُناسة تلقى فيها الجيف والأقذار والقُمَامات .

الثانية قوله تعالى : ﴿ أَبَداً ﴾ "أبدا" ظرف زمان .

وظرف الزمان على قسمين : ظرف مقدّر كاليوم ، وظرف مُبْهم كالحين والوقت ؛ والأبد من هذا القسم ، وكذلك الدهر .

وتنشأ هنا مسألة أُصولية ، وهي أن "أبدا" وإن كانت ظرفاً مبهماً لا عموم فيه ولكنه إذا اتصل بلا النافية أفاد العموم ، فلو قال : لا تقم ، لكفى في الانكفاف المطلق .

فإذا قال : "أبداً" فكأنه قال في وقت من الأوقات ولا في حين من الأحيان .

فأما النكرة في الإثبات إذا كانت خبراً عن واقع لم تعمّ ، وقد فَهِم ذلك أهل اللسان وقضى به فقهاء الإسلام فقالوا : لو قال رجل لامرأته أنت طالق أبداً طَلُقت طلقة واحدة .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى ﴾ أي بُنيت جُدُره ورُفعت قواعده .

والأُسّ أصل البناء ؛ وكذلك الأساس .

والأَسَس مقصور منه .

وجمع الأُسّ إساس ؛ مثل عُسّ وعِساس .

وجمع الأساس أُسُس ؛ مثل قَذال وقُذُل .

وجمع الأَسَس آساس ؛ مثل سبب وأسباب .

وقد أسّست البناء تأسيساً .

وقولهم : كان ذلك على أُسِّ الدهر ، وأَسّ الدهر ، وإسّ الدهر ؛ ثلاث لغات ؛ أي على قِدم الدّهر ووجه الدهر .

(24/349)

واللام في قوله ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ لام قسم .

وقيل لام الابتداء ؛ كما تقول : لزيد أحسن الناس فعلاً ؛ وهي مقتضية تأكيداً .

"أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى" نعت لمسجد .

﴿ أَحَقُّ ﴾ خبر الابتداء الذي هو "لَمَسْجِدٌ" ومعنى التقوى هنا الخصال التي تُتّقَى بها العقوبة ، وهي فَعلى من وَقيت ، وقد تقدّم .

الرابعة واختلف العلماء في المسجد الذي أسّس على التقوى ؛ فقالت طائفة : هو مسجد قباء ؛ يروى عن ابن عباس والضحاك والحسن .

وتعلقوا بقوله : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ، ومسجد قباء كان أسس بالمدينة أوّل يوم ؛ فإنه بُني قبل مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ابن عمر وابن المسيب ، ومالك فيما رواه عنه ابن وهب وأشهب وابن القاسم .

وروى الترمذِيّ عن أبي سعيد الخُدْرِيّ : قال " تَمارَى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التّقوى من أوّل يوم ؛ فقال رجل هو مسجد قُبَاء ، وقال آخر هو مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "هو مسجدي هذا" "

قال حديث صحيح .

والقول الأوّل أَلْيَق بالقصة ؛ لقوله : "فيه" وضمير الظرف يقتضي الرجال المتطهرين ؛ فهو مسجد قُباء .

والدليل على ذلك حديث أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية .

قال الشّعبِيّ : هم أهل مسجد قُباء ، أنزل الله فيهم هذا .

وقال قتادة : لما نزلت هذه الآية " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : "إن الله

سبحانه قد أحسن عليكم الثناء في التطهر فما تصنعون" ؟ قالوا : إنا نغسل أثر الغائط والبول بالماء " ؛ رواه أبو داود .

(25/349)

وروى الدَّارَقُطْنِيّ عن طلحة بن نافع قال : حدّثني أبو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك الأنصاريون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ فقال : " "يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطُّهور فما طُهوركم هذا" ؟ قالوا : يا رسول الله ، نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فهل مع ذلك من غيره" ؟ فقالوا : لا غير ، إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحبّ أن يستنجي بالماء .

قال : "هو ذاك فَعَلَيْكُمُوه" " وهذا الحديث يقتضي أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء ، إلا أن حديث أبي سعيد الخُدْرِيّ نصّ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم على أنه مسجده فلا نظر معه .

وقد روى أبو كُريب قال : حدّثنا أبو أُسامة قال حدّثنا صالح بن حيان قال حدّثنا عبد الله

بن بريدة في قوله عز وجل : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسمه ﴾ [النور : 36] قال : إنما هي أربعة مساجد لم يَبْنِهِنّ إلا نبيّ : الكعبة بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وبيت أَرِيحَا بيتُ المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام ، ومسجد المدينة ومسجد قُباء اللذين أسّسا على التقوى ، بناهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الخامسة ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ "من" عند النحويين مقابلة منذ ؛ فمنذ في الزمان بمنزلة مِن في المكان .

فقيل : إن معناها هنا معنى منذ ؛ والتقدير : منذ أوّلِ يوم ابتدىء بُنيانه .

وقيل : المعنى من تأسيس أوّل الأيام ، فدخلت على مصدر الفعل الذي هو أسس ؛ كما قال :

لمن الديار بقُنّة الحِجْرِ . . .

أَقْوَيْن من حِجَج ومن دَهْرِ

أي من مَرّ حجج ومن مَرّ دهر .

وإنما دعا إلى هذا أن من أُصول النحويين أن "مِن" لا يُجرّ بها الأزمان ، وإنما تُجَرّ الأزمان بمنذ .

تقول ما رأيته منذ شهر أو سنةٍ أو يوم ، ولا تقول : من شهر ولا من سنة ولا من يوم .

فإذا وقعت في الكلام وهي يليها زمن فيقدّر مضمر يليق أن يُجرّ بمن ؛ كما ذكرنا في تقدير البيت .

ابن عطيّة .

ويحسن عندي أن يستغنى في هذه الآية عن تقدير ، وأن تكون "من" تجر لفظة "أوّل" لأنها بمعنى البداءة ؛ كأنه قال : من مبتدأ الأيام .

السادسة قوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ أي بأن تقوم ؛ فهو في موضع نصب .

و"أَحقُّ" هو أفعل من الحق ، وأفعل لا يدخل إلا بين شيئين مشتركين ، لأحدهما في المعنى الذي اشتركا فيه مَزِيّة على الآخر ؛ فمسجد الضّرار وإن كان باطلاً لا حقّ فيه ، فقد اشتركا في الحق من جهة اعتقاد بانيه ، أو من جهة اعتقاد من كان يظن أن القيام فيه جائز للمسجدية ؛ لكن أحد الاعتقادين باطل باطناً عند الله ، والآخر حق باطناً وظاهراً ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أَصْحَابُ الجنة يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً ﴾ [الفرقان : 24] ومعلوم أن الخيرية من النار مبعودة ، ولكنه جرى على اعتقاد كل فرقة أنها على خير وأن مصيرها إليه خير ؛ إذ كل حزب بما لديهم فرحون .

وليس هذا من قبيل : العسل أحلى من الخل ؛ فإن العسل وإن كان حلواً فكل شيء ملائم

فهو حلو ؛ ألا ترى أن من الناس من يقدّم الخل على العسل مفرداً بمفرد ومضافاً إلى غيره بمضاف .

السابعة قوله تعالى : ﴿ فِيهِ ﴾ من قال : إن المسجد يراد به مسجد النبيّ صلى الله عليه وسلم فالهاء في ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ عائد إليه .

و ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ له أيضاً .

ومن قال : إنه مسجد قباء ، فالضمير في "فيه" عائد إليه على الخلاف المتقدّم .

الثامنة أثنى الله سبحانه وتعالى في هذه الآية على من أحبّ الطهارة وآثر النظافة وهي مُروءة آدمية ووظيفة شرعية ؛ وفي الترمذيّ عن عائشة رضوان الله عليها أنها قالت : مُرْنَ أزواجكنّ أن يستطيبوا بالماء فإني أستحييهم .

قال : حديث صحيح .

(27/349)

وثبت أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يحمل الماء معه في الاستنجاء ؛ فكان يستعمل الحجارة تخفيفاً والماء تطهيراً .

ابن العربيّ : وقد كان علماء القيروان يتخذون في متوضآتهم أحجاراً في تراب ينقون بها ثم

يستنجون بالماء .

التاسعة اللازم من نجاسة المخرج التخفيف ، وفي نجاسة سائر البدن والثوب التطهير .

وذلك رخصة من الله لعباده في حالتي وجود الماء وعدمه ؛ وبه قال عامة العلماء .

وشذّ ابن حبيب فقال : لا يستجمر بالأحجار إلا عند عدم الماء .

والأخبار الثابتة في الاستجمار بالأحجار مع وجود الماء تردّه .

العاشرة واختلف العلماء من هذا الباب في إزالة النجاسة من الأبدان والثياب ، بعد إجماعهم على التجاوز والعفو عن دم البراغيث ما لم يتفاحش على ثلاثة أقوال : الأوّل أنه واجب فرض ، ولا تجوز صلاة من صلى بثوب نجس عالماً كان بذلك أو ساهياً ؛ روي عن ابن عباس والحسن وابن سِيرين ، وهو قول الشافعيّ وأحمد وأبي ثور ، ورواه ابن وهب عن مالك ، وهو قول أبي الفرج المالكي والطبريّ إلا أن الطبري قال : إن كانت النجاسة قدر الدرهم أعاد الصلاة .

وهو قول أبي حنيفة وأبي يوسف في مراعاة قدر الدرهم قياساً على حلقة الدّبر .

وقالت طائفة : إزالة النجاسة واجبة بالسنة من الثياب والأبدان ، وجوب سنة وليس بفرض .

قالوا : ومن صلى بثوب نجس أعاد الصلاة في الوقت فإن خرج الوقت فلا شيء عليه ؛ هذا قول مالك وأصحابه إلا أبا الفرج ، ورواية ابن وهب عنه .

وقال مالك في يسير الدم : لا تعاد منه الصلاة في الوقت ولا بعده ، وتعاد من يسير البول والغائط ؛ ونحو هذا كله من مذهب مالك قول اللّيث .

وقال ابن القاسم عنه : تجب إزالتها في حالة الذكر دون النسيان ؛ وهي من مفرداته .

(28/349)

والقول الأوّل أصح إن شاء الله ؛ " لأن النبي صلى الله عليه وسلم مَرّ على قبرين فقال : "إنهما ليعذَّبان وما يعذبان في كبير أمّا أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله" " الحديث ، خرّجه البخاريّ ومسلم ، وحسبك .

وسيأتي في سورة "سبحان" .

قالوا : ولا يعذَّب الإنسان إلا على ترك واجب ؛ وهذا ظاهر .

وروى أبو بكر بن أبي شيبة عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " أكثر عذاب القبر من البول " احتج الآخرون بخلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه في الصلاة لما أعلمه جبريل عليه السلام أن فيهما قذراً وأذى . . .

الحديث .

خرّجه أبو داود وغيره من حديث أبي سعيد الخُدْريّ ، وسيأتي في سورة "طه" إن شاء

الله تعالى .

قالوا : ولمّا لم يُعِد ما صلى دلّ على أن إزالتها سنة وصلاته صحيحة ، ويعيد ما دام في الوقت طلباً للكمال .

والله أعلم .

الحادية عشرة قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : وأما الفرق بين القليل والكثير بقدر الدرهم البغِلِيّ ؛ يعني كبار الدراهم التي هي على قدر استدارة الدينار قياساً على المَسْرُبة ففاسد من وجهين ؛ أحدهما أن المقدرات لا تثبت قياساً فلا يقبل هذا التقدير .

الثاني أن هذا الذي خُفف عنه في المَسْرُبة رخصة للضرورة ، والحاجة والرخص لا يقاس عليها ؛ لأنها خارجة عن القياس فلا تُرَدّ إليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(29/349)

وقال الخازن :

﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾

قال ابن عباس : معناه لا تصلّ فيه أبداً منع الله نبيه أن يصلي في مسجد الضرار ﴿ لمسجد

أسس على التقوى ﴾ اللام فيه لام الابتداء .

وقيل : لام القسم تقديره والله مسجد أسس يعني بني أصله ووضع أساسه على التقوى يعني على تقوى الله ﴿ من أول يوم ﴾ يعني من أول يوم بني ووضع أساسه كان ذلك البناء على التقوى ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ يعني مصلياً واختلفوا في المسجد الذي أسس على التقوى فقال عمر وزيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري هو مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعني مسجد المدينة ويدل علي ما روي عن أبي سعيد الخدري قال : " دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيت بعض نسائه فقلت يا رسول الله أي المسجدين أسس على التقوى ؟ قال فأخذ كفاً من حصى فضرب به الأرض ثم قال : هو مسجدكم هذا مسجد المدينة " أخرجه مسلم (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي " (ق) عن عبد الله بن زيد قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة " عن أم سلمة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة " أخرجه النسائي قوله رواتب يعني : ثوابت .

يقال : رتب بالمكان إذا قام فيه وثبت .

وفي رواية عن ابن عباس وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير وقتادة أنه مسجد قباء ويدل

عليه سياق الآية وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ ويدل على أنهم أهل قباء ما روي عن أبي هريرة " قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين قال كانوا يستنجون بالماء فنزلت هذه الآية فيهم " أخرجه أبو داود والترمذي وقال : حديث غريب .

(30/349)

هكذا ذكره صاحب جامع الأصول من رواية أبي داود والترمذي موقوفاً على أبي هريرة ورواه البغوي من طريق أبي داود مرفوعاً عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " نزلت هذه الآية في أهل قباء فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين " قال : " كانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية " ومما يدل على فضل مسجد قباء ما روي عن ابن عمر قال : " كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يزور قباء أو يأتي قباء راكباً وماشياً " زاد في رواية فيصلي فيه ركعتين وفي رواية " أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان يأتي مسجد قباء كل سبت راكباً وماشياً وكان ابن عمر يفعله " أخرج الرواية الأولى والزيادة البخاري ومسلم وأخرج الرواية الثانية البخاري عن سهل بن حنيف قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" من خرج حتى يأتي هذا المسجد مسجد قباء فيصلي فيه كان له كعدل عمرة " أخرجه النسائي عن أسد بن ظهير أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال " الصلاة في مسجد قباء كعمرة " أخرجه الترمذي .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ يعني من الأحداث والجنابات وسائر النجاسات وهذا قول أكثر المفسرين .

قال عطاء : ولما كانوا يستنجون بالماء ولا ينامون بالليل على الجنابة وروى الطبري بسنده عن عويمر بن ساعدة وكان من أهل بدر ، قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأهل قباء " إني أسمع الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور فما هذا الطهور " قالوا : يا رسول الله ما نعمل شيئاً إلا أن جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أدبارهم من الغائط فغلسنا كما غسلوا .

(31/349)

وعن قتادة قال : ذكر لنا أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال لأهل قباء " إن الله سبحانه وتعالى قد أحسن عليكم بالثناء في الطهور فما تصنعون ؟ قالوا : إنا نغسل عنا أثر الغائط والبول " وقال الإمام فخر الدين الرازي : المراد من هذه الطهارة الطهارة من الذنوب

والمعاصي وهذا القول متعين لوجوه :

الأول : أن التطهر من الذنوب هو المؤثر في القرب من الله واستحقاق ثوابه ومدحه .

الوجه الثاني : أن الله سبحانه وتعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارة المسلمين والتفريق بينهم والكفر بالله وكون هؤلاء يعني أهل قباء بالضد من صفاتهم وما ذاك إلا لكونهم مبرئين من الكفر والمعاصي وهي الطهارة الباطنية .

الوجه الثالث : إن طهارة الظاهر إنما يحصل لها أثر عند الله إذا حصلت الطهارة الباطنية من الكفر والمعاصي وقيل يحتمل أنه محمول على كلا الأمرين يعني طهارة الباطن من الكفر والنفاق والمعاصي وطهارة الظاهر من الأحداث والنجاسات بالماء ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ فيه مدح لهم وثناء عليهم والرضا عنهم بما اختاروه لأنفسهم من المداومة على محبة الطهارة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(32/349)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً كفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾

لما ذكر طرائق ذميمة لأصناف المنافقين أقوالاً وأفعالاً ذكر أنّ منهم من بالغ في الشر حتى ابتنى مجمعاً للمنافقين يدبرون فيه ما شاءوا من الشر ، وسموه مسجداً .

ولما بنى عمرو بن عوف مسجد قباء ، وبعثوا إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) فجاء وصلى فيه ودعا لهم ، حسدهم بنو عمهم بنو غنم بن عوف ، وبنو سالم بن عوف ، وحرضهم أبو عمرو الفاسق على بنائه حين نزل الشام هارباً من وقعة حنين فراسلهم في بنائه وقال : ابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر آتى بجند من الروم فأخرج محمداً وأصحابه ، فبنوه إلى مسجد قباء ، وكانوا اثنى عشر رجلاً من المنافقين : خذام بن خالد .

ومن داره أخرج المسجد ، وثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وحارثة بن عامر ، وابناه مجمع وزيد ، ونبتل بن الحرث ، وعباد بن حنيف ، ونجاد بن عثمان ، ووديعة بن ثابت ، وأبو حنيفة الأزهر ، وبخرج بن عمرو ، ورجل من بني ضبيعة ، وقالوا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : بنينا مسجد لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن تصلي لنا فيه ، وتدعوا لنا بالبركة فقال (صلى الله عليه وسلم) : " إني على جناح سفر وحال وشغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه " وكان إمامهم مجمع بن جارية وكان غلاماً قارئاً للقرآن حسن الصوت ، وهو ممن حسن إسلامه ، وولاه عمر إمامة مسجد قباء بعد مراجعة ، ثم بعثه إلى الكوفة يعلمهم القرآن ، فلما قفل رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) من غزوة تبوك نزل بذي أوانٍ بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، ونزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار ، فدعا مالك بن الدخشم ومعناً وعاصماً ابني عدي .

وقيل : بعث عمار بن ياسر ووحشياً قاتل حمزة بهدمه وتحريقه ، فهدم وحرق بنار في سعف ، واتخذ كناسة ترمى فيها الجيف والقمامة .

(33/349)

وقال ابن جريج : صلوا فيه الجمعة والسبت والأحد وانهار يوم الاثنين ولم يحرق .

وقرأ أهل المدينة : نافع ، وأبو جعفر ، وشيبة ، وغيرهم ، وابن عامر : الذين بغير واو ، كذا هي في مصاحف المدينة والشام ، فاحتمل أن يكون بدلاً من قوله : وآخرون مرجون ، وأن يكون خبر ابتداء تقديره : هم الذين ، وأن يكون مبتدأ .

وقال الكسائي : الخبر لا تقم فيه أبداً .

قال ابن عطية : ويتجه بإضمار إما في أول الآية ، وإما في آخرها بتقدير لا تقم في مسجدهم .

وقال النحاس والحوفي : الخبر لا يزال بنيانهم .

وقال المهدوي : الخبر محذوف تقديره معذبون أو نحوه .

وقرأ جمهور القراء : والذين بالواو وعطفاً على وآخرون أي : ومنهم الذين اتخذوا ، ويجوز أن يكون مبتدأ خبره كخبر بغير الواو إذا أعرب مبتدأ .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : والذين اتخذوا ما محله من الإعراب ؟ (قلت) : محله النصب على الاختصاص كقوله تعالى : ﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ وقيل : هو مبتدأ وخبره محذوف ، معناه فيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله تعالى :

﴿ والسارق والسارقة ﴾ وانتصب ضراراً على أنه مفعول من أجله أي : مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ، ومعازّة وكفراً وتقوية للنفاق ، وتفريقاً بين المؤمنين ، لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص بهم ، فأرادوا أنْ يفترقوا عنه وتختلف كلمتهم ، إذ كان من يجاوز مسجدهم يصرفونه إليه ، وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان .

ويجوز أن ينتصب على أنه مصدر في موضع الحال .

(34/349)

وأجاز أبو البقاء أن يكون مفعولاً ثانياً لاتخذوا ، وإرصاداً أي : إعداداً لأجل من حارب الله ورسوله وهو أبو عامر الراهب أعدوه له ليصلي فيه ، ويظهر على رسول الله (صلى

الله عليه وسلم) ، وكان قد تعبد في الجاهلية فسمي الراهب ، وسماه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الفاسق ، وكان سيداً في قومه نظيراً وقريباً من عبد الله بن أبي بن سلول ، فلما جاء الله بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك ، وقال لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) بعد محاورة : " لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم " فلم يزل يقاتله وحزب على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الأحزاب ، فلما ردهم الله بغيظهم أقام بمكة مظهراً للعداوة ، فلما كان الفتح هرب إلى الطائف ، فلما أسلم أهل الطائف هرب إلى الشام يريد قيصر مستنصراً على الرسول ، فمات وحيداً طريداً غريباً بقنسرين ، وكان قد دعا بذلك على الكافرين وأمّن الرسول ، فكان كما دعا ، وفيه يقول كعب بن مالك :

معاذ الله من فعل خبيث . . .

كسعيك في العشيرة عبد عمرو

وقلت بأن لي شرفاً وذكراً . . .

فقد تابعت إيماناً بكفر

وقرأ الأعمش : وإرصاداً للذين حاربوا الله ورسوله ، والظاهر أنّ من قبل متعلقاً بحارب ، يريد في غزوة الأحزاب وغيرها ، أي : من قبل اتخاذ هذا المسجد .

وقال الزمخشري : (فإن قلت) : بم يتصل قوله تعالى : من قبل ؟ (قلت) : باتخذوا أي : اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف انتهى .

وليس بظاهر ، والخالف هو بخرج أي : ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من ضعف أو عجز عن المسير إلى مسجد قباء .

قال الزمخشري : ما أردنا ببناء هذا المسجد إلا الخصلة الحسنى ، أو لإرادة الحسنى وهي الصلاة وذكر الله تعالى والتوسع على المصلين انتهى .

(35/349)

كأنه في قوله : إلا الخصلة الحسنى جعله مفعولاً ، وفي قوله : أو لإرادة الحسنى جعله علة ، وكأنه ضمن أراد معنى قصد أي : ما قصدنا ببنائه لشيء من الأشياء إلا لإرادة الحسنى وهي الصلاة ، وهذا وجه متكلف ، فأكذبهم الله في قولهم ، ونهاه أن يقوم فيه فقال : لا تقم فيه أبداً نهاه لأن بناته كانوا خادعوا الرسول ، فهمَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) بالمشي معهم ، واستدعى قميصه لينهض فنزلت : لا تقم فيه أبداً ، وعبَّر بالقيام عن الصلاة فيه .

قال ابن عباس وفرقة من الصحابة والتابعين : المؤسس على التقوى مسجد قباء ، أسسه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهي : يوم الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، وهو أولى لأنّ الموازنة بين مسجد قباء ومسجد الضرار أوقع منها بين مسجد الرسول ومسجد الضرار ، وذلك لائق

بالقصة .

وعن زيد بن ثابت ، وأبي سعيد ، وابن عمر : أنه مسجد الرسول .

وروي أنه (صلى الله عليه وسلم) قال : " هو مسجدي هذا " لما سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى .

وإذا صحّ هذا النقل لم يمكن خلافه ، ومن هنا دخلت على الزمان ، واستدل بذلك الكوفيون على أنّ من تكون لابتداء الغاية في الزمان ، وتأوله البصريون على حذف مضاف أي : من تأسيس أول يوم ، لأنّ من مذهبهم أنها لا تجر الأزمان ، وتحقيق ذلك في علم النحو .

قال ابن عطية : ويحسن عندي أن يستغني عن تقدير ، وأن تكون من تجر لفظة أول لأنها بمعنى البداءة ، كأنه قال : من مبتدأ الأيام ، وقد حكى لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو انتهى .

وأحق بمعنى حقيق ، وليست أفعل تفضيل ، إذ لا اشتراك بين المسجدين في الحق ، والتاء في أن تقوم تاء خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) .

(36/349)

وقرأ عبد الله بن يزيد : فيه بكسر الهاء فيه الثانية بضم الهاء جمع بين اللغتين ، والأصل الضم ، وفيه رفع توهم التوكيد ، ورفع رجال فيقوم إذ فيه الأولى في موضع نصب ، والثانية في موضع رفع .

وجوزوا في فيه رجال أن يكون صفة لمسجد ، والحال ، والاستئناف .

وفي الحديث قال لهم : " يا معشر الأنصار رأيت الله أثنى عليكم بالطهور فماذا تفعلون " ؟ قالوا : يا رسول الله إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء يريدون الاستنجاء بالماء ففعلنا ذلك ، فلما جاء الإسلام لم ندعه فقال : "فلا تدعوه إذاً " وفي بعض ألفاظ هذا الحديث زيادة واختلاف .

وقد اختلف أهل العلم في الاستنجاء بالحجارة أو بالماء أيهما أفضل ؟ ورأت فرقة الجمع بينهما ، وشذ ابن حبيب فقال : لا يستنجى بالحجارة حيث يوجد الماء ، فعلى ما روي في هذا الحديث يكون التطهير عبارة عن استعمال الماء في إزالة النجاسة في الاستنجاء .

وقيل : هو عام في النجاسات كلها .

وقال الحسن : من التطهير من الذنوب بالتوبة .

وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة للذنوب ، فحموا عن آخرهم .

وفي دلائل النبوة للبيهقي .

" أن أهل قباء شكوا الحمى فقال "إن شئتم دعوت الله فأزالها عنكم ، وإن شئتم جعلتها

لكم طهرة" فقالوا : بل اجعلها لنا طهرة .

" ومعنى محبتهم التطهير أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب الشيء المشتهى له على أشياء ، ومحبة الله إياهم أنه يحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه .

وقرأ ابن مصرف والأعمش : يطهروا بالإدغام ، وقرأ ابن أبي طالب المتطهرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(37/349)

وقال أبو السعود :

﴿ لاَ تَقُمْ ﴾ للصلاة ﴿ فِيهِ ﴾ في ذلك المسجدِ حسبما دعَوْك إليه ﴿ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسّسَ ﴾ أي بُني أصلُه ﴿ عَلَى التقوى ﴾ يعني مسجدَ قباءَ أسسه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيامَ مقامِه بقباء وهي يومُ الاثنين والثلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ وخرج يومَ الجمعة ، وقيل : هو مسجدُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وعن أبي سعيد رضي الله عنه سألت النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أُسس على التقوى فأخذ حصباءَ فضرب بها الأرضَ وقال : "مسجدُكم هذا مسجدُ المدينة" ، واللامُ إما للابتداء أو للقسم المحذوفِ أي والله لَمسجدٌ ، وعلى التقديرين فمسجدٌ مبتدأٌ وما

بعده صفتُه وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أي من أيام تأسيسِه ، متعلقٌ بأسس وقوله تعالى : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ أي للصلاة وذكرِ الله تعالى خبرُه وقوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مبينةٌ لأحقّيته لقيامه عليه الصلاة والسلام فيه من جهة الحال بعد بيانِ أحقيتِه له من حيث المحلُّ ، أو صفةٌ أخرى للمبتدأ أو حالٌ من الضمير في فيه وعلى كل حالٍ ففيه تحقيقٌ وتقريرٌ لاستحقاقه القيامَ فيه والمرادُ بكونه أحق نفس كونه حقيقاً به إذ لا استحقاقَ في مسجد الضرارِ رأساً وإنما عبر عنه بصيغة التفضيلِ لفضله في نفسه أو الأفضلية في الاستحقاق المتناولِ لما يكون باعتبار زعمِ الباني ومن يشايعُه في الاعتقاد وهو الأنسب بما سيأتي ﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ من المعاصي والخصالِ الذميمةِ لمرضاة الله سبحانه وقيل : من الجنابة فلا ينامون عليه .

(38/349)

﴿ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ أي يرضى عنهم ويُدْنيهم من جنابه إدناءَ المحبِّ حبيبَه . قيل : (لما نزلت مشى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباءَ فإذا الأنصارُ جلوسٌ فقال : " أمؤمنون أنتم ؟ " فسكت القومُ ثم أعادها فقال عمرُ رضي الله تعالى عنه : يا رسولَ الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم فقال عليه الصلاة والسلام :

" أترضَوْن بالقضاء ؟ " قالوا نعم قال أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : " أتصبِرون على البلاء ؟ " قالوا : نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : " مؤمنون وربِّ الكعبة " فجلس ثم قال : " يا معشرَ الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ؟ " فقالوا : نُتبعُ الغائطَ الأحجارَ الثلاثة ثم نتبع الأحجارَ الماءَ ، فتلا النبيُّ عليه الصلاة والسلام ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ وقرىء أن يطّهروا بالإدغام وقيل : هو عام في التطهر عن النجاسات كلِّها وكانوا يُتبعون الماءَ إثرَ البول . وعن الحسن رضي الله عنه هو التطهرُ عن الذنوب بالتوبة وقيل : يحبّون أن يتطهروا بالحُمّى المكفرةِ لذنوبهم فحُمُّوا عن آخرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(39/349)

وقال الآلوسى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾

﴿ لَا تَقُمْ ﴾ أي للصلاة ﴿ فِيهِ ﴾ أي في ذلك المسجد ﴿ أَبَدًا ﴾ وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير ﴿ لَا تَقُمْ ﴾ بلا تصل على أن القيام مجاز عن الصلاة كما في

قولهم : فلان يقوم الليل ، وفي الحديث "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له" ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسّسَ ﴾ أي بنى أساسه ﴿ عَلَى التقوى ﴾ أي تقوى الله تعالى وطاعته ، و ﴿ على ﴾ على ما يتبادر منها ، ولا يخفى ما في جعل التقوى وهي هي أساساً من المبالغة ، وقيل : إنها بمعنى مع ، وقيل : للتعليل لاعتباره فيما تقدم من الاتخاذ ، واللام اما للابتداء أو للقسم أي والله لمسجد .

وعلى التقديرين فمسجد مبتدأ والجملة بعده صفته ، وقوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ متعلق بأسس و ﴿ مِنْ ﴾ لابتداء الزمان على ما هو الظاهر ، وفي ذلك دليل للكوفيين في أنها تكون للابتداء مطلقاً ولا تتقيد بالمكان ، وخالف في ذلك البصريون ومنعوا دخولها على الزمان وخصوه بمذ ومنذ وتأولوا الآية بأنها على حذف مضاف أي من تأسيس أول يوم .

وتعقبه الزجاج وتبعه أبو البقاء بأن ذلك ضعيف لأن التأسيس المقدر ليس بمكان حتى تكون من لابتداء الغاية فيه .

وأجيب بأن مرادهم من التأويل الفرار من كونها لابتداء الغاية في الزمان وقد حصل بذلك التقدير ، وليس في كلامهم ما يدل على أنها لا تكون لابتداء الغاية إلا في المكان ، وقال الرضى : لا أرى في الآية ونظائرها معنى الابتداء إذ المقصود منه أن يكون الفعل شيئاً ممتداً كالسير والمشي ومجرور من منه الابتداء نحو سرت من البصرة أو يكون أصلاً لشيء ممتد

نحو خرجت من الدار إذ الخروج ليس ممتداً وليس التأسيس ممتداً ولا أصلا لممتد بل هما حدثان واقعان فيما بعد ﴿ مِنْ ﴾ وهذا معنى .

في ، ودمن ﴾ في الظروف كثيراً ما تقع بمعنى في انتهى .

وفي كون التأسيس ليس أصلاً لممتد منع ظاهر .

(40/349)

نعم ذهب إلى احتمال الظرفية العلامة الثاني وله وجه وحينئذ يبطل الاستدلال ولا يكون في الآية شاهد للكوفيين ، والحق أن كثيراً من الآيات وكلام العرب يشهد لهم والتزام تأويل كل ذلك تكلف لا داعي إليه ، وقوله تاعلى : ﴿ ﴾ في الظروف كثيراً ما تقع بمعنى في انتهى .

وفي كون التأسيس ليس أصلاً لممتد منع ظاهر .

نعم ذهب إلى احتمال الظرفية العلامة الثاني وله وجه وحينئذ يبطل الاستدلال ولا يكون في الآية شاهد للكوفيين ، والحق أن كثيراً من الآيات وكلام العرب يشهد لهم والتزام تأويل كل ذلك تكلف لا داعي إليه ، وقوله تاعلى : ﴿ أَحَقٌّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ خبر المبتدأ و ﴿ أَحَقُّ ﴾ افعل تفضيل والمفضل عليه كل مسجد أو مسجد الضرار على الفرض والتقدير أو هو على زعمهم ، وقيل : إنه بمعنى حقيق أي حقيق ذلك المسجد بأن تصلي فيه ، واختلف

في المراد منه .

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

والضحاك أنه مسجد قباء .

وقد جاءت أخبار في فضل الصلاة فيه .

فأخرج ابن أبي شيبة .

والترمذي .

والحاكم وصححه .

وابن ماجه عن أسيد بن ظهير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " صلاة في مسجد قباء كعمرة " قال الترمذي .

لا نعرف لأسيد هذا شيئاً يصح غير هذا الحديث ، وفي معناه ما أخرجه أحمد .

والنسائي عن سهل بن حنيف .

وأخرج ابن سعد عن ظهير بن رافع الحارثي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى في مسجد قباء يوم الاثنين والخميس انقلب بأجر عمرة " وذهب جماعة إلى أنه مسجد المدينة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستدلوا بما أخرجه مسلم .

والترمذي .

وابن جرير .

والنسائي .

وغيرهم عن أبي سعيد الخدري قال : اختلف رجلان في المسجد الذي أسس على التقوى .

(41/349)

فقال أحدهما : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيا رسول الله عليه الصلاة والسلام فسألاه عن ذلك فقال : هو هذا المسجد لمسجده صلى الله عليه وسلم وقال : في ذلك خير كثير يعني مسجد قباء .

وجاء في عدة روايات أنه عليه الصلاة والسلام سئل عن ذلك فقال : هو مسجدي هذا ، وأيد القول الأول بأنه الأوفق بالسباق واللحاق وبأنه بني قبل مسجد المدينة ، وجمع الشريف السمهودي بين الأخبار وسبقه إلى ذلك السهيلي وقال : كل من المسجدين مراد لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أوب يوم تأسيسه ، والسر في إجابته صلى الله عليه وسلم السؤال عن ذلك بما في الحديث دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء والتنويه بمزية هذا على ذاك ، ولا يخفى بعد هذا الجمع فإن ظاهر الحديث الذي أخرجه الجماعة عن أبي سعيد الخدري بمراحل عنه ، ولهذا اختار بعض المحققين القول الثاني

وأيده بأن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم أحق بالوصف بالتأسيس على التقوى من أول يوم وبأن التعبير بالقيام عن الصلاة في قوله سبحانه : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ يستدعي المداومة ، ويعضده توكيد النهي بقوله تعالى : ﴿ أَبَدًا ﴾ ومداومة الرسول عليه الصلاة والسلام لم توجد إلا في مسجده الشريف عليه الصلاة والسلام .

وأما ما رواه الترمذي .

وأبو داود عن أبي هريرة من أن قوله جل وعلا : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ نزلت في أهل قباء وكانوا يستنجون بالماء فهو لا يعارض نص رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما ما رواه ابن ماجه عن أبي أيوب .

وجابر .

وأنس من أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الأنصار إن الله تعالى قد أثني عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا ؟ قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة قال : فهل مع ذلك غير ؟ قالوا : لا غير إن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء .

(42/349)

قال عليه الصلاة والسلام : هو ذاك فعليكموه " فلا يدل على اختصاص أهل قباء ولا ينافي الحمل على أهل مسجده صلى الله عليه وسلم من الأنصار ، وأنا أقول : قد كثرت الأخبار في نزول هذه الآية في أهل قباء .

فقد أخرج أحمد .

وابن خزيمة .

والطبراني .

وابن مردويه .

والحاكم عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : " إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ فذكروا أنهم كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط "

وأخرج أحمد .

وابن أبي شيبة .

والبخاري في تاريخه .

والبغوي في معجمه .

وابن جرير .

والطبراني عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه نحو ذلك ، وأخرج عبد الرزاق .

والطبراني عن أبي أمامة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لأهل قباء ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته" .

وأخرج عبد الرزاق .

وابن مردويه عن عبد الله بن الحرث بن نوفل نحوه إلى غير ذلك ، وروى القول بنزولها في أهل قباء عن جماعة من الصحابة وغيرهم كابن عمر .

وسهل الأنصاري .

وعطاء .

وغيرهم .

وأما الأخبار الدالة على كون المراد بالمسجد المذكور في الآية مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكثيرة أيضاً وكذا الذاهبون إلى ذلك كثيرون أيضاً ، والجمع فيما أرى بين الأخبار والأقوال متعذر ، وليس عندي أحسن من التنقير عن حال تلك الروايات صحة وضعفاً فمتى ظهر قوة إحداهما على الأخرى عول على الأقوى .

وظاهر كلام البعض يشعر بأن الأقوى رواية ما يدل على أن المراد من المسجد مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى تأسيسه على التقوى من أول يوم أن تأسيسه على

ذلك كان مبتدأ من أول يوم من أيام وجوده لا حادثاً بعده ولا يمكن أن يراد من أول الأيام مطلقاً ضرورة .

(43/349)

نعم قال الذاهبون إلى أن المراد بالمسجد مسجد قباء : إن المراد من أول أيام الهجرة ودخول المدينة .

قال السهيلي : ويستفاد من الآية صحة ما اتفق عليه الصحابة رضي الله تعالى عنهم أجمعين مع عمر رضي الله تعالى عنه حين شاورهم في التاريخ فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة لأنه الوقت الذي أعز الله فيه الإسلام والحين الذي أمن فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، وبنيت المساجد وعبد الله تعالى كما يجب فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بنقلهم أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي نؤرخ به الآن ، فإن كان الصحابة رضي الله تعالى عنهم أخذوه من هذه الآية فهو الظن بهم لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله تعالى وأفهمهم بما فيه من الإشارات ، وإن كان ذلك عن رأي واجتهاد فقد علمه تعالى وأشار إلى صحته قبل أن يفعل إذ لا يعقل قول القائل فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم أو شهر معلوم أو تاريخ كذلك وليس ههنا إضافة في

المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال فتدبره ففيه معتبر لمن أدكر وعلم لمن رأى بعين فؤاده واستبصر انتهى .

ولا يخفى على المطلع على التاريخ أن ما وقع كان عن اجتهاد وأن قوله : وليس ههنا إضافة الخ محل نظر ، ويستفاد من الآية أيضاً على ما قيل النهي عن الصلاة في مساجد بنيت مباهاة أو رياء وسمعت أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى ، وألحق بذلك كل مسجد بني بمال غير طيب .

وروي عن شقيق ما يؤيد ذلك .

(44/349)

وروي عن عطاء لما فتح الله الأمصار على عمر رضي الله تعالى عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه ، ومن حمل التطهير فيها على ما نطقت به الأخبار السابقة قال : يستفاد منها سنة الاستنجاء بالماء ، وجاء من حديث البزار تفسيره بالجمع بين الماء والحجر وهو أفضل من الاقتصار على أحدهما ، وفسره بعضهم بالتخلص عن المعاصي والخصال المذمومة وهو معنى مجازي له ، وإذا فسر بما يسمل التطهير من الحدث الأكبر والخبث والتنزه من المعاصي ونحوها كان فيه من المدح

ما فيه ، وجوز في جملة ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ ثلاثة أوجه أن تكون مستأنفة مبينة لأحقية القيام في ذلك المسجد من جهة الحال بعد بيان الأحقية من جهة المحل ، وأن يكون صفة للمبتدأ جاءت بعد خبره ، وأن تكون حالاً من الضمير في ﴿ فِيهِ ﴾ وعلى كل حال ففيها تحقيق وتقرير لاستحقاق القيام فيه ، وقرىء ﴿ إن ﴾ بالادغام .

﴿ يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ أي يرضى عنهم ويكرمهم ويعظم ثوابهم وهو المراد بمحبة الله تعالى عند الأشاعرة وأشياعهم وذكروا أن المحبة الحقيقية لا يوصف بها سبحانه ، وحمل بعضهم التعبير بها هنا على المشاكلة ، والمراد من المطهرين إما أولئك الرجال أو الجنس ويدخلون فيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(45/349)

وقال ابن عاشور :

وجملة : ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ هي الخبر عن اسم الموصول كما قدمْنا .

والمراد بالقيام الصلاة لأن أولها قيام .

ووجه النهي عن الصلاة فيه أن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه تكسبه يُمْناً وبَركة فلا يرى المسلمون لمسجد قباء مزية عليه فيقتصر بنو غُنم وبنو سالم على الصلاة فيه لقربه من

منازلهم ، وبذلك يحصل غرض المنافقين من وضعه للتفريق بين جماعة المسلمين .

فلما كانت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم فيه مفضية إلى ترويج مقصدهم الفاسد صار ذلك وسيلة إلى مفسدة فتوجه النهي إليه .

وهذا لا يطلع على مثله إلا الله تعالى .

وهذا النهي يعم جميع المسلمين لأنه لما نهي النبي عن الصلاة فيه علم أن الله سلب عنه وصف المسجدية فصارت الصلاة فيه باطلة لأن النهي يقتضي فساد المنهي عنه ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عمار بنَ ياسر ووحشياً مولى المُطعم بن عدي ومالكَ بن الدخشم ومعنَ بن عدي فقال : "انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه" ، ففعلوا .

وتحريقه تحريق الأعواد التي يتخذ منها السَّقف ، والجذوعِ التي تجعل له أعمدة .

وقوله : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ احتراس مما يستلزمه النهي عن الصلاة فيه من إضاعة عبادةٍ في الوقت الذي رغبوه للصلاة فيه فأمره الله بأن يصلي في ذلك الوقت الذي دعَوه فيه للصلاة في مسجد الضرار أن يصلي في مسجده أو في مسجد قُباء ، لئلا يكون لامتناعه من الصلاة من حظوظ الشيطان أن يكون صرفه عن صلاة في وقت دعي للصلاة فيه ، وهذا أدب نفساني عظيم .

وفيه أيضاً دفع مكيدةِ المنافقين أن يطعنوا في الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه دعي إلى

الصلاة في مسجدهم فامتنع ، فقوله : ﴿ أحقُّ ﴾ وإن كان اسم تفضيل فهو مسلوب المفاضلة لأن النهي عن صلاته في مسجد الضرار أزال كونه حقيقاً بصلاته فيه أصلاً .

(46/349)

ولعل نكتة الإتيان باسم التفضيل أنه تهكم على المنافقين بمُجازاتهم ظاهراً في دعوتهم النبي صلى الله عليه وسلم للصلاة فيه بأنه وإن كان حقيقاً بصلاته بمسجد أسس على التقوى أحق منه ، فيعرف من وصفه بأنه ﴿ أسس على التقوى ﴾ أن هذا أسس على ضدها .

وثبت في "صحيح مسلم" وغيره عن أبي سعيد الخدري أن النبي صلى الله عليه وسلم سُئل عن المراد من المسجد الذي أسس على التقوى في هذه الآية فقال : "هو مسجدكم هذا" .

يعني المسجد النبوي بالمدينة .

وثبت في الصحيح أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن الرجال الذين يحبون أن يتطهروا بأنهم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء .

وذلك يقتضي أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم هو مسجدهم ، لقوله : ﴿ فيه رجالٌ ﴾ .

ووجه الجمع بين هذين عندي أن يكون المراد بقوله تعالى : ﴿ لمسجدٌ أسس على التقوى من أول يوم ﴾ المسجد الذي هذه صفته لا مسجداً واحداً معيناً ، فيكون هذا الوصف كلياً انحصر في فَردين المسجدِ النبوي ومسجدِ قُباء ، فأيهما صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الوقت الذي دعوه فيه للصلاة في مسجدِ الضرار كانَ ذلك أحق وأجدر ، فيحصل النجاء من حظ الشيطان في الامتناع من الصلاة في مَسجدهم ، ومن مطاعنهم أيضاً ، ويحصل الجمع بين الحديثين الصحيحين .

وقد كان قيام الرسول في المسجد النبوي هو دأبَه .

ومن جليل المنازع من هذه الآية ما فيها من حجة لصحة آراء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جعلوا العام الذي كان فيه يوم الهجرة مبدأ التاريخ في الإسلام .

(47/349)

وذلك ما انتزعه السهيلي في "الروض الأنف" في فصل تأسيس مسجدِ قباء إذ قال : "وفي قوله سبحانه : ﴿ من أول يوم ﴾ (وقد علم أنه ليس أولَ الأيام كلها ولا أضافَه إلى شيء في اللفظ الظاهر فيه) من الفقه صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم مع عمر حين شاورهم في التاريخ ، فاتفق رأيهم أن يكون التاريخ من عَام الهجرة لأنه الوقت الذي عز فيه

الإسلام وأمِن فيه النبي صلى الله عليه وسلم فوافق هذا ظاهر التنزيل" .

وجملة : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمسجد قباء .

وجاء الضمير مفرداً مراعاة للفظ (مَسجد) الذي هو جنس ، كالإفراد في قوله تعالى : ﴿ ونؤمنون بالكتاب كله ﴾ [آل عمران : 119] .

وفيه تعريض بأن أهل مسجد الضرار ليسوا كذلك .

وقد كان المؤمنون من الأنصار يجمعون بين الاستجمار بالأحجار والغسل بالماء كما دل عليه حديث رواه الدارقطني عن أبي أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ فقال : " يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطُهور فما طُهوركم ؟ قالوا : إنَّ أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء .

قال : هو ذلك فعليكموه " ، فهذا يعم الأنصار كلهم .

ولا يعارضه حديث أبي داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل أهل قباء عن طهارتهم لأن أهل قباء هم أيضاً من الأنصار ، فسؤاله إياهم لتحقق اطراد هذا التطهر في قبائل الأنصار .

وأطلقت المحبة في قوله : ﴿ يحبون ﴾ كناية عن عمل الشيء المحبوب لأن الذي يحب شيئاً

ممكناً يعمله لا محالة .

فقصد التنويه بهم بأنهم يتطهرون تقرباً إلى الله بالطهارة وإرضاء لمحبة نفوسهم إياها ، بحيث صارت الطهارة خُلقاً لهم فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم .

وجملة : ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ تذييل .

وفيه إشارة إلى أن نفوسهم وافقت خلقاً يحبه الله تعالى .

وكفى بذلك تنويهاً بزكاء أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(48/349)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

فهل قوله الحق : ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ معناه ألأن يظل المسجد قائما ولا تقام فيه صلاة ؟

هل ﴿ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ صيغتها النهي ، أي لا تُصَلِّ فيه ، أم أنها إخبار من الحق بأنك لن تقيم فيه صلاة أبداً ؛ لأنه لن يكون له وجود ؟

إن قوله الحق سبحانه يعني أن هذا المسجد يجب ألا يكون له وجود ، ثم تجد الله سبحانه يقول : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ إذن : فالمسألة

ليست في بناء المسجد ، ولكنها فيمن يدخل المسجد ويعمره ، فهنا مسجد ، وهناك مسجد ، أما المسجد الأول فقد أسس على التقوى ، وفيه أناس يحبون أن يتطهروا ، أما مسجد الضرار فقد أقامه منافقون يحبّون أن يتقذروا ؛ لأنهم المقابل لمن يحبون أن يتطهروا

.

ومعنى الحب هو ميل الطبع إلى شيء تنبسط له النفس وتحفُّ لعمله .

وحينما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الأنصار ، إن الله قد أثنى عليكم في الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا : يا رسول الله نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهل مع ذلك من غيره ؟ "

وهنا قال أهل قباء : " لا ، غير أن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء " ، وكان الواحد منهم يمسك الحجر ويمسح به محل قضاء الحاجة ؛ فيخفف من استخدام المياه ؛ لأن المياه كانت قليلة عندهم ، ثم يستخدم الماء بعد الأحجار ليكمل ويتم نظافته ، وأضافوا : " ولا نبيت على جنابة ، ولا نُصرّ على ذنب ، فإن غلبنا الذنب تعجّلنا التوبة "

.

﴿ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ والحب هنا متبادل ، فلا شيء أقسى على النفس من أن يكون الحب من طرف واحد ، وهذا هو الشقاء بعينه . والشاعر يقول :

أنتَ الحبِيبُ ولَكنّي أعُوذُ بِكَ . . . مِنْ أنْ أكُونَ حَبِيباً غَيْرَ مَحْبُوبِ

وشقاء المحبين أن يكون الحب من جانب واحد ، أما حين يكون الحب متبادلاً من الجانبين فهو قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإسعاد ، وكذلك حين تكون العداوة من جانبين فهي تأخذ قمة الإيعاد والإبعاد ، فحين تكون العداوة من جانب واحد ، تنتهي بسرعة ، لكن عندما تكون من الجانبين فإنها لا تنتهي بل تزداد اشتعالاً .

إذن : فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحب كلما رأى حبّاً من حبيبه رد عليه بحب ، فينمو الحب ويزداد ، ولا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو " الحب في الله " ، فإذا رأيت حبّاً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن ؛ فاعلم أنه حب لغير الله ، وإن رأيت الحب ينمو كل يوم ، فاعلم أنه حب في الله .

والحق سبحانه يقول في قصة فرعون وموسى : ﴿ فالتقطه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً . . . ﴾ [القصص : 8]

هم لم يلتقطوه ليكون عدواً لهم ؛ فهذا الاحتمال لو كان قد جاء في بال آل فرعون لقتلوه ، ولكنهم التقطوه ليكون قرة عين لهم ، فانظر كيف يدخل الله على تغفيل الكافرين به ، فآل فرعون هم من يربون موسى ؛ ولذلك قال له فرعون : ﴿ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا

مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴾ [الشعراء : 18]

ولكن موسى عليه السلام لا يجامل في الحق ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى هو من ربّاه ، أما تربية فرعون فلم يكن لها اعتبار في ميزان الحق ، وقد تكون العداوة هينة لو كانت من جانب موسى وحده ، ولكن شاء سبحانه ألا تكون العداوة من جانب موسى فقط ، بل من جانب فرعون أيضاً ، فيقول سبحانه : ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾ [طه : 39]

ويقول سبحانه في مجال الحب المتبادل : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ . . . ﴾ [المائدة : 54]

(50/349)

فحين يحبون الله يرد سبحانه على تحية الحب بحب زائد ، وهم يردون على تحية الحب منه سبحانه بحب زائد ، وهكذا تتوالى زيادات وزيادات ؛ حتى نصل إلى قمة الحب ، ولكن الحب عند الله لا نهاية له ، وأنت حين تقرأ قوله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلِ الحمدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ على عِبَادِهِ الذين اصطفى . . . ﴾ [النمل : 59]

ويقول سبحانه أيضاً : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ . . . ﴾ [الأحزاب : 44]

لم يأت سبحانه هنا ب " ال " التعريفية ؛ لأنها لو جاءت لانحصرت السلام في لون واحد .

فأنت حين تقول : لَقيت الرجل ، فأنت تحدد الرجل . لكنك إنْ قلت : لقيت رجلاً . فقد يكون الرجل هذا أو ذاك أو غيرهما . فإن جاء الاسم نكرة صار شائعاً ، أما إن كان بالتعريف فيكون محدداً .

والحق حين تكلم عن يحيى عليه السلام قال : ﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَياً ﴾ [مريم : 15]

لأنه يريد أن يكثر السلام . وحين تكلم عيسى عليه السلام عن نفسه قال : ﴿ والسلام عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ [مريم : 33]

وحين يلقاك إنسان فهو يقول لك : " سلام عليكم " ، وأنت ترد : " وعليكم السلام " ، لماذا ؟ لأن " سلام عليكم " معناها أن السلام منى يكون عليك وعلى غيرك ، أما ردُّك " وعليكم السلام " فيعني أنك خَصَصْتَه بهذا السلام .

وهنا الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها زادت في التحية حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ وهذا لأن الذي يحب أن يكون طاهراً دائماً ، قد أنس بفيوضات الله عليه ، وما دامت ذراته كلها طاهرة من النجاسات المعنوية ومن النجاسات الحسية يصبح جهاز استقبال الفيوضات من الله عنده صالحاً دائماً للاستقبال ، والحق سبحانه وتعالى يرسل إمداداته في كل لحظة ، ولا تنتهي إمداداته على الخلق أبداً ، وسبحانه يصف نفسه بأنه القيوم فاطمئنوا أنتم ، فإن كنتم تريدون أن تناموا فناموا ؛ فربكم لا تأخذه سنة ولا نوم .

إذن : فقد جاء الإيمان ليريحنا إلا ليتعبنا ، كما أنه سبحانه يصف نفسه : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ . . . ﴾ [المائدة : 64]

أي : يطمئن الخلق أنهم بمجرد إيمانهم ستأتيهم إمدادات الله وفيوضاته المعنوية والمادية . فصحّح جهاز استقبالك ؛ بألا توجد فيه نجاسة حسيّة أو نجاسة معنوية ؛ ولذلك إذا رأيت إنساناً عنده فيوضات من الحق فاعلم أن ذرات جسمه مبنية من حلال ، ولا توجد به قذارة معنوية ، ولا قذارة حسّية ، ويتضح ذلك كله على ملامح وجهه ، وكلماته ، وحسن استقباله . وإن كان أسمر اللون فتجده يأسرك ويخطف قلبك بنورانيته . وقد تجد إنساناً أبيض اللون لكن ليس في وجهه نور ؛ لأن فيوضات ربنا غير متجلية عليه . وكيف تأتي الفيوضات ؟ إنها تأتي بتنقية النفس ؛ لأن الإنسان إن افتقر إلى الفيوضات الربانية ، فعليه أن يبحث في جهازه الاستقبالي . وأضرب هنا مثلاً بالإرسال الإذاعي ،

فمحطات الإذاعة ترسل ، ومن يملك جهاو استقبال سليم فهو يلتقط البث الإذاعي ، أما إن كان جهاز الاستقبال فاسداً فهذا لا يعني أن محطات الإذاعة لا تبث برامجها .

ولذلك قال الحق : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ . . . ﴾ [المائدة : 64]

فاحرص دائماً على أن تتناول من يد ربك المدد الذي لا ينتهي ، والحديث الشريف يقول :

(52/349)

" إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها "

والليل قد ينتهي عند إنسان ، ويبدأ عند إنسان آخر ، وهكذا النهار ، فالليل مستمر دائماً والنهار مستمر دائماً ، فيداه سبحانه مبسوطتان دائما ولا تنقبضان أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(53/349)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) ﴾

أخرج أبو داود والترمذي وابن ماجة وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " نزلت هذه الآية في أهل قباء ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ قال : كانوا يستنجون بالماء ، فنزلت فيهم هذه الآية " .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عويم بن ساعدة قال " ما هذا الطهور الذي اثنى الله عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو هذا " .

وأخرج أحمد وابن خزيمة والطبراني والحاكم وابن مردويه عن عويم بن ساعدة الأنصاري " أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله

ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا " .

(54/349)

وأخرج ابن ماجة وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الجارود في المنتقى والدارقطني والحاكم وابن مردويه وابن عساكر عن طلحة بن نافع قال : حدثني أبو أيوب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك رضي الله عنهم ، إن هذه الآية لما نزلت ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم هذا ؟ قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة قال : فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحب أن يستنجي بالماء . قال : هو ذاك فعليكموه " .

وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن مجمع بن يعقوب بن مجمع " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعويم بن ساعدة : ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ فقالوا : نغسل الأدبار " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري في تاريخه وابن جرير والبغوي في معجمه والطبراني

وابن مردويه وأبو نعيم في المعرفة عن محمد بن عبد الله بن سلام عن أبيه قال : " لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الذي أسس على التقوى فقال " إن الله قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني ؟ يعني قوله ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ فقالوا : يا رسول الله إنا لنجد مكتوباً في التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الشعبي قال : " لما نزلت هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء " ما هذا الثناء الذي أثنى الله عليكم ؟ قالوا : ما منا أحد إلا وهو يستنجي بالماء من الخلاء " " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه أن هذه الآية نزلت في أهل قباء ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ .

(55/349)

وأخرج عبد الرزاق في مصنفه والطبراني عن أبي أمامة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء " ما هذا الطهور الذي خصصتم به في هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ ؟ قالوا : يا رسول الله ما منا أحد يخرج من الغائط إلا غسل مقعدته " .

وأخرج عبد الرزاق وابن مردويه عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال " سأل النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء فقال : إن الله قد أثنى عليكم فقالوا : إنا نستنجي بالماء . فقال : إنكم قد أثنى عليكم فدوموا " .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : أحدث قوم الوضوء بالماء من أهل قباء ، فأنزلت فيهم ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن خزيمة بن ثابت قال : كان رجال منا إذا خرجوا من الغائط يغسلون أثر الغائط ، فنزلت فيهم هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي أيوب الأنصاري قال : قالوا : " يا رسول الله ، من هؤلاء الذين قال الله فيهم ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ ؟ قال : كانوا يستنجون بالماء ، وكانوا لا ينامون الليل كله وهم على الجنابة " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه من طريق عروة بن الزبير أن عويم بن ساعدة قال : " يا رسول الله من الذين قال الله فيهم ﴿ رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " نعم القوم منهم عويم بن ساعدة ، ولم يبلغنا أنه سمى رجلاً غير عويم " " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله صلى الله عليه

وسلم لنفر من الأنصار " إن الله قد أثنى عليكم في الطهور فما طهوركم ؟ قالوا : نستنجي بالماء من البول والغائط " " .

(56/349)

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر في هذه الآية ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا . . . ﴾ الآية . قال " سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طهورهم الذي أثنى الله به عليهم . قالوا : كنا نستنجي بالماء في الجاهلية ، فلما جاء الله بالإِسلام لم ندعه . قال : فلا تدعوه " .

وأخرج ابن مردويه من طريق يعقوب بن مجمع عن عبد الرحمن بن يزيد عن مجمع بن جارية عن النبي صلى الله عليه وسلم " أن هذه الآية نزلت في أهل قباء ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ وكانوا يغسلون أدبارهم بالماء " .

وأخرج ابن سعد من طريق موسى بن يعقوب عن السري بن عبد الرحمن عن عبادة بن حمزة . أنه سمع جابر بن عبد الله يخبر : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " نعم العبد من عباد الله والرجل من أهل الجنة عويم بن ساعدة . قال موسى : وبلغني أنه لما نزلت ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله

عليه وسلم : منهم عويم أول من غسل مقعدته بالماء فيما بلغني " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن إبراهيم قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يدخل الخلاء إلا توضأ أو مس ماء .

وأخرج عمر بن شبة في أخبار المدينة من طريق الوليد بن سندر الأسلمي عن يحيى بن سهل الأنصاري عن أبيه . إن هذه الآية نزلت في أهل قباء ، كانوا يغسلون أدبارهم من الغائط ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ الآية .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن قتادة " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض الأنصار : ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ ؟ قالوا : نستطيب بالماء إذا جئنا من الغائط " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(57/349)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ : فيه وجهان أحدهما : أنها لام الابتداء . والثاني : أنها جوابُ قسمٍ محذوف ، وعلى التقديرين فيكون " لَمَسْجِدٌ " مبتدأ ، و " أُسِّس " في محل رفع نعتاً له ، و " أحقُّ " خبره ، والقائمُ مقامَ الفاعل ضميرُ المسجد على حذف مضاف أي : أُسس بنيانه .

" مِنْ أولِ " متعلقٌ به ، وبه استدلَّ الكوفيون على أن " مِنْ " تكون لابتداء الغاية في الزمان ، واستدلوا أيضاً بقوله :

2543 مِنَ الصبحِ حتى تَطْلُعَ الشمسُ لا ترى . . . من القوم إلا خارجيّاً مُسَوَّما

وقوله :

2544 تُخَيِّرْنَ مِنْ أزمانِ يومِ حَليمةٍ . . . إلى اليوم قد جُرِّبْن كلَّ التجاربِ

وتأوّله البصريون على حذف مضاف أي : من تأسيس أول يوم ، ومن طلوع الصبح ، ومن مجيء أزمان يوم . وقال أبو البقاء : " وهذا ضعيفٌ ، لأن التأسيس المقدر ليس بمكانٍ حتى تكون " مِنْ " لابتداء غايته . ويدلُّ على جواز ذلك قوله : ﴿ لِلَّهِ الأمر مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ ﴾ [الروم : 4] ، وهو كثير في القرآن وغيره " ، قلت : البصريون إنما فرُّوا مِنْ كونِها لابتداء الغاية في الزمان ، وليس في هذه العبارة ما يقتضي أنها لا تكون إلا لابتداء الغاية في المكان حتى يُرَدَّ عليهم بما ذُكِر ، والخلافُ في هذه المسألة قويٌّ ، ولأبي علي فيها كلام طويل . وقال ابن عطية : " ويَحْسُنُ عندي أن يستغنى عن تقدير ، وأن تكون " مِنْ " تجرُّ لفظة "

أول " لأنها بمعنى البداءة كأنه قال : مِنْ مبتدأ الأيام ، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو " .

وقوله : ﴿ أَحَقُّ ﴾ ليس للتفضيل بل بمعنى حقيق ، إذ لا مفاضلةَ بين المسجدَيْن ، و " أن تقوم " أي : بأن تقوم ، والتاء لخطاب الرسول عليه السلام ، و " فيه " متعلقٌ به .

(58/349)

قوله : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ ﴾ يجوز أن يكونَ " فيه " صفةً لمسجد ، و " رجال " فاعل ، وأن يكونَ حالاً من الهاء في " فيه " ، و " رجالٌ " فاعلٌ به أيضاً ، وهذان أولى من حيث إن الوصف بالمفرد أصل ، والجارُّ قريبٌ من المفرد . ويجوز أن يكون " فيه " خبراً مقدماً ، و " رجال " مبتدأ مؤخر . وفيه هذه الجملة أيضاً ثلاثة أوجه ، أحدها : الوصفُ ، والثاني : الحالُ على ما تقدم ، والثالث : الاستئنافُ .

وقرأ عبد الله بن زيد " فيهِ " بكسر الهاء ، و " فيهُ " الثانية بضمها وهو الأصل ، جَمَعَ بذلك بين اللغتين ، وفيه أيضاً رفعُ توهُّمِ التوكيد ، ورفعُ توهُّمِ أن " رجالاً " مرفوع ب " تقوم " .

وقوله : ﴿ يُحِبُّونَ ﴾ صفة ل " رجال " وأن [يتطهروا] مفعول به . وقرأ طلحة بن

مصرف والأعمش "يَطَّهَّرُوا " بالإِدغام ، وعلي بن أبي طالب " المتطهِّرين " بالإِظهار ، عكس قراءات الجمهور في اللفظتين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 121 . 123 ﴾

(59/349)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) ﴾

المقام في أماكن العصيان ، والتعريج في أوطان أهل الجحود والطغيان – من علامات الممالأة مع أربابها ، وسُكَّانِها وقُطَّانِها .

والتباعدُ عن مَسَاكِنِهم ، وهجرانُ مَنْ جَنَحَ إلى مَسالِكهم عَلَمٌ لِمَنْ أشرب قلبه مخالفتهم ، وباشرت سِرَّه عداوتُهم .

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ : يتطهرون عن المعاصي وهذه سِمَةُ العابدين ، ويتطهرون عن الشهوات والأماني وتلك صفة الزاهدين ، ويتطهرون عن محبة المخلوقين ، ثم

عن شهود أنفسهم بما يتصفون وتلك صفة العارفين .

قوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ : أسرارَهم عن المساكنةِ إلى كل مخلوق ، أو ملاحظةِ كل مُحْدَثٍ مسبوق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 62 ﴾

(60/349)

قوله تعالى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما علم من هذا بطريق الإشارة والتلويح أن التأسيس مثل ابتداء خلق الحيوان ، فمن جبل من أول مرة جبلة شر لا يصلح للخير أبداً ولا يقبله كما قال تعالى ﴿ ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون ﴾ [الأنفال : 23] ذكره على سبيل التصريح فسبب عما مضى قوله ممثلاً الباطل ببناء على حرف واد واه جداً على شفير جهنم : ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ أي كما أشرت إليه في المسجد المحثوث بالإقبال عليه ﴿ على تقوى من الله ﴾ أي الملك الأعلى ﴿ ورضوان ﴾ فكان كمن بنى بنيانه على جبل لا تهدمه الأمطار ولا تؤثر فيه السيول

﴿ خير أم من أسس بنيانه ﴾ على فسق وفجور وعدم اكتراث بالأمور فكان كمن بنى بنيانه ﴿ على شفا ﴾ أي حرف ، ومنه الشفه ﴿ جرف ﴾ أي مكان جفرة السيل وجرفه فصار مشرفاً على السقوط ، ولذلك قال : ﴿ هار ﴾ أي هائر ، من هار الجرف - إذا أشرف لتخريق السيول على السقوط ﴿ فانهار ﴾ أي فكان بناؤه لذلك سبباً لأنه سقط سقوطاً لا تماسك معه ﴿ به ﴾ أي وهو فيه آمناً من سقوطه بقلة عقله وسفاهة رأيه ﴿ في نار جهنم ﴾ فالجواب : لا شك الأول خير بل ، لا خير في الثاني أصلاً ، والعجب كل العجب من كونه بنى هذا البناء هكذا ، فأجيب بأنه لا عجب لأن الأمر بيد الله ، لا مفر من قضائه ، وهو قد هدى الأول إلى ما فيه صلاحه ، ولم يهد الثاني لما علم فيه من عدم قابلية الخير ﴿ والله ﴾ الذي له صفات الكمال ﴿ لا يهدي القوم ﴾ أي الذين لهم قوة المحاولة لما يريدون ﴿ الظالمين ﴾ أي المطبوعين على ظلام البصائر ، فهم لا يكفرون في شيء إلا جاء في غير موضعه وعلى غير نظام كخطوات الماشي في الظلام ، وقد علم أن الآية من قبيل الاحتباك : أثبت أولاً التقوى لأن أهل الإسلام أحق بها ، فدلت على حذف ضدها ثانياً ، وأثبت ثانياً ضعف البناء حساً لأن مسجد الضرار أولى به ، فدل على حذف ضده أولاً ، فذكر النهاية المعقولة لأهلها والبداية المحسوسة للناظرين لها ؛ وروي عن جابر - رضى الله عنهم - قال : رأيت الدخان من مسجد الضرار ؛

وحكي عن خلف بن يسار أنه رأى فيه حجراً يخرج منه الدخان في أول دولة بني العباس .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 387.388 ﴾

(61/349)

فصل

قال الفخر :

ثم إنه تعالى أعاد السبب الأول ، وهو كون المسجد مبنياً على التقوى ، فقال : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على تقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾ وفيه مباحث .

البحث الأول : البنيان مصدر كالغفران ، والمراد ههنا المبني ، وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور ، يقال هذا ضرب الأمير ونسج زيد ، والمراد مضروبه ومنسوجه ، وقال الواحدي : يجوز أن يكون لبيان جمع بنيانة إذا جعلته اسماً ، لأنهم قالوا بنيانة في الواحد .

البحث الثاني : قرأ نافع وابن عامر ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ على فعل ما لم يسم فاعله ، وذلك الفاعل هو الباني والمؤسس ، أما قوله : ﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ أي للخوف من عقاب الله والرغبة في ثوابه ، وذلك لأن الطاعة لا تكون طاعة إلا عند هذه

الرهبة والرغبة ، وحاصل الكلام أن الباني لما بنى ذلك البناء لوجه الله تعالى وللرهبة من عقابه ، والرغبة في ثوابه ، كان ذلك البناء أفضل وأكمل من البناء الذي بناه الباني لداعية الكفر بالله والإضرار بعباد الله ، أما قوله : ﴿ أَمِنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ففيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم ﴿ جُرُفٍ ﴾ ساكنة الراء والباقون بضم الراء وهما لغتان ، جرف وجرف كشغل وشغل وعنق وعنق .

البحث الثاني : قال أبو عبيدة : الشفا الشفير ، وشفا الشيء حرفه ، ومنه يقال أشفى على كذا إذا دنا منه ، والجرف هو ما إذا سال السيل وانحرف الوادي ويبقى على طرف السيل طين واه مشرف على السقوط ساعة فساعة .

فذلك الشيء هو الجرف ، وقوله : ﴿ هَارٍ ﴾ قال الليث : الهور مصدر هار الجرف يهور ، إذا انصدع من خلفه ، وهو ثابت بعد في مكانه ، وهو جرف هار هائر ، فإذا سقط فقد انهار وتهور .

إذا عرفت هذه الألفاظ فنقول : المعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير ، أمن أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاء ، وهو الباطل ؟ والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار من أودية جهنم فلكونه ﴿ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ كان مشرفاً على السقوط ، ولكونه على طرف جهنم ، كان إذا انهار فإنما ينهار في قعر جهنم ، ولا نرى في العالم مثالاً أكثر مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال ! وحاصل الكلام أن أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله ورضوانه ، والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر ، فكان البناء الأول شريفاً واجب الإبقاء ، وكان الثاني خسيساً واجب الهدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 157.156 ﴾

(63/349)

وقال الجصاص فى الآيتين :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ الْمَسْجِدَ الْمَبْنِيَّ لِضِرَارِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمَعَاصِي لَا يَجُوزُ الْقِيَامُ فِيهِ وَأَنَّهُ يَجِبُ هَدْمُهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ نَهَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْقِيَامِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْمَبْنِيِّ

عَلَى الضِّرَارِ ، وَالْفَسَادِ وَحَرَّمَ عَلَى أَهْلِهِ قِيَامَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ إهَانَةً لَهُمْ وَاسْتِخْفَافًا بِهِمْ ، عَلَى خِلَافِ الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَمَاكِنِ قَدْ يَكُونُ ، أَوْلَى بِفِعْلِ الصَّلَاةِ فِيهِ مِنْ بَعْضٍ وَأَنَّ الصَّلَاةَ قَدْ تَكُونُ مَنْهِيَّةً عَنْهَا فِي بَعْضِهَا وَيَدُلُّ عَلَى فَضِيلَةِ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ بِحَسَبِ مَا بُنِيَ عَلَيْهِ فِي الْأَصْلِ ، وَيَدُلُّ عَلَى فَضِيلَتِهَا فِي الْمَسْجِدِ السَّابِقِ لِغَيْرِهِ لِقَوْلِهِ : ﴿ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ ؟ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ ؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ أَنَّ الْقِيَامَ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ لَوْ كَانَ مِنْ الْحَقِّ الَّذِي يَجُوزُ لَكَانَ هَذَا الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى أَحَقَّ بِالْقِيَامِ فِيهِ مِنْ غَيْرِهِ ، وَذَلِكَ أَنَّ مَسْجِدَ الضِّرَارِ لَمْ يَكُنْ مِمَّا يَجُوزُ الْقِيَامُ فِيهِ لِنَهْيِ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ الْمَعْنَى مَا ذَكَرْنَا لَكَانَ تَقْدِيرُهُ : لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ مِنْ مَسْجِدٍ لَا يَجُوزُ الْقِيَامُ فِيهِ ، وَيَكُونُ بِمَنْزِلَةِ قَوْلِهِ فِعْلُ الْفَرْضِ أَصْلَحُ مِنْ تَرْكِهِ ، وَهَذَا قَدْ يَسُوغُ ، إلَّا أَنَّ الْمَعْنَى الْأَوَّلَ هُوَ

(64/349)

وَجْهُ الْكَلَامِ .

وَقَدْ اُخْتُلِفَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مَا هُوَ ، فَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عُمَرَ وَسَعِيدِ بْنِ

الْمُسَيّبِ أَنَّهُ مَسْجِدُ الْمَدِينَةِ .

وَرُوِيَ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَأَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ هُوَ مَسْجِدِي هَذَا ﴾ .

وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَالْحَسَنِ وَعَطِيَّةَ أَنَّهُ مَسْجِدُ قُبَاءٍ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاَللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ فَضِيلَةَ أَهْلِ الْمَسْجِدِ فَضِيلَةٌ لِلْمَسْجِدِ وَلِلصَّلَاةِ فِيهِ وَقَوْلُهُ : ﴿ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ رُوِيَ عَنْ الْحَسَنِ قَالَ : "يَتَطَهَّرُونَ مِنْ الذُّنُوبِ " وَقِيلَ فِيهِ : التَّطَهُّرُ بِالْمَاءِ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُد قَالَ : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ قَالَ : حَدَّثَنَا مُعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ عَنْ يُونُسَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ إبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي أَهْلِ قُبَاءٍ ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ﴾ قَالَ : كَانُوا يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ فَنَزَلَتْ فِيهِمْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴾ .

(65/349)

وَقَدْ حَوَى هَذَا الْخَبَرُ مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءٍ ، وَالثَّانِي : أَنَّ الِاسْتِنْجَاءَ بِالْمَاءِ أَفْضَلُ مِنْهُ بِالْأَحْجَارِ ، وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَخْبَارُ

عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِاسْتِنْجَاءِ بِالْأَحْجَارِ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ اسْتَنْجَى بِالْمَاءِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(66/349)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاَللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وَمَعْنَاهُ : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى اعْتِقَادِ تَقْوَى حَقِيقَةٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ؟ وَإِنْ كَانَ قَصَدَ بِهِ التَّقْوَى ، وَلَيْسَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ : الْعَسَلُ أَحْلَى مِنْ الْخَلِّ ، فَإِنَّ الْخَلَّ حُلْوٌ ، كَمَا أَنَّ الْعَسَلَ حُلْوٌ ؛ وَكُلُّ شَيْءٍ مُلَائِمٌ فَهُوَ حُلْوٌ ، وَلِذَلِكَ يُقَالُ : احْلَوْلَى الْعِشْقُ ، أَيْ كَانَ حُلْوًا ، لِكَوْنِهِ إمَّا عَلَى مُقْتَضَى اللَّذَّةِ أَوْ مُوَافَقَةِ الْأُمْنِيَةِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يُقَدِّمُ الْخَلَّ عَلَى الْعَسَلِ ، مُفْرَدًا بِمُفْرَدٍ وَمُضَافًا إلَى غَيْرِهِ بِمُضَافٍ .

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ : قِيلَ : إنَّهُ حَقِيقَةٌ ، ﴿ وَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذْ أَرْسَلَ إلَيْهِ فَهُدِمَ رُئِيَ الدُّخَانُ يَخْرُجُ مِنْهُ ﴾ ، مِنْ رِوَايَةِ

سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَغَيْرِهِ : حَتَّى رُئِيَ الدُّخَانُ فِي زَمَانِ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ .

وَقِيلَ : هَذَا مَجَازٌ ، الْمَعْنَى أَنَّ مَآلَهُ إلَى نَارِ جَهَنَّمَ ، فَكَأَنَّهُ انْهَارَ إلَيْهِ ، وَهَوَى فِيهِ .

وَهَذَا كَقَوْلِهِ : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ إشَارَةٌ إلَى أَنَّ النَّارَ تَحْتُ ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ فَوْقُ .

(67/349)

وَقَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : أَنَا رَأَيْت الدُّخَانَ يَخْرُجُ مِنْهُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَوْ صَحَّ هَذَا لَكَانَ جَابِرٌ رَافِعًا لِلْإِشْكَالِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ ابْتُدِئَ بِنِيَّةِ تَقْوَى اللَّهِ ، وَالْقَصْدِ لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، فَهُوَ الَّذِي يَبْقَى ، وَيَسْعَدُ بِهِ صَاحِبُهُ ، وَيَصْعَدُ إلَى اللَّهِ وَيُرْفَعُ إلَيْهِ ، وَيُخْبِرُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّك ذُو

الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ عَلَى أَحَدِ الْوَجْهَيْنِ ، وَيُخْبِرُ عَنْهُ أَيْضًا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّك ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ

﴾

(68/349)

وقال السمرقندى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾

يعني : أصَّل بنيانه ﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ ﴾ ، يعني : على توحيد الله تعالى ، ﴿ وَرِضْوَانٍ ﴾ من الله عز وجل .

قرأ نافع وابن عامر ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ بضم الألف وكسر السين ﴿ بُنْيَانَهُ ﴾ بضم الألف والنون على معنى فعل ما لم يسم فاعله ، وقرأ الباقون ﴿ أَسَّسَ ﴾ بنصب الألف وَ ﴿ بُنْيَانَهُ ﴾ بنصب النون ومعنى الآية : إن البناء الذي يراد به الخير ورضاء الرب تبارك وتعالى ﴿ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ ، يعني : مسجد الضرار أصّل بنائه ﴿ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ، يعني : على طرف هار ليس له أصل .

قرأ حمزة وابن عامر وأبي بكر ، عن عاصم ﴿ جُرُفٍ ﴾ بجزم الراء ، والباقون بالضم ومعناهما واحد .

وقال القتبي : يعني : على شفا جرف هائر .

والجرف : ما ينجرف بالسيول من الأودية .

والهائر : الساقط .

يقال : تهور البناء وانهار وهار ، إذا سقط .

وهذا على سبيل المثل ، يعني : إن الذي بنى المسجد ، إنّما بنى على جرف جهنم ، فانهار بأهله في نار جهنم .

وقال الكلبي : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين بعد رجوعه من غزوة تبوك ، فأحرقاه وهدماه .

ثم قال : ﴿ والله لاَيَهْدِى القوم الظالمين ﴾ ، يعني : لا يرشدهم إلى دينه ، يعني : الذين كفروا في السر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(69/349)

وقال الثعلبى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾

اختلف القرآء به فقرأ نافع وأهل الشام : أُسس بنيانه بضم الهمزة والنون على غير تسمية الفاعل ، وذكر أبو حاتم عن زيد بن ثابت ، وقرأ عمارة بن صايد : أسس بالمد وفتح السين والنون في وزن آمَنَ ، وكذلك الثانية وآسس وأُسّس واحد افعل وفعل يتقاربان في التعدية . وقرأ الباقون بفتح الهمزة وتشديد السين الأُولى على تسمية الفاعل واختاره أبو عبيد وأبو حاتم .

﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ ﴾ وقرأ عيسى بن عمر تقوىً من الله منوّناً ﴿ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا ﴾ أي شفير وقال أبو عبيد : الشفا الحد وتثنيته : الشفوان .

﴿ جُرُفٍ ﴾ قرأ عاصم وحمزة بالتخفيف ، وقرأ الباقون بالتثقيل وهما لغتان وهو السير الي لم تطؤ . قال أبو عبيدة : هو الهوّة وما يجرفه السيل من الأودية ﴿ هَارٍ ﴾ أي هائر وهو الساقط الذي يتداعى بعضه في أثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو . يقال هو من المقلوب يقلب ويؤخر ياؤها فيقال هار [ولات] كما يقال شاكي السلاح وشائك السلاح وعاق وعائق ، قال الشاعر :

ولم يعقني عن هواها عاق . . . .

(70/349)

وقيل : هو من هار يهار إذا انهدم مثل : خاف يخاف ، وهذا مثل لضعف نيّاتهم وقلّة بصيرتهم في علمهم ﴿ فانهار ﴾ فانتثر يقال : هار وانهار ويهور بمعنى واحد إذا سقط وانهدم ومنه قيل تهوّر الليل إذا ذهب أكثره ، وفي مصحف أُبيّ : فإنهارت به قواعده ﴿ فِي نَارِ جَهَنَّمَ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ قال قتادة : والله [ما تنامى] أن وقع في النار ، وذكر لنا أنه حفرت بقعة فيها فرأى الدخان يخرج منه قال جابر بن عبد الله : رأيت

الدخان يخرج من مسجد الضرار ، وقال خلف بن ياسين الكوفي : حججت مع أبي في زمان بني أُمية فرأيت في المدينة مسجد القبلتين يعني مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بقبا وفيه قبلة بيت المقدس ، فلما كان زمان أبي جعفر قالوا : يدخل الجاهل فلا يعرف القبلة فهدّم البناء الذي بني على يدي عبد الصمد بن عليّ ، ورأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله تعالى في القرآن وفيه جحر يخرج منه الدخان وهو اليوم مزبلة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(71/349)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ﴾

يعني مسجد قباء والألف من ﴿ أَفَمَنْ ﴾ ألف إنكار .

ويحتمل قوله ﴿ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ وجهين :

أحدهما : أن التقوى اجتناب معاصيه ، والرضوان فعل طاعته .

الثاني : أن التقوى اتقاء عذابه ، والرضوان طلب ثوابه .

وكان عمر بن شبة يحمل قوله تعالى ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ على مسجد

المدينة ، ويحتمل ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ على مسجد قباء ، فيفرق بين المراد بهما في الموضعين .

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ يعني شفير جرف وهو حرف الوادي الذي لا يثبت عليه البناء لرخاوته وأكل الماء له ﴿ هَارٍ ﴾ يعني هائر ، والهائر : الساقط .

وهذا مثل ضربه الله تعالى لمسجد الضرار .

ويحتمل المقصود بضرب هذا المثل وجهين :

أحدهما : أنه لم يبق بناؤهم الذي أسس على غير طاعة الله حتى سقط كما يسقط ما بني على حرف الوادي .

الثاني : أنه لم يخف ما أسرُّوه من بنائه حتى ظهر كما يظهر فساد ما بنى على حرف الوادي بالسقوط .

﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : أنهم ببنيانهم له سقطوا في نار جهنم .

الثاني : أن بقعة المسجد مع بنائها وبُناتها سقطت في نار جهنم ، قاله قتادة والسدي .

قال قتادة : ذكر لنا أنه حفرت منه بقعة فرئي فيها الدخان وقال جابر بن عبد الله : رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حين انهار . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ الآية

استفهام بمعنى تقرير ، وقرأ نافع وابن عامر وجماعة " أَسس بنيانُه " على بناء " أسس " للمفعول ورفع " بنيان " فيهما ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وجماعة " أسس بنيانَه " على بناء الفعل للفاعل ونصب " بنيان " فيهما ، وقرأ عمارة بن ضبا رواه يعقوب الأول على بناء الفعل للمفعول والثاني على بنائه للفاعل ، والآية تتضمن معادلة بين شيئين ، فإما بين البناءين وإما بين البانين ، فالمعادلة الأولى هي بتقدير أبناء من أسس ، وقرأ نصر بن علي ورويت عن نصر بن عاصم : " أفمن أس بنيانه " على إضافة " أس " إلى " بنيان " وقرأ نصر بن عاصم وأبو حيوة أيضاً " أساس بنيانه " وقرأ نصر بن عاصم أيضاً " أُسُس بنيانه " على وزن فُعُل بضم الفاء والعين وهو جمع أساس كقذال وقذل حكى ذلك أبو الفتح ، وذكر أبو حاتم أن هذه القراءة لنصر إنما هي " أَسَسُ " بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة ، وعلى الحكايتين فالإضافة إلى البنيان ، وقرأ نصر بن علي أيضاً " أساس " على جمع " أس " و " البنيان " يقال بنى بيني بناء وبنياناً كالغفران فسمي به المبنى

مثل الخلق إذا أردت به المخلوق ، وقيل هو جمع واحدة بنيانة ، وأنشد في ذلك أبو علي : [الطويل]

كبنيانة القاري موضع رجلها . . . وآثار نسعيها من الدق أبلق

(73/349)

وقرأ الجمهور ﴿ على تقوى ﴾ وقرأ عيسى بن عمر " على تقوًى " بتنوين الواو حكى هذه القراءة سيبويه وردها الناس ، قال أبو الفتح : قياسها أن تكون الألف للإلحاق كأرطى ونحوه ، وأما المراد بالبنيان الذي أسس على التقوى والرضوان فهو في ظاهر اللفظ وقول الجمهور المسجد المذكور قبل ويطرد فيه الخلاف المتقدم ، وروي عن عبد الله بن عمر أنه قال : المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد بأنه أسس على تقوى من الله ، ﴿ ورضوان خير ﴾ هو مسجد قباء ، وأما البنيان الذي أسس ﴿ على شفا جرف هار ﴾ فهو مسجد الضرار بإجماع .

و" الشفا " الحاشية والشفير و" الجرف " حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والندوة والبلى . وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي وجماعة " جُرُف " بضم الراء ، وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة وجماعة " جرْف " بسكون الراء ، واختلف عن عاصم . وهما

لغتان ، وقيل الأصل ضم الراء وتخفيفها بعد ذلك مستعمل و﴿ هار ﴾ : معناه متهدم منهال وهو من هار يهور ويقال هار يهير ويهير ، وأصله هاير أو هاور ، فقيل قلبت راؤه قبل حرف العلة فجاء هارو أو هاري فصنع به ما صنع بقاض وغاز ، وعلى هذا يقال في حال النصب هارياً ، ومثله في يوم راح أصله رايح ومثله شاكي السلاح أصله شايك ومثله قول العجاج : [الوافر]

لاث به الأشاء والعبري . . . أصله لايث .

ومثله قول الشاعر [الأجدع الهمداني] : [الكامل]

خَفَضُوا أسنتَهمْ فكلٌّ ناع . . . على أحد الوجهين :

فإنه يحتمل أنه من نعى ينعي والمراد أنهم يقولون يا ثارات فلان ، ويحتمل أن يريد فكلهم نايع أي عاطش كما قال عامر بن شييم ، والأسل النياعا وقيل في ﴿ هار ﴾ إن حرف علته حذف حذفاً فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب ، فتقول : جرف هار ورأيت جرفاً هاراً ، ومررت بجرف هار .

(74/349)

واختلف القراء في إمالة ﴿ هار ﴾ و﴿ انهار ﴾ ، وتأسيس البناء على تقوى إنما هو بحسن النية فيه وقصد وجه الله تعالى وإظهار شرعه ، كما صنع بمسجد النبي صلى الله عليه وسلم وفي مسجد قباء .

والتأسيس ﴿ على جرف هار ﴾ إنما هو بفساد النية وقصد الرياء والتفريق بين المؤمنين ، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة ، و﴿ خير ﴾ في هذه الآية تفضيل ولا شركة بين الأمرين في خير إلا على معتقد يأتي مسجد الضرار ، فبحسب ذلك المعتقد صح التفضيل ، وقوله ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ الظاهر منه وما صح من خبرهم وهدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجدهم أنه خارج مخرج المثل ، أي مثل هؤلاء المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم ، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره ، وقيل بل ذلك حقيقة وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم ، قاله قتادة وابن جريج .

وروي عن جابر بن عبد الله وغيره أنه قال : رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروي في بعض الكتب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة ففزع لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وروي أنهم لم يصلوا فيه أكثر من ثلاثة أيام أكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة

السبت وانهار يوم الاثنين .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله بإسناد لين ، وما قدمناه أصوب وأصح ، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك إلى أن يقبل صلى الله عليه وسلم .

وقوله ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ : طعن على هؤلاء المنافقين وإشارة إليهم ، والمعنى لا يهديهم من حيث هم الظالمون ، أو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه ، وأسند الطبري عن خلف بن ياسين أنه قال : رأيت مسجد المنافقين الذين ذكر الله في القرآن ، فرأيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان ، وذلك في زمن أبي جعفر المنصور .

وروي شبيه بهذا أو نحوه عن ابن جريج أسنده الطبري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(75/349)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾

قرأ ابن كثير ، وأبو عمرو ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي "أَسس" بفتح الألف في الحرفين

جميعاً وفتح النون فيهما .

وقرأ نافع ، وابن عامر "أُسس" بضم الألف "بنيانُه" برفع النون .

والبنيان مصدر يراد به المبني .

والتأسيس : إحكام أس البناء ، وهو أصله ، والمعنى : المؤسِّس بنيانه متقياً يخاف الله ويرجو رضوانه خير ، أم المؤسس بنيانه غير متق ؟ قال الزجاج : وشفا الشيء : حرفُه وحدُّه .

والشفا مقصور ، يكتب بالألف ، ويثنى شفوان .

قوله تعالى : ﴿ جرف ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي "جُرُف" مثقَّلاً .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وأبو بكر عن عاصم : "جُرْف" ساكنة الراء .

قال أبو علي : فالضم الأصل ، والإسكان تخفيف ، ومثله : الشُّغُل والشُّغْل .

قال ابن قتيبة : المعنى : على حرف جرف هائر .

والجرف : ما يتجرف بالسيول من الأودية .

والهائر : الساقط .

ومنه : تهوَّر البناء وانهار : إذا سقط .

وقرأ ابن كثير ، وحمزة "هار" بفتح الهاء .

وأمال الهاء نافع ، وأبو عمرو .

وعن عاصم كالقراءتين .

قوله تعالى : ﴿ فانهار به ﴾ أي : بالباني ﴿ في نار جهنم ﴾ قال الزجاج : وهذا مثل ، والمعنى : أن بناء هذا المسجد كبناء على جرف جهنم يتهوَّر بأهله فيها .

وقال قتادة : ذُكر لنا أنهم حفروا فيه حفرة ، فرؤي فيها الدخان .

قال جابر : رأيت المسجد الذي بني ضراراً يخرج منه الدخان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(76/349)

وقال القرطبى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ ﴾ أي أصّل ، وهو استفهام معناه التقرير .

و "مَن" بمعنى الذي ، وهي في موضع رفع بالابتداء ، وخبره "خَيْرٌ" .

وقرأ نافع وابن عامر وجماعة "أُسِّسَ بُنْيَانُهُ" على بناء أسس للمفعول ورفع بنيان فيهما .

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائيّ وجماعة "أسّس بنيانه" على بناء الفعل للفاعل

ونصب بنيانه فيهما ، وهي اختيار أبي عبيد لكثرة من قرأ به ، وأن الفاعل سمي فيه .

وقرأ نصر بن عاصم بن عليّ "أفمن أَسَسُ" بالرفع "بُنيانه" بالخفض .

وعنه أيضاً "أساس بنيانه" وعنه أيضاً "أَسُّ بنيانه" بالخفض .

والمراد أصول البناء كما تقدّم .

وحكى أبو حاتم قراءة سادسة وهي "أَفَمَنْ آسَاسُ بُنْيَانِهِ" قال النحاس : وهذا جمع أُسّ ؛ كما يقال : خُفٌّ وأَخْفَاف ، والكثير "إساسٌ" مثل خفاف .

قال الشاعر :

أصبح المُلْك ثابتَ الآسَاسَ . . .

في البهَالِيل من بني العباس

الثانية قوله تعالى : ﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ ﴾ قراءة عيسى بن عمر فيما حكى سيبويه بالتنوين ، والألف ألف إلحاق كألف تترى فيما نُوّن ، وقال الشاعر :

يَسْتَنّ في عَلْقىً وفي مُكُورِ . . .

وأنكر سيبويه التنوين ، وقال : لا أدري ما وجهه .

﴿ على شَفَا ﴾ الشفا : الحرف والحدّ ، وقد مضى في "آل عمران" مستوفى .

و﴿ جُرُفٍ ﴾ قُرِىء برفع الراء ، وأبو بكر وحمزة بإسكانها ؛ مثل الشُّغُل والشُّغْل ، والرُّسُل والرُّسْل ، يعني جُرُفاً ليس له أصل .

والجُرُف : ما يُتجرّف بالسيول من الأدوية ، وهو جوانبه التي تنحفر بالماء ، وأصله من الجَرْف والاجتراف ؛ وهو اقتلاع الشيء من أصله .

﴿ هَارٍ ﴾ ساقط ؛ يقال : تهوّر البناء إذا سقط ، وأصله هائر ، فهو من المقلوب يقلب وتؤخر ياؤها ، فيقال : هارٍ وهائر ، قاله الزجاج .

(77/349)

ومثله لاَثَ الشيءَ به إذا دار ؛ فهو لاثٍ أي لائث .

وكما قالوا : شاكي السلاح وشائك السلاح .

قال العجاج :

لاثٍ به الأشَاء والعُبْريّ . . .

الأشاء النخل ، والعُبْرِي السِّدْر الذي على شاطىء الأنهار ، ومعنى لاَث به مُطِيف به .

وزعم أبو حاتم أن الأصل فيه هاور ، ثم يقال هائر مثل صائم ، ثم يقلب فيقال هارٍ .

وزعم الكسائي أنه من ذوات الواو ومن ذوات الياء ، وأنه يقال : تهور وتهير .

قلت : ولهذا يمال ويفتح .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ فاعل انهار الجُرُف ؛ كأنه قال : فانهار

الجرف بالبنيان في النار ؛ لأن الجرف مذكر .

ويجوز أن يكون الضمير في به يعود على "مَن" وهو الباني ؛ والتقدير : فانهار مَنْ أسس بنيانه على غير تقوى .

وهذه الآية ضربُ مثلٍ لهم ، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق .

وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها .

والشَّفَا : الشفير .

وأشفى على كذا أي دنا منه .

الرابعة في هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدىء بنيّة تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويَسْعَد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه ، ويخبر عنه بقوله : ﴿ ويبقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجلال والإكرام ﴾ [الرحمن : 27] على أحد الوجهين .

ويخبر عنه أيضاً بقوله : ﴿ والباقيات الصالحات ﴾ [الكهف : 46] على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الخامسة واختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ هل ذلك حقيقة أو مجاز على قولين ؛ الأوّل أن ذلك حقيقة وأن النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ أرسل إليه فهُدِم رؤي الدّخان يخرج منه ؛ من رواية سعيد بن جُبير .

وقال بعضهم : كان الرجل يُدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة .

وذكر أهل التفسير أنه كان يُحفر ذلك الموضع الذي انهار فيخرج منه دخان .

(78/349)

وروى عاصم بن أبي النَّجُود عن زِرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه قال : جهنم في الأرض ، ثم تلا "فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" .

وقال جابر بن عبد الله : أنا رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني أن ذلك مجاز ، والمعنى : صار البناء في نار جهنم ، فكأنه انهار إليه وهوى فيه ؛ وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ [القارعة : 9] .

والظاهر الأوّل ، إذ لا إحالة في ذلك . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(79/349)

وقال الخازن :

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾

يعني طلب ببنائه المسجد الذي بناه تقوى الله ورضاه .

والمعنى : أن الباني لما بنى ذلك البناء كان قصده تقوى الله وطلب رضاه وثواب ﴿ خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ﴾ الشفا : هو الشفير وشفا كل شيء حرفه ومنه يقال : أشفى على كذا إذا دنا منه وقرب أن يقع فيه .

والجرف : المكان الذي أكل الماء تحته فهو إلى السقوط قريب وقال أبو عبيد : الجرف هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية فينحفر بالماء فيبقى واهياً هار أي هائر وهو الساقط فهو من هار يهور فهو هائر وقيل : هو من هاريها إذا تهدم وسقط وهو الذي تداعى بعضه في أثر بعض كما يهار الرمل والشيء الرخو ﴿ فانهار به ﴾ يعني سقط بالباني ﴿ في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ والمعنى أن بناء هذا المسجد الضرار كالبناء على شفير جهنم فيهور بأهله فيها .

وهذا مثل ضربه الله تعالى للمسجدين مسجد الضرار ومسجد التقوى مسجد قباء أو مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعنى المثل : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهو الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه خير أم من أسس دينه على أضعف القواعد وأقلها بقاء وثباتاً وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل بناء على غير

أساس ثابت وهو شفا جرف هار وإذا كان كذلك كان أسرع إلى السقوط في نار جهنم ولأن الباني الأول قصد ببنائه تقوى الله ورضوانه فكان بناؤه أشرف البناء ، والباني الثاني قصد ببنائه الكفر والنفاق وإضرار المسلمين فكان بناؤه أخسّ البناء وكانت عاقبته إلى نار جهنم .

قال ابن عباس : صيرهم نفاقهم إلى النار .

وقال قتادة : والله ما تناهى بناؤهم حتى وقع في النار ولقد ذكر لنا أنه حفرت بقعة منه فرؤي الدخان يخرج منها .

وقال جابر بن عبد الله : رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(80/349)

وقال أبو حيان :

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ﴾

قرأ نافع وابن عامر : أسس بنيانه مبنياً للمفعول في الموضعين .

وقرأ باقي السبعة وجماعة ذلك مبنياً للفاعل ، وبنصب بنيان .

وقرأ عمارة بن عائذ الأولى على بناء الفعل للمفعول ، والثانية على بنائه للفاعل .

وقرأ نصر بن علي ، ورويت عن نصر بن عاصم أسس بنيانه ، وعن نصر بن علي وأبي حيوة ونصر بن عاصم أيضاً ، أساس جمع أسّ .

وعن نصر بن عاصم آسس بهمزة مفتوحة وسين مضمومة .

وقرىء إساس بالكسر ، وهي جموع أضيفت إلى البنيان .

وقرىء أساس بفتح الهمزة ، وأُس بضم الهمزة وتشديد السين ، وهما مفردان أضيفا إلى البنيان ، فهذه تسع قراءات .

وفي كتاب اللوامح نصر بن عاصم : أفمن أسس بالتخفيف والرفع ، بنيانه بالجرّ على الإضافة ، فأسس مصدر أس : الحائط يؤسة أساً وأسساً .

وعن نصر أيضاً أساس بنيانه كذلك ، إلا أنه بالألف ، وأسّ وأسس وأساس كلّ مصادر انتهى .

والبنيان مصدر كالغفران ، أطلق على المبنى كالخلق بمعنى المخلوق .

وقيل : هو جمع واحده بنيانه قال الشاعر :

كبنيانة القاريّ موضع رحلها . . .

وآثار نسعيها من الدفّ أبلق

وقرأ عيسى بن عمر على تقوى بالتنوين ، وحكى هذه القراءة سيبويه ، وردها الناس .

قال ابن جني : قياسها أن تكون ألفها للإلحاق كارطي .

وقرأ جماعة منهم : حمزة ، وابن عامر ، وأبو بكر ، جرف بإسكان الراء ، وباقي السبعة وجماعة بضمها ، وهما لغتان .

وقيل : الأصل الضم .

وفي مصحف أُبي فانهارت به قواعده في نار جهنم ، والظاهر أنّ هذا الكلام فيه تبيين حالي المسجدين : مسجد قباء ، أو مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومسجد الضرار ، وانتفاء تساويهما والتفريق بينهما ، وكذلك قال كثير من المفسرين .

وقال جابر بن عبد الله : رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار وانهار يوم الاثنين .

(81/349)

وروى سعيد بن جبير : أنه إذ أرسل الرسول بهدمه رؤي منه الدخان يخرج ، وروي أنه كان الرجل يدخل فيه سعفة من سعف النخل فيخرجها سوداء محترقة ، وكان يحفر ذلك الموضع الذي انهار فيخرج منه دخان .

وقيل : هذا ضرب مثل أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق ، وبين أنّ بناء الكافر كبناء على شفا جرف هار يتهور أهله في جهنم .

قال ابن عطية : قيل : بل ذلك حقيقة ، وأنّ ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم قاله : قتادة ، وابن جريج .

وخير لا شركة بين الأمرين في خير إلا على معتقد باني مسجد الضرار ، فبحسب ذلك المعتقد صح التفضيل .

وقال الزمخشري : والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله تعالى ورسوله خيرٌ ، أم من أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأوهاها وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والاستمساك ؟ وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى ، لا جعل مجازاً عن ما ينافي التقوى .

(فإن قلت) : فما معنى قوله تعالى : فانهار به في نار جهنم ؟ (قلت) : لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل : فانهار به على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، ولتصور أنّ الباطل كأنه أسس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها ، ولا نرى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل .

وكنه أمره والفاعل فانهار أي : البنيان أو الشفا أو الجرف به ، أي : المؤسس الباني ، أو أنهار الشفا أو الجرف به أي : بالبنيان .

ويستلزم انهيار الشفا والبنيان ، ولا يستلزم انهيار أحدهما انهياره .

(82/349)

والله لا يهدي القوم الظالمين ، إشارة إلى تعديهم ووضع الشيء في غير موضعه حيث بنوا مسجد الضرار ، إذ المساجد بيوت الله يجب أن يخلص فيها القصد والنية لوجه الله وعبادته ، فبنوه ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(83/349)

وقال أبو السعود :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾

على بناء الفعلِ للفاعل والنصبِ ، وقرىء على البناء للمفعول والرفعِ وقرىء أُسسُ بنيانِه على الإضافة جمع أساس ، وإءَساسُ بالفتح والكسر جمع أُسّ وقرىء أَساسُ بنيانِه جمع أُس أيضاً وأُسُّ بنيانِه ، وهي جملةٌ مستأنفة مبينةٌ لخيرية الرجالِ المذكورين من أهل مسجد قُباء والهمزةُ للإنكار والفاء للعطف على مقدر أي أبعدَ ما عَلِمَ حالَهم : مَنْ أسّس بنيانَ

دينه ﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ أي على قاعدةٍ محكمة هي التقوى من الله وابتغاءُ مرضاتِه بالطاعة ، والمرادُ بالتقوى درجتُها الثانية التي هي التوقّي عن كل ما يُؤثِمَ من فعل أو ترك ، وقرىء تقوىً بالتنوين على أن الألف للإلحاق دون التأنيث ﴿ خَيْرٌ أَمَّن أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ تركُ الإضمار للإيذان باختلاف البُنيانين ذاتاً مع اختلافهما وصفاً وإضافةً ﴿ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾ الشفا الحَرْف والشفير والجُرُف ما جرفه السيل أي استأصله واحتفَر ما تحته فبقيَ واهياً يريد الانهدام ، والهارُ الهائرُ المتصدّعُ المشرِفُ إلى السقوط من هار يهورُ ويهار أو هار يهير قُدّمت لامُه على عينه فصار كغازٍ ورامٍ وقيل : حذفت عينه اعتباطاً أي بغير موجب فجرى وجوهُ الإعرابِ على لامه ﴿ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ مثّل ما بنَوا عليه أمرَ دينِهم في البُطلان وسرعةِ الانطماسِ بما ذُكر ثم رشّح بانهياره في النار ، ووُضع بمقابلة الرضوانِ تنبيهاً على أن تأسيسَ ذلك على أمر يحفظه من النار ويوصله إلى الرضوان ومقتضياتِه التي أدناها الجنةُ وتأسيسَ هذا على ما هو بصدر الوقوعِ في النار ساعةً فساعة ثم مصيرُهم إليها لا محالة . وقرىء جُرْف بسكون الراء ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظَّالِمِينَ ﴾ أي لأنفسهم أو الواضعين للأشياء في غير مواضِعها أي لا يُرشدهم إلى ما فيه نجاتُهم وصلاحُهم إرشاداً موجباً له لا محالة ، وأما الدلالةُ على ما يرشدهم إليه إن استرشدوا به فهو متحققٌ بلا اشتباه . انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ

﴾

وقال الآلوسى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾

أي مبنية فهو مصدر كالغفران واستعمل بمعنى المفعول ، وعن أبي علي أن البنيان جمع واحده بنيانة ولعل مراده أنه اسم جنس جمعي واحده ما ذكر وإلا فليس بشيء ، والتأسيس وضع الأساس وهو أصل البناء وأوله ، ويستعمل بمعنى الأحكام وبه فسره بعضهم هنا ، واختار آخرون التفسير الأول لتعديه بعلي في قوله سبحانه : ﴿ على تقوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾ فإن المتبادر تعلقه به ، وجوز تعلقه بمحذوف وقع حالا من الضمير المستكن في أسس وهو خلاف الظاهر كما لا يخفى ، والمراد من الرضوان طلبه بالطاعة مجازاً وإن شئت قدرت المضاف ليكون المتعاطفان من أعمال العبد ، والهمزة للإنكار ، والفاء للعطف على مقدر كما قالوا في نظائره أي أبعد ما علم حالهم فمن أسس بنيانه على تقوى وخوف من الله تعالى وطلب مرضاته بالطاعة ﴿ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ ﴾ أي طرفه ، ومنه أشفى على الهلاك أي صار على شفاء وشفى المريض لأنه صار على شفا البرء والسلامة ويثنى على شفوان .

والجرف بضمتين البئر التي لم تطو ، وقيل : هو الهوة وما يجرفه السيل من الأودية لجرف الماء له أي أكله وإذهابه .

وقرأ أبو بكر .

وابن عامر .

(85/349)

وحمزة ﴿ جُرُفٍ ﴾ بالتخفيف وهو لغة فيه ﴿ هَارٍ ﴾ أي متصدع مشرف على السقوط وقيل ساقط ؛ وهو نعت لجرف وأصله هاور أو هاير فهو مقلوب ووزنه فالع ، وقيل : إنه حذفت عينه اعتباطاً فوزنه قال ، والاعراب على رائه كباب ، وقيل : إنه لا قلب فيه ولا حذف وأصله هور أو هير على وزن فعل بكسر العين ككتف فلما تحرك حرف العلة وانفتح ما قبله قلب ألفاً ، والظاهر أنه وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى فيما سبق ، وفيه استعارة تصريحية تحقيقية حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرف هار في قلة الثبات ثم استعير لذلك والقرينة المقابلة ، وقوله تعالى : ﴿ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ترشيح ، وباؤه أما للتعدية أو للمصاحبة ، ووضع في مقابلة الرضوان تنبيهاً على أن تأسيس ذلك على أمر يحفظه مما يخاف ويوصله إلى ما أدنى مقتضياته الجنة ، وتأسيس

هذا على ما هو بصدد الوقوع في النار ساعة فساعة ثم المصير إليها لا محالة ، والاستعارة فيما تقدم مكنية حيث شبهت فيه التقوى بقواعد البناء تشبيهاً مضمراً في النفس ودل عليه ما هو من روادفه ولوازمه وهو التأسيس والبنيان ، واختار غير واحد أن معنى الآية أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة هي التقوى وطلب الرضا بالطاعة خير أم من أسس على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها فأدى به ذلك لخوره وقلة استمساكه إلى السقوط في النار ، وإنما اختير ذلك على ما قيل لما أنه أنسب بتوصيف أهل مسجد الضرار بمضارة المسلمين والكفر والتفريق والإرصار وتوصيف أهل مسجد التقوى بأنهم يحبون أن يتطهروا بناء على أن المراد التطهير عن المعاصي والخصال المذمومة لأنه المقتضى بزعم البعض لمحبة الله تعالى لا التطهير المذكور في الأخبار ، وأمر الاستعارة على هذا التوجيه على طرز ما تقدم في التوجيه الأول ، وجوز أن يكون في الجملة الأولى تمثيل لحال من أخلص لله تعالى وعمل الأعمال الصالحة بحال من بنى بناء محكماً يستوطنه ويتحصن به ، وان يكون البنيان

(86/349)

استعارة أصلية والتأسيس ترشيحاً أو تبعية وكذا جوز التمثيل في الجملة الثانية وإجراء ذلك فيها ظاهر بعد اعتبار إجرائه في مقابله ، وفاعل ﴿ أَنْهَارٌ ﴾ إما ضمير البنيان وضمير ﴿ بِهِ ﴾ للمؤسس وإما للشفا وضمير به للبنيان وإليه يميل ظاهر التفسير المار آنفا .

وظاهر الأخبار أن ذلك المسجد إذا وقع وقع في النار .

فقد أخرج ابن المنذر .

وابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن قتادة أنه قال في الآية : والله ما تناهى أن وقع في النار ، وذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرئى منه الدخان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى أنه قال فيها : مضى حين خسف به إلى النار .

وعن سفيان بن عيينة يقال : إنه بقعة من نار جهنم .

وأنت تعلم أني والحمد لله تعالى مؤمن بقدرته سبحانه على أتم وجه وأنه جل جلاله فعال لما يريد لكني لا أومن بمثل هذه الظواهر ما لم يرد فيها خبر صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ نافع .

وابن عامر ﴿ أَسَّسَ ﴾ بالبناء للمفعول في الموضعين ، وقرىء ﴿ المطهرين أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ على الإضافة ونسب ذلك إلى علي بن نصر ﴿ وأسس ﴾ بفتحات ونسبت إلى عاصم ﴿ إساس ﴾ بالكسر ، قيل : وثلاثتها جمع أس وفيه نظر ، ففي الصحاح الأس أصل البناء وكذلك الأساس والأسس مقصور منه وجمع الأس أساس مثل عس وعساس وجمع الأساس أسس مثل قذال وقذل وجمع الأسس آساس مثل سبب وأسباب انتهى .

وجوز في في أسس أن يكون مصدراً .

وقرأ عيسى بن عمرو ﴿ وتقوى ﴾ بالتنوين ، وخرج ذلك ابن جنى على أن الألف للإلحاق كما في أرطى ألحق بجعفر لا للتأنيث كالف تترى في رأي وإلا لم يجز تنوينه .

وقرأ ابن مسعود ﴿ فَإِنَّهَا رَبَّهُ والمشركين فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ ﴿ والله لاَ يَهْدِى القوم الظالمين ﴾ أي لأنفسهم أو الواضعين للأشياء في غير مواضعها أي لا يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم إرشاداً موجباً له لا محالة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(87/349)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ ﴾

تفريع على قوله : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ [التوبة : 108] لزيادة بيان أحقية المسجد المؤسَّس على التقوى بالصلاة فيه .

وبيان أن تفضيل ذلك المسجد في أنه حقيق بالصلاة فيه تفضيل مسلوب المشاركة لأن مسجد الضرار ليس حقيقاً بالصلاة فيه بعد النهي ، لأن صلاة النبي صلى الله عليه وسلم لو وقعت لأكسبت مَقصدَ وَاضعيه رواجاً بين الأمة وهو غرضهم التفريق بين جماعات المسلمين كما تقدم .

والفاء مؤخرة عن همزة الاستفهام لأحقية حرف الاستفهام بالتصدير .

والاستفهام تقريري .

والتأسيس : بناءُ الأساس ، وهو قاعدة الجدار المبني من حجر وطين أو جص .

والبنيان في الأصل مصدر بوزن الغُفران والكفران ، اسم لإقامة البيت ووضعه سواء كان البيت من أثواب أم من أدم أم كان من حجر وطين فكل ذلك بناء .

ويطلق البنيان على المبني من الحجر والطين خاصة .

وهو هنا مطلق على المفعول ، أي المبني .

وما صدق (من) صاحبُ البناء ومستحقه ، فإضافة البنيان إلى ضمير (مَن) إضافة على معنى اللام .

وشُبه القصد الذي جعل البناء لأجله بأساس البناء ، فاستعير له فعل ﴿ أسس ﴾ في

الموضعين .

ولما كان من شأن الأساس أن تطلب له صلابة الأرض لدوامه جعلت التقوى في القصد الذي بني له أحد المسجدين ، فشبهت التقوى بما يرتكز عليه الأساس على طريقة المكنية ، ورُمز إلى المشبه به المحذوف بشيء من ملائماته وهو حرف الاستعلاء .

وفُهم أن هذا المشبه به شيء راسخ ثابت بطريق المقابلة في تشبيه الضد بما أسس على شفاً جُرُف هار ، وذلك بأن شبه المقصد الفاسد بالبناء بجرْف جُرف منهار في عدم ثبات ما يقام عليه من الأساس بله البناء على طريقة الاستعارة التصريحية .

وحرف الاستعلاء ترشيح .

(88/349)

وفرع على هذه الاستعارة الأخيرة تمثيل حالة هدمه في الدنيا وإفضائه بانيه إلى جهنم في الآخرة بانهيار البناء المُؤسس على شفَا جُرف هارَ بساكنه في هوّة .

وجعل الانهيار به إلى نار جهنم إفضاء إلى الغاية من التشبيه .

فالهيئة المشبهة مركبة من محسوس ومعقول وكذلك الهيئة المشبه بها .

ومقصود أن البنيان الأول حصل منه غرض بانيه لأن غرض الباني دوام ما بناه .

فهم لما بنوه لقصد التقوى ورضى الله تعالى ولم يُذكر ما يقتضي خيبتهم فيه كما ذُكر في مقابله عُلم أنهم قد اتقوا الله بذلك وأرضوه ففازوا بالجنة ، كما دلت عليه المقابلة ، وأن البنيان الثاني لم يَحصل غرضُ بانيه وهو الضرار والتفريق فخابوا فيما قصدوه فلم يثبت المقصد ، وكان عدم ثباته مفضياً بهم إلى النار كما يفضي البناء المنهار بساكنه إلى الهلاك .

والشَّفا بفتح الشين وبالقصر : حرف البئر وحرف الحفرة .

والجُرف بضمتين : جانب الوادي وجانب الهُوة .

وهارٍ : اسم مشتق من هَارَ البناءُ إذا تصدع ، فقيل : أصله هَوَر بفتحتين كما قالوا خَلَف في خالف .

وليست الألف التي بعد الهاء ألف فاعل بل هي عين الكلمة منقلبة عن الواو لأن الواو متحركة وانفتح ما قبلها فقلبت ألفاً ، وقيل هو اسم فاعل من هار البناء وأصل وزنه هاور ، فوقع فيه قلب بين عينه ولامه تخفيفاً .

وقد وقع ذلك في ألفاظ كثيرة من اللغة مثل قولهم : شاكي السلاح ، أصله شائِك .

ورجل صاتٌ عالي الصوت أصله صائتٌ .

ويدل لذلك قولهم : انهار ولم يقولوا انهرى .

وهَرٍ مبالغةً في هَار .

وقرأ نافع وابن عامر وحدهما فعل ﴿ أسس ﴾ في الموضعين بصيغة البناء للمفعول ورفع

﴿ بنيانُه ﴾ في الموضعين .

وقرأها الباقون بالبناء للفاعل ونصب ﴿ بنيانَه ﴾ في الموضعين .

وقرأ الجمهور ﴿ جُرُف ﴾ بضم الراء .

وقرأه ابن عامر وحمزة وأبو بكر عن عاصم وخلفٌ بسكون الراء .

(89/349)

وجملة : ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ تذييل ، وهو عام يشمل هؤلاء الظالمين الذين بنوا مسجد الضرار وغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(90/349)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾

وقوله : ﴿ أَفَمَنْ ﴾ استفهام ، وكأنه يقول : وكيف تساوون بين مسجد أسِّسَ على

التقوى من أول يوم ، ومسجد اتُّخِذ للضرار وللكفر ولتفريق جماعة المسلمين وإرصاداً لمن حارب الله ؟

إنهما لا يستويان أبداً ، وساعة يطرح الحق هذه العملية بالاستفهام فسبحانه واثق من أن عبده سيجيب بما يريد الله .

وقوله الحق : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ نجد كلمة " بنيان " وهي مصدر ؛ " بنى " " بنياناً " ، لكن أطلق على الشيء المبني ، فنقول ، إن هذا البنيان فرعوني .

إذن : هناك فرق بين عملية البناء وبين الشيء الذي ينشأ من هذه العملية ، وكلمة البنيان اسم جنس جمعي ؛ لأنه يصح أن يكون جمعاً ومفرده " بنيانة " مثلما نقول : " رمان " ، ومفرده " رمانة " ، و " عنب " ومفرده عنبة " ، وأيضاً " روم " مفرده " رومي " فياء النسب هنا دخلت على الجمع فجعلته مفرداً . إذن : يُفرق بين الواحد والجمع ، إما بالياء وإما بالتاء .

وقد حكم سبحانه بألا يصلوا في مسجد الضرار ، وعليهم أن يصلوا في المسجد الآخر ، وهو مسجد قباء ، ثم يرد سبحانه الأمر إلى المؤمنين ، ليعرفوا أن ما حكم به سبحانه هو ما تقبله العقول ، وأن حكمهم يوافق حكم ربهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ على شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فانهار بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وهنا ثلاث كلمات

: شفا ، وجُرف ، وهَار . والشفا مأخوذ من الشَّفَة ، و " الشفا " حرف الشيء وطرفه . وسكانُ سواحل البحار يعرفون أن البحار لها نحر من تحت الأرض ، وتجد الماء يحفر لنفسه مساحة تحت الأرض ويترك شفة من الأرض ، ولو سار عليها الإنسان لوقع ؛ لأنها الطرف الذي ليس له قاعدة وأسفله مَنْحور .

(91/349)

و " شفا جُرُف " أي طرف سينهار ؛ لأنه " هار " أي غير متماسك ، فتكون الصورة أن الماء ينحر في الساحل ، فيصنع شفة لها سطح وليس لها قاعدة تحتها ، وهذه اسمها " شفا جُرُف " .

وقد قال القرآن في موضع آخر : ﴿ واذكروا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النار فَأَنقَذَكُمْ مِّنْهَا . . . ﴾ [آل عمران : 103]

إنها الحفرة في النار ، فكيف يكون شكلها ؟ لابد أنه مرعب .

ونحن نعلم أنهم كانوا حين يحفرون الآبار ليخأذوا منها الماء ، كانوا يضعون في جدار البئر أحجاراً تمنع ردمه ؛ لأن البئر إن لم يكن له جدار من حجارة قد ينهار بفعل سقوط الرمال

من على فوهته ، وهكذا تمنع الأحجار أي جزء متآكل من سطح البئر من الوقوع فيه ، والجزء المتآكل هو جرف هَارٍ ، وهكذا كان مسجد الضرار ، ينهار بمن فيه في نار جهنم .

ويذيل الحق الآية : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ وهم كانوا ظالمين بالنفاق ؛ لذلك لم يَهْدِهم الله إلى عمل الخير ؛ لأن الله لا يهدي الظالم . وسبحانه يقول في أكثر من موضع بالقرآن : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الفاسقين ﴾ [المائدة : 108]

ويقول سبحانه : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الكافرين ﴾ [البقرة : 264]

ويقول عز وجل : ﴿ والله لاَ يَهْدِي القوم الظالمين ﴾ [البقرة : 258]

والهداية – كما علمنا من قبل – قسمان : هداية الدلالة ، وهي لجميع الخلق ويدل بها الناس على طريق الخير ، ولهم أن يسلكوه أو لا يسلكوه ، فهم أحرار ، فلله هداية شملت الجميع ، وهي هداية الدلالة ، أما الهداية المنفية هنا فهي هداية المعونة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(92/349)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ﴾ قال : هذا مسجد قباء ﴿ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ﴾ قال : هذا مسجد الضرار .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : مسجد الرضوان أول مسجد بني بالمدينة في الإسلام .

وأخرج أبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : " لما أسس رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الذي أسسه على التقوى كان كلما رفع لبنة قال " اللهمَّ إن الخير خير الآخرة . ثم يناولها أخاه ، فيقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تنتهي اللبنة منتهاها ، ثم يرفع الأخرى فيقول : اللهمَّ اغفر للأنصار والمهاجرة ، ثم يناولها أخاه ، فيقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تنتهي اللبنة منتهاها " " .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ﴾ قال : بنى قواعده في نار جهنم .

وأخرج مسدد في مسنده وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث

انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ قال : والله ما تناهى أن وقع في النار ، ذكر لنا أنه حفرت فيه بقعة فرؤي منها الدخان .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ قال : مسجد المنافقين انهار فلم يتناه دون أن وقع في النار . ولقد ذكر لنا : إن رجالاً حفروا فيه فرأوا الدخان يخرج منه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ قال : فمضى حين خسف به .

(93/349)

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان بن عيينة . أنه لا يزال منه دخان يفور لقوله ﴿ فانهار به في نار جهنم ﴾ ويقال : إنه بقعة في نار جهنم .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : في قراءة عبد الله بن مسعود " فانهار به قواعده في نارجهنم " يقول : خر من قواعده في نار جهنم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ : قرأ نافع وابن عامر : " أُسِّس " مبنياً للمفعول ، " بنيانُه " / بالرفع لقيامه مقام الفاعل . والباقون " أَسَّس " مبنياً للفاعل " بنيانه " مفعول به ، والفاعل ضمير مَنْ . وقرأه عمارة ابن عائذ الأول مبنياً للمفعول ، والثاني مبنياً للفاعل ، و " بنيانُه " مرفوع على الأولى ومنصوب على الثانية لِما تقدم . وقرأ نصر بن علي ونصر بن عاصم " أُسُسُ بنيانِه " . وقرأ أبو حيوة والنصران أيضاً " أَساسُ بنيانِه " جمع أُسّ ، وروي عن نصر بن عاصم أيضاً " أَسُّ " بهمزة مفتوحة وسين مشددة مضمومة . وقرىء " إساس " بالكسر وهي جموع أضيفت إلى البنيان . وقرىء " أساس " بفتح الهمزة ، و " أُسّ " بضم الهمزة وتشديد السين ، وهما مفردان أضيفا إلى البنيان . ونقل صاحب كتاب " اللوامح " فيه " أَسَسُ " بالتخفيف ورفع السين ، " بنيانِه " بالجر ، فَأَسَسٌ مصدر أسَّ يؤسُّه أَسَساً

وأسّاً فهذه عشر قراءات .

والأُسُّ والأَساس القاعدة التي بُني عليها الشيء ، ويقال : "كان ذلك على أُسِّ الدهر" كقولهم : "على وجه الدهر" ، ويقال : أَسَّ مضعَّفاً أي : جَعَلَ له أساساً ، وآسَسَ بزنة فاعَل .

والبُنْيان فيه قولان ، أحدهما : أنه مصدر كالغفران والشكران ، وأُطْلِق على المفعول كالخَلْق بمعنى المخلوق . والثاني : أنه جمعٌ وواحدُه بُنْيانة قال الشاعر :

2545 كبُنْيانةِ القاريِّ مَوْضِعُ رَحْلِها . . . وآثارُ نَسْعَيْها مِنَ الدَّقِّ أَبْلَقُ

يعنون أنه اسم جنس كقمح وقمحة .

(95/349)

قوله : ﴿ على تقوى ﴾ يجوز فيها وجهان ، أحدهما : أنه متعلقٌ بنفس "أَسَّس" فهو مفعوله في المعنى . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوفٍ على أنه حالٌ من الضميرِ المستكنِّ في "أَسَّسَ" أي : قاصداً ببنيانه التقوى ، كذا قدَّره أبو البقاء .

وقرأ عيسى بن عمر "تقوىً" منونة . وحكى هذه القراءة سيبويه ، ولم يَرْتَضِها الناسُ لأنَّ ألفَها للتأنيث فلا وَجْهَ لتنوينها ، وقد خرَّجها الناسُ على أن تكونَ ألفُها للإلحاق ، قال ابن

جني : " قياسُها أن تكونَ ألفُها للإلحاق كأَرْطى " .

قوله : ﴿ خَيْرٌ ﴾ خبرُ المبتدأ . والتفضيل هنا باعتبار معتقدِهم . و " أم " متصلة ، و " من " الثانية عطف على " مِنْ " الأولى ، و " أَسَّس بنيانه " كالأول .

قوله : ﴿ على شَفَا جُرُفٍ ﴾ كقوله : " على تقوى " في وجهيه . والشَّفا تقدم في آل عمران . وقرأ حمزة وابن عامر وأبو بكر عن عاصم " جُرْفٍ " بسكون الراء والباقون بضمها ، فقيل : لغتان . وقيل : الساكن فرعٌ على المضموم نحو : عُنْق في عُنُق وطُنْب في طُنُب . وقيل بالعكس كعُسُر ويُسُر . والجُرُف : البِئْر التي لم تُطْوَ .

وقيل : هو الهُوَّةُ وما يَجْرُفُه السَّيْلُ من الأودية قاله أبو عبيدة . وقيل : هو المكان الذي يأكله الماء فيَجْرُفه أي يَذْهب به . ورَجُلٌ جِرَاف أي : كثير النكاح كأنه يَجْرُفُ في ذلك العَمَلِ . قاله الراغب .

قوله : ﴿ هَارٍ ﴾ نعت لجُرُفٍ . وفيه ثلاثة أقوال ، أحدها : وهو المشهور أنه مقلوبٌ بتقديمِ لامه على عينه ، وذلك أنَّ أصلَه : هاورٌ أو هايرٌ بالواو والياء لأنه سُمع فيه الحرفان . قالوا : هار يَهُور فانْهارَ ، وهار يَهير . وتَهَوَّر البناء وتَهَيَّر ، فقُدِّمت اللام وهي الراء على العين وهي الواو أو الياء فصار كغازٍ ورامٍ ، فأُعِلَّ بالنقص كإعلالهما فوزنه بعد القلب فالِع ، ثم تَزِنُه بعد الحذف ب فالٍ .

الثاني : أنه حُذِفَتْ عينُه اعتباطاً أي لغير موجَبٍ ، وعلى هذا فيجري بوجوه الإِعراب على لامه ، فيُقال : هذا هارٌ ورأيت هاراً ومررت بهارٍ ، ووزنُه أيضاً فال .

والثالث : أنه لا قلبَ فيه ولا حذف وأنَّ أصله هَوِر أو هَيِر بزنة كَتِف ، فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقُلِب ألفاً فصار مثل قولهم : كبشٌ صافٌ ، أي : صَوِف أو يومٌ راحٌ ، أي : رَوِح . وعلى هذا فتحرَّك بوجوه الإِعراب أيضاً كالذي قبله كما تقول : هذا باب ورأيت باباً ومررت ببابٍ . وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادِّعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل ، لولا أنه غير مشهور عند أهل التصريف . ومعنى " هار " ، أي : ساقط متداعٍ مُنْهار .

قوله : ﴿ فانهار ﴾ فاعلُه : إمَّا ضميرُ البنيان والهاء في به على هذا ضمير المؤسس الباني ، أي : فسقط بنيان الباني على شفا جُرُفٍ هار وإما ضمير الجُرُف ، أي فسقط الشَّفا أو سَقَطَ الجُرُف . والهاء في " به " للبنيان . ويجوز أن / يكون للباني المؤسس ، والأَوْلى أن يكون الفاعلُ ضميرَ الجرف ، لأنه يلزم مِنْ انهيارِه الشَّفَا والبنيان جميعاً ، ولا يلزم من انهيارِهما أو انهيارِ أحدهما انهيارُه . والباء في " به " يجوز أن تكونَ المعدّيةَ ، وأن تكونَ التي للمصاحبة . وقد تقدَّم لك خلافٌ أولَ هذا الموضوع : أن المعدِّيَةَ عند بعضهم

تَسْتلزم المصاحبةَ . وإذا قيل إنها للمصاحبة هنا فتتعلقُ بمحذوفٍ لأنها حال ، أي : فانهار مصاحباً له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 123.126 ﴾

(97/349)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109) ﴾

المريدُ يجب أن يؤسّسَ بنيانَه على يقينٍ صادقٍ فيما يعتقده ، ثم على خلوص في العزيمة ألا ينصرِفَ قبل الوصولِ عن الطريق الذي يسلكه ، ثم على انسلاخه عن جميع مُناه وشهواته ، ومآربه ومطالبه ، ثم يبني أَمْرَه على دوام ذِكْرِه بحيث لا يعترِضُه نسيان ، ثم على ملازمة حق المسلمين وتقديم مصالحهم . . . بالإيثار على نفسه . والذي ضيَّع الأصولَ في ابتدائه حُرِمَ الوصول في انتهائه ، والذي يَحْكِمُ الأساسَ في بنائِه سَقَطَ السَّقْفُ على جدرانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 62.63 ﴾

(98/349)

قوله تعالى ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما تقدم غير قاطع في إخرابه لما ثبت للمساجد من الحرمة ، استأنف الإخبار عن أنه لا يعد في عداد المساجد بوجه ، وإنما هو في عداد بيوت الأصنام فهو واجب الإعدام فقال : ﴿ لا يزال بنيانهم ﴾ أي نفس المبنى وهو المسجد ﴿ الذي بنوا ريبة ﴾ أي شكاً ونفاقاً ﴿ في قلوبهم ﴾ كما أن بيوت الأصنام كذلك لأهلها ، فكان ذلك حثاً على إخرابه ومحوه وقطع أثره .

والمعنى أنه جامع لهم على الريبة في كل زمان يمكن أن يكون ﴿ إلا أن ﴾ ولما كان القطع محصلاً للمقصود من غير نظر إلى قاطع معين ، قال بانياً للمفعول : ﴿ تقطع قلوبهم ﴾ أي إلا زمان يوجد فيه القطع البليغ الكثير لقلوبهم وعزائمهم ويباعد بينهم ويفرق شملهم بإخراجه ، وقراءة يعقوب ب " إلى " الجارة واضحة في المراد ، أو يكون المراد أنه لا يزال حاملاً لهم على التصميم على النفاق إلى أن يموتوا ، فهو كناية عن عدم توبتهم .

ولما كان التقدير : فالله عليم بما أخبركم به فلا تشكوا فيه ، عطف عليه تعميماً للحكم

وتعظيماً للأمر قوله : ﴿ والله ﴾ أي الذي له الإحاطة بكل شيء ﴿ عليم ﴾ أي بالغ العلم بكل معلوم ﴿ حكيم ﴾ فهو يتقن ما يأمر به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 388 ﴾

(99/349)

فصل

قال الفخر :

﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾

والمعنى : أن بناء ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم ، فجعل نفس ذلك البنيان ريبة لكونه سبباً للريبة .

وفي كونه سبباً للريبة وجوه : الأول : أن المنافقين عظم فرحهم ببناء مسجد الضرار ، فلما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتخريبه ثقل ذلك عليهم وازداد بغضهم له وازداد ارتيابهم في نبوته .

الثاني : أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما أمر بتخريب ذلك المسجد ظنوا أنه إنما أمر بتخريبه لأجل الحسد ، فارتفع أمانهم عنه وعظم خوفهم منه في كل الأوقات ، وصاروا

مرتابين في أنه هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم ؟ الثالث : أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في بناء ذلك المسجد ، فلما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بتخريبه بقوا شاكين مرتابين في أنه لأي سبب أمر بتخريبه ؟ الرابع : بقوا شاكين مرتابين في أن الله تعالى هل يغفر تلك المعصية ؟ أعني سعيهم في بناء ذلك المسجد ، والصحيح هو الوجه الأول .

ثم قال : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : قرأ ابن عامر وحفص عن عاصم وحمزة ﴿ أَن تَقَطَّعَ ﴾ بفتح التاء والطاء مشددة بمعنى تتقطع ، فحذفت إحدى التاءين ، والباقون بضم التاء وتشديد الطاء على ما لم يسم فاعله ، وعن ابن كثير ﴿ تُقَطَّعَ ﴾ بفتح الطاء وتسكين القاف ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ بالنصب أي تفعل أنت بقلوبهم هذا القطع ، وقوله : ﴿ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي تجعل قلوبهم قطعاً ، وتفرق أجزاء إما بالسيف وإما بالحزن والبكاء ، فحينئذ تزول تلك الريبة .

والمقصود أن هذه الريبة باقية في قلوبهم أبداً ويموتون على هذا النفاق .

وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

(100/349)

وقيل حتى تنشق قلوبهم غماً وحسرة ، وقرأ الحسن ﴿ إلى أَن ﴾ وفي قراءة عبد الله ﴿ وَلَوْ قُطِّعَتْ قُلُوبِهِمْ ﴾ وعن طلحة ﴿ وَلَوْ قُطِّعَتْ قُلُوبِهِمْ ﴾ على خطاب الرسول صلى الله عليه وسلم أو كل مخاطب .

ثم قال : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ والمعنى : عليم بأحوالهم ، حكيم في الأحكام التي يحكم بها عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 157 ﴾

(101/349)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ رِيبَةً ﴾

يعني : مسجد الضرار ريبةً ﴿ فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ ، يعني : حسرة وندامة بما أنفقوا فيه ، وبما ظهر من أمرهم ونفاقهم .

﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : لا يزال حسرة في قلوبهم إلى أن يموتوا ، لأنهم إذا ماتوا انقطعت قلوبهم .

ويقال : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي في القبر .

قرأ حمزة وابن عامر وعاصم في رواية حفص ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ ﴾ بالنصب فيكون الفعل

للقلوب ، يعني : إلاَّ أَنْ تَتَقَطَّعَ قلوبهم وتتفرق ، والباقون بالرفع على فعل ما لم يسم فاعله ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ بهدم مسجدهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(102/349)

وقال الثعلبى :

﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً ﴾

شكّاً ونفاقاً ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يحسبون أنهم كانوا ببنائه محسنين كما حبب العجل إلى قوم موسى . قال ابن عباس : شكاً ونفاقاً ، وقال الكلبي : حبّبه وزيّنه لأنّهم زعموا أنهم لا يتبعونه ، وقال السدي وحبيب والمبرد : لأنّ الله هدم بنيانهم الذي بنوا حزازة في قلوبهم ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ تتقطع قلوبهم فيموتوا كقوله تعالى : ﴿ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 46] لأن الحياة تنقطع بانقطاع القلب .

وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم : إلى أن تقطع ، خفيفة على الغاية ، يدل عليه تفسير الضحاك وقتادة ، لا يزالون في شك منهم إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبيّنوا .

واختلف القُراء في قوله ﴿ تَقَطَّعَ ﴾ . قال أبو جعفر وشيبة وابن عامر وحمزة والمفضل وحفص : تقطع بفتح التاء والطاء مشدداً ، يعني تقطع ثم حذفت إحدى التائين ، وقرأ

يحيى بن كثير ومجاهد ونافع وعاصم وأبو عمرو والكسائي ﴿ تُقَطَّعَ ﴾ بضم التاء وتشديد الطاء على غير تسمية الفاعل وهو اختيار أبي عبيدة وأبي حاتم ، قرأ يعقوب ﴿ قُطِعَ ﴾ بضم التاء خفيفة من القطع .

وروي عن ابن كثير (تقطع) بفتح التاء خفيفة ﴿ قُلُوبُهُمْ ﴾ نصباً أي تفعل أنت ذلك بهم ، وقرأ ابن مسعود والأعمش ولو قطعت قلوبهم .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(103/349)

وقال الماوردى :

قوله عزوجل ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ ﴾

يعني مسجد الضرار .

﴿ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِم ﴾ فيه قولان :

أحدهما : أن الريبة فيها عند بنائه .

الثاني : أن الريبة عند هدمه .

فإن قيل بالأول ففي الريبة التي في قلوبهم وجهان :

أحدهما : غطاء على قلوبهم ، قاله حبيب بن أبي ثابت .

الثاني : أنه شك في قلوبهم ، قاله ابن عباس وقتادة والضحاك ، ومنه قول النابغة الذبياني :

حَلَفْتُ فلم أترك لنَفْسِكَ ريبة . . . وليس وراءَ الله للمرءِ مذهب

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن تكون الريبة ما أضمروه من الإضرار برسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين .

وإن قيل بالثاني أن الريبة بعد هدمه ففيها وجهان :

أحدهما : أنها حزازة في قلوبهم ، قاله السدي .

الثاني : ندامة في قلوبهم ، قاله حمزة .

ويحتمل وجهاً ثالثاً : أن تكون الريبة الخوف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين .

﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : إلا أن يموتوا ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك .

الثاني : إلا أن يتوبوا ، قاله سفيان .

الثالث : إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم ، قاله عكرمة . وكان أصحاب ابن مسعود يقرأُونها : ﴿ وَلَوْ تَقَطَّعَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾

الضمير في ﴿ بنيانهم ﴾ عائد على المنافقين البانين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم ، وقوله ﴿ الذي بنوا ﴾ تأكيد وتصريح بأمر المسجد ورفع للإشكال ، و" الريبة " الشك ، وقد يسمى ريبة فساد المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيء والتحفظ فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكاً ، فقد يرتاب من لا يشك ، ولكنها في معتاد اللغة تجري مع الشك ، ومعنى " الريبة " في هذه الآية أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام ، فمقصد الكلام لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يبقى في قلوبهم حزازة وأثر سوء ، وبالشك فسر ابن عباس الريبة هنا ، وفسرها السدي بالكفر ، وقيل له أفكفر مجمع بن جارية ؟ قال : لا ولكنها حزازة .

(105/349)

قال القاضي أبو محمد : ومجمع رحمه الله قد أقسم لعمر أنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً ، والآية إنما عنت من أبطن سوءاً فليس مجمع منهم ، ويحتمل أن يكون المعنى لا يزالون

مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم ، وجملة هذا أن الريبة في الآية تعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق ، وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي " إلا أن تُقطع قلوبهم " بضم التاء وبناء الفعل للمفعول ، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم بخلاف عن " إلا أن تَقطع " بفتح التاء على أنها فاعلة ، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب : " إلى أن تقطع " على معنى إلى أن يموتوا ، وقرأ بعضهم : " إلى أن تقطع " وقرأ أبو حيوة " إلا أن يُقطِع " بالياء مضمومة وكسر الطاء ونصب " القلوبَ " أي بالقتل ، وأما على القراءة الأولى فقيل بالموت قاله ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم ، وقيل ، بالتوبة وليس هذا بالظاهر إلا أن يتأول : أو يتوبوا توبة نصوحاً يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب هماً وفكرة ، وفي مصحف ابن مسعود " ولو قطعت قلوبهم " ، وكذلك قرأها أصحابه وحكاها أبو عمرو " وان قطَعت " بتخفيف الطاء ، وفي مصحف أبيّ " حتى الممات " وفيه " حتى تقطع " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(106/349)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لا يزال بنيانهم ﴾

يعني مسجد الضرار ﴿ الذي بَنَوْا ريبة في قلوبهم ﴾ وفيها ثلاثة أقوال :

أحدها : شكّاً ونفاقاً ، لأنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه ، قاله ابن عباس ، وابن زيد .

والثاني : حسرة وندامة ، لأنهم ندموا على بنائه ، قاله ابن السائب ومقاتل .

والثالث : أن المعنى : لا يزال هدم بنيانهم حزازة وغيظاً في قلوبهم ، قاله السدي ، والمبرِّد .

قوله تعالى : ﴿ إلا أن تقطَّع قلوبهم ﴾ قرأ الأكثرون : "إلا" وهو حرف استثناء .

وقرأ يعقوب "إلى أن" فجعله حرف جر .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، والكسائي ، وأبو بكر عن عاصم : "تُقَطَّع" بضم التاء .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص عن عاصم : "تَقَطَّع" بفتح التاء .

ثم في المعنى .

قولان :

أحدهما : إلا أن يموتوا ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة في آخرين .

والثاني : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ، ذكره الزجاج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ لاَيَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ ﴾

يعني مسجد الضرار .

﴿ رِيبَةً ﴾ أي شكا في قلوبهم ونفاقاً ؛ قاله ابن عباس وقتادة والضحاك .

وقال النابغة :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رِيبةً . . .

وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ

وقال الكلبي : حسرة وندامة ؛ لأنهم ندِموا على بنيانه .

وقال السُّدّي وحبيب والمبرّد : "رِيبة" أي حزازة وغيظاً .

﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أي تتصدع قلوبهم فيموتوا ؛ كقوله : ﴿ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الوتين ﴾ [الحاقة : 46] لأن الحياة تنقطع بانقطاع الوتين ؛ وقاله قتادة والضحاك ومجاهد .

وقال سفيان : إلا أن يتوبوا .

عكرمة : إلا أن تقطع قلوبهم في قبورهم ، وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرؤونها : ريبة في قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم .

وقرأ الحسن ويعقوب وأبو حاتم "إلى أن تقطع" على الغاية أي لا يزالون في شك منه إلى أن يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا .

واختلف القراء في قوله "تَقَطّع" فالجمهور "تُقُطِّعَ" بضم التاء وفتح القاف وشد الطاء على الفعل المجهول .

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص ويعقوب كذلك إلا أنهم فتحوا التاء .

وروي عن يعقوب وأبي عبد الرحمن "تُقْطَع" على الفعل المجهول مخفف القاف .

وروي عن شبْل وابن كثير "تَقْطع" خفيفة القاف "قُلُوبهم" نصباً ، أي أنت تفعل ذلك بهم .

وقد ذكرنا قراءة أصحاب عبد الله .

﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ تقدم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(108/349)

وقال الخازن :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً ﴾

يعني شكاً ونفاقاً ﴿ في قلوبهم ﴾ والمعنى : أن ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم ، لأن المنافقين فرحوا ببناء مسجدهم ، فلما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم

) بتخريبه ، ثقل ذلك عليهم وازدادوا غماً وحزناً وبغضاً لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فكان سبب الريبة في قلوبهم .

وقيل : إنهم كانوا يحسبون أنهم محسنون في بنائه كما حبب العجل إلى بني إسرائيل فلما أمر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتخريبه ، بقوا شاكّين مرتابين لأي سبب أمر بتخريبه .

وقال السدي : لا يزال هدم بنيانهم ريبة أي حرارة وغيظاً في قلوبهم ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أي تجعل قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء إما بالسيف وإما بالموت .

والمعنى : أن هذه الريبة باقية في قلوبهم إلى أن يموتوا عليها ﴿ والله عليم ﴾ يعني بأحوالهم وأحوال جميع عباده ﴿ حكيم ﴾ يعني فيما حكم به عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(109/349)

وقال أبو حيان :

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم ﴾

يحتمل أن يكون البنيان هنا مصدراً أي : لا يزال ذلك الفعل وهو البنيان ، ويحتمل أن يراد به المبني ، فيكون على حذف مضاف أي : لا يزال بناء المبنى .

قال ابن عباس : لا يزالون شاكين .

وقال حبيب بن أبي ثابت : غيظاً في قلوبهم ، أي سبب غيظ .

وقيل : كفراً في قلوبهم .

وقال عطاء : نفاقاً في قلوبهم .

وقال ابن جبير : أسفاً وندامة .

وقال ابن السائب ومقاتل : حسرة وندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه .

وقال قتادة : في الكلام حذف تقديره : لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا ريبة أي : حزازة وغيظاً في قلوبهم .

وقال ابن عطية : الذي بنوا تأكيد وتصريح بأمر المسجد ورفع الإشكال ، والريبة الشك ، وقد يسمى ريبة فساد المعتقد واضطرابه ، والإعراض في الشيء والتخبيط فيه .

والحزازة من أجله ، وإن لم يكن شكا فقد يرتاب من لا يشك ، ولكنها في معتاد اللغة تجري مع الشك .

ومعنى الريبة في هذه الآية تعم الحيق ، واعتقاد صواب فعلهم ، ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الريبة في الإسلام .

فمقصد الكلام : لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوء .

وبالشك فسر ابن عباس الريبة هنا ، وفسرها السدي بالكفر .

وقيل له : أفكفر مجمع بن جارية ؟ قال : لا ، ولكنها حزازة .

قال ابن عطية : ومجمع رحمه الله ، قد أقسم لعمر أنه ما علم باطن القوم ، ولا قصد سوء .

والآية إنما عنت من أبطن سوءاً .

وليس مجمع منهم .

ويحتمل أن يكون المعنى لا يزالون مريبين بسبب بنيانهم الذي اتضح فيه نفاقهم .

وجملة هذا أنّ الريبة في الآية نعم معاني كثيرة يأخذ كل منافق منها بحسب قدره من النفاق .

(110/349)

وقال أبو عبد الله الرازي : جعل نفس البنيان ريبة لكونه سبباً لها ، وكونه سبباً لها أنه لما أمر بتخريب ما فرحوا ببنائه ثقل ذلك عليهم ، وازداد بعضهم له ، وارتيابهم في نبوته ، أو اعتقدوا هدمه من أجل الحسد ، فارتفع إيمانهم وخافوا الإيقاع بهم قتلاً ونهباً ، أو بقوا شاكين : أيغفر الله لهم تلك المعصية ؟ انتهى ، وفيه تلخيص .

وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص : إلا أن تقطع قلوبهم بفتح التاء أي : يتقطع ، وباقي السبعة بالضم ، مضارع قطع مبنياً للمفعول .

وقرىء يقطع بالتخفيف .

وقرأ الحسن ، ومجاهد ، وقتادة ، ويعقوب : إلى أن نقطع ، وأبو حيوة إلى أن تُقطع بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددة ، ونصب قلوبهم خطاباً للرسول أي : تقتلهم ، أو فيه ضمير الريبة .

وفي مصحف عبد الله : ولو قطعت قلوبهم ، وكذلك قرأها أصحابه .

وحكى أبو عمرو هذه القراءة : إن قطعت بتخفيف الطاء .

وقرأ طلحة : ولو قطعت قلوبهم خطاب للرسول (صلى الله عليه وسلم) ، أو كل مخاطب .

وفي مصحف أبي : حتى الممات ، وفيه حتى تقطع .

فمن قرأ بضم التاء وكسر الطاء ونصب القلوب فالمعنى : بالقتل .

وأما على من قرأه مبنياً للمفعول ، فقال ابن عباس وقتادة وابن زيد وغيرهم : بالموت أي : إلى أن يموتوا .

وقال عكرمة : إلى أن يبعث من في القبور .

وقال سفيان : إلى أن يتوبوا عما فعلوا ، فيكونون بمنزلة من قطع قلبه .

قال ابن عطية : وليس هذا بظاهر ، إلا أن يتأول أن يتوبوا توبة نصوحاً يكون معها من الندم والحسرة ما يقطع القلوب هماً .

وقال الزمخشري : لا يزال يبديه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزال وسمه

في قلوبهم ولا يضمحل أمره إلا أن تقطع قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء ، فحينئذ يسألون عنه ، وأما ما دامت سليمة مجتمعة فالريبة قائمة فيها متمكنة .

ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم ، أو في القبور ، أو في النار .

(111/349)

وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

والله عليم بأحوالهم ، حكيم فيما يجري عليهم من الأحكام ، أو عليم بنياتهم ، حكيم في عقوباتهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(112/349)

وقال أبو السعود :

﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ ﴾

البنيانُ مصدرٌ أُريد به المفعولُ ، ووصفُه بالموصول الذي صلتُه فعله للإيذان بكيفية بنائِهم له وتأسيسِه على أوهن قاعدةٍ وأوهى أساسٍ وللإشعار بعلة الحُكم ، أي لا يزال

مسجدُهم ذلك مبنياً ومهدوماً ﴿ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي سببَ ريبةٍ وشكَ في الدين كأنه نفسُ مُريبِه . أما حالَ بنيانه فظاهرٌ لما أن اعتزالَهم من المؤمنين واجتماعَهم في مجمع على حياله يُظهرون فيه ما في قلوبهم من آثار الكفرِ والنفاقِ ويدبّرون فيه أمورَهم ويتشاورون في ذلك ، ويُلقي بعضُهم إلى بعض ما سمعوا من أسرار المؤمنين مما يزيدهم ريبة وشكاً في الدين ، وأما حالَ هدمِه فلما أنه رسَخ به ما كان في قلوبهم من الشر وتضاعفت آثارُه وأحكامُه أو سبّب ريبةً في أمرهم حيث ضعُفت قلوبُهم ووهَى اعتقادُهم بخفاء أمرِهم على أمر المؤمنين لأنهم أظهروا من أمرهم بعد البناءِ أكثرَ مما كانوا يُظهرونه قبل ذلك وقت اختلاطِهم بالمؤمنين وساءت ظنونُهم بأنفسهم فلما هُدم بنيانُهم تضاعف ذلك الضَّعفُ وتقوّى وصاروا مُرتابين في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هل يتركهم على ما كانوا عليه من قبل أو يأمرُ بقتلهم ونهبِ أموالِهم . وقال الكلبي : معنى ريبةً حسرةً وندامة . وقال السدي وحبيب والمبرد : لا يزال هدمُ بنيانِهم حزازةً وغيظاً في قلوبهم ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ ﴾ من التفعل بحذف إحدى التاءين أي إلا أن تتقطع ﴿ قُلُوبِهِمْ ﴾ قِطعاً وتتفرّقَ أجزاءً بحيث لا يبقى لها قابليةُ إدراكٍ وإضمار قطعاً ، وهو استثناءٌ من أعم الأوقاتِ أو أعم الأحوال ومحلُّه النصبُ على الظرفية أي لا يزال بنيانُهم ريبةً في كل الأوقات أو كلِّ الأحوال إلا وقتَ تقطُّع قلوبهم أو حالَ تقطعِ قلوبِهم ، فحينئذ يسْلُون عنها وأما ما دامت سالمةً فالريبةُ باقيةٌ فيها

فهو تصويرٌ لامتناع زوالِ الريبةِ عن قلوبهم ، ويجوزُ أن يكون المرادُ حقيقةً تقطُّعُها عند قتلِهم أو في القبور أو في النار ، وقرىء

(113/349)

تُقَطّع على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على خطاب النبي صلى الله عليه وسلم أي إلا أن تُقطِّع أنت قلوبَهم بالقتل ، وقرىء على البناء للمجهول من الثلاثي مذكراً ومؤنثاً وقرىء إلى تقطُّعِ قلوبهم وإلى أن تُقطّع قلوبَهم على الخطاب ، وقرىء ولو قُطِّعت قلوبُهم على إسناد الفعل مجهولاً إلى قلوبهم ولو قَطَّعتَ قلوبَهم على الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أو لكل أحد يصلُح للخطاب . وقيل : إلا أن يتوبوا توبةً تتقطّع بها قلوبُهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياءِ التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفعالِه التي من زمرتها أمرُه الواردُ في حقهم . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(114/349)

وقال الآلوسى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا ﴾

أي بناؤهم الذي بنوه ، فالبنيان مصدر أريد به المفعول كما مر ، ووصفه بالمفرد ما يرد على مدعي الجمعية وكذا الأخبار عنه بقوله سبحانه : ﴿ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ واحتمال تقدير مضاف وجعل الصفة وكذا الخبر له خلاف الظاهر .

نعم قيل : الأخبار بريبة لا دليل فيه على عدم الجمعية لأنه يقال : الحيطان منهدمة والجبال راسية ؛ وجوز بعضهم كون البنيان باقياً على المصدرية و ﴿ الذى ﴾ مفعوله ، والريبة اسم من الريب بمعنى الشك وبذلك فسرها ابن عباس رضي الله تعالى عنهما والمراد به شكهم في نبوته صلى الله عليه وسلم المضمر في قلوبهم وهو عين النفاق ، وجعل بنيانهم نفس الريبة للمبالغة في كونه سبباً لها .

قال الإمام : وفي ذلك وجوه .

أحدها أن المنافقين عظم فرحهم ببنيانه فلما أمر بتخريبه ثقل عليهم وازداد غيظهم وارتيابهم في نبوته صلى الله عليه وسلم .

وثانيها أنه لما أمر بتخريبه ظنوا أن ذلك للحسد فارتفع أمانهم عنه صلى الله عليه وسلم وعظم خوفهم فارتابوا في أنهم هل يتركون على حالهم أو يؤمر بقتلهم ونهب أموالهم .

وثالثها أنهم اعتقدوا أنهم كانوا محسنين في البناء فلما أمر بتخريبه بقوا شاكين مرتابين في أنه

لأي سبب أمر بذلك والصحيح هو الأول .

ويمكن كما قال العلامة الطيبي أن يرجح الثاني بأن تحمل الريبة على أصل موضوعها ويراد منها قلق النفس واضطرابها .

وحاصل المعنى لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا سبباً للقلق والاضطراب والوجل في القلوب ووصف بنيانهم بما وصف للإيذان بكيفية بنائهم له وتأسيسه على ما عليه تأسيسه مما علمت وللأشعاء بعلة الحكم ، وقيل : وصف بذلك للدلالة على أن المراد بالبنيان ما هو المبني حقيقة لا ما دبروه من الأمور فإن البناء قد يطلق على تدبير الأمر وتقديره كما في قولهم كم أبني وتهدم وعليه قوله :

متى يبلغ البنيان يوماً تمامه . . .

إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

(115/349)

وحاصله أن الوصف للتأكيد وفائدته دفع المجاز ، وهذا نظير ما قالوا في قوله سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ موسى تَكْلِيماً ﴾ [النساء : 164] وفيه بحث .

والاستثناء في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ من أعم الأوقات أو أعم الأحوال وما

بعد إلا في محل النصب على الظرفية أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت إلا وقت تقطع قلوبهم أو في كل حال إلا حال تقطعها أي تفرقها وخروجها عن قابلية الإدراك وهذا كناية عن تمكن الريبة في قلوبهم التي هي محل الإدراك وإضمار الشرك بحيث لا يزوب منها ما داموا أحياء إلا إذا تقطعت وفرقت وحينئذ تخرج منها الريبة وتزول ، وهو خارج مخرج التصوير والفرض ، وقيل : المراد بالتقطع ما هو كائن بالموت من تفرق أجزاء البدن حقيقة وروي ذلك عن بعض السلف .

وأخرج ابن المنذر .

وغيره عن أيوب قال : كان عكرمة يقرأ ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ فِى القبور ﴾ وقيل : المراد إلا أن يتوبوا ويندموا ندامة عظيمة تفتت قلوبهم وأكبادهم فالتقطع كناية أو مجاز عن شدة الأسف .

وروى ذلك ابن أبي حاتم عن سفيان ، وتقطع من التفعل بإحدى التاءين والبناء للفاعل أي تتقطع .

وقرىء ﴿ تُقَطَّعَ ﴾ على بناء المجهول من التفعيل وعلى البناء للفاعل منه على أن الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم أي إلا أن تقطع أنت قلوبهم بالقتل ، وقرىء على البناء للمفعول من الثلاثي مذكراً ومؤنثاً .

وقرأ الحسن ﴿ إلى أَن تُقَطَّعَ ﴾ على الخطاب ، وفي قراءة عبد الله ﴿ وَلَوْ قُطِّعَتْ قُلُوبِهِمْ

﴿ على إسناد الفعل مجهولاً إلى قلوبهم .

وعن طلحة ولو قطعت قلوبهم على خطاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ويصح أن يعني بالخطاب كل مخاطب ، وكذا يصح أن يجعل ضمير تقطع مع نصب قلوبهم للريبة ﴿ والله عَلِيمٌ ﴾ بجميع الأشياء التي من جملتها ما ذكر من أحوالهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في جميع أفعاله التي من جملتها أمره سبحانه الوارد في حقهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(116/349)

وقال القاسمى :

﴿ لا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

أي : لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزول وَسْمُهُ عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره ﴿ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : قطعاً ، وتتفرق أجزاءً ، فحينئذ يسلون عنه .

وأما ما دامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أي : يراد حقيقة تقطيعها وتمزيقها بالموت ، أو بعذاب

النار .

وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ ﴾ أي : بنياتهم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ أي : فيما أمر بهدم بنيانهم ، حفظاً للمسلمين عن مقاصدهم الرديئة .

تنبيهات :

الأول : قال الزمخشري : في مصاحف أهل المدينة والشام : ﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا ﴾ بغير واو ، لأنها قصة على حيالها ، وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم .

الثاني : سبب نزول هذه الآيات أنه كان بالمدينة ، قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم إليها ، رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير .

(117/349)

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصار للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين أبو عامر بريقه ، وبارز

بالعداوة ، وظاهر بها ، وخرج فارّاً إلى كفار مكة يمالئهم على حرب النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أُحُد ، فكان أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته .

فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً ، يا فاسق ، يا عدو الله ! ونالوا منه وسبّوه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ، فأبى أي : يسلم وتمرّد .

فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يموت بعيداً طريداً فنالته هذه الدعوة .

وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحُد ، ورأى أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على رسول الله ، فوعده ومنّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ، من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وكان أمَرَهم أن يتخذوا له معقلاً ومرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز إلى تبوك .

فأتوه فقالوا : يا رسول الله ! إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه .

فقال : < إني على جناح سفر ، وحال شغل ، ولو قدمنا ، إن شاء الله تعالى ، أتيناكم ، فصلينا لكم فيه > .

(118/349)

فلما نزل بذي أَوَانٍ – موضع على ساعة من المدينة – أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي أو أخاه عامراً ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه .

فخرجا سريعين ، حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فاشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدّان [في المطبوع : يستدان] ، حتى دخلا المسجد ، وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم ما نزل – ذكره ابن كثير ، وأسند أطرافه إلى ابن إسحاق وابن مردويه – .

وروي أن بني عَمْرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء ، أتوا عُمَر بن الخطاب في خلافته ، فسألوه أن يأذن لمُجَمّع بن جارية أن يؤمهم في مسجدهم فقال : لا ، ونعمة عين ! أليس هو إمام مسجد الضرار ؟ قال مجمع : يا أمير المؤمنين ! لا تعجل عليّ ، فوالله ! لقد صليت

فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه ، ولو علمت ما صليت معهم فيه ، أنهم يتقربون إلى الله ، ولم أعلم ما في نفوسهم . فعذره عمر ، فصدقه وأمره بالصلاة في مسجد قباء .

الثالث : ما قدمناه من أن المسجد في الآية هو مسجد قباء ، لأن السياق في معرضه ، وبيان أحقية الصلاة فيه من ذاك ، لأنه أسس على طاعة الله وطاعة رسوله ، وجمع كلمة المؤمنين .

ولما في الآية من الإشعار بالحث على تعاهده بالصلاة فيه ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يزوره راكباً وماشياً ، ويصلي فيه ركعتين - كما في الصحيح - .

(119/349)

وقد روي عن عويم بن ساعدة الأنصاري أن النبيّ صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : < إن الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تطهرون فيه ؟ > فقالوا ، يا رسول الله ! ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه أو مقعدته بالماء ، - رواه الإمام احمد وأبو داود والطبراني ، واللفظ له - .

وقد روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال :

هو مسجده – رواه الإمام أحمد ومسلم- .

قال ابن كثير : ولا منافاة ، لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم ، فمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق الأولى والأحرى . انتهى .

ومرجعه إلى أن هذا الوصف ، وإن كان يصدق عليهما – إلا أن الأحرى به بعد هو المسجد النبوي ، أي : فالحديث ليس في معرض تعيين ما في الآية ، بل في بيان الأحق بهذا الوصف الآن .

وقال السهروردي : كل منهما مراد ، لأن كلاً منهما أسس على التقوى من أول يوم تأسيسه .

والسر في إجابته صلى الله عليه وسلم السؤال عن ذلك ، دفع ما توهمه السائل من اختصاص ذلك بمسجد قباء ، والتنويه بمزية هذا عن ذاك .

الرابع : قال السهيلي -نور الله مرقده- : في الآية -يعني قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ – من الفقه ، صحة ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين مع عمر رضي الله عنه حين شاورهم في التاريخ ، فاتفق رأيهم على أن يكون من عام الهجرة ، لأنه الوقت الذي عزّ فيه الإسلام ، والحين الذي أَمِنَ فيه النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وبنيت المساجد ، وعُبد الله كما يجب ، فوافق رأيهم هذا ظاهر التنزيل ، وفهمنا الآن بفعلهم أن قوله تعالى : ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ أن ذلك اليوم هو أول أيام التاريخ الذي يؤرخ به الآن .

فإن كان الصحابة أخذوه من هذه الآية ، فهو الظن بهم ، لأنهم أعلم الناس بتأويل كتاب الله وأفهمهم بما في القرآن من الإشارات ، وإن كان ذلك على رأي واجتهاد ، فقد علمه الله وأشار إلى صحته قبل أن يفعل ، إذ لا يعقل قول القائل : فعلته أول يوم إلا بالإضافة إلى عام معلوم ، أو شهر معلوم ، أو تاريخ معلوم .

وليس ههنا إضافة في المعنى إلا إلى هذا التاريخ المعلوم ، لعدم القرائن الدالة على غيره من قرينة لفظ أو حال ، فتدبره ، ففيه معتبرٌ لمن ادّكر ، وعِلْمٌ لمن رأى بعين فؤاده واستبصر .

الخامس : التأسيس وضع الأساس ، وهو أصل البناء ، وأوله ، وبه إحكامه ، ففي الآية شبَّه التقوى والرضوان تشبيهاً مكنيّاً مضمراً في النفس ، بما يعتمد عليه أصل البناء .

وأسس بنيانه تخييل ، فهو مستعمل في معناه الحقيقي ، أو هو مجاز بناء على جوازه ، فتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه ، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة ، بحال من بنى بناءً محكماً مؤسساً يستوطنه ويتحصن به . أو البنيان استعارة أصلية ، والتأسيس ترشيح أو تبعية ، والشفا : الحرف والشفير .

وجُرُف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء ، وتجرفه السيول ، فيبقى واهياً .

والهار : الهائر ، وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط . قيل : هو مقلوب ، وأصله هاور ، أو هاير . وقيل : حذفت عينه اعتباطاً ، فوزنه فال . والإعراب على رائه كباب ، وقيل : لا قلب فيه ولا حذف ، ووزنه في الأصل فِعِل

بكسر العين ، ككتف ، وهو هَورٌ أو هيرٌ ، ومعناه ساقط أو مشرف على السقوط .

وفاعل انهار ، إما ضمير البنيان ، وضمير به للمؤسس ، أي : سقط بنيان الباني بما عليه . أو للشفا ، وضمير به للبنيان .

(121/349)

والظاهر في التقابل أن يقال : أم من أسس بنيانه على ضلال وباطل وسخط من الله ، ولذا قال في " الكشاف " : المعنى أفمن أسس بنيان دينه على قاعدة محكمة قوية ، وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ، خير أم من أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها ، وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق ، الذي مثله مثل شفا جرف هار في قلة الثبات والإستمساك .

وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى ، يعني أنه شبه الباطل بشفا جرف هار ، في قلة الثبات ، فاستعير للباطل بقرينة مقابلته للتقوى ، والتقوى حق ،

ومُنَافِي الحق هو الباطل .

وقوله فانهار ترشيح ، وباؤه للتعدية ، أو للمصاحبة ، فشفا جرف هار ، استعارة تصريحية تحقيقية ، والتقابل باعتبار المعنى المجازيّ المراد منها .

فإن قلت لماذا غاير بينهما حيث أتى بالأول على طريقة الكناية والتخييل ، وبالثاني على طريق الإستعارة والتمثيل ؟

قلت : التفنن في الطريق رعايةٌ لحق البلاغة ، وعدولاً عن الظاهر ، مبالغةٌ في الطرفين ، إذ جعل أولئك مبنياً على تقوى ورضوان ، هو أعظم من كل ثواب ، وحال هؤلاء على فساد أشرف بهم على أشد نكال وعذاب ، ولو أتى به على مقتضى الظاهر لم يفده ، ما فيه من التهويل .

وقولنا : فانهار ترشيح ، أوضحه " الكشاف " بقوله : لم جعل الجرف الهائر مجاز بعضها لباطل ، قيل : ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الإنهيار الذي هو للجرف ، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم ، فانهار به ذلك الجرف ، فهوى في قعرها .

السادس : دلت الآية على أن كل مسجد بني على ما بني عليه مسجد الضرار ، أنه لا حكم له ولا حرمة ، ولا يصح الوقف عليه .

وقد حرق الراضي بالله كثيراً من مساجد الباطنية والمشبهة والمجبرة وسبل بعضها . نقله بعض المفسرين .

(122/349)

قال الزمخشري : قيل : كل مسجد بني مباهاة أو رياءً وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله ، أو بمال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار .

وعن شقيق أنه لم

يدرك الصلاة في مسجد بني عامر ، فقيل له : مسجد بني فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلي فيه ، فإنه بني على ضرار ، كل مسجد بني على ضرار ، أو رياء وسمعة فإن أصله ينتهي إلى المسجد الذي بني ضراراً .

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضي الله عنه ، أمر المسلمين أن يبنوا المساجد ، وألا يتخذوا في مدينة مسجدين ، يضارّ أحدهما صاحبه . انتهى .

وقال الإمام ابن القيّم في " زاد المعاد " في فوائد غزوة تبوك :

ومنها تحريق أمكنة المعصية التي يعصى الله ورسوله فيها وهدمها ، كما حرق رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضرار وأمر بهدمه ، وهو مسجد يصلى فيه ، ويذكر إسم

الله فيه . لما كان بناؤه ضراراً وتفريقاً بين المؤمنين ، ومأوى للمنافقين ، وكل مكان هذا شأنه ، فواجب على الإمام تعطيله ، إما بهدم أو تحريق ، وإما بتغيير صورته ، وإخراجه عما وضع له .

وإذا كان هذا شأنه مسجد الضرار ، فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتُها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله ، أحق بذلك وأوجب ، وكذلك محال المعاصي والفسوق ، كالحانات وبيوت الخمارين ، وأرباب المنكرات .

وقد حرق عمر رضي الله عنه قرية بكاملها يباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رويشد الثقفي وسماه فويسقاً ، وأحرق قصر سعد عليه لما احتجب عن الرعية .

وهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق بيوت تاركي حضور الجماعة والجمعة ، وإنما منعه من فيها من النساء والذرية الذين لا تجب عليهم ، كما أخبر هو عن ذلك . انتهى .

ثم قال ابن القيّم : ومنها أن الوقف لا يصح على غير بر ولا قربة ، كما لم يصح وقف هذا المسجد .

وعلى هذا فيهدم المسجد إذا بني على قبر ، كما ينبش الميت إذا دفن في المسجد

ـ نص على ذلك الإمام أحمد وغيره – فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر ، بل أيهما طرأ على الآخر منع منه ، وكان الحكم للسابق ، فلو وضعا معاً لم يجز .

ولا يصح هذا الوقف ، ولا يجوز ، ولا تصحّ الصلاة في هذا المسجد ، لنهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولعنه من اتخذ القبر مسجدا ، أو أوقد عليه سراجاً .

قال ابن القيّم : فهذا دين الإسلام الذي بعث به رسوله ونبيه ، وغربته بين الناس كما ترى . انتهى .

السابع : قال بعض المفسرين اليمانيين : في الآية دلالة على فضل المسجد الموصوف بهذه الصفة ، يعني التأسيس على التقوى ، وفيها أن نية القربة في عُمارة المسجد شرط ، لأن النية هي التي تميز الأفعال .

وفيها : أنه لا يجوز تكثير سواد الكفار – ذكر ذلك الحاكم ـ لأنه قال تعالى :

﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ وأراد بالقيام الصلاة .

الثامن : قال ابن كثير : في الآية دليل على استحباب الصلاة في المساجد القديمة المؤسسة من أول بنائه على عبادة الله وحده ، لا شريك له ، وعلى استحباب الصلاة مع الجماعة الصالحين ، والعباد العاملين المحافظين على إسباغ الوضوء ، والتنزه عن ملابسة القاذورات .

وقد روى الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح ، فقرأ الروم فأوهم ، فلما انصرف قال : < إنه يلبس علينا القرآن ، إن أقواماً منكم يصلون معنا لا يحسنون الوضوء ، فمن شهد الصلاة معنا فليحسن الوضوء > . فدلّ هذا على أن إكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة ، ويعين على إتمامها وإكماله ، والقيام بمشروعاتها .

التاسع : ذهب أبو العالية والأعمش إلى أن المراد من الطهارة في الآية ، الطهارة من الذنوب ، والتوبة منها ، والتطهر من الشرك .

(124/349)

قال الرازيّ : وهذا القول متعين ، لأن التطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى ، واستحقاق ثوابه ومدحه ، ولأنه تعالى وصف أصحاب مسجد الضرار بمضارّة المسلمين ، والكفر بالله ، والتفريق بني المسلمين ، فوجب كون هؤلاء بالضد من صفاتهم ، وما ذلك إلا كونهم مبرئين عن الكفر والمعاصي . انتهى .

أقوال : لا تسلم دعوى التعيّن ، فإن اللفظ يتناول الطهارتين الباطنة والظاهرة . بل الثانية ما رواه أصحاب السنن والإمام أحمد وابن خزيمة في صحيحه أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال لأهل قباء : < قد أثنى الله عليكم في الطهور ، فماذا تصنعون > ؟ فقالوا : نستنجي

بالماء .

وروى البزّار عن ابن عباس قال : هذه الآية في أهل قباء ، سألهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : إنا تتبع الحجارة بالماء .

فإن صح ذلك كان المرادَ من الآية ، وتكون حثّاً على الطهارة المذكورة ، ومدحاً لها .

وكون ذويها على الضد من صفات أولئك ، يستفاد من عموم هذا ، ومن قوله تعالى : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ الآية .

العاشر : قال القاشاني : لما كان عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت ، وتسخيره ، لزم أن يكون لنيات النفوس وهيئاتها تأثير فيما يباشرها من الأعمال ، فكل ما فعل بنية صادقة لله تعالى عن هيئة نورانية ، صحبته بركة ويمن وجمعية وصفاء ، وكل ما فعل بنية فاسدة شيطانية عن هيئة مظلمة ، صحبته تفرقة وكدورة ومحق وشؤم .

ألا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت متبركة لكونها مبنية على يدي نبيّ من أنبياء الله ، بنية صادقة ، ونفس شريفة صافية ، عن كمال إخلاص لله تعالى ؟ ونحن نشاهد أثر ذلك في أعمال الناس ، ونجد أثر الصفاء والجمعية في بعض المواضع والبقاع ، والكدورة والتفرقة في بعضها .

وما هو إلا لذلك ، فلهذا قال : ﴿ لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى ﴾ الآية ، لأن الهيئات الجسمانية مؤثرة في النفوس ، كما أن الهيئات النفسانية مؤثرة في الأجسام ، فإذا كان موضع القيام مبنيّاً على التقوى وصفاء النفس ، تأثرت النفس باجتماع الهمة ، وصفاء الوقت ، وطيب الحال ، وذوق الوجدان ، وإذا كان مبنيّاً على الرياء والضرار ، تأثرت بالكدورة والتفرقة والقبض .

وفيه إشعار بأن زكاء نفس الباني ، وصدق نيته ، مؤثر في البناء ، وأن تبرّك المكان ، وكونه مبنيّاً على الخير ، يقتضي أن يكون فيه أهل الخير والصلاح ، ممن يناسب حاله حال بانيه ، وأن محبة الله واجبة لأهل الطهارة لقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 518.525 ﴾

(126/349)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) .

نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ فِي وَاقِعَةِ حَالٍ مِنْ مَكَايِدِ الْمُنَافِقِينَ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ – وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، لَمْ أَرَ أَحَدًا بَيَّنَ حِكْمَةً خَاصَّةً لِتَأْخِيرِهَا عَنْ أَمْثَالِهَا مِمَّا نَزَلَ فِي أَعْمَالِ الْمُنَافِقِينَ وَوَضْعِهَا هُنَا فِي سِيَاقِ تَوْبَةِ الْمُذْنِبِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : مَا تَقَدَّمَ مِنْهَا فَقُبِلَ ، وَمَا تَأَخَّرَ فَأُرْجِئَ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْحِكْمَةَ الْعَامَّةَ فِي تَفْرِيقِ الْآيَاتِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ – وَهُوَ تَجْدِيدُ الذِّكْرَى وَالْعِظَةِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مِنَ التَّأْثِيرِ وَالْعِبْرَةِ – فِي مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى التَّنَاسُبِ وَوُجُوهِ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْآيَاتِ . وَلَعَلَّ بَعْضَ ضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ كَانُوا قَدْ شَايَعُوا أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الِاثْنَيْ عَشَرَ الَّذِينَ بَنَوْا مَسْجِدَ الضِّرَارِ فِي عَمَلِهِمْ جَاهِلِينَ مَقَاصِدَهُمْ مِنْهُ ، فَأُرِيدَ بِوَضْعِ الْقِصَّةِ هُنَا وَإِبْهَامِ عَطْفِهَا عَلَى مَنْ أَرْجَأَ اللهُ الْحُكْمَ فِي أَمْرِهِمْ ، أَنْ يَتَّعِظَ أُولَئِكَ الْغَافِلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَغْرُورِينَ بِمَسْجِدِ الضِّرَارِ وَمُتَّخِذِيهِ ، وَيَخَافُوا أَنْ يُؤَاخَذُوا بِمُشَايَعَتِهِمْ لَهُمْ ، وَلَوْ بِصَلَاتِهِمْ مَعَهُمْ فِي مَسْجِدِهِمْ .

(127/349)

رُوِيَ أَنَّ مُجَمِّعَ بْنَ حَارِثَةَ كَانَ إِمَامَهُمْ فِي مَسْجِدِ الضِّرَارِ فَكَلَّمَ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ أَصْحَابُ مَسْجِدِ قُبَاءَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فِي خِلَافَتِهِ بِأَنْ يَأْذَنَ لِمُجَمِّعٍ فَيَؤُمَّهُمْ فِي مَسْجِدِهِمْ ، فَقَالَ : لَا وَلَا نِعْمَةَ عَيْنٍ ، أَلَيْسَ بِإِمَامِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ ؟ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ ، فَوَاللهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ بِهِمْ وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَا أَعْلَمُ مَا أَضْمَرُوا فِيهِ ، وَلَوْ عَلِمْتُ مَا صَلَّيْتُ

مَعَهُمْ فِيهِ ، كُنْتُ غُلَامًا قَارِئًا لِلْقُرْآنِ وَكَانُوا شُيُوخًا لَا يَقْرَءُونَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا . فَعَذَرَهُ وَصَدَّقَهُ وَأَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ بِقَوْمِهِ قَالَ تَعَالَى :

(128/349)

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجُمْلَةُ ابْتِدَائِيَّةً مَعْطُوفَةً عَلَى مَا قَبْلَهَا مِنَ السِّيَاقِ فِي جُمْلَتِهِ ، حُذِفَ خَبَرُهَا لِلْعِلْمِ بِهِ ، وَيَبْعُدُ أَنْ تَكُونَ مَعْطُوفَةً عَلَى قَوْلِهِ : (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ) إلَّا عَلَى قَوْلٍ ضَعِيفٍ رُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ وَهُوَ أَنَّهُ فِي الْمُنَافِقِينَ ، وَالْأَفْصَحُ أَنْ يَكُونَ لَفْظُ (الَّذِينَ) مَنْصُوبًا عَلَى الِاخْتِصَاصِ بِالذَّمِّ ، وَجَعْلُهُ مُحْتَمِلًا لِمَا ذُكِرَ وَلِغَيْرِهِ نَرَاهُ مِنَ الْإِبْهَامِ الَّذِي تَقْتَضِيهِ الْبَلَاغَةُ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ آنِفًا مِنَ الْإِيهَامِ ، وَقَدْ قَرَّرَ عُلَمَاءُ الْبَيَانِ أَنَّ الْبَلَاغَةَ تَقْتَضِي أَحْيَانًا إيرَادَ عِبَارَةٍ تَذْهَبُ النَّفْسُ فِي فَهْمِهَا عِدَّةَ مَذَاهِبَ مُحْتَمَلَةٍ فِيهَا .

وَقَرَأَ نَافِعٌ وَابْنُ عَامِرٍ الَّذِينَ بِغَيْرِ وَاوٍ . وَهِيَ أَقْرَبُ إلَى قَوْلِ الْحَسَنِ مِنْهَا إلَى قَوْلِ الْجُمْهُورِ ، وَمَا أَشَرْنَا إلَيْهِ مِنْ حِكْمَةِ وَضْعِ الْآيَاتِ هُنَا أَظْهَرُ فِي هَذِهِ الْقِرَاءَةِ مِنْهُ فِي قِرَاءَةِ جُمْهُورِ الْقُرَّاءِ – فَتَأَمَّلْ .

ذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَذَا الْمَسْجِدَ كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ مُنَافِقِي

الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ وَسَمَّوْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ الْأَغْرَاضَ الَّتِي بَنَوْهُ لِأَجْلِهَا أَرْبَعَةٌ ذُكِرَتْ مَنْصُوبَةً عَلَى الْمَفْعُولِ لِأَجْلِهِ وَهِيَ :

(129/349)

---

(1) أَنَّهُمُ اتَّخَذُوهُ لِمُضَارَّةِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْ مُحَاوَلَةِ إيقَاعِ الضَّرَرِ بِهِمْ ، وَهُمْ أَهْلُ مَسْجِدِ قُبَاءَ الَّذِي بَنَاهُ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَقْدَمَهُ مِنْ مَكَّةَ مُهَاجِرًا وَقَبْلَ وُصُولِهِ إلَى الْمَدِينَةِ إذْ بَنَوْهُ بِجِوَارِهِ مُضَادَّةً لَهُمْ فِي الِاجْتِمَاعِ لِلصَّلَاةِ فِيهِ .

(2) الْكُفْرُ أَوْ تَقْوِيَةُ الْكُفْرِ ، وَتَسْهِيلُ أَعْمَالِهِ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ ، كَتَمْكِينِ الْمُنَافِقِينَ مِنْ تَرْكِ الصَّلَاةِ هُنَالِكَ مَعَ خَفَاءِ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِعَدَمِ اجْتِمَاعِهِمْ فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ ، وَالتَّشَاوُرُ بَيْنَهُمْ فِي الْكَيْدِ لِرَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَغَيْرِ ذَلِكَ ، قِيلَ لَا بُدَّ هُنَا مِنْ تَقْدِيرِ مُضَافٍ لِأَنَّ بِنَاءَ الْمَسْجِدِ نَفْسِهِ لَيْسَ كُفْرًا ، وَلَكِنَّ التَّعْلِيلَاتِ الْأَرْبَعَةَ فِي الْآيَةِ هِيَ الْقَصْدُ مِنَ الْبِنَاءِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالِاتِّخَاذِ ، وَالْكُفْرُ يُطْلَقُ عَلَى الِاعْتِقَادِ ، وَعَلَى الْعَمَلِ الْمُنَافِيَيْنِ لِلْإِيمَانِ .

(130/349)

---

(3) التَّفْرِيقُ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُنَالِكَ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَلُّونَ جَمِيعًا فِي مَسْجِدِ قُبَاءَ ، وَفِي ذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ مَا فِيهِ ، وَهُوَ التَّعَارُفُ وَالتَّآلُفُ وَالتَّعَاوُنُ وَجَمْعُ الْكَلِمَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ تَكْثِيرُ الْمَسَاجِدِ وَتَفْرِيقُ الْجَمَاعَةِ مُنَافِيًا لِمَقَاصِدِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنَ الْوَاجِبِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ بَلَدٍ أَنْ يُصَلُّوا فِي مَسْجِدٍ وَاحِدٍ إِذَا تَيَسَّرَ ، فَإِنْ تَفَرَّقُوا عَمْدًا وَصَلَّوْا فِي عِدَّةِ مَسَاجِدَ - وَالْحَالَةُ هَذِهِ - كَانُوا خَاطِئِينَ ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ إِلَى أَنَّ الْجُمُعَةَ الصَّحِيحَةَ تَكُونُ حِينَئِذٍ لِأَهْلِ الْمَسْجِدِ الَّذِينَ سَبَقُوا بِالتَّجْمِيعِ .

وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ لَا يَكُونُ قُرْبَةً مَقْبُولَةً عِنْدَ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كَانَ بِقَدْرِ حَاجَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُصَلِّينَ ، وَغَيْرَ سَبَبٍ لِتَفْرِيقِ جَمَاعَتِهِمْ ، وَمِنْهُ يُعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ مَسَاجِدِ مِصْرَ الْقَرِيبِ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ - وَكَذَا أَمْثَالُهَا فِي الْأَمْصَارِ الْأُخْرَى - لَمْ تُبْنَ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى ، بَلْ كَانَ الْبَاعِثُ عَلَى بِنَائِهَا الرِّيَاءَ ، وَاتِّبَاعَ الْأَهْوَاءِ ، مِنْ جَهَلَةِ الْأُمَرَاءِ وَالْأَغْنِيَاءِ .

(131/349)

---

(4) الْإِرْصَادُ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلِ اتِّخَاذِ هَذَا الْمَسْجِدِ ، أَيِ الِانْتِظَارُ وَالتَّرَقُّبُ لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَنْ يَجِيءَ مُحَارِبًا ، فَيَجِدَ مَكَانًا مَرْصَدًا لَهُ ، وَقَوْمًا رَاصِدِينَ مُسْتَعِدِّينَ لِلْحَرْبِ مَعَهُ ، وَهُمْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ بَنَوْا هَذَا الْمَسْجِدَ مَرْصَدًا لِذَلِكَ .

يُقَالُ : رَصَدْتُهُ أَيْ قَعَدْتُ لَهُ عَلَى طَرِيقِهِ أَتَرَقَّبُهُ ، وَرَاصَدْتُهُ رَاقَبْتُهُ ، وَأَرْصَدْتُ هَذَا الْجَيْشَ لِلْقِتَالِ وَهَذَا الْفَرَسَ لِلطِّرَادِ . انْتَهَى مُلَخَّصًا مِنَ الْأَسَاسِ ، وَاتَّفَقَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِبِنَاءِ هَذَا الْمَسْجِدِ لِهَذَا الْغَرَضِ رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ يُعْرَفُ بِأَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ وَعَدَهُمْ بِأَنْ سَيَأْتِيهِمْ بِجَيْشٍ مِنَ الرُّومِ لِقِتَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ .

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى) إِخْبَارٌ مُؤَكَّدٌ بِالْقَسَمِ أَنَّهُمْ سَيَحْلِفُونَ : إِنَّهُمْ مَا أَرَادُوا بِبِنَائِهِ إِلَّا الْخَصْلَةَ أَوِ الْخُطَّةَ الَّتِي تَفُوقُ غَيْرَهَا فِي الْحُسْنِ ; وَهِيَ الرِّفْقُ بِالْمُسْلِمِينَ وَتَيْسِيرُ صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ عَلَى أُولِي الْعَجْزِ وَالضَّعْفِ وَمَنْ يَحْبِسُهُمُ الْمَطَرُ مِنْهُمْ ، لِيُصَدِّقَهُمُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيُصَلِّيَ لَهُمْ فِيهِ : (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فِي قَوْلِهِمْ ، حَانِثُونَ بِيَمِينِهِمْ . قَالَ الْعِمَادُ ابْنُ كَثِيرٍ :

(132/349)

سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَيْهَا رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ يُقَالُ لَهُ أَبُو عَامِرٍ الرَّاهِبُ ، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَأَ عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَهُ شَرَفٌ فِي الْخَزْرَجِ كَبِيرٌ . فَلَمَّا

قَدِمَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ ، وَصَارَتْ لِلْإِسْلَامِ كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ وَأَظْهَرَهُمُ اللهُ يَوْمَ بَدْرٍ ، شَرِقَ اللَّعِينُ أَبُو عَامِرٍ بِرِيقِهِ وَبَارَزَ بِالْعَدَاوَةِ وَظَاهَرَ بِهَا ، وَخَرَجَ فَارًّا إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ ، فَأَلَّبَهُمْ لِحَرْبِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ وَقَدِمُوا عَامَ أُحُدٍ ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ ، وَامْتَحَنَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ، وَكَانَ هَذَا الْفَاسِقُ قَدْ حَفَرَ حَفَائِرَ فِيمَا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأُصِيبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ ، فَجُرِحَ وَجْهُهُ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ الْيُمْنَى السُّفْلَى وَشُجَّ رَأْسُهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ ، وَتَقَدَّمَ أَبُو عَامِرٍ فِي أَوَّلِ الْمُبَارَزَةِ إِلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَالَهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَمُوَافَقَتِهِ ، فَلَمَّا عَرَفُوا كَلَامَهُ قَالُوا : لَا أَنْعَمَ اللهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ يَا عَدُوَّ اللهِ ، وَنَالُوا

(133/349)

مِنْهُ وَسَبُّوهُ ، فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ : وَاللهِ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَرٌّ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ دَعَاهُ إِلَى اللهِ قَبْلَ فِرَارِهِ وَقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ وَتَمَرَّدَ ، فَدَعَا عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَمُوتَ بَعِيدًا طَرِيدًا ، فَنَالَتْهُ

هَذِهِ الدَّعْوَةُ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ أُحُدٍ وَرَأَى أَمْرَ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي ارْتِفَاعٍ وَظُهُورٍ ، ذَهَبَ إلَى هِرَقْلَ مَلِكِ الرُّومِ يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَوَعَدَهُ وَمَنَّاهُ ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ وَكَتَبَ إلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرِّيَبِ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدَمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَيَغْلِبُهُ وَيَرُدُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ مَعْقِلًا يَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَنْ يَقْدَمُ مِنْ عِنْدِهِ لِأَدَاءِ كُتُبِهِ ، وَيَكُونُ مَرْصَدًا لَهُ إذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ . فَشَرَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ قُبَاءَ ، فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ وَفَرَغُوا مِنْهُ قَبْلَ خُرُوجِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إلَى تَبُوكَ ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَأْتِيَ إلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ فِيهِ عَلَى تَقْرِيرِهِ وَإِثْبَاتِهِ ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ إنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ فِي اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ : (إنَّا عَلَى سَفَرٍ وَلَكِنْ إذَا رَجَعْنَا إنْ شَاءَ اللَّهُ) فَلَمَّا قَفَلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ نَزَلَ عَلَيْهِ جِبْرِيلُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ

الْكُفْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ (مَسْجِدِ قُبَاءَ) الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَى ذَلِكَ مَنْ هَدَمَهُ قَبْلَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ - وَذَكَرَ رِوَايَتَهُ بِمَعْنَى مَا ذُكِرَ مُخْتَصَرًا هـ .

وَذَكَرَ الْبَغَوِيُّ فِي خَبَرِ أَبِي عَامِرٍ الْفَاسِقِ هَذَا أَنَّهُ مَا زَالَ يُقَاتِلُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيُحَرِّضُ عَلَيْهِ الْمُشْرِكِينَ إلَى يَوْمِ حُنَيْنٍ ، فَلَمَّا انْهَزَمَتْ هَوَازِنُ يَئِسَ وَخَرَجَ هَارِبًا إلَى الشَّامِ ، وَأَرْسَلَ إلَى الْمُنَافِقِينَ أَنِ اسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَسِلَاحٍ ، وَابْنُوا لِي مَسْجِدًا فَإِنِّي ذَاهِبٌ إلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ فَآتٍ بِجُنْدٍ مِنَ الرُّومِ إلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

(لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا) هَذَا نَهْيٌ لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالتَّبَعِ لَهُ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهِ مُؤَكَّدٌ بِلَفْظِ الْأَبَدِ الَّذِي يَسْتَغْرِقُ الزَّمَنَ الْمُسْتَقْبَلَ ، وَتَفْسِيرُ الْقِيَامِ بِالصَّلَاةِ هُنَا مَرْوِيٌّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ وَهُوَ مَعْهُودٌ فِي التَّنْزِيلِ كَقَوْلِهِ : (وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ) (2 : 238) وَقَوْلِهِ : (قُمِ اللَّيْلَ إلَّا قَلِيلًا) (73 : 2) وَالنَّهْيُ عَنِ الْقِيَامِ الْمُطْلَقِ يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عَنِ الْقِيَامِ لِلصَّلَاةِ ، وَلَكِنَّهَا

هِيَ الْمَقْصُودَةُ بِالنَّهْيِ لِطَلَبِهِمْ لَهَا مِنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) اللَّامُ الدَّاخِلَةُ عَلَى الْمَسْجِدِ لِلْقَسَمِ أَوْ لِلِابْتِدَاءِ .

وَالتَّأْسِيسُ : وَضْعُ الْأَسَاسِ الْأَوَّلِ لِلْبِنَاءِ الَّذِي يَقُومُ عَلَيْهِ وَيُرْفَعُ ، وَالْمُرَادُ مِنْهُ هُنَا الْقَصْدُ وَالْغَرَضُ مِنَ الْبِنَاءِ ، وَالتَّقْوَى : الِاسْمُ الْجَامِعُ لِمَا يُرْضِي اللَّهَ وَيَقِي مِنْ سُخْطِهِ ، أَيْ : إِنَّ مَسْجِدًا قُصِدَ بِبِنَائِهِ - مُنْذُ وُضِعَ أَسَاسُهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ - تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى بِإِخْلَاصِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَجَمْعِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ عَلَى مَا يُرْضِيهِ مِنَ التَّعَارُفِ وَالتَّعَاوُنِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى - هُوَ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ أَيُّهَا الرَّسُولُ مُصَلِّيًا بِالْمُؤْمِنِينَ ، عَنْ غَيْرِهِ ، وَلَا سِيَّمَا ذَلِكَ الْمَسْجِدِ الَّذِي وُضِعَ أَسَاسُهُ عَلَى الْمَقَاصِدِ الْأَرْبَعَةِ الْخَبِيثَةِ ، وَالسِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ - مَسْجِدُ قُبَاءَ ، وَقَدْ صَحَّ فِي أَحَادِيثَ رَوَاهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سُئِلَ عَنْهُ فَأَجَابَ بِأَنَّهُ مَسْجِدُهُ الَّذِي فِي الْمَدِينَةِ ، فَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ أَنَّهُ لَمَّا سَأَلَهُ أَخَذَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كَفًّا مِنْ حَصْبَاءَ فَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ ثُمَّ قَالَ : (هُوَ مَسْجِدُكُمْ هَذَا) وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ عَنْهُ وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ : (هُوَ مَسْجِدِي

(137/349)

هَذَا) . وَلَفْظُ الْآيَةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ إِرَادَةِ كُلٍّ مِنَ الْمَسْجِدَيْنِ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا قَدْ بَنَاهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَوَضَعَ أَسَاسَهُ عَلَى التَّقْوَى مَنْ أَوَّلِ يَوْمٍ شَرَعَ فِيهِ بِبِنَائِهِ أَوْ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وُجِدَ فِي مَوْضِعِهِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ : (مِنْ) تَدْخُلُ عَلَى الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ .

(فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا) هَذِهِ جُمْلَةٌ وُصِفَ بِهَا الْمَسْجِدُ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى تُؤَكِّدُ تَرْجِيحَ الْقِيَامِ مَعَ أَهْلِهِ الْمُطَهِّرِينَ فِي مُقَابِلِ أَهْلِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ وَهُمْ رِجْسٌ .

وَالْمَعْنَى : فِيهِ رِجَالٌ يَعْمُرُونَهُ بِالِاعْتِكَافِ وَإِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَذِكْرِ اللَّهِ وَتَسْبِيحِهِ فِيهِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ، يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا بِذَلِكَ مِنْ كُلِّ مَا يَعْلَقُ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ دَرَنِ الْآثَامِ ، أَوِ التَّقْصِيرِ فِي إِقَامَةِ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ ، كَمَا تَطَهَّرَ الْمُتَخَلِّفُونَ مِنْهُمْ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ بِالتَّوْبَةِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَمِنْ لَوَازِمِ عِمَارَتِهِ الْمَعْنَوِيَّةِ وَالْعُكُوفِ فِيهِ : طَهَارَةُ الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ الْحِسِّيَّةُ ، وَطَهَارَةُ الْوُضُوءِ وَالْغُسْلِ الْحُكْمِيَّةُ ، فَالتَّطَهُّرُ : صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ تَشْمَلُ الطَّهَارَتَيْنِ النَّفْسِيَّةَ وَالْبَدَنِيَّةَ ، وَوَرَدَتِ الرِّوَايَاتُ بِكُلٍّ مِنْهُمَا ، وَلِكُلٍّ مِنْهُمَا ، وَلِكُلٍّ مِنَ الِاسْتِعْمَالَيْنِ مَوْضِعٌ مِنَ التَّنْزِيلِ ، وَالْجَمْعُ بَيْنَهُمَا هُوَ الْأَوْلَى .

(138/349)

(وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) أَيِ الْمُبَالِغِينَ فِي الطَّهَارَةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْجَسَدِيَّةِ ، وَإِنَّمَا يُبَالِغُونَ فِيهَا إِذَا أَحَبُّوهَا ، وَحِينَئِذٍ تَكْمُلُ إِنْسَانِيَّتُهُمُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ . وَلَا يُطِيقُ نَجَاسَةَ الْبَدَنِ وَقَذَارَتَهُ إِلَّا نَاقِصُ الْفِطْرَةِ وَالْأَدَبِ ، وَأَنْقَصُ مِنْهُ مَنْ يُطِيقُ خُبْثَ النَّفْسِ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي وَالْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ ، وَالتَّخَلُّقِ بِالْأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ . دَعْ رِجْسَ الْمُنَافِقِينَ الْمُرَائِينَ فِي الْأَعْمَالِ ، الْأَشِحَّةِ الْبَاخِلِينَ بِالْأَمْوَالِ . وَأَمَّا حُبُّ اللهِ الْمُسْتَحِقِّينَ لِحُبِّهِ فَهُوَ مِنْ صِفَاتِ كَمَالِهِ ؛ لِأَنَّ الْعَالِمَ بِتَفَاوُتِ الْأَشْيَاءِ فِي الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ وَالْكَمَالِ وَالنَّقْصِ يَكُونُ مِنْ أَفْضَلِ صِفَاتِهِ حُبُّ الْجَمَالِ وَالْكَمَالِ وَالْحَقِّ وَالْخَيْرِ ، وَبُغْضُ أَضْدَادِهَا وَكَرَاهَتُهَا ، وَحُبُّهُ اللَّائِقُ بِرُبُوبِيَّتِهِ مُنَزَّهٌ عَنْ مُشَابَهَةِ حُبِّنَا ، كَتَنَزُّهِ ذَاتِهِ وَسَائِرِ صِفَاتِهِ عَنْ مُشَابَهَةِ ذَوَاتِنَا وَصِفَاتِنَا ، وَلَكِنْ يَظْهَرُ أَثَرُهُ فِي الْمَحْبُوبِينَ مِنْ عِبَادِهِ فِي أَخْلَاقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَمَعَارِفِهِمْ وَآدَابِهِمْ ، وَأَعْلَاهُ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ حَدِيثُ الْبُخَارِيِّ الْقُدْسِيِّ (وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ) إِلَخْ .

(139/349)

وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى مُعَلِّلًا مَا وَعَظَ بِهِ نِسَاءَ نَبِيِّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ لَهُنَّ بِمَا يَلِيقُ بِمَكَانَتِهِنَّ مِنْ رَسُولِهِ : (إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا) (33 : 33) .

(140/349)

وَقَدْ فَسَّرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ مَحَبَّتَهُ تَعَالَى لِلْمُطَّهِّرِينَ بِرِضَاهُ عَنْهُمْ وَإِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَهُوَ تَأْوِيلٌ فُسِّرَ بِهِ اللَّفْظُ بِبَعْضِ لَوَازِمِهِ ، فَإِنْ كَانَ هَرَبًا مِنْ نَظَرِيَّةِ مَنْ قَالَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ : إِنَّ اتِّصَافَ اللهِ تَعَالَى بِالْحُبِّ مُحَالٌ ، لِأَنَّهُ انْفِعَالٌ نَفْسِيٌّ يَسْتَحِيلُ عَلَى ذِي الْجَلَالِ ، فَيَجِبُ تَفْسِيرُهُ بِلَازِمِهِ الْمَذْكُورِ كَمَا قَالَ بَعْضُهُمْ فِي الرَّحْمَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ – فَهُوَ هُرُوبٌ مِنْ مَذْهَبِ السَّلَفِ الْحَقِّ ، وَوُقُوعٌ فِيمَا فَرُّوا مِنْهُ بِالتَّأْوِيلِ ، وَهُوَ تَشْبِيهُ اللهِ بِخَلْقِهِ . إِذْ يُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ الرِّضَا عَاطِفَةٌ نَفْسِيَّةٌ كَالْحُبِّ ، وَالْإِحْسَانَ عَمَلٌ بَدَنِيٌّ كَبَسْطِ الْيَدِ بِالْبَذْلِ وَهُمَا يُسْنَدَانِ إِلَى النَّاسِ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بِهِمَا الْخَالِقُ عَزَّ وَجَلَّ ، لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لَهُ بِالْخَلْقِ ، وَكَذَا الْعِلْمُ وَالْقُدْرَةُ وَالْمَشِيئَةُ وَالْكَلَامُ وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِفَاتِ الذَّاتِ ، فَإِنَّ كُلًّا مِنْهَا وُضِعَتْ فِي اللُّغَاتِ لِمَعَانِيهَا الْمَعْرُوفَةِ فِي الْمَخْلُوقَاتِ كَكَوْنِ الْعِلْمِ صُوَرَ الْمَعْلُومَاتِ الْمُنْتَزَعَةِ مِنْهَا فِي الذِّهْنِ ، وَهُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى مُحَالٌ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْحَقُّ أَنْ يُوصَفَ تَعَالَى

بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ بِقُيُودِهِ

الثَّلَاثَةِ الَّتِي قَرَّرَهَا السَّلَفُ الصَّالِحُ . أَيْ بِلَا تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَأْوِيلٍ . فَعِلْمُهُ تَعَالَى انْكِشَافٌ يَلِيقُ بِهِ ، وَحُبُّهُ مَعْنًى نَفْسِيٌّ يَلِيقُ بِهِ إلَخْ .

(141/349)

ذَكَرَ السُّيُوطِيُّ فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ عِدَّةَ رِوَايَاتٍ حَاصِلُهَا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَأَلَ أَهْلَ قُبَاءَ عَنْ سَبَبِ ثَنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْآيَةِ ، فَأَجَابُوهُ بِأَنَّهُمْ يَسْتَنْجُونَ بِالْمَاءِ وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُمْ يُتْبِعُونَ الْحِجَارَةَ بِالْمَاءِ . وَذَكَرَ أَنَّ ابْنَ مَاجَهْ وَابْنَ الْمُنْذِرِ وَابْنَ أَبِي حَاتِمٍ وَالدَّارَقُطْنِيَّ وَالْحَاكِمَ وَغَيْرَهُمْ رَوَوْا عَنْ طَلْحَةَ بْنِ نَافِعٍ قَالَ حَدَّثَنِي أَبُو أَيُّوبَ وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ إنَّ اللَّهَ قَدْ أَثْنَى عَلَيْكُمْ خَيْرًا فِي الطُّهُورِ ، فَمَا طَهُورُكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا : نَتَوَضَّأُ لِلصَّلَاةِ وَنَغْتَسِلُ مِنَ الْجَنَابَةِ قَالَ : (فَهَلْ مَعَ ذَلِكَ غَيْرُهُ ؟) قَالُوا : إنَّ أَحَدَنَا إذَا خَرَجَ مِنَ الْغَائِطِ أَحَبَّ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بِالْمَاءِ قَالَ : (هُوَ ذَاكَ فَعَلَيْكُمُوهُ) .

(142/349)

أَقُولُ : طَلْحَةُ بْنُ نَافِعٍ هَذَا ثِقَةٌ رَوَى عَنْهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ ، وَلَكِنَّ رِوَايَةَ الْبُخَارِيِّ عَنْهُ مَقْرُونَةٌ بِغَيْرِهِ ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَحَادِيثَ رَوَاهَا عَنْ جَابِرٍ ، وَلَعَلَّهُ اقْتَصَرَ عَلَيْهَا ، لِقَوْلِ شَيْخِهِ عَلِيِّ بْنِ الْمَدِينِيِّ : إِنَّهُ لَمْ يَرْوِ عَنْ جَابِرٍ غَيْرَهَا ، أَيْ لَمْ يَصِحَّ عَنْهُ غَيْرُهَا . وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ : إِنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ أَبِي أَيُّوبَ ، وَلَكِنَّهُ هُنَا صَرَّحَ بِالسَّمَاعِ مِنْهُ فِيمَا رَوَاهُ مَنْ ذُكِرَ وَغَيْرُهُمْ . وَحَدِيثُهُ هَذَا عَلَى كُلِّ حَالٍ أَقْوَى مِنْ أَحَادِيثِ سُؤَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَهْلَ مَسْجِدِ قُبَاءَ وَجَعْلِهِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِمْ ، وَهُوَ فِي سُؤَالِ الْأَنْصَارِ ، وَالْمَسْئُولُونَ مِنْهُمْ كُلُّهُمْ مِنْ سُكَّانِ الْمَدِينَةِ ، وَيُؤَيِّدُهُ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ النَّاطِقَةُ بِأَنَّ الْمَسْجِدَ الَّذِي أَثْنَى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِهِ هُوَ مَسْجِدُهُ فِيهَا ، وَقَدْ قُلْنَا : إِنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ إِرَادَةِ كُلٍّ مِنْهُمَا ، وَهُوَ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِتَعَارُضِهِمَا ، كَمَا أَنَّ الرِّوَايَاتِ فِيهِمَا لَا تُنَافِي إِرَادَةَ نَوْعَيِ الطَّهَارَةِ كِلَيْهِمَا ، وَيُؤَيِّدُ إِرَادَةَ الطَّهَارَةِ الْمَعْنَوِيَّةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ) هَذَا بَيَانٌ مُسْتَأْنَفٌ لِلْفَرْقِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَسْجِدَيْنِ فِي مَقَاصِدِهِمَا مِنْهُمَا : أَهْلِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ الَّذِي زَادُوا بِهِ رِجْسًا إِلَى

رِجْسِهِمْ ، وَأَهْلِ مَسْجِدِ التَّقْوَى وَهُمُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَنْصَارُهُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَكْمَلَ الطَّهَارَةِ لِظَاهِرِهِمْ وَبَاطِنِهِمْ ، فَاسْتَفَادُوا بِذَلِكَ مَحَبَّةَ اللَّهِ لَهُمْ ، وَوَرَدَ بِصِيغَةِ اسْتِفْهَامِ التَّقْرِيرِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ تَنْبِيهِ الشُّعُورِ وَقُوَّةِ التَّأْثِيرِ ، وَالْبُنْيَانُ : مَصْدَرٌ كَالْعُمْرَانِ وَالْغُفْرَانِ وَيُرَادُ بِهِ الْمَبْنِيُّ ، مِنْ دَارٍ أَوْ مَسْجِدٍ وَهُوَ الْمُتَعَيَّنُ هُنَا . وَتَقَدَّمَ آنِفًا مَعْنَى التَّأْسِيسِ ، وَالشَّفَا : (بِالْفَتْحِ وَالْقَصْرِ) الْحَرْفُ وَالشَّفِيرُ لِلْجُرُفِ وَالنَّهْرِ وَغَيْرِهِ .

وَالْجُرُفُ (بِضَمَّتَيْنِ) : جَانِبُ الْوَادِي وَنَحْوُهُ الَّذِي يَنْحَفِرُ أَصْلُهُ بِمَا يَجْرُفُهُ السَّيْلُ مِنْهُ فَيَجْتَاحُ أَسْفَلَهُ فَيَصِيرُ مَائِلًا لِلسُّقُوطِ ، وَالْهَارُ : الضَّعِيفُ الْمُتَصَدِّعُ الْمُتَدَاعِي لِلسُّقُوطِ وَهَذَا التَّعْبِيرُ يُضْرَبُ مَثَلًا لِمَا كَانَ فِي مُنْتَهَى الضَّعْفِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى الزَّوَالِ ، وَهُوَ مِنْ أَبْلَغِ الْأَمْثَالِ ، لِمُنْتَهَى الْوَهْيِ وَالِانْحِلَالِ .

(144/349)

الْمُرَادُ بِالْمَثَلِ هُنَا بَيَانُ ثَبَاتِ الْحَقِّ الَّذِي هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ وَقُوَّتِهِ وَدَوَامِهِ ، وَسَعَادَةِ أَهْلِهِ بِهِ ، وَذِكْرِهِ بِأَثَرِهِ وَثَمَرَتِهِ فِي عَمَلِ أَهْلِهِ ، وَجِمَاعُهَا التَّقْوَى ، وَبِجَزَائِهِمْ عَلَيْهِ وَأَعْلَاهُ رِضْوَانُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَيَانِ ضَعْفِ الْبَاطِلِ وَاضْمِحْلَالِهِ ، وَوَهْيِهِ وَقُرْبِ زَوَالِهِ ، وَخَيْبَةِ صَاحِبِهِ وَسُرْعَةِ انْقِطَاعِ آمَالِهِ ، وَشَرِّ أَهْلِهِ الْمُنَافِقِينَ . وَشَرُّ أَعْمَالِهِمْ مَا اتَّخَذُوهُ مِنْ مَسْجِدِ الضِّرَارِ

لِلْمَفَاسِدِ الْأَرْبَعَةِ الْمُبَيَّنَةِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا السِّيَاقِ .

وَقَدْ ذَكَرَ فِي وَصْفِ بُنْيَانِ الْفَرِيقِ الْأَوَّلِ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ الْمُشَبَّهَ دُونَ الْمُشَبَّهِ بِهِ لِأَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالذَّاتِ وَلَمْ يَذْكُرْ فِيمَا قَبْلَهُ مِنْ عَمَلِهِمْ إلَّا الْمُبَالَغَةَ فِي الطَّهَارَةِ . وَذَكَرَ مِنْ وَصْفِ بُنْيَانِ الْفَرِيقِ الثَّانِي الْهَيْئَةَ الْمُشَبَّهَ بِهَا دُونَ الْمُشَبَّهِ . لِأَنَّهُ ذَكَرَ فِيمَا قَبْلُ مَقَاصِدَهُمْ مِنْهَا كُلَّهَا ، وَهَذَا مِنْ دَقَائِقِ إيجَازِ الْقُرْآنِ .

(145/349)

تَقُولُ فِي الْمَعْنَى الْجَامِعِ بَيْنَ الْمُشَبَّهِ بِهِ فِي الْفَرِيقَيْنِ : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ الَّذِي يَتَّخِذُهُ مَأْوًى وَمَوْئِلًا لَهُ ، يَقِيهِ مِنْ فَوَاعِلِ الْجَوِّ وَعُدْوَانِ كُلِّ حَيٍّ ، وَمَوْطِنًا لِرَاحَتِهِ ، وَهَنَاءِ مَعِيشَتِهِ ، عَلَى أَمْتَنِ أَسَاسٍ وَأَثْبَتِهِ ، وَأَقْوَاهُ عَلَى مُصَابَرَةِ الْعَوَاصِفِ وَالسُّيُولِ ، وَصَدِّ الْهَوَامِّ وَالْوُحُوشِ – هُوَ خَيْرٌ بُنْيَانًا ، وَرَاحَةً وَأَمَانًا ؟ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى أَوْهَى الْقَوَاعِدِ وَأَقَلِّهَا بَقَاءً وَاسْتِمْسَاكًا فَهِيَ عُرْضَةٌ لِلِانْهِيَارِ فِي كُلِّ لَحْظَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ ؟

وَأَمَّا مَعْنَى الْمُشَبَّهِ الْمَقْصُودِ بِالذَّاتِ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا فَيُصَوَّرُ هَكَذَا : أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا صَادِقًا يَتَّقِي اللَّهَ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ ، وَيَبْتَغِي رِضْوَانَهُ فِي أَعْمَالِهِ بِتَزْكِيَةِ نَفْسِهِ بِهَا وَنَفْعِ

(146/349)

عِيَالِهِ : (وَالْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ) كَمَا وَرَدَ فِي الْخَبَرِ عَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَفَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ خَيْرًا عَمَلًا ، وَأَفْضَلَ عَاقِبَةً وَأَمَلًا ، وَمِمَّنْ نَزَلَ فِيهِمْ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا) (18 : 107) أَمْ مَنْ هُوَ مُنَافِقٌ مُرْتَابٌ ، مُرَاءٍ كَذَّابٌ ، يَبْتَغِي بِأَفْضَلِ مَظَاهِرِ أَعْمَالِهِ الضَّرَرَ وَالضِّرَارَ ، وَتَقْوِيَةَ أَعْمَالِ الْكُفْرِ وَمُوَالَاةَ الْكُفَّارِ ، وَتَفْرِيقَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَخْيَارِ ، وَالْإِرْصَادَ لِمُسَاعَدَةِ مَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنَ الْأَشْرَارِ ، وَمَا يَكُونُ مِنْ عَاقِبَةِ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْفَضِيحَةِ وَالْعَارِ ، وَالْخِزْيِ وَالْبَوَارِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنَ الِانْهِيَارِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ؟

وَفِي مَعْنَى هَذَا الْمَثَلِ : (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) (13 : 17) الْآيَةَ . وَخُلَاصَةُ الْمَثَلَيْنِ أَنَّ الْإِيمَانَ الصَّادِقَ ، وَمَا يَلْزَمُهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ هُوَ الْمُثْمِرُ الثَّابِتُ ، وَأَنَّ النِّفَاقَ وَمَا يَسْتَلْزِمُهُ مِنَ الْعَمَلِ الْفَاسِدِ هُوَ الْبَاطِلُ الزَّاهِقُ ، وَهَذَا الْمَعْنَى يُوَافِقُ قَوْلَ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ : إِنَّهُ لَا يَتَنَازَعُ شَيْئَانِ فِي الْوُجُودِ إِلَّا وَيَكُونُ الْغَالِبُ هُوَ الْأَصْلَحَ مِنْهُمَا . وَيُسَمُّونَ هَذِهِ السُّنَّةَ (نَامُوسَ الِانْتِخَابِ الطَّبِيعِيِّ وَبَقَاءِ الْأَمْثَلِ) وَسَبَقَ بَيَانُهُ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ .

(147/349)

صَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ ، فَقَدْ ثَبَّتَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ ، وَهَدَاهُمْ بِإِيمَانِهِمْ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، فَفَتَحُوا الْبِلَادَ ، وَأَقَامُوا الْحَقَّ وَالْعَدْلَ فِي الْعِبَادِ ، وَأَهْلَكَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ أَثَرٍ صَالِحٍ فِي الْعَالَمِينَ وَهَكَذَا كَانَ وَهَكَذَا يَكُونُ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ وَلَا يَعْتَبِرُونَ وَشَرُّ النِّفَاقِ وَأَضَرُّهُ نِفَاقُ الْعُلَمَاءِ لِلْمُلُوكِ وَالْأُمَرَاءِ .

(وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) أَيْ مَضَتْ سُنَّتُهُ فِي ارْتِبَاطِ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ بِالْأَعْمَالِ بِأَنَّ الظَّالِمَ لَا يَكُونُ مُهْتَدِيًا فِي أَعْمَالِهِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، فَضْلًا عَنِ الرَّحْمَةِ وَالْفَضْلِ ، وَلَا أَظْلَمَ فِي النَّاسِ مِنَ الْمُنَافِقِ : كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (3 : 86) .

(لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) الرِّيبَةُ : اسْمٌ مِنَ الرَّيْبِ ، وَهُوَ : مَا

(148/349)

تَضْطَرِبُ فِيهِ النَّفْسُ ، وَيَتَرَدَّدُ الْوَهْمُ وَيَسُوءُ الظَّنُّ ، فَيَكُونُ صَاحِبُهُ مِنْهُ فِي شَكٍّ وَحَيْرَةٍ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَثَارُهُ الشَّكَّ . قَالَ قَوْمُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَهُ ، مُنْكِرِينَ دَعْوَتَهُ إِيَّاهُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ (وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (11 :62) وَلِهَذَا الِاسْتِعْمَالِ أَمْثَالٌ فِي التَّنْزِيلِ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الشَّكَّ مَثَارٌ لِلرَّيْبِ ، وَمُوقِعٌ فِيهِ لَا أَنَّهُ عَيْنُهُ وَقَدْ يُفَسَّرُ بِهِ بِاعْتِبَارِ

لُزُومِهِ وَإِيقَاعِهِ فِيهِ . قَالَ الشَّاعِرُ :

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ لَيْلَى تَبَرْقَعَتْ . . . وَقَدْ رَابَنِي مِنْهَا الْغَدَاةَ سُفُورُهَا

(149/349)

وَالظَّاهِرُ أَنَّ ارْتِيَابَهُمْ فِيهِ كَانَ مُنْذُ بَنَوْهُ إِلَى أَنْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَدْمِهِ فَهُدِمَ ، ذَلِكَ أَنَّهُمْ لِسُوءِ نِيَّتِهِمْ فِي بِنَائِهِ كَانُوا يَخَافُونَ أَنْ يَطَّلِعَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَى مَقَاصِدِهِمُ السُّوأَى فِيهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ شَأْنَ سَائِرِ إِخْوَانِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ) (9 : 64) وَذَكَرْنَا فِي تَفْسِيرِهَا قَوْلَهُ تَعَالَى : (يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) (63 : 4) (رَاجِعْ ج 10) وَأَجْدَرُ بِهِمْ أَنْ يَكُونُوا بَعْدَ هَدْمِهِ أَشَدَّ ارْتِيَابًا ، وَأَكْثَرَ اضْطِرَابًا ، بِمَا يَحْذَرُونَ مِنْ عِقَابِهِمْ فِي الدُّنْيَا كَمَا أَنْذَرَتْهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ مِرَارًا ، وَأَنْ يَسْتَمِرَّ ذَلِكَ مُلَازِمًا لَهُمْ (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) قَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ عَنْ نَافِعٍ وَحَمْزَةُ (تَقَطَّعُ) بِفَتْحِ وَتَشْدِيدِ الطَّاءِ مِنَ التَّقَطُّعِ ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِضَمِّ التَّاءِ مِنَ التَّقْطِيعِ ، أَيْ إِلَّا أَنْ تُقَطِّعَ الرِّيبَةُ قُلُوبَهُمْ أَفْلَاذًا فَتُقَطَّعَ بِهَا وَتَكُونَ جُذَاذًا ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ (إِلَى) بَدَلَ (إِلَّا) وَفَسَّرَ ذَلِكَ بِالْمَوْتِ وَالْهَلَاكِ وَالْحَسْرَةِ وَالنَّدَمِ الْمُقْتَضِي لِلتَّوْبَةِ ، وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ وَتَبِعَهُ مُعْتَادُو الْأَخْذِ عَنْهُ : لَا يَزَالُ هَدْمُهُ سَبَبَ شَكٍّ وَنِفَاقٍ زَائِدٍ عَلَى شَكِّهِمْ وَنِفَاقِهِمْ لَا

يَزُولُ وَسْمُهُ عَنْ قُلُوبِهِمْ ، وَلَا يَضْمَحِلُّ أَثَرُهُ (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) قِطَعًا وَتَفَرَّقَ أَجْزَاءً ، فَحِينَئِذٍ يَسْلُونَ

(150/349)

عَنْهُ ، وَأَمَّا مَا دَامَتْ سَالِمَةً مُجْتَمِعَةً ، فَالرِّيبَةُ بَاقِيَةٌ فِيهَا مُتَمَكِّنَةٌ فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ التَّقَطُّعِ تَصْوِيرًا لِحَالِ زَوَالِ الرِّيبَةِ عَنْهُمْ ، وَيَجُوزُ أَنْ يُرَادَ حَقِيقَةُ تَقْطِيعِهَا وَمَا هُوَ كَائِنٌ مِنْهُ بِقَتْلِهِمْ أَوْ فِي الْقُبُورِ أَوْ فِي النَّارِ . وَقِيلَ : مَعْنَاهُ : إِلَّا أَنْ يَتُوبُوا تَوْبَةً تَتَقَطَّعُ بِهَا قُلُوبُهُمْ نَدَمًا وَأَسَفًا عَلَى تَفْرِيطِهِمْ ، انْتَهَى . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) فَحَكَمَ فِي أَمْرِهِمْ وَبَيَّنَ مِنْ حَالِهِمْ مَا اقْتَضَتْهُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ الْمُحِيطُ بِكُلِّ شَيْءٍ .

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي بَيَانِ حَالِ الْمُؤْمِنِينَ حَقَّ الْإِيمَانِ ، الْبَالِغِينَ فِيهِ مَا هُوَ غَايَةٌ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ ،

وُضِعَتَا بَعْدَ بَيَانِ حَالِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَصْنَافِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَصِّرِينَ ، وَمِنْهُمَا تُعْرَفُ جَمِيعُ دَرَجَاتِ الْمُسْلِمِينَ ، وَلَا سِيَّمَا الْمُتَخَلِّفِينَ عَنِ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 30. 39 ﴾

(151/349)

وقال ابن عاشور :

جملة : ﴿ لا يزال بنيانهم ﴾

يجوز أن تكون مستأنفة لتعداد مساوي مسجد الضرار بذكر سوءِ عواقبه بعد أن ذكرَ سوء الباعثِ عليه وبعد أن ذكر سوء وقعه في الإسلام بأن نهى الله رسوله عن الصلاة فيه وأمرَه بهدمه ، لأنه لما نهاه عن الصلاة فيه فقد صار المسلمون كلهم منهيين عن الصلاة فيه ، فسلب عنه حكم المساجد ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه .

ويرجح هذا الوجه أنه لم يؤت بضمير المسجد أو البنيان بل جيء باسمه الظاهر .

ويجوز أن تكون خبراً ثانياً عن ﴿ الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ﴾ [التوبة : 107] كأنه قيل : لا تقم فيه ولا يزال ريبةً في قلوبهم ، ويكون إظهار لفظ ﴿ بنيانهم ﴾ لزيادة إيضاحه .

والرابط هو ضمير ﴿ قلوبهم ﴾ .

والمعنى أن ذلك المسجد لما بنوه لغرض فاسد فقد جعلهُ اللّهُ سبباً لبقاء النفاق في قلوبهم ما دامت قلوبهم في أجسادهم .

وجَعل البنيان ريبةً مبالغة كالوصف بالمصدر .

والمعنى أنه سبب للريبة في قلوبهم .

والريبة : الشك ، فإن النفاق شك في الدين ، لأن أصحابه يترددون بين موالاة المسلمين والإخلاص للكافرين .

وقوله : ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ استثناء تهكمي .

وهو من قبيل تأكيد الشيء بما يشبه ضده كقوله تعالى : ﴿ ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَم الخياط ﴾ [الأعراف : 40] ، أي يبقى ريبة أبداً إلا أن تقطع قلوبهم منهم وما هي بمُقطعة .

وجملة : ﴿ والله عليم حكيم ﴾ تذييل مناسب لهذا الجعل العجيب والإحكام الرشيق .

وهو أن يكون ذلك البناء سببَ حسرة عليهم في الدنيا والآخرة .

وقرأ الجمهور ﴿ تُقطع ﴾ بضم التاء .

وقرأه ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب ﴿ تَقطَّعَ ﴾ بفتح التاء

على أن أصله تتقطع .

وقرأ يعقوب ﴿ إلى أن تقطع ﴾ بحرف (إلى) التي للانتهاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(152/349)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) ﴾

البنيان الذي بنوا هو مسجد الضرار ، وأرادوا به ضرراً وكفراً وتفريقاً وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وعدهم أن يصلي فيه ، وكشف له الحق أنهم أرادوا بصلاة رسول الله فيه ذريعة وأن يرسموا الصلاة فيه .

ولما عاد صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أنزل الله عليه : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ﴾ وأرسل صلى الله عليه وسلم بعضاً من صحابته ليهدموا هذا المسجد ، ولم يكتف بالهدم ، بل أمر أن يُجْعَل مكان المسجد قمامة إشعاراً منه صلى الله عليه وسلم بأن المسجد بنيته الأولى كانت نجاسته نجاسة معنوية ، وحين توضع فيه النجاسة الحسّية ، تكون

طهارة بالنسبة للنجاسة المعنوية ، فكأنه طهر المكان من النجاسة المعنوية بالنجاسة الحسيّة .

ورسول الله يعلمنا هنا أن الأمر ليس أمر نجاسات حسيّة ، وإنما النجاسات المعنوية أفظع من النجاسات الحسيّة ، فالإنسان قد يتحرز من النجاسات الحسيّة ، لكن النجاسات التي تخامر القلوب والعقائد والعواطف فهي التي تسبب للإنسان الشقاء .

وهنا يقول الحق : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ فبعد أن هدم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا البنيان وصار موقعه موضع القذارة ، بقي أمر هذا البنيان موضع شك منهم وصاروا يتوجسون أن ينزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم العقاب ، وظلوا في شك من ان يصيبهم رسول الله بسوء ، ولن يذهب هذا الشك من قلوبهم إلا أن تقطع تلك القلوب بالموت .

(153/349)

إن الشك والريبة محلها القلب ، والقلب هو العضو الثاني في استبقاء الحياة ، أما العضو الأول في استبقاء الحياة فهو المخ ، فما دامت خلايا المخ سليمة ، فمن الممكن أن تعود الحياة إلى الإنسان ولكن برتابة ، أما القلب فحين يتوقف فالأطباء يحاولون أن يعيدوا له الحركة ،

إما بشق الصدر أو تدليك القلب ليعود إليه النبض ، وقد يفلحون ما دامت خلايا المخ سليمة ، فالمخ في الإنسان هو سيد الجسم كله ، ولذلك تجدون أن الحق قد صان المخ بأقوى الصيانات بعظام الجمجمة .

وكذلك النخاعات التي تتحكم في إدارة الجسد ، نجده سبحانه قد كفل لها من العظام أعلى درجات الصيانة . وترى في الحفريات أن الجماجم هي أبقى شيء ، مما يدل على أنه للحفاظ على المخ قد جعل الله له أقوى العظام ، وما دام المخ سيد الجسم سليماً فمن الممكن أن تستمر الحياة ، ولذلك نجد أن الجسم كله يخدم المدبر للجسم ، ويحافظ على صيانته .

والإنسان إن تعرض للجوع يأكل من شحمه ، وحين يفوته ميعاد تناوله للطعام ، يعرض عليه الطعام يقول : ليس لي رغبة في الأكل ، وهذا ليس إلاّ تعبيراً علمياً لما حدث في الجسم ، فأنت أكلت بالفعل ، فما دام قد مر ميعاد طعامك ولم تأكل فإن جسمك يأخذ ما يحتاجه من الدهون المخزونة به ، وإذا ما انتهى الدهن يأخذ الإنسان من لحمه ، وإذا ما انتهى اللحم يأخذ الإنسان غذاءه من عظامه ، وكل ذلك من أجل أن يبقى السيد وهو " المخ " مصاناً .

ولذلك تجد القرآن حيثما عرض مسألة سيدنا زكريا ، قال على لسانه : ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ العظم مِنِّي . . . ﴾ [مريم : 4]

أي : أن آخر مخزن للقوت قد قارب على الانتهاء ، أما النبات فهو عكس الإنسان ، فسيد النبات أسفل شيء فيه وهو الجذر ، ويحاول النبات المحافظة على جذره ، فإن امتنع الغذاء عن النبات بامتناع المياه عنه ، بدأت أوراق النبات في الذبول ؛ لأنها تعطي حيويتها ومائيتها للجذر ، ثم تجد الساق تجف لأنها تعطي حياة للجذر ليستمر إلى أن يأتي قليل من المياه أو قليل من الغذاء ، فيعود الجذر قويّاً .

والقلب هو محل العقائد والاعتقادات ، وهي الأشياء التي تنشأ من المحسّات ، وتتكون في الفؤاد لتصير عقائد لا تطفو للمناقشة من جديد ، أما العقل فهو يناقش كل المسائل ، وما إن ينتهي من الاقتناع بفكرة حتى تستقر في القلب .

وهنا يوضح لنا الله أن هذا البنيان سيظل أثره في قلوبهم ، ولن ينتهي منهم أبداً إلا بشيء واحد هو : ﴿ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ والقلوب لا تتقطع إلا بالموت ، وكأن الشك من هذا البنيان سيظل يلاحقهم إلى أن يموتوا .

أو : ﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أن تتقطع توبة وأسفاً وحزناً .

وهذا تهديد لهم بأنهم مسيئاتهم ليست من الخارج ، وإنما مسيئاتهم من ذوات نفوسهم .

ووجود الريبة في نفوسهم ، يعني أنها لن تجعلهم يستشرون في الإفساد لخوفهم المستمر من العقاب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ وعلمه سبحانه شامل فلا تخفى عليه خافية ، وحكمته سبحانه أنه يضع كل شيء في مكانه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(155/349)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) ﴾

أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس في قوله ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ قال : يعني الشك ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ يعني الموت .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي قال : قلت لإبراهيم : أرأيت قول الله ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ ؟ قال : الشك . قلت : لا . قال : فما تقول أنت ؟ قلت : القوم بنوا مسجداً ضراراً وهم كفار حين بنوا ، فلما دخلوا في الإسلام جعلوا لا يزالون يذكرون ، فيقع في قلوبهم مشقة من ذلك فتراجعوا له ، فقالوا : يا ليتنا لم نكن فعلنا ، وكلما ذكروه وقع من

ذلك في قلوبهم مشقة وندموا . فقال إبراهيم : استغفر الله .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن حبيب بن أبي ثابت في قوله ﴿ ريبة في قلوبهم ﴾ قال : غيظاً في قلوبهم ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ قال : إلى أن يموتوا .

وأخرج ابن أبي شيبة وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ إلا أن تقطع ﴾ قال : الموت أن يموتوا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن أيوب قال : كان عكرمة يقرأها " لا أن تقطع قلوبهم في القبر " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن سفيان في قوله ﴿ إلا أن تقطّع قلوبهم ﴾ قال : إلا أن يتوبوا ، وكان أصحاب عبد الله يقرأونها " ريبة في قلوبهم ولو تقطعت قلوبهم " . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(156/349)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

﴾

وقوله تعالى : ﴿ بُنْيَانُهُمُ ﴾ : يحتمل أن يكونَ مصدراً على حاله ، أي : لا يزال هذا الفعل الصادر منهم . ويحتمل أن يكونَ مراداً به المبني ، وحينئذٍ يُضْطَرُّ إلى حذف مضاف ، أي : بناء بنيانهم لأن المبنيَّ ليس ريبةً ، ويُقَدَّر الحذف من الثاني ، أي : لا يزال مبنيُّهم سببَ ريبة . وقوله : " الذي بَنَوا " تأكيدٌ دَفْعاً لوَهْم مَنْ يتوهَّم أنهم لم يَبْنُوا حقيقة وإنما دَبَّروا أموراً ، مِنْ قولهم : "كم أبني وتهدمُ" ، وعليه قوله :

2546 متى يبلغُ البُنيانُ يوماً تمامَه . . . إذا كنت تَبْنِيه وغيرك يَهْدِم

قوله : ﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ ﴾ المستثنى منه محذوفٌ والتقدير : لا يزال بنيانُهم ريبةً في كل وقت إلا وقتَ تقطيعِ قلوبهم ، أو في كل حال إلا حالَ تقطيعها . وقرأ ابن عامر وحمزة وحفص " تَقَطَّع " بفتح التاء ، والأصل : تتقطع بتاءَيْن فحُذفت إحداهما . وقرأ الباقون " تُقَطَّع " بضمِّها ، وهو مبني للمفعول مضارع قَطَّع بالتشديد . وقرأ أُبَيّ " تَقْطَع " مخففاً مِنْ قطع . وقرأ الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب " إلى أن " بإلى الجارة وأبو حَيْوة كذلك . وهي قراءةٌ واضحةٌ في المعنى ، إلا أن أبا حيوة قرأ " تُقَطِّع " بضم التاء وفتح القاف وكسر الطاء مشددةً ، والفاعلُ ضميرُ الرسول . " قلوبَهم " نصباً على المفعول ، والمعنى بذلك أن يقتلهم ويتمكَّن منهم كلَّ تمكُّن . وقيل : الفاعلُ ضمير الرِّيبة ، أي : إلى أن تَقْطَع الرِّيبةُ قلوبَهم . وفي

مصحف عبد الله " ولو قُطِّعَتْ " وبها قرأ أصحابُه ، وهي مخالفةٌ لسوادِ مصاحف الناس . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 126 . 127 ﴾

(157/349)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) ﴾

عروقُ النِّفاقِ لا تُقْتَلَعُ من عَرَصَاتِ اليقين إلا بِمِنْجَلِ التَّحَقُّقِ بصحيح البرهان ؛ فَمَنْ أُيِّدَ لإدامة المسير ، وَوُفِّقَ لتأمل البرهان وَصَلَ إلى ثَلَجِ الصدور ورَوْحِ العرفان .

ومَنْ أقام على مُعْتَادِ التقليد لم يسترِحْ قلبُه من كَدِّ التردُّدِ ، وظلمةِ التجويز ، وَجَوَلَانِ الخواطر المشكلة في القلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 63 ﴾

(158/349)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾

فإن قلت : رَضُوا ما موقعه ؟ قلت : هو استئناف ، كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم أغنياء ؟ فقيل : رضوا بالدناءة والضعة والانتظام في جملة الخوالف وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ يعنى أن السبب في استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان اللّه تعالى إياهم . فإن قلت : فهل يجوز أن

(159/349)

يكون قوله قُلْتَ لا أَجِدُ استئنافاً مثله ، كأنه قيل : إذا ما أتوك لتحملهم تولوا ، فقيل : ما لهم تولوا باكين ؟ فقيل : قلت لا أجد ما أحملكم عليه . إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض «قلت» نعم ويحسن لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ علة للنهى عن الاعتذار ، لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال «1» وقوله قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ علة لانتفاء تصديقهم لأنّ اللّه عز وجلّ إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد ، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ أتنيبون أم تثبتون على كفركم ثُمَّ تُرَدُّونَ إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية ، فيجازيكم على حسب ذلك .

[سورة التوبة (9) : آية 95]

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95)

لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ فأعطوهم طلبتهم إِنَّهُمْ رِجْسٌ تعليل لترك معاتبتهم ، يعنى أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة . والمؤمن يوبخ على زلة تفرط منه ، ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ يعنى وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تتكلفوا عتابهم .

[سورة التوبة (9) : آية 96]

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96)

لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ أى غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساخطاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها . وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم .

قيل : هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، وكانوا ثمانين رجلا منافقين فقال النبي صلى اللّه عليه وسلم حين قدم المدينة ، لا تجالسوهم ولا تكلموهم . وقيل : جاء عبد اللّه ابن أبيّ يحلف أن لا يتخلف عنه أبداً .

---

(1) . قوله «وجب عليه الإخلال» أي الترك . يقال : أخل الرجل بمركزه ، إذا تركه . (ع)

(160/349)

[سورة التوبة (9) : آية 97]

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)

الْأَعْرابُ أهل البدو أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم ، ونشئهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا وأحق بجهل حدود الدن وما أنزل اللّه من الشرائع والأحكام . ومنه قوله صلى اللّه عليه وسلم « 1 » «إن الجفاء والقسوة في الفدّادين» « 2 » وَاللَّهُ عَلِيمٌ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر حَكِيمٌ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه وثوابه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 98 إلى 99]

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

مَغْرَماً غرامة وخسراناً . والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس يلزمه ، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه اللّه عزّ وجلّ وابتغاء المثوبة عنده وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ دوائر الزمان : دوله وعقبه «3» لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ دعاء معترض ، دعى عليهم بنحو ما دعوا به ، كقوله عز وجل وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وقرئ السوء بالضم وهو العذاب ، كما قيل له سيئة . والسوء بالفتح ، وهو ذمّ للدائرة ، كقولك : رجل سوء ، في نقيض قولك : رجل صدق ، لأنَّ من دارت عليه ذامّ لها وَاللَّهُ سَمِيعٌ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة عَلِيمٌ بما يضمرون . وقيل هم أعراب أسد وغطفان وتميم قُرُباتٍ مفعول ثان ليتخذ . والمعنى : أنّ ما ينفقه سبب لحصول القربات

---

(1) . متفق عليه من حديث أبى موسى الأشعرى في أثناء حديث فيه «و إن الجفاء وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل» كذا البخاري ولمسلم «إن القسوة وغلظ القلوب» .

(2) . قوله «و القسوة في الفدادين» الفدادين : هم الذين تعلو أصواتهم في حروثهم

ومواشيهم . ورجل فداد :

شديد الفديد . وهو الصوت : أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قال محمود : «دوائر الزمان : دوله ، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه . . . الخ» قال أحمد : وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء الحال المدعو عليهم ولقولهم ، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذي دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوإ الدوائر لا على الإطلاق ، والله الموفق . [. . . . .]

(161/349)

عند اللّه وَصَلَواتِ الرَّسُولِ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، كقوله «اللهم صل على آل أبى أوفي «1»» وقال تعالى وَصَلِّ عَلَيْهِمْ فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل : يتخذ ما ينفق قربات وصلوات أَلَا إِنَّها شهادة من اللّه للمتصدق بصحة ما اعتقد ، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف ، مع حرفى التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمكنه ، وكذلك سَيُدْخِلُهُمُ وما في السين من تحقيق الوعد ، وما أدل هذا الكلام على رضا اللّه تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه بمكان «2» إذا خلصت النية من صاحبها . وقرئ قُرُبَةٌ بضم الراء . وقيل : هم عبد اللّه

وذو البجادين ورهطه .

[سورة التوبة (9) : آية 100]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقيل الذين شهدوا بدراً . وعن الشعبي : من بايع بالحديبية وهي بيعة الرضوان ما بين الهجرتين وَمِنَ الْأَنْصارِ أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر ، وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن . وقرأ عمر رضى اللّه عنه : والأنصار بالرفع عطفا على السابقون «3» . وعن عمر أنه كان يرى أنّ قوله وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ بغير واو صفة للأنصار ، حتى قال له زيد : إنه بالواو ، فقال : ائتوني بأبىّ ، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة وَآخَرِينَ مِنْهُمْ وأوسط الحشر وَالَّذِينَ جاؤُ مِنْ بَعْدِهِمْ وآخر الأنفال وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ . وروى أنه سمع رجلا يقرؤه بالواو ، فقال : من أقرأك ؟ قال : أبىّ ، فدعاه فقال :

أقرأنيه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإنك لتبيع القرظ بالبقيع ، قال : صدقت ، وإن شئت قلت : شهدنا وغبتم ، ونصرنا وخذلتم ، وآوينا وطردتم «4» . ومن ثم قال عمر :

(1) . متفق عليه من حديث عبد اللّه بن أبى أوفي قال «كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل عليه فأتى أبو أوفى بصدقة . فقال : اللهم صل على آل أبى أوفى» .

(2) . قال محمود : «ما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من اللّه بمكان . . . الخ» قال أحمد : وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر ، وأنه مخلد في النار وإن كان موحداً ، وغرض الزمخشري أن يجعل الفسق الذي وسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحد ، حتى يكون استحقاقهما الخلود واحداً . فاحذره ، واللّه أعلم .

(3) . لم أره هكذا .

(4) . لم أره هكذا ، وفي الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال «مر عمر بن الخطاب برجل يقرأ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ فأخذ عمر بيده . وقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبى بن كعب فقال :

رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، وارتفع السابقون بالابتداء ، وخبره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ومعناه : رضى عنهم لأعمالهم وَرَضُوا عَنْهُ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية وفي مصاحف أهل مكة : تجرى من تحتها ، وهي قراءة ابن كثير ، وفي سائر المصاحف : تحتها ، بغير من .

[سورة التوبة (9) : آية 101]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (101)

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ يعنى حول بلدتكم وهي المدينة مُنافِقُونَ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار ، كانوا نازلين حولها وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدّرت : ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، على أنّ مَرَدُوا صفة موصوف محذوف ، كقوله :

أَنَا ابْنُ جَلَا . . «1» . . . .

وعلى الوجه الأوّل لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون ، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ تمهروا فيه ، من مرن فلان عمله ، ومرد عليه : إذا درب به وضرى ، حتى لان عليه ومهر فيه ، ودلّ على مرانتهم عليه ومهارتهم فيه بقوله لا تَعْلَمُهُمْ

(1) أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

وما ذا تبتغى الشعراء منى وقد جاوزت حد الأربعين

لسحيم بن وثيل الرياحي ، كان عبداً حيشياً ، فاتهم ببنت مولاه . فقتله . وقيل للمثقب العبدى ، ونسب البيت الأول العرجى . وجلا : صفة لمحذوف ، أى ابن رجل جلا واتضح أمره بالشجاعة ، فالفعل لازم . أو جلا غمة الحرب وكشف همها ، فهو متعد ، وحذف المنعوت هنا ضرورة ، لأنه لا يطرد إلا إذا صلح النعت لمباشرة العامل ، أو كان المنعوت بعض اسم مجرور بمن ، أو في كما مر ، وإضافة «طلاع» لما بعده لفظية ، فلا تفيده تعريفا . وتوسيط الواو بين النعوت لتوكيد ربطها بالمنعوت . والثنايا : العقبات الصعبة . استعارها لعظائم الأمور على سبيل التصريح ، والطلوع ترشيح «متى أضع» بيضة الحرب على رأسى «تعرفوني» كناية عن نزول الحرب فنثبت شجاعته . وروى «تدرى» بدل «تبتغى» وهو افتعال من الدراية ، أى : ما ذا تستعلم الشعراء منى ، والحال أنى جاوزت حد الأربعين سنة ، وكسر نون الجمع لغة . ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يعربه كالحين .

(163/349)

أى يخفون عليك مع فطنتك «1» وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط تنوقهم «2» في تحامى ما يشككك في أمرهم ، ثم قال نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ أى لا يعلمهم إلا اللّه ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطانا ، ويبرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه في إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به ، فلهم فيه اليد الطولى سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ قيل : هما القتل وعذاب القبر . وقيل الفضيحة وعذاب القبر . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه أنهم اختلفوا في هاتين المرّتين ، فقال : قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «3» خطيبا يوم الجمعة فقال : «اخرج يا فلان فإنك منافق ، اخرج يا فلان فإنك منافق «4»» فأخرج ناسا وفضحهم ، فهذا العذاب الأوّل ، والثاني عذاب القبر . وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ إلى عذاب النار .

[سورة التوبة (9) : آية 102]

وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين ، وكانوا ثلاثة . أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام «5» . وقيل : كانوا عشرة ، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم

: بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك ، فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد ، فقدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فدخل المسجد فصلى ركعتين – وكانت عادته صلى اللّه عليه وسلم كلما قدم من سفر – فرآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم هو الذي يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فنزلت ،

---

(1) . قال محمود : «معناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك . . . الخ» قال أحمد :

وكأن قوله تعالى مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام لما لهم من الخبرة في النفاق والضراوة به واللّه أعلم .

(2) . قوله «لفرط تنوقهم» أى تأنقهم . أفاده الصحاح . (ع)

(3) . قوله «فقال قام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» ظاهره أن القائل هو ابن عباس . (ع)

(4) . أخرجه الطبري وابن مردويه والطبراني في الأوسط من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله «و فضحهم» وزاد «و لم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقيهم عمر فاختبأ منهم ، ثم دخل المسجد فقال له رجل : يا عمر أبشر ، فقد فضح اللّه المنافقين اليوم . فهذا العذاب الأول والعذاب الثاني عذاب القبر» .

(5) . قوله «روى أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ، ووديعة بن حزام» لم أجده .

(164/349)

فأطلقهم وعذرهم ، فقالوا : يا رسول اللّه ، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال :

ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت : خذ من أموالهم «1» عَمَلًا صالِحاً خروجا إلى الجهاد وَآخَرَ سَيِّئاً تخلفا عنه . عن الحسن وعن الكلبي : التوبة والإثم . فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به «2» ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به ، لأنّ المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد : خلطت كل واحد منهما بصاحبه . وفيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن ، لأنك جعلت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به ، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، ويجوز أن يكون من قولهم : بعت الشاء شاة ودرهما ، بمعنى شاة بدرهم . فإن قلت : كيف قيل أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ وما ذكرت توبتهم ؟ قلت : إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم ، وهو دليل على التوبة ، فقد ذكرت توبتهم .

[سورة التوبة (9) : آية 103]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

تُطَهِّرُهُمْ صفة لصدقة. وقرئ: تطهرهم، من أطهره بمعنى طهره. وتطهرهم، بالجزم جوابا للأمر. ولم يقرأ وَتُزَكِّيهِمْ إلا بإثبات الياء. والتاء في تُطَهِّرُهُمْ للخطاب أو لغيبة المؤنث. والتزكية: مبالغة في التطهير وزيادة فيه. أو بمعنى الإنماء والبركة في المال وَصَلِّ عَلَيْهِمْ واعطف عليهم بالدعاء لهم وترحم، والسنة أن يدعو المصدّق لصاحب الصدقة «3» إذا أخذها. وعن الشافعي رحمه اللّه: أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة: أجرك اللّه فيما أعطيت، وجعله طهوراً، وبارك لك فيما أبقيت. وقرئ: إنّ صلاتك، على التوحيد «4» سَكَنٌ لَهُمْ

---

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق على ابن أبى طلحة عن ابن عباس في هذه الآية وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ - الآية كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى اللّه عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد - الحديث».

(2). قال محمود: «إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطا فما المخلوط به . . . الخ» قال أحمد: والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمصرح به في هذا الكلام أن

الماء المخلوط واللبن مخلوط به ، والمدلول عليه لزوما لا تصريحا كون الماء مخلوطا به واللبن مخلوطا ، وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمصرح به جعل كل واحد منهما مخلوطا .

وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به . ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره ، فقول الزمخشري : «إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيده مع الباء وزيادة» ليس كذلك ، فالظاهر في الآية – والله أعلم – أن العدول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل : عملوا عملا صالحا وآخر سيئا ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معا به ، والله أعلم .

(3) . قوله «يدعو المصدق لصاحب الصدقة» المصدق اسم فاعل : الذي يأخذ الصدقات ، أفاده الصحاح . (ع)

(4) . قوله «و قرئ إن صلاتك على التوحيد» بدل قراءة صلواتك على الجمع . (ع)

[. . . . .]

(165/349)

يسكنون إليه وتطمئنّ قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم وَاللَّهُ سَمِيعٌ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعاءهم عَلِيمٌ بما في ضمائرهم ، والغم من الندم لما فرط منهم .

[سورة التوبة (9) : آية 104]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

قرئ أَلَمْ يَعْلَمُوا بالياء والتاء ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يراد المتوب عليهم ، يعنى : ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ إذا صحت ، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية ، وهو للتخصيص والتأكيد ، وأن اللّه تعالى من شأنه قبول توبة التائبين . وقيل : معنى التخصيص في هو : أن ذلك ليس إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، إنما اللّه سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردّها ، فاقصدوه بها ووجهوها إليه .

[سورة التوبة (9) : آية 105]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

وَقُلِ لهؤلاء التائبين اعْمَلُوا فإن عملكم لا يخفى - خيراً كان أو شراً - على اللّه وعباده كما رأيتم وتبين لكم . والثاني : أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة ، فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا : هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت . فإن قلت : فما معنى قوله وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ قلت : هو مجاز عن قبوله لها ،

وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : إن الصدقة تقع في يد اللّه تعالى قبل أن تقع في يد السائل «1» والمعنى : أنه يتقبلها ويضاعف عليها ، وقوله فَسَيَرَى اللَّهُ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة .

[سورة التوبة (9) : آية 106]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

قرئ مرجون ومرجؤن من أرجيته . وأرجأته : إذا أخرته . ومنه المرجئة ، يعنى : وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ

---

(1) . أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد اللّه بن قتادة المحاربي عنه . وفي الصحيحين عن أبى هريرة مرفوعا «ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل اللّه إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه . . . الحديث .

إن تابوا ، وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع : أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا

كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدّ أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أنّ أحداً لا ينظر إليهم فوّضوا أمرهم إلى اللّه تعالى ، وأخلصوا نياتهم ، ونصحت توبتهم ، فرحمهم اللّه «1» وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وفي قراءة عبد اللّه : غفور رحيم . وإمّا للعباد : أى خافوا عليهم «2» العذاب ، وارجوا لهم الرحمة .

[سورة التوبة (9) : الآيات 107 إلى 108]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)

في مصاحف أهل المدينة والشام : الذين اتخذوا بغير واو ، لأنها قصة على حيالها . وفي سائرها بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذي أحدثه المنافقون على سائر قصصهم . روى أنّ بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوتهم بنو غنم بن عوف «3» وقالوا : نبنى مسجداً ونرسل إلى

---

(1) . لم أجده بهذا السياق . والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك : وهو حديث ابن عباس الذي قبله باختصار .

(2) . قوله «وإما للعباد أى خافوا عليهم» عبارة النسفي : وإما الشك وهو راجع إلى العباد . (ع)

(3) . لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد ، وليس صدره بصحيح فان مسجد قباء كان قد أسس والنبي صلى اللّه عليه وسلم بقباء أول ما هاجر ، وبنى مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفى عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «لما بنى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال منهم عرج جد عبد اللّه بن حنيف ، ووديعة ابن حزام ، ومشجع بن حارثة ، فبنو مسجدا – الحديث» من قوله «فبنوا مسجدا إلى مسجد قباء إلى آخره «ذكره ابن إسحاق في المغازي والطبري من طريقه عن الزهري ويزيد بن رومان وغيرهما قالوا : أقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار . وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك – الحديث» ولم يذكر في الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى لم يذكر وحشيا قاتل حمزة وعامر بن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال : ذكر الزهري عن ابن أكيمة الليثي عن ابن أخى وهم أنه سمع أبا رهم الغفاري فذكر نحوه . وأما كونهم بنوه بسبب أبى عامر ، فرواه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى اللّه عنهما .

رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ، ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم ، وهو الذي سماه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الفاسق ، وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ، فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين .

أن استعدّوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن يصلى لنا فيه وتدعو لنا بالبركة ، فقال صلى اللّه عليه وسلم : إنى على جناح سفر وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء اللّه صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد ، فنزلت عليه ، فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، ففعلوا ، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين ضِراراً مضارّة

لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة وَكُفْراً وتقوية للنفاق وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين في مسجد قباء فيغتص «1» بهم، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم وَإِرْصاداً وإعداداً «ل» أجل لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وهو الراهب: أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقيل: كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه اللّه أو بمال غير طيب، فهو لاحق بمسجد الضرار. وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة في مسجد بنى عامر، فقيل له: مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد، فقال: لا أحب أن أصلى فيه، فإنه بنى على ضرار، وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فإنّ أصله ينتهى إلى المسجد الذي بنى ضراراً. وعن عطاء: لما فتح اللّه تعالى الأمصار على يد عمر رضى اللّه عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضارّ أحدهما صاحبه. فإن قلت: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا ما محله من الإعراب؟ قلت: محله النصب على الاختصاص.

كقوله الْمُقِيمِينَ الصَّلاةَ وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف، معناه: وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ، فإن قلت: بم يتصل قوله مِنْ قَبْلُ؟ قلت. باتخذوا، أى اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف إِنْ أَرَدْنا ما أردنا ببناء هذا المسجد إِلَّا الخصلة الْحُسْنى أو الإرادة الحسنى، وهي الصلاة. وذكر اللّه والتوسعة على المصلين

---

(1). قوله «فيغتص» أى يمتلئ اه. (ع)

لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى قيل هو مسجد قباء أسسه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، وهو أولى ، لأنّ الموازنة بين مسجدى قباء أوقع . وقيل : هو مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة : وعن أبى سعيد الخدري : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال : هو مسجدكم هذا مسجد « 1 » المدينة مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ من أول يوم من أيام وجوده فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا قيل لما نزلت مشى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم ، ثم أعادها : فقال عمر :

يا رسول اللّه إنهم لمؤمنون وأنا معهم . فقال صلى اللّه عليه وسلم : أترضون بالقضاء ؟ قالوا :

نعم . قال : أتصرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم . قال :

صلى اللّه عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة . فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار ، إن اللّه عزّ وجلّ قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ، فقالوا يا رسول اللّه ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء . فتلا النبي صلى اللّه عليه وسلم رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا «2» وقرئ : أن يطهروا ، بالإدغام . وقيل : هو عام في التطهر من النجاسات كلها . وقيل :

كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول . وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم ، فحموا عن آخرهم . فإن قلت : ما معنى المحبتين ؟ قلت : محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهى له على إيثاره . ومحبة اللّه تعالى إياهم : أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم ، كما يفعل المحب بمحبوبه .

[سورة التوبة (9) : آية 109]

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

قرئ أَسس بنيانه ، وأُسس بنيانه ، على البناء للفاعل والمفعول . وأسس بنيانه ، جمع أساس .

---

(1) . رواه مسلم بلفظه .

(2) . لم أجده هكذا : وكأنه ملفق من حديثين : ذكر المخرج أولهما من الطبراني في الأوسط قال : حدثنا الهيثم ابن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس رضى اللّه عنهما قال «دخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على عمر . ومعه أناس ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، ثلاث مرات ، فقال عمر رضى اللّه عنه يا رسول اللّه ، نؤمن بما أتيتنا به ونحمد اللّه في الرخاء ، ونصبر في البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة» انتهى ، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين ما لا يخفى ، وأما الثاني ، فروى ابن مردويه من طريق ابن عباس نحوه

(169/349)

على الإضافة ، وأساس بنيانه ، بالفتح والكسر : جمع أس ، وآساس بنيانه على أفعال ، جمع أس أيضا . وأس بنيانه . والمعنى : أفمن أسس بنيان دينه « 1 » على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى اللّه ورضوانه خَيْرٌ أَمْ مَنْ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرخاها وأقلها بقاء ، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شَفَا جُرُفٍ هارٍ في قلة الثبات والاستمساك ، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى ، لأنه جعل مجازا عما ينافي التقوى . فإن قلت : فما معنى قوله فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ ؟ قلت : لما جعل الجرف الهائر

مجازا عن الباطل قيل : فانهار به في نار جهنم ، على معنى : فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه رشح المجاز فجيء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف ، وليصور أنّ المبطل كأنه أسس بنيانا على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها . والشفا : الحرف والشفير . وجرف الوادي : جانبه الذي يتحفر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهيا . والهار : الهائر وهو المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط . ووزنه فعل ، قصر عن فاعل ، كخلف من خالف . ونظيره : شاك وصات ، في شائك وصائت . وألفه ليست بألف فاعل ، إنما هي عينه . وأصله هور وشوك وصوت . ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدلّ على حقيقة الباطل وكنه أمره . وقرئ : جرف . بسكون الراء .

فإن قلت : فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر : على تقوى من اللّه ، بالتنوين ؟

قلت :

قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث ، كتترى فيمن نوّن ، ألحقها بجعفر . وفي مصحف أبيّ : فانهارت به قواعده . وقيل : حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منه . وروى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار ، فكلم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لمجمع فيؤمّهم في مسجدهم ، فقال : لا ، ولا نعمة عين ، أليس بإمام مسجد الضرار ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، لا تعجل عليّ ، فو اللّه لقد صليت بهم واللّه يعلم أنى لا أعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت ما صليت

معهم فيه ، كنت غلاما قارئاً للقرآن وكانوا شيوخا لا يقرؤن من القرآن شيئا . فعذره وصدّقه وأمره بالصلاة بقومه .

[سورة التوبة (9) : آية 110]

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

رِيبَةً شكا فى الدين ونفاقا ، وكان القوم منافقين . وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عزّ وجلّ ضِراراً وَكُفْراً فلما هدمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ازدادوا _____

(1) . قوله «فمن أسس بنيان دينه» هذا كما في الحديث «بنى الإسلام على خمس» .

(ع)

- لما غاظهم من ذلك وعظم عليهم - تصميما على النفاق ومقتاً للإسلام ، فمعنى قوله لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ لا يزال هدمه سبب شكّ ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحلّ أثره إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ قطعاً وتفرّق أجزاء ، فحينئذ يسلون عنه . وأمّا ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن

يكون ذكر التقطيع «1» تصويراً لحال زوال الريبة عنها . ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار . وقرئ : يقطع ، بالياء . وتقطع ، بالتخفيف . وتقطع ، بفتح التاء بمعنى تتقطع .

وتقطع قلوبهم ، على أن الخطاب للرسول أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم . وقرأ الحسن : إلى أن . وفي قراءة عبد اللّه : ولو قطعت قلوبهم . وعن طلحة : ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب . وقيل : معناه إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندما وأسفاً على تفريطهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 301. 313﴾

---

(1) . قوله «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة تَقَطَّعَ بالتشديد ، مبنيا للمفعول . (ع)

(171/349)

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110) ﴾

التفسير : لما ذكر الأعراب المخلصين بين أن فوق منازلهم منازل أعلى وأجل وهي منازل السابقين الأوّلين والتابعين لهم بإحسان ؛ قال ابن عباس : السابقون الأوّلون من المهاجرين هم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدراً . وعن الشعبي : هم الذين بايعوا بيعة الرضوان بالحديبية ومن الأنصار أهل بيعة العقبة الأولى وكانوا سبعة نفر ، وأهل بيعة العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن . والظاهر أن الآية عامة في كل من سبق في الهجرة والنصرة . قال أهل السنة : لا شك أن أبا بكر أسبق في الهجرة أو هو من السابقين فيها وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنه رضي عنهم . ولا شك أن الرضا معلل بالسبق إلى الهجرة فيدوم بدوامه ، فدل ذلك على صحة إمامته وإلا استحق اللعن والمقت .

(172/349)

قال أكثر العلماء : كلمة " من " في قوله ﴿ من المهاجرين والأنصار ﴾ للتبعيض ، وإنما استحق السابقون منهم هذا التعظيم لأنهم آمنوا وفي عدد المسلمين في مكة والمدينة قلة

وفيهم ضعف فقوي الإسلام بسببهم وكثر عدد المسلمين واقتدى بهم غيرهم . وقد قيل : من سن سنة حسنه فله أجرها وأجر من عمل بها . وقيل : للتبيين ليتناول المدح جميع الصحابة . وروي عن حميد بن زياد أنه قال : قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي : ألا تخبرني عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان بينهم ؟ فقال لي : إن الله تعالى قد غفر لهم وأوجب لهم الجنة في كتابه محسنهم ومسيئهم . قلت له : في أي موضع أوجب لهم الجنة ؟ قال : سبحان الله ألا تقرأ قوله تعالى : ﴿ والسابقون الأوّلون ﴾ إلى آخر الآية ؟ أوجب لجميعهم الرضوان وشرط على التابعين شرطاً لم يشترط عليهم وهو الاتباع بالإحسان وذلك أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة لا السيئة ، أو بإحسان في القول وهو أن لا يقولوا فيهم سوءاً ويحفظوا لسانهم عن الاغتياب والطعن في حقهم . قال العلماء : معنى رضا الله عنهم قبول طاعاتهم . ثم عاد إلى شرح أحوال المنافقين فقال : ﴿ وممن حولكم ﴾ هو خبر و ﴿ من الأعراب ﴾ بيان أو حال و ﴿ منافقون ﴾ مبتدأ ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ عطف على الخبر أو خبر لمبتدأ آخر بناء على أن التقدير ومن أهل المدينة قوم ﴿ مردوا ﴾ التركيب يدل على الملابسة والبقاء على هيئة واحدة من ذلك " صرح ممرد " و " غلام أمرد " و " أرض مرداء " لا نبات فيها وتمرد إذا عتا فإن من لم يقبل قول غيره ولم يلتفت إليه بقي كما كان على هيئته الأصلية من غير تغير . فمعنى مردوا على النفاق تمهروا وتمرنوا وبقوا عليه حذاقاً معوّدين إلى حيث لا تعلم أنت نفاقهم مع وفور حدسك وقوة

ذكائك . ثم قال ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قال ابن عباس : هما العذاب في الدنيا بالفضيحة والعذاب في القبر . روى السدي عن أبي مالك أنه صلى الله عليه وسلم قام خطيباً يوم الجمعة

(173/349)

فقال : اخرج يا فلان إنك منافق ، اخرج يا فلان إنك منافق ، حتى أخرج ناساً وفضحهم . وقال مجاهد : هما القتل السبي وعذاب القبر . وقال قتادة : بالدبيلة وعذاب القبر . وقال محمد بن إسحق : هو ما يدخل عليهم من غيظ الإسلام والمسلمين ثم عذابهم في القبور . وقال الحسن : بأخذ الزكاة من أموالهم وبعذاب القبر . وقيل : أحد العذابين ضرب الملائكة والوجوه والإدبار والآخر عند البعث يوكل بهم عنق من نار . ﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ هو الدرك الأسفل من النار . قال الكلبي : وممن حولكم جهينة ومزينة وأشجع وأسلم وغفار ، ومن أهل المدينة عبد الله بن أبي وجد بن قيس ومعتب بن قشير وأبو عامر الراهب وأضرابهم .

(174/349)

ثم قال ﴿ وآخرون ﴾ وهو معطوف على ﴿ منافقون ﴾ أو مبتدأ . و ﴿ اعترفوا ﴾ صفته و ﴿ خلطوا ﴾ خبره ﴿ عسى الله ﴾ جملة مستأنفة . وقيل : ﴿ خلطوا ﴾ حال بإضمار " قد " ﴿ عسى الله ﴾ خبر . وللمفسرين خلاف في أنهم قوم من المنافقين تابوا عن نفاقهم أو قوم من المسلمين تخلفوا عن غزوة تبوك لا للكفر والنفاق ولكن للكسل ثم ندموا على ما فعلوا . عن ابن عباس في رواية الوالبي نزلت في قوم كانوا قد تخلفوا ثم ندموا وقالوا نكون مفي الكن والظلال مع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد . روي أنهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ووديعة بن حزام . وقيل : كانوا عشرة فسبعة منهم حين بلغهم ما نزل في المتخلفين فأيقنوا بالهلاك أوثقوا أنفسهم على سواري المسجد وقالوا : والله لا نطلق أنفسنا حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقنا ويعذرنا . فقدم رسول الله فدخل المسجد وصلى ركعتين – وكانت هذه عادته كلما قدم من سفر – فرآهم موثقين فسأل عنهم فقالوا : هؤلاء تخلفوا عنك فعاهدوا الله أن لا يطلقوا أنفسهم حتى تكون أنت الذي تطلقهم وترضى عنهم . فقال رسول الله : وأنا أقسم بالله لا أطلقهم ولا أعذرهم حتى أومر بإطلاقهم فنزلت هذه الآية فأطلقهم وعذرهم فقالوا : يا رسول الله هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها فتصدق بها وطهرنا . فقال : ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً فنزل ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾

الآية . والاعتراف هو الإقرار بالشيء عن معرفة والمراد أنهم أقروا بذنوبهم وهذه كالمقدمة للتوبة لأن الاعتراف بالذنب لا يكون توبة إلا إذا اقترن به الندم على الماضي والعزم على تركه في الحال . وفي الاستقبال ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ أي خلطوا كل واحد منهما بالآخر كقولك : خلطت الماء واللبن . وهذا أبلغ من قولك : خلطت الماء باللبن . لأنك جعلت في الأول كلاً منهما مخلوطاً ومخلوطاً به كأنك قلت : خلطت الماء باللبن

(175/349)

واللبن بالماء . ويجوز أن يكون الواو بمعنى الباء من قولك : بعت شاة ودرهماً أي شاة بدرهم . وذلك أن الواو للجمع والباء للإلصاق فهما متقاربان . ويجوز أن يقال : الخلط ههنا بمعنى الجمع . قال أهل السنة : فيه دليل على نفي القول بالمحابطة لأنه لو لم يبق العملان لم يتصور اختلاطهما . وفي قوله ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ دليل على وقوع التوبة التي أخبر بحصول مقدمتها وهي الاعتراف منهم ، وفيه دليل على قبول توبتهم لأن ﴿ عسى ﴾ من الكريم إطماع واجب . وفائدته أن يكون المكلف على الطمع والإشفاق فلا يتكل ولا يهمل ، وفيه أن التوبة بخلق الله .

وقالت المعتزلة : معنى أن يتوب أن يقبل التوبة . ورد بأنه عدول عن الظاهر مع أن الدليل العام وهو وجوب انتهار الكل إلى مشيئته وتكوينه يعضد ما قلناه .

(176/349)

ثم قال سبحانه ﴿ خذ من أموالهم صدقة ﴾ عن الحسن : كانوا يقولون ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وإنما هي صدقة كفارة الذنب الذي صدر عنهم وبهذا يحصل النظم بينها وبين ما قبلها كما مر . وقال أكثر الفقهاء : المراد بها الزكاة ووجه النظم أنهم لما أظهروا التوبة والندامة أمروا بإخراج الزكاة الواجبة تصحيحاً لدعواهم . ومما يدل على ذلك أن الأمر ظاهره الوجوب وأيضاً التطهير والتزكية يناسب الواجب لا التطوع . وفي قوله ﴿ من أموالهم ﴾ دلالة على أن القدر المأخوذ بعض تلك الأموال ، وتعيين ذلك البعض إنما عرف من السنة . وفي إضافة المال إليهم دليل على أن المال مالهم ولا شركة للفقير فيه فتكون الزكاة متعلقة بذمته حتى لو تلف النصاب بعد الوجوب بقي الحق في ذمة المالك وهو قول الشافعي . وقوله ﴿ تطهرهم وتزكيهم ﴾ التاء فيهما للخطاب أي تطهرهم أيها الآخذ وتزكيهم بواسطة تلك الصدقة . وقيل : التاء في ﴿ تطهرهم ﴾ للتأنيث والضمير للصدقة وفيه نوع انقطاع للمعطوفين . قال العلماء : المعطوفان متغايران لا محالة فالتزكية مبالغة في

التطهير أو هي بمعنى الإنماء كأنه تعالى جعل النقصان سبباً للإنماء والزيادة والبركة ، أو المراد بالتزكية تعظيم شأنهم والإثناء عليهم . قال أبو حنيفة : ظاهر الآية يدل على أن الزكاة طهرة للآثام فلا تجب إلا حيث يمكن حصول الآثام وذلك لا يعلم إلا في حق البالغ العاقل دون الصبي والمجنون . وقال الشافعي : تجب الزكاة في مالهما لأنه لا يلزم من انتفاء سبب معين انتفاء الحكم مطلقاً ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ قال ابن عباس : معناه ادع لهم . فمن هنا قال الشافعي : السنة للإمام إذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول : أجرك الله فيما أعطيت وبارك لك فيما أبقيت . وقال آخرون بظاهر اللفظ لما روي عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان أبي من أصحاب الشجرة وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل على آل فلان فأتاه أبي

(177/349)

بصدقته فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى : وأكثر الأئمة الآن على أنه لا تحسن الصلاة لغير النبي على غيره إلا تبعاً . وأطلق بعضهم – كالغزالي وإمام الحرمين – لفظ الكراهة وقالوا : السلام أيضاً في معنى الصلاة . وأما الشيعة فإنهم يذكرون الصلاة والسلام في حق آل الرسول أيضاً كعلي وأولاده عليه السلام وهم على العموم من القرشيين بنو هاشم

والمطلب دون بني أمية وبني نوفل وغيرهم . قالوا : لأنها كانت جائزة في حق من يؤدي الزكاة فكيف يمتنع ذكره أو لا يحسن في أهل بيت الرسول ؟ ولأن الكل أجمعوا على جوازها بالتبعية فما الفرق ؟ وأما السلام فلا كلام عليه لأنه جائز في حق جمهور المسلمين فكيف لا يجوز في آل الرسول ؟ ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ والسكن ما يسكن إليه المرء وتطمئن به نفسه ، وذلك لأن دعاءه يستجاب ألبتة فيتطهرون بها ، وكيف لا يفيض إشراق نفسه عليهم بتوجهه إليهم والترحم لهم ؟ احتج مانعو الزكاة بها في زمان أبي بكر قالوا : الوجوب مشروط بحصول السكن والآن لا سكن .

(178/349)

ورُدَّ عليهم بسائر الآيات . روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما حكم بصحة توبة هؤلاء قال الذين لم يتوبوا هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم فنزلت ﴿ ألم يعلموا ﴾ يعني غير التائبين . وقيل : معناه ألم يعلم التائبون قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿ أن الله هو يقبل التوبة ﴾ الصحيحة ويقبل الصدقات الصادرة عن خلوص النية . وفائدة توسط هو أن يعلم أن الإلهية هي الموجبة لقبول التوبة لاستغنائه عن طاعة المطيعين ومعصية المذنبين فإذا انتقل العبد من حالة المعصية إلى حال الطاعة وجب

على كرمه قبول توبته . وفيه أيضاً أن قبول التوبة ليس إلى الرسول . وفي قوله ﴿ عن عباده ﴾ دون " من " إشارة إلى البعد الذي يحصل للعبد عن الله بسبب العصيان أو إلى تبعيده نفسه عن الله هضماً وانكساراً . وفي إضافة أخذ الصدقات إلى الله بعد أن أمر الرسول بالأخذ تشريف عظيم لهذه الطاعة ، وأنها من الله بمكان ، وأنه يربيها كما يربي أحد نافلوه حتى إن اللقمة تكون عند الله أعظم من أحد وقد جاء هذا المعنى في الحديث . ثم أمر نبيه بأن يقول للتائبين أو لغير التائبين ترغيباً لهم في التوبة ﴿ اعملوا ﴾ فيه نوع تهديد وتخويف ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ وقد مر تفسير مثله عن قريب . والحاصل أنه كأنه قيل لهم اجتهدوا في العمل فإن له في الدنيا حكماً وهو أن يراه الله ورسوله والمؤمنون ، وفي الآخرة حكماً وهو الجزاء . وبوجه آخر كأنه قيل : إن كنت من المحققين فاعمل لله ، وإن كنت من الظاهريين فاعمل لتفوز بثناء شهداء الخلق وهم الرسول والمؤمنون فإنهم شهداء الله يوم القيامة ، والشهادة لا تصح إلا بعد الرؤية . ولا شك أن رؤية الله تعالى شاملة لأفعال القلوب والجوارح جميعاً . أما رؤية الرسول والمؤمنين فلا تشمل أفعال القلوب إلا بإرادة الله وطلاعه وإفشائه . واعلم أنه تعالى قسم المخلفين إلى ثلاثة أقسام : منهم المنافقون الذين مردوا على النفاق ،

والثاني التائبون المعترفون بذنوبهم ، والثالث الذين بقوا موقوفاً أمرهم وذلك قوله ﴿ وآخرون ﴾ وإعرابه كإعراب قوله ﴿ وآخرون اعترفوا ﴾ ومعنى ﴿ مرجون ﴾ أي مؤخرون من أرجيته وأرجأته إذا أخرته ومنه قوله : ﴿ أرجه وأخاه ﴾ [الأعراف : 111] كما مَرّ ، وبه سميت المرجئة لأنهم جازمون بغفران ذنب التائب ولكن يؤخرونها إلى مشيئة الله ويقولون : إنهم مرجون لأمر الله .

(180/349)

وقال الأوزاعي : لأنهم يؤخرون العمل عن الإيمان . وقال ابن عباس : نزلت في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، أمر رسول الله أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شد أنفسهم على السواري وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أن أخذاً لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله وأخلصوا نياتهم فقبلت توبتهم ونزل فيهم ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ كما سيجيء . وقال الحسن : إنهم قوم من المنافقين حذرهم الله بهذه الآية إن لم يتوبوا . وقوله : ﴿ إما يعذبهم ﴾ التشكيك فيه راجع إلى العباد أي ليكن أمرهم على الخوف والرجاء وكان يقول أناس هلكوا إن لم ينزل الله

لهم عذراً ، ويقول آخرون : عسى الله أن يغفر لهم . قال الجبائي : جعل أمرهم دائراً بين التعذيب والتوبة فدل ذلك على انتفاء القسم الثالث وهو العفو من غير التوبة ، وأجيب بأنه يجوز أن تكون المنفصلة مانعة الجمع فقط . ولما ذكر أصناف المنافقين وبين طرائقهم المختلفة قال : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ كأنه قال : ومنهم الذين اتخذوا . في الكشاف : أن محله النصب على الاختصاص ، أو الرفع على الابتداء وخبره محذوف أي وممن وصفوا هؤلاء الأقوام . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة وعامة أهل التفسير : كانوا اثني عشر رجلاً بنوا مسجداً يضارّون به مسجد قباء . وروي أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف وقالوا : نبني مسجداً كذلك .

(181/349)

واعلم أنه سبحانه حكى أن الباعث لهم على هذا العمل كان أموراً أربعة : الأول الضرار وهو المضارة والثاني الكفر بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالإسلام وذلك أنهم أرادوا تقوية أهل النفاق ، والثالث التفريق بين المؤمنين لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء فتقل جماعتهم ولا سيما إذا صلى النبي في مسجدهم فيؤدي ذلك إلى اختلاف الكلمة وبطلان

الألفة ، والرابع قوله : ﴿ وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله ﴾ وقوله ﴿ من قبل ﴾ يتعلق ب ﴿ حارب ﴾ أي من قبل بناء مسجد الضرار . وقال في الكشاف : إنه متعلق ب ﴿ اتخذوا ﴾ والمراد من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف . قال الزجاج : الإرصاد الانتظار . وقال ابن قتيبة : الانتظار مع العداوة . وقال الأكثرون : إنه الإعداد . والمراد بمن حارب أبو عامر الراهب والد أبي حنظلة الذي غسلته الملائكة ، وسماه رسول الله الفاسق وكان قد تنصر في الجاهلية وترهب وطلب العلم فلما ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم عاداه لأنه زالت رياسته وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج هارباً إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فإني ذاهب إلى قيصر وآتٍ بجنود ومخرج محمداً وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً وانتظروا أبا عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد .

(182/349)

ثم أخبر الله تعالى عن نفاقهم بقوله : ﴿ وليحلفن إن أردنا ﴾ أي ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ إلا ﴾ الخصلة ﴿ الحسنى ﴾ وهي الصلاة وذكر الله والتوسعة على

المسلمين . قال المفسرون . إنهم لما بنوا مسجدهم وافق ذلك غزوة تبوك فأتوا رسول الله وقالوا : بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه . فلما قفل من الغزوة سألوه إتيان المسجد فنزل ﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ الآية فدعا بملك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشي – قاتل حمزة – فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ، ومات أبو عامر بالشام بقنسرين . وقال الحسن : همّ رسول الله أن يذهب إلى ذلك المسجد فناداه جبرائيل لا تقم فيه . ولا ريب أن النهي عن القيام فيه يستلزم النهي عن الصلاة فيه . ثم بيّن علة النهي فقال : ﴿ لمسجد أسس على التقوى من أوّل يوم ﴾ أي من ابتداء وجوده ﴿ أحق أن تقوم فيه ﴾ والمعنى لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى لاشتماله على الخيرات الكثيرة فكيف إذا كان غيره مشتملاً على المفاسد الكثيرة من الضرار وغيره ؟ قالت الشيعة في هذا المقام : إن المسجد إذا كان مبنياً على التقوى من أول يوم كان أولى بالصلاة فيه ؛ فالإمام أولى بأن يكون متقياً من أول عمره وما ذاك إلا عليّ عليه السلام لأنه لم يكفر بالله طرفة عين . واختلفوا في هذا المسجد فقيل : مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، عن أبي سعيد الخدري سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن

المسجد الذي أسس على التقوى . فأخذ الحصباء وضرب بها الأرض وقال : هو مسجدكم هذا مسجد المدينة . وقيل : هو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه

(183/349)

بقباء يوم الإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة ، قال في الكشاف : وهذا أولى لأن الموازنة بين مسجدي قباء أوقع . وقال القضي : كل مسجد بني على التقوى فإنه يدخل فيه كما لو قال قائل لرجل صالح أحق أن تجالسه لم يكن ذلك مقصوراً على واحد . وأيضاً كل مسجد بني مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى وجه الله أو بمال غير طيب فهو لاحق بمسجد الضرار . ثم ذكر لمسجد التقوى وصفاً آخر وذلك قوله : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ فقيل : إنه التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار والإخلاص كما أن أهل مسجد الضرار وصفوا بأضداد هذه الأمور من الضرار والكفر والتفريق ، ولأن طهارة الباطن أشد تأثيراً من طهارة الظاهر في القرب من الله .

(184/349)

وقيل : إنه التطهر بالماء وذلك أنهم كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الماء أثر البول . " وروي أنها لما نزلت مشى رسول الله ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكت القوم . ثم أعادها فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم . فقال عليه السلام : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم قال : أتصبرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم . فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة . فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أثنى عليكم فما الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ؟ فقالوا : يا رسول الله نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم نتبع الأحجار الماء . فتلا النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ " وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا بأجمعهم . ومحبة التطيهر إيثاره والحرص عليه ومحبة الله الرضا عنهم والإحسان إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه . ثم بين أنه لا نسبة بين الفريقين وأن بينهما بوناً بعيداً فقال مستفهماً على سبيل التقرير ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ وهو مصدر كالعمران وأريد به المبني والمعنى أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة وهي تقوى الله ورضوانه ﴿ خير أم من أسس ﴾ دينه على ضد ذلك . والشفا هو الشفير أي الشفة ، والجرف هو ما إذا سال السيل وانحسر الوادي ويبقى على طرف المسيل طين واهٍ مشرف على السقوط ساعة فساعة

فذلك الموضع الذي هو بصدد السقوط جرف ، والهار الهائر وهو أيضاً المتصدع الذي أشفى على التهدم والسقوط . قال الليث : الهاء مصدرها الجرف يهور إذا انصدع من خلفه وهو ثابت بعد في مكانه ، فإذا سقط فقد انهار . وقال في الكشاف : إنه صفة قصرت عن فاعل كخلف من خالف وألفه ليست بألف فاعل إنما هي عينه وأصله " هور " على " فعل " ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل ، فلكونه على شفا جرف هار كان

(185/349)

مشرفاً على السقوط ، ولكونه على طرف جهنم كان إذا انهار فإنما يسقط في قعر جهنم ، يروى أنه حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منه . ثم ذكر أن بنيانهم ذلك سبب لازدياد ريبهم فقال : ﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة ﴾ في كونه سبباً للريبة ﴿ في قلوبهم ﴾ وجوه منها : أن هدمه صار سبباً لازدياد شكهم في نبوته ، ومنها أنهم ظنوا أن تخريبه لأجل الحسد فارتفع أمانهم عنه وصاروا مرتابين في أنه هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم فلا تزول تلك الريبة ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ أجزاء متفرقة إما بالموت وإما بالسيف وإما بالبلاء فحينئذٍ يضمحل أثرها عنها .

والمقصود أن هذا الشك يبقى في قلوبهم أبداً ويموتون على النفاق . قال في الكشاف : يجوز أن يكون ذكر التقطيع تصويراً لحال زوال الريبة عنها ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار . وقيل : معناه إلا أن يتوبوا تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 523 . 531 ﴾

(186/349)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق ﴾

في سبيل الله تعالى ﴿ مغرماً ﴾ أي : غرامة وخسراناً والغرامة ما ينفقه الرجل وليس يلزمه لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء لا لوجه الله تعالى وابتغاء المثوبة عنده وهم أسد وغطفان ﴿ ويتربص ﴾ أي : ينتظر ﴿ بكم الدوائر ﴾ أي : دوائر الزمان أن ينقلب عليكم فيموت النبيّ صلى الله عليه وسلم ويظهر المشركون قال الله تعالى : ﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم معترض ، قال التفتازاني : بين كلامين لا في أثناء كلام ولا في آخره دعا عليهم بنحو ما دعوا به قال الله تعالى : ﴿ وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ﴾ (المائدة ،)

أي : يدور عليهم البلاء والحزن ولا يرون في محمد صلى الله عليه وسلم ودينه وأصحابه إلا ما يسوءهم ويكيدهم وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم السين والباقون بالفتح مصدر أضيف إليه للمبالغة كقولك : رجل سوء في نقيض قولك : رجل صدق ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالهم ﴿ عليم ﴾ بما تخفي ضمائرهم ولما بين سبحانه وتعالى أنه حصل في الأعراب من يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغرماً بين أن فيهم قوماً مؤمنين صالحين مجاهدين يتخذ إنفاقه في سبيل الله مغنماً بقوله تعالى : ﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ كبعض جهينة ومزينة فوصفهم الله تعالى بوصفين : كونهم مؤمنين بالله واليوم الآخر والمقصود التنبيه على أنه لا بدّ في جميع الطاعات من تقديم الإيمان وفي الجهاد أيضاً كذلك والثاني : ما ذكره بقوله تعالى : ﴿ ويتخذ ما ينفق قربات ﴾ جمع قربة أي : يقربه ﴿ عند الله ﴾ الذي لا أشرف من القرب عنده ﴿ و ﴾ وسيلة إلى ﴿ صلوات ﴾ أي : دعوات ﴿ الرسول ﴾ صلى الله عليه وسلم لأنه كان يدعو للمصدقين عنده بالخير والبركة ويستغفر لهم كقوله صلى الله عليه وسلم "اللهم صل على آل أوفى" قال تعالى : ﴿ وصل عليهم ﴾ أي : ادع لهم ولما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل : يتخذ ما ينفق قربات وصلوات الرسول ﴿ ألا إنها ﴾ أي :

نفقاتهم ﴿ قربة لهم ﴾ عند الله وهذا شهادة من الله تعالى للمؤمن المتصدّق بصحة ما اعتقد من كون نفقاته قربات عند الله وصلوات الرسول وقد أكد تعالى هذه الشهادة بحرف التنبيه وهو قوله تعالى : ﴿ ألا ﴾ وبحرف التحقيق وهو قوله تعالى : ﴿ إنها ﴾ ثم زاد في التأكيد فقال تعالى : ﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ فإن دخول السين توجب مزيد التأكيد وهذه النعمة هي أقصى مرادهم . وقرأ ورش : قربة برفع الراء والباقون بالسكون والأصل هو الضم والإسكان تخفيف ﴿ إنّ الله غفور ﴾ أي : بليغ الستر لقبائح من تاب ﴿ رحيم ﴾ بهم .

(188/349)

ولما ذكر تعالى فضائل الأعراب الذين يتخذون ما ينفقون قربات عند الله وما أعدّ لهم من الثواب بين تعالى أن فوق منزلتهم منازل أعلى وأعظم منها بقوله تعالى:

﴿ والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ﴾ أما من المهاجرين فقال سعيد بن المسيب : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقال عطاء بن أبي رباح : هم أهل بدر ، وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان ، وقال محمد بن كعب : هم جماهير الصحابة ، وقيل : هم الذين أسلموا قبل الهجرة .

واختلف في أوّل الناس إسلاماً وأوّل من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعض العلماء : أوّل من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب وهذا قول جابر واختلفوا في سنه وقت إسلامه فقيل : كان ابن عشر سنين ، وقيل : أقل من ذلك ، وقيل : أكثر ، وقيل : كان بالغاً ، والأكثرون على أنه لم يكن بالغاً وقت إسلامه ، وقال بعضهم : أوّل من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق وهذا قول ابن عباس ، وقال بعضهم : أوّل من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا قول عروة بن الزبير وكان إسحاق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول : أوّل من أسلم من الرجال أبو بكر ومن النساء خديجة ومن الصبيان علي ومن الموالي زيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهؤلاء أربعة سباق الخلق إلى الإسلام .

(189/349)

وأما من الأنصار فهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وهي الأولى وكانوا ستة نفر ثم العقبة الثانية من العام المقبل وكانوا اثني عشر رجلاً ثم أصحاب العقبة الثالثة وكانوا سبعين رجلاً فهؤلاء سباق الأنصار ، وقيل : المراد بالسابقين الأوّلين من سبق إلى الهجرة والنصرة ويدل على هذا أنه تعالى ذكر كونهم سابقين ولم يبين لهم أنهم سابقون في

ماذا فبقي اللفظ مجملاً فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما قد صاروا به مهاجرين وأنصاراً وهو الهجرة والنصرة فوجب أن يكون المراد منه السابقين الأوّلين في الهجرة والنصرة إزالة للإجمال عن اللفظ وأيضاً فإنّ الهجرة طاعة عظيمة ومرتبة عالية ومنقبة شريفة لأنهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وآووه وواسوه وآووا أصحابه وواسوهم فلذلك أثنى الله تعالى عليهم ومدحهم ﴿ والذين اتبعوهم ﴾ أي : الفريقين إلى يوم القيامة ﴿ بإحسان ﴾ أي : في اتباعهم فلم يحولوا عن شيء من طريقتهم .

وقال عطاء : هم الذين يذكرون المهاجرين والأنصار ويترحمون عليهم ويدعون لهم ويذكرون محاسنهم .

(190/349)

وقيل : بقية المهاجرين والأنصار سوى السابقين الأوّلين عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه" والمدّ ربع الصاع والنصيف نصفه والمعنى لو أن أحداً عمل مهما قدر عليه من أعمال البرّ والإنفاق في سبيل الله ما بلغ هذا القدر الصغير من عمل الصحابة وإنفاقهم لأنهم أنفقوا وبذلوا المجهود في وقت الحاجة ، وعن عمران بن حصين أن النبيّ صلى

الله عليه وسلم قال : "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" قال عمران : فلا أدري أذكر بعده قرنين أم ثلاثاً . والقرن الأمة من الناس يقارن بعضهم بعضاً واختلفوا في مدّته من الزمان من عشر سنين إلى عشرين سنة ، وقيل : من مائة إلى مائة وهذا هو المشهور وقيل : من مائة إلى مائة وعشرين سنة ثم جمعهم الله تعالى في الثواب فقال : ﴿ رضي الله عنهم ﴾ فالسابقون مرتفع بالابتداء وخبره رضي الله عنهم أي : بقبول طاعتهم وارتضاء أعمالهم ﴿ ورضوا عنه ﴾ بما أفاض عليهم من نعمه الجليلة في الدنيا والآخرة ﴿ وأعدّ لهم جنات تجري تحتها الأنهار ﴾ أي : هي كثيرة المياه فكل موضع أردته نبع منه ماء يجري منه نهر . وقرأ ابن كثير بزيادة من تحتها وبجرّ التاء بعد الحاء والباقون بغير من وفتح التاء ، ثم نفى سبحانه الانقطاع بقوله تعالى : ﴿ خالدين فيها ﴾ وأكد المراد من الخلود بقوله تعالى : ﴿ أبداً ﴾ ثم استأنف مدح هذا الذي أعدّه لهم بقوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : الأمر العالي الرتبة ﴿ الفوز العظيم ﴾ ولما شرح تعالى أحوال منافقي المدينة ثم ذكر بعده أحوال منافقي الأعراب ثم بين أن في الأعراب من هو مؤمن صالح مخلص ثم بين أن رؤساء المؤمنين من هم وهم السابقون والمهاجرون والأنصار ، ذكر أنّ جماعة من حول المدينة موصوفون بالنفاق بقوله تعالى:

﴿ وممن حولكم ﴾ أي : أهل بلدتكم وهي المدينة ﴿ من الأعراب منافقون ﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار كانوا نازلين حولها وقوله تعالى : ﴿ ومن أهل المدينة ﴾ عطف على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت : ومن أهل المدينة قوم ﴿ مردوا على النفاق ﴾ على أن مردوا صفة موصوف محذوف كقول الشاعر :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

أي : أنا ابن رجل جلا فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه .

وقال الزجاج : في الآية تقديم وتأخير والتقدير وممن حولكم من الأعراب ومن أهل المدينة منافقون مردوا على النفاق أي : ثبتوا واستمروا فيه ولم يتوبوا عنه وأصل المرود الملاسة ومنه صرّح ممرّد وغلام أمرد ﴿ لا تعلمهم ﴾ بأعيانهم أي : يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق فراستك لفرط توقيهم ما يشككك في أمرهم ثم هددهم وبين خسارتهم بقوله تعالى : ﴿ نحن نعلمهم ﴾ أي : لا يعلمهم إلا الله تعالى ولا يطلع على سرهم غيره لأنهم يبطنون الكفر في سويداوات قلوبهم إبطاناً ويبرزون لك ظاهراً كظاهر المخلصين من المؤمنين لا تشك معه في إيمانهم وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به فلهم فيه اليد الطولى واختلفوا في تفسير قوله تعالى : ﴿ سنعذبهم مرّتين ﴾ فقال الكلبي والسدي : قام

النبي صلى الله عليه وسلم خطيباً يوم الجمعة فقال : "اخرج يا فلان فإنك منافق اخرج يا فلان فإنك منافق" فأخرج من المسجد جماعة من المنافقين وفضحهم فهذا هو العذاب الأوّل والثاني عذاب القبر .

فإن قيل : كيف هذا مع قوله تعالى ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ ؟

(192/349)

أجيب : بأنه تعالى أعلمه بهم بعد ذلك . وقال مجاهد : الأوّل : القتل والسبي ، والثاني : عذاب القبر ، وقال ابن زيد : الأوّل : المصائب في الأولاد ، والثاني : عذاب الآخرة ، وقال ابن عباس : الأوّل : إقامة الحدود عليهم ، والثاني : عذاب القبر ، وقيل : عذبوا بالجوع مرّتين ، وقيل : الأول : ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند قبض أرواحهم ، والثاني : عذاب القبر ، وقيل : الأوّل : إحراق مسجدهم مسجد الضرار ، والثاني : إحراقهم بنار جهنم كما قال تعالى : ﴿ ثم يردون ﴾ أي : في الآخرة ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ هو النار وقوله تعالى:

(193/349)

﴿ وآخرون ﴾ أي : وقوم آخرون مبتدأ وقوله تعالى : ﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ ولم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة نعته ، والخبر ﴿ خلطوا عملاً صالحاً ﴾ أي : وهو جهادهم قبل ذلك أو اعترافهم بذنوبهم أو غير ذلك ﴿ وآخر سيئاً ﴾ أي : وهو تخلفهم ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم إنّ الله عفور رحيم ﴾ يتجاوز عن التائب ويتفضل عليه نزلت في طائفة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، واختلف في عددهم فعن ابن عباس أنهم كانوا ثلاثة عشر وروي عنه أنهم كانوا خمسة وقال سعيد بن جبير : كانوا ثمانية ، وقيل : كانوا ثلاثة ندموا لما بلغهم ما نزل بالمتخلفين وتابوا وقالوا : نكون في الظلال ومع النساء ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في الجهاد واللأواء فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفره وقرب من المدينة قالوا : والله لنوثقنّ أنفسنا بالسواري فلا نطلقها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يطلقها ويعذرنا فربطوا أنفسهم في سواري المسجد فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المسجد على عادته في رجوعه من سفره فصلى ركعتين فرآهم فسأل عنهم فذكر له أنهم أقسموا الا يحلوا أنفسهم حتى تحلهم وترضى عنهم فقال : "وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر بإطلاقهم رغبوا عني وتخلفوا عن الغزو مع المسلمين فأنزل الله تعالى هذه الآية" فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وأطلقهم وعذرهم فلما أطلقوا قالوا : يا رسول الله هذه أموالنا وإنما تخلفنا عنك بسببها

خذها فتصدّق بها عنا وطهرنا واستغفر لنا فقال عليه الصلاة والسلام : "ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً" فأنزل الله تعالى : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم ﴾ من الذنوب أو حب المال المؤدّي إلى مثله وتجري لهم مجرى الكفارة هذا قول الحسن كان يقول : ليس المراد من هذه الآية الصدقة الواجبة وإنما هي كفارة الذنب الذي صدر ويدل عليه أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلث أموالهم وتصدّق بها وأبقى لهم الثلثين ولم يأخذ الجميع

(194/349)

لأنّ الله تعالى

قال : ﴿ خذ من أموالهم ﴾ والصدقة الواجبة لا يؤخذ فيها ثلث المال ﴿ وتزكيهم بها ﴾ أي : وتنمي بها حسناتهم وترفعهم إلى منازل المخلصين ﴿ وصل عليهم ﴾ أي : واعطف عليهم بالدعاء والاستغفار لهم والسنة أن يدعو آخذ الصدقة لصاحب الصدقة إذا أخذها .

وعن الشافعي رضي الله عنه أنه كان يقول أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة : أجرك الله فيما أعطيت وجعله لك طهوراً وبارك لك فيما أبقيت . ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ أي : تسكن إليها نفوسهم وتطمئن بها قلوبهم لأنّ روحه صلى الله عليه وسلم كانت روحاً

قوية مشرقة صافية باهرة فإذا دعا صلى الله عليه وسلم لهم وذكرهم بالخير فاضت آثار من قوّة روحه الروحانية على أرواحهم فأشرقت بهذا السبب أرواحهم وصفت أسرارهم وانتقلوا من الظلمة إلى النور ومن الجسمانية إلى الروحانية فحصل لهم بذلك غاية الطمأنينة . وقرأ حفص وحمزة والكسائيّ : صلاتك بغير واو بعد اللام ونصب التاء على التوحيد ، والباقون بالواو وكسر التاء على الجمع لتعدّد المدعوّ لهم .

قيل : إنّ هذه الآية كلام مبتدأ والمقصود منها إيجاب أخذ الزكوات من الأغنياء وعليه أكثر الفقهاء إذ استدلوا بهذه الآية في إيجاب الزكاة وقالوا في الزكاة : إنها طهرة ﴿ والله سميع ﴾ لأقوالهم واعترافهم ودعائك لهم ﴿ عليم ﴾ بندامتهم ونياتهم .

ولما حكى سبحانه عن القوم الذين تقدّم ذكرهم أنهم تابوا عن ذنوبهم وأنهم تصدّقوا وهناك لم يذكر إلا قوله : ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ وما كان ذلك صريحاً في قبول التوبة ذكر بعد ذلك أنه يقبل التوبة وأنه سبحانه يأخذ الصدقات ترغيباً لمن لم يتب في التوبة وترغيباً لكل العصاة في الطاعة بقوله تعالى:

(195/349)

﴿ ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ ﴾ أي : يقبل ﴿ الصدقات ﴾ والضمير إما للمتوب عليهم والمراد أن يمكن في قلوبهم قبول توبتهم والاعتداد بصدقاتهم وإمّا لغيرهم والمراد به التحضيض عليها والآية وإن وردت بصيغة الاستفهام إلا أنّ المراد بها التقرير في النفس ، ومن عادة العرب في إفهام المخاطب وإزالة الشك عنه أن يقولوا أما علمت أنّ من علمك يجب عليك خدمته أما علمت أن من أحسن إليك يجب عليك شكره . فبشر الله تعالى هؤلاء التائبين بقبول توبتهم وصدقاتهم ترغيباً في التوبة وبذل الصدقات وذلك أنه لما نزلت توبة هؤلاء التائبين قال الذين لم يتوبوا من المتخلفين : هؤلاء كانوا معنا بالأمس لا يكلمون ولا يجالسون فما لهم اليوم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية ترغيباً في التوبة ثم زاد تأكيداً بقوله تعالى : ﴿ وأنّ الله هو التوّاب الرحيم ﴾ أي : وأن من شأنه قبول توبة التائبين والتفضل عليهم وفي هذا تعظيم أمر الصدقات وتشريفها وأن الله يقبلها من عبده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ما من عبد مؤمن يتصدّق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً ولا يصعد إلى السماء إلا الطيب إلا يضعها في يد الرحمن عز وجل فيربيها له كما يربي أحدكم فلوه حتى أنّ اللقمة لتأتي يوم القيامة وإنها كمثل الجبل العظيم ، ثم قرأ : ﴿ أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ﴾ " .

(196/349)

﴿ وقل اعملوا ﴾ أي : وقل لهم أو للناس يا محمد اعملوا ما شئتم ﴿ فسيرى الله عملكم ﴾ فإنه لا يخفى عليه شيء خيراً كان أو شرّاً ، فيه ترغيب عظيم للمطيعين ووعيد عظيم للمذنبين فكأنه قال : اجتهدوا في العمل في المستقبل فإنّ الله تعالى يرى أعمالكم ويجازيكم عليها ﴿ و ﴾ يرى أيضاً ﴿ رسوله والمؤمنون ﴾ أعمالكم ، أما رؤية النبيّ صلى الله عليه وسلم فبإطلاع الله إياه على أعمالكم ، وأما رؤية المؤمنين فبقذف الله تعالى في قلوبهم من محبة الصالحين وبغض المفسدين ﴿ وستردّون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ أي : وسترجعون يوم القيامة إلى من يعلم سرّكم وعلانيتكم ولا يخفى عيه شيء من أعمال بواطنكم وظواهركم ﴿ فينبئكم ﴾ أي : فيخبركم ﴿ بما كنتم تعملون ﴾ من خير وشر فيجازيكم على أعمالكم .

واعلم أن الله تعالى قسم المتخلفين عن الجهاد ثلاثة أقسام:

أوّلهم : المنافقون الذين مردوا على النفاق .

والثاني : التائبون وهم المرادون بقوله تعالى:

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ وبين أنه تعالى قبل توبتهم .

والقسم الثالث : الذين بقوا موقوفين وهم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وآخرون ﴾ أي : من المتخلفين ﴿ مرجون ﴾ أي : مؤخرون عن التوبة .

وقرأ نافع وحفص وحمزة والكسائي بغير همز بين الجيم والواو ، والباقون بهمزة مضمومة بين الجيم والواو ﴿ لأمر الله ﴾ أي : لحكم الله تعالى فيهم ، والفرق بين القسم الثاني وبين هذا أن أولئك سارعوا إلى التوبة وهؤلاء لم يسارعوا إليها ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وستأتي قصتهم عند قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ تخلفوا كسلاً وميلاً إلى الراحة لا نفاقاً ولم يعتذروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم كغيرهم فوقف أمرهم خمسين ليلة حتى نزلت توبتهم بعد ﴿ إمّا يعذبهم ﴾ بأن يميتهم من غير توبة ﴿ وإمّا يتوب عليهم ﴾ إن تابوا .

(197/349)

فإن قيل : كلمة أما وإمّا للشك والله تعالى منزه عن ذلك . أجيب : بأن الترديد بالنسبة للعباد أي : ليكن أمرهم عندكم على هذا في الخوف والرجاء فإنّ الله تعالى لا تخفى عليه خافية وفي هذا دليل على أنّ كلا الأمرين بإرادة الله تعالى ﴿ والله عليم ﴾ بأحوال عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما يفعل بهم .

ولما ذكر تعالى أصناف المنافقين وطرائقهم المختلفة قال تعالى:

(198/349)

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : وهم إثنا عشر رجلاً من المنافقين بنوا مسجداً ﴿ ضراراً ﴾ أي : مضارّة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ﴿ وكفراً ﴾ أي : وتقوية للنفاق ، وقال ابن عباس : يريدون به ضراراً للمؤمنين وكفراً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وقال غيره : اتخذوه ليكفروا فيه بالطعن على النبيّ صلى الله عليه وسلم والإسلام ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ لأنهم كانوا جميعاً يصلون بمسجد قباء فبنوا مسجد الضرار ليصلي فيه بعضهم فيؤدّي ذلك إلى الاختلاف وافتراق الكلمة ﴿ وإرصاداً ﴾ أي : ترقباً ﴿ لمن حارب الله ورسوله ﴾ وهو أبو عامر والد أبي حنظلة الذي غسلته الملائكة وكان قد ترهب في الجاهلية وتنصر ولبس المسوح فلما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم المدينة عاداه لأنه زالت رياسته وقال للنبيّ صلى الله عليه وسلم ما هذا الذي جئت به ؟ قال : جئت بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام ، فقال له أبو عامر : إنا عليها ، فقال له النبيّ صلى الله عليه وسلم "إنك لست عليها" فقال أبو عامر : أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم "آمين" وسماه الفاسقى فلما كان يوم أحد قال أبو عامر : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ولم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدّوا بما استطعتم من القوّة والسلاح وابنوا لي مسجداً فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم فآتي بجند من الروم

فأخرج محمداً وأصحابه فبنوا مسجد الضرار إلى جنب مسجد قباء

وانتظروا مجيء أبي عامر ليصلي بهم في ذلك المسجد ، وقوله تعالى : ﴿ من قبل ﴾ متعلق بحارب أي : حارب من قبل أن يبنى مسجد الضرار أو باتخذوا أي : اتخذوا من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف .

(199/349)

ولما وصف تعالى هذا المسجد بهذه الصفات الأربعة قال تعالى : ﴿ وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ﴾ أي : وليحلفن ما أردنا ببنائه إلا الفعلة الحسنى وهي الرفق بالمسلمين في التوسعة على أهل الضعف والعلة والعجز عن المصير إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أنهم قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليلة المظلمة والليلة الشاتية ﴿ والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ في قولهم .

تنبيه : قوله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ محله نصب على الاختصاص كقوله تعالى :

﴿ والمقيمين الصلاة ﴾ (النساء ،)

أو رفع على الابتداء والخبر محذوف أي : وممن ذكرنا الذين .

ولما بنى المنافقون ذلك المسجد للأغراض الفاسدة عند ذهاب رسول الله صلى الله عليه

وسلم إلى غزوة تبوك وقالوا : يا رسول الله بنينا مسجداً لذي العلة والليلة المظلمة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعو لنا فيه بالبركة فقال صلى الله عليه وسلم "إني على جناح سفر في حال شغل وإذا قدمنا إن شاء الله تعالى صلينا فيه" فلما قفل أي : رجع صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد نزل قوله تعالى:

(200/349)

﴿ لا تقم فيه أبداً ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه لا تصلّ فيه أبداً ، وقال الحسن : همّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يذهب إلى ذلك المسجد فنادى جبريل : لا تقم فيه أبداً فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشياً فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه فخرجوا جميعاً سريعاً حتى أتوا بني سالم بن عوف وهم رهط مالك بن الدخشم فقال مالك : انظروني حتى أخرج لكم بنار من أهلي فدخل إلى أهله وأخذ سعفاً من النخل فأشعل فيه ناراً ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله فهدموه وأحرقوه وتفرّق عنه أهله وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ذلك الموضع كناسة تلقى فيه الجيف والقمامة ومات أبو عامر الراهب بالشام وحيداً فريداً غريباً وقيل : كل مسجد

بني مباهاة ورياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء وجه الله تعالى أو بمال غير طيب فهو ملحق بمسجد الضرار .

(201/349)

وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على عمر رضي الله تعالى عنه أمر المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا في مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه وقوله تعالى : ﴿ لمسجد ﴾ اللام فيه للابتداء وقيل : لام القسم تقديره والله لمسجد ﴿ أسس ﴾ أي : وضع أساسه وقواعده ﴿ على التقوى ﴾ أي : تقوى الله تعالى ﴿ من أوّل يوم ﴾ أي : من أوّل أيام وجوده لأن من تعم الزمان والمكان أي : فأحاطت به التقوى لأنها إذا أحاطت بأوّله أحاطت بآخره ﴿ أحق ﴾ أي : أولى ﴿ أن ﴾ أي : بأن ﴿ تقوم ﴾ أي : تصلي ﴿ فيه ﴾ ، واختلف في هذا المسجد الذي أسس على التقوى فقيل : هو مسجد المدينة قاله زيد بن ثابت وأبو سعيد الخدري قال أبو سعيد رضي الله عنه : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت بعض نسائه فقلت : يا رسول الله أي المسجد الذي أسس على التقوى ؟ قال : فأخذ كفاً من حصباء فضرب به الأرض ثم قال : "هو مسجدكم هذا مسجد المدينة" ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم "ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي"

وعن أمّ سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إن قوائم منبري هذا رواتب في الجنة" أي : ثوابت ، وقيل : هو مسجد قباء قاله سعيد بن جبير وقتادة أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء وهو يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس وخرج يوم الجمعة ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ أي : من المعاصي والخصال المذمومة طلباً لمرضاة الله تعالى عليهم ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي : يثيبهم ويرضى عنهم ويدنيهم من جنابه إدناء المحب حبيبه .

(202/349)

روي أنها لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء فإذا الأنصار جلوس فقال : "أمؤمنون أنتم ؟" فسكت القوم ثم أعادها فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم ، فقال عليه الصلاة والسلام : "أترضون بالقضاء ؟" فقالوا : نعم ، قال : "أتصبرون على البلاء ؟" قالوا : نعم ، قال عليه الصلاة والسلام : "مؤمنون ورب الكعبة" فجلس ثم قال : "يا معشر الأنصار إنّ الله عز وجل قد أثنى عليكم فماذا الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ؟" فقالوا : يا رسول

الله تتبع الغائط الأحجار الثلاثة ثم تتبع الأحجار الماء فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ .

وروى ابن خزيمة في صحيحه عن ابن ساعدة إنه صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : "إنّ الله تعالى قد أحسن إليكم الثناء في الطهر وفي قصة مسجدكم فما الطهور الذي تطهرون به ؟" قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا وفي حديث رواه البزار فقالوا : نتبع الحجارة بالماء فقال : "هو ذاك فعليكموه" ، وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ويتبعون الماء إثر البول ، وعن الحسن هو التطهر من الذنوب بالتوبة ، وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المكفرة لذنوبهم فحموا عن آخرهم .

(203/349)

﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ أي : بنيان دينه ﴿ على تقوى من الله ورضوان ﴾ أي : على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿ خير أم من أسس بنيانه على شفا ﴾ أي : طرف ﴿ جرف ﴾ أي : جانب ﴿ هار ﴾ أي : على قاعدة هي أضعف القواعد وأقلها بقاء وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل شفا جرف هار أي : مشرف على

السقوط ﴿ فانهار به ﴾ أي : سقط مع بانيه ﴿ في نار جهنم ﴾ خير وهذا تمثيل للبناء على ضدّ التقوى بما يؤول إليه والاستفهام للتقرير أي : الأوّل خير وهو مثال مسجد قباء ، والثاني مثال مسجد الضرار قال الرازي : ولا نرى في العالم مثالاً أحسن مطابقة لأمر المنافقين من هذا المثال وحاصل الكلام إنّ أحد البناءين قصد بانيه ببنائه تقوى الله تعالى ورضوانه والبناء الثاني قصد بانيه ببنائه المعصية والكفر فكان البناء الأوّل شريفاً واجب الإبقاء وكان الثاني خسيساً واجب الهدم .

قيل : حفرت بقعة في مسجد الضرار فرؤي الدخان يخرج منها ، وقرأ نافع وابن عامر : أفمن أسس بضم الهمزة وكسر السين الأولى مع التشديد وضم النون قبل الهاء ، والباقون بفتح الهمزة والسين مع التشديد أيضاً ونصب النون قبل الهاء ، وقرأ شعبة : رضوان بضم الراء ، والباقون بالكسر . ورسمت أم هنا مقطوعة من من والكلام على أسس بنيانه كالكلام على التي قبلها ، وقرأ ابن عامر وشعبة وحمزة جرف بسكون الراء والباقون بالرفع ، وأما شفا فلا تمال بخلاف هار فإن أبا عمرو وشعبة والكسائيّ يقرؤونه بالإمالة المحضة ، وابن ذكوان بالفتح والإمالة ، وورش بالإمالة بين بين ، والباقون بالفتح ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي : إلى ما فيه صلاح ونجاة .

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ﴾ أي : بناؤهم الذي بنوه وهو مصدر كالغفران والمراد هنا المبنى وإطلاق لفظ المصدر على المفعول مجاز مشهور يقال : ضرب الأمير ونسج زيد والمراد مضروبه ومنسوجه وليس بجمع خلافاً للواحدي في تجويزه أن يكون جمع بنيانه لأنه وصف بالمفرد وأخبر عنه بقوله : ﴿ ريبة ﴾ أي : شكاً ﴿ في قلوبهم ﴾ والمعنى : إنّ بناء ذلك البنيان صار سبباً لحصول الريبة في قلوبهم فجعل نفس ذلك البنيان ريبة وإنما جعل سبباً للريبة لأنّ المنافقين فرحوا ببناء مسجد الضرار فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتخريبه عظم خوفهم في كل الأوقات وصاروا مرتابين في أنهم هل يتركهم على ما هم فيه أو يأمر بقتلهم ونهب أموالهم ، وقال الكلبي : صار حسرة وندامة لأنهم ندموا على بنائه ، وقال السدي : لا يزال هدم بنائهم ريبة أي : حرارة وغيظاً في قلوبهم ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ قطعاً إمّا بالسيف وإمّا بالموت بحيث لا يبقى لهم قابلية الإدراك وقيل : التقطع بالتوبة ندماً وأسفاً ﴿ والله عليم ﴾ بأحوالهم وأحوال عباده ﴿ حكيم ﴾ في الأحوال التي يحكم بها عليهم وعلى غيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 443 . 454 ﴾

(205/349)

وقال الشوكانى فى الآيات السابقة :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ﴾

لما ذكر الله أصناف المنافقين ، وبين طرائقهم المختلفة ، عطف على ما سبق هذه الطائفة منهم ، وهم الذين اتخذوا مسجداً ضراراً ، فيكون التقدير : ومنهم الذين اتخذوا على أن ﴿ الذين ﴾ مبتدأ ، وخبره " منهم " المحذوف ، والجملة معطوفة على ما تقدّمها ، ويجوز أن يكون الموصول في محل نصب على الذمّ .

وقرأ المدنيون وابن عامر : " الذين اتخذوا " بغير واو ، فتكون قصة مستقلة ، الموصول مبتدأ ، وخبره : ﴿ لاَ تَقُمْ ﴾ قاله الكسائي ، وقال النحاس : إن الخبر هو ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ ﴾ وقيل : الخبر محذوف ، والتقدير : يعذبون ، وسيأتي بيان هؤلاء البانين لمسجد الضرار .

و﴿ ضِرَارًا ﴾ منصوب على المصدرية ، أو على العلية ﴿ وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا وَإِرْصَادًا ﴾ معطوفة على ﴿ ضِرَارًا ﴾ فقد أخبر الله سبحانه أن الباعث لهم على بناء هذا المسجد أمور أربعة : الأوّل : الضرار لغيرهم ، وهو المضاررة .

الثاني : الكفر بالله والمباهاة لأهل الإسلام ، لأنهم أرادوا ببنائه تقوية أهل النفاق .

الثالث : التفريق بين المؤمنين ؛ لأنهم أرادوا أن لا يحضروا مسجد قباء ، فتقلّ جماعة المسلمين ، وفي ذلك من اختلاف الكلمة وبطلان الألفة ما لا يخفى .

الرابع : الإرصاد لمن حارب الله ورسوله ، أي الإعداد لأجل من حارب الله ورسوله .

قال الزجاج : الإرصاد الانتظار .

وقال ابن قتيبة : الإرصاد الانتظار مع العداوة .

وقال الأكثرون : هو الإعداد ، والمعنى متقارب ؛ يقال أرصدت لكذا : إذا أعددته مرتقباً له به .

وقال أبو زيد : يقال : رصدته وأرصدته في الخير ، وأرصدت له في الشرّ .

(206/349)

وقال ابن الأعرابي : لا يقال إلا أرصدت ، ومعناه : ارتقبت ، والمراد بمن حارب الله ورسوله : المنافقون ، ومنهم أبو عامر الراهب : أي أعدّوه لهؤلاء ، وارتقبوا به وصولهم ، وانتظروهم ليصلوا فيه حتى يباهوا بهم المؤمنين ، وقوله : ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ متعلق ب ﴿ اتخذوا ﴾ : أي اتخذوا مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء ويبنوا مسجد الضرار ، أو متعلق ب ﴿ حارب ﴾ : أي لمن وقع منه الحرب لله ولرسوله من قبل بناء مسجد الضرار .

قوله : ﴿ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الحسنى ﴾ أي : ما أردنا إلا الخصلة الحسنى ، وهي : الرفق بالمسلمين ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ والله يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لكاذبون ﴾ فيما حلفوا عليه ، ثم نهى الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة في مسجد الضرار ، فقال : ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ أي : في وقت من الأوقات ، والنهي عن القيام فيه ، يستلزم النهي عن الصلاة فيه .

وقد يعبر عن الصلاة بالقيام ، يقال فلان يقوم الليل : أي يصلي ، ومنه الحديث الصحيح : " من قام رمضان إيماناً به واحتساباً غفر له ما تقدّم من ذنبه " ثم ذكر الله سبحانه علة النهي عن القيام فيه بقوله : ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ واللام في ﴿ لَّمَسْجِدٌ ﴾ لام القسم ، وقيل : لام الابتداء ، وفي ذلك تأكيد لمضمون الجملة ، وتأسيس البناء : تثبيته ورفعه .

ومعنى تأسيسه على التقوى : تأسيسه على الخصال التي تتقى بها العقوبة .

واختلف العلماء في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد قباء ، كما روي عن ابن عباس والضحاك ، والحسن ، والشعبي ، وغيرهم .

وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

والأول : أرجح لما سيأتي قريباً إن شاء الله .

و ﴿ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ متعلق بأسس : أي أسس على التقوى من أول يوم من أيام تأسيسه ، قال بعض النحاة : إن ﴿ مِنْ ﴾ هنا بمعنى منذ : أي منذ أوّل يوم ابتدىء ببنائه ، وقوله : ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ خبر المبتدأ ، والمعنى : لو كان القيام في غيره جائزاً لكان هذا أولى بقيامك فيه للصلاة ولذكر الله ، لكونه أسس على التقوى من أوّل يوم ، ولكون ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ وهذه الجملة مستأنفة لبيان أحقية قيامه فيه : أي كما أن هذا المسجد أولى من جهة المحل ، فهو أولى من جهة الحالّ فيه ، ويجوز أن تكون هذه الجملة في محل نصب على الحال : أي حال كون فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، ويجوز أن تكون صفة أخرى لمسجد .

ومعنى محبتهم للتطهر : أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه عند عروض موجبه ؛ وقيل : معناه : يحبون التطهر من الذنوب بالتوبة والاستغفار .

والأوّل : أولى .

وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحمى المطهرة من الذنوب فحموا جميعاً ، وهذا ضعيف جدّاً .

ومعنى محبة الله لهم : الرضا عنهم ، والإحسان إليهم ، كما يفعل المحب بمحبوبه .

ثم بيّن سبحانه أن بين الفريقين بوناً بعيداً .

فقال : ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ والهمزة للإنكار التقريري ، والبنيان مصدر كالعمران ،

وأريد به المبنيّ ، والجملة مستأنفة .

والمعنى : أن من أسس بناء دينه على قاعدة قوية محكمة ، وهي تقوى الله ورضوانه ، خير ممن أسس دينه على ضدّ ذلك ، وهو الباطل والنفاق ، والموصول مبتدأ ، وخبره ﴿ خير ﴾ ، وقرىء : "أسس بنيانه" على بناء الفعل للفاعل ، ونصب بنيانه ، واختار هذه القراءة أبو عبيدة ، وقرىء على البناء للمجهول ، وقرىء : "أساس بنيانه" بإضافة أساس إلى بنيانه ، وقرىء : "أسّ بنيانه" والمراد : أصول البناء ، وحكى أبو حاتم قراءة أخرى ، وهي "آساس بنيانه" على الجمع ، ومنه :

أصبح الملك ثابت الآساس . . . بالبهاليل من بني العباس

(208/349)

والشفا : الشفير ، والجرف : ما يتجرف السيول ، وهي : الجوانب التي تنجرف بالماء ، والاجتراف : اقتلاع الشيء من أصله ، وقرىء بضم الراء من " جرف " وبإسكانها .

والهار : الساقط ، يقال هار البناء : إذا سقط ، وأصله : هائر ، كما قالوا : شاك السلاح ، وشائك كذا ، قال الزجاج .

وقال أبو حاتم : إن أصله هاور .

قال في شمس العلوم : الجرف ما جرف السيل أصله ، وأشرف أعلاه فإن انصدع أعلاه فهو الهار اه ، جعل الله سبحانه هذا مثلاً لما بنوا عليه دينهم الباطل المضمحلّ بسرعة ، ثم قال : ﴿ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ وفاعل فانهار ، ضمير يعود على الجرف : أي فانهار الجرف بالبنيان في النار ، ويجوز أن يكون الضمير في ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى ﴿ من ﴾ ، وهو الباني .

والمعنى : أنه طاح الباطل بالبناء ، أو الباني في نار جهنم ، وجاء بالانهيار الذي هو للجرف ترشيحاً للمجاز ، وسبحان الله ما أبلغ هذا الكلام ، وأقوى تراكيبه ، وأوقع معناه ، وأفصح مبناه .

ثم ذكر سبحانه أن بنيانهم هذا موجب لمزيد ريبهم ، واستمرار تردّدهم وشكهم فقال : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ أي شكاً في قلوبهم ونفاقاً ، ومنه قول النابغة :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة . . . وليس وراء الله للمرء مذهب

وقيل : معنى الريبة : الحسرة والندامة ، لأنهم ندموا على بنيانه .

وقال المبرد : أي حرارة وغيظاً .

وقد كان هؤلاء الذين بنوا مسجد الضرار منافقين شاكين في دينهم ، ولكنهم ازدادوا بهدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفاقاً وتصميماً على الكفر ، ومقتاً للإسلام ، لما أصابهم من الغيظ الشديد ، والغضب العظيم بهدمه ، ثم ذكر سبحانه ما يدلّ على استمرار هذه الريبة ودوامها ، وهو قوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : لا يزال هذا إلا أن تتقطع قلوبهم قطعاً ، وتتفرّق أجزاء : إما بالموت أو بالسيف ، والمقصود أن هذه الريبة دائمة لهم ما داموا أحياء ، ويجوز أن يكون ذكر التقطع تصويراً لحال زوال الريبة .

وقيل معناه : إلا أن يتوبوا توبة تتقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفريطهم .

وقرأ ابن عامر ، وحمزة ، وحفص ، ويعقوب ، وأبو جعفر ، بفتح حرف المضارعة .

وقرأ الجمهور بضمها .

وروي عن يعقوب أنه قرأ "تقطع" بالتخفيف ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم : أي إلا أن تقطع يا محمد قلوبهم .

وقرأ أصحاب عبد الله بن مسعود : "ولو تقطعت قلوبهم" .

وقرأ الحسن ، ويعقوب ، وأبو حاتم : "إلى أن تقطع" على الغاية .

أي لا يزالون كذلك إلى أن يموتوا .

وقد أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ،

عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾ قال : هم أناس من الأنصار ابتنوا مسجداً ، فقال لهم أبو عامر الراهب : ابنوا مسجدكم واستمدوا بما استطعتم من قوّة وسلاح ، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم ، فآتي بجند من الروم ، فأخرج محمداً وأصحابه ؛ فلما فرغوا من مسجدهم ، أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : قد فرغنا من بناء مسجدنا فيجب أن تصلي فيه ، وتدعو بالبركة ، فأنزل الله : ﴿ لا تقم فِيهِ أَبَدًا ﴾ .

(210/349)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عنه ، قال : لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال من الأنصار منهم بجدح جدّ عبد الله بن حنيف ، ووديعة بن حزام ، ومجمع بن جارية الأنصاري ، فبنوا مسجد النفاق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لبجدح :

" ويلك يا بجدح ، ما أردت إلى ما أرى " ، فقال : يا رسول الله ، والله ما أردت إلا الحسنى وهو كاذب ، فصدّقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأراد أن يعذره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ المؤمنين وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ الله

وَرَسُولَهُ ﴾ يعني : رجلاً يقال له أبو عامر ، كان محارباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان قد انطلق إلى هرقل ، وكانوا يرصدون إذا قدم أبو عامر أن يصلي فيه ، وكان قد خرج من المدينة محارباً لله ولرسوله .

وأخرج ابن إسحاق ، وابن مردويه ، عنه ، أيضاً قال : دعا رسول الله مالك بن الدخشم ، فقال مالك لعاصم : أنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي ، فدخل على أهله فأخذ سعفات من نار ، ثم خرجوا يشتدّون حتى دخلوا المسجد وفيه أهله ، فحرقوه وهدموه ، وخرج أهله فتفرّقوا عنه ، فأنزل الله هذه الآية .

(211/349)

ولعل في هذه الرواية حذفاً بين قوله صلى الله عليه وسلم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مالك بن الدخشم وبين قوله فقال مالك لعاصم ، ويبين ذلك ما أخرج ابن إسحاق ، وابن مردويه ، عن أبي رهم : كلثوم بن الحصين الغفاري ، وكان من الصحابة الذين بايعوا تحت الشجرة قال : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان : بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار ، وكان أصحاب مسجد الضرار قد كانوا أتوه وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا يا رسول الله : إنا بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة ، والليلة الشاتية ، والليلة

المطيرة ، وإنا نحبّ أن تأتينا فتصلي لنا فيه ؛ قال : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه ؛ فلما نزل بذي أوان أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله مالك بن الدخشم أخا بني سالم بن عوف ، ومعن بن عدي ، وأخاه عاصم بن عدي ، أحد بني العجلان ، فقال : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرّقاه ، فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف ، وهم رهط مالك بن الدخشم ، فقال مالك لمعن : أنظرني حتى أخرج إليك ، فدخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدان ، وفيه أهله فحرقاه وهدماه وتفرقوا عنه ، ونزل فيهم من القرآن ما نزل : ﴿ والذين اتخذوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا ﴾ إلى آخر القصة .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم : إن الذين بنوا مسجد الضرار كانوا اثني عشر رجلاً ، وذكرا أسماءهم .

(212/349)

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، ومسلم ، والترمذي ، والنسائي ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، عن أبي سعيد الخدري قال : اختلف رجلان : رجل من بني

خدرة ، وفي لفظ : تماريت أنا ورجل من بني عمرو بن عوف في المسجد الذي أسس على التقوى ، فقال الخدري : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال العمري : هو مسجد قباء ، فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألاه عن ذلك فقال :

" هو هذا المسجد " ، لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال " في ذلك خير كثير " ، يعني : مسجد قباء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وعبد بن حميد ، والزبير بن بكار في أخبار المدينة ، وأبو يعلى ، وابن حبان ، والطبراني ، والحاكم في الكنى ، وابن مردويه ، عن سهل بن سعد الساعدي نحوه .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والخطيب ، والضياء في المختارة ، عن أبيّ بن كعب قال : "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى قال : " هو مسجدي هذا " وأخرج الطبراني ، والضياء المقدسي في المختارة ، عن زيد بن ثابت ، مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، والطبراني ، من طريق عروة بن الزبير ، عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذي أسس على التقوى من أوّل يوم مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

قال عروة : مسجد النبي صلى الله عليه وسلم خير منه ، إنما أنزلت في مسجد قباء .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن مردويه ، عن ابن عمر ، قال : المسجد الذي أسس على التقوى : مسجد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج المذكوران عن أبي سعيد الخدري مثله .

وقد روي عن جماعة غير هؤلاء مثل قولهم .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس ، أنه مسجد قباء .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، مثله .

(213/349)

ولا يخفاك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد عين هذا المسجد الذي أسس على التقوى ، وجزم بأنه مسجده صلى الله عليه وسلم ، كما قدّمنا من الأحاديث الصحيحة ، فلا يقاوم ذلك قول فرد من الصحابة ولا جماعة منهم ، ولا غيرهم ، ولا يصح لإيراده في مقابلة ما قد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ولا فائدة في إيراد ما ورد في فضل الصلاة في مسجد قباء ، فإن ذلك لا يستلزم كونه المسجد الذي أسس على التقوى ، على أن ما ورد في فضائل مسجده صلى الله عليه وسلم أكثر مما ورد في فضل مسجد قباء ، بلا شك ولا

شبهة تعمّ .

وأخرج أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : نزلت هذه الآية في أهل قباء : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ قال : وكانوا يستنجون بالماء فنزلت فيهم هذه الآية ، وفي إسناده يونس بن الحارث ، وهو ضعيف .

وأخرج الطبراني ، وأبو الشيخ ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عويم بن ساعدة ، فقال : " ما هذا الطهور الذي أثنى الله عليكم ؟ فقالوا : يا رسول الله ما خرج منا رجل ولا امرأة من الغائط إلا غسل فرجه ، أو قال : مقعدته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو هذا " وأخرج أحمد ، وابن خزيمة ، والطبراني ، والحاكم ، وابن مردويه ، عن عويم بن ساعدة الأنصاري ، أن النبي صلى الله عليه وسلم أتاهم في مسجد قباء فقال : " إن الله قد أحسن عليكم الثناء في الطهور في قصة مسجدكم ، فما هذا الطهور الذي تتطهرون به ؟ قالوا : والله يا رسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود ، فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط فغسلنا كما غسلوا " رواه أحمد عن حسن بن محمد .

حدّثنا أبو أويس ، حدّثنا شرحبيل عن عويم بن ساعدة ، فذكره .

وقد أخرجه ابن خزيمة في صحيحه .

وأخرج ابن ماجه ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن الجارود في المنتقى ، والدارقطني ، والحاكم ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن طلحة بن نافع ، قال : حدّثني أبو أيوب ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك أن هذه الآية لما نزلت ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور ، فما طهوركم هذا ؟ قالوا : نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة ، قال : فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا : لا ، غير أن أحدنا إذا خرج إلى الغائط أحبّ أن يستنجي بالماء ، قال : هو ذاك فعليكموه " .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري في تاريخه ، وابن جرير ، والبغوي في معجمه ، والطبراني وابن مردويه ، وأبو نعيم في المعرفة ، عن محمد بن عبد الله بن سلام ، عن أبيه ، قال : لما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الذي أسس على التقوى مسجد قباء فقال : " إن الله قد أثنى عليكم في الطهور خيراً أفلا تخبروني ؟ " يعني : قوله تعالى : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ والله يُحِبُّ المطهرين ﴾ فقالوا : يا رسول الله ، إنا لنجده مكتوباً علينا في التوراة الاستنجاء بالماء ، ونحن نفعله اليوم .

وإسناد أحمد في هذا الحديث هكذا : حدّثنا يحيى بن آدم ، حدّثني مالك ، يعني ابن مغول

، سمعت سياراً أبا الحكم ، عن شهر بن حوشب عن محمد بن عبد الله بن سلام .

وقد روى عن جماعة من التابعين في ذكر سبب نزول الآية نحو هذا .

ولا يخفاك أن بعض هذه الأحاديث ليس فيه تعيين مسجد قباء وأهله ، وبعضها ضعيف ، وبعضها لا تصريح فيه بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد قباء ، وعلى كل حال : لا تقاوم تلك الأحاديث المصرحة بأن المسجد الذي أسس على التقوى هو مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في صحتها وصراحتها .

(215/349)

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فانهار بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ قال : يعني قواعده في نار جهنم .

وأخرج مسدّد في مسنده ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : لقد رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار حيث انهار على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن المنذر ، والبيهقي في الدلائل ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : يعني الشك ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني : الموت .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن حبيب بن أبي ثابت ، في قوله : ﴿ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ قال : غيظاً في قلوبهم ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : إلى أن يموتوا .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن سفيان ، في قوله : ﴿ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ قال : إلا أن يتوبوا .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(216/349)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) ﴾

هذا الدرس بجملته تصنيف للمجتمع الإسلامي في ذلك الحين – إبان غزوة تبوك – يصور طوائفه وطبقاته الإيمانية الداخلة في تركيبه العضوي العام ، مع تميز كل منها بصفاته وأعماله .

ولقد فصلنا القول في الجزء العاشر عند تقديم السورة عن الأسباب التاريخية التي أنشأت هذه المستويات الإيمانية المتعددة في الجماعة المسلمة في المدينة . فنجتزئ هنا من ذلك التفصيل بالفقرات الأخيرة منه ، لاستحضار الملابسات التي كانت تحيط بوجود هذه

المستويات المتعددة في المجتمع الواحد :

. . . " لقد كانت وقفة قريش العنيدة الطويلة حاجزاً قوياً دون انسياح الإسلام في الجزيرة العربية . فقد كانت قريش هي صاحبة الكلمة العليا في الشؤون الدينية في الجزيرة – فوق ما كان لها من نفوذ اقتصادي وسياسي وأدبي كذلك – فكانت وقفتها في وجه الدين الجديد ، بهذه الصورة العنيدة ، مدعاة لصرف العرب في أنحاء الجزيرة عن الدخول فيه ، أو على الأقل مدعاة للتردد والانتظار حتى تنجلي المعركة بين قريش وهذا النبي من أبنائها ! . . . فلما دانت قريش بالفتح ، ودانت بعدها هوازن وثقيف في الطائف ؛ وكانت قبائل اليهود الثلاث القوية في المدينة قد خضدت شوكتها نهائياً ، فأجليت بنو قينقاع وبنو النضير إلى الشام ، وأبيدت بنو قريظة ، واستسلمت خيبر الاستسلام الأخير . . كان ذلك إيذاناً بدخول الناس في دين الله أفواجاً ، وانسياح الإسلام في أرجاء الجزيرة كلها في خلال عام واحد .

(217/349)

" غير أن هذا الاتساع الأفقي في رقعة الإسلام قد أعاد معه جميع الأعراض والظواهر التي ظهرت في المجتمع بعد انتصار بدر – ولكن على نطاق أوسع – بعدما كاد المجتمع يبرأ منها

بتأثير التربية الطويلة المدى ، المستمرة التأثير ، في خلال السنوات السبع بعد بدر الكبرى !

ولولا أن المجتمع المدني بجملته كان قد تحول إلى أن يكون هو القاعدة الصلبة الخالصة لهذه العقيدة ، والأساس الركين لهذا المجتمع ؛ لكان هناك خطر كبير من هذا الاتساع الأفقي السريع في رقعة الإسلام في الجزيرة . . ولكن الله الذي كان يدبر لهذا الأمر ويرعاه ، كان قد أعد العصبة المؤلفة من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار لتكون هي القاعدة الأمينة لهذا الدين بعد التوسع النسبي الذي جاء به انتصار بدر ! كما أنه – سبحانه – كان قد أعد المجتمع المدني بجملته ليكون هو القاعدة الأمينة بعد التوسع الشديد السريع الذي جاء به فتح مكة . . والله أعلم حيث يجعل رسالته . .

" وأول ما ظهر من ذلك كان يوم حنين الذي جاء عنه في هذه السورة : " التوبة " : ﴿ لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ، ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين ﴾

" وكان من الأسباب الظاهرة لهذه الهزيمة في أول الأمر أن ألفين من " الطلقاء " الذين أسلموا يوم الفتح ، قد خرجوا مع الآلاف العشرة من جند المدينة الذين فتحوا مكة . فكان وجود هذين الألفين – مع عشرة الآلاف – سبباً في اختلال التوازن في الصف – بالإضافة إلى

عامل المفاجأة من هوازن – ذلك أن الجيش لم يكن كله من القاعدة الصلبة الخالصة التي تمت تربيتها وتناسقها في الزمن الطويل ما بين بدر والفتح .

(218/349)

"كذلك كان ما ظهر في أثناء غزوة تبوك من الأعراض والظواهر المؤذية ثمرة طبيعية لهذا الاتساع الأفقي السريع ؛ ودخول تلك الأفواج الجديدة ، بمستوياتها الإيمانية والتنظيمية المخلخلة . . هذه الظواهر والأعراض التي تحدثت عنها سورة التوبة ، والتي اقتضت تلك الحملات الطويلة المفصلة المنوعة الأساليب ، التي أشرنا إليها في المقتطفات الممثلة لكل مقاطع السورة " . .

وفي ضوء هذا البيان المجمل نملك المضي مع نصوص هذا الدرس تفصيلاً :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم . ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ويتربص بكم الدوائر ، عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم . ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم ، سيدخلهم الله في رحمته ، إن الله غفور رحيم ﴾ . .

بدأ بتصنيف الأعراب – وهم البدو – وقد كانت قبائل منهم حول المدينة ، وكانت لهم أدوار في الهجوم على دار الإسلام في المدينة – قبل إسلامهم – فلما أسلموا كانوا بوجه عام داخلين في الفئتين اللتين ورد وصفهما في هذه الآيات .

وقد بدأ الحديث عنهما بتقرير قاعدة كلية عن طبيعة الأعراب :

﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، والله عليم حكيم ﴾ . .

والتعبير بهذا العموم يعطي وصفاً ثابتاً متعلقاً بالبدو وبالبداوة . فالشأن في البدو أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً ، وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

والجدارة بعدم العلم بما أنزل الله على رسوله ناشئة من ظروف حياتهم ، وما تنشئه في طباعهم من جفوة ، ومن بعد عن المعرفة وعن الوقوف عند الحدود ، ومن مادية حسية تجعل القيم المادية هي السائدة . وإن كان الإيمان يعدل من هذه الطباع ، ويرفع من تلك القيم ، ويصلهم بالأفق الوضيء المرتفع على الحسية .

(219/349)

وقد وردت روايات كثيرة عن جفوة الأعراب . . ومما أورده ابن كثير في التفسير . .

" قال الأعمش عن إبراهيم قال : جلس أعرابي إلى زيد بن صوحان ، وهو يحدث أصحابه ، وكانت يده قد أصيبت يوم " نهاوند " ، فقال الأعرابي : والله إن حديثك ليعجبني ، وإن يدك لتريبني ! فقال زيد : وما يريبك من يدي ؟ إنها الشمال ! فقال الأعرابي : والله ما أدري اليمين يقطعون أم الشمال ! فقال زيد ابن صوحان : صدق الله ورسوله : ﴿ الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾ .

" وقال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدي ، حدثنا سفيان ، عن أبي موسى ، عن وهب بن منبه ، عن ابن عباس ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن " .

ولما كانت الغلظة والجفاء في أهل البوادي لم يبعث الله منهم رسولاً ، وإنما كانت البعثة من أهل القرى كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى ﴾ " ولما أهدى ذلك الأعرابي تلك الهدية لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرد عليه أضعافها حتى رضي – ، قال : " لقد هممت ألا أقبل هدية إلا من قرشي أو ثقفي أو أنصاري أو دوسي " لأن هؤلاء كانوا يسكنون المدن : مكة والطائف والمدينة واليمن ، فهم ألطف أخلاقاً من الأعراب لما في طباع الأعراب من الجفاء .

قال حديث مسلم : حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا : حدثنا أبو أسامة وابن

نمير ، عن هشام ، عن أبيه ، عن عائشة ، قالت : قدم ناس من الأعراب على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : أتقبلون صبيانكم ؟ قالوا : نعم ! قالوا : لكنا والله ما نقبل ! فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " وما أملك إن كان الله نزع منكم الرحمة ؟ " .

(220/349)

وكثير من الروايات يكشف عن طابع الجفوة والفظاظة في نفوس الأعراب . حتى بعد الإسلام . فلا جرم يكون الشأن فيهم أن يكونوا أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ، لطول ما طبعتهم البداوة بالجفوة والغلظة عندما يقهرون غيرهم ؛ أو بالنفاق والالتواء عندما يقهرهم غيرهم ؛ وبالاعتداء وعدم الوقوف عند الحدود بسبب مقتضيات حياتهم في البادية .

﴿ والله عليم حكيم ﴾ . .

عليم بأحوال عباده وصفاته وطباعهم . حكيم في توزيع المواهب والخصائص والاستعدادات ، وتنويع الأجناس والشعوب والبيئات .

وبعد الوصف الرئيسي العام للأعراب يجيىء التصنيف حسبما أحدث الإيمان في النفوس من تعديلات ؛ وما أنشأه كذلك من فروق بين القلوب التي خالطتها بشاشته والقلوب التي

بقيت على ما فيها من كفر ونفاق ؛ مما يمثل الواقع في المجتمع المسلم حينئذاك :

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بكم الدوائر . عليهم دائرة السوء ، والله سميع عليم ﴾ . .

وربما عجل بذكر المنافقين من الأعراب قبل المؤمنين منهم ، إلحاقاً لهم بمنافقي المدينة الذين كان يتحدث عنهم في المقطع السالف كله ؛ وليتصل جو الحديث عن المنافقين من هؤلاء ومن هؤلاء .

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ . .

فهو مضطر لأن ينفق من ماله في الزكاة ، وفي غزوات المسلمين ؛ تظاهراً بالإسلام ، ليستمتع بمزايا الحياة في المجتمع المسلم ؛ ومداراة للمسلمين وهم أصحاب السلطان اليوم في الجزيرة ! وهو يعد ما ينفقه غرامة وخسارة يؤديها كارهاً ، لا مساعدة للغزاة المجاهدين ، ولا حباً في انتصار الإسلام والمسلمين .

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ . .

وينتظر متى تدور الدائرة على المسلمين ، ويتمنى ألا يعودوا من غزاة سالمين !

وهنا يعاجلهم السياق بدعاء من الله – سبحانه – عليهم ؛ ودعاء الله معناه وقوع مدلول الدعاء عليهم :

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ . .

كأن للسوء دائرة تطبق عليهم فلا تفلتهم ؛ وتدور عليهم فلا تدعهم . وذلك من باب تجسيم المعنوي وتخييله ، الذي يعمق وقع المعنى ويحييه .

﴿ والله سميع عليم ﴾ .

والسمع والعلم يتناسبان هنا مع جو التربص بالسوء من أعداء الجماعة المسلمة ، والنفاق الذي تحتويه جوانحهم ، وتخفيه ظواهرهم . . والله سميع لما يقولون عليم بما يظهرون وما يكتمون .

وهناك الفريق الآخر ممن خالطت قلوبهم بشاشة الإيمان :

﴿ ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول . ألا إنها قربة لهم . سيدخلهم الله في رحمته . إن الله غفور رحيم ﴾ . .

فهو الإيمان بالله واليوم الآخر باعث الإنفاق عند هذا الفريق ، لا الخوف من الناس ، ولا الملق للغالبين ، ولا حساب الربح والخسارة في دنيا الناس !

وهذا الفريق المؤمن بالله واليوم الآخر يبتغي بما ينفق أن يكون قربى من الله ؛ ويتطلب صلوات الرسول . . أي دعواته . . الدالة على رضاه صلى الله عليه وسلم ، المقبولة عند

الله ، وهو يدعو بها للمؤمنين بالله واليوم الآخر ، المنفقين ابتغاء القربى من الله ورضاه .

لذلك يبادر السياق فيقرر لهم أنها قربى مقبولة عند الله :

﴿ ألا إنها قربة لهم ﴾ . .

ويبشرهم بحسن العاقبة وعداً من الله حقاً :

﴿ سيدخلهم الله في رحمته ﴾ . .

ويجسم الرحمة كأنها دار يدخلونها فتحتويهم ؛ وذلك في مقابل تجسيم ﴿ دائرة السوء ﴾ على الفريق الآخر ، الذي يتخذ ما ينفق مغرماً ، ويتربص بالمؤمنين الدوائر .

﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ . .

يقبل التوبة ، ويتقبل النفقة ، ويغفر ما كان من ذنب ، ويرحم من يبتغون الرحمة . .

(222/349)

وبعد تصنيف الأعراب على وجه الإجمال يستطرد السياق في تصنيف المجتمع كله . . حاضره وباديه . . إلى أربع طبقات إيمانية . . السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان . والمنافقين الذين مردوا على النفاق من أهل المدينة ومن الأعراب . والذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . والذين أرجىء الحكم في أمرهم حتى

يقضي الله فيهم بقضائه :

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار ، خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم . .

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم .

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم . خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً . عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم ؟ وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ .

﴿ وآخرون مُرجوْن لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم ﴾ . .

(223/349)

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ؛ وبعد اعتذار من اعتذر من المنافقين المتخلفين ؛ ومن المؤمنين المتخلفين كذلك . سواء منهم من اعتذر صادقاً ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن لم يعتذر بشيء راجياً أن يقبل الله توبته بصدقه ، وهم الثلاثة الذين خلفوا فلم يحكم في شأنهم بشيء حتى تاب الله عليهم وقبل توبتهم – كما سيجيء – وكان مجموع هؤلاء مثل صنوف الناس من حول الدعوة في الجزيرة بعد غزوة تبوك . كان الله – سبحانه – يكشف أرض الحركة كلها وما عليها ومن عليها لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن معه من المؤمنين الخلص ، هذا الكشف النهائي الكامل قرب نهاية المطاف في الجولة الأولى لهذا الدين ، في موطنه الأول ، قبل أن ينطلق إلى الأرض كلها بإعلانه العام بالعبودية لله وحده والدينونة له وحده ، وتحرير " الإنسان " في " الأرض " من العبودية للعباد في شتى الصور والأشكال . ولا بد للحركة الإسلامية حين تنطلق أن تتكشف لها أرض المعركة ، وما عليها ومن عليها ، فهذا التكشف ضروري لكل خطوة ؛ حتى يعرف أصحاب الحركة مواضع أقدامهم في كل خطوة في الطريق .

﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضي الله عنهم ورضوا عنه ، وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، ذلك الفوز العظيم ﴾ . .

وهذه الطبقة من المسلمين – بمجموعاتها الثلاث : ﴿ السابقون الأولون من المهاجرين . والأنصار . والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ – كانت تؤلف القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم في الجزيرة بعد الفتح – كما أسلفنا في الجزء العاشر في تقديم السورة . وكانت هي التي تمسك هذا المجتمع كله في كل شدة ، وفي كل رخاء كذلك : فابتلاء الرخاء كثيراً ما يكون أصعب وأخطر من ابتلاء الشدة !

(224/349)

والسابقون من المهاجرين نميل نحن إلى اعتبار أنهم هم الذين هاجروا قبل بدر ، وكذلك السابقون من الأنصار . أما الذين اتبعوهم بإحسان – الذين يعنيهم هذا النص وهو يتحدث عما كان واقعاً إبان غزوة تبوك – فهم الذين اتبعوا طريقهم وآمنوا إيمانهم وأبلوا بلاءهم بعد ذلك ، وارتفعوا إلى مستواهم الإيماني – وإن بقيت للسابقين سابقتهم بسبقهم في فترة الشدة قبل بدر ، وهي أشد الفترات طبعاً .

وقد وردت أقوال متعددة في اعتبار من هم السابقون من المهاجرين والأنصار . فقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل بدر وقيل : هم الذين صلوا للقبلتين . وقيل : هم أهل بدر . وقيل : هم الذين هاجروا ونصروا قبل الحديبية . وقيل : هم أهل بيعة الرضوان . . . ونحن

نرى من تتبعنا لمراحل بناء المجتمع المسلم وتكون طبقاته الإيمانية ، أن الاعتبار الذي اعتبرناه أرجح . . والله أعلم . .

ولعله يحسن أن نعيد هنا فقرات مما سبق أن فصلناه في الجزء العاشر عن مراحل بناء المجتمع المسلم وتكوُّن طبقاته الإيمانية ، يكون حاضراً بين يدي قارئ هذا الجزء ، خيراً من إحالته إلى الجزء السابق ؛ لتكون هذه الحقيقة قريبة منه يتتبع على ضوئها ذلك التصنيف النهائي للمجتمع في الآيات التي نواجهها هنا :

" لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محك الشدة ، فلم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش – تحس بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة : " أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله " وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله ؛ ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله . ثم بالخطر الجدي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله ولرسول الله ؛ ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية .

" لم تكد الجاهلية – ممثلة في قريش أول الأمر – تحس بهذا الخطر وذاك حتى شنتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة . . وعلى التجمع الجديد ، وعلى القيادة الجديدة ؛ وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة . .

" لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه . وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين ، في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد ؛ وكلما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد ، يتبع في تحركة قيادة جديدة ، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض . .

" وعندئذ تعرض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها ، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان . . ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد ، والدينونة لقيادته الجديدة ، إلا كل من نذر نفسه لله ؛ وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب ، والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان .

" بذلك تكونت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي ؛ فأما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ؛ وكان هذا النوع قليلاً ، فقد كان الأمر كله معروفاً مكشوفاً من قبل ؛ فلم يكن يقدم ابتداء

على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام ، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب ؛ إلا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين .

(226/349)

" وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة ، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة ؛ ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار ، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين . قال ابن كثير في التفسير : : " وقال محمد بن كعب القرظي وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - (يعني ليلة العقبة) : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ؛ وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال : " الجنة " قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل " .

" ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ؛ ولا يرتقبون من ورائها شيئاً إلا

الجنة ؛ ويوثقون هذا البيع ، فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ! يعلمون أنهم لا يبايعون على أمر هين ؛ بل كانوا مستيقنين أن قريشاً وراءهم ، وأن العرب كلها سترميهم ؛ وأنهم لن يعيشوا في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة ، وبين ظهرانيهم في المدينة " . .

. . . " فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة ؛ وكانوا يعلمون أنهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً في هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنهم لم يوعدوا عليها إلا الجنة . . ثم كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها . . فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بُنوا هذا البناء وأُعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة . .

(227/349)

" ولكن مجتمع المدينة لم يظل بهذا الخلوص والنقاء . . لقد ظهر الإسلام وفشا في المدينة واضطر أفراد كثيرون – ومعظمهم من ذوي المكانة في قومهم – أن يجاروا قومهم احتفاظاً بمكانتهم فيهم .

. حتى إذا كانت وقعة بدر قال كبير هؤلاء : عبد الله بن أبي بن سلول : هذا أمر قد

توجه ! وأظهر الإسلام نفاقاً . ولا بد أن كثيرين قد جرفتهم الموجة فدخلوا في الإسلام تقليداً – ولو لم يكونوا منافقين – ولكنهم لم يكونوا بعد قد فقهوا في الإسلام ولا انطبعوا بطابعه . . مما أنشأ تخلخلاً في بناء المجتمع المدني ، ناشئاً عن اختلاف مستوياته الإيمانية .

" وهنا أخذ المنهج القرآني التربوي الفريد ، بقيادة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعمل عمله في هذه العناصر الجديدة ؛ ويعمل كذلك على إعادة التناسق والتوافق بين المستويات العقيدية والخلقية والسلوكية للعناصر المختلفة الداخلة في جسم المجتمع الوليد .

" وحين نراجع السور المدنية – بترتيب النزول التقريبي – فإننا نطلع على الجهد الكبير الذي بذلك في عملية الصهر الجديدة المستمرة للعناصر المتنوعة في المجتمع المسلم ؛ وبخاصة أن هذه العناصر ظلت تتوارد على هذا المجتمع – على الرغم من وقفة قريش العنيدة وتأليبها لكل قبائل الجزيرة ؛ ومن وقفة اليهود البشعة وتأليبهم كذلك للعناصر المعادية للدين الجديد والتجمع الجديد – وظلت الحاجة مستمرة لعمليات الصهر والتنسيق بصورة دائمة لا تفتر ولا تغفل لحظة .

" ومع هذا الجهد كله كانت ما تزال تظهر بين الحين والحين – وبخاصة في فترات الشدة – أعراض من الضعف والنفاق والتردد ، والشح بالنفس والمال ، والتهيب من مواجهة المخاطر . . وبصفة خاصة أعراض من عدم الوضوح العقيدي الذي يحسم في العلاقة بين المسلم وقرابته من أهل الجاهلية . . والنصوص القرآنية في السور المتوالية تكشف لنا عن

طبيعة هذه الأعراض التي كان المنهج القرآني يتعرض لها بالعلاج بشتى أساليبه الربانية الفريدة .

(228/349)

. . . " إلا أن قوام المجتمع المسلم في المدينة كان يظل سليماً في جملته بسبب اعتماده أساساً على تلك القاعدة الصلبة الخالصة من السابقين من المهاجرين والأنصار ؛ وما تحدثه من تماسك وصلابة في قوامه في وجه جميع الأعراض والظواهر والخلخلة أحياناً ، والتعرض للمخاطر التي تكشف عن هذه العناصر التي لم يتم بعد صهرها ونضجها وتماسكها وتناسقها .

" وشيئاً فشيئاً كانت هذه العناصر تنصهر وتتطهر وتتناسق مع القاعدة ، ويقل عدد الناشزين من ضعاف القلوب ومن المنافقين ، ومن المترددين كذلك والمتهيبين ومن لم يتم في نفوسهم الوضوح العقيدي الذي يقيمون على أساسه كل علاقتهم مع الآخرين . حتى إذا كان قبيل فتح مكة كان المجتمع الإسلامي أقرب ما يكون إلى التناسق التام مع قاعدته الصلبة الخالصة ، وأقرب ما يكون بجملته إلى النموذج الذي يهدف إليه المنهج التربوي الرباني الفريد . .

" نعم إنه كانت في هذا المجتمع ما تزال هناك أقدار متفاوته أنشأتها الحركة العقيدية ذاتها ؛ فتميزت مجموعات من المؤمنين بأقدارها على قدر بلائها في الحركة وسبقها وثباتها .

. تميز السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار . وتميز أهل بدر . وتميز أصحاب بيعة الرضوان في الحديبية . ثم تميز بصفة عامة الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا . وجاءت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية ، والأوضاع العملية في المجتمع المسلم ، تؤكد هذه الأقدار التي أنشأتها الحركة بالعقيدة ، وتنص عليها . . . " .

. . . " ولكن تميز هذه الطبقات بأقدارها الإيمانية التي أنشأتها الحركه الإسلامية ، لم يكن مانعاً أن تتقارب المستويات الإيمانية وتتناسق في مجتمع المدينة قبيل الفتح ؛ وأن يتوارى الكثير من أعراض الخلخلة في الصف ، والكثير من ظواهر الضعف والتردد ، والشح بالنفس والمال ، وعدم الوضوح العقيدي ، والنفاق . . من ذلك المجتمع . بحيث يمكن اعتبار المجتمع المدني بجملته هو القاعدة الإسلامية .

(229/349)

" إلا أن فتح مكة في العام الثامن الهجري ، وما أعقبه من استسلام هوازن وثقيف في الطائف – وهما آخر قوتين كبيرتين بعد قريش في الجزيرة – قد عاد فصب في المجتمع المسلم

أفواجاً جديدة كثيرة دخلت في الدين مستسلمة على درجات متفاوتة من المستويات الإيمانية وفيهم كارهون للإسلام منافقون ؛ وفيهم المنساقون إلى الإسلام الظاهر القاهر ؛ وفيهم المؤلفة قلوبهم دون انطباع بحقائق الإسلام الجوهرية ولا امتزاج بروحه الحقيقية . . . ".

ومن هذه المقتطفات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك ﴿ بإحسان ﴾ يصل بهم إلى مستواهم الإيماني وبلائهم الحركي . وندرك حقيقة دورهم الباقي في بناء الإسلام وترجمته إلى واقع عملي يبقى مؤثراً في التاريخ البشري كله ، كما نستشرف حقيقة قول الله سبحانه فيهم .

﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ . .

ورضى الله عنهم هو الرضى التي تتبعه المثوبة ، وهو في ذاته أعلى وأكرم مثوبة ؛ ورضاهم عن الله هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على ابتلائه . . ولكن التعبير بالرضى هنا وهناك يشيع جو الرضى الشامل الغامر ، المتبادل الوافر ، الوارد الصادر ، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده ؛ ويرفع من شأن هذه الصفوة – من البشر – حتى ليبادلون ربهم الرضى ؛ وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون . . وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ؛ ولكن يُتنسم ويُستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب

المتفتح والحس الموصول !

ذلك حالهم الدائم مع ربهم : ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾ . وهناك تنتظرهم علامة هذا الرضى :

﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ﴾ . . ﴿ ذلك الفوز العظيم ﴾ . .

وأي فوز بعد هذا وذلك عظيم ؟ ؟ ؟

ذلك مستوى . . وفي مقابله مستوى :

(230/349)

﴿ وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة ، مردوا على النفاق ، لا تعلمهم نحن نعلمهم ، سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ . .

ولقد سبق الحديث والكشف عن المنافقين عامة – سواء من منافقي المدينة أو منافقي الأعراب – ولكن الحديث هنا عن صنف خاص من المنافقين .

صنف حذق النفاق ومرن عليه ، ولجّ فيه ومرد ، حتى ليخفى أمره على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع كل فراسته وتجربته ! فكيف يكون ؟

والله سبحانه يقرر أن هذه الفئة من الناس موجودة في أهل المدينة وفي الأعراب المحيطين بالمدينة . ويطمئن رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمؤمنين معه ، من كيد هذه الفئة الخفية الماكرة الماهرة ؛ كما ينذر هؤلاء الماكرين المهرة في النفاق بأنه سبحانه لن يدعهم ، فسيعذبهم عذاباً مضاعفاً في الدنيا والآخرة :

﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم . سنعذبهم مرتين . ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ . .

والعذاب مرتين في الدنيا ، الأقرب في تأويله أنه عذاب القلق النازل بهم من توقع انكشاف أمرهم في المجتمع المسلم ؛ وعذاب الموت والملائكة تسألهم أرواحهم وتضرب وجوههم وأدبارهم . أو هو عذاب الحسرات التي تصيبهم بانتصار المسلمين وغلبتهم ؛ وعذاب الخوف من انكشاف نفاقهم وتعرضهم للجهاد الغليظ . . والله أعلم بما يريد . .

وبين المستويين المتقابلين ، مستويان بين بين . . أولهما :

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم . خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصلِّ عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم . ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ؟ وأن الله هو التواب الرحيم ؟ وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون . . ﴾ .

وأمر الله لرسوله بإجراء معين مع هذه الطائفة دليل على أنها كانت معينة بأشخاصها لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ظاهر .

وقد روي أن الآيات نزلت في جماعة خاصة معينة فعلاً ، ممن تخلفوا عن رسول الله في غزوة تبوك ، ثم أحسوا وطأة الذنب ، فاعترفوا بذنوبهم ، ورجوا التوبة . فكان منهم التخلف وهو العمل السيء . وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح .

قال أبو جعفر بن جرير الطبري : حُدثت عن الحسين بن الفرج ، قال : سمعت أبا معاذ قال : أخبرنا عبيد ابن سلمان قال : سمعت الضحاك يقول في قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ . نزلت في أبي لبابة وأصحابه ، تخلفوا عن نبي الله - صلى الله عليه وسلم - في غزوة تبوك . فلما قفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته ، وكان قريباً من المدينة ، ندموا على تخلفهم عن رسول الله ، وقالوا : نكون في الظلال والأطعمة والنساء . ونبي الله في الجهاد واللأواء ! والله لنوثقن أنفسنا بالسواري ، ثم لا نطلقها حتى يكون نبي الله - صلى الله عليه وسلم - يطلقنا ويعذرنا ! وأوثقوا أنفسهم ، وبقي ثلاثة لم يوثقوا أنفسهم بالسواري . فقدم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من غزوته ، فمر في المسجد ، وكان طريقه ، فأبصرهم ! فسأل عنهم ، فقيل له : أبو لبابة وأصحابه ، تخلفوا عنك ، يا نبي الله ، فصنعوا بأنفسهم ما ترى ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى تكون

أنت الذي تطلقهم ! فقال نبي الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا أطلقهم حتى أومر بإطلاقهم ، ولا أعذرهم حتى يعذرهم الله ، قد رغبوا بأنفسهم عن غزوة المسلمين ! فأنزل الله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ إلى ﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ و ﴿ عسى ﴾ من الله واجب .

. فأطلقهم نبي الله وعذرهم .

(232/349)

ووردت روايات متعددة أخرى منها : أنها في أبي لبابة وحده لما وقع في غزوة بني قريظة من تنبيههم لما يراد بهم ، وأنه الذبح ، بالإشارة إلى عنقه ! ولكن هذا مستبعد فأين هذه الآيات مما وقع في بني قريظة ! كذلك ورد أنها في الأعراب . . وقد عقب ابن جرير على هذه الروايات كلها بقوله :

" وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك ، قول من قال : نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخفلهم عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتركهم الجهاد معه ، والخروج لغزو الروم ، حين شخص إلى تبوك ، وأن الذين نزل ذلك فيهم جماعة ، أحدهم أبو لبابة .

" وإنما قلنا : ذلك أولى بالصواب في ذلك ، لأن الله جل ثناؤه قال : ﴿ وآخرون اعترفوا

بذنوبهم ﴾ . . فأخبر عن اعتراف جماعة بذنوبهم ، ولم يكن المعترف بذنبه ، الموثق نفسه بالسارية في حصار قريظة ، غير أبي لبابة وحده . فإذا كان ذلك كذلك ، وكان الله تبارك وتعالى قد وصف في قوله : ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ بالاعتراف بذنوبهم جماعة ، علم أن الجماعة الذين وصفهم بذلك ليست بالواحد ، فقد تبين بذلك أن هذه الصفة إذ لم تكن إلا لجماعة . وكان لا جماعة فعلت ذلك – فيما ينقله أهل السير والأخبار وأجمع عليه أهل التأويل – إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك ، صح ما قلنا في ذلك . وقلنا : "كان منهم أبو لبابة" لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك" .

ولما ذكر الله – سبحانه – صفة هذه الجماعة من الناس المتخلفين المعتذرين التائبين عقب عليها بقوله :

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم ﴾ . .

وكما قال ابن جرير : "وعسى من الله واجب" . . فهو رجاء من يملك إجابة الرجاء سبحانه ! والاعتراف بالذنب على هذا النحو ، والشعور بوطأته ، دليل حياة القلب وحساسيته ، ومن ثم فالتوبة مرجوة القبول ، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرحيم . . وقد قبل الله توبتهم وغفر لهم . .

ثم قال الله لنبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ، والله سميع عليم ﴾ . .

ولقد كانت تلك الحساسية التي بعثت الندم والتوبة في تلك القلوب ، جديرة بالطمأنينة ، حقيقة بالعطف الذي يسكب فيها الأمل ، ويفتح لها أبوب الرجاء .

. وإن كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يقود حركة ، ويربي أمة ، وينشئ نظاماً ، قد رأى الأخذ بالحزم في أمرهم حتى يأتيه أمر من ربه في شأنهم . .

قال ابن جرير : حدثني محمد بن سعد قال : حدثني أبي قال : حدثني عمي قال ، حدثني أبي عن أبيه ، عن ابن عباس قال : لما أطلق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا لبابة وصاحبيه ، انطلق أبو لبابة وصاحباه بأموالهم ، فأتوا بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالوا : خذ من أموالنا فتصدق بها عنا وصل علينا . . يقولون : استغفر لنا . . وطهرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لا أخذ منها شيئاً حتى أومر " فأنزل الله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ . يقول : استغفر لهم من ذنوبهم التي كانوا أصابوا . فلما نزلت الآية أخذ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جزءاً من أموالهم ، فتصدق به عنهم " .

وهكذا منَّ الله عليهم لما علمه سبحانه من حسن سريرتهم ، وصدق توبتهم ، فأمر رسوله

ـصلى الله عليه وسلم ـ أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم ، وأن يصلي عليهم – أي يدعو لهم ، فالأصل في الصلاة الدعاء – ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد إليهم شهورهم بعضويتهم الكاملة في الجماعة المسلمة ، فهم يشاركون في واجباتها ، وينهضون بأعبائها ، وهم لم ينبذوا منها ولم ينبتوا عنها ؛ وفي تطوعهم بهذه الصدقات تطهير لهم وتزكية ، وفي دعاء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لهم طمأنينة وسكن .

﴿ والله سميع عليم ﴾ . .

(234/349)

يسمع الدعاء ، ويعلم ما في القلوب . ويقضي بما يسمعه ويعلمه قضاء السميع العليم . وهو وحده الذي يقضي في شأن العباد ، فيقبل منهم توبتهم ويأخذ منهم صدقاتهم ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينفذ ما يأمره به ربه ، ولا ينشئ شيئاً من هذا من عنده . . وتقريراً لهذه الحقيقة يقول تعالى في الآية التالية :

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات ، وأن الله هو التواب الرحيم ؟ ﴾ .

وهو استفهام تقريري يفيد : فليعلموا أن الله هو يقبل التوبة ؛ والله هو يأخذ الصدقة ، والله

هو يتوب ويرحم عباده . . وليس شيء من هذا لأحد غيره سبحانه . . " وأن نبي الله حين أبى أن يطلق من ربط نفسه بالسواري من المتخلفين عن الغزة معه ؛ وحين ترك قبول صدقتهم بعد أن أطلق الله عنهم حين أذن له في ذلك ، إنما فعل ذلك من أجل أن ذلك لم يكن إليه - صلى الله عليه وسلم - وأن ذلك إلى الله تعالى ذكره دون محمد .

وأن محمداً إنما يفعل ما يفعل من ترك وإطلاق وأخذ صدقة وغير ذلك من أفعاله بأمر الله . . "

كما يقول ابن جرير :

وفي النهاية يتوجه الحديث إلى المتخلفين التائبين :

﴿ وقل : اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ . .

ذلك أن المنهج الإسلامي منهج عقيدة وعمل يصدق العقيدة . فمحك الصدق في توبتهم إذن هو العمل الظاهر ، يراه الله ورسوله والمؤمنون . فأما في الآخرة فمردهم إلا عالم الغيب والشهادة الذي يعلم فعل الجوارح وكوامن الصدور .

إن الندم والتوبة ليسا نهاية المطاف . ولكنه العمل الذي يعقب الندم والتوبة . فيصدق أو يكذب تلك المشاعر النفسية ويعمقها أو يكتسحها بعد أن تكون !

إن الإسلام منهج حياة واقعية ، لا تكفي فيه المشاعر والنوايا ، ما لم تتحول إلى حركة واقعية . وللنية الطيبة مكانها ؛ ولكنها هي بذاتها ليست مناط الحكم والجزاء . إنما هي تحسب مع العمل ، فتحدد قيمة العمل . وهذا معنى الحديث : " إنما الأعمال بالنيات " . الأعمال . . لا مجرد النيات !

والفريق الأخير هو الذي لم يبت في أمره ، وقد وكل أمره إلى ربه :

﴿ وآخرون مُرجَون لأمر الله ، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ، والله عليم حكيم ﴾ . .

وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك – غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين – وهذا القسم لم يكن حتى نزول هذه الآية قد بت في أمره بشيء . وكان أمرهم موكولاً إلى الله ، لم يعلموه ولم يعلمه الناس بعد . . وقد روي أن هذه الآية نزلت في الثلاثة الذين خلفوا – أي أجل إعلان توبتهم والقضاء في أمرهم – وهم مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال ابن أمية ، الذين قعدوا عن غزوة تبوك كسلاً وميلاً إلى الدعة واستراحاً للظلال في حر الهاجرة ! ثم كان لهم شأن مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سيأتي تفصيله في موضعه من السورة في الدرس التالي .

روى ابن جرير بإسناده – عن ابن عباس – قال : لما نزلت هذه الآية . . يعني قوله : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ . . أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أموالهم . . يعني أموال أبي لبابة وصاحبيه . . فتصدق بها عنهم ، وبقي الثلاثة الذين خالفوا أبا لبابة ، ولم يوثقوا ولم يذكروا بشيء ، ولم ينزل عذرهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وهم الذين قال الله : ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم ﴾ . . فجعل الناس يقولون . هلكوا ! إذ لم ينزل لهم عذر . وجعل آخرون يقولون : عسى الله أن يغفر لهم ! فصاروا مرجئين لأمر الله ، حتى نزلت : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ الذين خرجوا معه إلى الشام . . ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾

ثم قال : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ يعني المرجئين لأمر الله – نزلت عليهم التوبة فعموا بها ، فقال : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ إلى قوله : ﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾ (وكذلك روى – بإسناده – عن عكرمة وعن مجاهد ، وعن الضحاك وعن قتادة . عن ابن إسحاق) . فهذه الرواية أرجح والله أعلم .

ولما كان أمرهم مرجأ ، فإننا نحب أن نرجئ الحديث فيه حتى يجيء في موضعه . إن شاء الله تعالى .

(237/349)

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين ، وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً ، لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، إلا أن تَقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

وقصة مسجد الضرار قصة بارزة في غزوة تبوك ، لذلك أفرد المنافقون الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين ، وخصص لهم حديث مستقل بعد انتهاء الاستعراض العام لطوائف الناس في المجتمع المسلم حينذاك .

(238/349)

قال ابن كثير في التفسير : سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب ، وكان قد تنصر في الجاهلية . وقرأ علم أهل الكتاب ؛ وكان فيه عبادة في الجاهلية ، وله شرف في الخزرج كبير . فلما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مهاجراً إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرِق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش يمالئهم على حرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب ، وقدموا عام أُحد فكان من أمر المسلمين ما كان ، وامتحنهم الله عز وجل ، وكانت العاقبة للمتقين . وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين ، فوقع في إحداهن رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأصيب في ذلك اليوم ، فجرح وجهه ، وكسرت رباعيته اليمنى السفلى ، وشج رأسه – صلوات الله وسلامه عليه – وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الأنصار فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته ، فلما عرفوا كلامه قالوا : لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق يا عدو الله ! ونالوا منه وسبوه ، فرجع وهو يقول : والله لقد أصاب قومي بعدي شر !

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد دعاه إلى الله قبل فراره ، وقرأ عليه من القرآن ،

فأبى أن يسلم وتمرد ، فدعا عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يموت بعيداً طريداً ، فنالته هذه الدعوة .

(239/349)

. وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ، ورأى أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ارتفاع وظهور ، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوعده ومناه وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويغلبه ، ويرده عما هو فيه ؛ وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك ؛ فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، فبنوه وأحكموه ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك ؛ وجاءوا فسألوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته ؛ وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ! فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : " إنا على سفر ، ولكن إذا رجعنا – إن شاء الله – " فلما قفل – عليه السلام – راجعاً إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلى يوم أو

بعض يوم ، نزل جبريل بخبر مسجد الضرار ، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم – مسجد قباء – الذي أسس من أول يوم على التقوى . فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة . . (وكذلك روى – بإسناده – عن ابن عباس وعن سعيد بن جبير ومجاهد وعروة بن الزبير وقتادة) .

فهذا هو مسجد الضرار الذي أمر الله رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ألا يقوم فيه ، وأن يقوم في المسجد الأول – مسجد قباء – الذي أقيم على التقوى من أول يوم ، والذي يضم رجالاً يحبون أن يتطهروا . ﴿ والله يحب المطهرين ﴾ . .

(240/349)

هذا المسجد – مسجد الضرار – الذي اتخذ على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مكيدة للإسلام والمسلمين ، لا يراد به إلا الإضرار بالمسلمين ، وإلا الكفر بالله ، وإلا ستر المتآمرين على الجماعة المسلمة ، الكائدين لها في الظلام ، وإلا التعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد له تحت ستار الدين . .

هذا المسجد ما يزال يتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء

هذا الدين .

تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام ، أو تشويهه وتمويهه وتمييعه ! وتتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس ورائها وهي ترمي هذا الدين ! وتتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق ، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أن الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق ! . . . وتتخذ في صور شتى كثيرة . .

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزل اللافتات الخادعة عنها ؛ وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها . ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك البيان القوي الصريح :

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً ، وكفراً ، وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل . وليحلفن : إن أردنا إلا الحسنى ، والله يشهد إنهم لكاذبون . لا تقم فيه أبداً . لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين . أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين . لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

والتعبير القرآني الفريد يرسم هنا صورة حافلة بالحركة ، تنبئ عن مصير كل مسجد ضرار يقام إلى جوار مسجد التقوى ، ويراد به ما أريد بمسجد الضرار ، وتكشف عن نهاية كل محاولة خادعة تخفي وراءها نية خبيثة ؛ وتطمئن العاملين المتطهرين من كل كيد يراد بهم ، مهما لبس أصحابه مسوح المصلحين :

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ؟ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . .

فلنقف نتطلع لحظة إلى بناء التقوى الراسي الراسخ المطمئن . . ثم لنتطلع بعد إلى الجانب الآخر ! لنشهد الحركة السريعة العنيفة في بناء الضرار . . إنه قائم على شفا جرف هار . . قائم على حافة جرف منها . . قائم على تربة مخلخلة مستعدة للانهيار . . إننا نبصره اللحظة يتأرجح ويتزحلق وينزلق ! . . إنه ينهار ! إنه ينزلق ! إنه يهوي ! إن الهوة تلتهمه ! يا للهول ! إنها نار جهنم . . ﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ . . الكافرين المشركين . الذين بنوا هذه البنية ليكيدوا بها هذا الدين !

إنه مشهد عجيب ، حافل بالحركة المثيرة ترسمه وتحركه بضع كلمات ! . . ذلك ليطمئن دعاة الحق على مصير دعوتهم ، في مواجهة دعوات الكيد والكفر والنفاق ! وليطمئن البناة على أساس من التقوى كلما واجهوا البناة على الكيد والضرار !

ومشهد آخر يرسمه التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بُناته الأشرار ؛ وبناة كل مساجد الضرار :

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ، إلا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم ﴾ .

.

لقد انهار الجرف المنهار . انهار ببناء الضرار الذي أقيم عليه . انهار به في نار جهنم وبئس القرار ! ولكن ركام البناء بقي في قلوب بناته . بقي فيها ﴿ ريبة ﴾ وشكاً وقلقاً وحيرة . وسيبقى كذلك لا يدع تلك القلوب تطمئن أو تثبت أو تستقر . إلا أن تتقطع وتسقط هي الأخرى من الصدور !

(242/349)

وإن صورة البناء المنهار لهي صورة الريبة والقلق وعدم الاستقرار . . تلك صورة مادية وهذه صورة شعورية . . وهما تتقابلان في اللوحة العجيبة التي يرسمها التعبير القرآني الفريد . وتتقابلان في الواقع البشري المتكرر في كل زمان . فما يزال صاحب الكيد الخادع مزعزع العقيدة . حائر الوجدان ، لا يطمئن ولا يستقر ، وهو من انكشاف ستره في قلق دائم ، وريبة لا طمأنينة معها ولا استقرار .

وهذا هو الإعجاز الذي يرسم الواقع النفسي بريشة الجمال الفني ، في مثل هذا التناسق ؛ بمثل هذا اليسر في التعبير والتصوير على السواء . .

وتبقى وراء ذلك كله حكمة المنهج القرآني في كشف مسجد الضرار وأهله ، وفي تصنيف المجتمع إلى تلك المستويات الإيمانية الواضحة ؛ وفي كشف الطريق للحركة الإسلامية ، ورسم طبيعة المجال الذي تتحرك فيه من كل جوانبه . .

لقد كان القرآن الكريم يعمل في قيادة المجتمع المسلم ، وفي توجيهه ، وفي توعيته ، وفي إعداده لمهمته الضخمة . . ولن يفهم هذا القرآن إلا وهو يدرس في مجاله الحركي الهائل ؛ ولن يفهمه إلا أناس يتحركون به مثل هذه الحركة الضخمة في مثل هذا المجال . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الظلال حـ 3 صـ 1691.1712 ﴾

(243/349)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ والسابقون الأولون ﴾ الذين سبقت لهم العناية الأزلية ، أو السابقون الأوّلون عند الخروج من العدم وهم أهل الصف الأول من الجنود المجندة ، أو السابقون في جواب ﴾

ألست بربكم ﴾ [الأعراف : 172] الأولون في استماع هذا الخطاب ، أبو السابقون في استحقاق المحبة عند اختصاصهم بتشريف يحبهم في الأزل ، الأولون بأداء حق المحبة في سر يحبونه ، أو السابقون عند تخمير طينة آدم في مماسة ذراتهم يد القدرة ، الأولون باستكمال تصرف القدرة في كمال الأربعين صباحاً ، أو السابقون عند رجوعهم بقدم السلوك إلى مقام الوصال ، الأولون بالوصول إلى سرادقات الجلال ، وهذا السبق مخصوص بالنبي صلى الله عليه وسلم وبأمته كما قال : " نحن الآخرون السابقون " ﴿ من المهاجرين ﴾ عن الأوطان البشرية ﴿ والأنصار ﴾ لهم في طلب الحق ﴿ والذين اتبعوهم بإحسان ﴾ بذلوا جهدهم في متابعتهم بقدر الإمكان ﴿ رضي الله عنهم ﴾ بإعطاء الاستعدادات الكاملة ﴿ ورضوا عنه ﴾ بإيفاء حقوقها . ﴿ وممن حولكم ﴾ من أعراب صفات النفس ﴿ منافقون ومن أهل ﴾ مدينة القلب فمن صفات النفس بعضها منافق كالقوة الشهوية للوقاع فإنها تتبدل بالعفة عند استيلاء القلب على النفس بسياسة الشريعة وتربية الطريقة ظاهراً لا حقيقة لأنها لا تتبدل بالكلية بل تميل إلى الشهوة إذا خليت وطباعها ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : " وإن أخوف ما أخاف على أمتي النساء " ومنها كافرة كالقوة الشهوية في طلب الغذاء فإنها باقية على طلبها ما دام البدن باقياً لاحتياجه إلى بدل ما يتحلل ، ومنها مسلمة كالقوة الغضبية والشيطانية من الكبر والحسد والكذب والخيانة فإنها يحتمل أن تتبدل بأضدادها من التواضع والمحبة والصدق والأمانة

عند استنارة النفس بنور الإيمان والذكر . فهذه الصفات وغيرها من صفات النفس ما لم تتبدل بالكلية أو لم تكن مغلوبة بأنوار صفات القلب ففيها بعض النفاق كما قال صلى الله عليه وسلم : " أربع من كن فيه

(244/349)

فهو منافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدّث كذب وإذا اؤتمن خان وإذا وعد أخلف وإذا عاهد غدر ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها " ﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ يعني أن هذه الأفعال لا يعرفها أرباب العلوم الظاهرة وإنما يعرفها أصحاب الكشوف الباطنة .

(245/349)

﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ مرة بأحكام الشريعة ومرة بآداب الطريقة ﴿ ثم يردّون ﴾ بجذبات اللطف ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ هو الفطام عن الكونين والفناء في الله أو بجذبات القهر إلى إسبال حجب البعد والبقاء في عالم الطبيعة ﴿ وآخرون ﴾ يعني القلب وصفاته

﴿ اعترفوا ﴾ بذنوب ثوبت صفات النفس والتلوث بها ﴿ خلطوا عملاً صالحاً ﴾ هو صدق التوجه ﴿ وآخر سيئاً ﴾ هو مطاوعة النفس والهوى في بعض الأوقات . ﴿ عسى الله ﴾ أن يوفقهم للرجوع إلى طريق الحق بالكلية والإعراض عما سواه . ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم بها ﴾ عن دنس حب الدنيا ﴿ وتزكيهم ﴾ بالأخلاق الفاضلة فإن حب الدنيا رأس كل خطيئة . ﴿ ويأخذ الصدقات ﴾ فيه أن المعطي يجب أن لا ينظر إلا إلى الله ولا يمنّ على الفقير أصلاً ﴿ وستردون ﴾ بأقدام أعمالكم إلى الله الذي يعلم ما غاب عنكم من نتائج أعمالكم وما غبتم عنه من التقدير الأزلي وما تشاهدون بالعيون والقلوب في عالمي الملك والملكوت . ﴿ وآخرون مرجون ﴾ أخرت توبتهم ليتردّدوا بين الخوف والرجاء فيطيروا بجناحي القبض والبسط إلى أن يصلوا إلى سرادقات الهيبة والأنس . ﴿ والله عليم ﴾ بتربية عباده ﴿ حكيم ﴾ فيما يفعل من القبول والرد . ﴿ والذين اتخذوا ﴾ في عالم الطبيعة مزبلة النفس ﴿ مسجداً ضراراً ﴾ لأرباب الحقيقة ﴿ وكفراً ﴾ بأحوالهم ﴿ لمن حارب الله ﴾ هم أهل الإباحة من مدعي الفقر ﴿ لا تقم ﴾ يا رسول الروح . ﴿ أسس على التقوى ﴾ هو مسجد القلب جبل على العبودية والطاعة ﴿ من أول يوم ﴾ من الميثاق ﴿ رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ هم الأوصاف الحميدة والملكات المزكاة عن دنس الطبيعة ولوث الحدوث . ثم ميز بين أهل السعادة والشقاوة فقال : ﴿ أفمن أسس بنيانه ﴾ أي جبل على الخير وما فيه رضا الله

﴿ لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة ﴾ لأنهم جبلوا على الشقاء ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ غيروا عن طباعهم وذلك محال أو لا يزال يسري من مزبلة النفس وسخ وظلمة إلى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم غيروا

عن طباعهم وذلك بسكين الرياضة فتزول عنها تلك الملكات . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 531.532 ﴾

(246/349)

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عاهد الله لَئِنْ ءاتانا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصالحين ﴾ [التوبة : 75] إشارة إلى وصف المغرورين الذين ما ذاقوا طعم المحبة ولا هب عليهم نسيم العرفان ، ومن هنا صححوا لأنفسهم أفعالاً فقالوا : لنصدقن ﴿ فَلَمَّا ءاتَاهُمْ مّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ ﴾ [التوبة : 76] أي أنهم نقضوا العهد لما ظهر لهم ما سألوه ، والبخال كما قال أبو حفص : ترك الايثار عند الحاجة إليه ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ الله يَعْلَمُ سِرَّهُمْ ﴾ وهو ما لا يعلمونه من أنفسهم ﴿ ونجواهم ﴾ [التوبة : 78] أي ما يعلمونه منها دون الناس ، وقيل : السر ما لا يطلع عليه إلا عالم الأسرار والنجوى ما يطلع عليه

الحفظة ﴿ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِى قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّا ﴾ [التوبة : 81] أرادوا التثبيط على المؤمنين ببيان بعض شدائد الغزو وما دروا أن المحب يستعذب المر في طلب وصال محبوبه ويرى الحزن سهلاً والشدائد لذائذ في ذلك ، ولا خير فيمن عاقه الحر والبرد ، ورد عليهم بأنهم آثروا بمخالفتهم النار التي هي أشد حراً ويشبه هؤلاء المنافقين في هذا التثبيط أهل البطالة الذين يثبطون السالكين عن السلوك ببيان شدائد السلوك وفوات اللذائذ الدنيوية ﴿ لكن الرسول والذين ءامَنُواْ مَعَهُ جاهدوا بأموالهم وَأَنفُسِهِمْ ﴾ فأفنوا كل ذلك في طلب مولاهم جل جلاله ﴿ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الخيرات ﴾ المشاهدات والمكاشفات والقربات ﴿ وأولئك هُمُ المفلحون ﴾ [التوبة : 88] الفائزون بالبغية .

(247/349)

﴿ لَّيْسَ عَلَى الضعفاء ﴾ أي الذين أضعفهم حمل المحبة ﴿ وَلاَ على المرضى ﴾ بداء الصبابة حتى ذابت أجسامهم بحرارة الفكر وشدائد الرياضة ﴿ وَلاَ عَلَى الذين لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ ﴾ وهم المتجردون من الأكوان ﴿ حَرَجٌ ﴾ اثم في التخلف عن الجهاد الأصغر

(248/349)

﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ [التوبة : 91] بأن أرشدوا الخلق إلى الحق ﴿ وَمِنَ الاعراب مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا ﴾ [التوبة : 98] غرامة وخسرانا ، قيل : كل من يرى الملك لنفسه يكون ما ينفق غرامة عنده وكل من يرى الأشياء لله تعالى وهي عارية عنده يكون ما ينفق غنماً عنده ﴿ والسابقون الاولون ﴾ أي الذين سبقوا إلى الوحدة من أهل الصنف الأول ﴿ مِنَ المهاجرين ﴾ وهم الذين هجروا مواطن النفس ﴿ والانصار ﴾ وهم الذين نصروا القلب بالعلوم الحقيقية على النفس ﴿ والذين اتبعوهم ﴾ في الاتصاف بصفات الحق ﴿ بإحسان ﴾ أي بمشاهدة من مشاهدات الجمال والجلال ﴿ رَضِيَ الله تَعَالَى عَنْهُمْ ﴾ بما أعطاهم من عنايته وتوفيقه ﴿ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ بقبول ما أمر به سبحانه وبدل أموالهم ومهجهم في سبيل عز شأنه ﴿ وَأَعَدَّ لَهُمْ جنات ﴾ من جناب الأفعال والصفات ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأنهار ﴾ [التوبة : 100] وهي أنهار علوم التوكل والرضا ونحوهما ووراء هذه الجنات المشتركة بين المتعاطفات جنة الذات وهي مختصة بالسابقين ﴿ وَءاخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ ﴾ وهم الذين لم ترسخ فيهم ملكة الذنب وبقي منهم فيهم نور الاستعداد ولهذا لانت شكيمتهم واعترفوا بذنوبهم ورأوا قبحها وأما من رسخت فيه ملكة الذنب واستولت عليه الظلمة فلا يرى ما يفعل من القبائح إلا حسناً ﴿ خَلَطُواْ عَمَلاً صالحا وَءاخَرَ سَيِّئاً ﴾ حيث كانوا في رتبة النفس اللوامة التي لم يصر

اتصالها بالقلب وتنورها بنوره ملكة لها ولهذا تنقاد له تارة وتعمل أعمالاً صالحة وذلك إذا استولى القلب عليها وتنفر عنه أخرى وتفعل أفعالاً سيئة إذا احتجبت عنه بظلمتها وهي دائماً بين هذا وذاك حتى يقوى اتصالها بالقلب ويصير ذلك ملكة لها وحينئذ يصلح أمرها وتنجو من المخالفات ، ولعل قوله سبحانه : ﴿ عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 102] إشارة إلى ذلك وقد تتراكم

(249/349)

عليها الهيآت المظلمة فترجه القهقري ويزول استعدادها وتحجب عن أنوار القلب وتهوى إلى سجين الطبيعة فتهلك مع الهالكين ، وترجح أحد الجانبين على الآخر يكون بالصحبة فإن أدركها التوفيق صحبت الصالحين فتحلت بأخلاقهم وعملت أعمالهم فكانت منهم ، وإن لحقها الخذلان صحبت المفسدين واختلطت بهم فتدنست بخلالهم وفعلت أفاعيلهم فصارت من الخاسرين أعاذنا الله تعالى من ذلك ، ولله در من قال :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا . . .

مضافاً لأرباب الصدور تصدراً

وإياك أن ترضى صحابة ناقص . . .

فتنحط قدراً عن علاك وتحقرا

فرفع أبو من ثم خفض مزمل . . .

يبين قولي مغرياً ومحذراً

وقد يكون ترجح جانب الاتصال بأسباب أخر كما يشير إليه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أموالهم صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ لأن المال مادة الشهوات فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالأخذ من ذلك ليكون أول حالهم التجرد لتنكسر قوى النفس وتضعف أهواؤها وصفاتها فتتزكى من الهيآت المظلمة وتتطهر من خبث الذنوب ورجس دواعي الشيطان ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ بامداد الهمة وإفاضة أنوار الصحبة ﴿ إن صلواتك سَكَنٌ لَّهُمْ ﴾ [التوبة : 103] أي سبب لنزول السكينة فيهم ، وفسروا السكينة بنور يستقر في القلب وبه يثبت على التوجه إلى الحق ويتخلص عن الطيش ﴿ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التقوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ لأن النفس تتأثر فيه بصفاء الوقت وطيب الحال وذوق الوجدان بخلاف ما إذا كان مبنياً على ضد ذلك فإنها تتأثر فيه بالكدورة والتفرقة والقبض .

(250/349)

وأصل ذلك أن عالم الملك تحت قهر عالم الملكوت وتسخيره فيلزم أن يكون لنيات النفوس وهيأتها تأثير فيما تباشره من الأعمال ، ألا ترى الكعبة كيف شرفت وعظمت وجعلت محلا للتبرك لما أنها كانت مبنية بيد خليل الله تعالى عليه الصلاة والسلام بنية صادقة ونفس شريفة ، ونحن نجد أيضاً أثر الصفاء والجمعية في بعض المواضع والبقاع وضد ذلك في بعضها ، ولست أعني إلا وجود ذوي النفوس الحساسة الصافية لذلك وإلا فالنفوس الخبيثة تجد الأمر على عكس ما تجده أرباب تلك النفوس ، والصفراوي يجد السكر مرا ، والجعل يستخبث رائحة الورد : ومن هنا كان المنافق في المسجد كالسمك في اليبس والمخلص فيه كالسمكة في الماء ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ﴾ أي أهل إرادة وسعى في التطهر عن الذنوب ، وهو إشارة إلى أن صحبة الصالحين لها أثر عظيم ، ويتحصل من هذا وما قبله الإشارة إلى أنه ينبغي رعاية المكان والإخوان في حصول الجمعية ، وجاء عن القوم أنه يجب مراعاة ذلك مع مراعاة الزمان في حصول ما ذكر ﴿ واللهُ يُحِبُّ المطهرين ﴾ [التوبة : 108] ولو محبته إياهم لما أحبوا ذلك .

وعن سهل الطهارة على ثلاثة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة الطاعة من المعصية .

وقال بعضهم : الطهارة على أقسام كثيرة : فطهارة الاسرار من الخطرات ، وطهارة الأرواح من الغفلات ، وطهارة القلوب من الشهوات وطهارة العقول من الجهالات ، وطهارة النفوس

من الكفريات ، وطهارة الأبدان من الزلات .

وقال آخر : الطهارة الكامل طهارة الاسرار من دنس الأغيار والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(251/349)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/350)

الجزء الخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 111 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 114 ﴾ من نفس السورة

(4/350)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تقدم الإنكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا ﴾ [التوبة : 38] ثم الجزم بالأمر بالجهاد بالنفس والمال في قوله ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [التوبة : 41] وكان أمره تعالى كافياً للمؤمن الذي صدق إيمانه بالإسلام في امتثاله لذلك في منشطه ومكرهه ، وكان كثير منهم قد فعلوا بتثاقلهم ما يقدح في إيمانهم طعماً في ستره بمعاذيرهم وإيمانهم ، اقتضى المقام تبكيت المتثاقلين وتأنيب المنافقين على وجه مهتك لأستارهم مكشف لأسرارهم ، فلما استوفى تعالى في ذلك أقسامهم ، ونكس ألويتهم وأعلامهم ، وختمهم بهذه الطائفة التي ظهر فيها امتثاله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقوله تعالى ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ بأن هدّ مسجدهم وحرقة بالنار وأزال بنيانه وفرقة ، وقدّ أديمه عن جديد الأرض ومزقه ، أتبع ذلك سبحانه بتذكير المؤمنين ما أمرهم به في قوله تعالى ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ وقوله ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ ليفعلوا فيه ما فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما أمر به ، فساق مساق الجواب لسؤال من كأنه قال : لقد طال المدى وعظم الخطب في هذه السورة في إبانة الفضائح وهتك السرائر وإظهار القبائح ، فلم فعل ذلك وقد جرت عادته بالأمر بالستر وأخذ العفو ؟ قوله : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الذي لا ملك في الحقيقة غيره ولا يخشى إلا عذابه ولا يرجى إلا خيره ﴿ اشترى ﴾ أي بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة ، ولذلك عبر بما يدل على اللجاج فيها فقال : ﴿ من المؤمنين ﴾ أي بالله وما جاء من عنده

، وقدم النفس إشارة إلى المبايعة سابقة على اكتساب المال فقال مقدماً للأعز :

﴿ أنفسهم ﴾ أي التي تفرد بخلقها ﴿ وأموالهم ﴾ أي التي تفرد برزقها وهو يملكها دونهم .

(5/350)

ولما ذكر المبيع أتبعه الثمن فقال : ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ أي خاصة بهم مقصورة عليهم ، لا يكون لغير مؤمن ، فميزهم حتى يقابل كل بما يستحقه ، فكأنه قيل : اشترى منهم ذلك بماذا ؟ فقيل : ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ أي الملك الأعلى بسبب دينه الذي لا يرضي غيره ، قتالاً يكون الدين محيطاً به وظرفاً ، فلا يكون فيه شائبة لغيره ؛ ثم سبب عن ذلك ما هو حقيق به ، فقال : ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ أعم من يكون ذلك بالقوة أو بالفعل ، فيخصهم بالجنة كما وعدهم ، وقراءة حمزة والكسائي بتقديم المبني للمفعول أمدح ، لأن من طلب الموت – لا يقف له خصمه فيكون المعنى : فطلبوا أن يكونوا مقتولين فقتلوا أقرانهم ، ويجوز أن يكون النظر إلى المجموع فيكون المعنى أنهم يقاتلون بعد رؤية مصارع أصحابهم من غير أن يوهنهم ذلك ، وعن بعض الأعراب أنه لما سمع هذه الاية قال : بيع والله مربح ! لا نقيل ولا نستقيل ، فخرج إلى الغزو فاستشهد .

(6/350)

ولما كان القتل لكونه سبباً للجنة بشارة ووعداً ، أكد ذلك بقوله : ﴿ وعداً ﴾ وزاده بحرف الإيجاب فقال : ﴿ عليه ﴾ وأتم التأكيد بقوله : ﴿ حقاً ﴾ ولما أكد هذه المبايعة الكريمة هذه التأكيدات العظيمة ، زاد ذلك بذكره في جميع الكتب القديمة فقال : ﴿ في التوراة ﴾ كتاب موسى عليه السلام ﴿ والإنجيل ﴾ كتاب عيسى عليه السلام ﴿ والقرآن ﴾ أي الكتاب الجامع لكل ما قبله ولكل خير ، وهؤلاء المذكورون في هذه السورة كلهم ممن ادعى الإيمان وارتدى به حلل الأمان ، ثم إنهم فعلوا بتخلفهم عن الإقباض وتوقفهم عن الإسراع والإيقاض وغير ذلك من أقوالهم ومساوىء أفعالهم فعل الكاذب في دعواه أو الشاك أعم من أن يكون كذب بالآخرة المشتملة على الجنة أو يكون شك في وعد الله بإيراثهم إياها أو بتخصيصهم بها ، وجوز أن يدخلها غيرهم وطمع أن يكون هو ممن يدخلها مع التكذيب ، والله تعالى منزه عن جميع ذلك وهو وفي بعهده ﴿ ومن ﴾ أي وعد بذلك والحال أنه أوفى المعاهدين فهو مقول فيه على طريق الاستفهام الإنكاري : من ﴿ أوفى بعهده من الله ﴾ أي الذي له جميع صفات الكمال لأن الإخلاف لا يقدم عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق .

ولما كان ذلك سبباً للتبشير ، لأنه لا ترغيب في الجهاد أحسن منه ، قال مهنئاً لهم : ﴿ فاستبشروا ﴾ أي فأوجدوا في نفوسكم غاية البشر يا معاشر المجاهدين ولما ذكره في

ابتداء العقد يدل على التأكيد ، ذكره في آخر بلفظ يدل على السعة إشارة إلى سعة الجزاء فقال : ﴿ ببيعكم الذي بايعتم ﴾ أي أوقعتم المبايعة لله ﴿ به ﴾ فإنه موفيكم لا محالة فذلك هو الأجر الكريم ﴿ وذلك ﴾ أي إيراثكم الجنة وتخصيصكم بها ﴿ هو ﴾ أي خاصة لا غيره ﴿ الفوز العظيم ﴾ فالحاصل أن هذه الآية واقعة موقع التعليل للأمر بالنفر بالنفس والمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 388 . 390 ﴾

(7/350)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ فيقتلون ﴾ مبنياً للمفعول ﴿ ويقتلون ﴾ مبنياً للفاعل : حمزة علي وخلف الآخرون على العكس . ﴿ ويقتلون ﴾ بالتشديد : أبو عون عن قنبل . ﴿ إبراهام ﴾ وكذلك ما بعده : هشام ﴿ يزيغ ﴾ بياء الغيبة . حمزة وحفص والمفضل . والباقون بتاء التأنيث . ﴿ خلفوا ﴾ بالتخفيف وفتح اللام روى ابن رومي عن عباس . الباقون بالتشديد مجهولاً .

الوقوف : ﴿ الجنة ﴾ ط ﴿ ويقتلون ﴾ ط ﴿ القرآن ﴾ ط ﴿ بايعتهم به ﴾ ط ﴿

العظيم ﴾ ه ﴿ لحدود الله ﴾ ط ﴿ المؤمنين ﴾ ه ﴿ الجحيم ﴾ ه ﴿ إياه ﴾ ط ﴿ منه ﴾ طج ﴿ حليم ﴾ ه ط ﴿ ما يتقون ﴾ ط ﴿ عليم ﴾ ه ﴿ والأرض ﴾ ط ﴿ ويميت ﴾ ط ﴿ نصير ﴾ ه ﴿ تاب عليهم ﴾ ط ﴿ رحيم ﴾ ه ط للعطف على النبي ﴿ خلفوا ﴾ ط ﴿ إلا إليه ﴾ ط ﴿ ليتوبوا ﴾ ط ﴿ الرحيم ﴾ ه ﴿ الصادقين ﴾ ه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 533 ﴾

(8/350)

فصل

قال الفخر :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرع في شرح فضائح المنافقين وقبائحهم لسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، فلما تمم ذلك الشرح والبيان وذكر أقسامهم ، وفرع على كل قسم ما كان لائقاً به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد وحقيقته فقال : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ وفي الآية

مسائل :

المسألة الأولى :

قال القرطبي : (1) لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً ، قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

فقال : " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، ولنفسي أن تمنعوني ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا : فإذا فعلنا ذلك فماذا لنا ؟ قال : " الجنة " قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل .

فنزلت هذه الآية .

قال مجاهد والحسن ومقاتل : ثامنهم فأغلى ثمنهم .

المسألة الثانية :

قال أهل المعاني : لا يجوز أن يشتري الله شيئاً في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك ، ولهذا قال الحسن : اشترى أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، لكن هذا ذكره تعالى لحسن التلطف في الدعاء إلى الطاعة ، وحقيقة هذا ، أن المؤمن متى قاتل في سبيل الله حتى يقتل ، فتذهب روحه ، وينفق ماله في سبيل الله ، أخذ من الله في الآخرة الجنة جزاء لما فعل .

فجعل هذا استبدالاً وشراء .

هذا معنى قوله : ﴿ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ أي بالجنة ، وكذا قراءة عمر بن الخطاب والأعمش .

قال الحسن : اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة ، بايع الله بها كل مؤمن ، والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة .

---

(1) قال مصحح الكتاب :

ولا ندري كيف استطاع الإمام الفخر الرازي (ت 606 ه) نقل كلام الإمام القرطبي محمد بن أحمد أبي عبد الله (ت 1671 ه) من تفسيره :

الجامع لأحكام القرآن كما وجدناه في (8/ 267) و(14/ 150) كما تدل على ذلك سنين وفاتيهما ، فقد توفي الإمام الرازي قبل الإمام القرطبي بخمس وستين سنة فكيف يستطيع أن ينقل عنه ! ! . . إلا أن يكون الإمام القرطبي قد عاش (100) سنة (ولا ندري سنة ولادته من المصادر تحديدا) وأنه يؤلف تفسيره «الجامع» في سن مبكرة في حدود الثلاثين . وهنا أمر نستبعده ، وهناك احتمال أن يكون مقصود الإمام الرازي أبو جعفر القرطبي ، أحمد بن علي بن أبي بكر بن عتيق ، الشافعي ، نزيل دمشق (ت 596 ه) وهو الإمام المقرئ المحدث نقول : فلعل الإمام القرطبي صاحب التفسير قد نقل عن هذا ، وهذا الاحتمال بعيد والله تعالى أعلم بالصواب . المصحح .

أقول : ما ذكره المصحح فى غاية البعد ، ومن الجائز أن تكون هذه زيادة توضيح من الناسخ . والله أعلم .

وقال الصادق عليه الصلاة والسلام : " ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها "

وقوله : ﴿ وأموالهم ﴾ يريد التي ينفقونها في سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم ، وفي الآية لطائف :

اللطيفة الأولى المشتري لا بد له من بائع ، وههنا البائع هو الله والمشتري هو الله ، وهذا إنما يصح في حق القيم بأمر الطفل الذي لا يمكنه رعاية المصالح في البيع والشراء ، وصحة هذا البيع مشروطة برعاية الغبطة العظيمة ، فهذا المثل جار مجرى التنبيه على كون العبد شبيهاً بالطفل الذي لا يهتدي إلى رعاية مصالح نفسه ، وأنه تعالى هو المراعي لمصالحه بشرط الغبطة التامة ، والمقصود منه التنبيه على السهولة والمسامحة ، والعفو عن الذنوب ، والإيصال إلى درجات الخيرات ومراتب السعادات .

واللطيفة الثانية : أنه تعالى أضاف الأنفس والأموال إليهم فوجب أن كون الأنفس والأموال مضافة إليهم يوجب أمرين مغايرين لهم ، والأمر في نفسه كذلك ، لأن الإنسان عبارة عن الجوهر الأصلي الباقي ، وهذا البدن يجري مجرى الآلة والأدوات والمركب ، وكذلك المال

خلق وسيلة إلى رعاية مصالح هذا المركب ، فالحق سبحانه اشترى من الإنسان هذا المركب وهذا المال بالجنة ، وهو التحقيق .

(10/350)

لأن الإنسان ما دام يبقى متعلق القلب بمصالح عالم الجسم المتغير المتبدل ، وهو البدن والمال ، امتنع وصوله إلى السعادات العالية والدرجات الشريفة ، فإذا انقطع التفاته إليها وبلغ ذلك الانقطاع إلى أن عرض البدن للقتل ، والمال للإنفاق في طلب رضوان الله ، فقد بلغ إلى حيث رجح الهدى على الهوى ، والمولى على الدنيا ، والآخرة على الأولى ، فعند هذا يكون من السعداء الأبرار والأفاضل الأخيار ، فالبائع هو جوهر الروح القدسية والمشتري هو الله ، وأحد العوضين الجسد البالي والمال الفاني ، والعوض الثاني الجنة الباقية والسعادات الدائمة ، فالربح حاصل والهم والغم زائل ، ولهذا قال : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ .

ثم قال : ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قال صاحب "الكشاف" : قوله : ﴿ يقاتلون ﴾ فيه معنى الأمر كقوله : ﴿ تجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ وقيل جعل ﴿ يقاتلون ﴾ كالتفسير لتلك المبايعة ، وكالأمر اللازم لها .

قرأ حمزة والكسائي بتقديم المفعول على الفاعل وهو كونهم مقتولين على كونهم قاتلين ، والباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

أما تقديم الفاعل على المفعول فظاهر ، لأن المعنى أنهم يقتلون الكفار ولا يرجعون عنهم إلى أن يصيروا مقتولين .

وأما تقديم المفعول على الفاعل ، فالمعنى : أن طائفة كبيرة من المسلمين ، وإن صاروا مقتولين لم يصر ذلك رادعاً للباقين عن المقاتلة ، بل يبقون بعد ذلك مقاتلين مع الأعداء . قاتلين لهم بقدر الإمكان ، وهو كقوله : ﴿ فَمَا وَهَنُواْ لِمَا أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ الله ﴾ [آل عمران : 146] أي ما وهن من بقي منهم .

(11/350)

واختلفوا في أنه هل دخل تحت هذه الآية مجاهدة الأعداء بالحجة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أم لا ؟ فمنهم من قال : هو مختص بالجهاد بالمقاتلة ، لأنه تعالى فسر تلك المبايعة بالمقاتلة بقوله : ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ومنهم من قال : كل أنواع الجهاد داخل فيه ، بدليل الخبر الذي رويناه عن عبد الله بن رواحة .

وأيضاً فالجهاد بالحجة والدعوة إلى دلائل التوحيد أكمل آثاراً من القتال ، ولذلك قال صلى

الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه : " لأن يهدي الله على يدك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس " ولأن الجهاد بالمقاتلة لا يحسن أثرها إلا بعد تقديم الجهاد بالحجة .

وأما الجهاد بالحجة فإنه غني عن الجهاد بالمقاتلة .

والأنفس جوهرها جوهر شريف خصه الله تعالى بمزيد الإكرام في هذا العالم ، ولا فساد في ذاته ، إنما الفساد في الصفة القائمة به ، وهي الكفر والجهل .

ومتى أمكن إزالة الصفة الفاسدة ، مع إبقاء الذات والجوهر كان أولى .

ألا ترى أن جلد الميتة لما كان منتفعاً به من بعض الوجوه ، لا جرم حث الشرع على إبقائه ، فقال :

" هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به " فالجهاد بالحجة يجري مجرى الدباغة ، وهو إبقاء الذات مع إزالة الصفة الفاسدة ، والجهاد بالمقاتلة يجري مجرى إفناء الذات ، فكان المقام الأول أولى وأفضل .

ثم قال تعالى : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التوراة والإنجيل والقرءان ﴾ قال الزجاج : نصب ﴿ وَعْداً ﴾ على المعنى ، لأن معنى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ أنه وعدهم الجنة ، فكان وعداً مصدراً مؤكداً .

واختلفوا في أن هذا الذي حصل في الكتب ما هو ؟

فالقول الأول : أن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيل الله وعد ثابت ، فقد أثبته الله في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن .

(12/350)

والقول الثاني : المراد أن الله تعالى بين في التوراة والإنجيل أنه اشترى من أمة محمد عليه الصلاة والسلام أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، كما بين في القرآن .

والقول الثالث : أن الأمر بالقتال والجهاد هو موجود في جميع الشرائع .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ والمعنى : أن نقض العهد كذب .

وأيضاً أنه مكر وخديعة ، وكل ذلك من القبائح ، وهي قبيحة من الإنسان مع احتياجه إليها ، فالغني عن كل الحاجات أولى أن يكون منزهاً عنها .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ ﴾ استفهام بمعنى الإنكار ، أي لا أحد أوفى بما وعد من الله .

ثم قال : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ وذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ واعلم أن هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيدات : فأولها : قوله : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم ﴾ فيكون المشتري هو الله المقدس عن الكذب والخيانة ، وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد .

والثاني : أنه عبر عن إيصال هذا الثواب بالبيع والشراء ، وذلك حق مؤكد .

وثالثها : قوله : ﴿ وَعْداً ﴾ ووعد الله حق .

ورابعها : قوله : ﴿ عَلَيْهِ ﴾ وكلمة "على" للوجوب .

وخامسها : قوله : ﴿ حَقّاً ﴾ وهو التأكيد للتحقيق .

وسادسها : قوله : ﴿ فِي التوراة والإنجيل والقرءان ﴾ وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبايعة .

وسابعها : قوله : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ وهو غاية في التأكيد .

وثامنها : قوله : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ وهو أيضاً مبالغة في التأكيد .

وتاسعها : قوله : ﴿ وذلك هُوَ الفوز ﴾ وعاشرها : قوله : ﴿ العظيم ﴾ فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة في التأكيد والتقرير والتحقيق .

ونختم الآية بخاتمة وهي أن أبا القاسم البلخي استدل بهذه الآية على أنه لا بد من حصول الأعواض عن آلام الأطفال والبهائم .

(13/350)

قال لأن الآية دلت على أنه لا يجوز إيصال ألم القتل وأخذ الأموال إلى البالغين إلا بثمن هو الجنة ، فلا جرم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ فوجب أن يكون الحال كذلك في الأطفال والبهائم ، ولو جاز عليهم التمني لتمنوا أن آلامهم تتضاعف حتى تحصل لهم تلك الأعواض الرفيعة الشريفة ، ونحن نقول : لا ننكر حصول الخيرات للأطفال والحيوانات في مقابلة هذه الآلام ، وإنما الخلاف وقع في أن ذلك العوض عندنا غير واجب ، وعندكم واجب ، والآية ساكتة عن بيان الوجوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 158 . 160 ﴾

(14/350)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

معناه إنه طلب من المؤمنين أن يعدوا أنفسهم وأموالهم ، ويخرجوا إلى الجهاد والقتال في سبيل الله ، ليثيبهم الجنة .

وذكر الشراء على وجه المثل ، لأن الأموال والأنفس كلها لله تعالى ، وهي عند أهلها عارية ، ولكنه أراد به التحريض والترغيب في الجهاد .

وهذا كقوله : ﴿ مَّن ذَا الذى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 245] ثم قال : ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ اللهِ ﴾ ، يعني : في طاعة الله تعالى مع العدو .

﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ ، يعني : العدو ويقتلهم العدو .

قرأ حمزة والكسائي ﴿ فَيَقْتُلُونَ ﴾ بالرفع ﴿ وَيَقْتُلُونَ ﴾ بالنصب على معنى التقديم والتأخير ، وقرأ الباقون ﴿ يَقْتُلُونَ ﴾ بالنصب ﴿ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بالرفع .

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ ، يعني : واجباً لهم ذلك ، بأن يفي لهم ما وعد ، وبين ذلك ﴿ فِي التوراة والإنجيل والقرءان وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ ، يعني : ليس أحد أوفى من الله تعالى في عهده وشرطه ، لأنه عهد أن مَنْ قتل في سبيل الله ، فله الجنة فيفي عهده وينجز وعده .

ثم قال : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ وهذا إعلان لهم أنهم يربحون في مبايعتهم .

﴿ ذلك هُوَ الفوز العظيم ﴾ ، يعني : الثواب الوافر والنجاة والوافرة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(15/350)

وقال الثعلبى :

﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

قال محمد بن كعب القرظي : " لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً . قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : " اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم أموالكم " ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : " الجنة " .

وقال الأعمش : الجنة وهي قراءة عمر بن الخطاب (رضي الله عليه) ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قال إبراهيم النخعي والأعمش وحمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل على معنى فيقتل بعضهم ويقتل الباقون ، وقرأ الباقون : بتقديم الفاعل على المفعول ﴿ وَعْداً ﴾ نصب على المصدر ﴿ عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ ثم هنّأهم فقال عزّ من قائل : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ قال قتادة : ثامنهم وأغلى ثمنهم ، وقال الحسن : أسمعوا بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن ، والله ما على وجه الأرض مؤمن إلاّ دخل في هذه البيعة .

قال : " ومرّ أعرابي بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية قال : كلام من هذا ؟

قال : كلام الله . قال : بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو فاستشهد " .

أنشدنا أبو القاسم الحسن بن محمد الحبيبي . قال : أنشدنا أبو الحسن العقيلي . أنشدنا بشر بن موسى الأسدي . أنشدني الأصمعي عن جعفر الصادق (رضي الله عنه) .

أُثامن بالنفس النفيسة ربها . . . فليس لها في الخلق كلهم ثمن @_ بها تشترى الجنات إن أنا بعتها

بشيء سواها إن ذلكم غبن . . . إذا أذهبت نفسي بدنيا أصبتها

فقد ذهب الدنيا وقد ذهب الثمن . . . وكان الصادق يقول : أيا من ليست له قيمة أنه ليس لأبدانكم إلاّ الجنة فلا تبيعوها إلاّ بها .

(16/350)

وأنشدنا أبو القاسم الحبيبي . أنشدنا القاضي أبو الربيع محمد بن علي . أنشدنا أبو علي الحسن بن عاصم الكوفي :

من يشتري قبة في العدن عالية . . . في ظل طوبى رفيعات مبانيها

دلالها المصطفى والله بايعها . . . فمن أراد وجبريل يناديها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

اشترى أنفسهم بالجهاد ، ﴿ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : نفقاتهم في الجهاد .

والثاني : صدقاتهم على الفقراء .

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ قال سعيد بن جبير : يعني الجنة ، وهذا الكلام مجاز معناه أن الله تعالى أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم بالجنة ، فعبر عنه بالشراء لما فيه من عوض ومعوض مضار في معناه ، ولأن حقيقة الشراء لما لا يملكه المشتري .

﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ لأن الثواب على الجهاد إنما يستحق إذا كان في طاعته ولوجهه .

﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ يعني أن الجنة عوض عن جهادهم سواء قَتَلُوا أو قُتِلُوا . فروى جابر بن عبد الله الأنصاري أن هذه الآية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد فكبّر الناس ، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف ردائه على أحد عاتقيه فقال :

يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ فقال : نَعَم ، فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقبل ولا نستقبل .
وقال بعض الزهاد : لأنه اشترى الأنفس الفانية بالجنة الباقية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(18/350)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ الآية

هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو ، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة فقالوا : اشترط لك ولربك ، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة ، فاشترط رسول الله صلى الله عليه وسلم حمايته مما يحمون منه أنفسهم ، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة ، فقالوا : ما لنا على ذلك ؟ قال الجنة ، فقالوا : نعم ربح البيع لا نقيل ولا نقال ، وفي بعض الروايات ولا نستقيل فنزلت الآية في ذلك .

ثم الآية بعد ذلك عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى

يوم القيامة ، وقال بعض العلماء : ما من مسلم إلا ولله في عنقه هذه البيعة وفى بها أو لم يف ، وفي الحديث أن فوق كل بر براً حتى يبذل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا بر فوق ذلك ، وهذا تمثيل من الله عز وجل جميل صنعه بالمبايعة ، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نفسين بقصد منهما وتملك صحيح ، وهذه القصة وهب الله عباده أنفسهم وأموالهم ثم أمرهم ببذلها في ذاته ووعدهم على ذلك ما هو خير منها ، فهذا غاية التفضل ، ثم شبه القصة بالمبايعة ، وأسند الطبري عن كثير من أهل العلم أنهم قالوا : ثامن الله تعالى في هذه الآية عباده فأعلى لهم وقاله ابن عباس والحسن بن أبي الحسن ، وقال ابن عيينة : معنى الآية اشترى منهم أنفسهم ألا يعملوها إلا في طاعة الله ، وأموالهم أن لا ينفقوها إلا في سبيل الله .

(19/350)

قال القاضي أبو محمد : فالآية على هذا أعم من القتل في سبيل الله ، ومبايعة الخلفاء هي منتزعة من هذه الآية ، كان الناس يعطون الخلفاء طاعتهم ونصائحهم وجدهم ويعطيهم الخلفاء عدلهم ونظرهم والقيام بأمورهم ، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه سمع الواعظ أبا الفضل بن الجوهري يقول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقة البائع فيها رب العلى والثمن جنة المأوى والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل

الله ﴾ مقطوع ومستأنف وذلك على تأويل سفيان بن عيينة ، وأما على تأويل الجمهور من أن الشراء والبيع إنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال ، وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو والحسن وقتادة وأبو رجاء وغيرهم : " فيَقتلون " على البناء للفاعل " ويُقتلون " على البناء للمفعول ، وقرأ حمزة والكسائي والنخعي وابن وثاب وطلحة والأعمش بعكس ذلك ، والمعنى واحد إذ الغرض أن المؤمنين يقاتلون فيوجد فيهم من يَقتل وفيهم من يُقتل وفيهم من يجتمعان له وفيهم من لا تقع له واحدة منهما ، وليس الغرض أن يجتمع ولا بد لكل واحد واحد ، وإذا اعتبر هذا بان ، وقوله سبحانه ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ مصدر مؤكد لأن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاء هو مؤكداً لما تقدم من قوله : ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ ، وقال المفسرون : يظهر من قوله : ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ ، أن كل أمة أمرت بالجهاد ووعدت عليه .

(20/350)

قال القاضي أبو محمد : ويحتمل أن ميعاد أمة محمد صلى الله عليه وسلم تقدم ذكره في هذه الكتب ، وقوله ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ استفهام على جهة التقرير أي لا أحد أوفى بعهده من الله ، وقوله ﴿ فاستبشروا ﴾ فعل جاء فيه استفعل بمعنى أفعل وليس هذا من

معنى طلب الشيء ، كما تقول : استوقد ناراً واستهدى مالاً واستدعى نصراً بل هو كعجب واستعجب ، ثم وصف تعالى ذلك البيع بإنه ﴿ الفوز العظيم ﴾ ، أي أنه الحصول على الحظ الأغبط من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(21/350)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾

سبب نزولها " أن الأنصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً ، قال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ، ما شئت ، فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم ، قالوا فإذا فعلنا ذلك ، فما لنا ؟ قال : "الجنة" قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت ﴿ إن الله اشترى . . .

﴿ الآية " ، قاله محمد بن كعب القرظي فأما اشتراء النفس ، فبالجهاد .

وفي اشتراء الأموال وجهان .

أحدهما : بالإِنفاق في الجهاد .

والثاني : بالصدقات .

وذِكْرُ الشراء هاهنا مجاز ، لأن المشتري حقيقة هو الذي لا يملك المشترى ، فهو كقوله : ﴿ من ذا الذي يُقرض الله ﴾ [البقرة : 245] والمراد من الكلام أن الله أمرهم بالجهاد بأنفسهم وأموالهم ليجازيهم عن ذلك بالجنة ، فعبَّر عنه بالشراءِ لِما تضمن من عوض ومعوض .

وكان الحسن يقول : لا والله ، إنْ في الدنيا مؤمن إلا وقد أُخذت بيعته .

وقال قتادة : ثامَنَهم والله فأغلى لهم .

قوله تعالى : ﴿ فيَقتُلون ويُقتَلون ﴾ قرأ ابن كثير ، ونافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم "فيَقتلون ويُقتَلون" فاعل ومفعول .

وقرأ حمزة ، والكسائي "فيُقتلون ويَقتُلون" مفعول وفاعل .

قال أبو علي : القراءة الأولى بمعنى أنهم يَقتُلون أولاً ويُقتلون ، والأخرى يجوز أن تكون في المعنى كالأولى ، لأن المعطوف بالواو يجوز أن يراد به التقديم ؛ فإن لم يقدَّر فيه التقديم ، فالمعنى : يقتُل من بقي منهم بعد قتل من قُتل ، كما أن قوله : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم ﴾ [آل عمران : 146] ما وهن من بقي بِقَتْلِ من قُتل .

ومعنى الكلام : إن الجنة عوض عن جهادهم ، قَتَلوا أو قُتلوا .

(22/350)

﴿ وعداً عليه ﴾ قال الزجاج: نصب "وعداً" بالمعنى، لأن معنى قوله ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ ، قال: وقوله: ﴿ في التوراة والإنجيل ﴾ يدل على أن أهل كل ملة أُمروا بالقتال ووُعدوا عليه الجنة.

قوله تعالى: ﴿ ومن أوفى ﴾ أي: لا أحد أوفى بما وعد ﴿ من الله ﴾ ﴿ فاستبشروا ﴾ أي: فافرحوا بهذا البيع. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(23/350)

وقال القرطبى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

فيه ثمان مسائل:

الأولى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ قيل؛ هذا تمثيل؛ مثل قوله تعالى: ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة: 16].

ونزلت الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سناً عُقبة بن عمرو ؛ وذلك أنهم اجتمعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة ، فقال عبد الله بن رواحة للنبيّ صلى الله عليه وسلم اشترط لربك ولنفسك ما شئت ؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أشترطُ لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : " الجنة " قالوا : رَبح البيع ، لا نُقيل ولا نستقيل ؛ فنزلت : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ الآية .

ثم هي بعد ذلك عامّة في كل مجاهد في سبيل الله من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلى يوم القيامة .

الثانية هذه الآية دليل على جواز معاملة السيد مع عبده ، وإن كان الكل للسيد لكن إذا ملكه عامله فيما جعل إليه .

وجائز بين السيد وعبده ما لا يجوز بينه وبين غيره ؛ لأن ماله له وله انتزاعه .

الثالثة أصل الشراء بين الخلق أن يعوضوا عما خرج من أيديهم ما كان أنفع لهم أو مثل ما خرج عنهم في النفع ؛ فاشترى الله سبحانه من العباد إتلاف أنفسهم وأموالهم في طاعته ، وإهلاكها في مرضاته ، وأعطاهم سبحانه الجنة عوضاً عنها إذا فعلوا ذلك .

وهو عوض عظيم لا يدانيه المعوّض ولا يقاس به ، فأجرى ذلك على مجاز ما يتعارفونه في البيع والشراء فمن العبد تسليم النفس والمال ، ومن الله الثواب والنوال فسمى هذا شراء .

(24/350)

وروى الحسن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذُل العبد دمه فإذا فعل ذلك فلا برّ فوق ذلك " وقال الشاعر في معنى البر :

الجود بالماء جود فيه مكرمة . . .

والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وأنشد الأصمعي لجعفر الصادق رضي الله عنه :

أُثَامِنُ بالنفس النفيسة ربَّها . . .

وليس لها في الخلق كلِّهِمُ ثَمَنْ

بها تشترى الجناتُ ، إن أنا بعتها . . .

بشيء سواها إن ذلكُمُ غبَنْ

لئن ذهبَتْ نفسي بدنيا أصبتُها . . .

لقد ذهبتْ نفسي وقد ذهب الثمن

قال الحسن : " ومرّ أعرابيّ على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ فقال : كلام من هذا ؟ قال : "كلام الله" قال : بَيْعٌ والله مُرْبح لا نُقيله ولا نستقيله " فخرج إلى الغَزْوِ واستشهد .

الرابعة قال العلماء : كما اشترى من المؤمنين البالغين المكلفين كذلك اشترى من الأطفال فآلمهم وأسقمهم ؛ لما في ذلك من المصلحة وما فيه من الاعتبار للبالغين ، فإنهم لا يكونون عند شيء أكثر صلاحاً وأقلَّ فساداً منهم عند ألم الأطفال ، وما يحصل للوالدين الكافلين من الثواب فيما ينالهم من الهمّ ويتعلق بهم من التربية والكفالة .

ثم هو عز وجل يعوّض هؤلاء الأطفال عِوَضاً إذا صاروا إليه .

ونظير هذا في الشاهد أنك تكتري الأجير ليَبْنِيَ وينقل التراب وفي كل ذلك له ألم وأذىً ، ولكن ذلك جائز لما في عمله من المصلحة ولما يصل إليه من الأجر .

الخامسة قوله تعالى : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ بيان لما يقاتَل له وعليه ؛ وقد تقدّم .

﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ قرأ النخعي والأعمش وحمزة والكسائي وخَلَف بتقديم المفعول على الفاعل ؛ ومنه قول امرىء القيس :

فإن تَقْتُلونا نُقَتِّلكم . . .

. . .

أي إن تقتلوا بعضنا يقتلكم بعضنا .

وقرأ الباقون بتقديم الفاعل على المفعول .

(25/350)

السادسة قوله تعالى : ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ إخبار من الله تعالى أن هذا كان في هذه الكتب ، وأن الجهاد ومقاومة الأعداء أصله من عهد موسى عليه السلام .

و"وعْداً" و "حقّاً" مصدران مؤكدانَ .

السابعة قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ أي لا أحد أوفى بعهده من الله .

وهو يتضمن الوفاء بالوعد والوعيد .

ولا يتضمن وفاء البارىء بالكل ؛ فأما وعده فللجميع ، وأما وعيده فمخصوص ببعض المذنبين وببعض الذنوب وفي بعض الأحوال .

وقد تقدّم هذا المعنى مستوفى .

الثامنة قوله تعالى : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أي أظهروا السرور بذلك .

والبشارةُ إظهارُ السرور في البَشَرة .

وقد تقدّم .

وقال الحسن : واللَّهِ ما على الأرض مؤمن إلا يدخل في هذه البيعة .

﴿ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ أي الظفر بالجنة والخلود فيها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(26/350)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ الآية

قال محمد بن كعب القرظي : لما بايعت الأنصار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة العقبة وكانوا سبعين رجلاً قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

قال أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم .

قالوا إذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة .

قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل .

فنزلت ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ قال ابن عباس :

بالجنة .

قال أهل المعاني لا يجوز أن يشتري الله شيئاً هو له في الحقيقة لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك والأشياء كلها ملك الله ، ولهذا قال الحسن : أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رزقنا إياها لكن جرى هذا مجرى التلطف في الدعاء إلى الطاعة والجهاد ، وذلك لأن المؤمن إذا قاتل في سبيل الله يقتل أو أنفق ماله في سبيل الله عوَّضه الله الجنة في الآخرة جزاء لما فعل في الدنيا فجعل ذلك استبدالاً وشتراء فهذا معنى اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة والمراد باشتراء الأموال إنفاقها في سبيل الله وفي جميع وجوه البر والطاعة ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ هذا تفسير لتلك المبايعة .

(27/350)

وقيل : فيه معنى الأمر أي قاتلوا في سبيل الله ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ يعني : فيقتلون أعداء الله ويقتلون في طاعته وسبيله ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ يعني ذلك الوعد بأن لهم الجنة وعداً على الله حقاً ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ يعني أن هذا الوعد الذي وعده الله تعالى للمجاهدين في سبيله قد أثبته في التوراة والإنجيل كما أثبته في القرآن وفيه دليل على أن الأمر بالجهاد موجود في جميع الشرائع ومكتوب على جميع أهل الملل ﴿ ومن أوفى بعهده من الله

﴿ يعني لا أحد أوفى بالعهد من الله ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾

فاستبشروا أيها المؤمنون بهذا البيع الذي بايعتم الله به ﴿ وذلك ﴾ يعني هذا البيع ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ لأنه رابح في الآخرة .

قال عمر بن الخطاب : إن الله بايعك وجعل الصفقتين لك وقال الحسن : اسمعوا إلى بيعة ربيحة بايع الله بها كل مؤمن وعنه قال : إن الله سبحانه وتعالى أعطاك الدنيا فاشتر الجنة ببعضها .

وقال قتادة : ثامَنهم فأغلى لهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(28/350)

وقال أبو حيان :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾

نزلت في البيعة الثانية وهي بيعة العقبة الكبرى ، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين ، وكان أصغرهم سناً عقبة بن عمرو .

وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند العقبة فقالوا : اشترط لك ولربك ، والمتكلم بذلك عبد الله بن رواحة ، فاشترط (صلى الله عليه وسلم) حمايته مما

يحمون منه أنفسهم ، واشترط لربه التزام الشريعة وقتال الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة فقالوا : ما لنا على ذلك ؟ قال : الجنة ، فقالوا : نعم ربح البيع ، لا تقيل ولا نقائل .

وفي بعض الروايات : ولا نستقيل ، فنزلت .

والآية عامة في كل من جاهد في سبيل الله من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) إلى يوم القيامة ، وعن جابر بن عبد الله : " نزلت ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) في المسجد فكبر الناس ، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرف ركابه على أحد عاتقيه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : "نعم" فقال : بيع ربح لا تقيل ولا نستقيل " وفي بعض الروايات : فخرج إلى الغزو فاستشهد .

وقال الحسن : لا والله إن في الأرض مؤمن إلا وقد أحدث بيعته .

وقرأ عمر بن الخطاب والأعمش : وأموالهم بالجنة ، مثّل تعالى إثابتهم بالجنة على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء ، وقدم الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف وبما لا عوض له إذا فقد .

وفي لفظة اشترى لطيفة وهي : رغبة المشتري فيما اشتراه واغتباطه به ، ولم يأت التركيب أن المؤمنين باعوا ، والظاهر أنّ هذا الشراء هو مع المجاهدين .

وقال ابن عيينة : اشترى منهم أنفسهم أن لا يعملوها إلا في طاعة ، وأموالهم أن لا ينفقوها إلا في سبيل الله ، فالآية على هذا أعم من القتل في سبيل الله .

وعلى هذا القول يكون يقاتلون مستأنفاً ، ذكر أعظم أحوالهم ، ونبه على أشرف مقامهم .

وعلى الظاهر وقول الجمهور يكون يقاتلون ، في موضع الحال .

(29/350)

وقرأ الحسن ، وقتادة ، وأبو رجاء ، والعربيان ، والحرميان ، وعاصم : أولاً على البناء للفاعل ، وثانياً على البناء للمفعول .

وقرأ النخعي وابن وثاب وطلحة والأعمش والإخوان بعكس ذلك ، والمعنى واحد ، إذ الغرض أنّ المؤمنين يقاتلون ويؤخذ منهم من يقتل ، وفيهم من يقتل ، وفيهم من يجتمع له الأمران ، وفيهم من لا يقع له واحد منهما ، بل تحصل منهم المقاتلة .

وقال الزمخشري : يقاتلون فيه معنى الأمر لقوله تعالى : ﴿ تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ انتهى .

فعلى هذا لا تكون الجملة في موضع الحال ، لأن ما فيه معنى الأمر لا يقع حالاً .

وانتصب وعداً على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة ، لأنّ معنى اشترى بأن لهم الجنة وعدهم الله الجنة على الجهاد في سبيله ، والظاهر من قوله : في التوراة والإنجيل والقرآن ، أنّ كل أمة أمرت بالجهاد ووعدت عليه بالجنة ، فيكون في التوراة متعلقاً بقوله : اشترى .

ويحتمل أن يكون متعلقاً بتقدير قوله مذكوراً ، وهو صفة فالعامل فيه محذوف أي : وعداً عليه حقاً مذكوراً في التوراة ، فيكون هذا الوعد بالجنة إنما هدى هذه الأمة قد ذكر في التوراة والإنجيل والقرآن .

وقيل : الأمر بالجهاد والقتال موجود في جميع الشرائع ، ومن أوفى استفهام على جهة التقرير أي : لا أحد ، ولما أكد الوعد بقوله عليه حقاً أبرزه هنا في صورة العهد الذي هو آكد وأوثق من الوعد ، إذ الوعد في غير حق الله تعالى جائز إخلافه ، والعهد لا يجوز إلا الوفاء به ، إذ هو آكد من الوعد .

قال الزمخشري : ومن أوفى بعهده من الله ، لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه قبيح قط ؟ ولا ترى ترى غيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ انتهى .

وفيه دسيسة الاعتزال ، واستعمال قط في غير موضوعة ، لأنه أتى به مع قوله : لا يجوز عليه قبيح قط .

وقط ظرف ماض فلا يعمل فيه إلا الماضي .

(30/350)

ثم قال : فاستبشروا ، خاطبهم على سبيل الالتفات لأنّ في مواجهته تعالى لهم بالخطاب تشريف لهم ، وهي حكمة الالتفات هنا .

وليست استفعل هنا للطلب ، بل هي بمعنى أفعل كاستوقد وأوقد .

والذي بايعتم به وصف على سبيل التوكيد ، ومحيل على البيع السابق .

ثم قال : وذلك هو الفوز العظيم أي : الظفر للحصول على الربح التام ، والغبطة في البيع لحط الذنب ودخول الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(31/350)

وقال ابن كثير :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

يخبر تعالى أنه عاوض عباده المؤمنين عن أنفسهم وأموالهم إذ بذلوها في سبيله بالجنة ، وهذا من فضله وكرمه وإحسانه ، فإنه قبل العوض عما يملكه بما تفضل به على عباده المطيعين له ؛ ولهذا قال الحسن البصري وقتادة : بايعهم والله فأغلى ثمنهم .

وقال شَمِر بن عطية : ما من مسلم إلا ولله ، عز وجل ، في عُنُقه بيعة ، وفَّى بها أو مات عليها ، ثم تلا هذه الآية .

ولهذا يقال : من حمل في سبيل الله بايع الله ، أي : قَبِل هذا العقد ووفى به .

وقال محمد بن كعب القُرَظي وغيره : قال عبد الله بن رواحة ، رضي الله عنه ، لرسول الله صلى الله عليه وسلم - يعني ليلة العقبةِ - : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ! فقال : "أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم" . قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : "الجنة" . قالوا : رَبِح البيعُ ، لا نُقِيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ الآية .

وقوله : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أي : سواء قتلوا أو قُتلوا ، أو اجتمع لهم هذا وهذا ، فقد وجبت لهم الجنة ؛ ولهذا جاء في الصحيحين : "وتكفل الله لمن خرج في سبيله ، لا يخرجه إلا جهاد في سبيلي ، وتصديق برسلي ، بأن توفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه ، نائلا ما نال من أجر أو غنيمة" . (1)

---

(1) صحيح البخاري برقم (3123) وصحيح مسلم برقم (1876)

(32/350)

وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ تأكيد لهذا الوعد ، وإخبار بأنه قد كتبه على نفسه الكريمة ، وأنزله على رسله في كتبه الكبار ، وهي التوراة المنزلة

على موسى ، والإنجيل المنزل على عيسى ، والقرآن المنزل على محمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وقوله : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ﴾ [أي : ولا واحد أعظم وفاءً بما عاهد عليه من الله] فإنه لا يخلف الميعاد ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء : 87] ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا ﴾ [النساء : 122] ؛ ولهذا قال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ أي : فليستبشر من قام بمقتضى هذا العقد ووفى بهذا العهد ، بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 218 ﴾

(33/350)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم ﴾

ترغيبٌ للمؤمنين في الجهاد ببيان فضيلتِه إثرَ بيانِ حالِ المتخلفين عنه ، ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيدَ عليه حيث عبّر عن قَبول الله تعالى من المؤمنين أنفسَهم وأموالَهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثابتِه إياهم بمقابلتها الجنةَ بالشراء على طريقة الاستعارةِ التبعية ثم

جُعل المبيعُ الذي هو العُمدةُ والمقصِدُ في العقد أنفُسَ المؤمنين وأموالَهم والثمنُ الذي هو الوسيلةُ في الصفقة الجنةُ ولم يُجعل الأمرُ على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنةَ من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصِد في العقد هو الجنةُ وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلةٌ إليها إيذاناً بتعليق كمالِ العنايةِ بهم وبأموالهم ثم إنه لم يقل بالجنة بل قيل : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ مبالغةً في تقرير وصولِ الثمنِ إليهم واختصاصِه بهم كأنه قيل : بالجنة الثابتةِ لهم المختصةِ بهم .

(34/350)

وأما ما يقال من أن ذلك لمدح المؤمنين بأنهم بذلوا أنفسَهم وأموالَهم بمجرد الوعدِ لكمال ثقتِهم بوعده تعالى وأن تمامَ الاستعارةِ موقوفٌ على ذلك إذ لو قيل : بالجنة لاحتمل كونُ الشراء حقيقةً لأنها صالحةٌ للعِوضية بخلاف الوعيدِ بها فليس بشيء لأن مناطَ دِلالةِ ما عليه النظمُ الكريمُ على الوعد ليس كونُه جملةً ظرفيةً مصدّرةً بأن فإن ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنةُ التي يستحيل وجودُها في الدنيا ولو سلم ذلك يكون العوضُ الجنةَ الموعودَ بها ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ استئنافٌ لكن لا لبيان ما لأجله الشراءُ ولا لبيان نفسِ الاشتراء لأن قتالَهم في سبيل الله تعالى ليس باشتراء الله تعالى منهم أنفسَهم وأموالَهم

بل هو بذلٌ لهما في ذلك بل لبيان البيعِ الذي يستدعيه الاشتراءُ المذكورُ كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسَهم وأموالَهم بالجنة ؟ فقيل : يقاتلون في سبيل الله وهو بدلٌ منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهة الله سبحانه وتعريضٌ لهما للهلاك وقوله تعالى : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بيانٌ لكون القتالِ في سبيل الله بذلاً للنفس وأن المقاتِلَ في سبيله باذلٌ لها وإن كانت سالمةً غانمة ، فإن الإسنادَ في الفعلين ليس بطريق اشتراطِ الجمعِ بينهما ولا اشتراطِ الاتصافِ بأحدهما ألبتةَ بل بطريق وصفِ الكلِّ بحال البعضِ فإنه يتحقق القتالُ من الكل سواءٌ وجد الفعلان أو أحدَهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدُرْ منهم أحدُهما أيضاً كما إذا وُجدت المضاربةُ ولم يوجد القتلُ من أحد الجانبين أو لم توجد المضاربةُ أيضاً فإنه يتحقق للجهادُ بمجرد العزيمة والنفير وتكثيرِ السواد ، وتقديمُ حالةِ القاتلية على حالة المقتوليةِ للإيذان بعدم الفرقِ بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتالِ بذلاً للنفس وقرىء بتقديم المبنيِّ للمفعول رعايةً لكون الشهادة عريقةً في الباب وإيذاناً بعدم مبالاتِهم بالموت في سبيل الله تعالى بل

(35/350)

بكونه أحبَّ إليهم من السلامة كما قيل في حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم . . . قوماً وليسوا مَجازيعاً إذا نِيلوا

لا يقع الطعنُ إلا في نحورِهم . . . وما لهم عن حِياض الموتِ تهليلُ

(36/350)

وقيل : في يقاتلون الخ معنى الأمر كما في قوله تعالى : ﴿ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ ﴾ مصدرٌ مؤكدٌ لما يدل عليه كونُ الثمنِ مؤجلاً ﴿ حَقّاً ﴾ نعتٌ لوعداً والظرفُ حال منه لأنه لو تأخر لكان صفةً له وقوله تعالى : ﴿ فِي التوراة والإنجيل والقرءان ﴾ متعلقٌ بمحذوف وقعَ صفةً لوعداً أي وعداً مثبتاً في التوراة والإنجيل كما هو مثبتٌ في القرآن ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لمضمون ما قبله من حقية الوعدِ على نهج المبالغةِ في كونه سبحانه أوفى بالعهد من كل وافٍ فإن اختلافَ الميعاد مما لا يكاد يصدُر عن كرام الخلقِ مع إمكان صدورِه عنهم فكيف بجناب الخلاقِ الغنيِّ عن العالمين جل جلاله وسبكُ التركيب وإن كان على إنكارِ أن يكون أحدٌ أوفى بالعهد منه تعالى من غير تعرّضٍ لإنكار المساواةِ ونفيها لكن المقصودَ به قصداً مطرداً إنكارُ المساواةِ ونفيُها قطعاً فإذا قيل : مَنْ أكرمُ من فلان ؟ أو لا أفضلَ منه ، فالمرادُ به حتماً أنه

أكرمُ من كل كريمٍ وأفضلُ من كل فاضل ﴿ فاستبشروا ﴾ التفاتٌ إلى الخطاب تشريفاً لهم على تشريف وزيادةً لسرورهم على سرور ، والاستبشارُ إظهارُ السرور ، والسينُ فيه ليس للطلب ، كاستوقَدَ وأوقد ، والفاء لترتيب الاستبشارِ أو الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذاك فسُرّوا نهايةَ السرور وافرَحوا غايةَ الفرحِ بما فُزتم به من الجنة ، وإنما قيل : ﴿ بِبَيْعِكُمُ ﴾ مع أن الابتهاجَ به باعتبار أدائِه إلى الجنةِ لأن المرادَ ترغيبُهم في الجهاد الذي عبّر عنه بالبيع وإنما لم يُذكر العقدُ بعنوان الشراءِ لأن ذلك من قبل الله سبحانه لا من قبلهم ، والترغيبُ إنما يكون فيما يتم من قبلهم ، وقوله تعالى : ﴿ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ لزيادة تقرير بيعِهم وللإشعار بكونه مغايراً لسائر البياعات فإنه بيعٌ للفاني بالباقي ولأن كِلا البدلين له سبحانه وتعالى . عن

(37/350)

الحسن رضي الله عنه أنفُساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها . روي أن الأنصارَ لما بايعوه عليه الصلاة والسلام على العقبة قال عبدُ اللَّه بنُ رواحةَ رضي الله تعالى عنه : اشترِطْ لربك ولنفسك ما شئت . قال عليه الصلاة والسلام : " أشترطُ لربي أن تعبُدوه ولا تشرِكوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسَكم " ، قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟

قال : "لكم الجنة" ، قالوا : رِبحَ البيعُ لا نُقيل ولا نستقيل . ومر برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيٌّ وهو يقرأها قال : كلامُ مَنْ ؟ قال : "كلامُ الله عز وجل" قال : بيعٌ والله مُربحٌ لا نُقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى الغزو واستُشهد . ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي الجنةُ التي جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالِهم ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوزَ أعظمُ منه ، وما في ذلك من معنى البُعد إشارةٌ إلى بُعد منزلةِ المشارِ إليه وسموّ رتبتِه في الكمال ، ويجوز أن يكون ذلك إشارةً إلى البيع الذي أُمروا بالاستبشار به ويجعل ذلك كأنه نفسُ الفوز العظيم أو يُجعل فوزاً في نفسه ، فالجملةُ على الأول تذييلٌ للآية الكريمة وعلى الثاني لقوله تعالى : ﴿ فاستبشروا ﴾ مقرِّرٌ لمضمونه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(38/350)

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان حال المتخلفين عنه ، ولا ترى كما نقل الشهاب ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية لأنه أبرز في صورة عقد عاقده رب العزة جل جلاله ، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم

مقتولين فقط بل كونهم قاتلين أيضاً لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه سبحانه ، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية وناهيك به من صك ، وجعل وعده حقاً ولا أحد أوفي من وراعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم وهو استعارة تمثيلية .

صور جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وائابة الله تعالى لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء ، وأتي بقوله سبحانه : ﴿ ﴾ الخ ترغيب للمؤمنين في الجهاد ببيان حال المتخلفين عنه ، ولا ترى كما نقل الشهاب ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية لأنه أبرز في صورة عقد عاقده رب العزة جل جلاله ، وثمنه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط بل كونهم قاتلين أيضاً لإعلاء كلمة الله تعالى ونصرة دينه سبحانه ، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية وناهيك به من صك ، وجعل وعده حقاً ولا أحد أوفي من وراعده فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم وهو استعارة تمثيلية .

صور جهاد المؤمنين وبذل أموالهم وأنفسهم فيه وائابة الله تعالى لهم على ذلك الجنة بالبيع والشراء ، وأتي بقوله سبحانه : ﴿ يقاتلون ﴾ الخ بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : " الجنة تحت ظلال السيوف " ثم أمضاه جل شأنه بقوله ذلك الفوز العظيم ، ومن هنا أعظم الصحابة رضي الله تعالى عنهم أمر هذه الآية .

فقد أخرج ابن أبي حاتم .

وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ﴿ إِنَّ الله اشترى ﴾ الخ فكثر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل .

ومن الناس من قرر وجه المبالغة بأنه سبحانه عبر عن قبوله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى وإثباته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم والثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة ، ولم يعكس بأن يقال : إن الله باع الجنة في المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ليدل على أن المقصد بالعقد هو الجنة وما بذله المؤمنون في مقابلتها وسيلة إليها بكمال العناية بهم وبأموالهم ثم إنه تعالى لم يقل بالجنة بل قال عز شأنه : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ مبالغة في تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم كأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم المختصة بهم ، ومن هنا يعلم أن هذه القراءة أبلغ من قراءة الأعمش ونسبت أيضاً إلى عبد

الله رضي الله تعالى عنه بالجنة على أنها أوفق بسبب النزول .

فقد أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي .

وغيره أنهم قالوا : "قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

قال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً واشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا : فما لنا ؟ قال : الجنة قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت إن الله اشترى الآية" .

(40/350)

وقيل : عبر بذلك مدحاً للمؤمنين بأنهم بذلوا أنفسهم وأموالهم بمجرد الوعد لكمال ثقتهم بوعده تعالى مع أن تمام الاستعارة موقوف على ذلك إذ لو قيل بالجنة لاحتمل كون الشراء على حقيقته لأنها صالحة للعوضية بخلاف الوعد بها ، واعترض بأن مناط دلالة ما عليه النظم الجليل على الوعد ليس كونه جملة ظرفية مصدرة بأن فإن ذلك بمعزل من الدلالة على الاستقبال بل هو الجنة التي يستحيل وجودها في عالم الدنيا ولو سلم ذلك بكون العوض الجنة الموعود بها لا نفس الوعد بها ، على أن حديث احتمال كون الشراء حقيقة لو قيل

بالجنة لا يخلو عن نظر كما قيل لأن حقيقة الشراء مما لا يصح منه تعالى لأنه جل شأنه مالك الكل والشراء إنما يكون ممن لا يملك ، ولهذا قال الفقهار : طلب الشراء يبطل دعوى الملكية ، نعم قد لا يبطل في بعض الصور كما إذا اشترى الأب داراً لطفله من نفسه فكبر الطفل ولم يعلم ثم باعها الأب وسلمها للمشتري ثم طلب الابن شراءها منه ثم علم بما صنع أبوه فادعى الدار فإنه تقبل دعواه ولا يبطلها ذلك الطلب كما يقتضيه كلام الاستروشني لكن هذا لا يضرنا فيما نحن فيه ، ومن المحققين من وجه دلالة ما في النظم الكريم على الوعد بأنه يقتضي بصريحه عدم التسليم وهو عين الوعد لأنه إذا قلت : اشتريت منك كذا بكذا احتمل النقد بخلاف ما إذا قلت : بأن لك كذا فإنه في معنى لك على كذا وفي ذمتي ، واللام هنا ليست للملك إذ لا يناسب شراء ملكه بملكه كالمهورة إحدى خدمتيها فهي للاستحقاق وفيه إشعار بعدم القبض ، وأما كون تمام الاستعارة موقوفاً على ذلك فله وجه أيضاً حيث كان المراد بالاستعارة الاستعارة التمثيلية إذ لولاه لصح جعل الشراء مجازاً عن الاستبدال مثلاً وهو مما لا ينبغي الالتفات إليه مع تأتي التمثيل المشتمل من البلاغة واللطائف على ما لا يخفى ، لكن أنت خبير بأن الكلام بعد لا يخلو عن بحث ، ومما أشرنا إليه من فضيلة التمثيل يعلم انحطاط القول باعتبار

الاستعارة أو المجاز المرسل في ﴿ اشترى ﴾ وحده كما ذهب إليه البعض ، وقوله تعالى : ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ قيل بيان لمكان التسليم كما أشير إليه فيما تقدم ، وذلك لأن البيع سلم كما قال الطيبي .

وغيره ، وقيل : بيان لما لأجله الشراء كأنه لما قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الله اشترى ﴾ الخ ، قيل : لماذا فعل ذلك ؟ فقيل : ليقاتلوا في سبيله تعالى وقيل : بيان للبيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ، فقيل : يقاتلون في سبيله عز شأنه وذلك بذل منهم لأنفسهم وأموالهم إلى جهته تعالى وتعريض لهما للهلاك ، وقيل : بيان لنفس الاشتراء وقيل : ذكر لبعض ما شمله الكلام السابق اهتماماً به على أن معنى ذلك أنه تعالى اشترى من المؤمنين أنفسهم بصرفها في العمل الصالح وأموالهم ببذلها فيما يرضيه وهو في جميع ذلك خبر لفظاً ومعنى ولا محل له من الأعراب ، وقيل : إنه في مغنى الأمر كقوله سبحانه : ﴿ وتجاهدون فِى سَبِيلِ الله بأموالكم وَأَنفُسِكُمْ ﴾ [الصف : 11] ووجه ذلك بأنه أتى بالمضارع بعد الماضي لإفادة الاستمرار كأنه قيل : اشتريت منكم أنفسكم في الأزل وأعطيت ثمنها الجنة فسلموا المبيع واستمروا على القتال ، ولا يخفى ما في بعض هذه الأقوال من النظر .

وانظر هل ثم مانعَ من جعل الجملة في موضع الحال كأنه قيل : اشترى منهم ذلك حال كونهم

مقاتلين في سبيله فإني لم أقف على من صرح بذلك مع أنه أوفق الأوجه بالاستعارة التمثيلية تأمل .

(42/350)

وقوله سبحانه : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ بيان لكون القتال في سبيل الله تعالى بذلا للنفس وأن المقاتل في سبيله تعالى باذل لها وإن كانت سالمة غانمة ، فإن الإسناد في الفعلين ليس بطريق اشتراط الجمع بينهما ولا اشتراط الاتصاف بأحدهما البتة بل بطريق وصف الكل بحال البعض ، فإنه يتحقق القتال من الكل سواء وجد الفعلان أو أحدهما منهم أو من بعضهم بل يتحقق ذلك وإن لم يصدر منهم أحدهما أيضاً كما إذا وجد المضاربة ولم يوجد القتل من أحد الجانبين ، ويفهم كلام بعضهم أنه يتحقق الجهاد بمجرد العزيمة والنفير وتكثير السواد وإن لم توجد مضاربة وليس بالبعيد لما أن في ذلك تعريض النفس للهلاك أيضاً ، والظاهر أن أجور المجاهدين مختلفة قلة وكثرة وإن كان هناك قدر مشترك بينهم .

ففي "صحيح مسلم" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة الا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ويبقى لهم الثلث وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم " .

وفي رواية أخرى " ما من غازية أو سرية تغزو فتغنم وتسلم إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا أتم أجورهم " .

وزعم بعضهم أنهم في الأجر سواء ولا ينقص أجرهم بالغنيمة ، واستدلوا عليه بما في الصحيحين من أن المجاهد يرجع بما نال من أجر وغنيمة ، وبأن أهل بدر غنموا وهم هم ويرد عليه أن خبر الصحيحين مطلق وخبر مسلم مقيد فيجب حمله عليه ، وبأنه لم يجيء نص في أهل بدر أنهم لو لم يغنموا لكان أجرهم على قدر أجرهم وقد غنموا فقط ، وكونهم هم هم لا يلزم منه أن لا يكون وراء مرتبتهم مرتبة أخرى أفضل منها ، والقول بأن في السند أبا هانيء وهو مجهول فلا يعول على خبره غلط فاحش فإنه ثقة مشهور روى عنه الليث بن سعد .

وحيوة .

وابن وهب .

(43/350)

وخلائق من الأئمة ، ويكفي في توثيقه احتجاج مسلم به في صحيحه ، ومثل هذا ما حكاه القاضي عن بعضهم من أن تعجل ثلثي الأجر إنما هو في غنيمة أخذت على غير وجهها إذ

لو كانت كذلك لم يكن ثلث الأجر ، وكذا ما قيل : من أن الحديث محمول على من خرج بنية الغزو والغنيمة معا فإن ذلك ينقص ثوابه لا محالة ، فالصواب أن أجر من لم يغنم أكثر من أجر من غنم لصريح ما ذكرناه الموافق لصرائح الأحاديث الصحيحة المشهورة عن الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

ويعلم من ذلك أن أجر من قتل أكثر من أجر من قتل لكون الأول من الشهداء دون الثاني ، وظاهر ما أخرجه مسلم من رواية أبي هريرة " من قتل في سبيل الله تعالى فهو شهيد ومن مات في سبيل الله تعالى فهو شهيد " أن القتل في سبيل الله تعالى والموت فيها سواء في الأجر وهو الموافق لمعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مهاجرا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ [النساء : 100] واستدل له أيضاً بعض العلماء بغير ذلك مما لا دلالة فيه عليه كما نص عليه النووي رحمه الله تعالى ، وتقديم حالة القاتلية في الآية على حالة المقتولية للإيذان بعدم الفرق بينهما في كونهما مصداقاً لكون القتال بذلاً للنفس ، وقرأ حمزة .

والسكائي بتقديم المبنى للمفعول رعاية لكون الشهادة عريقة في هذا الباب إيذاناً بعدم مبالاتهم بالموت في سبيل الله تعالى بل بكونه أحب إليهم من السلامة كما قال كعب بن زهير في حقهم :

لا يفرحون إذا نالت رماحهم . . .

قوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا

لا يقع الطعن إلا في نحورهم . . .

وما لهم عن حياض الموت تهليل

وفيه على ما قيل دلالة على جراءتهم حيث لم ينكسروا لأن قتل بعضهم ، ومن الناس من دفع السؤال بعدم مراعاة الترتيب في هذه القراءة بأن الواو لا تقتضيه .

(44/350)

وتعقب بأن ذلك لا يجدي لأن تقديم ما حقه التأخير في أبلغ الكلام لا يكون بسلامة الأمير كما لا يخفى ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة لأن معنى الشراء بأن لهم الجنة وعد لهم بها على الجهاد في سبيله سبحانه ، وقوله تعالى : ﴿ حَقّاً ﴾ نعت له و ﴿ عَلَيْهِ ﴾ في موضع الحال من ﴿ حَقّاً ﴾ لتقدمه عليه ، وقوله سبحانه : ﴿ فِى حَكِيمٌ إِنَّ الله ﴾ متعلق بمحذوف وقع نعتاً لوعداً أيضاً أي وعداً مثبتاً في التوارة والإنجيل كما هو مثبت في القرآن فالمراد الحاق ما لا يعرف بما يعرف إذ من المعلوم ثبوت هذا الحكم في القرآن ، ثم إن ما في الكتابين إما أن يكون أم محمد صلى الله عليه وسلم اشترى الله تعالى منهم أنفسهم وأموالهم بذلك أو أن من جاهد بنفسه وماله له ذلك ، وفي كلا الأمرين ثبوت موافق

لما في القرآن ، وجوز تعلق الجار باشترى ووعداً وحقاً ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ اعتراض مقرر لمضمون ما قبله من حقية الوعد ، والمقصود من مثل هذا التركيب عرفاً نفي المساواة أي لا أحد مثله تعالى في الوفاء بعهده ، وهذا كما يقال : ليس في المدينة أفقه من فلان فإنه يفيد عرفاً أنه أفقه أهلها ، ولا يخفى ما في جعل الوعد عهداً وميثاقاً من الاعتناء بشأنه ﴿ فاستبشروا ﴾ التفات إلى خطابهم لزيادة التشريف والاستبشار إظهاراً لسرورهم ، وليست السين فيه للطلب ، والفاء لترتيبه أو ترتيب الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذلك فاظهروا السرور بما فزتم به من الجنة ، وإنما قال سبحانه : ﴿ بِبَيْعِكُمُ ﴾ مع أن الابتهاج به باعتبار أدائه إلى الجنة لأن المراد ترغيبهم في الجهاد الذي عبر عنه بالبيع ، ولم يذكر العقد بعنوان الشراء لأن ذلك من قبله سبحانه لا من قبلهم والترغيب على ما قيل إنما يتم فيها هو من قبلهم ، وقوله تعالى : ﴿ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ لزيادة تقرير بيعهم وللاشعار بتميزه على غيره فإنه بيع الفاني بالباقي ولأن كلا البدلين له

(45/350)

سبحانه وتعالى ، ومن هنا كان الحسن إذا قرأ الآية يقول : أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها ﴿ وَذَلِكَ ﴾ أي البيع الذي أمرتم به ﴿ هُوَ الفوز العظيم ﴾ الذي لا فوز أعظم منه ، وما

في ذلك من البعد إشارة إلى بعد منزلة المشار إليه وسمو رتبته في الكمال ؛ والجملة تذييل مقرر لمضمون الأمر السابق ، ويجوز أن يكون تذييلاً للآية الكريمة والأشارة إلى الجنة التي جعلت ثمناً بمقابلة ما بذلوا من أنفسهم وأموالهم ، وفي ذلك إعظام للثمن ومنه يعلم حال المثمن ، ونقل عن الأصمعي أنه أنشد للصادق رضي الله تعالى عنه :

أثامن بالنفس النفيسة ربها . . .

فليس لها في الخلق كلهم ثمن

بها اشترى الجنات أن أنا بعتها . . .

بشيء سواها إن ذلكم غبن

إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها . . .

فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

والمشهور عنه رضي الله تعالى عنه أنه قال : ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها ، وهو ظاهر في أن المبيع هو الأبدان ، وبذلك صرح بعض الفضلاء في حواشيه على تفسير البيضاوي حيث قال : إن الله تعالى اشترى من المؤمن الذي هو عبارة عن الجوهر الباقي بدنه الذي هو مركبه وآلته ، والظاهر أنه أراد بالجوهر الباقي الجوهر المجرد المخصوص وهو النفس الناطقة ، ولا يخفى أن جمهور المتكلمين على نفي المجردات وإنكار النفس الناطقة وأن الإنسان هو هذا الهيكل المحسوس ، وبذلك أبطل بعض أجلة المتأخرين من أفاضل

المعاصرين القول بخلق الأفعال لما يلزم عليه من كون الفاعل والقابل واحداً ، وقد قالوا : بامتناع اتحادهما ؛ والإنصاف إثبات شيء مغاير للبدن والهيكل المحسوس في الإنسان ، والمبيع أما ذاك ومعنى بيعه تعريضه للمهالك والخروج عن التعلق الخاص بالبدن وإما البدن ومعنى بيعه ظاهر إلا أنه ربما يدعى أن المتبادر من النفس غير ذلك كما لا يخفى على ذوي النفوس الزكية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(46/350)

وقال ابن عجيبة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

قلت : جملة (يقاتلون) : حال من (المؤمنين) ؛ بياناً للشراء ، أو استئنافاً ؛ لبيان ما لأجله الشراء ، وقيل : « يقاتلون » : بمعنى الأمر ، و (وعداً) : مصدراً لما دل عليه الشراء ، فإنه في معنى الوعد ، أي : وعدهم وعداً حقاً لا خلف فيه .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ أي : عوضهم في بذل مُهجهم وأموالهم في سبيله الجنة ونعيمها ، ومن جملته : النظر إلى وجهه

الكريم. قال بعضهم: فانظر . . . ما أكرمه سبحانه، فإن أنفسنا هو خلقها، وأموالنا هو رزقها، ثم وهبها لنا، ثم اشتراها منا بهذا الثمن الغالي، فإنها لصفقة رابحة. أ هـ

(47/350)

ثم بيَّن وجه الشراء فقال: ﴿ يُقاتِلُون في سبيل الله ﴾ لإعلاء كلمة الله، ﴿ فيَقتلون ﴾ الكفارَ، ﴿ ويُقتلون ﴾ شهداء في سبيل الله. وقرأ الأخَوَانِ بتقديم المبني للمفعول؛ لأن الواو لا ترتب، وأن فعل البعض قد يسند إلى الكل، أي: فيموت بعضهم ويجاهد الباقي. وعد ذلك لهم ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾؛ لا خلف فيه، مذكوراً ذلك الوعد ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أي: إن الله بيَّن في الكتابين أن الله اشترى من أمة محمد أنفسهم وأموالهم بالجنة، كما بيَّنه في القرآن، أو كل أمة أمرت بالجهاد ووعدهم هذا الوعد. ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾؟ هو مبالغة في الإنجاز، أي: لا أحد أوفى منه بالعهد، ﴿ فاستبشروا ببيعكُم الذي بايعتم به ﴾ أي: فافرحوا به غاية الفرح، فإنه أوجب لكم أعظم المطالب، كما قال: ﴿ وذلك هو الفوزُ العظيم ﴾. قال بعضهم: ناهيك من بيع، البائع فيه رب العلا، والثمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

الإشارة : قد اشترى الحق جل جلاله منا أنفسنا وأموالنا بالجنة ، فمن باع نفسه لله ؛ بأن خالف هواها وخرق عوائدها ، وسعى في طلب مولاها ، عوضه جنة المعارف ، معجلة ، وزاده جنة الزخارف ، مؤجلة . ومن باع ماله ؛ بأن أنفقه في مرضاة الله ، وبخل بنفسه ، عوضه جنة الزخارف ، مؤجلة .

قال في الإحياء في باب الذكر وفضيلته : وأنه يوجب الأنس والحب ، فإذا حصل الأنس بذكر الله انقطع عن غير الله ، وما سوى هو الذي يفارقه عند الموت ، فلا يبقى معه في القبر أهل ، ولا مال ، ولا ولد ، ولا ولاية ، ولا يبقى معه إلا ذكر الله ، فإن كان في أنس به تمتع به ، وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه ، إذ ضرورات الحاجات في الحياة تصد عن ذكر الله ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلّى بينه وبين محبوبه ، فعظمت غبطته وتخلص من السجن الذي كان ممنوعاً فيه ، عما به أنسُه .

(48/350)

ثم قال : ولأجل شرف ذكر الله عظمت رتبة الشهادة ؛ لأن المطلوب هو الخاتمة ، ومعنى الخاتمة : وداع الدنيا كلها ، والقدوم على الله ، والقلب مستغرق بالله ، منقطع العلائق عن غيره ، والحاضرُ صَفّ القتال قد تجرد قلبه لله ، وقطع طعمه من حياته ، حباً لله وطمعاً في

مرضاته ، وحالة الشهيد توافق معنى قولك : (لا إله إلا الله) ، فإنه لا مقصود له سوى الله .

(49/350)

فما يجده أهل التملق من لذيذ الحلاوة في مناجاتهم ، وأهل الشهود في حال غيبتهم في محبوبهم ، ليس هو من نعيم الدنيا ، بل من نعيم الجنة ، قدَّمه الله لأوليائه ، وهو معنى جنة المعارف المعجلة ؛ عوضاً لمن باع نفسه لله .

قال بعض العارفين : النفوس ثلاثة : نفس معيبة ، لا يقع عليها بيع ولا شراء ، وهي نفس الكافر ، ونفس تحررت ؛ لا يصح بيعها ، وهي نفس الأنبياء والمرسلين ، لأنها خُلقت مطهرة من البقايا ، ونفس يصح بيعها وشراؤها ، وهي نفس المؤمن ، فإذا باعها لله ، واشتراها الحق تعالى منه ، وقع عليها التحرير ، وذلك حين تحرر من رقّ الأكوان ، وتتخلص من بقايا الأثر .

وقال بعض أهل التحقيق : اشترى الله تعالى أعز الأشياء بأجل الأشياء ، وإنما اشترى الأنفس دون القلوب ؛ لأن القلب حر لا يقع عليه البيع ؛ لأنه لله ؛ فلا يباع ولا يشتري ، أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « القلبُ بيت الرب » .

أي : لأنه محل مناجاته ، ومعدن معرفته ، وخزانة سره ، فليس للشيطان عليه من سبيل .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء : 65] . وأما النفس فإنها مملوكة تباع وتشتري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 430.432 ﴾

(50/350)

وقال القاسمي :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

لما هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان ، والأنفس مفتونة بحب الأموال والأنفس ، استنزلهم لفرط عنايته بهم ، عن مقام محبة الأموال والأنفس ، بالتجارة المربحة ، والمعاملة المرغوبة بأن جعل الجنة ثمن أموالهم وأنفسهم ، فعرض لهم خيراً مما أخذ منهم .

فالآية ترغيب في الجهاد ببيان فضيلته ، إثر بيان حال المتخلفين عنه .

قال أبو السعود : ولقد بولغ في ذلك على وجه لا مزيد عليه ، حيث عبر عن قبول الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله تعالى ، وإثابته أياهم بمقابلتها الجنة ، بالشراء على طريقة الإستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع ، الذي هو العمدة والمقصد في العقد ، أنفس المؤمنين وأموالهم .

والثمن ، الذي هو الوسيلة في الصفقة ، الجنة ، ولم يجعل الأمر على العكس بأن يقال : إن الله باع الجنة من المؤمنين بأنفسهم وأموالهم ، ليدل على أن المقصد في العقد هو الجنة ، وما بذله المؤمنون في مقابلتها من الأنفس والأموال وسيلة إليها ، إيذاناً بتعلق كمال العناية بهم وبأموالهم .

ثم إنه لم يقل بالجنة ، بل بأن لهم الجنة مبالغة في تقرر وصول الثمن إليهم ، واختصاصه بهم . وكأنه قيل : بالجنة الثابتة لهم ، المختصة بهم .

وفي " الكشاف " و " العناية " ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ من هذه الآية ، لأنه أبرزه في صورة عقد عاقده رب العزة ، وثمنه ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ولم يجعل المعقود عليه كونهم مقتولين فقط ، بل إذا كانوا قاتلين أيضاً لإعلاء كلمته ، ونصر دينه ، وجعله مسجلاً في الكتب السماوية ، وناهيك به من صك .

وجعل وعده حقاً ، ولا أحد أوفى من وعده ، فنسيئته أقوى من نقد غيره ، وأشار إلى ما فيه من الربح والفوز العظيم ، وهو استعارة تمثيلية ، صور جهاد المؤمنين ، وبذل أموالهم وأنفسهم فيه ، وإثابة الله لهم على ذلك الجنة ، بالبيع والشراء ، وأتى بقوله

﴿ يقاتلون ﴾ الخ ، بياناً لمكان التسليم وهو المعركة ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم < الجنة تحت ظلال السيوف > ، ثم أمضاه بقوله : ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾

.

ولما في هذا من البلاغة واللطائف المناسبة للمقام ، لم يلتفتوا إلى جعل اشترى وحده استعارة أو مجازاً عن الإستبدال ، وإن ذكروه في غير هذا الموضع ، لأن قوله ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ ﴾ يقتضي أنه شراء وبيع ، وهذا لا يكون إلا بالتمثيل . ومنهم من جوز أن يكون معنى : ﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ بصرفها في

(52/350)

العمل الصالح ، و : ﴿ أَمْوَالَهُمْ ﴾ بالبذل فيها . وجعل قوله : ﴿ يُقَاتِلُونَ ﴾ مستأنفاً لذكر بعض ما شمله الكلام ، اهتماماً به . انتهى .

وقوله تعالى : ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ ﴾ مصدر مؤكد لما يدل عليه كون الثمن مؤجلاً ، وذكر كونه في التوراة وما عطف عليها ، تأكيداً له ، وإخبار بأنه منزل على الرسل في الكتب الكبار . وفيه أن مشروعية الجهاد ومثوبته ثابتة في شرع من قبلنا ، وقد بقي في التوراة والإنجيل الموجودين ، على تحريفهما ، ما يشير إلى الجهاد والحث عليه ، نقلها عنهما من ردّ على

الكتابيّين الزاعمين أن الجهاد من خصائص الإسلام ، فانظره في الكتب المتداولة في ذلك .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 525.526 ﴾

(53/350)

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

التفسير : ليس الإيمان مجرد نطق باللسان ، وتصديق بالقلب ، وإنما هو ـ مع هذا ـ عمل بالجوارح ، وابتلاء فى الأموال والأنفس . . فمن صدّق قلبه ما نطق به ، ومن صدق عمله ما صدّق به قلبه ، فذلك هو المؤمن ، الذي يقبله اللّه فى المؤمنين . .

وبين اللّه والمؤمنين باللّه ، عقد عقده معهم ، وعهد عاهدهم عليه . . وهو أنه ـ سبحانه ـ اشترى منهم أنفسهم وأموالهم ولهم عنده فى مقابل ذلك الجنة ! وما تلك الأنفس ، وهذه الأموال التي اشتراها اللّه من المؤمنين ؟ إنها من اللّه ، وإلى اللّه . . . !

ولكن شاء فضل اللّه أن يجعل لعباده ملكية هذه الأنفس ، وتلك الأموال ، وأن يشتريها منهم ، وأن يعوضهم عليها ! وقدّمت الأنفس على الأموال هنا على خلاف المواضع كلها التي

جاء فيها ذكر الأموال والأنفس مجتمعين فى القرآن . . ففى جميع المواضع ما عدا هذا الموضع قدمت الأموال على الأنفس ! فما سرّ هذا ؟ أو قل ما أسرار هذا ؟

(54/350)

ونقول - والله أعلم - إن بعض السر فى هذا هو أن اللّه سبحانه وتعالى ، هو الذي يطلب الأنفس والأموال فى هذا المقام ، على حين أنه فى جميع المواضع التي ذكرت فيها الأنفس والأموال فى القرآن الكريم - كانت مبذولة من المسلمين ، أو مطلوبا منهم بذلها . . !

ولاختلاف المقام اختلف النظم . . ففى شراء اللّه سبحانه وتعالى ما يشترى من المؤمنين يقدم الأنفس على الأموال لأنها عند اللّه أكرم وأعز من المال ، على حين أن المال عند الناس أعز من الأنفس ، إذ يتقاتلون من أجله ، مخاطرين بأنفسهم ويقتلون أنفسهم فى سبيله ! وفى اختلاف النظم هنا إلفات للناس إلى ما ذهلوا عنه من أمر أنفسهم ، إذ استرخصوها إلى جانب المال ، على حين أنها شىء كريم عزيز عند اللّه .

- وفى قوله تعالى : « يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ » إشارة إلى أن من شأن المؤمن أن يكون له يد ظاهرة على عدوه ، وبلاء مؤثّر فيه ، وأنه قبل أن يقتل لا بد أن يقتل من عدوه واحدا أو أكثر ، حتى لا يذهب دمه هدرا ، وحتى يوهن العدو ويضعف من شوكته ،

ويكتب بدمه حرفا من كلمة النصر التي كتبها اللّه للمؤمنين . .

ـ وقوله تعالى : « وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ . . وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ

»

؟ هو توكيد لما وعد اللّه المؤمنين الذين باعوه أموالهم وأنفسهم بأن لهم الجنة ، فهذا الوعد حق لا مرية فيه ـ كما جاء به القرآن والتوراة والإنجيل .

فذلك هو وعد اللّه للمؤمنين المجاهدين ، فيما جاءت به الكتب السماوية المنزلة من رب العالمين . . « وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ » ؟ وهل يخلف اللّه وعده ، أو ينقض عهده ؟ تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا . .

(55/350)

هذا وليس بيع الأنفس والأموال للّه مرادا به بذلهما فى القتال فى سبيل اللّه ثم الوقوف بهما عند تلك الغاية وحدها . . فإذا لم يكن بين يدى المؤمن قتال ومجاهدة للعدو ، فهناك ميدان فسيح للجهاد فى سبيل اللّه فى غير ميدان القتال ، فمجاهدة النفس والوقوف بها عند حدود اللّه ، هو جهاد مبرور فى سبيل اللّه . .

والعبادات بأنواعها ، وأداؤها على وجهها جهاد فى سبيل اللّه ، والسعى فى تحصيل

الرزق من وجوهه المشروعة ، جهاد فى سبيل اللّه . . والبر بالفقراء ، والإحسان إلى اليتامى . . هو جهاد فى سبيل اللّه .

وإذا كانت الآية الكريمة قد خصّت القتال فى سبيل اللّه بالذكر هنا ، فليس ذلك إلا تنويها بفضل الجهاد فى ميدان القتال ، إذ يمثل الصورة الكاملة التي يبذل فيها المرء كل ما يملك ، ويقدم للّه فيها كل ما معه من نفس ومال . .

على خلاف أبواب الجهاد كلها ، فإنه يبذل بعضا من كلّ ، ويقدم للّه بعضا ويستبقى بعضا .

وقوله تعالى : « فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

هو مباركة من اللّه سبحانه وتعالى لأولئك المؤمنين الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له. مباركة بهذه الصفقة التي عقدوها مع اللّه ، وتبشير لهم بالربح العظيم ، والمغنم الجزيل الذي وراءها . . إنها الجنة التي وعدهم اللّه بها وإنها الرضوان من رب العالمين . . وذلك هو الفوز العظيم . . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التفسير القرآنى للقرآن حـ 6 صـ 898. 901 ﴾

(56/350)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

استئناف ابتدائي للتنويه بأهل غزوة تبوك وهم جيش العُسْرة ، ليكون توطئة وتمهيداً لذكر التوبة على الذين تخلفوا عن الغزوة وكانوا صادقين في أيمانهم ، وإنْبَاءِ الذين أضمروا الكفر نفاقاً بأنهم لا يتوب الله عليهم ولا يستغفر لهم رسوله صلى الله عليه وسلم والمناسبة ما تقدم من ذكر أحوال المنافقين الذين تسلسل الكلام عليهم ابتداءً من قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] الآيات ، وما تولد على ذلك من ذكر مختلف أحوال المخلفين عن الجهاد واعتلالهم وما عقب ذلك من بناء مسجد الضرار .

وافتتحت الجملة بحرف التوكيد للاهتمام بالخبر ، المتضمنة على أنه لما كان فاتحة التحريض على الجهاد بصيغة الاستفهام الإنكاري وتمثيلهم بحال من يُستنهض لعمل فيتثاقل إلى الأرض في قوله تعالى : ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] ناسب أن ينزل المؤمنون منزلة المتردد الطالب في كون جزاء الجهاد استحقاق الجنة . وجيء بالمسند جملة فعلية لإفادتها معنى المضي إشارة إلى أن ذلك أمر قد استقر من قبل ، كما سيأتي في قوله : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ ، وأنهم كالذين نسوه أو تناسوه حين لم يخفُوا إلى النفير الذي استنفروه إشارة إلى أن الوعد بذلك قديم متكرر معروف في الكتب السماوية .

والاشتراء : مستعار للوعد بالجزاء عن الجهاد ، كما دل عليه قوله : ﴿ وعداً عليه حقاً

﴿ بمشابهة الوعدِ الاشتراءَ في أنه إعطاء شيء مقابل بذل من الجانب الآخر .

ولما كان شأن الباء أن تدخل على الثمن في صِيغ الاشتراء أدخلت هنا في ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ لمشابهة هذا الوعد الثمنَ .

وليس في هذا التركيب تمثيل إذ ليس ثمة هيئة مشبهة وأخرى مشبه بها .

(57/350)

والمراد بالمؤمنين في الأظهر أن يكون مؤمني هذه الأمة .

وهو المناسب لقوله بعد : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ .

ويكون معنى قوله : ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل ﴾ ما جاء في التوراة والإنجيل من وصف أصحاب الرسول الذي يختِم الرسالة .

وهو ما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم إلى قوله ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل إلى قوله ﴿ ليغيظ بهم الكفار ﴾ [الفتح : 29] .

ويجوز أن يكون جميع المؤمنين بالرسل عليهم الصلاة والسلام وهو أنسب لقوله : ﴿ في التوراة والإنجيل ﴾ ، وحينئذٍ فالمراد الذين أمروا منهم بالجهاد ومن أمروا بالصبر على اتباع الدين من أتباع دين المسيحية على وجهها الحق فإنهم صبروا على القتل والتعذيب .

فإطلاق المقاتلة في سبيل الله على صبرهم على القتل ونحوه مجاز ، وبذلك يكون فعل ﴿ يقاتلون ﴾ مستعملاً في حقيقته ومجازه .

واللام في ﴿ لهم الجنة ﴾ للملك والاستحْقاق .

والمجرور مصدر ، والتقدير : بتحقيق تملكهم الجنة ، وإنما لم يقل بالجنة لأن الثمن لما كان آجلاً كان هذا البيع من جنس السلم .

وجملة : ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن اشتراء الأنفس والأموال لغرابته في الظاهر يثير سؤال من يقول : كيف يبذلون أنفسهم وأموالهم ؟ فكان جوابه ﴿ يقاتلون في سبيل الله ﴾ الخ .

قال الطيبي : "فقوله ﴿ يقاتلون ﴾ بيان ، لأن مكان التسليم هو المعركة ، لأن هذا البيع سَلَم ، ومن ثَم قيل ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ ولم يقل بالجنة .

وأتي بالأمر في صورة الخبر ثم ألزم الله البيع من جانبه وضمن إيصال الثمن إليهم بقوله : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ ، أي لا إقالة ولا استقالة من حضرة العزة .

ثم ما اكتفى بذلك بل عين الصكوك المثبت فيها هذه المبايعة وهي التوراة والإنجيل والقرآن" أهـ .

وهو يرمي بهذا إلى أن تكون الآية تتضمن تمثيلاً عكس ما فسرنا به آنفاً .

وقوله : ﴿ فيَقتُلُون ويُقتلون ﴾ تفريع على ﴿ يُقاتلون ﴾ ، لأن حال المقاتل لا تخلو من أحد هذين الأمرين .

وقرأ الجمهور ﴿ فيَقتلون ﴾ بصيغة المبني للفاعل وما بعده بصيغة المبني للمفعول .

وقرأ حمزة والكسائي بالعكس .

وفي قراءة الجمهور اهتمام بجهادهم بقتل العدو ، وفي القراءة الأخرى اهتمام بسبب الشهادة التي هي أدخل في استحقاق الجنة .

و ﴿ وَعدا ﴾ منصوب على المفعولية المطلقة من ﴿ اشترى ﴾ ، لأنه بمعنى وعد إذ العِوض مؤجل .

و ﴿ حقاً ﴾ صفة ﴿ وعْداً ﴾ .

و ﴿ عليه ﴾ ظرف لغو متعلق بـ ﴿ حقاً ﴾ ، قُدم على عامله للاهتمام بما دل عليه حرف (على) من معنى الوجوب .

وقوله : ﴿ في التوراة ﴾ حال من ﴿ وعداً ﴾ .

والظرفية ظرفية الكتاب للمكتوب ، أي مكتوباً في التوارة والإنجيل والقرآن .

وجملة : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ في موضع الحال من الضمير المجرور في قوله : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ ، أي وعداً حقاً عليه ولا أحد أوفى بعهده منه ، فالاستفهام إنكاري

بتنزيل السامع منزلة من يجعل هذا الوعد محتملاً للوفاء وعدمه كغالب الوعود فيقال : ومن أوفى بعهده من الله إنكاراً عليه .

و﴿ أوفى ﴾ اسم تفضيل من وفّى بالعهد إذا فعل ما عاهد على فعله .

و﴿ مِن ﴾ تفضيلية ، وهي للابتداء عند سيبويه ، أي للابتداء المجازي .

وذُكر اسم الجلالة عوضاً عن ضميره لإحضار المعنى الجامع لصفات الكمال .

والعهد : الوعد بحلف والوعد الموكد ، والبيعة عهد ، والوصية عهد .

وتفرع على كون الوعد حقاً على الله ، وعلى أن الله أوفى بعهده من كل واعد ، أنْ يستبشر المؤمنون ببيعهم هذا ، فالخطاب للمؤمنين من هذه الأمة .

وأضيف البيع إلى ضميرهم إظهاراً لاغتباطهم به .

ووصفه بالموصول وصلته ﴿ الذي بايعتم به ﴾ تأكيداً لمعنى ﴿ بيعكم ﴾ ، فهو تأكيد لفظي بلفظ مرادف .

وجملة : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ تذييل جامع ، فإن اسم الإشارة الواقع في أوله جامع لصفات ذلك البيع بعوضيْه .

وأكد بضمير الفصل وبالجملة الاسمية والوصف بـ ﴿ العظيم ﴾ المفيد للأهمية . انتهى انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الصابوني :

﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ أي اشترى أموال المؤمنين وأنفسهم بالجنة وهو تمثيل في ذروة البلاغة والبيان لأجر المجاهدين ، مَثَّل تعالى جزاءهم بالجنة على بذلهم الأموال والأنفس في سبيله بصورة عقد فيه بيع وشراء قال الحسن : بايعهم فأغلى لهم الثمن وانظروا إلى كرم الله ، أنفساً هو خلقها ، وأموالاً هو رزقها ، ثم وهبها لهم ، ثم اشتراها منهم بهذا الثمن الغالي فإنها لصفقة رابحة وقال بعضهم : ناهيك عن بيعٍ البائع فيه المؤمن ، والمشتري فيه رب العزة والثمن فيه الجنة ، والصك فيه الكتب السماوية ، والواسطة فيه محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله ﴾ أي يجاهدون لإعزاز دين الله وإعلاء كلمته ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ أي في حالتي الظفر بالأعداء بقتلهم ، أو الاستشهاد في المعركة بموتهم ﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ أي وعدهم به المولى وعداً قاطعاً ﴿ فِي التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ أي وعداً مثبتاً في الكتب المقدسة « التوراة ، والإنجيل ، والقرآن » ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ ﴾ الاستفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا أحد أوفى من الله جل وعلا قال الزمخشري : لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق ، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه القبيح ؟ ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ ﴿ مِنَ الله فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أي أبشروا بذلك البيع

الرابح وافرحوا به غاية الفرح ﴿ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 564 . 565 ﴾

(60/350)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

بعد أن تكلم الحق عن الذين تخلفوا عن الغزو ، وعن الذين اعتذروا بأعذار كاذبة ، وعن الذين أرجأ الله فيهم الحكم ، أراد أن يبين سبحانه أن تخلفهم ليس له أي أهمية ؛ لأن الله سبحانه وتعالى عوَّض الإيمان وعوّض الإسلام بخير منهم ، فإياكم أن تظنوا أنهم بامتناعهم عن الغزو سوف يُتعبون الإسلام ، لا ؛ لأن الحق سبحانه ينصر دينه دائماً .

فيقول الله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

يقول العلماء : كيف يشتري الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ، وهو الذي خلق الأنفس وهو الذي وهب المال ؟ وقالوا : ولكن هبة الله لهم لا يرجع فيها ، بدليل أن المال مال الله ، وحين أعطاه لإنسان نتيجة عمله أوضح له : إنه مالك بحيث إذا احتاجه أخ لك في الدين ، فأنا

أقترضه منك ، ولم يقل : " أسترده " . فسبحانه القائل : ﴿ مَّن ذَا الذي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً واللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [البقرة : 245]

لقد احترم الحق الهبة للإنسان ، واحترم عرقه وسعيه ، وكأنه سبحانه حينما وهب البشر الحياة ، ووهبهم الأنفس أعلن أنها ملكهم حقّاً ، ولكنه أعطاها لهم ، وحين يريد أخذها منكم فلا يقول : إنه يستردها بل هو يشتريها منكم بثمن ؛ ولذلك يقول النبي عليه الصلاة والسلام : " إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله غالية ، إن سلعة الله هي الجنة . "

أي : اجعلوا ثمنها غالياً .

(61/350)

﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ . وكلمة ﴿ اشترى ﴾ تدل على أن هناك صفقة ، عملية شراء وبيع . وإن كان هذا ملكاً لله ، فالله هو المشتري ، والله هو البائع ، فلابد أن لهذا الأمر رمزية ، وهذه الرمزية يلحظها الإنسان في الولي على اليتيم أو السفيه ، فقد يصح أن يكون عندي شيء وأنا ولي على يتيم ، فأشتري هذا الشيء بصفتي ، ثم أبيعه بصفتي الأخرى ، فالشخص الواحد يكون هو الشاري وهو البائع ، فكأن الله يضرب لنا بهذا المثل : " إنكم بدون منهج الله سفهاء ، فدعوا الله يبيع ودعوا الله

يشتري " .

وما الثمن ؟ يأتي التحديد من الحق : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ هذا هو الثمن الذي لا يفنى ، ولا يبلى ، ونعيمك فيها على قدر إمكانيات الله التي لا نهاية لها ، أما نعيمك في حياتك فهو على قدر إمكانياتك أنت في أسباب الله ، وهكذا يكون الثمن غالياً .

" وحينما جاء الأنصار في بيعة العقبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال له عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت .

قال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم "

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

ماذا قال رسول الله ؟ أقال لهم ستفتحون قصور بُصْرى والشام وتصيرون ملوكاً ، وينفتح لكم المشرق والمغرب ؟

لم يقل صلى الله عليه وسلم شيئاً من هذا ، بل قال : " الجنة " ؛ لأن كل شيء في الدنيا تافه بالنسبة لهذا الثمن ، قالوا : " ربح القليل لا نقيل ولا نستقيل " وبمجرد عقد الصفقة العهدية بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الأنصار ، كان من الممكن أن يموت واحد أو اثنان أو ثلاثة قبل أن يبلغ الإسلام حظه وذروته ، وقد يقال : فلان مات ولم يأخذ شيئاً من

ماديات الحياة .

لكنه صلى الله عليه وسلم حين قال : " الجنة " ، فمن مات يدخلها .

(62/350)

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ هذا هو الثمن ، وهو وعد بشيء يأتي من بعد ، ولكنه وعد ممن يملك إنفاذه ؛ لأن الذي يقدح في وعود الناس للناس ، أنك قد تعدُ بشيء ولكن تظل حياتك ولا تفي به ، أو أن تقل إمكاناتك عن التنفيذ .

إذن : الوعد الحق هو ممن يملك ويقدر ، وحيّ لا يموت ، لذلك يقول في هذه الآية :

﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾

ويقول في آخرها :

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً ﴾ و " وَعْد " مصدر ، فأين الفعل ، إننا نفهمها : أي وعدهم الله بالجنة وعداً منه سبحانه وهو الذي يملك وهو وعد حق . والقرآن حين يأتي بقضية كونية ، فالمؤمن يستقبلها بأنها سوف تحدث حتماً ، فإذا ما جاء زمنها وحدثت صارت حقّاً ثابتاً ، مثلما يقول سبحانه : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الغالبون ﴾ [الصافات : 173]

هذه قضية قرآنية ، حدثت من قبل وثبتت في الكون .

وماذا بعد أشتري الله من المؤمنين أموالهم وأنفسهم ؟ هنا يحدد الحق المهمة أمامهم : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ و " قَاتَلَ " ، و " قَتَلَ " غير " قَاتَلَ " . فالقتل عمل من جهة واحدة ، لكن " قَاتَلَ " تقتضي مفاعلة ، مثلها مثل " شَارَكَ زيدٌ عَمْراً " . وكل مادة " فاعَلَ " توضح لنا الشركة في الأمر ، فكل واحد منهم فاعل ، وكل واحد منهم مفعول . ولذلك تجد في أساليب العرب ما يدلك على أن ملحظ الفاعلية في واحد هو الغالب ، وملحظ المفعولية في الآخر هو الغالب ، ولكن على التحقيق فإن كل واحد منهم فاعل من جهة ، ومفعول من الجهة الأخرى .

فمثلاً : الرجل الذي سار في الصحراء التي فيها حيّات وثعابين ، ولم يُهج الرجل أثناء سيره الحيّات ولا الثعابين ، بل تجنبها ، والثعبان ما دُمْت لا تهيجه فهو لا يفرز سمّاً ؛ لأن سمّ الثعبان لا يفرز إلا دفاعاً .

(63/350)

وساعة يرى الثعبان أنك ستواجهه يستعمل سُمَّه ، فإذا كان الرجل سائراً وله قدرة المحافظة على عدم إهاجة الثعابين ولا الحيات ، فهو قد " سالمها " ، والشاعر يقول :

قد سَالَمَ الحيَّاتُ منه القَدَما . . . والإفْعُوان والشُّجَاعَ الشَّجْعَما

والأفعوان هو الثعبان الفظيع ، ونلحظ أن " الأفعوان " منصوب ، وأن " الحياتُ " مرفوعة ، إذن : فالقدم مفعول ، والحيات فاعل وجاء بالقدم منصوبة ، وكذلك الشجعم لما في الحيات من المفعولية ؛ لأن الحيّات إذا سالمت القدمَ فقد سالمها القدمُ ، فكأنه قال : سالم القدمُ الحيّاتِ ، ثم جعل الأفعوان بدلاً منها .

وهنا يقول الحق :

﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة يُقَاتِلُونَ ﴾ فمن يقاتل : إما أن يَقْتل وإما أن يُقْتَل ، وفي قراءة الحسن يقدم الثانية على الأولى ، ويقول : " فيُقْتَلُون ويَقْتُلُونَ " ؛ فالمسألة صفقة بمقتضى قوله : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ لذلك يُقدم قتلهم ، وهو الأقرب لمعنى الصفقة . وأيضاً فإن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ؛ وإذا ما جاء المؤمنون في جانب ؛ والكفار في جانب آخر فالمؤمنون بنيان ، والحق هو القائل : ﴿ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الذين يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : 4]

فإذا ما سبق قوم من المؤمنين بأن يُقْتَلوا ، فكأن الكل قُتل . إذن : فحين قتل بعض المؤمنين ، يمكننا أن نقرأ قول الحق على قراءة الحسن ونقول : " فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ " .

أو : أنهم حينما دخلوا إلى القتال وضعوا في أنفسهم أن يقتلوا ، ولم يغلبوا جانب السلامة .

وكلنا نعرف قصة الصحابي الذي قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أليس بيني وبين

الجنة إلا أن ألقى هؤلاء فيقتلوني ؟ قال له : " نعم " فأخرج الصحابي تمرة كانت في فمه ، ودخل إلى القتال وكأنه يستعجل الجنة .

(64/350)

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ ، وهذا تأكيد بأن لهم الجنة ، وهو وعد من الحق في التوراة والإنجيل والقرآن لمن يدخلون المعارك دفاعاً عن الإيمان .

وكل دين في وقته له مؤمنون به ، ويدخلون المعارك دفاعاً عنه . إذن : فالقتال في سبيل نصرة الدين والدفاع عنه ليس مسألة مقصورة على المسلمين ، لكنها لم تكن عامة عند الرسل ، فقد كان الحق سبحانه وتعالى هو الذي يتدخل لعقاب أهل الكفر ، وكان الرجل يبلّغ ، فإذا لم يستجِبْ له قومه ؛ عاقبهم الله سبحانه ، والقرآن يقول : ﴿ فَمِنْهُم مَّن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصيحة وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأرض وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا . . . ﴾ [العنكبوت : 40]

ولم تَأْتِ مسألة القتال في سبيل الله إلا عندما طلب اليهود من بعد سيدنا موسى عليه السلام أن يقاتلوا في سبيل الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الملإِ مِن بني إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ موسى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابعث لَنَا مَلِكاً نقَاتِلْ فِي سَبِيلِ الله . . . ﴾ [البقرة : 246]

إذن : فهذا وعد من الله في التوراة للذين آمنوا بموسى عليه السلام ، وطالبوا بالقتال في سبيل الله ، وكذلك في الإنجيل للذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، وأخيراً في القرآن للذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم .

أو : أن هذا الوعد خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؛ لأنها الأمة المأمونة للدفاع عن كلمة الله بالمجهود البشري .

(65/350)

وبهذا يكون الوعد في التوراة والإنجيل والقرآن هو وعد لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، فكأن التوراة قد بُشِّر فيها بهذا للمسلمين المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذلك الإنجيل قد بُشِّر فيه بهذا الوعد للأمة المسلمة . والدليل على ذلك هو قول الحق سبحانه في آخر سورة الفتح : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [الفتح : 29]

إذن : فالدين لا يطبع المتدين لا على الشدة ولا على الرحمة ، إنما يطبعه انطباعاً يصلح لموقف الشدة فيكون شديداً ، ولموقف الرحمة فيكون رحيماً . ولو أنه مطبوع على الشدة لكان شديداً طوال الوقت ، ولو طُبع على الرحمة فقط لكان رحيماً كل الوقت ، ولكن شاء

الحق أن يطبع المؤمنين ليكونوا أشداء على الكفار رحماء بينهم ؛ ولذلك فالدين لا يطبع الناس على ذلة ولا على عزة ، إنما يجعلهم أذلة على المؤمنين ، وأعزة على الكفار .

وبذلك يُطوِّع المؤمن نفسه ، هو شديد ورحيم ، عزيز وذليل ، فهو طوع للمنهج ، فحين يتطلب منه منهج الله أن يكون شديداً يشتد ، وحين يتطلب منهج الله منه أن يكون رحيماً يرحم ، وحين يتطلب الله من أن يكون ذليلاً بالنسبة لإخوانه المؤمنين يذل ، وحين يتطلب الله منه أن يكون عزيزاً على الكافرين يعز . ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهِ والذين مَعَهُ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [الفتح : 29]

وتتابع صفات المؤمنين في قوله سبحانه : ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً . . . ﴾ [الفتح : 29]

وهم في ركوعهم وسجودهم إنما يعبرون عن قيم الولاء لله .

ثم يصفهم سبحانه : ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السجود . . . ﴾ [الفتح : 29]

(66/350)

وهم لا يريدون إلا رضاء الله وفضله ، والنور يشع من وجوههم ؛ لأنهم أهل للقيم ،

ويضيف سبحانه : ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة . . . ﴾ [الفتح : 29]

أي : أن التوراة جاءت فيها البشارة بأن محمداً سيجيء بأمة فيها الخصال الإيمانية والقيمية التي لا توجد في اليهود ، هؤلاء الذين تغلب عليهم المادية ولا ترتقي أرواحهم بالقيم الدينية ، فأنت إن نظرت إلى التوراة المحرفة فلن تجد فيها أي شيء عن اليوم الآخر ، بل كلها أمور مادية .

أما في الإنجيل فقد جاءت المسيحية بالرهبنة ، والماديات فيها ضعيفة ؛ ولذلك جاء القرآن منهجاً متكاملاً تنتظم به الحياة ، قيماً حارسة ، ومادة محروسة ؛ فالعالم يفسد حين تأتي المادة فتطغى وتنحسر القيم ، أو حين توجد قيم ليس لها قوة مادية تدافع عنها ، فيأبى القوي الظالم إلا أن يطغى بقوته المادية على القيم الروحية فيكون الخلل في البناء الاجتماعي .

إذن : فنحن في حاجة دائمة إلى قيم تحرسها مادة ، ومادة تحرسها قيم . وأخبر الله قوم موسى : أنتم لا تملكون القيم المعنوية ، وتعتزون بالقيم المادية ، لذلك ستأتي أمة محمد وهي تملك قيم الروح والمادة ، فهم رُكَّع ، سُجَّد ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وسيماهم في وجوههم من أثر السجود .

وأبلغ سبحانه قوم عيسى عليه السلام أنه سيأتي في أمة محمد بمنهج يعطيهم ما فقدتموه من

المادة ؛ بسبب أنكم انعزلتم عن الحياة وابتدعتم رهبنة ما كتبها الله عليكم ، بينما نحن نريد حركة في الحياة . ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التوراة وَمَثَلُهُمْ فِي الإنجيل كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فاستغلظ فاستوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزراع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكفار . . . ﴾ [الفتح : 29]

(67/350)

ومن حق المسلمين أن يقولوا : أيها الكافرون ليست لكم مادة تطغون بها علينا ؛ لأن الإسلام يريد من حركة حياتنا على ضوء منهجه في الأرض أن تتوازن المادة مع القيم ؛ لأن القيم هي التي تحرس الحضارة ، والمادة إنما تحرس القيم ، وحين يمتلك المسلمون القوة المادية فسيرتدع أي إنسان عن أن يطمع في فتنة المسلمين في دينهم ؛ ولذلك قال الحق سبحانه : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُمْ مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ . . . ﴾ [الأنفال : 60]

فالكفار إذا رأوك قد أعددْتَ لهم يتهيبون .

وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق :

﴿ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التوراة والإنجيل والقرآن ﴾

وما دام الحق قد أعطى الوعد ، فلن يوجد من هو أوفى منه ؛ لذلك يقول : ﴿ وَمَنْ أوفى

بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ وبذلك يطمئننا سبحانه على أن وعده محقق ؛ لأن العهد ارتباط بين مُعَاهَد ومُعَاهِد ، والذي يخرج عن هذا الارتباط أمران :

الأول : ألا يكون صادقاً حين أعطى عهداً ، بل كان في نيته ألا يوفي ، ولكنه أقام العهد خديعة حتى يستنيم له المعَاهَد .

والأمر الثاني : أن يكون قد أعطى وعداً بما لا يستطيع تنفيذه ، فهو كاذب .

والله لا يليق به لا الكذب ولا الخديعة ؛ فسبحانه مُنزَّه عن كل ذلك ، ولا أحد أوْفَى بالعهد من الله .

فقد يُطعن في العهد والوفاء به عدم القدرة ، لكن قدرة الحق مستوفية .

إذن : فالعهد الحقيقي إنما يؤخذ من الله ، وقد جاء الحق بهذه القضية بشكل استفهامي ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ ؟ فالإجابة : لا أحد ؛ لأن الذي يقدح في مسألة العهد الخُلف والكذب وغير ذلك .

(68/350)

والله سبحانه مُنزَّه عن الكذب والخديعة ؛ لأن الخديعة لا تأتي إلا من ماكر ، وإذا سمع أي إنسان ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ ﴾ ثم أدار فكره في الكون ليبحث عن جواب ، فلا

يجد إلا أن يقول : " الله " ، ولا أحد أوفى من الله بالعهد . وما دام الوعد بالجنة ، فالجنة لا يملكها إلا هو سبحانه ووعده حق ، وكلها تأكيدات بأن المسألة واقعة وحادثة .

ولهذا يقول سبحانه : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ [التوبة : 111]

فالنتيجة لهذه المسألة كلها من شراء الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، ثم وعده الحق المبيّن في التوراة والإنجيل والقرآن ، وكلها شهادات مسجلة هي الاستبشار بما باعه المؤمن لله . فالإنسان – ولله المثل الأعلى – لا يسجل إلا ما يكون في صالح قضيته ، ولا يسجل للخصم ، فعندما يكون عندك صَكٌّ على فلان ، فأنت الذي تحتفظ به وتحرص عليه ؛ لأنه يؤيد حقك .

والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذكر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : 9]

والقرآن هو الحجة الكاملة الشاملة في كل أمور الدنيا والآخرة ، ومن فَرْط صدق القرآن أن البشر قد يصلون إلى قضية كونية ما ، ومن بعد ذلك تُخَالَف ، وحين تعود إلى القرآن تجد أن كلام القرآن هو الذي صدق ، وقد حفظ الحق سبحانه القرآن لأن قضايا الكون الذي خلقه الله لا يمكن أن تخرج عن قضايا القرآن ؛ لأن منزل القرآن وخالق الكون واحد ، فلا شيء يصادمه .

﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾

قوله الحق : ﴿ فاستبشروا ﴾ مأخوذ من " البشرة " ، وهي الجلد عامة ، وإن كان الظاهر منه هو الوجه .

(69/350)

وحين يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾ فقد يفهم أحد أن النفس سوف تضيع ، وأن الأموال سوف تنفق ، وهذا قد يُقبِضُ النفس فهذا فيه الموت ، وخسارة للمال ، وكان من الطبيعي أن يشحب وجه الإنسان ويفزع ويخاف .

ولكن ساعة يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى ﴾ يجد بشرة المؤمن تطفح بالسرور والبشر ، ويحدث له تهلل وإشراق ، مع أنه هنا سيأخذ نفسه ، ولكن المؤمن يعرف أنه سبحانه سيأخذ نفسه ليعطيه الحياة الخالدة .

إذن : قضايا الإيمان كلها هكذا لا يجب أن تصيبنا بالخوف ، بل علينا أن نستقبلها بالاستبشار ، ولذلك يقول الحق : ﴿ فاستبشروا ﴾ أي : فليظهر أثر ذلك على بشرتكم إشراقاً وسروراً وانبساطاً .

﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ ﴾ وهل يستبشر الإنسان بالبيع ؟ نعم ؛ لأن الإنسان لا يبيع إلا ما يستغني عنه عادة ، ويشتري ما يحتاج إليه ، فهنا الاستبشار بالبيع وليس بالشراء ، فالمؤمن

هنا يبيع فانياً بباق .

﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ وأنت إذا ما نظرت إلى الذين يخالفون العهد الذي أخذ عليهم ، تجد الواحد منهم يحتاج للمخالفة لأن وفاءه يتبعه . لكن الحق سبحانه ليس في حاجة لأحد وهو غني عن الجميع ، ولا يوجد أدنى مبرر لخُلْف الوعد أبداً .

وتأتي ﴿ وَذَلِكَ ﴾ إشارة إلى الصفقة التي انعقدت بينكم وبين ربكم .

﴿ وَذَلِكَ هُوَ الفوز العظيم ﴾ والفوز هو بلوغ الغاية المأمولة في عرف العقل الواعي ، كما تقول لابنك : " ذاكر لتفوز بالنجاح " وتقول للتاجر : " اجتهد في عملك بإخلاص لتفوز بالربح " .

إذن : فهناك " فوز " ، وهناك " فوز عظيم " والفوز في الدنيا أن يتمتع الإنسان بالصحة والمال وراحة البال . وهناك فوز أعظم من هذا ؛ أن تضمن أن النعمة التي تفوز بها لا تفارقك ولا أنت تفارقها ، فيكون هذا هو الفوز الذي لا فوز أعظم منه ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(70/350)

فائدة

قال التستري :

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [111] يعني اشتراها من شهوات الدنيا وما يوجب الاشتغال عن ذكره ، حتى تكون نفسه وماله خالصة له ، فمن لم يبع من الله حياته الفانية وشهواته الزائلة ، كيف يعيش مع الله تعالى ؟ وكيف يحيا حياة طيبة ؟ ثم قال : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [111] بما لا خير فيه ، وعوضهم ما فيه الخير كله ، مع أن ما في الكونين فهو ملكه ، وهذا من غاية لطفه وكرمه بعباده المؤمنين .

وقد حكي عن مالك بن دينار أنه مر بقصر يعمر ، فسأل الأجراء عن أجرتهم ، فأجابه كل واحد منهم بما كانت أجرته ، ولم يجبه واحد ، فقال : ما أجرتك ؟ فقال : لا أجر لي .

فقال : ولم ذلك ؟ قال : لأني عبد صاحب القصر .

فقال مالك : إلهي ما أسخاك ، الخلق كلهم عبيدك ، كلفتهم العمل ووعدتهم الأجر . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير التستري صـ 74 ﴾

(71/350)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

أخرج ابن جرير عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . قال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة . قال : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل . فنزلت ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم . . . ﴾ الآية .

وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال " نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ الآية . فكبر الناس في المسجد . فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقبل ولا نستقيل " .

وأخرج ابن مردويه عن أبو هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله " .

وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عبادة بن الصامت " أن أسعد بن زرارة أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام تبايعون

محمداً ؟ إنكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والإِنس كافة . فقالوا : نحن حرب لمن حارب وسلم لمن سالم . فقال أسعد بن زرارة : يا رسول الله اشترط عليَّ ، فقال : تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وإني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيموا الصلاة ، وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الأمر أهله ، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم . قالوا : نعم . قال قائل الأنصار : نعم هذا لك يا رسول الله فما لنا ؟ قال : الجنة والنصر " .

(72/350)

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : " انطلق النبي صلى الله عليه وسلم بالعباس بن عبد المطلب – وكان ذا رأي – إلى السبعين من الأنصار عند العقبة فقال العباس : ليتكلم متكلمكم ولا يطل الخطبة ، فإن عليكم للمشركين عيناً وإن يعلموا بكم يفضحوكم . فقال قائلهم وهو أبو أمامة أسعد : يا محمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك وأصحابك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك . فقال " أسألكم لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا وتنصرونا وتمنعونا مما تمنعون منه أنفسكم . قال : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟ قال : الجنة . فكان الشعبي إذا

حدث هذا الحديث قال : ما سمع الشيب والشبان بخطبة أقصر ولا أبلغ منها " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن الحسن أنه كان إذا قرأ هذه الآية ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ قال : أنفس هو خلقها وأموال هو رزقها .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنَّ لهم الجنة ﴾ قال : ثامنهم – والله – وأعلى لهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا قد دخل في هذه البيعة . وفي لفظ : اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ .

وأخرج ابن المنذر من طريق عياش بن عتبة الحضرمي عن إسحق بن عبد الله المدني قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من الأنصار فقال : يا رسول الله نزلت هذه الآية ؟ فقال : نعم . فقال الأنصار : بيع رابح لا نقيل ولا نستقيل قال عياش : وحدثني إسحاق أن المسلمين كلهم قد دخلوا في هذه الآية ، ومن كان منهم إذا احتيج إليه نفع وأغار ، ومن كان منهم لا يغير إذا احتيج إليه فقد خرج من هذه البيعة " .

(73/350)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون ﴾ يعني يقاتلون المشركين ﴿ في سبيل الله ﴾ يعني في طاعة الله ﴿ فيقتلون ﴾ العدو ﴿ ويقتلون ﴾ يعني المؤمنين ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ يعني ينجز ما وعدهم من الجنة ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله ﴾ فليس أحد أوفى بعهده من الله ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ الرب تبارك بإقراركم بالعهد الذي ذكره في هذه الآية ﴿ وذلك ﴾ الذي ذكر من الثواب في الجنة للقاتل والمقتول ﴿ هو الفوز العظيم ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ قال : ثامنهم – والله – فأعلى لهم الثمن ﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ قال : وعدهم في التوراة والإنجيل أنه من قتل في سبيل الله أدخله الجنة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن شمر بن عطية قال : ما من مسلم إلا ولله تعالى في عنقه بيعة وفّى بها أو مات عليها ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾ الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع قال : في قراءة عبد الله رضي الله عنه " إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بالجنة " .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ إن الله اشترى . . . ﴾ الآية .

قال : نسخها ﴿ ليس على الضعفاء ﴾ [التوبة : 91] الآية .

وأخرج أبو الشيخ عن سليمان بن موسى رضي الله عنه : وجبت نصرة المسلمين على كل مسلم لدخوله في البيعة التي اشترى الله بها من المؤمنين أنفسهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(74/350)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ بِأَنَّ لَهُمُ ﴾ : متعلقٌ ب " اشترى " ، ودخلت الباءُ هنا على المتروك على بابها ، وسَمَّاها أبو البقاء باء المقابلة كقولهم باء العوض . وقرأ عمر بن الخطاب " بالجنة " .

قوله : " يُقاتِلُون " يجوز أن يكونَ مستأنفاً ، ويجوز أن يكونَ حالاً . وقال الزمخشري : " يقاتلون " فيه معنى الأمر ، كقوله تعالى : ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ

﴾ [الصف : 11] . قلت : وعلى هذا فيتعيَّنُ الاستئناف ، لأن الطلب لا يقع حالاً .

وقد تقدَّم الخلاف في " فيَقتلون ويُقتلون " في آل عمران .

قوله : ﴿ وَعْداً ﴾ منصوبٌ على المصدر المؤكد لمضمون الجملة لأنَّ معنى " اشترى " معنى وعدهم بذلك فهو نظير " هذا ابني حقاً " . ويجوز أن يكونَ مصدراً في موضع الحال ، وفيه ضعف . و " حقاً " نعت له ، و " عليه " حالٌ مِنْ " حقاً " لأنه في الأصل صفةٌ لو تأخَّرَ .

قوله : ﴿ فِي التوراة ﴾ فيه وجهان ، أحدهما : أنه متعلق ب " اشترى " وعلى هذا فتكونُ كل أمة قد أُمِرت بالجهاد ووُعِدت عليه الجنة . والثاني : أنه متعلقٌ بمحذوف لأنه صفةٌ للوعد ، أي : وعداً مذكوراً وكائناً في التوراة ، وعلى هذا فيكون الوعد بالجنة لهذه الأمة مذكوراً في كتب الله المُنَزَّلَة . وقال الزمخشري في أثناءِ كلامه : " لا يجوز عليه قبيحٌ قط " ، قال الشيخ : " استعمل " قط " في غير موضوعه ؛ لأنه أتى به مع قوله : " لا يجوز عليه " و " قط " ظرفٌ ماضٍ ؛ فلا يعمل فيه إلا الماضي " ، قلت : ليس المراد هنا زمناً بعينه .

وقوله : ﴿ فاستبشروا ﴾ فيه التفاتٌ من الغَيْبَة إلى الخطاب لأنَّ في خطابهم بذلك تشريفاً لهم ، واستفعل هنا ليس للطلب ، بل بمعنى أفعل كاستوقد وأوقد . وقوله : ﴿ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ توكيدٌ كقوله : ﴿ الذي بَنَوْاْ ﴾ [التوبة : 110] لينصَّ لهم على هذا البيعِ بعينه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 127 . 129 ﴾

(76/350)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

لمّا كان من المؤمنين تسليمُ أَنفسهم وأموالهم لحُكْمِ الله ، وكان من الله الجزاءُ والثوابُ ؛ أي هناك عِوَضٌ ومُعَوض ، فِلمَا بَين ذلك وبين التجارة من مشابهة أطلق لفظَ الاشتراءِ ، وقد قال تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ . . . ﴾ [الصف : 10] ، وقال : ﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ ﴾ [البقرة : 16] .

وفي الحقيقة لا يصحُّ في وصف الحق – سبحانه – الاشتراء لأنه مَالِكُ سِوَاه ، وهو مالِكُ الأعيانِ كلِّها . كما أَنَّ مَنْ لم يستَحْدِثْ مِلْكاً لا يُقَال إنه – في الحقيقة – باع .

وللمقال في هذه الآية مجال . . . فيقال : البائعُ لا يستحقُّ الثمنَ إذا امتنع عن تسليم المبيع ، فكذلك لا يستحق العبدُ الجزاءَ الموعودَ إلا بعد تسليمِ النَّفسِ والمالِ على موجب أوامر الشرع ، فَمَنْ قَعَدَ أو فَرَّطَ فغيرُ مستحقٍ للجزاء .

ويقال لا يجوز في الشرع أن يبيع الشخصُ ويشتري شيئاً واحداً فيكونَ بائعاً ومشترياً إلا إذا كان أباً وجَدّاً ! ولكن ذلك هنا بلفظ الشفقة ؛ فالحقُّ بإذنه كانت رَحْمَتُه بالعبد أتمَّ ، ونظرُه له أبلغَ ، وكان للمؤمِن فيه من الغبطة ، ما لا يخفى ، فصحَّ ذلك وإن كان حُكمه لا يقاس على حكم غيره .

ويقال إنما قال : ﴿ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ ﴾ ولم يقل " قلوبهم " لأنَّ النَّفْسَ محلُّ الآفات فجعل الجنة في مقابلتها ، وجعل ثَمَنَ القلبِ أَجَلَّ من الجنة ، وهو ما يخصُّ به أولياءه في الجنة مِنْ عزيزِ رؤيته .

ويقال النَّفْسُ محلُّ العيب ، والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً لينتفع به اشترى خيرَ ما يجده ، ومن اشترى شيئاً لِيَنْتَفِعَ به غيرهُ يشتري ما رُدَّ على صاحبه لِيَنْفَعَه بثمنه .

(77/350)

وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء – عليهم السلام – : يا بني آدم ، ما خلقتُكم لأربحَ عليكم ولكن خَلَقْتُكم لتربحوا عليَّ .

ويقال اشترى منهم نفوسَهم فرهبوا على قلوبهم شكراً له حيث اشترى نفوسَهم ، وأمَّا القلبُ فاستأثره قهراً ، والقهر في سُنَّةِ الأحباب أعزُّ من الفضل ، وفي معناه أنشدوا :

بُنِيَ الحبُّ على القَهْرِ فلو . . . عَدَلَ المحبوبُ يوماً لَسَمُج

ليس يُسْتَحْسَنُ في حكم الهوى . . . عاشِقٌ يَطْلُبُ تأليفَ الحُجَج

وكان الشيخ أبو علي الدقاق رحمه الله يقول : " لم يقل اشترى قلوبَهم لأن القلوبَ وَقْفٌ على محبته ، والوقفُ لا يُشترى " .

ويقال الطيرُ في الهواء ، والسَّمَكُ في الماءِ لا يصحُّ شراؤهما لأنه غير ممكن تسليمهما ، كذلك القلبُ . . صاحبُه لا يمكنه تسليمه ، قال تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال : 24] .

وفي التوراة : " الجنَّةُ جنتي والمالُ مالي فاشتروا جنتي بمالي فإنْ ربحتم فلكم وإنْ خَسِرْتُمْ فعليَّ " .

ويقال عَلِمَ سوءَ خُلقِك فاشتراك قبل أَنْ أوجدك ، وغَالِي بثمنك لئلا يكونَ لَكَ حقُّ الاعتراض عند بلوغك .

ويقال ليس للمؤمن أن يتعصَّبَ لنفسه بحالٍ لأنها ليست له ، والذي اشتراها أَوْلى بها من

صاحبها الذي هو أجنبيٌّ عنها .

ويقال أخبر أنه اشتراها لئلا يَدَّعِيَ العبدُ فيها ؛ فلا يساكنها ولا يلاحظها ولا يُعْجَبُ بها .

قوله : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ سيّان عندهم أن يَقْتُلُوا أو يُقْتَلُوا ، قال قائلهم :

وإنَّ دَمَاً أجريتَه لك شاكرٌ . . . وإنَّ فؤاداً خِرْتَه لكَ حامدُ

(78/350)

ويقال قال : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ ﴾ ولم يقل بثمن مبيعكم لأنه لم يكن مِنَّا بَيْعٌ ، وإنما أخبر عن نفسه بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فجعل بَيْعَه بَيْعَنا ، وهذا مثلما قال في صفة نبيه – صلى الله عليه وسلم – ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال : 17] وهذا عين الجَمْع الذي أشار إليه القوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 63.65 ﴾

(79/350)

قوله تعالى ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ثبتت المعاقدة وأحكامها ، وصف المعاقدين على طريق المدح للحث على أوصافهم فقال : ﴿ التآئبون ﴾ مبتدئاً أوصافهم بالتوبة التي هي أساس العمل الصالح ، ثم ابتدأ المؤسس بمطلق العبادة الشاملة لجميع أنواع الدين من العلم وغيره فقال : ﴿ العابدون ﴾ أي الذين أقبلوا على العبادة فأخلصوها لله ؛ ولما كان التزام الدين لا يعرف إلا بالإقرار باللسان ، أتبع ذلك الحمد الذي تدور مادته على بلوغ الغاية الذي من جملته الثناء اللساني بالجميل الشامل للتوحيد وغيره فقال : ﴿ الحامدون ﴾ أي المثنون عليه سبحانه ثناء عظيماً ، تطابقت عليه ألسنتهم وقلوبهم فتبعته آثاره ؛ ولما كان الإقرار باللسان لا يقبل إلا عند مطابقة القلب ، تلاه بالسياحة التي تدور بكل ترتيب على الاتساع الذي منه إصلاح القلب ليتسع للتجرد عن ضيق المألوفات إلى فضاء الحضرات الإلهيات فقال : ﴿ السائحون ﴾ ولما كانت الصلاة نتيجة ذلك لكونها جامعة لعمل القلب واللسان وغيرهما من الأركان ، وهي أعظم موصل إلى بساط الأنس في حضرات القدس وأعلى مجرد عن الوقوف مع المألوف .

(80/350)

وكان أول مراتب التواضع القيام وأوسطها الركوع وغايتها السجود ، وكان جميع أشكال الصلاة موافقاً للعادة إلا الركوع والسجود ، أشار إليها بقوله مخصصاً لها بالذكر تنبيهاً على أن المراد من الصلاة نهاية الخضوع : ﴿ الراكعون ﴾ فبين أن تمام هذه البشرى لهذه الأمة أن صلاة غيرهم لا ركوع فيها ، وأتمها بقوله : ﴿ الساجدون ﴾ ولما كان الناصح لنفسه بتهذيب لسانه وقلبه وجميع جوارحه لا يقبل إلا إذا بذل الجهد في نصيحة غيره كما صرح به مثال السفر في السفينة ليحصل المقصود من الدين وهو جمع الكل على الله المقتضي للتعاضد والتناصر الموجب لدوام العبادة والنصرة وبذلك يتحقق التجرد عن كل مألوف مجانس وغير مجانس ، أتبع ذلك قوله : ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ أي السنة .

(81/350)

ولما كان الدين متيناً فلن يشاده أحد إلا غلبه ، كان المراد من المأمورات مسماها دون تمامها ومنتهاها " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم " والمراد من المنهيات تركها كلها ، ومن

الحدود الوقوف عندها من غير مجاوزة " وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه " رواه البخاري في الاعتصام من صحيحه ومسلم ايضاً عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ ، وكانت العرب – كما تقدم في البقرة عند قوله تعالى ﴿ والصلاة الوسطى ﴾ [البقرة : 238] وفي آل عمران عند قوله ﴿ الصابرين والصادقين ﴾ [آل عمران : 17] عن الأستاذ أبي الحسن الحرالي – إذا أتبعت بعض الصفات بعضاً من غير عطف علم أنها غير تامة ، فإذا عطفتها أردت التمكن فيها والعراقة والتمام ، فأعلم سبحانه أن المراد فيما تقدم من الأوصاف الإتيان بما أمكن منها ، فأتى بها اتباعاً دون عطف لذلك ، وأشار إلى أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والوقوف عند الحدود لا يقنع منه إلا بالتمام لأن المقصر في شيء من ذلك إما راض بهدم الدين وإما هادم بنفسه ، فيجب التجرد التام فيه لأن النهي أصعب أقسام العبادة لأنه متعلق بالغير وهو مثير للغضب موجب للحمية وظهور الخصومة ، فربما كان عنه ضرب وقتل ، فلذلك عطفها ولم يتبعها فقال : ﴿ والناهون ﴾ أي بغاية الجد ﴿ عن المنكر ﴾ أي البدعة .

ولما كان فاعل الخير لا ينفعه فعله إلا باستمراره عليه إلى الموت أتبعه قوله :

﴿ والحافظون ﴾ أي بغاية العزم والقوة ﴿ لحدود الله ﴾ أي الملك الأعظم التي حدها في هذا الشرع القيم فلم يتجاوزوا شيئاً منها ، فختم بما به بدأ مع قيد الدوام بالرعي والقوة ، والحاصل أن الوصف الأول للتجرد عن ربقة مألوف خاص وهو شرك المعصية بشركه أو

غيره ، والثاني للتجرد عن قيود العادات إلى قضاء العبادات ، والثالث لبلوغ الغاية في تهذيب الظاهر .

(82/350)

والرابع للتوسع إلى التجرد عن قيود الباطن ، والخامس والسادس للجمع بين كمال الباطن والظاهر ، والسابع للسير إلى إفاضة ذلك على الغير ، والثامن للدوام على تلك الحدود بترك جميع القيود .

فمقصود الآية العروج من الحضيض الجسماني إلى الشرف الروحاني ؛ ثم أمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتبشير المتخلق بهذه الأوصاف عاطفاً لأمره به على محذوف تقديره – والله أعلم : فأنذر من تخلى منها بكل ما يسوءه بعد سجنه في دار الشقاوة فإنه كافر وبشرهم ، أي هؤلاء الموصوفين ، هكذا كان الأصل الإضمار ، ولكنه أظهر ختاماً بما به بدأ وتعليقاً بالوصف وتعميماً فقال : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي المتخلقين بها بكل ما يسرهم بعد تخصيصهم بدار السعادة ، وفي ختم الآيتين بالبشارة تارة من الخالق وتارة من أكمل الخلائق أعظم مزية للمؤمنين ، وفي جعل الأولى من الله أعظم ترغيب في الجهاد وأعلى حث على خوض غمرات الجلاد ، وفي ابتداء الأيتين بالوصف المعشر بالرسوخ في الإيمان الذي هو

الوصف المتمم للعشر وختمهما بمثله إشارة إلى أن هذه مائدة لا يخلس عليها طفيلي ، وأن من عدا الراسخين في درجة الإهمال لا كلام معهم ولا التفات بوجه إليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 390 . 392 ﴾

(83/350)

فصل

قال الفخر :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية الأولى أنه ﴿ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ بين في هذه الآية أن أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة .

وفيه مسألتان :

المسألة الأولى :

في رفع قوله : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون ﴾ وجوه : الأول : أنه رفع على المدح ، والتقدير : هم التائبون ، يعني المؤمنين المذكورين في قوله : ﴿ اشترى مِنَ المؤمنين

أَنفُسَهُمْ ﴾ هم التائبون .

الثاني : قال الزجاج : لا يبعد أن يكون قوله : ﴿ التائبون ﴾ مبتدأ ، وخبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً ، وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ وهذا وجه حسن .

لأن على هذا التقدير يكون الوعد بالجنة حاصلاً لجميع المؤمنين ، وإذا جعلنا قوله : ﴿ التائبون ﴾ تابعاً لأول الكلام كان الوعد بالجنة حاصلاً للمجاهدين .

الثالث : ﴿ التائبون ﴾ مبتدأ أو رفع على البدل من الضمير في قوله : ﴿ يقاتلون ﴾ الرابع : قوله : ﴿ التائبون ﴾ مبتدأ ، وقوله : ﴿ العابدون ﴾ إلى آخر الآية خبر بعد خبر ، أي التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال .

وقرأ أبي وعبد الله ﴿ التائبين ﴾ بالياء إلى قوله : ﴿ والحافظين ﴾ وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون ذلك نصباً على المدح .

الثاني : أن يكون جراً ، صفة للمؤمنين .

المسألة الثانية :

في تفسير هذه الصفات التسعة .

فالصفة الأولى : قوله : ﴿ التائبون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه : التائبون من الشرك .

وقال الحسن : التائبون من الشرك والنفاق .

وقال الأصوليون : التائبون من كل معصية ، وهذا أولى ، لأن التوبة قد تكون توبة من الكفر ، وقد تكون من المعصية .

(84/350)

وقوله : ﴿ التائبون ﴾ صيغة عموم محلاة بالألف واللام ، فتتناول الكل فالتخصيص بالتوبة عن الكفر محض التحكم .

واعلم أنا بالغنا في شرح حقيقة التوبة في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة : 37] .

واعلم أن التوبة إنما تحصل عند حصول أمور أربعة : أولها : احتراق القلب في الحال على صدور تلك المعصية عنه ، وثانيها : ندمه على ما مضى ، وثالثها : عزمه على الترك في المستقبل ، ورابعها : أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته ، فإن كان غرضه منها دفع مذمة الناس وتحصيل مدحهم أو سائر الأغراض ، فهو ليس من التائبين .

والصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ العابدون ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم .

وقال المتكلمون هم الذين أتوا بالعبادة ، وهي عبارة عن الإتيان بفعل مشعر بتعظيم الله تعالى على أقصى الوجوه في التعظيم ، ولابن عباس رضي الله عنهما : أن يقول إن معرفة الله والإقرار بوجوب طاعته عمل من أعمال القلب ، وحصول الاسم في جانب الثبوت يكفي فيه حصول فرد من أفراد تلك الماهية .

قال الحسن : ﴿ العابدون ﴾ هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء .

وقال قتادة : قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم .

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ الحامدون ﴾ وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه ديناً ودنيا ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم ، وقد ذكرنا التسبيح والتهليل والتحميد صفة الذين كانوا يعبدون الله قبل خلق الدنيا ، وهم الملائكة ، لأنه تعالى أخبر عنهم أنهم قالوا قبل خلق آدم ونحن نسبح بحمدك ، وهو صفة الذين يعبدون الله بعد خراب الدنيا .

لأنه تعالى أخبر عن أهل الجنة بأنهم يحمدون الله تعالى ، وهو ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] وهم المرادون بقوله : ﴿ والحامدون ﴾ .

(85/350)

الصفة الرابعة : قوله : ﴿ السائحون ﴾ وفيه أقوال :

القول الأول : قال عامة المفسرين هم الصائمون .

وقال ابن عباس : كل ما ذكر في القرآن من السياحة ، فهو الصيام .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : " سياحة أمتي الصيام " وعن الحسن : أن هذا صوم الفرض .

وقيل هم الذين يديمون الصيام ، وفي المعنى الذي لأجله حسن تفسير السائح بالصائم ، وجهان : الأول : قال الأزهري : قيل للصائم سائح ، لأن الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه ، كان ممسكاً عن الأكل ، والصائم يمسك عن الأكل ، فلهذه المشابهة سمي الصائم سائحاً .

الثاني : أن أصل السياحة الاستمرار على الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم يستمر على فعل الطاعة ، وترك المشتهي ، وهو الأكل والشرب والوقاع ، وعندي فيه وجه آخر ، وهو أن الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب والوقاع وسد على نفسه أبواب الشهوات ، انفتحت عليه أبواب الحكمة ، وتجلت له أنوار عالم الجلال ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : " من أخلص لله أربعين صباحاً ، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه " فيصير من السائحين في عالم جلال الله المنتقلين من مقام إلى مقام ، ومن درجة إلى درجة ، فيحصل له سياحة في عالم الروحانيات .

والقول الثاني : أن المراد من السائحين طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم ، وهو قول عكرمة ، وعن وهب بن منبه : كانت السياحة في بني إسرائيل ، وكان الرجل إذا ساح أربعين سنة رأى ما كان يرى السائحون قبله .

(86/350)

فساح ولد بغي منهم أربعين سنة فلم ير شيئاً ، فقال : يا رب ما ذنبي بأن أساءت أمي ، فعند ذلك أراه الله ما أرى السائحين وأقول للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس لأنه يلقاه أنواع من الضر والبؤس ، فلا بد له من الصبر عليها ، وقد ينقطع زاده ، فيحتاج إلى التوكل على الله ، وقد يلقى أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كل أحد فائدة مخصوصة ، وقد يلقى الأكابر من الناس ، فيستحقر نفسه في مقابلتهم ، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة ، فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته ، وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين .

والقول الثالث : قال أبو مسلم : ﴿ السائحون ﴾ السائرون في الأرض ، وهو مأخوذ من السيح ، سيح الماء الجاري ، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً ، وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين ، فينبغي أن

يكونوا موصوفين بمجموع هذه الصفات .

الصفة الخامسة والسادسة : قوله : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ والمراد منه إقامة الصلوات .

قال القاضي : وإنما جعل ذكر الركوع والسجود كناية عن الصلاة لأن سائر أشكال المصلي موافق للعادة ، وهو قيامه وقعوده .

والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها . فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم .

الصفة السابعة والثامنة : قوله : ﴿ الأمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ واعلم أن كتاب أحكام الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ؛ كتاب كبير مذكور في علم الأصول . فلا يمكن إيراده ههنا .

وفيه إشارة إلى إيجاب الجهاد ، لأن رأس المعروف الإيمان بالله ، ورأس المنكر الكفر بالله .

(87/350)

والجهاد يوجب الترغيب في الإيمان ، والزجر عن الكفر .

والجهاد داخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأما دخول الواو في قوله : ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ ففيه وجوه :

الوجه الأول : أن التسوية قد تجيء بالواو تارة وبغير الواو أخرى .

قال تعالى : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ذِي الطول ﴾ [غافر : 3] فجاء بعض بالواو ، وبعض بغير الواو .

الوجه الثاني : أن المقصود من هذه الآيات الترغيب في الجهاد فالله سبحانه ذكر الصفات الستة ، ثم قال : ﴿ الأمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ والتقدير : أن الموصوفين بالصفات الستة ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

وقد ذكرنا أن رأس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ورئيسه ؛ هو الجهاد ، فالمقصود من إدخال الواو عليه التنبيه على ما ذكرنا .

الوجه الثالث : في إدخال الواو على هؤلاء ، وذلك لأن كل ما سبق من الصفات عبادات يأتي بها الإنسان لنفسه ، ولا تعلق لشيء منها بالغير .

أما النهي عن المنكر فعبادة متعلقة بالغير ، وهذا النهي يوجب ثوران الغضب وظهور الخصومة ، وربما أقدم ذلك المنهي على ضرب الناهي وربما حاول قتله ، فكان النهي عن المنكر أصعب أقسام العبادات والطاعات ، فأدخل عليها الواو تنبيهاً على ما يحصل فيها

من زيادة المشقة والمحنة .

الصفة التاسعة : قوله : ﴿ والحافظون لحُدُودِ الله ﴾ والمقصود أن تكاليف الله كثيرة وهي محصورة في نوعين : أحدهما : ما يتعلق بالعبادات .

والثاني : ما يتعلق بالمعاملات .

أما العبادات فهي التي أمر الله بها لا لمصلحة مرعية في الدنيا ، بل لمصالح مرعية في الدين ؛ وهي الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والإعتاق والنذور وسائر أعمال البر .

وأما المعاملات فهي : إما لجلب المنافع وإما لدفع المضار .

(88/350)

والقسم الأول : وهو ما يتعلق بجلب المنافع : فتلك المنافع إما أن تكون مقصودة بالأصالة أو بالتبعية ؛ أما المنافع المقصودة بالأصالة ، فهي المنافع الحاصلة من طرف الحواس الخمسة :

فأولها : المذوقات : ويدخل فيها كتاب الأطعمة والأشربة من الفقه .

ولما كان الطعام قد يكون نباتاً ، وقد يكون حيواناً ، والحيوان لا يمكن أكله إلا بعد الذبح ، والله تعالى شرط في الذبح شرائط مخصوصة ، فلأجل هذا دخل في الفقه كتاب الصيد والذبائح ، وكتاب الضحايا .

وثانيها : الملموسات : ويدخل فيها باب أحكام الوقاع من جملتها ما يفيد حله ، وهو باب النكاح ، ومنه أيضاً باب الرضاع ، ومنها ما هو بحث عن لوازم النكاح مثل المهر والنفقة والمسكن ويتصل به أحوال القسم والنشوز ، ومنها ما هو بحث عن الأسباب المزيلة للنكاح ، ويدخل فيه كتاب الطلاق والخلع والإيلاء والظهار واللعان .

ومن الأحكام المتعلقة بالملموسات : البحث عما يحل لبسه وعما لا يحل ، وعما يحل استعماله وعما لا يحل استعماله ؛ وما لا يحل .

كاستعماله الأواني الذهبية والفضية ؛ وطال كلام الفقهاء في هذا الباب .

وثالثها : المبصرات وهي باب ما يحل النظر إليه وما لا يحل .

ورابعها : المسموعات : وهو باب هل يحل سماعه أم لا ؟ وخامسها : المشمومات ، وليس للفقهاء فيها مجال .

وأما المنافع المقصودة بالتبع فهي الأموال ، والبحث عنها من ثلاثة أوجه : الأول : الأسباب المفيدة للملك وهي إما البيع أو غيره .

أما البيع فهو إما بيع الأعيان ، أو بيع المنافع وبيع الأعيان .

فأما أن يكون بيع العين بالعين ، أو بيع الدين بالعين وهو السلم ، أو بيع العين بالدين كما إذا اشترى شيئاً في الذمة ، أو بيع الدين بالدين .

وقيل : إنه لا يجوز .

لما روي أنه عليه الصلاة والسلام نهى عن بيع الكالىء بالكالىء ، ولكن حصل له مثال في الشرع وهو تقاضي الدينين .

وأما بيع المنفعة فيدخل فيه كتاب الإجارة ، وكتاب الجعالة ، وكتاب عقد المضاربة .

(89/350)

وأما سائر الأسباب الموجبة للملك فهي الإرث ، والهبة ، والوصية ، وإحياء الموات ، والالتقاط ، وأخد الفيء والغنائم ، وأخذ الزكوات وغيرها .

ولا طريق إلى ضبط أسباب الملك إلا بالاستقراء .

والنوع الثاني : من مباحث الفقهاء الأسباب التي توجب لغير المالك التصرف في الشيء ، وهو باب الوكالة والوديعة وغيرهما .

والنوع الثالث : الأسباب التي تمنع المالك من التصرف في ملك نفسه ، وهو الرهن والتفليس والإجارة وغيرها ، فهذا ضبط أقسام تكاليف الله في باب جلب المنافع .

(90/350)

وأما تكاليف الله تعالى في باب دفع المضار فنقول : أقسام المضار خمسة لأن المضرة إما أن تحصل في النفوس أو في الأموال أو في الأديان أو في الأنساب أو في العقول ، أما المضار الحاصلة في النفوس فهي إما أن تحصل في كل النفس ، والحكم فيه إما القصاص أو الدية أو الكفارة ، وإما في بعض من أبعاض البدن كقطع اليد وغيرها ، والواجب فيه إما القصاص أو الدية أو الأرش ، وأما المضار الحاصلة في الأموال ، فذلك الضرر إما أن يحصل على سبيل الإعلان والإظهار ، وهو كتاب الغصب أو على سبيل الخفية وهو كتاب السرقة ، وأما المضار الحاصلة في الأديان ، فهي إما الكفر وإما البدعة ، أما الكفر فيدخل فيه أحكام المرتدين ، وليس للفقهاء كتاب مقرر في أحكام المبتدعين وأما المضار الحاصلة في الأنساب فيتصل به تحريم الزنا واللواط وبيان العقوبة المشروعة فيهما ، ويدخل فيه أيضاً باب حد القذف وباب اللعان ، وههنا بحث آخر وهو أن كل أحد لا يمكنه استيفاء حقوقه من المنافع ودفع المضار بنفسه ، لأنه ربما كان ضعيفاً فلا يلتفت إليه خصمه ، فلهذا السر نصب الله تعالى الإمام لتنفيذ الأحكام ، ويجب أن يكون لذلك الإمام نواب وهم الأمراء والقضاة فلما لم يجز أن يكون قول الغير مقبولاً على الغير إلا بالحجة ، فالشرع أثبت لإظهار الحق حجة مخصوصة وهي الشهادة ، ولا بد أن يكون للدعوى ولإقامة البينة شرائط مخصوصة فلا بد من باب مشتمل عليها ، فهذا ضبط معاقد تكاليف الله تعالى وأحكامه وحدوده ، ولما كانت كثيرة والله تعالى إنما بينها في كل القرآن تارة على وجه التفصيل ،

وتارة بأن أمر الرسول عليه السلام حتى يبينها للمكلفين ، لا جرم أنه تعالى أجمل ذكرها في هذه الآية ، فقال : ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ وهو يتناول جملة هذه التكاليف .

(91/350)

واعلم أن الفقهاء ظنوا أن الذي ذكروه في بيان التكاليف وليس الأمر كذلك ، فإن أعمال المكلفين قسمان : أعمال الجوارح وأعمال القلوب ، وكتب الفقه مشتملة على شرح أقسام التكاليف المتعلقة بأعمال الجوارح ، فأما التكاليف المتعلقة بأعمال القلوب فلم يبحثوا عنها ألبتة ولم يصنفوا لها كتباً وأبواباً وفصولاً .

ولم يبحثوا عن دقائقها ، ولا شك أن البحث عنها أهم والمبالغة في الكشف عن حقائقها أولى .

لأن أعمال الجوارح إنما تراد لأجل تحصيل أعمال القلوب والآيات الكثيرة في كتاب الله تعالى ناطقة بذلك إلا أن قوله سبحانه : ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ متناول لكل هذه الأقسام على سبيل الشمول والإحاطة .

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الصفات التسعة قال : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ والمقصود منه أنه قال في الآية المتقدمة : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ فذكر هذه الصفات

التسعة ، ثم ذكر عقيبها قوله : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ تنبيهاً على أن البشارة المذكورة في قوله : ﴿ فاستبشروا ﴾ لم تتناول إلا المؤمنين الموصوفين بهذه الصفات .

فإن قيل : ما السبب في أنه تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ، ثم ذكر تعالى عقيبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال في هذه الصفة التاسعة ؟

(92/350)

قلنا : لأن التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله ، والسياحة لطلب العلم ، والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أمور لا ينفك المكلف عنها في أغلب أوقاته ، فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل ، وأما البقية فقد ينفك المكلف عنها في أكثر أوقاته مثل أحكام البيع والشراء ، ومثل معرفة أحكام الجنايات وأيضاً فتلك الأمور الثمانية أعمال القلوب وإن كانت أعمال الجوارح ، إلا أن المقصود منها ظهور أحوال القلوب ، وقد عرفت أن رعاية أحوال القلوب أهم من رعاية أحوال الظاهر فلهذا السبب ذكر هذا القسم على سبيل التفصيل ، وذكر هذا القسم على سبيل الإجمال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب جـ 16 صـ 160 . 165 ﴾

(93/350)

وقال الجصاص فى الآيتين :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ ﴾

أُطْلِقَ الشِّرَى فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ ؛ لِأَنَّ الْمُشْتَرِيَ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي يَشْتَرِي مَا لَا يَمْلِكُ وَاَللَّهُ تَعَالَى مَالِكُ أَنْفُسِنَا وَأَمْوَالِنَا ، وَلَكِنَّهُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾ فَسَمَّاهُ شِرًى كَمَا سَمَّى الصَّدَقَةَ قَرْضًا لِضَمَانِ الثَّوَابِ فِيهَا بِهِ ، فَأَجْرَى لَفْظَهُ مَجْرَى مَا لَا يَمْلِكُهُ الْمُعَامِلُ فِيهِ اسْتِدْعَاءً إلَيْهِ وَتَرْغِيبًا فِيهِ .

(94/350)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ قِيلَ : إنَّهُمْ الصَّائِمُونَ رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ ﴿ : سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ ﴾ وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَمُجَاهِدٍ أَنَّهُ الصَّوْمُ وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ هُوَ أَتَمُّ مَا يَكُونُ مِنْ الْمُبَالَغَةِ فِي الْوَصْفِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَالْقِيَامِ بِأَوَامِرِهِ وَالِانْتِهَاءِ عَنْ زَوَاجِرِهِ ، وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى حُدُودًا فِي أَوَامِرِهِ وَزَوَاجِرِهِ وَمَا نَدَبَ إلَيْهِ وَرَغَّبَ فِيهِ ، أَوْ أَبَاحَهُ وَمَا خَيَّرَ فِيهِ وَمَا هُوَ الْأَوْلَى فِي تَحَرِّي مُوَافَقَةِ أَمْرِ اللَّهِ ، وَكُلُّ هَذِهِ حُدُودُ اللَّهِ ، فَوَصَفَ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ

بِهَذَا الْوَصْفِ ، مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَقَدْ أَدَّى جَمِيعَ فَرَائِضِهِ وَقَامَ بِسَائِرِ مَا أَرَادَهُ مِنْهُ ، وَقَدْ بَيَّنَ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا الْمُرَادِينَ بِهَا ، وَهُمْ الصَّحَابَةُ الَّذِينَ بَايَعُوهُ تَحْتَ الشَّجَرَةِ وَهِيَ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ ثُمَّ عَطَفَ عَلَيْهِ : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ فَقَدْ بَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مَنْزِلَةَ هَؤُلَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِنْ الدِّينِ ، وَالْإِسْلَامِ وَمَحِلَّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى .

وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي وَصْفِ الْعَبِيدِ بِالْقِيَامِ بِطَاعَةِ اللَّهِ كَلَامٌ أَبْلَغُ وَلَا أَفْخَمُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(95/350)

وقال ابن العربى فى الآيتين :

قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ إنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ ﴾ .

فِيهَا اثْنَتَا عَشْرَةَ مَسْأَلَةً :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : رُوِيَ ﴿ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ رَوَاحَةَ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : اشْتَرِطْ لِرَبِّك وَلِنَفْسِك مَا شِئْت .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ .

قَالَ : فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَا لَنَا ؟ قَالَ : الْجَنَّةُ .

قَالَ : رَبِحَ الْبَيْعُ .

قَالَ : لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ فَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ .

وَهَذَا مِمَّا لَا يُوجَدُ صَحِيحًا .

وَقَدْ رُوِيَ عَنْ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ ، وَذَهَبَ مَعَهُ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، فَقَالَ الْعَبَّاسُ : تَكَلَّمُوا يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، وَأَوْجِزُوا ؛ فَإِنَّ عَلَيْنَا عُيُونًا قَالَ الشَّعْبِيُّ : فَخَطَبَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ بْنُ زُرَارَةَ خُطْبَةً مَا خَطَبَ الْمُرْدُ وَلَا الشِّيبُ مِثْلَهَا قَطُّ .

فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ اشْتَرِطْ لِرَبِّك ، وَاشْتَرِطْ لِنَفْسِك ، وَاشْتَرِطْ لِأَصْحَابِك .

قَالَ : أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مَا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ، وَأَشْتَرِطُ

لِأَصْحَابِي الْمُوَاسَاةَ فِي ذَاتِ أَيْدِيكُمْ .

قَالُوا : هَذَا لَك ، فَمَا لَنَا ؟ قَالَ : الْجَنَّةُ .

قَالَ : ﴿ ابْسُطْ يَدَك ﴾ .

وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مَقْطُوعًا فَإِنَّ مَعْنَاهُ ثَابِتٌ مِنْ طُرُقٍ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي هَذِهِ الْآيَةِ جَوَازُ مُعَامَلَةِ السَّيِّدِ مَعَ عَبْدِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْكُلُّ لِلسَّيِّدِ ، لَكِنْ إذَا مَلَكَهُ وَعَامَلَهُ فِيمَا جُعِلَ إلَيْهِ وَتَاجَرَهُ بِمَا مَلَّكَهُ مِنْ مِلْكِهِ ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ لِلَّهِ ، وَالْعِبَادُ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِلَّهِ ، وَأَمَرَهُمْ بِإِتْلَافِهَا فِي طَاعَتِهِ ، وَإِهْلَاكِهَا فِي مَرْضَاتِهِ ، وَأَعْطَاهُمْ الْجَنَّةَ عِوَضًا عَنْهَا إذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فِيهَا .

وَهُوَ عِوَضٌ عَظِيمٌ ، لَا يُدَانِيهِ مُعَوَّضٌ وَلَا يُقَاسُ بِهِ ؛ وَلِهَذَا يُرْوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَمَّا قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ قَالَ : " ثَامِنَهُمْ وَاَللَّهِ وَأَغْلَى الثَّمَنَ " ، يُرِيدُ أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ أَكْثَرَ مِمَّا يَجِبُ لَهُمْ فِي حُكْمِ الْمُتَاجَرَةِ ، وَلَمْ يَأْتِ الرِّبْحُ عَلَى مِقْدَارِ الشِّرَاءِ ؛ بَلْ زَادَ عَلَيْهِ وَأَرْبَى .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَالَ عُلَمَاؤُنَا : كَمَا اشْتَرَى مِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْبَالِغِينَ الْمُكَلَّفِينَ كَذَلِكَ اشْتَرَى مِنْ الْأَطْفَالِ ، فَآلَمَهُمْ وَأَسْقَمَهُمْ ؛ لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ الْمَصْلَحَةِ ، وَمَا فِيهِ مِنْ الِاعْتِبَارِ لِلْبَالِغِينَ ، وَالثَّوَابِ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْكَافِلَيْنِ فِيمَا يَنَالُهُمْ مِنْ الْهَمِّ ، وَيَتَعَلَّقُ بِهِمْ مِنْ التَّرْبِيَةِ وَالْكَفَالَةِ ؛ وَهَذَا بَدِيعٌ فِي بَابِهِ مُوَافِقٌ لِمَا تَقَدَّمَ قَبْلَهُ ؛ فَإِنَّ الْبَالِغَ يَمْشِي إلَى الْقَتْلِ مُخْتَارًا ، وَالطِّفْلَ يَنَالُهُ الْأَلَمُ اقْتِسَارًا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ﴾ : إخْبَارٌ مِنْ اللَّهِ أَنَّ هَذَا كَانَ فِي هَذِهِ الْكُتُبِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَتْ الْإِشَارَةُ إلَيْهِ ، وَقُلْنَا : إنَّ الْجِهَادَ وَمُحَارَبَةَ الْأَعْدَاءِ إنَّمَا أَصْلُهُ مِنْ عَهْدِ مُوسَى ، فَسُبْحَانَ الْفَعَّالِ لِمَا يُرِيدُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ ﴾ : الْعَهْدُ يَتَضَمَّنُ الْوَفَاءَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ، وَلَا بُدَّ مِنْ وَفَاءِ الْبَارِي تَعَالَى بِالْكُلِّ ، فَأَمَّا وَعْدُهُ فَلِلْجَمِيعِ ، وَأَمَّا وَعِيدُهُ فَمَخْصُوصٌ بِبَعْضِ الْمُذْنِبِينَ وَبِبَعْضِ الذُّنُوبِ ، وَفِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ ، فَيَنْفُذُ كَذَلِكَ .

وَقَدْ فَاتَ عُلَمَاءَنَا هَذَا الْمِقْدَارُ عَلَى مَا بَيَّنَّاهُ فِي كُتُبِ الْأُصُولِ .

.

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ : الرَّاجِعُونَ عَنْ الْحَالَةِ الْمَذْمُومَةِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ إلَى الْحَالَةِ الْمَحْمُودَةِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ .

وَالْعَابِدُونَ : هُمْ الَّذِينَ قَصَدُوا بِطَاعَتِهِمْ وَجْهَهُ .

وَالْحَامِدُونَ : هُمْ الرَّاضُونَ بِقَضَائِهِ ، وَالْمُصَرِّفُونَ نِعْمَتَهُ فِي طَاعَتِهِ .

وَالسَّائِحُونَ : هُمْ الصَّائِمُونَ فِي هَذِهِ الْمِلَّةِ ، حَتَّى فَسَدَ الزَّمَانُ فَصَارَتْ السِّيَاحَةُ الْخُرُوجَ مِنْ الْأَرْضِ عَنْ الْخَلْقِ ، لِعُمُومِ الْفَسَادِ وَغَلَبَةِ الْحَرَامِ ، وَظُهُورِ الْمُنْكَرِ ، وَلَوْ وَسِعَتْنِي الْأَرْضُ لَخَرَجْت فِيهَا ، لَكِنَّ الْفَسَادَ قَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا ، فَفِي كُلِّ وَادٍ بَنُو نَحْسٍ ، فَعَلَيْك بِخُوَيْصَةِ نَفْسِك وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ .

الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ هُمْ الْقَائِمُونَ بِالْفَرْضِ مِنْ الصَّلَاةِ ، الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّاهُونَ عَنْ الْمُنْكَرِ ، الْمُغَيِّرُونَ لِلشِّرْكِ فَمَا دُونَهُ مِنْ الْمَعَاصِي ، وَالْآمِرُونَ بِالْإِيمَانِ فَمَا دُونَهُ مِنْ الطَّاعَاتِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ شُرُوطِهِ .

الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ : خَاتِمَةُ الْبَيَانِ وَعُمُومُ الِاشْتِمَالِ لِكُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِثَوَابِي إذَا كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ ، ثُمَّ بَذَلُوا أَنْفُسَهُمْ فِي طَاعَتِي لِلْقَتْلِ ؛ فَحِينَئِذٍ تَكُونُ سِلْعَةً مَرْغُوبًا فِيهَا تَمْتَدُّ إلَيْهَا الْأَطْمَاعُ ، وَتَدْخُلُ فِي جُمْلَةِ التِّجَارَاتِ وَالْمَتَاعِ ، فَأَمَّا نَفْسٌ لَا تَكُونُ هَكَذَا ، وَلَا تَتَحَلَّى بِهَذِهِ الْحِلَى فَلَا يُبْذَلُ فِيهَا فَلْسٌ ، فَكَيْفَ الْجَنَّةُ ؟ لَكِنَّ مَنْ مَعَهُ أَصْلُ الْإِيمَانِ فَهُوَ مُبَشَّرٌ عَلَى قَدْرِهِ بِعَدَمِ الْخُلُودِ فِي النَّارِ ، وَمَنْ اسْتَوْفَى هَذِهِ الصِّفَاتِ فَلَهُ الْفَوْزُ قَطْعًا ، وَمَنْ خَلَطَ فَلَا يَقْنَطْ وَلَا يَأْمَنْ ، وَلْيُمْسِ تَائِبًا ،

وَيُصْبِحْ تَائِبًا ، فَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ فَسَائِلًا لِلتَّوْبَةِ ، فَإِنَّ سُؤَالَهَا دَرَجَةٌ عَظِيمَةٌ ، حَتَّى يَمُنَّ اللَّهُ بِحُصُولِهَا .

فَهَذِهِ سَبْعُ مَسَائِلَ تَمَامُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ فِي الْآيَةِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(99/350)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخره لهم الجنة أيضاً ، ويقال : هم التائبون ، ويقال : صار رفعاً بالابتداء وجوابه مضمر ، قرأ عاصم ﴿ أَوَّلُ العابدين ﴾ يعني : اشترى من المؤمنين التائبين العابدين إلى آخره ، ويقال : اشترى من عشرة نفر أولهم الغزاة ، ومن التائبين الذين يتوبون عن الذنوب ، والذين هم الْعَابِدُونَ ، يعني : الموحدون ، ويقال : المطيعون لله تعالى .

﴿ الحامدون ﴾ ، الذين يحمدون الله تعالى على كل حال ، ﴿ السائحون ﴾ ، قال ابن عباس وابن مسعود ومجاهد والحسن : يعني الصائمين .

وأصله السائح في الأرض ، لأن السائح في الأرض ممنوعاً عن الشهوات ، فشبّه الصائم به .

وذكر عن بعضهم أنه قال : هم الذين يصومون شهر الصبر وهو شهر رمضان وأيام البيض ﴿ الركعون ﴾ ، يعني : الذين يحافظون على الصلوات ﴿ الساجدون ﴾ ، الذين يسجدون لله تعالى في الصلوات .

﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ ، يعني : يأمرون الناس بالتوحيد وأعمال الخير .

﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ ، الذين ينهون الناس عن الشرك والأعمال الخبيثة ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ ، يعني : العاملين بفرائض الله عليهم .

وذكر عن خلف بن أيوب أنه أمر امرأته في بعض الليل أن تمسك الرضاع عن الولد ، فقالت : لم ؟ فقال : لأنه قد تمت سنتان .

فقيل له : لو تركتها حتى ترضع تلك الليلة ، أيش يكون ؟ فقال : أين قول الله تعالى ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ ، ثم قال : ﴿ وَبَشّرِ المؤمنين ﴾ ، يعني : المصدقين بهذا الشرط والعاملين به . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(100/350)

وقال الثعلبى :

ثم وصفهم فقال ﴿ التائبون ﴾

أي هم التائبون ، وقرأ ابن مسعود التائبين العابدين بالنصب آخرها ، قال المفسرون : تابوا من الشرك وبرأوا من النفاق ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ المطيعون الذي أخلصوا فيه الشهادة .

وقال الحسن وقتادة : هم قوم اتخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم فعبدوا الله على أحايينهم كلها في السراء والضراء ﴿ الحامدون ﴾ الله على كل حال في كل نعمة ﴿ السائحون ﴾ الصائمون .

الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " السائحون الصائمون " .

وروى شيبان بن عبد الرحمن عن الأشعث قال : سألت سعيد بن جبير عن السائحين فقال : هم الصائمون ألم تر أنّ الله عزّ وجلّ إذا ذكر الصائمين لم يذكر السائحين وإذا ذكر السائحين لم يذكر الصائمين .

قال سفيان بن عيينة : أما إنّ الصائم سائح لأنه تارك اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح .

وقال الشاعر في الصوم :

تراه يصلي ليله ونهاره . . . يظل كثير الذكر لله سائحاً

وقال الحسن : السائحون الذين صاموا عن الحلال وأمسكوا عن الحرام وههنا والله أقوام رأيناهم يصومون عن الحلال ولا يمسكون عن الحرام فالله ساخط عليهم ، وقال عطاء :

السائحون الغزاة والمجاهدون ، وعن عمرو بن نافع . قال : سمعت عكرمة وسُئل عن قول الله تعالى : ﴿ السائحون ﴾ قال : هم طلبة العلم ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني المصلين ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ قال بسام بن عبد الله : المعروف السنّة والمنكر البدعة .

﴿ والحافظون لِحُدُودِ الله ﴾ قال ابن عباس : القائمون على طاعة الله ، وقال الحسن : أهل الوفاء ببيعة الله ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(101/350)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ التَّآئِبُونَ ﴾

يعني من الذنوب .

ويحتمل أن يراد بهم الراجعون إلى الله تعالى في فعل ما أمر واجتناب ما حظر لأنها صفة مبالغة في المدح ، والتائب هو الراجع ، والراجع إلى الطاعة أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين .

﴿ العَابِدُونَ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : العابدون بتوحيد الله تعالى ، قاله سعيد بن جبير .

والثاني : العابدون بطول الصلاة ، قاله الحسن .

والثالث : العابدون بطاعة الله تعالى ، قاله الضحاك .

﴿ الحَامِدُونَ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : الحامدون لله تعالى على دين الإسلام ، قاله الحسن .

الثاني : الحامدون لله تعالى على السراء والضراء ، رواه سهل بن كثير .

﴿ السَّآئِحُونَ ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : المجاهدون روى أبو أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي السياحة فقال : " إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ " والثاني : الصائمون ، وهو قول ابن مسعود وابن عباس ، وروى أبو هريرة مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سِيَاحَةُ أُمَّتِي الصَّوْمُ

" . الثالث : المهاجرون ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الرابع : هم طلبة العِلم ، قاله عكرمة .

﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ يعني في الصلاة .

﴿ الأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوْفِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بالتوحيد ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : بالإسلام .

﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : عن الشرك ، قاله سعيد بن جبير .

الثاني : أنهم الذين لم ينهوا عنه حتى انتهوا قبل ذلك عنه ، قاله الحسن .

﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ فيه ثلاثة أقاويل :

أحدها : القائمون بأمر الله تعالى .

والثاني : الحافظون لفرائض الله تعالى من حلاله وحرامه ، قاله قتادة .

والثالث : الحافظون لشرط الله في الجهاد ، قاله مقاتل بن حيان .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ فيه وجهان :

(102/350)

أحدهما : يعني المصدقين بما وعد الله تعالى في هذه الآيات . قاله سعيد بن جبير .

والثاني : العاملين بما ندب الله إليه في هذه الآيات ، وهذا أشبه بقول الحسن .

وسبب نزول هذه الآية ما روى ابن عباس أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم ﴾ الآية . أتى رجل من المهاجرين فقال يا رسول الله وإن زنى وإن سرق وإن شرب الخمر ؟ فأنزل الله تعالى ﴿ التَّآئِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(103/350)

وقال ابن عطية :

﴿ التَّآئِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾

(104/350)

هذه الأوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أنه اشترى منهم أنفسهم ، وارتفعت هذه الصفات لما جاءت مقطوعة في ابتداء آية على معنى : " هم التائبون " ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة والآية الأولى مستقلة بنفسها يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإن لم يتصف بهذه

الصفات التي هي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها وقالت فرقة : بل هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط ، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنين الذين هم على هذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم في سبيل الله ، وأسند الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أن رجلاً سأله عن قول الله عز وجل : ﴿ إن الله اشترى ﴾ [التوبة : 11] وقال الرجل ألا أحمل على المشركين فأقاتل حتى أقتل ، فقال الضحاك : ويلك أين الشرط ﴿ التائبون العابدون ﴾ الآية ، وهذا القول تحريج وتضييق والله أعلم ، والأول أصوب ، والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد ، وقد روي أن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه ختم الله لنا بالحسنى ، وقالت فرقة : إن رفع " التائبين " إنما هو على الابتداء وما بعده صفة ، ألا قوله ﴿ الآمرون ﴾ فإنه خبر الابتداء كأنه قال " هم الآمرون " وهذا حسن إلا أن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها وذلك قلق فتأمله ، وفي مصحف عبد الله بن مسعود " التائبين العابدين " إلى آخرها ، ولذلك وجهان أحدهما : الصفة للمؤمنين على اتباع اللفظ والآخر النصب على المدح ، و ﴿ التائبون ﴾ لفظ يعم الرجوع من الشر إلى الخير كان ذلك من كفر أو معصية والرجوع من حالة إلى ما هي أحسن منها ، وإن لم تكن الأولى شراً بل خيراً ، وهكذا توبة النبي صلى الله عليه وسلم واستغفاره سبعين مرة في اليوم ، والتائب هو المقلع عن الذنب العازم على

التمادي على الإقلاع النادم على ما سلف ، والتائب عن ذنب يسمى تائباً وإن قام على غيره إلا أن يكون من نوعه فليس بتائب والتوبة ونقضها دائباً خير من الإصرار ، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقض فإن ذنوبه الأولى تبقى عليه لأن توبته منها علم الله أنها منقوضة ، ويحتمل الأمر غير ذلك والله أعلم .

وقال الحسن في تفسير الآية : ﴿ التائبون ﴾ معناه من الشرك ، و ﴿ العابدون ﴾ لفظ يعم القيام بعبادة الله والتزام شرعه وملازمة ذلك والمثابرة عليه والدوام ، والعابد هو المحسن الذي فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ،

(106/350)

" أن تعبد الله كأنك تراه " الحديث ، وبأدنى عبادة يؤديها المرء المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبته وعلى قدر زيادته في البادة يحصل الوصف ، و ﴿ الحامدون ﴾ معناه : الذاكرون لله بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السراء والضراء وحمده لأنه أهل لذلك ، وهو أعم من الشكر إذ الشكر إنما هو على النعم الخاصة بالشاكر ، و ﴿ السائحون ﴾ معناه الصائمون ، وروي عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيام ، وأسند

الطبري وروي أنه من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي الحديث " إن لله ملائكة سياحين مشائين في الآفاق يبلغوني صلاة أمتي عليَّ " ويروى الحديث " صياحين " بالصاد من الصياح والسياحة في الأرض مأخوذ من السيح وهو الماء الجاري على الأرض إلى غير غاية ، وقال بعض الناس وهو في كتاب النقاش : ﴿ السائحون ﴾ هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته ، وهذا قول حسن وهي من أفضل العبادات ، ومن ذلك قول معاذ بن جبل : اقعد بنا نؤمن ساعة ، ويروى أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه في أذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر فقيل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : ﴿ إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل ﴾ [غافر : 71] وفكرت كي أتلقى الغل وبقيت في ذلك ليلي أجمع ، و ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ هم المصلون الصلوات الخمس كذا قال أهل العلم ، ولكن لا يختلف في أن من يكثر النوافل هو أدخل في الاسم وأغرق في الاتصاف ، وقوله : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ هو أمر فرض على أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالجملة ثم يفترق الناس فيه مع التعيين ، فأما ولاة الأمر والرؤساء فهو فرض عليهم في كل حال ، وأما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط : منها أن لا تلحقه مضرة وأن يعلم أن قوله يسمع ويعمل به ونحو هذا ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أعظم أجراً ، وأسند الطبري عن بعض العلماء أنه قال : حيثما ذكر

الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأمر بالإسلام والنهي عن الكفر .

قال القاضي أبو محمد : ولا شك أنه يتناول هذا وهو أحرى ، إذ يتناول ما دونه فتعميم اللفظ أولى ، وأما هذه الواو التي في قوله ﴿ والناهون ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبل فقيل معناها الربط بين هاتين الصفتين وهي " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " إذ هما من غير قبيل الصفات الأول .

قال القاضي أبو محمد : لأن الأول فيما يخص المرء ، وهاتان بينه وبين غيره ، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما ، وقيل هي زائدة وهذا قول ضعيف لا معنى له ، وقيل هي واو الثمانية لأن هذه الصفة جاءت ثامنة في الرتبة ومن هذا قوله في أبواب الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] وقوله ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] ومن هذا قوله ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التحريم : 5] .

قال القاضي أبو محمد : على أن هذه تعترض حتى لا يلزم أن يكون واو ثمانية ، لأنها فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساء ، ولا يصح أن يكون ﴿ ثيبات أبكاراً ﴾ [التحريم : 5] ، فهي فاصلة ضرورة ، وواو الثمانية قد ذكرها ابن خالويه ، في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] ، وأنكرها أبو علي ، وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ أبي عبد الله الكفيف المالقي وكان ممن استوطن غرناطة وقرأ فيها في مدة ابن حبوس أنه قال : هي لغة فصيحة لبعض العرب من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة ، فهكذا هي لغتهم ، ومتى جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو ، وقوله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاء عما نهى الله في كل شيء وفي كل فن ، وقوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ قيل هو لفظ عام أمر به النبي صلى الله عليه وسلم أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله ، وقيل بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز أي لما تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار والحمد لله رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(109/350)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ التائبون ﴾

سبب نزولها .

أنه لما نزلت التي قبلها ، قال رجل : يا رسول الله ، وإن سرق وإن زنى وإن شرب الخمر ؟

فنزلت هذه الآية ؟ قاله ابن عباس .

قال الزجاج : يصلح الرفع ها هنا على وجوه .

أحدها : المدح ، كأنه قال : هؤلاء التائبون ، أو هم التائبون .

ويجوز أن يكون على البدل ، والمعنى : يقاتل التائبون ؛ فهذا مذهب أهل اللغة ، والذي عندي أنه رفعٌ بالابتداء ، وخبره مضمر ، المعنى : التائبون ومن ذُكر معهم لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا إذا لم يقصدوا ترك الجهاد ولا العناد ، لأن بعض المسلمين يجزئ عن بعض في الجهاد .

وللمفسرين في قوله : "التائبون" قولان .

أحدهما : الراجعون عن الشرك والنفاق والمعاصي .

والثاني : الراجعون إلى الله في فعل ما أمر واجتناب ما حظر .

وفي قوله : ﴿ العابدون ﴾ ثلاثة أقوال .

أحدها : المطيعون لله بالعبادة ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : المقيمون الصلاة ، قاله الضحاك عن ابن عباس .

والثالث : الموحِّدون ، قاله سعيد بن جبير .

قوله تعالى : ﴿ الحامدون ﴾ قال قتادة : يحمدون الله على كل حال .

وفي السائحين أربعة أقوال .

أحدها : الصائمون ، قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، وقتادة في آخرين .

قال الفراء : ويرى أهل النظر أن الصائم إنما سمي سائحاً تشبيهاً بالسائح ، لأن السائح لا زاد معه ؛ والعرب تقول للفرس إذا كان قائماً لا علف بين يديه : صائم ، وذلك أن له قُوتين ، غدوة وعشية ، فشُبه به صيام الآدمي لتسحُّره وإفطاره .

والثاني : أنهم الغزاة ، قاله عطاء .

والثالث : طلاب العلم ، قاله عكرمة .

والرابع : المهاجرون ، قاله ابن زيد .

قوله تعالى : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني في الصلاة .

﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ وهو طاعة الله .

﴿ والناهون عن المنكر ﴾ وهو معصية الله .

فإن قيل : ما وجه دخول الواو في قوله : "والناهون" ؟ فعنه جوابان .

أحدهما : أن الواو إنما دخلت هاهنا لأنها الصفة الثامنة ، والعرب تعطف بالواو على السبعة ، كقوله : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] وقوله في صفة الجنة : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] ذكره جماعة من المفسرين .

والثاني : أن الواو إنما دخلت على الناهين لأن الآمر بالمعروف ناهٍ عن المنكر في حال أمره ، فكان دخول الواو دلالة على أن الأمر بالمعروف لا ينفرد دون النهي عن المنكر كما ينفرد الحامدون بالحمد دون السائحين ، والسائحون بالسياحة دون الحامدين في بعض الأحوال والأوقات .

قوله تعالى : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال الحسن : القائمون بأمر الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ التائبون العابدون ﴾ التائبون هم الراجعون عن الحالة المذمومة في معصية الله إلى الحالة المحمودة في طاعة الله .

والتائب هو الراجع .

والراجع إلى الطاعة هو أفضل من الراجع عن المعصية لجمعه بين الأمرين .

﴿ العابدون ﴾ أي المطيعون الذين قصدوا بطاعتهم الله سبحانه .

﴿ الحامدون ﴾ أي الرّاضون بقضائه المصرفون نعمته في طاعته ، الذين يحمدون الله على كل حال .

﴿ السائحون ﴾ الصائمون ؛ عن ابن مسعود وابن عباس وغيرهما .

ومنه قوله تعالى : ﴿ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ﴾ [التحريم : 5] .

وقال سفيان بن عُيينة : إنما قيل للصائم سائح لأنه يترك اللذات كلَّها من المطعم والمشرب والمنكح .

وقال أبو طالب :

وبالسائحين لا يذوقون قطرة . . .

لربهم والذاكرات العوامل

وقال آخر :

برًّا يصلِّي ليله ونهاره . . .

يَظَلّ كثير الذكر لله سائحاً

وروي عن عائشة أنها قالت : سياحة هذه الأمة الصيامُ ؛ أسندهُ الطبري .

ورواه أبو هريرة مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " سياحة أمتي الصيام "

قال الزجاج : ومذهب الحسن أنهم الذين يصومون الفرض .

وقد قيل : إنهم الذين يديمون الصيام .

وقال عطاء : السائحون المجاهدون .

وروى أبو أُمامة أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " صححه أبو محمد عبد الحق .

وقيل : السائحون المهاجرون ؛ قاله عبد الرحمن بن زيد .

وقيل : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم ؛ قاله عكرمة .

وقيل : هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر والعلامات الدالة على توحيده وتعظيمه ؛ حكاه النقاش .

وحكي أن بعض العُبّاد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل فأدخل أصبعه في أذن القدح وقعد يتفكر حتى طلع الفجر ؛ فقيل له في ذلك فقال : أدخلت أصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى : ﴿ إِذِ الأغلال في أَعْنَاقِهِمْ والسلاسل ﴾ [غافر : 71] وذكرت كيف أتلقى الغُلّ وبقيت ليلي في ذلك أجمع .

قلت : لفظ "س ي ح" يدل على صحة هذه الأقوال ؛ فإن السياحة أصلها الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ؛ فالصائم مستمر على الطاعة في ترك ما يتركه من الطعام وغيره ، فهو بمنزلة السائح .

والمتفكرون تجول قلوبهم فيما ذكروا .

وفي الحديث : " إن لله ملائكة سياحين مشائين في الآفاق يبلغونني صلاة أمتي " ويروى " صياحين " بالصاد ، من الصياح .

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني في الصلاة المكتوبة وغيرها .

﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ أي بالسنة ، وقيل : بالإيمان .

﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ قيل : عن البِدعة .

وقيل : عن الكفر وقيل : هو عموم في كل معروف ومنكر .

﴿ والحافظون لِحُدُودِ الله ﴾ أي القائمون بما أمر به والمنتهون عما نهى عنه .

الثانية واختلف أهل التأويل في هذه الآية ، هل هي متصلة بما قبلُ أو منفصلة ؛ فقال جماعة : الآية الأُولى مستقلة بنفسها ؛ يقع تحت تلك المبايعة كلُّ موحِّد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم يتصف بهذه الصفات في هذه الآية الثانية أو بأكثرها .

وقالت فرقة : هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط ، والآيتان مرتبطتان ؛ فلا يدخل تحت المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبذلون أنفسهم في سبيل الله ؛ قاله الضحاك .

قال ابن عطية : وهذا القول تحريج وتضييق ، ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال العلماء والشرع أنها أوصاف الكَمَلة من المؤمنين ، ذكرها الله ليستبِق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى مرتبة .

(113/350)

وقال الزجاج : الذي عندي أن قوله : "التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ" رفع بالابتداء وخبره مضمر ؛ أي التائبون العابدون إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، إذا لم يكن منهم عناد وقصد إلى ترك الجهاد ؛ لأن بعض المسلمين يجزِي عن بعض في الجهاد .

واختار هذا القول القشيريّ وقال : وهذا حسن ؛ إذ لو كان صفة للمؤمنين المذكورين في

قوله : "اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" لكان الوعد خاصاً للمجاهدين .

وفي مصحف عبد الله "التائِبين العابدين" إلى آخرها ؛ ولذلك وجهان : أحدهما الصفة للمؤمنين على الإتباع .

والثاني النصب على المدح .

الثالثة واختلف العلماء في الواو في قوله : ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ فقيل : دخلت في صفة الناهين كما دخلت في قوله تعالى : ﴿ حم .

تَنزِيلُ الكتاب مِنَ الله العزيز العليم .

غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب ﴾ [غافر : 1 – 3] فذكر بعضها بالواو والبعض بغيرها .

وهذا سائغ معتاد في الكلام ولا يُطلب لمثله حكمة ولا علّة .

وقيل : دخلت لمصاحبة الناهي عن المنكر الآمر بالمعروف فلا يكاد يذكر واحد منهما مفرداً .

وكذلك قوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] .

ودخلت في قوله : ﴿ والحافظون ﴾ لقربه من المعطوف .

وقد قيل : إنها زائدة ، وهذا ضعيف لا معنى له .

وقيل : هي واو الثمانية لأن السبعة عند العرب عدد كامل صحيح .

وكذلك قالوا في قوله : ﴿ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَاراً ﴾ .

وقولِهِ في أبواب الجنة : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 73] وقوله : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] وقد ذكرها ابن خَالَوَيْه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله : "وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا" وأنكرها أبو علي .

(114/350)

قال ابن عطية : وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأُستاذ النحوي أبي عبد الله الكفيف المالقيّ ، وكان ممن استوطن غَرْناطة وأقرأ فيها في مدّة ابن حَبُوس أنه قال : هي لغة فصيحة لبعض العرب ؛ من شأنهم أن يقولوا إذا عَدّوا : واحد اثنان ثلاثة أربعة خمسة ستة سبعة وثمانية تسعة عشرة ؛ وهكذا هي لغتهم .

ومتى جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو .

قلت : هي لغة قريش .

وسيأتي بيانه ونقضه في سورة "الكهف" إن شاء الله تعالى وفي الزمر أيضاً بحول الله تعالى .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(115/350)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ التائبون ﴾

قال الفراء : استؤنف لفظ التائبون بالرفع لتمام الآية الأولى وانقطاع الكلام .

وقال الزجاج : التائبون رفع بالابتداء وخبره مضمر .

والمعنى : التائبون إلى آخره لهم الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا غير معاندين ولا قاصدين بترك الجهاد وهذا وجه حسن فكأنه وعد بالجنة جميع المؤمنين .

كما قال تعالى : وكلا وعد الله الحسنى ومن جعله تابعاً للأول ، كان الوعد بالجنة خاصاً بالمجاهدين الموصوفين بهذه الصفات ، فيكون رفع التائبون على المدح يعني المؤمنين المذكورين في قوله : إن الله اشترى .

وأما التفسير : فقوله سبحانه وتعالى التائبون يعني الذين تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق .

وقيل : التائبون من كل معصية فيدخل فيه التوبة من الكفر والنفاق .

وقيل : التائبون من جميع المعاصي ، لأن لفظ التائبين لفظ عموم فيتناول الكل .

واعلم أن التوبة المقبولة إنما تحصل بأمور أربعة : أولها احتراق القلب عند صدور المعصية ، وثانيها الندم على فعلها فيما مضى ، وثالثها العزم على تركها في المستقبل ، ورابعها أن يكون الحامل له على التوبة طلب رضوان الله وعبوديته فإن كان غرضه بالتوبة تحصيل مدح

الناس له ودفع مذمتهم فليس بمخلص في توبته .

﴿ العابدون ﴾ يعني المطيعين لله الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم وقيل هم الذين أتوا بالعبادة على أقصى وجوه التعظيم لله تعالى وهي أن تكون العبادة خالصة لله تعالى : ﴿ الحامدون ﴾ يعني الذين يحمدون الله تعالى على كل حال في السراء والضراء .

روى البغوي بغير سند عن ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة ، الذين يحمدون الله في السراء والضراء " وقيل : هم الذين يحمدون الله ويقومون بشكره على جميع نعمه دنيا وأخرى ﴿ السائحون ﴾ قال ابن مسعود وابن عباس : هم الصائمون .

(116/350)

قال سفيان بن عيينة : إنما سمي الصائم سائحاً لتركه اللذات كلها من المطعم والمشرب والنكاح .

وقال الأزهري : قيل للصائم سائح لأن الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه فكان ممسكاً على الأكل وكذلك الصائم ممسك عن الأكل .

وقيل : أصل السياحة استمرار الذهاب في الأرض كالماء الذي يسيح والصائم مستمر

على فعل الطاعة وترك المنهي وقال عطاء : السائحون هم الغزاة المجاهدون في سبيل الله ويدل عليه ما روي عن ثمان بن مظعون قال قلت يا رسول الله ائذن لي في السياحة .

فقال : إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ذكره البغوي بغير سند .

وقال عكرمة : السائحون هم طلبة العلم لأنهم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلبه وقيل إن السياحة لها أثر عظيم في تهذيب النفس وتحسين أخلاقها لأن السائح لا بد أن يلقى أنواعاً من الضر والبؤس ولا بد له من الصبر عليها ويلقى العلماء والصالحين في سياحته فيستفيد منهم ويعود عليه من بركتهم ويرى العجائب وأثار قدرة الله تعالى فيتفكر في ذلك فيدله على وحدانية الله سبحانه وتعالى وعظيم قدرته ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني المصلين وإنما عبر عن الصلاة والسجود ، لأنهما معظم أركانها وبهما يتميز المصلي من غير المصلي بخلاف حالة القيام والقعود لأنهما حالة المصلي وغيره ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ يعني يأمرون الناس بالإيمان بالله وحده ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ يعني عن الشرك بالله .

وقيل : إنهم يأمرون الناس بالحق في أديانهم واتباع الرشد والهدى والعمل الصالح وينهونهم عن كل قول وفعل نهى الله عباده عنه أو نهى عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال الحسن : أما أنهم لم يأمروا الناس بالمعروف حتى كانوا من أهله ولم ينهوا عن المنكر حتى انتهوا عنه وأما دخول الواو في والناهون عن المنكر فإن العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله سبحانه وتعالى : وثامنهم كلبهم وقوله تعالى في صفة الجنة : وفتحت أبوابها .

(117/350)

وقيل : فيه وجه آخر وهو أن الموصوفين بهذه الصفات الست هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، فعلى هذا يكون قوله تعالى التائبون إلى قوله الساجدون مبتدأ خبره الآمرون يعني هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال ابن عباس : يعني القائمين بطاعة الله وقال الحسن : الحافظون لفرائض الله وهم أهل الوفاء ببيعة الله .

وقيل : هم المؤدون فرائض الله المنتهون إلى أمره ونهيه فلا يضيعون شيئاً من العمل الذي ألزمهم به ولا يرتكبون منهياً نهاهم عنه ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ يعني بشر يا محمد المصدقين بما وعدهم الله به إذا وفوا الله تعالى بعهده فإنه موف لهم بما وعدهم من إدخال الجنة .

وقيل : وبشر من فعل هذه الأفعال التسع وهو قوله تعالى التائبون إلى آخر الآية بأن له الجنة وإن لم يغز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(118/350)

وقال أبو حيان :

﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾

قال ابن عباس : لما نزل إنّ الله اشترى من المؤمنين الآية قال رجل : يا رسول الله وإن زنا ، وإن سرق ، وإن شرب الخمر : فنزلت التائبون الآية .

وهذه أوصاف الكملة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إلى التحلي بها عباده ، وليكونوا على أوفى درجات الكمال .

وآية أنّ الله اشترى مستقلة بنفسها ، لم يشترط فيها شيء سوى الإيمان ، فيندرج فيها كل مؤمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ، وإن لم تكن فيه هذه الصفات .

والشهادة ماحية لكل ذنب ، حتى روي أنه تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه .

وقالت فرقة : هذه الصفات شرط في المجاهد .

والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ، ويبذلون أنفسهم في سبيل الله .

وسأل الضحاك رجل عن قوله تعالى : ﴿ إن الله اشترى ﴾ الآية وقال : لأحملن على المشركين فأقاتل حتى أقتل ، فقال الضحاك : ويلك أين الشرط التائبون العابدون الآية ؟

وهذا القول فيه حرج وتضييق ، وعلى هذين القولين نرتب إعراب التائبون ، فقيل : هو

مبتدأ خبره مذكور وهو العابدون ، وما بعده خبر بعد خبر أي : التائبون في الحقيقة الجامعون لهذه الخصال .

وقيل : خبره الآمرون .

وقيل : خبره محذوف بعد تمام الأوصاف ، وتقديره : من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهد قاله الزجاج كما قال تعالى : ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ ولذلك جاء : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ وعلى هذه الأعاريب تكون الآية معناها منفصل من معنى التي قبلها .

وقيل : التائبون خبر مبتدأ محذوف تقديره هم التائبون ، أي الذين بايعوا الله هم التائبون ، فيكون صفة مقطوعة للمدح ، ويؤيده قراءة أبي وعبد الله والأعمش : التايبين بالياء إلى والحافظين نصباً على المدح .

قال الزمخشري : ويجوز أن يكون صفة للمؤمنين ، وقاله أيضاً : ابن عطية .

وقيل : يجوز أن يكون التائبون بدلاً من الضمير في يقاتلون .

(119/350)

قال ابن عباس : التائبون من الشرك .

وقال الحسن : من الشرك والنفاق .

وقيل : عن كل معصية .

وعن ابن عباس : العابدون بالصلاة .

وعنه أيضاً المطيعون بالعبادة ، وعن الحسن : هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء .

وعن ابن جبير : الموحدون السائحون .

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما : الصائمون شبهوا بالسائحين في الأرض ، لامتناعهم من شهواتهم .

وعن عائشة : سياحة هذه الأمة الصيام ، ورواه أبو هريرة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

قال الأزهري : قيل : للصائم سائح ، لأن الذي يسيح في الأرض متعبد لا زاد معه ، كان ممسكاً عن الأكل ، والصائم ممسك عن الأكل .

وقال عطاء : السائحون المجاهدون .

وعن أبي أمامة : أنّ رجلاً استأذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في السياحة فقال : " إنّ سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " صححه أبو محمد عبد الحق .

وقيل : المراد السياحة في الأرض .

فقيل : هم المهاجرون من مكة إلى المدينة .

وقيل : المسافرون لطلب الحديث والعلم .

وقيل : المسافرون في الأرض لينظروا ما فيها من آيات الله ، وغرائب ملكه نظر اعتبار .

وقيل : الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته .

والصفات إذا تكررت وكانت للمدح أو الذم أو الترحم جاز فيها الاتباع للمنعوت والقطع في كلها أو بعضها ، وإذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف .

ولما كان الأمر مبايناً للنهي ، إذ الأمر طلب فعل والنهي ترك فعل ، حسن العطف في قوله : والناهون ودعوى الزيادة ، أو واو الثمانية ضعيف .

وترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن ، إذا بدأ أولاً بما يخص الإنسان مرتبة على ما سعى ، ثم بما يتعدى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بما شمل ما يخصه في نفسه وما يتعدى إلى غيره وهو الحفظ لحدود الله .

ولما ذكر تعالى مجموع هذه الأوصاف أمر رسوله (صلى الله عليه وسلم) بأن يبشر المؤمنين .

وفي الآية قبلها فاستبشروا أمرهم بالاستبشار ، فحصلت لهم المزية التامة بأن الله أمرهم بالاستبشار ، وأمر رسوله أن يبشرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(120/350)

وقال أبو السعود :

﴿ التائبون ﴾

رُفع على المدح أي هم التائبون يعني المؤمنين المذكورين كما يدل عليه القراءةُ بالياء نصباً على المدح ويجوز أن يكون مجروراً على أنه صفةٌ للمؤمنين ، وقد جوّز الرفع على الابتداء والخبرُ محذوفٌ أي التائبون من أهل الجنةِ أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله تعالى : ﴿ وكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ ويجوز أن يكون خبرُه قولَه تعالى : ﴿ العابدون ﴾ وما بعده خبرٌ بعد خبرٍ أي التائبون من الكفر على الحقيقة هُمُ الجامعون لهذه النعوتِ الفاضلةِ أي المخلِصون في عبادة الله تعالى ﴿ الحامدون ﴾ لنَعمائه أو لما نابهم من السراء والضراء ﴿ السائحون ﴾ الصائمون لقوله عليه الصلاة والسلام : " سياحةُ أُمتي الصومُ " شبّه بها لأنه عائقٌ عن الشهوات أو لأنه رياضةٌ نفسانيةٌ يُتوسّل بها إلى العثور على خفايا المُلك والملَكوتِ وقيل : هم السائحون في الجهاد وطلبِ العلم ﴿ الركعون الساجدون ﴾ في الصلاة ﴿ الامرون بالمعروف ﴾ بالإيمان والطاعة ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ عن الشرك والمعاصي ، والعطفُ فيه لِلدلالة على أن المتعاطِفَيْن بمنزلة خَصلةٍ واحدة وأما قوله تعالى : ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ أي فيما بيّنه وعيّنه من الحقائق والشرائع عَملاً وحمْلاً للناس عليه فلئلاّ يُتوهمَ اختصاصُه بأحد الوجهين ﴿ وبَشّرِ المؤمنين ﴾ أي الموصوفين بالنعوت المذكورةِ ، ووضعُ المؤمنين موضعَ ضميرِهم للتنبيه على أن مِلاكَ الأمرِ هو الأيمانُ وأن المؤمن

الكاملَ مَنْ كان كذلك ، وحُذف المبشَّرُ به للإيذان بخروجه عن حد البيانِ ، وفي تخصيص الخطابِ بالأولين إظهارُ زيادةِ اعتناءٍ بأمرهم من الترغيب والتسلية . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(121/350)

وقال الآلوسى :

﴿ التائبون ﴾

نعت للمؤمنين ، وقطع لأجل المدح أي هم التائبون ويدل على ذلك قراءة عبد الله .

وأبى ﴿ التائبين ﴾ بالياء على أنه منصوب على المدح أو مجرور على أنه صفة للمؤمنين .

وجوز أن يكون ﴿ العظيم التائبون ﴾ مبتدأ والخبر محذوف أي من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا لقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ الله الحسنى ﴾ [النساء : 95] فإن كلا فيه عام ، والحسنى بمعنى الجنة .

وقيل : الخبر قوله تعالى : ﴿ العابدون ﴾ وما بعده خبر بعد خبر ، وقيل : خبره ﴿ الامرون بالمعروف ﴾ وقيل : إنه بدل من ضمير ﴿ يقاتلون ﴾ [التوبة : 111] والأول

أظهر إلا أنه يكون الموعود بالجنة عليه هو المجاهد المتصف بهذه الصفات لا كل مجاهد وبذلك يشعر ما أخرجه ابن أبي شيبة .

وابن المنذر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : الشهيد من كان فيه الخصال التسع وتلا هذه الآية .

وأورد عليه أنه ينافي ذلك ما صح من حديث مسلم من أن من قتل في سبيل الله تعالى وهو صابر محتسب مقبل غير مدبر كفرت خطاياه إلا الدين فإنه ظاهر في أن المجاهد قد لا يكون متصفاً بجميع ما في الآية من الصفات وإلا لا يبقى لتكفير الخطايا وجه ، وكأنه من هنا اختار الزجاج كونه مبتدأ والخبر محذوف كما سمعت إذ في الآية عليه تبشير مطلق المجاهدي بما ذكر وهو المفهوم من ظواهر الأخبار .

نعم دل كثير منها على أن الفضل الوارد في المجاهدين مختص بمن قاتل لتكون كلمة الله تعالى هي العليا وأن من قاتل للدنيا والسمعة استحق النار .

وفي "صحيح مسلم" ما يقتضي ذلك فليفهم ، والمراد من التائبين على ما أخرجه ابن جرير .

وابن املنذر .

وغيرهما عن الحسن .

وقتادة الذين تابوا عن الشرك ولم ينافقوا .

وأخرج ابن أبي حاتم .

وأبو الشيخ عن الضحاك أنهم الذين تابوا عن الشرك والذنوب ، وأيد ذلك بأن التائبين في تقدير الذين تابوا وهو من ألفاظ العموم يتناول كل تائب فتخصيصه بالتائب عن بعض المعاصي تحكم .

(122/350)

وأجيب بأن ذكرهم بعد ذكر المنافقين ظاهر في حمل التوبة على التوبة عن الكفر والنفاق ، وأيضاً لو حملت التوبة على التوبة عن المعاصي يكون ما ذكر بعد من الصفات غير تام الفائدة مع أن من اتصف بهذه الصفات الظاهر اجتنابه للمعاصي ، والمراد من العابدين الذين أتوا بالعباد على وجهها ، وقال الحسن : هم الذين عبدوا الله تعالى في أحايينهم كلها أما والله ما هو بشهر ولا شهرين ولا سنة وة سنتين ولكن كما قال العبد الصالح : ﴿ وَأَوْصَانِى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ [مريم : 31] وقال قتادة : هم قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم ، ﴿ الحامدون ﴾ أي الذين يحمدون الله تعالى على كل حال كما روي عن غير واحد من السلف ، فالحمد بمعنى الوصف بالجميل مطلقاً ، وقيل : هو بمعنى الشكر فيكون في مقابلة النعمة أي الحامدون لنعمائه تعالى وأنت تعلم أن الحمد في كل

حال أولى وفيه تأس برسول الله صلى الله عليه وسلم : فقد أخرج ابن مردويه .

وأبو الشيخ .

والبيهقي في الشعب عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون على السراء والضراء "

وجاء عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت : "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال" ﴿ السائحون ﴾ أي الصائمون ، فقد أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود .

وأبي هريرة رضي الله تعالى عنهم "أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن ذلك فأجاب بما ذكر" وإليه ذهب جلة من الصحابة والتابعين .

(123/350)

وجاء عن عائشة "سياحة هذه الأمة الصيام" ، وهو من باب الاستعارة لأن الصوم يعوق عن الشهوات كما أن السياحة تمنع منها في الأكثر ، أو لأنه رياضة روحانية ينكشف بها كثير من أحوال الملك والملكوت فشبه الاطلاع عليها بالاطلاع على البلدان والأماكن النائية إذ لا يزال المرتاض يتوصل من مقام إلى مقام ويدخل من مدائن المعارف إلى مدينة بعد أخرى

على مطايا الفكر .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد أن السائحين هم المهاجرون ليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة .

وأخرج هو .

وأبو الشيخ عن عكرمة أنهم طلبة العلم لأنهم يسيحون في الأرض لطلبه ، وقيل : هم المجاهدون لما أخرج الحاكم وصححه .

والطبراني .

وغيرهما "عن أبي أمامة أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله تعالى" والمختار ما تقدم كما أشرنا إليه ، وإنما لم تحمل السياحة على المعنى المشهور لأنها نوع من الرهبانية ، وقد نهى عنها وكانت كما أخرج ابن جرير عن وهب بن منبه في بني إسرائيل ﴿ الركعون الساجدون ﴾ أي في الصلوات المفروصات كما روي عن الحسن ، فالركوع والسجود على معناهما الحقيقي ، وجعلهما بعضهم عبارة عن الصلاة لأنهما أعظم أركانها فكأنه قيل : المصلون ﴿ الامرون بالمعروف ﴾ أي الإيمان ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ أي الشرك كما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الأمرين ، ولو أبقى لفظ النظم الجليل على عمومه لكان له وجه بل قيل إنه الأولى ، والعطف هنا على ما في المغنى إنما كان من جهة إن الأمر والنهي من حيث

هما أمر ونهي متقابلان بخلاف بقية الصفات لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر وهو ترك المعروف والناهي عن المنكر آمر بالمعروف فأشير إلى الاعتداد بكل من الوصفين وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر ، وحاصله على ما قيل : إن العطف لما بينهما من التقابل أو لدفع الايهام .

(124/350)

ووجه بعض المحققين ذلك بأن بينهما تلازماً في الذهن والخارج لأن الأوامر تتضمن النواهي ومنافاة بحسب الظاهر لأن أحدهما طلب فعل والآخر طلب ترك فكانا بين كمال الاتصال والانقطاع المقتضى للعطف بخلاف ما قبلهما ، وقيل : إن العطف للدلالة على أنهما في حكم خصلة واحدة كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين ، ويرد على ظاهره أن ﴿ الركعون الساجدون ﴾ في حكم خصلة واحدة أيضاً فكان ينبغي فيهما العطف على ما ذكر إذ معناه الجامعون بين الركوع والسجود ويدفع بأدنى التفات ، وإما العطف في قوله سبحانه : ﴿ والحافظون لِحُدُودِ الله ﴾ أي فيما بينه وعينه من الحقائق والشرائع فقيل للإيذان بأن العدد قد تم بالسباع من حيث أن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ولذلك يسمى واو الثمانية ، وإليه مال أبو البقاء .

وغيره ممن أثبت واو الثمانية وهو قول ضعيف لم يرضه النحاة كما فصله ابن هشام وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه ، وقيل : إنه للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل وهذا مجملها ، يعني أنه من ذكر أمر عام شامل لما قبله وغيره ، ومثله يؤتى به معطوفاً نحو زيد وعمرو وسائر قبيلته كرماء فلمغايرته بالإجمال والتفصيل والعموم والخصوص عطف عليه ، وقيل : هو عطف عليه ، وقيل : هو عطف على ما قبله من الأمر والنهي لأن من لم يصدق فعله قوله لا يجدي أمره نفعاً ولا يفيد نهيه منعا .

(125/350)

وقال بعض المحققين : إن المراد بحفظ الحدود ظاهره وهي إقامة الحد كالقصاص على من استحقه ؛ والصفات الأول إلى قوله سبحانه : ﴿ والآمرون ﴾ صفات محمودة للشخص في نفسه وهذه له باعتبار غيره فلذا تغاير تعبير الصنفين فترك العاطف في القسم الأول وعطف في الثاني ، ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد ترك فيها العطف لشدة الاتصال بخلاف هذه فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به ، وهذا هو الداعي لاعراب ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الركعون الساجدون الامرون ﴾ خبره فكونه قيل : الكاملون في أنفسهم المكملون لغيرهم وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملا حتى

يكون كاملاً في نفسه ، وبهذا يتسق النظم أحسن اتساق من غير تكلف وهو وجه وجيه للعطف في البعض وترك العطف في الآخر ، خلا أن المأثور عن السلف كابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وغيره تفسير الحافظين لحدود الله بالقائمين على طاعته سبحانه وهو مخالف لما في هذا التوجيه ولعل الأمر فيه سهل الله تعالى أعلم بمراده ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ أي هؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجليلة ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم للتنبيه على أن ملاك الأمر هو الإيمان وان المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به إشارة إلى أنه أمر جليل لا يحيط به نطاق البيان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(126/350)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وذكر أقسامهم ، وفرّع على كل قسم منها ما هو لائق به ، عاد على بيان فضيلة الجهاد والترغيب فيه ، وذكر الشراء تمثيل ، كما في قوله : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ﴾ [البقرة : 16]

مثل سبحانه إثابة المجاهدين بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيل الله بالشراء ، وأصل الشراء بين العباد هو : إخراج الشيء عن الملك بشيء آخر مثله أو دونه ، أو أنفع منه ، فهؤلاء المجاهدون باعوا أنفسهم من الله بالجنة التي أعدها للمؤمنين ، أي : بأن يكونوا من جملة أهل الجنة ، وممن يسكنها فقد جادوا بأنفسهم ، وهي أنفس الأعلاق ، والجود بها غاية الجود :

يجود بالنفس أن ضنّ الجبان بها . . . والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وجاد الله عليهم بالجنة ، وهي أعظم ما يطلبه العباد ، ويتوسلون إليه بالأعمال ؛ والمراد بالأنفس هنا : أنفس المجاهدين ، وبالأموال : ما ينفقونه في الجهاد .

قوله : ﴿ يقاتلون فِى سَبِيلِ الله ﴾ بيان للبيع الذي يقتضيه الاشتراء المذكور ، كأنه قيل : كيف يبيعون أنفسهم وأموالهم بالجنة ؟ فقيل : يقاتلون في سبيل الله ، ثم بيّن هذه المقاتلة في سبيل الله بقوله : ﴿ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ﴾ والمراد أنهم : يقدمون على قتل الكفار في الحرب ، ويبذلون أنفسهم في ذلك ، فإن فعلوا فقد استحقوا الجنة ، وإن لم يقع القتل عليهم بعد الإبلاء في الجهاد ، والتعرّض للموت بالإقدام على الكفار .

قرأ الأعمش ، والنخعي ، وحمزة ، والكسائي وخلف بتقديم المبنيّ للمفعول على المبنيّ للفاعل .

وقرأ الباقون بتقديم المبني للفاعل على المبني للمفعول .

وقوله : ﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقّا فِي التوراة والإنجيل والقرءان ﴾ إخبار من الله سبحانه أن فريضة الجهاد واستحقاق الجنة بها قد ثبت الوعد بها من الله في التوراة والإنجيل ، كما وقع في القرآن ، وانتصاب و ﴿ عداً ﴾ و ﴿ حقاً ﴾ على المصدرية أو الثاني : نعت للأوّل ، و ﴿ في التوراة ﴾ متعلق بمحذوف : أي وعداً ثابتاً فيها .

قوله : ﴿ وَمَنْ أوفى بِعَهْدِهِ مِنَ الله ﴾ في هذا من تأكيد الترغيب للمجاهدين في الجهاد ، والتنشيط لهم على بذل الأنفس والأموال ، ما لا يخفى ، فإنه أوّلاً أخبر بأنه قد اشترى منهم أنفسهم ، وأموالهم ، بأن لهم الجنة ، وجاء بهذه العبارة الفخيمة ، وهي كون الجنة قد صارت ملكاً لهم ، ثم أخبر ثانياً بأنه قد وعد بذلك في كتبه المنزّلة ، ثم أخبر بأنه بعد هذا الوعد الصادق ، لا بدّ من حصول الموعود به ، فإنه لا أحد أوفى بعهده من الله سبحانه ، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد ، ثم زادهم سروراً وحبوراً ، فقال : ﴿ فاستبشروا بِبَيْعِكُمُ الذى بَايَعْتُمْ بِهِ ﴾ أي : أظهروا السرور بذلك ، والبشارة هي إظهار السرور ، وظهوره يكون في بشرة الوجه ، ولذا يقال : أسارير الوجه : أي التي يظهر فيها السرور .

وقد تقدّم إيضاح هذا ، والفاء لترتيب الاستبشار على ما قبله .

والمعنى : أظهروا السرور بهذا البيع الذي بايعتم به الله عزّ وجلّ ، فقد ربحتم فيه ربحاً لم يربحه أحد من الناس ، إلا من فعل مثل فعلكم ، والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى الجنة ، أو إلى نفس البيع الذي ربحوا فيه الجنة ، ووصف الفوز وهو الظفر بالمطلوب بالعظم ، يدل على أنه فوز لا فوز مثله .

قوله : ﴿ التائبون ﴾ خبر مبتدأ محذوف : أي هم التائبون ، يعني : المؤمنون ، والتائب الراجع : أي هم الراجعون إلى طاعة الله عن الحالة المخالفة للطاعة .

(128/350)

وقال الزجاج : الذي عندي أن قوله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ رفع بالابتداء وخبره مضمر : أي التائبون ، ومن بعدهم إلى آخر الآية لهم الجنة أيضاً ، وإن لم يجاهدوا .

قال : وهذا أحسن ، إذ لو كانت هذه أوصافاً للمؤمنين المذكورين في قوله : ﴿ اشترى مِنَ المؤمنين ﴾ لكان الوعد خاصاً بمجاهدين .

وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزجاج من أن هذا الكلام منفصل عما قبله طائفة من المفسرين ، وذهب آخرون إلى أن هذه الأوصاف راجعة إلى المؤمنين في الآية الأولى ، وأنها على جهة الشرط : أي لا يستحق الجنة بتلك المبايعة إلا من كان من المؤمنين على هذه

الأوصاف .

وفي مصحف عبد الله بن مسعود : التائبين العابدين إلى آخرها وفيه وجهان : أحدهما : أنها أوصاف للمؤمنين .

الثاني : أن النصب على المدح .

وقيل : إن ارتفاع هذه الأوصاف على البدل من ضمير ﴿ يقاتلون ﴾ ، وجوز صاحب الكشاف أن يكون ﴿ التائبون ﴾ مبتدأ ، وخبره ﴿ العابدون ﴾ ، وما بعده أخبار ، كذلك أي : التائبون من الكفر على الحقيقة ، الجامعون لهذه الخصال ، وفيه من البعد ما لا يخفى ، والعابدون القائمون بما أمروا به من عبادة الله مع الإخلاص .

و ﴿ الحامدون ﴾ الذين يحمدون الله سبحانه على السرّاء والضرّاء ، و ﴿ السائحون ﴾ قيل : هم الصائمون ، وإليه ذهب جمهور المفسرين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عابدات سائحات ﴾ [التحريم : 5] وإنما قيل للصائم سائح ؛ لأنه يترك اللذات ، كما يتركها السائح في الأرض ، ومنه قول أبي طالب بن عبد المطلب :

وبالسائحين لا يذوقون فطرة . . . لربهم والراكدات العوامل

وقال آخر :

تراه يصلي ليله ونهاره . . . يظل كثير الذكر لله سائحا

قال الزجاج : ومذهب الحسن أن السائحين ها هنا هم الذين يصومون الفرض ، وقيل : إنهم

الذين يديمون الصيام .

وقال عطاء : السائحون المجاهدون .

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : السائحون : المهاجرون .

وقال عكرمة : هم الذين يسافرون لطلب الحديث والعلم .

(129/350)

وقيل : هم الجائلون بأفكارهم في توحيد ربهم وملكوته ، وما خلق من العبر .

والسياحة في اللغة أصلها : الذهاب على وجه الأرض كما يسيح الماء ، وهي مما يعين العبد على الطاعة لانقطاعه عن الخلق ، ولما يحصل له من الاعتبار بالتفكر في مخلوقات الله سبحانه ، و ﴿ الركعون الساجدون ﴾ معناه : المصلون ، و ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ القائمون بأمر الناس بما هو معروف في الشريعة ﴿ والناهون عَنِ المنكر ﴾ القائمون بالإنكار على من فعل منكراً : أي شيئاً ينكره الشرع ﴿ والحافظونِ لحُدُودِ الله ﴾ القائمون بحفظ شرائعه التي أنزلها في كتبه ، وعلى لسان رسله ، وإنما أدخل الواو في الوصفين الآخرين ، وهما : ﴿ والناهون عَنِ المنكر والحافظون ﴾ الخ ، لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنزلة خصلة واحدة ، ثم عطف عليه الحافظون بالواو لقربه .

وقيل : إن العطف في الصفات يجيء بالواو وبغيرها ، كقوله : ﴿ غَافِرِ الذنب وَقَابِلِ التوب شَدِيدِ العقاب ﴾ [غافر : 3] .

وقيل : إن الواو زائدة .

وقيل : هي واو الثمانية المعروفة عند النحاة ، كما في قوله تعالى : ﴿ ثيبات وَأَبْكَاراً ﴾ [التحريم : 5] ، وقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أبوابها ﴾ [الزمر : 73] ، وقوله : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] ، وقد أنكروا الثمانية ، أبو علي الفارسي وناظره في ذلك ابن خالويه ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ الموصوفين بالصفات السابقة .

وقد أخرج ابن جرير ، عن محمد بن كعب القرظي ، وغيره قالوا : قال عبد الله بن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، قال : " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تنعون منه أنفسكم وأموالكم " ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : " الجنة " ، قال : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ الآية .

(130/350)

وأخرج ابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن جابر بن عبد الله ، قال : أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ فكبر الناس في المسجد ، فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه ، فقال : يا رسول الله ، أنزلت هذه الآية ؟ قال : " نعم " ، فقال الأنصاري : بيع ربيح لا نقيل ، ولا نستقيل .

وقد أخرج ابن سعد ، عن عبادة بن الصامت ، أن النبي صلى الله عليه وسلم اشترط في بيعة العقبة على من بايعه من الأنصار : أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأنه رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا ينازعوا في الأمر أهله ، ويمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم .

قالوا : نعم ؛ قال قائل الأنصار : نعم ، هذا لك يا رسول الله ، فما لنا ؟ قال : " الجنة "

وأخرجه ابن سعد أيضاً من وجه آخر ، وليس في قصة العقبة ما يدلّ على أنها سبب نزول الآية .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، قال : من مات على هذه التسع ، فهو في سبيل الله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن المنذر ، عن ابن عباس ، قال : الشهيد من كان له التسع الخصال المذكورة في هذه الآية .

وأخرج أبو الشيخ عنه قال : العابدون الذين يقيمون الصلاة .

وأخرج أبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عنه ، أيضاً قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أوّل من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السرّاء والضرّاء " .

وأخرج ابن جرير ، عن عبيد بن عمير ، قال : سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين ، فقال : " هم الصائمون " وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، من طريق عبيد بن عمير ، عن أبي هريرة مرفوعاً مثله .

(131/350)

وأخرج ابن جرير ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن النجار ، من طريق أبي صالح عن أبي هريرة مرفوعاً مثله .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن مسعود ، مرفوعاً مثله .

وقد روي عن أبي هريرة موقوفاً ، وهو أصح من المرفوع من طريقه ، وحديث عبيد بن عمير مرسل ، وقد أسنده من طريق أبي هريرة في الرواية الثانية .

وقد روي من قول جماعة من الصحابة مثل هذا : منهم عائشة عند ابن جرير ، وابن المنذر

، ومنهم ابن عباس عند ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، والطبراني ، وأبي الشيخ ، ومنهم ابن مسعود ، عند هؤلاء المذكورين قبله .

وروي نحو ذلك عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي أمامة أنّ رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة فقال : " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " وصححه عبد الحق .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الربيع ، في هذه الآية قال : هذه أعمال قال فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أن من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله .

وأخرج ابن المنذر ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة .

قال : وقال ابن عباس : من مات وفيه تسع ، فهو شهيد ، وقرأ هذه الآية .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ إِنَّ الله اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم ﴾ يعني : بالجنة ، ثم قال : ﴿ التائبون ﴾ إلى قوله : ﴿ والحافظون لِحُدُودِ الله ﴾ يعني : القائمين على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله

على أهل الجهاد ، وإذا وفوا لله بشرطه وفى لهم بشرطهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(132/350)

قال ابن عجيبة :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾

قلت : (التائبون) : خبر ، أي : هم التائبون ، أو مبتدأ حُذف خبره ، أي : التائبون في الجنة وإن لم يجاهدوا ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ اللهُ الحسنى ﴾ [النساء : 95] ، أو خبره ما بعده ، أي : التائبون عن الكفر ، على الحقيقة ، وهم الجامعون لهذه الخصال .

يقول الحق جل جلاله : في وصف البائعين أنفسهم وأموالهم : هم ﴿ التائبُون ﴾ عن الكفر والمعاصي والهفوات والغفلات ، ﴿ العابدون ﴾ لله ، مخلصين له الدين ، ﴿ الحامدون ﴾ لله في السراء والضراء وعلى كل حال ، ﴿ السائحون ﴾ أي : الصائمون ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « سِيَاحَةُ أُمتي الصوم » شبه بها من حيث إنه يعوق عن الشهوات ، أو لأنه رياضة نفسانية يتوصل بها إلى الاطلاع على خفايا الملكوت والجبروت . أو السائحون للجهاد ، أو لطلب العلم ، أو لزيادة المشايخ والإخوان .

﴿ الراكعون الساجدُون ﴾ في الصلاة ، ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ أي : بكل ما هو معروف محمود ، كالإيمان والطاعة ، ﴿ والناهُون عن المنكر ﴾ أي : كل ما هو منكر في الشرع ، كالكفر والمعاصي ، ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي : لكل ما حده الشارع وعينه من الحقائق والشرائع . قال البيضاوي : وعطف قوله : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ دون ما قبله ؛ للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة ، كأنه قال : الجامعون بين الوصفين ، وعطف أيضاً قوله : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ ؛ للتنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، وقيل : للإيذان بأن التعداد قد تم بالسابع ، من حيث إن السبعة هو العدد التام ، والثامن ابتداء لعدد آخر معطوف عليه ، ولذلك سمى واو الثمانية . انتهى انتهى . ا هـ بالمعنى .

(133/350)

﴿ وبشر المؤمنين ﴾ الموصوفين بهذه الفضائل ، ووضع المؤمنين موضع ضميرهم ؛ للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم ، كأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام وتعبير الكلام . قاله البيضاوي .

الإشارة : قد جمعت هذه الآية معارج الترقي من البداية إلى النهاية ، فأول المقامات : التوبة

، فإذا تابت النفس ورجعت عن هواها قصدت السير إلى حضرة مولاها ، فاشتغلت بالعبادة الظاهرة ، التي هي عمل الشريعة ، فإذا ظهر عليها أمارات التوفيق ، ولاحت لها أنوار التحقيق ، حمدت الله وشكرته ؛ تقييداً لتلك النعمة ، ثم تسيح فكرتها في ميادين الغيوب من الملكوت إلى الجبروت ، ثم ترد إلى مراسم الشريعة ، إذ منتهى الكمال : التزام الشرائع ، فتركع وتسجد البشرية ، أدباً في عالم الأشباح ، ويركع القلب ويسجد في مسجد الحضرة في عالم الأرواح ، فحينئذٍ تصلح للوعظ والتذكير ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر الظاهريْن ؛ لأهل التشريع ، والباطنيْن ؛ لأهل التحقيق ، فالأول يسمى وعظاً وتذكيراً ، والثاني يسمى تربية وترقية ، ولا يقبل ذلك إلا ممن وقف مع الحدود ، ووفى بالعهود ، فيبشر حينئذٍ بالسعادة العظمى والمقام الأسنا .

قال القشيري : لقوله تعالى : ﴿ السائحون ﴾ أي : الصائمون ، ولكن عن شهود غير الله ، المُمْتنعون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله ، ويقال : السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الأعتبار ؛ طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغربها ؛ بالتفكر في جوانبها ومناكبها ، والاستبدال بتغيُّرها على مُنْشِئِها ، والتحقق بحِكَم خالقها بما يَرَوْنَ من الآيات التي فيها ، ويسيحون بأسراهم في الملكوت ، فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الأُنْسِ ؛ بالتحقيق بشهود الحق .

انتهى

وانظر الورتجبي ؛ فقد جعل وصف الإيمان يحمل على التوبة ، ثم التوبة الصادقة تستدعي العبادات والمجاهدات المؤدية للعبودية ، فإذا تمت له نعمة للعبودية اقتضت حمد الله تعالى ، فيحمده تعالى معترفاً بعجزه عن القيام بحمده ؛ كما في حديث : « أنتَ كَمَا أثنَيتَ عَلى نَفسِك » ثم الحمد والذكر يقتضي حبس النفس عن مألوفاتها حين عاين حِمَى هلال جماله في سماء الإيقان . ألا ترى كيف قال عليه الصلاة والسلام : « صُومُوا لِرؤْيتِهِ » ولا يكون فطره إلا على حلاوة مشاهدته لقوله : « وأفطِرُوا لرُؤْيَتِهِ » فالسائحون طيارون بقلوبهم في أقطار الغيب ، وذلك يقتضي الخضوع بنعت الفناء عند مشاهدة العظمة ، فيركع شوقاً لجماله ، وخضوعاً لجلاله ، وعند ركوعه وخضوعه تحيط به أنوار الصفات ، فيسجد لكل الجهات ؛ ﴿ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ ﴾ [البقرة : 115] . وهذا السجود يقتضي الغربة ، والغربة تقتضي المشاهدة ، والمشاهدةُ تصير شاهدها متصفاً بصفاتها ، فمن وقع في نور أسماء الله وصفاته صار متصفاً بوصف الربوبية ، متمكناً في العبودية ، فيحكم بحكم الله ، ويعدل بعدل الله ، فيصفهم الله بهذه النعوت ، قال : (الآمرون بالمعروف) الداعون الخلق إلى الحق ، والناهون لهم عن متابعة الشهواتِ ، والحافظون لحدود الله ، القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم ، فلا يتجاوزون عن حد العبودية

، وإن ذاقوا طعم حلاوة الربوبية ؛ لأنهم في محل التمكين على أسوة مراتب النبي صلى الله عليه وسلم ، مع كماله ، قال : « أنا العبد لا إله إلا الله » . انتهى . انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 432.434 ﴾

(135/350)

وقال القاسمي :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

﴿ التَّائِبُونَ ﴾ أي : عن المعاصي ، ورفعه على المدح أي : هم التائبون ، كما دل عليه قراءة (التائبين) بالياء إلى قوله ، و (الحافظين) نصباً على المدح ، أو جراً صفة للمؤمنين . وجوز أن يكون مبتدأ وخبره ما بعده ، أي : التائبون من المعاصي حقيقة ، الجامعون لهذه الخصال ﴿ الْعَابِدُونَ ﴾ أي : الذين عبدوا الله وحده ، وأخلصوا له العبادة ، وحرصوا عليها ﴿ الْحَامِدُونَ ﴾ لله على نعمائه ، أو على ما نابهم من السراء والضراء ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ أي : الصائمون ، أو الضاربون في الأرض تدبراً واعتباراً . وسننبه عليه ﴿ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ ﴾ أي : المصلّون ﴿ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ

وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ أي : في تحليله وتحريمه ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الموصوفين بالنعوت المذكورة .

ووضع المؤمنين موضع ضميرهم ، للتنبيه على أنّ ملاك الأمر هو الإيمان ، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك ، وحذف المبشر به للتعظيم ، أو للعلم به ، لقوله في آية الأحزاب : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً ﴾ .

تنبيهات :

الأول : ما قدمناه من تفسير السائحين بالصائمين .

قال الزجاج : هو قول

أهل التفسير واللغة جميعاً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، وكذلك ابن جرير .

قال ابن كثير : ووقفه أصح .

وعن ابن عباس : كل ما ذكر الله في القرآن من السياحة ، فهو الصيام .

وعن الحسن : السائحون الصائمون شهر رمضان .

قال الشهاب : استعيرت السياحة للصوم لأنه يعوق عن الشهوات ، كما أن السياحة تمنع عنها في الأكثر .

ونقل الرازي عن أبي مسلم أن السائحين : السائرون في الأرض ، وهو مأخوذ من السيح ، سيح الماء الجاري ، والمراد به من خرج مجاهداً مهاجراً .

وتقريره أنه تعالى حث المؤمنين في الآية الأولى على الجهاد ، ثم ذكر هذه الآية في بيان صفات المجاهدين ، فينبغي أن يكونوا موصوفين بجميع هذه الصفات .

وروى مثله أبن أبي حاتم عن عبد الرحمن أنه قال : هم المهاجرون .

وعن عِكْرِمَة أنهم المنتقلون لطلب العلم .

قال ابن كثير : جاء ما يدل على أن السياحة الجهاد ، فقد روى أبو داود من حديث أبي أمامة أن رجلاً قال : يا رسول الله ! ائذن لي في السياحة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : < سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله > .

أقول : لو أخذ هذا الحديث تفسيراً للآية لالتقى مع كل ما روي عن السلف فيها ، لأن الجهاد في سبيل الله ، كما يطلق على قتال المشركين ، يطلق على كل ما فيه مجاهدة للنفس في عبادته تعالى ، ومنه الهجرة والصوم ، والسفر للتفقه في الدين أو للإعتبار ، بل ذلك هو الجهاد الأكبر .

هذا على إرادة التوفيق بين المأثورات ، أما لو أريد باللفظ أصل حقيقته اللغوية ، أعني الضرب في الأرض خاصة ، الذي عبر عن عِكْرِمَة بالمنتقلين لطلب العلم ، لكان بمفرده

كافياً في المعنى ، مشيراً إلى وصف عظيم ، وهذا ما حدا بأبي مسلم أن يقتصر عليه ، هو الحق في تأويل الآية .

وقد رأيت لبعض المحققين مقالة في تأييده ، يجدر بالمحقق أن يقف عليها ، وهاك خلاصتها :

قال : الكتاب الحكيم يأمر الْإِنْسَانْ كثيراً بأن يضحي قسماً من حياته في السياحة والتسيار ، لأجل اكتشاف الآثار ، والوقوف على أخبار الأمم البائدة

ليكون ذلك مثال عظة واعتبار ، يضرب على أدمغة الجامدين بيد من حديد .

(137/350)

ولا أريد أن أحشر لقارئ تلك الآيات ، فإن ذلك يؤدي إلى التطويل ، بل أريد أن أجتزئ منها بما يكفل ثبوت الدعوى ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ في هذه الآية ، ولم يقع لفظ سائحون في القرآن الكريم إلا هذه المرة الفذة .

ومع ذلك فقد تغلب عليها أهل التفسير ، فمنهم من قال هم الصائمون ، ومنهم من قال غيره .

والصحيح أن السائحون معناه السائرون ، مأخوذاً من السيح وهو الجري على وجه الأرض ، والذهاب فيها ، وهذه المادة تشعر بالإنتشار .

يقال : ساح الماء أي : جرى وانتشر ، والسيح أيضاً الماء الجاري الذاهب في وجه الأرض

.

ويطلق السائح على معنى يضاد الجامد ، وهو الماء المسفوح ، لأنه بانميا عه ينتشر في وعائه

.

وقد عهدنا بألفاظ القرآن أنها يجب حملها على ظواهرها ، وعلى معانيها الحقيقية ، اللهم ما لم يمنع مانع عقلي ، ولا مانع هنا من إرادة الحقيقة وعليه فيجب حمل لفظ السائحون على معناه الظاهر الحقيقي ، وهو السائرون الذاهبون في الديار ، لأجل الوقوف على الآثار ، تواصلاً للعظة بها والإعتبار ، ولغير ذلك من الفوائد التي عرفها التاريخ .

وكذلك عهدنا بالمعنى المجازيّ أنه لا تجوز إرادته إلا عند قيام القرينة على منع المعنى الحقيقي ، في حال أن الأمر هنا بالعكس ، لكثرة القرائن التي تطالب بإرادة المعنى الحقيقي دون المجازي ، وذلك مثل آية : ﴿ سِيرُوا ﴾ ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا ﴾ ﴿ فَسِيرُوا ﴾ ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ ﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الآية .

فهذه الآيات هي قرائن نيّرة تؤذن بأن السيح معناه اليسر ، فإنها وإن تكن من مادة أخرى ، إلا أن معناه يلاقي معنى السيح ، على أننا لا نعدم قرينة على ذلك من نفس المادة ، وذلك

كآية : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ ﴾ ، فكلمة سيحوا هنا تفسر ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ في الآية هذه ، وهم يقولون : خير ما فسرته بالوارد .

(138/350)

وبالجملة ، فصرف هذا اللفظ عن ظاهره تكسيل للأمة ، وتدبير على فتور همتها ، وضعف نشاطها ، وحيلولة بينها وبين سعادة الإحاطة بآثار الأمم البائدة ، ورؤية عِمْرَان المسكونة ، الأمر الذي هو الآن الضالة المنشودة عند الغربيين ، وفيه ستر لنور الكتاب الذي هو أول مرشد للعالم ألا يألوا جهداً في السير والسياحة ، وأن ينقلب في البلاد أي : تنقيب .

وسيأتي تتمة لهذا في تفسير آية : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ في سورة التحريم إن شاء الله تعالى .

قال الرازي : للسياحة أثر عظيم في تكميل النفس ، لأنه يلقاه أنواع من الضرّ والبؤس ، فلا بد له من الصبر عليها ، وقد يلقى أفاضل مختلفين ، فيستفيد من كلّ ما ليس عند الآخر .

وقد يلقى الأكابر من الناس ، فيحقر نفسه في مقابلتهم ، وقد يصل إلى المرادات الكثيرة ، فينتفع بها ، وقد يشاهد اختلاف أحوال الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحول الخاصة بهم ، فتقوى معرفته .

وبالجملة فالسياحة لها آثار قوية في الدين . انتهى .

وقال بعضهم : لا يعزب عنك أيها اللبيب أنه تعالى حث بني الْإِنْسَانْ على السفر في محكم كتابه العزيز ، وندد على من ارتدا منهم رداء الكسل ، وأوقع نفسه في وهدة الخمول ، وتلذذ بالتقاعد عن جَوْب البلاد ، وقطع الوهاد ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ ، وقال صلى الله عليه وسلم : < سافروا تصحوا واغزوا تستغنوا > .

وقد تكلم كثير من العلماء والحكماء والأدباء على مزايا السفر نظماً ونثراً .

ومن أجل فوائده زيادة علمه ، وانتفاع غيره بما يعلمه وما يكتسبه ، ومنها ، وهو أعظمها ، رضا ربه ، ومزيد ثوابه بنفعه لعباده ، وأحب عَبَّاد الله إلى الله أنفعهم لعباده .

(139/350)

وكذلك باتعاظه بأحوال الناس ، واعتباره بأمورهم ، واطلاعه في ساحته على الأسرار المكنونة ، والحكم التي دبر الله بها أمر المخلوقات وأحكم بها صنع الكائنات .

فمن وقف على سر الخالق زاد في تعظيمه وتقرب إليه بالطاعة والإمتثال لأوامره ونواهيه ، وليس بخافٍ ما وقع للأنبياء والمرسلين ، والصحابة والتابعين ، والأولياء والصالحين ، من التنقلات والأسفار ، في القرى والأمصار ، للنظر والإعتبار .

الثاني : قال القاضي : إنما جعل ذكر الركوع والسجود ، كناية عن الصلاة ، لأن سائر أشكال المصلِّي موافق للعادة ، هو قيامه وقعوده ، والذي يخرج عن العادة في ذلك هو الركوع والسجود ، وبه يتبين الفضل بين المصلي وغيره .

ويمكن أن يقال : القيام أول مراتب التواضع لله تعالى ، والركوع وسطها ، والسجود غايتها . فخص الركوع والسجود بالذكر ، لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية ، وتنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم . ذكره الرازي .

الثالث : ذكروا في سر العطف في موضعين من هذه النعوت وجوهاً :

فأما الأول : أعني قوله تعالى : ﴿ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ فقالوا : سر العطف فيه

إما الدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة ، وصفة واحدة ، لأن بينهما تلازما في الذهن والخارج ، لأن الأوامر تتضمن النواهي ومنافاةً بحسب الظاهر ، لأن أحدهما طلب فعل ، والآخر طلب ترك ، فكانا بين كمال الإتصال والإنقطاع المقتضي للعطف ، بخلاف ما قبلهما ، أو لأنه لما عدد صفاتهم ، عطف هذين ليدل على أنه شيء واحد ، وخصلة واحدة ، والمعدود مجموعهما ، كأنه قيل : الجامعون بين الوصفين ، أو

العطف لما بينهما من التقابل ، أو لدفع الإيهام ، وهذا معنى قول " المغني " : الظاهر أن العطف في هذا الوصف إنما كان من جهة أن الأمر والنهي ، من حيث أمر ونهي ، متقابلان بخلاف بقية الصفات ، أو لأن الآمر بالمعروف ناه عن المنكر ، وهو ترك المعروف ، والناهي عن المنكر آمر بالمعروف . فأشير إلى الإعتداد بكل من الوصفين ، وأنه لا يكفي فيه ما يحصل في ضمن الآخر .

وأما الثاني : أعني وقوله تعالى : ﴿ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ﴾ فقيل : سر العطف فيه الإيذان بأن التعداد قد تم بالسبع ، من حيث أن السبعة هو العدد التامّ ، والثامن ابتداء تعداد آخر معطوف عليه ، ولذلك تسمى واو الثمانية ونظر فيه بأن الدال على التمام لفظ سبعة لاستعماله في التكثير ، لا معدوده .

والقول بواو الثمانية ذكروه في قوله تعالى : ﴿ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ وضعفه في " المغني " .

وقيل : سر العطف التنبيه على أن ما قبله مفصل الفضائل ، وهذا مجملها ، لأنه شامل لما قبله وغيره ، ومثله يؤتى به معطوفاً ، نحو زيد وعمرو وسائر قبيلتهما كرماء ، فلمغايرته لما قبله ، بالإجمال والتفصيل ، والعموم ، والخصوص ، عطف عليه .

وقيل : بقوة الجامع بالتلازم ، لأن من حصل الأوصاف السابقة ، فقد حفظ حدود الله .

وقيل : المراد بحفظ الحدود ظاهره ، وهي إقامة الحدود ، كالقصاص على من استحقه .

والصفات الأولى إلى قوله : ﴿ الآمرون ﴾ صفات محمودة للشخص في نفسه ، وهذه له باعتبار غيره ، فلذا تغير تعبير الصنفين ، فترك العاطف في القسم الأول ، وعطف في الثاني .

ولما كان لا بد من اجتماع الأول في شيء واحد ، ترك فيها العطف لشدة الإتصال ، بخلاف هذه ، فإنه يجوز اختلاف فاعلها ومن تعلقت به .

وهذا هو الداعي لإعراب التائبون مبتدأ موصوفاً بما بعده ، و الآمرون خبره .

فكأنه قيل : الكاملون في أنفسهم المكملون لغيرهم ، وقدم الأول لأن المكمل لا يكون مكملاً حتى يكون كاملاً في نفسه ، وبهذا اتسق النظم أحسن نسق من غير تكلف ، والله أعلم بمراده . كذا في " العناية " و " حواشي المغني " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 526.531 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾

اسماء الفاعلين هنا أوصاف للمؤمنين من قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾ [التوبة : 111] فكان أصلها الجر ، ولكنها قطعت عن الوصفية وجعلت أخباراً لمبتدأ محذوف هو ضمير الجمع اهتماماً بهذه النعوت اهتماماً أخرجها عن الوصفية إلى الخبرية ، ويسمى هذا الاستعمال نعتاً مقطوعاً ، وما هو بنعت اصطلاحي ولكنه نعت في المعنى .

ف ﴿ التائبون ﴾ مراد منه أنهم مفارقون للذنوب سواء كان ذلك من غير اقترافِ ذنب يقتضي التوبة كما قال تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ﴾ [التوبة : 117] الآية أم كان بعد اقترافه كقوله تعالى : ﴿ فإن يتوبوا يك خيراً لهم ﴾ [التوبة : 74] بعد قوله : ﴿ ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم ﴾ [التوبة : 74] الآية المتقدمة آنفاً .

وأول التوْبة الإيمان لأنه إقلاع عن الشرك ، ثم يدخل منهم من كان له ذنب مع الإيمان وتاب منه .

وبذلك فارق النعت المنعوت وهو ﴿ المؤمنين ﴾ [التوبة : 111] .

و ﴿ العابدون ﴾ : المؤدّون لما أوجب الله عليهم .

و ﴿ الحامدون ﴾ : المعترفون لله تعالى بنعمه عليهم الشاكرون له .

و﴿ السائحون ﴾ : مشتق من السياحة .

وهي السير في الأرض .

والمراد به سير خاص محمود شرعاً .

وهو السفر الذي فيه قربة لله وامتثال لأمره ، مثل سفر الهجرة من دار الكفر أو السفر للحج أو السفر للجهاد .

وحمله هنا على السفر للجهاد أنسب بالمقام وأشمل للمؤمنين المأمورين بالجهاد بخلاف الهجرة والحج .

و﴿ الراكعون الساجدون ﴾ : هم الجامعون بينهما ، أي المصلون ، إذ الصلاة المفروضة لا تخلو من الركوع والسجود .

و﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ : الذين يَدْعون الناس إلى الهدى والرشاد وينهونهم عما ينكره الشرع ويأباه .

(143/350)

وإنما ذكر الناهون عن المنكر بحرف العطف دون بقية الصفات ، وإن كان العطف وتركه في الأخبار ونحوها جائزين ، إلا أن المناسبة في عطف هذين دون غيرهما من الأوصاف أن

الصفات المذكورة قبلها في قوله : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ ظاهرة في استقلال بعضها عن بعض .

ثم لما ذكر ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ علم أن المراد الجامعون بينهما ، أي المصلون بالنسبة إلى المسلمين .

ولأن الموصوفين بالركوع والسجود ممن وعدهم الله في التوارة والإنجيل كانت صلاة بعضهم ركوعاً فقط ، قال تعالى في شأن داود عليه السلام : ﴿ وخر راكعاً وأناب ﴾ [ص : 24] ، وبعض الصلوات سجوداً فقط كبعض صلاة النصارى ، قال تعالى : ﴿ يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ﴾ [آل عمران : 43] .

ولما جاء بعده ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ وكانا صفتين مستقلتين عطفتا بالواو لئلا يتوهم اعتبار الجمع بينهما كالوصفين اللذين قبلهما وهما ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ فالواو هنا كالتي في قوله تعالى : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [التوبة : 112] .

و ﴿ الحافظون لحدود الله ﴾ : صفة جامعة للعمل بالتكاليف الشرعية عند توجهها .

وحقيقة الحفظ توخي بقاء الشيء في المكان الذي يراد كونه فيه رغبة صاحبه في بقائه ورعايته عن أن يضيع .

ويطلق مجازاً شائعاً على ملازمة العمل بما يؤمر به على نحو ما أمر به وهو المراد هنا ، أي والحافظون لما عين الله لهم ، أي غير المضيعين لشيء من حدود الله .

وأطلقت الحدود مجازاً على الوصايا والأوامر .

فالحدود تشمل العبادات والمعاملات لما تقدم في قوله تعالى : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ﴾ في سورة البقرة (229) .

ولذلك ختمت بها هذه الأوصاف .

وعطفت بالواو لئلا يوهم ترك العطف أنها مع التي قبلها صفتان متلازمتان معدودتان بعد صفة الأمر بالمعروف .

(144/350)

وقال جمع من العلماء : إن الواو في قوله : والناهون عن المنكر ﴾ واو يكثر وقوعها في كلام العرب عند ذكر معدود ثامن ، وسمَّوها واوَ الثَّمانية .

قال ابن عطية : ذكرها ابن خَالويه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] .

وأنكرها أبو علي الفارسي .

وقال ابن هشام في "مغني اللبيب" "وذكرها جماعة من الأدباء كالحريري ، ومن المفسرين كالثعلبي ، وزعموا أن العرب إذا عَدّوا قالوا : ستة سبعة وثمانية ، إيذاناً بأن السبعة عدد

تام وأن ما بعدها عدد مستأنف ، واستدلُّوا بآيات إحداها : ﴿ سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم إلى قوله سبحانه ﴿ سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الكهف : 22] .

ثم قال : الثانية آيةُ الزمر (71) إذ قيل : ﴿ فُتحت ﴾ في آية النار لأن أبواب جهنم سبعة ، ﴿ وفتحت ﴾ [الزمر : 73] في آية الجنة إذ أبوابها ثمانية .

ثم قال : الثالثة : ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ فإنه الوصف الثامن .

ثم قال : والرابعة : ﴿ وأبكاراً ﴾ في آية التحريم (5) ذكرها القاضي الفاضل وتبجح باستخراجها وقد سبقه إلى ذكرها الثعلبي . . .

وأما قول الثعلبي : أن منها الواو في قوله تعالى : ﴿ سبعَ ليال وثمانيةَ أيام حسوماً ﴾ [الحاقة : 7] فسهو بيّن وإنما هذه واو العطف أ هـ .

وأطَال في خلال كلامه بردود ونقوض .

وقال ابن عطية "وحدثني أبي عن الأستاذ النحوي أبي عبد الله الكفيف المالقي وأنه قال : هي لغة فصيحة لبعض العرب من شأنهم أن يقولوا إذا عدّوا : واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة ، خمسة ، ستة ، سبعة ، وثمانية ، تسعة ، عشرة ، فهكذا هي لغتهم .

ومتى جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو" أ هـ .

وقال القرطبي : هي لغة قريش .

وأقول : كثر الخوض في هذا المعنى للواو إثباتاً ونفياً ، وتوجيهاً ونقضاً .

والوجه عندي أنه استعمال ثابت ، فأما في المعدود الثامن فقد اطرد في الآيات القرآنية المستدَل بها .

(145/350)

ولا يريبك أن بعض المقترن بالواو فيها ليس بثامن في العدة لأن العبرة بكونه ثامناً في الذكر لا في الرتبة .

وأما اقتران الواو بالأمر الذي فيه معنى الثامن كما قالوا في قوله تعالى : ﴿ وفُتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] .

فإن مجيء الواوِ لكون أبواب الجنة ثمانية ، فلا أحسبه إلا نكتة لطيفة جاءت اتفاقية .

وسيجيء هذا عند قوله تعالى في سورة الزمر ﴿ حتى إذا جاءها وفتحت أبوابها ﴾ [الزمر : 73] .

وجملة : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ عطف على جملة ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين ﴾ [التوبة : 111] عطفَ إنشاء على خبر .

ومما حسَّنه أن المقصود من الخبر المعطوفِ عليه العمل به فأشبه الأمر .

والمقصود من الأمر بتبشيرهم إبلاغُهم فكان كلتا الجملتين مراداً منها معنيان خبريّ

وإنشائي .

فالمراد بالمؤمنين هم المؤمنون المعهودون من قوله : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ [التوبة : 111] .

والبشارة تقدمت مراراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(146/350)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ ﴾

وبعد أن عرض الحق هذه الصفقة ، فمن هم المقبلون عليها ؟ إنهم التائبون ، والتوبة : هي الرجوع عن أي باطل إلى حق .

وعمَّ يتوب هؤلاء التائبون ؟

نحن نعلم أن هناك إيماناً اسمه إيمان الفطرة . نجد ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بني ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ على أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بلى شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ * أَوْ تقولوا إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ المبطلون ﴾ [الأعراف : 172-173]

إذن : فالإيمان أمر فطري ، والكفر هو الذي طرأ عليه ، وقلنا من قبل : إن الكفر هو الدليل الأول على الإيمان ؛ لأن الكفر هو الستر ، فمن يكفر بالله – والعياذ بالله – إنما يستر وجوده ، فكأن وجوده هو الأصل ، ثم يطرأ الكفر فيسرته ، ثم يأتي من ينبه في الإنسان مشاعر اليقين والإيمان فيرجع الإنسان إلى الإيمان بالله بعد أن يزيل الغشاوة التي طرأت على الفطرة .

و﴿ التائبون ﴾ : منهم التائبون عن الكفر الطارئ على إيمان الفطرة ، وأخذوا منهج الله الذي آمنوا به ، ومن هنا نشأت العبادة التي تقتضي وجود عابد ومعبود ، والعبادة تعني الانصياع من العابد لأوامر ونواهي المعبود .

﴿ التائبون العابدون الحامدون ﴾ والعبادة كلها طاعة تتمثل في تطبيق ما جاء به المنهج من " افعل " و " لا تفعل " ، وقد يتدخل المنهج في حريتك قليلاً ، وأنت بقوة الإيمان تعتبر أن هذا التدخل في هذه الحرية نعمة يجب أن تحمد الله عليها ؛ لأنه لو تركك على هواك ، كما يترك ولي الأمر التلميذ ابنه على هواه فهو يفشل ، ولكن الأب الذي يحث ابنه على المذاكرة وينهاه عن اللعب والعبث ، فلا بد أن ينجح .

(147/350)

إذن : الأوامر والنواهي هنا نعمة ، كان يجب أن نحمد ربنا عليها ، وكل ما يجريه الله على العبد المؤمن يجب أن يأخذه العبد على أساس أنه نعمة .

إذن : فالذين تابوا عن الكفر الطارئ على إيمان الفطرة هم تائبون يأخذون منهج الإيمان من المعبود ، ويصبحون بذلك عابدين لله ، أي : منفذين الأوامر ، ومبتعدين عن النواهي ، وهم يعلمون أن الأوامر تقيد حركة النفس وكذلك النواهي ، ولكنهم يصدقون قوله صلى الله عليه وسلم : " حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره ، وحُفَّت النارُ بالشَّهوات "

حين تعرف أن العبادة أوصلتك إلى أمر ثقيل على نفسك ، فاعرف أن هذا لمصلحتك وعليك أن تحمد الله عليه ؛ وبذلك يدخل المؤمن في زمرة الحَامِدينَ .

وأنت حين تؤمن بالله ، يصبح في بالك ، فلا يشغلك كونه عنه سبحانه ، وإياك أن تشغل بالنعمة عن المنعم ، واجعل الله دائماً في بالك ، والحق سبحانه يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾

[العلق : 6-7]

لذلك يفكر المؤمن في الله دائماً ويشكر المنعم على النعمة وآثارها من راحة في بيت وأولاد وعمل .

و﴿ الحامدون ﴾ أيضاً لا بد أن يستقبلوا كل قدر لله عليهم بالرضا ؛ لأن الذي يُجري عليهم القدر – ما دام لم يأمرهم بما لم يقع في اختيارهم – فهو حكيم ولا يُجري سبحانه

عليهم إلا ما كان في صالحهم . وبعد أن ترضى النفس بما أجرى عليها تعرف الحكمة ؛ ولذلك يقول سبحانه : ﴿ واتقوا الله ويُعَلِّمُكُمُ الله . . . ﴾ [البقرة : 282]

ويتابع الحق صفات المقبلين على الصفقة الإيمانية فيقول : ﴿ السائحون ﴾ ومعنى " سائح " هو من ترك المكان الذي له موطن ، فيه بيته وأهله وأولاد وأنس بالناس ، ثم يسيح إلى مكان ليس فيه شيء ما ، قد يتعرض فيه للمخاطر ، والمؤمن إنما يفعل ذلك ؛ لأنه لا شيء يشغله في الكون عن المكوِّن ، ويقول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأرض ثُمَّ انظروا . . . ﴾ [الأنعام : 11]

(148/350)

إذن : فالسياحة هي السير المستوعب ، والسير في الأرض منه سير اعتبار لينظر في مكلوت السموات والأرض ، وليستنبط من آيات الله ما يدل على تأكيد إيمانه بربه ، ومنه سير استثمار بأن يضرب في الأرض ليبتغي من فضل الله .

إذن : فالسياحة إما سياحة اعتبار ، وإما سياحة استثمار ، أما سياحة الاستثمار فهي خاصة بالذين يضربون في الأرض ، وهم الرجال .

أما سياحة الاعتبار ؛ فهي أمر مشترك بين الرجل والمرأة ، بدليل أن الله قال ذلك في وصف

النساء : ﴿ عسى رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجاً خَيْراً مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ . . . ﴾ [التحريم : 5]

إذن : ﴿ سَائِحَاتٍ ﴾ هنا مقصود بها سياحة الاعتبار ، أو السياحة التي تكون في صحبة الزوج الذي يضرب في الأرض .

وقيل أيضاً : إن السياحة أطلقت على " الصيام " ؛ لأن السياحة تخرجك عما أَلِفْتَ من إقامة في وطن ومال وأهل ، والصيام يخرجك عما أَلِفْتَ من طعام وشراب وشهوة .

إذن : القَدْرُ المشترك بين الرجال والنساء هو في سياحة الاعتبار وسياحة الصوم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ أي : المقيمون للصلاة ، وقد جاء بمظهرين فقط من مظاهر الصلاة ، مع أن الصيام قيام وقعود وركوع وسجود ؛ لأن الركوع والسجود هما الأمران المختصان بالصلاة ، وأما القيام فقد يكون في غير الصلاة ، وكذلك القعود . إذن : فالخاصيَّتان هما ركوع وسجود ؛ والحق يقول : ﴿ يا مريم اقنتي لِرَبِّكِ واسجدي واركعي مَعَ الراكعين ﴾ [آل عمران : 43]

أي : صلّي مع المصلِّين ، وهكذا نجد أن الركوع والسجود هما الأمران اللذان يختصان بالحركة في الصلاة .

ثم يقول سبحانه : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو حيثية تخص الأمة المحمدية لتكون خير أمة أخرجت للناس ، فالحق سبحانه يقول : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بالمعروف وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنكر . . . ﴾ [آل عمران : 110]

فإذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فلا بد أن تكون بمنأى عن هذا المنكر فليس معقولاً أن تنهى عن شيء أنت مزاول له .

إذن : فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، صلاح أو هدى مُتَعدٍّ من النفس إلى الغير ، بعد أن تكون النفس قد استوفَتْ حظها منه .

ويقتضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تعرف المعروف الذي تأمر به ، وأن تعرف المنكر الذي تنهى عنه ؛ لذلك لا بد أن تكون من أهل الاختصاص في معرفة أحكام الله ، ومعرفة حدود الله حِلاّ وحُرْمة ، أما أن يأتي أي إنسان ليُدخل نفسه في الأمر ويقول : أنا آمر بمعروف وأنا أنهى عن منكر ، هنا نقول له : لا تجعل الدين ، ولا تجعل التقوى في مرتبة أقل من المهن التي لا بد أن يزاولها أهل فكر ومتخصصون فيها .

ثم يقول سبحانه : ﴿ والحافظون لِحُدُودِ الله ﴾ و " الحدود " جمع " حد " وتأتي الحدود في القرآن على معنيين : المعنى الأول هو المحافظة على الأوامر ، وتلك التي يردفها الحق بقوله

: ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا . . . ﴾ [البقرة: 229]

وكل أمر يقول فيه ذلك هو حد الله فلا تتعدَّ هذا الحد ، أما المعنى الثاني : فهو البعد عن المنهيات فلا يقول لك : لا تتعداها ، بل يقول سبحانه : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا . . . ﴾ [البقرة: 187]

(150/350)

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ أي : بَشِّرْ هؤلاء الذين يسلكون هذا السلوك مطابقاً لما اعتقدوه من اليقين والإيمان ، لا هؤلاء المنافقين الذي قد يصلون أو يصومون ظاهراً . وكلمة ﴿ وَبَشِّرِ ﴾ و "استبشر" و "البشرى" و "البشير" كلها مادة تدل على الخبر السار الذي يجعل في النفس انبساطاً وسروراً ؛ بحيث إذا رأيت وجه الإنسان وجدته وجهاً متهللاً تفيض بشرته بالسرور .

وبعد ذلك يتكلم الحق عن أمر شغل بال المؤمنين الذين كان لهم آباء على الكفر ؛ ومن حقوق هذه الأبوة على الأبناء أن يستغفروا لهم لعل الله يغفر ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبين لنا أن رعاية حدود الله وحقوقه أوْلَى من قرابة الدم ، وأوْلى من عاطفة الحنوّ والرحمة ؛ فالحق سبحانه وتعالى أوْلى بأن يكون الإنسان باراً به من أن يكون بارّا بالأب

الكافر ، وقد جعل الحق سبحانه النسبَ في الإسلام نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(151/350)

فائدة

قال التسترى :

قوله : ﴿ التائبون العابدون ﴾ [112]

قال سهل : ليس شيء في الدنيا من الحقوق أوجب على الخلق من التوبة ، فهي واجبة في كل لمحة ولحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد من فقد علم التوبة .

فقيل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤمر به المبتدئ التحويل من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة ، وهي التوبة ؛ ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح له الخلوة إلاَّ بأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلاَّ بأداء حق الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلاَّ بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح له ما وصفنا حتى يستعين بالله عزَّ وجلَّ على جميعه .

فقيل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال علامتها أن يدع ما له سوى ما ليس له .

وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع عن ذلك الذنب ، ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيء كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول ، فيصير المحبوب مكروهاً ؛ ولكن يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله عزَّ وجلَّ ، ويرفع إليه شكواه ، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه ، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه .

قال : دعوا القال والقيل كله في هذا الزمان ، عليكم بثلاث : توبوا إلى الله عزَّ وجلَّ مما تعرفوه بينكم وبينه ، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم ، فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت ، والخطر عظيم ، فاتقوا الله ، وألزموا أنفسكم التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير التستري صـ 74 ﴾

(152/350)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر عن ابن عباس قال : من مات على هذه التسع فهو في سبيل الله ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى آخر الآية .

وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : الشهيد من كان فيه التسع خصال ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى قوله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ التائبون ﴾ قال : تابوا من الشرك وبرئوا من النفاق . وفي قوله ﴿ العابدون ﴾ قال : عبدوا الله في أحايينهم كلها ، أما والله ما هو بشهر ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين ولكن كما قال العبد الصالح ﴿ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ﴾ [مريم : 31] وفي قوله ﴿ الحامدون ﴾ قال : يحمدون الله على كل حال في السراء والضراء . وفي قوله ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ قال : في الصلوات المفروضات . وفي قوله ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ قال : لم يأمروا بالمعروف حتى ائتمروا به ، ولم ينهوا الناس عن المنكر حتى انتهوا عنه . وفي قوله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال : القائمون بأمر الله عز وجل ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ قال : الذين لم يغزوا .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ التائبون ﴾ قال : من الشرك والذنوب ﴿ العابدون ﴾ قال : العابدون لله عز وجل .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ التائبون ﴾ قال : الذين تابوا من الشرك ولم ينافقوا في الإِسلام ﴿ العابدون ﴾ قال : قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم ﴿ الحامدون ﴾ قال : قوم يحمدون الله على كل حال ﴿ السائحون ﴾ قال : قوم أخذوا من أبدانهم صوماً لله عز وجل ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال : لفرائضه من حلاله وحرامه .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس ﴿ العابدون ﴾ قال : الذين يقيمون الصلاة .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أول من يدعى إلى الجنة الحمادون الذين يحمدون الله على السراء والضراء " .

وأخرج ابن المبارك عن سعيد بن جبير قال : إن أول من يدعى إلى الجنة الذين يحمدون الله على كل حال ، أو قال : في السراء والضراء .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عائشة قالت " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه الأمر يسره قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال : الحمد

لله على كل حال " .

وأخرج ابن جرير عن عبيد بن عمير رضي الله عنه قال : " سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن السائحين ، قال " هم الصائمون " " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : كلما ذكر الله في القرآن السياحة هم الصائمون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال ﴿ السائحون ﴾ الصائمون .

وأخرج ابن جرير عن عائشة قالت : سياحة هذه الأمة الصيام .

وأخرج الفريابي ومسدد في مسنده وابن جرير والبيهقي في شعب الإِيمان من طريق عبيد بن عمير عن أبي هريرة قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السائحين ، فقال " هم الصائمون " " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه وابن النجار من طريق أبي صالح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " السائحون : هم الصائمون " .

(154/350)

وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السائحين . فقال : " الصائمون " " .

وأخرج ابن جرير عن أبي هريرة قال ﴿ السائحون ﴾ الصائمون .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ السائحون ﴾ قال : هم الصائمون .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن الحسن مثله .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن أبي عمرو العبدي قال ﴿ السائحون ﴾ الصائمون الذين يديمون الصيام .

وأخرج ابن المنذر عن سفيان بن عيينة قال : إنما سمي الصائم السائح لأنه تارك للذات الدنيا كلها من المطعم والمشرب والمنكح ، فهو تارك للدنيا بمنزلة السائح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي فاختة مولى جعدة بن هبيرة . أن عثمان بن مظعون أراد أن ينظر أيستطيع السياحة ؟ قال : كانوا يعدون السياحة قيام الليل وصيام النهار .

وأخرج ابن أبي حاتم والطبراني والحاكم والبيهقي في شعب الإِيمان عن أبي أمامة . " أن رجلاً استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في السياحة . قال " إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله " " .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ السائحون ﴾ قال : هم المهاجرون ، ليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم سياحة إلا الهجرة ، وكانت سياحتهم الهجرة حين

هاجروا إلى المدينة ، ليس في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ترهب .

وأخرج ابن جرير عن وهب بن منبه قال : كانت السياحة في بني إسرائيل .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة في قوله ﴿ السائحون ﴾ قال : طلبة العلم .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس الآمرون بالمعروف قال : بلا إله إلا الله ﴿ والناهون عن المنكر ﴾ قال : الشرك بالله ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ قال : الذين لم يغزوا .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ قال : لفرائض الله التي افترض ، نزلت هذه الآية في المؤمنين الذين لم يغزوا ، والآية التي قبلها فيمن غزا ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ قال : الغازين .

(155/350)

وأخرج أبو الشيخ عن الربيع في هذه الآية قال : هذه قال فيها أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله قضى على نفسه في التوراة والإنجيل والقرآن لهذه الأمة أنه من قتل منهم على هذه الأعمال كان عند الله شهيداً ، ومن مات منهم عليها فقد وجب أجره على الله .

وأخرج ابن المنذر عن أبي صالح عن أبي هريرة قال : الشهيد من لو مات على فراشه دخل الجنة . قال : وقال ابن عباس : من مات وفيه تسع فهو شهيد ﴿ التائبون العابدون ﴾ إلى

آخر الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ يعني بالجنة ، ثم قال : ﴿ التائبون ﴾ إلى قوله ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ يعني القائمون على طاعة الله ، وهو شرط اشترطه الله على أهل الجهاد إذا وفوا الله بشرطه وفى لهم بشرطهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(156/350)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ ﴾

قوله تعالى : ﴿ التائبون ﴾ :

فيه خمسة أُوجه :

أحدها : أنهم مبتدأٌ ، وخبره " العابدون " ، وما بعده أوصاف أو أخبار متعددة عند مَنْ يرى ذلك . الثاني : أنَّ الخبر قوله : " الآمرون " . الثالث : أنَّ الخبر محذوف ، أي : التائبون

الموصوفون بهذه الأوصاف من أهل الجنة ، ويؤيده قولُه : " وبَشِّرِ المؤمنين " ، وهذا عند مَنْ يرى أن هذه الآية منقطعةٌ مما قبلها ، وليست شرطاً في المجاهدة ، وأمَّا مَنْ زعم أنها شرط في المجاهدة كالضحاك وغيره فيكون إعراب التائبين خبر مبتدأ محذوف ، أي : هم التائبون ، وهذا من باب قطع النعوت ، وذلك أن هذه الأوصافَ عند هؤلاء القائلين من صفات المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ " اشترى] مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ ﴾ [التوبة : 111] / ويؤيد ذلك قراءة أُبَيّ وابن مسعود والأعمش " التائبين " بالياء . ويجوز أن تكونَ هذه القراءةُ على القطع أيضاً ، فيكونَ منصوباً بفعل مقدر . وقد صَرَّح الزمخشري وابن عطية بأن التائبين في هذه القراءةِ نعتٌ . الخامس : أن " التائبون " بدل من الضمير المتصل في " يقاتلون " .

(157/350)

ولم يذكر لهذه الأوصافِ متعلَّقاً ، فلم يَقُلْ : التائبون مِنْ كذا ، ولا العابدون لله لفَهْمِ ذلك إلا صيغتي الأمر والنهي مبالغةً في ذلك ، ولم يأتِ بعاطفٍ بين هذه الأوصاف لمناسبتها لبعضِها إلا في صيغتي الأمر والنهي لتبايُن ما بينهما ، فإن الأمرَ طلبُ فعل والنهيَ طلبُ تَرْكٍ أو كفٍّ ، وكذا " الحافظون " عَطفَه وذَكَر متعلَّقه . وأتى بترتيب هذه الصفاتِ في الذِّكْر على

أحسنِ نَظْمٍ وهو ظاهر بالتأمُّل ، فإنه قَدَّم التوبةَ أولاً ثم ثَنَّى بالعبادة إلى آخره . وقيل : إنما دخلت الواوُ لأنها واوُ الثمانية ، كقوله : ﴿ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ﴾ [الكهف : 22] . وقوله : ﴿ وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ﴾ [الزمر : 71] لَمَّا كان للجنة ثمانية أبواب أتى معها بالواو . وقال أبو البقاء : " إنما دخلت الواو في الصفة الثامنة إيذاناً بأن السبعة عندهم عددٌ تام ، ولذلك قالوا : " سبع في ثمانية " ، أي : سبع أذرع في ثمانية أشبار ، وإنما دلّت الواوُ على ذلك لأن الواو تُؤْذن بأنَّ ما بعدها غير ما قبلها ، ولذلك دَخَلَت في باب عطفِ النَّسق " ، قلت : وهذا قولٌ ضعيفٌ جداً لا تحقيقَ له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 129 . 130 ﴾

(158/350)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ ﴾ .

مَدَحَهُم بعد ما أوقع عليهم سِمَةَ الاشتراء بقوله : ﴿ التَّائِبُونَ العَابِدُونَ . . . ﴾ ومَنْ رَضِيَ بما اشتراه فإنَّ له حقَّ الردِّ إذا لم يَعْلَمْ العيبَ وقتَ الشِّراء ، فأمَّا إذا كان عالماً به

فليس له حقُّ الردِّ ؛ قال تعالى : ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى العَالَمِينَ ﴾ [الدخان : 32] .

ويقال مَنْ اشترى شيئاً فَوَجَدَ به عيْباً ردَّه على مَنْ منه اشتراه ولكنه – سبحانه – اشترى نفوسَنا منه ، فإذا أراد الردَّ فلا يردُّ إلا على نَفْسِه ؛ قال تعالى : ﴿ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاَهُمُ الحَقِّ ﴾ وكما أنَّ الردَّ إليه فلو ردَّنا كان الردُّ عليه .

قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ ﴾ أي الراجعون إلى الله ، فَمِنْ راجعٍ يرجع عن زلَّته إلى طاعته ، ومِنْ راجع ، يرجع عن متابعة هواه إلى موافقة رضاه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن شهود نفسه إلى شهود لطفه ، ومِنْ راجعٍ يرجع عن الإحساس بنفسه وأبناء جِنْسِه إلى الاستغراق في حقائق حقِّه .

ويقال تَائِبٌ يرجع عن أفعاله إلى تبديل أحواله ؛ فيجد غداً فنونَ أفضاله ، وصنوفَ لطفه ونواله ، وتائبٌ يرجع عن كل غيرٍ وضدٍ إلى ربِّه بربِّه لربِّه بِمَحْوِ كلِّ أَرَبٍ ، وعَدَمِ الإحسان بكلِّ طلب .

وتائب يرجع لحظِّ نَفْسِه من جزيل ثوابه أو حَذَراً – على نفسه – من أليم عذابه ، وتائب يرجع لأمره برجوعه وإيابه ، وتائب يرجع طلباً لفرح نفسه حين ينجو مِنْ أوضاره ، ويخلص من شؤم أوزاره ، وتائب يرجع لَمَّا سمع أنه قال : إنَّ اللهَ أَفْرَحُ بتوبةِ عَبْدِه من الأعرابي الذي

وَجَدَ ضَالَّتَه - كما في الخبر ، " وشتَّان ما هما " ! وأنشدوا :

أيا قادماً من سَفْرَةِ الهَجْرِ مَرْحَبَا . . . أُنَادِيكَ لا أنساكَ ما هبَّتْ الصَّبَا

(159/350)

وأمَّا قوله ﴿ العَابِدُونَ ﴾ : فهم الخاضعون بكلِّ وجه ، الذين لا تَسْتَرِقُّهم كرائمُ الدنيا ، ولا تستعبدهم عظائمُ العُقْبَى . ولا يكون العبدُ عبداً لله - على الحقيقة - إلا بعد تجرُّدِه عن كل شيءٍ حادثٍ . وكلُّ أحدٍ فهو له عَبْدٌ من حيث الخِلْقة ؛ قال تعالى : ﴿ إن كُلُّ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ ءاتِى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : 93] . ولكنَّ صاحبَ العبودية خاصٌّ .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الحَامِدُونَ ﴾ .

هم الشاكرون له على وجود أفضاله ، المُثْنُونَ عليه عند شهود جلاله وجماله .

ويقال : الحامدون بلا اعتراضٍ على ما يحصل بقدرته ، وبلا انقباضٍ عما يجب من طاعته .

ويقال الحامدون له على منعه وبلائه كما يحمدونه على نفعه وعطائه .

ويقال الحامدون إذا اشتكى مَنْ لا فُتُوَّة له (1) المادحون إذا بكى مَنْ لا مروءةَ له .

ويقال الشاكرون له إنْ أدناهم ، الحامدون له إن أقصاهم .

قوله جلّ ذكره : ﴿ السَّائِحُونَ ﴾ .

الصائمون ولكن عن شهود غير الله ، الممتنعون عن خدمة غير الله ، المكتفون من الله بالله .

ويقال السائحون الذين يسيحون في الأرض على جهة الاعتبار طلباً للاستبصار ، ويسيحون بقلوبهم في مشارق الأرض ومغاربها بالتفكُّر في جوانبها ومناكبها ، والاستدلال بتغيُّرها على مُنْشِئِها ، والتحقق بحكمةِ خالِقها بما يَرَوْنَ من الآيات فيها ، ويسيحون بأسرارهم في الملكوتِ فيجدون رَوْحَ الوصال ، ويعيشون بنسيم الأُنْسِ بالتحقق بشهود الحق .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الرَّاكِعُونَ ﴾ .

الخاضعون لله في جميع الأحوال بخمودهم تحت سلطان التجلِّي ، وفي الخبر . " إن الله ما تجلَّى لشيءٍ إلا خَشَعَ له " .

وكما يكون – في الظاهر – راكعاً يكون في الباطن خاشعاً ، ففي الظاهر بإحسان الحقّ إليه يُحْسنِ تولِّيه ، وفي الباطن كالعيان للعيان للحقّ بأنوار تجلِّيه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ السَّاجِدُونَ ﴾ .

---

(1) سأل شقيق البلخي جعفر بن محمد عن الفتوة فقال : ما تقول أنت ؟ فقال شقيق : إن أعطينا شكرنا وإن منعنا صبرنا ، فقال جعفر : الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل ! فقال

شقيق : وما الفتوة عندكم ؟ فقال : إن أعطينا آثرنا ، وإن منعنا شكرنا (الرسالة ص 115) .

(160/350)

في الظاهر بنفوسهم على بِساط العبودية ، وفي الباطن بقلوبهم عند شهود الربوبية .

والسجود على أقسام : سجود عند صحة القصود فيسجد بنعت التذلل على بساط الافتقار ، ولا يرفع رأسه عن السجود إلا عند تباشير الوصال . وسجودٌ عند الشهود إذا تجلَّى الحقُّ لقلبه سَجدَ بقلبه ، فلم ينظر بعده إلى غيره ، وسجودٌ في حال الوجود وذلك بخموده عن كليته ، وفنائه عن الإحساس بجميع أوصافه وجملته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ الآمِرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ المُؤْمِنِينَ ﴾ .

هم الذين يَدْعُون الخَلْقَ إلى الله ، ويُحَذرونهم عن غير الله . يتواصَوْن بالإقبال على الله وتَرْكِ الاشتغال بغير الله . يأمرون أنفسَهم بالتزام الطاعات بِحَمْلِهم إياها على سَنَن الاستقامة ، ويَنْهَوْن أنفسَهم عن اتِّباع المنى والشهوات بِتَرْكِ التعريج في أوطان الغفلة ، وما تعودوه من المساكنة والاستنامة .

والحافظون لحدود الله ، هم الواقفون حيث وقفهم الله ، الذين لا يتحركون إلا إذا حَرَّكَهم ولا يَسْكُنُون إلا إذا سكنهم ، ويحفظون مع الله أَنْفَاسَهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ2 صـ 65.67.68 ﴾

(161/350)

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كثرت في هذه السورة الأوامر بالبراءة من أحياء المشركين وجاء الأمر أيضاً بالبراءة من أموات المنافقين بالنهي عن الدعاء لهم ، جاءت هذه الآية مشيرة إلى البراءة من كل مشرك فوقع التصريح بعدها بما أشارت إليه ، وذلك أنه لما ثبت بهذه الآية في تقديم الجار أن المبايعة وقعت على تخصيص الجنة بالمؤمنين وأنه تعالى أوفى من عاهد ، ثبت أنه لا يجوز أن يدخل غيرهم الجنة وأن غيرهم أصحاب النار ، لأنه قد علم أن الآخرة داران : جنة ونار ، ولما ثبت هذا كله علم قطعاً علم النتيجة من المقدمات الصحيحة أنه ﴿ ما كان ﴾ أي في نفس

الأمر ﴿ للنبي ﴾ أي الذي لا ينطق إلا بما عنده فيه بيان من الله ﴿ والذين آمنوا ﴾ أي أقروا بأنهم صدقوا بدعوته فلا يفعلون إلا ما عندهم منه علم ﴿ أن يستغفروا ﴾ أي يطلبوا المغفرة ويدعوا بها ﴿ للمشركين ﴾ أي الراسخين في الإشراك في عبادة ربهم ﴿ ولو كانوا ﴾ أي المشركين ﴿ أولي قربى ﴾ أي للذين آمنوا ﴿ من بعد ما تبين لهم ﴾ أي بموتهم على الشرك وإنزال هذه الآية للختم بالتخصيص بالجنة ﴿ أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي لا أهلية لهم للجنة .

فإن الاستغفار معناه محو الذنوب حتى ينجو صاحبها من النار ويدخل الجنة وما ينبغي لهم أن يكون لهم إليهم التفات فإن ذلك ربما جر إلى ملاينة تفتر عن القتال الواقع عليه المبايعة ، فما ينبغي إلا محض المقاطعة والمخاشنة والمنازعة .

وتقييد النهي بالتبيين يدل على جواز الدعاء للحي فإن القصد بالاستغفار الإقبال به إلى الإيمان الموجب للغفران . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 392 . 393 ﴾

(162/350)

فصل

قال الفخر :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين من أول هذه السورة إلى هذا الموضع وجوب إظهار البراءة عن الكفار والمنافقين من جميع الوجوه بين في هذه الآية أنه تجب البراءة عن أمواتهم ، وإن كانوا في غاية القرب من الإنسان كالأب والأم ، كما أوجبت البراءة عن أحيائهم ، والمقصود منه بيان وجوب مقاطعتهم على أقصى الغايات والمنع من مواصلتهم بسبب من الأسباب وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

ذكروا في سبب نزول هذه الآية وجوهاً .

الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما : لما فتح الله تعالى مكة سأل النبي عليه الصلاة والسلام " أي أبويه أحدث به عهداً " قيل أمك ، فذهب إلى قبرها ووقف دونه ، ثم قعد عند رأسها وبكى فسأله عمر وقال : نهيتنا عن زيارة القبور والبكاء ، ثم زرت وبكيت ، فقال : " قد أذن لي فيه ، فلما علمت ما هي فيه من عذاب الله وإني لا أغني عنها من الله شيئاً بكيت رحمة لها .

" الثاني : روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : " يا عم قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله " فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية أترغب عن ملة عبد المطلب .

فقال : أنا على ملة عبد المطلب فقال عليه الصلاة والسلام : " لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " فنزلت هذه الآية قوله : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ قال الواحدي : وقد استبعده الحسين بن الفضل لأن هذه السورة من آخر القرآن نزولاً ، ووفاة أبي طالب كانت بمكة في أول الإسلام ، وأقول هذا الاستبعاد عندي مستبعد ، فأي بأس أن يقال إن النبي عليه الصلاة والسلام بقي يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول هذه الآية ، فإن التشديد مع الكفار إنما ظهر في هذه السورة فلعل المؤمنين كان يجوز لهم أن يستغفروا لأبويهم من الكافرين ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً يفعل ذلك ، ثم عند نزول هذه السورة منعهم الله منه ، فهذا غير مستبعد في الجملة .

الثالث : يروى عن علي أنه سمع رجلاً يستغفر لأبويه المشركين قال : فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أليس قد استغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية .

الرابع : يروى أن رجلاً أتى الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : كان أبي في الجاهلية يصل الرحم ، ويقري الضيف ، ويمنح من ماله .

وأي أبي ؟ فقال : " أمات مشركاً ؟ " قال : نعم .

قال : " في ضحضاح من النار ، "

فولى الرجل يبكي فدعاه عليه الصلاة والسلام ، فقال : " إن أبي وأباك وأبا إبراهيم في النار ، إن أباك لم يقل يوماً أعوذ بالله من النار " المسألة الثانية :

قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ يحتمل أن يكون المعنى ما ينبغي لهم ذلك فيكون كالوصف ، وأن يكون معناه ليس لهم ذلك على معنى النهي :

فالأول : معناه أن النبوة والإيمان يمنع من الاستغفار للمشركين .

والثاني : معناه لا تستغفروا والأمران مقاربان .

(164/350)

وسبب هذا المنع ما ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ وأيضاً قال : ﴿ إِنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء ﴾

والمعنى أنه تعالى لما أخبر عنهم أنه يدخلهم النار .

فطلب الغفران لهم جار مجرى طلب أن يخلف الله وعده ووعيده وأنه لا يجوز .

وأيضاً لما سبق قضاء الله تعالى بأنه يعذبهم .

فلو طلبوا غفرانه لصاروا مردودين ، وذلك يوجب نقصان درجة النبي عليه الصلاة والسلام وحظ مرتبته ، وأيضاً أنه قال : ﴿ ادعونى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : 60] وقال عنهم أنهم أصحاب الجحيم فهذا الاستغفار يوجب الخلف في أحد هذين النصين ، وإنه لا يجوز وقد جوز أبو هاشم أن يسأل العبد ربه شيئاً بعد ما أخبر الله عنه أنه لا يفعله ، واحتج عليه بقول أهل النار ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا ﴾ [المؤمنون : 107] مع علمهم بأنه تعالى لا يفعل ذلك ، وهذا في غاية البعد من وجوه : الأول : أم هذا مبني على مذهبه أن أهل الآخرة لا يجهلون ولا يكذبون ، وذلك ممنوع ، بل نص القرآن يبطله .

وهو قوله : ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلاَّ أَن قَالُواْ والله رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام : 23] ﴿ انظر كَيْفَ كَذَبُواْ على أَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنعام : 24] والثاني : أن في حقهم يحسن ردهم عن ذلك السؤال وإسكاتهم ، أما في حق الرسول عليه الصلاة والسلام فغير جائز ، لأنه يوجب نقصان منصبه .

والثالث : أن مثل هذا السؤال الذي يعلم أنه لا فائدة فيه إما أن يكون عبثاً أو معصية .

وكلاهما جائزان على أهل النار وغير جائزين على أكابر الأنبياء عليهم السلام .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى لما بين أن العلة المانعة من هذا الاستغفار هو تبين كونهم من أصحاب النار ، وهذه العلة لا تختلف بأن يكونوا من الأقارب أو من الأباعد ، فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ أُو۟لِى قربى ﴾ وكون سبب النزول ما حكينا ، يقوي هذا الذي قلناه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 165.166 ﴾

(166/350)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُوا۟ ﴾

يعني : ما ينبغي وما جاز للنبي والذين آمنوا ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وروي عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له : أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : ألم يستغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُوا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ كَانُوا۟ أُو۟لِى قربى ﴾ ، يعني : ذا قرابة في الرحم .

﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ ، يعني : أهل النار وماتوا على الكفر وهم في النار .

ويقال أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبويه وهما مشركان ، واستأذن منه المسلمون أن يستغفروا لآبائهم ، فنهاهم الله عن ذلك ، وقال : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وروى مسروق عن عبد الله بن مسعود أنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرجنا معه ، حتى انتهينا إلى قبر فجلس إليه فناجاه طويلاً ، ثم رفع رأسه باكياً ، فبكينا لبكاء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أقبل إلينا ، فتلقاه عمر رضي الله عنه وقال : ما الذي أبكاك يا رسول الله ؟ فأخذ بيد عمر وأقبل إلينا ، فأتيناه فقال : " أَفْزَعَكُمْ بُكَائِي " فقلنا : نعم يا رسول الله .

فقال : " إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي رَأَيْتُمُونِي أُنَاجِيهِ قَبْرُ آمِنَةَ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي بِالاسْتِغْفَارِ لَهَا ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، فَأَنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ ﴾ فَأَخَذَنِي مَا يَأْخُذُ الْوَلَدَ لِلْوَالِدَيْنِ مِنَ الرِّقَّةِ ، فذلك الَّذِي أَبْكَانِي " .

وروى أبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال " اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ

لِوَالِدَيَّ ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهُمَا ، فَأَذِنَ لِي " فنزلت هذه الآية . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(167/350)

وقال الثعلبى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية

واختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية .

فروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أي عم إنك أعظم الناس عليَّ حقاً وأحسنهم عندي [قولاً] ولأنت أعظم عليَّ حقاً من والدي فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي يوم القيامة . قل : لا إله إلا الله أُحاجّ لك بها عند الله " .

فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزالا يكلمانه حتى كان آخر شيء تكلم به : أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأستغفر لك يا عم الله " فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ

لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ، ونزلت ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] الآية .

قال الحسن بن الفضل : وهذا بعيد لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات أبو طالب في عنفوان الإسلام والنبي صلى الله عليه وسلم بمكة .

وقال عمرو بن دينار : قال النبي صلى الله عليه وسلم " استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فلا أزال أستغفر لأبي طالب حتى نهاني عنه ربي " فقال أصحابه : لنستغفرن لآبائنا كما استغفر النبي صلى الله عليه وسلم لعمّه . فأنزل الله تعالى هذه الآية .

(168/350)

وروى جعفر بن عون عن موسى بن عبيدة عن محمّد بن كعب [قال حدثنا محمد بن عبد الوهاب أخبرنا جعفر بن عون] قال : بلغني " أنه لما اشتكى أبو طالب شكواه الذي قبض فيه ، قالت قريش له : يا أبا طالب أرسل إلى ابن أخيك فيرسل إليك من هذه الجنّة فيكون لك شفاء ، فخرج الرسول حتى وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر معه جالس فقال زيد : إنّ عمك يقول لك يا ابن أخي إني كبير وشيخ ضعيف فادعوا إليّ من جنتك هذه التي تذكر من طعامها وشرابها شيء يكون لي فيه شفاء .

فقال أبو بكر : إن الله حرّمها على الكافرين . قال : فرجع إليهم الرسول فقال : بلغت محمّداً

الذي أرسلتموني به فلم يحر إليّ شيئاً فقال أبو بكر : إن الله حرمها على الكافرين قال : فحملوا أنفسهم عليه حتى أرسل رسولاً من عنده فوجد الرسول في مجلسه فقال له مثل ذلك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله حرّمهما على الكافرين طعامها وشرابها " ، ثم قام في أثره حتى دخل معه البيت فوجده مملوءاً رجالا فقال : " خلوّا بيني وبين عمي " ، فقالوا : ما نحن بفاعلين وما أنت أحق به منا إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك فجلس إليه فقال : " يا عم جزيت عني خيراً كفلتني صغيراً وحفظتني كبيراً فجزيت عني خيراً . يا عماه أعنّي على نفسك بكلمة أشفع لك بها عند الله يوم القيامة ، قال : وما هي يا ابن أخي ؟

قال : قل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له " . قال : إنك لي لناصح ، والله لولا أن تعيّر بها بعدي يقال جزع عمك عند الموت لأقررت بها عينك ، قال : فصاح القوم : يا أبا طالب أنت رأس الحنيفية ملة الأشياخ لا تحدث نساء قريش أني جزعت عند الموت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا أزال أستغفر لك ربي حتى يردّني فاستغفر له بعد ما مات " .

(169/350)

فقال المسلمون : ما منعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه وهذا محمد يستغفر لعمه فاستغفروا للمشركين فنزلت هذه الآية .

والدليل على ما قيل أن أبا طالب مات كافراً ما أخبرنا عبد الله بن حامد قال أخبرنا المزني . قال : حدثنا أحمد بن نجدة حدثنا سعد بن منصور حدثنا أبو الأحوص أخبرنا أبو إسحاق قال : " قال علي (عليه السلام) لما مات أبو طالب : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إن عمك . . . . . قال : اذهب فادفنه ولا تحدثن شيئاً حتى تأتيني ، فانطلقت فواريته ثم رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعليَّ أثر التراب فدعا لي بدعوات ما يسرني أنَّ لي بها ما على الأرض من شيء " .

وقال أبو هريرة وبريدة : " لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمّه آمنة فوقف عليه حتى حميت عليه الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا ﴾ الآية ، فقام وبكى وبكى من حوله فقال : " إني استأذنت ربي أن أزورها فأذن لي واستأذنته أن أستغفر لها فلم يأذن لي فزوروا القبور فإنّها تذكّركم الموت " ، " فلم نرَ باكياً أكثر من يومئذ .

علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : كانوا يستغفرون لأمواتهم المشركين فنزلت هذه الآية فأمسكوا عن الاستغفار فنهاهم ولم ينتهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، وقال قتادة : " قال رجال من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن

الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم ألا نستغفر لهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلى ، وأنا والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ " أي ما ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين .

(170/350)

وقال أهل المعاني : ما كان في القرآن على وجهين أحدهما بمعنى النفي كقوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾ [النمل : 60] ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله ﴾ [آل عمران : 145] والأُخرى بمعنى النهي كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ الله ﴾ [الأحزاب : 53] ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا ﴾ نهي . ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم ﴾ بموتهم على الكفر ، وتأوّل بعضهم الاستغفار في هذه الآية على الصلاة . قال عطاء بن أبي رباح : ما كنت أدع الصلاة على أحد من أهل هذه القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلاّ عن المشركين كقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(171/350)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

اختلف في سبب نزولها على ثلاثة أقاويل :

أحدها : ما روى مسروق عن ابن مسعود قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ، ثم قام ، فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فدعاه ثم دعانا فقال : " مَا أَبْكَاكُم ؟ " قلنا : بكينا لبكائك ، قال : " إن القبر الذي جلست عنده قبر آمِنَةَ وَإِنِّي اسْتَأْذَنتُ رَبِّي فِي زِيَارَتِهَا فَأَذِنَ لِي ، وَإِنِّي استَأْذَنتُ رَبِّي فِي الدُّعَاءِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي ، وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ الآية . ﴿ فأخذني ما يأخذ الولد للوالد ، وكنتُ نَهَيتُكُم عن زِيَارَةِ القُبُورِ فَزُورُوهَا فإنها تُذَكِّرُكُمُ الآخِرَةَ

" " والثاني : أنها نزلت في أبي طالب ، روى سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال صلى الله عليه وسلم : " أَي عَمِّ قُلْ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُ لَكَ بِهَا عِندَ اللَّهِ "

فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فكان آخر شيء كلمهم به أن قال : أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنكَ " فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَآمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلمُشْرِكِينَ ﴾ الآية .

(172/350)

والثالث : أنها نزلت فيما رواه أبو الخليل عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ قال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبويه ؟ فذكرته للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَآمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(173/350)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآية

يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم إما بموافاتهم على الكفر وموتهم ، ومنه قول عمر بن الخطاب في العاصي بن وائل لا جزاه الله خيراً ، وإما بنص من الله تعالى على أحد كأبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حي ، واختلف المفسرون في سبب هذه الآية فقال الجمهور ومداره على ابن المسيب وعمرة بن دينار ، نزلت في شأن أبي طالب ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال : أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى ، وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أمية ، فقالا له : يا أبا طالب أترغب عن ملك عبد المطلب ، فقال أبو طالب : يا محمد والله لولا أني أخاف أن يعير بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينك ثم قال : أنا على ملة عبد المطلب ، ومات على ذلك ، إذ لم يسمع منه النبي صلى الله عليه وسلم ما قاله للعباس ، فنزلت :

﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 65] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الاستغفار لأبي طالب ، وروي أن المؤمنين لما رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لأبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم ، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي .

والآية على هذا ناسخة لفعل النبي صلى الله عليه وسلم إذ أفعاله في حكم الشرع المستقر وقال فضيل بن عطية وغيره : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح مكة أتى قبر أمه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس ، وجعل يرغب في أن يؤذن له في الاستغفار لها ، فلم يؤذن له فأخبر أصحابه أنه أذن له في زيارة قبرها ، ومنع أن يستغفر لها ، فما رئي باكياً أكثر من يومئذ ، ونزلت الآية في ذلك وقالت فرقة : إنما نزلت بسبب قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنافقين : والله لأزيدن على السبعين ، وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما : إنما نزلت بسبب جماعة من المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم صلى الله عليه وسلم لأبيه فنزلت الآية في ذلك ، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على نبينا وعليه ، فنزل رفع ذلك الاعتراض في الآية التي بعدها ، وقوله ﴿ من بعد ما تبين ﴾ يريد من بعد الموت على الكفر فحينئذ تبين أنهم أصحاب الجحيم أي سكانها وعمرتها ، والاستغفار للمشرك الحي جائز إذ يرجى إسلامه ومن هذا قول أبي هريرة رضي الله عنه رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه ، قيل له ولأبيه قال : لا ، إن أبي مات كافراً ، وقال عطاء بن أبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار ها هنا يراد به الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : " أن أبا طالب لما حضرته الوفاة ، دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال أي عم ، قل معي : لا إله إلا الله ، أحاجُّ لك بها عند الله فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ ! فلم يزالا يكلِّمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به : أنا على ملَّة عبد المطلب .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك" فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا . . .

﴾ الآية ، ونزلت ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ [القصص : 56] " أخرجه البخاري ومسلم في "الصحيحين" من حديث سعيد بن المسيب .

عن أبيه وقيل : إنه لما مات أبو طالب ، جعل النبي صلى الله عليه وسلم يستغفر له ، فقال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قراباتنا ، وقد استغفر ابراهيم لأبيه ، وهذا

محمد يستغفر لعمه ؟ فاستغفروا للمشركين ، فنزلت هذه الآية .

قال أبو الحسين بن المنادي : هذا لا يصح ، إنما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، لعمه " لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك " قبل أن يموت ، وهو في السياق فأما أن يكون استغفر له بعد الموت ، فلا ، فانقلب ذلك على الرواة ، وبقي على انقلابه .

والثاني : " أن النبي صلى الله عليه وسلم مرَّ بقبر أمه آمنة ، فتوضأ وصلى ركعتين ، ثم بكى ، فبكى الناس لبكائه ، ثم انصرف إليهم ، فقالوا : ما الذي أبكاك ؟ فقال "مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ، ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها ، فنُهيت ، فبكيت ، ثم عدت فصليت ركعتين ، فاستأذنت ربي أن أستغفر لها ، فزُجرت زجراً ، فأبكاني ، "ثم دعا براحلته فركبها ؛ فما سار إلا هُنَيأة ، حتى قامت الناقة لثقل الوحي ؛ فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا ﴾ والأية التي بعدها " ، رواه بريدة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(176/350)

والثالث : أن رجلاً استغفر لأبويه ، وكانا مشركين ، فقال له علي بن أبي طالب : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أولم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكر ذلك عليّ للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتي بعدها ، رواه أبو الخليل عن علي عليه السلام .

والرابع : " أن رجالاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبي الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ فقال : "بلى ، والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه" " فنزلت هذه الآية ، وبيَّن عذر إبراهيم ، قاله قتادة .

ومعنى قوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي : من بعد ما بان أنهم ماتوا كفاراً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(177/350)

وقال القرطبى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأُولى روى مسلم عن سعيد بن المسيِّب عن أبيه قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاةُ جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبدَ الله بن أبي أُميّة بن المغيرة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يا عَمِّ ، قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أُمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملّة عبد المطلب .

فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يُعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك" " فأنزل الله عز وجل : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم ﴾ وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ [القصص : 56] .

فالآية على هذا ناسخة لاستغفار النبيّ صلى الله عليه وسلم لعمّه ؛ فإنه استغفر له بعد موته على ما رُوي في غير الصحيح .

وقال الحسين بن الفضل : وهذا بعيد ؛ لأن السورة من آخر ما نزل من القرآن ، ومات أبو طالب في عنفوان الإسلام والنبيّ صلى الله عليه وسلم بمكة .

الثانية هذه الآية تضمّنت قطع موالاة الكفار حيّهم وميتهم ؛ فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين ؛ فطلبُ الغفران للمشرك مما لا يجوز .

(178/350)

فإن قيل : فقد صح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال يوم أُحُد حين كسروا رَبَاعِيتَه وشَجّوا وجهه : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " فكيف يجتمع هذا مع منع الله تعالى رسولَه والمؤمنين من طلب المغفرة للمشركين .

قيل له : إن ذلك القول من النبيّ صلى الله عليه وسلم إنما كان على سبيل الحكاية عمّن تقدّمه من الأنبياء ؛ والدليل عليه ما رواه مسلم عن عبد الله قال : كأني أنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يحكي نبيّاً من الأنبياء ضربه قومُه وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وفي البخاريّ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر نبيّاً قبله شَجّه قومه فجعل النبيّ صلى الله عليه وسلم يخبر عنه بأنه قال : " اللّهُمْ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " .

قلت : وهذا صريح في الحكاية عمن قبله ، لا أنه قاله ابتداء عن نفسه كما ظنه بعضهم . والله أعلم .

والنبيّ الذي حكاه هو نوح عليه السلام ؛ على ما يأتي بيانه في سورة "هود" إن شاء الله .

وقيل : إن المراد بالاستغفار في الآية الصلاة .

قال بعضهم : ما كنت لأدَعَ الصلاة على أحد من أهل القبلة ولو كانت حبشيّة حُبلى من الزنى ؛ لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين بقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية .

قال عطاء بن أبي رَبَاح؛ الآية في النهي عن الصلاة على المشركين، والاستغفارُ هنا يراد به الصلاة.

جواب ثالث وهو أن الاستغفار للأحياء جائز؛ لأنه مرجوّ إيمانهم، ويمكن تألفهم بالقول الجميل وترغيبهم في الدِّين.

وقد قال كثير من العلماء: لا بأس أن يدعُوَ الرجل لأبويه الكافرين ويستغفر لهما ما داما حيين.

فأما من مات فقد انقطع عنه الرجاء فلا يُدْعَى له.

قال ابن عباس: كانوا يستغفرون لموتاهم فنزلت، فأمسكوا عن الاستغفار ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا.

(179/350)

الثالثة قال أهل المعاني: ﴿ مَا كَانَ ﴾ في القرآن يأتي على وجهين: على النفي نحو قوله: ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُواْ شَجَرَهَا ﴾، ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران: 145].

والآخر بمعنى النهي كقوله: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ اللهِ ﴾ [الأحزاب: 53]،

و ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(180/350)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ الآية واختلف أهل التفسير في سبب نزول هذه الآية فقال قوم : نزلت في شأن أبي طالب عم النبي (صلى الله عليه وسلم) والد علي وذلك أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه الله عن ذلك ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حزن " قال لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاجُّ لك بها عند الله " فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية بن المغيرة : أترغب عن ملة عبد المطلب فلم يزل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعرضها عليه ويعودان لتلك المقالة حتى قالوا : أبو طالب آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل الله

تعالى ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى وأنزل الله في أبي طالب

" إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " أخرجاه في الصحيحين .

فإن قلت قد استبعد بعض العلماء نزول هذه الآية في شأن أبي طالب وذلك أن وفاته كانت بمكة أول الإسلام ونزول هذه السورة بالمدينة وهي من آخر القرآن نزولاً .

" قلت الذي نزل في أبي طالب قوله تعالى إنك لا تهدي من أحببت فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " كما في الحديث فيحتمل أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يستغفر له في بعض الأوقات إلى أن نزلت هذه الآية فمنع من الاستغفار والله أعلم بمراده وأسرار كتابه (م) .

(181/350)

عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لعمه عند الموت : " قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة فأبى فأنزل الله إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء " الآية وفي رواية قال : " لولا تعيرني قريش يقولون إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله الآية " (ق)

" عن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذكر عنده عمه طالب فقال " لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار يبلغ كعبيه تغلى منه أم دماغه " وفي رواية : " يغلي منه دماغه من حرارة نعليه " (ق) عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " قلت يا رسول الله ما أغنيت عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك قال : هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار " وفي رواية قال قلت يا رسول الله إن عمك ابا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك قال " نعم وددته في غمرات من نار فأخرجته إلى ضحضاح " وقال أبو هريرة وبريدة " لما قدم النبي (صلى الله عليه وسلم) مكة أتى قبر أمه آمنة فوقف حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له فيستغفر لها فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين " الآية وروى الطبري بسنده عن بريدة : " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لما قدم مكة أتى رسم قال وأكثر ظني أنه قال قبر أمه فجلس إليه فجعل يخاطب ثم قام مستعبراً فقلنا : يا رسول الله إنا رأينا ما صنعت قال إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يؤذن لي فما رؤي باكياً أكثر من يومئذ " .

(182/350)

وحكى ابن الجوزي " عن بريدة قال إن النبي (صلى الله عليه وسلم) مر بقبر أمه فتوضأ وصلى ركعتين ثم بكى فبكى الناس لبكائه ثم انصرف إليهم فقالوا : ما أبكاك ؟ قال : مررت بقبر أمي فصليت ركعتين ثم استأذنت ربي أن أستغفر لها فنهيت فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها فزجرت زجراً فأبكاني ثم دعا براحلته فركبها فما سار إلا هنيهة حتى قامت الناقة لثقل الوحي فنزلت ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى " الآية (ق) " عن أبي هريرة قال زار النبي (صلى الله عليه وسلم) قبر أمه فكبى وأبكى من حوله فقال استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت " وقال قتادة قال النبي (صلى الله عليه وسلم) " لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه " فأنزل الله هذه الآية وروى الطبري بسنده عنه قال : " ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قالوا يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الأرحام ويفك العاني ويوفي بالذمم أفلا نستغفر لهم فقال النبي (صلى الله عليه وسلم) بلى والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل الله ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين " الآية ثم عذر الله إبراهيم فقال تعالى وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه الآية عن علي بن أبي طالب قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو

مشرك فذكرت ذلك للنبي (صلى الله عليه وسلم) فنزلت : ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين الآية أخرجه النسائي والترمذي .

وقال : حديث حسن وأخرجه الطري .

(183/350)

وقال فيه : فأنزل الله وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه الآية ومعنى الآية ما كان ينبغي للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين وليس لهم ذلك لأن الله سبحانه وتعالى لا يغفر للمشركين ولا يجوز أن يطلب منه ما لا يفعله ففيه النهي عن الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى لأن النهي عن الاستغفار للمشركين عام فيستوي فيه القريب والبعيد ثم ذكر سبب المنع فقال تعالى : ﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ يعني تبين لهم أنهم ماتوا على الشرك فهم من أصحاب الجحيم وأيضاً فقد قال تبارك وتعالى إن الله لا يغفر أن يشرك به والله تعالى لا يخلف وعده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(184/350)

وقال أبو السعود :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُواْ ﴾

بالله وحده ، أي ما صح لهم في حكم الله عز وجل وحكمتِه وما استقام ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ به سبحانه ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ﴾ أي المشركين ﴿ أُوْلِى قربى ﴾ أي ذوي قرابةٍ لهم ، وجوابُ لو محذوفٌ لدلالة ما قبله عليه والجملةُ معطوفةٌ على جملة أخرى قبلها محذوفةٍ حذفاً مطّرداً كما بُيّن في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كَرِهَ الكافرون ﴾ ونظائره . روي أنه عليه الصلاة والسلام قال لعمه أبي طالب لما حضرتْه الوفاةُ : " يا عمّ قل كلمةً أُحاجُّ لك بها عند الله " فأبي فقال عليه الصلاة والسلام : " لا أزال أستغفرُ لك ما لم أُنْهَ عنه " فنزلت . وقيل : لما افتتَح مكةَ خرج إلى الأبواء فزار قبرَ أمّه ثم قام مستعبِراً فقال : " إني استأذنتُ ربي في زيارة قبرِ أمّي فأذِن لي ، واستأذنتُه في الاستغفار لها فلم يأذَنْ لي ، وأنزل علي الآيتين " ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي للنبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحيُ بأنهم يموتون على ذلك . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صح في حكم الله عز وجل وحكمته وما استقام ﴿ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُواْ ﴾ بالله تعالى على الوجه المأمور به ﴿ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ به سبحانه ﴿ وَلَوْ كَانُواْ ﴾ أي المشركون ﴿ أُوْلِى قربى ﴾ أي ذوي قرابة لهم ، وجواب ﴿ لَوْ ﴾ محذوف لدلالة ما قبله عليه ، والجملة معطوفة على جملة أخرى قبلها محذوفة خذفاً مطرداً أي لو لم يكونوا أولى قربى ولو كانوا كذلك ﴿ مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ ﴾ أي للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المشركين ﴿ أصحاب الجحيم ﴾ بأن ماتوا على الكفر أو نزل الوحي بأنهم مطبوع على قلوبهم لا يؤمنون أصلاً ، وفيه دليل على صحة الاستغفار لأحيائهم الذين لا قطع بالطبع على قلوبهم ، والمراد منه في حقهم طلب توفيقهم للإيمان ، وقيل : إنه يستلزم ذلك بطريق الاقتضاء فلا يقال : إنه لا فائدة في طلب المغفرة للكافر ، والآية على الصحيح نزلت في أبي طالب .

فقد أخرج أحمد ، وابن أبي شيبة .

والبخاري .

ومسلم .

والنسائي .

وابن جرير .

وابن المنذر .

والبيهقي في الدلائل .

وآخرون عن المسيب بن حزن قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل .

وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أي عم قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله فقال : أبو جهل : وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه وأبو جهل .

(186/350)

وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي عليه الصلاة والسلام : أي عم قل : لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله فقال : أبو جهل : وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه وأبو جهل .

وعبد الله يعاودانه بتلك المقالة فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب

وأبى أن يقول : لا إله إلا الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية .

واستبعد ذلك الحسين بن الفضل بأن موت أبي طالب قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين وهذه السورة من أواخر ما نزل بالمدينة .

قال الواحدي : وهذا الاستبعاد مستبعد فأي بأس أن يقال : كان عليه الصلاة والسلام يستغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول الآية فإن التشديد مع الكفار إنما ظهر في هذه السورة ، وذكر نحواً من هذا صاحب التقريب ، وعليه لا يراد بقوله : فنزلت في الخبر أن النزول كان عقيب القول بل يراد أن ذلك سبب النزول ، فالفاء فيه للسببية لا للتعقيب .

واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء بل يراد أن ذلك سبب النزول ، فالفار فيه للسببية لا للتعقيب .

واعتمد على هذا التوجيه كثير من جلة العلماء وهو توجيه وجيه ، خلا أنه يعكر عليه ما أخرجه ابن سعد .

(187/350)

وابن عساكر عن علي كرم الله تعالى وجهه قال : أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب فبكى فقال : "إذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه ففعلت وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه جبريل عليه الصلاة والسلام بهذه الآية ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الخ" فإنه ظاهر في أن النزول قبل الهجرة لأن عدم الخروج من البيت فيه مغيا به ، اللهم إلا أن يقال بضعف الحديث لكن لم نر من تعرض له ، والأولى في الجواب عن أصل الاستبعاد أن يقال : إن كون هذه السورة من أواخر ما نزل باعتبار الغالب كما تقدم فلا ينافي نزول شيء منها في المدينة .

والآية على هذا دليل على أن أبا طالب مات كافراً وهو المعروف من مذهب أهل السنة والجماعة .

وروى ابن إسحاق في سيرته عن العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من خبر طويل " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي طالب في مرض موته وقد طمع فيه : أي عم فانت فقلها يعني لا إله إلا الله أستحل بها لك الشفاعة يوم القيامة وحرض عليه عليه الصلاة والسلام بذلك فقال : والله يا ابن أخي لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وأن تظن قريش أني إنما قلتها جزعاً من الموت لقلتها ولا أقولها إلا لأسرك بها فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه بأذنه فقال : يا ابن أخي لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها فقال له صلى الله عليه

وسلم : لم أسمع " واحتج بهذا ونحوه من أبياته المتضمنة للإقرار بحقية ما جاء به صلى الله عليه وسلم وشدة حنوه عليه ونصرته له صلى الله عليه وسلم الشيعة الذاهبون إلى موته مؤمناً وقالوا : إنه المروى عن أهل البيت وأهل البيت أدرى .

(188/350)

وأنت تعلم قوة دليل الجماعة فالاعتماد على ما روي عن العباس دونه مما تضحك منه الثكلى ، والأبيات على انقطاع أسانيدها ليس فيها النطق بالشهادتين وهو مدار فلك الإيمان ، وشدة الحنو والنصرة مما لا ينكره أحد إلا أنها بمعزل عما نحن فيه ، وأخبار الشيعة عن أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت وإنه لأوهن البيوت .

نعم لا ينبغي للمؤمن الخوض فيه كالخوض في سائر كفار قريش من أبي جهل .

وأضرا به فإن له مزية عليهم بما كان يصنعه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من محاسن الأفعال ، وقد روى نفع ذلك له في الآخرة أفلا ينفعه في الدنيا في الكف عنه وعدم معاملته معاملة غيره من الكفار .

فعن أبي سعيد الخدري أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وقد ذكر عنده عمه : "لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من نار" وجاء في رواية أنه قيل لرسول

الله صلى الله عليه وسلم : إن عمك أبا طالب كان يحوطك وينصرك فهل ينفعه ذلك ؟

فقال : نعم وجدته في غمرات النار فأخرجته إلى ضحضاح من نار .

وسبه عندي مذموم جداً لا سيما إذا كان فيه إيذاء لبعض العلويين إذ قد ورد "لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعينه" .

وزعم بعضهم أن الآية .

نزلت في غير ذلك .

فقد أخرج البيهقي في الدلائل .

وغيره عن ابن سمعود قال : "خرج النبي صلى الله عليه وسلم يوماً إلى المقابر فجاء حتى جلس إلى قبر منها فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فصلى ركعتين فقام إليه عمر فدعاه ثم دعانا فقال : إليه عمر فدعاه ثم دعانا فقال : ما أبكاكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك قال : إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي وأنزل على ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الخ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة فذاك الذي أبكاني" ولا يخفى أن الصحيح في سبب النزول هو الأول .

(189/350)

نعم خبر الاستئذان في الاستغفار لأمه عليه الصلاة والسلام وعدم الاذن جاء في رواية صحيحة لكن ليس فيها أن ذلك سبب النزول .

فقد أخرج مسلم .

وأحمد .

وأبو داود .

وابن ماجه .

والنسائي عن أبي هريرة قال : " أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال عليه الصلاة والسلام : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي فزوروا القبور فانها تذكركم الموت " واستدل بعضهم بهذا الخبر ونحوه على أن أمه عليه الصلاة والسلام ممن لا يستغفر له ، وفي ذلك نزاع شهير بين العلماء ، ولعل النوبة تفضي إلى تحقيق الحق فيه إن شاء الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(190/350)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

استئناف نسخ به التخيير الواقع في قوله تعالى : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] فإن في ذلك تسوية بين أن يستغفر النبي صلى الله عليه وسلم لهم وبين أن لا يستغفر في انتفاء أهم الغرضين من الاستغفار ، وهو حصول الغفران ، فبقي للتخيير غَرض آخر وهو حُسن القَول لمن يرى النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ أهل للملاطفة لذاته أو لبعض أهله ، مثل قصة عبد الله بنِ عبد الله بنِ أَبيْ ، فأراد الله نسخ ذلك بعد أن دَرَّج في تلقية على عادة التشريع في غالب الأحوال .

ولعل الغرض الذي لأجله أبقي التخيير في الاستغفار لهم قد ضعف ما فيه من المصلحة ورجح ما فيه من المفسدة بانقراضِ من هم أهل لحسن القول وغلبةِ الدهماء من المنافقين الذين يحسبون أن استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لهم يَغفر لهم ذنوبهم فيصبحوا فرحين بأنهم ربحوا الصفقتين وأرضوا الفريقين ، فنهَى اللّهُ النبي صلى الله عليه وسلم ولعل المسلمين لما سمعوا تخيير النبي في الاستغفار للمشركين ذهبوا يستغفرون لأهليهم وأصحابهم من المشركين طمعاً في إيصال النفع إليهم في الآخرة فأصبح ذلك ذريعة إلى اعتقاد مساواة المشركين للمؤمنين في المغفرة فينتفي التفاضل الباعث على الرغبة في الإيمان ، فنهى الله النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين معاً عن الاستغفار للمشركين بعد أن رخصه للنبيء

صلى الله عليه وسلم خاصة في قوله : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ﴾ [التوبة : 80] .

(191/350)

وروى الترمذي والنسائي عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه المشركين قال : فقلت له : أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أليس قد استغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان ، فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، إلى قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ [التوبة : 114] .

قال الترمذي : حديث حسن .

وقال ابن العربي في "العارضة" : هو أضعف ما رُوي في هذا الباب .

وأما ما روي في أسباب النزول أن هذه الآية نزلت في استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب ، أو أنها نزلت في سؤاله ربه أن يستغفر لأمه آمنة حين زار قبرها بالأبواء .

فهما خبران واهيان لأن هذه السورة نزلت بعد ذلك بزمن طويل .

وجاءت صيغة النهي بطريق نفي الكون مع لام الجحود مبالغة في التنزه عن هذا الاستغفار ، كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ في آخر

سورة العقود (116) .

ويدخل في المشركين المنافقون الذين علم النبي نفاقهم والذين علم المسلمون نفاقهم بتحقق الصفات التي أعلنت عليهم في هذه السورة وغيرها .

وزيادة ولو كانوا أولي قربى ﴾ للمبالغة في استقصاء أقرب الأحوال إلى المعذرة ، كما هو مفاد (لو) الوصلية ، أي فَأَوْلى إن لم يكونوا أولي قربى .

وهذه المبالغة لقطع المعذرة عن المخالف ، وتمهيد لتعليم من اغتر بما حكاه القرآن من استغفار إبراهيم لأبيه في نحو قوله تعالى : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ [الشعراء : 86] .

ولذلك عقَّبه بقوله : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ [التوبة : 114] الخ .

وقد تقدم الكلام على (لو) الاتصالية عند قوله تعالى : ﴿ ولو افتدى به ﴾ في سورة آل عمران (91) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(192/350)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

قبل أن يحظر الحق سبحانه على المؤمنين الاستغفار لآبائهم المنافقين ، بدأ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالك ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ ، وإذا كان النبي ينهى ، فالمؤمنون من باب أوْلى ليس بهم الحق في ذلك ؛ لأن الله لو أراد أن يكرم أحداً من الآباء لأجل أحد ، لأكرم أباء النبي إن كانوا غير مؤمنين .

وكلمة ﴿ مَا كَانَ ﴾ تختلف عن كلمة " ما ينبغي " فساعة تسمع " ما ينبغي لك أن تفعل ذلك " فهذا يعني أن لك قدرة على أن تفعل ، لكن لا يصح أن تفعل ، ولكن حين يقال : " ما كان لك أن تفعل " ، أي : أنك غير مؤهل لفعل هذا مطلقاً .

ومثال ذلك أن يقال لفقير جدّاً : " ما كان لك أن تشتري فيديو " ؛ لأنه بحكم فقره غير مؤهل لشراء مثل هذا الجهاز ، لكن حين يقال لآخر : ما ينبغي لك أن تشتري فيديو " أي : عنده القدرة على الشراء ، لكن القائل له يرى سبباً غير الفقر هو الذي يجب أن يمنع الشراء .

إذن : فهناك فَرْق بين نفي الإمكان ، ونفي الانبغاء .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين آمنوا أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجحيم ﴾

أي : ما كان للنبي ولا المؤمنين أن يستغفروا للذين ماتوا على الشرك والكفر ، ولو كانوا أولي قربى . فهذا أمر لا يصح . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(193/350)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) ﴾

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كانوا أُوْلِي قربى ﴾ : كقوله : " أَعْطوا السائلَ ولو على فرس " ، وقد تقدَّم ما في ذلك ، وأنها حالٌ معطوفةٌ على حال مقدرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 130 ﴾

(194/350)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) ﴾

أصلُ الدين التَبَرّي من الأعداء ، والتولّي للأولياء ، والوليُّ لا قريبَ له ولا حميم ، ولا نسيبَ له ولا صَديق ؛ إنْ وَالَى فبأمر ، وإنْ عادى فَلِزَجْر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 68 ﴾

(195/350)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أنكر أن يكون لهم ذلك .

وكان الخليل عليه السلام المأمور بالاقتداء به واللزوم بملته قد استغفر لأبيه ، بين أنه كان

أيضاً قبل العلم بما في نفس الأمر من استحقاقه للتأبيد في النار ، فقال دالاً بواو العطف على أن التقدير : فما استغفر لهم بعد العلم أحد من المؤمنين : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم ﴾ أي خليل الله ﴿ لأبيه ﴾ أي بعد أن خالفه في الدين ﴿ إلا عن موعدة ﴾ أي وهي قوله ﴿ لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ﴾ [الممتحنة : 4] وأكد صدور الوعد بقوله : ﴿ وَعَدَها إياه ﴾ أي الخليل لأبيه قبل أن يعلم أنه أبدى الشقاوة ، وقيل : الضمير لأبيه ، كان وعده أنه يسلم فاستغفر له ظناً منه أنه صدق في وعده فأسلم ، والذي يدل على أنه كان قبل علمه بذلك قوله : ﴿ فلما تبين له ﴾ أي بياناً شافياً قاطعاً ﴿ أنه عدو لله ﴾ أي الملك الأعلى مؤبد العداوة له بموته على الكفر أو بالوحي بأنه يموت عليه ﴿ تبرأ ﴾ أي أكره نفسه على البراءة ﴿ منه ﴾ ثم علل ما أفهمته صيغة التفعل من المعالجة بقوله : ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ أي شديد الرقة الموجبة للتأوه من خوف الله ومن الشفقة على العباد ؛ قال الزجاج : والتأوه أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء ﴿ حليم ﴾ أي شديد التحمل والإغضاء عن المؤذى له ، هكذا خلقه في حد ذاته فكيف في حق أبيه ولو قال له ﴿ لأرجمنك واهجرني ﴾ [مريم : 46] وأضعاف ذلك ؛ قال الإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم بن إسماعيل البستي القاضي في تفسيره : حدثنا حرملة حدثنا ابن وهب أخبرني ابن جريج عن أيوب بن هانىء عن مسروق بن الأجدع عن عبد الله مسعود - رضى الله عنهم - " أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خرج يوماً وخرجنا معه حتى

انتهى إلى المقابر فأمرنا فجلسنا ثم تخطى القبور حتى انتهى إلى قبر منها فجلس إليه فناجاه طويلاً ثم ارتفع نحيب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باكياً فبكينا لبكاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ثم أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقبل إلينا فتلقاه عمر

(196/350)

بن الخطاب ـ رضى الله عنهم ـ فقال : ما الذي أبكاك يا نبي الله فقد فقد أبكانا وأفزعنا ، فأخذ بيد عمر ـ رضى الله عنهم ـ ثم أقبل إلينا فأتيناه فقال : أفزعكم بكائي ؟ قلنا : نعم يا رسول الله ! قال : إن القبر الذي رأيتموني أناجي قبر آمنة بنت وهب وإني استأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي ونزل عليّ ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى ﴾ حتى ختم الآية ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد من الرقة فذلك الذي أبكاني "

وهذا سند حسن ، ولمسلم وأبي داود والنسائي وابن ماجه في الجنائز عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ قال : زار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله وقال : " استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت " وللبخاري في التفسير وغيره ابن المسيب عن أبيه ـ رضى

الله عنهم. قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل النبي - صلى الله عليه وسلم - وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : أي عم ! قل : لا إله إلا الله ، أُحاج لك بها عند الله ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ! أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ - وفي رواية : فكان آخر ما كلمهم أن قال : هو على ملة عبد المطلب - فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك ، فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ وأنزل الله في أبي طالب ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : 56] " ولعله استمر يستغفر له ما بين موته وغزوة تبوك حتى نزلت ، ورُوي في سبب نزولها غير هذا أيضاً ، وقد تقدم أنه يجوز أن تتعدد الأسباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 393 . 394 ﴾

(197/350)

فصل

قال الفخر :

أما قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

ففيه مسائل :

المسألة الأولى :

في تعلق هذه الآية بما قبلها وجوه : الأول : أن المقصود منه أن لا يتوهم إنسان أنه تعالى منع محمداً من بعض ما أذن لإبراهيم فيه .

والثاني : أن يقال إنا ذكرنا في سبب اتصال هذه الآية بما قبلها المبالغة في إيجاب الانقطاع عن الكفار أحيائهم وأمواتهم .

ثم بين تعالى أن هذا الحكم غير مختص بدين محمد عليه الصلاة والسلام ، بل المبالغة في تقرير وجوب الانقطاع كانت مشروعة أيضاً في دين إبراهيم عليه السلام ، فتكون المبالغة في تقرير وجوب المقاطعة والمباينة من الكفار أقوى .

الثالث : أنه تعالى وصف إبراهيم عليه السلام في هذه الآية بكونه حليماً أي قليل الغضب ، وبكونه أواها أي كثير التوجع والتفجع عند نزول المضار بالناس ، والمقصود أن من كان موصوفاً بهذه الصفات كان ميل قلبه إلى الاستغفار لأبيه شديداً ، فكأنه قيل : إن إبراهيم مع جلالة قدره ومع كونه موصوفاً بالأواهية والحليمية منعه الله تعالى من الاستغفار لأبيه الكافر ، فلأن يكون غيره ممنوعاً من هذا المعنى كان أولى .

المسألة الثانية :

دل القرآن على أن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه .

قال تعالى حكاية عنه ﴿ واغفر لأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 86] وأيضاً قال

عنه : ﴿ رَبَّنَا اغفر لِي وَلِوَالِدَيَّ ﴾ [إبراهيم : 41] وقال تعالى حكاية عنه في سورة مريم قال : ﴿ سلام عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ [مريم : 47] وقال أيضاً : ﴿ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] وثبت أن الاستغفار للكافر لا يجوز .

فهذا يدل على صدور هذا الذنب من إبراهيم عليه السلام .

(198/350)

واعلم أنه تعالى أجاب عن هذا الإشكال بقوله : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ [التوبة : 114] وفيه قولان : الأول : أن يكون الواعد أبا إبراهيم عليه السلام ، والمعنى : أن أباه وعده أن يؤمن ، فكان إبراهيم عليه السلام يستغفر لأجل أن يحصل هذا المعنى ، فلما تبين له أنه لا يؤمن وأنه عدو لله تبرأ منه ، وترك ذلك الاستغفار .

الثاني : أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام ، وذلك أنه وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ والدليل على صحة هذا التأويل قراءة الحسن ﴿ وَعَدَهَا أَبَاهُ ﴾ بالباء ، ومن الناس من ذكر في الجواب وجهين آخرين .

الوجه الأول : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإيمان والإسلام ، وكان يقول له

آمن حتى تتخلص من العقاب وتفوز بالغفران ، وكان يتضرع إلى الله في أن يرزقه الإيمان الذي يوجب المغفرة ، فهذا هو الاستغفار ، فلما أخبره الله تعالى بأنه يموت مصراً على الكفر ترك تلك الدعوة .

والوجه الثاني : في الجواب أن من الناس من حمل قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] على صلاة الجنازة ، وبهذا الطريق فلا امتناع في الاستغفار للكافر لكون الفائدة في ذلك الاستغفار تخفيف العقاب .

قالوا : والدليل على أن المراد ما ذكرناه ، أنه تعالى منع من الصلاة على المنافقين ، وهو قوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 84] وفي هذه الآية عم هذا الحكم ، ومنه من الصلاة على المشركين ، سواء كان منافقاً أو كان مظهراً لذلك الشرك وهذا قول غريب .

المسألة الثالثة :

اختلفوا في السبب الذي به تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله .

فقال بعضهم : بالإصرار والموت .

وقال بعضهم : بالإصرار وحده .

وقال آخرون : لا يبعد أن الله تعالى عرفه ذلك بالوحي ، وعند ذلك تبرأ منه .

فكان تعالى يقول : لما تبين لإبراهيم أن أباه عدو لله تبرأ منه ، فكونوا كذلك ، لأني أمرتكم بمتابعة إبراهيم في قوله : ﴿ واتَّبَعَ مِلَّةَ إبراهيم ﴾ [النساء : 125] .

واعلم أنه تعالى لما ذكر حال إبراهيم في هذه الواقعة .

قال : ﴿ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114] واعلم أن اشتقاق الأواه من قول الرجل عند شدة حزنه أوه ، والسبب فيه أن عند الحزن يختنق الروح القلبي في داخل القلب ويشتد حرقه ، فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق من القلب ليخفف بعض ما به هذا هو الأصل في اشتقاق هذا اللفظ ، وللمفسرين فيه عبارات ، روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأواه : الخاشع المتضرع " وعن عمر : أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأواه ، فقال : " الدعاء " ويروى أن زينب تكلمت عند الرسول عليه الصلاة والسلام بما يغير لونه ، فأنكر عمر ، فقال عليه الصلاة والسلام : " دعها فإنها أواهة " قيل يا رسول الله وما الأواهة ؟ قال : " الداعية الخاشعة المتضرعة " وقيل : معنى كون إبراهيم عليه السلام أواها ، كلما ذكر لنفسه تقصيراً أو ذكر له شيء من شدائد الآخرة كان يتأوه إشفاقاً من ذلك واستعظاماً له .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : الأواه ، المؤمن بالخشية .

وأما وصفه بأنه حليم فهو معلوم .

واعلم أنه تعالى إنما وصفه بهذين الوصفين في هذا المقام ، لأنه تعالى وصفه بشدة الرقة والشفقة والخوف والوجل ، ومن كذلك فإنه تعظم رقته على أبيه وأولاده ، فبين تعالى أنه مع هذه العادة تبرأ من أبيه وغلظ قلبه عليه ، لما ظهر له إصراره على الكفر ، فأنتم بهذا المعنى أولى ، وكذلك وصفه أيضاً بأنه حليم ، لأن أحد أسباب الحلم رقة القلب ، وشدة العطف لأن المرء إذا كان حاله هكذا اشتد حلمه عند الغضب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 166 . 168 ﴾

(200/350)

وقال ابن العربى فى الآيتين :

قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ .

فِيهَا سِتُّ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : الْأُولَى : ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيِّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ ﴿ : لَمَّا حَضَرَ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ فَقَالَ : يَا عَمِّ ؛ قُلْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَك بِهَا عِنْدَ اللَّهِ .

فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ تَكَلَّمَ بِهِ : أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ .

فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ .

فَنَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وَنَزَلَتْ : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ ﴾ .

الثَّانِي : رُوِيَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : ﴿ اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ، وَهُوَ مُشْرِكٌ ، فَلَا أَزَالُ أَسْتَغْفِرُ لِأَبِي طَالِبٍ حَتَّى يَنْهَانِي عَنْهُ رَبِّي .

فَقَالَ أَصْحَابُهُ : لَنَسْتَغْفِرَنَّ لِآبَائِنَا كَمَا اسْتَغْفَرَ النَّبِيُّ لِعَمِّهِ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ إِلَى : ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ﴾ .

(201/350)

الثَّالِثَةُ : رُوِيَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا أَتَى مَكَّةَ أَتَى رَضْمًا مِنْ حِجَارَةٍ أَوْ رَسْمًا أَوْ قَبْرًا ، فَجَلَسَ إِلَيْهِ ، ثُمَّ قَامَ مُسْتَغْفِرًا .

فَقَالَ : إِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي زِيَارَةِ قَبْرِ أُمِّي ، فَأَذِنَ لِي

، وَاسْتَأْذَنْتُهُ فِي الِاسْتِغْفَارِ لَهَا ، فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فَمَا رُئِيَ بَاكِيًا أَكْثَرَ مِنْ يَوْمَئِذٍ ﴾ .

وَرُوِيَ ﴿ أَنَّهُ وَقَفَ عِنْدَ قَبْرِهَا حَتَّى سَخِنَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ رَجَاءَ أَنْ يُؤْذَنَ لَهُ فَيَسْتَغْفِرَ لَهَا

، حَتَّى نَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ﴾ .

الرَّابِعَةُ : رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ ﴿ أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لَهُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إِنَّ مِنْ آبَائِنَا مَنْ كَانَ يُحْسِنُ الْجِوَارَ ، وَيَصِلُ الْأَرْحَامَ ، أَفَلَا نَسْتَغْفِرُ لَهُمْ ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ ﴾ .

الْخَامِسَةُ : رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : ﴿ سَمِعْت رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِأَبَوَيْهِ ، فَقُلْت : تَسْتَغْفِرُ لَهُمَا ، وَهُمَا مُشْرِكَانِ ؟ فَقَالَ : أَوَلَمْ يَسْتَغْفِرْ إبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ، فَذَكَرْته لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَنَزَلَتْ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ ﴾ .

وَهَذِهِ أَضْعَفُ الرِّوَايَاتِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ : دَلِيلٌ عَلَى أَحَدِ أَمْرَيْنِ : إمَّا أَنْ تَكُونَ الرِّوَايَةُ الثَّانِيَةُ صَحِيحَةً ، فَنَهَى اللَّهُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ .

(202/350)

وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ الرِّوَايَةُ الْأُولَى هِيَ الصَّحِيحَةَ وَيُخْبَرُ بِهِ عَمَّا فَعَلَ النَّبِيُّ ، وَيُنْهَى الْمُؤْمِنُونَ أَنْ يَفْعَلُوا مِثْلَهُ ، تَأْكِيدًا لِلْخَبَرِ ؛ وَسَائِرُ الرِّوَايَاتِ مُحْتَمَلَاتٌ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : مَنَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ طَلَبِ الْمَغْفِرَةِ لِلْمُشْرِكِينَ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ قَدَّرَ أَلَّا

تَكُونَ ؛ وَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ ، وَسُؤَالِ مَا قَدَّرَ أَنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ ، وَأَخْبَرَ عَنْهُ هُنَا .

فَإِنْ قِيلَ : فَقَدْ ﴿ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ كَسَرُوا رُبَاعِيَّتَهُ ، وَشَجُّوا وَجْهَهُ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فَسَأَلَ الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ .

قُلْنَا : عَنْهُ أَرْبَعَةُ أَجْوِبَةٍ : الْأَوَّلُ : يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَبْلَ النَّهْيِ ، وَجَاءَ النَّهْيُ بَعْدَهُ .

الثَّانِي : أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ سُؤَالًا فِي إِسْقَاطِ حَقِّهِ عِنْدَهُمْ ، لَا لِسُؤَالِ إِسْقَاطِ حُقُوقِ اللَّهِ ، وَلِلْمَرْءِ أَنْ يُسْقِطَ حَقَّهُ عِنْدَ الْمُسْلِمِ وَالْكَافِرِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَطْلُبَ الْمَغْفِرَةَ لَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ أَحْيَاءٌ ، مَرْجُوٌّ إِيمَانُهُمْ ، يُمْكِنُ تَأَلُّفُهُمْ بِالْقَوْلِ الْجَمِيلِ ، وَتَرْغِيبُهُمْ فِي الدِّينِ بِالْعَفْوِ عَنْهُمْ .

فَأَمَّا مَنْ مَاتَ فَقَدْ انْقَطَعَ مِنْهُ الرَّجَاءُ .

الرَّابِعُ : أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَطْلُبَ لَهُمْ الْمَغْفِرَةَ فِي الدُّنْيَا بِرَفْعِ الْعُقُوبَةِ عَنْهُمْ حَتَّى إِلَى الْآخِرَةِ ، كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

(203/350)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ : بَيَانٌ أَنَّ الْقَرَابَةَ الْمُوجِبَةَ لِلشَّفَقَةِ جِبِلَّةً ، وَلِلصِّلَةِ مُرُوءَةً تَمْنَعُ مِنْ سُؤَالِ الْمَغْفِرَةِ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ .

قَالَ الْقَاضِي الْإِمَامُ : هَذَا إنْ صَحَّ الْخَبَرُ ، وَإِلَّا فَالصَّحِيحُ فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ نَبِيًّا قَبْلَهُ شَجَّهُ قَوْمُهُ ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُخْبِرُ عَنْهُ بِأَنَّهُ قَالَ : ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

خَرَّجَهُ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ .

الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ إبْرَاهِيمَ : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَك رَبِّي إنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ فَتَعَلَّقَ بِذَلِكَ النَّبِيُّ فِي الِاسْتِغْفَارِ لِأَبِي طَالِبٍ ، إمَّا اعْتِقَادًا ، وَإِمَّا نُطْقًا بِذَلِكَ ، كَمَا وَرَدَ فِي الرِّوَايَةِ الثَّانِيَةِ ؟ فَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّ اسْتِغْفَارَ إبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ كَانَ عَنْ وَعْدٍ قَبْلَ تَبَيُّنِ الْكُفْرِ مِنْهُ ؛ فَلَمَّا تَبَيَّنَ الْكُفْرَ مِنْهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، فَكَيْفَ تَسْتَغْفِرُ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ لِعَمِّك ، وَقَدْ شَاهَدْت مَوْتَهُ كَافِرًا ؟ :

(204/350)

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : وَظَاهِرُ حَالِ الْمَرْءِ عِنْدَ الْمَوْتِ يُحْكَمُ عَلَيْهِ بِهِ فِي الْبَاطِنِ ، فَإِنْ مَاتَ عَلَى الْإِيمَانِ حُكِمَ لَهُ بِالْإِيمَانِ ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى الْكُفْرِ حُكِمَ لَهُ بِالْكُفْرِ ، وَرَبُّك أَعْلَمُ بِبَاطِنِ

حَالِهِ ، بَيْدَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ؛ هَلْ نَفَعْت عَمَّك بِشَيْءٍ ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُك وَيَحْمِيك ؟ قَالَ : سَأَلْت رَبِّي لَهُ ، فَجَعَلَهُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ النَّارِ تَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ ﴾ .

وَهَذِهِ شَفَاعَةٌ فِي تَخْفِيفِ الْعَذَابِ ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ ، وَهَذَا هُوَ أَحَدُ الْقَوْلَيْنِ فِي قَوْلِهِ : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ يَعْنِي بِمَوْتِهِ كَافِرًا تَبَرَّأَ مِنْهُ .

وَقِيلَ : تَبَيَّنَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ .

وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ .

وَقَدْ قَالَ عَطَاءٌ : مَا كُنْت لِأَمْتَنِعَ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَى أَمَةٍ حَبَشِيَّةٍ حُبْلَى مِنْ الزِّنَا ، فَإِنِّي رَأَيْت اللَّهَ لَمْ يَحْجُبْ الصَّلَاةَ إلَّا عَنْ الْمُشْرِكِينَ ، فَقَالَ : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ .

وَصَدَقَ عَطَاءٌ ؛ لِأَنَّهُ تَبَيَّنَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْمَغْفِرَةَ جَائِزَةٌ لِكُلِّ مُذْنِبٍ ؛ فَالصَّلَاةُ عَلَيْهِمْ ، وَالِاسْتِغْفَارُ لَهُمْ حَسَنَةٌ ؛ وَفِي هَذَا رَدٌّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ ؛ لِأَنَّهُمْ لَا يَرَوْنَ الصَّلَاةَ عَلَى الْعُصَاةِ ، وَلَا يَجُوزُ عِنْدَهُمْ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ؛ فَلَمْ يُصَلَّ عَلَيْهِمْ ، وَهَذَا مَا لَا جَوَابَ لَهُمْ عَنْهُ . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

وذلك أن أباه وعده أن يسلم ، وكان يستغفر له رجاء أن يسلم .

وروى سعيد بن جبير ، عن ابن عباس أنه قال : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، ﴿ فَلَمَّا ﴾ مات ، ﴿ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ؛ يعني : ترك الدعاء له ولم يستغفر له بعد ما مات على الكفر وللآية هذه وجه آخر روي عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبيه المسيب بن حرب قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة ، جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب :

"يَا عَمِّ ، قُلْ لا إله إلاَّ الله كَلِمة النَّجَاةِ ، أَشْهَدْ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله تَعَالَى " .

فقال أبو جهل : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعانده أبو جهل بتلك المقالة ، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم ؛ على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أَمَا وَالله لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عنه " فأنزل الله تعالى ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بالمهتدين ﴾ [القصص : 56] ونزل ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُواْ

﴿ الآية .

وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إبراهيم لأوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وروى سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال : كل القرآن أعلمه إلا أربعة : غسلين ، وحناناً ، والأواه ، والرقيم .

وروي عن عبد الله بن عباس ، في رواية أُخرى أنه قال : الأواه الذي يذكر الله في الأرض الوحشية .

وروي عن ابن مسعود أنه قال : الأواه الرحيم .

وقال مجاهد : الموقن .

وقال الضحاك : الداعي الذي يلح إلى الله تعالى ، المقبل إليه بطاعته .

ويقال : المؤمن بلغة الحبش .

(206/350)

ويقال : الأواه معلم الخير .

وقال كعب : الأواه الذي إذا ذكر الله ، قال : أواه من النار .

وقال القتبي : المتأوه حزناً وخوفاً ﴿ حَلِيمٌ ﴾ يعني : عن الجهل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(207/350)

وقال الثعلبى :

ثم عذر خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾ الآية .

قال علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) : أنزل الله قوله تعالى خبراً عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] . [قال علي :] سمعت فلاناً يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت له : أتستغفر لهما مشركان ، قال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فرويت ذلك له فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وأنزل قوله تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ ﴾ [الممتحنة : 4] إلى قوله ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] وقوله : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا آيَاهُ ﴾ يعني بعد موعده .

وقال بعضهم : الهاء في إيّاه عائدة إلى إبراهيم ، وذلك إن أباه وعده أن يسلم فعند ذلك قال

إبراهيم : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] وقال بعضهم : هي راجعة إلى إبراهيم وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه ، وهو قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ ، وقوله : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] الآية ، تدلّ عليه قراءة الحسن : وعدها أباه بالباء .

(208/350)

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ [بموت أبيه] ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ وقيل : معناه : فلمّا تبين له في الآخرة أنه عدو لله ، وذلك على ما روى في الأخبار أن إبراهيم صلى الله عليه وسلم يقول يوم القيامة : رب والدي رب والدي ، فإذا كانت الثالثة يريه الله فيقول له إبراهيم : إني كنت آمرك في الدنيا فتعصيني ولست بتاركك اليوم لشيء فخذ (بحبري) فتعلق به حتى تريد الجواز على الصراط حتى إذا أراد أن يجاوزه به كانت من إبراهيم (عليه السلام) التفاتة فإذا هو بأبيه في صورة ضبع ، فتخلّى عنه وتبرأ منه يومئذ وعلى هذا التأويل يكون معنى الكلام الاستقبال ، تقديره : يتبيّن ويتبرأ ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ اختلفوا في معناه ، فروى شهر بن حوشب عن عبد الله بن شداد بن الهاد مرسلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الأوّاه فقال : الخاشع المتضرع ، وقال أنس :

" تكلّمت امرأة عند النبي صلى الله عليه وسلم بشيء كرهه فنهاها عمر (رضي الله عنه) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أعرض عنها فأنها أوّاهة " قيل : يا رسول الله وما الأوّاهة ؟ قال : " الخاشعة " " .

وروى عبد الله بن رباح عن كعب في قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ فقال : كان إذا ذكر النار قال : أوه .

وقال عبد الله بن مسعود وعبيد بن عمير : الأواه الدعَّاء ، وقال الضحاك : هو الجامع الدعاء .

وروى الأعمش عن الحكم عن يحيى بن الجرار قال : جاء أبو العبيدي رجل من سواد وكان ضريراً إلى ابن مسعود قال : يا عبد الرحمن من يسأل إذا لم يسألك ، ما الأوّاه ؟ فكأن ابن مسعود رق له فقال : الأواه الرحيم .

(209/350)

وقال الحسن وقتادة : الأواه الرحيم بعباد الله ، وقال أبو ميسرة : الأواه الرحيم يوم الحشر ، عطية عن ابن عباس الأواه المؤمن بالحبشية . علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الأواه المؤمن التواب ، مجاهد : الأواه المؤمن [الموقن ، وروي عن . . . . .] عن ابن عباس

وعلي ابن الحكم عن الضحاك ، وقال عكرمة : هو المستيقن ، بلغة الحبشة ، ألا ترى أنك إذا قلت للحبشي الشيء فعرفه قال : أوّه ، ابن أبي نجيح : المؤمن . الكلبي : الأواه : المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفرة الموحشة ، وقال عقبة بن عامر : الأواه الكثير الذكر لله ، وروى الحكم عن الحسن بن مسلم بن [ساق] " أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبح فذكر ذلك للنبيَ صلى الله عليه وسلم فقال : إنه أوّاه " ، وقيل : هو الذي يكثر تلاوة القرآن .

وقال ابن عباس : " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفن ميّتاً فقال : يرحمك الله إن كنت لأواه " ، يعني تلاوة القرآن .

وقيل : هو الذي يجهر صوته بالذكر والدعاء والقرآن ويكثر تلاوته ، وكان إبراهيم (عليه السلام) يقول : آه من النار قبل أن لا تنفع آه .

وروى شعبة عن أبي يونس الباهلي عن قاضي كان يجمع الحديث

" عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه : أوه أوه ، فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : دعه فإنه أواه " . قال : فخرجت ذات ليلة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح " .

(210/350)

وقال النخعي : الأواه : الفقيه ، وقال الفراء : هو الذي يتأوه من الذنوب ، وقال سعيد بن جبير : الأواه المعلم للخير ، وقال عبد العزيز بن يحيى : هو المشفق ، وكان أبو بكر (رضي الله عنه) يُسمّى الأواه لشفقته ورحمته ، وقال عطاء : هو الراجع عن كلمة ما يكره الله ، وقال أيضاً : هو الخائف من النار ، وقال أبو عبيدة : هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع يقيناً ولزوماً للطاعة . قال الزجاج : انتظم قول أبي عبيدة جميع ما قيل : في الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوتاً من تنفس الصعداء والفعل منه أوه وتأوه ، وقال المثقب العبدي :

إذا ما قمت أُرحلها بليل . . . تأوه آهة الرجل الحزين

قال الراجز :

فأوه الراعي وضوضا كلبه . . . ولا يقال منه فعل يفعل

﴿ حَلِيمٌ ﴾ عمن سبه وناله بالمكروه وقد قيل أنه (عليه السلام) استغفر لأبيه عند وعده إياه وشتمه ، وقوله : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ واهجرني مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] فقال له : ﴿ قَالَ سَلاَمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47] وقال ابن عباس : الحليم السيد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ الآية .

عذر الله تعالى إبراهيم عليه السلام في استغفاره لأبيه مع شركه لسالف موعده ورجاء إيمانه .

وفي موعده الذي كان يستغفر له من أجله قولان :

أحدهما : أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن .

والثاني : أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له لما كان يرجوه أنه يؤمن .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ وذلك بموته على شركه وإياسه من إيمانه ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي من أفعاله ومن استغفاره له ، فلم يستغفر له بعد موته .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ فيه عشرة تأويلات :

أحدها : أن الأوّاه : الدعّاء ، أي الذي يكثر الدعاء ، قاله ابن مسعود .

الثاني : أنه الرحيم ، قاله الحسن .

الثالث : أنه الموقن ، قاله عكرمة وعطاء .

الرابع : أنه المؤمن ، بلغة الحبشة ، قاله ابن عباس .

الخامس : أنه المسبِّح ، قاله سعيد بن المسيب .

السادس : أنه الذي يكثر تلاوة القرآن ، وهذا مروي عن ابن عباس أيضاً .

السابع : أنه المتأوّه ، قاله أبو ذر .

الثامن : أنه الفقيه ، قاله مجاهد .

التاسع : أنه المتضرع الخاشع ، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي صلى الله عليه وسلم .

العاشر : أنه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها ، قاله أبو أيوب .

وأصل الأواه من التأوه وهو التوجع ، ومنه قول المثقب العبدي .

إِذَا مَا قُمْتُ أَرْحَلُها بِلَيْلٍ . . . تَأَوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(212/350)

وقال ابن عطية :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

المعنى لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة ، واختلف في ذلك فقيل عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه وذلك قوله ﴿ سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ﴾ [مريم : 47] ، وقيل عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نهي عنه ، وقرأ طلحة : " وما يستغفر إبراهيم وروي عنه " وما استغفر إبراهيم " ، و ﴿ موعدة ﴾ مفعلة من الوعد ، وأما تبينه أنه عدو لله قيل ذلك بموت آزر على الكفر وقيل ذلك بأنه نهي عنه وهو حي .

وقال سعيد بن جبير : ذلك كله يوم القيامة وذلك أن في الحديث أن إبراهيم يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ [مريم : 47] فيقول له الزم حقوي فلن أدعك اليوم لشيء ، فيلزمه حتى يأتي الصراط فيلتفت إليه فإذا هو قد مسخ ضبعاناً أمذر فيتبرأ منه حينئذ .

قال القاضي أبو محمد : وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف ، وقوله ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم ، و" الأواه " قال ابن مسعود هو الدعّاء ، وقيل هو الداعي بتضرع ، وقيل هو الموقن قاله ابن عباس ، وقيل هو الرحيم قاله ابن مسعود أيضاً ، وقيل هو المؤمن التواب ، وقيل هو المسبح وقيل هو الكثير الذكر لله عز وجل ، وقيل هو التلاّء للقرآن ، وقيل هو الذي يقول من خوفه لله عز وجل أبداً أوه ويكثر ذلك .

وروي أن أبا ذر سمع رجلاً يكثر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : " دعه فإنه أواه " .

والتأوه التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه ، ب " أوه " ، ويقال أوه فمن الأول قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لبلال في بيع أو شراء أنكره عليه : أوه ، ذلك الربا بعينه

ومن الثاني قول الشاعر : [الطويل]

(213/350)

فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها . . . ومن بعد أرض بيننا وسماء

ومن هذا المعنى قول المثقب العبدي : [الوافر]

إذا ما قمت أرحلُها بليلٍ . . . تأوَّه آهة الرجل الحزين

ويروى آهة ، ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم ، " أوه لأفراخ محمد " ، و ﴿ حليم ﴾ معناه صابر محتمل عظيم العقل ، والحلم العقل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(214/350)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾

فيه قولان .

أحدهما : أن إبراهيم وعد أباه الاستغفار ، وذلك قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ [مريم : 47] وما كان يعلم أن الاستغفار للمشركين محظور حتى أخبره الله بذلك .

والثاني : أن أباه وعده أنه إن استغفر له آمن ؛ فلما تبيَّن لإبراهيم عداوة أبيه لله تعالى بموته على الكفر ، ترك الدعاء له .

فعلى الأول ، تكون هاء الكناية في "إيَّاه" عائدة على آزر ، وعلى الثاني ، تعود على إبراهيم .

وقرأ ابن السميفع ، ومعاذ القارىء ، وأبو نهيك : "وعدها أباه" بالباء .

وفي الأوَّاه ثمانية أقوال .

أحدها : أنه الخاشع الدَّعَّاء المتضرع ، رواه عبد الله بن شداد بن الهاد عن النبي صلى الله عليه وسلم .

والثاني : أنه الدَّعَّاء ، رواه زِرٌّ عن عبد الله ، وبه قال عبيد بن عمير .

والثالث : الرحيم ، رواه أبو العبيد بن العامري عن ابن مسعود ، وبه قال الحسن ، وقتادة ،

وأبو ميسرة .

والرابع : أنه الموقن ، رواه أبو ظبيان عن ابن عباس ، وبه قال مجاهد ، وعطاء ، وعكرمة ، والضحاك .

والخامس : أنه المؤمن ، رواه العوفي ، ومجاهد ، وابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والسادس : أنه المسبِّح ، رواه أبو إسحاق عن أبي ميسرة ، وبه قال سعيد ابن المسيب ، وابن جبير .

والسابع : أنه المتأوِّه لذِكر عذاب الله ، قاله الشعبي .

قال أبو عبيدة : مجاز أواه مجاز فَعّال من التأوّه ، ومعناه : متضرِّع شَفَقاً وفَرَقاً ولزوماً لطاعة ربه ، قال المُثَقَّب :

إذا ما قمتُ أرْحَلُها بليل . . .

تأَوَّهُ آهةَ الرجل الحزينِ

والثامن : أنه الفقيه ، رواه ابن جريج عن مجاهد .

فأما الحليم ، فهو الصفوح عن الذنوب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(215/350)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأُولى روى النَّسائيّ عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : أتستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه .

فأتيت النبيّ صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فنزلت : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ .

والمعنى : لا حجة لكم أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه ؛ فإن ذلك لم يكن إلا عن عِدَة .

وقال ابن عباس : كان أبو إبراهيم وعد إبراهيم الخليل أن يؤمن بالله ويخلع الأنداد ، فلما مات على الكفر علم أنه عدوّ الله ، فترك الدعاء له ؛ فالكناية في قوله : "إياه" ترجع إلى إبراهيم ، والواعد أبوه .

وقيل : الواعد إبراهيم ؛ أي وعد إبراهيم أباه أن يستغفر له ، فلما مات مشركاً تبرأ منه .

ودلّ على هذا الوعد قوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] .

قال القاضي أبو بكر بن العربيّ : تعلق النبيّ صلى الله عليه وسلم في الاستغفار لأبي طالب

بقوله تعالى : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ فأخبره الله تعالى أن استغفار إبراهيم لأبيه كان وعداً قبل أن يتبيّن الكفر منه ، فلما تبيّن له الكفر منه تبرأ منه فكيف تستغفر أنت لعمك يا محمد ، وقد شاهدت موته كافراً .

الثانية ظاهر حالة المرء عند الموت يحكم عليه بها ، فإن مات على الإيمان حكم له به ، وإن مات على الكفر حُكم له به ؛ وربّك أعلم بباطن حاله ؛ بَيْدَ أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال له العباس : يا رسول الله ، هل نفعت عمّك بشيء ؟ قال : " نعم " وهذه شفاعة في تخفيف العذاب لا في الخروج من النار ؛ على ما بيناه في كتاب "التذكرة" .

(216/350)

الثالثة قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ اختلف العلماء في الأوّاه على خمسة عشر قولاً : الأوّل أنه الدّعّاء الذي يكثر الدُّعاء ؛ قاله ابن مسعود وعبيد بن عمير .

الثاني أنه الرحيم بعباد الله ؛ قاله الحسن وقتادة ، وروي عن ابن مسعود .

والأول أصح إسناداً عن ابن مسعود ؛ قاله النحاس .

الثالث أنه الموقن ؛ قاله عطاء وعكرمة ، ورواه أبو ظَبيان عن ابن عباس .

الرابع أنه المؤمن بلغة الحبشة ؛ قاله ابن عباس أيضاً .

الخامس أنه المسبح الذي يذكر الله في الأرض القفر الموحشة ؛ قاله الكلبيّ وسعيد بن المسيّب .

السادس أنه الكثير الذكر لله تعالى ؛ قاله عقبة بن عامر ، وذُكر عند النبيّ صلى الله عليه وسلم رجلاً يكثر ذكر الله ويسبح فقال : " إنه لأوّاه " السابع أنه الذي يكثر تلاوة القرآن . وهذا مروي عن ابن عباس .

قلت : وهذه الأقوال متداخلة وتلاوة القرآن يجمعها .

الثامن أنه المتأوّه ؛ قاله أبو ذرّ وكان إبراهيم عليه السلام يقول : " آه من النار قبل ألاّ تنفع آه " .

" وقال أبو ذرّ : كان رجل يكثر الطواف بالبيت ويقول في دعائه : أَوْهِ أوْه ؛ فشكاه أبو ذرّ إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال : "دعه فإنه أوّاه" فخرجت ذات ليلة فإذا النبيّ صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلاً ومعه المصباح " التاسع أنه الفقيه ؛ قاله مجاهد والنَّخَعِيّ .

العاشر أنه المتضرع الخاشع ؛ رواه عبد الله بن شدّاد بن الهاد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال أنس : " تكلمت امرأة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم بشيء كرهه فنهاها عمر فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "دَعُوها فإنها أوّاهة" قيل : يا سول الله ، وما الأوّاهة ؟ قال :

"الخاشعة" " الحادي عشر أنه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها ، قاله أبو أيوب .

الثاني عشر أنه الكثير التأوّه من الذنوب ؛ قاله الفرّاء .

الثالث عشر أنه المَعْلَمُ للخير ؛ قاله سعيد بن جبير .

(217/350)

الرابع عشر أنه الشفيق ؛ قاله عبد العزيز بن يحيى .

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يُسمَّى الأوّاه لشفقته ورأفته .

الخامس عشر أنه الراجع عن كل ما يكره الله تعالى ؛ قاله عطاء .

وأصله من التأوّه ، وهو أن يسمع للصدر صوت من تنفّس الصُّعَداء .

قال كعب : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار تأوّه .

قال الجوهري : قولهم عند الشكاية أوْهِ من كذا (ساكنة الواو) إنما هو توجّع .

قال الشاعر :

فأوْهِ لذكراها إذا ما ذكرتها . . .

ومِن بُعد أرضٍ بيننا وسماء

وربما قلبوا الواو ألفاً فقالوا : آهِ من كذا .

وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء فقالوا : أوِّهْ من كذا .

وربما حذفوا مع التشديد الهاء فقالوا : أوّ من كذا ؛ بلا مد .

وبعضهم يقول : آوَّهْ ، بالمد والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء لتطويل الصوت بالشكاية .

وربما أدخلوا فيها التاء فقالوا : أوّتاه ؛ يمدّ ولا يمدّ .

وقد أوّه الرجل تأوِيهاً وتأوّه تأوّهاً إذا قال أوَّهْ ، والاسم منه الآهة بالمد .

قال المَثَقِّب العَبْدِيّ :

إذا ما قمتُ أرحَلُهَا بليلٍ . . .

تأوّهُ آهةَ الرجلِ الحزين

والحليم : الكثير الحِلم ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ويصبر على الأذى .

وقيل : الذي لم يعاقِب أحداً قطُّ إلا في الله ولم ينتصر لأحد إلا لله .

وكان إبراهيم عليه السلام كذلك ، وكان إذا قام يصلِّي سُمع وجِيب قلبه على ميلين . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(218/350)

وقال الخازن :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

فمعناه وما كان طلب إبراهيم لأبيه المغفرة من الله إلا من أجل موعدة وعدها إبراهيم إياه أن يستغفر له رجاء إسلامه قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه : " لما أنزل الله خبراً عن إبراهيم " أنه قال سلام عليك سأستغفر لك ربي سمعت رجلاً يستغفر لوالديه وهما مشركان فقلت أتستغفر لأبويك وهما مشركان فقال أولم يستغفر إبراهيم لأبيه فأتيت النبي (صلى الله عليه وسلم) فذكرت ذلك له فأنزل الله : ﴿ قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم ﴾ إلى قوله ﴿ إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك ﴾ يعني أن إبراهيم ليس بقدوة في هذا الاستغفار لأنه إنما استغفر لأبيه وهو مشرك لمكان الوعد الذي وعده أن يسلم ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ فعلى هذا الهاء في إياه راجعة إلى إبراهيم والوعد كان من أبيه وذلك أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم أن يسلم فقال إبراهيم : سأستغفر لك ربي يعني إذا أسلمت .

وقيل : إن الهاء راجعة إلى الأب وذلك أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له رجاء إسلامه . ويؤكد هذا قوله : سأستغفر لك ربي ويدل عليه أيضاً قراءة الحسن وعدها أباه بالباء الموحدة فلما تبين له أنه عدو لله ، تبرأ منه يعني : فلما ظهر لإبراهيم وبان له أن أباه عدو لله يعني بموته على الكفر تبرأ منه عند ذلك وقيل يحتمل أن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى

إبراهيم أن أباه عدو له فتبرأ منه وقيل لما تبين له في الآخرة أنه عدو لله تبرأ منه ويدل على ذلك ما روي عن أبي هريرة " أن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

(219/350)

قال : يلقى إبراهيم عليه السلام أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قترة وغبرة فيقول إبراهيم ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي أخزى من أبي فيقول الله تبارك وتعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال يا إبراهيم ما تحت رجليك فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار " أخرجه البخاري زاد غيره فتبرأ منه والقترة غبرة يعلوها سواد والذيخ بذال معجمة ثم ياء مثناة من تحت ثم خاء معجمة هو ذكر الضباع والأنثى ذيخة .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ جاء في الحديث إن الأواه الخاشع المتضرع .

وقال ابن مسعود : الأواه الكثير الدعاء وقال ابن عباس : هو المؤمن التواب ، وقال الحسن وقتادة : الأواه الرحيم بعباد الله وقال مجاهد : الأواه الموقن وقال كعب الأحبار : هو الذي يكثر التأوه وكان إبراهيم (صلى الله عليه وسلم) يكثر أن يقول أوه من النار قبل أن لا ينفع

أوه وقال عقبة بن عامر : الأواه الكثير الذكر لله وقال سعيد بن جبير هو المسبح وعنه أنه المعلم للخير .

وقال عطاء : هو الراجع عما يكره الله الخائف من النار .

وقال أبو عبيدة : هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع إيقاناً ولزوماً للطاعة .

وقال الزجاج : انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت تنفس الصعداء والفعل منه أواه هو قول الرجل عند شدة خوفه وحزنه أوه والسبب فيه أن عند الحزن تحمي الروح داخل القلب ويشتد حرها فالإنسان يخرج ذلك النفس المحترق في القلب ليخف بعض ما به من الحزن والشدة وأما الحليم : فمعناه ظاهر وهو الصفوح عمن سبه أو أتاه بمكروه ثم يقابله بالإحسان واللطف كما فعل إبراهيم بأبيه حين قال لئن لم تنته لأرجمنك ، فأجابه إبراهيم بقوله سلام عليك سأستغفر لك ربي .

(220/350)

وقال ابن عباس : الحليم : السيد ، وإنما وصف الله إبراهيم عليه السلام بهذين الوصفين وهما شدة الرقة والخوف الوجل والشفقة على عباد الله ليبين سبحانه وتعالى أنه مع هذه

الصفات الجميلة الحميدة تبرأ من أبيه لما ظهر له إصراره على الكفر فاقتدوا به أنتم في هذه الحالة أيضاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(221/350)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾

قال الجمهور : ومداره على ابن المسيب ، والزهري ، وعمرو بن دينار ، نزلت في شأن أبي طالب حين احتضر فوعظه وقال : " أي عمّ قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله " وكان بالحضرة أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية فقالا له : يا أبا طالب ، أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فقال أبو طالب : يا محمد لولا أني أخاف أن يعير بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينك ، ثم قال : أنا على ملة عبد المطلب ، ومات فنزلت : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية ، فترك الاستغفار لأبي طالب .

وروي أن المؤمنين لما رأوه يستغفر لأبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم ، فلذلك ذكروا في قوله : "ما كان للنبي والذين آمنوا" .

وقال فضيل بن عطية وغيره : لما فتح مكة أتى قبر أمه ووقف عليه حتى سخنت عليه الشمس ، وجعل يرغب في أن يؤذن له في الاستغفار فلم يؤذن له ، فأخبر أنه أذن له في زيارة قبرها ومنع أن يستغفر لها ، ونزلت الآية وقالت فرقة : نزلت بسبب قوله (صلى الله عليه وسلم) : " والله لأزيدن على السبعين " وقال ابن عباس وقتادة وغيرهما : بسبب جماعة من المؤمنين قالوا : نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم لأبيه .

وتضمن قوله ما كان للنبي الآية النهي عن الاستغفار لهم على أي حال كانوا ، ولو في حال كونهم أولي قربى .

فقوله : ولو كانوا جملة معطوفة على حال مقدرة ، وتقدم لنا الكلام على مثل هذا التركيب أنّ ولو تأتي لاستقصاء ما لولاها لم يكن ليدخل فيما قبلها ما بعدها .

ودلت الآية على المبالغة في إظهار البراءة عن المشركين والمنافقين والمنع من مواصلتهم ولو كانوا في غاية القرب ، ونبه على الوصف الشريف من النبوة والإيمان ، وأنه مناف للاستغفار لمن مات على ضده وهو الشرك بالله .

(222/350)

ومعنى من بعد ما تبين أي : وضح لهم أنهم أصحاب الجحيم لموافاتهم على الشرك ، والتبين هو بإخبار الله تعالى ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ والظاهر أنّ الاستغفار هنا هو طلب المغفرة ، وبه تظافرت أسباب النزول .

وقال عطاء بن أبي رباح : الآية في النهي عن الصلاة على المشركين ، والاستغفار هنا يراد به الصلاة .

قالوا : والاستغفار للمشرك الحي جائز إذ يرجى إسلامه ، ومن هذا قول أبي هريرة : رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة ولأمه ، قيل له : ولأبيه ؟ قال : لا لأنْ أبي مات كافراً ، فإن ورد نص من الله على أحد إنه من أهل النار وهو حي كأبي لهب امتنع الاستغفار له ، فتبين كينونة المشرك أنه من أصحاب الجحيم تمويه على الشرك وبنص الله عليه وهي حي ، أنه من أهل النار .

ويدخل على جواز الاستغفار للكفار إذا كانوا أحياء ، لأنه يرجى إسلامهم ما " حكى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : عن نبي قبله شجه قومه ، فجعل النبي (صلى الله عليه وسلم) يخبر عنه بأنه قال : "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون "

ولما كان استغفار إبراهيم لأبيه بصدد أن يقتدى به ، ولذلك قال جماعة من المؤمنين : نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم لأبيه ، بين العلة في استغفار إبراهيم لأبيه ، وذكر أنه حين اتضحت له عداوته لله تبرأ منه ابراهيم .

والموعدة التي وعدها ابراهيم أباه هي قوله : ﴿ سأستغفر لك ربي ﴾ وقوله : ﴿ لأستغفرن لك ﴾ والضمير الفاعل في وعدها عائد على إبراهيم ، وكان أبوه بقيد الحياة ، فكان يرجو إيمانه ، فلما تبين له من جهة الوحي من الله أنه عدوّ لله وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه منه ، تبرأ منه وقطع استغفاره .

ويدل على أن الفاعل في وعد ضمير يعود على إبراهيم : قراءة الحسن ، وحماد الراوية ، وابن السميفع ، وأبي نهيك ، ومعاذ القارىء ، وعدها أباه .

(223/350)

وقيل : لفاعل ضمير والد إبراهيم ، وإياه ضمير إبراهيم ، وعده أبوه أنه سيؤمن فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه ، فحمله ذلك على الاستغفار له حتى نهي عنه .

وقرأ طلحة : وما استغفر إبراهيم ، وعنه وما يستغفر إبراهيم على حكاية الحال .

والذي يظهر أنّ استغفار إبراهيم لأبيه كان في حالة الدنيا .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ واغفر لأبي إنه كان من الضالين ﴾ وقوله : ﴿ رب اغفر لي ولوالدي ﴾ ويضعف ما قاله ابن جبير : من أن هذا كله يوم القيامة ، وذلك أنّ ابراهيم يلقى أباه فيعرفه ويتذكر قوله : سأستغفر لك ربي ، فقول له : إلزم حقوى فلن أدعك اليوم لشيء ،

فيدعه حتى يأتي الصراط ، فيلتفت إليه فإذا هو قد مسخ ضبعاناً ، فيتبرأ منه حينئذ انتهى ما قاله ابن جبير ، ولا يظهر ربطه بالآخرة .

قال الزمخشري : (فإن قلت) : خفي على إبراهيم عليه السلام أنّ الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده .

(قلت) : يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى له الإيمان جاز الاستغفار له على أنّ امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي ، لأن العقل يجوز أن يغفر الله للكافر .

ألا ترى إلى قوله (صلى الله عليه وسلم) : " لأستغفرن لك ما لم أنه عنك " وعن الحسن " قيل لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) : إنّ فلاناً يستغفر لآبائه المشركين فقال : " ونحن نستغفر لهم " وعن علي رضي الله عنه : رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له : فقال : أليس قد استغفر إبراهيم انتهى ؟ وقوله : لأنّ العقل يجوز أن يغفر الله للكافر رجوع إلى قول أهل السنة .

(224/350)

والأوّاه : الدعاء ، أو المؤمن ، أو الفقيه ، أو الرحيم ، أو المؤمن التواب ، أو المسبّح ، أو الكثير الذكر له ، أو التلاء لكتاب الله ، أو القائل من خوف الله ، أواه المكثر ذلك ، أو الجامع

المتضرع ، أو المؤمن بالحبشية ، أو المعلم للخير ، أو الموفى ، أو المستغفر عند ذكر الخطايا ، أو الشفيق ، أو الراجع عن كل ما يكرهه الله ، أقوال للسلف ، وقد ذكرنا مدلوله في اللغة في المفردات .

وقال الزمخشري : أوّاه فقال : من أوّه كلأل من اللؤلؤ ، وهو الذي يكثر التأوه ، ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه .

وقوله : لأرجمنك انتهى .

وتشبيه أوّاه من أوّه بلال من اللؤلؤ ليس بجيد ، لأنّ مادة أوّه موجودة في صورة أوّاه ، ومادة لؤلؤة مفقودة في لأل لاختلاف التركيب ، إذ لأل ثلاثي ، ولؤلؤ رباعي ، وشرط الاشتقاق التوفق في الحروف الأصلية .

وفسروا الحليم هنا بالصافح عن الذنب الصابر على الأذى ، وبالصبور ، وبالعاقل ، وبالسيد ، وبالرقيق القلب الشديد العطف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(225/350)

وقال ابن كثير في الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا مَعْمَر ، عن الزهري ، عن ابن المسيب ، عن أبيه قال : لما حَضَرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال : "أيْ عَمّ ، قل : لا إله إلا الله . كلمة أحاجّ لك بها عند الله ، عز وجل" . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب ، أترغب عن ملَّة عبد المطلب ؟ [قال : فلم يزالا يكلمانه ، حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب] .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك" . فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ قال : ونزلت فيه : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : 56] أخرجاه . (1)

وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن آدم ، أخبرنا سفيان ، عن أبي إسحاق ، عن أبي الخليل ، عن علي ، رضي الله عنه ، قال : سمعت رجلا يستغفر لأبويه ، وهما مشركان ، فقلت : أيستغفر الرجل لأبويه وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ

﴿ إلى قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ قال : "لما مات" ، فلا أدري قاله سفيان أو قاله إسرائيل ، أو هو في الحديث "لما مات" . (2)

قلت هذا ثابت عن مجاهد أنه قال : لما مات .

---

(1) المسند (533/5) وصحيح البخاري برقم (4675) وصحيح مسلم برقم (24) .

(2) المسند (99/1) .

(226/350)

وقال الإمام أحمد : حدثنا الحسن بن موسى ، حدثنا زهير ، حدثنا زبيد بن الحارث اليامي عن محارب بن دثار ، عن ابن بُرَيْدة ، عن أبيه قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ، فصلى ركعتين ، ثم أقبل علينا بوجهه وعيناه تَذْرِفان ، فقام إليه عمر بن الخطاب وفَداه بالأب والأم ، وقال : يا رسول الله ، ما لك ؟ قال : "إني سألت ربي ، عز وجل ، في الاستغفار لأمي ، فلم يأذن لي ، فدمعت عيناي رحمة لها من النار ، وإني كنت نهيتكم عن ثلاث : نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، لتذكركم زيارتُها خيرًا ، ونهيتكم عن لحوم الأضاحي بعد ثلاث ، فكلوا وأمسكوا ما شئتم

، ونهيتكم عن الأشربة في الأوعية ، فاشربوا في أي وعاء ولا تشربوا مسكرا" . (1)

وروى ابن جرير ، من حديث علقمة بن مَرْثد ، عن سليمان بن بُرَيدة ، عن أبيه ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قدم مكة أتى رَسْمَ قبر ، فجلس إليه ، فجعل يخاطب ، ثم قام مستعبرًا . فقلنا : يا رسول الله ، إنا رابنا ما صنعت . قال : "إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي ، فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي" . فما رئي باكيا أكثر من يومئذ . (2)

---

(1) المسند (355/5) .

(2) تفسير الطبري (512/14) ورواه البيهقي في دلائل النبوة (189/1) من طريق سفيان عن علقمة بن مرثد به نحوه .

(227/350)

وقال ابن أبي حاتم ، في تفسيره : حدثنا أبي ، حدثنا خالد بن خِداش ، حدثنا عبد الله بن وهب ، عن ابن جريج عن أيوب بن هانئ ، عن مسروق ، عن عبد الله بن مسعود قال : خرجَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر ، فاتبعناه ، فجاء حتى جلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلا ثم بكى فبكينا لبكائه ثم قام فقام إليه عمر بن الخطاب ، فدعاه ثم

دعانا ، فقال : "ما أبكاكم ؟" فقلنا : بكينا لبكائك . قال : "إن القبر الذي جلستُ عنده قبر آمنة ، وإني استأذنتُ ربي في زيارتها فأذن لي" (1) ثم أورده من وجه آخر ، ثم ذكر من حديث ابن مسعود قريبا منه ، وفيه : "وإني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي ، وأنزل علي : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة ، وكنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكر الآخرة" . (2)

حديث آخر في معناه : قال الطبراني : حدثنا محمد بن علي المروزي ، حدثنا أبو الدرداء عبد العزيز بن منيب ، حدثنا إسحاق بن عبد الله بن كَيْسَان ، عن أبيه ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك واعتمر ، فلما هبط من ثنية عُسْفان أمر أصحابه : أن استندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمّه ، فناجى ربَّه طويلا ثم إنه بكى فاشتد بكاؤه ، وبكى هؤلاء لبكائه ، وقالوا : ما بكى نبي الله بهذا المكان إلا وقد أُحدثَ في أمته شيء لا تُطيقه . فلما بكى هؤلاء قام فرجع إليهم ، فقال : "ما يبكيكم ؟" . قالوا : يا نبي الله ، بكينا لبكائك ، فقلنا : لعله أحدث في أمتك شيء لا تطيقه ، قال : "لا وقد كان بعضه ، ولكن نزلت على قبر أمي

---

(1) ورواه الحاكم في المستدرك (336/2) ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (189/1) من طريق بحر بن نصر عن ابن وهب به نحوه .

(2) وأصل الحديث رواه مسلم في صحيحه برقم (976) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله . فقال : "استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت" .

(228/350)

فدعوت الله أن يأذن لي في شفاعتها يوم القيامة ، فأبى الله أن يأذن لي ، فرحمتها وهي أمّي ، فبكيت ، ثم جاءني جبريل فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ فتبرّأ أنت من أمك ، كما تبرأ إبراهيم من أبيه ، فرحمْتُها وهي أمي ، ودعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربعًا ، فرفع عنهم اثنتين ، وأبى أن يرفع عنهم اثنتين : دعوتُ ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغَرَق من الأرض ، وألا يلبسهم شيعا ، وألا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء ، والغرق من الأرض ، وأبى الله أن يرفع عنهم القتل والهرج" . وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كَداء وكانت عُسْفان لهم . (1)

وهذا حديث غريب وسياق عجيب ، وأغرب منه وأشد نكارة ما رواه الخطيب

البغدادي في كتاب "السابق واللاحق" بسند مجهول ، عن عائشة في حديث فيه قصة أن الله أحيا أمَّه فآمنت ثم عادت . (2) وكذلك ما رواه السهيلي في "الروض" بسند فيه جَمَاعة مجهولون : أن الله أحيا له أباه وأمه فآمنا به . (3)

---

(1) المعجم الكبير (374/11) .

(2) ساقه القرطبي في : التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة (ص 16) وقال : خرجه أبو بكر أحمد بن علي الخطيب في كتاب السابق واللاحق ، وأبو حفص عمر بن شاهين في الناسخ والمنسوخ ، ولا يصح الحديث . لمخالفته ما في صحيح مسلم برقم (976) من حديث أبي هريرة قال : زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه فبكى وأبكى من حوله . فقال : "استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يأذن لي ، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت" ولضعف إسناده .

(3) الروض الأنف (113/1) .

(229/350)

وقد قال الحافظ ابن دِحْيَةَ : [هذا الحديث موضوع يرده القرآن والإجماع ، قال الله تعالى : ﴿ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ﴾ [النساء : 18] . وقال أبو عبد الله القرطبي : إن

مقتضى هذا الحديث . . . وردَّ عَلَى ابن دِحية] (6) في هذا الاستدلال بما حاصله : أن هذه حياة جديدة ، كما رجعت الشمس بعد غيبوبتها فصلى عَلِيٌّ العصر ، قال الطحاوي : وهو [حديث] (7) ثابت ، يعني : حديث الشمس .

قال القرطبي : فليس إحياؤهما يمتنع عقلا ولا شرعا ، قال : وقد سمعت أن الله أحيا عمه أبا طالب ، فآمن به .

(230/350)

قلت : وهذا كله متوقف على صحة الحديث ، فإذا صح فلا مانع منه والله أعلم .

وقال العوفي ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ الآية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر لأمه ، فنهاه الله عن ذلك فقال : "فإنّ إبراهيم خليل الله استغفر لأبيه" ، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ الآية .

وقال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس ، في هذه الآية : كانوا يستغفرُون لهم ، حتى نزلت هذه الآية ، فلما [نزلت أمسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ، ولم ينههم أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا] ثم أنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ ﴾ الآية .

وقال قتادة في هذه الآية : ذُكر لنا أن رجالا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبي الله ، إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفُكّ العاني ، ويوفي بالذمم ؛ أفلا نستغفر لهم ؟ قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "بلى ، والله إني لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه" . فأنزل الله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ حتى بلغ : ﴿ الْجَحِيمِ ﴾ ثم عذر الله تعالى إبراهيم ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال : وذُكر لنا أن نبي الله قال : "أوحى إليّ كلمات ، فدخلن في أذني ووقَرْن في قلبي : أمِرْتُ ألا أستغفرَ لمن مات مشركا ، ومن أعطى فَضْلَ ماله فهو خيرٌ له ، ومن أمسك فهو شرٌ له ، ولا يلوم الله على كَفاف" .

وقال الثوري ، عن الشيباني ، عن سعيد بن جُبير قال : مات رجل يهودي وله ابن مسلم ، فلم يخرج معه ، فذكر ذلك لابن عباس فقال : فكان ينبغي له أن يمشي معه ويدفنه ، ويدعو له بالصلاح ما دام حيا ، فإذا مات وكَّله إلى شأنه ثم قال : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ لم يَدْعُ .

[قلت] وهذا يشهد له بالصحة ما رواه أبو داود وغيره، عن علي بن أبي طالب قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات. قال: "اذهب فوَارِه ولا تُحْدِثَنَّ شيئًا حتى تأتيني". وذكر تمام الحديث. (1)

ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما مَرّت به جنازة عمه أبي طالب قال: "وَصَلَتكَ رَحِمٌ يا عم". (2)

---

(1) سنن أبي داود برقم (3214).

(2) ورواه ابن عدي في الكامل (260/1) من طريق الفضل بن موسى، عن إبراهيم بن عبد الرحمن - وهو ضعيف - عن ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس مرفوعا ولفظه: "وصلتك رحم وجزيت خيرا يا عم". وإبراهيم بن عبد الرحمن قال ابن عدي: "أحاديثه عن كل من روى ليست بمستقيمة" ثم قال: "وعامة أحاديثه غير محفوظة".

(232/350)

وقال عطاء بن أبي رباح: ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة، ولو كانت حبشية حبلى من الزنا؛ لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا على المشركين، يقول الله، عز وجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾.

وروى ابنُ جَرير ، عن ابن وَكِيع ، عن أبيه ، عن عصمة بن زامل ، عن أبيه قال : سمعت أبا هريرة يقول : رحم الله رجلا استغفر لأبي هريرة ولأمه . قلت : ولأبيه ؟ قال : لا . قال : إن أبي مات مشركا .

وقوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ قال ابن عباس : ما زال إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . وفي رواية : لما مات تبين له أنه عدو لله . وكذا قال مجاهد ، والضحاك ، وقتادة ، وغيرهم ، رحمهم الله .

وقال عُبَيْد بن عمير ، وسعيد بن جُبَيْر : إنه يتبرأ منه [في] يوم القيامة حين يلقى أباه ، وعلى وجه أبيه الغُبرة والقُتْرة فيقول : يا إبراهيم ، إني كنت أعصيك وإني اليوم لا أعصيك . فيقول : أيْ رَبي ، ألم تعدني ألا تخزني يوم يبعثون ؟ فأيّ خزْي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقال : انظر إلى ما وراءك ، فإذا هو بِذِيخٍ متلطخ ، أي : قد مسخ ضِبْعانًا ، ثم يسحب بقوائمه ، ويلقى في النار .

(233/350)

وقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال سفيان الثوري وغير واحد ، عن عاصم بن بَهْدَلة ، عن زِرّ بن حُبَيش ، عن عبد الله بن مسعود أنه قال : الأواه : الدَّعَّاء . وكذا روي

من غير وجه ، عن ابن مسعود .

وقال ابن جرير : حدثني المثنى : حدثنا الحجاج بن مِنْهال ، حدثنا عبد الحميد بن بَهْرام ، حدثنا شَهْر بن حَوشب ، عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس قال رجل : يا رسول الله ، ما الأوّاه ؟ قال : "المتضرع" ، قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

ورواه ابن أبي حاتم من حديث ابن المبارك ، عن عبد الحميد بن بَهْرَام ، به ، قال : المتضرع : الدَّعَّاء .

وقال الثوري ، عن سلمة بن كُهَيْل ، عن مسلم البَطِين عن أبي العُبَيْدَيْن أنه سأل ابن مسعود عن الأواه ، فقال : هو الرحيم .

وبه قال مجاهد ، وأبو ميسرة عمرو بن شُرَحْبيل ، والحسن البصري ، وقتادة : أنه الرحيم ، أي : بعباد الله .

وقال ابن المبارك ، عن خالد ، عن عِكْرِمة ، عن ابن عباس قال : الأوَّاه : الموقن بلسان الحبشة . وكذا قال العوفي ، عن ابن عباس : أنه الموقن . وكذا قال مجاهد ، والضحاك .

وقال علي بن أبي طلحة ، ومجاهد ، عن ابن عباس : الأواه : المؤمن – زاد علي بن أبي طلحة عنه : المؤمن التواب . وقال العوفي عنه : هو المؤمن بلسان الحبشة . وكذا قال ابن جُرَيْج : هو المؤمن بلسان الحبشة .

وقال أحمد : حدثنا موسى ، حدثنا ابن لِهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن علي بن رباح ، عن عقبة بن عامر ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له "ذو البِجادين" : "إنه أواه" ، وذلك أنه رجل كثير الذكر لله في القرآن ويرفع صوته في الدعاء .

ورواه ابن جرير . (1)

---

(1) المسند (159/4) وتفسير الطبري (533/14) وحسنه الهيثمي في المجمع (369/9) وفيه ابن لهيعة متكلم فيه .

(234/350)

وقال سعيد بن جبير ، والشعبي : الأواه : المسبّح . وقال ابن وهب ، عن معاوية بن صالح ، عن أبي الزاهرية ، عن جُبَير بن نفير ، عن أبي الدرداء ، رضي الله عنه ، قال : لا يحافظ على سبحة الضحى إلا أواه . وقال شُفَى بن مانع ، عن أيوب : الأواه : الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها .

وعن مجاهد : الأواه : الحفيظ الوجل ، يذنب الذنب سرا ، ثم يتوب منه سرا .

ذكر ذلك كلَّه ابن أبي حاتم ، رحمه الله .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن وَكيع ، حدثنا المحاربي ، عن حجاج ، عن الحكم ، عن الحسن

بن مسلم بن يناق : أن رجلا كان يكثر ذكر الله ويسبّح ، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : "إنه أواه" .

وقال أيضا حدثنا أبو كُرَيب ، حدثنا ابن يمان ، حدثنا المِنْهَال بن خليفة ، عن حَجّاج بن أرطأة ، عن عطاء ، عن ابن عباس ؛ أن النبي صلى الله عليه وسلم دفن ميتا ، فقال : "رحمك الله إن كنتَ لأواها" ! يعني : تَلاءً للقرآن وقال شعبة ، عن أبي يونس الباهلي قال : سمعت رجلا بمكة - وكان أصله روميا ، وكان قاصا - يحدث عن أبي ذر قال : كان رجل يطوف بالبيت الحرام ويقول في دعائه : "أوّه أوّه" ، فذُكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : إنه أواه . قال : فخرجت ذات ليلة ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفن ذلك الرجل ليلا ومعه المصباح .

هذا حديث غريب رواه ابن جرير ومشاه . (1)

وروي عن كعب الأحبار أنه قال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ قال : كان إذا ذكر النار قال : "أوّه من النار" .

---

(1) تفسير الطبري (530/14) . ورواه الحاكم في المستدرك (368/1) من طريق شعبة به ، وقال : "إسناده معضل" .

وقال ابن جُرَيْج عن ابن عباس : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ قال : فقيه .

قال الإمام العلم أبو جعفر بن جرير : وأولى الأقوال قول من قال : إنَّه الدعَّاء ، وهو المناسب للسياق ، وذلك أن الله تعالى لما ذكر أن إبراهيم إنما استغفر لأبيه عن موعدة وعدها إياه ، وقد كان إبراهيم كثير الدعاء حليما عمن ظلمه وأناله مكروها ؛ ولهذا استغفر لأبيه مع شدة أذاه في قوله : ﴿ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ [مريم : 46 ، 47] ، فحلم عنه مع أذاه له ، ودعا له واستغفر ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير ابن كثير حـ 4 صـ 221. 227 ﴾

(236/350)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ ﴾

بقوله : ﴿ واغفر لِأبِى ﴾ والجملةُ استئنافٌ مَسوقٌ لتقرير ما سبق ودفعِ ما يتراءى بحسب الظاهرِ من المخالفة ، وقرىء وما استغفر إبراهيمُ لأبيه ، وقرىء وما يستغفر

إبراهيمُ على حكاية الحال الماضية وقوله تعالى : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ ﴾ استثناءٌ مفرَّغٌ من أعم العللِ أي لم يكن استغفارُه عليه السلام لأبيه آزرَ ناشئاً عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة ﴿ وَعَدَهَا ﴾ إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام ﴿ إياه ﴾ أي أباه وقد قرىء كذلك بقوله : ﴿ لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ وقولِه : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِي ﴾ بناءً على رجاء إيمانِه لعدم تبيُّنِ حقيقةِ أمرِه وإلا لما وعدها إياه كأنه قيل : وما كان استغفارُ إبراهيمَ لأبيه إلا عن موعدة مبْنيةٍ على عدم تبيُّنِ أمرِه كما ينبىء عنه قولُه تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ أي لإبراهيمَ بأن أوحِيَ إليه أنه مُصِرٌّ على الكفر غيرُ مؤمنٍ أبداً ، وقيل : بأن مات على الكفر والأولُ هو الأنسبُ بقوله تعالى : ﴿ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ فإن وصفَه بالعداوة مما يأباه حالةُ الموت ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي تنزّه عن الاستغفار له وتجانبَ كلَّ التجانب ، وفيه من المبالغة ما ليس في تركه ونظائرِه ﴿ إِنَّ إبراهيم لاوَّاهٌ ﴾ لكثيرُ التأوّهِ وهو كنايةٌ عن كمال الرأفةِ ورقةِ القلب ﴿ حَلِيمٌ ﴾ صبورٌ على الأذية والمحنة ، وهو استئنافٌ لبيان ما كان يدعوه عليه الصلاة والسلام إلى ما صدر عنه من الاستغفار ، وفيه إيذانٌ بأن إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام كان أواهاً حليماً فلذلك صدرَ عنه ما صدر من الاستغفار قبل التبينِ فليس لغيره أن يأتسيَ به في ذلك ، وتأكيدٌ لوجوب الاجتناب عنه بعد التبين بأنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبينِ وهو في كمال رقةِ القلبِ والحلم ، فلا بد أن يكون غيرُه أكثرَ منه اجتناباً وتبرُّؤاً ، وأما أن الاستغفارَ قبل التبينِ لو كان غيرَ محظورٍ لما استُثنيَ من الائتساء

به في قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لاَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ فقد حُقق في سورة مريم بإذن الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(237/350)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ﴾

آزر بقوله ﴿ واغفر لِأبِى ﴾ أي بأن توفقه للإيمان وتهديه إليه كام يلوح به تعليله بقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضالين ﴾ [الشعراء : 86] والجملة استئناف لتقرير ما سبق ودفع ما يتراءى بحسب الظاهر من المخالفة ، وأخرج أبو الشيخ .

وابن عساكر من طريق سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : لما مات أبو طالب قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحمك الله وغفر لك لا أزال استغفر لك حتى ينهاني الله تعالى فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون فأنزل الله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة : 113] الآية فقالوا : قد استغفر إبراهيم لأبيه فأنزل سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ ﴾ ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ ﴾ وقرأ طلحة ﴿ وَمَا أَسْتَغْفِرُ ﴾ وعنه ﴿ وَمَا يَسْتَغْفِرِ ﴾ على حكاية الحال

الماضية لا أن الاستغفار سوف يقع بعد يوم القيامة كما يتوهم مما سيأتي إن شاء الله تعالى ، والاستثناء مفرغ من أعم العلل أي لم يكن استغفاره عليه السلام لأبيه ناشئاً عن شيء من الأشياء إلا عن موعدة ﴿ وَعَدَهَا ﴾ أي إبراهيم عليه السلام ﴿ إياه ﴾ أي أباه بقوله : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] وقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ [مريم : 47] فالوعد كان من إبراهيم عليه السلام .

ويدل على ذلك ما روي عن الحسن .

وحماد الرواية .

وابن السميقع .

وابن نهيك .

ومعاذ القارىء أنهم قرأوا ﴿ وَعَدَهَا أَبَاهُ ﴾ بالموحدة ، وعد ذلك أحد الأحرف الثلاث التي صحفها ابن المقفع في القرآن مما لا يلتفت إليه بعد قراءة غير واحد من السلف به وإن كانت شاذة .

(238/350)

وحاصل معنى الآية ما كان لكم الاستغفار بعد التبين واستغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام إنما كان عن موعدة قبل التبين ، ومآله أن استغفار إبراهيم عليه السلام كان قبل التبين وينبىء عن ذلك قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ أي لإبراهيم عليه السلام ﴿ أَنَّهُ ﴾ أي أن أباه ﴿ عَدُوٌّ لِلَّهِ ﴾ أي مستمر على عداوته تعالى وعدم الإيمان به وذلك بأو أوحى إليه عليه السلام أنه مصر على الكفر .

وأخرج ابن جرير .

وابن المنذر .

وجماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ذلك التبين كان بموته كافراً وإليه ذهب قتادة ، قيل : والأنسب بوصف العداوة هو الأول والأمر فيه هين .

﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي قطع الوصلة بينه وبينه ، والمراد تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب ، وفيه من المبالغة ما ليس في تركه ونظائره ﴿ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ ﴾ أي لكثير التأوه ، وهو عند جماعة كناية عن كمال الرأفة ورقة القلب .

وأخرج ابن جرير .

وابن أبي حاتم ؛ وغيرهما عن عبد الله بن شداد قال : قال رجل : يا رسول الله ما الأواه ؟ قال : الخاشع المتضرع الدعاء .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم أنه الدعاء المستكن إلى الله تعالى كهيئة الرميض المتأوه

من مرضه وهو قريب مما قبله : وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومجاهد .

وقتادة .

وعطاء .

والضحاك .

وعكرمة إنه الموقن بلغة الحبشة ، وعن عمرو بن شرحبيل أنه الرحيم بتلك اللغة وأطلق ابن مسعود تفسيره بذلك ، وعن الشعبي أنه المسبح .

وأخرج البخاري في تاريخه أنه الذي قلبه معلق عند الله تعالى .

وأخرج البيهقي في شعب الإيمان .

وغيره عن كعب أن إبراهيم وصف بالأواه لأنه كان إذا ذكر النار قال أوه من النار أوه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الجوزاء مثله ، وإذا صح تفسير رسول الله صلى الله عليه وسلم له لا ينبغي العدول عنه .

نعم ما ذهب إليه الجماعة غير مناف له ومناسبته لما نحن فيه ظاهرة كما لا يخفى .

(239/350)

وقد صرح غير واحد أنه فعال للمبالغة من التأوه ؛ وقياس فعله أن يكون ثلاثياً لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه ، ووحكى قطرب له فعلاً ثلاثياً فقال : يقال آه يؤوه كقام يقوم أوها وأنكره عليه غيره وقال : لا يقال إلا أوه وتأوه قال المثقب العبدي

: إذا ما قمت أرحلها بليل . . .

تأوه آهة الرجل الحزين

وأصل التأوه قوله آه ونحوه مما يقوله الحزين .

وفي الدرة للحريري أن الأفصح أن يقال في التأوه أوه بكسر الهاء وضمها وفتحها والكسر أغلب ، وعليه قول الشاعر

: فأوه لذكراها إذا ما ذكرتها . . .

ومن بعد أرض بيننا وسماء

وقد شدد بعضهم الواو وأسكن الهاء فقال أوه ، وقلب بعضهم الواو ألفاً فقال آه ، ومنهم من حذف الهاء وكسر الواو فقال أو ثم ذكر أن تصريف الفعل من ذلك أوه وتأوه وأن المصدر الآهة والأهة وإن من ذلك قول المثقب السابق ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي صبور على الأذى صفوح عن الجناية ، أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : كان من حلمه عليه السلام أنه إذا آذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله تعالى ، ولعل تفسيره بالسيد على ما روي عن الحبر مجاز .

والجملة استئناف لبيان ما حمله عليه الصلاة والسلام على الموعدة بالاستغفار لأبيه مع شكاسته عليه وسوء خلقه معه كما يؤذن بذلك قوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لارْجُمَنَّكَ واهجرنى مَلِيّاً ﴾ [مريم : 46] ، وقيل : استئناف لبيان ما حمله على الاستغفار .

وأورد عليه أنه يشعر بظاهره أن استغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه كان عن وفور الرحمة وزيادة الحلم وهو يخالف صدر الآية حيث دل على أنه كان عن موعدة ليس إلا ، ولعل المراد أن سبب الاستغفار ليس إلا الموعدة الناشئة عما ذكر فلا اشكال .

(240/350)

وفيها تأكيد لوجوب الاجتناب بعد التبين كأنه قيل : إنه عليه الصلاة والسلام تبرأ منه بعد التبين وهو في كمال رقة القلب والحلم فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً ، وجوز بعضهم أن يكون فاعل وعد ضمير الأب و ﴿ إياه ﴾ ضمير إبراهيم عليه الصلاة والسلام أي إلا عن موعدة وعدها إبراهيم أبوه وهي الوعد بالإيمان .

قال شيخ مشايخنا صبغة الله أفندي الحيدري : لعل هذا هو الأظهر في التفسير فإن ظاهر السياق أن هذه الآية دفع لما يرد على الآية الأولى من النقض باستغفار إبراهيم لأبيه الكافر

ويكفي فيه مجرد كونه في يحاة أبيه حيث يحمل ذلك على طلب المغفرة له بالتوفيق للإيمان كما قرر سابقاً من غير حاجة إلى حديث الموعدة فيصير ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ كالحسو على التوجيه الأول للضميرين بخلاف هذا التوجيه فإن محصله عليه هو أنه لا يرد استغفار إبراهيم لأبيه نقضاً على ما ذكرنا إذ هو إنما صدر عن ظن منه عليه الصلاة والسلام بإيمانه حيث سبق وعده معه عليه الصلاة والسلام فظن أنه وفي بالوعد وجرى على مقتضى العهد فاستغفر له فلما تبين له أنه لن يفي ولن يؤمن قط أو لم يف ولم يؤمن تبرأ منه .

(241/350)

ويمكن أن يوجه ذكر الموعدة على التوجيه الأول أيضاً بأن يقال : أراد سبحانه وتعالى تضمين الجواب بكون ذلك الاستغفار في حال حياة المستغفر له وحمله على الطلب المذكور فائدة أخرى هي أنه صلى الله عليه وسلم لغاية تصلبه في الدين وفرط تعصبه على اليقين ما كان يستغفر له وإن كان جائزاً لكن تأوه وتحلم فاستغفر له وفاء بالموعدة التي وعدها إياه فتفطن انتهى ، وأنت تعلم أنه على التوجيه الثاني لا يستقيم ما قالوه في استئناف الجملة من أنه لبيان الحامل وكان عليه أن يذكر وجه ذلك عليه ، وأيضاً قوله رحمه الله تعالى في بيان

الفائدة : لكنه تأوه وتحلم حيث نسب فيه الحلم إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام بصيغة التفعل مع وصفه تعالى له عليه الصلاة والسلام بالحليم عثرة لا يقال لصاحبها لعا ، وحمل ذلك على المشاكلة مع إرادة فعل مما لا يوافق عرضه وسوق كلامه ، فالحق الذي ينبغي أن يعول عليه التفسير الأول للآية وهو الذي يقتضيه ما روي عن الحسن .

وغيره من سلف الأمة رضي الله تعالى عنهم .

وذكر حديث الموعدة لبيان الواقع في نفس الأمر مع ما فيه من الإشارة إلى تأكيد الاجتناب وتقوية الفرق كأنه قيل : فرق بين بين الاستغفار الذي نهيتم عنه واستغفار إبراهيم عليه السلام فإن استغفاره كان قبل التبين وكان عن موعدة دعاه إليها فرط رأفته وحلمه وما نهيتم عنه ليس كذلك .

(242/350)

بقي أن هذه الآية يخالفها ظاهر ما رواه البخاري في "الصحيح" عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : يلقى إبراهيم عليه السلام أباه يوم القيامة وعلى وجهه قترة وغبرة فيقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ألم أقل لك لا تعصني فيقول أبوه اليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم عليه الصلاة والسلام : يا رب إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون فأي خزي

أخزي من أبى الأبعد فيقول الله تعالى إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقال : يا إبراهيم ما تحت رجليك ؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار .

ورواه غيره بزيادة فيتبرأ منه فإن الآية ظاهرة في انقطاع رجاء إبراهيم عليه السلام اتصاف أبيه بالإيمان وجزمه بأنه لا يغفر له ولذلك تبرأ منه وترك الاستغفار له فإن الاستغفار له مع الجزم بأنه لا يغفر له مما لا يتصور وقوعه من العارف لا سيما مثل الخليل عليه الصلاة والسلام ، وقد صرحوا بأن طلب المغفرة للمشرك طلب لتكذيب الله سبحانه نفسه ، والحديث ظاهر في أنه عليه الصلاة والسلام يطلب ذلك له يوم القيامة ولا ييأس من نجاته إلا بعد المسخ فإذا مسخ يئس منه وتبرأ .

(243/350)

وأجاب الحافظ ابن حجر عن المخالفة بجوابين بحث فيهما بعض فضلاء الروم ، ومن الغريب قوله في الجواب الثاني : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يتيقن موت أبيه على الكفر لجواز أن يكون آمن في نفسه ولم يطلع عليه الصلاة والسلام على ذلك ويكون وقت تبريه منه بعد الحالة التي وقعت في الحديث فإنه مخالف مخالفة ظاهرة لما يفهم من الآية من أن التبين والتبري كان كل منهما في الدنيا ، وأجاب ذلك البعض بأنا لا نسلم التخالف بين الآية

والحديث ، وإنما يكون بينهما ذلك لو كان في الحديث دلالة على وقوع الاستغفار من إبراهيم لأبيه وطلب الشفاعة له وليس فليس ، وقوله : يا رب إنك وعدتني الخ أراد به عليه الصلاة والسلام محض الاستفسار عن حقيقة الحال فإنه اختلج في صدره الشريف أن هذه الحال الواقعة على أبيه خزي له وأن خزي الأب خزي الابن فيؤدي ذلك إلى خلف الوعد المشار إليه بقوله : إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون ، وأنت خبير بأن الخبر ظاهر في الشفاعة ، وهي استغفار كما يدل عليه كلام المتكلمين في ذلك المقام .

ويزيد ذلك وضوحاً أن الحاكم أخرج عن أبي هريرة أيضاً وصححه ، وقال على شرط مسلم : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يلقى رجل أباه يوم القيامة فيقول : يا أبت أي ابن كنت لك ؟ فيقول : خير ابن .

فيقول : هل أنت مطيعي اليوم ؟ فيقول : نعم .

فيقول خذ بازرتي فيأخذ بازرته ثم ينطلق حتى يأتي الله تعالى وهو يفصل بين الخلق فيقول : يا عبدي ادخل من أي أبواب الجنة شئت فيقول : أي رب وأبي معي فإنك وعدتني أن لا تخزيني قال فيمسخ أباه ضبعاً فيهوى في النار فيأخذ بأنفه فيقول سبحانه : يا عبدي هذا أبو فيقول : لا وعزتك "

وقال الحافظ المنذري : إنه في "صحيح البخاري" إلا أنه قال : "يلقى إبراهيم أباه" وذكر القصة إذ بفهم من ذلك أن الرجل في حديث الحاكم هو إبراهيم عليه الصلاة والسلام وطلبه المغفرة لأبيه فيه وإدخاله الجنة أظهر منهما في حديث البخاري وما ذكره الزمخشري مخالفاً على ما قيل : لما شاع عن المعتزلة أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي لا بالعقل لأن العقل يجوز أن يغفر الله تعالى للكافر ، ألا ترى إلى قوله صلى الله عليه وسلم لأبي طالب : "لأستغفرن لك ما لم أنه" لا ينفع في هذا الغرض إلا إذا ضم إليه عدم علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام ذلك بالوحي إلى يوم القيامة وهو مما لا يكاد يقدم عليه عاقل فضلاً عن فاضل .

وأجاب بعض المعاصرين أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان عالماً بكفر أبيه ومتيقناً بأن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به إلا أن الشفقة والرأفة الطبيعية غلبت عليه حين رأى أباه في عرصات يوم القيامة وعلى وجهه قترة فلم يملك نفسه أن طلب ما طلب ، ونظير ذلك من وجه قول نوح عليه الصلاة والسلام لربه سبحانه : ﴿ إِنَّ ابنى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الحق ﴾ [هود : 45] ولا يخفى أنه من الفساد بمكان ومثله ما قيل : إنه ظن استثناء أبيه من عموم ﴿ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] لأن الله وعده أن لا يخزيه فقدم على الشفاعة له ، ولعمري لا يقدم عليه إلا جاهل بجهله أما الأول فلأن الأنبياء عليهم السلام

أجل قدراً من أن تغلبهم أنفسهم على الاقدام على ما فيه تكذيب الله تعالى ، وأما الثاني فلأنه له كان لذلك ألفاً أصل ما كان يتبرأ منه عليه السلام في الدنيا بعد أن تبين له أنه لله وهو الأوام .

(245/350)

وقيل : إن الأحسن في الجواب التزام أن ما في الخبرين ليس من الشفاعة في شيء ويقال : إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ظن أن خزي أبيه في معنى الخزي له فطلب بحكم وعد الله سبحانه إياه أن لا يخزيه تخليصا من ذلك حسبما يمكن فخلصه منه بمسخه ذيخا ، ولعل ذلك مما يعده إبراهيم عليه السلام تخليصاً له من الخزي لاختلاف النوع وعدم معرفة العارفين لأبيه بعد أنه أبوه فكأن الأبوة انقطعت من البين ويؤذن بذلك أن بعد المسخ يأخذ سبحانه بأنفه فيقول له عليه السلام : يا عبدي هذا أبوك ؟ فيقول : لا وعزتك ، ولعل المراد من التبري في الرواية السابقة في الخبر الأول هو هذا القول ، وتوسيط حديث تحريم الجنة على الكافرين ليس لأن إبراهيم عليه السلام كان طالباً ادخال أبيه فيها بل لإظهار عدم إمكان هذا الوجه من التخليص اقناطاً لأبيه وإعلاماً له بعظم ما أتي به ، ويحمل قوله عليه السلام في خبر الحاكم حين يقال له : يا عبد ادخل من أي أبواب الجنة شئت أي رب وأبى

معي على معنى أأدخل وأبي واقف معي ، والمراد لا أدخل وأبي في هذه الحال وإنما ادخل إذا تغيرت ، ويكون قوله عليه السلام : فانك وعدتني أن لا تخزيني تعليلاً للنفي المدلول عليه بالاستفهام المقدر وحينئذ يرجع الأمر إلى طلب التخليص عما ظنه خزياً له أيضاً فيمسخ ضبعاً لذلك .

ولا يرد أن التخليص ممكن بغير المسخ المذكور لأنا نقول .

(246/350)

لعل اختيار ذلك المسخ دون غيره من الأمور الممكنة ما عدا دخول الجنة لحكمة لا يعلمها إلا هو سبحانه ، وقد ذكروا أن حكمة مسخه ضبعاً دون غيره من الحيوانات أن الضبع أحمق الحيوانات ومن حمقه أنه يغفل عما يجب له التيقظ ولذلك قال على كرم الله تعالى وجهه : لا أكون كالضبع يسمع الكدم فيخرج له حتى يصاد وآزر لما لم يقبل النصيحة من أشفق الناس عليه زمان إمكان نفعها له وأخذ بازرته حين لا ينفعه ذلك شيئاً كان أشبه الخلق بالضبع فمسخ ضبعاً دون غيره لذلك ، ولم يذكروا حكمة اختيار المسخ دون غيره وهو لا يخلو عن حكمة والجهل بها لا يضر انتهى .

(247/350)

ولا يخفى ما في هذا الجواب من التكلف ، وأولى منه التزام كون فاعل ﴿ وَعْدُ ﴾ ضمير الأب وضمير ﴿ إياه ﴾ راجعاً إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام وكون التبين والتبري واقعين في الآخرة حسبما تضمنه الخبران السابقان ، فحينئذ لا يبعد أن يكون إبراهيم مستغفراً لأبيه بعد وعده إياه بالإيمان طالباً له الجنة لظن أنه وفى بوعده حتى يمسخ ذيخاً ، لكن لا يساعد عليه ظاهر الآية ولا المأثور عن سلف الأمة وإن صح كون الآية عليه دفعاً لما يرد على الآية الأولى من النقض أيضاً بالعناية ، ولعل أخف الأجوبة مؤنة كون مراد إبراهيم عليه الصلاة والسلام من تلك المحاورة التي تصدر منه في ذلك الموقف إظهار العذر فيه لأبيه وغيره على أتم وجه لا طلب المغفرة حقيقة ، وهذا كما قال المعتزلة في سؤال موسى عليه السلام رؤية الله تعالى مع العلم بامتناعها في زعمهم ، والقول بأن أهل الموقف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وغيرهم من سائر المؤمنين والكفار سواء في العلم بامتناع المغفرة للمشرك مثلا في حيز المنع ، وربما يدعى عدم المساواة لظاهر طلب الكفار العفو والإخراج من النار ونحو ذلك بل في الخبرين السابقين ما يدل على عدم علم الأب بحقيقة الحال وأنه لا يغفر له فتأمل ذاك والله سبحانه يتولى هذاك ﴿ وبقي أيضاً ﴾ أنه استشكل القول بأن استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه حتى تبين له أنه عدو لله كان في حياته بما في سورة الممتحنة من قوله سبحانه :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إبراهيم ﴾ [الممتحنة : 4] إلى قوله سبحانه : ﴿ إِلاَّ قَوْلَ إبراهيم لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ [الممتحنة : 4] حيث منع من الاقتداء به فيه ولو كان في حياته لم يمنع منه لأنه يجوز الاستغفار بمعنى طلب الإيمان لأحياء المشركين .

(248/350)

وأجيب بأنه إنما منع من الاقتداء بظاهره وظن أنه جائز مطلقاً كما وقع لبعض الصحابة رضي الله تعالى عنهم وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيق ذلك باذن الله تعالى الهادي . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(249/350)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

لما بيّن الله سبحانه في أول السورة وما بعده أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بين سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، وصرّح بأن ذلك متحتم ، ولو كانوا أولي قربى ، وأن

القرابة في مثل هذا الحكم لا تأثير لها .

وقد ذكر أهل التفسير أن ﴿ ما كان ﴾ في القرآن يأتي على وجهين : الأوّل : على النفي نحو : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [آل عمران : 145] ، والآخر : على معنى النهي نحو : ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ ﴾ [الأحزاب : 53] و ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ والذين ءامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ وهذه الآية متضمنة لقطع الموالاة للكفار ، وتحريم الاستغفار لهم ، والدعاء بما لا يجوز لمن كان كافراً ، ولا ينافي هذا ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال يوم أحد حين كسر المشركون رباعيته وشجوا وجهه : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون ، لأنه يمكن أن يكون ذلك قبل أن يبلغه تحريم الاستغفار للمشركين .

وعلى فرض أنه قد كان بلغه ، كما يفيده سبب النزول ، فإنه قبل يوم أحد بمدّة طويلة ، وسيأتي .

(250/350)

فصدور هذا الاستغفار منه لقومه إنما كان على سبيل الحكاية عمن تقدّمه من الأنبياء ، كما في صحيح مسلم عن عبد الله ، قال : كأني أنظر إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم يحكي

نبياً من الأنبياء ضربه قومه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : " ربّ اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " وفي البخاري ، أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ذكر نبياً قبله شجه قومه ، فجعل النبي يخبر عنه بأنه قال : " اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون " قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم ﴾ هذه الجملة تتضمن التعليل للنهي عن الاستغفار ، والمعنى : أن هذا التبين موجب لقطع الموالاة لمن كان هكذا ، وعدم الاعتداد بالقرابة ؛ لأنهم ماتوا على الشرك .

وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [النساء : 48] .

فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إبراهيم لأَبِيهِ ﴾ الآية : ذكر الله سبحانه السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدّم من إبراهيم لأبيه بالاستغفار له ، ولكنه ترك ذلك وتبرأ منه لما تبين له أنه عدوّ لله ، وأنه غير مستحق للاستغفار ، وهذا يدلّ على أنه إنما وعده قبل أن يتبين له أنه من أهل النار ، ومن أعداء الله ، فلا حاجة إلى السؤال الذي يورده كثير من المفسرين ، أنه كيف خفي ذلك على إبراهيم ، فإنه لم يخف عليه تحريم الاستغفار لمن أصرّ على الكفر ومات عليه ، وهو لم يعلم ذلك إلا بإخبار الله سبحانه له بأنه عدوّ الله ، فإن ثبوت هذه العداوة تدلّ على الكفر ، وكذلك لم يعلم نبينا بتحريم ذلك إلا بعد أن أخبره

الله بهذه الآية ، وهذا حكم إنما يثبت بالسمع لا بالعقل .

وقيل : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه : دعاؤه إلى الإسلام ، وهو ضعيف جداً .

(251/350)

وقيل المراد بالاستغفار في هذه الآية : النهي عن الصلاة على جنائز الكفار ، فهو كقوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : 84] ولا حاجة إلى تفسير الاستغفار بالصلاة ولا ملجىء إلى ذلك ، ثم ختم الله سبحانه هذه الآية بالثناء العظيم على إبراهيم . فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ وهو كثير التأوّه ، كما تدل على ذلك صيغة المبالغة .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الأوّاه ، فقال ابن مسعود ، وعبيد بن عمير : إنه الذي يكثر الدعاء .

وقال الحسن ، وقتادة : إنه الرّحيم بعباد الله .

وروي عن ابن عباس : أنه المؤمن بلغة الحبشة .

وقال الكلبي : إنه الذي يذكر الله في الأرض القفر .

وروي مثله : عن ابن المسيب ، وقيل : الذي يكثر الذكر لله من غير تقييد ، روي ذلك عن عقبة بن عامر .

وقيل : هو الذي يكثر التلاوة ، حكي ذلك عن ابن عباس .

وقيل : إنه الفقيه ، قاله مجاهد والنخعي .

وقيل : المتضرع الخاضع ، روى ذلك عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد .

وقيل : هو الذي إذا ذكر خطاياه استغفر لها ، روي ذلك عن أبي أيوب .

وقيل : هو الشفيق قاله عبد العزيز بن يحيى .

وقيل : إنه المعلم للخير .

وقيل : إنه الراجع عن كل ما يكرهه الله ، قاله عطاء .

والمطابق لمعنى الأوّاه لغة أن يقال : إنه الذي يكثر التأوّه من ذنوبه ، فيقول مثلاً : آه من ذنوبي آه ، مما أعاقب به بسببها ، ونحو ذلك ، وبه قال الفراء ، وهو مروي عن أبي ذرّ ، ومعنى التأوّه : هو : أن يسمع للصدر صوت من تنفس الصعداء .

قال في الصحاح : وقد أوّه الرجل تأويهاً ، وتأوه تأوهاً إذا قال أوّه ، والاسم منه آهة بالمدّ ، قال :

إذا ما قمت أرحلها بليل . . . تأوّه آهة الرجل الحزين

و﴿ الحليم ﴾ الكثير الحلم ، كما تفيده صيغة المبالغة ، وهو الذي يصفح عن الذنوب ، ويصبر على الأذى .

وقيل : الذي لا يعاقب أحداً قط إلا لله .

وقد أخرج البخاري ، ومسلم ، وغيرهما ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه ، قال : لما حضرت الوفاة أبا طالب دخل النبي صلى الله عليه وسلم ، وعنده أبو جهل وعبد الله بن أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " أي عمّ ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله " ، فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ، وأبو جهل وعبد الله ، يعاندانه بتلك المقالة .

فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول : لا إله إلا الله .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : " لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك " ، فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ ﴾ الآية ، وأنزل الله في أبي طالب : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ولكن الله يَهْدِى مَن يَشَاء ﴾ [القصص : 56] .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وأحمد ، والترمذي ، وأبو يعلى ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والضياء في المختارة ، عن عليّ قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت :

تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية .

وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر ، عن عليّ قال : أخبرت النبيّ صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب ، فبكى ، فقال : " اذهب فغسله وكفنه ، وواره غفر الله له ورحمه " ، ففعلت ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته حتى نزل عليه ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ﴾ الآية .

وقد روي كون سبب نزول الآية : استغفار النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب من طرق كثيرة : منها عن محمد بن كعب ، عند ابن أبي حاتم وأبي الشيخ ، وهو مرسل .

ومنها عن عمرو بن دينار ، عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضاً .

(253/350)

ومنها عن سعيد بن المسيب ، عند ابن جرير ، وهو مرسل أيضاً .

ومنها عن عمر بن الخطاب عند ابن سعد ، وأبي الشيخ وابن عساكر .

ومنها عن الحسن البصري عند ابن عساكر ، وهو مرسل .

وروي أنها نزلت بسبب زيارة النبي صلى الله عليه وسلم لقبر أمه ، واستغفاره لها ، من

طريق ابن عباس عند الطبراني وابن مردويه ، ومن طريق ابن مسعود عند ابن أبي حاتم ، والحاكم ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، وعن بريدة عند ابن مردويه ، وما في الصحيحين مقدّم على ما لم يكن فيهما ، على فرض أنه صحيح ، فكيف وهو ضعيف غالبه .

وأخرج ابن المنذر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وقضى ربُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إياه ﴾ إلى قوله : ﴿ كَمَا ربَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : 24] قال : ثم استثنى فقال : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىّ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ ﴾ قال : تبين له حين مات وعلم أن التوبة قد انقطعت منه .

وأخرج الفريابي ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وأبو بكر الشافعي في فوائده ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدوّ لله ، فتبرأ منه .

وأخرج ابن مردويه ، عن جابر ، أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر ، فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" دعه فإنه أوّاه " وأخرج الطبراني وابن مردويه ، عن عقبة بن عامر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو النجادين : " إنه أوّاه " ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله

بالقرآن والدعاء .

وأخرجه أيضاً أحمد قال : حدّثنا موسى بن لهيعة ، عن الحارث بن يزيد ، عن عليّ بن رباح ، عن عقبة بن عامر ، فذكره .

(254/350)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن عبد الله بن شدّاد بن الهاد قال : قال رجل : يا رسول ، الله ما الأوّاه ؟ قال : " الخاشع المتضرّع الدّعاء " وهذا إن ثبت وجب المصير إليه وتقديمه على ما ذكره أهل اللغة في معنى الأوّاه ، وإسناده عند ابن جرير هكذا : حدّثني المثنى ، حدثني الحجاج بن منهال ، حدّثنا عبد الحميد بن بهرام ، حدّثنا شهر بن حوشب ، عن عبد الله بن شداد ، فذكره .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ إِنَّ إبراهيم لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(255/350)

وقال القاسمى فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾

لما بين تعالى في أول السورة وما بعدها أن البراءة من المشركين والمنافقين واجبة ، بيّن سبحانه هنا ما يزيد ذلك تأكيداً ، حيث نهى عن الإستغفار لهم بعد تبين شركهم وكفرهم ، لأن ظهوره موجب لقطع الموالاة ، حتى مع الأقرباء ، لأن قرابتهم وإن أفادتهم المناسبة بهم والرحمة بهم ، فلا تفيدهم قبول نور الإستغفار

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ فطلب المغفرة لهم في حكم المخالفة لوعد الله ووعيده .

ثم ذكر تعالى أن السبب في استغفار إبراهيم لأبيه ، أنه كان لأجل وعد تقدم منه له ، بقوله : ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ ، وقوله : ﴿ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ ، وأنه كان قبل أن يتحقق إصراره على الشرك ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ ﴾ ذلك ﴿ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ أي : من أبيه بالكلية ، فضلاً عن الإستغفار له .

وبيّن تعالى الحامل لإبراهيم على الإستغفار ، بأنه فرط ترحّمه وصبره بقوله : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ ﴾ أي : كثير التأوه من فرط الرحمة ، ورقة القلب ﴿ حَلِيمٌ ﴾ أي : صبور على ما يعترضه من الإيذاء ، ولذلك حلم عن أبيه ، مع توعده له بقوله :

﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ ، واستغفر له بقوله : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ

كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ ، وذلك قبل التبيين ، فليس لغيره أن يأتسي به في ذلك .

وفي الآية تأكيد لوجوب الإجتناب بعد التبيين ، بأنه صلى الله عليه وسلم تبرأ من أبيه بعد التبيين ، وهو في كمال رقة القلب والحلم ، فلا بد أن يكون غيره أكثر منه اجتناباً وتبرؤاً .

تنبيهات :

الأول : ساق المفسرون ههنا روايات عديدة في نزول الآية ، ولما رآه بعضهم متنافية ، حاول الجمع بينها بتعدد النزول ، ولا تنافي ، لما قدمناه من أن قولهم نزلت

في كذا قد يراد به أن حكم الآية يشمل ما وقع من كذا بمعنى أن نزولها يتناوله . وقد يراد به أن كذا كان سبباً لنزولها ، وما هنا من الأول ، ونظائره كثيرة في التنزيل ، وقد نبهنا عليه مراراً ، لا سيما في المقدمة . فاحفظه .

الثالث : قال عطاء بن أبي الرباح : ما كنت لأدع الصلاة على أحد من أهل القبلة ، ولو كانت حبشية حبلى من الزنى ، لأني لم أسمع الله حجب الصلاة إلا عن المشركين ، ثم قرأ الآية . وهذا فقه جيّد .

الثالث : قال بعض اليمانيين : استدل بالآية على أن من تأوه في الصلاة لم تبطل . وهذا

يحكى عن أبي جعفر : إذا قال : آه لم تبطل صلاته ، لأنه تعالى مدح إبراهيم عليه السلام بذلك ، ومذهب الأئمة بطلانها ، سواء قال : آه أو أوه ، لأن ذلك من كلام الناس ، ولم يذكر تعالى أن تأوه إبراهيم كان في الصلاة . انتهى .

الرابع : قال في " العناية " : أوّاه فعّال للمبالغة من التأوّه ، وقياس فعله أن يكون ثلاثياً ، لأن أمثلة المبالغة إنما يطرد أخذها منه وحكى قطرب له فعلاً ثلاثياً ، وهو آهَ يَؤُوهُ ، كقام يقوم ، أوْهاً ، وأنكر عليه غيره بأن لا يقال إلا أوّه وتأوّه قال :

~إذا ما قمتُ أرْحَلُها بليل تأوَّهُ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ

والتأوه قول آه ونحوه مما يقوله الحزين ، فلذا كني به عن الحزن ، ورقة القلب . انتهى .

وأوّه بفتح الواو المشدّدة ساكنة الهاء ، وأواه ، وأوه بسكون الواو ، والحركات الثلاث قال :

~فأوْهِ على زيارةِ أمّ عَمْرو فكيف مع العدا ومع الوُشاةِ ؟

وربما قلبوا الواو ألفاً ، فقالوا : آهِ من كذا قال :

~آهِ من تَيَّاكِ آهَا تَرَكَتْ قلبي مُتَاها

(257/350)

وآهٍ بكسر الهاء منونة وحكي أيضاً آها وواها ، وفيها لغات أخرى أوصلها " التاج " إلى اثنتين وعشرين لغة ، وكلها كلمات تقال عند الشكاية والتوجع والتحزن ، مبنيّات على ما لزم آخرها إلا آها ، فانتصابها لإجرائها مجرى المصادر ، كأنه قيل : أتأسف تأسفاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 531.533 ﴾

(258/350)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

معطوفة على جملة ﴿ ما كان للنبيء ﴾ [التوبة : 113] الخ .

وهي من تمام الآية باعتبار ما فيها من قوله : ﴿ ولو كانوا أولي قربى ﴾ [التوبة : 113]

إذ كان شأن ما لا ينبغي لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام أن لا ينبغي لغيره من الرسل عليهم الصلاة والسلام لأن معظم أحكامهم متحدة إلا ما خص به نبينا من زيادة الفضل .

وهذه من مسألة (أن شرع من قبلنا شرع لنا) فلا جرم ما كان ما ورد من استغفار إبراهيم قد يثير تعارضاً بين الآيتين ، فلذلك تصدّى القرآن للجواب عنه .

وقد تقدم آنفاً ما روي أن هذه سبب نزول الآية .

والموعدة : اسم للوعد .

والوعد صدر من أبي إبراهيم لا محالة ، كما يدل عليه الاعتذار لإبراهيم لأنه لو كان إبراهيم هو الذي وعد أباه بالاستغفار وكان استغفاره له للوفاء بوعده لكان يتجه من السؤال على الوعد بذلك وعلى الوفاء به ما اتجه على وقوع الاستغفار له .

فالتفسير الصحيح أن أبا إبراهيم وعد إبراهيم بالإيمان ، فكان بمنزلة المؤلفة قلوبهم بالاستغفار له لأنه ظنه متردداً في عبادة الأصنام لما قال له : ﴿ واهجرني ملياً ﴾ [مريم : 46] فسأل الله له المغفرة لعله يرفض عبادة الأصنام كما يدل عليه قوله : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ .

وطريق تبين أنه عدو لله إما الوحي بأن نهاه الله عن الاستغفار له ، وإما بعد أن مات على الشرك .

والتبرؤ : تفعل من برىء من كذا إذا تنزه عنه ، فالتبرؤ مبالغة في البراءة .

وجملة : ﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ استئنافٌ ثَناءٌ على إبراهيم .

و ﴿ أواه ﴾ فُسّر بمعان ترجع إلى الشفقة إما على النفس فتفيد الضراعة إلى الله والاستغفار ، وإما على الناس فتفيد الرحمة بهم والدعاء لهم .

ولفظ ﴿ أواه ﴾ مثالُ مبالغة : الذي يكثر قول أوّهْ بلغاته الثلاثَ عشرة التي عدها في "القاموس" ، وأشهَرُها أوَّهْ بفتح الهمزة وواو مفتوحة مشددة وهاء ساكنة .

قال المرادي في "شرح التسهيل" : وهذه أشهر لغاتها .

وهي اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع لإنشاء التوجع ، لكن الوصف بـ ﴿ أواه ﴾ كناية عن الرأفة ورقة القلب والتضرع حين يُوصف به من ليس به وَجع .

والفعل المشتق منه (أواه) حقهُ أن يكون ثلاثياً لأن أمثلة المبالغة تصاغ من الثلاثي .

وقد اختلف في استعمال فعلٍ ثلاثي له ، فأثبته قطرب وأنكره عليه غيره من النحاة .

وإتباع (لأواه) بوصف (حليم) هنا وفي آيات كثيرة قرينة على الكناية وإيذان بمثار التأوه عنده .

والحليم : صاحب الحلم .

والحلم بكسر الحاء : صفة في النفس وهي رجاحة العقل وثباتة ورصانة وتباعد عن العدوان .

فهو صفة تقتضي هذه الأمور ، ويجمعها عدم القسوة .

ولا تنافي الانتصار للحق لكن بدون تجاوز للقدر المشروع في الشرائع أو عند ذوي العقول .

قال:

حليم إذا ما الحلم زين أهله . . .

مع الحلم في عين العدو مهيب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(260/350)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾

فقد وعد سيدنا إبراهيم عليه السلام أباه ما ذكره القرآن : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ [مريم : 47]

﴿ حَفِيّاً ﴾ أي : أن ربَّ إبراهيم يحبه وسيكرمه في استغفاره لأبيه .

﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ ويأتي الحق سبحانه بالحيثية الموحية ، بأن إبراهيم له من صفات الخير ، الكثير جداً ، لدرجة أن الله خالقه يقول فيه : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً . . . ﴾ [النحل : 120]

أي : أن خصال الخير في إبراهيم عليه السلام لا توجد مجتمعة في إنسان واحد ، ولا في اثنين ولا في ثلاثة ، بل خصال الخير موزعة على الناس كلها ، فهذا فيه صفة الأمانة ، وثان يتحلى بالصدق ، وثالث يتميز بالشهامة ، ورابع موهوب في العلم ، إذن : فخصال الخير دائماً

ينشرها الله في خلقه ، حتى يوجد تكافؤ الفرص بين البشر ، كالمهن ، والحرف ، والعبقريات ، والمواهب ، فلا يوجد إنسان تتكامل فيه المواهب كلها ليصبح مجمع مواهب .

لكن شاء الحق أن يجمع لسيدنا إبراهيم عليه السلام خصال خير كثيرة فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي : فيه عليه السلام من خصال الخير التي تتفرق في الأمة . وبعد ذلك يعطينا الحيثية التي جعلت من سيدنا إبراهيم أمة ، وجامعاً لصفات الخير بهذا الشكل ، فإن أعطاه الله أمراً فهو ينفذه بعشق ، لا مجرد تكليف يريد أن ينهيه ويلقيه من على ظهره ، بل هو ينفذ التكليف بعشق ، واقرأ قول الله سبحانه : ﴿ وَإِذِ ابتلى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ . . . ﴾ [البقرة : 124]

أي : أتى بها على التمام ، فلما أتمهن أراد الله أن يكافئه ، فقال : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . ﴾ [البقرة : 124]

(261/350)

فهو – إذن – مأمون على أن يكون إماماً للناس لأنه قدوة ، أي أنه يشترك مع الناس في أنه بشر ، ولكنه جاء بخصال الخير الكاملة فصار أسوة للناس ، حتى لا يقول أحد : إنه فعل الخير لأنه ملك ، وله طبيعة غير طبيعة البشر ، لا . . إنه واحد من البشر ، قال فيه الحق

سبحانه : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً . . . ﴾ [البقرة : 124]

أي : أسوة وقدوة ، والأسوة والقدوة يشترط فيها أن تكون من الجنس نفسه فلا تكون من جنس مختلف ، فلا يجعل الله للبشر أسوة من الملائكة ؛ حتى لا يقول أحد : وهل أنا أستطيع أن أعمل مثل عمله ؟ ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عرض هذه القضية :

﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94]

فحين تعجَّب بعض الناس من أن ربنا قد بعث من البشر رسولاً أنزل الحق هذا القول وأضاف سبحانه : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95]

فما دُمتم أنتم بشر فلا بد أن يرسل لكم رسولاً منكم لتحقق الأسوة ، لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾ [الأنعام : 9]

ولنَر كيف أتم سيدنا إبراهيم عليه السلام بعض التكاليف بعشق ، فلننظر إلى قول الحق سبحانه : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت . . . ﴾ [البقرة : 127]

ومعنى رفع القواعد أي إيجاد البعد الثالث ، وهو الارتفاع ؛ لأن البيت الحرام له طول وهذا هو البعد الأول ، وله عرض وهو البعد الثاني وبهما تتحدد المساحة . أما الارتفاع فبضربه في البعدين الآخرين يعطينا الحجم ، وقد أقام سيدنا إبراهيم عليه السلام البعد الثالث الذي يبرز الحجم ، وقد قال بعض السطحيين : إن سيدنا إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى الكعبة ، لا لم يبن الكعبة ، بل رفع القواعد التي تبرز حجم الكعبة ؛ بدليل أنه حينما جاء هو أمرأته هاجر ومعها الرضيع إسماعيل عليه السلام قال : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . ﴾ [إبراهيم : 37]

وهذا دليل على أن البيت كان معروفاً من قبل إبراهيم عليه السلام ، وقد استقرت به هاجر وطفلها إسماعيل إلى أن كبر واستطاع أن يرفع مع أبيه القواعد ، ولذلك نقول : إن هناك فرقاً بين " المكان " و " المكين " فالذي فعله إبراهيم هو إقامة " المكين " أي المبنى نفسه ، أما المكان فقد كان معروفاً .

ولنفترض أنه جاء سيل على الكعبة وهدمها فإلى أي شيء سنصلي ؟ إلى أن نقيم المكين . إذن : عملية البناء هذه للمكان ، وليبست للمكين .

ويقول الحق عن البيت الحرام : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ . . . ﴾ [آل عمران : 97]

وآيات جمع ، وبينات جمع ، ولم يأت من الآيات البينات إلا " مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ " . ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ . . . ﴾ [آل عمران : 97]

(263/350)

أي : أن " مقام إبراهيم " هو مجموع الآيات البينات ؛ لأن الله قد أمره أن يرفع القواعد ، وكان لا بد أن يبحث عن الإمكانات التي تساعده في الرفع ؛ لأنه لو رفعها على قدر ما تطول يده لما بلغ طول الكعبة فوق مستوى ما تطوله اليدان ؛ لذلك فكر سيدنا سيدنا إبراهيم وتدبر وجاء بحجر ليقف فوقه ليطيل في ارتفاع جدران الكعبة ، وهذا من دلائل أنه ينفذ التكليف بعشق ، وعلى أتم وجه ؛ لذلك قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وفي هذا آيات واضحة على أن الإنسان إذا كلف أمراً فعليه ألا ينفذ الأمر لينهى التكليف بأية طريقة ، ولكن عليه أن يؤدي ما يكلف به بعشق ، ويحاول أن يزيد فيه ، وبذلك يؤدي " الفرض " والزائد على الفرض وهو " النافلة " .

ونحن هنا في قضية الاستغفار ﴿ وَمَا كَانَ استغفار إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾

وهنا وقفة توضح لنا طبع سيدنا إبراهيم كأواه حليم ، والأواه هو الذي يكثر التوجع والتأوه

على نفسه مخافة من الله ، وعلى الناس إن رأى منهم معصية ، فيحدث نفسه بما سوف يقع عليهم من عذاب ، إنه يشعل نفسه بأمر غيره ، فهذه فطرته ، وهو أواه لأن التأوه لون من السلوى يجعلها الله في بعض عباده للتسرية عن عبادٍ له آخرين .

ولذلك يقول الشاعر :

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءةٍ . . . يواسيك أو يسلّيك أو يتوجع

أي : أنه إذا إصابت الإنسان مصيبة فهو يشكو إلى صاحب المروءة ، فإما أن يساعده في مواجهة المشكلة ، وإما أن يواسيه ليحمل عنه المصيبة ، بأن يتأوه له ويشاركه في تعبه لمصيبته ، وهذا التأوه علامة رقة الرأفة وشفافية الرحمة في النفس البشرية .

(264/350)

فإبراهيم ﴿ أَوَّاهٌ ﴾ ، وهذا طبع فيه يسلكه مع كل الناس ، فما بالك إن كان لقريب له ؟ لا بد إذن أن يكثر من التأوه ، وخصوصاً إن كان الأمر يتعلق بأبيه ، ومع ذلك أراد الله أن يضع طبع إبراهيم عليه السلام في التأوه في موضعه الصحيح ، ولكن الله أوضح له : إياك أن تستغفر لأبيك ولا شأن لك به ، فالمسألة ليست في الطبع ، ولكن في رب الطبع الذي أمر بذلك .

وهنا قضية هامة أحب أن تصفى بين مدارس العلم والعلماء في العالم كله ؛ لأنها مسألة تسبب الكثير من المشاكل ، وتثار فيها أقضية كثيرة .

لقد أمر الحق سبحانه إبراهيم عليه السلام ألا يستغفر لأبيه ، بعد أن تبين له أنه عدو لله ، وما دام والد إبراهيم قد وصف بهذه الصفة وأنه عدو الله ومحمد صلى الله عليه وسلم من نسل إبراهيم إذن : فلماذا يقول الرسول : " إنني خيار من خيار من خيار " ؟ ولو فهمنا قول الحق : إن أبا إبراهيم عدو لله ، ففي هذا نقض لحديث رسول الله ، وما دام أبو إبراهيم كان عدوا لله وتبرأ منه وقال له الحق : لا تستغفر . إذن : ففي نسبه صلى الله عليه وسلم أحد أعداء الله ، وفي ذلك نقض لقوله صلى الله عليه وسلم : " خيار من خيار خيار ، ما زلت أنتقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات "

ولهذا نريد أن نصفي هذه المسألة تصفية علماء ، لا تصفية غوغاء ، ولنسأل من هو الأب ؟ الأب هو من نَسَلَكَ وأنجبك ، أو نسل من نسلك . إذن : فهناك أب مباشر وأبوه يعتبر أبا لك أيضاً إلى أن تنتهي لآدم ، هذا هو معنى كلمة " الأب " كما نعرفه ، لكننا نجد ان القرآن قد تعرض لها بشكل أعمق كثيراً من فهمنا التقليدي ، وأغنى السور بالتعرض لهذه المادة " سورة يوسف " ؛ لأن مادة " الأب " جاءت ثماني وعشرين مرة خلال هذه السورة ، فمثلاً تجد في أوائل سورة يوسف ، قول يوسف عليه السلام : ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يا أبت

إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً . . . ﴾

[يوسف : 4]

(265/350)

وبعد ذلك جاءت السورة بأن الله سوف يجتبئ يوسف ويعلمه من تأويل الأحاديث : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [يوسف : 6]

والأبوان المقصودان هما إبراهيم وإسحاق عليهما السلام ، ثم قال الحق من بعد ذلك : ﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إلى أَبِينَا . . . ﴾ [يوسف : 8]

ثم جاء قوله الحق على لسان إخوة يوسف : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [يوسف : 8]

وفي نفس السورة يقول الحق عن إخوة يوسف : ﴿ اقتلوا يُوسُفَ أَوِ اطرحوه أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ . . . ﴾ [يوسف : 9]

ثم يمهد إخوة يوسف للتخلص منه ، فيبدأون بالحوار مع الأب : ﴿ قَالُواْ يا أبانا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا على يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [

يوسف : 11-12]

وبعد أن ألقوه في غيابة الجب ، وعادوا إلى والدهم : ﴿ وجآءوا أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ [يوسف : 16]

وكانت هذه هي المرة الثامنة في ذكر كلمة أب في سورة يوسف ، ثم تأتي التاسعة : ﴿ قَالُواْ ياأبانآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا . . . ﴾ [يوسف : 17]

ثم تدور أحداث القصة إلى أن دخل سيدنا يوسف السجن ، وقابل هناك اثنين من المسجونين وأخبراه أنهما يريانه من المحسنين ، وأن عندهما رؤى يريدان منه أن يفسرها لهما فقال لهما : ﴿ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ . . . ﴾ [يوسف : 37]

(266/350)

وينسب ذلك الفضل إلى الحق سبحانه فيقول : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بالله وَهُمْ بالآخرة هُمْ كَافِرُونَ * واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . ﴾ [يوسف : 37-38]

وهكذا ذكر اسم ثلاثة من آبائه : إبراهيم وإسحق ويعقوب عليهم السلام .

ثم خرج يوسف من السجن وتولى أمر تنظيم اقتصاد مصر ، وجاء إخوته للتجارة فعرفهم ، ويحكى للقرآن عن لقائه بهم دون أن يعرفوه ، وقال : ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ . . . ﴾ [يوسف : 59]

وقال أيضاً : ﴿ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ [يوسف : 61]

ثم عادوا إلى أبيهم يرجونه أن يسمح لهم باصطحاب أخيهم الأصغر معهم ، وسمح لهم يعقوب عليه السلام باصطحابه بعد أن آتوه موثقاً من الله أن يأتوه به إلا أن يحيط بهم أمر خارج عن إرادتهم ، ونزلوا مصر وطلبوا الميرة . ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ * قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ * قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ * قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ * قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ * قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ . . . ﴾ [يوسف : 70-75]

قالوا : ﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [يوسف : 78]

قال يوسف : ﴿ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ . . . ﴾ [يوسف : 79]

ويأمرهم سيدنا يوسف عليه السلام : ﴿ ارجعوا إلى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يا أبانا إِنَّ ابنك سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ [يوسف : 81]

ويعودون إلى أبيهم الذي يعاتبهم : ﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً . . . ﴾ [يوسف : 83]

ثم يأمرهم أن يعودوا مرة أخرى قائلاً : ﴿ يا بني اذهبوا فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ . . . ﴾ [يوسف : 87]

وعندما عرفهم يوسف بنفسه وعلم منهم أن والدهم قد صار أعمى قال لهم : ﴿ اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً ﴾ [يوسف : 93]

ثم يأمرهم يوسف عليه السلام بأن يأتوا بأهلهم أجمعين . ﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ العير قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ [يوسف : 94]

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العرش وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدَاً وَقَالَ يا أبت هذا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ . . . ﴾ [يوسف : 100]

وما يهمنا في كل ذلك آيتان اثنتان : الأولى هي قوله سبحانه : ﴿ وكذلك يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأحاديث وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وعلى آلِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَآ على أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [يوسف : 6]

وإسحق هو أبو يعقوب ، وإبراهيم هو الأب الثالث . وحين قال يوسف : ﴿ واتبعت مِلَّةَ آبَآئِي . . . ﴾ [يوسف : 38] .

و" أبائي " جمع أب . وعندما أراد أن يذكر الأعلام من آبائه قال : ﴿ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ . . . ﴾ [يوسف : 38] .

(268/350)

ويعقوب هو أبو يوسف ، وإسحق أبو يعقوب ، وإبراهيم أبو إسحق ، إذن : فإبراهيم أب ، وإسحق أب ، ويعقوب أب . وهكذا نرى أن كلمة " الأب " تطلق على الجد ، وآباء الجد إلى آدم . وإذا نظرت في سورة البقرة تجد قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الموت إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إلهك وإله آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ . . . ﴾ [البقرة : 133]

ومقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحاداً ، وهكذا يكون إبراهيم أباً ، وإسماعيل أباً ، وإسحق أباً ، ولكن إسماعيل أخ لإسحق ، إذن فقد أطلق الأب هنا وأريد به العم ، وهكذا ترى أنه إذا ألحق بكلمة " أب " اسم معين هو المقصود بها ، فالمعنى ينصرف إما إلى الجد وإما إلى العم ، وإن جاءت من غير تحديد الاسم ، فهي تنصرف إلى الأب المباشر

فقط .

والحق يقول في شأن إبراهيم مع أبيه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ . . . ﴾ [الأنعام : 74]

لقد ذكر الحق هنا اسم الأب وحدده ب " آزر " ولو أنه أبوه حقيقة لما قال آزر ، مثلما يأتيك إنسان ليسأل : أين أبوك ؟ هنا نفهم أن السؤال ينصرف إلى الأب المباشر ، لكن إذا قال : هل أبوك محمد هنا ؟ فهذا التحديد قد ينصرف إلى العم .

إذن : قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يبين لنا أن آزر ليس هو الصُّلب الذي انحدر منه رسول الله ، ولكنه عمه ، وبذلك نحل الإشكال واللغز الذي حير الكثيرين .

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا آيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 114]

و " الحليم " هو خلق يجعل صاحبه صبوراً على الأذى صفوحاً عن الذنب .

(269/350)

وقد شغل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإخوانهم المؤمنين ، الذين ماتوا قبل أن تكتمل عندهم أحكام الإسلام ؛ لأن منهج الإسلام نزل في " ثلاثة وعشرين عاماً " . وليس

من المفروض فيمن آمن أن يأتي بكل أحكام الإسلام عند بداية آياته ، بل قد يكون قد آمن فقط بالشهادة ، فاعتبر مسلماً ، ومثال هذا مخيريق اليهودي الذي لم يصل ركعة واحدة في الإسلام ؛ لأن الحرب قامت بعد إسلامه مباشرة ، وقال : مالي كله لمحمد وسأذهب لأحارب معه ، وحارب فقتل ، وهكذا صار شهيداً . لأنه لم يمكث زمناً ينفذ فيه ما جاء به الإسلام قبل ذلك .

ومن باب أولى أن الذي مات قبل أن تتم أحكام الإسلام يعتبر مسلماً ، والذي مات مثلاً قبل أن تحرم الخمر تحريماً نهائيّاً ، أيقال : إنه عاصٍ أو كافر ؟ لا ، إنه مسلم ، والذي مات قبل أن يعلم أن القبلة قد حولت من بيت المقدس إلى الكعبة يعتبر مسلماً وشاء الحق أن يبين للمسلمين ألا يحزنوا على هؤلاء ، فنزل الوحي : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 115]

وهذا يوضح ما نعرفه في عرف التقنين البشري أنه لا جريمة إلا بنص ، ولا عقوبة إلا بتشريع ، فنحن لا نعاقب إلا بعد تحديد الفعل الذي يعاقب عليه ، وأن يكون النص المحدد للجريمة والعقوبة سابقاً على الفعل .

إذن : لا عقوبة بتجريم ، ولا تجريم إلا بنص . والذي لم يبلغه النص ؛ لأنه مات قبل أن يوجد النص ؛ لأنه لا رجعية في القانون السماوي ، إنما الرجعية فقط عند البشر ؛ ولذلك نجد الحق يقول في كثير من الآيات : ﴿ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ . . . ﴾ [النساء : 22]

إذن : فلا تحزنوا على من مات من إخوانكم قبل أن يستكمل الإسلام كل أحكامه .

فإسلامهم هو ما بلغهم من هذه الأحكام ؛ فإن أدوها استووا بالذي يؤديها بعد أن تتم أركان الإسلام كلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(270/350)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "إن إبراهيم لأواه حليم " وفى سورة هود : "إن إبراهيم لحليم أواه منيب "

فتقدم فى الأولى الوصف بأواه على حليم وتأخر فى الثانية وتقدم فيها وصفه بحليم .

ووجه ذلك والله أعلم ان الأواه الكثير التأوه وفى كتاب ابن عطية أن التأوه التفجع فالمراد بالآية أن إبراهيم عليه السلام مع غلظة أبيه وقساوته حتى قال له "لئن لم تنته لأرجمنك "

وابراهيم عليه السلام مع ذلك يتأوه تأسفا وتحسرا على اباية أبيه عن إجابته واتباعه مع تلطف إبراهيم عليه السلام فى قوله دعاء لأبيه إلى الإيمان فى إخبار الله تعالى عنه : "يأبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا " إلى قوله : "يأبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا " فكان عليه السلام لفرط ترحمه ورأفته وحلمه

يتعطف على أبيه ويستغفر له ولم يزل على ذلك إلى أن قطع من حاله وتبين له أنه عدو الله فتبرأ منه فإخبر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم بما كان من أبيه إبراهيم فى ذلك ليقتدى به ويهتدى بهديه فقال تعالى : "ما كان لنبى والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم " وأعلمه تعالى بعذر إبراهيم فى استغفاره وان ذلك كان عن موعدة تقدمت منه لأبيه فتقدم وصف إبراهيم عليه السلام فى هذه الآية بأنه أواه وذلك مناسب لما بيناه أما آية هود فمنزلة على ما ذكر سبحانه من مجادلته فى قوم لوط جريا على ما وصفه سبحانه به من الحلم فكان تقديم وصفه هنا بالحلك أنسب وأجرى على ما بنى عليه فوضح ورود كلا الموضعين على ما يجب ويناسب ولا يمكن عكس الوارد والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 236 ﴾

(271/350)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل ، وعبد الله بن أبي أمية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم " أي عم ، قل لا إله إلا الله أحاج لك بها عند الله . فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ وجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه وأبو جهل وعبد الله يعاونانه بتلك المقالة . فقال أبو طالب آخر ما كلمهم : هو على ملة عبد المطلب ، وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لأستغفرن لك ما لم أنه عنك . فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ الآية . وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء ﴾ [القصص : 56] ".

وأخرج الطيالسي وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي والنسائي وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والحاكم وصححه وابن مردويه والبيهقي في شعب الإِيمان والضياء في المختارة عن علي قال : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت : تستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقال : أو لم يستغفر إبراهيم لأبيه ؟ فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ الآية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قال : كانوا يستغفرون لهم حتى نزلت هذه الآية ، فلما نزلت امسكوا عن الاستغفار لأمواتهم ولم ينهوا أن يستغفروا للأحياء حتى يموتوا ، ثم أنزل الله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ الآية . يعني استغفر له ما كان حياً ، فلما مات أمسك عن الاستغفار .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : لما مرض أبو طالب أتاه النبي صلى الله عليه وسلم فقال المسلمون : هذا محمد صلى الله عليه وسلم يستغفر لعمه وقد استغفر إبراهيم لأبيه فاستغفروا لقراباتهم من المشركين . فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ ثم أنزل الله تعالى ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ قال : كان يرجوه في حياته ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه

﴾ .

وأخرج ابن جرير من طريق شبل عن عمرو بن دينار " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك ، فلا أزال استغفر لأبي طالب حتى ينهاني عنه ربي . وقال أصحابه : لنستغفرن لآبائنا كما استغفر النبي صلى الله عليه وسلم لعمه ، فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ إلى قوله ﴿ نبرأ منه ﴾ " .

(273/350)

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن المسيب قال : " لما حضرت أبا طالب الوفاة ، أتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : أي عم ، إنك أعظم عليَّ حقاً من والدي فقل كلمة يجب لك بها الشفاعة يوم القيامة ، قل لا إله إلا الله . فذكر نحو ما تقدم " .

وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : " ذكر لنا أن رجالاً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : يا نبي الله إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الرحم ، ويفك العاني ، ويوفي بالذمم ، أفلا نستغفر لهم ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم " والله لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه . فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . . . ﴾ الآية ثم عذر الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام فقال : ﴿ وما كان

استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ إلى قوله ﴿ تبرأ منه ﴾ وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : أوحى إليّ كلمات قد دخلن في أذني ووقرن في قلبي ، أمرت أن لا أستغفر لمن مات مشركاً ، ومن أعطى فضل ماله فهو خير له ، ومن أمسك فهو شر له ، ولا يلوم الله على كفاف " " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن علي قال " أخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب ، فبكى فقال : اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه . ففعلت وجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر له أياماً ولا يخرج من بيته ، حتى نزل جبريل عليه السلام عليه بهذه الآية ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ " .

(274/350)

وأخرج ابن سعد وأبو الشيخ وابن عساكر من طريق سفيان بن عيينة عن عمر قال : " لما مات أبو طالب قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم " رحمك الله وغفر لك ، لا أزال أستغفر لك حتى ينهاني الله ، فأخذ المسلمون يستغفرون لموتاهم الذين ماتوا وهم مشركون ، فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . . . ﴾ الآية . فقالوا : قد استغفر إبراهيم لأبيه فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة

وعدها إياه . . . ﴾ الآية . قال : فلما مات على كفره تبين له أنه عدوّ لله " " .

وأخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن الحسن قال : لما مات أبو طالب قال النبي صلى الله عليه وسلم " إن إبراهيم استغفر لأبيه وهو مشرك وأنا أستغفر لعمي حتى أبلغ ، فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ يعني به أبا طالب فاشتد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ يعني حين قال ﴿ سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ﴾ [مريم : 47] ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله ﴾ يعني مات على الشرك ﴿ تبرأ منه ﴾ " .

وأخرج ابن جرير من طريق عطية العوفي عن ابن عباس في قوله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا . . . ﴾ الآية . قال إن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يستغفر لأبيه ، فنهاه الله عن ذلك قال " فإن إبراهيم قد استغفر لأبيه . فنزلت ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه ﴾ الآية . قلت إن هذا الأثر ضعيف معلول ، فإن عطية ضعيف وهو مخالف لرواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس السابقة ، وتلك أصح وعلى ثقة جليل " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه من طريق عكرمة عن ابن عباس " أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أقبل من غزوة تبوك اعتمر ، فلما هبط من ثنية عسفان أمر أصحابه أن يستندوا إلى العقبة حتى أرجع إليكم ، فذهب فنزل على قبر أمه آمنة ، فناجى ربه طويلاً ، ثم انه بكى فاشتد بكاؤه ، فبكى هؤلاء لبكائه فقالوا : يا نبي الله بكينا لبكائك . قلنا لعله أحدث في أمتك شيء لم يطقه فقال : لا ، وقد كان بعضه ولكني نزلت على قبر أمي فدعوت الله تعالى ليأذن لي في شفاعتها يوم القيامة ، فأبى أن يأذن لي فرحمتها وهي أمي فبكيت ، ثم جاءني جبريل عليه السلام فقال ﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ الآية . فتبرأ أنت من أمك كما تبرأ إبراهيم من أبيه فرحمتها وهي أمي ، فدعوت ربي أن يرفع عن أمتي أربع فرفع عنهم اثنتين وأبى أن يرفع عنهم اثنتين . دعوت ربي أن يرفع عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأن لا يلبسهم شيعاً ، وأن لا يذيق بعضهم بأس بعض ، فرفع الله عنهم الرجم من السماء والغرق من الأرض ، وأبى أن يرفع عنهم القتل والهرج . قال : وإنما عدل إلى قبر أمه لأنها كانت مدفونة تحت كدي " وكانت عسفان لهم وبها ولد النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم والحاكم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن مسعود قال " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً إلى المقابر ، فاتبعناه فجاء حتى جلس إلى قبر منها ، فناجاه طويلاً ثم بكى فبكينا لبكائه ، ثم قام فقام إليه عمر ، فدعاه ثم دعانا فقال : ما

أبكاكم ؟ قلنا : بكينا لبكائك . قال : إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة ، وإني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي ، وإني استأذنت ربي في الاستغفار لها فلم يأذن لي ، وأنزل علي ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ فأخذني ما يأخذ الولد للوالدة من الرقة ، فذلك الذي أبكاني " .

(276/350)

وأخرج ابن مردويه عن بريدة قال "كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ وقف على عسفان ، فنظر يميناً وشمالاً فأبصر قبر أمه آمنة ، ورد الماء فتوضأ ثم صلى ركعتين ودعا فلم يفجأنا إلا وقد علا بكاؤه فعلا بكاؤنا لبكائه ، ثم انصرف إلينا فقال : ما الذي أبكاكم ؟ قالوا : بكيت فبكينا يا رسول الله . قال : وما ظننتم ؟ قالوا : ظننا أن العذاب نازل علينا بما نعمل . قال : لم يكن من ذلك شيء . قالوا : فظننا أن أمتك كلفت من الأعمال ما لا يطيقون فرحمتها . قال : لم يكن من ذلك شيء ، ولكن مررت بقبر أمي آمنة فصليت ركعتين ، فاستأذنت ربي أن استغفر لها فنهيت ، فبكيت ثم عدت فصليت ركعتين فاستأذنت ربي أن أستغفر لها ، فزجرت زجراً فعلا بكائي ثم دعا براحلته فركبها

، فما سار إلا هنية حتى قامت الناقة لثقل الوحي ، فأنزل الله ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين . . . ﴾ الآيتين " .

(277/350)

وأخرج ابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وتعقبه الذهبي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال " جاء ابنا مليكة – وهما من الأنصار – فقالا : يا رسول الله إن أمنا كانت تحفظ على البعل وتكرم الضيف ، وقد وُئدت في الجاهلية فأين أمنا ؟ فقال : أمكما في النار . فقاما وقد شق ذلك عليهما ، فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجعا ، فقال : ألا أن أمي مع أمكما فقال منافق من الناس : أما ما يغني هذا عن أمه إلا ما يغني ابنا مليكة عن أمهما ونحن نطأ عقبيه . فقال شاب من الأنصار لم أر رجلاً أكثر سؤالاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم منه : يا رسول الله وأين أبواك ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما سألتهما ربي فيطيعني فيهما . وفي لفظ : فيطعمني فيهما ، وإني لقائم يومئذ المقام المحمود ، فقال المنافق للشاب الأنصاري : سله وما المقام المحمود ؟ قال : يا رسول الله وما المقام المحمود ؟ قال : ذاك يوم ينزل الله فيه على كرسيه يئط فيه كما يئط الرحل الجديد من تضايقه ، وهو كسعة ما بين السماء والأرض ، ويجاء بكم حفاة عراة غرلاً ، فيكون أول من

يكسى إبراهيم . يقول الله : اكسوا خليلي . فيؤتى بريطتين بيضاوين من رياط الجنة ثم اكسى على أثره ، فأقوم عن يمين الله مقاماً يغبطني فيه الأوّلون والآخرون ، ويشق لي نهر من الكوثر إلى حوضي قال : يقول المنافق : لم أسمع كاليوم قط لقلما جرى نهر قط إلا في إحالة أو رضراض ، فسله فيم يجري النهر إليهم ؟ قال : في إحالة من المسك ورضراض . قال : يقول المنافق : لم أسمع كاليوم قط . والله لقلما جرى نهر قط إلا كان له نبات ، فسله هل لذلك النهر نبات ؟ فقال الأنصاري : يا رسول الله هل لذلك النهر نبات ؟ قال : نعم . قال : ما هو ؟ قال : قضبان الذهب . قال : يقول المنافق : لم أسمع كاليوم قط والله ما نبت قضيب إلا كان له ثمر ، فسله هل لتلك القضبان ثمار ؟ فسأل الأنصاري قال : يا رسول الله هل لتلك القضبان ثمار ؟ قال : نعم ،

(278/350)

اللؤلؤ والجوهر . فقال المنافق : لم أسمع كاليوم قط ، فسله عن شراب الحوض ؟ فقال الأنصاري : يا رسول الله ما شراب الحوض ؟ قال : أشد بياضاً من اللبن ، وأحلى من العسل ، من سقاه الله منه شربة لم يظمأ بعدها ، ومن حرمه لم يرو بعدها " .

وأخرج ابن سعد عن الكلبي وأبي بكر بن قيس الجعفي قالا : "كانت جعفى يحرمون

القلب في الجاهلية ، فوفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان منهم قيس بن سلمة ، وسلمة بن يزيد ، وهما أخوان لأُم ، فاسلما فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم " بلغني أنكما لا تأكلان القلب . قالا : نعم . قال : فإنه لا يكمل إسلامكما إلا بأكله . ودعا لهما بقلب فشوي وأطعمه لهما . فقالا : يا رسول الله إن أمنا مليكة بنت الحلو ، كانت تفك العاني ، وتطعم البائس ، وترحم الفقير ، وإنها ماتت وقد وأدت بنية لها صغيرة فما حالها ؟ فقال : الوائدة والموءودة في النار . فقاما مغضبين . فقال : إلي . فارجعا ، فقال : وأمي مع أمكما . فأبيا ومضيا وهما يقولان : والله إن رجلاً أطعمنا القلب وزعم أن أمنا في النار لأهل أن لا يتبع ، وذهبا فلقيا رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معه إبل من إبل الصدقة ، فأوثقاه وطردا الإِبل ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فلعنهما فيمن كان يلعن في قوله : لعن الله رعلاً وذكوان وعصية ولحيان ، وابني مليكة من حريم وحران " " .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وقضى ربك ألاَّ تعبدوا إلا إياه ﴾ [الإِسراء : 23] إلى قوله ﴿ كما ربياني صغيراً ﴾ [الإِسراء : 24] قال : ثم استثنى فقال ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ إلى قوله ﴿ عن موعدة وعدها إياه ﴾ .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله ﴾ قال : تبين له حين مات ، وعلم أن التوبة قد انقطعت عنه .

(279/350)

وأخرج الفريابي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وأبو بكر الشافعي في فوائده والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتى مات ، فلما مات تبين له أنه عدوّ لله فتبرأ منه .

وأخرج عبد الرزاق عن ابن عباس ﴿ فلما تبين له أنه عدوّ لله ﴾ يقول : لما مات على كفره .

أما قوله تعالى : ﴿ إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي ذر رضي الله عنه قال : "كان رجل يطوف بالبيت ويقول في دعائه : أوّه أوّه . . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إنه لأوّاه " " .

وأخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في شعب الإيمان عن كعب رضي الله عنه في قوله ﴿ إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾

قال : كان إبراهيم عليه السلام إذا ذكر النار قال : أوّه من النار أوّه .

وأخرج أبو الشيخ عن أبي الجوزاء . مثله .

وأخرج ابن مردويه عن جابر رضي الله عنه " أن رجلاً كان يرفع صوته بالذكر فقال رجل : لو أن هذا خفض صوته . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإنه أوّاه " .

وأخرج الطبراني وابن مردويه عن عقبة بن عامر رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل يقال له ذو البجادين : إنه أوّاه ، وذلك أنه كان يكثر ذكر الله بالقرآن والدعاء " .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن النبي صلى الله عليه وسلم أدخل ميتاً القبر ، وقال : رحمك الله ان كنت لأوّاهاً تلاء للقرآن " . وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبد الله بن شداد بن الهاد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " الأوّاه : الخاشع المتضرع " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبراني وأبو الشيخ عن ابن مسعود قال : الأوّاه : الدعاء .

وأخرج أبو الشيخ عن زيد بن أسلم قال : الأوّاه الدعاء المستكين إلى الله كهيئة المريض المتأوّه من مرضه .

وأخرج عبد الرزاق والفريابي وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وأبو الشيخ عن أبي العبيدين قال : سألت عبد الله بن مسعود عن الأوّاه فقال : هو الرحيم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس قال : الأوّاه المؤمن التوّاب .

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال : الأوّاه الحليم المؤمن المطيع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن أبي أيوب قال : الأوّاه الذي إذا ذكر خطاياه استغفر منها .

وأخرج ابن جرير من طريق العوفي عن ابن عباس قال : الأوّاه المؤمن بالحبشية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : الأوّاه الموقن .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق أبي ظبيان عن ابن عباس قال : الأوّاه الموقن بلسان الحبشية .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الأوّاه الموقن بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : الأوّاه الموقن بلسان

الحبشة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال : الأوّاه الموقن بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير عن عطاء قال : الأوّاه الموقن بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : الأوّاه الموقن بلسان الحبشة .

وأخرج ابن المنذر عن عكرمة قال : الأوّاه الموقن ، وهي كلمة حبشية .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من وجه آخر عن مجاهد قال : الأوّاه الفقيه الموقن .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : الأوّاه الشيخ .

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن أبي ميسرة قال : الأوّاه الشيخ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عمرو بن شرحبيل قال : الأوّاه الرحيم بلسان الحبشة .

وأخرج ابن المنذر عن عمرو بن شرحبيل قال : الأوّاه الدعاء بلسان الحبشة .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : الأوّاه المسيح .

وأخرج البخاري في تاريخه عن الحسن قال : الأوّاه الذي قلبه معلق عند الله .

وأخرج أبو الشيخ عن إبراهيم قال : كان إبراهيم يسمى الأوّاه لرقته ورحمته .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ قال : الحليم الرحيم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ قال : كان من حلمه أنه كان إذا أذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله .

وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس قال : ما أنزل شيء من القرآن إلا وأنا أعلمه إلا أربع آيات . إلا ﴿ الرقيم ﴾ [الكهف : 9] فإني لا أدري ما هو فسألت كعباً ؟ فزعم أنها القرية التي خرجوا منها ﴿ وحناناً من لدنا وزكاة ﴾ [مريم : 13] قال : لا أدري ما الحنان ولكنها الرحمة ﴿ والغسلين ﴾ [الحاقة : 36] لا أدري ما هو ولكني أظنه الزقوم . قال الله ﴿ إن شجرة الزقوم طعام الأثيم ﴾ [الدخان : 42 - 43] قال : والأوّاه هو الموقن بالحبشية .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الأوّاه المؤمن .

وأخرج أبو الشيخ عن مجاهد قال : الأوّاه المنيب الفقير .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن عقبة بن عامر قال : الأوّاه الكثير ذكر الله .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ وما كان

الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ قال : بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه طاعته ومعصيته عامة ما فعلوا أو تركوا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ قال : ما يأتونه وما ينتهون عنه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(282/350)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ : اختُلِف في الضمير المرفوع والمنصوب المنفصل فقيل : وهو الظاهر إن المرفوع يعود على إبراهيم ، والمنصوبَ على أبيه ، يعني أن إبراهيم كان وعد أباه أن يستغفرَ له . ويؤيد هذا قراءةُ الحسن وحماد الرواية وابن السَّميفع وأبي نهيك ومعاذ القارىء " وعدها أباه " ، بالباء الموحدة . وقيل : المرفوع لأبي إبراهيم والمنصوب لإبراهيم ، وفي التفسير أنه كان وَعَدَ إبراهيمَ أنه يؤمن ، فبذلك طَمِع في إيمانه .

والأَوَّاه . الكثير التأَوُّه ، وهو مَنْ يقول : أَوَّاه ، وقيل : مَنْ يقول أوَّه ، وهو أَنْسَبُ لأن أَوَّهَ بمعنى أتوجع ، فالأَوَّاه فعَّال ، مثالُ مبالغة من ذلك ، وقياسُ فعِله أن يكون ثلاثياً لأن أمثلة المبالغة إنما تَطَّرد في الثلاثي . وقد حكى قطرب فعله ثلاثياً فقال : يقال آهَ يَؤُوه كقام يقوم ، أَوْهاً . وأنكر النحويون هذا القول على قطرب ، وقالوا : لا يُقال مِنْ أَوَّه بمعنى الوَجَع فعلٌ ثلاثي ، إنما يقال : أوَّه تأَوْيهاً ، وتَأَوَّه تَأَوُّهاً . قال الراجز :

2547 فأَوَّه الراعي وضوضى أَكْلُبه . . . وقال المثقب العبدي :

2548 إذا ما قُمْتُ أَرْحَلُها بليلٍ . . . تأَوَّهُ آهَةَ الرجلِ الحزينِ

(283/350)

وقال الزمخشري : " أَوَّاه فَعَّال مِنْ أَوَّه كلأَّل من اللؤلؤ ، وهو الذي يُكثر التأَوُّه " ، قال الشيخ : " وتشبيهه أوَّاه مِنْ أوَّه كلأَّل من اللؤلؤ ليس بجيدٍ ، لأنَّ مادةَ أوَّه موجودة في صورة أواه ، ومادة " لؤلؤ " مفقودةٌ في لأل لاختلاف التركيب إذ " لأل " ثلاثي ، و " لؤلؤ " راعي ، وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية " . قلت : لأَّل ولؤلؤ كلاهما من الرباعي المكرر ، أي : إن الأصل لام وهمزة ، ثم كرَّرْنا ، غاية ما في الباب أنه اجتمع الهمزتان في لأَّل فأُدْغمت

أولاها في الأخرى ، وفُرِّق بينهما في : " لؤلؤ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 132.130 ﴾

(284/350)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) ﴾

لما أَمَرَ المسلمين بالتبرّي عن المشركين والإعراض عنهم والانقباض عن الاستغفار لهم بَيَّنَ أنَّ هذا سبيلُ الأولياء ، وطريقُ الأنبياء عليهم السلام ، وأَنَّ إبراهيمَ – عليه السلام – وإنْ استغفر لأبيه فإنما كان مِنْ قَبْل تَحَقُّقِهِ بأنه لا يُؤْمِنُ ، فلمَّا عَلِمَ أنه عدوٌّ لله أَظْهَرَ البراءةَ منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 69 ﴾

(285/350)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الحادى والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

الجزء الحادى والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 115 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 118 ﴾ من نفس السورة

(4/351)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما كان الاستغفار للمشركين أمراً عظيماً ، وكان فيه نوع ولاية لهم ، أظهر سبحانه للمؤمنين ما منّ عليهم به من عدم المؤاخذة بالإقدام عليه تهويلاً لذلك وقطعاً لما بين أوج الإيمان وحضيض الكفران بكل اعتبار فقال تعالى : ﴿ وما كان الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ؛ ولما كان الضلال سبب الهلاك ، وكان من شرع شريعة ثم عاقب ملتزمها من غير بيان كمن دل على طريق غير موصل فهلك صاحبه فكان الدال بذلك مضلاً ، قال : ﴿ ليضل قوماً ﴾ أي يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لأجل ارتكابهم لما ينهي عنه

بناسخ نسخه ﴿ بعد إذ هداهم ﴾ أي بشريعة نصبها لهم ﴿ حتى يبين لهم ﴾ أي بياناً شافياً لداء العي ﴿ ما يتقون ﴾ أي مما هو جدير بأن يحذروه ويتجنبوه خوفاً من غائلته بناسخ ينسخ حال الإباحة التي كانوا عليها .

ولما كان الذي يأمر بسلوك طريق ثم يترك فيها ما يحتاج إلى البيان إنما يؤتى عليه من الجهل أو النسيان .

نفي ذلك سبحانه عن نفسه فقال معللاً لعدم الإضلال : ﴿ إن الله ﴾ أي المحيط بصفات الكمال ﴿ بكل شيء عليم ﴾ أي بالغ العلم فلا يتطرق إليه خفاء بوجه من الوجوه في حين من الأحيان فهو يبين لكم جميع ما تأتون وتذرون وما يتوقف عليه الهدى ، وما تركه فهو إنما يتركه رحمة لكم ﴿ لا يضل ربي ولا ينسى ﴾ [طه : 52] فلا تبحثوا عنه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 394 . 395 ﴾

(5/351)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما منع المؤمنين من أن يستغفروا للمشركين ، والمسلمون كانوا قد استغفروا للمشركين قبل نزول هذه الآية ، فإنهم قبل نزول هذه الآية كانوا يستغفرون لآبائهم وأمهاتهم وسائر أقربائهم ممن مات على الكفر ، فلما نزلت هذه الآية خافوا بسبب ما صدر عنهم قبل ذلك من الاستغفار للمشركين .

وأيضاً فإن أقواماً من المسلمين الذين استغفروا للمشركين ، كانوا قد ماتوا قبل نزول هذه الآية ، فوقع الخوف عليهم في قلوب المسلمين أنه كيف يكون حالهم ، فأزال الله تعالى ذلك الخوف عنهم بهذه الآية ، وبين أنه تعالى لا يؤاخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم أنه يجب عليهم أن يتقوه ويحترزوا عنه .

فهذا وجه حسن في النظم .

وقيل : المراد إن من أول السورة إلى هذا الموضع في بيان المنع من مخالطة الكفار والمنافقين ، ووجوب مباينتهم ، والاحتراز عن موالاتهم ، فكأنه قيل : إن الإله الرحيم الكريم كيف يليق به هذا التشديد الشديد في حق هؤلاء الكفار والمنافقين ؟ فأجيب عنه بأنه تعالى لا يؤاخذ أقواماً بالعقوبة بعد إذ دعاهم إلى الرشد حتى يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ، فأما

بعد أن فعل ذلك وأزاح العذر وأزال العلة فله أن يؤاخذهم بأشد أنواع المؤاخذة والعقوبة .

وفي قوله تعالى : ﴿لِيُضِلَّ﴾ وجوه : الأول : أن المراد أنه أضله عن طريق الجنة ، أي صرفه عنه ومنعه من التوجه إليه .

والثاني : قالت المعتزلة : المراد من هذا الإضلال الحكم عليهم بالضلال .

واحتجوا بقول الكميت :

(6/351)

وطائفة قد أكفروني بحبكم . . وقال أبو بكر الأنباري : هذا التأويل فاسد ، لأن العرب إذا أرادوا ذلك المعنى قالوا : ضلل يضلل ، واحتجاجهم ببيت الكميت باطل ، لأنه لا يلزم من قولنا أكفر في الحكم صحة قولنا أضل .

وليس كل موضع صح فيه فعل صح أفعل .

ألا ترى أنه يجوز أن يقال كسره ، ولا يجوز أن يقال أكسره ، بل يجب فيه الرجوع إلى السماع .

والوجه الثالث : في تفسير الآية ، وما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهدى ، حتى يكون منهم الأمر الذي به يستحق العقاب .

المسألة الثانية :

قالت المعتزلة : حاصل الآية أنه تعالى لا يؤاخذ أحداً إلا بعد أن يبين له كون ذلك الفعل قبيحاً ، ومنهياً عنه .

وقرر ذلك بأنه عالم بكل المعلومات ، وهو قوله : ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ وبأنه قادر على كل الممكنات ، وهو قوله : ﴿ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض يحي ويميت ﴾ فكان التقدير : أن من كان عالماً قادراً هكذا ، لم يكن محتاجاً ، والعالم القادر الغني لا يفعل القبيح والعقاب قبل البيان .

وإزالة العذر قبيح ، فوجب أن لا يفعله الله تعالى ، فنظم الآية إنما يصح إذا فسرناها بهذا الوجه ، وهذا يقتضي أنه يقبح من الله تعالى الابتداء بالعقاب وأنتم لا تقولون به .

والجواب : أن ما ذكرتموه يدل على أنه تعالى لا يعاقب إلا بعد التبيين ، وإزالة العذر وإزاحة العلة ، وليس فيها دلالة على أنه تعالى ليس له ذلك ، فسقط ما ذكرتموه في هذا الباب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 168 . 169 ﴾

(7/351)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾

وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم أنزل الله تعالى عليه الفرائض ، ففعل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون .

ثم إن الله تعالى أنزل ما ينسخ الأمر الأول ، وقد غاب الناس عن النبي صلى الله عليه وسلم فلم يبلغهم ذلك ، فعملوا بالمنسوخ ، وكانوا يصلون إلى القبلة الأولى ولا يعلمون ، ويشربون الخمر ولا يعلمون تحريمها ، فذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ وإن عملوا بالمنسوخ ، ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ ، يعني : ما نسخ من القرآن ، يعني : إنه قبل منهم ما عملوا بعد النسخ ولا يؤاخذهم بذلك .

ويقال : وما كان الله ليهلك قوماً ، حتى يقيم عليهم الحجة ويقال : لِيُعَذِّبَهُمْ في الآخرة ، يعني : يبين لهم ما يتقون .

ويقال : لا يتركهم بلا بيان بعد أن أكرمهم بالإيمان ، حتى يبيِّن لهم ما يحتاجون ويقال لا ينزع الإيمان عنهم بعد أن هداهم إلى الإيمان حتى يبين لهم الحدود والفرائض ، فإذا تركوا ذلك ولم يروه حقاً ، عذبهم الله تعالى ونزع عنهم المعرفة .

ويقال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ على الابتداء ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ فيصيروا فيه ضلالاً .

وهذا طريق المعتزلة والطريق الأول أصح وبه نأخذ .

ثم قال : ﴿ إن الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، يعني : عليم بكل ما يصلح للخلق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(8/351)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾

يقول : وما كان الله [ليحكم] عليكم بالضلال بعد استغفاركم للمشركين قبل أن يتقدم إليكم بالنهي .

قال مجاهد : بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة ، وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة ، فافعلوا أو ذروا .

وقال مقاتل والكلبي : لما أنزل الله تعالى الفرائض فعمل بها الناس [ثم] نسخها من القرآن وقد غاب (ناس) وهم يعملون للأمر الأول من القبلة والخمر وأشباه ذلك ، فسألوا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم عملوا بالمنسوخ ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم ﴾ قال الضحاك : ما كان الله ليضل قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون ﴿ إِنَّ اللهِ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ الآية .

سبب نزولها أن قوماً من الأعراب أسلموا وعادوا إلى بلادهم فعملوا بما شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمله من الصلاة إلى بيت المقدس وصيام الأيام البيض ، ثم قدموا بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدوه يصلي إلى الكعبة ويصوم شهر رمضان : فقالوا : يا رسول الله أضلنا الله بعدك بالصلاة . إنك على أمر وإنا على غيره فأنزل الله تعالى هذه الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(9/351)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضل قوماً ﴾ الآية

معناه التأنيس للمؤمنين ، وقيل : إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أمر من الله تعالى فنزلت الآية مؤنسة ، أي ما كان الله بعد أن هدى إلى الإسلام وأنقذ من النار ليحبط ذلك ويضل أهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه ، فأما إذا بين لهم ما يتقون

من الأمور ويتجنبون من الأشياء فحينئذ من واقع بعد النهي استوجب العقوبة ، وقيل : إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا قبل أن يصلهم ذلك إلى بيت المقدس ، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أن يصل إليهم ، فخافوا على أنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية ، والقول الأول أصوب وأليق بالآية ، وذهب الطبري إلى أن قوله ، ﴿ يحيي ويميت ﴾ إشارة إلى أنها يجب أيها المؤمنون ألا تجزعوا من عدو وإن كثر ، ولا تهابوا أحداً فإن الموت المخوف والحياة المحبوبة إنما هما بيد الله تعالى .

قال القاضي أبو محمد : والمعنى الذي قال صحيح في نفسه ولكن قوله ، إن القصد بالآية إنما هو لهذا قول يبعد ، والظاهر في الآية إنما هو لما نص في الآية المتقدمة نعمته وفضله على عبيده في أنه متى منّ عليهم بهداية ففضله أسبغ من أن يصرفهم ويضلهم قبل أن تقع منهم معصية ومخالفة أمر أتبع ذلك بأوصاف فيها تمجيد الله عز وجل وتعظيمه وبعث النفوس على إدمان شكره والإقرار بعبوديته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(10/351)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾

سبب نزولها : أنه لما نزلت آية الفرائض ، وجاء النسخ ، وقد غاب قوم وهم يعلمون بالأمر الأول مثل أمر القبلة والخمر ، ومات أقوام على ذلك ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

وقال قوم : المعنى أنه بيَّن أنه لم يكن ليأخذهم بالاستغفار للمشركين قبل تحريمه ، فإذا حرَّمه ولم يمتنعوا عنه ، فقد ضلوا .

وقال ابن الأنباري : في الآية حذف واختصار ، والتأويل : حتى يتبين لهم ما يتقون ، فلا يتقونه ، فعند ذلك يستحقون الضلال ؛ فحذف ما حذف البيان معناه ، كما تقول العرب : أمرتك بالتجارة فكسبتَ الأموال ؛ يريدون : فتجرت فكسبت . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(11/351)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾

أي ما كان الله ليوقع الضلالة في قلوبهم بعد الهُدَى حتى يُبيّن لهم ما يتّقون فلا يتقوه ، فعند ذلك يستحقون الإضلال .

قلت : ففي هذا أدلّ دليل على أن المعاصي إذا ارتكبت وانتهك حجابها كانت سبباً إلى الضلالة والردى ، وسُلَّما إلى ترك الرشاد والهدى .

نسأل الله السداد والتوفيق والرشاد بمنّه .

وقال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله في قوله : ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم ﴾ : أي حتى يحتج عليهم بأمره ؛ كما قال : ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا ﴾ [الإسراء : 16] وقال مجاهد : "حَتَّى يُبَيِّن لَهُمْ" أي أمر إبراهيم ؛ ألا يستغفروا للمشركين خاصّة ويبيّن لهم الطاعة والمعصية عامة .

وروي أنه لما نزل تحريم الخمر وشدّد فيها سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عمن مات وهو يشربها ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ وهذه الآية رد على المعتزلة وغيرهم الذين يقولون بخلق هداهم وإيمانهم ؛ كما تقدّم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(12/351)

وقال الخازن :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾

يعني : وما كان الله ليقضي عليكم بالضلال بسبب استغفاركم لموتاكم المشركين بعد أن رزقكم الهداية ووفقكم للإيمان به وبرسوله وذلك أنه لما منع المؤمنين من الاستغفار للمشركين وكانوا قد استغفروا لهم قبل المنع خافوا ما صدر منهم فأعلمهم أن ذلك ليس بضائرهم ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ يعني ما يأتون وما يذرون وهو أن يقدم إليهم النهي عن ذلك الفعل فأما قبل النهي فلا حرج عليهم في فعله وقيل : إن جماعة من المسلمين كانوا قد ماتوا قبل النهي عن الاستغفار للمشركين فلما منعوا من ذلك وقع في قلوب المؤمنين خوف على من مات على ذلك فأنزل الله هذه الآية وبين أنه لا يؤآخذهم بعمل إلا بعد أن يبين لهم ما يجب عليهم أن يتقوه ويتركوه .

وقال مجاهد : بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة .

وقال مجاهد : بيان الله للمؤمنين في ترك الاستغفار للمشركين خاصة وبيانه لهم في معصيته وطاعته عامة .

وقال الضحاك : وما كان الله ليعذب قوماً حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون .

وقال مقاتل والكلبي : هذا في أمر المنسوخ وذلك أن قوماً قدموا على النبي (صلى الله عليه وسلم) وأسلموا قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ورجعوا إلى قومهم وهم على ذلك ثم حرمت الخمر وصرفت القبلة إلى الكعبة ولا علم لهم بذلك ثم قدموا بعد ذلك إلى المدينة فوجدوا الخمر قد حرمت والقبلة قد صرفت إلى الكعبة فقالوا : يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن على ضلال فأنزل الله : ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم ﴾ يعني وما كان الله ليبطل عمل قوم وقد عملوا بالمنسوخ حتى بين الناسخ ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى عليم بما خالط نفوسكم من الخوف عندما نهاكم عن الاستغفار للمشركين ويعلم ما يبين لكم من أوامره ونواهيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(14/351)

وقال أبو حيان :

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾

مات قوم كان عملهم على الأمر الأول : كاستقبال بيت المقدس ، وشرب الخمر ، فسأل قوم

الرسول بعد مجيء النسخ ونزول الفرائض عن ذلك فنزلت .

وقال الكرماني : أسلم قوم من الأعراب فعملوا بما شاهدوا الرسول يفعله من الصلاة إلى بيت المقدس ، وصيام الأيام البيض ، ثم قدموا عليه فوجوده يصلي إلى الكعبة ويصوم رمضان ، فقالوا : يا رسول الله دنا بعدك بالضلال ، إنك على أمرٍ وأنا على غيره فنزلت .

وقيل : خاف بعض المؤمنين من الاستغفار للمشركين دون إذن من الله فنزلت الآية مؤنسة أي : ما كان الله بعد أن هدى للإسلام وأنقذ من النار ليحبط ذلك ويضل أهله لمقارفتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه .

فأما إذ بين لهم ما يتقون من الأمر ، ويتجنبون من الأشياء ، فحينئذ من واقع بعد النهي استوجب العقوبة .

وقال الزمخشري : يعني ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه ، وبين أنه محظور ، ولا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالاً ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم ، وعلمه بأنه واجب الاتقاء والاجتناب ، وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم .

وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي في هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها ، وهي أنّ المهدى للإسلام إذا أقبل على بعض محظورات الله

داخل في حكم الضلال ، والمراد بما يتقون ما يجب اتقاؤه للنهي .

فأما ما يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوديعة فغير موقوف على التوقيف انتهى .

(15/351)

وفي هذا الأخير من كلامه وفي قوله : قبل في تفسير ليضل ولا يسميهم ضلالاً ولا يخذلهم دسيسة الاعتزال ، وفي كلامه إسهاب ، وهو بسط ما قال مجاهد ، قال : ما كان ليضلكم بالاستغفار للمشركين بعد إذ هداكم للإيمان حتى يتقدم بالنهي عن ذلك ، ويبينه لكم فتتقوه انتهى .

وتقدم في أسباب النزول ما يشرح به الآية من سؤالهم عمن مات ، وقد صلى إلى بيت المقدس ، وشرب الخمر ، ومن قصة الأعراب .

والذي يظهر في مناسبة هذه الآية لما قبلها وفي شرحها : أنه تعالى لما بين أنه لا يستغفر للمشركين ولو كانوا أولي قربى ، كان في هذه الآية وفي التي بعدها تباين ما بين القرابة حتى منعوا من الاستغفار لهم ، فمنع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الاستغفار لعمه أبي طالب وهو الذي تولى تربيته ونصره وحفظه إلى أن مات ، ومنع ابراهيم من الاستغفار لأبيه وهو أصل نشأته ومربيه ، وكذلك منع المسلمون من الاستغفار للمشركين أقرباء وغير

أقرباء ، فكأنه قيل : لا تعجب لتباين هؤلاء ، هذا خليل الله ، وهذا حبيب الله ، والأقرباء المختصون بهم المشركون أعداء الله ، فإضلال هؤلاء لم يكن إلا بعد أن أرشدهم الله إلى طريق الحق بما ركز فيهم من حجج العقول التي أغفلوها ، وتبيين ما يتقون بطريق الوحي ، فتظافرت عليهم الحجج العقلية والسمعية ، ومع ذلك لم يؤمنوا ولم يتبعوا ما جاءت الرسل به عن الله تعالى ، ولذلك ختمها بقوله : إن الله بكل شيء عليم ، فيضل من يشاء ويختص بالهداية من يشاء .

فالمعنى : وما كان الله ليديم إضلال قوم أرشدهم إلى الهدى حتى يبين لهم ما يتقونه أي : يجتنبونه فلا يجدي ذلك فيهم ، فحنيئذ يدوم إضلالهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(16/351)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾

أي ليس من عادته أن يصفَهم بالضلال عن طريق الحق ويُجريَ عليهم أحكامَه ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم ﴾ بالوحي صريحاً أو دِلالةً ﴿ مَّا يَتَّقُونَ ﴾ أي ما

يجب اتقاؤُه من محظورات الدينِ فلا ينزجروا عما نُهوا عنه ، وأما قبل ذلك فلا يسمى ما صدَر عنهم ضلالاً ولا يؤاخَذون به فكأنه تسليةٌ للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك ، وفيه دليلٌ على أن الغافَل غيرُ مكلفٍ بما لا يستبدُّ بمعرفته العقلُ ﴿ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تعليلٌ لما سبق أي أنه تعالى عليمٌ بجميع الأشياءِ التي من جملتها حاجتُهم إلى بيان قُبحِ ما لا يستقلُّ العقلُ في معرفته فيبيّنُ لهم ذلك كما فعل هاهنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(17/351)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ أي ما يستقيم من لطف الله تعالى وافضاله أن يصف قوماً بالضلال عن طريق الحق ويذمهم ويجري عليهم أحكامه ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ للإسلام ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم ﴾ بالوحي صريحاً أو دلالة ﴿ مَّا يَتَّقُونَ ﴾ أي ما يجب اتقاؤه من محذورات الدين فلا ينزجروا عما نهوا عنه ، وكأنه تسلية للذين استغفروا للمشركين قبل البيان حيث أفاد أنه ليس من لطفه تعالى أن يذم المؤمنين ويؤاخذهم في الاستغفار قبل أن

يبين أنه غير جائز لمن تحقق شركه لكنه سبحانه يذم ويؤاخذ من استغفر لهم بعد ذلك .

والآية على ما روي عن الحسن نزلت حين مات بعض المسلمين قبل أن تنزل الفرائض فقال إخوانهم : يا رسول الله أخواننا الذين ماتوا قبل نزول الفرائض ما منزلتهم وكيف حالهم ؟

وعن مقاتل .

(18/351)

والكلبي أن قوماً قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم قبل تحريم الخمر وصرف القبلة إلى الكعبة ثم رجعوا إلى قومهم فحرمت الخمر وصرفت القبلة ولم يعلموا ذلك حتى قدموا بعد زمان إلى المدينة فعلموا ذلك فقالوا : يا رسول الله قد كنت على دين ونحن على غيره فنحن في ضلال فأنزل الله تعالى الآية ، وحمل الاضلال فيها على ما ذكرنا هو الظاهر وليس من الاعتزال في شيء كما توهم وكأنه لذلك عدل عنه الواحدي حيث زعم أن المعنى ما كان الله لوقع في قلوبهم الضلالة : واستدل بها على أن الغافل وهو من لم يسمع النص والدليل المسعي غير مكلف ، وخص ذلك المعتزلة بما لم يعلم بالعقل كالصدق في الخبر ورد الوديعة فإنه غير موقوف على التوقيف عندهم وهو تفريع على قاعدة الحسن والقبح العقليين ولأهل السنة فيها مقال ﴿ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ تعليل لما سبق أي إن الله تعالى عليم

بجميع الأشياء التي من جملتها حاجتهم إلى البيان فيبين لهم ، وقيل : إنه استئناف لتأكيد الوعيد المفهوم مما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(19/351)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

عطف على جملة : ﴿ وما كان استغفار إبراهيم ﴾ [التوبة : 114] لاعتذار عن النبي وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام في استغفارهما لمن استغفرا لهما من أولي القربى كأبي طالب وآزر ومن الأمة كعبد الله بن أبي بن سلول بأن فعلهما ذلك ما كان إلا رَجاءً منهما هُدى من استغفرا له ، وإعانة له إن كان الله يريده ، فلما تبين لهما الثابتُ على كفره إما بموته عليه أو باليأس من إيمانه تركا الاستغفار له ، وذلك كله بعد أن أبلغا الرسالة ونصحا لمن استغفرا له .

ولأجل هذا المعنى مهد الله لهما الاعتذار من قبل بقوله : ﴿ من بعدِ ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ [التوبة : 113] وقولِه : ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ [

التوبة : 114] .

وفي ذلك معذرة للمؤمنين المستغفرين للمشركين من أولي قرابتهم قبل هذا النهي .

فهذا من باب ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] .

وفيه تسجيل أيضاً لكون أولئك المشركين أحرياء بقطع الاستغفار لهم لأن أنبياء الله ما قطعوه عنهم إلا بعد أن أمهلوهم ووعدوهم وبينوا لهم وأعانوهم بالدعاء لهم فما زادهم ذلك إلا طغياناً .

ومعنى : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ أن ليس من شأنه وعادة جلاله أن يكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم بإرسال الرسل إليهم وإرشادهم إلى الحق حتى يبين لهم الأشياء التي يريد منهم أن يتقوها ، أي يتجنبوها .

فهنالك يُبلغ رسله أن أولئك من أهل الضلال حتى يتركوا طلب المغفرة لهم كما قال لنوح عليه السَّلام : ﴿ فلا تسألنِ ما ليس لك به علم ﴾ [هود : 46] ولا كان من شأنه تعالى أن يكتب الضلال لقوم بعد إذ هداهم للإيمان واهتدوا إليه لعمل عملوه حتى يبين لهم أنه لا يرضى بذلك العمل .

(20/351)

ثم إن لفظ الآية صالح لإفادة معنى أن الله لا يؤاخذ النبي صلى الله عليه وسلم ولا إبراهيم عليه السلام ولا المسلمين باستغفارهم لمن استغفروا له من قبل ورود النهي وظهور دليل اليأس من المغفرة ، لأن الله لا يؤاخذ قوماً هداهم إلى الحق فيكتبهم ضُلالاً بالمعاصي حتى يبين لهم أن ما عملوه معصية ، فموقع هذه الآية بعد جميع الكلام المتقدم صيّرها كلاماً جامعاً تذييلاً .

وجملة ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ تذييل مناسب للجملة السابقة ، ووقوع ﴿ إن ﴾ في أولها يفيد معنى التفريع .

والتعليل مضمون للجملة السابقة ، وهو أن الله لا يضل قوماً بعد أن هداهم حتى يبين لهم الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

وهنا الهداية هي هداية الدلالة حتى يبين لهم ما يتقون ؛ ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ أي : ما كان الله ليحكم بضلالة قوم حتى يبين لهم ما يتقون . والتقوى التزام أمر الله ونهيه ، فإذا وافقوا البيان هداهم هداية معونة ، وإذا لم يوافقوا كانوا ضالين ، وقد حكم الله بضلالة عم إبراهيم وما حكم الله بضلالته إلا بعد أن بين له منهج الهداية .

وقد بين إبراهيم لعمه منهج الهداية فلم يهتد . ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى إبراهيم ألا يستغفر له . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(21/351)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

وأخرج ابن المنذر عن يحيى بن عقيل رضي الله عنه قال : دفع إلى يحيى بن يعمر كتاباً قال : هذه خطبة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، كان يقوم فيخطب بها كل عشية خميس على أصحابه ذكر الحديث ، ثم قال : فمن استطاع منكم أن يغدو عالماً أو متعلماً فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك ، فإن العالم والمتعلم شريكان في الخير ، أيها الناس إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ فقد بين لكم ما تتقون .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد

إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى ، قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون . قال : حتى ينهاهم قبل ذلك . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(22/351)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) ﴾

إنَّ الله لا يحكم بضلالكم وذهابكم عن طريق الحقّ باستغفاركم للمشركين إلا بعد ما تبيَّن لكم أنكم مُنْهِيُّون عنه ، فإذا علمتم أنكم نُهِيتُمْ عن استغفاركم لهم فإنْ أَقْدَمْتُمْ على ذلك فحينئذ ذللتم عن الحقِ بفعلكم بعد ما نُهيتم عنه . . . هذا بيان التفسير للآية ، والإشارة فيها أنه لا سَلْبَ لعطائه إلا بِتَرْكِ أدب منكم .

ويقال مَنْ أَحَلَّه بِسَاطَ الوصلة ما مُنِيَ بعده بعذاب الفرقة ، إلا لِمَنْ سَلَفَ منه تَرْكُ حُرْمة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 69 ﴾

(23/351)

قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ثم علل علمه بكل شيء بأن قدرته شاملة فهو قادر على نصرة من يريد والانتقام ممن يريد ، فلا ينبغي لأحد أن يحب إلا فيه ولا يبغض إلا فيه ولا يهتم بعداوة أحد ممن عاداه فقال : ﴿ إن الله ﴾ أي الملك الأعظم ﴿ له ﴾ أي بكل اعتبار تعدونه من اعتبارات الكمال ﴿ ملك السماوات والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيء فهو خبير بكل ما ينفعكم ويضركم وهو وليكم ، يبينه لكم ، ومن كان له جميع الملك كان بحيث لا يستعصي على أمره شيء : علم ولا غيره ، لأن العلم من أعظم القوى والقدر ، ولا يكون الملك إلا عالماً قادراً ؛ ثم علل قدرته وعلمه بما يشاهد متكرراً من فعله في الحيوان والنبات وغير ذلك فقال : ﴿ يحيي

ويميت ﴾ أي بكل معنى فهو الذي أحياكم وغيركم الحياة الجسمانية وخصم أنتم بالحياة الإيمانية ، وكما جعل غيركم بعضهم أولياء بعض وجمعهم كلهم على ولاية عدوهم الشيطان جعلكم أنتم أولياء ربكم الرحمن فهو وليكم وناصركم ﴿ وما ﴾ أي والحال أنه ما ﴿ لكم ﴾ ولما كان ليس لأحد أن يجوز كل ما دون رتبته سبحانه ، أثبت الجار فقال .

﴿ من دون الله ﴾ أي الملك الذي له الأمر كله ، وأغرق في النفي بقوله : ﴿ من ولي ﴾ أي قريب يفعل معكم من الحياطة والنصح ما يفعل القريب من النصرة وغيره .

ولما كان الإنسان قد ينصره غير قريبه قال .

﴿ ولا نصير ﴾ أي فلا توالوا إلا من كان من حزبه وأهل حبه وقربه ، وفيه تهديد لمن أقدم على ما ينبغي أن يتقي لا سيما الملاينة لأعداء الله من المساترين والمصارحين ، فإن غاية ذلك موالاتهم وهي لا تغني من الله شيئاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 395 ﴿ 396.

(24/351)

فصل

قال الفخر :

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض يحي ويميت ﴾

في ذكر هذا المعنى ههنا فوائد : إحداها : أنه تعالى لما أمر بالبراءة من الكفار بين أنه له ملك السموات والأرض ، فإذا كان هو ناصراً لكم ، فهم لا يقدرون على إضراركم ، وثانيها : أن القوم من المسلمين قالوا : لما أمرتنا بالانقطاع من الكفار ، فحينئذ لا يمكننا أن نختلط بآبائنا وأولادنا وإخواننا لأنه ربما كان الكثير منهم كافرين ، والمراد أنكم إن صرتم محرومين عن معاونتهم ومناصرتهم .

فالإله الذي هو المالك للسموات والأرض والمحيي والمميت ناصركم ، فلا يضركم أن ينقطعوا عنكم .

وثالثها : أنه تعالى لما أمر بهذه التكاليف الشاقة كأنه قال وجب عليكم أن تنقادوا لحكمي وتكليفي لكوني إلهكم ولكونكم عبيداً لي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 169 ﴾

(25/351)

وقال السمرقندى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

يعني : يحكم فيهما بما يشاء من الأمر بعد الأمر ، يأمر بأمر ثم بغيره ما يشاء .

﴿ يحيى ويميت ﴾ ، يعني : يحيي الموتى ويميت الأحياء .

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ ، يعني : من عذاب الله تعالى ﴿ مِن وَلِيٍّ ﴾ ، يعني : من قريب ينفعكم ﴿ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ ، يعني : مانعاً يمنعكم .

وقال الكلبي : ﴿ يحيى ويميت ﴾ يعني : في السفر ويميت في الحضر ، يعني : إن هذا ترغيب في الجهاد لكي لا يمتنعوا مخافة القتل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الخازن :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

يعني أنه سبحانه وتعالى هو القادر على ملك السموات والأرض وما فيهما عبيده وملكه يحكم فيهم بما يشاء ﴿ يحيي ويميت ﴾ يعني أنه تعالى يحيي من يشاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من يشاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ يعني أنه تعالى هو وليكم وناصركم وليس لكم غيره يمنعكم من عدوكم وينصركم عليهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

ولما ذكر تعالى علمه بكل شيء ، فهو يعلم ما يصلح لكل أحد ، وما هيىء له في سابق الأزل

، ذكر ما دل على القدرة الباهرة من أنه له ملك السموات والأرض ، فيتصرف في عباده بما شاء ، ثم ذكر من أعظم تصرفاته الأحياء والإماتة أي : الإيجاد والإعدام .

وتفسير الطبري هنا قوله : يحيي ويميت ، بأنه إشارة إلى أنه يجب للمؤمنين أن لا يجزعوا من عدو وإن كثر ، ولا يهابوا أحداً فإنّ الموت المخوف ، والحياة المحتومة إنما هي بيد الله ، غير مناسب هنا وإن كان في نفسه قولاً صحيحاً .

وتقدم شرح قوله : ﴿ وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير ﴾ في البقرة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(26/351)

وقال أبو السعود :

﴿ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾

من غير شريك له فيه ﴿ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السماوات والأرض يُحْيِ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِن دُونِ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ لمّا منعهم من الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولي قربى وضمّن ذلك التبرُّؤَ منهم رأساً بيّن لهم أن الله تعالى مالكُ كلِّ موجودٍ ومتولي أمورِه والغالبُ عليه ، ولا يتأتى لهم نصرٌ ولا ولايةٌ إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه متبرّئين عما سواه غيرَ قاصدين إلا

إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

وقال الآلوسى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

من غير شريك له فيه .

﴿ لاَ إِله لَكُمْ مِن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ وقال غير واحد : إنه سبحانه لما منعهم عن الاستغفار للمشركين وإن كانوا أولى قربى وتضمن ذلك وجوب التبري عنهم رأساً بين لهم أن الله سبحانه مالك كل موجود ومتولى أمره والغالب عليه ولا يتأتى لهم ولاية ولا نصر إلا منه تعالى ليتوجهوا إليه جل شأنه بشراشرهم متبرئين عما سواه غير قاصدين إلا إياه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(27/351)

وقال ابن عاشور :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

تذييل ثان في قوة التأكيد لقوله : ﴿ إن الله بكل شيء عليم ﴾ [التوبة : 115] ، ولذلك فُصل بدون عطف لأن ثبوت ملك السماوات والأرض لله تعالى يقتضي أن يكون عليماً

بكل شيء لأن تخلف العلم عن التعلق ببعض المتملكات يفضى إلى إضاعة شؤونها .

فافتتاح الجملة بـ (إن) مع عدم الشك في مضمون الخبر يعين أن (إن) لمجرد الاهتمام فتكون مفيدة معنى التفريع بالفاء والتعليل .

c

ومعنى الملك : التصرف والتدبير .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ مَلِك يوم الدين ﴾ [الفاتحة : 4] .

وزيادة جملتي : ﴿ يحيي ويميت ﴾ لتصوير معنى الملك في أتم مظاهره المحسوسة للناس المسلم بينهم أن ذلك من تصرف الله تعالى لا يستطيع أحد دفع ذلك ولا تأخيره .

وعطف جملة : ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ لتأييد المسلمين بأنهم منصورون في سائر الأحوال لأن الله وليهم فهو نصير لهم ، ولإعْلامهم بأنهم لا يخشون الكفار لأن الكافرين لا مولى لهم لأن الله غاضب عليهم فهو لا ينصرهم .

وذلك مناسب لغرض الكلام المتعلق باستغفارهم للمشركين بأنه لا يفيدهم .

وتقدم الكلام على الولي عند قوله تعالى : ﴿ قل أغير الله أتخذ ولياً ﴾ في أول سورة الأنعام (14) .

والنصير : الناصر .

وتقدم معنى النصر عند قوله تعالى : ﴿ ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم

ينصرون ﴾ في سورة البقرة (48) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ

﴾

(28/351)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116) ﴾

ومادة ال (م . ل . ك) يأتي منها " مالك " ، و " مَلك " ، و " ملْك " ، ومنها " مُلْك " ، ومنها " ملكوت " ، و " المِلْك " هو ما تملكه أنت في حيزك ، فإن كان هناك أحد يملكك أنت ومن معك ويملك غيرك ، فهذا هو المَلِك ، أما ما اتسع فيه مقدور الإنسان أي الذي يدخل في سياسته وتدبيره ، فاسمه مُلك ، فشيخ القبيلة له ملك ، وعمدة القرية له ملك ، وحاكم الأمة له ملك ، ويكون في الأمور الظاهرة . . . واما الملكوت فهو ما لله في كونه من أسرار خفية .

مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السماوات والأرض . . . ﴾ [الأنعام : 75]

وساعة ترى " تاء المبالغة " في مثل " رهبوت " ، و " عظموت " تدرك أنها رهبة عظيمة .

إذن : إياك أن تفهم أن الله حين يمنعك أن تستغفر لآبائك ، وأنك إن قاطعتهم فذلك يخل بوجودك في الحياة ؛ لأنهم هم ومن يؤازرهم داخلون في ملك الله ، وما دام الله له ملك السموات والأرض ، فلا يضيرك أحد أو شيء ولا يفوتك مع الله فائت ، وما دام الله سبحانه موجوداً فكل شيء سهل لمن يأخذ بأسبابه مع الإيمان به .

والحق سبحانه يبين لنا أنه سبحانه وحده الذي بيده الملك ؛ فقال : ﴿ قُلِ اللهم مَالِكَ الملك تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير . . . ﴾ [آل عمران : 26]

وفي هذا القول الكريم أربعة أشياء متقابلة : ﴿ تُؤْتِي الملك ﴾ و ﴿ وَتَنزِعُ الملك ﴾ ، وإيتاء المُلْك في أعراف الناس خير ، ونزعه في أعراف الناس شر ، وإعزاز الناس خير ، وإذلالهم شر ، ولم يقل الله بيده : " الخير والشر " . وإنما قال في كُلّ : ﴿ بِيَدِكَ الخير ﴾ .

(29/351)

إذن : فحين يؤتي الله إنساناً مُلْكاً ؛ نقول : هذا خير وعليك أن تستغله في الخير . وحينما ينزع الله منه الملك نقول له : لقد طغيت وخفف الله عنك جبروت الطغيان ، فنزعه الله

منك فهذا خير لك . وإن أعزك الله ، فقد يعذبك حقّاً ، وإن أذلهم الله ، فالمقصود ألا يطغوا أو يتجبروا . إذن : فكلها خير . ﴿ تُؤْتِي الملك مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ الملك مِمَّنْ تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ الخير . . . ﴾ [آل عمران : 26]

ساعة تجد ملكاً عضوضاً ، إياك أن تظن أن هذا الملك العضوض قد أخذ ملكه دون إرادة الله ، لا ، بل هو عطاء من الله . ولو أن المملوك راعى الله في كل أموره لرقق عليه قلب مالكه . ولذلك يقول لنا في الحديث القدسي : " أنا الله ملك الملوك ، قلوب الملوك ونواصيها بيدي ، فإن العباد أطاعوني جعلتهم عليهم رحمة ، وإن هم عصوني جعلتهم عليهم عقوبة ، فلا تشتغلوا بسب الملوك ، ولكن أطيعوني أعطفهم عليكم "

وما دام الأمر كذلك ، فلا بد أن نعرف أن كل حادثة له حكمة في الوجود .

وإن رأيت واحداً قد أخذ الملك وهو ظالم ، فاعلم أن الله قد جاء به ليربى به المملوكين ، وسبحانه لا يربي الأشرار بالأخيار ؛ لأن الأخيار لا يعرفون كيف يربون ؛ وقلوبهم تمتلئ بالرحمة ؛ ولذلك يعلمنا سبحانه : ﴿ وكذلك نُوَلِّي بَعْضَ الظالمين بَعْضاً . . . ﴾ [الأنعام : 129]

والخيِّر لا يدخل المعركة بل يشاهد الصراع من بعيد ، ويجري كل شيء بعلم الله ؛ لأنه سبحانه لم ملك السموات والأرض وهو الذي يحيي ويميت ، فإياك أن تُفْتَن في غير خالقك

أبداً ؛ لأن الخلق مهما بلغ من قدرته وطغيانه ، لا يستطيع أن يحمي نفسه من أغيار الله في كونه ولذلك فليأخذ المؤمن من الله وليّاً له ونصيراً .

(30/351)

وبعد أن قال لنا سبحانه : ﴿ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السموات والأرض ﴾ يأتي لنا بالأمر الذي يظهر فيه أثر القدرة ، ولا يشاركه فيه غيره ، فقال : ﴿ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ . وقال بعض العلماء في قوله : ﴿ يُحْيِي ويُمِيتُ ﴾ أنه سبحانه " يحيي الجماد " ، و " يميت الحيوان " ؛ لأنهم ظنوا أن الحياة هي الحس والحركة التي نراها أمامنا من حركة وكلام وذهاب وإياب ، ونسوا أن الحياة هي ما أودعه الله في كل ذرة في الكون ، مما تؤدي به مهمتها ، ففي ذرة الرمل حياة ، والجبل فيه حياة ، وكل شيء فيه حياة ، بنص القرآن حيث يقول : ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ . . . ﴾ [الأنفال : 42]

إذن : فالحياة مقابلها الهلاك ، وفي آيات أخرى يقابل الحياة الموت ، فالهلاك هو الموت . فإذا قال الحق سبحانه : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ . . . ﴾ [القصص : 88]

إذن : فكل شيء قبل أن يكون هالكاً كان حيّاً ، وهكذا نعرف أن الحياة ليست هي الحس والحركة الظاهرتين ، وبعد التقدم العلمي الهائل في المجاهر الدقيقة تكشفت لنا حركة

وحس كائنات كنا لا نراها ، وإذا كان الإنسان قد توصل بالآلات التي ابتكرها إلى إدراك ألوان كثيرة من الحياة فيما كان يعتقد أنه لا حياة فيها ، إذن : فكل شي في الوجود له حياة تناسبه فلو جئت بمعدن مثلاً وتركته ستجده تأكسد ، أي حدث فيه تفاعل مع مواد أخرى . . فهذه حياة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(31/351)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116) ﴾

الحقُّ لا يَتَجمَّل بوجود مملوكاته ، ولا يلحق نَقْصٌ بِعَدَم مخلوقاته ، فَقَبْلَ أَنْ أوجد شيئاً من الحادثات كان مَلِكاً – والمَلِكُ أكثر مبالغةً من المالك – ومُلْكُه قدرتُه على الإبداع ؛ والمعدوم مقدوره ومملوكه ، فإذا أَوْجَدَه فهو في حال حدوثه مقدوره ومملوكه ، فإذا أعدمه خرج عن الوجود ولم يخرج عن كونه مقدوراً له .

﴿ يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ يحيي مَن يشاء بعرفانه وتوحيده ، ويميت من يشاء بكفرانه

وجحوده .

ويقال يُحيي قلوبَ العارفين بأنوار المواصلات ، ويُميتُ نفوسَ العابدين بآثار المنازلات .

ويقال يُحيي مَنْ أقبل عليه بتَفَضُّله ، ويميت من أعرض بتَكَبُّره . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 69.70 ﴾

(32/351)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما أشار إلى أنه هو وليهم أحياهم بروح منه مبين لهم ما يصلحهم وأنه لا ولي لهم غيره ، أقام الدليل على ذلك بقوله : ﴿ لقد تاب الله ﴾ أي الذي له الجلال والإكرام ﴿ على النبي ﴾ أي الذي لا يزال عنده من الله خبر عظيم يرشده إلى ما يؤذن بتقوية حياته برفع درجاته ، فما من مقام يرقيه إليه إلا رأى أنه لمزيد علوه وتقربه للمقام الذي كان دونه ، فهو في كل لمحة في ارتقاء من كامل إلى أكمل إلى ما لا نهاية له .

ولما أخبر تعالى بعلو رتبة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بترقيته في رتب الكمالات والأكمليات إلى ما لا نهاية له على وجه هو في غاية البعث لكل مؤمن على المبادرة إلى التوبة ، أكد ذلك بقوله : ﴿ والمهاجرين والأنصار ﴾ بمحو هفواتهم ورفع درجاتهم ﴿ الذين اتبعوه ﴾ أي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ في ساعة العسرة ﴾ أي أزمنة عزوة تبوك ، كانوا في عسرة من الزمان بالجدب والضيقة الشديدة والحر الشديد ، وعسرة من الظهر " يعتقب العشرة " على بعير واحد .

وعسرة من الزاد " تزودوا التمر المدوّد والشعير المسوّس والإهالة الزنخة " وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمر اثنان ، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها ؛ وسماها ساعة تهويناً لأوقات الكروب وتشجيعاً على مواقعة المكاره فإن أمدها يسير وأجرها عظيم خطير ، فكانت حالهم باتباعه في هذه الغزوة أكمل من حالهم قبلها ، وأشار سبحانه إلى تفاوتهم في الثبات على مقامات عالية ، ترقوا بالتوبة إلى أعلى منها ، وفي قبول وساوس أبعدتهم التوبة عن قبولها بقوله : ﴿ من بعد ما كاد ﴾ أي قرب قرباً عظيماً ﴿ يزيغ ﴾ أي تزول عن أماكنها الموجبة لصلاحها ، وأشار ب " من " إلى تقارب ما بين كيد ودة الزيغ والتدارك بالتوبة .

ولما كان المقام للزلازل ، ناسب التعبير بما منه الانقلاب والفرقة فقال : ﴿ قلوب فريق ﴾ أي هم بحيث تحصل منهم الفرقة لما هناك من الزلازل المميلة ﴿ منهم ﴾ أي من عظيم ما نالهم من الشدائد فتميل لذلك عن الحق كأبي خيثمة ومن أحب الراحة وهاب السفر في ذلك الحر الشديد إلى بني الأصفر الملوك الصيد الأبطال الصناديد ، وهم ملء الأرض كثرة وقدر الحصى عدة ومثل الجبال شدة ، ثم عزم الله له فلحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرجع سبحانه بالجميع إلى ما كانوا عليه قبيل مقاربة الزيغ من مباعدته ، ولما صاروا كمن لم يقارب الزيغ .

أعلاهم إلى مقام آخر عبر عن عظمته بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أي كلهم تكريراً للرفعة ، أو على من كاد يزيغ بالثبات على مباعدة الزلات وبالترقي في أعالي الدرجات إلى الممات ؛ ونقل أبو حيان عن الحسن أن زيغها همها بالانصراف لما لقيت من المشقة ، قال وقيل : ساء ظنها بما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد الشقة وقوة العدو المقصود –انتهى .

ويجوز أن يكون عبر ب ﴿ ثم ﴾ لوصولهم إلى حالة يبعد معها الثبات فضلاً عن مباعدة مواقع الزلات فثبتها حتى عادت كالحديد من غير سبب ظاهر من " جيش أو غيره " فثبت بذلك أنه مالك الملك متمكن من فعل كل ما يريده وأنه لا ولي لهم سواه : ثم علل لطفه

بهم بقوله : ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ والرأفة : شدة الرحمة ، فقدم الأبلغ فيقال فيه ما قيل في ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فالمعنى أنه يرحمهم أعلى الرحمة بإسباغ جلائل النعم ودفع جلائل النقم ، ويرحمهم أيضاً بإسباغ دقائق النعم ودفع دقائق النقم ، وقيل : الرأفة : إزالة الضر ، والرحمة : إيصال النفع ، ومادة رأف تدور مع السعة على ما أُشير إليه في سورة سبحان على شدة الوصلة .

فالرأفة – كما قال الحرالي في البقرة – عطف العاطف على من يجد عنده منه وصلة ، فهي رحمة ذي الصلة بالراحم ، والرحمة تعم من لا صلة له بالراحم – انتهى .

فتكون الرأفة حينئذ للثابتين والرحمة لمن قارب الزيغ .

فيصير الثابت مرحوماً مرتين لأنه منظور إليه بالصفتين ، وتقدم عند الحزبين من البقرة ما ينفع هنا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 396 . 397 ﴾

(34/351)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما استقصى في شرح أحوال غزوة تبوك وبين أحوال المتخلفين عنها ، وأطال القول في ذلك على الترتيب الذي لخصناه في هذا التفسير ، عاد في هذه الآية إلى شرح ما بقي من أحكامها .

ومن بقية تلك الأحكام أنه قد صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نوع زلة جارية مجرى ترك الأولى ، وصدر أيضاً عن المؤمنين نوع زلة ، فذكر تعالى أنه تفضل عليهم وتاب عليهم في تلك الزلات .

فقال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ على النبى ﴾ وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

دلت الأخبار على أن هذا السفر كان شاقاً شديداً على الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى المؤمنين ، على ما سيجيء شرحها ، وهذا يوجب الثناء ، فكيف يليق بها قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ على النبى والمهاجرين ﴾ .

والجواب من وجوه : الأول : أنه صدر عن النبي عليه الصلاة والسلام شيء من باب ترك الأفضل ، وهو المشار إليه بقوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] وأيضاً لما اشتد الزمان في هذه الغزوة على المؤمنين على ما سيجيء شرحها ، فربما وقع في قلبهم نوع نفرة عن تلك السفرة ، وربما وقع في خاطر بعضهم أنا لسنا نقدر على الفرار . ولست أقول عزموا عليه ، بل أقول وساوس كانت تقع في قلوبهم ، فالله تعالى بين في آخر

هذه السورة أنه بفضله عفا عنها .

فقال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه ﴾ .

والوجه الثاني : في الجواب أن الإنسان طول عمره لا ينفك عن زلات وهفوات ، إما من باب الصغائر ، وإما من باب ترك الأفضل .

(35/351)

ثم إن النبي عليه السلام وسائر المؤمنون لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه ، وصبروا على تلك الشدائد والمحن ، أخبر الله تعالى أن تحمل تلك الشدائد صار مكفراً لجميع الزلات التي صدرت عنهم في طول العمر ، وصار قائماً مقام التوبة المقرونة بالإخلاص عن كلها .

فلهذا السبب قال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى ﴾ الآية .

والوجه الثالث : في الجواب : أن الزمان لما اشتد عليهم في ذلك السفر ، وكانت الوساوس تقع في قلوبهم ، فكلما وقعت وسوسة في قلب واحد منهم تاب إلى الله منها ، وتضرع إلى الله في إزالتها عن قلبه ، فلكثرة إقدامهم على التوبة بسبب خطرات تلك الوساوس ببالهم ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى ﴾ الآية .

والوجه الرابع : لا يبعد أن يكون قد صدر عن أولئك الأقوام أنواع من المعاصي ، إلا أنه تعالى تاب عليهم وعفا عنهم لأجل أنهم تحملوا مشاق ذلك السفر ، ثم إنه تعالى ضم ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذكرهم تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين .

وأنهم قد بلغوا إلى الدرجة التي لأجلها ، ضم الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم في قبول التوبة .

المسألة الثانية :

في المراد بساعة العسرة قولان :

القول الأول : أنها مختصة بغزوة تبوك ، والمراد منها الزمان الذي صعب الأمر عليهم جداً في ذلك السفر والعسرة تعذر الأمر وصعوبته .

قال جابر : حصلت عسرة الظهر وعسرة الماء وعسرة الزاد .

أما عسرة الظهر : فقال الحسن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم ، وأما عسرة الزاد ، فربما مص التمرة الواحدة جماعة يتناوبونها حتى لا يبقى من التمرة إلا النواة ، وكان معهم شيء من شعير مسوس ، فكان أحدهم إذا وضع اللقمة في فيه أخذ أنفه من نتن اللقمة .

وأما عسرة الماء : فقال عمر : خرجنا في قيظ شديد وأصابنا فيه عطش شديد ، حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه .

واعلم أن هذه الغزوة تسمى غزوة العسرة ، ومن خرج فيها فهو جيش العسرة .

وجهزهم عثمان وغيره من الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

والقول الثاني : قال أبو مسلم : يجوز أن يكون المراد بساعة العسرة جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها .

وقد ذكر الله تعالى بعضها في كتابه كقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا زَاغَتِ الأَبصار وَبَلَغَتِ القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] وقوله : ﴿ لَقَدِ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حتى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ [آل عمران : 152] الآية ، والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه السلام في الأوقات الشديدة والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم .

ثم قال تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ وفيه مباحث :

البحث الأول : فاعل ﴿ كَادَ ﴾ يجوز أن يكون ﴿ قُلُوبُ ﴾ والتقدير : كاد قلوب فريق منهم تزيغ ، ويجوز أن يكون فيه ضمير الأمر والشأن ، والفعل والفاعل تفسير للأمر والشأن ، والمعنى : كادوا لا يثبتون على اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام في تلك الغزوة لشدة

العسرة .

البحث الثاني : قرأ حمزة وحفص عن عاصم ﴿ يَزِيغُ ﴾ بالياء لتقدم الفعل ، والباقون بالتاء لتأنيث قلوب ، وفي قراءة عبد الله ﴿ مِّن بَعْدِ مَا زَاغَتِ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ .

البحث الثالث : ﴿ كَادَ ﴾ عند بعضهم تفيد المقاربة فقط ، وعند آخرين تفيد المقاربة مع عدم الوقوع ، فهذه التوبة المذكورة توبة عن تلك المقاربة ، واختلفوا في ذلك الذي وقع في قلوبهم .

فقيل : هم بعضهم عند تلك الشدة العظيمة أن يفارق الرسول ، لكنه صبر واحتسب .

فلذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الأمر اليسير .

(37/351)

وقال الآخرون بل كان ذلك لحديث النفس الذي يكون مقدمة العزيمة ، فلما نالتهم الشدة وقع ذلك في قلوبهم ومع ذلك تلافوا هذا اليسير خوفاً منه أن يكون معصية .

فلذلك قال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

فإن قيل : ذكر التوبة في أول الآية وفي آخرها فما الفائدة في التكرار ؟

قلنا : فيه وجوه :

الوجه الأول : أنه تعالى ابتدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب تطييباً لقلوبهم ، ثم ذكر الذنب ثم أردفه مرة أخرى بذكر التوبة ، والمقصود منه تعظيم شأنهم .

والوجه الثاني : أنه إذا قيل : عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه ، دل ذلك على أن ذلك العفو عفو متأكد بلغ الغاية القصوى في الكمال والقوة ، قال عليه الصلاة والسلام : " إن الله ليغفر ذنب الرجل المسلم عشرين مرة " وهذا معنى قول ابن عباس في قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يريد ازداد عنهم رضا .

والوجه الثالث : أنه قال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِى سَاعَةِ العسرة ﴾ وهذا الترتيب يدل على أن المراد أنه تعالى تاب عليهم من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة ، ثم إنه تعالى زاد عليه فقال : ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ فهذه الزيادة أفادت حصول وساوس قوية ، فلا جرم أتبعها تعالى بذكر التوبة مرة أخرى لئلا يبقى في خاطر أحدهم شك في كونهم مؤاخذين بتلك الوساوس .

ثم قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهما صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب ، ويشبه أن تكون الرأفة عبارة عن السعي في إزالة الضر ، والرحمة عبارة عن السعي في إيصال المنفعة .

وقيل : إحداهما للرحمة السالفة ، والأخرى للمستقبلة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 170 . 172 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

وَالْعُسْرَةُ هِيَ شِدَّةُ الْأَمْرِ وَضِيقُهُ وَصُعُوبَتُهُ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ فِي شِدَّةِ الْحَرِّ وَقِلَّةٍ مِنْ الْمَاءِ وَالزَّادِ وَالظَّهْرِ ، فَحَضَّ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ بِذِكْرِ التَّوْبَةِ لِعِظَمِ مَنْزِلَةِ الِاتِّبَاعِ فِي مِثْلِهَا وَجَزِيلِ الثَّوَابِ الَّذِي يُسْتَحَقُّ بِهَا لِمَا لَحِقَهُمْ مِنْ الْمَشَقَّةِ مَعَ الصَّبْرِ عَلَيْهَا وَحُسْنِ الْبَصِيرَةِ ، وَالْيَقِينِ مِنْهُمْ فِي تِلْكَ الْحَالِ ، إذْ لَمْ تُغَيِّرْهُمْ عَنْهَا صُعُوبَةُ الْأَمْرِ وَشِدَّةُ الزَّمَانِ .

وَأَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِمُقَارَبَةِ مَيْلِ الْقَلْبِ عَنْ الْحَقِّ بِقَوْلِهِ : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ .

وَالزَّيْغُ هُوَ مَيْلُ الْقَلْبِ عَنْ الْحَقِّ ، فَقَارَبَ ذَلِكَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَلَمَّا فَعَلُوا وَلَمْ يُؤَاخِذْهُمْ اللَّهُ بِهِ وَقَبِلَ تَوْبَتَهُمْ .

وَبِمِثْلِ الْحَالِ الَّتِي فَضَّلَ بِهَا مُتَّبِعِيهِ فِي حَالِ الْعُسْرَةِ عَلَى غَيْرِهِمْ فَضَّلَ بِهَا الْمُهَاجِرِينَ عَلَى

الْأَنْصَارِ ، وَبِمِثْلِهَا فَضَّلَ السَّابِقِينَ عَلَى النَّاسِ لِمَا لَحِقَهُمْ مِنْ الْمَشَقَّةِ وَلِمَا ظَهَرَ مِنْهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْبَصِيرَةِ وَصِحَّةِ الْيَقِينِ بِالِاتِّبَاعِ فِي حَالِ قِلَّةِ عَدَدِ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِعْلَاءِ أَمْرِ الْكُفَّارِ وَمَا كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْ قِبَلِهِمْ مِنْ الْأَذَى وَالتَّعْذِيبِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(39/351)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ .

فِيهَا خَمْسُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَى النَّبِيِّ رَدُّهُ مِنْ حَالَةِ الْغَفْلَةِ إلَى حَالَةِ الذِّكْرِ ، وَتَوْبَةُ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ رُجُوعُهُمْ مِنْ حَالَةِ الْمَعْصِيَةِ إلَى حَالَةِ الطَّاعَةِ ، وَانْتِقَالُهُمْ مِنْ حَالَةِ الْكَسَلِ إلَى حَالَةِ النَّشَاطِ ، وَخُرُوجُهُمْ عَنْ صِفَةِ الْإِقَامَةِ وَالْقُعُودِ إلَى حَالَةِ السَّفَرِ وَالْجِهَادِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : وَتَوْبَةُ اللَّهِ تَكُونُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ : دُعَاؤُهُ إلَى التَّوْبَةِ ، يُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَى فُلَانٍ ، أَيْ دَعَاهُ ، وَيُقَالُ : تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ : يَسَّرَهُ لِلتَّوْبَةِ ، وَقَدْ يَكُونُ خَبَرًا ، وَقَدْ يَكُونُ

دُعَاءً .

وَيُقَالُ : تَابَ عَلَيْهِ : ثَبَّتَهُ عَلَيْهَا ، وَيُقَالُ : تَابَ عَلَيْهِ : قَبِلَ تَوْبَتَهُ ؛ وَذَلِكَ كُلُّهُ صَحِيحٌ ، وَقَدْ جَمَعَ لِهَؤُلَاءِ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَيَفْتَرِقُ فِي سَائِرِ النَّاسِ ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ إلَى التَّوْبَةِ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ وَلَا يُيَسِّرُهَا لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَدْعُوهُ إلَيْهَا وَيُيَسِّرُهَا وَلَا يُدِيمُهَا ، فَإِنْ دَامَتْ إلَى الْمَوْتِ فَهِيَ مَقْبُولَةٌ قَطْعًا .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ : يَعْنِي جَيْشَ تَبُوكَ ؛ خَرَجَ النَّاسُ إلَيْهَا فِي جَهْدٍ وَحَرٍّ وَرِجْلَةٍ وَعُرْيٍ وَحَفَاءٍ ، حَتَّى لَقَدْ رُوِيَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ .

(40/351)

﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْت لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أَنَّهُمْ طَلَبُوا نِعَالًا .

وَفِي الْحَدِيثِ : ﴿ لَا يَزَالُ الرَّجُلُ رَاكِبًا مَا انْتَعَلَ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ : أَمَّا هَذَا فَلَيْسَ لِلنَّبِيِّ فِيهِ مَدْخَلٌ بِاتِّفَاقٍ مِنْ الْمُوَحِّدِينَ ، أَمَّا أَنَّهُ قَدْ قِيلَ : إنَّهُ يَدْخُلُ فِي التَّوْبَةِ مِنْ إذْنِهِ لِلْمُنَافِقِينَ فِي التَّخَلُّفِ فَعَذَرَهُ اللَّهُ فِي إذْنِهِ لَهُمْ ، وَتَابَ عَلَيْهِ وَعَذَرَهُ ، وَبَيَّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ صَوَابَ فِعْلِهِ بِقَوْلِهِ :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ إِلَى : ﴿ الْفِتْنَةَ ﴾ .

وَأَمَّا غَيْرُ النَّبِيِّ فَكَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ بِبَقَائِهِمْ بَعْدَهُ ، كَأَبِي حَثْمَةَ وَغَيْرِهِ ، بِإِرَادَتِهِمْ الرُّجُوعَ مِنْ الطَّرِيقِ حِينَ أَصَابَهُمْ الْجَهْدُ ، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِمْ الْعَطَشُ ، حَتَّى نَحَرُوا إِبِلَهُمْ ، وَعَصَرُوا كُرُوشَهَا ، فَاسْتَسْقَى رَسُولُ اللَّهِ ، فَنَزَلَ الْمَطَرُ ؛ وَلِهَذَا جَازَ لِلْإِمَامِ وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : أَنْ يَأْذَنَ لِمَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْهِ أَخْذًا بِظَاهِرِ الْحَالِ ، وَرِفْقًا بِالْخَلْقِ ، اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(41/351)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى ﴾

أي تجاوز عن النبي صلى الله عليه وسلم إذنه للمنافقين بالتخلف ، كقوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حتى يَتَبَيَّنَ لَكَ الذين صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ الكاذبين ﴾ [التوبة : 43] ويقال : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى ﴾ يعني : غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، كما ذكر في أول سورة الفتح .

ثم قال : ﴿ والمهاجرين والانصار ﴾ ، يعني : تجاوز عنهم ذنوبهم ، لما أصابهم من الشدة

في ذلك الطريق .

ثم نعتهم فقال : ﴿ الذين اتبعوه فِى سَاعَةِ العسرة ﴾ ، يعني : وقت الشدة في غزوة تبوك كانت لهم العسرة في أربعة أشياء عسرة النفقة والركوب والحر والخوف ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ ، يعني : تميل قلوب طائفة منهم عن الخروج إلى الغزو ، ويقال : من بعد ما كادوا أن يرجعوا من غزوتهم من الشدة .

ويقال : هم قوم تخلفوا عنه ، ثم خرجوا فأدركوه في الطريق .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ ، يعني : تجاوز عنهم .

﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، حين تاب عليهم .

قرأ حمزة وعاصم في رواية حفص ﴿ يَزِيغُ قُلُوبُ ﴾ بالياء بلفظ المذكر ، والباقون بالتاء بلفظ التأنيث .

والتأنيث إذا لم يكن خفيفاً ، جاز التذكير والتأنيث ، لأن الفعل مقدم فيجوز التذكير والتأنيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(42/351)

وقال الثعلبى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبي ﴾

قال ابن عباس : ومن تاب الله عليه لم يعذبه أبداً .

واختلفوا في معنى التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم فقال أهل التفسير : بإذنه للمنافقين في التخلف عنهم ، وقال أهل المعاني : هو مفتاح كلام ما كان هو صنف توبتهم ذكر معهم كقوله ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] ونحوه ﴿ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة ﴾ أي في وقت العسرة ولم يرد ساعة بعينها . قال جابر : عسرة الظهر وعسرة الزاد وعسرة الماء .

قال الحسن : كان الناس من المسلمين يخرجون على بعير يعقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه ، كذلك كان زادهم التمر المسوس والشعير والأهالة المنتنة وكان النفر منهم يخرجون ما معهم إلاّ التمرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من الماء كذلك حتى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلاّ النواة فمضوا [في قيض شديد] ورسول الله صلى الله عليه وسلم على صدقتهم ويقينهم .

وقال ابن عباس : " قيل لعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ما في شأن العسرة ؟ فقال عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم [إلى قيض شديد] فنزلنا منزلاً أصابنا فيه

عطش حتى قلنا أن رقابنا ستقطع ، حتى أن الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى أنّ الرجل سينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) لرسول الله : إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، قال : "تحب ذلك" ؟ قال : نعم ، فرفع يديه ولم يرجع بها حتى أظلت السماء بسحاب ثم سكبت فملأوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر " .

(43/351)

﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ ﴾ تميل ﴿ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ لعظم البلاء ، وقرأ العامة : تزاغ ، بالتاء ودليله قراءة عبد الله قال : (زغيّهم) ، قراءة حمزة والأعمش والجحدري والعباس بن زيد الثقفي بالياء . قال الأعمش : قرأتها بالياء في نية التأخير وفيه ضمير فاعل ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(44/351)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ الآية .

هي غزوة تبوك قِبل الشام ، كانوا في عسرة من الظهر ، كان الرجلان والثلاثة على بعير وفي عسرة من الزاد ، قال قتادة حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها أحدهم ثم يشرب عليها من الماء ، ثم يمصها الآخر ، وفي عسرة من الماء ، وكانوا في لهبان الحر وشدته .

قال عبد الله بن محمد بن عقيل : وأصابهم يوماً عطش شديد فجعلوا ينحرون إبلهم ويعصرون أكراشها فيشربون ماءها ، قال عمر بن الخطاب فأمطر الله السماء بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم فغشينا .

وفي هذه التوبة من الله على النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار وجهان محتملان :

أحدهما : استنقاذهم من شدة العسر .

والثاني : أنها خلاصهم من نكاية العدوّ . وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه وهو الرجوع إلى الحالة الأولى .

﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : تتلف بالجهد والشدة .

والثاني : تعدِل عن الحق في المتابعة والنصرة ، قاله ابن عباس .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذه التوبة غير الأولى ، وفيها قولان :

أحدهما : أن التوبة الأولى في الذهاب ، والتوبة الثانية في الرجوع .

والقول الثاني : أن الأولى في السفر ، والثانية بعد العودة إلى المدينة .

فإن قيل بالأول ، أن التوبة الثانية في الرجوع ، احتملت وجهين :

أحدهما : أنها الإذن لهم بالرجوع إلى المدينة .

الثاني : أنها بالمعونة لهم في إمطار السماء عليهم حتى حيوا ، وتكون التوبة على هذين الوجهين عامة .

وإن قيل إن التوبة الثانية بعد عودهم إلى المدينة احتملت وجهين :

(45/351)

أحدهما : أنها العفو عنهم من ممالأة من تخلف عن الخروج معهم .

الثاني : غفران ما همَّ به فريق منهم من العدول عن الحق ، وتكون التوبة على هذين الوجهين خاصة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

" التوبة " من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها ، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها وهذه توبته في هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله ، وأما توبته عل " المهاجرين والأنصار " فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين ، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيغ فرجوع من حالة محطوطة إلى حال غفران ورضا ، و ﴿ اتبعوه ﴾ معناه : دخلوا في أمره وانبعاثه ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، وقوله ﴿ في ساعة العسرة ﴾ ، يريد في وقت العسرة فأنزل الساعة منزلة المدة والوقت والزمن ، وإن كان عرف الساعة في اللغة أنه لما قلَّ من الزمن كالقطعة من النهار . ألا ترى قوله صلى الله عليه وسلم في رواح يوم الجمعة " في الساعة الأولى وفي الثانية " الحديث ، فهي هنا بتجوز ، ويمكن أن يريد بقوله ﴿ في ساعة العسرة ﴾ الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السفرة كلها تبع لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأجر

على الله ، وترتبط النية ، فمن اعتزم على الغزو وهو معسر فقد اتبع في ساعة العسرة ولو اتفق أن يطرأ لهم غنى في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين " في ساعة عسرة " و ﴿ العسرة ﴾ الشدة وضيق الحال والعدم ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وإن كان ذو عسرة ﴾ [البقرة : 280] وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه : " من جهز جيش العسرة فله الجنة " فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار .

(47/351)

وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قلب الدنانير بيده وقال : " وما على عثمان ما عمل بعد هذا " ، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وسق من تمر ، وقال مجاهد وقتادة : إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة وهي غزوة تبوك إلى أن قسموا التمرة بين رجلين ، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماء ثم يفعل كلهم بها ذلك .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء ويعصرون الفرث حتى استسقى لهم رسول

الله صلى الله عليه وسلم فرفع يديه يدعو فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربوا وادخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر ، وحينئذ قال رجل من المنافقين : وهل هذه إلا سحابة مرت ، وكانت الغزوة في شدة الحر ، وكان الناس كثيراً ، فقل الظهر فجاءتهم العسرة من جهات ، ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرح وأيلة وغيرهما على الجزية ونحوهما ، وانصرف وأما " الزيغ " الذي كادت قلوب فريق منهم أن تواقعه ، فقيل همت فرقة بالانصراف لما لقوا من المشقة والعسرة ، قاله الحسن ، وقيل زيغها إنما بظنون لها ساءت في معنى عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على تلك الغزوة لما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر وبعد المشقة وقوة العدو المقصود ، وقرأ جمهور الناس وأبو بكر عن عاصم " تزيغ " بالتاء من فوق على لفظ القلوب .

(48/351)

وروي عن أبي عمرو أنه كان يدغم الدال في التاء ، وقرأ حمزة وحفص عن عاصم والأعمش والجحدري " يزيغ " بالياء على معنى جمع القلوب ، وقرأ ابن مسعود " من بعد ما زاغت قلوب فريق " وقرأ أبي بن كعب " من بعد ما كادت تزيغ " وأما كان فيحتمل أن يرتفع بها ثلاثة أشياء أولها وأقواها القصة والشأن هذا مذهب سيبويه ، وترتفع " القلوبُ " على

هذا ب " تزيغ " والثاني أن يرتفع بها ما يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار أولاً ، ويقدر ذلك القوم فكأنه قال من بعد ما كاد القوم تزيغ قلوبهم فريق منهم ، والثالث أن يرتفع بها " القلوب " ويكون في قوله " تزيغ " ضمير " القلوب " ، وجاز ذلك تشبيهاً بكان في قوله ﴿ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : 47] وأيضاً فلأن هذا التقديم للخبر يراد به التأخير ، وشبهت ﴿ كاد ﴾ ب " كان " للزوم الخبر لها ، قال أبو علي ولا يجوز ذلك في عسى . ثم أخبر عز وجل أنه تاب أيضاً على هذا الفريق وراجع به ، وأنس بإعلامه للأمة بأنه ﴿ رؤوف رحيم ﴾ والثلاثة هم كعب بن مالك وهلال بن أمية الواقفي ومرارة بن الربيع العامري ويقال ابن ربيعة ويقال ابن ربعي ، وقد خرج حديثهم بكماله البخاري ومسلم وهو في السير ، فلذلك اختصرنا سوقه ، وهم الذين تقدم فيهم ﴿ وآخرون مرجون ﴾ [الآية : 106] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(49/351)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾

قال المفسرون : تاب عليه من إذنه للمنافقين في التخلُّف .

وقال أهل المعاني : هو مفتاح كلام ، وذلك أنه لما كان سببَ توبة التائبين ، ذُكر معهم ، كقوله : ﴿ فإنَّ لله خُمُسَهُ وللرسول ﴾ [الأنفال : 41] .

قوله تعالى : ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ قال الزجاج : هم الذين اتبعوه في غزوة تبوك ، والمراد بساعة العسرة : وقت العسرة ، لأن الساعة تقع على كل الزمان ، وكان في ذلك الوقت حرٌّ شديدٌ ، والقوم في ضيقة شديدة ، كان الجمل بين جماعة يعتقبون عليه ، وكانوا في فقر ، فربما اقتسم التمرة اثنان ، وربما مص التمرة الجماعة ليشربوا عليها الماء ، وربما نحروا الإبل فشربوا من ماء كروشها من الحر .

" وقيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستتقطع ، حتى إن الرجل ليذهب يلتمس الماء ، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كبده .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عوَّدك في الدعاء خيراً ، فادع لنا ، قال : "تحب ذلك" ؟ قال : نعم .

فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت العسكر " .

قوله تعالى : ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ قرأ حمزة ، وحفص عن عاصم :

"كاد يزيغ" بالياء .

وقرأ الباقون بالتاء .

وفي معنى الكلام ثلاثة أقوال .

أحدها : تميل إلى التخلف عنه ، وهم ناس من المسلمين هَمُّوا بذلك ، ثم لحقوه ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن القلوب مالت إلى الرجوع للشدة التي لقوها ، ولم تَزِغ عن الإيمان ، قاله الزجاج .

والثالث : أن القلوب كادت تزيغ تلفاً بالجهد والشدة ، ذكره الماوردي .

قوله تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ كرر ذكر التوبة ، لأنه ليس في ابتداء الآية ذكر ذنبهم ، فقدم ذِكر التوبة فضلاً منه ، ثم ذكر ذنبه ، ثم أعاد ذِكر التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(50/351)

وقال القرطبى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

روى الترمذي : حدّثنا عبد بن حميد حدّثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري " عن

عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : لم أتخلف عن النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك إلا بَدْراً ، ولم يعاتب النبيّ صلى الله عليه وسلم أحداً تخلف عن بدر ، إنما خرج يريد العِير فخرجت قريش مُغْوِثين لِعيرهم ، فالتقوا عن غير مَوعدٍ ؛ كما قال الله تعالى ؛ ولعمري إنّ أشرف مشاهِد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس لبَدْر ، وما أحبّ أني كنت شهدتُها مكان بيعتي ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف بعدُ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حتى كانت غزوة تبوك ، وهي آخر غزوة غزاها ، وآذن النبيّ صلى الله عليه وسلم بالرحيل ؛ فذكر الحديث بطوله قال : فانطلقت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون ، وهو يستنير كاستنارة القمر ، وكان إذا سُرّ بالأمر استنار ؛ فجئت فجلست بين يديه فقال : "أبشر يا كعب بن مالك بخير يومٍ أتى عليك منذ ولدتك أُمك" فقلت : يا نبيّ الله ، أمن عند الله أم من عندك ؟ قال : "بل من عند الله ثم تلا هذه الآية ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ قال : وفينا أُنزلت أيضاً ﴿ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ وذكر الحديث " وسيأتي بكماله من صحيح مسلم في قصة الثلاثة إن شاء الله تعالى .

(51/351)

واختلف العلماء في هذه التوبة التي تابها الله على النبيّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار على أقوال ؛ فقال ابن عباس : كانت التوبة على النبيّ صلى الله عليه وسلم لأجل إذنه للمنافقين في القعود ؛ دليله قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه .

وقيل : توبة الله عليهم استنقاذهم من شدّة العسرة .

وقيل : خلاصهم من نكاية العدوّ ، وعُبِّر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه ، وهو الرجوع إلى الحالة الأُولى .

وقال أهل المعاني : إنما ذُكر النبيّ صلى الله عليه وسلم في التوبة لأنه لما كان سبب توبتهم ذُكر معهم ؛ كقوله : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] .

قوله تعالى : ﴿ الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة ﴾ أي في وقت العسرة ، والمراد جميع أوقات تلك الغزاة ولم يرِد ساعة بعينها .

وقيل : ساعة العسرة أشدّ الساعات التي مرت بهم في تلك الغزاة .

والعسرة صعوبة الأمر .

قال جابر : اجتمع عليهم عسرة الظَّهْر وعسرة الزاد وعسرة الماء .

قال الحسن : كانت العسرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم ، وكان زادهم

التمر المتسوس والشعير المتغير والإهالة المنتِنة ، وكان النَّفَر يخرجون ما معهم إلا التمرات بينهم ، فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ، ثم يعطيها صاحبه حتى يشرب عليها جُرْعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم ، فلا يبقى من التمرة إلا النواة ؛ فمضَوْا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم .

و" قال عمر رضي الله عنه وقد سئل عن ساعة العسرة : خرجنا في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش ، وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصِر فَرَثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده .

(52/351)

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا .

قال : "أتحب ذلك" ؟ قال : نعم ؛ فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملئوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر " .

" وروى أبو هريرة وأبو سعيد قالا : كنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فأصاب الناسَ مجاعةٌ وقالوا : يا رسول الله ، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا .

فقال : رسول الله صلى الله عليه وسلم "افعلوا" فجاء عمر وقال : يا رسول الله إن فعلوا قَلّ

الظَّهر ، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم فادع الله عليها بالبركة لعل الله أن يجعل في ذلك البركة .

قال : "نعم" ثم دعا بنطع فبُسط ، ثم دعا بفضل الأزواد ؛ فجعل الرجل يجيء بكف ذرة ، ويجيء الآخر بكف تمر ، ويجيء الآخر بكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير .

قال أبو هريرة ؛ فحزَرته فإذا هو قدر رُبضة العنز ؛ فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبركة .

ثم قال : "خذوا في أوعيتكم" فأخذوا في أوعيتهم حتى والذي لا إله إلا هو ما بقي في العسكر وعاء إلا ملأوه ، وأكل القوم حتى شبعوا ؛ وفضلت فضلة فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله لا يَلْقَى اللَّهَ بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما فيُحجب عن الجنة" " خرّجه مسلم في صحيحه بلفظه ومعناه ، والحمد لله .

وقال ابن عرفة : سُمِّي جيشُ تبوك جيشَ العُسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نَدَب الناس إلى الغزو في حَمَارة القيظ ، فغلُظ عليهم وعَسُر ، وكان إبّان ابتياع الثمرة .

(53/351)

قال : وإنما ضُرب المثل بجيش العسرة لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يغز قبله في عدد مثله ؛ لأن أصحابه يوم بدر كانوا ثلثمائة وبضعة عشر ، ويوم أُحُد سبعمائة ، ويوم خيبر ألفاً وخمسمائة ، ويوم الفتح عشرة آلاف ، ويوم حُنين اثني عشر ألفاً ؛ وكان جيشه في غزوة تبوك ثلاثين ألفاً وزيادة ، وهي آخر مغازيه صلى الله عليه وسلم .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في رجب وأقام بتبوك شعبان وأياماً من رمضان ، وبَثّ سراياه وصالح أقواماً على الجزية .

وفي هذه الغزاة خلّف عليّاً على المدينة فقال المنافقون : خلّفه بُغْضاً له ؛ فخرج خلف النبيّ صلى الله عليه وسلم وأخبره ، فقال عليه السلام : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى " وبيّن أن قعوده بأمره عليه السلام يوازي في الأجر خروجه معه ؛ لأن المدار على أمر الشارع .

وإنما قيل لها : غزوة تبوك لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم رأى قوماً من أصحابه يَبُوكُون حِسْيَ تبوك ، أي يدخلون فيه القدح ويحركونه ليخرج الماء ، فقال : " ما زلتم تَبُوكُونها بَوْكاً " فسمّيت تلك الغزوة غزوة تبوك .

الحسي (بالكسر) ما تنشّفه الأرض من الرمل ، فإذا صار إلى صلابة أمسكتْه ، فتحفر عنه الرملَ فتستخرجه ؛ وهو الاحتساء ؛ قاله الجوهري .

قوله تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ "قلوبُ" رفع ب "تزيغ" عند

سيبويه .

ويضمر في "كاد" الحديث تشبيهاً بكان ؛ لأن الخبر يلزمها كما يلزم كان .

وإن شئت رفعتها بكاد ، ويكون التقدير : من بعد ما كاد قلوب فريق منهم تزيغ .

وقرأ الأعمش وحمزة وحفص "يزيغ" بالياء ، وزعم أبو حاتم أن من قرأ "يزيغ" بالياء فلا يجوز له أن يرفع القلوب بكاد .

قال نحاس : والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجميع .

حكى الفرّاء : رَحُب البلاد وأرحبت ، ورَحُبت لغة أهل الحجاز .

واختلف في معنى تزيغ ، فقيل : تتلف بالجهد والمشقة والشدة .

(54/351)

وقال ابن عباس : تعدل أي تميل عن الحق في الممانعة والنصرة .

وقيل : من بعد ما هَمّ فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحِقوا به .

وقيل : هموا بالقُفُول فتاب الله عليهم وأمرهم به .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قيل : توبته عليهم أن تدارك قلوبَهم حتى لم تَزِغ ، وكذلك سُنّة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب ، ووطّنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم

سحائب الجود فأحيا قلوبهم .

وينشد :

منك أرجو ولستُ أعرف ربّاً . . .

يُرْتَجى منه بعضَ ما منك أرجو

وإذا اشتدّت الشدائد في الأر . . .

ض على الخلق فاستغاثوا وعجُّوا

وابتليت العباد بالخوف والجو . . .

ع وصَرُّوا على الذنوب ولَجُّوا

لم يكن لي سواك ربِّي ملاذ . . .

فتيقَّنت أنني بك أنْجو

وقال في حق الثلاثة : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا ﴾ فقيل : معنى "ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ" أي وفقهم للتوبة ليتوبوا .

وقيل : المعنى تاب عليهم ؛ أي فسّح لهم ولم يعجل عقابهم ليتوبوا .

وقيل : تاب عليهم ليثبتوا على التوبة .

وقيل : المعنى تاب عليهم ليرجعوا إلى حال الرضا عنهم .

وبالجملة فلولا ما سبق لهم في علمه أنه قضى لهم بالتوبة ما تابوا ؛ دليله قوله عليه السلام : " اعملوا فكلٌّ مُيَسَّر لما خلق له " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(55/351)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ﴾ الآية

تاب الله بمعنى تجاوز وصفح عن النبي (صلى الله عليه وسلم) والمهاجرين والأنصار ومعنى توبته على النبي (صلى الله عليه وسلم) : عدم مؤاخذته بإذنه للمنافقين بالتخلف في غزوة تبوك وهي كقوله سبحانه وتعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقاباً .

وقال أصحاب المعاني : هو مفتاح كلام للتبرك كقوله سبحانه وتعالى فأن لله خمسه .

ومعنى هذا : أن ذكر النبي بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم توبتهم إلى توبة النبي (صلى الله عليه وسلم) كما ضم اسم الرسول إلى اسم الله في قوله فإن لله خمسه وللرسول فهو تشريف له .

وأما معنى : توبة الله على المهاجرين والأنصار ، فلأجل ما وقع في قلوبهم من الميل إلى القعود

عن غزوة تبوك لأنها كانت في وقت شديد وربما وقع في قلوب بعضهم أنا لا نقدر على قتال الروم وكيف لنا بالخلاص منهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم ما وقع في قلوبهم من هذه الخواطر والوساوس النفسانية .

وقيل : إن الإنسان ليخلو من زلات وتبعات في مدة عمره إما من باب الصغائر وإما من باب ترك الأفضل .

(56/351)

ثم إن النبي (صلى الله عليه وسلم) والمؤمنين معه لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه وصبروا على تلك الشدائد العظيمة التي حصلت لهم في ذلك السفر غفر الله لهم وتاب عليهم لأجل ما تحملوه من الشدائد العظيمة في تلك الغزوة مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وإنما ضم ذكر النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى ذكرهم تنبيهاً على عظم مراتبهم في الدين وأنهم قد بلغوا إلى الرتبة التي لأجلها ضم ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ذكرهم ﴿ الذين اتبعوه ﴾ في تلك الغزوة من المهاجرين والأنصار وقد ذكر بعض العلماء أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سار إلى تبوك في سبعين ألفاً ما بين راكب وماش من المهاجرين والأنصار وغيرهم من سائر القبائل ﴿ في ساعة العسرة ﴾ يعني في وقت العسرة ولم يرد

ساعة بعينها والعسرة الشدة والضيق وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش الذي سار فيه يسمى جيش العسرة لأنه كان عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء قال الحسن كان العشرة : منهم يخرجون على بعير واحد يعتقبونه بينهم يركب الرجل منهم ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوس والشعير المتغير وكان النفر منهم يخرجون وما معهم إلى التمرات اليسيرة بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يخرجها من فيه ويعطيها صاحبه ثم يشرب عليها جرعة من الماء ويفعل صاحبه كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من الترمة إلا النواة فمضوا مع النبي (صلى الله عليه وسلم) على صدقهم ويقينهم م .

(57/351)

وقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى تبوك فيقيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، وحتى أن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع الله قال أتحب ذلك قال : نعم فرفع يديه (صلى

الله عليه وسلم) يرجعا حتى أرسل الله سحابة فمطرت فملأوا ما معهم من الأوعية ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر أسنده الطبري عن عمر .

قوله تعالى : ﴿ من بعد ما كان يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ يعني من بعد ما قارب أن تميل قلوب بعضهم عن الحق من أجل المشقة والشدة التي نالتهم والزيغ في اللغة الميل .

وقيل : همَّ بعضهم أن يفارق الرسول (صلى الله عليه وسلم) تلك الشدة التي نالتهم لكنهم صبروا واحتسبوا وندموا على ما خطر في قلوبهم فلأجل ذلك قال تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ يعني أنه سبحانه وتعالى علم إخلاص نيتهم وصدق توبتهم فرزقهم الإنابة والتوبة .

فإن قلت قد ذكر التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار ؟

قلت إنه سبحانه وتعالى ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطييباً لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى تعظيماً لشأنهم وليعلموا أنه سبحانه وتعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم ثم أتبعه بقوله ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ تأكيداً لذلك ومعنى الرؤوف في صفة الله تعالى أنه الرفيق بعباده لأنه لم يحملهم ما لا يطيقون من العبادات وبين الرؤوف والرحيم فرق لطيف وإن تقاربا في المعنى .

قال الخطابي : قد تكون الرحمة مع الكراهة للمصلحة ولا تكاد الرأفة تكون مع الكراهة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

فائدة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

سُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ :

عَنْ مَعْنَى قَوْله تَعَالَى ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾ الْآيَةُ . وَالتَّوْبَةُ إنَّمَا تَكُونُ عَنْ شَيْءٍ يَصْدُرُ مِنْ الْعَبْدِ وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعْصُومٌ مِنْ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ .

فَأَجَابَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ، الْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مَعْصُومُونَ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ كِبَارِهَا وَصِغَارِهَا وَهُمْ بِمَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْهُمْ مِنْ التَّوْبَةِ يَرْفَعُ دَرَجَاتِهِمْ وَيُعَظِّمُ حَسَنَاتِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ نَقْصًا ؛ بَلْ هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الكمالات وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فَغَايَةُ كُلِّ مُؤْمِنٍ هِيَ التَّوْبَةُ ثُمَّ التَّوْبَةُ تَتَنَوَّعُ كَمَا يُقَالُ : حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ

الْمُقَرَّبِينَ . وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ أَخْبَرَ عَنْ عَامَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ : عَنْ آدَمَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَغَيْرِهِمْ . فَقَالَ آدَمُ :

(59/351)

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وَقَالَ نُوحٌ : ﴿ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ وَقَالَ هُوَ وَإِسْمَاعِيلُ : ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ وَقَالَ مُوسَى : ﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾ ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ تَوْبَةَ دَاوُد وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَاللَّهُ تَعَالَى ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ وَفِي أَوَاخِرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي افْتِتَاحِ الصَّلَاةِ

: ﴿ اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ الْخَطَايَا كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي مِنْ

(60/351)

خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَالْمَاءِ الْبَارِدِ ﴾ " وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَاءِ الِاسْتِفْتَاحِ : " ﴿ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ

(61/351)

أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُك ظَلَمْت نَفْسِي وَاعْتَرَفْت بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعًا إنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلَّا أَنْتَ ﴾ " وَفِي الصَّحِيحِ أَيْضًا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ دِقَّهُ وَجِلَّهُ عَلَانِيَتَهُ وَسِرَّهُ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ﴾ " وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " ﴿ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي هَزْلِي وَجِدِّي وَخَطَئِي وَعَمْدِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي . اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت وَمَا أَسْرَفْت وَمَا

أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ﴾ " . وَمِثْلُ هَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ فَتَوْبَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَاسْتِغْفَارُهُمْ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ حَسَنَاتِهِمْ وَأَكْبَرِ طَاعَاتِهِمْ وَأَجَلِّ عِبَادَاتِهِمْ الَّتِي يَنَالُونَ بِهَا أَجَلَّ الثَّوَابِ وَيَنْدَفِعُ بِهَا عَنْهُمْ مَا يَدْفَعُهُ مِنْ الْعِقَابِ . فَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ : أَيُّ حَاجَةٍ بِالْأَنْبِيَاءِ إلَى الْعِبَادَاتِ وَالطَّاعَاتِ ؟ كَانَ جَاهِلًا ؛ لِأَنَّهُمْ إنَّمَا نَالُوا مَا نَالُوهُ بِعِبَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ فَكَيْفَ يُقَالُ : إنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ إلَيْهَا فَهِيَ أَفْضَلُ عِبَادَتِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ . وَإِذَا قَالَ الْقَائِلُ : فَالتَّوْبَةُ لَا تَكُونُ إلَّا عَنْ ذَنْبٍ وَالِاسْتِغْفَارُ كَذَلِكَ

(62/351)

قِيلَ لَهُ : الذَّنْبُ الَّذِي يَضُرُّ صَاحِبَهُ هُوَ مَا لَمْ يَحْصُلْ مِنْهُ تَوْبَةٌ فَأَمَّا مَا حَصَلَ مِنْهُ تَوْبَةٌ فَقَدْ يَكُونُ صَاحِبُهُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَفْضَلَ مِنْهُ قَبْلَ الْخَطِيئَةِ كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ : كَانَ دَاوُد بَعْدَ التَّوْبَةِ أَحْسَنَ مِنْهُ حَالًا قَبْلَ الْخَطِيئَةِ وَلَوْ كَانَتْ التَّوْبَةُ مِنْ الْكُفْرِ وَالْكَبَائِرِ ؛ فَإِنَّ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ هُمْ خِيَارُ الْخَلِيقَةِ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّمَا صَارُوا كَذَلِكَ بِتَوْبَتِهِمْ مِمَّا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ وَلَمْ يَكُنْ مَا تَقَدَّمَ قَبْلَ التَّوْبَةِ نَقْصًا وَلَا عَيْبًا ؛ بَلْ لَمَّا تَابُوا مِنْ ذَلِكَ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانُوا أَعْظَمَ إيمَانًا وَأَقْوَى عِبَادَةً وَطَاعَةً مِمَّنْ جَاءَ بَعْدَهُمْ ؛ فَلَمْ

يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ كَمَا عَرَفُوهَا . وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : إنَّمَا تُنْقَضُ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةً عُرْوَةً إذَا نَشَأَ فِي الْإِسْلَامِ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ الْجَاهِلِيَّةَ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ ﴿ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴾ ﴿ إلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ " ﴿ أَنَّ اللَّهَ يُحَاسِبُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ

(63/351)

صِغَارَ الذُّنُوبِ وَيُخَبِّئُ عَنْهُ كِبَارَهَا فَيَقُولُ : فَعَلْت يَوْمَ كَذَا كَذَا وَكَذَا ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ يَا رَبِّ وَهُوَ مُشْفِقٌ

(64/351)

مِنْ كِبَارِهَا أَنْ تَظْهَرَ فَيَقُولُ إنِّي قَدْ غَفَرْتهَا لَك وَأَبْدَلْتُك مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً فَهُنَالِكَ يَقُولُ رَبِّ إنَّ لِي سَيِّئَاتٍ مَا أَرَاهَا بَعْدُ ﴾ " فَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ إذَا تَابَ وَبَدَّلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ انْقَلَبَ مَا كَانَ يَضُرُّهُ مِنْ السَّيِّئَاتِ بِسَبَبِ تَوْبَتِهِ حَسَنَاتٍ يَنْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا فَلَمْ تَبْقَ الذُّنُوبُ بَعْدَ التَّوْبَةِ مُضِرَّةً لَهُ بَلْ كَانَتْ تَوْبَتُهُ مِنْهَا مِنْ أَنْفَعِ الْأُمُورِ لَهُ وَالِاعْتِبَارُ بِكَمَالِ النِّهَايَةِ لَا بِنَقْصِ الْبِدَايَةِ فَمَنْ نَسِيَ الْقُرْآنَ ثُمَّ حَفِظَهُ خَيْرٌ مِمَّنْ حَفِظَهُ الْأَوَّلَ لَمْ يَضُرَّهُ النِّسْيَانُ وَمَنْ مَرِضَ ثُمَّ صَحَّ وَقَوِيَ لَمْ يَضُرَّهُ الْمَرَضُ الْعَارِضُ . وَاَللَّهُ تَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِمَا يَتُوبُ مِنْهُ ؛ لِيَحْصُلَ لَهُ بِذَلِكَ مِنْ تَكْمِيلِ الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّضَرُّعِ وَالْخُشُوعِ لِلَّهِ وَالْإِنَابَةِ إلَيْهِ وَكَمَالِ الْحَذَرِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَالِاجْتِهَادِ فِي الْعِبَادَةِ مَا لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ التَّوْبَةِ كَمَنْ ذَاقَ الْجُوعَ وَالْعَطَشَ وَالْمَرَضَ وَالْفَقْرَ وَالْخَوْفَ ثُمَّ ذَاقَ الشِّبَعَ وَالرِّيَّ وَالْعَافِيَةَ وَالْغِنَى وَالْأَمْنَ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنْ الْمَحَبَّةِ لِذَلِكَ وَحَلَاوَتِهِ وَلَذَّتِهِ وَالرَّغْبَةِ فِيهِ وَشُكْرِ نِعْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَالْحَذَرِ أَنْ يَقَعَ فِيمَا حَصَلَ أَوَّلًا مَا لَمْ يَحْصُلْ بِدُونِ ذَلِكَ . وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ أَنَّ التَّوْبَةَ لَا بُدَّ مِنْهَا لِكُلِّ مُؤْمِنٍ وَلَا يَكْمُلُ أَحَدٌ وَيَحْصُلُ لَهُ كَمَالُ الْقُرْبِ مِنْ اللَّهِ

(65/351)

وَيَزُولُ عَنْهُ كُلُّ مَا يَكْرَهُ إلَّا بِهَا .

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ الْمُقَدَّمُ عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ فِي أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ ؛ فَهُوَ أَفْضَلُ الْمُحِبِّينَ لِلَّهِ وَأَفْضَلُ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللَّهِ وَأَفْضَلُ الْعَابِدِينَ لَهُ وَأَفْضَلُ الْعَارِفِينَ بِهِ وَأَفْضَلُ التَّائِبِينَ إلَيْهِ وَتَوْبَتُهُ أَكْمَلُ مِنْ تَوْبَةِ غَيْرِهِ ؛ وَلِهَذَا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . وَبِهَذِهِ الْمَغْفِرَةِ نَالَ الشَّفَاعَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ : " ﴿ أَنَّ النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَطْلُبُونَ الشَّفَاعَةَ مِنْ آدَمَ فَيَقُولُ : إنِّي نُهِيت عَنْ الْأَكْلِ مِنْ الشَّجَرَةِ فَأَكَلْت مِنْهَا نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي . وَيَطْلُبُونَهَا مِنْ نُوحٍ فَيَقُولُ : إنِّي دَعَوْت عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ دَعْوَةً لَمْ أُومر بِهَا . نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي . وَيَطْلُبُونَهَا مِنْ الْخَلِيلِ ثُمَّ مِنْ مُوسَى ثُمَّ مِنْ الْمَسِيحِ فَيَقُولُ : اذْهَبُوا إلَى مُحَمَّدٍ عَبْدٍ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ . قَالَ : فَيَأْتُونِي فَأَنْطَلِقُ فَإِذَا رَأَيْت رَبِّي خَرَرْت لَهُ سَاجِدًا فَأَحْمَدُ رَبِّي بِمَحَامِدَ يَفْتَحُهَا عَلَيَّ لَا أُحْسِنُهَا الْآنَ فَيَقُولُ : أَيْ مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَك وَقُلْ تُسْمَعْ وَسَلْ تُعْطَ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَقُولُ : أَيْ رَبِّ أُمَّتِي فَيَحِدُّ لِي حَدًّا فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ ﴾ " . فَالْمَسِيحُ – صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ – دَلَّهُمْ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَخْبَرَ بِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ وَكَمَالِ مَغْفِرَةِ اللَّهِ لَهُ إذْ لَيْسَ بَيْنَ الْمَخْلُوقَيْنِ

وَالْخَالِقِ نَسَبٌ إلَّا مَحْضُ الْعُبُودِيَّةِ وَالِافْتِقَارِ مِنْ الْعَبْدِ

وَمَحْضُ الْجُودِ وَالْإِحْسَانِ مِنْ الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَنْ يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ قَالُوا : وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَلَا أَنَا إلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ ﴾ " وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : " ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلَى رَبِّكُمْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً ﴾ " وَثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ قَالَ : " ﴿ إنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ ﴾ " فَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ . وَكَمَالِ مَحَبَّتِهِ لَهُ وَافْتِقَارِهِ إلَيْهِ وَكَمَالِ تَوْبَتِهِ وَاسْتِغْفَارِهِ : صَارَ أَفْضَلَ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ مِنْ اللَّهِ وَلَيْسَ لِلْمَخْلُوقِ مِنْ نَفْسِهِ شَيْءٌ بَلْ هُوَ فَقِيرٌ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَاَللَّهُ غَنِيٌّ عَنْهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ مُحْسِنٌ إلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَكُلَّمَا ازْدَادَ الْعَبْدُ تَوَاضُعًا وَعُبُودِيَّةً ازْدَادَ إلَى اللَّهِ قُرْبًا وَرِفْعَةً ؛ وَمِنْ ذَلِكَ تَوْبَتُهُ وَاسْتِغْفَارُهُ . وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : ﴿ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ ﴾ " رَوَاهُ ابْنُ مَاجَه وَالتِّرْمِذِي .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مجموع الفتاوى حـ 15 صـ 51 . 57 ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبى ﴾

قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : هو العفوُ عن إذنه للمنافقين في التخلف عنه ﴿ والمهاجرين والانصار ﴾ قيل : هو في حق زلاتٍ سبقت منهم يوم أُحُدٍ ويوم حُنينٍ ، وقيل : المرادُ بيانُ فضلِ التوبةِ وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاجٌ إليها حتى النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِما صدرَ عنه في بعض الأحوالِ من ترك الأَوْلى ﴿ الذين اتبعوه ﴾ ولم يتخلفوا عنه ولم يُخِلّوا بأمر من أوامره ﴿ فِى سَاعَةِ العسرة ﴾ أي في وقتها ، والتعبيرُ عنه بالساعة لزيادة تعيينِه وهي حالُهم في غزوة تبوكَ كانوا في عُسرةٍ من الظَّهر ، يعتقِبُ عشرةٌ على بعير واحد ، ومن الزاد تزوّدوا التمرَ المدوّد والشعيرَ المسوّس والإهالة الزَّنخة ، وبلغت بهم الشدةُ إلى أن اقتسم التمرةَ اثنان وربما مصّها الجماعةُ ليشربوا عليها الماء المتغيّرَ ، وفي عسرة من الماء ، حتى نحَروا الإبلَ واعتصروا فروثَها وفي شدة زمانٍ من حِمارة القَيظ ومن الجدب والقَحط والضيقة الشديدةِ ، ووصفُ المهاجرين والأنصارِ بما ذكر من اتباعهم له عليه الصلاة والسلام في مثل هاتيك المراتبِ من الشدة للمبالغة في بيان الحاجةِ إلى التوبة فإنه ذلك حيث

لمْ يُغنهم عنها فلأنْ لا يستغنيَ عنها غيرُهم أولى وأحرى ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ بيانٌ لتناهي الشدة وبلوغِها إلى ما لا غايةَ وراءَها وهو إشرافُ بعضهم على أن يَميلوا إلى التخلف عن النبي عليه الصلاة والسلام وفي كاد ضميرُ الشأنِ أو ضميرُ القوم الراجعُ إليه الضميرُ في منهم ، وقرىء بتأنيث الفعل وقرىء من بعد ما زاغت قلوبُ فريقٍ منهم يعني المتخلفين من المؤمنين كأبي لُبابةَ وأضرابه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ تكريرٌ للتأكيد وتنبيهٌ على أنه يتاب عليهم من أجل ما كابدوا من العُسرة والمرادُ أنه تاب عليهم لكيد ودتهم ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ استئنافٌ تعليليٌ فإن صفةَ الرأفةِ والرحمةِ من دواعي التوبةِ

(69/351)

والعفوِ ويجوز كونُ الأولِ عبارةً عن إزالة الضررِ والثاني عن إيصالِ المنفعةِ وأن يكون أحدُهما للسوابق والآخَرُ للّواحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(70/351)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

قال أصحاب المعاني المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار إلا أنه جيء في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم تشريفاً لهم وتعظيماً لقدرهم ، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه : ﴿ ﴾ قال أصحاب المعاني المراد ذكر التوبة على المهاجرين والأنصار إلا أنه جيء في ذلك بالنبي صلى الله عليه وسلم تشريفاً لهم وتعظيماً لقدرهم ، وهذا كما قالوا في ذكره تعالى في قوله سبحانه : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : 41] الخ أي عفا سبحانه عن زلات سبقت منهم يوم أحد ويوم حنين ، وقيل : المراد ذكر التوبة عليه عليه الصلاة والسلام وعليهم ، والذنب بالنسبة إليه صلى الله عليه وسلم من باب خلاف الأولى نظراً إلى مقامه الجليل ، وفسر هنا على ما روي عن ابن عباس بالاذن للمنافقين في التخلف ، وبالنسبة إليهم رضي الله تعالى عنهم لا مانع من أن يكون حقيقياً إذ لا عصمة عندنا لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويفسر بما فسر أولا .

(71/351)

وجوز أيضاً أن يكون من باب خلاف الأولى بناء على ما قيل : إن ذنبهم كان الميل إلى العقود عن غزوة تبوك حيث وقعت في وقت شديد ، وقد تفسر التوبة بالبراءة عن الذنب والصون عنه مجازاً حيث أنه لا مؤاخذة في كل ، وظاهر الإطلاق الحقيقة ، وفي الآية ما لا يخفى من التحريض والبعث على التوبة للناس كلهم ﴿ الذين اتبعوه ﴾ ولم يتخلفوا عنه صلى الله عليه وسلم ﴿ فِى سَاعَةِ العسرة ﴾ أي في وقت الشدة والضيق ، والتعبير عنه بالساعة لزيادة تعيينه وكانت تلك الشدة حالهم في غزوة تبوك فإنهم كانوا في شدة من الظهر يعتقب العشرة على بعير واحد وفي شدة من الزاد تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والاهالة الزنخة وبلغت بهم الشدة أن قسم التمرة اثنان ، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء كما روي عن قتادة ، وفي شدة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ، وفي شدة زمان من حمارة القيظ ومن الجدب والقحط ، ومن هنا قيل لتلك الغزوة غزوة العسرة ولجيشها جيش العسرة .

ووصف المهاجرين والأنصار بالاتباع في هذه الساعة للإشارة إلى أنهم حريون بأن يتوب الله عليهم لذلك وفيه أيضاً تأكيد لأمر التحريض السابق ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ بيان لتناهي الشدة وبلوغها الغاية القصوى وهو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا إلى التخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقيل : هو إشراف بعضهم إلى أن يميلوا عن

الثبات على الإيمان وحمل ذلك على مجرد الهم والوسوسة ، وقيل : كان ميلاً من ضعفائهم وحديثي عهدهم بالإسلام .

(72/351)

وفي ﴿ كَادَ ﴾ ضمير الشأن و﴿ قُلُوبِ ﴾ فاعل ﴿ يَزِيغُ ﴾ والجملة في موضع الخبر لكاد ولا تحتاج إلى رابط لكونها خبراً عن ضمير الشأن وهو المنقول عن سيبويه وإضمار الشأن على ما نقل عن الرضى ليس بمشهور في أفعال المقاربة إلا في كاد وفي الناقصة إلا في كان وليس ، وجوز أن يكون اسم كاد ضمير القوم والجملة في موضع الخبر أيضاً والرابط عليه الضمير في ﴿ مِنْهُمْ ﴾ وهذا على قراءة ﴿ يَزِيغُ ﴾ بالياء التحتانية وهي قراءة حمزة .

وحفص .

والأعمش وأما على قراءة ﴿ تزيغ ﴾ بالتاء الفوقانية وهي قراءة الباقين فيحتمل أن يكون ﴿ على قُلُوبِ ﴾ اسم كاد و﴿ تزيغ ﴾ خبرها وفيه ضمير يعود على اسمها ولا يصح هذا على القراءة الأولى لتذكير ضمير يزيغ ، وتأنيث ما يعود إليه وقد ذكر هذا الوجه منتخب الدين الهمداني .

وأبو طالب المكي .

وغيرهما .

وتعقبه في الكشف بأن في جعل القلوب اسم كاد خلاف وضعه من جوب تقديم اسمه على خبره كما ذكره الشيخ ابن الحاجب في "شرح المفصل" وفي البحر أن تقديم خبر كاد على اسمها مبني على جواز تركيب كان يقوم زيد وفيه خلاف والأصح المنع .

وأجاب بعض فضلاء الروم بأن أبا علي جوز ذلك وكفى به حجة ، وبأن عليه كلام ابن مالك في التسهيل وكذا كلام شراحه ومنهم أبو حيان وجرى عليه في ارتشافه أيضاً ، ولا يعبأ بمخالفته في البحر إذ مبني ذلك القياس على باب كان وهو لا يصادم النص عن أبي علي ، على أن في كون أبي حيان من أهل القياس منعاً ظاهراً فالحق الجواز ، ويحتمل أن يكون اسم كاد ضميراً يعود على جمع المهاجرين والأنصار أي من بعد ما كاد الجمع ، وقدر ابن عطية مرجع الضمير القوم أي من بعد ما كاد القوم .

(73/351)

وضعف بأنه اضمر في كاد ضمير لا يعود إلا على متوهم ، وبأن خبرها يكون قد رفع سببياً وقد قالوا : إنه لا يرفع إلا ضميراً عائداً على اسمها وكذا خبر سائر اخواتها ما عدا عسى

في رأي ، ولا يخفى ورود هذا أيضاً على توجيهي القراءة الأولى لكن الأمر على التوجيه الأول سهل .

وجوز الرضى تخريج الآية على التنازع وهو ظاهر على القراءة الثانية ويتعين حينئذ أعمال الأول إذ لو أعمل الثاني لوجب أن يقال في الأول ﴿ إِن كَادَتْ ﴾ كما قرأ به الله تعالى عنه . ولا يجوز كان إلا عند الكسائي فإنه يحذف الفاعل ، وكأن الرضى لم يبال بما لزم على هذا التخريج من تقديم خبر كاد على اسمه لما عرفت من أنه ليس بمحذور على ما هو الحق . وذهب أبو حيان إلى أن ﴿ كَادَ ﴾ زائدة ومعناها مراد ككان ولا عمل لها في اسم ولا خبر ليخلص من القيل والقال ، ويؤيده قراءة ابن مسعود ﴿ مِّن بَعْدِ مَا زَاغَتِ ﴾ بإسقاط كاد ، وقد ذهب الكوفيون إلى زيادتها في نحو

﴿ لم يكد ﴾ [النور : 40] مع أنها عاملة معمولة فهذا أولى .

(74/351)

وقرأ الأعمش ﴿ تزيغ ﴾ بضم التاء ، وجعلوا الضمير على قراءة ابن مسعود للمتخلفين سواء كانوا من المنافقين أم لا كأبي لبابة ﴿ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ تكرير للتأكيد بناء على أن الضمير للنبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم ،

والتأكيد يجوز عطفه بثم كما صرح به النحاة وإن كان كلام أهل المعاني يخالفه ظاهراً ، وفيه تنبيه على أن توبته سبحانه في مقابلة ما قاسوه من الشدائد كما دل عليه التعليق بالموصول ، ويحتمل أن يكون الضمير للفريق ، والمراد أنه تاب عليهم لكيد ودتهم وقربهم من الزيغ لأنه جرم محتاج إلى التوبة عليه فلا تكرار لما سبق ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ استئناف تعليلي فإن صفة الرأفة والرحمة من دواعي التوبة والعفو ، وجوز كون الأول عبارة عن إزالة الضرر والثاني عن إيصال النفع ، وأن يكون أحدهما للسوابق والآخر للواحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(75/351)

وقال القاسمى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين فيما تقدم مراتب الناس في أيام غزوة تبوك ، مؤمنهم ومنافقهم ، والمنفق لها طوعاً أو كرهاً ، والمرغّب فيها أو عنها ، والمتخلف نفاقاً أو كسلاً ، وأنبأ عما لحق كلاًّ من الوعد والوعيد ، وميز الصادقين من غيرهم ، ختم بفرقة منهم كانوا تخلفوا ميلاً للدعة وهم صادقون في إيمانهم ، ثم ندموا فتابوا وأنابوا ، وعلم الله صدق توبتهم ، فقبلها ،

ثم أنزل توبتهم في هذه الآية ، وصدرها بتوبته على رسوله ، وكبار صحبه جبراً لقلوبهم ، وتنويهاً لشأنهم بضمهم مع المقطوع بالرضا عنهم وبعثاً للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والإستغفار ، حتى النبيّ والمهاجرين والأنصار ، كل على حسبه ، وإبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأنها صفة التوابين الأوابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ، ليظهر فضيلة الصلاح والوصف للمدح ، كما يكون لمدح الموصوف ، يكون لمدح الصفة ، وهذا من لطائف البلاغة ، وهو كما قال حسان رضي الله عنه :

~ما إِنْ مَدَحْتُ مُحَمّداً بِمقالَتِي لَكْنِ مَدَحْتُ مَقالَتِي بِمُحَمَّدِ

وفي الآية بيان فضل المهاجرين والأنصار .

(76/351)

قال الحاكم : ودلت على فضل عثمان ، لأنه جهز جيش العسرة بمال لم يبلغ غيره مبلغه ، وقد جمع تعالى بين ذكر نبيه وذكرهم ، ووصفهم باتّباعه ، فوجب القطع بموالاتهم .

وقوله تعالى : ﴿ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ أي : في وقتها ، والساعة تستعمل في معنى الزمان المطلق ، كما تستعمل الغداة والعشية واليوم ، والعسرة حالهم في غزوة تبوك ، كانوا في

عسرة من الظَّهْر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفي عسرة من الزاد ، حتى إن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم ، يمصها هذا ، ثم يشرب عليها ، ثم يمصها الآخر ، ثم يشرب عليها : وفي عسرة من شدة لَهَبان الحرّ ومن الجدب ، وفي عسرة من الماء ، حتى بلغ بأحدهم العطش أن نحر بعيره ، فعصر فرثه فشربه ، وجعل ما بقي على كبده .

وقد حكى القالي في " أماليه " أن العرب كانوا إذا أرادوا توغل الفلوات التي لا ماء فيها ، سقوا الإبل على أتم أظمائها ثم قطعوا مشافرها ، أو خزموها لئلا ترعى ، فإذا احتاجوا إلى الماء افتظوا كروشها ، فشربوا ثميلها ، وهو كثير في الأشعار . كذا في " العناية " .

ونقل الرازي عن أبي مسلم ، أنه يجوز أن يكون المراد بساعة العسرة ، جميع الأحوال والأوقات الشديدة على الرسول ، وعلى المؤمنين ، فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها .

وقد ذكر تعالى بعضها في كتابه كقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ ﴾ والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول صلى الله عليه وسلم في الأوقات الشديدة ، والأحوال الصعبة ، وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم . انتهى .

(77/351)

أقول هذا الإحتمال ، وإن كان مما يسعه اللفظ الكريم ، إلا أنه يبعده عنه سياق الآية ، وسباقها ، القاصران على غزوة تبوك ، ولم يتفق في غيرها عسر في الخروج ، واتباعه عليه السلام ، بل وقع أحياناً في مصاف القتال .

وقد اتفق علماء الأثر والسير على تسميتها غزوة العسرة ، ومن خرج فيها جيش العسرة .

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ﴾ أي : عن الحق ، أو الثبات على الإتباع للذي نالهم من المشقة والشدة في سفرهم .

وفي تكرير التوبة عليهم بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ تأكيد ظاهر ، واعتناء بشأنها ، هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق الثاني ، فلا تكرار .

قال بعضهم : ذكر التوبة أولاً قبل ذكر الذنب ، تفضلاً منه ، وتطييباً لقلوبهم . ثم ذكر الذنب بعد ذلك ، وأردفه بذكر التوبة مرة أخرى ، تعظيماً لشأنهم ، وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم ، وعفا عنهم . ثم أتبعه بقوله : ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ تأكيداً لذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 534.536 ﴾

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ)

هَذَا تَمْثِيلٌ لِإِثَابَةِ اللهِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَذْلِ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِهِ بِتَمْلِيكِهِمُ الْجَنَّةَ دَارَ النَّعِيمِ الْأَبَدِيِّ ، وَالرِّضْوَانِ السَّرْمَدِيِّ ، تَفَضُّلًا جَلَّ جَلَالُهُ وَعَمَّ نَوَالُهُ بِجَعْلِهَا مِنْ قَبِيلِ مَنْ بَاعَ شَيْئًا هُوَ لَهُ لِآخَرَ ، لُطْفًا مِنْهُ تَعَالَى وَكَرَمًا وَتَكْرِيمًا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ بِجَعْلِهِمْ كَالْمُتَعَاقِدِينَ مَعَهُ كَمَا يَتَعَاقَدُ الْبَيِّعَانِ عَلَى الْمَنَافِعِ الْمُتَبَادَلَةِ وَهُوَ عَزَّ وَجَلَّ الْمَالِكُ لِأَنْفُسِهِمْ إِذْ هُوَ الَّذِي خَلَقَهَا ، وَالْمَالِكُ لِأَمْوَالِهِمْ إِذْ هُوَ الَّذِي رَزَقَهَا ، وَهُوَ غَنِيٌّ عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ . وَإِنَّمَا الْمَبِيعُ وَالثَّمَنُ - لَهُ . وَقَدْ جَعَلَهُمَا بِكَرَمِهِ لَهُمْ ، وَقَوْلُهُ : (يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ) بَيَانٌ لِصِفَةِ تَسْلِيمِ الْمَبِيعِ وَهُوَ أَنَّهُمْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْمُوَصِّلَةِ إِلَى مَرْضَاتِهِ تَعَالَى فَيَبْذُلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ فَيَكُونُونَ إِمَّا قَاتِلِينَ لِأَعْدَائِهِ الصَّادِّينَ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَإِمَّا مَقْتُولِينَ شُهَدَاءَ فِي هَذِهِ السَّبِيلِ . قَرَأَ الْجُمْهُورُ بِتَقْدِيمِ

(يَقْتُلُونَ) الْمَبْنِيِّ لِلْفَاعِلِ وَحَمْزَةُ وَالْكِسَائِيُّ بِتَقْدِيمِ الْمَبْنِيِّ لِلْمَفْعُولِ ، فَدَلَّتِ الْقِرَاءَتَانِ عَلَى أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ أَنْ

يُقْتَلَ بَعْضُهُمْ وَيَسْلَمَ بَعْضٌ ، وَأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْقَاتِلِ وَالْمَقْتُولِ فِي الْفَضْلِ ، وَالْمَثُوبَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إذْ كُلٌّ مِنْهُمَا فِي سَبِيلِهِ لَا حُبًّا فِي سَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَلَا رَغْبَةً فِي اغْتِنَامِ الْأَمْوَالِ ، وَلَا تَوَسُّلًا إلَى ظُلْمِ الْعِبَادِ ، كَمَا يَفْعَلُ عُبَّادُ الدُّنْيَا مِنَ الْمُلُوكِ وَرُؤَسَاءِ الْأَجْنَادِ .

(وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ) أَيْ وَعَدَهُمْ بِذَلِكَ وَعْدًا أَوْجَبَهُ لَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ . وَجَعَلَهُ حَقًّا عَلَيْهِ أَثْبَتَهُ فِي الْكُتُبِ الثَّلَاثَةِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى أَشْهَرِ رُسُلِهِ ، وَلَا تَتَوَقَّفُ صِحَّةُ هَذَا الْوَعْدِ عَلَى وُجُودِهِ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ اللَّذَيْنِ فِي أَيْدِي أَهْلِ الْكِتَابِ بِنَصِّهِ ، لِمَا أَثْبَتْنَاهُ مِنْ ضَيَاعِ كَثِيرٍ مِنْهُمَا ، وَتَحْرِيفِ بَعْضِ مَا بَقِيَ لَفْظًا وَمَعْنًى ، بَلْ يَكْتَفِي إثْبَاتُ الْقُرْآنِ لِذَلِكَ وَهُوَ مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمَا . (رَاجِعْ ص 299 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(80/351)

(وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) ؟ أَيْ لَا أَحَدَ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَأَصْدَقُ فِي إنْجَازِ وَعْدِهِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، إذْ لَا يَمْنَعُهُ مِنْ ذَلِكَ عَجْزٌ عَنِ الْوَفَاءِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَعْرِضَ لَهُ فِيهِ التَّرَدُّدُ أَوِ الْبَدَاءُ ، (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ) الِاسْتِبْشَارُ : الشُّعُورُ بِفَرَحِ الْبُشْرَى أَوِ اسْتِشْعَارُهَا ، الَّذِي تَنْبَسِطُ بِهِ بَشَرَةُ الْوَجْهِ فَيَتَأَلَّقُ نُورُهَا ، وَالْجُمْلَةُ تَقْرِيرٌ لِتَمَامِ صَفْقَةِ الْبَيْعِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ :

(وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الَّذِي لَا يَتَعَاظَمُهُ فَوْزٌ ، دُونَ مَا يَتَقَدَّمُهُ مِنَ النَّصْرِ وَالسِّيَادَةِ وَالْمِلْكِ ، الَّذِي لَا يُعَدُّ فَوْزًا إلَّا بِجَعْلِهِ وَسِيلَةً لِإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ . أَعْلَى اللَّهُ تَعَالَى مَقَامَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِهِ فَجَعَلَهُمْ بِفَضْلِهِ مَالِكِينَ مَعَهُ ، وَمُبَايِعِينَ لَهُ ، وَمُسْتَحِقِّينَ لِلثَّمَنِ الَّذِي بَايَعَهُمْ بِهِ ، وَأَكَّدَ لَهُمْ أَمْرَ الْوَفَاءِ بِهِ وَإِنْجَازَهُ ، وَيُرْوَى عَنْ جَدِّنَا الْإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَعْنَى الْآيَةِ :

أُثَامِنُ بِالنَّفْسِ النَّفِيسَةِ رَبَّهَا . . . فَلَيْسَ لَهَا فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ ثَمَنُ

بِهَا أَشْتَرِي الْجَنَّاتِ إنْ أَنَا بِعْتُهَا

بِشَيْءٍ سِوَاهَا إنَّ ذَلِكُمْ غَبَنُ

إذَا ذَهَبَتْ نَفْسِي بِدُنْيَا أَصَبْتُهَا

فَقَدْ ذَهَبَتْ مِنِّي وَقَدْ ذَهَبَ الثَّمَنُ

(81/351)

وَيُرْوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : لَيْسَ لَأَبْدَانِكُمْ ثَمَنٌ إلَّا الْجَنَّةَ فَلَا تَبِيعُوهَا إلَّا بِهَا . وَمَعْنَاهُ أَنَّ الَّذِي يُقْتَلُ أَوْ يَمُوتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَانَ بَاذِلًا لِبَدَنِهِ الْفَانِي لَا لِرُوحِهِ الْبَاقِيَةِ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنْ يَبِيعَ لِرَبِّهِ جَسَدَهُ دُونَ نَفْسِهِ النَّاطِقَةِ كَمَا تَوَهَّمَ بَعْضُ الْمُتَفَلْسِفِينَ .

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ : نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ فَكَبَّرَ النَّاسُ فِي الْمَسْجِدِ ، فَأَقْبَلَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ ثَانِيًا طَرَفَيْ رِدَائِهِ عَلَى عَاتِقِهِ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ أُنْزِلَتْ فِينَا هَذِهِ الْآيَةُ ؟ قَالَ : (نَعَمْ) فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ : بَيْعٌ رَبِيحٌ ، لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ – يَعْنِي الْبَيْعَ – .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ رَوَاحَةَ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : اشْتَرِطْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ فَقَالَ : (أَشْتَرِطُ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَشْتَرِطُ لِنَفْسِي أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ) قَالُوا : فَإِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ فَمَا لَنَا ؟ قَالَ : (الْجَنَّةُ) قَالَ : رَبِحَ الْبَيْعُ لَا نُقِيلُ وَلَا نَسْتَقِيلُ . فَنَزَلَتِ الْآيَةُ . وَظَاهِرُ هَذَا أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي مُبَايَعَةِ الْأَنْصَارِ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَفْصِيلُهُ فِيمَا يَلِي وَإِنْ لَمْ يُصَرِّحْ بِأَنَّهُ سَبَبُ النُّزُولِ .

(82/351)

وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنْ عَبَّادِ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّ سَعْدَ بْنَ زُرَارَةَ أَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ تَدْرُونَ عَلَامَ تُبَايِعُونَ مُحَمَّدًا ؟ إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى أَنْ تُحَارِبُوا الْعَرَبَ وَالْعَجَمَ وَالْجِنَّ وَالْإِنْسَ كَافَّةً .

فَقَالُوا : نَحْنُ حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَ ، وَسِلْمٌ لِمَنْ سَالَمَ . فَقَالَ سَعْدُ بْنُ زُرَارَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ اشْتَرِطْ عَلَيَّ فَقَالَ : (تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ تَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَتُؤْتُوا الزَّكَاةَ ، وَالسَّمْعَ وَالطَّاعَةَ ، وَلَا تُنَازِعُوا الْأَمْرَ أَهْلَهُ ، وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ قَائِلُ الْأَنْصَارِ : نَعَمْ هَذَا لَكَ يَا رَسُولَ اللهِ فَمَا لَنَا ؟ قَالَ : (الْجَنَّةُ وَالنَّصْرُ) .

(83/351)

وَأَخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ : انْطَلَقَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَكَانَ ذَا رَأْيٍ إِلَى السَّبْعِينَ مِنَ الْأَنْصَارِ عِنْدَ الْعَقَبَةِ فَقَالَ الْعَبَّاسُ : لِيَتَكَلَّمْ مُتَكَلِّمُكُمْ وَلَا يُطِيلِ الْخُطْبَةَ فَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِلْمُشْرِكِينَ عَيْنًا ، وَإِنْ يَعْلَمُوا بِكُمْ يَفْضَحُوكُمْ . فَقَالَ قَائِلُهُمْ ، وَهُوَ أَبُو أُمَامَةَ أَسْعَدُ : يَا مُحَمَّدُ سَلْ لِرَبِّكَ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ سَلْ لِنَفْسِكَ وَلِأَصْحَابِكَ مَا شِئْتَ ، ثُمَّ أَخْبِرْنَا مَا لَنَا مِنَ الثَّوَابِ عَلَى اللهِ وَعَلَيْكُمْ إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ، فَقَالَ : (أَسْأَلُكُمْ لِرَبِّي أَنْ تَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَسْأَلُكُمْ لِنَفْسِي وَأَصْحَابِي أَنْ تُؤْوُونَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ)

قَالَ : فَمَا لَنَا إِذَا فَعَلْنَا ذَلِكَ ؟ قَالَ : الْجَنَّةُ . فَكَانَ الشَّعْبِيُّ إِذَا حَدَّثَ هَذَا الْحَدِيثَ قَالَ :

مَا سَمِعَ الشَّيْبُ وَالشَّبَابُ بِخُطْبَةٍ أَقْصَرَ وَلَا أَبْلَغَ مِنْهَا .

وَمَعْنَى نُزُولِهَا فِي مُبَايَعَةِ الْأَنْصَارِ أَنَّهَا تَدْخُلُ فِي عُمُومِ الْآيَةِ دُخُولًا أَوَّلِيًّا لَا أَنَّهَا خَاصَّةً بِهَا .

(84/351)

وَقَدْ رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا (مَنْ سَلَّ سَيْفَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ فَقَدْ بَايَعَ اللهَ) وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَأَبُو الشَّيْخِ عَنِ الْحَسَنِ قَالَ : مَا عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ إِلَّا وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْبَيْعَةِ . وَفِي لَفْظٍ : اسْعَوْا إِلَى بَيْعَةٍ بَايَعَ اللهُ بِهَا كُلَّ مُؤْمِنٍ (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) وَلَكِنَّ الْعَجَبَ مِمَّنْ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ وَهُمْ يَنْكُثُونَ بَيْعَةَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَهُمْ لَا يَبْذُلُونَ أَنْفُسَهُمْ وَلَا شَيْئًا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَإِنَّمَا يَطْلُبُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ ثَمَنِهَا كَمَا يَطْلُبُونَ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَسِيَادَتَهَا مِنْ غَيْرِ طَرِيقِهَا ، وَلَا طَرِيقَ لَهَا إِلَّا الْجِهَادُ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ،

وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ حُجَّةُ اللهِ الْبَالِغَةُ الَّتِي لَا يَدْحَضُهَا شَيْءٌ وَهِيَ تَدْحَضُ كُلَّ شَيْءٍ .

(85/351)

ثُمَّ وَصَفَ اللهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَائِعِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى بِجَنَّتِهِ وَدَارِ كَرَامَتِهِ ، فَقَالَ : (التَّائِبُونَ) أَيْ هُمُ التَّائِبُونَ الْكَامِلُونَ فِي تَوْبَتِهِمْ وَهِيَ الرُّجُوعُ إِلَى اللهِ تَعَالَى عَنْ كُلِّ مَا يَبْعُدُ عَنْ مَرْضَاتِهِ ، وَتَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ أَهْلِهَا ، فَتَوْبَةُ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ هِيَ الرُّجُوعُ عَنِ الْكُفْرِ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ شِرْكٍ وَغَيْرِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (9 : 11) وَتَوْبَةُ الْمُنَافِقِ مِنَ النِّفَاقِ وَتَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ أَيْضًا ، وَتَوْبَةُ الْعَاصِي مِنَ الْمَعْصِيَةِ ، وَمِنْهُ تَوْبَةُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَقَدَّمَ قَرِيبًا ذِكْرُ مَنْ تَابَ مِنْهُمْ وَمَنْ أُرْجِيَ أَمْرُهُ ، وَتَوْبَةُ الْمُقَصِّرِ فِي شَيْءٍ مِنَ الْبِرِّ وَعَمَلِ الْخَيْرِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي التَّشْمِيرِ فِيهِ وَالِاسْتِزَادَةِ مِنْهُ ، وَتَوْبَةُ مَنْ يَغْفُلُ عَنْ رَبِّهِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي الْإِكْثَارِ مِنْ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ ، وَسَيَأْتِي ذِكْرُ تَوْبَةِ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْجَمِيعِ فِي الْآيَتَيْنِ (117 و118) .

(الْعَابِدُونَ) لِلَّهِ رَبِّهِمْ وَحْدَهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فِي جَمِيعِ عِبَادَاتِهِمْ فِي عَامَّةِ أَوْقَاتِهِمْ ، لَا يَتَوَجَّهُونَ إِلَى غَيْرِهِ بِدُعَاءٍ وَلَا اسْتِعَانَةٍ ، وَلَا يَتَقَرَّبُونَ إِلَى سِوَاهُ بِعَمَلٍ مِمَّا يُقْصَدُ بِهِ الْقُرْبَةُ وَمَثُوبَةُ الْآخِرَةِ .

(الْحَامِدُونَ) لِلَّهِ رَبِّهِمْ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ بِالثَّنَاءِ عَلَيْهِ بِلَفْظِ الْحَمْدِ وَغَيْرِهِ مِنَ الذِّكْرِ الْمَشْرُوعِ الدَّالِّ عَلَى الرِّضَاءِ مِنْهُ تَعَالَى . وَمَهْمَا يُصِبِ الْإِنْسَانَ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ يَبْقَى لَهُ مِنَ النِّعَمِ فِيهَا وَفِي الدِّينِ بَلْ لَهُ مِنَ اللُّطْفِ الْإِلَهِيِّ فِي نَفْسِ الْمَصَائِبِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمَدَ اللهَ وَيَشْكُرَهُ عَلَيْهِ (وَتَقَدَّمَ بَيَانُ الْحَمْدِ وَالْعِبَادَةِ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَغَيْرِهَا) .

(السَّائِحُونَ) فِي الْأَرْضِ يَجُوبُونَ الْأَقْطَارَ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ مِنْ عِلْمٍ أَوْ عَمَلٍ كَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَرُوِيَ عَنْ عَطَاءٍ ، أَوْ لِلْهِجْرَةِ حَيْثُ تُشْرَعُ الْهِجْرَةُ ، وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ زَيْدٍ ، قَالَ : السَّائِحُونَ هُمُ الْمُهَاجِرُونَ ، لَيْسَ فِي أُمَّةِ مُحَمَّدٍ سِيَاحَةٌ إِلَّا الْهِجْرَةَ . أَوْ لِطَلَبِ الْعِلْمِ النَّافِعِ لِلسَّائِحِ فِي دِينِهِ أَوْ دُنْيَاهُ أَوِ النَّافِعِ لِقَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ ، وَرُوِيَ عَنْ عِكْرِمَةَ وَخَصَّهُ بَعْضُهُمْ بِطَلَبِ الْحَدِيثِ (لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُسَافِرُونَ مِنْ مِصْرَ إِلَى أُخْرَى لِلرِّوَايَةِ) أَوْ لِلنَّظَرِ فِي خَلْقِ اللهِ وَأَحْوَالِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ لِلِاعْتِبَارِ وَالِاسْتِبْصَارِ وَمَعْرِفَةِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى وَحِكَمِهِ وَآيَاتِهِ ، وَهَذَا مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَاتُ الْمُتَعَدِّدَةُ فِي الْحَثِّ عَلَى السَّيْرِ فِي الْأَرْضِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي الْأَصْلَيْنِ (13 و14 مِنَ الْأُصُولِ الْعِلْمِيَّةِ الَّتِي اسْتَنْبَطْنَاهَا مِنْ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ص 255 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) .

وَرُوِيَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّائِحِينَ الصَّائِمُونَ ، وَقَالَهُ فِي تَفْسِيرِ (سَائِحَاتٍ) مِنْ سُورَةِ التَّحْرِيمِ ، وَتَعَلَّقَ بِهِ مُصَنِّفُو التَّفَاسِيرِ لِاسْتِبْعَادِهِمْ مَدْحَ اللهِ تَعَالَى النِّسَاءَ بِالسِّيَاحَةِ فِي الْأَرْضِ ، وَإِنَّمَا يُحْظَرُ فِي الْإِسْلَامِ سَفَرُ الْمَرْأَةِ مُنْفَرِدَةً دُونَ زَوْجِهَا أَوْ أَحَدِ مَحَارِمِهَا ، وَأَمَّا إذَا كَانَتْ تَسِيحُ مَعَ الزَّوْجِ وَالْمَحْرَمِ حَيْثُ يَسِيحُ لِغَرَضٍ صَحِيحٍ مِنْ عِلْمٍ نَافِعٍ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ

أَوْ طَلَبِ الصِّحَّةِ أَوِ الرِّزْقِ فَلَا إشْكَالَ فِي مَدْحِهَا بِالسِّيَاحَةِ بَلْ يَنْبَغِي اشْتِرَاكُ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِ الْحَيَاةِ النَّافِعَةِ .

وَأَزِيدُ عَلَى ذَلِكَ السِّيَاحَةَ وَالسَّفَرَ لِطَلَبِ الرِّزْقِ الْحَلَالِ مِنْ تِجَارَةٍ وَغَيْرِهَا .

وَإِذَا صَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابَهُ كَانُوا يَصْحَبُونَ نِسَاءَهُمْ فِي غَزَوَاتِهِمْ عِنْدَ الْإِمْكَانِ ، وَهُنَّ غَيْرُ مُكَلَّفَاتٍ بِالْقِتَالِ ، بَلْ يُسَاعِدْنَ عَلَيْهِ بِتَهْيِئَةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَضْمِيدِ الْجِرَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (9 : 71) فَلَأَنْ يَصْحَبْنَهُمْ فِي سَائِرِ الْأَسْفَارِ أَوْلَى ، وَفِي سَفَرِ الْمَرْأَةِ مَعَ زَوْجِهَا إحْصَانٌ لَهُ وَلَهَا ، فَهُوَ مَانِعٌ لِلْمُسْلِمِ مِنَ التَّطَلُّعِ فِي السَّفَرِ إلَى غَيْرِهَا .

وَعَلَّلَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ تَفْسِيرَ السَّائِحِينَ بِالصَّائِمِينَ بِأَنَّ الصَّائِمَ يَتْرُكُ اللَّذَّاتِ كُلَّهَا كَالسَّائِحِ لِلتَّعَبُّدِ ، وَمِثْلُهُ أَوْ مِنْهُ قَوْلُ الْأَزْهَرِيِّ : يُسَمَّى الصَّائِمُ سَائِحًا لِأَنَّ الَّذِي يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ مُتَعَبِّدًا لَا يَحْمِلُ زَادًا فَكَانَ مُمْسِكًا عَنِ الْأَكْلِ . وَلِهَذَا التَّعْلِيلِ خَصَّ بَعْضُهُمْ إطْلَاقَ وَصْفِ السَّائِحِينَ عَلَى الصَّائِمِينَ بِالَّذِينَ يُدِيمُونَ الصِّيَامَ ، وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ بِظَاهِرِ اللَّفْظِ ، فَقَالَ : يَكْفِي فِي صِحَّةِ الْوَصْفِ صِيَامُ الْفَرْضِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ ضَعِيفٌ .

وَالصُّوفِيَّةُ يَخُصُّونَ السَّائِحِينَ الْمَمْدُوحِينَ بِالَّذِينَ يَهِيمُونَ فِي الْأَرْضِ لِتَرْبِيَةِ إرَادَتِهِمْ ، وَتَهْذِيبِ أَنْفُسِهِمْ بِاحْتِمَالِ الْمَشَاقِّ ، وَالْبُعْدِ عَنْ مَظَانِّ السُّمْعَةِ وَالرِّيَاءِ ؛ لِجَمْعِ الْقَلْبِ عَلَى الرَّبِّ عَزَّ وَجَلَّ بِالْإِخْلَاصِ فِي عِبَادَتِهِ ، وَالتَّكَمُّلِ فِي مَنَازِلِ مَعْرِفَتِهِ ، كَالسَّيَّاحِينَ مِنَ الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ ، وَقَدْ كَانَ إطْلَاقُ السِّيَاحَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى ذَائِعًا مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ ، حَتَّى قَالَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ : السِّيَاحَةُ : الذَّهَابُ فِي الْأَرْضِ لِلْعِبَادَةِ ؛ وَمِنْهُ سُمِّيَ الْمَسِيحُ إلَخْ ، وَاعْتَرَضُوهُ فِيهِ فَإِنَّمَا هُوَ عُرْفٌ لَيْسَ مِنْ أَصْلِ اللُّغَةِ ، وَتَقَدَّمَ مَعْنَى السِّيَاحَةِ اللُّغَوِيِّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) (9 : 2) وَهُوَ أَوَّلُ آيَةٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (ص 136 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

وَقَدْ حَدَثَ لِلْمُتَصَوِّفَةِ بِدَعٌ فِي السِّيَاحَةِ كَقَصْدِ مَشَاهِدِ الْقُبُورِ الْمَنْسُوبَةِ إلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لِلتَّبَرُّكِ بِهَا ، وَالِاسْتِمْدَادِ مِنْ أَرْوَاحِ مَنْ دُفِنُوا فِيهَا ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ يَكُونُ لَهُ هَوًى فِي التَّنَقُّلِ مِنْ بَلَدٍ إلَى آخَرَ فَيَظَلُّ هَائِمًا فِي الْأَسْفَارِ ، وَيَنْقَطِعُ بِذَلِكَ عَنْ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَنْفَعُ النَّاسَ وَعَنْ الزَّوَاجِ ، وَيَرْتَكِبُ بَعْضُهُمْ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ الْمُنْكَرَاتِ ، وَيَكُونُ لَهُمْ طَمَعٌ فِي اسْتِجْدَاءِ النَّاسِ ، وَالسُّؤَالُ حَرَامٌ إلَّا لِضَرُورَةٍ ، وَالْفُقَهَاءُ يُنْكِرُونَ عَلَيْهِمْ سِيَاحَتَهُمْ هَذِهِ .

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : السِّيَاحَةُ فِي الْأَرْضِ لَا لِمَقْصُودٍ وَلَا إلَى مَكَانٍ مَعْرُوفٍ مَنْهِيٌّ عَنْهَا .

وَقَدْ رُوِّينَا أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ : (لَا رَهْبَانِيَّةَ فِي الْإِسْلَامِ وَلَا تَبَتُّلَ وَلَا سِيَاحَةَ فِي الْإِسْلَامِ) وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : مَا السِّيَاحَةُ مِنَ الْإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ ، وَلَا مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّينَ

وَالصَّالِحِينَ ; وَلِأَنَّ السَّفَرَ يُشَتِّتُ الْقَلْبَ فَلَا يَنْبَغِي لِلْمُرِيدِ أَنْ يُسَافِرَ إلَّا فِي طَلَبِ عِلْمٍ أَوْ مُشَاهَدَةِ شَيْخٍ يَقْتَدِي بِهِ اهـ .

وَأَقُولُ : رَوَى ابْنُ جَرِيرٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا وَمَوْقُوفًا حَدِيثَ (السَّائِحُونَ هُمُ الصَّائِمُونَ) وَلَا يَصِحُّ رَفْعُهُ ، وَرُوِيَ عَنْ عَائِشَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٍ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَقْوَالِهِمْ ، وَمِنْ مُرْسَلِ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرَةَ ، وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ مِنْ طَرِيقِ الْقَاسِمِ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ رَجُلًا قَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ ائْذَنْ لِي بِالسِّيَاحَةِ ؟ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (إِنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتِي الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ) قَالَ الْحَافِظُ الْمُنْذِرِيُّ : الْقَاسِمُ هَذَا تَكَلَّمَ فِيهِ غَيْرُ وَاحِدٍ انْتَهَى . أَقُولُ : مِنْهُمُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ كَانَ يَقُولُ فِيمَا يُرْوَى عَنْهُ مِنَ الْمَنَاكِيرِ : إِنَّهَا مِنْ قِبَلِهِ ، وَيَقُولُ بَعْضُهُمْ : إِنَّهَا مِمَّنْ رَوَى عَنْهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ ، لَا مِنْهُ ، وَقَالَ ابْنُ حِبَّانَ : كَانَ يَرْوِي عَنِ الصَّحَابَةِ الْمُعْضَلَاتِ .

وَلِلْإِمَامِ الْغَزَالِيِّ فِي كِتَابِ السَّفَرِ مِنَ الْإِحْيَاءِ كَلَامٌ نَفِيسٌ فِي فَوَائِدِ السِّيَاحَةِ وَالِاعْتِبَارِ بِآيَاتِ اللهِ تَعَالَى فِيهَا لَا يُوجَدُ فِي غَيْرِهِ مِثْلُهُ .

(الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ) لِلَّهِ تَعَالَى فِي صَلَوَاتِهِمْ . وَالصَّلَاةُ تُذْكَرُ تَارَةً بِلَفْظِهَا ، وَتَارَةً بِبَعْضِ أَرْكَانِهَا كَالْقِيَامِ وَالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ . وَهَذَا الْوَصْفُ يُفِيدُ التَّذْكِيرَ بِهَذِهِ الْهَيْئَةِ وَتَمْثِيلَهَا لِلْقَارِئِ وَالسَّامِعِ .

(الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ) تَقَدَّمَ مَعْنَى هَذَا الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَمَكَانَتِهِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (71) مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (ج10 ط الْهَيْئَةِ) . وَهَذِهِ الصِّفَةُ وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِيمَا يَجِبُ عَلَى بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ ، وَكُلُّ مَا قَبْلَهُمَا مِنْ صِفَاتِ الْأَفْرَادِ .

(وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) أَيْ شَرَائِعِهِ وَأَحْكَامِهِ الَّتِي حَدَّدَ فِيهَا مَا يَجِبُ وَمَا يَحْظُرُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْعَمَلِ بِهَا ، وَمَا يَجِبُ عَلَى أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَأُولِي الْأَمْرِ وَأَهْلِ الْحِلِّ وَالْعَقْدِ مِنْهُمْ إِقَامَتُهَا وَتَنْفِيذُهَا بِالْعَمَلِ فِي أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ وَجَمَاعَتِهِمْ إِذَا أَخَلُّوا بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْحِفْظِ لَهَا (وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ) أَيْ وَبَشِّرْ أَيُّهَا الرَّسُولُ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوْصُوفِينَ بِهَذِهِ الْبِضْعِ الصِّفَاتِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ مَا يُبَشِّرُهُمْ بِهِ لِتَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَشُمُولِهِ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَسَعَادَةِ الْآخِرَةِ .

(92/351)

وَمِنْ مَبَاحِثِ اللُّغَةِ أَنَّ الْمَعْدُودَاتِ تُسْرَدُ بِغَيْرِ عَطْفٍ ، وَإِنَّمَا عَطَفَ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ لِلْإِيذَانِ بِأَنَّهُمَا فَرِيضَةٌ وَاحِدَةٌ لِتَلَازُمِهِمَا فِي الْغَالِبِ . وَأَمَّا عَطْفُ (وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ) عَلَى جُمْلَةِ مَا تَقَدَّمَ ، فَقِيلَ لِأَنَّ التَّعْدَادَ قَدْ تَمَّ بِالْوَصْفِ السَّابِعِ

مِنْ حَيْثُ إِنَّ السَّبْعَةَ هُوَ الْعَدَدُ التَّامُّ وَالثَّامِنَ ابْتِدَاءُ عَدَدٍ آخَرَ مَعْطُوفٍ عَلَيْهِ ، وَإِنَّ هَذِهِ الْوَاوَ تُسَمَّى وَاوَ الثَّمَانِيَةِ .

وَأَنْكَرَ هَذِهِ الْوَاوَ النُّحَاةُ الْمُحَقِّقُونَ ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ إِجْمَالٌ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّفْصِيلِ قَبْلَهُ ، فَلَا يَصِحُّ

(93/351)

أَنْ يُجْعَلَ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِهِ فَيُسْرَدَ مَعَهُ . وَأَقْوَى مِنْهُ عِنْدِي أَنَّهُ وَصْفٌ جَامِعٌ لِلتَّكَالِيفِ عَامَّةً ، وَالْمَنْهِيَّاتِ خَاصَّةً ، وَالسَّبْعَةُ الْمَسْرُودَةُ قَبْلَهُ مِنَ الْمَأْمُورَاتِ ، وَلَا يَحْصُلُ الْكَمَالُ لِلْمُؤْمِنِ بِهَا إِلَّا مَعَ اجْتِنَابِ الْمَنْهِيَّاتِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَا يُلَاحَظُ فِي حِفْظِ حُدُودِ اللَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا) (2 : 187) (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (2 : 229) (وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ) (65 : 1) وَعَلَى هَذَا يَكُونُ مَعْنَى نَظْمِ الْآيَةِ : أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْكَامِلِينَ الَّذِينَ بَاعُوا أَنْفُسَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى هُمُ الْمُتَّصِفُونَ بِالصِّفَاتِ السَّبْعِ ، وَالْحَافِظُونَ مَعَ ذَلِكَ لِجَمِيعِ حُدُودِ اللَّهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ وَنَهْيٍ ، وَيُعَبَّرُ عَنْ هَذَا فِي عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِقَوْلِهِمْ : (الْمَثَلُ الْأَعْلَى) وَيُطْلِقُونَهُ عَلَى الْأَفْرَادِ النَّابِغِينَ فِي بَعْضِ الْفَضَائِلِ الْعَامَّةِ ، وَعَلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْأُمَمِ الرَّاقِيَةِ ، وَيَكْفِي أَنْ يُقَالَ فِيهِ (الْمَثَلُ) فِي كَذَا . كَمَا قَالَ تَعَالَى : (وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا) (43 : 57)

وَقَالَ : (وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ) (43 : 59) أَوْ يُقَالُ : مَثَلٌ عَالٍ ، أَوْ مَثَلٌ شَرِيفٌ .
وَأَمَّا الْأَعْلَى فَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كَمَا قَالَ عَنْ نَفْسِهِ : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) (16 : 60) وَقَالَ : (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (30 : 27) .

(94/351)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِيهِمْ أَنَّهُمُ الْحَافِظُونَ لِجَمِيعِ حُدُودِ اللهِ تَعَالَى . وَخُصَّتْ تِلْكَ الْخِلَالُ السَّبْعُ بِالذِّكْرِ لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي تُمَثَّلُ فِي نَفْسِ الْقَارِئِ أَكْمَلَ مَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ بِهِ مُحَافِظًا عَلَى حُدُودِ اللهِ تَعَالَى .

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) .

(95/351)

تَقَدَّمَ فِي الْآيَةِ الثَّمَانِينَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَغْفِرُ لِلْمُنَافِقِينَ لِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ إلَخْ ، فَاسْتِغْفَارُ الرَّسُولِ لَهُمْ وَعَدَمُهُ سِيَّانِ . وَتَقَدَّمَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ (إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) (4 : 48 و116) وَقَدْ شَرَعَ اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي أَوَائِلِ سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ التَّأَسِّيَ بِإِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ فِي الْبَرَاءَةِ مِنْ قَوْمِهِمُ الْمُشْرِكِينَ وَمِنْ مَعْبُودَاتِهِمْ ، وَاسْتَثْنَى مِنْ هَذِهِ الْأُسْوَةِ اسْتِغْفَارَ إِبْرَاهِيمَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِأَبِيهِ فَقَالَ : (إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ) (60 : 4) وَقَدْ بَيَّنَ هُنَا حُكْمَ الِاسْتِغْفَارِ لِمَنْ ذَكَرَ وَقَفَّى عَلَيْهِ بِقَاعِدَةِ التَّشْرِيعِ الْعَامَّةِ الَّتِي يُبْنَى عَلَيْهَا الْجَزَاءُ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ :

(96/351)

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) هَذَا نَفْيٌ بِمَعْنَى النَّهْيِ ، فَهُوَ أَبْلَغُ مِنَ النَّهْيِ الْمُجَرَّدِ ، وَهَذَا التَّعْبِيرُ فِيهِ يُسَمَّى نَفْيَ الشَّأْنِ ، وَهُوَ أَبْلَغُ فِي نَفْيِ الشَّيْءِ نَفْسِهِ ، لِأَنَّهُ نَفْيٌ مُعَلَّلٌ بِالسَّبَبِ الْمُقْتَضِي لَهُ . وَالْمَعْنَى : مَا كَانَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ وَلَا مِمَّا يَصِحُّ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ نَبِيٌّ – وَلَا مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِمَّا يَجُوزُ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ مِنْ حَيْثُ هُمْ

مُؤْمِنُونَ - أَنْ يَدْعُوا اللهَ طَالِبِينَ مِنْهُ الْمَغْفِرَةَ لِلْمُشْرِكِينَ (وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى) ، لَهُمْ فِي الْأَصْلِ حَقُّ الْبِرِّ وَصِلَةُ الرَّحِمِ . وَكَانَتْ عَاطِفَةُ

(97/351)

الْقَرَابَةِ تَقْتَضِي الْغَيْرَةَ عَلَيْهِمْ وَحُبَّ الْمَغْفِرَةِ لَهُمْ (وَلَوْ) هَذِهِ تُفِيدُ الْغَايَةَ لِمَعْطُوفٍ عَلَيْهِ يُحْذَفُ حَذْفًا مُطَّرِدًا لِلْعِلْمِ بِهِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ مِمَّا تُبِيحُهُ النُّبُوَّةُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَا مِمَّا يَصِحُّ وُقُوعُهُ مِنْ أَهْلِهِمَا - الِاسْتِغْفَارُ لِلْمُشْرِكِينَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ، وَحَتَّى لَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ، فَإِنْ لَمْ يَكُونُوا كَذَلِكَ فَعَدَمُ جَوَازِهِ أَوْلَى . ثُمَّ قَيَّدَ الْحُكْمَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ) أَيْ مِنْ بَعْدِ مَا ظَهَرَ لَهُمْ بِالدَّلِيلِ أَنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ الْخَالِدِينَ فِيهَا بِأَنْ مَاتُوا عَلَى شِرْكِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَوْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ كَاسْتِصْحَابِ حَالَةِ الْكُفْرِ إِلَى الْمَوْتِ ، أَوْ نَزَلَ وَحْيٌ يُسَجِّلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ كَإِخْبَارِهِ تَعَالَى عَنْ أُنَاسٍ مِنَ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا ، أَوْ أَنَّهُمْ طُبِعَ قُلُوبُهُمْ وَخُتِمَ عَلَيْهَا . وَقَوْلُهُ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (36 : 10) وَمِثْلُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ : (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ) (63 : 6) إِلَخْ .

(98/351)

وَقَدْ وَرَدَ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ ، إذْ دَعَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَمَا حَضَرَهُ الْمَوْتُ إلَى قَوْلِ : (لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ) فَامْتَنَعَ وَأَبُو طَالِبٍ مَاتَ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ ، فَهَلْ نَزَلَتِ الْآيَةُ عَقِبَ مَوْتِهِ ثُمَّ أُلْحِقَتْ بِهَذِهِ السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ لِأَحْكَامِهَا ، أَمْ نَزَلَتْ مَعَ غَيْرِهَا مِنْ بَرَاءَةَ مُبَيِّنَةً لِحُكْمِ اسْتِغْفَارِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ ؟ وَرُوِيَ مِنْ طُرُقٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ زَارَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْرَ أُمِّهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ ، وَالْآيَةُ نَصٌّ فِي تَحْرِيمِ الدُّعَاءِ لِمَنْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَكَذَا وَصْفُهُ بِذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ :

الْمَغْفُورُ لَهُ الْمَرْحُومُ فُلَانٌ ، كَمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ الْجُغْرَافِيِّينَ الْآنَ ، لِعَدَمِ تَحَقُّقِهِمْ بِمُقْتَضَى الْإِيمَانِ ، وَتَقَيُّدِهِمْ بِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ ، وَمِنْهُمْ بَعْضُ الْمُعَمِّمِينَ وَالْحَامِلِينَ لِدَرَجَةِ الْعَالَمِيَّةِ مِنَ الْأَزْهَرِ .

(99/351)

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمْ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ : لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَوَجَدَ عِنْدَهُ

أَبَا جَهْلٍ وَعَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ فَقَالَ : (أَيْ عَمِّ ! قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ) فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ : أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَأَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ يُعَاوِدَانِهِ بِتِلْكَ الْمَقَالَةِ ، حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ : إِنَّهُ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ) فَأَنْزَلَ اللهُ : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (28 : 56) .

هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأَخِيرَةِ مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ وَأَخْرَجَهُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ بَرَاءَةَ وَفِي الْجَنَائِزِ أَيْضًا .

(100/351)

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ لِلْحَدِيثِ : وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ مُجَاهِدٍ قَالَ : يَا ابْنَ أَخِي مِلَّةَ الْأَشْيَاخِ وَوَقَعَ فِي حَدِيثِ أَبِي حَازِمٍ عِنْدَ مُسْلِمٍ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالطَّبَرِيِّ قَالَ : لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي بِهَا قُرَيْشٌ يَقُولُونَ مَا حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا جَزَعُ الْمَوْتِ لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ . ثُمَّ قَالَ الْحَافِظُ وَرَوَى

الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ شِبْلٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَهُوَ مُشْرِكٌ فَلَا أَزَالُ أَسْتَغْفِرُ لِأَبِي طَالِبٍ حَتَّى يَنْهَانِي عَنْهُ رَبِّي) فَقَالَ أَصْحَابُهُ : لَنَسْتَغْفِرَنَّ لِآبَائِنَا كَمَا اسْتَغْفَرَ نَبِيُّنَا لِعَمِّهِ ، فَنَزَلَتْ .

(101/351)

(قَالَ) وَهَذَا فِيهِ إِشْكَالٌ لِأَنَّ وَفَاةَ أَبِي طَالِبٍ كَانَتْ بِمَكَّةَ قَبْلَ الْهِجْرَةِ اتِّفَاقًا ، وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَتَى قَبْرَ أُمِّهِ لَمَّا اعْتَمَرَ فَاسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهَا فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ - وَالْأَصْلُ عَدَمُ تَكْرَارِ النُّزُولِ ، وَقَدْ أَخْرَجَ الْحَاكِمُ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ مِنْ طَرِيقِ أَيُّوبَ بْنِ هَانِئٍ عَنْ مَسْرُوقٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمًا إِلَى الْمَقَابِرِ فَاتَّبَعْنَاهُ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَى قَبْرٍ مِنْهَا فَنَاجَاهُ طَوِيلًا ثُمَّ بَكَى فَبَكَيْنَا فَقَالَ : (إِنَّ الْقَبْرَ الَّذِي جَلَسْتُ عِنْدَهُ قَبْرُ أُمِّي وَإِنِّي اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي فِي الدُّعَاءِ لَهَا فَلَمْ يَأْذَنْ لِي فَأَنْزَلَ عَلَيَّ : (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ نَحْوَهُ . وَفِيهِ : نَزَلَ بِنَا وَنَحْنُ مَعَهُ قَرِيبٌ مِنْ أَلْفِ رَاكِبٍ وَلَمْ يَذْكُرْ نُزُولَ الْآيَةِ .

وَفِي رِوَايَةِ الطَّبَرِيِّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ : لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ أَتَى رَسْمَ قَبْرٍ ، وَمِنْ طَرِيقِ فُضَيْلِ بْنِ مَرْزُوقٍ عَنْ عَطِيَّةَ : لَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ وَقَفَ عَلَى قَبْرِ أُمِّهِ حَتَّى سَخِنَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ رَجَاءَ أَنْ

يُؤْذَنَ لَهُ فَيَسْتَغْفِرَ

لَهَا ، فَنَزَلَتْ . وَلِلطَّبَرَانِيِّ مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَيْسَانَ عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ نَحْوَ

حَدِيثِ ابْنِ

(102/351)

مَسْعُودٍ وَفِيهِ : لَمَّا هَبَطَ مِنْ ثَنِيَّةِ عَسْفَانَ . وَفِيهِ نُزُولُ الْآيَةِ فِي ذَلِكَ . فَهَذِهِ طُرُقٌ يُعَضِّدُ

بَعْضُهَا بَعْضًا ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى تَأْخِيرِ نُزُولِ الْآيَةِ عَنْ وَفَاةِ أَبِي طَالِبٍ وَيُؤَيِّدُهُ أَيْضًا أَنَّهُ –

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ يَوْمَ أُحُدٍ بَعْدَ أَنْ شُجَّ وَجْهُهُ : (رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ) لَكِنْ يُحْتَمَلُ فِي هَذَا أَنْ يَكُونَ الِاسْتِغْفَارُ خَاصًّا بِالْأَحْيَاءِ وَلَيْسَ الْبَحْثُ فِيهِ ،

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نُزُولُ الْآيَةِ تَأَخَّرَ وَإِنْ كَانَ سَبَبُهَا تَقَدَّمَ ، وَيَكُونُ لِنُزُولِهَا سَبَبَانِ مُتَقَدِّمٌ وَهُوَ

أَمْرُ أَبِي طَالِبٍ وَمُتَأَخِّرٌ وَهُوَ أَمْرُ آمِنَةَ ، وَيُؤَيِّدُ تَأْخِيرَ النُّزُولِ مَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ بَرَاءَةَ مِنِ

اسْتِغْفَارِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلْمُنَافِقِينَ حَتَّى نَزَلَ النَّهْيُ عَنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي

تَأْخِيرَ النُّزُولِ وَإِنْ تَقَدَّمَ السَّبَبُ ، وَيُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ أَيْضًا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ الْبَابِ ، وَأُنْزِلَ اللهُ

فِي أَبِي طَالِبٍ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) لِأَنَّهُ يُشْعِرُ بِأَنَّ الْآيَةَ الْأُولَى نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ

وَفِي غَيْرِهِ ، وَالثَّانِيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَحْدَهُ ، وَيُؤَيِّدُ تَعَدُّدَ السَّبَبِ مَا أَخْرَجَ أَحْمَدُ مِنْ طَرِيقِ أَبِي

إِسْحَاقَ عَنْ أَبِي الْخَلِيلِ عَنْ عَلِيٍّ قَالَ : سَمِعْتُ رَجُلًا يَسْتَغْفِرُ لِوَالِدَيْهِ وَهُمَا مُشْرِكَانِ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَنْزَلَ اللَّهُ (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ) الْآيَةَ . وَرَوَى الطَّبَرِيُّ مِنْ طَرِيقِ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ عَنْ

(103/351)

مُجَاهِدٍ قَالَ الْمُؤْمِنُونَ : أَلَا نَسْتَغْفِرُ لِآبَائِنَا كَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ؟ فَنَزَلَتْ . وَمِنْ طَرِيقِ قَتَادَةَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رِجَالًا . . . . . فَذَكَرَ نَحْوَهُ . وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ إِذَا خَتَمَ عُمُرَهُ بِشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ حُكِمَ بِإِسْلَامِهِ ، وَأُجْرِيَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنْ قَارَنَ نُطْقَ لِسَانِهِ عَقْدُ قَلْبِهِ نَفَعَهُ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِشَرْطِ أَنْ لَا يَكُونَ وَصَلَ إِلَى حَدِّ انْقِطَاعِ الْأَمَلِ مِنَ الْحَيَاةِ وَعَجَزَ عَنْ فَهْمِ الْخِطَابِ وَرَدِّ الْجَوَابِ ، وَهُوَ وَقْتُ الْمُعَايَنَةِ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) (4 : 18) وَاللَّهُ أَعْلَمُ . انْتَهَى كَلَامُ الْحَافِظِ وَقَدْ تَعَدَّدَتِ الرِّوَايَاتُ فِي اسْتِغْفَارِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ لِآبَائِهِمْ وَأُولِي قُرْبَاهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ تَأَسِّيًا بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ اسْتَغْفَرَ لِعَمِّهِ حَتَّى نَزَلَ النَّهْيُ فَكَفُّوا .

(وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ) مِمَّا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ تَأَسِّيكُمْ بِهِ عَلَى إِطْلَاقِهِ ، فَإِنَّهُ مَا كَانَ وَمَا وَقَعَ لِسَبَبٍ وَلَا عِلَّةٍ (إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ) فِي حَيَاتِهِ

(104/351)

إِذَا كَانَ يَرْجُو إِيمَانَهُ فَقَالَ لَهُ : (لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ) (60 : 4) أَيْ لَا أَمْلِكُ لَكَ هِدَايَةً وَلَا نَجَاةً وَإِنَّمَا أَمْلِكُ دُعَاءَ اللَّهِ تَعَالَى . وَقَدْ وَفَّى بِوَعْدِهِ وَمَا كَانَ إِلَّا وَفِيًّا كَمَا شَهِدَ لَهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) (53 : 37) فَكَانَ مِنْ دُعَائِهِ (وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (26 : 86 - 89) أَيْ مِنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ وَالشَّكِّ الْمُقْتَضِي لِلنِّفَاقِ ، فَمَنِ اسْتَغْفَرَ لِحَيٍّ يَرْجُو إِيمَانَهُ ، يَقْصِدُ سُؤَالَ اللَّهِ أَنْ يَهْدِيَهُ لِمَا يَكُونُ بِهِ أَهْلًا لِلْمَغْفِرَةِ فَلَا بَأْسَ . (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمْ يَزَلْ إِبْرَاهِيمُ يَسْتَغْفِرُ لِأَبِيهِ حَتَّى مَاتَ فَلَمَّا مَاتَ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ فَتَبَرَّأَ مِنْهُ . وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ : فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ يَقُولُ لَمَّا مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ . وَقَالَ قَتَادَةُ : تَبَيَّنَ لَهُ حِينَ مَاتَ وَعَلِمَ أَنَّ التَّوْبَةَ انْقَطَعَتْ عَنْهُ . وَقِيلَ : إِنَّهُ تَبَيَّنَ لَهُ ذَلِكَ بِوَحْيٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَحِينَئِذٍ تَبَرَّأَ مِنْهُ وَمِنْ قَرَابَتِهِ ، وَتَرَكَ الِاسْتِغْفَارَ لَهُ كَمَا هُوَ

مُقْتَضَى الْإِيمَانِ (لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ) (58 : 22) الْآيَةَ .

(105/351)

وَوَرَدَ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ يَعُدُّ مِنَ الْخِزْيِ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ يَكُونَ أَبُوهُ فِي النَّارِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مِنْ حَدِيثِ رُؤْيَتِهِ فِي النَّارِ وَأَنَّهُ يَقُولُ : يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَلَّا تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَى مِنْ أَبِي الْأَبْعَدِ) فَيَمْسَخُ اللَّهُ أَبَاهُ ذِيخًا - وَهُوَ ذَكَرُ الضِّبَاعِ الْكَثِيرِ الشَّعَرِ - حَتَّى لَا يَخْزَى إِبْرَاهِيمُ ابْنُهُ بِرُؤْيَتِهِ فِي النَّارِ عَلَى صُورَتِهِ الْمَعْرُوفَةِ لَهُ وَلِقَوْمِهِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ لَفْظُ الْحَدِيثِ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ ص 449 ج 7 ط الْهَيْئَةِ .

(إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُؤَكَّدَةُ بِوَصْفِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمُبَالَغَةِ فِي خَشْيَةِ اللَّهِ وَالْخُشُوعِ لَهُ ، وَبِالْحِلْمِ وَالثَّبَاتِ فِي أُمُورِهِ كُلِّهَا ، تَعْلِيلٌ لِامْتِنَاعِهِ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِأَبِيهِ بَعْدَ الْعِلْمِ بِرُسُوخِهِ فِي الشِّرْكِ وَعَدَاوَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . الْأَوَّاهُ : الْكَثِيرُ التَّأَوُّهِ وَالتَّحَسُّرِ وَإِنَّمَا يَتَأَوَّهُ إِبْرَاهِيمُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَيَتَحَسَّرُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَلَا سِيَّمَا أَبِيهِ ، وَيُطْلَقُ الْأَوَّاهُ عَلَى الْخَاشِعِ الْكَثِيرِ الدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ لِلَّهِ . وَأَصْلُ التَّأَوُّهِ قَوْلُ (أَوَّهْ) أَوْ آهٍ (بِالْكَسْرِ مُنَوَّنًا وَغَيْرَ مُنَوَّنٍ) أَوْ وَاهٍ ، أَوْ أَوَّهْ . وَفِي

حَدِيثٍ مَرْفُوعٍ فِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ (الْأَوَّاهُ الْخَاشِعُ الْمُتَضَرِّعُ) وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِيهِ رِوَايَاتٌ مِنْهَا : أَنَّهُ الْمُؤْمِنُ أَوِ الْمُوقِنُ بِلِسَانِ الْحَبَشَةِ ، وَالْحَلِيمُ : الَّذِي لَا يَسْتَفِزُّهُ الْغَضَبُ وَلَا يَعْبَثُ بِهِ الطَّيْشُ ، وَلَا يَسْتَخِفُّهُ الْجَهْلُ أَوْ هَوَى النَّفْسِ ، وَمِنْ لَوَازِمِهِ الصَّبْرُ وَالثَّبَاتُ وَالصَّفْحُ وَالتَّأَنِّي فِي الْأُمُورِ ، وَاتِّقَاءِ الْعَجَلَةِ فِي كُلٍّ مِنَ الرَّغَبِ وَالرَّهَبِ ، وَذَهَبَ الزَّمَخْشَرِيُّ إِلَى أَنَّ الْجُمْلَةَ تَعْلِيلٌ لِمَا كَانَ مِنِ اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ ، قَالَ بَعْدَ تَفْسِيرِ الْأَوَّاهِ بِالَّذِي يُكْثِرُ التَّأَوُّهَ : وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لِفَرْطِ تَرَحُّمِهِ وَرِقَّتِهِ وَحِلْمِهِ كَانَ يَتَعَطَّفُ عَلَى أَبِيهِ الْكَافِرِ وَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَعَ شَكَاسَتِهِ عَلَيْهِ وَقَوْلِهِ : (لَأَرْجُمَنَّكَ) اهـ .

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ) أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ اللَّهِ تَعَالَى فِي حِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلَا مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَصِفَ قَوْمًا بِالضَّلَالِ ، وَيُجْرِيَ عَلَيْهِمْ أَحْكَامَهُ بِالذَّمِّ وَالْعِقَابِ ، بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ بِالْإِسْلَامِ ، بِمُجَرَّدِ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ صَدَرَ عَنْهُمْ بِخَطَأِ الِاجْتِهَادِ .

(حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ ، بَيَانًا جَلِيًّا وَاضِحًا لَا شُبْهَةَ فِيهِ وَلَا إِشْكَالَ (إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) فَهُوَ يَشْرَعُ لَهُمْ مِنَ الْأَحْكَامِ مَا تَكْمُلُ بِهِ فِطْرَتُهُمْ ، وَيَسْتَقِيمُ بِهِ رَأْيُهُمْ

(107/351)

وَفَهْمُهُمْ ، فَيُبَيِّنُ لَهُمْ مُهِمَّاتِ الدِّينِ بِالنَّصِّ الْقَاطِعِ حَتَّى لَا يَضِلَّ فِيهِ اجْتِهَادُهُمْ بِأَهْوَاءِ نُفُوسِهِمْ ، وَيَتْرُكُ لَهُمْ مَجَالًا لِلِاجْتِهَادِ فِيمَا دُونَ ذَلِكَ مِنْ مَصَالِحِهِمْ ، فَهُوَ لِهَذَا لَمْ يُؤَاخِذْ إِبْرَاهِيمَ فِي اسْتِغْفَارِهِ لِأَبِيهِ قَبْلَ أَنْ يَتَبَيَّنَ لَهُ حَالُهُ ، وَكَذَلِكَ لَا يُؤَاخِذُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَا سَبَقَ لَهُمْ مِنَ الِاسْتِغْفَارِ لِوَالِدِيهِمْ وَأُولِي الْقُرْبَى مِنْهُمْ قَبْلَ هَذَا التَّبْيِينِ لِحُكْمِ اللَّهِ فِي ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ ، قَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِ الْجُمْلَةِ : بَيَانُ اللَّهِ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ خَاصَّةً ، وَفِي بَيَانِ طَاعَتِهِ وَمَعْصِيَتِهِ عَامَّةً ، مَا فَعَلُوا أَوْ تَرَكُوا . ا هـ

.

يَعْنِي أَنَّ الْآيَةَ عَامَّةٌ وَإِنْ نَزَلَتْ فِي مَسْأَلَةِ اسْتِغْفَارِهِمْ لِلْمُشْرِكِينَ . وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهَا نَزَلَتْ حِينَ أَخَذُوا الْفِدَاءَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْأُسَارَى ، قَالَ : لَمْ يَكُنْ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوهُ حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ . وَلَكِنْ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَ قَوْمًا بِذَنْبٍ أَذْنَبُوهُ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ، قَالَ : حَتَّى يَنْهَاهُمْ قَبْلَ ذَلِكَ ا هـ .

(108/351)

وَأَقُولُ : الْآيَةُ مُتَأَخِّرَةُ النُّزُولِ عَنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَكِنَّهَا شَامِلَةٌ لِحُكْمِهَا فَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ أَخْذَ الْفِدَاءِ مِنَ الْأَسْرَى هُوَ فِي مَعْنَى الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ هُنَا مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ خِلَافُ مَا يَقْتَضِيهِ شَأْنُ النُّبُوَّةِ وَالْإِيمَانِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) (8 : 67) فَهَذَا نَفْيٌ لِلشَّأْنِ كَنَفْيِ الِاسْتِغْفَارِ هُنَا . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى هُنَالِكَ بَعْدَ عِتَابِهِمُ الشَّدِيدِ : (لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (8 : 68) فَابْنُ عَبَّاسٍ يُفَسِّرُ هَذَا الْكِتَابَ بِحُكْمِهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنَّهُ لَا يَحْكُمُ بِضَلَالِ قَوْمٍ فِي شَيْءٍ فَيُعَاقِبُهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ بَيَانًا وَاضِحًا تَامًّا لَا مَجَالَ مَعَهُ لِلِاجْتِهَادِ الَّذِي يَكُونُ عُذْرًا فِي الْمُخَالَفَةِ ، سَوَاءٌ كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ وَقْتَئِذٍ أَمْ لَا . فَهَذَا حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى .

(109/351)

أَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – كَانَ يَخْطُبُ أَصْحَابَهُ كُلَّ عَشِيَّةِ خَمِيسٍ ثُمَّ يَقُولُ : فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَغْدُوَ عَالِمًا أَوْ مُتَعَلِّمًا فَلْيَفْعَلْ وَلَا يَغْدُو لِسِوَى ذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعَالِمَ وَالْمُتَعَلِّمَ شَرِيكَانِ فِي الْخَيْرِ . أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُؤْخَذُوا بِمَا لَمْ يُبَيَّنْ لَكُمْ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) فَقَدْ بَيَّنَ لَكُمْ مَا تَتَّقُونَ .

وَيُؤْخَذُ مِنْ هَذَا قَاعِدَةٌ هِيَ أَنَّ أَحْكَامَ الْإِسْلَامِ الْعَامَّةَ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ وَيُكَلَّفُ الْعَمَلَ بِهَا كُلُّ مَنْ بَلَغَتْهُ إِنْ كَانَتْ مِنَ الْأَحْكَامِ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي خُوطِبَ بِهَا أَفْرَادُ الْأُمَّةِ كُلُّهُمْ ، وَيُنَفِّذُهَا أَئِمَّتُهَا وَأُمَرَاؤُهَا فِيهَا ، هِيَ مَا كَانَتْ قَطْعِيَّةَ الدَّلَالَةِ بِبَيَانٍ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ لَا حُجَّةَ مَعَهُ لِأَحَدٍ فِي تَرْكِهِ ، وَأَنَّ مَا عَدَاهَا مَنُوطٌ بِالِاجْتِهَادِ ، فَمَنْ ظَهَرَ لَهُ مِنْ نَصٍّ ظَنِّيِّ الدَّلَالَةِ حُكْمٌ وَاعْتَقَدَ أَنَّهُ مُرَادُ اللَّهِ مِنَ الْآيَةِ وَجَبَ عَلَيْهِ اتِّبَاعُهُ ، وَمَنْ لَا فَلَا ، كَمَا وَقَعَ عِنْدَ نُزُولِ آيَةِ الْبَقَرَةِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ إِذْ فَهِمَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) (2 : 219) تَحْرِيمَهُمَا فَتَرَكَ ، وَبَقِيَ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ هَذَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حَتَّى بَيَّنَ اللَّهُ تَحْرِيمَهَا مَعَ الْمَيْسِرِ بَيَانًا قَطْعِيًّا

(110/351)

بِآيَاتِ الْمَائِدَةِ . وَأَصْلُ مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ أَنَّ الْفَرَائِضَ وَالتَّحْرِيمَ الدِّينِيَّ لَا يَثْبُتَانِ إِلَّا بِالنَّصِّ الْقَطْعِيِّ أَوْ بِنَصِّ الْقُرْآنِ الْقَطْعِيِّ بَلْ هَذَا مَا كَانَ عَلَيْهِ عُلَمَاءُ السَّلَفِ . وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْمَسْأَلَةِ (فِي ص 323 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ بَعْضِ الْمُبْتَدِعَةِ بِالْمُؤَاخَذَةِ عَلَى مَا يَجِبُ بِحُكْمِ الْعَقْلِ كَالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ ، صَرَّحَ بِهِ مُفَسِّرُهُمُ الزَّمَخْشَرِيُّ وَاسْتَثْنَاهُ مِنْ حُكْمِ الْآيَةِ بِأَنَّهُ غَيْرُ

مَوْقُوفٍ عَلَى التَّوْقِيفِ) نَعَمْ إنَّ حُسْنَهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ . وَلَكِنَّ التَّكْلِيفَ الَّذِي يُبْنَى عَلَيْهِ جَزَاءُ الْآخِرَةِ لَا يَصِحُّ إلَّا بِالشَّرْعِ ، كَمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ وَغَيْرُهَا . وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ وَأَوْجَبَهُمَا وَحَرَّمَ الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ ، كَمَا بَيَّنَ كُلَّ مَا أَرَادَ جَعْلَهُ دِينًا لِلنَّاسِ . وَقَدْ أَخْبَرَنَا رَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّ مَا سَكَتَ عَنْهُ فَلَمْ يُبَيِّنْهُ لَنَا فَهُوَ عَفْوٌ مِنْهُ تَعَالَى غَيْرُ نِسْيَانٍ ، فَلَيْسَ لَنَا أَنْ نَسْأَلَ عَنْهُ وَلَا أَنْ نَضَعَ لَهُ أَحْكَامًا بِآرَاءِ عُقُولِنَا . وَقَدْ بَسَطْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي تَفْسِيرِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا) (5 : 101) إلَخْ رَاجِعْ ص 107 وَمَا بَعْدَهَا ج 7 ط الْهَيْئَةِ مَعَ الْفَصْلِ الْمُلْحَقِ بِهِ ص 117 ط الْهَيْئَةِ إلَخْ .

(111/351)

(إنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لَا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِمَا وَلَا فِي تَدْبِيرِ شُؤُونِهِمَا وَلَا فِي التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ لِلْمُكَلَّفِينَ فِيهِمَا (يُحْيِي وَيُمِيتُ) أَيْ يَهَبُ الْحَيَاةَ الْحَيَوَانِيَّةَ وَالْحَيَاةَ الْمَعْنَوِيَّةَ الرُّوحِيَّةَ بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَمُقْتَضَى سُنَنِهِ فِي التَّكْوِينِ وَالْهِدَايَةِ الْفِعْلِيَّةِ وَيُمِيتُ مَا شَاءَ مِنَ الْأَبْدَانِ بِانْقِضَاءِ آجَالِهَا الْمُقَدَّرَةِ فِي عِلْمِهِ ، وَمِنَ الْأَنْفُسِ بِنُكُوبِهَا عَنْ صِرَاطِ هِدَايَتِهِ (وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) أَيْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ أَحَدٌ غَيْرُ اللَّهِ يَتَوَلَّى أَمْرَكُمْ ، وَلَا نَصِيرٌ يَنْصُرُكُمْ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فَلَا تَحِيدُوا عَنْ هِدَايَتِهِ فِيمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ مِنَ

الِاسْتِغْفَارِ لِأُولِي الْقُرْبَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ الْوِلَايَةِ وَالنُّصْرَةِ مِنْ عَصَبَاتِكُمْ فِي الْأَنْسَابِ ، وَلَا فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ .

هَذِهِ الْآيَاتُ تَتِمَّةُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ مَوْضُوعِ تَوْبَةِ الْمُتَخَلِّفِينَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ ، أُخِّرَتْ عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي تَفْرِيقِ الْآيَاتِ فِي الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ لِأَنَّهُ أَدْنَى أَلَّا يَسْأَمَ التَّالِي لَهَا فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا وَأَقْوَى فِي تَجْدِيدِ الذِّكْرَى وَالتَّأْثِيرِ فِي النَّفْسِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِرَارًا ، وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِمَا قَبْلَهُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ وَهُوَ مِمَّا يُتَابُ مِنْهُ .

(112/351)

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) هَذَا خَبَرٌ مُؤَكَّدٌ بِلَامِ الْقَسَمِ عَلَى حَرْفِ التَّحْقِيقِ ، بَيَّنَ بِهِ تَعَالَى فَضْلَ عَطْفِهِ عَلَى نَبِيِّهِ وَأَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَتَجَاوُزِهِ عَنْ هَفَوَاتِهِمْ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَفِي غَيْرِهَا ، لِاسْتِغْرَاقِهَا فِي حَسَنَاتِهِمُ الْكَثِيرَةِ عَلَى كَوْنِهِمْ لَا يُصِرُّونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا ، وَإِنَّمَا كَانَتْ هَفَوَاتُهُمْ هَذِهِ مُقْتَضَى الطِّبَاعِ الْبَشَرِيَّةِ وَاجْتِهَادِ الرَّأْيِ فِيمَا لَمْ يُبَيِّنْهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيَانًا قَطْعِيًّا يُعَدُّ مُخَالِفُهُ عَاصِيًا . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (104) أَنَّ لِلتَّوْبَةِ دَرَجَاتٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ طَبَقَاتِ التَّوَّابِينَ الرَّجَّاعِينَ إِلَى

اللهِ مِنْ كُلِّ إعْرَاضٍ عَنْهُ ، وَتَوْبَتُهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ لَهَا مَعْنَيَانِ : عَطْفُهُ عَلَيْهِمْ وَهَذَا أَعْلَاهُمَا ، وَتَوْفِيقُهُمْ لِلتَّوْبَةِ وَقَبُولُهَا مِنْهُمْ ، وَإِنَّمَا يَتُوبُونَ مِنْ ذَنْبٍ ، وَمَا كُلُّ ذَنْبٍ مَعْصِيَةٌ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ فَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ التَّوْبَةَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُنَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سِيَاقِ هَذِهِ الْغَزْوَةِ : (عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) (9 : 43) ؟ الْآيَةَ وَحَقَّقْنَا فِي تَفْسِيرِهَا مَسْأَلَةَ ذُنُوبِ الْأَنْبِيَاءِ وَكَوْنِهَا مِنَ الِاجْتِهَادِ الَّذِي لَمْ يُقِرَّهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَنَّ غَيْرَهُ خَيْرٌ مِنْهُ وَأَمَّا الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - وَهُمْ خُلَّصُ الْمُؤْمِنِينَ (الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ)

(113/351)

فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ ذَنْبُهُ التَّثَاقُلَ فِي الْخُرُوجِ حَتَّى وَرَدَ الْأَمْرُ الْحَتْمُ فِيهِ وَالتَّوْبِيخُ عَلَى التَّثَاقُلِ إلَى الْأَرْضِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ ذَنْبُهُمُ السَّمَاعَ لِلْمُنَافِقِينَ فِيمَا كَانُوا يَبْغُونَ مِنْ فِتْنَةِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْقُوَّةِ وَالِاسْتِدْرَاكِ ، وَبِالْفِعْلِ .

(114/351)

فَأَمَّا الْعُسْرَةُ فَهِيَ الشِّدَّةُ وَالضِّيقُ . وَكَانَتْ عُسْرَةً فِي الزَّادِ إِذْ كَانَتْ عِنْدَ انْتِهَاءِ فَصْلِ الصَّيْفِ الَّذِي نَفِدَتْ فِيهِ مُؤْنَتُهُمْ ، وَأَوَّلَ فَصْلِ الْخَرِيفِ الَّذِي بَدَأَ فِيهِ إِرْطَابُ الْمَوْسِمِ الْجَدِيدِ وَلَا يُمْكِنُ حَمْلُ شَيْءٍ مِنْهُ ، فَكَانَ يَكْتَفِي الْوَاحِدُ مِنْهُمْ أَوِ الِاثْنَانِ بِالتَّمْرَةِ الْوَاحِدَةِ مِنَ التَّمْرِ الْقَدِيمِ وَمِنْهُ الْمَمْدُودُ وَالْيَابِسُ ، وَقَدْ تَزَوَّدَ بَعْضُهُمْ أَيْضًا بِالشَّعِيرِ الْمُسَوَّسِ وَالْإِهَالَةِ الزَّنِخَةِ ، وَعُسْرَةً فِي الْمَاءِ حَتَّى كَانُوا يَنْحَرُونَ الْبَعِيرَ عَلَى قِلَّةِ الرَّوَاحِلِ لِيَعْتَصِرُوا الْفَرْثَ الَّذِي فِي كَرِشِهِ وَيَبُلُّوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ ، وَعُسْرَةً فِي الظَّهْرِ حَتَّى كَانَ الْعَشَرَةُ يَعْتَقِبُونَ بَعِيرًا وَاحِدًا ، وَعُسْرَةً فِي الزَّمَنِ إِذْ كَانَ فِي حِمَارَةِ الْقَيْظِ وَشِدَّةِ الْحَرِّ ; وَلَعَلَّ التَّعْبِيرَ بِسَاعَةِ الْعُسْرَةِ لِلتَّذْكِيرِ بِذَلِكَ الْوَقْتِ الْعَصِيبِ . قَالَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ : عُسْرَةُ الظُّهْرِ وَعُسْرَةُ الزَّادِ وَعُسْرَةُ الْمَاءِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - حَدِّثْنَا مِنْ شَأْنِ سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ، فَقَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى تَبُوكَ فِي قَيْظٍ شَدِيدٍ فَنَزَلْنَا مَنْزِلًا فَأَصَابَنَا فِيهِ

(115/351)

عَطَشٌ شَدِيدٌ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّ رِقَابَنَا سَتُقْطَعُ حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَنْحَرُ بَعِيرَهُ فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فَيَشْرَبُهُ وَيَجْعَلُ مَا بَقِيَ عَلَى كَبِدِهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَا رَسُولَ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ قَدْ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَلَمْ يُرْجِعْهُمَا حَتَّى قَالَتِ السَّمَاءُ ، فَأَهْطَلَتْ ثُمَّ سَكَبَتْ فَمَلَئُوا مَا مَعَهُمْ ، ثُمَّ ذَهَبْنَا نَنْظُرُ فَلَمْ نَجِدْهَا جَاوَزَتِ الْعَسْكَرَ ، أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ خُزَيْمَةَ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَأَبُو نُعَيْمٍ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي دَلَائِلِهِمَا وَالضِّيَاءُ فِي الْمُخْتَارَةِ .

(مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) أَيِ اتَّبَعُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا قَرُبَ أَنْ يَزِيغَ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عَنْ صِرَاطِ الْإِسْلَامِ ، بِعِصْيَانِ الرَّسُولِ حِينَ أَمَرَ بِالنَّفِيرِ الْعَامِّ ، إِذْ تَثَاقَلَ بَعْضُهُمْ عَنِ النَّفَرِ وَوَبَّخَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَاتِ 38 ، 39 ، 40 أَوِ الْمَعْنَى أَنَّهُ تَابَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَافَّةً مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ بَعْضُهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْمُرَادُ بِهِمُ الَّذِينَ تَخَلَّفُوا بِالْفِعْلِ مِنْهُمْ لِغَيْرِ عِلَّةِ النِّفَاقِ ، وَهُمُ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا

(116/351)

صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا وَاعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ تَائِبِينَ فَقَبِلَ اللَّهُ تَوْبَتَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَقَالَ هُنَا فِيهِمْ : (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنَ الْعَطْفِ بِثُمَّ ، وَأَمَّا عَلَى التَّوْجِيهِ الْآخَرِ فَهُوَ تَأْكِيدٌ لِمَا فِي أَوَّلِ الْآيَةِ مِنَ التَّوْبَةِ عَلَى الْجَمِيعِ (إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) وَهَذَا تَعْلِيلٌ لِقَبُولِ تَوْبَتِهِمْ فَالرَّأْفَةُ الْعِنَايَةُ بِالضَّعِيفِ وَالرِّفْقُ بِهِ وَالْعَطْفُ عَلَيْهِ . وَالرَّحْمَةُ أَعَمُّ وَأَوْسَعُ ، وَتَقَدَّمَ تَحْقِيقُ مَعْنَاهَا فِي

تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ . قَرَأَ (كَادَ يَزِيغُ) بِالْيَاءِ التَّحْتَانِيَّةِ حَمْزَةُ وَحَفْصٌ ، وَقَرَأَهَا الْبَاقُونَ (تَزِيغُ) بِالْفَوْقَانِيَّةِ ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ فِيهِمَا إِلَّا أَنَّ فِي هَذِهِ مِنِ احْتِمَالِ الْإِعْرَابِ النَّحْوِيِّ مَا لَيْسَ فِي تِلْكَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 39.53 ﴾

(117/351)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ﴾

انتقال من التحريض على الجهاد والتحذير من التقاعس والتوبيخ على التخلف ، وما طرأ على ذلك التحريض من بيان أحوال الناس تُجاه ذلك التحريض وما عقبه من أعمال المنافقين والضعفاء والجبناء إلى بيان فضيلة الذين انتدبوا للغزو واقتحموا شدائده ، فالجملة استئناف ابتدائي .

وافتتاحها بحرف التحقيق تأكيد لمضمونها المتقرر فيما مضى من الزمان حسبما دل عليه الإتيان بالمسندات كلها أفعالاً ماضية .

ومن المحسنات افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضى الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك .

وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم في تعلق فعل التوبة بالغُزاة للتنويه بشأن هذه التوبة وإتيانها على جميع الذنوب إذ قد علم المسلمون كلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

ومعنى ﴿ تاب ﴾ عليه : غفر له ، أي لم يؤاخذه بالذنوب سواء كان مذنباً أم لم يكنه ، كقوله تعالى : ﴿ علم أنْ لن تحصوه فتاب عليكم ﴾ [المزمل : 20] أي فغفر لكم وتجاوز عن تقصيركم وليس هنالك ذنب ولا توبة .

فمعنى التوبة على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه أن الله لا يؤاخذهم بما قد يحسبون أنه يسبب مؤاخذة كقول النبي صلى الله عليه وسلم " لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم "

وأما توبة الله على الثلاثة الذين خُلفوا فهي استجابته لتوبتهم من ذنبهم .

والمهاجرون والأنصار : هم مجموع أهل المدينة ، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة ، ولكنهم خُصوا بالثناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم ، فكانوا إسوة لمن اتَّسى بهم من غيرهم من القبائل .

ووصف المهاجرون والأنصار بـ ﴿ الذين اتبعوه ﴾ للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسبباً في هذه المغفرة .

ومعنى ﴿ اتبعوه ﴾ أطاعوه ولم يخالفوا عليه ، فالاتباع مجازي .

والساعة : الحصة من الزمن .

والعسرة : اسم العسر ، زيدت فيه التاء للمبالغة وهي الشدة .

وساعة العسرة هي زمن استنفار النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى غزوة تبوك .

فهو الذي تقدمت الإشارة إليه بقوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] فالذين انتدبوا وتأهبوا وخرجوا هم الذين اتبعوه ، فأما ما بعد الخروج إلى الغزو فذلك ليس هو الاتباع ولكنه الجهاد .

ويدل لذلك قوله : ﴿ من بعد ما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ﴾ أي من المهاجرين والأنصار ، فإنه متعلق بـ ﴿ اتبعوه ﴾ أي اتبعوا أمره بعد أن خامر فريقاً منهم خاطر التثاقل والقعود والمعصية بحيث يشبهون المنافقين ، فإن ذلك لا يتصور وقوعه بعد الخروج ، وهذا الزيغ لم يقع ولكنه قارب الوقوع .

و﴿ كاد ﴾ من أفعال المقاربة تعمل في اسمين عَمل كَانَ ، واسمُها هنا ضمير شأن مقدر ، وخبرها هو جملة الخبر عن ضمير الشأن ، وإنما جُعل اسمها هنا ضمير شأن لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ .

وقرأ الجمهور ﴿ تَزيغ ﴾ بالمثناة الفوقية .

وقرأه حمزة ، وحفص عن عاصم ، وخلف بالمثناة التحتية .

وهما وجهان في الفعل المسند لجمع تكسير ظاهر .

والزيغ : الميل عن الطريق المقصود .

وتقدم عند قوله تعالى : ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا ﴾ في سورة آل عمران (8) .

وجملة ؛ ثم تاب عليهم ﴾ عطف على جملة ﴿ لقد تاب الله ﴾ أي تاب على غير هذا الفريق مطلقاً ، وتاب على هذا الفريق بعد ما كادت قلوبهم تزيغ ، فتكون ﴿ ثم ﴾ على أصلها من المهلة .

وذلك كقوله في نظير هذه الآية ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ [التوبة : 118] .

والمعنى تاب عليهم فأهموا به وخرجوا فلقوا المشقة والعسر ، فالضمير في قوله ﴿ عليهم ﴾ لل ﴿ فريق ﴾ .

(119/351)

وجوز كثير من المفسرين أن تكون ﴿ ثم ﴾ للترتيب في الذكر ، والجملة بعدها توكيداً لجملة ﴿ تاب الله ﴾ ، فالضمير للمهاجرين والأنصار كلهم .

وجملة : ﴿ إنه بهم رءوف رحيم ﴾ تعليل لما قبلها على التفسيرين . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(120/351)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

قلنا : إن التوبة لها مراحل ، فهناك توبة شرعها الله ، ومجرد مشروعية التوبة من الله رحمة بالخلق ، وهي أيضاً رحمة بالمذنب ؛ لأن الحق سبحانه لو لم يشرع التوبة لاستشرى الإنسان في المعاصي بمجرد انحرافه مرة واحدة ، وإذا استشرى في المعاصي فالمجتمع كله يشقى عليه الذنب ، فمشروعية التوبة نفسها رحمة بمن عمل الذنب . وأنت إذا سمعت قوله الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . . . ﴾ [التوبة : 118]

فافهم أن تشريع التوبة إنما جاء ليتوب العباد فعلاً ، وبعد أن يتوبوا ، يقبل الله التوبة .

والحق هنا يقول : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبي ﴾ وعطف على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ المهاجرين والأنصار ﴾ ، فأي شيء فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقول الله : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبي ﴾ ؟ ! ونقول ألم يقل الحق سبحانه له : ﴿ عَفَا الله عَنكَ

لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . ﴾ [التوبة : 43]

فحين جاء بعض المنافقين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الغزوة ، فأذن لهم ، مع أن الله سبحانه قال : ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً . . . ﴾ [التوبة : 47]

إذن : فرسول لله صلى الله عليه وسلم كان بالفطرة السليمة قد اتخذ القرار الصائب ، ولكن الحق سبحانه لا يريد ان يتبعوا فطرتهم فقط ، بل أراد أن يضع تشريعاً محدداً .

(121/351)

وشاء الحق سبحانه أن يخبرنا بأنه قدم العفو لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه أذن لمن استأذنه من المنافقين ألا يخرجوا إلى القتال ، وهناك أشياء يأخذها الله على عبده ؛ لأن العبد قام به ضد صالح نفسه ، ومثال هذا من حياتنا ولله المثل الأعلى : أنت إذا رأيت ولدك يذاكر عشرين ساعة في اليوم ؛ فإنك تدخل عليه حجرته لتأخذ منه الكتاب أو تطفئ مصباح الحجرة ، وتقول له : " قم لتنام " . وأنت في هذه الحالة إنما تعنف عليه لأنك تحبه ، لا ، لأنه خالف منهجاً ، بل لأنه أوغل في منهجٍ وأسلوب عملٍ يرهق به نفسه .

وحين سمح النبي صلى الله عليه وسلم لقوم أن يتخلفوا ، فهل فعل ذلك ضد مصلحة الحرب

أم مع مصلحة الحرب ؟ أنهم لو اشتركوا في الحرب لكثر ثوابهم حتى ولو حرسوا الأمتعة أو قاموا بأي عمل ، إذن : فإذنه صلى الله عليه وسلم لهم بالتخلف هو تصعيب للأمر على نفسه .

ولذلك نجد أن كل عتب على نبي الله ، إنما كان عتباً لصالحه لا عليه فسبحانه يقول له : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ . . . ﴾ [التحريم : 1]

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يحل ما حرم الله بل حرم على نفسه ما أحل الله له ، وهذا ضد مصلحته ، وكأن الحق يسائله : لماذا ترهق نفسك ؟ . إذن : فهذا عتب لمصلحة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأيضاً حين جاء ابن مكتوم الأعمى يسأل رسول الله في أمر من أمور الدين ، وكان ذلك في حضور صناديد قريش ، فالتفت صلى الله عليه وسلم إلى الصناديد وهم كافرون ، يريد أن يلين قلوبهم ، وترك ابن أم مكتوم ؛ فنزل القول الحق :

﴿ عَبَسَ وتولى * أَن جَآءَهُ الأعمى ﴾ [عبس : 1-2]

(122/351)

وابن أم مكتوم جاء ليستفسر عن أمر إيماني ، ولن يجادل مثلما يجادل صناديد قريش ، فلماذا يختار الرسول صلى الله عليه وسلم الأمر الصعب الذي يحتاج إلى جهد أكبر

ليفعله ؟ . إذن : العتب هنا لصالح محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين يقول الحق له : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ . . . ﴾ [التوبة : 43]

ثم جاء ها في الآية بالمهاجرين والأنصار معطوفين على رسول الله ، وذلك حتى لا يتحرج واحد من المهاجرين أو الأنصار من أن الله تاب عليه ، بل التوبة تشمله وتشمل الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه ؛ فلا تحرُّج .

وهذه المسائل التي حدثت كان لها مبررات ، فقد قال الحق : ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ ويزيغ : يميل ، أي : يترك ميدان المعركة كله ؛ لأنها كانت معركة في ساعة العسرة ، ومعنى العسرة الضيق الشديد ، فالمسافة طويلة ، والجنود الذين سيواجهونهم هم جنود الروم ، والجو حارٌّ ، وليس عندهم رواحل كافية ، فكل عشرة كان معهم بعير واحد ، يركبه واحد منهم ساعة ثم ينزل ليركبه الثاني ، ثم الثالث ، وهكذا ، ولم يجدوا من الطعام إلا التمر الذي توالد فيه الدود .

وقد بلغ من العسرة أن الواحد منهم كان يمسك التمرة فيمصها بفيه يستحلبها قليلاً ، ثم يخرجها من فيه ليعطيها إلى غيره ليستحلبها قليلاً ، وهكذا إلى أن تصير على النواة ، وكان الشعير قد أصابه السوس ، وبلغ منه السوس أن تعفن ، وقال من شهد المعركة : " حتى إن الواحد منا كان إذا أخذ حفنة من شعير ليأكلها يمسك أنفه حتى لا يتأذى من رائحة الشعير

" . كل هذه الصِّعاب جعلت من بعض الصحابة من يرغب في العودة . ولا يستكمل الطريق إلى الغزوة .

(123/351)

إذن : فالتوبة كانت عن اقتراب زيغ قلوب فريق منهم . وجاء الحق بتقدير ظرف العسرة ، ولذلك تنبأ بالخواطر التي كانت في نوايا هم ومنهم أيضاً من همّ ألا يذهب ، ثم حدجثته نفسه بأنه يذهب مثل أبي خيثمة الذي بقي من بعد أن رحل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزوة ومرت عشرة أيام ، ودخل الرجل بستانه فوجد العريشين ، وعند كل عريش زوجةٌ له حسناء ، وقد طَهَتْ كل منهما طعاماً ، وهكذا رأى أبو خيثمة الظلال الباردة ، والثمر المدلَّى ، فمسّته نفحة من صفاء النفس ؛ فقال : " رسول الله في الفيح – أي الحرارة الشديدة جدّاً – والريح ، والقُرّ والبرد ، وأنا هنا في ظل بارد ، وطعام مطهوّ ، وامرأتين حسناوين ، وعريش وثير ، والله ما ذلك بالنّصَفة لك يا رسول الله ، وأخذ زمام راحلته وركبها فكلَّمته المرأتان ، فلم يلتفت لواحدة منهما وذهب ليلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال صحابة رسول الله : يا رسول الله إنَّا نرى شبح رجل مُقْبل . فنظر رسول الله صلى

الله عليه وسلم وقال : "كن أبا خيثمة" ، ووجده أبا خيثمة ، هذا معنى الحق :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 117]

وفي واقعة الصحابة الذين راودتهم أنفسهم أن يرجعوا وتاب الله عليهم أيضا على آخرين اعترفوا بذنوبهم ، فتاب الحق عليهم حين قال : ﴿ وَآخَرُونَ اعترفوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 102]

وأرجأ الحق أمر آخرين نزل فيهم قوله : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ . . . ﴾ [التوبة : 106]

(124/351)

وما دام الله قد قال : ﴿ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ ﴾ أي : ما بَتّ الله سبحانه في أمرهم بشيء ؛ فلا بد من الانتظار إلى أن يأتي أمر الله ، ويجب ألا نتعرض لهم حتى يأتي قول الله . وتاب أيضاً على الثلاثة الذين خلفوا ، في قوله سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(125/351)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

أخرج ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس . أنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه حدثنا من شأن ساعة العسرة . فقال " خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا إن رقابنا ستقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : يا رسول الله إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا . فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء فأهطلت ، ثم سكبت فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر " .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله ﴿ في ساعة العسرة ﴾ قال : غزوة تبوك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ قال : هم الذين اتبعوا النبي صلى

الله عليه وسلم في غزوة تبوك قبل الشام في لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ، أصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كان يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها أحدهم ثم يشرب عليها الماء ثم يمصها الآخر ، فتاب الله عليهم فأقفلهم من غزوتهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الدلائل عن محمد بن عبد الله بن عقيل بن أبي طالب في قوله ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ قال : خرجوا في غزوة تبوك الرجلان والثلاثة على بعير ، وخرجوا في حر شديد فأصابهم يوماً عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها ويشربون ماءها ، فكان ذلك عسرة من الماء وعسرة من النفقة وعسرة من الظهر .

(126/351)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن جابر في قوله ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ قال : عسرة الظهر ، وعسرة ، وعسرة الماء .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك . أنه قرأ ﴿ من بعد ما زاغت قلوب طائفة منهم ﴾ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

قوله تعالى : ﴿ اتبعوه ﴾ : يجوز فيه وجهان أحدهما : أنه اتِّباعٌ حقيقي ، ويكون عليه السلام خَرَجَ أولاً وتبعه أصحابه ، وأن يكون مجازاً ، أي : اتبعوا أمرَه ونَهْيَه ، وساعةُ العُسْرة عبارةٌ عن وقتِ الخروج إلى الغزو ، وليس المرادُ حقيقةَ الساعة بل كقولهم : يوم الكُلاب ، وعشيةَ قارعْنَا جُذام ، فاستعيرت السَّاعة لذلك كما استعير الغداة والعشية في قوله :

2549 - غَدَاةَ طَفَتْ عَلْماءِ بكرُ بنُ وائلٍ . . . . . .

. . . . . .

[وقوله] :

2550 . . . . . عشية قارَعْنا جُذَام

وحميرا

[وقوله] :

2551 إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الغنى . . . . . .

. . . . . .

(128/351)

قوله : ﴿ كَادَ يَزِيغُ ﴾ ، قرأ حمزة وحفص عن عاصم " يزيغ " بالياء من تحت ، والباقون بالتاء من فوق . فالقراءةُ الأولى تحتمل أن يكونَ اسمُ "كاد " ضميرَ الشأن ، و " قلوب " مرفوعٌ بيزيغ ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ خبراً لها ، وأن يكونَ اسمُها ضميرَ القوم ، أو الجمع الذي دلَّ عليه ذِكْرُ المهاجرين والأنصار ، ولذلك قَدَّره أبو البقاء وابنُ عطية : " من بعد كاد القوم " ، وقال الشيخ في هذه القراءةِ : " فيتعيَّن أن يكون في "كاد " ضميرُ الشأن وارتفاعُ " قلوب " بيزيغ لامتناعِ أن يكون " قلوب " اسمَ كاد ، و " يزيغ " في موضع الخبر ، لأنَّ النيةَ به التأخير ، / ولا يجوز : مِنْ بعد كاد قلوب يزيغ بالياء " . قلت : لا يتعين ما ذكر في هذه القراءةِ لِما تقدَّم لك من أنه يجوز أن يكونَ اسمُ كاد ضميراً عائداً على الجمع أو القوم ، والجملةُ الفعلية خبرها ، ولا محذور يمنع من ذلك . وقوله : " لامتناع أن يكون " قلوب " اسم كاد " ، يعني أنَّا لو جَعَلْنا " قلوب " اسمَ "كاد " لَزِم أن يكون " يزيغ " خبراً مقدماً فيلزم أن يرفعَ ضميراً عائداً

على " قلوب " ، ولو كان كذلك لَلَزِم تأنيثُ الفعل لأنه حينئذٍ مسندٌ إلى ضمير مؤنث مجازي ؛ لأن جمعَ التكسير يجري مجرى المؤنثة مجازاً .

(129/351)

وأمَّا قراءة التاء من فوق فتحتمل أن يكون في "كاد " ، ضميرُ الشأن ، كما تقدم ، و " قلوب " مرفوعٌ بتزيغ ، وأُنِّث لتأنيث الجمع ، وأن يكون " قلوب " اسمَها ، و " تزيغ " خبر مقدم ولا محذورَ في ذلك ، لأن الفعلَ قد أُنِّث . قال الشيخ : " وعلى كلِّ واحدٍ من هذه الأعاريب الثلاثة إشكال على ما تقرر في علمِ النحو مِنْ أنَّ خبرَ أفعالِ المقاربة لا يكون إلا مضارعاً رافعاً ضمير اسمها ، فبعضهم أطلق وبعضهم قيَّد بغير " عسى " من أفعال المقاربة ، ولا يكون سببَّاً ، وذلك بخلاف "كان " فإن خبرها يرفع الضمير والسببي لاسم كان ، فإذا قدَّرْنا فيها ضميرَ الشأن كانت الجملةُ في موضع نصب على الخبر ، والمرفوعُ ليس ضميراً يعود على اسم "كاد " بل ولا سببّاً له .

وهذا يلزم في قراء التاء أيضاً . وأمَّا توسيط الخبرِ فهو مبنيٌّ على جواز مثل هذا التركيب في مثل "كان يقوم زيد " وفيه خلافٌ والصحيحُ المنع . وأمَّا الوجهُ الأخير فضعيف جداً من حيث أضمر في "كاد " ضميراً ليس له على مَنْ يعود إلا بتوهم ، ومن حيث يكون خبر

"كاد" رافعاً سبباً" .

قلت : كيف يقول : " والصحيح المنعُ " وهذا التركيب موجود في القرآن كقولِه تعالى : ﴿ مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ ﴾ [الأعراف : 137] ، و ﴿ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا ﴾ [الجن : 4] ، وفي قول امرىء القيس :

2552 وإن تَكُ قد ساءَتْكِ مني خَليقةٌ . . . . . .

. . . . . .

فهذا التركيبُ واقعٌ لا محالةَ ، وإنما اختلفوا في تقديره : هل من باب تقديم الخبر أم لا ؟ فَمَنْ مَنَعَ لأنه كباب المبتدأ والخبر ، والخبرُ الصريح متى كان كذلك امتنع تقديمُه على المبتدأ لئلا يلتبسَ بباب الفاعل ، فكذلك بعد نَسْخِه . ومن أجاز فلأَمْنِ اللبس .

(130/351)

ثم قال الشيخ : " ويُخَلِّصُ من هذه الإشكالات اعتقادُ كونِ "كاد" زائدة ، ومعناها مرادٌ ، ولا عملَ لها إذ ذاك في اسمٍ ولا خبر ، فتكون مثل "كان" إذا زِيْدَتْ ، يُراد معناها ولا عملَ لها ، ويؤيد هذا التأويلَ قراءةُ ابن مسعود "من بعد ما زاغَتْ" ، بإسقاط كاد ، وقد ذهب الكوفيون إلى زيادتها في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ [النور : 40] ، مع تأثُّرِها

بالعاملِ وعملِها في ما بعدها ، فأحرى أن يدعى زيادتُها وهي ليسَتْ عاملةً ولا معمولة " .

قلت : زيادتُها أباه الجمهور ، وقال به من البصريين الأخفش ، وجَعَلَ منه ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه : 15] . وتقدم الكلامُ على ذلك في أوائلِ هذا الكتاب .

وقرأ الأعمش والجحدري " تُزيغ " بضم التاء وكأنه جَعَلَ " أزاغ " و " زاغ " بمعنى . وقرأ أُبيّ " كادَتْ " بتاء التأنيث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 132 .

﴿ 136 ﴾

(131/351)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (117) ﴾

قَبِلَ توبتهم ، وتاب على نبيّه – صلى الله عليه وسلم – في إذنه للمنافقين في التخلف عنه في غزوة تبوك ، وأَمَّا على المهاجرين والأنصار الذين قد خرجوا معه حين هَمُّوا بالانصرافِ لِمَا أَصَابهم من العُسْرة من الجوع والعطش والإعياء في غزوة تبوك ، كما قال : ﴿ مِن بَعْدِ مَا

كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ : وتوبته عليهم أنه تداركَ قلوبَهم حتى لم تزغ ، وكذا سُنَّةَ الحقِّ - سبحانه - مع أوليائه إذا أشرفوا على العَطَبِ ، وقاربوا من التّلفِ ، واستمكن اليأسُ في قلوبهم من النصر ، ووَطَّنوا أنفسهم على أنْ يذوقوا البأسَ - يُمْطِرُ عليهم سحائبَ الجود ، فيعود عودُ الحياةِ بعد يَبْسِه طريّاً ، ويُرَدُّ وَرْدُ الأُنْس عقب ذبوله غضاً جَنِيَّاً ، وتصير أحوالهم كما قال بعضهم :

كُنَّا كَمَنْ أُلبِسَ أكفانَه . . . وقُرِّب النَّعْشُ من اللَّحد

فجال ماءُ الرُّوحِ في وَحْشَةٍ . . . وردَّه الوصل إلى الورْدِ

تبارك الله سبحانه . . . ما (. . .) هو بالسرمد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 70 . 71 ﴾

(132/351)

قوله تعالى ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما صرح بالتوبة على من قارب الزيغ وخلط معهم أهل الثبات إشارة إلى أن كل أحد فقير إلى الغني الكبير وليكون اقترانهم بأهل المعالي ، وجعلهم في حيزهم تشريفاً لهم وتأنيساً لئلا يشتد إنكارهم ، أتبعه التوبة على من وقع منه الزيغ فقال غير مصرح بالزيغ تعليماً للأدب وجبراً للخواطر المنكسرة : ﴿ وعلى ﴾ أي ولقد تاب الله على ﴿ الثلاثة الذين ﴾ .

ولما كان الخلع للقلوب مطلق التخليف ، بني للمفعول قوله : ﴿ خلفوا ﴾ أي خلفهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهجران ونهى الناس عن كلامهم ، وأخر الحكم فيهم ليأتي أمر الله في بيان أمرهم واستمر تخليفهم ﴿ حتى إذا ضاقت ﴾ أشار إلى عظيم الأمر بأداة الاستعلاء فقال : ﴿ عليهم الأرض ﴾ أي كلها ﴿ بما رحبت ﴾ أي مع شدة اتساعها ، أي ضاق عليهم فسيحها ووسعها .

(133/351)

ولما كان هذا قد يراد به الحقيقة ، وكان ضيق المحل قد لا يستلزم ضيق الصدر ، أتبعه الدلالة على أن المراد المجاز فقال : ﴿ وضاقت عليهم ﴾ بالهم المزعج والغم المقلق ﴿ أنفسهم ﴾ أي من شدة ما لاقوا من الهجران حتى بالكلام حتى برد السلام ؛ ولما كان

ذلك لا يقتضي التوبة إلا بالمراقبة ، أتبعه ذلك للتخلف بها قوله : ﴿ وظنوا ﴾ أي أيقنوا ، ولعله عبر بالظن إيذان بأنهم لشدة الحيرة كانت قلوبهم لا تستقر على حال ، فكان يقينهم لشدة الخواطر كأنه ظن ، أو يقال – وهو حسن – : إن التعبير به عن يقين المخلصين إشارة إلى أن أعلى اليقين في التوحيد لا يبلغ الحقيقة على ما هي عليه أن لا يقدر أحد أن يُقدر لله حق قدره – كما قال صدق الخلق ـ صلى الله عليه وسلم ـ " لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك " وهذا من النفائس فاستعمله في أمثاله ﴿ أن لا ملجأ ﴾ أي مهرب ومفزع ﴿ من الله ﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة ﴿ إلا إليه ﴾ أي بما يرضيه ، وهو مثل لتحيرهم في أمرهم ، وجواب ﴿ إذا ﴾ محذوف دل عليه صدر الكلام تقديره : تداركهم بالتوبة فردهم إلى ما كانوا عليه قبل مواقعة الذنب .

(134/351)

ولما كان ما عملوه من التخلف عن أمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عظيماً بمجرد المخالفة ثم بترك المواساة ثم بالرغبة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم بأمور عظيمة شديدة القبح وخيمة فكان يبعد معه الزيادة عن رتبة التوبة ، أعلم سبحانه أنه رقاهم في رتب الكمال بأن جعل ذلك سبباً لتطهيرهم من جميع الأدناس وتنقيتهم من سائر الأردان

المقتضي لمزيد القرب بالعروج في مصاعد المعارف – كما أشار إليه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لكعب ـ رضى الله عنهم ـ " أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك " ، أتبع ذلك سبحانه الإعلام به بقوله – مشيراً إلى ما بعده لولا فضل الله – بأداة الاستبعاد : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أي رجع بهم بعد التوبة إلى مقام من مقامات سلامة الفطرة الذي هو أحسن تقويم يعلو لعلوه بالنسبة إلى ما دونه ، توبة ﴿ ليتوبوا ﴾ أي ليرجعوا إلى ما تقتضيه الفطرة الأولى من الثبات على ما كانوا عليه من الإحسان في الدين والتخلق بإخلاق السابقين ، ولعله عبر بالظن موضع العلم إشارة إلى أنه يكفي في الخوف من جلاله للانقطاع إليه مجرد الظن بأنه لا سبب إليه إلا منه لأنه محيط بكل شيء لا يعجزه شيء ، ويمكن أن يكون التعبير – ﴿ ثم ﴾ إشارة إلى عظيم ما قاسوا من الأهوال وما ترقوا إليه من مراتب الخوف ، وامتنان عليهم بالتوبة من عظيم ما ارتكبوا ، وإنما خصوا عن رفقائهم بأن أرجئوا لأمر الله لعلو مقامهم بما لهم من السابقة ورسوخ القدم في الإسلام ، فالمخالفة اليسيرة منهم أعظم من الكثير من غيرهم لأنهم أئمة الهدى ومصابيح الظلم ، ومن هذا البارق – حسنات الأبرار سيئات المقربين – ثم علل التوبة بأمر يعم غيرهم ترغيباً فقال معبراً بما يشير مع أعلى مقامهم إلى نزوله عن مقام من قبلهم : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ هو ﴾ أي وحده ﴿ التواب ﴾ أي البليغ التوبة على من تاب وإن عظم جرمه وتكررت توبته لتكرر ذنوبه ﴿ الرحيم ﴾ أي المكرم لمن أراد من عباده بأن يحفظه على ما

يرتضيه فلا يزيغ ، ويبالغ في الإنعام عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 397 . 399 ﴾

(135/351)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

هذا معطوف على الآية الأولى ، والتقدير : لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، والفائدة في هذا العطف أنا بينا أن من ضم ذكر توبته إلى توبة النبي عليه الصلاة والسلام ، كان ذلك دليلاً على تعظيمه وإجلاله ، وهذا العطف يوجب أن يكون قبول توبة النبي عليه الصلاة والسلام وتوبة المهاجرين والأنصار في حكم واحد ، وذلك يوجب إعلاء شأنهم وكونهم مستحقين لذلك .

المسألة الثانية :

إن هؤلاء الثلاثة هم المذكورون في قوله تعالى : ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ واختلفوا في السبب الذي لأجله وصفوا بكونهم مخلفين وذكروا وجوهاً : أحدها : أنه ليس المراد أن هؤلاء أمروا بالتخلف ، أو حصل الرضا من الرسول عليه الصلاة والسلام بذلك ، بل هو كقولك لصاحبك أين خلفت فلاناً فيقول : بموضع كذا لا يريد به أنه أمره بالتخلف بل لعله نهاه عنه وإنما يريد أنه تخلف عنه .

وثانيها : لا يمتنع أن هؤلاء الثلاثة كانوا على عزيمة الذهاب إلى الغزو فأذن لهم الرسول عليه الصلاة والسلام قدر ما يحصل الآلات والأدوات فلما بقوا مدة ظهر التواني والكسل فصح أن يقال : خلفهم الرسول .

وثالثها : أنه حكى قصة أقوام وهم المرادون بقوله : ﴿ وَءاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ فالمراد من كون هؤلاء مخلفين كونهم مؤخرين في قبول التوبة عن الطائفة الأولى .

(136/351)

قال كعب بن مالك وهو أحد هؤلاء الثلاثة : قول الله تعالى في حقنا : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ ليس من تخلفنا إنما هو تأخير رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا ليشير به إلى

قوله : ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ .

المسألة الثالثة :

قال صاحب "الكشاف" : قرىء ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ أي خلفوا الغازين بالمدينة ، أي صاروا خلفاء للذين ذهبوا إلى الغزو وفسدوا من الخالفة وخلوف الفم ، وقرأ جعفر الصادق ﴿ خالفوا ﴾ وقرأ الأعمش وعلى الثلاثة المخلفين .

المسألة الرابعة :

هؤلاء الثلاثة هم كعب بن مالك الشاعر ، وهلال بن أمية الذي نزلت فيه آية اللعان ، ومرارة بن الربيع ، وللناس في هذه القصة قولان :

القول الأول : أنهم ذهبوا خلف الرسول عليه الصلاة والسلام ، قال الحسن : كان لأحدهم أرض ثمنها مائة ألف درهم فقال : يا أرضاه ما خلفني عن رسول الله إلا أمرك ، إذهبي فأنت في سبيل الله فلأكابدن المفاوز حتى أصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفعل ، وكان للثاني أهل فقال : يا أهلاه ما خلفني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أمرك فلأكابدن المفاوز حتى أصل إليه وفعل ، والثالث : ما كان له مال ولا أهل فقال : مالي سبب إلا الضن بالحياة والله لأكابدن المفاوز حتى أصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلحقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ وآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ الله ﴾ .

والقول الثاني : وهو قول الأكثرين أنهم ما ذهبوا خلف الرسول عليه الصلاة والسلام قال كعب : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب حديثي فلما أبطأت عنه في الخروج قال عليه الصلاة والسلام : " ما الذي حبس كعباً " فلما قدم المدينة اعتذر المنافقون فعذرهم وأتيته وقلت : إن كراعي وزادي كان حاضراً واحتبست بذنبي فاستغفر لي فأبى الرسول ذلك ، ثم إنه عليه الصلاة والسلام نهى عن مجالسة هؤلاء الثلاثة ، وأمر بمباينتهم حتى أمر بذلك نساءهم ، فضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وجاءت امرأة هلال بن أمية وقالت : يا رسول الله لقد بكى هلال حتى خفت على بصره حتى إذا مضى خمسون يوماً أنزل الله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى والمهاجرين ﴾ وأنزل قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ فعند ذلك خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حجرته وهو عند أم سلمة فقال : " الله أكبر قد أنزل الله عذر أصحابنا " فلما صلى الفجر ذكر ذلك لأصحابه وبشرهم بأن الله تاب عليهم ، فانطلقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلا عليهم ما نزل فيهم .

فقال كعب : توبتي إلى الله تعالى أن أخرج مالي صدقة فقال : " لا " قلت : فنصفه قال : " لا " قلت : فثلثه قال : " نعم " واعلم أنه تعالى وصف هؤلاء الثلاثة بصفات ثلاثة .

الصفة الأولى : قوله : ﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ قال المفسرون :

معناه : أن النبي عليه الصلاة والسلام صار معرضاً عنهم ومنع المؤمنين من مكالمتهم وأمر أزواجهم باعتزالهم وبقوا على هذه الحالة خمسين يوماً ، وقيل : أكثر ، ومعنى ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ تقدم تفسيره في هذه السورة .

والصفة الثانية : قوله : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ والمراد ضيق صدورهم بسبب الهم والغم ومجانبة الأولياء والأحباء ، ونظر الناس لهم بعين الإهانة .

(138/351)

الصفة الثالثة : قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ ويقرب معناه من قوله عليه الصلاة والسلام في دعائه : " أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بعفوك من غضبك وأعوذ بك منك " ومن الناس من قال معنى قوله : ﴿ وَظَنُّوا ﴾ أي علموا كما في قوله : ﴿ الذين يَظُنُّونَ أَنَّهُم ملاقوا رَبِّهِمْ ﴾ [البقرة : 46] والدليل عليه أنه تعالى ذكر هذا الوصف في حقهم في معرض المدح والثناء ، ولا يكون كذلك إلا وكانوا عالمين بأنه لا ملجأ من الله إلا إليه .

وقال آخرون : وقف أمرهم على الوحي وهم ما كانوا قاطعين أن الله ينزل الوحي ببراءتهم عن النفاق ولكنهم كانوا يجوزون أن تطول المدة في بقائهم في الشدة فالطعن عاد إلى تجويز

كون تلك المدة قصيرة ، ولما وصفهم الله بهذه الصفات الثلاث ؛ قال : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾

وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه لا بد ههنا من إضمار .

والتقدير : حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه .

تاب عليهم ثم تاب عليهم ، فما الفائدة في هذا التكرير ؟

قلنا : هذا التكرير حسن للتأكيد كما أن السلطان إذا أراد أن يبالغ في تقرير العفو لبعض عبيده يقول عفوت عنك ثم عفوت عنك .

فإن قيل : فما معنى قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ﴾ .

قلنا فيه وجوه : الأول : قال أصحابنا المقصود منه بيان أن فعل العبد مخلوق لله تعالى فقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ يدل على أن التوبة فعل الله وقوله : ﴿ لِيَتُوبُواْ ﴾ يدل على أنها فعل العبد ، فهذا صريح قولنا ، ونظيره ﴿ فَلْيَضْحَكُواْ ﴾ مع قوله : ﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وأبكى ﴾ وقوله : ﴿ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ﴾ مع قوله : ﴿ إِذْ أَخْرَجَهُ الذين كَفَرُواْ ﴾ وقوله : ﴿ هُوَ الذي يُسَيِّرُكُمْ ﴾ مع قوله : ﴿ قُلْ سِيرُواْ ﴾ والثاني : المراد تاب الله عليهم في الماضي ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة في المستقبل .

والثالث : أصل التوبة الرجوع ، فالمراد ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم في الاختلاط بالمؤمنين ، وزوال المباينة فتسكن نفوسهم عند ذلك .

الرابع : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ أي ليدوموا على التوبة ، ولا يراجعوا ما يبطلها .

الخامس : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ لينتفعوا بالتوبة ويتوفر عليهم ثوابها وهذان النفعان لا يحصلان إلا بعد توبة الله عليهم .

المسألة الثانية :

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن قبول التوبة غير واجب على الله عقلاً قالوا : لأن شرائط التوبة في حق هؤلاء قد حصلت من أول الأمر .

ثم إنه عليه الصلاة والسلام ما قبلهم ولم يلتفت إليهم وتركهم مدة خمسين يوماً أو أكثر ، ولو كان قبول التوبة واجباً عقلاً لما جاز ذلك .

أجاب الجبائي عنه بأن قال : يقال إن تلك التوبة صارت مقبولة من أول الأمر ، لكنه يقال : أراد تشديد التكليف عليهم لئلا يتجرأ أحد على التخلف عن الرسول فيما يأمر به من جهاد وغيره .

وأيضاً لم يكن نهيه عليه الصلاة والسلام عن كلامهم عقوبة ، بل كان على سبيل التشديد في التكليف .

قال القاضي : وإنما خص الرسول عليه الصلاة والسلام هؤلاء الثلاثة بهذا التشديد ، لأنهم أذعنوا بالحق واعترفوا بالذنب ، فالذي يجري عليهم ، وهذه حالهم يكون في الزجر أبلغ مما يجري على من يظهر العذر من المنافقين .

والجواب : أنا متمسكون بظاهر قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ وكلمة ﴿ ثُمَّ ﴾ للتراخي ، فمقتضى هذا اللفظ تأخير قبول التوبة ، فإن حملتم ذلك على تأخير إظهار هذا القبول كان ذلك عدولاً عن الظاهر من غير دليل .

فإن قالوا : الموجب لهذا العدول قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الذى يَقْبَلُ التوبة عَنْ عِبَادِهِ ﴾ .

قلنا : صيغة يقبل للمستقبل ، وهو لا يفيد الفور أصلاً بالإجماع ، ثم إنه تعالى ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ .

(140/351)

واعلم أن ذكر الرحيم عقيب ذكر التواب ، يدل على أن قبول التوبة لأجل محض الرحمة والكرم ، لا لأجل الوجوب ، وذلك يقوي قولنا في أنه لا يجب عقلاً على الله قبول التوبة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 172.175 ﴾

(141/351)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾

(142/351)

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَجَابِرٌ وَمُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ هُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ وَمَرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ " قَالَ مُجَاهِدٌ : " خُلِّفُوا عَنْ التَّوْبَةِ وَقَالَ قَتَادَةُ : خُلِّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ " وَقَدْ كَانَ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ فِيمَنْ تَخَلَّفَ وَكَانُوا صَحِيحِي الْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا رَجَعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَبُوكَ جَاءَ الْمُنَافِقُونَ فَاعْتَذَرُوا وَحَلَفُوا بِالْبَاطِلِ ، وَهُمْ الَّذِينَ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ إلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ وَقَالَ : ﴿

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنْ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ فَأَمَرَ تَعَالَى بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ وَنَهَى عَنْ الرِّضَا عَنْهُمْ ، إذْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِي اعْتِذَارِهِمْ مُظْهِرِينَ لِغَيْرِ مَا يُبْطِنُونَ ، وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا مُسْلِمِينَ صَدَقُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ وَقَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إنَّا تَخَلَّفْنَا مِنْ غَيْرِ عُذْرٍ ، وَأَظْهَرُوا التَّوْبَةَ وَالنَّدَمَ ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ إنَّكُمْ قَدْ صَدَقْتُمْ عَنْ أَنْفُسِكُمْ فَامْضُوا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى فِيكُمْ ﴾ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَمْرِهِمْ التَّشْدِيدَ عَلَيْهِمْ وَأَمَرَ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ لَا يُكَلِّمَهُمْ وَأَنْ يَأْمُرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ لَا يُكَلِّمُوهُمْ ، فَأَقَامُوا عَلَى ذَلِكَ نَحْوَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَلَمْ يَكُنْ

(143/351)

ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى رَدِّ تَوْبَتِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ قَدْ كَانُوا مَأْمُورِينَ بِالتَّوْبَةِ ، وَغَيْرُ جَائِزٍ فِي الْحِكْمَةِ أَنْ لَا تُقْبَلَ تَوْبَةُ مَنْ يَتُوبُ فِي وَقْتِ التَّوْبَةِ إذَا فَعَلَهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمَأْمُورِ بِهِ وَلَكِنَّهُ تَعَالَى أَرَادَ تَشْدِيدَ الْمِحْنَةِ عَلَيْهِمْ فِي تَأْخِيرِ إنْزَالِ تَوْبَتِهِمْ

وَنَهْيِ النَّاسِ عَنْ كَلَامِهِمْ ، وَأَرَادَ بِهِ اسْتِصْلَاحَهُمْ وَاسْتِصْلَاحَ غَيْرِهِمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ لِئَلَّا يَعُودُوا وَلَا غَيْرُهُمْ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إلَى مِثْلِهِ لِعِلْمِ اللَّهِ فِيهِمْ بِمَوْضِعِ الِاسْتِصْلَاحِ ، وَأَمَّا الْمُنَافِقُونَ الَّذِينَ اعْتَذَرُوا فَلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مَوْضِعُ اسْتِصْلَاحٍ بِذَلِكَ فَلِذَلِكَ أَمَرَ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُمْ ، فَثَبَتَ بِذَلِكَ

أَنَّ أَمْرَ النَّاسِ بِتَرْكِ كَلَامِهِمْ ، وَتَأْخِيرَ إِنْزَالِ تَوْبَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ عُقُوبَةً ، وَإِنَّمَا كَانَ مِحْنَةً وَتَشْدِيدًا فِي أَمْرِ التَّكْلِيفِ وَالتَّعَبُّدِ ، وَهُوَ مِثْلُ مَا تَقُولُهُ فِي إِيجَابِ الْحَدِّ الْوَاجِبِ عَلَى التَّائِبِ مِمَّا قَارَبَ أَنَّهُ لَيْسَ بِعُقُوبَةٍ ، وَإِنَّمَا هُوَ مِحْنَةٌ وَتَعَبُّدٌ ، وَإِنْ كَانَ الْحَدُّ الْوَاجِبُ بِالْفِعْلِ بَدِيًّا كَأَنْ يَكُونَ عُقُوبَةً لَوْ أُقِيمَ عَلَيْهِ قَبْلَ التَّوْبَةِ .

قَوْله تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ يَعْنِي مَعَ سَعَتِهَا ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ يَعْنِي ضَاقَتْ صُدُورُهُمْ بِالْهَمِّ الَّذِي حَصَلَ فِيهَا مِنْ تَأْخِيرِ نُزُولِ تَوْبَتِهِمْ وَمِنْ تَرْكِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ كَلَامَهُمْ وَمُعَامَلَتَهُمْ وَأَمْرِ أَزْوَاجِهِمْ بِاعْتِزَالِهِمْ .

(144/351)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ يَعْنِي أَنَّهُمْ أَيْقَنُوا أَنْ لَا مَخْلَصَ لَهُمْ وَلَا مُعْتَصَمَ فِي طَلَبِ الْفَرَجِ مِمَّا هُمْ فِيهِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ ذَلِكَ غَيْرُهُ وَلَا يَجُوزُ لَهُمْ أَنْ يَطْلُبُوا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ قِبَلِ الْعِبَادَةِ لَهُ وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ ، فَحِينَئِذٍ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ ، وَكَذَلِكَ عَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَنْ انْقَطَعَ إِلَيْهِ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا كَاشِفَ لِهَمِّهِ غَيْرُهُ أَنَّهُ سَيُنَجِّيهِ وَيَكْشِفُ عَنْهُ غَمَّهُ ، وَكَذَلِكَ حَكَى جَلَّ وَعَلَا عَنْ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ : ﴿ وَلَمَّا

جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ إلَى أَنْ قَالَ : ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ فَتَبَرَّأَ مِنْ الْحَوْلِ ، وَالْقُوَّةِ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ وَمِنْ قِبَلِ الْمَخْلُوقِينَ وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى كَشْفِ مَا هُوَ فِيهِ إلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، حِينَئِذٍ جَاءَهُ الْفَرَجُ فَقَالُوا : ﴿ إنَّا رُسُلُ رَبِّك لَنْ يَصِلُوا إلَيْك ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ وَمَنْ يَنْوِ الِانْقِطَاعَ إلَيْهِ وَقَطْعَ الْعَلَائِقِ دُونَهُ فَمَتَى صَارَ الْعَبْدُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مَخْرَجًا لِعِلْمِهِ بِأَنَّهُ لَا يَنْفَكُّ مِنْ إحْدَى مَنْزِلَتَيْنِ : إمَّا أَنْ يُخَلِّصَهُ مِمَّا هُوَ فِيهِ وَيُنْجِيَهُ كَمَا حُكِيَ عَنْ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَ بَلْوَاهُمْ مِثْلُ قَوْلِ أَيُّوبَ : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ فَالْتَجَأَ إلَى

(145/351)

اللَّهِ فِي الْخَلَاصِ مِمَّا كَانَ يُوَسْوِسُ إلَيْهِ الشَّيْطَانُ بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةٌ لَمَا ابْتَلَاهُ بِمَا ابْتَلَاهُ بِهِ ، وَلَمْ يَكُنْ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ قَابِلًا لِوَسَاوِسِهِ إلَّا أَنَّهُ كَانَ يَشْغَلُ خَاطِرَهُ وَفِكْرَهُ عَنْ التَّفَكُّرِ فِيمَا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ : ﴿ ارْكُضْ بِرِجْلِك هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ فَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ بِأَنْ الْتَجَأَ إلَيْهِ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْقَادِرُ عَلَى كَشْفِ ضُرِّهِ دُونَ الْمَخْلُوقِينَ كَانَ عَلَى إحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ مِنْ فَرَجٍ عَاجِلٍ ، أَوْ سُكُونِ قَلْبٍ إلَى وَعْدِ اللَّهِ

وَثَوَابِهِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ لَهُ مِنْ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(146/351)

وقال ابن العربى :

قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَالَ ابْنُ وَهْبٍ : قَالَ مَالِكٌ : إنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ حِينَ طَابَتْ الثِّمَارُ ، وَبَرَدَ الظِّلَالُ ، وَخَرَجَ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ ، وَهِيَ الْعُسْرَةُ الَّتِي افْتَضَحَ فِيهَا النَّاسُ ، وَكَانَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ قَدْ تَخَلَّفَ ، وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، وَآخَرُ مِنْ بَنِي وَاقِدٍ .

وَخَرَجَ رَجُلٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَسْقِي وَدِيًّا لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ : كَيْفَ لَك بِسَقْيِ وَدِيِّك هَذَا ، فَقَالَ : الْغَزْوُ خَيْرٌ مِنْ الْوَدِيِّ ، فَرَجَعَ ، وَقَدْ أَصْلَحَ اللَّهُ وَدِيَّهُ ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ هَجَرُوا كَعْبًا وَصَاحِبَيْهِ ، وَلَمْ يَعْتَذِرُوا لِلنَّبِيِّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاعْتَذَرَ غَيْرُهُمْ .

قَالَ : فَأَقَامَ كَعْبٌ وَصَاحِبَاهُ لَمْ يُكَلِّمْهُمْ أَحَدٌ ، وَكَانَ كَعْبٌ يَدْخُلُ عَلَى الرَّجُلِ فِي الْحَائِطِ ، فَيَقُولُ لَهُ : أَنْشُدُكَ اللَّهَ ، أَتَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ؟ فَيَقُولُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةُ هُمْ : كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، وَمُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ، وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ .

كَمَا تَقَدَّمَ .

(147/351)

﴿ لَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ مَقْفِلَهُ مِنْ تَبُوكَ ، وَدَخَلَ الْمَسْجِدَ جَاءَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ ، وَهُمْ ثَمَانُونَ رَجُلًا ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ ظَاهِرَ حَالِهِمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ، إِلَّا هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةَ ، فَإِنَّهُمْ صَدَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴾ .

﴿ قَالَ كَعْبٌ فِي حَدِيثِهِ : حَتَّى جِئْت

فَسَلَّمْت عَلَيْهِ ، فَتَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ، ثُمَّ قَالَ لِي : تَعَالَ فَجِئْت أَمْشِي حَتَّى جَلَسْت بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقُلْت لَهُ : وَاَللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ .

فَقَالَ : أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ ، حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيك .

قَالَ كَعْبٌ : وَنَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ كَلَامِنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةَ ، مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ

، قَالَ : فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، أَوْ قَالَ : تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي نَفْسِي ، وَالْأَرْضُ حَتَّى مَا هِيَ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْت أَعْرِفُ ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ : فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ وَلَا الْأَرْضُ بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْت أَعْرِفُ وَسَاقَ الْحَدِيثَ إلَى قَوْلِهِ : وَصَلَّيْت الصُّبْحَ صَبِيحَةَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، وَأَنَا كَمَا قَالَ اللَّهُ : ﴿ حَتَّى إذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾ .

إذَا صَارِخٌ يَصْرُخُ أَوْفَى عَلَى ظَهْرِ جَبَلِ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ : أَبْشِرْ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ ، أَبْشِرْ ، فَخَرَرْت سَاجِدًا ﴾ وَسَاقَ الْحَدِيثَ .

(148/351)

وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ لِلْإِمَامِ أَنْ يُعَاقِبَ الْمُذْنِبَ بِتَحْرِيمِ كَلَامِهِ عَلَى النَّاسِ أَدَبًا لَهُ ، وَهَكَذَا فِي الْإِنْجِيلِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : وَعَلَى تَحْرِيمِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ ، وَهِيَ : الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : وَالْحَدِيثُ مُطَوَّلٌ ، وَفِيهِ فِقْهٌ كَثِيرٌ قَدْ أَوْرَدْنَاهُ فِي شَرْحِ الْحَدِيثِ عَلَيْكُمْ ، وَاَللَّهُ يَنْفَعُنَا وَإِيَّاكُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(149/351)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلّفُواْ ﴾

يعني : وتاب على الثلاثة ، وهم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية .

قال الفقيه : سمعت أبي رحمه الله يذكر بإسناده ، عن معمر ، عن الزهري ، عن عبد الله بن كعب بن مالك ، عن أبيه قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها ، حتى كانت غزوة تبوك إلا بدراً ، فلم يعاتب النبي صلى الله عليه وسلم أحداً تخلف عن بدر ، إنَّما خرج يريد العير فخرجت قريش معينين لعيرهم ، فالتقوا على غير موعد .

ثم لم أتخلف عن غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها ، فأذن للناس بالرحيل وأراد أن يتأهبوا أهبة غزوتهم ، وذلك حين طابت الظلال وطابت الثمار ، وكان كل ما أراد غزوة إلا ورّى بغيرها ، وكان يقول : "الْحَرْبُ خُدْعَةٌ" ، فأراد في غزوة تبوك أن يتأهب الناس أهبتهم ، وأنا أيسر ما كنت قد جمعت راحلتين ، وأنا أقدر شيء في نفسي على الجهاد وخفة الحال ، وأنا في ذلك أصبو إلى الظلال وطيب الثمار .

فلم أزل كذلك ، حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم غازياً بالغداة ، وذلك يوم الخميس .

وكان يحب أن يخرج الناس يوم الخميس ، فأصبح غادياً ، فقلت : انطلق غادياً إلى السوق

غداً فأشتري ثم ألحق بهم ، فانطلقت إلى السوق من الغد فعسر عليّ بعض شأني ،

فرجعت فقلت : أرجع غداً إن شاء الله .

فألحق بهم ، فعسر عليّ بعض شأني فلم أزل كذلك ، حتى التبس بي الريب وتخلفت عن

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف في المدينة ،

فيحزنني أن لا أرى أحداً تخلف إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق .

وكان الجميع من تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعاً وثمانين رجلاً ، ولم

يذكرني النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فلما بلغ تبوك قال : " فَمَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ

مَالِكٍ " فقال رجل من قومي : خلفه يا رسول الله حسن برديه والنظر إلى عطفيه .

(150/351)

فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت يا هذا ، والله يا نبي الله ما نعلم منه إلاَّ خيراً .

فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك ، وقفل ودنا من المدينة ، جعلت أتذكر

بماذا أخرج من سخطة رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل ذي رأي من أهلي ، حتى إذا

أقبل النبي صلى الله عليه وسلم راح عني الباطل وعرفت ألا أنجو إلاَّ بالصدق .

ودخل النبي صلى الله عليه وسلم ضحى ، فصلى في المسجد ركعتين .

وكان إذا جاء من السفر فعل ذلك ، فدخل المسجد وصلى ركعتين ، ثم جلس فجعل يأتيه من تخلف فيحلفون له ويعتذرون إليه ، ويستغفر لهم ويقبل علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله تعالى .

فدخلت المسجد ، فإذا هو جالس فلما رآني تبسَّم تبسُّم المُغضب ، فجئت فجلست بين يديه .

فقال : " أَلَمْ تَكُنِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ " فقلت بلى يا نبي الله .

فقال : " ما خَلَّفَكَ " فقلت : والله لو أني بين أحد من الناس غيرك جلست ، فخرجت من سخطه عليّ بعذر ، ولقد أوتيت جَدَلاً ، ولكني قد علمت يا رسول الله أني لو أخبرتك اليوم بما تجد عليّ فيه وهو حق ، فإني أرجو فيه عفو الله ، وإن حدثتك حديثاً ترضى علي فيه وهو كذب ، أوشك الله أن يطلعك عليّ .

والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حالاً حين تخلفت عنك .

قال : " أَمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَكُمْ الحَدِيثَ قُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ " .

فقمت فسار على أثري ناس من قومي يؤنبونني وقالوا : والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قط قبل هذا ، فهلا اعتذرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم بما يرضى عنك ، فكان استغفاره سيأتي من وراء ذلك ولم تقف نفسك موقفاً لا تدري ما يقضى لك فيه .

فلم يزالوا يؤنبونني حتى هممت أن أرجع فأكذب نفسي ، فقلت : هل قال هذا القول أحد

غيري ؟ قالوا : نعم فقلت : من هو ؟ فقالوا : هلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع فذكروا رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لي فيهما أسوة ، فقلت : والله لا أرجع إليه في هذا أبداً ، ولا أكذب نفسي .

(151/351)

قال : فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامنا الثلاثة .

قال : فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد ، وتنكر لنا الناس حتى ما هم بالذين نعرفهم ، وتنكرت لنا الأرض ، حتى ما هي بالتي نعرف .

وكنت أقوى أصحابي ، فكنت أخرج وأطوف بالأسواق وآتي المسجد وآتي النبي صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وأقول : هل حرك شفتيه بالسلام .

فإذا قمت أصلي إلى سارية ، فأقبلت على صلاتي ، نظر إلي بمؤخر عينيه ، فإذا نظرت إليه ، أعرض عني .

واستكان صاحباي فجعلا يبكيان الليل والنهار ، ولا يطلعان رؤوسهما فبينما أنا أطوف بالسوق ، إذا برجل نصراني جاء بطعام له يبيعه يقول : من يدلني على كعب بن مالك ؟

فطفق الناس يشيرون إليّ ، فأتاني وأتاني بصحيفة من ملك غسان وإذا فيها : أما بعد ،

فقد بلغني أن صاحبك قد جفاك ، ولست بدار مضيقة ولا هوان ، فالحق بنا نواسيك .

فقلت : هذا أيضاً من البلاء ، يعني : الدعوة إلى الكفرَ فسجَّرْت لها التنور فأحرقتها فيه .

فلما مضت أربعون ليلة ، إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أتاني فقال : " اعْتَزِل امْرَأَتَكَ " .

فقلت : أطلقها ؟ فقال : " لا ، ولكن لا تَقْرَبْهَا " .

فجاءت امرأة هلال بن أمية ، فقالت : يا نبي الله إن هلالاً شيخ ضعيف ، فهل تأذن لي أن أخدمه ؟ قال :

" نَعَمْ ، ولكن لا يَقْرَبَنَّكِ " .

فقالت : يا نبي الله ، والله ما به حركة من شيءٍ ، ما زال مكباً يبكي الليل والنهار منذ كان من أمره ما كان .

قال كعب : فلما طال علي البلاء ، اقتحمت على أبي قتادة حائطه ، وهو ابن عمي ، فسلمت عليه فلم يرد عليّ جواباً ، فقلت : أنشدك الله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسولهُ ؟ فسكت ثم قلت أنشدك بالله يا أبا قتادة أتعلم أني أحب الله ورسوله ؟ حتى عاودته ثلاث مرات قال : الله ورسوله أعلم فلم أملك نفسي أن بكيت ، ثم اقتحمت الحائط خارجاً .

حتى إذا مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا ، صليت على ظهر بيت لنا صلاة الفجر ، ثم جلست وأنا في المنزلة التي قال الله تعالى : ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ إذ سمعت نداء من ذروة سلع اسم جبل أن أبشر يا كعب بن مالك ، فخررت ساجداً ، وعرفت أن الله تعالى قد جاء بالفرج.

ثم جاء رجل يركب على فرس ، يركض يبشرني ، فكان الصوت أسرع من فرسه ، فأعطيته ثوبي بشارة ولبست ثوبين آخرين ، وانطلقت إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

وجعل الأنصار يستقبلونني فوجاً فوجاً ويهنئونني ويبشرونني .

ولم يقم أحد من المهاجرين غير طلحة بن عبيد الله ، قام وتلقاني بالتهنئة ، فما نسيت ذلك منه .

وانطلقت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون وهو يستنير كاستنارة القمر وكان إذا سُرَّ بالأمر ، استنار وجهه كالقمر ، فجئت فجلست بين يديه فقال : " أَبْشِرْ يَا كَعْبُ بِخَيْرِ يَوْمٍ أَتَى عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ " .

فقلت : يا نبي الله أمن عندك أم من عند الله ؟ قال : " بل من عند الله " قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبى والمهاجرين والانصار ﴾ إلى قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾

الآية .

فقلت : يا نبي الله ، إن من توبتي ألا أحدث إلاَّ صدقاً ، وأن أنخلع من مالي كله صدقة لله ورسوله .

قال : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " .

قال : فما أنعم الله عليّ نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صدقته أنا وصاحباي ، ألا نكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا .

وإني لأرجو ألا يكون الله أبلى أحداً في الصدق كما أبلاني ما تعمدت لكذبة قط وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي .

(153/351)

وروى الزهري عن كعب بن مالك قال : كانت توبتنا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ثلثا الليل ، فقالت أم سلمة : يا نبي الله ألا نبشر كعباً بن مالك ؟ قال :

" إذاً يَحْطِمَنَّكُمْ النَّاسُ وَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلَةِ " .

وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، تحزن بأمري وذلك قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ يعني : وتاب الله على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك .

ويقال ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين ﴾ عن التوبة ، يعني : أبا لبابة ﴿ خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ ، يعني : بسعتها ، ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ ، يعني : ضاقت قلوبهم ، ﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله ﴾ ، يعني : علموا وأيقنوا أن لا مفر من عذاب الله ﴿ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ ، يعني : إلا بالتوبة إليه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ﴾ ، يعني : يتجاوز عنهم حتى تابوا ويقال : أكرمهم فوفقهم للتوبة كي يتوبوا .

ويقال : تاب عليهم ليتوب من بعدهم ويقتدي بهم .

﴿ إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ ، يعني : المتجاوز لمن تاب ، الرحيم بهم بعد التوبة . انتهى انتهى . اهـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(154/351)

وقال الثعلبى :

﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾

يعني تاب على الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فلم يخرجوا ، وقيل : خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وأرجى أمرهم وقد مضت السنة .

(155/351)

وقرأ عكرمة وحميد : خلفوا بفتح الخاء واللام والتخفيف أي [فدله بعقب] رسول الله صلى الله عليه وسلم وروي عن جعفر بن محمد الصادق (رضي الله عنه) انه قرأ : خالفوا ، وقراءة الأعمش : وعلى الثلاثة المخلفين ، وهم كعب بن مالك الشاعر ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية كلهم من الأنصار وروى عبيد عن عبد الله بن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه عبد الله بن كعب وكان قائد أبيه كعب حين أُصيب بصره . قال : سمعت " أن كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لم أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها حتى كانت غزوة تبوك غير بدر ولم يعاتب النبي صلى الله عليه وسلم أحداً تخلف عن بدر إنما خرج يريد العير فخرجت قريش مغيثين لعيرهم فالتقوا من غير موعد كما قال الله عزّ وجل ولعمري أن أشرف مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس لبدر ، وما أحب أني كنت شهدتها مكان بيعتي ليلة العقبة حيث تواثقنا على الإسلام ، ثم لم أتخلف عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد في غزوة غزاها إلى أن كانت غزوة تبوك وأذن الناس بالرحيل وذلك حين طاب الظلال وطابت الثمار ، وكان قلّ ما أراد غزوة إلاّ [ورى غيرها] وكان يقول : الحرب خدعة فأراد النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أن يتأهّب الناس أهبتها وأنا أيسر ما كنت قد جهزت راحلتين ، وأنا أقدر شيء في نفسي الجهاد وأنا في ذلك أصغو إلى

الظلال وطيب الثمار فلم أزل كذلك حتى قام النبي صلى الله عليه وسلم غادياً بالغداة وذلك يوم الخميس وكان يحب أن يخرج يوم الخميس فأصبح غادياً فقلت : أنطلق غداً إلى السوق أشتري جهازي ثم ألحق بهم فانطلقت إلى السوق من غد فعسر عليَّ بعض شأني فرجعت فقلت : أرجع غداً إن شاء الله فألحق بهم ، فعسر عليَّ بعض شأني أيضاً فلم أزل كذلك حتى التبس بي الذنب وتخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعلت أمشي في الأسواق وأطوف بالمدينة فيحزنني أنّي لا

(156/351)

أرى أحداً تخلف إلاّ رجلا مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء وكان الناس كثيراً لا يجمعهم ديوان وكان جميع من تخلّف عن النبي صلى الله عليه وسلم بضعاً وثمانين رجلا ولم يذكرني النبي صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو بتبوك جالس : " ما فعل كعب بن مالك ؟ " .

فقال رجال من قومي : يا نبيّ الله خلّفه راحلته والنظر في عطفيه ، فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا نبي الله ما نعلم إلاّ خيراً ، فبينما هم كذلك إذا همّ برجل مبيضاً يزول به السراب فقال النبي صلى الله عليه وسلم كن أبا خثيمة وإذا به أبو خثيمة الأنصاري وهو

الذي تصدّق بصاع التمر فلمزه المنافقون ، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك وقفل إلى المدينة (جعلت بما أخرج) من سخط النبي صلى الله عليه وسلم فأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي حتى إذا قيل أن النبي صلى الله عليه وسلم (مضى يصلي) بالغداة راح عني الباطل وعرفت أن لا أنجو إلاّ بالصدق فدخل النبي صلى الله عليه وسلم وصلّى في المسجد ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون يحلفون له ويعتذرون إليه فيستغفر لهم فقبل منهم علانيتهم ووكَّل سرائرهم إلى الله تعالى فدخلت المسجد فإذا هو جالس فلما رآني تَبَسَّم تبسُّم المغضب فجئت فجلست بين يديه فقال : " ألم تكن قد ابتعت ظهرك " قلت : بلى يا رسول الله قال : " فما خلّفك " ؟

قلت : والله لو كنت بين يديّ أحد من الناس غيرك جلست لخرجته من سخطته بعذر ولقد أوتيت جدلاً ، ولكن قد علمت يا نبي الله أني أن أخبرك اليوم بقول تجد علي فيه وهو حقّ فإنّي أرجو فيه عفو الله وإن حدّثتك اليوم حديثاً ترضى عني فيه وهو كذب أوشك أن يطلعك الله عليه والله يا نبي الله ما كنت قط أيسر ولا أخف حاذاً مني حين تخلفت عنك .

فقال صلى الله عليه وسلم " أما هذا فقد صدقكم الحديث قم حتى يقضي الله فيك " .

(157/351)

فقمت فإذا على أثري ناس من قومي فاتبعوني فقالوا : والله ما نعلمك أذنبت ذنباً قبل هذا فهلاّ اعتذرت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حتى يرضى عنك فيه وكان استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك كافيك من ذنبك ولم تقف نفسك موقفاً ما تدري ماذا يقضي لك به ؟ فلم يزالوا يؤنّبوني حتى صمّمت أن أرجع فأُكذب نفسي فقلت : هل قال هذا القول أحد غيري ؟ قالوا : نعم ، قالوا : هلال بن أُمية الواقفي وأبو مرارة بن ربيعة العامري . فذكروا رجلين صالحين قد شهدوا بدراً لي فيهما أُسوة فقلت : والله لا أرجع إليه في هذا أبداً ، ولا أكذب نفسي قال : ونهى النبي صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا (أيها الثلاثة من بين من تخلّف عنه] قال : فجعلت أخرج إلى السوق فلا يكلمني أحد وتنكّر لنا الناس حتى] ما هم بالذين نعرف ، وتنكرت لنا الحيطان حتى ما هي الحيطان التي نعرف وتنكرت لنا الأرض حتى ما هي الأرض التي نعرف ، [وكنت أقوى أصحابي وكنت أخرج فأطوف بالأسواق وآتي المسجد فأدخل فآتي النبي صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه بالسلام ، فإذا قمت فأقبلت فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ بمؤخر عينيه وإذا نظرت إليه ، واستكان أعرض عني فإستكانا صاحباي فجعلا يبكيان الليل لا يطلعان نفسيهما فلما طال علي ذلك المسلمين من جفوة حتى تسمّرت بظلّة حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ فسلمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلام

فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمنّ أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدران فبينا أطوف في السوق إذا برجل نصراني نبطي من نبط أهل الشام جاء بطعام له يبيعه ويقول : من سيدلّ على كعب بن مالك . فطفق الناس يشيرون له إليَّ فأتاني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسّان فإذا فيه : أمّا بعد فإنه بلغني أن صاحبك قد جفاك وأقصاك (ولست بدار

(158/351)

مضيعة ولا هوان) فالحق بنا نواسيك ، فقلت : هذا من البلاء والشرف فسجّرت التنور فأحرقته فلما مضيت له بغضون ليلة إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاني فقال : " اعتزل امرأتك " فقلت : أطلقها . قال : " لا ولكن لا تقربها " وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك ، فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك وكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ، قال : فجاءت امرأة هلال فقالت : يا نبي الله إنَّ هلال بن أُمية شيخ ضعيف فهل تأذن لي أن أخدمه قال : " نعم ولكن لا يقربك " .

(159/351)

قالت : يا نبي الله والله ما به حركة لشيء ما زال مكبّاً يبكي الليل والنهار . قد كان من أمره ما كان . قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله وما يدريني ماذا يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب . فلما مضت خمسون ليلة من حين نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فصلّيت على ظهر بيت لمّا صلّى الفجر وجلست وأنا في المنزلة التي قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ وضاقت علينا أنفسنا إذ سمعت نداء من جبل سلع أن أبشر يا كعب بن مالك ، فخررت ساجداً وعلمت أن الله قد جاء بالفرج ثم جاء رجل يركض على فرس وكان الصوت أسرع من فرسه [فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي ، فكسوتها إياه ببشارته واستعرت ثوبين فلبستهما] قال : وكانت توبتنا نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ثلثي الليل فقالت أُم سلمة عشيّتئذ : يا نبي الله ألا تبشر كعب بن مالك . قال : إذا يحطمك الناس ويمنعونكم النوم بسائر الليل وكانت أم سلمة محسنة في شأني حزنى بأمري فاستطلت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون فقام إلي طلحة ابن عبيد الله يهرول حتى صافحني وقال : " ليهنك توبة الله عليك " ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره وكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلمّا سلمت على رسول الله وقلت : يا نبي الله من عند الله أم من عندك ؟ قال : " بل من عند الله " ثم تلا عليهم : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين ﴾ إلى قوله ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ وقلت : يا نبي الله إن من توبتي ألاّ أحدث الأصدقاء حتى أنخلع من مالي كلّه صدقة إلى الله وإلى رسوله فقال : " أمسك عليك بعض مالك فهو اخير لك " ، قلت : فإني أمسك سهمي الذي من خيبر قال : فما أنعم الله عليَّ نعمة بعد الإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صدقته أنا وصاحباي أن لا يكون كذبنا فهلكنا كما هلكوا وأني لأرجو أن لا يكون الله عزّ وجلّ أبلا أحداً في الصدق [منذ ذكرت ذلك لرسول الله أحسن مما ابتلاني والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله إلى يومي هذا] وأني لأرجو أن يحفظني الله عزّ وجلّ فيما بقي ، "

هذا ما انتهى الينا من حديث الثلاثة الذين خلفوا .

﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ المفسرون : أي ضاقت عليهم الأرض برمّتها ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة] ﴿ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ سمعت الحسن بن محمد بن جعفر النيسابوري وإبراهيم بن

محمد بن زيد النيسابوري وعبد الله ختن والي بلد العراق يقول : سُئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح قال : أن تضيق علينا بما رحبت ويضيق عليه نفسه كتوبة كعب وصاحبه ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ إعادة تأكيد ليتوبوا فهذا بالتوبة منه .

سمعت أبا القاسم بن أبي بكر السدوسي ، سمعت أبا سعيد أحمد بن محمد بن رميح الزيدي ، سمعت الحسن بن علي الدامغاني يقول : قال أبو يزيد : غلطت في أربعة أشياء : في الإبتداء مع الله سبحانه ظننت أني أحبه فإذا هو أحبّني قال الله تعالى :

(161/351)

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [المائدة : 54] فظننت أني أرضى عنه فاذا هو رضي عني قال الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ وظننت أني أذكره فإذا هو ذكرني قال الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : 45] وشئت أن أتوب فإذا هو تاب عليَّ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(162/351)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾

يعني وتاب على الثلاثة الذين خلّفوا وفيه وجهان :

أحدهما : خلفوا عن التوبة وأخرت عليهم حين تاب عليهم ، أي على الثلاثة الذين لم يربطوا أنفسهم مع أبي لبابة ، قاله الضحاك وأبو مالك .

الثاني : خلفوا عن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله عكرمة .

وهؤلاء الثلاثة هم : هلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكعب بن مالك .

﴿ حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ لأن المسلمين امتنعوا من كلامهم .

﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ بما لقوه من الجفوة لهم .

﴿ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجؤون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه .

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ قال كعب بن مالك : بعد خمسين ليلة من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزاة تبوك .

﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ قال ابن عباس ليستقيموا لأنه قد تقدمت توبتهم وإنما امتحنهم بذلك استصلاحاً لهم ولغيرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾

ومعنى ﴿ خلفوا ﴾

آخروا وترك أمرهم ولم تقبل منهم معذرة ولا ردت عليهم ، فكأنهم خلفوا عن المعتذرين ، وقيل معنى ﴿ خلفوا ﴾ أي عن غزوة تبوك ، قاله قتادة وهذا ضعيف وقد رده كعب بن مالك بنفسه وقال : معنى ﴿ خلفوا ﴾ تركوا عن قبول العذر وليس بتخلفنا عن الغزو ، ويقوي من اللفظة جعله إذا ضاقت غاية للتخليف ولم يكن ذلك عن تخليفهم عن الغزو ، وإنما ضاقت عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول العذر ، وقرأ الجمهور " خُلِّفوا " بضم الخاء وشد اللام المكسورة ، وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي وزر بن حبيش وعمرو بن عبيد وأبو عمرو أيضاً " خَلَفوا " بفتح الخاء واللام غير مشددة ، وقرأ أبو مالك " خُلِفوا " بضم الخاء وتخفيف اللام المكسورة ، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي وعلي بن الحسين وجعفر بن محمد وأبو عبد الرحمن " خالفوا " والمعنى قريب من التي قبلها ، وقال أبو جعفر ولو خلفوا لم يكن لهم ذنب ، وقرأ الأعمش " وعلى الثلاثة المخلفين " ، وقوله : ﴿ بما

رحبت ﴾ معناه برحبها كأنه قال : على ما هي في نفسها رحبة ، ف " ما " مصدرية ، ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ استعارة لأن الغم والهم ملأها ﴿ وظنوا ﴾ في هذه الآية بمعنى أيقنوا وحصل علم لهم وقوله : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ لما كان هذا القول في تعديد نعمه بدا في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله عز وجل ليكون ذلك منبهاً على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره ، ولو كان القول في تعدد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال الله تعالى :

(164/351)

﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : 5] ليكون هذا أشد تقريراً للذنب عليهم ، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه ، وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث " الثلاثة " الذين خلفوا في الكتب التي ذكرنا ، وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأن الشرع يطلبهم من الجد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه إذ هم أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إذ كان كعب من أهل العقبة وصاحباه من أهل بدر .

وفي هذا يقتضي أن الرجل العالم والمقتدي به أقل عذراً في السقوط من سواه ، وكتب

الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة : واعلم أن قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً ولا طاعته إلا وجوباً ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً والسلام ، ولقد أحسن القاضي التنوخي في قوله : [الكامل]

والعيب يعلق بالكبير كبير . . . وفي بعض طرق حديث " الثلاثة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة نزول توبتهم في بيت أم سلمة ، وكانت لهم صالحة فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا أمَّ سلمة : تيب على كعب بن مالك وصاحبيه " ، فقالت يا رسول الله ألا أبعث إليهم ؟ فقال " إذاً يحطمكم الناس سائر الليلة فيمنعوكم النوم " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(165/351)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا ﴾

وقرأ أبو رزين ، وأبو مجلز ، والشعبي ، وابن يعمر : "خالفوا" بألف .

وقرأ معاذ القارىء ، وعكرمة ، وحميد : "خَلَفُوا" بفتح الخاء واللام المخففة .

وقرأ أبو الجوزاء ، وأبو العالية : "خَلَّفوا" بفتح الخاء واللام مع تشديدها .

وهؤلاء هم المرادون بقوله : ﴿ وآخرون مُرجَوْنَ ﴾ وقد تقدَّمت أسماؤهم [التوبة : 106] وفي معنى "خُلّفوا" قولان .

أحدهما : خُلِّفوا عن التوبة ، قاله ابن عباس ، ومجاهد ، فيكون المعنى : خُلِّفوا عن توبة الله على أبي لبابة وأصحابه إذ لم يخضعوا كما خضع أولئك .

والثاني : خُلِّفوا عن غزوة تبوك ، قاله قتادة .

وحديثهم مندرج في توبة كعب بن مالك ، وقد رويتها في كتاب "الحدائق" .

قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ﴾ أي : ضاقت مع سَعَتها ، وذلك أن المسلمين مُنعوا من معاملتهم وكلامهم ، وأُمروا باعتزال أزواجهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مُعرِضاً عنهم .

﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ بالهمِّ والغمِ .

﴿ وظنوا ﴾ أي : أيقنوا ﴿ أن لا ملجأ ﴾ أي : لا معتصَم من الله ومن عذابه إلا هو .

﴿ ثم تاب عليهم ﴾ أعاد التوبة تأكيداً ، ﴿ ليتوبوا ﴾ قال ابن عباس : ليستقيموا وقال غيره : وفَّقهم للتوبة ليدوموا عليها ولا يرجعوا إلى ما يبطلها .

وسئل بعضهم عن التوبة النصوح ، فقال : أن تضيق على التائب الارضُ ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب وصاحبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾

قيل : عن التوبة ؛ عن مجاهد وأبي مالك .

وقال قتادة : عن غزوة تبوك .

وحُكي عن محمد بن زيد معنى "خُلِّفُوا" تُركوا ؛ لأن معنى خلّفت فلاناً تركته وفارقته قاعداً عما نهضت فيه .

وقرأ عكرمة بن خالد "خَلَفوا" أي أقاموا بعقب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ورُوي عن جعفر بن محمد أنه قرأ "خالفوا" وقيل : "خُلِّفُوا" أي أرجئوا وأُخّروا عن المنافقين فلم يُقض فيهم بشيء .

وذلك أن المنافقين لم تقبل توبتهم ، واعتذر أقوام فقبل عذرهم ، وأخر النبيّ صلى الله عليه وسلم هؤلاء الثلاثة حتى نزل فيهم القرآن .

وهذا هو الصحيح لما رواه مسلم والبخاريّ وغيرهما .

واللفظ لمسلم قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أُولئك الذين قَبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى اللَّهُ فيه ؛ فبذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين

خُلِّفُواْ ﴾ وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا تَخَلُّفَنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فَقبِل منه .

وهذا الحديث فيه طول ، هذا آخره .

والثلاثة الذين خُلِّفوا هم : كعب بن مالك ، ومُرارة بن ربيعة العامِرِيّ ، وهلال بن أُمَيّة الوَاقِفي ، وكلهم من الأنصار .

(167/351)

وقد خرّج البخاريّ ومسلم حديثَهم ، فقال مسلم " عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قطُّ إلا في غزوة تبوك ، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنه ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عِير قريش ؛ حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحِبّ أن لي بها مشهدَ بدر ، وإن كانت بدر أذْكَرَ في الناس منها ، وكان من خبري حين تخلّفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك : أني لم أكن قط أقوى ولا أيسَر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، واللَّهِ ما جمعتُ قبلها راحلتين قطّ حتى جمعتهما في

تلك الغزوة ؛ فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، واستقبل عدوّاً كثيراً ؛ فجلاَ للمسلمين أمرهم ليتأهّبُوا أهْبةَ غَزْوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، ولا يجمعهم كتابُ حافظٍ يريد بذلك الدّيوان قال كعب : فقَلّ رجل يريد أن يتغيّب ، يظن أن ذلك سيَخْفَى له ما لم ينزل فيه وحي من الله تعالى ، وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظِّلال ؛ فأنا إليها أَصْعر ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وطفِقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً ، وأقول في نفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ! فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجِدّ ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غازياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل كذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ؛ فهَمَمْت أن أرتحل فأُدركَهم ، فيا ليتني فعلت ! ثم لم يقدَّر ذلك لي فطفِقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله

(168/351)

عليه وسلم يحزُنُني أنّي لا أرى لي أسوةً إلا رجلاً مغْمُوصا عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عَذَرَ اللَّهُ من الضعفاء ، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : "ما فعل كعب بن مالك" ؟ فقال رجل من بني سَلمة : يا رسول الله ، حبسه برداه والنظر في عطْفيه .

فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت ! والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً .

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما هو على ذلك رأى رجلاً مُبَيِّضاً يزول به السَّراب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "كن أبا خَيْثمة" ؛ فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريّ ، وهو الذي تصدّق بصاع التمر حتى لَمَزه المنافقون .

(169/351)

فقال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بَثّي ، فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بم أخرج من سَخطه غداً ، وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي ؛ فلما قيل لي : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً ، فأجمعت صِدْقه ، وصبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدِم من سفر بدأ بالمسجد فركع

فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفِقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكَل سرائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلّمت تبسم تبسُّم المُغْضَب ، ثم قال : "تعال" فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : "ما خلّفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك" ؟ قال : قلت يا رسول الله ، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ؛ ولقد أُعطِيت جَدَلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدّثتك اليومَ حديث كذب تَرْضَى به عني ليُوشِكَنّ اللَّهُ أن يسخطك عليّ ، ولئن حدّثتك حديث صدق تجِد عليّ فيه إنّي لأرجو فيه عُقْبَى اللَّهِ ، واللَّهِ ما كان لي عذر ، واللَّهِ ما كنت قطُّ أَقْوَى ولا أيسَر منّي حين تخلّفت عنك .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمّا هذا فقد صدق فقُم حتى يقضِيَ اللَّهُ فيك" .

فقمت وثار رجال من بني سَلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا ! لقد عَجَزْت في ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به إليه المتخلِّفون ، فقد كان كافيك ذنبَك استغفارُ رسول الله صلى الله عليه وسلم لك ! .

قال : فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُكذّب نفسي .

قال : ثم قلت لهم هل لَقَى هذا معي من أحد ؟ قالوا : نعم ! لِقِيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك .

قال قلت : من هما ؟ قالوا : مُرارة ابن ربيعة العامِريّ وهلال بن أُمية الواقفيّ .

قال : فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة ؛ قال : فمضيت حين ذكروهما لي .

قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثةُ من بين من تخلّف عنه .

قال : فاجتنبَنا الناسُ ، وقال : وتغيّروا لنا ، حتى تنكّرت لي في نفسي الأرضُ ، فما هي بالأرض التي أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ؛ فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القومِ وأجْلَدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ! ثم أُصلِّي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك عليّ من جفوة المسلمين مَشَيْتُ حتى تسوّرت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمّي وأحبّ الناس إليّ فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ عليّ السلام ، فقلت له : يا أبا

قتادة أَنْشُدُكَ بالله ! هل تعلَمنَّ أني أُحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فعُدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ! ففاضت عيناي ، وتولّيت حتى تسوّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبَطِيٌّ من نَبَط أهلِ الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلّ على كعب بن مالك ؟ قال : فطفِقَ الناس يُشيرون له إلي حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من مَلِك غَسّانَ ، وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه : أما بعد ! فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلْك الله بدار هَوَانٍ ولا مَضْيَعَة فَالْحَقْ بنا نُواسك .

(171/351)

قال فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء ! فتيممت بها التَّنُّورَ فَسَجَرْتُه بها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلْبَثَ الوَحْيُ إذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك .

قال فقلت : أُطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربَنّها .

قال : فأرسل إلى صَاحِبيّ بمثل ذلك .

قال فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك ، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

قال : فجاءت امرأة هلال بن أُمية رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا رسول الله ، إن هلال بن أُميّة شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخْدُمَه ؟ قال : "لا ولكن لا يقربَنّكِ" فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ! ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال بعض أهلي لو استأذنتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أُمية أن تخدُمَه .

قال فقلت : لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ! قال : فلبِثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نُهِيَ عن كلامنا .

قال : ثم صلّيت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رَحُبت سمعت صوت صارخ أوْفَى على سَلْع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبْشِر .

قال : فَخَرَرْت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج .

(172/351)

قال : فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر ؛ فذهب الناس يبشروننا ، فذهب قِبل صاحبَيّ مُبَشّرون ، وركض رجل إليّ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسْلَم قبلي وأوْفَى الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ؛ فلما جاءني الذي سمعتُ صوته يبشّرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشارته ، واللَّهِ ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أتأمَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فتلقاني الناس فوجاً فوجاً ، يُهنّئونني بالتوبة ويقولون : لتَهْنِئْك توبةُ الله عليك ، حتى دخلتُ المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس ؛ فقام طلحة بن عبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنّأني ، واللَّهِ ما قام رجل من المهاجرين غيرُه .

قال : فكان كعبٌ لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلّمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور ويقول : "أبشِر بخيرِ يومٍ مرّ عليك منذ ولدتك أُمّك" .

قال : فقلت أمن عند الله يا رسول الله أمن من عندك ؟ قال : "لا بل من عند الله" .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأن وجهه قطعةُ قَمَر .

قال : وكنا نعرف ذلك .

قال : فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبة الله عليّ أن أنخلع من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أمسِك عليك بعضَ

مالك فهو خير لك" .

قال فقلت : فإني أمسك سَهْمِيَ الذي بخَيْبَر .

قال وقلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجاني بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحَدّثِ إلا صدقاً ما بَقِيت .

(173/351)

قال : فوالله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدقِ الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسنَ مما أبلاني الله به ، والله ما تعمّدت كذِبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو الله أن يَحفظني فيما بَقِيَ"

؛ فأنزل الله عز وجل : ﴿ لَقَدْ تَابَ الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فِي سَاعَةِ العسرة ﴾ حتى بلغ ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ .

وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ حتى بلغ ﴿ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ .

قال كعب : واللَّهِ ما أنعم الله عليّ من نعمة قطُّ بعد إذ هداني الله للإسلام أعظمَ في نفسي

من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ألاّ أكون كَذَبْتُه فأهْلِك كما هلك الذين كذبوا ، إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوَحْيَ شَرّ ما قال لأحد ، وقال الله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ .

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ الله لاَ يرضى عَنِ القوم الفاسقين ﴾ .

قال كعب : كنا خلّفْنا أيها الثلاثةُ عن أمرِ أُولئك الذين قَبِل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حَلَفُوا له فبايَعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَعَلَى الثلاثة ﴾ ، وليس الذي ذَكر الله مما خُلِّفْنا تَخَلُّفَنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقَبِل منه .

(174/351)

قوله تعالى : ﴿ ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي بما اتسعت ؛ يقال : منزل رَحْب ورحِيب ورُحاب .

و "ما" مصدرية ؛ أي ضاقت عليهم الأرض برَحْبها ، لأنهم كانوا مهجورين لا يعامَلون ولا

يكلَّمون .

وفي هذا دليل على هِجران أهل المعاصي حتى يتوبوا .

قوله تعالى : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي ضاقت صدورهم بالهمّ والوحشة ، وبما لقوه من الصحابة من الجفوة .

﴿ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي تيقنوا أن لا ملجأ يلجئون إليه في الصفح عنهم وقبول التوبة منهم إلا إليه .

قال أبو بكر الورّاق : التوبة النصوح أن تضيق على التائب الأرض بما رَحُبت ، وتضيق عليه نفسه ؛ كتوبة كعب وصاحبيه .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ فبدأ بالتوبة منه .

قال أبو زيد : غَلِطت في أربعة أشياء : في الابتداء مع الله تعالى ، ظننت أني أُحبّه فإذا هو أحبّني ؛ قال الله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

وظننت أني أرضى عنه فإذا هو قد رضِي عني ؛ قال الله تعالى : ﴿ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ﴾ .

وظننت أني أذكره فإذا هو يذكرني ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ ﴾ .

وظننت أني أتوب فإذا هو قد تاب عليّ ؛ قال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ .

وقيل : المعنى ثم تاب عليهم ليثبتوا على التوبة ؛ كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُواْ

﴿ [النساء : 136] وقيل : أي فسح لهم ولم يعجل عقابهم كما فعل بغيرهم ؛ قال جل وعز : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الذين هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : 160] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(175/351)

وقال الخازن :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾

هذا معطوف على ما قبله تقديره لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة الذين خلفوا وفائدة هذا العطف بين قبول توبتهم وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع وكلهم من الأنصار وهم المرادون بقوله سبحانه وتعالى وآخرون مرجون لأمر الله وفي معنى خلفوا قولان : أحدهما أنهم خلفوا عن توبة أبي لبابة وأصحابه وذلك أنهم لم يخضعوا كما خضع أبو لبابة وأصحابه فتاب الله على أبي لبابة وأصحابه وأخر أمر هؤلاء الثلاثة مدة ثم تاب عليهم بعد ذلك والقول الثاني أنهم تخلفوا عن غزوة تبوك ولم يخرجوا مع رسول الله فيها وأما حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه ، فقد روي عن ابن شهاب الزهري قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن

كعب وكان قائد كعب بن بنيه حين عمي قال : وكان أعلم قومه وأوعاهم لأحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : سمعت كعب بن مالك بن عبد الله بن مالك بن كعب يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك .

(176/351)

قال : لم أتخلف عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني قد تخلفت في غزة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليلة العقبة حين توائقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حتى تخلف عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبله راحلتين قط حين جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً واستقبل عدواً كثيراً فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة

غزوهم فأخبرهم بوجههم الذي يريد والمسلمون مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد بذلك الديوان قال كعب : فقل رجل يريد ان يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفي له ما لم ينزل فيه وحي من الله وغزا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) تلك الغزوة حيت طابت الثمار والظلال فأنا إليها أصعر فتجهز رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول في نفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) غادياً والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم فيا ليتني فعلت ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً

(177/351)

عليه في النفاق أو رجلاً مما عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك :

" ما فعل كعب بن مالك " فقال رجل من بني سلمة يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل : بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً . فسكت رسول الله فبينما هو كذلك ، رأى رجلاً مبيضاً يزول به السراب فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : "كن أبا خيثمة " فإذ هو أبو خيثمة وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون قال كعب : فلما بلغني أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بثى فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قادماً وكان إذا قدم من سفره بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت لما سلمت تبسم تبسم المغضب ثم قال لي " تعالى " فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال " ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك " قال قلت يا رسول الله إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلاً ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو

فيه عقبى الله ، وفي رواية عفو الله ، والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أوقى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك قال فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) :

(178/351)

" أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك " فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك أذنبت ذنباً قبل هذا لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بما اعتذر إليه المخلفون فقد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لك قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأكذب نفسي .

(179/351)

قال : ثم قلت لهم هل لقي هذا أحد معي قالوا نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك قلت من هما قالوا مرارة بن الربيع العامري وهلال بن أمية الواقفي قال فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدوا بدراً ففيهما أسوة قال فمضيت حين ذكروهما لي

ونهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه قال : فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلم أم لا ثم أصلي قريباً منه وأسارقة النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام فقلت : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلم أني أحب الله ورسوله قال : فسكت فعدت فناشدته فسكت فعدت فناشدته فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطي من نبط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول من يدل عليّ كعب بن مالك قال فطفق الناس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك قال : فقلت حين قرأتها وهذا أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي

وإذا رسول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأتيني فقال إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يأمرك أن

(180/351)

تعتزل امرأتك قال فقلت أطلقها أم ماذا أفعل قال لا بل اعتزلها ولا تقربها قال وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر قال فجاءت امرأة هلال بن أمية إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خدام فهل تكره أن أخدمه قال " لا ولكن لا يقربنك " فقالت إنه والله ما به حركة إلى شيء ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا قال فقال لي بعض أهلي لو استأذنت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وما يدريني ما يقول لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب قال فلبثت بذلك عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا . قال ثم صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك أبشر قال

فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء فرج قال وآذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبي مبشرون وركض رجل إلى فرساً وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة ويقولون ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حوله الناس فقال إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلا رجل من المهاجرين غيره .

قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

(181/351)

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال وهو يبرق وجهه من السرور : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " قال : قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ فقال : " لا بل من عند الله " وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا

سرَّ استنار وجهه حتى كان وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك منه قال فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

(182/351)

" أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " قال فقلت فإني أمسك سهمي الذي بخيبر قال وقلت يا رسول الله إن الله إن أنجاني بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت قال فوالله ما علمت أن أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحسن مما أبلاني الله ، والله ما تعمدت كذبه منذ قلت ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى يومي هذا وإني لأجروا أن يحفظني الله فيما بقي قال فأنزل الله لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة حتى بلغ أنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب : والله ما أنعم الله عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب : والله ما أنعم الله عليهم الأرض بما رحبت حتى بلغ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين قال كعب : والله ما أنعم الله علي

من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال الله سبحانه وتعالى : سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس ومأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين قال كعب : كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمرنا حتى قضى الله تعالى فيه فبذلك قال الله : وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو وإنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه وفي رواية ونهى النبي (صلى الله عليه وسلم) عن

(183/351)

كلامي وكلام صاحبي ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال علي الأمر فما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي علي النبي (صلى الله عليه وسلم) أو يموت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأكون من الناس

بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي علي ولا يسلم علي قال : وأنزل الله توبتنا على نبيه (صلى الله عليه وسلم) حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند أم سلمة .

وكانت أم سلمة محسنة في شأني معتنية بأمري فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره قال : إذا يحطمكم الناغس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صلاة الفجر آذن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بتوبة الله علينا " أخرجه البخاري ومسلم .

(شرح غريب هذا الحديث) . .

قوله حسن تواثقنا على الإسلام : التواثق تفاعل من الميثاق وهو العهد .

والراحلة : الجمل أو الناقة القويان على الحمل والسفر .

وقوله : ورى بغيرها يقال : ورى عن الشيء إذا أخفاه وأظهر غيره .

والمفازة : البرية القفراء سميت بذلك تفاؤلاً بالفوز والنجاة منها قوله فجلا هو بالتخفيف يعني كشف لهم مقصدهم وأظهره لهم والأهبة الجهاز وما يحتاج إليه المسافر قوله فأنا إليها صعر هو بالعين المهملة أي أميل والصعر الميل .

قوله : وتفارط الغزو أي تباعد ما بيني وبين الجيش من المسافة وطفق مثل جعل والمغموص

المعيب المشار إليه بالعيب .

يقال : فلان ينظر في عطفيه إذا كان معجباً بنفسه .

ويقال : زال به السراب يزول إذا ظهر شخص الإنسان خيالاً فيه من بعد .

والسراب : هو ما يظهر للإنسان في البرية في وقت الهاجرة كأنه ماء والمبيض بكسر الياء لابس البياض .

(184/351)

قوله : كن أبا خيثمة معناه أنت أبو خيثمة وقيل معناه : اللهم اجعله أبا خيثمة أي لتوجد يا هذا الشخص أبا خيثمة حقيقة قوله الذي لمزه المنافقون يعني عابوه واحتقروه والقافل الراجع من سفره إلى وطنه قوله حضرني بثني البث أشد الحزن كأنه لشدته يظهر قوله زاح عني الباطل أي زال وذهب عني وأجمعت صدقه أي عزمت عليه لقد أعطيت جدلاً أي فصاحة وقوة في الكلام بحيث أخرج عن عهدة ما أردت بما أشاء من الكلام والمغضب بفتح الضاد هو الغضبان قوله بما زالوا يؤنبونني أي يلومونني أشد اللوم قوله حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي الأرض التي أعرف : معناه تغير علي كل شيء من الأرض وتوحشت عليّ وصارت كأنها أرض لا أعرفها وقوله فأما صاحباي فاستكانا يعني

خضعا وسكنا قوله تسورت حائط أبي قتادة أي علوته وصعدت سوره وهو أعلاه والأنباط الفلاحون والزراعون وهم من العجم والروم والمضيعة مفعلة من الضياع والأطراح ، وقوله فتيممت بها التنور فسجرته بها أي فقصدت بالصحيفة التي أرسل بها ملك غسان فأحرقتها في التنور وسلع جبل بالمدنية معروفة وقوله وانطلقت أتأمم يعني أقصد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .

والفوج : الجماعة من الناس .

يقال : برق وجهه إذا لمع وظهر عليه أمارات الفرح والسرور قوله أنخلع من مالي أي أخرج منه جميعه وأتصدق به كما يخلع الإنسان قميصه .

قوله ما علمت أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث أحسن مما أبلاني البلاء .

(185/351)

والابتلاء : يكون في الخير وفي الشر وإذا أطلق كان في الشر غالباً فإذا أريد به الخير قيد به كما قيد هنا بقوله أحسن مما أبلاني أن أنعم على قوله أن لا أكون كذبته ، هذا هو في جميع روايات الحديث بزيادة لفظ لا قال بعض العلماء لفظة لا زائدة ومعناه أن أكون كذبته وقوله فأهلك هو بكسر اللام وإرجاؤه أمرنا تأخيره وقوله في الرواية الأخرى يحطمكم الناس أي

يطؤكم ويزدحمون عليكم وأصل الوطء الكسر وقوله سائر الليل يعني باقي الليل وقوله وآذن بتوبة الله علينا أي أعلم والأذان الإعلام والله أعلم .

قوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ يعني بما اتسعت والرحب سعة المكان والمعنى أنه ضاق عليهم المكان بعد أن كان واسعاً ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ يعني من شدة الغم والحزن ومجانبة الناس إياهم وترك كلامهم ﴿ وظنوا ﴾ يعني وأيقنوا وعلموا ﴿ أن لا ملجأ ﴾ يعني لا مفزع ولا مفر ﴿ من الله إلا إليه ﴾ ولا عاصم من عذابه إلا هو ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ فيه إضمار وحذف تقديره وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه فرحمهم ثم تاب عليهم وإنما حسن هذا الحذف لدلالة الكلام عليه وقوله ثم تاب عليهم تأكيد لقبول تبوتهم لأنه قد ذكر توبتهم في قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ كما تقدم بيانه وأنه عطف على قوله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار ﴾ أي وتاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار أي وتاب الله على الثلاثة الذين خلفوا .

(186/351)

وقوله تعالى : ﴿ ليتوبوا ﴾ معناه : أن الله سبحانه وتعالى تاب عليهم في الماضي ليكون ذلك داعياً لهم إلى التوبة في المستقبل فيرجعوا ويداوموا عليها وقيل إن أصل التوبة الرجوع

ومعناه ثم تاب عليهم ليرجعوا إلى حالتهم الأولى يعني إلى عادتهم في الاختلاط بالناس ومكالمتهم فتسكن نفوسهم بذلك ﴿ إن الله هو التواب ﴾ يعني على عباده ﴿ الرحيم ﴾ بهم وفيه دليل على أن قبول التوبة بمحض الرحمة والكرم والفضل والإحسان وأنه لا يجب على الله تعالى شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(187/351)

وقال الثعالبى :

قوله سبحانه : ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ على النبي والمهاجرين والأنصار . . . ﴾ الآية : التوبةُ مِنَ اللَّه تعالَى هو رُجُوعه بعبده مِنْ حالة إلى أَرفَعَ منها ، فقد تكونُ في الأكثَرِ رُجُوعاً من حالة طاعةٍ إلى أَكْمَلَ منها ، وهذه توبته سبحانه في هذه الآيةِ عَلَى نبيّه عليه السلام ، وأما توبته على المهاجرين والأنصار ، فمعرَّضةً لأنْ تكونَ مِنْ تقصيرٍ إلى طاعة وجدٍّ في الغزو ونُصْرَةِ الدّين ، وأما توبته على الفريق الذي كاد يزيغ ، فَرُجُوعٌ من حالة محطوطةٍ إلى حال غفران ورضاً ؛ وقال الشيخ أبو الحَسَن الشَّاذِليُّ رحمه اللَّه : في هذه الآية ذَكَر اللَّه سبحانه تَوْبَةَ مَنْ لَمْ يُذْنِبْ لِئَلاَ يستوحِشَ مَنْ أذنب ؛ لأنه ذكر النبيَّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار ولم يذنبوا ، ثم قال : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ ، فذكر مَنْ لم يُذْنِبْ لِيُؤْنَسَ

من قد أذنب ، انتهى من «لطائف المِنَن» .

و﴿ سَاعَةِ العسرة ﴾ يريد : وقْت العسرة ، والعُسْرة الشِّدَّةُ ، وضيقُ الحَالِ ، والعُدْمُ ، وهذا هو جيشُ العُسْرة الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم : " مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ ، فَلَهُ الجنة " ، فجهزه عثمانُ بْنُ عفَّان رضي اللَّه عنه بألْفِ جَمَلٍ ، وألْف دينارٍ ، وجاء أيضاً رجلٌ من الأنصارِ بِسَبْعِمَائَةِ وَسْقٍ مِنْ تَمْر ، وهذه غزوةُ تبوكَ .

(188/351)

---

* ت * : وعن ابن عَبَّاس ؛ أَنَّه قيل لِعُمَرَ بْنِ الخَطَّاب : حدّثنا عن شأنِ سَاعَةِ العُسْرَة ، فقال عمر : خَرَجْنَا إلى تبوكَ في قَيْظٍ شديدٍ ، فنزلْنا منزلاً أصابنا فيه عَطَشٌ ، حتى ظَنَنَّا أَنَّ رقابنا سَتَنْقَطِعُ حتى إنَّ الرجُل لَيَنْحَرُ بعيره ، فَيَعْصِرُ فَرْثَهُ فيشربه ، ثم يَجْعَلُ ما بقي عَلَى كَبِدِهِ ، فقال أبو بكر : يا رَسُولَ اللَّهِ ؛ إنَّ اللَّه قد عَوَّدَكَ في الدعاءِ خيراً ، فادعِ اللَّهَ ، فَقَالَ : «أَتُحِبُّ ذلكَ ؟» قَالَ : نَعَمْ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ ، فلم يَرْجِعْهما حتَّى مالَتِ السماء ، فَأَظَلَّتْ ، ثم سَكَبَتْ فملؤوا ما معهم ، ثم ذهبْنا ننظر ، فلم نجدْها جاوَزَتِ العَسْكَر ، رواه الحاكم في «مستدركه على الصحيحين» ، وقال : صحيحٌ على شرط الشَّيْخَيْن ، يعني : مسلماً والبخاريَّ انتهى في «السلاح» ، ووصَل النبيُّ صلى الله عليه وسلم في غزوة تَبُوكَ

إلى أوائلِ بلد العَدُوّ فصالحه أَهْلُ أذرح وأَيْلَةَ وغيرهما على الجِزْية ونحوها ، وانصرف ، والزيغ المذْكُور هو ما هَمَّت به طائفةٌ من الانصراف ؛ لِمَا لَقُوا من المشقَّة والعُسْرة . قاله الحسن .

وقيل : زيغها إنما كان بظُنُونٍ لها ساءَتْ في معنى عزم النبيِّ صلى الله عليه وسلم على تلك الغزوة ، لما رأته من شدَّة الحال وقوَّة العدوِّ والمقصود . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الجواهر الحسان حـ 2 صـ ﴾

(189/351)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾

لما تقدم الكلام في أحوال المنافقين من تخلفهم عن غزوة تبوك ، واستطرد إلى تقسيم المنافقين إلى أعراب وغيرهم ، وذكر ما فعلوا من مسجد الضرار ، وذكر مبايعة المؤمنين الله في الجهاد وأثنى عليهم ، وأنه ينبغي أن يباينوا المشركين حتى الذين ماتوا منهم بترك الاستغفار لهم ، عاد إلى ذكر ما بقي من أحوال غزوة تبوك ، وهذه شنشنة كلام العرب يشرعون في شيء ثم يذكرون بعده أشياء مناسبة ويطيلون فيها ، ثم يعودون إلى ذلك الشيء الذي كانوا شرعوا

فيه .

قال ابن عطية : التوبة من الله رجوعه لعبده من حالة إلى حالة أرفع منه ، وقد يكون في الأكثر رجوعاً عن حالة المعصية إلى حالة الطاعة ، وقد يكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها .

وهذه توبته في هذه الآية على النبي (صلى الله عليه وسلم) ، لأنه رجع به من حالة قبل تحصيل الغزوة وتحمل مشاقها ، إلى حاله بعد ذلك أكمل منها .

وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأنْ تكون من نقصان إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين ، وأما توبته على الفريق فرجوع من حالة محطوطة إلى حالة غفران ورضا .

وقال الزمخشري : تاب الله على النبي كقوله تعالى : ﴿ ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخر ﴾ ﴿ واستغفر لذنبك ﴾ وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار ، حتى النبي والمهاجرون والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى ، وأنّ صفة الأوابين صفة الأنبياء كما وصفهم بالصالحين لتظهر فضيلة الصلاح .

وقيل : معناه تاب الله عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه لقوله تعالى : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ انتهى .

وقيل : لا يبعد إن صدر عن المهاجرين والأنصار أنواع من المخالفات ، إلا أنه تعالى تاب عليهم وعفا عنهم لأجل أنهم تحملوا مشاق ذلك السفر ، ثم إنه تعالى ضم ذكر الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى ذكرهم تنبيهاً على عظم مراتبهم في قبول التوبة .

اتبعوه : أي اتبعوا أمره ، فهو من مجاز الحذف .

ويجوز أن يكون هو ابتدأ بالخروج ، وخرجوا بعده فيكون الاتباع حقيقة ساعة العسرة أي : في وقت العسرة ، والتباعة مستعارة للزمان المطلق ، كما استعاروا الغداة والعشية واليوم .

قال :

غداة طفت علماء بكر بن وائل . . .

عشية قارعنا جذام وحِميرا

وآخر :

إذا جاء يوماً وارثي يبتغي الغنى . . .

وهي غزوة تبوك كانت تسمى غزوة العسرة ، ويجوز أن يريد بساعة العسرة الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة ، إذ السفرة كلها تبع لتلك الساعة ، وبها وفيها يقع

الأجر على الله وترتبط النية ، فمن اعتزم على الغزو وهو معسر فقد أنفع في ساعة عسرة ، ولو اتفق أن يطرأ لهم غنى في سائر سفرهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة العسرة .

والعسرة : الضيق والشدة والعدم ، وهذا هو جيش العسرة الذي قال فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من جهز جيش العسرة فله الجنة " فجهزه عثمان بن عفان بألف جمل وألف دينار .

وروي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قلب الدنانير بيده وقال :

" وما على عثمان ما عمل بعد هذا " وجاء أنصاري بسبعمائة وسق من بر .

وقال مجاهد ، وقتادة ، والحسن : بلغت العسرة بهم إلى أن كان العشرة منهم يعتقبون على بعير واحد من قلة الظهر ، وإلى أن قسموا التمرة بين الرجلين ، وكان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمصها أحدهم ويشرب عليها الماء ، ثم يفعل بها كلهم ذلك .

(191/351)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء ، ويعصرون الفرث حتى استسقى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فرفع يديه يدعو ، فما رجعها حتى انسكبت سحابة ،

فشربوا وادخروا ثم ارتحلوا ، فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر .

وفي هذه الغزوة هموا من المجاعة بنحر الإبل ، فأمر بجمع فضل أزوادهم حتى اجتمع منه على النطع شيء يسير ، فدعا فيه بالبركة ثم قال : " خذوا في أوعيتكم فملأوها حتى لم يبق وعاء " وأكل القوم كلهم حتى شبعوا ، وفضلت فضلة .

وكان الجيش ثلاثين ألفاً وزيادة ، وهي آخر مغازيه (صلى الله عليه وسلم) ، وفيها خلف علياً بالمدينة .

وقال المنافقون خلفه بغضاً له ، فأخبره بقولهم فقال : " أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى " ؟ ووصل (صلى الله عليه وسلم) إلى أوائل بلاد العدو ، وبث السرايا ، فصالحه أهل أذرح وأيلة وغيرهما على الجزية وانصرف .

﴿ تزيغ قلوب فريق ﴾ قال الحسن : همت فرقة بالانصراف لما لقوا من المشقة .

وقيل : زيغها كان بظنون لها ساءت في معنى عزم الرسول على تلك الغزوة ، لما رأته من شدّة العسرة وقلة الوفر ، وبعد الشقة ، وقوة العدو المقصود .

وقال ابن عباس : تزيغ ، تعدل عن الحق في المبايعة .

وكاد تدل على القرب ، لا على التلبس بالزيغ .

وقرأ حمزة وحفص : يزيغ بالياء ، فتعين أن يكون في كاد ضمير الشأن ، وارتفاع قلوب بتزيغ لامتناع أن يكون قلوب اسم كاد وتزيغ في موضع الخبر ، لأنّ النية به التأخير .

ولا يجوز من بعد ما كاد قلوب يزيغ بالياء .

وقرأ باقي السبعة : بالتاء ، فاحتمل أن يكون قلوب اسم كاد ، وتزيغ الخبر وسط بينهما ، كما فعل ذلك بكان .

قال أبو علي : ولا يجوز ذلك في عسى ، واحتمل أن يكون فاعل كاد ضمير يعود على الجمع الذي يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار ، أي من بعد ما كاد هو أي : الجمع .

(192/351)

وقد قدر المرفوع بكاد باسم ظاهر وهو القوم ابن عطية وأبو البقاء ، كأنه قال : من بعد ما كاد القوم .

وعلى كل واحد من هذه الأعاريب الثلاثة إشكال على ما تقرّر في علم النحو : من أنّ خبر أفعال المقاربة لا يكون إلا مضارعاً رافعاً ضمير اسمها .

فبعضهم أطلق ، وبعضهم قيد بغير عسى من أفعال المقاربة ، ولا يكون سبباً ، وذلك بخلاف كان .

فإنّ خبرها يرفع الضمير ، والسببي لاسم كاد ، فإذا قدّرنا فيها ضمير الشأن كانت الجملة في موضع نصب على الخبر ، والمرفوع ليس ضميراً يعود على اسم كاد بل ولا سبباً له ، وهذا

يلزم في قراءة الياء أيضاً .

وأما توسيط الخبر فهو مبني على جواز مثل هذا التركيب في مثل كان : يقوم زيد ، وفيه خلاف ، والصحيح المنع .

وأما توجيه الآخر فضعيف جداً من حيث أضمر في كاد ضمير ليس له على من يعود إلا بتوهم ، ومن حيث يكون خبر كاد واقعاً سببياً ، ويخلص من هذه الإشكالات اعتقاد كون كاد زائدة ، ومعناها مراد ، لا عمل لها إذ ذاك في اسم ولا خبر ، فتكون مثل كان إذا زيدت ، يراد معناها ولا عمل لها .

ويؤيد هذا التأويل قراءة ابن مسعود : من بعد ما زاغت ، بإسقاط كاد .

وقد ذهب الكوفيون إلا زيادتها في قوله تعالى : ﴿ لم يكد يراها ﴾ مع تأثيرها للعامل ، وعملها هي .

فأحرى أن يدعي زيادتها ، وهي ليست عاملة ولا معمولة .

وقرأ الأعمش والجحدري : تزيغ برفع التاء .

وقرأ أبي : من بعد ما كادت تزيغ ثم تاب عليهم ، الضمير في عليهم عائد على الأولين ، أو على الفريق فالجملة كرّرت تأكيداً .

أو يراد بالأول إنشاء التوبة ، وبالثاني استدامتها .

أو لأنه لما ذكر أنّ فريقاً منهم كادت قلوبهم تزيغ نص على التوبة ثانياً رفعاً لتوهم أنهم

مسكوت عنهم في التوبة ، ثم ذكر سبب التوبة وهو رأفته بهم ورحمته لهم .

والثلاثة الذين خلفوا تقدمت أسماؤهم ، ومعنى خلفوا عن الغزو غزو تبوك قاله : قتادة .

(193/351)

أو خلفوا عن أبي لبابة وأصحابه ، حيث تيب عليهم بعد التوبة على أبي لبابة وأصحابه إرجاء أمرهم خمسين يوماً ثم قبل توبتهم .

وقد ردّ تأويل قتادة كعب بن مالك بنفسه فقال : معنى خلفوا تركوا عن قبول العذر ، وليس بتخلفنا عن الغزو .

وقرأ الجمهور : خلفوا بتشديد اللام مبنياً للمفعول .

وقرأ أبو مالك كذلك وخفف اللام .

وقرأ عكرمة بن هارون المخزومي ، وذر بن حبيش ، وعمرو بن عبيد ، ومعاذ القاري ، وحميد : بتخفيف اللام مبنياً للفاعل ، ورويت عن أبي عمرو أي : خلفوا الغازين بالمدينة ، أو فسدوا من الخالفة .

وقرأ أبو العالية وأبو الجوزاء كذلك مشدّد اللام .

وقرأ أبو زيد ، وأبو مجلز ، والشعبي ، وابن يعمر ، وعلي بن الحسين ، وابناه زيد ، ومحمد

الباقر ، وابنه جعفر الصادق : خالفوا بألف أي : لم يوافقوا على الغزو .

وقال الباقر : ولو خلفوا لم يكن لهم .

وقرأ الأعمش وعلى الثلاثة المخلفين ، ولعله قرأ كذلك على سبيل التفسير ، لأنها قراءة مخالفة لسواد المصحف .

حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت تقدم تفسير نظيرها في هذه السورة في قصة حنين .

وضاقت عليهم أنفسهم استعارة ، لأن الهم والغم ملأها بحيث لا يسعها أنس ولا سرور ، وخرجت عن فرط الوحشة والغم ، وظنوا أي : علموا .

قاله الزمخشري .

وقال ابن عطية : أيقنوا ، كما قالوا في قول الشاعر :

فقلت لهم ظنوا بألفي مدحج . . .

سراتهم في الفارسي المسرّد

وقال قوم : الظن هنا على بابه من ترجيح أحد الجائزين ، لأنه وقف أمرهم على الوحي ولم يكونوا قاطعين بأنه ينزل في شأنهم قرآن ، أو كانوا قاطعين لكنهم يجوزون تطويل المدة في بقائهم في الشدة ، فالظن عاد إلى تجويز تلك المدة قصيرة .

وجاءت هذه الجمل في كنف إذاً في غاية الحسن والترتيب ، فذكر أولاً ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم ، ونبوة الناس عن كلامهم .

(194/351)

وثانياً وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم ، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع ، فذكر أولاً ضيق المحل ، ثم ثانياً ضيق الحال فيه ، لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة .

سم الخياط مع المحبوب ميدان .

ثم ثالثاً لما يئسوا من الخلق عذقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه ، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى ﴿ ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون ﴾ وإذاً إنْ كانت شرطية فجوابها محذوف تقديره : تاب عليهم ، ويكون قوله : ثم تاب عليهم ، نظير قوله : ثم تاب عليهم ، بعد قوله ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ الآية .

ودعوى أنّ ثم زائدة وجواب إذا ما بعد ثم بعيد جداً ، وغير ثابت من لسان العرب زيادة ثم .

ومن زعم أنّ إذا بعد حتى قد تجرد من الشرط وتبقى لمجرد الوقت فلا تحتاج إلى جواب بل

تكون غاية للفعل الذي قبلها وهو قوله : خلفوا أي : خلفوا إلى هذا الوقت ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا ، أو ليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علماً منهم أنّ الله توّاب على من تاب ، ولو عاد في اليوم مائة مرة .

وقيل : معنى ليتوبوا ليدوموا على التوبة ولا يراجعوا ما يبطلها .

وقيل : ليتوبوا ، ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم من الاختلاط بالمؤمنين ، وتستكن نفوسهم عند ذلك .

قال ابن عطية : وقوله : ثم تاب عليهم ليتوبوا ، لمّا كان هذا القول في تعديد نعمه بدأ في ترتيبه بالجهة التي هي عن الله تعالى ليكون ذلك منبّهاً على تلقي النعمة من عنده لا رب غيره ، ولو كان القول في تعديد ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي عن المذنب كما قال تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ ليكون هذا أشد تقريراً للذنب عليهم ، وهذا من فصاحة القرآن وبديع نظمه ومعجز اتساقه .

(195/351)

وبيان هذه الآية ومواقع ألفاظها أنها تكمل مع مطالعة حديث الثلاثة الذين خلفوا ، وقد خرج حديثهم بكماله البخاري ومسلم وهو في السير ، فلذلك اختصرت سوقه .

وإنما عظم ذنبهم واستحقوا عليه ذلك لأنّ الشرع يطالبهم من الحد فيه بحسب منازلهم منه وتقدمهم فيه ، إذ هو أسوة وحجة للمنافقين والطاعنين ، إذ كان كعب من أهل العقبة ، وصاحباه من أهل بدر ، وفي هذا ما يقتضي أنّ الرجل العالم والمقتدي به أقل عذراً في السقوط من سواه .

وكتب الأوزاعي إلى المنصور أبي جعفر في آخر رسالة : واعلم أنّ قرابتك من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لن تزيد حق الله عليك إلا عظماً ، ولا طاعته إلا وجوباً ، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكاراً والسلام .

ولقد أحسن القاضي التنوخي في قوله :

والعيب يعلق بالكبير كبير . . .

انتهى .

وروي أن أناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ومنهم من بدا له فيلحق بهم كأبي خيثمة ، ومنهم من بقي لم يلحق بهم منهم الثلاثة .

وسئل أبو بكر الوراق عن التوبة النصوح فقال : إن تضيق على التائب الأرض بما رحبت ،

وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(196/351)

وقال أبو السعود :

﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلّفُواْ ﴾

أي وتاب الله على الثلاثة الذين أُخّرِ أمرُهم عن أمر أبي لُبابةَ وأصحابِه حيث لم يقبَلْ معذرتَهم مثلَ أولئك ولا رُدَّتْ ولم يُقطَعْ في شأنهم بشيء إلى أن نزل فيهم الوحيُ وهم كعبُ بنُ مالكٍ وهلالُ بنُ أميةَ ومَرارةُ بنُ الربيع ، وقرىء خَلَّفوا أي خلَّفوا الغازين بالمدينة أو فسَدوا ، من الخالفة وخُلوف الفم ، وقرىء على المخلّفين والأولُ هو الأنسبُ لأن قوله تعالى : ﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض ﴾ غايةٌ للتخليف ولا يناسبُه إلا المعنى الأولُ ، أي خُلّفوا وأخّر أمرُهم إلى أن ضاقت عليهم الأرضُ ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي برُحبها وسَعتِها لإعراض الناسِ عنهم وانقطاعِهم عن مفاوضتهم وهو مثلٌ لشدة الحَيْرة كأنه لا يستقِرُّ به قرارٌ ولا تطمئن له دار ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي إذا رجَعوا إلى أنفسهم لا يطمئنّون بشيء لعدم الأنسِ والسرورِ واستيلاءِ الوحشة والحَيْرة ﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ

اللهِ إلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي عِلموا أنه لا ملجأَ من سُخطه تعالى إلا إلى استغفاره ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي وفقّهم للتوبة ﴿ لِيَتُوبُواْ ﴾ أو أنزل قَبولَ توبتِهم ليصيروا من جملة التوّابين أو رجَع عليهم بالقَبول والرَّحمة مرةً بعد أخرى ليستقيموا على توبتهم ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ التواب ﴾ المبالغُ في قَبول التوبةِ كمّاً وكيفاً وإن كثُرت الجناياتُ وعظمُت ﴿ الرحيم ﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاءِ مع استحقاقهم لأفانينِ العقاب . رُوي أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم مَنْ بدا له وكره مكانه فلحِق به عليه الصلاة والسلام . عن الحسن رضي الله عنه أنه قال : بلغني أنه كان لأحدهم حائطٌ كان خيراً من ألف درهم فقال : يا حائطاه ما خلّفني إلا ظُلُّك وانتظارُ ثمارِك اذهبْ فأنت في سبيل الله ولم يكن لآخرَ إلا أهلُه فقال : يا أهلاه ما بطّأني ولا خلّفني إلا الفتنُ بك فلا جرَم والله

(197/351)

لأكابدنّ الشدائدَ حتى ألحقَ برسول الله صلى الله عليه وسلم فتأبط زادَه ولحِق به عليه الصلاة والسلام ، قال الحسن رضي الله عنه : كذلك والله المؤمنُ يتوب من ذنوبه ولا يُصِرُّ عليها (وعن أبي ذر الغفاري أن بعيرَه أبطأ به فحمَل متاعَه على ظهره واتّبع أثرَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ماشياً فقال عليه الصلاة والسلام لما رأى سوادَه : "كنْ أبا ذر" فقال

الناسُ : هو ذلك فقال عليه الصلاة والسلام : " رحِم الله أبا ذر يمشي وحدَه ويموت وحده ويُبعث وحده " (وعن أبي خيثمةَ أنه بلغ بستانُه وكانت له امرأةٌ حسناءُ فرَشت له في الظل وبسَطت له الحصيرَ وقرّبت إليه الرطَبَ والماءَ الباردَ فنظر فقال : ظلٌ ظليلٌ ورُطبٌ يانعٌ وماء باردٌ وامرأةٌ حسناء ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الضِحّ والريح ، ما هذا بخير ، فقام ورحل ناقتَه وأخذ سيفَه ورُمحَه ، ومرّ كالريح ، فمد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم طَرْفَه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السرابُ ، فقال : "كن أبا خيثمةَ" فكانَهُ ففرِح به رسول الله واستغفرَ له) ومنهم من بقيَ لم يلحَقْ به عليه الصلاة والسلام منهم الثلاثة .

(198/351)

قال كعب رضي الله عنه : لما قفَل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سلّمتُ عليه فرد عليّ كالمغضب بعد ما ذكرني ، وقال : "ياليت شعري ما خلّف كعباً" فقيل له : ما خلفه إلا حسنُ بُردَيه والنظرُ في عِطْفيه فقال عليه الصلاة والسلام : ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً" ونهى عن كلامنا أيها الثلاثةُ فتنكر لنا الناسُ ولم يكلمنا أحدٌ من قريب ولا بعيد فلما مضت أربعون ليلةً أُمرنا أن نعتزل نساءَنا ولا نقربَهن فلما تمت خمسون ليلةً إذا أنا بنداء من ذُروة سلعٍ : أبشرْ يا كعبُ بنَ مالكٍ فخرَرْتُ لله ساجداً وكنتُ كما وصفني ربي وضاقت عليهم

الأرضُ بما رحبت وضاقت عليهم أنفسُهم وتتابعت البِشارةُ فلبست ثوبي وانطلقتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالسٌ في المسجد وحوله المسلمون فقام إليّ طلحةُ بنُ عبيد اللَّه يُهرْوِل إلي حتى صافحني وقال : لتهنِكَ توبةُ الله عليك فلن أنساها لطلحةَ رضي الله عنه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارةَ القمر : "أبشر يا كعبُ بخير يوم مر عليك منذ ولدتْك أمُّك" ثم تلا علينا الآية . وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النَّصوح فقال : أن تَضيق على التائب الأرضُ بما رحبَتْ وتضيقَ عليه نفسُه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(199/351)

وقال الآلوسى :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾

﴿ وَعَلَى الثلاثة ﴾ عطف على ﴿ النبى ﴾ ، [التوبة : 117] وقيل : إن ﴿ تَابَ ﴾ مقدر في نظم الكلام لتغاير هذه التوبة السابقة وفيه نظر ، أي وتاب على الثلاثة ﴿ الذين خُلِّفُواْ ﴾ أي خلف أمرهم وأخر عن أمر أبي لبابة وأصحابه حيث لم يقبل منهم

معذرة مثل أولئك ولا ردت ولم يقطع في شأنهم بشيء إلى أن نزل الوحي بهم ، فالإسناد إليهم إما مجاز أو بتقدير مضاف في النظم الجليل ، وقد يفسر المتعدي باللازم أي الذين تخلفوا عن الغزو وهم كعب بن مالك من بني سلمة ، وهلال بن أمية من بني واقف ، ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ، ويقال فيه ابن ربيعة ، وفي مسلم .

وغيره وصفه بالعامري وصوب كثير من المحدثين العمري بدله .

وقرأ عكرمة .

ورزين بن حبيش .

وعمرو بن عبيد ﴿ خُلِّفُواْ ﴾ بفتح الخاء واللام خفيفة أي خلفوا الغازين بالمدينة أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم ، وقرأ علي بن الحسن .

ومحمد الباقر .

وجعفر الصادق رضي الله تعالى عنهم .

وأبو عبد الرحمن السلمي .

﴿ خالفوا ﴾ ، وقرأ الأعمش : ﴿ وعلى ﴾ وظاهر قوله تعالى : ﴿ خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض ﴾ إنه غاية للتخليف بمعنى تأخير الأمر أي أخر أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي برحبها وسعتها لاعراض الناس عنهم وعدم مجالستهم ومحادثتهم لأمر النبي صلى الله عليه وسلم لهم بذلك وهو مثل لشدة الحيرة ،

والمراد أنهم لم يقروا في الدنيا سعتها وهو كما قيل

كأن بلاد الله وهي فسيحة . . .

على الخائف المطلوب كفة حابل ﴾

(200/351)

وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي قلوبهم وعبر عنها بذلك مجازاً لأن قيام الذوات بها ، ومعنى ضيقها غمها حزنها كأنها لا تسع السرور لضيقها ، وفي هذا ترق من ضيق الأرض عليهم إلى ضيقهم في أنفسهم وهو في غاية البلاغة ﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي علموا أن لا ملجأ من سخطه إلا إلى استغفاره والتوبة إليه سبحانه ، وحمل الظن على العلم لأنه المناسب لهم ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي وفقهم للتوبة ﴿ لِيَتُوبُواْ ﴾ أو أنزل قبول توبتهم في القرآن وأعلمهم بها ليعدهم المؤمنون في جملة التائبين أو رجع عليهم بالقبول والرحمة مرة بعد أخرى ليستقيموا على التوبة ويستمروا عليها ، وقيل : التوبة ليست هي المقبولة ، والمعنى قبل توبتهم من التخلف ليتوبوا في المستقبل إذ صدرت منهم هفوة ولا يقنطوا من كرمه سبحانه ﴿ إِنَّ اللّهَ هُوَ التواب ﴾ المبالغ في قبول التوبة لمن تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة ﴿ الرحيم ﴾ المتفضل عليهم بفنون الآلاء مع استحقاقهم لأفانين العقاب .

أخرج عبد الرزاق .

وابن أبي شيبة .

وأحمد .

والبخاري .

ومسلم .

(201/351)

والبيهقي من طريق الزهري قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : "سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري

حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزاة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدوّاً كثيراً فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم وأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان قال كعب فقال رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل وأنا إليها أصغرهم فتهجز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إذا أردت فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئاً وقلت أتجهز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه

(202/351)

فغدوت يوم ما فصلوا لا تجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئاً ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى انتهوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم وليت أني فعلت ثم لم يقدر ذلك لي وطفقت إذا خرجت في الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أن لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق أو رجلاً ممن عذره الله تعالى ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : ما فعل كعب بن مالك قال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني شيء فطفقت أتفكر الكذب ، وأقول : بماذا أخرج من سخطه غداً أستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً فأجمعت صدقه فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاء المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى حتى جئت فلما سلمت عليه عليه الصلاة والسلام تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : تعالى فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك

ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ فقلت : يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلاً ولكن والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله تعالى بسخطك علي ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه أني لأرجو فيه عقبي من الله تعالى ، والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين

(203/351)

تخلفت عنك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله تعالى فيك فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ولقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : فوالله ما زالوا يرايبوني حتي أردت أن أرجع فأكذب نفسي ، ثم قلت : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع .

(204/351)

وهلال بن أمية فذكروا إلى رجلين صالحين قد شهدا بدراً لي فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في ملجسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي فإذا التفت نحوه أعرض حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد السلام علي فقلت له : أبا قتادة أنشدك الله تعالى هل تعلم أني أحب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : فسكت فعدت فنشدته فسكت فعدت فنشدته فقال : الله تعالى ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل علي كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان وكنت كاتباً فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله

تعالى بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها التنور فسجرته فيها إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك قلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلي صاحبي مثل ذلك فقلت : لامرأتي الحقي بأهلك لتكوني عندهم حتى يقضي الله تعالى في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى

(205/351)

الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن هلالا شيخ ضائع ، وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ فقال : لا ولكن لا يقربنك قالت : وإنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

(206/351)

فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدري ماذا يقول إذا استأذنته وأنا رجل شاب قال : فلبثت عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى عنها قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت على الأرض بما رحبت سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء فرج فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله تعالى علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلى رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي وكسوتهما إياه ببشارته والله ما أملك غيرهما يومئذ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنؤنني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله تعالى عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد حوله الناس فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : ابشر بخير يوم مر عليك

منذ ولدتك أمك قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله تعالى ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم قال : أمسك بعض مالك فهو خير لك قلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت : يا رسول الله

(207/351)

إنما نجاني الله تعالى بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين إبلاه الله تعالى في الصدق بالحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما تعمدت كذبة منذ ذلك إلى يومي هذا وإني لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقي قال : وأنزل الله تعالى

﴿ لَقَدْ تَابَ ﴾ [التوبة : 117] الآية والله ما أنعم الله تعالى على من نعمة قط بعد أن هداني الله سبحانه للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله عليه الصلاة والسلام يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن الله تعالى قال للذين كذبوه حين

نزل الوحي شر ما قال لأحد فقال : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقلبتم إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : 95 ، 96] قوله سبحانه : ﴿ الفاسقين ﴾ .

(208/351)

وجاء في رواية عن كعب رضي الله تعالى عنه قال : " نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامي كلام صاحبي فلبثت كذلك حتى طال على الأمر وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلى على رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلى علي فأنزل الله تعالى توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة ، وكانت محسنة في شأني معينة في أمري ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أم سلمة تيب علي كعب بن مالك قالت : أفلا أرسل إليه أبشره ؟ قال إذاً تحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل حتى إذا صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر آذن بتوبة الله تعالى علينا " هذا وفي وصفه سبحانه هؤلاء بما وصفهم به دلالة وأية دلالة على قوة إيمانهم وصدق توبتهم ، وعن أبي بكر الوارق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال : أن

تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(209/351)

وقال ابن عجيبة فى الآيتين :

﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾

قلت : في « كاد » ضمير الشأن ، ويرتفع بها قلوبُ .

يقول الحق جل جلاله : ﴿ لقد تابَ الله على النبي ﴾ أي : برأه وطهره من الذنوب ، كقوله : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح : 2] ، ﴿ و ﴾ تاب على ﴿ المهاجرين والأنصار ﴾ مما عسى أن يكون ارتكبوه ؛ إذ لا يخلو العبد من ذنب أو عيب .

وقيل : هو حض على التوبة ، وإظهار لفضلها ، بأنها مقام الأنبياء والصالحين ، وقيل : تاب عليهم من نقص المقامات التي ترقوا عنها ، إلى ما هو أكمل منها ، فما من أحد إلا وله مقام يستنقص بالنسبة إلى ما فوقه .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : ذكر توبة من لم يذنب ؛ لئلا يستوحش من أذنب ، لأنه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، والمهاجرين والأنصار ، ولم يذنبوا ، ثم قال :

﴿ وعلى الثلاثة الذين خُلفوا ﴾ ، فذكر من لم يذنب ليؤنس من قد أذنب ، فلو قال أولاً : لقد تاب على الثلاثة لتفطرت أكبادهم . أ هـ

(210/351)

ثم وصفهم بقوله : ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العُسرة ﴾ ، يعني : حين محاولة غزوة تبوك . والساعة هنا بمعنى الحين والوقت . والعسرة : الشدة والضيق ، أي : الذين خرجوا معه وقت العسرة والضيق ، فقد كانوا في عسرة الظهر ، يعتقب العشرة على بعير واحد ، وفي عسرة الزاد ؛ حتى قيل : إن الرجلين كانا يقتسمان تمرة واحدة . ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، لما رأوا من الشدة والضيق وشدة الحر ، ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ ؛ كرره للتأكيد ، وللتنبيه على أنه تاب عليهم لأجل ما كابدوا من العسر ، ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ ؛ حيث قَبِلهم ، وتاب عليهم ، وتاب على الثلاثة : وهم كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومُرارة بن الربيع ، تخلفوا عن غزوة تبوك من غير عذر ولا نفاق ، ولا قصد للمخالفة ، فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عتب عليهم ، وأمر الناس ألا يكلمهم ، وأن يعتزلوا نساءهم ، فقبلوا على ذلك خمسين ليلة ، ثم أنزل الله توبتهم . وقد وقع حديثهم في البخاري

ومسلم وكتب السير .

ومعنى قوله : ﴿ الذين خلفوا ﴾ أي : تخلفوا عن الغزو . وقال كعب بن مالك : خلفوا عن قبول العذر ، وليس بالتخلف عن الغزو ، ويقوي ذلك كونه جعل : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ﴾ غاية للتخلف ، أي : خلفوا عن قبول العذر ، وأخروا ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أي : برحبها وسعتها ، وذلك لإعراض الناس عنهم بالكلية ، وهو مثل لشدة الحيرة . ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ ؛ من فرط الوحشة والغم ، ﴿ وظنوا ﴾ أي : علموا ﴿ أن لا ملجأ من الله ﴾ أي : من سخطه ﴿ إلا إليه ﴾ أي : إلا إلى استغفاره والرجوع إليه ، ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ ؛ بالتوفيق بالتوبة ، ﴿ ليتوبوا ﴾ بإظهارها والدوام عليها ، وليعدوا من التوابين ، ﴿ إن الله هو التواب ﴾ لمن تاب ، ولو عادوا في اليوم سبعين مرة ، ﴿ الرحيم ﴾ ؛ متفضل عليهم بالنعم التي لا تحصى .

(211/351)

قال الورتجبي : التوبة توبتان : توبة العبد ، وتوبة الله ، توبة العبد : الرجوع من الزلات إلى الطاعات ، وتوبة الله : رجوعه إلى العبد بنعت الوصال ، وفتح باب المآب ، وكشف النقاب عن الاحتجاب ، وطلب العتاب .

إذا مَرِضنا أَتَينَاكُم نَعُودكُمُ . . . وتذنبون فنأتيكم ونعتذرُ

انظر لطف الله بنبيه وأصحابه ، كيف تاب لأجلهم مكان توبتهم ، رجع إليهم قبل رجوعهم إليه ، ليسهل عليهم طريق الرجوع إليه ، فرجوعه إلى نبيه بكشف المشاهدة ، ورجوعه إليهم بكشف القربة ، فتوبته للنبي صلى الله عليه وسلم من غيبته عن المشاهدة ؛ باشتغاله بأداء الرسالة ، وتوبة القوم من غيبتهم عن ملاحظة الحضرة ، فلما ذاقوا الجنايات ، واحتجبوا عن المشاهدات ؛ أدركهم فيض الوصال ، وانكشف لهم أنوار الجمال ، وهكذا سنة الله في الأنبياء والأولياء ، إذا ذابوا في مقام الامتحان ، وبقوا في الحجاب عن مشاهدة الرحمن ، تمطر عليهم وبل سحاب الكرم ، ويلمع لأبصار أسرارهم نور شرف القدم ، فيؤنسهم بعد إياسهم ، ويواصلهم بعد قنوطهم . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الذي يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى : 28] ، وقال تعالى : ﴿ حتى إِذَا استيأس الرسل . . . ﴾ [يوسف : 110] الآية . ثم قال عن بعضهم : توبة الأنبياء في مشاهدة الخلق في وقت الإبلاغ ؛ إذ الأنبياء لا يغيبون عن الحضرة ، بل لا يحضرون في مواضع الغيبة ؛ لأنهم في عين الجمع أبداً . أهـ

قال المحشي : وحاصلة : توبة الله المذكورة وَهبيةٌ ، وهي في كل أحد على حسب ما يليق بمقامه ، وإنما يليق بمقام الرسل ترقيته عن مقام إلى أعلى ، أو من شعور بخلق ؛ لأجل الإبلاغ

، إلى الغيبة عن ذلك ، وكذلك أبداً كأهل الجنة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 437.438 ﴾

(212/351)

وقال ابن عاشور :

﴿ وعلى الثلاثة ﴾ معطوف ﴿ على النبي ﴾ [التوبة : 117] بإعادة حرف الجر لبُعد المعطوف عليه ، أي وتاب على الثلاثة الذين خلفوا .

وهؤلاء فريق له حالة خاصة من بين الذين تخلفوا عن غزوة تبوك غير الذين ذكروا في قوله : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم ﴾ [التوبة : 81] الآية ، والذين ذكروا في قوله : ﴿ وجاء المعذرون ﴾ [التوبة : 90] الآية .

والتعريف في ﴿ الثلاثة ﴾ تعريف العهد فإنهم كانوا معروفين بين الناس ، وهم : كَعب بن مالك من بني سَلِمَة ، ومُرارة بن الربيع العَمْري من بني عَمرو بن عَوْف ، وهلال بن أمية الواقفي من بني واقف ، كلهم من الأنصار تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر .

ولما رجع النبي صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك سألهم عن تخلفهم فلم يكذبوه بالعذر ولكنهم اعترفوا بذنبهم وحزنوا .

ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامهم ، وأمرهم بأن يعتزلوا نساءهم .

ثم عفا الله عنهم بعد خمسين ليلة .

وحديث كعب بن مالك في قصته هذه مع الآخرين في "صحيح البخاري" و"صحيح مسلم" طويل أغر وقد ذكره البغوي في "تفسيره" .

و﴿ خلفوا ﴾ بتشديد اللام مضاعف خَلَف المخفف الذي هو فعل قاصر ، معناه أنه وراء غيره ، مشتق من الخلف بسكون اللام وهو الوراء .

والمقصود بَقي وراء غيره .

يقال : خَلَف عن أصحابه إذا تخلف عنهم في المشيء يَخْلُف بضم اللام في المضارع ، فمعنى ﴿ خُلِّفوا ﴾ خَلّفهم مُخَلِّف ، أي تركهم وراءه وهم لم يخلفهم أحد وإنما تخلفوا بفعل أنفسهم .

فيجوز أن يكون ﴿ خلفوا ﴾ بمعنى خلَّفوا أنفسهم على طريقة التجريد .

ويجوز أن يكون تخليفهم تخليفاً مجازياً استعير لتأخير البت في شأنهم ، أي الذين خُلفوا عن القضاء في شأنهم فلم يعذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا آيسهم من التوبة كما آيس المنافقين .

فالتخليف هنا بمعنى الإرجاء .

وبهذا التفسير فَسره كعب بن مالك في حديثه المروي في "الصحيح" فقال : وليس الذي ذكر الله مما خُلفنا عن الغزو وإنما تخليفُه إياناً وإرجاؤه أمرنا عَمَّن حَلَف له واعتذر إليه فقُبل منه .

اه .

يعني ليس المعنى أنهم خَلَّفوا أنفسهم عن الغزو وإنما المعنى خلَّفهم أحد ، أي جعلهم خَلْفاً وهو تخليف مجازي ، أي لم يُقض فيهم .

وفاعل التخليف يجوز أن يراد به النبي صلى الله عليه وسلم أو الله تعالى .

وبناء فعل ﴿ خلفوا ﴾ للنائب على ظاهره ، فليس المراد أنهم خلفوا أنفسهم .

وتعليق التخليف بضمير ﴿ الثلاثة ﴾ من باب تعليق الحكم باسم الذات .

والمراد : تعليقه بحالٍ من أحوالها يعلم من السياق ، مثلُ ﴿ حُرمت عليكم الميتة ﴾ [المائدة : 3] .

وهذا الذي فَسَّر كعب به هو المناسب للغاية بقوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحُبت ﴾ لأن تخيل ضيق الأرض عليهم وضيقِ أنفسهم هو غاية لإرجاء أمرهم انتهى عندها التخليف ، وليس غايةً لتخلفهم عن الغزو ، لأن تخلفهم لا انتهاء له .

وضيق الأرض : استعارة ، أي حتى كانت الأرض كالضَّيقة عليهم ، أي عندهم .

وذلك التشبيه كناية عن غمهم وتنكر المسلمين لهم .

فالمعنى أنهم تخيلوا الأرض في أعينهم كالضيقة كما قال الطرماح:

مَلأتُ عليه الأرض حتى كأنها . . .

من الضيق في عينيه كِفَّة حَابل

وقوله : ﴿ بما رحبت ﴾ حال من ﴿ الأرض ﴾ .

والباء للملابسة ، أي الأرض الملابسة لسعتها المعروفة .

و ﴿ ما ﴾ مصدرية .

﴿ ورحُبت ﴾ اتسعت ، أي تخيلوا الأرض ضيقة وهي الأرض الموصوفة بسعتها المعروفة .

وضيق أنفسهم : استعارة للغم والحزن لأن الغم يكون في النفس بمنزلة الضيق .

ولذلك يقال للمحزون : ضاق صدره ، وللمسرور : شُرح صدره .

والظن مستعمل في اليقين والجَزمِ ، وهو من معانيه الحقيقية .

(214/351)

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ في سورة البقرة (46) وعند قوله تعالى : ﴿ وإنّا لنظنك من الكاذبين ﴾ في سورة الأعراف (66) ، أي وأيقنوا أن أمر التوبة عليهم موكول إلى الله دون غيره بما يُوحي به إلى رسوله ، أي التجأوا إلى الله دون غيره .

وهذا كناية عن أنهم تابوا إلى الله وانتظروا عفوه .

وقوله : ثم تاب عليهم ﴾ عطف على ضاقت عليهم الأرض وما بعده ، أي حتى وقع ذلك كله ثم تاب عليهم بعده .

و﴿ ثُم ﴾ هنا للمهلة والتراخي الزمَني وليست للتراخي الرتبي ، لأن ما بعدها ليس أرفع درجة مما قبلها بقرينة السياق ، وهو مغن عن جواب (إذا) لأنه يفيد معناه ، فهو باعتبار العطف تنهية للغاية ، وباعتبار المعطوف دال على الجواب .

واللام في ﴿ ليتوبوا ﴾ للتعليل ، أي تاب عليهم لأجل أن يكفوا عن المخالفة ويتنزهوا عن الذنب ، أي ليدوموا على التوبة ، فالفعل مستعمل في معنى الدوام على التلبس بالمصدر لا على إحداث المصدر .

وليس المراد ليذنبوا فيتوبوا ، إذ لا يناسب مقام التنويه بتوبته عليهم .

وجملة ﴿ إن الله هو التواب الرحيم ﴾ تذييل مفيد للامتنان . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾)

قد يظن أحد أن (خُلِّفُوا) هنا تدل على أن أحداً قال لهم : اقعدوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يقل لهم أحد هذا . إنما (خُلِّفُوا) معناها : لم يظهر أمر الشارع فيهم كما ظهر في غيرهم ، بل قال الحق فيهم من قبل : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ الله ﴾ [التوبة : 6] ، وما دام قد تأخر فيهم الحكم فلا بد من الانتظار .

﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ الله إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ليتوبوا إِنَّ الله هُوَ التواب الرحيم ﴾ [التوبة : 118]

ونعلم أن الإنسان إذا شغله همّ يُحدّث نفسه بأن يترك المكان الذي يجلس فيه ، ويسبب له الضيق ، لعل الضيق ينفك . ولكن هؤلاء الثلاثة قابلوا الضيق في كل مكان ذهبوا إليه حتى ضاقت عليهم الأرض بسعتها ، فلم يجد واحد منهم مكاناً يذهب إليه ، وهذا معناه أن

الكرب الذي يحيطهم قد عَمَّ ، والإنسان قد تضيق عليه الأرض بما رحبت ولكن نفسه تسعه .

والحق يقول عنهم : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ أي : ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم أيضاً ، فقد تخلف الثلاثة عن الغزوة ، لا لعذر إلا مجرد الكسل والتواني ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين بمقاطعتهم ، فكان كعب بن مالك يخرج إلى السوق فلا يكلمه أحد ، ويذهب إلى أقربائه فلا يكلمه أحد ، ويتسوَّر عليهم الحيطان لعلهم ينظرون إليه ، فلا ينظرون إليه .

(216/351)

وبعد ذلك يتصاعد الأمر في عزل هؤلاء ، حتى تعدى إلى نسائهم ، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا يقربوا نساءهم هكذا بلغ العزل مبلغاً شديداً ودقيقاً ، فقد كان التحكم أولاً في المجتمع ، ثم في الأقارب ، ثم في خصوصيات السكن وهي المرأة ، حتى إن امرأة هلال بن أمية ذهبت إليه وقالت : يا رسول الله إن هلال بن أمية ، رجل مريض ضعيف ، وأنا أستأذنك في أن أصنع له ما يقيمه ، قال لها : " ولكن لا يقربنك " . قالت والله يا رسول الله ما به حركة إلى شيء ، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى

يومه هذا . وذهب بعض المسلمين إلى كعب بن مالك ليبلغوه أن رسول الله صرح لامرأة هلال أن تخدمه ، وقالوا له : اذهب إلى رسول الله واستأذنه أن تخدمك امرأتك .

قال : إن هلالاً رجل شيخ ، فماذا أقول لرسول الله وأنا رجل شاب ؟ والله لا أذهب له أبداً

.

وظل الثلاثة في حصار نفسي ومجتمعي لمدة خمسين يوماً إلى أن جاء الله بالتوبة ، وفي هذا تمحيص لهم ، فكعب بن مالك – على سبيل المثال – يقص عن حاله قبل الغزوة قائلاً : لم أكن قط أقوى ولا أيسر منّي حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة .

أي : أنه لم يكن له عذر يمنعه .

بعد ذلك يجيء البشير بأن الله قد تاب عليه ، فيأتي واحد من جيل سَلْع فيقول : يا كعب أبشر بخير يوم مرّ عليك . فقد أنزل الله فيك قرآناً وأنه تاب عليك .

قال كعب : فلم أجد عندي ما أهديه له لأنه بشَّرني إلا ثوبيّ فخلعتهما وأعطيتهما له ، ثم استعرت ثوبين ذهبت بهما إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال : يا رسول الله ، إن من تمام توبتي أن أنخلع من مالي – الذي سبَّب لي هذا العقاب – صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه .

إذن : فتأخر الحكم كان المراد منه تمحيص هؤلاء ، وإعطاء الأسوة لغيرهم . فحين يرون أن الأرض قد ضاقت عليهم بما رحبت ، وكذلك ضاقت عليهم أنفسهم يتيقنون من قول الحق : ﴿ وظنوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : 118]

أي : أن أحداً لا يجير إلا الله ، وسبحانه يجير من نفسه . كيف ؟ أنت تعلم أنك ساعة لا يجيرك إلا من يتعقبك ، فاعلم أنه لا سلطان لأحد أبداً ؛ ولذلك نقول : أنت تلجأ إلى الله لا من خلقه ، ولكنك تلجأ إلى الله ليحميك من الله ، فسبحانه له صفات جلال وصفات جمال ، وتتمثل صفات الجلال في أنه : قهار ، وجبار ، ومنتقم ، وشديد البطش ، إلى آخر تلك الصفات . وفي الحق سبحانه صفات جمال مثل غفور ، ورحيم ، وغيرها ، فإذا ما أذنب الإنسان ذنباً ، فالمجال في هذه الحالة ان يُعاقب من صفات الجلال ، ولا ينفع العبد وقاية من صفات الجلال إلا صفات الجمال .

وكلنا يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا الله بقوله : " أعوذ بك منك "

أي : أعوذ بصفات الجمال فيك من صفات جلالك ، فلن يحميني من صفات جلالك إلا صفات جمالك .

ولذلك حينما جاء في الحديث الشريف عن آخر ليلة من رمضان قوله صلى الله عليه وسلم .

" فإذا ما كان آخر ليلة من رمضان تجلَّى الجبَّار بالمغفرة . "

يظن بعض الناس أن هذه المسألة غير منطقية ، فكيف يتجلَّى الجبّار بالمغفرة ؟ ألم يكن من المناسب أن يقال : " يتجلّى الغفّار " ؟ ونقول : لا ؛ فإن المغفرة تقتضي ذنباً ، ويصبح المقام لصفة الجبار ، وهكذا تأخذ صفة الرحمة من صفة الجبار سُلْطتها ، وكأننا نقول : يا جبار أنت الحق وحدك ، لكننا نتشفع بصفات جمالك عند صفات جلالك . هذا هو معنى : " يتجلى الجبار بالمغفرة " .

وقد سمع الأصمعي – وهو يطوف – مسلماً عند باب الملتزم ، يقول : اللهم إني أستحي أن أطلب منك المغفرة ؛ لأني عصيتك ، ولكني تطلَّعْتُ فلم أجد إلهاً سواك .

(218/351)

فقال له : يا هذا ، إن الله يغفر لك لحُسْن مسألتك .

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ والتوبة أولاً – كما عرفنا – هي تشريعها ، ثم تأتي التوبة بالقبول ، وقوله : ﴿ لِيَتُوبُوا ﴾ أي : أنها تصبح توبة رجوع وعودة إلى ما كانوا عليه قبل المعصية .

ويُنهي الحق الآية بقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ التواب الرحيم ﴾ فلا توَّاب ولا رحيم سواه سبحانه وتعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(219/351)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن منده وابن مردويه وابن عساكر عن جابر بن عبد الله في قوله وعلى الثلاثة الذين خلفوا قال : كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربيعة وكلهم من الأنصار

وأخرج ابن مردويه عن مجمع بن جارية قال : الثلاثة الذين خلفوا فتاب الله عليهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن ربعي

وأخرج ابن مردويه عن ابن شهاب قال : إن الثلاثة الذين خلفوا كعب بن مالك من بني سلمة وهلال بن أمية من بني واقف ومرارة بن ربيع من بني عمرو بن عوف وأخرج ابن مردويه عن

أنس بن مالك قال : لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بذي أوان خرج عامة المنافقين الذين كانوا تخلفوا عنه يتلقونه فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه " لا تكلمن رجلا تخلف عنا ولا تجالسوه حتى آذن لكم فلم يكلموهم فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتاه الذين تخلفوا يسلمون عليه فأعرض عنهم وأعرض المؤمنون عنهم حتى أن الرجل ليعرض عنه أخوه وأبوه وعمه فجعلوا يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعتذرون بالجهد والأسقام فرحمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعهم واستغفر لهم وكان ممن تخلف عن غير شك ولا نفاق ثلاثة نفر الذين ذكر الله تعالى في سورة التوبة كعب بن مالك السلمي وهلال بن أمية الواقفي ومرارة بن ربيعة العامري "

وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس رضي الله عنهما وعلى الثلاثة الذين خلفوا قال : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية

(220/351)

وأخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة وأحمد والبخاري ومسلم وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والبيهقي من طريق الزهري قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين

عمي قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزاة وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزاة إلا ورى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد واستقبل سفرا بعيدا ومفازا واستقبل عدوا كثيرا فجلا للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم فأخبرهم وجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ يريد الديوان

قال كعب رضي الله عنه : فقل رجل يريد أن يتغيب إلى ظن أن ذلك سيخفى ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة حين طابت الثمار والظل وآن لها أن تصغر فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه

وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئا فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت

(221/351)

فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديا والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألحقه فغدوت بعد ما فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض من جهازي شيئا ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئا فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى انتهوا وتفارط الغزو فهممت أن أرتحل فأدركهم - وليت أني أفعل - ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذ خرجت في الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه من النفاق أو رجلا ممن عذره الله ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك " ما فعل كعب بن مالك ؟ فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله برداه والنظر في عطفيه

فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا

فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم "

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلا من تبوك حضرني همي فطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادما راح عني الباطل وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبدا فأجمعت صدقه وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادما وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس فلما فعل ذلك جاءه المتخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم علانيتهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي " تعال

(222/351)

فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال : ما خلفك ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ فقلت : يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذر لقد أعطيت جدلا ولكنه – والله – لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي ولئن حدثتك الصدق وتجد علي فيه أني لأرجو قرب عتبي من الله والله ما كان لي عذر والله ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك "

فقمت وبادرني رجال من بني سلمة واتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحدا ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا ما قلت وقيل لهما مثل ما قيل لك

فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرا لي فيهما أسوة حسنة فمضيت حين ذكروهما لي

(223/351)

قال : ونهى رسول الله الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض التي كنت أعرف فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم فكنت أشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة فأسلم وأقول في نفسي هل حرك شفتيه برد السلام أم

لا ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي فإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه فوالله ما رد السلام علي فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت

قال : فعدت فنشدته فسكت فعدت فنشدته قال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار

وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي حتى جاء فدفع إلي كتابا من ملك غسان – وكنت كاتبا – فإذا فيه : أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك

فقلت حين قرأتها : وهذا أيضا من البلاء

فيممت بها التنور فسجرته فيها حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل إمرأتك

فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ ! قال : بل اعتزلها ولا تقربها وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك

فقلت لإمرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر فجاءت امرأة

هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن هلالا شيخ ضائع وليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربنك

(224/351)

فقالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء والله ما زال يبكي من لدن إن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا

فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه

فقلت : والله لا استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدري ما يقول إذا استأذنته وأنا رجل شاب

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا

قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عنا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت سمعت صارخا أوفى جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر

فخررت ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة

الله علينا حين صلى الفجر فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون وركض إلي رجل فرسا وسعى ساع من أسلم وأوفى على الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته – والله ما أملك غيرهما يومئذ – فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئونني بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحوله الناس فقام إلي طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره

قال : فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة

قال كعب رضي الله عنه : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك

قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : لا بل من عند الله

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر

(225/351)

فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله إن من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم قال : أمسك بعض مالك فهو خير لك

قلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت

قال : فوالله ما أعلم أحدا من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن مما أبلاني الله تعالى والله ما تعمدت منذ قلت ذلك إلى يومي هذا كذبا وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي وأنزل الله لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار التوبة الآية 117 إلى قوله وكونوا مع الصادقين فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد فقال سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس التوبة الآية 95 إلى قوله الفاسقين قال : وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا فبايعهم واستغفر لهم وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه فبذلك قال وعلى الثلاثة الذين خلفوا وليس تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا الذي ذكر مما خلفنا بتخلفنا عن الغزو وإنما هو حلف له واعتذر إليه فقبل منه "

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال : لما نزلت توبتي أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقبّلت يده وركبتيه ، وكسوت المبشر ثوبين .

وأخرج ابن جرير عن مجاهد رضي الله عنه ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ قال : الذين أرجأوا في وسط براءة قوله ﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ [التوبة : 106] هلال بن أمية ، ومرارة بن ربيعة ، وكعب بن مالك .

(226/351)

وأخرج ابن جرير عن قتادة رضي الله عنه ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ مثقلة يقول : عن غزوة تبوك .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه قال : لما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تبوك تخلف كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، قال : أما أحدهم فكان له حائط حين زها قد فشت فيه الحمرة والصفرة فقال : غزوت وغزوت وغزوت مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فلو أقمت العام في هذا الحائط فأصبت منه .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه دخل حائطه فقال : ما خلفني رسول

الله صلى الله عليه وسلم وما استبق المؤمنون في الجهاد في سبيل الله إلا ضن بك أيها الحائط ، اللهمَّ إني أشهدك أني تصدقت به في سبيلك . وأما الآخر فكان قد تفرق عنه من أهله ناس واجتمعوا له فقال : غزوت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وغزوت ، فلو أني أقمت العام في أهلي . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قال : ما خلفني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما استبق إليه المجاهدون في سبيل الله إلا ضن بكم أيها الأهل ، اللهم إن لك عليَّ أن لا أرجع إلى أهلي ومالي حتى أعلم ما تقضي فيَّ . وأما الآخر فقال : اللهم إن لك عليَّ أن ألحق بالقوم حتى أدركهم أو أنقطع . فجعل يتتبع الدقع والحزونة حتى لحق بالقوم ، فأنزل الله ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ إلى قوله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ قال الحسن رضي الله عنه : يا سبحان الله ! والله ما أكلوا مالاً حراماً ، لا أصابوا دماً حراماً ، ولا أفسدوا في الأرض ، غير أنهم أبطأوا عن شيء من الخير الجهاد في سبيل الله ، وقد – والله – جاهدوا وجاهدوا وجاهدوا ، فبلغ منهم ما سمعتم فهكذا يبلغ الذنب من المؤمن .

(227/351)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الضحاك في قوله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ يعني خلفوا عن التوبة ، لم يتب عليهم حتى تاب الله على أبي لبابة وأصحابه .

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن عساكر عن عكرمة في قوله ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ عن التوبة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة بن خالد المخزومي ، أنه كان يقرؤها ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ نصب أي بعد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : دعا الله إلى توبته من قال ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾ [النازعات : 24] . وقال ﴿ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص : 38] ومن آيس العباد من التوبة بعد هؤلاء فقد جحد كتاب الله ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله وهو قوله ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ فبدء التوبة من الله عز وجل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(228/351)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الثلاثة ﴾ : يجوز أن يُنْسِق على " النبيّ " ، أي : تاب على النبي وعلى الثلاثة ، وأن يُنسقَ على الضمير في " عليهم " ، أي : ثم تاب عليهم وعلى الثلاثة ، ولذلك كُرِّر حرفُ الجر .

وقرأ جمهور الناس : " خُلِّفوا " ، مبنياً للمفعول مشدداً مِنْ خلَّفه يُخَلِّفه . وقرأ أبو مالك كذلك إلا أنه خفف اللام . وقرأ عكرمة وزر بن حبيش وعمر بن عبيد وعكرمة بن هارون المخزومي ومعاذ القارىء : " خَلَفوا " ، مبنياً للفاعل مخففاً مِنْ خَلَفَه ، والمعنى : الذين خلفوا ، أي : فَسَدوا ، مِنْ خُلوف فم الصائم . ويجوز أن يكون المعنى : أنهم خلفوا الغازين في المدينة . وقرأ أبو العالية وأبو الجوزاء كذلك إلا أنهم شدَّدا اللام . وقرأ أبو رزين وعلي ابن الحسين وابناه زيد ومحمد الباقر وابنه جعفر الصادق : " خالفوا " ، بألف ، أي : لم يوافقوا الغازين في الخروج . قال الباقر : " ولو خُلِّفوا لم يكن لهم " . والظن هنا بمعنى العلم كقوله :

2553 فقلتُ لهم ظُنُّوا بأَلْفَي مُدَجَّجٍ . . . سَرَاتُهمُ كالفارِسي المُسَرَّدِ

وقيل : هو على بابه .

قوله : ﴿ أَن لاَّ مَلْجَأَ ﴾ أنْ هي المخففة سادَّة مسدَّ المفعولين ، و " لا " وما في حيِّزها الخبرُ ، و " من الله " خبرها . ولا يجوز أن تكونَ تتعلقُ ب " مَلْجَأ " ، ويكون " إلا إليه "

الخبر لأنه كان يلزم إعرابه ، لأنه يكون مطولاً . وقد قال بعضهم : إنه يجوز تشبيهُ الاسمِ المُطَوَّل بالمضاف فيُنْتَزَعُ ما فيه مِنْ تنوينٍ ونون كقوله :

2554 أراني ولا كفرانَ لله أيَّةً . . . . . .

(229/351)

وقوله : " لا صَمْتَ يومٌ إلى الليل " برفع " يوم " وقد تقدَّم القولُ في ذلك . وقوله : " إلا إليه " استثناءٌ من ذلك العامِّ المحذوفِ ، أي : لا مَلْجَأَ إلى أحدٍ إلا إليه كقوله : لا إله إلا الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 136 . 137 ﴾

(230/351)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ

أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118) ﴾

لَمَّا صَدَقَ منهم اللجاء تداركهم بالشِّفاء وأسقط عنهم البلاء ، وكذلك الحقُّ يكوِّرُ نهار اليُسْرِ على ليالي العُسْر ، ويُطلِعُ شموسَ المحنة على نحوس الفتنة ، ويُدِير فلكَ السعادة فيمحق تأثير طوارق النكاية ؛ سُنَّةٌ منه – تعالى – لا يُبَدِّلها ، وعادةٌ منه في الكَرَمِ يُجْرِيها ولا يحوِّلها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 71 ﴾

(231/351)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

فصل : فى غزوة تَبُوك وكانت فى شهر رجَب سنةَ تسع

قال ابن إسحاق: وكانت فى زمن عُسْرَةٍ مِنَ الناس ، وجَدْبٍ من البلاد ، وحين طابت الثمارُ ، والناس يُحبون المُقام فى ثمارهم وظِلالهم ، ويكرهون شُخوصهم على تلك الحال ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قلَّما يخرج فى غزوة إلا كنَّى عنها ، وورَّى بغيرها ، إلا ما كان مِن غزوة تَبُوك ، لبُعْد الشُّقة ، وشِدة الزمان .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذاتَ يوم ، وهو فى جَهَازه للجَدّ بنِ قيس أحد بنى سلمة: "يا جَدُّ ؛ هَلْ لَكَ العَامَ فى جِلاَدِ بَنى الأَصْفَرِ" ؟ فقال: يا رسول الله ؛ أَوَ تأذنُ لى ولا تَفْتِنّى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما مِن رَجُلٍ بأشدَّ عجباً بالنساء

منى ، وإنّى أخشى إن رأيتُ نساءَ بنى الأصفر أن لا أصبرَ ، فأعرضَ عنه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال: "قَدْ أَذِنْتُ لَكَ" ، ففيه نزلت الآية: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائذَنْ لِّى وَلَا تَفْتِنِّى ﴾ [التوبة: 49]

وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفِرُوا فى الحَرّ ، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى الْحَرِّ ﴾ الآية [التوبة: 81] .

ثُم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم جدَّ فى سفره ، وأمر الناسَ بالجَهَاز ، وحضَّ أهلَ الغِنَى على النفقة والحُملان فى سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغِنَى واحتسبُوا ، وأنفق عثمانُ بن عفانُ فى ذلك نفقةً عظيمة لم يُنفِقْ أحدٌ مِثلها .

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحْلاسها وأقتابها وعُدّتها ، وألفَ دينار عَيْناً .

وذكر ابنُ سعد قال: بلغ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ الرومَ قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ، وأن هِرَقْل قد رَزَقَ أصحابَه لسنة ، وأجلبت معه لَخْمٌ ،

وجُذام ، وعَامِلَة ، وغسان ، وقدّموا مقدماتهم إلى البلقاء .

وجاء البكَّاؤون وهم سبعة يستحمِلُون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: "لا أجدُ مَا أَحْمِلُكم عَلَيْه" ، فتولَّوْا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزناً أن لا يجدوا ما يُنفقون ، وهم سالمُ بن عُمير ، وعُلْبَةُ بنُ زيد ، وأبو ليلى المازنى ، وعمرو بن عَنَمَة ، وسلمة بن صخر ، والعِرباض بن سارية .

وفى بعض الروايات: وعبد الله بن مُغَفَّل ، ومعقِلُ بن يسار .

وبعضهم يقول: البكَّاؤون بنو مُقَرِّن السبعة ، وهم من مُزينة . وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عَمْرو بن الحُمام بن الجَموح .

وأرسل أبا موسى أصحابُه إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ليحمِلهم ، فوافاه غضبان ، فقال: "والله لا أحملكم ، ولا أَجدُ ما أحمِلُكم عليه" ، ثم أتاه إبل ، فأرسل إليهم ، ثم قال: "مَا أَنَا حَمَلْتُكُم ، ولَكِنَّ الله حَمَلَكُم ، وإنِّى وَالله لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا ، إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينى وَأَتَيْتُ الَّذى هُوَ خَيْرٌ" .

فصل

وقام عُلبة بن زيد فصلَّى من الليل وبكى ، وقال: اللَّهُمَّ إنَّك قد أمرتَ بالجهاد ، ورغَّبتَ فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوَّى به مع رسولك ، ولم

تجعل فى يد رسولك ما يحمِلُنى عليه ، وإنى أتصدَّق على كل مسلم بكل مَظْلِمَةٍ أصابنى

فيها مِن مال ، أو جسد ، أو عِرض ، ثم أصبح مع الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "أَيْنَ المُتَصَدّقُ هذِهِ اللَّيْلَة" ؟ . فلم يقم إليه أحد ، ثم قال: "أَيْنَ المُتَصَدّقُ فَلْيَقُمْ" ، فَقَام إليه ، فأخبرَه ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "أَبْشِرْ فَوالذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ فى الزَّكَاةِ المتَقَبَّلَة" .

(233/351)

وجاءَ المعذِّرُونَ من الأعرابِ ليؤذن لهم ، فلم يَعْذِرْهم . قال ابن سعد : وهم اثنان وثمانون رجلاً ، وكان عبدُ الله بنُ أُبَىّ بن سَلول قد عسكر على ثنية الوَداع فى حُلفائه من اليهود والمنافقين ، فكان يقال: ليس عسكره بأقلِّ العسكرين ، واستخلف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى . وقال ابن هشام: سباع بن عُرْفُطَة ، والأول أثبت .

فلما سار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، تخلَّف عبدُ الله بن أُبَىّ ومَنْ كان معه ، وتخلَّف نَفَر مِن المسلمين مِن غير شك ولا ارتياب ، منهم: كعبُ بن مالك ، وهِلالُ ابن أُمية ، ومُرَارَةُ بنُ الربيع وأبو خَيثمة السالمى ، وأبو ذر ، ثم لحقه أبو خيثمة ، وأبو ذر ، وشهدها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى ثلاثين ألفاً مِن الناس ، والخيلُ عشرة آلاف فرس ، وأقام بها

عشرين ليلة يقصُر الصَّلاة ، وهِرَقْلُ يومئذٍ بحمص .

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الخروجَ ، خلَّف عليَّ بنَ أبى طالب على أهله ، فأرْجَفَ به المنافقون ، وقالوا : ما خلَّفه إلا استثقالاً وتخففاً منه ، فأخذ عليٌّ رضى الله عنه سِلاحه ، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجُرْفِ ، فقال: يا نبيَّ الله ؛ زعم المنافقون أنَّك إنما خلَّفتنى لأنك استثقلتنى وتخففتَ منى ، فقال: "كَذَبُوا ، ولكِنّى خَلَّفْتُكَ لما تركْتُ وَرَائى ، فارْجعْ فَاخْلُفْنى فى أهْلِى وَأَهْلِكَ ، أَفَلاَ تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنّى بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسى ؟ إلا أَنَّهُ لا نَبِىَّ بَعْدِى" فرجع عليٌّ إلى المدينة .

(234/351)

ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أياماً إلى أهله فى يوم حار ، فوجد امرأتين له فى عريشينِ لهما فى حائطه ، قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشَها ، وبرَّدَتْ له ماء ، وهيأت له فيه طعاماً ، فلما دخل ، قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال: رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى الضِّحِّ ، والرِّيح ، والحر ، وأبو خيثمة فى ظِلٍّ بارد ، وطعام مُهَيأ ، وامرأة حسناء ، فى ماله مقيم ؟ ما هذا بالنَّصَفِ

، ثم قال: والله لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحقَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فهيِّئا لى زاداً ، ففعلتا ، ثم قدَّم ناضِحه ، فارتحله ، ثم خرج فى طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أدركه حين نزل تَبُوك ، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحى فى الطريق يطلُب رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فترافقا حتى إذا دنوا من تَبُوك ، قال أبو خيثمةِ لعُمير بن وهب: إنَّ لى ذنباً ، فلا عليك أن تتخلَّف عنى حتى آتىَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ففعل حتى إذا دنا مِن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وهو نازل بتَبُوك ، قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مُقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ" قالوا: يا رسول

الله ؛ هو والله أبو خيثمة ، فلما أناخَ أقبل ، فسلَّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أَوْلى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَةَ" ، فأخبرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم خبرَه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خَيْراً ودعا له بخير .

(235/351)

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مرَّ بالحِجْر بديار ثمود ، قال: "لا تَشْرَبُوا مِنَ مَائِهَا شَيْئاً ، وَلا تَتَوَضَّؤوا مِنْهُ لِلصَّلاةِ ، وما كَانَ مِنْ عَجِينٍ عَجَنْتُمُوه فَاعْلِفُوهُ الإِبِلَ ، ولا

تَأْكُلُوا مِنْهُ شَيْئاً ، ولا يَخْرُجَنَّ أحَدٌ منكم إلا ومعه صَاحِبٌ له" ، ففعل النَّاسُ ، إلا أنَّ رجلين من بنى ساعدة خرج أحدُهما لحاجته ، وخرج الآخرُ فى طلب بعيره ، فأما الذى خرج لحاجته ، فإنه خُنِق على مذهبه ، وأما الذى خرج فى طلب بعيره ، فاحتملته الريحُ حتى طرحته بجبلى طيئ ، فأُخبرَ بذلك رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: "أَلَمْ أَنْهَكُم أَنْ لا يَخْرُجَ أَحَدٌ مِنْكُم إلاَّ ومَعَهُ صَاحِبُه" ، ثم دعا للذى خُنِقَ على مذهبه فشُفى ، وأما الآخر ، فأهدته طيئ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة .

قلت: والذى فى "صحيح مسلم" ، من حديث أبى حُمَيد : انطلقنا حتى قَدِمْنَا تَبُوكَ ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

"سَتَهُبُّ عَلَيْكُم اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ ، فَلا يَقُمْ مِنْكُم أَحَدٌ ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ" فهبَّت رِيحٌ شَدِيدَة ، فقام رجل فحملته الريحُ حتى ألقته بِجَبَلَىْ طَيِّء .

قال ابن هشام: بلغنى عن الزُّهْرى أنه قال: لما مرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحِجْر ، سجَّى ثوبه على وجهه ، واستحثَّ راحلته ، ثم قال: "لا تَدْخُلُوا بُيوتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم إلاَّ وَأَنْتُم بَاكُونَ خَوْفاً أَنْ يُصِيبَكُم مَا أَصَابَهُمْ" .

قلت: فى "الصحيحين" من حديث ابن عمر ، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تَدْخُلوا عَلى هؤلاءِ القَوْمِ المُعَذَّبِينَ إلاَّ أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فإنْ لم تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَلا تَدْخُلوا

عَلَيْهِم لا يُصِيبُكم مِثْلُ مَا أَصَابَهُم" .

وفى "صحيح البخارى" أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه .

(236/351)

وفى "صحيح مسلم": أنه أمرهم أن يَعْلِفوا الإبلَ العَجِينَ ، وأن يُهرِيقُوا الماءَ ، ويستقوا من البئر التى كانت تَرِدُها الناقة . وقد رواه البخاريُّ أيضاً ، وقد حفظ راويه ما لم يحفظه مَنْ روى الطرح .

وذكر البيهقيُّ أنه نادى فيهم: الصلاةَ جامعة ، فلما اجتمعوا ، قال: "علامَ تدخُلون على قوم غَضِبَ اللهُ عليهم" ، فناداه رجل فقال: نَعْجَبُ مِنْهُم يَا رَسول الله ، فقال: "ألا أُنَبِّئُكُم بما هُوَ أَعْجَبُ مِنْ ذلِكَ؟ رَجُلٌ مِنْ أَنْفُسِكُم يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كَانَ قَبْلَكُم وَمَا هُو كَائِنٌ بَعْدَكُم ، اسْتَقِيمُوا وَسَدِّدُوا ، فإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَعْبأُ بِعَذابِكُم شَيْئاً ، وَسَيأتِى اللهُ بِقَوْمٍ لا يَدْفَعُونَ عَنْ أَنْفُسِهِم شيئاً" .

فصل

قال ابن إسحاق: وأصبح الناسُ ولا ماء معهم ، فَشَكَوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلَ اللهُ سُبحانه سحابةً ، فأمطرت

حتى ارتوى الناسُ ، واحتملُوا حاجَتهم من الماء .

ثم إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سار حتى إذا كان ببعضِ الطريق ، ضلَّت ناقتُه ، فقال زيد بن اللُّصَيْتِ وكان منافقاً : أليس يزعُمُ أنه نبى ، ويُخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقتُه ؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ رَجُلاً يَقُولُ ، وذَكَرَ مَقَالَتَهُ ، وإنّى والله لا أعْلَمُ إلاَّ ما عَلَّمنى اللهُ ، وقَدْ دَلَّنى اللهُ عَلَيْهَا ، وهى فى الوَادى فى شِعْبِ كَذا وكَذَا ، وقَدْ حَبَسَتْها شَجَرَةٌ بزِمَامِها ، فانْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُونى بها" فذهبوا فأَتَوْهُ بها . وفى طريقه تلك خَرَصَ حديقة المرأة بعشرة أوسق .

(237/351)

ثم مضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل يتخلَّف عنه الرجلُ فيقولون: تخلَّف فلان ، فيقول: "دَعُوه فإنْ يَكُ فِيهِ خَيْرٌ ، فَسَيُلْحِقُهُ اللهُ بكُم ، وإنْ يَكُ غَيْرَ ذلِكَ ، فَقَد أرَاحَكُمُ اللهُ مِنْهُ" . وتلوَّم على أبى ذرٍ بعيرُه ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه على ظهره ، ثم خرج يتبعُ أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً ، ونزل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بعض منازله ، فنظر ناظرٌ من المسلمين فقال: يا رسولَ الله ؛ إنَّ هذا الرجل يمشى على الطريق وحدَه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُنْ أبَا ذَرٍ" ، فلما تأمله القومُ

، قالوا: يا رسول الله؛ والله هو أبو ذر. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "رَحِمَ اللهُ أبا ذَرٍ؛ يَمْشِي وَحْدَهُ، ويَمُوتُ وَحْدَهُ، ويُبْعَثُ وحْدَهُ".

قال ابن إسحاق: فحدَّثني بريدة بن سفيان الأسلمي، عن محمد بن كعب القُرظي، عن عبد الله بن مسعود قال: لما نفى عثمانُ أبا ذر إلى الرَّبَذَةِ، وأصابه بها قَدَرُه، لم يكن معه أحدٌ إلا امرأتُه وغلامُه، فأوصاهما: أن غَسِّلاني وكَفِّناني، ثم ضعاني على قارعة الطريق، فأوَّل رَكْب يمرُّ بكم فقولُوا: هذا أبو ذر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأعينونا على دفنه، فلما مات، فعلا ذلك به، ثم وضعاه على قارعة الطريق، وأقبل عبدُ الله بن مسعود في رهط معه من أهل العِراق عُمَّاراً فلم يَرُعْهُمْ إلا بالجِنازة على ظهر الطَّريق قد كادت الإبلُ تَطَؤُها، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعينونا على دفنه، قال: فاستهلَّ عبدُ الله يبكي ويقول: صدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "تَمْشِي وَحْدَكَ، وتَمُوتُ وَحْدَكَ، وتُبْعَثُ وَحْدَكَ"، ثم نزل هو وأصحابه، فوارَوْه، ثم حَدَّثهم عبدُ الله بن مسعود حديثه، وما قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في مسيره إلى تَبُوك.

(238/351)

قلت: وفى هذه القصة نظر ، فقد ذكر أبو حاتم بن حبان فى "صحيحه"

(239/351)

وغيره فى قصة وفاته ، عن مجاهد ، عن إبراهيم بن الأشتر ، عن أبيه ، عن أُم ذر ، قالت: لما حضرت أبا ذَر الوفاةُ ، بَكَيْتُ ، فقال: ما يُبكيكِ ؟ فقلت: ما لى لا أبكى ، وأنت تموتُ بفَلاة من الأرض ، وليس عندى ثوبٌ يسعُك كفَناً ، ولا يدان لى فى تغييبك ؟ قال: أبشرى ولا تبكى ، فإنى سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنَفَرٍ أنا فيهم: "لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ منكم بِفلاةٍ مِنَ الأرض يَشْهَدُه عِصَابةٌ من المُسْلمين" وليس أحَدٌ من أولئكَ النَّفَرِ إلا وقد مات فى قريةٍ وجمَاعةٍ ، فأنا ذلِكَ الرَّجُلُ ، فوالله ما كَذَبْتُ ولا كُذِبْتُ ، فأبصرى الطريق ، فقُلت: أنَّى وقد ذهب الحاجُّ ، وتقطعت الطُّرُقُ ؟ ، فقال: اذهبى فتبصَّرى . قالت: فكنتُ أُسنِدُ إلى الكَثِيبِ أتبصَّر ، ثم أرجع فأُمرِّضه ، فبينا أنا وهو كذلك ، إذ أنا برجال على رِحالهم كأنهم الرَّخَمُ تَخُبُّ بهم رواحِلُهم ، قالت: فأشَرتُ إليهم ، فأسرعوا إلىَّ حَتى وقفُوا علىَّ فقالوا: يا أَمةَ الله ؛ مالك ؟ قلت: امرؤ من المسلمين يَمُوت تُكفنونه . قالوا: ومَن هو ؟ قلت: أبو ذر . قالوا: صاحِبُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت: نعم ، ففدَّوْه بآبائهم وأُمهاتِهم ، وأسرعوا إليه حتى دخلوا عليه ، فقال لهم: أبشِروا فإنى سمعتُ رسولَ

الله صلى الله عليه وسلم يقول لنَفَر أنا فيهم: "لَيَمُوتَنَّ رَجُلٌ منكم بِفَلاةٍ مِن الأرض يَشْهَدُه عِصَابةٌ من المؤمنين" ولَيْسَ مِنْ أُولئكَ النَّفَرِ رَجُلٌ إلاَّ وقد هَلَكَ فى جَمَاعَةٍ ، والله ما كَذَبْتُ ولاَ كُذِبْتُ ، إنه لو كان عندى ثوبٌ يسعُنى كفناً لى أو لامرأتى ، لم أُكَفَّن إلا فى ثوب هُوَ لى أو لها ، فإنى أنشُدُكُم الله أن لا يكفِّنَنى رجل منكم كان أميراً ، أو عريفاً ، أو بريداً ، أو نقيباً ، وليس من أولئك النَّفَر أحد إلا وقد قارفَ بعضَ ما قال إلا فتًى من الأنصار قال: أنا يا عمُّ ، أُكَفِّنُك فى ردائى هذا ، وفى ثوبين مِن

(240/351)

عَيبتى من غزل أُمى . قال: أنتَ فكفِّنى ، فكفَّنه الأنصارى ، وقاموا عليه ، ودفنوه فى نَفَر كُلُّهم يمان .

رجعنا إلى قصة تبوك: وقد كان رهطٌ من المنافقين ، منهم: وديعة بن ثابت أخو بنى عَمْرو بن عَوْف ، ومنهم رجل مِن أشجع حليف لبنى سلمة يقال له: مَخْشى بن حُمَيِّر ، قال بعضهم لبعضٍ: أتحسبون جلاد بنى الأصفر ، كقتال العرب بَعضِهم لبعض ؟ والله لكأنَّا بكم غداً مقرَّنين فى الحِبال ، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . فقال مَخْشِى بن حُمَيِّر: والله لوددت أنى أُقَاضَى على أن يُضرب كُل منا مائةَ جَلدة ، وإنَّا ننفِلتُ أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم

هذه . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعمَّار بن ياسر : "أدْرِك القَوْمَ ، فإنهم قد احْتَرَقُوا فَسَلْهُم عَمَّا قالوا ؟ فإن أنكروا ، فَقُلْ : بل قُلتُم : كذا وكذا" . فانطلق إليهم عمَّار ، فقال لهم ذلك ، فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يعتذِرُون إليه ، فقال وديعة بن ثاب : كنا نخوضُ ونلعبُ ، فأنزل الله فيهم : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: 65] فقال مخشى بن حُمْيِّر : يا رسول الله ؛ قعد بى اسمى واسمُ أبى ، فكان الذى عُفِىَ عنه فى هذه الآية ، وتسمَّى عبد الرحمن ، وسأَلَ الله أن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه ، فقُتِل يومَ اليمامة ، فلم يوجد له أثر .

وذكر ابن عائذ فى "مغازيه" ، أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل تَبُوكَ فى زمان قلَّ ماؤُها فيه ، فاغترف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم غَرفةً بيده من ماء ، فمضمض بها فاه ، ثم بصقه فيها ، ففارت عينُها حتى امتلأت ، فهى كذلك حتى الساعة .

قلت : فى "صحيح مسلم" أنه قال قبل وصوله إليها : "إنَّكُم سَتَأْتُونَ غداً إنْ شَاءَ اللهُ تَعَالى عَيْنَ تَبُوك ، وإنَّكُم لَنْ تَأْتُوها حَتَّى يُضْحِيَ النَّهارُ ،

فمَن جاءَهَا فلا يَمَسنَّ مِنْ مائِها شيئاً حتى آتى" . قال: فجئناها وقَدْ سَبَق إليها رَجُلانِ ، والعَيْن مِثْلُ الشِّرَاكِ تبِضُّ بشئ من ماءٍ ، فسألهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "هل مَسَسْتُما مِن مائها شيئاً" ؟ قالا: نَعم ، فسبَّهُمَا النبى صلى الله عليه وسلم ، وقال لهما ما شاء اللهُ أن يقول ، ثُمَّ غرفُوا مِن العَيْن قليلاً قليلاً حتى اجتمع فى شئ ، وغسل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وجهَه ويَدَيْه ، ثم أعاده فيها ، فجرت العين بماء مُنْهمِرٍ ، حتى استقى النَّاسُ ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ يا مُعاذُ إن طالتْ بكَ حَياةٌ أن ترى ما هاهنا قدْ مُلِئ جِنَاناً" .

فصل

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تَبُوك ، أتاه صاحبُ أَيْلَة ، فصالحَه وأعطاه الجزيةَ ، وأتاه أهل جَرْبا ، وأذْرُح ، فأعطَوْه الجزيَة ، وكتب لهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كتاباً ، فهو عِندهم ، وكتب لِصاحب أَيْلة: "بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أَمَنَةٌ مِن الله ، ومحمد النبى رسول اللهِ لِيُحَنَّةَ بن رُؤْبَةَ ، وأهلِ أَيْلَة ، سُفنهم ، وسيارتهم فى البرِّ والبحرِ ، لهم ذِمةُ اللهِ ، ومحمد النبى ، ومَنْ كان معهم مِن أهل الشام ، وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمَن أحدث منهم حَدَثاً ، فإنه لا يَحولُ مالُه دونَ نفسه ، وإنَّه لمن أخذه مِن الناس ، وإنه لا يحِلُّ أن يُمنعوا ماءً يردونه ، ولا طريقاً يردونه من بَحْرٍ أو بَرٍّ" .

فصل: فى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِرِ دُومة

قال ابن إسحاق: ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى أُكَيْدر دُومة، وهو أُكَيْدر بن عبد المِلك، رجل مِن كِندة، وكان نصرانياً، وكان ملكاً عليها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لخالد: "إنَّكَ سَتَجِدُهُ يَصِيدُ البَقَرَ"، فخرجَ خالد حتى إذا كان مِن حصنه بمنظر العَيْن، وفى ليلة مُقمرة صَافية، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتَتِ البقرُ تَحُكُّ بِقُرونها بابَ القصر، فقالتْ له امرأتُه: هل رأيتَ مثل هذا قطُّ؟ قال: لا والله. قالت: فمَن يترك هذه؟ قال: لا أحد، فنزل، فأمر بفرسه، فأُسرِجَ له، وركب معه نَفَر مِن أهل بيته فيهم أخ له يقال له: حسَّان، فركب وخرجُوا معه بمطاردهم، فلما خرجُوا، تلقَّتهم خيلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذته، وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قَباء مِن دِيباج مخوَّصٌ بالذهب، فاستلبه خالد، فبعثَ به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ قدومه عليه، ثم إن خالداً قدم بأُكَيْدر على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحقن له دَمَه، وصالحه على الجزية، ثم خلَّى سبيله، فرجع إلى قريته.

وقال ابنُ سعد: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالداً فى أربعمائة وعشرين فارساً، فذكر نحو ما تقدَّم. قال: وأجار خالد أُكَيْدر من القتل حتى يأتىَ به رسولَ الله صلى الله

عليه وسلم ، على أن يَفتح له دُومة الجندل ، ففعلَ وصالحه على ألفى بعير ، وثمانمائة رأس ، وأربعمائة دِرع ، وأربعمائة رُمح ، فعزل للنبيِّ صلى الله عليه وسلم

صَفِيَّهُ خالِصاً ، ثم قسم الغنيمة ، فأخرج الخُمس ، فكان للنبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قسم ما بقى فى أصحابه ، فصار لِكل واحد منهم خَمْسُ فرائض .

وذكر ابنُ عائذ فى هذا الخبر ، أنَّ أُكَيْدر قال عن البقر : واللهِ ما رأيتها قط أتتنا إلا البارحة ، ولقد كنتُ أُضْمِرُ لها اليومينِ والثلاثة ، ولكن قدر الله .

(243/351)

قال موسى بن عُقبة : واجتمع أُكَيْدر ، ويُحَنَّة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهما إلى الإسلام ، فأبيا ، وأقرا بالجزية ، فقاضاهما رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على قضية دُومة ، وعلى تَبوك ، وعلى أَيْلَة ، وعلى تيماء ، وكتب لهما كتاباً .

رجعنا إلى قصة تبوك : قال ابن إسحاق : فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بتَبُوكِ بِضعَ عشرة ليلةً لم يُجاوزها ، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة ، وكان فى الطريق ماء يخرج من وَشَل يُروى الراكبَ والراكبين والثلاثة ، بوادٍ يقال له : وادى المُشَقَّق ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : "مَنْ سَبَقَنَا إلى ذِلك المَاءِ ، فَلاَ يَسْتَقِينَّ منه شَيْئاً حَتَّى نأتيه" قال : فسبقه إليه

نَفَر من المنافقين ، فاستَقَوْا ، فلم ير فيه شيئاً ، فقال: "مَنْ سَبَقَنَا إلى هذا المَاءِ" ؟ فقيل له: يا رسول الله ؛ فلان وفلان . فقال: "أَوَلَمْ أَنْهَهُم أَنْ يَسْتَقُوا مِنْهُ شَيْئاً حَتَّى آتِيَه" ، ثم لَعَنهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ودعا عليهم ، ثم نَزَل فوضع يده تحتَ الوشل ، فجعل يَصُبُّ في يده ما شاء الله أن يَصُبَّ ، ثم نَضَحه به ، ومسحه بيده ، ودعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بما شاء الله أن يدعوَ به ، فانخرق مِن الماء كما يقول مَن سمعه ما إن له حِسّاً كحِسِّ الصواعِق ، فشرب الناسُ ، واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لَئِنْ بَقِيتُم أَوْ مَنْ بَقِيَ مِنْكُم لَيَسْمَعَنَّ بهذا الوادي ، وهُوَ أَخْصَبُ مَا بين يَدَيْهِ ومَا خلفه" .

قلت: ثبت في "صحيح مسلم" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم: "إِنَّكُم سَتَأْتُونَ غَداً إِنْ شَاءَ اللهُ عَيْنَ تَبُوك ، وإِنَّكُم لَنْ تَأْتُوها حَتَّى يُضْحِي النّهارُ ، فَمَنْ جَاءَهَا فَلاَ يَمسَّ مِنْ مَائِها شَيئاً" . . . . الحديث ، وقد تقدَّم . فإن كانت القصة واحدة ، فالمحفوظُ حديث مسلم ، وإن كانت قصتين ، فهو ممكن .

(244/351)

قال: وحدّثنى محمد بن إبراهيم بن الحارث التيمى ، أن عبدَ اللهِ ابن مسعود كان يُحَدّثُ ، قال: قُمت مِن جوفِ الليل ، وأنا معَ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوةِ تَبُوكَ ، فرأيت شُعلةً من نار فى ناحية العسكر ، فاتَّبَعْتُها أنظرُ إليها ، فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وإذا عبدُ الله ذو البِجادَيْنِ المزنى قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى حُفرته ، وأبو بكر وعمر يُدليانه إليه ، وهو يقول: "أدنيا إلىَّ أخاكما" ، فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه ، قال: "اللَّهُمَّ إنِّى قَدْ أَمْسَيْتُ رَاضِياً عَنْهُ ، فَارْضَ عَنْهُ" ، قال: يقولُ عبد الله بن مسعود: ياليتنى كنتُ صاحِبَ الحُفرة. وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَرْجعَه مِن غزوة تَبُوك: "إنَّ بالمَدِينَةِ لأَقْواماً ما سِرْتُم مَسيراً ، ولا قَطَعْتُمْ وادياً إلاَّ كَانُوا مَعَكُم" قالوا: يا رسول الله؛ وهُمْ بالمدينة؟ قال: "نَعَمْ حَبَسَهُم العُذْرُ" .

فصل: فى خطبته صلى الله عليه وسلم بتَبُوك وصلاته

(245/351)

ذكر البيهقى فى "الدلائل" ، والحاكم من حديث عُقبة بن عامر ، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك ، فاسترقد رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ليلة

لَمَّا كان منها عَلَى ليلة ، فلم يستيقِظ فيها حتَّى كانت الشمسُ قِيدَ رُمح قال: "أَلَمْ أَقُلْ لَكَ يَا بِلال اُكْلأ لَنا الفَجْرَ" ، فقال: يا رسول الله ؛ ذهب بى من النومِ الذى ذَهَبَ بك ، فانتقل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من ذلكَ المنزل غيرَ بعيد ، ثم صلَّى ، ثم ذهب بِقِيةَ يومه وليلته ، فأصبح بتَبُوكَ ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهلُه ، ثم قال: "أَمَّا بَعْدُ . . فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله ، وأَوْثَقُ العُرَى كَلِمَةُ التَّقْوَى ، وَخَيْرُ المِلَلِ مِلَّةُ إبراهيمَ ، وخَيْرُ السَّنَنِ سُنَّةُ مُحَمَّدٍ ، وأَشْرَفُ الحَدِيثِ ذِكْرُ الله ، وأَحْسَنُ القَصَصِ هذا القُرآنُ ، وخَيْرُ الأُمُورِ عَوَازِمُها ، وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُها ، وأَحْسَنُ الهَدْى هَدْىُ الأَنْبِيَاءِ ، وأَشْرَفُ المَوْتِ قَتْلُ الشُّهَدَاءِ ، وأَعْمَى العَمَى الضَّلالةُ بَعْدَ الهُدَى ، وخَيْرُ الأَعْمَالِ مَا نَفَعَ ، وخَيْرُ الهُدى ما أُتُّبِعَ ، وشرُّ العَمَى عَمَى القَلْبِ ، واليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى ، ومَا قَلَّ وكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى ، وشَرُّ المَعْذِرَةِ حِينَ يَحْضُرُ المَوْت ، وشَرُّ النَّدامَةِ يَوْمَ القِيَامَةِ ، ومِنَ النَّاسِ مَنْ لاَ يأْتى الجُمُعَةَ إلا دُبُراً ، ومِنْهُم مَنْ لاَ يَذْكُرُ اللهَ إلا هُجْراً ، ومنْ أَعْظَمِ الخَطَايَا اللِّسانُ

(246/351)

الكَذَّابُ ، وخَيْرُ الغِنى غِنى النَّفْسِ ، وَخَيْرُ الزَّادِ التَّقْوى ، وَرَأْسُ الحُكْمِ مَخَافَةُ الله عَزَّ وَجَلَّ ، وخَيْرُ مَا وَقَرَ فى القُلوبِ اليَقِينُ ، والارْتيابُ مِنَ الكُفْرِ ، والنِّياحَةُ مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ

، وَالغُلُولُ مِنْ جُثا جهَنَّمَ ، والسُّكْرُ كَيٌّ مِنَ النَّارِ ، والشِّعْرُ مِنْ إبْلِيسَ ، والخَمْرُ جماعُ الإثْمِ ، وشَرُّ المَأْكَلِ مَالُ اليَتِيمِ ، والسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بغَيْرِه ، والشَّقِيُّ مَنْ شَقِى فى بَطْنِ أُمِّهِ ، وإنَّما يَصِيرُ أَحَدُكُم إلى مَوْضِعِ أَرْبَعَةِ أَذْرُعٍ ، والأَمْرُ إلى الآخِرَةِ ، ومَلاكُ العَمَلِ خَوَاتِمُهُ ، وشرُّ الرَّوَايا رَوَايا الكَذِب ، وكُلُّ مَا هُوَ آتٍ قَرِيبٌ ، وسِبَابُ المُؤْمِنِ فُسوقٌ ، وقِتَالُه كُفْرٌ ، وأَكْلُ لَحْمِهِ مِنْ مَعْصِيَةِ اللهِ ، وَحُرْمَةُ مَالِهِ كَحُرْمَةِ دَمِهِ ، ومَنْ يتأَلَّ عَلى اللهِ يُكَذِّبْه ، ومَنْ يَغْفِرْ يُغْفَرْ لَه ، ومَنْ يَعْفُ ، يَعْفُ اللهُ عَنْهُ ، ومَنْ يَكْظِمِ الغَيْظَ يَأْجُرْهُ اللهُ ، ومَنْ يَصْبِرْ عَلى الرَّزِيَّةِ يُعَوِّضه اللهُ ، ومَنْ يَبْتَغِ السُّمْعَةَ ، يُسَمِّعِ اللهُ بِهِ ، ومَنْ يَتَصَبَّر ، يُضْعِفِ اللهُ لَهُ ، ومَنْ يَعْصِ اللهَ يُعَذِّبْه اللهُ" . . ثم استغفر ثلاثاً .

وذكر أبو داود فى "سننه" من حديث ابن وهب: أخبرنى معاويةُ ، عن سعيد بن غَزوان ، عن أبيه أنه نزلَ بتَبُوك ، وهو حاجٍ ، فإذا رجلٌ مُقْعَدٌ ، فسألتُه عن أمره ، قال: سأُحدِّثُك حديثاً ، فلا تُحَدِّثْ به ما سمعتَ أنِّى حَىٌّ: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلَ بتَبُوكَ إلى نخلة ، فقال: "هذِهِ قِبْلَتُنا" ، ثم صلَّى إليهَا ، قال: فأقبلتُ وأنا غلامٌ أسعى ، حتى مررتُ بينه وبينها ، فقال:

"قطَعَ صلاتَنا ، قطعَ اللهُ أثَرَه" ، قال: فما قُمتُ عليهما إلى يومى هذا .

ثم ساقه أبو داود من طريق وكيع ، عن سعيد بن عبد العزيز ، عن مولى ليزيد بن نمران ، عن يزيد بن نمران ، قال: رأيت رجلاً بتَبُوك مقعداً ، فقال: مررتُ بين يدىْ رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمار وهو يُصلِّى ، فقال: "اللَّهُمَّ اقْطَعْ أَثَرَهُ" ، فما مشيتُ عليهما بعد .

وفى هذا الإسناد والذى قبله ضعف .

فصل: فى جمعه صلى الله عليه وسلم بين الصلاتين فى غزوة تَبُوك

قال أبو داود: حدثنا قُتيبة بن سعيد ، حدثنا اللَّيث ، عن يزيد بن أبى حبيب ، عن أبى الطفيلِ ، عن عامِر بن واثلة ، عن معاذ بن جَبل ، أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم كان فى غزوةِ تَبُوك إذا ارتحل قبل أن تَزِيغَ الشَّمسُ ، أَخَّرَ الظُّهر حتى يجمعها إلى العصر ، فيُصَلِّيهما جميعاً ، وإذا ارتحل قَبْلَ المغرب ، أخَّرَ المغربَ حتَّى يُصلِّيها مع العِشاء ، وإذا ارتحلَ بعد المغرب ، عَجَّلَ العِشاء ، فصلاها مع المغرب .

وقال الترمذى: "إذَا ارْتَحَلَ بَعْدَ زَيْغِ الشَّمْسِ ، عَجَّلَ العَصْرَ إلى الظُّهْرِ وَصَلَّى الظُّهْرَ والعَصْرَ جَمِيعاً" ، وقال: حديثٌ حسن غريب .

وقال أبو داود: هذا حديثٌ مُنكر ، وليس فى تقديمِ الوقتِ حديثٌ قائِم .

وقال أبو محمد بن حزم: لا يَعْلَمُ أحدٌ مِن أصحابِ الحديثِ ليزيد بنِ أبى حبيب سماعاً مِن أبى الطُّفَيْل .

وقال الحاكم فى حديث أبى الطُّفَيْل هذا: هو حديثٌ رواتُه أئمة ثقات، وهو شاذ الإسناد والمتن، لا نعرِف له عِلَّة نُعلّله بها، فنظرنا فإذا الحديث موضوع، وذكر عن البخارى: قلت لقُتيبة بن سعيد: مع مَن كتبتَ عن اللَّيث حديثَ يزيد بن أبى حبيب عن أبى الطُّفَيْل؟ قال: كَتَبتُه مع خالد المدائنى، وكان خالد المدائنى يُدخل الأحاديثَ على الشيوخ. ورواه أبو داود أيضاً: حدَّثنا يزيد بن خالد بن يزيد بن عبد الله بن موهب الرَّملى، حدثنا مفضَّل بن فضالة، واللَّيث ابن سعد، عن هِشام بن سعد، عن أبى الزُّبير، عن أبى الطُّفَيْل، عن معاذ بن جبل: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى غزوة تَبُوكَ إذا زاغَت الشَّمسُ قبل أن يرتَحِلَ جمعَ بين الظُّهر والعصر، وفى المغرب مِثْلَ ذلك: إن غابَتِ الشَّمسُ قبل أن يرتَحِلَ، جمع بينَ المغربِ والعِشاء، وإن ارتحل قبل أن تَغِيبَ الشمسُ، أخَّرَ المغرب حتَّى يَنْزِلَ للعِشَاءِ، ثم يجمَع بينهما.

وهِشام بن سعد: ضعيف عندهم، ضعَّفه الإمام أحمد، وابنُ معين، وأبو حاتم، وأبو زُرعة، ويحيى بن سعيد، وكان لا يُحدِّث عنه،

وضعَّفه النسائىُّ أيضاً، وقال أبو بكر البزَّار: لم أر أحداً توقَّف عن حديث هِشام ابن سعد

، ولا اعتلَّ عليه بعِلَّة تُوجب التوقف عنه ، وقال أبو داود : حديث المفضَّل واللَّيث حديث منكر .

فصل: فى رجوعه صلى الله عليه وسلم من تَبُوك وما هَمَّ المنافقون به من الكَيْدِ به وعِصمة الله إياه

(249/351)

ذكر أبو الأسود فى "مغازيه" عن عُرْوَة قال: ورجع رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم قافلاً مِن تَبُوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق ، مكر برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ناسٌ من المنافقين ، فتآمرُوا أن يطرحُوه من رأسِ عَقَبَةٍ فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة ، أرادوا أن يسلكُوها معه ، فلما غشيَهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، أُخبر خبرهم ، فقال: "مَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَأْخُذَ بِبَطْنِ الوَادِى ، فإنَّه أَوْسَعُ لَكُمْ" وأَخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم العَقَبة ، وأخذ الناسُ ببطن الوادى إلا النَّفَرَ الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما سمعوا بذلك ، استعدُّوا وتلثَّموا ، وقد همُّوا بأمر عظيم ، وأمر رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حُذيفةَ بنَ اليمان ، وعمَّارَ بن ياسر ، فمشيا معه ، وأمر عمَّاراً أن يأخذ بزِمام الناقة ، وأمر حُذيفة أن يسوقها ، فبينا هُم يسيرون ، إذ سمعوا وكزة القومِ مِن

ورائهم قد غَشَوْه ، فَغَضِبَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأمر حُذيفة أن يردهم ، وأبصرَ حذيفة غضبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فرجع ومعه مِحجن ، واستقبل وجوهَ رواحلهم ، فضربها ضرباً بالمحجن ، وأبصرَ القومَ ، وهم متلثّمون ، ولا يشعرُ إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم اللهُ سبحانه حين أبصروا حُذيفة ، وظنوا أنَّ مكرهم قد ظهر عليه ، فأسرعُوا حتى خالَطُوا الناسَ ، وأقبل حُذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(250/351)

فلما أدركه ، قال: "اضْرِب الرَّاحِلَة يا حُذَيْفَة ، وامْشِ أَنْتَ يا عَمَّارُ" ، فأسرعوا حتى استووا بِأَعْلاها ، فخرجوا من العَقَبَةِ ينتظرون الناسَ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم لحذيفَة: "هَلْ عَرَفْتَ مِنْ هؤُلاءِ الرَّهْطِ أو الرَّكْبِ أحَداً" ؟ قال حُذيفة: عرفتُ راحِلة فلان وفلان ، وقال: كانت ظلمة الليل ، وغشيتُهم ، وهم متلثّمون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "هل عَلِمْتُم ما كانَ شأن الرَّكْبِ وما أرادوا" ؟ قالوا: لا والله يا رسول الله ، قال: "فإنهم مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِى ، حَتَّى إذا اطَّلعتُ فى العَقَبَةِ طَرَحُونى منها" قالوا: أَوَ لا تأمُرُ بهم يا رسول الله إذاً ، فنضرِبَ أعناقهم ، قال: "أكره أن يتحدَّث الناسُ ويقولوا: إنَّ

محمداً قد وضع يده فى أصحابه" ، فسماهم لهما ، وقال: "اكتماهم"

وقال ابن إسحاق فى هذه القصة: "إنَّ الله قد أخبرنى بأسمائهم ، وأسماء آبائهم ، وسأُخبِرُك بهم إن شاء الله غداً عند وجه الصبح ، فانطلِقْ حتى إذا اصبَحْت ، فاجمعهم" ، فلما أصبح قال: "ادع عبد الله بن أُبَىّ ، وسعد بن أبى سرح ، وأبا خاطر الأعرابى ، وعامراً ، وأبا عامر ، والجُلاس بن سويد ابن الصامت ، وهو الذى قال: لا ننتهى حتى نرمى محمداً مِن العَقَبَةِ الليلة ، وإن كان محمد وأصحابُه خيراً منا ، إنا إذاً لغنم وهو الراعى ، ولا عقل لنا

(251/351)

وهو العاقِل ، وأمره أن يدعُوَ مجمع بن حارثة ، ومليحاً التيمى ، وهو الذى سرق طِيبَ الكعبة ، وارتدَّ عن الإسلام ، وانطلق هارِباً فى الأرض ، فلا يُدْرى أين ذهب ، وأمره أن يدعوَ حِصن بن نمير الذى أغار على تمر الصدقة فسرقه ، وقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وَيْحَكَ ، ما حَمَلَكَ عَلَى هذا" ؟ فقال: حملنى عليه أنى ظننتُ أنَّ الله لا يُطلعك عليه ، فأما إذا أطلعك الله عليه ، وعلمتَه ، فأنا أشهد اليوم أنك رسُولُ الله ، وإنى لم أُؤمن بك قطُّ قبل هذه الساعة ، فأقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عثرَته ، وعفا عنه

، وأمره أن يدعو طُعيمة بن أبيرق ، وعبدَ الله ابن عُيينة ، وهو الذى قال لأصحابه: اسهرُوا هذه الليلة تسلمُوا الدهرَ كُلَّه ، فوالله ما لكم أمر دون أن تقتلُوا هذا الرجل ، فدعاه فقال: "وَيْحَكَ ، مَا كَانَ يَنْفَعُكَ مِنْ قَتْلى لَوْ أَنِّى قُتِلْتُ" ؟ فقال عبد الله: فوالله يا رسولَ الله لا نزالُ بخير ما أعطاك الله النصرَ على عدوِّك ، إنما نحن بالله وبِكَ ، فتركه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وقال: "ادعُ مُرَّة بن الربيع" ، وهو الذى قال: نقتل الواحد الفرد ، فيكون الناسُ عامةً بقتله مطمئنين ، فدعاه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال: "وَيْحَكَ ، مَا حَمَلَكَ عَلى أَنْ تَقُولَ الَّذى قُلْتَ" ؟ فقال: يا رسولَ الله ؛ إن كنتُ قلتُ شيئاً من ذلك إنك لعالِم بِهِ ، وما قلتُ شيئاً من ذلك ، فجمعهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وهم اثنا عشر رجلاً الذين حاربُوا اللهَ ورسولَه وأرادوا قتله ، فأخبرهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقولهم ، ومنطقهم ، وسرهم ، وعلانيتهم ، وأطلعَ اللهُ سبحانه نبيه على ذلك بعلمه ، ومات الاثنا عشر منافقين محاربين لله ولرسوله ، وذلك قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة: 74] وكان أبو عامر رأسهم ، وله بنوا مسجد الضِّرار ، وهو الذى كان يُقال له: "الراهب" ، فسمَّاه رسول

الله صلى الله عليه وسلم: "الفاسق" ، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة ، فأرسلوا إليه ، فقدم عليهم ، فلما قدِم عليهم ، أخزاه الله وإيَّاهم ، فانهارت تلك البقعة فى نار جهنم .

فصل

قلت: وفى سياق ما ذكره ابن إسحاق وَهْمٌ من وجوه:

أحدُها : أنَّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم أسرَّ إلى حُذيفة أسماء أُولئك المنافقين ، ولم يُطلع عليهم أحداً غيره ، وبذلك كان يُقال لحذيفة: إنه صاحِبُ السِّرّ الذى لا يعلمهُ غيرُه ، ولم يكن عمر ، ولا غيرُه يعلمُ أسماءهم ، وكان إذا مات الرجل وشكُّوا فيه ، يقول عمر : انظروا ، فإن صلَّى عليه حذيفة ، وإلا فهو منافق منهم .

الثانى: ما ذكرناه من قوله: فيهم عبد الله بن أُبَىّ ، وهو وَهْمٌ ظاهر ، وقد ذكر ابن إسحاق نفسه ، أنَّ عبد الله بن أُبَىِّ تخلَّف فى غزوة تبوك .

الثالث: أن قوله: وسعد بن أبى سرح وَهْمٌ أيضاً ، وخطأ ظاهرٌ ، فإن سعد ابن أبى سرح لم يُعرف له إسلام ألبتة ، وإنما ابنُه عبد الله كان قد أسلم وهاجر ، ثم ارتدَّ ولَحِقَ بمكة ، حتى استأمن له عثمانُ النبىَّ صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، فأمَّنه وأسلم ، فَحَسُنَ إسلامُه ، ولم يظهر منه بعد ذلك شئ يُنكر عليه ، ولم يكن مع هؤلاء الاثنى عشر ألبتة ، فما أدرى ما هذا الخطأ الفاحش .

الرابع: قوله: وكان أبو عامر رأسَهم ، وهذا وَهْمٌ ظاهر لا يخفى على مَنْ دونَ ابن إسحاق ،

بل هو نفسُه قد ذكر قِصة أبى عامر هذا فى قصة الهجرة ، عن عاصم بن عمر بن قتادة ، أن أبا عامر لما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، خرجَ إلى مكة ببضعَة عشرَ رجلاً ، فلما افتتح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

مكة ، خرج إلى الطائف ، فلما أسلم أهلُ الطائف ، خرج إلى الشام ، فمات بها طريداً وحيداً غريباً ، فأين كان الفاسقُ وغزوة تَبُوك ذهاباً وإياباً .

فصل: فى أمر مسجد الضِّرار الذى نهى اللهُ رسولَه أن يقومَ فيه ، فهدمه صلى الله عليه وسلم

(253/351)

وأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنْ تَبُوك ، حتى نزل بذى أوَان ، وبينها وبين المدينة ساعة ، وكان أصحابُ مسجد الضِّرار أتَوْه وهو يتجهَّز إلى تَبُوك ، فقالوا : يا رسولَ الله ؛ إنَّا قد بنينا مسجداً لِذى العِلَّة والحاجة ، واللَّيلة المطيرة الشاتية ، وإنَّا نُحِبُّ أن تأتيَنا فتُصَلِّيَ لنا فيه ، فقال: "إنِّى عَلى جَناح سَفَر ، وحَالِ شُغْلٍ ، ولَوْ قَدِمْنا إنْ شَاءَ اللهُ لأَتَيْنَاكُم فَصَلَّيْنَا لَكُم فيه" ، فلما نزل بذى أوانَ جاءه خبرُ المسجد من السماء ، فدَعا مالك بن الدُّخْشم أخا بنى سلمة بن عوف ، ومَعن بن عدى العجلانى ، فقال: "انطلقا إلى هذا

المسجدِ الظالِمِ أهلُه ، فاهدِماه ، وحرِّقاه ، فخرجا مُسرعَين ، حتى أتيا بنى سالم بن عوف ، وهم رهطُ مالك بن الدُّخشم ، فقال مالك لمعن: أنْظِرْنى حتى أخرُجَ إليك بنارٍ مِن أهلى ، ودخل إلى أهله ، فأخذ سعفاً من النخل ، فأشعل فيه ناراً ، ثم خرجا يشتدّان حتى دخلاه وفيه أهلُه ، فحرقاه وهدماه ، فتفرّقوا عنه ، فأنزل الله فيه: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة: 107] . إلى آخر القصة .

وذكر ابن إسحاق الذين بنوه ، وهم إثنا عشر رجلاً ، منهم: ثعلبةُ بن حاطب . وذكر عثمان بن سعيد الدارمى: حدّثنا عبد الله بن صالح ، حدّثنى معاوية بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس فى قوله:

(254/351)

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً ﴾ ، هم أُناس من الأنصار ابتَنوْا مسجداً فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم ، واستمِدُّوا ما استطعتم مِن قوة ومِن سلاح ، فإنى ذاهبٌ إلى قَيْصرَ ملكِ الروم ، فآتى بجند من الروم ، فأُخْرِجُ محمداً وأصحابه ، فلما فرغوا مِن مسجدهم ، أتوا النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا ، فنُحب أن تُصَلِّى فيه ، وتدعو بالبركة ، فأنزلَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً ، لَّمَسْجِدٌ

أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ﴾ يعنى مسجد قُبَاء ﴿ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ﴾ [التوبة: 108] إلى قوله: ﴿ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾ [التوبة: 109] يعنى قواعده ، ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى: الشكَ ﴿ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعنى بالموت

فصل: فى خروج الناس لتلقيه صلى الله عليه وسلم عند مقدمه المدينة

فلما دنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من المدينة ، خرج الناس لتلقيه ، وخرج النساءُ والصبيان والولائد يقلن:

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاعِي

وبعضُ الرواة يَهِمُ فى هذا ويقولُ: إنما كان ذلك عند مقدَمِه إلى المدينة من مكةَ ، وهو وَهْمٌ ظاهر ، لأن ثنياتِ الوداع إنما هى من ناحية الشام ، لا يراها القادِمُ من مكة إلى المدينة ، ولا يمرُّ بها إلا إذا توجَّه إلى الشام ، فلما أشرف على المدينة ، قال: "هذِهِ طَابَةُ ، وَهَذَا أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه" .

فلما دَخلَ قال العباسُ: يا رسول الله ؛ ائذن لى أمتدِحك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "قل: لا يَفْضُضِ اللهُ فَاكَ" فقال:

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فى الظِّلَالِ وَفِى مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الوَرَقُ

ثُمَّ هَبَطْتَ البِلادَ لَا بَشَرٌ أَنْتَ وَلَا مُضْغَةٌ وَلَا عَلَقُ

بَلْ نُطْفَةٌ تَرْكَبُ السَّفِينَ وَقَدْ أُلْجِمَ نَسْراً وَأَهْلَه الغَرَقُ

تُنْقَلُ مِنْ صَالِبٍ إلى رَحِمٍ إذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَا طَبَقُ

حَتَّى احْتَوَى بَيْتُكَ المُهَيْمِنُ مِن خِنْدِفَ عَلْيَا تَحْتَهَا النُّطُقُ

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الأرض وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الأُفُقُ

فَنَحْنُ فى ذِلك الضياءِ وَفى النُّورِ وَسُبْلَ الرَّشَادِ نَخْتَرِق

فصل

ولما دخل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينَة ، بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين ، ثم جلس للنَّاس ، فجاءه المخلَّفون ، فطفِقُوا يعتذِرون إليه ، ويحلِفُون له ، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم ، وبايعهم ، واستغفر لهم ، ووَكَل سَرائِرَهم إلى الله ،

وجاءه كعبُ بنُ مالك ، فلما سلَّم عليه ، تبسم تبسُّمَ المُغْضَب ، ثم قال له: "تعال" . قال: فجئتُ أمشى حتى جلستُ بين يديه ، فقال لى: "ما خَلَّفَكَ ، ألم تكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهرَك" ؟ فقلتُ: بَلَى إنى واللهِ لو جلستُ عندَ غيرِك من أهل الدنيا ، لرأيتُ أن أخرُجَ مِن سخطه

بعُذرٍ ، ولقد أُعطِيتُ جدلاً ، ولكنى واللهِ لقد عَلِمْتُ إن حدثتُك اليومَ حديثَ كذب تَرضى به علىَّ ، ليوشِكَنَّ اللهُ أَن يُسْخِطَك علىَّ ، ولئن

(256/351)

حدَّثْتُكَ حَديثَ صِدقٍ ، تَجدُ علىَّ فيه ، إنِّى لأرجُو فيه عفوَ اللهِ عنى ، واللهِ ما كان لى مِن عذر ، واللهِ ما كنتُ قَطُّ أقوى ولا أيسرَ مِنى حين تخلَّفتُ عنك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما هذا فَقَدْ صَدَقَ ، فقُم حتى يقضِيَ اللهُ فيك" . فقمتُ ، وثار رِجالٌ من بنى سلمة ، فاتبعونى يُؤنِّبونى ، فقالوا لى: واللهِ ما علمناك كنتَ أذنبتَ ذنباً قبلَ هذا ، ولقد عَجَزْتَ ألا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر إليه المخلَّفون ، فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم لك . قال: فواللهِ ما زالوا يُؤنبونى حتى أردتُ أن أرجع ، فأكذِبَ نفسى ، ثم قلتُ لهم: هل لقى هذا معى أحدٌ ؟ قالوا: نعم رَجُلانِ قالا مِثْلَ ما قلتَ ، فقيل لهما مثلَ ما قيل لك ، فقلتُ: مَن هما ؟ قالوا: مُرارة بنُ الربيع العامرى ، وهِلالُ بنُ أُمية الواقفى ، فذكروا لى رجلين صالِحين شهدا بدراً فيهما أُسوةٌ ، فمضيتُ حين ذكروهما لى .

ونهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المسلمينَ عن كلامِنا أيُّها الثَّلاثَةُ مِن بين مَنْ تخلَّفَ عنه

، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ ، وتغيَّروا لنا ، حتى تنكرت لى الأرضُ ، فما هى بالتى أعرِفُ ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً ، فأما صاحباى ، فاستكانا وقعدا فى بيوتِهما يَبكيانِ ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم ، فكنتُ أخرج ، فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين ، وأطوفُ فى الأسواق ، ولا يُكلِّمنى أحد ، وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأُسَلِّمُ عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام علىَّ أم لا ؟ ثم أُصَلِّى قريباً منه ، فأسارِقه النظر ، فإذا أقبلتُ على صلاتى ، أقبل إلىَّ ، وإذا التفتُّ نحوه ، أعرضَ عنى ، حتى إذا طالَ علىَّ ذلك مِن جفوة المسلمين ، مشيتُ حتى

(257/351)

تسوَّرتُ جدار حائط أبى قتادة ، وهو ابنُ عمى ، وأحبُّ الناسِ إلىَّ ، فسلَّمتُ عليه ، فواللهِ ما ردَّ علىَّ السلامَ ، فقلت : يا أبا قتادة ؛ أنشدُك باللهِ ، هل تعلَمُنى أُحِبُّ اللهَ ورسولَه صلى الله عليه وسلم ؟ فسكت ، فعُدت ، فناشدتُه ، فسكت ، فعُدت فناشدتُه ، فقال : اللهُ ورَسُولُه أعلمُ ، ففاضت عيناى ، وتولّيتُ حتَّى تسورتُ الجِدَار .

فبينا أنا أمشى بسوق المدينة ، إذا نَبَطِى من أنباطِ الشام ممن قَدِمَ بالطعام يَبيعه بالمدينة يقولُ : مَنْ يدُلُّ على كعبِ بْنِ مالك ، فطفِقَ الناسُ يُشِيرونَ لهُ حتَّى إذا جاءنى ، دفع إلىَّ

كتاباً من ملك غَسَّان ، فإذا فيه:

أما بعدُ . . فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة ، فالحق بنا نُواسِك . فَقُلْتُ لما قرأتها : وهذا أيضاً مِن البلاء ، فتيممتُ بها التنور ، فسجرتُها حتى إذا مضت أربعون ليلةً مِن الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يأتينى ، فقال: إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يأمُرُك أن تعتزِلَ امرأتَك ، فقلتُ: أُطلقها أم ماذا ؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربْها ، وأرسل إلى صاحبىَّ مثل ذلك ، فقلتُ لامرأتى: الحقى بأهلك ، فكونى عندهم حتى يَقْضِىَ اللهُ فى هذا الأمر ، فجاءت امرأةُ هلال بن أُمية ، فقالت: يا رسول الله ؛ إنَّ هلالَ بنَ أُمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدُمه قال: "لا ولكن لا يقرَبُك" ، قالت: إنه والله ما بِه حركة إلى شىء ، والله ما زال يبكى منذ كان مِن أمره ما كان إلى يومه هذا ، قال كعب: فقال لى بعضُ أهلى: لو استأذنتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فى امرأتك كما أذن لامرأة هِلال بن أُمية أن تخدُمه ، فقلت: والله لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ،

(258/351)

وما يُدرينى ما يقولُ رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنتُه فيها ، وأنا رجل شاب ، ولبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كَمُلَت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، فلما صَلَّيتُ صلاةَ الفجر صُبْحَ خمسين ليلةً على سطح بيت من بيوتنا ، بينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى ، قد ضاقت علىَّ نفسى ، وضاقت علىَّ الأرضُ بما رحُبت ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوتِه: يا كعبَ ابنَ مالك ؛ أبشر ، فخررتُ ساجداً ، فعرفتُ أن قد جاء فرجٌ مِن الله ، وآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صَلَّى الفجر ، فذهب الناسُ يُبشروننا ، وذهب قِبَلَ صاحبىَّ مبشرون ، وركضَ إلىَّ رجل فرساً ، وسعى ساعٍ مِن أسلمَ ، فأوفى على ذِرْوة الجبل ، وكان الصوتُ أسرعَ مِن الفرس ، فلما جاءنى الذى سمعتُ صوته يبشرنى ، نزعتُ له ثوبىَّ فكسوتُه إياهما ببُشراه ، واللهِ ما أملك غيرهما ، واستعرتُ ثوبين ، فلبستُهما ، فانطلقتُ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلقانى الناسُ فوجاً فوجاً يُهنئوننى بالتوبة يقولون: لِيهْنِكَ توبةُ الله عليك ، قال كعب: حتى دخلتُ المسجد ، فإذا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جالس حولَه الناس ، فقام إلىَّ طلحةُ بنُ عُبيد الله يُهرولُ حتى صافحنى وهنَّأنى ، واللهِ ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره ، ولستُ أنساها لِطلحة ، فلما سلَّمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال وهو يَبْرُقُ وجهُه من السرور: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ" . قال قلتُ: أمِن عندك يا رسولَ الله ، أم مِن

عند الله ؟ قال: "لا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ" ، وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنه قِطعةُ قمر ، وكنا نعرفُ ذلك منه ، فلما جلستُ بين يديه ، قلت: يا رسول الله ؛ إنَّ مِن توبتى أن أنخلِع مِن مالى صَدَقة إلى الله ، وإلى رسوله ، فقال:

(259/351)

"أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ" ، قلت: فإنى أُمسكُ سهمى الذى بخَيْبَرَ. فقلتُ: يا رسول الله ؛ إنَّ الله إنما نجانى بالصدق ، وإنَّ من توبتى ألاَّ أُحَدِّثُ إلا صدقاً ما بقيتُ ، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومى هذا ما أبلانى ، والله ما تعمدتُ بعد ذلك إلى يومى هذا كذباً ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيتُ ، فأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ [التوبة: 117] إلى قوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119] ، فوالله ما أنعم الله علىَّ نعمة قَطُّ بعد أن هدانى للإسلام ، أعظمَ فى نفسى من صدقى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، أن لا أكون كذبته ، فأَهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا ، فإن الله قال للذين كذَبُوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد قال: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ [التوبة:95] إلى

قوله: ﴿ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: 96] .

قال كعب: وكان تخلُّفنا أيُّها الثَّلاثَةُ عن أمر أُولئك الذين قبل منهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا له ، فبايعهم ، واستغفر لهم ، وأرجأ أمرَنا حتى قضى اللهُ فيه ، فبذلك قال الله: ﴿ وعَلى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: 118] ، وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفُه إيَّانا ، وإرجاؤُه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه فقبل منه .

وقال عثمان بن سعيد الدارمى: حدَّثنا عبد الله بن صالح ، حدَّثنى معاوية

(260/351)

بن صالح ، عن علىّ بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، فى قوله: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً ﴾ [التوبة: 102] قال: كانوا عشرةَ رهط تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تَبُوك ، فلما حضر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أوثقَ سبعةٌ منهم أنفسَهم بسوارى المسجد ، وكان يَمُرُّ النبىُّ صلى الله عليه وسلم إذا رجع فى المسجد عليهم ، فلما رآهم قال: "مَنْ هؤلاء المُوثِقُون أَنْفُسَهُم بالسوارِى" ؟ قالوا: هذا أبو لُبابة وأصحابٌ له تخلَّفوا عنك يا رسولَ الله أوثقُوا أنفسَهم حتى يُطلِقَهُم النبى صلى الله عليه وسلم ويعذرهم . قال: "وأَنَا أُقْسِمُ بِاللهِ لا أُطْلِقُهُم ولا أَعْذِرُهم حَتَّى

يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يُطْلِقُهُمْ ، رَغِبُوا عَنِّي وتَخَلَّفُوا عَنِ الغَزْوِ مَعَ المُسْلِمِينَ" ، فلما بلغهم ذلك ، قالوا : ونحن لا نُطْلِقُ أنفسنا حتى يكون اللهُ هو الذى يُطلقنا ، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ وعسى من الله واجب ﴿ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فلما نزلت ، أرسل إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فأطلقهم ، وعذرهم ، فجاؤوا بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ؛ هذه أموالنا ، فتصدَّق بها عنا ، واستغفر لنا ، قال: "ما أُمِرْتُ أَنْ آخُذَ أَمْوَالَكُم" فأنزل الله: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: 103] يقول: استغفر لهم ، ﴿ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ فأخذ ﴾ مِنهم الصدقة ، واستغفر لهم ، وكان ثلاثة نَفَر لم يُوثقوا أنفسهم بالسوارى ، فأُرجِئُوا لا يَدرونَ أيُعذَّبون أم يُتاب عليهم ؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ لَقَد تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ والمُهَاجِرِينَ والأَنْصارِ ﴾ إلى قوله: ﴿ وعَلَى

(261/351)

الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ . إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ تابعَه عطية ابن سعد .

فصل: فى الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد

فمنها : جوازُ القتال فى الشهر الحرام إن كان خروجُه فى رجب محفوظاً على ما قاله ابن

إسحاق ، ولكن ههنا أمر آخر ، وهو أن أهلَ الكتاب لم يكونوا يُحرِّمون الشهرَ الحرام ، بخلاف العرب ، فإنها كانت تُحرِّمه ، وقد تقدَّم أنَّ فى نسخ تحريمِ القتال فيه قولين ، وذكرنا حُجَج الفريقين .

ومنها : تصريحُ الإمام للرعية ، وإعلامُهم بالأمر الذى يضرُّهم سترُه وإخفاؤُه ، ليتأهبوا له ، ويُعِدُّوا له عُدته ، وجوازُ ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة .

ومنها : أنَّ الإمام إذا استنفر الجيش ، لزمهم النفيرُ ، ولم يجز لأحد التخلفُ إلا بإذنه ، ولا يُشترطُ فى وجوب النفير تعيينُ كلِّ واحد منهم بعينه ، بل متى استنفر الجيش ، لزم كُلَّ واحد منهم الخروجُ معه ، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التى يصير فيها الجهاد فرض عَيْن .

والثانى : إذا حضر العدوُّ البلد . والثالث : إذا حضر بين الصفين .

ومنها : وجوبُ الجهاد بالمال ، كما يجبُ بالنفس ، وهذا إحدى الروايتين عن أحمد ، وهى الصوابُ الذى لا ريب فيه ، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيقُ الأمر بالجهاد بالنفس فى القرآن وقرينُه ، بل جاء مقدَّماً على الجهاد بالنفس فى كُلِّ موضع ، إلا موضعاً واحداً ، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكدُ من الجهاد بالنفس ، ولا ريبَ أنه أحدُ الجهادين ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : "مَنْ جَهَّزَ غَازِياً فَقَدْ غَزَا" ، فيجب على القادر عليه ، كما يجب على القادر بالبدن ، ولا يَتِمُّ الجهاد بالبدن إلا ببذله ، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد ،

فإن لم يقدر أن يكثر العَدد ، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة ، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن ، فوجوبُ الجهاد بالمال أَوْلى وأَحرى .

(262/351)

ومنها : ما برز به عُثمانُ بن عفان من النفقةِ العظيمة فى هذه الغزوة ، وسبق به الناس ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: "غَفَرَ اللهُ لَكَ يا عُثْمَانُ ما أَسْرَرْتَ ، ومَا أَعْلَنْتَ ، ومَا أَخْفَيْتَ ، وما أَبْدَيْتَ" . ثم قال: "ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ" ، وكان قد أنفق ألفَ دينار ، وثلاثمائة بعير بعُدتها وأحلاسها وأقتابِها .

ومنها : أن العاجزَ بماله لا يُعذرُ حتى يَبْذُلَ جهده ، ويتحقَّقَ عجزُهُ ، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَجَ عن هؤلاء العاجزين بعد أن أَتَوْا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ليحملهم ، فقال: ﴿ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ ، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد ، فهذا العاجز الذى لا حَرَجَ عليه .

ومنها : استخلافُ الإمام إذا سافر رجلاً من الرعية على الضعفاء ، والمعذورين ، والنساء ، والذُرِّية ، ويكون نائبه مِن المجاهدين ، لأنه من أكبر العون لهم . وكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يستخلِف ابنَ أُمِّ مكتوم ، فاستخلفه بضعَ عشرة مرة ، وأما فى غزوة تَبُوك .

فالمعروفُ عند أهل الأثر أنه استخلف عليَّ ابن أبى طالب ، كما فى "الصحيحين" عن سعد بن أبى وقاص ، قال: خلَّف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه فى غزوة تَبُوك ، فقال: يا رسول الله ؛ تُخَلِّفُنى مَعَ النساءِ والصبيان ، فقال: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ

مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى ، غَيْرَ أَنَّهُ لا نَبِىَّ بَعْدِى" . ولكن هذه كانت خلافةً خاصة على أهله صلى الله عليه وسلم ، وأما الاستخلافُ العام ، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصارى ، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفُوا به ، وقالوا: خلَّفه استثقالاً ، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبره ، فقال: "كَذَبُوا ، ولكِنْ خَلَّفْتُكَ لِما تَرَكْتُ وَرائى ، فارْجِعْ فاخْلُفْنى فى أَهْلى وَأَهْلِكَ" .

(263/351)

ومنها : جواز الخَرْصِ للرُّطَبِ على رؤوس النخل ، وأنه من الشرع ، والعمل بقول الخارص ، وقد تقدَّم فى غزاة خَيْبَر ، وأن الإمام يجوز أن يخرِصَ بنفسه ، كما خرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم حديقة المرأة .

ومنها أنَّ الماء الذى بآبار ثمود ، لا يجوز شُربه ، ولا الطبخُ منه ، ولا العجينُ به ، ولا الطهارةُ

به ، ويجوز أن يُسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة . وكانت معلومةً باقية إلى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم استمر عِلْمُ الناسِ بها قرناً بعد قرن إلى وقتنا هذا ، فلا يرِدُ الركوبُ بئراً غيرها ، وهى مطويَّةٌ محكمة البناء ، واسعة الأرجاء ، آثار العِتق عليها بادية ، لا تشتبه بغيرها .

ومنها : أنَّ مَن مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين ، لم ينبغ له أن يدخُلَها ، ولا يُقيم بها ، بل يُسرع السير ، ويتقنَّع بثوبه حتى يُجاوِزَها ، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً .

ومن هذا إسراعُ النبى صلى الله عليه وسلم السير فى وادى مُحَسِّر بين مِنَى وعَرَفة ، فإنه المكانُ الذى أهلك الله فيه الفيلَ وأصحابه .

ومنها : أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم كان يجمعُ بين الصلاتين فى السفر ، وقد جاء جمعُ التقديم فى هذه القصة فى حديث معاذ ، كما تقدَّم ، وذكرنا عِلَّة الحديث .

ومَن أنكره ، ولم يجئ جمع التقديم عنه فى سفر إلا هذا ، وصح عنه جمعُ التقديمِ بعَرَفة قبل دخوله إلى عَرَفة ، فإنه جَمَعَ بين الظهر والعصر فى وقت الظهر ، فقيل : ذلك لأجل النُّسُك ، كما قال أبو حنيفة . وقيل : لأجل السفر الطويل ، كما قاله الشافعى وأحمد . وقيل : لأجل الشغل ، وهو اشتغالُه بالوقوف ، واتصالُه إلى غروب الشمس . قال أحمد : يجمع للشغل ، وهو قول جماعة من السَّلَف والخَلَف ، وقد تقدَّم .

ومنها : جوازُ التَّيَمُم بالرمل ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم وأَصحابَه ، قطعوا الرمال التى بين المدينة وتَبُوك ، ولم يحملوا معهم تراباً بلا شك ، وتلك مفاوز مُعْطِشة شكوا فيها العطشَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقطعاً كانوا يتيممون بالأرض التى هم فيها نازلون ، هذا كُلُّه مما لا شك فيه مع قوله صلى الله عليه وسلم: "فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِى الصَّلاةُ ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُه وَطَهُورُه" .

ومنها : أَنَّه صلى الله عليه وسلم أقام بتَبُوك عشرين يوماً يَقْصُر الصلاة ، ولم يَقل للأُمَّة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثرَ من ذلك ، ولكن اتفقت إقامتُه هذه المدة ، وهذه الإقامة فى حال السفر لا تخرج عن حكم السفر ، سواءٌ طالت أو قصرت إذا كان غيرَ مستوطن ، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع .

وقد اختلف السَّلَفُ والخَلَف فى ذلك اختلافاً كثيراً ، ففى "صحيح البخارى" عن ابن عباس ، قال: أقامَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره تسعَ عشرةَ يُصلِّى ركعتين ، فنحن إذا أقمْنا تِسْعَ عشرةَ نُصَلِّى ركعتين ، وإن زدنا على ذلك أتممنا ، وظاهرُ كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمنَ الفتح ، فإنه قال: أقام رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بمكة ثمان عشرة زمنَ الفتح ، لأنه أراد حُنَيْناً ، ولم يكن ثَمَّ أجمعَ المُقام ، وهذه إقامته التى رواها ابنُ عباس . وقال

غيرُه: بل أراد ابنُ عباس مقامه بتَبُوك ، كما قال جابر بن عبد الله: أقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم بتَبُوك عشرينَ يوماً يقصُر الصلاة ، رواه الإمام أحمد فى "مسنده" .

وقال عبد الرحمن بن المِسور بن مَخْرَمَة: أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصُرُها سعد ونُتِمُّها .

وقال نافعُ: أقام ابنُ عمر بأذَربيجَانَ ستةَ أشهر يُصَلِّى ركعتين ، وقد حال الثلجُ بينه وبين الدخول .

(265/351)

وقال حفصُ بن عُبيد الله: أقام أنسُ بنُ مالك بالشام سنتين يُصَلِّى صلاةَ المسافر .

وقال أنسُ: أقام أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بِرَامَهُرْمُزَ سَبعة أشهر يقصُرون الصلاة .

وقال الحسن: أقمتُ مع عبد الرحمن بن سَمُرة بكابُل سنتين يقصرُ الصلاة ولا يجمع .

وقال إبراهيم: كانوا يُقيمون بالرَّيِّ السنة ، وأكثر من ذلك ، وسجستان السنتين .

فهذا هَدْى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه كما ترى ، وهو الصوابُ .

وأما مذاهبُ الناس ، فقال الإمام أحمد : إذا نوى إقامةَ أربعة أيام ، أتم ، وإن نوى دونها ،

قصر ، وحمل هذه الآثار على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يُجمعوا الإقامة ألبتة ، بل كانوا يقُولون: اليوم نخرج ، غداً نخرج . وفى هذا نظر لا يخفى ، فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فتح مكة ، وهى ما هى ، وأقام فيها يُؤسِّسُ قواعِدَ الإسلام ، ويهدِمُ قواعِدَ الشّرك ، ويُمهِّد أمر ما حولها مِن العرب ، ومعلوم قطعاً أن هذا يحتاج إلى إقامة أيام لا يتأتَّى فى يوم واحد ، ولا يومين ، وكذلك إقامتُه بتَبُوك ، فإنه أقام ينتظر العدو ، ومن المعلوم قطعاً ، أنه كان بينه وبينهم عِدَّةُ مراحل يحتاج قطعها إلى أيام ، وهو يعلم

(266/351)

أنهم لا يُوافون فى أربعة أيام ، وكذلك إقامة ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يقصُر الصلاة من أجل الثلج ، ومن المعلوم أن مثل هذا الثلج لا يتحلل ويذوب فى أربعة أيام ، بحيث تنفتح الطُّرُق ، وكذلك إقامة أنس بالشام سنتين يقصُر ، وإقامةُ الصحابة بِرَامَهُرْمُزَ سبعة أشهر يقصُرون ، ومن المعلوم أن مثل هذا الحِصار والجهاد يُعلَم أنه لا ينقضى فى أربعة أيام . وقد قال أصحاب أحمد : إنه لو أقام لجهاد عدو ، أو حبس سلطان ، أو مرض ، قصر ، سواء غلب على ظنّه انقضاءُ الحاجة فى مدة يسيرة أو طويلة ، وهذا هو الصواب ، لكن شرطوا فيه شرطاً لا دليل عليه من كتاب ، ولا سُنَّة ، ولا إجماع ، ولا عمل الصحابة . فقالُوا :

شرط ذلك احتمالُ انقضاء حاجته فى المدة التى لا تقطع حكم السفر ، وهى ما دُون الأربعة الأيام ، فيقال: من أين لكم هذا الشرط ، والنبىُّ لما أقام زيادة على أربعة أيام يقصُر الصلاة بمكة وتَبُوك لم يقل لهم شَيْئاً ، ولم يُبين لهم أنه لم يَعزم على إقامة أكثر من أربعة أيام ، وهو يعلمُ أنهم يقتدون به فى صلاته ، ويتأسَّوْنَ به فى قصرها فى مدة إقامته ، فلم يقل لهم حرفاً واحداً: لا تقصروا فوق إقامة أربع ليال ، وبيان هذا مِن أهم المهمات ، وكذلك اقتداءُ الصحابة به بعدَه ، ولم يقولوُا لمن صَلَّى معهم شيئاً من ذلك .

وقال مالك والشافعى: إنْ نوى إقامة أَكثرَ مِن أربعة أيام أتَمَّ ، وإن نوى دونها قصر .

وقال أبو حنيفة: إنْ نوى إقامة خمسة عشر يوماً أَتَمَّ ، وإن نوى دونها قصر ، وهو مذهب الليث بنِ سعد ، ورُوى عن ثلاثة من الصحابة: عمر ، وابنه ، وابن عباس . وقال سعيد بن المسيّب: إذا أقمتَ أربعاً فصَلِّ أربعاً ، وعنه: كقول أبى حنيفة .

وقال علىُّ بن أبى طالب: إنْ أقامَ عشراً ، أتَمَّ ، وهو روايةٌ عن ابن عباس .

وقال الحسن: يقصُر ما لم يقدَم مصراً .

وقالت عائشةُ: يقصُر ما لم يضع الزاد والمزاد .

(267/351)

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها يقول: اليوم أخرج، غداً أخرج، فإنه يقصر أبداً، إلا الشافعيّ فى أحد قوليه، فإنه يقصُر عنده إلى سبعة عشر، أو ثمانية عشر يوماً، ولا يقصُر بعدها. وقد قال ابن المنذر فى "إشرافه": أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يُجْمِع إقامة وإن أتى عليه سنون.

فصل

ومنها: جواز بل استحبابُ حِنْث الحالف فى يمينه إذا رأى غيرَها خيراً منها، فيكفِّرُ عن يمينه، ويفعلُ الذى هو خير، وإن شاء قدَّم الكَفَّارة على الحِنث، وإن شاء أخَّرها، وقد رُوى حديث أبى موسى هذا: "إلاَّ أَتَيْتُ الَّذِى هُوَ أَخْيَرُ، وتحلَّلتُها"، وفى لفظ: "إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينى وَأَتَيْتُ الَّذِى هُوَ أَخْيَرُ"، وفى لفظ: "إلاَّ أَتَيْتُ الَّذِى هُوَ خَيْرٌ، وَكَفَّرْتُ عَنْ يَمِينى"، وكلُّ هذه الألفاظ فى "الصحيحين"، وهى تقتضى عدم الترتيب.

وفى السنن من حديث عبد الرحمن بن سمرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم: "إذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْراً مِنْهَا، . فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، ثُمَّ ائْتِ الَّذى هُوَ خَيْرٌ". وأصله فى "الصحيحين"، فذهب أحمد، ومالك،

والشافعى إلى جواز تقديم الكَفَّارة على الحِنث، واستثنى الشافعىُّ التكفيرَ بالصوم، فقال: لا يجوزُ التقديمُ، ومنع أبو حنيفة تقديمَ الكفَّارة مطلقاً.

فصل

ومنها : انعقادُ اليمين فى حال الغضب إذا لم يَخْرُج بصحابه إلى حد لا يعلم معه ما يقول ، وكذلك ينفُذ حكمه ، وتَصِحُّ عقُودُه ، فلو بلغ به الغضبُ إلى حد الإغلاق ، لم تنعقِدْ يمينه ولا طلاقه . قال أحمد فى رواية حنبل فى حديث عائشة: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا طَلاَقَ وَلا عَتَاقَ فى إغْلاَقٍ" ، يريد الغضبَ .

فصل

(268/351)

ومنها : قولُه صلى الله عليه وسلم: "ما أنا حملتُكم ، ولكن الله حملَكم" ، قد يتعلق به الجبرىُّ ، ولا متعلق له به ، وإنما هذا مثل قوله: "واللهِ لا أُعْطى أحَداً شَيْئاً ، ولا أَمْنَعُ ، وإنَّما أَنَا قَاسِمٌ ، أَضَعُ حَيْثُ أُمِرْتُ" ، فإنه عبد الله ورسوله ، إنما يتصرف بالأمر ، فإذا أُمِرَه ربه بشىءٍ ، نفذه ، فالله هو المعطى ، والمانع ، والحامل ، والرسول منفذ لما أمر به . وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ [الأنفال: 17] ، فالمرادُ به القبضةُ من الحصباء التى رمى بها وجوهَ المشركين ، فوصلَت إلى عُيون جميعهم ، فأثبتَ اللهُ سبحانه له الرمىَ باعتبار النبذِ والإلقاء ، فإنه فعله ، ونفاه عنه باعتبار الإيصال إلى جميع المشركين ، وهذا فعلُ الرب تعالى لا تَصِلُ إليه قُدْرَةُ

العبد ، والرمىُ يُطلق على الخَذف وهو مبدؤه ، وعلى الإيصال ، وهو نهايتُه .

فصل

ومنها : تركُه قتل المنافقين ، وقد بلغه عنهم الكفرُ الصريحُ ، فاحتج به مَن قال: لا يُقْتَلُ الزنديق إذا أظهر التوبة ، لأنهم حلفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم ما قالوا ، وهذا إذا لم يكن إنكاراً ، فهو توبة وإقلاع ، وقد قال أصحابُنا وغيرهم: ومَن شُهِدَ عليه بالرِّدَّةِ ، فشهد أنْ لا إلهَ إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، لم يكشف عن شيء عنه بعد ، وقال بعض الفقهاء: إذا جحد الرِّدَّة ، كفاه جحدها . ومَن لم يقبل توبة الزنديق ، قال: هؤلاء لم تَقُمْ عليهم بيِّنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحكمُ عليهم بعلمه ، والذى بلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم قولَهم لم يبلِّغه إياه نصابُ البيِّنة ، بل شهد به عليهم واحد فقط ، كما شهد زيدُ ابن أرقم وحدَه على عبد الله بن أُبَيّ ، وكذلك غيرُه أيضاً ، إنما شهد عليه واحد .

(269/351)

وفى هذا الجواب نظر ، فإن نفاق عبد الله بن أُبَيّ ، وأقوالَه فى النفاق كانت كثيرةً جداً ، كالمتواترة عند النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبعضهم أقرَّ بلسانه ، وقال: "إنما

كنا نخوضُ ونلعب" ، وقد واجهه بعضُ الخوارج

فى وجهه بقوله: إنَّك لم تَعْدِلْ . والنبى صلى الله عليه وسلم لما قيل له: ألا تقتلهم ؟ لم يقل ما قامت عليهم بيّنةٌ ، بل قال: "لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أنَّ مُحَمَّداً يَقْتُلُ أصْحَابَه" .

فالجوابُ الصحيح إذن: أنه كان فى ترك قتلهم فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم مصلحة تتضمن تأليفَ القلوب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجمع كلمة الناس عليه ، وكان فى قتلهم تنفيرٌ ، والإسلام بعدُ فى غُربة ، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحرصُ شىْءٍ على تأليف الناسِ ، وأتركُ شىْء لما يُنَفِّرُهم عن الدخول فى طاعته ، وهذا أمر كان يختصُّ بحال حياته صلى الله عليه وسلم ، وكذلك تركُ قتل مَن طعن عليه فى حكمه بقوله فى قصة الزُّبير وخصمه: أنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ . وفى قسمه بقوله: إنَّ هذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ . وقول الآخر له: إنك لم تعدِل ، فإنَّ هذا محضُ حقه ، له أن يستوفِيَه ، وله أن يتركُه ، وليس للأُمة بعده تركُ استيفاء حقِّه ، بل يتعينُ عليهم استيفاؤه ، ولا بُدَّ ، ولتقرير هذه المسائل موضع آخر ، والغرضُ التنبيه والإشارة .

فصل

ومنها : أن أهلَ العهد والذِّمَّة إذا أحدث أحد منهم حَدَثاً فيه ضرر على الإسلام ، انتقضَ عهدُه فى ماله ونفسه ، وأنه إذا لم يقدر عليه الإمام ، فدمُه وماله هدر ، وهو لمن أخذه ، كما قال فى صلح أهل أيلة: فمَن أحدث منهم حَدَثاً ، فإنه لا يحول مالُه

دون نفسه ، وهو لمن أخذه من الناس ، وهذا لأنه بالإحداث صار محارباً ، حكمه حكم أهل الحرب .

فصل

(270/351)

ومنها : جواز الدفن بالليل ، كما دفن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذا البِجادين ليلاً ، وقد سُئل أحمد عنه ، فقال: وما بأسٌ بذلك . وقال: أبو بكر دُفِنَ ليلاً ، وعليّ دفن فاطمة ليلاً . وقالت عائشة: سمعنا صوتَ المساحِي من آخِر الليل فى دفن النبى صلى الله عليه وسلم . . انتهى . ودفن عُثمان ، وعائشةُ ، وابنُ مسعود ليلاً .

وفى الترمذى عن ابن عباس ، أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم دخل قبراً ليلاً ، فأُسْرِجَ له سِراج ، فأخذه من قِبَل القِبْلة ، وقال: "رحمك الله ؛ إن كُنْتَ لأَوَّاهاً تَلاءً لِلْقُرآن" . قال الترمذى: حديث حسن .

وفى البخارى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل عن رجل فقال: "مَنْ هذا" ؟ قالُوا : فُلانٌ دُفِنَ البَارِحَةَ ؛ فَصَلَّى عَلَيْهِ .

فإن قيل: فما تصنعون بما رواه مسلم فى "صحيحه" أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم

خطب يوماً ، فذكر رجلاً مِن أصحابه قُبِضَ فَكُفِّن فى كَفَنٍ غَيْرِ طَائِل ، وَقُبِرَ لَيْلاً ، فزجَرَ النَّبىُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يُقبَرَ الرَّجُلُ باللَّيْلِ حتَّى يُصَلَّى عليه إلا أَنْ يُضطرَّ إنْسَانٌ إلَى ذِلكَ ؟ قال الإمام أحمد : إليه أذهب .

قيل : نقول بالحديثين بحمد الله ، ولا نرُدُّ أحدَهما بالآخر ، فنكره الدفنَ بالليل ، بل نزجُر عنه إلا لضرورة أو مصلحة راجحة ، كميت مات مع المسافرين بالليل ، ويتضرَّرون بالإقامة به إلى النهار ، وكما إذا خِيف على الميت الانفجارُ ، ونحو ذلك من الأسباب المرجحة للدفن ليلاً . . وبالله التوفيق .

فصل

(271/351)

ومنها : أن الإمام إذا بعث سَرِيَّةً ، فغنِمَت غنيمة ، أو أسرت أسيراً ، أو فتحت حِصناً ، كان ما حصل من ذلك لها بعد تخميسه ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قسم ما صالح عليه أُكَيْدِر من فتح دُومة الجندل بين السريَّة الذين بعثهم مع خالد ، وكانوا أربعمائة وعشرين فارساً ، وكانت غنائِمُهم ألفى بعير وثمانمائة رأس ، فأصاب كُلَّ رجل منهم خمسُ فرائض ، وهذا بخلاف ما إذا أخرجت السريةُ من الجيش فى حال الغزو ، فأصابت ذلك

بقوة الجيش ، فإن ما أصابُوا يكون غنيمة للجميع بعد الخُمُس والنَّفلَ ، وهذا كان هَدْيه صلى الله عليه وسلم .

فصل

ومنها : قولُه صلى الله عليه وسلم: "إنَّ بالمَدِينَةِ أقْواماً مَا سِرْتُمْ مَسيراً ، ولا قَطَعْتُمْ وَادِياً إلاَّ كَانُوا مَعَكُم" ، فهذه المعية هى بقلوبهم وهممهم ، لا كما يظنه طائفة من الجُهَّال أنهم معهم بأبدانهم ، فهذا محال ، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة ؟ قال: "وهم بالمدينة حَبَسَهُمُ العُذْرُ" ، وكانوا معه بأرواحهم ، وبدار الهجرة بأشباحهم ، وهذا مِن الجهاد بالقلب ، وهو أحد مراتبه الأربع ، وهى القلب ، واللِّسان ، والمال ، والبدن . وفى الحديث: "جَاهِدُوا المُشْرِكِينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُلُوبِكُم وأَمْوالِكُم" .

فصل

(272/351)

ومنها : تحريقُ أمكنة المعصية التى يُعصى اللهُ ورسولُه فيها وهدمُها ، كما حرقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد الضِّرار ، وأمر بهدمه ، وهو مسجدٌ يُصلَّى فيه ، ويُذكر اسمُ الله فيه ، لما كان بناؤه ضِراراً وتفريقاً بين المؤمنينَ ، ومأوى للمنافقين ، وكُلُّ مكان هذا شأنه

، فواجب على الإمام تعطيلُه ، إما بهدم وتحريق ، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له . وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التى تدعو سدنتُها إلى اتخاذ مَنْ فيها أنداداً من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب ، وكذلك محالُّ المعاصى والفسوق ، كالحانات ، وبُيوت الخمَّارين ، وأرباب المنكرات ، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكمالها يُباع فيها الخمر ، وحرق حانوت رُويشد الثقفى وسماه فويسقاً ، وحرق قصرَ سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية ، وهمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحريق بيوت تَاركى حضور الجماعة والجُمُعة ، وإنما منعه مَن فيها من النساء والذُرِّية الذين لا تجبُ عليهم كما أخبر هو عن ذلك .

ومنها : أن الوقف لا يصح على غير برٍّ ولا قُربة ، كما لم يصحَّ وقفُ هذا المسجد ، وعلى هذا : فيُهدم المسجد إذا بُنى على قبر ، كما يُنبش الميتُ إذا دُفِنَ فى المسجد ، نص على ذلك الإمام أحمد وغيرُه ، فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجدٌ وقبر ، بل أيُّهما طرأ على الآخر . منع منه ، وكان الحكمِ للسابق ، فلو وُضِعا معاً ، لم يجز ، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز ، ولا تَصِحُّ الصلاة فى هذا المسجد لنهى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، ولعنه مَن اتخذ القبر مسجداً أو أوقد عليه سراجاً ، فهذا دينُ الإسلام الذى بعث الله به رسوله ونبيه ، وغربتُه بينَ الناس كما ترى .

فصل

ومنها : جواز إنشادِ الشّعر للقادم فرحاً وسروراً به ما لم يكن معه مُحرَّم من لهو ، كمزمار ، وشبابة ، وعود ، ولم يكن غناءً يتضمن رُقية الفواحش ،

(273/351)

وما حرَّم الله ، فهذا لا يُحَرِّمُه أحد ، وتَعَلُّقُ أربابِ السماع الفِسقى به كتعلق مَن يستحِلُّ شُربَ الخمر المسكر قياساً على أكل العنب ، وشرب العصير الذى لا يُسْكِر ، ونحو هذا من القياسات التى تشبه قياس الذين قالوا : إنما البيع مثل الربا .

ومنها : استماعُ النبى صلى الله عليه وسلم مدحَ المادحين له ، وتركُ الإنكار عليهم ، ولا يَصِحُّ قياسُ غيره عليه فى هذا ، لما بين المادحين والممدوحين من الفروق ، وقد قال: "احْثُوا فى وُجُوه المَدَّاحِينَ التُّرابَ" .

ومنها : ما اشتملت عليه قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا مِن الحِكَم والفوائد الجمَّة ، فنشيرُ إلى بعضها :

فمنها : جوازُ إخبار الرجل عن تفريطه وتقصِيرِه فى طاعة الله ورسوله ، وعن سبب ذلك ، وما آل إليه أمرُه ، وفى ذلك مِن التحذير والنصيحة ، وبيانِ طُرُقِ الخير والشر ، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأُمور .

ومنها : جوازُ مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع .

ومنها : تسلية الإنسان نفسَه عما لم يُقدَّر له من الخير بما قُدِّر له مِن نظيره أو خير منه .

ومنها : أن بَيْعةَ العَقَبَةِ كانت مِن أفضل مشاهد الصحابة ، حتى إن كعباً كان لا يراها دونَ مشهد بدر .

ومنها : أن الإمام إذا رأى المصلحة فى أن يستر عن رعيته بعضَ ما يهم به ويقصِدُه من العدو ، ويُورِّى به عنه ، استُحِبَّ له ذلك ، أو يتعين بحسب المصلحة .

ومنها أن السِّترَ والكِتمان إذا تضمن مفسدة ، لم يجز .

ومنها : أن الجيشَ فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن لهم دِيوان ، وأول مَن دوَّن الدِّيوان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهذا مِن سُنَّته التى أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباعها ، وظهرت مصلحتُها ، وحاجةُ المسلمين إليها .

(274/351)

ومنها : أن الرجلَ إذا حضرت له فُرصةُ القُربة والطاعة ، فالحزمُ كُلُّ الحزم فى انتهازها ، والمبادرة إليها ، والعجزُ فى تأخيرها ، والتسويف بها ، ولا سيما إذا لم يثق بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها ، فإن العزائم والهمم سريعةُ الانتقاض قلَّما ثبتت ، والله سُبحانه

يُعاقب مَنْ فتح له باباً من الخير فلم ينتهزه ، بأن يحول بين قلبه وإرادته ، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبةً له ، فمن لم يَستَجِبْ لله ورسوله إذا دعاه ، حال بينه وبين قلبه وإرادته ، فلا يمكنه الاستجابةُ بعد ذلك . قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ [الأنفال: 24] ، وقد صرَّح الله سبحانه بهذا فى قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام: 110] ، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف: 5] . وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: 115] وهو كثير فى القرآن .

ومنها : أنه لم يكن يتخلَّفُ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أحد رجال ثلاثة: إما مغموصٌ عليه فى النفاق ، أو رجلٌ من أهل الأعذار ، أو من خلَّفَهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم واستعمله على المدينة ، أو خَلَّفه لمصلحة .

ومنها : أن الإمام والمطاعَ لا ينبغى له أن يُهمِلَ مَنْ تخلَّفَ عنه فى بعض الأُمور ، بل يُذكِّره ليراجع الطاعة ويتوب ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قال بتبوك: "مَا فَعَلَ كَعْب" ؟ ولم يذكر سِواه من المخلَّفين استصلاحاً له ، ومُراعاةً وإهمالاً للقوم المنافقين .

ومنها : جوازُ الطعنِ فى الرجل بما يغلِبُ على اجتهادِ الطاعن حميةً ، أو ذبّاً عن الله ورسوله ، ومن هذا طعنُ أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواة ، ومن هذا طعنُ ورثة الأنبياء وأهل السُّنَّة فى أهل الأهواء والبِدَع لله لا لحظوظهم وأغراضهم .

ومنها : جوازُ الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الرادّ أنه وهم وغلط ، كما قال معاذ للذى طعن فى كعب: بئس ما قلتَ ، والله يا رسولَ الله ما علمنا عليه إلاَّ خيراً ، ولم يُنْكِرْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على واحد منهما .

ومنها : أن السُّنَّة للقادم من السفر أن يدخل البلَد على وضوء ، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته ، فيُصَلِّى فيه ركعتين ، ثم يجلس للمسلِّمين عليه ، ثم ينصرفُ إلى أهله .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقبل علانية مَن أظهر الإسلام من المنافقين ، ويَكِلُ سريرته إلى الله ، ويُجرى عليه حكم الظاهر ، ولا يُعاقبه بما لم يعلم مِن سِرّه .

ومنها : تركُ الإمام والحاكم ردَّ السلام على مَن أحدث حَدَثاً تأديباً له ، وزجراً لغيره ، فإنه صلى الله عليه وسلم لم يُنقل أنه رَدَّ على كعب ، بل قابل سلامه بتبسم المُغْضَبِ .

ومنها : أن التبسم قد يكون عن الغضب ، كما يكون عن التعجب والسرور ، فإن كلاّ منهما يُوجب انبساط دمِ القلب وثورانه ، ولهذا تظهر حمرةُ الوجه لسرعة ثورانِ الدم فيه ، فينشأ عن ذلك السرور ، والغضب تعجُّبٌ يتبعهُ ضحك وتبسم ،

فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه فى وجهه ، ولا سيما عند المَعتَبَةِ كما قيل:

إذا رَأَيتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلا تَظُنَّنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

(276/351)

ومنها : معاتبةُ الإمام والمطاع أصحابه ، ومَن يعز عليه ، ويَكْرُم عليه ، فإنه عاتَب الثلاثة دونَ سائِرِ مَنْ تخلَّف عنه ، وقد أكثر الناسُ من مدح عتاب الأحبة ، واستلذاذه ، والسرور به ، فكيف بعتاب أحبِّ الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه ، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب ، وما أعظم ثمرتَه ، وأجلَّ فائدتَه ، ولله ما نال به الثلاثةُ مِن أنواع المسرَّات ، وحلاوةِ الرضى ، وخِلَعِ القبول .

ومنها : توفيقُ اللهِ لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق ، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق ، فصلُحت عاجلتهم ، وفسدت عاقبتُهم كلَّ الفساد ، والصادقون تعبوا فى العاجلة بعضَ التعب ، فأعقبهم صلاح العاقبة ، والفلاح كُلَّ الفلاح ، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة ، فمراراتُ المبادى حلاوات فى العواقب ، وحلاوات المبادى مرارات فى العواقب . وقول النبيِّ صلى الله عليه وسلم لكعب: "أما هذا ، فقد صدق" ، دليلٌ ظاهر فى التمسك بمفهوم اللَّقب عند قيام قرينة تقتضى تخصيص المذكور بالحكم ،

كقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ [الأنبياء: 78-79] ، وقوله صلى الله عليه وسلم: "جُعِلت لى الأرضُ مسجداً وتُربَتُها طهوراً" ، وقوله فى هذا الحديث: "أما هذا فقد صدق" ، وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم.

(277/351)

وقول كعب: هل لقى هذا معى أحد ؟ فقالوا: نعم ، مرارة بن الربيع ، وهلال بن أُمية ، فيه أن الرجل ينبغى له أن يردَّ حرَّ المصيبة بروح التأسى بمن لقى مثل ما لقى ، وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ، إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ [النساء: 104] ، وهذا هو الروح الذى منعه الله سبحانه أهلَ النارِ فيها بقوله: ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: 39]

وقوله: "فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً لى فيهما أُسوة" هذا الموضع مما عُدَّ من أوهام الزُّهْرى ، فإنه لا يُحفظ عن أحد من أهل المغازى والسير البتة ذِكرُ هذين الرجلين فى أهل بدر ، لا ابن إسحاق ولا موسى ابن عقبة ، ولا الأموى ، ولا الواقدى ، ولا أحد ممن

عدّ أهل بدر ، وكذلك ينبغى ألاَّ يكونا من أهل بدر ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم لمْ يَهْجُرْ حاطباً ، ولا عاقبه وقد جسَّ عليه ، وقال لعمر لما هَمَّ بقتله: "وما يُدريكَ أن الله اطلع على أَهْلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئْتُم فقد غفرتُ لكم" ، وأين ذنبُ التخلف من ذنب الجسّ .

قال أبو الفرج بن الجوزى: ولم أزل حريصاً على كشف ذلك وتحقيقه حتى رأيتُ أبا بكر الأثرم قد ذكر الزُّهْرى ، وذكر فضله وحفظه وإتقانه ، وأنه لا يكاد يُحفظ عليه غلط إلا فى هذا الموضع ، فإنه قال: إن مرارة بن الربيع ، وهلال بن أُمية شهدا بدراً ، وهذا لم يقله أحدٌ غيره ، والغلط لا يُعصم منه إنسان .

(278/351)

فصل

وفى نهى النبىِّ صلى الله عليه وسلم عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر مَن تخلَّف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين ، فأراد هجرَ الصادقين وتأديبَهم على هذا الذنب ، وأما المنافِقون ، فجُرمهم أعظمُ من أن يُقابَل بالهجر ، فدواء هذا المرض لا يعمل فى مرض النفاق ، ولا فائدةَ فيه ، وهكذا يفعلُ الرب سبحانه بعباده فى عقوبات جرائمهم ، فيؤدِّبُ

عبده المؤمن الذى يحبُه وهو كريم عنده بأدنى زلَّة وهفوة ، فلا يزال مستيقظاً حَذِراً ، وأما مَن سقط من عينه وهان عليه ، فإنه يُخلَى بينَه وبين معاصيه ، وكلما أحدث ذنباً أحدث له نِعمة ، والمغرورُ يظن أن ذلك مِن كرامته عليه ، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة ، وأنه يُريد به العذابَ الشديد ، والعقوبةَ التى لا عاقبة معها ، كما فى الحديث المشهور: "إِذَا أَرَادَ اللهُ بَعَبْدٍ خَيْراً عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فى الدُّنْيَا ، وإِذَا أرادَ بِعَبْدٍ شَراً ، أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَتَهُ فى الدُّنْيَا ، فَيَرِدُ يَوْمَ القِيَامَة بذُنُوبِه" .

وفيه دليل أيضاً على هِجران الإمام ، والعالِم ، والمطاعِ لمن فعل ما يستوجِبُ العَتب ، ويكون هِجرانه دواء له بحيث لا يضعُف عن حصولِ الشفاء به ، ولا يزيدُ فى الكمية والكيفية عليه فيهلكه ، إذ المرادُ تأديبُه لا إتلافُه .

وقوله: "حتى تنكرت لى الأرض ، فما هِيَ بالتى أعرِفُ" هذا التنكرُ يجده الخائفُ والحزينُ والمهمومُ فى الأرض ، وفى الشجر ، والنبات حتى يجدَه فيمن لا يُعلم حاله من الناس ، ويجده أيضاً المذنبُ العاصى بحسب جُرمه حتى فى خُلُقِ زوجته وولده ، وخادمه ودابته ، ويَجِدُه فى نفسه أيضاً ، فتتنكر له نفسُه حتى ما كأنَّه هو ، ولا كأنَّ أهلَه وأصحابَه ، ومَن يُشْفِقُ عليه بالَّذِينَ يعرِفُهم ، وهذا سر من الله لا يخفى إلا على مَن هو ميتُ القلب ، وعلى حسب حياة القلب ، يكون إدراكُ هذا التنكر والوحشة . وما لجرح بميت إيلام .

ومن المعلوم ، أن هذا التنكرَ والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم ، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به ، وهكذا القلبُ إذا استحكم مرضُه ، واشتد ألمُه بالذنوب والإجرام ، لم يجد هذه الوحشة والتنكر ، ولم يحس بها ، وهذه علامةُ الشقاوة ، وأنه قد أيسَ من عافية هذا المرض ، وأعيا الأطباء شِفاؤه ، والخوفُ والهمُّ مع الريبة ، والأمنُ والسرورُ مع البراءةِ مِن الذنب .

فَمَا فى الأَرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بَرِىءٍ وَلا فى الأَرْضِ أَخْوَفُ مِنْ مُرِيبِ

وهذا القدرُ قد ينتفع به المؤمنُ البَصيرُ إذا ابتُلِىَ به ثم راجع ، فإنه ينتفع به نفعاً عظيماً مِن وجوه عديدة تفوتُ الحصرَ ، ولو لم يكن منها إلا استشمارُه من ذلك أعلام النبوة ، وذوقُه نفس ما أخبر به الرسولُ فيصير تصديقه ضرورياً عنده ، ويصيرُ ما ناله مِن الشر بمعاصيه ، ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التى لا تتطرقُ إليها الاحتمالات ، وهذا كمن أخبرك أن فى هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيتَ وكيتَ على التفصيل ، فخالفته وسلكتها ، فرأيتَ عَيْن ما أخبرَكَ به ، فإنك تَشْهَدُ صِدقَه فى نفس خِلافك لهُ ، وأما إذا سلكت طريقَ الأمن وحدها ، ولم تجد من تلك المخاوف

شيئاً ، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلاً ، فإن علمه بتلك يكون

مجملاً .

فصل

(280/351)

منها : أن هلال بنَ أُمية ومرارة قعدا فى بيوتهما ، وكانا يُصلِّيان فى بيوتهما ، ولا يحضُران الجماعة ، وهذا يدل على أن هِجران المسلمين للرجل عذر يُبيح له التخلف عن الجماعة ، أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين ، لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عتب عليهما على التخلف ، وعلى هذا فيُقال: لما أُمِرَ المسلمون بهجرهم تركوا : لم يُؤمروا ، ولم يُنهوا ، ولم يُكلَّموا ، فكان مَن حضر منهم الجماعة لم يُمنع ، ومَن تركها لم يُكلَّم ، أو يقال: لعلهما ضَعُفَا وعَجَزا عن الخروج ، ولهذا قال كعب: وكنتُ أنا أجلدَ القوم وأشبَّهم ، فكنتُ أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين .

وقوله: "وآتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأُسلِّم عليه ، وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول: هل حرَّك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا" ؟ فيه دليل على أن الرد على مَن يستحق الهجرَ غيرُ واجب ، إذ لو وجب الرد لم يكن بُد من إسماعه .

وقوله: "حتى إذا طال ذلك عليَّ ، تسورتُ جدار حائط أبى قتادة" ، فيه دليل على دخول الإنسان دارَ صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك ، وإن لم يستأْذِنْه .

وفى قول أبى قتادة له: "الله ورسوله أعلم" ، دليل على أن هذا ليس بخطاب ولا كلام له ، فلو حلف لا يُكلِّمه ، فقال مثلَ هذا الكلام جواباً له لم يحنث ، ولا سيما إذا لم ينو به مكالمته ، وهو الظاهر من حال أبى قتادة .

(281/351)

وفى إشارة الناس إلى النَّبطى الذى كان يقول: مَن يدل على كعب بن مالك دون نطقهم له تحقيقٌ لمقصود الهجر ، وإلا فلو قالوا له صريحاً : ذاك كعب بن مالك ، لم يكن ذلك كلاماً له ، فلا يكونون به مخالفين للنهى ، ولكن لِفرط تحرِّيهم وتمسكهم بالأمر ، لم يذكروه له بصريح اسمه . وقد يقال: إن فى الحديث عنه بحضرته وهو يسمع نوع مكالمة له ، ولا سيما إذا جعل ذلك ذريعة إلى المقصود بكلامه ، وهى ذريعةٌ قريبة ، فالمنع من ذلك من باب منع الحيل وسد الذرائع ، وهذا أفقه وأحسن .

وفى مكاتبة ملك غسَّان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى ، وامتحان لإيمانه ومحبته للهِ ورسوله ، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانُه بهجر النبى صلى الله عليه وسلم

والمسلمين له ، ولا هو ممن تحمِلُه الرغبة فى الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه ، فهذا فيه من تبرئة الله له مِن النفاق ، وإظهار قوة إيمانه ، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه ، ولطفه به ، وجبره لكسره ، وهذا البلاءُ يُظهر لُبَّ الرجل وسره ، وما ينطوى عليه ، فهو كالكِير الذى يُخرج الخبيث من الطيب .

وقوله: "فتيممتُ بالصحيفة التنورَ" ، فيه المبادرة إلى إتلاف ما يُخشى منه الفساد والمضرَّة فى الدين ، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يُؤخره ، وهذا كالعصير إذا تخمَّر ، وكالكتاب الذى يُخشى منه الضررُ والشر ، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه .

وكانت غسَّان إذ ذاك وهُم ملوك عرب الشام حرباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانوا ينعلُون خيولَهم لمحاربته ، وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدى إلى ملكهم الحارث بن أبى شمر الغسَّانى يدعوه إلى الإسلام ،

(282/351)

وكتب معه إليه ، قال شجاع: فانتهيتُ إليه وهو فى غَوْطة دمشق ، وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطافِ لقيصر ، وهو جاءٍ من حمصَ إلى إيلياء ، فأقمتُ على بابه يومين أو ثلاثة ، فقلتُ لحاجبه: إنى رسول رسولِ الله صلى الله عليه وسلم إليه ، فقال: لا تَصِلُ إليه حتى

يخرُجَ يومَ كذا وكذا ، وجعل حاجبُه وكان روميا اسمه مرى يسألُنى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنتُ أُحدّثُه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما يدعو إليه ، فيرقُّ حتى يغلِبَ عليه البكاء ، ويقول: إنى قرأتُ الإنجيل ، فأجدُ صفة هذا النبى بعَيْنه ، فأنا أُؤمن به وأُصدّقه ، فأخافُ من الحارث أن يقتلنى ، وكان يُكرمنى ويُحسن ضيافتى ، وخرج الحارث يوماً فجلس ، فوضع التاجَ على رأسه ، فأذِن لى عليه ، فدفعتُ إليه كتابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقرأه ، ثمَّ رمى به ، قال: مَن ينتزِعُ مِنى ملكى ، وقال: أنا سائر إليه ، ولو كان باليمن جئتُه ، علىَّ بالناس ، فلم تزل تُعرض حتى قام ، وأمر بالخيول تُنعل ، ثم قال: أخبر صاحِبَكَ بما ترى ، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى ، وما عزم عليه ، فكتب إليه قيصر: أن لا تَسِرْ ، ولا تَعْبُرْ إليه ، والهُ عنه ، ووافنى بإيلياء ، فلما جاءه جوابُ كتابه ، دعانى فقال: متى تُريد أن تخرُجَ إلى صاحبك ؟ فقلت: غداً ، فأمر لى بمائةِ مثقالٍ ذهباً ، ووصلنى حاجبُه بنفقة وكُسوةٍ ، وقال: اقرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم منى السلام ، فقدمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبرته ، فقال: "بَادَ مُلْكُه" ، وأقرأته من حاجبه السلام ، وأخبرته بما قال ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "صدق" ، ومات الحارث بن أبى شمر عام الفتح ، ففى هذه المدة أرسل ملكُ غسَّان يدعو كعباً إلى اللحاق به ، فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودينه .

فصل

فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الثلاثة باعتزال نساءهم

(283/351)

أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة ، كالبشارة بمقدمات الفَرَج والفتح مِن وجهين:

أحدهما : كلامُه لهم ، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله .

الثانى : مِن خصوصية أمرهم باعتزال النساء ، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد فى العبادة ، وشد المئزر ، واعتزال محل اللَّهو واللَّذة ، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة ، وفى هذا إيذان بقرب الفَرَج ، وأنه قد بقى من العتب أمر يسير .

وفقه هذه القصة ، أن زمن العبادات ينبغى فيه تجنبُ النساء ، كزمن الإحرام ، وزمن الاعتكاف ، وزمن الصيام ، فأراد النبىُّ صلى الله عليه وسلم أن يكون آخرُ هذه المدة فى حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام فى توفرها على العبادة ، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمةً بهم ، وشفقةً عليهم ، إذ لعَلهم يضعف صبرهم عن نسائهم فى جميعها ، فكان من اللُّطف بهم والرحمة ، أن أُمروا بذلك فى آخر المدة ، كما يؤمر به الحاج من حين يُحرم ، لا

من حين يعزم على الحج .

وقول كعب لامرأته: "الحقى بأهلك" ، دليل على أنه لم يقطع بهذه اللَّفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه . والصحيح: أن لفظ الطلاق والعتاق والحرية كذلك إذا أراد به غير تسييب الزوجة ، وإخراج الرقيق عن ملكه ، لا يقع به طلاقٌ ولا عتاق ، هذا هو الصواب الذى ندينُ الله به ، ولا نرتابُ فيه ألبتة .

فإذا قيل له: إن غلامك فاجر أو جاريتك تزنى ، فقال: ليس كذلك ،

(284/351)

بل هو غلام عفيف حر ، وجارية عفيفة حرة ، ولم يُرد بذلك حرية العتق ، وإنما أراد حرية العفة ، فإن جاريته وعبده لا يُعتقان بهذا أبداً ، وكذا إذا قيل له: كم لغلامك عندك سنة ؟ فقال: هو عتيق عندى ، وأراد قدم ملكه له ، لم يُعتق بذلك ، وكذلك إذا ضرب امرأته الطلق ، فسئل عنها ، فقال: هى طالق ، ولم يخطر بقلبه إيقاع الطلاق ، وإنما أراد أنها فى طلق الولادة ، لم تُطلَّق بهذا ، وليست هذه الألفاظ مع هذه القرائن صريحة إلا فيما أُريد بها ، ودل السياق عليها ، فدعوى أنها صريحة فى العتاق والطلاق مع هذه القرائن مكابرة ، ودعوى باطلة قطعاً .

فصل

وفى سجود كعب حين سمع صوت المبشِّر دليل ظاهر أن تلك كانت عادة الصحابة ، وهى سجودُ الشكر عند النعم المتجددة ، والنقم المندفعة ، وقد سجد أبو بكر الصِّدِّيق لما جاءه قتلُ مُسَيْلِمة الكذَّاب ، وسجد علىُّ بن أبى طالب لما وجد ذا الثُّدَيَّةِ مقتولاً فى الخوارج ، وسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بشَّره جبريلُ أنه مَن صَلَّى عليه مَرَّة صَلَّى الله عليه بها عشراً ، وسجد حين شفع لأُمته ، فشفعه الله فيهم ثلاث مرات ، وأتاه بشير فبشَّره بظفر جند له على عدوهم ورأسه فى حَجر عائشة ، فقام فخرَّ ساجداً ، وقال أبو بكرة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه أمر يسُرُّه خرَّ للهِ ساجداً ، وهى آثار صحيحة لا مطعن فيها .

وفى استباق صاحب الفرس والراقى على سلع ليبشِّرا كَعباً دليل على حرص القوم على الخير ، واستباقهم إليه ، وتنافُسهم فى مسَرَّة بعضهم بعضاً .

وفى نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير ، دليل على أن إعطاء المبشِّرين من مكارم الأخلاق والشيم ، وعادة الأشراف ، وقد أعتق العباس غلامه لما بشَّره أن عند الحجاج بن علاط من الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يسره . وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه .

وفيه دليل على استحباب تهنئة مَن تجدَّدت له نعمة دينية ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومصافحته ، فهذه سُنَّة مستحَبة ، وهو جائز لمن تجددت له نِعمةٌ دنيوية ، وأن الأَوْلى أن يقال له: لِيهنك ما أعطاك الله ، وما مَنَّ الله به عليك ، ونحو هذا الكلام ، فإن فيه تولية النعمة ربَّها ، والدعاء لمن نالها بالتهنى بها .

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يومُ توبته إلى الله ، وقبول الله توبته ، لقول النبى صلى الله عليه وسلم: "أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ" .

فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خيراً من يوم إسلامه ؟ قيل: هو مكمل ليوم إسلامه ، ومن تمامه ، فيومُ إسلامه بداية سعادته ، ويومُ توبته كمالها وتمامها . . والله المستعان .

وفى سرور رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأُمة ، والرحمة بهم والرأفة ، حتى لعل فرحه كان أعظم مِن فرح كعب وصاحبيه .

وقول كعب: "يا رسول الله ؛ إن من توبتى أن أنخلع من مالى" ، دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال .

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ" ، دليل على أن مَن نذر الصدقة بكُلِّ ماله ، لم يلزمه إخراجُ جميعه ، بل يجوز له أن يُبقى له منه بقية ، وقد اختلفت الرواية فى ذلك ، ففى "الصحيحين" أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ" ولم يُعيّن له قدراً ، بل أطلق ووكله إلى اجتهاده فى قدر الكفاية ، وهذا هو الصحيح ، فإن ما نقص عن كفايته وكفاية أهله لا يجوز له التصدق به ، فنذره لا يكون طاعة ، فلا يجب الوفاء به ، وما زاد على قدر كفايته وحاجته ، فإخراجه والصدقة به أفضل ، فيجب إخراجُه إذا نذره ، هذا قياسُ المذهب ، ومقتضى قواعِد الشريعة ، ولهذا تُقدَّم كفاية الرجل ، وكفايةُ أهله على أداء الواجبات المالية ، سواء أكانت حقاً لله كالكفَّارات والحَجِّ ، أو حقاً للآدميين كأداء الديون

فإنَّا نترك للمفلس ما لا بُدَّ منه من مسكن ، وخادم ، وكسوة ، وآلةِ حِرفة ، أو ما يتَّجِرُ به لمؤنته إن فُقِدت الحرفة ، ويكون حق الغرماء فيما بقى . وقد نص الإمام أحمد على أن مَن نذر الصدقة بمالِه كُلِّه ، أجزأه ثُلُثُه ، واحتج له أصحابُه بما رُوى فى قصة كعب هذه ، أنه قال: "يا رسول الله ؛ إنَّ من توبتى إلى الله ورسوله أن أخرُجَ من مالى كُلِّه إلى الله ورسوله صدقة ، قال: "لا" ، قلت: فنصفُه ؟ . قال: "لا" ، قلت: فثُلُثُه قال: "نعم" ، قلت: فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر" . رواه أبو داود . وفى ثبوت هذا ما فيه ، فإن الصحيح فى

قصة كعب هذه ما رواه أصحاب الصحيح من حديث الزُّهْرى ، عن ولد كعب بن مالك عنه أنه قال: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِك" ،

مِن غير تعيين لقدره ، وهم أعلمُ بالقصة مِن غيرهم ، فإنهم ولدُه ، وعنه نقلوها .

(287/351)

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الإمام أحمد فى "مسنده" أن أبا لُبابةَ بن عبد المنذر لما تابَ اللهُ عليه ، قال: يا رسولَ الله ؛ إنَّ مِنْ تَوْبَتى أنْ أهْجُرَ دَارَ قَوْمِى وأُساكِنَكَ ، وأن أنْخَلِعَ مِنْ مَالِى صَدَقَةً للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "يُجْزِئُ عَنْكَ الثُّلُثُ" . قيل: هذا هو الذى احتج به أحمد ، لا بحديث كعب ، فإنه قال فى رواية ابنه عبد الله: إذا نذر أن يتصدَّق بماله كُلِّه أو ببعضه ، وعليه دَيْنٌ أكثر مما يملكه ، فالذى أذهبُ إليه أنه يُجزئه من ذلك الثُّلُث ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أبا لُبابة بالثُّلُث ، وأحمد أعلمُ بالحديث أن يحتج بحديث كعب هذا الذى فيه ذكر الثُّلُث ، إذ المحفوظ فى هذا الحديث: "أمسك عليك بعضَ مالك" وكأنّ أحمد رأى تقييد إطلاق حديثِ كعبٍ هذا بحديث أبى لبابة .

وقوله فيمن نذر أن يتصدَّق بماله كله أو ببعضه وعليه دَيْن يستغرِقه: إنه يجزئه من ذلك الثُّلُث

، دليل على انعقاد نذره ، وعليه دَيْن يستغرِقُ ماله ، ثم إذا قضى الدَّين ، أخرج مقدار ثُلُث ماله يومَ النذر ، وهكذا قال في رواية ابنه عبد الله: إذا وهب ماله ، وقضى دَيْنه ، واستفاد غيره ، فإنما يجبُ عليه إخراجُ ثُلُث ماله يوم حِنثه ، يريد بيوم حِنثه يومَ نذره ، فينظر قدر الثُلُث ذلك اليوم ، فيُخرجه بعد قضاء دَيْنه .

وقوله: أو ببعضه . يُريد أنه إذا نذر الصدقة بمُعيَّن مِن ماله ، أو بمقدار كألْفٍ ونحوها ، فيجزئه ثُلُثه كنذر الصدقة بجميع ماله ، والصحيح من مذهبه لزومُ الصدقة بجميع المُعيَّن ، وفيه رواية أُخرى ، أن المُعيَّن إن كان ثُلُث ماله فما دونه ، لزمه الصدقةُ بجميعه ، وإن زاد على الثُلُث ، لزمه منه بقدر الثُلُث ، وهي أصحُّ عند أبي البركات .

(288/351)

وبعد . . فإن الحديثَ ليس فيه دليل على أن كعباً وأبا لبابة نذرا نذراً منجَّزاً ، وإنما قالا: إن مِن توبتنا أن ننخلِعَ مِن أموالنا ، وهذا ليس بصريح في النذر ، وإنما فيه العزمُ على الصدقة بأموالهما شكراً لله على قبول توبتهما ، فأخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أن بعضَ المال يُجزئ من ذلك ، ولا يحتاجان إلى إخراجه كله ، وهذا كما قال لسعد وقد استأذنه أن يُوصِيَ بماله كلِّه ، فأذن له في قدر الثُلُث .

فإن قيل: هذا يدفعُه أمران. أحدهما: قوله: "يُجزئك"، والإجزاء إنما يُستعمل فى الواجب، والثانى: أن منعه مِن الصدقة بما زاد على الثُلُث دليل على أنه ليس بقُربة، إذ الشارع لا يمنع من القُرَب، ونذر ما ليس بقُربة لا يلزم الوفاءُ به.

قيل: أما قوله: "يُجزئك"، فهو بمعنى يكفيك، فهو من الرباعى، وليس من "جزى عنه" إذا قضى عنه، يقال: أجزأنى: إذا كفانى، وجزى عنى: إذا قضى عنى، وهذا هو الذى يُستعمل فى الواجب، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم

لأبى بُردة فى الأُضحية: "تَجْزِى عَنْكَ وَلَنْ تَجْزِىَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ" والكفاية تُستعمل فى الواجب والمستحَب.

وأما منعُه مِن الصدقة بما زاد على الثُلُث، فهو إشارة منه عليه بالأرفق به، وما يحصل له به منفعة دينه ودنياه، فإنه لو مكَّنه من إخراج ماله كُلِّه لم يصبِرْ على الفقر والعدم، كما فعل بالذى جاءه بالصُّرة ليتصدق بها، فضربه بها، ولم يقبلها منه خوفاً عليه من الفقر، وعدم الصبر. وقد يقال وهو أرجحُ إن شاء الله تعالى: إن النبى صلى الله عليه وسلم عامل كُلَّ واحدٍ ممن أراد الصدقة بماله بما يعلم من حاله، فمكَّن أبا بكر الصِّدِّيق من إخراج مالِه كُلِّه، وقال: "ما أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ"؟ فقال: أبقيتُ لهم اللهَ ورسوله،

فلم يُنكر عليه، وأقرَّ عمر على الصدقة بِشَطْرِ ماله، ومنع صاحب الصُّرة

من التصدُّق بها ، وقال لكعب: "أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ" ، وهذا ليس فيه تعيين المخرج بأنه الثُّلُث ، ويبعُد جداً بأن يكون الممسَك ضِعفى المُخْرَج فى هذا اللَّفظ ، وقال لأبى لبابة: "يُجزئك الثُّلُث" ، ولا تناقض بين هذه الأخبار ، وعلى هذا ، فمَن نذر الصدقة بماله كُلِّه ، أمسك منه ما يحتاجُ إليه هو وأهلُه ، ولا يحتاجون معه إلى سؤال الناسِ مدةَ حياتِهم من رأس مال أو عَقار ، أو أرض يقومُ مَغَلُّها بكفايتهم ، وتصدَّق بالباقى . . والله أعلم .

وقال ربيعة بن أبى عبد الرحمن: يتصدَّقُ منه بقدر الزكاة ، ويُمسك الباقى . وقال جابر بن زيد : إن كان ألفين فأكثرَ ، أخرج عُشْرَهُ ، وإن كان ألفاً ، فما دون فسُبْعَهُ ، وإن كان خمسمِائة فما دُون فَخُمْسَهُ . وقال أبو حنيفة رحمه الله: يتصدَّق بكلِّ ماله الذى تجبُ فيه الزكاةُ ، وما لا تجب فيه الزكاة ، ففيه روايتان: أحدهما : يُخرجه ، والثانية: لا يلزمه منه شيئ .

وقال الشافعى: تلزمه الصدقةُ بماله كله ، وقال مالك ، والزُّهرى ، وأحمد : يتصدَّقُ بثُلُثه ، وقالت طائفة: يلزمه كفَّارة يمين فقط .

فصل

ومنها : عِظَم مقدارِ الصِّدق ، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة ، والنجاة مِن شرهما به ، فما أنجى الله مَن أنجاه إلا بالصدق ، ولا أهلك مَن أهلكه إلا بالكذب ، وقد أمر اللهُ سبحانه

عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين ، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] .

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء ، فجعل السعداء هم أهلَ الصدق والتصديق ، والأشقياء هم أهلَ الكذب والتكذيب ، وهو تقسيم حاصِر مطَّرد منعكِس . فالسعادةُ دائرة مع الصدق والتصديقِ ، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب .

(290/351)

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفعُ العبادَ يومَ القيامة إلا صدقهم ، وجعل عَلَم المنَافقين الذى تميزوا به هو الكذبَ فى أقوالهم وأفعالهم ، فجميعُ ما نعاه عليهم أصلُه الكذبُ فى القول والفعل ، فالصدق بريدُ الإيمان ، ودليله ، ومركبه ، وسائقه ، وقائده ، وحِليته ، ولباسُه ، بل هو لبُّه وروحه . والكذب: بريدُ الكفر والنفاق ، ودليلهُ ، ومركبه ، وسائقه ، وقائدُه ، وحليته ، ولباسه ، ولبُّه ، فمضادة الكذبِ للإيمان كمضادة الشّرك للتوحيد ، فلا يجتمعُ الكذب والإيمان إلا ويطرُد أحدهما صاحبه ، ويستقِرُّ موضعه ، والله سبحانه أنجى الثلاثَةَ بصدقهم ، وأهلكَ غيرَهم من المخلَّفين بكذبهم ، فما أنعم اللهُ على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذى هو غِذاء الإسلام وحياتُه ، ولا ابتلاه ببلية أعظمَ من

الكذب الذى هو مرضُ الإسلام وفساده . والله المستعان .

وقوله تعالى: ﴿ لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ . إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 117] ، هذا من أَعظَم ما يُعَرِّفُ العبد قدرَ التوبة وفضلَها عند الله ، وأنها غاية كمال المؤمن ، فإنَّه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزواتِ بعد أن قَضَوْا نحبَهم ، وبذلوا نفوسهم ، وأموالهم ، وديارهم لله ، وكان غايةَ أمرهم أن تاب عليهم ، ولهذا جعل النبى صلى الله عليه وسلم يومَ توبةِ كعب خيرَ يوم مَرَّ عليه منذ ولدته أُمه ، إلى ذلك اليوم ، ولا يعرِفُ هذا حق معرفته إلا مَن عرف الله ، وعرف حقوقَه عليه ، وعرف ما ينبغى له من عُبوديته ، وعرف نفسَه وصفاتِها وأفعالها ، وأن الذى قام

به مِن العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه ، كقَطْرة فى بحرٍ ، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة ، فسُبحان مَن لا يسعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته ، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته ، وليس إلا ذلك أو الهلاك ، فإن وضع عليهم عدله ، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه عذَّبهم ، وهو غيرُ ظالم لهم ، وإن رحمهم ، فرحمتُه خير لهم من أعمالهم ، ولا يُنجى أحداً

منهم عملُه .

فصل

وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين فى أول الآية وآخِرها ، فإنه تاب عليهم أولاً بتوفيقهم للتوبة ، فلما تابوا ، تاب عليهم ثانياً بقبولها منهم ، وهو الذى وفقهم لفعلها ، وتفضَّل عليهم بقبولها ، فالخير كله منه وبه ، وله وفى يديه ، يعطيه مَن يشاءُ إحساناً وفضلاً ، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلاً .

فصل

وقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ ﴾ [التوبة: 118] ، قد فسَّرها كعبٌ بالصواب ، وهو أنهم خُلِّفُوا من بين مَن حلفَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، واعتذر من المتخلفين ، فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم ، وأرجأ أمرهم دونهم ، وليس ذلك تخلُّفهم عن الغزو ، لأنه لو أراد ذلك ، لقال: تخلَّفوا ، كما قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللهِ ﴾ [التوبة: 120] ، وذلك لأنهم تخلَّفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عَن أمر المتخلِّفين سواهم ، فإن الله سبحانه هو الذى خلَّفهم عنهم ، ولم يتخلَّفوا عنه بأنفسهم . . والله أعلم .

فصل: فى حَجَّة أبى بكر الصِّدِّيق رضى اللهُ عنه سنة تسع بعد مقدمه من تَبُوك

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منصرَفه مِن تَبُوك بقيةَ رمضانَ

وشوّالاً وذا القَعدة ، ثم بعث أبا بكر أميراً على الحج سنةَ تسعٍ ليقيم للمسلمين حَجَّهم ، والناس من أهل الشِّرك على منازلهم من حَجِّهم ، فخرج أبو بكر والمؤمنون .

(292/351)

قال ابن سعد : فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ، وبعث معه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعشرين بدنة ، قلَّدها وأشعرها بيده ، عليها ناجية بن جُندب الأسلمي ، وساق أبو بكر خمس بدنات .

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقضِ ما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين المشركين مِن العهد الذي كانوا عليه ، فخرج عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم العضباء .

قال ابن سعد : فلما كان بالعَرْج وابن عائذ يقول: بضَجَنان لحقه عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على العضباء ، فلما رآه أبو بكر ، قال: أميرٌ أو مأمورٌ ؟ قال: لا بل مأمور ، ثم مضيا .

وقال ابن سعد : فقال له أبو بكر : أستعملك رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على الحج ؟ قال: لا ، ولكن بعثني أقرأ براءة على الناس ، وأَنبذ إلى كل ذي عَهدٍ عهده ، فأقام أبو بكر

للناس حَجَّهم ، حتى إذا كان يومُ النحر ، قام عليُّ بن أبى طالب ، فأذَّن فى الناس عند الجمرة بالذى أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونبذ إلى كل ذى عهد عهده ، وقال: أَيها الناس ؛ لا يدخُلُ الجنَّة كافر ، ولا يحجُّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفُ بالبيت عُريان ، ومَن كان له عهد عِند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو إلى مُدَّته .

وقال الحميدى: حدَّثنا سفيان ، قال: حدَّثنى أبو إسحاق الهَمْدَانى ، عن زيد بن يُثَيْع ، قال: سألنا علياً ، بأى شئ بُعِثْتَ فى الحَجَّة ؟ قال: بُعِثتُ بأربع: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نفسٌ مُؤمِنة ، ولا يَطُوفُ بالبيت عُريان ، ولا يجتمِعُ مُسلم وكافر فى المسجد الحرام بعد عامِه هذا ، ومَنْ كان بينَه وبَيْن النبىِّ صلى الله عليه وسلم عهد ، فعهده إلى مُدَّته ، ومَن لم يكن له عهد ، فأجلُه إلى أربعةِ أشهرٍ .

(293/351)

وفى "الصحيحين": عن أبى هُريرة ، قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحَجَّة فى مُؤذِّنِينَ بعثهم يومَ النحر يؤذِّنون بمِنَى: أَلَّا يَحُجَّ بعدَ هذا العامِ مُشرِك ، ولا يَطُوفَ بالبيت عُريان ، ثم أردف النبىُّ صلى الله عليه وسلم أبا بَكر بعلىِّ بنِ أبى طالب رضى الله عنهما ، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة ، قال: فأذَّن معنا علىٌّ فى أهل مِنَى يَوْمَ النحرِ ببراءة ، وأَلَّا يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ ، ولا

يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيان .

وفى هذه القصة دليل على أن يومَ الحج الأكبر يومُ النحر ، واختُلِف فى حَجَّة الصِّدِّيق هذه ، هل هى التى أسقطت الفرضَ ، أو المسقطة هى حَجَّة الوداع مع النبى صلى الله عليه وسلم ؟ على قولين . أصحهما الثانى ، والقولان مبنيان على أصلين: أحدُهما : هل كان الحَجُّ فُرِضَ قَبْلَ عام حَجَّة الوداع أو لا ؟ والثانى: هل كانت حَجَّةُ الصِّدِّيق رضى الله عنه فى ذى الحجة ، أم وقعت فى ذى القَعدَة من أجل النسئ الذى كان الجاهلية يُؤخِّرون له الأشهر ويُقدِّمونها ؟ على قولين . والثانى: قولُ مجاهد وغيره . وعلى هذا ، فلم يُؤخِّر النبى صلى الله عليه وسلم الحَجَّ بعد فرضه عاماً واحداً ، بل بادر إلى الامتثال فى العام الذى فُرِض فيه ، وهذا هو اللائق بهَدْيه وحاله صلى الله عليه وسلم ، وليسَ بيدِ مَن ادَّعى تقدُّم فرض الحَجّ سنةَ ست أو سبعٍ أو ثمانٍ أو تسع دليل واحد ، وغايةُ ما احتج به مَن قال: فُرِضَ سنة ست قوله تعالى: ﴿ وَأَتِمُّواْ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ للهِ ﴾ [البقرة: 196] ، وهى قد نزلت بالحُديبية سنة ست ، وهذا ليس فيه ابتداءُ فرض الحَجّ ، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شُرِعَ فيه ، فأين هذا مِن وجوب ابتدائه ، وآيةُ فرض الحَجّ وهى قوله تعالى: ﴿ وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ﴾ [آل عمران: 97] ، نزلت عامَ الوفود أواخرَ سنة تسع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المعاد حـ 3 صـ 526.595 ﴾

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

فصل : في حديث الثّلاثة الذين خُلِّفوا وهم :

كعب بن مالك وهلال بن أُمية ومرارة بن الرّبيع

قال بعض الشارحين: أوّل أسمائهم مكّة ، وآخر أسمائهم عكة .

روينا في (الصّحيحين) واللّفظ للبخاري ـ رحمه الله تعالى ـ عن كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: لم أتخلّف عن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في غزوةٍ غزاها إلاّ في غزوة تبوك غير أنّي تخلّفت في غزوة بدرٍ ، ولم يعاتب أحداً تخلّف عنها ، إنّما خرج رسول اله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يريد عيرَ قريشٍ ، حتى جمع الله تعالى بينهم وبين عدوّهم على غير ميعادٍ ، ولقد شهدت مع رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحبّ أنّ لي بها مشهد بدرٍ وإن كانت بدر أذكر في النّاس منها ، كان من خبري أنّي لم أكن قط أقوى ، ولا أيسر حين تخلّفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزوة .

ولم يكن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يريد غزوة إلاّ ورّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة فغزاها رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في حرٍّ شديدٍ ، واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ، وعدوّاً كثيراً ، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا

أهبة عدوّهم ، فأخبرهم بوجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد الدّيوان .

قال كعب ـ رضي الله عنه ـ : فما رجل يريد أن يتغيّب إلاّ ظنّ أنّه سيخفى ما لم ينْزل فيه وحي الله تعالى ، وغزا رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ تلك الغزوة حين طابت الثّمار والظّلال ، وتجهّز رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهّز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ، فأقول في نفسي : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى حتى اشتدّ بالنّاس الجِدّ .

(295/351)

فأصبح رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقضِ من جهازي شيئاً ، فقلت : أتجهّز بعده بيومٍ أو يومين ، ثم ألحقهم . فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهّز ، ولم أقضِ شيئاً ، فلم يزل يتمادى بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، فليْتَنِي فعلتُ ، فلم يقدّر لي ذلك ، فكنتُ إذا خرجت في النّاس بعد خروج رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، يحزنِني أنّي لا أرى لي أسوة إلاّ رجلاً مغموصاً عليه في النّفاق ، أو رجلاً مِمَن عذر الله تعالى من الضّعفاء ، ولم يذكرني رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ،

حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القول بتبوك: "ما فعل كعب بن مالك ؟ " ، فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرده والنّظر في عطفيه ، فقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ: بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلاّ خيراً ، فسكت رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ .

قال كعب بن مالك: فلَمّا بلغني أنّه توجّه قافلاً حضرني همّي ،

فطفقت أتذكّر الكذب ، فأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً ، وأستعين على ذلك بكلّ ذي رأيٍ من أهلي ، فلما قيل: إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قد أظلّ قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أنّي لم أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذب ، فأجمعت صدقه .

(296/351)

وأصبح رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قادماً ، وكان إذا قدم من سفرٍ بدأ بالمسجد ، فركع فيه ركعتين ، ثم جلس للنّاس ، فلَمّا فعل ذلك ، جاءه المخلّفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فقبل منهم رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ علانيتهم ، واستغفر لهم ، ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى ، فجئته ، فلَمّا سلّمت عليه تبسّم تبسُّم المغضب ثم قال: "تعال" ، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي: "ما

خلّفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك" ، فقلت: بلى إنّي والله يا رسول الله لو جلست عند غيرك من أهل الدّنيا لرأيت أن أخرج من سخطه بعذرٍ ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنّي والله لقد علمت لو حدّثتك اليوم حديث كذبٍ ترضى به عنّي ، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ ، ولئن حدّثتك حديث صدقٍ تجد عليّ فيه إنّي لأرجوا فيه عفو الله تعالى ، لا والله ما كان لي من عُذْرٍ ، والله ما كنتُ قط أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنك ، فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: "أمّا هذا ، فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك " ، فقمت ، وثار رجال من بني سلمة ، فاتّبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بما اعتذر إليه المتخلّفون ، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ . فوالله ما زالوا يؤنِّبونَني حتى أردتُ أن أرجع ، فأكذب نفسي ، ثم قلت: هل لقي هذا معي أحدٌ ، قالوا: رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت: مَن هما ؟ قالوا: مرارة بن الرّبيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي . فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ـ رضي الله عنهما ـ ففيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ، ونهى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَن تخلّف عنه ، فاجتنبنا النّاس وتغيّروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي التي أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأمّا أنا فكنت أشبَّ القوم ، وأجلدهم ، وكنتُ أخرج فأشهدُ الصّلاة مع المسلمين ، وأطوف في الأسواق ، ولا يكلّمِني أحدٌ ، وآتي رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، وأُسَلِّمُ عليه وهو في مجلسه بعد الصّلاة ، وأقول في نفسي : هل حرّك شفتَيه بردّ السّلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلّي قريباً منه ، فأسارقه النّظر ، فإذا أقبلتُ إلى صلاتي أقبل إليّ ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّي ، حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة المسلمين مشيت حتى تسورتُ جدار حائط أبي قتادة ـ رضي الله عنه ـ ، وهو ابن عمّي ، وأحبّ النّاس إليّ ، فسلّمت عليه ، فوالله ما ردَّ عليّ السّلام ، فقلت له : يا أبا قتادة : أنشدك بالله هل تعلمني أُحِبُّ الله ورسولَه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ؟ فسكت ، فعدتُ فناشدته ، فقال ـ رضي الله عنه ـ : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتولّيت حتى تسورتُ الجدار ، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطيّ من أنباط أهل الشّام مِمَن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : مَن يدلّ على كعب بن مالك ؟ فطفق النّاس يشيرون له إليّ حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه :

أمّا بعد ؛

فإنّه قد بلغني أنّ صاحبك جفاك ، ولم يجعلك الله تعالى بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسيك . فقلتُ لما قرأتُه : وهذا أيضاً من البلايا فتيمّمتُ بها التّنور ، فسجرتُه بها حتى

إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسولُ رسولِ الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يأتيني فيقول: إنّ رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت: أُطلِّقها أم ماذا أفعل ؟ فقال: لا بل اعتزلها ، ولا تقربها . وأرسل إلى صحبيَّ بمثل ذلك ، فقلتُ لامرأتي: إلحقي بأهلكِ فكوني معهم حتى يقضي الله في هذا الأمر .

(298/351)

قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، فقالت: يا رسول الله إنّ هلال بن أُمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال: "لا ولكن لا يقربك" ، قالت: والله ما به حركة إلى شيءٍ ، والله ما زال يبكي مذ كان إلى يومه هذا ، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت: والله لا استأذنت فيها رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، وما يدريني ما يقول رسول الله إذا استأذنتُه فيها ، وأنا رجل شاب . فلبثت بذلك عشر ليالٍ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عن كلامنا ، فلمّا صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، وأنا على ظهر بيتٍ من بيوتنا ؛ فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ـ عزّ وجلّ ـ ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت

عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً

أوفى على جبل سلع بأعلى صوته يقول: يا كعب بن مالك أبشر . قال: فخررت ساجداً ، وعرفتُ أن قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ بتوبة الله تعالى علينا حين صلّى صلاة الفجر ، فذهب النّاس يبشّروننا ، وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشّرون ، وركض رجل إليّ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلم فأوفَى على الجبل ، فكان الصّوت أسرع من الفرس .

(299/351)

فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يبشّرني ، نزعت له ثوبَيَّ ، فكسوته إيّاهما ببشراه والله ما أملك غيرهما يومئذٍ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، فتلقاني النّاس فوجاً فوجاً يهنّئوني بالتّوبة ، يقولون: ليهنك توبة الله تعالى عليك يا كعب ، حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ جالس حوله النّاس ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله ـ رضي الله عنه ـ يهرول ، حتى صافحني وهنّأني ، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره ، وكان كعب لا ينساها لطلحة ، فلمّا سلّمت على رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال ـ وهو يبرق وجهه من السّرور: "أبشر بخير يومٍ مرَّ عليك مُذ

ولدتك أُمّك" ، قال: قلت: أَمِنْك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: "لا بل من عند الله" .

وكان رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إذا سُرَّ استنار وجهه ، حتى كأنّه قطعة قمرٍ ، وكنا نعرف ذلك منه ، فلَمّا جلست بين يديه ، قلت: يا رسول الله إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله .

فقال رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ: "أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك" ، قلت: فإنّي أمسك سهمي الذي بخيبر ، فقلت: يا رسول الله إنّ الله إنّما أنجاني بالصّدق وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلاّ صدقاً ما بقيت ،

(300/351)

فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله تعالى في صدق الحديث أحسن مما أبلاني ، وما تعمدت مذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إلى يومي هذا كذباً وإنّي لأرجو أن يحفظني الله تعالى فيما بقيت ، وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا

إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ ، [التّوبة الآيات: 117-119] .

فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمةٍ قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا ، فإن الله تعالى قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّ ما قال لأحدٍ ، فقال الله ـ عزّ وجلّ ـ:

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ ، [التّوبة الآيتان: 95-96] .

اعلم ـ وفّقنا الله وإيّاك لما يرضيه من العمل ـ أنّ في حديث كعب هذا فوائد :

فمنها : جواز إخبار الرّجل عن تَفْرِيطِه في الطّاعة ، وما آل إليه أمره ، وفيه من النّصيحة ما هو أهمّ الأمور .

(301/351)

ومنها : استحباب ردّ غيبة المسلم كما فعل معاذ ـ رضي الله عنه ـ .

ومنها : ملازمة الصّدق ، وإن شقّ فعاقبته إلى خيرٍ .

ومنها : استحباب ركعتين في المسجد عند القدوم من السّفر قبل كلّ شيء .

ومنها : أنّه يستحبّ للقادم من سفرٍ إذا كان مقصوداً أن يجلس لِمَن يقصده في موضعٍ بارزٍ كالمسجد ونحوه .

ومنها : جريان أحكام النّاس على الظّاهر ، والله يتولى السّرائر .

ومنها : هجران أهل البدع والمعاصي الظّاهرة ، وترك السّلام عليهم تحقيراً لهم وزجراً .

ومنها : استحباب بكائه على نفسه إذا بدرت منه معصية ، وحقّ له أن يبكي .

ومنها : جواز إحراق ورقة فيها ذكر الله تعالى لمصلحةٍ ، كما فعل كعب ـ رضي الله عنه ـ .

ومنها : أنّ كنايات الطّلاق كقوله: الحقي بأهلكِ ، لا يقع إلاّ بالنّيّة .

ومنها : جواز خدمة المرأة زوجها من غير إلزامٍ ووجوبٍ .

ومنها : استحباب سجود الشّكر عند حصول نعمةٍ ، أو اندفاع نقمةٍ ظاهرةٍ ، والتّصدّق عند ذلك .

ومنها : استحباب التّبشير والتّهنئة ، وإكرام المبشّرِ بكسوة ونحوها .

ومنها : استحباب القيام للوارد إكراماً له إذا كان من أهل الفضل بأي نوعٍ كان ، وجواز سرور القوم بذلك كما سرّ كعب بقيام طلحة ـ رضي الله عنهما ـ ، وليس بمعارضٍ بحديث: "مَن سرّه أن يتمثل له الرّجال قياماً ، فليتبوّأ مقعده من النّار" ؛ لأنّ هذا الوعيد للمتكبّرين ومَن يغضب إذا لم يقم له ، وقد كان ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ يقوم لفاطمة ـ رضي الله عنها ـ

سروراً بها ، وتقوم له كرامةً ، وكذلك كلّ قيامٍ أثمر الحبّ في الله تعالى ، والسّرور لأخيك بنعمة الله ، والبرّ لِمَن يتوجّه برّه ، والأعمال بالنّيات . والله أعلم .

ومنها : مدح الإنسان نفسه بما هو فيه إذا لم يكن فخراً .

ومنها : أنّ العقبة كانت من أفضل المشاهد .

ومنها : أنّ ديوان الجيش لم يكن في حياته ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، وأوّل مَن دوّن الدّواوين عمر .

(302/351)

ومنها : أنّ فرصة القربة إذا حضرت فالحزم في انتهازها ، فإنّ العزائم سريعة الانتقاض ، والله سبحانه يعاقب مَن فتح له باباً إلى الخير فلم ينتهزه بأن يحول بين قلبه وبين إرادته ، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ ، [الأنفال ، من الآية: 24] ، وصرّح سبحانه بهذا في قوله: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ ﴾ ، [الأنعام من الآية: 110] وقال: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ، [الصّف ، من الآية: 5] ، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ ﴾ ، [التّوبة من الآية: 115] ، وهو كثير في القرآن .

ومنها : أنّه لم يتخلّف عنه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ إلاّ مَن هو مغموص عليه في النّفاق أو رجل من أهل الأعذار أو مَن خلّفه رسول الله ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ .

ومنها : أنّ الإمام لا ينبغي له أن يهمل مَن تخلّف عنه في بعض الأمور بل يذكره ليراجع الطّاعة ، فإنّه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ قال: "ما فعل كعب ؟" ، ولم يذكر سواه استصلاحاً له وإهمالاً للمنافقين .

ومنها : جواز الطّعن في الرّجل بما يغلب على اجتهاد الطّاعن ذبّاً عن الله ورسوله . ومنه طعن أهل الحديث فيمَن طعنوا فيه ، وطعن أهل السّنة في أهل البدع .

ومنها : جواز الرّدّ على هذا الطّاعن إذا غلب على ظنّ الرّدّ أنّه وَهْم كما ردّ معاذ ولم ينكر ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ على واحدٍ منهما .

ومنها : أنّ السّنة للقادم من سفرٍ أن يدخل البلد على وضوءٍ ، وأن يبدأ ببيت الله قبل بيته فيصلّي ركعتين .

ومنها : ترك الإمام ردّ السّلام على مَن أحدث حدثاً .

ومنها : معاتبة المطاع مَن يعزّ عليه ، فإنّه عاتب الثّلاثة دون غيرهم ، وقد أكثر النّاس مدح عتاب الأحبة .

(303/351)

ومنها : توفيق الله لكعبٍ وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصّدق ، ولم يخذلهم حتى كذبوا ، فصلحت عاجلتهم ، وفسدت عاقبتهم والصّادقون تعبوا في العاجلة بعض التّعب ، فأعقبهم صلاح العاقبة ، وعلى هذا قامت الدّنيا والآخرة .

وفي نهيه ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ عن كلامهم خاصّة دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين ، فأراد تأديب الصّادقين .

وأمّا المنافقون فهذا الدواء لا يعمل في مرضهم ، وهكذا يفعل الرّبّ سبحانه بعباده في عقوبات جرائمهم . فمَن هان عليه ، خلى بينه وبين معاصيه ، فكلّما أحدث ذنباً أحدث له نعمة .

وقوله: "حتى تسوّرتُ حائط أبي قتادة" ، فيه دليلٌ على دخول الإنسان دار صاحبه وجاره ، إذا علم رضاه بلا إذنٍ .

وفي أمره لهم باعتزال النّساء كالبشارة بالفرج من جهة كلامه لهم ، ومن أمره لهم بالاعتزال .

وفي قوله: "الحقي بأهلكِ" دليلٌ على أنّه لا يقع بهذه اللّفظة وأمثالها طلاقٌ ما لم ينوه .

وفي سجوده لما سمع صوت المبشّرِ دليلٌ أنّ تلك عادة الصّحابة ، وهي سجود الشّكر عند النّعم المتجدّدة والنّقم المندفعة ، وقد سجد ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ حين بشّره جبريل أنّ مَن صلّى عليه مرّة صلّى الله عليه بها عشراً ، وسجد حين شفع لأمّته ، فشفّعه الله فيهم

ثلاث مرّات ، وسجد أبو بكر لما جاءه قتل مسيلمة ، وسجد عليّ حين وجد ذا الثّدية ، وفي استباق صاحب الفرس والرّاقي على سلعٍ دليلٌ على حرص القوم على الخير ، وتسابقهم في مسرة بعضهم بعضاً .

ومنها : أنّ إعطاء المبشّرِ من مكارم الأخلاق ، وجواز إعطاء البشير جميع ثيابه ، واستحباب تهنئة مَن تجدّدت له نعمة دينية ، والقيام إليه ، ومصافحته فهذه سنة مستحبّة ، وجائز في النّعم الدّنيويةِ لِمَن تجدّدت له . وأنّ الأولى أن يقال: ليهنك ما أعطاك الله ، ونحوه فإنّ فيه تولية النّعمة ربّها ، والدّعاءِ لِمَن نالها بالتّهني بها .

(304/351)

وفيه: أنّ خير أيّام العبد على الإطلاق يوم توبته ، وقبول الله لها ، وفي سروره ـ صلّى الله عليه وسلّم ـ ، كمال شفقته على الأمّة .

وفيه: استحباب الصّدقة عند التّوبة ، وأنّ مَن نذر الصّدقة بماله كلّه لم يلزمه إخراج جميعه .

وفيه: عظم مقدار الصّدق ، وتعليق سعادة الدّارين به ، وقد قسم سبحانه الخلق قسمين: سعداء ؛ وهم أهل الصّدق والتّصديق ، وأشقياء ؛ وهم أهل الكذب والتّكذيب ، وهو

تقسيم حاصر مطرّد منعكس .

وقوله: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ ، [التّوبة: 117] .

هذا من أعظم ما يُعرف قدر التّوبة ، وأنّها غاية كمال المؤمن ، فإنّ الله ـ سبحانه وتعالى ـ أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزوات .

ولا يعرف هذا حقّ معرفته إلاّ مَن عرف الله وحقوقه ، فسبحان مَن لا يسع العباد غير عفوه ومغفرته ، وكرر توبته عليهم مرتين فتاب عليهم أوّلاً بالتّوفيق لها ، وثانياً بقبولها ، فالخيرات كلّها منه وبه وله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مختصر زاد المعاد صـ 288 ـ 299 ﴾

(305/351)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِي - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثانى والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/352)

الجزء الثانى والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 119 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 123 ﴾ من نفس السورة

(4/352)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان الذي نالوا به الإقبال من مولاهم عليهم – مما وصفهم به من الضيق وما معه – هو التقوى والصدق في الإيمان كما كان ما يجده الإنسان في نفسه مما الموت عنده والقذف في النار أحب إليه من التلفظ به صريح الإيمان بشهادة المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، رغب سبحانه في الصدق فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي ادعوا ذلك ﴿ اتقوا الله ﴾ أي خافوا سطوة من له العظمة الكاملة تصديقاً لدعواكم فلا تفعلوا إلا ما يرضيه ﴿ وكونوا ﴾ أي كوناً صادقاً بجميع الطبع والجبلة ﴿ مع الصادقين ﴾ أي في كل أمر يطلب منهم ، ولعله أخرج الأمر مخرج العموم ليشمل كل مؤمن ، فمن كان مقصراً كانت آمره له باللحاق ، ومن كان مسابقاً كانت حاثة له على حفظ مقام الاستباق ، ولعله عبر ب ﴿ مع ﴾ ليشمل أدنى الدرجات ، وهو الكون بالجثث ، وقد روى البخاري توبة كعب أحد هؤلاء الثلاثة ـ رضى الله عنهم ـ م في مواضع من صحيحه منها التفسير ، وكذا رواه غيره عن كعب نفسه ـ رضى الله عنهم ـ " أنه لم يتخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة غزاها قط غير غزوتين : غزوة العسرة – يعني هذه – وغزوة بدر ، وأن تخلفه ببدر إنما كان لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يندب الناس إليها ولا حثهم عليها

لأنه ما خرج أولاً إلا لأجل العير ، قال : فأجمعت صدق رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كان قل ما يقدم من سفر سافره إلا ضحى ، وكان يبدأ بالمسجد فيركع ركعتين ونهى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن كلامي وكلام صاحبي – يعني مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي – ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا فلبثت كذلك حتى طال عليَّ الأمر ، وما من شيء أهم إلي من أن أموت فلا يصلي عليّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو يموت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأكون من الناس بتلك المنزلة فلا يكلمني أحد منهم ولا يصلي عليّ ، فأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه ـ صلى

(5/352)

الله عليه وسلم ـ حين بقي الثلث الآخر من الليل ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند أم سلمة ـ رضى الله عنهم ـ ا ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني معنية في أمري فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا أم سلمة ! تيب على كعب ، قالت : أفلا أرسل إليه فأشره ؟ قال : إذن يحطمكم الناس فيمنعوكم النوم سائر الليلة حتى إذا ـ صلى الله عليه وسلم ـ صلاة الفجر آذن بتوبة الله علينا ، وكان إذا استبشر استنار وجهه حتى كأنه قطعة من القمر ، وكنا – أيها الثلاثة الذين خلفوا – خلفنا عن الأمر الذي قبل من هؤلاء الذين

اعتذروا حين أنزل الله لنا التوبة ، فلما ذكر الذين كذبوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المتخلفين واعتذروا بالباطل ذكروا بشر ما ذكر به أحد ، قال الله عز وجل ﴿ يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 399 . 400 ﴾

(6/352)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

واعلم أنه تعالى لما حكم بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ، ذكر ما يكون كالزاجر عن فعل ما مضى ، وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد فقال : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ في مخالفة أمر الرسول ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ يعني مع الرسول وأصحابه في الغزوات ، ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت ، وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أنه تعالى أمر المؤمنين بالكون مع الصادقين ، ومتى وجب الكون مع الصادقين فلا بد من وجود الصادقين في كل وقت ، وذلك يمنع من إطباق الكل على الباطل ، ومتى امتنع إطباق

الكل على الباطل ، وجب إذا أطبقوا على شيء أن يكونوا محقين .

فهذا يدل على أن إجماع الأمة حجة .

فإن قيل : لم لا يجوز أن يقال : المراد بقوله : ﴿كُونُواْ مَعَ الصادقين﴾ أي كونوا على طريقة الصادقين ، كما أن الرجل إذا قال لولده : كن مع الصالحين ، لا يفيد إلا ذلك سلمنا ذلك ، لكن نقول : إن هذا الأمر كان موجوداً في زمان الرسول فقط ، فكان هذا أمراً بالكون مع الرسول ، فلا يدل على وجود صادق في سائر الأزمنة سلمنا ذلك ، لكن لم لا يجوز أن يكون الصادق هو المعصوم الذي يمتنع خلو زمان التكليف عنه كما تقوله الشيعة ؟

والجواب عن الأول : أن قوله : ﴿كُونُواْ مَعَ الصادقين﴾ أمر بموافقة الصادقين ، ونهى عن مفارقتهم ، وذلك مشروط بوجود الصادقين وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، فدلت هذه الآية على وجود الصادقين .

وقوله : إنه محمول على أن يكونوا على طريقة الصادقين .

فنقول : إنه عدول عن الظاهر من غير دليل .

قوله : هذا الأمر مختص بزمان الرسول عليه الصلاة والسلام .

(7/352)

قلنا : هذا باطل لوجوه : الأول : أنه ثبت بالتواتر الظاهر من دين محمد عليه الصلاة والسلام أن التكاليف المذكورة في القرآن متوجهة على المكلفين إلى قيام القيامة ، فكان الأمر في هذا التكليف كذلك .

والثاني : أن الصيغة تتناول الأوقات كلها بدليل صحة الاستثناء .

والثالث : لما لم يكن الوقت المعين مذكوراً في لفظ الآية لم يكن حمل الآية على البعض أولى من حمله على الباقي ، فأما أن لا يحمل على شيء من الأوقات فيفضي إلى التعطيل وهو باطل ، أو على الكل وهو المطلوب ، والرابع : وهو أن قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ أمر لهم بالتقوى ، وهذا الأمر إنما يتناول من يصح منه أن لا يكون متقياً ، وإنما يكون كذلك لو كان جائز الخطأ ، فكانت الآية دالة على أن من كان جائز الخطأ وجب كونه مقتدياً بمن كان واجب العصمة ، وهم الذين حكم الله تعالى بكونهم صادقين ، فهذا يدل على أنه واجب على جائز الخطأ كونه مع المعصوم عن الخطأ حتى يكون المعصوم عن الخطأ مانعاً لجائز الخطأ عن الخطأ ، وهذا المعنى قائم في جميع الأزمان ، فوجب حصوله في كل الأزمان .

قوله : لم لا يجوز أن يكون المراد هو كون المؤمن مع المعصوم الموجود في كل زمان ؟

(8/352)

قلنا : نحن نعترف بأنه لا بد من معصوم في كل زمان ، إلا أنا نقول : ذلك المعصوم هو مجموع الأمة ، وأنتم تقولون : ذلك المعصوم واحد منهم ، فنقول : هذا الثاني باطل ، لأنه تعالى أوجب على كل واحد من المؤمنين أن يكون مع الصادقين ، وإنما يمكنه ذلك لو كان عالماً بأن ذلك الصادق من هو لا الجاهل بأنه من هو ، فلو كان مأموراً بالكون معه كان ذلك تكليف ما لا يطاق ، وأنه لا يجوز ، لكنا لا نعلم إنساناً معيناً موصوفاً بوصف العصمة ، والعلم بأنا لا نعلم هذا الإنسان حاصل بالضرورة ، فثبت أن قوله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ ليس أمراً بالكون مع شخص معين ، ولما بطل هذا بقي أن المراد منه الكون مع مجموع الأمة ، وذلك يدل على أن قول مجموع الأمة حق وصواب ولا معنى لقولنا الإجماع إلا ذلك .

المسألة الثانية :

الآية دالة على فضل الصدق وكمال درجته ، والذي يؤيده من الوجوه الدالة على أن الأمر كذلك وجوه : الأول : روي أن واحداً جاء إلى النبي عليه السلام وقال : إني رجل أريد أن أومن بك إلا أني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب ، والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها بأسرها ، فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك ، فقال عليه السلام " اترك الكذب " فقبل ذلك ثم أسلم ، فلما خرج من عند النبي عليه السلام عرضوا عليه الخمر ، فقال : إن شربت وسألني الرسول عن شربها وكذبت فقد نقضت العهد ، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ثم عرضوا عليه الزنا ، فجاء ذلك

الخاطر فتركه ، وكذا في السرقة ، فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما فعلت ، لما منعتني عن الكذب انسدت أبواب المعاصي علي ، وتاب عن الكل .

الثاني : روي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : عليكم بالصدق فإنه يقرب إلى البر والبر يقرب إلى الجنة ، وإن العبد ليصدق فيكتب عند الله صديقاً وإياكم والكذب ، فإن الكذب يقرب إلى الفجور .

(9/352)

والفجور يقرب إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ، ألا ترى أنه يقال صدقت وبررت وكذبت وفجرت ، الثالث : قيل في قوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين ﴾ [ص : 82 ، 83] إن إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء ، لأنه لو لم يذكره لصار كاذباً في ادعاء إغواء الكل ، فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الاستثناء ، وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف منه إبليس ، فالمسلم أولى أن يستنكف منه .

الرابع : من فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات ، ومن معايب الكذب أن الكفر منه لا من سائر الذنوب ، واختلف الناس في أن المقتضي لقبحه ما هو ؟ فقال

أصحابنا : المقتضي بقبحه هو كونه مخلاً لمصالح العالم ومصالح النفس ، وقالت المعتزلة : المقتضى لقبحه هو كونه كذباً ودليلنا قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ إِن جَاءكُمْ فَاسِقُ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُواْ على مَا فَعَلْتُمْ نادمين ﴾ [الحجرات : 6] يعني لا تقبلوا قول الفاسق فربما كان كذباً ، فيتولد عن قبول ذلك الكذب فعل تصيرون نادمين عليه ، وذلك يدل على أنه تعالى إنما أوجب رد ما يجوز كونه كذباً لاحتمال كونه مفضياً إلى ما يضاد المصالح ، فوجب أن يكون المقتضى لقبح الكذب إفضاءه إلى المفاسد ، واحتج القاضي على قوله بأن من دفع إلى طلب منفعة أو دفع مضرة وأمكنه الوصول إلى ذلك بأن يكذب وبأن يصدق فقد علم ببديهة العقل أنه لا يجوز أن يعدل عن الصدق إلى الكذب ، ولو أمكنه أن يصل إلى ذلك بصدقين لجاز أن يعدل من أحدهما إلى الآخر ، فلو كان الكذب يحسن لمنفعة أو إزالة مضرة لكان حاله حال الصدق .

(10/352)

ولما لم يكن كذلك علم أنه لا يكون إلا قبيحاً ، ولأنه لو جاز أن يحسن لوجب أن يجوز أن يأمر الله تعالى به إذا كان مصلحة ، وذلك يؤدي إلى أن لا يوثق بأخباره ، هذا ما ذكره في التفسير فيقال له في الجواب عن الأول إن الإنسان لما تقرر عنده من أول عمره تقبيح الكذب لأجل

كونه مخلاً لمصالح العالم صار ذلك نصب عينه وصورة خياله فتلك الصورة النادرة إذا اتفقت للحكم عليها حكمت العادة الراسخة عليها بالقبح ، فلو فرضتم كون الإنسان خالياً عن هذه العادة وفرضتم استواء الصدق والكذب في الإفضاء إلى المطلوب ، فعلى هذا التقدير لا نسلم حصول الترجيح ، ويقال له في الجواب عن الحجة الثانية ، إنكم تثبتون امتناع الكذب على الله تعالى بكونه قبيحاً لكونه كذباً ، فلو أثبتم هذا المعنى بامتناع صدوره عن الله لزم الدور وهو باطل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 177.175 ﴾

(11/352)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

رَوَى ابْنُ مَسْعُودٍ قَالَ : يَعْنِي لَازِمْ الصِّدْقَ ، وَلَا تَعْدِلْ عَنْهُ إذْ لَيْسَ فِي الْكَذِبِ رُخْصَةٌ " .

قَالَ نَافِعٌ وَالضَّحَّاكُ : " مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ فِي الدُّنْيَا " وَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ إلَى قَوْلِهِ : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ وَهَذِهِ صِفَةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ ثُمَّ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى لُزُومِ اتِّبَاعِهِمْ وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ لِإِخْبَارِهِ بِأَنَّ مَنْ فَعَلَ مَا ذُكِرَ فِي الْآيَةِ فَهُمْ الَّذِينَ صَدَقُوا ، وَقَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فَدَلَّ عَلَى قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْنَا بِإِجْمَاعِهِمْ وَأَنَّهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَنَا مُخَالَفَتُهُمْ لِأَمْرِ اللَّهِ إيَّانَا بِاتِّبَاعِهِمْ

(12/352)

وَقَوْله تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ فِيهِ مَدْحٌ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ غَزَوْا مَعَهُ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَإِخْبَارٌ بِصِحَّةِ بَوَاطِنِ ضَمَائِرِهِمْ وَطَهَارَتِهِمْ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخْبِرُ بِأَنَّهُ قَدْ تَابَ عَلَيْهِمْ إلَّا ، وَقَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ وَرَضِيَ أَفْعَالَهُمْ ، وَهَذَا نَصٌّ فِي رَدِّ قَوْلِ الطَّاعِنِينَ عَلَيْهِمْ وَالنَّاسِبِينَ بِهِمْ إلَى غَيْرِ مَا نَسَبَهُمْ اللَّهُ إلَيْهِ مِنْ الطَّهَارَةِ وَوَصَفَهُمْ بِهِ مِنْ صِحَّةِ الضَّمَائِرِ وَصَلَاحِ السَّرَائِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(13/352)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

فِيهَا أَرْبَعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي تَفْسِيرِ الصَّادِقِينَ : وَفِيهِ ثَمَانِيَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّهُمْ الَّذِينَ اسْتَوَتْ ظَوَاهِرُهُمْ وَبَوَاطِنُهُمْ .

الثَّانِي : أَنَّهُمْ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى ﴿ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ الْمُهَاجِرُونَ ؛ وَقَدْ رُوِيَ كَمَا قَدَّمْنَا أَنَّ أَبَا بَكْرٍ قَالَ لِلْأَنْصَارِ يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ : إنَّ اللَّهَ سَمَّانَا الصَّادِقِينَ ؛ فَقَالَ : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ إلَى قَوْله تَعَالَى ﴿ هُمْ الصَّادِقُونَ ﴾ ثُمَّ سَمَّاكُمْ الْمُفْلِحِينَ ، فَقَالَ : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ ﴾ .

وَقَدْ أَمَرَكُمْ اللَّهُ أَنْ تَكُونُوا مَعَنَا حَيْثُ كُنَّا ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

الرَّابِعُ : أَنَّ الصَّادِقِينَ هُمْ الْمُسْلِمُونَ ، وَالْمُخَاطَبُونَ هُمْ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ .

الْخَامِسُ : الصَّادِقُونَ هُمْ الْمُوفُونَ بِمَا عَاهَدُوا ، وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

السَّادِسُ : هُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ ، وَعُمَرَ ؛ أَوْ السَّابِقُونَ

الْأَوَّلُونَ ، وَهُوَ السَّابِعُ .

الثَّامِنُ : هُمْ الثَّلَاثَةُ الَّذِينَ خُلِّفُوا .

(14/352)

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَقْوَالِ : أَمَّا الْأَوَّلُ : فَهُوَ الْحَقِيقَةُ وَالْغَايَةُ الَّتِي إلَيْهَا الْمُنْتَهَى فِي هَذِهِ الصِّفَةِ ، وَبِهَا يَرْتَفِعُ النِّفَاقُ فِي الْعَقِيدَةِ ، وَالْمُخَالَفَةُ فِي الْفِعْلِ ، وَصَاحِبُهَا يُقَالُ لَهُ صِدِّيقٌ ، وَهِيَ فِي أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ، وَمَنْ دُونَهُمَا عَلَى مَنَازِلِهِمْ وَأَزْمَانِهِمْ .

وَأَمَّا مَنْ قَالَ بِالثَّانِي : فَهُوَ مُعْظَمُ الصِّدْقِ ، وَمَنْ أَتَى الْمُعَظَّمَ فَيُوشِكُ أَنْ يَتْبَعَهُ الْأَقَلُّ ، وَهُوَ مَعْنَى

الْخَامِسِ ؛ لِأَنَّهُ بَعْضُهُ ، وَقَدْ دَخَلَ فِيهِ ذِكْرُهُ .

وَأَمَّا تَفْسِيرُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ : فَهُوَ الَّذِي يَعُمُّ الْأَقْوَالَ كُلَّهَا ؛ لِأَنَّ جَمِيعَ الصِّفَاتِ مَوْجُودَةٌ فِيهِمْ .

وَأَمَّا الْقَوْلُ الرَّابِعُ : فَصَحِيحٌ وَهُوَ بَعْضُهُ أَيْضًا ، وَيَكُونُ الْمُخَاطَبُ أَهْلَ الْكِتَابِ وَالْمُنَافِقِينَ .

وَالسَّادِسُ : تَقَدَّمَ مَعْنَاهُ .

وَالسَّابِعُ : يَكُونُ الْمُخَاطَبُ الثَّمَانِينَ رَجُلًا الَّذِينَ تَخَلَّفُوا وَاعْتَذَرُوا وَكَذَبُوا ، أُمِرُوا أَنْ يَكُونُوا

مَعَ الثَّلَاثَةِ الصَّادِقِينَ ؛ وَيَدْخُلُ هَذَا فِي جُمْلَةِ الصِّدْقِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ : قَدْ تَقَدَّمَتْ حَقِيقَةُ التَّقْوَى ، وَذَكَرَ الْمُفَسِّرُونَ هَاهُنَا فِيهَا قَوْلَيْنِ : أَحَدُهُمَا : اخْتَلَقُوا الْكَذِبَ .

وَالثَّانِي : فِي تَرْكِ الْجِهَادِ ، وَهُمَا بَعْضُ التَّقْوَى ، وَالصَّحِيحُ عُمُومُهَا .

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : فِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يُقْبَلُ خَبَرُ الْكَاذِبِ وَلَا شَهَادَتُهُ .

(15/352)

قَالَ مَالِكٌ : لَا يُقْبَلُ خَبَرُ الْكَاذِبِ فِي حَدِيثِ النَّاسِ وَإِنْ صَدَقَ فِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَقَالَ غَيْرُهُ : يُقْبَلُ حَدِيثُهُ ، وَالْقَبُولُ فِيهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ ، وَوِلَايَةٌ لَا تَكُونُ إلَّا لِمَنْ كَرُمَتْ خِصَالُهُ ، وَلَا خَصْلَةَ هِيَ أَشَرُّ مِنْ الْكَذِبِ ، فَهِيَ تَعْزِلُ الْوِلَايَاتِ ، وَتُبْطِلُ الشَّهَادَاتِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(16/352)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ ، يعني : اخشوا الله ولا تعصوه ، يعني : من أسلم من أهل الكتاب .

﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ ؛ قال الضحاك : يعني : مع الذين صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وأعمالهم ، وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو بإخلاص ونية ، ويقال : هذا الخطاب للمنافقين الذين كانوا يعتذرون بالكذب ، ومعناه : يا أيها الذين آمنوا في العلانية اتقوا الله ، وكونوا مع الثلاثة الذين صدقوا .

وروي عن كعب بن مالك أنه قال : فينا نزلت : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ وقال الكلبي : يعني : الأنصار والمهاجرين الذين صلوا القبلتين ، وقال مقاتل : الذين وصفهم الله تعالى في آية أخرى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين ءَامَنُواْ بالله وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُ على أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُواْ حتى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الذين يَسْتَأْذِنُونَكَ أولئك الذين يُؤْمِنُونَ بالله وَرَسُولِهِ فَإِذَا استأذنوك لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ واستغفر لَهُمُ الله إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : 62] الآية ويقال : ﴿ مَعَ الصادقين ﴾ في إيمانهم ، يعني : أبا بكر وعمر وعثمان وعليّاً رضوان الله عليهم حدثنا الفقيه أبو جعفر قال : حدثنا أبو بكر القاضي قال : حدثنا أحمد بن جرير قال : حدثنا قتيبة قال : حدثنا عبد الرحمن البخاري ، عن جويبر ، عن الضحاك في قوله :

﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ قال : أمروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما رضي الله عنهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(17/352)

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾

قال نافع : يعني مع محمد وأصحابه . سعيد بن جبير : مع أبي بكر وعمر ، ابن جريج وابن حبّان : مع المهاجرين دليله قوله تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ [الحشر : 8] إلى قوله ﴿ أولئك هُمُ الصادقون ﴾ [الحشر : 8] .

أخبرني عبد الله بن محمد بن عبد الله . محمد بن عثمان بن الحسن . محمد بن الحسين ابن صالح . علي بن جعفر بن موسى . جندل بن والق . محمد بن عمر المازني . الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ قال : مع عليّ بن أبي طالب وأصحابه .

وأخبرني عبد الله محمد بن عثمان . محمد بن الحسن . علي بن العباس المقانعي . جعفر ابن محمد ابن الحسين . أحمد بن صبيح الأسدي . مفضل بن صالح . عن جابر عن أبي

جعفر في قوله تعالى ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ قال : مع آل محمد (صلى الله عليه وسلم) .

يمان بن رباب : أصدقوا كما صدق الثلاثة الذين خلفوا .

ابن عباس : مع الذين صدقت نياتهم فاستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك . بإخلاص ونيّة .

قتادة : يعني الصدق في النية وقال : أو الصدق في الليل والنهار والسرّ والعلانية ، وكان ابن مسعود يقول : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ وكذا كان يقرأها ، وابن عباس (ورضي عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

أخبرنا عبد الله بن حامد . عبد الله بن محمد بن الحسين . محمد بن يحيى ، وهب بن جرير عن شعيب بن عمرو بن زيد عن أبي عبيدة عن عبد الله قال : إن الكذب لا يصلح منه جدّ ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيته شيئاً ثم لا ينجز شيئاً اقرأوا إن شئتم الآية ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ هل ترون في الكذب [رخصة] . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(18/352)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

في هذه الآية قولان :

أحدهما : أنها في أهل الكتاب ، وتأويلها : يا أيها الذين آمنوا من اليهود بموسى ، ومن النصارى بعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم فآمنوا به ، وكونوا مع الصادقين يعني مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جهاد المشركين ، قاله مقاتل بن حيان .

الثاني : أنها في المسلمين : وتأويلها : يا أيها الذين آمنوا من المسلمين اتقوا الله وفي المراد بهذه التقوى وجهان :

أحدهما : اتقوا الله من الكذب ، قال ابن مسعود : إن الكذب لا يصلح في جدٍّ ولا هزل ، اقرأُوا إن شئتم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ وهي قراءة ابن مسعود هكذا : من الصادقين .

والثاني : اتقوا الله في طاعة رسوله إذا أمركم بجهاد عدوِّه .

﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : مع أبي بكر وعمر ، قاله الضحاك .

الثاني : مع الثلاثة الذين خُلفوا حين صدقوا النبي صلى الله عليه وسلم عن تأخرهم ولم

يكذبوا . قاله السدي .

والثالث : مع من صدق في قوله ونيته وعمله وسره وعلانيته ، قاله قتادة .

والرابع : مع المهاجرين لأنهم لم يتخلفوا عن الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله ابن جريج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(19/352)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾

هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين ، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام إذ عن في القصة ما يجب التنبيه علي امتثاله ، وقال ابن جريج وغيره : الصدق في هذه الآية هو صدق الحديث ، وقال نافع والضحاك ما معناه : إن اللفظ أعم من صدق الحديث ، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير ، كما تقول العرب : عود صدق ورجل صدق ، وقالت هذه الفرقة : كونوا مع محمد وأبي بكر وعمر وأخيار المهاجرين الذين صدقوا الله في الإسلام ومع في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح ، وقرأ ابن

مسعود وابن عباس " وكونوا من الصادقين " ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان ابن مسعود رضي الله عنه يتأوله في صدق الحديث . وروي عنه أنه قال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، اقرأوا إن شئتم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(20/352)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتَّقوا الله وكونوا مع الصَّادقين ﴾

في سبب نزولها قولان .

أحدهما : أنها نزلت في قصة الثلاثة المتخلِّفين .

والثاني : أنها في أهل الكتاب .

والمعنى : يا أيها الذين آمنوا بموسى وعيسى اتقوا الله في إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم وكونوا مع الصادقين .

وفي المراد بالصادقين خمسة أقوال .

أحدها : أنه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، قاله ابن عمر .

والثاني : أبو بكر وعمر ، قاله سعيد بن جبير ، والضحاك .

وقد قرأ ابن السميفع .

وأبو المتوكل ، ومعاذ القارىء : "مع الصَّادِقَيْنِ" بفتح القاف وكسر النون على التثنية .

والثالث : أنهم الثلاثة الذين خُلِّفوا ، صدقوا النبي صلى الله عليه وسلم عن تأخُّرهم ، قاله السدي .

والرابع : أنهم المهاجرون ، لأنهم لم يتخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجهاد ، قاله ابن جريج .

قال أبو سليمان الدمشقي : وقيل : إن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية يوم السقيفة ، فقال : يا معشر الأنصار ، إن الله يقول في كتابه : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أُخرِجوا ﴾ إلى قوله : ﴿ أولئك هم الصادقون ﴾ [الحشر : 8] من هم ؟ قالت الأنصار : أنتم هم .

قال : فإن الله تعالى يقول : ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ فأمركم أن تكونوا معنا ، ولم يأمرنا أن نكون معكم ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء .

والخامس : أنه عامّ ، قاله قتادة و"مع" بمعنى "مِنْ" ، وكذلك هي في قراءة ابن مسعود : "وكونوا من الصادقين" . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(21/352)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

فيه مسألتان :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذُهب بهم عن منازل المنافقين .

قال مُطرِّف : سمعت مالك بن أنس يقول : قلما كان رجل صادقاً لا يكذب إلا مُتّع بعقله ولم يصبه ما يصيب غيره من الهرم والخرف .

واختلف في المراد هنا بالمؤمنين والصادقين على أقوال ؛ فقيل : هو خطاب لمن آمن من أهل الكتاب .

وقيل : هو خطاب لجميع المؤمنين ؛ أي اتقوا مخالفة أمر الله .

﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ أي مع الذين خرجوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم لا مع المنافقين .

أي كونوا على مذهب الصادقين وسبيلهم .

وقيل : هم الأنبياء ؛ أي كونوا معهم بالأعمال الصالحة في الجنة .

وقيل : هم المراد بقوله : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ ﴾ الآية إلى قوله ﴿ أولئك الذين

صَدَقُوٓاْ ﴾ [البقرة: 177].

وقيل: هم الموفون بما عاهدوا؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: 23] وقيل: هم المهاجرون؛ لقول أبي بكر يوم السَّقِيفة؛ إن الله سمّانا الصادقين فقال: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَاجِرِينَ ﴾ [الحشر: 8] الآية، ثم سماكم بالمفلحين فقال: ﴿ والذين تَبَوَّءُوا الدار والإيمان ﴾ الآية.

وقيل: هم الذين استوت ظواهرهم وبواطنهم.

قال ابن العربي: وهذا القول هو الحقيقة والغاية التي إليها المنتهى؛ فإن هذه الصفة يرتفع بها النفاق في العقيدة والمخالفةُ في الفعل، وصاحبها يقال له الصديق كأبي بكر وعمر وعثمان ومَن دونهم على منازلهم وأزمانهم.

وأما من قال: إنهم المراد بآية البقرة فهو معظم الصدق ويتبعه الأقل وهو معنى آية الأحزاب.

وأما تفسير أبي بكر الصديق فهو الذي يعمّ الأقوال كلها؛ فإن جميع الصفات فيهم موجودة.

(22/352)

الثانية حقّ مَن فهم عن الله وعَقَل عنه أن يلازم الصّدق في الأقوال ، والإخلاص في الأعمال ، والصفاء في الأحوال ، فمن كان كذلك لحق بالأبرار ووصل إلى رضا الغفار ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " عليكم بالصّدق فإن الصّدق يَهْدِي إلى البر وإن البِر يهدِي إلى الجنة وما يزال الرجل يصْدُق ويتحرّى الصدق حتى يكتب عند الله صدّيقاً " والكذب على الضد من ذلك ؛ قال صلى الله عليه وسلم : " إياكم والكذبَ فإن الكذب يَهْدِي إلى الفجور وإن الفجور يهدِي إلى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " خرّجه مسلم .

فالكذب عار وأهله مسلوبو الشهادة ، وقد ردّ صلى الله عليه وسلم شهادة رجل في كذبة كذبها .

قال مَعْمَر : لا أدري أكذب على الله أو كذب على رسوله أو كذب على أحد من الناس .

وسئل شُريك بن عبد الله فقيل له : يا أبا عبد الله ، رجل سمعتُه يكذب متعمّداً أأُصلِّي خلفه ؟ قال لا .

وعن ابن مسعود قال : إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا أن يَعد أحدكم شيئاً ثم لا ينجزه ، اقرؤوا إن شئتم ﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ هل ترون في الكذب رخصة ؟ وقال مالك : لا يُقبل خبر الكاذب في حديث الناس وإن صدق في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال غيره : يقبل حديثه .

والصحيح أن الكاذب لا تقبل شهادته ولا خبره لما ذكرناه ؛ فإن القبول مرتبة عظيمة وولاية شريفة لا تكون إلا لمن كَمُلت خصاله ولا خَصلة هي أشرّ من الكذب فهي تعزل الولايات وتبطل الشهادات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(23/352)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾

يعني في مخالفة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ يعني مع من صدق النبي (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه في الغزوات ولا تكونوا مع المتخلفين من المنافقين الذي قعدوا في البيوت وتركوا الغزو .

وقال سعيد بن جبير : مع الصادقين يعني مع أبي بكر وعمر .

قال ابن جريج : مع المهاجرين .

وقال ابن عباس : مع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم وخرجوا مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى تبوك بإخلاص نية .

وقيل : كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب وهم يعتذرون بالأعذار الباطلة الكاذبة وهذه الآية تدل على فضيلة الصدق لأن الصدق يهدي إلى الجنة والكذب إلى الفجور كما ورد في الحديث .

وقال ابن مسعود : الكذب لا يصلح في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صاحبه شيئاً ثم لا ينجزه اقرأوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين .

وروي أن أبا بكر الصديق احتج بهذه الآية على الأنصار في يوم السقيفة وذلك أن الأنصار قالوا : منا أمير ومنكم أمير فقال أبو بكر : يا معشر الأنصار إن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه للفقراء المهاجرين إلى قوله أولئك هم الصادقون من هم قالت الأنصار : أنتم هم فقال أبو بكر : إن الله تعالى يقول : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصدقين فأمركم أن تكونوا معنا ولم يأمرنا أن نكون معكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء وقيل مع بمعنى من والمعنى يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا من الصادقين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ

﴾

(24/352)

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾

هو خطاب للمؤمنين ، أمروا بكونهم مع أهل الصدق بعد ذكر قصة الثلاثة الذين نفعهم صدقهم وأزاحهم عن ربقة النفاق .

واعترضت هذه الحملة تنبيهاً على رتبة الصدق ، وكفى بها أنها ثانية لرتبة النبوة في قوله : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ﴾ قال ابن جريج وغيره : الصدق هنا صدق الحديث .

وقال الضحاك ونافع : ما معناه اللفظ أعم من صدق الحديث ، وهو بمعنى الصحة في الدين ، والتمكن في الخير ، كما تقول العرب : رجل صدق .

وقالت هذه الفرقة : كونوا مع محمد وأبي بكر وعمر وخيار المهاجرين الذين صدقوا الله في الإسلام .

وقيل : هم الثلاثة أي : كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم .

وقال الزمخشري : هم الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم الله ورسوله من قوله : ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولاً وعملاً انتهى .

وقيل : الخطاب بالذين آمنوا لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك .

وعن ابن عباس : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي : كونوا مع المهاجرين والأنصار ، ومع

تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح.

وقرأ ابن مسعود وابن عباس : من الصادقين ، ورويت عن النبي (صلى الله عليه وسلم) .

وكان ابن مسعود يتأوله في صدق الحديث وقال : الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا إن يعد منكم أحد صبيه ثم لا ينجزه ، اقرأوا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين .

وقال صاحب اللوامح : ومن أعم من مع ، لأنّ كل من كان من قوم فهو معهم في المعنى المأمور به ، ولا ينعكس ذلك .

وقرأ زيد بن علي ، وابن السميفع ، وأبو المتوكل ، ومعاذ القاري : مع الصادقين بفتح القاف وكسر النون على التثنية ، ويظهر أنهما الله ورسوله لقوله تعالى :

(25/352)

﴿ ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله ﴾

ولما تقدم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ، أمروا بأنْ يكونوا مع الله ورسوله بامتثال الأمر واجتناب المنهى عنه كما يقال : كن مع الله يكن معك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(26/352)

وقال أبو السعود :

﴿ يأيها الذين آمنوا ﴾

خطابٌ عام يندرج فيه التائبون اندراجاً أولياً وقيل : لمن تخلف عليه من الطلقاء عن غزوة تبوكَ خاصة ﴿ اتقوا الله ﴾ في كل ما تأتون وما تذرون فيدخل فيه المعاملةُ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر المغازي دخولاً أولياً ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ في إيمانهم وعهودِهم أو في دين الله نيةً وقولاً وعملاً أو في كل شأنٍ من الشؤون فيدخل ما ذُكر ، أو في توبتهم وإنابتهم فيكون المرادُ بهم حينئذ هؤلاء الثلاثةَ وأضرابَهم . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خطابٌ لمن آمن من أهل الكتابِ أي كونوا مع المهاجرين والأنصارِ وانتظِموا في سلكهم في الصدق وسائرِ المحاسن ، وقرىء من الصادقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(27/352)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾

فيما لا يرضاه ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ أي مثلهم في صدقهم : وأخرج ابن الأنباري عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وَكُونُواْ مِنَ الصادقين ﴾ وكذا روى البيهقي وغيره عن ابن مسعود أنه كان يقرأ كذلك ، والخطاب قيل : لمن آمن من أهل الكتاب وروي ذلك عن ابن عباس فيكون المراد بالصادقين الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم الله تعالى ورسوله الله صلى الله عليه وسلم على الطاعة : وجوز أن يكون عاماً لهم ولغيرهم فيكون المراد بالصادقين الذين صدقوا في الدين نية وقولاً وعملاً ، وأن يكون خاصاً بمن تخلف وربط نفسه بالسوارى ، فالمناسب أن يراد بالصادقين الثلاثة أي كونوا مثلهم في الصدق وخلوص النية .

وأخرج ابن المنذر .

وابن جرير عن نافع أن الآية نزلت في الثلاثة الذين خلفوا ، والمراد بالصادقين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وبذلك فسره ابن عمر كما أخرجه ابن أبي حاتم .

وغيره ، وعن عسيد بن جبير أن المراد كونوا مع أبي بكر .

وعمر رضي الله تعالى عنهما .

وأخرج ابن عساكر .

وآخرون عن الضحاك أنه قال : أمروا أن يكونوا مع أبي بكر .

وعمر .

وأصحابهما .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس .

وابن عساكر عن أبي جعفر أن المراد كونوا مع علي كرم الله تعالى وجهه .

وبهذا استدل بعض الشيعة على أحقيته كرم الله تعالى وجهه بالخلافة ، وفساده على فرض صحة الرواية ظاهر .

وعن السدى أنه فسر ذلك بالثلاثة ولم يتعرض للخطاب ، والظاهر عموم الخطاب ويندرج فيه التائبون اندراجاً أولياً ، وكذا عموم مفعول ﴿ اتقوا ﴾ ويدخل فيه المعاملة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر المغازي دخولاً أولياً أيضاً ، وكذا عموم ﴿ الصادقين ﴾ ويراد بهم ما تقدم على احتمال عموم الخطاب .

وفي الآية ما لا يخفى من مدح الصدق ، واستدل بها كما قال الجلال السيوطي من لم يبح الكذب في موضع من المواضع لا تصريحاً ولا تعريضاً .

(28/352)

وأخرج غير واحد عن ابن مسعود أنه قال : لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيته شيئاً ثم لا ينجزه وتلا الآية ، والأحاديث في ذمه أكثر من أن تحصى ، والحق

أباحته في مواضع .

فقد أخرج ابن أبي شيبة .

وأحمد عن أسماء بنت يزيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب أو اصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضيها " وكذا إباحة المعاريض .

فقد أخرج ابن عدي عن عمران بن حصين قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(29/352)

وقال القاسمى :

﴿ يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾

أي : في إيمانهم ومعاهدتهم لله ولرسوله على الطاعة ، من قوله تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ ، أو هم الثلاثة ، أي : كونوا مثلهم في صدقهم وخلوص نيتهم .

تنبيهات :

الأول : روى الإمام أحمد والشيخان حديث كعب وصاحبيه مبسوطاً بما يوضح هذه الآية

:

قال الزهريّ : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه – وكان قائد كعب من بنيه ، حين عمي – قال : سمعت كعباً يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك .

قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة غزاها قط ، إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزاة بدر ، ولم يُعاتَب أحد تخلف عنها ، وإنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد .

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة ، حين توافقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدرٌ أذكر في الناس منها وأشهر .

وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزاة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط ، حتى جمعتهما في تلك الغزاة .

(30/352)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة يغزوها ، إلا روّى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرّ شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدوّاً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ، ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم وجهه الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير ، لا يجمعهم كتاب حافظ – يريد الديوان – .

قال كعب : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ، ما لم ينزل فيه وحي من الله عزَّ وجلَّ .

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزاة ، حين طابت الثمار والظلال وأنا إليها أصعر – أي : أميل – فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض من جهازي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إذا أردت ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، وقلت : أتجهز بعد يوم أو يومين ، ثم ألحقه ، فغدوت بعدُ لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فألحقهم – وليتني فعلت – ثم لم يقدّر ذلك لي .

فكنت إذا خرجت في الناس ، بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحزنني أني لا

أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذره الله عز وجل . ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك . فقال وهو جالس في القوم بتبوك : < ما فعل كعب بن مالك ؟ > فقال رجل من بني سلمة : حبسه يا رسول الله بُراده ، والنظر في عطفيه ! فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت . والله ! يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ! فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(31/352)

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلاً من تبوك ، حضرني بثّي أتذكر الكذب ، وأقول : بم أخرج من سخطته غداً ؟ وأستعين على ذلك بك ذي رأي من أهلي .

فلما قيل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً ، زاح عن الباطل ، وعرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم – وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى ركعتين ثم جلس للناس – فلما فعل ذلك ، جاءه المتخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ، ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً ، فيقبل منهم رسول الله علانيتهم ، ويستغفر لهم ، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى ، حتى جئت ، فلما

سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال لي : < تعال ! > فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : < ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظَهْراً ؟ > فقلت يا رسول الله ! إني لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن أخرج من سخطه بعذر . لقد أُعطيتُ جدلاً ، ولكني ، والله لقد علمت ، لئن حدثتك اليوم بحديث كذب ترضى به عني ، ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ ، ولئن حدثتك بصدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو عقبى ذلك من الله عزَّ وجلَّ . والله ما كان لي عذر ، والله ! ما كنت قط أفرغ ولا أيسر مني حين تخلفت عنك .

قال : فقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلم : < أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك ! > فقمت ، وقام إليّ رجال من بني سلمة ، واتبعوني ، فقالوا لي : والله ! ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، فقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك .

قال : فوالله ! ما زالوا حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي .

(32/352)

قال : ثم قلت لهم : هل لقي معي هذا أحد ؟ قالوا : نعم لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . قلت : فمن هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العامريّ ، وهلال بن أمية الواقفيّ ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لي فيهما أسوة .

قال : فمضيت حين ذكروهما لي .

فقال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا ، أيها الثلاثة ، من بين من تخلف .

فاجتَنَبنا الناسُ ، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة .

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أشهد الصلاة مع

المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مجلسه بعد الصلاة ، فأسلم وأقول في نفسي : أحَرَّكَ شَفَتَيه بردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني .

حتى إذا طال عليّ ذلك من هجر المسلمين ، مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي ، وأحب الناس إليّ ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عني ، فسلمت عليه ، فوالله ! ما ردّ عليّ السلام . فقلت له : يا أبا قتادة ! أنشدك الله هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟

قال فسكت .

قال : فعدت له فنشدته فسكت ، فعدت له فنشدته فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم . قال ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار . فبينما أنا أمشي بسوق المدينة ، إذا أنا بنبطي من أنباط الشام ، ممن قدم بطعامه يبيعه بالمدينة ، يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ قال فطفق الناس يشيرون إليَّ ، حتى جاء فدفع إليَّ كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فإذا فيه :

أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، وإن الله لم يجعلك بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك .

قال – فقلت حين قرأته – : وهذا أيضاً من البلاء .

(33/352)

قال : فتيممت به التنور فسجرته به . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخميس ، إذا برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني يقول : يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعتزل امرأتك . قال : فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ فقال : بل اعتزلها ولا تقربها .

قال : وأرسل إليَّ صاحبيّ بمثل ذلك . قال : فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم

حتى يقضي الله في هذا الأمر ما يشاء ! قال : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله ! إن هلالاً شيخ ضعيف ، ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك ! قالت : وإنه والله ! ما به من حركة إلى شيء ، وإنه والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قال : فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . قال : فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أدري ما يقوله فيها إذا استأذنته ، وأنا رجل شابّ .

قال : فلبثنا عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين انتهى عن كلامنا .

قال : ثم صليت صلاة الصبح ، صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله تعالى منا ، قد ضاقت عليّ نفسي ، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلْع ، يقول بأعلى صوته : أبشر يا كعب بن مالك ! قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء الفرج من الله عزَّ وجلَّ بالتوبة علينا ، فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَلَ صاحبيّ مبشرون ، وركض إليّ رجلٌ فرساً ، وسعى ساعٍ من أسلم وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ فكسوته إياهما ببشراه .

والله ـ ما أملك يومئذ غيرهما – واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلق أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم وتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بتوبة الله ، يقولون : ليهنئك توبة الله عليك ! حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ، والناس حوله ، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول ، حتى صافحني وهنأني ـ والله ! ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره – قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة .

قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ : < أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك ! > قال ، قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : < لا ، بل من عند الله > . قال ، وكان رسول الله إذا سر استنار وجهه ، حتى كأنه قطعة قمر ، حتى يعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ! إن من توبتي أن أنخلع من مالي ، صدقةً إلى الله وإلى رسوله . قال : < امسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك > . قال ، فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . قال ، فوالله ! ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث ،

منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا ، وإني لأرجو أن يحفظني الله عزّ وجلّ فيما بقي .

قال ، وأنزل الله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ ﴾ إلى آخر الآيات .

(35/352)

قال كعب : فوالله ! ما أنعم عليّ من نعمة قط ، بعد أن هداني للإسلام ، أعظم في نفسي من صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ألا أكون كَذَبْتُهُ ، فأهلك كما هلك الذين كَذَبُوه ، فإن الله تعالى قال للذين كَذَبوه ، حين أنزل الوحي ، شرّ ما قال لأحد . فقال الله تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

قال : وكنا أيها الثلاثة الذين خلّفنا عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين خلفوا ، فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ وليس الذي

ذكر مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه أيانا ، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له ، واعتذر إليه ، فقبل منه .

وفي رواية : ونهى النبيّ صلى الله عليه وسلم عن كلامي ، وكلام صاحبيّ ، ولم ينه عن كلام أحد من المتخلفين غيرنا ، فاجتنب الناس كلامنا ، فلبث كذلك حتى طال عليّ الأمر ، فما من شيء أهم إليّ من أن أموت ، فلا يصلّ عليّ النبيّ صلى الله عليه وسلم ، أو يموت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكون بتلك المنزلة ، فلا يكلمني أحد منهم ، ولا يصلّى عليّ ، ولا يسلّم عليّ .

(36/352)

قال : وأنزل الله عز وجل توبتنا على نبيه صلى الله عليه وسلم حين بقي الثلث الأخير من الليل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند أم سلمة ، وكانت أم سلمة محسنة في شأني ، معتنية بأمري . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : < يا أم سلمة تيب على كعب بن مالك > . قالت : أفلا أرسل إليه فأبشره ؟ قال : < إذاً فيحطمكم الناس فيمنعونكم النوم سائر الليل > .

حتى إذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر ، آذن رسول الله صلى الله

عليه وسلم بتوبة الله علينا – أخرجه البخاري ومسلم – .

قال ابن كثير : هذا حديث صحيح ثابت متفق على صحته ، وقد تضمن تفسير الآية بأحسن الوجوه وأبسطها .

الثاني : قال بعض المفسرين : في الآية دليل على الشدة على من فعل الخطيئة وعلى قطع ما يلهي عن الطاعة .

الثالث : في الآية دليل على التحريض على الصدق .

قال القاشانيّ : في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي : في جميع الرذائل بالإجتناب عنها ، خاصة رذيلة الكذب ، وذلك معنى قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ فإن الكذب أسوء الرذائل وأقبحها ، لكونه ينافي المروءة ، وقد قيل : لا مروءة لكذوب ، إذ المراد من الكلام الذي يتميز به الْإِنْسَانْ عن سائر الحيوان إخبار الغير عما لا يعلم ، فإذا كان الخبر غير مطابق و لم تحصل فائدة النطق ، وحصل منه اعتقاد غير مطابق ، وذلك من خواص الشيطنة فالكذاب شيطان . وكما أن الكذب أقبح الرذائل ، فالصدق أحسن الفضائل ، وأصل كل حسنة ، ومادة كل خصلة

محمودة ، وملاك كل خير وسعادة و به يحصل كل كمال ، وأصله الصدق في عهد الله تعالى الذي هو نتيجة الوفاء بميثاق الفطرة أو نفسه ، كما قال :

﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ في عقد العزيمة ، ووعد الخليقة . كما قال في

إسماعيل :

﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ .

(37/352)

وإذا روعي في المواطن كلها ، حتى الخاطر والفكر والنية والقول والعمل ، صدقت المنامات والواردات ، والأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات ، كأنه أصل شجرة الكمال ، وبذرة ثمرة الأحوال . انتهى . اهـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 537. 542 ﴾

(38/352)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

الظاهر أن هذه الآية خاتمة للآي السابقة وليست فاتحة غرض جديد .

ففي "صحيح البخاري" من حديث كعب بن مالك حين تخلف عن غزوة تبوك أنه قال :

"فوالله ما أعلم أحداً . . .

أبْلاه الله في صدق الحديث أحسنَ مما أبْلاني ما تعمدتُ منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا كذباً وأنزل الله على رسوله ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار إلى قوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ [التوبة: 117 119] أهـ.

فهذه الآية بمنزلة التذييل للقصة فإن القصة مشتملة على ذكر قوم اتقوا الله فصدقوا في إيمانهم وجهادهم فرضي الله عنهم، وذِكر قوم كذبوا في ذلك واختلقوا المعاذير وحلفوا كذباً فغضب الله عليهم، وقوم تخلفوا عن الجهاد وصدقوا في الاعتراف بعدم العذر فتاب الله عليهم، فلما كان سبب فوز الفائزين في هذه الأحوال كلها هو الصدق لا جرم أمر الله المؤمنين بتقواه وبأن يكونوا في زمرة الصادقين مثل أولئك الصادقين الذين تضمنتهم القصة.

والأمر بـ ﴿ كونوا مع الصادقين ﴾ أبلغ في التخلق بالصدق من نحو: اصدقوا.

ونظيره ﴿ واركعوا مع الراكعين ﴾ [البقرة: 43].

وكذلك جَعله بعد (من) التبعيضية وقد تقدم ذلك في قوله تعالى: ﴿ أبى واستكبر وكان من الكافرين ﴾ [البقرة: 43] ومنه قوله: ﴿ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ﴾ [البقرة: 67]. انتهى انتهى. اهـ ﴿التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(39/352)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

وساعة ينادي الحق عزّ وجلّ عباده المؤمنين ، فهو سبحانه إما أن يناديهم بحكم يتعلق بالإيمان ، وإما أن يناديهم بالإيمان ويطلب منهم الإيمان مثل قوله الحق : ﴿ يَا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ آمِنُواْ بالله وَرَسُولِهِ . . . ﴾ [النساء : 136]

والحق سبحانه يُبيّن للذين آمنوا به قبل أن يخاطبهم ، أنه من الممكن أن يؤمن الإنسان ثم يتذبذب في إيمانه ، فيطلب منه الحق " دوام الإيمان " . فإذا طلب الله من عباده ما كان موجوداً فيهم ساعة الخطاب ، فالمطلوب دوامه ، وإن طلب منهم حكماً يتعلق بالأيمان ، فهو يوجّههم إلى الاستماع وتطبيق ما يطلب منهم ، ومثال هذا قول الحق سبحانه : ﴿ اتقوا الله ﴾ [التوبة : 119]

وكلمة ﴿ اتقوا ﴾ تعني : اجعلوا بينكم وبين الله وقاية ، ويتساءل البعض : هل يطلب أحد من الإنسان أن يجعل بينه وبين وقاية ؟ إن العبد المؤمن يطلب أن يكون في معيَّة الله .

وهنا تأتي ضرورة فهم صفات الجمال وصفات الجلال . إن قوله سبحانه : ﴿ اتقوا الله ﴾ يعني : اجعلوا بينكم وبين صفات الجلال وقاية ، مثلما قال سبحانه : ﴿ اتقوا الله ﴾ [البقرة : 24]

لأن النار من جنود صفات الجلال ، فاجعلوا بينكم وبين الله وقاية من صفات الجلال .

وهنا يقول الحق : ﴿ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ ، وفسر بعض العلماء قوله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ بمعنى كونوا من الصادقين ، أي : أن " مع " هنا بمعنى " من " والمقصود أن يعطي هذا القول معنى إجماليّاً عامّاً . لكني أقول : هنام فرق بين ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ و " كونوا من الصادقين " ، فقوله الحق : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ أي : التحموا بهم فتكونوا في معيّتهم وبعد أن تلتحموا بهم يأتي الذين من بعدكم ويجدونكم مع الصادقين .

(40/352)

ويقتضي الأمر هنا أن نتذكر ما سبق أن قلناه عن النسبة الكلامية والنسبة الذهنية ، فأيُّ قضية تمر على ذهنك قبل أن تقولها هي نسبة ذهنية ، مثل قولك : " محمد زارني " ، وأنت قبل أن تقول هذه العبارة جاء في ذهنك أن تنطقها ، وهذه " نسبة ذهنية " . ومن يسمعك لا يدري بها ، ولكونك المتكلم فأنت وحدك الذي تدري بها ، فإذا ما نطقتها وسمعها منك المخاطب ؛ علم أن نسبة ذهنية جاءت في ذهنك فترجمتها قولاً بالنسبة الكلامية . فحين قلت : " محمد زارني بالأمس " ؛ جاءت في ذهنك قل أن تقولها ، فلما سمعها السامع عرف

أن هناك نسبتين ؛ نسبة سمعها عن نسبة عندك .

وحين يمحّص السامع هذا القول ؛ يعلم أن هناك واحداً في الواقع اسمه محمد وعلم منك أنه قد زارك ، وخبرته معك أنه قد زارك ، وخبرته معك دائماً أنك صادق ، إذن : فالصدق هو أن تتطابق النسبة الكلامية مع الواقع . أما إذا قلت : إن محمداً قد سافر إلى أمريكا ، وهو لم يسافر ، فهذا يعني أن النسبة الكلامية لم تتطابق مع النسبة الواقعية وهذا هو الكذب .

إذن : فهناك " نسبة ذهنية " و " نسبة كلامية " و " نسبة واقعية " . فإن تطابقت النسبة الكلامية مع النسبة الواقعية ، فذلك هو الصدق ، وإن لم تتطابق يكون الكذب .

وكل نسبة تقولها تحتمل أن تكون صادقة أو كاذبة ، والفيصل في هذا الأمر هو الواقع ، هل يتطابق ما تقول أم لا ؟ . أما إن قلت لك : " زُرْ فلاناً " فهذه نسبة إنشاء ؛ لأن الواقع يأتي بعدها ، لا قبلها .

(41/352)

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ والصدق هو الخَلَّة التي تجمع كل الإيمان ، ولنر التطبيق لذلك في قصة الرجل البدوي الذي ذهب إلى رسول الله صلى الله

عليه وسلم وقال : يا رسول الله ، إن فيَّ خلالاً ثلاثة لا أقدر على التخلِّي عنها أبداً ، أما الأولى فهي النساء ، وأما الثانية فهي الخمر ، وأما الثالثة فهي الكذب ، وقد جئتك يا رسول الله ، لتختار لي خصلة من الثلاثة وتقوِّيني عليها ، وأعاهد ربنا عليها . فاختار رسول الله للأعرابي أن يتوب عن الكذب ، وأن يتحلّى بالصدق ، فقال له : كن صادقاً وما عليك . وحين أحب الأعرابي أن يشرب كأس خمر ؛ تساءل : وماذا إن سألني النبي صلى الله عليه وسلم أشربت الخمر ؟ وامتنع عن الخمر حتى لا يكذب على الرسول . وحين جاء ليختلس النظر إلى امرأة ؛ قال لنفسه : " وماذا إن سألني صلى الله عليه وسلم وكيف أُخزي نفسي بصفة لا تليق بمسلم ؛ فامتنع عن النظر إلى المحارم ، وهكذا سيطر الصدق على الرجل فهذّب سلوكه . وحين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم . فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا . لأن مدخل الإيمان هو التصديق بالقضية العقدية الجازمة ، وهكذا تجد أن الصدق هو " رأس الأمر كله " .

وقوله الحق : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ أي : لا تقولوا كلاماً لا يصادفه الواقع ، وكذلك إياكم أن تقولوا كلاماً تناقضه أفعالكم ، لهذا يقول الحق سبحانه : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ الله أَن تَقُولُواْ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : 2-3]

وفي سورة البقرة يقول الحق سبحانه : ﴿ لَّيْسَ البر أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشرق والمغرب ولكن البر مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسآئلين وَفِي الرقاب وَأَقَامَ الصلاوة وَآتَى الزكاوة . . . ﴾ [البقرة : 177]

ولننتبه إلى الملاحظ الدقيقة في هذه الآية ، فقد قال الحق هنا : ﴿ وَآتَى المال على حُبِّهِ ذَوِي القربى ﴾ [البقرة : 177]

ثم ذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فلماذا إذن ذكر ﴿ وَآتَى المال ﴾ ؟ أقول : لقد ذكر الحق هنا المال الذي ينفقه المؤمن دون أن يكون مفروضاً عليه إخراجه مثل الزكاة ، فالزكاة واجبة ، أما إيتاء المال تصدقاً ، فهذا فوق الواجب .

ثم يقول سبحانه : ﴿ والموفون بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ والصابرين فِي البأسآء والضراء وَحِينَ البأس أولئك الذين صَدَقُواْ وأولئك هُمُ المتقون ﴾ [البقرة : 177]

هذه هي صفات من صدقوا ، وهم هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها قد تصدقوا واتقوا .

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ اتقوا الله وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ [التوبة : 119]

وقد جاء الحق بصفة " الصدق " هنا ؛ لأن المجال هو الحديث عمن تخلّف عن الغزوات ،

وكذب في الأعذار التي افتعلها ؛ لذلك يأتي التوجيه السماوي أن ادخلوا من باب الصدق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(43/352)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن نافع في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : نزلت في الثلاثة الذين خلفوا : قيل لهم : كونوا مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وأخرج ابن المنذر عن كعب بن مالك قال : فينا نزلت أيضاً ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عمر في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : مع محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : مع أبي بكر

وعمر رضي الله عنهما .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن عساكر عن الضحاك في قوله ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : امروا أن يكونوا مع أبي بكر وعمر وأصحابهما .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : مع علي بن أبي طالب .

وأخرج ابن عساكر عن أبي جعفر في قوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : مع علي بن أبي طالب .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : كونوا مع كعب بن مالك ، ومرارة بن ربيعة ، وهلال بن أمية .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن عدي وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عبد الله بن مسعود قال : لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ولا أن يعد أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجزه ، اقرأوا إن شئتم ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ قال : وهي في قراءة عبد الله هكذا ، قال : فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب .

وأخرج ابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس أنه كان يقرأ ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ .

وأخرج أبو داود الطيالسي والبخاري في الأدب وابن عدي والبيهقي في الشعب " عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه " سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وهما في الجنة ، وإياكم والكذب فإنه يهدي إلى الفجور وهما في النار ، ولا يزال الرجل يصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ولا يزال يكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " " .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وابن عدي والبيهقي وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " عليكم بالصدق فأن الصدق يهدي إلى البر ، وأن البر يهدي إلى الجنة ، وأن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " .

وأخرج ابن عدي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يا أيها الناس اجتنبوا الكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإنه يقال : صدق وبر وكذب وفجر " .

وأخرج أحمد والبيهقي في الشعب " عن أبي مالك الجشمي ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أرأيت لو كان لك عبدان أحدهما يخونك ويكذبك حديثاً ، والآخر لا يخونك ويصدقك حديثاً أيهما أحب إليك ؟ قال : قلت : الذي لا يخونني ويصدقني حديثاً ، قال : كذلك أنتم عند ربكم عز وجل " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن ابن مسعود رضي الله عنه رفع الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا يعد الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، إن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، إنه يقال للصادق صدق وبر ، ويقال للكاذب كذب وفجر ، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً " .

(45/352)

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن أسماء بنت يزيد " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب فقال : ما يحملكم على أن تتابعوا على الكذب كما يتتابع الفراش في النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب ، أو إصلاح بين إثنين ، أو

رجل يحدث امرأته ليرضيها " .

وأخرج البيهقي عن النوّاس بن سمعان الكلابي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما لي أراكم تتهافتون في الكذب تهافت الفراش في النار ، كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب في خديعة حرب ، أو إصلاح بين إثنين ، أو رجل يحدث امرأته ليرضيها " .

وأخرج البيهقي عن ابن شهاب قال : ليس بكذاب من درأ عن نفسه .

وأخرج ابن عدي والبيهقي وضعفه عن أبي بكر رضي الله عنه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الكذب مجانب للإِيمان " .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن عدي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال : إياكم والكذب فإن الكذب مجانب للإِيمان . قال البيهقي : هذا هو الصحيح موقوف .

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " يطبع المؤمن على كل شيء إلا الخيانة والكذب " .

وأخرج ابن عدي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال

" يطبع المؤمن على كل خلق ليس الخيانة والكذب " .

وأخرج ابن عدي عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن المؤمن ليطبع على خلال شتى من الجود والبخل وحسن الخلق ، ولا يطبع المؤمن على الكذب ، ولا يكون كذاباً " .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " .

وأخرج البيهقي عن عبد الله بن أبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " المؤمن يطبع على كل خلق إلا الكذب والخيانة " .

وأخرج أبو نعيم في الحلية عن جعفر بن محمد قال : يبنى الإِنسان على خصال ، فمهما بني عليه فإنه لا يبنى على الخيانة والكذب .

(46/352)

وأخرج مالك والبيهقي عن صفوان بن سليم " أنه قيل يا رسول الله أيكون المؤمن جباناً ؟ قال " نعم . قيل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ قال : نعم . قيل : أيكون المؤمن كذاباً ؟ قال : لا " .

وأخرج البيهقي وأبو يعلى وضعفه عن أبي برزة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " الكذب يسوّد الوجه ، والنميمة عذاب القبر " .

وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها قالت " ما كان خلق أبغض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجل يكذب عنده الكذبة

فما يزال في نفسه حتى يعلم أنه قد أحدث منها توبة " .

وأخرج أحمد وهناد بن السري رضي الله عنه في الزهد وابن عدي والبيهقي عن النوّاس بن سمعان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك مصدق وأنت به كاذب " .

وأخرج أحمد والبيهقي عن أسماء بنت عميس قالت "كنت صاحبة عائشة التي هيأتها ، فأدخلتها على النبي صلى الله عليه وسلم في نسوة ، فما وُجدنا عنده قرى إلا قدح من لبن ، فتناوله فشرب منه ثم ناوله عائشة ، فاستحيت منه فقلت : لا تردي يد رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأخذته فشربته ، ثم قال : ناولي صواحبك . فقلت : لا نشتهيه . فقال : لا تجمعن كذباً وجوعاً . فقلت : إن قالت إحدانا لشيء تشتهيه لا أشتهي أيعدُّ ذلك كذباً . فقال : إن الكذب يكتب كذباً ، حتى الكذيبة تكتب كذيبة " .

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة وأحمد والبيهقي عن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال : " جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بيتنا وأنا صبي صغير ، فذهبت ألعب فقالت أمي لي : يا عبد الله تعال أعطيك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما أردت أن تعطيه ؟ قالت : أردت أن أعطيه تمراً قال : إما أنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة " " .

وأخرج الطيالسي وأحمد والترمذي وصححه والدارمي وأبو يعلى وابن حبان والطبراني والبيهقي والضياء " عن الحسن بن علي " سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة " " .

وأخرج ابن عدي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطبته " إن أعظم الخطيئة عند الله اللسان الكاذب " .

وأخرج ابن عدي عن أبي بكر الصديق قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " الصدق أمانة والكذب خيانة " .

وأخرج ابن ماجة والحكيم والترمذي في نوادر الأصول والخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي " عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : قلنا يا رسول الله من خير الناس ؟ قال " ذو القلب المحموم واللسان الصادق ، قلنا : قد عرفنا اللسان الصادق فما القلب المحموم ؟ قال : التقي النقي الذي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد . قلنا يا رسول الله : فمن على أثره ؟ قال : الذي يشنأ الدنيا ويحب الآخرة ، قلنا ما نعرف هذا فينا إلا رافعاً مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمن على أثره ؟ قال : مؤمن في حسن خلق . قلنا : أما هذا ففينا " " .

وأخرج البيهقي في الشعب عن عمر بن الخطاب قال : لا تجد المؤمن كذاباً .

وأخرج البيهقي عن عمر بن الخطاب قال " لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه ، ولكن انظروا إلى من إذا حدث صدق ، وإذا ائتمن أدى ، وإذا أشفى ورع " .

وأخرج البيهقي عن أنس قال : إن الرجل ليحرم قيام الليل وصيام النهار بالكذبة يكذبها .

وأخرج ابن عدي والبيهقي عن محمد بن سيرين قال : الكلام أوسع من أن يكذب ظريف .

وأخرج البيهقي عن مطر الوراق قال : خصلتان إذا كانتا في عبد كان سائر عمله تبعاً لهما ، حسن الصلاة وصدق الحديث .

وأخرج البيهقي عن الفضيل قال : لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق ، وطلب الحلال .

(48/352)

وأخرج البيهقي عن عبد العزيز بن أبي رواد قال : أبرار الدنيا الكذب وقلة الحياء ، من طلب الدنيا بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب ، وأبرار الآخرة ، الحياء والصدق ، فمن طلب الآخرة بغيرهما فقد أخطأ الطريق والمطلب .

وأخرج البيهقي عن يوسف بن أسباط قال : يرزق العبد بالصدق ثلاث خصال ، الحلاوة والملاحة والمهابة .

وأخرج البيهقي عن أبي روح حاتم بن يوسف قال : أتيت باب الفضيل بن عياض فسلمت

عليه فقلت : يا أبا علي معي خمسة أحاديث إن رأيت أن تأذن لي فأقرأ . فقال لي : اقرأ . فقرأت فإذا هي ستة فقال لي : أن قم يا بني تعلم الصدق ثم اكتب الحديث .

وأخرج ابن عدي عن عمران بن الحصين رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب " .

وأخرج ابن عدي عن علي بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن في المعاريض ما يغني الرجل العاقل عن الكذب " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(49/352)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

يا أيها الذين آمنوا برُسُلِ الله ، يا أيها الذين آمنوا من أهل الكتاب . . . كونوا مع الصادقين المسلمين ، يا أيها الذين آمَنُوا في الحال كونوا في آخر أحوالكم مع الصادقين ؛ أي استديموا الإيمان . استديموا في الدنيا الصدقَ تكونوا غداً مع الصادقين في الجنة .

ويقال الصادقون هم السابقون الأولون وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وغيرهم .

ويقال الصدق نهاية الأحوال ، وهو استواءُ السِّرِّ والعلانية ، وذلك عزيز . وفي الزَّبور : " كذب مَنْ ادَّعَى محبتي وإذا جَنَّة الليلُ نام عنِّي " .

والصدقُ - كما يكون في الأقوال يكون في الأحوال ، وهو أَتَمُّ أقسامِهِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 71 . 72 ﴾

(50/352)

فصل

قال ابن القيم :

ومن منازل إياك نعبد وإياك نستعين منزلة الصدق

وهي منزلة القوم الأعظم الذي منه تنشأ جميع منازل السالكين والطريق الأقوم الذي من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكين وبه تميز أهل النفاق من أهل الإيمان وسكان الجنان من أهل النيران وهو سيف الله في أرضه الذي ما وضع على شيء إلا قطعه ولا واجه باطلا إلا أرداه وصرعه من صال به لم ترد صولته ومن نطق به علت على الخصوم كلمته فهو روح

الأعمال ومحك الأحوال والحامل على اقتحام الأهوال والباب الذي دخل منه الواصلون إلى حضرة ذي الجلال وهو أساس بناء الدين وعمود فسطاط اليقين ودرجته تالية لدرجة النبوة التي هي أرفع درجات العالمين ومن مساكنهم

(51/352)

في الجنات: تجري العيون والأنهار إلى مساكن الصديقين كما كان من قلوبهم إلى قلوبهم في هذه الدار مدد متصل ومعين وقد أمر الله سبحانه أهل الإيمان: أن يكونوا مع الصادقين وخص المنعم عليهم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: 119] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء: 69] فهم الرفيق الأعلى وحسن أولئك رفيقا ولا يزال الله يمدهم بأنعمه وألطافه ومزيده إحسانا منه وتوفيقا ولهم مرتبة المعية مع الله فإن الله مع الصادقين ولهم منزلة القرب منه إذ درجتهم منه ثاني درجة النبيين وأخبر تعالى أن من صدقه فهو خير له فقال: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [محمد: 21] وأخبر تعالى عن أهل البر وأثنى عليهم بأحسن أعمالهم: من الإيمان والإسلام والصدقة والصبر بأنهم أهل الصدق

فقال: ﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177] وهذا صريح في أن الصدق بالأعمال الظاهرة والباطنة وأن الصدق هو مقام الإسلام والإيمان وقسم الله سبحانه الناس إلى صادق ومنافق فقال: ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ

(52/352)

الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب: 24] والإيمان أساسه الصدق والنفاق أساسه الكذب فلا يجتمع كذب وإيمان إلا وأحدهما محارب للآخر وأخبر سبحانه أنه فى يوم القيامة لا ينفع العبد وينجيه من عذابه إلا صدقه

قال تعالى: ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [المائدة: 119] وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: 34] فالذي جاء بالصدق: هو من شأنه الصدق فى قوله وعمله وحاله فالصدق: فى هذه الثلاثة فالصدق

في الأقوال: استواء اللسان على الأقوال كاستواء السنبلة على ساقها والصدق في الأعمال: استواء الأفعال على الأمر والمتابعة كاستواء الرأس على الجسد والصدق في الأحوال: استواء أعمال القلب والجوارح على الإخلاص واستفراغ الوسع وبذل الطاقة فبذلك يكون العبد من الذين جاءوا بالصدق وبحسب كمال هذه الأمور فيه وقيامها به: تكون صديقيته ولذلك كان لأبي بكر الصديق رضى الله عنه وأرضاه: ذروة سنام الصديقية سمي الصديق على الإطلاق و الصديق أبلغ من الصدوق والصدوق أبلغ من الصادق

(53/352)

فأعلى مراتب الصدق: مرتبة الصديقية وهي كمال الانقياد للرسول مع كمال الإخلاص للمرسل وقد أمر الله تعالى رسوله: أن يسأله أن يجعل مدخله ومخرجه على الصدق فقال: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: 80] وأخبر عن خليله إبراهيم أنه سأله أنه يهب له لسان صدق في الآخرين فقال: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴾ [الشعراء: 84] وبشر عباده بأن لهم عنده قدم صدق ومقعد صدق فقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس: 2] وقال: ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ

صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 54-55] فهذه خمسة أشياء: مدخل الصدق ومخرج الصدق ولسان الصدق وقدم الصدق ومقعد الصدق وحقيقة الصدق في هذه الأشياء: هو الحق الثابت المتصل بالله الموصل

(54/352)

إلى الله وهو ما كان به وله من الأقوال والأعمال وجزاء ذلك في الدنيا والآخرة فمدخل الصدق ومخرج الصدق: أن يكون دخوله وخروجه حقا ثابتا بالله وفي مرضاته بالظفر بالبغية وحصول المطلوب ضد مخرج الكذب ومدخله الذي لا غاية له يوصل إليها ولا له ساق ثابتة يقوم عليها كمخرج أعدائه يوم بدر ومخرج الصدق كمخرجه هو وأصحابه في تلك الغزوة وكذلك مدخله المدينة: كان مدخل صدق بالله ولله وابتغاء مرضاة الله فاتصل به التأييد والظفر والنصر وإدراك ما طلبه في الدنيا والآخرة بخلاف مدخل الكذب الذي رام أعداؤه أن يدخلوا به المدينة يوم الأحزاب فإنه لم يكن بالله ولا لله بل كان محادة لله ورسوله فلم يتصل به إلا الخذلان والبوار وكذلك مدخل من دخل من اليهود المحاربين لرسول الله صلى الله عليه وسلم حصن بني قريظة فإنه لما كان مدخل كذب: أصابه معهم ما أصابهم فكل مدخل معهم ومخرج كان بالله ولله وصاحبه ضامن على الله فهو مدخل

صدق ومخرج صدق وكان بعض السلف إذا خرج من داره: رفع رأسه إلى السماء وقال: اللهم إني أعوذ بك أن أخرج مخرجا لا أكون فيه ضامنا عليك يريد: أن لا يكون المخرج مخرج صدق ولذلك فسر مدخل الصدق ومخرجه: بخروجهمن مكة ودخوله المدينة ولا ريب أن هذا على سبيل التمثيل فإن هذا المدخل والمخرج من أجل مداخله ومخارجه وإلا فمداخله كلها مداخل صدق ومخارجه مخارج صدق إذ هي لله وبالله وبأمره ولابتغاء مرضاته وما خرج أحد من بيته ودخل سوقه أو مدخلا آخر إلا بصدق أو بكذب فمخرج كل واحد ومدخله: لا يعدو الصدق والكذب والله

(55/352)

المستعان وأما لسان الصدق: فهو الثناء الحسن عليهمن سائر الأمم بالصدق ليس ثناء بالكذب كما قال عن إبراهيم وذريته من الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه: ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ [مريم: 50] والمراد باللسان ههنا: الثناء الحسن فلما كان الصدق باللسان وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقا وعبر به عنه فإن اللسان يراد به ثلاثة معان: هذا واللغة كقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: 4] وقوله: ﴿ وَاخْتِلَافُ

أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾ [الروم: 22] وقوله: لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل: 103] ويراد به الجارحة نفسها كقوله تعالى: ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ [القيامة: 16] وأما قدم الصدق: ففسر بالجنة وفسر بمحمد وفسر بالأعمال الصالحة وحقيقة القدم ما قدموه وما يقدمون عليه يوم القيامة وهم قدموا الأعمال والإيمان بمحمد ويقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك فمن فسره بها أراد: ما يقدمون عليه ومن فسره بالأعمال وبالنبي: فلأنهم قدموها وقدموا الإيمان به بين أيديهم فالثلاثة قدم صدق وأما مقعد الصدق: فهو الجنة عند الرب تبارك وتعالى ووصف ذلك كله بالصدق مستلزم ثبوته واستقراره وأنه حق ودوامه ونفعه وكمال عائدته فإنه متصل بالحق سبحانه كائن به وله فهو صدق غير كذب وحق غير باطل ودائم غير زائل ونافع غير ضار وما للباطل ومتعلقاته إليه سبيل ولا مدخل ومن علامات الصدق: طمأنينة القلب إليه ومن علامات الكذب: حصول الريبة كما في الترمذي مرفوعا من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما

(56/352)

عنهما عن النبيقال: الصدق طمأنينة والكذب ريبة وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبيقال: إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا فجعل الصدق مفتاح الصديقية ومبدأها وهي غايته فلا ينال درجتها كاذب ألبتة لا في قوله ولا في عمله ولا في حاله ولا سيما كاذب على الله في أسمائه وصفاته ونفي ما أثبته أو إثبات ما نفاه عن نفسه فليس في هؤلاء صديق أبدا وكذلك الكذب عليه في دينه وشرعه بتحليل ما حرمه وتحريم ما لم يحرمه وإسقاط ما أوجبه وإيجاب ما لم يوجبه وكراهة ما أحبه واستحباب ما لم يحبه كل ذلك مناف للصديقية وكذلك الكذب معه في الأعمال: بالتحلي بحلية الصادقين المخلصين والزاهدين المتوكلين وليس في الحقيقة منهم فلذلك كانت الصديقية: كمال الإخلاص والانقياد والمتابعة للخبر والأمر ظاهرا وباطنا حتى إن صدق المتبايعين يحل البركة في بيعهما وكذبهما يمحق بركة بيعهما كما في الصحيحين عن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كذبا وكتما: محقت بركة بيعهما

فصل في كلمات في حقيقة الصدق قال عبد الواحد بن زيد: الصدق الوفاء

لله بالعمل وقيل: موافقة السر النطق وقيل: استواء السر والعلانية يعني أن الكاذب علانيته خير من سريرته كالمنافق الذي ظاهره خير من باطنه

(57/352)

وقيل: الصدق القول بالحق في مواطن الهلكة وقيل: كلمة الحق عند من تخافه وترجوه وقال الجنيد: الصادق يتقلب في اليوم أربعين مرة والمرائي يثبت على حالة واحدة أربعين سنة وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وقد يسبق إلى الذهن خلافه وأن الكاذب متلون لأن الكذب ألوان فهو يتلون بتلونه والصادق مستمر على حالة واحدة فإن الصدق واحد في نفسه وصاحبه لا يتلون ولا يتغير لكن مراد الشيخ أبي القاسم صحيح غير هذا فإن المعارضات والواردات التي ترد على الصادق لا ترد على الكاذب المرائي بل هو فارغ منها فإنه لا يرد عليه من قبل الحق موارد الصادقين على الكاذبين المرائين ولا يعارضهم الشيطان كما يعارض الصادقين فإنه لا أرب له في خربة لا شيء فيها وهذه الواردات توجب تقلب الصادق بحسب اختلافها وتنوعها فلا تراه إلا هاربا من مكان إلى مكان ومن عمل إلى عمل ومن حال إلى حال ومن سبب إلى سبب لأنه يخاف في كل حال يطمئن إليها ومكان وسبب: أن يقطعه عن مطلوبه فهو لا يساكن حالة ولا شيئا دون مطلوبه فهو كالجوال في

الآفاق في طلب الغنى الذي يفوق به الأغنياء والأحوال والأسباب تتقلب به وتقيمه وتقعده وتحركه وتسكنه حتى يجد فيها ما يعينه على مطلوبه وهذا عزيز فيها فقلبه في تقلب وحركة

(58/352)

شديدة بحسب سعة مطلوبه وعظمته وهمته أعلى من أن يقف دون مطلبه على رسم أو حال أو يساكن شيئا غيره فهو كالمحب الصادق الذي همته التفتيش على محبوبه وكذا حال الصادق في طلب العلم وحال الصادق في طلب الدنيا فكل صادق في طلب شيء لا يستقر له قرار ولا يدوم على حالة واحدة وأيضا : فإن الصادق مطلوبه رضى ربه وتنفيذ أوامره وتتبع محابه فهو متقلب فيها يسير معها أين توجهت ركائبها ويستقل معها أين استقلت مضاربها فبينا هو في صلاة إذ رأيته في ذكر ثم في غزو ثم في حج ثم في إحسان للخلق بالتعليم وغيره من أنواع النفع ثم في أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو في قيام بسبب فيه عمارة الدين والدنيا ثم في عيادة مريض أو تشييع جنازة أو نصر مظلوم إن أمكن إلى غير ذلك من أنواع القرب والمنافع فهو في تفرق دائم لله وجمعية على الله لا يملكه رسم ولا عادة ولا وضع ولا يتقيد بقيد ولا إشارة ولا بمكان معين يصلى فيه لا يصلى في غيره وزي معين لا

يلبس سواه وعبادة معينة لا يلتفت إلى غيرها مع فضل غيرها عليها أو هي أعلى من غيرها في الدرجة وبعد ما بينهما كبعد ما بين السماء والأرض فإن البلاء والآفات والرياء والتصنع وعبادة النفس وإيثار مرادها والاشارة إليها : كلها في هذه الأوضاع والرسوم والقيود التي حبست أربابها عن السير إلى قلوبهم فضلا عن السير من قلوبهم إلى الله تعالى فإذا خرج أحدهم عن

رسمه ووضعه وزيه وقيده وإشارته ولو إلى أفضل منه استهجن ذلك ورآه نقصا وسقوطا من أعين الناس وانحطاطا لرتبته عندهم وهو قد انحط وسقط من عين الله

(59/352)

وقد يحس أحدهم ذلك من نفسه وحاله ولا تدعه رسومه وأوضاعه وزيه وقيوده: أن يسعى في ترميم ذلك وإصلاحه وهذا شأن الكذاب المرائي الذي يبدي للناس خلاف ما يعلمه الله من باطنه العامل على عمارة نفسه ومرتبته وهذا هو النفاق بعينه ولو كان عاملا على مراد الله منه وعلى الصدق مع الله: لأثقلته تلك القيود وحبسته تلك الرسوم ولرأى الوقوف عندها ومعها عين الانقطاع عن الله لا إليه ولما بالى أي ثوب لبس ولا أي عمل عمل إذا كان على مراد الله من العبد فكلام أبي القاسم الجنيد حق كلام راسخ في الصدق عالم

بتفاصيله وآفاته ومواضع اشتباهه بالكذب

وأيضا فحمل الصدق كحمل الجبال الرواسي لا يطيقه إلا أصحاب العزائم فهم يتقلبون تحته تقلب الحامل بحمله الثقيل والرياء والكذب خفيف كالريشة لا يجد له صاحبه ثقلا ألبتة فهو حامل له في أي موضع اتفق بلا تعب ولا مشقة ولا كلفة فهو لا يتقلب تحت حمله ولا يجد ثقله وقال بعضهم: لا يشم رائحة الصدق عبد داهن نفسه أو غيره وقال بعضهم: الصادق الذي يتهيأ له أن يموت ولا يستحيي من سره لو كشف قال الله تعالى: ﴿ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: 94] قلت: هذه الآية فيها للناس كلام معروف قالوا: إنها معجزة للنبي أعجز بها اليهود ودعاهم إلى تمني الموت وأخبر: أنهم لا يتمنونه أبدا وهذا علم من أعلام نبوته إذ لا يمكن الاطلاع على بواطنهم إلا بأخبار الغيب ولم ينطق الله ألسنتهم بتمنيه أبدا

(60/352)

وقالت طائفة: لما ادعت اليهود: أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس وأنهم أبناؤه وأحباؤه وأهل كرامته كذبهم الله في دعواهم وقال: إن كنتم صادقين فتمنوا الموت لتصلوا إلى الجنة دار النعيم فإن الحبيب يتمنى لقاء حبيبه ثم أخبر سبحانه: أنهم لا

يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم من الأوزار والذنوب الحائلة بينهم وبين ما قالوه فقال: ﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ [البقرة: 95] وقالت طائفة منهم محمد بن إسحاق وغيره هذه من جنس آية المباهلة وأنهم لما عاندوا ودفعوا الهدى عيانا وكتموا الحق: دعاهم إلى أمر يحكم بينهم وبينه وهو أن يدعوا بالموت على الكاذب المفتري و التمني سؤال ودعاء فتمنوا الموت وادعوا به على المبطل الكاذب المفتري وعلى هذا فليس المراد: تمنوه لأنفسكم خاصة كما قاله أصحاب القولين الأولين بل معناه: ادعوا بالموت وتمنوه للمبطل وهذا أبلغ في إقامة الحجة وبرهان الصدق وأسلم من أن يعارضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم: فتمنوه أنتم أيضا إن كنتم محقين أنكم أهل الجنة لتقدموا على ثواب الله وكرامته كانوا أحرص شيء على معارضته فلو فهموا منه ما ذكره أولئك لعارضوه بمثله وأيضا فإنا نشاهد كثيرا منهم يتمنى الموت لضره وبلائه وشدة حاله ويدعو به وهذا بخلاف تمنيه والدعاء به على الفرقة الكاذبة فإن هذا لا يكون أبدا ولا وقع من أحد منهم في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ألبتة وذلك لعلمهم بصحة نبوته وصدقه وكفرهم به حسدا وبغيا فلا يتمنوه أبدا لعلمهم أنهم هم الكاذبون وهذا القول: هو الذي نختاره والله أعلم بما أراد من كتابه وقال إبراهيم الخواص: الصادق لا تراه إلا في فرض يؤديه أو فضل يعمل فيه وقال الجنيد: حقيقة الصدق: أن تصدق في موطن لا ينجيك منه إلا الكذب وقيل: ثلاث لا تخطىء الصادق: الحلاوة والملاحة والهيبة

وفي أثر إلهي: من صدقني في سريرته صدقته في علانيته عند خلقي وقال سهل بن عبد الله: أول خيانة الصديقين: حديثهم مع أنفسهم وقال يوسف بن أسباط: لأن أبيت ليلة أعامل الله بالصدق أحب إلي من أضرب بسيفي في سبيل الله وقال الحارث المحاسبي: الصادق هو الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من أجل صلاح قلبه ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله ولا يكره أن يطلع الناس على السيء من عمله فإن كراهته لذلك دليل على أنه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من علامات الصديقين وفي هذا نظر لأن كراهته لاطلاع الناس على مساوىء عمله من جنس كراهته للضرب والمرض وسائر الآلام وهذا أمر جبلي طبيعي ولا يخرج صاحبه عن الصدق لا سيما إذا كان قدوة متبعا فإن كراهته لذلك من علامات صدقة لأن فيها مفسدتين: مفسدة ترك الاقتداء به واتباعه على الخير وتنفيذه ومفسدة اقتداء الجهال به فيها فكراهيته لاطلاعهم على مساوىء عمله: لا تنافي صدقه بل قد تكون من علامات صدقه نعم المنافي للصدق: أن لا يكون له مراد سوى عمارة حاله عندهم وسكناه في قلوبهم تعظيما له فلو كان مراده تنفيذا لأمر الله ونشرا لدينه وأمرا بالمعروف ونهيا عن المنكر

ودعوة إلى الله: فهذا الصادق حقا والله يعلم سرائر القلوب ومقاصدها وأظن أن هذا هو مراد المحاسبي بقوله: ولا يكره اطلاع الناس على السيء من عمله فإنهم يريدون ذلك فضولا ودخولا فيما لا يعني فرضي الله عن أبي بكر الصديق حيث قال: لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة والله لو منعوني عناقا أو عقالا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه فهذا وأمثاله يعدونه ويرونه من سيء الأعمال عند العوام والجهال

(62/352)

وقال بعضهم: من لم يؤد الفرض الدائم لم يقبل منه الفرض المؤقت قيل: وما الفرض الدائم قال: الصدق وقيل: من طلب الله بالصدق أعطاه مرآة يبصر فيها الحق والباطل وقيل: عليك بالصدق حيث تخاف أنه يضرك فإنه ينفعك ودع الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك وقيل: ما أملق تاجر صدوق

فصل قال صاحب المنازل: الصدق: اسم لحقيقة الشيء بعينه حصولا ووجودا

الصدق: هو حصول الشيء وتمامه وكمال قوته واجتماع أجزائه كما يقال: عزيمة صادقة إذا كانت قوية تامة وكذلك: محبة صادقة وإرادة صادقة وكذا قولهم: حلاوة صادقة إذا كانت قوية تامة ثابتة الحقيقة لم ينقص منها شيء ومن هذا أيضا: صدق الخبر لأنه وجود

المخبر بتمام حقيقته في ذهن السامع فالتمام والوجود نوعان: خارجي وذهني فإذا أخبرت المخاطب بخبر صادق حصلت له حقيقة المخبر عنه بكماله وتمامه في ذهنه ومن هذا: وصفهم الرمح بأنه صادق الكعوب إذا كانت كعوبه صلبة قوية ممتلئة قال: وهو على ثلاث درجات الدرجة الأولى: صدق القصد وبه يصح الدخول في هذا الشأن ويتلافى به كل تفريط ويتدارك به كل فائت ويعمر كل خراب وعلامة هذا الصادق: أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد ولا يصبر على صحبة ضد ولا يقعد عن الجد بحال يعني بصدق القصد: كمال العزم وقوة الإرادة بأن يكون في القلب داعية صادقة إلى السلوك وميل شديد يقهر السر على صحة التوجه فهو طلب لا يمازجه رياء ولا فتور ولا يكون فيه قسمة بحال ولا يصح الدخول في شأن السفر إلى الله والاستعداد للقائه إلا به

(63/352)

ويتلافى به كل تفريط فإنه حامل على كل سبب ينال به الوصول وقطع كل سبب يحول بينه وبينه فلا يترك فرصة تفوته وما فاته من الفرص السابقة تداركها بحسب الإمكان فيصلح من قلبه ما مزقته يد الغفلة والشهوة ويعمر منه ما خربته يد البطالة ويوقد فيه ما أطفأته أهوية النفس ويلم منه ما شعثته يد التفريط والإضاعة ويسترد منه ما نهبته أكف اللصوص

والسراق ويزرع منه ما وجده بورا من أراضيه ويقلع ما وجده شوكا وشبرقا في نواحيه ويستفرغ منه ما ملأته مواد الأخلاط الردئية الفاسدة المترامية به إلى الهلاك والعطب ويداوي منه الجراحات التي أصابته من عبرات الرياء ويغسل منه الأوساخ والحوبات التي تراكمت عليه على تقادم الأوقات حتى لو اطلع عليه لأحزنه سواده ووسخه الذي صار دباغا له فيطهره بالماء البارد من ينابيع الصدق الخالصة من جميع الكدورات قبل أن يكون طهوره بالجحيم والحميم فإنه لا يجاور الرحمن قلب دنس بأوساخ الشهوات والرياء أبدا ولابد من طهور فاللبيب يؤثر أسهل الطهورين وأنفعهما والله المستعان وقوله: وعلامة هذا الصادق: أن لا يتحمل داعية تدعو إلى نقض عهد يعني أن الصادق حقيقة: هو الذي قد انجذبت قوى روحه كلها إلى إرادة الله وطلبه والسير إليه والاستعداد للقائه ومن تكون هذه حاله: لا يحتمل سببا يدعوه إلى نقض عهده مع الله بوجه وقوله: ولا يصبر على صحبة ضده الضد عند القوم: هم أهل الغفلة وقطاع طريق القلب إلى الله وأضر شيء على الصادق: صحبتهم بل لا تصبر نفسه على ذلك أبدا إلا جمع ضرورة وتكون صحبتهم له في تلك الحال بقالبه وشبحه دون قلبه وروحه فإن هذا لما استحكمت الغفلة عليه كما استحكم الصدق في الصادق: أحست روحه بالأجنبية التي بينه وبينهم بالمضادة فاشتدت النفرة وقوي الهرب وبحسب هذه الأجنبية

وإحساس الصادق بها : تكون نفرته وهربه عن الأضداد فإن هذا الضد إن نطق أحس قلب الصادق: أنه نطق بلسان الغفلة والرياء والكبر وطلب الجاه ولو كان ذاكرا أو قارئا أو مصليا أو حاجا أو غير ذلك فنفر قلبه منه وإن صمت أحس قلبه: أنه صمت على غير حضور وجمعية على الله وإقبال بالقلب عليه وعكوف السر عليه فينفر منه أيضا فإن قلب الصادق قوي الإحساس فيجد الغيرية والأجنبية من الضد ويشم القلب القلب كما يشم الرائحة الخبيثة فيزوي وجهه لذلك ويعتريه عبوس فلا يأنس به إلا تكلفا ولا يصاحبه إلا ضرورة فيأخذ من صحبته قدر الحاجة كصحبة من يشتري منه أو يحتاج إليه في مصالحه كالزوجة والخادم ونحوه قوله: ولا يقعد عن الجد بحال يعني أنه لما كان صادقا في طلبه مستجمع القوة: لم يقعد به عزمه عن الجد في جميع أحواله فلا تراه إلا جادا وأمره كله جد فصل قال: الدرجة الثانية: أن لا يتمنى الحياة إلا للحق ولا يشهد

من نفسه إلا أثر النقصان ولا يلتفت إلى ترفيه الرخص أي لا يحب أن يعيش إلا ليشبع من رضى محبوبه ويقوم بعبوديته ويستكثر من الأسباب التي تقربه إليه وتدنيه منه لا لعلة من علل الدنيا ولا لشهوة من شهواتها كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لولا ثلاث لما أحببت البقاء: لولا أن أحمل على جياد الخيل في سبيل الله ومكابدة الليل ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما ينتقي أطايب التمر يريد رضي الله عنه: الجهاد والصلاة والعلم

النافع وهذه درجات الفضائل وأهلها هم أهل الزلفى والدرجات العليا وقال معاذ رضي الله عنه عند موته: اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء

(65/352)

لجري الأنهار ولا لغرس الأشجار ولا لنكح الأزواج ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الليل ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر وقوله: ولا يشهد من نفسه إلا أثر النقصان يعني لا يرى نفسه إلا مقصرا والموجب له لهذه الرؤية: استعظام مطلوبه واستصغار نفسه ومعرفته بعيوبها وقلة زاده في عينه فمن عرف الله وعرف نفسه: لم ير نفسه إلا بعين النقصان وأما قوله: ولا يلتفت إلى ترفيه الرخص فلأنه لكمال صدقه وقوة إرادته وطلبه للتقدم: يحمل نفسه على العزائم ولا يلتفت إلى الرفاهية التي في الرخص وهذا لابد فيه من التفصيل فإن الصادق يعمل على رضى الحق تعالى ومحابه فإذا كانت الرخص أحب إليه تعالى من العزائم: كان التفاته إلى ترفيهها وهو عين صدقه فإذا أفطر في السفر وقصر وجمع بين الصلاتين عند الحاجة إليه وخفف الصلاة عند الشغل ونحو ذلك من الرخص التي يحب الله تعالى أن يؤخذ بها: فهذا الالتفات إلى ترفيهها لا ينافي الصدق بل ههنا نكتة وهي أنه فرق بين أن يكون التفاته إليها ترفها وراحة وأن يكون متابعة وموافقة ومع هذا فالالتفات إليها ترفها

وراحة لا ينافي الصدق فإن هذا هو المقصود منها وفيه شهود نعمة الله على العبد وتعبده باسمه البر اللطيف المحسن الرفيق فإنه رفيق يحب الرفق وفي الصحيح: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما لما فيه من روح التعبد باسم الرفيق اللطيف وإجمام القلب به لعبودية أخرى فإن القلب لا يزال يتنقل في منازل العبودية فإذا أخذ بترفيه رخصة محبوبه: استعد بها لعبودية أخرى وقد تقطعه عزيمتها عن عبودية هي أحب

(66/352)

إلى الله منها كالصائم في السفر الذي ينقطع عن خدمة أصحابه والمفطر الذي يضرب الأخبية ويسقي الركاب ويضم المتاع ولهذا قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم: ذهب المفطرون اليوم بالأجر أما الرخص التأويلية المستندة إلى اختلاف المذاهب والآراء التي تصيب وتخطىء: فالأخذ بها عندهم عين البطالة مناف للصدق

فصل قال: الدرجة الثالثة: الصدق في معرفة الصدق فإن الصدق لا يستقيم في علم أهل الخصوص إلا على حرف واحد وهو أن يتفق رضى الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته وإيقان العبد وقصده: بكون العبد راضيا مرضيا فأعماله إذن مرضية

وأحواله صادقة وقصوده مستقيمة وإن كان العبد كسى ثوبا معارا فأحسن أعماله: ذنب وأصدق أحواله: زور وأصفى قصوده: قعود يعني أن الصدق المتحقق إنما يحصل لمن صدق في معرفة الصدق فكأنه قال: لا يحصل حال الصدق إلا بعد معرفة علم الصدق ثم عرف حقيقة الصدق فقال: لا يستقيم الصدق في علم أهل الخصوص إلا على حرف واحد وهو أن يتفق رضى الحق بعمل العبد أو حاله أو وقته وإيقانه وقصده وهذا موجب الصدق وفائدته وثمرته

فالشيخ ذكر الغاية الدالة على الحقيقة التي يعرف انتفاء الحقيقة بانتفائها وثبوتها بثبوتها فإن العبد إذا صدق الله: رضي الله بعمله وحاله ويقينه وقصده لا أن رضى الله نفس الصدق وإنما يعلم الصدق بموافقة رضاه سبحانه ولكن من أين يعلم العبد رضاه

فمن ههنا كان الصادق مضطرا أشد ضرورة إلى متابعة الأمر والتسليم للرسول في ظاهره وباطنه والاقتداء به والتعبد بطاعته في كل حركة وسكون مع إخلاص القصد لله عز وجل فإن الله تعالى لا يرضيه من عبده إلا ذلك وما عدا هذا فقوت النفس ومجرد حظها واتباع أهوائها وإن كان فيه من المجاهدات والرياضات والخلوات ما كان فإن الله سبحانه وتعالى أبى أن يقبل من عبده عملا أو يرضى به حتى يكون على متابعة رسوله خالصا لوجهه سبحانه

ومن ههنا يفارق الصادق أكثر السالكين بل يستوحش في طريقه وذلك لقلة سالكها فإن أكثرهم سائرون على طرق أذواقهم وتجريد أنفاسهم لنفوسهم ومتابعة رسوم شيوخهم والصادق في واد وهؤلاء في واد وقوله: فيكون العبد راضيا مرضيا لأنه قد رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا فرضي الله به عبدا وأعماله إذا مرضية لله وأحواله صادقة مع الله وقصوده مستقيمة على متابعة أوامر الله عز وجل وقوله وإن كان العبد كسي ثوبا معارا فأحسن أعماله: ذنب وأصدق أحواله: زور وأصفى قصوده: قعود هذا يراد به أمران أحدهما: أن يكسى حلية الصادقين ويلبس ثيابهم على غير قلوبهم وأرواحهم فثوب الصدق عارية له لا ملك له فهو كالمتشبع بما لم يعط فإنه كلابس ثوبي زور فهذا أحسن أعماله: ذنب يعاقب عليه كما يعاقب المقتول في الجهاد والقارىء القرآن المتنسك والمتصدق ويكونون أول من تسعر بهم النار يوم القيامة لما لبسوا ثياب الصادقين على قلوب المرائين هذا معنى صحيح ما أظن الشيخ قصده وإنما أظنه قصد معنى آخر وهو أنه متى تيقن العبد: أن وجوده ثوب

(68/352)

معار ليس منه ولا له وإنما إيجاده وصفاته وإرادته وقدرته وأعماله: عارية من الفعال وحده والعبد ليس له من ذاته إلا العدم فوجوده وحياته: ثوب أعيره فمتى نظر بعين الحقيقة إلى كسوته: رأى أحسن أعماله ذنوبا في هذا المقام وأصدق أحواله زورا وأصفى قصوده قعودا فلا يرى لنفسه منه عملا ولا حالا ولا قصدا فإنه ليس له من نفسه إلا الجهل والظلم فكل ما من النفس: فهو ذنب وزور وقعود وما كان مرضيا فهو بالله ومن الله ولله لا بالنفس ولا منها ولا لها فإن العبد إذا رأى أنه قد فعل الطاعة: كانت رؤيته لذلك ذنبا فإنه قد نسب الفعل إليه والله في الحقيقة هو المنفرد بالفعل فعلى هذا لا يتخلص العبد من الذنب قط فإنه إذا خلص فعله من الرياء ومن كل شيء يفسده: اقترن به آخر لا يمكنه الخلاص منه وهو اعتقاده: أنه هو الفاعل والصواب: أن هذا ليس بذنب ولا هو مقدور للعبد ولا مأمور به والكمال في حقه: أن يشهد الأمر كما هو عليه وأنه فاعل حقيقة كما أضاف الله إليه الفعل في كتابه كله والله هو الذي جعله فاعلا فإذا شهد نفسه فاعلا حقيقة وشهد فاعليته بالله ومن الله لا من نفسه: فلا ذنب في هذا الشهود ولا زور بحمد الله وهو نظر بمجموع عينيه إلى السبب والمسبب والشرع والقدر والخلق والأمر وأنه متى شهد نفسه عاصيا مخالفا مذنبا: كان عاصيا بهذا الشهود لأن الفاعل فيه غيره وهذا مناف للعبودية أشد منافاة وهو من سير القوم إلى شهود الحقيقة الكونية واعتقادهم: أنه غاية السالكين

فإن قيل: الشيخ ههنا ما نطق بلسان الأبرار وإنما نطق بلسان المقربين ولا ريب أن حسنات الأبرار سيئات المقربين ولسنا نريد أن شهود فعله ذنب

(69/352)

في الشرع بل يكون حسنة كما ذكرتم لكن هو حسنة للبر ذنب للمقرب فإن نصيب البر من السيئة: ما جاء به العلم ونصيب المقرب: ما جاءت به المعرفة التي هي أخص من العلم قيل: هذا أيضا باطل قطعا فإن المعرفة الصحيحة: مطابقة للحق في نفسه شرعا وقدرا ومخالف ذلك فمعرفة فاسدة والحق في نفس الأمر: نسبة الأفعال إلى الفاعلين قياما ومباشرة وصدورا منهم وذلك محل الأمر والنهي والثواب والعقاب والقدح في ذلك مستلزم لإبطال الشرع والجزاء فإن الشرع إنما أمر بأفعالنا ونهى عنها والجزاء إنما ترتب عليها فشهود أفعالنا كذلك من تمام الإيمان بالشرع والجزاء ونسبتها إلى الرب تعالى قضاء وقدرا وخلقا للأسباب التي منها إرادتنا وقدرتنا فلم يجبرنا عليها ولم يكرهنا بل خلقها بما أعطانا من القدرة والإرادة اللتين هما من أسباب الفعل فهذا المشهد يحقق عبودية إياك نستعين والمشهد الأول: يحقق عبودية إياك نعبد وهما يحققان مشهدي: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: 29-30] وقوله: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ

أَنْ يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : 2829] وما جاء به العلم لا يناقض ما جاءت به المعرفة بل المعرفة روح العلم ولبه وكماله وحقيقتها : العلم الذي أثمر لصاحبه مقصوده ولسان الأبرار لا يخالف لسان المقربين إنما يخالف لسان الفجار نعم لسان المقربين أعلى منه وأرفع على مقتضى أعمالهم وأحوالهم فنسبته إليه: كنسبة مقام التوكل إلى الرضى والرضى إلى الحمد والشكر فإن قيل: كلامكم هذا بلسان العلم ولو تكلمتم بلسان الحال لعلمتم صحة ما ذكرناه فإن صاحب الحال صاحب شهود وصاحب العلم صاحب غيبة

(70/352)

والشاهد يرى ما لا يرى الغائب ونحن نشير إليكم إشارة حالية علمية تنزلا من الحال إلى العلم فنقول: الحال تأثر عن نور من أنوار الأحدية والفردانية يستر العبد عن نفسه ويبدي ظهور مشهوده ولا ريب أن في هذا الحال قد يعتقد أن الشاهد هو المشهود حتى قال أبو يزيد في مثل هذا الحال: سبحاني سبحاني وما في الجبة إلا الله ولا شك أن هذا الاعتقاد زور وإن كان سببه نور من أنوار الأحدية وصاحبه معذور ما دام مستورا عن نفسه بوارده فإذا رد إلى رسمه وعقله وحسه: حال ذلك الحال وزال وعلم صاحبه أنه كان زورا حيث

ظن أن الشاهد هو المشهود فإن أنكرتم ذلك فلا كلام معكم وإن اعترفتم به حصل المقصود فهذا معنى كون أصدق أحوال الصادق: زورا وإذا عرف هذا في الحال: عرف مثله في كون أحسن أعماله: ذنبا فإنه لصدقه في الطلب وبذله الجهد في العمل واستفراغه الوسع فيه يغيب بذلك عن شهود الحقيقة الكونية وأن المحرك له سواه وأنه آلة ومجرى للمشيئة وأن نفسه أعجز وأضعف من أن يكون لها أو بها أو منها: فعل أو إرادة أو حركة فإذا رجع إلى الحقيقة فشهد منة الله عليه وأنه هو المحرك له وأن مشيئته هي التي أوجبت سعيه: رأى أحسن أعماله: ذنبا بهذا الاعتبار

وأما رؤيته أصفى قصوده: قعودا فلأن القاصد إلى الحقيقة متى شهد مقصوده: قعد عن قصده فإن المقصود المراد: أقرب إلى اللسان من نطقه وإلى القلب من قصده فالقصد إليه: هو عين القعود عن القصد لأن القصد إنما يكون لبعيد عن القاصد أما من هو أقرب إلى القاصد من ذاته: فمتى شاهد القاصد الحقيقة: علم أن قصده عين القعود عن قصده والعبارة تزيد هذا المعنى جفوة والحوالة فيه على الحال والذوق

(71/352)

فالجواب أن يقال: من أحالك على الحال فما أنصفك فإنه أحالك على أمر مشترك بين الحق والباطل فإن كل من اعتقد شيئا وطلبه طلبا صادقا واستفرغ وسعه في الوصول إليه: كان له لا محالة فيه حال ليست لغيره بحسب صدقه في طلبه وجمع همته وقصده عليه وهذا يكون للأبرار والفجار بل لأولياء الله وأعدائه فيكون الرجل له شهود بمشهوده وحال في طلبه لا يوجب كونه حقا ولا باطلا فإن كل من اعتقد عقيدة وارتاض وصقل قلبه بأنواع الرياضة وجزم بما اعتقده: تجلت له صورة معتقده في عالم نفسه فيظن ذلك كشفا صحيحا وإن كان صادقا في طلبه وحبه لما اعتقده: كان له فيه حال وتأثير بحسبه فالحوالة على الحال حوالة مفلس من العلم على غير مليء به ومن ههنا دخل الداخل على أكثر السالكين وانعكس سيرهم حيث أحالوا العلم على الحال وحكموه عليه

وسير أولياء الله وعباده الأبرار والمقربين: بخلاف هذا وهو إحالة الحال على العلم وتحكيمه عليه وتقديمه ووزنه به وقبول حكمه فإن وافقه العلم وإلا كان حالا فاسدا من حرفا عن أحوال الصادقين بحسب بعده عن العلم فالعلم حاكم والحال محكوم عليه والعلم راع والحال من رعيته فمن لم يكن هذا أصل بناء سلوكه فسلوكه فاسد وغايته: الانسلاخ من العلم والدين كما جرى ذلك لمن جرى له وبالله المستعان ونحن لا ننكر ما ذكرتم من غيبة الشاهد بمشهوده عن شهوده وبمذكوره عن ذكره وبمعروفه عن معرفته وبمحبوبه عن حبه لكن ننكر كون هذا أكمل حالا من صاحب البقاء والتمييز وشهود الحقائق على ما هي

عليه فلا يحتاج أن يشهد حاله زورا لأنه لم يحصل له ما حصل لصاحب السكر والاصطلام من الزور فهو أكمل منه حقيقة وشرعا

(72/352)

وأما الغائب عن الحقيقة الكونية بشهود فعله: فإنه متى صحبه استصحاب عقد التوحيد وأن مصدر كل شيء مشيئة الله وحده وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه لا يتحرك متحرك في ظاهره أو باطنه إلا به سبحانه: فلا تضره الغيبة عن هذا المشهد باستغراقه في القصد والطلب والفعل إذ حكمه جار عليه في هذه الحال وليس ضيق قلبه عن استحضار ذلك وقت استجماع إرادته وفعله وطلبه: ذنبا لا للخاصة ولا للعامة ولا بالنسبة إلى مقامه أيضا فإن الذنب تعمد مخالفة الأمر وهذا ليس كذلك ولا هو مطالب بالغيبة عن شهود الحقيقة والفناء فيها عن شهود الفعل وقيامه به مع اعتقاد أنه بمشيئة الله وحوله وقوته وأما ما ذكرتم من أن مشاهدة القرب تجعل القصد قعودا: فكلام له خبيء وقد أفصح عنه بعض المغرورين المخدوعين بقوله:

ما بال عينك لا يقر قرارها . . . وإلام ظلك لا ينى متنقلا

فلسوف تعلم أن سيرك لم يكن . . . إلا إليك إذا بلغت المنزلا

وكأن صاحبه يشير إلى أنه وجود قلبه ولسانه ووجوده أقرب إليه من إرادته ولطفه هذا خبيء هذا الكلام وتعالى الله عن إلحاد هذا وأمثاله وإفكهم علوا كبيرا بل هو سبحانه فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه وأما ما ذكرتم من القرب: فإن أردتم عموم قربه إلى كل لسان من نطقه وإلى كل قلب من قصده: فهذا لو صح لكان قرب قدرة وعلم وإحاطة لا قربا بالذات والوجود فإنه سبحانه لا يمازج خلقه ولا يخالطهم ولا يتحد بهم مع أن هذا المعنى لم يرد عن الله ورسوله ولا عن أحد من السلف الأخيار تسميته قربا ولم يجيء القرب في القرآن والسنة قط إلا خاصا كما تقدم

وإن أردتم القرب الخاص إلى اللسان والقلب: فهذا قرب المحبة وقرب الرضى والأنس كقرب العبد من ربه وهو ساجد وهو نوع آخر من القرب

لا مثال له ولا نظير فإن الروح والقلب يقربان من الله وهو على عرشه والروح والقلب في البدن وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك

(73/352)

وهذا القرب لا ينافي القصد والطلب بل هو مشروط بالقصد فيستحيل وجوده بدونه وكلما كان الطلب والقصد أتم: كان هذا القرب أقوى فإن قيل: فكيف تصنعون بقوله

تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: 16] قيل: هذه الآية فيها قولان للناس أحدهما: أنه قربه بعلمه ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان و حبل الوريد حبل العنق وهو عرق بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضا وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء والقول الثاني: أنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه فيكون أقرب إليه من ذلك العرق اختاره شيخنا

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾ [يوسف: 3] وقوله: ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ [القيامة: 18] فإن جبريل عليه السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه كما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها قلت: أول الآية يأبى ذلك فإنه قال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: 16] قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب وتخليق الملائكة قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد رضي الله عنه في تخليق النطفة: فيقول الملك الذي يخلقه: يا رب ذكر أم أنثى أسوى أم غير سوى فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك فهو سبحانه الخالق وحده ولا ينافي ذلك

استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه فما ثم خالق على الحقيقة غيره والمقصود: أن هذا موضع ضلت فيه أفهام وزلت فيه أقدام واشتبهت فيه معية العلم والقدرة والإحاطة بالقرب واشتبهت فيه آثار قرب المحبة والرضى والموافقة وغلبة ذكره ومراقبته بقرب ذاته واشتبه فيه ما في الذهن بما في الخارج واشتبه اضمحلال شهود الرسم وانمحاؤه من القلب بعدمه وفنائه واشتبهت فيه آثار الصفات بحقيقتها وأنوار المعرفة بأنوار الذات وأصحابه لتحكيمهم الحال والذوق لا يلتفتون إلى لسان العلم ولا يصغون إليه وفي هذا كفاية والله المستعان. انتهى انتهى. اهـ ﴿المدارج حـ2 صـ268. 291﴾

(75/352)

"فصل"

قال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة:

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

إلى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ﴾

(76/352)

التفسير : لما شرح فضائح المنافقين وقبائحهم بسبب تخلفهم عن غزوة تبوك ، وذكر أقسامهم وفرع على كل قسم ما كان لائقاً به ، عاد إلى بيان فضيلة الجهاد والتغريب فيه فقال : ﴿ إن الله اشترى ﴾ الآية . قال محمد بن كعب القرظي : لما بايعت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة – وهم سبعون نفساً – قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم . قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل فنزلت ﴿ إن الله اشترى ﴾ الآية . قال مجاهد والحسن ومقاتل : ثامنهم فأغلى ثمنهم . وقال جعفر الصادق عليه السلام : والله ما لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها . واعلم أن هذا الاشتراء وقع مجازاً عن الجزاء لأن المشتري إنما يشتري ما لا يملك والعبد وما يملكه لمولاه . ولهذا قال الحسن : اشترى أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها . والمراد بأنفسهم النفوس المجاهدة وبأموالهم التي

ينفقونها في أسباب الجهاد وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم على الوجه المشروع . وههنا نكتة هي أن قيم الطفل له أن يبيع مال الطفل من نفسه بشرط رعاية الغبطة ، ففي هذه الآية البائع والمشتري هو الله ففيه تنبيه على أن العبد كالطفل الذي لا يهتدي إلى مصالح نفسه وأنه تعالى هو المراعي لمصالحه حتى يوصله إلى أنواع الخيرات وأصناف العادات . وبوجه آخر الإنسان بالحقيقة عبارة عن الجوهر المجرد الذي هو من عالم الأرواح وهذا البدن وما يحتاج إليه من ضرورات المعاش كالآلات والوسائط لتحصيل الكمالات الموصلة الى الدرجات العاليات ؛ فالبائع هو جوهر الروح القدسي ، والمشتري هو الله ، وأحد العوضين الجسد البالي والمال الفاني ، والعوض الآخر الجنة الباقية والسعادات الدائمة ، فالربح حاصل والخسران زائل ولهذا قال ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي

(77/352)

بايعتم به ﴾ وفي قوله ﴿ يقاتلون ﴾ معنى الأمر كقوله

(78/352)

﴿ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ﴾ [الصف : 11] وهو كالتفسير لتلك المبايعة ﴿ فيقتلون ويقتلون ﴾ أي إنهم يقتلون الكفار فلا يرجعون عنهم حتى يصيروا مقتولين . ومن قرأ بتقديم المجهول فمعناه أن طائفة منهم إذا صاروا مقتولين لم يصر ذلك رادعاً للباقين عن المقاتلة بقدر الإمكان . ومن العلماء من خصص هذا الوعد بجهاد السيف لظاهر قوله : ﴿ يقاتلون ﴾ . والتحقيق أن كل أنواع الجهاد يدخل فيه لأن الجهاد بالحجة والدعوة إلى دلائل التوحيد أكمل أثراً من القتال ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لعلي عليه السلام : " لأن يهدي الله على يدك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس " ولأن الجهاد بالسيف لا يحسن إلا بعد تقديم الجهاد بالحجة ، ولأن الإنسان جوهر شريف فمتى أمكن إزالة صفاته الرذيلة مع إبقاء ذاته الشريفة كان أولى من إفناء ذاته ، ألا ترى أن جلد الميتة لما كان منتفعاً به من بعض الوجوه حث الشرع على إبقائه فقال : " هلا أخذتم اهابها فدبغتموه فانتفعتم به " قوله ﴿ وعداً عليه ﴾ قال الزجاج : إنه منصوب بمعنى قوله : ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ كأنه قيل : وعدهم الجنة وعداً فهو مصدر مؤكد ، وكذا قوله ﴿ حقاً ﴾ أو هو نعت للمصدر مؤكد وما الذي حصل ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ قيل : وعد المجاهدين على الإطلاق ، وقيل : ذكر هذا البيع لأمة محمد ، وقيل : الأمر بالقتال ﴿ ومن أوفى ﴾ استفهام بمعنى الإنكار أي لا أحد أوفى بما وعد ﴿ من الله ﴾ لأنه الغني عن كل الحاجات القدر على كل المقدورات . وفي الآية أنواع من التوكيدات فأولها قوله : ﴿ إن الله

اشترى ﴾ وإذا كان المشتري هو الإله الواجب الذات المتصف بجميع الكمالات المفيض لك الخيرات فما ظنك به ، ومنها أنه عبر عن إيصال الثواب بالبيع والشراء حتى يكون حقاً مؤكداً . ومنها أنه قال ﴿ بأن لهم الجنة ﴾ بحرف التحقيق وبلام التمليك دون أن يقول بالجنة . ومنها قوله ﴿ وعداً ﴾ و ﴿ إنه لا يخلف الميعاد ﴾ . ومنها

(79/352)

قوله ﴿ عليه ﴾ وكلمة " على " للوجوب ظاهراً . ومنها قوله : ﴿ حقاً ﴾ وهو تأكيد التحقيق . ومنها قوله : ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ وإنه يجري مجرى الإشهاد لجميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل هذه المبايعة . ومنها قوله : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ وفيه تنبيه على أنه لا يكذب ولا يخلف ألبتة . ومنها قوله : ﴿ فاستبشروا ﴾ والبشارة الخبر الصدق الأول . ومنها قوله : ﴿ وذلك هو الفوز ﴾ ثم وصف الفوز ب ﴿ العظيم ﴾ واعلم أن هذه الخاتمة تقع على ثلاثة أوجه : أحدها ﴿ ذلك الفوز ﴾ بغير " هو " وإنه في ستة مواضع : في " براءة " موضعان ، وفي " النساء والمائدة والصف والتغابن " وما في " النساء " بزيادة واو . والآخر ﴿ وذلك هو الفوز ﴾ بزيادة " هو " وذلك في ستة مواضع أخرى في " براءة " موضعان و " يونس " و " المؤمن " و " الدخان " و " الحديد " وما

في براءة أحدهما بزيادة الواو وهو خاتمة هذه الآية ، وكذلك ما في " المؤمن " .

وسبب هذا الاختلاف أن الجملة إذا جاءت بعد جملة من غير تراخٍ بنزول جاءت مربوطة إما بواو العطف وإما بكناية تعود من الثانية إلى الأولى وإما بإشارة فيها إليها . وربما جمع بين الشيئين منها والثلاثة للدلالة على المبالغة . وقد جمع في هذه الخاتمة بين الثلاثة لغاية التوكيد والمبالغة ، أو لأنه ذكر الكتب الثلاثة فكل رابطة في مقابلة كتاب واحد . وكذلك في " المؤمن " وقع الثلاثة في مقابلة ثلاثة أدعية ﴿ فاغفر ﴾ ﴿ وقهم ﴾ ﴿ وأدخلهم ﴾ قال أبو القاسم البلخي : لا بد من حصول الأعواض على الآلام للأطفال والبهائم قياساً على ما أثبته الله تعالى للمكلفين من العوض على ألم القتل وهو الجنة .

(80/352)

ثم ذكر أن حكم سائر المؤمنين كذلك فقال : ﴿ التائبون ﴾ قال الزجاج : إنه مبتدأ محذوف الخبر أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا كقوله ﴿ وكلاً وعد الله الحسنى ﴾ [النساء : 95] وقيل : التائبون رفع على البدل من الضمير في ﴿ يقاتلون ﴾ وقيل : مبتدأ خبره ﴿ العابدون ﴾ وما بعده أي التائبون من الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال . أما تفسير هذه الأوصاف فقد قال ابن عباس والحسن : التائبون

هم الذين تابوا من الشرك وتبرأوا عن النفاق . ومال آخرون الى التعميم ليشمل المعاصي أيضاً إذ لا دليل على التخصيص ﴿ والعابدون ﴾ قال ابن عباس : هم الذين يرون عبادة الله واجبة عليهم . وقال الحسن : هم الذين عبدوا الله في السراء والضراء ، والعبادة لا شك أنها عبارة عن نهاية التعظيم وغاية الخضوع . وقال قتادة : وهم قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم . و ﴿ الحامدون ﴾ هم الذين يقومون بحق شكر نعم الله ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم ، وذلك أن الحمد ذكر من كان قبل آدم لقول الملائكة ﴿ ونحن نسبح بحمدك ﴾ [البقرة : 30] وذكر أهل الدنيا يقولون في كل يوم سبع عشرة مرة الحمد لله رب العالمين ، وذكر من يكون بعد خراب الدنيا لقوله : ﴿ وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾ [يونس : 10] و ﴿ السائحون ﴾ قال عامة المفسرين : هم الصائمون لقوله : " سياحة أمتي الصيام " ثم قيل : هذا صوم الفرض . وقيل : الذين يديمون الصيام . قال الأزهري : إنما قيل للصائم سائح لأن الذي يسح في الأرض متعبدٌ لا زاد معه فيكون ممسكاً عن الأكل والشرب كالصائم . وقيل : أصل السياحة الاستمرار على الذهاب كالماء الذي يسيح والصائم مستمر على فعل الطاعة وترك المنهي عنه من الأكل والشرب والوقاع . وقال أهل المعنى : الإنسان إذا امتنع من الأكل والشرب انفتحت عليه أبواب المعاني والحكم وتحلت له أنوار المعارف والحقائق فيحصل له سياحة في عالم العقول .

وقيل : السائحون طلاب العلم ينتقلون من بلد إلى بلد في طلب العلم في مظانه ، وكانت السياحة في بني إسرائيل . قال عكرمة عن وهب بن منبه : لا ريب أن للسياحة أثراً عظيماً في تكميل النفس لأنه يلقى أنواعاً من الضر والبؤس فيصبر عليها ، وقد ينقطع زاده فيتوكل على الله فيصير ذلك ملكه له ، وقد ينتفع بالمشاهد والزيارات للأحياء وللأموات ويستفيد ممن هو فوقه ويفيد من هو دونه ويكتسب التجارب ومعرفة الأحوال والأخلاق والسير والآثار ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ يعني المصلين قال بعض العلماء : إنما جعل الركوع والسجود كناية عن الصلاة لأن سائر هيئات المصلي موافقة للعادة كالقيام والقعود ، وإنما الفصل بين المصلي وغيره بالركوع والسجود . وقيل : أول مراتب التواضع القيام وأوسطها الركوع وغايتها السجود فخصا بالذكر تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع . ثم قال : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ ومعناهما مذكور فيما مر إلا أن ههنا بحثاً آخر وهو أنه لم أدخل الواو في قوله : ﴿ والناهون ﴾ ﴿ والحافظون ﴾ دون سائر الأوصاف ؟ وأجيب بأن النسق يجيء بالواو وبغيرها كقوله : ﴿ غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ﴾ [غافر : 2] أو المراد أن الموصوفين بالصفات الستة هم الآمرون

بالمعروف والناهون عن المنكر ويكون فيه ترغيب في الجهاد لأن رأس المعروف الإيمان بالله ورأس المنكر الكفر به والجهاد يوجب حصول الإيمان وإزالة الكفر ، أو النهي عن المنكر أصعب أقسام التكاليف لإفضائه في الأغلب إلى الخصومة وثوران الغضب فأدخل عليه الواو تنبيهاً على هذه المخالفة والمباينة . ولبعض النحويين جواب عام يشمل هذه الآية وما في " الكهف " في قوله : ﴿ ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ﴾ [الآية : 22] وما في " الزمر " في قوله في ذكر الجنة ﴿ وفتحت أبوابها ﴾ [الآية : 73] وما في " التحريم " في قوله : ﴿ ثيبات وأبكاراً ﴾ [الآية : 5] وذلك أنهم سموا هذه الواوات واو

(82/352)

الثمانية قائلين إن السبعة نهاية العدد ولهذا أكثر ذكرها في القرآن والأخبار . فالثمانية تجري مجرى استئناف كلام فلهذا فصل بالواو . وأما قوله : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ فكإجمال بعد تفصيل ؛ وذلك أن التكاليف إما أن تتعلق بمصالح الدين وهي باب العبادات من الصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد والإعتاق والنذر ونحوها ، أو بمصالح الدنيا وهي المعاملات . وإنها إما لجلب المنافع أو لدفع المضار والمنافع إما أن تكون مقصودة بالأصالة أو بالتبعية . فالمقصودة بالأصالة هي المنافع الحاصلة من طرق الحواس الخمس وهي

المذوقات ويدخل فيها كتاب الأطعمة والأشربة والصيد والذبائح والضحايا ، والملموسات ويدخل فيها باب أحكام الوقاع فمنها ما يفيد حله كالنكاح والرضاع وما يتبعهما من المهر والنفقة والسكنى وأحوال القسم والنشوز ، ومنها ما يوجب إزالته كالطلاق والخلع والإيلاء والظهار واللعان ، ومن أحكام الملموسات البحث عما يحل لبسه واستعماله وعما لا يحل كالأواني الذهبية وغيرها . والمبصرات وهو باب ما يحل النظر إليه وما لا يحل ، والمسموعات وهو باب ما يحل سماعه وما لا يحل ، والمشمومات وقد قيل إنه ليس للفقهاء فيه مجال ، ويحتمل أن يقال إن منها جواز استعمال الطيب في بعض الأوقات ومنعه في بعضها كحالة الإحرام .

(83/352)

ومنها ما يكره كأكل البصل والثوم للمصلي بالجماعة في المسجد . والمنافع المقصودة بالتبعية هي الأموال والبحث عنها إما من جهة الأسباب المفيدة للملك كالإرث والهبة والوصية وإحياء الموات والالتقاط وأخذ الفيء والغنائم والزكاة ، وكالبيع بيع العين بالعين أو بيع الدين بالعين وهو السلم أو بالعكس كما إذا اشترى شيئاً في الذمة أو بيع الدين بالدين وهو بيع الكالىء بالكالىء المنهي عنه إلا عند تقاص الدينين ، أو من جهة الأسباب المفيدة للمنفعة

كالإجارة والجعالة وعقد المضاربة ، أو من جهة الأسباب التي توجب لغير المالك التصرف فيه كالوكالة والوديعة ، أو من جهة الأسباب التي تمنع المالك التصرف في ملكه كالرهن والإجارة والتفليس . وأما دفع المضار والمضرة إما في النفس وهو كتاب الجراح أو في الدين وهو كتاب الجهاد وباب الارتداد وأحكام البغاة ، وإما في النسب وهو باب أحكام الزنا والقذف واللعان ، وإما في العقل كباب تحريم الخمر ، وإما في المال والضرر فيه إما على سبيل الإعلان والجهار وهو الغصب وقطع الطريق ، أو على سبيل الخفية وهو السرقة . وههنا باب آخر وهو أن كل أحد لا يمكنه استيفاء حقوقه من المنافع ودفع المضار بنفسه عن نفسه لضعفه فلهذا السبب أمر الله بنصب الإمام لتنفيذ الأحكام ، وقد يكون للإمام نواب وهم الأمراء والقضاة وليس قول الغير مقبولاً إلا بحجة وهي الشهادة والأيمان فحصل من ذلك كتاب آداب القضاء وباب الدعاوى والبينات . فهذا ما أمكن من ضبط معاقد تكاليف الله تعالى وأحكامه وحدوده ، وكلها منوطة بأعمال الجوارح دون أعمال القلوب التي لا يطلع عليها إلا الله تعالى . ولكن قوله : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ يشمل ذلك أيضاً بل رعايته أهم من رعاية أحوال الظواهر .

(84/352)

ثم ختم الآية بتكرير البشارة وفيه من كمال العناية ما فيه . ولما بين من أول السورة إلى ههنا وجوب إظهار من المنافقين الكفرة الأحياء أراد أن يبين وجوب البراءة من أمواتهم أيضاً وإن كانوا أقارب فقال : ﴿ ما كان للنبي ﴾ ومعناه النهي أي ما صح له وما استقام وما ينبغي له ذلك . ثم علل المنع بقوله : ﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ لأنهم ماتوا على الشرك وقد قال تعالى : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ﴾ [النساء : 116] فطلب غفرانهم جارٍ مجرى طلب إخلاف وعد الله ووعيده ، وفيه حط لمرتبة النبي حيث يدعو بما لا يستجاب له . وهذه العلة لا تختلف بأن يكونوا من الأباعد أو من الأقارب فلهذا بالغ فيه بقوله : ﴿ ولو كانوا أولي قربى ﴾ روى الواحدي بإسناده عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضر أبا طالب الوفاة دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم – وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية – فقال : أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله .

(85/352)

فقال أبو جهل وابن أبي أمية : يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيء كلمهم به أنا على ملة عبد المطلب . فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

لأستغفرن لك ما لم أنه عنه فاستغفر له بعد ما مات فقال المسلمون : ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا ولذوي قرابا تنا قد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه فاستغفروا للمشركين فنزلت ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآيتان . وقيل عن أبن عباس : لما افتتح صلى الله عليه وسلم مكة سأل أي أبويه أحدث به صلى الله عليه وسلم عهداً أي آخرهما موتاً ؟ فقيل : أمك آمنة . فزار صلى الله عليه وسلم قبرها ثم قام باكياً فقال : إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي فيه ونزل عليّ ﴿ ما كان للنبي ﴾ الآية . فقال بعضهم كصاحب الكشاف والحسين بن أبي الفضل : هذا أصح لأن هذه السورة في آخر القرآن نزولاً ، وكانت وفاة أبي طالب بمكة في أول الإسلام . ويمكن أن يوجه الأول بأنه صلى الله عليه وسلم لعله بقي مستغفراً إلى حين نزول الآية . ثم اعتذر عن استغفار إبراهيم لأبيه بأنه صدر عن موعدة وعدها إياه ، وذلك أن أباه كان وعد إبراهيم أن يؤمن فكان يستغفر له بناء على ذلك الوعد . ﴿ فلما تبين ﴾ لإبراهيم ﴿ أنه عدو لله ﴾ إما بإصراره على الكفر أو بموته على ذلك أو بطريق الوحي ﴿ تبرأ منه ﴾ وترك الاستغفار . ويجوز أن يكون الواعد إبراهيم عليه السلام ويوافقه قراءة الحسن ﴿ وعدها أباه ﴾ بالباء الموحدة وذلك في قوله : ﴿ لأستغفرن لك ﴾ [الممتحنة : 4] وعده أن يستغفر له رجاء إسلامه . وقيل : المراد من استغفار إبراهيم لأبيه دعاؤه له إلى الإسلام الموجب للغفران ، وكان يتضرع إلى الله تعالى أن يرزقه الإيمان . وقيل : المقصود النهي عن

صلاة الجنازة فكان قوله : ﴿ ولا تصل على أحد منهم ﴾ [التوبة : 84] في حق المنافقين خاصة وهذه في حق الكافرين عامة . ثم ختم الآية بقوله : ﴿

(86/352)

إن إبراهيم لأوّاه حليم ﴾ قال أهل اللغة : أوّاه " فعال " مأخوذ من حروف " أوه " كلمة يقولها المتوجع ، وذلك أن الروح القلبي يختنق عند الحزن في داخل القلب ويشتد حرارته فإذا تكلم صاحبه بها خرج ذلك النفس المختنق فخفف بعض ما به ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " الأوّاه الخاشع المتضرع " والحلم ضد السفه ، وصفه تعالى بشدّة الرأفة والشفقة والخوف والوجل فبين أن إبراهيم مع هذه العادة تبرأ من أبيه حين انقطع رجاؤه منه فأنتم بهذا المعنى أولى .

ثم إن المسلمين خافوا أن يؤاخذوا بما سلف منهم من الاستغفار للمشركين فأنزل الله ﴿ ما كان الله ليضل قوماً ﴾ أي عن طريق الجنة أو يحكم عليهم بالضلال أو يخذلهم أو يوقع الضالة في قلوبهم حين يكون منهم الأمر الذي يستحق به العقاب ﴿ بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ ما يجب عليهم أن يحترزوا عنه . والحاصل أن الله لا يسمي قوماً ضلالاً بعد إذ سماهم مهديين ما لم يقدموا على شيء مبين خطره ، وأما قبل العلم والبيان

فلا يؤاخذهم كما لم يؤاخذ بشرب الخمر والربا قبل تحريمهما . وفي الآية تشديد عظيم حيث جعل المهدي للإسلام إذا أقدم على بعض المحظورات داخلاً في حكم الضلال . ثم قال : ﴿ إن الله بكل شيء عليم إن الله له ملك السموات والأرض يحيي ويميت ﴾ والمراد أن ما كان عالماً قادراً هكذا لم يحتج إلى أن يفعل العقاب قبل البيان وإزاحة العذر . قالت المعتزلة : وفيه دليل على أنه يقبح من الله الابتداء بالعقاب . وأجيب بأنه له ذلك بحكم المالكية غاية ما في الباب أنه لا يعاقب إلا بعد إزاحة العذر عادة ، وفي قوله : ﴿ إن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فائدة أخرى هي أنه لما أمر بالبراءة من الكفار بين غاية قدرته ونهاية نصرته لمن أراد استظهاراً للمسلمين كيلا تضعف قلوبهم بالانقطاع عن الأقارب والأنصار كأنه قال : وجب عليكم أن تفيئوا إلى حكمي وتكاليفي لأني إلهكم وأنتم عبيدي .

(87/352)

ثم عاد إلى بقية أحكام الكفار فقال ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ الآية . ولنبن تفسير الآيتين على أسئلة مع جواباتها . فالسؤال الأول : أن قبول التوبة دليل سبق الذنب ، والنبي معصوم والمهاجرون والأنصار الذين اتبعوه تحملوا أعباء ذلك السفر الطويل فكان اللائق

بحالهم أن يثني عليهم . الجواب أنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار لأنه لا ينفك عن هفوة إما من باب الكبائر وإما من باب الصغائر وإما من باب الأولى . والأفضل كما أشير إلى ذلك في حق النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم ﴾ [التوبة : 43] ولعله قد وقع في قلوب المؤمنين نوع نفرة من تلك السفرة لما عاينوا المتاعب ولا أقل من الوساوس والهواجس فأخبر الله سبحانه أن تلك الشدائد صارت مكفرة لجميع الزلات التي صدرت عنهم في ذلك السفر الطويل بل في مدة عمرهم وصارت قائمة مقام التوبة المقرونة بالإخلاص . ويجوز أن يكون ذكر الرسول لأجل تعظيم شأن المهاجرين والأنصار لا لأنه صدر عنه ذنب . السؤال الثاني : ما المراد بساعة العسرة ؟ فالجواب قد تستعمل الساعة في معنى الزمان المطلق والعسرة تعذر الأمر وصعوبته .

(88/352)

والمراد الزمان الذي صعب عليهم الأمر جداً في ذلك السفر ، كانوا في عسرة من الظهر تعتقب العشرة على بعير واحد . وفي عسرة من الزاد تزوّدوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة المنتنة ، وقد بلغت بهم الشدة إلى أن اقتسم التمرة اثنان ثم إلى أن مصتها جماعة ليشربوا عليها الماء ، وفي عسرة من الماء حتى نحروا الإبل واعتصروا فرثها وفي

شدة زمان من حرارة القيظ كما قال المنافقون ﴿ لا تنفروا في الحر ﴾ [التوبة : 81] وقال أبو مسلم : يجوز أن يراد بساعة العسرة جميع الأحوال والأوقات العسرة التي مرت عليهم في غزواتهم كما ذكر الله تعالى في غزوة الخندق ﴿ وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ﴾ [الأحزاب : 10] الثالث : ما معنى ﴿ كاد يزيغ ﴾ وكيف إعرابه ؟ والجواب هما استعمالان : كاد زيد يخرج ، وكاد يخرج زيد . معنى الأول كاد زيد خارجاً أي قارب الخروج ، ومعنى الثاني كاد الشأن يكون كذا يعني قارب الشأن هذا الخبر . وشبهه سيبويه بقولهم ليس خلق الله مثله أي ليس الشأن ذاك ولكن ضده ، والزيغ الميل عن الجادة قيل : قارب بعضهم أن يميل عن الإيمان . وقيل : هم بعضهم عند تلك الشدة بالمفارقة ثم حبسوا أنفسهم وصبروا وثبتوا وندموا . وقيل : ما كان إلا حديث نفس بلا عزيمة ومع ذلك خافوا أن يكون معصية . الرابع : ذكر التوبة في أول الآية فلم كررها في قوله : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ ؟ الجواب إن عاد الضمير في ﴿ عليهم ﴾ الى الفريق فلا تكرار ، وإن عاد إلى النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين والأنصار جميعاً فالتكرير للتوكيد مع رعاية دقيقة هي أن التوبة اكتنفت الذنب من جانبيه ، وذلك أنه بدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب تطيباً لقلوبهم ثم ذكر الذنب ، ثم أردفه بذكر التوب ليدل على أن العفو عفو متأكد كما يقول السلطان عند كمال الرضا : عفوت عنك ثم عفوت عنك . وإليه الإشارة بقوله : صلى الله عليه وسلم : " إن الله يغفر ذنب الرجل المسلم عشرين مرة " وقال ابن

(89/352)

عباس في تفسر قوله : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ يريد ازداد عنهم رضا . ثم أكد هذه المعاني بقوله ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ فيشبه أن يراد بالرأفة إزالة الضرر ، وبالرحمة إيصال المنفعة . أو الأوّل رحمة سابقة ، والثاني لاحقة . الخامس : الثلاثة الذين خلفوا من هم ؟ الجواب هم المرجون لمر الله كما مرّ ، سمّوا مخلفين كما سمو مرجئين أي مؤخرين عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعد أولئك . وقيل : لأنهم خلفوا عن الغزو ومثله قراءة من قرأ بالتخفيف أي خلفوا الغازين . وقيل : المخلف من خلوف الفم أي فسدوا ، وقرأ جعفر الصادق عليه السلام : ﴿ خالفوا ﴾ . ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض ﴾ مع سعتها وهو مثل للحيره في الأمر ، ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي قلوبهم لا يسعها أنس ولا سرور ﴿ وظنوا ﴾ أي علموا وتيقنوا ﴿ أن لا ملجأ من ﴾ سخط ﴿ الله إلا ﴾ إلى استغفاره كقوله صلى الله عليه وسلم :

(90/352)

" أعوذ بك منك " وقيل : الظن بمعناه الأصلي وهو الرجحان وذلك أنهم ما كانوا قاطعين بأن ينزل الله في شأنهم قرآنا ، وإن سلم أنهم قطعوا بذلك إلا أنهم جوزوا أن تكون المدة قصيرة وجواب " إذا " محذوف والتقدير حتى إذا كان كذا وكذا تاب عليهم ، وحسن حذفه لتقدم ذكره . عن كعب بن مالك قال : لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمت عليه فرد عليّ كالمغضب بعد ما كان ذكرني في الطريق وقال : ليت شعري ما خلف كعباً فقيل : له : ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه . فقال : معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً ونهى عن كلامنا – أيها الثلاثة – فتنكر لنا الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع – وهو جبل بالمدينة – أبشر يا كعب بن مالك فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربي ﴿ وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ [التوبة : 25] وتتابعت البشارة فلبست ثوبي وانطلقت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون فقال إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول إلي حتى صافحني وقال : لتهنك توبة الله عليك فلن أنساها لطلحة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر : أبشر يا كعب بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك ثم تلا علينا الآية . سئل أبو بكر الورّاق عن التوبة النصوح فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه . السادس : قد

عرفنا فائدة قوله : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ فما فائدة قوله : ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا ﴾ ؟

الجواب معناه رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة بعد ألأخرى ليستقيموا على توبتهم ، أو تاب عليهم في الماضي ليتوبوا في المستقبل إذا فرطت منهم خطيئة علماً منهم بأن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة ، أو تاب عليهم ليرجعوا إلى حالهم وعادتهم في الاختلاط بالمؤمنين ،

(91/352)

أو تاب عليهم لينتفعوا بالتوبة وثوابها لأن الانتفاع بها لا يحصل إلا بعد توبة الله عليهم .

وقالت الأشاعرة : المقصود بيان أن فعل العبد مخلوق لله تعالى حتى إنه لو لم يتب عليهم لم يتوبوا . وأيضاً قالوا : في الآية دلالة على أن قبول التوبة غير واجب عقلاً لأن توبة هؤلاء قد حصلت من أوّل الأمر ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يلتفت إليهم وتركهم خمسين يوماً .

ويمكن أن يجاب بأن شرائط التوبة من الإخلاص والنصح وغير ذلك لعلها لم تكن حاصلة من أوّل الأمر فلهذا تأخر القبول دليله قوله تعالى : ﴿ حتى إذا ضاقت ﴾ الآية .

(92/352)

ثم حث سبحانه المؤمنين على ملازمة سيرة التقوى والانضمام في زمرة أهل الصدق لا النفاق فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ الآية . قال بعض العلماء : ظاهر الأمر للوجوب فوجب على المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين لا بمعنى أن يكونوا على طريقهم وسيرتهم ، لأن ذلك عدول عن الظاهر بل بمعنى المصاحبة . والكون مع الشيء مشروط بوجود ذلك الشيء فلا بد من وجود الصادقين . ثم إنه ثبت بالتواتر من دين محمد صلى الله عليه وسلم أن التكاليف المذكورة في القرآن متوجهة على لمكلفين إلى يوم القيامة فلا يكون هذا الأمر مختصاً بالكون مع الرسول وأصحابه في الغزوات بل أعم من ذلك . ثم إن الصادق لا يجوز أن يكون منحصراً في الإمام المعصوم الذي يمتنع خلو زمان التكليف عنه كما يقوله الشيعة ، لأن كون كل واحد من المؤمنين مع ذلك الصادق بعد تسليم وجوده تكليف بما لا يطاق ، فالمراد بالصادقين أهل الحل والعقد في كل حين ، والمراد أنهم إذا أجمعوا على شيء كانوا صادقين فيه محقين ويجب على الباقين أن يكونوا معهم ظاهراً وباطناً . وقال أكثر المفسرين : الصادقون هم الذين صدقوا في دين الله وفيما عاهدوا عليه من الطاعة نية وقولاً وعملاً . وقيل : أي كونوا مع الثلاثة المذكورين في الصدق والثبات . وعن ابن عباس : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب أي وافقوا المهاجرين والأنصار في الصدق ، وقيل : الخطاب للذين شدوا أنفسهم على السواري . وفي الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته . ومن

خصائص الصدق ما روي أن أعرابياً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : إني أريد أن أؤمن بك إلا إني أحب الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرم هذه الأشياء كلها ولا طاقة لي بتركها بأسرها ، فإن قنعت مني بترك واحد منها آمنت بك ، فقبل ذلك وشرط له الصدق ثم أسلم . فلما خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال : إن شربت وسألني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شربها

(93/352)

وكذبت فقد نقضت العهد ، وإن صدقت أقام الحد علي فتركها ، ثم عرض عليه الزنا فجاءه ذلك الخاطر فتركه ، وكذا في السرقة فعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما فعلت ، لما منعتني عن الكذب انسد أبواب المعاصي علي وتبت عن الكل . ومن فضائل الصدق أن الإيمان منه لا من سائر الطاعات ، ومن معايب الكذب أن الكفر منه لا من سائر الذنوب ، ومن مثالب الكذب أن إبليس مع تمرّده وكفره استنكف منه حتى استثنى في قوله ﴿ لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ [ص : 82] .

ثم المقتضي لقبح الكذب هو كونه كذباً عند المعتزلة وكونه مفضياً إلى المفاسد عند الأشاعرة والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 533.543 ﴾

(94/352)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

لما نزلت الآية المتقدّمة في النهي عن الاستغفار للمشركين ، خاف جماعة ممن كان يستغفر لهم العقوبة من الله بسبب ذلك الاستغفار ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ إلخ : أي أن الله سبحانه لا يوقع الضلال على قوم ، ولا يسميهم ضلالاً بعد أن هداهم إلى الإسلام ، والقيام بشرائعه ، ما لم يقدموا على شيء من المحرّمات بعد أن يتبين لهم أنه محرّم ، وأما قبل أن يتبين لهم ذلك ، فلا إثم عليهم ولا يؤاخذون به ، ومعنى : ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ حتى يتبين لهم ما يجب عليهم اتقاؤه من محرّمات الشرع ﴿ إِن الله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ مما يحلّ لعباده ، ويحرم عليه ، ومن سائر الأشياء التي خلقها ، ثم بين لهم أن له سبحانه ملك السموات والأرض لا يشاركه في ذلك مشارك ، ولا ينازعه منازع

يتصرف في ملكه بما شاء من التصرفات التي من جملتها أنه يحيى من قضت مشيئته بإحيائه ، ويميت من قضت مشيته بإماتته ، وما لعباده من دونه من وليّ يواليهم ، ولا نصير ينصرهم ، فلا يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ، فإن القرابة لا تنفع شيئاً ولا تؤثر أثراً ، بل التصرف في جميع الأشياء لله وحده .

قوله : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى ﴾ فيما وقع منه صلى الله عليه وسلم من الإذن في التخلف ، أو فيما وقع منه من الاستغفار للمشركين .

وليس من لازم التوبة أن يسبق الذنب ممن وقعت منه أوله ، لأن كل العباد محتاج إلى التوبة والاستغفار .

وقد تكون التوبة منه تعالى على النبي من باب أنه ترك ما هو الأولى ، والأليق ، كما في قوله : ﴿ عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ [التوبة : 43] .

(95/352)

ويجوز أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لأجل التعريض للمذنبين بأن يتجنبوا الذنوب ، ويتوبوا عما قد لابسوه منها ، وكذلك تاب الله سبحانه على المهاجرين والأنصار ، فيما قد اقترفوه من الذنوب .

ومن هذا القبيل ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من قوله : " إن الله اطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " ثم وصف سبحانه المهاجرين والأنصار بأنهم الذين اتبعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فلم يتخلفوا عنه ، وساعة العسرة هي غزوة تبوك ، فإنهم كانوا في عسرة شديدة ، فالمراد بالساعة جميع أوقات تلك الغزاة ، ولم يرد ساعة بعينها ، والعسرة : صعوبة الأمر .

قوله : ﴿ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ في ﴿ كاد ﴾ ضمير الشأن ، و ﴿ قلوب ﴾ مرفوع ب ﴿ يزيغ ﴾ عند سيبويه .

وقيل : هي مرفوعة ب ﴿ كاد ﴾ ، ويكون التقدير : من بعد ما كان قلوب فريق منهم تزيغ .

وقرأ الأعمش وحمزة وحفص "يزيغ" بالتحتية .

قال أبو حاتم : من قرأ بالياء التحتية ، فلا يجوز له أن يرفع القلوب ب ﴿ كاد ﴾ .

قال النحاس : والذي لم يجزه جائز عند غيره على تذكير الجمع ، ومعنى : ﴿ تزيغ ﴾ تتلف بالجهد والمشقة والشدّة .

وقيل معناه : تميل عن الحق وتترك المناصرة والممانعة .

وقيل معناه : تهمّ بالتخلف عن الغزو لما هم فيه من الشدّة العظيمة .

وفي قراءة ابن مسعود "من بعد ما زاغت" وهم المتخلفون على هذه القراءة .

وفي تكرير التوبة عليهم بقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ ﴾ تأكيد ظاهر واعتناء بشأنها ، هذا إن كان الضمير راجعاً إلى من تقدّم ذكر التوبة عنهم ، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار .

قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلّفُواْ ﴾ أي : وتاب على الثلاثة الذين خلفوا : أي أخروا ، ولم تقبل توبتهم في الحال كما قبلت توبة أولئك المتخلفين المتقدم ذكرهم .

قال ابن جرير : معنى خلفوا : تركوا ، يقال : خلفت فلاناً فارقته .

(96/352)

وقرأ عكرمة بن خالد "خلفوا" بالتخفيف : أي أقاموا بعد نهوض رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إلى الغزو .

وقرأ جعفر بن محمد "خالفوا" وهؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، أو ابن ربيعة العامري ، وهلال ابن أمية الواقفي ، وكلهم من الأنصار ، لم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم توبتهم ، حتى نزل القرآن بأن الله قد تاب عليهم ؛ وقيل : معنى ﴿ خلفوا ﴾ : فسدوا ، مأخوذ من خلوف الفم .

قوله : ﴿ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرض بِمَا رَحُبَتْ ﴾ معناه : أنهم أخروا عن قبول

التوبة إلى هذه الغاية ، وهي وقت أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، و " ما " مصدرية : أي برحبها ، لإعراض الناس عنهم وعدم مكالمتهم من كل أحد ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم نهى الناس أن يكالموهم .

والرحب : الواسع .

يقال : منزل رحب ورحيب ورحاب .

وفي هذه الآية دليل على جواز هجران أهل المعاصي تأديباً لهم ؛ لينزجروا عن المعاصي .

ومعنى ضيق أنفسهم عليهم : أنها ضاقت صدورهم بما نالهم من الوحشة وبما حصل لهم من الجفوة ، وعبر بالظن في قوله : ﴿ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ عن العلم : أي علموا أن لا ملجأ يلجؤون إليه قط ، إلا إلى الله سبحانه بالتوبة والاستغفار .

قوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ أي : رجع عليهم بالقبول والرحمة ، وأنزل في القرآن التوبة عليهم ليستقيموا أو وفقهم للتوبة فيما يستقبل من الزمان إن فرطت منهم خطيئة ليتوبوا عنها ، ويرجعوا إلى الله فيها ويندموا على ما وقع منهم ﴿ إِنَّ اللهَ هُوَ التواب ﴾ أي : الكثير القبول لتوبة التائبين ، ﴿ الرحيم ﴾ أي : الكثير الرحمة لمن طلبها من عباده .

قوله : ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصادقين ﴾ هذا الأمر بالكون مع الصادقين بعد قصة الثلاثة فيه الإشارة إلى أن هؤلاء الثلاثة حصل لهم بالصدق ما حصل من توبة الله ، وظاهر الآية الأمر للعباد على العموم .

وقد أخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى .

قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم ، ولكن ما كان الله ليعذب قوماً بذنب أذنبوه ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ قال : حتى ينهاهم قبل ذلك .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد ، في الآية قال : بيان الله للمؤمنين في الاستغفار للمشركين خاصة ، وفي بيانه طاعته ومعصيته عاما ما فعلوا أو تركوا .

وأخرج ابن جرير ، وابن خزيمة ، وابن حبان ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، والضياء في المختارة ، عن ابن عباس ، أنه قال لعمر بن الخطاب : حدّثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال : خرجنا مع رسول الله إلى تبوك في قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، حتى إن الرجل لينحر بعيره ، فيعصر فرثه ، فيشربه ويجعل ما بقي على كبده ، فقال أبو بكر الصديق : يا رسول الله ، إن الله قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه ، فلم يرجعهما حتى قالت السماء ، فأهطلت

ثم سكبت ، فملؤوا ما معهم ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت العسكر .

وقد وقع الاتفاق بين الرواة أن ساعة العسرة هي غزوة تبوك .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن منده ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، وابن عساكر ، عن جابر بن عبد الله ، في قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ قال : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، وكلهم من الأنصار .

وأخرج ابن منده ، وابن عساكر ، عن ابن عباس ، مثله .

(98/352)

وأخرج البخاري ومسلم ، وغيرهما ، عن كعب بن مالك قال : لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد عير قريش ، حتى جمع الله بينهم وبين عدوّهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين توافقنا على الإسلام ، وما أحبّ أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر منها في الناس وأشهر ، ثم ذكر القصة الطويلة المشهورة في كتب الحديث والسير ، وهي معلومة عند أهل العلم فلا نطول بذكرها .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله : ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ ﴾ قال : يعني : خلفوا عن التوبة ، لم يتب عليهم حين تاب الله على أبي لبابة وأصحابه .

وأخرج عبد الرزاق ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن عكرمة نحوه .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن نافع ، في قوله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ قال : نزلت في الثلاثة الذين خلفوا ، قيل لهم : كونوا مع محمد وأصحابه .

وأخرج ابن جرير ، عن سعيد بن جبير ، في قوله : ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ قال : مع أبي بكر وعمر .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن عساكر ، عن الضحاك في الآية قال : مع أبي بكر ، وعمر ، وأصحابهما .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : مع عليّ بن أبي طالب .

وأخرج ابن عساكر ، عن أبي جعفر ، قال : مع الثلاثة الذين خلفوا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(99/352)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ إن الله اشترى ﴾ في التقدير الأزلي ولهذا تيسر لهم الآن بذل النفس والمال في الجهاد الأصغر وفي الجهاد الأكبر ، وإنه كما ﴿ اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ اشترى من أوليائه الصديقين قلوبهم وأرواحهم بأن لهم الجنة . ﴿ التائبون ﴾ عما سوى الله ﴿ العابدون ﴾ المتوجهون إليه على قدم العبودية ﴿ الحامدون ﴾ له على ما وفقهم لنعمة طلبه ﴿ السائحون ﴾ السائرون إليه بقدمي الصبر والشكر أو التبري والتولي ﴿ الراكعون ﴾ أي الراجعون عن مقام القيام بوجودهم إلى القيام بموجدهم ﴿ الساجدون ﴾ الساقطون على عتبة الوحدة بلاهم ﴿ الآمرون بالمعروف ﴾ الحقيقي ﴿ الناهون ﴾ عما سواه ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ لئلا يتجاوزوا عن طلبه إلى طلب غيره . ﴿ ما كان للنبي ﴾ فيه أن الاجتهاد ليس سبباً لنيل المراد ، وأن الهداية من مواهب الربوبية لا من مراتب العبودية ﴿ إن إبراهيم لأواه ﴾ الأواه هو المتبرىء من المخلوقات لكثرة نيل المواجيد والكرامات فيكون لضيق البشرية تولاه مولاه ، فمهما ورد له وأراد الحق ضاق عليه نطاق الخلق فيتأوه عند تنفس القلب المضطر من الخلق إلى الحق . ﴿ حليم ﴾ عما أصابه من الخلق للحق فلا رجوع له من الحق إلى الخلق بحال من الأحوال ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لجبرائيل حين سأله ألك حاجة : أما إليك فلا ﴿ وما كان الله ليضل

قوماً ﴾ ليردّهم بالمكر إلى الاثنينية والبعد ﴿ بعد إذ هداهم ﴾ إلى الوحدانية والفردانية بالتوحيد والتفريد ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ من آفات البشرية وعاهات الدنيا فهي رأس كل خطيئة ، فإن لم يتحرزوا عنها وقعوا بالاستدراج إلى حيث خرجوا عنها نعوذ بالله من الحور بعد الكور أو نقول : إن الله تعالى بعد إذ هداهم بالإفناء عن الوجود إلى البقاء بالجود لا يردهم إلى بقاء البقاء وهو الإثبات بعد المحو والصحو بعد السكر وقد سماه المشايخ الإثبات التأني حتى يبين لهم ما يتقون من الأعمال والأقوال

(100/352)

رعاية لتلك الأحوال . ﴿ إن الله له ملك السموات ﴾ سموات القلوب ﴿ والأرض ﴾ أرض النفوس ﴿ يحيي ﴾ بنور ربوبيته ﴿ من يشاء ويميت ﴾ عن صفات بشريته ﴿ من يشاء ومالكم من دون الله من ولي ﴾ فلا يشغلنكم طلب الملك عن المالك فإن طالب الملك لا يجد الملك ولا المالك وطالب المالك يجد الملك والمالك جميعاً ﴿ لقد تاب الله على النبي ﴾ التوبة فضل من الله ورحمة ، فقدم ذكر النبي صلى الله عليه وسلم على المهاجرين ليكون وصول فضله إليهم بعد العبور على النبي تحقيقاً لقوله ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ﴿ الذين اتبعوه في ساعة ﴾ عسرة الدنيا وترك

شهواتها . أو نقول ﴿ لقد تاب الله ﴾ أي أفاض أنوار عرفانه على نبي الروح ومهاجري صفاته الذين هاجروا معه من مكة – عالم الروح – إلى مدينة الجسد ﴿ والأنصار ﴾ من القلب والنفس وصفاتهما ﴿ الذين اتبعوه في ساعة ﴾ رجوعه إلى عالم العلو بالعسرة لأنهم من عالم السفل . ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ من النفس والهوى والطبع وما تبعوا الروح عند رجوعه إلى عالمه ابتلاء ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم ﴾ أرض البشرية شوقاً إلى تلك الحضرة ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ تحنناً إلى نيل تلك السعادات وتحقق لهم بنور اليقين أن لو بقوا في السفل لا ملجأ لهم من عذاب البعد عن الله إلا الفرار إليه ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ بجذبة العناية ، ولو وكلهم إلى طبيعتهم ما سلكوا طريق الحق أبداً مع الصادقين الذين صدقوا يوم الميثاق والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 543.544 ﴾

(101/352)

قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ

أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان ما نالهم من الأهوال إنما نالهم بتخلفهم عن أشرف الخلق ، والذي التفت بهم إلى مرابع الإقبال إنما هو الصدق ، قال تعالى ناهياً بصيغة الخبر ليكون أبلغ ، جامعاً إليهم من كان على مثل حالهم في مطلق التخلف : ﴿ ما كان ﴾ أي ما صح وما انبغى بوجه من الوجوه ﴿ لأهل المدينة ﴾ أي التي هي سكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي دار الهجرة ومعدن النصرة ﴿ ومن حولهم ﴾ أي في جميع نواحي المدينة الشريفة ﴿ من الأعراب ﴾ أي من سكان البوادي الذين أقسموا بالإسلام ﴿ أن يتخلفوا ﴾ أي في أمر من الأمور ﴿ عن رسول الله ﴾ أي الملك الأعلى ، ومن شأن المرسل إليه أن لا يبرح عن جنان الرسول لا سيما وهو رأس الصادقين الذين وقع الأمر بالكون معهم ﴿ ولا يرغبوا ﴾ أي وما كان لهم أن يرغبوا ، ولعله قللهم بصيغة القلة بالنسبة إلى من أيده به ـ صلى الله عليه وسلم ـ من جنوده فقال تعالى : ﴿ بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي التي هي أشرف النفوس مطلقاً بأن يصونوا نفوسهم عما باشره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بل يلقونها في المتالف دونه وصيانة لنفسه الشريفة عن أدنى الأذى ، فهي كالتعليل للأمر بالتقوى أي خافوا الله وأصدقوه كما صدق هؤلاء ليتوب عليكم كما تاب عليهم فإنه لم يكن لكم التخلف فهو نهي بليغ مع تقبيح

وتوبيخ وإلهاب وتهييج .

ولما علل الأمر بالتقوى ، علل النهي عن التخلف بما يدل على صدق الإيمان فيصير نقيضه دالاً على نقيضه فقال : ﴿ ذلك ﴾ أي النهي العظيم عن التخلف في هذا الأسلوب النافي للكون ﴿ بأنهم لا يصيبهم ظمأ ﴾ أي عطش شديد ﴿ ولا نصب ﴾ أي تعب بالغ ﴿ ولا مخمصة ﴾ أي شدة مجاعة ﴿ في سبيل الله ﴾ أي طرق دين الملك الأعظم المتوصلة به إلى جهاد أعدائه ، ورتبت هذه الأشياء ترتيبها في الوجود فإن مطلق الحركة يهيج الحرارة فينشأ العطش وتماديها يورث التعب ، والأغلب أن يكون قبل الجوع .

(102/352)

ولما كان المقصود من إجهاد النفس بما ذكر إرغام الكفار باقتحام أرضهم المتوصل به إلى إيمانهم بالنيل منهم ، أتبع ذلك قوله : ﴿ ولا يطؤون موطئاً ﴾ أي وطأً أو مكاناً وطؤه ﴿ يغيظ الكفار ﴾ أي وطؤهم له بأرجلهم أو دوابهم ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ أي كائناً ما كان صغيراً او كبيراً ﴿ إلا كتب لهم به ﴾ أي في صحائف الأعمال ، بني للمفعول لأن القصد إثباته لا من معين ﴿ عمل صالح ﴾ أي ترتب لهم عليه أجر جزيل .

ولما كان فاعل هذه الأشياء مقدماً على المعاطب في نفسه ومحصلاً لعرض الجهاد ، أشير

على وجه التأكيد في جملة اسمية إلى أنه محسن ، أما في حق نفسه فبإقامة الدليل بطاعته على صدق إيمانه .

وأما في غيره من المؤمنين فبحمايتهم عن طمع الكافرين .

وأما في حق الكفار فبحملهم على الإيمان بغاية الإمكان ، فقال تعالى معللاً للمجازاة : ﴿ إن الله ﴾ أي الذي له صفات الكمال ﴿ لا يضيع ﴾ أي لا يترك تركه ما من شأنه الإهمال ﴿ أجر المحسنين ﴾ وأظهر موضع الإضمار تعميماً وتعليقاً بالوصف . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 400 . 401 ﴾

(103/352)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ موطئاً ﴾ ونحوه بالياء : يزيد والشموني وحمزة في الوقف ﴿ غلظة ﴾ بفتح الغين : المفضل . الباقون بكسرها . ﴿ أولا ترون ﴾ بتاء الخطاب للمؤمنين : حمزة ويعقوب . الباقون على الغيبة .

الوقوف : ﴿ عن نفسه ﴾ ط ﴿ صالح ﴾ ط ﴿ المحسنين ﴾ ه لا للعطف ﴿ يعملون

﴿ ه ﴿ كافة ﴾ ط ﴿ يحذرون ﴾ ه ﴿ غلظة ﴾ ط ﴿ المتقين ﴾ ه ﴿ إيماناً ﴾ ط ﴿ يستبشرون ﴾ ه ﴿ كافرون ﴾ ه ﴿ يذكرون ﴾ ه ﴿ إلى بعض ﴾ ط لحق المحذوف أي يقولون هل يراكم ﴿ ثم انصرفوا ﴾ ط ﴿ لا يفقهون ﴾ ه ﴿ عزيز ﴾ ط، على تأويل عليه شفاعة ما عنتم والصحيح الوصل لأن المعنى شديد عليه ما أثمتم ولا وقف في الآية إلى قوله رحيم ﴿ حسبي الله ﴾ ط والأصح الوصل على جعل الجملة حالاً أي يكفي الله غير مشارك في الألوهية ﴿ إلا هو ﴾ ط ﴿ العظيم ﴾ ه. انتهى انتهى. ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 545 ﴾

(104/352)

فصل

قال الفخر:

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

اعلم أن الله تعالى لما أمر بقوله: ﴿ وَكُونُوا مَعَ الصادقين ﴾ بوجوب الكون في موافقة الرسول عليه السلام في جميع الغزوات والمشاهد، أكد ذلك فنهى في هذه الآية عن التخلف عنه.

فقال : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ والأعراب الذين كانوا حول المدينة مزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار ، هكذا قاله ابن عباس .

وقيل : بل هذا يتناول جميع الأعراب الذين كانوا حول المدينة فإن اللفظ عام ، والتخصيص تحكم ، وعلى القولين فليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يطلبوا لأنفسهم الحفظ والدعة حال ما يكون رسول الله في الحر والمشقة ، وقوله : ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ يقال : رغبت بنفسي عن هذا الأمر أي توقفت عنه وتركته ، وأنا أرغب بفلان عن هذا ، أي : أبخل به عليه ولا أتركه .

والمعنى : ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول عليه الصلاة والسلام لنفسه .

واعلم أن ظاهر هذه الألفاظ وجوب الجهاد على كل هؤلاء إلا أنا نقول : المرضى والضعفاء والعاجزون مخصوصون بدليل العقل ، وأيضاً بقوله تعالى : ﴿ لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : 286] وأيضاً بقوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى الأعمى حَرَجٌ ﴾ [النور : 61 الفتح : 17] الآية وأما أن الجهاد غير واجب على كل أحد بعينه ، فقد دل الإجماع عليه فيكون مخصوصاً من هذا العموم وبقي ما وراء هاتين الصورتين داخلاً تحت هذا العموم .

واعلم أنه تعالى لما منع من التخلف بين أنه لا يصيبهم في ذلك السفر نوع من أنواع المشقة إلا وهو يوجب الثواب العظيم عند الله تعالى ثم إنه ذكر أموراً خمسة : أولها : قوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ وهو شدة العطش يقال ظمىء فلان إذا اشتد عطشه .

وثانيها : قوله : ﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ ومعناه الإعياء والتعب .

وثالثها : ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ الله ﴾ يريد مجاعة شديدة يظهر بها ضمور البطن ومنه يقال : فلان خميص البطن .

ورابعها : قوله : ﴿ ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ أي ولا يضع الإنسان قدمه ولا يضع فرسه حافره ، ولا يضع بعيره خفه بحيث يصير ذلك سبباً لغيظ الكفار قال ابن الأعرابي : يقال غاظه وغيظه وأغاظه بمعنى واحد ، أي أغضبه .

وخامسها : قوله : ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ أي أسراً وقتلاً وهزيمة قليلاً كان أو كثيراً ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ أي إلا كان ذلك قربة لهم عند الله ونقول دلت هذه الآية على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيته وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله .

وكذا القول في طرف المعصية فما أعظم بركة الطاعة وما أعظم شؤم المعصية ، واختلفوا فقال قتادة : هذا الحكم من خواص رسول الله إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه

إلا بعذر .

وقال ابن زيد : هذا حين كان المسلمون قليلين فلما كثروا نسخها الله تعالى بقوله :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ [التوبة : 122] وقال عطية ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم وأمرهم وهذا هو الصحيح ، لأنه تتعين الإجابة والطاعة لرسول الله إذا أمر وكذلك غيره من الولاة والأئمة إذا ندبوا وعينوا لأنا لو سوغنا للمندوب أن يتقاعد لم يختص بذلك بعض دون بعض ولأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 177.178 ﴾

(106/352)

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ ﴾

يعني : المنافقين الذين بالمدينة وحوالي المدينة .

﴿ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ ﴾ في الغزو ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ ، يعني : لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبرّ وأشفق من نفس محمد صلى الله عليه وسلم .

وأن يتركوا محبته ، ويقال : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ ، يعني : بإبقاء أنفسهم على نفسه ،

يعني : ينبغي لهم أن يتبعوه حينما يريد .

﴿ ذلك ﴾ ، يعني : النهي عن التخلف ، ويقال : ذلك التحضيض الذي حضّهم عليه .

﴿ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ﴾ في غزوهم ﴿ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ ، يعني : ولا تعب ولا مشقة في أجسادهم .

ثم قال : ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ ، يعني : مجاعة .

﴿ فِى سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئًا ﴾ ، يعني : أرضاً وموضعاً من سهل أو جبل .

﴿ يَغِيظُ الكفار ﴾ ، يعني : يحزن الكفار ، ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ ، يعني : لا يصيبون من عدو قتلاً أو غارة أو هزيمة ، ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ ، يعني : ثواب عمل صالح ، يعني : يضاعف حسناتهم على حسنات القاعدين ﴿ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ ، يقول : لا يبطل ثواب المجاهدين .

وفي هذه الآية دليل أن ما أصاب الإنسان من الشدة يكتب له بذلك ثواب قال بعضهم : لا يكتب له بالشدة ثواب ، ولكن يحط عنه الخطيئة ، وقال بعضهم : لا يكون بالمشقة أجر ، ولكن بالصبر على ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(107/352)

وقال الثعلبي :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة ﴾

ظاهره خبر معناه نهي كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ الله ﴾ [الأحزاب : 53] ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب ﴾ سكان البوادي مزينة وجهينة وأسجح وأسلم وغفار ﴿ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ إذا غزا ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ في مصاحبته ومعاونته والجهاد معه .

قال الحسن : يعني لا يرغبون بأنفسهم أن تصيبهم من الشدائد مثل ما يصيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ﴾ في سفرهم ﴿ ظَمَأٌ ﴾ عطش ، وقرأ عبد بن عمير ظماً بالمدّ وهما لغتان مثل خطا وخطأ ﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ ولا تعب ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ مجاعة ﴿ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً ﴾ أرضاً ﴿ يَغِيظُ الكفار ﴾ وطيهم إياها ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ ولا يصيبون من عدوهم شيئاً قتلاً أو أسراً أو غنيمة أو عزيمة يقال : نلت الشيء فهو منيل ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ قال ابن عباس : بكل روعة تنالهم في سبيل الله سبعين ألف حسنة ﴿ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ فإن أصابهم ظمأ سقاهم الله من نهر الحيوان ولا يصيبهم ظمأ بعد ، وإن أصابهم نصب أعطاهم الله العسل من نهر الحيوان [ولا يصيبهم] فيهم النصب ، ومن

خرج في سبيل الله لم يضع قدماً ولا يداً ولا جنباً ولا أنفاً ولا ركبة ساجداً ولا راكعاً ولا ماشياً ولا نائماً في بقعة من بقاع الله إلاّ أذن الله له بالشهادة وبالشفاعة .

(108/352)

واختلفوا في حكم هذه الآية ، فقال قتادة : وهذه خاصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه خلافه إذا لم يكن للمسلمين اليه ضرورة وحاجة . قال : وذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لولا أن أشق على أمتي ما تخلفت خلف سريّة يغزو في سبيل الله لكني لا أجد سعة فانطلق بهم معي ويشق عليَّ أن أدعهم بعدي " .

وقال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعي وابن المبارك والفزاري والسبيعي وابن جابر وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية : انها لأول هذه الأمة وآخرها .

وقال ابن زيد : هذا حين كان أهل الإسلام قليلا فلما كثروا نسخها الله وأباح التخلف لمن شاء فقال : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(109/352)

وقال ابن عطية :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

هذه معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوه ، وقوة الكلام تعطى الأمر بصحبته إلى توجهه غازياً وبذل النفوس دونه ، واختلف المتأولون فقال قتادة : كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي صلى الله عليه وسلم ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاء ، وقال زيد بن أسلم : كان هذا الأمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأيدي ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : 112] .

قال القاضي أبو محمد : وهذا كله في الأنبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام ، وأما إذا ألم العدو بجهة فمتعين على كل أحد القيام بذبه ومكافحته ، وأما قوله تعالى ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم ﴾ فمعناه أن لا يحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في الله مشقة ويجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شح على أنفسهم ويكعون عما دخل هو فيه ، ثم ذكر تعالى لِمَ لَمْ يكن لهم التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بقوله : ﴿ ذلك بأنهم ﴾ . . الآية و" النصب " التعب . ومنه قول النابغة : [الطويل]

كليني لهم يا أميمة ناصبِ . . . أي ذي نصب . ومنه قوله تعالى : ﴿ لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ﴾ [الكهف : 62] و" المخمصة " مفعلة من خموص البطن وهي ضموره ، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له ، ومن ذلك قول الأعشى : [الطويل]

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم . . . وجاراتكم غرثى يبتنَ خمائصا

(110/352)

ومنه أخمص القدم والخمصانة من النساء ، وقوله تعالى ﴿ ولا يطؤون موطئاً ﴾ أي ولا ينتهون من الأرض منتهى مؤذياً للكفار ، وذلك هو الغائظ ومنه في المدونة كنا لا نتوضأ من موطىء من قول ابن مسعود ، وقوله تعالى : ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ لفظ عام لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أخذ مال أو إيراد هوان وكثيره ، والنيل مصدر نال ينال وليس من قولهم نلت أنوله نولاً ونوالاً وقيل هو منه ، وبدلت الواو ياء لخفتها هنا وهذا ضعيف ، والطبري قد ذكر نحوه وضعفه وقال ليس ذلك المعروف من كلام العرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(111/352)

وقال ابن الجوزى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾

قال ابن عباس : يعني : مزينة ، وجهينة ، وأشجع ، وأسلم ، وغفار ، ﴿ أن يتخلَّفوا عن رسول الله ﴾ في غزوة غزاها ، ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ لا يرضَوا لأنفسهم بالخفض والدَّعَة ورسول الله في الحرِّ والمشقة .

يقال : رغبت بنفسي عن الشيء : إذا ترفعت عنه .

قوله تعالى : ﴿ ذلك ﴾ أي : ذلك النهي عن التخلُّف ﴿ بأنهم لا يصيبهم ظمأٌ ﴾ وهو العطش ﴿ ولا نصب ﴾ وهو التعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ وهو المجاعة ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ أسراً أو قتلا أو هزيمة ، فأعلمهم الله أن يجازيهم على جميع ذلك .

قوله تعالى : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ قال ابن عباس : تمرة فما فوقها .

﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ مقبلين أو مدبرين ﴿ إلا كُتب لهم ﴾ أي : أُثبت لهم أجر ذلك .

﴿ ليجزيَهم الله أحسن ﴾ أي : بأحسن ﴿ ما كانوا يعملون ﴾ .

فصل

قال شيخنا علي بن عبيد الله : اختلف المفسرون في هذه الآية ، فقالت طائفة : كان في أول الأمر لا يجوز التخلُّف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الجهاد يلزم الكل ؛

ثم نسخ ذلك بقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافةً ﴾ [التوبة : 22] ؛ وقالت طائفة : فرض الله تعالى على جميع المؤمنين في زمان النبي صلى الله عليه وسلم ممن لا عذر له الخروج معه لشيئين .

أحدهما : أنه من الواجب عليهم أن يَقُوه بأنفسهم .

والثاني : أنه إذا خرج الرسول فقد خرج الدِّين كلُّه ، فأُمروا بالتظاهر لئلا يقلَّ العدد ، وهذا الحكم باقٍ إلى وقتنا ؛ فلو خرج أمير المؤمنين إلى الجهاد ، وجب على عامة المسلمين متابعته لما ذكرنا .

فعلى هذا ، الآية محكمة .

قال أبو سليمان : لكل آية وجهها .

وليس للنسخ على إحدى الآيتين طريق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(112/352)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾

يعني لساكني المدينة من المهاجرين والأنصار : ﴿ ومن حولهم من الأعراب ﴾ يعني سكان

البوادي من مزينة وجهينة وأسلم وأشجع وغفار وقيل : هو عام في كل الأعراب لأن اللفظ عام وحمله على العموم أولى ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ يعني إذا غزا وهذا ظاهر خبر ومعناه النهي أي ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ﴿ ولا يرغبوا ﴾ يعني ولا أن يرغبوا ﴿ بأنفسهم عن نفسه ﴾ يعني ليس لهم أن يكرهوا لأنفسهم ما يختاره رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويرضاه لنفسه ولا يختاروا لأنفسهم الخفض والدعة ويتركوا مصاحبته والجهاد معه في حال الشدة والمشقة وقال الحسن : لا يرغبوا بأنفسهم أن يصيبهم من الشدائد فيختاروا الخفض والدعة ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) في مشقة السفر ومقاساة التعب ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ﴾ في سفرهم وغزواتهم ﴿ ظمأ ﴾ أي عطش ﴿ ولا نصب ﴾ أي تعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ يعني مجاعة شديدة ﴿ في سبيل الله ولا يطؤون موطئاً يغيظ الكفار ﴾ يعني ولا يضعون قدماً على الأرض يكون ذلك القدم سبباً لغيظ الكفار وغمهم وحزنهم ﴿ ولا ينالون من عدو نيلاً ﴾ يعني أسراً أو قتلاً أو هزيمة أو غنيمة أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ يعني إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح قد ارتضاه لهم وقبله منهم ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ يعني ان الله سبحانه وتعالى لا يدع محسناً من خلقه قد أحسن في عمله وأطاعه فيما أمره به أو نهاه عنه أن يجازيه على إحسانه وعمله الصالح في الآية دليل على أن من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها

حسنات مكتوبة عند الله من قصد معصية الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها سيئآت إلا أن يغفرها الله بفضله وكرمه واختلف العلماء في حكم هذه الآية.

(113/352)

فقال قتادة: هذا الحكم خاص برسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد ان يتخلف عنه إلا بعذر فأما غيره من الأئمة والولاة فيجوز لمن شاء من المؤمنين أن يتخلف عنه إذا لم يكن للمسلمين إليه ضرورة.

وقال الوليد بن مسلم: سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيداً يقولون في هذه الآية إنها لأول هذه الأمة وآخرها فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ.

وقال ابن زيد: هذا حين كان أهل الإسلام قليلاً فلما كثروا نسخها الله وأباح التخلف لمن شاء بقوله وما كان المؤمنون لينفروا كافة ونقل الواحدي عن عطية أنه قال: وما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إذا دعاهم وأمرهم.

وقال: هذا هو الصحيح لأنه لا تتعين الطاعة والإجابة لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلا إذا أمر وكذا غيره من الأئمة والولاة قالوا إذا ندبوا أوعينوا لأنّ لو سوغنا للمندوب أن

يتقاعد ولم يختص بذلك بعض دون بعض لأدى ذلك إلى تعطيل الجهاد والله أعلم . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(114/352)

وقال أبو السعود :

﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة ﴾

ما صح وما استقام لهم ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مّنَ الاعراب ﴾ كمزينةَ وجهينةَ وأشجعَ وغِفارٍ وأضرابهم ﴿ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام إلى الغزو ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ ﴾ على النصب وقد جُوّز الجزمُ ﴿ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي لا يصرفوها عن نفسه الكريمةِ ولا يصونوها عما لم يصُن عنه نفسَه بل يكابدوا معه ما يكابده من الأهوال والخطوب ، والكلامُ في معنى النهي وإن كان على صورة الخبر ﴿ ذلك ﴾ إشارةٌ إلى ما دل عليه الكلامُ من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي عطشٌ يسير ﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ ولا تعب ما ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعةٌ وهي ما لا يستباح عنده المحرمات من مراتبها ، فإن الظمأَ والنصبَ اليسيرين حين لم يخلُوَا من الثواب فلأَنْ لا يخلو ذلك منه أولى فلا حاجة إلى تأكيد النفي بتكرير كلمة لا ، ويجوز أن يراد بها

تلك المرتبةُ ويكونُ الترتيبُ بناءً على كثرة الوقوع وقِلّته فإن الظماأ أكثرُ وقوعاً من المخمصة بالمعنى المذكور فتوسيطُ كلمةِ لا حينئذ ليس لتأكيد النفي بل للدلالة على استقلال كلِّ واحدٍ منها بالفضيلة والاعتداد به ﴿ فِى سَبِيلِ الله ﴾ وإعلاء كلمتِه ﴿ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفار ﴾ أي لا يدوسون بأرجلهم وحوافِر خيولِهم وأخفافِ رواحِلهم دَوْساً أو مكاناً يداس ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ مصدرٌ كالقتل والأسرِ والنهب أو مفعول أي شيئاً يُنال من قِبَلهم ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ ﴾ أي بكل واحدٍ من الأمور المعدودة ﴿ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ وحسنةٌ مقبولةٌ مستوجبةٌ بحكم الوعد الكريمِ للثواب الجميلِ ونيل الزُّلفى ، والتنوينُ للتفخيم وكونُ المكتوبِ عينَ ما فعلوه من الأمور لا يمنع دخولَ الباء ، فإن اختلافَ العنوان كافٍ في ذلك ﴿ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ على إحسانهم ، تعليلٌ لما سلف من

(115/352)

الكتب والمرادُ بالمحسنين إما المبحوثُ عنهم ووضعُ المظهرِ موضِعَ المضمرِ لمدحهم والشهادةِ عليهم بالانتظام في سلك المحسنين وأن أعمالَهم من قبيل الإحسانِ وللإشعار بعلية

المأخَذ للحكم ، وإما جنسُ المحسنين وهم داخلون فيه دخولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(116/352)

وقال الآلوسى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

﴿ مَا كَانَ ﴾ أي ما صح ولا استقام ﴿ لاهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مّنَ الاعراب ﴾

كمزينة .

وجهينة .

وأشجع .

وغفار .

وأسلم .

وأضرا بهم ﴿ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ عند توجهه عليه الصلاة والسلام إلى الغزو

﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي لا يصرفوها عن نفسه الكريمة ولا يصونوها عما لم يصنها عنه بل يكابدون ما يكابده من الشدائد ، وأصله لا يترفعوا بأنفسهم عن نفسه بأن

يكرهوا لأنفسهم المكاره ولا يكرهوها له عليه الصلاة والسلام بل عليهم أن يعكسوا القضية ، وإلى هذا يشير كلام الواحدي حيث قال : يقال رغبت بنفسي عن هذا الأمر أي ترفعت عنه .

وفي النهاية يقال : رغبت بفلان عن هذا الأمر أي كرهت له ذلك .

وجوز في ﴿ يَرْغَبُواْ ﴾ النصب بعطفه على ﴿ يَتَخَلَّفُواْ ﴾ المنصوب بأن واعادة ﴿ لا ﴾ لتذكير النفي وتأكيده وهو الظاهر والجزم على النهي وهو المراد من الكلام إلا أنه عبر عنه بصيغة النفي للمبالغة ، وخص أهل المدينة بالذكر لقربهم منه عليه الصلاة والسلام وعلمهم بخروجه ، وظاهر الآية وجوب النفير إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو بنفسه .

وذكر بعضهم أنه استدل بها على أن الجهاد كان فرض عين في عهده عليه عليه الصلاة والسلام وبه قال ابن بطال : وعلله بأنهم بايعوه عليه عليه الصلاة والسلام فلا يجب النفير مع أحد من الخلفاء ما لم يلم العدو ولم يمكن دفعه بدونه ، وقدر بعضهم في الآية مضافاً إلى رسول أي أن يتخلفوا عن حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خلاف الظاهر ؛ وعليه يكون الحكم عاماً وفيه بحث .

وأخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن زيد أن حكم الآية حين كان الإسلام قليلاً فلما كثر وفشا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : 122] ، وأنت تعلم أن الإسلام كان فاشياً عند نزول هذه السورة ، ولا يخفى ما في الآية من التعريض بالمتخلفين رغبة باللذائذ وسكونا إلى الشهوات غير مكترثين بما يكابد عليه الصلاة والسلام ، وقد كان تخلف جماعة عنه صلى الله عليه وسلم كما علمت لذلك ، وجاء أن أناساً من المسلمين تخلفوا ثم ان منهم من ندم وكره مكانه فلحق برسول الله صلى الله عليه وسلم غير مبال بالشدائد كأبي خثيمة فقد روي " أنه رضي الله تعالى عنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل وبسطت له الحصير وقربت إليه الرطب والماء البارد فنظر فقال : ظل ظليل ورطب يانع وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ما هذا بخير مقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومر كالريح فمد رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب فقال عليه الصلاة والسلام : كن أبا خيثمة فكانه ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له "

﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما دل عليه الكلام من وجوب المشايعة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي شيء من العطش .

وقرىء بالمد والقصر ﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ ولا تعب ما ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ ولا مجاعة ما ﴿

فِى سَبِيلِ الله ﴾ في جهاد أعدائه أو في طاعته سبحانه مطلقاً ﴿ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفار ﴾ أي يغضبهم ويضيق صدورهم والوطء الدوس بالأقدام ونحوها كحوافر الخيل وقد يفسر بالإيقاع والمحاربة .

(118/352)

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " آخر وطأة وطأها الله تعالى بوج " والموطىء اسم مكان على الأشهر الأظهر ، وفاعل ﴿ يَغِيظُ ﴾ ضميره بتقدير مضاف أي يغيظ وطؤه لأن المكان نفسه لا يغيظ ، ويحتمل أن يكون ضميراً عائداً إلى الوطء الذي في ضمنه ، وإذا جعل الموطىء مصدراً كالمورد فالأمر ظاهر ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ ﴾ أي ولا يأخذون ﴿ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ أي شيئاً من الأخذ فهو مصدر كالقتل والأسر والفعل نال ينيل .

وقيل : نال ينول فأصل نيلاً نولاً فأبدلت الواو ياء على غير القياس ، ويجوز أن يكون بمعنى المأخوذ فهو مفعول به لينالون أي لا ينالون شيئاً من الأشياء ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ ﴾ أي بالمذكور وهو جميع ما تقدم ولذا وحد الضمير ، ويجوز أن يكون عائداً على كل واحد من ذلك على البدل : قال النسفي .

وحد الضمير لأنه لما تكررت ﴿ لا ﴾ صار كل واحد منها على البدل مفرداً بالذكر

مقصوداً بالوعد ، ولذا قال فقهاؤنا : لو حلف لا يأكل خبزاً ولا لحماً حنث بواحد منهما ولو حلف لا يأكل لحماً وخبزاً لم يحنث إلا بالجميع بينهما ، والجملة في محل نصب على الحال من ﴿ ظَمَأٌ ﴾ وما عطف عليه أي لا يصيبهم ظمأ ولا كذا إلا مكتوباً لهم به ﴿ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ أي ثواب ذلك فالكلام بتقدير مضاف ، وقد يجعل كناية عن الثواب وأول به لأنه المقصود من كتابة الأعمال ، والتنوين للتفخيم ، والمراد أنهم يستحقون ذلك استحقاقاً لازماً بمقتضى وعده تعالى لا بالوجوب عليه سبحانه .

واستدل بالآية على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود ومشي وكلام وغير ذلك ، وعلى أن المدد يشارك الجيش في الغنيمة بعد انقضاء الحرب لأن وطء ديارهم مما يغيظهم .

(119/352)

ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابني عامر وقد قدما بعض تقضي الحرب ، واستدل بها على ما نقل الجلال السيوطي أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على جواز الزنا بنساء أهل الحرب في دار الحرب ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ على إحسانهم ، والجملة في موضع التعليل للكتب ، والمراد بالمحسنين إما المبحوث عنهم ووضع المظهر موضع المضمر

لمدحهم والشهادة لهم بالانتظام في سلك المحسنين وأن أعمالهم من قبيل الإحسان وللاشعار بعلية المأخذ للحكم وإما الجنس وهم دخولاً أولياً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(120/352)

وقال القاسمى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾

أي : المتيسر لهم ملازمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي : عند توجهه إلى الغزو ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أي : لا يضنوا بأنفسهم عما يصيب نفسه ، أي : لا يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد .

قال الزمخشريّ : أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوه معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علماً بأنها أعوز النفس عند الله وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت ، مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول ، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا

يقيموا لها وزناً ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلاً عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه .

وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية . انتهى .

(121/352)

روي أن أبا ذر رضي الله عنه ، أبطأ به بعيره ، فحمل متاعه على ظهره ، واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سواده : <كن أبا ذر ! > فقال الناس : هو ذاك ! فقال : < رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده > .

وروي أن أبا خيثمة الأنصاري رضي الله عنه ، بلغ بستانه ، وكانت له امرأة حسناء فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب ، والماء البارد .

فنظر فقال : ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ، ما هذا بخير ! فقام فَرَحَل ناقته ، وأخذ سيفه ورمحه ، ومرّ كالريح . فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب ، فقال : <كن أبا خيثمة ! > فكانه ، ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

واستغفر له .

قال السهيليّ في " الروض " : كن أبا ذر ، كن أبا خثيمة ، لفظه لفظ الأمر ، ومعناه كما تقول : أسلم ، أي : سلمك الله . انتهى .

وكذا قال غيره من المتقدمين كالفارسي ، وذكره المطرزي في قول الحريري : كن أبا زيد .

وفي شعر ابن هلال :

~ومعذّر قال الإله لحسنه : كُنْ فَتنةً للعالمين فَكانَها

ولم يزيدوا في بيانه على هذا ، وهو تركيب بديع غريب ، ومعناه ساقه الله إلينا . وجعله إياه ، ليكون هو القادم علينا ، فأقيم فيه العلة مقام المعلول في الجملة الدعائية الإنشائية ، على حد قوله في الحديث : < أَبْلِ وأَخْلِقْ > . أي : عمرك الله ، ومتعك الله بلباسك لتبلى وتخلق .

وقولهم : أسلم . أي : سلمك الله لتسلم ، ثم لما أقيم مقامه أبقي مسنداً إلى فاعله ، وإن كان المطلوب منه هو الله ، وهو قريب من قولهم : لأرينَّك ههنا ، أي : لا تجلس حتى أراك ، وهو تمثيل أو كناية . كذا في " العناية " .

(122/352)

﴿ ذَلِكَ ﴾ إشارة إلى ما دل عليه قوله ﴿ مَا كَانَ ﴾ من النهي عن التخلف أو وجوب المشابهة ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم : ﴿ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي : شيء من العطش : ﴿ وَلا نَصَبٌ ﴾ أي : تعب من السير لا سيما مع العطش ﴿ وَلا مَخْمَصَةٌ ﴾ أي : مجاعة

تضعفهم عن السير : ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَأُونَ مَوْطِئاً ﴾ أي : لا يدرسون مكاناً ﴿ يُغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ أي : الذين هم أعداء الله ، وإغضابُ العدوّ يفيد رضا عدوّه ﴿ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً ﴾ أي : قتلاً أو هزيمة أو سراً ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ أي : على إحسانهم . وهو تعليل لـ : ﴿ كُتِبَ ﴾ ، وتنبيه على أن تحمل المشاق إحسان ، لأن القصد به إعلاء كلمة الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 542.544 ﴾

(123/352)

وقال ابن عاشور :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

استئناف ابتدائي لإيجاب الغزو على أهل المدينة ومن حولهم من أهل باديتها الحافّين

بالمدينة إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم للغزو .

فهذا وجوب عيني على هؤلاء شرفهم الله بأن جعلهم جند النبي صلى الله عليه وسلم وحَرَس ذاته .

والذين هم حول المدينة من الأعراب هم : مُزينة ، وأشجع ، وغِفار ، وجُهينة ، وأسلم .

وصيغة ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة ، إذ جعل التخلف ليس مما ثبت لهم ، فهم برآء منه فيثبت لهم ضده وهو الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم إذا غزا .

فيه ثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به من غزو تبوك ، فهو يقتضي تحريضهم على ذلك كما دل عليه قوله : ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ﴾ الخ .

وفيه تعريض بالذين تخلفوا من أهل المدينة ومن الأعراب .

وذلك يدل على إيجاب النفير عليهم إذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم للغزو .

وقال قتادة وجماعة : هذا الحكم خاص بخروج النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره من الخلفاء والأمراء فهو مُحكم غير منسوخ .

وبذلك جزم ابن بَطال من المالكية .

قال زيد بن أسلم وجابر بن زيد : كان هذا حكماً عاماً في قلة الإسلام واحتياجه إلى كثرة الغزاة ثم نسخ لما قوي الإسلام بقوله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة :

122] فصار وجوب الجهاد على الكفاية .

وقال ابن عطية : هذا حكم من استنفرهم الإمام بالتعيين لأنه لو جاز لهؤلاء التخلف لتعطل الخُروج .

واختاره فخر الدين .

والتخلف : البقاء في المكان بعدَ الغير ممن كان معه فيه ، وقد تقدم عند قوله : ﴿ فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله ﴾ [التوبة : 81] .

(124/352)

والرغبة تُعدّى بحرف (في) فتفيد معنى مودة تحصيل الشيء والحرص فيه ، وتُعدى بحرف (عن) فتفيد معنى المجافاة للشيء ، كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ ومن يرغب عن ملة إبراهيم ﴾ [البقرة : 130] وهي هنا معداة بـ (عن) .

أريد برغبتهم عن نفسه محبتهم أنفسهم وحرصهم على سلامتها دون الحرص على سلامة نفس الرسول ، فكأنهم رغبوا عن نفسه إذ لم يخرجوا معه مُلاَبسين لأنفسهم ، أي محتفظين بها لأنهم بمقدار من يتخلف منهم يزداد تعرض نفس الرسول من التلف قرباً ، فتخلف واحد منهم عن الخروج معه عون على تقريب نفس الرسول عليه الصلاة والسلام من التلف

فلذلك استعير لهذا التخلف لفظ الرغبة عنه .

والباء في قوله : ﴿ بأنفسهم ﴾ للملابسة وهي في موضع الحال .

نزل الضن بالأنفس والحذر من هلاكها بالتلبس بها في شدة التمكن فاستعمل له حرف باء الملابسة .

وهذه ملابسة خاصة وإن كانت النفوس في كل حال متلبساً بها .

وهذا تركيب بديع الإيجاز بالغ الإعجاز .

قال في "الكشاف" : "أمروا أن يُلَقُّوا أنفسَهم من الشدائد ما تلقاه نفسه علماً بأنها أعَز نفس عند الله وأكرمها عليه فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له" أ هـ .

وهذا نهي بليغ وتوبيخ لهم وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية .

والإشارة بـ ﴿ ذلك ﴾ إلى نفي كون التخلف عن الرسول ثابتاً لهم ، أي أن ما ينالونه من فضل وثواب وأجر عظيم يقضي بأنه ما يكون لهم أن يتخلفوا عن رسول الله .

والباء في ﴿ بأنهم ﴾ للسببية .

والظَّمأ : العطش ، والنصَب : التعب ، والمخمصة : الجوع .

وتقدم في قوله : ﴿ فمن اضطر في مخمصة ﴾ في سورة العقود (3) .

والوطء : الدوس بالأرجل .

والمَوْطِىء : مصدر ميمي للوطء .

(125/352)

والوطء في سبيل الله هو الدوس بحوافر الخيل وأخفاف الإبل وأرجل الغزاة في أرض العدو ، فإنه الذي يغيظ العدو ويغضبه لأنه يأنف من وطء أرضه بالجيش ، ويجوز أن يكون الوطء هنا مستعاراً لإذلال العدو وغلبته وإبادته ، كقول الحارث بن وَعْلة الذُهْلي من شعراء الحماسة:

ووطئْتَنَا وَطْئاً على حنق . . .

وَطْء المُقَيّد نابتَ الهَرْم

وهو أوفق بإسناد الوطء إليهم .

والنيل : مصدر (ينالون) .

يقال : نال منه إذا أصابه برزء .

وبذلك لا يقدَّر له مفعول .

وحرف (من) مستعمل في التبعيض المجازي المتحقق في الرزية .

ورزءُ العدو يكون من ذوات الأعداء بالأسر ، ويكون من متاعهم وأموالهم بالسبي والغنم . والاستثناء مفرغ من عموم الأحوال .

فجملة : كتب لهم به عمل صالح ﴾ في موضع الحال ، وأغنى حرف الاستثناء عن اقترانها بقد .

والضمير في (به) عائد على (نصَب) وما عطف عليه إما بتأويل المذكور وإما لأن إعادة حرف النفي جعلت كل معطوف كالمستقل بالذكر ، فأعيد الضمير على كل واحد على البدل كما يعاد الضمير مفرداً على المتعاطفات بـ (أو) باعتبار أن ذلك المتعدد لا يكون في نفس الأمر إلا واحد منه .

ومعنى : ﴿ كتب لهم به عمل صالح ﴾ أن يكتب لهم بكل شيء من أنواع تلك الأعمال عمل صالح ، أي جعَل الله كل عمل من تلك الأعمال عملاً صالحاً وإن لم يقصِد به عاملوه تقرباً إلى الله فإن تلك الأعمال تصدر عن أصحابها وهم ذاهلون في غالب الأزمان أو جميعها عن الغاية منها فليست لهم نيات بالتقرب بها إلى الله ولكن الله تعالى بفضله جعلها لهم قربات باعتبار شرف الغاية منها .

وذلك بأن جعل لهم عليها ثواباً كما جعل للأعمال المقصود بها القربة ، كما ورد أن نوم الصائم عبادة .

وقد دل على هذا المعنى التذييل الذي أفاد التعليل بقوله : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين

﴾ .

ودل هذا التذييل على أنهم كانوا بتلك الأعمال محسنين فدخلوا في عموم قضية ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ بوجه الإيجاز . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(126/352)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

والحديث هنا فيه رجوع إلى الذين تخلفوا عن الغزوة ، وعرفنا من قبل أنك ساعة تقول : " ما كان لك أن تفعل كذا " أي : أنك تنفي القدرة على الفعل ، أما إن قلت : " ما ينبغي " أي : عندك قدرة على الفعل ، ولا يجب أن تفعله .

وهنا يقول الحق : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ وبعضهم قد تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ وهنا حديث عن نوعين من الأنفس : أنفس من قالوا بالتخلف ، ونفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت إذا قلت : "

رغبت " ، معناها : أنك ملتَ ميلاً قلبياً ، فإن قلت : " رغبت في " كان الميل القلبي إلى ممارسة الفعل وفيها التغلغل ، أما إن قلت : " رغبت عن " وفيها التجاوز ، هذا يعني أن الميل القلبي يهدف إلى الابتعاد عن الفعل . إذن : فحرف الجر هو الذي يحدّدِ لون الميل القلبي .

وقوله الحق : ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : أنهم زهدوا في أمر صدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضَّلوا أمر نفوسهم على أمر رسول الله ، فيبين الحق لهم أنهم ما كان لهم أن يفعلوا ذلك ؛ لأنكم ما دمتم آمنتم بالله ، فإيمانكم لا يكمل حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليكم من نفوسكم .

ولذلك نجد سيدنا عمر رضي الله عنه لما سمع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " ، فقال : يا رسول الله ، أنا أحبك عن أهلي وعن مالي إنما عن نفسي ، فلا . "

(127/352)

وهكذا كان صدق عمر رضي الله عنه ، فكرر رسول الله صلى الله عليه وسلم القول : " لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه " فعلم عمر أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم حازم في هذه القضية الإيمانية ، وعلم أن الحب المطلوب ليس حب العاطفة ، إنما هو حب العقل ، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل ؛ فحب العاطفة لا تكليف فيه ، لكن حب العقل يأتي بالتكليف .

وعلى سبيل المثال : فأنت تحب ابنك بعاطفتك ، حتى وإن لم يكن ذكيّاً ، لكنك تحب بعقلك ابن عدوك إن كان ذكيّاً وأميناً وناجحاً . وضربنا المثل من قبل وقلنا : إن الإنسان قد يحب الدواء المرّ ؛ لأن فيه الشفاء ، والإنسان لا يحب هذا الدواء بعواطفه ، ولا يتلذذ به وهو يشربه ، بل يحبه بعقله ؛ لأن هذا الدواء قد يكون السبب في العافية ، وإن لم يجده في الصيدليات يغضب ويشكو ، ويسرّ بمن يأتي له به من البلاد الأخرى .

إذن : فالذين تخلفوا عن رسول الله من أهل المدينة أو ممن حولهم ما كان لهم أن يتخلفوا ؛ لأن هذا يناقض إيمانهم في أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليهم من أنفسهم ، وكان من الواجب أن يرغبوا في رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنفسهم ، أما أن يكون الأمر بالعكس ، فلا . لأن اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يأتي لهم بالخير .

أما اتباع حبهم لأنفسهم فهو حب ضيق البصيرة ، سيأتي لهم بالشرور ، وإن جاء لهم بخير فخيره موقوت ، وبحسب إمكاناتهم ، ولكن حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن أنفسهم يأتي لهم بالخير الثابت الدائم الذي يتناسب مع قدرة الله سبحانه .

ثم يقول سبحانه : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى حيثيات

الترغيب التي يأخذون بها الجزاء الطيب من الحق سبحانه بأنهم ﴿ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ ، ونعلم أن الظمأ قد أصابهم في جيش العسرة لدرجة أن المقاتل كان يذبح البعير ، ويصفي الماء الذي في معدته لِيبُلَّ ريقه ، وريق زملائه .

(128/352)

﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ والنَّصَب : هو التعب ، وكانت الغزوة في جو حار مرهق .

﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ أي : المجاعة ، وقد كانوا يأكلون التمر الذي أصابه الدود ، والشعير الذي انتشر فيه السوس . وإن كانا وقد عانوا من كل ذلك فهو في سبيل الله القادر على أن يُمُنَّ عليهم بكل خير جزاء لما يقدمونه في سبيل نصرته .

﴿ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار ﴾ نعلم أن الكفار كان لهم رقعة من الأرض يتمركزون فيها ، فحين يغير عليهم المؤمنون ويزحزحونهم عن هذا المكان ، وينزلون إلى الوديان والبساتين التي يملكها الكفار ، فهذا أمر يغيظ أهل الكفر ، إذن : فهم حين يطأون موطئاً ، فهذا يغيظ الكفار .

﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً ﴾ أي : يأخذون من عدوٍّ منالاً ، والمعنى : أن يقهروا العدو فيتراجع ويشعر بالخسران ، حينئذ يأخذون الجزاء الخيِّر من الله ، وكل ما حدث أن الظمأ

والنصب والمخمصة ووطء موطء يغيظ الكفار والنيل من عدوهم نيلاً . كل واحدة من هذه الأحداث لها جزاء يحدده الحق : ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ .

إذن : فالذين رغبوا عن رسول الله بأنفسهم ولم يخرجوا للغزوة قد خسروا كثيراً ؛ خسروا ما كتبه الحق سبحانه قابله مَنْ خرجوا مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

ويُنهي الحق سبحانه الآية : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ فهؤلاء الذين أحسنوا لا يضيع الله أجرهم أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(129/352)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمرو بن مالك عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لما نزلت هذه الآية ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها " .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن زيد في قوله ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ قال : هذا حين كان الإِسلام قليلاً ، فلما كثر الإِسلام وفشا قال الله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ [التوبة : 122] .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ قال : العطش ﴿ ولا نصب ﴾ قال : العناء .

وأخرج ابن أبي حاتم عن رجاء بن حيوة ومكحول : أنهما كانا يكرهان التلثم من الغبار في سبيل الله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الأوزاعي وعبد الله بن المبارك وإبراهيم بن محمد الغزاري وعيسى بن يونس السبيعي أنهم قالوا في قوله تعالى ﴿ ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة .

وأخرج أبو الشيخ عن السدي في قوله ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ الآية قال : نسختها الآية التي تليها ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية .

(130/352)

وأخرج الحاكم وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال " خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة وخلف جعفراً في أهله فقال جعفر : والله ما أتخلف عنك فخلفني . فقلت : يا رسول الله أتخلفني أي شيء تقول قريش ؟ أليس يقولون : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه ، وأخرى ابتغى الفضل من الله لأني سمعت الله تعالى يقول ﴿ ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار . . . ﴾ الآية . قال : أما قولك أن تقول قريش : ما أسرع ما خذل ابن عمه وجلس عنه ، فقد قالوا : إني ساحر وكاهن وإني كذاب فلك بي أسوة ، أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى غير أنه لا نبي بعدي ، وأما قولك تبتغي الفضل من الله ، فقد جاءنا فلفل من اليمن فبعه وأنفق عليك وعلى فاطمة حتى يأتيكما الله منه برزق " . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(131/352)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

والظَّمأُ : العطش ، يُقال : ظَمِىء يَظْمَأُ ظَمَأً ، فهو ظمآنُ وهي / ظمأى ، وفيه لغتان :

القصر والمدُّ ، وبالمدّ قرأ عمرو بن عبيد ، نحو : سَفِه سَفاهاً ، والظِّمْءُ ما بين الشَّرْبَتَيْن .

و" مَوْطِئاً " مَفْعِل مِنْ وَطِىءَ ، ويحتمل أن يكون مصدراً بمعنى الوَطْء ، وأن يكون مكاناً ، والأول أظهر ، لأن فاعل " يغيظ " يعود عليه من غير تأويل بخلاف كونه مكاناً فإنه يعود على المصدر وهو الوَطْءُ الدال عليه المَوْطِىءُ .

وقرأ زيد بن علي : "يُغيظ " بضم الياء وهما لغتان : غاظَه وأغاظه .

والنَّيْلُ مصدرٌ فيحتمل أن يكون على بابه ، وأن يكون واقعاً موقعَ المفعول به ، وليست ياؤه مبدلةً من واو كما زعم بعضهم ، بل ناله ينولُه مادةٌ أخرى ومعنى آخر وهو المناولة ، يقال : نِلْتُه أَنُوْله ، أي : تناولته ونِلْتُه أنيله ، أي : أَدْرَكْته . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 137.138 ﴾

(132/352)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

لا يجوز لهم أن يؤثروا على النبيّ – صلى الله عليه وسلم – شيئاً من نَفْسٍ وروح، ومال وولَدٍ وأهلٍ، وليسوا يخسرون على الله وأنَّى ذلك . . ؟ وإنهم لا يرفعون لأجْلِه خطوةً إلاَّ قابَلَهم بألفِ خطوة، ولا ينقلون إليه قَدَماً إلا لقَّاهم لطفاً وكرماً، ولا يُقاسُون فيه عَطَشاً إلا سقاهم من شراب محابّه كاسا، ولا يتحملون لأجله مشقةً إلا لقَّاهم لطفاً وإيناساً، ولا ينالون من الأعداء أَذىً إلا شَكَرَ اللهُ سَعْيَهم بما يوجب لهم سعادة الدارين ! . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 72 ﴾

(133/352)

قوله تعالى ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كانت المشقة بالإنفاق العائد ضرره إلى المال، ووطئ مطلق الأرض الذي قد لا يلزم منه وصول إلى ما يغيظ العدو دون المشقة الحاصلة في النفس بالظمأ وما معه من فعل ما يغيظ العدو وينقصه، قدم ذلك على قوله : ﴿ ولا ينفقون ﴾ ولما كان القليل قد يحتقر، ابتدأ به

ترغيباً في قوله : ﴿ نفقة صغيرة ﴾ ولما كان ربما تعنت متعنت فجعل ذكرها قيداً ، قال : ﴿ ولا كبيرة ﴾ إعلاماً بأنه معتد به لئلا يترك ، وفيه إشارة إلى آية اللمز للمطوعين في الصدقات ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي من الأدوية بالسير في الجهاد ، والوادي : كل منفرج بين جبال وآكام ينفذ فيه السيل ، وهو في الأصل فاعل من ودى - إذا سال ﴿ إلا كتب لهم ﴾ أي ذلك الإنفاق والقطع ، بناه للمفعول لأن القصد الحفظ بالكتابة مطلقاً ﴿ ليجزيهم الله ﴾ أي ذو الجلال والإكرام ، أي بذلك من فضله ﴿ أحسن ما كانوا ﴾ أي جبلة وطبعاً ﴿ يعملون ﴾ مضاعفاً على قدر الثبات ، وأكدت فاصلة الأولى دون هذه لزيادة تلك في المشقة والنفع ، ولذا صرح فيها الأجر والعمل الصالح - نبه على ذلك الإمام أبو حيان .

ومن هنا بل من عند ﴿ إن الله اشترى ﴾ شرع في عطف الآخر على الأول الذي مضمونه البراءة من المشركين والاجتهاد في قتالهم بعد انقضاء مدتهم حيث وجدوا - إلى أن قال ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﴾ - إلى أن قال ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ﴾ ثم قال ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ ثم أتبع ذلك قصص المنافقين كما أنه فعل هنا كذلك أن ختم بقوله ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ الآية ثم أتبعها ذكر المنافقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 401.402 ﴾

فصل

قال الفخر :

ثم قال : ﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾

يريد تمرة فما فوقها وعلاقة سوط فما فوقها ولا يقطعون وادياً ، والوداي كل مفرج بين جبال وآكام يكون مسلكاً للسيل ، والجمع الأودية إلا كتب الله لهم ذلك الإنفاق وذلك المسير .

ثم قال : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ وفيه وجهان : الأول : أن الأحسن من صفة فعلهم ، وفيها الواجب والمندوب والمباح والله تعالى يجزيهم على الأحسن ، وهو الواجب والمندوب ، دون المباح .

والثاني : أن الأحسن صفة للجزاء ، أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل ، وهو الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 178 ﴾

(135/352)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

قَدْ بَيَّنَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وُجُوبَ الْخُرُوجِ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ فِي غَزَوَاتِهِ إلَّا الْمَعْذُورِينَ وَمَنْ أَذِنَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُعُودِ وَلِذَلِكَ ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَسْتَأْذِنُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقُعُودِ فِي الْآيَاتِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

وَقَوْلُهُ : ﴿ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أَيْ يَطْلُبُونَ الْمَنْفَعَةَ بِتَوْقِيَةِ أَنْفُسِهِمْ دُونَ نَفْسِهِ ، بَلْ كَانَ الْفَرْضُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ ، وَالْأَنْصَارِ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَبَذَلَ نَفْسَهُ لِلْقَتْلِ لِيَقِيَ بِهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(136/352)

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴾ فِيهِ الدَّلَالَةُ عَلَى أَنَّ وَطْءَ دِيَارِهِمْ بِمَنْزِلَةِ النَّيْلِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ قَتْلُهُمْ ، أَوْ أَخْذُ أَمْوَالِهِمْ ، أَوْ إخْرَاجُهُمْ عَنْ دِيَارِهِمْ ، هَذَا كُلُّهُ نَيْلٌ مِنْهُمْ ، وَقَدْ سَوَّى بَيْنَ وَطْءِ مَوْضِعٍ يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَبَيْنَ النَّيْلِ مِنْهُمْ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ وَطْءَ دِيَارِهِمْ وَهُوَ الَّذِي يَغِيظُهُمْ وَيُدْخِلُ الذُّلَّ عَلَيْهِمْ هُوَ بِمَنْزِلَةِ نَيْلِ الْغَنِيمَةِ ، وَالْقَتْلِ ، وَالْأَسْرِ ، وَفِي ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الِاعْتِبَارَ فِيمَا يَسْتَحِقُّهُ الْفَارِسُ وَالرَّاجِلُ مِنْ سِهَامِهِمَا بِدُخُولِ أَرْضِ الْحَرْبِ لِانْحِيَازِهِ الْغَنِيمَةَ ، وَالْقِتَالَ ؛ إذْ كَانَ الدُّخُولُ بِمَنْزِلَةِ حِيَازَةِ الْغَنَائِمِ

وَقَتْلِهِمْ وَأَسْرِهِمْ ، وَنَظِيرُهُ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ فَاقْتَضَى ذَلِكَ اعْتِبَارَ إيجَافِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فِي دَارِ الْحَرْبِ ؛ وَلِذَلِكَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : " مَا وُطِئَ قَوْمٌ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إلَّا ذَلُّوا " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(137/352)

وقال ابن العربى فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنْ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْله تَعَالَى ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ : أَيْ مَا كَانَ لِهَؤُلَاءِ الْمَذْكُورِينَ أَنْ يَتَخَلَّفُوا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ غَيْرَهُمْ لَمْ يُسْتَنْفَرُوا ، وَإِنَّمَا كَانَ النَّفِيرُ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ بَعْضِهِمْ ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الِاسْتِنْفَارُ فِي كُلِّ مُسْلِمٍ ، وَخَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْعِتَابِ لِقُرْبِهِمْ وَجِوَارِهِمْ ، وَأَنَّهُمْ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْ غَيْرِهِمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴾ : دَلِيلٌ عِنْدَ عُلَمَائِنَا عَلَى أَنَّ الْغَنِيمَةَ تُسْتَحَقُّ بِالْإِدْرَابِ وَالْكَوْنِ فِي بِلَادِ الْعَدُوِّ ؛ فَإِنْ مَاتَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ سَهْمُهُ ؛ وَهُوَ

قَوْلُ أَشْهَبَ ، وَعَبْدِ الْمَلِكِ ، وَأَحَدُ قَوْلَيْ الشَّافِعِيِّ .

وَقَالَ مَالِكٌ ، وَابْنُ الْقَاسِمِ : لَا شَيْءَ لَهُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ إنَّمَا كَتَبَ لَهُ بِالْآخِرَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ السَّهْمَ .

وَهُوَ الصَّحِيحُ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا فِي مَسَائِلِ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْله تَعَالَى ﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ : يَعْنِي كُتِبَ لَهُمْ ثَوَابُهُ .

وَكَذَلِكَ قَالَ فِي الْمُجَاهِدِ : إنَّ أَرْوَاثَ دَوَابِّهِ وَأَبْوَالَهَا حَسَنَاتٌ ، وَرَعْيَهَا حَسَنَاتٌ ، وَقَدْ زَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَضْلِهِ .

(138/352)

فَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ بِعَيْنِهَا : ﴿ إنَّ بِالْمَدِينَةِ قَوْمًا مَا سَلَكْتُمْ وَادِيًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ شِعْبًا إلَّا وَهُمْ مَعَكُمْ ، حَبَسَهُمْ الْعُذْرُ ﴾ ؛ فَأَعْطَى لِلْمَعْذُورِ مِنْ الْأَجْرِ مَا أَعْطَى لِلْقَوِيِّ الْعَامِلِ بِفَضْلِهِ .

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ : إنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْأَجْرُ غَيْرَ مُضَاعَفٍ ، وَيُضَاعَفُ لِلْعَامِلِ الْمُبَاشِرِ .

وَهَذَا تَحَكُّمٌ عَلَى اللَّهِ ، وَتَضْيِيقٌ لِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ؛ وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ .

وَلِذَلِكَ قَدْ رَابَ بَعْضُ النَّاسِ فِيهِ ، فَقَالَ أَنْتُمْ تُعْطَوْنَ الثَّوَابَ مُضَاعَفًا قَطْعًا ، وَنَحْنُ لَا نَقْطَعُ

بِالتَّضْعِيفِ فِي مَوْضِعٍ فَإِنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَى مِقْدَارِ النِّيَّاتِ ، وَهُوَ أَمْرٌ مُغَيَّبٌ ، وَالَّذِي يَقْطَعُ بِهِ أَنَّ هُنَالِكَ تَضْعِيفًا ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ يَسْتَحِقُّهُ ، وَهَذَا كُلُّهُ وَصْفُ الْعَامِلِينَ الْمُجَاهِدِينَ ، وَحَالُ الْقَاعِدِينَ التَّائِبِينَ ، وَلَمَّا ذَكَرَ الْمُتَخَلِّفِينَ الْمُعْتَذِرِينَ بِالْبَاطِلِ قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : ذَكَرُوا فِي بِشْرٍ مَا ذُكِرَ بِهِ أَحَدٌ ، فَقَالَ : ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(139/352)

وقال السمرقندى :

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً ﴾ فِي الجهاد ﴿ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ، يعني : قليلاً ولا كثيراً .

﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ من الأودية مقبلين إلى العدو أو مدبرين ﴿ إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾ يعني كتب لهم ثواب ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ يقول : ليجزيهم بأعمالهم ؛ ويقال يجزيهم أحسن من أعمالهم ، لأنه يعطي بحسنة واحدة عشرة ، إلى سبعمائة ، إلى ما لا يدرك حسابه ، ويقال : ليجزيهم بأحسن أعمالهم ويصبر سائر أعمالهم فضلاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ ﴾

في سبيل الله ﴿ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ ولو علاقة سوط ﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ ﴾ ولا يتجاوزون ﴿ وَادِياً ﴾ في مسيرهم مقبلين أو مدبرين ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ يعني آثارهم وخطاهم ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ لهم بالثواب ويدخلهم الجنة بغير حساب .

قال ابن عباس : أخبرنا أبو عمر الفراتي بقراءتي عليه أخبرنا أبو موسى أخبرنا مسدّد عن هارون ابن عبد الله الجمّال أخبرنا ابن أبي فديك عن الخليل بن عبد الله عن الحسين عن علي ابن أبي طالب وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي أمامة الباهلي وعبد الله بن عمرو وعبد الله بن عمر وجابر بن عبد الله وعمران بن حصين كلهم يحدّثون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " ومن أرسل نفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه وأنفق في وجه ذلك فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة ألف درهم " ثم تلا هذه الآية ﴿ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة : 261] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(140/352)

وقال ابن عطية :

قوله ﴿ ولا ينفقون ﴾ الآية

قدم الصغيرة للاهتمام أي إذا كتبت الصغيرة فالكبيرة أحرى ، و" الوادي " ما بين جبلين كان فيه ماء أو لم يكن ، وجمعه أودية ، وليس في كلام العرب فاعل وأفعلة إلا في هذا الحرف وحده ، وفي الحديث " ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(141/352)

وقال القرطبى فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

فيه ست مسائل :

الأُولى قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ ظاهره خبر ومعناه أمر ؛ كقوله : ﴿ وَمَا كان لكم أن تؤذوا رسول الله ﴾ [الأحزاب : 53] وقد تقدّم .

"أَنْ يَتَخَلَّفُوا" في موضع رفع اسم كان .

وهذه معاتبة للمؤمنين من أهل يَثْرِب وقبائِل العرب المجاوِرة لها ؛ كمُزَيْنَة وجُهينة وأَشْجَع وغِفَار وأسْلم على التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تَبُوك .

والمعنى : ما كان لهؤلاء المذكورين أن يتخلفوا ؛ فإن النفير كان فيهم ، بخلاف غيرهم فإنهم لم يُستنفَروا ؛ في قول بعضهم .

ويحتمل أن يكون الاستنفار في كل مسلم ، وخصّ هؤلاء بالعتاب لقربهم وجوارهم ، وأنهم أحقُّ بذلك من غيرهم .

الثانية قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي لا يرضوا لأنفسهم بالخفض والدَّعة ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المشقة .

يقال : رغِبت عن كذا أي ترفَّعت عنه .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴾ أي عطش .

وقرأ عبيد بن عمير "ظماء" بالمد .

وهما لغتان مثل خطأ وخطاء .

﴿ وَلاَ نَصَبٌ ﴾ عطف ، أي تعب ، ولا زائدة للتوكيد .

وكذا ﴿ وَلاَ مَخْمَصَةٌ ﴾ أي مجاعة .

وأصله ضمور البطن ؛ ومنه رجل خميص وامرأة خُمَصانة .

وقد تقدّم .

﴿ فِي سَبِيلِ اللهِ ﴾ أي في طاعته .

﴿ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً ﴾ أي أرضاً .

﴿ يَغِيظُ الكفار ﴾ أي بوطئهم إياها ، وهو في موضع نصب لأنه نعت للمَوْطىء ، أي غائظاً .

﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ أي قتلاً وهزيمة .

وأصله من نِلْت الشيء أنال أي أصبت .

قال الكسائي : هو من قولهم أمرٌ مَنيل منه ؛ وليس هو من التناول ، إنما التناول من نُلْته العطية .

(142/352)

قال غيره : نُلت أنول من العطية ، من الواو والنيل من الياء ، تقول : نِلته فأنا نائل ، أي أدركته .

﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً ﴾ العرب تقول : وادٍ وأودية ، على غير قياس .

قال النحاس : ولا يُعرف فيما علمت فاعل وأفعِلة سواه ، والقياس أن يجمع ووادِي ؛ فاستثقلوا الجمع بين واوين وهم قد يستثقلون واحدة ، حتى قالوا : أُقِّتَتْ في وُقِّتَت .

وحكى الخليل وسيبويه في تصغير واصل اسم رجل أو يصل فلا يقولون غيره .

وحكى الفرّاء في جمع واد أوداء .

قلت : وقد جمع أوداه ؛ قال جرير :

عرفت ببُرْقَة الأوداهِ رَسْماً . . .

مُحيلاً طال عَهْدُك مِنَ رُسومِ

﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ قال ابن عباس : بكل روعة تنالهم في سبيل الله سبعون ألف حسنة .

وفي الصحيح : " الخيل ثلاثة وفيه وأما التي هي له أجر فرجل ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام في مَرْج أو روضة فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة إلا كُتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أرواثها وأبوالها حسنات "

الحديث .

هذا وهي في مواضعها فكيف إذا أدْرب بها .

الرابعة استدلّ بعض العلماء بهذه الآية على أن الغنيمة تستحق بالإدراب والكون في بلاد العدوّ ، فإن مات بعد ذلك فله سهمه ، وهو قول أشهب وعبد الملك ، وأحد قولي الشافعي .

وقال مالك وابن القاسم : لا شيء له ؛ لأن الله عز وجل إنما ذكر في هذه الآية الأجر ولم يذكر

السهم .

قلت الأول أصح لأن الله تعالى جعل وطء ديار الكفار بمثابة النَّيل من أموالهم وإخراجهم من ديارهم ، وهو الذي يغيظهم ويدخل الذلّ عليهم ، فهو بمنزلة نَيْل الغنيمة والقتل والأسر ؛ وإذا كان كذلك فالغنمية تُستحق بالإدراب لا بالحيازة ، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه : ما وُطىء قوم في عُقر دارهم إلا ذلّوا .

والله أعلم .

(143/352)

الخامسة هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ وأن حكمها كان حين كان المسلمون في قلّة ، فلما كثروا نُسخت وأباح الله التخلف لمن شاء ، قاله ابن زيد .

وقال مجاهد : بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم قوماً إلى البوادي ليعلموا الناس فلما نزلت هذه الآية خافوا ورجعوا ؛ فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ .

وقال قتادة : كان هذا خاصّاً بالنبيّ صلى الله عليه وسلم ، إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر ؛ فأما غيره من الأئمة والولاة فلمن شاء أن يتخلف خَلْفَه من المسلمين

إذا لم يكن بالناس حاجة إليه ولا ضرورة .

وقول ثالث أنها محكمة ؛ قال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعيّ وابن المبارك والفَزَاريّ والسَّبِيعي وسعيد بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية إنها لأوّل هذه الأمة وآخرها .

قلت قول قتادة حسن ، بدليل غزاة تبوك ، والله أعلم .

السادسة روى أبو داود عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " "لقد تركتم بالمدينة أقواماً ما سِرْتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من وادٍ إلا وهم معكم فيه" قالوا : يا رسول الله ، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة .

؟ قال : "حبسهم العذر" .

خرجّه مسلم من حديث جابر قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال : "إن بالمدينة لرجالاً ما سِرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم حبسهم المرض" "

فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم للمعذور من الأجر مثلَ ما أعطى للقوي العامل .

وقد قال بعض الناس : إنما يكون الأجر للمعذور غير مضاعف ، ويضعف للعامل المباشر .

(144/352)

قال ابن العربيّ : وهذا تحكم على الله تعالى وتضييق لسعَة رحمته ، وقد عاب بعض الناس فقال : إنهم يُعطون الثواب مضاعفاً قطعاً ، ونحن لا نقطع بالتضعيف في موضع فإنه مبنيّ على مقدار النيات ، وهذا أمر مُغَيّب ، والذي يُقطع به أن هناك تضعيفاً وربّك أعلم بمن يستحقه .

قلت : الظاهر من الأحاديث والآي المساواةُ في الأجر ؛ منها قوله عليه السلام : " من دل على خير فله مثل أجر فاعله " وقوله : " من توضأ وخرج إلى الصلاة فوجد الناس قد صلّوا أعطاه الله مثل أجر من صلاها وحضرها " وهو ظاهر قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الموت فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ ﴾ .

وبدليل أن النية الصادقة هي أصل الأعمال ، فإذا صحت في فعل طاعة فعجز عنها صاحبها لمانع منع منها فلا بُعْد في مساواة أجر ذلك العاجز لأجر القادر الفاعل ويزيد عليه ؛ لقوله عليه السلام : " نية المؤمن خير من عمله " والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(145/352)

وقال الخازن :

قوله : ﴿ ولا ينفقون ﴾

يعني في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ يعني تمرة فما دونها أو أكثر منها حتى علاقة سوط ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ يعني ولا يجاوزون في مسيرهم وادياً مقبلين أو مدبرين فيه ﴿ إلا كتب لهم ﴾ يعني كتب الله لهم آثارهم وخطاهم ونفقاتهم ﴿ ليجزيهم الله ﴾ يعني يجازيهم ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ قال الواحدي : معناه بأحسن ما كانوا يعملون .

وقال الإمام فخر الدين الرازي : فيه وجهان : الأول : أن الأحسن من صفة أفعالهم وفيها الواجب والمندوب والمباح فالله سبحانه وتعالى يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح .

والثاني : أن الأحسن صفة للجزاء أي يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب وفي الآية دليل على فضل الجهاد وأنه من أحسن أعمال العباد (ق) عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها " وفي رواية " وما فيها " (ق) عن أبي هريرة قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " تضمن الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه إلا جهاداً في سبيلي وإيماناً بي وتصديقاً برسلي فهو علي ضامن أن أدخله

الجنة أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غيمة والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته يوم كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك والذي نفسه محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً ولكن لا أجد سعة فأحملهم ولا يجدون سعة ويشق عليهم أن يتخلفوا عني والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فأقتل في سبيل الله ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل " لفظ مسلم وللبخاري بمعناه (ق) .

(146/352)

عن أبي سعيد الخدري قال : " أتى رجل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال أي الناس أفضل قال مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله قال ثم من قال ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله " وفي رواية " يتقي الله ويدع الناس من شره " (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة " يعني حسنات (خ) عن ابن عباس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال " ما أغبرت قدما عبد في سبيل الله فتمسه النار " (م) عن أبي مسعود الأنصاري البدري قال : " جاء رجل بناقة مخطومة إلى

رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال هذه في سبيل الله فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة " عن خريم بن فاتك قال قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " من أنفق نفقة في سبيل الله كتب الله له سبعمائة ضعف " أخرجه الترمذي والنسائي . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(147/352)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾

نزلت فيمن تخلف من أهل المدينة عن غزوة تبوك ، وفيمن تخلف ممن حولهم من الأعراب من مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار .

ومناسبتها لما قبلها : أنه لما أمر المؤمنين بتقوى الله ، وأمر بكينونتهم مع الصادقين ، وأفضل الصادقين رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ثم المهاجرون والأنصار ، اقتضى ذلك موافقة الرسول وصحبته أنّى توجه من الغزوات والمشاهد ، فعوتب العتاب الشديد من تخلف عن الرسول في غزوة ، واقتضى ذلك الأمر لصحبته وبذل النفوس دونه .

قال الزمخشري : بأن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأمروا أن يكابدوا معه الأهوال

برغبة ونشاط واغتباط ، وأن يلقوا أنفسهم في الشدائد ما يلقاه نفسه (صلى الله عليه وسلم) ، علماً بأنها أعزُّ نفس عند الله تعالى وأكرمها عليه ، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهون وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له ، ولا يكترث لها أصحابها ، ولا يقيموا لها وزناً ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلاً أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهي بليغ مع تقبيح لأمرهم وتوبيخ لهم عليه ، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية .

قال الكرماني : هذا نفي معناه النهي ، وخصَّ هؤلاء بالذكر وكل الناس في ذلك سواء لقربهم منه ، وأنه لا يخفى عليهم خروجه .

قال قتادة : كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي (صلى الله عليه وسلم) وجواب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه ، ولم يبق هذا الحكم مع غيره من الخلفاء .

(148/352)

وقال زيد بن أسلم : كان هذا الأمر والإلزام في قلة الإسلام ، واحتياج إلى اتصال الأيدي ، ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ قال : وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام ، وأما إذا ألم العدوّ بجهة فيتعين على كل

أحد القيام بذنبه ومكافحته ، والإشارة بذلك إلى ما تضمنه انتفاء التخلف من وجوب الخروج معه وبذل النفس دونه ، كأنه قيل : ذلك الوجوب للخروج وبذل النفس هو بسبب ما أعد الله لهم من الثواب الجسيم على المشاق التي تنالهم ، وما يتسنى على أيديهم من إيذاء أعداء الإسلام .

والظمأ العطش .

وقرأ عبيد بن عمير ظماء بالمد مثل : سفه سفاهاً ، ولما كان العطش أشق الأشياء المؤدية للمسافر بكثرة الحركة وإزعاج النفس وخصوصاً في شدة الحر كغزوة تبوك بدىء به أولاً ، وثنى بالنصب وهو التعب لأنه الكلال الذي يلحق المسافر والإعياء الناشىء عن العطش والسير ، وأتى ثالثاً بالجوع لأنه حاله يمكن الصبر عليها الأوقات العديدة ، بخلاف العطش والنصب المفضيين إلى الخلود والانقطاع عن السفر .

فكان الإخبار بما يعرض للمسافر أولاً فثانياً فثالثاً .

وموطئاً مفعل من وطىء ، فاحتمل أنْ يكون مكاناً ، واحتمل مصدراً .

والفاعل في يغيظ عائد على المصدر ، إما على موطىء إن كان مصدراً ، وإما على ما يفهم من موطىء إن كان مكاناً ، أي يغيظ وطؤهم إياه الكفار .

وأطلق موطئاً إذا كان مكاناً ليعم كل موطىء يغيظ وطؤه الكفار ، سواء كان من أمكنة الكفار ، أم من أمكنة المسلمين إذا كان في سلوكه غيظهم .

والوطء يدخل فيه بالحوافر والإخفاف والأرجل .

وقرأ زيد بن علي : يغيظ بضم الياء .

والنيل مصدر ، فاحتمل أن يبقى على موضوعه ، واحتمل أن يراد به المنيل .

(149/352)

وأطلق نيلاً ليعمّ القليل والكثير مما يسوءهم قتلاً وأسراً وغنيمة وهزيمة ، وليست الياء في نيل بدلاً من واو خلافاً لزاعم ذلك ، بل نال مادتان : إحداهما من ذوات الواو نلته أنوله نولاً ونوالاً من العطية ، ومنه التناول .

والأخرى : هذه من ذوات الياء ، نلته ناله نيلاً إذا أصابه وأدركه .

وبدىء في هاتين الجملتين بالأسبق أيضاً وهو الوطء ، ثم ثنى بالنيل من العدو .

جاء العموم في الكفار بالألف واللام ، وفي من عدو لكونه في سياق النفي ، وبدىء أولاً بما يحض المسافر في الجهاد في نفسه ، ثم ثانياً بما يترتب على تحمل تلك المشاق من غيظ الكفار والنيل من العدو .

وقال الزمخشري : ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة ، لا الوطء بالأقدام والحوافر كقوله عليه السلام : " آخر وطأة وطئها الله بوج "

والكتب هنا يحتمل أن يكون حقيقة أي : كتب في الصحائف ، أو في اللوح المحفوظ ، ليجازى عليه يوم القيامة .

ويحتمل أن يكون استعارة ، عبر عن الثبوت بالكتابة لأنّ من أراد أن يثبت شيئاً كتبه .

والجملة من كتب في موضع الحال ، وبه أفرد الضمير إجراء له مجرى اسم الإشارة كأنه قيل : إلا كتب لهم بذلك عمل صالح أي : بإصابة الظمأ والنصب والمخمصة والوطء والنيل .

وفي الحديث : " من أغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار " وقال ابن عباس : بكل روعة تنالهم في سبيل الله سبعون ألف حسنة .

والنفقة الصغيرة قال ابن عباس : كالثمرة ونحوها ، والكبيرة ما فوقها .

وقال الزمخشري : صغيرة ولو تمرة ، ولو علاقة سوط ، .

ولا كبيرة مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة انتهى .

وقدم صغيرة على سبيل الاهتمام كقوله : ﴿ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة ﴾ ﴿ ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ وإذا كتب أجر الصغيرة فأحرى أجر الكبيرة .

ومفعول كتب مضمر يعود على المصدر المفهوم من ينفقون ويقطعون ، كأنه قيل : كتب لهم هو أي الإنفاق والقطع ، ويجوز أن يعود على قوله : عمل صالح المتقدم الذكر .

وتأخرت هاتان الجملتان وقدّمت تلك الجمل السابقة لأنها أشق على النفس وأنكى في العدو ، وهاتان أهون لأنهما في الأموال وقطع الأرض إلى العدو ، سواء حصل غيظ الكفار والنيل من العدو أم لم يحصلا ، فهذا أعم وتلك أخص .

وكان تعليل تلك آكد ، إذ جاء بالجملة الإسمية المؤكدة بأنّ ، وذكر فيه الأجر .

ولفظ المحسنين تنبيهاً على أنهم حازوا رتب الإحسان التي هي أعلى رتب المؤمنين .

وفي هاتين الجملتين أتى بلام العلة وهي متعلقة بكتب والتقدير : أحسن جزاء الذي كانوا يعملون ، لأنّ عملهم له جزاء حسن ، وله جزاء أحسن ، وهنا الجزاء أحسن جزاء .

وقال أبو عبد الله الرازي : أحسن ما كانوا يعملون فيه وجهان : الأول : أن أحسن من صفة فعلهم ، وفيها الواجب والمندوب دون المباح انتهى .

هذا الوجه فاحتمل أن يكون أحسن بدلاً من ضمير ليجزيهم بدل اشتمال ، كأنه قيل : ليجزي الله أحسن أفعالهم بالأحسن من الجزاء ، أو بما شاء من الجزاء .

ويحتمل أن يكون ذلك على حذف مضاف فيكون التقدير : ليجزيهم جزاءً أحسن أفعالهم .

والثاني : أن الأحسن صفة للجزاء أي : يجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجلّ وأفضل ، وهو الثواب انتهى ، هذا الوجه ، وإذا كان الأحسن من صفة الجزاء فكيف

أضيف إلى الأعمال وليس بعضها منها ؟ وكيف يقع التفضيل إذ ذاك بين الجزاء وبين الأعمال ، ولم يصرح فيه بمن ؟ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(151/352)

وقال أبو السعود :

﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ﴾

ولو تمرةً أو علاقةَ سَوْط ﴿ وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ كما أنفق عثمانُ رضى الله عنه والترتيب باعتبار ما ذُكر من كثرة الوقوعِ وقلته وتوسيطُ لا للتنصيص على استبداد كلَ منهما بالكَتْب والجزاءِ لا لتأكيد النفي كما في قوله عز وجل : ﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ ﴾ أي لا يجتازون في مسيرهم ﴿ وَادِيًا ﴾ وهو في الأصل كلُّ منفرَجٍ من الجبال والآكامِ يكون منفذاً للسيل ، اسمُ فاعلٍ من ودَى إذا سال ثم شاع في الأرض على الإطلاق ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ذلك الذي فعلوه من الإنفاق والقطع ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ بذلك ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أحسنَ جزاءِ أعمالِهم أو جزاءَ أحسنِ أعمالِهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(152/352)

وقال الآلوسى :

﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ﴾

ولو تمرة أو علاقة سوط ﴿ وَلاَ كَبِيرَةً ﴾ كما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة ، وذكر الكبيرة بعد الصغيرة وان علم من الثواب على الأولى الثواب على الثانية لأن المقصود التعميم لا خصوص المذكور إذ المعنى ولا ينفقون شيئاً ما فلا يتوهم أن الظاهر العكس ، وفي أرشاد العقل السليم أن الترتيب باعتبار كثرة الوقوع وقلته ، وتوسيط ﴿ لا ﴾ للتنصيص على استبداد كل منهما بالكتب والجزاء لا لتأكيد النفي كما في قوله تعالى شأنه : ﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ ﴾ أي ولا يتجاوزون في سيرهم لغزو ﴿ وَادِيًا ﴾ وهو في الأصل اسم فاعل من ودي إذا سال فهو بمعنى السيل نفسه ثم شاع في محله وهو المنعرج من الجبال والآكام التي يسيل فيها الماء ثم صار حقيقة في مطلق الأرض ويجمع على أودية كناد على أندية وناج على أنجية ولا رابع لهذه على ما قيل في كلام العرب ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ أي أثبت لهم أو كتب في الصحف أو اللوح ولا يفسر الكتب بالاستحقاق لمكان التعليل بعد ، وضمير ﴿ كتاب ﴾ على طرز ما سبق أي المذكور أو كل واحد ، وقيل : هو للمعل وليس بذاك وفصل هذا وأخر لأنه أهون مما قبله ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ بذلك ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أي أحسن جزاء أعمالهم على معنى أن لأعمالهم جزاء حسناً وأحسن

وهو سبحانه اختار لهم أحسن جزاء فانتصاب ﴿ أَحْسَنُ ﴾ على المصدرية لإضافته إلى مصدر محذوف .

وقال الإمام : فيه وجهان : الأول أن الأحسن صفة عملهم وفيه الواجب .

والمندوب .

والمباح فهو يجزيهم على الأولين دون الأخير ، والظاهر أن نصب ﴿ أَحْسَنُ ﴾ حينئذ على أنه بدل اشتمال من ضمير يجزيهم كما قيل .

(153/352)

وأورد عليه أنه ناء عن المقام مع قلة فائدته لأن حاصله أنه تعالى يجزيهم على الواجب والمندوب وأن ما ذكر منه ولا يخفى ركاكته وأنه غير خفي على أحد كونه كناية عن العفو عما فرط منهم في خلاله أن وقع لأن تخصيص الجزاء به يشعر بأنه لا يجازي على غيره خلاف الظاهر ، ثم قال : الثاني أن الأحسن صفة للجزاء أي ليجزيهم جزاء هو أحسن من أعمالهم وأفضل وهو الثواب .

واعترضه أبو حيان بأنه إذا كان الأحسن صفة الجزاء كيف يضاف إلى الأعمال وليس بعضاً منها وكيف يفضل عليهم بدون من ، ولا وجه لدفعه بأن أصله مما كانوا الخ فحذف

﴿ مِنْ ﴾ مع بقاء المعنى على حاله كما قيل لأنه لا محصل له .

هذا ووصف النفقة بالصغيرة والكبيرة دون القليلة والكثيرة مع أن المراد ذلك قيل حملاً للطاعة على المعصية فإنها إنما توصف بالصغيرة والكبيرة في كلامهم دون القليلة والكثيرة فتأمل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(154/352)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﴾

في قوله : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة ﴾ إلخ ، زيادة تأكيد لوجوب الغزو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحريم التخلف عنه : أي ما صح وما استقام لأهل المدينة ﴿ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مّنَ الأعراب ﴾ كمزينة وجهينة ، وأشجع وأسلم وغفار ﴿ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله ﴾ ، صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، وإنما خصهم الله سبحانه لأنهم قد استنفروا ، فلم ينفروا ، بخلاف غيرهم من العرب ، فإنهم لم يستنفروا مع كون هؤلاء لقربهم وجوارهم أحق بالنصرة والمتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي : وما كان لهم أن يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، فيشحون بها ويصونونها ، ولا يشحون بنفس

رسول الله ، ويصونونها كما شحوا بأنفسهم وصانوها ، يقال : رغبت عن كذا : أي ترفعت عنه ، بل واجب عليهم أن يكابدوا معه المشاق ، ويجاهدوا بين يديه أهل الشقاق .

ويبذلوا أنفسهم دون نفسه ؛ وفي هذا الإخبار معنى الأمر لهم مع ما يفيده إيراده على هذه الصيغة من التوبيخ لهم ، والتقريع الشديد ، والتهييج لهم ، والإزراء عليهم .

والإشارة بقوله : ﴿ ذلك ﴾ إلى ما يفيده السياق من وجوب المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أي ذلك الوجوب عليهم بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب ، وأصناف الشدائد .

والظمأ : العطش ، والنصب : التعب ، والمخمصة : المجاعة الشديدة التي يظهر عندها ضمور البطن .

وقرأ عبيد بن عمير "ظماء" بالمد .

وقرأ غيره بالقصر ، وهما لغتان مثل خطأ وخطاء ، و "لا" في هذه المواضع زائدة للتأكيد .

ومعنى ﴿ فِى سَبِيلِ الله ﴾ في طاعة الله .

(155/352)

قوله : ﴿ وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفار ﴾ أي : لا يدوسون مكاناً من أمكنة الكفار بأقدامهم ، أو بحوافر خيولهم أو بأخفاف رواحلهم ، فيحصل بسبب ذلك الغيظ للكفار .

والموطىء : اسم مكان ، ويجوز أن يكون مصدراً ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ أي : يصيبون من عدوّهم قتلاً أو أسراً أو هزيمة أو غنيمة ، وأصله : من نلت الشيء أنال : أي أصيب .

قال الكسائي : هو من قولهم : أمر منيل منه ، وليس هو من التناول ، إنما التناول من نلته بالعطية .

قال غيره : نلت أنول من العطية ، ونلته أناله : أدركته ، والضمير في ﴿ بِهِ ﴾ يعود إلى كل واحد من الأمور المذكورة ، والعمل الصالح : الحسنة المقبولة : أي إلا كتبه الله لهم حسنة مقبولة يجازيهم بها ، وجملة : ﴿ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين ﴾ في حكم التعليل لما سبق مع كونه يشمل كل محسن ، ويصدق على المذكورين هنا صدقاً أوّلياً .

قوله : ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً ﴾ معطوف على ما قبله : أي ولا يقع منهم الإنفاق في الحرب ، وإن كان شيئاً صغيراً يسيراً ﴿ وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا ﴾ وهو في الأصل كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ، والعرب تقول : واد وأودية على غير قياس .

قال النحاس : ولا يعرف فيما علمت فاعل وأفعلة ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ أي : كتب لهم ذلك الذي عملوه من النفقة والسفر في الجهاد ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ الله ﴾ به ﴿ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ

﴾ أي : أحسن جزاء ما كانوا يعملون من الأعمال ، ويجوز أن يكون في قوله : ﴿ إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ ﴾ ضمير يرجع إلى عمل صالح .

وقد ذهب جماعة إلى أن هذه الآية منسوخة بالآية المذكورة بعدها ، وهي قوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ فإنها تدل على جواز التخلف من البعض ، مع القيام بالجهاد من البعض ، وسيأتي .

(156/352)

وقد أخرج ابن أبي حاتم من طريق عمر بن مالك ، عن بعض الصحابة قال : لما نزلت : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة ﴾ الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذي بعثني بالحق لولا ضعفاء الناس ما كانت سرية إلا كنت فيها " وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن زيد ، في قوله : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة ﴾ قال هذا حين كان الإسلام قليلاً لم يكن لأحد أن يتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما كثر الإسلام وفشا قال الله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الأوزاعي ، وعبد الله بن المبارك ، وإبراهيم بن محمد الفزاري ،

وعيسى بن يونس السبيعي ، أنهم قالوا في قوله تعالى : ﴿ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً ﴾ قالوا : هذه الآية للمسلمين إلى أن تقوم الساعة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(157/352)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا)

(158/352)

أَيْ وَتَابَ أَيْضًا عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى تَبُوكَ مَعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُمُ الْمُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ فِي الْآيَةِ (106) أَوْ خُلِّفُوا بِمَعْنَى أُرْجِئُوا حَتَّى يَنْزِلَ فِيهِمْ أَمْرُ اللهِ ، وَهُمْ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ وَهِلَالُ بْنُ أُمَيَّةَ مِنْ بَنِي وَاقِفٍ وَمُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ مِنْ بَنِي عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ : (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ) أَيْ خُلِّفُوا وَأُبْهِمَ اللهُ أَمْرَهُمْ إِلَى أَنْ شَعَرُوا بِأَنَّ الْأَرْضَ قَدْ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ بِرَحِبِهَا أَيْ بِمَا وَسِعَتْ مِنَ الْخَلْقِ خَوْفًا مِنَ الْعَاقِبَةِ وَتَأَلُّمًا وَامْتِعَاضًا مِنْ إِعْرَاضِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ

وَهَجْرِهِمْ إِيَّاهُمْ فِي الْمُجَالَسَةِ وَالْمُحَادَثَةِ وَالتَّحِيَّةِ (وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) أَيْ وَضَاقَتْ أَنْفُسُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بِمَا كَانُوا يَشْعُرُونَ بِهِ مِنْ ضِيقِ صُدُورِهِمْ بِامْتِلَاءِ قُلُوبِهِمْ مِنَ الْهَمِّ وَالْغَمِّ حَتَّى لَا مُتَّسَعَ فِيهَا لِشَيْءٍ مِنَ الْبَسْطِ وَالسُّرُورِ ، فَكَأَنَّهُمْ لَا يَجِدُونَ لِأَنْفُسِهِمْ مَكَانًا تَرْتَاحُ إِلَيْهِ وَتَطْمَئِنُّ بِهِ (وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ لَا مَلْجَأَ لَهُمْ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ يَلْجَئُونَ إِلَيْهِ إِلَّا إِلَيْهِ تَعَالَى بِأَنْ يَتُوبُوا إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُوهُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ فَإِنَّ الرَّسُولَ الْبَرَّ الرَّءُوفَ الرَّحِيمَ بِأَصْحَابِهِ مَا عَادَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُكَلِّمُهُمْ حَتَّى يَطْلُبُوا دُعَاءَهُ

(159/352)

وَاسْتِغْفَارَهُ ، وَهُوَ

- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

لَا يَشْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ أَنْ يَشْفَعَ لَهُمْ (ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ) أَيْ بَعْدَ ذَلِكَ كُلِّهِ عَطَفَ تَعَالَى وَرَجَعَ عَلَيْهِمْ وَأَنْزَلَ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ

أَوْ وَفَّقَهُمْ لِلتَّوْبَةِ الْمَقْبُولَةِ عِنْدَهُ (لِيَتُوبُوا) وَيَرْجِعُوا إِلَيْهِ بَعْدَ إِعْرَاضِهِمْ عَنْ هِدَايَتِهِ وَاتِّبَاعِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، (وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) : إِنَّهُ تَعَالَى هُوَ كَثِيرُ الْقَبُولِ

لِتَوْبَةِ التَّائِبِينَ ، الْوَاسِعُ الرَّحْمَةِ لِلْمُحْسِنِينَ ، وَتَقَدَّمَ مِثْلُهُ قَرِيبًا .

وَإِنَّ الْعِبْرَةَ بِهَذِهِ الْقِصَّةِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِذِكْرِ أَصَحِّ الرِّوَايَاتِ وَأَوْسَعِهَا فِي شَرْحِ مَا بَيَّنَ اللَّهُ مِنْ حَالِهِمْ فِيهَا وَهُوَ حَدِيثُ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

(160/352)

أَخْرَجَ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَشْهَرُ مُدَوِّنِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ مِنْ طَرِيقِ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ - وَكَانَ قَائِدُ كَعْبٍ مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ . قَالَ : سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُ حَدِيثَهُ حِينَ تَخَلَّفَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ قَالَ كَعْبٌ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ إِلَّا فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ، غَيْرَ أَنِّي تَخَلَّفْتُ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ وَلَمْ يُعَاتَبْ أَحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا ، إِنَّمَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ حَتَّى جَمَعَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ مِيعَادٍ .

وَلَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الْإِسْلَامِ وَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ . وَإِنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ فِي النَّاسِ مِنْهَا وَأَشْهَرَ ، وَكَانَ مِنْ خَبَرِي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ

قَطُّ أَقْوَى وَلَا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْهُ فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ وَاللهِ مَا جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا فِي تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَلَّمَا يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيْرِهَا حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ فَغَزَاهَا

(161/352)

رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي حَرٍّ شَدِيدٍ وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا ، وَاسْتَقْبَلَ عَدُوًّا كَثِيرًا فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بِوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – كَثِيرٌ لَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ – يُرِيدُ الدِّيوَانَ .

قَالَ كَعْبٌ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلَّا ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ سَيَخْفَى بِهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَغَزَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ

طَابَتِ الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ ، وَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ ، فَتَجَهَّزَ إِلَيْهَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَا أَقْضِي شَيْئًا ، فَأَقُولُ لِنَفْسِي أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذَلِكَ إِنْ أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اسْتَمَرَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ فَأَصْبَحَ

رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – غَادِيًا وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، وَقُلْتُ الْجِهَازُ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ ثُمَّ أَلْحَقُهُ ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ مَا فَصَلُوا لِأَتَجَهَّزَ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازِي شَيْئًا ، ثُمَّ

(162/352)

غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى أَسْرَعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزْوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ ، وَلَيْتَ أَنِّي فَعَلْتُ ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ ، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ فِي النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُحْزِنُنِي أَنِّي لَا أَرَى لِي أُسْوَةً إِلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ وَلَمْ يَذْكُرْنِي رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ فَقَالَ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْقَوْمِ بِتَبُوكَ : (مَا فَعَلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟) فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ : يَا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ وَالنَّظَرُ فِي عِطْفَيْهِ . فَقَالَ لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ، بِئْسَمَا قُلْتَ وَاللهِ يَا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا فَسَكَتَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(163/352)

قَالَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أَنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ تَوَجَّهَ قَافِلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَنِي بَثِّي فَطَفِقْتُ أَتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأَقُولُ بِمَاذَا أَخْرُجُ مِنْ سُخْطِهِ غَدًا وَأَسْتَعِينُ عَلَى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِنْ أَهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ إِنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ أَظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أَنِّي لَمْ أَنْجُ مِنْهُ بِشَيْءٍ أَبَدًا ، فَأَجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأَصْبَحَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَادِمًا ، وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ وَكَانُوا بِضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ ، وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللهِ ، حَتَّى جِئْتُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَيْهِ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لِي : (تَعَالَ) فَجِئْتُ أَمْشِي حَتَّى جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَقَالَ لِي : (مَا خَلَّفَكَ ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدِ اشْتَرَيْتَ ظَهْرَكَ ؟) فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ ، وَاللهِ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَنِّي سَأَخْرُجُ مِنْ سُخْطِهِ بِعُذْرٍ ، لَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا ، وَلَكِنِّي وَاللهِ لَقَدْ

(164/352)

عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى عَنِّي بِهِ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ يُسْخِطُكَ عَلَيَّ ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ بِحَدِيثِ صِدْقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ ، إِنِّي لأَرْجُو فِيهِ عُقْبَى مِنَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا كَانَ لِي عُذْرٌ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ . فَقَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ) فَقُمْتُ وَبَادَرَنِي رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ وَاتَّبَعُونِي فَقَالُوا لِي وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أَذْنَبْتَ قَبْلَ هَذَا ، لَقَدْ عَجَزْتَ أَلاَّ تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا اعْتَذَرَ بِهِ الْمُتَخَلِّفُونَ ، فَلَقَدْ كَانَ كَافِيكَ مِنْ ذَنْبِكَ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حَتَّى أَرَدْتُ أَنْ أَرْجِعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأُكَذِّبَ نَفْسِي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هَذَا مَعِي أَحَدٌ ؟ قَالُوا : نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلاَنِ قَالاَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، فَقُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ وَهِلاَلُ بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ ، فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا لِي فِيهِمَا أُسْوَةٌ ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي .

(165/352)

قَالَ : وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ كَلاَمِنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ - أَوْ قَالَ تَغَيَّرُوا لَنَا - حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْضُ فَمَا هِيَ

بِالْأَرْضِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً ، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَدَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ بِالْأَسْوَاقِ فَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ ، وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَأَقُولُ فِي نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ أَمْ لَا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي نَظَرَ إِلَيَّ فَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ هَجْرِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ حَائِطَ أَبِي قَتَادَةَ - وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ - فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقُلْتُ لَهُ يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ اللَّهَ تَعَالَى هَلْ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَالَ فَسَكَتَ ، قَالَ فَعُدْتُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ ، فَعُدْتُ فَنَشَدْتُهُ . قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ .

(166/352)

وَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ الشَّامِ مِمَّنْ قَدِمَ بِطَعَامٍ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ؟ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ وَكُنْتُ كَاتِبًا ، فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فِيهِ :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنَا أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ ، فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ . فَقُلْتُ حِينَ قَرَأْتُهَا وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهَا

.

(167/352)

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا بِرَسُولِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَأْتِينِي فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ فَقُلْتُ : أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ ؟ قَالَ بَلِ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبَنَّهَا ، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ . فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بْنِ أُمَيَّةَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هِلَالًا شَيْخٌ ضَائِعٌ وَلَيْسَ لَهُ خَادِمٌ فَهَلْ تَكْرَهُ أَنْ أَخْدِمَهُ ؟ قَالَ : (لَا وَلَكِنْ لَا يَقْرَبَنَّكِ) فَقَالَتْ إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ وَوَاللَّهِ مَا زَالَ يَبْكِي مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ مِنْ أَمْرِكَ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا ، فَقَالَ لِي بَعْضُ أَهْلِي : لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي امْرَأَتِكَ فَقَدْ أَذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالٍ أَنْ تَخْدِمَهُ فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا أَدْرِي مَا يَقُولُ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ .

قَالَ : فَلَبِثْنَا عَشْرَ لَيَالٍ فَكَمَلَ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حِينَ نُهِيَ عَنْ كَلَامِنَا ، قَالَ : ثُمَّ صَلَّيْتُ الْفَجْرَ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ مِنَّا قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ سَمِعْتُ صَارِخًا أَوْفَى عَلَى جَبَلِ سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ ، فَخَرَرْتُ سَاجِدًا ، وَعَرَفْتُ أَنْ قَدْ جَاءَ الْفَرَجُ ، فَآذَنَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى الْفَجْرَ . فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا وَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ ، وَرَكَضَ إِلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا ، وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الْجَبَلِ ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ ، فَلَمَّا جَاءَ الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ لِبِشَارَتِهِ وَاللَّهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ ! فَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا ، فَانْطَلَقْتُ أَؤُمُّ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا بَعْدَ فَوْجٍ يُهَنِّئُونِي بِالتَّوْبَةِ ، وَيَقُولُونَ لِيَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ ، حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ وَحَوْلَهُ النَّاسُ ، فَقَامَ

إِلَيَّ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدٍ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّأَنِي ، وَاللهِ مَا قَامَ إِلَيَّ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ ، قَالَ فَكَانَ كَعْبٌ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ .

(169/352)

قَالَ كَعْبٌ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – : فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ (أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ) قُلْتُ أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ اللهِ ؟ قَالَ (لَا بَلْ مِنْ عِنْدِ اللهِ) وَكَانَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذَا سُرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ ، وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ : (أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ) فَقُلْتُ : إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْبَرَ ، وَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّمَا أَنْجَانِي اللهُ بِالصِّدْقِ ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ قَالَ : فَوَاللهِ مَا أَعْلَمُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللهُ مِنَ الصِّدْقِ فِي الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللهُ تَعَالَى ، وَاللهِ مَا تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

- إِلَى يَوْمِي هَذَا كَذِبًا وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيمَا بَقِيَ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ : (لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ) - إِلَى قَوْلِهِ - (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) .

(170/352)

قَالَ كَعْبٌ فَوَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أَنْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَئِذٍ أَلَّا أَكُونَ كَذَبْتُهُ فَأَهْلَكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوهُ حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لِأَحَدٍ فَقَالَ (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ) - إِلَى قَوْلِهِ (الْفَاسِقِينَ) (9 : 95 ، 96) .

قَالَ كَعْبٌ وَكُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حِينَ حَلَفُوا فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ ، وَأَرْجَأَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ فَلِذَلِكَ قَالَ اللَّهُ : (وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وَلَيْسَ الَّذِي ذُكِرَ مِمَّا خَلَّفَنَا عَنِ الْغَزْوِ وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَذَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ ا هـ .

(أَقُولُ) : إِنَّ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ لَأَكْبَرَ عِبْرَةٍ تَفِيضُ لَهَا عَبَرَاتُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَخْشَعُ لَهَا قُلُوبُ

الْمُتَّقِينَ ، وَكَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ لَا يُبْكِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ كَمَا تُبْكِيهِ هَذِهِ الْآيَاتُ وَحَدِيثُ كَعْبٍ فِي تَفْصِيلِ خَبَرِهِمْ فِيهَا . وَأَيُّ مُؤْمِنٍ يَمْلِكُ عَيْنَيْهِ أَنْ تَفِيضَ مِنَ الدَّمْعِ ، وَقَلْبَهُ

(171/352)

أَنْ يَجِفَّ وَيَرْجُفَ مِنَ الْخَوْفِ إِذَا قَرَأَ أَوْ سَمِعَ هَذَا الْخَبَرَ ، وَتَأَمَّلْ مَا فِيهِ مِنَ الْعِبَرِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ بَسْطُهَا إِلَّا فِي كِتَابٍ مُسْتَقِلٍّ ، وَلَا أَدْرِي مَا عَسَى أَنْ يَنَالَ مِنْ قَسْوَةِ قُلُوبِ الْمُقَلِّدِينَ ، وَجَهْلِ الْمَغْرُورِينَ الَّذِينَ يَقْتَرِفُونَ الْفَوَاحِشَ وَالْمُنْكَرَاتِ ، وَيَتْرُكُونَ الْفَرَائِضَ وَالْوَاجِبَاتِ ، وَيُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ . فَلَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ، وَإِذَا وَعَظَهُمْ وَاعِظٌ أَوْ ذَكَّرَهُمْ مُذَكِّرٌ ؛ وَجَدَ اللَّابِسِينَ لِبَاسَ الْإِسْلَامِ مِنْهُمْ بَيْنَ جَازِمٍ بِالْمَغْفِرَةِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ ، وَبَيْنَ مُتَّكِلٍ عَلَى شَفَاعَةِ الشَّافِعِينَ لَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْفَظُ مِنْ أَخْبَارِ الْمُكَفِّرَاتِ لِلذُّنُوبِ مَا لَا يَصِحُّ لَهُ سَنَدٌ ، وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ عَلَى أُصُولِ الدِّينِ مَتْنٌ . وَمَا لَهُ أَصْلٌ مِنْ هَذِهِ الْأَخْبَارِ - يُرَادُ بِهِ تَكْفِيرُ الصَّغَائِرِ بِشَرْطِ اجْتِنَابِ الْكَبَائِرِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (4 : 31) وَمَا كَانَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهِ مَقْرُونًا بِالتَّوْبَةِ أَخْذًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (16 : 119) وَتَقَدَّمَ بَيَانُ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي مَوَاضِعَ (آخِرُهَا ص 158 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(172/352)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ) بِاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ بِقَدْرِ الِاسْتِطَاعَةِ ، وَتَرْكِ مَا نَهَى عَنْهُ وَبَيَّنَ تَحْرِيمَهُ مُطْلَقًا (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) أَيْ مَعَ جَمَاعَةِ الصَّادِقِينَ أَوْ مِنْهُمْ (وِفَاقًا لِقِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ وَقَدْ تَكُونُ تَفْسِيرًا) دُونَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَتَنَصَّلُونَ مِنْ ذُنُوبِهِمْ بِالْكَذِبِ وَيُؤَيِّدُونَهُ بِالْحَلِفِ . وَالصَّادِقُونَ هُمُ الْمُعْتَصِمُونَ بِالصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ فِي جِهَادِهِمْ إذَا جَاهَدُوا ، وَفِي عُهُودِهِمْ إذَا عَاهَدُوا ، وَفِي أَقْوَالِهِمْ وَوُعُودِهِمْ إذَا حَدَّثُوا وَوَعَدُوا ، وَفِي تَوْبَتِهِمْ إذَا أَذْنَبُوا أَوْ قَصَّرُوا ، وَالْمُنَافِقُونَ ضِدُّهُمْ فِي ذَلِكَ وَغَيْرِهِ .

تَقَدَّمَ فِي آخِرِ حَدِيثِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ بِمَا صَدَقُوا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَمْ يَنْتَحِلُوا لِأَنْفُسِهِمْ عُذْرًا كَاذِبًا فِي التَّخَلُّفِ عَنِ النَّفَرِ مَعَهُ . وَبِهِ قَالَ نَافِعٌ وَالسُّدِّيُّ . وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) مَعَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ . وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَالضَّحَّاكُ : مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ . وَابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو جَعْفَرٍ : مَعَ عَلِيٍّ . وَالْحَقُّ أَنَّهَا عَامَّةٌ كَمَا

قَالَ ابْنُ عُمَرَ فِي

عَهْدِهِ ، وَمِثْلُهُ

(173/352)

يُقَالُ فِي (الصَّادِقِينَ) مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَنَّ الثَّلَاثَةَ الَّذِينَ نَزَلَتْ فِي قِصَّتِهِمْ يَدْخُلُونَ فِي عُمُومِهَا دُخُولًا أَوَّلِيًّا . وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعَلِيًّا أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ وَأَعْرَقُ فِي الصِّدْقِ وَأَكْمَلُ . وَلَكِنِّي أَشُمُّ مِنَ الرِّوَايَتَيْنِ رَائِحَةَ وَضْعِ النَّوَاصِبِ وَالرَّوَافِضِ . وَقِيلَ إِنَّ الْمُرَادَ بِـ (الصَّادِقِينَ) الْمُهَاجِرُونَ وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ احْتَجَّ بِالْآيَةِ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ . وَهَذَا الْقَوْلُ لَا وَجْهَ لَهُ وَالِاحْتِجَاجُ بِهِ لَا يَصِحُّ ، وَوَجَّهَهُ الْقَائِلُونَ بِهِ بِأَنَّهُ جَعَلَ الصَّادِقِينَ هُنَا هُمُ الصَّادِقِينَ فِي آيَةِ سُورَةِ الْحَشْرِ : (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ) إِلَى قَوْلِهِ - (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (59 : 8) وَمُقْتَضَاهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَصْفُ خَاصًّا بِالْمُهَاجِرِينَ حَيْثُ وُجِدَ فِي الْقُرْآنِ مُعَرَّفًا كَآيَةِ (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) - إِلَى قَوْلِهِ - (أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (49 : 15) وَقَوْلِهِ : (لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ) (33 : 8) - (لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ) (33 : 24) وَغَيْرِهِنَّ - وَهُوَ بَاطِلٌ وَلَمْ يَقُلْ بِهِ أَحَدٌ ، وَمَعَ هَذَا لَا يَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ اتِّبَاعِ الْأَنْصَارِ وَغَيْرِهِمْ لَهُمْ فِي الْإِمَامَةِ كَمَا قَالَ الطُّوفِيُّ .

أَخْرَجَ سَعْدُ بْنُ مَنْصُورٍ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَأَشْهَرُ رُوَاةِ التَّفْسِيرِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الشُّعَبِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – لَا يَصْلُحُ الْكَذِبُ فِي جِدٍّ وَلَا هَزْلٍ ، وَلَا يَعِدْ أَحَدُكُمْ صَبِيَّهُ شَيْئًا ثُمَّ لَا يُنْجِزُهُ ، اقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (9 : 119) فَهَلْ تَجِدُونَ لِأَحَدٍ رُخْصَةً فِي الْكَذِبِ ؟ وَأَخْرَجَهُ عَنْهُ الْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ ، وَالْبَيْهَقِيُّ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِلَفْظِ (إِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ مِنْهُ جِدٌّ وَلَا هَزْلٌ ، وَلَا يَعِدُ الرَّجُلُ ابْنَهُ ثُمَّ لَا يُنْجِزُ لَهُ ، إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ إِنَّهُ يُقَالُ لِلصَّادِقِ : صَدَقَ وَبَرَّ ، وَيُقَالُ لِلْكَاذِبِ : كَذَبَ وَفَجَرَ . وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا ، وَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا) وَأَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَغَيْرُهُمَا عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ – إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا – وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ) – إِلَى آخِرِ مَا تَقَدَّمَ فِيمَا قَبْلَهُ – وَالْأَحَادِيثُ فِي فَضِيلَةِ الصِّدْقِ وَرَذِيلَةِ الْكَذِبِ وَكَوْنِهَا مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ كَثِيرَةٌ

تَقَدَّمَ بَعْضُهَا ، وَفِي رِوَايَاتٍ عَدِيدَةٍ (إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَدْ يُطْبَعُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ إِلَّا الْكَذِبَ وَالْخِيَانَةَ) وَإِنَّهُ لَا رُخْصَةَ فِي الْكَذِبِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ مِنْ خَدِيعَةِ حَرْبٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ اثْنَيْنِ ، أَوْ رَجُلٍ يُحَدِّثُ امْرَأَتَهُ لِيُرْضِيَهَا - يَعْنِي فِي مِثْلِ التَّحَبُّبِ إِلَيْهَا بِوَصْفِ مَحَاسِنِهَا وَرِضَاهُ عَنْهَا ، لَا فِي مَصَالِحِ الدَّارِ وَالْعِيَالِ وَغَيْرِهَا - وَالرِّوَايَةُ فِي هَذَا عَلَى عِلَّاتِهَا تُقَيَّدُ بِحَدِيثِ (إِنَّ فِي الْمَعَارِيضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الْكَذِبِ ، وَفِي رِوَايَةٍ (مَا يُغْنِي الرَّجُلَ الْعَاقِلَ عَنِ الْكَذِبِ) رَوَى ابْنُ عَدِيٍّ الْأَوَّلَ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ وَالثَّانِي عَنْ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - .

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

هَاتَانِ الْآيَتَانِ فِي تَأْكِيدِ وُجُوبِ الْغَزْوِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَا فِيهِ مِنَ الْأَجْرِ الْعَظِيمِ ، وَحَظْرِ تَخَلُّفِ أَحَدٍ عَنْهُ إلَّا بِإِذْنِهِ ، بِمَا فِيهِ مِنْ تَفْضِيلِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى نَفْسِهِ .

(176/352)

(مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ) مَا كَانَ بِالَّذِي يَصِحُّ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ عَاصِمَةِ الْإِسْلَامِ وَمَقَرِّ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَا بِالَّذِي يَسْتَقِيمُ أَوْ يَحِلُّ لَهُمْ (وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ) كَمُزَيْنَةَ وَجُهَيْنَةَ وَأَشْجَعَ وَأَسْلَمَ وَغِفَارٍ (أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) إذَا خَرَجَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَا فَعَلَ بَعْضُهُمْ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ وَلَا فِي غَيْرِ هَذَا مِنْ أُمُورِ الْمِلَّةِ وَمَصَالِحِ الْأُمَّةِ (وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) أَيْ وَلَا أَنْ يُفَضِّلُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى نَفْسِهِ فَيَصُونُوهَا وَيَرْغَبُوا بِإِيثَارِ رَاحَتِهَا وَسَلَامَتِهَا عَنْ بَذْلِهَا فِيمَا يَبْذُلُ فِيهِ نَفْسَهُ الشَّرِيفَةَ الْقُدْسِيَّةَ

مِنِ احْتِمَالِ الْجَهْدِ وَالْمَشَقَّةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

يُقَالُ رَغِبَ فِي الشَّيْءِ إذَا أَحَبَّهُ وَآثَرَهُ ، وَرَغِبَ عَنْهُ : إذَا كَرِهَهُ وَأَعْرَضَ عَنْهُ ، وَقَدْ جَمَعَ هُنَا بَيْنَهُمَا بِهَذِهِ الْعِبَارَةِ الْمُؤَثِّرَةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْمُتَخَلِّفَ يُفَضِّلُ نَفْسَهُ وَيُؤْثِرُهَا عَلَى نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الَّتِي لَا يَكْمُلُ إيمَانُ أَحَدٍ حَتَّى يُحِبَّهُ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّهِ لِنَفْسِهِ ، وَهَذَا يَصِحُّ بَعْدَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُلِّ رَاغِبٍ عَنْ سُنَّتِهِ وَالتَّأَسِّي بِهِ ،

كَالْمَلَاحِدَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا يَجِبُ اتِّبَاعُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَالْمُبْتَدِعَةِ وَالْمُقَلِّدَةِ الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ بِدَعَهُمْ وَمَذَاهِبَهُمْ عَلَى سُنَّتِهِ .

(177/352)

قَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ – وَنِعْمَ مَا قَالَ : أُمِرُوا أَنْ يَصْحَبُوهُ عَلَى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ، وَأَنْ يُكَابِحُوا مَعَهُ الْأَهْوَالَ بِرَغْبَةٍ وَنَشَاطٍ وَاغْتِبَاطٍ ، وَأَنْ يُلَقُّوا أَنْفُسَهُمْ مِنَ الشَّدَائِدِ مَا تَلْقَاهُ نَفْسُهُ ، عِلْمًا بِأَنَّهَا أَعَزُّ نَفْسٍ عَلَى اللهِ وَأَكْرَمُهَا ; فَإِذَا تَعَرَّضَتْ مَعَ كَرَامَتِهَا وَعِزَّتِهَا لِلْخَوْضِ فِي شِدَّةٍ وَهَوْلٍ وَجَبَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْفُسِ أَنْ تَتَهَافَتَ فِيمَا تَعَرَّضَتْ لَهُ وَلَا يَكْتَرِثُ لَهَا أَصْحَابُهَا وَلَا يُقِيمُونَ لَهَا وَزْنًا ، وَتَكُونُ أَخَفَّ شَيْءٍ عَلَيْهِمْ وَأَهْوَنَهُ ، فَضْلًا عَنْ أَنْ يَرْبَئُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ مُتَابَعَتِهَا وَمُصَاحَبَتِهَا ، وَيَضِنُّوا بِهَا عَلَى مَا سَمَحَ بِنَفْسِهِ عَلَيْهِ . وَهَذَا نَهْيٌ بَلِيغٌ مَعَ تَقْبِيحٍ لِأَمْرِهِمْ ، وَتَوْبِيخٍ لَهُمْ عَلَيْهِ ، وَتَهْيِيجٍ لِمُتَابَعَتِهِ بِأَنَفَةٍ وَحَمِيَّةٍ ا هـ .

(178/352)

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ) أَيْ ذَلِكَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ النَّفْيُ مِنَ النَّهْيِ عَنِ التَّخَلُّفِ عَنْهُ ، وَوُجُوبِ الِاتِّبَاعِ لَهُ ، بِسَبَبِ أَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُهُمْ فِي جِهَادِهِمْ مِنْ أَذًى وَإِنْ قَلَّ ، وَمِنْ إِيذَاءٍ لِلْعَدُوِّ وَإِنْ صَغُرَ ، فَهُوَ عَمَلٌ صَالِحٌ لَهُمْ بِهِ أَكْبَرُ الْأَجْرِ ، فَلَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ لِقِلَّةِ الْمَاءِ - أَوْ نَصَبٌ لِبُعْدِ الشُّقَّةِ أَوْ قِلَّةِ الظَّهْرِ - أَوْ مَجَاعَةٍ لِقِلَّةِ الزَّادِ - فِي سَبِيلِ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَإِعْزَازِ دِينِهِ (وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ) وَطْؤُهُمْ إِيَّاهُ لِأَنَّهُ مِنْ دَارِهِمْ ، وَيَعُدُّونَ وَطْأَهُ اعْتِدَاءً عَلَيْهِمْ وَاسْتِهَانَةً بِقُوَّتِهِمْ ، فَيَغِيظُهُمْ أَنْ تَمَسَّهُ أَقْدَامُ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ حَوَافِرُ خُيُولِهِمْ وَأَخْفَافُ رَوَاحِلِهِمْ ، فَكَيْفَ إِذَا يَسَّرَ اللهُ فَتْحَهُ لَهُمْ (وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا) أَيْ وَلَا يَبْلُغُونَ مِنْ أَيِّ عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَاءِ اللهِ وَرَسُولِهِ شَيْئًا مِمَّا أَرَادُوا مِنْ جَرْحٍ أَوْ قَتْلٍ أَوْ أَسْرٍ أَوْ هَزِيمَةٍ أَوْ غَنِيمَةٍ (إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ) أَيْ كُتِبَ لَهُمْ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِمَّا ذُكِرَ عَمَلٌ صَالِحٌ مُرْضٍ لِلَّهِ تَعَالَى مَجْزِيٌّ عَلَيْهِ بِالثَّوَابِ الْعَظِيمِ ، فَمَا أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَعْمَالَ الصَّالِحَاتِ الَّتِي تَعُمُّ الْأُمُورَ الْعَارِضَةَ كَالْجُوعِ

(179/352)

وَالْعَطَشِ ، وَتَشْمَلُ كُلَّ حَرَكَةٍ مِنْ بَطْشَةِ يَدٍ أَوْ وَطْأَةِ قَدَمٍ ؟ (إِنَّ اللهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) هَذَا تَعْلِيلٌ لِهَذَا الْأَجْرِ الْعَظِيمِ يَدُلُّ عَلَى عُمُومِ الْحُكْمِ ، وَإِنْ كَانَ مِنَ الْمَعْلُومِ

بِالضَّرُورَةِ أَنَّ هَذَا الْجِهَادَ مَعَ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَعْظَمُ أَجْرًا ، وَأَنْفَسُ ذُخْرًا قَالَ قَتَادَةُ : إنَّ حُكْمَ الْآيَةِ خَاصٌّ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبِمَنْ جَاهَدَ مَعَهُ ، وَقَالَ الْأَوْزَاعِيُّ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُبَارَكِ وَغَيْرُهُمَا مِنْ عُلَمَاءِ التَّابِعِينَ : هَذِهِ الْآيَةُ لِلْمُسْلِمِينَ إلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ . وَهَذَا الْقَوْلُ أَصَحُّ ، عَلَى مَا لَا يَخْفَى مِنَ التَّفَاوُتِ فِي الْأَجْرِ ، فَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ إحْسَانٌ ، وَ (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إلَّا الْإِحْسَانُ) (55 : 60) ؟ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ .

(180/352)

(وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ) أَيْ كَذَلِكَ شَأْنُهُمْ فِيمَا يُنْفِقُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ صَغُرَ أَمْ كَبُرَ ، قَلَّ أَمْ كَثُرَ ، وَفِي كُلِّ وَادٍ يَقْطَعُونَهُ فِي سَيْرِهِمْ غَادِينَ أَوْ رَائِحِينَ (وَالْوَادِي : هُوَ مَسِيلُ الْمَاءِ فِي مُنْفَرَجَاتِ الْجِبَالِ وَأَغْوَارِ الْآكَامِ ، خَصَّهُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَشَقَّةِ) لَا يُتْرَكُ شَيْءٌ مِنْهُ أَوْ يُنْسَى بَلْ يُكْتَبُ لَهُمْ : (لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ) بِكِتَابَتِهِ فِي صُحُفِ أَعْمَالِهِمْ (أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَهُوَ الْجِهَادُ فَإِنَّهُ عِنْدَ وُجُوبِهِ وَفَرِيضَتِهِ بِالِاسْتِنْفَارِ لَهُ يَكُونُ أَحْسَنَ الْأَعْمَالِ ؛ إذْ يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ حِفْظُ الْإِيمَانِ ، وَمُلْكُ الْإِسْلَامِ ،

وَجَمِيعُ مَا يَتْبَعُهُمَا مِنْ فَضَائِلِ الْأَعْمَالِ ، يُقَالُ جَزَاهُ الْعَمَلَ وَجَزَاهُ بِهِ . كَمَا قَالَ : (ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) (53 : 41)

(181/352)

وَالنَّصُّ عَلَى جَزَائِهِمْ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يُنَافِي جَزَاءَهُمْ بِمَا دُونَهُ وَقَدْ قَالَ آنِفًا (إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) وَهُوَ فِيهِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ النَّصُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْعَمَلَ أَحْسَنُ أَعْمَالِهِمْ أَوْ مِنْ أَحْسَنِهَا لِأَنَّهُ جَمَعَ بَيْنَ الْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالْجِهَادِ بِالنَّفْسِ وَمَا قَبْلَهُ مِنَ الثَّانِي فَقَطْ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَحْسَنِ يَكُونُ أَحْسَنَ مِنْهُ عَلَى قَاعِدَةِ (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) (28 : 84) وَبَيَانُ ذَلِكَ بِقَاعِدَةِ (مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا) (6 : 160) وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ مَعْنَى الْجُمْلَةِ أَنَّهُ تَعَالَى يَجْزِيهِمْ بِكُلِّ عَمَلٍ مِمَّا ذُكِرَ أَحْسَنَ جَزَاءٍ عَلَى أَعْمَالِهِمُ الْحَسَنَةِ ، أَيْ فِي غَيْرِ الْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ ، بِأَنْ تَكُونَ النَّفَقَةُ الصَّغِيرَةُ فِيهِ كَالنَّفَقَةِ الْكَبِيرَةِ فِي غَيْرِهِ مِنَ الْمَبَرَّاتِ ، وَالْمَشَقَّةُ الْقَلِيلَةُ فِيهِ كَالْمَشَقَّةِ الْكَثِيرَةِ فِيمَا عَدَاهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ .

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

(182/352)

هَذِهِ الْآيَةُ مِنْ تَتِمَّةِ أَحْكَامِ الْجِهَادِ بِالْقِتَالِ ، مَعَ زِيَادَةِ حُكْمِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَهُوَ آلَةُ الْجِهَادِ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الدَّعْوَةِ إلَى الْإِيمَانِ وَإِقَامَةِ دَعَائِمِ الْإِسْلَامِ ، وَإِنَّمَا جِهَادُ السَّيْفِ حِمَايَةٌ وَسِيَاجٌ . وَسَبَبُهَا أَنَّ مَا وَرَدَ فِي فَضْلِ الْجِهَادِ وَثَوَابِهِ وَفِي ذَمِّ الْقَاعِدِينَ عَنْهُ وَكَوْنِهِ مِنْ شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ قَوَّى رَغْبَةَ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِ حَتَّى كَانُوا إذَا أَرَادَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إرْسَالَ سَرِيَّةٍ لِلِقَاءِ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ وَإِنْ قَلُّوا يَنْتَدِبُ لَهَا جَمِيعَ الْمُؤْمِنِينَ وَيَتَسَابَقُونَ إلَى الْخُرُوجِ فِيهَا ، وَيَدَعُونَ الرَّسُولَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحْدَهُ أَوْ مَعَ نَفَرٍ قَلِيلٍ كَمَا وَرَدَ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ هَذَا فِي النَّفِيرِ الْعَامِّ إذَا وُجِدَ سَبَبُهُ بِقَدَرِ الْحَاجَةِ لَا فِي كُلِّ اسْتِنْفَارٍ لِمُقَاوَمَةِ الْكُفَّارِ ، عَلَى أَنَّ النَّفَرَ الْعَامَّ قَدْ يَتَعَذَّرُ أَوْ تَكْثُرُ فِيهِ الْأَعْذَارُ ، وَقِيلَ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَاجِبًا عَلَى عُمُومِهِ إلَّا فِي عَهْدِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَوْ عَلَى الْأَنْصَارِ بِمُقْتَضَى مُبَايَعَتِهِمْ لَهُ (رَاجِعْ ص 271 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 52.62 ﴾

(183/352)

وقال ابن عاشور :

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾

عطف على جملة ﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ ، وهو انتقال من عداد الكُلف التي تصدر عنهم بلا قصد في سبيل الله إلى بعض الكلف التي لا تخلو عن استشعار من تحِل بهم بأنهم لقُوها في سبيل الله ، فالنفقة في سبيل الله لا تكون إلا عن قصد يتذكر به المنفق أنه يسعى إلى ما هو وسيلةٍ لنصر الدين ، والنفقةُ الكبيرة أدخل في القصد ، فلذلك نبه عليها وعلى النفقة الصغيرة ليعلم بذكر الكبيرة حكم النفقة الصغيرة لأن العلة في الكبيرة أظهر وكان هذا الإطناب في عد مناقبهم في الغزو لتصوير ما بذلوه في سبيل الله .

وقطع الوادي : هو اجتيازه .

وحقيقة القطع : تفريق أجزاء الجسم .

وأطلق على الاجْتياز على وجه الاستعارة .

والوادي : المنفرج يكون بين جبال أو إكام فيكون منفذاً لسيول المياه ، ولذلك اشتق من ودى بمعنى سال .

وقطع الوادي أثناءَ السير من شأنه أن يتذكر السائرون بسببه أنهم سائرون إلى غرض مَّا لأنه يجدد حالة في السير لم تكن من قبل .

ومن أجل ذلك نُدب الحجيجُ إلى تجديد التلبية عندما يصعدون شرفاً أو ينزلون وادياً أو

يلاقون رفاقاً .

والضمير في ﴿ كُتب ﴾ عائد إلى ﴿ عمل صالح ﴾ [التوبة : 120] .

ولام التعليل متعلقة بـ (كتب) ، أي كتب الله لهم صالحاً ليجزيهم عن أحسن أعمالهم .

ولما كان هذا جزاء عن عملهم المذكور علم أن عملهم هذا من أحسن أعمالهم .

وانتصب ﴿ أحسنَ ﴾ على نزع الخافض ، أي عن أحسنِ ما كانوا يعملون أو بأحسن ما كانوا يعملون كقوله تعالى : ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدَهم من فضله ﴾ [النور : 38] وأما قوله : ﴿ ليجزيك أجر ما سقيت لنا ﴾ [القصص : 25] فالظاهر أنه من غير هذا القبيل وأن (أجر) مفعول مطلق .

وفي ذكر ﴿ كانوا ﴾ والإتيان بخبرها مضارعاً إفادةُ أن مثل هذا العمل كان ديدنهم .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(184/352)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ﴾

كل شيء – إذن – محسوب ، فحتى هؤلاء الذين أنفقوا ، فالله سبحانه يعلم ماذا أنفقوا

وسيجازيهم عليه ، وهؤلاء الذين ساروا الطريق الطويل وقطعوا الوديان ليلحقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في غزواته ، فالله سبحانه يكتب لهم الخير . وبعد ذلك تدفق المسلمون على تنفيذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى كادت المدينة تفرغ من المسلمين ؛ ليلحقوا بالسرايا التي يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(185/352)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (121) ﴾

والوادي : قال الزمخشري : " الوادي : كل منفرَجٍ من جبال وآكام يكون مَنْفذاً للسيل ، وهو في الأصل فاعِل مِنْ ودى إذا سال ، ومنه الوَدِيّ ، وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض " . وجُمع على أودية وليس بقياس ، كان قياسُه الأَوادي كأَواصل جمع واصل ، والأصل : وَوَاصِل ، قُلبت الواو الأولى همزة . قال النحاس : " ولا أعرف فاعلاً وأفْعِلة

سواه " ، وقد استُدْرِك هذا عليه فزادوا : نادٍ وأندية وأنشدوا :

2555 وفيهم مقاماتٌ حِسانٌ وجوهُهمْ . . . وأنديةٌ ينتابها القولُ والفعلُ

والنادي : المجلس . وقال الفراء : إنه يُجمع على أَوْداء كصاحب وأصحاب وأنشد لجرير :

2556 عَرَفْتُ ببُرْقَةِ الأَوْداءِ رَسْماً . . . مُحيلاً طال عهدُكَ مِنْ رسومِ

قلت : وقد زاد الراغب في فاعل وأَفْعِلة : ناجٍ وأَنْجِيَة ، فقد كَمُلَتْ ثلاثةُ ألفاظ في فاعل وأَفْعِلة ، ويقال : وَدَاه ، أي : أهلكه كأنهم تصوَّروا منه إسالة الدم ، وسُمِّيت الدِّيَةُ دِيَةً لأنها في مقابلة إسالة الدم ، ومنه الوَدْيُ وهو ماءُ الفحل عند المداعبة وماءٌ يخرج عند البول ، والوَدِيُّ بكسر الدال والتشديد في الياء : صغار النحل .

وقوله : ﴿ ذلك بِأَنَّهُمْ ﴾ [التوبة : 120] ، مبتدأ وخبر ، والإشارة به إلى ما تضمَّنه انتفاءُ التخلُّف مِنْ وجوب الخروج معه .

(186/352)

وقوله : ﴿ إِلاَّ كُتِبَ ﴾ ، هذه الجملةُ في محل نصب على الحال مِنْ " ظَمَأ " وما عُطِف عليه ، أي : لا يصيبهم ظمأٌ إلا مكتوباً . وأَفْرد الضمير في " به " وإن تقدَّمه أشياء إجراء له

مُجْرى اسمِ الإِشارة ، أي : كُتب لهم بذلك عَمَلٌ صالح . والمضمرُ يُحتمل أن يعودَ على العمل الصالح المتقدم ، وأن يعودَ على أحد المصدرين المفهومين في " ينفقون " و " يقطعون " ، أي : إلا كُتِب لهم بالإِنفاقِ أو القَطْعِ .

وقوله : ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ﴾ متعلقٌ ب "كُتِب" . وفي هذه الجملة من البلاغةِ والفصاحةِ ما لا يخفى على متأمِّله لا سيما لمن تدرَّب بما تقدَّم في هذا الموضوع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 138.139 ﴾

(187/352)

قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما تواترت النواهي للمتخلفين وتواصلت الزواجر وتعاظم التبكيت والتهديد ، طارت القلوب وأشفقت النفوس ، فكان ذلك مظنة أن لا يتخلف بعدها أحد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعمن يقوم مقامه فيتمكن حينئذ الأعداء من الأموال والذراري

والعيال ، فأتبع ذلك قوله تعالى : ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ أي الذين حثهم على النَّفر الرسوخ في الإيمان ﴿ لينفروا كآفة ﴾ أي جميعاً فإن ذلك يخل بكثير من الأغراض الصالحة ، وهو تعليم لما هو الأنسب بالدين والدنيا من انقسام الناس قسمين : قسماً للجهاد ، وقسماً للنفقة وحفظ الأموال والأولاد ، كل ذلك بأمره عليه الصلاة والسلام والعمل بما يرضاه ، ولا يخفى ذلك على المخلص ، ولعل التعبير بالفعل الماضي في قوله مسبباً عما قبله : ﴿ فلولا نفر ﴾ ليفهم تبكيت من قصد تبكيته من المتخلفين في جميع هذه السورة بأنه كان عليهم أن ينفر مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ﴿ من كل فرقة ﴾ أي ناس كثير يسهل افتراقهم ، قالوا : وهو اسم يقع على ثلاثة ﴿ منهم طائفة ﴾ أي ناس لا ينفكون حافين بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلزمونه ، قيل : والطائفة واحد واثنان ، فالآية حجة على قبول خبر الواحد ووجوب العمل به ، وكأنه عبر به للإشارة إلى الحث على كثرة النافرين كما هو أصل مدلولها الأغلب فيه ﴿ ليتفقهوا ﴾ أي ليكلف النافرون أنفسهم الفهم منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً فشيئاً ﴿ في الدين ﴾ أي بما يسمعونه من أقواله ويرونه من جميل أفعاله ويصل إلى قلوبهم من مستنير أحواله ، وهذا غاية الشرف للعلم حيث جعل غاية الملازمة له ـ صلى الله عليه وسلم ـ للجهاد ، هذا إن كان هو ـ صلى الله عليه وسلم ـ النافر في تلك الغزاة ، وإن كان غيره كان ضمير ﴿ يتفقهوا ﴾ للباقين معه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ولما كان من العلم بشارة ومنه نذارة ، وكان الإنسان – لما فيه من النقصان – أحوج شيء إلى النذارة ، خصها بالذكر فقال عطفاً على نحو : ليخافوا في أنفسهم فيعملوا في خلاصها : ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ أي يحذروهم ما أمامهم من المخاوف إن فرطوا في جانب التقوى ﴿ إذا رجعوا إليهم ﴾ أي ما أنذرهموه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويبشروهم بما بشرهم به ؛ ثم بين غاية العلم مشيراً إلى أن من جعل له غاية غيرها من ترفع أو افتخار فقد ضل ضلالاً كبيراً ، فقال موجباً لقبول خبر من بلغهم : ﴿ لعلهم ﴾ أي كلهم ﴿ يحذرون ﴾ أي ليكون حالهم حال أهل الخوف من الله بما حصلوا من الفقه لأنه أصل كل خير ، به تنجلي القلوب فتقبل على الخير وتعرض عن الشر ، فإن الحذر تجنب الشيء لما فيه من الضرر ، والمراد بالفقه هنا حفظ الكتاب والسنة وفهم معانيهما من الأصول والفروع والآداب والفضائل ، وقال الرماني : الفقه فهم موجبات المعاني المضمنة بها من غير تصريح بالدلالة عليها . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 402 . 403 ﴾

(189/352)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه يمكن أن يقال : هذه الآية من بقية أحكام الجهاد ، ويمكن أن يقال : إنها كلام مبتدأ لا تعلق لها بالجهاد .

أما الاحتمال الأول : نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه عليه السلام كان إذا خرج إلى الغزو لم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عُذر .

فلما بالغ الله سبحانه في عيوب المنافقين في غزوة تبوك قال المؤمنون : والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع الرسول عليه السلام ولا عن سرية .

فلما قدم الرسول عليه السلام المدينة ، وأرسل السرايا إلى الكفار ، نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوه وحده بالمدينة ، فنزلت هذه الآية .

والمعنى : أنه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بكليتهم إلى الغزو والجهاد ، بل يجب أن يصيروا طائفتين .

تبقى طائفة في خدمة الرسول ، وتنفر طائفة أخرى إلى الغزو ، وذلك لأن الإسلام في ذلك

الوقت كان محتاجاً إلى الغزو والجهاد وقهر الكفار ، وأيضاً كانت التكاليف تحدث والشرائع تنزل ، وكان بالمسلمين حاجة إلى من يكون مقيماً بحضرة الرسول عليه السلام فيتعلم تلك الشرائع ، ويحفظ تلك التكاليف ويبلغها إلى الغائبين .

فثبت أن في ذلك الوقت كان الواجب انقسام أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قسمين ، أحد القسمين ينفرون إلى الغزو والجهاد ، والثاني : يكونون مقيمين بحضرة الرسول ، فالطائفة النافرة إلى الغزو يكونون نائبين عن المقيمين في الغزو ، والطائفة المقيمة يكونون نائبين عن النافرين ، في التفقه ، وبهذا الطريق يتم أمر الدين بهاتين الطائفتين .

(190/352)

إذا عرفت هذا فنقول على هذا القول احتمالان : أحدهما : أن تكون الطائفة المقيمة هم الذين يتفقهون في الدين بسبب أنهم لما لازموا خدمة الرسول – عليه الصلاة والسلام – وشاهدوا الوحي والتنزيل ، فكلما نزل تكليف وحدث شرع عرفوه وضبطوه ، فإذا رجعت الطائفة النافرة من الغزو إليهم ، فالطائفة المقيمة ينذرونهم ما تعلموه من التكاليف والشرائع ، وبهذا التقرير فلا بد في الآية من إضمار ، والتقدير : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، وأقامت طائفة ليتفقه المقيمون في الدين ولينذروا قومهم ، يعني النافرين إلى الغزو إذا

رجعوا إليهم لعلهم يحذرون معاصي الله تعالى عند ذلك التعلم .

والاحتمال الثاني : هو أن يقال : التفقه صفة للطائفة النافرة وهذا قول الحسن .

ومعنى الآية فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة حتى تصير هذه الطائفة النافرة فقهاء في الدين ، وذلك التفقه المراد منه أنهم يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين ، وأن العدد القليل منهم يغلبون العالم من المشركين ، فحينئذ يعلمون أن ذلك بسبب أن الله تعالى خصهم بالنصرة والتأييد وأنه تعالى يريد إعلاء دين محمد عليه السلام وتقوية شريعته ، فإذا رجعوا من ذلك النفر إلى قومهم من الكفار أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لعلهم يحذرون ، فيتركوا الكفر والشك والنفاق ، فهذا القول أيضاً محتمل ، وطعن القاضي في هذا القول : قال لأن هذا الحس لا يعد فقهاً في الدين ، ويمكن أن يجاب عنه بأنهم إذا شاهدوا أن القوم القليل الذين ليس لهم سلاح ولا زاد يغلبون الجمع العظيم من الكفار الذين كثر زادهم وسلاحهم ، وقويت شوكتهم ، فحينئذ انتبهوا لما هو المقصود وهو أن هذا الأمر من الله تعالى وليس من البشر .

إذ لو كان من البشر لما غلب القليل الكثير ، ولما بقي هذا الدين في التزايد والتصاعد كل يوم ، فالتنبه لفهم هذه الدقائق واللطائف لا شك أنه تفقه .

(191/352)

وأما الاحتمال الثالث : وهو أن يقال هذه الآية ليست من بقايا أحكام الجهاد ، بل هو حكم مبتدأ مستقل بنفسه ، وتقريره أن يقال إنه تعالى لما بين في هذه السورة أمر الهجرة ، ثم أمر الجهاد ، وهما عبادتان بالسفر ، بين أيضاً عبادة التفقه من جهة الرسول عليه السلام وله تعلق بالسفر .

فقال : وما كان المؤمنون لينفروا كافة إلى حضرة الرسول ليتفقهوا في الدين بل ذلك غير واجب وغير جائز ، وليس حاله كحال الجهاد معه الذي يجب أن يخرج فيه كل من لا عذر له .

ثم قال : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ ﴾ يعني من الفرق الساكنين في البلاد ، طائفة إلى حضرة الرسول ليتفقهوا في ا لدين ، وليعرفوا الحلال والحرام ، ويعودوا إلى أوطانهم ، فينذروا ويحذروا قومهم لكي يرجعوا عن كفرهم ، وعلى هذا التقدير يكون المراد وجوب الخروج إلى حضرة الرسول للتفقه والتعلم .

فإن قيل : أفتدل الآية على وجوب الخروج للتفقه في كل زمان ؟

قلنا : متى عجز عن التفقه إلا بالسفر وجب عليه السفر ، وفي زمان الرسول – عليه السلام – كان الأمر كذلك ، لأن الشريعة ما كانت مستقرة ، بل كان يحدث كل يوم تكليف جديد وشرع حادث .

أما في زماننا فقد صارت الشريعة مستقرة ، فإذا أمكنه تحصيل العلم في الوطن لم يكن السفر واجباً ، إلا أنه لما كان لفظ الآية دليلاً على السفر ، لا جرمَ رأينا أن العلم المبارك المنتفع به لا يحصل إلا في السفر .

المسألة الثانية :

في تفسير الألفاظ المذكورة في هذه الآية "لولا" إذا دخل على الفعل كان بمعنى التحضيض مثل هلا ، وإنما جاز أن يكون لولا بمعنى هلا ، لأن هلا كلمتان هل وهو استفهام وعرض ، لأنك إذا قلت للرجل هل تأكل ؟ هل تدخل ؟ فكأنك عرضت ذلك عليه ، و "لا" وهو جحد ، فهلا مركب من أمرين : العرض ، والجحد .

فإذا قلت : هلا فعلت كذا ؟ فكأنك قلت : هل فعلت .

(192/352)

ثم قلت معه : "لا" أي ما فعلته ، ففيه تنبيه على وجوب الفعل ، وتنبيه على أنه حصل الإخلال بهذا الواجب ، وهكذا الكلام في "لولا" لأنك إذا قلت : لولا دخلت علي ، ولولا أكلت عندي .

فمعناه أيضاً عرض وإخبار عن سرورك به ، لو فعل ، وهكذا الكلام في "لوما" ومنه قوله :

﴿ لومَا تَأْتِينَا بالملئكة ﴾ [الحجر : 7] فثبت أن لولا وهلا ولوما ألفاظ متقاربة ، والمقصود من الكل الترغيب والتحضيض فقوله : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ أي فهلا فعلوا ذلك .

المسألة الثالثة :

هذه الآية حجة قوية لمن يرى أن خبر الواحد حجة ، وقد أطنبنا في تقريره في كتاب "المحصول من الأصول" ، والذي نقوله ههنا أن كل ثلاثة ؛ فرقة .

وقد أوجب الله تعالى أن يخرج من كل فرقة طائفة ، والخارج من الثلاثة يكون اثنين أو واحداً ، فوجب أن يكون الطائفة إما اثنين وإما واحداً ، ثم إنه تعالى أوجب العمل بأخبارهم لأن قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ عبارة عن أخبارهم .

وقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ إيجاب على قومهم أن يعلموا بأخبارهم ، وذلك يقتضي أن يكون خبر الواحد أو الاثنين حجة في الشرع .

قال القاضي : هذه الآية لا تدل على وجوب العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة قد تكون جماعة يقع بخبرها الحجة ، ولأن قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ يصح وإن لم يجب القبول كما أن الشاهد الواحد يلزمه الشهادة ، وإن لم يلزم القبول ، ولأن الإنذار يتضمن التخويف ، وهذا القدر لا يقتضي وجوب العمل به .

والجواب : أما قوله : ﴿ الطائفة ﴾ قد تكون جماعة ، فجوابه : أنا بينا أن كل ثلاثة فرقة ،

فلما أوجب الله تعالى أن يخرج من كل فرقة طائفة لزم كون الطائفة ، إما اثنين أو واحداً ، وذلك يبطل كون الطائفة جماعة يحصل العلم بخبرهم .

فإن قالوا : إنه تعالى أوجب العمل بقول أولئك الطوائف ولعلهم بلغوا في الكثرة إلى حيث يحصل العلم بقولهم .

(193/352)

قلنا : إنه تعالى أوجب على كل طائفة أن يرجعوا إلى قومهم وذلك يقتضي رجوع كل طائفة إلى قوم خاص ، ثم إنه تعالى أوجب العلم بقول تلك الطائفة وذلك يفيد المطلوب .

وأما قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ يصح وإن لم يجب القبول .

فنقول إنا لا نتمسك في وجوب العمل بخبر الواحد بقوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ ﴾ بل بقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ترغيب منه تعالى في الحذر ، بناء على أن ذلك الإنذار يقتضي إيجاب العمل على وفق ذلك الإنذار ، وبهذا الجواب خرج الجواب عن سؤاله الثالث وهو قوله : الإنذار يتضمن التخويف ، وهذا القدر لا يقتضي وجوب العمل به .

المسألة الرابعة :

دلت الآية على أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلى الحق ،

وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أنه تعالى أمرهم بالتفقه في الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بالدين الحق ، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية ويرغبون في قبول الدين .

فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ، ومن عدل عنه وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 179 . 181 ﴾

(194/352)

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾

رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ نَسَخَ قَوْلَهُ : ﴿ فَانْفِرُوا ثَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ وَقَوْلُهُ : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ فَقَالَ تَعَالَى : مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَنْفِرُوا فِي السَّرَايَا وَيَتْرُكُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ تَبْقَى بَقِيَّةٌ لِتَتَفَقَّهَ ثُمَّ تُنْذِرَ النَّافِرَةَ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ وَقَالَ الْحَسَنُ

: " لِتَتَفَقَّهَ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ ثُمَّ تُنْذِرَ إذَا رَجَعَتْ إلَى قَوْمِهَا الْمُتَخَلِّفَةَ " وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَشْبَهُ بِظَاهِرِ الْآيَةِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، فَظَاهِرُ الْكَلَامِ يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ هِيَ الَّتِي تَتَفَقَّهُ وَتُنْذِرُ قَوْمَهَا إذَا رَجَعَتْ إلَيْهِمْ .

(195/352)

وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ الْفِرْقَةُ الَّتِي نَفَرَتْ مِنْهَا الطَّائِفَةُ هِيَ الَّتِي تَتَفَقَّهُ وَتُنْذِرُ الطَّائِفَةَ إذَا رَجَعَتْ إلَيْهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ حُكْمَ الْعَطْفِ أَنْ يَتَعَلَّقَ بِمَا يَلِيهِ دُونَ مَا يَتَقَدَّمُهُ ، فَوَجَبَ عَلَى هَذَا أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ أَنْ تَكُونَ الطَّائِفَةُ هِيَ الَّتِي تَتَفَقَّهُ وَتُنْذِرُ ، وَلَا يَكُونُ مَعْنَاهُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ تَتَفَقَّهُ فِي الدِّينِ تَنْفِرُ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي إزَالَةَ تَرْتِيبِ الْكَلَامِ عَنْ ظَاهِرِهِ وَإِثْبَاتَ التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ فِيهِ .

وَالْوَجْهُ الثَّانِي أَنَّ قَوْلَهُ : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ الطَّائِفَةُ أَوْلَى مِنْهُ بِالْفِرْقَةِ النَّافِرَةِ مِنْهَا الطَّائِفَةُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ نَفْرَ الطَّائِفَةِ لِلتَّفَقُّهِ مَعْنًى مَفْهُومٌ يَقَعُ النَّفْرُ مِنْ أَجْلِهِ ، وَالْفِرْقَةُ الَّتِي مِنْهَا الطَّائِفَةُ لَيْسَ تَفَقُّهُهَا لِأَجْلِ خُرُوجِ الطَّائِفَةِ مِنْهَا ؛ لِأَنَّهَا إنَّمَا تَتَفَقَّهُ بِمُشَاهَدَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلُزُومِ حَضْرَتِهِ لَا لِأَنَّ الطَّائِفَةَ نَفَرَتْ مِنْهَا ،

فَحَمْلُ الْكَلَامِ عَلَى ذَلِكَ يُبْطِلُ فَائِدَةَ قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ ، فَثَبَتَ أَنَّ الَّتِي تَتَفَقَّهُ هِيَ الطَّائِفَةُ النَّافِرَةُ مِنْ الْفِرْقَةِ الْمُقِيمَةِ فِي بَلَدِهَا وَتُنْذِرُ قَوْمَهَا إذَا رَجَعَتْ إلَيْهَا .

(196/352)

وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلَالَةٌ عَلَى وُجُوبِ طَلَبِ الْعِلْمِ وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَرْضٌ عَلَى الْكِفَايَةِ ، لِمَا تَضَمَّنَتْ مِنْ الْأَمْرِ بِنَفْرِ الطَّائِفَةِ مِنْ الْفِرْقَةِ لِلتَّفَقُّهِ ، وَأَمْرِ الْبَاقِينَ بِالْقُعُودِ لِقَوْلِهِ : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾ وَقَدْ رَوَى زِيَادُ بْنُ مَيْمُونٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ﴿ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ﴾ ، وَهَذَا عِنْدَنَا يَنْصَرِفُ عَلَى مَعْنَيَيْنِ : أَحَدُهُمَا : طَلَبُ الْعِلْمِ فِيمَا يُبْتَلَى بِهِ الْإِنْسَانُ مِنْ أُمُورِ دِينِهِ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَهُ ، مِثْلُ مَنْ لَا يَعْرِفُ حُدُودَ الصَّلَاةِ وَفُرُوضَهَا وَحُضُورَ وَقْتِهَا فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَهَا ، وَمِثْلُ مَنْ مَلَكَ مِائَتَيْ دِرْهَمٍ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِيهَا ، وَكَذَلِكَ الصَّوْمُ ، وَالْحَجُّ وَسَائِرُ الْفُرُوضِ .

وَالْمَعْنَى الْآخَرُ : أَنَّهُ فَرْضٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، إلَّا أَنَّهُ عَلَى الْكِفَايَةِ إذَا قَامَ بِهِ بَعْضُهُمْ سَقَطَ عَنْ الْبَاقِينَ .

(197/352)

وَفِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى لُزُومِ خَبَرِ الْوَاحِدِ فِي أُمُورِ الدِّيَانَاتِ الَّتِي لَا تَلْزَمُ الْكَافَّةَ وَلَا تَعُمُّ الْحَاجَةُ إلَيْهَا ، وَذَلِكَ ؛ لِأَنَّ الطَّائِفَةَ لَمَّا كَانَتْ مَأْمُورَةً بِالْإِنْذَارِ انْتَظَمَ فَحْوَاهُ الدَّلَالَةَ عَلَيْهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : أَنَّ الْإِنْذَارَ يَقْتَضِي فِعْلَ الْمَأْمُورِ بِهِ وَإِلَّا لَمْ يَكُنْ إنْذَارًا وَالثَّانِي : أَمْرُهُ إيَّانَا بِالْحَذَرِ عِنْدَ إنْذَارِ الطَّائِفَةِ ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ مَعْنَاهُ : لِيَحْذَرُوا ، وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ لُزُومَ الْعَمَلِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ ؛ لِأَنَّ الطَّائِفَةَ اسْمٌ يَقَعُ عَلَى الْوَاحِدِ .

(198/352)

وَقَدْ رُوِيَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أَنَّهُ أَرَادَ وَاحِدًا ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا ﴾ وَلَا خِلَافَ أَنَّ الِاثْنَيْنِ إذَا اقْتَتَلَا كَانَا مُرَادَيْنِ بِحُكْمِ الْآيَةِ وَلِأَنَّ الطَّائِفَةَ فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِك الْبَعْضُ ، وَالْقِطْعَةُ مِنْ الشَّيْءِ ، وَذَلِكَ مَوْجُودٌ فِي الْوَاحِدِ ، فَكَانَ قَوْلُهُ : ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ بِمَنْزِلَتِهِ لَوْ قَالَ بَعْضُهَا ، أَوْ شَيْءٌ مِنْهَا ، فَدَلَالَةُ الْآيَةِ ظَاهِرَةٌ فِي وُجُوبِ قَبُولِ الْخَبَرِ الْمُقَصِّرِ عَنْ إيجَابِ الْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ التَّأْوِيلُ مَا رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ الطَّائِفَةَ النَّافِرَةَ إنَّمَا تَنْفِرُ مِنْ الْمَدِينَةِ وَالَّتِي تَتَفَقَّهُ إنَّمَا هِيَ الْقَاعِدَةُ بِحَضْرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَلَالَتُهَا أَيْضًا قَائِمَةٌ فِي لُزُومِ قَبُولِ خَبَرِ

الْوَاحِدِ ؛ لِأَنَّ النَّافِرَةَ إذَا رَجَعَتْ أَنْذَرَتْهَا الَّتِي لَمْ تَنْفِرْ وَأَخْبَرَتْهُ بِمَا نَزَلَ مِنْ الْأَحْكَامِ وَهِيَ تَدُلُّ أَيْضًا عَلَى لُزُومِ قَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ بِالْمَدِينَةِ مَعَ كَوْنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا ، لِإِيجَابِهَا الْحَذَرَ عَلَى السَّامِعِينَ بِنِذَارَةِ الْقَاعِدِينَ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(199/352)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي سَبَبِ نُزُولِهَا : وَفِيهَا أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ جِمَاعُهَا أَرْبَعَةٌ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ أَرْسَلَهُمْ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُعَلِّمُوا النَّاسَ الْقُرْآنَ وَالْإِسْلَامَ ، فَلَمَّا نَزَلَ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ رَجَعَ أُولَئِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عُذْرَهُمْ ؛ قَالَهُ مُجَاهِدٌ .

وَقَالَ : هَلَّا جَاءَ بَعْضُهُمْ وَبَقِيَ عَلَى التَّعْلِيمِ الْبَعْضُ .

الثَّانِي : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : مَعْنَاهُ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا ، وَيَتْرُكُوا نَبِيَّهُمْ ، وَلَكِنْ يَخْرُجُ

بَعْضُهُمْ ، وَيَبْقَى الْبَعْضُ فِيمَا يَنْزِلُ مِنْ الْقُرْآنِ ، وَيَجْرِي مِنْ الْعِلْمِ وَالْأَحْكَامِ ، يُعَلِّمُهُ الْمُتَخَلِّفَ لِلسَّارِي عِنْدَ رُجُوعِهِ ، وَقَالَهُ قَتَادَةُ .

(200/352)

الثَّالِثُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا : إنَّهَا نَزَلَتْ فِي الْجِهَادِ ، وَلَكِنْ لَمَّا دَعَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مُضَرَ بِالسِّنِينَ أَجْدَبَتْ بِلَادُهُمْ ، فَكَانَتْ الْقَبِيلَةُ مِنْهُمْ تُقْبِلُ بِأَسْرِهَا حَتَّى يَحُلُّوا بِالْمَدِينَةِ مِنْ الْجَهْدِ ، وَيَعْتَلُّوا بِالْإِسْلَامِ وَهُمْ كَاذِبُونَ ، فَضَيَّقُوا عَلَى أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَجْهَدُوهُمْ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ يُخْبِرُ رَسُولَهُ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمُؤْمِنِينَ ، فَرَدَّهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَى عَشَائِرِهِمْ ، وَحَذَّرَ قَوْمَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا فِعْلَهُمْ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ .

الرَّابِعُ : رُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ : نَسَخَتْهَا : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِي تَحْرِيرِ الْأَقْوَالِ : أَمَّا نَسْخُ بَعْضِ هَذِهِ لِبَعْضٍ فَيَفْتَقِرُ إلَى مَعْرِفَةِ التَّارِيخِ فِيهَا .

وَأَمَّا الظَّاهِرُ فَنَسْخُ الِاسْتِنْفَارِ الْعَامِّ ؛ لِأَنَّهُ الطَّارِئُ ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَغْزُو فِي فِئَامٍ مِنْ النَّاسِ ، وَلَمْ يَسْتَوْفِ قَطُّ جَمِيعَ النَّاسِ ، إلَّا فِي غَزْوَةِ الْعُسْرَةِ .

وَقَدْ قِيلَ : إنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ الْقَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ الْخُرُوجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ لَا يَلْزَمُ الْأَعْيَانَ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَلَى الْكِفَايَةِ .

قَالَ الْقَاضِي : إنَّمَا يَقْتَضِي ظَاهِرُ هَذِهِ الْآيَةِ الْحَثَّ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ وَالنَّدْبَ إلَيْهِ دُونَ الْإِلْزَامِ وَالْوُجُوبِ ، وَاسْتِحْبَابَ الرِّحْلَةِ فِيهِ وَفَضْلَهَا .

(201/352)

فَأَمَّا الْوُجُوبُ فَلَيْسَ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ ؛ وَإِنَّمَا لَزِمَ طَلَبُ الْعِلْمِ بِأَدِلَّتِهِ ؛ فَأَمَّا مَعْرِفَةُ اللَّهِ فَبِأَوَامِرِ الْقُرْآنِ وَإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ .

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الرَّسُولِ فَلِوُجُوبِ الْأَمْرِ بِالتَّصْدِيقِ بِهِ ، وَلَا يَصِحُّ التَّصْدِيقُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ .

وَأَمَّا مَعْرِفَةُ الْوَظَائِفِ فَلِأَنَّ مَا ثَبَتَ وُجُوبُهُ ثَبَتَ وُجُوبُ الْعِلْمِ بِهِ لِاسْتِحَالَةِ أَدَائِهَا إلَّا بِعِلْمٍ ، ثُمَّ يَنْشَأُ عَلَى هَذَا أَنَّ الْمَزِيدَ عَلَى الْوَظَائِفِ مِمَّا فِيهِ الْقِيَامُ بِوَظَائِفِ الشَّرِيعَةِ كَتَحْصِينِ الْحُقُوقِ وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ ، وَالْفَصْلِ بَيْنَ الْخُصُومِ وَنَحْوِهِ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ ؛ إذْ لَا يَصِحُّ أَنْ يَعْلَمَهُ جَمِيعُ النَّاسِ ، فَتَضِيعَ أَحْوَالُهُمْ وَأَحْوَالُ سِوَاهُمْ ، وَيَنْقُصَ أَوْ يَبْطُلَ مَعَاشُهُمْ ، فَتَعَيَّنَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ أَنْ يَقُومَ بِهِ الْبَعْضُ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينٍ ، وَذَلِكَ بِحَسَبِ مَا يُيَسِّرُ اللَّهُ الْعِبَادَ لَهُ ، وَيُقَسِّمُهُ بَيْنَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَحِكْمَتِهِ بِسَابِقِ قُدْرَتِهِ وَكَلِمَتِهِ ، وَيَأْتِي تَحْقِيقُهُ فِي مَوْضِعِهِ إنْ شَاءَ اللَّهُ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : الطَّائِفَةُ : فِي اللُّغَةِ : الْجَمَاعَةُ .

قِيلَ : وَيَنْطَلِقُ عَلَى الْوَاحِدِ عَلَى مَعْنَى نَفْسِ طَائِفَةٍ .

وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ وَأَشْهَرُ ، فَإِنَّ الْهَاءَ فِي مِثْلِ هَذَا إنَّمَا هِيَ لِلْكَثْرَةِ ، كَمَا يُقَالُ رَاوِيَةٌ ، وَإِنْ كَانَ يَأْتِي بِغَيْرِهِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُرَادَ هَاهُنَا جَمَاعَةٌ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : عَقْلًا وَالْآخَرُ لُغَةً : أَمَّا الْعَقْلُ : فَلِأَنَّ تَحْصِيلَ الْعِلْمِ لَا يَتَحَصَّلُ بِوَاحِدٍ فِي الْغَالِبِ .

(202/352)

وَأَمَّا اللُّغَةُ : فَلِقَوْلِهِ : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا ﴾ ﴿ وَلِيُنْذِرُوا ﴾ ؛ فَجَاءَ بِضَمِيرِ الْجَمَاعَةِ .

وَالْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ ، وَالشَّيْخُ أَبُو الْحَسَنِ قَبْلَهُ ، يَرَوْنَ أَنَّ الطَّائِفَةَ هَاهُنَا وَاحِدٌ .

وَيَعْتَضِدُونَ فِيهِ بِالدَّلِيلِ عَلَى وُجُوبِ الْعَمَلِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ .

وَهُوَ صَحِيحٌ لَا مِنْ جِهَةِ أَنَّ الطَّائِفَةَ تَنْطَلِقُ عَلَى الْوَاحِدِ ، وَلَكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ خَبَرَ الشَّخْصِ الْوَاحِدِ أَوْ الْأَشْخَاصِ خَبَرٌ وَاحِدٌ ، وَأَنَّ مُقَابِلَهُ وَهُوَ التَّوَاتُرُ لَا يَنْحَصِرُ بِعَدَدٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَهَذِهِ إشَارَتُهُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(203/352)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونِ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾

روي عن معاوية بن صالح ، عن علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس في قوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونِ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ ، يعني : ما كان للمؤمنين لينفروا جميعاً ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة .

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ ، يقول : فهلا خرج ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ ، يعني : عصبة من جماعة ، ويقم طائفة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدين ﴾ ، يعني : ليتعلموا العلم وشرائع الدين .

فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن وتعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم ، فيعلمونهم ويقولون : إن الله تعالى قد أنزل على نبيكم بعدكم كذا وكذا ؛ وهذا قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ، يعني : يتعظون بما أمروا ونهوا عنه .

ولها وجه آخر ، وهو ما روي أيضاً ، عن معاوية بن صالح ، عن علي بن طلحة ، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ، لما دعا على مضر بالسنين ، أجدبت بلادهم .

وكانت القبيلة تقبل بأسرهم ، حتى يلحقوا بالمدينة ويعلنوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر الرسول

صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا بمؤمنين ، فردهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عشائرهم وحذَّر قومهم أن يفعلوا فعلهم بعد ذلك ، وهو قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ .

(204/352)

وروى أسباط بن السدي قال : أقبلت أعراب هذيل وأصابتهم مجاعة ، واستعانوا بتمر المدينة وأظهروا الإسلام ، وكانوا يفخرون على المؤمنين ، فيقولوا : نحن أسلمنا طائعين بغير قتال وأنتم قوتلتم ، فنحن خير منكم ، فآذوا المؤمنين ، فأنزل الله تعالى فيهم يخبرهم بأمرهم قال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ أي جميعاً ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ يعني : من كل بطن طائفة .

فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعوا كلامه ، ثم رجعوا إلى قومهم فأخبروهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ يعني : يتعظون فيعملون به ولا يعملون بخلافه .

وفي هذه الآية دليل أن أخبار الآحاد مقبولة ويجب العمل بها لأن الله تعالى أخبر أن الطائفة من الفرقة ، إذا تفقهت في الدين وأنذرت قومهم ، صحّ ذلك .

ولفظ الطائفة يتناول الواحد والأكثر لأن أقل الفرقة اثنان ، والطائفة من الاثنين واحد .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(205/352)

وقال الثعلبى :

﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ الآية

قال ابن عباس في رواية الكلبي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خرج غازياً لم يتخلف إلاّ المنافقون والمعذرون فلما أنزل الله تعالى عيوب المنافقين ومن نفاقهم في غزوة تبوك قال المؤمنون : والله لا نتخلّف عن غزوة بعدها يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن سرية أبداً .

فلما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسرايا إلى الجهاد ونفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ يعني ليس لهم أن يخرجوا جميعاً إلى العدو ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده .

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ فهلاّ خرج ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ قبيلة ﴿ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ جماعة ﴿

لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ يعني الفرقة القاعدين فإذا رجعت السرايا وقد نزلت بعدهم قوله تعالى : ﴿ القاعدون ﴾ [النساء : 95] . قالوا لهم اذا رجعوا : قد أنزل الله على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمنا فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيّهم من بعدهم ويبعث سرايا أُخر فذلك ليتفقهوا في الدين ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ وليعلمونهم الأمر ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ولا يعملون خلافه .

وقال الحسن : هذا التفقه والإنذار راجع إلى الفرقة النافرة ومعنى الآية : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ أي ليتبصّروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين ونصرة الدين ولينذروا قومهم من الكفار إذا رجعوا إليهم من الجهاد فيخبروهم بنصر الله النبي والمؤمنين ، ويخبرونهم أنهم لا يدان لهم بقتال النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، لعلهم يحذرون قتال النبي صلى الله عليه وسلم فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

(206/352)

قال الكلبي : ولها وجه آخر : ذكر أن أحياءً من بني أسد بن خزيمة أصابتهم [سنة شديدة وأظهروا الشهادتين ولم يكونوا مؤمنين في السر فقدموا] حتى نزلوا بالمدينة فأفسدوا طرقها بالعذرات وأغلوا أسعارها فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال مجاهد : في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً وخصباً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى . قال الناس لهم : ما نراكم إلاّ وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرج وأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ ويستمعوا ما أنزل إليهم ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ الناس كلهم ﴿ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ ويدعوهم إلى الله ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ بأس الله ونقمته باتباعهم وطاعتهم ، وقعدت طائفة تريد المغفرة .

وقال عكرمة : لما نزلت ﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾ و ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب ﴾ الآية قال المنافقون من أهل البدو الذين تخلفوا عن محمد ولم ينفروا معه وقد كان ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا إلى البدو إلى قومهم ليفقهوهم ، فأنزل الله تعالى في المعذر لأولئك هذه الآية .

وروى عن عبد الرزاق بن همام في قوله ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ قال : هم أصحاب الحديث . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : وما كان عليهم أن ينفروا جميعاً لأن فرضه صار على الكفاية وهذا ناسخ لقوله تعالى ﴿ انفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً ﴾ قاله ابن عباس .

والثاني : معناه وما كان للمؤمنين إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرية أن يخرجوا جميعاً فيها ويتركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده بالمدينة حتى يقيم معه بعضهم ، قاله عبد الله بن عبيد الله بن عمير .

قال الكلبي : وسبب نزول ذلك أن المسلمين بعد أن عُيّروا بالتخلف عن غزوة تبوك توفروا على الخروج في سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركوه وحده بالمدينة ، فنزل ذلك فيهم .

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ ﴾ فيه قولان :

أحدهما : لتتفقه الطائفة الباقية إما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهاده ، وإما مهاجرة إليه في إقامته ، قاله الحسن .

الثاني : لتتفقه الطائفة المتأخرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النفور في السرايا ،

ويكون معنى الكلام : فهلاَّ إذا نفروا أن تقيم من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدين ، قاله مجاهد .

وفي قوله تعالى ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ تأويلان :

أحدهما : ليتفقهوا في أحكام الدين ومعالم الشرع ويتحملوا عنه ما يقع به البلاغ وينذروا به قومهم إذا رجعوا إليهم .

الثاني : ليتفقهوا فيما يشاهدونه من نصر الله لرسوله وتأييده لدينه وتصديق وعده ومشاهدة معجزاته ليقوى إيمانهم ويخبروا به قومهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(208/352)

وقال ابن الجوزى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

في سبب نزولها أربعة أقوال .

أحدها : أنه لما أنزل الله عز وجل عيوب المنافقين في غزوة تبوك ، قال المؤمنون : والله . لا نتخلَّف عن غزوة يغزوها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا سريَّة أبداً .

فلما أرسل السرايا بعد تبوك ، نفر المسلمون جميعاً ، وتركوا رسول الله وحده ، فنزلت هذه الآية ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثاني : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دعا على مضر ، أجدبت بلادهم ؛ فكانت القبيلة منهم تُقْبِلُ بأسرها إلى المدينة من الجُهد ، ويظهرون الإسلام وهم كاذبون ؛ فضيَّقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والثالث : أن ناساً أسلموا ، وخرجوا إلى البوادي يعلِّمون قومهم ، فنزلت : ﴿ إلا تنفروا يعذبكم ﴾ [التوبة : 39] فقال ناس من المنافقين : هلك من لم ينفر من أهل البوادي ، فنزلت هذه الآية ، قاله عكرمة .

والرابع : أن ناساً خرجوا إلى البوادي يعلِّمون الناس ويَهدونهم ، ويصيبون من الحطب ما ينتفعون به ؛ فقال لهم الناس ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا ؛ فأقبلوا من البادية كلهم ، فنزلت هذه الآية ، قاله مجاهد .

قال الزجاج : ولفظ الآية لفظ الخبر ، ومعناها الأمر ، كقوله : ﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ﴾ [التوبة : 113] ، والمعنى : ينبغي أن ينفر بعضهم ، ويبقى البعض .

قال الفراء : ينفِر وينفُر ، بكسر الفاء وضمها ، لغتان .

واختلف المفسرون في المراد بهذا النفير على قولين .

أحدهما : أنه النفير إلى العدو ، فالمعنى : ما كان لهم أن ينفروا بأجمعهم ، بل تنفر طائفة ، وتبقى مع النبي صلى الله عليه وسلم طائفة .

﴿ ليتفقَّهوا في الدين ﴾ يعني الفرقةَ القاعدين .

(209/352)

فإذا رجعت السرايا ، وقد نزل بعدهم قرآن أو تجدَّد أمر ، أعلموهم به وأنذروهم به إذا رجعوا إليهم ، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس .

والثاني : أنه النفير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل تنفر منهم طائفة ليتفقه هؤلاء الذين ينفرون ، ولينذروا قومهم المتخلِّفين ، هذا قول الحسن ، وهو أشبه بظاهر الآية .

فعلى القول الأول ، يكون نفير هذه الطائفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إن خرج إلى غزاة أو مع سراياه .

وعلى القول الثاني ، يكون نفير الطائفة إلى رسول الله لاقتباس العلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(210/352)

وقال القرطبى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

فيه ست مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون ﴾ وهي أن الجهاد ليس على الأعيان وأنه فرض كفاية كما تقدّم ؛ إذ لو نفر الكل لضاع مَن وراءهم من العيال ، فليخرج فريق منهم للجهاد وليُقِم فريق يتفقهون في الدين ويحفظون الحريم ، حتى إذا عاد النافرون أعلمهم المقيمون ما تعلّموه من أحكام الشرع ، وما تجدّد نزوله على النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنفِرُواْ ﴾ وللآية التي قبلها ؛ على قول مجاهد وابن زيد .

الثانية هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم ؛ لأن المعنى : وما كان المؤمنون لينفروا كافّةً والنبيُّ صلى الله عليه وسلم مقيم لا يَنْفر فيتركوه وحده .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ ﴾ بعد ما علموا أن النفير لا يسع جميعهم .

﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيّتها مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا ؛ فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه .

وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة ، وأنه على الكفاية دون الأعيان .

ويدل عليه أيضاً قوله تعالى : ﴿ فاسألوا أَهْلَ الذكرِ إن كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل : 43] [الأنبياء : 7] .

فدخل في هذا من لا يعلم الكتاب والسنن .

الثالثة قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ ﴾ قال الأخفش : أي فهلاّ نفر .

﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ الطائفة في اللغة الجماعة ، وقد تقع على أقل من ذلك حتى تبلغ الرجلين ، وللواحد على معنى نفس طائفة .

وقد تقدّم أن المراد بقوله تعالى : ﴿ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً ﴾ [التوبة : 66] رجل واحد .

ولا شك أن المراد هنا جماعةٌ لوجهين ؛ أحدهما عقلاً ، والآخر لغة .

(211/352)

أما العقل فلأن العلم لا يتحصل بواحد في الغالب ، وأما اللغة فقوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ فجاء بضمير الجماعة .

قال ابن العربيّ : والقاضي أبو بكر والشيخ أبو الحسن قبله يرون أن الطائفة ها هنا واحد ، ويَعْتَضِدون فيه بالدليل على وجوب العمل بخبر الواحد ، وهو صحيح لا من جهة أن

الطائفة تنطلق على الواحد ولكن من جهة أن خبر الشخص الواحد أو الأشخاص خبر واحد ، وأن مقابله وهو التواتر لا ينحصر .

قلت : أنصّ ما يُستدلّ به على أن الواحد يقال له طائفة قولهُ تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] يعني نفْسين .

دليله قوله تعالى : ﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : 10] فجاء بلفظ التثنية ، والضمير في "اقتتلوا" وإن كان ضمير جماعة فأقلّ الجماعة اثنان في أحد القولين للعلماء .

الرابعة قوله تعالى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ الضمير في "لِيتَفَقَّهُوا ، وَلِيُنْذِرُوا" للمقيمين مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ قاله قتادة ومجاهد .

وقال الحسن : هما للفرقة النافرة ؛ واختاره الطبريّ .

ومعنى ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ أي يتبصّرُوا ويتيقّنوا بما يُريهم الله من الظهور على المشركين ونُصرة الدين .

﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ من الكفار .

﴿ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ من الجهاد فيخبرونهم بنصرة الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وأنهم لا يدان لهم بقتالهم وقتال النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فينزل بهم ما نزل بأصحابهم من الكفار .

قلت : قول مجاهد وقتادة أبْيَن ، أي لتتفقّه الطائفة المتأخرة مع رسول الله صلى الله عليه

وسلم عن النفور في السرايا .

وهذا يقتضي الحثّ على طلب العلم والندب إليه دون الوجوب والإلزام ؛ إذ ليس ذلك في قوة الكلام ، وإنما لزم طلب العلم بأدلته ؛ قاله أبو بكر بن العربيّ .

(212/352)

الخامسة طلب العلم ينقسم قسمين : فرضٌ على الأعيان ، كالصلاة والزكاة والصيام .

قلت وفي هذا المعنى جاء الحديث المرويّ " إن طلب العلم فريضة " روى عبد القدوس بن حبيب : أبو سعيد الوُحَاظيّ عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم النَّخَعِيّ قال سمعت أنس بن مالك يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " قال إبراهيم : لم أسمع من أنس بن مالك إلا هذا الحديث .

وفرضٌ على الكفاية ؛ كتحصيل الحقوق وإقامة الحدود والفصل بين الخصوم ونحوه ؛ إذ لا يصلح أن يتعلمه جميع الناس فتضيع أحوالهم وأحوال سراياهم وتنقص أو تبطل معايشهم ؛ فتعيّن بين الحالين أن يقوم به البعض من غير تعيين ، وذلك بحسب ما يسّره الله لعباده وقسّمه بينهم من رحمته وحكمته بسابق قدرته وكلمته .

السادسة طلب العلم فضيلة عظيمة ومرتبة شريفة لا يوازيها عمل ؛ روى الترمذيّ من

حديث أبي الدّرْدَاء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف الماء وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وإن العلماء ورثةُ الأنبياء وإن الأنبياء لم يُوَرِّثوا ديناراً ولا درهماً إنما ورَّثُوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر "

وروى الدّارِميّ أبو محمد في مسنده قال : حدثنا أبو المغيرة حدّثنا الأوزاعيّ عن الحسن قال : " سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن رجلين كانا في بني إسرائيل ، أحدهما كان عالماً يصلّي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير .

(213/352)

والآخر يصوم النهار ويقوم الليل ، أيهما أفضل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فضل هذا العالم الذي يصلّي المكتوبة ثم يجلس فيعلم الناس الخير على العابد الذي يصوم النهار ويقوم الليل كفضلي على أدناكم" " أسنده أبو عمر في كتاب (بيان العلم) عن أبي سعيد الخُدْري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

" فضل العالم على العابد كفضلي على أمتي " وقال ابن عباس : أفضل الجهاد من بنى

مسجداً يعلم فيه القرآن والفقه والسنة .

رواه شُريك عن ليث بن أبي سليم عن يحيى بن أبي كثير عن عليّ الأزدي قال : أردت الجهاد فقال لي ابن عباس ألا أدلك على ما هو خير لك من الجهاد ، تأتي مسجداً فتقرىء فيه القرآن وتعلم فيه الفقه .

وقال الربيع سمعت الشافعي يقول : طلب العلم أوجب من الصلاة النافلة .

وقوله عليه السلام : " إن الملائكة لتضع أجنحتها " الحديث يحتمل وجهين : أحدهما أنها تعطف عليه وترحمه ؛ كما قال الله تعالى فيما وصى به الأولاد من الإحسان إلى الوالدين بقوله : ﴿ واخفض لَهُمَا جَنَاحَ الذل مِنَ الرحمة ﴾ [الإسراء : 24] أي تواضع لهما .

والوجه الآخر أن يكون المراد بوضع الأجنحة فرشها ؛ لأن في بعض الروايات " وإن الملائكة تفرش أجنحتها " أي إن الملائكة إذا رأت طالب العلم يطلبه من وجهه ابتغاء مرضات الله وكانت سائر أحواله مشاكلة لطلب العلم فرشت له أجنحتها في رحلته وحملته عليها ؛ فمن هناك يَسْلَم فلا يحفى إن كان ماشياً ولا يَعْيَا ، وتقرُب عليه الطريق البعيدة ولا يصيبه ما يصيب المسافر من أنواع الضرر كالمرض وذهاب المال وضلال الطريق .

وقد مضى شيء من هذا المعنى في "آل عمران" عند قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ الله ﴾ [آل عمران : 18] الآية ، روى عمران بن حصين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "

لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " قال يزيد بن هارون : إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟ .

(214/352)

قلت : وهذا قول عبد الرزاق في تأويل الآية ، إنهم أصحاب الحديث ؛ ذكره الثعلبيّ .

سمعت شيخنا الأستاذ المقرىء النحوي المحدث أبا جعفر أحمد بن محمد بن محمد القيسي القرطبي المعروف بابن أبي حجة رحمه الله يقول في تأويل قوله عليه السلام : " لا يزال أهل الغَرْب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة " إنهم العلماء ؛ قال : وذلك أن الغرب لفظ مشترك يطلق على الدلو الكبيرة وعلى مغرب الشمس ، ويطلق على فَيْضة من الدمع .

فمعنى " لا يزال أهل الغرب " أي لا يزال أهل فيض الدمع من خشية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين ؛ الحديث .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العلماء ﴾ [فاطر : 28] .

قلت : وهذا التأويل يَعْضُده قوله عليه السلام في صحيح مسلم : " من يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم

القيامة" وظاهر هذا المساق أن أوّله مرتبط بآخره. والله أعلم. انتهى انتهى. اهـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(215/352)

وقال الخازن:

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

قال عكرمة: لما نزلت هذه الآية ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلوا عن رسول الله قال ناس من المنافقين.

هلك من تخلف فنزلت هذه الآية ومن كان المؤمنون لينفروا كافة.

(216/352)

وقال ابن عباس: أنها ليست في الجهاد ولكن لما دعا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على مضر بالسنين أجدبت بلادهم فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون فضيقوا على أصحاب رسول الله (صلى الله عليه

وسلم) وأجهدوهم فأنزل الله الآية يخبر نبيه (صلى الله عليه وسلم) أنهم ليسوا مؤمنين فردهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم إذا رجعوا إليهم فذلك قوله سبحانه وتعالى : ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال : "كان ينطلق من كل حي من العرب عصابة فيأتون النبي (صلى الله عليه وسلم) فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي (صلى الله عليه وسلم) ما تأمرنا أن نفعله وأخبرنا عما نقول لعشائرنا إذا انطلقنا إليهم فيأمرهم نبي الله (صلى الله عليه وسلم) بطاعة الله وطاعة رسوله ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة فكانوا إذا أتوا قومهم نادوا أن من أسلم فهو منا وينذرونهم حتى أن الرجل ليفارق أباه وأمه وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يخبرهم بما يحتاجون إليه من أمر الدين وأن ينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ويدعوهم إلى الإسلام وينذرهم ويبشروهم بالجنة وقال مجاهد : إن ناساً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الحطب وما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال الله ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يبتغون الخير وقعد طائفة

﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ ليسمعوا ما أنزل الله ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ من الناس ﴿ إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ وقال ابن عباس : ما كان المؤمنون لينفروا

(217/352)

جميعاً ويتركوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة يعني السرايا ولا يسيرون إلا بإذنه فإذا رجعت السرايا وقد نزل في بعضهم قرآن تعلمه القاعدون من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا إن الله قد أنزل على نبيكم من بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم وتبعث سرايا أخرى فذلك قوله سبحانه وتعالى ليتفقهوا في الدين يقول ليتعملوا ما أنزل الله على نبيهم ويعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرون نقل هذه الأقوال كلها الطبري وأما تفسير الآية فيمكن أن يقال إنها بقية أحكام الجهاد ويمكن أن يقال إنها كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد فعلى الاحتمال الأول فقد قيل : إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا خرج للغزو ولم يتخلف عنه إلا منافق أو صاحب عذر فلما بلغ الله في الكشف عن عيوب المنافقين وفضحهم في تخلفهم عن غزوة تبوك قال المؤمنون والله لا نتخلف عن شيء من الغزوات مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولا عن سرية يبعثها فلما قدم المدينة وبعث

السرايا نفر المسلمون جميعاً إلى الغزو وتركوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحده فنزلت هذه الآية فيكون المعنى ما كان ينبغي للمؤمنين ولا يجوز لهم أن ينفروا بكليتهم إلى الجهاد ويتركوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بل يجب أن ينقسموا إلى قسمين فطائفة يكونون مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وطائفة ينفرون إلى الجهاد لأن ذلك الوقت كانت الحاجة داعية إلى انقسام أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى قسمين : قسم للجهاد ، وقسم لتعلم العلم والتفقه في الدين ، لأن الأحكام والشرائع كانت تتجدد شيئاً بعد شيء فالملازمون لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يحفظون ما نزل من الأحكام وما تجدد من الشرائع فإذا قدم الغزاة أخبروهم وبذلك فيكون معنى الآية وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا يعني

(218/352)

فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة للجهاد وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم الذين نفروا إلى الجهاد إذا رجعوا إليهم من غزوهم لعلهم يحذرون يعني مخالفة مر الله وأمر رسوله وهذا معنى قول قتادة .

وقيل : إن التفقه صفة للطائفة النافرة قال الحسن : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من

الظهور على المشركين والنصرة وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ومعنى ذلك أن الفرقة النافرة إذا شاهدوا نصر الله لهم على أعدائهم وأن الله يريد إعلاء دينه وتقوية نبيه (صلى الله عليه وسلم) وأن الفئة القليلة قد غلبت جمعاً كثيراً ، فإذا رجعوا من ذلك النفير إلى قومهم من الكفار ، أنذروهم بما شاهدوا من دلائل النصر والفتح والظفر لهم لعلهم يحذرون فيتركوا الكفر والنفاق وأورد على هذا القول أن هذا النوع لا يعد تفقهاً في الدين ويمكن أن يجاب عنه بأنهم إذا علموا أن الله هو ناصرهم ومقويهم على عدوهم كان ذلك زيادة في إيمانهم فيكون ذلك فقهاً في الدين .

(219/352)

وأما الاحتمال الثاني : وهو أن يقال إن هذه الآية كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد وهو ما ذكرناه عن مجاهد أن ناساً من أصحاب النبي (صلى الله عليه وسلم) خرجوا إلى البوادي فأصابوا معروفاً ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال الناس لهم : ما نراكم إلا وقد تركتم صاحبكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك حرجاً فأقبلوا كلهم من البادية حتى دخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأنزل الله هذه الآية والمعنى هلا نفر من كل فرقة طائفة وقعد طائفة ليتفقهوا في الدين ويبلغوا ذلك إلى النافرين لينذروا قومهم إذا رجعوا

إليهم لعلهم يحذرون يعني بأس الله ونقمته إذا خالفوا أمره في الآية دليل على أنه يجب أن يكون المقصود من العلم والتفقه دعوة الخلق إلى الحق وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم فكل من تفقه وتعلم بهذا القصد كان المنهج القويم والصراط المستقيم ومن عدل عنه وتعلم العلم لطلب الدنيا كان من الأخسرين أعمالاً الآية (ق) .

عن معاوية قال : سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول " من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم ويعطى الله ولم يزل أمر هذه الأمة مستقيماً حتى تقوم الساعة وحتى يأتي أمر الله " (ق) .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " عن ابن عباس : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد " أخرجه الترمذي وأصل الفقه في اللغة الفهم يقال فقه الرجل إذا فهم وفقه فقاهة إذا صار فقيهاً .

(220/352)

وقيل : الفقه هو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد فهو أخص من العلم وفي الاصطلاح الفقه عبارة عن العلم بأحكام الشرائع وأحكام الدين وذلك ينقسم إلى فرض عين وفرض

كفاية ففرض العين معرفة أحكام الطهارة وأحكام الصلاة والصوم فعلى كل مكلف معرفة ذلك قال النبي (صلى الله عليه وسلم) : " طلب العلم فريضة على كل مسلم " ذكره البغوي بغير سند وكذلك كل عبادة وجبت على المكلف بحكم الشرع يجب عليه معرفة علمها مثل علم الزكاة إذا صار مال يجب في مثله الزكاة وعلم أحكام الحج إذا وجب عليه .

وأما فرض الكفاية من الفقه ، فهو أن يتعلم حتى يبلغ رتبة الاجتهاد ودرجة الفتيا وإذا قعد أهل بلد عن تعلمه عصوا جميعاً وإذا قام به من كل بلد واحد فتعلم حتى بلغ درجة الفتيا سقط الفرض عن الباقين وعليهم تقليده فيما يقع لهم من الحوادث .

عن أبي أمامة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم " أخرجه الترمذي مع زيادة فيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

" من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة " أخرجه الترمذي عن أنس أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع " أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : " العلم ثلاثة وما سوى ذلك فهو فضل آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة " أخرجه أبو داود .

الآية المحكمة هي التي لا اشتباه فيها ولا اختلاف في حكمها أو ما ليس بمنسوخ ، والسنة

القائمة هي المستمرة الدائمة التي العمل بها متصل لا يترك ، والفريضة العادلة هي التي لا جور فيها ولا حيف في قضائها .

قال الفضيل بن عياض : عالم عامل معلم يدعى عظيماً في ملكوت السموات .

وأخرجه الترمذي موقوفاً وقال الإمام الشافعي : " طلب العلم أفضل من صلاة النافلة " .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(221/352)

وقال أبو حيان :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾

لما سمعوا ما كان لأهل المدينة الآية أهمهم ذلك ، فنفروا إلى المدينة إلى الرسول فنزلت .

وقيل : قال المنافقون حين نزلت : ما كان لأهل المدينة الآية هكذا أهل البوادي فنزلت .

وقيل : لما دعا الرسول على مضر بالسنين أصابتهم مجاعة ، فنفروا إلى المدينة للمعاش وكادوا يفسدونها ، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان ، وإنما أقدمه الجوع فنزلت الآية فقال : وما كان من ضعفة الإيمان لينفروا مثل هذا النفير أي : ليس هؤلاء بمؤمنين .

وعلى هذه الأقوال لا يكون النفير إلى الغزو ، والضمير الذي في ليتفقهوا عائد على الطائفة

الناقرة ، وهذا هو الظاهر .

وقال ابن عباس : الآية في البعوث والسرايا .

والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج الرسول في الغزو ، وهذه ثابتة الحكم إذا لم يخرج أي : يجب إذا لم يخرج أن لا ينفر الناس كافة ، فيبقى هو مفرداً .

وإنما ينبغي أن ينفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الطائفة في الدين ، وتنذر النافرين إذا رجعوا إليهم .

وقالت فرقة : هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الناس كافة النفير والقتال ، فعلى هذا وعلى قول ابن عباس يكون الضمير في ليتفقهوا عائداً على الطائفة المقيمة مع النبي (صلى الله عليه وسلم) ، ويكون معنى ولينذروا قومهم أي : الطائفة النافرة إلى الغزو يعلمونهم بما تجدّد من أحكام الشريعة وتكاليفها ، وكان ثم جملة محذوفة دل عليها تقسيمها أي : فهلا نفر من كل فرقة منهم طائفة وقعدت أخرى ليتفقهوا .

وقيل : على أن يكون النفير إلى الغزو يصح أن يكون الضمير في ليتفقهوا عائداً على النافرين ، ويكون تفقههم في الغزو بما يرون من نصرة الله لدينه ، وإظهاره الفئة القليلة من المؤمنين على الكثيرة من الكافرين ، وذلك دليل على صحة الإسلام ، وإخبار الرسول بظهور هذا الدين .

والذي يظهر أنّ هذه الآية إنما جاءت للحض على طلب العلم والتفقه في دين الله ، وأنه لا يمكن أن يرحل المؤمنون كلهم في ذلك فتعرى بلادهم منهم ويستولي عليها وعلى ذراريهم أعداؤهم ، فهلا رحل طائفة منهم للتفقه في الدين ولإنذار قومهم ، فذكر العلة للنفير وهي التفقه أولاً ، ثم الإعلام لقومهم بما علموه من أمر الشريعة أي : فهلا نفر من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم فكفوهم النفير ، وقام كل بمصلحة هذه بحفظ بلادهم ، وقتال أعدائهم ، وهذه لتعلم العلم وإفادتها المقيمين إذا رجعوا إليهم .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها أنّ كلا النفيرين هو في سبيل الله وإحياء دينه هذا بالعلم ، وهذا بالقتال .

قال الزمخشري : ليتفقهوا في الدين ، ليتكلفوا الفقاهة فيه ، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها ، ولينذروا قومهم ، وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم ، لعلهم يحذرون إرادة أن يحذروا الله تعالى ، فيعملوا عملاً صالحاً .

ووجه آخر : وهو أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا بعث بعثاً بعد غزوة تبوك وبعد ما نزل في المتخلفين من الآيات الشدائد استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير ، وانقطعوا جميعاً عن الوحي والتفقه في الدين ، فأمروا بأن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى

الجهاد ، وتبقى أعقابهم يتفقهون حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأنّ الجهاد بالحجة أعظم أمراً من الجهاد بالسيف .

وقوله تعالى : ليتفقهوا ، الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطوائف النافرة ، ولينذروا قومهم ، ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم ما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم ، وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(223/352)

وقال أبو السعود :

﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾

أي ما صح وما استقام لهم أن ينفِروا جميعاً لنحو غزْوٍ أو طلب علمٍ كما لا يستقيم لهم أن يتثبّطوا جميعاً فإن ذلك مُخِلٌّ بأمر المعاش .

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ فهلا نفر ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ أي طائفة كثيرة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كأهل بلدةٍ أو قبيلةٍ عظيمة ﴿ طَائِفَةٌ ﴾ أي جماعة قليلة ﴿ لّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدين ﴾ أي يتكلفوا الفَقاهةَ فيه ويتجشموا مشاقَّ تحصيلِها ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أي وليجعلوا غايةَ سعيِهم ومرمى

غرضِهم من ذلك إرشادَ القومِ وإنذارَهم ﴿ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ وتخصيصُه بالذكر لأنه أهم ، وفيه دليلٌ على أن التفقهَ في الدين من فروض الكفايةِ وأن يكون غرضُ المتعلمِ الاستقامةَ والإقامةَ لا الترفعَ على العباد والتبسّط في التلاد كما هو ديدن أبناء الزمان والله المستعان ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ إرادةَ أن يحذروا عما ينذَرون واستدلوا به على أن أخبارَ الآحادِ حجةٌ لأن عمومَ كلِّ فرقةٍ يقتضي أن ينفِرَ من كل ثلاثةٍ تفردوا بقرية طائفةٌ إلى التفقه لتنذر قرقتَها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الإخبارُ ما لم يتواتر لم يُفِدْ ذلك ، وقد قيل : للآية وجهٌ آخرُ وهو أن المؤمنين لما سمعوا ما نزل في المتخلفين سارعوا إلى النفير رغبةً ورهبةً وانقطعوا عن التفقه فأُمروا أن ينفِر من كل فرقةٍ طائفةٌ إلى الجهاد ويبقى أعقابُهم يتفقهون حتى لا ينقطع الفقهُ الذي هو الجهادُ الأكبرُ لأن الجدالَ بالحجة هو الأصلُ والمقصودُ من البعثة ، فالضميرُ في ليتفقهوا ولينذِروا لبواقي الفِرَق بعد الطوائفِ النافرةِ للغزو ، وفي رجعوا للطوائف ، أي ولينذر البواقي قومَهم النافرين إذا رجَعوا إليهم بما حصلوا في أيام غَيبتهم من العلوم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(224/352)

وقال الآلوسى :

﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾

أي ما استقام لهم أن يخرجوا إلى الغزو جميعاً .

روى الكلبي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه تعالى لما شدد على المتخلفين قالوا : لا يتخلف منا أحد عن جيش أو سرية أبدا ففعلوا ذلك وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده فنزل ﴿ وَمَا كَانَ ﴾ الخ والمراد نهيهم عن النفير جميعاً لما فيه من الإخلال بالتعلم ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ لولا هنا تحضيضية ، وهي مع الماضي تفيد التوبيخ على ترك الفعل ومع المضارع تفيد طلبه والأمر به لكن اللوم على الترك فيما يمكن تلافيه قد يفيد الأمر به في المستقبل أي فهلا نفر ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ أي جماعة كثيرة ﴿ مِنْهُمْ ﴾ كأهل بلدة أو قبيلة عظيمة ﴿ طَائِفَةٌ ﴾ أي جماعة قليلة ، وحمل الفرقة والطائفة على ذلك مأخوذ من السياق ومن التبعيضية لأن البعض في الغالب أقل من الباقي وإلا فالجوهري لم يفرق بينهما ، وذكر بعضهم أن الطائفة قد تقع على الواحد ، وآخرون أنها لا تقع وأن أقلها اثنان ، وقيل : ثلاثة ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى الدين ﴾ أي ليتكلفوا الفقاهة فيه فصيغة التفعل للتكلف ، وليس المراد به معناه المتبادر بل مقاساة الشدة في طلب ذلك لصعوبته فهو لا يحصل بدون جد وجهد ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ أي عما ينذرون منه وضمير يتفقوا وينذروا عائد إلى الفرقة الباقية المفهومة من الكلام ، وقيل : لا بد من إضمار

وتقدير ، أي فلولا نفر من كل فرقة طائفة وأقام طائفة ليتفقهوا الخ .

وكان الظاهر أن يقال : ليعلموا بدل ﴿ لينذروا ﴾ ويفقهون بدل ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ لكنه اختير ما في النظم الجليل للإشارة إلى أنه ينبغي أن يكون غرض المعلم الإرشاد والإنذار وغرض المتعلم اكتساب الخشية لا التبسط والاستكبار .

(225/352)

قال حجة الإسلام الغزالي عليه الرحمة : كان اسم الفقه في العصر الأول اسماً لعلم الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب وتدل عليه هذه الآية فما به الإنذار والتخويف هو الفقه دون تعريفات الطلاق واللعان والسلم والاجارات ، وسأل فرقد السنجي الحسن عن شيء فأجابه فقال : إن الفقهاء يخالفونك فقال الحسن : ثكلتك أمك هل رأيت فقيهاً بعينك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع الكاف عن إعراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك الحافظ لفروع الفتاوى اه وهو من الحسن بمكان ، لكن الشائع إطلاق الفقيه على من يحفظ الفروع مطلقاً سواء كانت بدلائلها أم لا كما في التحرير .

وفي "البحر" عن المنتقى ما يوافقه ، واعتبر في القنية الحفظ مع الأدلة فلا يدخل في الوصية للفقهاء من حفظ بلا دليل .

وعن أبي جعفر أنه قال : الفقيه عندنا من بلغ في الفقه الغاية القصوى ، وليس المتفقه بفقيه وليس له من الوصية نصيب ، والظاهر أن المعتبر في الوصية ونحوها العرف وهو الذي يقتضيه كلام كثير من أصحابنا ، وذكر غير واحد أن تخصيص الإنذار بالذكر لأنه الأهم وإلا فالمقصود الإرشاد الشامل لتعليم السنن والآداب والواجبات والمباحات والإنذار أخص منه ، ودعوى أنهما متلازمان وذكر أحدهما مغن عن الآخر غفلة أو تغافل ، وذهب كثير من الناس إلى أن المراد من النفر النفر والخروج لطلب العلم فالآية ليست متعلقة بما قبلها من أمر الجهاد بل لما بين سبحانه وجوب الهجرة والجهاد وكل منهما سفر لعبادة فبعدما فضل الجهاد ذكر السفر الآخر وهو الهجرة لطلب العلم فضمير يتفقهوا وينذروا للطائفة المذكورة وهي النافرة وهو الذي يقتضيه كلام مجاهد .

فقد أخرج عنه ابن جرير .

وابن المنذر .

(226/352)

وغيرهما أنه قال : إن ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي فأصابوا من الناس معروفاً ومن الخصب ما ينتفعون به ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال لهم الناس : ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتمونا فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً وأقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون ﴾ الخ أي لولا خرج بعض وقعد بعض يبتغون الخير ليتفقهوا في الدين وليسمعوا ما أنزل ولينذروا الناس إذا رجعوا إليهم .

وستدل بذلك على أن التفقه في الدين من فروض الكفاية .

وما في كشف الحجاب عن أبي سعيد "طلب العلم فريضة على كل مسلم" على تضعيف الصغاني له ليس المراد من العلم فيه إلا ما يتوقف عليه آداء الفرائض ولا شك في أن تعلمه فرض على كل مسلم .

وذكر بعضهم أن في الآية دلالة على أن خبر الآحاد حجة لأن عموم كل فرقة يقتضي أن ينفر من كل ثلاثة تفردوا بقرية طائفة إلى التفقه لتنذر قومها كي يتذكروا ويحذروا فلو لم يعتبر الإخبار ما لم تتواتر لم يفد ذلك ، وقرر بعضهم وجه الدلالة بأمرين .

الأول أنه تعالى أمر الطائفة بالإنذار وهو يقتضي فعل المأمور به وإلا لم يكن إنذاراً .

والثاني أمره سبحانه القوم بالحذر عند الإنذار لأن معنى قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ليحذروا وذلك أيضاً يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، وهذه الدلالة قائمة على أي

تفسير شئت من التفسيرين ، ولا يتوقف الاستدلال بالآية على ما ذكر على صدق الطائفة على الواحد الذي هو مبدأ الإعداد بل يكفي فيه صدقها على ما لم يبلغ حد التواتر وإن كان ثلاثة فأكثر ، وكذا لا يتوقف على أن لا يكون الترجي من المنذرين بل يكون من الله سبحانه ويراد منه الطلب مجازاً كما لا يخفى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(227/352)

وقال ابن عجيبة :

يقول الحق جل جلاله : ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ يستقيم لهم أن ينفروا ﴿ كافةً ﴾ ؛ جميعاً لنحو غزو ، أو طلب علم ، كما لا يستقيم لهم أن يقعدوا جميعاً ، فإنه بخل ، ووهن للإسلام . قال ابن عباس : هذه الآية في البعوث إلى الغزو والسرايا ، أي : لا ينبغي خروج جميع المؤمنين في السرايا ، وإنما يجب ذلك إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه ، ولذلك عاتبهم في الآية المتقدمة على التخلف عنه . فالآية الأولى في الخروج معه صلى الله عليه وسلم ، وهذه في السرايا التي كان يبعثها ، وقيل : ناسخة لكل ما ورد من الأمر بخروج الجميع ، فهي دليل على أن الجهاد فرض كفاية .

﴿ فلولا ﴾ : فهلا ﴿ نَفَرَ من كل فرقةٍ ﴾ ؛ جماعة كبيرة ، كقبيلة أو بلدة ، ﴿ طائفة ﴾ قليلة منها ؛ ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ ، اما إذا خرجوا للغزو ؛ فإنه لا يخلو الجيش من عالم أو عارف يتفقهون ، مع أن مشاق السفر تشحذ الأذهان ، وترقق البشرية ، فتستفيد الروح حينئذٍ علوماً لدنية ، وأسراراً ربانية ، من غير تعلم ، وهذا هو العلم الذي يصلح للإنذار .

قال في الإحياء : التفقه : الفقه عن الله ؛ بإدراك جلاله وعظمته ، وهو العلم الذي يورث الخوف والخشية والهيبة والخشوع ، ويحمل على التقوى وملازمتها ، وهذا مقتضى الآية . فإن معرفة صفاته تعالى المخوفة والمرجوة هو الذي يحصل به الانذار ، لا الفقه المصطلح عليه . انتهى انتهى . ا هـ وأما إذا وقع الخروج لطلب العلم فالتفقه ظاهر .

ثم قال تعالى : ﴿ ولِيُنْذِرُوا قومَهم إذا رجعوا إليهم ﴾ ، أي : وليجعلوا غاية سعيهم ومُعظم غرضهم من التفقه إرشاد القوم وإنذارهم . وتخصيصه بالذكر ؛ لأنه أهم ، وفيه دليل على أن التفقه والتذكير من فروض الكفاية ، وأنه ينبغي أن يكون غرض المتعلم فيه أن يستقيم ويقيم ، لا الترفع على الناس والتبسط في البلاد . قاله البيضاوي . وقوله : ﴿ لعلهم يَحذَرُون ﴾ ، أي : لعلهم يخافون مما حذروا منه .

(228/352)

قال البيضاوي : قد قيل : للآية معنى آخر ، وهو أنه لما نزل في المتخلفين ما نزل ؛ تسابق المؤمنون إلى نفير ، وانقطعوا عن التفقه ، فأمروا ان ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ، ويبقى أعقابهم يتفقهون ، حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ؛ لأن الجدال بالحجة هو الأصل ، المقصود من البعثة ، فيكون الضمير في ﴿ ليتفقهوا ﴾ ، ﴿ ولينذروا ﴾ : للفرق البواقي بعد الطوائف النافرة للغزو ، وفي ﴿ رجعوا ﴾ : للطوائف النافرة ، أي : لينذروا البواقي من قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم حصّلوا أيام غيبتهم من العلوم . انتهى انتهى . اهـ وتقدير الآية على هذا : فلولا نفر من كل فرقةٍ طائفةٌ ، وجلس طائفة ليتفقهوا في الدين ، ولينذروا قومهم الخارجين للغزو إذا رجعوا إليهم من غزوهم . والله تعالى أعلم .

الإشارة : قال القشيري : لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه في الدين لَتَعَطَّلَ عليهم المعاش ، ولمنعهم الكافر عن درك المطلوب ، فجعل ذلك فرضاً على كفاية .

(229/352)

ويقال : المسلمون على مراتب : فعوامّهم كالرعية للمَلِك ، وكَتَبَةُ الحديث كخزنة المَلِك ، وأهل القرآن كحُفَّاظ الدفاتر ، ونفائس الأموال . والفقهاء بمنزلة الوكلاء ؛ إذ الفقيه يوقع الحكم عن الله . وعلماءُ الأصول كالقُوَّاد وامراء الجيوش . والأولياءُ كأركان الباب .

وأربابُ القلوب وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه . فشغل قوماً بحفظ أركان الشرع ، وآخرين بإمضاء الأحكام ، وآخران بالردّ على المخالفين ، وآخران بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وجعل قوماً مُفْرَدين لحضور القلب ؛ وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم ، وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طلَبٌ ، ولا يهزُّهم أمر ، فهم بالله لله ، بمحو ما سوَى الله ، وامَّا الذين يتفقهون في الدين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يفهم الخلق عن الله بمَنْ كان يَفْهَمُ عن الله . أ هـ

قوله : وأما الذين يتفقهون . . . الخ ، الداعون إلى الله على الحقيقة هم العارفون بالله ، وهم أصحاب الشهود ، الذين وصفهم قبل ، وأما الفقهاء في الدِّين فإنما يدعون إلى أحكام الله ، وتعلم دينه دون معرفة ذاته وصفاته ؛ فدعواهم ضعيفة التأثير ، فلا ينهض على أيديهم ما ينهض على أيدي العارفين .

وقال الورتجبي ، في قوله تعالى : ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ : قال المرتعش : السياحة والأسفار على ضربين : سياحة لتعلّم احكام الدين وأساس الشريعة ، وسياحة لآداب العبودية ورياضة الأنفس ، فمن رجع عن سياحة الأحكام قام بلسانه يدعو الخلق إلى ربه ، ومن رجع من سياحة الأدب والرياضة قام في الخلق يهديهم لأخلاقه وشمائله . وسياحة هي سياحة الحق ، وهي رؤية أهل الحق والتأدب بآدابهم ، فهذا بركته تعم البلاد والعباد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المديد حـ 3 صـ 441 . 442 ﴾

وقال القاسمي :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

أي : ما صح ولا استقام ، بحيث تخلو بلدانهم عن الناس ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ ﴾ أي : فحين لم يمكن نفير الكافة ، ولم يكن مصلحة ، فهلا نفر ﴿ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ أي : من كل جماعة كثيرة ، جماعة قليلة

منهم يكفونهم النفير : ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أي : ليتعلموا أمر الدين من النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ﴾ أي : يعلموهم ويخبروهم ما أمروا

به ، وما نهوا عنه : ﴿ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ ﴾ أي : من غزوتهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ أي : فيصلحون أعمالهم .

تنبيهات :

الأول : قال السيوطي في " الإكليل " : في الآية أن الجهاد فرض كفاية ، وأن التفقه في الدين ، ونشر العلم ، وتعليم الجاهلين كذلك ، وفيها الرحلة في طلب العلم .

واستدل بها قوم على قبول خبر الواحد ، لأن الطائفة نفر يسير ، بل قال مجاهد : إنها تطلق

على الواحد . انتهى .

وقال الجصّاص في " الأحكام " : في الآية دلالة على لزوم خبر الواحد في الديانات التي لا تلزم العامة ، ولا تعمّ الحاجة إليها ، وذلك لأن الطائفة لما كانت مأمورة بالإنذار انتظم فحوى الدلالة عليه من وجهين :

أحدهما : أن الإنذار يقتضي فعل المأمور به ، وإلا لم يكن إنذاراً .

والثاني : أمره إيانا بالحذر عند إنذار الطائفة ، لأن معنى قوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ليحذروا ، وذلك يتضمن لزوم العمل بخبر الواحد ، لأن الطائفة تقع على الواحد ، فدلالتها ظاهرة . انتهى .

(231/352)

وفي " القاموس " : أن الطائفة من الشيء القطعة منه ، أو الواحدة فصاعداً ، أو إلى الألف ، أو أقلها رجلان ، أو رجل ، فيكون بمعنى النفس الطائفة .

قال الراغب : إذا أريد بالطائفة الجمع ، فجمع طائف ، وإذا أريد به الواحد ، فيصح أن يكون جمعاً ، وكني به عن الواحد ، وأن يجعل راوية وعلّامة ، ونحو ذلك .

الثاني : إن قيل : كان الظاهر في الآية : ليتفقهوا في الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم

لعلهم يفقهون ، فلمَ وضع موضع التعليم الإنذار ، وموضع يفقهون يحذرون ؟ يجاب : بأن ذلك آذن بالغرض منه ، وهو اكتساب خشية الله ، والحذر من بأسه .

قال الغزالي رحمه الله : كان اسم الفقه في العصر الأول ، إسماً لعلم الآخرة ، ومعرفة دقائق آفات النفوس ، ومفسدة الأعمال ، والإحاطة بحقارة الدنيا ، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة ، واستيلاء الخوف على القلب ، ويدل عليه هذه الآية . كذا في " العناية " .

قال الزمخشري في الآية : وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه ، إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ، ويؤمونه من المقاصد الركيكة ، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ، ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّ داء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسةً لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه ، وتهالكه على أن يكون موطَّأ العقب دون الناس كلهم . فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل :

﴿ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً ﴾ . انتهى .

الثالث : قال القاشاني في الآية : يجب على كل مستعد من جماعةٍ ، سلوك طريق طلب العلم ، إذا لا يمكن لجميعهم ، أما ظاهراً فلفوات المصالح ، وأما باطناً فلعدم الإستعداد .

ثم قال : والتفقه في الدين هو من علوم القلب ، لا من علوم الكسب ، إذ ليس كل من يكتسب العلم يتفقه ، كما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴾ ، والأكنة هي الغشاوات الطبيعية ، والحجب النفسانية فمن أراد التفقه فلينفر في سبيل الله ، وليسلك طريق التزكية والتصفية ، حتى يظهر العلم من قلبه على لسانه ، فالمراد من التفقه علم راسخ في القلب ، ضارب بعروقه في النفس ، ظاهر أثره على الجوارح ، بحيث لا يمكن صاحبه ارتكاب ما يخالف ذلك العلم ، وإلا لم يكن عالماً .

ألا ترى كيف سلب الله الفقه عمن لم تكن رهبة الله أغلب عليه من رهبة الناس بقوله : ﴿ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ ﴾ ، لكون رهبة الله لازمة للعلم ، كما قال : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وسلب العلم عمن لم يعمل به في قوله : ﴿ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ ، وإذا تفقهوا ، وظهر علمهم على جوارحهم ، أثّر في غيرهم ، وتأثروا منه ، لارتوائهم به ، وترشحهم منه ، كما كان حال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلزم الإنذار الذي هو غايته . انتهى . ا هـ

﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 545 . 547 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

كان غالب ما تقدم من هذه السورة تحريضاً على الجهاد وتنديداً على المقصرين في شأنه ، وانتهى الكلام قبل هذا بتبرئة أهل المدينة والذين حولهم من التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا جرم كانت قوة الكلام مؤذنة بوجوب تمحض المسلمين للغزو .

وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها ، من أجل ذلك عُقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جُنداً ، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين ، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه ، والآخَرُ يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه ، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والسَّاسَة وأولي الرأي المهْتمين بتدبير ذلك السلطان ، ولذلك لم يثبت ملك اللمتونيين في الأندلس إلا قليلاً حتى تقلص ، ولم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المُدن التي فتحوها ووكَلوا أمر الدولة إليهم .

وإذ قد كانت الآية السابقة قد حرضت فريقاً من المسلمين على الالتفاف حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو لمصلحة نشر الإسلام ناسب أن يُذكر عقبها نَفْر فريق من المؤمنين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم للتفقه في الدين ليكونوا مرشدين لأقوامهم الذين دخلوا في الإسلام .

(234/352)

ومن محاسن هذا البيان أن قابل صيغة التحريض على الغزو بمثلها في التحريض على العلم إذْ افتتحت صيغة تحريض الغزو بلام الجحود في قوله : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ﴾ [التوبة : 120] الآية وافتتحت صيغة التحريض على العلم والتفقه بمثل ذلك إذ يقول : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ .

وهذه الجملة معطوفة على مجموع الكلام الذي قبلها فهي جملة ابتدائية مستأنفة لغرض جديد ناشىء عن قوله : ﴿ مالكم إذا قيل لكم انفروا ﴾ [التوبة : 38] ثم عن قوله : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا ﴾ [التوبة : 120] الخ .

ومعنى ﴿ أن يتخلفوا ﴾ هو أن لا ينفروا ، فناسب أن يذكر بعده ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ .

والمراد بالنفير في قوله : ﴿ لينفروا ﴾ وقوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ الخروج إلى الغزو المأخوذ من قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض ﴾ [التوبة : 38] أي وما كان المؤمنون لينفروا ذلك النفرَ كلُّهم .

فضمير ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يجوز أن يعود على قوله : ﴿ المؤمنون ﴾ ، أي ليتفقه المؤمنون .

والمراد ليتفقه منهم طائفة وهي الطائفة التي لم تنفر ، كما اقتضاه قوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ ، فهو عام مراد به الخصوص .

ويجوز أن يعود الضمير إلى مفهومٍ من الكلام من قوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ لأن مفهومه وبقيتْ طائفةً ليتفقهوا في الدين ، فأعيد الضمير على (طائفة) بصيغة الجمع نظراً إلى معنى طائفة ، كقوله تعالى : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ﴾ [الحجرات : 9] على تأويل اقتتل جمعهم .

(235/352)

ويجوز أن يكون المراد من النفرْ في قوله : ﴿ لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ نفْراً آخر غير النفر في سبيل الله ، وهو النفر للتفقه في الدين ، وتكون إعادةُ فعل (ينفروا

) و (نَفَر) من الاستخدام بقرينة قوله : ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ فيكون الضمير في قوله : ﴿ ليتفقهوا ﴾ عائداً إلى ﴿ طائفة ﴾ ويكون قوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ تمهيداً لقوله : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ .

وقد نقل عن أئمة المفسرين وأسباب النزول أقوال تجري على الاحتمالين .

والاعتماد في مراجع الضمائر على قرائن الكلام على عادة العرب في الإيجاز والاعتماد على فطنة السامع فإنهم أمة فطنة .

والإتيان بصيغة لام الجحود تأكيد للنفي ، وهو خبر مستعمل في النهي فتأكيده يفيد تأكيد النهي ، أي كونه نهياً جازماً يقتضي التحريم .

وذلك أنه كما كان النفْر للغزو واجباً لأن في تركه إضاعة مصلحة الأمة كذلك كان تركه من طائفة من المسلمين واجباً لأن في تمحض جميع المسلمين للغزو إضاعة مصلحة للأمة أيضاً ، فأفاد مجموع الكلامين أن النفْر للغزو واجب على الكفاية أي على طائفة كافية لتحصيل المقصد الشرعي منه ، وأن تركه متعين على طائفة كافية منهم لتحصيل المقصد الشرعي مما أمروا بالاشتغال به من العلم في وقت اشتغال الطائفة الأخرى بالغزو .

وهذا تقييد للإطلاق الذي في فعل (انفروا) ، أو تخصيص للعموم الذي في ضمير (انفروا) .

ولذلك كانت هذه الآية أصلاً في وجوب طلب العلم على طائفة عظيمة من المسلمين وجوباً على الكفاية ، أي على المقدار الكافي لتحصيل المقصد من ذلك الإيجاب .

(236/352)

وأشعر نفي وجوب النفْر على جميع المسلمين وإثباتُ إيجابه على طائفة من كل فرقة منهم بأن الذين يجب عليهم النفر ليسوا بأوفر عدداً من الذين يبقون للتفقه والإنذار ، وأن ليست إحدى الحالتين بأوْلى من الأخرى على الإطلاق فيعلم أن ذلك منوط بمقدار الحاجة الداعية للنفر ، وأن البقية باقية على الأصل ، فعلم منه أن النفير إلى الجهاد يكون بمقدار ما يقتضيه حال العدو المغزُو ، وأن الذين يبقون للتفقه يبقون بأكثر ما يستطاع ، وأن ذلك سواء .

ولا ينبغي الاعتماد على ما يخالف هذا التفسير من الأقوال في معنى الآية وموقعها من الآي السالفة .

ولولا : حرف تحْضيض .

والفرقة : الجماعة من الناس الذين تفرقوا عن غيرهم في المواطن ؛ فالقبيلة فرقة ، وأهل البلاد الواحدة فرقة .

والطائفة : الجماعة ، ولا تتقيد بعدد .

وتقدم عند قوله : ﴿ فلتقم طائفة منهم معك ﴾ في سورة النساء (102) .

وتنكير ﴿ طائفة ﴾ مؤذن بأن النفر للتفقه في الدين وما يترتب عليه من الإنذار واجب على الكفاية .

وتعيين مقدار الطائفة وضبط حد التفقه موكول إلى ولاة أمور الفرق فتتعين الطائفة بتعيينهم فهم أدرى بمقدار ما تتطلبه المصلحة المنوط بها وجوب الكفاية .

والتفقه : تكلف الفقاهة ، وهي مشتقة من فقه (بكسر القاف) إذا فهم ما يدق فهمه فهو فاقِهٌ .

فالفقه أخص من العلم ، ولذلك نجد في القرآن استعمال الفقه فيما يخفى علمه كقوله : ﴿ لا تفقهون تسبيحهم ﴾ [الإسراء : 44] ، ويجيء منه فقه بضم القاف إذا صار الفقه سجيته ، فقاهة فهو فقيه .

ولما كان مصير الفقه سجية لا يحصل إلا بمزاولة ما يبلغ إلى ذلك كانت صيغة التفعل المؤذنة بالتكلف متعينة لأن يكون المراد بها تكلف حصول الفقه ، أي الفهم في الدين .

وفي هذا إيماء إلى أن فهم الدين أمرٌ دقيق المسلك لا يحصل بسهولة ، ولذلك جاء في الحديث الصحيح " مَن يرد الله به خيراً يفَقِّهْه في الدِين " ، ولذلك جزم العلماء بأن الفقه أفضل العلوم .

وقد ضبط العلماء حقيقة الفقه بأنه العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية بالاجتهاد .

والإنذار : الإخبار بما يتوقع منه شر .

والمراد هنا الإنذار من المهلكات في الآخرة .

ومنه النذير .

وتقدم في قوله تعالى : ﴿ إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ﴾ في سورة البقرة (119) ، فالإنذار هو الموعظة ، وإنما اقتصر عليه لأنه أهم ، لأن التخلية مقدمة على التحْلية ، ولأنه ما من إرشاد إلى الخير إلا وهو يشتمل على إنذار من ضده .

ويدخل في معنى الإنذار تعليم الناس ما يميزون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخلطأ وذلك بأداء العالم بث علوم الدين للمتعلمين .

وحذف مفعول يحذرون ﴾ للتعميم ، أي يحذرون ما يُحذر ، وهو فعل المحرمات وترك الواجبات .

واقتصر على الحذر دون العمل للإنذار لأن مقتضى الإنذار التحذير ، وقد علمت أنه يفيد الأمرين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(238/352)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

هذه الآية جاءت عقب آيات المتخلفين عن الغزو مع رسول الله ، وجاءت بعد أن بيّن الله سبحانه مزايا المجاهدين وما يثيبهم الله به جزاء هذا الجهاد في قوله سبحانه : ﴿ مَا كَانَ لأَهْلِ المدينة وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ الأعراب أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذلك بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَأُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الكفار وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحسنين * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ الله أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : 120-121]

كانت تلك الحيثيات التي ترغّب الناس في الجهاد ترغيباً يخرجهم عما ألفوا من العيش في أوطانهم وبين أهليهم وأموالهم ؛ لأن الثمن الذي يتلقونه مقابل ذلك ثمن كبير ، ثم جاءت هذه

الآية .

وحينما استقبل العلماء هذه الآية قالوا : إنها تتمة لآيات الجهاد ، وما دام الله قد رغَّب في الجهاد هذا الترغيب ، فإن الناس أقسموا بعده ألا يتركوا غزوة من الغزوات ولا سرية من السرايا إلا ذهبوا إليها ، فنشأ عن ذلك أن المدينة كادت تخلو على رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستقبل وحي الله .

(239/352)

واستقبال وحي الله يقتضي وجود سامعين ليبلغوه ، فلما انصرف الناس إلى مسألة الجهاد أراد الله أن يعدل هذه الموجة من الرغبة في الجهاد ، فبيّن أن الإسلام مُنزَّل من الله على رسوله ليبلغه للناس ؛ لأن دين الله يحتاج إلى أمرين : أمر يحمله إلى الناس ، وأمر يثبت صدقه في الناس ، وحين يرى الناس إنساناً يضحى بنفسه ويدخل معركة ، وآخر يضحي بماله ، حينئذ يعلم الناس أن من يفعل ذلك لا بد أنه متيقن تمام التيقن من العقيدة التي يبذل في سبيلها الغالي والرخيص .

لكن يبقى أمر آخر ، هو ضرورة وجود من يحملون العلم بالإسلام ، فإذا كان المناضلون المضحّون بالنفس ، والمنفقون المضحّون بالمال هم دليل صدق الإيمان ، فهذا لا يعني

الاستغناء عن هؤلاء الذين عليهم أن يسمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوحي به الله .

إذن : فهناك منهج من الله ، وهناك استقبال لهذا المنهج من رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ومن السامعين لرسول الله ثانياً ؛ ليسيحوا به في البلاد ، سياحة إعلام بدين الله لنشر الإسلام ، وهكذا كانت الإقامة مع رسول الله هي استقبال لذلك الإعلام ، وإلا فماذا يُعْلِمون ؟

إذن : فلا بد أن يحافظ الملسمون على أمرين : أمر بقاء الاستقبال من السماء ، وأمر الإعلام بما استقبلوه إلى البلاد . فإن كنتم قد انصرفتم إلى الجهاد في سبيل الله فقد حقّقتم أمراً واحداً ، ولكنكم لم تحققوا الأمر الآخر وهو أن تظلوا ؛ لتستقبلوا من رسول الله .

فأراد الله سبحانه أن يقسم الأمرين بين مجاهدين يجاهدون للإعلام ، وباقين مع رسول الله ليستقبلوا إرسال السماء لهذه الأرض ، فقال : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً ﴾ .

وساعة تسمع "كَانَ" منفيةً فاعلم أنها جحود لهذه المسألة ، أي : ما كان يصح أن ينفر المسلمون كافة ، أي : جميعاً ، بدون أن يبقى منهم أحد .

(240/352)

و ﴿ كَآفَّةً ﴾ مأخوذة من كف الشيء ، وأنت تسمع خائط الثياب يقول : " أريد أن أكفّف الثوب " معنى هذا أن الخائط حين يقص القماش ، فهناك بعض من الخيوط تخرج منه ؛ فيكففها حتى لا يتفكك نسيج الثوب ، إذن : فمعنى كلمة ﴿ كَآفَّةً ﴾ : جميعاً .

ولنا أن نتساءل : لماذا لا ينفر المسلمون إلى الجهاد جميعاً ، أليس الجهاد إعلاماً بمنهج الله ؟

نقول : نعم هو إعلام وسياحة بمنهج الله في الأرض ، ولكن الذي يسيح للإعلام بمنهج الله لا بد أن تكون عنده حصيلة يُعْلم بها ، وهذه الحصيلة كانت تأتي في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من منهج السماء حين ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن : فلا بد من أناس يسمعون وحتى السماء ثم يعلمون به ويرسلونه لأهل الأرض جميعاً ، ولو انصرف كل هؤلاء المؤمنين إلى الجهاد لما تحقق أمر حمل الدعوة للإسلام ؛ لذلك قال الحق : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ وفي هذا نفي أمر فيه انبغاء أي : لهم قدرة عليه ، ويستطيعون تنفيذ ما يطلبه رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

ونحن نعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نشأ في أمة عربية لها فصاحة وبلاغة ، أمة بيان وأداء قويّ يسحر ، وكان في هذه الأمة كثيرون يتمتعون بموهبة الشعر والقول ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يشتهر بهذا ، وحاول بعضهم أن يقلل من فصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إنها فصاحة دون من خطب ، ودون من قال ، ودون

من شعر ، فجاء الرد عليهم من الحق : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشعر وَمَا يَنبَغِي لَهُ . . . ﴾ [يس : 69]

(241/352)

أي : أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يستطيع أن يتفوق في ذلك ، لكن الحق سبحانه لم يُعلِّمه الشعر ؛ لأنه لا ينبغي له أن يتعلَّمه ، لماذا ؟ لأن العرب يعلمون أن أعذب الشعر أكذبه ، وما دام أعذبه أكذبه ، فالحق سبحانه لا يريد أن يعلم الناس أن محمداً صلى الله عليه وسلم مُرْتاض على صناعة البيان أساليب الأدب ، وبعد ذلك يُفاجئ الدنيا بالبيان الأعلى في القرآن ، ويعلن صلى الله عليه وسلم أن هذا البيان ليس من عنده .

وقد عاش الرسول صلى الله عليه وسلم بينهم مدة طويلة ، ولم يسمعوا منه شعراً ، فكل ما جاء به بلاغاً عن الله لا يُنسب لمحمد ، ولكنه منسوب إلى رب محمد .

وقوله الحق : ﴿ وَمَا يَنبَغِي لَهُ ﴾ [يس : 69]

أي : لا يصح أن يكون الأمر ، رغم استعداد محمد صلى الله عليه وسلم ذلك ، وكان من الممكن أن يعلِّمه ربه الشعر وفنون القول ؛ ولذلك حينما قال أناس : إن القرآن من عند محمد ، جاء القول الحق مبلِّغاً محمداً : ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [

يونس : 16]

وقد عاش بينهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين عاماً ولم يقل قصيدة أو مقالة .

ومن الذي يستطيع أن يؤخر عبقريته إلى الأربعين ؟ نحن نعلم أن ميعاد بَدْء العبقرية إنما يظهر من قبل العشرين ، أي : في العقد الثاني من العمر ، ولا أحد يؤخر عبقريته .

إذن : فرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما نزل عليه القرآن بالترغيب في الجهاد كادت المدينة تخلو من المسلمين ؛ فجاء قوله الحق :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122]

(242/352)

وفي هذا القول الكريم محافظة على أمرين ؛ أمر استقبال وحي الله ، وأمر الإعلام به ، وبذلك يتنوع الجهاد ، طائفة تستقبل ، وطائفة تعلِّم وترسل ؛ لأنهم لو تركوا الرسول صلى الله عليه وسلم جميعاً ، فكيف يصل الوحي من الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المؤمنين ؟ ولو أنهم جلسوا جميعاً في المدينة فمن الذي يسيح في الأرض معلِّماً الناس ؟ أما إذا بقي الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنون معه ، في فترة لا قتال فيها ، فهذا أمر مختلف

؛ لأنها ستكون فترة استقبال فقط .

وكذلك إن خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القتال فعلى المؤمنين القادرين على القتال أن يصحبوه ؛ لأن الرسول القادر على استقبال الوحي من الله موجود معهم ، وكذلك الإعلام بالرسالة موجود .

إذن : فالمشكلة كانت في حالة عدم وجود رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الخارجين للجهاد ، فإذا ما خرج المقاتلون للجهاد ، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، فعليهم أن ينقسموا قسمين : قسماً يبقى مع رسول الله ليتعلم منهج الله ، وقسماً يخرج إلى القتال .

حين كان الرسول يخرج إلى اقلتال فالمهمة تسمى غزوة ، وإذا لم يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأرسل جماعة للقتال سُمِّيت العملية ب " السَّرِية " .

ولم يخرج عن التسمية بالسرية إلا عملية واحدة سُمِّيت غزوة ولم يخرج فيها رسول الله ، وكان المفروض أن تُسمى سرية ولكنها سميت غزوة .

وقد خرجت المهمة عن اصطلاح السرية إلى اصطلاح الغزوة ، رغم أن رسول الله لم يحضرها ؛ لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتي تحدث في الغزوات ، فقد كانت معركة حاسمة وقُتل فيها عدد من المسلمين ، وحمل الراية مقاتل واستشهد فحملها غيره وقتل ،

فحملها ثالث ، وكانت المعركة حامية الوطيس فقالوا : لا يمكن أن نسمي تلك المعركة ب " السَّرية " بل هي غزوة ؛ لأن فيها عنفاً شديداً .

(243/352)

لم يلحظوا شيئاً واحداً وهو أن التسمية بالغزوة انطبقت تمام الانطباق على مؤتة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في المدينة والمسلمون خارجون للغزو وأرسل إلى القوات : إن مات فلان في القتال فيليه فلان ، وإن مات فلان ففلان يخلفه ، أي : أنه صلى الله عليه وسلم قد سلسل أمور الغزوة قبل أن تبدأ .

وهي الحملة القتالية الوحيدة التي خرجت بهذه التعليمات ، من بين مثيلاتها ، من الحملات المحددة التي لم يخرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع المقاتلين ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم مُقدّماً بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال .

ثم وصلت الحملة إلى موقعها فسمعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم ؛ قال : أخذ الراية فلان فقُتل ، ثم أخذها بعده فلان فقُتِل . ثم قال : وأخذها بعده فلان ، وكان صلى الله عليه وسلم يقصّ المعركة وهو في المدينة فقالوا : لم يقل ذلك إلا لأنه شهد .

وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله صلى الله

عليه وسلم وهو جالس في المدينة ، وقد حدث مطابقاً غاية التطابق ، فقالوا : شهدها رسول الله ؛ وما دام قد شهدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي غزوة .

ونعود إلى الآية التي يقول فيها الحق :

﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين . . . ﴾ [التوبة : 122]

وساعة تسمع كلمة " لولا " فلك أن تعرف أن في اللغة ألفاظاً قريبة من بعضها ، ف " لو " و " لولا " و " لوما " و " هلاَّ " ، هي – إذن – ألفاظ واردة في اللغة ، وإذا سمعت كلمة " لو " فهذا يعني أن هناك حكماً بامتناع شيئين . شيء امتنع لامتناع شيء ، مثل قولك : " لو كان عندك زيد لجئتك " وهنا يمتنع مجيئك لامتناع مجيء زيد ، فكلمة " لو " حرف امتناع لامتناع ، وتقول : لو جئتني في بيتي لأكرمتك . إذن : فأنا لم أكرمك لأنك لم تأت .

(244/352)

وتقول : " لولا زيد عندك لجئتك " أي : أنه قد امتنع مجيئي لك لوجود زيد . إذن : ف " لولا " حرف امتناع لوجود . ونلحظ أن " لولا " هنا جاء بعدها اسم هو " زيد " ، فماذا إن جاء بعدها فعل ، مثل قولك : " لولا فعلت كذا " ؟ هنا يكون في القول حضٌّ على الفعل ، مثل قوله الحق : ﴿ لولا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ المؤمنون والمؤمنات بِأَنْفُسِهِمْ خَيْراً . . . ﴾ [

النور : 12]

ومثل قوله : ﴿ لَّوْلاَ جَآءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ . . . ﴾ [النور : 13]

ومثلها أيضاً " لوما " مثل قوله الحق :

﴿ لَّوْمَا تَأْتِينَا بِالملائكة إِن كُنتَ مِنَ الصادقين ﴾ [الحجر : 7]

وأيضاً قولك : " هَلَّ " . فهي أيضاً تحضيض مثل قولنا : " هلا ذاكرت دروسك " ؟ وأنت بذلك تستفهم ب (هل) ، وجئت بالمد لتصبح (هلاَّ) ؛ لتحثه على المذاكرة . أو قولك : " هلا أكرمت فلاناً ؟ " وفي هذا حَثٌّ على أن تكرم فلاناً .

والأسلوب هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يجمع المؤمنين ويقول لهم : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ﴾ ثم يأتي الحث على أن ينقسموا إلى قسمين في قوله : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ ، والقسمان يذهب أحدهما للإعلام وللجهاد . والقسم الثاني يظل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستقبل منهج السماء .

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ فيه كلمة ﴿ نَفَرَ ﴾ وهي من النفور . لكنها استعملت دائماً في مسألة الخروج للحرب ، مثل قول الحق : ﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفروا فِي سَبِيلِ الله اثاقلتم إِلَى الأرض أَرَضِيتُمْ بالحياوة الدنيا مِنَ الآخرة فَمَا مَتَاعُ الحياوة الدنيا فِي الآخرة إِلاَّ قَلِيلٌ * إِلاَّ تَنفِرُواْ . . . ﴾ [التوبة : 38-39]

ولماذا يجيء الحق بالنفرة في الجهاد ؟ نقول : لأن الذي يعوق الإنسان عن الجهاد حبه لدَعَته ، ولراحته ، ولسعادته بمكانه ، وبأهله ، وبماله ، فإذا ما خرج للقتال شَق ذلك على نفسه ، ولذلك يقول الحق : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ القتال وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ . . . ﴾ [البقرة : 216] وفي ذكر أمر الكُرْه إنصاف لهم ، فصحيح أن القتال أمر صعب ويكرهه الإنسان ، لكن الحق قد كتبه ، والمسلم إذا استحضر الجزاء عليه فهو يحتقر ما يتركه ؛ لأنه قليل بالنسبة لعطاء الله ؛ لذلك ينفر المؤمن الحق من الذي يملكه ، ويذهب للثواب الأعلى ، وهذا هو معنى التحديد في أنهم سمّوا الجهاد نفرة ، فحين يقارن المؤمن بين حصيلة ما يأخذه من الجهاد وما يمسكه عن الجهاد لتساءل : ما الذي يجعلني أتمسك بالأقل ما دام هناك عطاء أكثر ؟

فلما جاءت ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ فهموا أن هذه الآية من تتمة الكلام عن الجهاد ، ولتبقى طائفة من المؤمنين ؛ لتسمع من رسول الله الوحي ، وقد يتساءل المسلم حين يقرأ الآية ويجد قوله الحق : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ ، هنا يقول المسلم لنفسه : وهل تنفر الطائفة التي تتفقه في الدين ، إنها الفرقة الباقية والمستقرة مع رسول الله في المدينة ؟

ونجيب : إن قول الحق : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ

﴿ نجد فيه كلمة ﴿ فِرْقَةٍ ﴾ وهي الجماعة ، والجماعة إنما تنقسم إلى طوائف . مثلما نسمي في الجيوش " الفرقة الأولى " و " الفرقة الثانية " و " الفرقة الثالثة " ، ثم تنقسم الفرقة الواحدة إلى : " جماعة الاستطلاع " و " جماعة التموين " و " الشئون المعنوية " ، ونجد كلمة ﴿ طَآئِفَةٌ ﴾ وهي تعني " بعض الكثرة " .

(246/352)

وما دام الحق قد قال : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه قسمهم إلى طائفتين ، إحداهما تنفر ، والأخرى تبقى لتتفقه في الدين . إذن : فكأن أسلوب القرآن أسلوب أدائي كل ينفر لمهمته .

﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ يبين أن طائفة منهم تكون قتالية والأخرى إعلامية مهمتها ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ فمن يجلس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستمع إليه ، فهو يجهز للمقاتل حيثيات ما يجاهد على مقتضاه ، وحين يرجع المقاتلون يُبلِّغهم من جلس مع الرسول ما نزل عليه صلى الله عليه وسلم من وحي ، ويتناوب المسلمون الجلوس مع الرسول في المدينة ، والقتال ، وكل طائفة تؤدي مهمتها .

وهناك من العلماء من رأي رأياً آخر ، وأخذ المسألة كلها مكتملة على بعضها ، وقال : إن من بقي مع رسول الله له لون آخر من المجاهدة ، ولأنه يأخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم علْماً جديداً ، يتبادله مع المقاتلين في ساحة القتال بعد أن يعودوا ، فالمقاتلون في ساحة الجهاد يعودون بما يؤكد نصرة الله للقلة على الكثرة ، وإمداد الله سبحانه للمؤمنين بالملائكة ، وتهدم العدو ، والمعجزات التي رأوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم كنبوع الماء من بين أصابعه في حال قلة المياه عند العطش .

ثم إنهم يسمعون من المجاهدين الجالسين لتلقي العلم أخبار الوحي والفقه ، وهكذا يتكافأ المؤمنون في المهامن وكأنهم البنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً .

وما تقدم فهو فهم للآية إذا كانت خاصة بالجهاد ، فماذا إذا كان للآية موضوع آخر غير الجهاد ؟ نقول : إن الجهاد إعلام بمنهج الله في الأرض ، والإعلام بمنهج الله في الأرض يقتضي المنهج المعلوم من السماء الذي يوضح مصير المجاهدين ، ومصير المتخلفين . وهو هنا سبحانه يوضح أمر استقبال ما نجاهد من أجله .

(247/352)

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ أي : يذهب بعض المسلمين إلى البلاد التي حول المدينة ؛ ليقولوا للناس حقيقة الإسلام ، وأيضاً أن يأتي آخرون من البلاد الأخرى لِيَعْلَمُوا أمر الدين ، ويعلموه لأهاليهم .

ويكون قول الحق : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ مقصود به هؤلاء الذين يأتون من الأماكن البعيدة عن المدينة ؛ ليجلسوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمعوا ، ويتفقهوا في الدين ؛ ليرجعوا إلى مجتمعاتهم ، ويعلموهم أمور الإيمان .

إذن : فالآية إما أن تكون من تتمة آيات الجهاد ، وإما أن تكون أمراً مستقلاً للذين يبعد بهم المكان عن منبع المنهج ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم يعلِّم من يأتون إليه من أي مجتمع ؛ ليرجعوا بعد ذلك لقومهم ، ويبلغوهم مطلوبات المنهج ، وهذه مسألة بعيدة عن القتال .

إذن : تكون النفرة للتفقه في الدين على أي معنى ، ليس هناك فرق بين الطائفة الباقية التي تتفقه ؛ لتعلِّم الطائفة التي تجاهد ، أو الطائفة التي تجاهد تتفقه بالمعجزات وبالأحداث التي حدثت أثناء قتالهم وتعلمها للطائفة التي لم تخرج للقتال .

أو أن المعنى هو الأمر الثاني الذي لا قتال فيه ، بل يتناول أمر استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم لطائفة من كل بلد ليسمعوا منه صلى الله عليه وسلم ، وقد سماها الحق " نفرة

" ؛ لأنها جهاد في البحث في المنهج وتعلمه ، وهي نفرة النفرة ؛ لأن النفرة للجهاد بالقتال تتطلب فهماً لحيثيات الدفاع عن هذا المنهج المنزَّل من الله .

(248/352)

وقوله الحق : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ علمنا منه أن الفرقة هي الجماعة ، والجماعة إما أن تنقسم إلى أفراد وإما إلى طوائف ، والفرقة أقلها ثلاثة ؛ لأنها جمع . وحينما يذهب اثنان من هذه الفرقة للتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعودان للبلاغ عنه صلى الله عليه وسلم نكون أمام خبر من شاهدين اثنين بأن النبي قال كذا وأبلغ بكذا ، وكذلك قد يصح أن يكون المبلِّغ عن الرسول شاهداً واحداً ، واختلف العلماء المسلمون فيما بينهم ، هل يأخذون الخبر عن واحد فقط مبلِّغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا بد من الأخذ بالخبر من شاهدين اثنين ؟

وقد جاءت الآية صريحة في أنه ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ والفرقة أقلها ثلاثة ، والطائفة إما أن تكون اثنين وإما أن تكون شخصاً واحداً يرجع إلى قومه ؛ ليفقههم في الدين ، ويؤدي البلاغ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتحفَّظ البعض على ذلك بأن قالوا : إن الذي نفر ليس فرداً من الفرقة ، بل طائفة من الفرقة

، ومفردات الفرقة طوائف ولا واحد ، وكلمة طائفة مقصود بها الجماعة .

والنفرة لها علة محددة يذكرها الحق : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدين ﴾ فالتفقُّه إذن هو سبب النفرة ، مثلما نبعث بعثة في أي بلد متقدم ؛ لنأخذ بعلوم الحضارة ، فإن خرج واحد عن حدود البعثة ؛ ليلعب ، ويلهو ، فهو لم يحقق النفرة . لا بد إذن من ان يستوعب كل واحد في البعثة أنه قد جاء للتفقه .

والفقه في اللغة : هو الفهم ، ويقال عن أي أمر تفهمه : فقهتُ الأمر الفلاني . فإن فهمت في الهندسة فهذا فقه ، وإن فهمت في العلوم فهذا فقه ، ولكن المعنى الذي غلب هو الفقه لأحكام الله ؛ لأن هذا الأمر هو أهم أمور الحياة ، فالفقيه في الدين هو من يبيّن للناس حدود المنهج ب " افعل " و " لا تفعل " .

(249/352)

إذن : الفقه مطلقاً هو الفهم ، لكنه أصبح مصطلحاً يعني فهم أحكام الله ؛ لأنه هو الذي يحدد الصواب والخطأ . ولا يقال : " الفقيه " إلا لمن فَقُه . وهناك فرق بين فَقِه وفَقُه . فَقُهَ في دين الله ، أي : أصبح الفقه عنده ملكه ، وساعة تسأله في أي موضوع لا يتردد ، بل يجيب ؛ لأن الفقه صار ملكه عنده ، والملكة : الصفة التي ترسخ في النفس من مزاولة أي

عمل ؛ فيسهل أداء هذا العمل .

وكذلك الفقه . وهكذا نعرف أن معنى فَقِهَ : " فهم شيئاً " . أما فَقُهَ فمعناها : صار الفقه عند مَلَكَة .

وقوله الحق : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ أي : ليعلموا أحكام الله ، ويصير هذا العلم : من بعد ذلك مَلَكَة عندهم .

ولكنْ ماذا إن نفروا لشيء آخر مثلما ينفر واحد من البدو ليسأل جماعته : إلى أين تذهبون ؟ فيجيبون : نذهب إلى رسول الله لنسمع منه ، فيذهب معهم . لكنه لا يسمع بل يذهب هنا أو هناك ، ولا يجلس لتفقُّه العلم ، على الرغم من أن علّة نفوره مع غيره هي التفقّه في الدين ؛ وليعلم حقائق هذا الدين ؛ لينذر به قومه حين يعود إليهم ، فالفقيه لا يطلب جاهاً ، أو رئاسة ، أو وظيفة ، بل هو يبين للناس متطلبات الحركة على هذا المنهج الحق ، ولينذرهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ أي : يتجنَّبون ما يضرُّهم .

وحين ندقق في هذا الأمر نجده عدة مراحل : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ ﴾ هذه هي المرحلة الأولى ، ثم ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ هذه هي المرحلة الثانية وهي التفقه ، أما الثالثة ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رجعوا إِلَيْهِمْ ﴾ ، ومن تفقه لغير هذا ؛ ليشار إليه بالبنان مثلا ؛ نقول له : أنت من الذين قال الله فيهم : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأخسرين أَعْمَالاً * الذين ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياة الدنيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ [الكهف : 103-

[104]

إذن : فالتفقه يكون للدعوة تبشيراً وإنذاراً ؛ حتى يتجنب القوم ما يضرهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(250/352)

فائدة

قال التسترى :

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ [122] قال : ليتعلموا ما يحتاج إليه في أمر الدين .

وقد حكي عن الحسن البصري أنه قال : الفقيه الزاهد في الدنيا ، الراغب في الآخرة ، البصير في أمر دينه .

وسئل سهل عن معنى قوله صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، فقال : يعني علم الحال .

قيل : وما علم الحال ؟ قال : من الباطن الإخلاص ، ومن الظاهر الاقتداء ، فمن لم يكن ظاهره إمام باطنه ، وباطنه كمال ظاهره فهو في تعب من البدن .

قيل : وما تفسير ذلك ؟ قال : إن الله قائم عليك في سرك وعلانيتك وحركاتك وسكونك لا تغيب عنه طرفة عين ، كما قال : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ على كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : 33] .

وقال : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نجوى ثَلاَثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [المجادلة : 7] الآية ، وقال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوريد ﴾ [ق : 16] وهو العرق الذي في جوف القلب ، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق .

فإذا علمت ذلك ، ينبغي أن تستحي منه ، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس . فذكر العبد قيام الله عزَّ وجلَّ عليه ، فتركه إلاَّ دخل قلبه من علم حاله ما لو قسم ما أعطى ذلك العبد على أهل المدينة لسعدوا جميعاً وفازوا به ، وقد أشار إليه مالك بن أنس رضي الله عنهما حيث قال : ليس العلم بكثرة الرواية ، إنما العلم نور يجعله الله في القلب .

قيل له : كيف يعرف الرجل الحال والعلم به ؟ فقال : إذا كنت تتكلم فحالك الكلام ، وإذا سكت فحالك السكوت ، وإذا قمت فحالك القيام ، وإذا قعدت فحالك القعود ، والعلم به أن تنظر أن هذا الحال لله أو لغيره ، فإن كانت لله استقرت عليها ، وإن كانت لغيره تركتها ، وهو المحاسبة التي أمر بها عمر رضي الله عنه حيث قال : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا .

وقد كان عمر رضي الله عنه يضرب نفسه بالدرة في المحاسبة . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير التستري صـ 75 ﴾

(251/352)

" فصل "

قال السيوطي :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

أخرج أبو داود في ناسخه وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال : نسخ هؤلاء الآيات ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ [التوبة : 41] و ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ [التوبة : 39] قوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يقول : لتنفر طائفة ولتمكث طائفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالماكثون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين يتفقهون في الدين وينذرون اخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، لعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً

ويتركوا النبي صلى الله عليه وسلم وحده ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ يعني عصبة يعني السرايا فلا يسيرون إلا باذنه ، فإذا رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي صلى الله عليه وسلم ، قالوا : إن الله قد أنزل على نبيكم بعدنا قرآناً وقد تعلمناه ، فتمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم صلى الله عليه وسلم بعدهم ، ويبعث سرايا أخر ، فذلك قوله ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ يقول يتعلمون ما أنزل الله على نبيه ويعلمونه السرايا إذا رجعت إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ .

(252/352)

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ قال : ليست هذه الآية في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يحلوا بالمدينة من الجهد ويعتلوا بالإِسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم ، فأنزل الله تعالى يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم أنهم ليسوا بمؤمنين ، فردهم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : كان المؤمنون يحرضهم على الجهاد إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية خرجوا فيها وتركوا النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة في رقة من الناس ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أمروا إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم سرية أن تخرج طائفة وتقيم طائفة ، فيحفظ المقيمون على الذين خرجوا ما أنزل الله من القرآن وما يسن من السنن ، فإذا رجع اخوانهم أخبروهم بذلك وعلموهم ، وإذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتخلف عنه أحد إلا باذن أو عذر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ﴾ [التوبة : 39] ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ [التوبة : 120] الآية . قال المنافقون : هلك أهل البدو الذين تخلفوا عن محمد صلى الله عليه وسلم ولم يغزوا معه ، وقد كان ناس خرجوا إلى البدو وإلى قومهم يفقهونهم ، فأنزل الله تعالى ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية . ونزلت ﴿ والذين يحاجون في الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة ﴾ [الشورى : 16] الآية .

(253/352)

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ الآية . قال : ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خرجوا في البوادي ، فاصابوا من الناس معروفاً ومن الخصب ما ينتفعون به ، ودعوا من وجدوا من الناس إلى الهدى فقال لهم الناس : ما نراكم إلا قد تركتم أصحابكم وجئتونا . فوجدوا في أنفسهم من ذلك تحرجاً واقبلوا من البادية كلهم حتى دخلوا على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الله تعالى ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ﴾ خرج بعض وقعد بعض يبتغون الخير ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ وليسمعوا ما في الناس وما أنزل بعدهم ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ قال : الناس كلهم إذا رجعوا إليهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(254/352)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ ﴾ : " لولا " تحضيضية والمرادُ به الأمر . و " منهم "

يجوز أن يكون صفةً ل " فرقة " وأن يكون حالاً من " طائفة " لأنها في الأصل صفة لها ، وعلى كلا التقديرين فيتعلقُ بمحذوف . والذي ينبغي أن يُقال : إنَّ " من كل فرقة " حالٌ من طائفة ، و " منهم " صفة لفرقة ، ويجوز أن يكونَ " من كل " متعلقاً ب " نَفَرَ " .

وقوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ في هذا الضمير قولان ، أحدهما : أنه للطائفة النافرة على أن المرادَ بالنفور : النفور لطلب العلم ، وهو ظاهر . وقيل : الضمير في " ليتفَّقهوا " عائد على الطائفة القاعدة ، وفي " رَجَعوا " عائدٌ على النافرة ، والمراد بالنفور نفورُ الجهاد ، والمعنى : أن النافرين للجهاد إذا ذهبوا بقيت إخوانهم يتعلمون من رسول الله صلى الله عليه وسلم الفقه ، فإذا رَجَع الغازون أنذرهم المُعَلِّمون ، أي : علَّموهم الفقه والشَّرْع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 139 . 140 ﴾

(255/352)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122) ﴾

لو اشتغل الكُلُّ بالتَّفَقُّه في الدِّين لَتَعَطَّل عليهم المعاش ، ولبقي الكافة عن درك ذلك المطلوب ، فجعل ذلك فرضاً على الكفاية .

ويقال جعل المسلمين على مراتب : فعوامُّهم كالرعية للمَلِك ، وكَتَبَةُ الحديثِ كخُزَّان المَلِك ، وأهلُ القرآن كحُفَّاظ الدفاتر ونفائس الأموال ، والفقهاء بمنزلة الوكلاء للمَلِك إذ الفقيه (. . .) عن الله ، وعلماءُ الأصول كالقُوَّادِ وأمراء الجيوش ، والأولياءُ كأَركان الباب ، وأربابُ القلوبِ وأصحابُ الصفاء كخواص المَلِكِ وجُلَسائه .

فيشتغل قومٌ بحفظ أركان الشرع وآخرون بإمضاء الأحكام ، وآخرون بالردِّ على المخالفين ، وآخرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقوم مُفْرَدُون بحضور القلب وهم أصحاب الشهود ، وليس لهم شُغْلٌ ، يراعون مع الله أنفاسَهم وهم أصحاب الفراغ ، لا يستفزُّهم طَلَبٌ ولا يهزُّهم أَرَبٌ ، فَهُمْ بالله لله (1) ، وهم محو عما سوى الله .

وأمَّا الذين يتفقهون في الدِّين فهم الداعون إلى الله ، وإنما يُفْهِمُ الخَلْقَ عن الله مَنْ كان يَفْهَمْ عن الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 73 ﴾

---

(1) من هذا التصور ندرك شيئا هاما عند القشيري وعند الصوفية الخلص بعامة ، فهم لا يتصورون التصوف مذهبا يسود المجتمع بعامة فيكون الناس جميعا متصوفة ، بل إن دوره العضوى الهام فى كيان المجتمع محصور في طائفة مخصوصة يمتد اثرها إلى خارج نطاقها ،

والمقصود (بالشغل) و(الفراغ) أن يكونوا خالصين للّه ، وليس المقصود البطالة من العمل وعدم السعى للرزق .

(256/352)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

مثل اللّه إثابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشروى «1» . وروى : تاجرهم فأغلى لهم الثمن . وعن عمر رضى اللّه عنه فجعل لهم الصفقتين جميعاً . وعن الحسن أنفسا هو خلقها وأموالا هو رزقها . وروى أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد اللّه بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت «2» . قال : أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم . قال : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : لكم الجنة .

قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل . ومرّ برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أعرابىّ وهو يقرؤها فقال : كلام من ؟ قال كلام اللّه . قال : بيع واللّه مربح لا نقيله ولا نستقيله ، فخرج إلى

الغزو فاستشهد «3» يُقاتِلُونَ فيه معنى الأمر ، كقوله تُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ

---

(1) . قوله «في سبيله بالشروى» كالجدوى . في الصحاح والوشاح هي المثل . والظن أنها هنا اسم للاشتراء . (ع)

(2) . أخرجه الطبري من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره ، قال «لما بايعت الأنصار ليلة العقبة – فذكره

(3) . ذكره الثعلبي هكذا بلا سند عن البصري مرسلا لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه . قلت : أخرجه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق أبى شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر «نزلت هذه الآية على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو في المسجد إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى فكبر الناس في المسجد . فأقبل رجل من الأنصار . فقال :

أنزلت هذه الآية ؟ فقال : نعم ، فقال بيع رابح . لا نقيل ولا نستقيل» وأخرجه عبد بن حميد : حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة «لما نزلت هذه الآية إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى . . . قال رجل من الأنصار يا لها بيعة ، ما أربحها . واللّه لا نقيل ولا نستقيل» وأخرجه الطبري من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا : قال عبد اللّه ابن رواحة لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال : أشترط لربي أن

تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال الجنة قالوا : ربح البيع ، لا نقيل ولا نستقيل» .

(257/352)

وقرئ : فيقتلون ويقتلون على بناء الأوّل للفاعل والثاني للمفعول ، وعلى العكس وَعْداً مصدر مؤكد . أخبر بأن هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت قد أثبته فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ كما أثبته في القرآن ، ثم قال وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ لأنّ إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم ، فكيف بالغنى الذي لا يجوز عليه القبيح قط ، ولا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن منه وأبلغ .

[سورة التوبة (9) : آية 112]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

التَّائِبُونَ رفع على المدح . أى : هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين . ويدل عليه قراءة عبد اللّه وأبىّ رضى اللّه عنهما : التائبين ، بالياء إلى : والحافظين ، نصباً على المدح . ويجوز أن يكون جراً صفة للمؤمنين . وجوّز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف ، أى : التائبون

العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، كقوله وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنى وقيل : هو رفع على البدل من الضمير في يقاتلون . ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون ، وما بعده خبر بعد خبر ، أى : التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال . وعن الحسن : هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق . والْعابِدُونَ الذين عبدوا اللّه وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها . والسَّائِحُونَ الصائمون شبهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم . وقيل : هم طلبة العلم يسيحون في الأرض يطلبونه في مظانه .

[سورة التوبة (9) : آية 113]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113)

قيل قال صلى اللّه عليه وسلم لعمه أبى طالب : أنت أعظم الناس علىَّ حقاً ، وأحسنهم عندي

يداً ، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي ، فأبى ، فقال : لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه «1» ، فنزلت .

وقيل : لما افتتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً ؟ فقيل : أمك آمنة ، فزار قبرها بالأبواء ، ثم قام مستعبراً فقال : إنى استأذنت ربى في زيارة قبر أمى فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي ، فنزلت . وهذا أصح لأنّ موت أبى طالب كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل بالمدينة . وقيل : استغفر لأبيه . وقيل : قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوى قرابتنا وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ما كانَ لِلنَّبِيِّ ما صح له الاستغفار في حكم اللّه وحكمته مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ لأنهم ماتوا على الشرك .

[سورة التوبة (9) : آية 114]

وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

قرأ طلحة وما استغفر ابراهيم لأبيه ، وعنه : وما يستغفر إبراهيم ، على حكاية الحال الماضية إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ أى وعدها إبراهيم أباه ، وهو قوله لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ويدل عليه قراءة الحسن وحماد الرواية : وعدها أباه . فإن قلت كيف خفى على إبراهيم أن الاستغفار للكافر غير جائز حتى وعده ؟ قلت : يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان

جاز الاستغفار له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي ، لأن العقل يجوّز أن يغفر اللّه للكافر . ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه : لأستغفرنّ لك ما لم أنه . وعن الحسن قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : إن فلاناً يستغفر لآبائه المشركين ، فقال : ونحن نستغفر لهم فنزلت «2» وعن على رضى اللّه عنه : رأيت رجلا يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس قد استغفر إبراهيم «3» فإن قلت : فما معنى قوله فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ؟ قلت :

معناه : فلما تبين له من جهة الوحى أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاؤه عنه ، قطع استغفاره فهو كقوله مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ . لَأَوَّاهٌ فعال ، من أوه كلئال من اللؤلؤ ، وهو الذي يكثر التأوه . ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له ، مع شكاسته عليه «4» وقوله لأرجمنك .

---

(1) . متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه في حديث ، وغفل الحاكم فاستدركه .

(2) . لم أجده . [. . . . .]

(3) . أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد وابن أبى شيبة وأبو يعلى والبزار من طريق أبى الخليل عن على قال «سمعت رجلا يستغفر لأبويه – الحديث» .

(4) . قوله «مع شكاسته عليه» أي صعوبته . وفي الصحاح : رجل شكس - بالتسكين - أي صعب الخلق . (ع)

(259/352)

[سورة التوبة (9) : الآيات 115 إلى 116]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116)

يعنى ما أمر اللّه باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محظور لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضلالا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه بعد بيان حظره عليهم وعلمهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم . وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفي هذه الآية شديدة ما ينبغي أن يغفل عنها : وهي أنّ المهدىّ للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات اللّه داخل في حكم الإضلال .

والمراد بما يتقون : ما يجب اتقاؤه للنهى ، فأما ما يعلم بالعقل «1» كالصدق «2» في الخبر ، وردّ الوديعة فغير موقوف على التوقيف .

[سورة التوبة (9) : آية 117]

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117)

تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ كقوله لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وقوله وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وهو بعث للمؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي والمهاجرون والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند اللّه ، وأن صفة التوابين الأوّابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح . وقيل : معناه تاب اللّه عليه من إذنه للمنافقين في التخلف عنه ، كقوله عَفَا اللَّهُ عَنْكَ . فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ في وقتها ، والساعة مستعملة في معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم :

---

(1) . قال محمود : «فأما ما يدرك حظره بالعقل . . . الخ» قال أحمد : هذا تفريع على قاعدة التحسين والتقبيح ، وأن العقل حاكم ، والشرع كاشف لما غمض عليه ، تابع لمقتضاه . وهذه القاعدة قد سبق بطلانها في غير ما موضع ، واللّه الموفق .

(2) . قوله «فأما ما يعلم بالعقل كالصدق» مبنى على مذهب المعتزلة أن الحكم قد يعلم بالعقل وعند أهل السنة لا حكم قبل الشرع . (ع)

غَدَاةَ طَفَتْ عَلْمَاءِ بَكْرُ بْنُ وَائِلِ «1»

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً عَشِيَّةَ قَارَعْنَا جُذَامَ وَحِمْيَرَا «2»

إِذَا جَاءَ يَوْماً وَارِثِي يَبْتَغِي الْغِنَى يَجِدْ جُمْعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلْأَى وَلَا صِفْرِ «3»

---

(1) غداة طفت علماء بكر بن وائل وعاجت صدور الخيل شطر تميم

المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح. طفت - بالفاء - علت وارتفعت. ويروى بالغين، والمراد: العلو أيضاً. وعلماء: أصله على الماء، والمراد: ارتفع قدرهم في العز والمجد وانخفض غيرهم، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر. أو المعنى: أنهم طغوا بالغين على أطغى شيء كالماء، فالماء طاغ على الناس وهم طاغون عليه. وفيه دلالة على الشجاعة. وبكر بن وائل: اسم أبي قبيله سميت هي باسمه. والوائل: أصله السابق الملتجئ.

وعاجت: أي أمالت صدور خيلها. وإيقاع الموج على الصدور، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها.

وشطر: أي جهة قبيلة تميم.

(2) وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

لزفر بن الحرث الكلابي من التابعين شهد وقعة صفين وغيرها . ويقال في المثل : ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء تمرة فما هنا تلميح له . والمراد بالعشية : مطلق الزمن لا آخر النهار فقط ، لدلالة المقام على ذلك . والمقارعة : المضاربة بالرماح والسيوف . ويروى : ليالي لاقينا . وجذام : اسم قبيلة سميت به ، وهي من اليمن كانت تنزل جبال حسمى ، يقال : هي أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها . وحمير : أبو قبيلة أيضا سميت باسمه . ويروى : جذاما ، بالتنوين للضرورة .

والنبع : شجر تتخذ منه الرماح . يقول : كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم ، فقوله «كل بيضاء شحمة» استعارة تمثيلية لذلك . وعشية : نصب بحسبنا ، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تتكسر . وشبهها بما يصح منه الاباء على طريق الكناية . وأبت تخييل ، وبعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخذالهما . وقيل : إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى . فيكون الكلام كله بما فيه من المجاز والكناية ، منقول من هيئة التقاء الصفوف في الحرب إلى هيئة التقاء الضيفان مع المضياف وعدم عجزه عن قراهم على طريق التمثيل ، لكن العشية على حقيقتها . ومع توجيهنا له بذلك ، يبعده قوله «حسبنا كل بيضاء شحمة» وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة ، فإنها مصرحة بأن المعنى محاربتهم إياهم

ومكافأتهم لهم .

(3) إذا جاء يوما وارثي يبتغى الغنا يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرسا مثل العنان وصارما حساما إذا ما هز لم يرض بالهبر

وأسمر خطيا كأن كعوبه نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر

لحاتم الطائي . والمراد باليوم : مطلق الزمن ، بخلاف النهار فانه خاص بالمحدود الطرفين ، وهكذا غالب استعمال العرب ، والمراد بالغنى : التركة ، لأنها سببه . وجمع الكف – بالضم – : الكف المقبوضة ، فهو من إضافة الصفة للموصوف . والملأى : الممتلئة . وصفر الرجل – بالكسر – وأصفر فهو مصفر : افتقر . والصفر – بالضم ، وقيل بالكسر – : الخالي . والصارم : السيف القاطع . وحسم الشيء : قطعه بالحسام الشديد القطع . ويطلق على الحديد الحد . والهبر : قطع بضعة كثيرة من اللحم . والسمرة : لون بين البياض والأدمة . والخط : موضع تنسب له الرماح الجيدة . والكعب : ما بين العقدتين . والقسب : نوع من التمر صلب النوى . وريا الشيء وأربى : زاد ، وقد تقلب باؤه ميما ، كما روى : قد أرمى . وذراعا : تمييز ، أى زاد ذراعا على العشر الأذرع ، فيكون مقداره أحد عشر ذراعا ، والجملة وصف لأسمر . ويحتمل أنها حال من النوى ، أى : زاد النوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من النوى ، فذراعا حال في ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه النوى في هذه الحالة ، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب . ويجوز أن ذراعا تمييز محول عن

الفاعل ، أى : زاد كل ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب . يقول :

إذا طلب وارثي تركتي يجد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصا عليها ، فقوله «جمع كف» كناية عن ذلك غير ممتلئة عند من يحب المال ، وغير خالية عند ملاقى الأبطال ، ويجد الثاني بدل من الأول . وشبه فرسه بالعنان في الضمور والمكانة إذا هز أى حرك ، كناية عن الضرب به ، وشبهه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل : أى يجد فرسا ضامراً وسيفا قاطعا ورمحا طويلا أو صلبا . وجزم المضارع في جواب إذا وهو قليل .

(261/352)

والعسرة : حالهم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر : يعتقب العشرة على بعير واحد . وفي عسرة من الزاد : تزودوا التمر المدود والشعير المسوّس والإهالة الزنخة «1» ، وبلغت بهم الشدّة أن اقتسم التمرة اثنان ، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء . وفي عسرة من الماء ، حتى نحروا الإبل واعتصروا فروثها . وفي شدّة زمان ، من حمارّة القيظ ومن الجدب والقحط والضيقة الشديدة كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه . وفي «كاد» ضمير الشأن ، وشبهه سيبويه بقولهم :

ليس خلق اللّه مثله . وقرئ : يزيغ ، بالياء . وفي قراءة عبد اللّه : من بعد ما زاغت قلوب فريق منهم ، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبى لبابة وأمثاله ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ تكرير للتوكيد . ويجوز أن يكون الضمير للفريق : تاب عليهم لكيد ودتهم .

[سورة التوبة (9) : آية 118]

وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

الثَّلاثَةِ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى خُلِّفُوا خلفوا عن الغزو . وقيل : عن أبى لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم . وقرئ خُلِّفُوا أى خلفوا الغازين بالمدينة ، أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم «2» . وقرأ جعفر الصادق رضى اللّه عنه : خالفوا . وقرأ الأعمش : وعلى الثلاثة المخلفين بما رَحُبَتْ برحبها ، أى : مع سعتها ، وهو مثل للحيرة في أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا مما هم فيه وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ أى قلوبهم ، لا يسعها أنس ولا سرور ، لأنها حرجت من فرط الوحشة والغمّ

---

(1) . قوله «والاهالة الزنخة ، أى الدهن المنتن . وحمارة القيظ بتشديد الراء شدة حره» اه من الصحاح . (ع)

(2) . قوله «أو فسدوا من الخالفة وخلوف الفم» الخالفة : الذي لا خير فيه . وخلوف الفم : تغيره : اه من الصحاح . (ع)

(262/352)

وَظَنُّوا وعلموا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ سخط اللَّهِ إِلَّا إلى استغفاره ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرّة بعد أخرى ، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا ، وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة ، علماً منهم أن اللّه تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة . روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم . منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به . عن الحسن : بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال : يا حائطاه ، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك ، اذهب فأنت في سبيل اللّه . ولم يكن لآخر إلا أهله فقال : يا أهلاه ما بطأني ولا خلفني إلا الضنّ بك لا جرم ، واللّه لأكابدنّ المفاوز حتى ألحق برسول اللّه ، فركب ولحق به . ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال ، فقال يا نفس ما خلفني إلا حب الحياة لك واللّه لأكابدنّ الشدائد حتى ألحق برسول اللّه ، فتأبط زاده ولحق به . قال الحسن : كذلك واللّه المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصر عليها . وعن أبي ذرّ الغفاري : أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول اللّه صلى

اللّه عليه وسلم ماشياً ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما رأى سواده : كن أبا ذرّ ، فقال الناس : هو ذاك ، فقال : «رحم اللّه أبا ذرّ ، يمشى وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده» «1» وعن أبى خيثمة «2» أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء ، فرشت له في الظل ، وبسطت له الحصير ، وقربت إليه الرطب والماء البارد ، فنظر فقال :

ظل ظليل ، ورطب يانع ، وماء بارد ، وامرأة حسناء ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الضحّ والريح «3» : ما هذا بخير ، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح ، فمدّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم طرفه إلى الطريق ، فإذا براكب يزهاه السراب فقال : كن أبا خثيمة فكأنه . ففرح به رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واستغفر له . ومنهم من بقي لم يلحق به ، منهم الثلاثة قال كعب :

---

(1) . أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي في الدلائل ، قال : حدثني بريدة بن سفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد اللّه بن مسعود قال «لما سار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف - فذكره مطولا»

(2) . أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند . وذكره الواقدي في المغازي حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن أبى مالك عن أبيه عن جده قال سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك . فذكر القصة الطويلة وفيه وكان أبو خيثمة ويسمى عبد اللّه ابن خيثمة - السالمى رجع بعد أن سار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عشرة أيام ، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار

- فذكره وأخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال حدثني عبد اللّه بن أبى بكر بن عمرو بن حزم «أن أبا خيثمة سالم - فذكره . وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبى عن أبيه قال : تخلفت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في غزوة تبوك ، حتى مضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فدخلت حائطا - فذكر الحديث نحوه» وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل «فلما بلغ تبوك قال النبي صلى اللّه عليه وسلم : ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه : فبينما هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب . فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة .

(3) . قوله «في الضح والريح» الضح الشمس . ويزهاه السراب : يرفعه اه من الصحاح .

(ع)

(263/352)

لما قفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم سلمت عليه فردّ عليّ كالمغضب بعد ما ذكرني وقال : ليت شعري ما خلف كعباً ؟ فقيل له : ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفيه . فقال : معاذ اللّه ما أعلم إلا فضلا وإسلاماً «1» ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة ، فتنكر لنا

الناس ولم يكلمنا أحد من قريب ولا بعيد ، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ ، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بنداء من ذروة سلع «2» : أبشر يا كعب بن مالك ، فخررت ساجداً وكنت كما وصفني ربى ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وتتابعت البشارة ، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمين ، فقام إليّ طلحة بن عبيد اللّه يهرول حتى صافحنى وقال : لتهنك توبة اللّه عليك ، فلن أنساها لطلحة ، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر : «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك» ثم تلا علينا الآية . وعن أبى بكر الورّاق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال : إن تضيق على التائب الأرض بما رحبت ، وتضيق عليه نفسه ، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 119 إلى 121]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ

مَعَ الصَّادِقِينَ وقرئ : من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين اللّه نية وقولا وعملا ، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم للّه ورسوله على الطاعة من قوله رِجالٌ صَدَقُوا ما عاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ وقيل : هم الثلاثة ، أى كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم . وعن ابن عباس

---

(1) . متفق عليه من حديث عبد اللّه بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك مطولا ، وقال فيه فقال رجل من بنى سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت - الحديث» قال المخرج : الوهم فيه من المصنف . وأخرجه أحمد وفيه : فقال رجل من قومي يا رسول اللّه خلفه برداه والنظر في عطفيه» وأفاد الواقدي في المغازي : أن الذي قال ذلك عبد اللّه بن قيس .

(2) . قوله «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة ، اه من الصحاح . (ع) [. . . . .]

(264/352)

رضى اللّه عنه : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، أى كونوا مع المهاجرين والأنصار ، ووافقوهم وانتظموا في جملتهم ، واصدقوا مثل صدقهم . وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك . وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه «1» : ولا يصلح الكذب في جدّ ولا هزل ،

ولا أن يعد أحدكم صبيه ثم لا ينجزه. اقرموا إن شئتم: وكونوا مع الصادقين. فهل فيها من رخصة؟

وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ أمروا بأن يصحبوه على البأساء. والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعزُ نفس عند اللّه وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت «2» فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلا عن أن يربئوا «3» بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية ذِلكَ إشارة إلى ما دل عليه قوله: ما كان لهم أن يتخلفوا، من وجوب مشايعته، كأنه قيل ذلك الوجوب «ب» سبب بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ شيء من عطش، ولا تعب. ولا مجاعة في طريق الجهاد، ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم، ولا يتصرفون في أرضهم تصرفا يغيظهم ويضيق صدورهم وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ولا يرزءونهم شيئا بقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند اللّه، وذلك مما يوجب المشايعة. ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة، لا الوطء بالأقدام والحوافر، كقوله عليه السلام «4»: «آخر وطأة وطئها اللّه

بوج «5»» والموطئ إمّا مصدر كالمورد ، وإمّا مكان . فإن كان مكانا فمعنى يغيظ الكفار : يغيظهم وطؤه . والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً ، وأن يكون بمعنى المنيل .

ويقال : نال منه إذا رزأه ونقصه ، وهو عام في كل ما يسوؤهم وينكيهم ويلحق بهم ضرراً .

وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود

---

(1) . أخرجه الثعلبي من رواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبى عبيدة عن أبيه ، موقوفا وكذا أخرجه إسحاق في مسنده عن وهب ورواه البيهقي في الشعب مختصراً . ورواه الحاكم مرفوعا بما من رواية أبى الأحوص عن عبد اللّه بن مسعود رفعه «لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه» .

(2) . قوله «تتهافت» أى تتساقط . (ع)

(3) . قوله «يربئوا» أى يرتفعوا . اه من الصحاح . (ع)

(4) . أخرجه أحمد وابن سعد والطبراني والبيهقي في الأسماء من حديث يعلى بن مرة الثقفي في أثناء حديث وأخرجه إسحاق والبيهقي أيضاً والطبراني من رواية عمر بن عبد العزيز قال : زعمت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم .

(5) . قوله «بوج» هي بلد بالطائف اه صحاح . (ع)

ومشى وكلام وغير ذلك ، وكذلك الشر . وبهذه الآية استشهد أصحاب أبى حنيفة أنّ المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة ، لأنّ وطء ديارهم مما يغيظهم وينكى فيهم ، ولقد أسهم النبي صلى اللّه عليه وسلم لا بنى عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب «1» ، وأمدّ أبو بكر الصدّيق رضى اللّه عنه المهاجر بن أبى أمية وزياد بن أبى لبيد بعكرمة بن أبى جهل مع خمسمائة نفس ، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم «2» . عند الشافعي : لا يشارك المدد الغانمين . وقرأ عبيد ابن عمير : ظماء بالمدّ . يقال : ظمئ ظماءة وظماء وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً ولو تمرة ولو علاقة سوط وَلَا كَبِيرَةً مثل ما أنفق عثمان رضى اللّه عنه في جيش العسرة وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً أى أرضاً في ذهابهم ومجيئهم ، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ، وهو في الأصل «فاعل» من ودى إذا سال . ومنه الودي . وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض .

يقولون : لا تصلّ في وادى غيرك إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ ذلك من الإنفاق وقطع الوادي : ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله لِيَجْزِيَهُمُ متعلق بكتب أى أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 313. 322﴾

---

(1) . لم أره هكذا . وقد عزاه الطيبي لأبى داود والترمذي . وفي الصحيحين عن أبى

موسى بلغنا مخرج النبي صلى اللّه عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي . أنا أصغرهم – الحديث قال : فأسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر إلا أصحاب سفينتنا » .

(2) . أخرجه ابن أبى شيبة حدثنا عبد اللّه بن إدريس عن محمد بن إسحاق عن يزيد بن أبى حبيب «أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبى جهل ممدا للمهاجر بن أبى أمية ، وزياد بن أسد . فانتهوا إلى القوم وقد فتح عليهم . قال :

فأشركهم في الغنيمة» رواه الواقدي في المغازي : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عقبة عن الحرث بن فضيل قال : لما جاء كتاب زياد بن لبيد – فذكر نحوه .

(266/352)

قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما علمت المقاصد وتهيأت القلوب لقبول الفوائد ، وأمر بالإنذار بالفقه ، وكان من الناس

من لا يرجع إلا بشديد البأس ، أقبل على الكل مخاطباً لهم بأدنى أسنان القلوب ليتوجه إلى الأدنى ويتناول الأعلى منه من باب الأولى فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي ادَّعوا بألسنتهم الإيمان ﴿ قاتلوا ﴾ أي تصديقاً لدعواكم ذلك ﴿ الذين يلونكم ﴾ أي يقربون منكم ﴿ من الكفار ﴾ فالذين يلونهم إن لم تروا غيره أصلح لمعنى يعرض لما في ذلك من حسن الترتيب ومقتضى الحكمة ولأن الجهاد معروف وإحسان ، والأقربون أولى بالمعروف ، ولتبعدوا العدو عن بلادكم فيكثر صلاحهم ويقل فسادكم وتكونوا قد جمعتم بالتفقه والقتال بين الجهادين : جهاد الحجة وجهاد السيف مع الاحتراس بهذا الترتيب من أن يبقى وراءكم إذا قاتلتم من تخشون كيده .

ولما كانت الملاينة أولى بالمسالمة ، والمخاشنة أولى بالمصارمة ، قال : ﴿ وليجدوا ﴾ من الوجدان ﴿ فيكم غلظة ﴾ أي شدة وحمية لأن ذلك أهيب في صدورهم .

وأكف عن فجورهم ، وحقيقة الغلظة في الأجسام ، استعيرت هنا للشدة في الحرب ، وهي تجمع الجراءة والصبر على القتال وشدة العدواة ، فإذا فعلوا ذلك كانوا جامعين بين جهاد الحجة والسيف كما قيل :

من لا يعدله القرآن كان له . . .

من الصغار وبيض الهند تعديل

نبه على ذلك أبو حيان .

ولما كان التقدير : وليكن كل ذلك مع التقوى لا بسبب مال ولا جاه فإنها ملاك الأمر كله ، قال منبهاً على ذلك بقوله : ﴿ واعلموا أن الله ﴾ أي الذي له الكمال كله ﴿ مع المتقين ﴾ فلا تخافوا أن يؤدي شيء من مصاحبتها إلى وهن فإن العبرة بمن كان الله معه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 403.404 ﴾

(267/352)

فصل

قال الفخر :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

اعلم أنه نقل عن الحسن أنه قال : هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال المشركين كافة ، ثم إنها صارت منسوخة بقوله : ﴿ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ [التوبة : 36] وأما المحققون فإنهم أنكروا هذا النسخ وقالوا : إنه تعالى لما أمر بقتال المشركين كافة أرشدهم في ذلك الباب إلى الطريق الأصوب الأصلح ، وهو أن يبتدؤا من الأقرب فالأقرب ، منتقلاً إلى الأبعد فالأبعد .

ألا ترى أن أمر الدعوة وقع على هذا الترتيب قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [

الشعراء : 214] وأمر الغزوات وقع على هذا الترتيب لأنه عليه السلام حارب قومه ، ثم انتقل منهم إلى غزو سائر العرب ثم انتقل منهم إلى غزو الشام ، والصحابة رضي الله عنهم لما فرغوا من أمر الشأم دخلوا العراق .

وإنما قلنا : إن الابتداء بالغزو من المواضع القريبة أولى لوجوه : الأول : أن مقابلة الكل دفعة واحدة متعذرة ، ولما تساوى الكل في وجوب القتال لما فيهم من الكفر والمحاربة وامتنع الجمع ، وجب الترجيح ، والقرب مرجح ظاهر كما في الدعوة ، وكما في سائر المهمات ، ألا ترى أن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الابتداء بالحاضر أولى من الذهاب إلى البلاد البعيدة لهذا المهم ، فوجب الابتداء بالأقرب .

والثاني : أن الابتداء بالأقرب أولى لأن النفقات فيه أقل ، والحاجة إلى الدواب والآلات والأدوات أقل .

الثالث : أن الفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فقد عرضوا الذراري للفتنة .

(268/352)

الرابع : أن المجاورين لدار الإسلام إما أن يكونوا أقوياء أو ضعفاء ، فإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد وأكثر من تعرض الكفار المتباعدين ، والشر الأقوى الأكثر أولى بالدفع ، وإن كانوا ضعفاء كان استيلاء المسلمين عليهم أسهل ، وحصول عز الإسلام لسبب انكسارهم أقرب وأيسر ، فكان الابتداء بهم أولى .

الخامس : أن وقوف الإنسان على حال من يقرب منه أسهل من وقوفه على حال من يبعد منه ، وإذا كان كذلك كان اقتدار المسلمين على مقاتلة الأقربين أسهل لعلمهم بكيفية أحوالهم وبمقادير أسلحتهم وعدد عساكرهم .

السادس : أن دار الإسلام واسعة ، فإذا اشتغل أهل كل بلد بقتال من يقرب منهم من الكفار كانت المؤنة أسهل ، وحصول المقصود أيسر .

السابع : أنه إذا اجتمع واجبان وكان أحدهما أيسر حصولاً وجب تقديمه ، والقرب سبب السهولة ، فوجب الابتداء بالأقرب .

الثامن : أنا بينا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ابتدأ في الدعوة بالأقرب فالأقرب ، وفي الغزو بالأقرب فالأقرب ، وفي جميع المهمات كذلك .

فإن الأعرابي لما جلس على المائدة وكان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من تلك المائدة قال عليه السلام له : "كل مما يليك" فدلت هذه الوجوه على أن الابتداء بالأقرب فالأقرب واجب .

فإن قيل : ربما كان التخطي من الأقرب إلى الأبعد أصلح ، لأن الأبعد يقع في قلبه أنه إنما جاوز الأقرب لأنه لا يقيم له وزناً .

قلنا : ذاك احتمال واحد ، وما ذكرنا احتمالات كثيرة ، ومصالح الدنيا مبنية على ترجيح ما هو أكثر مصلحة على ما هو الأقل ، وهذا الذي قلناه إنما قلناه إذا تعذر الجمع بين مقاتلة الأقرب والأبعد ، أما إذا أمكن الجمع بين الكل ، فلا كلام في أن الأولى هو الجمع ، فثبت أن هذه الآية غير منسوخة ألبتة .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ قال الزجاج : فيها ثلاث لغات ، فتح الغين وضمها وكسرها .

(269/352)

قال صاحب "الكشاف" : الغلظة بالكسر الشدة العظيمة ، والغلظة كالضغطة ، والغلظة كالسخطة ، وهذه الآية تدل على الأمر بالتغليظ عليهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ واغلظ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 73] وقوله : ﴿ وَلاَ تَهِنُواْ ﴾ [آل عمران : 139] ، [النساء : 104] وقوله في صفة الصحابة – رضي الله عنهم – : ﴿ أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين ﴾ [المائدة : 54] وقوله : ﴿ أَشِدَّاء عَلَى الكفار ﴾ [الفتح : 29] وللمفسرين عبارات في

تفسير الغلظة ، قيل شجاعة وقيل شدة وقيل غيظاً .

واعلم أن الغلظة ضد الرقة ، وهي الشدة في إحلال النقمة ، والفائدة فيها أنها أقوى تأثيراً في الزجر والمنع عن القبيح ، ثم إن الأمر في هذا الباب لا يكون مطرداً ، بل قد يحتاج تارة إلى الرفق واللطف وأخرى إلى العنف ، ولهذا السبب قال : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ تنبيهاً على أنه لا يجوز الاقتصار على الغلظة ألبتة فإنه ينفر ويوجب تفرق القوم ، فقوله : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يدل على تقليل الغلظة ، كأنه قيل لا بد وأن يكونوا بحيث لو فتشوا على أخلاقكم وطبائعكم لوجدوا فيكم غلظة ، وهذا الكلام إنما يصح فيمن أكثر أحواله الرحمة والرأفة ، ومع ذلك فلا يخلو عن نوع غلظة .

واعلم أن هذه الغلظة إنما تعتبر فيما يتصل بالدعوة إلى الدين .

وذلك إما بإقامة الحجة والبينة ، وإما بالقتال والجهاد ، فإما أن يحصل هذا التغليظ فيما يتصل بالبيع والشراء والمجالسة والمؤاكلة فلا .

ثم قال : ﴿ واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ والمراد أن يكون إقدامه على الجهاد والقتال بسبب تقوى الله ، لا بسبب طلب المال والجاه ، فإذا رآه قبل الإسلام أحجم عن قتاله ، وإذا رآه مال إلى قبوله الجزية تركه ، وإذا كثر العدو أخذ الغنائم على وفق حكم الله تعالى .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 181 . 183 ﴾

وقال الجصاص :

قَوْله تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ خَصَّ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِلَّذِينَ يَلُونَهُمْ مِنْ الْكُفَّارِ ، وَقَالَ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ فَأَوْجَبَ قِتَالَ جَمِيعِ الْكُفَّارِ ، وَلَكِنَّهُ خَصَّ بِالذِّكْرِ الَّذِينَ يَلُونَنَا مِنْ الْكُفَّارِ ؛ إذْ كَانَ مَعْلُومًا أَنَّهُ لَا يُمَكِّنُنَا قِتَالُ جَمِيعِ الْكُفَّارِ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَأَنَّ الْمُمْكِنَ مِنْهُ هُوَ قِتَالُ طَائِفَةٍ فَكَانَ مِنْ قَرُبَ مِنْهُمْ ، أَوْلَى بِالْقِتَالِ مِمَّنْ بَعُدَ ؛ لِأَنَّ الِاشْتِغَالَ بِقِتَالِ مَنْ بَعُدَ مِنْهُمْ مَعَ تَرْكِ قِتَالِ مَنْ قَرُبَ لَا يُؤْمَنُ مَعَهُ هَجْمُ مَنْ قَرُبَ عَلَى ذَرَارِيِّ الْمُسْلِمِينَ وَنِسَائِهِمْ وَبِلَادِهِمْ إذَا خَلَتْ مِنْ الْمُجَاهِدِينَ ، فَلِذَلِكَ أَمَرَ بِقِتَالِ مَنْ قَرُبَ قَبْلَ قِتَالِ مَنْ بَعُدَ ، وَأَيْضًا لَا يَصِحُّ تَكْلِيفُ قِتَالِ الْأَبْعَدِ ؛ إذْ لَا حَدَّ لِلْأَبْعَدِ يُبْتَدَأُ مِنْهُ الْقِتَالُ كَمَا لِلْأَقْرَبِ .

وَأَيْضًا فَغَيْرُ مُمْكِنِ الْوُصُولُ إلَى قِتَالِ الْأَبْعَدِ إلَّا بَعْدَ قِتَالِ مَنْ قَرُبَ وَقَهْرِهِمْ وَإِذْلَالِهِمْ فَهَذِهِ الْوُجُوهُ كُلُّهَا تَقْتَضِي تَخْصِيصَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْأَقْرَبِ .

(271/352)

وقَوْله تَعَالَى : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ فِيهِ أَمْرٌ بِالْغِلْظَةِ عَلَى الْكُفَّارِ الَّذِينَ أَمَرَ بِقِتَالِهِمْ فِي الْقَوْلِ ، وَالْمُنَاظَرَةِ وَالرِّسَالَةِ ؛ إذْ كَانَ ذَلِكَ يُوقِعُ الْمَهَابَةَ لَنَا فِي صُدُورِهِمْ وَالرُّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَيَسْتَشْعِرُونَ مِنَّا بِهِ شِدَّةَ الِاسْتِبْصَارِ فِي الدِّينِ ، وَالْجِدِّ فِي قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ، وَمَتَى أَظْهَرُوا لَهُمْ اللِّينَ فِي الْقَوْلِ ، وَالْمُحَاوَرَةَ اسْتَجْرَءُوا عَلَيْهِمْ وَطَمِعُوا فِيهِمْ ، فَهَذَا حَدُّ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ السِّيرَةِ فِي عَدُوِّهِمْ آخِرَ سُورَةِ التَّوْبَةِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن للجصاص حـ 3 صـ ﴾

(272/352)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

قَدْ قَدَّمْنَا الْإِشَارَةَ إلَى أَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَوَامِرَ مُتَعَدِّدَةٍ مُخْتَلِفَةِ الْمُتَعَلَّقَاتِ ، فَقَالَ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ .

وَقَالَ : ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ ﴾ .

وَهَذَا كُلُّهُ صَحِيحٌ مُنَاسِبٌ ، وَالْمَقْصُودُ قِتَالُ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ لِجَمِيعِ الْكُفَّارِ ، وَقِتَالُ الْكُفَّارِ أَيْنَمَا وُجِدُوا ، وَقِتَالُ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ جُمْلَتِهِمْ ، وَهُمْ الرُّومُ ، وَبَعْضُ الْحُبْشَانِ ، وَذَلِكَ إنَّمَا يَتَكَيَّفُ لِوَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا : بِالِابْتِدَاءِ مِمَّنْ يَلِي ، فَيُقَاتِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مَنْ يَلِيهِ ، وَيَتَّفِقُ أَنْ يَبْدَأَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ بِالْأَهَمِّ مِمَّنْ يَلِيهِمْ ، أَوْ الَّذِينَ يُتَيَقَّنُ الظَّفَرُ بِهِمْ .

وَقَدْ سُئِلَ ابْنُ عُمَرَ بِمَنْ نَبْدَأُ بِالرُّومِ أَوْ بِالدَّيْلَمِ ؟ فَقَالَ : بِالرُّومِ .

وَقَدْ رُوِيَ فِي الْأَثَرِ : " اتْرُكُوا الرَّابِضِينَ مَا تَرَكُوكُمْ " يَعْنِي الرُّومَ وَالْحَبَشَ .

وَقَوْلُ ابْنِ عُمَرَ أَصَحُّ ، وَبُدَاءَتُهُ بِالرُّومِ قَبْلَ الدَّيْلَمِ لِثَلَاثَةِ أَوْجُهٍ : أَحَدُهَا : أَنَّهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ فَالْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ وَآكَدُ .

وَالثَّانِي : أَنَّهُمْ إلَيْنَا أَقْرَبُ ، أَعْنِي أَهْلَ الْمَدِينَةِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ بِلَادَ الْأَنْبِيَاءِ فِي بِلَادِهِمْ أَكْثَرُ ، فَاسْتِنْقَاذُهَا مِنْهُمْ أَوْجَبُ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾

يعني : ما حولكم وبقربكم ، وهم بنو قريظة والنضير وفدك وخيبر ، فأمر الله تعالى كل قوم بأن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار .

قال أبو جعفر الطحاوي : منع الله تعالى نبيه عن قتال الكفار بقوله : ﴿ وَلاَ تجادلوا أَهْلَ الكتاب إِلاَّ بالتى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ثم أباح قتال من يليه بقوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾ ، ثم أباح قتال جميعهم بقوله : ﴿ فَإِذَا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ واحصروهم واقعدوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصلاة وَءاتَوُاْ الزكواة فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ الله غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 5] ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ ، يعني : معين لهم ينصرهم على عدوهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ يا أيها الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾

أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب .

قال ابن عباس : مثل قريظة والنضير وخيبر وفدك ونحوها .

ابن عمر : أراد بهم الروم لأنهم كانوا سكان الشام يومئذ ، والشام كانت أقرب إلى المدينة من

العراق .

وكان الحسن إذا سئل عن قتال الروم والديلم تلا هذه الآية .

﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ شدة وحمية ، وقال الضحاك : جفاء ، وقال الحسن : صبراً على جهادهم ﴿ واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ بالعون والنصر . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(274/352)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَآمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾

فيهم أربعة أقاويل :

أحدها : أنهم الروم قاله ابن عمر .

الثاني : أنهم الديلم ، قاله الحسن .

الثالث : أنهم العرب ، قاله ابن زيد .

الرابع : أنه على العموم في قتال الأقرب فالأقرب والأدنى فالأدنى ، قاله قتادة . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(275/352)

وقال ابن عطية فى الآيتين :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

قالت فرقة : سبب هذه الآية أن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عز وجل : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ﴾ [الكهف : 62] أهمهم ذلك فنفروا إلى المدينة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم خشية أن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك ، وقالت فرقة ، سبب هذه الآية أن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا هلك أهل البوادي فنزلت هذه الآية مقيمة لعذر أهل البوادي .

(276/352)

قال القاضي أبو محمد : فيجيء قوله تعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم ﴾ [الكهف : 62] عموم في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر ، وتجيء هذه الآية

مبينة لذلك مطردة الألفاظ متصلة المعنى من قوله تعالى : ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ إلى قوله ﴿ يحذرون ﴾ بين في آخر الآية العموم الذي في أولها إذ هو معرض أن يتأول فيه ألا يتخلف بشر ، و" التفقه " هو من النافرين ، و" الإنذار " هو منهم ، والضمير في ﴿ رجعوا ﴾ لهم أيضاً ، وقالت فرقة هذه : الآية ليست في معنى الغزو وإنما سببها أن قبائل من العرب لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين أصابتهم مجاعة وشدة ، فنفروا إلى المدينة لمعنى المعاش فكادوا أن يفسدوها ، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أضرعه الجوع فنزلت الآية في ذلك ، فقال وما كان من صفته الإيمان لينفر مثل هذا النفر أي ليس هؤلاء المؤمنين ، وقال ابن عباس ما معناه : إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا ، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغزو ، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه أي يجب إذا تخلف ألا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً وإنما ينبغي أن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الباقية في الدين ، وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم ، وقالت فرقة : هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال ، والضمير في قوله ﴿ ليتفقهوا ﴾ عائد أيضاً على هذا التأويل على الطائفة المتخلفة مع النبي صلى عليه وسلم ، وهو القول الأول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة ، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأقوال على هذه ومع بعضها على هذه ، والجمهور على أن " التفقة " إنما بمشاهدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبته ، وقالت فرقة يشبه أن يكون "

التفقه " في الغزو في السرايا لما يرون من نصرة الله لدينه وإظهاره العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين

(277/352)

وعلمهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته في الله تعالى ، ورجحه الطبري وقواه ، والآخر أيضاً قوي ، والضمير في قوله ﴿ لينذروا ﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف ، و" الإنذار " عام للكفر والمعاصي والحذر منها أيضاً كذلك ، وقوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ الآية ، قيل هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة فهي من التدريج الذي كان في أول الإسلام .

قال القاضي أبو محمد : وهذا قول يضعفه هذه الآية من آخر ما نزل ، وقالت فرقة : إنما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ربما تجاوز قوماً من الكفار غازياً لقوم آخرين أبعد منهم ، فأمر الله تعالى بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة ، وقالت فرقة : الآية مبينة صورة القتال كافة وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة ، ومعناها أن الله تبارك وتعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يصاقبه من الكفرة ، وهذا هو القتال لكلمة الله ورد الناس إلى الإسلام ، وأما إذا مال العدو إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من

المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد ، وقال قائلو هذه المقالة : نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب إذ كانت العرب قد عمها الإسلام وكانت العراق بعيدة ، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفرس والديلم وغيرهما من الأمم ، وسأل ابن عمر رجل عن قتال الديلم فقال : عليك بالروم ، وقال الحسن : هم الروم والديلم .

(278/352)

قال القاضي أبو محمد : يعني في زمنه ذلك ، وقاله علي بن الحسين ، وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب ، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾ [التوبة : 29] إلى قوله ﴿ حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ﴾ [التوبة : 29] ، وقرأ جمهور الناس " غِلظة " بكسر الغين ، وقرأ المفضل عن عاصم والأعمش " غَلظة " بفتحها ، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي وأبان بن ثعلبة وابن أبي عبلة " غُلظة " بضمها ، وهي قراءة أبي حيوة ورواها المفضل عن عاصم أيضاً ، قال أبو حاتم رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو ، وفي هاتين القراءتين شذوذ وهي لغات ، ومعنى الكلام وليجدوا فيكم خشونة وبأساً ، وذلك مقصود به القتال ، ومنه ﴿ عذاب

غليظ ﴾ [إبراهيم : 17 ، لقمان : 24 ، فصلت : 50 ، هود : 58] و﴿ غليظ القلب ﴾ [آل عمران : 129] و﴿ غلاظ شداد ﴾ [التحريم : 6] في صفة الزبانية ، وغلظت علينا كبده في حفر الخندق إلى غير ذلك ، ثم وعد تعالى في آخر الآية وحض على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقى العدو ، وقد قال بعض الصحابة : إنما تقاتلون الناس بأعمالكم وأهلها هم المجدون في طرق الحق فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى ومن كان الله معه فلن يغلب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(279/352)

وقال ابن الجوزى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

قد أُمر بقتال الكفار على العموم ، وإنما يُبتدأ بالأقرب فالأقرب .

وفي المراد بمن يليهم خمسة أقوال .

أحدها : أنهم الروم ، قاله ابن عمر .

والثاني : قريظة ، والنضير ، وخيبر ، وفدك ، قاله ابن عباس .

والثالث : الديلم ، قاله الحسن .

والرابع : العرب ، قاله ابن زيد .

والخامس : أنه عام في قتال الأقرب فالأقرب ، قاله قتادة .

وقال الزجاج : في هذه الآية دليل على أنه ينبغي أن يقاتل أهل كل ثغر الذين يلونهم .

قال : وقيل كان النبي صلى الله عليه وسلم ربما تخطَّى في حربه الذين يلونه من الأعداء ليكون ذلك أهْيَبَ له ، فأُمر بقتال من يليه ليُستَنَّ بذلك .

وفي الغلظة ثلاث لغات : غِلظة ، بكسر الغين ؛ وبها قرأ الأكثرون .

وغَلَظة ، بفتح الغين ، رواها جبلة عن عاصم .

وغُلُظة بضم الغين ، رواها المفضل عن عاصم .

ومثلها : جِذوة وجَذوة وجُذوة ، ووِجنة ووَجنة ووُجنة ، ورِغوة ورَغوة ورُغوة ، ورِبوة ورَبوة ورُبوة ، وقِسوة وقَسوة وقُسوة ، وإِلوة وأَلوة وأُلوة ، في اليمين .

وشاةٌ لِجْبة ولَجْبة ولُجْبة : قد ولىَّ لبنها .

قال ابن عباس في قوله "غلظة" .

شجاعة وقال مجاهد : شدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(280/352)

وقال القرطبى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

فيه مسألة واحدة وهو أنه سبحانه عرّفهم كيفية الجهاد وأن الابتداء بالأقرب فالأقرب من العدوّ ؛ ولهذا بدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعرب ، فلما فرغ قصد الروم وكانوا بالشام .

وقال الحسن : نزلت قبل أن يؤمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بقتال المشركين ؛ فهي من التدريج الذي كان قبل الإسلام .

وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العربُ ، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم : ﴿ قَاتِلُواْ الذين لاَ يُؤْمِنُونَ بالله ﴾ [التوبة : 29] .

وقد رُوي عن ابن عمر أن المراد بذلك الدّيْلم .

ورُوي عنه أنه سئل بمن يبدأ بالروم أو بالديلم ؟ فقال بالرّوم .

وقال الحسن : هو قتال الديلم والترك والروم .

وقال قتادة : الآية على العموم في قتال الأقرب فالأقرب ، والأدنى فالأدنى .

قلت : قول قتادة هو ظاهر الآية ، واختار ابن العربي أن يبدأ بالروم قبل الدّيلم ؛ على ما قاله ابن عمر لثلاثة أوجه .

أحدها أنهم أهل كتاب ، فالحجة عليهم أكثر وآكد .

الثاني أنهم إلينا أقرب ، أعني أهل المدينة .

الثالث أن بلادنا الأنبياء في بلادهم أكثر فاستنقاذها منهم أوجب .

والله أعلم .

﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شدّة وقوة وحميّة .

وروى الفضل عن الأعمش وعاصم "غَلْظة" بفتح الغين وإسكان اللام .

قال الفرّاء : لغة أهل الحجاز وبني أسد بكسر الغين ؛ ولغة بني تميم "غُلظة" بضم الغين .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(281/352)

وقال الخازن :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾

أمروا بقتال الأقرب فالأقرب إليهم في الدار والنسب قال ابن عباس : مثل قريظة والنضير وخيبر ونحوها .

وقال ابن عمر : هم الروم لأنهم كانوا مكان الشأم والشأم أقرب إلى المدينة من العراق .

وقال بعضهم : هم الديلم .

وقال ابن زيد : كان الذين يلونهم من الكفار العرب فقاتلوهم حتى فرغوا منهم فأمروا بقتال أهل الكتاب وجهادهم حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد .

ونقل عن بعض العلماء أنه قال : نزلت هذه الآية قبل الأمر بقتال المشركين كافة فلما نزلت : ﴿ وقاتلوا المشركين كافة ﴾ صارت ناسخة لقوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ وقال المحققون من العلماء : لا وجه للنسخ ، لأنه سبحانه وتعالى لما أمرهم بقتال المشركين كافة أرشدهم إلى الطريق الأصوب الأصلح وهو أن يبدؤوا بقتال الأقرب فالأقرب حتى يصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبهذا الطريق يحصل الغرض من قتال المشركين كافة لأن قتالهم في دفعة واحدة لا يتصور ، ولهذا السبب قاتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أولاً قومه ، ثم انتقل منهم إلى قتال سائر العرب ثم انتقل إلى قتال أهل الكتاب وهم : قريظة ، والنضير ، وخيبر ، وفدك ، ثم انتقل إلى غزو الروم في الشأم فكان فتح الشأم في زمن الصحابة ثم إنهم انتقلوا إلى العراق ثم بعد ذلك إلى سائر الأمصار لأنه إذا قاتل الأقرب تقوى بما ينال منهم من الغنائم على الأبعد .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ يعني شدة وقوة وشجاعة والغلظة ضد الرقة .

وقال الحسن : صبراً على جهادهم ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ يعني بالعون والنصرة .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

وقال أبو حيان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾

لما خص تعالى على التفقه في الدين ، وحرض على رحلة طائفة من المؤمنين فيه ، أمر تعالى المؤمنين كافة بقتال من يليهم من الكفار ، فجمع من الجهاد جهاد الحجة وجهاد السيف .

وقال بعض الشعراء في ذلك :

من لا يعدله القرآن كان له . . .

من الصغار وبيض الهند تعديل

قيل : نزلت قبل الأمر بقتل الكفار كافة ، فهي من التدريج الذي كان في أول الإسلام .

وضعف هذا القول بأنّ هذه الآية من آخر ما نزل .

وقالت فرقة : إنما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ربما تجاوز قوماً من الكفار غازياً لقوم آخرين أبعد منهم ، فأمر الله بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة .

وقالت فرقة : الآية مبينة صورة القتال كافة ، فهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة ، ومعناها : أنّ الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن يقاتل كل فريق منهم الجيش الذي يضايقه من

الكفرة ، وهذا هو القتال لكملة الله ورد البأس إلى الإسلام .

وأما إذا مال العدو إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المؤمنين كفاية عدوّ ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد .

وقال : قاتلوا هذه المقالة نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام ، لأنهم كانوا يومئذ العدوّ الذي يلي ويقرب ، إذ كانت العرب قد عمها الإسلام ، وكانت العراق بعيدة ، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفرس والديلم وغيرهما من الأمم ، وسأل ابن عمر رجل عن قتال الديلم فقال : عليك بالروم .

وقال علي بن الحسين والحسن : هم الروم والديلم ، يعني في زمنه .

وقال ابن زيد : المراد بهذه الآية وقت نزولها العرب ، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم :

﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ﴾

إلى آخرها .

وقيل : هم قريظة والنضير وفدك وخيبر .

وقال قوم : تحرجوا أن يقاتلوا أقرباءهم وجيرانهم ، فأمروا بقتالهم .

(283/352)

ويلونكم : ظاهره القرب في المكان .

وقيل : هو عام في القرب في المكان ، والنسب والبداءة بقتال من يلي لأنه متعذر قتال كلهم دفعة واحدة ، وقد أمرنا بقتال كلهم ، فوجب الترجيح بالقرب كما في سائر المهمات كالدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولأن النفقات فيه ، والحاجة إلى الدواب والأدوات أقل ، ولأن قتال الأبعد تعريض لتدارك المسلمين إلى الفتنة ، ولأن الدين يكون إن كانوا ضعفاء كان الاستيلاء عليهم أسهل ، وحصول غير الإسلام أيسر .

وإن كانوا أقوياء كان تعرضهم لدار الإسلام أشد ، ولأن المعرفة بمن يلي آكد منها بمن بعد للوقوف على كيفية أحوالهم وعَددهم وعُددهم ، فترجحت البداءة بقتال من يلي على قتال من بعد .

وأمر تعالى المؤمنين بالغلظة على الكفار والشدّة عليهم كما قال تعالى : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وذلك ليكون ذلك أهيب وأوقع للفزع في قلوبهم .

وقال تعالى : ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ وفي الحديث : " ألقوا الكفار بوجوه مكفهرة " وقال تعالى ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا ﴾ وقال : ﴿ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ﴾ والغلظة : تجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة ، والغلظة حقيقة في الأجسام ، واستعيرت هنا للشدة في الحرب .

وقرأ الجمهور : غلظة بكسر الغين وهي لغة أسد ، والأعمش وأبان بن ثعلب والمفضل

كلاهما عن عاصم بفتحها وهي لغة الحجاز ، وأبو حيوة والسلمي وابن أبي عبلة والمفضل وابان أيضاً بضمها وهي لغة تميم ، وعن أبي عمر وثلاث اللغات ثم قال : واعلموا أنّ الله مع المتقين لينبه على أن يكون الحامل على القتال ووجود الغلظة إنما هو تقوى الله تعالى ، ومن اتقى الله كان الله معه بالنصر والتأييد ، ولا يقصد بقتاله الغنيمة ، ولا الفخر ، ولا إظهار البسالة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(284/352)

وقال أبو السعود :

﴿ يا أيها الذين ءامَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾

أُمروا بقتال الأقربِ منهم فالأقرب كما أُمر عليه الصلاة والسلام أولاً بإنذار عشيرِته فإن الأقربَ أحقُّ بالشفقة والاستصلاحِ . قيل : هم اليهودُ حوالي المدينة كبني قرُيظةَ والنّضير وخيبَر ، وقيل : الرومُ فإنهم كانوا يسكنون الشامَ وهو قريبٌ من المدينة بالنسبة إلى العراق وغيره ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شدة وصبراً على القتال وقرىء بفتح الغين كسَخْطة وبضمها وهما لغتان فيها ﴿ واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ بالعصمة والنصرة والمرادُ بهم إما المخاطَبون ، ووضعُ الظاهرِ موضعَ الضمير للتنصيص على أن الإيمانَ

والقتالَ على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادةِ بكونه من ومرة المتقين ، وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً والمرادُ بالمعية الولايةُ الدائمةُ ، وقد ذُكر وجهُ دخولِ مع على المتبوع في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(285/352)

وقال الآلوسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾

أي الذين يقربون منكم قرباً مكانياً وخص الأمر به مع قوله سبحانه في أول السورة : ﴿ اقتلوا المشركين حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ [التوبة : 5] ونحوه قيل : لأنه من المعلوم أنه لا يمكن قتال جميع الكفار وغزو جميع البلاد في زمان واحد فكان من قرب أولى ممن بعد ، ولأن ترك الأقرب والاشتغال بقتال إلا بعد لا يؤمن معه من الهجوم على الذراري والضعفاء ، وأيضاً الأبعد لا حد له بخلاف الأقرب فلا يؤمر به ، وقد لا يمكن قتال إلا بعد قبل قتال الأقرب ، وقال بعضهم : المراد قاتلوا الأقرب فالأقرب حتى تصلوا إلى الأبعد فالأبعد وبذلك يحصل الغرض من قتال المشركين كافة ، فهذا إرشاد إلى طريق تحصيله على الوجه الأصلح .

ومن هنا قاتل صلى الله عليه وسلم أولاً قومه ثم انتقل إلى قتال سائر العرب ثم إلى قتال قريظة .

والنضير .

وخيبر .

وأضرابهم ثم إلى قتال الروم فبدأ عليه الصلاة والسم بقتال الأقرب فالأقرب وجرى أصحابه على سننه صلى الله عليه وسلم إلى أن وصلت سراياهم وجيوشهم إلى ما شاء الله تعالى وعلى هذا فلا نسخ ، وروي عن الحسن أن الآية منسوخة بما تقدم والمحققون على أنه لا وجه له ، وزعم الخازن تبعاً لغيره أن المراد من الولي ما يعم القرب المكاني والنسبي وهو خلاف الظاهر ، وقيل : إنه خاص بالنسبي لأنها نزلت لما تحرج الناس من قتل أقربائهم ، ولا يخفى ضعفه .

(286/352)

﴿ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي شدة كما قال ابن عباس وهي مثلثة الغين ، وقرىء بذلك لكن السبعة على الكسر ، والمراد من الشدة ما يشمل الجراءة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر ونحو ذلك ، ومن هنا قالوا : إنها كلمة جامعة والأمر على حد لا أرينك

ههنا فليس المقصود أمر الكفار بأن يجدوا في المؤمنين ذلك بل أمر المؤمنين بالاتصاف بما ذكر حتى يجدهم الكفار متصفين به ﴿ واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ بالعصمة والنصرة ، والمراد بهم إما المخاطبون والإظهار للتنصيص على أن الإيمان والقتال على الوجه المذكور من باب التقوى والشهادة بكونهم من زمرة المتقين ، وإما الجنس وهم داخلون فيه دخولاً أولياً ، وأياً ما كان فالكلام تعليل وتأكيد لما قبله . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(287/352)

وقال الشوكانى فى الآيتين :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

اختلف المفسرون في معنى : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ فذهب جماعة إلى أنه من بقية أحكام الجهاد ؛ لأن سبحانه لما بالغ في الأمر بالجهاد والانتداب إلى الغزو ، كان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية من الكفار ينفرون جميعاً ويتركون المدينة خالية ، فأخبرهم الله سبحانه بأنه ما كان لهم ذلك ، أي ما صحّ لهم ، ولا استقام أن ينفروا جميعاً ، بل ينفر من كل فرقة منهم طائفة من تلك الفرقة ، ويبقى من عدا هذه الطائفة

النافرة .

قالوا : ويكون الضمير في قوله : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ عائداً إلى الفرقة الباقية .

والمعنى : أن الطائفة من هذه الفرقة تخرج إلى الغزو ، ومن بقي من الفرقة يقفون لطلب العلم ، ويعلمون الغزاة إذا رجعوا إليهم من الغزو ، أو يذهبون في طلبه إلى المكان الذي يجدون فيه من يتعلمون منه ، ليأخذوا عنه الفقه في الدين ، وينذروا قومهم وقت رجوعهم إليهم .

وذهب آخرون إلى أن هذه الآية ليست من بقية أحكام الجهاد ، وهي حكم مستقلّ بنفسه في مشروعية الخروج لطلب العلم ، والتفقه في الدين ، جعله الله سبحانه متصلاً بما دلّ على إيجاب الخروج إلى الجهاد ، فيكون السفر نوعين : الأوّل : سفر الجهاد ، والثاني : السفر لطلب العلم .

ولا شك أن وجوب الخروج لطلب العلم إنما يكون إذا لم يجد الطالب من يتعلم منه في الحضر من غير سفر .

والفقه : هو العلم بالأحكام الشرعية ، وبما يتوصل به إلى العلم بها من لغة ونحو ، وصرف وبيان وأصول .

ومعنى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ ﴾ فهلا نفر ، والطائفة في اللغة : الجماعة .

وقد جعل الله سبحانه الغرض من هذا هو التفقه في الدين ، وإنذار من لم يتفقه .

فجمع بين المقصدين الصالحين والمطلبين الصحيحين ، وهما تعلم العلم وتعليمه ، فمن كان غرضه بطلب العلم غير هذين ، فهو طالب لغرض دنيوي لا لغرض دينيّ ، فهو كما قلت :

وطالب الدنيا بعلم الدين أي بائس . . . كمن غدا لنعله يمسح بالقلانس

ومعنى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ الترجي لوقوع الحذر منهم عن التعريض فيما يجب فعله فيترك ، أو فيما يجب تركه فيفعل ، ثم أمر سبحانه المؤمنين بأن يجتهدوا في مقاتلة من يليهم من الكفار ، وأن يأخذوا في حربهم بالغلظة والشدّة ، والجهاد واجب لكل الكفار ، وإن كان الابتداء بمن يلي المجاهدين منهم أهمّ وأقدم ، ثم الأقرب فالأقرب ؛ ثم أخبرهم الله بما يقوّي عزائمهم ، ويثبت أقدامهم فقال : ﴿ واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ أي : بالنصرة لهم ، وتأييدهم على عدوّهم ، ومن كان الله معه لم يقم له شيء .

وقد أخرج أبو داود في ناسخه ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، قال : نسخ هؤلاء الآيات : ﴿ انفروا خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة : 41] و

﴿ إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ [التوبة : 39] قوله : ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً ﴾ يقول : لتنفر طائفة ، وتمكث طائفة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالماكثون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين يتفقهون في الدين ، وينذرون إخوانهم إذا رجعوا إليهم من الغزو ، ولعلهم يحذرون ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، والبيهقي ، عنه ، نحوه من طريق أخرى بسياق أتمّ .

(289/352)

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عنه ، أيضاً في هذه الآية قال : ليست هذه الآية في الجهاد ، ولكن لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مضر بالسنين ، أجدبت بلادهم ، فكانت القبيلة منهم تقبل بأسرها حتى يخلوا بالمدينة من الجهد ، ويقبلوا بالإسلام وهم كاذبون ، فضيقوا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجهدوهم ، فأنزل الله يخبر رسوله أنهم ليسوا بمؤمنين ، فردّهم إلى عشائرهم وحذر قومهم أن يفعلوا فعلهم ، فذلك قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ وفي الباب روايات عن جماعة من التابعين .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن قتادة ، في قوله : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُم ﴾ قال : الأدنى ، فالأدنى .

وأخرج أبو الشيخ ، عن الضحاك ، مثله .

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر ، أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول : ﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾ قال : " الروم " .

وأخرج ابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ قال : شدّة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(290/352)

وقال ابن عاشور :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

كان جميع بلاد العرب خلَص للإسلام قبل حجة الوداع ، فكانت تخوم بلاد الإسلام مجاورة لبلاد الشام مقرّ نصارى العرب ، وكانوا تحت حكم الروم ، فكانت غزوة تبوك أول غزوة للإسلام تجاوزت بلاد العرب إلى مشارف الشام ولم يكن فيها قتال ولكن وُضعت الجزية على أَيْلَةَ وبُصرى ، وكانت تلك الغزوة إرهاباً للنصارى ، ونزلت سورة براءة عقبها فكانت هذه الآية كالوصية بالاستمرار على غزو بلاد الكفر المجاورة لبلاد الإسلام بحيث كلَّما استقر بلد للإسلام وكان تُجاوره بلاد كفر كان حقاً على المسلمين غزو البلاد المجاورة .

ولذلك ابتدأ الخلفاء بفتح الشام ثم العراق ثم فارس ثم انثنوا إلى مصر ثم إلى إفريقية ثم الأندلس .

فالجملةُ مستأنفة استئنافاً ابتدائياً تكملة للأمر بما يتعين على المسلمين في ذيول غزوة تبوك .

وفي توجيه الخطاب للذين آمنوا دون النبي إيماء إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يغزو بعد ذلك وأن أجله الشريف قد اقترب .

ولعل في قوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ إيماء إلى التسلية على فقد نبيهم عليه الصلاة والسلام وأن الله معهم كقوله في الآية الأخرى ﴿ وسيجْزي الله الشاكرين ﴾ [آل عمران : 144] .

والغلظة بكسر الغين : الشدة الحسية والخشونة ، وهي مستعارة هنا للمعاملة الضارة ، كقوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] .

قال في "الكشاف" : وذلك يجمع الجرأة والصبر على القتال والعنف في القتل والأسر .

اه .

قلت : والمقصد من ذلك إلقاءُ الرعب في قلوب الأعداء حتى يخشوا عاقبة التصدي لقتال المسلمين .

ومعنى أمر المسلمين بحصول ما يجده الكافرون من غلظة المؤمنين عليهم هو أمر المؤمنين بأن يكونوا أشداء في قتالهم .

وهذه مبالغة في الأمر بالشدة لأنه أمر لهم بأن يجد الكفار فيهم الشدة .

وذلك الوجدان لا يتحقق إلا إذا كانت الغلظة بحيث تظهر وتَنال العدو فيحِس بها ، كقوله تعالى لموسى : ﴿ فلا يَصدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها ﴾ [طه : 16] .

وإنما وقعت هذه المبالغةِ لما عليه العدو من القوة ، فإن المقصود من الكفار هنا هم نصارى العرب وأنصارهم الروم ، وهم أصحاب عَدد وعُدد فلا يجدون الشدة من المؤمنين إلا إذا كانت شدة عظيمة .

ومن وراء صريح هذا الكلام تعريض بالتهديد للمنافقين ، إذ قد ظُهر على كفرهم وهم أشد قرباً من المؤمنين في المدينة .

وفي هذا السياق جاء قوله تعالى : ﴿ يا أيها النبيءُ جاهد الكفار والمنافقين واغلُظ عليهم ﴾ [التوبة : 73] .

وجملة : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ تأييد وتشجيع ووعد بالنصر إن اتقوا بامتثال الأمر بالجهاد .

وافتتحت الجملة بـ ﴿ اعلموا ﴾ للاهتمام بما يراد العلم به كما تقدم في قوله تعالى : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء ﴾ في سورة الأنفال (41) .

والمعية هنا معية النصر والتأييد ، كقوله تعالى : ﴿ إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ﴾ [التوبة : 40] .

وهذا تأييد لهم إذ قد علموا قوة الروم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ

﴾

(292/352)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

ينقلنا الحق هنا إلى الحديث عن الجهاد مرة أخرى . ولنا أن نتساءل : لماذا – إذن – جاء الحديث عن النفرة والفقه كفاصل بين حديث متصل عن الجهاد ؟ أجيب : شاء سبحانه هنا أن يعلمنا أن كل من ينفر ؛ لتعلُّم الفقه ، وليعلِّم غيره ؛ هذا المسلم في حاجة إلى مرحلة التعلُّم ، ومعرفة الأسباب التي يقاتل من أجلها المسلمون وحيثيات الجهاد في سبيل الله .

وقد قسَّم الحق سبحانه الناس في آيات الجهاد إلى قسمين : فرقة تنفر ، وطائفة منها تبقى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإذا استوى الأمر ، فرقة تجاهد ، وفرقة تَتَعَلم وتعلُّم ، وتبادل الفرقتان الخبرة الإيمانية والقتالية ، تصبح الملكات الإيمانية متساندة غير متعاندة ، ومن بعد ذلك يتجهون إلى الكفار .

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ ﴾ وهذا يعني أن هناك قوماً قريبين منهم ما زالوا

كافرين ، وهناك قوم أبعد منهم ، والحق قد قال : ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَآفَّةً . . . ﴾ [التوبة : 36]

إذن : فهناك أولويات في القتال ، وقتال الكفار القريبين منك تأمين معسكر الإيمان ؛ لذلك جاء الأمر بقتال الأقرب ؛ لأنه قتال لن يتطلب رواحل ولا مؤونة للسفر البعيد ، كما أن العدو القريب منك أنت أعلم بحال الكفار البعيدين عنك ؛ لذلك فأنت تعلم مواطن قوتهم وضعفهم ، وكيفية تحصيناتهم . فإذا تيسر أمر قتال العدو الأقرب كان ذلك طريقاً لمجابهة العدو الأبعد ، بدلاً من أن تواجه العدو البعيد ؛ فيتفق مع العدو القريب ، ويصنع الاثنان حولك "كماشة" بلغة الحرب ، فلا بد أن تحمي ظهرك أولاً ، من شر العدو الأقرب .

(293/352)

إذن : فلا تعارض بين محاربة العدو البعيد والعدو القريب . ولا تعارض بين قوله الحق : ﴿ قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ وَقَاتِلُواْ الْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً ﴾ ؛ لأن معنى ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي : جميعاً ، ولكن الجماعة لها أولوية . فخذ القريب منك ؛ لتضمه إليك ، فإذا كان الخصم معه سيف ومعك سيف ، وبعد ذلك دخلت المعركة فأوقعت سيفه من يده ؛ فأخذته ؛ فبذلك يصبح معك سيفان وهو لا سيف معه .

ولذلك يوضح الحق سبحانه وتعالى للكفار : اعتبروا أيها الكفار ، فأنتم لا ترون الأرض كل يوم وهي تنقص من تحت أقدامكم ، وما ينقص من أرض الكفار يزيد في أرض الإيمان . وما دام الحق قد جاء بكلمة " قتال " فهذه الكلمة تحتاج إلى عزيمة ، وجرأة تُجَرِّيء على القتال ، وصبر عليه ، فقد تجد في مواجهتك من هو أقوى منك أو من هو أشجع منك ، فإن رأى شجاعة منك تفوق شجاعتهن وأحسَّ منك قوة ومثابرة تفوق قوته ومثابرته ، فهذا ينزع من قلبه الأمل في الانتصار عليك ؛ ولذلك يقول الحق :

﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ والغلظة صفة ، ويقال : غِلْظَة ، وغُلْظَة ، وغَلْظَة ، والمعروف أنها الشدة ، فحين تضرب عدوكَ اضربه بقوة ، وبجرأة ، وبشجاعة .

وحين يحاول عدوك أن يضربك استقبلْ الضربة بتحمُّل ، وهكذا نجد أن الغلظة مطلوبة في حالتين اثنتين ؛ في حالة الإرسال منك ، وفي حالة الاستقبال منه ، فلا يكفي أن تضرب عدوك ضربة قوية ، وحين يردُّ لك الضربة تخور وتضعف . إن الحق يطلب منك غلظة تحمِلُ على عدوّك ، وغلظة تتحمَّل من عدوّك .

ولذلك نجد آية آل عمران يقول فيه الحق : ﴿ اصبروا . . . ﴾ [آل عمران : 200] ولكن هَبْ أن عدوَّك يصبر أيضاً ، فيأتي الأمر من الحق : ﴿ وَصَابِرُواْ . . . ﴾ [آل عمران : 200]

أي : حاول أن تغلبه في الصبر . وحذَّر الحقُّ من إلقاء السلاح بعد انتهاء المعركة ؛ لأن العدو قد يستنيم المؤمن ؛ لذلك جاء الأمر من الحق : ﴿ وَرَابِطُواْ . . . ﴾ [آل عمران : 200]

أي : استقر أيها المؤمن في الأرض ؛ ليعلم العدو أنك تنتظره إن حاول الكرّة من جديد أو حدّثته نفسه بالقتال مرة أخرى . إذن : فالغلظة تطلب منك أن تهاجم ، وتطلب منك أن تتحمّل ، والتحمُّل يقتضي صبراً ، والتحامل يقتضي شجاعة ، فإذا ما كان في خصمك صبر وشجاعة ؛ فعليك أن تصابره أي : تصبر أكثر منه ، وهي مأخوذه في الأصل من " نافس فلان فلاناً . . أي سابقه وحاول أن يسبقه " ، والمنافسة من النفس ، والحق يقول : ﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المتنافسون ﴾ [المطففين : 26]

أي : تنافسوا في الخير ، ونحن نعلم أن تركيبة النفس الإنسانية تحتاج إلى شيء مرة أو مرتين في اليوم ، وتحتاج إلى شيء ثالث دائماً . فأنت في الأكل تأكل ثلاث وجبات ، وفي الشراب تحتاج إلى لترين أو أربعة من الماء أو أكثر . أما التنفس فأنت لا تصبر على الانقطاع عنه ، وهو أهم الضروريات لحياة الإنسان .

وقلنا قديماً : إن من رحمة الله سبحانه وتعالى أنه قد يملك إنسان طعامَ إنسان ، وقد يستطيع الإنسان الصبر عن الطعام لأسابيع ، ولا يصبر الإنسان عن انقطاع الماء إلا أياماً

تتراوح من ثلاثة إلى عشرة ، حسب كمية المياه التي في جسمه ؛ لذلك لم يُملِّك الحق سبحانه الماء مثلما مَلَّك الطعام ، وأما الهواء فأنت لا تصبر على افتقاده للحظات ؛ ولذلك لم يملِّك الله الهواء لأحد أبداً ، وكأنه سبحانه علم أن عباده غير مأمونين على بعضهم البعض ، ولذلك سُمّي استنشاق الهواء وزفيره بالتنفس ، وهو من النفس ، وهو سبب وجود النفْس وهي مزيج من المادة والروح ، والأساس هو نَفَس الهواء الذي يضمن استمرار النفس في الحياة .

(295/352)

وإذا ما نافست العدو فأنت تصطاد الشيء النفيس ، وهو إعلاء منهج الله . وحين تصابر أهل الباطل ، فكل واحد من أهل الباطل قد يصابر لحاجة لمدة قصيرة ثم يتراجع ؛ لأن الباطل زهوق ، وهنا يقول سبحانه : ﴿ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ يفيد أن الغلظة ليست صفة دائمة ، بل تعني أنك تَطَلّبَ الأمُر فيجب أن تتوافر فيك ، وكذلك قلنا : إن الله لم يطبع المؤمن على الغلظة ، ولم يطبعه على الشدة ، ولم يطبعه على العزة ، بل قال :

﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الكفار رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ . . . ﴾ [الفتح : 29]

وقال : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى المؤمنين أَعِزَّةٍ عَلَى الكافرين . . . ﴾ [المائدة : 54]

ويُنهي الحق الآية :

﴿ واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ . إياك أن تفهم أنك تواجه أعداءك من الكفار بعددك وعُدَّتك ، ولكن العدد والعدة أمران مطلوبان ؛ لتدخل المعركة ، وعندك شيء من الاطمئنان . ومثال هذا من يسلك مفاوز أو صحاري مقفرة أو طريقاً موحشاً ، ويحتمل أن يصادف قُطَّاع طريق ، نجده يستعد بحمل سلاح ؛ فهو يعطيه شيئاً من الاطمئنان فقط ، وهكذا الحال مع العدد والعدة .

أما النصر فهو من المدد الرَّبَّاني من الحق سبحانه وتعالى . وما دام الله مع المتقين ، ولله معيَّة مع المتقين فلا بد أن يمدهم بمدده ؛ لذلك جاء الحق هنا بقوله : ﴿ أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ لننتبه إلى أن الداخل في الحق هو من سيسلك سلوكاً غليظاً مع الأعداء ، وقد يسلك بالغلظة طمعاً في المغنم ، فيدخل على الكافرة بالقسوة ، وقد يكون قلب هذا الكافر مستعداً للإيمان ، فيقول : أسلمت واستسلمت ، لكن من دخل عليه تعجبه مطية هذا الكافر ، ويعتبرها مغنماً .

(296/352)

لذلك يأتي التحذير في قول الحق سبحانه : ﴿ أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ فإن سلَّم لك واستسلم ؛ فاستأسره ، وإياك أن تؤذيه أو تأخذ معداته على أنها مغنم ، فأنت لم تذهب للقتال من أجل الغنائم ، أو لتكسب مكانة في مجتمعك كمقاتل ، بل أنت تقاتل حين يكون القتال مطلوباً ، وتسلك بالخلق الإيماني اللائق في إطار أنك من المتقين لله ، وتحارب لتكون كلمة الله هي العليا وهنا تكون معيه الله لك ﴿ أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ .

إذن : فالغلظة لا تعني أنها طبع أصبح فيك ، ولكن عدوك يجد فيك غلظة إن احتاج الأمر إلى غلظة . فإن لم يحتج الأمر إلى غلظة ؛ فلا بد أن يوجد في طبعك اللين والموادعة .

ولذلك يقولون : الرجل كل الرجل هو من كانت له في الحرب شجاعة ، وفي السلم وداعة ، وخيركم من كان في الجيش كميٌّ وفي البيت صبيّاً ، فلا يصطحب غلظته مع العدو إلى البيت والزوجة والأبناء ؛ لأن ذلك وضع للطاقة في غير مجالها .

هكذا نفهم قوله الحق :

﴿ يا أَيُّهَا الذين آمَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مِّنَ الكفار وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقين ﴾ [التوبة : 123]

أي : كونوا في حربكم غلاظاً بما يناسب الموقف ؛ لأن الحرب تتطلب القسوة والشدة ، ولكن إياك أن تستعمل هذه الأمور لصالحك ، ولكن استعملها لله ؛ لتضمن أن تكون في معية الله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ قال : الأدنى فالأدنى .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك . مثله .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : كان الذين يلونه من الكفار العرب ، فقاتلهم حتى فرغ منهم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد . أنه سئل عن قتال الديلم فقال : قاتلوهم فإنهم من الذين قال الله تعالى ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن . أنه كان إذا سئل عن قتال الروم والديلم ، تلا هذه الآية ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ﴾ قال : شدة .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عمر أنه سئل عن غزو الديلم فقال : سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ قال : الروم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ قال : شدة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(298/352)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلْيَجِدُوا ﴾ : وهو من باب " لا أُرَيَنَّك ههنا " وتقدَّم شرحه .

قوله : ﴿ غِلْظَةً ﴾ قرأها الجمهور بالكسر وهي لغة أشد . وقرأ الأعمش ، وأبان بن تغلب والمفضل كلاهما عن عاصم " غَلْظة " بفتحها ، وهي لغة الحجاز . وقرأ أبو حيوة والسلمي وابن أبي عبلة والمفضل وأبان في رواية عنهما " غُلظة " بالضم وهي لغة تميم . وحكى أبو عمرو اللغات الثلاث . والغِلظة : أصلها في الأَجْرام فاستعيرت هنا للشدة والصبر والتجلُّد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 140 ﴾

(299/352)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) ﴾

أقربُ الأعداء إلى المسلم من الكفار ، الذي يجب عليه منازعته هو أعدى عدوِّه أي نَفْسُه . فيجب أن يبدأ بمقاتلة نَفْسِه ثم بمجاهدة الكفار ، قال عليه السلام : " رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر " .

قوله : ﴿ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ من حابى عدوه قهره ، وكذلك المريد الذي ينزل عن مطالباتِ الحقيقة إلى ما يتطلبه من التأويلات فيفسخ عَهْدَه ، وينقض عَقْدَه ، وذلك كالرِّدَّةِ لأهل الظاهر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 73.74 ﴾

(300/352)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الثالث والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/353)

الجزء الثالث والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 124 ﴾ من سورة التوبة

وحتى الآية ﴿ 129 ﴾ آخر السورة الكريمة

(4/353)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر هذه السورة أي الطائفة الحاضة بصيغة " لولا " على النفر مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الآمرة بجهاد الكفار والغلظة عليهم ، وكان لا يحمل على ذلك إلا ما أشار إليه ختم الآية السالفة من التقوى بتجديد الإيمان كلما نزل شيء من القرآن ، وكان قد ذكر سبحانه المخالفين لأمر الجهاد بالتخلف دون أمر الإيمان حين قال ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين ﴾ التفت إلى ذلك ليذكر القسم الآخر وهو القاعد عن الإيمان فقال : ﴿ وإذا ﴾ وأكد بزيادة النافي تنبيهاً على فضل الإيمان فقال : ﴿ ما ﴾ .

ولما كان المنكي لهم مطلق النزول ، بني للمفعول قوله : ﴿ أنزلت سورة ﴾ أي قطعة من القرآن ، أي في معنى من المعاني ﴿ فمنهم ﴾ أي من المنزل إليهم ﴿ من يقول ﴾ أي إنكاراً واستهزاء ، وهم المنافقون ﴿ أيكم ﴾ أي أيها العصابة المنافقة ﴿ زادته هذه إيماناً ﴾ إيهاماً لأنهم متصفون بأصل الإيمان ، لأن الزيادة ضم الشيء إلى غيره مما يشاركه في صفته ،

هذا ما يظهرون تستراً ، وأما حقيقة حالهم عند أمثالهم فالاستهزاء استبعاداً لكونها تزيد أحداً في حاله شيئاً ، وسبب شكهم واستفهامهم أن سامعيها انقسموا إلى قسمين : مؤمنين ومنافقين ، ولذلك أجاب تعالى بقوله مسبباً عن إنزالها : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ أي أوقعوا الإيمان حقيقة لصحة أمزجة قلوبهم ﴿ فزادتهم ﴾ أي تلك السورة ﴿ إيماناً ﴾ أي بإيمانهم بها إلى ما كان لهم من الإيمان بغيرها وبتدبرها ورقة القلوب بها وفهم ما فيها من المعارف الموجبة لطمأنينة القلوب وثلج الصدور .

ولما كان المراد بالإيمان الحقيقة وكانت الزيادة مفهمة لمزيد عليه ، استغنى عن أن يقول : إلى إيمانهم ، لذلك ولدلالة ﴿ الذين آمنوا ﴾ عليه ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي يحصل لهم البشر بما زادتهم من الخير الباقي الذي لا يعدله شيء . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 405.404 ﴾

(5/353)

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر مخازي المنافقين وذكر أعمالهم القبيحة فقال : وإذا ما أنزلت سورة ، فمن المنافقين من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ واختلفوا فقال بعضهم : يقول بعض المنافقين لبعض ، ومقصودهم تثبيتهم قومهم على النفاق ، وقال آخرون : بل يقولونه لأقوام من المسلمين ، وغرضهم صرفهم عن الإيمان .

وقال آخرون : بل ذكروه على وجه الهزؤ ، والكل محتمل .

ولا يمكن حمله على الكل ، لأن حكاية الحال لا تفيد العموم .

ثم إنه تعالى أجاب فقال إنه حصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمران ، وحصل للكافرين أيضاً أمران .

أما الذي حصل للمؤمنين : فالأول : هو أنها تزيدهم إيماناً إذ لا بد عند نزولها من أن يقروا بها ويعترفوا بأنها حق من عند الله ، والكلام في زيادة الإيمان ونقصانه قد ذكرناه في أول سورة الأنفال بالاستقصاء .

والثاني : ما يحصل لهم من الاستبشار .

فمنهم من حمله على ثواب الآخرة ، ومنهم من حمله على ما يحصل في الدنيا من النصر والظفر ، ومنهم من حمله على الفرح والسرور الحاصل بسبب تلك التكاليف الزائدة من حيث إنه يتوسل به إلى مزيد في الثواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 183 ﴾

وقال السمرقندى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ ؛ أي من المنافقين ﴿ مَن يَقُولُ ﴾ بعضهم لبعض : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه ﴾ السورة ﴿ إيمانا ﴾ ، يعني : تصديقاً بهذه السورة مع تصديقكم استهزاء بها .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ يعني : أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ﴿ فَزَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ : يعني : تصديقاً بهذه السورة مع تصديقهم بالله تعالى وثباتاً على الإيمان .

﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ ، يفرحون بما أنزل من القرآن .

قال الفقيه : حدثنا محمد بن الفضل ، وأبو القاسم الشنابازي قالا : حدثنا فارس بن مردويه قال : حدثنا محمد بن الفضل العابد قال : حدثنا يحيى بن عيسى قال : حدثنا أبو مطيع ، عن حماد بن سلمة ، عن أبي المهزم ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : جاء وفد ثقيف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإيمان يزيد وينقص ؟ قال : " لا ، الإيمانُ مُكَمَّلٌ فِي القَلْبِ .

زِيَادَتُهُ وَنُقْصَانُهُ كُفْرٌ " .

قال الفقيه : حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد المستملي قال : حدثنا أبو عمران المؤدب الدستجردي قال : حدثنا صخر بن نوح قال : حدثنا مسلم بن سالم ، عن ابن الحويرث ، عن عون بن عبد الله قال : سمعت عمر بن عبد العزيز يقول في خطبته : لو كان الأمر على ما يقول الشكاك الضلال ؛ إن الذنوب تنقص الإيمان ، لأمسى أحدنا حين ينقلب إلى أهله وهو لا يدري ما ذهب من إيمانه أكثر أو أبقى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(7/353)

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ ﴾

قراءة العامة : برفع الياء لمكان الهاء وقرأ عبيد بن عمير : أيكم بفتح الياء وكلّ صواب ﴿ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ يقيناً وإخلاصاً وتصديقاً .

وقال الربيع : خشية ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يفرحون بنزول القرآن . عن الضحاك عن ابن عباس : (فإذا ما أنزلت سورة) يعني سورة محكمة فيها الحلال والحرام ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ

أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ وتصديقاً بالفرائض مع إيمانهم بالرحمن ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بنزول الفرائض . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فِمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾ .

هؤلاء هم المنافقون . وفي قولهم ذلك عند نزول السورة وجهان :

أحدهما : أنه قول بعضهم لبعض على وجه الإنكار ، قاله الحسن .

الثاني : أنهم يقولون ذلك لضعفاء المسلمين على وجه الاستهزاء .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَآمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ فيه تأويلان :

أحدهما : فزادتهم خشية ، قاله الربيع بن أنس .

الثاني : فزادتهم السورة إيماناً لأنهم قبل نزولها لم يكونوا مؤمنين بها ، قاله الطبري . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(8/353)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

(9/353)

هذه الآية نزلت في شأن المنافقين ، والضمير في قوله ﴿ فمنهم ﴾ عائد على المنافقين ، وقوله تعالى ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم ، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم وثقون بسترهم عليهم ويطعمون في ردهم إلى النفاق ، ومعنى ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول أي غريب في هذا أو أي دليل ، ثم ابتدأ عز وجل الرد عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأخبر أن المؤمنين الموقنين قد " زادتهم إيماناً " وأنهم ﴿ يستبشرون ﴾ من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه ، والزيادة في الإيمان موضع تخبط للناس وتطويل ، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه ، وإنما تقع الزيادة في المصدق به ، فإذا نزلت سورة من الله تعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبل ، فتصديقهم بما تضمنته السورة من إخبار وأمر ونهي أمر زائد على الذي كان عندهم قبل ، فهذا وجه من زيادة الإيمان ، ووجه آخر أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو

تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أدلة ، فإذا نزلت السورة زادت في أدلته ، وهذه أيضاً جهة أخرى من الزيادة ، وكلها خارجة عن نفس التصديق إذا حصل تاماً ، فإنه ليس يبقى فيه موضع زيادة ، ووجه آخر من وجوه الزيادة أن الرجل ربما عارضه شك يسير أو لاحت له شبهة مشغبة فإذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها ، فهذا أيضاً زيادة في الإيمان إذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إلى الخلوص منها ، وأما على قول من يسمي الطاعات إيماناً وذلك مجاز عند أهل السنة فتترتب الزيادة بالسورة إذ تتضمن أوامر ونواهي وأحكاماً ، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة ، فإن تعلم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(10/353)

وقال القرطبى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

"ما" صلة ، والمراد المنافقون .

﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَانًا ﴾ قد تقدّم القول في زيادة الإيمان ونقصانه في سورة "آل

عمران" .

وقد تقدّم معنى السورة في مقدمة الكتاب ، فلا معنى للإعادة .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز "إن للإيمان سنناً وفرائض من استكملها فقد استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان" قال عمر بن عبد العزيز : "فإن أعِشْ فسأبيّنها لكم ، وإن أمت فما أنا على صُحبتكم بحريص" .

ذكره البخاريّ .

وقال ابن المبارك : لم أجد بُداً من أن أقول بزيادة الإيمان ، وإلاَّ رددت القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

وقال الخازن :

قوله : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾

يعني : وإذا أنزل الله سورة من سورة القرآن فمن المنافقين من يقول يعني يقول بعضهم لبعض أيكم زادته هذه يعني السورة إيماناً يعني تصديقاً ويقيناً وإنما يقول ذلك المنافقون استهزاء وقيل : يقول ذلك المنافقون لبعض المؤمنين فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ يعني تصديقاً ويقيناً وقربة من الله ، ومعنى الزيادة ، ضم شيء إلى آخر من جنسه مما هو في صفته فالمؤمنون إذا أقروا بنزول سورة القرآن عن ثقة واعترفوا أنها من عند الله زادهم ذلك القرار والاعتراف إيماناً وقد تقدم بسط الكلام على زيادة الإيمان في

أول سورة الأنفال ﴿ وهم يستبشرون ﴾ يعني أن المؤمنين يفرحون بنزول القرآن شيئاً بعد شيء لأنهم كلما نزل ازدادوا إيماناً وذلك يوجب مزيد الثواب في الآخرة كما تحصل الزيادة في الإيمان بسبب نزول القرآن كذلك تحصل الزيادة في الكفر وهو قوله سبحانه ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(11/353)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من سور القرآن ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين ﴿ مَن يقُولُ ﴾ لإخوانه ليثبّتهم على النفاق أو لعوامّ المؤمنين وضعفتِهم ليصُدّهم عن الإيمان ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه ﴾ السورةُ ﴿ إيمانا ﴾ وقرىء بنصب أيّكم على تقدير فعلٍ يفسّره المذكورُ أي أيُّكم زادتْه هذه الخ ، وإيرادُ الزيادةِ مع أنه لا إيمانَ فيهم أصلاً باعتبار اعتقادِ المؤمنين حسبما نطَق به قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا المؤمنون الذين إِذَا ذُكِرَ الله وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءاياته زَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ جوابٌ من جهته سبحانه وتحقيقٌ للحق وتعيينٌ لحالهم عاجلاً وآجلاً أي فأما الذين آمنوا بالله تعالى وبما جاء من عنده ﴿ فَزَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ بزيادة العلمِ اليقينيِّ

الحاصلِ من التدبر فيها . والوقوفِ على ما فيها من الحقائق وانضمامِ إيمانِهم بما فيها بإيمانهم السابق ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بنزولها وبما فيه من المنافع الدينيةِ والدنيوية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(12/353)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من سور القرآن ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ أي من المنافقين كما روي عن قتادة .

وغيره ﴿ مَن يِقُولُ ﴾ على سبيل الإنكار والاستهزاء لإخوانه ليثبتهم على النفاق أو لضعفة المؤمنين ليصدهم عن الإيمان ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه ﴾ السورة ﴿ إيمانا ﴾ وقرأ عبيد بن عمير ﴿ أَيَّكُمْ ﴾ بالنصب على تقدير فعل يفسره المذكور ويقدر مؤخراً لأن الاستفهام له الصدر أي أيكم زادت زادته الخ .

واعتبار الزيادة على أول الاحتمالين في المخاطبين باعتبار اعتقاد المؤمنين ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ ﴾ جواب من جهته تعالى شأنه وتحقيق للحق وتعيين لحالهم عاجلاً وآجلاً .

وقال بعض المدققين : إن الآية دلت على أنهم مستهزئون وأن استهزاءهم منكر فجاء قوله

تعالى : ﴿ فَأَمَّا الذين ءامَنُواْ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ [التوبة : 125] الخ تفصيلاً لهذين القسمين ، وجعل ذلك الطيبي تفصيلاً لمحذوف وبينه بما لا يميل القلب إليه ، وأياً ما كان فجواب ﴿ إِذَا ﴾ جملة ﴿ فَمِنْهُمْ ﴾ الخ ، وليس هذا وما بعده عطفاً عليه ؛ أي فأما الذين آمنوا بالله سبحانه وبما جاء من عنده ﴿ فَزَادَتْهُمْ إِيمانا ﴾ أي تصديقاً لأن ذلك هو المتبادر من الإيمان كما قرر في محله .

(13/353)

وقبول التصديق نفسه الزيادة والنقص والشدة والضعف مما قال به جمع من المحققين وبه أقول لظواهر الآيات والأخبار ولو كشف لي الغطاء ما ازددت يقيناً ، ومن لم يقبل قبوله للزيادة ولم يدخل الأعمال في الإيمان قال : إن زيادته بزيادة متعلقه والمؤمن به ، وإليه يشير كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، قيل : ويلزمه أن لا يزيد اليوم لإكمال الدين وعدم تجدد متعلق وفيه نظر وإن قاله من تعقد عليه الخناصر وتعتقد بكلامه الضمائر ، ومن لم يقبل وأدخل الأعمال فالزيادة وكذا مقابلها ظاهرة عنده ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم ورفع درجاتهم بل هو لعمري أجدى من تفاريق العصا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

عطف على قوله : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطَّول منهم ﴾ [التوبة : 86] وهذا عود إلى بيان أحوال المنافقين وما بينهما اعتراضات .

وهذه الآية زيدت فيها (ما) عَقب (إذا) وزيادتها للتأكيد ، أي لتأكيد معنى (إذَا) وهو الشرط ، لأن هذا الخبر لغرابته كان خليقاً بالتأكيد ، ولأن المنافقين ينكرون صدوره منهم بخلاف الآية السابقة لأن مضمونها حكاية استيذانهم وهم لا ينكرونه .

ولم يذكر في هذه الآية إجمال ما اشتملت عليه السور التي أنزلت كما ذكر في قوله : ﴿ وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله ﴾ [التوبة : 86] .

ووجه ذلك أن سور القرآن كلها لا تخلو عن دعاء إلى الإيمان والصالحات والإعجاز ببلاغتها .

فالمراد إذا أنزلت سورة مَّا من القرآن .

وضمير ﴿ فمنهم ﴾ عائد إلى المنافقين للعلم بالمعاد من المقام ومن أواخر الكلام في قوله : ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ ، ولما في قوله قبل هذا : ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ [التوبة : 123] من التعريض بالمنافقين كما تقدم ، فالمنافقون خاطرون بذهن السامع فيكون الإتيان بضمير يعود عليهم تقوية لذلك التعريض .

وقولهم : ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ خطاب بعضهم لبعض على سبيل التهكم بالمؤمنين وبالقرآن ، لأن بعض آيات القرآن مصرحة بأن القرآن يزيد المؤمنين إيماناً قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً ﴾ [الأنفال : 2] .

ولعل المسلمين كانوا إذا سمعوا القرآن قالوا : قد ازددنا إيماناً ، كقول معاذ بن جبل للأسود بن هلال : اجلس بنا نُؤمن ساعة ، يعني بمذاكرة القرآن وأمور الدين (رواه البخاري في كتاب الإيمان) .

(15/353)

ولما كان الاستفهام في قولهم : ﴿ أيكم ﴾ للاستهزاء كان متضمناً معنى إنكار أن يكون نزول سور القرآن يزيد سامعيها إيماناً توهماً منهم بأن ما لا يزيدهم إيماناً لا يزيد غيرهم إيماناً ،

يقيسون على أحوال قلوبهم .

والفاء في قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ للتفريع على حكاية استفهامهم بحملهِ على ظاهر حاله وصرفه عن مقصدهم منه .

وتلك طريقة الأسلوب الحكيم ، وهو : تلقي المخاطب بغير ما يترقب بحمل كلامه على خلاف مراده لنكتة ، وهي هنا إبطال ما قصدوه من نفي أن تكون السورة تزيد أحداً إيماناً قياساً على أحوال قلوبهم فأجيب استفهامهم بهذا التفصيل المتفرع عليه ، فأثبت أن للسورة زيادة في إيمان بعض الناس وأكثرَ من الزيادة ، وهو حصول البشر لهم .

وارتُقِيَ في الجواب عن مقصدهم من الإنكار بأن السورة ليست منفياً عنها زيادة في إيمان بعض الناس فقط بل الأمر أشد إذ هي زائدة في كفرهم ، فالقِسم الأول المؤمنون زادتهم إيماناً وأكسبتهم بشرى فحصل من السورة لهم نفعان عظيمان ، والقسم الثاني الذين في قلوبهم مرض زادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون .

فالوجه أن تكون جملة ﴿ وهم يستبشرون ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ فزادتهم إيماناً ﴾ وأن تكون جملة : ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ معطوفة على جملة : ﴿ فزادتهم رجساً ﴾ لأن مضمون كلتا الجملتين مما أثرته السورة .

أما جملة : ﴿ وهم كافرون ﴾ فهي حال من ضمير ﴿ ماتوا ﴾ . انتهى انتهى . اهـ

﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾

قوله الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ ﴾ يعني : إذا نزلت ، ونعلم أن هناك " نَزَل " و " أَنْزل " و " نَزَّل " ف " أَنْزَل " للتعدية ، فالقرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا . ثم نزّله الحق نجوماً . فالتنزيل معناه : موالاة النزول لأبعاض القرآن ، فالقرآن قد أنزل كله ، ثم بعد ذلك نزله الحق ، ونزل به جبريل – عليه السلام – على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وقد جمعت الآية تنزيل الحق للقرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، ثم نزول جبريل – عليه السلام – بالقرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والحق سبحانه يقول : ﴿ وبالحق أَنْزَلْنَاهُ وبالحق نَزَلَ . . . ﴾ [الإسراء : 105]

وفي آية أخرى يقول سبحانه : ﴿ نَزَلَ بِهِ الروح الأمين ﴾ [الشعراء : 193]

وهنا يقول الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ والسورة هي الطائفة من القرآن المسورة بسور خاص ؛ أوله مثلاً : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ وآخره تأتي بعده سورة أخرى تبدأ بقوله الحق : ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ ومأخوذة من السور الذي يحدد المكان .

وهل المقصود بقوله الحق هنا نزول سورة كاملة من القرآن أم نزول بعض من القرآن ؟ إن المقصود هو نزول بعض من القرآن .

وتتابع الآية : ﴿ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ والمقصود بهذا المنافقون الذين رجعوا عن الإيمان . ونحن نعلم أن القرآن حق وأنه من عند الله ، وله أسر وفاعلية إشراقية في صفاء النفس ، وقد سمعه الكفار من قبل ، وشهدوا له ، أما المؤمنون فحين سمعوه فقد أسرهم .

(17/353)

وهذا الأمر بسبب الاستعداد لتلقيه ؛ لأن المسألة في كل الأحداث ليست من الفاعل وحده ، ولكن من الفاعل والقابل للفعل – ولله المثل الأعلى – أنت تأتي بمطرقة مثلاً ، وتطرق قطعة حديد فترق وتزيد مساحتها ، أما إن طرقت بالمطرقة قطعة صلب أقوى من المطرقة ؛ فلن تؤثر فيها .

إذن : فالطرق شيء وقابلية الطرق شيء آخر ، وهكذا لا بد للفاعل من قابل ، والمطلوب من القابل للشيء أن يستقبله بغير خصومة له نابعة من قلبه . فإذا أراد أحد أن يسمع القرآن فعليه أن يخرج ما في قلبه مما هو ضد القرآن ، ويضع القرآن وضده خارج قلبه وليسمع هذا

وهذا وما ينفذ إلى قلبه بعد هذا فليصدقه . لكن أن يستقبل القرآن بما في قلبه من كراهية القرآن ؛ فلن يتأثر به ، مثلما قابل بعض المنافقين القرآن وقالوا : لم نتأثر به .

وسبب هذا أن هناك ما يسمى بالحيز ، وعدم التداخل في الحيز ، فالقلب حيز لا يسع الشيء ونقيضه ، فلا تملأ قلبك ببغضك للدين ، ثم تقول : لقد سمعت القرآن ولم يؤثر فيَّ .

هنا نقول لك : أخرج من قلبك ما يكون ضد القرآن ، واجعل القرآن أيضاً خارج قلبك ، ثم انظر في الاثنين لترى ما الذي يستريح له قلبك ، لكن أن تكون مشحوناً ضد القرآن ثم تقول : إن القرآن لم يؤثر فيك ، فهذا يعني أنك لم تنتبه إلى الفرق بين الفاعل والقابل ، ولم تنتبه إلى ما يسمى بالحيز ، ومدى قدرته على الاستيعاب .

فالزجاجة ذات الفوهة الضيقة لا تستقبل بداخلها الماء إن أغرقتها فيه ؛ لأن ضيق الفوهة لا يساعد الهواء الذي بداخلها على الخروج ، ولا يساعد الماء على الدخول ؛ لأن الماء لن يدخل إلا إذا خرج الهواء ؛ لذلك لا بد أن تكون فوهة الزجاجة واسعة تسمح بخروج الهواء ودخول الماء ، وعند ذلك سترى فقاقيع الهواء وهي تعلو الفوهة . وإذا كان الأمر كذلك في الحسيات ، فما بالك في الأمور المعنوية وهي مثل الأمور الحسية .

(18/353)

إذن : فأخْرِج ما يناقض الحق من قَلْبك ، واجعل الباطل والحق خارجاً ، ثم استقبل الاثنين . لا يمكن لك في مثل هذه الحالة إلا أن تستقبل الحق . ويصف سبحانه المصرين على الكفر : ﴿ وَطَبَعَ اللهُ على قُلُوبِهِمْ . . . ﴾ [التوبة : 93]

أي : أن ما هو خارج هذه القلوب لا يدخل إليها ، وما في داخلها لا يخرج منها .

إذن : ما دام الحق قد ختم على قلوبهم ؛ فلن تفتح هذه القلوب للإيمان ، وستظل محتفظة بالكفر . فإذا كان من هؤلاء الكافرين أو المنافقين من يسمع القرآن ، ولا يأسره بيانه ؛ فذلك بسبب عجزهم عن النظر إلى ما فيه من معان وقيم ؛ لأن الإنسان حينما يسمع القرآن ، وتكون نفسه صافية ليس فيها ما يشوش على ما في القرآن من جاذبية وبيان يؤثر فيه وتطمئن إليه نفسه .

ولذلك حين قرأ عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – القرآن ، وكان من قبل ذلك شديداً على الإسلام ، ثم ذهب إلى أخته ؛ ليتحقق من أمر إسلامها ، وحين سال منها الدم رقت عاطفته لها ، ثم قرأ القرآن فاستقر في قلبه .

إذن : لا بد أن تخرج ما في ذهنك أولاً ؛ لتستقبل القرآن . فإذا ما أنزلت سورة يستقبلها المؤمن بصفاء . أما الكافرون والمنافقون ، فمنهم من يقول : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ وتعطينا الآية معنى أننا أمام فريقين : واحد يقرأ ، والثاني يسمع . ونفهم من سياق الآية أن الذي يتساءل مثل هذا السؤال إنما يوجه لفريقين : أحدهما من ضعاف الإيمان ، أو حديثي

الإسلام ، أو المنافقين ، وهؤلاء هم الذين لم يُخْرجوا الكفر أو بعضه من قلوبهم ، وقابلية بعضهم لاستقبال الإيمان لم تتأكد بعد ، ومنهم من قال فيهم الحق : ﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حتى إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ العلم مَاذَا قَالَ آنِفاً . . . ﴾ [محمد : 16] ويقول : ﴿ والذين لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . . ﴾ [فصلت : 44]

(19/353)

إذن : الفاعل شيء ، والقابل شيء آخر . هم سمعوا القرآن بدليل أن الحق يقول : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ وسياق الآية يوحي لنا أن هناك همساً من بعضهم : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ وهذا الهمس يأتي بلهجة المستهزئ ، وقائل الهمس يعني أن سماعه للقرآن لم يزد شيئاً عنده ، ولم ينقص ، وهو يهمس لمنافق مثله ، أو لضعيف الإيمان ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ فيرد الله على القضية النفسية ، ويعلمنا أنه سبحانه قد قسم الناس قسمين : قسم كافر أو منافق ، وهذا القسم يزيده القرآن كفراً ، أما القسم المؤمن ؛ فاستقباله للقرآن يزيد من إيمانه .

إذن : الفاعل شيء والقابل مختلف . ووقف العلماء أمام هذه الآية موقفاً فيه اختلاف بينهم ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ فقال بعضهم : إن

الإيمان ينقص ويزيد ، وقال بعضهم : إن الإيمان لا ينقص ولا يزيد ، وقامت معركة بين علماء الكلام ، ولا تتسرب معركة بين عقلاء إلا إذا كانت جهة الفهم في الأمر الذي يختلفون فيه منفكة ، فمنهم من يذهب فكره إلى ناحية ، ومنهم من يتجه فكره إلى ناحية أخرى .

فالذين قالوا : إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، فلحظة أن يتألق الإيمان في القلب ؛ يستقر فيه ، وهو الإيمان بالله ، وأن لا إله إلا الله ولا معبود سواه ، وأن محمداً رسوله المبلغ عنه ؛ هذا الإيمان لا يزيد ولا ينقص . والمثال : هو قول الإمام علي كرم الله وجهه : لو انكشف عني الحجاب ما ازدادت يقيناً .

أما العلماء الذين قالوا بأن الإيمان يزيد ولا ينقص ، فقد قصدوا بذلك تطبيق مستلزمات الإيمان من الآيات ، فكل آية تحتاج ممن يصدقها أن يكون مؤمناً بالله أولاً ، ثم ينفذ متطلبات الآية .

(20/353)

وكل المسلمين مؤمنون بالله ، ولكن في جزئيات التطبيق نجد من يطبق عشرين جزئية وآخر يطبق ثلاثين ، أما أصل الإيمان الذي استقبل به الإنسان التكليف وهو التوحيد ، فلا يزيد أو ينقص . وهؤلاء المنافقون عندما قالوا : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ هل تداولوا ذلك

سرّاً أم قالوه علناً ؟ لا بد أنهم قالوا ذلك سرّاً وفضحهم الحق سبحانه ، وكان يكفي أن يعلموا أن الله يخبر رسوله صلى الله عليه وسلم بكل ما يكتمونه ، ولكنهم احترفوا اللجاجة ؛ لذلك قالوا : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إِيمَاناً ﴾ .

ويرد الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ و " يستبشر " أي : يملأ السرور بشرته ، فترى البريق ، والفرحة ، والانبساط . وكلها من علامات الاستبشار ، ومن يستبشر بآية من آيات الحق فهو الذي يفهم من الآية شيئاً جديداً ؛ يدخل على نفسه السرور ؛ ولذلك فهو يرتاح لنزول تكليفات إيمانية جديدة ، ليعظم ويزداد ثوابه ، وهو غير ذلك الذي يكره أن ينزل حكم جديدة من الله

هذا هو معنى " يستبشر " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(21/353)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾

قوله تعالى : ﴿ زَادَتْهُ ﴾ : الجمهور على رفع " أيكم " بالابتداء وما بعده الخبر . وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير بالنصب على الاشتغال ، ولكن يُقَدَّر الفعل متأخراً عنه من أجلِ أن له صدرَ الكلام والنصبُ عند الأخفش في هذا النحوِ أحسنُ من الرفع ؛ لأنه يُجري اسم الاستفهام مُجرى الأسماءِ المسبوقةِ بأداة الاستفهام نحو : " أزيداً ضربته " في ترجيح إضمار الفعل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 140 . 141 ﴾

(22/353)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) ﴾

جَعَلَ الله – سبحانه – إنزالَ القرآن لقومٍ شِفَاءً . ولقوم شَقَاءً ؛ فإذا أُنْزِلَتْ سورةٌ جديدةٌ زاد شكُّهم وتحيُّرهم ، فاستعلم بعضُهم حالَ بعضٍ ، ثم لم يزدادوا إلا تحسُّراً ؛ قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : 44] وأمَّا المؤمنون فزادتْهم السورةُ إيماناً فارتقوا مِنْ حدِّ تأمل البرهان إلى روْح البيان ، ثم مِنْ روْح البيان إلى العيان ، فالتجويز والتردد و

(. . . .) والتحيُّر مُنْتَفًى بأجمعه عن قلوبهم ، وشموسُ العرفانِ طالِعةٌ على أسرارهم ، وأنوار التحقيق مالكة أسرارهم ، فلا لَهُم تعبُ الطلب ، ولا لهم حاجة إلى التدبير ، ولا عليهم سلطان الفكر . وأَشِعةُ شموس العرفان مستغرقة لأنوار نجوم العلم ، يقول قائلهم : ولما استبانَ الصبحُ أدرك ضوءُه . . . بإِسْفارِه أنوارَ ضوءِ الكواكب . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 75.74 ﴾

(23/353)

قوله تعالى ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

﴿ وأما الذين ﴾ وبين أن أشرف ما فيهم مسكن الآفة فقال : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ فمنعهم الإيمان وأثبت لهم الكفران فلم يؤمنوا .

ولما كان المراد بالمرض الفساد المعنوي المؤدي إلى خبث العقيدة ، عبر عنه بالرجس فقال : ﴿ فزادتهم رجساً ﴾ أي اضطراباً موجباً للشك ، وزاد الأمر بياناً بأن المراد المجاز بقوله :

﴿ إلى رجسهم ﴾ أي شكهم الذي كان في غيرها ﴿ وماتوا ﴾ أي واستمر بهم ذلك لتمكنه عندهم إلى أن ماتوا ﴿ وهم كافرون ﴾ أي عريقون في الكفر ، وسمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في الروح يحتاج إلى علاج كفساد البدن في الاحتياج ، ومرض القلب أعضل ، وعلاجه أعسر وأشكل ، ودواءه أعز وأطباؤه أقل .

ولما زاد الكفار بالسورة رجساً من أجل كفرهم بها ، كانت كأنها هي التي زادتهم ، وحسن وصفها بذلك كما حسن : كفى بالسلامة داء ، وكما قال الشاعر :

أرى بصري قد رابني بعد نصحه . . .

وحسبك داء أن تصح وتسلما

قاله الرماني ، فالمؤمنون يخبرون عن زيادة إيمانهم وهؤلاء يخبرون عن عدمه في وجدانهم ، فهذا موجب شكهم وتماديهم في غيهم وإفكهم ، ولو أنهم رجعوا إلى حاكم العقل لأزال شكهم وعرفهم صدق المؤمنين بالفرق بين حالتيهم ، فإن ظهور الثمرات مزيل للشبهات ، والآية من الاحتباك : إثبات الإيمان أولاً دليل على حذف ضده ثانياً ، وإثبات المرض ثانياً دليل على حذف الصحة أولاً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 404 .

405 ﴾

(24/353)

فصل

قال الفخر :

ثم جمع للمنافقين أمرين مقابلين للأمرين المذكورين في المؤمنين ، فقال : ﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يعني المنافقين ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ والمراد من الرجس إما العقائد الباطلة أو الأخلاق المذمومة ، فإن كان الأول كان المعنى أنهم كانوا مكذبين بالسور النازلة قبل ذلك ، والآن صاروا مكذبين بهذه السورة الجديدة ، فقد انضم كفر إلى كفر ، وإن كان الثاني كان المراد أنهم كانوا في الحسد والعداوة واستنباط وجوه المكر والكيد ، والآن ازدادت تلك الأخلاق الذميمة بسبب نزول هذه السورة الجديدة .

والأمر الثاني : أنهم يموتون على كفرهم ، فتكون هذه الحالة كالأمر المضاد للاستبشار الذي حصل في المؤمنين ، وهذه الحالة أسوأ وأقبح من الحالة الأولى ، وذلك لأن الحالة الأولى عبارة عن ازدياد الرجاسة ، وهذه الحالة عبارة عن مداومة الكفر وموتهم عليه .

واحتج أصحابنا بقوله : ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ على أنه تعالى قد يصد عن الإيمان ويصرف عنه ، قالوا : إنه تعالى كان عالماً بأن سماع هذه السورة يورث حصول الحسد والحقد في قلوبهم ، وأن حصول ذلك الحسد يورث مزيد الكفر في قلوبهم ، أجابوا وقالوا نزول تلك السورة لا يوجب ذلك الكفر الزائد ، بدليل أن الآخرين سمعوا تلك السورة

وازدادوا إيماناً .

فثبت أن تلك الرجاسة هم فعلوها من قبل أنفسهم .

قلنا : لا ندعي أن استماع هذه السورة سبب مستقل بترجيح جانب الكفر على جانب الإيمان ، بل نقول استماع هذه السورة للنفس المخصوصة والموصوفة بالخلق المعين والعادة المعينة .

يوجب الكفر .

(25/353)

والدليل عليه أن الإنسان الحسود لو أراد إزالة خلق الحسد عن نفسه ، يمكنه أن يترك الأفعال المشعرة بالحسد ، وأما الحالة القلبية المسماة بالحسد ، فلا يمكنه إزالتها عن نفسه ، وكذا القول في جميع الأخلاق فأصل القدرة غير ، والفعل غير ، والخلق غير ، فإن أصل القدرة حاصل للكل أما الأخلاق فالناس فيها متفاوتون .

والحاصل أن النفس الطاهرة النقية عن حب الدنيا الموصوفة باستيلاء حب الله تعالى والآخرة إذا سمعت السورة صار سماعها موجباً لازدياد رغبته في الآخرة ونفرته عن الدنيا ، وأما النفس الحريصة على الدنيا المتهالكة على لذاتها الراغبة في طيباتها الغافلة عن حب

الله تعالى والآخرة ، إذا سمعت هذه السورة المشتملة على الجهاد وتعريض النفس للقتل والمال للنهب ازداد كفراً على كفره .

فثبت أن إنزال هذه السورة في حق هذا الكافر موجب لأن يزيد رجساً على رجس ، فكان إنزالها سبباً في تقوية الكفر على قلب الكافر وذلك يدل على ما ذكرنا أنه تعالى قد يصد الإنسان ويمنعه عن الإيمان والرشد ويلقيه في الغي والكفر .

بقي في الآية مباحث : الأول : ما في قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ صلة مؤكدة .

الثاني : الاستبشار استدعاء البشارة ، لأنه كلما تذكر تلك النعمة حصلت البشارة ، فهو بواسطة تجديد ذلك التذكر يطلب تجديد البشارة .

الثالث : قوله : ﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ يدل على أن الروح لها مرض ، فمرضها الكفر والأخلاق الذميمة ، وصحتها العلم والأخلاق الفاضلة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 183 . 184 ﴾

(26/353)

وقال السمرقندى :

﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

يعني : شك ونفاق ، ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ ، قال الكلبي : شكاً إلى شكهم ، وقال مقاتل : إثماً على إثمهم ، وقال القتبي : أصل الرجس النتن ، ثم قد سمي الكفر والنفاق رجساً لأنهما نتن .

﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كافرون ﴾ ، يعني : ماتوا على الكفر ، لأنهم كانوا كفاراً في السر ، ولم يكونوا مؤمنين في الحقيقة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ شك ونفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ كفراً إلى كفرهم وضلالا إلى ضلالهم وشكاً إلى شكهم .

وقال مقاتل : إثماً إلى أثمهم ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ قال مجاهد في هذه الآية : الإيمان يزيد وينقص ، وقال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : لو وزن إيمان أبو بكر (رضي الله عنه) بإيمان أهل الأرض لرجحهم ، بلى إن الإيمان ليزيد وينقص ، قالها ثلاث مرات .

وروى زيد الشامي عن ذر قال : كان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه فيقول : تعالوا حتى نزداد إيماناً .

قال علي بن أبي طالب (عليه السلام) : إن الإيمان يبدو لمظة بيضاء في القلب كلما ازداد الإيمان عظماً ازداد ملك الناس حتى يبيض القلب كله ، وأن النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب فكلما إزداد النفاق إزداد ذلك السواد فيسود القلب كله . فأيم الله لو شققتم عن

قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود .

وكتب الحسن إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : إن للإيمان تشاد شرائع وحدود وفرائض من استكملها استكمل الإيمان ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان .

وقال ابن المبارك عن الحسن : إلاّ قرابة بزيادة الإيمان أو أردّ كتاب الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(27/353)

وقال الماوردى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

أي شك .

﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ فيه ثلاثة أوجه :

أحدها : إثماً إلى إثمهم ، قاله مقاتل .

الثاني : شكاً إلى شكّهم ، قاله الكلبي .

الثالث : كفراً إلى كفرهم ، قاله قطرب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

و﴿ الذين في قلوبهم مرض ﴾ هم المنافقون ، وهذا تشبيه وذلك أن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإيمان يشبهه الصحيح ، والفاسد المعتقد يشبهه المريض ، ففي العبارة مجاز فصيح لأن المرض والصحة إنما هي خاصة في الأعضاء ، فهي في المعتقدات مجاز ، و" الرجس " في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة ، وذلك أن الرجس في اللغة يجيء بمعنى القذر ويجيء بمعنى العذاب ، وحال هؤلاء المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بآجل ، وزيادة " الرجس إلى الرجس " هي عمههم في الكفر وخبطهم في الضلال يعاقبهم الله على الكفر والإعراض بالختم على قلوبهم والختم بالنار عليهم ، وإذ كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فلذلك زيادة رجس إلى رجسهم . انتهى انتهى .

ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

أي شك وريب ونفاق .

وقد تقدم .

﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ ﴾ أي شكًّا إلى شكهم وكفراً إلى كفرهم .

وقال مقاتل : إثماً إلى إثمهم ؛ والمعنى متقارب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(28/353)

وقال الخازن :

قوله سبحانه ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾

أي شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى العلاج ﴿ فزادتهم ﴾ يعني السورة من القرآن ﴿ رجساً إلى رجسهم ﴾ يعني كفراً إلى كفرهم وذلك أنهم كلما جحدوا نزول سورة أو استهزؤوا بها ازدادوا كفراً مع كفرهم الأول وسمي الكفر رجساً لأنهم أقبح الأشياء وأصل الرجس في اللغة الشيء المستقذر ﴿ وماتوا ﴾ يعني هؤلاء المنافقين ﴿ وهم كافرون ﴾ يعني وهم جاحدون لما أنزل الله على رسوله (صلى الله عليه وسلم) .

قال مجاهد : في هذه الآية الإيمان يزيد وينقص وكان عمر يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول تعالوا حتى نزداد إيماناً .

وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : إن الإيمان يبدو لمعة بيضاء في القلب وكلما ازداد

الإيمان عظماً ازداد ذلك البياض حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله ، وأن النفاق يبدو لمعة سوداء في القلب وكلما ازداد النفاق ازداد السواد حتى يسود القلب كله ، وأيم الله لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(29/353)

وقال أبو حيان فى الآيتين :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾

قال ابن عباس : نزلت هذه والثانية في المنافقين ، كانوا إذا نزلت سورة فيها عيب المنافقين خطبهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعرض بهم في خطبته ، فينظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب ويقولون : هل يراكم من أحد إن قمتم ؟ فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد .

ولما استطرد من سفر الغزو وتأنيب المتخلفين عن الرسول إلى سفر التفقه في الدين ، ثم أمر بقتال من يلي من الكفار والغلظة عليهم ، عاد إلى ذكر مخازي المنافقين إذ هم الذين نزل

معظم السورة فيهم .

وكان في الآية قبلها إشارة إلى الغلظة على الكفار وهم منهم ، وقولهم : أيكم زادته هذه إيماناً ، يحتمل أن يكون خطاب بعض المنافقين لبعض على سبيل الإنكار والاستهزاء بالمؤمنين ، ويحتمل أن يقولوا : ذلك لقراباتهم المؤمنين يستقيمون إليهم ويطمعون في ردهم إلى النفاق .

ومعنى قولهم ذلك : هو على سبيل التحقير للسورة والاستخفاف بها ، كما تقول : أي غريب في هذا وأي دليل في هذا ، وفي الفتيان قيل : هو قول المؤمنين للبحث والتنبيه .

وقرأ الجمهور : رأيكم بالرفع .

وقرأ زيد بن علي ، وعبيد بن عمير : أيكم بالنصب على الاشتغال ، والنصب فيه عند الأخفش أفصح كهو بعد أداة الاستفهام نحو : أزيداً ضربته .

والتقسيم يقتضي أنّ الخطاب من أولئك المنافقين المستهزئين عام للمنافقين والمؤمنين ، وزيادة الإيمان عبارة عن حدوث تصديق خاص لم يكن قبل نزول السورة من قصص وتجديد حكم من الله تعالى ، أو عبارة عن تنبيه على دليل تضمنته السورة ويكون قد حصلت له معرفة الله بأدلة ، فنبهته هذه السورة على دليل راد في أدلته ، أو عبارة عن إزالة شك يسير ، أو شبهة عارضة غير مستحكمة ، فيزول ذلك الشك وترتفع الشبهة بتلك السورة .

وأما على قول من يسمي الطاعة إيماناً ، وذلك مجاز عند أهل السنة ، فتترتب الزيادة بالسورة إذ يتضمن أحكاماً .

(30/353)

وقال الربيع : فزادتهم إيماناً أي خشية أطلق اسم الشيء على بعض ثمراته .

وقال الزمخشري : فزادتهم إيماناً لأنها أزيد للمتقين على الثبات ، وأثلج للصدور .

أو فزادتهم عملاً ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ، لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل انتهى .

وهي نزعة اعتزالية ، وهم يستبشرون بما تضمنته من رحمة الله ورضوانه .

وأما الذين في قلوبهم مرض هم المنافقون ، والصحة والمرض في الأجسام ، فنقل إلى الاعتقاد مجازاً والرجس القذر ، والرجس العذاب ، وزيادته عبارة عن تعمقهم في الكفر وخبطهم في الضلال .

وإذا كفروا بسورة .

فقد زاد كفرهم واستحكم وتزايد عقابهم .

قال قطرب والزجاج : أراد كفراً إلى كفرهم .

وقال مقاتل : إثماً إلى إثمهم .

وقال السدي والكلبي : شكاً إلى شكهم .

وقال ابن عباس : أراد ما أعد لهم من الخزي والعذاب المتجدد عليهم في كل وقت في الدنيا والآخرة ، وأنتج نزول السورة للمؤمنين شيئين : زيادة الإيمان ، والاستبشار بما لهم عند الله .

وللذين في قلوبهم مرض زيادة رجس ، والموافاة على الكفر أذاهم كفرهم الأصلي ، والزيادة إلى أنْ ماتوا على الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(31/353)

وقال الآلوسى :

﴿ وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾

أي نفاق ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ أي نفاقاً مضموماً إلى نفاقهم فالزيادة متضمنة معنى الضم ولذا عديت بإلى ، وقيل : إلى بمعنى مع ولا حاجة إليه ﴿ وَمَاتُواْ وَهُمْ كافرون ﴾ واستحكم ذلك فيهم إلى أن يموتوا عليه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

وقال ابن عاشور :

وقوبل قوله : ﴿ وهم يستبشرون ﴾ في جانب المؤمنين بقوله : ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ في جانب المنافقين تحسيناً بالازدواج ، بحيث كانت للسورة فائدتان للمؤمنين ومصيبتان على المنافقين ، فجُعل موتهم على الكفر المتسبب على زيادة السورة في كفرهم بمنزلة مصيبة أخرى غير الأولى وإن كانت في الحقيقة زيادة في المصيبة الأولى .

هذا وجه نظم الآية على هذا النسج من البلاغة والبديع ، وقد أغفل فيما رأيت من التفاسير ، فمنها ما سكت عن بيانه .

ومنها ما نُشرت فيه معاني المفردات وترك جانب نظم الكلام .

والاستبشار : أثر البشرى في النفس ، فالسين والتاء للتأكيد مثل استعجم ، وتقدم في قوله تعالى : ﴿ يستبشرون بنعمة من الله ﴾ في آل عمران (171) ، وتقدم آنفاً في قوله : ﴿ فاستبشروا ببيعكم ﴾ [التوبة : 111] .

والمراد بزيادة الإيمان وبزيادة الرجس الرسوخ والتمكن من النفس .

والرجس : هنا الكفر .

وأصله الشيء الخبيث .

كما تقدم عند قوله تعالى : ﴿ رجس من عمل الشيطان ﴾ في سورة العقود (90) .

وقوله : ﴿ كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ﴾ في سورة الأنعام (125) .

والمرض في القلوب تقدم في قوله تعالى : ﴿ في قلوبهم مرض ﴾ في سورة البقرة (10) .

وتعدية زادتهم ﴾ بـ ﴿ إلى) ﴾ لأن زاد قد ضمن معنى الضم .

ومعنى قوله : ﴿ فأما الذين آمنوا ﴾ الخ مثل معنى قوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ [الإسراء : 82] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(33/353)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (125) ﴾

والرجس : هو الشيء المستقذر ، وتكون القذارة حسية ، ومرة تكون معنوية . فالميتة مثلاً قذارتها حسية ؛ لأنها ماتت ودمها فيها ، والدم – كما نعلم – له مجريان ؛ مجرى للدم

قبل أن يكرر ، ومجرى آخر للدم بعد أن يكرر ، والدم قبل أن يكرر يمر على الرئة والكلى فتنفيه الرئة والكلى من الأشياء الضارة التي تصل إليه نتيجة تفاعلات أعضاء الجسم المختلفة . وبعد أن تتم تنقية عن طريق الرئتين والكلى يصير دماً صالحاً .

فإذا مات الحيوان بقي فيه دمه الصالح ودمه الفاسد ؛ لذلك نحن نذبح الحيوان قبل أن نأكله ، ونضحي بدمه الصالح مع الفاسد ؛ حتى لا يصيبنا الدم الفاسد بالأمراض ؛ ولذلك تعتبر الميتة رجساً . والخمر أيضاً نجاسة حسية ورجس . وهناك رجس معنوي ، ولذلك قال الحق : ﴿ إِنَّمَا الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشيطان فاجتنبوه . . . ﴾ [المائدة : 90]

إذن : فهناك رجس حسي ، ورجس معنوي ، ويطلق الرجس على الكفر أيضاً ، ومرة يطلق الرجس على همسات الشيطان ووسوسته .

وفي ذلك يقول الحق : ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النعاس أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّن السمآء مَآءً لِّيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشيطان . . . ﴾ [الأنفال : 11]

وهنا يقول الحق : ﴿ وَأَمَّا الذين فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ ﴾ ولأنهم يكفرون بالله وبآياته ؛ فهذا يزيدهم رجساً على رجسهم ويصبح كفرهم مركَّباً ، وهكذا نجد البشارة للمؤمنين ، أما الكافرون فلهم النذارة ؛ لأن كفرهم يزيد ، ويموتون على ذلك الكفر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

قوله تعالى ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان التقدير تسبيباً عما جزم به من الحكم بعراقتهم في الرجس وازديادهم منه : أفلا يرون إلى تماديهم في النفاق وثباتهم عليه ؟ عطف عليه تقريرهم بعذاب الدنيا والإنكار عليهم في قوله : ﴿ أولا يرون ﴾ أي المنافقون ، قال الرماني : والرؤية هنا قلبية لأن رؤية العين لا تدخل على الجملة لأن الشيء لا يرى من وجوه مختلفة ﴿ أنهم ﴾ أي المنافقين ؛ ولما كان مطلق وقوع الفتنة من العذاب ، بنى للمفعول قوله : ﴿ يفتنون ﴾ أي يخالطون من حوادث الزمان ونوازل الحدثان بما يضطرهم إلى بيان أخلاقهم بإظهار سرائرهم في نفاقهم ﴿ في كل عام ﴾ أي وإن كان الناس أخصب ما يكونون وأرفعه عيشاً ﴿ مرة أو مرتين ﴾ فيفضحون بذلك ، وذلك موجب للتوبة للعلم بأن من علم سرائرهم - التي هم مجتهدون في إخفائها - عالم بكل شيء قادر على كل مقدور ، فهو جدير بأن تمتثل أوامره وتخشى

زواجره .

ولما كان عدم توبتهم مع فتنتهم على هذا الوجه مستبعداً ، أشار إليه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ أي لا يجددون توبة ﴿ ولا هم ﴾ أي بضمائرهم ﴿ يذكرون ﴾ أي أدنى تذكر بما أشار إليه الإدغام ، فلولا أنه حصلت لهم زيادة في الرجس لأوشك تكرار الفتنة أن يوهي رجسهم إلى أن يزيله ولكن كلما أوهى شيئاً خلقه مثله أو أكثر بسبب الزيادات المترتبة على وجود نجوم القرآن ، والتذكر طلب الذكر للمعنى بالكفر فيه ، فالآية ذامة لهم على عدم التوبة بإصابة المصائب لعدم تذكر أنه سبحانه ما أصابهم بها إلا بذنوبهم ﴿ ويعفو عن كثير ﴾ [الشورى : 34] كما أن أحدهم لا يعاقب فتاة إلا بذنب وما لم يتب فهو يوالي عقابه . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 405.406 ﴾

(35/353)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

اعلم أن الله تعالى لما بين أن الذين في قلوبهم مرض يموتون وهم كافرون ، وذلك يدل على

عذاب الآخرة ، بين أنهم لا يتخلصون في كل عام مرة أو مرتين عن عذاب الدنيا وفيه مسائل :

المسألة الأولى :

قرأ حمزة ﴿ أَوْلاَ تَرَوْنَ ﴾ بالتاء على الخطاب للمؤمنين ، والباقون بالياء خبراً عن المنافقين ، فعلى قراءة المخاطبة ، كان المعنى أن المؤمنين نبهوا على إعراض المنافقين عن النظر والتدبر ، ومن قرأ على المغايبة ، كان المعنى تقريع المنافقين بالإعراض عن الاعتبار بما يحدث في حقهم من الأمور الموجبة للاعتبار .

المسألة الثانية :

قال الواحدي رحمه الله : قوله : ﴿ أَوْلاَ يَرَوْنَ ﴾ هذه ألف الاستفهام دخلت على واو العطف ، فهو متصل بذكر المنافقين ، وهو خطاب على سبيل التنبيه قال سيبويه عن الخليل في قوله : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله أَنزَلَ مِنَ السماء مَاء ﴾ المعنى : أنه أنزل الله من السماء ماء فكان كذا وكذا .

المسألة الثالثة :

ذكروا في هذه الفتنة وجوهاً : الأول : قال ابن عباس رضي الله عنهما يمتحنون بالمرض في كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون من ذلك النفاق ولا يتعظون بذلك المرض ، كما يتعظ بذلك المؤمن إذا مرض ، فإنه عند ذلك يتذكر ذنوبه وموقفه بين يدي الله ، فيزيده ذلك إيماناً

وخوفاً من الله ، فيصير ذلك سبباً لاستحقاقه لمزيد الرحمة والرضوان من عند الله .

الثاني : قال مجاهد : ﴿يُفْتَنُونَ﴾ بالقحط والجوع .

الثالث : قال قتادة : يفتنون بالغزو والجهاد فإنه تعالى أمر بالغزو والجهاد فهم إن تخلفوا وقعوا في ألسنة الناس باللعن والخزي والذكر القبيح ، وإن ذهبوا إلى الغزو مع كونهم كافرين كانوا قد عرضوا أنفسهم للقتل وأموالهم للنهب من غير فائدة .

(36/353)

الرابع : قال مقاتل : يفضحهم رسول الله بإظهار نفاقهم وكفرهم قيل : إنهم كانوا يجتمعون على ذكر الرسول بالطعن فكان جبريل عليه السلام ينزل عليه ويخبره بما قالوه فيه ، فكان يذكر تلك الحادثة لهم ويوبخهم عليها ، ويعظهم فما كانوا يتعظون ، ولا ينزجرون . انتهى انتهى . اهـ ﴿مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 184.185﴾

(37/353)

وقال السمرقندى :

﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾

قرأ حمزة : ﴿ أَوْلاَ تَرَوْنَ ﴾ بالتاء ؛ ويكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقرأ الباقون بالياء ، يعني : المنافقون ولا يعتبرون .

﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ ﴾ ، يقول يبتلون بإظهار ما في صدورهم من النفاق في كل عام .

﴿ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ من نفاقهم وكفرهم في السر ، ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، يعني : لا يتعظون ولا يتفكرون .

قال الكلبي : كانوا ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ، فيعاقبون ثم يتوبون عن نقض العهد ، وقال مقاتل : وذلك أنهم إذا خلوا ، تكلموا بما لا يحل لهم .

فإذا أتوا النبي صلى الله عليه وسلم ، أخبرهم بما تكلموا به ، فيعرفون أنه نبي .

ثم يأتيهم الشيطان فيحدثهم أنه يخبرهم بما بلغه عنهم ، فيشكون فيه ، فذلك قوله : ﴿ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ ، يعني : يعرفون مرة أنه نبي وينكرون مرة أُخرى ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ عن ذلك ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ فيما أخبرهم ، ويقال : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ يعني : يبتلون بالأمراض والأسقام ، ويعاهدون الله : لو زال عنا لفعلنا كذا وكذا ، ثم لا يفون به ولا يتوبون من النفاق ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي لا يتعظون بما أنزل عليهم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ ﴾

قرأ العامة بالياء خبراً عن المنافقين المذكورين ، وقرأ حمزة ويعقوب : أو لا ترون بالتاء على خطاب المؤمنين ، وهي قراءة أبي بن كعب . قرأ الأعمش : أو لم تر ، وقرأ طلحة : أو لا ترى وهي قراءة عبد الله بن عمر ﴿ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ يختبرون ﴿ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قال : يكذبون كذبة أو كذبتين يصلون فيه ، وقال مجاهد : يفتنون بالقحط والغلاء ، عطية : بالأمراض والأوجاع وهي روائد الموت .

قتادة : بالغزو والجهاد ، وقيل : بالعدوّ ، وقيل : يفتنون فيعرفون مرة وينكرون بأخرى . مرّة الهمداني : يفتنون يكفرون . مقاتل بن حيان : يفضحون بإظهار نفاقهم . عكرمة : ينافقون ثم يؤمنون ثمّ ينافقون كما أنهم ينقضون عهدهم في سنة مرة أو مرتين ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ من نقضهم ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [بما صنع الله بهم] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا انقضوا عهودهم بعث إليهم السرايا فيقتلونهم . الحسن : يفتنون بالجهاد في سبيل الله مع رسوله ويرون تصديق ما وعده الله من النصر والظفر على من عاداه الله ثم لا يتوبون

لما يرون من صدق موعد الله ، ولا يتّعظون ، الضحاك : يفتنون بالغلاء والبلاء ومنع القطر وذهاب الثمار ثم لا يرجعون عن نفاقهم ولا يتفكرون في عظمة الله ، وفي قراءة عبد الله : وما يذكرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(39/353)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ الآية .

في معنى الافتتان هنا ثلاثة أوجه :

أحدها : يبتلون ، قاله ابن عباس .

الثاني : يضلون ، قاله عبد الرحمن بن زيد .

الثالث : يختبرون ، قاله أبو جعفر الطبري .

وفي الذي يفتنون به أربعة أقاويل :

أحدها : أنه الجوع والقحط ، قاله مجاهد .

الثاني : أنه الغزو والجهاد في سبيل الله ، قاله قتادة .

الثالث : ما يلقونه من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قاله حذيفة بن

اليمان .

الرابع : أنه ما يظهره الله تعالى من هتك أستارهم وسوء نياتهم ، حكاه علي بن عيسى .

وهي في قراءة ابن مسعود : ﴿ أَوَلَا تَرَى أَنَّهُم يُفْتَنُونَ ﴾ خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(40/353)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون ﴾ الآية

وقرأ الجمهور " أولا يرون " بالياء على معنى أو لا يرى المنافقون ، وقرأ حمزة " أولا ترون " بالتاء على معنى أو لا ترون أيها المؤمنون ، فهذا تنبيه للمؤمنين ، وقرأ ابن مسعود وأبي بن كعب والأعمش " أولا ترى " أي أنت يا محمد .

وروي عن الأعمش أيضاً أنه قرأ " أو لم تروا " .

وذكر عنه أبو حاتم " أو لم تر " وقال مجاهد ﴿ يفتنون ﴾ معناه يختبرون بالسنة والجوع ، وحكى عنه النقاش أنه قال مرضة أو مرضتين ، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة : معناه يختبرون بالأمر بالجهاد ، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي

بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم ، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة ، وأما الجهاد أو الجوع فلا يترقب معهما ما ذكرناه ، فمعنى الآية على هذا فلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحسب واحد ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده ، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين وقد كان الحسن ينشد :

أفي كل عام مرضة ثم نقهة . . . فحتى متى حتى حتى متى وإلى متى

وقالت فرقة : معنى ﴿ يفتنون ﴾ بما يشيعه المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأكاذيب ، فكأن الذي في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك ، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(41/353)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أولا يرون ﴾

يعني المنافقين .

وقرأ حمزة : "أولا ترون" بالتاء على الخطاب للمؤمنين .

وفي معنى ﴿ يُفتَنُون ﴾ ثمانية أقوال .

أحدها : يكذبون كذبة أو كذبتين يُضلِّون بها ، قاله حذيفة بن اليمان .

والثاني : ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون ، قاله أبو صالح عن ابن عباس .

والثالث : يُبْتَلَوْنَ بالغزو في سبيل الله ، قاله الحسن ، وقتادة .

والرابع : يُفْتَنون بالسَّنَة والجوع ، قاله مجاهد .

والخامس : بالأوجاع والأمراض ، قاله عطية .

والسادس : يَنقضُون عهدهم مرة أو مرتين ، قاله يمان .

والسابع : يكفرون ، وذلك أنهم كانوا إذا أخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بما تكلَّموا به إذ خَلَوْا ، علموا أنه نبي ، ثم يأتيهم الشيطان فيقول : إنما بلغه هذا عنكم ، فيشركون ، قاله مقاتل بن سليمان .

والثامن : يُفضَحون باظهار نفاقهم ، قاله مقاتل بن حيان .

قوله تعالى : ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ أي : من نفاقهم .

﴿ ولا هُمْ يذَّكَّرونَ ﴾ أي : يعتبرون ويتَّعظون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ

﴾

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾

قراءة العامة بالياء ، خبراً عن المنافقين .

وقرأ حمزة ويعقوب بالتاء خبراً عنهم وخطاباً للمؤمنين .

وقرأ الأعمش "أو لم يروا" .

وقرأ طلحة بن مُصَرِّف "أَوَلاَ ترى" وهي قراءة ابن مسعود ، خطاباً للرسول صلى الله عليه وسلم .

و ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ قال الطبريّ : يختبرون .

قال مجاهد : بالقحط والشدّة .

وقال عطية : بالأمراض والأوجاع ؛ وهي روائد الموت .

وقال قتادة والحسن ومجاهد : بالغزو والجهاد مع النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ لذلك ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(42/353)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أولا يرون ﴾

قرئ ترون بالتاء على خطاب المؤمنين وقرئ بالياء على أنه خبر عن المنافقين المذكورين في قوله في قلوبهم مرض ﴿ أنهم يفتنون ﴾ يعني يبتلون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ﴾ يعني بالأمراض والشدائد .

وقيل : بالقحط والجدب .

وقيل : بالغزو والجهاد .

وقيل : إنهم يفتضحون بإظهار نفاقهم .

وقيل : إنهم ينافقون ثم يؤمنون ثم ينافقون .

وقيل إنهم ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ يعني من النفاق ونقض العهد ولا يرجعون إلى الله ﴿ ولا هم يذكرون ﴾ يعني ولا يتعظون بما يرون من صدق وعد الله بالنصر والظفر للمسلمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(43/353)

وقال أبو حيان :

﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾

لما ذكر أنهم بموتهم على الكفر رائحون إلى عذاب الآخرة ، ذكر أنهم أيضاً في الدنيا لا

يخلصون من عذابها .

والضمير في يرون عائد على الذين في قلوبهم مرض ، وذلك على قراءة الجمهور بالياء .

وقرأ حمزة : بالتاء خطاباً للمؤمنين .

والرؤية يحتمل أن تكون من رؤية القلب ، ومن رؤية البصر .

وقرأ أبي وابن مسعود ، والأعمش : أو لا ترى أي أنت يا محمد ؟ وعن الأعمش أيضاً : أو لم تروا ؟ وقال أبو حاتم عنه : أو لم يروا ؟ قال مجاهد : يفتنون ، يختبرون بالسنة والجوع .

وقال النقاش عنه : مرضة أو مرضتين .

وقال الحسن وقتادة : يختبرون بالأمر بالجهاد .

قال ابن عطية : والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله أسرارهم وإفشائه عقائدهم ، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة .

وأما الجهاد أو الجوع فلا يترتب معهما ما ذكرناه ، فمعنى الآية على هذا : أفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحسب واحد واحد ، ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ، ويذكرون وعد الله ووعيده انتهى .

وقاله مختصراً مقاتل قال : يفضحون بإظهار نفاقهم ، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين ، وقد كان الحسن ينشد :

أفي كل عام مرضة ثم نقهة . . .

فحتى متى حتى متى وإلى متى

وقالت فرقة : معنى يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من الأكاذيب والأراجيف ، وأنّ ملوك الروم قاصدون بجيوشهم وجموعهم إليهم ، وإليه الإشارة بقوله : ﴿ لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض ﴾ فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك .

وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة ، وهو غريب من المعنى .

(44/353)

وقال الزمخشري : يفتنون يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله تعالى ، ثم لا ينتهون ولا يتوبون من نفاقهم ، ولا يذكرون ولا يعتبرون ولا ينظرون في أمرهم ، أو يبتلون بالجهاد مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ويعاينون أمره وما ينزل الله تعالى عليه من النصر وتأييده ، أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيقتلهم وينكل بهم ، ثم لا ينزجرون .

وقرأ ابن مسعود : ولا هم يتذكرون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

وقال أبو السعود :

﴿ أَوْلاَ يَرَوْنَ ﴾

الهمزةُ للإنكار والتوبيخ والواوُ للعطف على مقدر أي ألا ينظُرون ولا يرَوْن ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ ﴾ من الأعوام ﴿ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ والمرادُ مجردُ التكثيرِ لا بيانُ الوقوع حسب العدّ المزبورِ ، أي يُبتلَوْن بأفانينِ البليات من المرض والشدةِ وغيرِ ذلك مما يذكّر الذنوبَ والوقوفَ بين يدي رب العزة فيؤدي إلى الإيمان به تعالى أو بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لا سيما القوارعُ الزائدةُ للإيمان الناعيةُ عليهم ما فيهم من القبائح المخزيةِ لهم ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ عطف على لا يَرَوْن داخلٌ تحت الإنكار والتوبيخِ وكذا قوله تعالى : ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ والمعنى أو لا يَرَون افتتانَهم الموجبَ لإيمانهم ثم لا يتوبون عما هم عليه من النفاق ولا هم يتذكرون بتلك الفِتن الموجبةِ للتذكر والتوبة ، وقرىء بالتاء والخطابُ للمؤمنين والهمزةُ للتعجيب أي ألا تنظرون ولا ترَوْن أحوالَهم العجيبة التي هي افتتانُهم على وجه التتابعِ وعدمَ التنبّهِ لذلك فقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لاَ

يَتُوبُونَ ﴾ وما عطف عليه معطوفٌ على يفتنون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(46/353)

وقال الآلوسى :

﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ ﴾

يعني المنافقين ، والهمزة للإنكار والتوبيخ ، والكلام في العطف شهير .

وقرأ حمزة .

ويعقوب .

وأبي بن كعب بالتاء الفوقانية على أن الخطاب للمؤمنين والهمزة للتعجيب أي أولا يعلمون وقيل أولا يبصرون ﴿ أَنَّهُمْ ﴾ أي المنافقين ﴿ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ ﴾ من الأعوام ﴿ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ بأفانين البليات من المرض والشدة مما يذكر الذنوب والوقوف بين يدي علام الغيوب فيؤدي إلى الإيمان به تعالى والكف عما هم عليه ، وفي الخبر "إذا مرض العبد ثم عوفي ولم يزدد خيراً قالت الملائكة : هو الذي داويناه فلم ينفعه الدواء" فالفتنة هنا بمعنى البلية والعذاب ، وقيل : هي بمعنى الاختبار ، والمعنى أولا يرون أنهم يختبرون بالجهاد مع

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيعاينون ما ينزل عليه من الآيات لا سيما الآيات الناعية عليهم قبائحهم ﴿ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ ﴾ عما هم فيه ﴿ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ولا يعتبرون .

والجملة على قراءة الجمهور عطف على ﴿ يَرَوْنَ ﴾ داخل تحت الإنكار والتوبيخ ، وعلى القراءة الأخرى عطف على ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ والمراد من المرة والمرتين على ما صرح به بعضهم مجرد التكثير لا بيان الوقوع على حسب العدد المزبور .

وقرأ عبد الله ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَمَا يَتَذَكَّرُونَ ﴾ . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(47/353)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾ عطف على جملة ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ [التوبة : 125] إلى آخره فهي من تمام التفصيل .

وقدّمت همزة الاستفهام على حرف العطف على طريقة تصدير أدوات الاستفهام .

والتصدير للتنبيه على أن الجملة في غرض الاستفهام .

والاستفهام هنا إنكار وتعجيب لعدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبتهم ولا تذكّرهم أمر ربهم .

والغرض من هذا الإنكار هو الاستدلال على ما تقدم من ازدياد كفر المنافقين وتمكنه كلما نزلت سورة من القرآن بإيراد دليل واضح يُنَزَّلُ منزلة المحسوس المرئيّ حتى يَتوجه الإنكار على من لا يراه .

والفتنة : اختلال نظام الحالة المعتادة للناس واضطرابُ أمرهم ، مثل الأمراض المنتشرة ، والتقاتل ، واستمرار الخوف .

وقد تقدم ذكرها عند قوله : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾ [البقرة : 191] وقوله : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ في سورة البقرة (193) .

فمعنى أنهم يفتنون ﴾ أن الله يسلط عليهم المصائب والمضار تنال جماعتهم مما لا يُعتاد تكرر أمثاله في حياة الأمم بحيث يدل تكرر ذلك على أنه مراد منه إيقاظ اللّهِ الناس إلى سوء سيرتهم في جانب الله تعالى ، بعدم اهتدائهم إلى الإقلاع عما هم فيه من العناد للنبيء صلى الله عليه وسلم فإنهم لو رزقوا التوفيق لأفاقوا من غفلتهم ، فعلِموا أن ما يحل بهم كل عام ما طرأ عليهم إلا من وقت تلبسهم بالنفاق .

ولا شك أن الفتنة التي أشارت إليها الآية كانت خاصة بأهل النفاق من أمراض تحل بهم ، أو متالف تصيب أموالهم ، أو جوائح تصيب ثمارهم ، أو نقص من أنفسهم ومواليدهم ؛ فإذا

حصل شيئان من ذلك في السنة كانت الفتنة مرتين .

وقرأ الجمهور ﴿ أولا يَرون ﴾ بالمثناة التحتية .

(48/353)

وقرأ حمزة ويعقوب ﴿ أولا ترون ﴾ بالمثناة الفوقية على أن الخطاب للمسلمين ، فيكون من تنزيل الرائي منزلة غيره حتى ينكر عليه عدم رؤيته مَا لا يخفى .

و ﴿ ثم ﴾ للترتيب الرتبي لأن المعطوف بها هو زائد في رتبة التعجيب من شأنه على المعطوف عليه ، فإن حصول الفتنة في ذاته عجيب ، وعدم اهتدائهم للتدارك بالتوبة والتذكر أعجب .

ولو كانت (ثم) للتراخي الحقيقي لكان محل التعجيب من حالهم هو تأخر توبتهم وتذكرهم .

وأتي بجملة ﴿ ولا هم يذكرون ﴾ مبتدأة باسم أسند إليه فعل ولم يقل : ولا يذكرون ، قصداً لإفادة التقوي ، أي انتفاء تذكرهم محقق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(49/353)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

وقوله الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ ﴾ أي : ألا يستشهد المنافقون تاريخهم مع الإسلام ، ويعلمون أنهم يفتنون في كل عام مرة بالمصائب ومرة بالفضيحة ، فتجد رسول الله حين يراهم يخرج بعضهم من بين الصفوف ويقول لهم : " اخرج يا فلان فإنك منافق " . ثم بعد شهور يتكرر الموقف ، وهنا يذكرهم الحق سبحانه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفيهم كل عام مرة أو مرتين .

الأصل في الفتنة أنها امتحان واختبار ، وهي ليست مذمومة في ذاتها ، لكنها تذم بالنتيجة التي تأتي منها ، فالامتحان – أي امتحان – غير مذموم ، لكن المذموم هو أن يرسب الإنسان في الامتحان . إذن : الابتلاء أو الفتنة في ذاتها ليست مذمومة ، إنما المذموم أن تأتي النتيجة على غير ما تشتهي ، وهم يفتنون حين يرون انتصار المسلمين وغم نفاقهم وكيدهم للمسلمين ، وكان يجب أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا عرقلة سير الإسلام ؛ لأنه منتصر بالله . وكان يجب أن يعتبروا ويتوبوا لينالوا خير الإسلام ، فخيره ممدود رغم أنوفهم ، والخسارة لن تكون على الإسلام ، وإنما الخسارة على من يكفر به .

ونحن نعلم أن الإسلام بدأ بين الضعفاء إلى أن سار الأقوياء إليه ، وتلك سنة الله في الكون ،

بل إننا نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم في بدء الرسالة كان مطلوباً منه أن يؤمن بأنه رسول . وكما تقول أنت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، كان على النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . وسبحانه جل شأنه ، الخالق الأكرم ، آمن بنفسه أولاً ، بدليل قوله سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ . . . ﴾ [آل عمران : 18]

(50/353)

فأول شاهد بالألوهية الحقة هو الله ، وقد شهد لنفسه ، ومعنى ذكر شهادته لنفسه لنا أن نؤمن بأنه سبحانه يزاول قيوميته وطلاقة قدرته بكلمة "كن " وهو عالم أن مخلوقاته تستجيب قطعاً ، وكان لا بد أن يعلمنا أنه آمن أولاً بأنه الأول ، وأنه الإله الحق ، بحيث إذا أمر أي كائن أمراً تسخيرياً فلا بد أن يحدث هذا الأمر ، وسبحانه لا يتهيب أن يأمر ؛ لذلك قال لنا : ﴿ شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ شهادة الذات للذات ، وشهدت الملائكة شهادة المشهد وشهد أولو العلم شهادة الاستدلال ، وحين يشهد محمد صلى الله عليه وسلم أنه رسول الله فهو يؤمن بأنه رسول ، ولو لم يؤمن برسالته لتهيب أن يبلغنا بالرسالة ، وبعد أن آمن صلى الله عليه وسلم أنه رسول من الله جاءه التكليف من الحق : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

الأقربين ﴾ [الشعراء : 214]

وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ، ويبلغ آيات الحق إلى أن جاءت آيات الدفاع عن دين الله ، وقال الحق :

﴿ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 123]

إذن : في البداية كان لا بد أن يؤمن أنه رسول ، وأن يبلغ الدعوة إلى قريش وسائر الجزيرة ، وتعبر دعوته بعد ذلك من الجزيرة إلى الشام ، وتتعدى الرسالة الشام بالإعلام في كل بقاع الأرض ، ولذلك كانت الرمزية في إرسال الكتب : كتاب لفلان وكتاب لفلان ؛ ليفهم العالم أن دعوة النبي صلى الله بالإيمان والإسلام دعوة متعدية ؛ لأنها خالفت دعوات الرسل عليهم السلام ، فقد كان رسول إنما يعلم أن حدود دعوته هي أمته .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فقد كانت لرسالته مراحل : آمن بذلك أولاً ، ثم دعا الأقربين ، ثم من بعد ذلك قريش ، ثم أبلغ العرب ، ثم الشام ، وتعدت الدعوة بالكتب إلى جميع الملوك في العالم ، وصارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم مؤتمنة على حمل الدعوة ونشرها في أي مكان ومعها حجتها وهي القرآن .

(51/353)

وشاء الله أن يختم رسول الله الرسالات ، وأرسله بالإسلام الذي يغلب الحضارات ، رغم أنه صلى الله عليه وسلم من أمة أمية لا تعرف شيئاً ؛ حتى لا يقال عن الإسلام أنه مجرد وثبة حضارية ، وجاء لهم منهج غلب الحضارات المعاصرة له : فارس والروم في وقت واحد .

إذن : فالمسألة كانت مسألة قبيلة ، يحكمهم واحد منهم هكذا ، دون تمرس بالنظم الاجتماعية ، ولم يعرفوا شيئاً قبل الإسلام ، بل هم أمة متبدية لا شأن لها بالنظم السياسية أو الاقتصادية ، وطن الواحد منهم جمله وخيمته وبضعة أدوات تعينه على الحياة ، وتستقر كل جماعة في أي مكان يظهر به العشب ويوجد به الماء ، وبعد أن تأكل الأغنام والأنعام العشب ، ينتقل العربي مع جماعته إلى مكان آخر ، بعد أن ينظر الواحد منهم إلى السماء ؛ ليعرف مسار الغمام وأين ستمطر السحب ، ثم ينساح هؤلاء بالدعوة بعد ذلك ، فلو كان لهم انتماء إلى وطن أو بيت أو مكان لصار الرحيل صعباً عليهم ، لكنهم كانوا متمرسين بالسياحة في الأرض .

والآية التي نحن بصددها تكشف ضعف إيمان البعض ، ونفاق البعض ، فيقول الحق : ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي : كان لا بد أن يتوبوا أو يتعظوا ويعلموا أن وقوفهم ضد الإسلام لم ولن يحجب الإسلام وأنهم

سينسحقون ويضيعون ، فلماذا لا يتذكر كل منهم نفسه ، ويرى مصلحته في الإيمان . انتهى

انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(52/353)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته ﴾ قال : من المنافقين من يقول .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس في قوله ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ قال : كانت إذا أنزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً وكانوا بها يستبشرون .

وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي في قوله ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ قال : شكاً إلى شكهم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون ﴾ قال : يبتلون .

وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ يفتنون ﴾ قال : يبتلون ﴿ في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال : بالسنة والجوع .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الحسن في قوله ﴿ يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال : يبتلون بالعدوّ في كل عام مرة أو مرتين .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ يفتنون في كل عام ﴾ قال : يبتلون بالغزو في سبيل الله .

وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال : يمرضون في كل عام مرة أو مرتين .

وأخرج أبو الشيخ عن العتبي قال : إذا مرض العبد ثم عوفي فلم يزدد خيراً قالت الملائكة عليهم السلام هذا الذي داويناه فلم ينفعه الدواء .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال : كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان .

(53/353)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة في قوله ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال : كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين ، فيضل بها فئام من الناس كثير .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك قال : في قراءة عبد الله " أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين وما يتذكرون " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(54/353)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) ﴾

لم يُخْلِ الحقُّ – سبحانه – أربابَ التكليف من دلائل التعريف ، التعريفُ لهم في كل وقت بنوع من البيان ، والتكليفُ في كل أوان بضرب من الامتحان ؛ فما لم يزد لهم في إيضاح البرهان لم يتجدد لهم من الله إلا زيادة الخذلان والحجبة عن البيان .

وأمَّا أصحاب الحقائق فما للأغيار في كل عام مرة أو مرتين فلهم في كل نَفَسٍ مرة ، لا يخليهم الحقُّ – سبحانه – من زواجرَ توجِبُ بصائر ، وخواطر تتضمن تكليفاتٍ وأوامرَ قال قائلهم

:

كأنَّ رقيباً منك حَلَّ بمهجتي . . . إذا رُمْتُ تسهيلاً عليَّ تَصَعَّبَا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 75 ﴾

(55/353)

قوله تعالى ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما ذكر ما يحدث منهم من القول استهزاء ، أتبعه تأكيداً لزيادة كفرهم وتوضيحاً لتصويره ما يحدث من فعلهم استهزاء من الإيمان والتغامز بالعيون فقال ﴿ وإذا ﴾ وأكد بالنافي فقال : ﴿ ما ﴾ ولما كان الغرض نفس الإنزال لا تعيين المنزل ، بني للمفعول قوله ﴿ أُنزلت سورة ﴾ أي طائفة من القران ﴿ نظر بعضهم ﴾ أي المنافقين ﴿ إلى بعض ﴾ أي متغامزين سخرية واستهزاء قائلين : ﴿ هل يراكم ﴾ وأكدوا العموم فقالوا : ﴿ من أحد ﴾ أي من المؤمنين إن انصرفتم ، فإن يشق علينا سماع مثل هذا ، ويشق علينا أن يطلع المؤمنون على

هذا السر منا .

ولما كان انصرافهم عن مثل هذا المقام مستهجناً ، أشار إلى شدة قبحه بأداة التراخي فقال : ﴿ ثم انصرفوا ﴾ أي إن لم يكن أحد يراهم ، وإن رآهم أحد من المؤمنين تجشموا المشقة وثبتوا ؛ ولما كانوا مستحقين لكل سوء ، أخبر عنهم في أسلوب الدعاء بقوله : ﴿ صرف الله ﴾ أي الذي له الغنى المطلق والكمال كله ﴿ قلوبهم ﴾ أي عن الإيمان ؛ ثم علل ذلك بقوله : ﴿ بأنهم قوم ﴾ وإن كانوا ذوي قوة على ما يحاولونه فإنهم ﴿ لا يفقهون ﴾ أي قلوبهم مجبولة على عدم الفهم لما بها من الغلظة ، وهذا دليل على ختام الآية قبلها ، وهاتان الآيتان المختتمتان – ب ﴿ لا يفقهون ﴾ التاليتان للأمر بالجهاد في قوله ﴿ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ الموازي – ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ الآية – قد احتوتا مع وجازتهما على حاصل أوصاف المنافقين التالية لآية ﴿ انفروا ﴾ المختتم ما هو العام منها في أهل الحاضرة في قوله ﴿ استأذنك أولوا الطول منهم ﴾ ب ﴿ يفقهون ﴾ ثم عند إعادة ذكرهم ب ﴿ لا يعلمون ﴾ وتصويب هاتين الآيتين إلى أهل الحاضرة ظاهر لكونهم ممن يحضر نزول الذكر كثيراً مع احتمالهما للعموم ، والختم هنا ب ﴿ لا يفقهون ﴾ أنسب لأن المقام – وهو النظر في زيادة الإيمان بالنسبة إليهم – يقتضي فكراً وتأملاً وإن كان بالنظر إلى المؤمنين في غاية الوضوح . انتهى انتهى . اهـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 406 . 407 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾

اعلم أن هذا نوع آخر من مخازي المنافقين ، وهو أنه كلما نزلت سورة مشتملة على ذكر المنافقين وشرح فضائحهم ، وسمعوها تأذوا من سماعها ، ونظر بعضهم إلى بعض نظراً مخصوصاً دالاً على الطعن في تلك السورة والاستهزاء بها وتحقير شأنها ، ويحتمل أن لا يكون ذلك مختصاً بالسورة المشتملة على فضائح المنافقين بل كانوا يستخفون بالقرآن ، فكلما سمعوا سورة استهزؤوا بها وطعنوا فيها ، وأخذوا في التغامز والتضاحك على سبيل الطعن والهزء ، ثم قال بعضهم لبعض : هل يراكم من أحد ؟ أي لو رآكم من أحد ؟ وهذا فيه وجوه : الأول : أن ذلك النظر دال على ما في الباطن من الإنكار الشديد والنفرة التامة ، فخافوا أن يرى أحد من المسلمين ذلك النظر وتلك الأحوال الدالة على النفاق والكفر ، فعند ذلك قالوا : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ أي لو رآكم أحد على هذا النظر وهذا الشكل لضركم جداً ؟ والثاني : أنهم كانوا إذا سمعوا تلك السورة تأذوا من سماعها ، فأرادوا الخروج من المسجد ، فقال بعضهم لبعض : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ يعني إن رأوكم فلا تخرجوا ، إن كان ما رآكم أحد فاخرجوا من المسجد ، لتتخلصوا عن هذا

الإيذاء .

والثالث : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ يمكنكم أن تقولوا نحبه ، فوجب علينا الخروج من المسجد .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ يحتمل أن يكون المراد نفس هربهم من مكان الوحي واستماع القرآن ، ويجوز أن يراد به ، ثم انصرفوا عن استماع القرآن إلى الطعن فيه وإن ثبتوا في مكانهم .

فإن قيل : ما التفاوت بين هذه الآية وبين الآية المتقدمة وهي قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إيمانا ﴾ .

(57/353)

قلنا : في تلك الآية حكى عنهم أنهم ذكروا قولهم : ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه إيمانا ﴾ وفي هذه الآية حكى عنهم أنهم اكتفوا بنظر بعضهم إلى بعض على سبيل الهزؤ ، وطلبوا الفرار .

ثم قال تعالى : ﴿ صَرَفَ الله قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ واحتج أصحابنا به على أنه تعالى صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه وهو صحيح فيه ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : عن كل رشد وخير وهدى ، وقال الحسن : صرف الله قلوبهم وطبع عليها بكفرهم ،

وقال الزجاج : أضلهم الله تعالى ، قالت المعتزلة : لو كان تعالى هو الذي صرفهم عن الإيمان فكيف قال : ﴿ أَنَّى يُصْرَفُونَ ﴾ وكيف عاقبهم على الانصراف عن الإيمان ؟ قال القاضي : ظاهر الآية يدل على أن هذا الصرف عقوبة لهم على انصرافهم ، والصرف عن الإيمان لا يكون عقوبة ، لأنه لو كان كذلك ، لكان كما يجوز أن يأمر أنبياءه بإقامة الحدود ، يجوز أن يأمرهم بصرف الناس عن الإيمان .

وتجويز ذلك يؤدي أن لا يوثق بما جاء به الرسول .

ثم قال : هذا الصرف يحتمل وجهين : أحدهما : أنه تعالى صرف قلوبهم بما أورثهم من الغم والكيد .

الثاني : صرفهم عن الألطاف التي يختص بها من آمن واهتدى .

والجواب : أن هذه الوجوه التي ذكرها القاضي ظاهر أنها متكلفة جداً ، وأما الوجه الصحيح الذي يشهد بصحته كل عقل سليم ، هو أن الفعل يتوقف على حصول الداعي ، وإلا لزم رجحان أحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح ، وهو محال .

وحصول ذلك الداعي ليس من العبد وإلا لزم التسلسل ، بل هو من الله تعالى .

(58/353)

فالعبد إنما يقدم على الكفر إذا حصل في قلبه داعي الكفر ، وذلك الحصول من الله تعالى ، وإذا حصل ذلك الداعي انصرف ذلك القلب من جانب الإيمان إلى الكفر ، فهذا هو المراد من صرف القلب وهو كلام مقرر ببرهان قطعي وهو منطبق على هذا النص ، فبلغ في الوضوح إلى أعلى الغايات ، ومما بقي من مباحث الآية ما نقل عن محمد بن إسحق أنه قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوماً انصرفوا صرف الله قلوبهم ، لكن قولوا قد قضينا الصلاة ، وكان المقصود منه التفاؤل بترك هذه اللفظة الواردة فيما لا ينبغي ، والترغيب في تلك اللفظة الواردة في الخير ، فإنه تعالى قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصلاة فانتشروا فِى الأرض وابتغوا مِن فَضْلِ الله ﴾ [الجمعة : 10] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 186.185 ﴾

(59/353)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ .

فِيهَا ثَلَاثُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : قَوْلُهُ : ﴿ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ : فِيهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا : إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فِيهَا فَضِيحَتُهُمْ ، أَوْ فَضِيحَةُ أَحَدٍ مِنْهُمْ جَعَلَ يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ، يَقُولُ : هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِذَا تَكَلَّمْتُمْ بِهَذَا فَيَنْقُلُهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ؟ وَذَلِكَ جَهْلٌ مِنْهُمْ بِنُبُوَّتِهِ ، وَأَنَّ اللَّهَ يُطْلِعُهُ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ .

الثَّانِي : إِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فِيهَا الْأَمْرُ بِالْقِتَالِ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ نَظَرَ الرُّعْبِ ، وَأَرَادُوا الْقِيَامَ عَنْهُ ، لِئَلَّا يَسْمَعُوا ذَلِكَ ، يَقُولُونَ : هَلْ يَرَاكُمْ إِذَا انْصَرَفْتُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ ثُمَّ يَقُومُونَ وَيَنْصَرِفُونَ ، صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : يُكْرَهُ أَنْ يُقَالَ انْصَرَفْنَا مِنْ الصَّلَاةِ ؛ لِأَنَّ قَوْمًا انْصَرَفُوا فَصَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَلَكِنْ قُولُوا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ .

وَهَذَا كَلَامٌ فِيهِ نَظَرٌ ، وَمَا أَظُنُّهُ يَصِحُّ عَنْهُ ، فَإِنَّ نِظَامَ الْكَلَامِ أَنْ يُقَالَ : لَا يَقُلْ أَحَدٌ انْصَرَفْنَا مِنْ الصَّلَاةِ ، فَإِنَّ قَوْمًا قِيلَ فِيهِمْ : ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ كَانَ مَقُولًا فِيهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ .

(60/353)

وَقَدْ أَخْبَرَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ الْبُسْتِيُّ الْوَاعِظُ قَالَ : أَخْبَرَنَا أَبُو الْفَضْلِ الْجَوْهَرِيُّ سَمَاعًا عَلَيْهِ ، يَقُولُ : كُنَّا فِي جِنَازَةٍ ، فَقَالَ الْمُنْذِرُ بِهَا : انْصَرِفُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ فَقَالَ : لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ انْصَرِفُوا ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي قَوْمٍ ذَمَّهُمْ : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ وَلَكِنْ قُولُوا : انْقَلِبُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ فِي قَوْمٍ مَدَحَهُمْ : ﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنْ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : قَوْلُهُ : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ : إخْبَارٌ عَنْ أَنَّهُ صَارِفُ الْقُلُوبِ وَمُصَرِّفُهَا وَقَالِبُهَا وَمُقَلِّبُهَا رَدًّا عَلَى الْقَدَرِيَّةِ فِي اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ قُلُوبَ الْخَلْقِ بِأَيْدِيهِمْ وَجَوَارِحَهُمْ بِحُكْمِهِمْ ، يَتَصَرَّفُونَ بِمَشِيئَتِهِمْ ، وَيَحْكُمُونَ بِإِرَادَتِهِمْ ، وَاخْتِيَارِهِمْ ، وَلِهَذَا قَالَ مَالِكٌ فِيمَا رَوَاهُ عَنْهُ أَشْهَبُ : مَا أَبْيَنَ هَذَا فِي الرَّدِّ عَلَى أَهْلِ الْقَدَرِ : ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِنُوحٍ : ﴿ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِك إلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ ﴾ .

فَهَذَا لَا يَكُونُ أَبَدًا وَلَا يَرْجِعُ وَلَا يُزَالُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(61/353)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

من القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل سورة براءة ، فيها عيب المنافقين ، ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ ؛ ويتغامزون ويقولون فيما بينهم : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، فإذا رآهم أحد قاموا وصلوا ، وإن لم يرهم أحد لم يصلوا .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ ، يعني : خرجوا من المسجد ، ويقال : انصرفوا من الإيمان .

﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ عن الإيمان ، وعزل قلوبهم عن الفهم بخروجهم من المسجد وانصرافهم عن الإيمان ، ويقال : هذا على وجه الدعاء واللعن ، كقوله : ﴿ وَقَالَتِ اليهود عُزَيْرٌ ابن الله وَقَالَتِ النصارى المسيح ابن الله ذلك قَوْلُهُم بأفواههم يضاهئون قَوْلَ الذين كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قاتلهم الله أنى يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : 30] ؛ ويقال : هذا على معنى التقديم ، ومعناه صرف الله قلوبهم ، لأنهم انصرفوا عن الإيمان .

ويقال : هذا على معنى التقديم ، ومعناه صرف الله قلوبهم ، لأنهم انصرفوا عن الإيمان .

﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أمر الله تعالى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

فيها عيب المنافقين وتوبيخهم ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ كلام مختصر تقديره نظر بعضهم في بعض وقالوا أو أشاروا ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ إن قمتم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أحداً يراهم قاموا فانصرفوا ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ عن الإيمان بها ، وقال الضحاك : هل يراكم من أحد يعني أطلع أحد منهم على سرائركم مخافة القتل قال الله ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ عن الإيمان بالقرآن ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ قال ابن عباس : لا تقولوا إذا صليتم : انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، لكن قولوا قضينا الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(62/353)

وقال ابن عطية :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾

الضمير في قوله ﴿ بعضهم ﴾ عائد على المنافقين ، والمعنى وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرارهم ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ على جهة التقريب ، يفهم من تلك النظرة التقرير : هل معكم من ينقل عنكم ؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم ؟ وقوله تعالى : ﴿ ثم انصرفوا ﴾ معناه عن طريق الاهتداء . وذلك أنهم حين ما يبين لهم كشف

أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك ، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء ، وابتدىء بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيناه ، وقوله ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ يحتمل أن يكون دعاء عليهم ، ويحتمل أن يكون خبراً أي استوجبوا ذلك ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله ، وأسند الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس أنه قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا قضينا الصلاة .

قال القاضي أبو محمد : فهذا النظر الذي في هذه الآية هو إيماء ، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال : نظر في هذه الآية في موضع قال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ وإذا ما أُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾

قال ابن عباس : كانت إذا أُنزلت سورة فيها عيب المنافقين ، وخطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعرَّض بهم في خطبته ، شق ذلك عليهم ، ونظر بعضهم إلى بعض يريدون الهرب ، يقولون : ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ من المؤمنين إن قمتم ؟ فإن لم يرهم أحد ، خرجوا من المسجد .

قال الزجاج : كأنهم يقولون ذلك إيماءً لئلا يعلم بهم أحد ، ﴿ ثم انصرفوا ﴾ عن المكان ، وجائز عن العمل بما يسمعون .

وقال الحسن : ثم انصرفوا على عزم التكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

قوله تعالى : ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ قال ابن عباس : عن الإيمان .

وقال الزجاج : أضلَّهم مجازاة على فعلهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(63/353)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾

"ما" صلة ، والمراد المنافقون ؛ أي إذا حضروا الرسول وهو يتلو قرآناً أنزل فيه فضيحتهم أو فضيحة أحد منهم جعل ينظر بعضهم إلى بعض نظر الرعب على جهة التقرير ؛ يقول : هل يراكم من أحد إذا تكلمتم بهذا فينقله إلى محمد ، وذلك جهل منهم بنبوّته عليه السلام ، وأن الله يطلعه على ما يشاء من غيبه .

وقيل : إن "نظر" في هذه الآية بمعنى أنبأ .

وحكى الطبريّ عن بعضهم أنه قال : "نظر" في هذه الآية موضع قال .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ أي انصرفوا عن طريق الاهتداء .

وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيّبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجّبٌ وتوقّف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة لإيمانهم ؛ فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة النظر الصحيح والاهتداء ، ولم يسمعوا قراءة النبيّ صلى الله عليه وسلم سماع من يتدبره وينظر في آياته :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدوابِ عِندَ اللهِ الصم البكم الذين لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : 22] .

﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القرآنَ أَمْ على قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد : 24 .

]

قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ .

فيه ثلاث مسائل :

الأولى قوله تعالى : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ دعاء عليهم ؛ أي قولوا لهم هذا .

ويجوز أن يكون خبراً عن صرفها عن الخير مجازاةً على فعلهم .

وهي كلمة يدعى بها ؛ كقوله : ﴿ قَاتَلَهُمُ اللهُ ﴾ والباء في قوله : "بِأَنَّهُمْ" صلة ل "صرف" .

الثانية قال ابن عباس : يكره أن يقال انصرفنا من الصلاة ؛ لأن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا قضينا الصلاة ؛ أسنده الطبريّ عنه .

قال ابن العربي : وهذا فيه نظر وما أظنه بصحيح ؛ فإن نظام الكلام أن يقال : لا يقل أحد انصرفنا من الصلاة ؛ فإن قوماً قيل فيهم : ﴿ ثُمَّ انصرفوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ .

أخبرنا محمد بن عبد الملك القَيْسِيّ الواعظ حدّثنا أبو الفضل الجوهري سماعاً منه يقول : كنا في جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله ! فقال : لا يقل أحد انصرفوا فإن الله تعالى قال في قوم ذمهم : ﴿ ثُمَّ انصرفوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ ولكن قولوا : انقلبوا رحمكم الله ؛ فإن الله تعالى قال في قوم مدحهم : ﴿ فانقلبوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سواء ﴾ [آل عمران : 174] .

الثالثة أخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية أنه صارف القلوب ومصرفها وقالبها ومقلّبها ؛ رداً على القدرية في اعتقادهم أن قلوب الخلق بأيديهم وجوارحهم بحُكمهم ، يتصرفون بمشيئتهم ويحكمون بإرادتهم واختيارهم ؛ ولذلك قال مالك فيما رواه عنه أشهب : ما أبين هذا في الرد على القدرية ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الذي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

وقوله عز وجل لنوح : ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ آمَنَ ﴾ [هود : 36] فهذا لا يكون أبداً ولا يرجع ولا يزول . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(65/353)

وقال الخازن :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾

يعني فيها عيب المنافين وتوبيخهم ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ يريدون بذلك الهرب يقول بعضهم لبعض إشارة ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ يعني هل أحد من المؤمنين يراكم إن قمتم من مجلسكم فإن لم يرهم أحد خرجوا من المسجد وإن علموا أن أحداً يراهم من المؤمنين أقاموا ولبثوا على تلك الحال ﴿ ثم انصرفوا ﴾ يعني عن الإيمان بتلك السورة النازلة .

وقيل : انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ يعني عن الإيمان .

وقال الزجاج : أضلهم الله مجازاة لهم على فعلهم ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ يعني لا يفقهون عن الله دينه ولا شيئاً فيه نفعهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(66/353)

وقال أبو حيان :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا ﴾ .

ذكر أولاً ما يحدث عنهم من القول على سبيل الاستهزاء ، ثم ذكر ثانياً ما يصدر منهم من الفعل على سبيل الاستهزاء وهو الإيماء والتغامز بالعيون إنكاراً للوحي ، وسخرية قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نقدر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم ، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون : هل يراكم من أحد ؟ والظاهر إطلاق السورة أية سورة كانت .

وقيل : ثم صفة محذوفة أي : سورة تفضحهم ويذكر فيها مخازيهم ، نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير ، يفهم من تلك النظرة التقرير : هل يراكم من ينقل عنكم ؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم ؟ ثم انصرفوا أي : عن طريق الاهتداء ، وذلك أنهم حين ما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف ونظر ، فلو اهتدوا لكان ذلك الوقت مظنة النظر الصحيح والاهتداء .

قال الضحاك : هل اطلع أحد منهم على سرائركم مخافة القتل ثم انصرفوا إن كان حقيقة فالمعنى : قاموا من المكان الذي تتلى فيه السورة أو مجازاً ، فالمعنى : انصرفوا عن الإيمان ، وذلك وقت رجوعهم إليه وإقبالهم عليه ، قاله الكلبي ، أو رجعوا إلى الاستهزاء أو إلى

الطعن في القرآن والتكذيب له ولمن جاء به ، أو عن العمل بما كانوا يسمعونه ، أو عن طريق الاهتداء بعد أن بين لهم ومهد وأقيم دليله ، وهذا القول راجع لقول الكلبي .

صرف الله قلوبهم صيغته خبر ، وهو دعاء عليهم بصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان ، قاله الفراء .

والظاهر أنه خبر لما كان الكلام في معرض ذكر التكذيب ، بدأ بالفعل المنسوب إليهم وهو قوله : ثم انصرفوا ، ثم ذكر فعله تعالى بهم على سبيل المجازاة لهم على فعلهم كقوله : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ قال الزجاج : أضلهم .

وقيل : عن فهم القرآن والإيمان به .

(67/353)

وقال ابن عباس : عن كل رشد وخير وهدى .

وقال الحسن : طبع عليها بكفرهم .

قال الزمخشري : صرف الله قلوبهم دعاء عليهم بالخذلان ، ويصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بأنهم قوم لا يفقهون يحتمل أن يكون متعلقاً بانصرفوا ، أو بصرف ، فيكون من باب الإعمال أي : بسبب انصرافهم ، أو صرف الله قلوبهم هو بسبب أنهم لا

يتدبرون القرآن فيفقهون ما احتوى عليه مما يوجب إيمانهم والوقوف عنده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(68/353)

وقال أبو السعود :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

بيان لأحوالهم عند نزولِها وهم في مجال تبليغِ الوحي كما أن الأولَ بيانٌ لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ تغامزوا بالعيون إنكاراً لها أو سخريةً بها أو غيظاً لما فيها من مخازيهم ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ أي قائلين : هل يراكم أحدٌ من المسلمين لننصرف ، مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلبُ عليهم الضحِكُ فيفتَضِحون أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروجِ والانسلالِ لواذاً يقولون : هل يراكم من أحد إن قمتم من المجلس ، وإيرادُ ضمير الخطابِ لبعث المخاطَبين على الجد في انتهاز الفرصةِ فإن المرءَ بشأنه أكثرُ اهتماماً منه بشأن أصحابِه كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ وقيل : المعنى وما أنزلت سورةٌ في عيوب المنافقين ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ عطفٌ على نظَر بعضُهم والتراخي باعتبار وُجدانِ الفرصةِ والوقوفِ على عدمِ رؤيةِ أحدٍ من المؤمنين ، أي

انصرفوا جميعاً عن محفِل الوحيِ خوفاً من الافتضاح أو غير ذلك ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ أي عن الإيمان حسَب انصرافِهم عن المجلس ، والجملةُ اختباريةٌ أو دعائية ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ لسوء الفهم أو لعدم التدبّر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(69/353)

وقال الآلوسى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ ﴾

بيان لأحوالهم عند نزولها وهم في محفل تبليغ الوحي كما أن الأول بيان لمقالاتهم وهم غائبون عنه ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ ليتواطؤا على الهرب كراهة سماعها قائلين إشارة : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ أي هل يراكم أحد من المسلمين إذا قمتم من المجس أو تغامزوا بالعيون إنكاراً وسخرية بها قائلين هل يراكم أحد لننصرف مظهرين أنهم لا يصطبرون على استماعها ويغلب عليهم الضحك فيفتضحون ، والسورة على هذا مطلقة ، وقيل : إن نظر بعضهم إلى بعض وتغامزهم كان غيظاً لما في السورة من مخازيهم وبيان قبائحهم ، فالمراد بالسورة سورة مشتملة على ذلك ، والإطلاق هو الظاهر ، وأياً ما كان فلا بد من تقدير

القول قبل الاستفهام ليرتبط الكلام ، فإن قدر اسماً كان نصباً على الحال كما أشرنا إليه ، وإن قدر فعلاً كانت الجملة في موضع الحال أيضاً ، ويجوز جعلها مستأنفة ، وإيراد ضمير الخطاب لبعث المخاطبين على الحزم فإن المرء بشأنه أكثر اهتماماً منه في شأن أصحابه كما في قوله تعالى : ﴿ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف : 19] ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ عطف على ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ ﴾ والتراخي باعتبار وجود الفرصة والوقوف على عدم رؤية أحد من المؤمنين ، أي ثم انصرفوا جميعاً عن محفل الوحي لعدم تحملهم سماع ذلك لشدة كراهتهم أو مخافة الفضيحة بغلبة الضحك أو الاطلاع على تغامزهم .

أو انصرفوا عن المجلس بسبب الغيظ ، وقيل : المراد انصرافهم عن الهداية والأول أظهر .

﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ عن الإيمان حسب انصرافهم عن ذلك المجلس ، والجملة تحتمل الإخبار والدعاء ، واختار الثاني أبو مسلم .

(70/353)

وغيره من المعتزلة ، ودعاؤه تعالى على عباده وعيد لهم وإعلام بلحوق العذاب بهم ؛ وقوله سبحانه : ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ قيل متعلق بصرف على الاحتمال الأول وبانصرفوا على الثاني ،

والباء للسببية أي بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ لسوء فهمهم أو لعدم تدبرهم فهم إما حمقى أو غافلون . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(71/353)

وقال القاسمى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ .

قال الزمخشري : يعني تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي ، وسخرية به ، قائلين : هل يراكم من أحد من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ، ويغلبنا الضحك ، فنخاف الإفتضاح بينهم ، أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والإنسلال لواذاً . يقولون : هل يراكم من أحد ﴿ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾ أي : عن محفل الوحي خوفاً من الإفتضاح ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ أي : عن الإيمان حسب انصرافهم عن حضرته عليه السلام .

والجملة إخبارية أو دعائية ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يتدبرون أمر الله حتى يفقهوا .

تنبيهات :

الأول : دلت الآية المتقدمة على زيادة الإيمان بما ذكر ، وسواء قلنا بدخول الأعمال في

مسمى الإيمان ، وهو الحق أوْلَا ، وأنه مجرد التصديق القلبي ، فالزيادة مما يقبلها قطعاً ، والأول بديهي ، والثاني مثله ، إذ ليس إيمان الأنبياء ، عليهم الصلاة والسلام ، والصحابة رضي الله عنهم ، كإيمان غيرهم وهذا مما لا يُرتاب فيه .

الثاني : ذكر تعالى من مخازي المنافقين نوعين : عدم اعتبارهم بالإبتلاء ، وتمكن الكفر منهم ، وازدياده في وقت يقتضي زيادة الإيمان ، وهو تكرير التنزيل .

ولما كان القصد بيان إصرارهم على كفرهم ، وعدم نفع العظات فيهم ، ختم مخازيهم بذلك ، لأنه نتيجتها ، وقدم عليه ما يصيبهم من الإبتلاء ، لأن فيه ردعاً عظيماً لو تذكروا .

وقد تلطف القاشاني في إيضاح ذلك ، وجود التقرير فيه ، وعبارته :

البلاء قائد من الله تعالى يقود الناس إليه ، وقد ورد في الحديث : < البلاء سوط

(72/353)

من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه > ، فإن كل مرض وفقر وسوء حال يحل بأحد ، بكسر سورة نفسه وقواها ، ويقمع صفاتها وهواها ، فيلين القلب ، ويبرز من حجابها ، وينزعج من الركون إلى الدنيا ولذاتها ، وينقبض منها ويشمئز ، فيتوجه إلى الله .

وأقل درجاته أنه إذا اطّلع على أن لا مفر منه إلا إليه ، ولم يجد مهرباً ومحيصاً من البلاء سواه

، تضرع إليه وتذلل بين يديه ، كما قال : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ .

وبالجملة يوجب رقة الحجاب أو ارتفاعه ، فليغتنم وقته وليتعوّذ ، وليتخذ ملكة يعود إليها أبداً حتى يستقر التيقظ والتذكر ، وتتسهل التوبة والحضور ، فلا يتعود [في المطبوع : يتعوذ] الغفلة عند الخلاص فتغلب ، وتتقوى النفس عند الأمان ، وينسبل الحجاب أغلظ مما كان ، كما قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ ﴾ . انتهى .

الثالث : قال السيوطي في " الإكليل " : أخذ ابن عباس من قوله : ﴿ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾ كراهية أن يقال : انصرفت من الصلاة – أخرجه ابن أبي حاتم – .

ومرجع هذا إلى أدب لفظي ، باجتناب ما يوهم ، أو ما نُعِيَ به على العصاة .

وقد عقد الإمام ابن القيم في " زاد المعاد " فصلاً في هدي النبي صلى الله عليه وسلم في حفظ المنطق ، واختيار الألفاظ ، فليراجع . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 8 صـ 549.550 ﴾

(73/353)

وقال صاحب المنار فى الآيات السابقة :

(وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً)

أَيْ مَا كَانَ شَأْنُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا مِمَّا يَجِبُ عَلَيْهِمْ وَيُطْلَبُ مِنْهُمْ ، أَنْ يَنْفِرُوا جَمِيعًا فِي كُلِّ سَرِيَّةٍ تَخْرُجُ لِلْجِهَادِ ، فَإِنَّ هَذِهِ السَّرَايَا مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَةِ لَا مِنْ فُرُوضِ الْأَعْيَانِ ، وَإِنَّمَا يَجِبُ ذَلِكَ إِذَا خَرَجَ الرَّسُولُ وَاسْتَنْفَرَهُمْ لِلْخُرُوجِ (فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ) لَوْلَا حَرْفُ تَحْضِيضٍ وَحَثٍّ عَلَى مَا تَدْخُلُ عَلَيْهِ : أَيْ فَهَلَّا نَفَرَ لِلْقِتَالِ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ كَبِيرَةٍ (مِنْهُمْ) كَالْقَبِيلَةِ أَوْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، (طَائِفَةٌ) أَيْ جَمَاعَةٌ بِقَدْرِ الْحَاجَةِ (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) أَيْ لِيَتَأَتَّى لَهُمْ أَيِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جُمْلَتِهِمُ التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ بِأَنْ يَتَكَلَّفَ الْبَاقُونَ فِي الْمَدِينَةِ الْفَقَاهَةَ فِي الدِّينِ بِمَا يَتَجَدَّدُ نُزُولُهُ عَلَى الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْآيَاتِ ، وَمَا يَجْرِي عَلَيْهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

(74/353)

مِنْ بَيَانِهَا بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، فَيُعَرِّفُ الْحُكْمَ مَعَ حِكْمَتِهِ ، وَيُفَصِّلُ الْعِلْمَ الْمُجْمَلَ بِالْعَمَلِ بِهِ ، (وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ) الَّذِينَ نَفَرُوا لِلِقَاءِ الْعَدُوِّ (إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ) أَيْ يَجْعَلُوا جُلَّ هَمِّهِمْ مِنَ الْفَقَاهَةِ بِأَنْفُسِهِمْ إِرْشَادَ هَؤُلَاءِ وَتَعْلِيمِهِمْ مَا عَلِمُوا ، وَإِنْذَارَهُمْ عَاقِبَةَ الْجَهْلِ ، وَتَرْكِ الْعَمَلِ

بِالْعِلْمِ (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) أَيْ رَجَاءَ أَنْ يَخَافُوا اللهَ وَيَحْذَرُوا عَاقِبَةَ عِصْيَانِهِ ; وَيَكُونُ جَمِيعُ الْمُؤْمِنِينَ عُلَمَاءَ بِدِينِهِمْ قَادِرِينَ عَلَى نَشْرِ دَعْوَتِهِ ، وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِ ، وَتَعْمِيمِ هِدَايَتِهِ ، فَهَذَا مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ غَايَةَ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالْغَرَضَ مِنْهُ لَا الرِّيَاسَةُ وَالْعُلُوُّ بِالْمَنَاصِبِ ، وَالتَّكَبُّرُ عَلَى النَّاسِ وَطَلَبُ الْمَنَافِعِ الشَّخْصِيَّةِ مِنْهُمْ .

(75/353)

وَالْآيَةُ تَدُلُّ عَلَى وُجُوبِ تَعْمِيمِ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِتَعْلِيمِهِ فِي مَوَاطِنِ الْإِقَامَةِ وَتَفْقِيهِ النَّاسِ فِيهِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَصْلُحُ بِهِ حَالُهُمْ ، وَيَكُونُونَ بِهِ هُدَاةً لِغَيْرِهِمْ ، وَأَنَّ الْمُتَخَصِّصِينَ لِهَذَا التَّفَقُّهِ بِهَذِهِ النِّيَّةِ ، لَا يَقِلُّونَ فِي الدَّرَجَةِ عِنْدَ اللهِ عَنِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الْمِلَّةِ وَالْأُمَّةِ . بَلْ هُمْ أَفْضَلُ مِنْهُمْ فِي غَيْرِ الْحَالِ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الدِّفَاعُ فَرْضًا عَيْنِيًّا ، وَالدَّلَائِلُ عَلَى هَذَا كَثِيرَةٌ ، وَمَا قَالَهُ بَعْضُ الْأُصُولِيِّينَ مِنْ دَلَالَةِ الْآيَةِ عَلَى الِاحْتِجَاجِ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ مُتَكَلَّفٌ بَعِيدٌ عَنْ مَعْنَى النَّظْمِ الْكَرِيمِ ، وَمَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ لَفْظَ طَائِفَةٍ يُطْلَقُ عَلَى الْوَاحِدِ كَمَا قِيلَ وَهُوَ بَاطِلٌ .

(76/353)

كُنْتُ أَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي طَرَابُلُسَ وَكَانَ حَاكِمُهَا الْإِدَارِيُّ (الْمُتَصَرِّفُ) فِيهَا مُصْطَفَى بَاشَا بَابَانِ مِنْ سَرَوَاتِ الْكُرْدِ ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ فِي مَذْهَبِ الشَّافِعِيَّةِ ، وَقَدْ قَالَ لِي مَرَّةً فِي دَارِنَا بِالْقَلَمُونِ : لِمَاذَا تَسْتَثْنِي الدَّوْلَةُ الْعُلَمَاءَ وَطُلَّابَ الْعُلُومِ الدِّينِيَّةِ مِنْ خِدْمَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَهِيَ وَاجِبَةٌ شَرْعًا وَهُمْ أَوْلَى النَّاسِ بِالْقِيَامِ بِهَذَا الْوَاجِبِ ؟ - يُعَرِّضُ بِي - أَلَيْسَ هَذَا خَطَأً لَا أَصْلَ لَهُ فِي الشَّرْعِ ؟ فَقُلْتُ لَهُ عَلَى الْبَدَاهَةِ بَلْ لِهَذَا أَصْلٌ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَتَلَوْتُ الْآيَةَ ، فَاسْتَكْثَرَ الْجَوَابَ عَلَى مُبْتَدِئٍ مِثْلِي لَمْ يَقْرَأِ التَّفْسِيرَ وَأَثْنَى وَدَعَا .

وَقَدْ تَعَارَضَتِ الرِّوَايَاتُ الْمَأْثُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ فَاخْتَلَفَتِ الْأَقْوَالُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَالْحَقُّ فِيهَا مَا قُلْنَا وَعَلَيْهِ الْجُمْهُورُ .

أَخْرَجَ أَبُو دَاوُدَ فِي نَاسِخِهِ ، وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ نَسْخُ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا) (9 : 41) - (إِلَّا تَنْفِرُوا

(77/353)

يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (9 : 39) قَوْلُهُ : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) يَقُولُ لِتَنْفِرْ طَائِفَةٌ وَلِتَمْكُثْ طَائِفَةٌ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَالْمَاكِثُونَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : هُمُ الَّذِينَ يَتَفَقَّهُونَ فِي الدِّينِ وَيُنْذِرُونَ إِخْوَانَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ مِنَ الْغَزْوِ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ مَا نَزَلَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ وَحُدُودِهِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ الْمُنْذِرِ وَابْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَابْنُ مَرْدَوَيْهِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ عَنْهُ فِي الْآيَةِ : يَعْنِي مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا جَمِيعًا وَيَتْرُكُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحْدَهُ - فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ يَعْنِي عُصْبَةً يَعْنِي السَّرَايَا فَلَا يَسِيرُونَ إِلَّا بِإِذْنِهِ . فَإِذَا رَجَعَتِ السَّرَايَا وَقَدْ نَزَلَ قُرْآنٌ تَعَلَّمَهُ الْقَاعِدُونَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَالُوا إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ عَلَى نَبِيِّكُمْ بَعْدَكُمْ قُرْآنًا وَقَدْ تَعَلَّمْنَاهُ ، فَتَمْكُثُ السَّرَايَا يَتَعَلَّمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْدَهُمْ ، وَيَبْعَثُ سَرَايَا أُخَرَ ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) يَقُولُ يَتَعَلَّمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِمْ وَيُعَلِّمُونَهُ السَّرَايَا إِذَا رَجَعَتْ إِلَيْهِمْ (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) .

(78/353)

فَأَمَّا قَوْلُهُ فِي الرِّوَايَةِ الْأُولَى بِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَسَخَتْ آيَاتِ النَّفِيرِ الْعَامِّ فَهُوَ قَدْ يُوَافِقُ إِطْلَاقَ السَّلَفِ فِي النَّسْخِ وَمِنْهُ عِنْدَهُمْ تَخْصِيصُ الْعَامِّ وَتَقْيِيدُ الْمُطْلَقِ ، وَلَا يَصِحُّ هُنَا النَّسْخُ الْمُصْطَلَحُ عَلَيْهِ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ ؛ لِأَنَّ مَوْضِعَ النَّفِيرِ الْخَاصِّ غَيْرُ مَوْضِعِ النَّفِيرِ الْعَامِّ ، فَلَا تَنَافِي بَيْنَ الْأَحْكَامِ . وَبِهَذَا يَقُولُ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ .

وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّهُ جَعَلَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) لِلطَّائِفَةِ الَّتِي تَنْفِرُ لِلْغَزْوِ لَا لِلَّتِي تَبْقَى مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الْمَدِينَةِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ : لِيَتَفَقَّهَ الَّذِينَ خَرَجُوا بِمَا يُرِيهِمُ اللَّهُ مِنَ الظُّهُورِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ وَالنُّصْرَةِ ، وَيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إذَا رَجَعُوا إلَيْهِمْ . وَزَعَمَ الطَّبَرِيُّ : أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ أَوْلَى بِالصَّوَابِ ، وَأَوْضَحَ ذَلِكَ بِأَنَّ هَذِهِ الطَّائِفَةَ النَّافِرَةَ تَتَفَقَّهُ بِمَا تُعَايِنُ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ أَهْلَ دِينِهِ وَأَصْحَابَ رَسُولِهِ عَلَى أَهْلِ عَدَاوَتِهِ وَالْكُفْرِ بِهِ ، فَيُفَقَّهُ بِذَلِكَ مِنْ مُعَايَنَةِ حَقِيقَةِ عِلْمِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَظُهُورِهِ عَلَى الْأَدْيَانِ مَنْ لَمْ يَكُنْ فَقِهَهُ .

(79/353)

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ) فَيُحَذِّرُوهُمْ أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ اللَّهِ مِثْلُ الَّذِي نَزَلَ بِمَنْ شَاهَدُوا مِمَّنْ ظَفِرَ بِهِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكِ (إذَا) هُمْ (رَجَعُوا إلَيْهِمْ) مِنْ غَزْوِهِمْ (لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) يَقُولُ لَعَلَّ قَوْمَهُمْ إذَا هُمْ حَذَّرُوهُمْ مَا عَايَنُوا مِنْ ذَلِكَ يَحْذَرُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ حَذَرًا أَنْ يَنْزِلَ بِهِمْ مَا نَزَلَ

بِالَّذِينَ أَخْبَرُوهُمْ خَبَرَهُمْ اهـ .

وَهَذَا تَأْوِيلٌ مُتَكَلَّفٌ يَنْبُو عَنْهُ النَّظْمُ الْكَرِيمُ ; فَإِنَّ اعْتِبَارَ طَائِفَةِ السَّرِيَّةِ بِمَا قَدْ يَحْصُلُ لَهَا مِنَ

النَّصْرِ – وَهُوَ غَيْرُ مَضْمُونٍ وَلَا مُطَّرِدٍ – لَا يُسَمَّى تَفَقُّهًا فِي الدِّينِ وَإِنْ كَانَ يَدْخُلُ فِي عُمُومِ مَعْنَى الْفِقْهِ ، فَإِنَّ التَّفَقُّهَ هُوَ : التَّعَلُّمُ الَّذِي يَكُونُ بِالتَّكَلُّفِ وَالتَّدَرُّجِ وَالْمُتَبَادِرِ مِنَ الدِّينِ عِلْمُهُ ، وَلَا يَصِحُّ هَذَا الْمَعْنَى فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ إلَّا فِي الَّذِينَ يَبْقَوْنَ مَعَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَيَزْدَادُونَ كُلَّ يَوْمٍ عِلْمًا وَفِقْهًا بِنُزُولِ الْقُرْآنِ كَمَا تَقَدَّمَ آنِفًا فِي تَفْسِيرِ : (وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) (9 : 97) وَمَا يَأْتِي قَرِيبًا فِيمَا يَنْزِلُ مِنَ السُّوَرِ فَيَزْدَادُ بِهِ الَّذِينَ آمَنُوا إيمَانًا . وَأَخَذَ بَعْضُهُمْ مِنْ قَوْلِ الْحَسَنِ أَنَّهُ يَشْمَلُ السَّفَرَ لِأَجْلِ طَلَبِ الْعِلْمِ لِمَا فِي الرِّحْلَةِ مِنْ أَسْبَابِ زِيَادَةِ الِاسْتِفَادَةِ بِالِانْقِطَاعِ لِلْعِلْمِ وَلِقَاءِ أَسَاطِينِهِ ، وَعَلَّلَ بَعْضُهُمْ فَضِيلَةَ السِّيَاحَةِ بِذَلِكَ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا .

(80/353)

وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْفِقْهِ فِي عُرْفِ اللُّغَةِ وَاسْتِعْمَالِ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّهُ أَخَصُّ مِنَ الْعِلْمِ بِفُرُوعِ الْأَحْكَامِ ، وَحَقَّقْنَاهُ بِشَوَاهِدِ الْآيَاتِ فِي تَفْسِيرِ (لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا) (7 : 179) (352 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) .

اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ قَاعِدَةٌ مِنْ قَوَاعِدِ الْقِتَالِ الَّذِي نَزَلَتْ أَهَمُّ قَوَاعِدِهِ وَأَحْكَامِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَالَّتِي قَبْلَهَا ، وَإِنَّمَا وُضِعَتْ هَاهُنَا عَلَى سُنَّةِ الْقُرْآنِ فِي تَفْرِيقِ الْمَوْضُوعِ الْوَاحِدِ الْكَثِيرِ الْأَحْكَامِ فِي مَوَاضِعَ مُتَفَرِّقَةٍ ، وَبَيَّنَّا حِكْمَتَهُ آنِفًا عَوْدًا عَلَى بَدْءٍ .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) أَيِ الَّذِينَ يَدْنُونَ مِنْكُمْ وَتَتَّصِلُ بِلَادُهُمْ بِبِلَادِكُمْ ; وَذَلِكَ أَنَّ الْقِتَالَ شُرِعَ لِتَأْمِينِ الدَّعْوَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ وَحُرِّيَّةِ الدِّينِ وَالدِّفَاعِ عَنْ أَهْلِهِ ، وَقَدْ كَانَتِ الدَّعْوَةُ إِلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنَ الْكُفَّارِ كَمَا قَالَ تَعَالَى لِرَسُولِهِ : (لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا) (42 : 7) وَقَالَ لِأَهْلِ مَكَّةَ (وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (6 : 19) أَيْ وَكُلُّ مَنْ بَلَغَتْهُ دَعْوَتُهُ بَلْ أَمَرَهُ أَنْ يَخُصَّ الْأَقْرَبَ إِلَيْهِ فِي النَّسَبِ مِنْ أَهْلِ بَلَدِهِ أُمِّ الْقُرَى فَقَالَ : (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (26 : 214) .

(81/353)

أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ زَيْدٍ فِي الْآيَةِ قَالَ : كَانَ الَّذِينَ يَلُونَهُ مِنَ الْكُفَّارِ الْعَرَبِ فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى فَرَغَ مِنْهُمْ . وَعَنْ قَتَادَةَ قَالَ : الْأَدْنَى فَالْأَدْنَى . وَأَخْرَجَ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ : أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ غَزْوِ الدَّيْلَمِ فَقَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقُولُ : (قَاتِلُوا

الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) قَالَ (الرُّومُ) اهـ . يَعْنِي أَنَّ الرُّومَ هُمُ الْمُرَادُ بِالْكُفَّارِ فِي الْآيَةِ لِأَنَّهُمْ كَانُوا عِنْدَ نُزُولِهَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِ يَهُودِ الْمَدِينَةِ وَخَيْبَرِ هُمُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ فِي تَبُوكَ وَسَائِرِ بِلَادِ الشَّامِ .

وَتَرْجِيحُ الْبَدْءِ بِالْأَقْرَبُ فَالْأَقْرَبِ مَعْقُولٌ مِنْ وُجُوهٍ كَثِيرَةٍ كَالْحَاجَةِ وَالْإِمْكَانِ وَالسُّهُولَةِ وَالنَّفَقَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَتِ الْقَاعِدَةُ فِيهِ عَامَّةً فِي الدَّعْوَةِ وَالْقِتَالِ وَالنَّفَقَاتِ وَالصَّدَقَاتِ ، وَكَذَا مَا يُدَارُ فِي الْمَجْلِسِ وَنَحْوِهِ فَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْطِي مَنْ عَلَى يَمِينِهِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَفْضَلَ الْجَالِسِينَ ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ فَالَّذِي يَلِيهِ . وَأَمَرَ بِأَنْ يَأْكُلَ الْإِنْسَانُ مِمَّا يَلِيهِ . وَإِنَّمَا تَطَّرِدُ الْقَاعِدَةُ

(82/353)

فِي الْحَالَةِ الْعَادِيَّةِ . وَأَمَّا مَا يَعْرِضُ مِنْ ضَرُورَةٍ فِي كُلِّ ذَلِكَ فَلَهُ حُكْمُهُ فَأَحْكَامُ الضَّرُورَاتِ مُسْتَثْنَاةٌ فِي الْوَاجِبَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ وَالْآدَابِ . (وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) أَيْ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ شِدَّةً وَخُشُونَةً فِي الْقِتَالِ وَمُتَعَلَّقَاتِهِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (73 ج 10) وَالْغِلْظَةُ عَلَى الْمُقَاتِلِينَ فِي زَمَنِ الْحَرْبِ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ الطَّبِيعَةِ وَالْمَصْلَحَةِ ، وَتَنْكِيرُهَا فِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لِأُولِي الْأَمْرِ أَنْ يُحَدِّدُوهَا

فِي كُلِّ زَمَنٍ وَكُلِّ حَالٍ بِمَا يَتَّفِقُ مَعَ الْمَصْلَحَةِ ، وَإِنَّمَا أُمِرُوا بِهَا عَلَى كَوْنِهَا طَبِيعِيَّةً لِتَقْيِيدِ مَا أُمِرُوا بِهِ فِي الْأَحْوَالِ الْعَامَّةِ مِنَ الرِّفْقِ وَالْعَدْلِ وَالْبِرِّ فِي مُعَامَلَةِ الْكُفَّارِ حَتَّى صَارَ ذَلِكَ مِنْ أَخْلَاقِ الْإِسْلَامِ ، وَأَمْرُ الْقِتَالِ مَبْنِيٌّ عَلَى الشِّدَّةِ وَالْغِلْظَةِ فِي كُلِّ الْأُمَمِ ، وَقَدْ حَرَّمَ فَظَائِعَهَا الْإِسْلَامُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، وَقَدْ بَلَغَتْ فَظَائِعُهَا عِنْدَ الْإِفْرِنْجِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا يُخْشَى أَنْ يُفْضِيَ إِلَى تَدْمِيرِ الْعُمْرَانِ كُلِّهِ (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) لَهُ فِي مُرَاعَاةِ أَحْكَامِهِ وَسُنَنِهِ بِالْمَعُونَةِ وَالنَّصْرِ ، وَأَهَمُّهَا مَا يَجِبُ اتِّقَاؤُهُ فِي الْحَرْبِ ، مِنَ التَّقْصِيرِ فِي أَسْبَابِ النَّصْرِ وَالْغَلَبِ الَّتِي بَيَّنَهَا فِي كِتَابِهِ ، وَالَّتِي تُعْرَفُ بِالْعِلْمِ وَالتَّجَارِبِ ، كَإِعْدَادِ مَا يُسْتَطَاعُ مِنْ قُوَّةٍ ، وَالصَّبْرِ

(83/353)

وَالثَّبَاتِ ، وَالطَّاعَةِ وَالنِّظَامِ ،

وَتَرْكِ التَّنَازُعِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ فِيمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ مَعْنَى التَّقْوَى وَأَنْوَاعِهَا وَاخْتِلَافِ الْمُرَادِ مِنْهَا بِاخْتِلَافِ مَوَاضِعِهَا فِي تَفْسِيرِ (8 : 29 ص 538 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ) .

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا

وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) .

هَذِهِ الْآيَاتُ الْأَرْبَعُ آخِرُ مَا نَزَلَ فِي الْمُنَافِقِينَ ، وَتَأْثِيرِ نُزُولِ الْقُرْآنِ فِيهِمْ وَفِي الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ قَامَ الدَّلِيلُ عَلَى الْيَأْسِ مِنْ إِيمَانِهِمْ ، وَإِخْبَارِ اللَّهِ بِمَوْتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ .

(84/353)

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) ، كَلِمَةُ (مَا) بَعْدَ (إِذَا) تُفِيدُ التَّأْكِيدَ لِمَضْمُونِ شَرْطِهَا ، يَعْنِي وَإِذَا تَحَقَّقَ إِنْزَالُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى رَسُولِهِ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ (فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا) أَيْ فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ مَنْ يَتَسَاءَلُ مَعَ إِخْوَانِهِ لِلِاخْتِبَارِ أَوْ مَعَ مَنْ يَلْقَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ كَافَّةً لِلتَّشْكِيكِ ، قَائِلًا : أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا ؟ أَيْ يَقِينًا بِحَقِّيَّةِ الْقُرْآنِ وَالْإِسْلَامِ ، وَصِدْقِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَإِنَّ فِي كُلِّ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ آيَاتٍ عَلَى صِدْقِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَا فِيهَا مِنْ ضُرُوبِ الْإِعْجَازِ الْعَامَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهَا مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ ،

فَالسُّؤَالُ عَنِ الْإِيمَانِ بِأَصْلِ الْإِسْلَامِ وَصِدْقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي تَبْلِيغِهِ عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ التَّصْدِيقُ الْجَازِمُ الْمُقْتَرِنُ بِإِذْعَانِ النَّفْسِ وَخُضُوعِ الْوِجْدَانِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُ الْعَمَلَ ،

(85/353)

لَا مُجَرَّدُ اعْتِقَادِ صِدْقِ الْخَبَرِ ، الَّذِي يُقَابِلُهُ اعْتِقَادُ كَذِبِهِ ، فَإِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ كُفْرًا أُولَئِكَ الْمُصَدِّقُونَ الْجَاحِدُونَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ لِرَسُولِهِ فِيهِمْ : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) (6 : 33) وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) وَلَا شَكَّ أَنَّ الْإِيمَانَ بِمَعْنَاهُ الَّذِي قُلْنَاهُ يَزِيدُ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ وَنَاهِيكَ بِمَنْ يَحْضُرُ نُزُولَهُ عَلَيْهِ وَيَسْمَعُهُ مِنْهُ ، وَكَذَا يَزِيدُ بِتِلَاوَتِهِ وَبِسَمَاعِهِ مَنْ غَيْرِهِ أَيْضًا ثَبَاتًا فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ وَقُوَّةَ إِذْعَانٍ ، وَصِدْقِ وِجْدَانٍ ، وَرَغْبَةً فِي الْعَمَلِ وَالْقُرْبِ مِنَ اللهِ . قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي جَوَابِ هَذَا السُّؤَالِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ : (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) فَأَثْبَتَ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِ زِيَادَةَ الْإِيمَانِ بِزِيَادَةِ نُزُولِ الْقُرْآنِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ الزِّيَادَةَ فِي حَقِيقَتِهِ وَصِفَتِهِ مِنَ الْيَقِينِ وَالْإِذْعَانِ وَاطْمِئْنَانِ الْقَلْبِ . وَفِي مُتَعَلِّقِهِ وَهُوَ مَا فِي السُّورَةِ مِنْ مَسَائِلِ الْعِلْمِ ، وَفِي أَثَرِهِ مِنَ الْعَمَلِ وَالتَّقَرُّبِ إِلَى الرَّبِّ . وَإِنَّمَا يَتَسَاءَلُ الْمُنَافِقُونَ عَنِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الَّذِي

يَفْقِدُونَهُ ، وَإِنَّمَا غَيْرُهُ تَابِعٌ لَهُ . (وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) أَيْ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يُسَرُّونَ بِنُزُولِهَا وَتَسْتَدْعِي زِيَادَةُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمُ الْبُشْرَى وَالِارْتِيَاحَ بِمَا يَرْجُونَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ بِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَأَثَرِ

(86/353)

ذَلِكَ فِي أَعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

(وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ) أَيْ شَكٌّ وَارْتِيَابٌ . يَدْعُو إِلَى النِّفَاقِ بِإِسْرَارِ الْكُفْرِ وَإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ (فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ) أَيْ كُفْرًا وَنِفَاقًا مَضْمُومًا إِلَى كُفْرِهِمْ وَنِفَاقِهِمُ السَّابِقِ الَّذِي هُوَ أَقْذَرُ الرِّجْسِ النَّفْسِيِّ وَشَرُّ أَنْوَاعِهِ (وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ) أَيْ وَاسْتَحْوَذَ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَرَسَخَ فِيهِمْ . فَكَانَ مُقْتَضَى سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي تَأْثِيرِ الْأَعْمَالِ فِي صِفَاتِ النَّفْسِ أَنَّ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ مَاتَ عَلَى كُفْرِهِ . وَسَيَمُوتُ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ وَهُمْ مُتَلَبِّسُونَ بِالْكُفْرِ . وَهَاكَ الدَّلِيلَ عَلَى ذَلِكَ .

(أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) الِاسْتِفْهَامُ لِتَقْرِيرِ مَضْمُونِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ وَالْحُجَّةِ عَلَيْهِ . وَهُوَ دَاخِلٌ عَلَى فِعْلٍ مَحْذُوفٍ لِلْعِلْمِ بِهِ مِنَ الْمَقَامِ . وَالْمَعْنَى : أَيَجْهَلُونَ

هَذَا وَيَغْفُلُونَ عَنْ حَالِهِمْ فِيمَا يَعْرِضُ لَهُمْ عَامًا بَعْدَ عَامٍ مِنْ تَكْرَارِ الْفُتُونِ وَالِاخْتِبَارِ الَّذِي يَظْهَرُ بِهِ اسْتِعْدَادُ الْأَنْفُسِ لِلْإِيمَانِ أَوِ الْكُفْرِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ،

(87/353)

كَالْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى صِدْقِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ لَهُ وَلِمَنِ اتَّبَعَهُ ، وَخِذْلَانِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَوُقُوعِ مَا أَنْذَرَهُمْ ، وَمِنْ إِنْبَاءِ اللَّهِ رَسُولَهُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، وَفَضِيحَتِهِمْ بِمَا يُسِرُّونَ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، كَمَا فَصَّلَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَذَكَرَ بَعْضَهُ فِي غَيْرِهَا - وَقَرَأَ حَمْزَةُ وَيَعْقُوبُ (أَوَلَا تَرَوْنَ) عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ قَدْ يُرَوِّعُهُمُ الْخَبَرُ الْمُؤَكَّدُ وُقُوعُهُ بِمَوْتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : أَتَعْجَبُونَ مِنَ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِهَذِهِ الْعَاقِبَةِ السُّوأَى وَلَا تَرَوْنَ الدَّلَائِلَ الدَّالَّةَ عَلَيْهَا مِنْ فِتْنَتِهِمْ وَابْتِلَائِهِمُ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ ، بِمَا مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَذْهَبَ بِشَكِّهِمْ وَيَشْفِيَ مَرَضَ قُلُوبِهِمْ ، مِنْ آيَاتِ اللَّهِ فِيهِمْ وَفِي غَيْرِهِمْ : (ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) أَيْ ثُمَّ تَمُرُّ الْأَعْوَامُ عَلَى ذَلِكَ وَلَا يَتُوبُونَ مِنْ نِفَاقِهِمْ ، وَلَا يَتَّعِظُونَ بِمَا حَلَّ بِهِمْ مِمَّا أَنْذَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ ، وَهَلْ بَعْدَ هَذَا مِنْ بُرْهَانٍ عَلَى انْطِفَاءِ نُورِ الْفِطْرَةِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْإِيمَانِ أَقْوَى مِنْ هَذَا ؟ إِنْ كَانَ وَرَاءَهُ بُرْهَانٌ أَقْوَى مِنْهُ فَهُوَ

أَنَّهُمْ يَفِرُّونَ مِنَ الْعِلَاجِ الَّذِي مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَشْفِيَهُمْ مِنْ مَرَضِ قُلُوبِهِمْ وَهُوَ مَا أَكَّدَ بِهِ مَا قَبْلَهُ بِقَوْلِهِ

:

(88/353)

(وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ) هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَكُونُونَ فِي مَجْلِسِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ نُزُولِ سُورَةٍ ، وَمَا يَكُونُ مِنْ فِعْلِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ لَهَا ، وَمَا قَبْلَهَا فِي بَيَانِ حَالِهِمْ إِذَا بَلَغَهُمْ نُزُولُ سُورَةٍ مِنْ حَيْثُ الْبَحْثِ عَنْ تَأْثِيرِهَا ، وَقَدْ يُقَالُ : إِنَّ الْأُولَى تَشْمَلُ مَنْ سَمِعَ مِنْهُ وَمَنْ بَلَغَ عَنْهُ ، وَالْعِبْرَةُ بِمَوْضُوعِهَا لَا بِطَرِيقَةِ الْعِلْمِ بِهَا ، وَإِنَّ هَذِهِ أَدَلُّ عَلَى رُسُوخِهِمْ فِي الْكُفْرِ وَعَدَمِ الطَّمَعِ فِي رُجُوعِهِمْ عَنْهُ ، بِإِثْبَاتِهَا أَنَّهُمْ يَكْرَهُونَ سَمَاعَ الْقُرْآنِ مِنَ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ أَشَدُّ تَأْثِيرًا مِنْ سَمَاعِهِ مِنْ غَيْرِهِ فِي الْهِدَايَةِ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَمْنَعُونَهُ مِنْ تِلَاوَتِهِ عَلَى النَّاسِ لِئَلَّا يَهْتَدُوا بِسَمَاعِهِ مِنْهُ ، فَإِنْ لَمْ يَتَمَكَّنُوا مِنْ إِسْكَاتِهِ أَعْرَضُوا عَنْ سَمَاعِهِ وَلَغَوْا فِيهِ . وَمَنَعُوا صَاحِبَهُ الصِّدِّيقَ أَيْضًا مِنَ الصَّلَاةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ثُمَّ مِنْ مَسْجِدِهِ الْخَاصِّ لَمَّا رَأَوُا النِّسَاءَ وَالصِّبْيَانَ يَجْتَمِعُونَ لِسَمَاعِ الْقُرْآنِ مِنْهُ وَيَتَأَثَّرُونَ بِخُشُوعِهِ فِيهِ . يَقُولُ : وَإِذَا أُنْزِلَتْ

سُورَةٌ وَهُمْ فِي الْمَجْلِسِ تَسَارَقُوا النَّظَرَ ، وَتَغَامَزُوا بِالْعُيُونِ ، عَلَى حِينِ تَخْشَعُ أَبْصَارُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَنْحَنِي رُءُوسُهُمْ ، وَتَجِبُ

(89/353)

قُلُوبُهُمْ ، وَتَرَامَقُوا بِالْعُيُونِ يَتَشَاوَرُونَ فِي الِانْسِلَالِ مِنَ الْمَجْلِسِ خُفْيَةً لِئَلَّا يَفْتَضِحُوا بِمَا يَظْهَرُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْإِنْكَارِ وَالسُّخْرِيَةِ بِالْوَحْيِ ، قَائِلًا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ بِالْإِشَارَةِ أَوِ الْعِبَارَةِ : (هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ) أَيْ مِنَ الرَّسُولِ وَالْمُؤْمِنِينَ إِذَا نَحْنُ انْصَرَفْنَا كَارِهِينَ لِسَمَاعِهَا (ثُمَّ انْصَرَفُوا) يَتَسَلَّلُونَ لِوَاذًا إِلَى مَجَامِعِهِمُ الْخَاصَّةِ بِهِمْ ، وَالتَّعْبِيرُ بِـ (ثُمَّ) لِبَيَانِ تَرَاخِي فِعْلِهِمْ عَنْ وَقْتِ قَوْلِهِمْ ، إِلَى سُنُوحِ فُرْصَةِ الْغَفْلَةِ عَنْهُمْ وَلَوْ أَفْرَادًا ، فَكُلَّمَا لَمَحَ أَحَدٌ مِنْهُمْ غَفْلَةً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ انْصَرَفَ (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَمِلُ الدُّعَاءَ وَالْخَبَرَ ، لِأَنَّ مَضْمُونَهَا النِّهَائِيَّ فِي

(90/353)

كَلَامِ اللهِ وَاحِدٌ كَمَا تَقَدَّمَ نَظِيرُهُ قَرِيبًا . وَالْمَعْنَى صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ عَنْ صِدْقِ الْإِيمَانِ ، وَالِاهْتِدَاءِ بِآيَاتِ اللهِ فِي الْقُرْآنِ ، الْمُرْشِدَةِ إِلَى آيَاتِهِ فِي الْأَكْوَانِ : (بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) أَيْ سَبَبُ أَنَّهُمْ قَوْمٌ فَقَدُوا صِفَةَ الْفَقَاهَةِ الْفِطْرِيَّةِ ، وَفَهْمِ الْحَقَائِقِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ ، لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِيهَا ، فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ لِعَدَمِ تَدَبُّرِهَا ، وَالْإِعْرَاضِ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ فِي مَعَانِيهَا ، وَمُوَافَقَتِهَا لِلْعَقْلِ ، وَهِدَايَتِهَا إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّخَذُوا أَنْفُسَهُمْ أَعْدَاءً وَخُصُومًا لِلرَّسُولِ ، فَوَطَّنُوا أَنْفُسَهُمْ عَلَى الْإِعْرَاضِ عَنْ كُلِّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ غَيْرِ بَحْثٍ وَلَا تَأَمُّلٍ فِيهِ : أَمَعْقُولٌ أَمْ غَيْرُ مَعْقُولٍ ؟ أَحَقٌّ أَمْ بَاطِلٌ ؟ أَخَيْرٌ أَمْ شَرٌّ ؟ أَهُدًى أَمْ ضَلَالٌ ؟ أَنَافِعٌ أَمْ ضَارٌّ ؟ فَأَنَّى يُرْجَى لَهُمْ وَهَذِهِ حَالُهُمْ أَنْ يَهْتَدُوا بِتَعَدُّدِ نُزُولِ الْآيَاتِ وَالسُّوَرِ ؟ إِنَّمَا مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ مِنْ أَهْلِ الْمِلَلِ الَّتِي جَرَوْا عَلَى نِظَامٍ تَعْلِيمِيٍّ وَتَرْبِيَةٍ وِجْدَانِيَّةٍ عَمَلِيَّةٍ فِي عَصَبِيَّتِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالْقَوْمِيَّةِ ، وَارْتِبَاطِ مَنَافِعِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ بِهَا ، لَقَّنَهُمْ رُؤَسَاؤُهُمْ أَنَّهُ يُوجَدُ دِينٌ اسْمُهُ الْإِسْلَامُ يُبْنَى أَسَاسُهُ عَلَى عَدَاوَتِكُمْ لِذَاتِكُمْ ، فَيَجِبُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَنْظُرُوا فِيهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِلْبَحْثِ عَنْ مَطْعَنٍ وَلَوْ مُتَكَلَّفٍ

(91/353)

تَلْمِزُونَهُ بِهِ ، وَلَا تُفَكِّرُوا فِي شَيْءٍ مِنْ حَالِ أَهْلِهِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إِلَّا لِلْعَدَاوَةِ وَالتَّحْقِيرِ لَهُمْ ، وَتَدْبِيرِ الْمَكَايِدِ لِلْعُدْوَانِ عَلَيْهِمْ ، وَإِذَا ظَهَرَ لَكُمْ شَيْءٌ حَسَنٌ مِنْ دِينِهِمْ فَوَجِّهُوا كُلَّ قُوَاكُمُ الْعَقْلِيَّةِ وَبَلَاغَتِكُمُ الْكَلَامِيَّةِ إِلَى تَشْوِيهِهِ وَذَمِّهِ وَالصَّدِّ عَنْهُ ، وَهَذَا مَا يَفْعَلُهُ رِجَالُ الْكَنَائِسِ النَّصْرَانِيَّةِ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .

وَمِنَ الْمَبَاحِثِ الْكَلَامِيَّةِ فِي الْآيَاتِ الْخِلَافُ فِي زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ ،

(92/353)

عَلَى مَذْهَبَيْنِ فِي إِثْبَاتِ ذَلِكَ وَنَفْيِهِ ، وَجُمْهُورُ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَحُفَّاظِ السُّنَّةِ عَلَى الْإِثْبَاتِ . وَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِنْ أَغْرَبِ مَسَائِلِ عَصَبِيَّاتِ الْمَذَاهِبِ عِنْدَ النُّظَّارِ الْجَدَلِيِّينَ وَمُقَلِّدِيهِمْ ، وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لِمُسْلِمٍ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا مَوْضِعَ الْخِلَافِ لِبَحْثِ بَعْضِ مَنْ يَنْتَسِبُ إِلَيْهِمْ فِي مَفْهُومِ لَفْظِ الْإِيمَانِ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِاعْتِقَادِهِ الدُّخُولُ فِي الْمِلَّةِ هَلْ يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ فِي ذَاتِهِ ؟ أَمِ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مُتَعَلِّقُ الْإِيمَانِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ الَّتِي كَانَتْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا السُّورَةُ ؟ وَاسْتِبْعَادُ أَنْ يَكُونَ التَّصْدِيقُ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْكَافِرُ مُؤْمِنًا قَابِلًا لِلزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ، وَهِيَ نَظَرِيَّةٌ بَاطِلَةٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَى الْآيَةِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ قَصْرَ زِيَادَةِ الْإِيمَانِ فِيهَا عَلَى التَّصْدِيقِ بِزِيَادَةِ الْعِلْمِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ بَاطِلٌ ؛ لِأَنَّ هَذَا بَدِيهِيٌّ لَا

يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي سَأَلَ عَنْهُ الْمُنَافِقُونَ ، وَنُصُوصُ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةُ صَرِيحَةٌ فِي زِيَادَةِ الْإِيمَانِ وَنَقْصِهِ ، وَكَذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ الَّتِي صَرَّحَ فِيهَا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِأَنَّ أَقَلَّ الْإِيمَانِ وَهُوَ الْمُنَجِّي مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ كَالذَّرَّةِ أَوِ الْخَرْدَلَةِ مِنَ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ الَّذِي لَا يَمَسُّ لِأَهْلِهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ شَيْءٌ ، كَالَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

(93/353)

إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ) (8 : 2) إِلَخْ . وَقَوْلُهُ : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا) (49 : 15) إِلَخْ .

وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ الْيَقِينَ فِي الْإِيمَانِ وَغَيْرِهِ لَهُ دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَالْيَقِينُ الَّذِي يَصِحُّ بِهِ الْإِيمَانُ هُوَ الْيَقِينُ اللُّغَوِيُّ وَهُوَ الِاعْتِقَادُ الْجَازِمُ فِي غَيْرِ الْحِسِّيَّاتِ وَالضَّرُورِيَّاتِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي مَوَاضِعَ أَوَّلُهَا تَفْسِيرُ (وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ) (2 : 4) وَهُوَ دَرَجَاتٌ : مِنْهَا التَّقْلِيدُ الْجَازِمُ ، وَمِنْهَا الْمَعْلُومُ بِالنَّظَرِ وَالِاسْتِدْلَالِ . وَقَدْ يَطْرَأُ عَلَيْهِمَا الشَّكُّ وَالزَّوَالُ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ مَا تُصُوِّرَ ارْتِدَادُ مُؤْمِنٍ عَنْ دِينِهِ ، وَمِنْهَا مَا يَصِيرُ وِجْدَانًا ضَرُورِيًّا بِشَرْحِ الصَّدْرِ ، وَالنُّورِ الْإِلَهِيِّ ، بِكَثْرَةِ الذِّكْرِ وَالْفِكْرِ وَالْعِبَادَةِ .

وَأَمَّا الْيَقِينُ الْمَنْطِقِيُّ وَالْعِلْمُ الْقَطْعِيُّ بِالْبُرْهَانِ بِأَنَّ هَذَا الشَّيْءَ كَذَا مَعَ الْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ بِاسْتِحَالَةِ أَنْ يَكُونَ غَيْرَ كَذَا ، فَهُوَ هُوَ الَّذِي قَالُوا : إنَّهُ لَا يَقْبَلُ الزِّيَادَةَ وَالنُّقْصَانَ ، وَلَكِنَّهُ نَادِرُ الْوُقُوعِ فِي غَيْرِ الضَّرُورِيَّاتِ وَلَا تَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ صِحَّةُ الْإِيمَانِ ، وَمَعَ هَذَا يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ قَابِلٌ لِلزِّيَادَةِ فِي وَصْفِهِ وَطُمَأْنِينَةِ الْقَلْبِ بِهِ ، وَفِي تَرَتُّبِ آثَارِهِ عَلَيْهِ .

وَمِثَالُ الْأَوَّلِ أَنْ تَرَى شَبَحًا فِي سُدْفَةِ الْفَجْرِ فَتَعْلَمَ أَنَّهُ إنْسَانٌ فِي انْتِصَابِ قَامَتِهِ ثُمَّ

(94/353)

تَزْدَادُ عِلْمًا بِهِ كُلَّمَا انْتَشَرَ الضِّيَاءُ حَتَّى يَكُونَ الْعِلْمُ بِهِ تَفْصِيلِيًّا . وَالْبُرْهَانُ الْمَنْطِقِيُّ الْمُفِيدُ لِهَذَا الْيَقِينِ عِنْدَهُمْ لَا تَكُونُ مُقَدِّمَاتُهُ النَّظَرِيَّةُ فِي دَرَجَةِ الضَّرُورِيَّاتِ قُوَّةً وَثَبَاتًا . وَقَدْ قَسَّمَ بَعْضُهُمُ الْيَقِينَ إلَى ثَلَاثِ دَرَجَاتٍ : عِلْمِ الْيَقِينِ وَهُوَ مَا يُعْلَمُ بِالدَّلِيلِ ، وَعَيْنِ الْيَقِينِ وَهُوَ مَا يَكُونُ بِالْمُشَاهَدَةِ وَالْكَشْفِ ، وَحَقِّ الْيَقِينِ وَهُوَ مَا يَكُونُ بِالذَّوْقِ وَالْوِجْدَانِ . وَمَثَّلَ لَهَا بَعْضُهُمْ بِالْفَنَاءِ عِنْدَ الصُّوفِيَّةِ ، وَبَعْضُهُمْ بِالْمَوْتِ ، فَكُلُّ أَحَدٍ عِنْدَهُ عِلْمُ الْيَقِينِ بِأَنَّهُ يَمُوتُ ، فَإِذَا عَايَنَ مَلَائِكَةَ الْمَوْتِ عِنْدَ الْحَشْرَجَةِ وَقَبْلَ قَبْضِ الرُّوحِ كَانَ عَيْنَ الْيَقِينِ ، فَإِذَا مَاتَ بِالْفِعْلِ وَصَلَ إلَى دَرَجَةِ حَقِّ الْيَقِينِ ، لَكِنَّ هَذِهِ الدَّرَجَةَ وَمَا قَبْلَهَا لَا يَتَعَلَّقُ بِهِمَا التَّكْلِيفُ .

انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار جـ 11 صـ 62.70 ﴾

وقال ابن عاشور :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾

عطف على جملة : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ [التوبة : 124] والظاهر أن المقصود عطف جملة : ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ على جملة : ﴿ فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ [التوبة : 124] .

وإنما أعيدت جملة الشرط لبعد ما بين الجملة المعطوفة وجملة الجزاء ، أو للإشارة إلى اختلاف الوقت بالنسبة للنزول الذي يقولون عنده ﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ﴾ [التوبة : 124] وبالنسبة للسورة التي عند نزولها ينظر بعضهم إلى بعض ، أو لاختلاف السورتين بأن المراد هنا سورة فيها شيء خاص بهم .

وموجب زيادة (ما) بعد (إذا) في الآيتين متحد لاتحاد مقتضيه .

ونظَرُ بعضهم إلى بعض عند نزول السورة يدل على أنهم كانوا حينئذٍ في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم لأن نظر بعضهم إلى بعض تعلقت به أداة الظرفية ، وهي (إذا) .

فتعين أن يكون نظرُ بعضهم إلى بعض حاصلاً وقت نزول السورة .

ويدل لذلك أيضاً قوله : ﴿ ثُم انصرفوا ﴾ أي عن ذلك المجلس .

ويدل أيضاً على أن السورة مشتملة على كشف أسرارهم وفضح مكرهم لأن نظر بعضهم إلى بعض هو نظر تعجب واستفهام .

وقد قال تعالى في الآية السابقة : ﴿ يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ [التوبة : 64] .

ويدل أيضاً على أنهم كانوا تعجُّبَهم من ظهور أحوالهم خشية الاعتراف بما نسب إليهم ولذلك اجتزوا بالتناظر دون الكلام .

فالنظر هنا نظر دال على ما في ضمير الناظر من التعجب والاستفهام .

(96/353)

وجملة : ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ بيان لجملة ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ لأن النظر تفاهموا به فيما هو سِرّ بينهم ؛ فلما كان النظر نظر تفاهم صح بيان جملته بما يدل على الاستفهام التعجيبي ، ففي هذا النظم إيجازُ حذف بديعٌ دلت عليه القرينة .

والتقدير : وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحةُ أمرهم نظر بعضهم إلى بعض بخائنة الأعين مستفهمين متعجبين من اطلاع النبي صلى الله عليه وسلم على أسرارهم ، أي هل يراكم من

أحد إذا خلوتم ودبرتم أموركم ، لأنهم بكفرهم لا يعتقدون أن الله أطْلع نبيه عليه الصلاة والسلام على دخيلة أمرهم .

وزيادة جملة : ﴿ ثم انصرفوا ﴾ لإفادة أنهم لم يكتسبوا من نزول السورة التي أطلعت المؤمنين على أسرارهم عبرةً ولا قُرباً من الإيمان ، بل كان قصارى أمرهم التعجب والشك في أن يكون قد اطلع عليهم من يبوح بأسرارهم ثم انصرفوا كأن لم تكن عبرة .

وهذا من جملة الفتن التي تحل بهم ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون .

وجملة : ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ مستأنفة استئنافاً بيانياً ، لأن ما أفاده قوله : ﴿ ثم انصرفوا ﴾ من عدم انتفاعهم بما في تلك السورة من الإخبار بالمغيبات الدال على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم يثير سؤال من يسأل عن سَبب عدم انتفاعهم بذلك واهتدائهم ، فيجاب بأن الله صرف قلوبهم عن الفهم بأمر تكويني فحُرموا الانتفاع بأبلغ واعظ .

وكان ذلك عقاباً لهم بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ ، أي لا يفهمون الدلائل ، بمعنى لا يتطلبون الهدى بالتدبر فيفهموا .

وجعل جماعة من المفسرين قولَه : ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ دعاء عليهم ، ولا داعي إليه لأن دعاء الله على مخلوقاته تكوين كما تقدم ، ولأنه يأباه تسْبيبه بقوله : ﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

وقد أعرض المفسرون عن تفسير هذه الآية تفسيراً يبين استفادة معانيها من نظم الكلام فأتوا بكلام يخاله الناظر إكراهاً لها على المعنى المراد وتقديرات لا ينثلج لها الفؤاد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(97/353)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ﴾

ومن قبل جاء قول الحق : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً . . . ﴾ [التوبة : 124]

أي : أن هؤلاء المنافقين يشعرون بالضيق والحصار ، ويخافون أن يتكلموا ؛ لأنهم موجودون مع المسلمين ، ولكنهم لا يعدمون وسيلة للتعبير عن كفرهم ، فيغمز الواحد منهم بعينه ، أو يشير إشارة بيده ، فإذا ما كانوا قد تساءلوا من قبل ب ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً ﴾ فقد كان هذا السؤال يتعلق بالتكاليف ، أما في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها فليس فيها تكاليف جديدة .

لقد كانوا يريدون أن يقولوا شيئاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتكلموا بأفواههم ، فتكلموا

بأعينهم ونظراتهم ، فكأن النظر نفسه كان فيه هذه الكلمة : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ ، وهذا قد تراه من واحد يسمع خطبة الخطيب ، ولكنه يرى بها أشياء لا تعجبه ، فتجده يعبر بانفعالات وجهه عن عدم رضاه .

إذن : فهناك نظر ، وهناك كلام ، وهم قد تساءلوا : هل يراكم من أحد ؟ زمثلها مثل قولك : ما عندي من مال ؟ أي أنك لا تملك بداية ما يقال عنه مال ، والقول الكريم أبلغ بالقطع من أن تقول : هل يراكم أحد .

إن قوله الحق : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ دليل على أنهم في خوف من أن يضبطهم أحد ، ومن بعد ذلك تجدهم يتسللون خارج دائرة الاستماع للقرآن أو للرسول ؛ لأنهم لا يطيقون الاستمرار في الاستماع ؛ لأن منطق الحق يلجم الباطل ، والواحد منهم غير قادر على أن يؤمن بالحق وغير قادر على إعلان الكفر ؛ فينسحبون ، وينصرف كل واحد منهم ؛ لذلك نجد أن بعضهم قد قال من قبل : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ . . . ﴾ [فصلت : 26]

(98/353)

وقد قالوا ذلك لأن الكافر أو المنافق قد تأتيه لحظة غفلة عن الباطل ، فيتسلل الإيمان إلى قلبه ، كما أن المؤمن قد تأتيه لحظة غفلة عن الحق ، لكنه يستغفر الله عنها .

وإذا ما أتت للمنافق أو الكافر لحظة غفلة عن كفره أو نفاقه ؛ فتأتيه هجمة الإيمان فيخافها ، فيقول لمن هم مثله : من الأفضل أن نقول لمن معنا لا تسمعوا هذا القرآن . لماذا ؟ حتى لا يصادف فترة غفلة عن النفاق ، فإذا صادف فترة غفلة عن النفاق فمن الممكن أن يدخل الإيمان القلب . ولذلك قالوا : ﴿ لاَ تَسْمَعُواْ لِهذا القرآن ﴾ ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل طلبوا من الأتباع ان يلغوا فيه ، أي : أن يشوشوا عليه : ﴿ والغوا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ . . . ﴾ [فصلت : 26]

إذن : لا غلبة لهم مطلقاً إلا بعدم الاستماع إلى القرآن ، أو أن يشوشوا عند سماع القرآن ؛ حتى لا ينفذ القرآن إلى القلوب .

وهنا يقول الحق سبحانه عن هؤلاء المنافقين :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ﴾ كانوا يقولون ذلك ؛ لأنهم كمنافقين سبق لهم إعلان الإسلام ، وكانوا يدعون أنهم متقدمون في تطبيق أحكام الإيمان ، وكانوا يصرون على الوقوف أثناء الصلاة في الصف الأول ؛ حتى يدفعوا عن أنفسهم تهمة النفاق ، وكما يقول المثل : يكاد المريب أن يقول خذوني .

وينظر بعضهم إلى بعض متسائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصرفوا ﴾ لأنهم لا يطيقون الجلوس إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أو إلى المؤمنين . وينهي الحق الآية :

(99/353)

﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ وذلك نتيجة لانصرافهم نفسيّاً إلى النفاق ؛ فيساعدهم سبحانه على ذلك ، فما داموا لا يعرفون قيمة الإيمان ؛ فليذهبوا بعيداً عنه ، فالحق لهم يصرفهم إلا باختيارهم ، حتى لا يقول أحد : إن الله هو مصرف القلوب ، فما ذنبهم ؟ لا ، لقد انصرفوا هم بما خلقه الله فيهم من اختيار ، فصرف الله قلوبهم ، لماذا ؟ لأنهم ﴿ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ أي : لا يفهمون .

والفهم أول مرحلة من مراحل الذات الإنسانية ، وهناك فرق بين الفهم والعلم . فالفهم يعني أنك تملك القدرة على تَفَهُّم ذاتية الأشياء بملكة فيك ، لكن العلم يعني أنك قد لا تفهم أنت بذاتك ، وإنما يفهم غيرك ويعلمك . فأنت قد تعلم جزئية لا من عندك وإنما من معلم لك .

ولكن قد يقول قائل : ما داموا لا يفقهون فما ذنبهم ؟ ونقول : الذي لا يفهم عليه أن يتقبل التعليم ، لكن هؤلاء لم يفهموا ولم يتعلَّموا ، وأصروا على عدم قبول العلم .

وبعد ذلك يتأتى ختام سورة التوبة .

والسورة بدأت بالقطيعة : ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الذين عَاهَدْتُمْ مِّنَ المشركين ﴾ [التوبة : 1]

ووردت لنا أحوال الكفار والمنافقين وتكاليف الجهاد الشاقة ، وأراد الحق أن يختم السورة بما يبرر هذه المشقات المتقدمة ، فبيّن لنا : إياكم أن تنفضُّوا عن الرسول أو تغضبوه ؛ لأنه وإن جاء لكم ببلاغ فيه أمور شاقة عليكم فخذوا هذه الأمور الشاقة على أنها من حبيب لكم ، لا من عدو لكم .

إنك مثلاً إن رأيت عدوّا ضرب ابنك وجرحه ، يكون وقع هذا الأمر شديداً عليك ؛ لأنه عدو . لكنك إذا أخذت ابنك للطبيب وقرر الطبيب إجراء جراحة للابن ، فأنت تقبل ذلك ؛ لتزيل عن ابنك خطراً . إذن : فهناك فارق بين جرح عدوك لابنك وجرح الطبيب له رغم أن الإيلام قد يكون واحداً .

(100/353)

إذن : لا ترفض الأمور الشاقة عليك لمجرد ورود المشاق عليك ، ولكن اعرف أولاً من الذي أجرى المشاق عليك ، فإن كان ربك ، فربك بك رحيم . وإن كان الرسول فخذ

أوامر الرسول وطبيقها ؛ لأنها من حبيب يريد لك الخير . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(101/353)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ قال : هم المنافقون .

وأخرج أبو الشيخ عن الضحاك ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ﴾ كراهية أن يغضنا بها .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن زيد في قوله ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ﴾ ممن سمع خيركم رآكم أحد أخبره إذا نزل شيء يخبر عن كلامهم وهم المنافقون .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ

عن ابن عباس قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوماً انصرفوا صرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا : قضينا الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن عمر قال : لا يقال انصرفنا من الصلاة ، ولكن قد قضيت الصلاة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(102/353)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (127) ﴾

تَقَنَّعوا بِخمارِ التلبيس ظانّين أنهم يبقون في سِرٍّ بتكلفهم ، والحقُّ أَبى إلا أن فَضَحَهم ، وكما وَسَمَهم برقم النَّكرَة أَطْلَعَ أسرارَ الموحّدِين على أحوالهم فعرفوهم على ما هم عليه من أوصافهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 75 ﴾

(103/353)

كلام نفيس للإمام ابن القيم

قال عليه الرحمة :

قوله تعالى ﴿ وصل عليهم ﴾

في بيان معنى الصلاة على النبي

وأصل هذه اللفظة في اللغة يرجع إلى معنيين

أحدهما الدعاء والتبريك

والثاني العبادة فمن الأول قوله تعالى خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم التوبة 103 وقوله تعالى في حق المنافقين ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره التوبة 84 وقول النبي إذا دعي أحدكم إلى الطعام فليجب فإن كان صائما فليصل فسر بهما قيل فليدع لهم بالبركة وقيل يصلي عندهم بدل أكله وقيل إن الصلاة في اللغة معناها الدعاء

والدعاء نوعان دعاء عبادة ودعاء مسألة والعابد داع كما أن السائل داع وبهما فسر قوله تعالى وقال ربكم ادعوني أستجب لكم غافر 60 قيل أطيعوني أثبكم وقيل سلوني أعطكم وفسر بهما قوله تعالى وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان البقرة 186

والصواب أن الدعاء يعم النوعين وهذا لفظ متواطئ لا اشتراك فيه فمن استعماله في دعاء العبادة قوله تعالى قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض سبأ 22 وقوله تعالى والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يخلقون النحل 20 وقوله تعالى قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم الفرقان 77

والصحيح من القولين لولا أنكم تدعونه وتعبدونه أي أي شيء يعبأ بكم لولا عبادتكم إياه فيكون المصدر مضافا إلى الفاعل وقال تعالى ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا الأعراف 55 56

وقال تعالى إخبارا عن أنبيائه ورسله إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا الأنبياء 90 وهذه الطريقة أحسن من الطريقة الأولى ودعوى الاختلاف في مسمى الدعاء وبهذا تزول الإشكالات الواردة على اسم الصلاة الشرعية هل هو منقول عن موضعه في اللغة فيكون حقيقة شرعية أو مجازا شرعيا

(104/353)

فعلى هذا تكون الصلاة باقية على مسماها في اللغة وهو الدعاء والدعاء دعاء عبادة ودعاء مسألة والمصلي من حين تكبيره إلى سلامه بين دعاء العبادة ودعاء المسألة فهو في

صلاة حقيقية لا مجازا ولا منقولة لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصة كسائر الألفاظ التي يخصها أهل اللغة والعرف ببعض مسماها كالدابة والرأس ونحوهما فهذا غايته تخصيص اللفظ وقصره على بعض موضوعه ولهذا لا يوجب نقلا ولا خروجا عن موضوعه الأصلي والله أعلم

فصل

هذه صلاة الآدمي وأما صلاة الله سبحانه على عبده فنوعان عامة وخاصة

أما العامة فهي صلاته على عباده المؤمنين قال تعالى هو الذي يصلي عليكم وملائكته الأحزاب 43 ومنه دعاء النبي بالصلاة على آحاد المؤمنين كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى وفي حديث آخر أن امرأة قالت له صل علي وعلى زوجي قال صلى الله عليك وعلى زوجك وسيأتي ذكر هذا الحديث وما شابهه إن شاء الله تعالى

النوع الثاني صلاته الخاصة على أنبيائه ورسله خصوصا على خاتمهم وخيرهم محمد فاختلف الناس في معنى الصلاة منه سبحانه على أقوال

أحدها أنها رحمته قال إسماعيل حدثنا نصر بن علي حدثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك قال صلاة الله رحمته وصلاة الملائكة الدعاء // سنده ضعيف //

وقال المبرد أصل الصلاة الرحم فهي من الله رحمة ومن الملائكة رقة واستدعاء للرحمة من الله وهذا القول هو المعروف عند كثير من المتأخرين

والقول الثاني أن صلاة الله مغفرته قال إسماعيل ثنا محمد بن أبي بكر ثنا محمد بن سواء عن جويبر عن الضحاك هو الذي يصلي عليكم قال صلاة الله مغفرته وصلاة الملائكة الدعاء // ضعيف جدا //

وهذا القول من جنس الذي قبله وهما ضعيفان لوجوه

(105/353)

أحدها أن الله سبحانه فرق بين صلاته على عباده ورحمته فقال تعالى وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون البقرة 157 فعطف الرحمة على الصلاة فاقتضى ذلك تغايرهما هذا أصل العطف وأما قولهم

وألفى قولها كذبا ومينا

فهو شاذ نادر لا يحمل عليه أفصح الكلام مع أن المين أخص من الكذب

الوجه الثاني أن صلاة الله سبحانه خاصة بأنبيائه ورسله وعباده المؤمنين وأما رحمته فوسعت كل شيء فليست الصلاة مرادفة للرحمة لكن الرحمة من لوازم الصلاة وموجباتها وثمراتها فمن فسرها بالرحمة فقد فسرها ببعض ثمرتها ومقصودها وهذا كثيرا ما يأتي في

تفسير ألفاظ القرآن والرسول يفسر اللفظة بلازمها وجزء معناها كتفسير الريب بالشك والشك جزء مسمى الريب وتفسير المغفرة بالستر وهو جزء مسمى المغفرة وتفسير الرحمة بإرادة الإحسان وهو لازم الرحمة ونظائر ذلك كثيرة قد ذكرناها في أصول التفسير

الوجه الثالث أنه لا خلاف في جواز الترحم على المؤمنين واختلف السلف والخلف في جواز الصلاة على الأنبياء على ثلاثة أقوال سنذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى فعلم أنهما ليسا بمترادفين

الوجه الرابع أنه لو كانت الصلاة بمعنى الرحمة لقامت مقامها في امتثال الأمر وأسقطت الوجوب عند من أوجبها إذا قال اللهم ارحم محمدا وآل محمد وليس الأمر كذلك

الوجه الخامس أنه لا يقال لمن رحم غيره ورق عليه فأطعمه أو سقاه أو كساه إنه صلى عليه ويقال إنه قد رحمه

الوجه السادس أن الإنسان قد يرحم من يبغضه ويعاديه فيجد في قلبه له رحمة ولا يصلي عليه

الوجه السابع أن الصلاة لا بد فيها من كلام فهي ثناء من المصلي على من يصلي عليه وتنويه به وإشارة لمحاسنه ومناقبه وذكره

ذكر البخاري في صحيحه عن أبي العالية قال صلاة الله على رسوله ثناؤه عليه عند الملائكة // سنده قابل للتحسن //

وقال إسماعيل في كتابه حدثنا نصر بن علي حدثنا خالد بن يزيد عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس عن أبي العالية إن الله وملائكته يصلون على النبي الأحزاب 56 قال صلاة الله عز وجل ثناؤه عليه وصلاة الملائكة عليه الدعاء

الوجه الثامن أن الله سبحانه فرق بين صلاته وصلاة ملائكته وجمعهما في فعل واحد فقال إن الله وملائكته يصلون على النبي وهذه الصلاة لا يجوز أن تكون هي الرحمة وإنما هي ثناؤه سبحانه وثناء ملائكته عليه ولا يقال الصلاة لفظ مشترك ويجوز أن يستعمل في معنييه معا لأن في ذلك محاذير متعددة

أحدها أن الاشتراك خلاف الأصل بل لا يعلم انه وقع في اللغة من واضع واحد كما نص على ذلك أئمة اللغة منهم المبرد وغيره وإنما يقع وقوعا عارضا اتفاقيا بسبب تعدد الواضعين ثم تختلط اللغة فيقع الاشتراك

الثاني أن الأكثرين لا يجووزون استعمال اللفظ المشترك في معنييه لا بطريق الحقيقة ولا بطريق المجاز وما حكي عن

الشافعي رحمه الله من تجويزه ذلك فليس بصحيح عنه وإنما أخذ من قوله إذا أوصى لمواليه

وله موال من فوق ومن أسفل تناول جميعهم فظن من ظن أن لفظ المولى مشترك بينهما وأنه عند التجرد يحمل عليهما وهذا ليس بصحيح فإن لفظ المولى من الألفاظ المتواطئة فالشافعي في ظاهر مذهبه وأحمد يقولان بدخول نوعي الموالي في هذا اللفظ وهو عنده عام متواطئ لا مشترك

واما ما حكي عن الشافعي رحمه الله أنه قال في مفاوضة جرت له في قوله أو لامستم النساء وقد قيل له قد يراد بالملامسة المجامعة قال هي محمولة على الجس باليد حقيقة وعلى الوقاع مجازا فهذا لا يصح عن الشافعي ولا هو من جنس المألوف من كلامه وإنما هذا من كلام بعض الفقهاء المتأخرين وقد ذكرنا على إبطال استعمال اللفظ المشترك في معنييه معا بضعة عشر دليلا في مسألة القرء في - كتاب التعليق على الأحكام -

(107/353)

فإذا كان معنى الصلاة هو الثناء على الرسول والعناية به وإظهار شرفه وفضله وحرمته كما هو المعروف من هذه اللفظة لم يكن لفظ الصلاة في الآية مشتركا محمولا على معنييه بل قد يكون مستعملا في معنى واحد وهذا هو الأصل وسنعود إلى هذه المسألة إن شاء الله تعالى في الكلام على تفسير قوله تعالى إن الله وملائكته يصلون على النبي الأحزاب 56

الوجه التاسع أن الله سبحانه أمر بالصلاة عليه عقب إخباره بأنه وملائكته يصلون عليه والمعنى أنه إذا كان الله وملائكته

يصلون على رسوله فصلوا أنتم عليه فأنتم أحق بأن تصلوا عليه وتسلموا تسليما لما نالكم ببركة رسالته ويمن سفارته من شرف الدنيا والآخرة ومن المعلوم أنه لو عبر عن هذا المعنى بالرحمة لم يحسن موقعه ولم يحسن النظم فينقض اللفظ والمعنى فإن التقدير يصير إلى أن الله وملائكته ترحم ويستغفرون لنبيه فادعوا أنتم له وسلموا وهذا ليس مراد الآية قطعا بل الصلاة المأمور بها فيها هي الطلب من الله ما أخبر به عن صلاته وصلاة ملائكته وهي ثناء عليه وإظهار لفضله وشرفه وإرادة تكريمه وتقريبه فهي تتضمن الخبر والطلب وسمي هذا السؤال والدعاء منا نحن صلاة عليه لوجهين

أحدهما أنه يتضمن ثناء المصلي عليه والإشادة بذكر شرفه وفضله والإرادة والمحبة لذلك من الله تعالى فقد تضمنت الخبر والطلب

والوجه الثاني أن ذلك سمي منا صلاة لسؤالنا من الله أن يصلي عليه فصلاة الله عليه ثناؤه وإرادته لرفع ذكره وتقريبه وصلاتنا نحن عليه سؤالنا الله تعالى أن يفعل ذلك به وضد هذا في لعنة أعدائه الشانئين لما جاء به فإنها تضاف إلى الله وتضاف إلى العبد كما قال تعالى إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم

الله ويلعنهم اللاعنون البقرة 159 فلعنة الله تعالى لهم تتضمن ذمه وإبعاده وبغضه لهم ولعنة العبد تتضمن سؤال الله تعالى أن يفعل ذلك بمن هو أهل للعنته

(108/353)

وإذا ثبت هذا فمن المعلوم أنه لو كانت الصلاة هي

الرحمة لم يصح أن يقال لطالبها من الله مصليا وإنما يقال له مسترحما له كما يقال لطالب المغفرة مستغفرا له ولطالب العطف مستعطفا ونظائره ولهذا لا يقال لمن سأل الله المغفرة لغيره قد غفر له فهو غافر ولا لمن سأله العفو عنه قد عفا عنه وهنا قد سمي العبد مصليا فلو كانت الصلاة هي الرحمة لكان العبد راحما لمن صلى عليه وكان قد رحمه برحمة ومن رحم النبي مرة رحمه الله بها عشرا وهذا معلوم البطلان

فإن قيل ليس معنى صلاة العبد عليه رحمته وإنما معناها طلب الرحمة له من الله قيل هذا باطل من وجوه

أحدها أن طلب الرحمة مطلوب لكل مسلم وطلب الصلاة من الله يختص رسله صلوات الله وسلامه عليهم عند كثير من الناس كما سنذكره إن شاء الله تعالى

الثاني أنه لو سمي طالب الرحمة مصليا لسمي طالب المغفرة غافرا وطالب العفو عافيا

وطالب الصفح صافحا ونحوه

فإن قيل فأنتم قد سميتم طالب الصلاة من الله مصليا

قيل إنما سمي مصليا لوجود حقيقة الصلاة منه فإن حقيقتها الثناء وإرادة الإكرام والتقريب وإعلاء المنزلة وهذا حاصل من صلاة العبد لكن العبد يريد ذلك من الله عز وجل والله سبحانه وتعالى يريد ذلك من نفسه أن يفعله برسوله

وأما على الوجه الثاني وأنه سمي مصليا لطلبه ذلك من الله فلأن الصلاة نوع من الكلام الطلبي والخبري والإرادة وقد وجد ذلك من المصلي بخلاف الرحمة والمغفرة فإنها أفعال لا تحصل من الطالب وإنما تحصل من المطلوب منه والله أعلم

(109/353)

الوجه العاشر أنه قد ثبت عن النبي في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أنه من صلى عليه مرة صلى الله عليه بها عشرا وأنه سبحانه وتعالى قال له إنه من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشرا وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزاء من جنس العمل فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه ومعلوم أن صلاة العبد على رسول الله ليست هي رحمة من العبد لتكون صلاة الله عليه من جنسها وإنما هي ثناء

على الرسول وإرادة من الله تعالى أن يعلي ذكره ويزيده تعظيما وتشريفا والجزاء من جنس العمل فمن أثنى على رسول جزاه الله من جنس عمله بأن يثني عليه ويزيد تشريفه وتكريمه فصح ارتباط الجزاء بالعمل ومشاكلته له ومناسبته له كقوله من يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله له طريقا إلى الجنة

ومن سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار // حديث صحيح // ومن صلى على النبي مرة صلى الله عليه بها عشرا ونظائره كثيرة

الوجه الحادي عشر أن أحدا لو قال عن رسول الله رحمه الله أو قال رسول الله رحمه الله بدل لبادرت الأمة إلى الإنكار عليه وسموه مبتدعا غير موقر للنبي ولا مصل عليه ولا مثن عليه بما يستحقه ولا يستحق أن يصلي الله عليه بذلك عشر صلوات ولو كانت الصلاة من الله الرحمة لم يمتنع شيء من ذلك

(110/353)

الوجه الثاني عشر أن الله سبحانه وتعالى قال لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا النور 63 فأمر سبحانه ألا يدعى رسوله بما يدعو الناس بعضهم بعضا بل يقال يا رسول الله ولا يقال يا محمد وإنما كان يسميه باسمه وقت الخطاب الكفار وأما المسلمون فكانوا يخاطبونه يا رسول الله وإذا كان هذا في خطابه فهكذا في مغيبه لا ينبغي أن يجعل ما يدعى به له من جنس ما يدعو به بعضنا لبعض بل يدعى له بأشرف الدعاء وهو الصلاة عليه ومعلوم أن الرحمة يدعى بها لكل مسلم بل ولغير الآدمي من الحيوانات كما في دعاء الاستسقاء اللهم ارحم عبادك وبلادك وبهائمك

الوجه الثالث عشر أن هذه اللفظة لا تعرف في اللغة الأصلية بمعنى الرحمة أصلا والمعروف عند العرب من معناها

إنما هو الدعاء والتبريك والثناء قال

وإن ذكرت صلى عليها وزمزما . . .

أي برك عليها ومدحها ولا تعرف العرب قط صلى عليه بمعنى الرحمة فالواجب حمل اللفظة على معناها المتعارف في اللغة

الوجه الرابع عشر أنه يسوغ بل يستحب لكل أحد أن يسأل الله تعالى أن يرحمه فيقول اللهم ارحمني

كما علم النبي الداعي أن يقول اللهم اغفر لي وارحمني وعافني وارزقني فلما حفظها قال أما

هذا فقد ملأ يديه من الخير

ومعلوم أنه لا يسوغ لأحد أن يقول اللهم صل علي بل الداعي بهذا معتد في دعائه والله لا يحب المعتدين بخلاف سؤال الرحمة فإن الله تعالى يحب أن يسأله عبده مغفرته ورحمته فعلم أنه ليس معناهما واحدا

الوجه الخامس عشر أن أكثر المواضع التي تستعمل فيها الرحمة لا يحسن أن تقع فيها الصلاة كقوله تعالى ورحمتي وسعت كل شيء الأعراف 156

وقوله إن رحمتي سبقت غضبي

وقوله إن رحمة الله قريب من المحسنين الأعراف 56

وقوله وكان بالمؤمنين رحيما الأحزاب 43

وقوله إنه بهم رؤوف رحيم التوبة 117

وقول النبي لله ارحم بعباده من الوالدة بولدها

وقوله ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء // الحديث صحيح //

وقوله من لا يرحم لا يرحم

(111/353)

وقوله لا تنزع الرحمة إلا من شقي // سنده حسن //

وقوله والشاة إن رحمتها رحمك الله // إسناده صحيح //

فمواضع استعمال الرحمة في حق الله وفي حق العباد لا يحسن أن تقع الصلاة في كثير منها بل في أكثرها فلا يصح تفسير الصلاة بالرحمة والله أعلم

وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما إن الله وملائكته يصلون على النبي قال يباركون عليه وهذا لا ينافي تفسيرها بالثناء وإرادة التكريم والتعظيم فإن التبريك من الله يتضمن ذلك ولهذا قرن بين الصلاة عليه والتبريك عليه وقالت الملائكة لإبراهيم رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت هود 73

وقال المسيح وجعلني مباركا أينما كنت مريم 31

قال غير واحد من السلف معلما للخير أينما كنت وهذا جزء المسمى فالمبارك كثير الخير في نفسه الذي يحصله لغيره تعليما وإقدارا ونصحا وإرادة واجتهادا ولهذا يكون العبد مباركا لأن الله بارك فيه وجعله كذلك والله تعالى متبارك لأن البركة كلها منه فعبده مبارك وهو المتبارك تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا الفرقان 1 وقوله تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الملك 1 وسنعود إلى هذا المعنى عن قريب إن شاء الله تعالى

وقد رد طائفة من الناس تفسير الصلاة من الله بالرحمة بأن قال الرحمة معناها رقة الطبع

وهي مستحيلة في حق الله سبحانه وتعالى كما أن الدعاء منه سبحانه مستحيل وهذا الذي

قاله هذا عرق عرق جهمي ينضح من قلبه على لسانه وحقيقته إنكار رحمة الله جملة وكان جهم يخرج إلى الجذمي ويقول أرحم الراحمين يفعل هذا إنكارا لرحمته سبحانه

(112/353)

وهذا الذي ظنه هذا القائل هو شبهة منكري صفات الرب سبحانه وتعالى فإنهم قالوا الإرادة حركة النفس لجلب ما ينفعها ودفع ما يضرها والرب تعالى يتعالى عن ذلك فلا إرادة له والغضب غليان دم القلب طلبا للانتقام والرب منزه عن ذلك فلا غضب له وسلكوا هذا المسلك الباطل في حياته وكلامه وسائر صفاته وهو من أبطل الباطل فإنه أخذ في مسمى الصفة خصائص المخلوق ثم نفاها جملة عن الخالق وهذا في غاية التلبيس والإضلال فإن الخاصة التي أخذها في الصفة لم يثبت لها لذاتها وإنما يثبت لها بإضافتها إلى المخلوق الممكن ومعلوم أن نفي خصائص صفات المخلوقين عن الخالق لا يقتضي نفي أصل الصفة عنه سبحانه ولا إثبات أصل الصفة له يقتضي إثبات خصائص المخلوق له كما أن ما نفي عن صفات الرب تعالى من النقائص والتشبيه لا يقتضي نفيه عن صفة المخلوق ولا ما ثبت

لها من الوجوب والقدم والكمال يقتضي ثبوته للمخلوق ولا إطلاق الصفة على الخالق والمخلوق وهذا مثل الحياة والعلم فإن حياة العبد تعرض لها الآفات المضادة لها من المرض والنوم والموت وكذلك علمه يعرض له النسيان والجهل المضاد له وهذا محال في حياة الرب وعلمه فمن نفى علم الرب وحياته لما يعرض فيهما للمخلوق فقد أبطل وهو نظير نفي من نفى رحمة الرب وعلمه فمن نفى رحمة الرب عنه لما يعرض في رحمة المخلوق من رقة الطبع وتوهم المتوهم أنه لا تعقل رحمة إلا هكذا نظير توهم المتوهم أنه لا يعقل علم ولا حياة ولا إرادة إلا مع خصائص المخلوق

(113/353)

وهذا الغلط منشؤه إنما هو توهم صفة المخلوق المقيدة به أولا وتوهم أن إثباتها لله هو مع هذا القيد وهذان وهمان باطلان فإن الصفة الثابتة لله مضافة إليه لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين لا في لفظها ولا في ثبوت معناها وكل من نفى عن الرب تعالى صفة من صفاته لهذا الخيال الباطل لزمه نفي جميع صفات كماله لأنه لا يعقل منها إلا صفة المخلوق بل ويلزمه نفي ذاته لأنه لا يعقل من الذوات إلا الذوات المخلوقة

ومعلوم أن الرب سبحانه وتعالى لا يشبهه شيء منها وهذا الباطل قد التزمه غلاة المعطلة

وكلما أوغل النافي في نفيه كان قوله أشد تناقضا وأظهر بطلانا ولا يسلم على محك العقل الصحيح الذي لا يكذب إلا ما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم كما قال تعالى سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين الصافات 159 فنزه سبحانه وتعالى عما يصفه به كل أحد إلا المخلصين من عباده وهم الرسل ومن تبعهم كما قال في الآية الأخرى سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين الصافات 180 182 فنزه نفسه عما يصفه به الواصفون وسلم على المرسلين لسلامة ما وصفوه به من كل نقص وعيب وحمد نفسه إذ هو الموصوف بصفات الكمال التي يستحق لأجلها الحمد ومنزه عن كل نقص ينافي كمال حمده . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ جلاء الأفهام صـ ﴾

فائدة

قال ابن القيم :

قوله تعالى ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾

(114/353)

فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره لأنهم ليسوا أهلا له فالمحل غير صالح ولا قابل فإن صلاحية المحل بشيئين حسن فهم وحسن قصد وهؤلاء قلوبهم لا تفقه وقصودهم سيئة وقد صرح سبحانه بهذا في قوله ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون فأخبر سبحانه عن عدم قابلية الإيمان فيهم وأنهم لا خير فيهم يدخل بسببه إلى قلوبهم فلم يسمعهم سماع إفهام ينتفعون به وإن سمعوه سماعا تقوم به عليهم حجته فسماع الفهم الذي سمعه به والمؤمنون لم يحصل لهم ثم أخبر سبحانه عن مانع آخر قام بقلوبهم يمنعهم من الإيمان لو أسمعهم هذا السماع الخاص وهو الكبر والتولي والإعراض فالأول مانع من الفهم والثاني مانع من الإنقياد والإذعان فإفهام سيئة وقصود ردية وهذه نسخة الضلال وعلم الشقاء كما أن نسخة الهدى وعلم السعادة فهم صحيح وقصد صالح والله المستعان وتأمل قوله سبحانه ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم كيف جعل هذه الجملة الثانية سواء كانت خبرا أو عادة عقوبة لانصرافهم فعاقبهم عليه بصرف آخر غير الصرف الأول فإن انصرافهم كان لعدم إرادته سبحانه ومشيئته لإقبالهم لأنه لا صلاحية فيهم ولا قبول فلم ينلهم الإقبال والإذعان فانصرفت قلوبهم بما فيها من الجهل والظلم عن القرآن فجازاهم على ذلك صرفا آخر غير الصرف الأول كما جازاهم على زيغ قلوبهم عن الهدى إزاغة غير الزيغ الأول فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه جازاه بأن يعرض عنه فلا يمكنه

من الإقبال عليه ولتكن قصة إبليس منك على ذكر تنتفع بها أتم انتفاع فإنه لما عصى ربه تعالى ولم ينقد لأمره وأصر على ذلك عاقبة بأن جعله داعيا إلى كل معصية فعاقبه على معصيته الأولى بأن جعله داعيا إلى كل معصية وفروعها صغيرها

(115/353)

وكبيرها وصار هذا الإعراض والكفر منه عقوبة لذلك الإعراض والكفر السابق فمن عقاب السيئة السيئة بعدها كما أن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها فإن قيل فكيف يلتئم إنكاره سبحانه عليهم الانصراف والإعراض عنه وقد قال تعالى فإنى يصرفون وأنى يؤفكون وقال فما لهم عن التذكرة معرضين فإذا كان هو الذي صرفهم وجعلهم معرضين ومأفوكين فكيف ينفي ذلك عليهم قيل هم دائرون بين عدله وحجته عليهم فمكنهم وفتح لهم الباب ونهج لهم الطريق وهيأ لهم الأسباب فأرسل إليهم رسله وأنزل عليهم كتبه ودعاهم على السنة رسلة وجعل لهم عقولا تميز بين الخير والشر والنافع والضار وأسباب الردي وأسباب الفلاح وجعل لهم أسماعا وأبصارا فآثروا الهوى على التقوى واستحبوا العمى على الهدى وقالوا معصيتك آثر عندنا من طاعتك والشرك أحب إلينا من توحيدك وعبادة سواك أنفع لنا في دنيانا من عبادتك فأعرضت قلوبهم عن ربهم وخالقهم ومليكهم

وانصرفت عن طاعته ومحبته فهذا عدله فيهم وتلك حجته عليهم فهم سدوا على أنفسهم باب الهدى إرادة منهم واختياره فسده عليهم اضطرارا فخلاهم وما اختاروا لأنفسهم وولاهم ما تولوه ومكنهم فيما ارتضوه وأدخلهم من الباب الذي استبقوا إليه وأغلق عنهم الباب الذي تولوا عنه وهم معرضون فلا أقبح من فعلهم ولا أحسن من فعله ولو شاء لخلقهم على غير هذه الصفة ولأنشأهم على غير هذه النشأة ولكنه سبحانه خالق العلو والسفل والنور والظلمة والنافع والضار والطيب والخبيث والملائكة والشياطين والشاء والذياب ومعطيها آلاتها وصفاتها وقواها وأفعالها ومستعملها فيما خلقت له فبعضها بطباعها وبعضها بإرادتها ومشيئتها وكل ذلك جار على وفق حكمته وهو موجب حمده ومقتضى كماله المقدس وملكه التام ولا نسبة لما علمه الخلق من ذلك إلى ما خفي عليهم بوجه ما أن هو إلا كنقرة عصفور من البحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ شفاء العليل صـ 97ـ98 ﴾

(116/353)

قوله تعالى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ولما أمر ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يبلغ هذه الأشياء الشاقة جداً من أمر هذه السورة ، وكان من المعلوم أنه لا يحمل ذلك إلا من وفقه الله تعالى ، وأما المنافقون فيكرهون ذلك وكان انصرافهم دالاً على الكراهة ، عرفهم أن الأمر كان يقتضي توفر دواعيهم على محبة هذا الداعي لهم المقتضي لملازمته والبعد عما يفعلونه به من الانصراف عنه ، وأن أحواله الداعية لهم إلى محبته أعظم من أحوال آبائهم التي أوجبت لهم منهم من المحبة وعليهم من الحقوق ما هم مفتخرون بالتلبس به والمغالاة فيه ، وأن كل ما يحصل بهذا القرآن من العز والشرف في الدنيا فهو لكل من آمن به فقال : ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ .

ولما كان الرسول يجب إكرامه والوقوف في خدمته لأجل مرسله ولو تجرد عن غير ذلك الوصف ، شرع يذكر لهم من أوصافه ما يقتضي لهم مزيد إكرامه فقال : ﴿ من أنفسكم ﴾ أي ترجعون معه إلى نفس واحدة بأنكم لأب قريب ، وذلك أقرب إلى الألفة وأسرع إلى فهم الحجة وأبعد من المحل واللجاجة ﴿ عزيز ﴾ أي شديد جداً ﴿ عليه ما عنتم ﴾ والعزة : امتناع الشيء بما يتعذر معه ما يحاول منه بالقدرة أو بالقلة أو بالصعوبة ، والعنت : لحاق الأذى الذي يضيق الصدر به ولا يهتدي للمخرج منه ﴿ حريص ﴾ أي بليغ الحرص ﴿ عليكم ﴾ أي على نفعكم ، والحرص : شدة طلب الشيء على الاجتهاد فيه ، وقدم الجار لإفادة الاختصاص فقال : ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي العريقين في هذا الوصف كافة خاصة ،

ولما ذكر الوصف المقتضي للرسوخ، قدم ما يقتضي العطف على من يتسبب له بما يقتضي الوصلة فقال: ﴿ رءوف ﴾ أي شديد الرحمة لمن له منه عاطفة وصلة لما تقدم من معنى الرأفة قريباً.

(117/353)

ولما كان المؤمن يطلق مجازاً على من يمكن منه الإيمان فوصلته الآن ليست بالفعل بل الإمكان، قال تعميماً لرحمته ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما هو اللائق بشريف منصبه وعظيم خلقه: ﴿ رحيم ﴾ ولأجل مثل هذه الأغراض النفسية رتب سبحانه هذين الوصفين هكذا، ولكن المعاني المراده تارة يظهرها الله تعالى لعبده منحة له وإكراماً، وتارة يخفيها إظهاراً لعجزه ونقصانه ثم يظهرها له في وقت آخر إن صدق في التضرع وإظهار الافتقار والتذلل وأدام الطلب، أو لغيره ممن هو أقل منه علماً وأضعف نظراً وفهماً، وإذا تأملت كتابي هذا ظهر لك أن كثيراً من الآيات فسرها على غير المراد منها قطعاً أكابر العلماء، فعلى الإنسان – إذا خفي عليه أمر – أن يقول: لا أعلم، ولا يظن أنه رتب شيء من هذا الكتاب العزيز لأجل الفواصل، فلذلك أمر لا يليق بكلام الله تعالى، وقد عاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ السجع، لأن الساجع يكونُ محطَ نظره الألفاظ، فيدير المعاني

عليها ويتبعها إياها ، فربما عجز اللفظ عن توفية المعنى ؛ روى البخاري في الطب وغيره من صحيحه ومسلم في الديات وأبو داود والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة ـ رضى الله عنهم ـ

(118/353)

" أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قضى في الجنين يقتل في بطن أمه بغرة عبد أو وليدة ، فقال الذي قضى عليه : كيف أغرم من لاشرب ولا أكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك بطل ؛ فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إنما هذا من إخوان الكهان " من أجل سجعه الذي سجع ، وفي رواية : فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " سجع كسجع الأعراب " وذلك – والله أعلم – أنه لو كان نظره إلى المعنى وتصحيحه لأغنى عن هذا السجع أن يقال : كيف أغرم من لاحياة له ، ولوقصد السجع وتهذيب المعنى لأتى مما يدل على نفي الحياة التي جعلها محط أمره فإن ما أتى به لا يستلزم نفيها ، ولو تقيد بالصحة لاغتنى بنفي النطق عن نفي الاستهلال ، فصح بهذا أنه دائر مع تحسين اللفظ صح المعنى أم لا ، وينطبع في عقل عاقل أن يكون النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يذم السجع وهو يأتي به ويقصده في القرآن أو في السنة ، ولو كان ذلك لأسرعوا الرد عليه ، وذكر أصحاب فتوح البلاد في فتح مكران من بلاد فارس أن الحكم بن عمرو لما فتحها أرسل بالأخماس مع صحار العبدي ، فلما قدم

على عمر - رضى الله عنهم - سأله عن مكران وكان لا يأتيه أحد إلا سأله عن الوجه الذي يجيء منه فقال : يا أمير المؤمنين ! أرض سهلها جبل ، وماءها وشل وثمرها دقل ، وعدوها بطل ، وخيرها قليل ، وشرها طويل ، والكثير بها قليل ، والقليل بها ضائع ، وما وراءها شر منها ؛ فقال ، أسجاع أنت أم مخبر ؟ فقال : لا بل مخبر ، قال : لا والله ! لا يغزوها جيش لي ما أطعت .

(119/353)

فقد جعل الفاروق السجع قسيماً للخير فدل على أن التقيد به عيب لإخلاله بالفائدة أو بتمام الفائدة ، ولعله إنما جوز أن يكون مخبراً لنه انفك عن السجع في آخر كلامه وكرر لفظ " قليل " فكان ما ظنه ، لأنه لو أراد السجع لأمكنه أن يقول والكثير بها ذليل ، والقليل بها ضائع كليل ، وما وراءها شر منها بأقوم قيل ؛ وقد نفى سبحانه عن هذا القرآن المجيد تصويب النظر إلى السجع كما نفى عنه الشعر فإنه تعالى قال ﴿ وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون ﴾ [الحاقة : 41 ، 42] فكما أن قول الشاعر إتيانه بالكلام موزوناً ، فكذلك قول الكاهن إتيانه بالكلام مسجوعاً والقرآن ليس من هذا ولا من هذا .

وإن وقع فيه كل من الأمرين فغير مقصود إليه ولا معول عليه ، بل لكون المعنى انتظم به على اتم الوجوه فيؤتي به لذلك ، ثم تبين أنه غير مقصود بالانفكاك عنه في كثير من الأماكن بقرينة ليس لها مجانس في اللفظ لتمام المعاني المرادة عندها فيعلم قطعاً أن ذلك غير مقصود أصلاً لأن مثل ذلك لا يرضى به أقل الساجعين ، بل يراه عجزاً وضيقاً عن تكميل المشاكلة ونقصاً – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ومما يوجب لك القطع بأن ترتيب هذين الاسمين الشريفين هكذا لغير مراعاة الفواصل قوله تعالى في سورة الحديد ﴿ وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ﴾ [الحديد : 27] وسيأتي إن شاء الله في سورة طه عن الفخر الرازي والقاضي أبي بكر الباقلاني مَنَع النظر إلى السجع في الكتاب العزيز نقلاً عن جميع الأشاعرة ، وإذا تأملت الفواصل في الإتيان بها تارة بكثرة وتارة بقلة ، وتارة تترك بالكلية ويؤتى في كل آية بفاصلة لا توافق الأخرى ، علمت أن هذا المذهب هو الصواب ولا سيما آخر سورة ﴿ اقرأ ﴾ وإذا تأملت كتب أهل العدد أتقنت علم هذا المستند ، وإذا تأملت ما قلته في هذا النحو من كتابي مصاعد النظر للاشراف على مقاصد السور لم يبق عندك شك في شيء من هذا ، فإياك ان تجنح لهذا القول فتكون قد وقعت في أمر عظيم وأنت لا تشعر ،

وأورد سبحانه هذه الآية إيراد المخاطب المتلطف المزيل لما عندهم من الريب بالقسم ، فكأنه قال : ما لكم تنصرفون عن حضرته الشماء وشمائله العلى ! والله لقد جاءكم - إلى آخره . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 407 . 409 ﴾

(121/353)

فصل

قال الفخر :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) ﴾

فيه مسائل :

المسألة الأولى :

اعلم أنه تعالى لما أمر رسوله عليه السلام أن يبلغ في هذه السورة إلى الخلق تكاليف شاقة شديدة صعبة يعسر تحملها ، إلا لمن خصه الله تعالى بوجوه التوفيق والكرامة ، ختم السورة بما يوجب سهولة تحمل تلك التكاليف ، وهو أن هذا الرسول منكم ، فكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا فهو عائد إليكم .

وأيضاً فإنه بحال يشق عليه ضرركم وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم ، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم ، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها ، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة ، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق ، وأن الأب مشفق ، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة ، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان .

فكذا ههنا لما عرفتم أنه رسول حق من عند الله ، فاقبلوا منه هذه التكاليف الشاقة لتفوزوا بكل خير ، ثم قال للرسول عليه السلام : فإن لم يقبلوها بل أعرضوا عنها وتولوا فاتركهم ولا تلتفت إليهم وعول على الله وارجع في جميع أمورك إلى الله ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129] وهذه الخاتمة لهذه السورة جاءت في غاية الحسن ونهاية الكمال .

المسألة الثانية :

اعلم أنه تعالى وصف الرسول في هذه الآية بخمسة أنواع من الصفات :

الصفة الأولى : قوله : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وفي تفسيره وجوه : الأول : يريد أنه بشر مثلكم كقوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ [يونس : 2] وقوله : ﴿ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [فصلت : 6] والمقصود أنه لو كان من جنس الملائكة لصعب الأمر بسببه على الناس ، على ما مر تقريره في سورة الأنعام .

والثاني : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من العرب قال ابن عباس : ليس في العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي عليه السلام بسبب الجدات ، مضرها وربيعها ويمانيها ، فالمضريون والربيعيون هم العدنانية ، واليمانيون هم القحطانية ونظيره قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [آل عمران : 164] والمقصود منه ترغيب العرب في نصرته ، والقيام بخدمته ، كأنه قيل لهم : كل ما يحصل له من الدولة والرفعة في الدنيا فهو سبب لعزكم ولفخركم ، لأنه منكم ومن نسبكم .

والثالث : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ خطاب لأهل الحرم ، وذلك لأن العرب كانوا يسمون أهل الحرم أهل الله وخاصته ، وكانوا يخدمونهم ويقومون بإصلاح مهماتهم فكأنه قيل للعرب : كنتم قبل مقدمه مجدين مجتهدين في خدمة أسلافه وآبائه ، فلم تتكاسلون في خدمته مع أنه لا نسبة له في الشرف والرفعة إلى أسلافه ؟

والقول الرابع : أن المقصود من ذكر هذه الصفة التنبيه على طهارته ، كأنه قيل : هو من عشيرتكم تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة ، وتعرفون كونه حريصاً على دفع

الآفات عنكم وإيصال الخيرات إليكم ، وإرسال من هذه حالته وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم .

وقرىء ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من أشرفكم وأفضلكم ، وقيل : هي قراءة رسول الله وفاطمة وعائشة رضي الله عنهما .

الصفة الثانية : قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ اعلم أن العزيز هو الغالب الشديد ، والعزة هي الغلبة والشدة .

(123/353)

فإذا وصلت مشقة إلى الإنسان عرف أنه كان عاجزاً عن دفعها إذ لو قدر على دفعها لما قصر في ذلك الدفع ، فحيث لم يدفعها ، علم أنه كان عاجزاً عن دفعها ، وأنها كانت غالبة على الإنسان .

فلهذا السبب إذا اشتد على الإنسان شيء قال : عز علي هذا ، وأما العنت فيقال : عنت الرجل يعنت عنتاً إذا وقع في مشقة وشدة لا يمكنه الخروج منها ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العنت مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 25] وقوله : ﴿ وَلَوْ شَاءَ الله لأَعْنَتَكُمْ ﴾ [البقرة : 220] وقال الفراء : ﴿ مَا ﴾ في قوله : ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ في موضع

رفع ، والمعنى : عزيز عليه عنتكم ، أي يشق عليه مكروهكم ، وأولى المكاره بالدفع مكروه عقاب الله تعالى ، وهو إنما أرسل ليدفع هذا المكروه .

والصفة الثالثة : قوله : ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ والحرص يمتنع أن يكون متعلقاً بذواتهم ، بل المراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدنيا والآخرة .

واعلم أن على هذا التقدير يكون قوله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ معناه : شديدة معزته عن وصول شيء من آفات الدنيا والآخرة إليكم ، وبهذا التقدير لا يحصل التكرار .

قال الفراء : الحريص الشحيح ، ومعناه : أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار ، وهذا بعيد ، لأنه يوجب الخلو عن الفائدة .

والصفة الرابعة والخامسة : قوله : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : سماه الله تعالى باسمين من أسمائه .

بقي ههنا سؤالان :

السؤال الأول : كيف يكون كذلك ، وقد كلفهم في هذه السورة بأنواع من التكاليف الشاقة التي لا يقدر على تحملها إلا الموفق من عند الله تعالى ؟

قلنا : قد ضربنا لهذا المعنى مثل الطبيب الحاذق والأب المشفق ، والمعنى : أنه إنما فعل بهم ذلك ليتخلصوا من العقاب المؤبد ، ويفوزوا بالثواب المؤبد .

السؤال الثاني : لما قال : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ فهذا النسق يوجب أن يقال : رؤوف رحيم بالمؤمنين ، فلم ترك هذا النسق وقال : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

الجواب : أن قوله : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ يفيد الحصر بمعنى أنه لا رأفة ولا رحمة له إلا بالمؤمنين .

فأما الكافرون فليس له عليهم رأفة ورحمة ، وهذا كالمتمم لقدر ما ورد في هذه السورة من التغليظ كأنه يقول : إني وإن بالغت في هذه السورة في التغليظ إلا أن ذلك التغليظ على الكافرين والمنافقين .

وأما رحمتي ورأفتي فمخصوصة بالمؤمنين فقط ، فلهذه الدقيقة عدل على ذلك النسق .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 186 . 188 ﴾

(125/353)

وقال ابن العربى :

قَوْله تَعَالَى ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ

رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

فِيهَا تِسْعُ مَسَائِلَ :

الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى : فِي ثُبُوتِهَا : اعْلَمُوا وَفَّقَكُمُ اللَّهُ أَنَّ هَذِهِ مَسْأَلَةٌ عَظِيمَةُ الْقَدْرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّافِضَةَ كَادَتْ الْإِسْلَامَ بِآيَاتٍ وَحُرُوفٍ نَسَبَتْهَا إلَى الْقُرْآنِ لَا يَخْفَى عَلَى ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّهَا مِنْ الْبُهْتَانِ الَّذِي نَزَغَ بِهِ الشَّيْطَانُ ، وَادَّعَوْا أَنَّهُمْ نَقَلُوهَا وَأَظْهَرُوهَا حِينَ كَتَمْنَاهَا نَحْنُ ، وَقَالُوا : إنَّ الْوَاحِدَ يَكْفِي فِي نَقْلِ الْآيَةِ وَالْحُرُوفِ كَمَا فَعَلْتُمْ ، فَإِنَّكُمْ أَثْبَتُّمْ آيَةً بِقَوْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَهُوَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ؛ وَقَوْلُهُ : ﴿ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ .

قُلْنَا : إنَّ الْقُرْآنَ لَا يَثْبُتُ إلَّا بِنَقْلِ التَّوَاتُرِ ، بِخِلَافِ السُّنَّةِ فَإِنَّهَا تَثْبُتُ بِنَقْلِ الْآحَادِ .

وَالْمَعْنَى فِيهِ أَنَّ الْقُرْآنَ مُعْجِزَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشَّاهِدَةُ بِصِدْقِهِ ، الدَّالَّةُ عَلَى نُبُوَّتِهِ ، فَأَبْقَاهَا اللَّهُ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَتَوَلَّى حِفْظَهَا بِفَضْلِهِ ، حَتَّى لَا يُزَادَ فِيهَا وَلَا يُنْقَصَ مِنْهَا .

(126/353)

وَالْمُعْجِزَاتُ إمَّا أَنْ تَكُونَ مُعَايَنَةً إنْ كَانَتْ فِعْلًا ، وَإِمَّا أَنْ تَثْبُتَ تَوَاتُرًا إنْ كَانَتْ قَوْلًا ، لِيَقَعَ الْعِلْمُ بِهَا ، أَوْ تُنْقَلَ صُورَةُ الْفِعْلِ فِيهَا أَيْضًا نَقْلًا مُتَوَاتِرًا حَتَّى يَقَعَ الْعِلْمُ بِهَا ، كَأَنَّ السَّامِعَ لَهَا قَدْ

شَاهَدَهَا ، حَتَّى تَنْبِنِي الرِّسَالَةُ عَلَى أَمْرٍ مَقْطُوعٍ بِهِ ، بِخِلَافِ السُّنَّةِ ؛ فَإِنَّ الْأَحْكَامَ يُعْمَلُ فِيهَا عَلَى خَبَرِ الْوَاحِدِ ؛ إذْ لَيْسَ فِيهَا مَعْنًى أَكْثَرُ مِنْ التَّعَبُّدِ .

وَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُرْسِلُ كُتُبَهُ مَعَ الْوَاحِدِ ، وَيَأْمُرُ الْوَاحِدَ أَيْضًا بِتَبْلِيغِ كَلَامِهِ ، وَيَبْعَثُ

الْأُمَرَاءَ إلَى الْبِلَادِ وَعَلَى السَّرَايَا ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَوْ وَقَفَ فِيهَا عَلَى التَّوَاتُرِ لَمَا حَصَلَ عِلْمٌ ، وَلَا تَمَّ حُكْمٌ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي أُصُولِ الْفِقْهِ وَالدِّينِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّانِيَةُ : فِيمَا رُوِيَ فِيهَا : ثَبَتَ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ : أَرْسَلَ إلَيَّ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ مَقْتَلَ أَهْلِ الْيَمَامَةِ ، فَإِذَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عِنْدَهُ ، فَقَالَ : إنَّ الْقِتَالَ قَدْ اسْتَحَرَّ بِقُرَّاءِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْيَمَامَةِ ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ الْقَتْلُ بِالْقُرَّاءِ فِي الْمَوَاطِنِ كُلِّهَا ، فَيَذْهَبَ قُرْآنٌ كَثِيرٌ ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْمَعَ الْقُرْآنَ .

(127/353)

قَالَ أَبُو بَكْرٍ لِعُمَرَ : كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَالَ عُمَرُ : هُوَ وَاَللَّهِ خَيْرٌ ، فَلَمْ يَزَلْ يُرَاجِعُنِي فِي ذَلِكَ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ عُمَرَ ، وَرَأَيْت فِيهِ الَّذِي رَأَى .

قَالَ زَيْدٌ : قَالَ أَبُو بَكْرٍ : إِنَّك شَابٌّ عَاقِلٌ لَا نَتَّهِمُك ، قَدْ كُنْت تَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ، فَتَتَبَّعْ الْقُرْآنَ .

قَالَ : فَوَاَللَّهِ لَوْ كَلَّفُونِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنْ الْجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِنْ ذَلِكَ .

قُلْت : كَيْفَ تَفْعَلُونَ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هُوَ وَاَللَّهِ خَيْرٌ .

فَلَمْ يَزَلْ يُرَاجِعُنِي فِي ذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ .

فَتَتَبَّعْت الْقُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنْ الرِّقَاعِ وَالْعُسُبِ ، وَذَكَرَ كَلِمَةً مُشْكِلَةً تَرَكْنَاهَا .

قَالَ زَيْدٌ : فَوَجَدْت آخِرَ بَرَاءَةٍ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ إلَى : الْعَظِيمِ انْتَهَى الْحَدِيثُ .

فَبَقِيَتْ الصُّحُفُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا بَعْدَهُ عُمَرُ ، ثُمَّ صَارَتْ عِنْدَ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا كَانَ زَمَنُ عُثْمَانَ حَسْبَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ قَدِمَ حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ عَلَى عُثْمَانَ ، وَكَانَ يُغَازِي أَهْلَ الشَّامِ فِي فَتْحِ أَرْمِينِيَةَ وَأَذْرَبِيجَانَ مَعَ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، فَرَأَى حُذَيْفَةُ اخْتِلَافَهُمْ فِي الْقُرْآنِ ، فَقَالَ لِعُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ :

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ ، كَمَا اخْتَلَفَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى .

فَأَرْسَلَ إِلَى حَفْصَةَ أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ فَنَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ .

فَأَرْسَلَتْ حَفْصَةُ إِلَى عُثْمَانَ بِالصُّحُفِ ، فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ ، وَسَعِيدِ بْنِ الْعَاصِ ، وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنْ انْسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ .

وَقَالَ لِلرَّهْطِ الْقُرَشِيِّينَ الثَّلَاثَةِ : إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ ، حَتَّى إِذَا نَسَخُوا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ بَعَثَ عُثْمَانُ إِلَى كُلِّ أُفُقٍ بِمُصْحَفٍ مِنْ تِلْكَ الْمَصَاحِفِ الَّتِي نَسَخُوا .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : وَحَدَّثَنِي خَارِجَةُ بْنُ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ قَالَ : فَقَدْتُ آيَةً مِنْ سُورَةٍ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَؤُهَا : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ ﴾ فَالْتَمَسْتُهَا فَوَجَدْتُهَا مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ ، فَأَلْحَقْتُهَا فِي سُورَتِهَا .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَاخْتَلَفُوا يَوْمَئِذٍ فِي التَّابُوتِ وَالتَّابُوهِ ، فَقَالَ الْقُرَشِيُّونَ : التَّابُوتُ .

وَقَالَ زَيْدٌ التَّابُوهُ .

فَرُفِعَ اخْتِلَافُهُمْ إِلَى عُثْمَانَ فَقَالَ : اكْتُبُوهُ التَّابُوتُ .

فَإِنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ .

(129/353)

قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَأَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عُتْبَةَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ كَرِهَ لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ الْمَصَاحِفِ ، وَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ ، أُعْزَلُ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ الْمَصَاحِفِ ، وَيَتَوَلَّاهَا رَجُلٌ ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْت وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ يُرِيدُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ .

وَلِذَلِكَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ : يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ ، اكْتُمُوا الْمَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ فَالْقُوا اللَّهَ بِالْمَصَاحِفِ .

قَالَ الزُّهْرِيُّ : فَبَلَغَنِي أَنَّ ذَلِكَ كَرِهَهُ مِنْ مَقَالَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَهَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ لَا يُعْرَفُ إلَّا مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّالِثَةُ : إذَا ثَبَتَ هَذَا فَقَدْ تَبَيَّنَ فِي أَثْنَاءِ الْحَدِيثِ أَنَّ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ فِي بَرَاءَةٍ ، وَآيَةُ الْأَحْزَابِ لَمْ تَثْبُتْ بِوَاحِدٍ ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مَنْسِيَّةً ، فَلَمَّا ذَكَرَهَا مَنْ ذَكَرَهَا أَوْ تَذَكَّرَهَا مَنْ

تَذَكَّرَهَا عَرَفَهَا الْخَلْقُ ، كَالرَّجُلِ تَنْسَاهُ ، فَإِذَا رَأَيْت وَجْهَهُ عَرَفْته ، أَوْ تَنْسَى اسْمَهُ وَتَرَاهُ ، وَلَا يَجْتَمِعُ لَك الْعَيْنُ وَالِاسْمُ ، فَإِذَا انْتَسَبَ عَرَفْته .

(130/353)

الْمَسْأَلَةُ الرَّابِعَةُ : مِنْ غَرِيبِ الْمَعَانِي أَنَّ الْقَاضِيَ أَبَا بَكْرِ بْنَ الطَّيِّبِ سَيْفَ السُّنَّةِ وَلِسَانَ الْأُمَّةِ تَكَلَّمَ بِجَهَالَاتٍ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ ، لَا تُشْبِهُ مَنْصِبَهُ ، فَانْتَصَبْنَا لَهَا لِنُوقِفَكُمْ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِيهَا : أَوَّلُهَا : قَالَ الْقَاضِي أَبُو الطَّيِّبِ : هَذَا حَدِيثٌ مُضْطَرِبٌ ، وَذَكَرَ اخْتِلَافَ رِوَايَاتٍ فِيهِ ، مِنْهَا صَحِيحَةٌ وَمِنْهَا بَاطِلَةٌ ، فَأَمَّا الرِّوَايَاتُ الْبَاطِلَةُ فَلَا نَشْتَغِلُ بِهَا ، وَأَمَّا الصَّحِيحَةُ فَمِنْهَا أَنَّهُ قَالَ : رُوِيَ أَنَّ هَذَا جَرَى فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ .

وَفِي رِوَايَةٍ أَنَّهُ جَرَى فِي عَهْدِ عُثْمَانَ ، وَبَيْنَ التَّارِيخَيْنِ كَثِيرٌ مِنْ الْمُدَّةِ ، وَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ نَقُولَ هَذَا كَانَ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ نَقُولَ : كَانَ هَذَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ ؛ وَلَوْ اخْتَلَفَ تَارِيخُ الْحَدِيثِ فِي يَوْمٍ مِنْ أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ لَوَجَبَ رَدُّهُ ، فَكَيْفَ أَنْ يَخْتَلِفَ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْمُدَّتَيْنِ الطَّوِيلَتَيْنِ ؟ قَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرِ بْنُ الْعَرَبِيِّ : يُقَالُ لِلسَّيْفِ هَذِهِ كَهْمَةٌ مِنْ طُولِ الضِّرَابِ ، هَذَا أَمْرٌ لَمْ يَخْفَ وَجْهُ الْحَقِّ فِيهِ ، إنَّمَا

(131/353)

جَمَعَ زَيْدٌ الْقُرْآنَ مَرَّتَيْنِ : إحْدَاهُمَا لِأَبِي بَكْرٍ فِي زَمَانِهِ ، وَالثَّانِيَةُ لِعُثْمَانَ فِي زَمَانِهِ ، وَكَانَ هَذَا فِي مَرَّتَيْنِ لِسَبَبَيْنِ وَلِمَعْنَيَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ : فَكَانَ لِئَلَّا يَذْهَبَ الْقُرْآنُ بِذَهَابِ الْقُرَّاءِ ، كَمَا أَخْبَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ : ﴿ يَذْهَبُ الْعِلْمُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ ﴾ ، فَلَمَّا تَحَصَّلَ مَكْتُوبًا صَارَ عُدَّةً لِمَا يُتَوَقَّعُ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا جَمْعُهُ فِي زَمَانِ عُثْمَانَ فَكَانَ لِأَجْلِ الِاخْتِلَافِ الْوَاقِعِ بَيْنَ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَةِ ، فَجُمِعَ فِي الْمَصَاحِفِ لِيُرْسَلَ إلَى الْآفَاقِ ، حَتَّى يُرْفَعَ الِاخْتِلَافُ الْوَاقِعُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ عُثْمَانَ .

ثَانِيهَا : قَالَ ابْنُ الطَّيِّبِ : مِنْ اضْطِرَابِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ زَيْدًا تَارَةً قَالَ : وَجَدْت هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ السَّاقِطَةَ ، وَتَارَةً لَمْ يَذْكُرْهُ ، وَتَارَةً ذَكَرَ قِصَّةَ بَرَاءَةٍ ، وَتَارَةً قِصَّةَ الْأَحْزَابِ أَيْضًا بِعَيْنِهَا .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ : يُقَالُ لِلسَّانِ : هَذِهِ عَثْرَةٌ ، وَمَا الَّذِي يَمْنَعُ عَقْلًا أَوْ عَادَةً أَنْ يَكُونَ عِنْدَ الرَّاوِي حَدِيثٌ مُفَصَّلٌ يَذْكُرُ جَمِيعَهُ مَرَّةً ، وَيَذْكُرُ أَكْثَرَهُ أُخْرَى ، وَيَذْكُرُ أَقَلَّهُ ثَالِثَةً ؟

ثَالِثُهَا : قَالَ ابْنُ الطَّيِّبِ : يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْخَبَرُ مَوْضُوعًا ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِيهِ : إنَّ زَيْدًا وَجَدَ الضَّائِعَ مِنْ الْقُرْآنِ عِنْدَ رَجُلَيْنِ .

وَهَذَا بَعِيدٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ وَكَلَ حِفْظَ مَا سَقَطَ وَذَهَبَ عَنْ الْأَجِلَّةِ الْأَمَاثِلِ مِنْ الْقُرْآنِ بِرَجُلَيْنِ : خُزَيْمَةَ ، وَأَبِي خُزَيْمَةَ .

قَالَ الْقَاضِي : قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَنْسَى الرَّجُلُ الشَّيْءَ ثُمَّ يَذْكُرُهُ لَهُ آخَرُ ، فَيَعُودَ عِلْمُهُ إلَيْهِ .

وَلَيْسَ فِي نِسْيَانِ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ لَهُ إلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ اسْتِحَالَةٌ عَقْلًا ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ جَائِزٌ ، وَلَا شَرْعًا ؛ لِأَنَّ اللَّهَ ضَمِنَ حِفْظَهُ ، وَمِنْ حِفْظِهِ الْبَدِيعِ أَنْ تَذْهَبَ مِنْهُ آيَةٌ أَوْ سُورَةٌ إلَّا عَنْ وَاحِدٍ ، فَيَذْكُرَهَا ذَلِكَ الْوَاحِدُ ، فَيَتَذَكَّرَهَا الْجَمِيعُ ؛ فَيَكُونَ ذَلِكَ مِنْ بَدِيعِ حِفْظِ اللَّهِ لَهَا .

قَالَ الْقَاضِي ابْنُ الْعَرَبِيِّ : وَيُقَالُ لَهُ أَيْضًا : هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ الْأَئِمَّةِ ، فَكَيْفَ تَدَّعِي عَلَيْهِ الْوَضْعَ ، وَقَدْ رَوَاهُ الْعَدْلُ عَنْ الْعَدْلِ ، وَتَدَّعِي فِيهِ الِاضْطِرَابَ ، وَهُوَ فِي سِلْكِ الصَّوَابِ مُنْتَظِمٌ ، وَتَقُولُ أُخْرَى : إنَّهُ مِنْ أَخْبَارِ الْآحَادِ ، وَمَا الَّذِي تَضَمَّنَ مِنْ الِاسْتِحَالَةِ أَوْ الْجَهَالَةِ حَتَّى يُعَابَ بِأَنَّهُ خَبَرٌ وَاحِدٌ .

(133/353)

وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَه فِي مُعَارَضَتِهِ عَنْ بَعْضِ رُوَاتِهِ أَوْ عَنْ رَأْيٍ فَهُوَ الْمُضْطَرِبُ الْمَوْضُوعُ الَّذِي لَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ ، فَكَيْفَ يُعَارَضُ الْأَحَادِيثُ الصِّحَاحُ بِالضِّعَافِ وَالثِّقَاتُ بِالْمَوْضُوعَاتِ ؟ الْمَسْأَلَةُ الْخَامِسَةُ : فَإِنْ قِيلَ : فَمَا كَانَتْ هَذِهِ الْمُرَاجَعَةُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ ؟ قُلْنَا : هَذَا مِمَّا لَا سَبِيلَ إلَى مَعْرِفَتِهِ إلَّا بِالرِّوَايَةِ ، وَقَدْ عَدِمَتْ ، لَا هَمَّ إلَّا أَنَّ الْقَاضِيَ أَبَا بَكْرٍ قَدْ ذَكَرَ فِي ذَلِكَ وُجُوهًا ، أَجْوَدُهَا خَمْسَةٌ : الْأَوَّلُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ ذَلِكَ مَصْلَحَةً ، وَفَعَلَهُ أَبُو بَكْرٍ لِلْحَاجَةِ .

الثَّانِي : أَنَّ اللَّهَ أَخْبَرَ أَنَّهُ فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ، وَأَنَّهُ عِنْدَ مُحَمَّدٍ فِي مِثْلِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ يَتْلُوا صُحُفًا مُطَهَّرَةً فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴾ ؛ فَهَذَا اقْتِدَاءٌ بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ .

الثَّالِثُ : أَنَّهُمْ قَصَدُوا بِذَلِكَ تَحْقِيقَ قَوْلِ اللَّهِ : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ؛ فَقَدْ كَانَ عِنْدَهُ مَحْفُوظًا ، وَأَخْبَرَنَا أَنْ يَحْفَظَهُ بَعْدَ نُزُولِهِ ، وَمِنْ حِفْظِهِ تَيْسِيرُ الصَّحَابَةِ لِجَمْعِهِ ، وَاتِّفَاقُهُمْ عَلَى تَقْيِيدِهِ وَضَبْطِهِ .

الرَّابِعُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكْتُبُهُ كَتَبَتُهُ بِإِمْلَائِهِ إيَّاهُ عَلَيْهِمْ ، وَهَلْ يَخْفَى عَلَى مُتَصَوِّرٍ مَعْنًى صَحِيحًا فِي قَلْبِهِ

أَنَّ ذَلِكَ كَانَ تَنْبِيهًا عَلَى كَتْبِهِ وَضَبْطِهِ بِالتَّقْيِيدِ فِي الصُّحُفِ ، وَلَوْ كَانَ مَا ضَمِنَهُ اللَّهُ مِنْ حِفْظِهِ لَا عَمَلَ لِلْأُمَّةِ فِيهِ لَمْ يَكْتُبْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ إِخْبَارِ اللَّهِ لَهُ بِضَمَانِ حِفْظِهِ ، وَلَكِنْ عَلِمَ أَنَّ حِفْظَهُ مِنْ اللَّهِ بِحِفْظِنَا وَتَيْسِيرُهُ ذَلِكَ لَنَا وَتَعْلِيمُهُ لِكِتَابَتِهِ وَضَبْطِهِ فِي الصُّحُفِ بَيْنَنَا .

الْخَامِسُ : أَنَّهُ ثَبَتَ ﴿ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهَى عَنْ السَّفَرِ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ﴾ ؛ وَهَذَا تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّهُ بَيْنَ الْأُمَّةِ مَكْتُوبٌ مُسْتَصْحَبٌ فِي الْأَسْفَارِ ، هَذَا مِنْ أَبْيَنِ الْوُجُوهِ عِنْدَ النُّظَّارِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّادِسَةُ : فَأَمَّا كِتَابَةُ عُثْمَانَ لِلْمَصَاحِفِ الَّتِي أُرْسِلَتْ إِلَى الْكُوفَةِ وَالشَّامِ وَالْحِجَازِ فَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِأَجْلِ اخْتِلَافِ النَّاسِ فِي الْقِرَاءَاتِ ، فَأَرَادَ ضَبْطَ الْأَمْرِ لِئَلَّا يَنْتَشِرَ إِلَى حَدِّ التَّفَرُّقِ وَالِاخْتِلَافِ فِي الْقُرْآنِ ، كَمَا اخْتَلَفَ أَهْلُ الْكِتَابِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَكَانَ جَمْعُ أَبِي بَكْرٍ لَهُ لِئَلَّا يَذْهَبَ أَصْلُهُ ؛ فَكَانَا أَمْرَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ لِسَبَبَيْنِ مُتَبَايِنَيْنِ .

(135/353)

وَقَدْ كَانَ ﴿ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا الِاخْتِلَافِ فِي زَمَانِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ هِشَامِ بْنِ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ وَبَيْنَ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ فَاخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَةِ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ ، فَاحْتَمَلَ

عُمَرُ هِشَامًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَمْلًا ، حَتَّى قَرَأَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَا قَرَأَ بِخِلَافِ قِرَاءَةِ صَاحِبِهِ ، فَصَوَّبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكُلَّ ، وَأَنْبَأَهُمْ أَنَّهُ لَيْسَ بِاخْتِلَافٍ ، إِذْ الْكُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، بِأَمْرِهِ نَزَلَ ، وَبِفَضْلِهِ تَوَسَّعَ فِي حُرُوفِهِ حَتَّى جَعَلَهَا سَبْعَةً ﴿ ، فَاخْتَارَ عُثْمَانُ وَالصَّحَابَةُ مِنْ تِلْكَ الْحُرُوفِ مَا رَأَوْهُ ظَاهِرًا مَشْهُورًا مُتَّفَقًا عَلَيْهِ مَذْكُورًا ، وَجَمَعُوهُ فِي مَصَاحِفَ ،

وَجُعِلَتْ أُمَّهَاتٍ فِي الْبُلْدَانِ تَرْجِعُ إِلَيْهَا بَنَاتُ الْخِلَافِ .

الْمَسْأَلَةُ السَّابِعَةُ : فَأَمَّا حَالُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ وَإِنْكَارُهُ عَلَى زَيْدٍ أَنْ يَتَوَلَّى كَتْبَ الْمَصَاحِفِ ، وَهُوَ أَقْدَمُ قِرَاءَةً .

(136/353)

قُلْنَا : يَا مَعْشَرَ الطَّالِبِينَ لِلْعِلْمِ ، مَا نَقَمَ قَطُّ عَلَى عُثْمَانَ شَيْءٌ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ كَالشِّهَابِ ، وَأُنْبِئَ أَنَّهُ أَتَاهُ بِعِلْمٍ ، وَقَدْ بَيَّنَّا ذَلِكَ فِي كِتَابِ الْمُقْسِطِ ، وَعِنْدَ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَا قَالَ وَبَلَغَ عُثْمَانُ : قَالَ عُثْمَانُ : مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ، يَدْعُو النَّاسَ إِلَى الْخِلَافِ وَالشُّبْهَةِ ، وَيَغْضَبُ عَلَيَّ أَنْ لَمْ أُوَلِّهِ نَسْخَ الْقُرْآنِ ، وَقَدَّمْت زَيْدًا عَلَيْهِ ، فَهَلَّا غَضِبَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ حِينَ قَدَّمَا زَيْدًا لِكِتَابَتِهِ وَتَرَكَاهُ ، إِنَّمَا اتَّبَعْت أَنَا أَمْرَهُمَا ، فَمَا بَقِيَ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ إِلَّا حَسَّنَ

قَوْلَ عُثْمَانَ وَعَابَ ابْنَ مَسْعُودٍ .

وَهَذَا بَيِّنٌ جِدًّا ، وَقَدْ أَبَى اللَّهُ أَنْ يُبْقِيَ لِابْنِ مَسْعُودٍ فِي ذَلِكَ أَثَرًا ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ رُوِيَ عَنْهُ أَنَّهُ رَجَعَ عَنْ ذَلِكَ وَرَاجَعَ أَصْحَابَهُ فِي الِاتِّبَاعِ لِمُصْحَفِ عُثْمَانَ وَالْقِرَاءَةِ بِهِ .

الْمَسْأَلَةُ الثَّامِنَةُ : فَأَمَّا سَبَبُ اخْتِلَافِ الْقُرَّاءِ بَعْدَ رَبْطِ الْأَمْرِ بِالثَّبَاتِ وَضَبْطِ الْقُرْآنِ بِالتَّقْيِيدِ .

قُلْنَا : إنَّمَا كَانَ ذَلِكَ لِلتَّوْسِعَةِ الَّتِي أَذِنَ اللَّهُ فِيهَا ، وَرَحِمَ بِهَا مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ ، فَأَقْرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا ، وَأَخَذَ كُلُّ صَاحِبٍ مِنْ أَصْحَابِهِ حَرْفًا أَوْ جُمْلَةً مِنْهَا .

(137/353)

وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْحَدِيثِ تَارَةً فِي جُزْءٍ مُفْرَدٍ ، وَتَارَةً فِي شَرْحِ الصَّحِيحَيْنِ ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ الِاخْتِلَافَ فِي الْقِرَاءَةِ كَانَ أَكْثَرَ مِمَّا فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ الْيَوْمَ ، وَلَكِنَّ الصَّحَابَةَ ضَبَطَتْ الْأَمْرَ إلَى حَدٍّ يُقَيَّدُ مَكْتُوبًا ، وَخَرَجَ مَا بَعْدَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا حَتَّى أَنَّ مَا تَحْتَمِلُهُ الْحُرُوفُ الْمُقَيَّدَةُ فِي الْقُرْآنِ قَدْ خَرَجَ أَكْثَرُهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ مَعْلُومًا ، وَقَدْ انْحَصَرَ الْأَمْرُ إلَى مَا نَقَلَهُ الْقُرَّاءُ السَّبْعَةُ بِالْأَمْصَارِ الْخَمْسَةِ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ عُثْمَانَ أَرْسَلَ ثَلَاثَةَ مَصَاحِفَ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ احْتَبَسَ مُصْحَفًا ، وَأَرْسَلَ إِلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ ثَلَاثَةَ مَصَاحِفَ ، وَرُوِيَ أَنَّهُ أَرْسَلَ أَرْبَعَةً إِلَى الشَّامِ وَالْحِجَازِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ .

وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَتْ سَبْعَةَ مَصَاحِفَ ، فَبَعَثَ مُصْحَفًا إِلَى مَكَّةَ ، وَإِلَى الْكُوفَةِ آخَرَ ، وَمُصْحَفًا إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَمُصْحَفًا إِلَى الشَّامِ ، وَمُصْحَفًا إِلَى الْيَمَنِ ، وَمُصْحَفًا إِلَى الْبَحْرَيْنِ ، وَمُصْحَفًا عِنْدَهُ .

فَأَمَّا مُصْحَفُ الْيَمَنِ وَالْبَحْرَيْنِ فَلَمْ يُسْمَعْ لَهُمَا خَبَرٌ .

قَالَ الْقَاضِي : وَهَذِهِ الْمَصَاحِفُ إِنَّمَا كَانَتْ تَذْكِرَةً لِئَلَّا يَضِيعَ الْقُرْآنُ ، فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ فَإِنَّمَا أُخِذَتْ بِالرِّوَايَةِ لَا مِنْ الْمَصَاحِفِ ، أَمَّا إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا رَجَعُوا إِلَيْهَا فَمَا كَانَ فِيهَا عَوَّلُوا عَلَيْهِ ، وَلِذَلِكَ اخْتَلَفَتْ الْمَصَاحِفُ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ ، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ أَثْبَتَتْ ذَلِكَ فِي بَعْضِ الْمَصَاحِفِ ،

(138/353)

وَأَسْقَطَتْهُ فِي الْبَعْضِ ، لِيُحْفَظَ الْقُرْآنُ عَلَى الْأُمَّةِ ، وَتَجْتَمِعَ أَشْتَاتُ الرِّوَايَةِ ، وَيَتَبَيَّنَ وَجْهُ الرُّخْصَةِ وَالتَّوْسِعَةِ ، فَانْتَهَتْ الزِّيَادَةُ وَالنُّقْصَانُ إِلَى أَرْبَعِينَ حَرْفًا فِي هَذِهِ الْمَصَاحِفِ ، وَقَدْ

زِيدَتْ عَلَيْهَا أَحْرُفٌ يَسِيرَةٌ لَمْ يَقْرَأْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ الْقُرَّاءِ الْمَشْهُورِينَ تُرِكَتْ ؛ فَهَذَا مُنْتَهَى الْحَاضِرِ مِنْ الْقَوْلِ الَّذِي يَحْتَمِلُهُ الْفَنُّ الَّذِي تَصَدَّيْنَا لَهُ مِنْ الْأَحْكَامِ .

الْمَسْأَلَةُ التَّاسِعَةُ : إذَا ثَبَتَتْ الْقِرَاءَاتُ ، وَتَقَيَّدَتْ الْحُرُوفُ فَلَيْسَ يَلْزَمُ أَحَدًا أَنْ يَقْرَأَ بِقِرَاءَةِ شَخْصٍ وَاحِدٍ ، كَنَافِعٍ مِثْلًا ، أَوْ عَاصِمٍ ؛ بَلْ يَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقْرَأَ الْفَاتِحَةَ فَيَتْلُو حُرُوفَهَا عَلَى ثَلَاثِ قِرَاءَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ ؛ لِأَنَّ الْكُلَّ قُرْآنٌ ، وَلَا يَلْزَمُ جَمْعُهُ ؛ إذْ لَمْ يُنَظِّمْهُ الْبَارِي لِرَسُولِهِ ، وَلَا قَامَ دَلِيلٌ عَلَى التَّعَبُّدِ ، وَإِنَّمَا لَزِمَ الْخَلْقَ بِالدَّلِيلِ أَلَّا يَتَعَدَّوْا الثَّابِتَ إلَى مَا لَمْ يَثْبُتْ ، فَأَمَّا تَعْيِينُ الثَّابِتِ فِي التِّلَاوَةِ فَمُسْتَرْسِلٌ عَلَى الثَّابِتِ كُلِّهِ . وَاَللَّهُ أَعْلَمُ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ أحكام القرآن لابن العربى حـ 2 صـ ﴾

(139/353)

وقال السمرقندى :

قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

قال مقاتل : يعني : أهل مكة قد جاءكم رسول من أنفسكم تعرفونه ولا تنكرونه ؛ ويقال : هذا الخطاب لجميع العرب ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ يعني : محمداً صلى الله عليه وسلم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : من جميع العرب ، لأنه لم يكن في العرب قبيلة إلا ولرسول الله

صلى الله عليه وسلم فيها قرابة .

وهذا من المجاز والاستعارة ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان فيهم ولم يجيء من موضع آخر ، معناه ظهر فيكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ويقال : هذا الخطاب لجميع الناس ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : آدمياً مثلكم قرأ بعضهم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بنصب الفاء يعني : من أشرفكم وأعزكم ، وهي قراءة شاذة .

ثم قال تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، يعني : شديد عليه ما أثمتم وعصيتم ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، قال الكلبي : يعني : على إيمانكم ؛ وقال مقاتل : حريص عليكم بالرشد والهدى ؛ وقال قتادة : حريص على من لم يسلم أن يسلم .

ثم قال : ﴿ بالمؤمنين رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، أي رفيق بجميع المؤمنين ، رحيم بهم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(140/353)

وقال الثعلبى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

قراءة العامة بضم الفاء أي : من نسبكم تعرفون نسبه وحسبه وأي قبيلة من العرب من بني

إسماعيل . قال ابن عباس : ليس في العرب قبيلة إلاّ وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريها وربيعها ويمانيها .

قال الصادق : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية .

أخبرنا عبد الله بن حامد ، حدثنا حامد بن محمد . علي بن عبد العزيز . محمد بن أبي هاشم حدّثني المدني عن أبي الحويرث عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية وما ولدني إلاّ نكاح كنكاح الإسلام " فإن الله تعالى جعله من أنفسهم ، فلا تحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة .

قرأ ابن عباس وابن ثعلبة : عبد الله بن فسيط المكي وابن محيصن والزهري ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ بفتح الفاء أي من أشرفكم وأفضلكم من قولك : شيء نفيس إذا كان مرغوباً فيه .

قال يمان : من أعلاكم نسباً ﴿ عَزِيزٌ ﴾ شديد ﴿ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ما صلة أي عنتكم وهو دخول المشقة والمضرّة عليكم . قال ابن عباس : ما ضللتم . قال الضحاك والكلبي : أثمتم ، وقال العتبي : ما عنتكم وضرّ بكم ، وقال ابن الأنباري : ما هلكتم عليه ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي على إيمانكم وهداكم وصلاحكم ، وقال قتادة : حريص على ضالهم أن يهديه الله ، وقال الفراء : الحريص الشحيح أن تدخلوا النار .

﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ ﴾ رفيق ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين رؤوف بعباده رحيم بأوليائه . رؤوف بمن يراه رحيم بمن لم يره .

(141/353)

قال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية : " لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز حريص بالمؤمنين رحيم عليه ما عنتم لا يهمه إلاّ شأنكم وهو القائم بالشفاعة فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته فإنه لا يرضيه إلاّ دخولكم الجنة " لقوله صلى الله عليه وسلم : " من ترك مالاً فلنؤتينه ومن ترك كلاًّ ودينا فعليّ وإليّ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(142/353)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

فيه قراءتان :

إحداهما : من أنفسكم بفتح الفاء ويحتمل تأويلها ثلاثة أوجه :

أحدها : من أكثركم طاعة لله تعالى .

الثاني : من أفضلكم خلقاً .

الثالث : من أشرفكم نسباً .

والقراءة الثانية : بضم الفاء ، وفي تأويلها أربعة أوجه :

أحدها : يعني من المؤمنين لم يصبه شيء من شرك ، قاله محمد بن علي .

الثاني : يعني من نكاح لم يصبه من ولادة الجاهلية ، قاله جعفر بن محمد . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " خَرَجْتُ مِن نِكَاحٍ وَلَمْ أَخْرُجْ مِنْ سِفَاحٍ " الثالث : ممن تعرفونه بينكم ، قاله قتادة .

الرابع : يعني من جميع العرب لأنه لم يبق بطن من بطون العرب إلا قد ولدوه ، قاله الكلبي .

﴿ عَزِيزٌ عَلَيهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ فيه ثلاثة تأويلات :

أحدها : شديد عليه ما شق عليكم ، قاله ابن عباس .

الثاني : شديد عليه ما ضللتم ، قاله سعيد بن أبي عروبة .

الثالث : عزيز عليه عنت مؤمنكم ، قاله قتادة .

﴿ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ ﴾ قاله الحسن : حريص عليكم أن تؤمنوا .

﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ فيه وجهان :

أحدهما : بما يأمرهم به من الهداية ويؤثره لهم من الصلاح .

الثاني : بما يضعه عنهم من المشاق ويعفو عنهم من الهفوات ، وهو محتمل . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(143/353)

وقال ابن عطية :

قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم ﴾

مخاطبة للعرب في قول الجمهور وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام ، وقال الزجّاج : هي مخاطبة لجميع العالم ، والمعنى لقد جاءكم رسول من البشر والأول أصوب ، وقوله ﴿ من أنفسكم ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وشرفها ، وينظر إلى هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفاني من بني هاشم " ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " إني من نكاح ولست من سفاح " معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من من نكاح ولم يكن

فيه زنى ، وقرأ عبد الله بن قسيط المكي " من أنفَسكم " بفتح الفاء من النفاسة ، ورويت عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضي الله عنها ، ذكر أبو عمرو أن ابن عباس رواها عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ ما عنتم ﴾ معناه عنتكم ف ﴿ ما ﴾ مصدرية وهي ابتداء ، و ﴿ عزيز ﴾ خبر مقدم ، ويجوز أن يكون ﴿ ما عنتم ﴾ فاعلاً ب ﴿ عزيز ﴾ و ﴿ عزيز ﴾ صفة للرسول ، وهذا أصوب من الأول والعنت المشقة وهي هنا لفظة عامة أي ما شق عليكم من كفر وضلال بحسب الحق ومن قتل أو أسار وامتحان بسبب الحق واعتقادكم أيضاً معه ، وقال قتادة : المعنى عنت مؤمنيكم .

قال القاضي أبو محمد : وتعميم عنت الجميع أوجه ، وقوله : ﴿ حريص عليكم ﴾ يريد على إيمانكم وهداكم ، وقوله : ﴿ رؤوف ﴾ معناه مبالغ في الشفقة ، قال أبو عبيدة : الرأفة أرق الرحمة ، وقرأ " رؤف " دون مد الأعمش وأهل الكوفة وأبو عمرو . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(144/353)

وقال ابن الجوزى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

قرأ الجمهور بضم الفاء .

وقرأ ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيصن ، ومحبوب عن أبي عمرو : بفتحها

وفي المضمونة أربعة أقوال .

أحدها : من جميع العرب ، قاله ابن عباس ؛ وقال : ليس في العرب قبيلة إلا وقد وَلدت

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم .

والثاني : ممن تعرفون ، قاله قتادة .

والثالث : من نكاحٍ لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، قاله جعفر الصادق .

الرابع : بشر مثلكم ، فهو آكد للحجة ، لأنكم تفقهون عمَّن هو مثلكم ، قاله الزجاج .

وفي المفتوحة ثلاثة أقوال .

أحدها : أفضلكم خُلُقاً .

والثاني : أشرفكم نسباً .

والثالث : أكثركم طاعة لله عز وجل .

قوله تعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنِتُّم ﴾ فيه قولان .

أحدهما : شديد عليه ما شقَّ عليكم ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

قال الزجاج : شديد عليه عنتكم .

والعنت : لقاء الشدة .

والثاني : شديد عليه ما آثمكم ، رواه أبو صالح عن ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حريص عليكم ﴾ قال الحسن : حريص عليكم أن تؤمنوا .

قوله تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ قال ابن عباس : سماه باسمين من أسمائه .

وقال أبو عبيدة : "رؤوف" فعول ، من الرأفة ، وهي أرق من الرحمة ؛ ويقال : "رؤف"

وأنشد :

ترى للمؤمنين عليك حقاً . . .

كفعل الوالد الرؤف الرحيم

وقيل : رؤوف بالمطيعين ، رحيم بالمذنبين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(145/353)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾

هذا خطاب للعرب يعني : لقد جاءكم أيها العرب رسول من أنفسكم تعرفون نسبه وحسبه

وأنه من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام قال ابن عباس ليس قبيلة من العرب إلا وقد

ولدت النبي (صلى الله عليه وسلم) وله فيهم نسب وقال جعفر بن محمد الصادق : لم

يصبه شيء من ولادة الجاهلية .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح " هكذا ذكره الطبري وذكر البغوي بإسناد الثعلبي .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام " قال قتادة : جعله الله من أنفسكم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة .

قال بعض العلماء في تفسير قول ابن عباس : ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، يعني : من مضرها وربيعتها ويمانها فأما ربيعة ومضر فهم من ولد معد بن عدنان وإليه تنسب قريش وهو منهم وأما نسبه إلى عرب اليمين وهم القحاطنة فإن آمنة لها نسب في الأنصار وإن كانت من قريش والأنصار أصلهم من عرب اليمن من ولد قحطان بن سبأ فعلى هذا القول يكون المقصود من قوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ .

ترغيب العرب في نصره والإيمان به فإنه تم شرفهم بشرفه وعزتهم بعزته وفخرهم بفخره وهو من عشيرتهم يعرفونه بالصدق والأمانة والصيانة والعفاف وطهارة النسب والأخلاق الحميدة .

وقرأ ابن عباس والزهري : من أنفسكم بفتح الفاء .

ومعناه : أنه من أشرافكم وأفضلكم (خ) عن أبي هريرة أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : " بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا حتى كنت من القرن الي كنت منه " (م) عن واثلة بن الأسقع قال سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هشام واصطفاني من بني هاشم " عن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : قلت يا رسول الله إن قريشاً جلسوا يتذاكرون أحسابهم بينهم فقالوا مثلك كمثل نخلة في كدية من الأرض فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " إن الله خلق الخلق فجعلني من خير فريقهم وخير الفريقين ثم تخير القبائل فجعلني من خير قبيلة ثم تخير البيوت فجعلني من خير بيوتهم فأنا خيرهم نفساً وخيرهم بيتاً " أخرجه الترمذي .

وقيل إن قوله سبحانه وتعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ عام فحمله على العموم أولى فيكون المعنى على هذا القول لقد جاءكم أيها الناس رسول من أنفسكم يعني من جنسكم بشر مثلكم إذ لو كان من الملائكة لضعفت قوى البشر عن سماع كلامه والأخذ عنه .

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ أي شديد عليه عنتكم يعني مكروهكم .

وقيل : يشق عليه ضلالكم ﴿ حريص عليكم ﴾ حريص على إيمانكم وإيصال الخير إليكم وقال قتادة : حريص على هدايتكم وأن يهديكم الله ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ يعني أنه (صلى الله عليه وسلم) رؤوف بالمطيعين رحيم بالمذنبين (ق) .

عن جبير بن مطعم قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) " لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده نبي " وقد سماه الله رؤوفاً رحيماً .

(147/353)

قال الحسن بن الفضل : لم يجمع الله سبحانه وتعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا النبي (صلى الله عليه وسلم) فسماه رؤوفاً رحيماً قال سبحانه وتعالى : ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(148/353)

وقال أبو حيان :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءُوف رحيم ﴾

لما بدأ السورة ببراءة الله ورسوله من المشركين ، وقص فيها أحوال المنافقين شيئاً فشيئاً ، خاطب العرب على سبيل تعداد النعم عليهم والمن عليهم بكونه جاءهم رسول من جنسهم ، أو من نسبهم عربياً قرشياً يبلغهم عن الله متصف بالأوصاف الجميلة من كونه يعز عليه مشقتهم في سوء العاقبة من الوقوع في العذاب ، ويحرص على هداهم ، ويرأف بهم ، ويرحمهم .

قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبي (صلى الله عليه وسلم) ، فكأنه قال : يا معشر العرب لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل ، ويحتمل أن يكون الخطاب لمن بحضرته من أهل الملل والنحل ، ويحتمل أن يكون خطاباً لبني آدم ، والمعنى : أنه لم يكن من غير جنس بني آدم ، لما في ذلك من التنافر بين الأجناس كقوله : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ ولما كان المخاطبون عاماً ، إما عامة العرب ، وإما عامة بني آدم ، جاء الخطاب عاماً بقوله : عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم أي : على هدايتكم حتى لا يخرج أحد عن اتباعه فيهلك .

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصاً وهو قوله : بالمؤمنين رءُوف رحيم .

ألا ترى إلى قوله : ﴿ جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ﴾ وقال : ﴿ أعزة على الكافرين ﴾ وقال في زناة المؤمنين : ﴿ ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ﴾ قال ابن عطية : وقوله من أنفسكم ، يقتضي مدحاً لنسب النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنه من صميم العرب وأشرفها ، وينظر إلى هذا المعنى قوله عليه السلام :

(149/353)

" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى بني هاشم من قريش ، واصطفانى من بني هاشم " ومنه قوله (صلى الله عليه وسلم) : " إني من نكاح ولست من سفاح " معناه أن نسبه (صلى الله عليه وسلم) إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نكاح ولم يكن فيه زنا انتهى .

وصف الله نبيه عليه السلام بستة : أوصاف الرسالة وهي صفة كمال الإنسان لما احتوت عليه من كمال ذات الرسول وطهارة نفسه الزكية ، وكونه من الخيار بحيث أهل أنْ يكون واسطة بين الله وبين خلقه ، ولما كانت هذه الصفة أشرف الأشياء بدىء بذكرها .

وكونه من أنفسهم وهي صفة مؤثرة في البليغ والفهم عنه والتآنس به ، فإن كان خطاباً للعرب ففي هذه الصفة التنبيه على شرفهم والتحريض على اتباعه ، وإن كان الخطاب لبني آدم ففيه التنويه بهم واللطف في إيصال الخبر إليهم ، وأنه معروف بينهم بالصدق والأمانة والعفاف والصيانة .

وكونه يعز عليه ما يشق عليكم ، فهذا الوصف من نتائج الرسالة .

ومن كونه من أنفسهم ، لأنّ من كان منك وادّلك الخير وصعب عليه إيصال ما يؤذي إليك وكونه حريصاً على هدايتهم ، وهو أيضاً من نتائج الرسالة ، لأنه بعث ليعبد الله ويفرد بالألوهية .

وكونه رءُوفاً رحيماً بالمؤمنين ، وهما وصفان من نتائج التبعية له ، والدخول في دين الله .

﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً حتى تحب لأخيك المؤمن ما تحب لنفسك "

وقرأ ابن عباس ، وأبو العالية ، والضحاك ، وابن محيصن ، ومحبوب ، عن أبي عمرو وعبد الله بن قسيط المكي ، ويعقوب من بعض طرقه : من أنفسكم بفتح الفاء .

ورويت هذه القراءة عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وعن فاطمة ، وعائشة رضي الله عنهما ، والمعنى : من أشرفكم وأعزكم ، وذلك من النفاسة ، وهو راجع لمعنى

النفس ، فإنها أعز الأشياء .

والظاهر أنّ ما مصدرية في موضع الفاعل بعزيز أي : يعز عليه مشقتكم كما قال :

(150/353)

يسر المرء ما ذهب الليالي . . .

وكان ذهابهن له ذهابا

أي يسر المرء ذهاب الليالي .

ويجوز أن يكون ما عنتم مبتدأ أي : عنتكم عزيز عليه ، وقدم خبره ، والأول أعرب .

وأجاز الحوفي أن يكون عزيز مبتدأ ، وما عنتم الخبر ، وأن تكون ما بمعنى الذي ، وأن تكون مصدرية ، وهو إعراب دون الإعرابين السابقين .

وقال ابن القشيري : عزيز صفة للنبي (صلى الله عليه وسلم) ، وإنما وصف بالعزة لتوسطه في قومه وعراقة نسبه وطيب جرثومته ، ثم استأنف فقال : عليه ما عنتم أي : يهمه أمركم انتهى .

والعنت : تقدم شرحه في البقرة في قوله

﴿ لأعنتكم ﴾ وقال ابن عباس : هنا مشقتكم .

وقال الضحاك : إثمكم .

وقال سعيد بن أبي عروبة : ضلالكم .

وقال العتبي : ما ضركم .

وقال ابن الأنباري : ما أهلككم .

وقيل : ما غمكم .

والأولى أن يضمر في عليكم أي : على هداكم وإيمانكم كقوله : ﴿ إن تحرص على هداهم ﴾ وقوله : ﴿ وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ وقيل : حريص على إيصال الخيرات لكم في الدنيا والآخرة .

وقال الفراء : الحريص هو الشحيح ، والمعنى : أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار .

وقيل : حريص على دخولكم الجنة .

وإنما احتيج إلى الإضمار ، لأنّ الحرص لا يتعلق بالذوات .

ويحتمل بالمؤمنين أن يتعلق برءُوف ، ويحتمل أن يتعلق برحيم ، فيكون من باب التنازع .

وفي جواز تقدم معمول المتنازعين نظر ، فالأكثرون لا يذكرون فيه تقدمة عليهما ، وأجاز بعض النحويين التقديم فتقول : زيداً ضربت وشتمت على التنازع ، والظاهر تعلق الصفتين بجميع المؤمنين .

وقال قوم : بالتوزيع ، رؤوف بالمطيعين ، رحيم بالمذنبين .

وقيل : رؤوف بمن رآه ، رحيم بمن لم يره .

وقيل : رؤوف بأقربائه ، رحيم بغيرهم .

وقال الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لنبي بين اسمين من أسمائه إلا لنبينا (صلى الله عليه وسلم) ، فإنه قال : بالمؤمنين رؤوف رحيم ، وقال تعالى : ﴿ إن الله بالناس لرءُوف رحيم ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(151/353)

وقال أبو السعود :

﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ ﴾

الخطابُ للعرب ﴿ رَّسُولٌ ﴾ أي رسول عظيمُ الشأن ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم عربيٌّ قرشيٌّ مثلُكم وقرىء بفتح الفاء أي أشرفِكم وأفضِلكم ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي شاقٌّ شديدٌ عليه عَنَتُكم ولقاؤكم المكروهَ فهو يخاف عليكم سوءَ العاقبةِ والوقوعَ في العذاب ، وهذا من نتائج ما سلف من المجانسة ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ في إيمانكم وصلاحِ حالِكم ﴿ بالمؤمنين ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قدِّم الأبلغُ منهما وهي

الرأفةُ التي هي عبارةٌ عن شدة الرحمةِ محافظةً على الفواصل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(152/353)

وقال الآلوسى :

﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ ﴾

الخطاب للعرب ﴿ رَّسُولٍ ﴾ أي رسول عظيم القدر ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم ومن نسبكم عربي مثلكم ، أخرج عبد بن حميد .

وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريها وربيعتها ويمانيها ، وقيل : الخطاب للبشر على الإطلاق ومعنى كونه عليه الصلاة والسلام من أنفسهم أنه من جنس البشر ، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما .

وابن محيصن .

والزهري ﴿ أَنفُسَكُمْ ﴾ أفعل تفضيل من النفاسة ، والمراد الشرف فهو صلى الله عليه وسلم من أشرف العرب ، أخرج الترمذي وصححه .

والنسائي عن المطلب بن ربيعة قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد بلغه بعض ما يقول الناس فصعد المنبر فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : "من أنا" ؟ قالوا : أنت رسول الله قال : " أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب إن الله تعالى خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً " وأخرج البخاري .

والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذي كنت فيه " وأخرج مسلم .

وغيره عن واثلة بن الأسقع قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم" .

(153/353)

وروى البيهقي عن أنس "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله تعالى في خيرهما فأخرجت من بني أبوي فلم يصبني شيء من عهر الجاهلية وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي فأنا خيركم

نفساً وخيركم أباً " ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أي شديد شاق من عز عليه بمعنى صعب وشق ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي عنتكم ، وهو بالتحريك ما يكره ، أي شديد عليه ما يلحقكم من المكروه كسوء العاقبة والوقوع في العذاب ، ورفع ﴿ عَزِيزٌ ﴾ على أنه صفة سببية لرسول وبه يتعلق ﴿ عَلَيْهِ ﴾ ، وفاعله المصدر وهو الذي يقتضيه ظاهر النظم الجليل ، وقيل : إن ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ خبر مقدم و ﴿ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ابتداء كلام أي يهمه ويشق عليكم عنتكم ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي على إيمانكم وصلاح شأنكم لأن الحرص لا يتعلق بذواتهم ﴿ بالمؤمنين ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ قيل : قدم الأبلغ منهما وهو الرأفة التي هي عبارة عن شدة الرحمة رعاية للفواصل وهو أمر مرعي في القرآن ، وهو مبني على ما فسر به الرأفة ، وصحح أن الرأفة الشفقة ، والرحمة الإحسان ، وقد يقال : تقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني ولهذا قدمت في قوله سبحانه :

﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابتدعوها ﴾ [الحديد : 27] ولا يجري هنا أمر الرعاية كما لا يخفى ، وكأن الرأفة على هذا مأخوذة من رفو الثوب لإصلاح شقه ، فيكون في وصفه صلى الله عليه وسلم بما ذكر وصف له بدفع الضرر عنهم وجلب المصلحة لهم ، ولم يجمع هذان الإسمان لغيره عليه الصلاة والسلام ، وزعم بعضهم أن المراد رؤوف بالمطيعين منهم

رحيم بالمذنبين ، وقيل : رؤوف بأقربائه رحيم بأوليائه ، وقيل : رؤوف بمن يراه رحيم بمن لم يره ولا مستند لشيء من ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(154/353)

وقال ابن عاشور :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

كانت هذه السورة سورة شدة وغلظة على المشركين وأهل الكتاب والمنافقين من أهل المدينة ومن الأعراب ، وأمْراً للمؤمنين بالجهاد ، وإنحاء على المقصرين في شأنه .

وتخلل ذلك تنويه بالمتصفين بضد ذلك من المؤمنين الذين هاجروا والذين نصروا واتبعوا الرسول في ساعة العسْرة .

فجاءت خاتمة هذه السورة آيتين بتذكيرهم بالمنة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم والتنويه بصفاته الجامعة للكمال .

ومن أخصها حرصهُ على هداهم ، ورغبته في إيمانهم ودخولِهم في جامعة الإسلام ليكون رؤوفاً رحيماً بهم ليعلموا أن ما لقيه المعرضون عن الإسلام من الإغلاظ عليهم بالقول

والفعل ما هو إلا استصلاح لحالهم .

وهذا من مظاهر الرحمة التي جعلها الله تعالى مقارنة لبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] ، بحيث جاء في هاتين الآيتين بما شأنه أن يزيل الحرج من قلوب الفرق التي نزلت فيهم آيات الشدة وعوملوا بالغلظة تعقيباً للشدة بالرفق وللغلظة بالرحمة ، وكذلك عادة القرآن .

فقد انفتح بهاتين الآيتين باب حظيرة الإيمان والتوبة ليدخلها من وفقه الله إليها .

فالجملة مستأنفة استئنافاً ابتدائياً .

وفي وقوعها آخر السورة ما يكسبها معنى التذييل والخلاصة .

فالخطاب بقوله : ﴿ جاءكم ﴾ وما تبعه من الخطاب موجه إلى جميع الأمة المدعوة للإسلام .

والمقصود بالخطاب بادىء ذي بدء هم المعرضون من المشركين والمنافقين من العرب بقرينة قوله عقب الخطاب ﴿ بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ وسيجيء أن المقصود العرب .

(155/353)

وافتتاحها بحرفَيْ التأكيد وهما اللام و (قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره ، ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولاً من الله ، ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزَّلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء ، ولأن في هذا التأكيد تسجيلاً عليهم مراداً به الإيماء إلى اقتراب الرحيل ، لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه ، وهو تسجيل منه على المؤمنين ، وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين .

على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى : ﴿ يأهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ﴾ [المائدة : 15] وكقوله تعالى : ﴿ يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً ﴾ [النساء : 174] فما زيدت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار .

والمجيء : مستعمل مجازاً في الخطاب بالدعوة إلى الدين .

شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر .

وهو استعمال شائع في القرآن .

والأنفس : جمع نفْس ، وهي الذات .

ويضاف النفس إلى الضمير فيدل على قبيلة معاد الضمير ، أي هو معدود من ذوي نسبهم وليس عداده فيهم بحلف أو ولاء أو إلصاق .

(156/353)

يقال : هو قريشي من أنفسهم ، ويقال : القريشي مولاهم أو حليفهم ، فمعنى ﴿ من أنفسكم ﴾ من صميم نسبكم ، فتعين أن الخطاب للعرب لأن النازل بينهم القرآن يومئذٍ لا يَعدون العربَ ومن حالفهم وتولاهم مثلَ سلمانَ الفارسي وبلالٍ الحبشي ، وفيه امتنان على العرب وتنبيه على فضيلتهم ، وفيه أيضاً تعريض بتحريضهم على اتباعه وترك مناواته وأن الأجدر بهم الافتخار به والالتفاف حوله كما قال تعالى في ذكر القرآن ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : 44] أي يبقى منه لكم ذكر حسن .

والعزيز : الغالب .

والعزة : الغلبة .

يقال عزّه إذا غلبه .

ومنه ﴿ وعزني في الخطاب ﴾ [ص : 23] ، فإذا عُدي بعلى دل على معنى الثقل والشدة على النفس .

قال بشر بن عوانة في ذكر قتله الأسد ومصارعته إياه:

فقلتُ له يعزُّ عليَّ أني . . .

قتلت مناسبي جلداً وقهراً

و﴿ ما ﴾ مصدرية.

و﴿ عنتم ﴾ : تعبتم.

والعنت : التعب ، أي شاق عليه حزنكم وشقاؤكم.

وهذا كقوله : ﴿ لعلّك باخِع نفسك أن لا يكونوا مؤمنين ﴾ [الشعراء : 3] وذكرُ هذا في صفة الرسول عليه السلام يفيد أن هذا خُلق له فيكون أثر ظهوره الرفق بالأمة والحذر مما يلقي بهم إلى العذاب في الدنيا والآخرة.

ومن آثار ذلك شفاعته للناس كلهم في الموقف لتعجيل الحساب.

ثم إن ذلك يومىء إلى أن شرعه جاء مناسباً لخُلقه فانتفى عنه الحرج والعسر قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : 185] وقال : ﴿ وما جعل عليكم في الدين من حرج ﴾ [الحج : 78].

والعدول عن الإتيان بلفظ العنت الذي هو المصدر الصريح إلى الإتيان بالفعل مع (ما) المصدرية السابكة للمصدر نكتة.

وهي إفادة أنه قد عز عليه عنتهم الحاصل في الزمن الذي مضى ، وذلك بما لقوه من قتْل قومهم ، ومن الأسر في الغزوات ، ومن قوارع الوعيد والتهديد في القرآن .

(157/353)

فلو أتي بالمصدر لم يكن مشيراً إلى عنتٍ معيَّن ولا إلى عنت وقع لأن المصدر لا زمَان له بل كان محتملاً أن يعز عليه بأن يجنبهم إياه ، ولكن مجيء المصدر منسبكاً من الفعل الماضي يجعله مصدراً مقيداً بالحصول في الماضي ، ألا ترى أنك تقدره هكذا : عزيز عليه عنتكم الحاصل في ما مضى لتكون هذه الآية تنبيهاً على أن ما لقوه من الشدة إنما هو لاستصلاح حالهم لعلهم يخفضون بعدها من غلوائهم ويرعوون عن غيهم ويشعرون بصلاح أمرهم .

والحرص : شدة الرغبة في الشيء والجشعُ إليه .

ولما تعدى إلى ضمير المخاطبين الدال على الذوات وليست الذوات هي متعلق الحرص هنا تعين تقدير مضاف فُهم من مقام التشريع ، فيقدر : على إيمانكم أو هَدْيكم .

والرؤوف : الشديد الرأفة .

والرحيم : الشديد الرحمة ، لأنهما صيغتا مبالغة ، وهما يتنازعان المجرور المتعلق بهما وهو ﴿ بالمؤمنين ﴾ .

والرأفة : رقة تنشأ عند حدوث ضر بالمرءُوف به .

يقال : رؤوف رحيم .

والرحمة : رقة تقتضي الإحسان للمرحوم ، بينهما عموم وخصوص مطلق ، ولذلك جمع بينهما هنا ولوازمُهما مختلفة .

وتقدمت الرأفة عند قوله تعالى : ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم ﴾ في سورة البقرة (143) والرحمة في سورة الفاتحة (3) .

وتقديم المتعلِّق على عامليه المتنازِعَيْنه في قوله : بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتيْ رأفته ورحمته بهم .

وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] فهي رحمة مشوبة بشدة على غير المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم ، ولا يقال : بهم رؤوف رحيم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(158/353)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ

رَحِيمٌ (128) ﴾

ونلحظ هنا أن الحق قد نسب المجيء هنا للرسول صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل : جئتكم برسول . وكلنا يعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت من عند نفسه ، ولم يدع هذا الأمر الجليل لنفسه ، ولكن الشحنة الإيمانية تفيد أنه خلق بما يؤهله للرسالة ، وبمجرد أن نزل عليه الوحي امتلك اندفاعاً ذاتيّاً لأداء الرسالة ، ولم يحتج لمن يدفعه لأداء الرسالة ؛ لذلك أراد الحق سبحانه أن يثبت للرسول صلى الله عليه وسلم المجيء ذاتيّاً ، ولكن هذا المجيء الذاتي ليس من عند محمد صلى الله عليه وسلم في البداية ، بل هو رسول من عند الله ، فأتى الحق سبحانه هنا بكلمة " جاء " .

وكلمة ﴿ رَسُولٌ ﴾ تدل على أنه ليس من عنده ، وكلمة " جاء " تدل على أن الشحنة الإيمانية جعلت لذاته عملاً ، فهو صلى الله عليه وسلم يعشق الجهاد من أجل الرسالة ، ويعشق الكفاح من أجل تحقيق هذه الرسالة .

إذن : لا تنظروا إلى ما جاءكم به الرسول صلى الله عليه وسلم نظرتكم إلى الأمور الشاقة التي تتعبكم ، ولكن انظروا ممن جاءت ، إن كانت من الأصل الأصيل في إرسال الرسل ، فالرب رحيم ، خلقكم من عدم وأمدكم من عدم ، ويوالي نعمة عليكم حتى وأنتم في معصيته . فأنت تعصاه ويحب الله سبحانه من يستر عليك ، فلا تشك ولا تتشكك .

وعليك أن تأخذ التكاليف على أنها من حبيب فلا تقل : إنها مشقة . فأنت – ولله المثل

الأعلى – تطلب من ابنك أن يستذكر دروسه ، وتراجعها معه قهراً عنه في بعض الأحيان ، وأنت قد تمسك بيدي ابنك ليعطيع الطبيب حقنة من الدواء الذي جعله الله سبباً للشفاء .

إذن : فلا تأخذ الأحوال بوارداتها عليك ، ولكن خذها بوارداتها ممن قدرها وقضاها ؛ وهو الحق سبحانه وتعالى .

(159/353)

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : أن الحق سبحانه لم يأت بإنسان غريب عنكم ، بل جاء بواحد منكم قادر على التفاهم معكم . ولقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ معان متعددة ، فمرة يكون معناها ب " من جنسكم " ، مثلما قال الحق عن حواء : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . . ﴾ [النساء : 1]

أي : خلق حواء من نفس جنس آدم البشري ، فلا يقولن أحد : كيف بعث الله لنا بشراً رسولاً ؟ لأن الحق أراد الرسول من البشر رحمة بالناس ؛ ولذلك يؤكد صلى الله عليه وسلم على بشريته أكثر من مرة وفي مواقع كثيرة . والقرآن يقول : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَآءَهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94]

إذن : فبشرية رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تؤخذ على الله ، ولكن تؤخذ لله ؛ لأنه أرسل واحداً من نفس الجنس ؛ ليكون قادراً على أن يتفاهم مع البشر ، وتكون الأسوة به سهلة .

ولذلك قال سبحانه : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95]

وقوله الحق : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : من جنس العرب ، ولم يأت به من الروم أو من فارس ، لكن اختار لكم من هو أعلم بطبائعكم . أو أن معنى ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : من نفس القبيلة التي تنتمون إليها معشر قريش .

(160/353)

أو أن ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ تعني : أنكم تعلمون تاريخه ، وتعرفون أنه أهل لتحمل أمانة السماء للأرض ، كما تحمل أماناتكم من الأرض للأرض ؛ ولأن هذا هو سلوكه ، فهو قادر على أن يتحمل أمانة السماء للأرض . ولقد سميتموه الصادق الأمين ، والوفي ، وكلها مقدمات كانت توحي بضرورة الإيمان به كرسول من عند الله . وإن كانت سلسلة أعماله معكم تثير فخركم ، فمجيئة كرسول إنما يرفع من ذكركم ، ويعلي من شأنكم . فأنتم أهل

قريش ومكة ولكم السيادة في البيت الحرام ، وقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليزيد من رقعة السيادة لكم ، فإذا كنتم قبل بعثته صلى الله عليه وسلم سادة البيت ، فأنتم بعد بعثته سوف تصيرون سادة العالم .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : 44]

فهو نبي الله للعالم أجمع ومن العرب ومن قريش ، وكان يجب أن يفرحوا برسالته وأن يؤيدوها ، لكن الله لم يشأ ذلك ؛ لأن قريشاً قبيلة قد ألفت السيادة على العرب ، وهذا جعل العرب يعملون لها حساباً ، وخافت منها كل قبائل العرب في أنحاء الجزيرة العربية ، وكانت لها مهابة هائلة ؛ لأن كل العرب مضطرون للحج إلى الكعبة ، وأثناء الحج تكون القبائل كلها في أرض قريش ؛ لذلك كانت كل القبائل ترعى قوافل قريش ، ولا تتعرض أي قبيلة لقريش أبداً ، فقوافلها تروح وتغدو ، جنوباً وشمالاً ، ولا تقدر قبيلة أن تقف في مواجهة قريش ، أو أن تتعرض لها .

وكل هذه المكانة وتلك المهابة أخذتها قريش من خدمتها لبيت الله الحرام ؛ ولذلك شاء الحق ألا يمكن أبرهة من هدم البيت لتظل السيادة لقريش ، فلو انهدم البيت الحرام وانصرف الحج إلى اليمن كما كان يريد أبرهة ، فمن أين تأتي السيادة لقريش ؟ لذلك قال الحق عن أبرهة وقومه : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : 5]

وأتبعها بقوله : ﴿ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصيف ﴾ [قريش : 1-2]

وما دام الحق سبحانه قد شاء هذا فيأتي أمره في الآية التالية : ﴿ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هذا البيت * الذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ [قريش : 3-4]

وشاء الحق سبحانه أن يبعث بمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً يدعو أولاً الصناديد ، والقبيلة ذات المهابة والمكانة ، وأن تكون الصيحة الإيمانية في آذان سادة الجزيرة الذي تهابهم كل القبائل ، حتى لا يقال : إن محمداً قد استضعف قلة من الناس وأعلن دعوته بينهم ، لا ، بل جاءت دعوته في آذان الصناديد ، والسادة ، وسفه أحلامهم ، وحين رفضوا دعوته هاجر ، ثم جاءه الإذن بقتالهم ، ولم تأت نصرة الإسلام من السادة ، بل آمن به الضعاف أولاً ، ثم هاجر إلى المدينة ؛ لتأتي منها النصرة .

فلو أن النصرة جاءت من السادة لقالوا : جاءت نصرة الإسلام من قوم ألفوا السيادة ، ولما ظهر واحد منهم يقول : إنه رسول ؛ أرادوا أن يسودوا به ، لا الجزيرة العربية ، بل الدنيا كلها ، فتكون العصبية لمحمد هي التي خلقت الإيمان بمحمد ، والله يريد أن تكون النصرة من الضعيف ؛ حتى يفهم الجميع أن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم هو السبب في العصبية لمحمد .

هكذا نفهم معنى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ أي : مرسل من الله و ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾

بكل ما تعنيه مراحل النفس ، وهو مبلغ عن الله ، فلم يأت بشيء من عنده ، بل كل البلاغ الذي جاء به من ربه ، والرب بإقراركم هو الذي خلق لكم ما تنتفعون به من السموات والأرض . وسبحانه يقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ . . . ﴾ [الزخرف : 87]

ويقول : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَّنْ خَلَقَ السموات والأرض لَيَقُولُنَّ اللهُ . . . ﴾ [لقمان : 25]

(162/353)

إذن : فالمخلوق هو الخليفة الإنسان ، وما خلقه الله في الكون ، إنما خلقه لخدمتكم كلكم ، وأنتم تقرون ذلك ، فإذا كان الرب قد سبق لكم بهذه النعم ، وجاء الرسول الذي جاء لكم من عنده بما يسعدكم ، وقد استقبلتم خيره قبل أن يأتي لكم بالتكاليف ، واستقبلتم نعمته قبل أن تكونوا مخاطبين له ، إذن : فالله الذي أرسل رسوله بالتكاليف والمنهج لكم ، لا بد أن يكون قد كلف من هو مؤتمن عليكم ، وهو صلى الله عليه وسلم لم يأت من جنس الملائكة ، بل هو بشر مثلكم ، فإذا قال لكم : افعلوا كذا وكذا وأنا أسوة لكم في الفعل ، فلا تتعجبوا ، لكن غبار الكافرين بالله جعلهم يريدون أن يكون الرسول ملكاً ، فقال الحق : ﴿ وَمَا مَنَعَ الناس أَن يؤمنوا إِذْ جَآءَهُمُ الهدى إِلاَّ أَن قالوا أَبَعَثَ الله بَشَراً رَّسُولاً * قُل لَوْ كَانَ

فِي الأَرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السمآء مَلَكاً رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94-95]

أي : إن كنتم تريدون مَلَكاً ، فالملك له صورة لا ترونها ، ولا بد أن نجعله ملكاً في صورة بشر ؛ ليخاطبكم ، إذنك فهل المشكلة مشكلة هيئة وشكل ؟ ثم إن الملائكة بحكم الخلق : ﴿ لاَّ يَعْصُونَ الله مَا آأَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : 6]

فإذا قال لكم الرسول الملك : أنا أسوة لكم في العمل الصالح ، أكانت تصح الأسوة ؟ من المؤكد أن بعضنا سيقول : لا ، لن تنتفع الأسوة ؛ لأنك مَلَك مطبوع على الخير ، وليس لك شهوة بطن ، ولا شهوة فرج ، إذن : فأسوتنا بك لا تصلح .

(163/353)

إذن : فمن رحمته سبحانه بكم أن جعل لكم رسولاً من أنفسكم ، ومن قبيلتكم ، ومن العرب ، لا من فارس والروم ، وهو يخاطبكم بلغتكم ؛ لأنكم أنتم أول آذان تستقبل الدعوة ؛ فلا بد أن يأتي الرسول بلسانكم ، وجاءكم محمد صلى الله عليه وسلم بالأنس والألفة ؛ لأن من قريش التي لها بطون في كل الجزيرة ولها قرابات ، وأنس وألفة بكل العرب ، وأنس ثالث أنه من البشر ، وجاء به الحق سبحانه فرداً من الأفراد ، محكوم له بالصدق والأمانة

قبل أن يبلغكم رسالته من الله .

إذن : فإذا جاءكم الرسول بتكليف قد يشق عليكم ، فاستصحبوا كل هذه الأشياء ؛ لتردوا على أنفسكم : هو بشر وليس مَلَكاً . هو من العرب وليس من العجم . هو من قبيلتكم التي نشأ بينكم فيها . هو من تعرفون سلوكه قبل أن يبلغ عن الله ، فما كذب على البشر في حق البشر . أفيكذب على البشر بحق الله ؟

وقرأ عبد الله بن قسيط المكي هذه الآية : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي : أنه صلى الله عليه وسلم بالمقياس البشري هو من أقدركم وأحسنكم . ولذلك حينما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالدعوة عن الله ، هل انتظرت سيدتنا خديجة رضي الله عنها أن يأتي لها بمعجزة ؟ هل انتظر أبو بكر أن يأتي له بمعجزة ؟ لا ، لم ينتظر أحدهما لأن كلاّ منهما أخذ المعجزة من ناحية تاريخه الماضي .

وحينما قال لخديجة : " يأتيني ويأتيني ويأتيني " وكانت ناضجة التكوين والفكر والعقل ، وعلمنا مما قالت لماذا اختار الله له أن يتزوجها وعمره خمسة وعشرون عاماً ، وعمرها أربعون سنة ، مع أن المألوف أن يحب الإنسان الزواج ممن هي دونه في العمر .

لكن المسألة لم تكن زواجاً بالمعنى المعروف ، لكنه زواج لمهمة أسمى مما نعرف ، ففي فترة هذا الزواج ستكون الفترة الانتقالية بين البشرية العادية إلى البشرية التي تتلقى من السماء ، وهذه فترة تحتاج إلى قلب أم ، ووعاء أم تحتضنه وتُربِّت عليه .

فلو كانت فتاة صغيرة وقال لها مثلما قال صلى الله عليه وسلم لخديجة لشكت في قواه العقلية ، لكن خديجة العاقلة استعرضت القضية استعراضاً عقليّاً بحتاً . فحين قال لها : أنا أخاف أن يكون الذي يأتيني رئي من الجن . قالت له : " إنك لتصل الرحم ، وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق ، والله لا يخزيك الله أبداً " .

إذن : فقد أخذت من مقدمات حياته قبل البعثة ما يدل على صدقه بعد البعثة .

وكذلك أبو بكر رضي الله عنه ، حينما قالوا له : إن صاحبك يدعي أنه رسول . قال : أهو قالها ؟ قالوا : نعم . قال : إنه رسول من الله لأنه لم يكذب طوال عمره .

وبعد ذلك يقول الحق : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ . وكلمة ﴿ عَزِيزٌ ﴾ أي : لا يُنال ولا يقدر عليه أحد ، والشيء العزيز أي نادر الوجود . وقد تقول لإنسان : " قد تكن وزيراً " ؛ فيصمت رجاء ، لكن إن قلت له : " ستصبح رئيس وزراء " فيقول : هذه مسألة مستعصية وكبيرة عليَّ بعض الشيء .

إذن : فالعزة تأتي لامتناع شيء إما لقدرته ، أو عزيز بمعنى نادر ، أو يستحيل . والعزيز – هو الأمر الذي يعز على الناس أن يتداولوه ، فيقال : " عز عليّ أن أصل إلى قمة الجبل " .

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ﴾ أي : شاق عليه أن يعنتكم بحكم ؛ فقلبه رحيم بكم ، وهو لا يأتي لكم بالأحكام لكي تشق عليكم ، بل تنزل الأحكام من الله لمصلحتكم ، فهو نفسه يعز عليه أن يشق عليكم .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم " مثلي كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي في النار يقعن فيها . وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها . قال : فذلكم مثلي ومثلكم . أنا آخذ بحجزكم عن النار . هلم عن النار . هلم عن النار . فتغلبوني تقحمون فيها . "

(165/353)

فإذا كان الرسول صفته أنه من أنفسكم أو من أنفسَكم أو يحبكم حبّاً يعز عليه أن تكونوا في مشقة . إذن : فخذوا توجيهاته بحسن الظن وبحسن الرأي فيها ، وذلك هو القانون التربوي الذي يجب أن يسود الدنيا كلها . فقد يقسو والد على ولده بأوامر ونواه : " افعل كذا " و " لا تفعل كذا " لا تذهب إلى المكان الفلاني ، ولا تجلس إلى فلان ، ولا تسهر خارج المنزل بعد الساعة كذا .

كل هذه أوامر قد تشق على الولد فنقول له : مشقة التكليف ممن صدرت ؟ لقد صدرت

من أبيك الذي تعرف حبه لك ، والذي يشقى ليوفر لك بناء المستقبل ، ويتعب ؛ لترتاح أنت ، فكيف تسمح لنفسك أن تصادق صعاليك يخرجونك عن طاعة أبيك إلى اللهو وإلى الشر . وانظر إلى والدك الذي تحمل المشقة حتى لا تتحمل أنت المشقة ، ويشق عليه أن تتعب فهو أولى بأن تسمع كلامه .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم عزيز عليه مشقتكم ، والمشقات أنواع : مشقات في الدنيا تتمثل في التكاليف التي يتطلبها الإيمان ، ولكنها تمنع مشقات أخلد في الآخرة ؛ لذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم يحزن أن ينالكم في الآخرة تعب ، وتعب الدنيا موقوت وينتهي ، لكن تعب الآخرة هو الذي يرهق حقّاً ويتعب .

ولذلك يقول الحق في تصوير هذه المسألة بقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ [الكهف : 6]

لماذا ؟ لأنك تعرف يا محمد أنهم إن لم ينتهوا فسوف يجدون العنت كله في الآخرة .

أو أن مشقة الآخرة هي التي يجب أن نتلافاها ، وأن نتحمل المشقات الزائلة العرضية التي تورد ثماراً .

فنحن قد نجد الرجل يقول لابنه مثلاً : اخرج إلى الحقل ، واحمل السباخ فوق الحمار واحرث وارْو ، كل هذه مشقات ستجد لذتها يوم الحصاد ، وتعطيك الأرض من خير الله

كذا إردب قمحاً أو غير ذلك . ولو ترك الأب ابنه لكسله فهذه هي المشكلة الأكبر ، وحث الأب لابنه على العمل هو دفع لمغبة الضياع .

(166/353)

وقد يأخذ الأب ابنه للطبيب ، ويجد الطبيب مشغولاً ، ويرجوه الأب أن يجري للابن جراحة تنجيه وتنقذه من خطر رغم أن الأب يعلم أن الطبيب سيستخدم مع ابنه أدوات جراحية كالمشارط وغيرها ، ولكن ليعلم الابن أن هذا المشرط سيمسُّ أباك قبل أن يمسَّك ، وعلى ذلك إذا أُمرت بتكليف شاق فانظر مَنْ أمرك ؟ أهو ممن تعز عليه ومن تحبه وممن يريد لك الخير ؟ إن كان الأمر كذلك ؛ فعليك أن تقبل ولا تسيء الظن ، ولا تُرهق مَنْ يحبك .

واعلم أن والدك حين يصرفك عن أصدقاء السوء – مثلاً – فهو يرد عنك مصارف الشر ؛ لأنك إن اجتهدت في عملك ؛ فسوف تحصد النتيجة الطيبة ، أما إن اتجهت إلى مصارف الشر فسوف تُشَرّد وتجوع ، وسوف تدق باب بيت أبيك . وعندئذ ستسمع مثلاً عاميّاً يلخص الحكمة التي تقول " من يأكل لقمتي فليسمع كلمتي " .

وهنا يقول الحق : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ

﴾ ومعنى الحرص : أن يحوطكم بالرعاية ؛ حتى لا تقعوا في المشقة الأكبر . ولذلك قلنا : إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد صوَّر هذه المسألة بقوله صلى الله عليه وسلم : " مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها وهو يذبهن عنها وأنا آخذ بحجزكم عن النار – أي أمسككم من خلفكم حتى لا تذهبوا إلى النار – وأنتم تفلتون من يدي "

والحق يُسَرّي عن رسوله صلى الله عليه وسلم فيقول : ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ ﴾ [الكهف : 6]

ويقول الحق أيضاً لرسوله : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : 3]

(167/353)

فالرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى إتقان العمل في الدنيا ؛ ليصلوا إلى الجنة في الآخرة ؛ لأن كل مؤمن عزيز عليه صلى الله عليه وسلم ويخشى أن يُرهَق إنسان واحد في الآخرة ، ولذلك قال الحق : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السمآء آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : 3-4]

أي : إياك أن تحزن أنك حريص على أن يؤمنوا ؛ لأن الحق سبحانه يقدر أن ينزل عليهم آية

تجعل رقابهم خاضعة ، ولكن الرب لا يريد رقاباً تخضع ؛ وإنما يريد قلوباً تخشع .

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

والرأفة والرحمة قد تلتقيان في المعنى العام ، ولكن هناك أموراً تسلب مضرّة ، وأموراً تجلب منافع . وسلب المضرّات – دائماً – مُقدّم على جلب المنافع ، فحين نواجه عملاً يضر وعملاً ينفع ؛ نُقدم على العمل لدرء ما يضر ، ثم ننجز العمل النافع .

وساعة يطرأ عليك أمر يضر ، وأمر ينفع ، وأنت في حال متساوية ولا بد أن تدرأ عن نفسك الأمر الضار الذي يخرجك عن الاستواء ، ثم تقبل على الأمر الذي يزيد من الارتقاء

.

وحتى نقرب هذه المسألة إلى الذهن ، سأضرب هذا المثل الحسّي : هَبْ أن واحداً معه حجر يريد أن يضربك به ، وآخر يريد أن يقذفك بتفاحة ، فهل تنشغل بالتقاط التفاحة أو تنشغل برد الحجر ؟ إنك تنشغل أولاً بدرء الضرر ، ثم تقبل على جلب المنفعة .

ومثال آخر : هب أنك ترى إنساناً يغرق أمامك في البحر ، فهل توبخه ؛ لأنه نزل البحر دون أن يتعلم العوم ؟ أم تنقذه أولاً وتدفع الأذى عنه ، ثم توبّخه وتعاقبه بعد ذلك جزاء إهماله ؟ إنك تنقذه أولاً ، وبذلك تكون قد قدمت الإحسان بدفع المضرة أولاً ، وحتى إن عاقبته فهو يتقبل منك العقاب أو النهر ؛ لأن صنيعك أنقذه من الموت .

والحق يقول : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النار وَأُدْخِلَ الجنة فَقَدْ فَازَ . . . ﴾ [آل عمران : 185]

إذن : فمراحل الفوز أن يُزْحزح الإنسان أولاً عن النار ، ففي هذا سلب للمضرَّة ، وجلب للمنفعة ، وإن ظل الإنسان في موقعه لا هو في الجنة ولا هو في النار ؛ فهذا هين أيضاً . وإن أدخل الجنة فهذا هو الخير كله .

وإذا كانت هذه هي بعض من خصال الرسول صلى الله عليه وسلم : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ ، و ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ ، و ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ، و ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، فهذه خصال إن استوعبها الإنسان فهو يندفع إلى اتباع هذا الرسول .

وقوله الحق : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ نرى فيه الوصف ب " الرءوف " والرأفة هي سلب ما يضر من الابتلاء والمشقة ، و " رحيم " هو الذي يجلب ما ينفع من النعيم والارتقاء .

وحسبكم من هاتين الصفتين أن الله سبحانه وتعالى وصف رسوله بهذين الوصفين ﴿ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقد ثبت أنه سبحانه قد وصف نفسه بقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل : 7]

إذن : فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يسلك بما عنده ، بل يسلك برأفة مستمدة من رأفة

العل الأعلى ، وكذلك رحمته صلى الله عليه وسلم مستمدة من رحمة العلي الأعلى .

وكأن الحق سبحانه يبيّن لنا أنه أعطى محمداً صلى الله عليه وسلم بعضاً من الصفات التي عنده ، فكما يبلغكم المشقات في التكاليف ، فهو يبلغكم السلامة من المشقات في الرأفة ، وترقية المنعمات بالرحمة ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء : 82]

ونعلم أن الشفاء إنما يكون من المرض ، أي : أن القرآن يسلب المضرة أولاً ، ثم يأتي لنا بالمنفعة بعد ذلك وهي الرحمة .

(169/353)

وقوله الحق : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ هذا القول خلاصته : إن استقبلتم مشقات التكليف من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فاعلموا ممن جاءت هذه المشقات ، واعلموا أن مجيئه بها إنما هو ليرفع عنكم مشقات أكبر وأخلد ؛ لأن مشقات التكليف تنتهي بانتهاء زمن التكليف وهو الدنيا ، ثم يذهب المؤمن إلى الجنة ليحيا بلا تكليف ، وما يخطر على باله من أشياء ، يجده فوراً ؛ بدءاً من الطعام والشراب وجميع ما خلقه الله لأهل الجنة من نعيم .

وإن نظرنا إلى متع الدنيا نجد أن من اجتهدوا في حياتهم ، يستأجرون من يقوم لهم بالأعمال التي كانوا يقومون بها لأنفسهم ؛ فالثري الذي كان يطهو طعامه قبل الثراء ، يستأجر طاهياً ؛ ليعد له طعامه ، والفلاح الذي كان يبني بيته لنفسه ، ثم رزقه الله بالرزق الوفير فاستأجر من يبني له ، وكل الأعمال التي تسعد الإنسان وكان يقوم بها بنفسه ولنفسه ، صار يستأجر من يقوم له بها ، فما بالنا بالآخرة حيث تعيش في رضا الله وبأسرار كلمة ﴿ كُن ﴾ .

وهكذا نجد الحق سبحانه وتعالى قد جاء في هذه السورة بمشقات التكليف ، والثواب عليها وطمأن المؤمنين بان الرسول صلى الله عليه وسلم يتميز بكل المواصفات الموحية : من أنه بشر ، وأنه حريص عليهم ، وأنه لا يكلفهم إلا بالمشقات التي تنجيهم من المشقات الأبدية ، وأنه رءوف بهم ورحيم .

فإن استمعوا إلى هذه الحيثيات وآمنوا ، فأهلاً بهم في معسكر الإيمان ، وإن تولوا ولم يسمعوا لهذه الحيثيات ولم يدخل القرآن قلوبهم ، فإياك أن تظن – يا رسول الله – أنك منصور بهم ؛ لأنك منصور بالله ، فإن تولوا عنك وأعرضوا عن الإيمان بالله ، وأعرضوا عن الاستماع لك ، فاعلم أن ركنك الشديد هو الله ، لذلك يختم الحق السورة بقوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ . . . ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(170/353)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) ﴾

أخرج عبد بن حميد والحارث بن أبي أسامة في مسنده وابن المنذر وابن مردويه وأبو نعيم في دلائل النبوّة وابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم ، مضريها وربيعيها ويمانيها .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه وأبو الشيخ عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح " .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس في قوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ قال : قد ولدتموه يا معشر العرب .

وأخرج ابن مردويه عن أنس قال : " قرأ رسول الله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : يا رسول الله ما معنى ﴿ أنفسكم ﴾ ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أنا أنفسكم نسباً وصهراً وحسباً ، ليس فيَّ ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح " " .

وأخرج الحاكم عن ابن عباس " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ يعني من أعظمكم قدراً " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح " .

وأخرج الطبراني عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولدني إلا نكاح كنكاح الإِسلام " .

وأخرج ابن سعد وابن عساكر عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خرجت من نكاح غير سفاح " .

(171/353)

وأخرج ابن سعد وابن أبي شيبة في المصنف عن محمد بن علي بن حسين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال " إنما خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم لم يصبني من

سفاح أهل الجاهلية شيء ، لم أخرج إلا من طهرة " .

وأخرج ابن أبي عمر العدني في مسنده والطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي بن أبي طالب " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي ، وأمي لم يصبني من سفاح الجاهلية شيء " .

وأخرج أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لم يلتق أبواي قط على سفاح ، لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما " .

وأخرج ابن سعد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بني عبد مناف بنو هاشم ، وخير بنو هاشم بنو عبد المطلب ، والله ما افترق شعبتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما " .

وأخرج البيهقي في الدلائل وابن عساكر عن أنس قال : " خطب النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار ، وما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي فلم يصبني شيء من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم ، حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً " .

وأخرج ابن سعد والبخاري والبيهقي في الدلائل عن أبي هريرة " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرنا ، حتى كنت من القرن الذي كنت فيه " .

(172/353)

وأخرج ابن سعد ومسلم والترمذي والبيهقي في الدلائل عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسمعيل ، واصطفى من ولد إسمعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " .

وأخرج أحمد والترمذي وحسنه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول والطبراني وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي عن ابن

عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فانا من خيار إلى خيار " .

وأخرج ابن سعد عن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب

" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : قسم الله الأرض نصفين فجعلني في خيرهما ، ثم قسم النصف على ثلاثة فكنت في خير ثلث منها ، ثم اختار العرب من الناس ، ثم اختار قريشاً من العرب ، ثم اختار بني هاشم من قريش ، ثم اختار بني عبد المطلب من بني هاشم ، ثم اختارني من بني عبد المطلب " .

وأخرج ابن سعد والبيهقي عن محمد بن علي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله اختار العرب فاختار منهم كنانة ، ثم اختار منهم قريشاً ، ثم اختار منهم بني هاشم ، ثم اختارني من بني هاشم " .

(173/353)

وأخرج ابن سعد عن عبد الله بن عبيد بن عمير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله اختار العرب فاختار كنانة من العرب ، واختار قريشاً من كنانة ، واختار بني

هاشم من قريش ، واختارني من بني هاشم " .

وأخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما ولدتني بغي قط مذ خرجت من صلب آدم ، ولم تزل تتنازعني الأمم كابراً عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة " .

وأخرج ابن أبي عمر العدني عن ابن عباس " أن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ، يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه ، فلما خلق الله آدم عليه السلام ألقى ذلك النور في صلبه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فاهبطني الله إلى الأرض في صلب آدم عليه السلام ، وجعلني في صلب نوح ، وقذف بي في صلب إبراهيم ، ثم لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط " .

وأخرج البيهقي عن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب قال " بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن قوماً نالوا منه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : أيها الناس إن الله خلق خلقه فجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلاً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا خيركم قبيلاً وخيركم بيتاً " .

وأخرج الترمذي وحسنه وابن مردويه والبيهقي عن المطلب بن أبي وداعة قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه بعض ما يقول الناس " فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال : من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله . قال : أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، إن الله خلق الخلق فجعلني في خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلني في خير فرقة ، وجعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، فانا خيركم بيتاً ، وخيركم نفساً " " .

وأخرجه الترمذي وصححه والنسائي عن عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب .

وأخرج ابن سعد عن قتادة قال : ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " إذا أراد الله أن يبعث نبياً نظر إلى خير أهل الأرض قبيلة فيبعث خيرها رجلاً " .

وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول عن جعفر بن محمد عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أتاني جبريل عليه السلام فقال : يا محمد إن الله عز وجل بعثني فطفت شرق الأرض وغربها وسهلها وجبلها فلم أجد حياً خيراً من العرب ، ثم أمرني فطفت في العرب فلم أجد حياً خيراً من مضر ، ثم أمرني فطفت في مضر فلم أجد حياً خيراً من كنانة ، ثم أمرني فطفت في كنانة فلم أجد حياً خيراً من قريش ، ثم أمرني فطفت

في قريش فلم أجد حياً خيراً من بني هاشم ، ثم أمرني أن أختار من أنفسهم فلم أجد فيهم نفساً خيراً من نفسك " .

وأخرج ابن أبي شيبة وإسحق بن راهويه وابن منيع في مسنده وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل من طريق يوسف بن مهران عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال : آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ : إن آخر ما نزل من القرآن ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر الآية .

(175/353)

وأخرج ابن الضريس في فضائل القرآن وابن الأنباري في المصاحف وابن مردويه عن الحسن أن أبي بن كعب كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله ، وفي لفظ : بالسماء هاتان الآيتان ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة .

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وابن الضريس في فضائله وابن أبي داود في المصاحف وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في الدلائل والخطيب في تلخيص المتشابه والضياء في المختارة من طريق أبي العالية عن أبي بن كعب . أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر ، فكان رجال يكتبون ويملي عليهم أبي بن

كعب ، حتى انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة ﴿ ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ فظنوا أن هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب : إن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقرأني بعد هذا آيتين ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ فهذا آخر ما نزل من القرآن .

قال : فختم الأمر بما فتح به بلا إله إلا الله ، يقول الله ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ [الأنبياء : 25] .

(176/353)

وأخرج ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي داود في المصاحف وابن حبان وابن المنذر والطبراني والبيهقي في سننه عن زيد بن ثابت قال : أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس ، واني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن تجمعوه ، وإني أرى أن تجمع القرآن . قال أبو بكر : فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال عمر : هو – والله –

خير . فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر .

قال زيد بن ثابت : وعمر جالس عنده لا يتكلم ، فقال أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك ، كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه ، فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمراني به من جمع القرآن . قلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال أبو بكر : هو – والله – خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر . فقمت فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والإِكاف والعسب وصدور الرجال ، حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ إلى آخرهما ، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن عبيد بن عمير قال : كان عمر لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد رجلان ، فجاء رجل من الأنصار بهاتين الآيتين ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخرها . فقال عمر : لا أسألك عليها بينة أبداً ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن عروة قال : لما استحر القتل بالقراء يومئذ فرقَّ أبو بكر على القرآن أن يضيع فقال لعمر بن الخطاب ، ولزيد بن ثابت : أقعدا على باب المسجد فمن جاءكما بشاهدين على شيء من كتاب الله فاكتباه .

وأخرج ابن إسحق وأحمد بن حنبل وابن أبي داود عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحرث بن خزيمة بهاتين الآيتين من آخر براءة ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى قوله ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ إلى عمر فقال : من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله إلا أني أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيتها وحفظتها .

فقال عمر : وأنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة ، فانظروا من القرآن فالحقوها . فألحقت في آخر براءة .

وأخرج ابن أبي داود في المصاحف عن يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب قال : أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن ، فقام في الناس فقال : من كان تلقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من القرآن فليأتنا به ، وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح والعسب ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان ، فقتل وهو يجمع ذلك إليه ، فقام عثمان بن عفان فقال : من كان عنده شيء من كتاب الله فليأتنا به ، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد به شاهدان ، فجاء خزيمة بن ثابت فقال : إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما .

فقالوا : ما هما ؟ قال : تلقيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ إلى آخر السورة فقال عثمان : وأنا أشهد أنهما من عند الله ، فأين ترى أن نجعلهما ؟ قال : اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن ، فختمت بهما براءة .

(178/353)

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن قتادة في قوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ الآية . قال : جعله الله من أنفسهم فلا يحسدونه على ما أعطاه الله من النبوة والكرامة ، عزيز عليه عنت مؤمنهم ، حريص على ضالهم أن يهديه الله ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ قال : شديد عليه ما شق عليكم ﴿ حريص عليكم ﴾ أن يؤمن كفاركم .

وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " جاء جبريل فقال لي : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ، وهذا ملك الجبال قد أرسله الله إليك وأمره أن لا يفعل شيئاً إلا بأمرك . فقال له ملك الجبال : إن الله أمرني أن لا أفعل شيئاً إلا بأمرك ، إن

شئت دمدمت عليهم الجبال ، وإن شئت رميتهم بالحصباء ، وإن شئت خسفت بهم الأرض . قال : يا ملك الجبال فإني آتي بهم لعله أن يخرج منهم ذرية يقولون : لا إله إلا الله . فقال ملك الجبال عليه السلام : أنت كما سمَّاك ربك رؤوف رحيم " .

وأخرج ابن مردويه عن أبي صالح الحنفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله رحيم ولا يضع رحمته إلا على رحيم . قلنا : يا رسول الله كلنا نرحم أموالنا وأولادنا . قال : ليس بذلك ولكن كما قال الله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ " .

وأخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال " لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا . قال : ولم سألتم هذا ؟ قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ﴾ الآية " .

(179/353)

وأخرج ابن سعد عن أبي صالح الحنفي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " إن الله رحيم يحب الرحيم ، يضع رحمته على كل رحيم . قالوا : يا رسول الله إنا لنرحم أنفسنا

وأموالنا وأزواجنا . قال : ليس كذلك ولكن كونوا كما قال الله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(180/353)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾

قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ : صفةٌ لرسول ، أي : من صميم العرب . وقرأ ابن عباس وأبو العالية والضحاك وابن محيصن ومحبوب عن أبي عمرو وعبد الله بن قُسَيْط المكي ويعقوب من بعض طرقه ، وهي قراءةُ رسولِ الله وفاطمة وعائشة بفتح الفاء ، أي : مِنْ أَشْرَفِكم ، من النَّفاسة .

وقوله : ﴿ عَزِيزٌ ﴾ فيه أوجه ، أحدها : أن يكون " عزيز " صفةً لرسول ، وفيه أنه تَقَدَّم غيرُ الوصف الصريح على الوصفِ الصريح ، وقد يُجاب بأنَّ " من أنفسكم " متعلقٌ ب " جاء " ، و " ما " يجوز أن تكون مصدرية أو بمعنى الذي ، وعلى كلا التقديرين فهي فاعل

بعزيز ، أي : يَعِزُّ عليه عَنَتُكم أو الذي عَنِتُّموه ، أي : عَنَتُهم يُسيئه ، فحذفَ العائدَ على التدريج ، وهذا كقوله :

2557 يَسُرُّ المرءَ ما ذهب الليالي . . . وكان ذهابُهنَّ له ذهاباً

أي : يَسُرُّه ذهاب الليالي . ويجوز أن يكون " عزيز " خبراً مقدماً ، و " ما عَنِتُّم " مبتدأ مؤخراً ، والجملةُ صفةٌ لرسول . وجَوَّز الحوفي أن يكونَ " عزيز " مبتدأ ، و " ما " عنتُّم خبره ، وفيه الابتداءُ بالنكرة لأجل عَمَلِها في الجارِّ بعدها . وتقدَّم معنى العنت .

والأرجح أن يكونَ " عزيز " صفةً لرسول ؛ لقوله بعد ذلك " حريصٌ " فلم يُجعلْ خبراً لغيره ، وادِّعاءُ كونه خبر مبتدأ مضمر ، أي : هو حريصٌ ، لا حاجةَ إليه .

و " بالمؤمنين " متعلقٌ برؤوف . ولا يجوز أن تكونَ المسألةُ من التنازع لأنَّ مِنْ شرطه تأخُّرَ المعمول عن العامِلَيْن ، وإن كن بعضهم قد خالف ويجيز : " زيداً ضربتُ وشتمته " على التنازع ، وإذا فرَّعنا على هذا التضعيف فيكونُ من إعمال الثاني لا الأولِ لما عُرِف : أنه متى أُعمل الأول أُضْمِرَ في الثاني من غير حذف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 142.141 ﴾

(181/353)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) ﴾

جاءكم رسولٌ يشاكِلُكم في البشرية ، فَلِمَا أفردناه به من الخصوصية ألبسناه لباسَ الرحمة عليكم ، وأقمناه بشواهد العطف والشفقة على جملتكم ، قد وَكَلَ هِمَمَه بشأنكم ، وأكبرُ هَمِّه إيمانُكم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 76 ﴾

(182/353)

قوله تعالى ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعى :

ثم أقبل عليه مسلياً له مقابلاً لإعراضهم إن أعرضوا بالإعراض عنهم والبراءة منهم ملتفتاً إلى السورة الآمر بالبراءة من كل مخالف ، قائلاً مسبباً عن النصيحة بهذه الآية التي لا شك

عاقل في مضمونها : ﴿ فإن تولوا ﴾ أي اجتهدوا في تكليف فطرهم الأولى أو ولوا مدبرين عنك بالانصراف المذكور أو غيره بعد النصيحة لهم بهذه الآية ﴿ فقل ﴾ اي استعانة بالله تفويضاً إليه ﴿ حسبي ﴾ أي كافي ؛ قال الرماني : وهو من الحساب لأنه جل ثناه يعطى بحسب الكفاية التي تعني عن غيره ، ويزيد من نعمته مالا يبلغ إلى حد ونهاية إذ نعمه دائمة ومننه متظاهر ﴿ الله ﴾ أي الملك الأعلى الذي لا كفؤ له ، وإنما كان كافياً لأنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فلا مكافىء له فلا راد لأمره ولا معقب لحكمه .

ولما قام الدليل على أنه لا كفؤ له ، وجب قصر الرغائب عليه فقال : ﴿ عليه ﴾ أي وحده ﴿ توكلت ﴾ لأن أمره نافذ في كل شيء ﴿ وهو رب ﴾ اي مالك ومخترع ومدبر ؛ ولما كان في سياق القهر والكبرياء بالبراءة من الكفار والكفاية للأبرار ، كان المقام بالعظمة أنسب كآية النمل فقال : ﴿ العرش العظيم ﴾ أي المحيط بجميع الأجسام الحاوي لسائر الأجرام الذي ثبت بآية الكرسي وغيرها أن ربه أعظم منه لأن عظمته على الأطلاق فلا شيء إلا هو في قبضته وداخل في دائرة مملكته ، وإذا كان كافي فأنا بريء ممن تولى عني وبعد مني كائناً من كان في كل زمان ومكان فقد عانق آخر السورة أولها وصافح منتهاها مبتدأها وتأكد ما فهمته من سر الالتفات في ﴿ فسيحوا ﴾ وفي ﴿ فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله ﴾ والله تعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 409.410 ﴾

فصل

قال الفخر :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

أما قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ يريد المشركين والمنافقين .

ثم قيل : ﴿ تَوَلَّوْا ﴾ أي أعرضوا عنك .

وقيل : تولوا عن طاعة الله تعالى وتصديق الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقيل : تولوا عن قبول التكاليف الشاقة المذكورة في هذه السورة ، وقيل : تولوا عن نصرتك في الجهاد .

واعلم أن المقصود من هذه الآية بيان أن الكفار لو أعرضوا ولم يقبلوا هذه التكاليف ، لم يدخل في قلب الرسول حزن ولا أسف ، لأن الله حسبه وكافيه في نصره على الأعداء ، وفي إيصاله إلى مقامات الآلاء والنعماء ﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ وإذا كان لا إله إلا هو وجب أن يكون لا مبدىء لشيء من الممكنات ولا محدث لشيء من المحدثات إلا هو ، وإذا كان هو

الذي أرسلني بهذه الرسالة ، وأمرني بهذا التبليغ كانت النصرة عليه والمعونة مرتقبة منه .

ثم قال : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهو يفيد الحصر أي لا أتوكل إلا عليه وهو رب العرش العظيم ، والسبب في تخصيصه بالذكر أنه كلما كانت الآثار أعظم وأكرم ، كان ظهور جلالة المؤثر في العقل والخاطر أعظم ، ولما كان أعظم الأجسام هو العرض كان المقصود من ذكره تعظيم جلال الله سبحانه .

فإن قالوا : العرش غير محسوس فلا يعرف وجوده إلا بعد ثبوت الشريعة فكيف يمكن ذكره في معرض شرح عظمة الله تعالى ؟

قلنا : وجود العرش أمر مشهور والكفار سمعوه من اليهود و النصارى ، ولا يبعد أيضاً أنهم كانوا قد سمعوه من أسلافهم ومن الناس من قرأ قوله : ﴿ العظيم ﴾ بالرفع ليكون صفة للرب سبحانه .

(184/353)

قال أبو بكر : وهذه القراءة أعجب ، لأن جعل العظيم صفة لله تعالى أولى من جعله صفة للعرش ، وأيضاً فإن جعلناه صفة للعرش ، كان المراد من كونه عظيماً كبر جرمه وعظم حجمه واتساع جوانبه على ما هو مذكور في الأخبار ، وإن جعلناه صفة لله سبحانه ، كان

المراد من العظمة وجوب الوجود والتقديس عن الحجمية والأجزاء والأبعاض ، وكمال العلم والقدرة ، وكونه منزهاً عن أن يتمثل في الأوهام أو تصل إليه الأفهام .

وقال الحسن : هاتان الآيتان آخر ما أنزل الله من القرآن ، وما أنزل بعدهما قرآن .

وقال أبي بن كعب : أحدث القرآن عهد بالله – عز وجل – هاتان الآيتان ، وهو قول سعيد بن جبير ، ومنهم من يقول : آخر ما أنزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] .

ونقل عن حذيفة أنه قال : أنتم تسمون هذه السورة بالتوبة ، وهي سورة العذاب ما تركتم أحداً إلا نالت منه ، والله ما تقرؤن ربعها .

اعلم أن هذه الرواية يجب تكذيبها ، لأنا لو جوزنا ذلك لكان ذلك دليلاً على تطرق الزيادة والنقصان إلى القرآن ، وذلك يخرجه عن كونه حجة ، ولا خفاء أن القول به باطل ، والله سبحانه وتعالى أعلم بمراده .

وهذا آخر تفسير هذه السورة ، ولله الحمد والشكر .

فرغ المؤلف رحمه الله من تفسيرها في يوم الجمعة الرابع عشر من رمضان سنة إحدى وستمائة والحمد لله وحده والصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 16 صـ 188 . 189 ﴾

وقال السمرقندى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

يعني : إن أعرضوا عنك ولم يؤمنوا بك ، ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ اللهُ ﴾ يعني قل : كفاني الله وفوضت أمري إلى الله ووثقت به .

﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ ، يعني : لا ناصر ولا رازق ولا معين إلاّ هو .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ، يعني : به أثق ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ ، يعني : خالق السرير العظيم أعظم من السموات والأرض .

وقرأ بعضهم ﴿ العظيم ﴾ بالرفع فجعل العظيم من نعت الله تعالى ، وقراءة العامة ﴿ العظيم ﴾ بالخفض ويكون العظيم نعتاً للعرش .

وذكر عن عثمان بن عفان أنه لما جمع القرآن في المصحف ، كان لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد بها رجلان ، فجاء خزيمة بن ثابت بهاتين الآيتين ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ ﴾ إلى آخر السورة ، فلم يطلب منه البينة وأثبته في المصحف .

وروي عن حذيفة أنه قال : يسمون سورة براءة سورة التوبة وهي سورة العذاب .

عن ابن عباس أنه قال : كنا نسميها الفاضحة ، فما زالت تنزل في المنافقين ومنهم ، حتى أشفق كل واحد على نفسه ؛ والله أعلم بالصواب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2

صـ ﴾

وقال الثعلبى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

أعرضوا عن الإيمان وناصبوك ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ قراءة العامة بخفض الميم على العرش ، وقرأ ابن محيصن : العظيم بالرفع على نعت الربّ ، وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلاّ للنبي صلى الله عليه وسلم فإنه قال : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ بالناس لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : 143] .

وقال يحيى بن جعدة : قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : لا تثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان فجاء رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة التوبة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ ﴾ فقال عمر : والله لا أسألك عليها بيّنة ، كذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فأثبتهما ، وهي آخر آية نزلت من السماء في قول بعضهم ، وآخر سورة كاملة نزلت سورة براءة .

أخبرنا أبو عبد الله بن حامد ، عن محمد بن الحسن عن علي بن عبد العزيز عن حجاج عن همام . عن قتادة قال : إن آخر القرآن عهداً بالسماء هاتان الآيتان خاتمة براءة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى قوله ﴿ رَبُّ العرش العظيم ﴾ .

أُبي بن كعب : إن أحدث القرآن عهداً بالله تعالى ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ ﴾ إلى آخر السورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(186/353)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾

فيه وجهان :

أحدهما : عن طاعة الله ، قاله الحسن .

الثاني : عنك ، ذكره عليّ بن عيسى .

﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : حسبي الله معيناً عليكم .

الثاني : حسبي الله هادياً لكم .

﴿ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ يحتمل وجهين :

أحدهما : لسعته .

الثاني : لجلالته .

روى يوسف بن مهران عن ابن عباس أن آخر ما أُنزل من القرآن هاتان الآيتان ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وهذه الآية . وقال أُبي بن كعب : هما أحدث القرآن عهداً بالله وقال مقاتل : تقدم نزولهما بمكة ، والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(187/353)

وقال ابن عطية :

ثم خاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال : ﴿ فإن تولوا ﴾ يا محمد أي أعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي من الله عليهم بها ﴿ فقل حسبي الله ﴾ معناه وأعمالك بحسب قوله من التفويض إلى الله والتوكل عليه والجد في قتالهم ، وليست بآية موادعة لأنها من آخر ما نزل ، وخصص ﴿ العرش ﴾ بالذكر إذ هو أعظم المخلوقات ، وقرأ ابن محيصن " العظيمُ " برفع الميم صفة للرب ، ورويت عن ابن كثير ، وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن ثابت ، ووقع في البخاري أو أبي خزيمة ، فلما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أم لا ، فإنما ثبتت

الآية بالإجماع لا بخزيمة وحده ، أسند الطبري في كتابه قال : كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد عليها رجلان ، فلما جاء خزيمة بهاتين الآيتين قال : والله لا أسألك عليهما بينة أبداً فإنه هكذا كان صلى الله عليه وسلم .

قال القاضي أبو محمد : يعني صفة النبي صلى الله عليه وسلم التي تضمنتها الآية ، وهذا والله أعلم قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وفي مدة أبي بكر حين الجمع الأول وحينئذ فقدت الآيتان ولم يجمع من القرآن شيء في خلافة عمر ، وخزيمة بن ثابت هو المعروف بذي الشهادتين ، وعرف بذلك لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وهذا خصوص لرسول الله صلى الله عليه وسلم وذكر النقاش عن أبيّ بن كعب أنه قال أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ إلى آخر الآية . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(188/353)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ فإن تولَّوا ﴾

أي : أعرضوا عن الإيمان ﴿ فقل حسبيَ الله ﴾ أي : يكفيني ﴿ رب العرش العظيم ﴾ .

وقرأ ابن محيصن "العظيمُ" برفع الميم .

وإنما خص العرش بالذِّكر ، لأنه الأعظم ، فيدخل فيه الأصغر .

قال أُبيّ بن كعب : آخر آية أُنزلت : ﴿ لقد جاءكم رسول . . .

﴿ إلى آخر السُّورة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 3 صـ ﴾

(189/353)

وقال القرطبى فى الآيتين :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

هاتان الآيتان في قول أُبيّ أقرب القرآن بالسماء عهداً .

وفي قول سعيد بن جبير : آخر ما نزل من القرآن ﴿ واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] على ما تقدّم .

فيحتمل أن يكون قول أُبيّ : أقرب القرآن بالسماء عهداً بعد قوله : "واتقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ

إِلَى اللَّهِ" .

والله أعلم .

والخطاب للعرب في قول الجمهور ، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك ؛ إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه ، وشُرِّفوا به غابر الأيام .

وقال الزجاج : هي مخاطبة لجميع العالم ؛ والمعنى : لقد جاءكم رسول من البشر ؛ والأوّل أصوب .

قال ابن عباس : ما من قبيلة من العرب إلا ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فكأنه قال : يا معشر العرب ، لقد جاءكم رسول من بني إسماعيل .

والقول الثاني أوكد للحجة ؛ أي هو بشر مثلكم لتفهموا عنه وتأتمُّوا به .

قوله تعالى : ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبيّ صلى الله عليه وسلم وأنه من صميم العرب وخالصها .

وفي صحيح مسلم عن واثلة بن الأسْقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم " وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إني من نكاح ولست من سفاح " معناه أن نسبه صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام لم يكن النّسل فيه إلا من نكاح ، ولم يكن فيه زِنًى .

وقرأ عبد الله بن قُسيط المكي من "أَنْفَسِكم" بفتح الفاء من النفاسة ؛ ورويت عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وعن فاطمة رضي الله عنها ؛ أي جاءكم رسول من أشرفكم وأفضلكم ؛ من قولك : شيء نفيس إذا كان مرغوباً فيه .

وقيل : من أنفسكم ؛ أي أكثركم طاعة .

قوله تعالى : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يَعِزُّ عليه مشقتكم .

والعَنَت : المشقة ؛ من قولهم : أَكَمة عَنُوت إذا كانت شاقة مهلكة .

وقال ابن الأنباريّ : أصل التعنت التشديد ؛ فإذا قالت العرب : فلان يتعنّت فلاناً ويُعنِته فمرادهم يشدّد عليه ويلزمه .

بما يصعب عليه أداؤه .

وقد تقدّم في "البقرة" .

"وما" في "ما عَنِتُّمْ" مصدرية ، وهي ابتداء و "عَزِيزٌ" خبر مقدّم .

ويجوز أن يكون "ما عنتم" فاعلاً بعزيز ، و "عزيز" صفة للرسول ، وهو أصوب .

وكذا "حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ" وكذا "رَؤُوفٌ رَحِيمٌ" رفع على الصفة .

قال الفراء : ولو قرىء عزيزاً عليه ما عنتم حريصاً رؤوفاً رحيماً ، نصباً على الحال جاز .

قال أبو جعفر النحاس : وأحسن ما قيل في معناه مما يوافق كلام العرب ما حدّثنا أحمد بن محمد الأزديّ قال حدّثنا عبد الله بن محمد الخزاعيّ قال سمعت عمرو بن عليّ يقول : سمعت عبد الله بن داود الخُرَيْبِي يقول في قوله عز وجل : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ قال : أن تدخلوا النار ، ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ قال : أن تدخلوا الجنة .

وقيل : حريص عليكم أن تؤمنوا .

وقال الفراء : شحيح بأن تدخلوا النار .

والحرص على الشيء : الشُّحُّ عليه أن يضيع ويتلف .

﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ الرؤوف : المبالغ في الرأفة والشفقة .

وقد تقدّم في "البقرة" معنى "رَؤوفٌ رَحِيمٌ" مستوفًى .

(191/353)

وقال الحسين بن الفضل : لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبيّ محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه قال : ﴿ بالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وقال : ﴿ إِنَّ الله بالناس

لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقال عبد العزيز بن يحيى : نظم الآية لقد جاءكم رسول مِن أنفسِكم عزيز حريص بالمؤمنين رؤوف رحيم ، عزيز عليه ما عنتم لا يهمّه إلا شأنكم ، وهو القائم بالشفاعة لكم فلا تهتموا بما عنِتم ما أقمتم على سنته ؛ فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة .

قوله تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أي إن أعرض الكفار يا محمد بعد هذه النعم التي منّ الله عليهم بها فقل حسبي الله ؛ أي كافيّ الله تعالى ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي اعتمدت ، وإليه فوّضت جميع أُموري .

﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ خصّ العرش لأنه أعظم المخلوقات فيدخل فيه ما دونه إذا ذكره .

وقراءة العامة بخفض "العظيم" نعتاً للعرش .

وقرىء بالرفع صفة للرب ، رُويت عن ابن كثير ، وهي قراءة ابن مُحَيْصِن .

وفي كتاب أبي داود عن أبي الدّرْداء قال : من قال إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات ، كفاه الله ما أهمه صادقاً كان بها أو كاذباً .

وفي نوادر الأُصول عن بُريدة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من قال عشر كلمات عند دبر كل صلاة وجد الله عندهن مَكْفِيّاً مَجْزِيّاً خمسٌ للدنيا وخمس للآخرة حسبي الله لديني حسبي الله لدنياي حسبي الله لما أهمني حسبي الله لمن بغى عليّ حسبي الله لمن حسدني حسبي الله لمن كادني بسوء حسبي الله عند الموت حسبي الله عند المساءلة في القبر حسبي الله عند الميزان حسبي الله عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه أنيب " وحكى النقاش عن أُبيّ بن كعب أنه قال : أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر السورة ؛ وقد بيناه .

وروى يوسف بن مِهران عن ابن عباس أن آخر ما نزل من القرآن ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وهذه الآية ؛ ذكره الماوردي .

وقد ذكرنا عن ابن عباس خلافه ؛ على ما ذكرناه في البقرة ، وهو أصح .

وقال مقاتل : تقدّم نزولها بمكة .

وهذا فيه بُعد ؛ لأن السورة مدنية ، والله أعلم .

وقال يحيى بن جعدة : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يثبت آية في المصحف حتى يشهد عليها رجلان ؛ فجاءه رجل من الأنصار بالآيتين من آخر سورة براءة ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فقال عمر : والله لا أسألك عليهما بينة ، كذلك كان النبيّ صلى الله

عليه وسلم ؛ فأثبتهما .

قال علماؤنا : الرجل هو خزيمة بن ثابت ، وإنما أثبتهما عمر رضي الله عنه بشهادته وحده لقيام الدليل على صحتها في صفة النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ فهي قرينة تغني عن طلب شاهد آخر ، بخلاف آية الأحزاب ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : 23] فإن تلك ثبتت بشهادة زيد وخزيمة لسماعهما إياها من النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقد تقدم هذا المعنى في مقدّمة الكتاب . والحمد لله . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(193/353)

وقال الخازن :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾

يعني فإن أعرض هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله وناصبوك للحرب ﴿ فقل حسبي الله ﴾ يعني يكفيني الله وينصرني عليكم ﴿ لا إله إلا هو عليه توكلت ﴾ يعني لا على غيره وبه وثقت ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ إنما خص سبحانه وتعالى العرش

بالذكر لأنه أعظم المخلوقات فيدخل ما دونه في الذكر فيكون المعنى فهو رب العرش العظيم فما دونه أو يكون خصه بالذكر تشريفاً له كما يقال بيت الله ، وروي عن أبي بن كعب أنه قال : هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر السورة آخر القرآن نزلا وفي رواية عنه أنه قال : أحدث القرآن عهداً بالله هاتان الآيتان لقد جاءكم رسول من أنفسكم إلى آخر الآيتين والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(194/353)

وقال أبو حيان :

﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾

أي فإنْ أعرضوا عن الإيمان بعد هذه الحالة التي منّ الله عليهم بها من إرسالك إليهم واتصافك بهذه الأوصاف الجميلة فقل : حسبي الله أي : كافيّ من كل شيء ، عليه توكلت أي : فوضت أمري إليه لا إلى غيره ، وقد كفاه الله شرهم ونصره عليهم ، إذ لا إله غيره . وهي آية مباركة لأنها من آخر ما نزل ، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات .

وقال ابن عباس : العرش لا يقدر أحد قدره انتهى .

وذكر في معرض شرح قدرة الله وعظمته ، وكان الكفار يسمعون حديث وجود العرش وعظمته من اليهود والنصارى ، ولا يبعد أنهم كانوا سمعوا ذلك من أسلافهم .

وقرأ ابن محيصن : العظيم برفع الميم صفة للرب ، ورويت عن ابن كثير .

قال أبو بكر الأصم : وهذه القراءة أعجب إليّ ، لأنّ جعل العظيم صفة لله تعالى أولى من جعله صفة للعرش ، وعظم العرش يكبر جثته واتساع جوانبه على ما ذكر في الأخبار ، وعظم الرب بتقديسه عن الجحمية والأجزاء والإبعاض ، وبكمال العلم والقدرة ، وتنزيهه عن أن يتمثل في الأوهام ، أو تصل إليه الأفهام .

وعن ابن عباس : آخر ما نزل لقد جاءكم إلى آخرها .

وعن أبيّ أقرب القرآن عهداً بالله لقد جاءكم الآيتان ، وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين ، فلما جاء بها تذكرها كثير من الصحابة ، وقد كان زيد يعرفها ، ولذلك قال : فقدت آيتين من آخر سورة التوبة ، ولو لم يعرفها لم ندر هل فقد شيئاً أولاً ، فإنما ثبتت الآية بالإجماع لا بخزيمة وحده .

وقال عمر بن الخطاب : ما فرغ من تنزل براءة حتى ظننا أن لن يبقى منا أحد إلا سينزل فيه شيء .

وفي كتاب أبي داود عن أبي الدرداء قال : من قال : " إذا أصبح وإذا أمسى حسبي الله لا

إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله تعالى ما أهمه " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(195/353)

وقال أبو السعود :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ تلوينٌ للخطاب وتوجيهٌ له إلى النبي صلى الله عليه وسلم تسليةً له أي إن أعرضوا عن الإيمان بك ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ الله ﴾ فإنه يكفيك ويُعينك عليهم ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ استئناف مقرِّرٌ لمضمون ما قبله ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ أي المُلك العظيمِ أو الجِسم الأعظمِ المحيط الذي تنزل منه الأحكامُ والمقادير ، وقرىء العظيمُ بالرفع . وعن أبي هريرة أن آخِرَ ما نزل هاتان الآيتان . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما نزل القرآنُ إلا آيةً آيةً وحرفاً حرفاً ما خلا سورةَ براءةٌ وسورةَ ﴿ قُلْ هُوَ الله أَحَدٌ ﴾ فإنهما أُنزلتا عَليّ ومعهما سبعون ألفَ صفٍ من الملائكة " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبى السعود حـ 4 صـ ﴾

(196/353)

وقال الآلوسى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾

تلوين للخطاب وتوجيه له إليه صلى الله عليه وسلم تسلية له ، أي فإن أعرضوا عن الإيمان بك ﴿ فَقُلْ حَسْبِىَ الله ﴾ فإنه يكفيك معرتهم ويعينك عليهم ﴿ لاَ إله إلاَّ هُوَ ﴾ استئناف كالدليل لما قبله لأن المتوحد بالألوهية هو الكافي المعين ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ فلا أرجو ولا أخاف إلا منه سبحانه ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش ﴾ أي الجسم المحيط بسائر الأجسام ويسمى بفلك الأفلاك وهو محدد الجهات ﴿ العظيم ﴾ الذي لا يعلم مقدار عظمته إلا الله تعالى .

وفي الخبر "أن الأرض بالنسبة إلى السماء الدنيا كحلقة في فلاة وكذا السماء الدنيا بالنسبة إلى السماء .

(197/353)

التي فوقها وهكذا إلى السماء السابعة وهي بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في فلاة وهو بالنسبة إلى العرش كذلك" وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه لا يقدر قدره أحد ،

وذكر أهل الأرصاد أن بعد مقعر الفلك الأعظم من مركز العالم ثلاثة وثلاثون ألف ألف وخمسمائة وأربعة وعشرون ألفاً وستمائة وتسع فراسخ ، وأن بعد محدبه منه قد بلغ مرتبة لا يعلمها إلا الله الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وهو بكل شيء عليم ، وقد يفسر العرش هنا بالملك وهو أحد معانيه كما في "القاموس" ، وقرىء ﴿ العظيم ﴾ بالرفع على أنه صفة الرب ، وختم سبحانه هذه السورة بما ذكر لأنه تعالى ذكر فيها التكاليف الشاقة والزواجر الصعبة فأراد جل شأنه أن يسهل عليهم ذلك ويشجع النبي صلى الله عليه وسلم على تبليغه ، وقد تضمن من أوصافه صلى الله عليه وسلم الكريمة ما تضمن ، وقد بدأ سبحانه من ذلك بكونه من أنفسهم لأنه كالأم في هذا الباب ، ولا ينافي وصفه صلى الله عليه وسلم بالرأفة والرحمة بالمؤمنين تكليفه إياهم في هذه السورة بأنواع من التكاليف الشاقة لأن هذا التكليف أيضاً من كمال ذلك الوصف من حيث أنه سبب للتخلص من العقاب المؤبد والفوز بالثواب المخلد ، ومن هذا القبيل معاملته صلى الله عليه وسلم للثلاثة الذين خلفوا كما علمت ، وما أحسن ما قيل

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما . . .

فليقس أحياناً على من يرحم

وهاتان الآيتان على ما روي عن أبي بن كعب آخر ما نزل من القرآن .

لكن روى الشيخان عن البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه أنه قال : آخر آية نزلت ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الكلالة ﴾ [النساء : 176] وآخر سورة نزلت براءة .

(198/353)

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما آخر آية نزلت ﴿ واتقوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى الله ﴾ [البقرة : 281] وكان بين نزولها وموته صلى الله عليه وسلم ثمانون يوماً ، وقيل : تسع ليال ، وحاول بعضهم التوفيق بين الروايات في هذا الشأن بما لا يخلو عن كدر .

ويبعد ما روي عن أبي ما أخرجه ابن مردويه عن سعد بن أبي وقاص قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : ولم سألتم هذا ؟ قالوا : نطلب الأمن فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ ﴾ [التوبة : 128] الخ والله تعالى أعلم بحقيقة الحال .

وقد ذكروا لقوله سبحانه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ الآية ما ذكروا من الخواص ، وقد أخرج أبو داود عن أبي الدرداء موقوفاً .

وابن السني عنه قال : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال حين يصبح وحين يمسي حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله

تعالى ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة ، وأخرج ابن النجار في تاريخه عن الحسين رضي الله تعالى عنه قال : من قال حين يصبح سبع مرات حسبي الله لا إله إلا هو الخ لم يصبه في ذلك اليوم ولا تلك الليلة كرب ولا نكب ولا غرق ، وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : خرجت سرية إلى أرض الروم فسقط رجل منهم فانكسرت فخذه فلم يستطيعوا أن يحملوه فربطوا فرسه عنده ووضعوا عنده شيئاً من ماء وزاد فلما ولوا أتاه آت فقال له : مالك ههنا ؟ قال : انكسرت فخذي فتركني أصحابي فقال : ضع يدك حيث تجد الألم وقل : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ الآية فوضع يده فقرأها فصح وركب فرسه وأدرك أصحابه ، وهذه الآية ورد هذا الفقير ولله الحمد منذ سنين نسأل الله تعالى أن يوفق لنا الخير ببركتها إنه خير الموفقين . انتهى انتهى . اهـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(199/353)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) .

خَتَمَ اللَّهُ تَعَالَى هَذِهِ السُّورَةَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – :

إِنَّهُمَا آخِرُ مَا نَزَلَ . وَبَيَّنَّا فِي الْكَلَامِ عَلَى السُّورَةِ قَبْلَ الشُّرُوعِ فِي تَفْسِيرِهَا مَا يُعَارِضُهُ ، وَسَنُحَقِّقُ الْمَسْأَلَةَ بَعْدَ الْفَرَاغِ مِنْ تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ)

(200/353)

جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّ الْخِطَابَ هُنَا لِلْعَرَبِ فَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ) (62 : 2) فَالْمِنَّةُ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى قَوْمِهِ أَعْظَمُ ، وَالْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِهِ وَبِكِتَابِهِ أَنْهَضُ ، وَأَخَصُّ قَوْمِهِ بِهِ قَبِيلَتُهُ قُرَيْشٌ ، فَعَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبُونَ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ ، وَلَوْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ وَبِكِتَابِهِ الْعَرَبُ لَمَا آمَنَ الْعَجَمُ ، وَهُوَ مَبْعُوثٌ إِلَى جَمِيعِ النَّاسِ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قَوْلِهِ : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (7 : 158) وَلَكِنَّهُ وَجَّهَ دَعْوَتَهُ إِلَى الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ عَلَى الْقَاعِدَةِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا آنِفًا فِي قِتَالِ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ ، فَالْعَرَبُ آمَنُوا بِدَعْوَتِهِ مُبَاشَرَةً ، وَالْعَجَمُ آمَنُوا بِدَعْوَةِ الْعَرَبِ ، الْعَرَبُ آمَنُوا بِفَهْمِ الْقُرْآنِ وَبَيَانِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ بِالتَّبْلِيغِ وَالْعَمَلِ ، وَبِمَا شَاهَدُوا مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى فِي شَخْصِهِ ، وَالْعَجَمُ آمَنُوا بِدَعْوَةِ الْعَرَبِ وَمَا

شَاهَدُوا مِنْ عَدْلِهِمْ وَفَضَائِلِهِمْ ، ثُمَّ بِدَعْوَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ بَعْدَ انْتِشَارِ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ .

وَقَالَ الزَّجَّاجُ : إنَّ الْخِطَابَ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ لِعُمُومِ بَعْثَتِهِ ، فَيَكُونُ بِمَعْنَى مَا يَأْتِي فِي أَوَّلِ السُّورَةِ التَّالِيَةِ (أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ) (10 : 2) إلَخْ ، وَلَكِنَّ آيَةَ أَوَّلِ سُورَةِ يُونُسَ هَذِهِ فِي الرَّدِّ عَلَى مُنْكِرِي كَوْنِ الْبَشَرِ رَسُولًا مِنَ اللَّهِ وَهُوَ الْمَحْكِيُّ عَنْ جَمِيعِ كُفَّارِ الْأُمَمِ ، وَآيَةُ آخِرِ سُورَةِ بَرَاءَةَ فِي امْتِنَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى مَنْ أَرْسَلَ إلَيْهِمُ الرَّسُولَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَصَمِيمِ قَوْمِهِمْ ، لِتَأْيِيدِ الْحُجَّةِ بِالْمِنَّةِ ، وَالتَّرْغِيبِ فِي إجَابَةِ الدَّعْوَةِ ، فَإِنَّ مِنْ طَبْعِ كُلِّ قَوْمٍ حُبَّ الِاخْتِصَاصِ بِالْفَضْلِ وَالشَّرَفِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي امْتِنَانِهِ عَلَيْهِ بِالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ : (وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ) (43 : 44) أَيْ شَرَفٌ لَكَ وَلَهُمْ ، تُذْكَرُونَ بِهِ فِي الْعَالَمِ ، وَيُدَوَّنُ لَكُمْ فِي التَّوَارِيخِ ، وَإِنَّمَا قَاوَمَهُ وَعَانَدَهُ أَكَابِرُ قَوْمِهِ حَتَّى مِنْ بَنِي هَاشِمٍ أَنَفَةً وَاسْتِكْبَارًا عَنِ اتِّبَاعِهِ وَهُمْ يَرَوْنَهُ دُونَهُمْ ، وَلِمَا يَتَضَمَّنُ اتِّبَاعُهُ مِنَ الْإِقْرَارِ بِكُفْرِهِمْ وَكُفْرِ آبَائِهِمْ وَأَجْدَادِهِمُ الَّذِينَ يُفَاخِرُونَ بِهِمْ ، مَعَ عَدَمِ ثِقَتِهِمْ بِفَوْزِهِ وَبِأَنَّهُمْ يَنَالُونَ بِاتِّبَاعِهِ مِنْ مَجْدِ الدُّنْيَا فَوْقَ مَا كَانُوا عَلَيْهِ بِمَسَافَاتٍ تُطَاوِلُ السَّمَاءَ رِفْعَةً وَشَرَفًا ، دَعْ مَا هُوَ فَوْقَ مَجْدِ الدُّنْيَا مِنْ سَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، ثُمَّ إنَّهُمْ صَارُوا يَفْتَخِرُونَ بِكَوْنِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُمْ ، بِأَكْثَرَ مِمَّا

يُبِيحُهُ دِينُهُ لَهُمْ ، حَتَّى صَارَ أَقْرَبُهُمْ يَتَّكِلُ عَلَى نَسَبِهِ فَيُقَصِّرُ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَقَدْ أَكَّدَ تَعَالَى هَذِهِ الْمِنَّةَ الْخَاصَّةَ بِوَصْفِهِ هَذَا الرَّسُولَ بِقَوْلِهِ : (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) إلَخْ . الْعَنَتُ : الْمَشَقَّةُ وَلِقَاءُ الْمَكْرُوهِ الشَّدِيدِ ، وَقَيَّدَهُ الرَّاغِبُ بِمَا يُخَافُ مِنْهُ الْهَلَاكُ ، وَعَزَّ عَلَى فُلَانٍ الْأَمْرُ : ثَقُلَ وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ ، وَقَالُوا : هُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْأَنَفَةِ عَنْهُ ، وَ (مَا) مَصْدَرِيَّةٌ - أَيْ شَدِيدٌ عَلَى طَبْعِهِ وَشُعُورِهِ الْقَوْمِيِّ عَنَتَكُمْ لِأَنَّهُ مِنْكُمْ ، وَهَذَا يَشْمَلُ مَا يَكُونُ فِي الدُّنْيَا وَمَا يَكُونُ فِي الْآخِرَةِ ، فَلَا يَهُونُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونُوا فِي دُنْيَاهُمْ أُمَّةً ضَعِيفَةً ذَلِيلَةً يَعْنِتُهَا أَعْدَاؤُهَا بِسِيَادَتِهِمْ عَلَيْهَا وَتَحَكُّمِهِمْ فِيهَا ، وَلَا أَنْ يَكُونُوا فِي الْآخِرَةِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ)

الْحِرْصُ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِي الْحُصُولِ عَلَى الْمَفْقُودِ ، وَشِدَّةُ الْعِنَايَةِ بِحِفْظِ الْمَوْجُودِ ، وَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَرِيصًا عَلَى اهْتِدَاءِ قَوْمِهِ بِهِ بِإِيمَانِ كَافِرِهِمْ وَثَبَاتِ مُؤْمِنِهِمْ فِي دِينِهِ كَمَا قَالَ تَعَالَى لَهُ : (إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ) (16 : 37) الْآيَةَ وَقَالَ : (وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ)

(12 : 103) (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) أَيْ شَدِيدُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ بِالْمُؤْمِنِينَ ، فَكُلُّ مَا يَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ بِشَرَائِعِ اللهِ تَعَالَى فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى ثُبُوتِ هَذِهِ الصِّفَاتِ الْكَامِلَةِ وَالْعَوَاطِفِ السَّامِيَةِ لَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِنَصِّ اللهِ تَعَالَى ، وَهُوَ أَرْحَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَأَرْأَفُ ، وَكُلُّ شَاقٍّ مِنْهَا كَالْجِهَادِ فَهُوَ مَنْجَاةٌ مِمَّا هُوَ أَشَقُّ مِنْهُ ، وَلَا شَيْءَ مِنَ الشَّاقِّ مِنْهَا يُبَالِغُ حَدَّ الْعَنَتِ ، لِلْقَطْعِ فِي هَذَا الدِّينِ بِنَفْيِ الْعُسْرِ وَالْحَرَجِ .

وَصَفَ اللهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِصِفَتَيْنِ مِنْ صِفَاتِهِ الْعُلَى ، وَسَمَّاهُ بِاسْمَيْنِ مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى ، بَعْدَ وَصْفِهِ بِوَصْفَيْنِ هُمَا أَفْضَلُ نُعُوتِ الرُّؤَسَاءِ وَالزُّعَمَاءِ الْمُدَبِّرِينَ لِأُمُورِ الْأُمَمِ بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضْلِ ، وَفِي الصِّحَاحِ وَالْقَامُوسِ أَنَّ الرَّأْفَةَ أَشَدُّ الرَّحْمَةِ . وَجَعَلَهُمَا بَعْضُ اللُّغَوِيِّينَ وَالْمُفَسِّرِينَ بِمَعْنًى وَاحِدٍ . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : إِنَّ الرَّأْفَةَ أَخَصُّ ، لَا تَكَادُ تَقَعُ فِي الْكَرَاهِيَةِ ، وَالرَّحْمَةُ قَدْ تَقَعُ فِي الْكَرَاهِيَةِ لِلْمَصْلَحَةِ ، وَاخْتَارَ الرَّازِيُّ أَنَّهَا مُبَالَغَةٌ فِي رَحْمَةٍ مَخْصُوصَةٍ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَإِزَالَةِ الضَّرَرِ .

(204/353)

وَقَالَ أُسْتَاذُنَا : إِنَّهَا لَا تُسْتَعْمَلُ إِلَّا فِي حَقِّ مَنْ وَقَعَ فِي بَلَاءٍ ، اخْتِيَارًا لِقَوْلِ الرَّازِيِّ (ص 11 ج 2 ط الْهَيْئَةِ) وَأَصَحُّ مِنْهُ أَنَّهَا تُسْتَعْمَلُ فِي مَكَانِ الضَّعْفِ وَالشَّفَقَةِ وَالرِّقَّةِ كَقَوْلِهِمْ : رَأَفَ

بِوَلَدِهِ وَتَرَأَّفَ بِهِ . وَتَقْدِيمُهُ عَلَى الرَّحِيمِ هُوَ الْوَاجِبُ كَأَنَّهُ قَالَ : رَءُوفٌ بِضُعَفَاءِ الْمُؤْمِنِينَ وَأُولِي الْقُرْبَى مِنْهُمْ ، وَرَحِيمٌ بِهِمْ كُلِّهِمْ . وَتَخْصِيصُ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْمُؤْمِنِينَ فِي مُقَابَلَةِ مَا أُمِرَ بِهِ مِنَ الْغِلْظَةِ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ - لَا يُعَارِضُ كَوْنَ رِسَالَتِهِ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ ، فَإِنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ مَبْذُولَةٌ لِجَمِيعِ الْأُمَمِ ، لِعُمُومِ بَعْثَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَكِنَّ مِنْهُمْ مَنْ قَبِلَهَا وَمِنْهُمْ مَنْ رَدَّهَا ، وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ (وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (9 : 73) أَنَّهُ إنَّمَا أُمِرَ بِذَلِكَ صَلَوَاتُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ لِأَنَّ الْغَالِبَ عَلَى طَبْعِهِ الشَّرِيفِ الرِّقَّةُ وَالرَّحْمَةُ وَالْأَدَبُ فِي الْمُقَابَلَةِ وَالْمُعَاشَرَةِ ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى : (وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ) (3 : 159) .

(205/353)

وَفِي التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْآيَةِ : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) قَالَ لَيْسَ مِنَ الْعَرَبِ قَبِيلَةٌ إلَّا وَقَدْ وَلَدَتِ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُضَرِيَّهَا وَرَبِيعِيَّهَا وَيَمَانِيَّهَا ، يَعْنِي أَنَّ نَسَبَهُ مُتَشَعِّبٌ فِي جَمِيعِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ وَبُطُونِهَا . وَعَنْهُ فِي (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) قَالَ شَدِيدٌ عَلَيْهِ مَا شَقَّ عَلَيْكُمْ (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) أَنْ يُؤْمِنَ كُفَّارُكُمْ . وَمِنَ الْقِرَاءَةِ الشَّاذَّةِ فِي الْآيَةِ قِرَاءَةُ (أَنْفَسِكُمْ) بِفَتْحِ الْفَاءِ مِنَ النَّفَاسَةِ ، رَوَاهَا ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ

حَدِيثِ عَلِيٍّ مَرْفُوعًا ، وَقَرَأَ بِهَا ابْنُ عَبَّاسٍ وَالزُّهْرِيُّ وَابْنُ مُحَيْصِنٍ ، وَرُوِيَتْ عَنِ الْإِمَامِ جَعْفَرٍ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ الْإِمَامِ مُحَمَّدٍ الْبَاقِرِ ، وَهِيَ خَبَرٌ وَاحِدٌ لَا يَثْبُتُ بِهَا الْقُرْآنُ ، وَفِيهَا أَنَّ الْمَعْهُودَ فِي فَصِيحِ الْكَلَامِ أَنَّ النَّفِيسَ وَالْأَنْفَسَ مِمَّا يُوصَفُ بِهِ الْأَشْيَاءُ لَا الْأَشْخَاصُ .

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

(206/353)

هَذَا الْتِفَاتٌ عَنْ خِطَابِ أُمَّةِ الرَّسُولِ أَوْ قَوْمِهِ الَّذِينَ امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمَجِيئِهِ رَسُولًا إِلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَبِفَضَائِلِهِ الْعَائِدَةِ عَلَيْهِمْ ، إِلَى خِطَابِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَبَيَانِ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ فِي حَالِ إِعْرَاضِهِمْ عَنِ الِاهْتِدَاءِ وَالِانْتِفَاعِ بِمَا خَاطَبَهُمْ بِهِ رَبُّهُمْ فِي شَأْنِهِ ، يَقُولُ : فَإِنْ تَوَلَّوْا وَانْصَرَفُوا عَنِ الْإِيمَانِ بِكَ وَالِاهْتِدَاءِ بِمَا جِئْتَهُمْ بِهِ (فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) أَيْ هُوَ مُحْسِبِي الَّذِي يَكْفِينِي أَمْرَ تَوَلِّيهِمْ وَإِعْرَاضِهِمْ ، وَمَا يَعْقُبُهُ مِنْ عَدَاوَتِهِمْ لِي وَصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِهِ وَقَدْ بَلَّغْتَ وَمَا قَصَّرْتَ (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أَيْ لَا مَعْبُودَ غَيْرُهُ أَلْجَأُ إِلَيْهِ بِالدُّعَاءِ وَالِاسْتِعَانَةِ كَمَا يَلْجَئُونَ إِلَى آلِهَتِهِمُ الْمُنْتَحَلَةِ (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ) وَحْدَهُ ، فَلَا أَكِلُ أَمْرِي فِيمَا أَعْجِزُ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ وَكَيْفَ لَا أَخُصُّهُ بِالتَّوَكُّلِ (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) الَّذِي هُوَ مَرْكَزُ تَدْبِيرِ أُمُورِ الْخَلْقِ كُلِّهَا كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الثَّالِثَةِ مِنَ السُّورَةِ التَّالِيَةِ ، (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) (10 :

3) قَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَّاءِ " (الْعَظِيمِ) " بِالْخَفْضِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِلْعَرْشِ . وَقُرِئَ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ صِفَةٌ لِرَبِّ ، وَرُوِيَتْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ عَنِ ابْنِ كَثِيرٍ ، وَعَظَمَةُ الْعَرْشِ بِعَظَمَةِ الرَّبِّ الَّذِي اسْتَوَى عَلَيْهِ وَعَظَمَةُ الْمُلْكِ الْكَبِيرِ الَّذِي هُوَ مَرْكَزُ تَدْبِيرِهِ ، وَوَحْدَةُ النِّظَامِ فِيهِ ، وَعَظَمَتُهُمَا فِي الْمَلَأِ

(207/353)

الْأَعْلَى وَفِيمَا دُونَهُ هِيَ الْمَظْهَرُ الْوُجُودِيُّ لِعَظَمَةِ هَذَا الرَّبِّ الَّتِي لَا تُحَدُّ ، وَلَا يُدْرِكُ كُنْهَهَا أَحَدٌ ، وَدَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ الْإِلَهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يَصِحُّ أَنْ يُعْبَدَ غَيْرُهُ وَلَا يُتَوَكَّلُ عَلَى سِوَاهُ ، وَكَيْفَ يَعْبُدُ غَيْرُهُ بِالدُّعَاءِ أَوْ غَيْرِهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلُ عَلَى سِوَاهُ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ هُوَ الرَّبُّ الْمَالِكُ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ وَالْمُدَبِّرُ لِأُمُورِهِ ، وَيُرَاجَعُ هُنَا تَفْسِيرُ (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ) (8 : 64) (فِي ص 63 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ)

وَفَسَّرَ بَعْضُهُمُ الْعَرْشَ هُنَا

(208/353)

بِالْمُلْكِ (بِالضَّمِّ) لِأَنَّهُ يُطْلَقُ عَلَيْهِ تَجَوُّزًا وَهُوَ خَطَأٌ مِنْهُمْ ; لِأَنَّ هَذَا التَّجَوُّزَ لَا مُسَوِّغَ لَهُ ، وَلَا يَصِحُّ فِي كُلِّ الْآيَاتِ الَّتِي وَرَدَ فِيهَا اللَّفْظُ ، وَالْمَعْنَى الْحَقِيقِيُّ أَبْلَغُ مِنْهُ وَأَعَمُّ ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَجَازِيِّ وَزِيَادَةٍ ; إذْ لَيْسَ لِكُلِّ مُلْكٍ فِي الْأَرْضِ عَرْشٌ حَقِيقِيٌّ هُوَ الْمَرْكَزُ الْوَحِيدُ لِتَدْبِيرِ كُلِّ شَيْءٍ فِيهِ ، فَالْعَرْشُ الْعَظِيمُ يَدُلُّ عَلَى الْمُلْكِ الْعَظِيمِ وَعَلَى وَحْدَةِ النِّظَامِ وَالتَّدْبِيرِ فِيهِ ، وَلَفْظُ الْمُلْكِ الْعَظِيمِ لَا يَدُلُّ عَلَى هَذَا ، لِاحْتِمَالِ وُجُودِ الْخَلَلِ فِيهِ ، وَكَوْنُ تَدْبِيرِهِ لَيْسَ لَهُ مَرْجِعُ وَحْدَةٍ تَكْفُلُ النِّظَامَ ، وَتَمْنَعُ الْخَلَلَ وَالْفَسَادَ ، وَنُظَّارُ الْمُتَكَلِّمِينَ وَمُفَسِّرُوهُمْ يَتَأَوَّلُونَ الْعَرْشَ وَالِاسْتِوَاءَ عَلَيْهِ فِرَارًا مِنَ التَّشْبِيهِ الَّذِي يَسْتَلْزِمُهُ بِزَعْمِهِمُ الْمَبْنِيِّ عَلَى قِيَاسِ عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَقِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ ، وَهُوَ قِيَاسٌ بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِهِمْ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ سُمِّيَ الْعَرْشُ عَرْشًا لِارْتِفَاعِهِ ، وَفِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ رِوَايَاتٌ فِي وَصْفِ الْعَرْشِ وَمَادَّتِهِ هِيَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ لَا يَصِحُّ فِيهَا شَيْءٌ مَرْفُوعٌ .

وَنَخْتِمُ تَفْسِيرَ الْآيَتَيْنِ بِتَحْقِيقِ مَسْأَلَتَيْنِ ذُكِرَتَا فِي تَفْسِيرِهِمَا الْمَأْثُورِ وَلَمْ نَرَ أَحَدًا حَقَّقَهُمَا :

(الْأَوَّلُ مَا وَرَدَ فِي كِتَابَةِ الْآيَتَيْنِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَوْنِهِمَا آخِرَ مَا نَزَلَ)

(209/353)

إِنَّ مَعْنَى هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ لَا يَظْهَرُ إِلَّا فِي دَعْوَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِلَى الْإِسْلَامِ بِمَكَّةَ فِي أَوَّلِ زَمَنِ الْبَعْثَةِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ السُّورَةِ قَبْلَ الْبَدْءِ بِتَفْسِيرِهَا أَنَّ ابْنَ أَبِي الْفَرَسِ قَالَ : إِنَّهُمَا مَكِّيَّتَانِ ، وَأَنَّهُ يَرُدُّ قَوْلَهُ مَا وَرَدَ مِنْ أَنَّهُمَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، ثُمَّ ذَكَرْتُ هُنَالِكَ أَصَحَّ مَا وَرَدَ فِي آخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ وَهُوَ غَيْرُ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ .

وَأَقُولُ الْآنَ : إِنَّ قَوْلَ ابْنِ أَبِي الْفَرَسِ هُوَ الْوَجِيهُ مِنْ جَانِبِ الْمَعْنَى ، فَهُوَ يُؤَيِّدُ الرِّوَايَةَ وَأَمَّا الْقَوْلُ بِأَنَّهُمَا آخِرُ مَا نَزَلَ فَقَدْ أُخْرِجَ فِي بَعْضِ الْمَسَانِيدِ وَالتَّفَاسِيرِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ بِأَلْفَاظٍ مُتَقَارِبَةٍ (مِنْهَا) عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنْهُ : أَنَّ آخِرَ آيَةٍ نَزَلَتْ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي لَفْظٍ أَنَّ آخِرَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إِلَخِ الْآيَةَ (وَمِنْهَا) عَنِ الْحَسَنِ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ أَحْدَثَ الْقُرْآنِ عَهْدًا بِاللَّهِ - وَفِي لَفْظٍ بِالسَّمَاءِ - هَاتَانِ الْآيَتَانِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ (وَمِنْهَا) مِنْ طَرِيقِ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنْهُ أَنَّهُمْ جَمَعُوا الْقُرْآنَ فِي مُصْحَفٍ فِي

(210/353)

خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، فَكَانَ رِجَالٌ يَكْتُبُونَ وَيُمِلُّ عَلَيْهِمْ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ 127 مِنْ سُورَةِ بَرَاءَةَ (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) فَظَنُّوا أَنَّ هَذَا

آخِرُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ فَقَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ إِنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَدْ أَقْرَأَنِي بَعْدَ هَذَا آيَتَيْنِ " (لَقَدْ جَاءَكُمْ) " إلَى " (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) " قَالَ : فَخَتَمَ الْأَمْرَ بِمَا فَتَحَ بِهِ : بِلَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ا هـ ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُمَا آخِرُ مَا نَزَلَ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ لَا مِنَ الْقُرْآنِ مُطْلَقًا إلَّا إذَا صَحَّ أَنَّ سُورَةَ بَرَاءَةَ آخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ ، وَالصَّحِيحُ فِي الرِّوَايَةِ أَنَّ آخِرَ مَا نَزَلَ مِنَ السُّوَرِ سُورَةُ النَّصْرِ ، وَمِنَ الْآيَاتِ (وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إلَى اللَّهِ) (2 : 281) كَمَا تَقَدَّمَ فِي مَحِلِّهِ .

(211/353)

وَفِي حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ فِي جَمْعِ الْقُرْآنِ الْمَكْتُوبِ الَّذِي كَانَ مُتَفَرِّقًا فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ عِنْدَ ابْنِ سَعْدٍ وَأَحْمَدَ وَالْبُخَارِيِّ وَالتِّرْمِذِيِّ وَالنَّسَائِيِّ وَغَيْرِهِمْ - أَنَّهُ قَالَ : حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) إلَى آخِرِهِمَا ا هـ . وَالْمُرَادُ أَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمَا مَكْتُوبَتَيْنِ عِنْدَمَا جَمَعَ الْمَكْتُوبَ فِي الرِّقَاعِ وَالْأَكْتَافِ وَالْعُسُبِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ إلَّا عِنْدَ خُزَيْمَةَ ، وَفِي رِوَايَةٍ فِي الْبُخَارِيِّ وَغَيْرِهِ عِنْدَ أَبِي خُزَيْمَةَ وَهِيَ أَرْجَحُ كَمَا سَيَأْتِي ، إلَّا أَنْ تَكُونَا وُجِدَتَا عِنْدَ كُلٍّ مِنْهُمَا وَكَانَتَا مَحْفُوظَتَيْنِ مَعْرُوفَتَيْنِ لِلْكَثِيرِينَ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي الرِّوَايَاتِ الْأُخْرَى ، فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ إسْحَاقَ وَأَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الْمَصَاحِفِ عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ قَالَ :

أَتَى الْحَارِثُ بْنُ خُزَيْمَةَ بِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ بَرَاءَةَ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) إِلَى عُمَرَ فَقَالَ مَنْ مَعَكَ عَلَى هَذَا ؟ فَقَالَ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ إِلَّا أَنِّي أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهُمَا مِنْ

(212/353)

رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَوَعَيْتُهُمَا وَحَفِظْتُهُمَا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَأَنَا أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، لَوْ كَانَتْ ثَلَاثَ آيَاتٍ لَجَعَلْتُهَا سُورَةً عَلَى حِدَةٍ ، فَانْظُرُوا سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَأَلْحِقُوهَا بِهَا ، فَأُلْحِقَتْ فِي آخِرِ بَرَاءَةَ ، وَأَخْرَجَ ابْنُ جَرِيرٍ وَابْنُ الْمُنْذِرِ وَأَبُو الشَّيْخِ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ جَاءَ بِهِمَا عُمَرَ ، فَقَالَ : لَا أَسْأَلُكَ عَلَيْهَا بَيِّنَةً أَبَدًا كَذَلِكَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقْرَؤُهَا .

وَأَخْرَجَ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي الْمَصَاحِفِ أَنَّ خُزَيْمَةَ بْنَ ثَابِتٍ جَاءَ عُثْمَانَ حِينَ تَصَدَّى لِكِتَابَةِ الْقُرْآنِ بَعْدَ مَقْتَلِ عُمَرَ فَقَالَ : إِنِّي رَأَيْتُكُمْ تَرَكْتُمْ آيَتَيْنِ لَمْ تَكْتُبُوهُمَا ، فَقَالُوا مَا هُمَا ؟ قَالَ تَلَقَّيْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) إِلَى آخِرِ السُّورَةِ . فَقَالَ عُثْمَانُ : وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّهُمَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَأَيْنَ تَرَى أَنْ نَجْعَلَهُمَا ؟ قَالَ اخْتِمْ بِهِمَا آخِرَ مَا نَزَلَتْ مِنَ الْقُرْآنِ فَخُتِمَتْ بِهِمَا بَرَاءَةُ .

فَيُؤْخَذُ مِنْ مَجْمُوعِ الرِّوَايَاتِ أَنَّ الْآيَتَيْنِ كَانَتَا مَحْفُوظَتَيْنِ مَشْهُورَتَيْنِ إِلَّا أَنَّهُمُ اخْتَلَفُوا فِي مَوْضِعِهِمَا ، فَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُمَا آخِرُ سُورَةِ بَرَاءَةَ بِالتَّوْقِيفِ مِنَ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُمَا وُضِعَتَا بِالرَّأْيِ وَالِاجْتِهَادِ ، وَالْمُعْتَمَدُ الْأَوَّلُ قَطْعًا لِأَنَّ مَنْ حَفِظَ التَّوْقِيفَ حُجَّةٌ عَلَى مَنْ لَمْ يَحْفَظْ . وَالظَّاهِرُ أَنَّ سَبَبَ الِاخْتِلَافِ فِي مَوْضِعِهِمَا أَنَّ مَوْضُوعَهُمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا مَكِّيَّتَانِ . وَلَمْ تَصِحَّ لِجَمَاعَةِ جَامِعِي الْمُصْحَفِ رِوَايَةٌ بِكِتَابَتِهِمَا فِي إِحْدَى السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ وَلَكِنْ وُجِدَتَا عِنْدَ أَبِي خُزَيْمَةَ مَكْتُوبَتَيْنِ فِي آخِرِ بَرَاءَةَ . وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ الَّذِي كَانَ يَكْتُبُ الْوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُوَ الَّذِي أَمَرَهُ أَبُو بَكْرٍ بِجَمْعِ الْقُرْآنِ مَعَ آخَرِينَ ، وَكَانَ عُمَرُ يَحْضُرُهُمْ وَهُمْ يَكْتُبُونَ قَالَ : فَوَجَدْتُ آخِرَ بَرَاءَةَ مَعَ خُزَيْمَةَ بْنِ ثَابِتٍ أَوْ أَبِي خُزَيْمَةَ . بِالشَّكِّ وَهُوَ مِنَ الرَّاوِي لَا مِنْ زَيْدٍ ، وَفِي رِوَايَةٍ عَنْهُ مَعَ خُزَيْمَةَ وَالتَّحْقِيقُ الَّذِي قَرَّرَهُ الْحَافِظُ ابْنُ حَجَرٍ أَنَّ آخِرَ التَّوْبَةِ وُجِدَ عِنْدَ أَبِي خُزَيْمَةَ ، وَأَمَّا الَّذِي وُجِدَ مَعَ خُزَيْمَةَ فَهُوَ آيَةُ الْأَحْزَابِ ، وَذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي تَفْسِيرِ سُورَتِهَا عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ لَمَّا نَسَخْنَا الصُّحُفَ فِي الْمَصَاحِفِ فُقِدَتْ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْأَحْزَابِ كُنْتُ أَسْمَعُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ – يَقْرَؤُهَا لَمْ أَجِدْهَا مَعَ أَحَدٍ إلَّا مَعَ خُزَيْمَةَ الْأَنْصَارِيِّ الَّذِي جَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – شَهَادَتَهُ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ) (33 : 23) .

قَالَ الْحَافِظُ فِي شَرْحِهِ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ زَيْدًا لَمْ يَكُنْ يَعْتَمِدُ فِي جَمِيعِ الْقُرْآنِ عَلَى عِلْمِهِ وَلَا يَقْتَصِرُ عَلَى حِفْظِهِ . لَكِنْ فِيهِ إشْكَالٌ ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهُ أَنَّهُ اكْتَفَى مَعَ ذَلِكَ بِخُزَيْمَةَ وَحْدَهُ ، وَالْقُرْآنُ إنَّمَا يَثْبُتُ بِالتَّوَاتُرِ . وَالَّذِي يَظْهَرُ فِي الْجَوَابِ أَنَّ الَّذِي أَشَارَ إلَيْهِ أَنَّهُ فَقَدَهُ فَقْدَ وُجُودِهَا مَكْتُوبَةً ، لَا فَقْدَ وُجُودِهَا مَحْفُوظَةً ، بَلْ كَانَتْ مَحْفُوظَةً عِنْدَهُ وَعِنْدَ غَيْرِهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ جَمْعِ الْقُرْآنِ (فَجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ وَالْعُسُبِ) كَمَا سَيَأْتِي مَبْسُوطًا فِي فَضَائِلِ الْقُرْآنِ ا هـ

وَأَقُولُ : إنِّي قَدْ ذَكَرْتُ آنِفًا أَنَّ هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْهُ ، وَهُوَ مَا كُنْتُ أَفْهَمُهُ دُونَ غَيْرِهِ ، وَأُجِيبَ بِهِ مَنْ سَأَلَنِي عَنْهُ مُسْتَشْكِلًا . فَقَوْلُ الْحَافِظِ : وَالَّذِي يَظْهَرُ إلَخْ .

كَانَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ : وَالَّذِي يَتَعَيَّنُ الْقَطْعُ بِهِ كَذَا ، وَحَسْبُكَ دَلِيلًا عَلَى هَذَا أَنَّهُ قَالَ : إِنَّهُمْ كَانُوا يَسْمَعُونَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقْرَؤُهَا ، فَهُوَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْبَحْثَ كَانَ عَمَّنْ كَتَبَهَا فَقَطْ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ الْآيَتَيْنِ كَانَتَا مَحْفُوظَتَيْنِ وَمَكْتُوبَتَيْنِ وَمَعْرُوفَتَيْنِ لِكَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ الْجَمْعِ فِي مَوْضِعِ كِتَابَتِهِمَا حَتَّى شَهِدَ مَنْ شَهِدَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ الَّذِي وَضَعَهُمَا فِي آخِرِ سُورَةِ بَرَاءَةَ وِفَاقًا لِقَوْلِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ الَّذِي ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّهُ أَحَدُ الَّذِينَ تَلَقَّوُا الْقُرْآنَ كُلَّهُ مُرَتَّبًا عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَذَا زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ . وَكَانَ عَدَدُ الْمُخْتَلِفِينَ فِي مَوْضِعِهِمَا قَلِيلًا ، فَلَمَّا كُتِبَتَا فِي الْمَصَاحِفِ وَافَقَ الْجَمِيعُ عَلَى وَضْعِهِمَا هَاهُنَا . وَلَمْ يُرْوَ أَيُّ اعْتِرَاضٍ عَلَى ذَلِكَ عَمَّنْ كَتَبُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَصَاحِفَ اعْتَمَدُوا فِيهَا عَلَى حِفْظِهِمْ كَابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

(216/353)

بَقِيَ الْبَحْثُ فِي حِكْمَةِ وَضْعِهِمَا فِي آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَمَوْضُوعُهُمَا مَكِّيٌّ ، يُؤَيِّدُهُ كَوْنُ الْخِطَابِ فِيهِمَا لِقَوْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى مَا جَزَمَ بِهِ جَمَاهِيرُ الْمُفَسِّرِينَ وَمَا هُمَا بِأَوَّلِ مَا وُضِعَ مِنَ الْآيَاتِ الْمَكِّيَّةِ فِي السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ لِمُنَاسَبَةٍ اقْتَضَتْ ذَلِكَ . وَلَعَلَّ الْحِكْمَةَ فِي ذَلِكَ أَنْ يُفِيدَا بِمَوْضِعِهِمَا صِحَّةَ الْخِطَابِ بِهِمَا لِكُلِّ مَنْ تَبْلُغُهُ الدَّعْوَةُ مِنْ أُمَّةِ

الْإِجَابَةِ ، وَهُوَ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْخَطَّابِيُّ ، كَمَا دَلَّ مَوْضُوعُهُمَا وَنُزُولُهُمَا بِمَكَّةَ - كَمَا قَالَ ابْنُ أَبِي الْفَرَسِ - عَلَى كَوْنِ الْخِطَابِ فِيهِمَا لِقَوْمِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَهُوَ مَا جَزَمَ بِهِ الْجَمَاهِيرُ . وَيَكُونُ مَا قُلْنَاهُ جَامِعًا بَيْنَ الْأَقْوَالِ كُلِّهَا .

(طَهَارَةُ نَسَبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفَضْلُ قَوْمِهِ وَاصْطِفَاؤُهُ مِنْ خِيَارِهِمْ)

(217/353)

مِنَ الْمَأْثُورِ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ مَا ذَكَرُوا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) مِنَ الْأَحَادِيثِ الْمَرْفُوعَةِ فِي طَهَارَةِ نَسَبِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ سِفَاحِ الْجَاهِلِيَّةِ وَمِنْ فَضْلِ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَعِتْرَتِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَى غَيْرِهِمْ ، وَأَصَحُّ مَا وَرَدَ فِي هَذَا مَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ وَاثِلَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَرْفُوعًا (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ) وَلَمْ أَرَ لِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بَيَانًا لِمَعْنَى هَذَا الِاصْطِفَاءِ بِمَ كَانَ ؟ وَقَدْ وَفَّقَنِي اللَّهُ لِاسْتِنْبَاطِهِ مِنَ التَّارِيخِ الْعَامِّ ، وَبَيَّنْتُهُ فِي الْمَنَارِ وَفِي خُلَاصَةِ السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فِي جَوَابِ السُّؤَالِ عَنْ حِكْمَةِ بَعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَبِالرِّسَالَةِ الْعَامَّةِ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، بِالدِّينِ الْعَامِّ لِلْبَدْوِ وَالْحَضَرِ ، مِنَ الْعَرَبِ الَّذِينَ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ جَهَالَةُ الْبَدْوِ ، وَبَعْدَ عَهْدِهِمْ بِمَا سَبَقَ

لِأُمَّتِهِمْ مِنَ الْحَضَارَةِ وَالْعِلْمِ ، وَلَمْ يُبْعَثْ مِنْ بَعْضِ شُعُوبِ الْحَضَارَةِ الْقَرِيبَةِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ ، وَيَلِيهِ السُّؤَالُ عَنْ مَزِيَّةِ كِنَانَةَ فِي الْعَرَبِ

مِنْ آلِ إِسْمَاعِيلَ ، الَّذِينَ امْتَازُوا عَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ بِأَنَّهُمْ مِمَّنِ اصْطَفَى اللهُ مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ ، ثُمَّ عَنْ مَزِيَّةِ قُرَيْشٍ فِي بَنِي كِنَانَةَ ، وَفَضْلِ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى سَائِرِ قُرَيْشٍ ؟

(218/353)

خُلَاصَةُ مَا بَيَّنْتُهُ فِي فَضْلِ الْعَرَبِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ ، الَّذِي أَعَدَّهُمْ بِهِ اللهُ لِبَعْثَةِ سَيِّدِ الْبَشَرِ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، بِالدِّينِ الْعَامِّ الْبَاقِي هِيَ : أَنَّ جَمِيعَ شُعُوبِ الْحَضَارَةِ الْمُشَارِ إِلَيْهَا وَغَيْرِهَا كَانَتْ قَدْ فَسَدَتْ غَرَائِزُهَا وَأَخْلَاقُهَا الْفِطْرِيَّةُ ، وَعَقَائِدُهَا الدِّينِيَّةُ ، وَآدَابُهَا التَّقْلِيدِيَّةُ ، بِفَسَادِ رُؤَسَاءِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا فِيهَا ، وَتَعَاوُنِ الْفَرِيقَيْنِ عَلَى اسْتِعْبَادِهَا وَاسْتِذْلَالِهَا لَهُمَا ، وَتَسْخِيرِهَا لِتَوْفِيرِ لَذَّاتِهِمَا وَتَشْيِيدِ صُرُوحِ عَظَمَتِهِمَا ، بِسَلْبِ حُرِّيَّتِهِمُ الْعَقْلِيَّةِ بِالتَّقَالِيدِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يَفْرِضُ عَلَيْهِمُ الْكَهَنَةُ وَالْأَحْبَارُ وَالْقُسُوسُ الْخُضُوعَ لَهَا ، بِدُونِ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ أَدْنَى رَأْيٍ أَوِ اخْتِيَارٍ أَوْ فَهْمٍ فِيهَا ، بِسَلْبِ حُرِّيَّةِ إِرَادَتِهِمْ فِي حَيَاتِهِمُ الشَّخْصِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ بِمَا يَضَعُ لَهُمُ الْمُلُوكُ وَالْحُكَّامُ مِنَ الْقَوَانِينِ وَالنُّظُمِ الْإِدَارِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ

الِاسْتِبْدَادِيَّةِ ، وَبِتَحَكُّمِهِمْ فِيهِمْ بِدُونِ قَانُونٍ وَلَا نِظَامٍ أَيْضًا ، فَجَمِيعُ الْأُمَمِ وَالشُّعُوبِ كَانَتْ مُرْهَقَةً مُسْتَعْبَدَةً فِي دِينِهَا وَدُنْيَاهَا إِلَّا الْعَرَبَ وَلَا سِيَّمَا عَرَبَ الْحِجَازِ .

(219/353)

وَأَمَّا الْعَرَبُ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ رِيَاسَةُ حُكْمٍ اسْتِبْدَادِيَّةٌ تَسْتَذِلُّهُمْ وَتُفْسِدُ بَأْسَهُمْ وَتَقْهَرُ إِرَادَتَهُمْ عَلَى مَا لَا يُرِيدُونَ ، وَلَا رِيَاسَةٌ دِينِيَّةٌ تَقْهَرُهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ تَقَالِيدَ لَا يَعْقِلُونَهَا بَلْ كَانُوا عَلَى أَتَمِّ الْحُرِّيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَاسْتِقْلَالِ الْإِرَادَةِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ ، وَفِي أَعْلَى ذُرْوَةٍ مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَشِدَّةِ الْبَأْسِ فَبِحُرِّيَّةِ عُقُولِهِمْ كَانُوا عَلَى أَتَمِّ الِاسْتِعْدَادِ لِفَهْمِ دِينِ الْعَقْلِ وَالْفِطْرَةِ ، وَبِاسْتِقْلَالِ إِرَادَتِهِمْ كَانُوا عَلَى أَكْمَلِ الِاسْتِعْدَادِ لِلنُّهُوضِ بِمَا اعْتَقَدُوا حَقِّيَّتَهُ وَصَلَاحَهُ وَخَيْرِيَّتَهُ ، وَلِإِقَامَتِهِ فِي قَوْمِهِمْ ، وَنَشْرِهِ فِي غَيْرِهِمْ ، وَالدِّفَاعِ عَنْهُ بِاخْتِيَارِهِمْ ، وَتَصَرُّفِهِمْ فِي كُلِّ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى الْوَازِعِ النَّفْسِيِّ ، دُونَ تَحَكُّمِ رَئِيسٍ دِينِيٍّ وَلَا دُنْيَوِيٍّ ; فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ إِنَّمَا أَوْجَبَ طَاعَةَ الْأَئِمَّةِ وَالْقُوَّادِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِذْعَانِ لِلشَّرْعِ ، وَمَا تَضَعُهُ الْأُمَّةُ لِنَفْسِهَا مِنَ النِّظَامِ بِالشُّورَى بَيْنَ مُمَثِّلِيهَا مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ

(220/353)

وَالْعَقْدِ ، حَتَّى فَرَضَ اللهُ عَلَى الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُشَاوَرَتَهَا فِي أُمُورِهَا ، وَقَالَ لَهُ رَبُّهُ فِي صِيغَةِ مُبَايَعَةِ نِسَائِهَا لَهُ : (وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ) (60 : 12) وَبِهَا كَانَ يُبَايِعُ الرِّجَالَ كَالنِّسَاءِ وَلِذَلِكَ قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَأَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ .

وَأَمَّا كِنَانَةُ فَقَدْ كَانَ أَشْهَرَ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْكَرَمِ وَالنُّبْلِ ، حَتَّى كَانَتِ الْعَرَبُ تَحُجُّ إِلَيْهِ ، وَيَنْقُلُونَ عَنْهُ حِكَمًا رَائِعَةً ، وَكَفَى بِهَذَا اصْطِفَاءً عَلَيْهِمْ ، وَامْتِيَازًا فِيهِمْ

.

وَأَمَّا امْتِيَازُ قُرَيْشٍ عَلَى سَائِرِ الْعَرَبِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ مُتَوَاتِرٌ ، وَأَهَمُّهُ أَنَّ مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ ، وَاسْتِقْلَالِ الْإِرَادَةِ وَالْعَقْلِ كَانَ أَكْمَلَ فِيهِمْ ، فَإِنَّ بَعْضَ الْعَرَبِ فِي أَطْرَافِ جَزِيرَتِهِمْ خَضَعُوا لِسِيَادَةِ الْفُرْسِ وَالرُّومِ خُضُوعًا مَا ، وَجُمْلَتُهُ أَنَّهُمْ كَانُوا أَصْرَحَ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ أَنْسَابًا ، وَأَشْرَفَهُمْ أَحْسَابًا ، وَأَعْلَاهُمْ آدَابًا ، وَأَفْصَحَهُمْ أَلْسِنَةً ، وَهُمُ الْمُمَهِّدُونَ لِجَمْعِ الْكَلِمَةِ الْعَامَّةِ ، بَعْدَ أَنْ جَمَعَ (قُصَيٌّ) جَمِيعَ قَبَائِلِهِمْ بِمَكَّةَ ، وَاسْتَقَلُّوا بِخِدْمَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ مِنَ الْحِجَابَةِ وَسِقَايَةِ الْحَاجِّ وَالرِّفَادَةِ – وَهِيَ إِسْعَافُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ مِنَ الْحُجَّاجِ وَغَيْرِهِمْ

–

وَأَسَّسُوا دَارَ النَّدْوَةِ لِأَجْلِ الشُّورَى فِي الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ ، وَكَانُوا أَعْرَفَ الْعَرَبِ بِبُطُونِ الْعَرَبِ فِي جَمِيعِ جَزِيرَتِهِمْ بِمَا كَانُوا يَتَنَاوَبُونَهُ مِنْ رِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ، وَبِذَلِكَ كَانُوا أَغْنَى الْعَرَبِ أَيْضًا وَأَشْرَفَهُمْ بِلَا مُنَازِعٍ ، وَنَاهِيكَ بِمَا عَقَدُوا مِنْ حِلْفِ الْفُضُولِ فِي حَدَاثَةِ سِنِّ الرَّسُولِ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ تَعَاقَدُوا أَوْ تَعَاهَدُوا أَلَّا يَجِدُوا بِمَكَّةَ مَظْلُومًا إِلَّا قَامُوا مَعَهُ ، وَكَانُوا عَوْنًا لَهُ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ إِلَى أَنْ تُرَدَّ مَظْلَمَتُهُ .

وَفِي حَدِيثِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ وَأُمِّ هَانِئٍ عَنِ الطَّبَرَانِيِّ وَتَارِيخِ الْبُخَارِيِّ ، (فَضَّلَ اللَّهُ قُرَيْشًا بِسَبْعِ خِصَالٍ : فَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُمْ عَبَدُوا اللَّهَ عَشْرَ سِنِينَ لَا يَعْبُدُ اللَّهَ إِلَّا قُرَشِيٌّ (أَيْ لَا يَعْبُدُهُ وَحْدَهُ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا قُرَشِيٌّ) وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَصَرَهُمْ يَوْمَ الْفِيلِ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (أَيْ نَصَرَهُمْ عَلَى قُوَّةٍ تَفُوقُ قُوَّتَهُمْ كَثِيرًا بِمَا يُشْبِهُ نَصْرَهُ لِرُسُلِهِ فِي كَوْنِهِ بِدُونِ اسْتِعْدَادٍ كَسْبِيٍّ يَقْرُبُ مِنِ اسْتِعْدَادِ عَدُوِّهِمْ) وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّهُ نَزَّلَ فِيهِمْ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ، لَمْ يَدْخُلْ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ وَهِيَ : (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ) (106 : 1) وَفَضَّلَهُمْ بِأَنَّ فِيهِمُ النُّبُوَّةَ وَالْخِلَافَةَ وَالْحِجَابَةَ وَالسِّقَايَةَ)

وَأَمَّا اصْطِفَاؤُهُ تَعَالَى لِبَنِي هَاشِمٍ عَلَى قُرَيْشٍ فَقَدْ كَانَ بِمَا امْتَازُوا بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَكَارِمِ ، فَقَدْ كَانَ جَدُّهُمْ هَاشِمٌ هُوَ صَاحِبَ إِيلَافِ قُرَيْشٍ الَّذِي أَخَذَ لَهُمُ الْعَهْدَ مِنْ قَيْصَرِ الرُّومِ عَلَى حِمَايَتِهِمْ فِي رِحْلَةِ الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ ، وَمِنْ حُكُومَةِ الْيَمَنِ فِي رِحْلَةِ الشِّتَاءِ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ هَشَمَ الثَّرِيدَ لِلْفُقَرَاءِ مِنْ قَوْمِهِ وَلِأَهْلِ مَوْسِمِ الْحَجِّ كَافَّةً ، وَقَدْ أُرْبِيَ عَلَيْهِ فِي السَّخَاءِ وَالْكَرَمِ وَلَدُهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ ، وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ بَنِي هَاشِمٍ كَانُوا أَكْرَمَ قُرَيْشٍ أَخْلَاقًا وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْكِبْرِ وَالْأَثَرَةِ ، وَلَا يُنَازِعُهُمْ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ ، وَقَدْ قَالَ أَبُو جَهْلٍ فِي حَسَدِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى كَوْنِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْهُمْ : تَنَازَعْنَا نَحْنُ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ الشَّرَفَ : أَطْعَمُوا فَأَطْعَمْنَا ، وَحَمَلُوا فَحَمَلْنَا ، وَأَعْطَوْا فَأَعْطَيْنَا . . . حَتَّى إِذَا زَاحَمْنَاهُمْ بِالْمَنَاكِبِ قَالُوا : مِنَّا نَبِيٌّ يَأْتِيهِ الْوَحْيُ مِنَ السَّمَاءِ . فَمَتَى نُدْرِكُ هَذِهِ ؟ وَيُؤْخَذُ مِنْهُ أَنَّهُمْ كَانُوا يَعْلَمُونَ أَنَّ النُّبُوَّةَ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِالِاجْتِهَادِ وَالْمُبَارَاةِ الْكَسْبِيَّةِ فِي الْفَضَائِلِ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُعَارِضَهُ أَحَدٌ فِي بَلَاغَتِهِ وَلَا هِدَايَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ مِنَ اللَّهِ لَا مِنْ عِلْمِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَارَضَهُ مَنْ كَانُوا أَشْهَرَ الْعَرَبِ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَكُنْ مُحَمَّدٌ مِنْهُمْ .

وَقَدْ وَرَدَ فِي فَضْلِ هَذِهِ الْخَاتِمَةِ لِهَذِهِ السُّورَةِ الْمُبَارَكَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَوْقُوفًا وَابْنُ السُّنِّيِّ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ مَرْفُوعًا قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمْسِي : حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ – سَبْعَ مَرَّاتٍ – كَفَاهُ اللهُ مَا أَهَمَّهُ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) كَذَا فِي الدُّرِّ الْمَنْثُورِ ، وَيُرَاجَعُ مَا قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ فِيهِ ، وَهُوَ لَا يَمْنَعُ الْعَمَلَ بِهِ ، وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

(تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ بَرَاءَةَ بِفَضْلِ اللهِ وَتَوْفِيقِهِ فِي شَهْرِ صَفَرٍ سَنَةَ خَمْسِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَأَلْفٍ وَبَقِيَ تَلْخِيصُ مَا فِيهَا مِنْ أُصُولِ الدِّينِ وَأَحْكَامِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَآدَابِهِ وَسُنَنِ اللهِ فِي ذَلِكَ ، فَنَسْأَلُهُ تَعَالَى تَوْفِيقَنَا فِيهِ لِلْحَقِّ الَّذِي يَرْضَاهُ وَيَنْفَعُ عِبَادَهُ) .

خُلَاصَةُ سُورَةِ بَرَاءَةَ (التَّوْبَةِ)

(وَهِيَ خَمْسَةُ أَبْوَابٍ وَفِيهَا فُصُولٌ)

(هَذِهِ السُّورَةُ آخِرُ السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ الطِّوَالِ نُزُولًا ، فَيَقِلُّ فِيهَا ذِكْرُ أُصُولِ الدِّينِ وَمَا يُنَاسِبُهَا مِنَ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالسُّنَنِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَكَذَا أَحْكَامُ الْعِبَادَاتِ الْبَدَنِيَّةِ – رَاجِعْ مُقَدِّمَةَ خُلَاصَةِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ فِي ص 105 و106 وَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ السُّورَتَيْنِ فِي ص 132 و133 ج

10 ط الْهَيْئَةِ) .

الْبَابُ الْأَوَّلُ

(224/353)

(فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَأَفْعَالِهِ وَشُئُونِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَحْكَامِهِ وَسُنَنِهِ فِيهَا)

وَفِيهِ أَرْبَعَةُ فُصُولٍ

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْإِضَافَاتِ إِلَيْهِ تَعَالَى)

(1 - الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ)

فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَى : الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، الرَّءُوفُ الرَّحِيمُ ، الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ، الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ . وَمِنْهَا الْمُكَرَّرُ مَرَّتَيْنِ وَثَلَاثًا أَوْ أَكْثَرَ ، وَكُلٌّ مِنْهَا مَوْضُوعٌ فِي مَوْضِعِهِ الْمُنَاسِبِ لِمَعْنَاهُ فِي السِّيَاقِ أَوِ الْآيَةِ . وَأَمَّا الْفَائِدَةُ الْعَامَّةُ لِذِكْرِ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ وَتَكْرَارِهَا فِي الْمَوَاضِعِ الْمُخْتَلِفَةِ فَهِيَ تَذْكِيرُ تَالِي الْقُرْآنِ وَسَامِعِهِ الْمَرَّةَ بَعْدَ الْمَرَّةِ بِرَبِّهِ وَخَالِقِهِ وَمَا هُوَ مُتَّصِفٌ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّذِي يُثْمِرُ لَهُ زِيَادَةَ تَعْظِيمِهِ وَحُبِّهِ وَالرَّجَاءِ فِي رَحْمَتِهِ وَإِحْسَانِهِ ، وَالْخَوْفِ مِنْ عِقَابِهِ ، لِمَنْ أَعْرَضَ عَنْ هِدَايَةِ كِتَابِهِ ، أَوْ خَالَفَ حِكْمَتَهُ وَسُنَنَهُ فِي خَلْقِهِ ، وَهَذَا أَعْلَى

مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ ، فِي إِكْمَالِ الْإِيمَانِ ، وَإِعْلَاءِ شَأْنِ الْإِنْسَانِ (فَرَاجِعْهُ فِي 106 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(225/353)

وَمِمَّا وَرَدَ فِيهَا فِي الْعِلْمِ الْإِلَهِيِّ قَوْلُهُ تَعَالَى : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (9 : 78) وَقَوْلُهُ : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ) - إِلَى قَوْلِهِ - (وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (9 : 16) وَهُمَا أَعْظَمُ مَا يُجَدِّدُ فِي الْقَلْبِ مُرَاقَبَتَهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَ كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ ، وَحَسْبُكَ بِهِمَا وَازِعًا وَرَافِعًا .

(2 - الْمَعِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ)

فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْمَعِيَّةِ الْعُلْيَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ الْغَارِ عَنْ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) (9 : 40) وَهِيَ مَعِيَّةُ النَّصْرِ وَالْمَعُونَةِ ، وَالْحِفْظِ

وَالْعِصْمَةِ ، وَالتَّأْيِيدِ وَالرَّحْمَةِ ، كَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَقَامُ فِي حَالِ الْهِجْرَةِ ، وَهَذِهِ الْمَعِيَّةُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَا وَرَدَ فِي مَعْنَاهَا ، وَمِنْ أَعْظَمِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى لِكَلِيمِهِ مُوسَى وَأَخِيهِ هَارُونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : (لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) (20 : 46) فَرَاجِعْ (ص 369 وَمَا بَعْدَهَا

ج10 ط الْهَيْئَةِ) وَفِي الْآيَةِ (وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) (9 : 123) وَهَذِهِ مَعِيَّةُ النَّصْرِ لِأَنَّهَا مَعْطُوفَةٌ عَلَى الْأَمْرِ بِالْقِتَالِ ، وَيُقَالُ فِي كُلٍّ مِنْهَا مَعَ الْعِلْمِ بِمَعْنَاهَا : إنَّهَا مَعِيَّةٌ تَلِيقُ بِهِ تَعَالَى .

(3 - الدَّرَجَةُ وَالْعِنْدِيَّةُ الْإِلَهِيَّةُ وَسَكِينَتُهُ تَعَالَى)

(226/353)

قَالَ تَعَالَى : (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) (9 : 20) الْآيَةَ . وَقَدْ قُلْنَا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْعِنْدِيَّةِ (ص 198 ج10 ط الْهَيْئَةِ) إنَّهَا حُكْمِيَّةٌ (بِضَمِّ الْحَاءِ) شَرْعِيَّةٌ ، وَمَكَانِيَّةٌ جَزَائِيَّةٌ ، أَيْ هُمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً فِي الْفَضْلِ وَالْكَمَالِ فِي حُكْمِ اللَّهِ ، وَأَكْبَرُ مَثُوبَةً فِي جِوَارِ اللَّهِ .

وَقَالَ بَعْدَ بِشَارَتِهِمْ بِالرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ وَالْجَنَّاتِ وَالنَّعِيمِ الْمُقِيمِ وَالْخُلُودِ فِيهَا مِنَ الْآيَةِ (إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (9 : 22) وَهُوَ اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ ، فَالْعِنْدِيَّةُ فِيهِ مُفَسِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا .

وَقَالَ : (إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (9 : 36) فَالْعِنْدِيَّةُ هُنَا يُفَسِّرُهَا مَا بَعْدَهَا وَهُوَ كِتَابُ اللَّهِ الَّذِي كَتَبَ فِيهِ مَقَادِيرَ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَنِظَامَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي وَالشُّهُورِ وَالسِّنِينَ . وَقِيلَ : كِتَابُهُ الْمُنَزَّلُ الَّذِي فِيهِ حُكْمُهُ التَّشْرِيعِيُّ فِي الشُّهُورِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ بَعْدَ مَا ذَكَرَ : (مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ) (9 : 36) إلخ .

(227/353)

وَفِي الْآيَةِ (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا) (9 : 52) فَعِنْدِيَّةُ الْعَذَابِ عِبَارَةٌ عَنْ كَوْنِهِ بِفِعْلِهِ تَعَالَى دُونَ كَسْبٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالْمَصَائِبِ السَّمَاوِيَّةِ بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ بِقَوْلِهِ (أَوْ بِأَيْدِينَا) وَالْإِضَافَةُ فِي الْعِنْدِيَّةِ الْحُكْمِيَّةِ لِلتَّوْقِيفِ وَالتَّعْرِيفِ ، وَفِي الْعِنْدِيَّةِ الْمَكَانِيَّةِ لِلتَّشْرِيفِ ، وَمِثْلُهَا إضَافَةُ السَّكِينَةِ إلَيْهِ تَعَالَى .

(4 - حُبُّ اللَّهِ وَرِضَاهُ وَكُرْهُهُ وَسُخْطُهُ وَغَضَبُهُ)

قَالَ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (9 : 7) وَقَالَ فِي الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ : (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) (9 : 100) وَقَالَ فِي جَزَاءِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْمُجَاهِدِينَ : (وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ) (9 : 72) وَيَدْخُلُ فِي مَعْنَاهُ مَا صَحَّ فِي الْأَحَادِيثِ مِنْ مَقَامِ الرُّؤْيَةِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا ، وَقَالَ فِي شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ : (فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (9 : 96) .

أَسْنَدَ اللَّهُ تَعَالَى إلَى نَفْسِهِ الْحُبَّ وَالرِّضَا فِي هَذِهِ الْآيَاتِ وَفِي سُوَرٍ أُخْرَى ، كَمَا أَثْبَتَ

لِنَفْسِهِ الْكُرْهَ فِي قَوْلِهِ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ) (9 : 46) وَالسُّخْطَ وَالْغَضَبَ فِي سُوَرٍ أُخْرَى . وَالْمُتَكَلِّمُونَ يَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الصِّفَاتِ بِالْإِثَابَةِ وَالْإِحْسَانِ مِنْ لَوَازِمِ الْحُبِّ وَالرِّضَا ،

(228/353)

وَبِالْعُقَابِ مِنْ لَوَازِمِ السُّخْطِ وَالْكُرْهِ وَالْغَضَبِ ، فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِ الْخَالِقِ بِعَبِيدِهِ الَّذِينَ تُعَدُّ هَذِهِ الصِّفَاتُ انْفِعَالَاتٍ نَفْسِيَّةً لَهُمْ يَتَنَزَّهُ اللَّهُ عَنْهَا .

وَمَذْهَبُ السَّلَفِ الصَّالِحِ إثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ وَأَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ تَعْطِيلٍ وَلَا تَمْثِيلٍ وَلَا تَأْوِيلٍ ، فَيَقُولُونَ : إنَّ حُبَّ اللَّهِ تَعَالَى وَكُرْهَهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبَهُ صِفَاتٌ تَلِيقُ بِهِ تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا آثَارُهَا ، وَهِيَ لَا تُمَاثِلُ مَا سُمِّيَ بِاسْمِهَا مِنْ صِفَاتِ الْبَشَرِ ، كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ وَنَفْسَهُ وَعِلْمَهُ وَقُدْرَتَهُ لَا تُمَاثِلُ ذَوَاتِ الْبَشَرِ وَعِلْمَهُمْ وَقُدْرَتَهُمْ بِلَا فَرْقٍ . بَلْ نَقُولُ : إنَّ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ مِنَ الْجِنِّ وَالْمَلَائِكَةِ لَا يُمَاثِلُ فِي إدْرَاكِهِ وَلَا فِي غَيْرِهَا مَا فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، بَلْ رُوِيَ فِي ثَمَرِ الْجَنَّةِ أَنَّهُ يُشْبِهُ ثَمَرَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ مِثْلَهُ وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَنَّةِ مِنْ أَطْعِمَةِ الدُّنْيَا إلَّا الْأَسْمَاءَ . وَقَالَ تَعَالَى فِي نَعِيمِ الْآخِرَةِ : (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ) (32 : 17) وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي تَفْسِيرِهِ لَهُ قَالَ

اللهُ تَعَالَى : (أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ) وَأَمَرَ بِقِرَاءَةِ الْآيَةِ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

(229/353)

وَأَمَّا الْكَلَامُ مَعَ أَهْلِ التَّأْوِيلِ مِنْ نَاحِيَةِ الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي يَزْعُمُونَ الِانْفِرَادَ بِهَا دُونَ عُلَمَاءِ السَّلَفِ فَهُوَ أَنَّ حُبَّ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ كَالْإِيمَانِ وَالْعَدْلِ وَأَهْلِهِمَا ، وَكَرَاهَةَ الْبَاطِلِ كَالْكُفْرِ ، وَالشَّرِّ كَالظُّلْمِ وَمُجْتَرِحِيهِمَا ، كِلَاهُمَا مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمَحْضِ ، وَكُلُّ مَا كَانَ كَمَالًا مَحْضًا فَالْعَقْلُ يُوجِبُهُ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ بِأَعْلَى مِمَّا يَكُونُ

مِنْهُ لِلْوُجُودِ الْمُمْكِنِ – فَقَدِ اتَّفَقَ الْعَقْلُ مَعَ النَّقْلِ عَلَى إِثْبَاتِ هَذِهِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ بِمَعْنًى أَكْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي خِيَارِ النَّاسِ ، وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ وَضْعُ أَسْمَاءَ لَهَا مِنْ كَلَامِ النَّاسِ تَدُلُّ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ مُسَمَّيَاتِهَا فِي الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ ، فَوَجَبَ الرُّجُوعُ فِي ذَلِكَ إِلَى الْوَحْيِ الْفَاصِلِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (42 : 11) فَالتَّنْزِيهُ فِي الْجُمْلَةِ الْأُولَى السَّالِبَةِ أَزَالَ مَا يَسْتَلْزِمُهُ التَّشْبِيهُ فِي الْجُمْلَةِ الثَّانِيَةِ الْمُوجِبَةِ ، بَلْ قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ عَرَبِيٍّ فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : إِنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ هُوَ الْجَمْعُ بَيْنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّشْبِيهِ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي)

(أَفْعَالُ اللهِ فِي تَصَرُّفِهِ وَتَدْبِيرِهِ لِأُمُورِ خَلْقِهِ بِمُقْتَضَى سُنَنِهِ ، لَا يَجْعَلُهُمْ مُجْبَرِينَ بِقُدْرَتِهِ)
قَالَ تَعَالَى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) (9 : 14) الْآيَةَ .

(230/353)

يَتَوَهَّمُ أَهْلُ الْجَبْرِ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى نِحْلَتِهِمْ ، وَيَرُدُّهُ أَنَّهُ تَعَالَى أَمَرَهُمْ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا مُجْبَرِينَ لَكَانَ أَمْرُهُمْ لَغْوًا وَعَبَثًا . وَقَوْلُهُ : (يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ) مَعْنَاهُ يُعَذِّبُهُمْ بِتَمْكِينِ أَيْدِيكُمْ مِنْ رِقَابِهِمْ قَتْلًا ، وَمِنْ صُدُورِهِمْ وَنُحُورِهِمْ طَعْنًا ، وَيُؤَكِّدُهُ الْوَعْدُ بَعْدَهُ بِنَصْرِهِمْ وَفِي مَعْنَاهُ
قَوْلُهُ : (وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا) (9 : 52) .

(231/353)

وَقَالَ تَعَالَى فِي آيَةٍ (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (9 : 19) وَقَالَ فِي آيَتَيْ 24 و80 : (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) . وَقَالَ : (وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (9 : 37) وَلَيْسَ مَعْنَى هَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى مَنَعَهُمْ مِنَ الْهِدَايَةِ بِقُدْرَتِهِ فَصَارُوا عَاجِزِينَ عَنْهَا وَمُجْبَرِينَ

عَلَى الْفِسْقِ وَالظُّلْمِ وَالْكُفْرِ إِجْبَارًا ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهَا مَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِهَا وَهُوَ : أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي رَسَخَتْ فِي أَنْفُسِهِمْ بِكَسْبِهِمْ مُنَافِيَةٌ لِهُدَى اللهِ تَعَالَى الَّذِي بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ بِحَسَبِ سُنَّتِهِ تَعَالَى فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ رَاجِعْ (ص 197 و211 و363 و489 فِي ج10 ط الْهَيْئَةِ) وَيُقَابِلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى قَبْلَ الْآيَةِ الْأُولَى مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ فِيمَنْ تُرْجَى لَهُمُ الْهِدَايَةُ بِحَسَبِ سُنَنِ اللهِ تَعَالَى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (9 : 18) .

(232/353)

وَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ بَيَانِ السُّنَنِ وَطَبَائِعِ الْبَشَرِ قَوْلُهُ فِي خَوَالِفِ الْمُنَافِقِينَ : (وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ) (9 : 87) ثُمَّ قَوْلُهُ فِيهِمْ : (وَطَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (9 : 93) فَهُوَ بَيَانٌ لِسُنَّةِ اللهِ فِي تَأْثِيرِ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي مِنْهَا رِضَاهُمْ بِخُطَّةِ الْخَسْفِ وَالذُّلِّ وَهُوَ التَّخَلُّفُ عَنِ الْجِهَادِ – أَنَّ قُلُوبَهُمْ كَالْمَطْبُوعِ عَلَيْهَا الَّتِي لَا تُفْقَهُ كُنْهُ حَالِهَا وَلَا تُعْلَمُ سُوءُ مَآلِهَا (ص 509 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ فِي الَّذِينَ يَنْصَرِفُونَ مِنْهُمْ مُتَسَلِّلِينَ مِنْ مَجْلِسِ الْقُرْآنِ : (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (9 :

127) أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ قَوْمٌ فَقَدُوا صِفَةَ الْفَقَاهَةِ الْفِطْرِيَّةِ ، وَفَهْمِ الْحَقَائِقِ وَمَا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ ; لِعَدَمِ اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ فِيهَا إِلَى آخِرِ مَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِهَا (فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

وَبِهَذِهِ الْمِرْآةِ تَرَى حَقِيقَةَ الْمُرَادِ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ) (9 : 46) وَرَاجِعْهُ (فِي ص 407 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَقَوْلِهِ (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ) (9 : 67) وَرَاجِعْهُ فِي (ص 460 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ)

فِي تَعْلِيلِ أَفْعَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَحْكَامِهِ وَسُنَنِهِ فِيهِمَا

1 - تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ بِإِتْمَامِ الْعُهُودِ الْمُؤَقَّتَةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ) (9 : 4 و 7)

.

(233/353)

---

2 - تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِ التَّائِبِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (9 : 5) .

- تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ بِإِجَارَةِ الْمُشْرِكِ الْمُسْتَجِيرِ لِسَمَاعِ كَلَامِ اللَّهِ بِقَوْلِهِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا

يَعْلَمُونَ) (9 : 6) .

4 – تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ بِقِتَالِ الْمُشْرِكِينَ النَّاكِثِينَ لِلْعَهْدِ بِقَوْلِهِ (لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ) (9 : 12) .

5 – تَرَى تَعْلِيلَ عَدَمِ قَبُولِ صَدَقَاتِ الْمُنَافِقِينَ بِفِسْقِهِمْ ثُمَّ بِكُفْرِهِمْ فِي آيَتَيْ 53 و54 .

6 – تَرَى تَعْلِيلَ عَدَمِ الْمَغْفِرَةِ لَهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَفِسْقِهِمْ فِي الْآيَةِ 9 : 80 .

7 – تَرَى تَعْلِيلَ النَّهْيِ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى مَوْتَاهُمْ بِكُفْرِهِمْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فِي الْآيَةِ 9 : 84 .

8 – تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ بِأَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِتَطْهِيرِهِمْ وَتَزْكِيَتِهِمْ بِهَا 9 : 103 .

9 – تَرَى تَعْلِيلَ الْأَمْرِ فِتْنَةَ الْمُنَافِقِينَ فِي كُلِّ عَامٍ بِأَمَلِ التَّوْبَةِ وَالتَّذَكُّرِ 9 : 126 .

فَيُعْلَمُ مِنْ كُلِّ تَعْلِيلٍ أَنَّ حِكْمَتَهُ تَعَالَى فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ مَنْفَعَةُ عِبَادِهِ وَمَصْلَحَتِهِمْ وَخَيْرِهِمْ .

سُنَنُهُ تَعَالَى فِي أَفْرَادِ الْبَشَرِ وَأَقْوَامِهِمْ وَأُمَمِهِمْ :

بَيَّنَّا سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِي تَأْثِيرِ الْعَقَائِدِ وَالصِّفَاتِ النَّفْسِيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ ، وَتَرَتُّبِ الْأَعْمَالِ عَلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ (مِنْهَا) إِخْزَاءُ الْكَافِرِينَ فِي الْآيَةِ الْأُولَى (وَمِنْهَا) نَفْيُ هِدَايَةِ اللهِ تَعَالَى لِلظَّالِمِينَ وَالْفَاسِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي الْآيَاتِ 19 و24 و27 و80 (وَمِنْهَا) كَرَاهَتُهُ تَعَالَى انْبِعَاثَ

الْمُنَافِقِينَ لِلْقِتَالِ وَتَثْبِيطَهُ لَهُمْ ، وَقَوْلُهُ : (اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) فِي الْآيَةِ 46 (وَمِنْهَا) طَبْعُهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فِي الْآيَتَيْنِ 87 و93 وَفِي مَعْنَاهُ صَرَفَ قُلُوبَهُمْ عَنِ الْإِيمَانِ بِالْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ 127 وَتَقَدَّمَ بَيَانُ هَذَا فِي الْفَصْلِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا .

وَمِنْ بَيَانِ سُنَنِهِ تَعَالَى فِي الْأُمَمِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ) (9 : 39) فَبَقَاءُ الْأُمَمِ وَعِزَّتَهَا يَتَوَقَّفَانِ عَلَى قُوَّةِ الدِّفَاعِ الْحَرْبِيَّةِ (رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي ص 368 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهَا قَوْلُهُ : (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا) (9 : 47) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي (ص 408 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهَا قَوْلُهُ : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) (9 : 115) .

(الْفَصْلُ الرَّابِعُ)

فِي قَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ وَوِلَايَتِهِ لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَوَكُّلِهِمْ عَلَيْهِ

(235/353)

هَذِهِ عِدَّةُ عَقَائِدَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ ، وَكَمَالِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيقَانِ ، جُمِعَتْ كُلُّهَا فِي آيَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يَرُدَّ بِهَا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ أَخْبَرَهُ عَنْهُمْ بِأَنَّهُمْ تَسُوءُهُمْ كُلُّ حَسَنَةٍ تُصِيبُهُ كَالنَّصْرِ وَالْغَنِيمَةِ فِي غَزْوَةِ بَدْرٍ ،

وَتُفْرِحُهُمْ كُلُّ مُصِيبَةٍ تُصِيبُهُ كَالنَّكْبَةِ الَّتِي وَقَعَتْ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ وَهِيَ (قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (9 : 51) فَتَصَوَّرْ حَالَ مُؤْمِنٍ يُوقِنُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَهُ إِلَّا مَا كَتَبَهُ اللَّهُ

لَهُ ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ هَذَا الْمَكْتُوبَ لَهُ بِعَيْنِهِ ، فَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ لَا يَعْدُو فِي جُمْلَتِهِ وَعْدَهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ حَيْثُ هُوَ مُؤْمِنٌ مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّصْرِ وَالشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُمَا بِالْحُسْنَيَيْنِ فِي الْآيَةِ الَّتِي بَعْدَ هَذِهِ (أَيْ آيَةِ 52) وَيَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي يَتَوَلَّى نَصْرَهُ وَتَوْفِيقَهُ ; فَهُوَ بِمُقْتَضَى إِيمَانِهِ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ وَيُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَيْهِ ، تَصَوَّرْ حَالَ مُؤْمِنٍ تَمَكَّنَتْ هَذِهِ الْعَقَائِدُ مِنْ نَفْسِهِ ، وَمَلَكَتْ عَلَيْهِ وِجْدَانَهُ ، هَلْ يَخَافُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ ؟ هَلْ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ؟

(236/353)

هَلْ يَمْنَعُهُ أَيُّ خَطْبٍ مِنَ الْخُطُوبِ عَنِ الْجِهَادِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ ، وَإِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ ، وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَمَدِّ بِسَاطِ الْبِرِّ وَالْفَضْلِ ؟ وَتَصَوَّرْ حَالَ أُمَّةٍ يَغْلِبُ عَلَى أَفْرَادِهَا مَا ذُكِرَ ، أَلَا تَكُونُ أَعَزَّ الْأُمَمِ نَفْسًا ، وَأَشَدَّهَا بَأْسًا ؟

وَيُؤَيِّدُ هَذِهِ الْعَقَائِدَ وَيَزِيدُهَا رُسُوخًا فِي قَلْبِ تَالِي هَذِهِ السُّورَةِ خَتْمُهَا بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ (فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) (9 : 129)

فَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَتَأَمَّلَ مَعْنَاهَا وَيُطَالِبَ نَفْسَهُ بِالتَّحَقُّقِ بِهِ ، فَإِنَّهُ يَجِدُ بِهِ مِنْ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ وَعِزَّةِ النَّفْسِ مَا يَحْتَقِرُ بِهِ خَسَائِسَ الْمَادَّةِ الَّتِي يَتَكَالَبُ الْمَادِّيُّونَ عَلَيْهَا ، وَيَبْخَعُونَ أَنْفُسَهُمْ انْتِحَارًا إذَا فَاتَهُمْ أَوْ أَعْيَاهُمْ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ عَنْ أُمِّ الدَّرْدَاءِ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَنْ قَالَ إذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى (حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) سَبْعَ مَرَّاتٍ كَفَاهُ اللَّهُ مَا أَهَمَّهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ هَذَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ 129 .

الْبَابُ الثَّانِي

(فِي مَكَانَةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ عِنْدَ رَبِّهِ وَفِي هِدَايَةِ دِينِهِ وَحُقُوقِهِ عَلَى أُمَّتِهِ)

وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي اقْتِرَانِ اسْمِهِ بِاسْمِ رَبِّهِ وَحَقِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِحَقِّهِ عَزَّ وَجَلَّ)

(237/353)

وَفِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ شَاهِدًا

(1 و2) افْتُتِحَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ

الْمُشْرِكِينَ) وَعَطَفَ عَلَيْهَا قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ) (9 : 3) إِلَخْ فَقَرَنَ تَعَالَى اسْمَ نَبِيِّهِ بِاسْمِهِ فِي تَبْلِيغِ أَحْكَامِهِ وَتَنْفِيذِهَا .

(3) قَالَ تَعَالَى فِي وَصْفِ كَمَلَةِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْآيَةِ (وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً) (9 : 16) أَيْ دَخِيلَةً وَبِطَانَةً مِنْ غَيْرِهِمْ يُطْلِعُونَهُمْ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَلِهَذَا أَشْرَكَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا لِأَنَّهُ يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِهِمْ فِي وِلَايَةِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ دُونَ أَعْدَائِهِمْ ، وَيَضُرُّهُمْ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمْ وَلَائِجُ وَدَخَائِلُ مِنْ غَيْرِهِمْ . دُونَ

مَا قَبْلَهُ الَّذِي هُوَ تَشْرِيعٌ ، هُوَ حَقُّ اللهِ تَعَالَى ، وَتَبْلِيغٌ وَتَنْفِيذٌ : هَمَّا حَقُّ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي عَهْدِهِ ، وَوَرَثَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ .

(238/353)

---

(4) قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ) (9 : 24) فَجَعَلَ كَمَالَ الْإِيمَانِ مَشْرُوطًا بِتَفْضِيلِ حُبِّ اللهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ عَلَى كُلِّ مَا يُحَبُّ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنَ النَّاسِ وَالْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ لِأَنَّهُ عِبَادَةٌ يَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ وَحْدَهُ وَلَيْسَ

لِلرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَدْنَى حَقٍّ وَلَا شَرِكَةَ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عِبَادَتِهِ .

(5) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي صِفَاتِ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ شَرَعَ قِتَالَهُمْ مِنَ الْآيَةِ (وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ) (9 : 29) عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ (رَسُولَهُ) فِي الْآيَةِ هُوَ الْفَرْدُ الْأَكْمَلُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَهُوَ قَوْلٌ لِلْمُفَسِّرِينَ يُقَابِلُهُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ رَسُولُهُ تَعَالَى إِلَيْهِمْ وَهُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْيَهُودِ وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلنَّصَارَى .

(239/353)

وَهَلِ الْعَطْفُ فِي الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الرَّسُولَ قَدْ أَعْطَاهُ اللهُ حَقَّ التَّحْرِيمِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ أَمْ حَظُّهُ مِنْهُ التَّبْلِيغُ عَنِ اللهِ تَعَالَى نَصًّا وَلَوْ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ أَوِ اسْتِنْبَاطًا ؟ اخْتَلَفَ عُلَمَاؤُنَا فِي التَّشْرِيعِ الدُّنْيَوِيِّ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ دُونَ الدِّينِيِّ الْمَحْضِ فَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى الْأَوَّلِ وَجَعَلُوا مِنْهُ تَحْرِيمَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْمَدِينَةِ كَمَكَّةَ أَنْ يُصَادَ صَيْدُهَا أَوْ يُخْتَلَى خَلَاهَا إِلَخْ ، وَذَهَبَ آخَرُونَ إِلَى الثَّانِي وَمِنْهُمُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بِالتَّفْصِيلِ .

(6) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سَبَبِ مَنْعِ الْمُنَافِقِينَ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ مِنَ الْآيَةِ (أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ) (9 : 54) وَمِثْلُهُ فِي سَبَبِ عَدَمِ انْتِفَاعِهِمْ بِاسْتِغْفَارِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ - مِنَ الْآيَةِ (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ) (9 : 80) وَهَذَا ظَاهِرٌ فَإِنَّ الدِّينَ إنَّمَا يَكُونُ بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِرَسُولِهِ وَمَا جَاءَ بِهِ ، وَأَنَّى يُعْرَفُ اللَّهُ وَمَا يُرْضِيهِ مِنْ عِبَادَتِهِ إلَّا مِنْ طَرِيقِ رُسُلِهِ وَمَا أَوْحَاهُ إلَيْهِمْ ؟

(7) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الَّذِينَ لَمَزُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَيْ عَابُوهُ فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ وَكَانُوا يَرْضَوْنَ إذَا أُعْطَوْا وَيَسْخَطُونَ إذَا مُنِعُوا : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ

(240/353)

وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولِهِ إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) (9 : 59) وَالْجَمْعُ فِيهَا بَيْنَ اسْمِ اللَّهِ وَاسْمِ رَسُولِهِ فِي مَوْضِعَيْنِ : أَحَدُهُمَا : الرِّضَاءُ بِمَا آتَيَا وَأَعْطَيَا بِالْفِعْلِ وَالثَّانِي الرَّجَاءُ فِيمَا يُؤْتِيَانِ مِنْ بَعْدُ ، فَأَمَّا الْعَطَاءُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْعَمَ وَيُنْعِمُ بِالْغَنَائِمِ فِي الْحَرْبِ وَهُوَ الَّذِي شَرَعَ قِسْمَتَهَا بَيْنَ الْغَانِمِينَ ، وَجَعَلَ خُمْسَهَا فِيمَا تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ فِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْهَا مُوَاسَاةُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ، وَهُوَ الْمُنْعِمُ بِسَائِرِ الْأَمْوَالِ ، وَالَّذِي فَرَضَ

(241/353)

فِيهَا مَا تَقَدَّمَ تَفْصِيلُهُ مِنَ الصَّدَقَاتِ ، وَأَمَّا الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَهُوَ الْقَاسِمُ لِلْغَنَائِمِ وَالصَّدَقَاتِ بِإِعْطَائِهَا لِمُسْتَحِقِّيهَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَلِذَلِكَ خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بِالْفَضْلِ . وَفِيهَا مِنْ أُصُولِ التَّوْحِيدِ ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا لِلَّهِ وَحْدَهُ وَمَا لَهُ وَلِلرَّسُولِ أَمْرَانِ : (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمُحْسِبَ الْكَافِيَ لِلْعِبَادِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَلِهَذَا أَرْشَدَهُمْ أَنْ يَقُولُوا : (حَسْبُنَا اللَّهُ) وَلَمْ يَقُلْ وَرَسُولُهُ كَمَا قَالَ فِي الْإِيتَاءِ ، وَ (ثَانِيهِمَا) أَنَّ تَوَجُّهَ الْمُؤْمِنِ فِيمَا يَرْغَبُهُ وَيَرْجُوهُ مِنَ الرِّزْقِ وَغَيْرِهِ يَجِبُ أَنْ يَنْتَهِيَ إلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ وَهُوَ نَصُّ قَوْلِهِ : (إنَّا إلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ) (9 : 59) وَمِنْهُ (وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ) (94 : 8) أَيْ دُونَ غَيْرِهِ (رَاجِعْ ص 241 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(242/353)

---

(8) قَوْلُهُ تَعَالَى (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ) (9 : 62) فَمُقْتَضَى الْإِيمَانِ الَّذِي لَا يَصِحُّ بِدُونِهِ - تَحَرِّي الْمُؤْمِنِ إرْضَاءَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ الْأُولَى وَإِرْضَاءَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَاتِهِمْ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ التَّابِعَةِ الْأُولَى ; ذَلِكَ بِأَنَّ كُلَّ مَا يُرْضِي رَسُولَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُرْضِيهِ ، فَهُمَا مُتَلَازِمَانِ ، وَأَمَّا

الْمُؤْمِنُونَ فَقَدْ يُرْضِي بَعْضُهُمْ مَا لَا يُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ لِجَهْلِهِ بِمَا يُرْضِيهِمَا أَوْ غَفْلَتِهِ عَنْهُ أَوِ اتِّبَاعِهِ لِهَوَاهُ فِيهِ . وَمِنْهُ فِي مَوْضُوعِ الْآيَةِ فِي أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رُبَّمَا كَانُوا يُصَدِّقُونَ أُولَئِكَ الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ لَهُمْ بِأَنَّهُمْ صَادِقُونَ فِي اعْتِذَارِهِمْ عَمَّا اتُّهِمُوا بِهِ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ ; لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَا يَعْلَمُهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ بَاطِنِ أَمْرِهِمْ وَمَا أَعْلَمَ بِهِ رَسُولَهُ مِنْهُ ، وَلِذَلِكَ قَالَ فِي آيَةٍ أُخْرَى : (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ) (9 : 96) .

(9) قَوْلُهُ (تَعَالَى أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ)

(9 : 63) الْآيَةَ هَذِهِ مُقَابِلَةٌ لِمَا قَبْلَهَا فَإِنَّ مَنْ يُحَادِدِ اللهَ أَيْ يُعَادِيهِ يُعَادِي رَسُولَهُ كَمَا أَنَّ مَنْ يُرْضِي أَحَدَهُمَا يُرْضِي الْآخَرَ ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ الْجَزَاءُ وَاحِدًا .

(243/353)

---

(10) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَخُوضُونَ فِي مَسْأَلَةِ غَزْوَةِ تَبُوكَ وَيَهْزَءُونَ بِمُحَاوَلَةِ غَزْوِ الرُّومِ وَرَجَاءِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - النَّصْرَ عَلَيْهِمْ وَبِمَا كَانَ وَعَدَ بِهِ أَصْحَابَهُ مِنَ الظَّفَرِ بِمُلْكِهِمْ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) (9 : 65) فَحُكْمُ الِاسْتِهْزَاءِ بِاللهِ وَآيَاتِهِ الْكُفْرُ ، وَهُوَ حُكْمُ

الِاسْتِهْزَاءِ بِرَسُولِهِ ; لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي وَعَدَ رَسُولَهُ بِالنَّصْرِ وَأَمَرَهُ بِالْغَزْوِ ، وَرَسُولُهُ إنَّمَا بَلَّغَ عَنْهُ آيَاتِهِ وَوَعْدَهُ فِي ذَلِكَ .

(11) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (9 : 90) الْآيَةَ . مَعْنَى كَذِبِهِمْ إيَّاهُمَا إظْهَارُ الْإِيمَانِ بِهِمَا كَذِبًا وَخِدَاعًا وَمَنْ كَذَّبَ الرَّسُولَ فِي دَعْوَى الْإِيمَانِ فَقَدْ كَذَّبَ اللَّهَ - وَإِنْ لَمْ يَشْعُرْ بِذَلِكَ - وَاسْتَحَقَّ الْجَزَاءَ الَّذِي فِي الْآيَةِ .

(244/353)

---

(12) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَصْحَابِ الْأَعْذَارِ الصَّادِقَةِ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ الْوَاجِبِ (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ) (9 : 19) فَاشْتَرَطَ لِقَبُولِ عُذْرِهِمْ فِي الْقُعُودِ عَنِ الْقِتَالِ النُّصْحَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ يَقْدِرُونَ عَلَيْهِمَا فِي مُقَاوَمَةِ الْأَعْدَاءِ وَمُسَاعَدَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَالنُّصْحُ مِنْ أَعْظَمِ شُعَبِ الْإِيمَانِ ، وَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ .

(13) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُعْتَذِرِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَنِ الْخُرُوجِ إلَى تَبُوكَ (يَعْتَذِرُونَ إلَيْكُمْ إذَا رَجَعْتُمْ إلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ

وَرَسُولُهُ) (9 : 94) الْآيَةَ . وَالْمُرَادُ مِنْ ذِكْرِ رُؤْيَةِ الرَّسُولِ لَهَا إعْلَامُهُمْ أَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَيُعَامِلُهُمْ بِمُقْتَضَاهَا فِي الدُّنْيَا ، دُونَ أَقْوَالِهِمْ فِي الِاعْتِذَارِ عَنْ تَخَلُّفِهِمْ وَغَيْرِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِمْ . وَأَمَّا رُؤْيَةُ اللَّهِ تَعَالَى لَهَا فَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الْجَزَاءِ فِي الْآخِرَةِ كَمَا صَرَّحَ بِهِ فِي تَتِمَّةِ الْآيَةِ (بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) وَفِي مَعْنَاهَا قَوْلُهُ تَعَالَى (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) (9 : 105) هَذِهِ الْآيَةُ حَثٌّ عَلَى الْعَمَلِ النَّافِعِ لِلدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ الْمُؤْمِنُونَ هُنَا بَعْدَ ذِكْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِتَذْكِيرِ الْعَامِلِينَ

(245/353)

بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى أَعْمَالَهُمْ وَهُوَ الَّذِي يُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا ، فَيَجِبُ عَلَيْهِمُ الْإِحْسَانُ وَالْإِخْلَاصُ لَهُ ، وَالْوُقُوفُ عِنْدَ حُدُودِ شَرْعِهِ فِيهَا . وَبِأَنَّ رَسُولَهُ يَرَاهَا وَيُعَامِلُهُمْ بِمُقْتَضَاهَا .

وَهَذَا خَاصٌّ بِحَالِ حَيَاتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ الشَّهِيدُ عَلَيْهِمْ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى لِيَتَحَرَّوْا أَنْ يَشْهَدَ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ - ثُمَّ لِتَذْكِيرِهِمْ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهَا فَيَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَتَّبِعُوا فِيهَا سَبِيلَهُمْ وَيَتَحَرَّوْا فِيهَا مَا يُوَافِقُ الْمَصْلَحَةَ الْعَامَّةَ الَّتِي يَشْتَرِكُونَ فِيهَا ، وَجَمَاعَةُ الْمُؤْمِنِينَ شُهَدَاءُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، وَشَهَادَتُهُمْ مَقْبُولَةٌ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ فِي مَوْضِعِهَا بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ)

(14) قَوْلُهُ تَعَالَى (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) (9 : 99) فَهَذَا ضَرْبٌ مِنِ اقْتِرَانِ اسْمِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ مَعَ الْفَصْلِ فِيهِ بَيْنَ مَا لَهُ تَعَالَى وَمَا لِرَسُولِهِ . فَالَّذِي لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ هَذِهِ الْعِبَادَةِ هُوَ قَصْدُ الْقُرْبَةِ وَابْتِغَاءُ الْمَرْضَاةِ وَالْمَثُوبَةِ ، وَالَّذِي لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ طَلَبُ صَلَوَاتِهِ أَيْ أَدْعِيَةٍ إِذْ كَانَ يَدْعُو لِلْمُتَصَدِّقِينَ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (فِي أَوَّلِ الْجُزْءِ) .

(246/353)

وَكُلُّ هَذِهِ الْآيَاتِ مِمَّا يُفَنِّدُ دَعْوَى بَعْضِ الْمَلَاحِدَةِ أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْقُرْآنُ وَحْدَهُ دُونَ سُنَّةِ رَسُولِهِ ، وَكَذَلِكَ مَا تَرَى فِي الْفَصْلَيْنِ اللَّذَيْنِ بَعْدَهُ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي)

(فِي عُلُوِّ مَكَانَتِهِ وَعِنَايَةِ اللهِ تَعَالَى بِهِ وَتَكْرِيمِهِ وَتَأْدِيبِهِ وَتَكْمِيلِهِ إِيَّاهُ)

(وَفِيهِ إِحْدَى عَشْرَةَ مَنْقَبَةً بِالْإِجْمَالِ وَأَضْعَافُ ذَلِكَ بِالتَّفْصِيلِ)

(الْمَنْقَبَةُ الْأُولَى) جَعْلُ الْإِيمَانِ بِهِ وَطَاعَتِهِ وَحُبِّهِ وَإِرْضَائِهِ مَقْرُونَةً فِي الْمَرْتَبَةِ وَالثَّنَاءِ وَالثَّوَابِ بِمَا لَهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ ذَلِكَ عَلَى عِبَادِهِ ، وَجَعْلُ مَا يُقَابِلُ ذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ بِهِ وَعِصْيَانِهِ

وَبُغْضِهِ وَإِغْضَابِهِ وَإِيذَائِهِ مَقْرُونَةٌ فِي الْحَظْرِ وَالْكُفْرِ وَالْوَعِيدِ وَاسْتِحْقَاقِ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ بِالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَعِصْيَانِهِ إلَخْ . وَتَجِدُ مَا فِي السُّورَةِ مِنَ الْأَمْرَيْنِ مُفَصَّلًا فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا ، فَهِيَ بِضْعَ عَشْرَةَ لَا مَنْقَبَةٌ وَاحِدَةٌ .

(الثَّانِيَةُ) إنْزَالُ اللَّهِ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَتَأْيِيدُهُ بِجُنُودِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ حِينَ انْهَزَمَ الْمُؤْمِنُونَ وَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ كَمَا هُوَ مُبَيَّنٌ فِي الْآيَتَيْنِ 25 و26 (وَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُهُمَا فِي ص 217 - 221 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(247/353)

(الثَّالِثَةُ) نَصْرُ اللَّهِ لَهُ عِنْدَ خُرُوجِهِ لِلْهِجْرَةِ مَعَ صَاحِبِهِ الصِّدِّيقِ ، وَمَعِيَّتُهُ الْخَاصَّةُ لَهُمَا ، وَإِنْزَالُ سَكِينَتِهِ عَلَيْهِمَا ، وَتَأْيِيدُهُمَا بِجُنُودِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ، وَفِيهَا عِدَّةُ مَنَاقِبَ كَمَا تَرَاهُ فِي آيَةِ الْغَارِ (40) وَتَفْسِيرُهَا الْبَدِيعُ (فِي ص 368 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الرَّابِعَةُ) إتْمَامُ اللَّهِ تَعَالَى نُورَهُ بِهِ كَمَا تَرَاهُ فِي الْآيَةِ 32 وَقَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ إنَّهُ هُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نُورُ اللَّهِ الْمُرَادُ مِنَ الْآيَةِ ، فَانْظُرْ تَفْسِيرَهَا (ص 333 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْخَامِسَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَهَا (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى

الدِّينِ كُلِّهِ) (9 : 33) الْآيَةَ . وَهِيَ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عِدَّةِ مَنَاقِبَ . فَانْظُرْ تَفْسِيرَهَا (فِي ص 338 - 343 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(السَّادِسَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى لَهُ (عَفَا اللهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ) (9 : 43) الْآيَةَ . وَفِيهَا مِنْ لُطْفِهِ تَعَالَى بِهِ وَتَكْرِيمِهِ إِيَّاهُ أَنْ أَعْلَمَهُ بِعَفْوِهِ عَنْهُ قَبْلَ إِعْلَامِهِ بِخَطَأِ الِاجْتِهَادِ فِي إِذْنِهِ لِبَعْضِ الْمُنَافِقِينَ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ إِلَى تَبُوكَ ، وَتَجِدُ فِي تَفْسِيرِهَا تَحْقِيقَ الْكَلَامِ فِي ذُنُوبِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ (ص 401 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(248/353)

(السَّابِعَةُ) إِعْلَامُهُ تَعَالَى إِيَّاهُ بِأَنَّ اسْتِغْفَارَهُ لِلْمُشْرِكِينَ وَعَدَمَهُ سِيَّانِ فِي جَانِبِ حُكْمِ اللهِ فِيهِمْ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَغْفِرُ لِلْمُصِرِّينَ عَلَى نِفَاقِهِمْ . وَذَلِكَ فِي الْآيَةِ (80) وَهَذَا تَقْيِيدٌ لِنَفْعِ الدُّعَاءِ وَالشَّفَاعَةِ .

(الثَّامِنَةُ) إِعْلَامُهُ تَعَالَى بِأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّبِيِّ - مِنْ حَيْثُ هُوَ نَبِيٌّ - وَلَا مِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى بَعْدَ الْعِلْمِ بِمَوْتِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ بَعْدَ أَنْ فَعَلُوا ذَلِكَ . وَهَذَا نَصُّ الْآيَةِ 113 وَهِيَ إِرْشَادٌ مِنَ اللهِ لَهُمْ فِيمَا يَجِبُ أَنْ يَقِفُوا عِنْدَهُ مِنْ مَوَدَّةِ الْقَرَابَةِ وَالنَّسَبِ (رَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

(التَّاسِعَةُ) نَهْيُهُ تَعَالَى إيَّاهُ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ أَوِ الْقِيَامِ عَلَى قُبُورِهِمْ عِنْدَ الدَّفْنِ بَعْدَ صَلَاتِهِ عَلَى زَعِيمِهِمُ الْأَكْبَرِ الْأَكْفَرِ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيِّ ابْنِ سَلُولَ وَالْقِيَامِ عَلَى قَبْرِهِ عِنْدَ دَفْنِهِ تَكْرِيمًا لِنَجْلِهِ الْمُؤْمِنِ الصَّادِقِ ، وَتَأْلِيفًا لِقَوْمِهِ - وَكَانَ أَكْثَرُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ - وَهَذَا النَّهْيُ يَتَضَمَّنُ الْإِنْكَارَ وَالتَّأْدِيبَ وَالْحَدَّ الَّذِي يَجِبُ الْوُقُوفُ عِنْدَهُ فِي مُعَامَلَةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَسَيَأْتِي تَفْصِيلُهُ .

(249/353)

(الْعَاشِرَةُ) نَهْيُهُ عَنِ الْإِعْجَابِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ ، وَإِعْلَامِهِ بِأَنَّ اللهَ يُعَذِّبُهُمْ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ ، وَهُوَ فِي الْآيَتَيْنِ 55 و58 عَلَى الْقَوْلِ بِأَنَّ الْخِطَابَ فِيهِمَا لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُ الْقُرْآنَ أَوْ يَقْرَؤُهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ تَأْدِيبٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى وَتَكْمِيلٌ لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ بِالسُّمُوِّ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ تَعْظِيمِ شَأْنِ قُوَّةِ الْأَمْوَالِ وَعِزَّةِ الْأَوْلَادِ . وَزِينَتُهُمَا يَكُونَانِ لِلْمَحْرُومِينَ مِنْ قُوَّةِ الْإِيمَانِ وَعِزَّتِهِ ، وَهُمَا اللَّتَانِ لَا يَعْلُوهُمَا شَيْءٌ - وَتَعْلِيمُهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مِنْ أَنَّ النِّعَمَ الصُّورِيَّةَ الدُّنْيَوِيَّةَ لَا تَتِمُّ لِأَهْلِهَا النِّعْمَةُ بِهَا إلَّا بِاطْمِئْنَانِ الْقُلُوبِ بِنِعْمَةِ الْإِيمَانِ ، وَتَزَكِّي الْأَنْفُسِ بِأَعْمَالِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنَّ السَّعَادَةَ الْحَقِيقِيَّةَ إنَّمَا هِيَ سَعَادَةُ النَّفْسِ بِالْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ وَعُلُوِّ الْأَخْلَاقِ ، وَمِنْ مُتَمِّمَاتِهَا الدُّنْيَوِيَّةِ كَثْرَةُ الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ ، وَأَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ بِفَقْدِهِمْ لِهَذِهِ النِّعَمِ الْبَاطِنَةِ ، لَا سَعَادَةَ لَهُمْ بِتِلْكَ النِّعَمِ الظَّاهِرَةِ ، وَإِنَّمَا هِيَ مُنَغِّصَاتٌ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَفْسِهَا بِمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَتَيْنِ (فِي ص 418 و495 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(250/353)

(الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ) تَوْبَتُهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَعَلَى خِيَارِ أَصْحَابِهِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهَذَا مُنْتَهَى التَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ لَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِثْرِ غَزْوَةِ تَبُوكَ الَّتِي أُرْهِقُوا فِيهَا أَشَدَّ الْعُسْرِ ، وَقَاسَوْا أَعْظَمَ الْجُهْدِ ، مِنَ الْجُوعِ وَالظَّمَأِ وَالنَّصَبِ ، وَمُفَارَقَةِ مَوْسِمِ الرُّطَبِ ، فِي شِدَّةِ الْحَرِّ ، وَقِلَّةِ الزَّادِ وَالظَّهْرِ ، (الرَّوَاحِلِ) فَكَانَ لَا بُدَّ أَنْ يَعْرِضَ لَهُمْ بَعْضَ الْهَفَوَاتِ الْجَدِيرَةِ بِرَأْفَةِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فِي جَانِبِ تِلْكَ الْحَسَنَاتِ ، الَّتِي أُشِيرَ إِلَى مُضَاعَفَةِ أَجْرِهَا فِيمَا يَلِي الْإِخْبَارَ بِالتَّوْبَةِ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ (لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (9 : 117) ثُمَّ ذَكَرَ فِيمَا يَلِيهَا تَوْبَتَهُ عَلَى الَّذِينَ خُلِّفُوا مِنْ هَؤُلَاءِ الصَّادِقِينَ عَنْ تَبُوكَ بِغَيْرِ عُذْرٍ (حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) (9 : 118) إِلَخْ .

وَالتَّوْبَةُ مِنَ الْعَبْدِ إِلَى رَبِّهِ هِيَ رُجُوعُهُ إِلَيْهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُرْضِيهِ وَتَحَرِّيهِ مَا يُرْضِيهِ ، وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ حَالِ التَّائِبِينَ فِيمَا يَتُوبُونَ عَنْهُ حَتَّى إِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَتُوبُ إِلَيْهِ وَيَسْتَغْفِرُهُ مِنَ الْغَفْلَةِ ، وَمِنَ التَّقْصِيرِ فِي اسْتِكْمَالِ الْجُهْدِ فِي الطَّاعَةِ .

(251/353)

وَأَمَّا التَّوْبَةُ مِنَ الرَّبِّ عَلَى عَبْدِهِ فَهِيَ قَبُولُ تَوْبَتِهِ ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْ ذَنْبِهِ أَوْ هَفْوَتِهِ ، أَوْ عَنْ تَقْصِيرِهِ فِي عِبَادَتِهِ ، وَالْخَطَأِ فِي الِاجْتِهَادِ فِي إِقَامَةِ سُنَنِهِ ، وَتَنْفِيذِ شَرِيعَتِهِ - وَعَطْفُهُ عَلَيْهِ بِمَا يَكُونُ مَزِيدَ كَمَالٍ فِي إِعْلَاءِ دَرَجَتِهِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ : إِنَّ التَّوْبَةَ هِيَ أَوَّلُ دَرَجَاتِ الطَّاعَةِ وَالْمَعْرِفَةِ وَهِيَ آخِرُ دَرَجَاتِ الْكَمَالِ فِي الْإِيمَانِ وَثَمَرَاتِهِ ، وَإِنَّهَا كَالطَّهَارَةِ فِي الصَّلَاةِ لَا بُدَّ مِنِ اسْتِمْرَارِهَا مِنْ أَوَّلِ سِنِّ التَّكْلِيفِ إِلَى آخِرِهَا .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ)

(فِي فَضْلِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى أُمَّتِهِ ، وَحُقُوقِهِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهَا ، وَحُكْمِ إِخْلَالِهَا بِهَا وَتَقْصِيرِهَا فِيهَا)

(وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ)

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ فِي صِفَاتِهِ الْخَاصَّةِ وَفِيهِ بِضْعُ مَزَايَا وَفَضَائِلَ)

(الْأَوَّلُ) وَصْفُ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِأَنَّهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ : (أُذُنُ خَيْرٍ) (9 : 61) فِي الرَّدِّ الْحَكِيمِ عَلَى قَوْلِ بَعْضِ الْمُنَافِقِينَ (هُوَ أُذُنٌ) (9 : 61) يَعْنُونَ أَنَّهُ يُصَدِّقُ كُلَّ مَا يُقَالُ لَهُ فَيَسْهُلُ عَلَيْهِمْ خِدَاعُهُ ، وَقَدْ فَسَّرَ وَصْفَهُ بِأَنَّهُ أُذُنُ خَيْرٍ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ) (9 : 61) وَوَجْهُ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ بِهَذَا أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إنَّمَا يُؤْمِنُ بِاللهِ : وَيُصَدِّقُ مَا يُوجِبُهُ إلَيْهِ فِي شَأْنِ الْمُنَافِقِينَ وَغَيْرِهِمْ ، وَهُوَ التَّصْدِيقُ الْقَطْعِيُّ الْيَقِينِيُّ ، وَيَلِيهِ أَنَّهُ يُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ بِاللهِ تَعَالَى وَبِرِسَالَتِهِ تَصْدِيقَ ثِقَةٍ بِهِمْ وَائْتِمَانٍ لَهُمْ فِيمَا هُوَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهِ ، وَخَيْرٌ لِلنَّاسِ حَتَّى الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَسْمَعُ سَمَاعَ قَبُولٍ إلَّا مَا كَانَ حَقًّا وَخَيْرًا ، دُونَ الْكَذِبِ وَالْغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ . رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي ص 445 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الثَّانِيَةُ) وَصْفُهُ تَعَالَى إِيَّاهُ بَعْدَ مَا ذُكِرَ بِقَوْلِهِ (وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ) (9 : 61) أَيْ بِمَا كَانَ سَبَبًا لِهِدَايَتِهِمْ وَإِسْبَاغِ اللهِ عَلَيْهِمْ سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، بِإِيمَانِهِمْ بِهِ وَعَمَلِهِمْ بِمَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ مِنْ أَسْبَابِهَا ، دُونَ الْمُنَافِقِينَ الْمُكَذِّبِينَ أَوِ الْمُرْتَابِينَ فِيهَا ، وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) فَهُوَ فِي مَعْنَى إِرْسَالِهِ لِلنَّاسِ كَافَّةً بِمَا هُوَ سَبَبُ الرَّحْمَةِ وَالسَّعَادَةِ . وَمَا يَأْتِي قَرِيبًا مِنْ وَصْفِهِ بِأَنَّهُ رَحِيمٌ بِالْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مَعْنًى آخَرُ وَسَتَعْرِفُ الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا .

(الثَّالِثَةُ) وَصْفُهُ فِي آيَةِ (103) بِتَطْهِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَزْكِيَتِهِمْ بِمَا يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ مِنَ الصَّدَقَاتِ ،

(254/353)

وَذَلِكَ أَنَّهُ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي تَبْلِيغِهِ لِفَرْضِ الصَّدَقَاتِ وَالنَّفَقَاتِ ، وَفِي أَخْذِهِ لَهَا وَقِسْمَتِهَا عَلَى مُسْتَحِقِّيهَا - كَمِثْلِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ الْمَفْرُوضَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الْأَمْوَالِ إِتَاوَاتٍ وَضَرَائِبَ قَهْرِيَّةً يُؤَدُّونَهَا كَمَا يُؤَدُّونَ سَائِرَ الْمَغَارِمِ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا تُنْفَقُ بِحَسَبِ أَهْوَاءِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ ، وَيَكُونُ لَهُمْ مِنْهَا أَكْبَرُ نَصِيبٍ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَإِنَّمَا كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُبَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ حِكْمَةَ مَا فَرَضَهُ اللهُ تَعَالَى ، وَأَنَّ فِيهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَسَعَادَةَ الْآخِرَةِ فِي أَفْرَادِهِمْ وَجَمَاعَتِهِمْ ، وَكَانَ يُقَسِّمُهُ بَيْنَ مُسْتَحِقِّيهِ بِالْعَدْلِ ،

وَيَحْرُمُ بِإِذْنِ اللهِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ أَخْذُ شَيْءٍ مِنْهُ ، فَبِهَذَا وَذَاكَ أَسْنَدَ اللهُ تَعَالَى إِلَيْهِ فِعْلَ التَّطْهِيرِ وَالتَّزْكِيَةِ لَهُمْ ، وَهُوَ دَاخِلٌ فِي حِكْمَةِ بَعْثَتِهِ فِي قَوْلِهِ : (يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (62 : 2) وَتَجِدُ التَّفْصِيلَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

(255/353)

(الرَّابِعَةُ) وَصْفُ دُعَائِهِ لِلْمُتَصَدِّقِينَ بَعْدَ مَا ذُكِرَ بِأَنَّهُ : (سَكَنٌ لَهُمْ) (9 : 103) تَطْمَئِنُّ بِهِ قُلُوبُهُمْ ، وَتَرْتَاحُ إِلَيْهِ أَنْفُسُهُمْ ، وَيَثِقُونَ بِقَبُولِ اللهِ لِصَدَقَاتِهِمْ ، وَنَقُولُ : إِنَّ كُلَّ مُؤْمِنٍ مُتَصَدِّقٍ مُخْلِصٍ يَنَالُهُ حَظٌّ مِنْ دُعَائِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلْمُتَصَدِّقِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَرِدْ فِي الْقُرْآنِ وَلَا فِي السُّنَّةِ وَلَا فِي سِيرَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ أَنَّ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَطْلُبُ مِنْهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ الدُّعَاءَ لِأَحَدٍ .

(الْخَامِسَةُ) وَصْفُهُ تَعَالَى إِيَّاهُ بِمَا امْتَنَّ بِهِ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ قَوْلِهِ فِي خَاتِمَةِ السُّورَةِ (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) (9 : 128) فَأَثْبَتَ لَهُ شِدَّةَ الْحُبِّ لَهُمْ وَالْحِرْصِ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ ، وَأَنَّهُ يَعِزُّ وَيَشُقُّ عَلَيْهِ أَنْ يُصِيبَهُمُ الْعَنَتُ وَالْإِرْهَاقُ فِي دِينِهِمْ أَوْ دُنْيَاهُمْ .

(السَّادِسَةُ) وَصْفُهُ بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ بِقَوْلِهِ : (بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ) (9 : 128) وَهَاتَانِ الصِّفَتَانِ مِنْ أَعْظَمِ صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ غَيْرِ الْخَاصَّةِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ إلَّا فِي كَمَالِهِمَا . وَرَأْفَتُهُ وَرَحْمَتُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِالْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ إرْسَالِ اللهِ تَعَالَى إيَّاهُ رَحْمَةً لَهُمْ خَاصَّةً ، وَغَيْرُ إرْسَالِهِ رَحْمَةً لِلنَّاسِ كَافَّةً ، فَإِنَّ رَحْمَتَهُ بِهِمْ مِنْ صِفَاتِ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ الْقُدْسِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَ أَثَرُهَا فِي سِيَاسَتِهِ وَمُعَاشَرَتِهِ لَهُمْ ، وَتَأْدِيبِهِ إيَّاهُمْ ، وَتَنْفِيذِ حُكْمِ اللهِ تَعَالَى فِيهِمْ ، كَمَا تَرَى فِي هَذِهِ

السُّورَةِ كَغَيْرِهَا ، وَشَوَاهِدِ سِيرَتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي تَفْسِيرِهَا ، فَتَأَمَّلْ خُطْبَتَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الْأَنْصَارِ فِي أَثَرِ إنْكَارِ بَعْضِ شُبَّانِهِمْ وَعَوَامِّهِمْ حِرْمَانَهُ إيَّاهُمْ مِنْ غَنَائِمِ حُنَيْنٍ (ص 229 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) فَهِيَ الْعَجَبُ الْعُجَابُ ، وَالْكَمَالُ الَّذِي لَمْ يَتِمَّ لِبَشَرٍ كَمَا تَمَّ لَهُ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – .

وَأَمَّا إرْسَالُهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ بَيَانٌ لِحِكْمَةِ رِسَالَتِهِ وَفَوَائِدِهَا فِيمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ

مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْخَيْرِ الَّتِي هِيَ أَسْبَابُ رَحْمَةِ اللهِ وَمَثُوبَتِهِ وَرِضْوَانِهِ لِمَنِ اهْتَدَى بِهَا كَمَا

تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي مَحَلِّهِ .

(الْقِسْمُ الثَّانِي فِيمَا يَجِبُ لَهُ عَلَى أُمَّتِهِ وَفِيهِ خَمْسُ وَاجِبَاتٍ)

(257/353)

(الْأَوَّلُ) وُجُوبُ حُبِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالتَّبَعِ لِحُبِّ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي الدَّرَجَةِ الَّتِي تَلِي دَرَجَتَهُ فِي ثَمَرَةِ الْإِيمَانِ ، وَتَفْضِيلِ نَوْعِ حُبِّهَا عَلَى كُلِّ مَا يَجِبُ بِمُقْتَضَى الْفِطْرَةِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا ، فَرَاجِعْ بَيَانَ ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ (24) تَجِدْ فِيهِ مَا لَا تَجِدُ مَثَلَهُ فِي تَفْسِيرٍ آخَرَ (ص 202 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الثَّانِي) وُجُوبُ تَحَرِّي مَرْضَاتِهِ بِالتَّبَعِ لِمَرْضَاةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْآيَةِ (62) .

(الثَّالِثُ) وُجُوبُ طَاعَتِهِ بِالتَّبَعِ لِطَاعَةِ اللَّهِ فِي صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْآيَةِ (71) .

(الرَّابِعُ) وُجُوبُ النُّصْحِ لَهُ بِالتَّبَعِ لِلنُّصْحِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِفَاتِ الْمَعْذُورِينَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْقِتَالِ مِنَ الْآيَةِ (91) .

وَهَذِهِ الْوَاجِبَاتُ لَهُ قَدْ ذُكِرَتْ فِي الْفَصْلِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْبَابِ فِي سِيَاقٍ آخَرَ .

(الْخَامِسُ) وُجُوبُ نَصْرِهِ كَمَا يُؤْخَذُ مِنْ آيَةِ (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ) (9 : 40) وَيُؤَيِّدُهَا مَا يَأْتِي فِي الْقِسْمِ الثَّالِثِ مِنْ حَظْرِ التَّخَلُّفِ عَنْهُ .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ فِيمَا يَحْظُرُ عَلَيْهِمْ مِنْ إِيذَاءٍ وَتَقْصِيرٍ فِي حَقِّهِ وَهُوَ خَمْسَةُ مَحْظُورَاتٍ) :

(الْأَوَّلُ) حَظْرُ إِيذَائِهِ - فِدَاؤُهُ أَبِي وَأُمِّي وَنَفْسِي - وَالْوَعِيدُ عَلَيْهِ فِي الْآيَةِ (61) .

(الثَّانِي) حَظْرُ مُحَادَّتِهِ أَيْ مُعَادَاتِهِ ، وَالْوَعِيدُ عَلَيْهَا فِي الْآيَةِ (63) .

(الثَّالِثُ) الْكُفْرُ الصَّرِيحُ بِالِاسْتِهْزَاءِ بِهِ فِي الْآيَةِ (65) .

(الرَّابِعُ) حَظْرُ الْقُعُودِ عَنِ الْخُرُوجِ مَعَهُ لِلْجِهَادِ فِي الْآيَتَيْنِ (81 و90) .

(258/353)

(الْخَامِسُ) حَظْرُ تَخَلُّفِهِمْ عَنْهُ وَالرَّغْبَةُ بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ فِي الْآيَةِ (120) . وَهَذَا تَعْبِيرٌ بَلِيغٌ جِدًّا يَتَضَمَّنُ أَنَّ كُلَّ مَنْ يَصُونُ نَفْسَهُ عَنْ جِهَادٍ وَعَمَلٍ ، بَذَلَ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَفْسَهُ فِيهِ ، فَهُوَ مُفَضِّلٌ لِنَفْسِهِ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ فِي عَهْدِهِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ ذَلِكَ فِيمَنْ بَعْدَهُ وَإِنْ كَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالَيْنِ ظَاهِرًا مِنْ نَاحِيَةِ مُلَاحَظَةِ ذَلِكَ وَعَدَمِهَا ، وَمِنْ نَاحِيَةِ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَى مَنْ كَانَ مَعَهُ بِمَا لَا تَقُومُ بِهِ عَلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ فَضْلًا عَمَّنْ بَعْدَهُ ، وَإِنَّمَا نَعْنِي بِالْإِمْكَانِ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَتَأَسَّى بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي بَذْلِهِ مَالَهُ وَنَفْسَهُ لِلَّهِ وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِقَدْرِ إِمْكَانِهِ (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (33 : 21) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ الْآيَةِ

(فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

الْبَابُ الثَّالِثُ

فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَمَا فِي السُّورَةِ مِنْ حُجَجِهِ وَأُصُولِهِ وَصِفَاتِ أَهْلِهِ وَفِيهِ ثَلَاثَةُ فُصُولٍ

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي حُجَجِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْبِشَارَاتِ وَالنُّذُرِ وَالْأَخْبَارِ بِالْغَيْبِ وَهِيَ عَشْرٌ)

(الْأُولَى) قَوْلُهُ تَعَالَى لِلْمُشْرِكِينَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ (وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ) (9 : 2) .

(259/353)

(الثَّانِيَةُ) قَوْلُهُ : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ) (9 : 14) .

(الثَّالِثَةُ) قَوْلُهُ لِلْمُؤْمِنِينَ : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ) (9 : 8) .

(الرَّابِعَةُ) بِشَارَتُهُ بِخَذْلِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، فِيمَا يُحَاوِلُونَ مِنْ إِطْفَاءِ نُورِهِ تَعَالَى - الْإِسْلَامِ - وَوَعْدُهُ بِإِتْمَامِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَذَلِكَ فِي الْآيَتَيْنِ (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) - إِلَى قَوْلِهِ - (وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (9 : 32 و33) .

(الْخَامِسَةُ) قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ) (9 : 64) .

(السَّادِسَةُ) قَوْلُهُ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) (9 : 65) الْآيَةَ ، وَلِذَلِكَ كُلِّهِ وَلِمَا سَيَأْتِي قَالَ : (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (9 : 78) .

(السَّابِعَةُ وَالثَّامِنَةُ وَالتَّاسِعَةُ) قَوْلُهُ : (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ) (9 : 94) . الْآيَةَ وَقَوْلُهُ : (سَيَحْلِفُونَ

(260/353)

بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) (9 : 95) وَقَوْلُهُ : (يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) (9 : 96) الْآيَاتِ وَهِيَ أَظْهَرُ فِي خَبَرِ الْغَيْبِ مِنْ قَوْلِهِ (وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ) (9 : 56) وَقَوْلُهُ (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ) (9 : 62) لِاحْتِمَالِ أَنْ يَكُونَ الْإِخْبَارُ بِهَذَيْنِ الْحَلِفَيْنِ بَعْدَ وُقُوعِهِمَا لِبَيَانِ غَرَضِهِمْ وَمَا فِي بَاطِنِهِمْ وَهُوَ عَيْنُ تَعْلِيلِ حَلِفِهِمْ فِي الْآيَةِ 96

.

(الْعَاشِرَةُ) قَوْلُهُ (وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) (9 : 101) أَيْ فِي الدُّنْيَا .

وَقَدْ تَمَّ كُلُّ ذَلِكَ وَصَدَقَ وَعْدُ اللَّهِ وَوَعِيدُهُ وَخَبَرُهُ .

وَفِي السُّورَةِ أَخْبَارٌ أُخْرَى بِالْغَيْبِ يُحْتَمَلُ أَنْ تَكُونَ مِنْ بَابِ طَبِيعَةِ الْعُمْرَانِ وَسُنَنِ اللهِ فِي الْبَشَرِ وَتَرَى مِثَالَهُ فِي الْفَصْلِ الثَّالِثِ مِنَ الْبَابِ الْأَوَّلِ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي)

(فِي صِفَةِ الْإِسْلَامِ وَمَدْخَلِهِ وَأَهَمِّ أُصُولِ التَّشْرِيعِ فِيهِ ، وَفِيهِ عَشَرَةُ أُصُولٍ)

(261/353)

(الْأَصْلُ الْأَوَّلُ) أَنَّ دِينَ الْإِسْلَامِ هُوَ نُورُ اللهِ تَعَالَى الْعَامِّ ، وَهُدَاهُ الْكَامِلُ التَّامُّ ، الَّذِي نَسَخَ بِهِ مَا تَقَدَّمَهُ مِنَ الْأَدْيَانِ ، وَوَعَدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِإِتْمَامِهِ ، وَخِذْلَانِ مُرِيدِي إِطْفَائِهِ ، وَذَلِكَ نَصُّ الْآيَتَيْنِ (32 و33) وَتَجِدُ فِي تَفْسِيرِهِمَا فِي (ص 333 - 343 ج10 ط الْهَيْئَةِ) مَا لَا تَجِدُ مِثْلَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْأُخْرَى مِنْ إِظْهَارِهِ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ ، بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَالْهِدَايَةِ وَالْعِرْفَانِ ، وَالْعِلْمِ وَالْعُمْرَانِ ، وَالسِّيَادَةِ وَالسُّلْطَانِ .

(الْأَصْلُ الثَّانِي) مَدْخَلُ الْإِسْلَامِ وَمِفْتَاحُهُ وَمَا يَتَحَقَّقُ بِهِ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُشْرِكِينَ : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) (9 : 5) وَيُؤَكِّدُهَا قَوْلُهُ : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (9 : 11) وَالْمُرَادُ التَّوْبَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَتَحْصُلُ بِالْإِقْرَارِ بِالشَّهَادَتَيْنِ ، وَتَجِدُ فِي تَفْسِيرِهِمَا خِلَافَ الْعُلَمَاءِ فِي كُفْرِ تَارِكِ الصَّلَاةِ

وَمَانِعِ الزَّكَاةِ مِنْ أَفْرَادِ الْمُسْلِمِينَ (ص 151 و169 وَمَا بَعْدَهُمَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْأَصْلُ الثَّالِثُ) بِنَاءُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْعِلْمِ الصَّحِيحِ دُونَ التَّقْلِيدِ الَّذِي ذَمَّهُ الْقُرْآنُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ وَشَنَّعَ بِهِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ . وَدَلِيلُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي تَعْلِيلِ الْأَمْرِ بِإِجَارَةِ الْمُشْرِكِ الْحَرْبِيِّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ لِيَسْمَعَ الْقُرْآنَ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

(262/353)

قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ) (9 : 6) وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ : (وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (9 : 11) وَأَصْرَحُ مِنْهُمَا قَوْلُهُ فِي مُقَلِّدَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ) (9 : 31) مَعَ تَفْسِيرِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ذَلِكَ بِاتِّبَاعِهِمْ إِيَّاهُمْ فِيمَا يُحِلُّونَ لَهُمْ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ (ص 317 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْأَصْلُ الرَّابِعُ) أَنَّ التَّكْلِيفَ الْعَامَّ مِنَ الْعِبَادَاتِ ، وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الدِّينِيِّ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ ، وَهُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ ، وَأَصْلُ مَذْهَبِ الْحَنَفِيَّةِ وَشَاهِدُهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) (9 : 115) وَبَيَانُهُ فِي تَفْسِيرِهَا (فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

(الْأَصْلُ الْخَامِسُ) جِهَادُ الْمُشْرِكِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَعَدَمُ السَّمَاحِ بِهِمْ بِالْإِقَامَةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ

أَوْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُوَ فِي آيَاتٍ ، مِنْهَا الْآيَةُ الَّتِي سَمَّوْهَا آيَةَ السَّيْفِ وَهِيَ الْخَامِسَةُ (فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ) (9 : 5) وَهِيَ غَيْرُ نَاسِخَةٍ لِآيَاتِ الْعَفْوِ وَالصَّفْحِ وَالْإِعْرَاضِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ كَمَا قِيلَ ، وَتَرَى فِي تَفْسِيرِهَا تَحْقِيقَ الْآيَاتِ

النَّاسِخَةِ وَالْمَنْسُوخَةِ (ص 150 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَسَتَأْتِي أَحْكَامُ الْقِتَالِ وَقَوَاعِدُهُ فِي الْبَابِ الرَّابِعِ الْآتِي .

(263/353)

(الْأَصْلُ السَّادِسُ) جَعْلُ الْغَايَةِ مِنْ قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ أَدَاءَ الْجِزْيَةِ لَنَا بِشَرْطِهَا إلَّا أَنْ يَدْخُلُوا فِي الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ فِي الْآيَةِ (29) وَسَتُذْكَرُ فِي أَحْكَامِ الْقِتَالِ .

(الْأَصْلُ السَّابِعُ) الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي وِلَايَةِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقَةِ وَصِفَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْعَامَّةِ الْمُشْتَرَكَةِ فِي قَوْلِهِ (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ) (9 : 71) وَيَدْخُلُ فِي إطْلَاقِ الْوِلَايَةِ وِلَايَةُ النَّصْرِ وَالدِّفَاعِ عَنِ الْأُمَّةِ وَالْبِلَادِ ، إلَّا أَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَى النِّسَاءِ الْقِتَالُ إلَّا فِي حَالِ النَّفِيرِ الْعَامِّ (ص 466 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْأَصْلُ الثَّامِنُ) الْمُسَاوَاةُ بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي جَمِيعِ نَعِيمِ الْآخِرَةِ تَبَعًا لِلْمُسَاوَاةِ فِي التَّكْلِيفِ ، وَهُوَ نَصُّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ) (9 : 71) إلَخْ .

(الْأَصْلَانُ التَّاسِعُ وَالْعَاشِرُ) وُجُوبُ طَلَبِ الْعِلْمِ وَالتَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ . وَوُجُوبُ بَثِّ الْعِلْمِ مَقْرُونًا بِالْوَعْظِ وَالْإِنْذَارِ الَّذِي يُرْجَى تَأْثِيرُهُ النَّافِعُ - وَهُمَا فِي الْآيَةِ (122) .

وَفِي السُّورَةِ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ عَقِيدَةُ الْبَعْثِ وَجَزَاءُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ كَسَائِرِ الْقُرْآنِ (تُرَاجَعُ الْآيَاتُ 3 و17 و18 و19 و21 و22 و31 و44 و45 و49 و61 و63 و68 و69 و74 و81 و95) .

(264/353)

وَفَائِدَةُ هَذَا التَّكْرَارِ أَنَّ تَرْسَخَ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ فِي قُلُوبِ الْمُتَعَبِّدِينَ بِتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، بِكَثْرَةِ تَذَكُّرِهَا فِي الْمَوَاضِعِ الْمُخْتَلِفَةِ مِنْ ذِكْرِ الْأَعْمَالِ الَّتِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا ذَلِكَ الْجَزَاءُ ، وَإِنَّ مِنْ ضُرُوبِ إِعْجَازِ الْقُرْآنِ أَنْ يَرِدَ فِيهِ الْمَعْنَى الْوَاحِدُ فِي الْعَشَرَاتِ أَوِ الْمِئَاتِ مِنَ الْمَوَاضِعِ ، وَلَا يَمَلُّ تَكْرَارَهُ الْقَارِئُ وَلَا السَّامِعُ .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ)

(فِي آيَاتِ الْإِيمَانِ الصَّادِقِ وَصِفَاتِ أَهْلِهِ وَطَبَقَاتِهِمْ وَفِيهِ اثْنَانِ وَثَلَاثُونَ شَاهِدًا)

(الشَّاهِدُ الْأَوَّلُ) آيَةُ صِدْقِ الْإِيمَانِ الْمُمَيِّزَةُ بَيْنَ الصَّادِقِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ الَّتِي تَظْهَرُ بِالِامْتِحَانِ - وَهُوَ الْجِهَادُ - وَحِفْظِ أَسْرَارِ الْمِلَّةِ وَالدَّوْلَةِ - أَنْ يُفْضِيَ بِهَا إِلَى وَلِيجَةٍ أَوْ بِطَانَةٍ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمِنْهُمْ جَوَاسِيسُ الْأَعْدَاءِ . وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ (16) رَاجِعْ (181) وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(2) آيَةُ صِدْقِ الْإِيمَانِ وَمَا يُنَافِيهِ مِنْ وِلَايَةِ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ فِي الْآيَةِ (23) ، رَاجِعْ (201 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(3) آيَةُ صِدْقِ الْإِيمَانِ تَفْضِيلُ حُبِّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالْجِهَادُ فِي سَبِيلِهِ عَلَى حُبِّ الْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ وَالْعَشِيرَةِ وَالْمَالِ وَالتِّجَارَةِ وَالْمَسَاكِنِ الْمَرْضِيَّةِ . وَذَلِكَ مُفَصَّلٌ فِي الْآيَةِ (24) وَتَجِدُ مِنْ بَيَانِ مَعَانِيهَا فِي تَفْسِيرِهَا مَا لَا تَجِدُ مِثْلَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ كُتُبِ التَّفْسِيرِ (ص 202 - 216 . ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(265/353)

---

(4) أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ الدِّينِيَّةُ فِي الْآيَةِ (11) ، وَتَفْسِيرُهَا فِي (ص 169 و172 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(5 و6) عِمَارَةُ مَسَاجِدِ اللهِ حِسًّا وَمَعْنًى ، وَعَدَمُ خَشْيَةِ أَحَدٍ إِلَّا اللهَ فِي الْآيَةِ (18) .

(7) وِلَايَةُ بَعْضِ الْمُؤْمِنِينَ لِبَعْضٍ ذُكُورًا وَإِنَاثًا .

(8) الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ .

(9) طَاعَةُ اللهِ وَرَسُولِهِ - فِي الْآيَةِ (71)

(1) .

(10) صِفَاتُ الْمُؤْمِنِينَ الْمُمَيِّزَةُ لَهُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ فِي الْمُقَابَلَةِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ (44 و45) (ص 404 و405 ج10 ط الْهَيْئَةِ) وَبَيْنَ الْآيَةِ (68) وَمَا بَعْدَهَا وَالْآيَةِ (71) وَمَا بَعْدَهَا . (466 ج10 ط الْهَيْئَةِ 9 وَالْآيَةِ (86) وَمَا بَعْدَهَا وَالْآيَةِ (88) وَمَا بَعْدَهَا (ج10 تَفْسِيرٌ) وَبَيْنَ الْآيَتَيْنِ (98 و99) (بِأَوَّلِ ج 11 تَفْسِيرٌ) وَبَيْنَ الْآيَاتِ (124 - 125 و126 و127) (أَوَّلُ ج 11 تَفْسِيرٌ) .

(11) طَبَقَاتُ خِيَارِ الْمُؤْمِنِينَ الثَّلَاثُ : الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ فِي الْآيَةِ الْمُتَمِّمَةِ لِلْمِائَةِ (بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) وَفِي الْآيَةِ (117) بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ .

(12) الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا فِي الْآيَةِ (102) (بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) وَالْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ أَرْجَأَ اللهُ قَبُولَ تَوْبَتِهِمْ فِي الْآيَةِ (106) بِأَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ .

(13) الْإِخْلَاصُ فِي الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ ابْتِغَاءَ الْقُرُبَاتِ عِنْدَ اللهِ ، وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَيْ أَدْعِيَتِهِ - الْآيَةُ (99) .

(14) الْعَمَلُ النَّافِعُ لِلدُّنْيَا وَالدِّينِ الَّذِي يُرْضِي اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ – الْآيَةُ (105) .

(15) حُبُّ التَّطَهُّرِ مِنَ الْأَدْرَانِ الْحِسِّيَّةِ وَالْأَرْجَاسِ الْمَعْنَوِيَّةِ – الْآيَةُ (108) .

(16) بَيْعُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْجَنَّةِ فِي الْآيَةِ (111) .

(17 – 25) صِفَاتُ هَؤُلَاءِ الْمُؤْمِنِينَ : التَّوْبَةُ . الْعِبَادَةُ الْخَالِصَةُ . الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ . السِّيَاحَةُ . رُكُوعُ الْخُضُوعِ . سُجُودُ الْخُشُوعِ . الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْحِفْظُ لِحُدُودِ اللهِ فِي الْآيَةِ (112) .

(26) آيَةُ الْمُؤْمِنِينَ عَدَمُ الِاسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى – الْآيَةُ (113) .

(27) تَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(28) مُلَازَمَةُ الصَّادِقِينَ – الْآيَةُ (119) .

(29) التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ .

(30) إِنْذَارُ النَّاسِ وَتَعْلِيمُهُمْ – الْآيَةُ (122) .

(31) الْغِلْظَةُ فِي الْقِتَالِ عَلَى الْكُفَّارِ الْمُحَارِبِينَ – الْآيَةُ (123) .

(32) زِيَادَةُ الْإِيمَانِ بِنُزُولِ الْقُرْآنِ فِي الْآيَةِ (124) .

الْبَابُ الرَّابِعُ

(فِي الْمَسَائِلِ الْمَالِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَالْعُهُودِ . وَفِيهِ

ثَلَاثَةُ فُصُولٍ)

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي أَحْكَامِ الْأَمْوَالِ)

(267/353)

(تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ أَحْكَامُ الْغَنَائِمِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ أَمْوَالِ الْحَرْبِ ، وَفَرْضِ الْخُمُسِ فِيهَا ، وَمَصَارِفِهِ ، وَحَقِّ آلِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ ، وَحِكْمَتِهِ ، وَمَا لِلْأُمَّةِ فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ ، وَبَيَانِ أَنْوَاعِ الْأَمْوَالِ الشَّرْعِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَأُمَّهَاتِ مَقَاصِدِهَا فِي الدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . فَمَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مُتَمِّمٌ لِمَا قَبْلَهُ فِي الْأَمْوَالِ ، كَمَا أَنَّهَا مُتَمِّمَةٌ لِمَا فِيهَا مِنْ أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَشُئُونِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارِ .

وَالْكَلَامُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ :

(1) الْمَسَائِلُ الدِّينِيَّةُ وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ فِي الْأَمْوَالِ .

(2) أَنْوَاعُ الْأَمْوَالِ وَمَصَارِفُهَا .

(3) فَوَائِدُ إِصْلَاحِ الْإِسْلَامِ الْمَالِيِّ لِلْبَشَرِ .

(الْقِسْمُ الْأَوَّلُ)

(فِي مَكَانِ إِنْفَاقِ الْمَالِ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَالْبُخْلِ بِهِ مِنَ النِّفَاقِ ، وَفِيهِ عَشْرُ مَسَائِلَ) .

(الْمَسْأَلَةُ الْأُولَى) كَوْنُ الزَّكَاةِ الْمُعَيَّنَةِ أَحَدَ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ ، لَا تُقْبَلُ دَعْوَاهُ مِنَ الْكُفَّارِ بِدُونِ الْتِزَامِهَا ، وَلَا تَحْصُلُ أُخُوَّتُهُ الدِّينِيَّةُ إلَّا بِأَدَائِهَا ، وَاعْتِبَارُ مَانِعِيهَا مِنَ الْجَمَاعَاتِ مُرْتَدِّينَ تَجِبُ مُقَاتَلَتُهُمْ . وَفِي الْأَفْرَادِ خِلَافٌ تَقَدَّمَ تَحْقِيقُ الْكَلَامِ فِيهِ ، وَنَصُّ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ) (9 : 5) وَقَوْلُهُ : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (9 : 11) وَيُؤَكِّدُ عَدَّ الزَّكَاةِ كَالصَّلَاةِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الرَّاسِخَةِ فِي آيَةِ (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (9 : 71) إلَخْ .

(م 2) كَوْنُ بَذْلِ الْأَمْوَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ آيَةَ الْإِيمَانِ الصَّحِيحِ وَقِوَامَ الدِّينِ ، وَمِنْ شَوَاهِدِهِ الْآيَتَانِ الْمُشَارُ إلَيْهِمَا آنِفًا فِي فَرِيضَةِ الزَّكَاةِ ، وَمِنْهَا الْآيَةُ (الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ) (9 : 20)

إلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ (إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (9 : 22) وَمِنْهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ لِمَنْ أَمْوَالُهُ وَتِجَارَتُهُ وَسَائِرُ حُظُوظِهِ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، وَهُوَ فِي

الْآيَةِ (24) وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي آيَةِ النَّفِيرِ الْعَامِّ (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ) (9 : 41) وَقَوْلُهُ : (لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ) (9 : 44) وَيُتِمُّ مَعْنَاهَا الْآيَتَانِ بَعْدَهَا ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (9 : 55) .

(م 3) كَوْنُ الْبُخْلِ وَالِامْتِنَاعِ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ آيَةَ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ فَمِنْ شَوَاهِدِهِ عَدَمُ قَبُولِ نَفَقَةِ الْمُنَافِقِينَ ، وَكَوْنُ أَمْوَالِهِمْ بَلَاءً وَوَبَالًا عَلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الْآيَاتِ (53 و54 و55) ، (وَمِنْهَا) لَمْزُ الْمُنَافِقِينَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي قِسْمَةِ الصَّدَقَاتِ لِلطَّمَعِ فِي الْمَالِ فِي الْآيَةِ (58) ، (وَمِنْهَا) وَصْفُ الْمُنَافِقِينَ بِالْبُخْلِ وَقَبْضِ الْأَيْدِي عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي قَوْلِهِ : (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ) - إِلَى قَوْلِهِ : (وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ) (9 : 67) وَيُؤَكِّدُهَا ضَرْبُ الْمَثَلِ لَهُمْ فِي الْآيَةِ (70) بَعْدَهَا بِالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْمَغْرُورِينَ بِالْقُوَّةِ وَالْمَالِ ، وَوَصْفُ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَهَا بِصِفَاتٍ مِنْهَا (إِيتَاءُ الزَّكَاةِ) .

(270/353)

(وَمِنْهَا) قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ) (9 : 75) الْآيَةَ ، وَالْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى الْبُخْلِ فِي الْآيَاتِ الَّتِي بَعْدَهَا (وَمِنْهَا) لَمْزُ الْمُنَافِقِينَ لِلْمُتَطَوِّعِينَ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ فِي الْآيَةِ (79) وَمِنْهَا (فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) (9 : 81) الْآيَةَ .

(م 4) وَصْفُ كَثِيرٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الدِّينِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ تَحْذِيرًا مِنْ فِعْلِهِمْ ، وَرَفْعًا لِقَدْرِ كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يُسِفَّ وَيَسْفُلَ إلَى دَرَكَتِهِمْ .

(م 5) الْوَعِيدُ عَلَى كَنْزِ الْأَمْوَالِ وَعَدَمِ إنْفَاقِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي الْآيَتَيْنِ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ) - إلَى قَوْلِهِ - (فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) (9 : 34 و35) .

(271/353)

(م 6) آيَةُ (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا) (9 : 98) وَهُمْ مُنَافِقُوهُمْ كَبَنِي أَسَدٍ وَغَطَفَانَ ، كَانُوا يُعْطُونَ الصَّدَقَاتِ رِيَاءً . وَخَوْفًا لَا يَرْجُونَ مِنْهَا نَفْعًا بِتَأْيِيدِ الْإِسْلَامِ وَلَا ثَوَابًا فِي الْآخِرَةِ لِعَدَمِ إيمَانِهِمْ ، فَهِيَ فِي نَظَرِهِمْ مَغَارِمُ يَلْتَزِمُونَهَا لِيُصَدِّقُوا بِمَا يُظْهِرُونَ مِنْ إسْلَامِهِمْ ، وَهَكَذَا شَأْنُ الْمُنَافِقِينَ فِي الدِّينِ وَفِي الْقَوْمِيَّةِ وَالْوَطَنِيَّةِ لَا يَبْذُلُونَ شَيْئًا مِنْ مَالِهِمْ لِأَجْلِ الْمَصْلَحَةِ الْعَامَّةِ ، بَلْ لِلرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ ، وَهُوَ فِي نَظَرِهِمْ غَرَامَةٌ .

(م 7) آيَةُ (وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ

وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ) (9 : 99)

وَهُمْ بَنُو أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَجُهَيْنَةَ ، وَحَسْبُكَ شَهَادَةُ اللهِ تَعَالَى لَهُمْ بِصِدْقِ إِيمَانِهِمْ وَحُسْنِ نِيَّتِهِمْ فِي نَفَقَاتِهِمْ ، وَحُكْمُهَا عَامٌّ .

(م8) التَّرْغِيبُ فِي الصَّدَقَاتِ بِالتَّعْبِيرِ عَنْ قَبُولِهَا وَالْإِثَابَةِ عَلَيْهَا بِأَخْذِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا كَمَا فِي الْآيَةِ (104) .

(م9) التَّرْغِيبُ فِيهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) (9 : 111) الْآيَةَ .

(م10) فَضْلُ النَّفَقَةِ فِي الْجِهَادِ قَلَّتْ أَوْ كَثُرَتْ ، وَكَوْنُ الْجَزَاءِ عَلَيْهَا أَحْسَنَ الْجَزَاءِ ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ (121) وَتَفْسِيرُهَا فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ .

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

(272/353)

(أَنْوَاعُ الْأَمْوَالِ الشَّرْعِيَّةِ وَأَحْكَامُهَا بِالْإِجْمَالِ وَمَصَارِفُهَا وَفِيهِ أَرْبَعَ عَشْرَةَ مَسْأَلَةً) :

(1) مَالُ الْجِزْيَةِ . وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَاهَا وَتَارِيخَهَا وَأَحْكَامَهَا وَشُرُوطَهَا فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْجِزْيَةِ (29) وَهُوَ فِي (248 - 249 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(2) أَنْوَاعُ الصَّدَقَاتِ الْوَاجِبَةِ الْمُقَدَّرَةِ الْمَوْقُوتَةِ ، وَهِيَ النَّقْدَانِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَالتِّجَارَةِ فِي اسْتِغْلَالِهِمَا ، وَالْأَنْعَامُ وَالزَّرْعُ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ الْأَقْوَاتِ ، وَالرِّكَازُ : وَهُوَ الْمَدْفُونُ فِي الْأَرْضِ يُعْثَرُ عَلَيْهِ ، وَالْمَعْدِنُ (رَاجِعْ 423 و439 ج10 تَفْسِيرٌ) .

(3) سَهْمُ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَهَلْ هُمَا صِنْفَانِ أَوْ صِنْفٌ وَاحِدٌ يَنْقَسِمُ بِالْوَصْفِ إِلَى قِسْمَيْنِ ؟ (رَاجِعْ ص 423 وَمَا بَعْدَهَا ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(4) سَهْمُ الْعَامِلِينَ عَلَى الصَّدَقَاتِ مِنْ جُبَاةٍ وَخَزَنَةٍ وَكَتَبَةٍ (ص 426) .

(5) سَهْمُ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَهُمْ سِتَّةُ أَصْنَافٍ (ص 426) .

(6) سَهْمُ الرِّقَابِ : أَيْ تَحْرِيرُ الرَّقِيقِ بِإِعَانَتِهِ عَلَى شِرَائِهِ لِنَفْسِهِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِالْكِتَابَةِ ، أَوْ شِرَائِهِ مِنْ مَالِكِهِ وَعِتْقِهِ (ص 429) .

(7) سَهْمُ الْغَارِمِينَ الَّذِينَ رَكِبَتْهُمْ دُيُونٌ تَعَذَّرَ عَلَيْهِمْ أَدَاؤُهَا ، وَالَّذِينَ يَغْرَمُونَ عَمْدًا مَا يُنْفِقُونَهُ لِإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ وَمَنْعِ الْفِتَنِ الثَّائِرَةِ (ص 430) .

(8) سَهْمُ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَلَى الْغُزَاةِ وَالْمُرَابِطِينَ الَّذِينَ لَا نَفَقَةَ لَهُمْ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ وَمَا يَدْخُلُ فِي عُمُومِ ذَلِكَ مِنَ الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ (ص 430 - 436) .

(9) سَهْمُ ابْنِ السَّبِيلِ وَهُوَ الْمُنْقَطِعُ عَنْ بَلَدِهِ فِي سَفَرٍ لَا يَتَيَسَّرُ لَهُ فِيهِ الْوُصُولُ إلَى مَالِهِ إنْ كَانَ لَهُ مَالٌ ، فَيُعْطَى لِفَقْرِهِ الْعَارِضِ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ عَلَى إتْمَامِ سِيَاحَتِهِ وَالْعَوْدِ إلَى بَلَدِهِ وَأَهْلِهِ (ص 435) .

(10) الدَّلِيلُ عَلَى كَوْنِ عُرُوضِ التِّجَارَةِ مِمَّا تَجِبُ فِيهِ الزَّكَاةُ (ص 439) .

(11) تَوْزِيعُ الصَّدَقَاتِ عَلَى الْأَصْنَافِ كُلِّهِمْ أَوْ بَعْضِهِمْ (ص 439) .

(12) الزَّكَاةُ الْمُطْلَقَةُ وَالْمُعَيَّنَةُ وَمَكَانَتُهَا فِي الدِّينِ ، وَحُكْمُ دَارِ الْإِسْلَامِ وَدَارِ الْكُفْرِ فِيهَا ، وَالْبِلَادِ الْمُذْبَذَبَةِ بَيْنَ الدَّارَيْنِ (ص 441) .

(13) لَا تُعْطَى الزَّكَاةُ لِلْمُرْتَدِّينَ وَلَا لِلْإِبَاحِيِّينَ وَالْمَلَاحِدَةِ (ص 442) .

(14) الْتِزَامُ أَدَاءِ الزَّكَاةِ كَافٍ لِإِعَادَةِ مَجْدِ الْإِسْلَامِ (ص 443) .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ)

(فِي فَوَائِدِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالصَّدَقَاتِ وَإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِ الْمَالِيِّ لِلْبَشَرِ)

(وَامْتِيَازُ الْإِسْلَامِ بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ)

(274/353)

وَفِيهِ مُقَدِّمَةٌ فِي مَنَافِعِ الْمَالِ وَارْتِبَاطِ جَمِيعِ مَصَالِحِ الْبَشَرِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ بِهِ وَشَأْنِهِمْ فِي حُبِّهِ وَكَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ وَإِمْسَاكِهِ ، وَإِرْشَادِ الدِّينِ فِيهِ ، وَكَوْنِ الْإِسْلَامِ وَسَطًا بَيْنَ الْيَهُودِيَّةِ وَالْمَادِّيَّةِ فِيهِ ، وَغُلُوِّ عِبَادِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالْإِفْرِنْجِ فِي جَمْعِهِ وَاسْتِغْلَالِهِ ، وَبَيْنَ بِدْعَةِ الْبُلْشُفِيَّةِ الِاشْتِرَاكِيَّةِ فِي مُقَاوَمَةِ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ الْمَالِيَّةِ وَغُلُوِّهَا فِي ذَلِكَ وَفِي عَدَمِ الْأَدْيَانِ .

وَتَلْخِيصُ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ الْمَالِيِّ فِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَصْلًا (فَتُرَاجِعُ فِي أَوَّلِ هَذَا الْجُزْءِ) .

(الْفَصْلُ الثَّانِي فِي أَحْكَامِ الْقِتَالِ وَالْمُعَاهَدَاتِ وَهِيَ عِشْرُونَ حُكْمًا)

(275/353)

(الْحُكْمُ الْأَوَّلُ) الْبَرَاءَةُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَنَبْذُ عُهُودِ الْمُعَاهِدِينَ مِنْهُمْ ، ذَلِكَ أَنَّ مُشْرِكِي مَكَّةَ قَدْ نَاصَبُوا النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْعَدَاوَةَ مُنْذُ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَتَبِعَهُمْ سَائِرُ الْعَرَبِ فَكَانُوا حَرْبًا لَهُ وَلِمَنْ آمَنَ بِهِ يَقْتُلُونَ كُلَّ مَنْ ظَفِرُوا بِهِ مِنْهُمْ أَوْ يُعَذِّبُونَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَنْ يَحْمِيهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَلَمَّا هَاجَرُوا مِنْ مَكَّةَ صَارُوا يُقَاتِلُونَهُمْ فِي دَارِ هِجْرَتِهِمْ وَكَانَ اللَّهُ يَنْصُرُ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِمْ كَمَا وَعَدَهُ ، حَتَّى إِذَا مَا كَثُرُوا وَصَارَتْ لَهُمْ شَوْكَةٌ اضْطُرَّ الْمُشْرِكُونَ إِلَى عَقْدِ أَوَّلِ صُلْحٍ مَعَهُمْ فِي الْحُدَيْبِيَةِ فَعَاهَدُوهُمْ سَنَةَ سِتٍّ لِلْهِجْرَةِ عَلَى السِّلْمِ وَالْأَمَانِ مُدَّةَ عَشْرِ سِنِينَ ، وَلَمْ تَلْبَثْ قُرَيْشٌ مَعَ أَحْلَافِهَا مِنْ بَنِي بَكْرٍ أَنْ غَدَرُوا وَنَقَضُوا

الْعَهْدَ ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِفَتْحِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مَكَّةَ سَنَةَ ثَمَانٍ ، ثُمَّ جَمَعَ الْمُشْرِكُونَ جُمُوعَهُمْ لِقِتَالِهِ فِي حُنَيْنٍ وَالطَّائِفِ فَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَأَمَرَهُ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ بِأَنْ يَنْبِذَ لِلْمُشْرِكِينَ عُهُودَهُمْ وَيَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ (137 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(276/353)

(الثَّانِي) أَذَانُ الْمُشْرِكِينَ (إعْلَامُهُمْ) بِذَلِكَ أَذَانًا عَامًّا فِي يَوْمِ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ عِيدُ النَّحْرِ الَّذِي تَجْتَمِعُ بِهِ وُفُودُ الْحَاجِّ مِنْ جَمِيعِ الْقَبَائِلِ فِي مِنًى بِحَيْثُ يَعُمُّ هَذَا الْبَلَاغُ جَمِيعَ قَبَائِلِ الْعَرَبِ فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ ، لِأَنَّ الْإِسْلَامَ يُحَرِّمُ الْغَدْرَ وَأَخْذَ الْمُعَاهِدِينَ عَلَى غِرَّةٍ ، فَكَانَ لَا بُدَّ مِنْ إعْلَامِهِمْ بِذَلِكَ بِمَا يَنْتَشِرُ فِي جَمِيعِ قَبَائِلِهِمْ ، وَكَانَتْ تِلْكَ الْوَسِيلَةَ الْوَحِيدَةَ لِعِلْمِ كُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ بِعَوْدِ حَالَةِ الْحَرْبِ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا مِنْ عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَرَحْمَتِهِ ، لِأَنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ دَوْلَةٌ وَلَا رَئِيسٌ عَامٌّ يُبَلِّغُهُمْ مَا يَتَعَلَّقُ بِشُؤُونِهِمْ وَمَصَالِحِهِمُ الْعَامَّةِ فَيُكْتَفَى بِإِبْلَاغِهِ مِثْلَ هَذَا كَمَا هُوَ الْمَعْهُودُ فِي الدُّوَلِ الْمَلَكِيَّةِ أَوِ الْجُمْهُورِيَّةِ الْمَدَنِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عَصْرِهِمْ صُحُفٌ مُنَشَّرَةٌ عَامَّةٌ وَلَا آلَاتٌ لِلْأَخْبَارِ الْبَرْقِيَّةِ تَنْشُرُ مِثْلَ هَذَا الْبَلَاغِ .

(الثَّالِثُ) مَنْحُهُمْ هُدْنَةَ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ يَسِيحُونَ فِي الْأَرْضِ حَيْثُ شَاءُوا آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ أَحْرَارًا فِي سَيْرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ وَسَائِرِ أَعْمَالِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَالدُّنْيَوِيَّةِ لِيَتَرَوَّوْا فِي أَمْرِهِمْ ،

وَيَتَشَاوَرُوا فِي عَاقِبَتِهِمْ . وَفِي هَذَا مِنْ رَحْمَةِ الْقَادِرِ بِعَدُوِّهِ مَا يَفْتَخِرُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ بِحَقٍّ . وَهَذِهِ الْأَحْكَامُ صَرِيحَةٌ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ الْأُولَى مِنَ السُّورَةِ (ص 133 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(277/353)

(الرَّابِعُ) وَعْظُهُمْ بِأَنَّهُمْ إِنْ تَابُوا مِنْ شِرْكِهِمْ وَمَا يُغْرِيهِمْ بِهِ مِنْ عَدَاوَةِ الْمُؤْمِنِينَ وَقِتَالِهِمْ وَالْغَدْرِ بِهِمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُمْ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُعْجِزُوا اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ يُعْجِزُوهُ هَرَبًا مِنْهَا ، وَقَدْ وَعَدَ بِنَصْرِ رَسُولِهِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَكْثُرَ أَتْبَاعُهُ وَيُبَايِعَهُ أَنْصَارُهُ ، وَأَنْجَزَ لَهُ وَعْدَهُ فِي جُمْلَةِ غَزَوَاتِهِ مَعَهُمْ ، وَسَبَبُ هَذَا الْوَعْظِ أَنَّ الْإِيمَانَ أَمْرٌ اخْتِيَارِيٌّ طَرِيقُهُ الْمُوَصِّلُ إِلَيْهِ الدَّعْوَةُ وَدَلَائِلُ الْإِقْنَاعِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ فِي بَقِيَّةِ الْآيَةِ الثَّالِثَةِ (فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ) إِلَخْ . وَفِيهَا مِنَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْمُسْتَقْبَلِ مَا صَدَّقَهُ الْوَاقِعُ .

(الْخَامِسُ) اسْتِثْنَاءُ بَعْضِ الْمُشْرِكِينَ مَنْ نَبْذِ عَهْدِهِمْ ، وَهُمُ الَّذِينَ عَاهَدَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ وَلَمْ يَنْقُصُوهُمْ مِنْ شُرُوطِ الْعَهْدِ وَمَوَادِّهِ شَيْئًا ، وَلَمْ يُظَاهِرُوا وَيُعَاوِنُوا عَلَيْهِمْ أَحَدًا مِنْ أَعْدَائِهِمُ الْمُشْرِكِينَ وَلَا أَهْلِ الْكِتَابِ ، كَمَا نَقَضَ أَهْلُ مَكَّةَ الْعَهْدَ ، بِمُظَاهَرَةِ أَحْلَافِهِمْ بَنِي بَكْرٍ عَلَى أَحْلَافِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَنِي

خُزَاعَةَ . وَالْأَمْرُ بِإِتْمَامِ عَهْدِهِمْ إِلَى نِهَايَةِ مُدَّتِهِ ، وَتَعْلِيلُهُ بِأَنَّهُ مِنَ التَّقْوَى الَّتِي يُحِبُّهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَهَذَا نَصُّ الْآيَةِ الرَّابِعَةِ بِشَرْطِ أَنْ يَظَلُّوا مُسْتَقِيمِينَ عَلَيْهِ كَمَا بَيَّنَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِعَةِ .

(278/353)

(السَّادِسُ) الْأَمْرُ فِي الْآيَةِ الثَّامِنَةِ بِاسْتِعْمَالِ جَمِيعِ أَسْبَابِ الْقِتَالِ مَعَهُمْ بَعْدَ انْسِلَاخِ أَشْهُرِ الْهُدْنَةِ الَّتِي ضُرِبَتْ لَهُ وَحَرُمَ فِيهَا ، وَهِيَ الْقَتْلُ وَالْأَسْرُ وَالْحَصْرُ وَالْقُعُودُ لَهُمْ فِي جَمِيعِ الْمَرَاصِدِ لِمُرَاقَبَتِهِمْ وَمَنْعِهِمْ مِنَ التَّجْوَالِ وَالتَّغَلُّبِ فِي الْبِلَادِ ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى شَرْعِيَّةِ اسْتِعْمَالِ مَا يَتَجَدَّدُ بَيْنَ الْبَشَرِ مِنْ وَسَائِلِ الْقِتَالِ الْمُوَافِقَةِ لِأُصُولِ الْإِسْلَامِ الْعَادِلَةِ ، فَإِنِ اسْتَعْمَلَ الْعَدُوُّ

مَا هُوَ مُخَالِفٌ لَهَا قَابَلْنَاهُ لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ) (2 : 194) .

(السَّابِعُ) تَخْلِيَةُ سَبِيلِ مَنْ يَتُوبُونَ مِنَ الشِّرْكِ بِالنُّطْقِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ، لِأَنَّهُمْ بِهَذَا يَدْخُلُونَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَنْ قَبِلَ الصَّلَاةَ وَالزَّكَاةَ وَالْتَزَمَهُمَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَلْتَزِمَ غَيْرَهُمَا . وَهَذَا نَصُّ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ .

(الثَّامِنُ) إِيجَابُ إِجَارَةِ مَنْ يَسْتَجِيرُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْهُمْ ، وَفِي حُكْمِهِ

الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ وَنَائِبُهُ وَالْقَائِدُ الْعَامُّ فِي حَالِ الْحَرْبِ ؛ لِأَجْلِ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ وَيَقِفَ عَلَى دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِبْلَاغِهِ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَكَانَ الَّذِي يَأْمَنُ فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ سُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ .

(التَّاسِعُ) تَعْلِيلُ نَبْذِ عَهْدِ الْمُشْرِكِينَ السَّابِقِ وَعَدَمِ اسْتِئْنَافِهِ مَعَهُمْ بِالْأَسْبَابِ الْآتِيَةِ :

(279/353)

(أ) أَنَّهُمْ نَقَضُوا عَهْدَ الْحُدَيْبِيَةِ بِالْغَدْرِ فَلَمْ يُخْبِرُوا الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ لِيَأْخُذُوا أُهْبَتَهُمْ .

(ب) أَنَّ مِنْ دَأْبِهِمْ وَشَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِرُجْحَانِ قُوَّتِهِمْ لَا يَرْقُبُونَ فِيهِمْ عَهْدًا وَلَا ذِمَّةً وَلَا قَرَابَةً ، بَلْ يَفْتِكُونَ بِهِمْ بِدُونِ رَحْمَةٍ .

(ج) أَنَّهُمْ يُنَافِقُونَ وَيَكْذِبُونَ عَلَيْهِمْ فِي حَالِ الضَّعْفِ فَيُرْضُونَهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَيَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ لَهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، وَأَكْثَرُهُمْ أَيِ السَّوَادُ الْأَعْظَمُ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ أَيْ خَارِجُونَ عَنْ قُيُودِ الْعُهُودِ وَالْمَوَاثِيقِ وَالصِّدْقِ وَالْوَفَاءِ .

(د) أَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيُعَادُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ لِأَجْلِ مَنْفَعَةٍ قَلِيلَةٍ يَتَمَتَّعُونَ بِهَا ، وَيَخَافُونَ أَنْ تُسْلَبَ مِنْهُمْ بِالْتِزَامِ شَرِيعَتِهِ الَّتِي تُحَرِّمُ أَكْلَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ كَالرِّبَا وَالْقِمَارِ وَالْغَصْبِ وَالْغَزْوِ لِأَجْلِ الْكَسْبِ ، وَكَانُوا يَسْتَبِيحُونَ كُلَّ ذَلِكَ .

(هـ) أَنَّهُمْ – عَلَى كَوْنِهِمْ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً فِي حَالِ الْقُوَّةِ وَلَا فِي حَالِ الضَّعْفِ –

هُمُ الْمُعْتَدُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْقِتَالِ ، فَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَظَلُّوا مَعَهُمْ كَذَلِكَ فِي كُلِّ حَالٍ .

(و) أَنَّهُمْ نَكَثُوا عُهُودَهُمُ السَّابِقَةَ ، فَكَذَلِكَ غَيْرُهَا فَلَا ثِقَةَ بِهَا فَتُرَاعَى .

(ز) أَنَّهُمْ هَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ مِنْ وَطَنِهِ ، بَلْ هُمُ الَّذِينَ اضْطَرُّوهُ إِلَى الْخُرُوجِ هُوَ وَسَائِرُ مَنْ آمَنَ مَعَهُ ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَوَاطَئُوا عَلَى قَتْلِهِ .

(280/353)

(ح) أَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بَدَءُوا الْمُؤْمِنِينَ بِالْقِتَالِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَبَقِيَتِ الْحَرْبُ مُسْتَمِرَّةً ، فَلَمَّا أَنْهَتْ مُعَاهَدَةُ الْحُدَيْبِيَةِ حَالَةَ الْقِتَالِ أَعَادُوهَا بِغَدْرِهِمْ فِيهَا وَنَقْضِهِمْ لَهَا ، وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ الثَّمَانِيَةُ صَرِيحَةٌ فِي الْآيَاتِ (7 – 10) .

(الْحُكْمُ الْعَاشِرُ) وُجُوبُ قِتَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَافَّةً إِلَّا أَنْ يُسْلِمُوا ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ الْخَامِسَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِآيَةِ السَّيْفِ ، وَقَوْلُهُ فِي الْآيَةِ : (وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً) (9 : 36) وَجْهُهُ مَا عُلِمَ مِنْ جُمْلَةِ الْآيَاتِ فِي قِتَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ ، وَهُوَ عَدَمُ قَبُولِ الْجِزْيَةِ مِنْهُمْ وَعَدَمُ إِقْرَارِهِمْ عَلَى السُّكْنَى وَالْمُجَاوَرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ فِي بِلَادِهِمْ مَعَ بَقَائِهِمْ عَلَى شِرْكِهِمْ ، لِأَنَّهُمْ لَا أَمَانَ لَهُمْ وَلَا عُهُودَ فَيُمْكِنُ أَنْ يَعِيشَ الْمُؤْمِنُونَ مَعَهُمْ بِسَلَامٍ .

(الْحُكْمُ 11) تَحْرِيمُ وِلَايَةِ الْكُفَّارِ مِنَ الْآبَاءِ وَالْإِخْوَانِ كَغَيْرِهِمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَوْنُهَا مِنَ

الظُّلْمِ فِي الْآيَةِ (23) .

(الْحُكْمُ 12) حُكْمُ قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ بِشَرْطِهِ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ فِي الْآيَةِ (29) .

(281/353)

وَمِنْ فُرُوعِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الْفَرْقُ فِي الْقِتَالِ بَيْنَ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَسَائِرِ الْوَثَنِيِّينَ . وَمِنْهَا أَنَّ مَا فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنْ قِتَالِهِمْ وَقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ إنَّمَا هُوَ فِي بَيَانِ غَايَتِهِ لَا فِي بِدَايَتِهِ ، وَأَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ التَّشْرِيعِ فِي الْقِتَالِ آيَاتُ سُورَةِ الْحَجِّ (22 : 39 - 41) ثُمَّ آيَاتُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا (2 : 190) (رَاجِعْ آخِرَ ص 247 وَمَا بَعْدَهَا وَص 255 ج 10) وَيَلِيهَا آيَاتُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ ، فَسُورَةُ آلِ عِمْرَانَ ، فَسُورَةُ مُحَمَّدٍ ، فَهَذِهِ السُّورَةُ .

(الْحُكْمُ 13) وَصْفُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ بَيَّنَ حُكْمَ قِتَالِهِمْ هُنَا بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ سَلْبِيَّةٍ هِيَ عِلَّةُ عَدَاوَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ ، وَوُجُوبُ خُضُوعِهِمْ لِحُكْمِهِ لِيَأْمَنَ أَهْلُهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَحُرِّيَّةُ دِينِهِمْ مَعَهُمْ (فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُ آيَةِ الْجِزْيَةِ فِي ص 248 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(فَصْلٌ) فِي حَقِيقَةِ الْجِزْيَةِ لُغَةً وَشَرْعًا وَتَارِيخِهَا وَشُرُوطِهَا وَأَحْكَامِهَا وَسِيرَةِ الصَّحَابَةِ فِيهَا (ص 256 - 269) ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(اسْتِطْرَادٌ) فِي حَقِيقَةِ مَعْنَى الْجِهَادِ وَالْحَرْبِ وَالْغَزْوِ وَإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِ فِيهِ ص 269 -

274ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(فَصْلٌ) فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَالْعَدْلِ . وَدَارِ الْحَرْبِ وَالْبَغْيِ ، وَحُقُوقِ الْأَدْيَانِ وَالْأَقْوَامِ فِي هَذَا الْعَصْرِ (ص 274 - 281ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(الْحُكْمُ 14) إِبْطَالُ النَّسِيءِ فِي الْأَشْهُرِ لِأَجْلِ الْقِتَالِ ، وَكَوْنِهِ تَشْرِيعًا جَاهِلِيًّا ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ (37) .

(282/353)

(الْحُكْمُ 15) النَّفِيرُ الْعَامُّ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ الْقِتَالُ بِهِ وَاجِبًا بِشَرْطِهِ عَلَى الْأَعْيَانِ كَمَا فُصِّلَ فِي الْآيَاتِ (38 و39 و41) وَأَمَّا النَّفِيرُ الْخَاصُّ فَهُوَ فِي الْآيَةِ (122) .

(الْحُكْمُ 16) الِاسْتِئْذَانُ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ بِالْمَالِ وَالنَّفْسِ مِنْ عَلَامَاتِ النِّفَاقِ ، وَمُنَافَيَاتِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ كَمَا تَرَى فِي الْآيَتَيْنِ (44 و45) وَمَا قَبْلَهُمَا وَبَعْدَهُمَا مِنْ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ ، وَتَتِمَّةُ ذَلِكَ فِي الْآيَاتِ (86 - 93) .

(الْحُكْمُ الْأَوَّلُ) وُجُوبُ مُجَاهَدَةِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي الْمُعَامَلَاتِ الْمَدَنِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَهُمُ الْخَاضِعُونَ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ كَمَا فِي الْآيَةِ (73) .

(الْحُكْمُ 18) الْأَعْذَارُ الْمُبِيحَةُ لِلتَّخَلُّفِ عَنِ الْجِهَادِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ

وَلَا عَلَى الْمَرْضَى) 9 : 91 إِلَى آخِرِ الْآيَةِ (93) .

(الْحُكْمُ 19) وُجُوبُ بَذْلِ الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ فِي الْقِتَالِ الْمَشْرُوعِ لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللهِ ، وَهِيَ الْحَقُّ وَالْعَدْلُ بِاشْتِرَاءِ اللهِ إِيَّاهُمَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ (111) وَتَقَدَّمَ تَحْرِيمُ الْفِرَارِ مِنَ الزَّحْفِ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

(الْحُكْمُ 20) قِتَالُ الْأَقْرَبِ فَالْأَقْرَبِ مِنَ الْكُفَّارِ الْحَرْبِيِّينَ وَهُوَ نَصُّ الْآيَةِ (123) .

(الْفَصْلُ الثَّالِثُ)

فِي الْقَوَاعِدِ وَالْأُصُولِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ الْمَسَائِلِ وَالْأَحْكَامِ السَّابِقَةِ وَهِيَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ أَصْلًا :

(283/353)

---

(1) جَوَازُ الْبَرَاءَةِ مِنَ الْعُهُودِ وَنَبْذُهَا لِلْمُعَاهِدِينَ لِدَفْعِ الْمَفَاسِدِ الْمُتَرَتِّبَةِ عَلَى بَقَائِهَا ، وَهُوَ فِي الْآيَتَيْنِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ مِنَ السُّورَةِ .

(2) عَقْدُ الْمُعَاهَدَاتِ مَعَ الدُّوَلِ وَالْأُمَمِ مِنْ حُقُوقِ الْأُمَّةِ لَهَا غُنْمُهَا وَعَلَيْهَا غُرْمُهَا ، وَإِنَّمَا يَعْقِدُهَا الْإِمَامُ أَوْ نَائِبُهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ هُوَ الْمُمَثِّلُ لِوَحْدَةِ الْأُمَّةِ ، وَهُوَ مَنْطُوقُ إِسْنَادِهَا إِلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : (عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (9 : 1) مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّ الَّذِي

تَوَلَّى الْعَقْدَ وَكُتِبَ بِاسْمِهِ فِي الْحُدَيْبِيَةِ هُوَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - .

(3) نَبْذُ الْمُعَاهَدَاتِ يَجِبُ أَنْ يُذَاعَ وَيُنْشَرَ بِحَيْثُ يَعْرِفُهُ الْمُخَاطَبُونَ بِالْعَمَلِ بِهِ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِالْأَذَانِ بِهِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ، وَالْإِذَاعَةُ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ وَأَحْوَالِ الْبَشَرِ فِي حَضَارَتِهِمْ وَبَدَاوَتِهِمْ .

(4) وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالْمُعَاهَدَةِ مَا دَامَ الطَّرَفُ الْآخَرُ مِنَ الْأَعْدَاءِ يَفِي بِهَا وَلَا يَنْقُصُ مِنْهَا شَيْئًا ، كَمَا تَرَى فِي الْآيَاتِ (4 و7 و12 و13) إِكْمَالًا لِمَا تَقَدَّمَ فِي سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

(5) الْمُعَاهَدَةُ الْمَوْقُوتَةُ تَنْتَهِي بِانْتِهَاءِ مُدَّتِهَا بِنَصِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : (فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ) (9 : 4) وَقَوْلِهِ : (فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ) (9 : 7) .

(6) أَنَّ الْقَبَائِلَ وَالشُّعُوبَ الَّتِي لَيْسَ لَهَا دِينٌ وَلَا شَرْعٌ يُحَرِّمُ عَلَيْهَا نَقْضَ الْعُهُودِ وَجُرِّبَ

(284/353)

عَلَيْهَا نَكْثُهَا لِلْإِيمَانِ لَا يَجِبُ الْتِزَامُ مُعَاهَدَاتِهَا السَّابِقَةِ ، وَلَا تَجْدِيدُ مَا انْتَهَتْ مُدَّتُهُ مِنْهَا كَمَا تَرَاهُ مُفَصَّلًا فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثَ عَشْرَةَ الْأُولَى مِنَ السُّورَةِ ، وَدُوَلُ الْإِفْرِنْجِ تَعْمَلُ بِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ فَلَا تَعْقِدُ الْمُعَاهَدَاتِ إِلَّا مَعَ الدُّوَلِ الْمُنَظَّمَةِ الَّتِي تَلْتَزِمُ الشَّرَائِعَ وَالْقَوَانِينَ الدَّوْلِيَّةَ .

(7) الْهُدْنَةُ بَيْنَ الْمُحَارِبِينَ مَشْرُوعَةٌ وَلِلْمُسْلِمِينَ أَنْ يَبْدَءُوا بِهَا إِذَا اقْتَضَتْ ذَلِكَ الْمَصْلَحَةُ ،

وَمِنْهَا الرَّحْمَةُ بِالْمُشْرِكِينَ فِيمَا لَا يَضُرُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَهُوَ نَصُّ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ : (فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ) .

(8) تَأْمِينُ الْحَرْبِيِّ بِالْإِذْنِ لَهُ بِدُخُولِ دَارِ الْإِسْلَامِ جَائِزٌ لِلْمَصْلَحَةِ ، فَإِذَا اسْتَأْمَنَ لِأَجْلِ سَمَاعِ كَلَامِ اللهِ أَوِ الْوُقُوفِ عَلَى حَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ وَجَبَتْ إِجَارَتُهُ ثُمَّ إِبْلَاغُهُ مَأْمَنَهُ عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْ دَارِ الْإِسْلَامِ ، وَهُوَ فِي الْآيَةِ السَّادِسَةِ .

(9) انْتِهَاءُ قِتَالِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ مَنُوطٌ بِالدُّخُولِ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمِفْتَاحُهُ التَّوْبَةُ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالْتِزَامُ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ وَأَهَمُّهَا رُكْنَا الصَّلَاةِ ، وَالزَّكَاةِ .

(10) انْتِهَاءُ قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ يُنَاطُ بِالْإِسْلَامِ أَوْ بِإِعْطَاءِ الْجِزْيَةِ مَعَ الْخُضُوعِ لِأَحْكَامِ شَرْعِنَا ، كَمَا تَرَى فِي آيَةِ الْجِزْيَةِ (29) وَفِي تَفْسِيرِهَا بَيَانُ حُكْمِ سَائِرِ الْمِلَلِ .

(285/353)

---

(11) النَّفِيرُ الْعَامُّ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْجِهَادُ فَرْضًا عَلَى الْأَعْيَانِ فِي الْآيَةِ (41) وَتَرَى فِي تَفْسِيرِهَا مَا تَكُونُ بِهِ فَرْضِيَّتُهُ ، وَمَا يَكُونُ بِهِ فَرْضَ كِفَايَةٍ .

(12) امْتِنَاعُ نَفْرِ الْمُؤْمِنِينَ كُلِّهِمْ لِلْجِهَادِ فِي غَيْرِ حَالِ النَّفِيرِ الْعَامِّ فِي الْآيَةِ (122) .

(13) الْعَجْزُ عَنِ الْقِتَالِ أَوْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهِ عُذْرٌ فِي التَّخَلُّفِ عَنْهُ وَتَجِدُ بَيَانَ أَنْوَاعِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالْمَالِيَّةِ فِي الْآيَاتِ الثَّلَاثِ (91 - 93) وَهِيَ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ أَحْوَالِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْقِتَالِ .

الْبَابُ الْخَامِسُ

(فِي شُئُونِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَحُكْمِ الْإِسْلَامِ عَلَيْهِمْ وَسِيَاسَتِهِ فِيهِمْ وَفِيهِ فُصُولٌ)

(الْفَصْلُ الْأَوَّلُ فِي ذَمِّ الْقُرْآنِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَنَزَاهَتِهِ فِيهِ عَنِ السَّبِّ وَالشَّتْمِ)

(تَنْبِيهٌ وَتَمْهِيدٌ)

الذَّمُّ : الْوَصْفُ بِالْقَبِيحِ ، وَالسَّبُّ وَالشَّتْمُ : مَا يُقْصَدُ بِهِ التَّعْيِيرُ وَالتَّشَفِّي مِنَ الذَّمِّ ، سَوَاءٌ كَانَ مَعْنَاهُ صَحِيحًا وَاقِعًا أَوْ إِفْكًا مُفْتَرًى . وَالْقُرْآنُ مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ ، قَالَ تَعَالَى : (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) (6 : 108) فَنُهِيَ عَنْ سَبِّ آلِهَةِ الْكُفَّارِ وَمَعْبُودَاتِهِمْ وَمِنْهَا الْأَصْنَامُ ، وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (الْمُتَسَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ وَيَتَكَاذَبَانِ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ مِنْ حَدِيثِ عِيَاضِ بْنِ حَمَّادٍ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

فَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَمِّ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بَيَانٌ لِحَقِيقَةِ حَالِهِمْ وَقُبْحِ أَعْمَالِهِمْ ، وَمَا يَعْقُبُهَا مِنَ الْفَسَادِ وَالضَّرَرِ بِهِمْ وَسُخْطِ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وَاسْتِحْقَاقِهِمْ لِعِقَابِهِ ، وَبُعْدِهِمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَثَوَابِهِ ؛ بِقَصْدِ الْإِنْذَارِ وَالْوَعْظِ ، لِأَجْلِ التَّنْفِيرِ وَالزَّجْرِ ، وَلِذَلِكَ تَرَاهَا مُوَجَّهَةً إِلَيْهِمْ بِوَصْفِهِمْ أَوْ إِلَى وَصْفِهِمُ الْعَامِّ : الْمُشْرِكِينَ ، الْكَافِرِينَ ، الْمُنَافِقِينَ ، الْفَاسِقِينَ ، الظَّالِمِينَ ، الْمُجْرِمِينَ ، الْمُفْسِدِينَ ، أَوِ الْخَاصِّ بِطَائِفَةٍ مِنْهُمْ كَبَعْضِ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَا كُلِّهِمْ دُونَ الْأَشْخَاصِ الْمُعَيَّنِينَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَلْقَابِهِمْ ، مَهْمَا يَكُنْ مِنْ شِدَّةِ كُفْرِهِمْ وَإِيذَائِهِمْ لِلنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْمُؤْمِنِينَ كَعَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ رَئِيسِ الْمُنَافِقِينَ الَّذِي كَانَ شَرَّهُمْ وَأَجْرَأَهُمْ عَلَى الضَّرَرِ ، فَقَدْ كَانَ ضَرَرُهُ فِي الْمَدِينَةِ أَشَدَّ مِنْ ضَرَرِ أَئِمَّةِ الْكُفْرِ وَالشِّرْكِ فِي مَكَّةَ (كَأَبِي جَهْلٍ) .

وَمَنِ اطَّلَعَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ هِجَاءِ الْعَرَبِ وَسِبَابِهِمُ الْبَذِيءِ وَقَذَعِهِمُ الْفَاحِشِ أَدْرَكَ نَزَاهَةَ الْقُرْآنِ ، وَعُلُوَّهُ عَنْ مِثْلِ بَذَاءَتِهِمْ فِي الْكَلَامِ .

(287/353)

يُسْتَثْنَى مِنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْكُلِّيَّةِ فِي ذَمِّ الشَّخْصِ الْمُعَيَّنِ مِنْ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ وَالرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَا نَزَلَ فِي ذَمِّ أَبِي لَهَبٍ وَامْرَأَتِهِ فِي سُورَةٍ وَجِيزَةٍ لِمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ حِكْمَةِ ذَلِكَ فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَبِيهِ آزَرَ وَالِاسْتِطْرَادِ إِلَى آبَاءِ الْأَنْبِيَاءِ وَأُولِي قُرْبَاهُمْ

وَمَا صَحَّ فِي الْأَحَادِيثِ فِي أَبَوَيِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَعَمَّيْهِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبِي لَهَبٍ ، لِإِثْبَاتِ قَاعِدَةٍ عَظِيمَةٍ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَالْأَدْيَانِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَهِيَ أَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ مَدَارَ السَّعَادَةِ وَالنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ وَالْفَوْزِ بِنَعِيمِهَا إِنَّمَا هُوَ الْإِيمَانُ الصَّحِيحُ وَالْأَعْمَالُ الصَّالِحَةُ الَّتِي تَتَزَكَّى بِهَا الْأَنْفُسُ وَتَكُونُ بِصِفَاتِهَا الْعَالِيَةِ أَهْلًا لِجِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَرْضَاتِهِ .

وَأَنَّ الْأَدْيَانَ الْوَثَنِيَّةَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَنَّ السَّعَادَةَ وَالنَّجَاةَ وَالْفَوْزَ إِنَّمَا تَكُونُ بِوَسَاطَةِ بَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي تُوصَفُ بِالْوِلَايَةِ وَالْقَدَاسَةِ أَوِ النُّبُوَّةِ ، وَيُدَّعَى لَهَا التَّأْثِيرُ فِي النَّفْعِ وَالضُّرِّ بِأَنْفُسِهِمَا أَوْ بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَكَوْنِهَا تُحَابِي بِشَفَاعَتِهَا وَوَسَاطَتِهَا أُولِي الْقَرَابَةِ مِنْهَا وَالْمُتَقَرِّبِينَ إِلَيْهَا بِالْمَدْحِ لَهَا وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهَا ، وَدُعَائِهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

(288/353)

وَقَدْ كَانَ أَبُو لَهَبٍ أَغْنَى بَنِي هَاشِمٍ ، وَمِنْ أَكْثَرِ الْمُشْرِكِينَ غُرُورًا بِمَالِهِ وَثَرْوَتِهِ وَنَشَبِهِ وَنَسَبِهِ وَكَانَ بِهَذَا الْغُرُورِ أَوَّلَ مَنْ جَاهَرَ بِعَدَاوَةِ ابْنِ أَخِيهِ (مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ) مُحْتَقِرًا لَهُ لِأَنَّهُ كَانَ هُوَ وَأَبُوهُ ، الَّذِي لَمْ يُدْرِكْهُ ، وَعَمُّهُ الَّذِي كَفَلَهُ بَعْدَ جَدِّهِ – أَفْقَرَ بَنِي هَاشِمٍ ، وَقَالَ لَهُ حِينَ جَمَعَ عَشِيرَتَهُ وَبَلَّغَهُمْ دَعْوَةَ رَبِّهِ امْتِثَالًا لِأَمْرِهِ (وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) (26 : 214)

(289/353)

: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ ، أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا ؟ وَكَانَ يَقُولُ لِقُرَيْشٍ : خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَرَبُ عَلَيْهِ ، وَكَانَ أَشَدَّ الْمُشْرِكِينَ صَدًّا لِلنَّاسِ عَنْهُ وَتَكْذِيبًا لَهُ كُلَّمَا دَعَا أَحَدًا مِنْهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانَ كَلَامُهُ مَقْبُولًا عِنْدَهُمْ أَكْثَرَ مِنْ كَلَامِ سَائِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ جَاهَرُوا بِعَدَاوَتِهِ كَأَبِي جَهْلٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ وَأَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ لِقَرَابَتِهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتِ امْرَأَتُهُ أُمُّ جَمِيلٍ أُخْتُ أَبِي سُفْيَانَ مُسْرِفَةً فِي عَدَاوَتِهِ وَذَمِّهِ ، وَالصَّدِّ عَنْ دَعْوَتِهِ بِالنَّمِيمَةِ وَنَقْلِ الْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ عَنْهُ لِتَبْغِيضِهِ لِلنَّاسِ ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ كُنْيَتِهَا : (حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) كَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَرَبِ . وَرُوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ تَجْمَعُ الْحَطَبَ الشَّائِكَ وَتُلْقِيهِ فِي طَرِيقِهِ بِالْفِعْلِ ، وَمَعَ هَذَا كُلِّهِ لَمْ تَكُنِ السُّورَةُ الَّتِي نَزَلَتْ فِيهِ إِلَّا دُعَاءً عَلَيْهِ بِالتَّبَّاتِ ، وَهُوَ الْخَسَارُ الْمُفْضِي

إِلَى الْهَلَاكِ أَوْ إِخْبَارًا بِهِ ، وَبِكَوْنِهِ لَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ الْكَثِيرُ وَمَا كَسَبَهُ مِنَ الْجَاهِ وَالْوَلَدِ شَيْئًا – فِي مُقَابَلَةِ قَوْلِهِ لِلرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ – فَهُوَ إِخْبَارٌ بِعَاقِبَةِ أَمْرِهِمَا وَمَوْتِهِمَا عَلَى كُفْرِهِمَا ، وَخُسْرَانِهِمَا سَعَادَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَقَدْ صَدَقَ

(290/353)

خَبَرُ اللَّهِ وَوَعِيدُهُ لَهُ ، فَهُوَ قَدْ مَاتَ بَعْدَ وَقْعَةِ بَدْرٍ الَّتِي سَاعَدَ عَلَيْهَا بِمَالِهِ ، آسِفًا لِعَجْزِهِ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَيْهَا بِنَفْسِهِ ، فَذَاقَ وَبَالَ أَمْرِهِ بِخِذْلَانِ أَقْرَانِهِ مِنْ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ وَرُءُوسِ الشِّرْكِ ، وَخُسْرَانِ مَالِهِ الَّذِي أَنْفَقَهُ فِيهَا مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ) (8 : 36) وَرَأَى بِمِصْدَاقِهَا مَبَادِئَ عِزِّ الْإِسْلَامِ وَنَصْرِهِ . مَاتَ بَعْدَهَا بِأَيَّامٍ قَلِيلَةٍ بِالْعَدَسَةِ شَرَّ مِيتَةٍ ، وَتُرِكَ مَيِّتًا حَتَّى أَنْتَنَ ، ثُمَّ اسْتُؤْجِرَ بَعْضُ السُّودَانِ حَتَّى دَفَنُوهُ . وَكَانَ فُجِعَ بَعْدَ نُزُولِ السُّورَةِ بِوَلَدِهِ عُتْبَةَ الَّذِي كَانَ يَعْتَزُّ بِهِ ، افْتَرَسَهُ أَسَدٌ فِي طَرِيقِ الشَّامِ ، وَلَوْ أَسْلَمَ كَمَا أَسْلَمَ أَخُوهُ وَثَانِيهِ فِي جَمْعِ الْمَالِ الْعَبَّاسُ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – لَرَأَى مِثْلَ مَا رَأَى هُوَ وَذُرِّيَّتُهُ مِنْ عِزِّ الْإِسْلَامِ ، وَصِدْقِ ابْنِ أَخِيهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، فِي وَعْدِهِ لَهُمْ بِأَنَّ كَلِمَةَ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْعَرَبَ ، وَتَدِينُ لَهُمْ بِهَا الْعَجَمُ .

ذَكَرْتُ هَذَا التَّنْبِيهَ الطَّوِيلَ لِبَيَانِ غَلَطِ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ فِي قَوْلِهِمْ : إنَّ الْقُرْآنَ اشْتَمَلَ عَلَى سَبِّهِمْ وَسَبِّ آلِهَتِهِمْ ، وَتَفْنِيدًا لِمَا يَهْذِي بِهِ بَعْضُ مَلَاحِدَةِ الْكُتَّابِ فِي الْمُقَارَنَةِ بَيْنَ أَدَبِهِ وَالْأَدَبِ الْجَاهِلِيِّ . وَمَا رُوِيَ مِنْ قَوْلِ رُءُوسِ الْمُشْرِكِينَ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : لَقَدْ سَبَبْتَ الْآبَاءَ وَعِبْتَ الدِّينَ وَسَفَّهْتَ الْأَحْلَامَ وَشَتَمْتَ الْآلِهَةَ ، فَذِكْرُ السَّبِّ وَالشَّتْمِ فِيهِ مُبَالَغَةٌ فِي الْإِنْكَارِ ، عَلَى أَنَّهُ مُرْسَلٌ ضَعِيفُ السَّنَدِ وَفِيهِ رَجُلٌ مُتَّهَمٌ . وَهَاكَ مَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَعْدَاءَهُ وَأَعْدَاءَ رَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَهُوَ أَشَدُّهُ .

(شَوَاهِدُ ذَمِّ الْقُرْآنِ النَّزِيهِ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ)

(1 - 4) وَصَفَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْآيَاتِ (8 - 10) بِأَنَّهُمْ لَا يَرْقُبُونَ وَلَا يُرَاعُونَ فِي أَحَدٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ، حَتَّى قَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ بِهِمْ خِلَافًا لِعَادَاتِهِمْ فِي عَصَبِيَّةِ النَّسَبِ ، وَأَنَّهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ، وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الْمُعْتَدُونَ .

(5) قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَنْعِهِمْ عَنْ عِمَارَةِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَغَيْرِهِ وَمِنَ التَّعَبُّدِ فِيهِ : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ

وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)

(9 : 17) .

(292/353)

---

(6) قَوْلُهُ تَعَالَى : (إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا) (9 : 28) وَكَانَتْ نَجَاسَتُهُمْ مَعْنَوِيَّةً وَهِيَ الشِّرْكُ وَخُرَافَاتُهُ ، وَحِسِّيَّةً إِذَا كَانُوا يَأْكُلُونَ الْمَيْتَةَ ، وَلَا يَدِينُونَ بِالطَّهَارَةِ مِنَ النَّجَاسَةِ وَلَا الْحَيْضِ وَالْجَنَابَةِ .

(7 – 10) وَصَفَ كُفَّارَ أَهْلِ الْكِتَابِ فِي الْآيَةِ (30) بِأَنَّهُمْ بِاتِّخَاذِ ابْنٍ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَوَثَنِيِّ قُدَمَاءِ الْهِنْدِ وَالْمِصْرِيِّينَ ، وَقَوْلِهِ : (قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (9 : 30) وَوَصَفَهُمْ فِي الْآيَةِ (31) بِأَنَّهُمْ : (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) وَفِي الْآيَةِ (32) بِأَنَّهُمْ (يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ) أَيْ بِكَلَامِهِمُ الْبَاطِلِ فِي الصَّدِّ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَفِي الْآيَةِ (34) بِأَنَّ كَثِيرًا مِنْ أَحْبَارِهِمْ وَرُهْبَانِهِمْ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ . وَكُلُّ هَذِهِ الصِّفَاتِ ظَاهِرَةٌ مَعْرُوفَةٌ فِي تَارِيخِهِمُ الْمَاضِي وَسِيرَتِهِمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ ، وَمِنْ دَقَائِقِ الصِّدْقِ فِي الْقُرْآنِ الْحُكْمُ فِي مِثْلِ هَذَا الْكَثِيرِ مِنْهُمْ دُونَ الْجَمِيعِ كَمَا قَالَ فِي الْمُشْرِكِينَ : (وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ) (9 : 8) وَلَمْ

يُعْهَدْ مِثْلُ هَذَا التَّحَرِّي فِي كَلَامِ الْبَشَرِ .

وَأَمَّا وَصْفُهُ لِشُرُورِ الْمُنَافِقِينَ وَذَمِّهِمْ فِيهَا فَنُلَخِّصُهُ فِيمَا يَأْتِي تَابِعًا فِي الْعَدَدِ لِمَا قَبْلَهُ .

(293/353)

---

(11) ذَكَرَ فِي اسْتِئْذَانِ الْمُنَافِقِينَ وَاعْتِذَارِهِمْ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى غَزْوَةِ تَبُوكَ وَبَيَانِ مَا يَكُونُ شَأْنُهُمْ لَوْ خَرَجُوا مِنِ ابْتِغَاءِ الْفِتْنَةِ وَالْإِفْسَادِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّثْبِيطِ وَغَيْرِهِ ، وَلَمْ يَزِدْ فِيهَا عَلَى قَوْلِهِ فِيهِمْ : (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (9 : 47) وَقَوْلِهِ : (وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ) (9 : 49) (رَاجِعِ الْآيَاتِ 42 - 49) .

(12 و13) تَعْلِيلُ عَدَمِ قَبُولِ نَفَقَاتِهِمْ فِي الْآيَةِ (53) بِفِسْقِهِمْ ، وَقَوْلُهُ بَعْدَهُ : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ) (9 : 54) .

(14 و15) وَصَفَهُمْ بَعْدَ إِثْبَاتِ اسْتِهْزَائِهِمْ فِيمَا بَيْنَهُمْ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرُسُلِهِ وَاعْتِذَارِهِمْ عَنْهُ بِقَوْلِهِمْ : (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) (9 : 65) بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذِكْرِ صِفَاتِهِمُ الْعَامَّةِ مِنَ الْآيَةِ : (نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (9

: 67) أَيِ الْخَارِجُونَ مِنْ مُحِيطِ هِدَايَةِ الدِّينِ وَسَلَامَةِ الْفِطْرَةِ .

(16) قَوْلُهُ فِي لَمْزِهِمْ وَعَيْبِهِمْ لِلْمُتَطَوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَسُخْرِيَتِهِمْ

(294/353)

مِنْهُمْ فِي الْآيَةِ (سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (9 : 79) وَهَذَا التَّعْبِيرُ يُسَمَّى بِالْمُشَاكَلَةِ أَيْ عَاقَبَهُمْ بِمِثْلِ جُرْمِهِمْ فَجَعَلَهُمْ سُخْرِيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَا فَضَحَ بِهِ نِفَاقَهُمُ الَّذِي كَانُوا يُخْفُونَهُ .

(17) قَوْلُهُ فِي تَعْلِيلِ عَدَمِ غُفْرَانِ اللَّهِ لَهُمْ : (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (9 : 80) وَقَوْلُهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) (9 : 84) وَقَدْ نَزَلَ هَذَا فِي زَعِيمِهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ ، وَلَكِنْ جُعِلَ حُكْمُ النَّهْيِ عَامًّا .

(18 و19) أَشَدُّ مَا وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الْآيَةِ (95) أَنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا نَزَلَتْ سُورَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ زَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ، حَتَّى مَاتُوا عَلَى كُفْرِهِمْ كَمَا فِي الْآيَةِ (125) وَأَنَّهُمْ عِنْدَ نُزُولِهَا يَنْصَرِفُونَ مِنْ مَجْلِسِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عِنْدَ غَفْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُمْ ثُمَّ قَالَ : (صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) أَيْ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ عَنِ الِاهْتِدَاءِ بِهَا

بِسَبَبِ أَنَّهُمْ لَا يَفْقَهُونَ مَا فِيهَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى بِمُقْتَضَى سُنَّتِهِ فِي ارْتِبَاطِ الْأَسْبَابِ بِمُسَبَّبَاتِهَا وَهَذَا آخِرُ مَا ذُكِرُوا بِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مِنَ الْآيَةِ 127 .

(295/353)

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ كُلَّ مَا وُصِفُوا بِهِ بَيَانٌ لِحَقِيقَةِ حَالِهِمْ بِأَنْزَهِ تَعْبِيرٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ مَقْرُونًا بِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ وَالْأَخْلَاقِ السَّافِلَةِ وَالسَّرَائِرِ الَّتِي هِيَ شَرٌّ مِنْهَا ، وَأَنَّ الْمُرَادَ بِوَصْفِهِمُ التَّنْفِيرُ مِنْهُ لِإِعْدَادِ مَنْ فِيهِ اسْتِعْدَادًا لِقَبُولِ الْحَقِّ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ ، وَقَدْ تَابَ أَكْثَرُهُمْ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ .

(الْفَصْلُ الثَّانِي)

(فِي الْمُنَافِقِينَ وَصِفَاتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ وَسِيَاسَةِ الْإِسْلَامِ فِيهِمْ)

النِّفَاقُ خُلُقٌ رَدِيءٌ وَوَصْفٌ خَبِيثٌ تَتَلَوَّثُ بِهِ الْأَنْفُسُ الدَّنِيئَةُ الْفَاسِدَةُ الْفِطْرَةِ ، فَلَا يَرَى أَهْلُهَا وَسِيلَةً إِلَى مَطَامِعِهِمْ فِي الْمَالِ وَمَطَامِحِهِمْ إِلَى الْجَاهِ إِلَّا الْكَذِبَ ، وَالرِّيَاءَ ، وَلِقَاءَ النَّاسِ بِالْوُجُوهِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَالتَّصَنُّعَ ، وَالْخِدَاعَ ، وَلِينَ الْقَوْلِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِيهِمْ : (وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ) (63 : 4) وَهُمْ يُوجَدُونَ فِي كُلِّ شِعْبٍ وَكُلِّ قَبِيلَةٍ ، لَا تَخْلُو مِنْهُمْ بَادِيَةٌ وَلَا حَاضِرَةٌ ، وَالنِّفَاقُ قِسْمَانِ : خَاصٌّ وَعَامٌّ ، فَالْخَاصُّ : هُوَ الشَّخْصِيُّ الَّذِي يُحَاوِلُ صَاحِبُهُ لِقَاءَ كُلِّ أَحَدٍ مِمَّا يُرْضِيهِ

عَنْهُ وَيُحَبِّبُهُ إِلَيْهِ وَلَا سِيَّمَا الْحُكَّامِ وَأَصْحَابِ الْجَاهِ وَالْمَنَاصِبِ وَالثَّرَاءِ الَّذِينَ يُرْجَى الِانْتِفَاعُ مِنْهُمْ أَوْ يُخْشَى ضَرُّهُمْ ، فَهُوَ يَلْبَسُ لِلصَّالِحِينَ مِنْهُمْ لِبَاسَ التَّقْوَى

(296/353)

وَالصَّلَاحِ ، وَيَخْلَعُ لِلْفُسَّاقِ جِلْبَابَ الْحَيَاءِ ، وَيُفْرِغُ عَلَى الْمُسْتَكْبِرِينَ حُلَلَ الْإِطْرَاءِ ، وَهُوَ أَهْوَنُ الْمُنَافِقِينَ .

(297/353)

وَأَمَّا النِّفَاقُ الْعَامُّ فَهُوَ مَا يَكُونُ فِي الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ ، وَخِيَانَةِ الْأُمَّةِ وَالْمِلَّةِ ، وَمَا وُجِدَ النِّفَاقُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، لَمَّا صَارَ لِلْإِسْلَامِ قُوَّةُ الدَّوْلَةِ ، إِذْ أَسْلَمَ أَكْثَرُ الْأَنْصَارِ بِظُهُورِ نُورِ هَذَا الدِّينِ الْقَوِيمِ لَهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَصْلَحَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ تَحْجُبُ هَذَا النُّورَ عَنْ بَصَائِرِهِمْ ، أَوْ تَحْمِلُهُمْ عَلَى مُكَابَرَةِ الْحَقِّ وَجُحُودِهِ ، كَكُبَرَاءِ قُرَيْشٍ الْمَغْرُورِينَ بِثَرْوَتِهِمُ الْوَاسِعَةِ ، وَجَاهِهِمْ فِي الْعَرَبِ بِسِدَانَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَاسْتِكْبَارِهِمْ عَلَى سَائِرِ النَّاسِ ، وَإِسْرَافِهِمْ فِي التَّمَتُّعِ بِالسُّكْرِ وَالزِّنَا وَأَكْلِ الرِّبَا وَالشَّهَوَاتِ ، فَكَانُوا يَرَوْنَ

أَنَّ الْإِسْلَامَ يُسَاوِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ فِي جَمِيعِ الْحُقُوقِ ، وَيُفَضِّلُ الْفَقِيرَ الْمُتَّقِيَ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى الْغَنِيِّ الْمُسْرِفِ فِي الْفُسُوقِ ، وَيَقْتَصُّ لِلسُّوقَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ وَالْمُلُوكِ ، وَيُحَقِّرُ الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَيُكْرِمُ الْمُتَوَاضِعِينَ ، وَيَزْدَرِي الظَّالِمِينَ وَالْفَاسِقِينَ ، فَيَسْلُبُهُمْ بِهَذَا جَمِيعَ مَا يَمْتَازُونَ بِهِ عَلَى دَهْمَاءِ النَّاسِ ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْثَرُ مَنِ اهْتَدَى بِهِ فِي مَكَّةَ الْفُقَرَاءَ وَبَعْضَ أَصْحَابِ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ وَالْعُقُولِ الْحُرَّةِ مِنَ الطَّبَقَةِ الْوُسْطَى ، وَكَانَ أَعْلَاهُمْ فِطْرَةً وَأَزْكَاهُمْ نَفْسًا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَسَائِرُ الْعَشَرَةِ الْكِرَامِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ .

(298/353)

آمَنَ بَعْضُ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَوَّلًا بِلِقَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ ، وَدَعَوْا قَوْمَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ بَعْدَ عَوْدَتِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ فَصَادَفَتْ دَعْوَتُهُمْ رَوَاجًا لِقُوَّةِ الْمُقْتَضِي وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَفَضَائِلُ الْإِسْلَامِ ، فَلَمَّا كَثُرُوا هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَيْهِمْ إِذْ عَاهَدَهُ نُقَبَاؤُهُمْ فِي مِنًى عَلَى نَصْرِهِ وَمَنْعِهِ (أَيْ حِمَايَتِهِ وَالذَّبِّ عَنْهُ) مِمَّا يَمْنَعُونَ أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ ، وَمِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ نُورُ الْإِسْلَامِ لَمْ يَظْهَرْ لِكُلِّ فَرْدٍ مِنْهُمْ عَلَى سَوَاءٍ ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْهُمْ مَنِ اضْطُرَّ إِلَى الدُّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ قَوْمُهُمْ مُوَاتَاةً لَهُمْ ، مَعَ عَدَمِ وُجُودِ نِظَامٍ

لِدِيَانَتِهِمُ الْوَثَنِيَّةِ يَرْتَبِطُ بِهِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ فَيُقِيمُونَهُ وَيَذُبُّونَ عَنْهُ ، فَكَانَ مُنَافِقُو الْمَدِينَةِ مِنْ هَؤُلَاءِ وَمِمَّنْ حَوْلَهُمْ مِنْ قَبَائِلِ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ لَمْ يَعْقِلُوا الْإِسْلَامَ كَأَسَدٍ وَغَطَفَانَ .

(299/353)

وَكَانَ هُنَالِكَ يَهُودٌ كَثِيرُونَ يُقِيمُ أَكْثَرُهُمْ فِي حُصُونٍ لَهُمْ بِالْقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ كَبَنِي قُرَيْظَةَ وَبَنِي النَّضِيرِ ، وَقَدْ عَاهَدَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى حُرِّيَّتِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُ وَيُظَاهِرُونَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكِينَ كُلَّمَا جَاءُوا لِقِتَالِهِ ، بَلْ كَانُوا يُغْرُونَهُمْ وَيُحَرِّضُونَهُمْ عَلَيْهِ ، فَكَانُوا فِي إِظْهَارِ الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ مُنَافِقِينَ ، وَكَانَ لَهُمْ أَحْلَافٌ مِنْ عَرَبِ الْمَدِينَةِ ، فَحَافَظَ عَلَى مَوَدَّتِهِمْ مُنَافِقُوهَا بِالسِّرِّ كَمَا بَيَّنَّا ذَلِكَ كُلَّهُ فِي مَحَلِّهِ .

فَكَانَتْ سِيَاسَةُ الْإِسْلَامِ فِي الْفَرِيقَيْنِ أَنَّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ يُعَامَلُ كَمَا يُعَامَلُ سَائِرُ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ قَاعِدَةَ الْإِسْلَامِ أَنَّ الْحُكْمَ عَلَى الظَّوَاهِرِ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يُحَاسِبُ ، وَيُعَاقِبُ عَلَى السَّرَائِرِ ، وَأَنَّ مَنْ حَافَظَ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِهِ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ يُوَفَّى لَهُ ، وَكَانَ الْيَهُودُ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ مَعَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، فَإِذَا ظَهَرَ شَيْءٌ مِنْ خِيَانَتِهِمْ وَغَدْرِهِمُ اعْتَذَرُوا عَنْهُ ، حَتَّى إِذَا مَا افْتَضَحَ أَمْرُهُمْ حَارَبَهُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

وَأَجْلَاهُمْ عَنِ الْبِلَادِ ، كَمَا تَرَى فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ (55 - 58) مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ (42 - 52 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(300/353)

وَقَدْ قَصَّ اللَّهُ عَلَيْنَا فِي سُورَةِ الْحَشْرِ مَا كَانَ بَيْنَ الْيَهُودِ وَالْمُنَافِقِينَ مِنَ الْإِخَاءِ وَالْوَلَاءِ ، وَأَنَّهُ لَا خَيْرَ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنْهُمَا ، عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ ظَاهَرُوا الْمُشْرِكِينَ عَلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَمْ يَفُوا لِلْيَهُودِ بِمَا وَعَدُوهُمْ بِهِ مِنْ نَصْرِهِمْ إِذَا هُمْ أَظْهَرُوا عَدَاوَتَهُمْ ؛ لِأَنَّ الْمُنَافِقَ الْقُحَّ دُونَ الْمُتَدَيِّنِ الْكَافِرِ هِمَّةً وَشَرَفًا وَخُلُقًا . قَالَ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) (59 : 11 و12) .

كَانَ سَبَبُ مُعَاهَدَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْيَهُودِ وَإِقْرَارِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى دِينِهِمْ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ حُرِّيَّةٍ وَعَدْلٍ ، وَدَعْوَتُهُ قَائِمَةٌ عَلَى الْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ ، وَلِذَلِكَ مَنَعَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَخْذِ أَوْلَادِهِمُ الَّذِينَ تَهَوَّدُوا وَانْضَمُّوا إِلَى الْيَهُودِ بِالْقُوَّةِ ، وَأَمَرَهُمْ بِأَنْ يُخَيِّرُوهُمْ إِذْ نَزَلَ فِيهِمْ

قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (2 : 256) .

(301/353)

وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ سَبَبَ مُعَامَلَةِ الْمُنَافِقِينَ بِظَاهِرِ إِسْلَامِهِمْ هُوَ أَنَّ أَمْرَ السَّرَائِرِ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، فَهُوَ الَّذِي يَعْلَمُهَا ، وَهُوَ الَّذِي يُجَازِي عَلَيْهَا ، وَلَا يُبَاحُ لِحَاكِمٍ وَلَا لِنَبِيٍّ أَنْ يَحْكُمَ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَنَّهُ يُسِرُّ الْكُفْرَ فِي نَفْسِهِ وَلَا أَنْ يَتَّهِمَهُ بِذَلِكَ وَيُعَاقِبَهُ عَلَيْهِ ، وَلَا يَثْبُتُ الْكُفْرُ عَلَى مَنْ ظَاهِرُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا بِإِقْرَارٍ صَرِيحٍ مِنْهُ ، أَوْ صُدُورِ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ يَدُلُّ عَلَيْهِ دَلَالَةً قَطْعِيَّةً لَا تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ كَتَكْذِيبِ الْقُرْآنِ أَوِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَوْ جُحُودِ كَوْنِهِ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ ; وَالشِّرْكِ بِاللَّهِ بِدُعَاءِ غَيْرِهِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ لَا يُقْبَلُ فِيهِ تَأْوِيلٌ ، كَجُحُودِ فَرْضِيَّةِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ ، أَوِ اسْتِحْلَالِ الزِّنَى وَالرِّبَا وَشُرْبِ الْخَمْرِ .

وَأَمَّا حِكْمَةُ ذَلِكَ وَفَائِدَتُهُ فَهِيَ أَنَّ مَنْ يَلْتَزِمُ شَعَائِرَ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامَهُ وَلَوْ بِغَيْرِ إِيمَانٍ يَقِينِيٍّ فَإِنَّهُ يُرْجَى لَهُ - بِطُولِ الْعَمَلِ - أَنْ يَنْشَرِحَ صَدْرُهُ لِلْإِيمَانِ وَيَطْمَئِنَّ بِهِ قَلْبُهُ ، وَيُوقِنَ بِهِ عَقْلُهُ ،

وَإِلَّا كَانَتِ اسْتِفَادَتُهُ وَإِفَادَتُهُ لِلْأُمَّةِ دُنْيَوِيَّةً فَقَطْ .

(فَإِنْ قِيلَ) إِنَّ مُقْتَضَى حُرِّيَّةِ الدِّينِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا الْإِسْلَامُ فِي مُعَامَلَةِ أَهْلِ الْكِتَابِ - إِذْ

(302/353)

أَقَرَّهُمْ عَلَى الْعَمَلِ بِدِينِهِمْ حَتَّى فِيمَا بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ خَالَفُوا فِيهِ مَا جَاءَ بِهِ رُسُلُهُمْ - أَنْ يَسْمَحَ لِلْمُنَافِقِينَ بِأَنْ يُظْهِرُوا كُفْرَهُمْ (قُلْنَا) إِنَّ الْجَمْعَ بَيْنَ إِظْهَارِ كُفْرِهِمْ وَحُسْبَانِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، لَهُمْ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقِ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ مَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَاجِبَاتِ . تَنَاقُضٌ لَا يَقُولُ بِهِ عَاقِلٌ ، وَلَا يَحْكُمُ بِهِ عَادِلٌ ، وَمَثَلُهُمْ فِيهِ كَمَثَلِ مَنْ يُسْمَحُ لَهُ بِحُقُوقِ الْجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الْوَطَنِيَّةِ وَلَا يُطَالَبُ بِالْخُضُوعِ لِقَوَانِينِهَا ، وَلَا يُعَاقَبُ عَلَى انْتِهَاكِهَا وَمُخَالَفَةِ أَحْكَامِهَا ، وَإِنَّمَا تَكُونُ حُرِّيَّةُ الدِّينِ الْمَعْقُولَةُ لِأَهْلِهِ فِي دَائِرَةٍ مُحِيطِهِ بِأَلَّا يُحَاسِبَ أَحَدُهُمْ أَحَدًا عَلَى عَقِيدَتِهِ وَوِجْدَانِهِ فِيهِ ، وَلَا اجْتِهَادِهِ فِي فَهْمِهِ ، إِلَّا مِنْ طَرِيقِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ، وَلَيْسَ مِنْهَا أَنْ يُخَالِفَ أُصُولَهُ الْقَطْعِيَّةَ الَّتِي لَا يَكُونُ الْمُسْلِمُ مُسْلِمًا بِدُونِهَا وَيُعَدُّ مَعَ ذَلِكَ مُسْلِمًا ، إِذًا لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُطَالِبَ حُكُومَتَهُ الْمُتَدَيِّنَةَ بِالسَّمَاحِ لَهُ بِالْخُرُوجِ عَلَى دِينِهَا ، كَمَا لَا يَصِحُّ لَهُ أَنْ يُطَالِبَهَا بِالسَّمَاحِ لَهُ بِالْخُرُوجِ عَلَى قَوَانِينِهَا ، فَتَكُونُ حُرِّيَّتُهُ هُنَا مُتَعَارِضَةً مَعَ حُرِّيَّتِهَا هِيَ وَحُرِّيَّةِ أُمَّتِهَا .

(303/353)

(فَإِنْ قِيلَ) إِنَّ الْقُرْآنَ قَدْ فَضَحَ بَعْضَ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ وَحَكَمَ بِكُفْرِهِمْ ، وَلَمْ يُنَفِّذِ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَيْهِمْ أَحْكَامَ الْمُرْتَدِّينَ عَنِ الْإِسْلَامِ ، بَلْ بَقِيَ يُعَامِلُهُمْ هُوَ وَأَصْحَابُهُ

مُعَامَلَةَ الْمُسْلِمِينَ (قُلْنَا) إِنَّ مَا بَيَّنَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ حَالِ الْمُنَافِقِينَ إِنَّمَا كَانَ وَصْفًا لِأُنَاسٍ غَيْرِ مُعَيَّنِينَ بِأَشْخَاصِهِمْ ، إِنْذَارًا وَزَجْرًا لَهُمْ لِيَعْرِفُوا حَقِيقَةَ حَالِهِمْ ، وَيَخْشَوْا سُوءَ مَآلِهِمْ ، عَسَى أَنْ يَتُوبَ الْمُسْتَعِدُّونَ لِلتَّوْبَةِ مِنْهُمْ ، وَقَدْ تَابَ الْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ ، بِمَا يَظْهَرُ لَهُمْ مِنْ إِخْبَارِ الْقُرْآنِ عَنْهُمْ ، بِمَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَمْرِهِمْ .

(304/353)

وَكَانَ الَّذِينَ عَرَّفَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بَعْضَ أَصْحَابِهِ أَشْخَاصَهُمْ - قَلِيلِينَ جِدًّا ، كَالَّذِينَ هَمُّوا بِاغْتِيَالِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَشْرِيدِ رَاحِلَتِهِ فِي عَقَبَةٍ فِي الطَّرِيقِ - مُنْصَرَفَهُمْ مِنْ تَبُوكَ - لِيَطْرَحُوهُ مِنْهَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : لَئِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ

صَادِقًا لَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ ، وَفِيهِمْ نَزَلَ (يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا) (9 : 74) وَلَمَّا اسْتَأْمَرَهُ أَصْحَابُهُ بِقَتْلِهِمْ قَالَ : (أَكْرَهُ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ وَيَقُولُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ وَضَعَ يَدَهُ فِي أَصْحَابِهِ) أَيْ فِي رِقَابِهِمْ بِقَتْلِهِمْ ، وَهَذَا أَكْبَرُ مُنَفِّرٍ عَنِ الْإِيمَانِ ; فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ كَانَ يَسْتَحْسِنُ هَذَا الدِّينَ وَيُفَضِّلُهُ عَلَى مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ فِي أَحْكَامِهِ وَآدَابِهِ لِذَاتِهَا ، قَبْلَ أَنْ تَقُومَ عِنْدَهُمُ الْحُجَّةُ عَلَى الْيَقِينِ بِكَوْنِهِ وَحْيًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، فَيَدْخُلُونَ فِيهِ ، ثُمَّ بَعْدَ زَمَنٍ قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ مِنْ مَعْرِفَتِهِ التَّفْصِيلِيَّةِ تَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِالْإِيمَانِ الْيَقِينِيِّ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَدْخُلُ فِيهِ تَبَعًا لِأَكْثَرِ قَوْمِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى تَفْضِيلِهِ لِقِلَّةِ عِلْمِهِ بِدَعْوَتِهِ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يُقْبَلُ إِسْلَامُهُمْ وَيُعْتَدُّ بِهِ شَرْعًا ، وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْحُجُرَاتِ : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ

(305/353)

فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا) (49 : 14) وَلَوْ سَمِعَ أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ يَقْتُلُ بَعْضَ مَنِ اتَّبَعَهُ وَصَحِبَهُ لِظُهُورِ شَيْءٍ يَدُلُّ عَلَى عَدَمِ إِيمَانِهِمْ فِي الْبَاطِنِ ، أَوْ

لِإِعْلَامِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، لَنَفَرُوا مِنَ الْإِسْلَامِ وَخَافُوا عَاقِبَةَ الدُّخُولِ فِيهِ .

وَثَمَّ مَفْسَدَةٌ أُخْرَى فِي هَذِهِ الْإِشَاعَةِ وَهِيَ أَنَّ الْمُنَافِقِينَ وَالْكُفَّارَ يُذِيعُونَ فِيهَا مَا شَاءُوا مِنَ التُّهَمِ الْبَاطِلَةِ وَالْإِفْكِ الْمُفْتَرَى ، كَزَعْمِهِمْ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَ مَنْ ظَهَرَ لَهُمْ مِنْهُ مَا دَلَّهُمْ عَلَى بُطْلَانِ دِينِهِ بَعْدَ أَنْ صَدَّقُوهُ وَجَاهَدُوا مَعَهُ .

عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ فِيهِمْ بَعْدَ وَصْفِهِمْ بِالْكُفْرِ بِالْقَوْلِ وَبِالْهَمِّ بِشَرِّ نَتَائِجِهِ مِنَ الْفِعْلِ (فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ) (9 : 74) . الْآيَةَ ، فَيُرَاجَعُ تَفْسِيرُ الْآيَةِ وَمَا قَبْلَهَا مِنَ الْأَمْرِ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ فِي (ص 473 - 481 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(306/353)

وَيَلِي هَذَا فِي السُّورَةِ خَبَرُ الَّذِي عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَيَصَّدَّقَنَّ (فِي الْآيَاتِ 75 - 77) وَمَا رَوَوْا فِي سَبَبِ نُزُولِهَا خَاصَّةً وَأَنَّهُ شَخْصٌ يُقَالُ لَهُ ثَعْلَبَةُ ، وَأَنَّهُ بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ فِيهِ الْآيَاتُ تَابَ وَأَرَادَ أَنْ يُؤَدِّيَ زَكَاةَ مَالِهِ فَلَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ لَمْ يَقْبَلْهَا مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عُمَرُ وَلَا عُثْمَانُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَأَنَّهُ هَلَكَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّ فِي حَدِيثِ سَبَبِ نُزُولِهَا إِشْكَالَاتٍ فِي سَنَدِهِ وَفِي مَتْنِهِ فَإِنَّهُ مُخَالِفٌ لِأَصْلِ

الشَّرِيعَةِ الْقَطْعِيِّ الْمُجْمَعِ عَلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ بِالظَّاهِرِ ، فَهُوَ بَاطِلٌ قَطْعًا بِمَا فَصَّلُوهُ بِهِ تَفْصِيلًا (رَاجِعْ تَفْسِيرَ ص 481 - 484 ج 10 ط الْهَيْئَةِ)

وَيَقْرُبُ مِنْهُ فِي الْمَعْنَى مَا رُوِيَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ) (9 : 84) وَأَنَّهُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ ابْنِ سَلُولَ زَعِيمِ الْمُنَافِقِينَ الْأَكْبَرِ وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا مَا فِي الْحَدِيثِ مِنَ التَّعَارُضِ مَعَ الْقُرْآنِ فَرَاجِعْهُ (فِي ج 10 تَفْسِيرٌ) .

(307/353)

وَمِنَ الْمُشْكَلِ فِي هَذَا الْبَابِ قِصَّةُ مَسْجِدِ الضِّرَارِ فِي الْآيَاتِ (107 - 110) فَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهَا أَنَّهُمُ اتَّخَذُوهُ لِأَرْبَعَةِ أَغْرَاضٍ مِنْهَا الْكُفْرُ وَسَائِرُهَا أَقْبَحُ مَقَاصِدِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ . وَقَدْ أَمَرَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِهَدْمِهِ فَهُدِمَ وَلَمْ يَأْمُرْ بِقَتْلِهِمْ ، وَقَدْ شَهِدَ اللَّهُ بِكَذِبِهِمْ فِيمَا حَلَفُوا عَلَيْهِ مِنْ حُسْنِ نِيَّتِهِمْ . وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الَّذِينَ بَنَوْهُ لِلْمَقَاصِدِ الْأَرْبَعَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَاتِ كَانُوا كَمَا قَالَ الْمُفَسِّرُونَ اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ مُنَافِقِي الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ أَتْبَاعِ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ الَّذِي وَعَدَهُمْ بِأَنْ يَتَوَسَّلَ بِنَصْرَانِيَّتِهِ إِلَى قَيْصَرَ الرُّومِ وَالشَّامِ فَيُرْسِلَ مَعَهُ جُنْدًا يَكْفِيهِمْ أَمْرَ الرَّسُولِ وَمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ صِدْقَهُمْ

فِي ظَاهِرِ عَمَلِهِمْ وَمَا زَعَمُوهُ مِنْ حُسْنِ النِّيَّةِ فِيهِ - كَثِيرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَشَارَكُوهُمْ وَصَلَّوْا مَعَهُمْ فِيهِ ، وَكَانَ التَّمْيِيزُ بَيْنَهُمْ مُتَعَذِّرًا ، فَصَحَّ أَنْ يَأْتِيَ فِي الْفَرِيقَيْنِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْمُسْلِمِينَ الْمُسْتَخْفِينَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ (لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا) (48 : 25) .

وَالسَّبَبُ الْخَاصُّ لِعَدَمِ عِقَابِ أَصْحَابِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ عَلَى الْكُفْرِ الَّذِي أَثْبَتَهُ

(308/353)

النَّصُّ الصَّرِيحُ - أَمْرَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْآيَاتِ فِي قِصَّتِهِمْ قَدْ بُدِئَتْ بِمَا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُهُمْ فِيهَا مَعْطُوفًا عَلَى الَّذِينَ أُرْجِئُوا لِأَمْرِ اللَّهِ الْبَتَّ فِي أَمْرِهِمْ وَجَعَلَ التَّوْبَةَ عَلَيْهِمْ مَرْجُوَّةً ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ) (9 : 106) وَالثَّانِي خَتَمَ قِصَّتَهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى (لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (9 : 110) فَيَظْهَرُ فِي مَعْنَى (تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ) احْتِمَالٌ هُوَ أَحَدُ الْأَقْوَالِ فِي تَفْسِيرِهِ ، وَهُوَ تَقَطُّعُهَا مِنَ الْأَسَفِ وَالْحُزْنِ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُمْ ، وَوُقُوعُ هَذَا الِاسْتِثْنَاءِ مُحْتَمَلٌ ، وَإِذًا يَكُونُ أَقْوَى الْأَدِلَّةِ عَلَى تَوْبَتِهِمْ وَأَصْدَقِهَا ، وَيَكْفِي الِاحْتِمَالُ لِمَنْعِ الْحُكْمِ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي هَذَا الْبَابِ أَنَّ سِيَاسَةَ الْإِسْلَامِ فِي الْمُنَافِقِينَ أَنْ يُعَامَلُوا بِحَسَبِ ظَوَاهِرِهِمْ وَمَا يَبْدُو مِنْ أَعْمَالِهِمْ ، وَأَنَّ لِلْإِمَامِ الْأَعْظَمِ أَوْ عَلَيْهِ - وَمِثْلُهُ نُوَّابُهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ - أَنْ يُعَرِّضَ فِي الْخُطَبِ الْعَامَّةِ وَالتَّصْرِيحَاتِ الرَّسْمِيَّةِ بِتَقْبِيحِ مَا يَعْلَمُ مِنْ سُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَالْإِنْذَارِ بِسُوءِ عَوَاقِبِهَا لِيَعُدَّهُمْ لِلتَّوْبَةِ مِنْهَا ، أَوِ الْحَذَرِ مِنْ إِظْهَارِ مَا يُضْمِرُونَهُ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الْعِقَابُ .

وَتَتَضَمَّنُ هَذِهِ السِّيَاسَةُ الْأُصُولَ الْآتِيَةَ :

(309/353)

(الْأُصُولُ الثَّلَاثَةُ فِي حُرِّيَّةِ الدِّينِ ، وَمُعَامَلَةِ الْمُنَافِقِينَ)

1 - إِنَّ حُرِّيَّةَ الِاعْتِقَادِ وَالْوِجْدَانِ مَرْعِيَّةٌ لَا سَيْطَرَةَ عَلَيْهَا لِلرُّؤَسَاءِ الْحَاكِمِينَ ، وَلَا لِلْمُعَلِّمِينَ وَالْمُرْشِدِينَ ، وَإِنَّمَا لِهَؤُلَاءِ حَقٌّ فِي التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَتَّهِمَ إِنْسَانًا بِإِضْمَارِ الْكُفْرِ وَلَا بِنِيَّةِ الْخِيَانَةِ لِمِلَّتِهِ أَوْ دَوْلَتِهِ ، وَلَا بِإِرَادَةِ السُّوءِ لِقَوْمِهِ وَأُمَّتِهِ ، وَلَا أَنْ يُعَاقِبَهُ عَلَى ذَلِكَ بِعِقَابٍ بَدَنِيٍّ وَلَا مَالِيٍّ ، وَلَا بِحِرْمَانِهِ مِنَ الْحُقُوقِ الَّتِي يَتَمَتَّعُ بِهَا غَيْرُهُ مِنْ أَفْرَادِ الْأُمَّةِ .

2 - إِنَّهُ لَيْسَ لِمَنْ يُضْمِرُ الْكُفْرَ بِاللهِ أَوْ بِمَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ بِإِظْهَارِ ذَلِكَ لَهُمْ وَدَعْوَتِهِمْ إِلَيْهِ ، أَوِ الطَّعْنِ فِي عَقَائِدِهِمْ ، أَوْ إِظْهَارِ مَا يُنَافِيهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ ، وَإِنْ لَمْ

يَكُنْ دَعْوَةً وَلَا طَعْنًا ، فَإِنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَكَانَ يَدَّعِي الْإِسْلَامَ يُحْكَمُ بِارْتِدَادِهِ وَخُرُوجِهِ مِنَ الْمِلَّةِ ، إِنْ كَانَ مَا أَظْهَرَهُ مِنَ الْكُفْرِ صَرِيحًا قَطْعِيًّا مُجْمَعًا عَلَيْهِ لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ مَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الشَّرْعِ مِنِ اسْتِتَابَتِهِ وَعِقَابِهِ إِنْ لَمْ يَتُبْ (وَمِنْهُ مَنْعُ التَّوَارُثِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَفَسْخُ نِكَاحِهِ بِالْمُسْلِمَاتِ ، وَعَدَمِ تَشْيِيعِ جِنَازَتِهِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَدَفْنِهِ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ) لِأَنَّ حُرِّيَّةَ كُلِّ أَحَدٍ فِي اعْتِقَادِهِ تَقِفُ

(310/353)

عِنْدَ حَدِّ حُرِّيَّةِ غَيْرِهِ . وَلَا سِيَّمَا احْتِرَامِ عَقَائِدَ الْمِلَّةِ الَّتِي يَعِيشُ فِي ظِلِّ شَرِيعَتِهَا ، وَسَائِرِ شَعَائِرِهَا وَعِبَادَاتِهَا .

وَلْيَعْلَمِ الْقَارِئُ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْفُقَهَاءِ قَدْ أَسْرَفُوا فِي أَبْوَابِ الرِّدَّةِ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي يُحْكَمُ فِيهَا بِالْكُفْرِ الْمُخْرِجِ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَبَنَوْا كَثِيرًا مِنْهُ عَلَى اللَّوَازِمِ الْبَعِيدَةِ ، وَالْمُحْتَمِلَةِ لِلتَّأْوِيلَاتِ الْقَرِيبَةِ ، وَمَا وَرَدَ فِي صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، وَإِنْ قَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ الْمُتَقَدِّمِينَ : إِنَّ مَا كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نِفَاقًا لَا يُنَافِي ظَاهِرَ الْإِسْلَامِ هُوَ الْآنَ كُفْرٌ مَحْضٌ لَا تُقْبَلُ مَعَهُ دَعْوَى الْإِيمَانِ ، فَهَذَا قَوْلٌ بَاطِلٌ ، فَكِتَابُ اللَّهِ وَسُنَّةُ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُمَا الْحُجَّةُ فِي الدِّينِ ، وَالِاهْتِدَاءُ بِهِمَا هُوَ الْوَاجِبُ إِلَى

يَوْمِ الدِّينِ ، فَيَجِبُ قَبُولُ قَوْلِ كُلِّ مَنْ أَظْهَرَ الْإِسْلَامَ وَلَمْ يُصَرِّحْ بِمَا يُنَافِيهِ بِمَا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَمِمَّا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ احْتِمَالًا ظَاهِرًا جَمِيعُ الْمَبَاحِثِ الْعِلْمِيَّةِ الْمُخَالِفَةِ لِظَوَاهِرِ النُّصُوصِ كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي الْأُصُولِ .

(311/353)

---

3 - إِنَّ مَنْ ظَهَرَ مِنْهُ شَيْءٌ مِنْ أَمَارَاتِ النِّفَاقِ الْعَمَلِيِّ فِي الدِّينِ ، أَوِ الْخِيَانَةِ لِلْأُمَّةِ وَالْمِلَّةِ بِمَا هُوَ غَيْرُ صَرِيحٍ ، مِمَّا لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ فِي الشَّرْعِ بِحَدٍّ وَلَا تَعْزِيرٍ ، فَلِوَلِيِّ الْأَمْرِ أَنْ يَعِظَهُ بِالتَّعْرِيضِ ، ثُمَّ بِالتَّصْرِيحِ وَالتَّكْشِيفِ ، وَلَهُ أَنْ يُعَاقِبَهُ بِمَا يُرْجَى أَنْ يَزَعَهُ عَنْ غَيِّهِ مِنَ التَّأْدِيبِ ، كَالْحِرْمَانِ مِنْ مَظَاهِرِ التَّشْرِيفِ ، أَوِ الْإِزْوِرَارِ وَالتَّقْطِيبِ ، أَوِ التَّأْدِيبِ وَالتَّعْنِيفِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ (جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) (9 : 73) وَمِنْهُ حِرْمَانُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلَّذِينَ تَخَلَّفُوا عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَهُ إِلَى غَزْوَةٍ أُخْرَى بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : (فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا) (9 : 83) الْآيَةَ .

وَلَكِنَّ الْمُلُوكَ الْمُسْتَبِدِّينَ يُقَرِّبُونَ إِلَيْهِمُ الْمُنَافِقِينَ فَيَزِيدُونَهُمْ فَسَادًا ، وَيُجَرِّئُونَ غَيْرَهُمْ بَلْ يُرَغِّبُونَهُ فِي النِّفَاقِ وَخِيَانَةِ الْأُمَّةِ جِهَارًا ، حَتَّى إِنَّ الْمَنَاصِبَ الدِّينِيَّةَ الْمَحْضَةَ صَارَتْ تُنَالُ

بِالنِّفَاقِ ، وَيُذَادُ عَنْهَا أَهْلُ الصِّدْقِ وَالْإِخْلَاصِ ، وَإِلَى اللهِ الْمُشْتَكَى وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

(انْتَهَى بَيَانُ مَا فَتَحَ اللهُ بِهِ عَلَيْنَا مِنْ خُلَاصَةِ هَذِهِ السُّورَةِ)

(وَكُتِبَ فِي أَوْقَاتٍ مُتَقَطِّعَةٍ فِي سَنَةٍ عَسِرَةٍ شَدِيدَةٍ)

(وَتَمَّ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ 1350) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 70 . 115 ﴾

(312/353)

وقال ابن عاشور :

والفاء في قوله : ﴿ فإن تولوا ﴾

للتفريع على إرسال النبي صلى الله عليه وسلم صاحب هذه الصفات إليهم فإن صفاته المذكورة تقتضي من كل ذي عقل سليم من العرب الإيمان به واتباعه لأنه من أنفسهم ومحب لخيرهم رؤوف رحيم بمن يتبعه منهم ، فتفرع عليه أنهم محقوقون بالإيمان به فإن آمنوا فذاك وإن لم يؤمنوا فإن الله حسيبه وكافيه .

وقد دل الشرط على مقابله لأن ﴿ فإن تولوا ﴾ يدل على تقدير ضده وهو إن أذعنوا

بالإيمان .

وبعد التفريع التفت الكلام من خطاب العرب إلى خطاب النبي صلى الله عليه وسلم بما كان مقتضى الظاهر أن يخاطَبُوا هُم به اعتماداً على قرينة حرف التفريع فقيل له : ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله ﴾ .

والتقدير : فإن توليتم عنه فحسبه الله وقل حسبي الله .

فجيء بهذا النظم البديع الإيجاز مع ما فيه من براعة الإيماء إلى عدم تأهلهم لخطاب الله على تقدير حالة توليهم .

والتولي : الإعراض والإدبار : وهو مستعار هنا للمكابرة والعناد .

والحسْب : الكافي ، أي كافيك شر إعراضهم لأنهم إن أعرضوا بعد هذا فقد أعرضوا عن حسد وحنق .

وتلك حالة مظنة السعي في الكيد والأذى .

ومعنى الأمر بأن يقول : ﴿ حسبي الله ﴾ أن يقول ذلك قولاً ناشئاً عن عقد القلب عليه ، أي فاعلم أن حسبك الله وقُل حسبي الله ، لأن القول يؤكد المعلوم ويرسخه في نفس العالم به ، ولأن في هذا القول إبلاغاً للمعرضين عنه بأن الله كافيه إياهم .

والتوكل : التفويض .

وهو مبالغة في وَكَل .

وهذه الآية تفيد التنويه بهذه الكلمة المباركة لأنه أمر بأن يقول هذه الكلمة بعيْنِها ولم يؤمَر بمجرد التوكل كما أمر في قوله : ﴿ فتوكل على الله إنك على الحق المبين ﴾ [النمل : 79] .

ولا أخبر بأن الله حسبه مجردَ إخبار كما في قوله : ﴿ فإن حسبك الله ﴾ [الأنفال : 62] .

وجملة : ﴿ لا إله إلا هو ﴾ مستأنفة للثناء ، أو في موضع الحال وهي ثناء بالوحدانية .

(313/353)

وعطفت عليها جملة : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ للثناء بعظيم القدرة لأن من كان رباً للعرش العظيم ثبت أنه قدير ، لأنه قد اشتهر أن العرش أعظم المخلوقات ، ولذلك وصف بالعظيم ، فالعظيم في هذه الآية صفة للعرش ، فهو مجرور .

وفي هاتين الآيتين إشعار بالإيداع والإعذارِ للناس ، وتنبيه إلى المبادرة باغتنام وجود الرسول صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم ليتشرفوا بالإيمان به وهم يشاهدونه ويقتبسون من أنوار هديه ، لأن الاهتداء بمشاهدته والتلقي منه أرجى لحصول كمال الإيمان والانتفاع بقليل من الزمان لتحصيل وافر الخير الذي لا يحصل مثله في أضعاف ذلك الزمان .

وفيهما أيضاً إيماء إلى اقتراب أجل النبي صلى الله عليه وسلم لأن التذكير بقوله : ﴿ لقد جاءكم ﴾ يؤذن بأن هذا المجيء الذي مضى عليه زمن طويل يوشك أن ينقضي ، لأن لكل وارد قفولاً ، ولكل طالع أفولاً .

وقد روي عن أَبيْ بن كعب وقتادة أن هاتين الآيتين هما أحدث القرآن عهداً بالله عز وجل ، أي آخرُ ما نزل من القرآن .

وقيل : إن آخر القرآن نزولاً آية الكلالة خاتمةُ سورة النساء .

وقيل آخره نزولاً قوله : ﴿ واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم تُوفَّى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ من سورة البقرة (281) .

في صحيح البخاري ﴾ من طريق شعيب عن الزهري عن ابن السباق عن زيد بن ثابت في حديث جمع القرآن في زمن أبي بكر رضي الله عنه قال زيد : "حتى وجدتُ من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم ﴾ إلى آخرهما .

ومن طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري مع أبي خزيمة الأنصاري .

(314/353)

ومعنى ذلك أنه بحث عن هاتين الآيتين في ما هو مكتوب من القرآن فلم يجدهما وهو يعلم أن في آخر سورة التوبة آيتين خاتمتين أو هو يحفظهما (فإن زيداً اعتنى في جمع القرآن بحفظه وبتتبع ما هو مكتوب بإملاء النبي صلى الله عليه وسلم وبقراءة حفاظ القرآن غيره) فوجد خزيمة أو أبا خزيمة يحفظهما .

فلما أمْلاهما خزيمة أو أبو خزيمة عليه تذكّر زيد لفظهما وتذكّرهما مَن سمعهما من الصحابة حين قرأوهما ، كيف وقد قال أُبيّ بن كعب : إنهما آخر ما أنزل ، فلفظهما ثابت بالإجماع ، وتواترهما حاصل إذ لم يشك فيهما أحد وليس إثباتهما قاصراً على إخبار خزيمة أو أبي خزيمة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 10 صـ ﴾

(315/353)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

ولم يقل الحق لرسوله : " إن تولوا وأعرضوا فاعتقد أن حسبك الله " لا ، بل أعلنها للناس كافة ؛ حتى يسمعوها ، ولعل في إعلانك لها ما يلفتهم إلى الحقيقة ؛ لأنك إن قلتها ؛ فلن

تقولها إلا وعندك رصيد إيماني بها ، وإن فعل أحدهم شيئاً ضدك ؛ فسوف يعاقبه الله .

وحين تعلن : ﴿ حَسْبِيَ الله ﴾ بعد أن كذبوك ، فالأحداث التي سوف تأتي بعد إعلانك ﴿ حَسْبِيَ الله ﴾ ستؤكد أن حسبك في مكانه الصحيح ، ولله المثل الأعلى – أنت تقول : " حسبي نصرة فلان " ؛ لأنك تثق في قدرة فلان هذا ، ولكن القوة في الحياة أغيار ، وحين تقول : ﴿ حَسْبِيَ الله ﴾ فلا إله غيره سبحانه ، ولا إله آخر يعارضه في هذا أو في غيره .

وقل ﴿ حَسْبِيَ الله ﴾ برصيد ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ و ﴿ لا إله ﴾ نفي ، و ﴿ إلاَّ هُوَ ﴾ إثبات ، إذن : ففي هذا القول : ﴿ لا إله إلاَّ هُوَ ﴾ نفي منطقي مع سلب ، وإثبات منطقي مع الإيجاب ، وهنا نفي أيِّ ألوهية لغير الله ، والاستثناء من ذلك هو الله ، ورحم الله شيخنا عبد الرحمن عزام حين ترجم عن محمد إقبال شاعر باكستان الكبير ، فقال :

إنَّما التوحيد إيجابٌ وسلبٌ . . . فيهما للنفسِ عزمٌ ومضاءُ

إيجاب في ﴿ إلاَّ هُوَ ﴾ ، وسلب في ﴿ لا إله ﴾ ، فيهما للنفس عزم ومضاء ، أي : هما للنفس قطبا الكهرباء ، فاسلب الألوهية من غير الله وأثبتها لله .

والناس – كما نعلم – ثلاثة أقسام : قسم ينكر وجود إله للكون مطلقاً ، وهم الملاحدة ، وقسم ثان يقول : إن هناك الله الذي يوحده المسلمون ؛ لكن له شركاء ينفعوننا عند الله .

وقسم ثالث يقول بوحدانية الله .

وساعة نقول ﴿ لا إله إِلاَّ هُوَ ﴾ نكون قد أثبتنا الألوهية لله ، وأثبتنا أن لا شريك له ، وأثبتنا ألا إله غيره ، وسبحانه يقول :

(316/353)

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهذا أمر طبيعي ، ويمكن أن نعرفه بالحساب ؛ ولذلك جاء ب ﴿ حَسْبِيَ ﴾ من الحساب . واحسبها فلن تجد إلا الله . وما دام حسبك الله ولا إله إلا هو ، فسبحانه يبسط عليك حمايته ونصرته لك ، فمن العقل أن تضع نفسك بين يدي رسولك ، الذي أبلغك البلاغ الكامل عن الله ، وأن تتوكل عليه سبحانه .

وما دام سبحانه هو حسبك ولا إله إلا هو ، والواجب يفرض عليك أن تظل في مَعيَّته سبحانه ، ومعيّة الله مرحلتان : الأولى بأخذ الأسباب التي أمدّ بها خلقه ، ومعية إيمانك المطلق بأن الأسباب إن عجزت معك ، فأنت تلجأ إلى مسبِّب الأسباب الموجود وهو رب الوجود .

وترى – مثلاً – الناس وهي تحتاج إلى المياه ؛ لأنها ضرورة للحياة ؛ فيذهبون إلى البئر فلا يجدون الماء رغم وجود البئر ؛ لأن المياه التي تأتي من جوف الأرض لم تعد تتسرب إليه ،

ولماذا ؟ لأن المخزون من ماء المطر الذي كان يأتي من أعالي الجبال ويتسرب تحت الأرض قد نفد ، ولهذا نحتاج إلى مدد من أمطار السماء ؛ لتجري إلى المسارب تحت الأرض وتعود المياه إلى البئر .

وإذا جفَّت الآبار المحيطة بنا ، هل نيأس ؟ لا ؛ لأن ربنا بيَّن لنا : ارفعوا أيديكم لربكم .

إذن : فنحن إذا استنفدنا الأسباب نطلب من المسبب ، ولذلك أتحدى أن يستنفد واحد أسباب الله الممدودة إليه ، ويلجأ إلى الله فيرده .

إن يد الله ممدودة لنا بالأسباب ولا يصح أن يهمل إنسان ولا يأخذ بالأسباب ، ويقول : أنا متوكل على الله ، إن على الإنسان أن يأخذ أولاً بالأسباب وأن يستنفدها ، وبعد ذلك يقول : ليس لي ملجأ إلا أنت سبحانك ، واقرأ إن شئت قول الله سبحانه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطرِ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : 62]

(317/353)

والمضطّر : هو من استنفد أسبابه ، وليس له إلا الله . لكن أن يقول إنسان : أنا أدعو الله ليل نهار وأسبِّحُه سبحانه وأقرأ سورة يس مثلاً ، ولا يستجيب الله لدعائي . ونقول لمثل هذا القائل : أنت لا تدعو عن اضطرار ولم تأخذ بالأسباب ، خذ بالأسباب التي خلقها

الله ، أولاً ، ثم ادْعُ بعد ذلك . ولا تدْعُ إلا إذا استنفدت الأسباب ؛ فيجيبك المسبِّب ، وبذلك لا تفتن بالأسباب ، فحين تمتنع الأسباب ؛ تلجأ إلى الله . ولو كانت الأسباب تعطي كلها لفُتِنَ الإنسان بالأسباب ، والحق سبحانه يقول : ﴿ كَلاَّ إِنَّ الإنسان ليطغى * أَن رَّآهُ استغنى ﴾ [العلق : 6-7]

لذلك نجد الحق يبيّن دائماً أن كل الأسباب بيده ، فنرى من يحرث ويبذر ويروي ويرعى ، ثم يقترب الزرع من النضج ، وبعد ذلك تأتي موجة حارة تميته ، أو ينزل سيل يجرفه . إذن : خذ بالأسباب واجعل المسبب دائماً في بالك ، وهنا يصح توكلك على الله .

وكثير من الناس يخطئ في فهم كلمة " التوكُّل " ، وأقول : إن التوكل يعني أن تأخذ ، أولاً ، أسباب الله التي خلقها سبحانه في كونه ، فإن عَزّت الأسباب ولم تصل إلى نتيجة ؛ فاتجه إلى الله ، مصداقاً لقوله : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ المضطر إِذَا دَعَاهُ ﴾ .

ونحن ندعو أحياناً عن غير اضطرار ونهمل الأسباب ، والمثال تجده في حياتنا حين يقول الابن لأمه : " ادعي لي حتى أنجح " وتجيب الأم الأمية قائلة كلمة بسيطة هي : " ساعد الدعاء بقليل من المذاكرة " ، وهي بذلك تدل ابنها على ضرورة الخذ بالأسباب .

إذن : فمعنى التوكل ، أن تستنفد الأسباب التي مدّتها يد الله إليك . فإذا استنفدتها ؛ إياك أن تيأس ؛ لأن لك ربّاً ، وهو سبحانه ركن شديد ترجع إليه .

ومثال آخر : إذا كنت سائراً في الشارع ومعك جنيه واحد مثلاً ثم وقع منك أو سُرق ، ولا تملك في البيت أو في البنك مليماً واحداً ، هنا تغضب وتحزن ، أما إن كان في البيت عشرة جنيهات ؛ فنسبة الغضب والحزن ستكون قليلة ، وإذا كان في البيت عشرة جنيهات وفي البنك مائة جنيه ؛ فلن تحزن أو تغضب لضياع الجنيه الواحد .

وهكذا تثق بالمثل عوضاً عن المثل ، أفلا تثق بواهب هذا المثل عن عوض المثل ؟

إذن : فالتوكل هو أن تعمل الجوارح وتتوكل القلوب . والكسالى هم من يريدون أن يكون التوكل للجوارح وليس القلوب .

وكان من الممكن أن يغيّر الحق الأسلوب في الآية فيقول : توكلت عليه . بدلاً من ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ولكن إن وفقت الفهم عن قوله الحق ، ستجد أن الإنسان إن قال : " أنا اعتمدت عليك " فقد تعطف قائلاً : " وعلى فلان وعلى فلان " . لكن قولك : عليك توكلت لا يمكن أن تعطف من بعدها ، وفيها تنزيه لله ولا أحد غيره يتوكل عليه الخلق ، مثلما تقول في الفاتحة : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ أي : لا نعبد غيرك ، فتكون قد قصرت العبادة عليه سبحانه .

وتوكلك على الله له رصيد ؛ لأن ربك ورب الكون الذي استقبلك ، ولا تصل قدرتك إليه ، فأنت في الأرض تحرثها ، وتبذرها ، وترويها ، ثم تأخذ من عطاء الله لك ؛ فهو ربك ،

ورب الكون الذي استقبلك ، وأَصبح هذا الكون مسخراً لك ، وأنت لم تكن قادراً على تسخير الكون .

صحيح أنك قد تُسخِّر الدابة وتربطها وتمتطيها وتحمل عليها السماد مثلاً وكل ذلك مسخر لك وفي قدرتك ، وهذا من فضل الله عليك . ويزيد فضله سبحانه ، وترى مخلوقات مُسخَّرة لك ؛ تشرق كل يوم بالدفء وبالحرارة ، وكذلك القمر ، والغمام ، وكل هذه مخلوقات ليس في قدرتك السيطرة عليها ، بل سخرها الله لخدمتك .

(319/353)

وربك رب الكون الذي استقبلك سخر لك ما ليس في يدك ، وهو سبحانه رب الملكوت الذي يدير كل ذلك وأنت لا تراه ، وهو الذي يدير كل هذه الأشياء . فلا تنظر إلى ظواهر العطاء فقط ، بل انظر إلى مسبِّبات العطاء في ظواهر العطاء ، ولا تلتفت إلى ظاهرة إلا لتعرف ما وراء هذه الظاهرة . وما وراء أي ظاهرة كثير .

ويقول الحق سبحانه : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ نعم ، هو رب الكون الذي استقبلك وسخر لك ما في يدك وما ليس في يدك ، وما وراء المرئيات من عالم الملكوت ؛ ليدير بكمال قدرته كل شيء ، وكل ما في الكون ملك لله .

وله سبحانه العرش العظيم ، فما هو العرش ؟ نعرف لأول وهلة أن العرش هو السقف ، فحين تبني دوراً واحداً تصنع له السقف ؛ ليحميك من وهج الشمس والمطر ، وإن كانت الأرض رخوة فالمباني تهبط ، وبنينا السقوف حتى تحمي الجدران من عوامل التعرية .

وقول الله سبحانه : ﴿ العرش العظيم ﴾ معناها : استواء الأمر استواءً يدخل فيه كل مقدور ؛ ولذلك عبر سبحانه عن الملك مثلاً في ملكة سبأ على لسان الهدهد فقال : ﴿ إِنِّي وَجَدتُّ امرأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23]

العرش ، إذن ، رمز السيطرة ، وفي حياتنا – ولله المثل الأعلى – نجد أن الذي يأخذ الملك من واحد قبله يبدأ في تطهير الجيوب المحيطة به ويبحث عن الأنصار ؛ ليعيد ترتيب الملك بما يراه مناسباً له ؛ حتى تستقر له الأمور ، ثم يجلس بعد ذلك على العرش .

إذن : فالجلوس على العرش معناه استتباب الأمر استتباباً نهائياً للمالك الأعلى .

وسبحانه يقول : ﴿ الذين يَحْمِلُونَ العرش وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ . . . ﴾ [غافر : 7]

(320/353)

وساعة تسمع كلمة " العرش " خذها على أنها رمز للاستتباب الأمر لله ، وأن كل شيء دخل في حيّز قدرته ، وفي حيّز ﴿ كن ﴾ ، كما يستقر للملك المحَسّ ، فلا يجلس على العرش ، ولا يهدأ ، إلا إذا استقرت الأمور . هذا ما نراه في الأمور الدنيوية ، فما بالنا باستقرار كل الكون من الأزل لله سبحانه وتعالى ؟

يقول الحق سبحانه : ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذي خَلَقَ السموات والأرض فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ استوى عَلَى العرش . . . ﴾ [الأعراف : 54]

أي : أن الأمور قد استتبت له . وهكذا نجد أن كلمة " الْعَرْشِ " وردت في عروش الدنيا ، وفي عرش الله سبحانه ، فعروش الدنيا ترمز إلى استتباب الأمر لمن يجلس عليها ، والعرش بالنسبة لله رمز للاستتباب أمر الكون كله له سبحانه لا ينغص عليه شيء ولا يخرج من ملكه شيء . والكون كله ، بكل ما فيه مستتب لكلمة " كن " ومخلوق بها وخاضع لسلطان الحق سبحانه وتعالى .

وهنا يقول الحق : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ ولا يوصف العرش بأنه عظيم إلا وفي أذهان الناس عروش الملوك التي نراها في حياتنا ، مثلما قال الهدهد عن ملكة سبأ : ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾ [النمل : 23]

أي : بمقاييس البشر .

أما قوله تعالى هنا : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129]

فهو بمقاييس رب البشر ، إنه عرش الخالق العظيم سبحانه وهو فوق التصور البشري ؛ لذلك نفهمه في إطار ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ . . . ﴾ [الشورى : 11] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(321/353)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس في قوله ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله ﴾ يعني الكفار ، تولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذه في المؤمنين . وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب قال : خرجت سرية إلى أرض الروم ، فسقط رجل منهم فانكسرت فخذه ، فلم يستطيعوا أن يحملوه فربطوا فرسه عنده ووضعوا عنده شيئاً من ماء وزاد ، فلما ولوا أتاه آت فقال له : ما لك ههنا ؟ قال : انكسرت فخذي فتركني أصحابي . فقال : ضع يدك حيث تجد الألم . فقل ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو

عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ قال : فوضع يده فقرأ هذه الآية ، فصح مكانه وركب فرسه وأدرك أصحابه .

وأخرج أبو داود عن أبي الدرداء موقوفاً وابن السني عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " من قال حين يصبح وحين يمسي ﴿ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ سبع مرات كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة " .

وأخرج ابن النجار في تاريخه عن الحسن قال : من قال حين يصبح سبع مرات ﴿ حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ لم يصبه ذلك اليوم ولا تلك الليلة كرب ولا سلب ولا غرق .

أما قوله تعالى : ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن سعد الطائي قال : العرش ياقوتة حمراء .

(322/353)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه قال : إن الله تعالى خلق العرش والكرسي من نوره ، فالعرش ملتصق بالكرسي ، والملائكة في جوف الكرسي وحول العرش أربعة أنهار ، نهر من نور يتلألأ ، ونهر من نار تتلظى ، ونهر من ثلج أبيض تلتمع منه الأبصار ، ونهر من ماء ، والملائكة قيام في تلك الأنهار يسبحون الله تعالى ، وللعرش ألسنة بعدد ألسنة الخلق كلهم ، فهو يسبح الله تعالى ويذكره بتلك الألسنة .

وأخرج أبو الشيخ عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " العرش ياقوتة حمراء ، وإن ملكاً من الملائكة نظر إليه وإلى عظمه فأوحى الله إليه : إني قد جعلت فيك قوّة سبعين ألف ملك لكل ملك سبعون ألف جناح فطر . فطار الملك بما فيه من القوّة والأجنحة ما شاء الله أن يطير ، فوقف فنظر فكأنه لم يرم " .

وأخرج أبو الشيخ عن حماد قال : خلق الله العرش من زمردة خضراء ، وخلق له أربع قوائم من ياقوتة حمراء ، وخلق له ألف لسان ، وخلق في الأرض ألف أمة كل أمة تسبح الله بلسان من ألسن العرش .

وأخرج الطبراني وأبو الشيخ عن عبد الله بن عمرو بن العاصي قال : إن العرش مطوّق بحية ، والوحي ينزل في السلاسل .

وأخرج ابن المنذر عن عطاء قال : كانوا يرون أن العرش على الحرم .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال : ما يقدر قدر العرش إلا الذي خلقه ،

وإن السموات في خلق العرش مثل قبة في صحراء .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد قال : ما أخذت السموات والأرض من العرش إلا كما تأخذ الحلقة من أرض الفلاة .

وأخرج ابن أبي حاتم عن كعب قال : إن السموات في العرش كالقنديل معلقاً بين السماء والأرض .

(323/353)

وأخرج ابن أبي حاتم عن عمر بن يزيد البصري قال : في كتاب ما تنبأ عليه هرون النبي عليه الصلاة والسلام : إن بحرنا هذا خليج من نبطس ، ونبطس وراءه وهو محيط بالأرض ، فالأرض وما فوقها من البحار عند نبطس كعين على سيف البحر ، وخلف نبطس قينس محيط بالأرض ، فنبطس وما دونه عنده كعين على سيف البحر ، وخلف قينس الأصم محيط بالأرض ، فقينس وما دونه عنده كعين على سيف البحر ، وخلف الأصم المظلم محيط بالأرض ، فالأصم وما دونه عنده كعين على سيف البحر : وخلف المظلم جبل من الماس محيط بالأرض ، فالمظلم وما دونه عنده كعين على سيف البحر ، وخلف الماس الباكي وهو ماء عذب محيط بالأرض أمر الله نصفه أن يكون تحت العرش ، فأراد أن

يستجمع فزجره فهو باك يستغفر الله ، فالماس وما دونه عنده كعين على سيف البحر ، والعرش خلف ذلك محيط بالأرض ، فالباكي وما دونه عنده كعين على سيف البحر .

وأخرج أبو الشيخ عن عبد الرحمن بن زيد أسلم عن أبيه " أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة القيت في ترس " قال ابن زيد : قال أبو ذر عن النبي صلى الله عليه وسلم " ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد القيت بين ظهري فلاة من الأرض ، والكرسي موضع القدمين " .

وأخرج أبو الشيخ عن وهب رضي الله عنه قال : خلق الله العرش ، وللعرش سبعون ألف ساق كل ساق كاستدارة السماء والأرض .

وأخرج عبد بن حميد وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات عن مجاهد رضي الله عنه قال : بين الملائكة وبين العرش سبعون حجاباً ، حجاب من نور وحجاب من ظلمة ، وحجاب من نور وحجاب من ظلمة . . .

وأخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند الكرب

" لا إله إلا الله العظيم الحليم ، لا إله إلا الله رب العرش العظيم ، لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرضين ورب العرش الكريم " .

وأخرج النسائي والحاكم والبيهقي عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه قال : علمني علي رضي الله عنه كلمات علمهن رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه يقولهن عند الكرب والشيء يصيبه " لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله وتبارك الله رب العرش العظيم ، والحمد لله رب العالمين " .

وأخرج الحكيم الترمذي من طريق إسحق بن عبد الله بن جعفر عن أبيه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول " لقنوا موتاكم لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين . قالوا : يا رسول الله فكيف هي للحي ؟ قال : أجود وأجود " .

وأخرج ابن أبي شيبة عن عبد الله بن جعفر ، أنه زوّج ابنته فخلا بها فقال : إذا نزل بك الموت أو أمر من أمور الدنيا فظيع فاستقبليه بأن تقولي " لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله رب العرش العظيم ، الحمد لله رب العالمين .

وأخرج أحمد في الزهد وأبو الشيخ في العظمة عن وهب بن منبه رضي الله عنه . أن حزقيل كان في سبا بختنصر مع دانيال من بيت المقدس ، فزعم حزقيل أنه كان نائماً على شاطىء الفرات ، فأتاه ملك وهو نائم فأخذ برأسه فاحتمله حتى وضعه في خزانة بيت المقدس قال : فرفعت رأسي إلى السماء فإذا السموات منفرجات دون العرش قال : فبدا لي العرش ومن حوله ، فنظرت إليهم من تلك الفرجة فإذا العرش – إذا نظرت إليه – مظل على السموات والأرض ، وإذا نظرت إلى السموات والأرض رأيتهن متعلقات ببطن العرش ، وإذا الحملة أربعة من الملائكة لكل ملك منهم أربعة وجوه ، وجه إنسان ، ووجه نسر ، ووجه أسد ، ووجه ثور ، فلما أعجبني ذلك منهم نظرت إلى أقدامهم فإذا هي في الأرض على عجل تدور بها ، وإذا ملك قائم بين يدي العرش له ستة أجنحة لها لون كلون فرع ، لم يزل ذلك مقامه منذ خلق الله الخلق إلى أن تقوم الساعة ، فإذا هو جبريل عليه السلام ، وإذا ملك أسفل من ذلك أعظم شيء رأيته من الخلق ، فإذا هو ميكائيل وهو خليفة على ملائكة السماء ، وإذا ملائكة يطوفون بالعرش منذ خلق الله الخلق إلى أن تقوم الساعة يقولون : قدوس قدوس ربنا الله القوي ملأت عظمته السموات والأرض ، وإذا ملائكة أسفل من ذلك ، لكل ملك منهم ستة أجنحة ، جناحان يستر بهما وجهه من النور ، وجناحان يغطي بهما جسده ، وجناحان يطير بهما .

وإذا هم الملائكة المقربون ، وإذا ملائكة أسفل من ذلك سجود مذ خلق الله الخلق إلى أن ينفخ في الصور ، فإذا نفخ في الصور رفعوا رؤوسهم ، فإذا نظروا إلى العرش قالوا : سبحانك ما كنا نقدرك حق قدرتك ! ثم رأيت العرش تدلى من تلك الفرجة فكان قدرها ، ثم أفضى إلى ما بين السماء والأرض فكان يلي ما بينهما ، ثم دخل من باب الرحمة فكان قدره ، ثم أفضى إلى المسجد فكان قدره ، ثم وقع على الصخرة فكان قدرها ، ثم قال : يا ابن آدم .

(326/353)

فصعقت وسمعت صوتاً لم أسمع مثله قط ، فذهبت أقدر ذلك الصوت فإذا قدره كعسكر اجتمعوا فاجلبوا بصوت واحد أو كفئة اجتمعت فتدافعت وأتى بعضها بعضاً ، أو أعظم من ذلك .

قال حزقيل : فلما صعقت قال : أنعشوه فإنه ضعيف خلق من طين ، ثم قال : اذهب إلى قومك فأنت طليعتي عليهم كطليعة الجيش من دعوته منهم ، فأجابك واهتدى بهداك فلك مثل أجره ، ومن غفلت عنه حتى يموت ضالاً فعليك مثل وزره لا يخفف ذلك من أوزارهم شيئاً ، ثم عرج بالعرش واحتملت حتى رددت إلى شاطىء الفرات ، فبينما أنا نائم على

شاطىء الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى ادخلني جنب بيت المقدس ، فإذا أنا بحوض ماء لا يجوز قدمي ، ثم افضيت منه إلى الجنة فإذا شجرها على شطوط أنهارها ، وإذا هو شجر لا يتناثر ورقه ولا يفنى عمره ، فإذا فيه الطلع والقضيب والبيع والقطيف قلت : فما لباسها ؟ قال : هو ثياب كثياب الحور يتفلق على أي لون شاء صاحبه . قلت : فما ازواجها ؟ فعرضن عليَّ فذهبت لأقيس حسن وجوههن ، فإذا هن لو جمع الشمس والقمر كان وجه احداهن اضوأ منهما ، وإذا لحم إحداهن لا يواري عظمها ، وإذا عظمها لا يواري مخها ، وإذا هي إذا نام عنها صاحبها استيقظ وهي بكر فعجبت من ذلك . . . ! فقيل لي : لم تعجب من هذا ؟ فقلت : وما لي لا أعجب ؟ ! قال : فإنه من أكل من هذه الثمار التي رأيت خلد ، ومن تزوج من هذه الأزواج انقطع عنه الهم والحزن قال : ثم أخذ برأسي فردني حيث كنت .

(327/353)

قال حزقيل : فبينا أنا نائم على شاطىء الفرات إذ أتاني ملك فأخذ برأسي فاحتملني حتى وضعني بقاع من الأرض قد كانت معركة ، وإذا فيه عشرة آلاف قتيل قد بددت الطيور والسباع لحومهم وفرقت بين أوصالهم ، ثم قال لي : إن قوماً يزعمون أنه من مات منهم

أو قتل فقد انفلت مني وذهبت عنه قدرتي فادعهم . قال حزقيل : فدعوتهم فإذا كل عظم قد أقبل إلى مفصله الذي منه انقطع ، ما رجل بصاحبه بأعرف من العظم بمفصله الذي فارق حتى أمَّ بعضها بعضاً ، ثم نبت عليها اللحم ، ثم نبتت العروق ، ثم انبسطت الجلود وأنا أنظر إلى ذلك ، ثم قال : ادع لي أرواحهم . قال حزقيل : فدعوتها وإذا كل روح قد أقبل إلى جسده الذي فارق ، فلما جلسوا سألتهم فيم كنتم ؟ ! قالوا : إنَّا لما متنا وفارقنا الحياة لقينا ملك يقال له ميكائيل ، قال : هلموا أعمالكم وخذوا أجوركم ، كذلك سُنَّتنا فيكم وفيمن كان قبلكم وفيمن هو كائن بعدكم . فنظر في أعمالنا فوجدنا نعبد الأوثان ، فسلط الدود على أجسادنا وجعلت الأرواح تألمه ، وسلط الغم على أرواحنا وجعلت أجسادنا تألمه ، فلم نزل كذلك نعذب حتى دعوتنا . قال : احتملني فردني حيث كنت . انتهى انتهى . اهـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(328/353)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

﴿

والجمهورُ على جَرِّ الميم من " العظيم " صفةً للعرش . وقرأ ابن محيصن برفعها ، جَعَلَه نعتاً للرب ، ورُويت هذه قراءةً عن ابن كثير . قال أبو بكر الأصمُّ : " وهذه القراءة أعجبُ إليّ لأنَّ جَعْلَ العظيم صفةً لله تعالى أولى مِنْ جعله صفةً للعرش " . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 142 ﴾

(329/353)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾

أَمَره أَنْ يَدْعُوَ الخَلْقَ إلى التوحيد ، ثم قال : فإنْ أعرضوا عن الإجابة فكُنْ بنا بنعت التجريد .

ويقال قال له : يأيها النبي حسبُك الله ، ثم أمره بأن يقول حسبي الله . . . وهذا عين الجمع ، وقوله ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾ فَرْق . . . بل هو جمع الجمع أي : قُلْ ، ولكنك بنا تقول ،

ونحن المتولي عنك وأنت مُسْتَهْلَكٌ في عين التوحيد ؛ فأنت بنا ، ومَحْوٌ عن غيرنا . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 76 ﴾

(330/353)

ومن فوائد العلامة الزمخشرى فى الآيات

قال رحمه الله :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ﴾

اللام لتأكيد النفي . ومعناه أن نفير الكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن «1» .

---

(1) . قال محمود : «معناه أن نفير الكافة لطلب العلم غير ممكن . . . الخ» . قال أحمد : قوله وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً على التفسير الأول : أمر لا نهى . وعلى الثاني : خبر والمراد به النهى ، لأنه في الأول راجع إلى تنفير أهل البوادي إلى المدينة للتفقه ، وهذا لو أمكن الجميع فعله لكان جائزاً أو واجبا ، وإن لم يمكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية . وأما في الثاني فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكنا بل واقعا ، فنهوا عن إطراح التفقه بالكلية وأمروا به أمر كفاية والله أعلم . قال

أحمد : ولا أجد في تأخرى عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحذير هذا المصنف ، فانى تفقهت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء ، وأنا مع ذلك أرجو من اللّه حسن التوجه بلغنا اللّه الخير ، ووفقنا لما يرضيه ، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم .

(331/353)

وفيه أنه لو صح وأمكن ولم يؤدّ إلى مفسدة لوجب ، لوجوب التفقه على الكافة ، ولأنّ طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة فَلَوْلا نَفَرَ فحين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ليتكلفوا الفقاهة فيه ، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ وليجعلوا غرضهم ومرمى همتهم في التفقه : إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم ، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤمّونها من المقاصد الركيكة ، من التصدّر والترؤس والتبسط في البلاد ، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً ، وفشوّداء الضرائر بينهم ، وانقلاب حماليق أحدهم «1» إذا لمح ببصره مدرسة لآخر ، أو شرذمة جثوا بين يديه ، وتهالكه على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم ،

فما أبعد هؤلاء من قوله عزّ وجل لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً . لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ إرادة أن يحذروا اللّه فيعملوا عملا صالحاً . ووجه آخر : وهو أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا بعث بعثا - بعد غزوة تبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد - استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحى والتفقه في الدين ، فأمروا أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون ، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر ، لأن الجدال بالحجّة أعظم أثراً من الجلاد بالسيف . وقوله لِيَتَفَقَّهُوا الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف ، النافرة من بينهم ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأوّل الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه .

[سورة التوبة (9) : آية 123]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

يَلُونَكُمْ يقربون منكم ، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم «2» ، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب . ونظيره وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ وقد حارب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قومه ، ثم غيرهم من عرب الحجاز ، ثم غزا الشأم . وقيل : هم قريظة والنضير وفدك

(1) . قوله «وانقلاب حماليق أحدهم» الحماليق : هي ما يسوده الكحل من باطن الجفن . وقيل : ما غطته الأجفان من بياض المقلة . اه من الصحاح . (ع)

(2) . قال محمود : «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم . . . الخ» قال أحمد : يتعين القتال على أحد فريقين : إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه ، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا . وإما من عينهم الامام لذلك وإن بعدت بهم الدار . وإذا أوجب اللّه على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره ، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الإسلام أجدر .

(332/353)

وخيبر . وقيل : الروم ، لأنهم كانوا يسكنون الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ، ما لم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى .

وعن ابن عمر رضى اللّه عنه أنه سئل عن قتال الديلم ؟ فقال : عليك بالروم . وقرئ غِلْظَةً بالحركات الثلاث ، فالغلظة كالشدّة ، والغلظة كالضغطه ، والغاظة كالسخطة ونحوه

وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَلا تَهِنُوا وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدّة العداوة والعنف في القتل

والأسر ، ومنه وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ . مَعَ الْمُتَّقِينَ ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوّه

[سورة التوبة (9) : الآيات 124 إلى 125]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125)

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ فمن المنافقين من يقول بعضهم لبعض أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ السورة إِيماناً إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به .

وأيكم : مرفوع بالابتداء . وقرأ عبيد بن عمير : أيكم ، بالفتح على إضمار فعل يفسره زادَتْهُ تقديره : أيكم زادت زادته هذه إيمانا فَزادَتْهُمْ إِيماناً لأنها أزيد لليقين والثبات ، وأثلج للصدر . أو فزادتهم عملا ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان ، لأنّ الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ كفراً مضموما إلى كفرهم ، لأنهم كلما جدّدوا بتجديد اللّه الوحى كفراً ونفاقا ، ازداد كفرهم واستحكم وتضاعف عقابهم .

[سورة التوبة (9) : الآيات 126 إلى 127]

أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

لا يَفْقَهُونَ (127)

قرئ : ولا يرون ، بالياء والتاء يُفْتَنُونَ يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء اللّه ثم لا ينتهون ولا يتوبون عن نفاقهم ، ولا يذكرون ، ولا يعتبرون ، ولا ينظرون في أمرهم ، أو يبتلون في الجهاد مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل اللّه عليه من نصرته وتأييده . أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيقتلهم وينكل بهم ، ثم لا ينزجرون نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى «1»

---

(1) . قال محمود : «معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحى . . . الخ» قال أحمد : يحتمل الدعاء كما فسره . ويحتمل الاخبار بأن اللّه صرف قلوبهم أى منعها من تلقى الحق بالقبول ، ولكن الزمخشري يفر من جعله خبرا لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على اللّه تعالى عنده ، بناء على قاعدة الصلاح والأصلح ، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له في قوله خَتَمَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء ، تعين عنده جعلها دعاء ، ثم في هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف ، كقوله وَقالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وكقوله وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ .

وسخرية به قائلين هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ من المسلمين لننصرف ، فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فنخاف الافتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلال لو إذا يقولون : هل يراكم من أحد . وقيل : معناه : إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح بِأَنَّهُمْ بسبب أنهم قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ لا يتدبرون حتى يفقهوا .

[سورة التوبة (9) : الآيات 128 إلى 129]

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

مِنْ أَنْفُسِكُمْ من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشي مثلكم ، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ أى شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عنتكم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستسعاد بدين الحق الذي جاء به بِالْمُؤْمِنِينَ منكم

ومن غيركم رَؤُفٌ رَحِيمٌ . وقرئ : من أنفسكم ، أى من أشرفكم وأفضلكم . وقيل : هي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضى اللّه عنهما . وقيل : لم يجمع اللّه اسمين من أسمائه لأحد غير رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في قوله رَؤُفٌ رَحِيمٌ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصبوك فاستعن وفوّض إليه ، فهو كافيك معرّتهم «1» ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم .

وقرئ «العظيم» بالرفع . وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : العرش لا يقدر أحد قدره .

وعن أبىّ ابن كعب : آخر آية نزلت لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ .

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «ما نزل علىّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ، ما خلا سورة براءة وقل هو اللّه أحد ، فإنهما أنزلتا علىّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الكشاف حـ 2 صـ 322. 325﴾

---

(1) . قوله «فهو كافيك معرتهم» المعرة : الإثم ، كذا في الصحاح . (ع)

(2) . أخرجه الثعلبي من حديث عائشة بإسناد واه .

وقال الإمام نظام الدين النيسابورى فى الآيات السابقة :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ﴾

التفسير : لما أمر بموافقة النبي وأصحابه في جميع الغزوات والمشاهد بقوله ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ [الآية : 119] أكد ذلك المعنى بالنهي عن التخلف عنه فقال : ﴿ ما كان لأهل المدينة ﴾ أي لا يستقيم ولا يجوز لهم . والأعراب الذين كانوا حول المدينة قد ذكرنا - عن ابن عباس - أنهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ، وكأنه أراد المعروفين منهم وإلا فاللفظ عام . ومعنى ﴿ ولا يرغبوا ﴾ ولا أن يرغبوا . يقال : غبت بنفسي عن هذا الأمر أي أبخل بها عليه ولا أتركها له ، والمراد أنه لا يصح لهم أن يرغبوا عن صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب صلاح أنفسهم وبقائها بل عليهم أن يصحبوه على البأساء والضراء ويرضوا لأنفسهم ما يرضاه الرسول لنفسه لأن نفسه أعز نفس عند الله ، فإذا تعرضت مع كرامتها للخوض في شدة وجب على سائر الأنفس أن لا يضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وفي هذا النهي مع التهييج توبيخ عظيم ، ولا يخفى أن الجهاد لا يجب على كل فرد بعينه للأجماع وأن أصحاب الأعذار من الضعفاء والمرضى ونحوهم مخصوصون بالعقل وبالنقل فيبقى ما وراء هاتين الصورتين داخلاً تحت عموم الآية . ثم ذكر ترغيباً يجري مجرى علة المنع من التخلف فقال : ﴿ ذلك بأنهم ﴾ أي الوجوب الدال عليه

بقوله : ﴿ ما كان لهم ﴾ بسبب أنهم مثابون على أنواع المتاعب وأصناف الشدائد بل على جميع الحركات والسكنات مدة الذهاب والإياب . والظمأ شدة العطش ، والنصب الإعياء والتعب ، والمخمصة المجاعة الشديدة التي تظهر ضمور البطن ، والموطىء إما مصدر كالمورد أو مكان وعلى التقديرين الضمير في ﴿ يغيظ ﴾ عائد إلى الوطء الصريح أو المقدر . ثم الوطء يجوز أن يكون حقيقة فيراد به الدوس بالأقدام وبحوافر الخيول وبأخفاف الإبل ، ويجوز أن يكون مجازاً فيراد به الإيقاع والإهلاك . قال ابن الأعرابي : غاظه وغيظه وأغاظه بمعنى . ويقال نال منه إذا رزأه ونقصه وهو عام في كل ما يسوءهم ويلحق بهم ضرراً من قتل أو

(335/353)

أسر أو غنيمة أو هزيمة ، والمراد أنهم لا يتصرفون في أرض الكفار تصرفاً يغيظهم ويرزؤهم شيئاً إلا كتب لهم به عمل صالح .

(336/353)

وفيه دليل على أن من قصد طاعة الله كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله ، وكذا القول في طرف المعصية ولكن بالضد فما أعظم بركة الطاعة وما أشد شؤم المعصية . وبهذه الآية استشهد أصحاب أبي حنيفة أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك الجيش في الغنيمة لأن وطء ديارهم مما يغيظهم وينكي فيهم . وقال الشافعي : لا يشاركون الغانمين في الغنيمة وإن شاركوهم في الثواب لأن الغنيمة من خواص المحاربين ومن قد تعاطى خطراً . قال قتادة : هذا الحكم من خواص رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا بنفسه فليس لأحد أن يتخلف عنه إلا بعذر . وقال ابن زيد : هذا حين كان في المسلمين قلة فلما كثروا نسخه الله بقوله : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ وقال عطية : ما كان لهم التخلف إذا دعاهم الرسول وأمرهم . قال العلماء : وكذلك غيره من الأئمة والولاة إذا عينوا طائفة لأنا لو جوزنا للمندوب أن يتقاعد لم يختص بذلك بعض دون بعض فيؤدي الى تعطيل الجهاد . قوله : ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ﴾ . قال المفسرون : يريد تمرة فما فوقها وعلاقة سيف أو سوط وما أربى عليها مثل ما أنفق عثمان في جيش العسرة ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ أي أرضاً في ذهابهم ومجيئهم وهذا شائع في استعمال العرب يقولون : لا تصل في وادي غيرك . وهو في الأصل فاعل من ودى إذا سال . والوادي كل منعطف بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل . ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ذلك الإنفاق والقطع أو ذلك العمل الصالح المعهود في الآية المتقدمة . ثم ذكر غاية الكتب

فقال : ﴿ ليجزيهم الله ﴾ أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء جزاء أحسن من أعمالهم وأجل . وقيل : الأحسن من صفة الفعل أي يجزيهم على الأحسن وهو الواجب والمندوب دون المباح . واعلم أنه سبحانه عدد أشياء بعضها ليس من أعمال المجاهدين وهو الظمأ والنصب والمخمصة ، وباقيها من أعمالهم وهي الوطء والنيل والإنفاق وقطع الأرض ، وقسم هذا الباقي قسمين فضم

(337/353)

شطراً منه إلى ما ليس من أعمالهم تنبيهاً على أنه في الثواب جارٍ مجرى عملهم ولهذا صرح بذلك فقال : ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ أي جزاء عمل صالح وأكد ذلك بقوله : ﴿ إن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ . ثم أورد الشطر الباقي لغرض آخر وهو الوعد بأحسن الجزاء ، واقتصر ههنا على قوله ﴿ إلا كتب لهم ﴾ لأن هذا القسم من عملهم فلم يحتج إلى تصريح بذلك ، أو اكتفاء بما تقدم ، أو لأن الضمير عائد إلى المصدر الدال عليه الفعل والله تعالى أعلم بمراده .

(338/353)

ثم قال : ﴿ وما كان المؤمنون ﴾ وفيه قولان : أحدهما أنه من بقية أحكام الجهاد لأنه سبحانه لما بالغ في عيوب المنافقين كان المسلمون إذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية إلى الكفار ينفرون جميعاً ويتركونه بالمدينة وحده فنزلت الآية . قاله ابن عباس . والمعنى أنه لا يجوز للمؤمنين أن ينفروا بأسرهم إلى الجهاد بل يجب أن يصيروا طائفتين إحدهما لملازمة خدمة الرسول والأخرى للنفر إلى الغزو . ثم ههنا احتمالان لأنه قال محرضاً ﴿ فلولا نفر ﴾ أي هلا نفر ﴿ من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ فذهب الأكثر إلى أن الضمير في ﴿ ليتفقهوا ﴾ عائد إلى الفرقة الباقية في حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم لأنهم إذا بقوا في خدمته شاهدوا الوحي والتنزيل وضبطوا ما حدث من الشرائع ، وعلى هذا فلا بد من إضمار والتقدير : فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة وأقام طائفة ليتفقه المقيمون في الدين ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ النافرين ﴿ إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ معاصي الله عند ذلك وبهذا الطريق يتم أمر الدين بهاتين الطائفتين وإلا ضاع أحد الشقين ، والاحتمال الآخر ما روي عن الحسن أن الضمير يعود إلى الطائفة النافرة . وتفقههم هو أنهم يشاهدون ظهور المسلمين على المشركين وأن العدد القليل منهم من غير زاد ولا سلاح كيف يغلبون الجم الغفير من الكفار فينتبهون لدقائق صنع الله في إعلاء كلمته . فإذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم بما شاهدوا من دلائل الحق فيحذروا أي

يتركوا الكفر والشرك والنفاق . القول الثاني أنه ليس من بقية أحكام الجهاد وإنما هو حكم مستقل بنفسه ، ووجه النظم أن الجهاد أمر يتعلق بالسفر وكذلك التفقه ، أما في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فوجوبه ظاهر لمن ليس بحضرته حتى يصل إليه ويستفيد من خدمته لأن الشريعة ما كانت مستقرة بل كانت تتجدد كل يوم شيئاً فشيئاً ، وأما في زماننا فلا ريب أنه متى عجز عن التفقه إلا بالسفر وجب عليه ، وإن أمكنه في الحضر

(339/353)

فلا شك أن للسفر بركة أخرى يعرفها كل من زاول الأسفار وحاول الأخطار ، ومعنى ﴿ ليتفقهوا ﴾ ليتكلفوا الفقاهة في الدين ويتجشموا المتاعب في أخذها وتحصيلها . والفقه في الاصطلاح هو العلم بالأحكام الشرعية الفرعية المستنبطة من دلائلها التفصيلية . والظاهر أن المراد في الآية أعم من ذلك بحيث يشمل علوم الشرع كلها من التفسير والحديث وأصول الدين وأصول الفقه ومقدمات كل من ذلك وغاياتها بحسب الإمكان النوعي أو الشخصي . وفي قوله : ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ إشارة إلى أن الغرض الأصلي من التعلم هو الإنذار والإرشاد لا ما يقصده علماء السوء من الأغراض الفاسدة كالمطاعم والملابس

والمناصب والمفاخر ، أعاذنا الله تعالى بفضله من قبح النية وفساد الطوية ، وجعلنا ممن لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً .

(340/353)

القائلون بأن خبر الواحد حجة قالوا : أوجب الله تعالى أن يخرج من كل فرقة طائفة ، والخارج من الثلاثة اثنين أو واحداً . ثم إنه أوجب العمل بأخبارهم بقوله : ﴿ ولينذروا ﴾ وأجيب بأن إيجاب الإنذار لا يدل على وجوب العمل لأن الشاهد الواحد يلزمه أداء الشهادة وإن لم يلزم القبول ورد بأن قوله : ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ إيجاب للعمل بأخبارهم . ثم أرشد سبحانه إلى ترتيب القتال فقال : ﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم ﴾ أي يقربون منكم مبتدأ من الأقرب ومنتقلاً إلى الأبعد . والقتال واجب مع كافة الكفر بآية القتال ، ولكن هذه الآية أخص لأن الغرض منها الترتيب ما لم يدع إلى قتال الأبعد قبل دفع الأقرب ضرورة فلا تكون هذه منسوخة بآية القتال على ما نقل عن الحسن ، وإنما وجب الابتداء بالغزو من المواضع القريبة لأن قتال الكل دفعة متعذر وللأقرب ترجيح ظاهر كما في الدعوة وكما في سائر المهمات مثلاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يبتدأ بالجمع الحاضرين ثم ينتقل الى الغائبين . وأيضاً المؤنة في قتال الأقربين من النفقة والدواب تكون أقل

والقتال معهم يكون أسهل للوقوف على أحوالهم وعدد عسكرهم ، والفرقة المجاهدة إذا تجاوزوا من الأقرب إلى الأبعد فق عرضوا الذراري للفتنة . وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام . ويروى أن أعرابياً جلس على المائدة وكان يمد يده إلى الجوانب البعيدة من تلك المائدة فقال صلى الله عليه وسلم : " كل مما يليك " فثبت بهذه الوجوه أن الابتداء بالأقرب فالأقرب واجب ما لم يضطر الى العدول ضرورة . وقوله ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي شدة نظير قوله : ﴿ واغلظ عليهم ﴾ [التحريم : 9] ومن قرأ بفتح الغين فهو المصدر أيضاً كالسخطة وهي لفظة جامعة للجراءة والصبر على القتال ولشدة العداوة والعنف في القتل والأسر ، كل ذلك فيما يتصل بالدعوة إلى الدين إما بإقامة الحجة وإما بالسيف ، أما فيما

يتصل بالبيع والشراء والمجالسة فلا وليكن تقوى الله سبحانه على ذكر منه في موارده ومصادره ، ولهذا ختم الآية بقوله : ﴿ واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ فإن قلته قتله لله وان تركه على الجزية تركه لله وإن كسر عدوه وآل الأمر إلى أخذ الغنيمة راعى فيه حدود الله . ثم حكى بقية فضائح أعمال المنافقين فقال : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول ﴾

أي يقول بعض المنافقين لبعض إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين المعتقدين زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به ، أو يقولنه لقوم من المسلمين وغرضهم صرفهم عن الإيمان والمقول ﴿ أيكم ﴾ مرفوع بالابتداء وخبره ﴿ زادته هذه إيماناً ﴾ . ثم إنه تعالى حكى أنه حصل للمؤمنين بسبب نزول هذه السورة أمران : أحدهما ازدياد الإيمان وقد مر معناه في أول سورة الأنفال ، والثاني الاستبشار وهو استدعاء البشارة إما بثواب الآخرة وإما بالعزة والنصرة في الدنيا والمراد أنهم يفرحون بسبب تلك التكاليف الزائدة من حيث إنه يتوسل بها إلى مزيد الثواب .

(342/353)

وحصل للمنافقين الذين لهم عقائد فاسدة وأخلاق ذميمة أمران : أولهما زيادة الرجس لأن تكذيب سورة بعد تكذيب مثلها انضمام كفر إلى كفر أو لأن حصول حسد وغل ونفاق عقيب أمثالها ازدياد ملكة ذميمة غب أخرى ، وثانيهما بقاؤهم على تلك العقائد والأعمال إلى أن ماتوا لأن الملكة الراسخة لا تزول إلا إن مات صاحبها ، وإسناد زيادة الرجس إلى السورة إسناد حقيقي عند الأشاعرة لأنهم يقولون إنه سبحانه يخلق الكفر والإيمان في العبد فلا يبعد إحداث السورة فيهم الرجس ، وإسناد مجازي عند المعتزلة

لانهم يقولون إنهم أحدثوا الرجس من عند أنفسهم حين نزول السورة بدليل أن الآخرين سمعوا السورة وازدادوا إيماناً . والتحقيق في أن النفس الطاهرة النقية عن درن الدنيا باستيلاء حب الله والآخرة إذا سمعتها صار سماعها موجباً لازدياد رغبته في الآخرة ونفرته عن الدنيا . وأما النفس الحريصة المتهالكة على لذات الدنيا وطيباتها الغافلة عن حب الآخرة وعشق المولى إذا سمعتها مشتملة على تعريض النفس للقتل والمال للنهب بسبب الجهاد زادت نفرته عنها وإنكاره عليها وكل بقدر . ثم عجب من حال المنافقين فقال : ﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ قال ابن عباس : أي يمتحنون بالمرض ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ من النفاق ولا يتعظون بذلك المرض كما يتعظ المؤمن فإنه عند ذلك يتذكر ذنوبه وموقفه بين يدي ربه فيزيده ذلك إيماناً وخوفاً . وقال مجاهد : بالقحط والجوع . وقال قتادة : بالغزو أو الجهاد فإن تخلفوا وقعوا في ألسنة الناس باللعن والخزي ، وإن ذهبوا وهم على حالة النفاق عرضوا أنفسهم للقتل وأموالهم للنهب من غير فائدة . وقال مقاتل : كانوا يجتمعون على ذكر الرسول بالطعن فيخبره جبرائيل فيوبخهم بذلك ويعظهم فما كانوا يتعظون . ثم ذكر نوعاً آخر من مخازيهم فقال ﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي سورة مشتملة على ذكرهم أو أعم من ذلك . والنظر نظر الطعن والاستهزاء والازدراء

بالوحي قائلين ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ من المسلمين لننصرف فإنا لا نصبر على استماعه ويغلبنا الضحك فنخاف الافتضاح بينهم لأن نظر التغامز دال على ما في الباطن من الإنكار الشديد ، أو أرادوا إن كان من ورائكم أحد فلا تخرجوا وإلا فاخرجوا لنتخلص من هذا الإيذاء وسماع الباطل . ﴿ ثم انصرفوا ﴾ أي من مكان الوحي إلى مكانهم أو عن استماع القرآن الى الطعن فيه . ومعنى ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ قال ابن عباس : منعهم عن كل رشد وخير . وقال الحسن : طبع الله على قلوبهم . وقال الزجاج : أضلهم الله . قالت الأشاعرة : هو إخبار عما فعل الله بهم من الصد عن الإيمان والمنع منه .

(344/353)

وقالت المعتزلة : هو دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عن الانشراح ، أو إخبار بأنه صرفهم عن الألطاف التي يختص بها من آمن بها ، أو المراد صرف قلوبهم بما أورثهم من الغم والكيد قالوا : ومعنى قوله : ﴿ لا يفقهون ﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا . وعند الأشاعرة : هم قوم جبلوا على ذلك . يحكى عن محمد بن إسحق أنه قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة فإن قوماً انصرفوا صرف الله قلوبهم ، لكن قولوا قضينا الصلاة كان مقصوده التفاؤل باللفظ

الوارد في الخير دون الشر فإنه تعالى قال : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ [الجمعة : 10] ثم لما أمر رسوله في هذه السورة بتبليغ تكاليف شاقة يعسر تحملها ختم السورة بما يهون الخطب في تحملها فقال : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي من جنس البشر لا الملك لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آلف وآنس ، أو الخطاب للعرب والمقصود ترغيبهم في نصرته والقيام بخدمته لأن كل ما يحصل له من الدولة والرفعة فإن ذلك سبب لعزهم وفخرهم لأنه من أبناء جلدتهم ، أو الخطاب لأهل الحرم خاصة لأنهم كانوا يسمون أهل الحرم أهل الله وخاصته وكانوا يخدمونهم ويقومون بإصلاح مهماتهم فكأنه قيل لهم : كنتم قبل مقدمه مجدين في خدمة أسلافه فلم تتكاسلون في خدمته مع أنه لا نسبة له في الشرف إلى آبائه ؟ أو المقصود من ذكر هذه الصفة التنبيه على طهارته كأنه قيل : هو من عشيرتكم تعرفونه بالصدق والأمانة والعفاف ، وتعرفون كونه حريصاً على دفع الآفات عنكم وإيصال الخيرات إليكم . فإرسال من هذه حاله وصفته يكون من أعظم نعم الله عليكم . وقرىء ﴿ من أنفسكم ﴾ بفتح الفاء أي من أشرفكم وأفضلكم . وتنسب هذه القراءة الى النبي والوصي وأهل البيت عليهم السلام . ثم وصفه بما تستتبعه المجانسة والمناسبة من النتائج وذلك قوله : ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ العزة الغلبة والشدة والعنت المشقة والوقوع في المكروه والإثم . و " ما " مصدرية أي شديد شاق

عليه – لكونه بعضاً منكم – عنتكم ولقاؤكم المكروه ، وأولى المكاره بالدفع عقاب الله وهو إنما أرسل لدفع هذا المكروه . ﴿ حريص عليكم ﴾ الحرص يمتنع أن يتعلق بذواتهم فالمراد حريص على إيصال الخيرات إليكم في الدارين ؛ فالصفة الأولى لدفع الآفات والثانية لإيصال الخيرات والسعادات فلا تكرار . وقال الفراء : الحريص الشحيح والمعنى أنه شحيح عليكم أن تدخلوا النار وفيه نوع تكرار . ثم بين أنه رحمة للعاملين فقال ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي منكم ومن غيركم ﴿ رؤوف رحيم ﴾ قال ابن عباس : لم يجمع الله بين اسمين من أسمائه إلا له ، وحاصل هذه الخاتمة أن هذا الرسول منكم فكل ما يحصل له من العز والشرف فذاك عائد إليكم وإنه كالطبيب الحاذق وكالأب الشفيق وإذا عرف أن الطبيب حاذق والأب مشفق فالعلاج والتأديب منهما إحسان وإجمال ، وإن كان صعباً مؤلماً فاقبلوا ما أمركم به من التكاليف وإن كانت شاقة لتفوزوا بسعادة الدارين ، ثم قال لرسوله فإن لم يقبلوا بل أعرضوا وتولوا فاتركهم ولا تلتفت إليهم وارجع في جمع أمورك إلى الله الذي بالحق أرسلك فهو كافيك ﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ فلا يخرج عن قبضة قدرته

وتصرفه شيء لأنه يحيط بالعرش وبما يحويه العرش والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 545. 551 ﴾

(346/353)

وقال الخطيب الشربينى فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

ولما تقدّم الإنكار على المتثاقلين عن النفر في سبيل الله في قوله تعالى : ﴿ ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله ﴾ الآية ، ثم الحزم بالجهاد بالنفس والمال في قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ الآية ذكر فضيلة الجهاد وحقيقته بقوله تعالى:

﴿ إنّ الله اشترى ﴾ أي : بعهود أكيدة ومواثيق غليظة شديدة ﴿ من المؤمنين ﴾ بالله ورسوله وبما جاء به من عند ربه ﴿ أنفسهم ﴾ التي تفرد بخلقها ﴿ وأموالهم ﴾ التي تفرد برزقها وهو يملكها دونهم وقدم النفس إشارة إلى أن المبايعة سابقة على اكتساب المال ، ولما ذكر البيع أتبعه الثمن بقوله تعالى : ﴿ بأنّ لهم الجنة ﴾ مثل الله تعالى إثابتهم على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشراء .

وروي تاجرهم الله تعالى فأغلى لهم الثمن ، وعن عمر رضي الله عنه فجعل لهم الصفقتين

جميعاً ، وعن الحسن أنفسنا هو خلقها وأموالنا هو رازقها .

وروي أن الأنصار لما بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً قال عبد الله بن رواحة : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال : اشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون به أنفسكم وأموالكم ، قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال : الجنة ، قالوا : ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ، فنزلت .

ومرّ أعرابي على النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو يقرأها فقال : الأعرابي كلام من ؟ قال عليه الصلاة والسلام : "كلام الله عز وجل" ، فقال الأعرابي : والله بيع مربح لا نقيله ولا نستقيله فخرج إلى الغزو فاستشهد .

(347/353)

وقال الحسن : اسمعوا والله بيعة رابحة وكفة راجحة بايع الله تعالى بها كل مؤمن والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة والمراد بالأموال إنفاقها في سبيل الله وعلى أنفسهم وأهليهم وعيالهم ، وفي جميع وجوه البر والطاعات ، وقوله تعالى : ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ استئناف بيان ما لأجله الشراء ، وقيل : يقاتلون في معنى الأمر . وقرأ حمزة والكسائي بتقديم المقتولين على القاتلين لأنّ الواو لا تقتضي الترتيب ولأن

فعل البعض قد يسند إلى الكل أي : فيقتل بعضهم ويقاتل الباقي والباقون بتقديم القاتلين وقوله تعالى : ﴿ وعداً عليه حقاً ﴾ مصدران منصوبان بفعليهما المحذوفين ثم أخبر الله تعالى بأنّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله وعد ثابت ﴿ في التوراة ﴾ كتاب موسى عليه السلام ﴿ والإنجيل ﴾ كتاب عيسى عليه السلام ﴿ والقرآن ﴾ أي : قد أثبته فيهما كما أثبته في القرآن أي : الكتاب الجامع لكل ما قبله ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ أي : لا أحد أوفى منه سبحانه لأنّ الإخلاف لا تُقدِمُ عليه الكرام من الناس فكيف بخالقهم الذي له الغنى المطلق وقوله تعالى : ﴿ فاستبشروا ﴾ فيه التفات عن الغيبة أي : فافرحوا غاية الفرح ﴿ ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ فإنه أوجب لكم عظائم المطالب كما قال تعالى : ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

(348/353)

تنبيه : هذه الآية مشتملة على أنواع من التأكيد : أوّلها : قوله تعالى : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم ﴾ بكون المشتري هو الله تعالى المقدّس عن الكذب والخيانة وذلك من أدل الدلائل على تأكيد هذا العهد ، ثانيها : أنه تعالى عبر عن إيصاله هذا الثواب بالبيع والشراء وذلك حق مؤكد ، ثالثها : قوله تعالى : ﴿ وعداً ﴾ ووعد الله تعالى حق ، رابعها : قوله

تعالى: ﴿ عليه ﴾ وكلمة على للوجوب ، خامسها : قوله تعالى : ﴿ حقاً ﴾ وهو لتأكد التحقيق ، سادسها : قوله تعالى : ﴿ في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ وذلك يجري مجرى إشهاد جميع الكتب الإلهية وجميع الأنبياء والرسل على هذه المبايعة ، سابعها : قوله تعالى : ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ وهو غاية في التأكيد ، ثامنها : قوله تعالى : ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ وأيضاً هو مبالغة في التأكيد ، تاسعها : قوله تعالى : ﴿ وذلك هو الفوز ﴾ ، وعاشرها قوله تعالى : ﴿ العظيم ﴾ فثبت اشتمال هذه الآية على هذه الوجوه العشرة في التأكيد والتقرير والتحقيق .

ولما ذكر تعالى في هذه الآية أنه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بين أنّ أولئك المؤمنين هم الموصوفون بهذه الصفات التسعة الآتية : أولها : قوله تعالى:

﴿ التائبون ﴾ وهو مرفوع على المدح أي : هم التائبون يعني المذكورين في قوله تعالى : ﴿ إنّ الله اشترى من المؤمنين ﴾ وقال الزجاج : لا يبعد أن يكون قوله : ﴿ التائبون ﴾ مبتدأ وخبره محذوف تقديره التائبون من أهل الجنة وإن لم يجاهدوا لقوله تعالى : ﴿ وكلا وعد الله الحسنى ﴾ أو خبره ما بعده أي : التائبون عن الكفر على الحقيقة هم الجامعون لهذه الخصال والتائبون صيغة عموم محلاة بالألف واللام فتتناول التوبة من كل معصية والتوبة إنما تحصل عند أربعة أمور :

أوّلها : احتراق القلب عند صدور المعصية .

ثانيها : الندم على ما مضى .

ثالثها : العزم على الترك في المستقبل .

(349/353)

رابعها : أن يكون الحامل له على هذه الأمور الثلاثة طلب رضوان الله تعالى وعبوديته فإن كان غرضه منها رفع مذمّة الناس وتحصيل مدحهم أو لغرض من الأغراض الدنيوية فليس بتائب ولا بد من ردّ المظالم إلى أهلها إن كانت .

الصفة الثانية قوله تعالى : ﴿ العابدون ﴾ أي : الذين أخلصوا العبادة لله وقال الحسن : هم الذين عبدوا الله في السرّاء والضرّاء ، وقال قتادة : قوم أخذوا من أبدانهم في ليلهم ونهارهم .

الصفة الثالثة قوله تعالى : ﴿ الحامدون ﴾ وهم الذين يقومون بحق شكر الله تعالى على نعمه ديناً ودنيا ويجعلون إظهار ذلك عادة لهم ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبيّ صلى الله عليه وسلم "أوّل من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله في السرّاء والضرّاء" .

الصفة الرابعة قوله تعالى : ﴿ السائحون ﴾ واختلف في المراد منهم فقال ابن مسعود وابن

عباس : هم الصائمون قال ابن عباس رضي الله عنهما : كل ما ذكر في القرآن من السياحة فهو الصوم وقال صلى الله عليه وسلم "سياح أمّتي الصوم" وعن الحسن أنّ هذا صوم الفرض ، وقيل : هم الذين يديمون الصيام ، قال الأزهري : قيل للصائم سائح لأنّ الذي يسيح في الأرض متعبداً لا زاد معه كان ممسكاً عن الأكل والصائم ممسك عن الأكل فلهذا المشابهة يسمى الصائم سائحاً ، وقال عطاء : السائحون الغزاة في سبيل الله تعالى .

وروي عن عثمان بن مظعون أنه قال : يا رسول الله ائذن لنا في السياحة فقال : "إنّ سياحة أمّتي الجهاد في سبيل الله" وقال عطاء : السائحون هم طلاب العلم والسياحة أمر عظيم في تكميل النفس لأنه يلقى أفاضل مختلفين فيستفيد من كل واحد فائدة مخصوصة وقد يلقى الأكابر من الناس فيستحقر نفسه في مقابلتهم وقد يصل إلى المدارسة الكثيرة فينتفع بها وقد يشاهد اختلاف أحوال أهل الدنيا بسبب ما خلق الله تعالى في كل طرف من الأحوال الخاصة بهم فتقوى معرفته وبالجملة فالسياحة لها أثر قوي في الدين .

(350/353)

الصفة الخامسة والسادسة : قوله تعالى : ﴿ الراكعون الساجدون ﴾ أي : المصلون وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنّ بهما يتميز المصلي عن غيره بخلاف حالة القيام

والقعود لأنهما حالة المصلي وغيره ولأنّ القيام أوّل مراتب التواضع لله تعالى والركوع وسطها والسجود غايتها فخص الركوع والسجود بالذكر لدلالتهما على غاية التواضع والعبودية تنبيهاً على أن المقصود من الصلاة نهاية الخضوع والتعظيم .

الصفة السابعة والثامنة : وقوله تعالى : ﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ أي : الآمرون بالإيمان والطاعة والناهون عن الشرك والمعصية ودخول الواو في والناهون عن المنكر للدلالة على أنه بما عطف عليه في حكم خصلة واحدة فكأنه قال : الجامعون بين الوصفين ولأنّ العرب تعطف بالواو على السبعة ومنه قوله تعالى : ﴿ وثامنهم كلبهم ﴾ (الكهف ،)

وقوله تعالى في صفة الجنة : ﴿ وفتحت أبوابها ﴾

(الزمر ،)

إيذاناً بأن التعداد قد تم بالسابع من حيث أن السبعة هو العدد التامّ والثامن تعداد آخر معطوف عليه ولذلك تسمى واو الثمانية ، وقيل : الموصون بهذه الصفات هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر وعلى هذا يكون قوله تعالى : ﴿ التائبون ﴾ إلى قوله : ﴿ الساجدون ﴾ مبتدأ خبره هم الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر .

الصفة التاسعة : قوله تعالى : ﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ أي : لأحكامه بالعمل بها والمقصود أنّ تكاليف الله تعالى كثيرة وهي محصورة في نوعين : أحدهما : ما يتعلق

بالعبادات ، والثاني : ما يتعلق بالمعاملات .

فإن قيل : ما الحكمة في أنّ الله تعالى ذكر تلك الصفات الثمانية على التفصيل ثم ذكر عقبها سائر أقسام التكاليف على سبيل الإجمال في هذه الصفة التاسعة ؟

(351/353)

أجيب : بأنّ التوبة والعبادة والاشتغال بتحميد الله والسياحة والركوع والسجود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمور لا ينفك المكلف عنها في أغلب أوقاته فلهذا ذكرها الله تعالى على سبيل التفصيل ، وأمّا البقية فقد ينفك المكلف عنها في أكثر أوقاته مثل أحكام البيع والشراء وأحكام الجنايات ودخل في هذه الصفة التاسعة رعاية أحوال القلوب بل البحث عنها ، والمبالغة في الكشف عن حقائقها أولى لأنّ أعمال الجوارح إنما تراد لأجل تحصيل أعمال القلوب .

ثم ذكر سبحانه وتعالى عقب هذه الصفات التسعة قوله تعالى : ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ تنبيهاً على أن البشارة في قوله تعالى : ﴿ فاستبشروا ﴾ لم تتناول إلا المؤمنين الموصفين بهذه الصفات التسعة وحذف تعالى المبشر به للتعظيم فكأنه قيل : وبشرهم بما يجل عن إحاطة الإفهام وتعبير الكلام .

واختلف في سبب نزول قوله تعالى:

﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى ﴾ فقال سعيد بن المسيب عن أبيه إنه نزل في شأن أبي طالب وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم جاء لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أمية فقال : "أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله" فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلم يزل صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعودان عليه إلى تلك المقالة حتى قال أبو طالب : آخر ما كلمهم أنا على ملة عبد المطلب وأبى أن يقول لا إله إلا الله فقال صلى الله عليه وسلم "والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك" فنزل ذلك .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمه : "قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة" قال : لولا يعيرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع ، لأقررت بها عينك فأنزل الله تعالى : ﴿ إنك لا تهدي من أحببت ﴾ (القصص ،) الآية .

(352/353)

وقال بريدة لما قدم النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة أتى قبر أمّه آمنة فوقف عليه حتى حميت الشمس رجاء أن يؤذن له يستغفر لها فنزل ﴿ ما كان للنبيّ ﴾ الآية ، وقال أبو هريرة : زار النبيّ صلى الله عليه وسلم قبر أمّه آمنة فبكى وأبكى من حوله وقال : استأذنت ربي أن أستغفر لها فلم يأذن لي واستأذنته أن أزورها فأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكر الموت ، وقال قتادة : قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "لأستغفر لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه" فأنزل الله تعالى هذه الآية ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : سمعت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان فقلت له : تستغفر لهما وهما مشركان ؟ فقال : استغفر إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية .

وروى الطبراني بسنده عن قتادة قال : ذكر لنا أنّ رجالاً قالوا : يا نبيّ الله إنّ من آبائنا من كان يحسن الجوار ويصل الرحم ويفك العاني أفلا نستغفر لهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم "والله لأستغفرنّ لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه" فأنزل الله تعالى ﴿ ما كان للنبيّ والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي : بأن ماتوا على الكفر قال البيضاوي : وفيه دليل على جواز الاستغفار لأحيائهم فإنه طلب توفيقهم للإيمان وبه دفع النقض باستغفار إبراهيم عليه السلام لأبيه الكافر فقال:

﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ﴾ أي : وعدها إبراهيم أباه بقوله : لأستغفرنّ لك أي : لأطلبنّ مغفرة لك بالتوفيق للإيمان فإنه يجب أي : يقطع ويمحو ما قبله ، وقرأ هشام : أبراهام بالألف بعد الهاء في الموضعين ، والباقون بالياء فيهما ﴿ فلما تبيّن له أنه عدو ﴾ بأن مات على الكفر أو أوحى الله تعالى إليه إنه لن يؤمن ﴿ تبرأ منه ﴾ أي : قطع استغفاره ﴿ إنّ إبراهيم لأوّاه ﴾ أي : كثير التضرع والدعاء ﴿ حليم ﴾ أي : صبور على الأذى والجملة لبيان ما حمله على الاستغفار لأبيه مع صعوبة خلق أبيه عليه .

﴿ وما كان الله ليضل قوماً ﴾ أي : يفعل بهم ما يفعل بالضالين من العقوبة لأجل ارتكابهم المنهي عنه ﴿ بعد إذ هداهم ﴾ للإسلام ﴿ حتى يبيّن لهم ﴾ بياناً شافياً لداء العمى ﴿ ما يتقون ﴾ أي : ما يجب اتقاؤه للنهي ، أمّا قبل العلم والبيان فلا سبيل عليهم كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم وهذا بيان لعذر من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهي عنه ، وقيل : إنه في قوم مضوا على الأمر الأول في القبلة والخمر وغير ذلك ، وفي الجملة دليل على أنّ الغافل غير مكلف ﴿ إنّ الله بكل شيء عليم ﴾ أي : بالغ العلم فهو يبيّن لكم ما تأتون وما تذرون مما يتوقف عليه الهدى وما تركه تعالى فإنما يتركه رحمة لكم لا يضل ربي ولا ينسى .

﴿ إن الله له ملك السموات والأرض ﴾ فلا يخفى عليه شيء فهو خبير بكل ما ينفعكم أو

يضرّكم ﴿ يحيي ويميت ﴾ أي : يحيي من شاء على الإيمان ويميته عليه ويحيي من شاء على الكفر ويميته عليه لا اعتراض لأحد عليه في حكمه وعبيده ﴿ وما لكم ﴾ أيها الناس ﴿ من دون الله ﴾ أي : غيره ﴿ من ولي ﴾ يحفظكم منه ﴿ ولا نصير ﴾ يمنع عنكم ضرره .

(354/353)

﴿ لقد تاب الله ﴾ أي : أدام توبته ﴿ على النبيّ والمهاجرين والأنصار ﴾ وافتتح الله تعالى الكلام بذكر توبة النبيّ صلى الله عليه وسلم لأنه كان سبب توبتهم فذكره معهم كقوله تعالى : ﴿ فأنّ خمسه وللرسول ﴾ (الأنفال ،)

ونحوه ، وقيل : هو بعث على التوبة والمعنى ما من أحد إلا وهو محتاج إلى التوبة حتى النبيّ صلى الله عليه وسلم والمهاجرون والأنصار لقوله تعالى : ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً ﴾ (النور ،)

إذ ما من أحد إلا وله مقام ينتقص دونه ما هو فيه والترقي إليه توبة من تلك النقيصة وإظهار لفضلها بأنها مقام الأنبياء والصالحين من عباده .

فائدة : اتفق القرّاء على إدغام دال قد في التاء . ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ أي :

في وقت العسرة لم يرد ساعة بعينها وكانت غزوة تبوك تسمى غزوة العسرة والجيش يسمى جيش العسرة والعسرة الشدّة فكانت عليهم عسرة في الظهر والزاد والماء .

قال الحسن : كان العشرة منهم يخرجون على بعير واحد يتعقبونه يركب الرجل ساعة ثم ينزل فيركب صاحبه كذلك وكان زادهم التمر المسوّس والشعير المتغير وكان النفر يخرجون ما معهم إلا التمرات اليسيرة بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتى يجد طعمها ثم يعطيها صاحبه فيمصها ثم يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتى تأتي على آخرهم ولا يبقى من التمرة إلا النواة فمضوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم على صدقهم ويقينهم رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين ورضي عنا بهم آمين .

(355/353)

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أنّ رقابنا ستقطع حتى أن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه ويشربه ويجعل ما بقي على كبده وحتى أن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أنّ رقبته ستقطع فقال أبو بكر : يا رسول الله إنّ الله تعالى قد عوّدك في الدعاء خيراً فادع الله تعالى قال : "أتحب ذلك ؟" قال : نعم ،

فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه فلم يرجعا حتى أظلت السماء ثم سكبت فملأنا ما معنا ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر . ﴿ من بعد ما كاد تزيغ ﴾ أي : قرب أن تميل ﴿ قلوب فريق منهم ﴾ أي : همّ بعضهم عند تلك العسرة العظيمة أن يفارق النبيّ صلى الله عليه وسلم لكنه صبر واحتسب ولم يرد الميل عن الدين فلذلك قال الله تعالى : ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ لما صبروا وثبتوا وندموا على ذلك الأمر العسير .

فإن قيل : قد ذكر الله تعالى التوبة أولاً ثم ذكرها ثانياً فما فائدة التكرار ؟

أجيب : بأنّ الله تعالى ذكر التوبة أوّلاً قبل ذكر الذنب تفضلاً منه وتطبيباً لقلوبهم ثم ذكر الذنب بعد ذلك وأردفه بذكر التوبة مرّة أخرى تعظيماً لشأنهم وليعلموا أنه تعالى قد قبل توبتهم وعفا عنهم . وقرأ حفص وحمزة : يزيغ ، بالياء على التذكير لأنّ تأنيث القلوب غير حقيقي ، والباقون بالتاء على التأنيث ، وأدغم أبو عمرو الدال من كاد في التاء بخلاف عنه ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ هاتان صفتان لله تعالى ومعناهما متقارب فالرأفة عبارة عن السعي في إزالة الضرّ والرحمة عبارة عن السعي في إيصال المنفعة ، وقيل : إحداهما للرحمة السابقة والآخرى للمستقبلة وقوله تعالى:

(356/353)

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أي : عن غزوة تبوك وهم كعب بن مالك وهلال بن أمية ومرارة بن الربيع معطوف على الآية الأولى والتقدير لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة وعلى الثلاثة الذين خلفوا ، وفائدة هذا العطف بيان قبول توبتهم ، وهذه الثلاثة كلهم من الأنصار وهم المذكورون في قوله تعالى :

﴿ وآخرون مرجون لأمر الله ﴾ (التوبة ،)

روي عن ابن شهاب الزهري قال : أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك وكان قائد كعب من بنيه حين عمي قال : وكان أعلم قومه وأوعاهم لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال كعب : كان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزوة والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة فأخبرهم بوجهه الذي يريد فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئاً فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا فهممت أن أرتحل وأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك وكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أن لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً في النفاق أو رجلاً ممن عذر الله

تعالى من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك : "ما فعل كعب ؟" فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في معطفيه فقال معاذ بن جبل : بئسما قلت والله يا رسول الله ما علمت عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال كعب : فلما بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلاً حضرني همي وطفقت أذكر

(357/353)

الكذب وأقول بمَ أخرج به من سخطه غداً واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي فلما قيل رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظلّ قادماً راح عني الباطل وعرفت إني لم أخرج بشيء أبداً فيه كذب وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثم جلس للناس وجاءه المخلفون يتعذرون إليه ويحلفون له وكانوا تسعة وثمانين رجلاً فقبل منهم صلى الله

عليه وسلم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله تعالى فجئته فلما سلمت عليه تبسم تبسم الغضبان ثم قال : تعال فجئت أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي : "ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟" قلت : بلى يا رسول الله والله لو جلست عند

غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن أخرج من سخطك بعذر ولقد أعطيت جزلاً ولكنني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكنّ الله أن يسخطك عليّ ولئن حدّثتك حديث صدق تجد

(358/353)

عليّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله ما كان لي من عذر والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أمّا هذا فقد صدق فقم حتى يقضي الله فيك" فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني وقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا وقد كان كافيك لذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لهم : هل أتى هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم رجلان قالا مثل ما قلت فقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت : من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع وهلال بن أمية فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ففيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس ولبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان وأما أنا فكنت أثبت القوم وأجلدهم فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين

وأطوف بالأسواق ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة فأقول في نفسي : هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليّ وإذا التفت نحوه أعرض عني حتى إذا طال عليّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوّرت حائط أبي قتادة وهو ابن عمّ لي وأحب الناس إليّ فسلمت عليه فوالله ما ردّ عليّ السلام فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله هل تعلمني أحبّ الله ورسوله فسكت فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته فقال : الله ورسوله أعلم ففاضت عيناي وتوليت فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا بنبطيّ من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه يقول : من يدلني على كعب بن مالك فطفق الناس يشيرون له حتى جاءني فدفع إليّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه : أما بعد فقد بلغني أنّ صاحبك جفاك ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسيك فقلت حين قرأته : وهذا

(359/353)

أيضاً من البلاء

(360/353)

فيممت به التنور فسجرته به حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهنّ فقلت لامرأتي : إلحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله تعالى في هذا الأمر قال كعب : فجاءت امرأة هلال إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : إنّ هلالاً شيخ ضعيف ليس له خادم هل تكره أن أخدمه ؟ فقال : اخدميه ولكن لا يقربك قالت : والله إنه ما به حركة إلى شيء والله لا يزال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا فقال بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك لأذن لك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا فبينما أنا جالس على الحال الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ أي : مع رحبها أي : سعتها فلا يجدون مكاناً يطمئنون إليه ﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ أي : قلوبهم بالغم والوحشة أي : بتأخير توبتهم فلا يسعها سرور ولا أنس ﴿ وظنوا ﴾ أي : أيقنوا ﴿ أن ﴾ مخففة ﴿ لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ﴾ أي : وفقهم للتوبة ﴿ ليتوبوا إنّ الله هو التوّاب الرحيم ﴾ إذ سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع

ينادي بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر فخررت ساجداً وعرفت أنه جاء فرج وأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله تعالى علينا حين صلى صلاة الفجر فذهب الناس يبشروننا فذهب قبل صاحبيّ مبشرون ورجل رحل إلي فرساً وسعى ساع من أسلم فأوفى إلى الجبل فكان الصوت أسرع من الفرس فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيّ وكسوته إياهما والله ما أملك غيرهما يومئذٍ واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله صلى الله

(361/353)

عليه

وسلم فتلقاني

الناس فوجاً فوجاً يهنؤنني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك قال كعب حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس حوله الناس فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني رضي الله تعالى عنه والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ولا أنساها لطلحة قال كعب : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : "أبشر بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمّك" ثم تلا علينا الآية

، وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال : أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت وتضيق عليه نفسه كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه .

ولما حكم الله بقبول توبة هؤلاء الثلاثة ذكر ما يكون كالزاجر عن مثل فعل ما مضى وهو التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد بقوله تعالى:

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ أي : بترك معاصيه ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أي : مع النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله تعالى عنهم أجمعين في الغزوات ولا تكونوا متخلفين عنها وجالسين مع المنافقين في البيوت وقيل : كونوا مع الذين صدقوا في الاعتراف بالذنب ولم يعتذروا بالأعذار الباطلة الكاذبة وقيل مع بمعنى من أي : وكونوا من الصادقين .

تنبيه : في الآية دلالة على فضيلة الصدق وكمال درجته ويدلّ عليه أيضاً أشياء :

منها ما روي عن ابن مسعود أنه قال : عليكم بالصدق فإنه يقرب إلى البرّ والبرّ يقرب إلى الجنة وإنّ العبد ليصدق فيكتب عند الله تعالى صدّيقاً وإياكم والكذب فإنّ الكذب يقرّب إلى الفجور والفجور يقرّب إلى النار وإنّ الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً ألا ترى أنه يقال : صدقت وبررت وكذبت وفجرت .

(362/353)

ومنها ما روي أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : إني رجل أريد أن أومن بك إلا أني أحبّ الخمر والزنا والسرقة والكذب والناس يقولون إنك تحرّم هذه الأشياء ولا طاقة لي على تركها فإن قنعت مني بترك واحدة منها فعلت فقال صلى الله عليه وسلم "اترك الكذب" فقبل ذلك ثم أسلم فلما خرج من عند النبيّ صلى الله عليه وسلم عرضوا عليه الخمر فقال : إن شربت وسألني النبيّ صلى الله عليه وسلم وكذبت فقد نقضت العهد وإن صدقت أقام عليّ الحدّ فتركها ثم عرضوا عليه الزنا فجاء ذلك الخاطر فتركه وكذا في السرقة فعاد إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال : ما أحسن ما فعلت لما منعتني عن الكذب انسدّت أبواب المعاصي عليّ وفات الكل .

ومنها ما قيل في قوله تعالى حكاية عن إبليس ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ﴾ (ص ، ،)

لأنّ إبليس إنما ذكر هذا الاستثناء لأنه لو لم يذكره لصار كاذباً في ادّعاء إغواء الكل فكأنه استنكف عن الكذب فذكر هذا الاستثناء وإذا كان الكذب شيئاً يستنكف منه إبليس لعنه الله فالمسلم أولى أن يستنكف منه .

ومنها قول ابن مسعود : الكذب لا يصلح في جدّ ولا هزل ولا أن يعد أحدكم أخاه ثم لا ينجز له اقرأوا إن شئتم وكونوا مع الصادقين .

﴿ ما كان ﴾ أي : ما صح وما ينبغي بوجه من الوجوه ﴿ لأهل المدينة ﴾ أي : دار الهجرة

ومعدن النصرة ﴿ ومن حولهم ﴾ أي : في جميع نواحي المدينة الشريفة ﴿ من الأعراب ﴾ أي : سكان البوادي وهم مزينة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ، وقيل : عام في كل الأعراب لأنّ اللفظ عام وحمله على العموم أولى وقوله تعالى : ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ أي : عن حكمه وقوله تعالى : ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي : بأن يصونوها عما رضي لنفسه عليه الصلاة والسلام من الشدائد يجوز فيه النصب والجزم على أن لا ناهية .

(363/353)

روي عن أبي خيثمة أنه بلغ بستانه واستوى ونضج وله امرأة حسناء فرشت له في الظلّ وبسطت له الحصير وقربت له الرطب والماء البارد فقال : ظلّ ظليل ورطب يانع أي : ناضج وماء بارد وامرأة حسناء ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح ما هذا بخير فقام فرجل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومرّ كالريح فمدّ رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق فإذا براكب يزهاه السراب أي : يدفعه وهو عبارة عن السرعة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "كن أبا خيثمة" فكان هو ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له ﴿ ذلك ﴾ أي : النهي عن التخلف ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب إنهم

﴿ لا يصيبهم ظمأ ﴾ أي : عطش ﴿ ولا نصب ﴾ أي : تعب ﴿ ولا مخمصة ﴾ أي : مجاعة ﴿ في سبيل الله ﴾ أي : في طريق دينه ﴿ ولا يطؤن ﴾ أي : يدوسون وقوله تعالى : ﴿ موطئاً ﴾ مصدر أي : وطأ أو مكان وطء ﴿ يغيظ ﴾ أي : يغضب ﴿ الكفار ﴾ أي : وطؤهم له بأرجلهم ودوابهم ﴿ ولا ينالون من عدوّ نيلاً ﴾ أي : قتلاً أو أسراً أو غنيمة أو هزيمة أو نحو ذلك قليلاً كان أو كثيراً ﴿ إلا كتب لهم به ﴾ أي : بذلك ﴿ عمل صالح ﴾ أي : ثواب جزيل عند الله تعالى يجازيهم به ﴿ إنّ الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ أي : لا يترك ثوابهم وأظهر موضع الإضمار تنبيهاً على أنّ الجهاد إحسان .

تنبيه : في هذه الآية دلالة على أنّ من قصد طاعة الله تعالى كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنات مكتوبة عند الله تعالى وكذا القول في طرف المعصية فإنّ حركته فيها كلها سيآت فما أعظم بركة الطاعة وما أكبر ذل المعصية إلا أن يغفرها الله تعالى .

وعن أبي عيسى رضي الله تعالى عنه قال : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله تعالى على النار" .

(364/353)

﴿ ولا ينفقون ﴾ في سبيل الله ﴿ نفقة صغيرة ﴾ تمرة فما دونها ﴿ ولا كبيرة ﴾ أي : أكثر منها مثل ما أنفق عثمان رضي الله تعالى عنه في جيش العسرة ﴿ ولا يقطعون ﴾ أي : يجاوزون ﴿ وادياً ﴾ أي : أرضا في سيرهم مقبلين أو مدبرين ﴿ إلا كتب لهم ﴾ ذلك من الإنفاق وقطع الوادي ﴿ ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ أي : يجزيهم الله جزاء هو أحسن من أعمالهم وأجل وأفضل وهو الثواب .

فائدة : الوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسبيل وهو في الأصل فاعل من ودى إذا سال ومنه الوادي وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون : لا تصلّ في وادي غيرك .

تنبيه : في الآية دليل على فضل الجهاد والإنفاق فيه ويدل عليه أشياء :

منها ما روي عن ابن مسعود قال : جاء رجل بناقة مخطومة فقال : هذه في سبيل الله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة" .

ومنها ما روي عن زيد بن خالد أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في سبيل الله فقد غزا" .

ومنها ما روي عن سهل بن سعد الساعديّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها وموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها" وفي رواية وما فيها .

ومنها ما روي عن أبي سعيد الخدري أنّ رجلاً سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أيّ الناس أفضل ؟ قال : "مؤمن مجاهد بنفسه في سبيل الله" قال : ثم أيّ ؟ قال : "ثم رجل في شعب من الشعاب يعبد الله تعالى" وفي رواية يتقي الله ويدع الناس من شرّه وقوله تعالى: ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ فيه احتمالان:

الأول أنه كلام مبتدأ لا تعلق له بالجهاد .

(365/353)

والثاني أن يكون من بقية أحكام الجهاد فعلى الأوّل يقال : وما استقام لهم أن ينفروا جميعاً لنحو غزو وطلب علم كما لا يستقيم لهم أن يتثبطوا جميعاً فإنه يخلّ بأمر المعاش ﴿ فلولا ﴾ أي : فهلا ﴿ نفر من كل فرقة ﴾ أي : قبيلة ﴿ منهم طائفة ﴾ أي : جماعة ومكث الباقون ﴿ ليتفقهوا ﴾ أي : ليتكلفوا الفقاهة ﴿ في الدين ﴾ ويتجشموا مشاق تحصيلها ليعرفوا الحلال من الحرام ويعودوا إلى أوطانهم ﴿ ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ﴾ أي : وليجعلوا غاية سعيهم ومعظم غرضهم من الفقاهة إرشاد القوم وإنذارهم وتخصيصه بالذكر لأنه أهمّ وفيه دليل على أنّ التفقه والتذكير من فروض الكفاية وأنه ينبغي أن يكون غرض المتكلم فيه أن يستقيم ويقيم لا الترفع على الناس وصرف وجوههم إليه والتبسط في

البلاد ليدخل في قوله صلى الله عليه وسلم "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" وفي قوله صلى الله عليه وسلم "فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم" وفي قوله صلى الله عليه وسلم "من سلك طريقاً يلتمس فيها علماً سهل الله تعالى له طريقاً إلى الجنة" ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ عقاب الله تعالى بامتثال أمره ونهيه ، وعلى الاحتمال الثاني يقال : إنه لما نزل في المتخلفين ما نزل سبق المؤمنين إلى النفير وانقطعوا عن التفقه فأمروا بأن ينفر من كل فرقة طائفة إلى الجهاد ويمكث الباقون يتفقهون حتى لا ينقطع التفقه الذي هو الجهاد الأكبر لأنّ الجدال بالحجة هو الأصل والمقصود من البعثة فيكون الضمير في ليتفقهوا ولينذروا لبواقي الفرق بعد الطوائف النافرة للغزو وفي رجعوا للطوائف ولينذروا لباقي قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا أيام غيبتهم من العلوم قال ابن عباس : فهذه مخصوصة بالسرايا والتي قبلها بالنهي عن تخلف أحد فيما إذا خرج النبيّ صلى الله عليه وسلم

(366/353)

أمروا بقتال الأقرب منهم فالأقرب كما أمر صلى الله عليه وسلم أوّلاً بإنذار عشيرته الأقربين ، وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ثم غيرهم من عرب الحجاز ثم غزا الشام ، وقيل : هم قريظة والنضير وفدك وخيبر ، وقيل : الروم لأنهم كانوا يسكنون

الشام والشام أقرب إلى المدينة من العراق وغيره وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ما لم يضطرّوا إلى أهل ناحية أخرى ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي : شدّة وصبراً على القتال والغلظة ضدّ الرقة أي : اغلظوا عليهم ﴿ واعلموا أنّ الله مع المتقين ﴾ بالعون والنصرة والحراسة .

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ من القرآن ﴿ فمنهم ﴾ أي : المنافقين ﴿ من يقول ﴾ أي : لأصحابه إنكاراً واستهزاءً بالمؤمنين ﴿ أيكم زادته هذه ﴾ السورة ﴿ إيماناً ﴾ أي : تصديقاً ، قال الله تعالى : ﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً ﴾ بزيادة العلم الحاصل في تدبر السورة وانضمام الإيمان بها وبما فيها إلى إيمانهم ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي : يفرحون بنزولها لأنه سبب لزيادة كمالهم وارتفاع درجاتهم ﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي : شك ونفاق سمي الشك في الدين مرضاً لأنه فساد في القلب يحتاج إلى علاج كالمرض في البدن إذا حصل يحتاج إلى علاج ﴿ فزادتهم ﴾ أي : السورة أي : نزولها ﴿ رجساً إلى رجسهم ﴾ أي : كفراً بها مضموماً إلى الكفر بغيرها ﴿ وماتوا ﴾ أي : هؤلاء المنافقون ﴿ وهم كافرون ﴾ أي : وهم جاحدون لما أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم قال مجاهد : في هذه الآية دليل على أنّ الإيمان يزيد وينقص ، وكان عليّ رضي الله تعالى عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من الصحابة ويقول : تعالوا حتى نزداد إيماناً وقوله تعالى:

(367/353)

﴿ أولا يرون ﴾ قرأه حمزة بالتاء أي : أيها المؤمنون والباقون بالياء على الغيبة أي : المنافقون ﴿ أنهم يفتنون ﴾ أي : يبتلون ﴿ في كل عام مرّة أو مرّتين ﴾ بالأمراض والقحط والحرب ﴿ ثم لا يتوبون ﴾ من نفاقهم ونقض عهودهم إلى الله تعالى ﴿ ولا هم يذكرون ﴾ أي : ولا يتعظون بما يرون من نصرته صلى الله عليه وسلم وتأييده .

﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ فيها عيب المنافقين وتوبيخهم وقرأها صلى الله عليه وسلم ﴿ نظر بعضهم إلى بعض ﴾ أي : تغامزوا بالعيون إنكاراً لها وسخرية أو غيظاً لما فيها من عيوبهم ويريدون الهرب يقولون : ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ أي : من المؤمنين إذا قمتم فإن لم يرهم أحد قاموا وخرجوا من المسجد وإن علموا أنّ أحداً يراهم ثبتوا على تلك الحالة ﴿ ثم انصرفوا ﴾ على كفرهم ونفاقهم وقيل : انصرفوا عن مواضعهم التي يسمعون فيها ما يكرهون وقوله تعالى : ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ أي : عن الهدى يحتمل الإخبار والدعاء ﴿ بأنهم ﴾ أي : بسبب أنهم ﴿ قوم لا يفقهون ﴾ أي : لسوء فهمهم وعدم تدبرهم .

(368/353)

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ أي : من جنسكم عربيّ مثلكم وهو محمد صلى الله عليه وسلم تعرفون حسبه ونسبه ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : ليس قبيلة من العرب إلا وقد ولدت النبيّ صلى الله عليه وسلم وله فيها نسب وقال جعفر بن محمد الصادق : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية من زمن آدم عليه السلام ، وعن الطبرانيّ قال صلى الله عليه وسلم "إني خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح" ، وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "ما ولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء ما ولدني إلا نكاح كنكاح الإسلام" وعن واثلة بن الأسقع قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسمعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم" وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي بإدغام دال قد في الجيم والباقون بالإظهار ﴿ عزيز ﴾ أي : شديد شاق ﴿ عليه ما عنتم ﴾ أي : عنتكم وإيتاؤكم المكروه وقيل : يشق عليه ضلالتكم ﴿ حريص عليكم ﴾ أي : أن تهتدوا أو على إيصال الخير إليكم ﴿ بالمؤمنين ﴾ أي : منكم ومن غيركم ﴿ رؤوف ﴾ أي : شديد الرحمة بالمطيعين ﴿ رحيم ﴾ بالمذنبين وقدّم الأبلغ وهو الرؤوف محافظة على الفواصل ، وعن الحسن بن الفضل : لم يجمع الله تعالى لأحد من الأنبياء بين اسمين من أسمائه إلا لنبينا صلى الله عليه وسلم فسماه رؤوفاً رحيماً ، وقال تعالى : ﴿ إنّ الله بالناس

لرؤوف رحيم ﴾ وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وحفص بمدّ الهمزة من رؤوف ، والباقون بالقصر .

(369/353)

﴿ فإن تولوا ﴾ أي : فإن أعرضوا هؤلاء الكفار والمنافقون عن الإيمان بالله ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم وناصبوك الحرب ﴿ فقل حسبي الله ﴾ أي : يكفيني الله وينصرني عليكم وإنما كان كافياً لأنه ﴿ لا إله إلا هو ﴾ فلا مكافىء له ولا رادّ لأمره ولا معقب لحكمه ﴿ عليه توكلت ﴾ أي : فلا أرجو إلا إياه ولا أخاف إلا منه لأنّ أمره نافذ في كل شيء ﴿ وهو رب العرش ﴾ أي : الكرسي ﴿ العظيم ﴾ وخصه بالذكر تشريفاً له ولأنه من أعظم مخلوقاته سبحانه وتعالى .

روي عن أبيّ بن كعب قال : آخر ما نزل من القرآن هاتان الآيتان : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ إلى آخر السورة ، وقال : هما أحدث الآيات بالله عهداً وما رواه البيضاويّ رحمه الله تعالى تبعاً للكشاف من أنه صلى الله عليه وسلم قال : "ما أنزل عليّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد فإنهما أنزلا عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة" حديث منكر ومخالف لما مرّ عن أبيّ من أنّ آخر ما نزل الآيتان ، انتهى .

والله سبحانه وتعالى أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ السراج المنير حـ 2 صـ 454 .

471 ﴾

(370/353)

وقال الشوكاني في الآيات السابقة :

﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

قوله : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ﴾ حكاية منه سبحانه لقية فضائح المنافقين ، أي إذا ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة من كتابه العزيز ، فمن المنافقين ﴿ مَن يَقُولُ ﴾ لإخوانه منهم ﴿ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هذه ﴾ السورة النازلة ﴿ إيمانا ﴾ يقولون هذا استهزاء بالمؤمنين ، ويجوز أن يقولوه لجماعة من المسلمين قاصدين بذلك صرفهم عن الإسلام وزهيدهم فيه ، و ﴿ أيكم ﴾ مرفوع بالابتداء وخبره زادته .

وقد تقدّم بيان معنى السورة .

ثم حكى الله سبحانه بعد مقالتهم هذه أن المؤمنين زادتهم إيماناً إلى إيمانهم ، والحال أنهم يستبشرون مع هذه الزيادة بنزول الوحي ، وما يشتمل عليه من المنافع الدينية والدنيوية ﴿

وَأَمَّا الذين فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ وهم : المنافقون ﴿ فَزَادَتْهُمْ ﴾ السورة المنزلة ﴿ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ أي : خبثاً إلى خبثهم الذين هم عليه من الكفر وفساد الاعتقاد ، وإظهار غير ما يضمرونه ، وثبتوا على ذلك واستمروا عليه إلى أن ماتوا كفاراً منافقين ، والمراد بالمرض هنا : الشك والنفاق ؛ وقيل المعنى : زادتهم إثماً إلى إثمهم .

قوله : ﴿ أَوْلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ قرأ الجمهور ﴿ يرون ﴾ بالتحتية .

وقرأ حمزة ويعقوب بالفوقية خطاباً للمؤمنين .

وقرأ الأعمش "أو لم يروا" .

وقرأ طلحة بن مصرف "أو لا ترى" خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي قراءة ابن مسعود .

ومعنى : ﴿ يُفْتَنُونَ ﴾ : يختبرون ، قاله ابن جرير ، وغيره ، أو يبتليهم الله سبحانه بالقحط والشدّة ، قاله مجاهد .

وقال ابن عطية بالأمراض والأوجاع .

(371/353)

وقال قتادة ، والحسن ، بالغزو والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ويرون ما وعد الله من النصر ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ ﴾ بسبب ذلك ﴿ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ و " ثم " لعطف ما بعدها على يرون ، والهمزة في أو لا يرون للإنكار والتوبيخ ، والواو للعطف على مقدّر ، أي لا ينظرون ولا يرون ، وهذا تعجيب من الله سبحانه للمؤمنين من حال المنافقين وتصلبهم في النفاق ، وإهمالهم للنظر والاعتبار .

ثم ذكر الله سبحانه ما كانوا يفعلونه عند نزول السورة بعد ذكره لما كانوا يقولونه ، فقال : ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ ﴾ أي : نظر بعض المنافقين إلى البعض الآخر قائلين : ﴿ هَلْ يَرَاكُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ من المؤمنين ، لننصرف عن المقام الذي ينزل فيه الوحي ، فإنه لا صبر لنا على استماعه ، ولنتكلم بما نريد من الطعن والسخرية والضحك .

وقيل المعنى : وإذا أنزلت سورة ذكر الله فيها فضائح المنافقين ومخازيهم ، قال بعض من يحضر مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم للبعض الآخر منهم : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا إلى منازلهم .

وحكى ابن جرير ، عن بعض أهل العلم ، أنه قال : ﴿ نَظَرَ ﴾ في هذه الآية موضوع موضع قال : أي قال بعضهم لبعض هل يراكم من أحد ؟ قوله : ﴿ ثُمَّ انصرفوا ﴾ أي : عن ذلك المجلس إلى منازلهم ، أو عن ما يتقضي الهداية والإيمان إلى ما يقتضى الكفر والنفاق ، ثم دعا الله سبحانه عليهم ، فقال : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ أي : صرفها عن الخير وما فيه

الرشد لهم والهداية ، وهو سبحانه مصرّف القلوب ومقلبها .

وقيل المعنى : أنه خذلهم عن قبول الهداية .

وقيل : هو دعاء لا يراد به وقوع مضمونه ، كقولهم : قاتله الله .

(372/353)

ثم ذكر سبحانه السبب الذي لأجله انصرفوا عن مواطن الهداية ، أو السبب الذي لأجله استحقوا الدعاء عليهم بقوله : ﴿ صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُم ﴾ فقال : ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ ما يسمعونه لعدم تدبرهم وإنصافهم .

ثم ختم الله سبحانه هذه السورة بما يهوّن عنده بعض ما اشتملت عليه من التكاليف الشاقة ، فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ ﴾ يا معشر العرب ﴿ رَّسُولٌ ﴾ أرسله الله إليكم ، له شأن عظيم ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ من جنسكم في كونه عربياً وإلى كون هذه الآية خطاباً للعرب ذهب جمهور المفسرين .

وقال الزجاج : هي خطاب لجميع العالم .

والمعنى : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ ﴾ جنسكم في البشرية ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ " ما " مصدرية .

والمعنى : شاق عليه عنتكم لكونه من جنسكم ، ومبعوثاً لهدايتكم ، والعنت : التعب لهم والمشقة عليهم بعذاب الدنيا بالسيف ونحوه ، أو بعذاب الآخرة بالنار ، أو بمجموعهما ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي : شحيح عليكم بأن تدخلوا النار ، أو حريص على إيمانكم .

والأوّل : أولى ، وبه قال الفراء .

والرؤوف الرحيم ، قد تقدّم بيان معناهما : أي هذا الرسول ﴿ بالمؤمنين ﴾ منكم أيها العرب أو الناس ﴿ رَءوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ثم قال مخاطباً لرسوله ومسلياً له ، ومرشداً له ، إلى ما يقوله عند أن يُعصى ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ أي : أعرضوا عنك ولم يعملوا بما جئت به ولا قبلوه ﴿ فَقُلْ ﴾ يا محمد ﴿ حَسْبِىَ الله ﴾ أي : كافيّ الله سبحانه المنفرد بالألوهية ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي : فوّضت جميع أموري ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ وصفه بالعظم ، لأنه أعظم المخلوقات .

وقد قرأ الجمهور بالجرّ على أنه صفة لعرش .

وقرأ ابن محيصن بالرفع صفة لرب .

وقد رويت هذه القراءة عن ابن كثير .

(373/353)

وقد أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وابن مردويه ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَأَمَّا الذين آمَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً ﴾ قال : كان إذا نزلت سورة آمنوا بها فزادهم الله إيماناً وتصديقاً ، وكانوا بها يستبشرون .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن السديّ ، في قوله : ﴿ رِجْسًا إلى رِجْسِهِمْ ﴾ قال : شكاً إلى شكهم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ ﴾ قال : يقتلون .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن مجاهد ، نحوه وقال : بالسنة والجوع .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عن الحسن ، قال : بالعدوّ .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، عن قتادة ، قال : بالغزو في سبيل الله .

وأخرج أبو الشيخ ، عن بكار بن مالك ، قال : يمرضون في كل عام مرّة أو مرّتين .

وأخرج ابن مردويه ، عن أبي سعيد ، قال : كانت لهم في كل عام كذبة أو كذبتان .

وأخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، عن حذيفة ، قال : كنا نسمع في كل عام كذبة أو كذبتين ، فيضل بها فئام من الناس كثير .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ ﴾

قال : هم المنافقون .

وأخرج سعيد بن منصور ، وابن أبي شيبة ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، قال : لا تقولوا انصرفنا من الصلاة ، فإن قوماً انصرفوا ، صرف الله قلوبهم ولكن قولوا قضينا الصلاة .

وأخرج ابن أبي شيبة ، عن ابن عمر ، نحوه .

(374/353)

وأقول : الانصراف يكون عن الخير ، كما يكون عن الشرّ ، وليس في إطلاقه هنا على رجوع المنافقين عن مجلس الخير ما يدل على أنه لا يطلق إلا على نحو ذلك ، وإلا لزم أن كل لفظ يستعمل في لغة العرب في الأمور المتعدّدة إذا استعمل في القرآن في حكاية ما وقع من الكفار ، لا يجوز استعماله في حكاية ما وقع عن أهل الخير ، كالرجوع والذهاب ، والدخول والخروج ، والقيام والقعود .

واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله ، ووجه الملازمة ظاهر لا يخفى .

وأخرج عبد بن حميد ، والحارث بن أبي أسامة ، في مسنده ، وابن المنذر ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، في دلائل النبوّة ، وابن عساكر ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ

مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي صلى الله عليه وسلم مضريها وربيعها ويمانيها .

وأخرج ابن سعد عنه ، في قوله : ﴿ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : قد ولدتموه يا معشر العرب .

وأخرج عبد الرزاق في المصنف ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، والبيهقي في سننه ، وأبو الشيخ ، عن جعفر بن محمد ، عن أبيه ، في قوله : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال : لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح " وهذا فيه انقطاع ، ولكنه قد وصله الحافظ الرامهرمزي في كتابه الفاصل بين الراوي والواعي ، فقال : حدثنا أبو أحمد ، يوسف بن هارون بن زياد ، حدثنا ابن أبي عمر ، حدثنا محمد بن جعفر بن محمد قال : أشهد على أبي يحدثني ، عن أبيه ، عن جدّه ، عن عليّ بن أبي طالب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(375/353)

" خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي " وأخرج ابن مردويه ، عن أنس ، قال : "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ فقال عليّ بن أبي طالب : يا رسول الله ، ما معنى ﴿ من أنفسكم ﴾ ؟ قال

: " نسباً وصهراً وحسباً ، ليس فيّ ولا في آبائي من لدن آدم سفاح كلنا نكاح " وأخرج الحاكم ، عن ابن عباس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ : ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني : من أعظمكم قدراً .

وأخرج ابن سعد عنه نحو حديث على الأول .

وأخرج الطبراني عنه أيضاً نحوه .

وأخرج ابن سعد ، وابن عساكر ، عن عائشة ، نحوه .

وفي الباب أحاديث بمعناه ، ويؤيد ما في صحيح مسلم ، وغيره ، من حديث واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم " وأخرج أحمد ، والترمذي وحسنه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم ، والبيهقي ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً " وفي الباب أحاديث .

وأخرج ابن أبي شيبة ، وإسحاق بن راهويه ، وابن منيع ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل من طريق يوسف بن مهران ، عن ابن عباس ، عن أبيّ بن كعب ، قال : آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي لفظ : آخر ما أنزل من القرآن : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ إلى آخر الآية ، وروي عنه نحوه من طريق أخرى ؛ أخرجها عبد الله بن أحمد في زوائد المسند ، وابن الضريس ، في فضائله ، وابن أبي داود في المصاحف ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، وابن مردويه ، والبيهقي في الدلائل ، والخطيب في تلخيص المتشابه ، والضياء في المختارة .

وأخرج ابن مردويه ، عن سعد بن أبي وقاص ، قال : لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جاءته جهينة فقالوا له : إنك قد نزلت بين أظهرنا فأوثق لنا نأمنك وتأمنا قال : ولم سألتم هذا ؟ قالوا : نطلب الأمن ، فأنزل الله هذه الآية : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ .

وأخرج ابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن ابن عباس ، في قوله : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ ﴾ يعني : الكفار تولوا عن النبي صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن أبي حاتم ، عنه ، قال : إنما سمي العرش عرشاً لارتفاعه ، وقد رويت أحاديث كثيرة في صفة العرش وماهيته ، وقدره .

وإلى هنا انتهى الثلث الأوّل من التفسير المسمى : "فتح القدير" الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، بقلم مؤلفه : محمد بن علي الشوكاني ، غفر الله لهما .

وكان تمام هذا الثلث في نهار يوم الثلاثاء لعله يوم عشرين من شهر محرّم سنة 1227 ه .

والحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله وصحبه أجمعين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ فتح القدير حـ 2 صـ ﴾

(377/353)

وقال الشيخ سيد قطب فى الآيات السابقة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾

هذا المقطع الأخير من السورة – أو الدرس الأخير فيها – بقية في الأحكام النهائية في طبيعة العلاقات بين المجتمع المسلم وغيره ؛ تبدأ من تحديد العلاقة بين المسلم وربه ، وتحديد طبيعة " الإسلام " الذي أعلنه ؛ ومن بيان تكاليف هذا الدين ، ومنهج الحركة به في مجالاته الكثيرة .

* إن الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين . . الله – سبحانه – فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع . فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله

يحتجزه دون الله – سبحانه – ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله العليا ، وليكون الدين كله لله . فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم ، هو الجنة : وهو ثمن لا تعدله السلعة ، ولكنه فضل الله ومَنَّه :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

* والذين باعوا هذه البيعة ، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ، ذات صفات مميزة . . منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر ؛ ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم :

﴿ التائبون ، العابدون ، الحامدون ، السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله . وبشر المؤمنين ﴾ .

(378/353)

* والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة ، وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها – ولو كانوا أولى قربى – فقد اختلفت الوجهتان ، واختلف المصيران ، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة ، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم . ولا لقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم . وقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة ، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – ولو كانوا أولي قربى – من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه . إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ . .

* وولاء المؤمن يجب أن يتمحض لله الذي عقد معه تلك الصفقة ؛ وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة – وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة ويعصم من كل ضلالة – وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته ؛ فهم بها في غنى عن كل ما عداه ، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه :

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شيء عليم ، إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

* ولما كانت هذه طبيعة تلك البيعة ؛ فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة في سبيل الله أمراً عظيماً ، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف ؛ فتاب عليهم رحمة منه وفضلاً :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ؛ ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم ﴾ . .

(379/353)

---

* ومن ثم بيان محدد لتكاليف البيعة في أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ أولئك القريبون من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية ، ومركز الانطلاق الإسلامي ؛ واستنكار لما وقع منهم من تخلف ؛ مع بيان ثمن الصفقة في كل خطوة وكل حركة في تكاليف البيعة :

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه . ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا

يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ . .

* ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد بيان لحدود التكليف بالنفير العام . وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد ، وأصبح في الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه في الدين ؛ ويبقى البعض للقيام بحاجيات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة للأرض ، ثم تتلاقى الجهود في نهاية المطاف :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة . فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ، لعلهم يحذرون ! ﴾ .

* وفي الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية – بعد ما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه – وأصبح الخط يتجه إلى قتال المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . . وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ .

.

* وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركي . . يعرض السياق مشهداً من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموحيات الإيمان القلبية ، وبالتكاليف والواجبات العملية .

ويندد بالمنافقين الذين لا تهديهم التوجيهات والآيات ، ولا تعظهم النذر والابتلاءات :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؛ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون . وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون . أو لا يرون أنهم يُفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ . .

*ويختم الدرس وتختم معه السورة بآيتين تصوران طبيعة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ورحمته . مع توجيهه - صلى الله عليه وسلم - إلى الاعتماد على الله وحده ، والاستغناء عن المعرضين الذين لا يهتدون :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين

رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ . .

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالي لمحتويات هذا المقطع الأخير في السورة يتجلى مدى التركيز على الجهاد ؛ وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة ، وعلى الانطلاق بهذا الدين في الأرض – وفقاً للبيعة على النفس والمال بالجنة للقتل والقتال – لتقرير حدود الله والمحافظة عليها ؛ أي لتقرير حاكمية الله للعباد ، ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية !

(381/353)

ولعله من خلال هذا العرض الإجمالي لهذه الحقيقة كذلك يتجلى مدى التهافت والهزيمة التي تسيطر على شراح آيات الله وشريعة الله في هذا الزمان ؛ وهم يحاولون جاهدين أن يحصروا الجهاد الإسلامي في حدود الدفاع الإقليمي عن " أرض الإسلام " ! بينما كلمات الله – سبحانه – تعلن في غير مواربة عن الزحف المستمر على من يلون " أرض الإسلام " هذه من الكفار ؛ دون ذكر لأنهم معتدون ! فالاعتداء الأساسي متمثل في اعتدائهم على ألوهية الله – سبحانه – بتعبيد أنفسهم وتعبيد العباد لغير الله . وهذا الاعتداء هو الذي يقتضي جهادهم ما استطاع المسلمون الجهاد !

وحسبنا هذه الإشارة في هذا التقديم المجمل للدرس الأخير ، لنواجه نصوصه بالتفصيل .

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ، التائبون العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين ﴾ .

.

هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عده من المرات ، في أثناء حفظي للقرآن ، وفي أثناء تلاوته ، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان . .

هذا النص – حين واجهته في " الظلال " أحسست أنني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدها على مدى ذلك الزمان !

إنه نص رهيب ! إنه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله ؛ وعن حقيقة البيعة التي أعطوها – بإسلامهم – طوال الحياة . فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان . . وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق !

حقيقة هذه البيعة – أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة – أن الله – سبحانه – قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم ؛ فلم يعد لهم منها شيء . . لم يعد لهم أن يستبقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله . لم يعد لهم خيار في أن يبذلوا أو يمسكوا . . كلا . . إنها صفقة مشتراة ، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء ، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد ، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم ، لا يتلفت ولا يتخير ، ولا يناقش ولا يجادل ، ولا يقول إلا الطاعة والعمل والاستسلام . . والثمن : هو الجنة . . والطريق : هو الجهاد والقتل والقتال . . والنهاية : هي النصر أو الاستشهاد :

﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ . .

من بايع على هذا . من أمضى عقد الصفقة . من ارتضى الثمن ووفى . فهو المؤمن . . فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا . . ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً ، وإلا فهو واهب الأنفس والأموال ، وهو مالك الأنفس والأموال . ولكنه كرم هذا الإنسان فجعله مريداً ؛ وكرمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها – حتى مع الله – وكرمه فقيده بعقوده وعهوده ؛ وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة ؛ ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة : . . شر البهيمة . . ﴿ إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون

الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون ﴾ كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء .

وإنها لبيعة رهيبة – بلا شك – ولكنها في عنق كل مؤمن – قادر عليها – لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه . ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات : ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ . .

(383/353)

عونك اللهم ! فإن العقد رهيب . . وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم " مسلمين " في مشارق الأرض ومغاربها ، قاعدون ، لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض ، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد .

ولا يقتلون . ولا يقتلون . ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال !

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين – على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم ؛ ولم تكن مجرد معان يتملونها بأذهانهم ، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم . كانوا يتلقونها للعمل

المباشر بها . لتحويلها إلى حركة منظورة ، لا إلى صورة متأملة . . هكذا أدركها عبد الله بن رواحة – رضي الله عنه – في بيعة العقبة الثانية . قال محمد بن كعب القرظي وغيره : قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (يعني ليلة العقبة) – : اشترط لربك ولنفسك ما شئت . فقال : " أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم " قال : فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك ؟ قال : " الجنة " قالوا : ربح البيع ، ولا نقيل ولا نستقيل .

هكذا . . " ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل " . . لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين ؛ انتهى أمرها ، وأمضى عقدها ، ولم يعد إلى مرد من سبيل : " لا نقيل ولا نستقيل " فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار ؛ والجنة : ثمن مقبوض لا موعود ! أليس الوعد من الله ؟ أليس الله هو المشتري ؟ أليس هو الذي وعد الثمن وعداً قديماً في كل كتبه :

﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ . .

﴿ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ﴾ .

أجل ! ومن أوفى بعهده من الله ؟

(384/353)

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . . كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل ومنذ كان دين الله . . إنها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ﴾ ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴾

إن الحق لا بد أن ينطلق في طريقه . ولا بد أن يقف له الباطل في الطريق ! . . بل لا بد أن يأخذ عليه الطريق . . إن دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده . ولا بد أن يقف له الطاغوت في الطريق . . بل لا بد أن يقطع عليه الطريق . . ولا بد لدين الله أن ينطلق في " الأرض " كلها لتحرير " الإنسان " كله . ولا بد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقاً ! . . وما دام في " الأرض " كفر . وما دام في " الأرض " باطل . وما دامت في " الأرض " عبودية لغير الله تذل كرامة " الإنسان " فالجهاد في سبيل الله ماض ، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء .

وإلا فليس بالإيمان : و " من مات ولم يغز ، ولم يحدث نفسه بغزو ، مات على شعبة من النفاق " (رواه الإمام أحمد ، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي) .

﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

استبشروا بإخلاص أنفسكم وأموالكم لله ، وأخذ الجنة عوضاً وثمناً ، كما وعد الله . .

وما الذي فات ؟ ما الذي فات المؤمن الذي يسلم لله نفسه وماله ويستعيض الجنة ؟ والله ما

فاته شيء . فالنفس إلى موت ، والمال إلى فوت . سواء أنفقهما صاحبهما في سبيل الله أم في سبيل سواه ! والجنة كسب . كسب بلا مقابل في حقيقة الأمر ولا بضاعة ! فالمقابل زائل في هذه الطريق أو ذاك !

(385/353)

ودع عنك رفعة الإنسان وهو يعيش لله . ينتصر – إذ انتصر – لإعلاء كلمته ، وتقرير دينه ، وتحرير عباده من العبودية المذلة لسواه . ويستشهد – إذا استشهد – في سبيله ، ليؤدي لدينه شهادة بأنه خير عنده من الحياة . ويستشعر في كل حركة وفي كل خطوة – أنه أقوى من قيود الأرض وأنه أرفع من ثقلة الأرض ، والإيمان ينتصر فيه على الألم ، والعقيدة تنتصر فيه على الحياة .

إن هذا وحده كسب . كسب بتحقيق إنسانية الإنسان التي لا تتأكد كما تتأكد بانطلاقه من أوهاق الضرورة ؛ وانتصار الإيمان فيه على الألم ، وانتصار العقيدة فيه على الحياة . . فإذا أضيفت إلى ذلك كله . . الجنة . . فهو بيع يدعو إلى الاستبشار ؛ وهو فوز لا ريب فيه ولا جدال :

﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم فيه ، وذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ثم نقف وقفة قصيرة أمام قوله تعالى في هذه الآية :

﴿ وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ﴾ . .

(386/353)

فوعد الله للمجاهدين في سبيله في القرآن معروف مشهور مؤكد مكرور . . وهو لا يدع مجالاً للشك في إصالة عنصر الجهاد في سبيل الله في طبيعة هذا المنهج الرباني ؛ باعتباره الوسيلة المكافئة للواقع البشري – لا في زمان بعينه ولا في مكان بعينه – ما دام أن الجاهلية لا تتمثل في نظرية تقابل بنظرية ولكنها تتمثل في تجمع عضوي حركي ، يحمي نفسه بالقوة المادية ؛ ويقاوم دين الله وكل تجمع إسلامي على أساسه بالقوة المادية كذلك ؛ ويحول دون الناس والاستماع لإعلان الإسلام العام بألوهية الله وحده للعباد ، وتحرير " الإنسان " في " الأرض " من العبودية للعباد . كما يحول دونهم ودون الانضمام العضوي إلى التجمع الإسلامي المتحرر من عبادة الطاغوت بعبوديته لله وحده دون العباد . . ومن ثم يتحتم على الإسلام في انطلاقه في " الأرض " لتحقيق إعلانه العام بتحرير " الإنسان " أن يصطدم بالقوة المادية التي تحمي التجمعات الجاهلية ؛ والتي تحاول بدورها – في حتمية لافكاك منها – أن تسحق حركة البعث الإسلامي وتخفت إعلانه التحريري ، لاستبقاء العباد في رق

العبودية للعباد !

فأما وعد الله للمجاهدين في التوراة والإنجيل .

فهو الذي يحتاج إلى شيء من البيان . .

إن التوراة والإنجيل اللذين في أيدي اليهود والنصارى اليوم لا يمكن القول بأنهما هما اللذان أنزلهما الله على نبيه موسى وعلى نبيه عيسى عليهما السلام ! وحتى اليهود والنصارى أنفسهم لا يجادلون في أن النسخة الأصلية لهذين الكتابين لا وجود لها ؛ وأن ما بين أيديهم قد كتب بعد فترة طويلة ضاعت فيها معظم أصول الكتابين ؛ ولم يبق إلا ما وعته ذاكرة بعد ذاكرة . . وهو قليل . . أضيف إليه الكثير !

ومع ذلك فما تزال في كتب العهد القديم إشارات إلى الجهاد ، والتحريض لليهود على قتال أعدائهم الوثنيين ، لنصر إلههم وديانته وعبادته ! وإن كانت التحريفات قد شوهت تصورهم لله – سبحانه – وتصورهم للجهاد في سبيله .

(387/353)

فأما في الأناجيل التي بين أيدي النصارى اليوم فلا ذكر ولا إشارة إلى جهاد . . ولكننا في حاجة شديدة إلى تعديل المفهومات السائدة عن طبيعة النصرانية ؛ فهذه المفهومات إنما

جاءت من هذه الأناجيل التي لا أصل لها – بشهادة الباحثين النصارى أنفسهم ! – وقبل ذلك بشهادة الله سبحانه كما وردت في كتابه المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

والله سبحانه يقول في كتابه المحفوظ : إن وعده بالجنة لمن يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ؛ ثابت في التوراة والإنجيل والقرآن . . فهذا إذن هو القول الفصل الذي ليس بعده لقائل مقال !

إن الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن . كل مؤمن على الإطلاق . منذ كانت الرسل ، ومنذ كان دين الله . .

ولكن الجهاد في سبيل الله ليس مجرد اندفاعة إلى القتال ؛ إنما هو قمة تقوم على قاعدة من الإيمان المتمثل في مشاعر وشعائر وأخلاق وأعمال . والمؤمنون الذين عقد الله معهم البيعة ، والذين تتمثل فيهم حقيقة الإيمان هم قوم تتمثل فيهم صفات إيمانية أصيلة :

﴿ التائبون . العابدون . السائحون . الراكعون الساجدون . الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر . والحافظون لحدود الله ﴾ . .

﴿ التائبون ﴾ . . مما أسلفوا ، العائدون إلى الله مستغفرين . والتوبة شعور بالندم على ما مضى ، وتوجه إلى الله فيما بقي ، وكف عن الذنب ، وعمل صالح يحقق التوبة بالفعل كما يحققها بالترك ، فهي طهارة وزكاة وتوجه وصلاح .

﴿ العابدون ﴾ . . المتوجهون إلى الله وحده بالعبادة وبالعبودية ، إقراراً بالربوبية . . صفة هذه ثابتة في نفوسهم تترجمها الشعائر ، كما يترجمها التوجه إلى الله وحده بكل عمل وبكل قول وبكل طاعة وبكل اتباع . فهي إقرار بالألوهية والربوبية لله في صورة عملية واقعية .

(388/353)

﴿ الحامدون ﴾ . . الذين تنطوي قلوبهم على الاعتراف للمنعم بالنعمة ، وتلهج ألسنتهم بحمد الله في السراء والضراء . في السراء للشكر على ظاهر النعمة ، وفي الضراء للشعور بما في الابتلاء من الرحمة .

وليس الحمد هو الحمد في السراء وحدها ، ولكنه الحمد في الضراء حين يدرك القلب المؤمن أن الله الرحيم العادل ما كان ليبتلي المؤمن إلا لخير يعلمه ، مهما خفي على العباد إدراكه .

﴿ السائحون ﴾ . . وتختلف الروايات فيهم . فمنها ما يقول : إنهم المهاجرون . ومنها ما يقول : إنهم المجاهدون . ومنها ما يقول : إنهم المتنقلون في طلب العلم . ومنهم من يقول : إنهم الصائمون . . ونحن نميل إلى اعتبارهم المتفكرين في خلق الله وسننه ، ممن قيل في

أمثالهم في موضع آخر : ﴿ إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون في خلق السماوات والأرض : ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك ! . . . ﴾ فهذه الصفة أليق هنا بالجو بعد التوبة والعبادة والحمد . فمع التوبة والعبادة والحمد يكون التدبر في ملكوت الله على هذا النحو الذي ينتهي بالإنابة إلى الله ، وإدراك حكمته في خلقه ، وإدراك الحق الذي يقوم عليه الخلق . لا للاكتفاء بهذا الإدراك وإنفاق العمر في مجرد التأمل والاعتبار . ولكن لبناء الحياة وعمرانها بعد ذلك على أساس هذا الإدراك . .

﴿ الراكعون الساجدون ﴾ . . الذين يقيمون الصلاة ويقومون بالصلاة كأنها صفة ثابتة من صفاتهم ؛ وكأن الركوع والسجود طابع مميز بين الناس لهم .

(389/353)

﴿ الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ﴾ . . وحين يقوم المجتمع المسلم الذي تحكمه شريعة الله ، فيدين لله وحده ولا يدين لسواه ، يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في داخل هذا المجتمع ؛ ويتناول ما يقع فيه من أخطاء وانحرافات عن منهج الله وشرعه . . ولكن حين لا يكون في الأرض مجتمع مسلم ؛ وذلك حين لا يكون في الأرض مجتمع الحاكمية

فيه لله وحده ، وشريعة الله وحدها هي الحاكمية فيه ، فإن الأمر بالمعروف يجب أن يتجه أولاً إلى الأمر بالمعروف الأكبر ، وهو تقرير ألوهية الله وحده سبحانه وتحقيق قيام المجتمع المسلم . والنهي عن المنكر يجب أن يتجه أولاً إلى النهي عن المنكر الأكبر . وهو حكم الطاغوت وتعبيد الناس لغير الله عن طريق حكمهم بغير شريعة الله . . والذين آمنوا بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هاجروا وجاهدوا ابتداء لإقامة الدولة المسلمة الحاكمة بشريعة الله ، وإقامة المجتمع المسلم المحكوم بهذه الشريعة . فلما تم لهم ذلك كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر في الفروع المتعلقة بالطاعات والمعاصي . ولم ينفقوا قط جهدهم ، قبل قيام الدولة المسلمة والمجتمع المسلم في شيء من هذه التفريعات التي لا تنشأ إلا بعد قيام الأصل الأصيل ! ومفهوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد أن يدرك وفق مقتضى الواقع . فلا يبدأ بالمعروف الفرعي والمنكر الفرعي قبل الانتهاء من المعروف الأكبر والمنكر الأكبر ، كما وقع أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم !

﴿ والحافظون لحدود الله ﴾ . . وهو القيام على حدود الله لتنفيذها في النفس وفي الناس .

(390/353)

ومقاومة من يضيعها أو يعتدي عليها . . ولكن هذه كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لا يقام عليها إلا في مجتمع مسلم . ولا مجتمع مسلم إلا المجتمع الذي تحكمه شريعة الله وحدها في أمره كله ؛ وإلا الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية والربوبية والحاكمية والتشريع ؛ ويرفض حكم الطاغوت المتمثل في كل شرع لم يأذن به الله . . والجهد كله يجب أن ينفق ابتداء لإقامة هذا المجتمع . ومتى قام كان هناك مكان للحافظين لحدود الله فيه . . كما وقع كذلك أول مرة عند نشأة المجتمع المسلم !

هذه هي الجماعة المؤمنة التي عقد الله معها بيعته . وهذه هي صفاتها ومميزاتها : توبة ترد العبد إلى الله ، وتكفه عن الذنب ، وتدفعه إلى العمل الصالح . وعبادة تصله بالله وتجعل الله معبوده وغايته ووجهته . وحمد لله على السراء والضراء نتيجة الاستسلام الكامل لله والثقة المطلقة برحمته وعدله . وسياحة في ملكوت الله مع آيات الله الناطقة في الكون الدالة على الحكمة والحق في تصميم الخلق . وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر يتجاوز صلاح الذات إلى إصلاح العباد والحياة . وحفظ لحدود الله يرد عنها العادين والمضيعين ، ويصونها من التهجم والانتهاك . .

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال ، لتمضي مع سنة الله الجارية منذ كان دين الله ورسوله ورسالاته . قتال في سبيل الله لإعلاء كلمة الله ؛ وقتل لأعداء الله الذين يحادّون الله ؛ أو استشهاد في المعركة التي لا تفترين الحق

والباطل ، وبين الإسلام والجاهلية ، وبين الشريعة والطاغوت ، وبين الهدى والضلال .

وليست الحياة لهواً ولعباً . وليست الحياة أكلاً كما تأكل الأنعام ومتاعاً . وليست الحياة سلامة ذليلة ، وراحة بليدة ورضى بالسلم الرخيصة . . إنما الحياة هي هذه : كفاح في سبيل الحق ، وجهاد في سبيل الخير ، وانتصار لإعلاء كلمة الله ، أو استشهاد كذلك في سبيل الله . . ثم الجنة والرضوان . .

(391/353)

هذه هي الحياة التي يدعى إليها المؤمنون بالله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ﴾ وصدق الله . وصدق رسول الله . .

والمؤمنون الذين اشترى الله منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، أمة وحدهم ، العقيدة في الله بينهم هي وشيجة الارتباط والتجمع الوحيدة . وهذه السورة التي تقرر العلاقات الأخيرة بين الجماعة المسلمة ومن عداها ، تحسم في شأن العلاقات التي لا تقوم على هذه الوشيجة . وبخاصة بعد ذلك التخلخل الذي أنشاه التوسع الأفقي الشديد في المجتمع المسلم عقب فتح مكة ، ودخول أفواج كثيرة في الإسلام لم يتم انطباعها بطابعه ؛ وما تزال علاقات القربى عميقة الجذور في حياتها . والآيات التالية تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا

تلك البيعة وبين من لم يدخلوا معهم فيها – ولو كانوا أولي قربى – بعد ما اختلفت الوجهتان واختلفت العاقبتان في الدنيا والآخرة :

﴿ ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين – ولو كانوا أولي قربى – من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم .

وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم . وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ، إن الله بكل شيء عليم . إن الله له ملك السماوات والأرض ، يحيي ويميت ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ .

والظاهر أن بعض المسلمين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين ويطلبون إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يستغفر لهم ؛ فنزلت الآيات تقرر أن في هذا الاستغفار بقية من تعلق بقرابات الدم ، في غير صلة بالله ، لذلك ما كان للنبي والذين آمنوا أن يفعلوه . . ما كان لهم قطعاً وليس من شأنهم أصلاً . . أما كيف يتبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ، فالأرجح أن يكون ذلك بموتهم على الشرك ، وانقطاع الرجاء من أن تكون لهم هداية إلى الإيمان .

(392/353)

إن العقيدة هي العروة الكبرى التي تلتقي فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية . فإذا انبتَّت وشيجة العقيدة انبتَّت الأواصر الأخرى من جذورها ، فلا لقاء بعد ذلك في نسب ، ولا لقاء بعد ذلك في صهر . ولا لقاء بعد ذلك في قوم . ولا لقاء بعد ذلك في أرض . . إما إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة ، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقي بها . أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان .

﴿ وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ . .

فلا أسوة بإبراهيم في استغفاره لأبيه . فإنما كان استغفار إبراهيم لأبيه بسبب وعده له أن يستغفر له الله لعله يهديه ، ذلك إذ قال له : ﴿ سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفياً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾ فلما أن مات أبوه على الشرك ، وتبين إبراهيم أن أباه عدو لله لا رجاء في هداه ، ﴿ تبرأ منه ﴾ وقطع صلته به .

﴿ إن إبراهيم لأواه حليم ﴾ . .

كثير التضرع لله ، حليم على من آذاه . ولقد آذاه أبوه فكان حليماً ؛ وتبين أنه عدو لله فتبرأ منه وعاد لله ضارعاً .

وقد ورد أنه لما نزلت الآيتان خشي الذين كانوا يستغفرون لآبائهم المشركين أن يكونوا قد

ضلوا لمخالفتهم عن أمر الله في هذا فنزلت الآية التالية تطمئنهم من هذا الجانب ، وتقرر القاعدة الإسلامية أنه لا عقوبة بغير نص ؛ ولا جريمة بغير بيان سابق على الفعل :

﴿ وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون . إن الله بكل شيء عليم ﴾ .

.

إن الله لا يحاسب الناس إلا على ما بين لهم أن يتقوه ويحذروه ولا يأتوه . وليس من شأنه أن يذهب بهدى قوم بعد إذ هداهم ويكلهم إلى الضلال لمجرد الفعل ، ما لم يكن هذا الفعل مما نهاهم عنه قبلاً . . ذلك أن الإنسان قاصر والله هو العليم بكل شيء . ومنه البيان والتعليم .

(393/353)

ولقد جعل الله هذا الدين يسراً لا عسراً ، فبين ما نهى عنه بياناً واضحاً ، كما بين ما أمر به بياناً واضحاً . وسكت عن أشياء لم يبين فيها بياناً – لا عن نسيان ولكن عن حكمة وتيسير – ونهى عن السؤال عما سكت عنه ، لئلا ينتهي السؤال إلى التشديد . ومن ثم فليس لأحد أن يحرم شيئاً من المسكوت عنه ، ولا أن ينهى عما لم يبينه الله . تحقيقاً لرحمة

الله بالعباد . .

وفي نهاية هذه الآيات ، وفي جو الدعوة إلى التجرد من صلات الدم والنسب ، بعد التجرد من الأنفس والأموال يقرر أن الولي الناصر هو الله وحده . وأنه مالك السماوات والأرض ومالك الموت والحياة .

﴿ إن الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت ، وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ . .

فالأموال والأنفس ، والسماوات والأرض ، والحياة والموت ، والولاية والنصرة . . كلها بيد الله دون سواه . وفي الصلة بالله وحده كفاية وغناء .

وهذه التوكيدات المتوالية ، وهذا الحسم القاطع في علاقات القرابة تدل على ما كان يعتور بعض النفوس من اضطراب وأرجحة بين الروابط السائدة في البيئة ، ورابطة العقيدة الجديدة . مما اقتضى هذا الحسم الأخير ، في السورة التي تتولى الحسم في كل علاقات المجتمع المسلم بما حوله . . حتى الاستغفار للموتى على الشرك قد لقي هذا التشديد في شأنه . . ذلك لتخلص القلوب من كل وشيجة إلا تلك الوشيجة .

إن التجمع على آصرة العقيدة وحدها هو قاعدة الحركة الإسلامية . فهو أصل من أصول الاعتقاد والتصور : كما أنه أصل من أصول الحركة والانطلاق . . وهذا ما قررته السورة الحاسمة وكررته أيضاً . .

ولما كانت تلك طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين – أياً كانت الأسباب – أمراً مستنكراً عظيماً ؛ وكان ما بدا في الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة لا بد من تتبعها والتركيز عليها . . وفي الآيات التالية يبين مدى فضل الله ورحمته بالمؤمنين إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب عليهم فيما وقع منهم من أخطاء صغرت أم كبرت . . كذلك يبين عن مصير الثلاثة الذين خلفوا بغير حكم في أمرهم – وهم المرجون لأمر الله الذين سبق ذكرهم حتى نزل هذا الحكم بعد فترة من الزمان :

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم .

وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ؛ ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم ﴾ . .

وتوبة الله على النبي - صلى الله عليه وسلم - تفهم بالرجوع إلى ما كان في أحداث الغزوة بجملتها ؛ والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله عنه لنبيه : ﴿ عفا الله عنك . لم أذنت

لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ ذلك حين استأذنه جماعة من أولي الطول بأعذار منتحلة فأذن لهم . وقد عفا الله عنه في اجتهاده ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع تنبيهه إلى أن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقين في أعذارهم من الكاذبين المتمحلين !

وتوبته على المهاجرين والأنصار يشير النص الذي بين أيدينا إلى ملابساتها في قوله تعالى : ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ . . وقد كان بعضهم تثاقل في الخروج ثم لحق بالركب كما سنفصل – وهم من خلص المؤمنين – وبعضهم ما استمع للمنافقين المرجفين بهول لقاء الروم ! ثم ثبت الله قلبه ومضى بعد تردد .

(395/353)

ويحسن أن نستعرض بعض ظروف الغزوة وملابساتها لنعيش في جوها الذي يقرر الله – سبحانه – أنه كان ﴿ ساعة العسرة ﴾ . ولندرك طبيعة الانفعالات والحركات التي صاحبتها (ونحن نلخص في هذا من السيرة لابن هشام ، ومن إمتاع الأسماع للمقريزي ، ومن البداية والنهاية لابن كثير ، ومن تفسير ابن كثير) :

لما نزل قوله تعالى : ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله

ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب ، حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . . ﴾ أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم (ويلاحظ أن الاشتباك بالروم كان قد سبق نزول هذه الآيات في غزوة مؤتة فهذا الأمر الأخير إنما جاء تقريراً للخطة الدائمة المستقرة في آخر ما نزل من القرآن) وذلك في زمن عسرة من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب من البلاء ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال والزمان الذي هم عليه ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ، واخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له (أي يقصد إليه) إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته . فأمر الناس بالجهاز ، وأخبرهم أنه يريد الروم .

واستأذن بعض المنافقين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في التخلف مخافة الفتنة ببنات الروم ! فأذن ! وفي هذا نزل عتاب الله لنبيه في الإذن مصدرا بالعفو عنه في اجتهاده :

(396/353)

﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ؟ ﴾ وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض : لا تنفروا في الحر – زهادة في الجهاد ، وشكاً في الحق ، وإرجافاً برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم : ﴿ وقالوا : لا تنفروا في الحر ، قل : نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون ، فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ وبلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي ، يثبطون الناس عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك ؛ فبعث إليهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل طلحة ، فاقتحم الضحاك بن خليفة من ظهر البيت فانكسرت رجله ، واقتحم أصحابه فأفلتوا . ثم تاب الضحاك .

(397/353)

ثم إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جد في سفره وأمر الناس بالجهاز والإسراع . وحض أهل الغنى على النفقة وحمل المجاهدين الذين لا يجدون ما يركبون ؛ فحمل رجال من أهل الغنى محتسبين عند الله . وكان في مقدمة المنفقين المحتسبين ، عثمان بن عفان – رضي الله عنه – فأنفق نفقة عظيمة لم ينفق أحد مثلها . . قال ابن هشام : فحدثني من أثق

به أن عثمان أنفق في جيش العسرة في غزوة تبوك ألف دينار ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " اللهم ارض عن عثمان فإني عنه راض " وقال عبد الله بن أحمد في مسند أبيه – بإسناده – عن عبد الرحمن بن حباب السلمي ، قال : خطب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحث على جيش العسرة ، فقال عثمان بن عفان : عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها . قال : ثم نزل مرقاة من المنبر ، ثم حث ، فقال عثمان : عليَّ مائة أخرى بأحلاسها وأقتابها . قال : فرأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول بيده هكذا يحركها (وأخرج عبد الصمد يده كالمتعجب) : " ما على عثمان ما عمل بعد هذا " . . (وهكذا رواه الترمذي عن محمد بن يسار عن أبي داود الطيالسي ، عن سكن بن المغيرة أبي محمد مولى لآل عثمان به . وقال : غريب من هذا الوجه) . ورواه البيهقي من طريق عمرو بن مرزوق عن سكن بن المغيرة به ، وقال : ثلاث مرات وأنه التزم بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها . .

وأخرج ابن جرير من طريق يحيى بن أبي كثير ، ومن طريق سعيد عن قتادة وابن أبي حاتم من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة – بألفاظ مختلفة – قال : حث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الصدقة (يعني في غزوة تبوك) فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف (أي درهم) ، فقال يا رسول الله ، مالي ثمانية آلاف ، جئتك بنصفها وأمسكت نصفها .

فقال : " بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت " وجاء أبو عقيل بصاع من تمر فقال : يا رسول الله أصبت صاعين من تمر ، صاع أقرضه لربي وصاع لعيالي . قال : فلمزة المنافقون ، وقالوا : ما الذي أعطى ابن عوف إلا رياء . وقالوا ألم يكن الله ورسوله غنيين عن صاع هذا ؟ !

في روايات أخرى أنهم قالوا عن أبي عقيل (وهو الذي بات يعمل عند يهودي ليحصل على صاعين أجرا له جاء بأحدهما لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ) إنه إنما أراد أن يذكر بنفسه !

ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهم البكاءون . وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم ، فاستحملوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (أي طلبوا منه أن يحملهم على ركائب إلى أرض المعركة ، وكانوا أهل حاجة . فقال : " لا أجد ما أحملكم عليه " فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون .

قال ابن إسحاق : فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب وعبد الله بن مغفل (من السبعة البكائين) وهما يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟ قال : جئنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليحملنا ، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس

عندنا ما نتقوى به على الخروج معه . فأعطاهما ناضحاً له (أي جملاً يستقي عليه الماء) فارتحلاه . وزودهما شيئاً من تمر ، فخرجا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(399/353)

زاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق : وأما علبة بن زيد (أحد البكائين) فخرج من الليل فصلى من ليلته ما شاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغّبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض . . ثم أصبح مع الناس . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أين المتصدق هذه الليلة ؟ " فلم يقيم أحد ! ثم قال : " أي المتصدق ؟ فليقم " فقام إليه فأخبره . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ " أبشر ، فوالذي نفسي بيده ، لقد كتبت لك في الزكاة المتقبلة " .

ثم خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمن معه وقد قارب عددهم ثلاثين ألفاً من أهل المدينة ومن قبائل الأعراب من حولها . وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية من غير شك ولا ارتياب ، منهم : كعب ابن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية (وهم الثلاثة الذين سيرد تفصيل قصتهم) وأبو خيثمة وعمير بن وهب الجمحي .

. وضرب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عسكره على " ثنية الوداع " وضرب عبد الله بن أبي – رأس النفاق – عسكره على حدة ، أسفل منه ، قال ابن إسحاق : (وكانوا فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين) . . ولكن الروايات الأخرى تقول : إن الذين تخلفوا فعلاً دون المائة . . فلما سار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تخلف عنه عبد الله بن أبي فيمن تخلف من المنافقين وأهل الريب .

(400/353)

ثم مضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سائراً ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون : يا رسول الله ، تخلف فلان ، فيقول : " دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم ، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم الله منه حتى قيل : يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال : دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم ، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه " وتلوّم أبو ذر على بعيره (أي انتظر عليه) ، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ماشياً . ونزل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال : يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " كن أبا

ذر " فلما تأمله القوم قالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو ذر . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " رحم الله أبا ذر ، يمشي وحده ، ويموت وحده ، ويبعث وحده " .

(401/353)

ثم إن أبا خيثمة رجع – بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم أياماً – إلى أهله في يوم حار ، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه (أي في حديقته) قد رشت كل واحدة منهما عريشها ، وبردت له فيه ماء . وهيأت له فيه طعاماً . فلما دخل قام على باب العريش ، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له ، فقال : رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الضحَّ (أي الشمس) والريح والحر ، وأبو خيثمة في ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم ؟ ! ما هذا بالنصف ! ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهيئا لي زاداً . ففعلتا . ثم قدم ناضحة فارتحله ، ثم خرج في طلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أدركه حين نزل تبوك . . وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطلب يطلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فترافقا ، حتى إذا دنوا من تبوك قال أبو خيثمة لعمير بن وهب : إن لي ذنباً فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففعل .

حتى إذا دنا من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو نازل بتبوك قال الناس : هذا راكب على الطريق مقبل . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "كن أبا خيثمة" فقالوا : يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "أولى لك يا أبا خيثمة ! " ثم أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم – الخبر . فقال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيراً ، ودعا له بالخير .

(402/353)

قال ابن إسحاق : وقد كان رهط من المنافقين منهم وديعة بن ثابت أخو بني عمرو بن عوف ، ومنهم رجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له : "مُخشن بن حُمير" (قال ابن هشام : ويقال : مخشى) يشيرون إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر (يعنون الروم) كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال . . إرجافاً وترهيباً للمؤمنين . . فقال مخشن بن حمير : والله لوددت أني أقاضى على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأنا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه . وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما بلغني –

لعمار بن ياسر : " أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا " فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ واقف على ناقته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها (وهو الحبل يشد على بطن البعير) يا رسول الله ، إنما كنا نخوض ونلعب . فأنزل الله عز وجل : ﴿ ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب . قل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟ ﴾ وقال مخشن بن حمير : يا رسول الله ، قعد بي اسمي واسم أبي ! وكان الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير . فتسمى عبد الرحمن . وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يعلم بمكانه فقتل يوم اليمامة ، فلم يوجد له أثر . .

(403/353)

قال ابن لهيعة عن أبي الأسود عن عروة بن الزبير قال : لما قفل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تبوك – بعد ما أقام بها بضع عشرة ليلة لم يلق فيها حرباً – هَمَّ جماعة من المنافقين بالفتك به ، وأن يطرحوه من رأس عقبة في الطريق ، فأخبر بخبرهم ، فأمر الناس بالمسير من الوادي ، وصعد هو العقبة ، وسلكها معه أولئك النفر وقد تلثموا ، وأمر رسول الله ـ صلى

الله عليه وسلم ـ عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان أن يمشيا معه .

عمار آخذ بزمام الناقة ، وحذيفة يسوقها ؛ فبينما هم يسيرون إذ سمعوا بالقوم قد غشوهم ، فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأبصر حذيفة غضبه ، فرجع إليهم ومعه محجن ، فاستقبل وجوه رواحلهم بمحجنه ، فلما رأوا حذيفة ظنوا أن قد ظهر على ما أضمروه من الأمر العظيم ؛ فأسرعوا حتى خالطوا الناس ؛ وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمرهم فأسرعا حتى قطعوا العقبة ، ووقفوا ينتظرون الناس . ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لحذيفة : " هل عرفت هؤلاء القوم ؟ " قال : ما عرفت إلا رواحلهم في ظلمة الليل حين غشيتهم . ثم قال : " علمتما ما كان من شأن هؤلاء الركب ؟ " قالا : لا . فأخبرهما بما كانوا تمالأوا عليه ، وسماهم لهما ، واستكتمهما ذلك ، فقال : يا رسول الله ، أفلا تأمر بقتلهم ؟ فقال :

" أكره أن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه " .

قال ابن كثير في البداية والنهاية :

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة إلا أنه ذكر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إنما أعلم بأسمائهم حذيفة ابن اليمان وحده . وهذا هو الأشبه ، والله أعلم . .

فأما العسرة التي لقيها المسلمون في الغزوة فقد وردت بعض الروايات بشواهد منها . . قال ابن كثير في التفسير :

قال مجاهد وغير واحد نزلت هذه الآية : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ . . في غزوة تبوك . وذلك أنهم خرجوا إليها في شدة من الأمر ، في سنة مجدبة ، وحر شديد ، وعسر من الزاد والماء . . قال قتادة : خرجوا إلى الشام على تبوك في لهبان الحر ، على ما يعلم الله من الجهد ، فأصابهم فيها جهد شديد حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم .

وروى ابن جرير – بإسناده – إلى عبد الله بن عباس : أنه قيل لعمر بن الخطاب في شأن العسرة ، فقال عمر بن الخطاب : خرجنا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى تبوك ، فنزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع ، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستنقطع ، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ، ويجعل ما بقي على كبده .

وقال ابن جرير في قوله : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في

ساعة العسرة ﴾ - أي من النفقة والظهر والزاد والماء - ﴿ من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ - أي عن الحق ، ويشك في دين الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويرتاب للذين نالهم من المشقة والشدة في سفرهم وغزوهم - ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ يقول : ثم رزقهم الإنابة إلى ربهم والرجوع إلى الثبات على دينه ﴿ إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ . .

(405/353)

ولعل هذا الاستعراض أن يصور لنا اليوم كيف كانت ﴿ العسرة ﴾ كما ينقل لنا لمحة من الجو الذي عاشه المجتمع المسلم في تلك الفترة ؛ يتجلى فيها تفاوت المقامات الإيمانية ؛ من اليقين الجاد عند طائفة . إلى الزلزلة والأرجحة تحت مطارق العسرة عند طائفة . إلى القعود والتخلف - بغير ريبة - عند طائفة . إلى النفاق الناعم عند طائفة . إلى النفاق الفاجر عند طائفة . إلى النفاق المتآمر عند طائفة . . مما يشي أولاً بالحالة العامة للتركيب العضوي للمجتمع في هذه الفترة ؛ ويشي ثانياً بمشقة الغزوة - في مواجهة الروم ومع العسرة - هذه المشقة الممحصة . الممتحنة الكاشفة ؛ والتي لعل الله سبحانه قد قدرها من أجل التمحيص والكشف والتمييز .

هذه هي العسرة التي تخلف فيها المتخلفون وكثرتهم من المنافقين الذين سلف بيان أمرهم .

ومن المؤمنين الذين لم يقعدوا شكاً ولا نفاقاً ، إنما قعدوا كسلاً واستراحاً للظلال في المدينة . وهؤلاء جماعتان ؛ جماعة قضي في أمرهم من قبل ، وهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، واعترفوا بذنوبهم ، وجماعة أخرى : ﴿ مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ وهم هؤلاء الثلاثة الذين خلفوا ، أي تركوا بلا حكم . وأرجئوا حتى يحكم الله فيهم . وهنا تفصيل أمرهم بعد الإرجاء في الحكم والإرجاء في السياق . .

(406/353)

وقبل أن نقول نحن عن هؤلاء شيئاً في تفسير النص المصور لحالهم ؛ وقبل أن نعرض الصورة الفنية المعجزة التي رسمها التعبير لهم ولحالهم ، ندع أحدهم يتحدث عما كان . . هو كعب بن مالك – رضي الله عنه – : أخرج أحمد والبخاري ومسلم من طريق الزهري قال أخبرني عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن مالك – وكان قائد كعب من بنيه حين عمي – قال : سمعت كعب ابن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك ، غير أني تخلفت في غزوة بدر ولم يعاتب أحد تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمون

يريدون عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد .

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله الله عليه وسلم في غزوة تبوك ، أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزة ؛ وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قلما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ومفاوز ، واستقبل عدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة عدوهم ، فأخبرهم بوجههم الذي يريد ، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير لا يجمعهم كتاب حافظ – يريد الديوان – .

(407/353)

قال كعب رضي الله عنه : فقلّ رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن ذلك سيخفى عليه ما لم ينزل فيه وحي من الله عز وجل . وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال ، وأنا إليها أصغو ، فتجهز إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم

والمسلمون معه ، وطفقت أغدوا لكي أتجهز معهم فأرجع ولا أقضي شيئاً ، فأقول لنفسي : أنا قادر على ذلك إن أردت . فلم يزل ذلك يتهادى بي حتى استمر بالناس الجد ، فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غادياً والمسلمون معه ولم أقض في جهازي شيئاً ، فلم يزل يتهادى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، فهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليت أني فعلت ؛ فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً من عذر الله . ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس في القوم بتبوك : " ما فعل كعب بن مالك " ؟ فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفيه . فقال له معاذ بن جبل : بئسما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيراً فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه قافلاً من تبوك حضرني بثي ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً ؟ وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي .

(408/353)

فلما قيل : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادماً زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم انج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له . وكانوا بضعاً وثمانين رجلاً ؛ فقبل رسول الله عليه وسلم منهم علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ؛ حتى جئت ؛ فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي : " تعال " فجئت أمشي حتى جلست بين يديه ، فقال لي : " ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ " فقلت يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أُعطيت جدلاً ، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه ، وإني لأرجو فيه عقبى من الله . والله ما كان لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ! فقال صلى الله عليه وسلم : " أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضي الله فيك " فقمت . وبادرني رجال من بني سلمة وأتبعوني فقالوا لي : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون ، فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب

نفسي ، ثم قلت لهم : هل لقي هذا معي أحد ؟ قالوا : نعم ، لقيه معك رجلان قالا ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك . فقلت : من هما ؟ قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً ، لي فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي .

(409/353)

قال : ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس – أو قال تغيروا لنا – حتى تنكرت لي في نفسي الأرض ، فما هي بالأرض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما . وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالأسواق فلا يكلمني أحد ، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، فإذا التفت نحوه أعرض عني ، حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي وأحب الناس إلي – فسلمت عليه .

فوالله ما رد علي السلام . فقلت : له : يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى . هل تعلم أني أحب

الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت ؛ فعدت فنشدته . قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .

وبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط الشام ممن قدم بطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب ابن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له إلي ، حتى جاء فدفع إلي كتاباً من ملك غسان ، وكنت كاتباً ، فقرأته فإذا فيه :

(410/353)

أما بعد فقد بلغنا أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها : وهذه أيضاً من البلاء . فتيممت بها التنور فسجرتها . . حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذ برسول رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيني فقال : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : بل اعتزلها ولا تقربنها . وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك . فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر . فجاءت امراة هلال بن أمية رسول الله صلى الله وسلم فقالت : يا رسول الله ، إن هلالاً شيخ ضائع ، وليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال " لا ، ولكن لا يقربنك " فقالت : إنه والله ما به من حركة إلى

شيء ، ووالله ما زال يبكي من لدن أن كان من أمرك ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك ! فقد أذن لامرأة هلال أن تخدمه . فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وما أدري ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب .

(411/353)

قال : فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا . قال : ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت عليّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفى على جبل سَلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . فخررت ساجداً ؛ وعرفت أن الفرج ؛ فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بتوبة الله علينا حين صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إليَّ رجل فرساً وسعى ساع من أسلم قِبلي ، وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ؛ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أؤم رسول الله صلى الله عليه وسلم – يتلقاني الناس

فوجاً بعد فوج يهنئونني بالتوبة ويقولون : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد . فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس في المسجد وحوله الناس ، فقام إليّ طلحة ابن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إليّ رجل من المهاجرين غيره ، قال : فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها لطلحة .

(412/353)

قال كعب رضي الله عنه : فلما سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو يبرق وجهه من السرور : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال : " لا بل من عند الله " وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه . فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " فقلت : إني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت يا رسول الله إنما أنجاني الله بالصدق ، وإن من توبتي ألا أحدث إلا صدقاً ما بقيت . فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن مما أبلاني الله تعالى ، والله ما

تعمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومي هذا كذباً ، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي . وأنزل الله : ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار – إلى قوله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

قال كعب : فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للإسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يومئذ ألا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوه . فإن الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد ، فقال : ﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس – إلى قوله – الفاسقين ﴾ هذه هي قصة الثلاثة الذين خلفوا – كما رواها أحدهم كعب بن مالك – وفي كل فقرة منها عبرة ، وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي ، ومتانة بنائها ، وصفاء عناصرها ، ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة ، ولتكاليف الدعوة ، ولقيمة الأوامر ، ولضرورة الطاعة .

(413/353)

فهذا كعب بن مالك – وزميلاه – يتخلفون عن ركب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ساعة العسرة . يدركهم الضعف البشري الذي يحبب إليهم الظل والراحة ، فيؤثرونها على

الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب .

ولكن كعباً ما يلبث بعد خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يحس ما فعل ، يشعره به كل ما حوله : " فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحزنني أنني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله " – يعني بمن عذر الله الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفقون .

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الغزوة البعيدة الشقة . لم يقعد إلا المطعون فيهم المظنون بهم النفاق ، وإلا العاجزون الذين عذرهم الله . أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحاً من العسرة ، وأصلب عوداً من الشدة . .

هذه واحدة .

والثانية هي التقوى . التقوى التي تلجئ المخطئ إلى الصدق والإقرار . والأمر بعد ذلك لله : " فقلت : يا رسول الله ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر . لقد أعطيت جدلاً . ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك علي . ولئن حدثتك بحديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عقبى من الله . والله ما كان لي عذر . والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك " .

فالله حاضر في ضمير المؤمن المخطئ . ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل ويرفع ويخفض ويترك المسلم مرموقاً بالأنظار أو مهملاً لا ينظر إليه إنسان – مع هذا فإن مراقبة الله أقوى وتقوى الله أعمق ؛ والرجاء في الله أوثق .

(414/353)

" ونهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الناس عن كلامنا . أيها الثلاثة . من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس – أو قال : تغيروا لنا – حتى تنكرت لي في نفسي الأرض فما هي بالأرض التي كنت أعرف . فلبثنا على ذلك خمسين ليلة . فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما ؛ وأما أنا فكنت أشد القوم وأجلدهم . فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف بالأسواق ، فلا يكلمني أحد . وآتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسلم عليه في مجلسه بعد الصلاة ، وأقول في نفسي : هل حرك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلي قريباً منه وأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إلي ، فإذا التفت نحوه أعرض عني . حتى إذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي وأحب الناس إلي – فسلمت عليه فوالله ما رد علي السلام .

فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك الله تعالى . هل تعلم أني أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت . قال : فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته . قال : الله ورسول أعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار " .

هكذا كان الضبط ، وهكذا كانت الطاعة في الجماعة المسلمة – على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة في ساعة العسرة – . . نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا أيها الثلاثة . فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ، ولا مخلوق يلقى كعباً بأنس ، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطي . حتى ابن عمه وأحب الناس إليه ، وقد تسور عليه داره ، لا يرد عليه السلام ، ولا يجيبه عن سؤال . فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته ولم يسكن قلقه ، إنما قال : " الله ورسوله أعلم " .

وكعب في لهفته – وقد تنكرت له الأرض فلم تعد الأرض التي كان يعرف – يتلمس حركة من بين شفتي الرسول - صلى الله عليه وسلم - ويخالسه النظر لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة يحيا على الأمل فيها ، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة ، ولم يكتب له الذبول والجفاف !

(415/353)

وبينما هو طريد شريد ، لا يلقي إليه مخلوق من قومه بكلمة – ولو على سبيل الصدقة – يجيئه من قبل ملك غسان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه . . ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله ، وما يزيد على أن يلقي بالكتاب إلى النار ، ويعد هذا بقية من البلاء ، ويصبر على الابتلاء .

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه . لتدعه فريداً طريداً من الأنس كله ، مخلفاً بين الأرض والسماء . فيخجل أن يراجع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في امرأته ، لأنه لا يدري كيف يكون الجواب .

هذه صفحة . والصفحة الأخرى هي صفحة البشرى . بشرى القبول . بشرى العودة إلى الصف . بشرى التوبة من الذنب . بشرى البعث والعودة إلى الحياة . . " فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا . قد ضاقت علي نفسي ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، سمعت صارخاً أوفىَ على جبل سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر .

فخررت ساجداً وعرفت أن قد جاء الفرج . فآذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبلَ صاحبيّ مبشرون ، وركض إلي رجل فرساً ، وسعى ساع من أسلم قِبلي وأوفى على الجبل ، فكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته . والله ما أملك غيرهما يومئذ ، فاستعرت ثوبين فلبستهما ، فانطلقت أؤم رسول

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتلقاني الناس فوجاً بعد فوج يهنئونني بالتوبة ، ويقولون : ليهنك توبة الله عليك .

حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جالس في المسجد وحوله ، الناس ، فقام إلي طلحة بن عبيد يهرول حتى صافحني وهنأني ، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره . قال : فكان كعب لا ينساها لطلحة " . .

(416/353)

هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوّم في هذه الجماعة . وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم ؛ كانت بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها ، ويهتف بها راكب الجبل ليكون أسرع بشارة . وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلاً لا ينساه الطريد الذي رد إلى الجماعة واتصلت بها وشائجه ، فهو في يوم كما قال عنه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : " أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك " قالها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يبرق وجهه من السرور . كما قال كعب ، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه وردهم مكرمين إلى جماعته .

تلك هي قصة الثلاثة الذين خلفوا ثم تاب الله عليهم ، وهذه هي بعض لمحات دلالتها

الواضحة على حياة الجماعة الإسلامية ، وعلى القيم التي كانت تعيش بها .

والقصة كما رواها أحد أصحابها ، تقرب إلى نفوسنا معنى الآية :

﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه . . . ﴾ . .

﴿ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ﴾ . .

فما الأرض ؟ إن هي إلا بأهلها . إن هي إلا بالقيم السائدة فيها . إن هي إلا بالوشائج والعلاقات بين أصحابها . فالتعبير صادق في مدلوله الواقعي فوق صدقه في جماله الفني ، الذي يرسم هذه الأرض تضيق بالثلاثة المخلفين ، وتتقاصر أطرافها ، وتنكمش رقعتها ، فهم منها في حرج وضيق .

﴿ وضاقت عليهم أنفسهم ﴾ . .

فكأنما هي وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم .

﴿ وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ﴾ . .

وليس هناك ملجأ من الله لأحد ، وهو آخذ بأقطار الأرض والسماوات . ولكن ذكر هذه الحقيقة هنا في هذا الجو المكروب يخلع على المشهد ظلاً من الكربة واليأس والضيق ، لا مخرج منه إلا بالالتجاء إلى الله مفرج الكروب . .

ثم يجيء الفرج . . ﴿ ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ .

تاب عليهم من هذا الذنب الخاص ، ليتوبوا توبة عامة عن كل ما مضى ، ولينيبوا إلى الله إنابة كاملة في كل ما سيأتي . ومصداق هذا في قول كعب : قلت : يا رسول الله ، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله . قال : " أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك " قال فقلت : فإني أمسك سهمي الذي بخيبر . وقلت : يا رسول الله إنما نجاني الله بالصدق وإن من توبتي إلا أحدث إلا صدقاً ما بقيت .

قال : فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أحسن مما أبلاني الله تعالى . والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى يومي هذا . وإني لأرجو أن يحفظني الله عز وجل فيما بقي .

ولا نملك أن نمضي أكثر من هذا – في ظلال القرآن – مع هذه القصة الموحية ومع التعبير القرآني الفريد فيها . فحسبنا هنا ما وفق الله إليه فيها .

وفي ظل قصة التوبة على الذين ترددوا والذين تخلفوا ؛ وفي ظل عنصر الصدق البادي في قصة الثلاثة الذين خلفوا ؛ يجيء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع

الصادقين في إيمانهم من أهل السابقة ؛ ويجيء التنديد بتخلف أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ، مع الوعد بالجزاء السخي للمجاهدين :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ . .

(418/353)

إن أهل المدينة هم الذين تبنوا هذه الدعوة وهذه الحركة ، فهم أهلها الأقربون . وهم بها ولها . وهم الذين آووا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبايعوه ؛ وهم الذين باتوا يمثلون القاعدة الصلبة لهذا الدين في مجتمع الجزيرة كله . وكذلك القبائل الضاربة من حول المدينة وقد أسلمت ؛ وباتت تؤلف الحزام الخارجي للقاعدة . . فهؤلاء وهؤلاء ليس لهم أن يتخلفوا عن رسول الله . وليس لهم أن يؤثروا أنفسهم على نفسه . . وحين يخرج رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم - في الحر أو البرد . في الشدة أو الرخاء . في اليسر أو العسر . ليواجه تكاليف هذه الدعوة وأعباءها ، فإنه لا يحق لأهل المدينة ، أصحاب الدعوة ، ومن حولهم من الأعراب ، وهم قريبون من شخص رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا عذر لهم في ألا يكونوا قد علموا ، أن يشفقوا على أنفسهم مما يحتمله رسول الله صلى الله عليه وسلم . من أجل هذه الاعتبارات يهتف بهم أن يتقوا الله وأن يكونوا مع الصادقين الذين لم يتخلفوا ، ولم تحدثهم نفوسهم بتخلف ، ولم يتزلزل إيمانهم في العسرة ولم يتزعزع . . وهم الصفوة المختارة من السابقين والذين اتبعوهم بإحسان :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ .

ثم يمضي السياق بعد هذا الهتاف مستنكراً مبدأ التخلف عن رسول الله :

﴿ ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ، ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ .

وفي التعبير تأنيب خفي . فما يؤنب أحد يصاحب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بأوجع من أن يقال عنه . إنه يرغب بنفسه عن نفس رسول الله ، وهو معه ، وهو صاحبه ! وإنها لإشارة تلحق أصحاب هذه الدعوة في كل جيل . فما كان لمؤمن أن يرغب بنفسه عن مثل ما تعرضت له نفس رسول الله في سبيل هذه الدعوة ؛ وهو يزعم أنه صاحب دعوة ؛ وأنه يتأسى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم !

إنه الواجب الذي يوجبه الحياء من رسول الله – فضلاً على الأمر الصادر من الله – ومع هذا فالجزاء عليه ما أسخاه !

﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلاً ، إلا كتب لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين . ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون وادياً ، إلا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون ﴾ . .

إنه على الظمأ جزاء ، وعلى النصب جزاء ، وعلى الجوع جزاء . وعلى كل موطئ قدم يغيظ الكفار جزاء . وعلى كل نيل من العدو جزاء . يكتب به للمجاهد عمل صالح ، ويحسب به من المحسنين الذين لا يضيع لهم الله أجراً .

وإنه على النفقة الصغيرة والكبيرة أجر . وعلى الخطوات لقطع الوادي أجر . . أجر كأحسن ما يعمل المجاهد في الحياة .

ألا والله ، إن الله ليجزل لنا العطاء . وإنها والله للسماحة في الأجر والسخاء . وإنه لمما

يخجل أن يكون ذلك كله على أقل مما احتمله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الشدة واللأواء . في سبيل هذه الدعوة التي نحن فيها خلفاء ، وعليها بعده أمناء !

(420/353)

ويبدو أن تنزل القرآن في هذه السورة بالنكير على المتخلفين ؛ والتنديد بالتخلف وبخاصة من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب ؛ قد جعل الناس يتزاحمون في المدينة ليكونوا رهن إشارة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبخاصة من القبائل المحيطة بالمدينة . مما اقتضى بيان حدود النفير العام – في الوقت المناسب للبيان من الناحية الواقعية – فقد اتسعت رقعة الأرض الإسلامية حتى كادت الجزيرة كلها تدين للإسلام ، وكثر عدد الرجال المستعدين للجهاد ، وقد بلغ من عددهم – بعد تخلف المتخلفين في تبوك – نحواً من ثلاثين ألفاً ، الأمر الذي لم يتهيأ من قبل في غزوة من غزوات المسلمين . وقد آن أن تتوزع الجهود في الجهاد وفي عمارة الأرض وفي التجارة وفي غيرها من شؤون الحياة التي تقوم بها أمة ناشئة ؛ وهي تختلف عن مطالب القبيلة الساذجة ، وعن حاجات المجتمع القبلي الأولية .

. ونزلت الآية التالية تبين هذه الحدود في جلاء :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ، ليتفقهوا في الدين

ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ . .

ولقد وردت روايات متعددة في تفسير هذه الآية ، وتحديد الفرقة التي تتفقه في الدين وتنذر قومها إذا رجعت إليهم . . والذي يستقيم عندنا في تفسير الآية : أن المؤمنين لا ينفرون كافة . ولكن تنفر من كل فرقة منهم طائفة – على التناوب بين من ينفرون ومن يبقون – لتتفقه هذه الطائفة في الدين بالنفير والخروج والجهاد والحركة بهذه العقيدة ؛ وتنذر الباقين من قومها إذا رجعت إليهم ، بما رأته وما فقهته من هذا الدين في أثناء الجهاد والحركة . .

(421/353)

والوجه في هذا الذي ذهبنا إليه – وله أصل من تأويل ابن عباس – رضي الله عنهما – ومن تفسير الحسن البصري ، واختيار ابن جرير ، وقول لابن كثير – أن هذا الدين منهج حركي ، لا يفقهه إلا من يتحرك به ؛ فالذين يخرجون للجهاد به هم أولى الناس بفقهه ؛ بما يتكشف لهم من أسراره ومعانيه ؛ وبما يتجلى لهم من آياته وتطبيقاته العملية في أثناء الحركة به . أما الذين يقعدون فهم الذين يحتاجون أن يتلقوا ممن تحركوا ، لأنهم لم يشاهدوا ما شاهد الذين خرجوا ؛ ولا فقهوا فقههم ؛ ولا وصلوا من أسرار هذا الدين إلى ما وصل إليه المتحركون وبخاصة إذا كان الخروج مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخروج بصفة عامة أدنى

إلى الفهم والتفقه .

ولعل هذا عكس ما يتبادر إلى الذهن ، من أن المتخلفين عن الغزو والجهاد والحركة ، هم الذين يتفرغون للتفقه في الدين ! ولكن هذا وهم ، لا يتفق مع طبيعة هذا الدين . . إن الحركة هي قوام هذا الدين ؛ ومن ثم لا يفقهه إلا الذين يتحركون به ، ويجاهدون لتقريره في واقع الناس ، وتغليبه على الجاهلية ، بالحركة العملية .

والتجارب تجزم بأن الذين لا يندمجون في الحركة بهذا الدين لا يفقهونه ؛ مهما تفرغوا لدراسته في الكتب – دراسة باردة ! – وأن اللمحات الكاشفة في هذا الدين إنما تتجلى للمتحركين به حركة جهادية لتقريره في حياة الناس ؛ ولا تتجلى للمستغرقين في الكتب العاكفين على الأوراق !

إن فقه هذا الدين لا ينبثق إلا في أرض الحركة . ولا يؤخذ عن فقيه قاعد حيث تجب الحركة . والذين يعكفون على الكتب والأوراق في هذا الزمان لكي يستنبطوا منها أحكاماً فقهية " يجددون " بها الفقه الإسلامي أو " يطورونه " – كما يقول المستشرقون من الصليبيين ! – وهم بعيدون عن الحركة التي تستهدف تحرير الناس من العبودية للعباد ، وردهم إلى العبودية لله وحده ، بتحكيم شريعة الله وحدها وطرد شرائع الطواغيت .

. هؤلاء لا يفقهون طبيعة هذا الدين ؛ ومن ثم لا يحسنون صياغة فقه هذا الدين !

إن الفقه الإسلامي وليد الحركة الإسلامية . . فقد وجد الدين أولاً ثم وجد الفقه . وليس العكس هو الصحيح . . وجدت الدينونة لله وحده ، ووجد المجتمع الذي قرر أن تكون الدينونة فيه لله وحده . . والذي نبذ شرائع الجاهلية وعاداتها وتقاليدها ؛ والذي رفض أن تكون شرائع البشر هي التي تحكم أي جانب من جوانب الحياة فيه . . ثم أخذ هذا المجتمع يزاول الحياة فعلاً وفق المبادئ الكلية في الشريعة – إلى جانب الأحكام الفرعية التي وردت في أصل الشريعة – وفي أثناء مزاولته للحياة الفعلية في ظل الدينونة لله وحده ، واستيحاء شريعته وحدها ، تحقيقاً لهذه الدينونة ، جدت له أقضية فرعية بتجدد الحالات الواقعية في حياته . . وهنا فقط بدأ استنباط الأحكام الفقهية ، وبدأ نمو الفقه الإسلامي . . الحركة بهذا الدين هي التي أنشأت ذلك الفقه ، والحركة بهذا الدين هي التي حققت نموه . ولم يكن قط فقها مستنبطاً من الأوراق الباردة ، بعيداً عن حرارة الحياة الواقعة ! . . من أجل ذلك كان الفقهاء متفقهين في الدين ، يجيء فقههم للدين من تحركهم به ، ومن تحركه مع الحياة الواقعة لمجتمع مسلم حي ، يعيش بهذا الدين ، ويجاهد في سبيله ، ويتعامل بهذا الفقه الناشئ بسبب حركة الحياة الواقعة .

فأما اليوم . . " فماذا " . . ؟ أين هو المجتمع المسلم الذي قرر أن تكون دينونته لله وحده ؛

والذي رفض بالفعل الدينونة لأحد من العبيد ؛ والذي قرر أن تكون شريعة الله شريعته ؛ والذي رفض بالفعل شرعية أي تشريع لا يجيء من هذا المصدر الشرعي الوحيد ؟

(423/353)

لا أحد يملك أن يزعم أن هذا المجتمع المسلم قائم موجود ! ومن ثم لا يتجه مسلم يعرف الإسلام ويفقه منهجه وتاريخه ، إلى محاولة تنمية الفقه الإسلامي أو " تجديده " أو " تطويره ! " في ظل مجتمعات لا تعترف ابتداء بأن هذا الفقه هو شريعتها الوحيدة التي بها تعيش . ولكن المسلم الجاد يتجه ابتداء لتحقيق الدينونة لله وحده ؛ وتقرير مبدأ أن لا حاكمية إلا لله ، وأن لا تشريع ولا تقنين إلا مستمداً من شريعته وحدها تحقيقاً لتلك الدينونة . .

إنه هزل فارغ لا يليق بجدية هذا الدين أن يشغل ناس أنفسهم بتنمية الفقه الإسلامي أو " تجديدة " أو " تطويره " في مجتمع لا يتعامل بهذا الفقه ولا يقيم عليه حياته . كما أنه جهل فاضح بطبيعة هذا الدين أن يفهم أحد أنه يستطيع التفقه في هذا الدين وهو قاعد ، يتعامل مع الكتب والأوراق الباردة ، ويستنبط الفقه من قوالب الفقه الجامدة ؛ . . إن الفقه لا

يستنبط من الشريعة إلا في مجرى الحياة الدافق ؛ وإلا مع الحركة بهذا الدين في عالم الواقع .

إن الدينونة لله وحده أنشأت المجتمع المسلم ، والمجتمع المسلم أنشأ " الفقه الإسلامي " .

(424/353)

. ولا بد من هذا الترتيب . . لا بد أن يوجد مجتمع مسلم ناشئ من الدينونة لله وحده ، مصمم على تنفيذ شريعته وحدها . ثم بعد ذلك – لا قبله – ينشأ فقه إسلامي مفصل على قد المجتمع الذي ينشأ ، وليس " جاهزاً " معداً من قبل ! ذلك أن كل حكم فقهي هو – بطبيعته – تطبيق للشريعة الكلية على حالة واقعة ، ذات حجم معين ، وشكل معين ، وملابسات معينة . وهذه الحالات تنشئها حركة الحياة ، داخل الإطار الإسلامي لا بعيداً عنه ، وتحدد حجمها وشكلها وملابساتها ؛ ومن ثم " يفصل " لها حكم مباشر على " قدها " . . فأما تلك الأحكام " الجاهزة " في بطون الكتب ؛ فقد " فصلت " من قبل لحالات معينة في أثناء جريان الحياة الإسلامية على أساس تحكيم شرعة الله فعلاً . ولم تكن وقتها " جاهزة " باردة ! كانت وقتها حية مليئة بالحيوية ؛ وعلينا اليوم أن " نفصل " مثلها للحالات الجديدة . . ولكن قبل ذلك يجب أن يوجد المجتمع الذي يقرر ألا يدين لغير الله في شرائعه ؛ وألا يفصل حكماً شرعياً إلا من شريعة الله دون سواها .

وفي هذا يكون الجهد الجاد المثمر ، اللائق بجدية هذا الدين . وفي هذا يكون الجهاد الذي يفتح البصائر ؛ ويمكن من التفقه في الدين حقاً . . وغير هذا لا يكون إلا هزلاً تفرضه طبيعة هذا الدين ؛ وإلا هروباً من واجب الجهاد الحقيقي تحت التستر بستار " تجديد الفقه الإسلامي " أو " تطويره " ! . . هروب خير منه الاعتراف بالضعف والتقصير ؛ وطلب المغفرة من الله على التخلف والقعود مع المتخلفين القاعدين !

بعد ذلك ترد آية تضع خطة الحركة الجهادية ومداها كذلك . وهما الخطة والمدى اللذان سار عليهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلفاؤه من بعده بصفة عامة ، فلم تشذ عنها إلا حالات كانت لها مقتضيات واقعة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . .

فأما خطة الحركة الجهادية التي تشير إليها الآية في قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ﴾ . .

فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية ، تواجه من يلون " دار الإسلام " ويجاورونها ، مرحلة

فمرحلة . فلما أسلمت الجزيرة العربية – أو كادت ولم تبق إلا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة – كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم .

ثم كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس ، فلم يتركوا وراءهم جيوباً ؛ ووحدت الرقعة الإسلامية ، ووصلت حدودها ، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء ، متماسكة الأطراف ؛ . . ثم لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزقها ، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت ، أو على أساس القوميات ! وهي خطة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون .

وستظل هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام " أمة واحدة " في " دار الإسلام " المتصلة الحدود – وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان – ستظل ضعيفة مهيضة إلا أن تثوب إلى دينها ، وإلى رايته الواحدة ؛ وإلا أن تتبع خطى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين .

ونقف مرة أخرى أمام قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . .

فنجد أمراً بقتال الذين يلون المسلمون من الكفار . لا يذكر فيه أن يكونوا معتدين على المسلمين ولا على ديارهم . . وندرك أن هذا هو الأمر الأخير ، الذي يجعل " الانطلاق "

بهذا الدين هو الأصل الذي ينبثق منه مبدأ الجهاد ، وليس هو مجرد " الدفاع " كما كانت الأحكام المرحلية أول العهد بإقامة الدولة المسلمة في المدينة .

(426/353)

ويريد بعض الذين يتحدثون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام ، وعن أحكام الجهاد في الإسلام ، وبعض الذين يتعرضون لتفسير آيات الجهاد في القرآن . . أن يتلمسوا لهذا النص النهائي الأخير قيداً من النصوص المرحلية السابقة ؛ فيقيدوه بوقوع الاعتداء أو خوف الاعتداء ! والنص القرآني بذاته مطلق ، وهو النص الأخير ! وقد عودنا البيان القرآني عند إيراد الأحكام ، أن يكون دقيقاً في كل موضع ؛ وألا يحيل في موضع على موضع ؛ بل يتخير اللفظ المحدد ؛ ويسجل التحفظات والاستثناءات والقيود والتخصيصات في ذات النص . إن كان هناك تحفظ أو استثناء أو تقييد أو تخصيص .

ولقد سبق لنا في تقديم السورة في الجزء العاشر ، وفي تقديم آيات القتال مع المشركين والقتال مع أهل الكتاب ، أو فصلنا القول في دلالة النصوص والأحكام المرحلية والنصوص والأحكام النهائية على طبيعة المنهج الحركي للإسلام فحسبنا ما ذكرناه هناك .

إلا أن الذين يكتبون اليوم عن العلاقات الدولية في الإسلام ، وعن أحكام الجهاد في الإسلام ،

والذين يتصدون لتفسير الآيات المتضمنة لهذا الأحكام ، يتعاظمهم ويهولهم أن تكون هذه هي أحكام الإسلام ! وأن يكون الله – سبحانه – قد أمر الذين آمنوا ان يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار ، وأن يظلوا يقاتلون من يلونهم من الكفار ، كلما وجد هناك من يلونهم من الكفار ! . . يتعاظمهم ويهولهم أن يكون الأمر الإلهي هكذا ، فيروحون يتلمسون القيود للنصوص المطلقة ؛ ويجدون هذه القيود في النصوص المرحلية السابقة !

إننا نعرف لماذا يهولهم هذا الأمر ويتعاظمهم على هذا النحو . . .

إنهم ينسون أن الجهاد في الإسلام جهاد في " سبيل الله " . . جهاد لتقرير ألوهية الله في الأرض وطرد الطواغيت المغتصبة لسلطان الله .

(427/353)

. جهاد لتحرير " الإنسان " من العبودية لغير الله ، ومن فتنته بالقوة عن الدينونة لله وحده والانطلاق من العبودية للعباد . . ﴿ حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ وأنه ليس جهاداً لتغليب مذهب بشري على مذهب بشري مثله . إنما هو جهاد لتغليب منهج الله على مناهج العبيد ! وليس جهاداً لتغليب سلطان قوم على سلطان قوم ، إنما هو جهاد لتغليب سلطان الله على سلطان العبيد ! وليس جهاداً لإقامة مملكة لعبد ، وإنما هو جهاد

لإقامة مملكة الله في الأرض . . ومن ثم ينبغي له أن يطلق في " الأرض " كلها ، لتحرير " الإنسان " كله . بلا تفرقة بين ما هو داخل في حدود الإسلام وبين ما هو خارج عنها . . فكلها " أرض " يسكنها " الإنسان " وكلها فيها طواغيت تعبد العباد للعباد !

وحين ينسون هذه الحقيقة يهولهم طبعاً أن ينطلق منهج ليكتسح كل المناهج ، وأن تنطلق أمة لتخضع سائر الأمم . . إنها في هذا الوضع لا تستساغ ! وهي فعلاً لا تستساغ ! . . لولا أن الأمر ليس كذلك . وليس له شبيه فيما بين أنظمة البشر اليوم من إمكان التعايش ! إنها كلها اليوم أنظمة بشرية . فليس لواحد منها أن يقول : إنه هو وحده صاحب الحق في البقاء ! وليس الحال كذلك في نظام إلهي يواجه أنظمة بشرية ؛ ليبطل هذه الأنظمة كلها ويدمرها كي يطلق البشر جميعاً من ذلة العبودية للعباد ؛ ويرفع البشر جميعاً إلى كرامة العبودية لله وحده بلا شريك !

ثم إنه يهولهم الأمر ويتعاظمهم لأنهم يواجهون هجوماً صليبياً منظماً لئيماً ماكراً خبيثاً يقول لهم : إن العقيدة الإسلامية قد انتشرت بالسيف ، وأن الجهاد كان لإكراه الآخرين على العقيدة الإسلامية ؛ وانتهاك حرمة حرية الاعتقاد !

(428/353)

والمسألة على هذا الوضع لا تكون مستساغة . . لولا أن الأمر ليس كذلك على الإطلاق . . إن الإسلام يقوم على قاعدة : ﴿ لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي ﴾ ولكن لماذا ينطلق إذن بالسيف مجاهداً ؛ ولماذا اشترى الله من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ ؟ . . إنه لأمر آخر غير الإكراه على العقيدة كان هذا الجهاد . . بل لأمر مناقض تماماً للإكراه على العقيدة . . إنه لضمان حرية الاعتقاد كان هذا الجهاد ؛ . . لأن الإسلام كإعلان عام لتحرير " الإنسان " في " الإرض " من العبودية للعباد ؛ يواجه دائماً طواغيت في الأرض يخضعون العباد للعباد . ويواجه دائماً أنظمة تقوم على أساس دينونة العبيد للعبيد ؛ تحرس هذه الأنظمة قوة الدولة أو قوة تنظيمية في صورة من الصور ؛ وتحول دون الناس في داخلها ودون سماع الدعوة الإسلامية ؛ كما تحول دونهم ودون اعتناق العقيدة إذا ارتضتها نفوسهم ، أو تفتنهم عنها بشتى الوسائل . . وفي هذا يتمثل انتهاك حرية الاعتقاد بأقبح أشكاله .

. ومن هنا ينطلق الإسلام بالسيف ليحطم هذه الأنظمة ، ويدمر هذه القوى التي تحميها . . ثم ماذا ؟ . . ثم يترك الناس – بعد ذلك – أحراراً حقاً في اختيار العقيدة التي يريدونها . إن شاءوا دخلوا في الإسلام ، فكان لهم ما للمسلمين من حقوق ، وعليهم ما عليهم من واجبات ، وكانوا إخواناً في الدين للسابقين في الإسلام ! وإن شاءوا بقوا على عقائدهم وأدوا الجزية ، إعلاناً عن استسلامهم لانطلاق الدعوة الإسلامية بينهم بلا

مقاومة ؛ ومشاركة منهم في نفقات الدولة المسلمة التي تحميهم من اعتداء الذين لم يستسلموا بعد ، وتكفل العاجز منهم والضعيف والمريض كالمسلمين سواء بسواء .

(429/353)

إن الإسلام لم يكره فرداً على تغيير عقيدته ؛ كما انطلقت الصليبية على مدار التاريخ تذبح وتقتل وتبيد شعوباً بأسرها – كشعب الأندلس قديماً وشعب زنجبار حديثاً – لتكرههم على التنصر . وأحياناً لا تقبل منهم حتى التنصر ، فتبيدهم لمجرد أنهم مسلمون . .

وأحياناً لمجرد أنهم يدينون بمذهب نصراني مخالف لمذهب الكنيسة الرسمية . . وقد ذهب مثلاً اثناء عشر ألفاً من نصارى مصر ضحايا بصور بشعة إذا أحرقوا أحياء على نار المشاعل لمجرد مخالفتهم لجزئية اعتقادية عن كنيسة روما تتعلق بانبثاق الروح القدس من الآب فقط ، أو من الآب والابن معاً ! أو يتعلق بما إذا كان للمسيح طبيعة واحدة لاهوتية ، أو طبيعة لاهوتية ناسوتية . . . إلى آخر هذه الجزئيات الاعتقادية الجانبية !

وأخيراً فإن صورة الانطلاق في الأرض لمواجهة من يلون المسلمين من الكفار تهول المهزومين روحياً في هذا الزمان وتتعاظمهم ؛ لأنهم يبصرون بالواقع من حولهم وبتكاليف هذا الانطلاق فيهولهم الأمر . . وهو يهول فعلاً ! . . فهل هؤلاء الذين يحملون أسماء المسلمين ،

وهم شعوب مغلوبة على أمرها ؛ أو قليلة الحيلة عموماً ! هل هؤلاء هم الذين سينطلقون في الأرض يواجهون أمم الأرض جميعاً بالقتال ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ؟ ! إنه لأمر لا يتصور عقلاً . . ولا يمكن أن يكون هذا هو أمر الله فعلاً

(430/353)

ولكن فات هؤلاء جميعاً أن يروا متى كان هذا الأمر ؟ وفي أي ظرف ؟ لقد كان بعد أن قامت للإسلام دولة تحكم بحكم الله ؛ دانت لها الجزيرة العربية ودخلت في هذا الدين ، ونظمت على أساسه . وقبل ذلك كله كانت هناك العصبة المسلمة التي باعت أنفسها لله بيعة صدق ، فنصرها الله يوماً بعد يوم ، وغزوة بعد غزوة ، ومرحلة بعد مرحلة . . وأن الزمان قد استدار اليوم كهيئته يوم بعث الله محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليدعو الناس – في جاهليتهم – إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فجاهد والقلة التي معه حتى قامت الدولة المسلمة في المدينة . وأن الأمر بالقتال مر بمراحل وأحكام مترقية حتى انتهى إلى تلك الصورة الأخيرة . . وأن بين الناس اليوم وهذه الصورة أن يبدأوا من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول .

. ثم يصلوا – يوم أن يصلوا – إلى هذه الصورة الأخيرة بإذن الله . . ويومئذ لن يكونوا هم

هذا الغثاء الذي تتقاسمه المذاهب والمناهج والأهواء ؛ والذي تتقاسمة الرايات القومية والجنسية والعنصرية . ولكنهم سيكونون العصبة المسلمة الواحدة التي ترفع راية : لا إله إلا الله . ولا ترفع معها راية أخرى ولا شعاراً ، ولا تتخذ لها مذهباً ولا منهجاً من صنع العبيد في الأرض ؛ إنما تنطلق باسم الله وعلى بركة الله . .

إن الناس لا يستطيعون أن يفقهوا أحكام هذا الدين ، وهم في مثل ما هم فيه من الهزال ! إنه لن يفقه أحكام هذا الدين إلا الذين يجاهدون في حركة تستهدف تقرير ألوهية الله وحده في الأرض ومكافحة ألوهية الطواغيت !

إن فقه هذا الدين لا يجوز أن يؤخذ عن القاعدين ، الذين يتعاملون مع الكتب والأوراق الباردة ! إن فقه هذا الدين فقه حياة وحركة وانطلاق . وحفظ ما في متون الكتب . والتعامل مع النصوص في غير حركة ، لا يؤهل لفقه هذا الدين ، ولم يكن مؤهلاً له في يوم من الأيام !

وأخيراً فإن الظروف التي نزل فيها قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ﴾ . .

تشير إلى أن أول المقصودين به كانوا هم الروم . . وهم أهل كتاب . . ولكن لقد سبق في السورة تقرير كفرهم الاعتقادي والعملي ، بما في عقيدتهم من انحراف ، وبما في واقعهم من تحكيم شرائع العبيد . .

وهذه لفتة لا بد من الوقوف عندها لفقه منهج هذا الدين في الحركة تجاه أهل الكتاب ، المنحرفين عن كتابهم ، المتحكمين إلى شرائع من صنع رجال فيهم ! . . وهي قاعدة تشمل كل أهل كتاب يتحاكمون – راضين – إلى شرائع من صنع الرجال وفيهم شريعة الله وكتابه ، في أي زمان وفي أي مكان !

ثم لقد أمر الله المسلمين أن يقاتلوا الذين يلونهم من الكفار وليجدوا فيهم غلظة ، وعقب على هذا الأمر بقوله :

﴿ أن الله يحب المتقين ﴾ . .

ولهذا التعقيب دلالته . . فالتقوى هنا . . التقوى التي يحب الله أهلها . . هي التقوى التي تنطلق في الأرض تقاتل من يلون المسلمين من الكفار ؛ وتقاتلهم في ﴿ غلظة ﴾ أي بلا هوادة ولا تميع ولا تراجع . . حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

ولكنه ينبغي أن نعرف وأن يعرف الناس جميعاً أنها الغلظة على الذين من شأنهم أن يحاربوا

وحدهم – وفي حدود الآداب العامة لهذا الدين – وليست هي الغلظة المطلقة من كل قيد وأدب !

إنه قتال يسبقه إعلان ، وتخيير بين : قبول الإسلام ، أو أداء الجزية ، أو القتال . . ويسبقه نبذ العهد إن كان هناك عهد – في حالة الخوف من الخيانة – (والأحكام النهائية تجعل العهد لأهل الذمة الذين يقبلون مسالمة الإسلام وأداء الجزية ؛ ولا عهد في غير هذه الحالة إلا أن يكون بالمسلمين ضعف يجعل الحكم المتعين في حالتهم هذه هو الحكم المرحلي الذي كان في حالة تشبه الحالة التي هم فيها) .

وهذه آداب المعركة كلها ، من وصية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

(432/353)

---

* " عن بريدة – رضي الله عنه – قال : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ، ثم قال : " اغزوا باسم الله ، في سبيل الله . قاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً . فإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال ، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . ادعهم إلى الإسلام . فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم

، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما عليهم ، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله تعالى الذي يجري على المؤمنين ، ولا يكون لهم من الغنيمة والفيء شيء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين . وإن هم أبوا فسلهم الجزية . فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم . فإن أبوا فاستعن بالله تعالى عليهم وقاتلهم . . . " . . (أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي) .

* وعن ابن عمر – رضي الله عنهما – قال : وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن قتل النساء والصبيان " . . . (أخرجه الشيخان) .

وأرسل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معاذ بن جبل – رضي الله عنه – إلى أهل اليمن معلماً فكانت وصيته له :

" إنك تأتي قوماً أهل كتاب ، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله ، وأني رسول الله . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله تعالى افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة . فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم بأن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم ، فترد على فقرائهم . فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم . واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب " .

وأخرج أبو داود – بإسناده – عن رجل من جهينة . أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : " لعلكم تقاتلون قوماً فتظهرون عليهم فيتقونكم بأموالهم دون أنفسهم وذراريهم ، فيصالحونكم على صلح ، فلا تصيبوا منهم فوق ذلك ، فإنه لا يصلح لكم " .

وعن العرباض بن سارية قال : " نزلنا مع رسول الله قلعة خيبر ، ومعه من معه من المسلمين . وكان صاحب خيبر رجلاً مارداً متكبراً . فأقبل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا محمد ! لكم أن تذبحوا حمرنا ، وتأكلوا ثمرنا ، وتضربوا نساءنا ؟ فغضب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : " يا ابن عوف اركب فرسك ، ثم ناد : إن الجنة لا تحل إلا لمؤمن وأن اجتمعوا للصلاة " فاجتمعوا . ثم صلى بهم ، ثم قام فقال : " أيحسب أحدكم متكئاً على أريكته قد يظن أن الله تعالى لم يحرم شيئاً إلا ما في القرآن ! ألا وإني قد وعظت وأمرت ونهيت عن أشياء ، إنها لمثل القرآن أو أكثر . وإن الله لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن ، ولا ضرب نسائهم ، ولا أكل ثمارهم ، إذا أعطوا الذي عليهم " .

ورفع إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد إحدى المواقع أن صبية قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزناً شديداً ، فقال بعضهم : ما يحزنك يا رسول الله وهم صبية للمشركين ؛ فغضب النبي ـ

صلى الله عليه وسلم. ؛ وقال – ما معناه – إن هؤلاء خير منكم ، إنهم على الفطرة ، أو لستم أبناء المشركين . فإياكم وقتل الأولاد . إياكم وقتل الأولاد .

وهذه التعليمات النبوية هي التي سار عليها الخلفاء بعده :

روى مالك عن أبي بكر الصديق – رضي الله عنه – أنه قال : " ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً " .

وقال زيد بن وهب : أتانا كتاب عمر – رضي الله عنه – وفيه : " لا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تقتلوا وليداً ، واتقوا الله في الفلاحين " .

(434/353)

ومن وصاياه ! " ولا تقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان ، وعند شن الغارات " .

وهكذا تتواتر الأخبار الخط العام الواضع لمستوى المنهج الإسلامي في قتاله لأعداءه ، وفي آدابه الرفيعة ، وفي الرعاية لكرامة الإنسان . وفي قصر القتال على القوى المادية التي تحول بين الناس وبين أن يخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده . وفي اليسر الذي يعامل به

حتى أعداءه . أما الغلظة فهي الخشونة في القتال والشدة ؛ وليست هي الوحشية مع الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة ، غير المحاربين أصلاً ؛ وليست تمثيلاً بالجثث والأشلاء على طريقة المتبربرين الذين يسمون أنفسهم متحضرين في هذا الزمان . وقد تضمن الإسلام ما فيه الكفاية من الأوامر لحماية غير المحاربين ، ولاحترام بشرية المحاربين . إنما المقصود هو الخشونة التي لا تميع المعركة ؛ وهذا الأمر ضروري لقوم أمروا بالحرمة والرأفة في توكيد وتكرار فوجب استثناء حالة الحرب ، بقدر ما تقتضي حالة الحرب ، دون رغبة في التعذيب والتمثيل والتنكيل .

وقبيل ختام السورة التي تكلمت طويلاً عن المنافقين ، تجيء آيات تصور طريقة المنافقين في تلقي آيات الله وفي استقبال تكاليف هذه العقيدة التي يتظاهرون بها كاذبين ؛ وإلى جانبها صورة الذين آمنوا وتلقيهم لهذا القرآن الكريم :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول : أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ؛ وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون .

أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ، ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون ؟ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ . .

والسؤال في الآية الأولى :

﴿ أيكم زادته هذه إيماناً ؟ ﴾ . .

(435/353)

سؤال مريب ، لا يقوله إلا الذي لم يستشعر وقع السورة المنزلة في قلبه . وإلا لتحدث عن آثارها في نفسه ، بدل التساؤل عن غيره . وهو في الوقت ذاته يحمل رائحة التهوين من شأن السورة النازلة والتشكيك في أثرها في القلوب !

لذلك يجيء الجواب الحاسم ممن لا راد لما يقول :

﴿ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون ، وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون ﴾ . .

فأما الذين آمنوا فقد أضيفت إلى دلائل الإيمان عندهم دلالة فزادتهم إيماناً ؛ وقد خفقت قلوبهم بذكر ربهم خفقة فزادتهم إيماناً ؛ وقد استشعروا عناية ربهم بهم في إنزال آياته عليهم فزادتهم إيماناً . . وأما الذين في قلوبهم مرض ، الذين في قلوبهم رجس من النفاق ، فزادتهم رجساً إلى رجسهم ، وماتوا وهم كافرون . . وهو نبأ من الله صادق ، وقضاء منه سبحانه محقق .

وقبل أن يعرض السياق الصورة الثانية لاستجابتهم يسأل مستنكراً حال هؤلاء المنافقين الذين لا يعظهم الابتلاء ، ولا يردهم الامتحان :

﴿ أو لا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ؟ ﴾ .

والفتنة كانت تكون بكشف سترهم ، أو بنصر المسلمين بدونهم ، أو بغيرهما من الصور ، وكانت دائمة الوقوع كثيرة التكرار في عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - وما يزال المنافقون يفتنون ولا يتوبون !

فأما الصورة الحية أو المشهد المتحرك فترسمه الآية الأخيرة ، في شريط متحرك دقيق :

﴿ وإذا ما أنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض : هل يراكم من أحد ؟ ثم انصرفوا . صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون ! ﴾ .

وإننا - حين نتلو الآية - لنستحضر مشهد هؤلاء المنافقين وقد نزلت سورة . فإذا بعضهم ينظر إلى بعض ويغمز غمزة المريب :

﴿ هل يراكم من أحد ؟ ﴾ . .

ثم تلوح لهم غرة من المؤمنين وانشغال فإذا هم يتسللون على أطراف الأصابع في حذر :

﴿ ثم انصرفوا ﴾ . .

تلاحقهم من العين التي لا تغفل ولا تنشغل دعوة قاصمة تناسب فعلتهم المريبة :

﴿ صرف الله قلوبهم ! ﴾ . .

صرفها عن الهدى فإنهم يستحقون أن يظلوا في ضلالهم يعمهون :

﴿ بأنهم قوم لا يفقهون ﴾ .

.

عطلوا قلوبهم عن وظيفتها فهم يستحقون !

إنه مشهد كامل حافل بالحركة ترسمه بضع كلمات ، فإذا هو شاخص للعيون كأنها تراه !

وتختم السورة بآيتين ورد أنهما مكيتان ، وورد أنهما مدنيتان . ونحن نأخذ بهذا الأخير ، ونلمح مناسبتهما في مواضع متفرقة في هذا الدرس وفي جو السورة على العموم . آيتين تتحدث إحداهما عن الصلة بين الرسول وقومه ، وعن حرصه عليهم ورحمته بهم . ومناسبتها حاضرة في التكاليف التي كلفتها الأمة المؤمنة في مناصرة الرسول ودعوته وقتال أعدائه واحتمال العسرة والضيق . والآية الثانية توجيه لهذا الرسول أن يعتمد على ربه وحده حين يتولى عنه من يتولى ، فهو وليه وناصره وكافيه :

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم ، بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش

العظيم ﴾ . .

ولم يقل : جاءكم رسول منكم . ولكن قال : ﴿ من أنفسكم ﴾ وهي أشد حساسية وأعمق صلة ، وأدل على نوع الوشيجة التي تربطهم به . فهو بضعة من أنفسهم ، تتصل بهم صلة النفس بالنفس ، وهي أعمق وأحس .

﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ . .

يشق عليه عنتكم ومشقتكم .

﴿ حريص عليكم ﴾ . .

لا يلقي بكم في المهالك ، ولا يدفع بكم إلى المهاوي ، فإذا هو كلفكم الجهاد ، وركوب الصعاب ، فما ذلك من هوان بكم عليه ، ولا بقسوة في قلبه وغلظة ، إنما هي الرحمة في صورة من صورها . الرحمة بكم من الذل والهوان ، والرحمة بكم من الذنب والخطيئة ، والحرص عليكم أن يكون لكم شرف حمل الدعوة ، وحظ رضوان الله ، والجنة التي وعد المتقون .

ثم ينتقل الخطاب إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - يعرفه طريقه حين يتولى عنه من يتولى ، ويصله بالقوة التي تحميه وتكفيه :

﴿ فإن تولوا فقل : حسبي الله ، لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، وهو رب العرش العظيم ﴾ .

فإليه تنتهي القوة والملك والعظمة والجاه ، وهو حسب من لاذ به وحسب من والاه .

إنه ختام سورة القتال والجهاد : الارتكان إلى الله وحده ، والاعتماد على الله وحده ، واستمداد القوة من الله وحده . .

﴿ وهو رب العرش العظيم ﴾ . .

وبعد فإن هذه السورة المحكمة تحتوي بيان الأحكام النهائية في العلاقات الدائمة بين المجتمع المسلم وسائر المجتمعات حوله – كما بينا في خلال عرضها وتقديمها – ومن ثم ينبغي أن يرجع إلى نصوصها الأخيرة بوصفها الكلمة الأخيرة في تلك العلاقات ؛ وأن يرجع إلى أحكامها بوصفها الأحكام النهائية المطلقة ، حسبما تدل عليها نصوص السورة . كما ينبغي ألا تقيد هذه النصوص والأحكام النهائية بنصوص وأحكام وردت من قبل – وهي التي سميناها أحكاماً مرحلية – مستندين في هذه التسمية : أولاً وبالذات إلى ترتيب نزول الآيات . ومستندين أخيراً إلى سير الأحداث في الحركة الإسلامية ، وإدراك طبيعة المنهج الإسلامي في هذه الحركة .

. هذه الطبيعة التي بيناها في التقديم للسورة وفي ثناياها كذلك . .

وهذا هو المنهج الذي لا يدركه إلا الذين يتحركون بهذا الدين حركة جهادية لتقرير وجوده

في واقع الحياة ؛ برد الناس إلى ربوبية الله وحده ، وإخراجهم من عبادة العباد !

إن هنالك مسافة شاسعة بين فقه الحركة ، وفقه الأوراق ! إن فقه الأوراق يغفل الحركة ومقتضياتها من حسابه ، لأنه لا يزاولها ولا يتذوقها ! أما فقه الحركة فيرى هذا الدين وهو يواجه الجاهلية ، خطوة خطوة ، ومرحلة مرحلة ، وموقفاً موقفاً . ويراه وهو يشرع أحكامه في مواجهة الواقع المتحرك ، بحيث تجيء مكافئة لهذا الواقع وحاكمة عليه ؛ ومتجددة بتجدده كذلك !

(438/353)

وأخيراً فإن تلك الأحكام النهائية الواردة في السورة الأخيرة ؛ إنما جاءت وواقع المجتمع المسلم ، وواقع الجاهلية من حوله كذلك ، كلاهما يحتم اتخاذ تلك الإجراءات وتنفيذ تلك الأحكام . . فأما حين كان واقع المجتمع المسلم وواقع الجاهلية من حوله يقتضي أحكاماً أخرى . . مرحلية . . فقد جاءت في السور السابقة نصوص وأحكام مرحلية . .

وحين يوجد المجتمع المسلم مرة أخرى ويتحرك ! فإنه يكون في حل من تطبيق الأحكام المرحلية في حينها . ولكن عليه أن يعلم أنها أحكام مرحلية ، وأن عليه أن يجاهد ليصل في

النهاية إلى تطبيق الأحكام النهائية التي تحكم العلاقات النهائية بينه وبين سائر المجتمعات . . والله الموفق ، والله المعين . . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الظلال حـ 3 صـ 1712 . 1744 ﴾

(439/353)

فصل فى التفسير الإشارى فى الآيات السابقة

قال العلامة نظام الدين النيسابورى :

التأويل : ﴿ ما كان لأهل ﴾ مدينة القالب وهو النفس والهوى والقلب ﴿ ومن حولهم من الأعراب ﴾ الصفات النفسانية والقلبية ﴿ أن يتخلفوا عن رسول ﴾ الروح السائر ولا يبذلوا وجودهم عند بذل وجوده بالفناء في الله ﴿ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ﴾ من ماء الشهوات ﴿ ولا نصب ﴾ من أنواع المجاهدات ﴿ ولا مخمصة ﴾ بترك اللذات وحطام الدنيا في طلب الله ﴿ لا يطؤن موطئاً ﴾ من مقامات الفناء ﴿ يغيظ ﴾ كفار النفس والهوى ﴿ ولا ينالون من عدوّ ﴾ الشيطان والنفس والدنيا بلاء ومحنة وفقراً وحزناً وغير ذلك من أسباب الفناء ﴿ إلا كتب لهم به عمل صالح ﴾ من البقاء بالله بقدر الفناء في الله ﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ﴾ هي بذل الصفات ﴿ ولا كبيرة ﴾ هي بذل الذات في صفات الله وفي ذاته ﴿ ولا يقطعون وادياً ﴾ من أودية الدنيا والآخرة والنفس والهوى

والقلب والروح. ﴿ أحسن ما كانوا يعملون ﴾ لأن عملهم بقدر معرفتهم وجزاؤه يضيق عنه نطاق فهمهم ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفي لهم ﴾ [السجدة : 17] ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا ﴾ في السير إلى الله وبالله وفي الله ، فهلا نفر من كل قوم وقبيلة فرقة طائفة هم خواصهم وأهل الاستعداد الكاملون ليتعلموا السلوك ويخبروا بذلك قومهم ﴿ لعلهم يحذرون ﴾ من غير الله . ﴿ قاتلوا الذين يلونكم ﴾ من كفار النفس والهوى وصفاتها ﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ عزيمة صادقة في ترك شهواتها ﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ أي لموت قلبهم لتزايد ظلمة النفاق كل حين ، ثم أخبر عن موت القلب بقوله : ﴿ أولا يرون أنهم يفتنون ﴾ والفتنة موجبة لانتباه القلب الحي ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾ [ق : 37] أي قلب حي ﴿ هل يراكم من أحد ﴾ في مقام الإنكار والنفاق أي هل يرى محمد إنكارنا على رسالته والقرآن ، فإن كان رسولاً يرانا بنور رسالته ﴿ ثم انصرفوا ﴾ على هذا الحسبان لأن قلوبهم مصروفة وليس لهم فقه القلب لأن ذلك من أمارات حياة القلب . ﴿ من أنفسكم ﴾ تسكين للعوام لئلا يتنفروا

(440/353)

عنه وإشارة للخواص إلى أن البشر لهم استعداد الوصول والوصال ، فإن لم يكن بالاستقلال فبالمتابعة فاتبعوني يحببكم الله . ومن قرأ ﴿ من أنفسكم ﴾ أي أشرفكم فلأنه أوّل جوهر خلقه الله تعالى " أول ما خلق الله تعالى روحي " ولاختصاصه بالخلاص عن تعلق الكونين وبلوغه إلى قاب قوسين أو أدنى وتحليه بحلية ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾ [النجم : 10] ولعلو همته ، ﴿ ما زاغ البصر وما طغى ﴾ [النجم : 17] ولرؤيته سر القدر ﴿ ولقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ [النجم : 18] ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ فمن رأفته أمر بالرفق كما قال : " إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه بالرفق " ومن رحمته قيل له ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ [آل عمران : 159] وههنا نكتة وهي أن رأفته ورحمته لما كانت مخلوقة اختصت بالمؤمنين فقط ، وكانت رحمته تعالى ورأفته للناس عامة ﴿ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ ونكتة أخرى هي أن رحمته صلى الله عليه وسلم عامة للعالمين بقوله : ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء : 107] وأما رحمته المضمومة إلى الرأفة فخاصة بالمؤمنين وكأن الرأفة إشارة إلى ظهور أثر الدعوة في حقهم ، فالمؤمنون أمة الدعوة والإجابة جميعاً وغيرهم أمة الدعوة فقط ﴿ فقل حسبي الله ﴾ لأن المقصود من التبليغ قد حصل لك وهو وصولك إلى الله أعرضوا عن دعوتك أو أقبلوا والله المستعان . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 551.552 ﴾

وقال الآلوسى :

ومن باب الإشارة في الآيات : ﴿ إِنَّ اللهَ اشترى مِنَ المؤمنين أَنفُسَهُمْ وأموالهم بِأَنَّ لَهُمُ الجنة ﴾ [التوبة : 111] لما هداهم سبحانه إلى الإيمان العلمي وهم مفتونون بمحبة الأنفس والأموال استنزلهم لغاية عنايته سبحانه بهم عن ذلك بالمعاملة الرابحة بأن أعطاهم بدل ذلك الجنة ، ولعل المراد بها جنة النفس ليكون الثمن من جنس المثمن الذي هو مألوفهم ولكن الفرق بين الأمرين ، قال ابن عطاء : نفسك موضع كل شهوة وبلية ومالك محل كل إثم ومعصية فاشترى مولاك ذلك منك ليزيل ما يضرك ويعوضك عليه ما ينفعك ولهذا اشترى سبحانه النفس ولم يشتر القلب ، وقد ذكر بعض الأكابر في ذلك أيضاً أن النفس محل العيب والكريم يرغب في شراء ما يزهد فيه غيره فشراء الله تعالى ذلك مع اطلاعه سبحانه على العيب بالجنة التي لا عيب فيها نهاية الكرم ويرشد إلى ذلك قول القائل :

ولي كبد مقروحة من يبيعني . . .

بها كبداً ليست بذات قروح

أباها جميع الناس لا يشترونها . . .

ومن يشتري ذا علة بصحيح

وعن الجنيد قدس سره قال : إنه سبحانه اشترى منك ما هو صفتك وتحت تصرفك

والقلب تحت صفته وتصرفه لم تقع المبايعة عليه ، ويشير إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن " وذكر بعض أرباب التأويل أنه تعالى لما اشترى الأنفس منهم فذاقوا بالتجرد عنها حلاوة اليقين ولذة الترك ورجعوا عن مقام لذة النفس وتابوا عن هواها ولم يبق عندهم لجنة النفس التي كانت ثمناً قدر وصفهم بالتائبين فقال سبحانه : ﴿ التائبون ﴾ أي الراجعون عن طلب ملاذ النفس وتوقع الأجر إليه تعالى وبلفظ آخرهم قوم رجعوا من غير الله إلى الله واستقاموا بالله تعالى مع الله تعالى .

(442/353)

﴿ العابدون ﴾ أي الخاضعون المتذللون لعظمته وكبريائه تعالى تعظيماً وإجلالاً له جل شأنه لا رغبة في ثواب ولا رهبة من عقاب وهذه أقصى درجات العبادة ويسميها بعضهم عبودة ﴿ الحامدون ﴾ بإظهار الكمالات العملية والعلمية حمداً فعلياً حالياً وأقصى مراتب الحمد إظهار العجز عنه .

يروى أن داود عليه السلام قال : يا رب كيف أحمدك والحمد من آلائك فأوحى الله تعالى إليه الآن حمدتني يا داود .

وما أعلى كلمة نبينا صلى الله عليه وسلم " اللهم لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت

على نفسك " (السائحون) إليه تعالى بالهجرة عن مقام الفطرة ورؤية الكمالات الثابتة لهم في مفاوز الصفات ومنازل السبحات ، وقال بعض العارفين : السائحون هم السيارون بقلوبهم في الملكوت الطائرون بأجنحة المحبة في هواء الجبروت ، وقد يقال : هم الذين صاموا عن المألوفات حين عاينوا هلال جماله تعالى في هذه النشأة ولا يفطرون حتى يعاينوه مرة أخرى في النشأة الأخرى ، وقد امتثلوا ما أشار إليه صلى الله عليه وسلم بقوله : " صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته " ﴿ الركعون ﴾ في مقام محو الصفات ﴿ الساجدون ﴾ بفناء الذات ، وقال بعض العارفين : الراكعون هم العاشقون المنحنون من ثقل أوتار المعرفة على باب العظمة ورؤية الهيبة ، والساجدون هم الطالبون لقربه سبحانه .

فقد جاء في الخبر "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد" وقد يقال : الراكعون الساجدون هم المشاهدون للحبيب السامعون منه ، وما أحسن ما قيل :

لو يسمعون كما سمعت كلامها . . .

خروا لعزة ركعاً وسجوداً

(443/353)

﴿ الآمِرُونَ بالمعروف والناهون عَنِ المنكر ﴾ أي الداعون الخلق إلى الحق والدافعون لهم عما سواه ، فإن المعروف على الإطلاق هو الحق سبحانه والكل بالنسبة إليه عز شأنه منكر ﴿ والحافظونِ لِحُدُودِ الله ﴾ أي المراعون أوامره ونواهيه سبحانه في جوارحهم وأسرارهم وأرواحهم أو الذين حفظوا حدود الله المعلومة فأقاموها على أنفسهم وعلى غيرهم ، وقيل : هم القائمون في مقام العبودية بعد كشف صفات الربوبية لهم فلا يتجاوزون ذلك وإن حصل لهم ما حصل فهم في مقام التمكين والصحو لا يقولون ما يقوله سكارى المحبة ولا يهيمون في أودية الشطحات .

وفي الآية نعي على أناس ادعوا الانتظام في سلك حزب الله تعالى وزمرة أوليائه وهم قد ضيعوا الحدود وخرقوا سفينة الشريعة وتكلموا بالكلمات الباطلة عند المسلمين على اختلاف فرقهم حتى عند السادة الصوفية فإنهم أوجبوا حفظ المراتب ، وقالوا : إن تضييعها زندقة

وقد خالطتهم فرأيت منهم . . .

خبائث بالمهيمن نستجير

ولعمري إن المؤمن من ينكر على أمثالهم فإياك أن تغتربهم ﴿ وَبَشِّرِ المؤمنين ﴾ [التوبة : 112] بالإيمان الحقي المقيمين في مقام الاستقامة واتباع الشريعة ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ والذين ءامَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِى قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أصحاب الجحيم

﴿ [113] أي ما صح منهم ذلك ولا استقام فإن الوقوف عند القدر من شأن الكاملين .

(444/353)

ومن هنا قيل : لا تؤثر همة العارف بعد كمال عرفانه أي إذا تيقن وقوع كل شيء بقدره تعالى الموافق للحكمة البالغة وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولم يتهم الله سبحانه في شيء من الفعل والترك سكن تحت كهف الأقدار وسلم لمدعي الإرادة وأنصت لمنادي الحكمة وترك مراده لمراد الحبيب بل لا يريد إلا ما يريده ، وهو الذي يقتضيه مقام العبودية المحضة الذي هو أعلى المقامات ودون ذلك مقام الإدلال ، ولقد كان حضرة مولانا القطب الرباني الشيخ عبد القادر الكيلاني قدس سره في هذا المقام وله كلمات تشعر بذلك لكن لم يتوف قدس سره حتى انتقل منه إلى مقام العبودية المحضة كما نقل مولانا عبد الوهاب الشعراني في "الدرر واليواقيت" ، وقد ذكر أن هذا المقام كان مقام تلميذه حضرة مولانا أبي السعود الشبلي قدس سره ﴿ وَمَا كَانَ اللهِ لِيُضِلَّ قَوْماً ﴾ أي ليصفهم بالضلال عن طريق التسليم والانقياد لأمره والرضا بحكمه ﴿ بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ ﴾ إلى التوحيد العلمي ورؤية وقوع كل شيء بقضائه وقدره ﴿ حتى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ أي ما يجب عليهم اتقاؤه في كل مقام من

مقامات سلوكهم وكل مرتبة من مراتب وصولهم فإذا بين لهم ذلك فإن أقدموا في بعض المقامات على ما تبين لهم وجوب اتقائه أضلهم لارتكابهم ما هو ضلال في دينهم وإلا فلا ﴿ أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التوبة : 115] فيعلم دقائق ذنوبهم وإن لم يتفطن لها أحد .

(445/353)

﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ على النبى والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه فِى سَاعَةِ العسرة ﴾ [التوبة : 117] لا يخفى أن توبة الله سبحانه على كل من النبي عليه الصلاة والسلام ومن معه بحسب مقامه ، وذكر بعضهم أن التوبة إذا نسبت إلى العبد كانت بمعنى الرجوع من الزلات إلى الطاعات وإذا نسبت إلى الله سبحانه كانت بمعنى رجوعه إلى العباد بنعت الوصال وفتح الباب ورفع الحجاب ﴿ وَعَلَى الثلاثة الذين خُلِّفُواْ حتى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرض بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ وذلك لاستشعار سخط المحبوب ﴿ وَظَنُّواْ أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ﴾ أي تحققوا ذلك فانقطعوا إليه سبحانه ورفعوا الوسائط ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : 118] حيث رأى سبحانه انقطاعهم إليه وتضرعهم بين يديه ، وقد جرت عادته تعالى مع أهل محبته إذا صدر منهم ما ينافي مقامهم بأدبهم بنوع من

الحجاب حتى إذا ذاقوا طعم الجناية واحتجبوا عن المشاهدة وعراهم ما عراهم مما أنساهم دنياهم وأخراهم أمطر عليهم وابل سحاب الكرم وأشرق على آفاق أسرارهم أنوار القدم فيؤنسهم بعد يأسهم ويمن عليهم بعد قنوطهم ﴿ وَهُوَ الذى يُنَزِّلُ الغيث مِن بَعْدِ مَا قَنَطُواْ ﴾ [الشورى : 18]ا : 82) ، وما أحلى قوله :

هجروا والهوى وصال وهجر . . .

هكذا سنت الغرام الملاح

أيها الذين ءامَنُواْ اتقوا الله ﴾ في جميع الرذائل بالاجتناب عنها ﴿ وَكُونُواْ مَعَ الصادقين ﴾ [التوبة : 119] نية وقولاً وفعلاً أي اتصفوا بما اتصفوا به من الصدق ، وقيل : خالطوهم لتكونوا مثلهم فكل قرين بالمقارن يقتدى .

(446/353)

وفسر بعضهم الصادقين بالذين لم يخلفوا الميثاق الأول فإنه أصدق كلمة ، وقد يقال : الأصل الصدق في عهد الله كما قال تعالى : ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عاهدوا الله ﴾ [الأحزاب : 23] ثم في عقد العزيمة ووعد الخليقة كما قال سبحانه في إسماعيل : ﴿ إِنَّهُ كَانَ صادق الوعد ﴾ [مريم : 54] وإذا روعي الصدق في المواطن كلها كالخاطر والفكر والنية

والقول والعمل صدقت المنامات والواردات والأحوال والمقامات والمواهب والمشاهدات فهو أصل شجرة الكمال وبذر ثمرة الأحوال وملاك كل خير وسعادة ؛ وضده الكذب فهو أسوأ الرذائل وأقبحها وهو منافي المروءة كما قالوا : لا مروءة لكذوب ﴿ وَمَا كَانَ المؤمنون لِيَنفِرُواْ كَافَّةً فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدين ﴾ إشارة إلى أنه يجب على كل مستعد من جماعة سلوك طريق طلب العلم إذ لا يمكن لجميعهم أما ظاهراً فلفوات المصالح وأما باطناً فلعدم الاستعداد للجميع .

والفقه من علوم القلب .

(447/353)

وهي إنما تحصل بالتزكية والتصفية وترك المألوفات واتباع الشريعة ، فالمراد من النفر السفر المعنوي وهذا هو العلم النافع ، وعلامة حصوله عدم خشية أحد سوى الله تعالى ، ألا ترى كيف نفى الله عمن خشي غيره سبحانه الفقه فقال : ﴿ لأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ الله ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ ﴾ [الحشر : 13] وعلى هذا فحق لمثلي أن ينوح على نفسه ، وقد صرح بعض الأكابر أن الفقه علم راسخ في القلب ، ضاربة عروقه في النفس ، ظاهر أثره على الجوارح لا يمكن لصاحبه أن يرتكب خلاف ما يقتضيه إلا إذا غلب القضاء

والقدر ، وقد أنزل الله تعالى كما قيل على بعض أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام : لا تقولوا العلم بالسماء من ينزل به ولا في تخوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحر من يعبر ويأتي به ، العلم مجعول في قلوبكم تأدبوا بين يدي بآداب الروحانيين وتخلقوا بأخلاق الصديقين ، أظهر العلم من قلوبكم حتى يغمركم ويغطيكم .

وجاء "من اتقى الله أربعين صباحاً تفجرت ينابع الحكمة من قلبه" وإذا تحققت ذلك علمت أن دعوى قوم اليوم الفقه بالمعنى الذي ذكرناه مع تهافتهم على المعاصي تهافت الفراش على النار وعقدهم الحلقات عليها دعوى كاذبة مصادمة للعقل والنقل وهيهات أن يحصل لهم ذلك الفقه ما داموا على تلك الحال ولو ضربوا رؤوسهم بألف صخرة صماء ، وعطف سبحانه قوله : ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ ﴾ على قوله تعالى : ﴿ لِّيَتَفَقَّهُواْ ﴾ إشارة إلى أن الإنذار بعد التفقه والتحلي بالفضائل إذ هو الذي يرجى نفعه :

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها . . .

فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يسمع ما تقول ويقتدي . . .

بالقول منك وينفع التعليم

(448/353)

ولذا قال جل وعلا : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : 122] وقوله تعالى : ﴿ يَحْذَرُونَ يا أيها الذين ءامَنُواْ قَاتِلُواْ الذين يَلُونَكُمْ مّنَ الكفار ﴾ إشارة إلى الجهاد الأكبر ولعله تعليم لكيفية النفر المطلوب وبيان لطريق تحصيل الفقه أي قاتلوا كفار قوى نفوسكم بمخالفة هواها ، وفي الخبر "أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك" ﴿ وَلِيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ﴾ أي قهراً وشدة حتى تبلغوا درجة التقوى ﴿ واعلموا أَنَّ الله مَعَ المتقين ﴾ [التوبة : 123] بالولاية والنصر ﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾ أي يصيبهم بالبلاء ليتوبوا ﴿ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة : 126] وفي الأثر البلاء سوط من سياط الله تعالى يسوق به عباده إليه ويرشد إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَّوْجٌ كالظلل دَعَوُاْ الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدين ﴾ [لقمان : 32] وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإنسان الضر دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾ [يونس : 12] وبالجملة إن البلاء يكسر سورة النفس فيلين القلب فيتوجه إلى مولاه إلا أن من غلبت عليه الشقاوة ذهب منه ذلك الحال إذا صرف عنه البلاء كما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى البر إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : 65] وقوله سبحانه : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إلى ضُرّ مَّسَّهُ ﴾ [يونس : 12] ﴿ لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي من جنسكم لتقع الألفة بينكم وبينه فإن الجنس إلى الجنس يميل وحينئذٍ يسهل عليكم

الاقتباس من أنواره صلى الله عليه وسلم .

وقرىء كما قدمنا ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ أي أشرفكم في كل شيء ويكفيه شرفاً أنه عليه الصلاة والسلام أول التعينات وأنه كما وصفه الله تعالى على خلق عظيم :

(449/353)

وعلى تفنن واصفيه بوصفه . . .

يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي يشق عليه عليه الصلاة والسلام مشقتكم فيتألم صلى الله عليه وسلم لما يؤلمكم كما يتألم الشخص إذا عرا بعض أعضائه مكروه ، وعن سهل أنه قال : المعنى شديد عليه غفلتكم عن الله تعالى ولو طرفة عين فإن العنت ما يشق ولا شيء أشق في الحقيقة من الغفلة عن المحبوب ﴿ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ﴾ أي على صلاح شأنكم أو على حضوركم وعدم غفلتكم عن مولاكم جل شأنه ﴿ بالمؤمنين رَءوفٌ ﴾ يدفع عنهم ما يؤذيهم

(450/353)

﴿ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128] يجلب لهم ما ينفعهم ، ومن آثار الرأفة تحذيرهم من الذنوب والمعاصي ومن آثار الرحمة إضافته صلى الله عليه وسلم عليهم العلوم والمعارف والكمالات ، قال جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه : علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته فعرفهم ذلك لكي يعلموا أنهم لا ينالون الصفو من خدمته فأقام سبحانه بينه وبينهم مخلوقاً من جنسهم في الصورة فقال : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وألبسه من نعته الرأفة الرحمة وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً وجعل طاعته طاعته وموافقته موافقته فقال سبحانه : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرسول فَقَدْ أَطَاعَ الله ﴾ [النساء : 80] ثم أفرده لنفسه خاصة وآواه إليه بشهوده عليه في جميع أنفاسه وسلى قلبه عن إعراضهم عن متابعته بقوله جل شأنه : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ ﴾ وأعرضوا عن قبول ما أنت عليه لعدم الاستعداد وزواله ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ الله ﴾ لا حاجة لي بكم كما لا حاجة للإنسان إلى العضو المتعفن الذي يجب قطعه عقلاً فالله تعالى كافي ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ فلا مؤثر غيره ولا ناصر سواه ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ لا على غيره من جميع المخلوقات إذ لا أرى لأحد منهم فعلاً ولا حول ولا قوة إلا بالله ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ [التوبة : 129] المحيط بكل شيء ، وقد ألبسه سبحانه أنوار عظمته وقواه على حمل تجلياته ولولا ذلك لذاب بأقل من لمحة عين ، وإذا قرىء ﴿ العظيم ﴾ بالرفع فهو صفة للرب سبحانه ، وعظمته جل جلاله مما لا نهاية لها

وما قدروا الله حق قدره نسأله بجلاله وعظمته أن يوفقنا لاتمام تفسير كتابه حسبما يحب ويرضى فلا إله غيره ولا يرجى إلا خيره. انتهى انتهى. اهـ ﴿روح المعانى حـ 10 صـ ﴾

(451/353)

فصل فى فوائد لغوية وإعرابية وبلاغية فى الآيات السابقة

[سورة التوبة (9) : آية 90]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (جاء) فعل ماض (المعذّرون) فاعل مرفوع وعلامة الرفع الواو (من الإعراب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف

حال من (المعذّرون) ، (اللام) لام التعليل (يؤذن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ، وهو مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ وهو نائب فاعل في محل رفع.

والمصدر المؤوّل (أن يؤذن . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (جاء) .

(الواو) عاطفة (قعد) مثل جاء (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع فاعل (كذبوا) مثل رضوا " 1 " ، (اللَّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (رسول) معطوفة على لفظ الجلالة منصوب و(الهاء) مضاف إليه " 2 " ، (السين) حرف استقبال (يصيب) مضارع مرفوع (الذين) موصول مفعول به (كفروا) مثل رضوا " 3 " (منهم) مثل لهم متعلّق بمحذوف حال من فاعل كفروا (عذاب) فاعل مرفوع (أليم) نعت لعذاب مرفوع .

جملة : " جاء المعذّرون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يؤذن لهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " قعد الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

وجملة : "كذبوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " سيصيب . . عذاب " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : "كفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

الصرف :

(المعذّرون) ، جمع المعذّر اسم فاعل إمّا من عذّر أي

(1 ، 3) في الآية (87) من هذه السورة .

(2) أي قعدوا عن المجيء فلم يعتذروا .

تكلّف الاعتذار بمجيء التضعيف ، أو من فعل اعتذر الخماسيّ ثمّ قلبت التاء ذالا بعد تسكينها ونقل حركتها إلى العين قبلها . . وفي كلّ حال وزنه مفتعل بضمّ الميم وكسر العين .

(الأعراب) ، اسم جمع جنسيّ وهم أهل البدو ، الواحد أعرابيّ ، ووزن أعراب أفعال .

[سورة التوبة (9) : آية 91]

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91)

الإعراب :

(ليس) فعل ماض ناقص جامد - ناسخ - (على الضعفاء) جارّ ومجرور خبر ليس مقدّم (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (على المرضى) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به الجار الأول فهو معطوف عليه ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (الواو) عاطفة (لا) مثل الأولى (على) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بما تعلّق به الجارّ الأول فهو معطوف عليه (لا) نافية (يجدون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (ما) نكرة موصوفة " 1 " في محلّ نصب مفعول به (ينفقون) مثل يجدون (حرج) اسم ليس مؤخّر مرفوع (إذا)

ظرف للمستقبل متضمّن معنى الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب المقدّر (نصحوا) فعل ماض وفاعله (للَّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نصحوا) (الواو) عاطفة

---

(1) أو اسم موصول في محلّ نصب ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف .

(453/353)

(رسول) معطوف على لفظ الجلالة مجرور و(الهاء) ضمير مضاف إليه (ما) نافية (على المحسنين) جارّ ومجرور خبر مقدّم وعلامة الجرّ الياء (من سبيل) جارّ زائد ومجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ (الواو) استئنافيّة (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (غفور) خبر مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " ليس على الضعفاء . . . حرج " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يجدون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " ينفقون . . . " في محلّ نصب نعت لـ (ما) ، والعائد محذوف .

وجملة : " نصحوا . . . " في محلّ جرّ بإضافة (إذا) إليها . . وجواب الشرط محذوف دلّ عليه ما قبله أي : إذا نصحوا . . فليس عليهم حرج .

وجملة : " ما على المحسنين من سبيل " لا محلّ لها استئناف مقرّر لمضمون ما قبله .

وجملة : " اللَّه غفور " لا محلّ لها استئنافيّة .

البلاغة

فن التلميع أو التلميح : في قوله تعالى " ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ " وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة أو ما يجري مجرى المثل ، وهذه الجملة من الآية استئناف مقرر لمضمون ما سبق على أبلغ وجه وألطف سبك ، وهو من بليغ الكلام ، لأن معناه لا سبيل لعاتب

عليهم ، أي لا يمر بهم العاتب ولا يجوز في أرضهم ، فما أبعد العتاب عنهم . وهو جار مجرى المثل .

[سورة التوبة (9) : آية 92]

وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (على الذين) مثل السابق " 1 " ، (إذا) مرّ اعرابه " 2 " متعلّق بالجواب قلت (ما) زائدة (أتوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير مفعول به (اللام) لام التعليل (تحمل) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت

(قلت) فعل ماض وفاعله (لا) نافية (أجد) مضارع مرفوع . .

والفاعل ضمير مستتر تقديره أنا (ما) نكرة موصوفة " 3 " في محلّ نصب مفعول به (أحمل) مثل أجد و(كم) ضمير مفعول به (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أحملكم) .

والمصدر المؤوّل (أن تحملهم . . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (أتوك) .

(تولّوا) مثل أتوا (الواو) حاليّة (أعين) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (تفيض) مضارع مرفوع ، والفاعل هي (من الدمع) جارّ

(1 ، 2) في الآية السابقة (91) .

(3) أو اسم موصول في محلّ نصب ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف .

(454/353)

ومجرور تمييز " 1 " ، (حزنا) مفعول لأجله منصوب " 2 " ، (أن) حرف مصدريّ ونصب (لا) نافية (يجدوا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (ما) نكرة موصوفة " 3 " في محلّ نصب مفعول به (ينفقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (ألّا يجدوا . . .) في محلّ نصب مفعول لأجله عامله حزنا . . أو عامله

تفيض " 4 " .

جملة الشرط وفعله وجواب . . . لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " أتوك . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تحملهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " قلت . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم " 5 " .

وجملة : " لا أجد . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " أحملكم عليه " في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

وجملة : " تولّوا . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

---

(1) وهو محوّل من الفاعل أي يفيض دمعها ، وقد يكون (من) لابتداء الغاية فيتعلّق المجرور به بـ (تفيض) .

(2) أو مصدر في موضع الحال . . أو مفعول مطلق لفعل محذوف .

(3) أو اسم موصول في محلّ نصب . . . والجملة صلة ، والعائد محذوف أي ما ينفقونه .

(4) يجوز أن يكون المصدر المؤوّل في محلّ جرّ بلام محذوفة أو من . . متعلّق بـ (تفيض) .

(5) يجوز أن تكون جملة (تولّوا . .) هي الجواب ، وجملة قلت في محلّ نصب حال بتقدير (قد) .

وجملة : " أعينهم تفيض . . . " في محلّ نصب حال .

وجملة : " تفيض . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أعين) .

وجملة : " يجدوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " ينفقون " في محلّ نصب نعت لـ (ما) .

الفوائد

خروج (إذا) عن الاستقبال :

الأغلب في إذا أنها تفيد مع فعلها معنى الاستقبال ، ولكنها تخرج أحيانا عن هذا المعنى كما ورد في هذه الآية الكريمة ، وقد بيّن ذلك ابن هشام في المغني فقال :

تخرج إذا عن الاستقبال ، وذلك في وجهين :

1 - أن تجيء للماضي ، وذلك كقوله تعالى وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ وقوله تعالى وَإِذا رَأَوْا تِجارَةً أَوْ لَهْواً انْفَضُّوا إِلَيْها .

2 - أن تجيء للحال وذلك بعد القسم : نحو قوله تعالى وَاللَّيْلِ إِذا يَغْشى وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ،

فقد دلت هنا على الحال .

[سورة التوبة (9) : آية 93]

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93)

الإعراب :

(إنّما) كافّة ومكفوفة (السبيل) مبتدأ مرفوع (على) حرف جرّ (الذين) موصول في محلّ جرّ متعلّق بخبر المبتدأ (يستأذنون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل و(الكاف) ضمير في محلّ

نصب مفعول به (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أغنياء) خبر مرفوع ومنع من التنوين لأنه ملحق بألف التأنيث الممدودة فهو على وزن أفعلاء (رضوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . .

والواو فاعل (الباء) حرف جرّ (أن) حرف ناصب ومصدريّ (يكونوا) مضارع ناقص - ناسخ - منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو اسمها (مع) ظرف منصوب متعلّق بخبر يكونوا (الخوالف) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (أن يكونوا) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (رضوا) (الواو) عاطفة (طبع) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (طبع) ، و(هم) ضمير متّصل في محلّ جرّ مضاف إليه (الفاء) عاطفة لربط المسبّب بالسبب (هم) منفصل مبتدأ (لا) نافية (يعلمون) مثل يستأذنون .

جملة : " السبيل على الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يستأذنونك . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " هم أغنياء " في محلّ نصب حال .

وجملة : " رضوا . . " لا محلّ لها استئناف في معرض التعليل . . أو هي استئناف بيانيّ .

وجملة : " يكونوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " طبع اللَّه . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة رضوا . .

وجملة : " هم لا يعلمون " لا محلّ لها معطوفة على جملة طبع اللَّه .

وجملة : " لا يعلمون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة التوبة (9) : آية 94]

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

الإعراب :

(457/353)

(يعتذرون) مثل يستأذنون " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يعتذرون) ، (إذا) ظرف للمستقبل مجرّد من الشرط في محلّ نصب متعلّق بـ (يعتذرون) ، (رجعتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير فاعل (إليهم) مثل إليكم متعلّق بـ (رجعتم) ، (قل) فعل أمر ، والفاعل أنت (لا) ناهية جازمة (تعتذروا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (لن) حرف نفي ونصب (نؤمن) مضارع منصوب ، والفاعل ضمير مستتر تقديره نحن (لكم) مثل إليكم متعلّق بـ (نؤمن) " 2 " ، (قد) حرف تحقيق (نبأ) فعل ماض و(نا) ضمير مفعول به ، والفاعل لفظ الجلالة (اللَّه) مرفوع (من أخبار) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت للمفعول الثاني المقدّر أي طرفا من أخباركم و(كم) ضمير مضاف إليه " 3 " ، (الواو) عاطفة (السين) حرف استقبال (يرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (اللَّه) مثل الأخير (عمل) مفعول به منصوب و(كم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة مرفوع

و(الهاء) مضاف إليه (ثمّ) حرف عطف (تردّون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو ضمير مبنيّ في محلّ رفع نائب الفاعل (إلى عالم) جارّ ومجرور متعلّق ب

---

(1) في الآية (93) من هذه السورة. [. . . . .]

(2) قيل (اللام) حرف جرّ زائد و(كم) ضمير مفعول به عامله نؤمن بمعنى نصدّق.

(3) وإذا كان الفعل متعدّيا لثلاثة مفعولات كان المفعول الثالث محذوفا تقديره مثبتة.

(458/353)

(تردّون) (الغيب) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (الشهادة) معطوف على الغيب مجرور مثله (الفاء) عاطفة (ينبّئ) مضارع مرفوع و(كم) ضمير مفعول به (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " ، (كنتم) فعل ماض ناقص - ناسخ - مبنيّ على السكون. و(تم) ضمير في محلّ رفع اسم كان وتعلمون مثل يتعذرون.

وجملة: " يعتذرون إليكم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: " رجعتم إليهم " في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: " قل . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ.

وجملة : " لا تعتذروا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لن نؤمن لكم " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " قد نبّأنا اللَّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة لانتفاء الإيمان والتصديق .

وجملة : " سيرى اللَّه " لا محلّ لها معطوفة على جملة نبأنا . . .

وجملة : " تردّون " لا محلّ لها معطوفة على جملة سيرى اللَّه . . .

وجملة : " ينبّئكم " لا محلّ لها معطوفة على جملة تردّون .

وجملة : " كنتم تعملون " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " تعملون " في محلّ نصب خبر كنتم .

والمصدر المؤوّل (ما كنتم . . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (ينبّئكم) .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة صلة (ما) ، والعائد محذوف أي تعملونه .

(459/353)

[سورة التوبة (9) : آية 95]

سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (95)

الإعراب :

(السين) حرف استقبال (يحلفون) مثل يستأذنون " 1 " ، (باللَّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يحلفون) ، (اللام) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يحلفون) ، (إذا انقلبتم إليهم) مثل إذا رجعتم إليهم " 2 " ، (اللام) لام التعليل (تعرضوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تعرضوا) .

والمصدر المؤوّل (أن تعرضوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (يحلفون) .

(الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (أعرضوا) فعل أمر مبني على حذف النون . . والواو فاعل (عنهم) مثل الأول متعلّق بـ (أعرضوا) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (رجس) خبر إنّ مرفوع (الواو) عاطفة (مأوى) مبتدأ مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (جهنّم) خبر المبتدأ مرفوع ، ومنع من التنوين للعلميّة والتأنيث (جزاء) مفعول لأجله منصوب " 3 " ، (بما كانوا يكسبون) مثل بما كنتم تعملون " 4 " .

---

(1) في الآية (93) من هذه السورة .

(2) في الآية السابقة (94) .

(3) لأن في قوله مأواهم جهنم معنى الاستقرار . . أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف .

(4) في الآية السابقة .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (جزاء) .

جملة : " سيحلفون . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ " 1 " .

وجملة : " انقلبتم . . . " في محلّ جر مضاف إليه .

وجملة : " تعرضوا عنهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " أعرضوا عنهم . . . " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن حلفوا لكم . . فأعرضوا . . .

وجملة : " إنّهم رجس . . . " لا محلّ لها تعليل لأمر الإعراض .

وجملة : " مأواهم جهنّم " لا محلّ لها معطوفة على جملة إنّهم رجس .

وجملة : " كانوا يكسبون . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يكسبون " في محلّ نصب خبر كانوا .

[سورة التوبة (9) : آية 96]

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (96)

الإعراب :

(يحلفون لكم) مثل سيحلفون لكم " 2 " ، (لترضوا عنهم) مثل لتعرضوا عنهم " 3 " .

(الفاء) استئنافيّة (إن) حرف شرط جازم (ترضوا) مضارع مجزوم فعل الشرط وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (عنهم) مثل السابق " 4 " متعلّق بـ (ترضوا) ، (الفاء) رابطة لجواب الشرط (إنّ) مثل السابق " 5 " ،

---

(1) يجوز أن تكون بدلا من جملة يعتذرون في الآية السابقة .

(2 ، 3 ، 4 ، 5) في الآية السابقة .

(461/353)

(اللَّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (لا) نافية (يرضى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف ، والفاعل هو (عن القوم) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرضى) ، (الفاسقين) نعت للقوم مجرور وعلامة الجر الياء .

جملة : " يحلفون . . . " لا محلّ لها بدل من جملة سيحلفون في الآية السابقة .

وجملة : " ترضوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إن ترضوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة . . وجواب الشرط محذوف أي لا ينفعهم رضاكم .

وجملة : " إنّ اللَّه لا يرضى . . " لا محلّ لها تعليل للجواب المقدّر .

وجملة : " لا يرضى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

[سورة التوبة (9) : آية 97]

الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97)

الإعراب :

(الأعراب) مبتدأ مرفوع (أشدّ) خبر مرفوع (كفرا) تمييز منصوب (الواو) عاطفة (نفاقا) معطوف على التمييز منصوب (الواو) عاطفة (أجدر) معطوف على أشدّ مرفوع (أن) حرف مصدريّ (لا) حرف نفي (يعلموا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (حدود) مفعول به منصوب (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (أنزل) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على رسول) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنزل) ، و(الهاء) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (ألّا يعلموا . .) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (أجدر) أي أجدر بألّا يعلموا . . .

(الواو) استئنافيّة (اللَّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (عليم) خبر مرفوع (حكيم) خبر ثان مرفوع.

جملة: "الأعراب أشدّ كفرا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

وجملة: "يعلموا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن).

وجملة: "أنزل اللَّه" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "اللَّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة.

الصرف:

(أجدر)، اسم تفضيل من فعل جدر يجدر باب نصر وزنه أفعل وهو بمعنى أحقّ وأولى . . وقد نبه الراغب على أصل اشتقاقه وأنه من الجدار أي الحائط، ولكنّ الجمل يقول: والذي يظهر أن اشتقاقه من الجدر أي أصل الشجرة فكأنه ثابت كثبوت الجدر . .

[سورة التوبة (9): آية 98]

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98)

الاعراب:

(الواو) عاطفة (من الأعراب) جارّ ومجرور نعت لخبر مقدّم محذوف أي بعض من الأعراب (من) اسم موصول مبني في محل رفع مبتدأ مؤخّر (يتّخذ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو وهو العائد (ما) موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (ينفق) مثل يتّخذ ، والعائد محذوف أي ينفقه (مغرما) مفعول به ثان منصوب (الواو) عاطفة (يتربّص) مثل يتّخذ (الباء) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتربّص) ، (الدوائر) مفعول به منصوب (عليهم) مثل بكم متعلّق بخبر

مقدّم (دائرة) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السوء) مضاف إليه مجرور (واللَّه سميع عليم) مثل اللَّه عليم حكيم " 1 " .

جملة : " من الأعراب من . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الأعراب أشدّ . . " 2 "

وجملة : " يتّخذ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " ينفق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " يتربص . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتّخذ .

وجملة : " عليهم دائرة . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة دعائيّة .

وجملة : " اللَّه سميع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مغرما) ، مصدر ميميّ من غرم يغرم باب فرح وزنه مفعل بفتح الميم والعين لأن عينه في

المضارع مفتوحة (الدوائر) ، جمع الدائرة . . انظر الآية (52) من سورة المائدة .

(السوء) ، الفساد أو مصدر معنى المساءة ، وزنه فعل بفتح الفاء .

[سورة التوبة (9) : آية 99]

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (من الأعراب من يؤمن) مثل نظيرها " 3 " ، (باللَّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يؤمن) ، (الواو) عاطفة (اليوم) معطوف على لفظ الجلالة مجرور (الآخر) نعت لليوم مجرور (ويتّخذ . . . قربات)

---

(1) في الآية السابقة (97) .

(2 ، 3) في الآية السابقة (98) .

مثل نظيرها " 1 " ، وعلامة نصب قربات الكسرة (عند) ظرف منصوب متعلّق بـ (يتّخذ) " 2 " ، (اللَّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (صلوات) معطوف على

قربات منصوب ، وعلامة النصب مثله " 3 " ، (الرسول) مضاف إليه مجرور . (ألا) أداة تنبيه (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(ها) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (قربة) خبر مرفوع (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لقربة (السين) حرف استقبال (يدخل) مضارع مرفوع (هم) ضمير مفعول به (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (في رحمة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يدخل) ، و(الهاء) مضاف إليه (إنّ) مثل الأول (اللَّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (غفور) خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

جملة : " من الأعراب من يؤمن) لا محلّ لها معطوفة على جملة من الأعراب من " 4 " .

جملة : " يؤمن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يتّخذ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يؤمن . .

وجملة : " ينفق . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (ما) .

وجملة : " إنّها قربة . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سيدخلهم اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " سيدخلهم اللَّه . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ أو تعليليّة .

وجملة : " أنّ اللَّه غفور . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(قربات) ، جمع قربة ، اسم لما يتقرّب به إلى اللَّه تعالى وزنه فعلة بضمّ فسكون أو بضمّتين ،

ووزن قربات فعلات بضمّتين فحسب

(1 ، 4) في الآية السابقة (98) .

(2) أو متعلّق بقربات . . . أو هو نعت لقربات .

(3) يجوز أن يكون معطوفا على (ما ينفق) ، أي ويتّخذ صلوات الرسول قربة .

[. . . . .]

(464/353)

الفوائد

(عند) وأحوالها ورد في هذه الآية قوله تعالى وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ و(عند) في هذه الآية ، ظرف مكان متعلق بصفة محذوفة لـ (قربات) تقديرها (قربات كائنة عند اللَّه) . وسنوضح فيما يلي أشياء جديدة ، كثيرا ما تخفى على الدارس ، وقد أورد ذلك ابن هشام في المغني فقال :

1 - هي اسم للحضور الحسي ، كقوله تعالى فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ والحضور المعنوي كقوله تعالى : قالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتابِ ، وتفيد القرب كقوله تعالى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى .

2 - ولا تقع إلا ظرفا أو مجرورة بمن ، وقول العامة ذهبت إلى عنده ، لحن (أي خطأ) وتأتي ظرف مكان كما ورد في الآية الكريمة ، وتأتي للزمان مثل (الصبر عند الصدمة الأولى) و(جئت عند طلوع الفجر) .

3 - هناك كلمتان تأتيان بمعنى (عند) وهما :

(465/353)

آ - لدى : مطلقا ، كقوله تعالى إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَناجِرِ وَأَلْفَيا سَيِّدَها لَدَى الْبابِ ، وَما كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .

ب - لدن : وتأتي إذا كان المحل ابتداء غاية مثل : جئت من لدنه وقد اجتمعت عند ولدن في قوله تعالى : آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ، وعند ، ولدن تجران أما (لدى) فلا يجوز جرها .

[سورة التوبة (9) : آية 100]

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (السابقون) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع

الواو (الأولون) نعت للمبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الواو " 1 " ، (من المهاجرين) جارّ ومجرور حال من المبتدأ " 2 " وعلامة الجرّ الياء (الواو) عاطفة (الأنصار) معطوف على المهاجرين مجرور (الواو) عاطفة (الذين) موصول في محلّ جرّ معطوف على المهاجرين (اتّبعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل و(هم) ضمير مفعول به وهو عائد على المهاجرين والأنصار (بإحسان) جارّ ومجرور حال من فاعل اتّبعوهم (رضي) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (عن) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (رضي) ، (الواو) عاطفة (رضوا) مثل اتّبعوا (عنه) مثل عنهم متعلّق بـ (رضوا) ، (الواو) عاطفة (أعدّ) مثل رضي والفاعل هو (لهم) مثل عنهم متعلّق بـ (أعدّ) ، (جنّات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (تجري) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء (تحت) ظرف مكان منصوب متعلّق بـ (تجري) و(ها) ضمير مضاف إليه (الأنهار) فاعل تجري مرفوع (خالدين . . . الفوز العظيم) مرّ إعرابها " 3 " .

جملة : " السابقون الأولون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 4 " .

وجملة : " اتّبعوهم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " رضي اللَّه عنهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (السابقون) .

وجملة : " رضوا عنه " في محلّ رفع معطوفة على جملة رضي اللَّه .

---

(1) أو هو خبر للمبتدأ أي السابقون هم الأولون من أهل الملّة ، وجملة رضي اللَّه استئناف .

(2) أو هو خبر المبتدأ .

(3) في الآية (89) من هذه السورة .

(4) أو معطوفة بالواو على استئناف متقدّم .

(466/353)

وجملة : " أعدّ . . . " لا محلّ رفع معطوفة على جملة رضي اللَّه .

وجملة : " تجري . . . الأنهار " في محلّ نصب نعت لجنّات .

وجملة : " ذلك الفوز . . . " لا محلّ لها في حكم التعليل .

الصرف :

(السابقون) ، جمع السابق ، اسم فاعل من سبق الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(المهاجرين) ، جمع المهاجر ، اسم فاعل من هاجر الرباعيّ ، وزنه مفاعل بضمّ الميم وكسر العين .

الفوائد

السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ اختلف العلماء في السابقين الأولين ، فقال سعيد بن المسيب ، وقتادة وابن سيرين وجماعة : هم الذين صلوا إلى القبلتين ، وقال عطاء بن أبي رباح : هم أهل بدر ، وقال الشعبي : هم أهل بيعة الرضوان بالحديبية ، وقال محمد بن كعب القرظي : هم جميع الصحابة لأنهم حصل لهم السبق بصحبة رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم . واختلف العلماء في أول الناس إسلاما بعد اتفاقهم على أن خديجة أول الخلق إسلاما وأوّل من صلى مع رسول صلّى اللّه عليه وآله وسلم . فقال بعض العلماء : أول من آمن بعد خديجة علي بن أبي طالب . وهذا قول جابر بن عبد اللّه . وقيل : إنه أسلم ابن عشر سنين ، وقيل أقل من ذلك . وقال بعضهم : أول من أسلم بعد خديجة أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه ، وهذا مروي عن علي ، وهذا قول ابن عباس والنخعي والشعبي ، وقال الزهري وعروة بن الزبير :

(467/353)

أول من أسلم بعد خديجة زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم ، وكان اسحق بن إبراهيم الحنظلي يجمع بين هذه الروايات فيقول : أول من أسلم من الرجال أبو بكر ، ومن النساء خديجة ، ومن الصبيان علي بن أبي طالب ، ومن العبيد زيد بن حارثة

رضي اللّه تعالى عنهم .

[سورة التوبة (9) : الآيات 101 إلى 102]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102)

الإعراب :

(468/353)

(الواو) عاطفة (من) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بخبر مقدّم (حول) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة من و(كم) ضمير مضاف إليه (من الأعراب) جارّ ومجرور متعلّق بحال من الموصول (منافقون) مبتدأ مؤخّر مرفوع وعلامة الرفع الواو (الواو) عاطفة (من أهل) جارّ ومجرور متعلّق بما تعلّق به ممّن ، فهو خبر معطوف على الأول " 1 " ، (المدينة) مضاف إليه مجرور (مردوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (على النفاق) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مردوا) ، (لا) نافية (تعلم) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل ضمير مستتر تقديره أنت (نحن) ضمير منفصل في

محلّ رفع مبتدأ (نعلمهم) مثل تعلمهم والفاعل نحن ، والمفعول الثاني مقدّر أي نعلمهم منافقين (السين) حرف استقبال (نعذّبهم) مثل تعلمهم والفاعل نحن (مرّتين) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب وعلامة النصب الياء (ثمّ) حرف عطف (يردّون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . . والواو نائب الفاعل (إلى عذاب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يردّون) ، (عظيم) نعت لعذاب مجرور .

جملة : "ممّن . . . منافقون " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة في الآية السابقة .

---

(1) أو هو خبر مقدّم لمبتدأ مؤخّر تقديره قوم مردوا .

(469/353)

وجملة : " مردوا . . . " لا محلّ لها استئناف مؤكّد لمضمون ما سبق " 1 " .

وجملة : " لا تعلمهم " في محلّ نصب حال من فاعل مردوا " 2 " .

وجملة : " نحن نعلمهم " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " نعلمهم " في محلّ رفع خبر نحن .

وجملة : " سنعذّبهم . . . " لا محلّ لها استئناف بيانيّ .

وجملة : " يردّون . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة سنعذّبهم .

(الواو) عاطفة (آخرون) معطوفة على (منافقون) مرفوع " 3 " وعلامة الرفع الواو

(اعترفوا) مثل مردوا (بذنوب) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اعترفوا) ، و(هم) مضاف إليه

(خلطوا) مثل مردوا (عملا) مفعول به منصوب (صالحا) نعت منصوب (الواو) عاطفة

(آخر) معطوف على (عملا) منصوب ومنع من التنوين لأنه صفة على وزن أفعل (سيّئا)

نعت لآخر منصوب (عسى) فعل ماض جامد ناقص – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم

عسى مرفوع (أن) حرف مصدريّ (يتوب) مضارع منصوب بأن ، والفاعل هو (على)

حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يتوب) .

والمصدر المؤوّل (أن يتوب) في محلّ نصب خبر عسى .

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللّه) لفظ الجلالة اسم إنّ منصوب (غفور) خبر إنّ

مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

---

(1) يجوز أن تكون في محلّ رفع نعت لـ (منافقون) . . أو هي نعت لمبتدأ محذوف تقديره قوم والخبر هو الجارّ والمجرور قبله (من أهل المدينة) ، ويصبح العطف حينئذ من عطف الجمل .

(2) أو في محلّ رفع نعت ثان لـ (منافقون) .

(3) في الآية السابقة (101) . . ويجوز أن يكون مبتدأ موصوف بجملة (اعترفوا) خبره جملة خلطوا .

وجملة : " اعترفوا . . . " في محلّ رفع نعت لـ (آخرون) .

وجملة : " خلطوا . . . " في محلّ رفع نعت ثان لـ (آخرون) " 1 " .

وجملة : " عسى اللّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتوب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ .

وجملة : " إنّ اللّه غفور " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(سيّئا) ، صفة مشتقّة من ساء يسوء ، وزنه فيعل ، وفيه إعلال بالقلب أصله سيوئ بسكون الياء وتحريك الواو بالكسر ، فلمّا اجتمعت الياء والواو والأولى ساكنة قلبت الواو ياء وأدغمت مع الأولى فأصبح سيّئا .

[سورة التوبة (9) : آية 103]

خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103)

الإعراب :

(خذ) فعل أمر ، والفاعل أنت (من أموال) جارّ ومجرور متعلّق بـ (خذ) ، و(هم) ضمير مضاف إليه (صدقة) مفعول به منصوب (تطهّر) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به ، والفاعل هي " 2 " ، (الواو) عاطفة (تزكّيهم) مثل تطهّرهم والفاعل أنت (الباء) حرف جرّ و(ها) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تزكّي) ، (الواو) عاطفة (صلّ) فعل أمر مبنيّ على حذف حرف العلّة (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (صلّ) ، (أنّ) مثل السابق ، (صلاة) اسم إنّ منصوب و(الكاف) ضمير مضاف إليه (سكن) خبر مرفوع (لهم) مثل بها متعلّق بـ (سكن) ، (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (سميع) خبر مرفوع (عليم) خبر

---

(1) أو هي خبر للمبتدأ آخرون .

(2) أو أنت أي تطهّرهم أنت (والجملة حال من فاعل خذ) .

(471/353)

ثان مرفوع .

جملة : " خذ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " تطهّرهم " في محلّ نصب نعت لصدقة " 1 " .

وجملة : " تزكّيهم بها " في محلّ نصب معطوفة على جملة تطهّرهم " 2 " .

وجملة : " صلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة خذ .

وجملة : " إنّ صلاتك سكن . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " اللّه سميع . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(صلّ) ، فيه إعلال بالحذف لمناسبة البناء ، مضارعه يصلّي ، وزنه فعّ .

(سكن) ، انظر الآية (96) من سورة الأنعام ، وسكن فعل بفتحتين بمعنى مفعول أي مسكونة ، وهو هنا كناية عن الاطمئنان والرحمة .

[سورة التوبة (9) : آية 104]

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (لم) حرف نفي وجزم (يعلموا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون والواو فاعل (أنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (اللّه) لفظ الجلالة اسم أنّ منصوب (هو)

---

(1) والرابط مقدّر إذا كان الفاعل أنت أي تطهرهم بها . . ويجوز أن تكون حالا من

ضمير خذ .

(2) سواء أكانت جملة تطهّرهم نعتا أم حالا .

(472/353)

ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ " 1 " ، (يقبل) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (التوبة) مفعول به منصوب (عن عباد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقبل) بتضمينه معنى يتجاوز " 2 " ، و(الهاء) مضاف إليه (الواو) عاطفة (يأخذ) مثل يقبل (الصدقات) مفعول به منصوب وعلامة النصب الكسرة (الواو) عاطفة (أنّ اللّه هو) مثل الأولى (التوّاب) خبر أنّ مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللّه . . يقبل) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يعلموا .

والمصدر المؤوّل الثاني (أنّ اللّه . . التواب) في محلّ نصب معطوف على المصدر المؤوّل الأول ومؤكّد لمعناه .

جملة : " لم يعلموا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " هو يقبل . . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " يقبل . . . " في محلّ رفع خبر هو .

وجملة: "يأخذ . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة يقبل.

البلاغة

الاستعارة: في قوله تعالى " وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ " أي يقبلها قبول من يأخذ شيئا ليؤدي بدله، فالأخذ هنا استعارة للقبول، وجوز أن يكون اسناد الأخذ إلى اللّه تعالى مجازا مرسلا.

---

(1) لا يعرب الضمير هنا فصلا لأن ما بعده لا يحتمل الوصفيّة أو لا يوهم الوصفيّة . . أما الضمير الثاني فيجوز إعرابه فصلا لأن (التوّاب) يحتمل الوصفيّة.

(2) جاء في حاشية الجمل ما يلي: " عن عباده متعلّق بـ (يقبل)، وإنما تعدّى بعن لأن معنى من ومعنى عن متقاربان، قال ابن عطيّة: وكثيرا ما يتوصّل في موضع واحد بهذه وبهذه نحو لا صدقة إلّا عن غنى ومن غنى " أ ه. [. . . . .]

(473/353)

[سورة التوبة (9): آية 105]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105)

الإعراب:

(الواو) استئنافيّة (قل) مثل خذ " 1 " ، (اعملوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . .

والواو فاعل (الفاء) تعليليّة (سيرى اللّه . . .

كنتم تعملون) مرّ إعراب نظيرها مفردات وجملا " 2 " و(المؤمنون) معطوف بالواو على

لفظ الجلالة مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " قل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اعملوا . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " سيرى اللّه . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ " والإنباء مجاز عن المجازاة أو كناية ، أي

يجازيكم حسب ذلك إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ففي الآية وعد ووعيد .

[سورة التوبة (9) : آية 106]

وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (آخرون) مبتدأ مرفوع ، وعلامة الرفع الواو (مرجون) نعت مرفوع وعلامة

الرفع الواو (لأمر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (مرجون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور

(إمّا) حرف إبهام - أو شك - (يعذّب) مضارع مرفوع و(هم) ضمير مفعول به (الواو)

عاطفة (إمّا

---

(1) في الآية (103) من هذه السورة .

(2) في الآية (94) من هذه السورة .

(474/353)

يتوب) مثل الأول ومعطوف عليه ، وفاعل الفعلين ضمير هو (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (يتوب) ، (واللَّه عليم حكيم) مثل واللَّه سميع عليم " 1 " .

جملة : " آخرون . . إمّا يعذّبهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة قل . . " 2 " .

وجملة : " يعذّبهم " في محلّ رفع خبر المبتدأ (آخرون) .

وجملة : " يتوب عليهم " في محلّ رفع معطوفة على جملة يعذّبهم .

وجملة : " اللَّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(مرجون) ، جمع مرجا ، وهو مخفّف عن مرجأ ، اسم مفعول من الرباعيّ أرجى ، وزنه مفعل بضمّ الميم وفتح العين . . ومرجون فيه إعلال بالحذف لمناسبة الجمع ، وأصله مرجيون ، حيث نقلت ضمّة الياء إلى الجيم فالتقى ساكنان ، حذفت الياء لالتقاء

الساكنين.

[سورة التوبة (9) : آية 107]

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر لخبر مقدّم أي منهم الذين اتّخذوا مسجدا " 3 "، (اتّخذوا) فعل

---

(1) في الآية (103) من هذه السورة.

(2) في الآية السابقة، أو هي استئنافيّة أصلا.. ويجوز في جملة: يعذّبهم أن تكون خبرا ثانيا إذا كان (مرجون) خبرا أول.

(3) أو خبره: في من وصفنا الذين... والزمخشريّ جعل الموصول في محلّ نصب على الاختصاص.

ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (مسجدا) مفعول به منصوب (ضرارا) مفعول لأجله منصوب " 1 " ، (الواو) عاطفة في المواضع الثلاثة (كفرا ، تفريقا ، إرصادا) أسماء معطوفة على (ضرارا) منصوبة (بين) ظرف منصوب متعلّق بـ (تفريقا) ، (المؤمنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء (اللام) حرف جرّ (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (إرصادا) ، (حارب) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد " 2 " (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (رسول) معطوف على لفظ الجلالة منصوب و(الهاء) ضمير مضاف إليه (من) حرف جرّ (قبل) اسم مبنيّ على الضمّ في محلّ جرّ متعلّق بـ (حارب) ، (الواو) عاطفة (اللام) لام القسم لقسم مقدّر (يحلفنّ) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون ، وقد حذفت لتولي الأمثال ، والواو المحذوفة لالتقاء الساكنين فاعل . . و(النون) نون التوكيد (ان) نافية (أردنا) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(نا) ضمير فاعل (إلّا) أداة حصر (الحسنى) مفعول به منصوب ، وهو نعت لمنعوت محذوف أي إلّا الخصلة الحسنى (الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يشهد) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (اللام) المزحلقة (كاذبون) خبر إنّ مرفوع وعلامة الرفع الواو .

جملة : " (منهم) الذين . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة آخرون " 3 " . .

---

(1) أو مصدر في موضع الحال . . أو مفعول به ثان للفعل اتّخذوا . . وأجاز بعضهم –

غير أبي حيّان – أن يكون مفعولا مطلقا لفعل محذوف أي يضارّون المؤمنين ضرارا .

(2) وهو أبو عامر الراهب الذي حارب الرسول (ص) .

(3) في الآية السابقة (106) .

(476/353)

وجملة : " اتّخذوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " حارب . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " يحلفنّ . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " إن أردنا . . . " لا محلّ لها جواب قسم معبّر عنه بقوله يحلفنّ " 1 " .

وجملة : " اللّه يشهد . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يشهد . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

وجملة : " إنّهم لكاذبون " في محلّ نصب مفعول به عامله يشهد ، وقد كسرت همزة (إنّ) لمجيء اللام في خبرها .

الصرف :

(تفريقا) ، مصدر قياسيّ لفعل فرّق الرباعيّ ، وزنه تفعيل .

(إرصادا) ، مصدر قياسيّ لفعل أرصد الرباعيّ ، وزنه إفعال .

الفوائد

قصة مسجد الضّرار نزلت هذه الآية في جماعة من المنافقين بنوا مسجدا يضارّون به مسجد قباء .

وكانوا اثني عشر رجلا من أهل النفاق ، بنوا هذا المسجد ضرارا أي لإيقاع الضرر بين المسلمين) وكفرا (أي ليكفروا فيه باللّه ورسوله) ، ولتفريق الكلمة . و

كان يصلي بهم فيه مجمع بن جارية وكان شابا يقرأ القرآن ، لكنه لم يعلم بأمرهم وخبثهم ، فلما فرغوا من بنائه أتوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا : يا رسول اللّه : إنا قد بنينا مسجدا لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة ، وإنا نحب أن تأتينا وتصلي فيه ، وتدعو بالبركة ، فقال له صلّى اللّه عليه وآله وسلم : إني على جناح سفر ، ولو قدمنا إن شاء اللّه تعالى أتينا

---

(1) أو هي جواب قسم مقدّر آخر ، وجملة القسم الثانية مقول القول لقول مقدّر – وهو حال من فاعل يحلفنّ – أي يحلفنّ قائلين واللّه إن أردنا إلّا الحسنى . . .

فصلينا فيه . ولما انصرف رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم راجعا من تبوك نزل بذي أوان ، وهو موضع قريب من المدينة ، فأتاه المنافقون وسألوه أن يأتي مسجدهم ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فأنزل اللّه هذه الآية ، فدعا رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم مالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا ، فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه . فخرجوا مسرعين ، حتى دخلوا المسجد ، وفيه أهله ، فأحرقوه وجعلوه إنقاضا ، وتفرق عنه أهله .

ففي هذه القصة عبرة عظيمة كيف أن أعداء الدين يحاربون الدين من خلال الدين ومن خلال بناء المساجد ، فليحذر المسلمون ولا ينخدعوا بالمظاهر .

[سورة التوبة (9) : آية 108]

لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108)

الإعراب :

(لا) ناهية جازمة (تقم) مضارع مجزوم ، والفاعل أنت (في) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محل جرّ متعلّق بـ (تقم) ، (أبدا) ظرف زمان منصوب متعلّق بـ (تقم) ، (اللام) لام الابتداء (مسجد) مبتدأ مرفوع (أسّس) فعل ماض مبنيّ للمجهول ، ونائب الفاعل ضمير مستتر تقديره هو (على التقوى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسس) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة

على الألف (من أول) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسّس) ، (يوم) مضاف إليه مجرور (أحقّ) خبر مرفوع (أن) حرف مصدريّ ونصب (تقوم) مضارع منصوب ، والفاعل أنت (فيه) مثل الأول ، متعلّق بـ (تقوم) .

والمصدر المؤوّل (أن تقوم) في محلّ جرّ بباء محذوفة متعلّق بـ (أحقّ) أي بأن تقوم .

(فيه) مثل الأول متعلّق بخبر مقدّم (رجال) مبتدأ مؤخّر مرفوع (يحبّون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أن) مثل الأول (يتطهّروا) مضارع

(478/353)

منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل .

والمصدر المؤوّل (أن يتطهّروا) في محلّ نصب مفعول به عامله يحبّون .

(الواو) استئنافيّة (اللّه) لفظ الجلالة مبتدأ مرفوع (يحبّ) مضارع مرفوع ، والفاعل هو (المطّهّرين) مفعول به منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " لا تقم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لمسجد أسّس . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " أسّس . . . " في محلّ رفع نعت لمسجد .

وجملة : " تقوم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " فيه رجال . . . " لا محلّ لها تعليليّة " 1 " .

وجملة : " يحبّون " في محلّ رفع نعت لرجال .

وجملة : " يتطهّروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) الثاني .

وجملة : " اللّه يحبّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يحبّ . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الصرف :

(المطّهّرين) ، جمع المطّهّر ، اسم فاعل من فعل تطهّر الخماسيّ ، فيه إبدال تاء التفعّل طاء لاقتراب المخرجين ، وزنه متفعّل بضمّ الميم وكسر العين المشدّدة ، والجمع المتفعّلون .

البلاغة

فن الترويد : في قوله تعالى : " أَحَقٌّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ . فِيهِ رِجالٌ " وفن الترويد هو

---

(1) يجوز أن تكون الجملة حالا من الضمير الهاء في (فيه) الأولى ، أو من مسجد لأنه وصف كما يجوز أن يكون نعتا لمسجد .

أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ، ثم يردها بعينها ، ويعلقها بمعنى آخر ، كقوله تعالى : " وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ " فيعلمون الأولى منفية ، والثانية مثبته ، ولكل من المعنيين مناسبة اقتضت ذلك المعنى ، وقوله الذي نحن بصدده ، فإن فيه الأولى متعلقة بتقوم ، وفيه الثانية خبر مقدم . ولكل منهما معنى .

[سورة التوبة (9) : آية 109]

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التقريريّ (الفاء) استئنافيّة " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محل رفع مبتدأ (أسس) فعل ماض ، والفاعل هو وهو العائد (بنيان) مفعول به منصوب و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ مضاف إليه (على تقوى) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أسّس) ، وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بتقوى بتضمينه معنى مخافة (الواو) عاطفة (رضوان) معطوف على تقوى مجرور (خير) خبر المبتدأ من (أم) حرف عطف (من) مثل الأول ومعطوف عليه (أسّس بنيانه على شفا) مثل الأولى نظيرها ، والجارّ متعلّق بالفعل الثاني (جرف) مضاف إليه مجرور (هار) نعت لجرف مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الياء المحذوفة فهو منقوص - أو الكسرة الظاهرة فهو

صحيح – (الفاء) عاطفة (انهار) ، مثل أسّس ، والفاعل هو أي البنيان أو الجرف الهار (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (أنهار) " 2 " (في نار)

---

(1) هي عاطفة على مقدّر عند جماعة المعربين ، أي : أبعد ما علم حالهم فمن أسّس . . . ، ولكن ليس من ضرورة لذلك .

(2) هذا إذا كانت الباء للتعدية . . أو متعلّق بمحذوف حال إذا كانت الباء للمصاحبة .

(480/353)

جارّ ومجرور متعلّق بـ (أنهار) ، (جهنّم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (الواو) استئنافيّة (اللّه لا يهدي القوم) مثل يحبّ المطّهّرين " 1 " ، و(لا) نافية (الظالمين) نعت للقوم منصوب وعلامة النصب الياء .

جملة : " من أسّس . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " أسّس . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أسّس (الثانية) " لا محلّ لها صلة الموصول (من) الثانية .

وجملة : " أنهار . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة أسّس الثانية .

وجملة : " اللّه لا يهدي . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " لا يهدي . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (اللّه) .

الصرف :

(البنيان) ، اسم مأخوذ من لفظ المصدر لكلّ ما يبنى ، وزنه فعلان بضمّ الفاء ، وقيل هو جمع واحده بنيانه ، والفعل بنى يبني باب ضرب .

(جرف) ، اسم بمعنى الهوّة أو ما يجرفه السيل من الأودية ، وزنه فعل بضمّتين ، وقد يلفظ بضمّ فسكون في قراءة سبعيّة .

(هار) ، قيل أصله هاير أو هاور لأنه من فعل هار يهور أو هار يهير ، ثمّ قلب حرف العلّة همزة شأن كلّ فعل معتلّ أجوف ، ثمّ حذفت الهمزة اعتباطا - أي لا لسبب معيّن - وحركة الإعراب هي حركة ظاهرة وزنه فال . . وقيل هو منقوص بالقلب حيث قدّمت اللام على العين فوزنه فالع قبل حذف حرف العلّة وفال بعد الحذف . . وقيل أصله هور أو هير فتحرّك حرف العلّة وانفتح ما قبله فقلب ألفا ، فالحركة هي حركة ظاهرة ووزنه فعل بفتح فسكون . وهار معناه ساقط متداع منهال .

---

(1) في الآية السابقة (108) .

البلاغة

1 - الاستعارة التصريحية التحقيقية : في قوله تعالى " أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ " حيث شبه الباطل والنفاق بشفا جرف هار ، في قلة الثبات . ثم أستعير لذلك .

والقرينة هي : وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى .

وقوله تعالى " فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ " ترشيح .

2 - الاستعارة المكنية : في قوله تعالى " أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ " حيث شبهت فيه التقوى بقواعد البناء ، تشبيها مضمرا في النفس .

ودل عليه ما هو من روادفه ولوازمه ، وهو التأسيس والبنيان .

الفوائد

(482/353)

تجسيد المعنويات لقد بلغ القرآن الكريم شأوا بعيدا في إعجاز كلامه ، وتجسيد المعاني .

وفي هذه الآية دليل على ذلك فالإيمان والتقوى مفهومان معنويان ، ولكن القرآن يجسدهما

عند ما يشبههما بالبنيان ، وكذلك الضلال يجسده تعالى بكلمة (بنيان) ثم يعقد مقارنة بين البناءين ، فيقول تعالى : أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ هنا يجسد الإيمان ببنيان أساسه التقوى ورضوان اللّه ، فنتصوره بناء متينا راسخا ، موصولا بعناية اللّه . أما الكافرين ، فبنيانهم على حافة هاوية منهارة . وهنا يبلغ التصوير الفني منتهاه في الإبداع والتخييل والتجسيد ، فها نحن مع بنيان الكفر ، وهو على حافة ، فهو مخلخل يوشك أن يتهاوى والحافة على جانب هاوية سحيقة ، فهو بناء يحمل الخطر والموت ، وإذا بالبناء ينهار بصاحبه في نار جهنم ، فقد لمسنا بالعين والحس والخيال صورة الكفر الفاسدة المتداعية المتساقطة التي لا تستند إلى دعائم ولا تقوم على أساس إلا أساس من التخلخل والتصدع والاهتزاز ، فتتهاوى في الجحيم هنا يبرز فن التعبير والتصوير ، بتجسيده المعاني ضمن إطار من الصور والمرئيات والمحسوسات ، بصورة متكاملة متناهية . وذلك إعجاز كلام اللّه عز وجل وبلوغه المنتهى ، والكمال !

[سورة التوبة (9) : آية 110]

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

الإعراب :

(لا يزال) مضارع ناقص – ناسخ – مرفوع ، و(لا) نافية (بنيان) اسم الفعل الناقص مرفوع و(هم) ضمير مضاف إليه (الذي) موصول مبنيّ في محلّ رفع نعت لبنيان (بنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ المقدّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين . . والواو فاعل (ريبة) خبر الناقص منصوب على حذف مضاف أي سبب ريبة (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لريبة و(هم) مثل الأخير (إلّا) حرف للاستثناء (أن) حرف مصدريّ ونصب (تقطّع) مضارع منصوب – حذف منه إحدى التاءين – (قلوب) فاعل مرفوع و(هم) مثل الأخير .

والمصدر المؤوّل (أن تقطّع . .) في محلّ نصب على الاستثناء بحذف مضاف أي إلّا حال تقطّع قلوبهم أو وقت تقطّع قلوبهم " 1 " .

(واللّه عليم حكيم) مرّ إعرابها " 2 " .

جملة : " لا يزال بنيانهم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " تقطّع قلوبهم " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

وجملة : " اللّه عليم . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(بنوا) ، فيه إعلال بالحذف ، أصله بناوا ، التقى ساكنان ،

---

(1) المستثنى منه محذوف وهو إمّا عموم الأحوال أو عموم الأوقات أي لا يزال ريبة في كلّ حال أو في كلّ وقت إلّا . . . [. . . . . .]

(2) في الآية (106) من هذه السورة.

(484/353)

الألف والواو ، فحذفت الألف وتركت الفتحة على ما قبل الواو دلالة عليها ، وزنه فعوا .

(ريبة) ، أي ريبا صيغة ومعنى ، وهي الشكّ وقلق النفس واضطرابها ، وزنه فعلة بكسر الفاء وسكون العين .

[سورة التوبة (9) : آية 111]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111)

الإعراب :

(إنّ) حرف مشبّه بالفعل - ناسخ - (اللّه) اسم إنّ منصوب (اشترى) فعل ماض مبنيّ

على الفتح المقدّر على الألف ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (من المؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اشترى) ، وعلامة الجرّ الياء ، (أنفس) مفعول به منصوب و(هم) ضمير مضاف إليه (الواو) عاطفة (أموالهم) مثل أنفسهم ومعطوف عليه (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (الجنّة) اسم أنّ منصوب .

والمصدر المؤوّل (أنّ لهم الجنّة) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (اشترى) بتضمينه معنى استبدل " 1 " .

(يقاتلون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يقاتلون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه (الفاء) عاطفة (يقتلون) مثل يقاتلون (الواو) عاطفة (يقتلون) مضارع مبنيّ للمجهول

---

(1) سمّاها أبو البقاء العكبري باء المقابلة أي باستحقاقهم الجنّة .

مرفوع . . والواو نائب الفاعل (عدا) مفعول مطلق لفعل محذوف أي وعدهم وعدا وهو مؤكّد لمضمون ما قبله (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (وعدا) ،

(حقّا) مفعول مطلق لفعل محذوف مؤكّد لمضمون ما قبله أي حقّ ذلك الوعد حقّا " 1 " ، (في التوراة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لـ (وعدا) " 2 " ، (الواو) عاطفة في الموضعين (الإنجيل القرآن) لفظان معطوفان بحرفي العطف على التوراة مجروران (الواو) اعتراضيّة (من) اسم استفهام مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (أوفى) خبر مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الألف (بعهد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوفى) ، و(الهاء) مضاف إليه (من اللَّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (أوفى) ، (الفاء) رابطة لجواب شرط مقدّر (استبشروا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (ببيع) جارّ ومجرور متعلّق بـ (استبشروا) ، و(كم) ضمير مضاف إليه (الذي) موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت لبيع (بايعتم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . وفاعله (به) مثل عليه متعلّق بـ (بايعتم) ، (الواو) استئنافيّة (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(اللام) للبعد و(الكاف) للخطاب (هو) ضمير فصل " 3 " (الفوز) خبر مرفوع (العظيم) نعت للفوز مرفوع .

جملة : " إنّ اللَّه اشترى . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " اشترى . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

---

(1) أجاز أبو البقاء جعله صفة المصدر الأول (وعدا) .

(2) أو متعلّق بـ اشترى) لأن معناه وعدهم اللَّه الجنّة على الجهاد في سبيله . . وكلّ أمّة

أمرت بالجهاد ووعدت عليه بالجنّة لذلك عطف على التوراة (الإنجيل والقرآن) .

(3) أو ضمير منفصل مبتدأ خبره (الفوز) ، والجملة الاسميّة خبر المبتدأ ذلك .

(486/353)

وجملة : " يقاتلون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة بيانيّة " 1 " .

وجملة : " يقتلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقاتلون .

وجملة : " يقتلون " لا محلّ لها معطوفة على جملة يقاتلون .

وجملة : " من أوفى . . . " لا محلّ لها اعتراضيّة .

وجملة : " استبشروا " في محلّ جزم جواب شرط مقدّر أي إن بايعتم اللَّه على الجنّة فاستبشروا ببيعكم . . . .

وجملة : " بايعتم به " لا محلّ لها صلة الموصول (الذي) .

وجملة : " ذلك . . الفوز . . . " لا محلّ لها استئنافيّة تعليليّة .

البلاغة

1 - الاستعارة المكنية والتبعية : في قوله تعالى " إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ " حيث عبر عن قبول اللّه تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي

بذلوها في سبيله تعالى ، وإثابته إياهم بمقابلتها الجنة بالشراء على طريقة الاستعارة التبعية ، ثم جعل المبيع – الذي هو العمدة والمقصد في العقد – أنفس المؤمنين وأموالهم ، والثمن – الذي هو الوسيلة في الصفقة – الجنة .

2 – الالتفات : في قوله تعالى " فَاسْتَبْشِرُوا " التفات إلى الخطاب ، تشريفا لهم على تشريف ، وزيادة لسرورهم على سرور . والاستبشار إظهار السرور ، والسين فيه ليست للطلب كاستوقد وأوقد ، والفاء لترتيب الاستبشار أو الأمر به على ما قبله أي فإذا كان كذلك فسروا نهاية السرور ، وأفرحوا غاية الفرح ، بما فزتم به من الجنة .

3 – التذييل : وهو أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقق ما قبلها وتلك الزيادة على ضربين :

---

(1) ولا يصحّ أن تعرب حالا لأن الجملة خبر في اللفظ إنشاء في المعنى لأنها أمر ، وما كان أمرا لا يكون حالا .

آ – ضرب لا يزيد على المعنى الأول ، وإنما يؤكده ويحققه .

ب – وضرب يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ، ليشتهر المعنى ، لكثرة دورانه على

الألسنة ، وقد جاء في هذه الآية الكريمة الضربان :

آ – قوله تعالى " وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا " فإن الكلام قد تم وكمل قبل ذلك ، ثم أتت جملة التذييل لتحقق ما قبلها وتؤكده .

ب – قوله : " وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ " مخرجا ذلك مخرج المثل فسبحان المتكلم بمثل هذا الكلام .

[سورة التوبة (9) : آية 112]

التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

الإعراب :

(التائبون) خبر لمبتدأ محذوف وجوبا تقديره هم فهو صفة مقطوعة للمدح " 1 " ، وعلامة الرفع الواو (العابدون . . . الآمرون) كلّ لفظ من هذه الألفاظ خبر للمبتدأ المحذوف مرفوع وعلامة الرفع الواو (بالمعروف) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الآمرون) ، (الواو) عاطفة (الناهون) معطوف على (الآمرون) مرفوع وعلامة الرفع الواو (عن المنكر) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الناهون) ، (الواو) عاطفة (الحافظون) معطوف على (الآمرون أو التائبون) مرفوع وعلامة الرفع الواو (لحدود) جارّ ومجرور متعلّق بـ (الحافظون) ، (اللّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) استئنافيّة (بشّر) فعل أمر والفاعل أنت (المؤمنين) مفعول به

منصوب وعلامة النصب الياء .

---

(1) يجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبر متعدّد . . أو مبتدأ موصوف بما بعده خبره الآمرون . . أو محذوف الخبر تقديره من أهل الجنّة . . وقيل يجوز أن يكون (التائبون) بدلا من الضمير في يقاتلون في الآية السابقة .

(488/353)

جملة : " (هم) التائبون . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " بشّر . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

الصرف :

(التائبون) ، جمع التائب اسم فاعل من تاب ، وزنه فاعل ، وقد قلبت عينه همزة لمجيئها بعد ألف فاعل ، وأصله تاوب ، وكذا شأن اسم الفاعل لكلّ فعل معتلّ أجوف حيث يقلب حرف العلّة إلى همزة .

(الحامدون) ، جمع الحامد ، اسم فاعل من حمد الثلاثيّ ، وزنه فاعل .

(السائحون) ، جمع السائح اسم فاعل من ساح الثلاثيّ ، وزنه فاعل وقد عومل معاملة التائب في القلب ، وأصله سايح .

(الآمرون) ، جمع الآمر ، اسم فاعل من أمر الثلاثيّ وزنه فاعل ، وقد أدغمت الهمزة التي هي فاء الكلمة بألف فاعل وفوقها مدّة ، والأصل أمر .

(الناهون) ، جمع الناهي ، اسم فاعل من نهى الثلاثيّ وزنه فاعل ، والناهي فيه إعادة الياء إلى أصلها لانكسار ما قبلها ، وفي (الناهون) إعلال بالحذف لأنه منقوص وأصله الناهيون ، استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت الضمّة إلى الهاء – وهو إعلال بالتسكين – ثمّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين – إعلال بالحذف – .

(الحافظون) ، جمع الحافظ ، اسم فاعل من حفظ الثلاثيّ وزنه فاعل .

[سورة التوبة (9) : آية 113]

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113)

الإعراب :

(ما) نافية (كان) فعل ماض ناقص – ناسخ – (للنبيّ) جارّ ومجرور خبر كان مقدّم (الواو) عاطفة (الذين) موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على النبيّ (آمنوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (أن) حرف مصدريّ ونصب (يستغفروا) مضارع منصوب وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (للمشركين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يستغفروا) ، وعلامة الجرّ الياء .

والمصدر المؤوّل (أن يستغفروا . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

(الواو) حاليّة (لو) حرف شرط غير جازم (كانوا) ماض ناقص . .

(489/353)

واسمه (أولي) خبر كانوا منصوب وعلامة النصب الياء ملحق بجمع المذكّر (قربى) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الكسرة المقدّرة على الألف (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بالاستغفار المنفيّ (ما) حرف مصدريّ " 1 " (تبيّن) فعل ماض (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (تبيّن) ، (أنّ) حرف مشبّه بالفعل و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (أصحاب) خبر مرفوع (الجحيم) مضاف إليه مجرور .

والمصدر المؤوّل (ما تبيّن) في محلّ جرّ مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أنهم أصحاب . .) في محلّ رفع فاعل تبيّن .

جملة : " ما كان للنبيّ . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

جملة : " يستغفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفي (أن) .

وجملة : " كانوا أولي قربى " في محلّ نصب حال من المشركين . .

وجواب لو محذوف دلّ عليه الكلام المتقدّم أي لو كانوا . . . فما كان لهم أن يستغفروا

. . .

---

(1) أو اسم موصول في محلّ جرّ ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف أي الذي تبيّن لهم به ، ولكن تقدير العائد مع الجارّ قليل .

(490/353)

وجملة : " تبيّن . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

الفوائد

تضاربت أقوال المفسرين في أسباب نزول هذه الآية ، فقال قوم :

نزلت في شأن أبي طالب عم النبي صلّى اللّه عليه وسلم ، وذلك

أن النبي صلّى اللّه عليه وسلم أراد أن يستغفر له بعد موته فنهاه اللّه عن ذلك ، ويدل على ذلك ما روي عن سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاء رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم فوجد عنده أبا جهل وعبد اللّه ابن أبي أمية بن المغيرة فقال : أي عم ، قل لا إله إلا اللّه كلمة أحاج لك بها عند اللّه ، فقال أبو جهل وعبد اللّه بن أبي أمية : أ ترغب عن ملة عبد المطلب ، فلم يزل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) يعرضها عليه

ويعودا لتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم به : أنا على ملة عبد المطلب ولم يقل الشهادة ، فقال الرسول (صلّى اللّه عليه وسلم) لأستغفرن لك ما لم أنه عنك فأنزل اللّه تعالى هذه الآية . وقال قتادة قال النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) : لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل اللّه هذه الآية . وروى الطبري بسنده قال : ذكر لنا أن رجالا من أصحاب رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وسلم) قالوا : يا نبي اللّه إن من آبائنا من كان يحسن الجوار ، ويصل الأرحام ، ويفك العاني ويوفي الذمم ، أ فلا نستغفر لهم ؟ فقال النبي (صلّى اللّه عليه وسلم) : بلى واللّه لأستغفرن لأبي كما استغفر إبراهيم لأبيه ، فأنزل اللّه عز وجل هذه الآية .

[سورة التوبة (9) : آية 114]

وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (ما كان) مثل المتقدّمة " 1 " ، (استغفار) اسم كان مرفوع (إبراهيم) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الفتحة (لأبيه) جارّ ومجرور متعلّق باستغفار وعلامة الجرّ الياء و(الهاء) ضمير مضاف إليه

---

(1) في الآية السابقة (113)

(إلّا) أداة حصر (عن موعدة) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر كان " 1 " ، (وعد) فعل ماض و(ها) ضمير مفعول به أوّل (إيّاه) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ نصب مفعول به ثان ، والفاعل هو أي إبراهيم (الفاء) عاطفة (لمّا) ظرف بمعنى حين متضمّن للشرط متعلّق بـ (تبرّأ) ، (تبيّن له أنّه عدو) مثل تبيّن لهم أنّهم أصحاب " 2 " ، (للّه) جارّ ومجرور متعلّق بـ (عدوّ) ، (تبرأ) مثل وعد (منه) مثل له متعلّق بـ (تبرّأ) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – (إبراهيم) اسم إنّ منصوب ومنع من التنوين للعلميّة والعجمة (اللام) المزحلقة للتوكيد (آوّاه) خبر إنّ مرفوع (حليم) خبر ثان مرفوع .

والمصدر المؤوّل (أنّه عدوّ) في محلّ رفع فاعل تبيّن .

جملة : " ما كان استغفار . . . " لا محلّ لها استئنافيّة لتقرير ما سبق " 3 " وجملة : " وعدها إيّاه " في محلّ جرّ نعت لموعدة .

وجملة : " تبيّن أنّه عدوّ " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " تبرّأ منه " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " إنّ إبراهيم لأوّاه " لا محلّ لها تعليليّة .

الصرف :

(استغفار) ، مصدر قياسيّ لفعل استغفر السداسيّ ، وزنه استفعال - على وزن ماضيه بكسر ثالثة وزيادة ألف قبل الآخر - (موعدة) ، مصدر ميميّ لفعل وعد الثلاثيّ ، والتاء زيدت للمبالغة ،

---

(1) أي إلّا ناشئا عن موعدة .

(2) في الآية (113) من هذه السورة .

(3) قيل هي استئناف بيانيّ على الرغم من دخول الواو .

(492/353)

وزنه مفعلة بفتح الميم وكسر العين لأن فعله معتلّ مثال محذوف الفاء في المضارع .

(أوّاه) ، مبالغة من التأوّه على غير قياس ، وزنه فعّال ، وقد حكى قطرب وحده أنّ ثمّة فعلا ثلاثيّا هو آه يؤوه كقام يقوم ، ولكن النحويين أنكروا عليه ذلك . والأوّاه لها معان كثيرة أشهرها قول أبو عبيدة أي المتأوّه شفقة وفرقا ، والمتضرّع يقينا ولزوما وطاعة .

[سورة التوبة (9) : آية 115]

وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115)

الإعراب :

(الواو) عاطفة – أو استئنافيّة – (ما كان) مثل السابقة " 1 " ، (اللّه) اسم كان مرفوا (اللام) لام الجحود – أو الإنكار – (يضلّ) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام ، والفاعل هو (قوما) مفعول به منصوب (بعد) ظرف منصوب متعلّق بـ (يضلّ) ، (إذ) ظرف مبنيّ في محلّ جرّ مضاف إليه (هدى) فعل ماض مبنيّ على الفتح المقدّر على الألف و(هم) ضمير مفعول به والفاعل هو (حتى) حرف غاية وجرّ (يبيّن) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتّى (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يبيّن) ، (ما) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يتّقون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (إنّ اللّه . . عليم) مثل إنّ إبراهيم لأوّاه " 2 " ، (بكلّ) جارّ ومجرور متعلّق بعليم ، (شيء) مضاف إليه مجرور .

جملة : " ما كان ليضلّ . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان استغفار " 3 " . . أو

هي استئنافيّة.

---

(1) في الآية السابقة (113).

(2، 3) في الآية السابقة (114) [. . . . .]

(494/353)

وجملة: "يضلّ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المقدّر.

والمصدر المؤوّل (أن يضلّ . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان.

وجملة: "هداهم" في محلّ جرّ مضاف إليه.

وجملة: "يبيّن لهم" لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر.

والمصدر المؤوّل (أن يبيّن . .) في محلّ جرّ (حتّى) متعلّق بـ (يضلّ).

وجملة: "يتّقون" لا محلّ لها صلة الموصول (ما).

وجملة: "إنّ اللّه . . . عليم" لا محلّ لها في حكم التعليل.

116 -

[سورة التوبة (9): آية 116]

إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116)

(495/353)

الإعراب :

(إنّ اللّه) مثل إنّ إبراهيم " 1 " ، (اللام) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (ملك) مبتدأ مؤخّر مرفوع (السموات) مضاف إليه مجرور (الأرض) معطوف على السموات بحرف العطف مجرور (يحيي) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على الياء ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هو (الواو) عاطفة (يميت) مضارع مرفوع (الواو) عاطفة (ما) نافية (لكم) مثل له (من دون) جارّ ومجرور متعلّق بحال من وليّ - نعت تقدّم على المنعوت " 2 " - (اللّه) لفظ الجلالة مضاف

---

(1) في الآية (114) من هذه السورة.

(2) يجوز أن يتعلّق بالخبر الذي يتعلّق به (لكم)

(496/353)

إليه مجرور (من) حرف جرّ زائد (وليّ) مجرور لفظا مرفوع محلّا مبتدأ مؤخّر (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (نصير) معطوف على وليّ تبعه في الجرّ لفظا .

جملة : " إنّ اللّه . . . " لا محلّ له استئنافيّة .

وجملة : " له ملك السموات . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

وجملة : " يحيي . . . " في محلّ رفع خبر ثان " 1 " .

وجملة : " يميت " في محلّ رفع معطوفة على جملة يحيي .

وجملة : " لكم . . وليّ " لا محلّ لها معطوفة على الاستئنافيّة .

الفوائد

أنواع الخبر الخبر سواء كان للمبتدأ أو لإن أو لكان مع أخواتهما فإنه يتنوّع فيأتي :

1 – مفردا (أي ليس جملة ولا شبه جملة) مثل : إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

2 – بجملة فعلية مثل قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُدافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا فجملة يدافع في محل رفع خبر إنّ .

3 – جملة اسمية كما ورد في الآية ، وذلك كقولنا : العلم فوائده عظيمة . فالعلم مبتدأ أول . فوائده مبتدأ ثان . عظيمة خبر للمبتدأ الثاني . وجملة فوائده عظيمة في محل رفع خبر للمبتدأ الأول . ويلاحظ بوجود ضمير في المبتدأ الثاني يعود على المبتدأ الأول ، وهذا

شرط إذا كان الخبر جملة فعلية أو اسمية ، ففي الجملة الفعلية يكون الضمير مستترا كما مر أو متصلا كقوله تعالى إِنَّ الْمُنافِقِينَ يُخادِعُونَ اللَّهَ

فواو

---

(1) أو في محلّ رفع بدل من جملة له ملك السموات ، بدل اشتمال .

(497/353)

الجماعة ، في الجملة الفعلية يخادعون ضمير متصل يعود على الاسم (المنافقين) ، أما في الجملة الاسمية فيكون الضمير متصلا كما مرّ .

4 - شبه جملة (أي ظرفا أو جارا أو مجرورا) ومثال الظرف : موعدنا يوم السبت ، ومثال الجار والمجرور : الخير بي وبأمتي . ومعنى ذلك أننا نعلق الظرف أو الجار والمجرور بخبر محذوف تقديره كائن ، فنقول : يوم مفعول فيه ظرف زمان متعلق بخبر محذوف تقديره كائن ، والتقدير (موعدنا كائن يوم السبت) .

[سورة التوبة (9) : آية 117]

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ

يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117)

الإعراب :

(498/353)

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (تاب) فعل ماض (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (على النبيّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تاب) ، (الواو) عاطفة في الموضعين (المهاجرين ، الأنصار) اسمان معطوفان على النبيّ مجروران وعلامة جرّ الأول الياء (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ نعت للمهاجرين والأنصار (اتّبعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل و(الهاء) ضمير مفعول به (في ساعة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (اتّبعوه) ، (العسرة) مضاف إليه مجرور (من بعد) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تاب) ، (ما) حرف مصدريّ (كاد) فعل ماض ناقص - ناسخ - " 1 " واسمه ضمير الشأن محذوف " 2 " ، (يزيغ) مضارع مرفوع

---

(1) بعد كلام طويل حول كاد وخبره جعل أبو حيّان الفعل زائدا - كما تزاد كان في بعض الأحيان فيقول : " ويخلص من هذه الإشكالات اعتقاد كون كاد زائدة ومعناها مراد ولا عمل لها إذ ذاك في اسم ولا خبر فتكون مثل كان إذا زيدت يراد معناها ولا عمل لها . . أ

٥.

(2) يجوز أن يكون الاسم ضميرا تقدير هم يعود إلى القوم المفهوم من قوله فريق منهم . . أو ضميرا يعود على القلوب .

(499/353)

(قلوب) فاعل مرفوع " 1 " ، (فريق) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لفريق (ثمّ) حرف عطف (تاب) مثل الأول (عليهم) مثل منهم متعلّق بـ(تاب) ، (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد و(الهاء) ضمير في محلّ نصب اسم إنّ (بهم) مثل منهم متعلّق بـ(رؤف) وهو خبر إنّ مرفوع (رحيم) خبر ثان مرفوع .

والمصدر المؤوّل (ما كاد . . . .) في محلّ جرّ مضاف إليه .

جملة : " تاب اللَّه . . . " لا محلّ لها جواب قسم مقدّر .

وجملة : " اتّبعوه . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : "كاد يزيغ . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " يزيغ قلوب . . . " في محلّ نصب خبر كاد .

وجملة : " تاب عليهم " لا محلّ لها معطوفة على جملة جواب القسم وهي مؤكّدة لها .

وجملة: "إنّه بهم رؤف" لا محلّ لها تعليليّة.

[سورة التوبة (9): آية 118]

وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

الإعراب:

(الواو) عاطفة (على الثلاثة) جارّ ومجرور متعلّق بـ (تاب) "2"، (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ جر نعت للثلاثة (خلّفوا) فعل ماض مبنيّ للمجهول مبنيّ على الضمّ.. والواو نائب الفاعل (حتّى)

---

(1) جاز في الفعل أن يكون مذكّرا مفردا لأن الفاعل جمع تكسير.

(2) في الآية السابقة (117)، وهذا الجار والمجرور معطوف على (عليهم).. أي تاب عليهم وعلى الثلاثة..

حرف ابتداء (إذا) ظرف للزمن المستقبل مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بمضمون الجواب (ضاقت) فعل ماض . . و(التاء) للتأنيث (على) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (ضاقت) ، (الأرض) فاعل مرفوع (الباء) حرف جرّ (ما) حرف مصدريّ (رحبت) مثل ضاقت ، والفاعل ضمير مستتر تقديره هي (الواو) عاطفة (ضاقت عليهم أنفسهم) مثل ضاقت عليهم الأرض ، و(هم) متّصل مضاف إليه (الواو) عاطفة (ظنّوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (أن) مخفّفة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن محذوف (لا) نافية للجنس (ملجأ) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب (من اللّه) جارّ ومجرور متعلّق بملجأ بحذف مضاف أي من عذاب اللَّه أو من سخط اللَّه (إلّا) أداة استثناء " 1 " ، (إلى) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ بدل من مستثنى منه مقدّر " 2 " ، (ثمّ) حرف عطف (تاب) فعل ماض (عليهم) مثل الأول متعلّق بـ (تاب) ، (اللام) للتعليل (يتوبوا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام وعلامة النصب حذف النون . . والواو فاعل (إنّ) حرف مشبّه بالفعل للتوكيد (اللَّه) لفظ الجلالة اسم إنّ (هو) ضمير فصل " 3 " ، (التوّاب) خبر إنّ مرفوع (الرحيم) خبر ثان مرفوع .

والمصدر المؤوّل (ما رحبت . .) في محلّ جرّ بالباء والجارّ والمجرور حال من الأرض ، أي ضاقت حال كونها رحبة . . أي مع رحبها .

---

(1) أو أداة حصر . . والجار والمجرور (إليه) متعلّق بخبر لا .

(2) أي لا ملجأ من عذاب اللّه لأحد إلّا إليه .

(3) أو هو ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ ، خبره (التّوّاب) والجملة الاسميّة (هو التّوّاب . .) في محلّ رفع خبر إنّ .

(501/353)

والمصدر المؤوّل (أن لا ملجأ . .) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي ظنّوا .

المصدر المؤوّل (أن يتوبوا . .) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (تاب) .

جملة : " خلّفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " الشرط وفعله وجوابه المقدّر . . " لا محلّ لها استئنافيّة " 1 " .

وجملة : " ضاقت . . الأرض " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " رحبت " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) .

وجملة : " ضاقت . . أنفسهم " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ضاقت الأولى .

وجملة : " ظنّوا . . " في محلّ جرّ معطوفة على جملة ضاقت الأولى .

وجملة : " لا ملجأ . . . " في محلّ رفع خبر أن المخفّفة .

وجملة : " تاب عليهم " لا محلّ لها معطوفة على جواب الشرط المقدّر أي لجؤوا إليه ثمّ تاب

اللَّه .

وجملة : " يتوبوا " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " إنّ اللَّه هو التوّاب " لا محلّ لها تعليليّة .

البلاغة

المجاز : في قوله تعالى " وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ " أي قلوبهم ، وعبر عنها بذلك مجازا لأن قيام الذات بها ، ومعنى ضيقها غمها وحزنها كأنها لا تسع

---

(1) جواب إذا مقدر يعطف عليه قوله تابَ عَلَيْهِمْ أي إذا ضاقت عليهم . . . لجؤوا إليه ، أو تابوا ثمّ تاب اللَّه . . وقد يكون (إذا) مجرّدا من الشرط فلا يحتاج إلى جواب ، والمعنى : تاب على الذين خلّفوا إلى هذا الوقت .

(502/353)

السرور لضيقها .

الفوائد

حديث الثلاثة الذين خلفوا

روى هذا الحديث عبد اللّه بن كعب ، عن والده الذي تخلف عن غزوة تبوك .

وسنورده مختصرا لطوله : لقد تخلف كعب بن مالك عن غزوة تبوك ، وكان في صحة ومال ولا عذر له ، وكانت هذه الغزوة في الحر الشديد ، وعند ما رجع رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) من تبوك جاء المنافقون يحلفون ويعتذرون ، فقبل منهم ، وترك باطنهم للّه عز وجل . أمّا كعب فقد صدق رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم وقال : تخلفت ولا عذر لي ، وكنت ميسورا .

(503/353)

فقال له النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) : قم حتى يقضي اللّه في أمرك . فسأل كعب : هل أحد لقي مثل ما لقيت ؟ فقيل له : نعم ، رجلان : هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ثم نهى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) عن تكليم هؤلاء الثلاثة المخلفين ، فقاطعهم المسلمون ، ويقول كعب : لقد تسورت جدار ابن عمي أبي قتادة ، وهو أحب الناس لي ، فسلمت عليهم ، فلم يرد السلام ، فقلت له : أتعلم أني أحب اللّه ورسوله ؟ فقال : اللّه أعلم . فخرجت من عنده حزينا . وفي اليوم الأربعين من المقاطعة ، بعث إلينا رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) أن نعتزل نساءنا ولا نقربها ، فبعثت زوجتي إلى أهلها ،

وضاقت علي الأرض ، وضاقت علي نفسي ثم في هذه الأثناء ، بعث لي ملك غسان كتابا ، يرغبني في القدوم إليه ، ويقول :

سمعنا بأن صاحبك قد جفاك ، فقلت : واللّه هذا من البلاء . وحرقت الكتاب . وفي تمام الليلة الخمسين ، كنت أصلي الصبح على ظهر سطح بيتي ، فسمعت صوتا يناديني بتوبة اللّه علي ، وجاء المبشرون ، ففرحت كثيرا ، وذهبت إلى النبي (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) إلى المسجد فهنأني بالتوبة ، وعند ما دخلت المسجد قام إليّ طلحة بن عبيد اللّه فاستقبلني ، وهنأني ، ما قام إليّ غيره ، وكان كعب لا ينساها لطلحة ، ثم تصدقت بجميع مالي ، جزاء التوبة ، فأمرني رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) أن أمسك شيئا ، فأمسك سهمي بخيبر ، ولقد نجاني اللّه بالصدق وتاب علي ، فما ابتلي أحد بصدق الحديث كما ابتليت ، وسمّينا بالمخلفين ليس لتخلفنا عن الغزوة ، وإنما لأن اللّه خلف أمرنا وأرجأه .

[سورة التوبة (9) : آية 119]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119)

الإعراب :

(يا) أداة نداء (أيّ) منادى نكرة مقصودة مبنيّ على الضمّ في محلّ نصب و(ها) حرف تنبيه (الذين) اسم موصول مبنيّ في محل نصب بدل من أيّ أو عطف بيان (آمنوا) مثل ظنوا " 1 " ، (اتّقوا) فعل أمر مبنيّ على حذف النون . . والواو فاعل (اللّه) لفظ الجلالة مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (كونوا) أمر ناقص . . والواو اسم كن (مع) ظرف منصوب متعلّق بمحذوف خبر كونوا (الصادقين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " النداء يأيّها الذين " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " اتّقوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " كونوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

[سورة التوبة (9) : آية 120]

ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120)

الإعراب :

(ما كان لأهل) مثل ما كان للنبيّ " 2 " ، (المدينة) مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ جرّ معطوف على

---

(1) في الآية السابقة (118) .

(2) في الآية 113 من هذه السورة .

أهل (حول) ظرف مكان منصوب متعلّق بمحذوف صلة من و(هم) ضمير مضاف إليه (من الأعراب) جارّ ومجرور حال من الموصول من (أن يتخلّفوا) مثل أن يستغفروا " 1 " ، (عن رسول) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتخلّفوا) ، (اللَّه) لفظ الجلالة مضاف إليه مجرور (الواو) عاطفة (لا) نافية (يرغبوا) معطوف على (يتخلّفوا) منصوب وعلامة النصب حذف النون " 2 " . . والواو فاعل (بأنفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرغبوا) ، و(هم) مثل الأخير (عن نفس) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يرغبوا) ، و(الهاء) مثل هم (ذلك) اسم إشارة مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ . . و(اللام) للبعد ، و(الكاف) (للخطاب) (الباء) حرف جرّ (أنّ) حرف مشبّه بالفعل – ناسخ – و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (لا) نافية (يصيب) مضارع مرفوع و(هم) مفعول به (ظمأ) فاعل مرفوع (الواو) عاطفة في المواضع الأربعة (لا)

زائدة لتأكيد النفي في الموضعين (نصب ، مخمصة) معطوفان على ظمأ مرفوعان (في سبيل) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف نعت لمخمصة " 3 " ، (اللّه) مثل الأخير (لا) نافية (يطؤون) مضارع مرفوع وعلامة الرفع ثبوت النون . . والواو فاعل (موطئًا) مفعول به منصوب " 4 " ، (يغيظ) مثل يصيب ، والفاعل هو أي الموطئ " 5 " ، (الكفّار) مفعول به منصوب (لا ينالون) مثل لا يطؤون (من عدوّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (ينالون) ، (نيلا) مفعول مطلق منصوب " 6 " ، (إلّا) أداة حصر (كتب) فعل

---

(1) في الآية 113 من هذه السورة . [. . . . .]

(2) يجوز أن يكون مجزوما بـ (لا) على أنّها ناهية .

(3) أو نعت للظمأ والنصب والمخمصة .

(4) أو مفعول مطلق منصوب أي يدوسون دوسا .

(5) اسم مكان أو مصدرا .

(6) أو هو مفعول به منصوب – أي شيئا ينال –

ماض مبنيّ للمجهول (اللام) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كتب) ، (الباء) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (كتب) والباء للسببيّة " 1 " ، (عمل) نائب الفاعل مرفوع (صالح) نعت لعمل مرفوع (إنّ اللّه) مرّ إعرابها " 2 " ، (لا يضيع) مثل لا يصيب ، والفاعل هو أي اللّه (أجر) مفعول به منصوب (المحسنين) مضاف إليه مجرور وعلامة الجرّ الياء .

جملة : " ما كان لأهل . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتخلّفوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) .

والمصدر المؤوّل (أن يتخلّفوا . .) في محلّ رفع اسم كان مؤخّر .

وجملة : " يرغبوا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة يتخلّفوا .

وجملة : " ذلك بأنّهم . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يصيبهم ظمأ " في محلّ رفع خبر أنّ .

والمصدر المؤوّل (أنّهم لا يصيبهم . . .) في محلّ جر بالباء متعلّق بمحذوف خبر المبتدأ (ذلك) .

وجملة : " لا يطؤون . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة لا يصيبهم .

وجملة : " يغيظ . . " في محلّ نصب نعت لـ (موطئا) .

وجملة : " لا ينالون . . . " في محل رفع معطوفة على جملة لا يصيبهم .

---

(1) أي بسبب كلّ واحد من الأمور الخمسة .

(2) في الآية (118) من هذه السورة .

(507/353)

وجملة : "كتب . . عمل " في محلّ نصب حال من المؤمنين المطيعين .

وجملة : " إنّ اللّه لا يضيع . . . " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " لا يضيع . . . " في محلّ رفع خبر إنّ .

الصرف :

(ظمأ) ، مصدر سماعيّ لفعل ظمئ يظمأ باب فرح ، وزنه فعل بفتحتين ، وثمّة مصادر أخرى هي : ظمء بفتح فسكون ، وظماء بفتح الظاء ، وظماءة بفتح الظاء .

(نصب) ، مصدر سماعيّ لفعل نصب ينصب باب فرح وزنه فعل بفتحتين .

(موطئا) ، اسم مكان من وطأ الثلاثيّ باب فرح ، وزنه مفعل بفتح الميم وكسر العين لأن الفعل معتلّ مثال محذوف الفاء في المضارع . .

(508/353)

وهو أيضا مصدر ميميّ للفعل نفسه وعلى الوزن نفسه .

(نيلا) ، مصدر نال ينال ، وزنه فعل بفتح فسكون . . وقد يقصد به الشيء المنال فيستعمل اسما .

الفوائد

في هذه الآية دليل على أن من قصد طاعة اللّه كان قيامه وقعوده ومشيه وحركته وسكونه كلها حسنة مكتوبة عند اللّه ، واختلف العلماء في حكم هذه الآية .

فقال قتادة : هذا الحكم خاص برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلم إذا غزا بنفسه لم يكن لأحد أن يتخلف عنه ، وقال الوليد بن مسلم : سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وسعيدا يقولون في هذه الآية : إنها لأول هذه الأمة وآخرها ، فعلى هذا تكون هذه الآية محكمة لم تنسخ ، وقال ابن زيد : هذا حين كان أهل الإسلام قليلا ، فلما كثروا نسخها اللّه عز وجل ، وأباح التخلف لمن شاء بقوله : وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، ولكن القول السديد في هذا المقام ما نقله الواحدي عن عطية أنه قال : ما كان لهم أن يتخلفوا عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله وسلم) إذا دعاهم وأمرهم لأنه لا تتوجب الطاعة إلا إذا أمر ، وكذا غيره من الأئمة والولاة إذا ندبوا أو عينوا وجبت الطاعة .

[سورة التوبة (9) : آية 121]

وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (121)

الإعراب :

(509/353)

(الواو) عاطفة (لا) نافية (ينفقون نفقة) مثل يطؤون موطئا " 1 " ، (صغيرة) نعت لنفقة منصوب ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (كبيرة) معطوف على صغيرة منصوب (الواو) عاطفة (لا يقطعون واديا) مثل لا يطؤون موطئا " 2 " ، (إلّا) أداة حصر (كتب لهم) مثل المتقدّمة " 3 " ، وتقدير نائب الفاعل العمل الدال على النفقة وقطع الوادي (اللام) لام التعليل (يجزي) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام و(هم) ضمير متّصل مفعول به (اللّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (أحسن) مفعول به ثان منصوب (ما) حرف مصدريّ " 4 " ، (كانوا) فعل ماض ناقص – ناسخ – مبنيّ على الضمّ . . والواو اسم كان (يعملون) مثل يطؤون " 5 " .

والمصدر المؤوّل (أن يجزيهم) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (كتب) .

والمصدر المؤوّل (ما كانوا) في محلّ جرّ مضاف إليه .

الصرف :

(واديا) ، اسم جامد للمنخفض بين جبلين ، وزنه فاعل ،

(1 ، 2 ، 5) في الآية السابقة (120) .

(3) في الآية السابقة (120) .

(4) أو اسم موصول في محلّ جرّ مضاف إليه ، والجملة صلة والعائد محذوف .

(510/353)

واشتقّ الوادي من فعل يدي يدي وديا الشيء بمعنى سال لأن الماء يدي فيه أي يسيل

والفعل من باب ضرب .

[سورة التوبة (9) : آية 122]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)

الإعراب :

(الواو) عاطفة (ما كان) مرّ إعرابها " 1 " ، (المؤمنون) اسم كان مرفوع وعلامة الرفع الواو

(اللام) لام الجحود (ينفروا) مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام (كافّة) حال من الفاعل

منصوبة .

والمصدر المؤوّل (أن ينفروا) في محل جرّ باللام متعلّق بمحذوف خبر كان .

(الفاء) استئنافيّة (لولا) أداة تحضيض بمعنى هلّا (نفر) فعل ماض (من كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من طائفة – نعت تقدّم على المنعوت – (فرقة) مضاف إليه مجرور (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بنعت لفرقة (طائفة) فاعل نفر مرفوع (اللام) للتعليل (يتفقّهوا) مضارع مثل ينفروا (في الدين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يتفقّهوا) ، (الواو) عاطفة (لينذروا) مثل (ليتفقّوا) ، (قوم) مفعول به منصوب و(هم) مضاف إليه .

والمصدر المؤوّل (أن يتفقّهوا) في محلّ جرّ باللام متعلّق بـ (نفر) .

والمصدر المؤوّل (أن ينذروا) في محلّ جرّ معطوف على المصدر المؤوّل الأول ومتعلّق بما تعلّق به .

---

(1) في الآية السابقة (120) .

(511/353)

(إذا) ظرف للزمن المستقبل مجرد من الشرط مبنيّ في محلّ نصب متعلّق بـ (ينذروا) ، (رجعوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (إليهم) مثل منهم متعلّق بـ (رجعوا) ،

(لعلّ) حرف مشبّه بالفعل للترجّي - ناسخ - و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم لعلّ

(يحذرون) مثل يطؤون " 1 " .

جملة : " ما كان المؤمنون لينفروا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة ما كان لأهل " 2 " .

وجملة : " ينفروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " نفر . . طائفة " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " يتفقّهوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " ينذروا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (أن) المضمر .

وجملة : " رجعوا . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " لعلّهم يحذرون " لا محلّ لها تعليليّة .

وجملة : " يحذرون " في محلّ رفع خبر لعلّ .

[سورة التوبة (9) : آية 123]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123)

(1 ، 2) في الآية السابقة (120) من هذه السورة .

الإعراب :

(يأيها الذين آمنوا قاتلوا) مثل يأيها . . . اتّقوا " 1 " ، (الذين) اسم موصول مبنيّ في محلّ نصب مفعول به (يلون) مضارع مرفوع . .

والواو فاعل و(كم) ضمير مفعول به (من الكفّار) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف حال من فاعل يلونكم (الواو) عاطفة (اللام) لام الأمر (يجدوا) مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل (في) حرف جرّ و(كم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بـ (يجدوا) " 2 " ، (غلظة) مفعول به منصوب (الواو) عاطفة (اعلموا) مثل اتّقوا " 3 " ، (أنّ اللَّه) مثل إنّ اللَّه " 4 " ، (مع المتقين) مثل مع الصادقين " 5 " .

جملة : " (النداء) يأيها الذين . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " قاتلوا . . . " لا محلّ لها جواب النداء .

وجملة : " يلونكم . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) الثاني .

وجملة : " يجدوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء .

وجملة : " اعلموا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جواب النداء " 6 " .

والمصدر المؤوّل (أنّ اللَّه مع المتّقين) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي اعلموا .

الصرف :

(يلونكم) ، فيه إعلال بالتسكين وإعلال بالحذف ، أصله يليونكم بضمّ الياء الثانية ، استثقلت الضمّة على الياء فسكنت ونقلت

---

(1) في الآية (119) من هذه السورة .

(2) أو متعلق بمحذوف مفعول به ثان لفعل يجدوا . [. . . . .]

(3 ، 5) في الآية (119) من هذه السورة .

(4) في الآية (118) من هذه السورة .

(6) يجوز أن تكون مقطوعة للاستئناف لا محلّ لها أيضا .

(513/353)

الحركة إلى اللام . . ولمّا التقى ساكنان الياء والواو حذفت الياء فأصبح يلونكم ، وفيه إعلال بالحذف أيضا لأن ماضيه لفيف مفروق تحذف فاؤه في المضارع وهي الواو فالوزن يعونكم .

(غلظة) ، مصدر سماعيّ لفعل غلظ يغلظ من أبواب نصر وضرب وكرم . . وزنه فعلة بكسر الفاء ، وثمّة مصادر أخرى بضمّ الفاء وفتحها ، وغلظ بكسر الغين وغلاظة بكسر

الغين .

[سورة التوبة (9) : الآيات 124 إلى 125]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125)

الإعراب :

(الواو) استئنافيّة (إذا) ظرف للزمن المستقبل يتضمّن معنى الشرط متعلّق بمضمون الجواب (ما) زائدة (أنزلت) فعل ماض للمجهول والتاء للتأنيث (سورة) نائب الفاعل مرفوع (الفاء) رابطة لجواب الشرط (من) حرف جرّ و(هم) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بمحذوف خبر مقدّم " 1 " ، (من) اسم موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر (يقول) مضارع مرفوع ، والفاعل هو وهو العائد (أيّ) اسم استفهام مبتدأ مرفوع و(كم) ضمير مضاف إليه (زادت) فعل ماض و(التاء) للتأنيث و(الهاء) ضمير مفعول به أوّل (ها) حرف تنبيه (ذه) اسم اشارة مبنيّ في محلّ رفع فاعل (إيمانا) مفعول به ثان منصوب (الفاء) استئنافيّة (أمّا) حرف شرط وتفصيل (الذين) موصول مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ (آمنوا) مثل رجعوا " 2 " ، (الفاء) واقعة في جواب أمّا

---

(1) يجوز أن يكون الجارّ والمجرور نعتا لخبر محذوف مقدّم أي فريق منهم . . أو بعض

منهم .

(2) في الآية (122) من هذه السورة .

(514/353)

(زادتهم إيمانا) مثل زادته إيمانا (الواو) حاليّة (هم) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع مبتدأ

(يستبشرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل .

جملة : " أنزلت سورة . . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " منهم من يقول . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " يقول . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (من) .

وجملة : " أيّكم زادته هذه . . . " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " زادته هذه . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (أيّكم) .

وجملة : " الذين آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " آمنوا . . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " زادتهم إيمانا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) " 1 " .

وجملة : " هم يستبشرون . . . " في محلّ نصب حال من الهاء في (زادتهم) .

وجملة : " يستبشرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

(الواو) عاطفة (أمّا الذين) مثل الأولى (في قلوب) جارّ ومجرور متعلّق بمحذوف خبر مقدّم (هم) ضمير مضاف إليه (مرض) مبتدأ مؤخّر مرفوع (فزادتهم رجسا) مثل فزادتهم إيمانا (إلى رجس) جارّ ومجرور نعت لـ (رجسا) ، و(هم) مثل الأخير (الواو) عاطفة (ماتوا) مثل رجعوا (وهم) ضمير مبتدأ (كافرون) خبر المبتدأ هم مرفوع وعلامة الرفع الواو .

وجملة : " الذين في قلوبهم مرض . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة الذين آمنوا . . .

---

(1) كانت الفاء الرابطة في صدر الجملة الاسميّة لأن أصل التعبير : مهما يكن من شيء فالذين . . . ، فلمّا حلّت أمّا محلّ مهما انتقلت الفاء إلى الخبر .

(515/353)

وجملة : " في قلوبهم مرض . . " لا محلّ لها صلة الموصول (الذين) .

وجملة : " زادتهم رجسا . . . " في محلّ رفع خبر المبتدأ (الذين) .

وجملة : " ماتوا . . . " في محلّ رفع معطوفة على جملة زادتهم .

وجملة : " هم كافرون " في محلّ نصب حال من فاعل ماتوا .

الفوائد

أيّ وأحوالها :

ورد في هذه الآية قوله تعالى فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً ونحن بصدد (أيّ) المشدّدة الياء وهي في الآية الكريمة اسم استفهام مبتدأ مرفوع وسنوضح فيما يلي أحوالها لما فيه من الفائدة العظيمة .

(516/353)

أيّ هي اسم وتأتي على خمسة أوجه :

1 - اسم شرط : مثل قوله تعالى : أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى .

2 - اسم استفهام : مثل قوله تعالى أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً .

3 - اسم موصول : كقوله تعالى ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمنِ عِتِيًّا والتقدير : لننزعن الذي هو أشد . وهناك خلاف حول هذه الآية ، فقد قال ذلك سيبويه . وخالفه الكوفيون وجماعة من البصريين ، وزعموا أنها في الآية استفهامية وأنها مبتدأ وأشدّ خبر .

4 - تأتي دالة على معنى الكمال ، فتقع صفة للنكرة نحو : زيد رجل أيّ رجل ، أي كامل

في صفات الرجال . وتأتي حالا بعد المعرفة وتدل أيضا على الكمال مثل :

مررت بعبد اللَّه أيّ رجل .

5 - يتوصل بها إلى نداء ما فيه ال نحو : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ

[سورة التوبة (9) : آية 126]

أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126)

الإعراب :

(الهمزة) للاستفهام التوبيخيّ (لا) نافية و(الواو) عاطفة (يرون) مضارع مرفوع . . والواو فاعل (أنّ) حرف مشبه بالفعل و(هم) ضمير في محلّ نصب اسم أنّ (يفتنون) مضارع مبنيّ للمجهول مرفوع . .

والواو نائب الفاعل (في كلّ) جارّ ومجرور متعلّق بـ (يفتنون) ، (عام) مضاف إليه مجرور (مرّة) مفعول مطلق نائب عن المصدر منصوب أي : فتنة واحدة (أو) حرف عطف (مرّتين) معطوف على مرّة منصوب وعلامة النصب الياء (ثمّ) حرف عطف (لا يتوبون) مثل لا يطؤون " 1 " ، (الواو) عاطفة (لا) زائدة لتأكيد النفي (هم يذكّرون) مثل هم يستبشرون " 2 " .

والمصدر المؤوّل (أنّهم يفتنون) في محلّ نصب سدّ مسدّ مفعولي يرون " 3 " .

جملة : " يرون . . . " لا محلّ لها معطوفة على استئناف متقدّم " 4 " .

وجملة : " يفتنون . . " في محلّ رفع خبر أنّ .

وجملة : " لا يتوبون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يفتنون .

وجملة : " هم يذّكّرون " في محلّ رفع معطوفة على جملة يفتنون .

وجملة : " يذّكّرون " في محلّ رفع خبر المبتدأ (هم) .

[سورة التوبة (9) : آية 127]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127)

---

(1) في الآية (120) من هذه السورة .

(2) في الآية (124) من هذه السورة .

(3) هذا إذا كان الفعل قلبيّا ، أو سدّت مسدّ المفعول إذا كان بصريّا .

(4) وهي جملة الشرط وفعله وجوابه في أوّل الآية (124) من هذه السورة .

الإعراب :

(وإذا ما أنزلت سورة) مرّ إعرابها " 1 " ، (نظر) فعل ماض (بعض) فاعل مرفوع و(هم)

ضمير مضاف إليه (إلى بعض) جارّ ومجرور متعلّق بـ (نظر) ، (هل) حرف استفهام (يرى) مضارع مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدرة على الألف و(كم) ضمير مفعول به (من) حرف جرّ زائد (أحد) مجرور لفظا مرفوع محلّا فاعل يرى (ثمّ) حرف عطف (انصرفوا) فعل ماض مبنيّ على الضمّ . . والواو فاعل (صرف) مثل نظر (اللَّه) لفظ الجلالة فاعل مرفوع (قلوب) مفعول به منصوب و(هم) مضاف إليه (الباء) حرف جرّ (أنّهم) مثل السابق " 2 " ، (قوم) خبر أنّ مرفوع (لا يفقهون) مثل لا يطؤون " 3 " .

والمصدر المؤوّل (أنّهم قوم . .) في محلّ جرّ بالباء متعلّق بـ (صرف) ، والباء للسببيّة .

جملة : " أنزلت سورة . . " في محلّ جرّ مضاف إليه .

وجملة : " نظر بعضهم . . . " لا محلّ لها جواب شرط غير جازم .

وجملة : " هل يراكم من أحد . . . " في محلّ نصب مقول القول لقول مقدّر . . وهذا القول المقدر في محلّ نصب حال من فاعل نظر أي يقولون هل يراكم . . .

وجملة : " انصرفوا . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة نظر بعضهم .

وجملة : " صرف اللَّه . . . " لا محلّ لها استئنافيّة دعائيّة . . أو استئناف لمجرّد الإخبار .

وجملة : " لا يفقهون " في محلّ رفع نعت لقوم .

---

(1) في الآية (124) من هذه السورة .

(2) في الآية السابقة (126) .

(3) في الآية (120) من هذه السورة .

(518/353)

[سورة التوبة (9) : الآيات 128 إلى 129]

لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

الإعراب :

(اللام) لام القسم لقسم مقدّر (قد) حرف تحقيق (جاءكم) فعل ماض . . والضمير مفعول به (رسول) فاعل مرفوع (من أنفس) جارّ ومجرور نعت لرسول " 1 " ، و(كم) ضمير مضاف إليه (عزيز) نعت لرسول مرفوع " 2 " ، (على) حرف جرّ و(الهاء) ضمير في محلّ جرّ متعلّق بعزيز (ما) حرف مصدريّ " 3 " ، (عنتّم) فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(تم) ضمير فاعل .

والمصدر المؤوّل (ما عنتّم) في محلّ رفع فاعل الصفة المشبّهة عزيز .

(حريص) نعت آخر لرسول مرفوع (عليكم) مثل عليه متعلّق بحريص (بالمؤمنين) جارّ ومجرور متعلّق بـ (رؤف) وهو نعت لرسول مرفوع وكذلك (رحيم) .

جملة : " جاءكم رسول . . . " لا محلّ لها جواب القسم المقدّر . .

وجملة القسم لا محلّ لها استئنافيّة .

وجملة : " عنّتم . . " لا محلّ لها صلة الموصول الحرفيّ (ما) أو الاسميّ .

(الفاء) عاطفة (إن) حرف شرط جازم (تولّوا) مضارع مجزوم فعل الشرط ، وعلامة الجزم حذف النون . . والواو فاعل ، وقد حذف من الفعل إحدى التاءين تخفيفا (الفاء) رابطة لجواب الشرط (قل) فعل أمر ، والفاعل

---

(1) أو متعلّق بـ (جاءكم) أي منكم . [. . . . .]

(2) أو خبر مقدم ، والمصدر المؤوّل (ما عنّتم) مبتدأ مؤخر ، والجملة نعت لرسول .

(3) أو اسم موصول في محلّ رفع مبتدأ مؤخّر ، والجملة بعده صلة ، والعائد محذوف أي عنّتم به أي بسببه ، أو هو فاعل الصفة المشبهة عزيز .

(519/353)

أنت (حسبي) مبتدأ مرفوع وعلامة الرفع الضمّة المقدّرة على ما قبل الياء . . و(الياء) ضمير مضاف إليه (اللَّه) لفظ الجلالة خبر مرفوع (لا) نافية للجنس (إله) اسم لا مبنيّ على الفتح في محلّ نصب ، والخبر محذوف تقديره موجود (إلّا) أداة استثناء (هو) ضمير منفصل مبنيّ في محلّ رفع بدل من الضمير المستكنّ في الخبر – أو من محلّ لا مع اسمها – (عليه) مثل الأول متعلّق بـ (توكّلت) وهو فعل ماض مبنيّ على السكون . . و(التاء) فاعل (الواو) عاطفة (هو) مبتدأ في محلّ رفع (ربّ) خبر مرفوع (العرش) مضاف إليه مجرور (العظيم) نعت للعرش مجرور .

جملة : " إن تولّوا . . . " لا محلّ لها معطوفة على جملة القسم المقدّر .

وجملة : " قل . . . " في محلّ جزم جواب الشرط مقترنة بالفاء .

وجملة : " حسبي اللَّه " في محلّ نصب مقول القول .

وجملة : " لا إله إلّا هو " في محل نصب حال " 1 " .

وجملة : " توكّلت " لا محلّ لها استئنافيّة مؤكّدة لمقول القول – أو اعتراضيّة .

وجملة : " هو ربّ . . . " في محلّ نصب معطوفة على جملة الحال .

الصرف :

(حريص) ، صفة مشبّهة لفعل حرص يحرص باب ضرب وباب فرح ، وزنه فعيل ، مؤنّثه حريصة والجمع حرصاء بضم الحاء وحراص بكسر الحاء وتخفيف الراء وحرّاص بضمّ

الحاء وتشديد الراء ، وجمع حريصة حراص بكسر الحاء وحرائص . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الجدول حـ 11 صـ 69.5 ﴾

---

(1) يصح مجيء الحال من الخبر ومن المبتدأ ، كما يصح مجيئها من الفاعل والمفعول والمجرور بالحرف ومن المضاف إليه إذا كان المضاف جزءا من المضاف إليه .

(520/353)

وقال العلامة محيي الدين الدرويش :

[سورة التوبة (9) : الآيات 90 إلى 92]

وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (90) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (91) وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ (92)

اللغة :

(الْمُعَذِّرُونَ) اسم فاعل من عذر في الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجد ، وحقيقته أن يوهم

أن له عذرا فيما يفعل ولا عذر له ، أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين .

(الْأَعْرابِ) سكان البادية وهم أخص من العربي إذ العربي من تكلم باللغة العربية سواء كان يسكن البادية أو الحاضرة .

الاعراب :

(وَجاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ) الواو استئنافية والجملة مستأنفة مسوقة للشروع في بيان أحوال سكان البادية وجاء المعذرون فعل وفاعل ومن الأعراب حال وليؤذن تعليل مضارع منصوب بأن مضمرة ولهم متعلق بيؤذن . (وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ) عطف على جاء والذين فاعل وكذبوا صلة الذين ولفظ الجلالة مفعول كذبوا ورسوله عطف عليه . (سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) السين

(521/353)

حرف استقبال ويصيب فعل مضارع وفاعله مستتر تقديره هو والذين مفعول به وجملة كفروا صلة ومنهم حال وعذاب فاعل يصيب وأليم صفة . (لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضى وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ ما يُنْفِقُونَ حَرَجٌ) ليس فعل ماض ناقص وعلى الضعفاء

خبر ليس المقدم ولا على المرضى عطف على الضعفاء ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون عطف أيضا وحرج اسم ليس . (إِذا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) الظرف متعلق بمعنوي مقتبس من النفي ، أي انتفى عنهم الحرج إذا نصحوا فلا يخرجون حينئذ ، وجملة نصحوا في محل جر بإضافة الظرف إليها ورسوله عطف على اللّه وما نافية وعلى المحسنين خبر مقدم ومن زائدة وسبيل مبتدأ مؤخر محلا واللّه مبتدأ وغفور خبر أول ورحيم خبر ثان . (وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذا ما أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ) الواو عاطفة ولا نافية وعلى الذين معطوف على قوله على الضعفاء فهو بمثابة خبر مقدم والمبتدأ محذوف أي حرج وجملة إذا ما أتوك صلة الذين وإذا ظرف مستقبل وما زائدة وجملة أتوك مضاف إليها الظرف ولتحملهم علة الإتيان أي لتحملهم معك إلى الغزو وهم كما يروي التاريخ سبعة من الأنصار وقيل هم أصحاب أبي موسى الأشعري كما في البخاري . (قُلْتَ لا أَجِدُ ما أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ) جملة قلت حالية من الكاف في أتوك بتقدير وقد قبلها أي إذا ما أتوك قائلا لا أجد وما مفعول أجد وجملة أحملكم صلة وعليه متعلق بأحملكم . (تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَناً أَلَّا يَجِدُوا ما يُنْفِقُونَ) جملة تولوا جواب إذا ويجوز أن تكون جملة قلت لا أجد جواب إذا الشرطية وإذا وجوابها في موضع الصلة وعلى هذا فيكون قوله تولوا جوابا لسؤال مقدّر كأن قائلا قال : ما كان حالهم وقت

أن أجيبوا بهذا الجواب فأجيب بقوله تولوا ، وأعينهم مبتدأ والواو للحال وجملة تفيض خبر ومن الدمع تمييز أي تفيض دمعا وهو أبلغ من يفيض دمعها لأن العين جعلت كأنها كلها دمع فائض وقد تقدم القول في هذه الجملة في المائدة مع بسط لم يسبق إليه فجدد به عهدا ، وحزنا مفعول لأجله أو حال وأن لا يجدوا أن وما في حيزها مفعول لأجله والعامل فيه حزنا ويجوز أن نعرب حزنا مفعولا مطلقا فيكون العامل في أن لا يجدوا تفيض وما مفعول يجدوا وجملة ينفقون صلة .

وقد اعترض أبو البقاء على إعراب الزمخشري من الدمع تمييزا فقال : " لا يجوز ذلك لأن التمييز الذي أصله فاعل لا يجوز جره بمن وأيضا فإنه معرفة ولا يجوز إلا على رأي الكوفيين الذين يجيزون مجيء التمييز معرفة .

البلاغة :

فن التلميح أو التمليح :

في قوله : " ما على المحسنين من سبيل " فن من فنون البديع يسمى " التلميح " وهو أن يشار في فحوى الكلام إلى مثل سائر أو شعر نادر أو قصة مشهورة أو ما يجري مجرى المثل ، ومنه قول يسار ابن عدي حين بلغة قتل أخيه وهو يشرب الخمر :

اليوم خمر ويبدو في غد خبر والدهر من بين إنعام وإيئاس

ويسميه قوم " التمليح " بتقديم الميم كأن الشاعر أتى في بيته

أو الناثر في فقرته بنكتة حسنة زادت الكلام ملاحة ، كقول ابن المعتز :

أترى الجيرة الذين تداعوا عند سير الحبيب وقت الزوال

علموا أنني مقيم وقلبي راحل فيهم أمام الجمال

مثل صاع العزيز في أرحل القوم ولا يعلمون ما في الرحال

وهذا التمليح فيه إشارة إلى قصة يوسف عليه السلام حين جعل الصاع في رحل أخيه

وإخوته لم يشعروا بذلك ، ومن لطائف التلميح قول أبي فراس :

فلا خير في رد الأذى بمذلة كما رده يوما بسوءته عمرو

(523/353)

و هذا التمليح أو التلميح فيه إشارة إلى قصة عمرو بن العاص مع الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في يوم صفين حين حمل عليه الإمام ، ورأى عمرو أن لا مخلص منه فلم يسعه غير كشف العورة .

ومن لطائف التلميح قصة الهذلي مع منصور بني العباس فإنه حكى أن المنصور وعد الهذلي بجائزة ونسي ، فحجا معا ومرا في المدينة النبوية ببيت عاتكة ، فقال الهذلي : يا أمير

المؤمنين هذا بيت عاتكة التي يقول فيها الأحوص :

يا بيت عاتكة الذي أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

فأنكر عليه أمير المؤمنين لأنه تكلم من غير أن يسأل ، فلما رجع الخليفة نظر في القصيدة إلى آخرها ليعلم ما أراد الهذلي بإنشاد ذلك البيت من غير استدعاء فإذا فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم أنه أشار إلى هذا البيت بتلميحه الغريب ، فتذكر ما وعده به وأنجزه له واعتذر إليه من النسيان .

ومثله ما حكي أن أبا العلاء المعري كان يتعصب للمتنبي فحضر يوما مجلس الشريف المرتضى فجرى ذكر أبي الطيب فهضم المرتضى من جانبه فقال له أبو العلاء : لو لم يكن له من الشعر إلا قوله :

" لك يا منازل في القلوب منازل " لكفاه ، فغضب المرتضى وأمر به فسحب وأخرج ، وبعد إخراجه قال المرتضى :

هل تدرون ما عنى بذكر البيت ؟ فقالوا : لا والله ، فقال : عنى به قول أبي الطيب في قصيدته :

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

ومن هذا القبيل قصة السّرّي الرفاء مع سيف الدولة بسبب المتنبي أيضا ، فإن السري

الرفاء كان من مداح سيف الدولة ، وجرى يوما في مجلسه ذكر أبي الطيب فبالغ سيف الدولة في الثناء عليه فقال له السري : أشتهي أن الأمير ينتخب لي قصيدة من غرر قصائده لأعارضها له ويتحقق بذلك أنه أركب المتنبي في غير سرجه ، فقال له سيف الدولة على الفور : عارض لنا قصيدته القافية التي مطلعها :

(524/353)

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي

قال السري : فكتبت القصيدة واعتبرتها في تلك الليلة فلم أجدها من مختارات أبي الطيب لكن رأيته يقول في آخرها عن ممدوحه :

إذا شاء أن يلهو بلحية أحمق أراه غباري ثم قال له : الحق

فقلت : والله ما أشار سيف الدولة إلا إلى هذا البيت وأحجمت عن معارضة القصيدة .

وألطف من هذا ما حكاه ابن الجوزي في كتاب الأدباء فإنه من غرائب التلميح قال : قعد رجل على جسر بغداد فأقبلت امرأة بارعة في الجمال من جهة الرصافة إلى الجانب الغربي فاستقبلها شاب ، فقال لها :

رحم الله علي بن الجهم فقالت له : رحم الله أبا العلاء المعري ، وما وقفا بل سارا مغربا

ومشرقا ، قال الرجل فتبعت المرأة فقلت لها : والله إن لم تقولي ما أراد بابن الجهم فضحتك

قالت أراد به :

عيون المها بين الرصافة والجسر جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

وأردت بأبي العلاء قوله :

فيا دارها بالكرخ إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

الفوائد :

أورد ابن هشام هذه الآية شاهدا على خروج إذا عن الاستقبال وذلك على وجهين

أحدهما أن تجيء للماضي كما جاءت إذ للمستقبل في قول بعضهم ، والثاني أن تجيء

للحال وذلك بعد واو القسم نحو " والليل إذا يغشى والنجم إذا هوى " قيل لأنها لو كانت

للاستقبال لم

تكن ظرفا لفعل القسم لأنه إنشاء لا إخبار عن قسم يأتي ، لأن قسم الله سبحانه قديم ولا

لكون محذوف هو حال من الليل والنجم ، لأن الحال والاستقبال متنافيان ، وإذا بطل هذان

الوجهان تعين انه ظرف لأحدهما على أن المراد به الحال اه .

(525/353)

و الصحيح أنه لا يصح التعليق بأقسم الانشائي لأن القديم لا زمان له لا حال ولا غيره ، بل هو سابق على الزمان وانه لا يمتنع التعليق بكائنا مع بقاء إذا على الاستقبال بدليل صحة مجيء الحال المقدرة باتفاق كمررت برجل معه صقر صائدا به غدا ، أي مقدرا الصيد به غدا ، كذا يقدرون ، وأوضح منه أن يقال مريدا به الصيد غدا كما فسر قمتم في " إذا قمتم إلى الصلاة " بأردتم .

وقال القاضي محب الدين شارح التسهيل : يمكن أن المراد حكاية حالهم حين ابتدءوا هم في الفعل فإذا في محلها ، ورده الدماميني بأن الحكاية إنما تحقق الحال ولا تكون إذا في محلها إلا إذا تحقق الاستقبال ، وأجاب الشمني بأن الحالية في مبدأ الفعل تستلزم الاستقبال بالنظر لتمامه فبهذا الثاني تكون إذا واقعة محلها ولعلك تقول كلام القاضي على الابتداء في فعل الإتيان ولا شك أن التولي أو القول العامل في إذا على ما سبق مستقبل إذ ذاك فتدبر .

[سورة التوبة (9) : الآيات 93 إلى 95]

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (93) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (94) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْواهُمْ جَهَنَّمُ جَزاءً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (95)

الاعراب :

)

(526/353)

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِياءُ) إنما كافة ومكفوفة قيل هي للتوكيد والمبالغة فيه وقيل هي للحصر ، والسبيل مبتدأ وعلى الذين خبر وجملة يستأذنونك صلة وهم : الواو للحال وهم مبتدأ وأغنياء خبر والجملة حالية (رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوالِفِ) جملة مستأنفة أو حالية بتقدير قد ، بأن يكونوا متعلقان برضوا والواو اسم يكونوا والظرف خبرها . (وَطَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ) الجملة معطوفة على ما تقدم والفاء عاطفة وهم مبتدأ وجملة لا يعلمون خبر . (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان ما يبررون به موقفهم المتخاذل ، روي انهم كانوا بضعة وثمانين رجلا فلما رجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جاءوا يعتذرون إليه بالباطل وإليكم جار ومجرور متعلقان بيعتذرون وإذا ظرف مستقبل متعلق بجوابه المحذوف أي يعتذرون وجملة رجعتم مضاف إليها وإليهم جار ومجرور متعلقان برجعتم . (قُلْ لا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ) جملة

(527/353)

لا تعتذروا مقول القول وجملة لن نؤمن لكم مستأنفة كأنها تعليل للنهي ولكم جار ومجرور متعلقان بنؤمن . (قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبارِكُمْ) قد حرف تحقيق ونبأنا نصبت هنا مفعولين أولهما نا والثاني الجار والمجرور أو جملة من أخباركم فهو في الحقيقة صفة للمفعول المحذوف أما المفعول الثالث فقد حذف اختصارا للعلم به والتقدير نبأنا اللّه من أخباركم كذبا وأراجيف . (وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ) السين حرف استقبال ويرى فعل مضارع واللّه فاعل ، والرؤية هنا بمعنى العلم ، وعملكم مفعول يرى الأول والثاني محذوف تقديره واقعا ورسوله عطف على اللّه . (ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ) ثم عطف للترتيب مع التراخي وتردون فعل مضارع ونائب فاعل والى عالم الغيب جار ومجرور متعلقان بتردون (فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة وينبئكم فعل وفاعل مستتر والكاف مفعوله الأول وبما كنتم مفعوله الثاني وجملة تعملون خبر كنتم والعائد محذوف أي تعملونه ، وما هنا موصولة أو مصدرية . (سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ) السين للتأكيد مع الاستقبال ويحلفون فعل مضارع والواو فاعل وباللّه جار ومجرور متعلقان به والجملة بدل من يعتذرون ولكم حال والمحلوف عليه محذوف اعتمادا على فهم القارئ أي انهم معذرون في تخلفهم ، وإذا ظرف متعلق بيحلفون وإليهم جار ومجرور متعلقان بانقلبتم ولتعرضوا : اللام للتعليل وتعرضوا منصوب بأن مضمرة بعدها والجار والمجرور متعلقان بيحلفون ، وقد

امتنع نصب المفعول لأجله لاختلاف الفاعل أي لتتركوا معاتبتهم وعنهم جار ومجرور متعلقان بتعرضوا . (فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ) الفاء الفصيحة وأعرضوا فعل أمر والواو فاعل وعنهم جار

[سورة التوبة (9) : الآيات 96 إلى 98]

(528/353)

يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَر

عرب أو من مواليهم قال : فمن نزل البادية وجاور البادين وظعن بظعنهم فهم أعراب ، ومن نزل بلاد الريف واستوطن المدن والقرى العربية وغيرها ممن ينتمي إلى العرب فهم عرب وان لم يكونوا فصحاء " وقال غيره : عرب لسانه عرابة وما سمعت أعرب من كلامه وأعرب وهو من العرب العرباء . والعاربة وهم الصرحاء الخلّص وفلان من المستعربة وهم الدخلاء فيهم وفيه لوثة أعرابية قال :

وإني على ما فيّ من عنجهيتي ولوثة أعرابيتي لأديب

وقال الكميت :

لا ينقض الأمر إلا ريث يبرمه ولا تعرّب إلا حوله العرب

أي لا تعز وتتمنع عزة الأعراب في باديتها إلا عنده وسيأتي مزيد من بحثه .

(الدَّوائِرَ) : دوائر الزمان دوله وعقبه وهي جمع دائرة والدائرة ما يحيط بالإنسان من مصيبة ونكبة أخذا من الدائرة المحيطة بالشيء وأصله داورة لأنها من دار يدور فقلبت الواو همزة ، وقد اختلف اللغويون فيها فقال قوم هي فاعلة كقائمة وقال قوم هي مصدر كالعاقبة .

الاعراب :

(يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ) يحلفون بدل من سيحلفون ولكم جار ومجرور متعلقان بيحلفون أو بمحذوف حال ولام التعليل متعلقة مع مجرورها بيحلفون وعنهم متعلقان بترضوا . (فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ) الفاء الفصيحة والجواب

(529/353)

محذوف أي إن ترضوا عنهم فلا ينفعهم رضاكم ، فإن الفاء للتعليل وان واسمها وجملة لا يرضى عن القوم الفاسقين خبرها . (الْأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً) الأعراب مبتدأ وأشد خبر وكفرا تمييز ونفاقا عطف عليه وذلك لجفائهم وقسوتهم وابتعادهم عن معالم الحضارة وهو من باب وصف الجنس بأحد أفراده أو بعضهم كما في قوله تعالى " وكان الإنسان كفورا " إذ ليس كلهم كما ذكر وسيأتي بحث " أل المعرفة " في باب الفوائد مع ذكر أقسامها .

(وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى رَسُولِهِ) وأجدر عطف على أشد وأن وما في حيزها منصوبة بنزع الخافض أي بأن لا يعلموا وهي متعلقة بأجدر وحدود مفعول يعلموا وما مضاف اليه وجملة أنزل اللّه صلة . (وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) مبتدأ وخبراه . (وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ مَغْرَماً) من الاعراب خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يتخذ صلة وفاعل يتخذ مستتر تقديره هو وما مفعول به أول وجملة ينفق صلة ومغرما مفعول يتخذ الثاني أي خسارة لأنه لا يرجو الثواب بل يخشى العقاب . (وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ) ويتربص الواو للحال ويجوز أن تكون عاطفة فتكون يتربص داخلة في حكم الصلة وبكم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال والدوائر مفعول به . (عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) الجملة دعائية لا محل لها وعليهم خبر مقدم ودائرة السوء مبتدأ مؤخر واللّه مبتدأ وسميع خبره الأول وعليم خبره الثاني .

الفوائد :

حكم أل :

(أل) كلها حرف تعريف على الأصح وهي إما أن تكون لتعريف الجنس وتسمى " الجنسية " وإما لتعريف حصة معهودة منه وتسمى " العهدية " .

أل العهدية : تكون على ثلاثة أقسام :

آ- اما أن تكون للعهد الذكري وهي ما سبق لمصحوبها ذكر في الكلام كقولك : جاءني ضيف فأكرمت الضيف ، أي المذكور ومنه قوله تعالى : "كما أرسلنا إلى فرعون رسولا فعصى فرعون الرسول " .

ب- وإما أن تكون للعهد الحضوري ، وهي ما يكون مصحوبها حاضرا مثل : جئت اليوم أي اليوم الحاضر الذي نحن فيه .

ج- وإما أن تكون للعهد الذهني ، وهي ما يكون مصحوبها معهودا ذهنا فينصرف الفكر إليه بمجرد النطق به مثل حضر الرجل أي الرجل المعهود ذهنا بينك وبين من تخاطبه .

أل الجنسية وهي قسمان :

آ- إما أن تكون لاستغراق جميع أفراد الجنس وهي ما تشمل جميع أفراده كقوله تعالى : " وخلق الإنسان ضعيفا " .

ب- وإما لاستغراق جميع خصائصه مثل أنت الرجل ، أي اجتمع فيك كل صفات الرجال .

تنبيهات هامة :

1- علامة أل الاستغراقية أن يصح وقوع "كل " موقعها .

2- أل التي لبيان حقيقة الجنس وماهيته وطبيعته بقطع النظر عما يصدق عليه من أفراده

ولذلك لا يصح حلول "كل" محلها تسمى "لام الحقيقة والماهية والطبيعة" وذلك مثل : الإنسان حيوان ناطق أي حقيقته أنه عاقل مدرك وليس كل إنسان كذلك ، ومثل : الرجل أصبر من المرأة ، فليس كل رجل كذلك ، وقد يكون بين النساء من تفوق بصبرها وجلدها كثيرا من الرجال ، فأل هنا لتعريف الحقيقة غير منظور بها إلى أفراد الجنس بل إلى ماهيته من حيث هي وعلى هذا تحمل أل الداخلة على "الأعراب" فليسوا جميعا بهذه المثابة من شدة الكفر والنفاق والنبو عن استماع الكلام الطيب .

أل الزائدة :

(531/353)

و قد تزاد أل فلا تفيد التعريف ، وزيادتها إما أن تكون لازمة فلا تفارق مصحوبها كزيادتها في الأعلام التي قارنت وصفها كاللات والعزى والسموأل ، وكزيادتها في الأسماء الموصولة كالذي والتي ونحوهما ، لأن تعريف الموصول بالصلة لا بأل على الأصح ، وإما أن تكون زيادتها غير لازمة كزيادتها في بعض الأعلام المنقولة عن أصل للمح المعنى الأصلي كالفضل والحارث والنعمان والوليد والرشيد ونحوها ، وزيادتها سماعية فلا يقال المحمد والمحمود ، فما ورد عن العرب من ذلك يسمع ولا يقاس عليه غيره .

أل الموصولية :

وقد تكون أل اسم موصول بلفظ واحد مطلقا ، وهي الداخلة على اسم الفاعل والمفعول بشرط ألا يراد بها العهد أو الجنس نحو أكرم

المكرم ضيفه ، والمكرم ضيفه أي الذي يكرم ضيفه والذي يكرم ضيفه ، وإذا كانت الصفة الواقعة صلة لأل الموصولية في قوة الفعل ومرفوعه حسن عطف الفعل ومرفوعه عليها كقوله تعالى " والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا " وسيأتي بحث ذلك في حينه .

[سورة التوبة (9) : الآيات 99 إلى 100]

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (99) وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (100)

الإعراب :

)

وَمِنَ الْأَعْرابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) ومن الأعراب خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وجملة يؤمن بالله صلة واليوم الآخر عطف على الله . (وَيَتَّخِذُ ما يُنْفِقُ قُرُباتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَواتِ الرَّسُولِ) ويتخذ عطف على يؤمن وفاعله هو وما اسم موصول مفعول به وجملة ينفق صلة وقربات مفعول به ثان وعند الله ظرف في محل نصب صفة وصلوات الرسول فيها وجهان أظهرهما أنها معطوفة على قربات والمعنى أن ما ينفقه سبب لحصول القربات عند الله وصلوات الرسول لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، وثانيهما أنها عطف على ما ينفق وتقديره وصلوات الرسول قربات ، وقربات مفعول ثان ليتخذ . (أَلا إِنَّها قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ألا حرف تنبيه والجملة مستأنفة مؤكدة بألا وانها لثبات الأمر . وإن واسمها وخبرها ولهم صفة لقربة وسيدخلهم السين حرف استقبال ويدخلهم الله فعل مضارع ومفعول به وفاعل وفي رحمته جار ومجرور متعلقان بيدخلهم وإن واسمها وخبراها .

(وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسانٍ) السابقون مبتدأ والأولون صفة ومن المهاجرين والأنصار حال والذين عطف على السابقون واتبعوهم صلة وبإحسان جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال . (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ) الجملة خبر السابقون وهناك وجهان في الخبر ذكرهما أبو البقاء وتبعه أكثر المفسرين لا أعلم كيف

استساغهما ، الأول أن الخبر هو الأولون وهو ظاهر التهافت والثاني أنه من المهاجرين والأنصار وهو أشد تهافتا . (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً ذلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) تقدم إعراب نظائر هذه الجملة كثيرا فلا حاجة للإعادة .

(533/353)

[سورة التوبة (9) : الآيات 101 إلى 104]

وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ (101) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (102) خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (103) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (104)

اللغة :

(مَرَدُوا) : تمرنوا عليه ولجوا فيه يقال : تمرد فلان إذا عتا وتجبر ومنه الشيطان : المارد ، وتمرد في معصيته أي ثبت عليها واعتادها ولم يتب عنها ، وأصل مرد وتمرد اللين والملاسة

والتجرد ، فكأنهم تجردوا للنفاق ، ومنه غصن أمرد لا ورق فيه عليه وفرس أمرد لا شعر فيه وغلام أمرد لا شعر بوجهه وأرض مرداء لا نبات فيها وصرح ممرد مجرد . فالمعنى أنهم أقاموا على النفاق وثبتوا عليه ولم ينثنوا عنه .

(سَكَنٌ) : السكن : الطمأنينة فعل بمعنى مفعول كالقبض بمعنى المقبوض .

الاعراب :

(وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرابِ مُنافِقُونَ) جملة مستأنفة مسوقة لبيان حال منافقي أهل المدينة ومن حولها من الأعراب بعد بيان حال

(534/353)

أهل البادية ، وممن خبر مقدم وحولكم الظرف صلة الموصول ومن الأعراب حال ومنافقون مبتدأ مؤخر . (وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفاقِ) ومن أهل المدينة يجوز أن يكون معطوفا على من المجرورة بمن فيكون المجروران مشتركين في الإخبار بهما عن المبتدأ وهو منافقون كأنه قيل المنافقون من قوم حولكم ومن أهل المدينة ويجوز أن يكون الكلام تم عند قوله منافقون ويكون قوله ومن أهل المدينة خبرا مقدما والمبتدأ بعده محذوف قامت صفته مقامه وحذف الموصوف وإقامة صفته مقامه مطرد نحو منا ظعن ومنا أقام ونحو قوله :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

والتقدير ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق (لا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ) الجملة في محل رفع صفة لمنافقون أو مستأنفة ونحن مبتدأ وجملة نعلمهم خبر ومفعول نعلمهم الثاني محذوف تقديره منافقين وكذلك مفعول تعلمهم الثاني ، سنعذبهم السين حرف استقبال ونعذبهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به ومرتين ظرف (ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلى عَذابٍ عَظِيمٍ) الجملة معطوفة ، ويردون فعل ونائب فاعل والجار والمجرور متعلقان بيردون وعظيم صفة . (وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً) وآخرون عطف على منافقون أو مبتدأ وجملة اعترفوا بذنوبهم صفته وجملة خلطوا خبره وعملا مفعول خلطوا وصالحا صفة وآخر عطف على عملا وسيئا صفة وسيأتي في باب الفوائد كيفية هذا الخلط وما فيه من أسرار . (عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) عسى من أفعال المقاربة وتفيد الرجاء

(535/353)

و اللّه اسمها وأن وما في حيزها خبر وعليهم جار ومجرور متعلقان بيتوب وإن واسمها وخبراها . (خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِها) خذ فعل أمر وفاعله أنت ومن

أموالهم جار ومجرور متعلقان بخذ ويكون معنى " من " التبعيض وصدقة مفعول به ويجوز أن تتعلق بمحذوف حال لأنها كانت في الأصل صفة لصدقة فلما قدمت نصبت حالا منها وجملة تطهرهم حال من فاعل خذ إذا كانت التاء في تطهرهم خطابا للنبي صلى اللّه عليه وسلم أو صفة لصدقة إذا كانت التاء للغيبة وتزكيهم بها عطف على تطهرهم . (وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) وصلّ عطف على خذ وعليهم متعلقان بصلّ وإن واسمها وخبرها ولهم صفة لسكن واللّه مبتدأ وسميع عليم خبراه .

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ) الهمزة للاستفهام التقريري ولم حرف نفي وقلب وجزم ويعلموا مضارع مجزوم بلم وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي يعلموا وأن واسمها ، وهو مبتدأ وجملة يقبل خبره ، والجملة خبر أن ، ولا يجوز أن يكون هو فصلا لأن ما بعده لا يلتبس بالوصفية ، وعن عباده متعلقان بيقبل . (وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) عطف نسق على ما تقدم ويجوز في " هو " هنا أن يكون ضمير فصل وأن يكون مبتدأ .

الفوائد :

1 – حذف المنعوت واقامة النعت مقامه :

يجوز بكثرة حذف المنعوت إن علم وكان النعت صالحا لمباشرة العامل نحو قوله تعالى : " أن

اعمل سابغات " أي دروعا سابغات ، أو كان النعت جملة أو شبهها وكان المنعوت مرفوعا وبعض

(536/353)

اسم متقدم عليه مخفوض ب " من " أو " في " فالاول كقولهم : منا ظعن ومنا أقام ، فظعن وأقام جملتان في موضع رفع وهما نعتان لمنعوتين محذوفين مرفوعين على الابتداء أي منا فريق ظعن ومنا فريق أقام ، والثاني كقول أبي الأسود الحماني يصف امرأة :

لو قلت ما في قومها لم تيثم يفضلها في حسب وميثم

أصله لو قلت ما في قومها أحد يفضلها لم تأثم في مقالتك فحذف الموصوف وهو أحد وأقام جملة يفضلها مقامه .

هذا ويجوز حذف النعت إن علم كقوله تعالى : " وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا " أي كل سفينة صالحة وقول عباس ابن مرداس :

وقد كنت في الحرب ذا تدرأ فلم أعط شيئا ولم أمنع

فحذف النعت وأبقى المنعوت أي شيئا طائلا والذي أحوج إلى تقدير هذا النعت تحري الصدق فإن الواقع أنه أعطي شيئا بدليل قوله ولم أمنع ولكنه لم يرتضه فيحتاج إلى تقدير

صفة يكتسي بها الكلام جلباب الصدق ويتحلى بزنة الحق وقول المرقش الأكبر :

ورب أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وجيد

أي فرع فاحم وجيد طويل بدليل أن حسن التغزل يستدعي إثبات الفرع والجيد موصوفين بصفتين محبوبتين .

بقي أنه يجوز حذف المنعوت والنعت معا كقوله تعالى : " لا يموت فيها ولا يحيا " أي حياة نافعة ، وقد يحذفان إذا قام مقام النعت معموله

كما قالوا في " واللّه ما هي بنعم الولد " أي واللّه ما هي بولد مقول فيه نعم الولد " ونعم السير على بئس العير " أي على عير مقول فيه بئس العير .

2- أيهما المخلوط والمخلوط به ؟

في قوله تعالى " خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا " جعل كلا منهما مخلوطا فما المخلوط به ؟

(537/353)

و الجواب أن كل واحد مخلوط ومخلوط به لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر كقولك : خلطت الماء واللبن تريد خلطت كل واحد منهما بصاحبه وفيه ما ليس في قولك خلطت الماء باللبن لأنك جعلت الماء مخلوطا واللبن مخلوطا به وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن

مخلوطين ومخلوطا بهما كأنك قلت خلطت الماء باللبن واللبن بالماء .

ومن جهة ثانية كان العدول عن الباء لتضمين الخلط معنى العمل كأنه قيل عملوا عملا صالحا وآخر سيئا ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبر عنهما معا به .

[سورة التوبة (9) : الآيات 105 إلى 110]

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (105) وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ (107) لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (108) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (109)

لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (110)

اللغة :

(مُرْجَوْنَ) : اسم مفعول من أرجيته أي أخرته ويقال أرجأته بالهمز أيضا ومنه المرجئة .

(وَإِرْصاداً) : وإعدادا وارتقابا .

(شَفا) : طرف وحرف .

(جُرُفٍ) : بضم الراء وسكونها جانب البئر التي لم تطو وقيل :

الهوّة وما يجرفه السيل من الأودية . قال أبو عبيدة وقيل هو المكان الذي يأكله الماء فيجرفه أي يذهب به .

(هارٍ) : فيه ثلاثة أقوال : أحدهما وهو المشهور أنه مقلوب بتقديم لامه على عينه وذلك أن أصله هاور أو هاير بالواو أو الياء لأنه سمع فيه الحرفان قالوا هار يهور ويهار ، وهار يهير ، وتهوّر البناء وتهيّر ، فقدمت اللام وهي الراء على العين وهي الواو أو الياء فصار كغاز ورام فأعلّ بالنقص كإعلالهما فوزنه بعد القلب فالع ثم نزله بعد الحذف على فال ، والقول الثاني أنه حذفت عينه اعتباطا أي لغير موجب وعلى هذا فتجري وجوه الإعراب على لامه فيقال هذا هار ورأيت هارا ومررت بهار ووزنه أيضا فال والقول الثالث أنه لا قلب فيه ولا حذف وأن أصله هورا وهير فتحرك حرف العلة وانفتح ما قبله فقلب ألفا فتجري وجوه الاعراب أيضا كالذي قبله كما تقول هذا باب ورأيت بابا ومررت بباب وهذا أعدل الوجوه لاستراحته من ادعاء القلب والحذف اللذين هما على خلاف الأصل ولكنه غير

مشهور عند أهل التصريف ومعنى هار متداع وساقط ومنهال .

الاعراب :

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ) جملة اعملوا مقول القول والفاء الفصيحة والسين بالنظر للمجازاة لا للعلم لأن العلم حاصل غير متقيد بزمان واللّه فاعل يرى وعملكم مفعوله ورسوله والمؤمنون معطوفان على اللّه . (وَسَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ) عطف على سيرى والى عالم جار ومجرور متعلقان بتردون والغيب مضاف اليه

(539/353)

و الشهادة معطوف على الغيب (فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) الفاء عاطفة وبما متعلقان بينبئكم وجملة كنتم تعملون صلة ما . (وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ) عطف نسق على ما تقدم أي وآخرون اعترفوا ومرجون صفته ولأمر اللّه متعلقان بمرجون يعني وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم .

)

إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) إما حرف شرط وتفصيل ويعذبهم فعل مضارع وفاعل مستتر ومفعول به والجملة نصب على الحال أي هم مؤخرون إما معذبين

وإما متوبا عليهم وإما هنا للشك بالنسبة للمخاطب وإما للابهام بالنسبة للّه تعالى بمعنى أنه تعالى أبهم أمرهم ومصيرهم على المخاطبين ويجوز أن نعرب آخرون مبتدأ ومرجون صفته وجملة إما يعذبهم خبر آخرون وإما يتوب عليهم عطف واللّه مبتدأ وعليم حكيم خبراه . (وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِراراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ) لك في الذين وجهان : النصب على الاختصاص بالذم ومثله قوله تعالى " والمقيمين الصلاة " على الاختصاص بالمدح والرفع على الابتداء والخبر محذوف معناه فيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله تعالى " والسارق والسارقة " وهذا الوجه ارتضاه سيبويه وقد تقدم قوله وافيا فيه وتقديره : فيما يتلى عليكم الذين فحذف الخبر وأبقى المبتدأ . والواو استئنافية على كل حال وجملة اتخذوا صلة ومسجدا مفعول به وضرارا مفعول ثان لاتخذوا أو مفعول لأجله أو مفعول مطلق أي يضارون بذلك ضرارا أو حال أي مضارين لإخوانهم ، وكل هذه الأوجه متساوية الرجحان ، وكفرا وتفريقا عطف على ضرارا وبين ظرف متعلق بتفريقا .

(وَإِرْصاداً لِمَنْ حارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ) وارصادا عطف أيضا ولمن حارب اللّه متعلقان بإرصادا وجملة حارب اللّه صلة ومن قبل جار ومجرور متعلقان بحارب .

(وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنا إِلَّا الْحُسْنى) اللام واقعة في جواب قسم

مقدر وإن نافية وأردنا فعل وفاعل والجملة جواب القسم وإلا أداة حصر والحسنى مفعول أردنا . (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) الواو عاطفة والله مبتدأ وجملة يشهد خبر وإن وما في حيزها مفعول يشهد وان واسمها واللام المزحلقة وكاذبون خبرها وستأتي قصة مسجد الضرار في باب الفوائد . (لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً) لا ناهية وتقم فعل مضارع مجزوم بلا الناهية وفيه جار ومجرور متعلقان بتقم وأبدا ظرف متعلق بتقم أيضا أي لا تصل فيه أبدا . (لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ) اللام للابتداء ومسجد مبتدأ وجملة أسس على التقوى صفة لمسجد وعلى التقوى جار ومجرور متعلقان بأسس وأحق خبره ومن أول يوم جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أو بأسس وأن تقوم مصدر منصوب بنزع الخافض أي بأن تقوم فيه وهو متعلق بأحق وفيه متعلقان بتقوم . (

فِيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ) فيه خبر مقدم ورجال مبتدأ مؤخر وجملة يحبون صفة لرجال وان وما في حيزها مفعول يحبون أي يحبون الطهارة من الذنوب والحوبات والمعاصي وقيل من الذنوب طهارة الباطن ومن الأحداث طهارة الظاهر والله مبتدأ وجملة يحب المطهرين خبر (أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى تَقْوى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ) الهمزة للاستفهام التقريري والفاء عاطفة على مقدر أي أبعد ما علم حالهم أفمن أسس بنيانه على تقوى إلخ ، ومن مبتدأ وجملة أسس بنيانه صلة وعلى تقوى جار ومجرور

متعلقان بأسس ومن اللّه صفة لتقوى ورضوان عطف على تقوى وخير خبر لمن (أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيانَهُ عَلى شَفا جُرُفٍ هارٍ) أم حرف عطف ومن معطوفة على من الأولى وخبرها محذوف تقديره خير وعلى شفا جرف هار متعلقان بأسس (فَانْهارَ بِهِ فِي نارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(541/353)

الفاء عاطفة وانهار عطف على أسس وفاعله إما ضمير البنيان وإما ضمير الجرف وهو أولى لأن انهياره يترتب عليه انهيار الشفا والبنيان جميعا

ولا يلزم من انهيارهما أو انهيار أحدهما انهياره وبه متعلقان بانهار إذا كانت الباء للتعدية وبمحذوف حال إن كانت للمصاحبة وكلاهما جائز واللّه مبتدأ وجملة لا يهدي القوم الظالمين خبر. (لا يَزالُ بُنْيانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ) بنيانهم اسم لا يزال والذي صفة بنيانهم وجملة بنوا صلة وريبة خبر لا يزال وفي قلوبهم صفة لريبة. (إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) استثناء من أعم الأزمنة فالمستثنى منه على هذا محذوف أي لا يزال بنيانهم ريبة في كل وقت من الأوقات إلا وقت تقطيع قلوبهم وأن مصدرية وتقطع أصلها تتقطع منصوب بها وقلوبهم فاعل واللّه مبتدأ وعليم حكيم خبراه.

البلاغة :

اشتملت هذه الآيات على فنون من البلاغة ندرجها فيما يلي :

1 – فن الترديد وهو أن يعلق المتكلم لفظة من الكلام بمعنى ثم يردها بعينها ويعلقها بمعنى آخر كقوله تعالى " ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يعلمون ظاهرا من الحياة " فيعلمون الأولى منفية والثانية مثبتة ولكل من المعنيين مناسبة اقتضت ذلك المعنى وقوله الذي نحن بصدده " لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ، فيه رجال يحبون أن يتطهروا " ففيه الاولى متعلقة بتقوم وفيه الثانية خبر مقدم ولكل منهما معنى .

ومن أمثلة الترديد في الشعر بيت ورد في أبيات قالها سيف الدولة وذلك انه كانت له جارية من بنات الروم لا يرى الدنيا إلا بها ويشفق عليها من الريح الهابة فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه وأزمعن إيقاع مكروه بها من سم أو غيره وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض الحصون احتياطا على روحها وقال في ذلك :

(542/353)

راقبتني العيون فيك فأشفقت ولم أخل قط من إشفاق ورأيت العذول يحسدني فيك مجدّا يا أنفس الأعلاق

فتسنيت أن تكوني بعيدا والذي بيننا من الود باق

رب هجر يكون من خوف هجر وفراق يكون خوف فراق

2- الاستعارة : في قوله تعالى " أ فمن أسس بنيانه على تقوى من اللّه " أي على قاعدة راسخة ثابتة وطيدة هي التقوى من اللّه فشبه التقوى والرضوان بقاعدة يعتمد عليها البناء تشبيها مضمرا في النفس ، وأسس بنيانه تخييل على قاعدة الاستعارة التصريحية .

3- الاستعارة التمثيلية في انهيار البناء القائم على شفا جرف هار . شبّه عدم القيام بأمور الدين بمن بني بنيانه على شفا فهو يسقط به فالمشبه به البناء على محل آيل للسقوط والمشبه هو ترتيب أحكام الدين وأعماله على الكفر والنفاق .

الفوائد :

قصة مسجد الضرار :

روى التاريخ أن بني عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن يأتيهم فأتاهم فصلى فيه فحسدتهم أخوتهم بنو غنم بن عوف وقالوا نبني مسجدا ونرسل إلى رسول اللّه بصلي فيه ، ويصلي فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوتهم وهو الذي سماه رسول اللّه الفاسق وقال لرسول اللّه يوم أحد : لا أجد قوما يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ،

فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين فلما انهزمت هوازن خرج هاربا إلى الشام وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح فاني ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدا وأصحابه من المدينة فبنوا مسجدا بجنب مسجد قباء وقالوا للنبي صلى اللّه عليه وسلم بنينا مسجدا لذوي العلة والحاجة والليلة المطيرة والشاتية ونحن نحب أن تصلي لنا فيه وتدعوا لنا بالبركة فقال النبي : إني على جناح سفر وحال شغل وإذا قدمنا إن شاء اللّه صلينا فيه فلما قفل من غزوة تبوك سألوه إتيان المسجد فنزلت عليه فدعا بمالك بن الدخشم ومعن بن عدي وعامر بن السكن ووحشيا فقال لهم انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ففعلوا وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ومات أبو عامر بالشام بقنسرين .

[سورة التوبة (9) : الآيات 111 إلى 112]

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (111) التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (112)

الاعراب :

)

(544/353)

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوالَهُمْ) جملة مستأنفة مسوقة لترغيب المؤمنين بالجهاد وذلك ببيان فضيلته وما يترتب على الاستشهاد في سبيل اللّه وإن واسمها وجملة اشترى خبرها ومن المؤمنين جار ومجرور متعلقان باشترى وأنفسهم مفعول به وأموالهم عطف على أنفسهم . (بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) الباء ومدخولها متعلقة باشترى وسيأتي المزيد من حقيقة هذه الشروى في البلاغة ولهم خبر ان المقدم والجنة اسمها المؤخر . (يُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) جملة مستأنفة لا لبيان نفس الاشتراء لأن قتالهم في سبيل اللّه ليس باشتراء من اللّه أنفسهم وأموالهم بل لبيان البيع الذي يستدعيه الاشتراء المذكور كأنه قيل كيف يبيعونها بالجنة فقيل يقاتلون ، وفي سبيل اللّه جار ومجرور متعلقان بيقاتلون . (فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْراةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ) الفاء عاطفة ويقتلون بالبناء للمعلوم ويقتلون بالبناء للمجهول معطوفان على يقاتلون ووعدا وحقا مصدران منصوبان بفعلهما المحذوف أي وعدهم وعدا وحق ذلك الوعد حقا وفي التوراة جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لوعدا أي

وعدا كائنا ومذكورا في التوراة ويجوز أن يعلق باشتروا ، والإنجيل والقرآن معطوفان على التوراة .

(وَمَنْ أَوْفى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) الواو استئنافية أو عاطفة ومن اسم استفهام مبتدأ وأوفى خبره وبعهده ومن اللّه متعلقان بأوفى . (فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بايَعْتُمْ بِهِ وَذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الفاء الفصيحة واستبشروا فعل أمر وفاعل وببيعكم جار ومجرور متعلقان باستبشروا والذي صفة وبايعتم به صلة وذلك مبتدأ وهو ضمير فصل أو مبتدأ ثان والفوز خبر ذلك أو خبر هو والعظيم صفة . (التَّائِبُونَ الْعابِدُونَ

(545/353)

الْحامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)

أخبار لمبتدأ محذوف أي هم التائبون العابدون إلخ أي على المدح وجوز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف أي التائبون العابدون من أهل الجنة أيضا وان ثم يجاهدوا وقيل هو رفع على البدل من الواو في يقاتلون وحاصل ما ذكر أوصاف تسعة : الستة الاولى تتعلق بمعاملة الخالق والسابع والثامن يتعلق بمعاملة المخلوقين والتاسع يعم القبيلين . وبشر المؤمنين الواو

عاطفة وبشر فعل أمر وفاعل مستتر والمؤمنين مفعول به .

البلاغة :

انطوت هذه الآيات على أنواع من البلاغة نوردها فيما يلي :

1- الاستعارة المكنية التبعية في قوله تعالى : " إن اللّه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة " فقد استعار الشراء لقبول اللّه تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم التي بذلوها في سبيله وإثابته إياهم بمقابلتها بالجنة ثم جعل المبيع الذي هو العمدة والمقصد في العقد أنفس المؤمنين وأموالهم وجعل الثمن الذي هو الوسيلة في الصفقة الجنة .

2- الالتفات بقوله " فاستبشروا " زيادة في سرورهم والفاء الفصيحة لترتيب الأمر به على ما قبله وجعله بمثابة الشرط له والسين ليست للطلب بل للمطاوعة كاستوقد .

3- التذييل وهو أن يذيل المتكلم كلامه بعد تمام معناه بجملة تحقق ما قبلها وتلك الزيادة على ضربين :

آ- ضرب لا يزيد على المعنى الأول وإنما يؤكده ويحققه .

ب- وضرب يخرجه المتكلم مخرج المثل السائر ليشتهر المعنى لكثرة دورانه على الألسنة وقد جاء في هذه الآية الكريمة الضربان :

آ- قوله : " وعدا عليه حقا " فإن الكلام قد تم وكمل قبل ذلك ثم أتت جملة التذييل لتحقق ما قبلها وتؤكده .

ب- قوله : " ومن أوفى بعهده من اللّه " مخرجا ذلك مخرج المثل فسبحان المتكلم بمثل هذا الكلام .

الفوائد :

1- واو الثمانية : عدّد اللّه تسعة أوصاف ولم ينسقها بالواو حتى إذا كان الثامن أدخل الواو وذلك لسر في كلامهم وهو أن للعرب واوا سموها واو الثمانية وهي تدخل على ما كان ثامنا ، كذا قرر بعض العلماء ورد عليهم آخرون وأكثروا وأطالوا ولما كان الكلام في هذا الصدد لا يخلو من متعة وفائدة نرى من الأولى تلخيصه بما يلي :

استدل المثبتون لهذه الواو بقوله تعالى " وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها " فأتى بالواو هنا ولم يأت بها في ذكر جهنم لأن للنار سبعة أبواب وللجنة ثمانية ، وفي قوله تعالى " ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم " وقد منع بعض المحققين هذا وقال : إنما تقع بين المتضادين لأن الثّيبات غير الأبكار في قوله تعالى " ثيبات وأبكارا " ولأن الآمرين ضد الناهين في الآية التي نحن بصدد الحديث عنها . قال أبو حيان : والصفات إذا

تكررت وكانت للمدح أو الذم أو الترّحم جاز فيها الاتباع للمنعوت والقطع في كلّها أو بعضها ، وإذا تباين ما بين الوصفين جاز العطف ، ولما كان الأمر مباينا للنهي ،

(547/353)

إذ الأمر طلب فعل ، والنهي ترك فعل ، حسن العطف في قوله والناهون ، ودعوى الزيادة أو واو الثمانة ضعيف وقال في قصة أهل الكهف : إنه إنما أتى بالواو مع الثمانية لأن القول الثالث أقرب إلى الحق أو هو الحق لأنه قال في القولين " رجما بالغيب " وفي الثالث قال : " قل ربي أعلم بعدتهم " وقال في قصة أهل الجنة واثبت الواو لأن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها زيادة في الضيق على من بها وأما أبواب الجنة فتفتح لأهلها قبل دخولهم إليها إكراما لهم لقوله تعالى " جنات عدن مفتحة لهم الأبواب " قال الشيخ جمال الدين بن الحاجب رحمة اللّه : ان القاضي الفاضل كان يعتقد زيادة الواو في هذه الآية يعني " ثيبات وأبكارا " ويقول هي واو الثمانية إلى أن ذكر ذلك بحضرة الشيخ أبي الجود المقري فبين له أنه وهم وأن الضرورة تدعو إلى دخولها هنا وإلا فسد المعنى بخلاف واو الثمانية فإنه يؤتى بها لا لحاجة فقال : أرشدتنا يا أبا الجود .

نقول وممن اعترف بواو الثمانية الإمام فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير وقال : إن الواو في

قوله تعالى " وثامنهم كلبهم " هي واو الثمانية .

وسيأتي مزيد بحث عنها عند الكلام على هذه الآيات في مواضعها .

السائحون :

اختلف العلماء في الصفة الثالثة وهي السائحون وأصح الأقوال انهم الصائمون شبّهوا بذوي السياحة في الأرض في امتناعهم من شهواتهم وقيل هم طلبة العلم يطلبونه في مظانه ويضربون في مناكب الأرض لتحصيله وفي القاموس : والسياحة بالكسر الذهاب في الأرض للعبادة ومنه المسيح بن مريم . والسائح الصائم الملازم للسياحة .

[سورة التوبة (9) : الآيات 113 إلى 116]

(548/353)

ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ (113) وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (114) وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ (116)

اللغة :

(الأواه) فعال من أوه كلآلّ من اللؤلؤ وهو الذي يكثر التأوه ومعناه أنه لفرط حبه لأبيه وترحمه ورقته وحلمه كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه هذا ما قاله الزمخشري وقد استدرك عليه أبو حيان فقال : " وتشبيه أواه من أوه بلآل من اللؤلؤ ليس بجيد لأن مادة أوه موجودة في صورة أواه ومادة لؤلؤ مفقودة في لآل لاختلاف التركيب إذ لآل ثلاثي ولؤلؤ رباعي وشرط الاشتقاق التوافق في الحروف الأصلية " . وفي المختار وقد أوّه الرجل تأويها وتأوه تأوها إذا قال أوّه . وجميل قول الزجاج وننقله بنصه : " قال أبو عبيدة هو المتأوه شفقا وفرقا ، المتضرّع يقينا ولزوما للطاعة وقد انتظم في قول أبي عبيدة جميع ما قيل في الأواه وأصله من التأوه وهو أن يسمع للصدر صوت يتنفس الصعداء " وقيل الكلمة حبشية ومعناها الموقن قال ابن النقيب في كتابه خصائص القرآن : " إن القرآن احتوى على جميع لغات العرب وأنزل فيه بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير " وسترد معنا الألفاظ غير العربية التي فطن الأقدمون لها عند الكلام على لغة القرآن .

الاعراب :

(ما كانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ) ما نافية وكان فعل ماض ناقص وللنبي خبر كان المقدم والذين عطف على النبي وجملة آمنوا صلة وان وما في حيزها اسم كان المؤخر ويستغفروا فعل مضارع منصوب بأن وللمشركين جار ومجرور متعلقان بيستغفروا (وَلَوْ كانُوا أُولِي قُرْبى مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحابُ الْجَحِيمِ) الواو حالية ولو وصلية وكانوا كان واسمها وأولي خبرها وقربى مضاف اليه ومن بعد متعلقان بما في النفي من معنى الفعل أي انتفى الاستغفار من بعد ، وما مصدرية وهي وما في حيزها مضافة لبعد أي من بعد تبيان ولهم جار ومجرور متعلقان بتبين وأنهم أن وما في حيزها فاعل تبين وأصحاب الجحيم خبر أن . (وَما كانَ اسْتِغْفارُ إِبْراهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَها إِيَّاهُ) الجملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما سبق ودعمه بشواهد وقرائن ودفع ما يرد من إيهام بحسب ما يبدو في الظاهر بالمخالفة ، وكان واسمها وابراهيم مضاف اليه ولأبيه جار ومجرور متعلقان باستغفار وإلا أداة حصر وعن موعدة خبر كان فالاستثناء

(550/353)

مفرّغ من أعم العلل أي لم يكن استغفار ابراهيم لأبيه ناشئا إلا عن موعدة وعدها إياه أي لأجلها . (فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْراهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) الفاء عاطفة ولما حينية أو رابطة وله متعلقان بتبين وأن وما في حيزها فاعل تبين وجملة تبرأ منه لا محل لها لأنها جواب لما وإن واسمها واللام المزحلقة وأواه خبر إن الاول وحليم خبرها الثاني (وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَداهُمْ) الواو عاطفة وما نافية وكان واسمها واللام للجحود ويضل منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود وهي مع مدخولها خبر كان وقد تقدمت كثيرا وقوما مفعول به وبعد ظرف متعلق بيضل وهو مضاف والظرف إذ مضاف اليه وجملة هداهم مضاف إليها الظرف وقد تقدم القول فيه في آل عمران ان فيه وجهين أحدهما أن " إذ " بمعنى " أن " والثاني أنها ظرف بمعنى وقت أي بعد أن هداهم أو بعد وقت هدايتهم . (حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ ما يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) حتى حرف غاية وجر ويبين فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى ولهم جار ومجرور متعلقان بيبين وما مفعول به وجملة يتقون صلة وان واسمها وخبرها وبكل شيء متعلقان بعليم . (إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ) إن واسمها وله خبر مقدم وملك السموات والأرض مبتدأ مؤخر وجملة يحيي خبر ثان لإن والخبر الأول جملة له ملك السموات ويميت عطف على يحيي (وَما لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ) الواو عاطفة وما نافية ولكم خبر مقدم ومن دون الله جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال ومن زائدة وولي مبتدأ مؤخر محلا ولا نصير عطف على

من ولي .

[سورة التوبة (9) : الآيات 117 إلى 118]

(551/353)

لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (117) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (118)

الإعراب :

(لَقَدْ تابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهاجِرِينَ وَالْأَنْصارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي ساعَةِ الْعُسْرَةِ) سيأتي في باب الفوائد معنى توبة اللّه على النبي والجملة استئنافية مسوقة لبيان التوبة وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إليها واللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وتاب اللّه فعل وفاعل وعلى النبي جار ومجرور متعلقان بتاب والمهاجرين والأنصار عطف على النبي والذين نعت وجملة اتبعوه صلة الموصول وفي ساعة العسرة جار ومجرور متعلقان باتبعوه وسيأتي ذكر ساعة العسرة في باب الفوائد .

(مِنْ بَعْدِ ما كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ) من بعد متعلقان بمحذوف حال لبيان الشدة وبلوغها الحد الأقصى واسم كاد ضمير الشأن وجملة يزيغ خبر وقلوب فاعل وفريق مضاف اليه ومنهم صفة . (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) ثم حرف عطف للتراخي وتاب عطف على تاب الأولى وفائدة التكرير التنبيه على انه تاب عليهم لما كابدوه في ساعة العسرة وإنه إن واسمها وبهم متعلقان برءوف ورءوف رحيم خبران لإن .

(وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا) وعلى الثلاثة عطف على ما تقدم والمراد بهم

(552/353)

كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، والذين صفة وجملة خلفوا صلة وخلفوا بالبناء للمجهول والواو نائب فاعل أي عن الغزو .

(حَتَّى إِذا ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِما رَحُبَتْ وَضاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ) حتى حرف غاية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وجملة ضاقت مضاف إليها وعليهم جار ومجرور متعلقان بضاقت والأرض فاعل وبما رحبت أي برحبها فالباء حرف جر للمصاحبة وما مصدرية ومعنى الباء هنا المصاحبة وعلامتها أن يصح حلول " مع " محلها أو أن يغني عنها وعن مصحوبها الحال وهنا تصح فيها " مع " أي مع رحبها أما مثال ما يغني

عنها وعن مصحوبها الحال فقوله تعالى " وقد دخلوا بالكفر " أي كافرين وعلى كل هي ومصحوبها في محل نصب على الحال أي حالة كونها رحيبة وضاقت عليهم أنفسهم عطف على ما تقدم وهو مثل للحيرة في أمرهم كأنهم لا يجدون مكانا يقرون فيه (وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ) وظنوا عطف على ضاقت والظن هنا بمعنى اليقين وأن مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن محذوف ولا نافية للجنس وملجأ اسمها ومن اللّه خبرها وإلا أداة حصر واليه جار ومجرور متعلقان بملجأ . (ثُمَّ تابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) ثم حرف عطف وتاب فعل ماض وعليهم جار ومجرور متعلقان بتاب وليتوبوا اللام قيل هي للتعليل أي وفقهم للتوبة ليحصلوا عليها وينشئوها فحصلت المغايرة وصح التعليل وأرى أنه لا مانع من أن تكون لام العاقبة أو الصيرورة أي فكانت عاقبتهم التوبة ، وان واسمها وهو مبتدأ أو ضمير فصل والتواب الرحيم خبران لإن أو هو .

الفوائد :

1 – تنطوي هاتان الآيتان على كثير من الفوائد وقبل الشروع فيها نتحدث عن إشكال ورد فيها وهو جواب إذا وعطف " ثم تاب

عليهم " وقد أجاب العلماء عن ذلك بجوابين أولهما أن تكون إذا زائدة فلا تحتاج إلى جواب ويستقيم المعنى والثاني أن تكون ثم زائدة فتكون جملة تاب عليهم هي الجواب ولا يمكن حل الإشكال إلا بافتراض زيادة إحداهما وممن قال بزيادة " ثم " زكريا في حاشيته على البيضاوي ، أو غيره فاختاروا زيادة إذا .

وهذا ما قاله أبو حيان : " وجاءت هذه الجمل في كنف إذا في غاية الحسن والترتيب فذكر أولا ضيق الأرض عليهم وهو كناية عن استيحاشهم ونبوة الناس عن كلامهم وثانيا وضاقت عليهم أنفسهم وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع فذكر أولا ضيق المحل ثم ثانيا ضيق الحال فيه لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة " سم الخياط مع الأحباب ميدان " ثم ثالثا لما يئسوا من الخلق عذقوا أمورهم بالله وانقطعوا اليه وعلموا انه لا يخلص من الشدة ولا يفرجها إلا هو تعالى " ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون " وإذا إن كانت شرطية فجوابها محذوف تقديره تاب عليهم ويكون قوله ثم تاب عليهم نظير قوله ثم تاب عليهم بعد قوله " لقد تاب الله على النبي " الآية ودعوى أن ثم زائدة وجواب إذا ما بعد ثم بعيد جدا وغير ثابت من لسان العرب زيادة ثم ومن زعم أن إذا بعد حتى قد تجرد من الشرط وتبقى لمجرد الوقت فلا تحتاج إلى جواب بل تكون غاية للفعل الذي قبلها وهو قوله خلفوا أي خلفوا إلى هذا الوقت ثم تاب عليهم ليتوبوا ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كرة أخرى ليستقيموا على توبتهم وينيبوا أو ليتوبوا

أيضا فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة علما منهم أن اللّه تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة " .

معنى التوبة :

كما اختلف العلماء في معنى توبة اللّه على النبي وسنورد أهم الأوجه التي ارتآها أقطاب المفسرين وعلماء اللغة .

(554/353)

أما الزمخشري فنظمها في سلك قوله تعالى " ليغفر لك اللّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر " وقوله " واستغفر لذنبك " وقال : وهو بعث للمؤمنين على التوبة وانه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار حتى النبي ومن معه من المهاجرين والأنصار ، وهذا ما جرينا عليه نحن باعتباره منطقيا ومقيسا .

أما الجلال وشارحو تفسيره فقد ذهبوا إلى معنى الديمومة في التوبة أي أدام توبته عليهم وقال الشارحون في تعليقهم على ما ذهب اليه الجلال : " وهذا جواب عما يقال إن النبي معصوم من الذنب وإن المهاجرين والأنصار لم يقترفوا ذنبا في هذه القضية فبين أن المراد بالتوبة في حق الجميع دوامها لا أصلها " وهذا الرأي بادي الاضطراب .

أما الخازن فقد ارتأى رأيا كدنا نؤثره حتى على الرأي الأول وهو قوله " ومعنى توبته على النبي عدم مؤاخذته بإذنه للمؤمنين في التخلف عنه في غزوة تبوك وهو كقوله : " عفا اللّه عنك لم أذنت لهم " فهو من باب ترك الأفضل لا أنه ذنب يوجب عقابا " .

وهناك رأي لا يقل وجاهة عما تقدم عبر عنه أصحاب المعاني بقولهم : وهو كلام للتبرك فهو كقوله تعالى : " فأن للّه خمسه " ومعنى هذا أن ذكر النبي بالتوبة عليه تشريف للمهاجرين والأنصار في ضم

توبتهم إلى توبة النبي صلى اللّه عليه وسلم كما ضم اسم الرسول إلى اسم اللّه في قوله " فأن للّه خمسه وللرسول " .

ساعة العسرة :

المراد وقتها لا الساعة الفلكية فالساعة مستعملة في معنى الزمن المطلق كما استعملت الغداة والعشية واليوم كقول زفر بن الحارث الكلابي :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة عشية قارعنا جذام وحميرا

فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

فالمراد مطلق الوقت لا العشية على حقيقتها وكقول حاتم الطائي :

إذا جاء يوما وارثي يبتغي الغنى يجد جمع كف غير ملأى ولا صفر

يجد فرسا مثل العنان وصارما حساما إذا ما هزّ لم يرض بالهبر

وأسمر خطّيا كأن كعوبه نوى القسب قد أربى ذراعا على العشر

المراد باليوم مطلق الزمان ، وهكذا غالب استعمال العرب ،

ويلاحظ انه جزم ب " إذا " تشبيها لها بالأدوات التي تجزم فعلين وقد نص النحاة على ورودها كقوله :

استغن ما أغناك ربك بالغنى وإذا تصبك خصاصة فتجمل

ولساعة العسرة التي وقعت في غزوة تبوك حوادث نكتفي برواية لعمر بن الخطاب عنها قال : " خرجنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كبده وحتى إن الرجل كان يذهب يلتمس الماء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع فقال أبو بكر الصديق : يا رسول اللّه إن اللّه عز وجل قد عوّدك في الدعاء خيرا فادع اللّه قال : أتحب ذلك ؟

فقال الصديق : نعم . فرفع صلى اللّه عليه وسلم يديه فلم ترجعا حتى قالت السماء فأظلمت ثم سكبت فملئوا ما معهم من الأوعية ثم ذهبنا ننظرها فلم نجدها جاوزت

العسكر " ومعنى قالت السماء :

مالت وسقطت .

[سورة التوبة (9) : الآيات 119 إلى 121]

(556/353)

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (119) ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (120) وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (121)

اللغة :

(مَخْمَصَةٌ) : جوع وفي فعله ثلاث لغات فهو خمص بفتح الميم وكسرها وضمها ومصدره خمص ومخمصة وهو خميص البطن وهي خميصة البطن وهو خمصان وهي خمصانة وهم خماص وهن خمائص ومن المجاز زمن خميص أي ذو مجاعة قال :

كلوا في بعض بطنكم تعفّوا فإن زمانكم زمن خميص

وكل شيء كرهت الدنو منه فقد تخامصت عنه ، قال الشماخ :

تخامص عن برد الوشاح إذا مشت تخامص جافي الخيل في الأمعز الوجي

وتخامص الليل : رقت ظلمته عند وقت السحر ، قال الفرزدق :

فما زلت حتى صعدتني حبالها إليها وليلي قد تخامص آخره

(يَنالُونَ) : في معاجم اللغة : نال خيرا ينال نيلا أصاب ، وأصله

نيل ينيل من باب فهم والأمر منه نل وإذا أخبرت عن نفسك كسرت النون فتقول : نلت وفي

المصباح : نال من عدوه من باب تعب نيلا بلغ منه مقصوده ومنه قيل نال من امرأته ما أراد .

(557/353)

)

وادِياً) : الوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذا للسيل وهو في الأصل فاعل من ودى

إذا سال ومنه الودي وقد شاع استعمال العرب بمعنى الأرض يقولون : لا تصلّ في وادي

غيرك وهو المراد هنا وفي المصباح " وودى الشيء إذا سال ومنه اشتقاق الوادي وهو كل

منفرج بين جبال أو آكام يكون منفذا للسيل والجمع أودية " ، وفي القاموس وغيره : ودى

يدي وديا ودية القاتل القتيل أعطى وليه ديته وودى الأمر قرّبه وودى الشيء سال ومنه اشتقاق الوادي لأن الماء يدي فيه أي يسيل ويجري والجمع أودية وأوادية وأوداء وأوداه . فما شاع على ألسنة الكتاب من جمعه على وديان خطأ ظاهر .

الاعراب :

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تقدم إعرابها كثيرا . (اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) اتقوا اللّه فعل وفاعل ومفعول به وكونوا عطف على اتقوا والواو اسم كان ومع الصادقين متعلقان بمحذوف خبر كونوا ، قالوا أتت بمعنى من أي من الصادقين والذي حملهم على ذلك أنه قرىء شذوذا " وكونوا من الصادقين " ولا داعي لهذا التكلف لأن بقاء مع على معناها أولى والمعنى : كونوا مع المهاجرين والأنصار ووافقوهم وانتظموا في سلكهم . (ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ) ما نافية وكان فعل ماض ناقص ولأهل المدينة خبر كان المقدم ومن عطف على أهل وحولهم ظرف متعلق

(558/353)

بمحذوف صلة الموصول ومن الأعراب حال وأن وما في حيزها اسم كان المؤخر وعن رسول اللّه متعلقان بيتخلفوا (وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ) الواو عاطفة ويرغبوا يجوز فيه

النصب على العطف على أن " لا " نافية والجزم على أن " لا " ناهية ، وبأنفسهم متعلقان يرغبوا والباء للتعدية فقوله رغبت عنه معناه أعرضت عنه والمعنى ولا يجعلوا أنفسهم راغبة عن نفسه ، وعن نفسه حال أي عليهم أن يصحبوه على كل حال ، وفي البأساء والضراء وأن يكابدوا معه الأهوال ويحتملوا المشاق والمكاره وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه فكأنه لم يصن نفسه ولم يربأ بها عند ما ناهز الشدائد ، وكابد الأهوال فما أجدرهم بالحذو حذوه واقتفاء آثار خطاه . (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) ذلك مبتدأ وبأنهم خبر ولا يصيبهم ظمأ فعل مضارع مرفوع ومفعول به وفاعل ولا نصب ولا مخمصة عطف على ظمأ ، وفي سبيل اللّه حال من الهاء أو صفة لمخمصة . (وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ) ولا يطئون عطف على لا يصيبهم وموطئا إما اسم مكان فيعرب مفعولا به أي يدوسون مكانا وإما ظرف فيعرب مفعولا مطلقا وجملة يغيظ الكفار صفة لموطئا .

)

وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً) عطف على ما تقدم ومن عدو جار ومجرور متعلقان بينالون (إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ) إلا أداة حصر وجملة كتب في موضع نصب على الحال فالاستثناء مفرغ من أعم الأحوال وكتب فعل ماض مبني للمجهول ولهم جار ومجرور متعلقان بكتب وكذلك به وعمل نائب فاعل وصالح نعت وإن واسمها

وجملة لا يضيع أجر المحسنين خبر إن (وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً) عطف على لا ينالون ونفقة مفعول به أي ولو تمرة فما فوق. (وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً) عطف على ما تقدم. (إِلَّا كُتِبَ

(559/353)

لَهُمْ)

الجملة استثنائية من أعم الأحوال كما تقدم ونائب الفاعل محذوف لأنه سبق ذكره أي عمل صالح. (لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ) اللام للتعليل ويجزي فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد اللام والهاء مفعول به أول والله فاعل وأحسن مفعول به ثان أو مفعول مطلق بمعنى أي يجزيهم أحسن جزاء، وما موصول مضاف لأحسن وكان واسمها وجملة يعملون خبرها.

[سورة التوبة (9) : الآيات 122 إلى 126]

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122) يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (123) وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ

فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (124) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ (125) أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (126)

اللغة :

(يَلُونَكُمْ) يقربون منكم وفي المصباح : " الولي مثل فلس :

القرب وفي الفعل لغتان أكثرهما وليه يليه بكسرتين والثانية من باب وعد وهي قليلة

الاستعمال وجلست مما يليه أي يقاربه " وكأن الآية جاءت على اللغة الثانية وأصله يليون

بوزن يعدون فنقلت ضمة الياء إلى اللام بعد سلب حركتها ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة

مع الواو .

الاعراب :

)

(560/353)

وَما كانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً) الواو عاطفة ليتناسق الكلام فإنهم لما وبخوا بقوله تعالى : " ما كان لأهل المدينة إلخ " وأرسل النبي سرية نفروا جميعا فنزل " وما كان المؤمنون إلخ " وما نافية وكان فعل ماض ناقص والمؤمنون اسمها ولينفروا اللام للجحود أي لتأكيد النفي وينفروا فعل مضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود واللام ومدخولها خبر كان وكافة حال . (فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ) الفاء الفصيحة ولولا حرف تحضيض أي هلّا ونفر فعل ماض ومن كل فرقة جار ومجرور متعلقان بنفر ومنهم حال لأنه كان في الأصل صفة لطائفة وليتفقهوا اللام للتعليل ويتفقهوا منصوب بأن مضمرة وفي الدين جار ومجرور متعلقان بيتفقهوا فالمعنى على الطلب كأنه قال لتخرج طائفة وتبقى أخرى .

(وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ) ولينذروا عطف على ليتفقهوا والواو فاعل وقومهم مفعول به وإذا رجعوا جملة رجعوا مضاف إليها وإليهم جار ومجرور متعلقان برجعوا ولعل واسمها وجملة يحذرون خبرها .

(يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ) قاتلوا فعل أمر وفاعل والذين مفعول به وجملة يلونكم صفة ومن الكفار حال .

)

(561/353)

وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) الواو عاطفة واللام لام الأمر ويجدوا فعل مضارع مجزوم بلام الأمر والواو فاعل وفيكم جار ومجرور متعلقان بيجدوا وغلظة مفعول به واعلموا عطف على الأمر السابق وان وما في حيزها سدت مسد مفعولي اعلموا وان واسمها ومع المتقين ظرف متعلق بمحذوف خبرها . (وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ) الواو استئنافية وإذا ظرف مستقبل متضمن معنى الشرط وما زائدة وجملة أنزلت مضاف إليها وسورة نائب فاعل . (فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : أَيُّكُمْ زادَتْهُ هذِهِ إِيماناً) الفاء رابطة ومنهم خبر مقدم ومن مبتدأ مؤخر وهي اسم موصول أو نكرة تامة موصوفة بجملة يقول أي فريق يقول ولعلها أولى وجملة يقول صلة وأيكم مبتدأ وجملة زادته خبر والهاء مفعول به وهذه فاعل وإيمانا مفعول به ثان . (فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزادَتْهُمْ إِيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) الفاء تفريعية وأما حرف شرط وتفصيل والذين مبتدأ وجملة آمنوا صلة والفاء رابطة وزادتهم فعل وفاعل مستتر ومفعول به والجملة في محل رفع خبر الذين وإيمانا مفعول به ثان أو تمييز .

)

وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ) وأما عطف على أما الأولى والذين مبتدأ وفي قلوبهم خبر مقدم ومرض مبتدأ مؤخر والجملة صلة فزادتهم الفاء رابطة وجملة زادتهم خبر الذين ورجسا مفعول به ثان والى رجسهم صفة أي مضموما إلى

رجسهم . (وَماتُوا وَهُمْ كافِرُونَ) عطف على زادتهم والواو للحال وجملة كافرون من المبتدأ والخبر حالية . (أَوَلا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ) الهمزة للاستفهام الانكاري التوبيخي والواو عاطفة على مقدر ويرون فعل مضارع وفاعل وأن وما في حيزها سدت مسد مفعولي فعل الرؤية

(562/353)

القلبي وجملة يفتنون خبر ان وفي كل عام متعلقان بيفتنون ومرة ظرف متعلق بيفتنون وأو حرف عطف ومرتين عطف على مرة . (ثُمَّ لا يَتُوبُونَ وَلا هُمْ يَذَّكَّرُونَ) ثم حرف عطف وتراخ وجملة لا يتوبون عطف على يفتنون والواو حرف عطف وهم مبتدأ وجملة يذكرون خبر .

الفوائد :

1 - وجوب القتال :

قال المفسرون وعلماء الفقه : يتعين القتال على أحد فريقين : إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا ، وإذا أوجب اللّه على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من أرضه وقراره فوجوبه - وقد نزل العدو بدار الإسلام واحتل

أماكنهم المقدسة وانتهك حرماتها وعاث فيها فسادا - أجدر .

2- مصدر بالحركات الثلاث :

الغلظة أصلها في الإجرام ثم استعيرت للشدة والصبر والجلادة في القتال ومن عجيب هذا المصدر أنه قرىء بالحركات الثلاث فهو الغلظة بالكسر وهي لغة أسد والغلظة بالفتح وهي لغة أهل الحجاز والغلظة بالضم وهي لغة تميم ويقال غلظ يغلظ من بابي تعب وظرف والمصدر غلظ بكسر الغين وغلظه وغلظة وغلظه بالحركات الثلاث كما تقدم وغلاظة بالكسر خلاف دقّ أو رقّ أو لان .

[سورة التوبة (9) : الآيات 127 إلى 129]

وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ (127) لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (128) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129)

اللغة :

(عَزِيزٌ) : شديد .

(العنت) : المشقة واللقاء المكروه .

الاعراب :

(وَإِذا ما أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ) عطف على ما تقدم وجملة نظر بعضهم جواب إذا لا محل لها وإلى بعض جار ومجرور متعلقان بنظر أي تغامزوا بالعيون من غيظهم . (هَلْ يَراكُمْ مِنْ أَحَدٍ) الجملة في محل نصب مقول قول محذوف أي قائلين وجملة القول نصب على الحال ويراكم فعل مضارع ومفعول به ومن زائدة وأحد فاعل محلا . (ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ)

ثم انصرفوا عطف على نظر بعضهم وجملة صرف اللّه قلوبهم يصح أن تكون إخبارية حالية ويصح أن تكون إنشائية دعائية فتكون لا محل لها وبأنهم متعلقان بصرف والباء للسببية وأن واسمها وجملة لا يفقهون خبرها . (لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ) اللام جواب للقسم المحذوف وقد حرف تحقيق وجاءكم رسول فعل ومفعول به وفاعل ومن أنفسكم صفة أي من جنسكم ومن نسبكم عربي مثلكم .

(عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ) عزيز صفة ثانية لرسول وفي النحاة من يمنع تقدم الوصف غير الصريح على الوصف الصريح ويمكن أن يجاب بأن " من أنفسكم " جار ومجرور متعلقان بجاءكم وعليه متعلقان بعزيز وما مصدرية أو موصولة

وعلى كلا التقديرين فهي ومدخولها أي هي وصلتها فاعل عزيز الذي هو صفة مشبهة ويجوز أن يكون عزيز خبرا مقدما ، وما عنتم في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر والجملة صفة لرسول وحريص صفة ثالثة أو ثانية وعليكم جار ومجرور متعلقان بحريص وبالمؤمنين متعلقان برءوف ورءوف رحيم صفتان رابعة وخامسة أو ثالثة ورابعة لرسول .

(564/353)

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) الفاء عاطفة وتولوا فعل وفاعل في محل جزم فعل الشرط والفاء رابطة وحسبي الله خبر مقدم ومبتدأ مؤخر والجملة مقول القول . (لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) تقدم إعرابها مستوفى فجدد به عهدا والجملة حالية . (عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) عليه جار ومجرور متعلقان بتوكلت وهو مبتدأ ورب العرش خبر والعظيم صفة للعرش . انتهى انتهى . ا هـ ﴿إعراب القرآن وبيانه حـ 4 صـ 150 . 199﴾

(565/353)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العَاجِزُ الْفَقِيرُ

عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَمَّاش

إِمَامُ وَخَطِيبُ مَسْجِدِ بُورُسْلِى - رَأْسُ الْخَيمَةِ

دَولَةُ الإِمَارَاتِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَّحِدَةِ

(عَفَا اللهُ عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ)

الجزء الرابع والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/354)

الجزء الرابع والخمسون بعد الثلاثمائة

(سورة يونس عليه السلام)

(4/354)

فصول مهمة تتعلق بالسورة الكريمة

(سورة يونس عليه السلام)

(5/354)

فصل فى فضل السورة الكريمة

قال الثعلبى :

سورة يونس (عليه السلام)

مكية ، وهي عشرة آلاف وثمانمائة وتسع وثمانون حرفاً ، وألفان وخمسمائة كلمة غير واحدة ، ومائة وتسع آيات

حدثنا حامد بن أحمد وسعيد بن محمد ، ومحمد بن القاسم . قالوا : أخبرنا محمد بن مطر . إبراهيم بن شريك . أحمد بن يونس . سلام بن سليم . هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي أمامة عن أُبي بن كعب قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (من

قرأ سورة يونس أُعطي من الأجر ومن الحسنات بعدد من صدّق بيونس وكذّب به ، وبعدد من غرق مع فرعون) صدق رسول الله) . (1) انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ 116 ﴾

---

(1) قال الزيلعى : رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره سَوَاء

وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي بكر بن أبي دَاوُد بِسَنَدِهِ فِي آخر الْكتاب

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه بِهِ فِي آل عمرَان

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا الْأُسْتَاذ أَبُو عُثْمَان سعيد بن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِي حَدثنَا أَبُو عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مطر الْعدْل حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن شريك الْأَسدي حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس حَدثنَا سَلام بن سليم بِهِ

والله أعلم .

(6/354)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

فيه حديث أُبىّ المتفقُ على ضعفه : مَن قرأَ سورة يونس أُعطِى من الأَجْر عشرَ حسنات ، بعَدَد مَن صدّق بيونس ، وكذَّب به ، وبعدد مَن غرق مع فرعون .

وعن جعفر الصّادق : مَن قرأَ سورة يونس كان يوم القيامة من المقرّبين : وحديث علىّ يا علىَ مَن قرأَ سورة يونس أَعطاه الله من الثَّواب مثل ثواب حمزة ، وله بكلِّ آية قرأَها مثلُ ثواب خَضِر . ضعيف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 245 ﴾

(7/354)

فصل

قال القرطبى :

سورة يونس عليه السلام

سورة يونس عليه السلام مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس إلا ثلاث آيات من قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ﴾ [يونس : 94] إلى آخرهن . وقال مقاتل : إلا آيتين وهي قوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ﴾ نزلت بالمدينة . وقال الكلبي : مكية إلا قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ [يونس : 40] نزلت بالمدينة في

اليهود . وقالت فرقة : نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقيها بالمدينة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ 304 ﴾

(8/354)

وقال الآلوسى :

سورة يونس

مكية على المشهور وإستثنى منها بعضهم ثلاث آيات 1 فلعلك تارك أفمن كان على بينة من ربه وأقم الصلاة طرفي النهار قال : إنها نزلت في المدينة وحكى ابن الفرس والسخاوي أن من أولها إلى رأس أربعين آية مكي والباقي مدني وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما روايتان فأخرج ابن مردويه من طريق العوفي عنه ومن طريق ابن جريجعن عطاء عنه أنها مكية وأخرج من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عنه أنها مدنية والمعول عليه عند الجمهور الرواية الأولى وآياتها مائة وتسع عند الجميع غير الشامي فإنها عنده مائة وعشر آيات . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ 58 ﴾

(9/354)

فصل فى مقصود السورة الكريمة

قال البقاعى :

مقصودها وصف الكتاب بأنه من عند الله من عند الله لما اشتمل عليه من الحكمة وأنه ليس إلا من عنده سبحانه لأن غيره لا يقدر على شيء منه ، وذلك دال ريب على أنه واحد في ملكه لا شريك له في شيء من أمره ، وتمام الدليل على هذا قصة قوم يونس عليه السلام بأنهم لما آمنوا عند المخايل كشف عنهم ، فدل قطعاً على أن الآتي به هو الله الذي آمنوا به إذ لو كان غيره لكان إيمانهم به موجباً للإيقاع بهم ، ولو عذبوا كغيرهم ليقل : هذه عادة الدهر ، كما قالوا : قد مس آباءنا الضراء والسراء ودل ذلك على أن عذاب غيرهم من الأمم إنما هو من عند الله لكفرهم لما اتسق من ذلك طرداً بأحوال سائر الأمم من أنه كلما وجد الإصرار على التكذيب وجد العذاب ، وعكساً منه كلما انتفى في وقت يقبل قبول التوبة انتفى – والله الموفق) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 411 ﴾

(10/354)

" فصل "

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى . . الر تلك آيات الكتاب)

اعلم أَنّ هذه السّورة مكّيّة ، بالاتّفاق .

عدد آياتها مائة وعشر آيات عند الشاميّين ، وتسع عند الباقين .

وعدد كلماتها أَلف وأَربعمائة وتسع وتسعون كلمة .

وحروفها سبعة آلاف وخمس وستون .

والآيات المختلَف فيها أَربعة : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ﴿ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ و ﴿ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ ﴾ .

ومجموع فواصلها (ملْن) على اللّام منها آية واحدة ﴿ وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴾ وكلُّ آية على الميم قبل الميم ياء .

وسُمّيت سورة يونس لما فى آخرها من ذكر كشف العذاب عن قوم يونس ببركة الإيمان عند اليأْس فى قوله : ﴿ فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ ﴾ .

مقصود السّورة : إثبات النبوّة ، وبيان فساد اعتقاد الكفار فى حقّ النّبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم والقرآن ، وذكر جزائهم على ذلك فى الدّار الآخرة ، وتقدير منازل الشّمس والقمر لمصالح الخَلْق ، وذمّ القانعين بالدّنيا الفانية عن النّعيم الباقى ، ومَدْح أَهل الإيمان فى طلب

الجنان ؛ واستعجال الكفَّار بالعذاب ، وامتحان الحَقِّ تعالى خلقَه باستخلافهم فى الأَرض ، وذكر (عدم تعقّل) الكفار كلام الله ، ونسبته إلى الافتراءِ والاختلاف ، والإِشارة إلى إبطال الأَصنام وعُبّادها ، وبيان المِنَّة على العِباد بالنَّجاة من الهلاك فى البَرِّ والبَحْر ، وتمثيل الدّنيا بنزول المطر ، وظهور أَلوان النبات والأَزهار ، ودعوة الخَلْق إلى دار السّلام ، وبيان ذُلِّ الكفَّار فى القيامة ، ومشاهدة الخَلْق فى العُقْبَى ما قدّموه من طاعة ومعصية ، وبيان أَنَّ الحقّ واحد ، وما سواه باطل ، وإِثبات البَعْث والقيامة بالبرهان ، والحجّة الواضحة ، وبيان فائدة

(11/354)

نزول القرآن ، والأَمر بإِظهار السّرور والفرح بالصّلاة والقرآن ، وتمييز أَهل الولاية من أَهل الجنَايَة ، وتسلية النَّبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم بذكر شىء من قِصّة موسى ، وواقعة بنى إِسرائيل مع قوم فرعون ، وذكر طَمْس أَموال القِبطيّين ، ونجاة الإِسرائيليين من البحر ، وهلاك أَعدائهم من الفِرعونيّين ، ونجاة قوم يونس بإِخلاص الإِيمان فى قوت اليَأْس ، وتأْكيد نبوّة النبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، وأَمره بالصّبر على جفاءِ المشركين وأَذاهم ، فى قوله : ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

الناسخ والمنسوخ

المنسوخ فى هذه السّورة خمس آيات ﴿ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ م ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ﴾ ن ﴿ قُلْ فَانْتَظِرُوا ﴾ م آية السّيف ن ﴿ مَنِ اهْتَدَى ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكِيلٍ ﴾ م آية السّيف ن ﴿ فَقُلْ لِي ﴾ م آية السّيف ن ﴿ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ ﴾ م آية السّيف ن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 238 . 240 ﴾

(12/354)

فصل فى متشابهات السورة الكريمة

قال ابن جماعة :

سورة يونس عليه السلام

188 - مسألة :

قوله تعالى : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ) .

وفى الفرقان : (مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ) .

جوابه :

لما تقدم هنا : (إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

ناسب تقديم الضر ، أي : لا يضرهم إن عصوه ولا ينفعهم إن أطاعوه .

وفى الفرقان : تقدم ذكر النعم وعدها ، فناسب تقديم النفع ،

أي : ما لا ينفعهم بنعمة من النعم ، ومثله قوله فيها : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) ،

قدم الضر لتقدم قوله تعالى : (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ) .

189 - مسألة :

قوله تعالى : (إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) ، وكذلك في

فاطر .

وقال في المنافقين : (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) ؟ .

جوابه :

أن العزة له تعالى جميعا ، وعزة الرسول والمؤمنين منه ، وهو

معطيها لهم ، فعزتهم من عزته ، فهو المختص بها وحده تعالى .

190 - مسألة :

قوله تعالى : (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا 3) وفى سورة المؤمن (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ) بالواو ؟ .

جوابه :

أن المراقب ب (مَنْ) قبلها ، و (مِنْ) بعدها واحد في قوله تعالى : (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ، (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ) الآيات ، فحسن ترك الواو لذلك .

وفى المؤمن (مِنْ) بعدها غير (مَنْ) قبلها ، فناسب لأن المتقدم قوم نوح ، ومن ذكر معهم والمراد

بالمتأخرين : المشركون ومن وافقهم أنهم أصحاب النار فجاءت الواو .

191 - مسألة :

قال هنا : (عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا) وفى المؤمن : (عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا) ؟ .

جوابه :

أن المقال هنا يصح خطاب المؤمن والكافر به ، فمن أنكره

(13/354)

خرج من الحق إلى الضلال ، ولذلك قال : (فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ) ، وأية المؤمن تقدمها : (مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا) فناسب قوله تعالى : (عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (6) .

192 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ) .

جوابه :

تقدم في الأنعام .

193 - مسألة :

قوله تعالى : (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

وقال بعده : (أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ)

وبعده : مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ)

حذف (ما) في الأولى ، وأثبت (مَن) في الثانية ، (وما) في

الثالثة ؟ .

جوابه :

أن الأولى ، تقدمها : (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) فأغنى لفظه عن

إعادته مع العلم

بالمعنى . والثانية ، تقدمها : (وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) فقال : (وَمَنْ فِي

الْأَرْضِ) إشارة إلى أنهم

لا يضرونك فيما لم يقدره الله لأنهم ملكه وعبيده ، وفى

تصرفه .

والثالثة : تقدمها قوله تعالى : (قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أي هو

الغنى المطلق عن كل شي من اتخاذ الأولاد للقوة والظفر

وغير ذلك ، فأكد بزيادة (ما) لأن السياق يقتضيه .

194 - مسألة :

قوله تعالى : (وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ) وفى الزمر : (وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ) ؟

جوابه :

لما أفرد "النفس" ناسب الاكتفاء ب (مَا فِي الْأَرْضِ) .

ولما جمع (الَّذِينَ ظَلَمُوا) ى ناسب ذكر الفداء بما في الأرض و (مِثْله) .

195 - مسألة :

قوله تعالى : (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ) وفى سبأ : (فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ) .

جوابه :

لما تقدم قوله تعالى : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ) الآية ،

ناسب ذلك تقديم الأرض لأن النور والتلاوة والعمل في

الأرض ، فناسب ذلك تقديم السموات .

196 – مسألة :

قوله تعالى : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ) وقال

في الأنعام : (قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي) ، والشك

لا يجوز عليه ؟ .

جوابه :

أن المراد غيره ممن يجوز عليه الشك وكذلك كل موضع يشبه ذلك في القرآن تقديره فإن كنت

أيها الإنسان ، ولذلك قال : (إليك) ولم يقل عليك ، وقد تقدم في البقرة معناهما .

197 – مسألة :

قوله تعالى : (وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104))

وفى النمل : (أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (91) ؟ .

جوابه :

لما تقدم قبله : (كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)) ناسب قوله : (أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)) .

ولما تقدم في النمل : (إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (81)) ناسب بعده : (أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)) . والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿كشف المعاني صـ 202 . 207﴾

(15/354)

وقال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

المتشابهات

قوله : ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ وفى هود ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ لأَنَّ ما فى هذه السّورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعاً ؛ يدلّ عليه قوله : ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ الآية .

وكذلك ما فى المائدة ﴿مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ ؛ لأَنَّه خطاب للمؤمنين والكافرين بدليل قوله : ﴿فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ وما فى هود خطاب للكفَّار ؛ يدلّ عليه قوله : ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّي

أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ .

قوله : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ ﴾ بالأَلف واللام ؛ لأَنه إِشارة إِلى ما تقدّم من الشرّ فى قوله : ﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ ﴾ فإِنَّ الضرّ والشَّرّ واحد .

وجاءَ الضرّ فى هذه السّورة بالأَلف واللام ، وبالإِضافة وبالتنوين .

قوله : ﴿ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ بالواو ؛ لأَنَّه معطوف على قوله : ﴿ ظَلَمُوا ﴾ من قوله : ﴿ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴾ وفى غيرها بالفاءِ للتَّعقيب .

قوله : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ ﴾ بالفاءِ ؛ لموافقة ما قبلها .

وقد سبق فى الأَنعام .

قوله : ﴿ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ سبق فى الأَعراف .

قوله : ﴿ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ وفى غيرها : ﴿ فِيمَا هُمْ فِيهِ ﴾ بزيادة (هم) لأَنَّ هنا تقدّم (فاختلفوا) ، فاكْتُفِى به عن إِعادة الضمير ؛ وفى الآية ﴿ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ ﴾ بزياة (لا) وتكرار (فى) لأَنَّ تكرار (لا) مع النفى كثير حسن ، فلمّا كرّر (لا) (فى) تحسيناً للفظ .

ومثله فى سبأ فى موضعين ، والملائكة .

قوله ﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ ﴾ بالأَلف ؛ لأَنه وقع فى مقابلة ﴿ أَنْجَيْنَا ﴾ .

قوله : ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وفى هود : ﴿ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ ﴾ لأَن ما فى هذه السّورة تقديره : بسورة مثل سورة يونس .

فالمضاف محذوف فى السّورتين ، وما فى هود إِشارة إِلى ما تقدّمها : من أَوّل الفاتحة إِلى سورة هود ، وهو عَشْر سُور .

قوله : ﴿ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُمْ ﴾ هنا ، وكذلك فى هود ، وفى البقرة ﴿ شُهَدَآءَكُمْ ﴾ ؛ لأَنَّه لمّا زاد فى هود ﴿ وَادْعُواْ ﴾ زاد فى المدعوّين .

ولهذا قال فى سبحانه : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ ﴾ لأَنَّه مقترن بقوله : ﴿ بِمِثْلِ هذا الْقُرْآنِ ﴾ والمراد به كله .

قوله : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ﴾ بلفظ الجمع وبعده : ﴿ وَمِنْهُم مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ ﴾ بلفظ المفرد ؛ لأَنَّ المستمع إِلى القرآن كالمستمع إِلى النَّبىّ صلَّى الله عليه وسلَّم ، بخلاف النَّظر (وكان) فى المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظُ المعنى ، ووحّد (ينظر) حملاً على اللفظ إِذ لم يكثر كثرتهم .

قوله : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ ﴾ فى هذه الآية فحسب ؛ لأَنَّ قبله قوله : ﴿ وَيَوْمَ

نَحْشُرُهُمْ جَمِيْعًا ﴾ وقوله : ﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيْعًا ﴾ يدلاَّن على ذلك فاكتُفى به .

قوله : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ﴾ فى هذه السّورة فقط ؛ لأنَّ التقدير فيها : لكلِّ أُمّة أَجل ، فلا يستأخرون إذا جاءَ أَجلهم .

فكان هذا فيمن قُتل ببدر والمعنى : لم يستأخروا .

قوله : ﴿ أَلا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ذكر بلفظ ما لأَن معنى ما ههنا المال ، فذكر بلفظ ما دون مَنْ ولم يكرِّر ما اكتفاءً بقوله قبله ﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الأَرْضِ ﴾ .

(17/354)

قوله : ﴿ أَلا إِنَّ للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ذكر بلفظ (مَنْ) وكُرِّرَ ؛ لأَنَّ هذه الآية نزلت فى قوم آذَوْا رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم ، فنزل فيهم ﴿ وَلاَ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ فاقتضى لفظ مَنْ وكُرِّر ؛ لأَنَّ المراد : من فى الأَرض ههنا لكونهم فيها ؛ لكن قدّم ذكر (مَن فى السّموات) تعظيماً ثمّ عطف (من فى الأَرض) على ذلك .

قوله : ﴿ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ذكر بلفظ (ما) فكرّر ؛ لأَنَّ بعض الكفَّار قالوا : اتَّخذ الله ولداً ، فقال سبحانه : له ما فى السّموات وما فى الأرض ، أَى اتخاذُ الولد إنما

يكون لدفع أَذًى ، أَو جَذْب منفعة ، والله مالك ما فى السّموات وما فى الأَرض .

(وكان) الموضع (موضع [ما وموضع] التكرار ؛ للتَّأْكيد والتَّخصيص .

قوله : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ومثله فى النَّمل .

وفى البقرة ويوسف والمؤْمن : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

لأَنَّ فى هذه السّورة تقدم ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ فوافق قوله : ﴿ وَلَاكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ وكذلك فى النَّمل تقدم ﴿ بَلْ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُوْنَ ﴾ فوافقه .

وفى غيرهما جاءَ بلفظ التصريح .

وفيها أَيضاً قوله : ﴿ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَآءِ ﴾ فقدّم الأَرض ؛ لكون المخاطبين فيها .

ومثله فى آل عمران ، وإبراهيم ، وطه ، والعنكبوت .

وفيها ﴿ إِنَّ فِي ذلك لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ بناءً على قوله : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُوْنَ إِلَيْكَ ﴾ ومثله فى الرّوم : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ فحسْبُ .

قوله : ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ بغير واو ؛ لأَنَّه اكتفى بالعائد عن الواو والعاطف .

ومثله فى البقرة على قراءَة ابن عامر : ﴿ قَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً ﴾ .

قوله : ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ ﴾ سبق .

ومثله فى الأَنبياءِ والشعرءِ .

قوله : ﴿ كَذَّبُوْا ﴾ سبق .

(18/354)

وقوله : ﴿ وَنَطْبَعُ عَلَى ﴾ قد سبق .

قوله : ﴿ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ هنا فحسب بالجمع .

وفى غيرها (وملإِيه) لأَنَّ الضَّمير فى هذه السّورة يعود إلى الذرّية .

وقيل : يعود إِلى القوم .

وفى غيرها يعود إِلى فرعون .

قوله : ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، وفى النَّمل : ﴿ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴾ ؛ لأَنَّ قبله فى هذه السورة ﴿ نُنْجِ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴾ فوافقه ، وفى النَّمل أَيضاً وافق ما قبله ، وهو قوله : ﴿ فَهُمْ مُسْلِمُوْنَ ﴾ وقد تقدّم فى يونس ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 1 صـ 240. 245 ﴾

(19/354)

وقال العلامة الكرماني رحمه الله :

سورة يونس

180 – قوله تعالى إليه مرجعكم 4 وفي هود إلى الله مرجعكم 4 لأن ما في هذه السورة خطاب للمؤمنين والكافرين جميعا يدل عليه قوله بعده ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا 4 الآية وكذلك ما في المائدة مرجعكم جميعا 48 لأنه خطاب للمؤمنين والكافرين بدليل قوله فيه مختلفون وما في هود خطاب للكفار يدل عليه وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير 3

181 – قوله وإذا مس الإنسان الضر 12 بالألف واللام لأنه إشارة إلى ما تقدم من الشر في قوله ولو يعجل الله للناس الشر 11 فإن الضر والشر واحد وجاء الضر في هذه السورة بالألف واللام وبالإضافة وبالتنوين

182 – قوله وما كانوا ليؤمنوا 13 بالواو لأنه معطوف على قوله ظلموا من قوله لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات 13 وفي غيرها بالفاء للتعقيب

183 – قوله فمن أظلم 17 بالفاء لموافقة ما قبلها وقد سبق في الأنعام

184 – قوله ما لا يضرهم ولا ينفعهم 18 سبق في الأعراف

185 – قوله فيما فيه يختلفون 19 في هذه السورة وفي غيرها فيما هم فيه يختلفون 39

3 بزيادة هم لأن في هذه السورة تقدم فاختلفوا فاكتفى به عن إعادة الضمير

186 - وفي الآية بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض 18 بزيادة لا وتكرار في لأن تكرار لا مع النفي كثير حسن فلما كرر لا كرر في تحسينا للفظ بالألف لأنه وقع في مقابلة أنجيتنا ومثله في سبأ في موضعين والملائكة

187 - قوله فلما أنجاهم 23 بالألف لأنه في مقابلة أنجيتنا 22

188 - قوله فأتوا بسورة مثله 38 وفي هود بعشر سور مثله 13 لأن ما في هذه السورة تقديره سورة مثل سورة يونس فالمضاف

محذوف في السورتين وما في هود إشارة إلى ما تقدمها من أول الفاتحة إلى سورة هود وهو عشر سور

(20/354)

---

189 - قوله وادعوا من استطعتم 38 في هذه السورة وكذلك في هود 13 وفي البقرة شهداءكم 23 لأنه لما زاد في هود السور زاد في المدعوين ولهذا قال في سبحان قل لئن اجتمعت الإنس والجن 88 مقترنا بقوله بمثل هذا القرآن 88 والمراد به كله

190 - قوله ومنهم من يستمعون إليك 42 بلفظ الجمع وبعده ومنهم من ينظر إليك 43

بلفظ المفرد لأن المستمع إلى القرآن كالمستمع إلى النبي صلى الله عليه و سلم بخلاف النظر فكان في المستمعين كثرة فجمع ليطابق اللفظ المعنى ووحد ينظر حملا على اللفظ إذا لم يكثر كثرتهم

191 - قوله ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا 45 في هذه الآية فحسب لأن قوله قبله ويوم نحشرهم جميعا 28 وقوله إليه مرجعكم جميعا 4 يدلان على ذلك فاكتفى به

192 - قوله لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة 49 لأن التقدير فيها لكل أمة أجل فلا يستأخرون ساعة إذا جاء أجلهم فكان هذا فيمن قتل ببدر والمعنى لم يستأخروا

193 - قوله ألا إن لله ما في السموات والأرض 55 ذكر بلفظ ما في هذه الآية ولم يكرره لأن معنى ما ههنا المال فذكر بلفظ ما دون من ولم يكررها اكتفاء بقوله قبله ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض 54

194 - قوله ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض 66 ذكر بلفظ من وكرر لأن هذه الآية نزلت في قوم آذوا رسول الله صلى

الله عليه وسلم فنزل فيهم ولا يحزنك قولهم 65 فاقتضى لفظ من وكرر لأن المراد من في الأرض ههنا لكونهم فيها لكن قدم ذكر من في السموات تعظيما ثم عطف من في الأرض على ذلك

195 - قوله ما في السموات وما في الأرض 68 ذكر بلفظ ما وكرر لأن بعض الكفار قالوا اتخذ الله ولدا 68 فقال سبحانه له ما في السموات وما في الأرض 68 فكان الموضع موضع ما وموضع التكرار للتأكيد والتخصيص

(21/354)

---

196 - قوله ولكن أكثرهم لا يشكرون 60 ومثله في النمل وفي البقرة ويوسف والمؤمن ولكن أكثر الناس لا يشكرون لأن في هذه السورة تقدم ولكن أكثرهم لا يعلمون 55 فوافقه وفي غيرها جاء بلفظ الصريح

197 - وفيها أيضا قوله في الأرض ولا في السماء 61 فقدم الأرض لكون المخاطبين فيها ومثله في آل عمران وإبراهيم وطه والعنكبوت

198 - وفيها إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون 67 بناء على قوله ومنهم من يستمعون إليك 42 ومثله في الروم إن في ذلك

لآيات لقوم يسمعون 23 فحسب

199 - قوله قالوا اتخذ الله ولدا 68 بغير واو ولو لأنه اكتفى بالفاء عن الواو العاطف ومثله في البقرة على قراءة ابن عامر قالوا اتخذ الله ولدا 116

200 – قوله فنجيناه 73 سبق ومثله في الأنبياء والشعراء

201 – قوله كذبوا سبق وقوله نطبع على 74 قد سبق

202 – قوله من فرعون وملئهم 83 بالجمع وفي غيرها ملئه لأن الضمير في هذه السورة يعود إلى الذرية وقيل يعود إلى القوم وفي غيرها يعود إلى فرعون

203 – قوله وأمرت أن أكون من المؤمنين 104 وفي النمل من المسلمين 91 لأن ما قبله في هذه السورة المؤمنين 103 فوافقه وفي النمل وافق ما قبله وهو قوله فهم مسلمون 81 وقد تقدم في يونس وأمرت أن أكون من المسلمين 72 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار التكرار فى القرآن صـ 101.105 ﴾

(22/354)

فصل فى التعريف بالسورة الكريمة

قال الشيخ محمد أبو زهرة :

سورة يونس

سورة مكية عدد آياتها 109 ، استثنى منها علماء القراءات أربع آيات قالوا إنها مدنية ، هى الآيات 40 – 94 – 95 – 96 .

ابتدئت بحروف مفردة للتنبيه على إعجاز القرآن ، ووصف الكتاب بأنه الحكيم ، وذكرت أن الناس كانوا فى عجب أن يوحى إلى رجل منهم ، فذهبوا إلى تكذيبه وقالوا بسبب كفرهم : إنه ساحر مبين ، وكان عليهم ألا يعجبوا ويغتروا ، لأن الوحى من عند الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ، وأنه وحده له الملك ، وأنه لا شفيع عنده إلا من بعد إذنه . (. . . ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا . . . .

فأنتم سترجعون إليه فيحاسبكم ، ولا عجب فى رجوعكم فهو سبحانه يبدأ الخلق ثم يعيده*

(. . . ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم . . . .

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)

ويبين سبحانه وتعالى آياته فى اختلاف الليل والنهار ، ثم أشار إلى أولئك الذين ينكرون البعث ولا يرجون لقاء ربهم ، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها وغفلوا عن آيات الله سبحانه وتعالى ، وبين أن مأواهم النار بما كسبوا من سيىء الأعمال ، وفى مقابل ذلك ذكر سبحانه الذين آمنوا بالله وآياته وعملوا الصالحات وجزاءهم من النعيم المقيم

والسلام .

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (10)

وإن من سنة الله تعالى ألا يعجل الشر لمن أساء .

(23/354)

(وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)

ويبين الله تعالى طبيعة الإنسان أنه إذا ضعف اتجه إلى الله ولجأ إليه .

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (12) * .

وبين حال الذين بعث لهم النبى (صلى الله عليه وسلم) ! فقال : (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ . . . * .

فأمره الله تعالى أن يقول :

(. . . مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ

رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) قُل لَّوْ شَاء اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ (16) * .

وقد ذكر حالهم فى شركهم بانهم يعبدون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا فيأمر الله نبيه (صلى الله عليه وسلم) أن يقول لهم : (. . . قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ * .

وبين الله تعالى بعد ذلك أن الناس فى أصل التكوين أمة واحدة ، (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19) .

(24/354)

جاءهم النبى (صلى الله عليه وسلم) ! بالقرآن وهو أعظم آية أيد بها النبيون ، ولكنهم لتعنتهم يريدون آية أخرى : (ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين .

ولقد بين الله النفس الإنسانية المنحرفة عن الحق أنها إذا مسها الله تعالى بالخير بعد الشدة تصورت أن الخير لها ولم يكن لفضل الله ودبرت أمورها على ذلك ، وذكر الله تعالى مثلا فقال : (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ

وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (23) .

ثم مثل سبحانه وتعالى الحياة الدنيا فى زوال متاعها فقال :

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) .

دعوة الحق

(25/354)

بعد ذلك بين الله تعالى مآل دعوة الحق إلى دار السلام والهداية إلى الصراط المستقيم يوم القيامة (للذين أحسنوا الحسنى . وزيادة ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون .

وإنه فى البعث يحشرهم الله جميعا ويفر الذين سول لهم الشيطان أن يعبدوهم – من الذين اتبعوهم .

ويسأل الذين أشركوا أين شركاؤكم : (وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (29) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (30) * .

بعد ذلك يبين الله تعالى إنعامه على عباده وآياته فى خلقه .

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ (31) فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُواْ أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (33) * .

أخذ يبين سبحانه وتعالى عجز الأوثان أن تبدأ الخلق ثم تعيده ، بل إنها تخلق ، ثم إن أوثانهم لا تهدى ضالا وإن الله هو الهادى إلى الحق ، وإن الذين يعبدون الأوثان لا إيمان لهم فهم لا يؤمنون بها .

(وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (36) * .

وإن القرآن حجة الله البالغة (وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (37) * .

ثم يتحداهم سبحانه وتعالى أن يأتوا بسورة من مثله .

(. . . وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (38) * .

وإن الأمر بالنسبة لهم ليس اخر دليل يطلبونه بل إنهم يكذبون قبل أن يطلبوا الدليل ؟ أى بادروا بالتكذيب (بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) .

وأنه بعد مجىء القرآن فإن منهم (مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُم مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (41) وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ (43) .

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى ما أعده للكافرين ، وأنه أرسل إلى كل أمة رسولا يقضى بينهم

بالقسط ولكنهم يقولون متى وعد الله (وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (48) قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاء اللَّهُ . . . .

(27/354)

ويبين سبحانه وتعالى أن له ما فى السموات والأرض وأن وعده حق (أَلا إِنَّ لِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَلاَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (55) . كما يبين أن شرع الله تعالى فيه الموعظة وفيه شفاء لما فى الصدور : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (58)

كما يبين سبحانه وتعالى فضله على الخليقة فيقول تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) .

أى تنزل النعمة حلالا طيبا ويفترون فيحرمون من غير بينة : (وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون .

كما يبين الله علمه بكل شئون الرسول ودعوته : (وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ

فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (61) *
ثم يذكر أولياء الله (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُواْ
وَكَانُواْ يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) .

(28/354)

وينهى الله النبى (صلى الله عليه وسلم) عن الحزن (وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعًا
هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) .
إن الله مالك العزة يعز من يشاء ، لأن له ملك السموات والأرض ، وأن
الذين يعبدون الأوثان لا يستيقنون لها قدرة ، وإن يتبعون إلا الظن : (. . . إن يتبعون إلا
الظن وإن هم إلا يخرصون .
ثم يبين سبحانه كمال ملكه وتصريفه للكون وبطلان من اتخذ له ولدا وبطلان قول الذين
يعبدون الأوثان وأن جميعهم لا يفلحون ، لأنهم يفترون على الله الكذب .
(قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم
العذاب الشديد بما كانوا يكفرون .

بعد ذلك يذكر سبحانه وتعالى الأنبياء الذين لقوا من أقوامهم مثل ما لقى النبى (صلى الله عليه وسلم) فبدأ بذكر نوح الأب الثانى للبشرية ، وما قاله لقومه وقد كبر عليهم مقامه فيهم وتذكيرهم بآيات الله وتوكله عليه وما رأى منهم من عنت وقد أخذهم بالحسنى (. . .

فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين .

فكذبه قومه وصدقه الضعفاء - كما كان لمحمد (صلى الله عليه وسلم) - ثم نجاه الله ومن معه فى الفلك المشحون .

وبعث الله - كما تدل الآيات - رسلا من بعده فكذبوا ثم بعث موسى وأخاه هارون إلى فرعون ، وأيده بآيات الله التى تثبت رسالته فاستكبروا وكانوا قوما

مجرمين ، ثم جاء لهم موسى وأتاهم بتسع آيات بينات وكانت إحدى الحجج المنزلة من بينها عصا موسى .

(فَلَمَّا جَاءهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77) .

(29/354)

وقد آمن السحرة وذرية من قومه (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) .

ثم أخذ موسى من آمن ودعاهم إلى التوكل على الله الذى آمنوا به وأن يقولوا : ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين .

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87) .

ودعا موسى على فرعون وملئه الذين لم يؤمنوا : (. . . رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ (88) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ (89) .

ولقد جاوز موسى بامر الله البحر حيث انشق فكان كل فرق كالطود العظيم واتبعهم فرعون فى اجتيازهم البحر فانطبق عليه هو وجنده حتى إذا أدركه الغرق قال : (آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) . وبعد ذلك بين سبحانه وتعالى ما أنعم به على بنى إسرائيل فبوأ لهم مبؤأ صدق ورزقهم من الطيبات ولكن اختلفوا لما جاءهم العلم .

بعد هذه العبرة من أخبار الرسل وأولى العزم بين سبحانه لنبيه وجوب الاطمئنان إلى ما يدعو إليه من الحق .

(30/354)

(فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (95) .

وبعد ذلك ذكر نبى الله يونس عليه السلام (فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (98) *

.

ثم أشار سبحانه وتعالى إلى مقتضى إرادته أن يؤمن من اهتدى ويكفر من طغى ؟ ولذا قال : (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ (100) ،

وبين الله تعالى أنه لا تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ، وأن الله تعالى ينجى رسله من

العذاب الذى ينزل بالأقوام الذين يكفرون (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ (103) .

ثم يخاطب الله الناس خطابا عاما يدعو إلى عبادة الله وحده ويأمر نبيه (صلى الله عليه وسلم)

بإقامة الدين الحق .

(31/354)

(وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105) وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ (106) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (109) . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زهرة التفاسير صـ 3498.3505 ﴾

(32/354)

وقال ابن عاشور :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

سورة يونس

سميت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة سورة يونس لأنها انفردت بذكر خصوصية لقوم يونس ، أنهم آمنوا بعد أن توعدهم رسولهم بنزول العذاب فعفا الله عنهم لما آمنوا .

وذلك في قوله تعالى : ﴿ فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴾ [يونس : 98] .

وتلك الخصوصية كرامة ليونس – عليه السلام – وليس فيها ذكر ليونس غير ذلك .

وقد ذكر يونس في سورة الصافات بأوسع مما في هذه السورة ولكن وجه التسمية لا يوجبها .

والأظهر عندي أنها أضيفت إلى يونس تمييزا لها عن أخواتها الأربع المفتتحة ب " ألر " .

ولذلك أضيفت كل واحدة منها إلى نبي أو قوم نبي عوضا عن أن يقال : آلر الأولى وألر الثانية .

وهكذا فإن اشتهار السور بأسمائها أول ما يشيع بين المسلمين بأولى الكلمات التي تقع فيها وخاصة إذا كانت فواتحها حروفا مقطعة فكانوا يدعون تلك السور بآل حم وآل ألر ونحو ذلك .

وهي مكية في قول الجمهور .

وهو المروي عن ابن عباس في الأصح عنه .

وفي " الإتقان " عن عطاء عنه أنها مدنية .

وفي " القرطبي " عن ابن عباس أن ثلاث آيات منها مدنية وهي قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ إلى قوله : ﴿ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : 96-95]

وجزم بذلك القمي النيسابوري .

وفي " ابن عطية " عن مقاتل إلا آيتين مدنيتين هما ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ ﴾ إلى قوله : ﴿ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [يونس : 94-95] .

وفيه عن الكلبي أن آية واحدة نزلت بالمدينة وهي قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ إلى ﴿ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : 40] نزلت في شأن اليهود .

وقال ابن عطية : قالت فرقة : نزل نحو من أربعين آية من أولها بمكة ونزل باقيها

(33/354)

بالمدينة .

ولم ينسبه إلى معين .

وأحسب أن هذه الأقوال ناشئة عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة مع أهل الكتاب لم ينزل إلا بالمدينة ، فإن كان كذلك فظن هؤلاء مخطئي .

وسيأتي التنبيه عليه .

وعدد آيها مائة وتسع آيات في عد أكثر الأمصار ، ومائة وعشر في عد أهل الشام .

وهي السورة الحادية والخمسون في ترتيب نزول السور .

نزلت بعد سورة بني إسرائيل وقبل سورة هود .

وأحسب أنها نزلت سنة إحدى عشرة بعد البعثة لما سيأتي عند قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ﴾ [يونس : 21] .

أغراض هذه السورة

ابتدئت بمقصد إثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بدلالة عجز المشركين عن معارضة القرآن ، دلالة نبه عليها بأسلوب تعريضي دقيق بني على الكناية بتهجية الحروف المقطعة في أول السورة كما تقدم في مفتتح سورة البقرة ، ولذلك أتبعت تلك الحروف بقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس : 1] إشارة إلى أن إعجازه لهم هو الدليل على أنه من عند الله .

وقد جاء التصريح بما كني عنه هنا في قوله : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ﴾ [يونس : 38] .

وأتبع بإثبات رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وإبطال إحالة المشركين أن يرسل الله

رسولا بشرا .

وانتقل من ذلك إلى إثبات انفراد الله تعالى بالإلهية بدلالة أنه خالق العالم ومدبره ، فأفضى ذلك إلى إبطال أن يكون لله شركاء في إلهيته ، وإلى إبطال معاذير المشركين بأن أصنامهم شفعاء عند الله .

وأتبع ذلك بإثبات الحشر والجزاء .

فذلك إبطال أصول الشرك .

وتخلل ذلك بذكر دلائل من المخلوقات ، وبيان حكمة الجزاء ، وصفة الجزاء ، وما في دلائل المخلوقات من حكم ومنافع للناس .

ووعيد منكري البعث المعرضين عن آيات الله ، وبضد أولئك وعد الذين آمنوا .

فكان معظم هذه السورة يدور حول محور تقرير هذه الأصول .

(34/354)

فمن ذلك التنبيه على أن إمهال الله تعالى الكافرين دون تعجيل العذاب هو حكمة منه .

ومن ذلك التذكير بما حل بأهل القرون الماضية لما أشركوا وكذبوا الرسل .

والاعتبار بما خلق الله للناس من مواهب القدرة على السير في البر والبحر ، وما في أحوال

السير في البحر من الألطاف .

وضرب المثل للدنيا وبهجتها وزوالها ، وأن الآخرة هي دار السلام .

واختلاف أحوال المؤمنين والكافرين في الآخرة ، وتبرؤ الإلهة الباطلة من عبدتها .

وإبطال إلهية غير الله تعالى ، بدليل أنها لا تغني عن الناس شيئًا في الدنيا ولا في الآخرة .

وإثبات أن القرآن منزل من الله ، وأن الدلائل على بطلان أن يكون مفترى واضحة .

وتحدي المشركين بأن يأتوا بسورة مثله ، ولكن الضلالة أعمت أبصار المعاندين .

وإنذار المشركين بعواقب ما حل بالأمم التي كذبت بالرسل ، وأنهم إن حل بهم العذاب لا ينفعهم إيمانهم ، وأن ذلك لم يلحق قوم يونس لمصادفة مبادرتهم بالإيمان قبل حلول العذاب .

وتوبيخ المشركين على ما حرموه مما أحل الله من الرزق .

وإثبات عموم العلم لله تعالى .

وتبشير أولياء الله في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

وتسلية الرسول عما يقوله الكافرون .

وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم .

ثم تخلص إلى الاعتبار بالرسل السابقين نوح ورسل من بعده ثم موسى وهارون .

ثم استشهد على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بشهادة أهل الكتاب .

وختمت السورة بتلقين الرسول عليه الصلاة والسلام مما يعذر به لأهل الشك في دين الإسلام

، وأن اهتداء من اهتدى لنفسه وضلال من ضل عليها ، وأن الله سيحكم بينه وبين معانديه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿التحرير والتنوير حـ 11 صـ 7.5﴾

(35/354)

وقال الشيخ سيد قطب :

سورة يونس

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

التعريف بالسورة

نعود مرة أخرى إلى الحياة مع القرآن المكي , بجوه الخاص , وظلاله وإيقاعاته وإيحاءاته .

بعد ما عشنا فترة في هذه الظلال مع سورتي الأنفال والتوبة من القرآن المدني .

والقرآن المكي , ولو أنه قرآن من القرآن , يشترك مع سائره في خصائصه القرآنية العامة ; وفي تفرده من كل قول آخر لا يحمل الطابع الرباني الفريد العجيب , في الموضوع وفي الأداء سواء . . إلا أن له مع ذلك جوه الخاص , ومذاقه المعين , الذي يعينه موضوعه الأساسي [وهو في اختصار : حقيقة الألوهية , وحقيقة العبودية , وحقيقة العلاقات بينهما ; وتعريف

الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه , ويتبعوا أمره وشرعه ; وتنحية كل ما دخل على العقيدة الفطرية الصحيحة من غبش ودخل وانحراف والتواء ; ورد الناس إلى إلههم الحق الذي يستحق الدينونة لربوبيته] . . كما يعينه أسلوب العرض لهذا الموضوع . وهو أسلوب موح , عميق الإيقاع , بالغ التأثير ; حيث تشترك في أداء هذا الغرض كل خصائص التعبير , من البناء اللفظي , إلى المؤثرات الموضوعية على النحو الذي فصلناه من قبل , في سورة الأنعام , والذي سنلم به هنا إن شاء الله .

(36/354)

ولقد كان آخر عهدنا – في هذه الظلال – بالقرآن المكي سورة الأنعام وسورة الأعراف متواليتين في ترتيب المصحف – وإن لم تكونا متواليتين في ترتيب النزول – ثم جاءت الأنفال والتوبة بجوهما وطبيعتهما وموضوعاتهما المدنية الخاصة – فالآن إذ نعود إلى القرآن المكي نجد سورتي يونس وهود متواليتين في ترتيب المصحف وفي ترتيب النزول أيضا . . والعجيب أن هناك شبها كبيرا بين هاتين السورتين وتلكما في الموضوع , وفي طريقة عرض هذا الموضوع كذلك ! فسورة الأنعام تتناول حقيقة العقيدة ذاتها , وتواجه الجاهلية بها , وتفند هذه الجاهلية عقيدة وشعورا , وعبادة وعملا . بينما سورة الأعراف تتناول حركة

هذه العقيدة في الأرض وقصتها في مواجهة الجاهلية على مدار التاريخ . وكذلك نحن هنا مع سورتي يونس وهود . . في شبه كبير في الموضوع وفي طريقة العرض أيضا . . إلا أن سورة الأنعام تنفرد عن سورة يونس , بارتفاع وضخامة في الإيقاع ,وسرعة وقوة في النبض , ولألاء شديد في التصوير والحركة . . بينما تمضي سورة يونس , في إيقاع رخي , ونبض هادئ , وسلاسة وديعة ! . . فأما هود فهي شديدة الشبه بالأعراف موضوعا وعرضا وإيقاعا ونبضا . . ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة , وملامحها المميزة , بعد كل هذا التشابه والاختلاف !

والموضوع الرئيسي في سورة يونس هو ذات الموضوع العام للقرآن المكي الذي سبق بيانه في الفقرة السابقة . . والسورة تتناول محتوياته وفق طريقتها الخاصة , التي تحدد شخصيتها وملامحها . . ونحن لا نملك – في هذا التقديم – إلا تلخيص هذه المحتويات واحداً واحداً في إجمال , حتى يجيء بيانها المفصل في أثناء استعراض النصوص القرآنية:

(37/354)

إنها تواجه ابتداء موقف المشركين في مكة من حقيقة الوحي إلى رسول اللّه – (صلى الله عليه وسلم) – ومن هذا القرآن ذاته بالتبعية ; فتقرر لهم أن الوحي لا عجب فيه , وأن

هذا القرآن ما كان ليفترى من دون الله: (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس , وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم , قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) . . (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات , قال الذين لا يرجون لقاءنا :ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل:ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل:لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به , فقد لبثت فيكم عمرا من قبله , أفلا تعقلون ? فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ? إنه لا يفلح المجرمون) . . (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله , ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ? قل:فأتوا بسورة مثله , وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) . .

(38/354)

وتواجه طلبهم خارقة مادية – غير القرآن – واستعجالهم بالوعيد الذي يسمعونه . فتقرر لهم أن آية هذا الدين هي هذا القرآن ; وهو يحمل برهانه في تفرده المعجز الذي تتحداهم به . وأن الآيات في يد الله ومشيئته ; وأن موعدهم بالجزاء يتعلق بأجل يقدره الله , والنبي لا

يملك شيئًا فهو عبد من عباد الله . - وفي هذا جانب من التعريف لهم بربهم الحق وحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية -: (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات , وما كانوا ليؤمنوا , كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم , لننظر كيف تعملون) . . (ولكل أمة رسول , فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون . ويقولون: متى هذا الوعد , إن كنتم صادقين ؟ قل: لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا إلا ما شاء الله , لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ؟ ماذا يستعجل منه المجرمون ؟ أثم إذا ما وقع آمنتم به ؟ آلآن وقد كنتم به تستعجلون ؟ !) . . (ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ! فقل: إنما الغيب لله , فانتظروا إني معكم من المنتظرين) .

(39/354)

وتواجه اضطراب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية - الأمر الذي يحدثهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فيه , فيكذبون بالوحي أو يتشككون فيه ; ويطلبون قرآناً غيره , أو يطلبون خارقة مادية تثبت لهم صحته - بينما هم سادرون في عبادة ما لا يضرهم ولا ينفعهم من الشركاء , على اعتقاد أنهم شفعاؤهم عند الله ; كما يزعمون لله

الولد سبحانه بلا علم ولا بينة . . فتقرر لهم صفات الإله الحق وآثار قدرته في الوجود من حولهم , وفي وجودهم هم أنفسهم , وفيما يتقلب بهم من ظواهر الكون , وما يتقلب بهم هم من أحوالوهتاف فطرتهم وأنفسهم بربها الحق عند مواجهة الخطر الذي لا دافع له إلا الله .

. وهذه هي القضية الكبرى التي تستغرق قطاعات شتى من السورة ; والتي تتفرع عنها سائر محتوياتها الأخرى: إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش يدبر الأمر , ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه , أفلا تذكرون ? إليه مرجعكم جميعاً , وعد الله حقاً , إنه يبدأ الخلق ثم يعيده , ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط , والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون . هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً , وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب , ما خلق الله ذلك إلا بالحق , يفصل الآيات لقوم يعلمون .

(40/354)

(إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) . .

(ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم , ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

قل: أتنبئون الله بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض ? سبحانه وتعالى عما يشركون) . .

(هو الذي يسيركم في البر والبحر , حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف , وجاءهم الموج من كل مكان , وظنوا أنهم أحيط بهم , دعوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق , يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا , ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) . . (قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون: اللّه . فقل: أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق , فماذا بعد الحق إلا الضلال ! فأنى تصرفون ؟) . . (قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده ؟ قل: الله يبدأ الخلق ثم يعيده , فأنى تؤفكون ؟ قل: هل من شركائكم من يهدي إلى الحق ؟ قل: الله يهدي للحق . أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ؟ فما لكم كيف تحكمون ؟ وما يتبع أكثرهم إلا ظنا , إن الظن لا يغني من الحق شيئاً , إن اللّه عليم بما يفعلون) . . (ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض , وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء , إن يتبعون إلا الظن , وإن هم إلا يخرصون . هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً , إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) . . (قالوا: اتخذ الله ولداً – سبحانه – هو الغني له ما في السماوات وما في الأرض , إن عندكم من سلطان بهذا ؟ أتقولون على الله ما لا

تعلمون ? قل:إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون . متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم , ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا

(41/354)

يكفرون) . . (ألا إن لله ما في السماوات والأرض . ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون . هو يحيي ويميت وإليه ترجعون) .

وتصور لهم حضور الله – سبحانه – وشهوده لكل ما يهم به البشر , وكل ما يزاولون من نية وعمل ; مما يملأ الحس البشري بالرهبة والروعة , كما يملؤه بالحذر واليقظة . . وذلك في مثل قوله تعالى في هذه السورة:

وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن . ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه . وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء , ولا أصغر من ذلك ولا أكبر , إلا في كتاب مبين .

كذلك تملأ نفوسهم بالتوجس والتوقع لبأس الله في كل لحظة , ليخرجوا من الغفلة التي ينشئها الرخاء والنعمة ; ولا ينخدعوا بازدهار الحياة حولهم فيأمنوا بأس الله الذي يأتي بغتة: (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض , مما يأكل الناس والأنعام .

حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت , وظن أهلها أنهم قادرون عليها , أتاها أمرنا ليلا أو نهارا , فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) . .

(قل: أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ! ماذا يستعجل منه المجرمون ? أثم إذا ما وقع آمنتم به ? آلآن وقد كنتم به تستعجلون ? !) .

(42/354)

وتواجه اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها عن الآخرة , وتكذيبهم بلقاء الله , بتحذيرهم من هذه الطمأنينة الخادعة , ومن الخسارة في الصفقة الدون التي يرضونها , وتعريفهم بأن هذه الحياة الدينا إنما هي للابتلاء , وفي الآخرة الجزاء . . ثم تواجههم بعرض مشاهد متنوعة من مشاهد القيامة ; وخاصة ما يتصل منها بتخلي الشركاء عن عبادهم , وتبرئهم منهم إلى الله , وتعذر الفداء من العذاب مهما كبر الفداء : (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها , والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم , تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم . دعواهم فيها : سبحانك اللهم . وتحيتهم فيها سلام . وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) . . (ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ,

وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا , كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) . . (والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . للذين أحسنوا الحسنى وزيادة , ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة , أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها , وترهقهم ذلة , مالهم من الله من عاصم , كأنما أغشيت وجوههم قطعا . من الليل مظلما , أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . . (ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم , وقال شركاؤهم: ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم , إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت , وردوا إلى الله مولاهم الحق , وضل عنهم ما كانوا يفترون) . . (ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين) . . (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به , وأسروا

الندامة لما رأوا العذاب , وقضي بينهم بالقسط , وهم لا يظلمون) . .

ثم تواجه ما يترتب على اضطراب تصورهم للألوهية ; وما يترتب على تكذيبهم بالبعث

والآخرة , وما يترتب على تكذيبهم بالوحي والنذارة , من انطلاقهم في واقع الحياة العملية يزاولون خصائص الربوبية في التشريع لحياتهم , والتحليل والتحريم في أرزاقهم ومعاملاتهم وفق ما تصوره لهم وثنيتهم واعتقادهم بالشركاء الذين يجعلون لهم نصيبا مما رزقهم الله يأخذه السدنة والكهنة ليحلوا لهم ما يشاءون ويحرموا عليهم ما يشاءون . . وهي القضية الكبرى التي تلي قضية الاعتقاد وتنبثق منها : (قل: أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا ؟ قل: آلله أذن لكم ؟ أم على الله تفترون ؟ وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ؟ إن الله لذو فضل على الناس , ولكن أكثرهم لا يشكرون) .

والسورة تحتشد - في إبلاغ تلك الحقائق التي تحتويها وتثبيتها وتعميقها واستجاشة القلوب والعقول لها - بشتى المؤثرات الموحية , التي يحفل بها الأداء القرآني الفريد في الموضوع وفي التعبير عنه سواء . وهي مؤثرات - على عمقها وحيويتها وحركتها - تناسب شخصية السورة وطبيعتها التي تحدثنا في الفقرة الأولى عنها . . وهذه نماذج منها , نلم بها هنا إجمالا , حتى نستعرضها في السياق تفصيلا:

تحتشد السورة بمشاهد هذا الكون وظواهره , الموحية للفطرة البشرية بحقيقة الألوهية , الدالة على التدبير الحكيم , والقصد المرسوم في بناء هذا الكون وتصريفه , وفي الموافقات المبثوثة فيه لنشأة الحياة والأحياء , ولحياة الكائن الإنساني وتلبية حاجاته في حياته . . وقضية الألوهية يعرضها القرآن في هذه الصورة الحية الواقعية الموحية ; ولا يعرضها في أسلوب الجدل الفلسفي والمنطق الذهني , والله خالق هذا الكون وخالق هذا الإنسان يعلم – سبحانه – أن بين فطرة هذا الإنسان ومشاهد هذا الكون وأسراره لغة مفهومة ! وتجاوباً أعمق من منطق الذهن البارد الجاف ; وأن هذه الفطرة يكفي أن توجه إلى مشاهد هذا الكون وأسراره ; وأن تستجاش لتستيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي ; وأنها عندئذ تهتز وتتفتح وتتلقى وتستجيب . . ومن ثم يكثر خطاب الفطرة البشرية – في القرآن – بهذه اللغة المفهومة . . وهذه نماذج من هذا الخطاب العميق الموحي:

إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام , ثم استوى على العرش , يدبر الأمر , ما من شفيع إلا من بعد إذنه . ذلكم الله ربكم فاعبدوه . أفلا تذكرون ? . .

(هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً , وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب . ما خلق الله ذلك إلا بالحق , يفصل الآيات لقوم يعلمون . إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون) . .

(قل: من يرزقكم من السماء والأرض ; أم من يملك السمع والأبصار ? ومن يخرج الحي من

الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله , فقل: أفلا تتقون ؟ فذلكم الله ربكم الحق , فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟ فأنى تصرفون ؟) .

(هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا , إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) .

.

(قل: انظروا ماذا في السماوات والأرض , وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) . .

(45/354)

وتحتشد بمشاهد الأحداث والتجارب التي يشهدونها بأعينهم ويعيشونها بأنفسهم ; ولكنهم يمرون بها غافلين عن دلالتها على التدبير والتقدير , والتصريف والتسيير . .

ويعرض السياق القرآني لهم مشاهد من واقعهم هم في استقبال تلك الأحداث والتجارب ; كما ترفع المرآة للغافل عن نفسه فيرى فيها كيف هو على حقيقته ! وهذه نماذج من ذلك المنهج القرآني الفريد :

(وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما . فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه ! كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون !) . .

(وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم إذا لهم مكر في آياتنا ! قل: الله أسرع مكرا ,

إن رسلنا يكتبون ما تمكرون . هو الذي يسيركم في البر والبحر , حتى إذا كنتم في الفلك , وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف , وجاءهم الموج من كل مكان , وظنوا أنهم أحيط بهم , دعوا الله مخلصين له الدين :لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق . يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا , ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون) . .

وتحتشد بمصارع الغابرين من المكذبين . آناً في صورة الخبر , وآنا في صورة قصص بعض الرسل .

وتلتقي كلها عند عرض مشاهد التدمير على المكذبين ; وتهديدهم بمثل هذا المصير الذي لقيه من قبلهم . فلا تغرنهم الحياة الدنيا , فإن هي إلا فترة قصيرة للابتلاء . أو ساعة من نهار يتعارف فيها الناس , ثم يعودون إلى دار الإقامة في العذاب أو في النعيم !

(ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا . كذلك نجزي القوم المجرمين . ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) . .

(46/354)

(واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه: يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت , فأجمعوا أمركم وشركاءكم , ثم لا يكن أمركم عليكم غمة , ثم اقضوا إلي ولا تنظرون . فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله , وأمرت أن أكون من المسلمين . فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك وجعلناهم خلائف وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا . فانظر كيف كان عاقبة المنذرين) . .

(ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين . فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين . قال موسى: أتقولون للحق لما جاءكم . أسحر هذا ? ولا يفلح الساحرون) . . إلى قوله تعالى في نهاية القصة: وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا - حتى إذا أدركه الغرق قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن ? وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ? ! فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية , وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون . .

(فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم ? قل: فانتظروا إني معكم من المنتظرين . ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا , كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) . .

وتحتشد بمشاهد القيامة , تعرض عاقبة المكذبين وعاقبة المؤمنين , عرضا حيا متحركا مؤثرا عميق الإيقاع في القلوب . فتعرض مع مشاهد المصارع في الحياة الدنيا والتدمير على

المجرمين ونجاة المؤمنين , صفحتي الحياة في الدارين , وبدء المطاف ونهايته حيث لا مهرب ولا فوت:

(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة , ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة , أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون – والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها , وترهقهم ذلة , ما لهم من الله من عاصم , كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما , أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) . .

(47/354)

(ويوم نحشرهم جميعا , ثم نقول للذين أشركوا: مكانكم أنتم وشركاؤكم ! فزيلنا بينهم , وقال شركاؤكم: ما كنتم إيانا تعبدون . فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم إن كنا عن عبادتكم لغافلين . هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت , وردوا إلى الله مولاهم الحق , وضل عنهم ما كانوا يفترون . .

(ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به ! وأسروا الندامة لما رأوا العذاب , وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) . .

ومن المؤثرات التي تحتشد بها السورة تحدي المشركين المكذبين بالوحي , أن يأتوا بآية من

مثل هذا القرآن . . ثم توجيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد دعوتهم وتحديهم , إلى تركهم ومصيرهم - وهو مصير المكذبين الظالمين من قبلهم - والمضي في طريقه المستقيم لا يحفلهم ولا يأبه لشأنهم . . والتحدي ثم المفاصلة والاستعلاء على هذا النحو مما يوقع في قلوبهم أن هذا النبي واثق من الحق الذي معه , واثق من ربه الذي يتولاه . وهذا بدوره يهز القلوب ويزلزل العناد :

(وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ; ولكن تصديق الذي بين يديه , وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه ? قل: فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . كذلك كذب الذين من قبلهم . فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) . .

(48/354)

قل: يأيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله . ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم , وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا , ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يردك بخير فلا راد لفضله , يصيب به

من يشاء من عباده , وهو الغفور الرحيم . . قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم . فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فإنما يضل عليها , وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله , وهو خير الحاكمين . .

وبهذه المفاصلة تختم السورة ويختم هذا الحشد من المؤثرات التي سقنا نماذج منها لا تستقصي ما في السورة من هذا المنهج القرآني الفريد في مخاطبة القلوب والعقول .

هذه السورة نزلت بعد سورة الإسراء . وقد حمي الجدل من المشركين حول صدق الوحي , وحول هذا القرآن , وما يواجههم به من تسفيه لعقائدهم , ومن تنديد بجاهليتهم , ومن كشف لما في كيانها من تناقض واضح . تناقض بين ما يعتقدونه من أن الله - سبحانه - هو الخالق الرازق , المحيي المميت , المدبر المتصرف في كل شيء , القادر على كل شيء - وهي الجذور الباقية من حنيفية إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام - وبين ما يدعونه لله سبحانه من الولد , حيث كانوا يدعون أن الملائكة بنات الله , ويتخذونهم شفعاء عند الله , ويعبدون تماثيلهم من الأصنام على هذا الاعتبار ! ثم ما ينشأ عن هذا الاضطراب العقيدي من آثار في حياتهم ; وفي أوله ما كان يزاوله الكهان والرؤساء فيهم من تحريم وتحليل في الثمار والأنعام ; وجعل نصيب منها لله ونصيب لآلهتهم المدعاة !

وعندئذ كانوا يواجهون حملة القرآن على عقائدهم المهلهلة وجاهليتهم المتناقضة بأن يكذبوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في نبوته والوحي إليه من ربه ; ويزعمون أنه ساحر ! وأن يطلبوا منه أن يأتيهم بخارقة تدل على أن الله أوحى إليه ; ويفتنون في طلب هذه الخوارق على ما ورد من ذلك في سورة الإسراء مما حكاه القرآن الكريم عنهم . في مثل قوله تعالى: ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل , فأبى أكثر الناس إلا كفورا . وقالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا , أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا , أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا , أو تأتي بالله والملائكة قبيلا , أو يكون لك بيت من زخرف , أو ترقى في السماء , ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ! قل: سبحان ربي ! هل كنت إلا بشرا رسولا ? وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا: أبعث الله بشرا رسولا ? . . وكما قال تعالى في هذه السورة: (ويقولون: لولا أنزل عليه آية من ربه ! ! فقل: إنما الغيب لله , فانتظروا إني معكم من المنتظرين) . .

كذلك كانوا يطلبون من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن يأتيهم بقرآن غير هذا , لا يتعرض لآلهتهم وعقائدهم وجاهليتهم ; كي يستجيبوا له ويؤمنوا به ! كما قال الله عنهم في هذه السورة: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا: ائت بقرآن غير هذا

أو بدله) . . وكان الرد على مثل هذا التعسف الساذج: (قل: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي , إن أتبع إلا ما يوحى إلي , إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم . قل: لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به , فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته ؟ إنه لا يفلح المجرمون) .

(50/354)

نزلت السورة في هذا الجو . وظاهر من سياقها أنها لحمة واحدة , تواجه واقعا متصلا ; حتى ليصعب تقسيمها إلى قطاعات متميزة . وهذا ما ينفي الرواية التي أخذ بها المشرفون على المصحف الأميري من كون الآيات 40 , 94 , 95 , 96 مدنية . . فهذه الآيات متشابكة مع السياق , وبعضها لا يتسق السياق بدونه أصلا !

والترابط في سياق السورة يوحد بين مطلعها وختامها . فيجيء في المطلع قوله تعالى: (الر تلك آيات الكتاب الحكيم . أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس , وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق , عند ربهم قال الكافرون ! إن هذا لساحر مبين) . ويجيء في الختام: (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين) . . فالحديث عن قضية الوحي هو المطلع وهو الختام . كما أنه هو الموضوع المتصل الملتحم بين

المطلع والختام .

كذلك يبدو الترابط بين المؤثرات المختلفة في السورة . نذكر مثالا لذلك الرد على استعجالهم بالوعيد , وتهديدهم بأنه يقع بغتة , حيث لا ينفعهم وقتها إيمان ولا توبة . . ثم يجيء القصص بعد ذلك في السورة , مصورا ذلك المشهد بعينه في مصارع الغابرين .

في الرد عليهم يقول: ويقولون:متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ? قل:لا أملك لنفسي ضرا ولا نفعا , إلا ما شاء الله , لكل أمة أجل , إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون . قل:أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا , ماذا يستعجل منه المجرمون ? أثم إذا ما وقع آمنتم به ? آلآن وقد كنتم به تستعجلون ? ! ثم قيل للذين ظلموا:ذوقوا عذاب الخلد , هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون . .

(51/354)

وفي نهاية قصة موسى في السورة يجيء هذا المشهد , وكأنه الصورة الواقعية لذلك الوعيد :

10 وزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا , حتى إذا أدركه الغرق قال:آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنوا إسرائيل , وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية , وإن كثيرا من الناس

عن آياتنا لغافلون . .

ثم تتساوق في ثنايا السورة بين ذلك الرد وهذه القصة مشاهد المباغتة بأخذ الله للمكذبين ; من حيث لا يتوقعون ولا يدرون ; فترسم جوا واحدا متناسقا يبدو فيه الترابط بين المشاهد والموضوعات والأداء سواء .

كذلك يجيء في حكاية قول المشركين عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في أول السورة: (قال الكافرون إن هذا لساحر مبين) . . ثم يجيء في حكاية فرعون وملئه عن موسى – عليه السلام –: (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا: إن هذا لسحر مبين) . . وقد سميت السورة سورة يونس . بينما قصة يونس فيها لا تتجاوز إشارة سريعة على هذا النحو: (فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها ! إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا , ومتعناهم إلى حين) . . ولكن قصة يونس – مع هذا – هي المثل الوحيد البارز للقوم الذين يتداركون أنفسهم قبل مباغتة العذاب لهم ; فيثوبون إلى ربهم وفي الوقت سعة ; وهم وحدهم في تاريخ الدعوات الذين آمنوا جملة بعد تكذيب , فكشف عنهم العذاب الذي أوعدهم به رسولهم قبل وقوعه بهم , كما هي سنة الله في المكذبين المصرّين .

وهكذا نجد الترابط بكل ألوانه في سياق السورة من مطلعها إلى ختامها , مما يجعلها وحدة متكاملة متشابكة كما أسلفنا .

وواضح من المقتطفات التي سبقت من نصوص السورة – في هذا التقديم – أن القضية الأساسية التي يتكئ عليها السياق كله هي قضية الألوهية والعبودية , وتجلية حقيقتهما , وبيان مقتضيات هذه الحقيقة في حياة الناس . أما سائر القضايا الأخرى التي تعرضت لها السورة كقضية الوحي , وقضية الآخرة , وقضية الرسالات السابقة . . فقد جاءت في صدد إيضاح تلك الحقيقة الكبرى وتعميقها وتوسيع مدلولها ; وبيان مقتضياتها في حياة البشر واعتقادهم وعبادتهم وعملهم .

والواقع أن تلك القضية الكبرى هي قضية القرآن كله , وقضية القرآن المكي بصفة خاصة . فتعريف الألوهية الحقة ; وبيان خصائصها من الربوبية والقوامة والحاكمية ; وتعريف العبودية وحدودها التي لا تتعداها ; والوصول من هذا كله إلى تعبيد الناس لإلههم الحق ; واعترافهم بالربوبية والقوامة والحاكمية له وحده . . هذا هو الموضوع الرئيسي للقرآن كله . . وما وراءه إن هو إلا بيان لمقتضيات هذه الحقيقة الكبيرة في حياة البشر بكل جوانبها . وهذه الحقيقة الكبيرة تستحق – عند التأمل العميق – كل هذا البيان الذي هو موضوع هذا القرآن . . تستحق أن يرسل الله من أجلها رسله جميعا , وأن ينزل بها كتبه جميعا :

(وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) . .

إن حياة البشر في الأرض لا تستقيم إلا إذا استقامت هذه الحقيقة في اعتقادهم وتصورهم , واستقامت كذلك في حياتهم وواقعهم .

(53/354)

لا تستقيم أولاً إزاء هذا الكون الذي يعيشون فيه , ويتعاملون مع أشيائه وأحيائه . . وهم حين يضطرب تصورهم لحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية يروحون يؤلهون الأشياء والأحياء – بل يؤلهون الأشباح والأوهام ! – ويُعبدون أنفسهم لها في صور مضحكة , ولكنها بائسة ! , ويقدمون لها – بوحي من الكهان والمنتفعين بأوهام العوام في كل زمان وفي كل مكان – خلاصة كدهم من الرزق الذي أعطاهم اللّه . بل إنهم ليقدمون لها فلذات أكبادهم كما يقدمون لها أرواحهم في بعض الأحيان . . وهي أشياء وأحياء لا حول لها ولا قوة , ولا تملك لهم ضراً ولا نفعاً . . وتضطرب حياتهم كلها , وهم يعيشون بين الهلع والجزع من هذه الأشياء والأحياء ; وبين التقرب والزلفى لمخلوقات مثلهم , عبوديتها للّه كعبوديتهم . . وذلك كما قال الله تعا :136-5 (وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا . فقالوا :هذا لله – بزعمهم – وهذا لشركائنا ! فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله

, وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ! ساء ما يحكمون ! وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم وليلبسوا عليهم دينهم – ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون – وقالوا: هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء – بزعمهم – وأنعام حرمت ظهورها , وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه ! – سيجزيهم بما كانوا يفترون – وقالوا: ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا , وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء ! سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم – قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم , وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله , قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

فهذه نماذج من تكاليف العبودية لغير الله في الأموال والأولاد ; التي تقدم لمخلوقات من خلق الله . أشياء أو أحياء ما أنزل الله بها من سلطان !

(54/354)

كذلك لا تستقيم حياة البشر إزاء بعضهم البعض بدون استقامة حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية في اعتقادهم وتصورهم , وفي حياتهم وواقعهم . . إن إنسانية الإنسان وكرامته وحريته الحقيقية الكاملة لا يمكن أن تتحقق في ظل اعتقاد أو نظام لا يفرد الله سبحانه بالربوبية والقوامة والحاكمية ; ولا يجعل له وحده حق الهيمنة على حياة الناس في الدنيا

والآخرة , في السر والعلانية ; ولا يعترف له وحده بحق التشريع والأمر والحاكمية في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية . .

والواقع البشري على مدار التاريخ يثبت هذه الحقيقة ويصدقها . فما من مرة انحرف الناس عن الدينونة لله وحده – اعتقاداً ونظاماً – ودانوا لغير الله من العباد – سواء كانت هذه الدينونة , بالاعتقاد والشعائر أم كانت باتباع الأحكام والشرائع – إلا كانت العاقبة هي فقدانهم لإنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم !

والتفسير الإسلامي للتاريخ ; يرد ذل المحكومين للطواغيت , وسيطرة الطواغيت عليهم , إلى عامل أساسي هو فسوق المحكومين عن دين الله , الذي يفرد الله سبحانه بالألوهية , ومن ثم يفرده بالربوبية والسلطان والقوامة والحاكمية . فيقول الله سبحانه عن فرعون وقومه: (ونادى فرعون في قومه قال: يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي ? أفلا تبصرون ? أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين ? فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب , أو جاء معه الملائكة مقترنين ! فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين) . . فيرد استخفاف فرعون لهم إلى أنهم فاسقون . فما يستخف الحاكم الطاغي قومه وهم مؤمنون بالله موحدون ; لا يدينون لسواه بربوبية تزاول القوامة والحاكمية !

ولقد حدث أن الذين فسقوا عن الدينونة لله وحده , فأتاحوا لنفر منهم أن يحكموهم بغير شريعته , قد وقعوا في النهاية في شقوة العبودية لغيره . العبودية , التي تأكل إنسانيتهم وكرامتهم وحريتهم , مهما اختلفت أشكال الأنظمة التي تحكمهم ; والتي ظنوا في بعضها أنها تكفل لهم الإنسانية والحرية والكرامة !

لقد هربت أوربا من الله – في أثناء هروبها من الكنيسة الطاغية الباغية باسم الدين الزائف ! – وثارت على الله – سبحانه – في أثناء ثورتها على تلك الكنيسة التي أهدرت كل القيم الإنسانية في عنفوان سطوتها الغاشمة ! ثم ظن الناس هناك أنهم يجدون إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم – ومصالحهم كذلك – في ظل الأنظمة الفردية [الديمقراطية] وعلقوا كل آمالهم على الحريات والضمانات التي تكفلها لهم الدساتير الوضعية , والأوضاع النيابية البرلمانية , والحريات الصحفية , والضمانات القضائية والتشريعية , وحكم الأغلبية المنتخبة . . إلى آخر هذه الهالات التي أحيطت بها تلك الأنظمة . . ثم ماذا كانت العاقبة ? كانت العاقبة هي طغيان "الرأسمالية" ذلك الطغيان الذي أحال كل تلك الضمانات وكل تلك التشكيلات , إلى مجرد لافتات , أو إلى مجرد خيالات ! ووقعت الأكثرية الساحقة في عبودية ذليلة للأقلية الطاغية التي تملك رأس المال , فتملك معه الأغلبية البرلمانية ! والدساتير الوضعية ! والحريات الصحفية ! وسائر الضمانات التي

ظنها الناس هناك كفيلة بضمان إنسانيتهم وحريتهم وكرامتهم , في معزل عن الله سبحانه ! ! !

ثم هرب فريق من الناس هناك من الأنظمة الفردية التي يطغى فيها "رأس المال" و "الطبقة ! " إلى الأنظمة الجماعية ! فماذا فعلوا ? لقد استبدلوا بالدينونة لطبقة "الرأسماليين" الدينونة لطبقة "الصعاليك" ! أو استبدلوا بالدينونة لأصحاب رؤوس الأموال والشركات الدينونة للدولة التي تملك المال إلى جانب السلطان ! فتصبح أخطر من طبقة الرأسماليين !

(56/354)

وفي كل حالة وفي كل وضع وفي كل نظام دان البشر فيه للبشر , دفعوا من أموالهم ومن أرواحهم الضريبة الفادحة . دفعوها للأرباب المتنوعة في كل حالة !

إنه لا بد من عبودية ! فإن لا تكن لله وحده , تكن لغير الله . . والعبودية لله وحده تطلق الناس أحرارا كراما شرفاء أعلياء . . والعبودية لغير الله تأكل إنسانية الناس وكرامتهم وحرياتهم وفضائلهم . . ثم تأكل أموالهم ومصالحهم المادية في النهاية !

من أجل ذلك كله تنال قضية الألوهية والعبودية كل تلك العناية في رسالات الله – سبحانه – وفي كتبه . . وهذه السورة نموذج من تلك العناية . . فهي قضية لا تتعلق بعبدة الأصنام

والأوثان في الجاهليات الساذجة البعيدة . ولكنها تتعلق بالإنسان كله في كل زمان وفي كل مكان ; وتتعلق بالجاهليات كلها . . جاهليات ما قبل التاريخ . وجاهليات التاريخ . وجاهلية القرن العشرين . وكل جاهلية تقوم على أساس من عبادة العباد للعباد !

ومن أجل ذلك كان جوهر الرسالات والكتب هو تقرير ألوهية الله – سبحانه – وربوبيته وحده للعباد : (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) .

وكان ختام هذه السورة التي نواجهها :

قل : يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ; ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم , وأمرت أن أكون من المؤمنين . وأن أقم وجهك للدين حنيفا , ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله , ما لا ينفعك ولا يضرك , فإن فعلت فإنك إذن من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو , وإن يردك بخير فلا راد لفضله , يصيب به من يشاء من عباده , وهو الغفور الرحيم . قل : يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم , فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه , ومن ضل فإنما يضل عليها . وما أنا عليكم بوكيل . واتبع ما يوحى إليك , واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين . انتهى انتهى . اهـ

﴿ الظلال حـ 3 صـ 1745 . 1755 ﴾

وقال الشيخ الصابونى :

سورة يونس

مكية وآياتها تسع ومائة

بين يدي السورة

سورة يونس من السور المكية التي تعنى بأصول العقيدة الإسلامية (الايمان بالله تعالى ، والايمان بالكتب ، والرسل ، والبعث والجزاء) وهي تتميز بطابع التوجيه الى الايمان بالرسالات السماوية ، وبوجه أخص الى " القرآن العظيم " خاتمة الكتب المنزلة ، والمعجزة الخالدة على مدى العصور والدهور لسيد الانبياء (صلى الله عليه وسلم)

(58/354)

تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الرسالة والرسول ، وبينت ان هذه سنة الله في الاولين والاخرين ، فما من امة الا بعث الله اليها رسولا ، فلا داعي للمشركين للعجب من بعثة خاتم المرسلين [أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس . .] ؟ ثم تلتها الآيات عن بيان حقيقة " الألوهية " و " العبودية " واساس الصلة بين الخالق والمخلوق

، وعرفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي ان يعبدوه ، وان يسلموا وجوههم اليه ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحي المميت ، المدبر الحكيم ، وكل ما سواه فباطل وهباء [إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام . .] الآيات . وتناولت السورة الكريمة موقف المشركين من الرسالة والقرآن ، وذكرت ان هذا القرآن هو (المعجزة الخالدة) الدالة على صدق النبي الأمي ، وأنه يحمل برهانه في تفرده المعجز ، حيث تحداهم ان يأتوا بسورة من مثله فعجزوا ، مع أنهم اساطين الفصاحة ، وامراء البيان [أم يقولون افتراه ، قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين] . وانتقلت السورة لتعريف الناس بصفات الإله الحق ، بذكر آثار قدرته ورحمته ، الدالة على التدبير الحكيم ، وما في هذا الكون المنظور من آثار القدرة الباهرة ، التي هي اوضح البراهين على عظمة الله وجلاله وسلطانه [قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ أمن يملك السمع والأبصار . .] الآيات وهذه هي القضية الكبرى التي يدور محور السورة عليها ، وهي موضوع الايمان " بوحدانية الله " جل وعلا ، وقد عرضت السورة لها بشتى الأدلة السمعية والعقلية . " وتحدثت السورة عن قصص بعض الانبياء ، فذكرت قصة نوح مع قومه ، وقصة موسى مع فرعون الجبار ، وذكرت قصة نبي الله " يونس ، " الذي سميت السورة باسمه – وكل هذه القصص لبيان سنة الله الكونية في اهلاك الظالمين ، ونصرة المؤمنين . وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ، بالاستمساك بشريعة الله ، والصبر على ما

(59/354)

يلقى من الأذى في سبيل الله [واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين] .

التسمية :

سميت السورة " سورة يونس " لذكر قصته فيها ، وما تضمنته من العظة والعبرة برفع العذاب عن قومه حين آمنوا ، بعد ان كاد يحل بهم البلاء والعذاب ، وهذا من الخصائص التي خص الله بها (قوم يونس) لصدق توبتهم وايمانهم [فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ صفوة التفاسير حـ 1 صـ 572.571 ﴾

(60/354)

فصل فى معانى السورة كاملة

قال الشيخ المراغى رحمه الله :

سورة يونس

الكتاب : هو القرآن العظيم ، والحكيم : ذو الحكمة ، لاشتمال الكتاب عليها ، والوحى : الإعلام الخفىّ لامرىء بما يخفى على غيره ، والإنذار : الإخبار بما فيه تخويف ، والتبشير : الإعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء ، والصدق : يكون فى الأقوال ويستعمل فى الأفعال ، فيقال صدق فى القتال إذا وفّاه حقه ، وكذب فيه إذا لم يفعل ذلك ، ويطلق على الإيمان والوفاء وسائر الفضائل ، وجاء فى التنزيل : مقعد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج صدق ، وقدم صدق ، ويراد بالقدم هنا السابقة والتقدم والمنزلة الرفيعة ، سحر : أي يؤثّر فى القلوب ويجذب النفوس فهو جار مجرى السحر ، ومبين : ظاهر

الخلق : لغة التقدير ، واليوم لغة الوقت الذي يحدّه حدث يحدث فيه وإن كان ألوف السنين من أيام هذه الأرض الفلكية التي وجدت بعد خلق الليل والنهار ، والعرش : مركز التدبير ولا نعلم كنهه ولا صفته ، والتدبير : النظر فى أدبار الأمور وعواقبها لتقع على الوجه المحمود ، وتدبير الأمر ، أو القول : هو التفكر فيما وراءه وما يراد منه وينتهى إليه ، والقسط : العدل ، والحميم : الماء الشديد الحرارة .

الضوء والنور : بمعنى واحد لغة ، والضوء أقوى من النور استعمالا بدليل هذه الآية ، وقيل الضوء لما كان من ذاته كالشمس والنار ، والنور لما كان مكتسبا من غيره ، ويدل على ذلك قوله : " وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِراجاً " والسراج : نوره من ذاته ، والضياء

والضوء ما أضاء لك ، وشعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي ترى فى قوس السحاب فهو سبعة أضواء ، وقد كشف ترقى العلوم الفلكية عن ذلك ، وكان الناس يجهلونه عصر التنزيل ، والتقدير : جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة فى الذات أو الصفات أو الزمان أو المكان كما قال :

(61/354)

" وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً " وقال : " وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ " والمنازل : واحدها منزل ، وهو مكان النزول ، وهى ثمانية وعشرون منزلا معروفة لدى العرب بأسمائها .

قال فى المصباح : رجوته : أمّلته أو أردته قال تعالى " لا يَرْجُونَ نِكاحاً " أي لا يريدونه ، ويستعمل بمعنى الخوف لأن الراجي يخاف ألا يدرك ما يرجوه ، وقيل الرجاء مجرد التوقع الذي يشمل ما يسرّ وما يسوء ، واللقاء : الاستقبال والمواجهة ، والاطمئنان : سكون النفس إلى الشيء وارتياحها به ، والمأوى : الملجأ الذي يأوى إليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو إنسان نافع ، وقد أطلق على الجنة فى ثلاث آيات ، وعلى النار فى بضع عشرة آية ، والدعوى : الدعاء ، وهو للناس النداء والطلب المعتاد بينهم فى دائرة

الأسباب المسخرة لهم ، ولله هو دعاؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده مع الشعور بالحاجة إليه والضراعة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه من دفع ضر أو جلب نفع ، سبحانك : أي تنزيها لك وتقديسا ، والتحية : التكرمة بقولهم حياك الله ، أي أطال عمرك والسلام : السلامة من كل مكروه .

تعجيل الشيء .

تقديمه على أوانه المقدر له أو الموعود به ، والاستعجال به : طلب التعجيل له ، والعجلة من غرائز الإنسان كما قال تعالى " خُلِقَ الْإِنْسانُ مِنْ عَجَلٍ " فاستعجاله بالخير لشدة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، واستعجاله بالضر لا يكون من دأبه بل بسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، أو للنجاة مما هو شر منه ، وقضاء الأجل : انتهاؤه ، ونذر : نترك ، والطغيان : مجاوزة الحد فى الشر من كفر وظلم وعدوان ، والعمه : التردد والتحير فى الأمر أو فى الشر ، ومرّ : أي مضى فى طريقته التي كان عليها من الكفر بربه .

القرون : الأمم ، واحدها قرن ، وهم القوم المقترنون فى زمن واحد ،

وجاء فى الحديث الشريف " خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم "

والخلائف : واحدها خليفة ، وهو من يخلف غيره فى شىء ، وننظر : نشاهد ونرى .

أصل الذوق : إدراك الطعم بالفم ، ويستعمل فى إدراك الأشياء المعنوية كالرحمة والنعمة والعذاب والنقمة ، والمكر : التدبير الخفىّ الذي يفضى بالممكور به إلى ما لا يتوقعه ومكره تعالى تدبيره الذي يخفى على الناس بإقامة سننه وإتمام حكمه فى نظام العالم ، وكله عدل وحق ، فإن ساء الناس سمّوه شرا ، وإن كان جزاء عدلا ، والرسل هنا :

الكرام الكاتبون من الملائكة ، والتسيير : جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره تعالى أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو سفينة ، والفلك : السفينة أو السفن واحد وجمع ،

والطيب : من كل شىء ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة وشجرة طيبة ، والعاصف : الذي يعصف الأشياء ويكسرها ، يقال ريح عاصف وعاصفة ،

وأحيط به هلك كما يحيط العدو بعدوه فيسدّ عليه سبل النجاة ، والبغي :

مازاد على القصد والاعتدال ، من بغى الجرح إذا زاد حتى ترامى إلى الفساد .

دار السلام : هى الجنة ، والسلام : السلامة من جميع الشوائب والنقائص والأكدار ،

ورهقه : غشيه وغلب عليه حتى غطّاه وحجبه ، وقوله : " ولا ترهقنى من أمرى عسرا " أي لا تكلفنى ما يشق علىّ ويعسر ، والقتر : الدخان الساطع من الشّواء والحطب ، وكذا كل غبرة فيها سواد ، والعاصم : المانع .

الحشر : الجمع من كل جانب إلى موقف واحد ، ومكانكم : كلمة يراد بها التهديد والوعيد ، أي الزموا مكانكم ، وزيلنا : فرقنا وميزنا ، وتبلو : تختبر ، وأسلفت : قدّمت وضل : ضاع وذهب .

(63/354)

العظة : الوصية بالحق والخير ، واجتناب الباطل والشر ، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرقّ لها القلب ، فتبعث على الفعل أو الترك ، والشفاء : الدواء ، والهدى بيان الحق المنقذ من الضلال ، ويكون فى الاعتقاد بالحجة والبرهان ، وفى العمل ببيان المصالح والحكم ، والرحمة : الإحسان ، وفضل اللّه : هو توفيقهم لتزكية أنفسهم بالموعظة والهدى ، ورحمته : هى الثمرة التي نتجت من ذلك ، وبها فضلوا جميع الناس .

الشأن : الأمر العظيم ، وجمعه شئون ، تقول العرب : ما شأن فلان ، أي ما حاله ، وأفاض فى الشيء أو من المكان : اندفع فيه بقوة أو بكثرة ، وعزب الرجل بإبله يعزب أي بعد وغاب فى طلب الكلأ ، والذرة : النملة الصغيرة ، وبها يضرب المثل فى الصغر والخفة ، وتطلق على الدقيقة من الغبار الذي يرى فى ضوء الشمس الداخل من الكوى إلى البيوت ، والكتاب : هو اللوح المحفوظ .

الأولياء : جمع ولىّ من الولي : وهو القرب يقال تباعد بعد ولى : أي بعد قرب ، وأولياء اللّه هم المؤمنون المتقون ، والبشرى : هى الخبر السارّ الذي تنبسط به بشرة الوجه فتتهلل وتبرق أساريره .

العزة : الغلبة والقوة ، والخرص : الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجرى على قياس من وزن أو كيل أو زرع كحرص الثمر على الشجر والحب فى الزرع ، ويستعمل بمعنى الكذب أيضا لأنه يغلب فيه الحزر والتخمين ، والمبصر : ذو الإبصار ، تقول العرب :

أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء .

الولد : يستعمل مفردا وجمعا ، وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما ، وسبحان كلمة تنزيه وتقديس ، وتستعمل للتعجب ، والسلطان : الحجة والبرهان .

النبأ : الخبر له خطر وشأن ، والمقام : الإقامة والمكث ، والإجماع العزيمة على الأمر عزما لا تردد فيه كما قال شاعرهم :

أجمعوا أمرهم بليل فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء

والغمة : الستر واللبس ، يقال إنه لفى غمة من أمره : إذا لم يهتد له ، وقضاء الأمر :

أداؤه وتنفيذه ، قال تعالى " فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ " . والإنظار : التأخير والإمهال ، خلائف ، أي يخلفون الذين هلكوا بالغرق ، المنذرون : المخوّفون بالله وعذابه .

الطبع على القلوب : هو عدم قبولها شيئا غير ما رسخ فيها واستحوذ عليها ، والمعتدى : المتجاوز حدود الحق والعدل اتباعا لهوى النفس وشهواتها .

الملأ : أشراف القوم الذين يجتمعون على رأى ، ولفته عن كذا : صرفه .

الذرية فى اللغة : صغار الأولاد ، وتستعمل فى الصغار والكبار عرفا ، والفتون : الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الفعل أو الترك ، والمراد هنا الاضطهاد والتعذيب ، والعلو : القهر والاستبداد ، ومسلمين : أي مذعنين مستسلمين ، وتبوأ الدار : اتخذها مباءة ومسكنا يبوء ويرجع إليها كلما فارقها لحاجة ، والقبلة : ما يقابل الإنسان ويكون تلقاء وجهه ، ومنه قبلة الصلاة .

الزينة : الحلل والحلىّ والأثاث والرياش والماعون ، والأموال : ما وراء ذلك من الذهب والفضة والأنعام والزروع ونحو ذلك ، والطّمس : الإزالة ، يقال طمس الأثر وطمسته الريح : إذا زال ، والشد على القلب : الطبع عليه وقسوته حتى لا ينشرح للإيمان .

يقال : جاز المكان وجاوزه وتجاوزه : إذا قطعه حتى خلفه وراءه ، ويقال تبعته حتى أتبعته إذا كان قد سبقك فلحقته ، المسلمين : أي المنقادين لأمره ، وننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، والنجوة : المكان المرتفع من الأرض ، والآية :

العبرة والعظة .

مبوأ صدق : أي منزلا صالحا مرضيا . وأصل الصدق ضد الكذب ، ولكن جرت عادة العرب أنهم إذا مدحوا شيئا أضافوه إلى الصدق فقالوا مكان صدق إذا كان كاملا فى صفته صالحا للغرض المقصود منه ، كأنهم أرادوا أن كل ما يظهر فيه من الخير فهو صادق ، والعلم هنا علم الدين .

(65/354)

لولا : كلمة تفيد التحضيض والتوبيخ كهلا ، والمراد بالقرية أهلها وهو كثير الاستعمال بهذا المعنى ، والخزي : الذل والهوان ، والحين : مدة من الزمن والمراد بها العمر الطبيعي الذي يعيشه كل شخص ، والإذن بالشيء : الإعلام بإجازته والرخصة فيه ورفع الحجر عنه والرجس : لغة الشيء القبيح المستقذر ، والمراد به هنا العذاب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير المراغى حـ 11 صـ 156.59 ﴾ . باختصار .

(66/354)

وقال الإمام أبو جعفر النحاس :

تفسير سورة يونس

مكية وآياتها 109 آية

بسم الله الرحمن الرحيم سورة يونس وهي مكية 1 - قوله عز وجل آلر تلك آيات الكتاب الحكيم (آية 1) روى عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير في قول الله تعالى آلر قال أنا الله أرى قال أبو جعفر حدثنا علي بن الحسين قال نا الزعفراني قال نا علي بن الجعد قال نا شريك عن عطاء بن السائب عن أبي الضحى عن ابن عباس آلر قال أنا الله أرى وفي رواية عكرمة عن ابن عباس آلر وحم ون حروف الرحمن مقطعة قال أبو جعفر قد بينا هذا في أول سورة البقرة ومعنى الحكيم عند أهل اللغة المحكم كما قال

تعالى هذا ما لدي عتيد أي معد 2 - وقوله جل وعز أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس (آية 2) روي انه يراد بالناس ها هنا أهل مكة لأنهم قالوا العجب الم يجد الله رسولا إلا يتيم أبى طالب فانزل الله جل وعز

أكان للناس عجبا ان أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس 3 - ثم قال جل وعز وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم (آية 2) قال ابن عباس أي منزل صدق وقيل القدم العمل الصالح وقيل السابقة ويروى عن الحسن أو قتادة قال القدم محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم

وقال أبو زيد رجل قدم أي شجاع وقال قتادة أي سلف صدق وقال مجاهد أي خير وفي رواية علي بن أبي طلحة عنه قال سبقت لهم السعادة في الذكر الأول وهذه الأقوال متقاربة والمعنى منزلة رفيعة 4 - وقوله جل وعز ما من شفيع إلا من بعد إذنه (آية 3) ولم يجر للشفيع ذكر لأنه قد عرف المعنى إذ كانوا يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قال الله جل وعز ما من شفيع إلا من بعد إذنه أي لا يشفع شفيع إلا لمن ارتضى 5 - وقوله جل وعز وعد الله حقا إن يبدأ الخلق ثم يعيده (آية 4)

(67/354)

وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع أنه يبدأ الخلق ثم يعيده قال أبو جعفر وفتحها يحتمل معنيين أحدهما لأنه والآخر وعد الله انه والقسط العدل 6 - وقوله جل وعز هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل (آية 5) ولم يقل وقدرهما لأن المقدر لعدد السنين والحساب القمر وهو ثمان وعشرون منزلة قال أبو إسحاق ويحتمل أن يكون المعنى وقدرهما ثم حذف كما قال نحن بما عندنا وانت بما عندك راض والرأي مختلف 7 - وقوله جل وعز إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم (آية 9) قال مجاهد أي يجعل لهم نورا يمشون به ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يقوي هذا أنه

قال يتلقى المؤمن عمله في أحسن صورة فيؤنسه ويهديه ويتلقى الكافر عمله في اقبح صورة فيوحشه ويضله هذا معنى الحديث

8 - وقوله جل وعز دعواهم فيها سبحانك اللهم (آية 10) أي دعاؤهم تنزيه الله جل وعز وتحيتهم فيها سلام أي يحيي بعضهم بعضا بالسلامة ويجوز ان يكون الله جل وعز يحييهم بالسلام إكراما لهم

9 - ثم قال جل وعز وآخر دعواهم ان الحمد لله رب العالمين (آية 10) فخبر أن افتتاح دعائهم تنزيه الله وآخره شكره 10 - وقوله جل وعز ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم (آية 11) قال مجاهد وهو دعاء الرجل عند الغضب على أهله وولده فلو عجل لهم ذلك لماتوا وقيل إنه قولهم اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء فلو عجل لهم هذا لهلكوا 11 - وقوله جل وعز وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما (آية 12)

ويجوز أن يكون المعنى وإذا مس الإنسان الضر مضطجعا أو قاعدا أو قائما دعانا ويجوز ان يكون التقدير دعانا على أحدى هذه الأحوال 12 - ثم قال جل وعز فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى

ضر مسه (آية 12) روى أبو عبيد عن أبي عبيدة أن مر من مذهب استمر

وقال الفراء أي استمر على ما كان عليه من قبل ان يمسه الضر 13 - وقوله جل وعز ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا (آية 13)

قوله تعالى وما كانوا ليؤمنوا فيه قولان أحدهما الله جل وعز أخبر بما يعلم منهم لو بقاهم والآخر انه جازاهم على كفرهم بأن طبع على قلوبهم ويدل على هذا أنه قال كذلك نجزي القوم المجرمين 14 - وقوله جل وعز وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله (آية 15) قال قتادة الذين قالوا هذا مشركو اهل مكة وقال غيره أي ائت تقرآن ليس فيه ذكر البعث والنشور ولا سب آلهتنا قال الله جل وعز قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي (آية 15) 15 - ثم قال تعالى قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به (آية 16) قال الضحاك أي ولا أشعركم به ولا أعلمكم به

16 - ثم قال جل وعز فقد لبثت فيكم عمرا من قبله (آية 16)

قال قتادة لبث فيهم اربعين سنة واقام سنتين يرى رؤيا الأنبياء وتوفي صلى الله عليه وسلم وهو ابن اثنتين وستين سنة 17 - وقوله جل وعز ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم (آية 18) أي ما لا يضرهم إن لم يعبدوه ولا ينفعهم إن عبدوه 18 - ثم قال جل وعز ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبؤن الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض (آية

18) أي اتعبدون ما لا يشفع ولا ينصر ولا يميز وتقولون هو يشفع لنا عند الله فتكذبون وهل يتهيأ لكم ان تنبؤه تعالى بما لا يعلم 19 - وقوله جل وعز وما كان الناس إلا امة واحدة فاختلفوا (آية 19)

(69/354)

فيه ثلاثة أقوال أبينها قول مجاهد وهو انهم كانوا في وقت آدم صلى الله عليه وسلم على دين واحد ثم اختلفوا والقول الثاني أن هذا عام يراد به الخاص وأنه يراد بالناس ها هنا العرب خاصة والقول الثالث أنه مثل قوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة أي ثم يختلفون بعد ذلك 20 - وقوله جل وعز وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم (آية 21) يراد بالناس ها هنا الكفار كما قال تعالى إن الإنسان

لربه لكنود

وقال الحسن ذلك المنافق والرحمة ها هنا الفرج ومن بعد ضراء أي من بعد كرب إذا لهم مكر في آياتنا أي يحتالون حتى يجعلوا سبب الرحمة في غير موضعه قال مجاهد إذا لهم مكر في آياتنا استهزاء وتكذيب 21 - وقوله جل وعز حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة (آية 22) قيل المعنى حتى إذا كنتم في الفلك ثم حولت المخاطبة إلى النبي صلى الله

عليه وسلم فصار المعنى وجرين بهم يا محمد وقيل العرب تقيم الغائب مقام الشاهد فتخاطبه مخاطبته ثم ترده إلى الغائب 22 - وقوله عز وجل وظنوا أنهم أحيط بهم (آية 22) يقال لمن وقع في بلية قد أحيط به كأن البلاء أحاط به واصل هذا أن العدو إذا أحاط بموضع فقد هلك أهله

23 - وقوله جل وعز إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق (آية 22) البغي الترامي إلى الفساد قال الأصمعي يقال بغى الجرح يبغي بغيا إذا ترامى إلى فساد 24 - ثم قال جل وعز يا أيها إنما الناس بغيكم على أنفسكم

(آية 22) أي عملكم بالظلم يرجع عليكم 25 - ثم قال جل وعز متاع الحياة الدنيا (آية 23) أي ما تنالون بالبغي والفساد فإنما هو شئ تتلذذون به في الدنيا هذا قول أهل اللغة وروي عن سفيان بن عيينة أنه قال اراد أن البغي متاع الحياة الدنيا أي عقوبته تعجل لصاحبه في الدنيا

(70/354)

كما يقال البغي مصرعة وقال جل وعز ثم بغي عليه لينصرنه الله 26 - وقوله جل وعز إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام (آية

24) اختلط النبات مع المطر والمطر مع النبات 27 – وقوله جل وعز حتى إذا اخذت الأرض زخرفها (آية 24) الزخرف في اللغة كمال الحسن ومنه قيل للذهب زخرف 28 – ثم قال جل وعز كأن لم تغن بالأمس (آية 24) أي كأن لم تنعم

والمعنى عند أهل اللغة كأن لم تعمر

والمعاني المنازل التي يعمرها الناس وغنيت بالمنزل أقمت به وعمرته 29 – وقوله جل وعز والله يدعو إلى دار السلام (آية 25) قال قتادة دار السلام الجنة والسلام الله عز وجل قال أبو جعفر المعنى على هذا والله يدعو إلى داره وإعادة الاسم إذا لم يكن مشكلا أفخم قال أبو إسحاق ويجوز ان يكون المعنى والله أعلم يدعو إلى الدار التي يسلم فيها من الآفات 30 – وقوله جل وعز للذين أحسنوا الحسنى وزيادة (آية 26) قال أبو جعفر الذي عليه أهل الحديث أن الحسنى

الجنة والزيادة النظر إلى الله جل اسمه حدثنا الحسين بن عمر قال نا هناد قال نا وكيع عن أبي بكر الهذلي عن أبي تميمة الهجيمي عن أبي موسى في قول الله تعالى للذين أحسنوا الحسنى قال الجنة وزيادة قال النظر إلى الله جل وعز حدثنا الحسين قال نا هناد قال نا قبيصة قال نا حماد بن سلمة وقرئ على ابن بنت منيع عن هدبة بن خالد قال نا حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن صهيب قال إن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قرأ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة فقال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن

(71/354)

ينجزكموه فيقولون وما هو ألم يثقل الله موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة وينجنا من النار فيكشف عن الحجاب ويتجلي فينظرون إليه جل وعز قال فوالله ما أعطاهم الله شيئا أحب إليهم من النظر إليه وهي الزيادة قال أبو جعفر وفي حديث ابن بنت منيع ويجرنا وفي

حديثه فينظرون إلى الله جل وعز 31 - ثم قال جل وعز ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة (آية 26) قال ابن عباس القتر سواد الوجوه وقال غيره القتر جمع قترة وهي الغبرة ومعنى يرهق يغشى والذلة الهوان وفي حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة قال بعد نظرهم إلى ربهم والعاصم المانع 32 - وقوله جل وعز كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما (آية 27)

القطع جمع قطعة ومن قرأ قطعا فهو اسم ما قطع يقال قطعة قطعا واسم ما قطعت قطع 33 - وقوله جل وعز ثم نقول للذين أشركوا مكانكم (آية 28)

أي انتظروا مكانكم توعد فزيلنا بينهم من قولك زلت الشئ من الشئ أي نحيته وزيلت فإن على التكثير 34 - ثم قال جل وعز فكفى بالله شهيدا بيننا وبينكم (آية 29) لأنهم قالوا من يشهد لك أنك رسول الله 35 - وقوله جل وعز هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت (آية 29) قال مجاهد أي تختبر ومعناه تجده وتقف عليه

وفي تتلو قولان قال الأخفش أي تقرأ كما قال وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا اقرأ كتابك والقول الآخر أن معنى تتلو تتبع كما قال قد جعلت دلوي تستتليني 36 - وقوله جل وعز كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا (آية 33) ثم بين الكلمة فقال أنهم لا يؤمنون فالمعنى حق عليهم أنهم لا يؤمنون ويجوز ان يكون المعنى لأنهم لا يؤمنون وتكون الكلمة

العقاب

(72/354)

---

37 - وقوله جل وعز وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله (آية 37) معناه لأن يفترى أي لأن يختلق ويجوز أن يكون المعنى وما كان هذا القرآن ان يفترى من دون الله كما تقول وما كان هذا القرآن كذبا 38 - ثم قال جل وعز ولكن تصديق الذي بين يديه (آية

37) يجوز ان يكون المعنى ولكن تصديق الشئ الذي القرآن بين يديه أي يصدق ما تقدمه من الكتب وأنباء الأمم ويجوز أن يكون المعنى أنه يصدق ما لم يأت من أمر الساعة 39 – وقوله جل وعز أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله (آية 38) المعنى بسورة مثل سوره مثل واسأل القرية والمراد الجنس

وقيل المعنى فأتوا بقرآن مثل هذا القرآن والسورة قرآن فكنى عنها بالتذكير على المعنى ولو كان على اللفظ لقيل مثلها 40 – ثم قال جل وعز وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (آية 38) أي ادعوا من يعينكم ممن يذهب إلى مذهبكم إن كنتم

صادقين أنه مفترى 41 – ثم قال جل وعز بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه (آية 39) قيل يراد بهذا والله أعلم من كذب وهو شاك وقيل بما لم يحيطوا بعلمه أي بما فيه من الوعيد على كفرهم ولما ياتهم تأويله أي ما يؤول إليه ذلك الوعيد وقيل ولما يأتهم تأويله أي لم يعرفوه فهذا يدل على

انه يجب ان ينظر في التأويل ويجوز أن يكون المعنى ولما ياتهم ما يؤول إليه أمرهم من العقاب 42 – وقوله جل وعز ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين (آية 40) أي منهم من يعلم أنه حق ويظهر الكفر عنادا وإبقاء على رياسته ومنهم من لا يؤمن به في السر والعلانية 43 – وقوله جل وعز ومنهم من يستمعون إليك فأنت تسمع الصم (آية 42) أي ظاهرهم ظاهر من يستمعون وهم لشدة عداوتهم وانحرافهم عن النبي صلى الله

عليه وسلم بمنزلة الصم

ثم قال جل وعز ولو كانوا لا يعقلون (آية 42)

(73/354)

أي ولو كانوا مع هذا جهالا 44 - ثم قال جل وعز ومن هم من ينظر إليك افانت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون (آية 43) ومنهم من ينظر إليك أي يديم النظر إليك كما قال تعالى ينظرون إليك تدور اعينهم كالذي يغشى عليه من الموت 45 - وقوله جل وعز ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط (آية 47) قال مجاهد يعني يوم القيامة والمعنى على هذا فإذا جاء رسولهم يشهد عليهم بالإيمان والكفر كما قال تعالى فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد

وقال جل وعز وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا وقال غير مجاهد يجوز أن يكون إنه لا يعذب احدا حتى يجيئه الإعذار والإنذار وإنما يأتي بهذا الرسل 46 - وقوله جل وعز ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار (آية 45) أي قريب ما بين موتهم ومبعثهم عمر ثم قال يتعارفون بينهم أي يعرف بعضهم بعضا وهو اشد لتوبيخهم إذا عرف بعضهم بعضا بالإضلال والفساد 47 - وقوله جل وعز وإلما نرينك بعض الذي

نعدهم أو نتوفينك

(آية 47) قال مجاهد أي وإما نرينك العذاب في حياتك أو

نتوفينك قبل ذلك فإلينا مرجعهم وقال غيره يريد بقوله جل وعز وإما نرينك بعض الذي

لغدهم وقعة بدر والله أعلم 48 - وقوله جل وعز قل ارايتم إن اتاكم عذابه بياتا أو نهارا

ماذا يستعجل منه المجرمون (أية 50) يجوز أن يكون المعنى ماذا يستعجل من الله ويجوز ان

يكون ماذا يستعجل من العذاب المجرمون قال أبو جعفر وهذا أشبه بالمعنى لقوله تعالى أثم

إذا ما وقع آمنتم به 49 - ثم قال جل وعز الآن وقد كنتم به تستعجلون (آية 51) وفي

الكلام حذف والمعنى الآن تؤمنون به

50 - وقوله جل وعز ويستنبئونك أحق هو (آية 53) المعنى ويستخبرونك فيقولون أحق

هو قل إي وربي إنه لحق أي المعنى نعم 51 - وقوله جل وعز وما أنتم بمعجزين (آية 53)

أي ما أنتم ممن يعجز عن ان يجازى بكفره 52 - وقوله جل وعز وأسروا الندامة لما رأوا

العذاب (آية 54)

في معناه قولان احدهما أن الرؤساء الدعاة إلى الكفر أسروا الندامة لما رأوا العذاب والآخر ان أسروا بمعنى أظهروا

وقال أبو العباس إن كان هذا صحيحا فمعناه بدت الندامة في أسرة وجوههم وواحدها سرار وهي الخطوط التي في الجبهة 53 – وقوله جل وعز يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم (آية 57) يعني القرآن 54 – وقوله جل وعز قل بفضل الله وبرحمته فليفرحوا (آية 58) قال الحسن فضله الإسلام ورحمته القرآن وقال أبو التياح بفضل الله يعني الإسلام وبرحمته يعني القرآن فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم هو خير مما يجمعون قال يعني الكفار

وروى عكرمة عن ابن عباس بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلنا من أهله 55 – وقوله جل وعز قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا (آية 59) قال مجاهد يعني البحائر والسوائب

وقال الضحاك يعني بقوله وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا 56 – وقوله جل وعز وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه (آية 61) معنى وما تكون في شأن أي وأي وقت تكون في شأن من عبادة أو غيرها وما تتلو منه من قرآن قال أبو إسحاق المعنى من الشأن 57 – وقوله جل وعز إذ تفيضون فيه (آية 61) أي تأخذون فيه ومنه أفاض في الحديث

58 - وقوله جل وعز وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة (آية 61) أي وما يبعد ولا يغيب ومثقال الشئ وزنه والذرة النملة الصغيرة 59 - وقوله جل وعز ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون (آية 62) يروى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم من أولياء الله فقال الذين إذا رؤوا ذكر الله حدثنا أبو جعفر قال نا الحسين بن عمر الكوفي ببغداد قال نا العلاء بن عمرو قال نا يحيى بن اليمان عن أشعث بن إسحاق القمي عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير عن

(75/354)

ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون قال يذكر الله جل وعز برؤيتهم

60 - وقوله جل وعز لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الاخرة (آية 64) قال عبادة بن الصامت سالت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله جل وعز لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة فقال هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له وفي الآخرة الجنة وفيها قول آخر رواه شعبة عن ابن عمران الجوني عن عبد الله ابن الصامت عن أبي ذر قلت للنبي صلى الله عليه وسلم الرجل يعمل لنفسه خيرا ويحبه الناس فقال تلك عاجل بشرى

المؤمنين في الدنيا 61 - وقوله جل وعز لا تبديل لكلمات الله (آية 64) أي لا خلف لوعده وقيل معنى لا تبديل لكلمات الله لا تبديل لأخباره أي لا ينسخها شئ ولا تكون إلا كما قال 62 - وقوله جل وعز ولا يحزنك قولهم (آية 65) أي لا يحزنك إيعادهم وتكذيبهم واستطالتهم عليك 63 - وقوله جل وعز إن العزة لله جميعا (آية 65) أي إن الغلبة لله 64 - وقوله جل وعز وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون (آية 66) أي يحدسون ويحزرون 65 - وقوله جل وعز هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا (آية 67) أي مبصرا فيه على النسب كما قال في عيشة راضية أي ذات رضى أي يرضى بها

(76/354)

---

66 - وقوله جل وعز إن عندكم من سلطان بهذا (آية 68) أي ما عندكم من حجة بهذا 67 - ثم قال جل وعز قل إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون (آية 69) ثم الكلام ثم قال متاع في الدنيا أي ذلك متاع في الدنيا 68 - وقوله جل وعز فأجمعوا أمركم وشركاءكم (آية 71) قال الفراء معناه وادعوا شركاءكم قال والإجماع الإعداد والعزيمة على الأمر وقال أبو العباس هو محمول على المعنى لأن معنى أجمعوا واجمعوا واحد وقال

أبو إسحاق المعنى مع شركائكم قال وقول الفراء لا معنى له لأنه إن كان يذهب إلى أن المعنى وادعوا شركاءكم ليعينوكم فمعناه معنى مع وإن كان يذهب إلى الدعاء فقط فلا معنى لدعائهم لغير شئ وقرأ الجحدري ويروى عن الأعرج فاجمعوا أمركم بوصل الألف وفتح الميم وقرأ الحسن فأجمعوا أمركم وشركاؤكم قال أبو جعفر وهذا يدل على انهما لغتان بمعنى واحد 69 - وقوله جل وعز ثم لا يكن امركم عليكم غمة (آية 71) فيه قولان أحدهما أن معنى غمة كمعنى غم والآخر وهو أصح في اللغة ان المعنى ليكن أمركم ظاهرا يقال القوم في غمة إذا عمي عليهم أمرهم والتبس ومن هذا غم الهلال على الناس أي غشية ما غطاه

والغم من هذا إنما هو ما غشي القلب من الكرب فضيقه واصل هذا مشتق من الغمامة 70 - وقوله جل وعز ثم اقضوا إلي ولا تنظرون (آية 71) أي ثم افعلوا ما بدا لكم قال الكسائي ويقرأ وأفضوا إلي بقطع الألف والفاء 71 - وقوله جل وعز قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا (آية 78) قال قتادة أي لتلوينا قال أبو جعفر وهذا معروف في اللغة يقال لفته يلفته إذا عدله ومن هذا التفت إنما هو عدل عن الجهة التي بين يديه

72 - ثم قال تعالى وتكون لكما الكبرياء في الأرض (آية 78)

قال مجاهد أي الملك وذلك معروف في اللغة وإنما قيل للملك كبرياء لأنه أكبر ما ينال في الدنيا

73 – وقوله جل وعز فلما القوا قال موسى ما جئتم به السحر (آية 81) من قرأ السحر فمعناه عنده التوبيخ أي أي شئ جئتم به السحر هو 74 – وقوله جل وعز فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه (آية 83) قال ابن عباس أي قليل وقال مجاهد يعني أنه لم يؤمن به منهم أحد وإنما آمن أولادهم وقال بعض أهل اللغة إنما قيل لهم ذرية لأن آباءهم قبط وأمهاتهم من بني إسرائيل كما قيل لمن سقط من فارس إلى اليمن

الأبناء يذهب إلى أنهم رجال مذكورون 75 – ثم قال جل وعز على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم (آية 83) فقال وملئهم لأنه قد علم أن معه من يأتمر له ويرجع إلى قوله وقيل المعنى على خوف من آل فرعون

76 – وقوله جل وعز ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ونجنا برحمتك من القوم الكافرين (آية 86) قال مجاهد أي لا تهلكنا بأيدي أعدائنا ولا تعذبنا بعذاب من عندك فيقول أعداؤنا لو كانوا على حق لما سلطنا عليهم ولما عذبوا أي فيفتتنوا بذلك وقال أبو مجلز لا يظهروا فيروا أنهم خير منا

77 – وقوله عز وجل واجعلوا بيوتكم قبلة (آية 87) قال ابن عباس أي مساجد وقال مجاهد أي نحو الكعبة وقال إبراهيم النخعي كانوا على خوف كما أخبر الله جل وعز

فأمروا أن يصلوا في بيوتهم لئلا يلحقهم أذى 78 - وقوله جل وعز ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك (آية 88) وليضلوا النبي المعنى فأصارهم ذلك إلى الضلال كما قال جل وعز فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا أي فآل أمرهم إلى ذلك وكأنهم فعلوا ذلك لهذا

وبعض أهل اللغة يقول لام الصيرورة وهي لام كي على الحقيقة 79 - وقوله جل وعز ربنا اطمس على أموالهم (آية 88)

(78/354)

قال قتادة بلغنا أن أموالهم وزروعهم صارت حجارة قال مجاهد أي أهلكها قال أبو جعفر ومعروف في اللغة أن يقال طمس الموضع إذا عفا ودرس 80 - ثم قال جل وعز واشدد على قلوبهم (آية 88) قال مجاهد أي بالضلالة وقال غيره أي قسها والمعنى واحد 81 - ثم قال عز وجل فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم (آية 88) قال مجاهد دعا عليهم قال أبو جعفر وهذا لأنهم إذا رأوا العذاب لم ينفعهم الإيمان فقد دعا عليهم

قال أبو إسحاق قال أبو العباس هو معطوف على قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك 82 - وقوله جل وعز قال قد أجيبت دعوتكما فاستقيما (آية 89) قال قتادة دعا موسى وأمن

هارون حدثنا محمد بن الحسين بن سماعة بالكوفة قال نا أبو نعيم قال نا أبو جعفر الرازي عن الربيع عن أبي العالية قال قد أجيبت دعوتكما قال دعا موسى فأمن هارون صلى الله عليهما قال أبو جعفر وهو حسن عند أهل اللغة لأن التأمين دعاء ألا ترى أن معنى آمين استجب 83 - وقوله جل وعز وجاورنا لبني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا (آية 90)

وقرأ قتادة فاتبعهم فرعون وجنوده بوصل الألف قال الأصمعي يقال اتبعه بقطع الألف إذا لحقه وأدركه واتبعه بوصل الألف إذا اتبع أثره أدركه أو لم يدركه وكذلك قال أبو زيد وقيل اتبعه بوصل الآلف في الأمر اقتدى به واتبعه بقطع الآلف خيرا أو شرا هذا قول أبي عمرو وقيل هما واحد وقرأ قتادة بغيا وعدوا والعدو الظلم 84 - وقوله جل وعز حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل (آية 90) روى شعبة عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب قالا

سمعنا سعيد بن جبير يحدث عن ابن عباس قال شعبة رفعه أحدهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال إن جبرائيل عليه السلام كان يدس الطين فيجعله في في فرعون قال مخافة أن يقول لا إله إلا أنت فيغفر له

وقال عون بن عبد الله بلغني أن جبرائيل قال للنبي عليه السلام ما ولد إبليس ولدا قط أبغض إلي من فرعون وأنه لما أدركه الغرق قال آمنت الآية فخشيت أن يقولها فيرحم فأخذت تربة أو طينة فحشوتها في فيه وقيل إن جبرائيل إنما فعل هذا به عقوبة له على عظيم ما كان يأتي 85 - وقوله جل وعز فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية (آية 92) قال قتادة لم تصدق طائفة من الناس أنه غرق فأخرج لهم

ليكون عظة وآية وقال غيره الاية فيه أنه يدعي أنه رب وكان قومه يعبدونه فأراهم الله إياه بعد ما غرقه ومن الآية فيه أنه غرق هو وقومه فأخرج دونهم قال أبو عبيدة معنى ننجيك نلقيك على نجوة من الأرض وقال غيره النجوة والنبوة ما ارتفع من الأرض وقرئ ننجيك والمعنى واحد وروري عن يزيد المكي أنه قرأ فاليوم ننحيك بالحاء ببدنك قيل أي وحدك وقيل بدرعك وقال مجاهد بجسدك وإن وهذا أحسن الأقوال

قيل معناه بجسدك فقط أي عريانا بغير روح 86 - وقوله جل وعز ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق (آية 93) أي أنزلناهم قال قتادة يعني الشام وبيت المقدس وقال الضحاك مصر والشام 87 - وقوله جل وعز فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسال الذين يقرؤون الكتاب من قبلك (آية 94) في معناه أقوال 1 - منها أن المخاطبة للنبي صلى الله عليه وسلم مخاطبة لأمته فالمعنى على هذا فإن كنتم في شك كما قال تعالى يا أيها النبي إذا

طلقتم النساء

2 وقيل هذا كما يقال إن كنت أبي فافعل كذا وهو أبوه 3 وقيل إن ها هنا بمعنى ما كما قال جل وعز إن الكافرون إلا في غرور والمعنى فما كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك سؤال ازدياد كما قال تعالى إخبارا عن إبراهيم قال بلى ولكن ليطمئن قلبي وقال أبو العباس محمد بن يزيد المعنى يا محمد قل للشاك إن كنت في شك فاسأل الذين يقرءون الكتاب أي سل

من آمن من أهل الكتاب فيخبرك بصفة النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه

(80/354)

قال الحسن لم يسال ولم يشك وقال الضحاك الذين يقرءون الكتاب يعني بهم من آمن من أهل الكتاب وكان من أهل التقوى 88 - وقوله جل وعز إن الذين حقت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون (آية 96) قال قتادة أي إن الذين حق عليهم غضب الله وسخطه بمعصيتهم لا يؤمنون 89 - وقوله جل وعز فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس (آية 98) قال قتادة لم يؤمن قوم حين رأوا العذاب إلا قوم يونس وقال غيره لم يروا العذاب وإنما رأوا دليله فقبلت توبتهم وذكر هذا على أثر قصة فرعون لأنه آمن حين رأى العذاب فلم ينفعه ذلك

قال قتادة خرج قوم يونس ففرقوا بين البهائم وأولادها واقاموا يدعون الله جل وعز فتاب عليهم 90 - وقوله جل وعز إلا قوم يونس (آية 98) هذا عند الخليل وسيبويه استثناء ليس من الأول وقال غيرهما هو استثناء منقطع لأنهم أمة غير الأمم الذين استثنوا منهم ومن غير جنسهم وشكلهم وإن كانوا من بني

آدم ومعنى إلى حين إلى حين فناء آجالهم 91 - وقوله جل وعز ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا (آية 99) فيه قولان

أحدهما أنه قد سبق في علمه أنه لن يؤمن إلا من قد سبقت له السعادة في الكتاب الأول كما روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال خبره جل وعز أنه لن يؤمن إلا من قد سبق له من الله سعادة في الذكر الأول ولا يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول والقول الآخر ولو شاء ربك لعاجل الكافر بالعقوبة فآمن الناس كلهم ولكن لو كان ذلك لم يكن لهم في الإيمان ثواب فوقعت المحنة بالحكمة وعن ابن عباس ويجعل الرجس قال السخط ثم قال على الذين لا يعقلون أي لا يعقلون عن الله حججه ومواعظه وبراهينه الدالة على النبوة 92 - ثم قال جل وعز قل انظروا ماذا في السموات والأرض (آية 101) أي من الدليل على قدرة الله جل ذكره

ثم قال وما تغني الآيات والنذر أي الأدلة والنذر

جمع نذير وهو الرسول عن قوم لا يؤمنون أي لا يصدقون حتى يروا العذاب 93 – ثم قال جل وعز فهل ينتظرون إلا مثل ايام الذين خلوا من قبلهم (آية 102) يعني هؤلاء المكذبين من العقاب إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قال قتادة يقول وقائع الله جل وعز في الذين خلوا من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود 94 – ثم قال جل وعز ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا (آية 103) أي من ذلك الهلاك كذلك أي كما فعلنا بالماضين 95 – ثم قال جل وعز يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني (آية 104)

أي الذي أدعوكم إليه فلم تعلموا أنه حق فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله من الأوثان وغيرها التي لا تنفع شيئا ولا تضر ولكن أعبد الله الذي لا ينبغي أن تشكو فيه الذي يتوفاكم أي يقبض الخلق فيميتهم وأمرت أن أكون من المؤمنين أي وهو أمرني أن أكون من المصدقين 96 – ثم قال جل وعز وأن أقم وجهك للدين حنيفا (آية 105) أن الثانية عطف على الأولى أي أقم نفسك على دين

الإسلام حنيفا مائلا إلى الإسلام ولا تكونن من المشركين أي ممن أشرك في عبادته الأنداد 97 – وقوله جل وعز ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك (آية 106) أي في دين ولا دنيا فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين أي فإن فعلت ذلك فعبدتها فإنك إذا من الظالمين لأنفسهم

98 - ثم قال جل وعز وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو (آية 107) أي دون ما يعبده هؤلاء المشركون وإن يردك بخير أي برخاء ونعمة وعافية وسرور فلا راد لفضله أي فلا يقدر أحد أن يحول بينك وبين ذلك ولا يرده عنك لأنه الذي بيده ذلك لا إلى غيره

99 - وقوله جل وعز قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم (آية 108) أي القرآن الذي فيه بيان ما بالناس إليه حاجة فمن اهتدى سلك سبيل الحق فإنما يهتدي لنفسه أي فإنما يستقيم على الهدى لخير نفسه ومن ضل أي عدل عن الحق الذي أتاه فإنما يضل عليها أي فإنما يجني به على نفسه لا على غيرها 100 - وقوله جل وعز وما أنا عليكم بوكيل (آية 108)

أي بمسلط على تقويمكم إنما أمركم إلى الله جل وعز هو الذي يقوم من شاء منكم وإنما أنا مبلغ 101 - وقوله جل وعز واتبع ما يوحى إليك (آية 109) أي اعمل به

ثم قال جل وعز واصبر أي على ما أصابك في الله من مشركي قومك حتى يحكم الله أي حتى يقضي فيهم وقيل أمره بفعل فاصل وهو خير الحاكمين أي خير القاضين وأعدل الفاصلين وقال ابن زيد هذا منسوخ حكم الله بجهادهم وأمر بالغلظة عليم وقال غيره حكم

بينه وبينهم يوم بدر فقتلهم بالسيف وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم فيمن بقي منهم أن يسلك بهم سبيل من أهلك منهم أو يتوبوا . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للنحاس حـ 3 صـ 273.324 ﴾

(83/354)

وقال الفراء :

ومن سورة يونس

قوله : أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا (2) نصبت (عجبا) ب (كان) ، ومرفوعها أَنْ أَوْحَيْنا وكذلك أكثر ما جاء فى القرآن إذا كانت (أن) ومعها فعل : أن يجعلوا الرفع فى (أن) ، ولو جعلوا (أن) منصوبة ورفعوا الفعل كان صوابا .

وقوله : إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا (4) رفعت المرجع ب (إليه) ، ونصبت قوله (وعد اللّه حقّا) بخروجه منهما «1» .

ولو كان رفعا كما تقول : الحقّ عليك واجب وواجبا كان صوابا . ولو استؤنف (وعد اللّه حق) «2» كان صوابا .

(إنه يبدأ الخلق) مكسورة لأنها مستأنفة . وقد فتحها بعض القرّاء «3» . ونرى أنه جعلها

اسما للحق وجعل (وعد اللّه) متصلا بقوله (إليه مرجعكم) ثم قال :

«حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ» ف (أنه) فى موضع رفع كما قال الشاعر :

أحقّا عباد اللّه أن لست لاقيا بثينة أو يلقى الثريا رقيبها «4»

وقال الآخر :

أحقا عباد اللّه جرأة محلق علىّ وقد أعييت عادا وتبّعا «5»

---

(1) يريد أنه مصدر مؤكد للجملة السابقة .

(2) وقرأ بهذا إبراهيم بن أبى عبلة .

(3) من هؤلاء أبو جعفر والأعمش .

(4) رقيب الثريا النجم الذي لا يطلع حتى تغيب الثريا .

وهو الإكليل . فقوله : أو يلقى الثريا كناية عن الاستحالة ، يقول : إنه لا يلقاها أبدا .

(5) كأن محلقا رجل بعينه . وترى المصدر فى البيت صريحا ، وما قبله المصدر فيه مؤول .

وقوله : جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ (5) ولم يقل : وقدّرهما . فإن شئت جعلت تقدير المنازل للقمر خاصّة لأنّ به تعلم الشهور . وإن شئت جعلت التقدير لهما جميعا ، فاكتفى بذكر أحدهما من صاحبه كما قال الشاعر «1» :

رمانى بأمر كنت منه ووالدي بريئا ومن جول الطويّ رمانى

وهو مثل قوله وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ «2» ولم يقل : أن يرضوهما .

وقوله : وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ (11) يقول : لو أجيب الناس فى دعاء أحدهم على ابنه وشيهه بقولهم : أماتك اللّه ، ولعنك اللّه ، وأخزاك اللّه لهلكوا .

و(استعجالهم) منصوب بوقوع الفعل : (يعجل) كما تقول : قد ضربت اليوم ضربتك ، والمعنى : ضربت كضربتك ، وليس المعنى ها هنا كقولك : ضربت ضربا لأن ضربا لا تضمر الكاف فيه لأنك لم تشبهه بشىء ، وإنما شبهت ضربك بضرب غيرك فحسنت فيه الكاف .

وقوله لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ويقرأ : (لقضى إليهم أجلهم) «3» . ومثله فَيُمْسِكُ «4» الَّتِي قَضى عَلَيْهَا الْمَوْتَ و(قضى عليها الموت) .

---

(1) هو ابن أحمر ، أو هو الأزرق بن طرفة كما قال ابن برىّ . والطويّ : البئر ، وجولها : جدارها .

وقوله : من جول الطويّ رمانى مثل . يريد أن ما رمانى به يعود قبحه عليه ، فإن من كان فى

البئر ورمى بشىء من جدارها عاد عليه ما رمى به إذ ينجذب إلى أسفل . ويروى : «ومن أجل الطوى» وهو الصحيح لأن الشاعر كان بينه وبين خصمه منازعة فى بئر . وانظر اللسان فى جال .

(2) آية 62 سورة التوبة .

(3) وهى قراءة ابن عامر ويعقوب . وما قبله قراءة الباقين .

(4) آية 42 سورة الزمر . وقد قرأ بالبناء للمفعول حمزة والكسائي وخلف ، وقرأ الباقون بالبناء للفاعل ونصب الموت .

(85/354)

وقوله : مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ (12) يقول : استمرّ على طريقته الأولى قبل أن يصيبه البلاء .

وقوله : قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ (16) وقد ذكر عن الحسن أنه قال : «ولا أدرأتكم به» فإن يكن فيها لغة سوى دريت وأدريت فلعلّ الحسن ذهب إليها . وأمّا أن تصلح من دريت أو أدريت فلا لأن الياء والواو إذا انفتح ما قبلهما وسكنتا صحّتا ولم تنقلبا إلى ألف مثل قضيت ودعوت .

ولعل الحسن ذهب إلى طبيعته وفصاحته فهمزها لأنها تضارع درأت الحدّ وشبهه .

وربما غلطت العرب فى الحرف إذا ضارعه آخر من الهمز فيهمزون غير المهموز سمعت امرأة من طيئ تقول : رثأت زوجى بأبيات . ويقولون لبّأت بالحج وحلّأت السويق فيغلطون لأن حلّأت قد يقال فى دفع العطاش من الإبل ، ولبّأت ذهب إلى اللبأ «1» الذي يؤكل ، ورثأت زوجى ذهبت إلى رثيئة اللبن وذلك إذا حلبت الحليب على الرائب .

وقوله : وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ (21) العرب تجعل (إذا) تكفى من فعلت وفعلوا . وهذا الموضع من ذلك :

اكتفى ب (إذا) من (فعلوا) ولو قيل (من بعد ضراء مستهم مكروا) كان صوابا .

وهو فى الكلام والقرآن كثير . وتقول : خرجت فإذا أنا بزيد . وكذلك يفعلون ب (إذ) كقول الشاعر «2» :

بينما هنّ بالأراك معا إذ أتى راكب على جمله

---

(1) هو أول اللبن عند الولادة .

(2) هو جميل بن معمر العذرىّ . وقوله : «بينما هن» فى رواية الخزانة 4/ 199 : «بينما نحن» .

وأكثر الكلام فى هذا الموضع أن تطرح (إذ) فيقال :

بينا تبغيه العشاء وطوفه وقع العشاء به على سرحان «1»

ومعناهما واحد ب (إذ) وبطرحها «2» .

وقوله : الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ (22) قراءة العامّة . وقد ذكر عن زيد بن ثابت (ينشركم) قرأها أبو جعفر «3» المدنىّ كذلك . وكلّ صواب إن شاء اللّه .

وقوله : جاءَتْها رِيحٌ عاصِفٌ يعنى الفلك فقال : جاءتها ، وقد قال فى أوّل الكلام وَجَرَيْنَ بِهِمْ ولم يقل : وجرت ، وكلّ صواب تقول : النساء قد ذهبت ، وذهبن . والفلك تؤنث وتذكر ، وتكون واحدة وتكون جمعا .

وقال فى يس فِي الْفُلْكِ «4» الْمَشْحُونِ فذكّر الفلك ، وقال ها هنا : جاءتها ، فأنث . فإن شئت جعلتها ها هنا واحدة ، وإن شئت : جماعا . وإن شئت جعلت الهاء فى (جاءتها) للريح كأنك قلت : جاءت الريح الطيّبة ريح عاصف . واللّه أعلم بصوابه .

والعرب تقول : عاصف وعاصفة ، وقد أعصفت الريح ، وعصفت .

وبالألف لغة لبنى أسد أنشدنى بعض بنى دبير :

حتى إذا أعصفت ريح مزعزعة فيها قطار ورعد صوته زجل «5»

(1) التبغى : الطلب . والسرحان : الذئب . والطوف : الطواف . يريد أنه حين طلب الخير لنفسه أصابه الهلاك ، وقد ضرب له مثلا من يبغى العشاء فيصادفه ذئب يأكله ، وهو مثل لهم قال فى مجمع الأمثال : «يضرب فى طلب الحاجة يؤدّى صاحبها إلى التلف» .

وفى أصله أقاويل مختلفة .

(2 ، 3) وكذلك ابن عامر .

(4) فى الآية 41 [. . . . .]

(5) مزعزعة : شديدة تحريك الأشجار : وقطار جمع قطر ، يريد : ما قطر وسال من المطر .

وزجل : مصوّت .

(87/354)

وقوله : يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ (23) إن شئت جعلت خبر (البغي) فى قوله (على أنفسكم) «1» ثم تنصب «2» (متاع الحياة الدنيا) كقولك : متعة فى الحياة الدنيا . ويصلح الرفع «3» ها هنا على الاستئناف كما قال لَمْ «4» يَلْبَثُوا إِلَّا ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ أي ذلك (بلاغ) وذلك (متاع الحياة الدنيا) وإن شئت جعلت الخبر فى المتاع . وهو

وجه الكلام .

وقوله : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى (26) فى موضع رفع . يقال إن الحسنى الحسنة .

(وزيادة) حدّثنا محمد قال حدّثنا الفرّاء قال حدثنى أبو الأحوص سلّام «5» بن سليم عن أبى إسحاق السبيعىّ عن رجل عن أبى بكر الصدّيق رحمه اللّه قال : للذين أحسنوا الحسنى وزيادة : النظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى . ويقال (للذين أحسنوا الحسنى) يريد حسنة مثل «6» حسناتهم (وزيادة) زيادة التضعيف كقوله فَلَهُ «7» عَشْرُ أَمْثالِها .

وقوله : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها (27) رفعت الجزاء بإضمار (لهم) كأنك قلت : فلهم جزاء «8» السيئة بمثلها كما قال فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ «9» وفَصِيامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ «10» والمعنى : فعليه صيام ثلاثة أيام ، وعليه فدية . وإن شئت رفعت الجزاء بالباء فى قوله : جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها والأوّل أعجب إلىّ .

---

(1) فى ش ، ج قبلها : «إن شئت» وهى زيادة من الناسخ .

(2) وهى قراءة حفص وابن أبى اسحق .

(3) وهو قراءة العامة غير حفص .

(4) آية 45 سورة الأحقاف .

(5) هو الكوفي أحد الأثبات الثقات . توفى سنة 179 كما فى شذرات الذهب .

(6) كذا فى أ . وفى ش ، ج : «من» .

(7) آية 160 سورة الأنعام.

(8) سقط فى أ

(9، 10) آية 196 سورة البقرة.

(88/354)

وقوله: كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً و(قطعا) «1». والقطع قراءة العامّة.

وهى فى مصحف أبى كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم فهذه حجة لمن قرأ بالتخفيف. وإن شئت جعلت المظلم وأنت تقول قطع قطعا «2» من الليل، وإن شئت جعلت المظلم نعتا للقطع، فإذا قلت قطعا كان قطعا من الليل خاصة.

والقطع ظلمة آخر الليل فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ «3».

وقوله: فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ (28) ليست من زلت إنما هى من زلت ذا من ذا: إذا فرّقت أنت ذا من ذا.

وقال فَزَيَّلْنا لكثرة الفعل. ولو قلّ لقلت: زل ذا من ذا كقولك: مز ذا من ذا. وقرأ بعضهم فزايلنا بينهم وهو مثل قوله يُراؤُنَ

ويرءّون «4» وَلا تُصَعِّرْ «5»، ولا تصاعر والعرب تكاد توفّق بين فاعلت وفعّلت فى

كثير من الكلام ، ما لم ترد فعلت بي وفعلت بك «6» ، فإذا أرادوا هذا لم تكن إلا فاعلت . فإذا أردت : عاهدتك وراءيتك وما يكون الفعل فيه مفردا فهو الذي يحتمل فعلت وفاعلت . كذلك يقولون :

كالمت فلانا وكلّمته ، وكانا متصارمين فصارا يتكالمان ويتكلّمان .

---

(1) هذه قراءة ابن كثير والكسائي ويعقوب .

(2) يريد أن يكون المظلم حالا من الليل ، وكذا فى الوجه الآتي فى المتحرك . ولو كان «نعتا» كان أظهر ، ويكون المراد بالنعت الحال .

(3) آية 81 سورة هود .

(4) آية 142 سورة النساء . وقد قرأ بتشديد الهمزة ابن أبى إسحق . [. . . . .]

(5) آية 18 سورة لقمان . قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي وخلف «تصاعر» والباقون «تصعر» .

(6) يعنى إذا كان الفعل بين اثنين .

وقوله : هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ (30) قرأها عبد اللّه بن مسعود : (تتلو) «1» بالتاء .

معناها - واللّه أعلم - : تتلو أي تقرأ كلّ نفس عملها فى كتاب كقوله وَنُخْرِجُ «2» لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً وقوله فَأَمَّا «3» مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ . وقوله اقْرَأْ «4» كِتابَكَ قوّة لقراءة عبد اللّه . وقرأها مجاهد «5» (تبلو كل نفس ما أسلفت) أي تخبره وتراه . وكلّ حسن . حدّثنا محمد قال حدّثنى الفرّاء قال حدّثنا محمد بن عبد العزيز التيمي عن مغيرة عن مجاهد أنه قرأ (تبلو) بالباء . وقال الفرّاء : حدّثنى بعض المشيخة عن الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس : (تبلو) تخبر ، وكذلك قرأها ابن عباس .

وقوله وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ (الحقّ) تجعله من صفات اللّه تبارك وتعالى . وإن شئت جعلته نصبا تريد : ردّوا إلى اللّه حقا . وإن شئت :

مولاهم حقا .

وكذلك قوله : فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ (32) فيه ما فى الأولى .

وقوله تعالى : كَذلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ (33) وقد يقرأ (كَلِمَةُ رَبِّكَ) و(كلمات ربك) .

قراءة أهل المدينة على الجمع .

وقوله : عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ : حقّت عليهم لأنهم لا يؤمنون ، أو بأنهم لا يؤمنون ، فيكون موضعها نصبا إذا ألقيت الخافض . ولو كسرت فقلت :

---

(1) وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف .

(2) آية 13 سورة الإسراء .

(3) آية 19 سورة الحافة .

(4) آية 14 سورة الإسراء .

(5) هى قراءة غير حمزة والكسائي وخلف .

(90/354)

«إنهم» كان صوابا على الابتداء . وكذلك قوله آمَنْتُ «1» أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وكسرها أصحاب»

عبد اللّه على الابتداء .

وقوله : أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى (35) يقول : تعبدون ما لا يقدر على النقلة من مكانه ، إلا أن يحوّل وتنقلوه .

وقوله : وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى (37) المعنى - واللّه أعلم - : ما كان ينبغى لمثل هذا القرآن أن يفترى . وهو فى معنى :

ما كان هذا القرآن ليفترى . ومثله وَما كانَ «3» الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً أي ما كان ينبغى لهم أن ينفروا لأنهم قد كانوا نفروا كافّة ، فدلّ المعنى على أنه لا ينبغى لهم أن يفعلوا مرّة

أخرى. ومثله وَما كانَ «4» لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ أي ما ينبغى لنبىّ أن يغلّ، ولا يغل «5».

فجاءت (أن) على معنى ينبغى كما قال ما لَكَ «6» أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ والمعنى: منعك، فأدخلت (أن) فى (مالك) إذ كان معناها: ما منعك. ويدلّ على أن معناهما واحد أنه قال له فى موضع: (ما منعك) «7»، وفى موضع (مالك) وقصّة إبليس واحدة.

وقوله: إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ (44) للعرب فى (لكن) لغتان: تشديد النون وإسكانها. فمن شدّدها نصب بها الأسماء، ولم يلها فعل ولا يفعل. ومن خفّف نونها وأسكنها لم يعملها فى شىء اسم

---

(1) آية 90 سورة يونس.

(2) وهى قراءة حمزة والكسائي وخلف.

(3) آية 122 سورة التوبة.

(4) آية 161 سورة آل عمران.

(5) يشير إلى القراءتين فى الآية. وانظر ص 246 من هذا الجزء.

(6) آية 32 سورة الحجر.

(7) كما فى الآية 12 من سورة الأعراف. [.....]

ولا فعل ، وكان الذي يعمل فى الاسم الذي بعدها ما معه ، ينصبه أو يرفعه أو يخفضه من ذلك قوله وَلَكِنَّ «1» النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ وَلَكِنَّ «2» اللَّهَ رَمى (وَلَكِنَّ «3» الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) رفعت هذه الأحرف بالأفاعيل التي بعدها . وأمّا قوله ما كانَ «4» مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ فإنك أضمرت (كان) بعد (لكن) فنصبت بها ، ولو رفعته على أن تضمر (هو) : ولكن هو رسول اللّه كان صوابا . ومثله (وَما كانَ «5» هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) و(تصديق) . ومثله (ما كانَ «6» حَدِيثاً يُفْتَرى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) (وتصديق) .

فإذا ألقيت من (لكن) الواو التي فى أوّلها آثرت العرب تخفيف نونها .

وإذا أدخلوا الواو آثروا تشديدها . وإنما فعلوا ذلك لأنها رجوع عمّا أصاب أوّل الكلام ، فشبّهت ببل إذ كان رجوعا مثلها ألا ترى أنك تقول : لم يقم أخوك بل أبوك ثم تقول : لم يقم أخوك لكن أبوك ، فتراهما بمعنى واحد ، والواو لا تصلح فى بل ، فإذا قالوا (ولكن) فأدخلوا الواو تباعدت من (بل) إذ لم تصلح الواو فى (بل) ، فآثروا فيها تشديد النون ، وجعلوا الواو كأنها واو دخلت لعطف لا لمعنى بل .

وإنما نصبت العرب بها إذا شدّدت نونها لأن أصلها : إنّ عبد اللّه قائم ، فزيدت على (إن) لام وكاف فصارتا جميعا حرفا واحدا ألا ترى أن الشاعر قال :

ولكننى من حبّها لكميد «7»

---

(1) الرفع والتخفيف قراءة الكسائىّ وحمزة وخلف . وقرأ الباقون بالتشديد والنصب .

(2) آية 17 سورة الأنفال . وقراءة الرفع والتخفيف لابن عامر وحمزة والكسائىّ وخلف .

(3) آية 102 سورة البقرة . والتخفيف والرفع للقرّاء الذين سلف ذكرهم آنفا .

(4) آية 40 سورة الأحزاب .

(5) آية 37 سورة يونس .

(6) آية 111 سورة يوسف .

(7) كميد وصف من كمد كفرح : أصابه الكمد وهو أشدّ الحزن . ويروى «لعميد» ، وهو فعيل فى معنى مفعول من عمده المرض أو العشق إذا فدحه وهدّه .

فلم تدخل اللام إلا لأن معناها إنّ .

وهى فيما وصلت به من أوّلها بمنزلة قول الشاعر :

لهنّك من عبسيّة لوسيمة على هنوات كاذب من يقولها «1»

وصل (إنّ) هاهنا بلام وهاء كما وصلها ثمّ بلام وكاف . والحرف قد يوصل «2» من أوّله وآخره . فمما وصل من أوله (هذا) ، و(ها ذاك) ، وصل ب (ها) من أوّله . ومما وصل من آخره . قوله : إِمَّا تُرِيَنِّي ما يُوعَدُونَ «3» ، وقوله : لتذهبن ولتجلسن . وصل من آخره بنون وب (ما) . ونرى أن قول العرب : كم مالك ، أنها (ما) وصلت من أولها بكاف ، ثم إن الكلام كثر ب (كم) حتى حذفت الألف من آخرها فسكنت ميمها كما قالوا : لم قلت ذاك ؟ ومعناه : لم قلت ذاك ، ولما «4» قلت ذاك ؟

قال الشاعر :

يا أبا الأسود لم أسلمتنى لهموم طارقات وذكر

وقال بعض العرب فى كلامه وقيل له : منذ كم قعد فلان ؟ فقال : كمذ أخذت فى حديثك ، فردّه الكاف فى (مذ) يدلّ على أن الكاف فى (كم) زائدة . وإنهم ليقولون : كيف أصبحت ، فيقول : كالخير ، وكخير . وقيل لبعضهم : كيف تصنعون الأقط ؟ فقال : كهيّن .

وقوله : فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46) (ثم) هاهنا عطف . ولو قيل :

ثمّ اللّه شهيد على ما يفعلون . يريد :

هنالك اللّه شهيد على ما يفعلون «5» .

---

(1) عبسية يريد امرأة من بنى عبس . والهنوات جمع هنة وهى ما يقبح التصريح به ، يريد الفعلات القبيحة . وانظر الخزانة 4/ 326 .

(2) فى ش ، ج : «يوصل بها» .

(3) آية 93 سورة المؤمنون .

(4) تراه أثبت ألف ما مع الجارّ ، وبعض النحويين يمنعه .

(5) حذف جواب لو على عادته ، أي لجاز .

(93/354)

وقوله : إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) إن شئت جعلت (ماذا) استفهاما محضا على جهة التعجّب كقوله : ويلهم ماذا أرادوا باستعجال العذاب ؟ ! وإن شئت عظّمت أمر العذاب فقلت : بماذا استعجلوا ! وموضعه رفع إذا جعلت الهاء راجعة عليه ، وإن جعلت الهاء فى (منه) للعذاب وجعلته «1» فى موضع نصب أوقعت عليه الاستعجال .

وقوله : آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) (الآن) حرف بنى على الألف واللام لم تخلع «2» منه ، وترك على مذهب الصفة لأنه صفة فى المعنى واللفظ كما رأيتهم فعلوا فى (الذي) و(الذين) فتركوهما على مذهب الأداة ، والألف واللام لهما غير مفارقتين . ومثله قول الشاعر :

فإن الألاء يعلمونك منهم كعلمى مظنّوك ما دمت أشعرا «3»

فأدخل الألف واللام على (ألاء) ثم تركها مخفوضة فى موضع النصب كما كانت قبل أن تدخلها الألف واللام . ومثله قوله :

وأنى حبست اليوم والأمس قبله ببابك حتى كادت الشمس تغرب «4»

---

(1) حذف جواب (إن) على عادته ، أي لجاز . وقد يكون الجواب : «أوقعت» . وربما كان الأصل «جعلته» دون واو ، وهو الجواب . وقوله : «أوقعت» تفسير وتعليل له .

(2) فى اللسان (أين) : «يخلعا» . [. . . . .]

(3) «كعلمى» فى ا : «كعلم» .

(4) من قصيدة لنصيب يخاطب فيها عبد العزيز بن مروان وكان وفد عليه فى مصر فحجب عنه . وقبله :

ألا هل أتى الصقر ابن مروان أننى أرد لدى الأبواب عنه وأحجب

وقوله : «وأنى حبست اليوم» فالأقرب فتح «أن» عطفا على «أننى» فى البيت قبله .

ويصح الرفع على الاستئناف .

(94/354)

فأدخل الألف واللام على (أمس) ثم تركه مخفوضا على (جهته الأولى) «1» . ومثله قول الآخر «2» :

تفقّأ فوقه القلع السواري وجنّ الخازباز به جنونا

فمثل (الآن) بأنها كانت منصوبة «3» قبل أن تدخل عليها الألف واللام ، ثم أدخلتهما فلم يغيراها . وأصل الآن إنما كان (أوان) حذفت منها الألف وغيّرت واوها إلى الألف كما قالوا فى الراح : الرياح أنشدنى أبو القمقام الفقعسي :

كأن مكاكىّ الجواء غديّة نشاوى تساقوا بالرياح المفلفل «4»

فجعل الرياح والأوان على جهة فعل ومرة على جهة فعال كما قالوا : زمن وزمان .

وإن شئت جعلت (الآن) أصلها من قولك : آن لك أن تفعل ، أدخلت عليها الألف واللام ، ثم تركتها على مذهب فعل فأتاها النصب من نصب فعل . وهو وجه جيّد كما قالوا : نهى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قيل وقال وكثرة السؤال ،

---

(1) فى اللسان : «جهة الألاء» .

(2) هو ابن أحمر الباهلي . وهو فى وصف الهجل المذكور فى البيت قبله :

بهجل من قسا ذفر الخزامى تهادى الجربياء به الحنينا

والهجل : المطمئن من الأرض . وقسا : موضع ، والخزامى : نبت طيب الرائحة .

والجربياء ريح الشمال . وتفقأ أصله : تنفقأ أي تنشق . والقلع : جمع القلعة وهى السحابة العظيمة ، والسواري التي تأتى ليلا . والخازباز أراد به عشبا ، أو ذبابا . والكلام فى صفة روض فى الهجل ، ففيه العشب الذي جن وهو كناية عن طوله وعمومه ، أو الذباب الذي يغشى الرياض ، وجنونه هزجه وصوته . وانظر الخزانة 3/ 109

(3) يريد فتح الزاى فى الخازباز ، وهذا إحدى اللغات فى الكلمة . ومن اللغات كسر الزاى .

ويقال أيضا الخزباز كقرطاس .

(4) المكاكي ضرب من الطيور . والجواء واد فى نجد . وغدية تصغير غدوة . والرياح الخمر ، والمفلفل : الذي وضع فيه الفلفل . والبيت من معلقة امرئ القيس .

فكانتا كالاسمين فهما منصوبتان . ولو خفضتا على أنهما أخرجنا من نيّة الفعل كان صوابا سمعت العرب تقول : من شبّ إلى دبّ بالفتح ، ومن شبّ إلى دبّ يقول «1» : مذ كان صغيرا إلى أن دبّ ، وهو فعل .

وقوله : وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ (54) يعنى الرؤساء من المشركين ، أسرّوها من سفلتهم الذين أضلّوهم ، فأسرّوها أي أخفوها .

وقوله : قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (58) هذه قراءة العامة . وقد ذكر عن زيد «2» بن ثابت أنه قرأ (فبذلك فلتفرحوا) أي يا أصحاب محمد ، بالتاء .

وقوله : هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ : يجمع الكفار . وقوّى قول زيد أنها فى قراءة أبىّ (فبذلك فافرحوا) وهو «3» البناء الذي خلق للأمر إذا واجهت به أو لم تواجه إلا أن العرب حذفت اللام من فعل المأمور المواجه لكثرة الأمر خاصّة فى كلامهم فحذفوا اللام كما حذفوا التاء من الفعل . وأنت تعلم أن الجازم أو الناصب لا يقعان إلا على الفعل الذي أوّله الياء والتاء والنون والألف . فلما حذفت التاء ذهبت باللام وأحدثت الألف «4» فى قولك : اضرب وافرح لأن الضاد ساكنة فلم يستقم أن يستأنف بحرف ساكن ، فأدخلوا ألفا خفيفة يقع بها الابتداء كما قال : (ادّاركوا) . (واثّاقلتم) . وكان الكسائىّ يعيب قولهم (فلتفرحوا) لأنه وجده

---

(1) كذا فى ش ، ح . وفى ا : «يريد» .

(2) وهى قراءة رويس عن يعقوب .

(3) أي الأمر باللام كما جاء فى قراءة زيد .

(4) يريد همزة الوصل .

(96/354)

قليلا فجعله عيبا ، وهو الأصل . ولقد سمعت عن النبىّ صلى اللّه عليه وسلم أنه قال فى بعض المشاهد (لتأخذوا مصافّكم) «1» يريد به خذوا مصافّكم .

وقوله : وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً (61) يقول : اللّه تبارك وتعالى شاهد على كل شىء . (وما) هاهنا جحد لا موضع لها . وهى كقوله ما يَكُونُ «2» مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إِلَّا هُوَ رابِعُهُمْ يقول : إلا هو شاهدهم .

وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ و(أصغر وأكبر) . فمن نصبهما «3» فإنما يريد الخفض : يتبعهما المثقال أو الذرّة . ومن رفعهما أتبعهما معنى المثقال لأنك لو ألقيت من المثقال (من) كان رفعا . وهو كقولك : ما أتانى من أحد عاقل وعاقل . وكذلك قوله ما «4» لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ .

وقوله : أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ

(63) (الذين) فى موضع رفع لأنه نعت جاء بعد خبر إنّ كما قال إِنَّ «5» ذِلكَ لَحَقٌّ تَخاصُمُ أَهْلِ النَّارِ وكما قال قُلْ «6» إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ والنصب فى كل ذلك جائز على الإتباع للاسم الأوّل وعلى تكرير (إنّ) .

---

(1) المصاف جمع مصف ، وهو الموقف فى الحرب وموضعها الذي تكون فيه الصفوف .

(2) آية 7 سورة المجادلة .

(3) وهم عامة القراء عدا حمزة ويعقوب وخلف ، فقد قرءوا بالرفع .

(4) تكرّر هذا فى القرآن . ومنه الآية 65 سورة الأعراف . يريد أنه جاء فى «غيره» الرفع على المحل والجرّ على اللفظ . والجرّ قراءة الكسائىّ وأبى جعفر . والرفع قراءة الباقين . [. . . . .]

(5) آية 64 سورة ص .

(6) آية 48 سورة سبأ .

(97/354)

وإنما رفعت العرب النعوت إذا جاءت بعد الأفاعيل «1» فى (إنّ) لأنهم رأوا الفعل «2» مرفوعا ، فتوهّموا أن صاحبه مرفوع فى المعنى - لأنهم لم يجدوا فى تصريف المنصوب

اسما منصوبا وفعله مرفوع - فرفعوا النعت . وكان الكسائىّ يقول مَرْكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ

(71) والإجماع : الإعداد والعزيمة على الأمر . ونصبت الشركاء بفعل مضمر كأنك قلت

: فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . وكذلك هى فى قراءة عبد اللّه . والضمير «1»

ها هنا يصلح إلقاؤه لأن معناه يشاكل ما أظهرت كما قال الشاعر «2» :

ورأيت زوجك فى الوغى متقلّدا سيفا ورمحا

فنصبت الرمح بضمير الحمل غير أن الضمير صلح حذفه لأنهما سلاح يعرف ذا بذا ، وفعل

هذا مع فعل هذا .

وقد قرأها الحسن (وشركاؤكم) بالرفع ، وإنما الشركاء ها هنا آلهتهم كأنه أراد : أجمعوا

أمركم أنتم وشركاؤكم . ولست أشتهيه لخلافه للكتاب ، ولأن المعنى فيه ضعيف لأن

الآلهة لا تعمل ولا تجمع . وقال الشاعر :

يا ليت شعرى والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمرى مجمع

فإذا أردت جمع الشيء المتفرّق قلت : جمعت القوم فهم مجموعون كما قال اللّه تبارك وتعالى

(ذلك «3» يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود) وإذا أردت كسب المال قلت : جمّعت

المال كقول اللّه تبارك وتعالى الَّذِي «4» جَمَعَ مالًا وَعَدَّدَهُ وقد يجوز جمع مالا وعدّده .

وهذا من نحو قتلوا وقتّلوا .

---

(1) يريد الفعل المحذوف العامل للنصب ، وهو هنا : «ادعوا» .

(2) هو عبد اللّه بن الزبعرى. وانظر كامل المبرّد بشرح المرصفى 3/ 234.

(3) آية 103 سورة هود. [.....]

(4) آية 2 سورة الهمزة. وقراءة التشديد لابن عامر وحمزة والكسائي من السبعة. وقرأ الباقون بالتخفيف.

(98/354)

وقوله ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وقد قرأها بعضهم «1»: (ثم أفضوا إلىّ) بالفاء. فأما قوله (اقضوا إلىّ) فمعناه: امضوا إلىّ، كما يقال قد قضى فلان، يراد: قد مات ومضى.

وأما الإفضاء فكأنه قال: ثم توجّهوا إلىّ حتى تصلوا «2»، كما تقول: قد أفضت إلىّ الخلافة والوجع، وما أشبهه.

وقوله: بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ (74) يقول: لم يكونوا ليؤمنوا لك يا محمد بما كذّبوا به فى الكتاب الأوّل، يعنى اللوح المحفوظ.

وقوله: قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا (77) يقول القائل: كيف أدخل ألف الاستفهام فى قوله (أسحر هذا) وهم قد قالوا (هذا سحر) بغير استفهام؟

قلت: قد يكون هذا من قولهم على أنه سحر عندهم وإن استفهموا كما ترى الرجل تأتيه

الجائزة فيقول : أحقّ هذا ؟ وهو يعلم أنه حقّ لا شكّ فيه . فهذا وجه .

ويكون أن تزيد الألف فى قولهم وإن كانوا لم يقولوها ، فيخرج الكلام على لفظه وإن كانوا لم يتكلّموا به كما يقول الرجل : فلان أعلم منك ، فيقول المتكلم : أقلت أحد أعلم بذا منّى ؟ فكأنه هو القائل : أأحد أعلم بهذا منى . ويكون على أن تجعل القول بمنزلة الصلة لأنه فضل فى الكلام ألا ترى أنك تقول للرجل :

أتقول عندك مال ؟ فيكفيك من قوله أن تقول : ألك مال ؟ فالمعنى قائم ظهر القول أو لم يظهر .

---

(1) نسبها ابن خالويه فى البديع إلى أبى حيوة .

(2) فى ا : «تضلوا» ويبدو أنها مصحفة عما أثبتنا . وفى ش ، ج : «تملوا» .

(99/354)

وقوله : أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا (78) اللفت : الصرف تقول : ما لفتك عن فلان ؟ أي ما صرفك عنه .

ويقول القائل : كيف قالوا (وتكون لكما الكبرياء فى الأرض) فإنّ «1» النبىّ صلى اللّه عليه وسلم إذا صدّق صارت مقاليد أمّته وملكهم إليه ، فقالوه على ملك ملوكهم من

التكبر.

وقوله: ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ (81) (ما) فى موضع الذي كما تقول: ما جئت به باطل.

وهى فى قراءة عبد اللّه (ما جئتم به سحر) وإنما قال (السحر) بالألف واللام لأنه جواب لكلام قد سبق ألا ترى أنهم قالوا لما جاءهم به موسى: أهذا سحر؟ فقال: بل ما جئتم به السحر. وكل حرف ذكره متكلم نكرة فرددت عليها لفظها فى جواب المتكلم زدت فيها ألفا ولاما كقول الرجل: قد وجدت درهما، فتقول أنت:

فأين الدرهم؟ أو: فأرنى الدرهم. ولو قلت: فأرنى درهما، كنت كأنك سألته أن يريك غير ما وجده.

وكان مجاهد «2» وأصحابه يقرءون: ما جئتم به آلسحر: فيستفهم ويرفع السحر من نيّة الاستفهام، وتكون (ما) فى مذهب أىّ كأنه قال: أي شىء جئتم به؟

آلسحر هو؟ وفى حرف أبىّ (ما أتيتم به سحر) قال الفراء: وأشكّ فيه.

وقد يكون (ما جئتم به السحر) تجعل السحر منصوبا كما تقول: ما جئت به الباطل والزور. ثم تجعل (ما) فى معنى جزاء و(جئتم) فى موضع جزم إذا نصبت، وتضمر الفاء فى قوله إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ فيكون جوابا للجزاء. والجزاء لا بدّ له أن

---

(1) هذا جواب السؤال.

(2) وهى قراءة أبى عمرو وأبى جعفر.

يجاب بجزم مثله أو بالفاء . فإن كان ما بعد الفاء حرفا من حروف الاستئناف وكان يرفع أو ينصب أو يجزم صلح فيه إضمار الفاء . وإن كان فعلا أوّله الياء أو التاء أو كان على جهة فعل أو فعلوا لم يصلح فيه إضمار الفاء لأنه يجزم إذا لم تكن الفاء ، ويرفع إذا أدخلت الفاء . وصلح فيما «1» قد جزم قبل أن تكون الفاء لأنها إن دخلت أو لم تدخل فما بعدها جزم كقولك للرجل : إن شئت فقم ألا ترى أنّ (قم) مجزومة ولو لم يكن فيها الفاء ، لأنك إذا قلت إن شئت قم جزمتها بالأمر ، فكذلك قول الشاعر «2» :

من يفعل الحسنات اللّه يشكرها والشرّ بالشرّ عند اللّه مثلان

ألا ترى أن قولك : (اللّه يشكرها) مرفوع كانت فيه الفاء أو لم تكن ، فلذلك صلح ضميرها «3» .

وقوله : فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ (83) ففسّر المفسرون الذرّيّة : القليل . وكانوا - فيما بلغنا - سبعين أهل بيت .

وإنما سموا الذرّيّة لأن آباءهم كانوا من القبط وأمهاتهم كنّ من بنى إسرائيل ، فسموا الذرّيّة كما قيل لأولاد أهل فارس الذين سقطوا إلى اليمن فسمّوا ذراريّهم الأبناء لأن أمهاتهم من

غير جنس آبائهم.

وقوله: عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ، وإنما قال (وملئهم) وفرعون واحد لأن الملك إذا ذكر بخوف أو بسفر أو قدوم من سفر ذهب الوهم إليه وإلى من معه ألا ترى أنك تقول: قدم الخليفة فكثر الناس، تريد: بمن معه، وقدم

---

(1) يريد فعل الأمر فإنه عندهم فعل مضارع مجزوم بلام الأمر حذفت اللام وحرف المضارعة لكثرة الاستعمال.

(2) نسبه الكاتبون على شواهد سيبويه إلى عبد الرحمن بن حسان. ورواه جماعة لكعب بن مالك الأنصاريّ. ويرى بعضهم أن الرواية: «من يفعل الخير فالرحمن يشكره» فغيره النحويون. وانظر الخزانة 3/ 644

(3) أي إضمار الفاء.

فغلت الأسعار لأنك تنوى بقدومه قدوم من معه. وقد يكون أن تريد بفرعون آل فرعون وتحذف الآل فيجوز كما قال وَسْئَلِ «1» الْقَرْيَةَ تريد أهل القرية والله أعلم. ومن ذلك قوله: يا أَيُّهَا «2» النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ.

وقوله : وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً (87) كان فرعون قد أمر بتهديم المساجد ، فأمر موسى وأخوه أن يتّخذ المساجد فى جوف الدور «3» لتخفى من فرعون . وقوله : وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً إلى الكعبة .

وقوله : رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

(88) ثم قال موسى (ربنا) فعلت ذلك بهم (ليضلّوا) الناس (عن سبيلك) وتقرأ (ليضلّوا) هم (عن سبيلك) وهذه لام كى .

ثم استأنف موسى بالدعاء عليهم فقال : رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ . يقول : غيّرها . فذكر أنها صارت حجارة . وهو كقوله مِنْ «4» قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهاً . يقول : نمسخها .

قوله : وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ . يقول : واختم عليها .

قوله : فَلا يُؤْمِنُوا . كلّ ذلك دعاء ، كأنه قال اللهم فَلا «5» يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ وإن شئت جعلت (فلا يؤمنوا) جوابا لمسئلة «6» موسى عليه

---

(1) آية 82 سورة يوسف .

(2) أول سورة الطلاق .

(3) كذا فى ش ، ج .

وفى ا : «البيوت» .

(4) آية 47 سورة النساء .

(5) فالفعل (يؤمنوا) مجزوم بلا التي للدعا .

(6) أي فى قوله : اطمس وما عطف عليه . [. . . . .]

(102/354)

السلام إياه لأن المسألة خرجت على لفظ الأمر ، فتجعل (فلا يؤمنوا) فى موضع نصب على الجواب ، فيكون كقول الشاعر «1» :

يا ناق سيرى عنقا فسيحا إلى سليمان فنستريحا

وليس الجواب يسهل فى الدعاء لأنه ليس بشرط .

وقوله : قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما (89) نسبت الدعوة إليهما وموسى كان الداعي وهارون المؤمّن ، فالتأمين كالدعاء .

ويقرأ»

(دعواتكما) .

وقوله : فَاسْتَقِيما أمرا بالاستقامة على أمرهما والثبات عليه إلى أن يأتيهما تأويل الإجابة .

ويقال : إنه كان بينهما «3» أربعون سنة .

قال آمَنْتُ أَنَّهُ قرأها أصحاب «4» عبد اللّه بالكسر على الاستئناف. وتقرأ (أنه) على وقوع الإيمان عليها. زعموا أن فرعون قالها حين ألجمه الماء.

وقوله: فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ (93) يعنى بنى إسرائيل أنهم كانوا مجتمعين على الإيمان بمحمد صلى اللّه عليه وسلم قبل أن يبعث، فلمّا بعث كذّبه بعض وآمن به بعض. فذلك اختلافهم. و(العلم) يعنى محمدا صلى اللّه عليه وسلم وصفته.

---

(1) هو أبو النجم فى أرجوزة يمدح فيها سليمان بن عبد الملك. والعنق ضرب من سير الإبل.

(2) تنسب هذه القراءة إلى على وأبى عبد الرحمن السلمى.

(3) أي بين هذه الإجابة من اللّه وتأويلها أي وقوع مضمونها وهو هلاك فرعون وقومه.

(4) هذه قراءة حمزة والكسائي وخلف.

وقوله: فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ (94) قاله تبارك وتعالى لنبيه صلى اللّه عليه وسلم وهو يعلم أنه غير شاكّ، ولم يشكك عليه السلام فلم يسأل. ومثله فى العربية أنك تقول لغلامك الذي لا يشكّ فى ملكك إياه: إن كنت عبدى فاسمع وأطع. وقال اللّه تبارك وتعالى لنبيه عيسى

صلى اللّه عليه وسلم أَأَنْتَ «1» قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وهو يعلم أنه لم يقله ، فقال الموفّق معتذرا بأحسن العذر : إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ ما فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ ما فِي نَفْسِكَ .

وقوله : فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها (98) وهى فى قراءة أبىّ (فهلّا) ومعناها : أنهم لم يؤمنوا ، ثم استثنى قوم يونس بالنصب على الانقطاع مما قبله : ألا ترى أن ما بعد (إلّا) فى الجحد يتبع ما قبلها ، فتقول : ما قام أحد إلا أبوك ، وهل قام أحد إلا أبوك لأن الأب من الأحد فإذا قلت : ما فيها أحد إلا كلبا وحمارا ، نصبت لأنها منقطعة ممّا قبل إلا إذ لم تكن من جنسه ، كذلك كان قوم يونس منقطعين من قوم غيره من الأنبياء .

ولو كان الاستثناء هاهنا وقع على طائفة منهم لكان رفعا . وقد يجوز الرفع فيها كما أن المختلف فى الجنس قد يتبع فيه ما بعد إلا ما قبل إلا كما قال الشاعر :

وبلد ليس به أنيس إلا اليعافير وإلا العيس

---

(1) آية 116 سورة المائدة .

وهذا قوة للرفع ، والنصب فى قوله : ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّباعَ الظَّنِّ .

لأن اتباع الظن لا ينسب إلى العلم . وأنشدونا بيت النابغة :

. . . . . وما بالربع من أحد «1» إلا أوارىّ ما إن لا أبيّنها قال الفراء : جمع فى هذا البيت بين ثلاثة أحرف من حروف الجحد : لا ، وإن ، وما . والنصب فى هذا النوع المختلف من كلام أهل الحجاز ، والإتباع من كلام تميم .

وقوله : وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100) : العذاب والغضب . وهو مضارع لقوله الرجز ، ولعلهما لغتان بدّلت السين زايا كما قيل الأسد والأزد «2» . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للفراء حـ 1 صـ 457. 480 ﴾

---

(1) ما أورده للنابغة من بيتين هما :

وقفت فيها أصيلانا أسائلها عيت جوابا وما بالربع من أحد

إلا أوارىّ ما إن لا أبينها والنؤى كالحوض بالمظلومة الجلد

وقوله : «ما إن لا أبينها» . فالرواية المشهورة : «لأيا ما أبينها» . وتقدم البيتان فى ص 288 من هذا الجزء .

(2) وهو أبو حى من اليمن . ومن أولاده الأنصار .

وقال الأخفش :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾

قال ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ القدم ها هنا : التقديم ، كما تقول: "هؤلاء أَهْلُ القَدَمِ [131] في الإسلام" أي: الذين قدموا خيرا فكان لهم فيه تقديم .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذلك إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

وقال ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ ثقيلة فجعل (وَقَدَّرَهُ) مما يتعدى الى مفعولين كأنه "وجعله منازل" . وقال ﴿ جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَآءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾ فجعل القمر هو النور كما تقول: "جَعَلَهُ اللهُ خَلْقاً" وهو "مخلوق" و"هذا الدِرْهَمُ ضَرْبُ الأَمِير" . وهو "مضروب" . وقال ﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ فجعل الحسن هو المفعول كالخلق .

وقال ﴿ وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ ﴾ وقد ذكر الشمس والقمر كما قال ﴿ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾

[131 ب] وقال: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ﴾ كأنه جعل (تَجْرِي) مبتدأة منقطعة من الأول.

﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(106/354)

وقال ﴿كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾ و﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً﴾ وهذا في الكلام كثير وهي "كَأَنَّ" الثقيلة ولكنه اضمر فيها فخفف كما تخفف (أَنَّ) * ويضمر فيها وانما هي "كَأَنَّهُ لَمْ" وقال الشاعر: [من الخفيف وهو الشاهد الثامن والعشرون بعد المئتين]:

وَيْ كَأَنْ مَنْ يَكُنْ لَهُ نَشَبٌ يُحْبَبْ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشُ ضُرِّ

وكما قال [من الهزج وهو الشاهد التاسع والعشرون بعد المئتين]:

[وصَدْرٍ مُشْرِقِ النَّحْرِ] * كَأَنْ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ

أي: كَأَنَّهُ ثَدْيَاهُ حُقَّانِ. وقال بعضهم "كَأَنْ ثَدْيَيهِ" فخففها واعلمها ولم يضمر فيها كما قال ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ أراد معنى الثقيلة فأَعْمَلَها كما يُعْمِل الثقيلة ولم يضمر فيها.

﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

وقال ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ على خبر "كان" كما قال ﴿ إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ . [أي]* "إن كانت تلك إلا صيحة واحدة" .

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَاذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾

وقال ﴿ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ وانما قال ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ لأنْ (الفُلْكَ) يكون واحدا وجماعة . قال ﴿ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ وهو مذكر . واما (حتَّى أَذا كُنْتُمْ في الفُلْكِ) فجوابه قوله ﴿ جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ .

(107/354)

وأما قوله ﴿ دَعَوُاْ اللَّهَ ﴾ فجواب لقوله ﴿ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ﴾ وانما قال ﴿ بِهِم ﴾ وقد قال ﴿ كُنْتُمْ ﴾ لانه يجوز ان تذكر غائبا ثم تخاطب اذا كنت تعنيه ، وتخاطب ثم تجعله في لفظ غائب كقول الشاعر : [من الطويل وهو الشاهد العاشر بعد المئة] :

أَسِيئِي بنا أَوْ أَحْسِنِي لا مَلُومَةً * لَدَيْنا وَلا مَقْلِيَّةً أَنْ تَقَلَّتِ

﴿ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وقال ﴿ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي: وذلك متاعُ الحياةِ الدنيا .

وأرادَ "مَتاعُكُمْ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا" .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

وقال ﴿ كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ ﴾ يريد : كمثل ماء .

وقال ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ يريد "وتَزَيَّنَتْ" ولكن أدغم التاء في الزاي لقرب المخرجين فلما سكن أولها زيدَ * فيها ألف وصل وقال ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ ثقيلة "ازَّيُّناً" يريدُ المصدر وهو من "التَزَيُّنِ" وانما زاد الألف حين ادغم ليصل الكلام لانه لا يبتدأ بساكن .

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَائِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وقال ﴿ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ ﴾ لانه من "رَهَقَ" "يَرْهَقُ" "رَهَقاً" .

﴿ وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَائِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

وقال ﴿ جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ وزيدت الباء كما زيدت في قولك ﴿ بِحَسْبِكَ قولُ السُوءِ ﴾ .

وقال ﴿ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً ﴾ فالعِين ساكنة لانه ليس جماعة "القِطْعَة" ولكنه "قِطْعٌ" اسمٌ على حياله . وقال عامّة الناس (قِطَعا) يريدون به جماعة "القِطْعَةِ" ويقوي الأول قوله (مُظْلِماً) لأن "القِطْع" واحد فيكون "المُظْلِم" من صفته . والذين قالوا : "القِطَع" يعنون به الجمع وقالوا "نَجْعَلُ مُظلِماً" حالا لـ"اللَيْل" . والأَوّل أَبْيَنُ الوجهين .

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴾

وقال ﴿ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ﴾ لانه في معنى "انتَظِروا أنتم وشركاؤكم" .

﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ وَرُدُّواْ إِلَى اللَّهِ مَوْلاَهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾

وقال ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ﴾ أي: تَخْبُرُ . وقال بعضُهم (تَتْلُو) أي: تَتْبَعُه .

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾

(109/354)

وقال ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ﴾ فان قلت "كيف دخلت (أَمْ) على (مَنْ) فلأن (مَنْ) ليست في الاصل للاستفهام وانما يستغنى بها عن الألف فلذلك أدخلت عليها (أَمْ) كما ادخلت على (هَلْ) حرف الاستفهام وانما الاستفهام في الاصل الالف . و (أَمْ) تدخل لمعنى لا بد منه . قال الشاعر: [من الطويل وهو الشاهد الثلاثون بعد المئتين]:

أَبا مَالِكٍ هَلْ لُمْتَنِي مُذْ حَضَضْتَنِي * عَلَى القَتْلِ أَمْ هَلْ لامَنِي لَكَ لائِمُ

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وقال ﴿ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ وهذا – والله اعلم – [132] "على مثلِ سُوَرِته" وألقى السورة كما قال ﴿ وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ ﴾ يريد "أَهْلَ القرية" .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتاً أَوْ نَهَاراً مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

[132 ب] وقال ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ فان شئت جعلت (ماذا) اسما بمنزلة (ما) وان شئت جعلت (ذا) بمنزلة "الذي" .

﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

وقال ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ﴾ كأنه قال "وَيَقُولُونَ أَحَقٌّ هُوَ" .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

(110/354)

وقال ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ وقال بعضهم (تَجْمَعَون) أي: تَجْمَعُون يا معشر الكفار . وقال بعضهم (فَلْتَفْرَحُوا) وهي لغة العرب ردية لأن هذه اللام انما تدخل في الموضع الذي لا يقدر فيه على "أَفْعَل" ؛ يقولون: "لِيَقُلْ زَيْدٌ" لأنك لا تقدر على "أَفْعَل" . ولا تدخل اللام اذا كلمت الرجل فقلت "قُلْ" ولم تحتج الى اللام . وقوله ﴿ فَبِذَلِكَ ﴾ بدل من قوله ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾

وقال ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَآءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذلك وَلاَ أَكْبَرَ ﴾ أيّ: "وَلا يَعْزُبُ عَنْهُ أَصْغَرُ من ذلك ولا أَكْبَرُ" بالرفع . وقال بضعهم (وَلا أصغرَ من ذِلكَ ولا أَكْبَرَ) بالفتح أي: "ولا مِنْ أصغرَ مِن ذلك ولا من أَكْبَر" ولكنه "أَفْعَلَ" ولا ينصرف وهذا أجود في العربية واكثر في القراءة وبه نقرأ .

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُواْ إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونَ ﴾

(111/354)

وقال ﴿ فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾ وقال بعضهم (وشُرَكاؤُكُمْ) والنصب أحسن لأنك لا تجري الظاهر المرفوع على المضمر المرفوع الا انه قد حسن في هذا للفصل الذي بينهما كما قال ﴿ أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَآؤُنَآ ﴾ فحسن [133] لانه فصل بينهما بقوله ترابا . وقال بعضهم (فَأَجْمِعوا) لأَنَّهُم ذهبوا به الى "العَزْمِ" لأَنَّ العرب تقول "أَجْمَعْتُ أَمْرِي" أي: أَجْمَعْتُ على أَنْ أَقُول كذا وكذا . أي عَزَمْتُ عليه . وبالمَقْطُوعِ نقرأ .

وقال ﴿ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ فـ (يَكُنْ) جزم بالنهي .

﴿ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴾

وقال ﴿ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَاذَا ﴾ على الحكاية لقولهم ، لانهم قالوا : أَسِحْرٌ هذا" فقال (أَتَقُولُونَ) (أَسِحْرٌ هذا) .

﴿ قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ لِتَلْفِتَنَا ﴾ لأَنَّكَ تقول: "لَفَتُّهُ" فـ"أَنَا أَلْفِتُهُ" "لَفْتاً" أي: أُلْوِيه عنْ حقه .

﴿ فَلَمَّا أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

وقال ﴿ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ ﴾ يقول: "الذي جِئْتُمْ بِهِ السِحْرُ" وقال بعضهم (آلسِّحْرُ) بالاستفهام .

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴾

وقال ﴿ عَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ ﴾ يعني مَلأ الذُرِّيَة .

(112/354)

﴿ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾

وقال ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ فنصبها لأن جواب الدعاءَ بالفاء نصب وكذلك في الدعاء إذا عَصَوا .

وقال ﴿ رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ ﴾ أيّ: فَضلُّوا . كما قال ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً ﴾ أيْ: فَكَان . وَهمُ لم يلقطوه ليكون لهم عدوا وحزنا [و] انما لقطوه فكان [فـ] هذه اللام تجيء في هذا المعنى .

وقوله: ﴿ فَلاَ يُؤْمِنُواْ ﴾ عطف على (ليضلوّا) .

﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴾

وقال ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ وقال بعضهم (نُنْجِيك) وقوله ﴿ بِبَدَنِكَ ﴾ أيّ: لا روح فيه .

وقال بعضهم: (نُنَجِّيكَ) : نرفعُك [133 ب] على نجوة من الارض . وليس قولهم: "أَنّ البَدَن ها هنا" "الدِرْع" بشيء ولا له معنى .

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾

وقال ﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ﴾ فانث فعل الكل لانه اضافه الى الاية وهي مؤنثة .

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾

وقال ﴿ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً ﴾ فجاء بقوله (جَمِيعاً) توكيدا ، كما قال ﴿ لاَ تَتَّخِذُواْ الهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ففي قوله ﴿ الهَيْنِ ﴾ دليل على الأثْنين .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

(113/354)

وقال ﴿ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يقول: "كذلك نُنْجي المؤمنينَ حَقّاً عَلَيْنا" .

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وقال ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ﴾ أي: وَأُمِرْتُ أَنْ اَقِم وجهَكَ للدين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ معانى القرآن / للأخفش حـ 1 صـ 369 . 379 ﴾

(114/354)

وقال الإمام ابن قتيبة :

سورة يونس

مكية كلها

2 - قَدَمَ صِدْقٍ يعني : عملا صالحا قدّموه .

5 - وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ أي جعله ينزل كل ليلة بمنزلة من النجوم ، وهي ثمانية وعشرون منزلا في كل شهر ، قد ذكرتها في «تأويل المشكل» .

7 - إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا أي لا يخافون .

11 - وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي لو عجل الله للناس الشر إذا دعوا به على أنفسهم عند الغضب وعلى أهليهم وأولادهم ، واستعجلوا به كما يستعجلون بالخير فيسألونه الرزق والرحمة : لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ أي لماتوا .

15 - أَوْ بَدِّلْهُ كانوا يقولون للنبي صلّى الله عليه وسلم : اجعل آية عذاب آية رحمة ، وآية رحمة آية عذاب .

16 - وَلا أَدْراكُمْ بِهِ أي ولا أعلمكم به .

19 - وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ أي نظرة إلى يوم القيامة .

21 - وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً يعني : فرجا من بعد كرب .

إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا يعني : قولا بالطعن والحيلة يجعل لتلك الرحمة سببا آخر .

22 - وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ أي دنوا للهلكة . وأصل هذا أن العدو إذا أحاط ببلد ، فقد دنا أهله من الهلكة .

24 - فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ يريد أن الأرض أنبتت بنزول المطر فاختلط النبات بالمطر ، واتصل كل واحد بصاحبه .

حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها أي زينتها بالنبات . وأصل الزخرف : الذهب . ثم يقال للنّقش وللنور والزهر وكل شيء زين : زخرف .

يقال : أخذت الأرض زخرفها وزخارفها : إذا زخرت بالنبات كما تزخر الأودية بالماء .

وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أي [على] ما أنبتته من حب وثمر .

كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ أي كأن لم تكن عامرة بالأمس . والمغاني المنازل . واحدها مغنى .

وغنيت بالمكان : إذا أقمت به .

26 - لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى أي المثل .

وَزِيادَةٌ : التّضعيف حتى حتى تكون عشرا ، أو سبعمائة ، وما شاء اللّه . يدل على ذلك قوله : وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها .

وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ أي لا يغشاها غبار . وكذلك القترة .

27 - ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ أي مانع .

كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ جمع قطعة . ومن قرأها :

(116/354)

«قطعا من الليل» أراد اسم ما قطع تقول : قطعت الشيء قطعا . فتنصب

أول المصدر . واسم ما قطعت [منه] فسقط : «قطع» .

28 - فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ أي فرّقنا بينهم . وهو من زال يزول وأزلت .

30 - هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ أي تقرأ في الصحف ، ما قدّمت من أعمالها .

ومن قرأ تَتْلُوا بالتاء ، أراد : تختبر ما كانت تعمل .

وقال أبو عمرو : وتصديقها يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ وهي قراءة أهل المدينة .

وكذلك حكيت عن مجاهد .

33 - حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ أي سبق قضاؤه .

35 - أَمَّنْ لا يَهِدِّي أراد من لا يهتدي . فأدغم التاء في الدال .

ومن قرأ «يهدي» خفيفة . فإنها بمعنى يهتدي [قال الكسائي : يقول قوم من العرب هديت

الطريق بمعنى : اهتديت] .

37 - وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ أي يضاف إلى غيره ، أو يختلق .

39 - وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ أي عاقبته .

58 - قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فضله : الإسلام . ورحمته :

القرآن .

61 - إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ أي تأخذون فيه . يقال : أفضنا في الحديث .

وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ أي ما يبعد ولا يغيب مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ أي وزن نملة صغيرة .

64 - هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

يقال : الرؤيا الصالحة .

(117/354)

فِي الْآخِرَةِ

: الجنة . تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ

أي لا خلف لمواعيده .

66 - وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أي يحدسون ويحزرون .

68 - إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أي ما عندكم من حجة .

71 - فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَادعوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً أي غمّا عليكم .

كما يقال : كرب وكربة .

ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ أي اعملوا بي ما تريدون وَلا تُنْظِرُونِ ومثله .

فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ [سورة طه آية : 72] أي فاعمل ما أنت عامل .

78 - أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا أي لتصرفنا . يقال : لفتّ فلانا عن كذا إذا صرفته . والالتفات [منه] إنما هو الانصراف عما كنت مقبلا عليه .

وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ أي الملك والشّرف .

83 - عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ وهم أشراف أصحابه .

أَنْ يَفْتِنَهُمْ أي يقتلهم ويعذّبهم .

87 - وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً أي نحو القبلة . ويقال : اجعلوها مساجد .

88 - رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ أي أهلكها . وهو من قولك :

طمس الطريق : إذا عفا ودرس .

وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ أي قسّها .

90 - فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ لحقهم . يقال : أتبعت القوم ، أي لحقتهم . وتبعتهم : كنت في أثرهم .

وَعَدْواً أي ظلما .

92 - فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ قال أبو عبيدة : نلقيك على نجوة من الأرض ، أي ارتفاع .

والنّجوة والنّبوة : ما ارتفع من الأرض .

بِبَدَنِكَ أي [بجسدك] وحدكِ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً : لمن بعدك .

93 - بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ أي أنزلناهم منزل صدق .

94 - فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ المخاطبة للنبي صلى اللّه عليه وعلى آله ،

والمراد غيره ، كما بينت في كتاب «المشكل» .

98 - فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها عند نزول العذاب .

إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ فإنهم آمنوا قبل نزول العذاب . أي فهلا آمنت قرية غير قوم يونس فنفعها

إيمانها .

ويقال : فلم تكن قرية آمنت فنفعها إيمانها عند نزول العذاب إلّا قوم يونس .

101 - قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ من الدلائل وَالْأَرْضِ واعتبروا . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تأويل مشكل القرآن صـ 169. 173 ﴾

وقال الغزنوى :

ومن سورة يونس

2 قَدَمَ صِدْقٍ : ثواب واف بما قدّموا «1» .

3 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ : ليشاهد الملائكة شيئا بعد شيء فيعتبرون ، ولأن تصريف الخلق حالا بعد حال أحكم وأبعد من شبهة الاتفاق «2» .

4 وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ : بنصيبهم وقسطهم من الثواب ، وليس معناه العدل «3» لأن العدل محمول عليه الكافرون والمؤمنون «4» .

---

(1) تفسير الطبري : 15/ 14 .

ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 180 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 5 ، وقال : «رواه العوفي عن ابن عباس» .

(2) ينظر هذا المعنى في تفسير الماوردي : 2/ 32 ، وتفسير الفخر الرازي : 14/ 105 ، عند تفسير قوله تعالى : إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ . . . [آية : 54 من سورة الأعراف] .

وذكر الفخر الرازي في تفسيره : 17/ 12 : «إنه يحسن منه كلما أراد ، ولا يعلل شيء من

أفعاله بشيء من الحكمة والمصالح ، وعلى هذا القول يسقط قول من يقول : لم خلق العالم في ستة أيام وما خلقه في لحظة واحدة ؟ لأنا نقول : كل شيء صنعه ولا علة لصنعه فلا يعلل شيء من أحكامه ولا شيء من أفعاله بعلة ، فسقط هذا السؤال» .

(3) وهو قول أبي عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 274 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : (15/ 21 ، 22) عن مجاهد ، وذكره النحاس في معانيه : 3/ 278 .

(4) ذكره الفخر الرازي في تفسيره : (15/ 33 ، 34) ، وقال : «و هذا الوجه ، لأنه في مقابلة قوله : بِما كانُوا يَكْفُرُونَ .

(120/354)

---

5 وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ : خص به القمر لأن حساب العامة وعلمهم بالسّنين هلاليّ ، ولأن المنازل «1» تنسب إلى القمر .

والضياء أغلب من النور فجعله للشمس .

10 دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ : إذا اشتهوا شيئا قالوا : سبحانك اللهم فيأتيهم ، وإذا فرغوا منه قالوا : الحمد للّه فيذهب «2» .

وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ : ملكهم سالم من الزوال «3» .

11 وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ : يستجيب إذا دعوا على أنفسهم وأولادهم «4» .

16 وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ : ولا أعلمكم به «5» .

19 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ : في أن لا يعاجل العصاة ، أو لا يستعجل عن الأجل .

21 مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا : كفر وتكذيب «6» .

---

(1) وهي ثمانية وعشرون منزلا .

ينظر كتاب الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب : 23 ، والأنواء لابن قتيبة : 4 .

(2) ذكر نحوه الماوردي في تفسيره : 2/ 182 عن الربيع وسفيان .

وأورده السيوطي في الدر المنثور : 4/ 345 ، وعزا إخراجه إلى ابن أبي حاتم عن الربيع .

ونقله ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 10 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

(3) نص هذا القول في تفسير الماوردي : 2/ 182 ، وأورده ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 11 عن الماوردي .

(4) في «ج» : وأموالهم .

(5) هذا قول ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 194 ، وأخرجه الطبري في تفسيره : 15/ 42 عن ابن عباس ، وابن زيد .

ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 282 عن الضحاك .

(6) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 276 : «مجاز المكر ها هنا مجاز الجحود بها والرد لها» .

وأخرج الطبري في تفسيره : 15/ 49 عن مجاهد قال : «استهزاء وتكذيب» ، ونقله النحاس في معاني القرآن : 3/ 285 عن مجاهد .

ونقل الماوردي في تفسيره : 2/ 186 عن ابن بحر قال : المكر ها هنا الكفر والجحود ، وعن مجاهد قال : إنه الاستهزاء والتكذيب . [. . . . .]

(121/354)

---

26 لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى : أي : الجنّة «1» ، فهي مأوى كلّ حسن على أفضل وجه .

وَلا يَرْهَقُ : ولا يغشى «2» ، قَتَرٌ : غبرة وسواد «3» .

27 قِطَعاً : لغة في قطع «4» . ك «ظلع» و «ظلع» فلذلك وصف ب «مظلما» «5» ، وإن كان جمع قطعة ف «المظلم» حال من اللّيل ، أي :

[42/ ب] أغشيت قطعا من الليل حال إظلامه «6» / .

29 فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً : تمييز ، أي : كفى به من الشهداء .

---

(1) هذا قول جمهور المفسرين كما في تفسير الطبري : (15/ 62 - 68) ، والمحرر

الوجيز :

7/ 137 ، وزاد المسير : 4/ 24 ، وتفسير القرطبي : 8/ 330 ، وتفسير ابن كثير : (4/ 198 ، 199) وقد ورد هذا المعنى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه :

1/ 163 ، كتاب الإيمان ، باب «إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى» ، عن صهيب رضي اللّه عنه عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم قال : «إذا دخل أهل الجنة الجنة ، قال : يقول اللّه تبارك وتعالى : تريدون أزيدكم ؟ فيقولون : ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ؟

قال : فيكشف الحجاب فما أوتوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل» . . . ثم تلا هذه الآية : لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ .

(2) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 277 ، وتفسير الطبري : 15/ 72 ، ومعاني الزجاج : 3/ 15 .

(3) مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 277 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 196 ، والمفردات للراغب : 393 ، وتفسير القرطبي : 8/ 331 .

وأخرج الطبري في تفسيره : 15/ 73 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : «سواد الوجوه» .

(4) بإسكان الطاء ، وهي أيضا قراءة الكسائي ، وابن كثير .

السبعة لابن مجاهد : 325 ، والتبصرة لمكي : 219 .

(5) معاني القرآن للفراء : 1/ 462 ، ومعاني الزجاج : 2/ 16 ، والكشف لمكي : 1/ 517 .

(6) هذا التوجيه على قراءة الفتح .

قال مكي في الكشف : 1/ 517 : «وفيه المبالغة في سواد وجوه الكفار» .

وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 278 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 196 ، وتفسير الطبري : (15/ 75 ، 76) ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 16 ، وإعراب القرآن للنحاس :

2/ 251 .

(122/354)

أو حال ، أي : وكفى اللّه في حال الشهادة .

30 تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ : ينكشف لها ما أسلفت فتختبر جزاءها «1» ، كقوله «2» : يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِرُ : تختبر بالكشف .

33 حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ : وعيده «3» .

35 أَمَّنْ لا يَهِدِّي : اهتدى يهتدي ، وهدى يهدي ، وهدي يهدى .

أما فتح الهاء والياء «4» ، فلأنه لما أدغمت التاء في الدال ألقيت حركة التاء على الهاء كقولك : «عدّ وفرّ ، والأصل : اعدد» [وافرر] «5» وأما فتح الياء وكسر الهاء «6» فلاجتماع ساكنين بالإدغام فكسرت الهاء على أصل حركة الساكن وكسرهما لاستتباع الآخرة الأولى [أي الياء] «7» .

45 يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ : يعرف بعضهم بعضا ثم ينقطع التعارف لأهوالها «8» .

وقيل «9» : يعترفون ببطلان ما كانوا عليه .

---

(1) في «ج» : جزاء .

(2) سورة الطارق : آية : 9 .

(3) معاني القرآن للزجاج : 3/ 18 ، وزاد المسير : 4/ 29 .

(4) وهي قراءة ابن كثير ، وابن عامر ، وأبي عمرو ، وورش عن نافع .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 326 ، وحجة القراءات : 331 .

(5) ما بين معقوفين ساقط من الأصل ، والمثبت عن «ك» و«ج» .

(6) قراءة عاصم في رواية حفص .

السبعة لابن مجاهد : 326 ، وحجة القراءات : 332 ، والتبصرة لمكي : 220 .

(7) ما بين معقوفين عن نسخة «ج» ، وانظر توجيه القراءتين اللتين ذكرهما المؤلف في : معاني القرآن للزجاج : 3/ 19 ، وإعراب القرآن للنحاس : (2/ 253 ، 254) ، والكشف لمكي :

1/ 518 ، والبحر المحيط : 5/ 156 ، والدر المصون : 6/ 199 .

(8) تفسير الطبري : 15/ 97 ، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 22 ، ومعاني النحاس : 3/ 297 ، وتفسير الماوردي : 2/ 190 ، وتفسير الفخر الرازي : (17/ 109 ، 110) ، وتفسير القرطبي : 8/ 348 . [. . . . .]

(9) لم أقف على هذا القول ، وفي تفسير الماوردي : 2/ 190 : «يعرفون أن ما كانوا عليه باطل» .

(123/354)

---

53 إِي وَرَبِّي : كلمة تحقيق «1» ، أي : كائن لا محالة .

59 فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا : أي : البحيرة ونحوها «2» .

61 وَما يَعْزُبُ : يغيب أو يبعد «3» ، وفي الحديث «4» : «من قرأ القرآن في أربعين ليلة فقد عزب» ، أي : بعد عهده بما ابتدأ به .

64هُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا

: بشارة الملائكة عند الموت «5» .

وقيل «6» : الرؤيا الصالحة .

---

(1) تفسير الماوردي : 2/ 191 ، وزاد المسير : 4/ 39 .

وقال القرطبي في تفسيره : 8/ 351 : «إي : كلمة تحقيق وإيجاب وتأكيد بمعنى نعم .

وَرَبِّي قسم ، إِنَّهُ لَحَقٌّ جوابه ، أي : كائن لا شك فيه» .

(2) أخرج الطبري هذا القول في تفسيره : (15/ 111 ، 112) عن ابن عباس ،

ومجاهد ، وابن زيد .

وانظر هذا القول في معاني القرآن للزجاج : 3/ 25 ، ومعاني النحاس : 3/ 301 ،

وتفسير البغوي : 2/ 358 ، وزاد المسير : 4/ 41 .

(3) ينظر مجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 278 ، وتفسير غريب القرآن لابن قتيبة : 197

، ومعاني القرآن للزجاج : 3/ 26 ، ومعاني النحاس : 3/ 202 ، والمفردات للراغب :

333 .

قال الطبري في تفسيره : 15/ 116 : «وأصله من عزوب الرجل عن أهله في ماشيته ،

وذلك غيبته عنهم فيها . يقال منه : عزب الرجل عن أهله يعزب ويعزب» .

(4) الحديث في الفائق : 2/ 426 ، وغريب الحديث لابن الجوزي : 2/ 91 ، والنهاية :

3/ 227 ، وذكره السمين الحلبي في الدر المصون : 6/ 229 .

(5) ذكره الطبري في تفسيره : 15/ 140 ، وقال : «كما روي عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم : «أن الملائكة التي تحضره عند خروج نفسه تقول لنفسه : اخرجي إلى رحمة اللّه ورضوانه» . وعلق الشيخ محمود محمد شاكر عليه قائلا : «حديث بغير إسناد ، لم أستطع أن أجده بلفظه في مكان قريب» .

وأورد ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 44 القول الذي ذكره المؤلف ، وعزاه إلى الضحاك ، وقتادة ، والزهري .

(6) وهي الرؤيا التي يراها المؤمن أو ترى له .

وقد ثبت هذا المعنى عن النبي صلّى اللّه عليه وسلّم في عدة آثار أخرجها الإمام أحمد في مسنده : (12/ 9 ، 10) رقم 7044 عن عبد اللّه بن عمرو بن العاص مرفوعا وصحح الشيخ أحمد شاكر رحمه اللّه – إسناده .

وهو في المسند أيضا (5/ 315) عن عبادة بن الصامت مرفوعا ، و(6/ 447) عن أبي الدرداء مرفوعا .

وأخرجه الترمذي في سننه : (5/ 286 ، 287) ، كتاب تفسير القرآن ، باب «من سورة يونس» .

وابن ماجة في سننه : 2/ 1283 ، كتاب تعبير الرؤيا ، باب «الرؤيا الصالحة يراها المسلم

أو ترى له» .

والطبري في تفسيره : (15/ 124 - 139) .

وانظر تفسير ابن كثير : (4/ 214 ، 215) ، والدر المنثور : (4/ 374 ، 375) .

(124/354)

---

65 وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ : كسرت «إن» للاستئناف بالتذكير لما ينفي الحزن ، لا لأنها بعد القول لأنها ليست حكاية عنهم «1» .

66 وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ : يجوز «ما» في معنى «أي» «2» ، ويجوز نافية «3» ، أي : لم يتّبعوا حقيقة واتبعوا الظن في الشرك .

71 لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً : مغطى «4» ، أي : أظهروا ما عندكم من طاعة أو معصية .

78 لِتَلْفِتَنا : تصرفنا ، لفته لفتا «5» .

---

(1) معاني القرآن للفراء : 1/ 471 ، وتفسير الطبري : 15/ 142 ، والتبيان للعكبري : 2/ 679 ، والدر المصون : 6/ 233 .

(2) بمعنى الاستفهام .

قال الفخر الرازي في تفسيره : 17/ 137 : «كأنه قيل : أي شيء يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء ، والمقصود تقبيح فعلهم ، يعني أنهم ليسوا على شيء» .

وانظر الكشاف : 2/ 244 ، والتبيان للعكبري : 2/ 680 ، والدر المصون : 6/ 235 .

(3) مشكل إعراب القرآن : 1/ 349 ، والبيان لابن الأنباري : 1/ 416 ، وتفسير الفخر الرازي :

17/ 137 ، والتبيان للعكبري : 2/ 680 ، وتفسير القرطبي : 8/ 360 .

(4) قال الطبري في تفسيره : (15/ 149 ، 150) : «يقول : ثم لا يكون أمركم عليكم ملتبسا مشكلا مبهما . من قولهم : غمّ على الناس الهلال ، وذلك إذا أشكل عليهم فلم يتبينوه . . .» .

(5) ينظر معاني القرآن للفراء : 1/ 475 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 280 ، وتفسير الطبري :

15/ 157 .

77 أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا : تقديره : أتقولون للحق لما جاءكم إن هذا لسحر مبين ، أسحر هذا «1» ؟ .

83 إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ : جماعة كانت أمهاتهم من بني إسرائيل وآباؤهم من القبط «2» .

85 لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً : لا تعذبنا بأيدي آل فرعون فيظن بنا الضلال «3» .

87 أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً : وذلك إذ هدم فرعون المساجد وبنى [43/أ] الكنائس يومئذ / فأمروا أن يصلوا في بيوتهم»

.

88 لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ : استفهام «5» ، أي : أليضلوا عن سبيلك

---

(1) عن معاني القرآن للزجاج : 3/ 29 ، ورجحه الطبري في تفسيره : (15/ 155 ، 156) .

(2) هذا قول الفراء في معانيه : 1/ 476 .

وأورده الطبري في تفسيره : 15/ 166 ، فقال : «و قد زعم بعض أهل العربية . . .» ، ثم عقب عليه بقوله : «و المعروف من معنى «الذرية» ، في كلام العرب ، أنها أعقاب من نسبت إليه من قبل الرجال والنساء ، كما قال اللّه جل ثناؤه : ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنا مَعَ نُوحٍ [سورة الإسراء : 3] ، وكما قال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ داوُدَ وَسُلَيْمانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ ، ثم قال بعد : وَزَكَرِيَّا وَيَحْيى وَعِيسى وَإِلْياسَ [سورة الأنعام : 84 ، 85] ، فجعل من كان من قبل

الرجال والنساء من ذرية إبراهيم» . [. . . . .]

(3) في معاني القرآن للزجاج : 3/ 30 : «أي لا تهلكنا وتعذبنا فيظن آل فرعون إنا إنما عذّبنا لأننا على ضلال» .

ونقل ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 54 ، القول الذي ذكره المؤلف عن مجاهد .

وانظر تفسير القرطبي : 8/ 370 .

(4) زاد المسير : 4/ 54 ، وتفسير القرطبي : 8/ 371 .

(5) لم أقف على قول من قال : إن اللام هنا بمعنى الاستفهام ، وذكر الفخر الرازي في تفسيره :

17/ 156 وجها قريبا منه وهو : «أن يكون موسى – عليه السلام – ذكر ذلك على سبيل التعجب المقرون بالإنكار ، والتقدير : كأنك آتيتهم ذلك الغرض فإنهم لا ينفقون هذه الأموال إلا فيه ، وكأنه قال : آتيتهم زينة وأموالا لأجل أن يضلوا عن سبيل اللّه ، ثم حذف حرف الاستفهام» .

ولعل هذا الذي ذكره المؤلف توجيه لقراءة أبي الفضل الرقاشي : «أ إنك آتيت» على الاستفهام .

ذكر هذه القراءة الزمخشري في الكشاف : 2/ 250 ، وأبو حيان في البحر المحيط : 5/ 187 وقال أبو حيان : «و اللام في لِيُضِلُّوا الظاهر أنها لام «كي» ، على معنى : آتيتهم

ما آتيتهم على سبيل الاستدراج، فكان الإتيان لكي يضلوا.

ويحتمل أن تكون لام الصيرورة والعاقبة كقوله: فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً ...».

(126/354)

أعطيتهم ذلك كله؟.

اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ: أذهب نورها وبهجتها «1».

وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا: خرج على الدعاء من موسى عليهم، ومعناه: فلا آمنوا «2».

89 وَلا تَتَّبِعانِّ: بتشديد النون وتخفيفها «3»، وهما نونا التوكيد انكسرت فيهما لمشابهتهما نون «يفعلان» في الخبر بوقوعهما بعد الألف واجتماع ساكنين.

قوله تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ: نلقيك على نجوة «4» من الأرض بدرعك «5».

---

(1) قال الزجاج في معانيه: 3/ 31: «و تأويل تطميس الشيء إذهابه عن صورته والانتفاع به على الحال الأولى التي كان عليها».

وانظر المفردات للراغب: 307، وزاد المسير: 4/ 56، وتفسير القرطبي: 8/

.374

(2) ينظر معاني القرآن للفراء : 1/ 477 ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة : 1/ 281 ، ومعاني القرآن للزجاج: 3/ 31 ، وتفسير القرطبي : 8/ 375 .

(3) بتشديد النون قراءة الجمهور وعليها القراء السبعة إلا ابن عامر فقد نقل عنه التخفيف .

ينظر السبعة لابن مجاهد : 329 ، والتبصرة لمكي : 220 .

(4) قال أبو عبيدة في مجاز القرآن : 1/ 281 : «نلقيك على نجوة ، أي ارتفاع» .

وقال ابن قتيبة في تفسير غريب القرآن : 199 : «و النّجوة والنّبوة : ما ارتفع من الأرض» .

(5) ذكره النحاس في معانيه : 3/ 315 ، ونقل الماوردي في تفسيره : 2/ 198 عن أبي صخر قال : كان له درع من حديد يعرف بها» .

وقال الأخفش في معاني القرآن : 2/ 574 : «و ليس قولهم : «إن البدن ها هنا الدرع بشيء ولا له معنى» .

وانظر تفسير البغوي : 2/ 367 ، وزاد المسير : 4/ 62 ، وتفسير القرطبي : 8/ 380 .

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً : ليرى قدرة الصادق في الربوبية على الكاذب ، ولم ير في الغرقى غير فرعون «1» .

93 فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ : الفرائض والأحكام «2» ، أي :

كانوا على الكفر ، فلما جاءهم العلم من جهة الرسول والكتاب اختلفوا فآمن فريق وكفر فريق .

وقيل «3» : كانوا على الإقرار بمحمد - عليه السّلام - قبل مبعثه بصفته فما اختلفوا حتى جاءهم معلوم العلم به .

94 فَإِنْ كُنْتَ : أيها السامع ، فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ : على لسان نبينا فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ .

ومن قال إن الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم فذلك على قسمة الكلام وقضية الخطاب «4» .

---

(1) ذكره النحاس في معاني القرآن : 3/ 315 .

(2) فيكون المراد ببني إسرائيل هنا الذين كانوا قبل موسى عليه السلام ثم عاصروه .

وقد ذكر الفخر الرازي نحو هذا القول في تفسيره : 17/ 165 فقال : «و المراد أن قوم

موسى عليه السلام بقوا على ملة واحدة ومقالة واحدة من غير اختلاف حتى قراء التوراة ، فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم . ثم بين تعالى أن هذا النوع من الاختلاف لا بد وأن يبقى في دار الدنيا ، وأنه تعالى يقضي بينهم يوم القيامة» .

(3) ذكره الفراء في معاني القرآن : 1/ 478 ، والطبري في تفسيره : 15/ 199 ، ونقله الماوردي في تفسيره : 2/ 198 عن ابن بحر وابن جرير الطبري .

وذكره ابن الجوزي في زاد المسير : 4/ 63 عن ابن عباس رضي اللّه عنهما .

وانظر المحرر الوجيز : (7/ 216 ، 217) ، وتفسير القرطبي : 8/ 381 .

(4) لعله يريد أن الخطاب للنبي عليه الصلاة والسلام ، والمراد به غيره من الشاكين وقد ذكر ابن قتيبة هذا القول في تأويل مشكل القرآن : (270 - 272) ، ورجحه وقال : «لأن القرآن نزل عليه بمذاهب العرب كلهم ، وهم قد يخاطبون الرجل بالشيء ويريدون غيره ، ولذلك يقول متمثلهم : إياك أعني واسمعي يا جارة .

ومثله قوله : يا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكافِرِينَ وَالْمُنافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً

الخطاب للنبي صلّى اللّه عليه وسلّم ، والمراد بالوصية والعظة المؤمنون ، يدلك على ذلك أنه قال :

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً ولم يقل : «بم تعمل خبيرا» .

ورجح الزجاج هذا القول في معاني القرآن : 3/ 32 ، وابن عطية في المحرر الوجيز : 7/ 217 ، والفخر الرازي في تفسيره : 17/ 167 .

(128/354)

---

100 أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ : بعلمه أو بتمكينه وإقداره ، وأصل «الإذن» «1» الإطلاق في الفعل «2» .

101 قُلِ انْظُرُوا ماذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ : أي : من العبر باختلاف اللّيل والنّهار ، ومجرى النجوم والأفلاك ، ونتاج الحيوان ، وخروج الزرع والثمار ، ووقوف السماوات والأرض بغير عمد .

وَما تُغْنِي الْآياتُ : «ما» يجوز نافية «3» ، ويجوز استفهاما ، أي : أيّ شيء يغنى عنهم إذا لم يستدلوا بها ؟ .

109 وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ : يأمرك بالهجرة والجهاد . انتهى انتهى . اهـ ﴿ معانى القرآن / للغزنوى حـ 1 صـ 396. 405 ﴾

---

(1) في «ج» : على الأصل في الإذن الإطلاق في الفعل .

(2) التعريفات للجرجاني : 16 . [. . . . .]

(3) قال أبو حيان في البحر المحيط : 5/ 194 : «و «ما» الظاهر أنها للنفي ، ويجوز أن تكون استفهاما ، أي : وأيّ شيء تغني الآيات ، وهي الدلائل ، وهو استفهام على جهة التقرير ، وفي الآية توبيخ لحاضري رسول اللّه صلّى اللّهعليه وسلّم من المشركين» .

وانظر المحرر الوجيز : 7/ 226 ، وتفسير الفخر الرازي : 17/ 177 ، والتبيان للعكبري :

2/ 686 ، وتفسير القرطبي : 8/ 386 ، والدر المصون : 6/ 271 .

(129/354)

وقال ملا حويش :

تفسير سورة يونس

عدد 1 - 51 - 10

نزلت بمكة بعد سورة الإسراء عدا الآيات 40 ، 94 ، 95 ، 96 فإنها نزلت بالمدينة ، وهي مائة وتسع آيات وألف وثمنمئة واثنتان وثلاثون كلمة ، وتسعة آلاف وتسعة وتسعون حرفا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

قال اللّه تعالى : "الر" تقدم البحث مستوفيا أول سورة الأعراف في ج 1 ، ويوجد في القرآن خمس سور مبدوءة بما بدئت به هذه السورة ، ويوسف وهود والحجر وابراهيم .

قال سعيد بن جبير :

الراء وحم ون حروف الرحمن مقطعه .

وبه قال ابن عباس .

وقال غيرهما كل حرف مفتاح اسم من أسماء اللّه تعالى ، ولا يعلم المراد منها على الحقيقة إلا اللّه تعالى .

لذلك فأحسن قول في تفسير هذه الحروف المبدوءة بها سور القرآن العظيم أن يوكل علمها إلى اللّه "تِلْكَ" الآيات المنزلة عليك يا أكرم الرسل هي "آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ 1" الذي أودع اللّه فيه الحكم كلها ، فلا رطب ولا يابس إلا في هذا القرآن يعرفه من يعرفه ، ويجهله من يجهله ، لأنه مأخوذ من علم اللّه المحيط بكل شيء ، ولوحه المكنون الحاوي جميع المكوّنات ، وهذه الآيات تخبر العارف بصواب الحكمة المتقنة ، وتهيء المعاني للقلوب الطاهرة على تصديق ما تخبر به قومك ، وتلهب قلوب أهل للعزم صادقي النيّة على تأييدك فيما تبشر به وتنذر .

فيا أكمل الرسل "أَكَانَ لِلنَّاسِ" أهل مكة وغيرهم "عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ" عظيم القدر جليل الخلق (بدلالة هذا التنوين المأتي به للتبجيل) وجعلنا ذلك الرجل الخطير الذي أهلناه لوحينا وللخلافة في أرضنا "مِنْهُمْ" من أحسنهم حسبا وأشرفهم نسبا ، وقلنا له "أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ" قومك من أهل مكة وغيرهم من سائر الخلق العاقل بأن ينتهوا عما هم عليه من عبادة غير اللّه الواحد ، ومن الأفعال والأعمال الذميمة ويرجعوا عن الكفر ، أو ينزل بهم عذاب لا طاقة لهم به "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا" منهم بك وصدقوا ما تتلوه عليهم من هذا القرآن وأقلعوا عما هم عليه من الكفر ودواعيه .

"أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ" منزلة ومكانة "صِدْقٍ" سابقة رفيعة أي قد سبق لهم عند اللّه خير .

قال ذو الرّمة :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة لهم قدم معروفة ومفاخر

مطلب في معنى القدم :

لأن القدم كل ما قدمت من خير وهو كناية عن العمل الذي يتقدم فيه الإنسان ، وأطلق لفظ القدم على هذا المعنى لأن السعي والسبق يحصل به ، فسمي المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد ، وفي إضافة القدم إلى الصدق التنبيه على زيادة الفضل .

وقال بعض المفسرين المراد به الشفاعة وأنشد :

صل لذي العرش واتخذ قدما ينجيك يوم العار والزلل

هذا ، وكل عمل صالح ثوابه قدم صدق لفاعليه "عِنْدَ رَبِّهِمْ" راجع قوله تعالى (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ) آخر سورة القمر في ج 1 ، أي أن جزاء أعمالهم الحسنة مخبوءة لهم عند ربهم يوم يلقونه .

والقدم هو العضو المخصوص ، وقد يراد منه التقدم المعنوي أي المنازل الشريفة قال حسان :

لنا القدم العليا إليك وخلقنا لأولنا في طاعة اللّه تابع

وقال الآخر :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها مع الحسب العادي طمّت على البحر

(131/354)

و هذا القدم الذي يتخذ عند اللّه عز وجل هو ما يقدمه العاقل من أعمال صالحة بإخلاص صادق إلى ربه في دنياه ليدخرها له وينميها فيجد ثوابها عنده منازل رفيعة في جنة عالية دائم نعيمها ، لهذا فإن كل فعل صالح وأمر طيب يسمى قدما من تسمية الشيء باسم آلته ،

وهذه الإضافة المشار بها آنفا من إضافة الموصوف إلى صفته مبالغة في تحقيقها ، وخص التبشير بالمؤمنين لأنهم أهله ، إذ ليس للكافرين ما يبشرون به ، بل لهم الإنذار والتهديد ، وما جاء في بعض الآيات من لفظ البشارة لهم فهو من باب التهكم بهم قوله تعالى (وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذابٍ أَلِيمٍ) الآية 5 من سورة التوبة في ج 3 ، أما الإنذار فإنه يصرف للفريقين المؤمنين والكافرين إذ قل من لا يستحق الإنذار "قالَ الْكافِرُونَ" لما سمعوا تلك الآيات البينات عتوا وعنادا "إِنَّ هذا" الذي تسمعونه من محمد ما هو إلا "سحر مبين 2" لا خفاء فيه على أحد وقرىء لساحر ، وعليه يكون قولهم إن محمدا الذي يأتيكم بالآيات ساحر ظاهر سحره فلا تلتفتوا إليه ، وذلك أنهم تعجبوا من أن اللّه تعالى كيف خص محمدا صلى اللّه عليه وسلم من بينهم وشرّفه برسالته إليهم ، ويقولون اللّه أعظم من أن يكون له رسول بشر يتيم كيتيم أبي طالب ، جهلا منهم بحقيقته صلى اللّه عليه وسلم فهو الذي لا ريب فيه لأحد من ذوي العقول الكاملة بأن له القدّنح المعلّى وفيه غاية الغايات ونهاية النهايات ؟ ؟ ؟ واللّه سبحانه وتعالى أعلم حيث يجعل رسالته ، وقد قال رائبه فيه :

وأحسن منك لم تر قط عيني وأجمل منك لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب كأنك قد خلقت كما تشاء

وقال الآخر :

ولو صوّرت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقال الأبوصيري :

فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق اللّه كلهم

ولم يعلم هؤلاء المتعجبون الذين طمس اللّه على قلوبهم أن الحظوظ الدنيوية لا دخل

(132/354)

لها في مختارات اللّه ، ولكن هذا ليس بكثير على من سلب اللّه عقله .

وقد لا تجتمع مع العقل ، ورحم اللّه الإمام الشافعي إذ يقول :

ولكن من رزق الحجى حرم الغنى ضدان مفترقان أي تفرق

مطلب معنى التعجب والتدبر والأيام الست والعرش :

هذا وإن التعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء خلاف العادة ، وقد زعموا أن

ضيرورة اليتيم الفقير نبياً لم تجر به العادة فأنزل اللّه تعالى هذه الآية تهكما بهم .

(133/354)

قال تعالى يا أيها الناس "إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ" تقدم البحث فيها في الآية 59 من سورة الفرقان في ج 1 ، وله صلة في الآية 9 من سورة فصلت الآتية إن شاء الله "ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ" المبسوط القابل لانعكاس أشعة أسمائه تعالى وصفاته ، واستولى عليه استيلاء يليق بذاته ، بلا أين ولا كيف ولا كم ، بصرف النظر عما يتصور من معنى ثم في تراخي الزمن والمهلة ، وقد تقدم تفسيره وما يتعلق به مفصلا في الآية 51 من سورة طه في ج 1 ، "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" كله فيهما مما يتعلق في جميع مكوناته العلوية والسفلية فلا يخرج شيء عن قضائه وتقديره مما يقع فيهما ، ومن جملة ذلك اختيار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للرسالة ومعنى التدبير النظر في أدبار الأمور وعواقبها وما ينتج عنها لتقع على الوجه المحمود ، قال عليه الصلاة والسلام إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته ، والمراد هنا التقدير الجاري على وفق الحكمة والوجه الأتم الأكمل "ما مِنْ شَفِيعٍ" يشفع لأحد "إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ" لذلك الشفيع الذي يرتضيه ولا يشفع إلا لمن يرضاه راجع الآية 109 من سورة طه في ج 1 ، وله صلة في الآية 255 من سورة البقرة في ج 3 ، وهذا الشفيع عام يشمل الأنبياء والملائكة فمن دونهم ، وقد جاء في معرض الرد لقول الكفرة بشفاعة الأوثان ، فإذا كان الأنبياء فمن دونهم من كرام الخلق على الله لا يشفعون إلا بإذنه ، وإلا لمن يرضاه ، فكيف يتمنّى القول بشفاعة الأوثان التي كونتها أيديهم من أحجار

وأخشاب وغيرها "ذِلِكُمُ" الإله العظيم خالق السموات والأرض ومدبر أمورهما ومن فيهما المستولي

(134/354)

على العرش العظيم هو "اللَّهُ رَبُّكُمْ" أيها الناس سيدكم ومولاكم ومسوي أموركم "فَاعْبُدُوهُ" وحده شكرا لنعمه الظاهرة والباطنة "أَفَلا تَذَكَّرُونَ 3" عظمته وجميل صنعه إليكم فتعتبرون وتتعظون وتنقادون لهذا الربّ الذي "إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ" لا إلى غيره ولا مصير لأحد دونه "جَمِيعاً" إنسكم وجنكم وملككم ، وقد وعدكم بالبعث بعد الموت على لسان رسله "وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا" منجزا لا محيد لكم عنه "إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" يحييهم أولا كما أحيى أصلهم من العدم "ثُمَّ يُعِيدُهُ" على حالته الأولى بعد إماتته كما بدأه "لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ" العدل بحيث لا ينقص من أجر أحد منهم شيئا بل يزيده من فضله وكرمه "وَالَّذِينَ كَفَرُوا" كذلك يجزيهم على أعمالهم بالعدل ، فلا يزيد على ما يستحقونه شيئا ولا يعذّبهم على ما لم يفعلوا ، وهؤلاء الكافرون "لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ" ماء متناء في الغليان بدل ما كانوا يتلذذون به من الأشربة المحرمة في الدنيا "وَلهم عَذابٌ أَلِيمٌ" فوق ذلك لا تطيقه أجسامهم "بِما كانُوا يَكْفُرُونَ 4" بالدنيا بالله وكتبه ورسله ، وينكرون

اليوم الآخر ، وفي هذه الآية دلالة قاطعة على البعث بعد الموت والحشر والنشر والمعاد ، وردّ صريح على منكري ذلك الإله العظيم "الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً" خصّ القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء الذي خصّه بالشمس لقوّته وكماله ، وفيه إشارة إلى أن هذا النور مستفاد من ذلك الضياء ، وهذه الاستفادة حاصلة من الشمس إلى القمر ، سواء كانت على سبيل الانعكاس من غير أن يصير جوهر القمر مستنيرا كما في المرآة ، أو بأن يستنير نفس جوهره بصورة يعلمها اللّه ، راجع الآية 12 من سورة الإسراء في ج 1 .

(135/354)

و"قَدَّرْناهُ مَنازِلَ" يتنقل فيها بنظام بديع لا يتغير راجع الآية 39 من سورة يس في ج 1 تعرف المنازل وغيرها ، وإنما أعاد الضمير للقمر وحده لأن سيره في المنازل أسرع من سير الشمس ، وبه يعرف انقضاء الشهور والسنين المعتبرة شرعا لابتنائها على الأهلة ، وما قيل إنه يرجع إلى الشمس والقمر معا ، وإنما وحده مع أنه عائد لهما للإيجاز اكتفاء بذكر أحدهما عن الآخر كما في قوله تعالى (وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ) الآية 68 من التوبة في ج 3 بدل ترضوهما إيجازا

واكتفاء ، إلا أن الأول أولى لموافقته لظاهر الآية ، وللسبب المذكور آنفا المؤيد بقوله تعالى

"لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ .

مطلب السنين الشمسية والقمرية وما يتعلق بهما :

(136/354)

والمراد بالسنين هنا القمرية التي هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما ، وثماني ساعات ، وثمان وأربعون دقيقة ، راجع الآية 32 من الأعراف في ج 1 ، على أنه لا مانع من أن تشمل جملة آية السنين والحساب السنة الشمسية أيضا التي هي ثلاثمائة وخمس وستون يوما ، وخمس ساعات وتسع وأربعون دقيقة أيضا ، والفرق بينهما عشرة أيام وإحدى عشرة ساعة ودقيقة واحدة بمقتضى الرصد الأليخاني ، وكل من السنتين تكون بسيطة وكبيسة ولهذا يكون شهر شباط في كل أربع سنين تسعا وعشرين يوما إذ ينضم إليه فروق ثلاث سنين لانتظام الحساب الجاري ، والأشهر العربية تكون ثلاثين ، وتسعا وعشرين يوما للسبب نفسه ، فتكون السنة القمرية بانقضاء اثنى عشر شهرا قمريا ، والشمسية عند وصول الشمس إلى النقطة التي فارقتها من البروج الاثني عشر التي ذكرناها أول سورة البروج المارة في ج 1 ، وسيأتي لهذا البحث صلة في الآية 16 من سورة الحجر الآتية إن شاء اللّه "ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ" الضياء في الشمس والنور في القمر وجعل منهما معرفة السنين والحساب ،

وما أظهر ما أظهر منها وأوجد ما أوجد في عالمي للغيب والشهادة من مظاهر أسمائه وصفاته "إِلَّا بِالْحَقِّ" الموافق للحكمة البالغة ، إظهارا لقدرته وبرهانا لوحدانيته وجعلها دلائل على عظمته ، فلم يخلق ذلك باطلا ولا عبثا بل هي حق لا مرية فيه كسائر مخلوقات ذلك الخالق الجليل الذي "يُفَصِّلُ الْآيَاتِ" تفصيلا وافيا ويكررها تكريرا شافيا "لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ 5" الحكمة التكوينية لهذا الكون العظيم المهمول فيستدلون على شئون مبدعها ويستنبطون منها البراهين على باهر قدرته ووحدانيته "إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ" من كون أحدهما مضيئا والآخر مظلما ، وكون كل منهما يخلف صاحبه فيجيء وراءه متصلا به دون فاصلة ما ، وأخذ أحدهما من الآخر بصورة تدريجية ساعات ودقائق ، ثم يتلوه صاحبه فيرجع إليه

(137/354)

ليسترد ما أخذه منه حتى يبلغ الغاية المقدّرة في الأزل ، وهكذا كل منهما يعيد الكرة على الآخر دواليك بصورة منتظمة لا تختلف قيد شعرة منذ خلقها اللّه تعالى إلى الآن ، وإلى أن يأذن بخراب هذا الكون "وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ" من الكواكب السيارة والثابتة والبحار والأنهار والمعادن الجامدة والسائلة ، مما عرفه الخلق ومما لم يعرفه بعد ،

والآثار الحكمة والخلائق المتنوعة "لآياتٍ" واضحات عظيمات دالات على وجود الصانع لهذه المصنوعات المتقنة ، وعلى كمال قدرته وبالغ حكمته ، وعلى ما أنكروه من البعث بعد الموت ، وما تعجبوا به من إرسال الرسل وإنزال الكتب بتبيين طرائق الهدى وتعيين مهاوي الردى "لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ 6" الله ويحذرون عاقبة ما خوفهم به رسله ، وخص المتقين لأن التقوى تدعو إلى النظر في عواقب الأمور والتدبر لنتائجها ، وقد تحدو بهم إلى الفكر والتفكر في آيات الله والتذكر بها لتوصلهم إلى معرفة صانعها المكون هيكلها ، فيزدادوا إيمانا وتصديقا وإذعانا ، فينقادوا إلى الله ويؤمنوا برسله وكتبه واليوم الآخر ، فيحصل لهم المقصود الذي خلقوا لأجله وهو عبادة الله تعالى القائل :

(وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) الآية 56 من الذاريات الآتية .

(138/354)

قال تعالى "إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا" ولا يتوقعون حصوله ولا يخطرونه ببالهم لتوغلهم بالغفلة عن لتفطن إلى الحقائق الراعنة ، لأنهم لا يعتقدون بالثواب والعقاب لإنكارهم اليوم الآخر فلا يخافون وعيدنا وتهديدنا الواقع على لسان رسلنا "وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا" المستعارة الموقتة دار البلاء والمحن التي لم تدم ولم تصف لأحد بدلا من الآخرة الدائم نعيمها

دار السعادة والصفاء ، وآثروا الأدنى الفاني الخسيس ، على الأعلى الباقي النفيس "وَاطْمَأَنُّوا بِها" وركنوا إليها ومالوا بكليتهم عليها وسكنت لها قلوبهم سكون من لا براح له عنها ، آمنين من اعتراء المزعجات غافلين عما أعد لهم من العذاب ، فبنوا القصور الفخمة القوية ، وأملوا الآمال المغوية البعيدة ، فأزال ذلك كله الوجل من قلوبهم وصرفها في الملاذ والملاهي حتى أنساهم ذكر اللّه زخارفها ، وصاروا بحالة لم يصل معها إلى قلوبهم ما يسمعون من الإنذار والتخويف والوعيد "وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ 7" لا يتفكرون

(139/354)

بها لاهون في ألعابهم ، مقبلون على لذاتهم ، معرضون عما يأتيهم من قبلنا "أُولئِكَ" الذين هذا شأنهم وهو مبتدأ و"مَأْواهُمُ" مبتدأ ثاني وخبره "النَّارُ" وجملة المبتدأ الثاني وخبره خبر المبتدأ الأول والجملة خبر "إن" التي هي بصدر هذه الآية لذلك لا يوقف على (غافلون) ولو كانت إشارة الوقف عليها لأن الكلام لا يتم بها وإشارة الوقف عبارة عن فاصلة فمنها ما يتم بها الكلام فيوقف عليها ومنها ما يوقف عليها ، فيرجع القارئ إليها فيصلها بما بعدها ويقف على ما يصح عليه الوقف ، وهذا كثير في القرآن العظيم إذ لا يخفى أن الخبر محط الفائدة وهو الذي يوقف عليه لا المبتدأ ، والمعنى أن الموصوفين

المذكورين الذين لا يرجون لقاء اللّه مصيرهم ومثواهم نار جهنم جزاء "بِما كانُوا يَكْسِبُونَ 8" من الأعمال الخبيثة في الدنيا والجار من/ بما/ متعلق بمحذوف تقديره جوزوا بكسبهم القبيح وجاء الرجاء بصدر هذه الآية بمعنى الخوف وهو كثير بلغة العرب ، قال أبو ذؤيب :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها .

أي لم يخفه والمراد من لقاء اللّه الرجوع إليه بالبعث بعد الموت والحساب المترتب عليه الجزاء بحسب الأعمال .

قال تعالى :

"إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ" في هذه الدنيا "يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ" في الآخرة إلى الجنات العالية "بِإِيمانِهِمْ" الخالص المؤدي إلى ذلك ، فتراهم على الطريق السوي في الدنيا مدة لبثهم فيها ، ويجعلون بسببه في الآخرة بمكان "تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ" أي من تحت منازلهم ومن بينها لينظروا إليها من أعالي أصرّتهم وشرفات قصورهم .

وقيل إنها تجري بين أيديهم وليس لشيء إلا أن يراد ما بين أيديهم (أمامهم) فإنه شيء يعتدّ به .

(140/354)

وقيل يهديهم نور أعمالهم لما جاء في الحديث أن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة فيقول له أنا عملك فيكون له نورا وقائدا إلى الجنة ، والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة ، فيقول له أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار .

وفي هذه الآية دليل على أن مجرد الإيمان منج ، إذ قال بإيمانهم دون أن يضم إليه العمل الصالح ، وهو لا شك ينجي من التخليد بالنار ويدخل الجنة من لم يتمكن من العمل كمن أسلم ومات قبل أن يقدم عملا صالحا ، فإذا أمكنه تقديم العمل الصالح فهو من باب أولى "فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ 9" الدائم لأمثالهم ، وحرف الجر هنا متعلق بتجري وهو حال من الأنهار "دَعْوَاهُمْ" دعاءهم وهو مبتدأ و"فِيها" متعلق به وخبره "سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ" أي أنهم يدعون اللّه تعالى وينادونه في هذه الجملة الدالة على التنزيه تلذذا بذكره تعالى لا عبادة ، وانهم يقولون هذه الجملة كلما يعايتون شيئا من عجائب آثار قدرته ونتائج رحمته ورأفته "وَتَحِيَّتُهُمْ" فيما بينهم "فِيها" أي الجنة "سَلامٌ" أي يحيي بعضهم بعضا وتحييهم الملائكة في هذه الكلمة أيضا .

وقيل إن جملة سبحانك اللهم علامة بين أهل الجنة والخدم في الطعام ، فإذا أرادوا شيئا قالوها ، فيأتونهم بما تشتهي أنفسهم وتلذّ به أعينهم من الأطعمة التي لا يشبه بعضها بعضا في اللون والطعم والرائحة والآنية واللذة والكم والكيف والماهية والغداء .

فإذا فرغوا حمدوا اللّه تعالى على ذلك بما يلهمهم المنعم عليهم من أنواع التحميد والتقديس التي منها ما حكاه اللّه عنهم بقوله عز قوله "وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ 10" فترجع الموائد عند ذلك واستدل القائل بهذا بما أخرجه ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن ابن جريج قال : أخبرت أن أهل الجنة إذا مرّ بهم الطائر يشتهونه قالوا سبحانك اللهم ، وذلك دعاؤهم ، فيأتيهم الملك بما اشتهوا ، فإذا جاء الملك بسلم عليهم فيردون عليه وذلك قوله وتحيّتهم فيها سلام .

فإذا أكلوا قدر حاجتهم قالوا الحمد للّه رب العالمين ، وذلك قوله تعالى (وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وهذا ترتيب ذكري بحسب الترتيب الوقوعي ، إلا أنه خلاف الظاهر ، والأولى ما ذكرناه ، لأن أهل الجنة يبتدئون أمورهم كلها بتعظيم اللّه تعالى وتنزيه ، ويختمونها بشكره والثناء عليه ، ويتكلمون بينهما بما أرادوا مما يلقيه ربهم على قلوبهم .

أخرج مسلم عن جابر قال سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ، قالوا فما بال الطعام يا رسول اللّه ؟ قال جشاء (أي يخرج جشاء وعرقا) ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس وفي رواية التسبيح والحمد .

وجاء في صحيح مسلم في وصف أهل الجنة يسبّحون اللّه تعالى بكرة وعشيا .

مطلب كراهية الدعاء بالشر على النفس :

(142/354)

قال تعالى "وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ" الذي يدعونه على أنفسهم فيجيب دعاءهم فيه ومنه قول أهل مكة (اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ) الآية 32 من سورة الأنفال في ج 3 ، ومنه قولهم عند سماع الآيات التي فيها الوعيد (مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ) الآية 48 من سورة يس المارة في ج 1 ، ومثلها الآية 38 الآتية وهي مكررة في القرآن كثيرا ، قال ابن عباس المراد في هذه الآية دعاء الرجل على أهله وولده عند الغضب مثل قوله لعنك اللّه ، لا بارك اللّه فيك ، وكذا المرأة تقول لولدها قصف عمرك أعماك اللّه كسرك لا وفقك وشبهه ، وقال قتادة المراد دعاء الرجل على نفسه وماله وأهله وولده بما يكره أن يستجاب له فيه .

راجع الآية 11 من سورة الإسراء في ج 1 أي لو يعجل اللّه للناس استجابة دعاءهم بالشر "اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ" أي كطلبه وإرادة إجابته "لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ" حالا ولفرغ من إهلاكهم من كثرة ما تلوكه ألسنتهم من ذلك الدعاء السيء لكن اللّه تعالى بمنه وكرمه ، قد يستجيب

للداعي بالخير ولا يستجيب له بالشرّ ، قال ابن قتيبة إن الناس عند الضجر يدعون على أنفسهم وأهليهم بالموت وتعجيل البلاء كما يدعون بالرزق والرحمة ، فلو بدلوا الدعاء حال الغضب بالشرّ على أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، بالخير ، لهم لكان أولى وأنفع لهم تحاشيا عن حصول الشر والوقوع بالملامة إذا صادفت الدعوة ساعة إجابة ، حفظنا اللّه من ذلك .

(143/354)

والتفسير الأول أولى وأحسن انطباقا على المعنى ، لأن المراد بالناس في هذه الآية - واللّه أعلم - المذكورون في قوله تعالى (الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا) الآية السابقة ، ويؤيد هذا ما جاء أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث أحد رؤساء قريش مكة القائل (اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ) الآية المارة آنفا ، وعليه يكون المعنى ولو يعجل اللّه لهؤلاء الكافرين العذاب كما يعجل لهم الخير في المال والولد لعجل قضاء آجالهم فأماتهم جميعا ، ويدل على هذا أيضا قوله تعالى تتمة هذه الآية "فَنَذَرُ" نترك ونهجر "الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا" السابق ذكرهم ووصفهم "فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ 11" يترددون من الحيرة في تمردهم وعتوهم ولكنا بمقتضى الحكمة الأزلية لا نعجل الشر لهم ولا ننقص أجلهم عما هو مقدر لهم ، بل نمهلهم

ونستدرجهم ، لا نتركهم ولا نهملهم ، وسنفيض عليهم النعم ونغريهم بالمال والجاء حتى تلزمهم الحجة ويستكملوا جميع ما قدر لهم في أزلنا الذي لا يتبدل ، ثم نأخذهم على غرة .

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال :

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أللهم إني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه فإنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته فاجعلها له صلاة وزكاة وتقربة بها إليك يوم القيامة ، واجعل ذلك كفارة له يوم القيامة .

(144/354)

ولا يقال إن هذه الآية أي (اللَّهُمَّ إِنْ كانَ هذا هُوَ الْحَقَّ) إلخ لم تنزل بعد ، فلا يصح أن تكون الآية المفسرة سببا للنزول في حق القائل لأن الكفرة كانوا يتقولون بما في معناها كلما سمعوا آية وعيد أو تهديد أو تخويف من حضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم بدليل طلبهم استعجال العذاب مثل قولهم (مَتى هذَا الْوَعْدُ) الآية المنوه بها آنفا وأمثالها ، ولأن آية الأنفال لم يكن نزولها في المدينة المنورة كي يحتج بها هذا القائل لأنها نزلت بمكة منفردة عن سورتها وليست هي وحدها بل ما قبلها وما بعدها من الآية 20 إلى 26 نزلت بمكة حكاية عن حالتهم السابقة وتهكم بهم كما سنأتي على ذكرها وسببها عند تفسيرها في القسم المدني

إن شاء اللّه وقد أعمي اللّه قلب النضر المذكور عن أن يقول اللهم إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه ووفقنا له بدلا من أن يقول (فَأَمْطِرْ عَلَيْنا حِجارَةً) إلخ ، ولكن توغله في الضلال وتماديه في العناد أداء إلى قوله ذلك ، لأن اللسان ينطق بما يتلقاه عن القلب والدنّ ينضح بما فيه من خذلان اللّه إياه ، قال تعالى "وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ" الشدة والضنك "دَعانا لِجَنْبِهِ" مضجعا "أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً" أي أنه يثابر على الدعاء في جميع أحواله وحالاته "فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ" الذي أنهكه بعد أن التجأ إلينا ودعانا "مَرَّ" مضى واستمر على حالته الأولى من الإعراض عنا ونسي حالة الجهد والبلاء ولم يركن إلينا ويدعنا شكرا على رحمتنا به وإجابتنا لدعائه ، وصار من شدة غفلته وعمهه وإعراضه وانهماكه في زخارف الدنيا وشهواتها

(145/354)

"كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا" قبل "إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ" وكأنه لم يصبه شيء من الفقر والفاقة والمرض البتة "كَذلِكَ" كما زينا لهذا الإنسان جهله القبيح ونسيانه المليح "زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ" الذين تجاوزوا حدود اللّه وأفرطوا بكل صفة ذمية وفرطوا بكل خصلة ممدوحة فرأوا حسنا "ما كانُوا يَعْمَلُونَ 12" من القبائح والإعراض عن اللّه تعالى والانهماك في الشهوات والمثابرة على

الكفر .

ونائب فاعل زين هو لفظ ما الذي هو بمعنى الذي ، أي العمل السيء الذي كانوا يعملونه بإغواء الشياطين وتسويلاتهم .

وفي هذه الآية ذم لمن يترك الدعاء في الرخاء ويهوع إليه في الشدة .

ومما يليق بالكامل أن يتضرع إلى مولاه في السراء والضراء فهو أرجى للإجابة ، وأن يكثر الخوف حالة الرخاء والصحة ، والرجاء حالة الفاقة والمرض ، فهو أجدر بالخضوع إلى اللّه .

جاء عن أبي الدرداء : أدع اللّه تعالى يوم صرائك يستجب لك يوم ضرائك .

وعن أبي هريرة : من صره أن يستجاب له عند الشدائد والكروب فليكثر الدعاء في الرخاء .

وجاء عنه صلى اللّه عليه وسلم : تعرف إلى اللّه في الرخاء يعرفك في الشدة .

وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في تفسير الآية 83 من سورة الإسراء في ج 1 فراجعه .

والمراد بالإنسان هنا من حيث اللفظ والمعنى الكافر بقطع النظر عن كونه معينا فتشمل الآية من نزلت فيه وغيره من كل من هذه صفته من الكافرين والعاصين غير المبالين بما يفعلون ، لأن أل فيه للجنس ويدخل تحت الجنس عموم أفراده .

هذا ، واعلم أن المزين في الحقيقة للعمل هو اللّه تعالى ، لأنه مالك الملك ، والخلق كلهم عبيده

يتصرف فيهم كيفما شاء وأراد .

راجع قوله تعالى :

)

(146/354)

أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) الآية 57 من سورة الأنعام الآتية ، وقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ) الآية 96 من سورة الصافات ، وقوله تعالى (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ ما فَعَلُوهُ) الآية 135 من الأنعام أيضا ، وإذا كان للشيطان سبب ظاهري فيكون بإقدار اللّه تعالى إياه ، وإلّا فهو عاجز أيضا عن أن يقسر الإنسان على فعل شيء أو عدمه ، راجع قوله تعالى (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً) الآية 76 من سورة النساء في ج 3 ، والآية 31 من سورة إبراهيم الآتية ، وقدمنا ما يتعلق في هذا البحث في تفسير الآية 121 من سورة طه المارة في ج 1 ، وفيها ما يرشدك

إليه من المواضع التي فيها هذا البحث فراجعها .

(147/354)

قال تعالى "وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ" السابقة كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بينا ما يتعلق بالقرن في الآية 15 من سورة الإسراء المارة في ج 1 فراجعها "مِنْ قَبْلِكُمْ" يا أهل مكة وقد التفت بالخطاب تعالى خطابه إليهم مبالغة في التشديد والتهديد "لَمَّا ظَلَمُوا" أنفسهم بتكذيبهم آياتنا ونماديهم في الغي والبغي "وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" الواضحة فكذبوهم كما كذبتم محمدا يا أهل مكة الذي جاءكم بمثلها "وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا" برسلهم مثلكم بل بقوا مصرّين على كفرهم "كَذلِكَ" مثل ما جزيناهم بالهلاك "نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ 13" منكم فنهلككم أيضا وكذلك نجزي كل طائفة مجرمة لم ترجع عن كفرها بالهلاك "ثُمَّ جَعَلْناكُمْ" يا قريش بعد إهلاك القرون الماضية "خَلائِفَ" لهم "فِي الْأَرْضِ" لإعمارها ونشر السلام فيها وعبادة مكونها وحده "مِنْ بَعْدِهِمْ" أي الهالكين الذين أساؤا التصرف بها وعبدوا الأوثان "لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ 14" هل تقتفون آثارهم فتستحقون الإهلاك مثلهم أو تعملون خيرا فتستوجبون النجاة في الدنيا من عذاب الاستئصال والجنة في الآخرة والنعيم الدائم .

واعلم أن كلمة كيف منصوبة بتعلمون لا بننظر قبلها لأن معنى الاستفهام فيه يمنع تقدم عامله وعليه يكون المعنى أنكم أيها الناس بنظر منّا وتحت مراقبتنا فانظروا كيف تعملون أتعتبرون بمن قبلكم فتفوزون بالنجاح ، أم تعترون بما أنتم عليه فتهلكون ، والله تعالى لا ريب عالم بما يقع منهم قبل وقوعه ناظر إليه قبل شروعهم فيه ، وإنما قال لهم ذلك إظهارا لقوله

سبحانه لعباده بأن يعاملهم معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه على حد قوله تعالى (لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) الآية الثانية من سورة تبارك الملك الآتية فيظهره لخلقه ليتيقنوا أن من يعمل صالحا يجازى بأحسن منه ، ومن يقترف طالحا يجازى بمثله .

(148/354)

مطلب ذم الدنيا وحالة الرسول وعمر فيها :

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال إن الدنيا

حلوة خضرة ، وإن اللّه مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا ، واحذروا فتنة النساء أي وفتنتها ، ولا تعتروا بزخرفها وخذوا منها ما يكفيكم ، ودعوا الفضل تكونوا فاضلين .

قال تعالى (قُلْ مَتاعُ الدُّنْيا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقى) الآية 77 من سورة النساء في ج 3 ، وليعلم أنه لم يؤت الإنسان في هذا القليل إلا قليلا ، وهذا القليل إن تمتّعت به فهو لهو ولعب ، قال تعالى (أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ) الآية 21 من سورة الحديد في ج 3 ، وقال تعالى (وَما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ)

الآية 14 من سورة العنكبوت ومثلها 32 من سورة الأنعام الآتيتين ومثلها الآية 36 من سورة محمد في ج 3 ، فعلى العاقل أن لا يشري حياة قليلة فانية بحياة كثيرة باقية ، قال ابن عياض لو كانت الدنيا ذهبا يفنى والآخرة خزفا يبقى لوجب أن نختار ما يبقى على ما يفنى ، قال تعالى (فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) الآية 24 من سورة لقمان الآتية .

وقال صلى اللّه عليه وسلم لو كانت الدنيا تزن عند اللّه جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء .

(149/354)

وعن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ألا أريك الدنيا بما فيها قلت بلى يا رسول اللّه ، فأخذ بيدي وأتى إلى واد من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رءوس الناس وقذرات وخرق بالية وعظام البهائم ، فقال يا أبا هريرة هذه الرءوس كانت تحرص حرصكم وتأمل آمالكم ، وهي اليوم صارت عظاما بلا جلد ثم هي صائرة عظما رميما ، وهذه القذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها في الدنيا ، فأصبحت والناس يتحامونها ، وهذه الخرق البالية رياسهم أصبحت والرياح تصفقها ، وهذه العظام

عظام رءوس دوابهم التي كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ، فمن كان باكيا على الدنيا فليبك ، قال فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا .

وروي أن عمر بن الخطاب دخل على النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو على سرير من الليف وقد أثر الشريط في جنبيه ، فبكى عمر فقال صلى اللّه عليه وسلم ما يبكيك يا عمر ؟ فقال تذكرت كسرى وقيصر وما كانا عليه فيه من سعة الدنيا وأنت رسول اللّه وقد أثر الشريط في جنبيك ، فقال صلى اللّه عليه وسلم هؤلاء قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن قوم أخرت لنا طيباتنا ،

وقد تمثل عند ما آلت له الخلافة بالآية الآتية الدالة على معنى قوله صلى اللّه عليه وسلم هذا وذلك أن ضيفا جاءه ذات يوم وأمامه قصعة يأكل منها وبجانبه ضيفان يأكلان على قصعة أخرى ، فجلس معه فرأى عظاما وعصبا ، فقال ما هذا يا أمير المؤمنين ؟ فقال هذا الذي ترى إنا إذا ذبحنا الجزور بعثنا بمطايب اللحم إلى آل محمد ، والذي يليه للمهاجرين والأنصار ، والذي يليه للضيفان ، وما بقي من عظم وعصب لعمر وآل عمر ، فبهت الرجل ثم قال له عمر اعلم أيها الرجل أنا أعلم بصلاء الجداء منكم ، ولكن نتركه لئلا يقال لنا غدا (أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا) الآية 21 من سورة الأحقاف الآتية .

(150/354)

قيل أن تيمور لنك لما أسر ببلد رم با يزيد قال له هل أنت آسف ؟ قال وكيف لا ، فقال لا تأسف فلو كانت الدنيا تساوي عند اللّه ذرة ما ملكها لمثلك أعور ومثلي أعرج ، ثم قال له أتدري من الملك ؟ قال أنت ، قال لا ، الملك من يشهد له الناس في اليوم والليلة على رءوس المنابر خمس مرات .

فتدبر قوله هذا ، واعلم أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها أخذها .

قال تعالى "وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا" المعنيون بالآيات السابقة ، وقد وضع الموصول فيها موضع الضمير إشعارا بالذّم لهم أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو محمد صلى اللّه عليه وسلم إن كنت تريد أن نؤمن بك "ائْتِ" لنا "بِقُرْآنٍ" ليس فيه عيب آلهتنا ولا ترك عبادتها "غَيْرِ هذا" الذي تتلوه علينا المملوء بما نكره المحشو بتنديد ما نعبده "أَوْ بَدِّلْهُ" بأن تجعل الآية المشتملة على سب آلهتنا آية أخرى في مدحها ، ومن هؤلاء الخبثاء عبد اللّه بن أمية المخزومي والوليد ابن المغيرة ومكرز بن حفص وعمر بن عبد اللّه بن أبي قيس العامري والعاص بن عامر بن هشام ، وقد قالوا هذا لحضرة الرسول على طريق التجربة والامتحان ليعلموا صدق قوله وعدمه ، فأجابهم اللّه تعالى عن التبديل لأنه في طوق البشر بقوله "قُلْ يا محمد لهؤلاء العتاة "ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي" لأني لم آت به من جهة نفسي كي أتمكن من تبديل شيء منه ، ولا ينبغي لي أن أفعل هذا "إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا

ما يُوحى إِلَيَّ" من ربي فلا أقدر أن أزيد فيه شيئا ولا أنقص البتة "إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي" بالإقدام على تبديل

(151/354)

حرف أو زيادته أو نقصه "عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ 15" هو يوم القيامة الذي لا أعظم منه هولا ، وهذا جواب لكم عما طلبتموه من التبديل ، أما الإتيان بقرآن آخر غير هذا فهو خارج عن طوق البشر ، فلا أقدر أنا ولا غيري عليه البتة ، وهذا وما بعده في الآية رد صريح على من يقول إن القرآن أتى به محمد من عند نفسه ، وكثير من آيات هذه السورة جاءت بمعرض الرد على هذا وآيات غيرها في السور الأخرى أيضا صريحة بالردّ على هؤلاء الذين يشكون يكون هذا القرآن من عند اللّه ، وقد أكد ذلك بقوله جل قوله لحبيبه "قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ" لأني أمي كما تعلمون لا أحسن القراءة والكتابة وإن تلاوتي له عليكم أمر غريب أبرزه لكم ، وإن إظهار أمر عجيب خارج عن العادة وخارق لها وإن أمّيا مثلي لم يتعلم ولم يشاهد العلماء أو يجالسهم وقد قضى ردحا من عمره بين أظهركم وأنتم تعلمون ذلك إذ أنتم أميون مثلي فقراءتي عليكم كتابا بكلام فصيح يعلو على كل فصيح مشحونا بالأخبار الغيبية مما لا يعلمه إلا اللّه لمن أغرب الأمور وأعجبها إن كنتم تعقلون ، واعلموا يا قومي أن

اللّه تعالى لو شاء لم ينزله علي ولم يأمرني بتلاوته "وَلا أَدْراكُمْ بِهِ" ولا أعلمكم بذلك على لساني لأن الأمر منوط به وليس لي شيء منه أصلا ، لأني عاجز عن الإتيان بشيء منه مثلكم وقرىء (ادرأتكم) بإسناد الفعل إلى حضرة الرسول عطفا على ما تلوته لتوحيد الضميرين ، والقراءة المشهورة هي ما في المصاحف بإسناد الضمير إلى اللّه تعالى وهي أبلغ في المعنى "فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً" مدة أربعين سنة "مِنْ قَبْلِهِ" قبل إنزاله علي من قبل اللّه وتلاوتي إياه عليكم ، فلو كان شيء منه في نفسي لتلوت عليكم خلالها شيئا منه وهذا دليل كاف على ردّ زعمكم بأن هذا القرآن من عندي أو أني تلقيته من الغير ، أو أني أقدر على الإتيان بشيء منه ، وإلا لوقع منّي ولو بعض آية

(152/354)

على طريق السهو على الأقل طيلة تلك المدة .

وبما أنكم يا قوم تعلمون عدم وقوع شيء مني من هذا القرآن ، ولم أقل لكم إنه أنزل علي شيء منه ، ولم أدّع النبوة التي شرفني اللّه بها إلا بعد مضي الأربعين من عمري ، وإذا علمتم هذا وتحققتم عدم ادعائي شيئا من ذلك فاعلموا أنه من عند اللّه ، وأن البشر كلهم عاجزون عن الإتيان بآية

منه أو أقل ، وعاجزون عن تبديل ما أوحي إلي منه أيضا ، وإني أبرأ مما تتوهمونه وما تسندونه إلي مخافة عذاب اللّه ربي "أَفَلا تَعْقِلُونَ 16" ما وضحته لكم وتعترفون بأني نشأت بينكم ولم أغب عنكم لأنهم بالتعليم من الغير ، فمن له منكم مسكة من عقل سليم وذهن مستقيم يعلم صحة ذلك ، ويعرف بأن هذا الذي أتلوه عليكم منزل من عند اللّه العزيز الحكيم وكما أنكم عاجزون كلكم عن الإتيان بمثله فأنا مثلكم عاجز أيضا لأني من أحدكم فاتقوا اللّه وآمنوا به يا قوم لعلكم تفلحون .

(153/354)

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال : نزل القرآن على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو ابن أربعين سنة (أي بعد كما لها لأن النزول بدأ في الإحدى والأربعين من عام ولادته صلى اللّه عليه وسلم فمكث ثلاث عشرة سنة يوحى إليه (أي القرآن إلا شهورا) ثم أمر بالهجرة فهاجر إلى المدينة فمكث فيها عشر سنين (أي يوحى إليه أيضا) ثم توفي صلى اللّه عليه وسلم ، فيكون عمره الشريف ثلاثا وستين سنة وهو الصحيح من أقوال ثلاثة ، لأن من قال إن عمره ستون سنة اقتصر على العقود وترك الكسر وهو ما بين العقدين وكل عشر سنين يسمى عقدا ، ومن قال خمس وستون حصل له

اشتباه في مدة الإقامة بمكة والمدينة من حساب السنة مرتين ، قال تعالى "فَمَنْ أَظْلَمُ" لا أحد أكثر ظلما ولا أعظم ذنبا "مِمَّنِ افْتَرَى" اختلق من تلقاء نفسه "عَلَى اللَّهِ كَذِبًا" فنسب إليه ما لم يكن من الشريك والصاحبة والولد "أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ" المنزلة على أنبيائه فكان مجرما بافترائه هذا "إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ 17" المقترفون أوزارا توجب هلاكهم في الدنيا وإهلاكهم في الآخرة وإذا كان كذلك ، فاعلموا يا قوم أن من أعظم الإجرام أن آتيكم بشيء ليس من عند اللّه وأقول لكم هذا من عنده فكيف يسوغ لي أن أجرؤ على ذلك أو يتسنى لي الإقدام عليه كلا لا يجوز لي ذلك أبدا فأكون مفتريا على اللّه مزورا عليكم بهتا واختلافا ، ولكنكم أنتم افتريتم على اللّه تعالى فنسبتم له شريكا وصاحبة وولدا وهو منزه عن كله ، ونسبتم لي الافتراء والسحر والكهانة والتعليم من الغير ، وأنا بريء من ذلك كله ، فكنتم مجرمين مستحقين عذاب اللّه ، قال تعالى "وَيَعْبُدُونَ" هؤلاء الكفرة المكذبون أوثانا "مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ" إن تركوا

(154/354)

عادتها "وَلا يَنْفَعُهُمْ" إن عبدوها لأنها حجارة لا تحس بالتعظيم والتبجيل والعبادة التي هي أعظم أنواع التعظيم لا تليق إلا لمن يضر وينفع بأن يقدر على الإحياء والإماتة والخير والشر

والصحة والمرض والفقر والغنى "وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ" الأوثان جهلا منهم وسخافة بهم "شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ" مع علمهم بأنها لا تضر من جحدها ولا تنفع من اعترف بها ، ويقولون ما حكى اللّه عنهم في الآية 3 من سورة الزمر الآتية (ما نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونا إِلَى اللَّهِ زُلْفى) كما سيأتي بعد من أن هؤلاء العتاة توهموا أن عبادة الأوثان أشدّ وأكثر ، في تعظيم عبادة اللّه وحده لزعمهم أنهم ليسوا بأهل لأن يعبدوا اللّه الإله الواحد رأسا ، بل يعبدون هذه الحجارة والأخشاب ، تقربا إلى اللّه تعالى ، ويقولون إنها واسطة بينهم وبينه وإنها تشفع لهم عنده في الدنيا لإصلاح معاشهم ، إذ جعلوها على صور رجال صالحين بزعمهم ذوي خطر عندهم ومكانة عالية ، أما الآخرة فلا يحسبون لها حسابا لأنهم لا يعتقدون بالبعث بعد الموت ، وقد حكى اللّه عنهم بقوله عز قوله : (وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ) الآية 39 من سورة النحل الآتية ، ومن يقول منهم على طريق الشك إن هناك آخرة فيعتقدون أنها تشفع لهم فيها أيضا عند اللّه إن كان هناك آخرة على ما يزعم محمد وأصحابه فيها بعث ونشور وحساب وعقاب وجزاء ، وإن الشفاعات تنفع لأن محمدا يقول بها فإنا نتخذها لتشفع لنا أيضا وقد عبدناها في الدنيا لتكون شافعة لنا في الآخرة ، أخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال : كان النضر بن الحارث يقول إذا كان يوم القيامة شفعت اللّات والعزّى وفيه نزلت هذه الآية ونزولها فيه لا يقيدها بل تشمل كل من قال قوله

بشفاعة الأوثان أو اشتراكها مع الرحمن "قُلْ" يا أكرم الرسل "أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ" وجوده "فِي السَّماواتِ" "وَلا

(155/354)

فِي الْأَرْضِ" وتسمونه شريكا له وشفيعا عنده ، وهو لا يعلم له شريكا البتة ولم يعط الشفاعة لديه أحدا من أهل السموات والأرض إلا لمن يرضاه ولم يفوض من يرضاه بالشفاعة إلا لمن يرتضيه "سُبْحانَهُ وَتَعالى" من أن يتفوّه أحد بمثل ذلك عليه ، وله البراءة والتنزيه "عَمَّا يُشْرِكُونَ 18" معه من الأنداد والأضداد ، تعالى عن ذلك كله علوا كبيرا .

قال تعالى "وَما كانَ النَّاسُ"

في عهد آدم عليه السلام "إِلَّا أُمَّةً واحِدَةً" حنفاء للّه متفقين على عبادته وطاعته واستمر الأمر كذلك إلى

أن أغوى إبليس قابيل فقتل أخاه هابيل "فَاخْتَلَفُوا" بعد هذه الحادثة الأولى من نوعها لأنه أول شر وقع على وجه الأرض ، فتفرقوا من أجلها ، إذ أن قابيل أخذ أخته وهرب من وجه أبيه ، وبقي آدم ومن معه على عبادة اللّه وطاعته ، وكفر قابيل ومن معه ، فصاروا قسمين مؤمنين وكافرين ، وهذا التفسير أولى من القول بأن الناس كانوا أمة واحد متفقين على

الكفر والمكر من زمن نوح عليه السلام ، مستدلا بقوله تعالى (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) الآية 13 من سورة البقرة في ج 3 ، لأن هذه الآية تنطبق على قوم نوح عليه السلام إذ بعث فيهم وكلهم كافرون ، ولذلك عمهم اللّه بالعذاب ولم يبق على وجه الأرض منهم أحدا إلا نوحا ومن آمن به ، كما فصلناه في الآية 58 من الأعراف في ج 1 ، ولهذا البحث صلة في الآية 24 من سورة هود الآتية .

(156/354)

هذا إذا كان المراد بالناس على الإطلاق فيجوز أنهم كانوا كذلك وتفرقوا ببعثته عليه السلام ، إذ خالفوا أمره واختلفوا فيما بينهم على إجابة دعوته ، هذا إذا كان المراد بالناس العرب خاصة ، فيكون المعنى أنهم كانوا على دين الإسلام من عهد إسماعيل عليه السلام ، إذ أن أباه إبراهيم عليه السلام سمى أتباعه المسلمين كما سيأتي في الآية الأخيرة من سورة الحج في ج 3 ، وبقوا مسلمين إلى أن غيّره عمرو بن لحى ، إذ سن لهم عبادة الأوثان ، وهو أول من عبدها ، إذ أنهم كانوا على الفطرة السليمة الصحيحة أول الخلق ، ثم اختلفوا في الأديان وإليه الإشارة بقوله صلى اللّه عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه والمراد بالفطرة في الحديث فطرة الإسلام لأنه دين الفطرة دين الحق

والصدق .

والتفسير الأول أولى ، لأن الاختلاف وقع بعد حادثة ابني آدم عليه السلام كما ذكرناه آنفا .

وفي هذه الآية تسلية لحضرة الرسول صلى اللّه عليه وسلم إذ يخبره ربه عز وجل بأن لا مطمع لصيرورة الناس كلهم على دين واحد كما يريد لأن اللّه أراد ذلك كما سيأتي في الآيتين 117/ 118 من سورة هود الآتية ، قال تعالى "وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ" وهي جعله لكل أمة أجلا وقضى بسابق أزله تأخير العذاب عن

(157/354)

قومك وإمهالهم للإيمان به "لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" بتعجيل عقوبة المكذبين وعدم إمهالهم ، ولكان إنزال العذاب العاجل بهم فصلا بينهم "فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 19" ولأراهم المحق من المبطل وأهل النعيم من أهل الجحيم حالا ، ولكن اقتضت حكمته ذلك التأخير ليبلغ كل منهم جهته المتجه إليها بأعماله التي يزاولها وإظهار ما خفي في نفسه إلى الناس ، ليعلموا أن اللّه تعالى لا يؤاخذ أحدا إلا بعد إقامة الحجة عليه ، لأن من مفاد رحمته التي سبقت غضبه تأخير القضاء فيهم ليوم القضاء ، قال تعالى حاكيا جنايتهم الأخرى "وَيَقُولُونَ" لبعضهم كفرة قومك يا سيد الرسل "لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ" محسوسة مشاهدة كآية موسى عليه

السلام اليد والعصا وآية عيسى عليه السلام إبراء الأكمه والأبرص لآمنا به ، وبما أنه لم يأت بشيء من ذلك ولا مما اقترحناه عليه مما ذكر في آية الفرقان 6 فما بعدها ، وآية الإسراء 90 فما بعدها المارتين في ج 1 فلا نؤمن به "فَقُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء العمه القلوب الذين أعمى الطيش أبصارهم وملأ الحمق قلوبهم إنما تطلبونه من الغيب و"إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ" وحده اختص به نفسه وليس من خصائص البشر مثلي "فَانْتَظِرُوا" حصول ما تطلبونه من الآيات من اللّه الذي أعطاها للأنبياء قبلي "إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ 20" ذلك لأن الأنبياء لم يأتوا بالآيات من أنفسهم ، وهذه الآية جواب لهم وتهديد ووعيد بأنهم إذا لم يكتفوا بما أنزل اللّه من القرآن والآيات الأخر كانشقاق القمر والأخبار بالغيبات فإن اللّه تعالى ينزل بهم عذابه فلينتظروه لأن سؤالهم هذا بعد ما أراهم اللّه من الآيات على يد نبيه محمد صلى اللّه عليه وسلم عبارة عن تعنت وعناد ، ولو أنصفوا لاكتفوا بالقرآن العظيم الباقي إعجازه على ممر الدهور ، لأنه الآية الكبرى والنعمة العظمى ،

(158/354)

قال تعالى "وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً" من خصب وسعة وصحة وجاه "مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ" قحط وفقر ومرض وذلة "مَسَّتْهُمْ" حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم ، أسند جل شأنه ضمير

إذاقة الرحمة إليه وضمير الضراء إليهم ليتعلمّ الناس الأدب بتعاليم اللّه تعالى المبينة في هذا القرآن ، فيسندوا كل ما يدل على الخير إليه تعالى وما يدل على الشر إليهم أنفسهم ، وليتأدبوا أيضا بعضهم مع بعضهم بمقتضى تفضيل اللّه

بعضهم على بعض فيعرفوا قدر ذوي المكانة منهم فيخاطبوهم بما يليق بهم ، فهو أحرى بقضاء حوائجهم عندهم واحترامهم لديهم "إِذا لَهُمْ مَكْرٌ" كيد (والمكر صرف الشيء عن وجهه الظاهر لنوع من الحيلة) خفي منطوي في قلوبهم المريبة "فِي آياتِنا" إذ كذبوا بها واستهزأوا بمن أنزلت عليه من الأنبياء الأقدمين كفعل قريش بمحمد رسولهم .

مطلب الأنواء والحكم الشرعي فيها والإبرة المحدثة :

أخرج في الصحيحين عن زيد ابن خالد الجهني قال : صلى بنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء (أي مطر وسمي سماء لأنه يقطر منها) كانت من الليل فلما انصرف أقبل على الناس ، فقال هل تدرون ماذا قال ربكم ، قالوا اللّه ورسوله أعلم ، قال قال أصبح من عبادي مؤمن وكافر ، فأما من قال مطرنا بفضل اللّه ورحمته ذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب .

والنوء جمع أنواء وهي منازل القمر عند العرب فإذا طلع نجم سقط نظيره فيستدلون من ذلك على وجود مطر أو ريح كالمنجمين ، فمنهم من ينسب ما يحدث من المطر والريح إلى تأثير الطالع ، ومنهم ينسبه إلى تأثير الغارب ، ومعلوم أن العلماء استحدثوا الإبرة التي تتأثر من وجود الريح والمطر وغيره في الجو قبل وصوله إلى المحل الذي فيه الإبرة ، فيخبرون بما يرون من تأثيرها من تموجات الجو ، وقد أشار إلى هذا القرآن الكريم بقوله جل قوله : (هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ) الآية 57 من الأعراف المارة فراجعها تعلم حقيقة قوله تعالى (ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ) الآية 38 من الأنعام الآتية ، روي أن اللّه تعالى سلط القحط سبع سنين على أهل مكة ، حتي كادوا يهلكون ، ثم رحمهم اللّه تعالى بالحيا أي المطر ، قال الأبوصيري :

إن الحيا ينبت الأزهار في الأكم .

فلما رحمهم وخصبت أراضيهم وكثر عليهم الخير ، طفقوا يطعنون بآيات اللّه ويعادون رسوله ويكذبونه ويقولون لم نمطر بدعائه ولا ببركته ، وإنما مطرنا بنوء كذا وكذا ، فأنزل اللّه هذه الآية .

لحكم الشرعي : هو أن من يعتقد أن للنجوم والأنواء تأثيرا فعليا بإنزال المطر

وغيره من دون اللّه فهو كافر ، وما جاء بالحديث الشريف المذكور أعلاء يصرف لهذه الفئة ، أما من يعتقد أن التأثير عندها لا بها وينسب الفعل إلى اللّه تعالى فلا يكفر ، وكذلك من يعتقد أن التأثير بها على معنى أن اللّه تعالى أودع فيها قوة مؤثرة فمتى شاء أثرت ومتى شاء لم تؤثر ، وكذلك من أسند ذلك إلى العادة التي يجوز انخرامها لا يكفر ، والأولى عدم اعتقاده بذلك أيضا ، وأما من يستدل بذلك على حدوث المطر والريح وأنه قد يحصل بإذن اللّه تعالى وقد لا يحصل فلا شيء عليه لأنه لم يجزم بالحصول كما أن الإبرة ، إنما تدل عند ترطب الجو على حصول المطر أو حصول أرياح وزوابع لتأثرها بذلك كما ذكرنا آنفا ، وأنه قد يقع ما تدل عليه خلال أربع وعشرين ساعة ، وقد لا يحصل ما تدل عليه لطوارئ طرأت على تبدل حالة الجو التي كانت عليه أولا ، وهذه لا تعارض قوله تعالى في الآية الأخيرة من سورة لقمان الآتية الدالة على أن نزول الغيث خاص بعلمه تعالى ، لأنه في الحقيقة لا يعلم وقت نزوله إلا اللّه ، كما أن الغيب لا يعلمه غيره ، لأن الإبرة المذكورة لا تدل على أنه ينزل ساعة كذا أو دقيقة كذا ، لأنها إذا بقي الجو على حالته قد تصدق خلال أربع وعشرين ساعة وإلا فلا ، لأنه من علم الغيب وذلك من التوسم الداخل في قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ

لِلْمُتَوَسِّمِينَ) الآية 75 من سورة الحجر الآتية ، قال تعالى "قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً" منكم وأعجل عقوبة وأشد أخذا ، ثم هددهم بقوله "إِنَّ رُسُلَنا" الملائكة الموكلين بحفظكم في الأرض من طوارق الجن والشياطين "يَكْتُبُونَ" في صحفهم "ما تَمْكُرُونَ 21" في هذه الدنيا وتعرض عليكم صحفهم في الآخرة لتجازون بمقتضاها ، وهناك يتضح ما كنتم تخفونه من المكر وغيره قابل اللّه تعالى مكرهم بأشد منه ، إذ خبأ لهم جزاء كيدهم إلى يوم القيامة وأمهلهم في هذه الدنيا ليزدادوا إثما .

(161/354)

واعلم أن عرض صحف الملائكة على الناس كأفلام السينما الآتي بيانها في الآية 29 من آل عمران في ج 3 والآية 49 من سورة الكهف الآتية ، قال تعالى "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ" يا أهل مكة كغيركم "فِي الْبَرِّ" على دوابه وانعامه "وَالْبَحْرِ" على فلكه وسفنه ويهديكم إلى مقاصدكم بالعلامات الأرضية من الأودية والجبال والأنهار والعلامات السماوية من النجوم السيارة والثابتة ويسهل لكم أسباب معايشكم "حَتَّى إِذا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ" أي الفلك بأداة الجمع ، لأن فلكا يطلق على الواحد والمتعدد وصرف الكلام من الخطاب إلى الغيبة على طريق الالتفات أحد أبواب البديع قصدا للمبالغة ، كأنه يذكرها لهم بغيرهم ليعجّبهم

منها ويطلب زيادة الإنكار ، لأن الالتفات على الوجه المار ذكره أو بعكسه من أنواع الفصاحة في الكلام "بِهِمْ" بركاب تلك السفن "بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ" لينة الهبوب لا خفيفة ولا عاصفة ، وما قيل إنها ساكنة فيكون المراد بها هذا المعنى لا إنها واقفة ، إذ لا يستفاد منها بالسير "وَفَرِحُوا بِها" ركابها لموافقتها لمقصودهم ولوجود النفع التام بها والمسرة العظيمة لاستقامة سيرهم وتيسيره "جاءَتْها" جاءت تلك السفينة السائرة بذلك الهواء اللين أو جاءت تلك الريح الطيبة "رِيحٌ عاصِفٌ" شديد سريع الجريان قاطع للأجسام الصلبة ولم يقل عاصفة لأن عاصفا يستوي فيه المذكر والمؤنث "وَجاءَهُمُ" أي ركاب ذلك الفلك بسبب تلك الريح "الْمَوْجُ" هو ما علا وارتفع من اضطراب المياه وغواربها من شدة حركة ماء البحر واختلاطه بعضه ببعض "مِنْ كُلِّ مَكانٍ"

(162/354)

من أطرافهم الأربع ومن تحتهم وفوقهم "وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ" من الجهات الست ، وأشرفوا على الغرق وتيقنوا الهلاك ، "دَعَوُا اللَّهَ" وحده لا غير "مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ" إخلاصا حقيقيا لعلمهم يقينا أنه لا ينجيهم من الشدائد والبلايا إلا هو وأن أوثانهم لا تغني عنهم شيئا من ذلك قائلين "لَئِنْ أَنْجَيْتَنا" يا ربنا "مِنْ هذِهِ" الشدة "لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ 22" أنعامك علينا

بخلاصنا موقنين بأنك الإله الواحد ، مؤمنين بصدق أنبيائك ، متمسكين بطاعتك ، ولم يقولوا لنشكرنّك مبالغة في الدلالة على الثبوت في الشكر والمثابرة عليه ، لأن اسم الفاعل يدل على الدوام والتجدد ، والفعل يدل على الإنشاء فقط ، قال تعالى "فَلَمَّا أَنْجاهُمْ" الذي استغاثوا به جل جلاله من ذلك الضيق الذي أحاط بهم بسبب التجائهم إليه "إِذا هُمْ يَبْغُونَ" يفسدون "فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ" يعبثون

بمن يمشي عليها ويتجاوزون عليهم ويعملون بغير ما أمروا وأخلفوا ما وعدوا اللّه به من الشكر والإيمان ، قال تعالى "يا أَيُّهَا النَّاسُ" الباغون المتجاوزون

على الغير "إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ" يعود إثمه ووباله ، قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها) الآية 45 من سورة الجاثية ونظيرتيها الآية 56 من سورة الشورى الآتيتين ، واعلموا أنكم تتمتعون ببغيكم هذا "مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا" مدة حياتكم فيها وهي قليلة "ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ" في الآخرة الدائمة "فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ 23" بأن نخبركم في الآخرة عن أعمالكم في الدنيا ونجازيكم عليها الخير بأخير منه وانشر بمثله .

مطلب البغي ومتى يكون مذموما ومتى يكون ممدوحا وحكمه :

ولما كان البغي قد يكون بحق مثل هدم دور الكفرة والمعاندين وقطع أشجارهم وحرق زروعهم عند ما يستولي المسلمون عليها عنوة ، كما فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في يهود بني قريظة الآتية قصتهم في الآية 26 من سورة الأحزاب ، والآية 5 من سورة الحشر ، ويكون بغير حق كأخذ مال الغير ظلما ومجاوزة حدود اللّه تعالى عتوا ، قيّد تبارك وتعالى البغي في هذه الآية بغير الحق لأنه مذموم ، وقد يكون البغي ممدوحا وهو مجاوزة العدل إلى الإحسان ، والفرض إلى التطوع ، والقصاص إلى العفو ، والحق إلى السماح ، لأن معناه اللغوي مجاوزة الحد مطلقا ، وقد تكون هذه المجاوزة في الخير كما ذكرنا فيكون ممدوحا ، وقد يكون في الباطل فيكون مذموما ، وهو بمعناه هذا من أعظم منكرات الذنوب ، لأن معناه الاصطلاحي الإفساد والتجاوز على أموال الناس وأنفسهم ، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لو بغى جبل على جبل لدك الباغي منهما ، وقد نظم بعضهم معنى هذه الجملة في بيتين من الشعر وكان الخليفة المأمون العباسي رحمه اللّه يتمثل بهما وهما :

يا صاحب البغي إن البغي مصرعه فارجع فخير مقال المرء أعدله

فلو بغى جبل يوما على جبل لا ندك منه أعاليه وأسفله

وقال أيضا :

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكا جنوده ضاق عنها السهل والجبل

ونظمها أيضا الشهاب فقال :

إن يعد ذو بغي عليك فخله وارقب زمانا لانتقام باغي

واحذر من البغي الوخيم فلو بغى جبل على جبل لدك الباغي

وأقبح أنواع البغي في الحكام قال بهرام وهو لا يعرف الإسلام : أسد حطوم خير من ملك غشوم ، وملك غشوم خير من فتنة تدوم ، فكيف بمن هو مسلم مؤمن ؟ وإن العقلاء حذّروا من غلطة السلطان العادل فكيف بغيره ؟ قال الإسكندر :

على العاقل أن يكون مع السلطان كراكب سفينة ، إن سلم جسمه من الفرق لم يسلم قلبه من الخوف .

أخرج أبو نعيم والخطيب والديلمي عن أنس قال :

(164/354)

قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ثلاث هنّ على أهلها المكر والنكث والبغي ، ثم تلا عليه الصلاة والسلام هذه الآية (يا أَيُّهَا النَّاسُ) إلخ ، وتلا (وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ) الآية 43 من سورة فاطر المارة في ج 1 ، وتلا (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ) الآية 10 من سورة الفتح في ج 3 .

وأخرج البيهقي في الشعب عن أبي بكرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : ما من

ذنب أجدر أن يعجل لصاحبه العقوبة من البغي وقطيعة الرحم .

وأخرج أيضا من طريق بلال بن بردة عن أبيه عن جده عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال : لا يبغي على الناس إلّا ولد بغي أو فيه عرق منه .

هذا ، وقرىء متاع بالرفع على أنه كلام مبتدأ أي بغي بعضكم على بعض باطلا هو متاع الحياة الدنيا ، ولا يصلح لزاد الآخرة .

وقراءة الفتح التي جرينا عليها تبعا لما في المصاحف أولى ، لأن الكلام متصل بما قبله ، ولأن المعنى يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم لا يتهيا إلا أياما قليلة ، فأقلعوا عنه خير لكم ، قال تعالى "إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا" في زوالها وفنائها وقصر مدة التمتع فيها ، والمثل ما شبه مضربه بمورده أي يؤتى بما وقع على ما لم يقع ويستعار للأمر العجيب المستغرب أي إنما حالها في سرعة تقضّيها وانصرام نعيمها بعد إقبالها واغترار الناس بها "كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ" بذلك الماء "نَباتُ الْأَرْضِ" اشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضا لأن الماء كالغذاء للنبات فيجري فيه مجرى الدم من ابن آم "مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ" كالبقول والزروع والحشيش والمراعي "حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها" حسنها ونضارتها وبهجتها باختلاف

أنواع النبات وألوان أزهاره من أحمر وأصفر وأزرق وأبيض وأسود وبين ذلك "وَازَّيَّنَتْ" بنباتها وارواءها فصارت كالعروس إذا نزخرفت بالثياب والحلي واللباس المقول فيه :

كأذيال خود أقبلت في غلائل مصبّغة والبعض أقصر من بعض

وزد على ذلك التطرية والتجميل لما يظهر من جسمها "وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها" أي تحقق لأهل الدنيا تمكنهم من إبداع الشؤون الغريبة والأحوال العجيبة بما شاءوا فيها من بناء رفيع وملك خطير وأموال وأولاد وخدم وحشم ورياش وقدروا باقدار اللّه إياهم على أشياء لم تكن قبل وانقادت لهم معادنها ، وفاضت لهم خزائنها وأطلعهم اللّه على ما كان كامنا فيها ومخبوءا بين طبقاتها من المنافع ، فغاصوا تحت البحار ، وطاروا في الهواء ، وساروا في الأسراب ، وعملوا المدمرات والصواريخ ، وكلم أهل الغرب أهل الشرق والجنوب الشمال ، ورأى بعضهم بعضا بالمرائي المبدعة على البعد ومع الحواجز ، وفعلوا ما أرادوا وتصوّروا وتخيّلوا وظنوا أنهم قادرون على كل ما يريدون ، ونفخ فيهم إبليس ولبسهم العجب فتعاظموا وتكابروا وبغى بعضهم على بعض ، ووليهم أرذلهم ، والتهم القوي الضعيف ، واستخدم الخرق الشريف ، وأعرضوا عن اللّه ، وطغوا في البلاد ، وتحكموا في العباد ، ولم يبق فيهم من ينهى عن منكر أو يأمر بمعروف ، واستحقوا معاجلة عذاب اللّه كما إذا استحصد الزرع "أَتاها أَمْرُنا" بالإهلاك فأوقعناه فيهم فجأة في زمن لم

يتوقعوه في جزء من الليل أو جزء من النهار ، وهذا الجزء قد يكون "لَيْلًا" عند أناس "أَوْ نَهارًا" عند آخرين بسبب حيلولة كرة الأرض من الشمس "فَجَعَلْناها" أي الحياة الدنيا بالنسبة لأهلها ومن عليها أي الأرض الجسمية العظيمة بأعين أهلها ، وما أقيم عليها من جبال وحصون وقصور وأودية وأنهار وأشجار "حَصِيدًا" كالنبات إذا حصده أهله فلم يبقوا منه شيئًا ولم يتركوا له أثرا لأنهم

(166/354)

يستأصلونه لحاجة التين لدوابهم ، ولكن مهما كان استئصالهم له فلا يكون مثل ما إذا كان بحادث سماوي ، إذ تكون تلك الأرض وما كان عليها مما ذكر "كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ" أي كأن لم تكن تلك الأرض وكأن لم يكن فيها

أحد مقيما قبل ، لأن غني بمعنى أقام بالمكان ، وهو هنا منفي أي كأن لم يلبث فيها أحد ولم يكن فيها شيء ، كما أن الأرض بعد حصاد زرعها إذا رأيتها تقول كأنها لم تزرع ، والأمس مثل في الوقت القريب ، كأنه قيل لم تغن آنفا .

ويطلق على اليوم الذي قبل يومك الذي أنت فيه ، وله أوجه في الإعراب والبناء ، راجع فيه

شذور الذهب في علم النحو ، وفيه أن المكسور قد يراد به مطلق اليوم ، أي لا يختص باليوم الذي قبل يومك .

(167/354)

ضرب اللّه تعالى هذا المثل لمن بغى في الأرض وتجبر فيها وركن إلى الدنيا وتكبر على أهلها وأعرض عن الآخرة وازدرى الداعي إليها بنبات برز في الأرض ضعيفا فقوي بالماء وحسن واكتسى كمال رونقه ، ففاجأته صاعقة أو برد أو ريح عاصف فجعلته حصيدا كأن لم يكن زرع أصلا ، ونظير هذه الآية الآية 45 من سورة الكهف الآتية وقد شاهدنا مرارا عند ما يقع البرد على الزرع يترك محله أرضا يابسة كأنها لم تزرع ، وكذلك الطاغي الباغي مهما بلغ من زهو الدنيا وعظمتها ، فإن أجله يفاجئه على حين غفلة فتقصفه قصفا على غرة ، ويكون كأن لم يكن وجد في الدنيا "كَذَلِكَ" كما فصلنا لكم مثل الحياة الدنيا وعرفناكم مصيرها "نُفَصِّلُ الْآيَاتِ" الدالة على قدرتنا المنبهة على أحوال الدنيا وعواقبها "لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ 24" فيها ويعتبرون بما فيها فيقفون على حقائقها ويفقهون معانيها ، وخص المفكرين لأن غيرهم لا ينتفع بها ولا يتوصل إلى إزالة الشك والشبعة التي تحوك في القلب لما رسب فيها من الرين والصدأ المتكاثف الذي حجبها عن التفكر في ملكوت اللّه ، قال تعالى

(بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ) الآية 15 من سورة المطففين الآتية وأمثال هؤلاء هم الذين حكى اللّه عنهم بقوله (وَقالُوا قُلُوبُنا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ) الآية 6 من سورة فصلت الآتية قال تعالى "وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ" من كل مكروه دار الأمان من كل مخوف التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهي الجنة التي يسلم اللّه تعالى وملائكته فيها على أهلها ، وهذه الدار هي الموصوفة بقوله عزّ قوله (لا يَسْمَعُونَ فِيها لَغْواً وَ

لا تَأْثِيماً إِلَّا قِيلًا سَلاماً سَلاماً) الآية 27 من الواقعة المارة في ج 1 ، وهذه هي التي يدعوكم إليها ربكم أيها الناس لا إلى

(168/354)

زهرة الدنيا الذابلة المحشوة بالمكاره المملوءة بالمخاوف التي هي على شفا جرف هار "وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ 25" موصل إلى دار النعيم وهذه الدعوة عامة من اللّه تعالى إلى خلقه كافة على لسان رسوله بالدلالة ، إذ حذف مفعولها والهداية خاصة لمن يشاء منهم لإثبات مفعولها ، وهي مساوية للإرادة .

جاء عن جابر قال : جاءت ملائكة إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو نائم ، فقال بعضهم

إنه نائم ، وقال بعضهم العين نائمة والقلب يقظان ، فقالوا إن لصاحبكم مثلا فاضربوا له مثلا .

وفي رواية خرج علينا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : إني رأيت في المنام كأن جبريل عليه السلام عند رأسي وميكائيل عند رجلي يقول أحدهما للآخر نضرب له مثلا ، فقالوا مثله كمثل رجل بنى دارا وجعل فيها مأدبة وبعث داعيا ، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ، ومن لم يجب الداعي لم يدخل الدار ولم يأكل من المائدة .

فقالوا أولوها ليفقهها فإن العين نائمة والقلب يقظان ، فقال بعضهم الدار الجنة ، والداعي محمد ، فمن أطاع محمدا فقد أطاع اللّه ، ومن عصى محمدا فقد عصى اللّه ، ومحمد فرق بين الناس .

قال تعالى "لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا" العمل وعبدوا اللّه حق عبادته لأن حضرة الرسول فسّر الإحسان الوارد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عمر بن الخطاب بما نصه : قال أي الرجل الموصوف أول الحديث وهو جبريل عليه السلام ، أخبرني عن الإحسان ، قال أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فهو يراك .

فهؤلاء الذين هذه صفتهم لهم "الْحُسْنى " الجنة سميت حسنى إذ لا أحسن منها البتة وعرفت فانصرفت إلى المعهود السابق في قوله تعالى (وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ) "وَزِيادَةٌ" على الحسنى هي رؤية اللّه تعالى التي لا توازيها رؤية ، وهي عند أهل الجنة أحسن من كل

شيء .

مطلب معنى الزيادة ورؤية اللّه تعالى :

(169/354)

ولا زائد على نعيم الجنة إلّا رؤية اللّه تعالى المنعم بها ، يدل على هذا ما رواه صهيب أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة ، يقول اللّه تبارك وتعالى أتريدون شيئا أزيدكم ؟ فيقولون ألم تبيّض وجوهنا ، ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار ، قال فيكشف الحجاب فما يعطون شيئا أحب إليهم من النظر

إلى ربهم تبارك وتعالى ، ثم تلا هذه الآية - أخرجه مسلم - وقال به عكرمة والحسن والضحاك ومقاتل والسدي أخذا من قول أبي بكر الصديق وحذيفة وأبي موسى الأشعري وعبادة بن الصامت وغيرهم من الصحابة رضي اللّه عنهم ، قال في بدء الأمالي :

فينسون النعيم إذا رأوه فيا خسران أهل الاعتزال

(170/354)

ومما يؤكد هذا قوله تعالى : (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ) الآية 23 من سورة القيامة المارة في ج 1 ، إذ ثبت لأهل الجنة أمرين أحدهما النضارة وهي حسن الوجه من نعيم أهل الجنة ، والثاني النظر إلى وجه اللّه تعالى كما هنا ، قال الحسن إن الحسنى هي الجنة والزيادة هي العلاوة ، وما هي هذه العلاوة المنكرة تعظيما لشأنها هي رؤية اللّه تعالى ، فأثبت لهم في هذه الآية أمرين أيضا ، الأولى الجنة والثانية الرؤية ، والقرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد تقدم بحث الرؤية بصورة مفصلة في تفسير الآية 18 من سورة والنجم ، والآية 23 من سورة القيامة ، والآية 143 من الأعراف ، والآية الأولى من سورة الإسراء المارات في ج 1 ، فراجعها ففيها ما ترومه من هذا البحث وزيادة قال تعالى "وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ" لا يغشاها غبرة يشوبها سواد "وَلا ذِلَّةٌ" من أثر هوان مما يرهق وجوه أهل النار من الكآبة والكسوف والاكفهرار بسبب ما يعرض لهم من الحزن وسوء الحال والعياذ باللّه "أُولئِكَ" بيض الوجوه الكرام الأعزاء "أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ 26" لا يخرجون منها أبدا "وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ" العظام كالشرك والكفر بدليل التعريف فيكون لهم "جَزاءُ سَيِّئَةٍ" عملوها في الدنيا "بِمِثْلِها" في الآخرة وهذا عدل منه تعالى ، إذ لا يقضي بعقابين على سيئة واحدة بل عذاب واحد ، وفيه تنبيه على أن الحسنة يضاعف ثوابها فيعطى بدل الواحدة عشرة إلى سبعمئة إلى ما يشاء ، وهذا فضل منه على عباده "وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ" زيادة على ما

يغشى وجوههم من الفتر والاكفهرار ، وقلوبهم من الخوف والهوان مما هيء لهم من العذاب وما ظهر لهم من الخيبة لدى أوثانهم التي كانوا يرجون شفاعتها وتبين لهم أنهم "ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ" يمنعهم من عذابه أو يحول دون وصوله إليهم إذا نزل بهم ، كما يكون للمؤمنين شفعاء عند اللّه يشفعون

لهم بإذنه وتصير صفة هؤلاء "كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ" من أثر الذل والهوان والفتر "قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً" لشدة ما يغشاهم من السواد والعياذ باللّه "أُولئِكَ" الموصوفون بالإهانة المشوه وجوههم بالسواد المشبه بطائفة من الليل أو ظلمة آخره "أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ 27" لا يخرجون منها أبدا ، ولا دليل في هذه الآية على خلود أهل الكبائر بداعي أنها هي السيئات المرادة في هذه الآية ، لأن لفظ السيئات شامل للكفر والمعاصي ، وقد قامت الأدلة على عدم خلود العصاة المؤمنين ، فخصصت الآية بمن عداهم ، وقسمنا في الآية 59 من سورة مريم المارة في ج 1 ما يتعلق بهذا البحث فراجعه .

مطلب الأوثان وما يقع بين العابدين والمعبودين :

قال تعالى "وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً" مؤمنهم وكافرهم إذ نجمعهم من كل ناحية إلى موضع واحد وهو موقف الحساب ، فتدخل المؤمنين الجنة بدليل قوله تعالى "ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا" بعد أن نعزلهم عن المؤمنين في المحشر بقوله تعالى (وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ" الآية 70 من سورة يس المارة في ج 1 ما معناه الزموا "مَكانَكُمْ" لا تبرحوه "أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ" الذين كنتم تعبدونهم في الدنيا لتسألوا عن عبادتهم بحضورهم "فَزَيَّلْنا" فرقنا بينهم بعد ما أمرناهم بالثبات في مواضعهم وباعدنا "بَيْنَهُمْ" بين العابدين والمعبودين وقطعنا ما بينهم من التواصل بتمييز بعضهم عن بعض ، وسألنا المعبودين على حدة ، فأنكروا تصدرهم للعبادة ، ثم جمعناهم وسألناهم ، فأجابوا بمواجهة العابدين ما ذكره اللّه بقوله عز قوله "وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ 28" وهذا جواب تبر عن عبادتهم وردّ لقول العابدين إنا كنا نعبدكم ، ولا يقال كيف نطقت ، لأن منها ما هو جماد وهي إما أن تكون منحوتة من حجر أو خشب أو معمولة من طين أو غيره ، فلا يتسنى لها النطق ولا يتيسر ، لأن اللّه تعالى الذي حشرها لهذه الغاية أهّلها في ذلك اليوم للنطق بذلك ، وكذلك الحيوانات والكواكب ، قال مجاهد تنتصب لهم الآلهة فتقول لهم واللّه ما كنا نسمع دعاءكم ، ولا نبصر عبادتكم ،

ولا نعقل ما تقولون ، ولا نعلم أنكم كنتم تعبدوننا ، فيقول الكفار والله إياكم كنا نعبد ، فتقول الأوثان "فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن" مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشان "كُنَّا عَنْ عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ" 29 أي أن شهادة الله كافية على أننا لم نعلم بعبادتكم فضلا عن أننا جماد لا نشعر بشيء ، وهذا ظاهر في الأوثان لأنها غافلة لا تعلم شيئا من ذلك ، أما غيرها من العاقلة المتنبّهة العالمة كالملائكة وعزير والمسيح فتؤول كلمة غافلين بحقهم على عدم الرضاء بعبادتهم ، كما تؤول على عدم الشعور بحق الأصنام ، فيقول هؤلاء إنا لم نلق لعبادتهم بالا ، ولم نرض بها ، وكنا غافلين عنها ، وتقول الأصنام إنا لم نشعر بعبادتهم ولا نعلم بها .

هذا إذا كانت الملائكة وعزير والمسيح عالمين بعبادة العابدين لهم يكون جوابهم على نحو ما ذكر آنفا ، أما إذا لم يكونوا عالمين بها وهو أولى لأن الله تعالى لما سأل الملائكة عن الأسماء قالوا (لا عِلْمَ لَنا إِلَّا ما عَلَّمْتَنا) الآية 32 من سورة البقرة ، وكان صلى الله عليه وسلم يسأل جبريل عن أشياء أحيانا فيقول له لا أعلم ، ولقول عيسى عليه السلام جوابا لربه أيضا (ما قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا ما أَمَرْتَنِي بِهِ) الآية 115 من المائدة في ج 3 ، مما يدلّ على عدم شعورهم لعبادة عابديهم ، وعلى هذا يكون معنى غافلين بحقهم أيضا مثل معناه في حق الأصنام

لتساويهم في عدم العلم .

ولا يخفى أن الملائكة الذين عبدوا غير الحفظة الملازمين لبني آدم .

(174/354)

وهنا سؤال وهو هل يفني اللّه الأوثان بعد حشرها وسؤالهم أم لا ؟ والجواب واللّه أعلم عدم إفنائها أي عدم صيرورتها ترابا كالحيوانات ، وإنما تحشر وتسأل عن عبادتها فتنكر وتتبرأ مما أسند إليها كما هو صريح الآيات ، إذ بضع اللّه فيها قوة النطق والدفاع ، ثم إنها تدخل النار مع عابديها وتحترق معهم بدليل قوله تعالى (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وارِدُونَ) الآية 98 من سورة الأنبياء الآتية ولا اعتراض على أفعاله تعالى من أنها لم تعقل الاحتراق ولم تحس به لأن الذي جعل فيها قوة النطق يجعل فيها قوة الإحساس لا يسأل عما يفعل ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، أما الحيوانات فقد دلّ النص على فنائها كما سيأتي آخر سورة عمّ الآتية ، ولهذا البحث صلة في الآية 22 من سورة الأنعام الآتية "هُنالِكَ" في ذلك الموقف العظيم والهول العميم

"تَبْلُوا" تختبر وقرىء تتلو بتاءين أي تقرأ أو تتبع "كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ" من خير أو شر لأن العمل هو الذي يهدي النفس إلى الثواب أو العقاب "وَرُدُّوا" مع ما يظهر لهم من العمل "إِلَى اللَّهِ

مَوْلاهُمُ الْحَقِّ" مالكهم ومدبّر أمورهم ومحاسبهم عليه بالعدل المنفرد في ربوبيته ، لا ما كانوا يتولونهم في الدنيا مما لا حقيقة له بالربوبية ، لأن كلمة مولى تأتي بمعنى المالك وتأتي بمعنى الناصر كما في قوله تعالى :

(ذِلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ) الآية 11 من سورة محمد في ج 3 ، كما أنها تأتي بمعنى السيد وبمعنى العبد قال :

ولن يتساوى سادة وعبيدهم على أن أسماء الجميع موالي

(175/354)

و مثل هذه الكلمات تؤول في كل محل بما يناسبها بحسب المقام "وَضَلَّ عَنْهُمْ" خفي وضاع وغاب "ما كانُوا يَفْتَرُونَ 30" في الدنيا من الأصنام والأوثان بأنها شركاء للّه أو أنهم يشفعون لهم ، أما من عبد وهو يعلم وقد أمر الناس بعبادته كنمرود وفرعون فهؤلاء لا يشفعون ولا يؤذن لهم فيعتذرون بل يساقون على وجوههم سحبّا إلى جهنم واللّه أعلم .

فيا أكرم الخلق .

"قُلْ" هؤلاء المشركين "مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ" غيثا ونباتا أأوثانكم أم اللّه "أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ" فلا يقدر أن يسمع أحدكم صاحبه إلا بإذن اللّه "وَالْأَبْصارَ" فلا يستطيع أن

يبصر أحدكم صاحبه بها إلا بأمر اللّه لأنه هو الملك الحقيقي المالك لجوارح الإنسان والحيوان وهو الذي يحميها من الآفات والطوارئ إن شاء اللّه مدة الحياة مع ما هي عليه من اللطافة ، إذ يؤذيها كل شيء ، ومن يقدر على خلقها وتسويتها على هذه الصورة العجيبة والهيئة البديعة إلا اللّه ، وإن من يقف على علم التشريح يرى ما يبهر العقل كما بيناه في الآية 28 من سورة فاطر المارة في ج 1 ويحيّر اللبيب ، فسبحان الإله الفعال النادر .

وليعلم أن علم التشريح يزيد في الإيمان ويقوي العقيدة لمن يريد اللّه هدايته "وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ" المؤمن من الكافر ، والفرخ من البيضة ، والزرع من الحبة في الأرض والإنسان والحيوان من النطفة في الرحم "وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" الكافر من المؤمن ، والبيضة من الطير ، والحب من الزرع ، والنطفة من الإنسان والحيوان "وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ"

(176/354)

في هذا الكون الجسيم علويه وسفليه آللّه أم أوثانكم ؟ "فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ" أي أنهم يجيبونك اضطرارا بأن الفاعل لذلك كله هو اللّه "فَقُلْ" لهم إذا "أَفَلَا تَتَّقُونَ 31" هذا الرب الكبير الفعال لهذه الأشياء وغيرها وكيف تعبدون غيره مما لا يعقل شيئا وهو عاجز عن نفع نفسه ودفع الضرّ عنها .

وليعلم أنه لا يوجد نص صريح على أن اللّه تعالى هو في السماء أو الأرض ، وأما ما جاء من أنه جل جلاله في السماء على المعنى اللائق به تعظيما لشأنه لا على ما نتصوره نحن ، وأن قوله صلى اللّه عليه وسلم في الجارية التي أشارت إلى السماء حين قل لها أين اللّه ؟ أعتقها فإنها مؤمنة ، وإقراره حصينا حين قال له عليه الصلاة والسلام كم تعبد يا حصين ؟ فقال سبعة ، واحد في السماء وستة في الأرض ، فقال صلى اللّه عليه وسلم فمن الذي أعددته لرغبتك ورهبتك ؟

فقال الإله الذي في السماء .

على ما يقتضيه الظاهر .

(177/354)

ومن جملة تنزيهه تعالى نسبته للعلو ، ولذلك يرفع الإنسان يديه نحو السماء في الدعاء أي إلى الخزانة المشار إليها في قوله تعالى (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ) الآية 22 من سورة الذاريات الآتية فراجعها ، لا لكونه جل جلاله فيها ، تعالى اللّه عن ذلك علوا كبيرا ، وقدمنا ما يتعلق في هذا في الآية 13 من سورة طه المارة في ج 1 ، ولهذا البحث صلة في الآية 18 من سورة الأنعام الآتية ، قال تعالى "فَذِلِكُمُ" الذي يفعل هذه الأشياء الجليلة هو

"اللَّهُ رَبُّكُمُ" أيها الناس الإله "الْحَقُّ" الذي لا ريب فيه المستحق للعبادة وحده "فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ" الصريح الثابت أيها الناس "إِلَّا الضَّلالُ" الباطل ، إذ لا واسطة بين الحق والباطل ، وكذلك لا واسطة بين الإيمان والكفر ولا الجنة والنار ، فالذي يتصف به العبد إما حقّا أو باطلا ومن أخطأ أحدهما وقع في الآخر لا محالة ، لأن من وقاه اللّه من النار أدخله الجنة ، ومن خصه بالإيمان عصمه من الكفر ، وهكذا "فَأَنَّى تُصْرَفُونَ 32" عن الحق إلى الضلال ومن التوحيد إلى الشرك ؟ سئل مالك رحمه اللّه عن شهادة لاعب الشطرنج والنرد ، فقال أما من أدمن فما أرى شهادتهم طائلة ، يقول اللّه تعالى (فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ) فهذا كله في الضلال .

والصارف في الحقيقة هو اللّه تعالى ، والإنكار والتعجب متوجهان إلى منشأ الصرف ،

(178/354)

وإنما لم يسند الفعل إلى الفاعل لعدم تعلق غرض به ، وتقدم في الآية 12 المارة ما له صلة في هذا البحث فراجعه "كَذلِكَ" كما حقت الكلمة على الباغين من الأمم السابقة المتجاوزين حدود اللّه "حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ" أي حكمه لقوله تعالى (وَلكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) الآية 13 من سورة السجدة الآتية ، ونظيرتها الآية 119 من

سورة هود الآتية أيضا ، أي وقعت "عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا" من أمتك يا محمد الذين تمردوا بالكفر وخرجوا عن حدود الله "أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ 33" أي حقت عليهم الكلمة لعدم إيمانهم ، وهو قضاء أزلي ولا راد لقضائه المسجل عليهم في سابق علمه ، المثبت في لوحه ، قال تعالى يا سيد الرسل "قُلْ" لقومك وغيرهم "هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" ينشئه على غير مثال سابق كما أنشأ الله "ثُمَّ يُعِيدُهُ" بعد موته كما أنشأه أول مرة ، وهذا استفهام إنكاري وجوابه لا أحد يفعل ذلك ، وهو احتجاج آخر على بطلان الإشراك وحقيقة التوحيد ، ولا يقال إن مثل الاحتجاج إنما يأتي على من اعترف بأن من خواص الإلهية بدء الخلق ثم إعادته ليلزم من نفيه عن الشركاء نفى الإلهية ، وهم غير مقرين بذلك ، لأن في الآية إشارة إلى أن الاعادة أمر مكشوف ظاهر بلغ في ظهوره وجلائه ، حدا بحيث يصح أن يثبت فيه دعوى أخرى ، ولظهور برهانها صارت أمرا مسلما بالبداهة وجعل ذلك الطيبي من ضعه الإدماج كقول ابن نباته :

فلا بد لي من جهلة في وصاله فمن لي بخل أودع الحلم عنده

(179/354)

فقد ضمن الغزل الفخر بكونه حليما ، قال تعالى "قُلْ" يا محمد لهؤلاء المنكرين إذا لم يجيبوك بالاعتراف "اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ" هو وحده لا غير ، لأن القادر على الابتداء قادر على الإعادة "فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ 34" كيف تصرفون عن قصد السبيل وتقلبون من الحق إلى الباطل لأن معنى الإفك الصرف والقلب ، ومنه قول عروة بن أذينة :

إن تك عمن أحسن الصنيعة مأفوكا ففي آخرين قد أفكوا

(180/354)

وخصّه صاحب القاموس بالقلب عن الرأي وهو أنسب في هذا المقام وهذا أمر من اللّه تعالى إلى حبيبه صلى اللّه عليه وسلم بأن ينوب عنهم ببيان من يفعل ذلك لا بأن ينوب عنهم في الجواب كما قاله بعض المفسرين بل أكثرهم ، لأن القول المأمور به غير ما أريد منهم من الجواب وإن كان مستلزما له ، إذ ليس المؤول عنه من يبدأ الخلق ثم يعيده كما في قوله سبحانه وتعالى (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ) الآية 78 من سورة الرعد الآتية في ج 3 ، حتى يكون القول المأمور به عين الجواب الذي أريد منهم ويكون صلى اللّه عليه وسلم نائبا عنهم في ذلك ، بل إنما هو وجود من يفعل المبدأ والإعادة من شركائهم ، فالجواب المطلوب منهم لا لا غير ، نعم أمر صلى اللّه عليه وسلم بأن يضمنه مقالته إيذانا بتعيّنه

وتحتمّه وإشعارا بأنهم لا يجترئون على التصريح به مخافة التبكيت ، لا مكابرة ولجاجا ، قال تعالى "قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ" فإذا قالوا لك لا وحتما ان يقولوا لا ، لأن شركاءهم لا تنطق لكونها جماد "قُلْ" لهم يا سيد الرسل "اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ" ويرشد له ، فإذا كان كذلك قل لهم "أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ" ويعبد لأنه هو الذي يعطي العقل ، ويبعث الرسل ، وينزل الكتب ، ويوفق إلى النظر والتدبر بما نصب في الآفاق والأنفس من الآيات الدالات على الهدى الكائنة في الأرض والسماء "أَمَّنْ لا يَهِدِّي" يهتدي الشرع الذي يريده "إِلَّا أَنْ يُهْدَى" إليه من قبل الغير كالأصنام وهدايتها عبارة عن نقلها من مكان لآخر بواسطة عابديها ، هذا إذا أريد بهذه الآية الأوثان ، أما إذا أريد العابدون رؤساء الكفرة فيكون المعنى أنهم أنفسهم ضالون فكيف يقدرون على إرشاد غيرهم لأنّهم محتاجون للإرشاد فلا يقدرون عليه إلا بتقدير اللّه إياهم وما هو بفاعل ذلك لهم ، فيكون التمسك بهدايته

(181/354)

تعالى أولى وأوجب "فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ 35" بأنها آلهة فتساوونها مع الإله الذي بيده الإحياء والإماتة ، وأي شيء حدا بكم إلى اتخاذ هذه الفجرة آلهة فتعبدونها

وتتقربون بها زلفى إلى اللّه ، وأي شيء ظهر لكم من منافعها حتى أشركتموها مع الإله القادر الحق القهار الفعال ، وكيف تحكمون بما يأباه صريح العقل ويقر بطلانه ؟ وهذا احتجاج ثالث على بطلان الشرك وأحقية التوحيد جيء به إلزاما بعد إلزام لهؤلاء الكفرة ، وجاء كل من الاحتجاجات الثلاثة منفصلا عن الآخر دون العطف عليه إيذانا بفضله واستقلاله في إثبات المطلوب ، والسؤال في كل للتبكيت والتقريع في أقوالهم التي هي ليست بأقوى لهم ، وفي أفعالهم التي هي أفعى لهم ، قال تعالى "وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ" فيما بزعم من ألوهية الأصنام وشفاعتها "إِلَّا ظَنًّا" منهم بأنها أنداد للّه وقضاء بالجور بشركتها له فيما يقولون ويحكمون ويتبعون من الوهم والشبه للتي لا تجدي نفعا ، إذ غاية ذلك هي الظن "وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا" إذ لا يقوم مقام اليقين فكيف بالظن الفاسد ، لأن المراد من الحق العلم والاعتقاد الصحيح المطابق للواقع ، لأن اعتقادهم ذلك عبارة عما يستندون فيه إلى الخيالات الفارغة والّا فية الباطلة من ظنونهم الواهية كقياس الغائب على الشاهد والخالق على المخلوق بأدنى مشاركة موهومة ، ولا يلفتون إلى الحقائق ولا يسلكون مالك الأدلة الصحيحة الهادية إلى الحقيقة ، فيفهمون مضمونها ويقفون على صحتها وبطلان ما يخالفها .

هذا وفي تخصيص الأتباع بالأكثر إشارة إلى أن منهم من قد يتبع فيقف على ماهية التوحيد ، ويعرف أحقيته ولكن لا يتبعه مكابرة وعنادا ، ومقتضى ما ذكروه في وجه أمره صلى اللّه عليه وسلم بأن ينوب عنهم بالجواب هو أن الإشارة إلى أن لجاجهم وعنادهم يمنعهم من الاعتراف بذلك ، لأن منهم من يعلم أحقية ذلك إلا أنه كان معاندا ولعل النيابة حينئذ عن الجمع باعتبار هذا البعض ، على أن الأكثر قد يطلق على الكل كما قدمناه ، كما أن القليل يأتي بمعنى العدم في قوله تعالى (فَقَلِيلًا ما يُؤْمِنُونَ) الآية 88 من البقرة ، وعليه قول القائل :

قليل التشكي في المصيبات حافظ من اليوم أعقاب الأحاديث في غد

وحمل النقيض على النقيض حسن وطريق مسلوك "إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ 36" من اتباع الظن والأفعال القبيحة وترك الحق والأعمال الحسنة وهذه الجملة تؤذن بالتهديد والوعيد ، قال تعالى "وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ" المنزل عليك يا حبيبي "أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ" قال العلامة ابن حجر إن هذه الآية جواب عن قولهم (ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ) الآية 15 المارة ، وهو طلب للافتراء في

المستقبل ، وأما الجواب عن زعمهم أنه عليه الصلاة والسلام افتراه وحاشاه فسيأتي عند حكاية ذلك زعمهم وقيل إن كفار مكة زعموا أن محمدا أتى بهذا القرآن من نفسه اختلاقا ، فأخبر اللّه عز وجل في هذه الآية أنه وحي أنزله اللّه إليه مبرأ عن الافتراء وأن محمدا والبشر كافة عاجزون عن الإتيان بمثله أو مثل شيء منه ، وأن ما هو عليه من الفصاحة التي أعجزت الفصحاء وكلّت البلغاء عن معارضته وعن الإتيان ببعض نفائس ما فيه من العلوم وأخبار الماضين والأحكام والآداب ومكارم الأخلاق محقق بطلان ما يقولونه فيه ومبطل زعمهم به ، فلا هو مفترى ولا مختلق ولا سحر ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، ولا تعلمه من الغير ولا أعانه عليه أحد كما يقولون راجع الآية 4 فما بعدها من سورة الفرقان في ج 1 ، "وَلَكِنْ تَصْدِيقَ" أي أنزله اللّه تعالى مصدقا "الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ" من الكتب السماوية كالتوراة والإنجيل والزبور وما تقدمها من الصحف السماوية المنزلة على الرسل السابقين ، لأن ما فيه موافق لما فيها ، ولو أنه جاء مباينا لها لطعن فيه البتة .

ومن المعلوم أميّة محمد صلى اللّه عليه وسلم ، فلو لم يكن من عند اللّه لما قدر على إخبار الناس فيما هو نازل من الكتب القديمة ، فضلا عن الإتيان بغيرها .

فإخباره بالمغيبات الأخر وتلاوته على قومه معجزة عظيمة كافية لنبوّته ، ومبرهنة على صدق نزوله من عند اللّه "وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ" تبيينه من الحلال والحرام والفرائض والأحكام وتوضيح ما فيه من الشرائع دليل صريح وبرهان قاطع على أنه كلام اللّه نازل من عنده على

رسوله "لا رَيْبَ فِيهِ" بأنه "مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ 37" بلا شك ولا شبهة .

والجار متعلق بتفصيل ، وجملة لا ريب اعتراضية كما تقول علي – كرم اللّه وجهه – لا شكّ شجاع ، وعمرو بن العاص لا جرم سياسي ، وحسان رضي اللّه عنه حقا جبان ومعاوية عفا اللّه عنه لا غرو حليم ، إلى غير ذلك .

(184/354)

قال تعالى "أَمْ" منقطعة مقدرة ببل والهمزة عند سيبويه ، وبل انتقالية ، والاستفهام لإنكار الواقع أي بل "يَقُولُونَ افْتَراهُ" محمد من عند نفسه "قُلْ" يا محمد لهؤلاء المفترين عليك وعلى ربك "فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ" بالإخبار بالغيب والأحكام والوعد والوعيد ، فضلا عما هو عليه من الفصاحة والبلاغة وحسن النظم ، لأنكم عرب مثل المنزل عليه ، وقد نزل بلغتكم ، وأنتم أشدّ تمرنا في النظم واعتيادا بالنثر ، وأكثر علما بالأمور الملائمة للطبائع البشرية وترض للنفوس بإعطاء كل ذي حق حقه ، فإذا كنتم على هذه الحالة ولم تقدروا على إنشاء سورة من مثل هذا القرآن ولن تقدروا البتة ، فاعلموا أنه من عند اللّه حقا ، وأن لو اجتمعت الأنس والجن على الإتيان بمثله لعجزوا ، لأن الآية منه نفسها معجزة والسورة

خارقة للعادة ، فكيف بالقرآن كله الذي لا يقدر على الإتيان بمثله غير الذي أنزله .

مطلب الفرق بين آيات التحدي على الإتيان بمثل القرآن :

(185/354)

والفرق بين هذه الآية وآية البقرة عدد 23 في ج 3 واضح ، لأن المراد هنا بسورة مثل القرآن والمراد بآية البقرة فأتوا بسورة من رجل مثل محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وما قيل إن من هناك زائدة ، قيل لا قيمة له ، إذ لا زائد في القرآن ، فكل قيل بزيادة حرف أو قصه في القرآن قيل غير سديد ، وقائله قد زاد في حده وهو عن الحقيقة بعيد ، فهنا تحداهم اللّه تعالى على الإتيان بسورة مثل القرآن بأحكامه وأخباره وبلاغته وفصاحته ، وهناك على الإتيان بمثله من رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة معروف عندهم مثل محمد ، لأنه أتى به على أميته المحققة عندهم ، فكان معجزا بنفسه ، كما أن الفرق بين هاتين الآيتين وآية هود الآتية بيّن ، لأن تلك تحداهم بها للإتيان بعشر سور منه والإتيان من المخاطبين جميعهم أميهم وقارئهم ، لأنه بعد أن تحداهم بكله في هذه الآية وفي آية الإسراء 89 المارة في ج 1 وظهر عجزهم تحداهم بأقلّ منه بأن طلب منهم الإتيان بعشر سور منه فقط ، ولم يأتوا ولن يأتوا ، فظهر من هذا أن كل آية مختصة بشيء لا تشمله الآية الأخرى "وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ

دُونِ اللَّهِ" لتستعينوا به على ذلك من أمثالكم وآلهتكم التي تزعمون أنها تمدكم في المهمات وتلجأون إليها في المهمات "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 38" في قولكم ، لأنه يستلزم الإتيان بمثله من أفرادكم ويستلزم قدرتكم عليه ، وفي هذه الآية دلالة على إعجاز القرآن ، لأنه عليه الصلاة والسلام تحدّى به على لسان ربه عز وجل مصاقع العرب بسورة ما منه ، فلم يأتوا بذلك ، وليعلم أن مجموع ما نزل حين هذا التحدي واحد وخمسون سورة ، وقد تحداهم على الإتيان بمثلها ، فلم يقدروا

(186/354)

لأنه أخبرهم قبل في الآية 89 من سورة الإسراء المارة في ج 1 ، بأنه لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله ولو عاون بعضهم بعضا ، لهذا بعد أن تحداهم بأجمعه تحداهم بما نزل منه ، ولما عجزوا تحداهم بعشر سور منه كما سيأتي في سورة هود في الآية 14 الآتية ، قال تعالى "بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ" أي القرآن ، لأن الخلق كلهم عاجزون عن الإحاطة بعلومه ، فهؤلاء المكذبون أعجز من باب أولى ، وقد سارعوا إلى تكذيبه من غير أن يتدبّروا ما فيه ويقفوا على ما في تضاعيفه من الشواهد الدالة على كونه كما وصف آنفا ، ويعلمون أنه ليس من الممكن أن يأتوا بسورة مثله ، والتعبير هنا بلفظ ما عن القرآن

دون إن يقال بل كذبوا به من غير أن يحيطوا بعلمه ، للإيذان بكمال جهلهم ، وأنهم لم يعلموه إلا بعنوان عدم العلم به ، وبأن تكذيبهم به إنما هو بسبب عدم إحاطتهم بعلمه لما أن تعليق الحكم بالموصول مشعر بعليته ما في حيز الصلة له ، وأصل الكلام بما لم يحيطوا به علما ، إلا أنه عدل عنه إلى ما في النظم الكريم ، لأنه أبلغ "وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ" أي ولم يقفوا بعد على معانيه الوضعية والعقلية المنبئة عن علو شأنه وسطوع برهانه إلى الآن وحتى بعد ، بدليل النفي المتصل ، وقيل ولما يأتهم بيان ما يؤول إليه من الوعيد الذي هددهم به اللّه أو ولم يأتهم تفسير ما فيه من الإخبار بالغيوب حتى يظهر أنه صدق أم كذب ، وعلى هذا كله فالمعنى أن هذا القرآن معجز من جهة النظم والمعنى ومن جهة الإخبار بالغيب وهؤلاء الكفرة فاجئوه بالتكذيب قبل أن يتدبروا ألفاظه ويتفكروا في معناه ، أو ينتظروا وقوع ما أخبر به من الأمور المستقبلة "كَذَلِكَ" مثل تكذيبهم هذا الخالي عن التعقل والتأمل "كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ" أنبياءهم وما جاءوهم به من الكتب السماوية ولم يصدقوهم بما وعدوهم به "فَانْظُرْ" يا حبيبي "كَيْفَ كَانَ

(187/354)

عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ 39" أنفسهم من الأمم السابقة إذ عذبوا بأنواع العذاب بسبب تكذيبهم رسلهم ، وإن من كذبك يا خاتم الرسل ستكون عاقبته عاقبتهم .

وفي هذه الآية تسلية لحضرة الرسول مما يلاقي من أذى قومه ، وتحذير للناس بأن يجتنبوا الظلم لئلا يقعوا في مصيره السيء كما وقع الظالمون قبلهم .

مطلب الآية المدنية وشرط النسخ :

والآية المدنية من هذه السورة هي قوله تعالى "وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ" أي إن من قومك يا محمد من يؤمن بهذا القرآن لسابق سعادته "وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ" لشقائه الأولي "وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ 40" استعدادهم الفطري بقبول هذا القرآن واعراضهم عنه باقترافهم الأعمال الفاسدة التي أضلتهم عن الاهتداء به

"وَإِنْ كَذَّبُوكَ" يا سيد الرسل "فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ" أي جزاؤه وهذه الآية من آيات المتاركة على حد قوله تعالى (لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) الآية الأخيرة من الكافرون في ج 1 ، وقوله (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) الآية 25 من سورة سبأ الآتية "أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ" لا يصل وإليكم من جزائه شيء "وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ 41" لا يصل إليّ من جزائه شيء .

وهذه الآية محكمة غير منسوخة بآية السيف كما زعمه بعض المفسرين لأن مدلولها اختصاص كل بأعماله وثمراتها له من ثواب وعقاب وإن ما فهم من معناها بعض المفسرين كمقاتل والكلبي وابن زيد ، الإعراض وترك التعرض بشيء للكافرين الذين أمر حضرة الرسول أخيرا بقتالهم لا يدل على النسخ ، لأن شرط الناسخ أن يكون رافعا للحكم المنسوخ وهنا لا رفع أصلا لأن مدلول الآية الاختصاص فقط كما ذكرنا وآية السيف لم ترفع شيئا من مدلولات هذه الآية ، فكان القول بالنسخ باطلا وبعيدا عن الصحة ، قال تعالى "وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ" إذا قرأت عليهم القرآن ويصغون لما تبين لهم ما يأتون وما يذرون ، ولكنهم لا يسمعون سماع قبول ولا يعون وعي أهل العقول ، فلا تحزن عليهم لأنهم صم عن سماع الحق "أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ" كلا لا تقدر على ذلك لأن من أصمّه اللّه وختم على قلبه لا يمكن أن يسمع بأذنيه ، ولا تقدر على إسماعه وهو أصم ، فكيف إذا ضمّ إليه عدم العقل ، إذ يقول اللّه تعالى "وَلَوْ كَانُوا لا يَعْقِلُونَ 42" فهل تطمع بإسماعهم بعد أن سلب اللّه عقولهم مع أسماعهم ، لأن اللّه تعالى صرف قلوبهم عن الانتفاع بما تتلوه عليهم ، إذ أن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوي

الصوت على ما يريده مخاطبه ، فإذا اجتمع فقدان العقل مع عدم السمع فقد أيس من إسماعه وإفهامه .

وأعيد الضمير في هذه الآية إلى من باعتبار معناها ، إذ يكون للمفرد والجمع فأعاده في الآية الأولى للمفرد باعتبار لفظها ، وفي الثانية للجمع باعتبار معناها ، وفي الثالثة وهي "وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ" باعتبار لفظها أيضا ، أي يتطلع إليك ببصره ظاهرا ليعاين أدلة صدقك ، واعلام نبوتك ، ولكنه لا يصدقك إذ أنتم إلى عمى بصره عمه قلبه "أَ فَأَنْتَ" بعد هذا تقدر "تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ 43" كلا لا تقدر على هداية عمي البصر عمه البصيرة ، ولا يمكنك ذلك لئن الأعمى الذي في قلبه بصيرة قد يحس ويتفطن بالحدس لما لا يدركه البصير ، وأما الأعمى الأحمق فلا يؤمل منه ذلك ، لأنه جهد البلاء والعمدة على البصيرة ، فمن فقدها فقد أيس من اعتباره وإبصاره ، لأن من لا عقل له ولا بصيرة فهو جماد ، ولا ينتفع انتفاعا كاملا بالحواس الظاهرة ، إلا إذا ضم إليها الحواسّ الباطنة قال تعالى "إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً" فلا ينقصهم مما نيطت به مصالحهم وكمالاتهم من مبادئ الإدراكات وأسباب العلوم والإرشاد إلى الحق ، إذ أرسل لهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ومتعهم بالعقل والسمع والبصر تفضلا منه عليهم "وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ 44" بعدم استعمال ما منحهم اللّه به من الجوارح لما خلقت لها ، وعده انصياعهم للأمر بالخير

وتدبرهم فوائده ، وركونهم إلى الشر وعدم نظرهم إلى عاقبته ، وإقبالهم على المناهي رغبة فيها ، وإدبارهم عن الرشد .

(190/354)

ورغبتهم عن طرقه ، وصدودهم عن الهدى ، وعدم مبالاتهم بما يؤول إليه ، لهذا فإن تقدير الشقاء عليهم لم يكن ظلما من اللّه ، وحاشاه وهو القائل (ذِلِكَ بِما قَدَّمَتْ يَداكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) الآية 11 من سورة الحج في ج 3 ، وإنما نسب فعل الظلم إليهم لأنه كسبهم اقترفوه برغبة منهم إليه واختيار له ، ولو أوقعوا شيئا من الظلم كرها لما عوقبوا عليه .

وأعلم أنه لا يجوز نسبة الظلم إلى اللّه تعالى بوجه من الوجوه ، ولو عذب بغير ذنب على سبيل الفرض ، لأن الظلم التصرف بحق الغير دون وجه شرعي ، والخلق كلهم ملك اللّه ، والمالك يتصرف بملكه كيفما شاء وأراد ، والتصرف بالملك ولو على غير وجهه لا يعد ظلما ، إذ لا

حق للغير فيه ، وهو لا يسأل عما يفعل ، له الخلق والأمر .

قال تعالى "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ" واذكر يا محمد لقومك يوم يجمعهم ليوم الحساب ، وإذ ذاك يرون

أنفسهم "كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا" في دنياهم هذه التي يرونها طويلة الأمد "إِلَّا ساعَةً مِنَ النَّهارِ" وقيل إن هذا اللبث في قبورهم ، والأول أولى بالمقام ، لأن حال المؤمن والكافر سواء في عدم المعرفة بمقدار اللبث في القبور إلى وقت الحشر ، فتعين حمل المعنى على الكافر ، لأن المؤمن انتفع في مكثه بالدنيا بما عمل من طاعة اللّه ورسوله بخلاف الكافر ، فإنه لم ينتفع بعمره فيها ، لأنه أنفذه بالمعاصي ، لذلك استغل مدة لبثه في الدنيا ، لأنه كان في

(191/354)

شهوات ولذات فانية ، فصارت كالعدم "يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ" إذا خرجوا من قبورهم كتعارفهم بالدّنيا ، ثم يشتد عليهم هول الموقف فتنقطع المعرفة ، ويعرض الحبيب عن حبيبه ، والزوج عن زوجته ، والابن عن أبيه ، والأخ عن أخيه ، والأم عن ولدها ، قال تعالى (يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ) الآيات 35 فما بعدها من سورة عبس في ج 1 ، وقال تعالى (وَلا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً) الآية 11 من سورة المعارج الآتية ، وقال تعالى (فَلا أَنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَساءَلُونَ) الآية 103 من سورة المؤمنين الآتية لهذا يصير التقاطع بينهم ، فلا ينظر أحدهم للآخر ، لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه عن صاحبه ، وحينئذ يظهر مغزى قوله تعالى "قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ اللَّهِ" إذ شاهدوه حقا وكانوا يجحدونه بالدنيا "وَما

كانُوا مُهْتَدِينَ 45" في بيع آخرتهم الباقية بدنياهم الفانية وضلوا طريق النجلة ، فحصلت لهم خسارة عظيمة لا تتلافى ، قال تعالى "فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ" من العذاب في الدنيا قبل موتك يا محمد "أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ" قبل أن نريك عذابا فيهم إذ نرجئه للآخرة "فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ" فيها ، وهناك ترى ما أوعدناهم به من الوبال الدائم "ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ 46" من المعاصي والقبائح لا حاجة إلى شهود عليها ، لأنها كلها مدونة عنده لم يخف عليه شيء منها ، فكل جارحة تشهد بما فعلت وتبين زمانه ومكانه وصفته ، وإذ ذاك يذوقون العذاب الأليم .

وهذه الآية لها نظائر كثيرة في القرآن بلفظها ومعناها كالآية 94 من المؤمنين الآتية وغيرها ،

(192/354)

وفيها وعيد وتهديد للكفار وأهل المعاصي ، وبشارة لحضرة الرسول بأن اللّه تعالى سيريه العذاب الذي أوعدهم بإنزاله والذل والخزي في الدنيا والآخرة وقد أراه بعض ذلك يوم بدر ، وفي فتح مكة وغيرها من أيام انتصاره عليهم ، وسيريه أيضا ما خبىء لهم في الآخرة من العذاب الذي لا ينقضي "وَلِكُلِّ أُمَّةٍ" فرقة وطائفة وقوم ورهط وعشيرة وفخذ وبيت "رَسُولٌ" يرسله اللّه تعالى لإصلاحها فيأمرهم وينهاهم ويحذرهم ويبشرهم ، فيؤمن به من

شاء اللّه إيمانه ويكفر به من شاء خذلانه ، مثلك مع أمتك ، وكما يكون حالك يا أكرم الرسل مع أمتك كان حالهم مع أممهم في الدنيا والآخرة ، فإذا جاء رسولهم وبلغهم ما أمره به ربه فصدقه أناس وكفر به آخرون كما هي الحالة معك وأمتك ، حتى إذا انتهى الأجل المضروب لهم "قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ" العدل فينجي اللّه رسوله والذين آمنوا به ، ويهلك من كذبه وجحد ما جاءه به ، وهذا عدل منه تعالى لأنه لا يهلك قوما إلا بعد أن يتقدم إليهم بالمعذرة وإقامة الحجة على لسان رسوله ، وهذا القضاء قد يكون بالدنيا عذاب استئصال كقوم عاد ونوح ، وقد يكون على البعض وقد يؤخر اللّه عذاب آخرين إلى الآخرة فيوقعه فيهم دفعة واحدة ، وهؤلاء الذين ينالون العذاب في الدنيا سينالهم العذاب الأكبر يوم القيامة أيضا إذا شاء تعذيبهم ، وفي ذلك اليوم يجمع اللّه الأمم كلها للحساب ويجاء برسول كل أمة ليشهد عليها بما كان منها ، فيفصل بنجاة المؤمنين وإكرامهم عنه وفضله ، وبتعذيب الكافرين وإهانتهم بعدله "وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ 47" شيئا من جزاء أعمالهم فينال المؤمن ثواب أعماله الطيبة وما صبر عليه من مضض العيش في دنياء ويجازى الكافر عقاب أعماله السيئة وما بطر ومرح في دنياه ، فيربح المؤمن ويخسر الكافر ، راجع الآية 11 من سورة الحج في ج 3 ، قال تعالى "وَيَقُولُونَ" لك يا حبيبي على طريق السخرية والاستهزاء "مَتَى هذَا الْوَعْدُ" الذي توعدنا

به من نزول العذاب إذا لم نؤمن بك وبربك وتهددنا به أنت وأصحابك أنزلوه بنا "إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ 48" في ذلك ، وهذه الآية لا توجد في ترتيب القرآن من أوله إلى هنا ومن هذه السورة إلى سورة الأنبياء وبعدها تكرر كثيرا عند كل مناسبة ، أما في ترتيب النزول فقد مر مثلها

في سورة يس وغيرها "قُلْ" يا سيد الرسل لهؤلاء المستعجلين ما بسوءهم المستبعدين ما تهددهم به من الشقاء "لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً" أي لا أقدر على شيء لنفسي فكيف أقدر أن أنفعكم أو أوقع بكم ما هددتكم به ، لأن الأمر فيه للّه ، وقدم في هذه الآية الضر على النفع وفي الآية 188 من الأعراف المارة في ج 1 النفع على الضر لأن المقام يستدعي ذلك هنا وهناك ، أي ليس لي

شيء من الأمر كله "إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ" أن يملكنيه بتقديره إياي على فعله ، لأن إنزال العذاب بالأعداء والنصرة للأولياء لا يكونان إلا بتقدير اللّه تعالى وقضائه لا قدرة للبشر على شيء من ذلك .

وإن علم الساعة التي يكون فيها ذلك العذاب الموعود به من خصائصه أيضا لا علم لأحد بوقت قيامها ، لأنه لم يطلع أحدا من خلقه على غيبه ولكن "لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ" معين عند اللّه ، شرا كان أو خيرا ف "إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ" المحتم لنجاتهم أو عذابهم ، واستوفوا ما قدره لهم من البقاء في هذه الدنيا كاملا نزل بهم ، وإذ ذاك "فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً" عنه ولا لحظة "وَلا يَسْتَقْدِمُونَ 49" عنه ، وليس المراد هنا بالساعة الساعة الزمانية ، راجع الآية 33 من سورة الأعراف المارة في ج 1 "قُلْ" يا محمد لهؤلاء الباحثين عن حتفهم نطلقهم "أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ" هذا الذي أوعدكم به "بَياتاً" ليلا وأنتم غافلون في فرشكم "أَوْ نَهاراً" بأن باغتكم به على حين غرّة وأنتم قائمون بأعمالكم وقد عمكم به "ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ" وأي شيء يريد به "الْمُجْرِمُونَ 50" إذا وقعوا فيه ، وما الذي يستعجلون من أنواعه فكله مكروه لا يرغب بنوع من أنواعه فكيف تردون حلوله بكم وهو مر المذاق شديد الخناق "أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ" فيكم ذلك العذاب ورأيتم ألمه وشدته "آمَنْتُمْ بِهِ" وصدقتم بنزوله من قبل اللّه وأردتم الإيمان باللّه فلا يقبل منكم ، لأن وقت نزوله وقت بأس لا تقبل فيه التوبة والرجوع إلى اللّه ، وسيقال لكم "آلْآنَ" تؤمنون وقد فاتكم وقت الإيمان "وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ 51" لأنكم لا تصدقون أن هناك عذابا وتسخرون بالرسل حينما يخوفونكم به "ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا" أنفسهم بتكذيب الرسل وإنكارهم الإله من قبل ملائكة العذاب "ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ" الدائم

فهو جزاء جحودكم في الدنيا "هَلْ تُجْزَوْنَ" في الآخرة التي كنتم تنكرونها في الدنيا "إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ 52" من الأعمال القبيحة جزاء وفاقا "وَيَسْتَنْبِئُونَكَ" يستوخون منك ويطلبون يا سيد الرسل الاستخبار "أَحَقٌّ هُوَ" قولك إن هناك قيامة أخرى وعذابا على ما نفعل "قُلْ" لهم "إِي وَرَبِّي إِنَّهُ" الذي تستخبرون عنه "لَحَقٌّ" لا مرية فيه البتة "وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ 53" اللّه عند إرادته تعذيبكم في ذلك اليوم فلا يفوت شقيا جزاؤه ولا مهرب لأحد ، فالعذاب لاحق بكم لا محالة وهناك تتمنى كل نفس قدر عليها العذاب ما قاله تعالى قوله "وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ" أشركت باللّه وكفرت به في الدنيا "ما فِي الْأَرْضِ" من شيء وطلب منها الفداء مما حلّ بها من عذاب اللّه في الآخرة "لَافْتَدَتْ بِهِ" نفسها لتنجو منه إلا أنه لا ينفع الفداء ولا يقبل البدل "وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ" أضمروا اليأس والحرمان لما علموا ذلك وكتموا تأثرهم وأسفهم على ما وقع منهم في الدنيا من الكفر والإنكار والتكذيب "لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ" عيانا "وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ" أولئك الظالمون "بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ 54" فيما قضي عليهم من العذاب لأنه بما كسبت أيديهم ، وإن اللّه لا يشدد في عذاب الظالم ولا يخفف من عذاب المظلوم لقاء ظلمه ، بل ينال كل جزاء على ما عمل .

ولا تكرار هنا لأن الآية الأولى بين الأنبياء وأممهم ، وهذه بين بعضهم بعضا ، وقد جاءت هذه الأفعال بلفظ الماضي مع أنها في القيامة وأحوالها ، وهي من الأمور المستقبلة لأنها واجبة الوقوع ومحققة فيها ، فلذلك جعل اللّه تعالى مستقبلها كالماضي .

(196/354)

واعلم أن كلمة أسرّ التي مصدرها الإسرار من الأضداد ، إذ تكون بمعنى الإخفاء ولإظهار ، ولذلك اختلف المفسرون فيها ، فمنهم من قال أظهروا الندامة وأعلنوها على ما فاتهم ، لأن ذلك اليوم ليس بيوم تصبّر وتصنّع كي يظهروا خلاف ما يبطنون ، وهو الأولى ، لأن استعمال أسر غالبا في الكتمان وهو ما ينصرف إليه الذهن بادىء الرأي ، وهو أنسب بالمقام ، ومنهم من قال أخفوا أسفهم وندامتهم لئلا يلاموا عليها من قبل غيرهم فيجتمع عليهم عذابان العذاب واللوم أيضا ، وعلى هذا يكون المراد بمن يخفي الندامة رؤساء الكفر خشية لومهم من أتباعهم .

(197/354)

والندامة هي الغم والأسف على ما فرط من الشخص ، وإظهارها يكون بعضّ الأصبع والبرطم والبكاء والصياح ، وإخفاؤها بعدم إظهار شيء من ذلك وكتم ما يدل على آثارها ، وقد وقع منهم ذلك ، أجارنا اللّه ، وهذه الآية مكررة في القرآن كثيرا كالرعد والمائدة في ج 3 وغيرها ، ثم اتبع جل شأنه ما يدل على عظمته واقتداره مما سبق بقوله "أَلَا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" ملكا وعبيدا ، ومن كان كذلك فإنه لا يقبل الفداء فليس للكافر أن يقتدى بشيء مما فيهما من العذاب وهما في قبضة ربه وهو من جملة المملوكين فيهما ، فكيف يقتدى المملوك بشيء لا يملكه ، وهذا على سبيل الفرض والتقدير ، لأن الآخرة ليس فيها ما يملك لأن الملك يؤمئذ كلّه للّه ، وقد أكد هذا بقوله "أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" ثابت واقع كما أخبر به رسله لا محالة "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ 55" ذلك ويجحدون الثواب والعقاب في الدنيا فيقعون في ندامة الآخرة "هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ" في الدنيا "وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ 56" في الآخرة يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ" في هذا القرآن على لسان رسوله ، فاتعظوا بها فهي نقاء لكم من الكفر "وَشِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ" من داء الجهل الذي هو في القلب وهو أضر من داء الجسد الذي بمرض البدن "وَهُدىً" من الضلال إلى الصواب "وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ 57" من العذاب الدنيوي والأخروي المادي والمعنوي .

وهذه الآية عامة لكل البشر المنتفعين به قريش فمن عداهم الموجودين في زمنه صلى اللّه عليه وسلم والآتين بعده من عامة الخلق إلى يوم القيامة ، لأن القرآن ما زال ولا يزال رادعا عن الشر ، مرغبا بالخير ، مطهرا للأخلاق ، مصححا للعقائد ، منجيا من الجهالات ، لما فيه من الأمر والنهي والتخويف والترغيب والترهيب والتحذير والتذكير ، وخصّ الصدر دون سائر الجوارح لأنه موضع القلب وهو أعز موضع في بدن الإنسان ، قال صلى اللّه عليه وسلم فيما رواه البخاري ومسلم عن أبي عبد اللّه النعمان ابن بشير وهو الذي سميت المعرة الواقعة بين حلب وحماه باسمه : ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب :

مطلب معنى الرحمة والفضل ومراتب كمال النفس .

هذا ، وقد خاطب اللّه عز وجل رسوله سيد المخاطبين بقوله بعد ذلك "قُلْ" لهؤلاء الجهلة ليس الفرح الذي تطمئن له النفس بحطام الدنيا ولذتها الفانية ، وإنما الفرح الدائم المحمود العاقبة يكون "بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ" وهو الإسلام والإيمان والقرآن وطاعة الرسول "فَبِذَلِكَ" الأمر العظيم الحسن العاقبة إذا أرادوا الفرح بمعناه ، المبهج للوجوه ، المثلج للصدور "فَلْيَفْرَحُوا" إذا فقهوا ونظروا إلى عاقبة الأمر ، فلا شيء أحق أن يفرح به غير ذلك ، فمن أعطي تلك الأمور الأربعة وعمل بما تفرع عنها فقد أعطي الخير كله لأنه "هُوَ"

المشار إليه من الفضل والرحمة "خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ 58" من متاع الدنيا ، لأن ما آتاهم اللّه تعالى في الإسلام والإيمان والقرآن ومحمد صلى اللّه عليه وسلم والانتفاع بها وثلج اليقين بالإيمان وسكون النفس إليه لا يقاس بالدنيا وما فيها .

(199/354)

واعلم أن الفرح لذة في القلب تظهر على الجوارح عند إدراك المحبوب والمشتهى من كل ما يؤمله الرجل ، وأكثر ما يستعمل في اللذات البدنية الدنيوية ، واستعمل هنا فيما يرغب فيه من الأمور الأخروية ، قال بعض المحققين إن في هذه الآية إشارة إلى أن للنفس الإنسانية مراتب كمال من تمسك بالقرآن فاز بها : الأولى تهذيب الظاهر من فعل كل ما لا ينبغي ، وإليها الإشارة بالموعظة الحسنة ، لأن فيها الزجر عن المعاصي ، وإذا انزجرت النفس عن المعاصي جنحت إلى الطاعات ففازت بالرضى ، الثانية تهذيب الباطن عن العقائد الفاسدة والملكات الردية ، وإليها الإشارة بشفاء لما في الصدور ، الثالثة تحلي النفس بالعقائد الحقة والأخلاق الفاضلة ولا يحصل ذلك إلا بالهدى ، الرابعة تجلي أنوار الرحمة الإلهية وتختص بالنفوس الكاملة المستعدة بما حصل لها من الكمال الظاهر والباطن وذلك المشار إليه بقوله (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ) إلخ الآية ، هذا ومما يدل على تفسير الآية بما ذكرنا ما

أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن أنس قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فضل اللّه القرآن ، ورحمته أن جعلكم من أهله ، ولا يكون من أهله إلا من هو مسلم مؤمن .

وروى ذلك عن البراء وأبي سعيد الخدري ، وجاء عن جمع أن الفضل القرآن ، والرحمة الإسلام .

وقيل إن المراد بالرحمة محمد صلى اللّه عليه وسلم لقوله تعالى

(وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ) الآية 105 من الأنبياء الآتية ولذلك فسرناها بالقرآن وبمحمد عليه السلام جمعا بين القولين كما فسرنا الفضل بالإيمان والإسلام .

(200/354)

وأخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس رضي اللّه عنهما أن الفضل محمد صلى اللّه عليه وسلم والرحمة علي عليه السلام وهو كرم اللّه وجهه وإن كان رحمة جليلة لهذه الأمة إلا أن المقام لا يناسب التفسير بذلك ، كما أن اللّه تعالى لم يطلق الفضل على رسوله محمد بالقرآن ، ولهذا فالأولى بالتفسير هو ما ذكرناه واللّه أعلم .

وفي هذه الآية دلالة على الاستشفاء بالقرآن العظيم ، ولا شك أنه بركة جليلة قد يذهب اللّه تعالى به الأمراض الحسية والمعنوية ، وهذا مما لا ينكره أحد إلا قليل الاعتقاد ، وقد منا

ما يتعلق في هذا عند الآية 82 من سورة الإسراء المارة في ج 1 ، "قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ" هذا عامّ في كل ما نزل من السماء أو خرج من الأرض أو كان مما بينهما أو حصل من حيوان وطير وحوت وسائر ما به نفعكم أيها الناس "فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً" بأن بعضتموه وقسمتموه ، وهو ما ذكره اللّه تعالى فى الآيات من 136 - 140 من سورة الانعام الآتية من تخصيص بعض الحيوان والحرث لأناس دون غيرهم وتحريم بعض الحيوان كالبحيرة والسائبة والوصيلة وغيرها من تلقاء أنفسهم ، كما ستجد تفصيله بمحله إن شاء اللّه ، فيا أكمل الرسل "قُلْ" لهؤلاء المستبدين بالتحليل والتحريم والتخصيص والإباحة "آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ" بذلك أم تلقيتموه عن رسوله أم من كتابه "أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ 59" فتنسبونه إليه دون أن يأذن لكم به ، وبما أنه تعالى لم يأمر بذلك ولم ينزّل به شيئا على رسوله فأنتم كاذبون مختلقون لزعمكم في قولكم (وَاللَّهُ أَمَرَنا بِها) كما مر في الآية 27 من سورة الأعراف المارة في ج 1 .

مطلب الحرام رزق مثل الحلال وقول المعتزلة فيه والرد عليهم .

(201/354)

هذا ، وإن ما استدلت به المعتزلة في هذه الآية بأن الحرام ليس برزق لا مستند له ، لأن المقدّر للانتفاع هو الحلال ، فيكون المذكور في هذه الآية قسما من الرزق وهو شامل للحلال والحرام .

قال في بدء الأمالي :

وإن السحت رزق مثل حل وإن يكره مقالي كل قالي

ومعناه أن الحرام رزق مثل الحلال ، لأن الرزق ما يسوقه اللّه تعالى إلى الحيوان وينتفع به فعلا حراما كان أو حلالا ، سواء في ذلك رزق الإنسان والدواب ، مأكولا وغير مأكول ، ولا يقبح نسبته إلى اللّه تعالى كما تقوله المعتزلة ، لأن اللّه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد في ملكه ، فكل ما يقع من حلال أو حرام بتقديره كسائر أنواع الخير والشر ، إلا أن الحسن برضاه والقبيح بقضاه ، وعقاب مقترف الحرام لسوء مباشرة أسبابه فيلزم على القائل إن الحرام ليس برزق أن من انتفع بالحرام طول عمره لم يرزقه اللّه وهو خلاف الواقع ومباين لقوله تعالى :

(وَما مِنْ دَابَّةٍ . . .

إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُها) الآية 6 من سورة هود الآتية ، وأهل الاعتزال لهم مخالفات كثيرة مع أهل السنة والجماعة منها هذه ، ومنها رؤية اللّه تعالى ، ومنها أن ما يفعله الإنسان من فاحشة لا دخل لخلق اللّه وإرادته فيها ، حتى قيل إن أبا اسحق الاسفراييني كان ذات يوم عند

الصاحب بن عباد ، فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء ، فردّ عليه الأستاذ أبو اسحق بقوله : سبحان من لا يقع في ملكه إلّا ما يشاء .

وإنهم يقصدون بذلك إكبار اللّه تعالى وتعظيمه عن أن يكون فاعلا لغير الحسن .

(202/354)

وإن أهل السنة والجماعة يمجدونه ويبجلونه فيقولون لا يقع في ملكه من خير أو شر إلا بإرادته وقضائه وقدره ، وطريقهم هذا لعمري هو للصواب ، لأنا نتحاشى أن نقول بوقوع شيء دون إرادته ، إلا أن الخير برضاه والشرّ بقضاء ، وفي البيت المذكور آنفا من أنواع البديع التسجيع بين مقالي وقالي ، والجناس المطرف وهو ما زاد أحد ركبيه على الآخر حرفا في طرفه الأول ، وبين الحل والسحت المطابقة وهي الجمع بين متضادّين ، ومعنى الحلال ما نص اللّه أو رسوله ، أو أجمع المؤمنون على إباحة تناوله ، أو قضى القياس الجلي إباحته بعينه أو جنسه بأن لم يتبين أنه حرام ، والحرام ما نص اللّه تعالى أو رسوله صلى اللّه عليه وسلم أو أجمع المسلمون على امتناع تناوله بعينه أو جنسه ، أو اقتضى القياس الجلي ذلك ، أو ورد فيه حدّ أو تعزير أو وعيد شديد مؤول سواء كان تحريمه لمفسدة أو مضرّة

خفيّة كالزنى فإن فيه فساد الغراس وتضييع الأنساب وقتل الولد معنّى لعدم وجود من يربيه ، ومذكّى المجوس فإن فيه فساد الأبدان أو مضرة أخرى علمها الشارع ، أو مضرة واضحة كالسّم والخمر فإن في الأول هلاك النفس ، وفي الثاني ذهاب العقل ، تدبر .

قال تعالى "وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ" أيحسبون أن اللّه لا يعلم حالهم ، أم يظنون أنهم يعافون من عقابه ، أم أن اللّه يغفل عن افترائهم ، كلا ، بل يعلم ولا يغفل ، وإن شاء يعاقبهم عليه عقابا شديدا في الآخرة ، إذ يجازى فيها كلا بما عمل .

(203/354)

وفي هذا الاستفهام توبيخ كبير ، وتقريع خطير ، ووعيد عظيم لجميع أصناف المخالفين أوامر اللّه الكذب فما دونه بالنظر لإبهامه "إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ" عميم "عَلَى النَّاسِ" بتأخير عقوبتهم وإمهالهم ليرجعوا إليه ، وقد أنزل عليهم الكتب وأرسل إليهم الرسل وركب فيهم العقل ليميّزوا الخبيث من الطيب ، والحرام من الحلال ، والحق من الباطل فيتبعوا الأحسن ، ولو عاجلهم بالعقوبة لاحتجوا عليه كأهل الفترة والصغير والمجنون والمريض والفقير والملك المار ذكرهم في الآية الأخيرة من سورة طه ، والآية 15 من سورة الإسراء المارتين في ج 1 ، "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ 60" نعم اللّه المتوالية عليهم ولا يقدرونها قدرها ولا يستهدون

يهدي اللّه ولا يسترشدون بإرشاد رسله ولا يتبعون ما أنزل إليهم من الحق ،

قال تعالى "وَما تَكُونُ" يا أكرم الرسل "فِي شَأْنٍ" حال وأمر ومطلق خطب .

واعلم أن لفظ الشأن لا يأتي إلا فيما له خطر مما يعظم من الأمور "وَما تَتْلُوا مِنْهُ" من ذلك الشأن ، لأن تلاوته معظم شؤونه صلى اللّه عليه وسلم ، وعود الضمير إلى الشأن أولى من عوده إلى القرآن لاحتياج تأويل "مِنْ قُرْآنٍ" بمعنى سورة ، لأن كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر يكون تفخيما للمضر وهو كما ترى ، وقيل إنه يعود إلى التنزيل غير المذكور ، وعليه يكون المعنى وما تتلوء من التنزيل "وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ" أيها الناس قليلا كان أو كثيرا ، جليلا أو حقيرا "إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً" نراه ونثبته ونحصيه عليكم في صحائفكم ، لأنا رقباء عليكم .

وقيل إن الخطابين الأولين في قوله تعالى (وَما تَكُونُ) (وَما تَتْلُوا) له صلى اللّه عليه وسلم ولأمته عامة ، لأن العادة إذا خوطب رئيس القوم بشيء كان قومه داخلا فيه لانصرافه إليهم بالتبعية ، والأول

أولى ، إذ روعي في كل من المقامين ما يليق به ، فعبّر أولا بالخطابين المذكورين في مقام الخصوص لسيد المخاطبين بالشأن ، لأن عمل العظيم عظيم ، وعبر بالثاني للأمة جميعهم برّهم وفاجرهم بالعمل العام للجليل والحقير ، ليمتاز رأس النوع الإنساني بالخطاب أيضا عن عامة الناس ، كما امتاز بغيره عليهم "إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ" أي أنه تعالى شاهد عليكم حين الدخول في أعمالكم والخوض بأقوالكم .

ومعنى الإفاضة الدخول في العمل على جهة الانتصاب إليه والانبساط فيه والتلبس به "وَمَا يَعْزُبُ" ولا يغرب ولا يبعد ويخفى ويغيب "عَنْ رَبِّكَ" يا سيد الرسل ما يقع في ملكه "مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ" أو أقل ، وذكر الذرة للتقليل عند الناس ، وتطلق على السخلة الصغيرة جدا ، وهو تعالى لا تخفى عليه خافية مهما قلت "فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ" ولا فيما بينهما أو فوقهما أو تحت الأرض "وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ" منها فعلمه بالقليل كعلمه بالكثير وعلمه بالبعيد كعلمه بالقريب سواء عنده فلا يقع شيء في كونه "إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ 61" مدون ومثبت بصورة ظاهرة في لوحه العظيم الذي لم يغفل شيئا .

قدم في هذه الآية الأرض على السماء وفيما سبق وسيأتي السماء على الأرض في مثل هذه الآية الآية 43 من سورة سبأ الآتية وغيرها ، لأن شهادة اللّه تعالى هنا على أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصلها بقوله (وَمَا يَعْزُبُ) إلخ حسّن تقديم الأرض ، وإلا فحق السماء أن تقدّم على الأرض ، لأنها أفضل منها ، عدا ما ضمّ جثمان الأنبياء عليهم الصلاة

والسلام ، فإنّه لا شك أفضل من السماء .

مطلب أولياء اللّه من هم والمحبة الصادقة والرؤيا الصالحة :

(205/354)

ثم إنه تعالى لمّا عمّم وعده ووعيده في حق جميع من أطاع وعصى ، أتبعه سبحانه بشرح أحوال أوليائه فقال مصدرا كلامه بأداة التنبيه "أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ" الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة ، وتولى هدايتهم بما آتاهم من الآيات والبراهين على قدرته ، والدلائل والحجج على حكمته ، وتولوا القيام بحقه والرحمة لخلقه ، وتحابوا في اللّه ومن أجله على غير أرحام بينهم أو أموال يتعاطونها ،

فهؤلاء الكرام المتقون "لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ" يوم يخاف الناس من هول الموقف "وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ 62" إذا حزنوا وقت الفزع الأكبر زمن الحسرة ، ثم وصفهم بقوله تعالى قوله "الَّذِينَ آمَنُوا" بي وبكتبي ورسلي "وَكانُوا" في الدنيا "يَتَّقُونَ 63" ما يغضب اللّه تعالى من أقوال وأفعال ، ويعملون ما يرضيه وهؤلاء الذين إذا رئوا ذكر اللّه .

أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : يقول اللّه تبارك وتعالى أين المتحابون بجلالي ، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي .

وروى الطبراني بسنده عن سعيد بن جبير مرسلا قال سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن أولياء اللّه تعالى فقال هم الذين إذا رئوا ذكر اللّه .

وعن عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إن من عباد اللّه لأناسا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من اللّه ، قالوا يا رسول اللّه تخبرنا من هم ؟ قال هم قوم تحابوا في اللّه على غير أرحاء بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فو اللّه إن وجوههم لنور ، وأنهم لعلى نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس ، وقرأ هذه الآية – أخرجه أبو داود – وروى البغوي بسنده عن ابن مالك الأشعري قال : كنت عند النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال :

(206/354)

إن للّه عبيدا ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم النبيون والشهداء بقربهم ومقعدهم من اللّه يوم القيامة ، قال وفي ناحية القوم اعرابي فجثى على ركبتيه ، ورمى بيديه ، ثم قال حدثنا يا رسول اللّه عنهم من هم ؟ قال فرأيت في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم البشر ، فقال هم عباد من عباد اللّه ومن بلدان شتى وقبائل شتي ، لم يكن بينهم أرحام يتواصلون بها ولا دنيا يتباذلون بها ، يتحابون بروح اللّه ، يجعل اللّه وجوههم نورا ويجعل لهم منابر من

لؤلؤ قدام الرحمن ، يفزع الناس ولا يفزعون ، ويخاف الناس ولا يخافون .

وأخرج الترمذي عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول قال اللّه تعالى المتحابون بجلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء .

واعلم أن الولي أخذ لفظه من الولاء ، وهو القرب والنصرة ، فولي اللّه هو الذي يتقرب إليه تعالى بكل ما افترض عليه ، ويكون مشتغلا باللّه مستغرق القلب في معرفه نور جلال اللّه ، فإن رأى رأى دلائل قدرة اللّه ،

وإن سمع سمع آيات اللّه ، وإن نطق نطق بالثناء على اللّه ، وإن تحرّك تحرك في طاعة اللّه ، وإن اجتهد اجتهد فيما يقربه إلى اللّه ، لا يفتر عن ذكره ولا يرى بقلبه غيره ، فإذا كان العبد كذلك كان اللّه وليه وناصره ومعينه ، قال تعالى :

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا) الآية 257 من سورة البقرة في ج 3 ، فعلى هذا يكون العالم العامل هو ولي اللّه ، وغير العامل هو الأحمق الخاصر ، فقد جاء بالخبر ويل للعالم من لاتباع ، وقال صاحب الزيد

وعالم بعلمه لم يعملن معذّب من قبل عابد الوثن

وقال تعالى : (أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ) الآية 22 من الجاثية الآتية .

هذا ومعنى المتقي من اتقى كل ما نهى اللّه عنه ، وأكبر من التقوى الورع ، والورع من اتقى الشبهات وترك الحلال مخافة الوقوع بالحرام .

(207/354)

روى البخاري ومسلم عن أبي عبد اللّه النعمان بن بشير قال : سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى اللّه محارمه .

فيجب على المتقي الورع أن يجتنب الحريم والمحرم لأن المحرم حرام لعينه ، والحريم محرم ، لأنه يت ؟ رج به إلى الحرام ، فمن كانت هذه صفاتهم . هُمُ الْبُشْرى "

بالنجاة من كل سوء والفوز بكل حسنِ ي الْحَياةِ الدُّنْيا "

قال أكثر المفسرين البشرى في هذه الآية الرؤيا الصالحة الصادقة ، أخرج الترمذي عن عبادة ابن الصامت قال : سألت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن قوله تعالىَ هُمُ الْبُشْرى)

قال هي الرؤيا الصالحة يراعا المؤمن أو ترى له .

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال : لم يبق من النبوة إلا المبشرات ، قالوا وما البشرات ؟ قال الرؤيا الصالحة .

وروى البخاري ومسلم عنه أيضا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

هذا لفظ البخاري ولمسلم إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا ، ورؤيا المسلم جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة .

والرؤيا ثلاث : رؤيا صالحة بشرى من اللّه ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا ممّا يحدّث المرء نفسه ، ولا يحمل معنى الآية إلا على الأولى ، وهذه الأحاديث تأكيد للرؤيا وصدقها .

(208/354)

ومعنى أنها جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وهو أنه صلى اللّه عليه وسلم أقام في النبوة يوحى إليه ثلاثا وعشرين سنة ، كان في بدايتها ستة أشهر يرى الوحي في النام ، فتكون مدة الرؤيا الصادقة جزءا باعتبار كل ستة أشهر جزءا من ستة وأربعين جزءا ، وهذه أصح من رواية خمس وأربعين إلخ ، وفي رواية ست وسبعين وغيرها لانطباقها على المعنى

دون كسور ما .

هذا ، وقيل إن البشرى هي الثناء الحسن في الدنيا والجنة في الأخرى ، أخرج مسلم عن أبي ذر قال : قيل لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه ، قال تلك عاجل بشرى المؤمن ، قال العلماء هذه البشرى المعجلة له بالخير في الدنيا دليل للبشرى المؤجلة له في الآخرة المشار إليها بقوله تعالى :

(بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) الآية 12 من سورة الحديد في ج 3 ، وهذه البشرى المعجلة دليل على رضاء اللّه تعالى عنه ومحبّته له وتحببه إلى خلقه ، وقال الزهري وعطاء وابن عباس وقتادة : هي نزول الملائكة بالبشارة من اللّه عند نزول الموت بدليل قوله سبحانه (تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ) وتقول لهم (أَلَّا تَخافُوا وَلا تَحْزَنُوا) من هول القبر والقيامة (وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ) الآية 37 من فصلت الآتية ، وفي الآخرة أيضا بعد خروج نفس المؤمن يعرج بها إلى اللّه ويبشر برضوان اللّه .

وقال الحسن هي ما بشر اللّه به المؤمن في كتابه من جنّته وكريم ثوابه يدل عليه قوله تعالى تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ"

ولا إخلاف لمواعده التي وعد بها عباده المخلصين العارفين في كتابه وعلى لسان رسله ولا تغيير لشيء من ذلك"

أي تبشير المؤمن بما فيه سعادته في الدارين وَالْفَوْزُ الْعَظِيمُ

64" الذي لا أعظم منه ، وهذه الآيات الثلاث واقعة كالمعترضة بين ما قبلها وهو (وَما تَكُونُ) إلخ ، وبين ما بعدها وهو "وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ" في شأنك من التخويف والتهديد ولا يسؤك تكذيبهم وتعزيزهم بكثرة الأموال والأولاد "إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً" فالغلبة والقهر على الأعداء بالقدرة من خصائص اللّه تعالى لا يملكها أحد غيره ، فهو الذي يعز من يشاء وحده لا شريك له ولو لم يكن لديه قوة ومنعة ، ويذل من يشاء ولو كان ذا قوة ومنعة ، وأنت ممن شاء عزّك في الدنيا والآخرة ، قال تعالى (لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي) الآية 21 من المجادلة في ج 3 ، وقال تعالى (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا) الآية 9 من سورة المؤمن الآتية ، وقال تعالى (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) الآية 8 من سورة المنافقين في ج 3 ، وقال تعالى كانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ)

الآية 45 من سورة الروم الآتية ، وقال تعالى إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ)

الآية 17 من الصافات الآتية ، ولهذا فإنه تعالى قادر على سلبهم ما يتعززون به عليك بإهلاك أموالهم وأولادهم وذويهم وإدلالهم وإهانتهم وإظهار عزك عليهم بالنصر و"هُوَ السَّمِيعُ" لأقوالهم ودعائك "الْعَلِيمُ 65" بنواياهم وأحوالك ، والدليل على أن الآية السابقة معترضة الالتفات إلى الخطاب لتكون معطوفة على (وَما تَكُونُ) التي هي خطاب لحضرة الرسول أيضا ، والحذف أي لو حذفتها ووصلت ما قبلها بما بعدها لصح المعنى شأن الآيات المعترضة والآيات المدنية بالسور المكية وبالعكس ، إلا أنه لا يجوز بوجه من الوجوه حذف شيء من ترتيب القرآن بالقراءة للوصل المذكور ولا لغيره قطعا ، ويحرم إلا الاتباع لما هو محرر في المصاحف لا تبديل لكلمات اللّه ، قال تعالى قوله "أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" كل آية تصدّر بأداة التنبيه كهذه فيها تنبيه للسامع على النظر لمعناها ومغزاها ، فهذه تنبه القارئ أن لا ملك لأحد في هذين الهيكلين العظيمين وما فيهما إلا اللّه ، وأن كل من يدعي العزّة على غيره ولم يرد اللّه عزّه لا ينالها ، لأنه جل شأنه لا يسخر أحدا له مما بين السماء والأرض ينصره ويقويه ، وإذا علم هذا فكل أحد ذليل إلا من أعزه اللّه ، وكل أحد ضعيف إلا من قواه اللّه ، وكل أحد مهان إلا من أكرمه اللّه ، فمن أراد عزّه سخر له ما يدعو إلى ذلك من خلقه الذين هم في السموات والأرض ، فيكون عزيزا بعزّة اللّه ، ولا تكرار في هذه الآية لأن الآية المتقدمة عدد 55 جاءت بلفظ (ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ) إلخ ، وكذلك الآية الآتية عدد 68 وكل ما صدر بما يكون لغير العاقل غالبا ، وما صدر بمن

يكون للعاقل ، فيدل مجموع الآيات على أنه تعالى مالك جميع ما ومن في السموات والأرض العاقل وغيره ، النّامي والجامد وغيرهما من كل ما يطلق عليه جماد وحساس ، وإذا كان العقلاء في ملكه فلأن يكون غيرهم في قبضته من باب أولى ، وإذا علمت هذا ظهر لك أن ما يعبده المشركون من الأوثان في ملكه وتحت تصرفه ، فجعلها شركاء له معبودة من دونه من القدح بمكان بالنسبة لمقام الربوبية الفردة الحقة .

قال تعالى "وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ" مفعول يدعون قبله ، ومفعول يتبع مقدر تقديره شيئا غير أهواءهم وتسميتهم لأن شركة اللّه تعالى في ربوبيته محالة ، وهذا على أن ما في يتبع نافية وهو الأولى في المقام والأنسب في المعنى ، وقد ذكر صاحب الجمل رحمه اللّه وجوها أخرى في معنى ما ، وتفسير هذه الآية .

وجعل الشربيني عفا اللّه عنه مفعول وما يتبع الذين يدعون من دون اللّه شركاء شركاء أيضا ، وصدر قوله هذا بقوله (وكان حقه وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ) شركاء وأراه متجاوزا في قوله هذا ، لأن الحق ما قاله ربه لا ما جرى عليه هو وغيره ، راجع الآية 5 من سورة الحج والآية 108 من سورة التوبة في ج 3 ، وهو خلافا لما جرينا

عليه من أن مفعول يتبع الذي قدرناه تبعا لغيرنا (شيئا) إذ يدل عليه قوله تعالى "إِنَّ" أي ما "يَتَّبِعُونَ" في الحقيقة "إِلَّا الظَّنَّ" على توهم شفاعتها لهم "وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ 66" يحزرون ويقدرون شركة اللّه تعالى تقديرا باطلا وكذبا محضا ، فتبّا لما يتبعون ، وتعسا لما يزعمون ، وقبحا لما يفعلون ، ويؤسا لما يكذبون ، وإفكا بحتا لما يفترون .

(212/354)

ثم نبه جل شأنه على عظيم قدرته وشمول نعمته وأنه الذي يستحق العبادة وحده بقوله "هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ" فتستريحوا من أتعابكم التي قاسيتموها في النهار "وَالنَّهَارَ" جعله "مُبْصِراً" لتنصرفوا فيه إلى أعمالكم وتأمين معاشكم والنهار يبصر فيه لا يبصر هو إلا أن معناه مفهوم في كلام العرب فخاطبهم بلغتهم ، قال جرير :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم

أضاف النوم إلى الليل ووصفه به وعنى نفسه ولم يكن هو نائما ولا بعيره ،

(213/354)

و هذا من باب نقل الاسم من المسبب إلى السبب ، قال قطرب تقول العرب أظلم الليل وأبصر النّهار بمعنى صار ذا ظلمة وذا ضياء "إِنَّ فِي ذَلِكَ" السكون ليلا والاشتغال نهارا "لَآيَاتٍ" من آيات اللّه الكثيرة الدالة على انفراده بالإلهية واستحقاقه وحده للعبادة وعبرة "لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ 67" سماع قبول واعتبار وتدبر وتذكر لينتفعوا بها ويتعظوا فينتبهوا وينتهوا عما يقولون "قَالُوا" أولئك المشركون بعد هذه الدلائل المبرهنة على التوحيد "اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً" من الملائكة وسموها بنات اللّه ، تعالى عن ذلك ، وهذا فضلا عن وصمهم عزّته بالشريك من الأوثان وقد خصوا الإله بالبنات وهم لا يرضونهن لأنفسهم "سُبْحَانَهُ" تنزه عن ذلك وتبرأ من أن يكون له ولد "هُوَ الْغَنِيُّ" عن جميع خلقه ، والولد إنما يتخذ للحاجة ليتقوى به على غيره ، ويستعين به لحوائجه ، ويستعز به لذله ، ويتشرف به لهوانه ، ويتلذذ به لشهوته ، وكلّ ذلك من أمارات الحدوث وهي عليه محال ، وهو منزه عن ذلك كله ، وكيف يتخذ ولدا وهو "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ" ملكا وعبيدا ، والكل في تصرفه وهو خالقهم ومحدثهم من العدم ، وهم محتاجون إليه في كل أمورهم مع غناه عنهم ، ولما نزه جلّ شأنه نفسه المقدسة عن الولد عطف على من قال ذلك بالإنكار والتوبيخ والتقريع فقال عز قوله نافيا صحة ذلك "إِنْ عِنْدَكُمْ" أيها المفترون "مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا" الذي اختلقتموه أي ما عندكم عليه حجة ولا برهان به البتة ، ثم تابع بالإنكار عليهم بقوله "أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ 68" حقيقته وتضيفون إليه ما لا صحة له ، وهو المبرأ من كل نقص المنزه عن كل

شريك فكيف تجوزون نسبة ما لا تجوز نسبته إليه تعالى ، وهذا جهل مركب منكم أيها لمختلقون لا يستند إلى برهان ، ولا يعتمد على دليل ولا مادة ، فيا أكرم الرسل "قُلْ" لأمثال هؤلاء "إِنَّ الَّذِينَ

(214/354)

يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ" ويقولون عليه الباطل وينسبونه إلى ما لا يليق بجنابه "لا يُفْلِحُونَ 69" في الدنيا أبدا ، ولا ينجون من عذاب الآخرة ، وعذاب القبر ، ولا يفوزون بريح الجنة ، ولا يسعدون السعادة الطيبة وإن اغتروا بطول العمر والسلامة من الأمراض في الدنيا والبقاء بنعيمها الزائل والتمتع بعلو المناصب والجاه ، لأن هذا كله "مَتَاعٌ" قليل زائل يتمتعون به في حياتهم ويقيمون به رياستهم ويرفعون به صيتهم ويتظاهرون به على المؤمنين ويناصبونهم العداء وينشرون عليهم سطوتهم "فِي الدُّنْيا" فقط لا يدوم لهم ذلك ولا ينتفعون به في الآخرة ، بل يكون عليهم وبالا فيها "ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ" بالموت "ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ" بعد الموت وفي الآخرة بعد الحساب على ذلك وغيره ونعذبهم "بِما كانُوا يَكْفُرُونَ 70" نعمنا ولم يستعملوها لما خلقت لها كما أنهم لم يستعملوا جوارحهم لما خلقت لها .

هذه نبذة من أحوال قريش قومك يا محمد ، قصصناها عليك وها نحن أولاء نقص عليك من أحوال الأنبياء قبلك وما لاقوه من أقوامهم كي تذكره لهم ، وتسلي نفسك بما وقع لهم من أقوامهم .

قال تعالى "وَاتْلُ" يا محمد "عَلَيْهِمْ" أي قومك "نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ" هم بنو قابيل أول رجل أهرق الدم على وجه الأرض وسن القتل الذي لم يعرف قبل ، إذ قتل أخاه هابيل وعصى أباه ، كما ستأتي قصتهما في الآية 27 من سورة المائدة في ج 3 .

قال صلى اللّه عليه وسلم من سن حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من يعمل بها إلى يوم القيامة .

(215/354)

وهو أول من انشق على أهله ومنه بدأ الخلاف ، لأمر أراده اللّه ، قال تعالى (وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَةً" الآية 118 من سورة هود الآتية ، وفائدة هذه القصص إخبار حضرة الرسول بأحوال الأمم السابقة مع أنبيائهم ، وإعلامه بأنه ليس هو وحده قاصى شدة بإرشاد قومه بل إخوانه الأنبياء كانوا كذلك ، فإنهم كذبوا وأهينوا وطردوا وقتلوا ، ليتسلى بذلك ويهون عليه .

ما يلاقيه من قومه ، قال تعالى حاكيا حاله معهم "يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ" ثقل وعظم وشق "عَلَيْكُمْ مَقامِي" بين أظهركم إذ طال أمده فيهم إذ لبث بعد تشرفه بالنبوة معهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، كما سنبينه في الآية 14 من سورة العنكبوت الآتية ، وهو يدعوهم خلالها إلى اللّه ولينبذوا الكفر فلم ينجع بهم "وَتَذْكِيرِي" يصعب عليكم ووعظي إياكم "بِآياتِ اللَّهِ" وبيان حججه وبراهينه طلبا لهدايتكم لما به نفعكم ، ولقاء هذا تعزمون على طردي وقتلي ، فافعلوا ما شئتم "فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ"

ولست مباليا بكم إذ هو حسبي وثقتي ، قد فوضت أمري إليه "فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ" الذي عزمتم عليه واستعدوا لتنفيذه ، ولا تتركوا شيئا تصورتموه إلا أحضرتموه "وَ" ادعوا "شُرَكاءَكُمْ" أيضا فيما أنتم عليه ممن هو على طريقتكم فيما أظهرتموه .

يؤيد هذا التفسير قول من جعل الواو بمعنى مع ، أي أجمعوا أمركم مع شركائكم .

وما قيل إن المراد بالشركاء هنا الأوثان ، مخالف للظاهر ومناف للسياق ، وإذا صحت الحقيقة فلا مجال للعدول عنها إلى المجاز "ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً" هما وكربا بل اجعلوه سهلا ويسرا "ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ" ذلك الأمر الذي أجمعتم عليه وأهلكوني ، وتخلصوا مني ، واطرحوا عنكم ثقلي عليكم ، وتخلصوا من مقامي بينكم ، ولا تلتفتوا لتذكيري "وَلا تُنْظِرُونِ 71" لا تمهلوني إن استنظرتكم بل عجلوا بما تريدونه .

هذا وإن تفسير الغمة بالستر والخفاء والإبهام كما ذكره بعض المفسرين لا يناسب المقام ، إذ يكون المعنى على هذا التفسير ليكن أمركم ظاهرا منكشفا ، أخذا من غم الهلال إذا خفي والتبس أمره على الناس ، وعليه حديث وائل بن حجر : لا غمة في فرائض اللّه .

أو لا تستر ولا تخفي بل تظهر وتعلن ، فالمشي على هذا الوجه فيه بعد عن المعنى المراد واللّه أعلم "فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ" عن نصحي ، وأدبرتم عني وأعرضتم عن تذكيري ، فذلك شأنكم ، أما أنا "فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ" على إرشادي حتى يؤدي نصحي إلى توليكم عني أو تتهموني بالطمع "إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ" لا على أحد غيره .

فإن أطعتموني فهو حظكم وسعادتكم ، وإلا فلا ضرر عليّ من عدم قبولكم نصحي المؤدي إلى حرمانكم من الإيمان باللّه الموصل إلى نعيمه الدائم ، ولكن آسف عليكم واللّه يثيبني على نيتي آمنتم أو توليتم "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ 72" للّه المستسلمين لأمره ونهيه ، فإني لا أخالف أمره ولا أخاف سواء ، هذا آخر كلام نوح عليه السلام لقومه وقد بلغ الغاية في النصح لهم ، وأظهر عدم مبالاته بما يريدونه به من العزم على قتله ، وقد بلغ النهاية من درجات التوكل والوثوق باللّه عز وجل مبينا عدم خوفه منهم ومما أجمعوا عليه به ، وصارحهم بأن مكرهم مهما كان فإنه لا يصل إليه لاعتماده على ربه "فَكَذَّبُوهُ" وقابلوا مبالغة نصحه لهم والتصلب

في دين اللّه بمبالغتهم بالعناد والتمرد والإصرار علي الكفر "فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ" من المؤمنين الذين ركبوا "فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ" جمع خليفة ، أي أبقيناهم يخلفون الهالكين غرقا فيسكنون الأرض ويعمرونها بدلهم "وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا" لإصرارهم على الكفر وأهلكناهم "فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ 73" فإنها عاقبة مشئومة ، وقد مرت القصة في الآية 58 من الأعراف في ج 1 ، ولها صلة في الآية 25 من سورة هود الآتية ، وفي هذه الجملة إعلام بتهويل ما جرى عليهم وتحذير لمن يكذب الرسل وتسلية لحضرة الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم بما يلاقيه من قومه ، وتخويف لقومه بأنهم إذا لم يؤمنوا تكون عاقبتهم الهلاك مثل قوم نوح ، إذ جرت عادة اللّه تعالى أن يوقع الهلاك بعد الإنذار ، ومن أنذر فقد أعذر ، والنظر قد يكون بالبصر وبالبصيرة ، وعند الخاصة يكون بالبصيرة أكثر منه بالبصر ، قال تعالى "ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ" أي نوح عليه السلام "رُسُلًا" كهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام ، وهؤلاء ما بين نوح وموسى عليهم السلام "إِلى قَوْمِهِمْ" كعاد وثمود وغيرهم ممن قصّ اللّه تعالى علينا ومن لم يقصّ "فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ" الدالة على نبوتهم المثبتة لرسالتهم والحجج المبينة لصدقهم والبراهين الموجبة للإيمان بهم "فَما

كانُوا لِيُؤْمِنُوا" بما أظهروه لهم من المعجزات الباهرات ، ولم يتبعوا الشرع الذي جاء وهم به "بِما" بالذي أمرهم به رسلهم بلزوم اتباعه من أصول الدين وفروعه الذي "كَذَّبُوا بِهِ" أمثالهم "مِنْ قَبْلُ" مجيء الرسل إليهم بل أصروا على كفرهم وعنادهم ، وجروا على نهج قوم نوح في اتخاذ التكذيب ذريعة ، ولم يرتدعوا بما وقع على من قبلهم من العذاب ، وكأنه لم يكن ، إذ لم يغيروا حالتهم بعد بعثة الرسل ، كأنه لم يبعث إليهم أحد وينذرهم

(218/354)

عاقبة أمرهم ، ويخوفهم سوء أعمالهم ، ويزجرهم عن المنكرات ، ويأمرهم بالمعروف "كَذلِكَ" مثل ما طبعنا على الباغين الأولين "نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ 74" المتجاوزين حدودنا ، الخارجين عن طاعتنا ، الباغين على عبادنا ورسلنا .

مطلب رسالة الأنبياء خاصة عدا نوح باعتبار آخرها ومحمد أولا وآخر :

وفي هذه الآية إشارة إلى أن كل رسول أرسل إلى قومه خاصة ، وإيذان بعموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهذ متفق عليه في بداية كل نبي ونهايته فيما عدا نوح عليه السلام إذ اختلف العلماء في بعثته ، هل هي لأهل الأرض عامة أو لصنع مخصوص ، وينبني على هذا الخلاف الخلاف في أن الطوفان هل عم وجه الأرض كله أو بعضه ؟

قال ابن عطية : الراجح الثاني المؤيد بكثير من الآيات والأحاديث ، ولأن كثيرا من أهل الأرض كأهل الصين وغيرهم ينكرون عموم الطوفان .

(219/354)

هذا أصح ما قالوه في بداية رسالة نوح ، أما نهايتها فهي عامة ، إذ أجاب اللّه دعاءه بقوله (رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً) الآية 26 من سورة نوح الآتية ، فالذي لم يهلك بالطوفان هلك بغيره إذ ثبت أنه لم يبق بعد الطوفان على وجه الأرض سوى من كان معه بالسفينة لعموم الآية المستشهد بها والآية المفسرة قبل وظاهر الآيات الأخر والأحاديث الواردة في هذا الشأن ، وعلى هذا فالفرق بين رسالة محمد ورسالته عليهما الصلاة والسلام خصوص رسالة نوح ابتداه وعمومها انتهاء ، وعموم رسالة محمد ابتداء وانتهاء ، وان رسالة نوح مقصورة في زمنه ، ورسالة محمد مستمرة إلى آخر الدوران ، ولهذا البحث صلة في تفسير الآية المذكورة من سورة نوح الآتية ، قال تعالى "ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ" أي الأنبياء المذكورين وغيرهم ممن لم يذكرهم اللّه في كتابه "مُوسى وَهارُونَ" صدر هذه الآية ينفي القول بعدم رسالة هرون عليه السلام ، كما ذكر في التوراة الموجودة الآن ، لأن صريح بعثة هرون كبعثة موسى ، راجع الآية 34 من القصص المارّة في ج 1 ، وهذه من جملة

الآيات المحرفة بالتوراة وهي كثيرة ، وسنبين منها كل ماله مناسبة ومساس في تفسير الآيات "إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ" أشراف قومه ، ويندرج فيهم بقية قومه ، لأنهم تبع لهم ، ولذلك خصهم وسمى الملأ ملأ لأن رؤيتهم تملأ العين رواء والنفوس جلالا وبهاء إذ كانوا يمتازون على العامة باللباس والسكن والمأكل والمشرب والمركب وغيره ، وهم أهل الحل والعقد في الملك وهم خاصة الملك ومرجع أمره ، وعززناهما "بِآيَاتِنا" المعجزات المار ذكرها في الآية 133 فما بعدها

(220/354)

من سورة الأعراف في ج 1 "فَاسْتَكْبَرُوا" عن قبولها وتعاظموا على رسلنا وأعجبوا بأنفسهم فجحدوا صحتها وأصروا على كفرهم "وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ 75" في ذلك لاجترائهم على ردّ آيات اللّه تعالى وكفرهم بها "فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا" وعرفوه حقا لا مناص لهم من إنكاره "قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ 76" ظاهر يعرفه كل أحد "قالَ مُوسى أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ" الصريح "لَمَّا جاءَكُمْ" من الحق "أَ سِحْرٌ هذا" خاطبهم على سبيل الإنكار ، أي كيف تقولون لهذا الحق سحر وهو حقيقة واقعة ، وقد أدى عنادكم لهذا القول البذي الذي سمّيتم الحق به سحرا ، ثم احتج على صحة قوله بأنه ليس بسحر بل حق محض بقوله

"وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ" 77 بمطلوبهم ولا يفوزون بمرغوبهم ، ولا ينجحون بمشروعهم ، لأن السحر عبارة عن تمويه وتخييل غير دائم ، فصاحبه مغلوب ومبهوت وخاسر في أمره غير ظاهر ببغيته .

(221/354)

وإن ما جئتكم به سيكون له الفوز والغلبة عليكم بصورة واضحة دائمة ، وما كان هذا شأنه فليس بسحر "قَالُوا أَجِئْتَنَا" الكلام فيه حذف أي بهذا السحر يا موسى أنت وأخوك "لِتَلْفِتَنَا" تلوينا وتصرفنا بما عندك من السحر ، وتلفتنا "عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا" من الدين القديم المألوف ، وتصرفنا إلى دين حديث لا نعرفه "وَتَكُونَ" بذلك "لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ" العظمة والسلطان علينا ، وتطلق هذه الكلمة على الملك لأنه أكبر شيء يطلب في الدنيا ويرغب فيه "فِي الْأَرْضِ" منطقة مصر ، لأن ملك فرعون لم يتجاوزها لما مر في الآية 46 من سورة القصص في ج 1 مما حكاه الله على لسان شعيب عليه السلام الدالة على اقتصار ملك فرعون بأرض مصر لا يتخطاها لغيرها "وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ 78" ولا مصدقين ما جئتمانا به وفيه تأكيد لإنكارهم السابق ، وانما ثنوا الخطاب لموسى وأخيه مع أنه وحده الذي خاطبهم تعظيما لأمر الإعراض معنى ومبالغة في إغاظة موسى وإقناطه

من إيمانهم به وبأخيه ، وانما أفردوه بقولهم "لِتَلْفِتَنا" لأنه من خصائص صاحب الشريعة وهو موسى عليه السلام "وَقالَ فِرْعَوْنُ" وحده دون ملائه لأن الأمر له ومن خصائصه وما يهمه .

أما الاستكبار المار ذكره ونحوه فهو مما يسند

إليه ولأشراف قومه "ائْتُونِي" أيها الشرطة وهم الحاشرون المار ذكرهم في الآية 27 من سورة الشعراء المارة في ج 1 "بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ 79" ماهر في السحر أمر قومه بذلك ليعارض معجزات موسى بسحر سحرته ليبين لقومه لما رأى أن الشك غامرهم في صدق موسى أنّ ما جاء به هو سحر لا من عند اللّه ، كما ذكر يقصد أضلالهم عن الإيمان به ، فذهب الحاشرون وجمعوهم في الوقت

(222/354)

و المكان الذي اتفقا عليه كما مرت الإشارة إليه في سورة الشعراء وطه في الآيات 37/ 75 فما بعدها المارات في ج 1 "فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ 80" تقدم سبب تقديمهم له في السورتين المذكورتين ، وهو بإلهام من اللّه ، لأن سحرهم لا يؤثر بعصا موسى لو ألقاها أولا بخلاف ما لو ألقاها بعدهم ، لأنها تؤثر في سحرهم ، ولولا هذا

التقديم لقال الجهال ، وكلهم إذ ذاك جهال ما غلب موسى السحرة فقط "فَلَمَّا أَلْقَوْا" ما معهم من الحبال والعصي المطلية بالزئبق والمحشوة به قبل طلوع الشمس حتى رآها الناس على حالها ، ثم صاروا يدمدمون عليها حتى طرقتها حرارة الشمس ، فصارت تتحرك كما مرت الإشارة إليه في تلك السورتين والآية 126 من الأعراف المارة في ج 1 أيضا ، وبهذه الصورة موهوا على الناس بأنها انقلبت حيات وجبالا "قالَ مُوسى " مخاطبا للسحرة بعد أن ألقى عصاه ، وصارت تلقف الزئبق المطلي بعصيّهم وحبالهم بقدرة اللّه تعالى الذي جعل فيها قوة جاذبة لذلك الزئبق كالمغناطيس في جذب الحديد "ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ" هو الشيء الباطل بعينه "إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ" ويفضحكم بمحقه بالكلية حتى يكون لا أثر ولا عين بالحق الذي آتانيه ربي قطعا لمادة الفساد "إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ 81" لا يحسنه ولا يقوّيه ولا يثبته ولا يؤيده وقدمنا في الآية 52 من سورة الشعراء ما يتعلق بالسحر فراجعه "وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ" يثبته ويقوّيه ويجعله ما حقا للباطل ومرهقا لأهله ، ويظهره "بِكَلِماتِهِ" التي وعد بها أنبياء بالنصر وإعلاء الكلمة "وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ 82" ذلك ، فإنه يوقعه فيهم ويوجبه عليهم قال تعالى "فَما آمَنَ لِمُوسى " بعد ظهور هذه المعجزات الواضحة على يده وخيبة ما أمله فرعون من سحرته الذين آمنوا بموسى لما عرفوا

الحق "إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ" بني إسرائيل ، لأن آباءهم بقوا مع فرعون ، فلم يجيبوا دعوته خوفا منه ، وفي هذا تعريض لحضرة الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم حيث لحقه الحزن والأسف على عدم إيمان قومه ، أي فما يحزنك يا حبيبي إذا لم يؤمن قومك كلهم ، وما هذا الاغتمام بشأنهم ، أليس لك أسوة بمن قبلك من الأنبياء وخاصة موسى وقومه ، وما قيل إن ضمير قومه يعود إلى فرعون بعيد عن الصحة ، إذ لم يؤمن من قومه إلا امرأته آسية وخازنه وزوجته وماشطة بنته ومؤمن آل فرعون ، وهؤلاء لا يسمون ذرّية لأن الذرية الطائفة وأولاد العشيرة ، ولا وجه للاحتجاج بمن دخل من أبناء فارس إلى اليمن ولقبوا بالأبناء ، لأن أولئك أمهاتهم من غير جنس آبائهم ، ويريد صاحب هذا القول أن آباء الذرية المذكورة كانوا من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل ، أي وكانوا يتبعون أمهاتهم بالإيمان كأولاد الفرس المذكورين ، بل عائد إلى موسى بدليل قوله "أَنْ يَفْتِنَهُمْ" يعذبهم ليصدهم عن الإيمان وبصرفهم عن الهوى ، ولم يقل أن يفتنوهم ، لأنه هو وحده الفاتن لهم ، ولأن قومه كانوا تابعين له ويرغبون مراده ، وهذا لا يمنع أن تكون الذرية الحاصلة من أب قبطي وأم إسرائيلية ، أو بالعكس ، أن يدخلوا في هذه الذرية المؤمنة ، لأن الهدى هدى اللّه يهدي به من يشاء .

وما قيل إن الضمير في ملائهم راجع إلى فرعون على سبيل التعظيم كما هو العادة في ضمائر العظمة ، مردود ، لأن ذلك خاص بضمير المتكلم ، مثل نحن والمخاطب كما في قوله "رَبِّ ارْجِعُونِ" الآية 99 من سورة المؤمنون الآتية ، وقوله إلا فارحمون يا آل محمد ، ولم ينقل أن ذلك يكون في ضمير الغائب كما هنا ، وما قيل إنه جمع الضمير باعتبار عوده إلى فرعون وآله مردود أيضا ، لأن هذا يكون في القبيلة وأبيها إذ يطلق اسم الأب عليهم ، وفرعون ليس كذلك ، قال تعالى "وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ" في مصر خاصة وهكذا كلما جاءت هذه اللفظة فلا تنصرف إلى غيرها كما مر أي أنه غالب عليها وقاهر أهلها متكبر جبار "وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ 83" المتجاوزين حدود اللّه المبالغين في الظلم لأنه كان عبدا فادعى الربوبية وكان كثير القتل والتعذيب للناس

"وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ" إيمانا خالصا "فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا" وامضوا معي ولا تخافوا من فرعون فإن اللّه عاصمكم منه وثقوا بكلامي فان اللّه تعالى ناصري عليه ومهلكه وقومه فاستسلموا لأمر اللّه "إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ 84" له منقادين لأمره تابعين لإرادته فاذا كنتم موصوفين بالإيمان المحض القلبي المذكور في هذه الآية وبالإسلام الظاهري الذي هو مطلق

الإذعان المذكور فيها ، فامتثلوا قولي وهذا هو كمال الإيمان ، لأن من يؤمن باللّه إيمانا حقيقيا لا يتوكل على غيره "فَقَالُوا" مجيبين له "عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا" لا على غيره ، ثم ابتهلوا إلى ربهم فقالوا "رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً" محلا لها بأن تسلطهم علينا فيصرفونا عن ديننا أو يعذبونا فيردونا قسرا عنه فيقول فرعون لو كانوا على الحق لما سلط عليهم ، ولم يصابوا بعذابه ، فيظنوا أنهم

(225/354)

خير منا فيتعنّتوا بذلك ، ويزدادوا كفرا وطغيانا فتكون مسخرين "لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ 85" المتمادين في الظلم ولا تهلكنا بذنوبنا أو ذنوبهم "وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ 86" ومن قبح جوارهم وسوء صنيعهم بعد أن تخلصنا من ظلمهم وبغيهم ولهذا عبر عنهم بالكفر بعد الظلم ووضع المظهر موضع المضمر أي القوم الكافرين بدل منهم هذا ولا جرم أن اللّه تعالى أجاب دعاهم ، وقبل توكلهم ، فنجاهم مما يخافون وأهلك عدوهم ، وجعلهم خلفاء في أرضه ، فمن أراد أن تستجاب دعوته فليخلص لربه ويرفض ما سواه ويحسن ظنه به ، فإنه عند حسن ظن عبده به قال تعالى "وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا" اتخذا واجعلا "لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً" للصلاة يرجعون إليها بعبادتهم لإقامة شعائر الدين

فيها "وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً" تستقبلونها في صلاتكم وكلوا أي الأنبياء ، عليهم السلام في ذلك الزمن يستقبلون الكعبة ، كما روى عن ابن عباس قال قال بنو إسرائيل لا نستطيع أن نظهر صلاتنا مع الفراعنة ، فأذن لهم أن يصلوا في بيوتهم ، وأن يجعلوها قبل القبلة ، لأن موسى وهارون كانوا يستقبلونها لكونها قبلة أبيهم إبراهيم عليهم السلام ، وكانوا يصلون خفية لئلا يؤذيهم كفرة القبط ، كما كان محمد وأصحابه في بداية الإسلام ، فإنهم كانوا يخفون صلاتهم وعبادتهم خشية اذية قريش

(226/354)

لهم وقد عمم اللّه هذا الخطاب ، لأن العبادة عامة وواجبة على العامة ، وخصص أوله بموسى وأخيه لأن الأمر باتخاذ بيوت العبادة من خصائص الأنبياء لأنهم هم المشرعون لغيرهم ، وقيل المراد من قوله "قِبْلَةً" أي اجعلوها متقابلة وليس بشيء على أن ظاهر القرآن لا يدل على المعنى المراد في هذه اللفظة لأن اليهود تستقبل صخرة بيت المقدس ، والنصارى مطلع الشمس ، ولا يبعد أن تشمل هذه اللفظة الأمر بأن يجعلوا بيوتهم قبلة لرّوادها من الضيفان والزوّار وجعلها مأوى لكل فقير ومسكين ومقطوع يستقبلون فيها العاني وذا الحاجة وغيرهم ، لأن هذا من جملة ما حث عليه الشارع ومن مكارم الأخلاق

واللّه أعلم "وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ" في تلك البيوت على المعنى الجاري في التفسير "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ 87" بك يا موسى فإنه لا يصيبهم أذى الكفرة ولا ينالهم مكروه منهم "وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالًا" من كل ما يتزين به الناس من اللباس والحلي والمراكب والمساكن ونحوها "فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ" الناس ويميلوهم عن طاعتك ويصرفوهم عن هداك ، وكرر لفظ ربنا للالحاح في التضرع ، واللّه تعالى يحب الملحين في الدعاء واللام في ليضلوا مثل اللام في قوله تعالى "لِيَزْدادُوا إِثْماً" الآية 78 من آل عمران في ج 3 في اللفظ والمعنى وهذه حجة على المعتزلة لأنهم لا ينسبون ما لا يليق فعله إلى الخالق ، واللّه تعالى يقول ليضلوا وليزدادوا ، إذ لا يكون شيء خيرا كان أو شرا إلا بإرادته وقضائه وقدره ، راجع الآية 59 المارة من هذه السورة .

(227/354)

واعلم بأن هذه اللام للتعليل مجازا لا حقيقة ، لأن اللّه تعالى آتاهم ما آتاهم ليؤمنوا به ويشكروه فتوسلوا بها إلى البغي والطغيان ، وتوصلوا بها إلى الكفر والخسران ، فاشبهت حالهم حال من أعطى المال لأجل الإضلال فورد الكلام بلفظ التعليل بناء على هذه المشابهة وقال بعض المفسرين إن اللام هذه للعاقبة أي تكون عاقبة أمرهم الإضلال عن

الحق .

وقيل في هذا المعنى :

وأموالنا لذوي الميراث نجمعها ودورنا لخراب الدهر نبنيها

أي أن عاقبة المال والدور تكون كذلك .

مطلب معنى الطمس وعدد الآيات وأن الأنبياء لم يدعوا على أممهم إلا بعد اليأس منهم :

ثم أنه لما رأى موسى عليه السلام إصرارهم على الكفر ولم ينجع فيهم نصحه ، ولم يتيقظوا لصبر اللّه عليهم ، ولم يؤثر فيهم ما أظهره لهم من المعجزات على يد رسولهم ، ركن إلى الدعاء عليهم بعد أن أيس منهم ، فقال "رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ" أهلكها وأذهب آثارها وامحقها لأنهم يستعينون بها على معصيتك والطمس المحو وإزالة الأثر للشيء ، قال قتادة بلغنا أن زروعهم وأموالهم وجواهرهم صارت حجارة .

وقال ابن عباس ، إن دراهمهم ودنانيرهم صارت حجارة منقوش عليها نقشها كهيئتها صحاحا وأنصافا وأثلاثا .

(228/354)

وقيل إن عمر بن عبد العزيز دعا بخريطة فيها شيء من بقايا آل فرعون فأخرج منها البيضة منقوشة وهي حجارة ، والجوزة مشقوقة وهي حجارة راجع الآية 101 من الإسراء في ج 1 والأولى أن يراد بهذا الطمس إتلافها وذهاب منافعها وهو أولى ، والله أعلم ، لتدخل في جملة الآيات التسع المشار إليها في الآية المذكورة من سورة الإسراء ، إذ لا يتجه عدها منها على رأي بعضهم بالمعنى الأول ، أي قلبها حجارة مع بقاء وصفها ، هذا وقدمنا في الآية 143 من الأعراف في ج 1 ما يتعلق بهذا فراجعها يتبين لك أن هذه ليست من الآيات التسع ، وأن الآيات تسع عشرة ، منها ما هو خاص بموسى ، ومنها ما هو خاص بالقبط ، ومنها ما هو خاص ببني إسرائيل قبل خروجهم من مصر وبعد خروجهم ، وما قيل إن صورهم صارت حجارة لا وجه له ، لأنه عليه السلام دعا على أموالهم لا عليهم ، وكان عذاب القبط بالغرق لا بالمسخ .

واعلم أن النبي لا يدعو على قومه ما زال يأمل إيمانهم ، ولم يدع عليهم إلا بإشارة من الله تعالى ، وأول من دعا على قومه نوح عليه السلام ، وذلك بعد أن أوحى إليه ربه بقوله جل قوله (أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ) الآية 36 من سورة هود الآتية ، فراجعها تعلم منها أنه يئس من إيمانهم فدعا عليهم ، وهكذا موسى وغيره ومن قبله وبعده لأنهم أشفق على أمتهم من الأب على ولده ، ولذا قال صلى الله عليه وسلم اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون حينما تعدوا عليه وآذوه

"وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ" اربطها وقسّها حتى لا تلين للإيمان ولا تنشرح له ، وهذه الجرأة من سيدنا موسى بعد أن أيسه اللّه من إيمانهم ، وإنما قال ما قال لعلمه أن اللّه تعالى وتعظم يفعل ذلك لمن يشاء ، ويحكم به لمن يريد ، ثم علل قساوته هذه بقوله "فَلا يُؤْمِنُوا" وهم على حالتهم هذه من الرفاه والصحة ، وسيضلون متمادين في الضلال "حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ 88" وكان ذلك ، فإنهم لم يؤمنوا حى داهمهم الغرق ، فكان إيمانهم إيمان يأس حالة يأس ، فلا يقبل ممن آمن منهم أو من غيرهم في هاتين الحالتين ، قال في بدء الأمالي :

وما إيمان يأس حال بأس بمقبول لفقد الامتثال

فظهر أن دعاء موسى هذا بهذه الشدّة موافق لقضاء اللّه تعالى وقدره عليهم في الأزل ، وقد ألهمه اللّه إياه ، ولما كان هارون عليه السلام يؤمن على دعاء موسى خاطبهما بقوله عز قوله "قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما" لأن التأمين دعاءه ، ومنه يعلم أن دعاء الإمام دعاء للمأموم ، وقراءته قراءة له أيضا .

واعلم أن معى آمين اللهم استجب فحال اللّه تعالى بين فرعون وقومه ، وبين الإيمان حتى أدركهم الغرق ، إجابة لدعائهما الموافق لما هو في علم اللّه ، لأن الناس جارون على تطبيق

ما هو كائن في الأزل ، وما هم إلا مظاهر له "فَاسْتَقِيما" على ما أنتما عليه واثبتا على الدعوة وامضيا لأمركما ولا تستعجلا في إجابة دعوتكما ، فإنها مجابة لا محالة ، ولكن بوقتها المحتوم الذي لا يتبدل .

(230/354)

قالوا وكان بين الدعوة والإجابة أربعون سنة ، ومن هنا قيل أن أقل صبر اللّه على الظالم أربعون سنة ، على أنه قد يجيب الدعاء حالا في بعض الأحيان ، وهو لا يسأل عما يفعل من تقديم الإجابة وتأخيرها "وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ 89" حكمة إمهالنا لمن عصانا وانجاز وعدنا لمن دعانا ، وهذا النهي لا يدل على صدور النهي عنه من موسى وهرون ، كما أن قوله تعالى (لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) الآية 65 من سورة المؤمن الآتية لا يدل على صدور الشرك من محمد صلى اللّه عليه وسلم لأنه مستحيل عليه بل مجرد تأكيد امر الوعيد ، وقد كثر أن ينهى الشخص عما يستحيل وقوعه منه زجرا للغير ، والإفادة بأن في تأخير الدعاء حكما إلهية وتعليما للأمة بعدم طلبهم الاستعجال بإجابة الدعاء ، وإيذانا بأن الجهلة لا يعرفون عادات اللّه تعالى في تعليق الأمور بالحكم والمصالح .

وليعلم أن كل دعاء لا بدّ أن يجيبه اللّه تعالى في الدنيا أو أن يدفع عنه ما يقابله من البلاء ، أو أن ما لم يعطه له في الدنيا يعطه له في الآخرة ، فأكثروا أيها الناس من الدعاء وألحوا به على ربكم ، فإنه يحب الملحين فيه بخلاف البشر منكم ، وفيه قيل :

لا تسألن بنيّ آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تحجب

اللّه يغضب إن تركت سؤاله وبني آدم حين يسأل يغضب

(231/354)

قال تعالى "وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ" أي عبرناهم إياه حتى قطعوه "فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ" لحقوهم ليدركوهم ويردوهم إلى مصر ليسترقوهم ويقتلوا من شاءوا منهم "بَغْياً" وتطاولا عليهم بالقول "وَعَدْواً" عدوانا وظلما وطغيانا عليهم بالفعل ، فلما تراءى الجمعان قبل دخولهم البحر قالوا لموسى ابن المخلص والبحر أمامنا وفرعون وراءنا ، وكان موسى أخرجهم بأمر اللّه تعالى وتوجه بهم نحو البحر بأمره ، ولا يعلم ماذا يفعل بعد ذلك ، فأوحى اللّه إليه أن اضرب بعصاك البحر ، فضربه حالا ، فانفلق وظهرت أرضه يابسة كأنها لم تنحسر عن ماء فأمرهم بدخوله فدخلوه ، فاتبعهم فرعون وجنوده وصار الطرفان فيه بنو إسرائيل بآخره وفرعون وقومه بأوله ، فخرج بنو إسرائيل عن آخرهم ، وتوسط فرعون

وقومه كلهم البحر ، فأطبق عليهم والتطم بأمواجه فوقهم جميعهم ، قال تعالى حاكيا حالة فرعون حين رأى ذلك "حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ 90" المنقادين لأمره ، قال هذا ظنا منه أنه ينجيه من الهلاك ليعود لكفره كما كان يقول لموسى عند نزول كل آية كما هو مبين في الآية المارة من سورة الأعراف في ج 1 ، ولم يعلم بانقضاء إمهال اللّه إياه ، وان إمهاله ذلك لم يكن إهمالا ، وإنما ليوافي الوقت المقدر لإهلاكه الذي لا يتقدم ولا يتأخر ، ولئلا تبقى له معذرة يعتذر بها أو حجة يحتج بها ، وقد أجمعت العلماء على أن الإيمان مهما كان خالصا ، والتوبة من المعاصي مهما كانت نصوحا ، لا يقبلان حال اليأس ، لصراحة قوله تعالى

(232/354)

(فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا) الآية من آخر سورة المؤمن الآتية ، وتقدم ما يتعلق في هذا البحث في الآية 137 من سورة الشعراء المارة ج 1 ، وله صلة في آخر سورة المؤمن المذكورة ، وفي الآيتين 16/ 17 من سورة النساء في ج 3 .

واعلم أن قول فرعون لا يدل على الإخلاص بل يفيد التشكيك ، لأنه لم يقل آمنت باللّه الذي لا إله إلا هو ، ولم يقل كما قالت السحرة (آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ رَبِّ مُوسى وَهارُونَ) الآية

120 من سورة الأعراف المارة في ج 1 ، وأن قوله (آمنت بالذي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ) هذا دليل على عدم اعتقاده صحته ، لأنه كان دهريّا ينكر الصانع الأعظم ، ولذلك ادعى الربوبية على قومه الذين يعبدون الأوثان ، فلم تنفعه توبته ولا إيمانه ، لأنه لم يجنح إليها إلا بعد انفلاق بابهما بحضور الموت بصورة لم يبق معها له أمل بالنجاة منه ، ولو أراد اللّه لوفقه لهما عند رؤية معجزة انفلاق البحر ، إذ كان في الوقت فسحة ولكن من يرد اللّه خذلانه فلا هادي له .

مطلب الحكمة في عدم قبول إيمان اليائس وإخراج جثة فرعون ومعجزة القرآن :

قال تعالى "آلْآنَ" تركن إلى الإيمان وقد ضيعت وقته ، لا لا سبيل لك إليه "وَقَدْ عَصَيْتَ" ربك وبغيت وتطاولت بادعائك الألوهية "قَبْلُ" هذا الوقت وقد دعيت للإيمان سنين كثيرة ولم تجب دعوة رسولنا ، ولم ترجع إلينا ، أما الآن وقد اضطررت في وقت اليأس من الحياة فلا سبيل لإجابة طلبك الإيمان لإعراضك عنه في وقته "وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ 91" في أرض اللّه وعباده وبلاده ، وأهنت رسلي وتجبرت على عبادي .

(233/354)

والحكمة في عدم قبول إيمان اليائس هو أن الناس إذا صاروا في تلك الحالة يضطرون إلى الإيمان ليخلصوا من العذاب ، فلو قبل منهم لآمن كل أتباع الرسل المتقدمين ، ولما أهلك اللّه منهم أحدا فتتعطل الحكمة المرادة من تعذيب الكافر وتنعيم المؤمن ، لأنه إذا قبل إيمان الكافر عند آخر رمق من حياته يتساوى مع المؤمن بنعيم الجنة ، وهذا مخالف لإرادة اللّه ووعده ووعيده ، ولهذا اقتضت إرادته الأزلية بعدم الانتفاع بإيمان اليائس ، وعند نزول العذاب الذي لا محيد عنه لتحصل ثمرة التفاوت بين المؤمن والكافر ، وكذلك لا تقبل التوبة في الآخرة مطلقا لأنها من قبيل العمل المقرب إلى اللّه ، ولا عمل في الآخرة وإلا لآمن كل كافر وتاب كل عاص ، ولانتفت الحكمة من خلق النار والعذاب .

(234/354)

قال تعالى "فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ" فنلقيك على نجوة من الأرض ، والنجوة المكان المرتفع ، فألقي على الساحل كأنه ثور ، وإنما قال ببدنك أي جسمك كاملا لم ينقص منه ، شيء ليراك ويعرفك من كنت تتألّه عليه ، وأنت جسد بلا روح ، وقيل ببدنك بدرعك المعروف عند قومك ، وكان من ذهب مرصع بالجواهر ومن هنا يقول أهالي دير الزور للجية الثمينة بدن وهي لم تكرر في القرآن ، ويفهم من هذا أنه كان لا تطوف العروس التي كانوا يطرحونها

في النيل لأجل فيضانه "لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً" أي إنما قذفناك ببدنك الذي كنت تعرف به لتكون علامة لمن وراءك ، لأنهم كانوا لا يصدقون أن فرعون يموت ، إذ مر عليه أربعمائة سنة في الملك لم تصبه شوكة ، فلما رأوه جثة هامدة منتنة صدقوا أنه عبد مثلهم ليس بإله ، فيعتبرون عند ما يرونه في غاية الخسّة بعد أن كانوا يرونه في نهاية العظمة ، وقال بعض المفسرين تكون آية لمن يأتي بعدك من القرون المستقبلة ، وعليه يتجه القول الآن بأن هذا من الإخبار بالغيب ، إذ عثر على قبره في مصر سنة 137 وحفظ في متحف مصر حتى الآن ، وتكون معجزة عظيمة من معجزات القرآن العظيم ، إذ أن التوراة تذكر موته غرقا ولم تذكر جثته ، والإنجيل لم يأت بشيء عن ذلك ، وظل الذين لا يصدقون بالقرآن ينكرون خروج جثته الثابت بصراحة حتى تاريخ إخراجها ، فظهر أمر اللّه وخذل الجاحدون وأسلم من الأمريكان إذ ذاك ما ينوف عن تسعين رجلا في شهر اكتشافه ، وربما أسلم خلق كثير بعده عند ظهور كوامن هذا القرآن الجليل الحاوي على ما في الدنيا والآخرة من وقائع وأقوال وأعمال "وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنا" هذه وأضرابها مما كان وسيكون "لَغافِلُونَ 92" عنها تلهون

مائلون عن التعرض إليها زائغون عن منهج الحقائق .

روي أن جبريل عليه السلام قال لفرعون وهو بصورة رجل من قومه ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفرها وجحد حقه وادعى السيادة عليه دونه ؟ فكتب له الجواب .

يقول أبو العباس الوليد بن مصعب الريان : جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نعمائه أن يغرق في البحر .

قال فلما الجملة الغرق ناوله جبريل فتواه بخطه فعرفه وقال ما قال .

ولا بعد في هذا لأن اللّه أرسل إلى داود من استفتاه بشأن المرأة التي أخذها كما مرّ في الآية 24 من سورة ص في ج 1 ، فحكم على نفسه بنفسه وهو نبي مرسل فلأن يرسل إلى هذا الخبيث لتحق عليه الكلمة بفعله القبيح من باب أولى .

وروي عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لما أغرق اللّه فرعون قال (آمَنْتُ) إلخ قال جبريل يا محمد فلو رأيتني وأنا آخذ من حبال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تتداركه الرحمة – أخرجه الترمذي وقال حديث حسن – .

وفي رواية أخرى عنه عن عدي بن ثابت وعطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي اللّه عنهما ذكر أحدهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه ذكر أن جبريل

عليه السلام جعل يدس في فيّ فرعون الطين خشية أن يقول لا إله إلا اللّه فيرحمه اللّه ، أو خشية أن يرحمه اللّه – أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح – .

(236/354)

وبما أن هذا الحديث مشكل في ظاهره فيحتاج إلى إيضاح في صحته ومعناه ، أما صحته فقد ورد من طريقين مختلفين عن ابن عباس ، الأول عن ابن زيد بن جدعان وهو شيخ نبيل صالح صادق ، ولكنه كان سيء الحفظ ويغلط ، ولهذا ضعفه يحيى بن معين وغيره ، والحديث الثاني إنما يضعف إذا لم يتابع عليه أو إذا خالفه الثقات ، وكلا هذين الأمرين منتف فيه لأن في الطريق الآخر شعبة عن عدي بن ثابت عن سعيد بن جبير ، وهو إسناد على شرط البخاري ، ورواه أيضا شعبة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير ، وعطاء ثقة قد أخرج له مسلم وما تكلم في عطاء من قبل اختلاطه انما يخاف منه إذا انفرد به أو خولف فيه ، وكلاهما منتف أيضا ، فعلم أن هذا الحديث له أصل ثابت وأن رواته ثقات (وليس في قول ذكر أحدهما عن النبي صلى اللّه عليه وسلم شك في رفعه) وإنما هو جزم بأن أحد الرجلين رفعه ، وشك شعبة في تعيينه بأنه هل هو عطاء أو عدي ، وبما أن كلا منهما ثقة فإذا رفعه أحدهما وشك الآخر في تعيينه لم يكن هذا علة في الحديث ، وكلمة

حبال البحر في الأول وطينه في الثاني لا تكون مباينة ، لأن حبال البحر طينه ، فالمعنى في الروايتين واحد ، فلا يصح الاعتراض عليه بعد

أن ثبت عنه صلى اللّه عليه وسلم بالوجه المار ذكره .

أما صحة معناه فلا غبار عليها ، لأن أهل السنة المثبتين القدر القائلين بخلق الأفعال للّه تعالى وأنه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه يحول بين المرء وقلبه كما في الآية 24 من سورة الأنفال في ج 3 ، فهو تعالى يحول بين الكافر والإيمان بدليل هذه الرواية ، وقوله تعالى أيضا :

(237/354)

(وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْها بِكُفْرِهِمْ) الآية 155 من سورة النساء في ج 3 ، وقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصارَهُمْ كَما لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) الآية 111 من سورة الأنعام الآتية ، وقوله تعالى (كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى قُلُوبِ الْكافِرِينَ) الآية 101 من الأعراف المارة في ج 1 ، وهكذا فعل جل شأنه بفرعون إذ منعه عن الإيمان جزاء تركه إياه ، ودس الطين في فمه من قبل جبريل عليه السلام من جنس الطبع والختم على القلب ، ففعله هذا مع فرعون عليه اللعنة من هذا القبل ، ولم يكن إلا بإرادة اللّه الملك الجليل ، وغاية ما فيه أن يقال

إن اللّه منع فرعون من الإيمان عقوبة على كفره السابق ، وما قيل إنه لا يجوز لجبريل أن يمنعه من التوبة بل كان عليه أن يعينه عليها ، هو قيل قد يكون سديدا إذا كان جبريل مكلفا مثلنا يجب عليه ما يجب علينا ، أما إذا كان ليس كذلك وإنما يفعل ما أمره اللّه به وهو الذي منع فرعون من الإيمان ، وإنما جبريل منفذ لأمره ليس إلا ، فكيف لا يجوز له منع من منعه اللّه وكيف يجب عليه اعانة من لم يعنه اللّه ، وقد أخبر عنه بأنه لا يؤمن حتى يرى العذاب الأليم ، وقد قضت حكمته أن لا يقبل الإيمان في مثل حالة فرعون ، ولما كان في أفعال اللّه تعالى قولان أحدهما أنها لا تعلل وأن تعليلها محال ، فعلى هذا لا يرد شيء من هذا أصلا ، ولم يبق إشكال في معنى الحديث ، والقول الثاني أن أفعاله تبارك وتعالى لها غاية بحسب المصالح ، فعلها لأجلها ، وكذا أوامره ونواهيه ، لها غاية محمودة لأجلها أمر بها ، ونهى عنها ، وعلى هذا يقال لما قال فرعون (آمَنْتُ) إلخ ، وقد علم جبريل بإعلام اللّه إياه أنه ممن حقت عليه كلمة العذاب ، وأن الوقت المقبول فيه الإيمان نفد ، وأن إيمانه في غير الوقت المحدد له لا ينفعه ، دسّ الطين في فيه لتعجيل ما قد قضى عليه ، وسد الباب

(238/354)

عنه سدا محكما بحيث لا يبقى للرحمة فيه منفذ ، ولا يبقى من

عمره متسع للإيمان المقبول ، فيكون عمل جبريل تكميل لما سبق في حكم اللّه عليه وتنفيذ لما أمره به وقدره وقضاه على فرعون ، وهو سعي في مرضاة اللّه ، وما قيل إن في منعه من التوبة كفرا لأنه رضي ببقائه على الكفر والرضاء بالكفر كفر لا وجه له لما قدمنا من الإضلال والهدى بمشيئة اللّه تعالى ، وجبريل إنما يتصرف بأمر اللّه وقد فعل ما أمر به والرضاء بالأمر غير الرضاء بالمأمور فأي كفر يكون هذا ؟

(239/354)

على أن الرضاء بالكفر إنما يكون كفرا بحقنا لأننا مأمورين بإزالته بحسب الإمكان فإذا أقررنا الكافر على كفره ورضينا به كان كفرا بحقنا مخالفتنا ما أمرنا به ، وإن من ليس بمأمور كأمرنا ، ولا مكلفا تكليفنا ، بل يفعل ما يأمره سيده ربه كالملائكة ، فإنه إذا نفذ ما أمره به ربه لم يكن راضيا بالكفر ولا يكون كفرا بحقه ، وما قيل كيف يليق بجلال اللّه أن يأمر جبريل بمنع فرعون من الإيمان فقول سخيف لأن اللّه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا يسأل عما يفعل ، فإذا علم هذا ويقول كيف فهو سخيف ، وإذا لم يعلم فهو جاهل جهلا مركبا ، هذا وقد أخرج أبو الشيخ عن أبي أمامة قال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لي

جبريل عليه السلام ما أبغضت شيئا من خلق اللّه تعالى مثل ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئا أشد بغضا من فرعون فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حمأة فضربت بها في فيه فوجدت اللّه تعالى عليه أشد غضبا مني فأمر ميكائيل فأتاه فقال (آلْآنَ) إلخ ، قال تعالى "وَلَقَدْ بَوَّأْنا" وطنّا وأنزلنا "بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ" منزلا محمودا صالحا مرضيا وصفه بالصدق ، لأن عادة العرب إذا مدحت شيئا أضافته إلى الصدق فتقول رجل صدق وقدم صدق ، راجع الآية الثانية من هذه السورة ، وذلك أن الشيء إذا كان كاملا لا بد وأن يصدق الظن به ، وهذا المكان هو مصر والشام والقدس والأردن ، وهي بلاد الخصب والبركة ، ومن أحسن بقاع الأرض وأخيرها نتاجا ، فالكامل فيها لا يضاهيه كامل في غيرها ، ولهذا كانت مهبط الأنبياء ومهاجرهم ومدافنهم فيها ، وناهيك به شرف "وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ" اللذائذ الحلال من مأكول ومشروب وملبوس ومسكن ومركوب "فَمَا اخْتَلَفُوا"

(240/354)

في أمر دينهم ، بل ثابروا عليه وتمسكوا به "حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ" بالوقوف على إلهام التوراة فاختلفوا بتأويلها زمن نزولها كما اختلفوا أخيرا في نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ، فمنهم من آمن بهما ومنهم من كفر ، لذلك يقول اللّه تعالى لنبيه صلى اللّه عليه وسلم "إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ 93" من الحق وإذ ذاك يميز بين المحق والمبطل ، ويجزى كلا بما يستحقه ، فيدخل من آمن وصدق الجنة ، ومن كفر وجحد النار .

مطلب معنى الشك المخاطب به محمد صلى اللّه عليه وسلم ومعنى الصدق والأراضي المباركة والآيات المدنيات :

(241/354)

"فَإِنْ كُنْتَ" يا سيد الرسل "فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ" في هذا القرآن على سبيل الفرض والتقدير ، لأن الشك في ذلك لا يتصور منه وقوعه لانكشاف الغطاء له صلى اللّه عليه وسلم ، ولذا عبّر بان التي تستعمل غالبا فيما لا تحقق له ولا جزم بوقوعه ، حتى إنها تستعمل غالبا فيما لا تحقق له ولا جزم بوقوعه ، حتى إنها تستعمل في المستحيل عقلا وعادة كما في قوله سبحانه (قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ) الآية 82 من سورة الزخرف الآتية ،

وقوله تعالى (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ) الآية 26 من سورة الانعام الآتية ولم يعبّر في هذه الآيات بإذا لأنها تفيد الجزم بوقوع الشرط بعدها ، وصدق القضية الشرطية لا يتوقف على وقوعها ، أي إن كنت في شك مما قصصناه عليك من قصة فرعون وقومه وأخبار بني إسرائيل "فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ" وهم الأخبار والعلماء والربانيون العارفون بالتوراة والإنجيل والزبور ، فإنه محقق عندهم لا مرية فيه لأنها مدونة في كتبهم بعضا باللفظ وبعضا بالمعنى وأخرى بالإشارة وطورا بالعبارة وتارة بالرمز ومرة بالامارة ، وخص هذا السؤال بالقصص لأن الأحكام القرآنية قد تخالف ما عند أهل الكتاب ، لانها ناسخة لكثير منها ومغايرة لها ، إذ جاءت موافقة لعصره صلى اللّه عليه وسلم فما بعده إلى يوم القيامة ، بخلاف الأحكام الموجودة في كتبهم ، إذ لم تكن صالحة لذلك ، والشك لغة خلاف اليقين وهو اعتدال النقيضين عند الإنسان لوجود أمارتين أو لعدم الأمارة ، وهو ضرب من الجهل وأخص منه ،

(242/354)

فكل شك جهل وليس كل جهل شكا ، فإذا قيل فلان شك في هذا الأمر فمعناه توقف فيه حتى يتبين له فيه الصواب أو خلافه ، وظاهر هذا الخطاب لسيد المخاطبين محمد صلى

اللّه عليه وسلم ، ولكن المراد به غيره على حد قوله تعالى (وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ) الآية 81 من سورة القصص المارة في ج 1 ومثلها الآية 65 من سورة الزمر الآتية وما يشابهما من الآيات ، لأنه صلى اللّه عليه وسلم لا يصده صاد عن آيات ربه ، فثبت أن المراد غيره بمعنى إياك أعني واسمعي بإجارة ، فيكون المعنى قل أيها الإنسان إن كنت في شك مما أنزل علي فاسأل أهل الكتاب يخبرونك بصدقه ، يدل على هذا قوله تعالى آخر هذه السورة (قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي) فلا يقال والعياذ باللّه تعالى أن الرسول شاكّ في نبوته أو فيما أنزل عليه ، حاشا ثم حاشا ، لأنه يوجب سقوط الشريعة معاذ الله ، ولكان غيره بالشك أولى وهو لا يجوز البتة ، قال ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري وقتادة لم يشك النبي صلى اللّه عليه وسلم قط ولم يسأل ، إذ قال لا أشك ولا أسأل ، وعامة المفسرين على هذا ، فاحذر ثبت اللّه قلبك أن يخطر ببالك ما ذكره بعض المفسرين من ذكر الشك والصاقه بحضرة الرسول بداعي أنه من البشر ، فإنه لا يجوز أصلا ، نعم إنه بشر ولكنه قال مرارا إني لست كأحدكم ، وعبر قول الناظم :

محمد بشر وليس كالبشر بل هو جوهرة والناس كالحجر

وفي هذه الآية تنبيه على أن من خالجته شبهة في أمر دينه فليراجع من يزيلها عنه من أهل العلم وليسارع إلى ذلك ، قال تعالى (فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) الآية 44 من سورة النحل الآتية ولا يعتمد على علمه ، فكم زل عالم ، وليعلم أن الاعتماد على النفس غرور وخيلاء وليتأمل قوله تعالى (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) الآية 76 من سورة يوسف الآتية ليدفع عن قلبه ما طرأ له بالبرهان من قوانين الدين وأدلته ومباحث العلماء العارفين فيه ، وبما أن هذه الآية مدنية والآيتين اللتين بعدها كذلك ، فإن المراد بالذين يقرأون الكتاب والله أعلم هم عبد الله بن سلام وأصحابه الموثوق بأخبارهم ، ولا يخفى أن منطوق الآية عام شامل لمؤمنهم وكافرهم ، لأن القصد في هذا الإخبار بصحة هذه القصص ، والإخبار بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهما مدونتان في كتبهم وموضح فيها بعض تلك القصص ونعت حضرة الرسول ، ومهما بالغوا في الكذب والإنكار لا يستطيعون جحدها خشية تكذيبهم أمام قومهم ، وهم عرب يتحاشون عنه ، إلا أنهم يبالغون في كتمها مهما أمكن .

(244/354)

هذا وقال بعض المفسرين إن الخطاب في الآية لحضرة الرسول يشمل كافة الخلق على حد قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ) الآية الأولى من سورة الطلاق في ج 3 وهو حسن ، لكن فيه بعدا لأنه متى قيل إنه داخل في هذا الخطاب كان الاعتراض بما قدمناه موجودا والسؤال عنه واردا ، وقال بعضهم أن (إن) في الآية نافية والمعنى ما أنت في شك حتى تسأل ، فلا تسأل ، ولئن سألت لازددت يقينا ، ولكنه خلاف الظاهر ، وقيل إن الشك هنا بمعنى الضيق ، أي إن ضقت ذرعا من أذى قومك فاسأل إلخ الآية ، وليس بشيء ، لكونه خلاف الظاهر أيضا ، وقيل إن الخطاب ليس له أصلا ، لأن الناس كانوا في زمنه ثلاث فرق : مصدقون وهم المؤمنون ، ومكذبون وهم الكافرون ، وشاكون وهم المترددون ، فخاطبهم اللّه تعالى بقوله فإن كنت أيها الإنسان في شك من الهدى الذي أنزلناه على نبينا ومما أخبر به من القصص ، فاسأل أهل الكتاب يدلوك على صحته ، وإنما وحد الضمير وهو يريد الجمع ، لأن الخطاب لجنس الإنسان كما في قوله تعالى (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ ما غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) الآية 7 من سورة الانفطار وقوله تعالى (يا أَيُّهَا الْإِنْسانُ إِنَّكَ كادِحٌ إِلى رَبِّكَ كَدْحاً) الآية 7 من سورة الانشقاق الآتيتين ، فإنه تعالى لم يرد فيها إنسانا بعينه بل أراد الجمع وهو وجيه ، واللّه أعلم .

"لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ" في هذه الآيات الواضحة والبراهين القاطعة فهو الحق لا ريب فيه "فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ 94" في شيء منه فتتزلزل عما أنت عليه من الحزم واليقين ، بل دم على جزمك الذي أنت عليه من قبل ولا تلتفت إلى ما ينقولون ، والافتراء هو التشكك والتردد وهو أخف من التكذيب ، ولذا عقبه بقوله "وَلا تَكُونَنَّ" أيها الإنسان "مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ" فأنساهم اللّه ذكره وخسروا الدنيا والآخرة "فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ 95" مثلهم نفسا وعملا ، والتعبير بالخاسرين أظهر من التعبير بالكافرين ، والفائدة من النهي في الموضعين التهييج والإلهاب وزيادة التثبت والإعلام بأن الافتراء والتكذيب قد بلغا في القبح والمحذورية إلى حيث ينبغي أن ينهى عنهما من لا يمكن أن يتصف بهما ، فكيف بمن يمكن اتصافه بهما ، وفي هذه الآية قطع لأطماع الكفرة .

(246/354)

وهاتان الآيتان على حد قوله تعالى : (فَلا تَكُونَنَّ ظَهِيراً لِلْكافِرِينَ) (وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كما سيأتي في الآية 104 من هذه السورة ، وما قدمناه في الآية 17 من سورة القصص المارة فهي من جملة الخطابات المراد بها غيره صلى اللّه عليه وسلم ، لأنه معصوم

من الشك والمرية والتكذيب ، كما ثبت لك مما تقدم وأمثال هذه الآيات كثير في القرآن العظيم ، وأحسن الأقوال في تفسيرها ما ذكرناه لك في تفسير هذه الآية ، فتمسك بها واحذر أن تكون ممن يشملهم قوله تعالى "إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ" بالعذاب الداخلين في قوله تعالى (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ) الآية 120 من سورة هود الآتية المحكوم عليهم بذلك بمقتضى قضائه الأزلي وقدره السابق في علمه المسجل في لوحه المحفوظ "لَا يُؤْمِنُونَ" البتة إذ لا يمكن نقض قضاء أبرمه وتخلف إرادة قضاها ، وهكذا كل من قطع الله بعدم إيمانه لا يؤمن مهما جاءه من الرسل والكتب ومهما أظهر له من الآيات والمعجزات بدليل قوله تعالى "وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ" من آيات الرسل الأقدمين وغيرها ، لأنهم لا ينتفعون بها ولا يتدبرون حكمها ولا يعقلون معناها لصرفهم جوارحهم إلى غير ما خلقت لها ، لذلك قطع الأمر بموتهم كفارا وتخليدهم بالنار ، لأنهم مثل فرعون لا يؤمنون "حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ 96" الذي لا آلم منه ولا مرد له ولا نجاة منه ، وإذا آمنوا حينذاك لا ينفعهم إيمانهم للإتيان به في غير محله كما مرّ تفصيله في الآية 90 آنفا وهذه آخر الآيات المدنيات ، قال تعالى "فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ" أي أهلها من اطلاق المحل وإرادة الحال فيه ، كما تقول سال الوادي ، وجرت الساقية ، وهذا كثير في القرآن أيضا وهو من محسنات الكلام .

"آمَنَتْ" عند معاينة العذاب "فَنَفَعَهَا إِيمانُها" حال اليأس ، ولا يرد على هذا عدم قبول إيمان فرعون ، لأنه لم يفارقه النبي الذي أرسل لإرشاده حتى أدركه الغرق ، أما هؤلاء فإن نبيهم بعد أن أنذرهم بنزول العذاب تركهم كما سيأتي في القصة .

مطلب في المشيئة والاستثناء وقصة يونس عليه السلام :

وقد سبق في علم اللّه تعالى صدق نيتهم في توبتهم قبل إحاطة العذاب فيهم ، كما سنوضحه لك قريبا ، بخلاف فرعون لأنه في تلك الحالة الرهيبة لم يزل شاكا كما تقدم في الآية 90 المارة حتى مات "إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ" استثناء متصل ، لأن الجملة في معنى النفي ، أي ما آمنت قرية من القرى الهالكة فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا نفعهم إيمانهم ، وقوم منصوب على أصل الاستثناء وإذا رفعت (قوم) على القراءة الأخرى كان الاستثناء منقطعا ، ويكون المعنى لكن قوم يونس نفعهم إيمانهم "لَمَّا آمَنُوا" إيمانا خالصا لا يشم منه رائحة شك أو غيره ولذلك "كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ" الذلّ والهوان "فِي الْحَياةِ الدُّنْيا" بخلاف غيرهم إذ استأصلناهم بالعذاب لعدم صدق نيتهم وصحة إخلاصهم ، وقد سبق في علم اللّه أن الذين استؤصلوا لو أجاب دعاءهم ورفع عنهم العذاب لردوا إلى ما نهوا عنه ، أما هؤلاء فكان في علمه الأزلي إخلاصهم للّه في توبتهم ، لذلك رفعنا عنهم العذاب "وَمَتَّعْناهُمْ" في الدنيا بعده "إِلى حِينٍ 97" انقضاء أجلهم المقدر لمكثهم فيها ، وهو الأجل

المبرم المقدّر على حسن توبتهم ونيتهم ولو لا ذلك لأهلكوا بالأجل المعلق المقدر على عدم توبتهم ورجوعهم إلى اللّه ، راجع الآية 2 من سورة الأنعام الآتية .

(248/354)

، وهؤلاء خصوا من بين الأمم بحسب قضاء اللّه الأزلي ، وتنطبق عليهم القاعدة ما عموم إلا وخص منه البعض ، كقوله تعالى (كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ) الآية الأخيرة من سورة القصص المارة ، وقوله تعالى (فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ) الآية 69 من الزمر الآتية ، وقوله تعالى (فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شاءَ اللَّهُ) الآية 88 من سورة النمل المارة في ج 1 .

هذا ولا يقال إنهم آمنوا قبل نزول العذاب لمخالفته للآية لأن الكشف لا يكون إلا بعد الوقوع أو بعد قرب وقوعه ، لأنه وقع قبل إحاطته بهم وبعد مشاهدتهم له ، واللّه أعلم .

وخلاصة القصة على ما ذكره الأخباريون هي أن يونس عليه السلام بعثه اللّه إلى أهل نينوى بأرض الموصل ، وكانوا مشركين فدعاهم لتوحيد اللّه تعالى ورفض سواء من الآلهة ، فأبوا عليه وأصروا

على كفرهم وكذبوه وجحدوا رسالته ، فأخبرهم أنهم إذا لم يؤمنوا فإن العذاب مصبحهم

إلى ثلاث ليال ، فأتقوا منه ، واشتد غضبه عليهم ، ولما لم يجد نصحه لهم نفعا أعرض عنهم وتركهم وذهب خارج قريتهم ، فلما فقدوه عرفوا أن ما وعدهم به من العذاب واقع بهم لا محالة لأنهم لم يجربوا عليه كذبا ، فخافوا وندموا ، فلما أصبحوا توقعوا نزول العذاب فرأوا غيما أسود فغشاهم فأيقنوا أنه ما وعدهم به ، فلبسوا المسوح وخرجوا إلى الصحراء بنسائهم وأولادهم ودوابهم وأظهروا توبتهم للّه وإيمانهم برسوله وردوا المظالم إلى أهلها وعجّوا إلى اللّه بالدعاء وعملوا ما كان يأمرهم به نبيهم وانتهوا عما نهاهم عنه ، حتى انهم صاروا يقلعون الأحجار المغصوبة من بنائهم ويعطونها أهلها ، رصاروا يتضرعون إلى اللّه ، وفرقوا بين الأولاد والأمهات من نوع الإنسان والحيوان ، وازداد بكاؤهم وبالغوا بالاستغاثة إلى اللّه .

(249/354)

وهم يشاهدون الدخان يظهر من ذلك الغيم ، وانه لا يزال يسود ويتكاثف ويقرب منهم حتى غشي مدينتهم كلها واسودت أسطحتهم وأحاط بهم من كل جانب ، وهم يلحّون بالدعاء إلى اللّه ويستصرخونه بالإغاثة ، وصار الأطفال يتصايحون والحيوانات تتثاغى ، والنساء تبكي ، وازداد عويل الرجال لرقة قلوبهم على الأولاد والحيوانات والنساء وأملهم

برجاء اللّه رفع بلاءه عنهم وهو يتقوّى ساعة فساعة ، ثم ذهبوا إلى شيخ لهم كانوا يعتقدون به فشكوا إليه نزول العذاب واستطلعوا رأيه واسترشدوا به ، فقال لهم قولوا يا حي حين لا حي ، يا حي محيي الموتى ، ويا حي لا إله إلا أنت .

وقال الفضيل قالوا اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل ، فافعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن له أهل .

وأنابوا كلهم إلى اللّه بإخلاص ونصح وصدق ودعوا كلهم بلسان واحد بذلك الدعاء وابتهلوا إلى اللّه تعالى موقنين قبول رجائهم ، فرحمهم وكشف عنهم العذاب أولا بأول ، وبدد تلك الغيوم حتى لم يبق منها شيء ، ففرحوا وسبحوا اللّه وحمدوه وشكروه ، ثم أمر اللّه يونس بالرجوع إليهم ، فقال رب كيف أرجع فيجدوني كذابا لأني وعدتهم بالعذاب فكشفته عنهم ، وإن عادتهم إذا كذب

الرجل دون بيّنة قتلوه ، وانصرف مغاضبا .

وسنأتي على بقية هذه القصة في الآية 139 فما بعدها من سورة الصافات الآتية حتى لا تتكرر

هنا وهناك ، وقد ألزمنا أنفسنا التحاشي عن التكرار في القصص وغيرها مهما أمكن ، لأن سبب ضخامة تفاسير المفسرين من التكرار لا غير .

مطلب المشيئة عند أهل السنة والمعتزلة ومعنى الآية فيها :

قال تعالى "وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ" على الإحاطة والشمول "جَمِيعاً" تأكيد بعد تأكيد بحيث لا يتخلف منهم أحد البتة ، ولكن اللّه جل شأنه لم يشأ ذلك ، لأنه لا يشاء إلا ما يعلمه ولا يعلم إلا ماله ثبوت في نفسه في لوحه ، فما لا ثبوت له أصلا لا يعلم ، وما لا يعلم لا يشاء ، ولا يشاؤه لكونه مخالفا لحكمته التي عليها بناء أساس التكوين والتشريع .

وفي هذه الآية إشارة إلى تحقيق دوران إيمان جميع المكلفين وجودا وعدما على قطب مشيئته مطلقا بعد بيان تبعية كفر الكفرة لكلمته ، وإعلام بكمال قدرته ونفوذ مشيئته ، وحجة على المعتزلة الزاعمين أن اللّه تعالى شاء الإيمان من جميع الخلق فلم يؤمن إلا بعضهم ، والمشيئة عندهم قسمان تفويضية يجوز تخلف الشيء عنها ، وقرية لا يجوز التخلف عنها ، وحملوا ما في الآية على الأخير ، فالمعنى عندهم لو شاء ربك مشيئة إلجاء وقسر إيمان الثقلين لآمنوا ، لكنه لم يشأ ، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختيارا له ولضده ، وفوض الأمر إليهم ، محتجين بقوله تعالى (فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ) الآية 29 من سورة الكهف الآتية ، وهذا ديّنهم في كل ما ورد عليهم من الآيات الظاهرة في إبطال ما هم عليه ، وفيه أنه لا قرينة على التقيد مع أن قوله تعالى "أَ فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ 98"

يأباه قياسهم لأن المعنى ليس لك الأمر بإكراه الناس على الإيمان ، وإنما أنت مبلغ ومنذر ، فلا تحرص على إيمان من لم يؤمن ، لأنه لا يكون إلا بالتصديق والإقرار ولا يمكن الإكراه على التصديق .

والهمزة للإنكار وهي لصدارتها مقدمة والفاء للتفريع والمقصود تفريع الإنكار .

(251/354)

ولا فائدة بل لا وجه لاعتبار مشيئة القسر والإلجاء خاصة في تفريع الإنكار وقيل الهمزة في موضعها والعطف على مقدر ينسحب عليه الكلام كأنه قيل أربك لا يشاء أفأنت يا محمد تكرههم على الإيمان ، والإنكار متوجه إلى ترتيب الإكراه المذكور على مشيئته تعالى ، والإباء هو الإباء ، فلا بد من حمل المشيئة على إطلاقها ،

والمراد بالناس من طبع عليهم أو الجميع على طريق المبالغة ، ومن المعلوم أن المشيئة غير الإرادة ، فإن اللّه تبارك وتعالى أمر الكافر بالإيمان وأراد منه الكفر بمقتضى مشيئته الأزلية ، وهذا مما لا نزاع فيه ، حتى أن الإنسان قد يأمر خادمه بشيء وهو يريد غيره ، قال ابن عباس : إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان يحرص على أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى ، فأخبره عز وجل أنه لا يؤمن إلّا من سبقت له السعادة في الذكر الأول ، ولم يقل

إلّا من سبقت له الشقاوة في الذكر الأول أي اللوح المحفوظ الذي فيه سابق علم اللّه الأزلي بما كان وما يكون ، قال تعالى "وَما كانَ" ما صح وما استقام ولا جاز "لِنَفْسٍ" من النفوس التي علم اللّه تعالى "أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" ومشيئته وإرادته .

وهذه الآية بيان لنبعية إيمان النفوس التي علم اللّه تعالى إيمانها بمشيئته وجودا وعدما بعد بيان الدوران الكلي عليها كذلك ، وتقرير لما يدل عليه الكلام السابق من أن خلاف المشيئة مستحيل "وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ" الكفر بقرينة ما قبله قال تعالى (وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلى رِجْسِهِمْ) الآية 137 من سورة التوبة في ج 3 .

وقيل السخط والعذاب وأصله الشيء الفاسد المستقذر ، وعبّر عن الكفر بالرجس لأنه علم في الفساد والاستقذار ، راجع الآية 128 من سورة الأنعام الآتية .

(252/354)

وقرىء بنون العظمة ونجعل الرجس "عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ 99" أوامر اللّه ونواهيه فلا يفقهون مغازيها حتى يعوها ويتعظوا فيها ، فيا أكرم الرسل

"قُلِ" لهؤلاء الكفرة "انْظُرُوا" نظر اعتبار واستدلال وتفكر وتدبر "ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ" من الآيات العظام الدالة على عظم صانعها ، ففي السموات الشمس والقمر

والنجوم السيارات والساكنات مما عرفه البشر ومما لم يعرفه بعد ، وإن كابر بعضهم وقال بمعرفة كل ما في السموات حتى أنه أحصاها عدا فإن هناك من الأفلاك والبروج السائرة والواقفة الطالعة والغارية الظاهرة والخفية والتي يحصل بها الليل والنهار والإنضاج والرطوبة واليبوسة والتطعيم والتلوين وتأثيرات كثيرة وضعها اللّه تعالى فيها ومنافع تكون منها بإرادته تعالى للبشر والحيوان والطير والحوت والنبات والجماد ، وفي الأودية والجبال والبحار والأنهار والعيون والأشجار

والزروع والمعادن المختلفة نوعا وجنسا وشكلا ولونا طبيعة وعملا مما يتركب منها ، وأذواق ما يؤكل منها وطعمها مما لا يعلم إحصاء إلا اللّه ، ففي كل منها آية عظيمة دالة على رب عظيم يغنيكم أيها الكفرة عن طلب آية غيرها :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(253/354)

إن كنتم تريدون الإيمان بمبدعها "وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ" مهما كانت جليلة ونادرة "وَالنُّذُرُ" مهما كثروا وتعبوا في نصح البشر "عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ 100" حالا ومستقبلا لأن اللّه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم فهم الذين لا يعقلون المنوه بهم آنفا الذين سبق لهم في الأزل

الشقاء "فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ" هؤلاء الكفار الذين لا يعقلون آيات اللّه ويطلبون الآيات من الرسل "إِلَّا" أياما سودا "مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ" بأن يوقع اللّه بهم مثل ما أوقعه عليهم من الغرق والخسف والريح والصيحة وغيرها من أنواع العذاب الذي صبّ على أسلافهم ، وقد أطلقت الأيام على الوقائع الشديدة ، لأن العرب تسمي النقم أياما كما هنا والنعم أياما كما في قوله تعالى (وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ) الآية 5 من سورة ابراهيم الآتية ، فإذا كانوا ينتظرون إهلاكا مثل إهلاكهم لأنهم سائرون على شاكلتهم ، فيا حبيبي "قُلْ" لهم "فَانْتَظِرُوا" ذلك لا تستعجلونه فإنه آت "إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ 102" له وإني مترقب إهلاككم فيه ونجاتي ومن معي لقوله عز قوله "ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا" من ذلك العذاب المنتظر "كَذَلِكَ" مثل ما أنجينا الرسل الذين بعثناهم إلى الذين قبلكم وأهلكنا من كذبهم من أمثالكم لأنا نرى "حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ 103" أنت ومن آمن بك يا محمد ونهلك المشركين الذين كذبوك .

(254/354)

واعلم أن حروف هذه الآية من كلمة كذلك إلخ 1468 بحساب الجمل وان الآيتين من سورة الصافات 171/ 172 والآية 51 من سورة المؤمن لها مساس في مغزى هذه الآية

فراجعها وراجع الآية 47 من سورة الروم الآتية أيضا ، وإنا مثلما نفّذنا وعيدنا بإهلاك الكفرة ننجز وعدنا بنصرة الرسل وفوز المؤمنين بهم ، وهذا مما أوجبه اللّه تعالى على ذاته المقدسة من الحق هو من حيث الوعد والحكم لا من حيث الاستحقاق ، لأنه تبارك وتعالى ما عليه واجب

(255/354)

و العبد لا يستحق عليه شيئا ، ومعنى أن الإنجاء واجب عليه انه كالأمر الواجب عليه تعالى بحسب وعده الذي لا يخلف ، وإلا فلا وجوب حقيقة لا بالإنجاء ولا بالإهلاك ، لأنه يفعل ما يشاء ويختار ، فله أن يعذب المؤمن وينعم الكافر ، فلا يسأل عما يفعل كما هو عقائد الأشعرية والماتريدية ، وعليها جميع أهل السنة والجماعة ، وهذا لا يعد ظلما منه ، لأن الظلم التصرف في ملك الغير بلا حق ، واللّه سبحانه وتعالى هو المالك المتفرد في عذا الكون علويه وسفليه ، وله التصرف فيه كيفما شاء وأراد ، وهذه الآية مقررة لمضمون ما قبلها ، وقدمنا ما يتعلق بها في الآيات 55/ 65 و91 المارات في هذه السورة ، قال تعالى "قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي" الذي أدعوكم إليه تقدم ما فيها في الآية 91 المارة من هذه السورة أيضا "فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ" من الأوثان لأني على

دين أبيكم إبراهيم عليه السلام الذي تعرفونه ، لا تشكون فيه ، كما أن رؤساء النحل كلها تحترمه وتقر لحضرته بصحة الدين القويم ولا تشك فيه ، فالأولى أن تشكوا في دينكم المبتدع الذي لا أصل له البتة ، وإنما قدم النفي لأن العبادة غاية تعظيم المعبود فلا تليق لأخس الأشياء كالأوثان التي لا تضر ولا تنفع تارك عبادتها وعابدها ، وإنما تليق لمن بيده النفع والضر والإحياء والإماتة الملمع إليه بقوله "وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ" فهو الذي يستحق العبادة لأنه خلقكم ولم تكونوا شيئًا ثم يميتكم ثم يحييكم ، وقد اكتفى بذكر الوفاة لأنه أشد شيء على النفس وأقوى في الزجر والردع "وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ 104" المصدقين بالله الواحد وبما جاء من عنده ، ولما ذكر العبادة التي هي من أعمال الجوارح اتبعها بما هو من أعمال القلوب وهو الإيمان فقال جل قوله "وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ" أي ذاتك

(256/354)

كلها ، وهذه عطف على أن أكون "لِلدِّينِ حَنِيفاً" مائلا عن كل أباطيلهم وهي حال مؤكدة من الوجه لأن إقامة الوجه تضمنت التوجه إلى الحق والاعراض عن الباطل بكلية الإنسان من إطلاق الجزء على الكل "وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ 105" في الاعتقاد والأعمال "وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ" مما يدعوك إليه

قومك من الاستشفاع بالأوثان وغيرها "فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ 106" لنفسك وغيرك ، هذا كله خطاب عام مراد به غير حضرة الرسول وإنما خوطب به تهييجا وإلها با لقلوب الناس وحثهم على التوحيد والكف عما هم عليه والرجوع إلى اللّه تعالى كما قدمناه في الآية 94 المارة من هذه السورة .

(257/354)

قال تعالى "وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ" من مرض وفقر وشدة وذلة "فَلا كاشِفَ لَهُ" عنك "إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ" صحة وعافية ورفاه وجاه "فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ" على عباده من أحد ما "يُصِيبُ بِهِ" بكل من الضر والخير "مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ" مؤمنهم وكافرهم وقد قطع جل شأنه في هذه الآية على عباده طريق الرغبة والرهبة إلا إليه ، وسبيل الاعتماد في الأمرين وغيرهما إلا عليه ، وقد رجح سبحانه جانب الخير في هذه الآية على جانب الشر لأنه لما ذكر إمساس الضر بين أن لا كاشف له إلا هو ، فيدل هذا على أنه يزيل جميع المضار ويكشفها ، لأن الاستثناء من النفي إثبات ، ولما ذكر الخير قال (فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ) أي أن جميع الخيرات منه لا يقدر أحد على ردها ، لأنه هو مفيضها على عباده ، ولذلك عضدها بقوله "وَهُوَ الْغَفُورُ" لذنوب عباده الساتر لها "الرَّحِيمُ 107" بهم الرءوف كثير الشفقة عليهم

ومن رحمته لا يؤاخذهم بما يفعلون بحسب لطفه بهم ، ويرزقهم وهم له جاحدون بمقتضى رأفته بهم ، قال تعالى (وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ) الآية الأخيرة من سورة فاطر المارة في ج 1 ، وقال تعالى (وَلَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ . . .

(258/354)

ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ) الآية 62 من سورة النحل الآتية ، فأكثروا من شكره أيها الناس واحمدوه وعظموه ومجّدوه ، فهو المختص بالحمد بالدنيا والآخرة وهو المالك له فلا يقدر أحد أن يحمد أحدا إلا بتقديره "قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ" هو كتاب اللّه الذي فيه هديكم "مِنْ رَبِّكُمْ" ومالك أمركم على لسان رسولكم الذي هو منكم "فَمَنِ اهْتَدى" به وصدقه وآمن بما أنزل عليه "فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ" لأن نفع هداه يرجع إليها "وَمَنْ ضَلَّ" عن سلوك طريق هداه ولم يسترشد به وكذب من أنزله عليه "فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها" لأن وبال ضلاله عائد عليه نفسه ،

(259/354)

وفي هذه الآية تنزيه ساحة صاحب الرسالة عن شائبة غرض عائد إليه من جلب نفع ودفع ضر لذلك أمره اللّه أن يقول لقومه العتاة المعاندين "وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ 108" للقيام بأموركم وإصلاح أحوالكم ، وإنما أنا بشير لمن أطاع اللّه بالجنة ونذير لمن عصاه بالنار ، وفي هذه الآية إشارة إلى أنه صلى اللّه عليه وسلم غير مجبر لهم على الإيمان ولا بمكرههم عليه ، ولا هو مكلف بقسرهم على شيء ما وإنما هو مأمور بتبليغهم أوامر اللّه ونواهيه فقط كما مر في الآية الأخيرة من سورة طه المارة في ج 1 ، وللبحث صلة في الآية 21 فما بعدها من سورة الغاشية الآتية ، قال تعالى "وَاتَّبِعْ" يا سيد الرسل في جميع شئونك اعتقادا وعملا وتبليغا "ما يُوحى إِلَيْكَ" من ربك في هذا القرآن واعمل به وذكر قومك ليعملوا به "وَاصْبِرْ" على عدم قبولهم أوامر ربك ، وعلى أذاهم لك ، ومخالفتهم لأمرك ، ودم على هذه الحالة "حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ" بنصرك عليهم وإعلاء كلمتك وإظهار دينك بالوقت الذي قدرناه هذا وارض بحكم اللّه فيما تؤمر به وتنهى عنه "وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ 109" وأعدلهم وأنفذهم حكما ، لأن المطلع على السراء العالم بما تخفيه الصدور من قول الخصمين يوقع حكمه على ما هو الواقع دون حاجة إلى بينة أو شهادة ، فالخطأ في حكمه محال والقول بخلاف هذا ضلال ، وفي هذه الآية الوعيد والتهديد بالخذلان للكافرين والوعد والبشارة للمؤمنين بالنصر بما لا يخفى على بصير .

ويوجد سورة أخرى في القرآن مختومة بمثل هذه اللفظة وهي سورة والتين المارة في ج 1 فقط

، وقد امتثل صلى اللّه عليه وسلم أمر ربه بالصبر على قومه حتى جزع الصبر ولم يجزع هو

كما قيل :

سأصبر حتى يجزع الصبر عن صبري وأصبر حتى يحكم اللّه في أمري

وكما قيل أيضا :

سأصبر حتى يعلم الصبر أنني صبرت على شيء أمر من الصبر

وكما في قول الآخر :

يبيت يريني الدهر كيف انقلابه أبيت أريه الصبر كيف يكون

(260/354)

و للصبر بحث في الآيات الأخيرات من سورة النحل الآتية فراجعها .

هذا واللّه أعلم وأستغفر اللّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم ، وصلى اللّه على سيدنا محمد وسلم وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، والحمد للّه رب العالمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بيان المعاني حـ 3 صـ 3 ـ 88 ﴾

(261/354)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء الخامس والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/355)

الجزء الخامس والخمسون بعد الثلاثمائة

فصل فى الوقف والابتداء

(4/355)

فصل فى الوقف والابتداء فى آيات السورة الكريمة :

قال شيخ الإسلام / زكريا الأنصاري

سورة يونس

مكية إلا قوله " فإن كنت في شك " الآيتين أو الثلاث أو قوله ومنهم من يؤمن به الآية فمدني " الر " تقدم الكلام عليه في سورة البقرة الحكيم كاف وقال أبو عمرو تام عند ربهم تام وكذا لسحر مبين وهي أتم على العرش حسن وكذا يدبر الأمر ومن بعد إذنه وقال أبو عمرو في الأخير كاف فاعبدوه كاف تذكرون حسن مرجعكم جميعا كاف حقا حسن لمن قرأ أنه يبدأ بكسر الهمزة وليس بوقف لمن قرأه بفتحها ثم يعيده كاف وليس بتام لأن لام ليجزي لام كي ويأتي فيه ما مر في براءة بالقسط تام وكذا يكفرون والحساب إلا بالحق حسن وقال أبو عمرو في الجميع كاف يعلمون تام وكذا يتقون ويكسبون بايمانهم كاف في جنات النعيم صالح وكذا سبحانك اللهم سلام حسن وقال أبو عمرو كاف رب العالمين تم لقضى إليهم أجلهم

كاف يعمهون تام أو قائما كاف وكذا ضر مسه يعملون حسن وقال أبو عمرو تام وما كانوا ليؤمنوا كاف وكذا المجرمين وتعملون أو بدله حسن وقال أبو عمرو فيه كاف وفي تعملون تام يوحي إلى حسن وقال أبو عمرو كاف عظيم تام ولا أدراكم به صالح من قبله كاف أفلا تعقلون تام بآياته كاف المجرمون حسن عند الله تام وقال أبو عمرو كاف ولا في الأرض كاف يشركون تام فأختلفوا حسن وكذا يختلفون وقال أبو عمرو في الأول كاف من ربه صالح الغيب لله مفهوم وقال أبو عمرو كاف من المنتظرين حسن وقال أبو عمرو تام في آياتنا حسن وكذا أسرع مكرا وقال أبو عمرو في الثاني كاف يمكرون تام في البرّ والبحر صالح وقال أبو عمرو فيهما كاف من الشاكرين حسن بغير الحق تام إنما بغيكم على أنفسكم تام لمن قرأ متاع الحياة الدنيا بالرفع على انه خبر مبتدأ محذوف أو بالنصب بمحذوف تقديره تبتغون متاع الحياة الدنيا وليس بوقف لمن قرأه بالرفع على انه خبر بغيكم أو بالنصب ببغيكم تعملون تام والأنعام صالح كأن لم تغن بالأمس حسن وقال أبو عمرو فيهما كاف يتفكرون تام وكذا مستقيم وزيادة كاف وكذا ولا ذلة أصحاب الجنة صالح أو مفهوم خالدون تام وترهقهم ذلة مفهوم وكذا من عاصم عند بعضهم مظلما كاف خالدون تام فزيلنا بينهم كاف

وكذا تعبدون لغافلين حسن مولاهم الحق صالح تصرفون حسن لا يؤمنون تام ثم يعيده صالح
تؤفكون حسن وقال أبو عمرو تام إلى الحق كاف وكذا للحق إلا أن يهدي صالح وقال أبو
عمرو كاف فمالكم حسن بمعنى التوبيخ كيف تحكمون تام إلا ظنا كاف وكذا شيئًا بما
يفعلون تام من رب العالمين كاف افتراه زعموا انه صالح صادقين وكذا تأويله الظالمين حسن
وقال أبو عمرو تام من لا يؤمن به حسن وكذا بالمفسدين ولكم عملكم مما تعملون إليك كاف
لا يعقلون حسن ينظر إليك كاف لا يبصرون تام الناس شيئًا قيل انه وقف ولا أحبه يظلمون
تام يتعارفون بينهم حسن وكذا مهتدين وما يفعلون وقال أبو عمرو في الأول كاف ولكل أمة
رسول صالح لا يظلمون كاف صادقين حسن وكذا الله وقال أبو عمرو في الثاني كاف لكل
أمة أجل كاف ولا يستقدمون تام وكذا المجرمون آمنتم به صالح وقد كنتم تستعجلون كاف
تكسبون تام ويستنبئونك الآية الوقف فيها على لحق بجعل السؤال والجواب والقسم كلاما
واحدا وقيل على أي وربي كما تقول بلى وقيل على أي قيل على أحق هو كنظير في
يسألونك عن الاهلة والوقف على لحق تام إن جعل وما أنتم بمعجزين مستأنفا فأن جعل
معطوفا فلا وقف بمعجزين تام وكذا لا افتدت به العذاب صالح بالقسط تام وكذا لا يظلمون
والأرض حسن لا يلمون تام وكذا ترجعون وللمؤمنين مما يجمعون حسن وكذا وحلالا
وتفترون ويوم القيامة وقال أبو عمرو فيه كاف لا يشكرون تام تفيضون ولا في السماء كاف
إن قرئ ما بعده بالرفع بالابتداء وإلا فليس بوقف كتاب مبين تام ولا هم يحزنون إن جعل

الذين آمنوا مبتدأ فأن جعل وصفا لأولياء الله لم يكن ذلك وقفا وعليه فالوقف التام عند يتقون وفي الآخرة تم لا تبديل لكلمات الله صالح العظيم تام وكذا لا يحزنك قولهم والعليم ومن في الأرض حسن شركاء كاف يخرصون تام مبصرا كاف يسمعون تام سبحانه حسن وإلا حسن الوقف على هو الغني وما في الأرض كاف من سلطان بهذا حسن مالا تعلمون تام لا يفلحون تام لا

(6/355)

يفلحون كاف يكفرون تام نبأ نوح حسن عند بعضهم وهو عندي مفهوم توكلت صالح فأجمعوا أمركم وشركاءكم مفهوم سواء نصب شركاءكم أم رفع ولا تنظرون صالح من المسلمين كاف خلائف صالح وكذا المنذرين من قبل حسن ابن عباد المعتدين كاف وكذا ولسحر مبين لما جائكم حسن أسحر هذا تام إن جعلت الجملة بعده استئنافية لا

(7/355)

حالية ولا يفلح الساحرون حسن بمؤمنين تام عليم كاف وكذا أنتم ملقون ما جئتم به حسن
لمن قرأ آلسحر بالمد أي شيء جئتم به وليس بوقف لمن قرأه بهمزة وصل لأن ما بمعنى الذي
وهو مبتدأ خبره السحر السحر تام والتقدير على قراءة المد آلسحر هو إن الله سيبطله
حسن المفسدين كاف كره المجرمون تام أن يفتنهم حسن لمن المسرفين تام مسلمين كاف
توكلنا حسن الظالمين جائز الكافرين تام وبشر المؤمنين حسن عن سبيلك كاف الأليم
حسن فأستقيما كاف لا يعلمون تم بغيا وعدوا صالح آمن حسن لمن قرأ أنه بكسر الهمزة
وإلا فليس بوقف بنوا اسرائيل صالح عند بعضهم وليس بجيد من المسلمين حسن من
المفسدين كاف وكذا آية لغافلون تام كاف وكذلك جاءهم العلم يختلفون حسن وكذا من
قبلك وقال أبو عمرو فيهما تام من الممترين كاف من الخاسرين تام الاليم كاف وقال أبو عمرو
تام إلى حين تام جميعا صالح وقال أبو عمرو كاف مؤمنين تام بأذن الله حسن وقال أبو عمرو
كاف لمن قرأ ونجعل الرجس بالنون وحسن لمن قرأه بالياء لتعلقه بما قبله لا يعقلون تام
والأرض حسن لمن قرأ ونجعل الرجس بالنون وحسن لمن قرأه بالياء لتعلقه بما قبله لا يعقلون
بما قبله لا يعقلون تام والأرض حسن وقال أبو عمرو كاف لا يؤمنون كاف وكذا من قبلهم
ومن المنتظرين والذين آمنوا حسن وقال أبو عمرو كاف ننج المؤمنين تام يتوفاكم صالح من
المشركين حسن وقال أبو عمرو كاف ولا يضرك صالح من الظالمين وكذا إلا هو وفلا راد
لفضله الرحيم تام من ربكم صالح بوكيل حسن وقال أبو عمرو آخر السورة تام . لا يفلح

الساحرون حسن بمؤمنين تام عليم كاف وكذا أنتم ملقون ما جئتم به حسن لمن قرأ آلسحر بالمد أي شيء جئتم به وليس بوقف لمن قرأه بهمزة وصل لأن ما بمعنى الذي وهو مبتدأ خبره السحر السحر تام والتقدير على قراءة المد آلسحر هو إن الله سيبطله حسن المفسدين كاف كره المجرمون تام أن يفتنهم حسن لمن المسرفين تام مسلمين كاف توكلنا حسن الظالمين جائز

(8/355)

الكافرين تام وبشر المؤمنين حسن عن سبيلك كاف الأليم حسن فأستقيما كاف لا يعلمون تم بغيا وعدوا صالح آمن حسن لمن قرأ أنه بكسر الهمزة وإلا فليس بوقف بنوا اسرائيل صالح عند بعضهم وليس بجيد من المسلمين حسن من المفسدين كاف وكذا آية لغافلون تام كاف وكذلك جاءهم العلم يختلفون حسن وكذا من قبلك وقال أبو عمرو فيهما تام من الممترين كاف من الخاسرين تام الاليم كاف وقال أبو عمرو تام إلى حين تام جميعا صالح وقال أبو عمرو كاف مؤمنين تام بأذن الله حسن وقال أبو عمرو كاف لمن قرأ ونجعل الرجس بالنون وحسن لمن قرأه بالياء لتعلقه بما قبله لا يعقلون تام والأرض حسن لمن قرأ ونجعل الرجس بالنون وحسن لمن قرأه بالياء لتعلقه بما قبله لا يعقلون بما قبله لا يعقلون تام والأرض

حسن وقال أبو عمرو كاف لا يؤمنون كاف وكذا من قبلهم ومن المنتظرين والذين آمنوا حسن وقال أبو عمرو كاف ننج المؤمنين تام يتوفاكم صالح من المشركين حسن وقال أبو عمرو كاف ولا يضرك صالح من الظالمين وكذا إلا هو وفلا راد لفضله الرحيم تام من ربكم صالح بوكيل حسن وقال أبو عمرو آخر السورة تام . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المقصد صـ 369.351 ﴾

(9/355)

وقال الشيخ أحمد عبد الكريم الأشموني :

سورة يونس عليه السلام

مكية إلاَّ قوله فإن كنت في شك الآيتين أو الثلاث قال ابن عباس فيها من المدني ومنهم من يؤمن به الآية نزلت في اليهود بالمدينة وهي مائة وعشر آيات في الشامي وتسع في عد الباقين اختلافهم في ثلاث آيات مخلصين له الدين عدها الشامي لنكونن من الشاكرين لم يعدها الشامي وشفاء لما في الصدور وعدها الشامي وكلهم لم يعدوا الر والمر في الست سور وكلمها ألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة وحروفها سبعة آلاف وخمسائة وسبعون وستون حرفاً وفيها ما يشبه الفواصل وليس معدوداً بإجماع موضع واحد وهو ولقد بؤأنا

بني إسرائيل

(الر) تقدم ما يغني عن إعادته في سورة البقرة

الحكيم (تام) للابتداء بالاستفهام الإنكاري

أن أنذر الناس (حسن) سواء أعربنا أن أوحينا اسم كان وعجباً الخبر أو عكسه والتقدير

أكان إيحاؤنا بالإنذار والتبشير إلى رجل منهم عجباً وأن أنذر الناس تفسيراً وجعلت كان

تامة وأن أوحينا بدلاً من عجباً بدل اشتمال أو كل من كل وجعل هذا نفس العجب مبالغة

أنَّ لهم قدم صدق عند ربهم (أحسن) مما قبله وليس بوقف على قول من يقول إنَّ قوله قال

الكافرون جواب أن أوحينا وهذا إشارة إلى الوحي قاله أبو حاتم والمراد بالقدم الصدق

محمد صلى الله عليه وسلم وهي مؤنثة يقال قدم حسنة قال حسان

لنا القدم العليا إليك وخلفنا لأوّلنا في طاعة الله تابع

أي ما تقدم لهم في السودد

لسحر مبين (أتم) مما قبله

على العرش (حسن) ومثله في الحسن يدبر الأمر

إلاَّ من بعد إذنه (كاف) ومثله فاعبدوه وكذا تذكرون

جميعاً (حسن) سواء أعرب جميعاً حال من المضاف إليه وهو الكاف وهو صحيح لوجود شرطه وهو كون المضاف صالحاً للعمل في الحال ومثله حقاً لمن قرأ أنه يبدأ الخلق بكسر الهمزة وليس بوقف لمن قرأ بفتحها وهو أبو جعفر يزيد بن القعقاع فإنَّه كان يقرأ أنَّه بفتح الهمزة فعلى قراءته لا يوقف على حقاً لأنَّ ما قبلها عامل فيها بل يوقف على وعد الله ثم يبتديء حقاً إنَّه يبدأ الخلق وقال أبو حاتم موضع أن بالفتح نصب بالوعد لأنَّه مصدر مضاف لمفعوله فكأنَّه قال وعد الله له فعلى قوله لا يوقف على ما قبل حقاً ولا على ما بعده وقيل موضعه رفع أي حقاً إنَّه يبدأ الخلق كما قال الشاعر

أحقاً عباد الله إن لست داخلاً ولا خارجاً إلاَّ على رقيب

فرفع أن بعد حقاً لأنها لا تكسر بعد حقاً ولا بعد ما هو بمعناها وقيل موضعها جر على إضمار حرف الجر أي وعد الله حقاً بأنه وقريء وعد الله فعل وفاعل

ثم يعيده فيه ما مر في براءة من أن لام ليجزي لام كي

بالقسط (تام) لفصله بين ما يجزي به المؤمنون وما يجزي به الكافرون وهو من عطف الجمل يكفرون (تام)

والحساب (حسن) سئل أبو عمرو عن الحساب أتنصبه أم تجره أي هل تعطفه على عدد فتنصبه أو على السنين فتجره فقال لا يمكن جره إذ يقتضي ذلك أن يعلم عدد الحساب ولا

يقدر أحداً أن يعلم عدده

إلاَّ بالحق (كاف) على قراءة نفصل بالنون وهي قراءة العامة وليس بوقف لمن قرأ بالتحتية لأنَّ الكلام يكون متصلاً لأنَّ ما بعده راجع إلى اسم الله تعالى في قوله ما خلق الله ذلك فلا يقطع منه

(11/355)

يعلمون (تام) ومثله يتقون ولا وقف من قوله إنَّ الذين لا يرجون إلى يكسبون فلا يوقف على الدنيا لاتساق ما بعده على ما قبله ولا على واطمأنوا بها كذلك ولا على الغفلون لأنَّ أولئك خبر إن فلا يفصل بين اسمها وخبرها بالوقف وكثيراً ما تكون آية تامة وهي متعلقة بآية أخرى في المعنى لكونها استثناء والأخرى مستثنى منها أو حالاً مما قبلها وإن جعل أولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثانياً والنار خبر الثاني والثاني وخبره خبر أولئك كان الوقف على غافلون كافياً

يكسبون (تام)

بإيمانهم (حسن)

في جنات النعيم (تام) عند أحمد بن موسى

سبحانك اللهم (حسن) قال سفيان إذا أراد أحد من أهل الجنة أن يدعو بالشيء إليه قال سبحانك اللهم فإذا قالوها مثل بين يديه فهي علامة بين أهل الجنة وخدمهم فإذا أرادوا الطعام قالوها أتاهم حالاً ما يشتهون فإذا فرغوا حمدوا الله تعالى فذلك قوله وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين

فيها سلام (أحسن) مما قبله لأن الجملتين وإن اتفقتا فقد اعترضت جملة معطوفة أخرى لأنَّ قوله وآخر دعواهم معطوف على دعواهم الأول فدعواهم مبتدأ وسبحانك منصوب بفعل مقدر لا يجوز إظهاره هو الخبر والخبر هنا هو نفس المبتدأ والمعنى أنَّ دعاءهم هذا اللفظ فدعوى يجوز أن تكون بمعنى الدعاء ويدل عليه اللهم لأَّنه نداء في معنى يا الله ويجوز أن يكون هذا الدعاء بمعنى العبادة فدعوى مصدر مضاف للفاعل

رب العالمين (تام)

أجلهم (حسن) للفصل بين الماضي والمستقبل أي ولو يعجل الله للناس الشر في الدعاء كاستعجالهم بالخير لهلكوا

يعمهون (تام)

أو قائماً (حسن) ومثله مسه وزعم بعضهم أنَّ الوقت على قوله فلما كشفنا عنه ضره مر وليس بشيء لأنَّ المعنى استمر على ما كان عليه من قبل أن يمسه الضر ونسي ما كان فيه

من الجهد والبلاء ونسي سؤاله إيانا

يعملون (تام) عند أبي عمرو 0

(12/355)

لما ظلموا ليس بوقف لعطف وجاءتهم على ظلموا أي لما حصل لهم هذان الأمران مجيء

الرسل بالبينات وظلمهم أهلكوا

وما كانوا ليؤمنوا (حسن) والكاف من كذلك في موضع نصب على المصدر المحذوف أي

مثل ذلك الجزاء وهو الإهلاك

نجزي القوم المجرمين (كاف) ومثله تعملون

بينات ليس بوقف لأنَّ قال جواب إذا فلا يفصل بينهما

أو بدله (حسن) وقال أبو عمرو كاف

من تلقاء نفسي (جائز) للابتداء بأن النافية وتقدم أن تلقائي من المواضع التسعة التي زيدت

فيها الياء كما رسمت في مصحف عثمان

يوحي إليّ (حسن) وقال أبو عمرو كاف للابتداء بإني

عظيم (تام)

ما تلوته عليكم (جائز) على قراءة قنبل ولأدراكم به بغير نفي فهو استفهام وإخبار بإيقاع الراية من الله تعالى فهو منقطع من النفي الذي قبله وليس بوقف لمن قرأ ولا أدراكم بالنفي لأَنَّه معطوف على ما قبله من قوله ما تلوته عليكم فهو متعلق بالتلاوة وادخل معها في النفي فلا يقطع منها وقرأ ابن عباس والحسن وابن سيرين وأبو رجاء ولا أدراكم به بهمزة ساكنة بعد الراء مبدلة من ألف والألف منقلبة عن ياء لانفتاح ما قبلها وهي لغة لعقيل حكاها قطرب وقيل الهمزة أصلية وإنَّ اشتقاقه من الدرء وهو الدفع

ولا أدراكم به (جائز) على القراءتين

من قبله (كاف) للابتداء بالاستفهام بعده

أفلا تعقلون (تام)

بآياته (كاف)

المجرمون (تام)

ولا ينفعهم ليس بوقف لأنَّ ما بعده من مقول الكفار

عند الله (كاف) لانتهاء مقولهم ومثله ولا في الأرض

عما يشركون (تام)

فاختلفوا (حسن)

يختلفون (تام) والمعنى ولولا كلمة سبقت من ربك لأهلك الله أهل الباطل وأنجى أهل الحق

آية من ربه (جائز) لأنَّ الأمر مبتدأ بالفاء ومثله الغيب لله . فانتظروا أرقى منهما لأنَّ

جواب الأمر منقطع لفظاً متصل معنى

من المنتظرين (تام)

في آياتنا (حسن) ومثله أسرع مكراً

ما تمكرون (تام) سواء قريء بالفوقية أم بالتحتية

(13/355)

في البر والبحر (حسن) وقريء ينشركم من النشر والبث ويسيركم من التسيير لأنَّ حتى

للابتداء إذا كان بعدها إذا إلاَّ قوله حتى إذا بلغوا النكاح فإنَّها لانتهاء الابتداء وجواب إذا

قوله جاءتها ريح

من كل مكان (حسن) ومثله له الدين لأنَّ دعوا الله جواب سؤال مقدر كأنَّه قيل فما كان

حالهم في تلك الشدة قيل دعوا الله ولم يدعوا سواه

من الشاكرين (كاف) ومثله بغير الحق

على أنفسكم (تام) لمن قرأ متاع بإضمار مبتدأ محذوف تقديره هو متاع أو ذلك متاع وكذا

لو نصب بمحذوف أي تبغون متاع أو رفع بغيكم على الابتداء وعلى أنفسكم في موضع

الخبر وفيه ضمير عائد على المبتدأ تقديره إنما بغيكم مستقر على أنفسكم وهو متاع فعلى متعلقة لاستقرار وكذا لو رفع بغيكم على الابتداء والخبر محذوف تقديره إنَّما بغيكم على أنفسكم من أجل متاع الحياة مذموم وليس بوقف إن رفع خبراً عن قوله بغيكم وعلى أنفسكم متعلق بالبغي فلا ضمير في قوله على أنفسكم لأنَّ ليس بخبر المبتدأ فهو ظرف لغو أو نصب متاع ببغيكم أو نصب على أنه مفعول من أجله أي من أجل متاع وبالنصب قرأ حفص عن عاصم على أن متاع ظرف زمان أي زمن متاع وقرأ باقي السبعة متاع بالرفع تعملون (تام) ولا وقف من قوله إنّما مثل إلى والأنعام فلا يوقف على قوله فاختلط وزعم يعقوب الأرزق أنه هنا وفي الكهف تام على استئناف ما بعده جملة مستأنفة من مبتدأ وخبر وفي هذا الوقف شيء من جهة اللفظ والمعنى فاللفظ أن نبات فاعل بقوله فاختلط أي فنبت بذلك المطر أنواع من النبات يختلط بعضها ببعض وفي المعنى تفكيك الكلام المتصل الصحيح والمعنى الفصيح وذهاب إلى اللغو والتعقيد

والأنعام (حسن) لأنَّ حتى ابتدائية تقع بعدها الجمل كقوله

فما زالت القتلى تمج دماءها بدجلة حتى ماء دجلة أشكل

والغاية معنى لا يفارقها كما تقدم في قوله حتى يقولا إنَّما نحن فتنة قادرون عليها ليس بوقف لأنَّ أتاها جواب إذا

كأن لم تغن بالأمس (حسن) والكاف في كذلك نعت لمصدر محذوف أي مثل هذا التفصيل الذي فصلناه في الماضي نفصله في المستقبل لقوم يتفكرون

ويتفكرون (تام)

والله يدعو إلى دار السلام (جائز)

مستقيم (تام)

وزيادة (حسن) وقيل كاف وقيل تام قال الحسن الحسنى العمل الصالح والزيادة الجنة وقيل النظر إلى وجه الله الكريم كما روي عن صهيب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً أريد أن أنجزكموه فيقولون ما هو ألم تبيض وجوهنا ألم تزحزحنا عن النار ألم تدخلنا الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه فوالله ما أعطاهم شيأ هو أحب إليهم منه وقيل واحدة من الحسنات بواحدة وزيادة تضعف عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف

ولا ذلة (كاف)

أصحاب الجنة (جائز) لأنَّ قوله هم فيها يصلح أن يكون جملة مستقلة مبتدأ وخبراً ويصلح أن يكون أصحاب خبراً وهم فيها خبراً ثانياً فهما خبران لأولئك نحو الرمان حلو حامض

خالدون (تام) لأنَّ والذين كسبوا مبتدأ وجزاء مبتدأ ثان وخبره بمثلها

ذلة (حسن) ومثله من عاصم لأنَّ الكاف لا تتعلق بعاصم مع تعلقه بذلة قبلها معنى لأنَّ رهق الذلة سواد الوجه وتغيره وكون وجوههم مسودة وهو حقيقة لا مجازاً وكنى بالوجه عن الجملة لكونه أشرفها ولظهور السرور فيه

مظلماً (حسن) وقيل كاف

أصحاب النار (جائز) وفيه ما تقدم

خالدون (تام) وانتصب يوم بفعل محذوف أي أذكركم أو خوفهم

(15/355)

مكانكم ليس بوقف لعطف أنتم وشركاؤكم لأنَّ مكانكم اسم فعل بمعنى اثبتوا فأكد وعطف عليه أنتم وشركاؤكم ومكانكم اسم فعل لا يتعدى ولهذا قدر فاثبتوا لأنَّ اسم الفعل إن كان الفعل لازماً كان لازماً وإن كان متعدياً كان متعدياً نحو عليك زيداً لما تاب متاب الزم تعدى وقال ابن عطية أنتم مبتدأ والخبر مخزيون أو مهانون فيكون مكانكم قد تم ثم يبتديء أنتم وشركاؤكم وهذا لا ينبغي أن يقال لأنَّ فيه تفكيكاً لأفصح كلام ومما يدل على ضعفه قراءة من قرأ وشركاءكم بالنصب على المعية والناصب له اسم الفعل

أنتم وشركاؤكم (جائز) للعدول مع الفاء

فزيلنا بينهم (حسن)

تعبدون (أحسن) مما قبله

لغافلين (كاف)

ما أسلفت (حسن) ومثله الحق

يفترون (تام) ولا وقف من قوله قل من يرزقكم إلى قوله ومن يدبر الأمر فلا يوقف على

الأرض لأنَّ بعده الدلائل الدالة على فساد مذهبهم واعترافهم بأنَّ الرازق والمالك والمخرج

والمدبر هو الله تعالى أمر لا يمكنهم إنكاره

ومن يدبر الأمر (جائز)

فسيقولون الله (كاف) لأنَّ الأمر يبتدأ بالفاء . أفلا تتقون كالذي قبله

ربكم الحق (حسن)

إلاَّ الضلال (أحسن) منه

تصرفون (كاف) ومثله لا يؤمنون وكذا ثم يعيده الأول

تؤفكون (تام) عند أبي عمرو

إلى الحق الأول (كاف) ومثله للحق على استئناف ما بعده

إلاَّ أن يهدى (حسن) وقال أبو عمرو كاف للاستفهام بعده وقال بعضهم فما لكم ثم يبتديء

كيف تحكمون أي على أيّ حالة تحكمون أنَّ عبادتكم الأصنام حق وصواب

كيف تحكمون (تام) استفهام آخر فهما جملتان أنكر في الأولى وتعجب من اتباعهم من لا

يهدي ولا يهتدي وأنكر في الثانية حكمهم الباطل وتسوية الأصنام برب العالمين

إلاَّ ظنا (كاف) ومثله شيأ

بما يفعلون (تام) ولا وقف من قوله وما كان إلى قوله لا ريب فيه قال نافع تام ويكون التقدير هو

من رب العالمين قاله النكزاوي

العالمين (كاف) للابتداء بالاستفهام بعده

افتراه (جائز)

صادقين (كاف)

(16/355)

تأويله (حسن) وتام عند أحمد بن جعفر

من قبلهم (جائز)

الظالمين (كاف)

من لا يؤمن به (حسن)

بالمفسدين (كاف)

ولكم عملكم (حسن)

مما تعملون (كاف)

يستمعون إليك (حسن)

لا يعقلون (كاف)

ينظر إليك (حسن)

لا يبصرون (تام)

شيأ الأولى وصله للاستدراك بعده

يظلمون (كاف) قرأ الأخوان بتخفيف لكن ومن ضرورة ذلك كسر النون لالتقاء الساكنين

وصلاً ورفع الناس والباقون بالتشديد ونصب الناس

يتعارفون بينهم (حسن)

مهتدين (كاف)

مرجعهم (جائز) وثم لترتيب الأخبار

ما يفعلون (تام)

ولكل أمة رسول (حسن) وقيل كاف لأنَّ جواب إذا منتظر

لا يظلمون (كاف) ومثله صادقين

إلاَّ ما يشاء الله (حسن) ومثله لكل أمة أجل

ولا يستقدمون (تام)

أو نهاراً (حسن)

المجرمون (كاف)

آمنتم به (حسن) التقدير قل لهم يا محمد عند نزول العذاب تؤمنون به قالوا نعم قال يقال لكم الآن تؤمنون وقد كنتم بالعذاب تستعجلون استهزاءً به وليس شيء من العذاب يستعجله عاقل إذ العذاب كله مر المذاق

تستعجلون (كاف) ومثله عذاب الخلد

تكسبون (تام)

أحق هو (حسن) الضمير في هو عائد على العذاب قيل الوقف على الحق بجعل السؤال والجواب والقسم كلاماً واحداً وقيل إي وربي ثم يبتدأ أنَّه الحق على الاستئناف فإن جعل قوله إنَّه الحق جواب القسم أي إي وربي إنَّه لحق فلا يجوز الوقف على وربي لأنَّ القسم واقع على قوله إنَّه الحق إي تعم والله لأنَّ إي بمعنى نعم في القسم خاصة فلا يفصل منه وقيل على أي وقيل على أحق والوقف على إنَّه لحق (تام) إن جعل وما أنتم بمعجزين مستأنفاً وليس بوقف إن جعل معطوفاً وما حجازية أو تميمية

بمعجزين (تام)

لافتدت به (حسن) ومثله العذاب

بالقسط (تام) ومثله لا يظلمون

والأرض (حسن) وعد الله حق الأولى وصله لحرف الاستدراك بعده

لا يعلمون (كاف)

ترجعون (تام) للابتداء بعده بيا النداء

للمؤمنين (كاف)

فبذلك فليفرحوا (حسن) ويزيد حسناً عند من خالف بين التحتية والفوقية في الحرفين

مما يجمعون (كاف)

(17/355)

وحلالاً (حسن) للابتداء بعد الاستفهام وهو ما حرموا من الحرث والأنعام والبحيرة

السائبة و الوصيلة و الحام قل آلله أذن لكم بهذا التحريم والتحليل وأم بمعنى بل أي بل على

الله تفترون التحليل والتحريم وهو حسن بهذا التقدير وليس بوقف إن جعلت أم متصلة

تفترون (كاف)

يوم القيامة (حسن) وقال أبو عمرو كاف

على الناس ليس بوقف لحرف الاستدراك بعده

لا يشكرون (تام)

إذ تفيضون فيه (حسن) وقيل كاف وقيل تام

ولا في السماء (كاف) إن قريء ما بعده بالرفع بالابتداء وكذا إن جعل الاستئناف منقطعاً عما قبله أي وهو مع ذلك في كتاب مبين والعرب تضع إلاَّ في موضع الواو ومنه قول القائل

وكل أخ مفارقه أخوه لعمر أبيك إلاَّ الفرقدان

أي والفرقدان ومن ذلك قوله وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلاَّ خطأً قال أبو عبيدة إلاَّ بمعنى الواو لأَنَّه لا يحل للمؤمن قتل المؤمن عمداً ولا خطأ وهنا لو كان متصلاً لكان بعد النفي تحقيقاً وإذا كان كذلك وجب أن لا يعزب عن الله تعالى مثقال ذرة وأصغر وأكبر منهما إلاَّ في الحالة التي استثناها وهو إلاَّ في كتاب مبين فيعزب وهو غير جائز بل الصحيح الابتداء بإلاَّ على تقدير الواو وأي وهو أيضاً في كتاب مبين وقال أبو شامة ويزول الإشكال أيضاً بأن تقدر قبل قوله إلاَّ في كتاب مبين ليس شيء من ذلك إلاَّ في كتاب مبين ويجوز الاستثناء من يعزب ويكون يعزب بمعنى يبين ويذهب المعنى لم يبين شيء عن الله تعالى بعد خلقه له إلاَّ وهو في اللوح المحفوظ مكتوب

يحزنون (تام) إن رفع الذين على الابتداء والخبر لهم البشرى أو جعل الذين في محل رفع خبر مبتدأ محذوف أي هم الذين أو نصب بأعني مقدراً وليس بوقف في خمسة أوجه وهي كونه نعتاً على موضع أولياء أو بدلاً من الموضع أيضاً أو بدلاً من أولياء على اللفظ أو على

إضمار فعل لائق والجرّ بكونه بدلاً من الهاء في عليهم ففي إعراب الذين ثمانية أوجه أربعة في الرفع وثلاثة في النصب وواحد في الجرّ

(18/355)

يتقون (تام) إن لم يجعل لهم البشرى خبراً لقوله الذين وليس بوقف إن جعل خبراً

وفي الآخرة (حسن) وقيل تام والمعنى لهم البشرى عند الموت وإذا خرجوا من قبورهم

وقال عطاء لهم البشرى في الحياة الدنيا عند الموت تأتيهم الملائكة بالرحمة والبشارة من الله

تعالى وتأتي أعداء الله بالغلظة والفظاظة وفي الآخرة عند خروج روح المؤمن تعرج بها إلى

الله تعالى تزف كما تزف العروس تبشر برضوان الله تعالى وفي الحديث لا نبوّة بعدي إلاَّ

المبشرات قيل يا رسول الله وما المبشرات قال الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له وفيه

إذا اقترب الزمان لم تكد رؤيا المؤمن تكذب فأصدقهم رؤيا أصدقهم حديثاً

لا تبديل لكلمات الله (حسن)

العظيم (تام)

ولا يحزنك قولهم (أتم) ثم يبتديء إنَّ العزة وإن كان من المستحيل أن يتوهم أحد أنَّ هذا من

مقول المشركين إذ لو قالوا ذلك لم يكونوا كفاراً ولما حزن النبي صلى الله عليه وسلم بل هو

مستأنف ليس من مقولهم بل هو جواب سؤال مقدر كأنَّ قائلاً قال لم لا يحزنه قولهم وهو مما يحزن فأجيب بقوله إنَّ العزة لله جميعاً ليس لهم منها شيء ولو وصل لتوهم عود الضمير إلى الأولياء وقول الأولياء لا يحزن الرسول بل هو مستأنف تسلية عن قول المشركين وليس بوقف لمن قرأ إنَّ العزة بفتح الهمزة وبها قرأ أبو حيوة على حذف لام العلة أي لا يحزنك قولهم لأجل أنَّ العزة لله وبالغ ابن قتيبة وقال فتح إن كفروا غلو على أن تصير معمولة لقولهم إذ لو قالوا ذلك لم يكونوا كفاراً كما تقدم

جميعاً (حسن)

العليم (تام)

ومن في الأرض (حسن) ومثله شركاء للنفي بعده أي ما يعبدون من دون الله شركاء

إلاَّ الظن (كاف)

يخرصون (تام)

مبصراً (كاف)

يسمعون (تام)

سبحانه (حسن)

هو الغني (أحسن منه) أي عن الأهل والولد

وما في الأرض (كاف) للابتداء بالنفي أي ما عندكم حجة بهذا القول

من سلطان بهذا (حسن)

ما لا تعلمون (كاف) ومثله لا يفلحون و متاع في الدنيا

يكفرون (تام)

(19/355)

نبأ نوح (جائز) ولا يوصل بما بعده لأَنَّه لو وصل لصار إذ ظرفاً لأتل بل هو ظرف لمقدر أي اذكر إذ قال ولا يجوز نصب إذ بأتل لفساده إذ أتل مستقبل وإذ ظرف لما مضى

توكلت (حسن)

وشركاءكم (أحسن منه) لمن نصب شركاءكم عطفاً على أمركم وبه قرأ العامة ومن قرأ شركاؤكم بالرفع مبتدأ محذوف الخبر أي وشركاؤكم فليجمعوا أمرهم كان الوقف على أمركم كافياً وليس بوقف إن جعل وشركاؤكم بالرفع عطفاً على الضمير في أجمعوا وهي قراءة شاذة رويت عن الحسن وهي مخالفة للمصحف الإمام الذي تقوم به الحجة لأنَّ في القراءة بالرفع الواو وهي ليست في المصحف الإمام وكذا لا يوقف على أمركم إن نصب شركاءكم بفعل مضمر أي وادعوا لشركاءكم أو نصب مفعولاً معه أي مع شركائكم

عليكم غمة (جائز) على استئناف ما بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على

لم يوقف على أمركم ولا على شركائكم ولا على غمة لاتساق بعضها على بعض وقريء

بالجر على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه مجروراً على حاله كقوله

أكل امريء تحسبين امرأ ونار توقد بالليل نارا

أي وكل نار أي شركائكم فحذف أمراً وأبقى ما بعده على حاله

ولا تنظرون (كاف)

من أجر (جائز) ومثله على الله

من المسلمين (كاف)

خلائف (حسن) ومثله بآياتنا

المنذرين (كاف) لأنَّ ثم لترتيب الأخبار لأنها جاءت في أول القصة

بالبينات ليس بوقف لمكان الفاء

من قبل (حسن) لأنّ كذلك منقطع لفظاً متصل معنى

المعتدين (كاف) ومثله قوماً مجرمين ولسحر مبين

لما جاءكم (حسن) على إضمار أي تقولون للحق لما جاءكم هذا سحر قال تعالى أسحر

هذا فدل هذا على المحذوف قبله

أسحر هذا (تام) إن جعلت الجملة بعده استئنافية لا حالية أي أسحر هذا الذي جئت به

من معجز العصا واليد وكان تاماً لأنَّه آخر كلام موسى عليه السلام

الساحرون (كاف)

في الأرض (حسن) للابتداء بالنفي

بمؤمنين (كاف) ومثله عليم وكذا ملقون

(20/355)

ما جئتم به (حسن) لمن قرأ آلسحر بالمد على الاستفهام خبر مبتدأ محذوف أي هو السحر أو مبتدأ والخبر محذوف أي السحر هو وليس بوقف لمن قرأ السحر على الخبر لا على الاستفهام على البدل من ما في قوله ما جئتم به لاتصاله بما قبله وبالمد قرأ أبو عمرو بن العلاء على جهة الإنكار عليهم لأنَّ موسى عليه السلام لم يرد أن يخبر السحرة أنَّهم أتوا بسحر لأنَّهم يعلمون أنَّ الذي أتوا به سحر ولكنه أراد الإنكار عليهم فلو أراد إخبارهم بالسحر لما قالوا له أنت ساحر وقد جئت بالسحر لقال لهم ما جئتم به هو السحر على الحقيقة وليس بوقف لمن قرأه بهمزة وصل لأنَّ ما بمعنى الذي مبتدأ خبره السحر والوقف عنده السحر

وفي الوجه الأول سيبطله

وسيبطله (حسن)

المفسدين (كاف) ومثله المجرمون

أن يفتنهم (حسن)

في الأرض (جائز) لاتصال ما بعده به من جهة المعنى

المسرفين (كاف) ومثله مسلمين

توكلنا (حسن)

الظالمين (جائز) وقيل ليس بوقف للعطف ومن حيث كونه رأس آية يجوز

الكافرين (كاف) وقيل تام

بيوتاً (جائز)

وأقيموا الصلاة (حسن) للفصل بين الأمرين لأنَّ قوله وبشر خطاب لمحمد صلى الله عليه

وسلم وإن أريد به موسى فلا بد من العدول

المؤمنين (كاف)

في الحياة الدنيا ليس بوقف لأنَّ قوله ليضلوا متعلق بقوله آتيت

(21/355)

عن سبيلك (كاف) وقيل تام لأنَّ موسى استأنف الدعاء فقال ربنا اطمس على أموالهم

واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا قال ابن عباس صارت دراهمهم حجارة منقوشة صحاحاً

وأثلاثاً وأنصافاً ولم يبق معدن إلاَّ طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد واشدد على قلوبهم أي امنعها من الإيمان فلا يؤمنوا ولا حجة بدعاء موسى على فرعون بما ذكر على جواز الدعاء على الظالم بسوء الخاتمة للفرق بين الكافر الميؤس منه والمؤمن العاصي المقطوع له بالجنة إما أولاً أو ثانياً بل يجوز الدعاء على الظالم بعزله لزوال ظلمه بذلك كان ظلماً له أو لغيره أو بمؤلمات في جسده ولا يجوز الدعاء عليه بسوء الخاتمة ولا بفقد أولاده ولا بوقوعه في معصية الأليم (حسن)

فاستقيما (كاف)

لا يعلمون (تام)

بغياً وعدواً (حسن)

حتى إذا أدركه الغرق ليس بوقف لأنَّ قال جواب إذا فلا يفصل بينها وبين جوابها

قال آمنت (حسن) لمن قرأ إنه بكسر الهمزة على الاستئناف وبها قرأ حمزة والكسائي ويحيى بن وثاب والأعمش وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع وعاصم بفتحها لأنَّ أن منصوبة به لأنَّ الفعل لا يلغى إذا قدر على إعماله وعلى قراءته بفتحها لا يوقف على آمنت

بنو إسرائيل (جائز)

من المسلمين (كاف) وقيل تام لأنَّ ما بعده ليس من كلام فرعون قال السدي بعث الله ميكائيل فقال له أتؤمن الآن وقد عصيت قبل وروي أنَّ جبريل سدّ فاه عند ذلك بحال

البحر ودسه به مخافة أن تدركه الرحمة وليس هذا رضاً بالكفر لأنَّ سده سد باب الاحتمال البعيد ولا يلزم من إدراك الرحمة له صحة إيمانه لأنَّه في حالة اليأس لأنَّه لم يكن مخلصاً في إيمانه ولم يكره جبريل إيمانه وإنَّما فعل ذلك غضباً لله تعالى لا رضاً بكفره لأنَّ الرضا به كفر

من المفسدين (كاف)

لمن خلفك آية (حسن)

لغافلون (تام)

من الطيبات (حسن) للابتداء بالنفي مع الفاء ومثله جاءهم العلم

يختلفون (تام)

من قبلك (حسن)

الحق من ربك (جائز)

(22/355)

من الممترين (كاف) على استئناف النهي بعده وليس بوقف إن جعل ما بعده معطوفاً على ما قبله

من الخاسرين (تام)

لا يؤمنون ليس بوقف لأنَّ لو تعلقها بما قبلها أي لو جاءتهم كل آية لا يؤمنون

الأليم (تام) عند يعقوب وليس بجيد لأنَّ الكلام متصل بعضه ببعض وكذا عنده فنفعها

إيمانها وجعل يعقوب الاستثناء منقطعاً من غير الجنس والتقدير لكن قوم يونس فقوم يونس لم

يندرجوا في قوله قرية وإلى الانقطاع ذهب سيبويه والفراء والأخفش وقيل متصل كأنه قيل

ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلاَّ قوم يونس وهم أهل نينوى من بلاد الموصل كانوا يعبدون

الأصنام فبعث الله إليهم سيدنا يونس عليه السلام فأقاموا على تكذيبه سبع سنين

وتوعدهم بالعذاب بعد ثلاثة أيام فلم يرجعوا حتى دنا الموعد فغامت السماء غيماً أسود

ذا دخان شديد فهبط حتى غشي مدينتهم فهابوا فطلبوا يونس فلم يجدوه فأيقنوا صدقه

فلبسوا المسوح وبرزوا إلى الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم وفرقوا بين كل

والدة وولدها فحنَّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات والضجيج وأخلصوا التوبة وأظهروا

الإيمان وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم وكشف عنهم وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة اهـ

بيضاوي

إلى حين (تام)

جميعاً (جائز)

مؤمنين (كاف)

إلاَّ بإذن الله (حسن) وقال أبو عمرو كاف لمن قرأ ونجعل الرجس بالنون وحسن لمن قرأه بالتحتية لتعلقه بما قبله

لا يعقلون (كاف)

والأرض (حسن) يجوز في ماذا أن تكون كلمة واحدة استفهاماً مبتدأ وفي السموات خبره ويجوز أن تكون ما وحدها مبتدأ وذا كلمة وحدها وذا اسم موصول بمعنى الذي وفي السموات صلتها وهو خبر المبتدأ وعلى التقدير فالمبتدأ والخبر في محل نصب بإسقاط الخافض

لا يؤمنون (كاف) ومثله من قبلهم وكذا من المنتظرين

(23/355)

والذين آمنوا (تام) على أنَّ الكاف في محل رفع أي الأمر كذلك يحق علينا ننج المؤمنين وعلى أنها في محل نصب نعتاً لمصدر محذوف أي انجاء مثل ذلك يحق علينا ننج المؤمنين فيوقف على كذلك ثم يبتدأ به لتعلقه بما بعده من جهة المعنى فقط وعلى أنَّها متعلقة بما قبلها كأنَّه قال ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك فالتشبيه من تمام الكلام والوقف على كذلك ولا يبتدأ بها لعدم تعلق ما بعدها بما قبلها ورسموا ننج المؤمنين بحذف الياء بعد الجيم كما نرى

ننج المؤمنين (تام)

يتوفاكم (حسن)

وأمرت أن أكون من المؤمنين (كاف) إن جعل ما بعده بمعنى وقيل لي أن أقم وجهك أي

وأوحي إليَّ أن أقم فأن أقم معمولة بقوله وأمرت مراعي فيها المعنى لأنَّ معنى قوله أن أكون

كن من المؤمنين فهما أمر إن وجوز سيبويه أن توصل بالأمر والنهي والغرض وصل أن بما

تكون معه في معنى المصدر والأمر والنهي دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال

حنيفاً (جائز) وهو حال من الضمير في أقم أو من المفعول

من المشركين (كاف)

ولا يضرك (حسن) للابتداء بالشرط وهي جملة استئنافية ويجوز أن تكون معطوفة على

جملة الأمر وهي أقم فتكون داخلة في صلة أن بوجهيها أعني كونها تفسيرية أو مصدرية

من الظالمين (تام) ومثله إلاَّ هو للابتداء بالشرط وكذا فلا راد لفضله عند أحمد بن جعفر

الرحيم (أتم) منهما

من ربكم (حسن) ومثله لنفسه وقال يحيى بن نصير النحوي لا يوقف على الأول من

المقابلين والمزدوجين حتى يؤتى بالثاني والأولى الفصل بالوقف بينهما ولا يخلط أحدهما مع

الآخر

فإنما يضل عليها (أحسن) مما قبله

وما أنا عليكم بوكيل (تام) يجوز في ما أن تكون حجازية أو تميمية لخفا النصب في الخبر

حتى يحكم الله (صالح) لاحتمال لواو وللاستئناف والعطف والوصل أظهر لشدة اتصال المعنى

آخر السورة (تام) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ منار الهدى في بيان الوقف والابتدا صـ 351 . 369 ﴾

(24/355)

" فصل فى ذكر قراءات السورة كاملة "

قال العلامة ابن جنى :

سورة يونس :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

من ذلك قراءة أبي جعفر والأعمش وسهل بن شعيب 1 : "وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا أَنَّهُ يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ"2 .

قال أبو الفتح : إن شئت كان تقديره : وعد الله حقًّا ؛ لأنه يبدأ الخلق ثم يعيده ؛ أي : من قدرَ على هذا الأمر العظيم فإنه غني عن إخلاف الوعد ، وإن شئت كان تقديره : أي وَعَدَ

الله وعدًا حقًّا أنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، فتكون "أنه" منصوبة بالفعل الناصب لقوله : "وعدًا" ، ولا يجوز أن يكون "أنه" منصوبة الموضع بنفس "وَعْد" لأنه قد وصف بقوله حقًّا ، والصفة إذا جرت على موصوفها أُذِنت بتمامه وانقضاء أجزائه ، فهي من صلته ، فكيف يوصف قبل تمامه ؟ فأما قول الحطيئة :

أَزمعتُ يأْسًا مبينًا من نَوَالِكُمُ ولن تَرى طاردًا للحُرِّ كالياس3

فلا يكون قوله : من نوالكم من صلة يأس من حيث ذكرنا ، ألا تراه قد وصفه بقوله : "مبينًا" ؟ وإذا كان المعنى لعمري عليه ومُنع الإعراب منه أُضمر له ما يتناول حرف الجر ، ويكون يأسًا دليلًا عليه ؛ كأنه قال فيما بعد "74و" : يئست من نوالكم .

---

1 هو سهل بن شعيب الكوفي . عرض على عاصم بن أبي النجود وعلى أبي بكر بن عياش ، وروى القراءة عنه محمد بن عبد الرحمن الدهقان والحسن بن محمد الحارثي . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 319 .

2 سورة يونس : 4 .

3 من قصيدة له في هجاء بني بهدلة بن عوف رهط الزبرقان ، وقبله :

لما بدا لي منكم غيب أنفسكم ولم يكن لجراحي قبلكم آسي

ويُروى : "للهم" مكان "للحر" . الديوان : 283 وما بعدها ، والخصائص : 3/ 258 .

ومن ذلك قراءة ابن محيصن 1 وبلال بن أبي بُردة ويعقوب2 : "أنَّ الحمدَ لله" .

قال أبو الفتح : هذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة : ﴿ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على أَنَّ "أَنْ" مخففة من أَنَّ ، بمنزلة قول الأعشى :

في فِتيةٍ كسيوف الهند قد عِلموا أَنْ هالكٌ كلُّ من يَحفي وينتعل3

أي : أنه هالك ، فكأنه على هذا : وآخر دعواهم أنه الحمد الله ، وعلى أنه لا يجوز أن يكون "أنْ" هنا زائدة كما زيدت في قوله :

ويومًا تُوافينا بوجه مقسَّم كأَنْ ظبيةٍ تعطو إلى وارق السَّلَمْ4

أي : كظبية ، وإذا لم يكن ذلك كذلك لم يكن تقديره : وآخر دعواهم الحمد الله ، هو كقولك : أول ما أقوله : زيد منطلق . وعلى أن هذا مع ما ذكرناه جائز في العربية ؛ لكنَّ فيه خلافًا لتقدير قراءة الجماعة . وفيه أيضًا الحمل على زيادة "أنْ" ، وليس بالكثير .

ولو قرأ قارئ : إنَّ الحمدَ لله ، بكسر الهمزة على الحكاية التي للفظ بعينه لكان جائزًا ؛ لكن لا يُقْدَم على ذلك إلا أن يَرد به أَثر وإن كان في العربية سائغًا . وإذا فتح فقال : أنَّ الحمد لله ، فلم يحكِ اللفظ بعينه ؛ وإنما جاء بمعنى الكلام كقولنا : بلغني أن زيدًا منطلق ، فليس هذا

على حكاية ما سمع لفظًا ، ألا تراه إذا قيل له : قد انطلق زيد ، فقال : بلغني أن زيدًا منطلق كان صادقًا وإن لم يؤد نفس اللفظ الذي سمعه ؛ لكنه أدى معناه ؟ وإن كسَر فقال : إنَّ الحمد لله ، فهو مؤدٍ لنفس اللفظ وحَاكٍ له ألبتة .

---

1 هو محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي مولاهم المكي ، مقرئ أهل مكة مع ابن كثير ، ثقة . عرض على مجاهد بن جبير ودرباس مولى ابن عباس وسعيد بن جبير . وعرض عليه شبل بن عباد وأبو عمرو بن العلاء . توفي سنة 123 ، وقيل : سنة 122 . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 167 .

2 هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن إبي إسحاق أبو محمد الحضرمي مولاهم البصري . أحد القراء العشرة ، وإمام أهل البصرة ومقرئها . أخذ القراءة عرضًا عن سلام الطويل ومهدي بن ميمون وأبي الأشهب العطاردي وغيرهم . وسمع الحروف من الكسائي ومحمد بن رزيق الكوفي عن عاصم ، وسمع من حمزة حروفًا . روى القراءة عنه عرضًا زيد - ابن

أخيه أحمد - وكعب بن إبراهيم وعمر السراج وكثير غيرهم . توفي في ذي الحجة سنة 205 . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 386 وما بعدها .

3 الديوان : 59 ، والكتاب : 1/ 282 ، 440 ، 480 .

4 اختلف في قائله ؛ فقيل : لابن صريم اليشكري ، وقيل : لباعث بن صريم اليشكري ،

وقيل : لعلباء بن أرقم اليشكري ، يقول في امرأته . المقسم : المحسن ، تعطو : تتناول ، وظبي عطو : يتطاول إلى الشجر ليتناول منه ، والسلم : شجر واحدته سلمة . يشبهها بظبية مخصبة تتناول أطراف الشجر مرتعبة . الكتاب : 1/ 281 ، 481 ، والخزانة : 4/ 364 .

(26/355)

ومن ذلك ابن شعيب1 قال : سمعت يحيى2 بن الحارث يقرأ : "لِنَظُّرَ كيف تَعْمَلون"3 بنون واحدة . قال : فقلت له : ما سمعت أحدًا يقرؤها ، قال : هكذا رأيتها في الإمام : مصحف عثمان . أيوب4 عن يحيى عن ابن عامر : "لِنَظُّرَ" بنون واحدة مثله .

قال أبو الفتح : ظاهر هذا أنه أدغم نون ننظر في الظاء ، وهذا لا يُعرف في اللغة ، ويشبه أن تكون مخفاة ؛ فظنها القراء مدغمة على عادتهم في تحصيل كثير من الإخفاء إلى أن يظنوه مدغمًا ؛ وذلك أن النون لا تُدغم إلا في ستة أحرف ، ويجمعها قولك : يَرْمُلون .

ومن ذلك قراءة ابن عباس والحسن وابن سيرين5 : "ولا أَدْرَأْتُكم به"6 .

قال أبو الفتح : هذه قراءة قديمة التناكر لها والتعجب منها . ولعمري إنها في بادئ أمرها على ذلك ، غير أن لها وجهًا وإن كانت فيه صنعة وإطالة .

وطريقه أن يكون أراد : ولا أَدريتكم به ، ثم قلب الياء لانفتاح ما قبلها وإن كانت ساكنة ألفًا ؛ كقولهم في ييئس : ياءَس ، وفي ييبس : يابَس ، وكقولهم : ضَرب عليهم سايَة7 ؛ وإنما

---

1 هو محمد بن شعيب بن شابور القرشي الشامي الدمشقي مولى الوليد بن عبد الملك ، ثقة فقيه مقرئ . أخذ القراءة عرضًا عن يحيى بن الحارث ، وروى عن الأوزاعي . وروى القراءة عنه الربيع بن تغلب . مات سنة 199 ، وقيل : سنة 200 . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 154 .

2 هو يحيى بن الحارث بن عمرو بن يحيى بن سليمان بن الحارث أبو عمرو ، ويقال : أبو عمر ، ويقال : أبو عليم الغساني الذماري – نسبة إلى ذمار كسحاب أو قطام : قرية على مرحلتين من صنعاء – ثم الدمشقي . إمام الجامع الأموي ، وشيخ القراءة بدمشق بعد ابن عامر . أخذ القراءة عرضًا عن عبد الله بن عامر وعن نافع بن أبي نعيم . وروى عنه القراءة عرضًا سعيد بن عبد العزيز وثور بن يزيد وغيرهما . مات سنة 145 ، وله تسعون سنة . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 367 .

3 سورة يونس : 14 .

4 هو أيوب بن تميم بن سليمان بن أيوب ، أبو سليمان التميمي الدمشقي . ضابط مشهور . قرأ على يحيى بن الحارث الذماري ، وهو الذي خلفه في القراءة بدمشق . قرأ عليه عبد الله بن ذكوان . وروى القراءة عنه هشام وعرضًا أيضًا ، وعبد الحميد بن بكار ، والوليد

بن عتبة وغيرهم . ولد سنة 120 ، وتوفي سنة 198 ، وقيل : سنة 219 . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 172 .

5 هو محمد بن سيرين أبو بكر بن أبي عمرة البصري ، مولى أنس بن مالك رضي الله عنه ، وردت عنه الرواية في حروف القرآن . ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان . وروى عن مولاه وعن زيد بن ثابت وغيرهما . وروى عنه الشعبي وثابت وقتادة وغيرهم . توفي في تاسع شوال سنة 110 . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 151 .

6 سورة يونس : 16 .

7 ضرب عليهم ساية : هيأ لهم كلمة .

(27/355)

يريد : سَيَّة ، وهي فَعْلة من سوّيت ، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء فصار سَيَّة ، ثم قلبت الياء الأولى لانفتاح ما قبلها وإن كانت ساكنة ألفًا ؛ فصارت ساية .

وقالوا في الإضافة إلى الْحِيرَة : حاريّ ، وإلى طَيّ : طائِيّ ، وقالوا : حاحيت 1 وعاييت وهاهيت ، والأصل : حيحيت وعيعيت وهيهيت ، فقلت الياءات السواكن في هذه الأماكن ألفات ، فكذلك أيضًا قلبت ياء "أدريتكم" ألفًا فصارت "أدرأتكم" "74ظ" .

وعلى ذلك أيضًا ما رويناه عن قطرب : أن لغة عقيل أن يقولوا في أعطيتُك : أعطاتك ، فلما صارت "أدريتكم" إلى "أرداتكم" همز على لغة مَن قال في الباز : البأز ، وفي العالم : العأَلم ، وفي الخاتم : الخأتم ، وفي التابل وتابَلْتُ القدر : التأبل ، وتأبلت القدر . وأنشد ابن الأعرابي :

ولَّى نعامُ بني صفوان زَوْزَأَةً لَمَّا رأى أسدًا في الغار قد وثبا[2]

يريد : زوزاة . ولنحو هذا نظائر قد أوردناها في كتابنا الموسوم بالخصائص في باب ما همَزَتْهُ العرب ولا أصل له في همز مثله[3] ، فهذا وإن طالت الصنعة فيه أمثل من أن تُعْطَى اليد بفساده وترك النظر في أمره .

ومن ذلك قراءة أم الدرداء[4] : "حتى إذا كنتم في الفُلْكِيِّ"[5] بكسر الكاف وتثبت الياء .

قال أبو الفتح : اعلم أن العرب زادت ياء الإضافة فيما لا يحتاج إليها ؛ من ذلك قولهم في الأحمر : أَحمريّ ، وفي الأَشهر : أَشهريّ .

قال العجاج :

والدهر بالإنسان دَوّاريّ[6]

---

1 قال في المنصف 3/ 77 : يقال : حاحيت حيحاء وحاحاة ؛ وهو التصويت بالغنم إذا قلت : حاي ، وعاعيت : صوت مثله ؛ وهو العيعاء والعاعاة إذا قلت : عاي ، وهاهيت : صوت مثله ؛ وهو الهيهاء والهاهاة إذا قلت : هاي .

2 لابن كثوة . وزوزى : نصب ظهره وقارب خطوه في سرعة . الخصائص : 3/ 145 ، واللسان "زوى" .

3 الخصائص : 3/ 142 وما بعدها .

4 هي هجيمة بنت حيي الأوصابية الحميرية أم الدرداء الصغرى زوجة أبي الدرداء . أخذت القراءة عن زوجها . وأخذ القراءة عنها إبراهيم بن أبي عبلة وعطية بن قيس ويونس بن هبيرة . توفيت بعد الثمانين . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 354 .

5 سورة يونس : 22 . وفي تفسير البحر 5/ 138 : أنها قراءة أبي الدرداء أيضاً .

6 الخصائص : 3/ 104 .

(28/355)

أي : دوّار . وقال فيها أيضاً :

غُضْف طواها الأَمس كَلَّابي 1

أي : كَلَّاب .

فإن قيل : فإن هذا أمر يختص بالصفات ، وليس "الفلك" بصفة فتلحقه ياء النسب ، قيل : قد جاء ذلك في الاسم أيضاً .

ألا ترى إلى قول الصلتان :

أنا الصلتانيّ الذي2

وأيضًا فقد شُبه كل واحد من الاسم والصفة بصاحبه ، فغير منكَر أن يُشَبه الفلك بالحلو والمر . ويزيد في شبهه به أن الفلك عندنا اسم مكسَّر ، وليس عندنا كما ذهب إليه الفراء فيه من أنه اسم مفرد يقع على الواحد والجمع ؛ كالطاغوت ونحوه . وإذا كان جمعًا مكسرًا أشبه الفعل من حيث كان التكسير ضربًا من التصرف ، وأصل التصرف للفعل ، ألا ترى أن ضربًا من الجمع أشبه الفعل فمُنع من الصرف وهو باب مفاعل ومفاعيل ؟ ولأن التكسير أيضًا ثانٍ كما أن الفعل ثانٍ ، وإذا أشبه التكسير الفعل من حيث وصفنا قارب الصفة لشدة ملابسة الصفة للفعل لفظًا ومعنًى وعملًا ، فهذا عندي هو العذر في إلحاق "الفُلك" ياءي الإضافة في هذه القراءة .

ومن ذلك قراءة الأعرج : "وأَزْيَنَت"3 ، وهي أيضًا قراءة نصر بن عاصم وأبي العالية والحسن بخلاف وقتادة وأبي رجاء بخلاف والشعبي وعيسى الثقفي . وقرأ : "وازْيأَّنت" أبو عثمان النهدي .

قال أبو الفتح : أما "أَزْيَنَتْ" فمعناه : صارت إلى الزينة بالنبت ، ومثله من أَفعَل أي : صار إلى كذا ، أجذع المهر4 صار إلى الإجذاع ، وأحصد الزرع وأجزَّ النخل : أي صار إلى الحصاد

1 غصف : كلاب مسترخية الآذان ، جمع أغضف . وهي في أراجيز العرب 182 : غضفًا ، مفعول رأى في بيت قبلها . يصف ثورًا وحشيًّا رأى كلاب صيد ضمرها صاحبها . وانظر : الخصائص : 3/ 104 .

2 من قوله :

أنا الصلتانيّ الذي قد علمتُمُ متى ما يُحكَّم فهو بالحق صادعُ

والبيت مطلع قصيدة نظمها حين جعلوا إليه الحكم بين الفرزدق وجرير : أيهما أشعر ، وانظر : الأمالي : 2/ 142 ، 143 .

3 سورة يونس : 24 .

4 أجذع المهر : صار في السنة الثالثة .

(29/355)

والجزاز ، إلا أنه أخرج العين على الصحة ، وكان قياسه أَزانت ، مثل أشاع الحديث ، وأباع الثوب : أي عرضه للبيع .

وأما "ازْيأَّنت" فإنه أراد فعالَّت ، وأصله : ازيانَّت مثل : ابياضَّت واسوادَّت ، إلا أنه كره التقاء الألف والنون الأولى ساكنتين ، فحرك الألف فانقلبت همزة ، كقول كُثير :

وللأرض أما سُودُها فتجللت بياضًا وأما بِيضها فادهأَمت1 "75و"

وقد تقدم نظير ذلك فيه .

ومن ذلك قراءة مروان على المنبر : "كَأَنْ لَمْ تَتَغَنَّ بِالْأَمْس"2 .

قال أبو الفتح : جاء هذا مجيء نظائره ؛ كقولهم : تمتعت بكذا ، وتأنقت فيه ، وتلبَّست بالأمر ، مما جاء تفعَّلت على هذا الحد .

ومن ذلك قراءة عمرو بن فائد3 : "بِسُورَةٍ مِثْلِهِ"4 بالإضافة .

قال أبو الفتح : هو عندي على حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ؛ أي : بسورة كلام مثله ، أو حديثٍ مثله ، أو ذِكْرٍ مثله ، وقد ذكرنا حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه .

ومن ذلك قراءة الأعمش : "آلحقُّ هو"5 .

قال أبو الفتح : اعلم أن الأجناس تتساوى فائدتا6 معرفتها ونكرتها في نحو هذا ، تقول :

---

1 "وللأرض" معطوف على "لأن النائحات" في قوله قبله :

عجبت لأن النائحات وقد علت مصيبته فهرًا فعمت وصمت

من قصيدة في رثاء عبد العزيز بن مروان . ويروى : "والأرض" مكان "وللأرض" ، "فاسوأدت" مكان "فادهأمت" . وانظر : الخصائص : 3/ 127 ، 148 ، وسر الصناعة : 84 .

2 سورة يونس : 24 .

3 هو عمرو بن فائد أبو علي الأسواري البصري . وردت عنه الرواية في حروف القرآن ، وروى عنه الحروف حسان بن محمد الضرير وبكر بن نصار العطار . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 602 .

4 سورة يونس : 38 .

5 السورة نفسها : 53 .

6 في ك : فائدة .

(30/355)

ثق بأمانٍ من الله ، وثق بالأمان من الله ، وهذا حق ، وهذا الحق ، وهذا صدق ، وهذا الصدق .

ومنه قولهم : خرجت فإذا بالباب أسد ، وإذا بالباب الأسد ، المعنى واحد ووضع اللفظ مختلف ؛ وسبب ذلك كون الموضع جنسًا ، وقد تقدم نحو هذا .

ومن ذلك قراءة النبي - صلى الله عليه وسلم - وعثمان بن عفان وأُبي بن كعب والحسن وأبي رجاء ومحمد بن سيرين والأعرج وأبي جعفر بخلاف والسلمي وقتادة والجحدري 1 وهلال بن يَسَاف 2 والأعمش بخلاف وعباس بن الفضل وعمرو بن فائد : "فَبِذَلِكَ

فَلْتَفْرَحُوا"3 بالتاء ، وقرأ : "فبِذَلِكَ فافرَحُوا" أبي بن كعب .

قال أبو الفتح : أما قراءة أبي هذه "فافرحوا" فلا نظر فيها ؛ لكن "فلتفرحوا" بالتاء خرجت على أصلها ؛ وذلك أن أصل الأمر أن يكون بحرف الأمر وهو اللام ، فأصل اضرب لتضرب ، وأصل قم لتقم ، كما تقول للغائب : ليقم زيد ، ولتضرب هند ؛ لكن لما كثر أمر الحاضر نحو : قم ، واقعد ، وادخل ، واخرج ، وخذ ، ودع ؛ حذفوا حرف المضارعة تخفيفاً ، بقى ما بعده ودل حاضر الحال على أن المأمور هو الحاضر المخاطب ، فلما حذف حرف المضارعة بقى ما بعده في أكثر الأمر ساكنًا ؛ فاحتيج إلى همزة الوصل ليقع الابتداء بها ، فقيل : اضرب ، اذهب ، ونحو ذلك .

فإن قيل : ولِمَ كان أمر الحاضر أكثر حتى دعت الحال إلى تخفيفه لكثرته ؟

قيل : لأن الغائب بعيد عنك ، فإذا أردت أن تأمره احتجت إلى أن تأمر الحاضر لتؤدي إليه أنك تأمره ، فقلت : يا زيد ، قل لعمرو : قم ، ويا محمد ، قل لجعفر : اذهب ، فلا تصل إلى أمر الغائب إلا بعد أن تأمر الحاضر أن يؤدي إليه أمرك إياه ، والحاضر لا يحتاج إلى ذلك ؛ لأن خطابك إياه قد أغنى عن تكليفك غيره أن يتحمل إليه أمرك له .

ويدلك على تمكن أمر الحاضر أنك لا تأمر الغائب بالأسماء المسمى بها الفعل في الأمر ، نحو :

---

1 هو عاصم بن أبي الصباح والعجاج ، وقيل : ميمون أبو المجشر – بالجيم والشين المعجمة

مشددة مكسورة - الجحدري البصري . أخذ القراءة عرضاً عن سليمان بن قتة عن ابن عباس ، وقرأ أيضاً على نصر بن عاصم والحسن ويحيى بن يعمر . قرأ عليه عرضاً أبو المنذر سلام بن سليمان وعيسى بن عمر الثقفي . مات سنة 128 . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 349 .

2 في القاموس : "وهلال بن يساف - بالكسر وقد يفتح - تابعي كوفي" .

3 سورة يونس : 58 .

(31/355)

صَه1 ، ومَه2 ، وإِيه3 ، وإِيهًا4 ، وحيَّهل5 ، ودونك ، وعندك ، ونحو ذلك .

لا تقول : دونه زيدًا ، ولا عليه جعفرًا ، كقولك : دونك زيدًا ، وعليك سعدًا . وقد شذ حرف من ذلك فقالوا : عليه رجلًا لَيْسَنِي . ولهذا المعنى قوِي ضمير الحاضر على ضمير الغائب فقالوا : أنت وهو ، فلما صاغوا لهما اسمًا واحدًا صاغوه على لفظ الحضور "75ظ" لا لفظ الغيبة ، فقالوا : أنتما ، فضموا الغائب إلى الحاضر ، ولم يقولوا : هما ، فيضموا الحاضر إلى الغائب ، فهذا كله يريك استغناءَهم بقُمْ عن لِتَقُم ونحوه .

وكأن الذي حسَّن التاءَ هنا أنه أمر لهم بالفرح ، فخوطبوا بالتاء لأنها أذهب في قوة الخطاب

، فاعرفه ، ولا تقل قياسًا على ذلك : فبذلك فلتحزنوا ؛ لأن الحزن لا تقبله النفس قبول الفرح ، إلا أن تريد إصغارهم وإرغامهم ، فتؤكد ذلك بالتاء على ما مضى .

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن والحسن وابن أبي إسحاق وعيسى الثقفي وسلام ويعقوب ، ورُويت عن أبي عمرو : "فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ"6 مكسورة الميم ورفع "شركاؤكم" . وقرأ : "فَاجْمَعُوا أَمْرَكُمْ" غير مهموزة والميم مفتوحة "وشُرَكاءَكم" نصبًا الأعرج وأبو رجاء وعاصم الجحدري والزهري ، ورُوي عن الأعمش . وفي قراءة أبي : "وادْعُوا شُرَكاءَكم ثم اجمَعوا أَمْرَكم" .

قال أبو الفتح : أما "فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ" بالرفع ، فرفعه على العطف على الضمير في "أَجْمِعوا" ، وساغ عطفه عليه من غير توكيد للضمير7 في "أَجْمِعوا" من أجل طول الكلام بقوله : "أَمْرَكُم" . وعلى نحو من هذا يجوز أن تقول : قم إلى أخيك وأبو محمد ، واذهب مع عبد الله وأبو بكر ، فتعطف على الضمير من غير توكيد وإن كان مرفوعًا ومتصلًا ؛ لما ذكرنا من طول الكلام بالجار والمجرور . وإذا جاز قول الله تعالى : ﴿ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾ 8 ، وأن نكتفي بطول الكلام بـ"لا" وإن كانت بعد حرف العطف ؛ كان الاكتفاء من التوكيد بما هو أطول من "لا" ، وهو أيضًا قبل الواو ، كما أن التوكيد لو ظهر لكان قبلها أحرى .

---

1 صه : اسكت .

2 مه : كف .

3 إيه : زد .

4 إيها : اسكت .

5 حيهل : اعجل .

6 سورة يونس : 71 .

7 في ك : الضمير .

8 سورة الأنعام : 148 .

(32/355)

وعلى ذلك فلو قال قائل : قم وزيد ، فعطف على الضمير المرفوع من غير توكيد كان أقبح من قولنا : قمت وزيد ؛ وذلك أن المعطوف عليه في قم وزيد ضمير لا لفظ له ، فهو أضعف من الضمير في قمت ؛ لأن له لفظًا وهو التاء ، وقمت وزيد أضعف من قمنا وزيد ؛ لأن "نا" من قمنا أتم لفظًا من التاء في قمت .

وعليه أيضًا تعلم أن قمتما وزيد أشبه شيئًا من قمنا وزيد ؛ لأن "تُما" من قمتما أتم لفظًا من "نا" من قمنا . وكذلك أيضًا قولك للنساء : ادْخلْنانِّ وزيد ، أمثل من قولك : دخلتنَّ وزيد

؛ لأن "نانِّ" من ادخلنان أطول من "تُنَّ" من دخلتن .

فهذه مصارفة وإن خفيت ولطفت تؤثِّر في أنفس العارفين بها ما لا تخطر على أوهام الساهين عنها .

وكذلك لو قلت : اضربنا "نّهِ" 1 وزيد ؛ لكان أمثل من ادخلنانِّ وزيد ؛ لأن "نانّهِ" ستة أحرف و"نانِّ" أربعة أحرف ، وكذلك اضربنانِّهما وزيد أمثل من اضربنانّه وزيد ؛ لأن "نانِّهما" سبعة أحرف و"نانّه" ستة أحرف ، وكذلك الزيدين الثويين اكسُونانِّهما هما ، أمثل من قولك : الزيدين اكسونانِّهما ؛ لأن "نانِّهما هما " عشرة أحرف "ونانِّهما" سبعة أحرف .

فهذا مبنًى يعاد عليه ، ويثنى أشباهه إليه . وجميعه من بعد ليس في قوة التوكيد نحو : قم أنت وزيد ، و ﴿ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾ 2 ؛ وذلك أن التوكيد وإن لم يكن في طول هذه الفروق والفصول ، فإن فيه معنى ليس فيها وهو تثبيتة معنى الاسمية للمضمر المتصل "76و" الذي قد شَعَّثَ3 الفعل فمازجه وصار كجزء منه ، فضعفت عن العطف عليه ، كما لا يجوز العطف على جزء من الفعل ، فإذا وُكِّد صار في حيز الأسماء ، ولحق بما يحسن العطف عليه بعد توكيده كما حسن عليها .

ومن ذلك قراءة السري بن يَنْعُم : "ثم أَفْضُوا إليَّ"4 من أفضيت .

قال أبو الفتح : معناه : أَسرعوا إليَّ ، وهو أَفعلْت من الفضاء ؛ وذلك أنه إذا صار إلى الفضاء تمكن من الإسراع ، ولو كان في ضيق لم يقدر من الإسراع على ما يقدر عليه من

السبعة ، ولام

---

1 رسمت في الأصل "نانهي" تصويرًا لإشباع الهاء ، وتبيينًا لعدة أحرفها .

2 سورة البقرة : 35 .

3 المراد : جزأه ، من شعث الشيء : فرقه .

4 سورة يونس : 71 .

أفضيت والفضاء وما تصرف منهما واو لقولهم : فَضَا الشيء يفضو إذا اتسع ، فقولهم : أفضيت : صرت إلى الفضاء ؛ كقولهم : أَعرَق الرجل : إذا صار إلى العراق ، وأعمن الرجل : إذا صار إلى عُمان ، وأنجد : أتى نجدًا ، ونحو ذلك .

ومن ذلك قراءة مجاهد 1 وسعيد بن جبير2 : "إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ"3 .

قال أبو الفتح : هذا – على قول4 قراءة الجماعة : ﴿ لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ – إشارة إلى الفعل الواقع هناك من قلب العصا حية ونحوه ، وهذا – على من قرأ : "لَسَاحِر" – إشارة إلى موسى عليه السلام ، كما أن هذا – من قول الله تعالى : ﴿ هَذَا يَوْمُ لا يَنْطِقُونَ ﴾ 5 – إشارة إلى اليوم ، وهذا – على قراءة6 من قرأ : "هَذَا يَوْمَ لا يَنْطِقُونَ" بالنصب – إشارة إلى

الفعل الواقع في هذا اليوم .

ومن ذلك قراءة أبي عبد الرحمن : "قَدْ أُجِيبَتْ دَعَوَاتُكُمَا"7 .

قال أبو الفتح : هذه جمع دعوة ، وبهذه القراءة تعلم أن قراءة الجماعة : ﴿ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا ﴾ يراد فيها بالواحد معنى الكثرة ؛ وساغ ذلك لأن المصدر جنس ، وقد تقدم أن الأجناس يقع قليلها موقع كثيرها ، وكثيرها موقع قليلها .

ومن ذلك قراءة أُبي بن كعب ومحمد بن السميفع8 ويزيد البربري : "فاليومَ نُنَحِّيك" بالحاء .

---

1 هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج المكي . أحد الأعلام من التابعين والأئمة المفسرين . قرأ على عبد الله بن السائب وعبد الله بن عباس بعضاً وعشرين ختمة ، ويقال : ثلاثين عرضة . وأخذ عنه القراءة عرضاً عبد الله بن كثير وابن محيصن وحميد بن قيس وغيرهم . توفي سنة 103 ، وقيل غير ذلك . طبقات القراء لابن الجزري : 2/ 41 .

2 هو سعيد بن جبير بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم ، أبو محمد ، ويقال : أبو عبد الله ، الكوفي التابعي الجليل والإمام الكبير . عرض على عبد الله بن عباس ، وعرض عليه أبو عمرو بن العلاء والمنهال بن عمرو . قتله الحجاج بواسط شهيداً سنة 95 ، وقيل : سنة 94 . طبقات القراء لابن الجزري : 1/ 305 .

3 سورة يونس : 76 .

4 كذا بالأصل .

5 سورة المرسلات : 35 .

6 هو أبو العباس المطوعي ، كما في الإتحاف : 266 .

7 سورة يونس : 89 .

8 هو محمد بن عبد الرحمن بن السميفع – بفتح السين – أبو عبد الله اليماني ، له اختيار في القراءة ينسب إليه شَذَّ فيه ، قيل : إنه قرأ على نافع وطاوس بن كيسان عن ابن عباس . وقرأ عليه إسماعيل بن مسلم الملكي ، وهو ضعيف . طبقات ابن الجزري : 2/ 161 .

(34/355)

قال أبو الفتح : هذه نُفَعِّلك من الناحية ؛ أي : نجعلك في ناحية من كذا ، يقال : نَحوْتُ الشيء أنحوه : إذا قصدته ، ونَحَّيت الشيء فتنحى : أي باعدته فتباعد فصار في ناحية .

قال رؤبة وهو في جماعة من أصحابه ممن يأخذ عنه ، وقد أقبلت عجوز منصرفة عن السوق ، وقد ضاق الطريق بها عليهم :

تَنَحَّ للعجوز عن طريقها إذ أقبلت رائحةً من سوقها

دعها فما النحويّ من صديقها 1

وقال الحطيئة لأمه :

تَنَحَّيْ فاقعدي مِنّي بعيدا أراح الله منك العالمينا2

وقد استَعملت العرب مصدر نحوت الشيء نحوًا ظرفًا ؛ كقولك : زيد نحوك : أي في شِقّك وناحيتك . وعليه ما أنشده أبو الحسن :

تَرمِي الأماعيز بِمُجْمَرَات بأَرجل رُوحٍ مُحَنّبَات

يحدو بها كلُّ فتى هيَّات وهن نحو البيت عامدات3

فنصب عامدات على الحال لتمام الكلام من قبلها . وقد جمعوا نحوًا على نُحُوّ ، فأخرجوه على أصله .

ومنه حكاية الكتاب : إنكم لتنظرون في نُحُوّ كثيرة ، ومثله من الشاذ بَهو وبُهُو للصدر ، وأَب وأُبُوّ ، وابن وبُنُوّ . قال القناني يمدح الكسائي "76ظ" :

أَبى الذمَّ أخلاق الكسائي وانتمى به المجدَ أخلاقُ الأُبُوّ السوابق4 . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ المحتسب حـ 1 صـ 306.316 ﴾

---

1 يروى : "إذ" مكان "قد" . ولعل المخاطب بـ"دعها" رجل من نحو ابن عمرو بن أغلب بن الأزد ، وقيل : المخاطب به يونس بن حبيب ؛ وذلك أن رؤبة كان يسير ومعه أمه إذ لقيهما يونس ، فجعل يداعب والدة رؤبة ويمنعها الطريق . فخاطبه رؤبة بالأبيات . وقيل : الرجز لامرأة من العرب خاطبت به أبا زيد الأنصاري ؛ إذ مرت به ومعه أصحابه وقد

منعوها الطريق فلم يمكنها أن تجوز . تريد : أن هؤلاء إنما لازموك لصداقتهم ، وأنا لست كذلك فدعني أسير . شواهد الشافية : 138 .

2 يروى : "فاجلسي" مكان "فاقعدي" ، و"منا" مكان "منى" . وانظر : الديوان : 277 .

3 الأماعيز : جمع الأمعز ؛ هو ما غلظ من الأرض ، والوجه في جمعه الأماعز ؛ لكنه زاد الياء للشعر ، والمجمرات : جمع المجمر بكسر الميم الثانية وفتحها ، والحافر المجمر : الصلب ، "بأرجل" بدل من "بمجمرات" . ويروى : "وأرجل" . روح : جمع أروح وروحاء ، ورجل روحاء : في قدمها انبساط واتساع ، والمحنبات : التي فيها انحناء وتوتير . ويروى : "مجنبات" بالجيم ؛ وهي بمعنى محنبات بالحاء ، هيات : يهيت بها ؛ أي : يصبح ويدعو : هيت هيت ؛ بمعنى أقبلي . الخصائص : 1/ 34 ، واللسان "نحو ، وهيت" .

4 يُروى : "له الذروة العليا" مكان "به المجد أخلاق" . وانظر : التاج "أبو" ، ولعل "انتمى" تصحيف "انتحى" ، فهو متعدٍّ ، ومعناه قصد .

(35/355)

وقال العلامة الدمياطى :

سورة يونس عليه السلام

مكية وآيها مائة وتسع غير شامي وعشر فيه اختلافها ثلاث له الدين شامي لما في الصدور شامي أيضا وترك من الشاكرين شبه المفاصلة ثلاث الر متاع في الدنيا بني إسرائيل وعكسه موضع على الله الكذب لا يفلحون القراآت أمال الراء من الر هنا وهود ويوسف وإبراهيم والحجز و (المر) أول الرعد أبو عمرو وابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف إجراء لألفها مجرى المنقلبة عن الياء قاله القاضي وقللها الأزرق وفتحها الباقون وسكت أبو جعفر على كل حرف من حروف الر

وأمال للناس كبرى الدوري من أبي عمرو من طريق أبي الزعراء ورقق الكافرون الأزرق بخلفه

وقرأ (لساحر) الآية 2 بالألف وكسر الحاء ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي وخلف والباقون بغير ألف مع سكون الحاء ومر آخر المائدة

وقرأ (تذكرون) الآية 3 بالتخفيف حفص وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في) إنه يبدأ الخلق ( ) الآية 4 فأبو جعفر بفتح الهمزة على أنه معمول للفعل الناصب وعد الله أي وعد الله بدأ الخلق ثم إعادته والمعنى إعادة الخلق بعد بدئه أو على حذف لام الجر وافقه الأعمش والباقون بالكسر على الاستئناف

وقرأ (ضياء) الآية 5 هنا والأنبياء الآية 48 والقصص الآية 71 قنبل بقلب الياء همزة وأولت على أنه مقلوب قدمت لامه التي هي همزة إلى موضع عينه وأخرت عينه التي هي واو إلى موضع اللام فوقعت الياء ظرفا بعد ألف زائدة فقلبت همزة على حد رداء والباقون بالياء قبل الألف وبعد الضاد جمع ضوء كسوط وسياط والياء عن واو ويجوز كونه مصدر ضاء ضياء كعاد عيادا

واختلف في (يفصل الآيات) الآية 5 فابن كثير وابو عمرو وحفص ويعقوب بياء الغيب جريا على اسم الله تعالى وافقهم اليزيدي والحسن والباقون بنون العظمة

(36/355)

وسهل همز أطمأنوا الأصبهاني وضم هاء يهديهم الثانية يعقوب وضم الهاء والميم من تحتهم الأنهار وصلا حمزة والكسائي وخلف وكسرهما أبو عمرو ويعقوب وكسر الهاء وضم الميم الباقون وعن ابن محيصن إن الحمد لله بتشديد النون ونصب الحمد اسما لها وهو يؤيد أنها المخففة في قراءة الجمهور وعن الحسن كسر دال الحمد

واختلف في ( ) لقضي إليهم أجلهم ( ) الآية 11 فابن عامر ويعقوب بفتح القاف والضاد وقلب الياء ألفا الآية 16 مبنيا للفاعل أجلهم بالنصب مفعولا به وافقهما المطوعي والباقون

بضم القاف وكسر الضاد وفتح الياء مبنيا للمفعول أجلهم بالرفع على النيابة وأمال طغيانهم الدوري عن الكسائي وأسكن سين رسلهم أبو عمرو ويوقف لحمزة وهشام بخلفه على تلقاي ونحوه مما رسم بياء بعد الألف بإبدال الهمزة ألفا مع المد والقصر والتوسط وبتسهيلها كالياء مع المد والقصر فهي خمسة وإذا أبدلت ياء على الرسم فالمد والتوسط والقصر مع سكون الياء والقصر مع روم حركتها فتصير تسعة وفتح ياء الإضافة من لي أن وإني أخاف نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر وفتحها من نفسي أن اتبع نافع وابو عمرو وابو جعفر

(37/355)

واختلف في (ولا أدراكم به) الآية 16 و ﴿ لا أقسم بيوم القيمة) ﴾ الآية 1 فابن كثير من غير طريق ابن الحباب عن البزي بحذف الألف التي بعد اللام جعلها لام ابتداء فتصير لام توكيد أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا علمكم به على لسان غيري وعن الشنبوذي ولأنذرتكم به بنون ساكنة وذال معجمة مفتوحة وراء ساكنة وتاء مضمومة من الإنذار وعن الحسن ولا درأتكم بهمزة ساكنة وتاء مرفوعة على أن الهمزة مبدلة من الألف والألف منقلبة عن ياء لانفتاح ما قبلها على لغة من يقول أعطأتك في أعطيتك وقيل الهمزة أصلية من الدرء وهو الدفع والباقون بإثبات الألف على أنها لا النافية مؤكدة أي ولو شاء الله ما

قرأته عليكم ولا أعلمكم به على لساني فالأول والثاني منفيان ويأتي توجيه موضع سورة القيامة فيها إن شاء الله تعالى وبإثبات الألف قرأ ابن الحباب عن البزي فيهما وكذا روى المغاربة والمصريون قاطبة عن البزي من طرقه وخرج بقيد القيمة المتفق البلد وثاني القيمة المتفق على الإثبات فيهما لأنها فيهما نافية كأنه يقول إذ الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم وجعلها القاضي لتأكيد القسم قال وإدخالها على القسم شائع كقولهم لا وأبيك وأمال أدراكم أبو عمرو وابن ذكوان من طريق الصوري ومن طريق ابن الأخرم عن الأخفش وما في الأصل هنا فيه قصور وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق وكذا حكم أدرى حيث وقع إلا أنه اختلف عن أبي بكر فيما عدا هذه السورة فأخذ العراقيون له بالفتح والمغاربة بالإمالة وأدغم لبثت أبو عمرو وابن عامر وحمزة والكسائي وأبو جعفر وذكر في الأصل هنا الخلاف عن ابن ذكوان ولعله سبق قلم وغلط

الأزرق بخلفه لام أظلم وقرأ أبو جعفر أتنبؤن الله بحذف الهمزة وضم الباء قبلها على ما نص عليه الأهوازي وغيره وظاهر عموم كلام أبي العز والهذلي وتقدم ما فيه

(38/355)

واختلف في ﴿ عما تشركون) ﴾ الآية 18 هنا وموضع النحل الآية 1 3 وفي الروم الآية 40 فحمزة والكسائي وخلف بالخطاب جريا على ما سبق وافقهم الأعمش والباقون بالغيب في الأربعة استأنف فنزه نفسه عن إشراكهم ويوقف لحمزة على في آياتنا بعدم السكت مع تحقيق الهمزة وبالسكت قبل الهمز وبالنقل وبالإدغام وأسكن سين رسلنا أبو عمرو

واختلف في (ما تمكرون) الآية 21 فروح بالغيب جريا على ما مر وافقه الحسن والباقون بالخطاب التفاتا لقوله قل الله أي قل لهم فناسب الخطاب

واختلف في (يسيركم) الآية 22 فابن عامر وأبو جعفر ﴿ ينشركم ﴾ بفتح الياء وبنون ساكنة بعدها فشين معجمة مضمومة من النشر ضد الطي أي يفرقكم وافقهما الحسن والباقون بضم الياء وسين مهملة مفتوحة بعدها ياء مكسورة مشددة أي يحملكم على السير ويمكنكم منه والتضعيف للتعدية وأمال فلما أنجاهم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ومثله (أنجاكم و فأنجاه)

(39/355)

واختلف في ( ) متاع الحياة الدنيا (الآية 23 فحفص بنصب العين على أنه مصدر مؤكد أي تتمتعون متاع أو ظرف زماني نحو مقدم الحاج أي زمن متاع والعامل فيه الاستقرار الذي في على أنفسكم أو مفعول به بمقدر أي تبغون متاع أو من أجله أي لأجل متاع وافقه الحسن والباقون بالرفع على أنه خبر بغيكم وعلى أنفسكم صلته أي بغي بعضكم على بعض انتفاع قليل المدة ثم يضمحل ويشقى ببغيه قاله الجعبري كغيره أو خبر محذوف أي ذلك أو هو متاع وعلى أنفسكم خبر بغيكم وعن الحسن وازينت بهمزة قطع وزاي ساكنة وتخفيف الياء أي صارت ذات زينة وعن المطوعي وتزينت بتاء مفتوحة وفتح الزاي وتشديد الياء والجمهور بوصل الهمزة وتشديد الزاي والياء وعن الحسن كأن لم يغن بالتذكير على عود الضمير إلى الحصيد وقرأ يشاء إلى بتسهيل الثانية كالياء وبإبدالها واوا مكسورة نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس ولا يصح تسهيلها كالواو لما مر وقرأ صراط بالسين قنبل من طريق ابن مجاهد ورويس وبالإشمام خلف عن حمزة وعن الحسن والمطوعي فتر بسكون التاء كقدر وقدر

واختلف في (قطعا) الآية 27 فابن كثير والكسائي ويعقوب بإسكان الطاء قيل هي ظلمة آخر وقيل سواد الليل والباقون بفتحها جمع قطعة كدمنه ودمن وعن ابن محيصن والمطوعي نحشرهم جميعا ثم نقول بالياء

واختلف في (تبلوا) الآية 30 فحمزة والكسائي وخلف بتاءين من فوق أي

تطلب وتتبع ما أسلفته من أعمالها أو المراد تقرأ كل نفس ما عملته مسطرا في مصحف الحفظة لقوله تعالى اقرأ كتابك وافقهم الأعمش والباقون بالتاء من فوق والباء الموحدة من البلاء أي تختبر ما قدمت من عمل فتعاين قبحه وحسنه

وقرأ (الميت) معا الآية 31 بالتشديد نافع وحفص وحمزة والكسائي وأبو جعفر ويعقوب وخلف

وأمال (فأنى تصرفون) الآية 32 و (فأنى تؤفكون) الآية 34 حمزة والكسائي وخلف وبالفتح والتقليل الأزرق والدوري عن أبي عمرو

(40/355)

وقرأ ﴿ (كلمات ربك ﴾ الآية 33 بالتوحيد ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي وخلف ويعقوب ومر بالأنعام

واختلف في (أمن لا يهدي) الآية 35 فأبو بكر بكسر الياء والهاء وقرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال قرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال وافقهم الحسن وقرأ أبو جعفر كذلك إلا أنه بإسكان الهاء بخلف عن ابن جماز في الهاء وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال

وافقهم الأعمش وقرأ قالون وابو عمرو بفتح الياء وتشديد الدال واختلف في الهاء عنهما وعن ابن جماز فأما أبو عمرو فروى المغاربة قاطبة وكثير من العراقيين عنه اختلاس فتحة الهاء وعبر عنه بالإخفاء وبالإشمام وبالإشارة وبتضعيف الصوت وهو عسير في النطق جدا وهو الذي لم يقرأ الداني على شيوخه بسواه ولم يأخذ إلا به وروى عنه أكثر العراقيين إتمام فتحة الهاء كابن كثير ومن معه وأما قالون فروى عنه أكثر المغاربة وبعض المصريين الاختلاس كأبي عمرو سواء وهو اختيار الداني الذي لم يأخذ بسواه مع نصه عنه بالإسكان وروى العراقيون قاطبة وبعض المغاربة والمصريين عنه الإسكان وهو المنصوص عنه وعن أكثر رواه نافع وأما ابن جماز فأكثر أهل الأداء عنه على الإسكان كرفيقه ابن وردان وروى كثير منهم له الاختلاس ولم يذكر الهذلي عنه سواه فخلافه كقالون دائر بين الإسكان والاختلاس وخلاف أبي عمرو دائر بين الفتح الكامل وبين الاختلاس ووافقه اليزيدي عليه فقط وعنه الإسكان وما ذكره في الأصل من الإسكان لأبي عمرو فانفرادة لصاحب العنوان ولذا لم يعرج عليه في الطيبة واستشكلت قراءة سكون الهاء مع تشديد الدال من حيث الجمع بين الساكنين قال النحاس لا يقدر أحد أن ينطق به وقال المبرد من رام هذا لا بد أن يحرك حركة خفيفة وأجاب عنه القاضي بأن المدغم في حكم المتحرك وقال السمين لا بعد فيه فقد قرىء به في نعما وتعدوا وتقدم

إيضاحه آخر الإدغام ووجه كسر الهاء التخلص من الساكنين لأن أصله يهتدي فلما سكنت التاء لأجل الإدغام والهاء قبلها ساكنة فكسرت للساكنين ومن فتحها نقل فتحة التاء إليها ثم قلبت التاء دالا وأدغمت في الدال وأبو بكر أتبع الياء للهاء في الكسر ليعمل اللسان عملا واحدا وكلهم كسر الدال

وأما إلا أن يهدى) الآية 35 حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه ونقل القران ابن كثير وأشم صاد تصديق حمزة والكسائي وخلف ورويس بخلفه وتقدم لحمزة بخلفه مد لا التبرئة مدا متوسطا في لا ريب فيه ونحوه

وأما يفترى و (افتراه) الآية 38 أبو عمرو وأبن ذكوان من طريق الصوري والكسائي وحمزة وخلف وبالصغرى الأزرق (وضم) رويس الهاء من (ولما يأتهم) ويوقف لحمزة على نحو بريئون وجه واحد وهو البدل مع الإدغام لزيادة الياء وأما بين بين فضعيف

وقرأ (ولكن الناس) الآية 44 بتخفيف النون ورفع الناس حمزة والكسائي وخلف وتكسر النون وصلا ضرورة ومر بالبقرة

وقرأ ( ) يحشرهم كأن لم (الآية 45 بالياء حفص والباقون بالنون وسبق أواخر الأنعام وتقدم نظير (جاء أجلهم) بالنساء جاء أحد منكم

وأمال متى حمزة والكسائي وخلف وقللها الأزرق بخلفه وكذا أبو عمرو من روايتيه كما يفيده النشر ولكن قضية الطيبة قصر الخلاف على الدوري عنه

(42/355)

وقرأ (أرأيتم) الآية 50 بتسهيل الثانية نافع وأبو جعفر وللأزرق أيضا إبدالها ألفا مع إشباع المد الساكنين وقرأ الكسائي بحذف الهمزة واتفقوا على الاستفهام في (آلآن) الآية 51 معا هنا وإثبات همزة الوصل وتسهيلها واختلفوا في كيفية التسهيل فذهب كثير إلى إبدالها ألفا مع المد للساكنين وآخرون إلى جعلها بين بين ومن كل من الفريقين من جعل ما ذهب إليه لازما ومنهم من جعله جائزا فإذا قرىء لنافع وأبي جعفر من رواية ابن وردان بالوجه الأول وهو الإبدال ونقل حركة الهمزة إلى اللام جاز لهما في هذه الألف المبدلة المد والقصر عملا بقاعدة الاعتداد بالعارض وعدمه فإن وقف لهما عليها كان من كل واحد من هذين ثلاثة سكون الوقف وللأزرق وبالنظر إلى مد الهمزتين على القول بلزوم البدل وجوازه أوجه فعلى القول بلزومه يلتحق بباب حرف المد الواقع بعد الهمز فيجري فيها الثلاثة كآمن وعلى القول بجواز البدل يلتحق بباب أأنذرتهم وءألد فإن اعتددنا بالعارض فالقصر وإن لم نعتد فالمد كأنذرتهم ولا يكون من باب آمن فلا يسوغ التوسط على هذا التقدير فإذا قرىء بالمد في

الأولى جاز في الثانية ثلاثة المد والقصر والتوسط وإذا قرىء بالتوسط في الأولى جاز في الثانية التوسط والقصر وامتنع المد وإذا قرىء بقصر الأولى فالقصر في الثانية فقط فالجملة ستة أوجه لا يجوز غيرها

عند من أبدل كما حققه صاحب النشر ونظمها في قوله رحمه الله رحمة واسعة

للأزرق في الآن ستة أوجه

على وجه إبدال لدى وصله تجري

فمد وثلث ثانيا ثم وسطا

به وبقصر ثم بالقصر مع قصري

(43/355)

وأما على وجه تسهيلها فيظهر له ثلاثة أوجه في الألف الثانية المد والتوسط والقصر لكن القصر غريب في طرق الأزرق لأن طاهر بن غلبون وابن بليمة اللذين رويا عنه القصر في باب أمن مذهبهما في همز الوصل الإبدال لا التسهيل لكنه ظاهر من كلام الشاطبي وهو طريق الأصبهاني عن ورش وهو أيضا لقالون وأبي جعفر وإذا ركبت مع آمنتم تحصل للأزرق حالة الوصل على وجه الإبدال فقط اثنا عشر وجها نظمها شيخنا رحمه الله في

قوله

للأزرق في آمنتم حيث ركبت

مع الآن بالإبدال وجهان مع عشري

فإن تقصر آمنتم فمد أو اقصرن

لأول مدى لأن والثان بالقصري

وإن وسطت فالثاني أقصر ووسطن

مع المد والتوسيط والقصر ذا فادري

ومع مدها مد وقصر وعكسه

وقصرهما والمد ذا ظاهر النشر

(44/355)

قوله رحمه الله تعالى فإنه تقصر آمنتم الخ يعني إذا قرأت بقصر البدل في آمنتم فلك في الآن وجهان الأول مد والألف المبدلة مع قصر الثاني يعني الألف الواقعة بعد الهمزة المنقول حركتها إلى اللام والثاني قصرهما وقوله وإن وسطت الخ أي إذا قرأت بتوسط البدل في آمنتم فلك في الآن ستة أوجه المد والتوسط والقصر في الأول وعلى كل منها التوسط

والقصر في الثاني وقوله ومع مدها الخ يعني إذا قرأت بالمد في آمنتم فلك في الآن أربعة أوجه مد الأول وقصر الثاني ثم مدهما ثم قصرهما ثم قصر الأول ومد الثاني وأفاد شيخنا رحمه الله تعالى أنه ينبغي أن يبدأ بالقصر في آمنتم ثم بمد الأول في الآن وبقصر الثاني ثم يقصران ثم يؤتي بالتوسط في آمنتم ثم بمد الأول في الآن مع توسط الثاني ثم قصره ثم بتوسط الأول في الآن مع توسط الثاني وقصره كذلك ثم بقصر الأول منها مع ما ذكر من التوسط والقصر في الثاني ثم بمد آمنتم مع مد كل من حرفي الآن ثم بمد الأول منها وقصر الثاني ثم بعكسه ثم بقصرهما وقوله ذا ظاهر النشر وجه ذلك كما يفيده ما تقدم عن النشر أنه إذا قرىء بقصر آمنتم جاز في الأول من الآن وجهان القصر سواء جعل من باب آمنتم أو من باب ألد والمد على أنه من باب ألد وعدم الاعتداد بالعارض وعليهما القصر في الثاني فقط وذلك لأن مده على جعله من باب أمنتم والفرض أنه مقروء فيه بالقصر وأنه إذا قرىء بتوسط آمنتم جاز في الأول من الآن القصر على جعله من باب آلد مع الاعتداد بالعارض والتوسط على جعله من باب آمنتم والمد على جعله من باب ءأنذرتهم لعدم الاعتداد بالعارض وعلى كل من الثلاثة ففي الثاني التوسط على أنه من باب آمنتم عند من لم يستثنه والقصر عند من استثناه وأنه إذا قرىء بمد آمنتم جاز في

الأول من الآن المد سواء جعل من باب أمنتم وقد قرىء به أو من باب ءأنذرتهم لعدم الاعتداد بالعارض والقصر على أنه من باب ألد وقد اعتد بالعارض وعلى كل منهما ففي الثاني القصر والمد على ما مر فالجملة اثنا عشر وجها وعلى وجه البدل أما على التسهيل لهمزة الوصل فجملة ما فيها حينئذ خمسة أوجه القصر في ألف آن على قصر في آمنتم والتوسط والقصر في ألف آن على التوسط في آمنتم والمد والقصر فيها على المد في أمنتم بناء على ما مر من الاستثناء وعدمه وإذا وقف عليها منفردة عن أمنتم تحصل فيها اثنا عشر وجها ثلاثة مع التسهيل كحالة الوصل وتسعة مع الإبدال لا تخفى وذلك لأنه إذا وقف عليها كان للمد سببان السكون العارض والبدل فإذا قصر الأول ففي الثاني ثلاثة القصر سواء اعتبر سكون الوقف أو الإبدال وسواء جعل الأول من باب أمنتم أو آلد والتوسط والطول على جعل الأول من باب ألد واعتد بالعارض سواء أيضا اعتبر في الثاني سكون الوقف أو الإبدال وكذا على جعل الأول من باب أمنتم واعتبر في الثاني سكون الوقف وإذا وسط الأول جاز في الثاني القصر عند من استثناه والتوسط عند من لم يستثنه والطول لسكون الوقف وإذا مد الأول فإن جعل من باب ألد ولم يعتد بالعارض فثلاثة الثاني ظاهر وإن جعل من باب أمنتم فالمد في الثاني ظاهر وتوسطه وقصره عند من استثناه مع اعتبار سكون الوقف ويوقف عليها لحمزة على وجه تسهيل همزة الوصل بالسكت على اللام

وبالنقل فقط فإن ضربت في ثلاثة الوقف صارت ستة أما على وجه إبدالها ففيه السكت أيضا وعليه ثلاثة الوقف وفيه النقل وحينئذ يجوز المد والقصر في الألف المبدلة كنافع وتضرب في ثلاثة الوقف بستة هذا كله على تدبير الهمزة الثانية أما الأولى وهي همزة الاستفهام ففيها أربعة أوجه التحقيق مع عدم السكت على الياء الحاصلة عن إشباع كسرة الهاء في به ثم النقل ثم الإدغام غير أن صاحب النشر اختار الإدغام على النقل كما مر

(46/355)

وقرأ قيل بالإشمام هشام والكسائي ورويس وأدغم لام (هل تجزون) الآية 52 حمزة والكسائي وهشام على ما صوبه عنه في النشر

وقرأ أبو جعفر ﴿ ويستنبونك ﴾ الآية 53 بحذف الهمزة مع ضم الياء على ما نص عليه الأهوازي وغيره كما مر في أتنبون ووقف عليه حمزة بالتسهيل كالواو على مذهب سيبويه وبالإبدال ياء على مذهب الأخفش وبالحذف مع ضم الباء كأبي جعفر على اتباع الرسم وفتح ياء الإضافة من ربي إنه نافع وأبو عمرو وأبو جعفر

وقرأ (ترجعون) الآية 56 بفتح أوله وكسر الجيم مبنيا للفاعل يعقوب وعن الحسن قراءته

بالغيب وأدغم دال قد جاءتكم أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف

واختلف في (فليفرحوا) الآية 58 فرويس بتاء الخطاب وافقه الحسن

والمطوعي وهي قراءة أبي وأنس رضي الله تعالى عنهما ورفعها في النشر إلى النبي وهي لغة

قليلة لأن الأمر باللام إنما يكثر في الغائب كقراءة الباقين والمخاطب المبني للمفعول نحو لتعن

بحاجتي يا زيد ويضعف الأمر باللام للمتكلم نحو لأقم ولنقم ومنه قوله قوموا فلأصل لكم

والباقون بالغيب وكلهم سكن اللام إلا الحسن فكسرها

واختلف في ﴿ مما تجمعون ﴾ الآية 58 فابن عامر وأبو جعفر ورويس بالخطاب على

الالتفات وتوافق قراءة رويس وافقهم الحسن والباقون بالغيب وسبق قريبا حكم أرأيتم

وكذا إبدال همزة الوصل وتسهيلها بعد همزة الاستفهام للكل من (آلله أذن) (الآية 59)

كموضع النمل ( ) آلله خير ( ) (الآية 59) ولم يفصلوا بين الهمزتين هنا بألف حال التسهيل

لضعفها عن همزة القطع وأدغم ذال (إذ تفيضون) الآية 61 أبو عمرو وهشام وحمزة

والكسائي وخلف

واختلف في (وما يعزب) الآية 61 هنا وسبأ فالكسائي بكسر الزاي وافقه الأعمش

والباقون بضمها لغتان في مضارع عزب

واختلف في ( ) ولا أصغر ( ) ولا أكبر ( ) الآية 61 هنا لحمزة ويعقوب وخلف في اختياره برفع الراء فيهما عطفا على محل مثقال لأنه مرفوع بالفاعلية ومن مزيدة فيه على حد وكفى بالله ومنع صرفهما للوزن والوصف وافقهم الحسن والأعمش والباقون بالفتح عطفا على لفظ مثقال أو ذرة فهما مجروران بالفتحة لمنع صرفهما كما مر وخرج بالتقييد بهنا موضع سبأ المتفق على الرفع فيهما فيه لكن في المصطلح لابن الفاصح نصبهما عن المطوعي

وقرأ (لا خوف عليهم) الآية 62 بفتح الفاء يعقوب وضم الهاء مع حمزة

وقرأ (يحزنك) الآية 65 نافع بضم الياء وكسر الزاي

وقرأ (شركاء إن) بتسهيل الثانية كالياء نافع وابن كثير وأبو عمرو وأبو جعفر ورويس

واختلف في (فأجمعوا أمركم) الآية 71 فرويس من طريق أبي الطيب والقاضي أبو العلا عن النخاس بالمعجمة كلاهما عن التمار عنه بوصل الهمزة وفتح الميم من جمع ضد فرق وقيل جمع وأجمع بمعنى والباقون بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الميم وبه قرأ رويس من باقي طرقه من أجمع يقال أجمع في المعاني وجمع في الأعيان كأجمعت أمري وجمعت الجيش

واختلف في (وشركاءكم) الآية 71 فيعقوب برفع الهمزة عطفا على الضمير المرفوع المتصل بأجمعوا وحسنه الفصل بالمفعول ويجوز أن يكون مبتدأ حذف خبره أي كذلك والباقون بالنصب نسقا على أمركم

وقرأ (تنظرون) الآية 71 بإثبات الياء في الحالين يعقوب وفتح ياء الإضافة من أجري إلا نافع وابو عمرو وابن عامر وحفص وأبو جعفر

واختلف في (وتكون لكما) الآية 78 فأبو بكر من طريق العليمي بالتذكير لأنه تأنيث مجازي والباقون بالتأنيث نظرا للفظ وبه قرأ أبو بكر من طريق يحيى بن آدم وغيره وقرأ ساحر بوزن فاعل نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب والباقون بتشديد الحاء وألف بعدها على وزن فعال

(48/355)

وقرأ (السحر) الآية 81 بهمزة قطع الاستفهام وبعدها ألف بدل همزة الوصل الداخلة على لام التعريف أبو عمرو وأبو جعفر فيجوز لكل منهما الوجهان من البدل مع إشباع المد والتسهيل بلا فصل بألف كما مر فما استفهامية مبتدأ وجئتم به خبره والسحر خبر مبتدأ محذوف أي أي شيء أتيتم به أهو السحر أو السحر بدل من ما وافقهما اليزيدي والشنبوذي وعن المطوعي سحر بحذف ال وإثبات التنوين والباقون بهمزة وصل على الخبر تسقط وصلا وتحذف ياء الصلة بعد الهاء للساكنين وما موصولة مبتدأ وجئتم به صلتها والسحر خبره أي الذي جئتم به السحر وأما ما حكي عن إبدال همز تبؤا في الوقف ياء

لحفص فغير صحيح كما صرح به الشاطبي رحمه الله تعالى في قوله لم يصح فيحملا أي لم يثبت فينقل وأما وقف حمزة عليه فبتسهيل الهمزة كالألف

وقرأ (البيوت) الآية 87 و بيوت بكسر الباء قالون وابن كثير وابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي وخلف

وقرأ (ليضلوا) الآية 88 بضم الياء عاصم وحمزة والكسائي وخلف

(49/355)

واختلف عن ابن عامر في (ولا تتبعان) الآية 89 فروى ابن ذكوان والداجوني عن أصحابه عن هشام بفتح التاء وتشديدها وكسر الباء وتخفيف النون على أن لا نافية ومعناه النهي نحو (لا تضار) أو يجعل حالا من فاستقيما أي فاستقيما غير متبعين وقيل نون التوكيد الثقيلة خففت وقيل أكد بالخفيفة على مذهب يونس والفراء وانفرد ابن مجاهد عن ابن ذكوان بتخفيف التاء الثانية وإسكانها وفتح الباء مع تشديد النون ورواه سلامة بن هارون أداء عن الأخفش عن ابن ذكوان والوجهان في الشاطبية لكن في النشر نقلا عن الداني أنه غلط من أصحاب ابن مجاهد سلامة لأن جميع الشاميين رووا عن ابن ذكوان بتخفيف النون وتشديد التاء ثم ذكر أنها صحت من طرق أخرى وبينها ثم قال وذلك كله

ليس من طرقنا ولذا لم يعرج عليها في الطيبة على عادته في الانفرادات وروى الحلواني عن هشام بتشديد التاء الثانية وفتحها وكسر الباء وتشديد النون وبه قرأ الباقون فتكون لا للنهي ولذا أكد بالنون لأن تأكيد النفي ضعيف وسهل أبو جعفر همز إسرائيل مع المد والقصر واختلف في مدها عن الأزرق كما مر وعن الحسن وجوزنا بالقصر والتشديد من فعل المرادف لفاعل وعنه أيضا فاتبعهم بالوصل وتشديد التاء

واختلف في (آمنت أنه) الآية 90 فحمزة والكسائي وخلف بكسر همزة إنه على الاستئناف وافقهم الأعمش والباقون بفتحها على أن محلها نصب مفعولا به لآمنت لأنه بمعنى صدقت أو بإسقاط الباء أي بأنه وتقدم ( ) آلآن ( ) الآية 91 وكذا تخفيف (ننجيك) الآية 92 و ثم ننجي ليعقوب بالأنعام و ننجي المؤمنين لحفص والكسائي ويعقوب كذلك ووقف يعقوب على ننج المؤمنين بالياء والباقون بغير ياء للرسم وقيل لا يوقف عليه لمخالفة الأصل أو الرسم ولا خلاف في ثبوت ياء (ننجي رسلنا)

وقرأ ﴿ فسل ﴾ الآية 94 بالنقل ابن كثير والكسائي وكذا خلف

وقرأ بإدغام دال (لقد جاءك) الآية 94 أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وقرأ كلمت بالإفراد بن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف كما مر بالأنعام

ووقف بالهاء ابن كثير وأبو عمرو والكسائي ويعقوب وسهل أفأنت الأصبهاني كوقف حمزة واختلف في ويجعل فأبو بكر بنون العظمة مناسبة لكشفنا والباقون بياء الغيبة لقوله بإذن الله

وقرأ (قل انظروا) الآية 101 بكسر اللام عاصم وحمزة ويعقوب وسكن سين رسلنا أبو عمرو وأمال يتوفيكم حمزة والكسائي وخلف وقلله الأزرق بخلفه وكذا حكم اهتدى وحكم دال قد جاءكم ذكر قريبا

المرسوم كتب في الشامي يسيركم بتقديم الحرف المطول وهو النون وفي سائرها بتأخيره واتفق على حذف ألف ياء آيت كيف أتت إلا في موضعين في هذه السورة وإذا تتلى عليهم آياتنا مكر في آياتنا ونقل بعضهم حذف ثاني نوني لننظر كيف هنا وإنا لننصر بغافر تنبيها على أنها مخفاة وروى نافع حقت كلمت ربك حقت عليهم كلمت ربك بحذف الألف واتفقوا على كتابة من تلقاي نفسي بياء بعد الألف ولكن الألف محذوفة في بعضها كما في النشر

التاآت ﴿ كلمت ربك على الذين فسقوا ﴾ الآية 33 96 بالتاء واختلف في حقت

عليهم كلمت وكذا موضع غافر ياآت الإضافة خمس (لي أن إني أخاف نفسي إن) الآية 15 (وربي إنه) الآية 53 (إن أجري إلا) الآية 72 وياء زائدة (تنظرون) الآية 71 . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ إتحاف فضلاء البشر فى القراءات الأربعة عشر صـ 309 . 318 ﴾

(51/355)

وقال الشيخ عبد الفتاح القاضى :

" سورة يونس عليه السلام "

" الر " سكت أبو جعفر على ألف ولام وراء سكتة خفيفة من غير تنفس .

" لساحر " قرأ المدنيان والبصريان والشامي بكسر السين وإسكان الحاء ، والباقون بفتح السين وألف بعد هال وكسر الحاء وفيه ترقيق الراء لورش .

" يدبر " رقق الراء ورش .

" تذكرون " خفف الذال حفص والأخوان وخلف ، وشددها الباقون .

" إنه يبدؤا أبو جعفر بفتح الهمزة إنه ، والباقون بكسرها وقد رسمت الهمزة في يبدؤا واوا ففيه لهشام وحمزة خمسة أوجه وقفا : الإبدال والتسهيل بالروم والإبدال واوا مع السكون

والروم والإشمام .

" ضياء " قرأ قنبل بهمزة مفتوحة بعد الضاد ، والباقون بياء مفتوحة في موضع الهمزة .

" يفصل " قرأ بالياء التحتية البصريان والمكي وحفص ، والباقون بنون العظمة .

" واطمأنوا " وقف عليه حمزة بالتسهيل فقط .

" مأواهم " يهديهم ، تحتهم الأنهار ، لا يخفى ما فيه .

" رب العالمين " آخر الربع .

الممال

كافة فرقة غلظة للكسائي بلا خلاف في الأول ، وبخلاف في الثاني والثالث ، الكفار والنهار بالإمالة للبصري والدوري والتقليل لورش ، زادته فزادتهم معا لحمزة وابن ذكوان بخلف عنه . جاءكم لحمزة وخلف وابن ذكوان ، يراكم بالإمالة للأصحاب والبصري والتقليل لورش الر بالإمالة للبصري والشامي وشعبة والأخوين وخلف ، وبالتقليل لورش ، للناس للدوري عن البصري ، استوى ومأواهم بالإمالة للأصحاب والتقليل لورش بخلفه ، الدنيا ودعواهم معا بالإمالة للأصحاب ، وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " أنزلت سورة معا للبصري والأخوين وخلف " لقد جاءكم " للمذكورين ومعهم هشام .

" الكبير " زادته هذه ، منازل لتعلموا .

" لقضي إليهم أجلهم " قرأ الشامي ويعقوب بفتح القاف والضاد وألف بعدها ونصب اللام من أجلهم ، والباقون بضم القاف وكسر الضاد وياء مفتوحة بعدها مع رفع أجلهم ، وضم حمزة ويعقوب هاء إليهم وكسرها غيرهما .

" لقاءنا " أو قائما : جلي لحمزة .

(52/355)

" رسلهم " أسكن السين أبو عمرو ، وضمها غيره .

" لقاءنا ائت " أبدل الهمزة حرف مد حال وصل لقاءنا بائت ورش السوسي وأبو جعفر سواء وقفوا على ائت أم وصلوه بما بعده ، وكذلك حمزة عند الوقف على ائت . هذا مذهب القراء حال الوصل ، فإذا وقفوا على لقاءنا وابتدءوا بائت فكلهم يبدءون بهمزة وصل مكسورة وبعدها ياء ساكنة مدية ، وورش كغيره فلا توسط له ولا مد كما سبق .

" بقرآن غير " نقل المكي حركة الهمزة إلى ما قبلها وحذف الهمزة وصلا ووقفا وكذلك حمزة عند الوقف وأخفى أبو جعفر التنوين في الغين مع الغنة ، وأظهره غيره .

" لي أن ، إني أخاف " فتح الياء فيهما المدنيان والمكي والبصري وأسكنها غيرهم .

" من تلقائي " رسمت همزته على ياء ففيه لحمزة وهشام وقفا تسعة أوجه خمسة القياس وهي إبدال الهمزة ألفا مع القصر والتوسط والمد ثم التسهيل بالروم مع المد والقصر . وأربعة على الرسم ، وهي إبدال الهمزة ياء خالصة مع سكونها لأجل الوقف مع القصر والتوسط والمد ومع الروم على القصر . فتصير الأوجه تسعة .

" نفسي إن " فتح الياء المدنيان والبصري ، وأسكنها سواهم .

" إليّ " وقف عليه يعقوب بهاء السكت .

" ولا أدراكم به " قرأ المكي بخلف عن البزي بحذف ألف ولا ، والباقون بإثباتها ، وهو الوجه الثاني للبزي .

" أظلم " فيه ، فانتظروا ، قادرون ، جلي .

" شفعاؤنا " وقف حمزة بتسهيل الهمزة مع المد والقصر .

" أتنبئون " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة وضم الباء في الحالين وكذلك حمزة إن وقف وله وجهان آخران وهما تسهيل الهمزة بين بين وإبدالها ياء خالصة ، وتقدم نظير هذا مرارا .

" عما يشركون " قرأ الأخوان وخلف بتاء الخطاب ، والباقون بياء الغيبة .

" رسلنا " مثل رسلهم ، أسكن السين أبو عمرو وضمها غيره .

" تمكرون " قرأ روح بياء الغيبة ، والباقون بتاء الخطاب .

" يسيركم " قرأ ابن عامر وأبو جعفر بياء مفتوحة وبعدها نون ساكنة وبعد النون شين معجمة مضمومة من النشر ، والباقون بياء مضمومة وبعدها سين مهملة مفتوحة وبعدها ياء مكسورة مشددة ، من التسيير . ولا يخفى ترقيق رائه لورش .

" متاع الحياة " قرأ بنصب العين ، والباقون برفعها .

" كأن " فيه لحمزة وقفا تحقيق الهمز وتسهيله .

" يشاء إلى " صراط . تقدم كثيرا .

" مستقيم " آخر الربع .

الممال

للناس لدوري البصري ، طغيانهم لدوري الكسائي وجاءتهم وشاء وجاءتها وجاءهم لحمزة وخلف وابن ذكوان ، تتلى ويوحى وتعالى وأنجاهم وأتاها للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلف عنه ، أدراكم بالإمالة للأصحاب والبصري وشعبة وابن ذكوان بخلف عنه وبالتقليل لورش . افترى . للأصحاب والبصري بالإمالة ولورش بالتقليل ، الدنيا للأصحاب بالإمالة ، وللبصري وورش بالتقليل بخلف عن ورش . دار السلام . للبصري والدوري بالإمالة ولورش بالتقليل ولا إمالة في دعا لكونه واويا ، ولا في أخاف لكونه رباعيا .

المدغم

" الصغير " لبثت . للبصري والشامي والأخوين وأبي جعفر .

" الكبير " بالخير لقضي ، زين للمسرفين ، خلائف في الأرض ، أظلم ممن ، كذب بآياته ، من بعد ضراء .

" قطعا " قرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب بإسكان الطاء ، والباقون بفتحها .

" ويوم نحشرهم " اتفق العشرة على قراءته بالنون في هذا الموضع .

" تبلو " قرأ الأخوان وخلف بتاءين من التلاوة ، والباقون بالتاء المثناة والباء الموحدة ، من الابتلاء وهو الاختبار .

" الميت " معا ، قرأ نافع وحفص والأخوان وخلف وأبو جعفر ويعقوب بتشديد الياء والباقون بتخفيفها .

" كلمت ربك " قرأ المدنيان وابن عامر بألف بعد الميم على الجمع ، والباقون بحذفها على الإفراد . وهو مما رسم بالتاء اتفاقا فمن قرأه بالجمع وقف عليه بالتاء . وأما من قرأه بالإفراد فمنهم من وقف بالهاء على أصل مذهبه وهم المكي والبصريان والكسائي ، ومنهم من وقف بالتاء وهم عاصم وخلف وحمزة .

" يبدؤا " رسمت الهمزة فيه على واو فيكون فيه لحمزة وهشام عند الوقف عليه خمسة أوجه: الإبدال والتسهيل بالروم والإبدال واوا مع الأوجه الثلاثة .

" يؤمنون " تؤفكون: القرآن ، يديه ، افتراه ، لا يبصرون ، يستأخرون ، جلي كله .

" أمن لا يهدي " قرأ شعبة بكسر الياء والهاء وتشديد الدال ، وقرأ حفص ويعقوب بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال . وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش بفتح الياء والهاء وتشديد الدال . وقرأ حمزة والكسائي وخلف بفتح الياء وإسكان الهاء وتخفيف الدال ، وقرأ أبو جعفر بفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال ، وقرأ أبو عمرو بفتح الياء واختلاس فتحة الهاء وتشديد الدال ، ولقالون وجهان: الأول: كأبي عمرو ، والثاني: كأبي جعفر ، وكلاهما صحيح مقروء به من طريق الحرز ، فاقتصار الشاطبي لقالون على الوجه الأول فيه قصور .

" تصديق " قرأ بإشمام الصاد صوت الزاي الأخوان وخلف ورويس ، والباقون بالصاد الخالصة .

" يأتهم " لا يخفى ما فيه من الإبدال وقرأ رويس بضم الهاء ، والباقون بكسرها .

" بريئون " وقف حمزة عليه بابدال الهمزة ياء وإدغام الياء التي قبلها فيها وليس له إلا هذا الوجه لزيادة الياء ولا يخفى ما فيه من ثلاثة البدل لورش .

" ولكن الناس " قرأ الأخوان وخلف بتخفيف النون وكسرها وصلا للساكنين ورفع الناس ، والباقون بتشديد النون مع فتحها ونصب الناس .

" ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا " قرأ حفص بالياء ، والباقون بالنون .

" إذا جاء أجلهم " قرأ قالون والبزي والبصري بإسقاط الأولى مع القصر والمد ، وقرأ ورش وقنبل وأبو جعفر ورويس بتسهيل الثانية بين بين . ولورش وقنبل وجه ثان ، وهو إبدالها حرف مد من جنس حركة ما قبلها فتبدل ألفا ولكن مع القصر لكون ما بعدها متحركا ، والباقون بتحقيق الهمزتين وقد سبق مثل هذا في جاء أحد منكم في سورة النساء .

(55/355)

" أرأيتم " قرأ أبو جعفر ونافع بتسهيل الهمزة الثانية بين بين ، ولورش إبدالها ألفا مع إشباع المد للساكنين . وقرأ الكسائي بحذفها : والباقون باثباتها محققة . وإذا وقف حمزة فليس له إلا تسهيلها .

" آلآن " أصل هذه الكلمة " آن " بهمزة مفتوحة ممدودة وبعدها نون مفتوحة وهى اسم مبني علم على الزمان الحاضر . ثم دخلت عليه أل التي للتعريف ثم دخلت عليه همزة الاستفهام فاجتمع فيها همزتان مفتوحتان متصلتان : الأولى همزة الاستفهام ، والثانية همزة الوصل

وقد أجمع أهل الأداء على استبقاء الهمزتين والنطق بهما معا وعدم حذف إحداهما ، ولكن ، لما كان النطق بهمزتين متلاصقتين فيه شيء من العسر والمشقة أجمعوا على تغيير الهمزة الثانية وإن اختلفوا في كيفية هذا التغيير ، فمنهم من غيرها بإبدالها ألفا مع المد المشبع نظرا لالتقاء الساكنين ، ومنهم من سهلها بين الهمزة والألف ، وهذان الوجهان جائزان لكل من القراء العشرة . وعلى وجه التسهيل لا يجوز إدخال ألف الفصل بينها وبين همزة الاستفهام لأحد من القراء ، وإليك بيان قراءة كل قارئ في هذه الكلمة: قرأ قالون وابن وردان بنقل حركة الهمزة التي بعد اللام إلى اللام وحذف الهمزة ، وحينئذ يكون لكل منهما ثلاثة أوجه: الأول: إبدال الهمزة الثانية التي هي همزة الوصل ألفا مع المد المشبع نظرا للأصل وهو سكون اللام ولعدم الاعتداد بالعارض وهو تحرك اللام بسبب نقل حركة الهمزة إليها . الوجه الثاني: إبدال همزة الوصل ألفا مع القصر طرحا للأصل واعتدادا بالعارض وهو تحرك اللام بسبب نقل حركة الهمزة إليها ، الثالث: تسهيل همزة الوصل بينها وبين الألف وهذه الأوجه الثلاثة جائزة لهما حال الوصل وحال الوقف . ويزاد لهما حال الوقف قصر اللام وتوسطها ومدها نظرا للسكون العارض للوقف .

(56/355)

فيكون لهما في حالة الوصل الثلاثة الأوجه السابقة ، وفي حالة الوقف تسعة أوجه حاصلة من ضرب الثلاثة المتقدمة في ثلاثة اللام ، ولخلف عن حمزة وجهان في حالة الوصل ، وهما : إبدال همزة الوصل ألفا مع إشباع المد للساكن ، وتسهيلها بين بين ، وكل منهما مع السكت ، وله في حالة الوقف عليسها خمسة عشر وجها : الوجهان السابقان ، والثالث: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع ومع نقل حركة الهمزة إلى اللام . والرابع: إبدالها ألفا مع القصر ، ونقل حركة الهمزة إلى اللام ، الخامس: تسهيل همزة الوصل مع نقل حركة الهمزة إلى اللام ، وعلى كل من هذه الأوجه الخمسة قصر اللام وتوسطها ومدها فتصير خمسة عشر وجها .

الأول: إبدال همزة الوصل ألفا مع إشباع المد ومع السكت . الثاني: تسهيلها بين بين مع السكت كذلك . الثالث: الإبدال مع المد الطويل وترك السكت . الرابع: التسهيل بين بين وترك السكت أيضا . وأما في الوقف فله ما لخلف من الأوجه الخمسة عشر السابقة .

وأما ورش فقد قرأ كقالون وابن وردان بنقل حركة الهزة إلى اللام وحذف الهمزة مع الأوجه الثلاثة المتقدمة لهما في همزة الوصل وهي إبدالها ألفا مع المد و القصر وتسهيلها بين بين . ولا يخفى أن له في مد البدل المغير بالنقل الواقع بعد اللام ثلاثة أوجه: القصر والتوسط والمد ، ولكن هذه الأوجه الثلاثة في البدل لا تتحقق على جميع أوجه همزة الوصل ، بل تتحقق على بعضها دون البعض الآخر ، وخلاصة ما ذكره العلماء لورش في هذه الكلمة أن له فيها

خمس حالات .

الأولى: انفرادها عن بدل سابق عليها . أو واقع بعدها مع وصلها .

الثانية: انفرادها عن بدل سابق عليها أو واقع بعدها مع الوقف عليها .

الثالثة: اجتماعها مع بدل قبلها مع وصلها .

الرابعة: اجتماعها مع بدل قبلها مع الوقف عليها .

الخامسة: اجتماعها مع بدل واقع عليها .

(57/355)

أما الحالة الأولى فله فيها سبعة أوجه: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع وعليه في اللام ثلاثة أوجه القصر والتوسط والمد ثم تسهيل همزة الوصل بين بين مع الأوجه الثلاثة السابقة في اللام ، ثم إبدال همزة الوصل ألفا مع القصر ، وعليه في اللام القصر فقط فتصير الأوجه سبعة .

وأما الحالة الثانية فله فيها تسعة أوجه: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع والقصر ثم تسهيلها بين بين ، وعلى كل من هذه الأوجه الثلاثة تثليث اللام .

وأما الحالة الثالثة ، وهي: اجتماعها مع بدل سابق عليها مع وصلها كاجتماعها مع آمنتم به

قبلها فله فيها ثلاثة عشر وجها : قصر البدل قبلها وهو آمنتم ، وعليه إبدال همزة الوصل مع المد والقصر ثم تسهيلها ، وعلى كل من هذه الأوجه الثلاثة قصر اللام ، ثم توسيط آمنتم وعليه إبدال همزة الوصل مع المد وتسهيلها ، وعلى كل منهما توسيط اللام وقصرها ، ثم إبدال الهمزة مع القصر ، وعليه قصر اللام فقط ثم مد آمنتم وعليه إبدال همزة الوصل مع المد وتسهيلها وعلى كل منهما مد اللام وقصرها ثم إبدال الهمزة مع القصر وعليه قصر اللام فقط فيكون على قصر آمنتم ثلاثة أوجه ، وعلى التوسط خمسة أوجه ومثلها على المد .

وأما الحالة الرابعة ، وهي : اجتماعها مع بدل سابق عليها مع الوقف عليها كالآية السابقة فله فيها سبعة وعشرون وجها : قصر آمنتم وعليه إبدال الهمزة مع المد والقصر ثم تسهيلها ، وعلى كل من هذه الأوجه الثلاثة تثليث اللام فتصير الأوجه تسعة على قصر آمنتم ، ثم توسط آمنتم ، وعليه إبدال الهمزة مع المد والقصر ثم تسهيلها ، وعلى كل من الثلاثة تثليث اللام . فتصير الأوجه تسعة على توسط آمنتم ، ثم مد آمنتم وعليه إبدال الهمزة ألفا مع المد والقصر ثم تسهيلها ، وعلى كل من الثلاثة تثليث اللام أيضا فتصير الأوجه تسعة كذلك على مد آمنتم ، فيكون مجموع الأوجه على كل من قصر البدل السابق وتوسطه ومده سبعة وعشرين وجها كما ذكرنا .

(58/355)

وأما الحالة الخامسة ، وهي: اجتماعها مع بدل واقع بعدها كقوله تعالى " آلآن وقد عصيت " إلى: آية ، فله فيها ثلاثة عشر وجها : إبدال همزة الوصل ألفا مع المد ومع قصر اللام وعلى هذا الوجه القصر والتوسط والمد في آية ، ثم توسط اللام وتوسط آية ثم مد اللام ومد آية ، ثم تسهيل همزة الوصل مع قصر اللام وعلى هذا الوجه تثليث آية ثم توسط اللام وآية ثم مدهما معا ثم إبدال همزة الوصل مع القصر ومع قصر اللام ، وعلى هذا الوجه تثليث آية ، فيكون على إبدال همزة الوصل مع المد خمسة أوجه ، وعلى تسهيلها خمسة أوجه . وعلى إبدالها مع القصر ثلاثة أوجه ، وقد نظمت هذه الحالات الخمس على هذا الترتيب بقولي:

الحالة الأولى: فهمزها امدد مبدلا وسهلا واللام ثلث معهما واقصر كلا

الحالة الثانية: ومد همزا واقصرن وسهلا واللام ثلث عند كل تفضلا

الحالة الثالثة: واقصر لآمنتم وفي الهمز خذا تثليثه واللام فاقصر تحتذى

وإن توسط بدلا فسهلا أو امددن في الهمز ثم مع كلا

في اللام توسيط وقصر واقصرا في الهمز واللام كما تحررا

وبدلا مد وفي الهمز انقلا مدا وتسهيلا تكن مبجلا

ومعهما في اللام فامدد واقصر واقصر لهمز مع لام تنصر

الحالة الرابعة: وإن تقف فالتسعة الأولى انقل على الثلاثة التي في البدل

الحالة الخامسة: ومد همزا ثم سهل واقصرا لاما وثلث بدلا تأخرا

وفيهما وسط أو امدد واجعل قصرا لهمز ثم لام تفضل

وبدلا ثلث وذي حالاتها خمسًا كما عن الثقات عدها

وأما الباقون فلكل منهم وجهان: الأول: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع للساكنين ،

الثاني: تسيهلها بين بين .

" قيل ، ظلموا " جلي .

" تكسبون " آخر الربع .

الممال

(59/355)

الحسنى بالإمالة للأصحاب والتقليل للبصري وورش بخلف عنه . يفترى وافتراه بالإمالة للأصحاب والبصري ، وبالتقليل لورش ، زيادة وذلة للكسائي بلا خلاف . النهار والنار للبصري والدوري بالإمالة ولورش بالتقليل ، فكفى ومولاهم ويهدى ومتى وأتاكم بالإمالة للأصحاب وبالتقليل لورش بخلف عنه . فأنى بالإمالة للأصحاب وبالتقليل لدوري البصري وورش بخلفه ، جاء معا ، وشاء لابن ذكوان وخلف وحمزة .

المدغم

" الصغير " هل تجزون لحمزة والكسائي وهشام .

" الكبير " السيئات جزاء ، نقول للذين ، يرزقكم ، كذلك كذب . أعلم بالمفسدين ، قيل للذين ، ولا إدغام في أفأنت تسمع ، ولا في أفأنت تهدي لاستثناء تاء المخاطب من الإدغام .

" ويستنبئونك " قرأ أبو جعفر بحذف الهمزة مع ضم الباء . ولحمزة في الوقف عليها ثلاثة أوجه: الأول: كأبي جعفر ، الثاني: تسهيلها بين بين ، الثالث: إبدالها ياء خالصة . ولا يخفى ما فيها من ثلاثة البدل لورش .

" هو " وقف يعقوب بهاء السكت .

" قل إي " فيه لورش النقل ، وفيه لخلف عن حمزة السكت وتركه وصلا ، وأما وقفا فله السكت وتركه والنقل ، وأما خلاد فله في الوصل التحقيق بلا سكت ، وله في الوقف النقل والتحقيق بلا سكت .

" وربي إنه " فتح الياء المدنيان والبصري ، وأسكنها الباقون .

" ظلمت " وإليه . منه ، قرآن . فيه . مبصرا . لا يخفى .

" ترجعون " قرأ يعقوب بفتح التاء وكسر الجيم ، والباقون بضم التاء وفتح الجيم ، ولا خلاف بينهم في قراءته بتاء الخطاب .

" فليفرحوا " يجمعون . قرأ رويس بتاء الخطاب في الفعلين ، وقرأ الشامي وأبو جعفر بياء الغيبة في الأول وتاء الخطاب في الثاني ، والباقون بياء الغيبة فيهما .

" أرأيتم " سبق قريبا .

" قل آلله " لكل من القراء وجهان: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع لاجتماع الساكنين وتسهيلها بين بين مع القصر ، ولا يخفى ما لورش من النقل ، وما لخلف عن حمزة ، وما لخلاد عنه وصلا ووقفا .

(60/355)

" شأن " أبدل الهمز في الحالين السوسي وأبو جعفر وعند الوقف فقط حمزة .

" يعزب " قرأ الكسائي بكسر الزاي ، والباقون بضمها .

" ولا أصغر ولا أكبر " قرأ يعقوب وخلف وحمزة برفع الراء فيهما ، والباقون بنصبها فيهما .

" لا خوف عليهم " تقدم أكثر من مرة .

" ولا يحزنك " قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي ، والباقون بفتح الياء وضم الزاي .

" شركاء إن " سهل الهمزة الثانية بين بين المدنيان والمكي والبصري ورويس وحققها الباقون ، وأجمعوا على تحقيق الأولى .

" يكفرون " آخر الربع .

الممال

جاءتكم ، لابن ذكوان وخلف وحمزة . هدى عند الوقف عليه للأصحاب بالإمالة ولورش بالتقليل بخلف عنه . الناس لدوري البصري ، البشرى بالإمالة للأصحاب والبصري وبالتقليل لورش . الدنيا معا بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري ، وورش بخلف عنه .

المدغم

" الصغير " قد جاءتكم للبصري وهشام والأخوين وخلف . إذ تفيضون مثله .

" الكبير " أذن لكم ، لا تبديل لكلمات الله ، جعل لكم ، الليل لتسكنوا ، سبحانه هو ولا إدغام في يحزنك قولهم لسكون ما قبل الكاف .

" فأجمعوا " قرأ رويس بوصل الهمزة وفتح الميم ، والباقون بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الميم .

" وشركاءكم " قرأ يعقوب برفع همزته ، والباقون بنصبها .

" ولا تنظرون " أثبت يعقوب الياء وصلا ووقفا ، وحذفها غيره كذلك ، وفيه ترقيق الراء لورش .

" أجري إلا " قرأ المدنيان والبصري والشامي وحفص بفتح الياء ، والباقون بإسكانها .

" عليهم فكذبوه . فنجيناه ، ليؤمنوا ، لسحر . أسحر . الساحرون . أجئتنا . عليه .

بمؤمنين " لا يخفى ما فيه .

" فرعون ائتوني " سبق مثله في لقاءنا ائت بقرآن .

" بكل ساحر " قرأ الأخوان وخلف بحذف الألف بعد السين وفتح الحاء وتشديدها وألف بعدها ، والباقون بإثبات الألف بعد السين وكسر الحاء وتخفيفها ولا ألف بعدها .

(61/355)

" به السحر " قرأ أبو عمرو وأبو جعفر بزيادة همزة استفهام قبل همزة الوصل وحينئذ تكون مثل آلذكرين وآلله من كل ما اجتمع فيه همزة استفهام وهمزة وصل فيكون لكل منهما وجهان: إبدال همزة الوصل ألفا مع المد المشبع للساكنين وتسهيلها بين بين وعلى قراءتهما توصل هاء الضمير في به بياء ، ويكون المد حينئذ منفصلا فيقصره السوسي وأبو جعفر بلا خلف عنهما . وللدوري فيه القصر والتوسط حسب مذهبه في المد المنفصل . والباقون بحذف همزة الاستفهام وإبقاء همزة الوصل فتثبت في حالة الابتداء وتسقط حالة الوصل ، وحينئذ يتعين حذف ياء الصلة في به نظرا لاجتماع الساكنين . ولا يخفى ما في السحر من ترقيق الراء لورش .

" أن تبوآ " قرأ العشرة بالهمز المحقق في الحالين إلا حمزة فإنه يسهله عند الوقف .

وأما ما حكى عن حفص من إبدال همزة ياء عند الوقف فلم يثبت عنه من طريق صحيح وقد صرح بذلك إمامنا الشاطبي في قوله: لم يصح فيحملا . فلا يقرأ بهذا الوجه لحفص .

" بيوتا ، بيوتكم ، الصلاة ، والمؤمنين " جلي كله .

" ليضلوا " قرأ الكوفيون بضم الياء ، والباقون بفتحها .

" ولا تتبعان " قرأ ابن ذكوان بتخفيف النون ، والباقون بتشديدها وهو كالجماعة في فتح التاء الثانية وتشديدها وكسر الباء الموحدة . وروي عنه وجه آخر ، وهو إسكان الثانية وفتح الباء الموحدة وتشديد النون ، ولكن هذا الوجه قال فيه الداني: إنه غلط ممن رواه عن ابن ذكوان فلا يقرأ به . وقد أشار إمامنا الشاطبي إلى هذا بقوله: وماج أي: اضطرب هذا الوجه .

" يعلمون " آخر الربع .

الممال

فجاء وهم وجاءهم وجاءكم وجاء لابن ذكوان وخلف وحمزة ، موسى كله والدنيا بالإمالة للأصحاب وبالتقليل للبصري وورش بخلف عنه . سحار لدوري الكسائي ولا إمالة فيه للبصري كما لا تقليل فيه لورش لأنهما يقرآن ساحر .

" الكافرين " بالإمالة للبصري والدوري ورويس ، وبالتقليل لورش .

المدغم

" الصغير " أجيبت دعوتكما : لسائر القراء .

(62/355)

" الكبير " قال لقومه ، نطبع على ، وما نحن لكما ، قال لهم ، آمن لموسى .

" إسرائيل " كله جلي .

" آمنت أنه " قرأ حمزة والكسائي وخلف بكسر همزة أنه ، والباقون بفتحها .

" الآن " سبق آنفا .

" ننجيك قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم ، والباقون بفتح النون الثانية وتشديد الجيم .

لمن خلفك ، كثيرا . بوأنا ، ينتظرون ، فانتظروا ، وهو ، خير ، كلها ظاهرة .

" فسأل " قرأ المكي والكسائي وخلف في اختياره بنقل فتحة الهمزة إلى السين مع حذف الهمزة ، والباقون بإسكان السين وبعدها همزة مفتوحة .

" كلمت ربك " قرأ المدنيان والشامي بألف بعد الميم على الجمع ، والباقون بحذف الألف على الإفراد ، وقد اختلفت المصاحف في رسمه فرسم في بعضها بالهاء ، وفي بعضها بالتاء

، ومن قرأ بالجمع وقف بالتاء .

وأما من قرءوا بالإفراد فإنهم جميعا يقفون بالهاء إذا جرينا على ما في بعض المصاحف من رسمها بالهاء ، وأما إذا جرينا على ما في البعض الآخر من رسمها بالتاء فإن كلا من المفردين يقف حسب مذهبه فيقف بالهاء المكي والبصريان والكسائي ، وبالتاء عاصم وحمزة وخلف .

" ويجعل " قرأ شعبة بالنون ، وغيره بالياء التحتية .

" قل انظروا " كسر اللام وصلا عاصم وحمزة ويعقوب ، وضمها الباقون .

" وما تغني الآيات " اتفقوا على إثبات الياء وقفا وحذفها وصلا لالتقاء الساكنين .

" ننجي رسلنا " قرأ يعقوب بإسكان النون الثانية وتخفيف الجيم ، وغيره بفتح النون وتشديد الجيم ، ولا خلاف بينهم في إثبات يائه في الحالين . وقرأ أبو عمرو بإسكان سين رسلنا والباقون بضمها .

" ننج المؤمنين " قرأ حفص والكسائي ويعقوب بإسكان النون وتخفيف الجيم ، والباقون بفتح النون وتشديد الجيم ووقف يعقوب على ننج بالياء ، ووقف الباقون بحذفها ، ولا خلاف بينهم في حذفها وصلا للساكنين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البدور الزاهرة صـ 144 . 154 ﴾

فصل فى حجة القراءات فى السورة الكريمة

قال ابن خالويه :

سورة يونس

قوله تعالى " الر "

يقرأ بكسر الراء وفتحها فالحجة لمن أمال أنه أراد التخفيف والحجة لمن فتح أنه أتى باللفظ على الأصل وكلهم قصروا الراء وأهل العربية يقولون في حروف المعجم إنه يجوز إمالتها وتفخيمها وقصرها ومدها وتذكيرها وتأنيثها قوله تعالى لسحر مبين يقرأ بإثبات الألف وحذفها فالحجة لمن أثبتها أنه أراد النبي صلى الله عليه وسلم والحجة لمن حذفها أنه أراد القرآن قوله تعالى يفصل الآيات يقرا بالياء والنون فالحجة لمن قرأه بالياء أنه أخبر به عن الله عز وجل لتقدم اسمه قبل ذلك والحجة لمن قرأه بالنون أنه جعله من إخبار الله تعالى عن نفسه بنون الملكوت لأنه ملك الأملاك قوله تعالى لقضي إليهم اجلهم يقرأ بضم القاف والرفع وبفتحها والنصب فالحجة لمن ضم القاف أنه بنى الفعل لما لم يسم فاعله فرفع به المفعول والحجة لمن فتح القاف أنه أتى بالفعل على بناء ما سمي فاعله وأضمر الفاعل فيه ونصب المفعول بتعدي الفعل إليه

قوله تعالى الشمس ضياء يقرا بهمزتين وبياء وهمزة فالحجة لمن قرأه بهمزتين أنه أخذه من قولهم ضاء القمر ضوءا أو أضاء ومن قرأه بياء وهمزة جعله جمعا ل ضوء وضياء كقولك بحر وبحار وهما لغتان أضاء القمر وضاء فإن قيل فما معنى قوله وقدره منازل وكلاهما مقدر فقل لما كان انقضاء الشهور والسنة وحسابهما بالقمر معلوما كان لذلك مقدرا ويجوز أن يكون أرادهما فاجتزأ بأحدهما من الآخر قوله تعالى ولا أدراكم به يقرأ بالتفخيم والإمالة فالحجة لمن قرأه بالتفخيم أنه أراد أن يأتي به على أصل الكلام والحجة لمن أمال أنه دل على الياء المنقلبة إلى لفظ الألف فأما ما روى عن ابن كثير أنه قرأ ولأدراكم به بالقصر فالحجة له أنه لا يمد حرفا لحرف وقد ذكر ذلك في أول البقرة قوله تعالى وتعالى عما يشركون يقرأ بالياء والتاء ها هنا وفي النحل في موضعين وفي النمل وفي الروم فالحجة لمن قرأهن بالياء أنه أخبر بها عن المشركين في حال الغيبة والحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد قل لهم يا محمد تعالى الله عما تشركون يا كفرة

قوله تعالى متاع الحياة الدنيا يقرأ بالرفع والنصب فلمن رفع وجهان أحدهما بالخبر لقوله إنما بغيكم متاع الحياة والآخر أن يجعل تمام الكلام عند قوله على أنفسكم ثم يرفع ما بعده بإضمار هو كما قال بشر من ذلكم النار أي هي النار والحجة لمن نصب أنه أراد الحال ونوى بالإضافة الانفصال أو القطع من تمام الكلام قوله تعالى قطعا من الليل مظلما يقرأ بفتح الطاء وإسكانها فالحجة لمن فتحها أنه أراد جمع قطعة على التكسير والحجة لمن أسكنها أنه أراد ساعة من الليل ودليله قوله فأسر بأهلك بقطع من الليل أو أراد الفتح فأسكن تخفيفا قوله تعالى هنالك تبلو يقرأ بالباء والتاء فالحجة لمن قرأه بالباء أنه أراد تختبر ودليله قوله يوم تبلى السرائر والحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد به التلاوة من القراءة ومعناه تقرؤه في صحيفتها ودليله وما كنت تتلو من قبله من كتاب قوله تعالى حقت كلمة ربك يقرأ بالتوحيد والجمع وإنما حمل من قرأه بالجمع على ذلك كتابته في السواد بالتاء وقد ذكرت علله آنفا قوله تعالى أمن لا يهدي يقرأ بفتح الياء وإسكان الهاء وكسر الدال والتخفيف وبفتح الهاء وكسر الدال والتشديد وبكسر الياء والهاء والدال وبفتح الياء وإسكان الهاء وتشديد الدال فيهما فالحجة لمن أسكن الهاء وخفف أنه أخذه من هدى في الماضي بتخفيف الدال والحجة لمن فتح الهاء وشدد أنه أخذه من اهتدى في الماضي

فأراد يهتدى ثم نقل فتحة التاء إلى الهاء فبقيت التاء ساكنة فأدغمها في الدال للمقاربة فشدد لذلك والحجة لمن كسر الهاء والياء قبلها وشدد أنه أراد ما ذكرناه في التاء إلا أنه لم ينقل الحركة بل حذفها وأسكن التاء فالتقى ساكنان فكسر الهاء لالتقائهما وكسر الياء لمجاورة الهاء والحجة لمن أسكن الهاء وشدد الدال فجمع بين ساكنين أنه أراد نية الحركة في الهاء ومثل هذا إنما يحسن فيما كان أحد الساكنين حرف مد أولين لأن المد الذي فيه يقوم مقام الحركة فأما ما رواه اليزيدي عن أبي عمرو أنه كان يسكن الهاء ويشمها شيئا من الفتح فإنه وهم في الترجمة لأن السكون ضد الحركة ولا يجتمع الشيء وضده ولكنه من إخفاء الفتحة واختلاسها لا من الإسكان قوله تعالى هو خير مما يجمعون يقرا بالياء والتاء فالحجة لمن قرأه بالياء أنه رده على قوله فبذلك فليفرحوا فجاء بالياء على وجه واحد والحجة لمن قرأه بالتاء أنه أراد بها مواجهة الخطاب للصحابة واحتج بأنه قد قرئ فلتفرحوا بالتاء وهو ضعيف في العربية لأن العرب لم تستعمل الأمر باللام للحاضر إلا فيما لم يسم فاعله كقولهم لتعن بحاجتي ومعنى فبذلك إشارة إلى القرآن لقوله قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور يعنى به القرآن لقوله هو خير مما يجمع الكفرة قوله تعالى وما يعزب يقرا بضم الزاي وكسرها ومعنى يعزب يبعد ويغيب ومنه قولهم المال عازب في المرعى وقد تقدم القول في الضم والكسر فأغنى عن الأعادة قوله تعالى ولا أصغر من ذلك ولا أكبر يقرآن

بالنصب والرفع فالحجة لمن نصبهما أنهما في موضع خفض بالرد على قوله وما يعزب عن ربك من مثقال ولم يخفضا لأنهما على وزن أفعل منك وما كان على هذا الوزن لم ينصرف في معرفة

(67/355)

ولا نكرة والحجة لمن قرأه بالرفع أنه رده على قوله مثقال ذرة قبل دخول من عليها فرد اللفظ على المعنى لأن من ها هنا زائدة قوله تعالى فأجمعوا أمركم يقرا بقطع الألف ووصلها فالحجة لمن قطع أنه أخذه من قولهم أجمعت على الأمر إذا أحكمته وعزمت عليه وأنشد يا ليت شعري والمنى لا تنفع هل أغدون يوما وأمري مجمع والحجة لمن وصل أنه أخذه من قولهم جمعت ودليله قوله تعالى ربنا إنك جامع الناس فهنا من جمعت لا من أجمعت قوله تعالى ما جئتم به السحر يقرا بالاستفهام وبتركه فالحجة لمن استفهم أنه جعل ما فيه بمعنى أي شيء جئتم به السحر هو دليله قوله تعالى أسحر هذا وهي ألف التوبيخ بلفظ الاستفهام لأنهم قد علموا أنه سحر والحجة لمن ترك الاستفهام أنه جعل ما بمعنى الذي يريد الذي جئتم به السحر ف ما مبتدأة وجئتم صلة ما وبه عائدها والسحر خبر الابتداء ف ما والذي ها هنا بمعنى قوله تعالى ولا تتبعان يقرا بإسكان التاء وتخفيفها وبفتحها

وتشديدها فالحجة لمن خفف أنه اخذه من تبع يتبع والحجة لمن شدد أنه أخذه من أتبع يتبع وهما لغتان معناهما واحد والنون مشددة لتأكيد النهي ودخولها على الفعل مخففة

(68/355)

ومشددة في أربعة مواضع للتأكيد في الأمر والنهي والاستفهام والجزاء وتخرج منه ولها أحكام قوله تعالى آمنت أنه يقرأ بكسرة الهمزة وفتحها فالحجة لمن كسر أنه جعل تمام الكلام عند قوله تعالى آمنت ثم ابتدأ إن فكسرها والحجة لمن فتح أنه وصل آخر الكلام بأوله وهو يريد آمنت بأنه فلما أسقط الباء وصل الفعل إلى أن فعمل فيها قوله تعالى الآن يقرا بإسكان اللام وتحقيق الهمزة بعدها وبفتح اللام وتخفيف الهمزة الثانية فالحجة لمن حقق أنه أتى بالكلام على اصل ما وجب له ووفاه حقه والحجة لمن خفف أنه نقل حركة الهمزة إلى اللام الساكنة فحركها بحركتها وأسقطها كما قرأ قد أفلح المؤمنون قد أفلح بفتح الدال وتخفيف الهمزة فإن قيل لم بني الآن وفيه الألف واللام فقل قال الفراء أصله أوان أن فقلبوا الواو ألفا فصار آآن ثم دخلت اللام على مبني فلم تغيره عن بنائه واستشهد على ذلك بقول الشاعر فإني حبست اليوم والأمس قبله ببابك حتى كادت الشمس تغرب فأدخل الألف واللام على مبني ولم يغيره عن بنائه وقال سيبويه الآن إشارة إلى وقت أنت فيه بمنزلة هذا والألف

واللام تدخل لعهد قد تقدم فلما دخلت ها هنا لغير عهد ترك مبنيا وقال المبرد إنما بني الآن مع الآلف واللام لأن معرفته وقعت قبل نكرته وليس يشركه غيره في التسمية فتكون الألف واللام معرفة له وإنما تعني به الوقت الذي أنت فيه

(69/355)

من الزمان فلذلك بني وخالف نظائره من الأسماء قوله تعالى ويوم نحشرهم يقرا بالياء والنون وعلته قد أتى عليها فيما تقدم قوله تعالى ننجي المؤمنين يقرا بالتخفيف والتشديد والحجة لمن خفف أنه أخذه من أنجينا ننجي ودليله قوله تعالى أنجينا الذين ينهون عن السوء والحجة لمن شدد أنه أخذه من نجينا ننجي ودليله قوله تعالى ونجيناهم من عذاب غليظ والتشديد أولى لإجماعهم عليه في الأولى قوله تعالى ويجعل الرجس على يقرا بالياء والنون فالحجة لمن قرأ بالياء أنه رده على قوله إلا بإذن الله ويجعل والحجة لمن قرأه بالنون أنه رده على قوله فاليوم ننجيك ببدنك ونجعل قوله تعالى أن تبوءا وزنه تفعلا يوقف عليه بالهمزة وألف بعدها وبترك الهمز وبياء مكان الهمزة وألف بعدها فالحجة لمن همز أنه أتى به على أصله فوقف عليه كما وصله والحجة لمن أسقطها أنه قنع بالإشارة منها لوقوعها طرفا فجرى على أصله والحجة لمن قلبها ياء أنه لينها فصارت ألفا والألف لا تقبل الحركة فقلبها ياء لأن الياء أخت

الألف في المد واللين إلا أنها تفضلها بقبول الحركة . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الحجة فى القراءات السبعة صـ 179.185 ﴾

(70/355)

وقال ابن زنجلة :

10 - سورة يونس عليه السلام

قرأ نافع وابن كثير وحفص آلر بفتح الراء وقرأ الباقون بكسر الراء وهما لغتان أهل الحجاز يقولون وباء وثاء وراء وطاء وغيرهم يقولون باء وتاء وراء وطاء

أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم قال الكفرون إن هذا لسحر مبين 2

قرأ ابن كثير وأهل الكوفة قال الكافرون إن هذا لساحر مبين بالألف قوله إن هذا إشارة إلى المرسل وحجتهم قوله أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس فقال الكافرون إن هذا يعني النبي صلى الله عليه لساحر مبين

وقرأ الباقون سحر مبين بغير ألف يعنون القرآن وحجتهم أن السحر يدل على الساحر لأن الفعل لا يكون إلا من فاعل والساحر قد يوجد ولا يوجد معه السحر

هو الذي جعل الشمس ضياء ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون 5

قرأ ابن كثير في رواية القواس جعل الشمس ضئاء بهمزتين وحجته قوله تعالى رئاء الناس و ضئاء جمع ضوء مثل بحر وبحار والأصل ضواء فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها فصارت ضياء كما تقول ميزان وميقات وجائز أن يكون الضياء مصدرا مثل الصوم والصيام والأصل صوام فقلبت الواو ياء تقول ضاء القمر يضوء ضوءا وضياء كما تقول قام يقوم قياما

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص يفصل الآيات بالياء إخبار عن الله وحجتهم قوله ما خلق الله ذلك إلا بالحق فجعلوا الفعل مسندا إليه بلفظ التوحيد فكأنه قال يفصل الله الايات وقرأ الباقون نفصل بالنون وحجتهم أن ما جاء في القرآن من قوله فصلنا و نفصل بلفظ الجمع كثير فألحق به ما كان له نظيرا ليكون الكلام على سياق واحد

ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم 11

قرأ ابن عامر لقضى إليهم بفتح القاف والضاد أجلهم ذهب أي لقضى الله إليهم أجلهم وحجته قوله ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم وقرأ الباقون لقضي إليهم أجلهم على ما لم يسم فاعله

قل لو شاء الله ما تلوته عليك ولا أدرلكم به 16

قرأ ابن كثير ولأدراكم به بغير مد لأنه كان لا يرى مد حرف لحرف

وقرأ الباقون ولا أدراكم أي ولا أدراكم الله به أي ولا أعلمكم به أي ولا أنزل هذا القرآن عليكم

ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون 18

قرأ حمزة والكسائي سبحانه وتعالى عما تشركون بالتاء وحجتهما أن ذلك أتى عقيب المخاطبة فأجرى الكلام على لفظ ما تقدمه وذلك قوله تعالى قل أتنبئون الله بما لا يعلم وقرأ الباقون بالياء وحجتهم قوله ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ولم يقل وتعبدون ما لا يضركم فلذلك جاء الإخبار في قوله عما يشركون ولأن القرآن هو مخاطبة للنبي صلى الله عليه وآله وأصحابه

هو الذي يسيركم في البر والبحر 22

قرأ ابن عامر هو الذي ينشركم بالنون والشين أي يبثكم وهو من النشر وحجته قوله تعالى فانتشروا في الأرض وقرأ الباقون يسيركم من التسيير أي يحملكم في البر والبحر وعن ابن عباس يحفظكم إذا سافرتم

إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحيوة الدنيا 23

قرأ حفص عن عاصم متاع الحياة الدنيا وقرأ الباقون متاع بالرفع ورفعه من وجهين أحدهما أن يكون متاع الحياة الدنيا خبرا لقوله تعالى بغيكم على أنفسكم والوجه الثاني أن يتم الوقف على قوله بغيكم على أنفسكم ثم يبتدأ متاع الحياة على تقدير هو متاع فيكون خبر الابتداء قال الزجاج ومعنى الكلام أن ما تنالونه لهذا الفساد والبغي تتمتعون به في الدنيا

كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلما 27

قرأ الكسائي وابن كثير قطعا من الليل ساكنه الطاء وإسكانه على وجهين أحدهما أن تريد أن تجمع قطعة قطعا كما تقول في سدرة وسدر وبسرة وبسر وإن شئت جعلت القطع واحدا تريد ظلمة من الليل أو بقية من سواد الليل وقوله مظلما من نعت القطع

(72/355)

وقرأ الباقون قطعا بفتح الطاء جمع قطعة مثل خرقة وخرق وكسرة وكسر وإنما اختاروا الجمع لأن معنى الكلام كأنما أغشي وجه كل إنسان منهم قطعة من الليل ثم جمع ذلك لأن الوجوه جماعة وجعلوا مظلما حالا من الليل المعنى أغشيت وجوههم قطعا من الليل في حال ظلمته

اعلم أن من حرك الطاء جعل مظلما حالا لليل كما ذكرنا لأنه لو كان من نعت القطع كانت

مظلمة لأن القطع جمع

هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت 30

قرأ حمزة والكسائي هنالك تتلو بالتاء قال الأخفش تتلو من التلاوة أي تقرأ كل نفس ما أ سلفت وحجته قوله اقرأ كتابك وقال آخرون تتلو أي تتبع كل نفس ما أسلفت

وقرأ الباقون تبلو بالباء أي تخبر وتعاين ومعنى تخبر تعلم كل نفس ما قدمت من حسنة أو سيئة

كذلك حقت كلمت ربك 33

قرأ نافع وابن عامر وكذلك حقت كلمات بالألف وكذلك الذي بعده وحجتهما أنهما كتبتا في المصاحف بالتاء

وقرأ الباقون كلمة ربك وحجتهم إجماع الجميع على التوحيد في قوله وتمت كلمة ربك فردوا ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه

أمن لا يهدي إلا أن يهدى 35

قرأ نافع أمن لا يهدي بإسكان الهاء وتشديد الدال الأصل يهتدي فأدغمت التاء في الدال وتركت الهاء ساكنة كما كانت

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وورش أمن لا يهدي بفتح التاء والهاء وتشديد الدال والأصل يهتدي فأدغموا التاء في الدال وطرحوا فتحتها على الهاء واحتجوا بقراءة عبد

الله أمن

لا يهتدي وكان ابن عباس يقول إن محمد صلى الله عليه دعا قومه إلى دين الله وأرشدهم إلى طاعته فعصوه وهو أحق أن يتبع أم من لا يهتدي إلا أن يهدى أي يرشده غيره

قرأ حمزة والكسائي أمن لا يهدي ساكنة الهاء خفيفة الدال وحجتهما في ذلك أن يهدي في معنى يهتدي تقول هديت غيري وهديت أنا على معنى اهتديت قال الفراء العرب تقول هدى واهتدى بمعنى واحد وهما جميعا في أهل الحجاز وسمع أعرابي فصيح يقول إن السهم لا يهدي إلا بثلاث قذذ أي لا يهتدي

(73/355)

قرأ عاصم في رواية أبي بكر أمن لا يهدي بكسر الياء والهاء أراد يهتدي فأدغم التاء في الدال فالتقى ساكنان فكسر الهاء لالتقاء الساكنين وكسر الياء لمجاورة الهاء وأتبع الكسرة الكسرة

وقرأ حفص أمن لا يهدي يفتح الياء وكسر الهاء في الجودة كفتح الهاء في الجودة والهاء مكسورة لالتقاء الساكنين

ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من نهار 45

قرأ حفص ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا بالياء إخبار عن الله وقرأ الباقون بالنون الله يخبر عن نفسه

آلآن وقد كنتم به تستعجلون 51

قرأ نافع آلان بفتح اللام وإسقاط الهمزة نقل فتح الهمزة إلى اللام كما قرأ ورش الأرض ألاخرة وقرأ إسماعيل عن نافع آلان بإسكان اللام وبه قرأ الباقون على أصل الكلمة

فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون 58

قرأ يعقوب في رواية رويس فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون بالتاء فيهما

اعلم أن كل أمر للغائب والحاضر لابد من لام تجزم الفعل كقولك ليقم زيد لينفق ذو سعة وكذلك إذا قلت قم واذهب فالأصل لتقم و لتذهب بإجماع النحويين فتبين أن المواجهة كثر استعمالهم لها فحذفت اللام اختصارا وإيجازا واستغنوا ب افرحوا عن لتفرحوا و ب قم عن لتقم فمن قرأ بالتاء فإنما قرأ على الأصل وجته أنها عن النبي صلى الله عليه و سلم عن أبي بن كعب قال قال لي رسول الله صلى الله عليه و سلم

أمرت أن أقرأ عليك قال قلت وقد سماني ربك قال نعم قال فقرأ علي يعني النبي صلى الله عليه قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فلتفرحوا هو خير مما تجمعون بالتاء وقد روي عن النبي صلى الله عليه

أنه قال لتأخذوا مصافكم أي خذوا مصافكم فهذا أمر المواجهة

وقرأ ابن عامر خير مما تجمعون بالتاء أي تجمعون أنتم من أعراض الدنيا

وقرأ الباقون فليفرحوا ويجمعون بالياء فيهما على أمر الغائب أي ليفرح المؤمنون بفضل الله أي الإسلام وبرحمته أي القرآن خير مما يجمعه الكافرون في الدنيا

(74/355)

وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين 61

قرأ الكسائي وما يعزب بكسر الزاي وقرأ الباقون بالرفع وهما لغتان تقول عزب يعزب ويعزب مثل عكف يعكف ويعكف

قرأ حمزة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالرفع فيهما رد على قوله من مثقال ذرة لأن موضع مثقال رفع قبل دخول من لأنها زائدة التقدير ما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين

قال الزجاج ويجوز رفعه من جهة أخرى على الابتداء ويكون المعنى ولا ما هو أصغر من ذلك ولا ما هو أكبر إلا في كتاب مبين

وقرأ الباقون ولا أصغر ولا أكبر بالفتح على معنى ما يعزب عن ربك من مثقال ذرة ولا مثقال

أصغر من ذلك ولا أكبر والموضوع موضع خفض إلا أنه فتح لأنه لا ينصرف

وقال فرعون ائتنوني بكل سحر عليم 79

قرأ حمزة والكسائي بكل سحار عليم وقرأ الباقون ساحر الألف قبل الحاء وقد ذكرنا الحجة في سورة الأعراف

قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله 81

قرأ أبو عمرو ما جئتم به آلسحر بالمد جعل ما بمعنى أي والتقدير أي شيء جئتم آلسحر هو استفهام على جهة التوبيخ لأنهم قد علموا أنه سحر فقد دخل استفهام على استفهام فلهذا يقف على قوله ما جئتم به ثم يبتدئ آلسحر بالرفع وخبره محذوف المعنى الحسر هو

وقرأ الباقون ما جئتم به السحر و ما على هذه القراءة في معنى الذي جئتم به السحر و الذي ابتداء و السحر خبر الابتداء كما تقول الذي مررت به زيد

ربنا ليضلوا عن سبيلك 88

قرأ أهل الكوفة ليضلوا بضم الياء أي ليضلوا غيرهم وحجتهم في ذلك أن ما تقدم من وصف فرعون بما وصف أنه بذلك ضال غير مهتد فكان وصفه بعد ذلك بأنه مع ذلك مضل لغيره ويزيد الكلام فائدة ومعرفة ما لم يكن مذكورا فيما تقدم من وصفه

وقرأ الباقون ليضلوا بفتح الياء أي ليضلوا هم وحجتهم قوله إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وقد ضلوا

قال قد أجيبت دعوتكم فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون 89

قرأ ابن عامر ولا تتبعان بتخفيف النون المعنى فاستقيما وأنتما لا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون وهو الذي يسميه بعض أهل العربية الحال والمعنى فاستقيما غير متبعين سبيل الذين لا يعلمون

وقرأ الباقون بالتشديد ولا تتبعان بالتشديد موضع تتبعان جزم إلا أن النون ا لشديدة دخلت للنهي مؤكدة وكسرت لسكونها وسكون النون التي قبلها واختير له الكسر لأنها بعد الألف وهي تشبه نون الاثنين

قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل 90

قرأ حمزة والكسائي قال آمنت إنه بكسر الألف وحجتهما أن كلام متناه عند قوله آمنت وأن الإيمان وقع على كلام محذوف نظير قوله ربنا إننا آمنا فاكتبنا ولم يذكر ما وقع الإيمان عليه وتقديره آمنت بما كنت به قبل اليوم مكذبا ثم استأنف إنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل

وقرأ الباقون آمنت أنه بالفتح على تقدير آمنت بأنه فلما سقط الخافض عمل الفعل فنصب

ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين 103

قرأ الكسائي وحفص كذلك حقا علينا ننجي المؤمنين خفيفة وقرأ الباقون بالتشديد وهما لغتان تقول أنجى ينجي ونجى ينجي مثل كرم وأكرم وعظم وأعظم وحجة من شدد هي أن أكثرهم أجمعوا على تشديد قوله ثم ننجي رسلنا فرد ما اختلفوا فيه إلى ما أجمعوا عليه وحجة من خفف قوله ونجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين وقول فمهل الكافرين ثم قال أمهلهم رويدا فجمع بينهما لمعنى واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿حجة القراءات صـ 327. 337﴾

(76/355)

أسئلة وأجوبة فى السورة الكريمة

قال الخطيب الإسكافى :

سورة يونس عليه السلام

100 الآية الأولى منها

قول تعالى : (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم . .) يونس : 18

وقال في سورة الفرقان55 : (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم . . .)

للسائل أن يسأل عن تقديم (يضرهم) على (ينفعهم) في الآية الأولى ، وتقديم (ينفعهم) على (يضرهم) في الآية الثانية ؟ وهل صلح أحدهما مكان الآخر ؟ .

فالجواب ان يقال : إنما قدم : (ما لا يضرهم) على (لا ينفعهم) في الآية الأولى لأن العبادة تقام للمعبود خوفا من العقاب أولا ، ثم رجاء للثواب ثانيا ، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم (ما لا يضرهم) على (لا ينفعهم) في الآية الأولى ، وهو قوله : (. . إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) يونس : 15 فكأنه قال : ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضررا في معصيته ، ولا يرجون نفعا في طاعته ، فتقدم (ما لا يضرهم) على (لا ينفعهم) في هذا المكان لهذا المعنى ولهذا اللفظ المتقدم .

وأما سورة الفرقان فقد تقدمت فيها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون كقوله عز وجل : (وهو الذي مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج . .) الفرقان : 53 ، وكقوله بعده : (وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا) الفرقان : 54 ، وصلة النسب أفضل من صلة المصاهرة ، كما أن العذب من الماء أفضل من الملح ، وقال بعده : (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم) أي : يتكلفون المشقة بعبادة ما لا يرجونه لنفع ، ولا يخشونه لضر ، فقدم الأفضل على الأدون لهذا المعنى ، وللبناء على ما تقدم من الآيات ، فجاء في كل موضع على ما اقتضاه ما تقدم ، وصح المعنى الذي اعتمد عليه .

101 الآية الثانية منها

قوله تعالى (. . فلماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون* كذلك حقت كلمة ربك الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) يونس : 32-33 .

(77/355)

وقال في سورة المؤمن 5-6 (. . وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب* وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) .

للسائل أن يسأل في هاتين الآيتين عن ثلاث مسائل :

إحداهما : دخول الواو على (كذلك) في سورة المؤمن وخلوها منها في سورة يونس .

والثانية قوله في الأولى : (على الذين فسقوا) وفي الثانية : (على الذين كفروا) .

والثالثة : قوله في يونس : (أنهم لا يؤمنون) وفي المؤمن (أنهم أصحاب النار) .

والجواب عن المسألة الأولى ، وهي ترك الواو في هذا الموضع وإثباتها في سورة المؤمن : أن القصة بعد (كذلك) هي التي قبلها ، فهي مرتبطة بها بعودها إليها ، وبكاف التشبيه ، فاستغنت بهذين

الرابطين عن حرف العطف ، هؤلاء الذين حقت عليه كلمة الله ، أنهم لا يؤمنون ، هم الذين

خوطبوا بقوله : (قل من يرزقكم من السماء والأرض . . .) يونس : 31 .

وليس كذلك ما في سورة المؤمن ، لأنه وإن تعلق به بكاف التشبيه فإنه ينقطع عنه بأن المذكورين بعد كذلك غير المذكورين قبلها ، ألا ترى أن قوله : (كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل . .) المؤمن : 5 خبر عن الذين كانوا قبل النبي وما بعد قوله : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) المؤمن : 6 إنما هو وعيد لمن هو في عصره عليه الصلاة والسلام ، فلمت انقطع ما بعد كذلك هنا عما قبلها احتاج إلى الواو ، وما في سورة يونس لما لم ينقطع ما بعدها عما قبلها لم يحتج إليها .

(78/355)

والجواب عن اختصاصه بقوله (على الذين فسقوا) في سورة يونس ، واختصاص ما في سورة المؤمن بقوله : (على الذين كفروا) فلأن الأول في ذكر قوم أخبر عنهم بقوله : (قل من يرزقكم من السماء والأرض . .) يونس : 31 فأخذ إقرارهم بأن الله تعالى هو الذي يرزقهم من مطر السماء ونبات الأرض ، وهو الذي يملك أسماعهم وأبصارهم ، فإن أحب سمعوا وأبصروا. وإن لم يرد ذلك صموا وعموا ، وهو الذي يخرج الحي من الميت كالفرخ من

البيضة ، ويخرج الميت من الحي كالبيضة من الدجاجة ، وأنه هو الذي يدبر أمور الخلق من ابتداء أحوالهم إلى انتهائها ، وكانوا ممن أخبر الله تعالى عنهم بقوله : (. . . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . . .) الزمر : 3 فباينوا بإثبات الصانع وما زعموه من معرفة الخالق من أنكره وجحد بآياته ، وفسقوا بأن عبدوا معه غيره ، ولم يثبتوا النبي ونبوته الفسق الذي هو كفر لا ينفع معه الإقرار الاول ، فقال تعالى : هؤلاء الذين أقروا بالصانع وصفات فعله ، ثم خرجوا عما دخلوا فيه بإنكار نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعبادة آلهة مع الله تعالى كان ذلك فسقا لخروجهم عن حكم من يقر بما أقروا به ، والفسق فسقان :

أحدهما هو الكفر ، وتسميته به لهذا الوجه الذي قلناه ، وهو كقوله تعالى : (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار) السجدة : 20 .

والثاني فسق ليس بكفر كقوله تعالى : (ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون) النور : 4 ليس المراه بهد الكافرين ، فأخبر عن هؤلاء ب (الذين فسقوا) في سورة يونس لذلك .

وأما في سورة المؤمن فإنه لم يتقدمه مثل ما تقدم هنا ، بل قال تعالى قبله : (ما يجادل في آيات الله الذين كفروا فلا يغررنك تقلبهم في البلاد * كذبت قبلهم قوم نوح . . .) المؤمن : 4-5 فأخبر عن

الكفار الذين في عصره بأنهم كفروا بمجادلتهم في آيات الله ، فشبههم بالقوم الذين مضوا قبلهم حيث قال (. . وهمت كل أمة بسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق . .) المؤمن : 5 ثم قال تعالى : (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) المؤمن : 6 فلما أراد الذين قدم ذكرهم من أول القصة ، وهو الذين أخبر عنهم بقوله) ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررنك تقلبهم) المؤمن : 4 كان أن يصفهم بما وصفهم به قبل من الكفر أولى وأدل على أن المعنيين بوجوب النار لهم ، هم الذين قدم ذكرهم .

والجواب عن المسألة الثالثة ، وهي : (كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا ؤمنون) يونس : 33 وقوله في سورة المؤمن 6 : (أنهم أصحاب النار) فلأنه تعالى أراد أن يبين أنهم وإن أقروا بالله تعالى وأثبتوه خالقا قادرا صانعا غير مؤمنين ، وما داموا يعبدون غير لا يؤمنون ، فالقصد إلى إبطال ما بذلوه بألسنتهم من الإقرار بخالقهم ، والقصد في الآية التي في سورة المؤمن توعدهم على كفرهم بالنار إذ لم يتقدم ذكر إقرار يشبه إقرار المؤمنين ، فيبطل بتركهم سائر ما أمر الله تعالى به .

102 الآية الثالثة منها

قوله تعالى : (ألا إن لله ما في السموات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون) يونس : 55 .

وقال بعده في العشر التي تلي هذه العشر : (ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء . . .) يونس : 66 .

وقال بعده في هذه العشر : (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض إن عندكم من سلطان بهذا . . . .) يونس : 68 .

للسائل أن يسأل في ذلك عن مسائل :

إحداهما : لماذا كان في الآية الأولى : (ما في السموات والأرض) وفي الثانية : (من في السموات ومن في الأرض) وهل صلح من في الآية الأولى ، وما في الثانية ؟

(80/355)

والمسألة الثانية : ما الذي دعا إلى التوكيد في من حتى أعدت في قوله : (ومن في الأرض) ، ولم تعد ما في الآية الأولى عند ذكر الأرض ؟ .

والمسألة الثالقة عما دعا إلى تكرير ما في قوله : (له ما في السموات وما فيالأرض) ولم يكررها

في الآية الأولى في قوله : : (ألا إن لله ما فغي السموات والأرض . .) ولم يقل : وما في الأرض ؟ .

فالجواب عن المسألة الأولى ، واختصاص ما حيث اختصت ، واختصاص من حيث اختصت ، هو أن الأولى جاءت بعد قوله تعالى : (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به . .) ونس 54 ، فكان المعنى : أن النفس الظالمة إذا رأت عذاب الله تعالى لو ملكت جميع ما في الأرض لبذلته في فداء نفسها ، وهي تحرص على اليسير من حطامها في ظلم أهلها ، فكرر على ذلك بقوله : (ألا إن لله ما في السموات والأرض) يونس 55 أي أن النفس الظالمة لا تملك ما في الأرض فتفتد به ، ولو ملكته لما قبل في فدائها ، وكيف يكون لها ذلك ؟

والله تعالى مالك ما في السموات والأرض ، وليس للعبد ذلك ، ولا محله هنالك ، يوجب لهذا المكان ما لقوله : (ما في السموات والأرض) ، والمراد : نفائس ما في الأرض مما ملكه الله تعالى العباد .

وأما الموضع الذي ذكر فيه من فلم يصح فيها غيرها ، لأن قبله (ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعا هو السميع العليم* ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض) يونس : 65-66 والمعنى : لا يحزنك ما يتوعدك به الكفار من القتل وأنواع المكروه فغن العزة لله تعالى ، لا يمنح الكفار قدرة على ما يريدونه منك ، بل يعطيك القدرة عليهم ، والغلبة لهم ، فإنه يملك من في

السموات ومن في الأرض ، ولا قوة لهم إلا به ، ولا قدرة لهم إلا من عنده ، فاقتضى هذا المكان من كما رأيت .

(81/355)

والجواب غ عن المسألة الثانية ، والسبب في إعادة من فيها ، وترك إعادة ما في الآية الأولى فقال : (ومن في الأرض) وقال هناك : (ألا إن لله ما في السموات والأرض) ولم يقل : ما في الأرض ، فلأن المقصود بالذكر أنه قادر على أن يكفي النبي أمره هو ، من في الأرض من الكفار الذين بعث إليهم وخوفوه أذاهم ، فقرن إلى ذكرهم ذكر من في السموات ، وهم أكبر شأن وأعظم أمرا ، فإذا ملكوا كان من دونهم أدون ، فإعادة من مع ذكر الأرض للتوكيد الذي اقتضاه القصد إلى ذكرهم .

وأما حذف ما في الآية الأولى عند ذكر الأرض فلأن ذكرها قد تقدم ، وهو : (ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض) فلما قال : (ألا إن لله ما في السموات والأرض) كان ما في ذكر الأرض هناك ، ورجوع هذا إلى ذلك المعنى مثل ذكره في هذا الموضع ، فأغنى ذلك عن التكرير .

والجواب عن المسألة الثالثة ، وهي تكرير ما في قوله تعالى : (. . له ما في السموات وما في

الأرض) يونس : 68 مع حذفها من الآية الأولى ، هو أن قبله : (قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو

الغني له ما في السموات وما في الأرض) يونس : 68 فنزه نفسه تعالى عن الولد ، وأخبر أنه غني عما يجلب باتخاذه ، ويستفاد بمكانه ، إذ كان مالكا لكل ما في السموات وما في الأرض ، فكان الموضع موضع توكيد ، فكأنه قال : إذا كان له كل ما في السموات وما في الأرض ، فلماذا يتخذ الولد ؟ ولا يجوز عليه اجتلاب مسرة وانتفاع به ، لأنه هو الغني بنفسه ، فإعادة ما في هذا المكان لهذا الضرب من التوكيد ، أي هو غني لا يحتاج إلى ولد يعينه على شيء مما في السموات ، وهو مالك له كله ، ولا إلى أن يعينه على شيء مما في الأرض ، وهو مالك له بأسره ، فلما تأكد الكلام في مثل هذا المكان جاءت ما معادة لهذا الشأن والله تعالى أعلم .

103 الآية الرابعة منها

قوله تعالى : (. . وأمرت أن أكون من المؤمنين) يونس : 104 .

وقال في سورة النمل في آخرها 91 : (. . . وأمرت أن أكون من المسلمين)

للسائل أن يسأل عن اختصاص هذا المكان ب (المؤمنين) واختصاص آخر سورة النمل ب (المسلمين) ؟

والجواب أن يقال : أن قبل هذه الآية في سورة يونس قوله تعالى : (ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا ننج المؤمنين) يونس : 103 فقال بعده : وأمرت أن أكون منهم .

وأما في سورة النمل فإن قبل هذه الآية منها : ((وما أنت بهادي العمي عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) النمل : 81 فكأنه قال : وأمرت أن أكون ممن إذا سمع بآياته آمن بها ، وكان من المسلمين الذين مدحوا بأن النبي يسمعهم ، إذا ينتفعون بما يسمعونه منه ، فلما تقاربت اللفظتان وكانتا تستعملان لمعنى واحد ، حملت كل واحدة منهما على اللفظ الذي تقدمها ولائمها .

104 الآية الخامسة منها

قوله تعالى : (فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) يونس : 108 .

وقال في آخر سورة النمل 92 : (فمن اهتدى فإنما يهد تي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) .

للسائل ان يسأل عن اختلاف الموضعين ، وقوله في الأولى : (ومن ضل فإنما يضل عليها) وفي الثانية (ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) ؟

والجواب أن يقال : إن الآية الأولى فإنه لما قال فيها : (فمن يهتدي لنفسه) أي منفعة اهتدائه له ، وهي دوام النعمة والخلود في الجنة فاقتضى هذا في الضلال ضده ، فقال : ((ومن ضل فإنما يضل عليها) أي ضرر ضلاله عليه ، وهو دوام العقاب بأليم العذاب (وما أنا عليكم بوكيل) ولا يلزمني أن أقيكم ما لا تقونه أنفسكم كالوكيل الذين يلزمه حفظ ما وكل به مما يضره .

(83/355)

وأما في الآية الثانية في آخر سورة النمل فإنها عدل بها عند ذكر الضلال عما حملت عليه في الآية التي في آخر سورة يونس لتحمل على الفواصل التي قبلها وهي مختومة بالواو والنون ، أو الياء والنون ، فقال تعالى (ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) أي : ممن يعلمكم ما يلزمكم أن تحذروه ويخوفكم ما يجب عليكم أن تجتنبوه فاشتمل هذا على معنى : (و من ظل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل) لأن في قوله تعالى : (فإنما يضل عليها) أي : لست ممن يكره على ما يحميكم من النار ، ويقيكم حر العقاب كالوكيل الذي يحامي على / ما وكل به أن يناله ضرر ، مثل (و ما أنا عليكم بوكيل) فجاء على لفظ (إنما أنا من المنذرين) لتكون الفاصلة مشاكلة للفواصل التي قبلها مع تأدية مثل المعنى الذي أدته الآية التي شابهتها .

انقطعت سورة يونس عن خمس آيات فيها تسع مسائل . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ درة التنزيل صـ 150.156 ﴾

(84/355)

فصل

قال الإمام أبو عمرو الداني :

سورة يونس عليه السلام 10

مكية ونظيرتها في الشامي خاصة سبحان ولا نظير لها في غيره وكلمها ألف وثماني مئة واثنتان وثلاثون كلمة

وحروفها سبعة آلاف وخمس مئة وسبعة وستون حرفا كحروف هود وهي مئة وعشر آيات في الشامي وتسع في عدد الباقين

اختلافها ثلاث آيات (﴿ مخلصين له الدين ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون (﴿ لنكونن من الشاكرين ﴾) لم يعدها الشامي وعدها الباقون (﴿ وشفاء لما في الصدور ﴾) عدها الشامي ولم يعدها الباقون

وفيها مما يشبه الفواصل وليس معدودا بإجماع موضع واحد وهو قوله تعالى (﴿ ولقد بوأنا

بني إسرائيل ﴿) وكلهم لم يعد (﴿ الر ﴾ وألمر) في الست السور

ورؤوس الآي

الحكيم

1 مبين

2 تذكرون

3 يكفرون

4 يعلمون

5 يتقون

6 غافلون

7 يكسبون

8 النعيم

9 العالمين

10 يعمهون

11 يعملون

12 المجرمين

13 تعملون

14 عظيم

15 تعقلون

16 المجرمون

17 يشركون

18 يختلفون

19 المنتظرين

20 تمكرون

21 الشاكرين

22 تعملون

23 يتفكرون

24 مستقيم

25 خالدون

26 خالدون

27 تعبدون

28 لغافلين

29 يفترون

30 تتقون

31 تصرفون

32 لا يؤمنون

33 تؤفكون

34 تحكمون

35 يفعلون

36 العالمين

37 صادقين

38 الظالمين

39 بالمفسدين

40 تعملون

41 لا يعقلون

42 لا يبصرون

43 يظلمون

44 مهتدين

45 يفعلون

46 لا يظلمون

47 صادقين

48 يستقدمون

49 المجرمون

50 تستعجلون

51 تكسبون

52 بمعجزين

53 لا يظلمون

54 لا يعلمون

55 ترجعون

56 للمؤمنين

57 يجمعون

58 تفترون

59 لا يشكرون

60 مبين

61 يحزنون

62 يتقون

63 العظيم

64 العليم

65 يخرصون

66 يسمعون

67 لا تعلمون

68 لا يفلحون

69 يكفرون

70 ولا تنظرون

71 المسلمين

72 المنذرين

73 المعتدين

74 مجرمين

75 مبين

76 الساحرون

77 بمؤمنين

78 عليم

79 ملقون

80 المفسدين

81 المجرمون

82 المسرفين

83 مسلمين

84 الظالمين

85 الكافرين

86 المؤمنين

87 الأليم

88 لا يعلمون

89 المسلمين

90 المفسدين

91 لغافلون

92 يختلفون

93 الممترين

94 الخاسرين

95 لا يؤمنون

96 الأليم

97 حين

98 مؤمنين

99 لا يعقلون

100 لا يؤمنون

101 المنتظرين

102 المؤمنين

103 المؤمنين

104 المشركين

105 الظالمين

106 الرحيم

107 بوكيل

108 الحاكمين . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البيان فى عد آى القرآن صـ 163 . 164 ﴾

(86/355)

فصل فى إعراب جميع آيات السورة الكريمة

قال الإمام أبو البقاء العكبرى :

سورة يونس عليه السلام

قد تقدم القول على الحروف المقطعة في أول البقرة والأعراف ، ويقاس الباقي عليهما ، و (الحكيم) بمعنى المحكم ، وقيل هو بمعنى الحاكم .

قوله تعالى (أكان للناس عجبا أن أوحينا) اسم كان ، وخبرها عجبا ، وللناس حال من عجب ، لأن التقدير : أكان عجبا للناس ، وقيل هو متعلق بكان ، وقيل هو يتعلق بعجب على التبيين ، وقيل عجب هنا بمعنى معجب ، والمصدر إذا وقع موقع اسم مفعول أو فاعل جاز أن يتقدم معموله عليه كاسم المفعول (أن أنذر الناس) يجوز أن تكون أن مصدرية ، فيكون موضعها نصبا بأوحينا ، وأن تكون بمعنى أي فلا يكون لها موضع .

قوله تعالى (يدبر الأمر) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون خبرا ثانيا ، وأن يكون حالا .

قوله تعالى (وعد الله) هو منصوب على المصدر بفعل دل عليه الكلام ، وهو قوله " إليه مرجعكم " لأن هذا وعد منه سبحانه بالبعث ، و (حقا) مصدر آخر تقديره: حق ذلك حقا (أنه يبدأ) الجمهور على كسر الهمزة على الاستئناف ، وقرئ بفتحها ، والتقدير: حق أنه يبدأ فهو فاعل ، ويجوز أن يكون التقدير لأنه

يبدأ وماضي يبدأ بدأ ، وفيه لغة أبدأ (بما كانوا) في موضع رفع صفة أخرى لعذاب ، ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف .

(87/355)

قوله تعالى (جعل الشمس ضياء) مفعولان ، ويجوز أن يكون ضياء حالا ، وجعل بمعنى خلق ، والتقدير: ذات ضياء ، وقيل الشمس هي الضياء ، والياء منقلبة عن واو لقولك ضوء ، والهمزة أصل ، ويقرأ بهمزتين بينهما ألف ، والوجه فيه أن يكون أخر الياء وقدم الهمزة ، فلما وقعت الياء ظرفا بعد ألف زائدة قلبت همزة عند قوم ، وعند آخرين قلبت ألفا ، ثم قلبت الألف همزة لئلا يجتمع ألفان (والقمر نورا) أي ذا نور ، وقيل المصدر بمعنى فاعل: أي منيرا (وقدره منازل) أي وقدر له فحذف حرف الجر ، وقيل التقدير: قدره ذا منازل ، وقدر على هذا متعدية إلى مفعولين لأن معناه جعل وصير ، ويجوز أن يكون قدر

متعديا إلى واحد بمعنى خلق ومنازل ، حال: أي منتقلا .

قوله تعالى (إن الذين لا يرجون) خبر إن (أولئك مأواهم النار) فأولئك مبتدأ ومأواهم مبتدأ ثان ، والنار خبره ، والجملة خبر أولئك (بما كانوا) الباء متعلقة بفعل محذوف دل عليه الكلام: أي جوزوا بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى (تجرى من تحتهم) يجوز أن يكون مستأنفا ، وأن يكون حالا من ضمير المفعول في يهديهم والمعنى يهديهم في الجنة إلى مراداتهم في هذه الحال (في جنات) يجوز أن يتعلق بتجرى ، وأن يكون حالا من الأنهار ، وأن يكون متعلقا بيهدى ، وأن يكون حالا من ضمير المفعول في يهدى ، وأن يكون خبرا ثانيا لإن .

قوله تعالى (دعواهم) مبتدأ (سبحانك) منصوب على المصدر ، وهو تفسير الدعوى لأن المعنى: قولهم سبحانك اللهم ، و (فيها) متعلق بتحية (أن الحمد) أن مخففة من الثقيلة ، ويقرأ أن بتشديد النون وهى مصدرية ، والتقدير: آخر

دعواهم حمد الله .

قوله تعالى (الشر) هو مفعول يعجل ، و (استعجالهم) تقديره: تعجيلا مثل استعجالهم ، فحذف المصدر وصفته المضافة ، وأقام المضاف إليه مقامهما .

وقال بعضهم: هو منصوب على تقدير حذف حرف الجر: أي كاستعجالهم ، وهو بعيد ، إذ لو جاز ذلك لجاز زيد غلام عمرو: أي كغلام عمرو ، وبهذا ضعفه جماعة ، وليس بتضعيف صحيح إذ ليس في المثال الذى ذكر فعل يتعدى بنفسه عند حذف الجار ، وفى الآية فعل يصح فيه ذلك وهو قوله " يعجل " (فنذر) هو معطوف على فعل محذوف تقديره: ولكن نمهلهم فنذر ، ولايجوز أن يكون معطوفا على يعجل إذ لو كان كذلك لدخل في الامتناع الذى تقتضيه لو ، وليس كذلك لأن التعجيل لم يقع ، وتركهم في طغيانهم وقع .

قوله تعالى (لجنبه) في موضع الحال: أي دعانا مضجعا ومثله (قاعدا أو قائما) وقيل العامل في هذه الأحوال مس ، وهو ضعيف لأمرين: أحدهما أن الحال على هذا واقعة بعد جواب " إذا " وليس بالوجه ، والثانى أن المعنى كثرة دعائه في كل أحواله ، لا على أن الضر يصيبه في كل أحواله .

وعليه جاءت آيات كثيرة في القرآن (كأن لم يدعنا) في موضع الحال من الفاعل في مر (إلى ضر) أي إلى كشف ضر ، واللام في " لجنبه " على أصلها عند البصريين ، والتقدير دعانا ملقيا لجنبه .

قوله تعالى (من قبلكم) متعلق بأهلكنا وليس بحال من القرون لأنه زمان .

و(جاءتهم رسلهم) يجوز أن يكون حالا: أي وقد جاءتهم ، ويجوز أن يكون معطوفا على

ظلموا .

قوله تعالى (لننظر) يقرأ في الشاذ بنون واحدة وتشديد الظاء ، ووجهها أن النون الثانية قلبت ظاء وأدغمت .

قوله تعالى (ولا أدراكم به) هو فعل ماض من دريت ، والتقدير : لو شاء الله لما أعلمكم بالقرآن ويقرأ : ولادراكم به على الإثبات .

والمعنى : ولو شاء الله لأعلمكم به بلا واسطة ، ويقرأ في الشاذ " ولا أدرأكم به " بالهمزة مكان الألف ، قيل هي لغة لبعض العرب يقلبون الألف المبدلة من ياء همزة ، وقيل هو غلط لأن قارئها ظن أنه من الدرء وهو الدفع ، وقيل ليس بغلط ، والمعنى : ولو شاء الله لدفعكم عن الإيمان به (عمرا) ينتصب نصب الظروف : أي مقدار عمر أو مدة عمر .

(89/355)

قوله تعالى (مالا يضرهم) " ما " بمعنى الذى ، ويراد بها الأصنام ، ولهذا قال تعالى (هؤلاء شفعاؤنا) فجمع حملا على معنى " ما " .

قوله تعالى (وإذا أذقنا) جواب " إذا " الأولى (إذا) الثانية .

والثانية للمفاجأة والعامل في الثانية الاستقرار الذى في (لهم) وقيل " إذا " الثانية زمانية

أيضا ، والثانية وما بعدها جواب الأولى .

قوله تعالى (يسيركم) يقرأ بالسين من السير ، وينشركم من النشر : أي يصرفكم ويبثكم (وجرين بهم) ضمير الغائب ، وهو رجوع من الخطاب إلى الغيبة ، ولو قال بكم لكان موافقا لكنتم ، وكذلك (فرحوا) وما بعده (جاءتها) الضمير للفلك ، وقيل للريح .

قوله تعالى (إذا هم) هو جواب لما ، وهى للمفاجأة كالتى يجاب بها الشرط (بغيكم) مبتدأ ، وفى الخبر وجهان: أحدهما (على أنفسكم) وعلى متعلقة بمحذوف .

أي كائن لا بالمصدر ، لأن الخبر لا يتعلق بالمبتدأ ف (متاع) على هذا خبر مبتدأ محذوف: أي هو متاع أو خبر بعد خبر .

والثانى أن الخبر متاع ، وعلى أنفسكم متعلق بالمصدر ، ويقرأ متاع بالنصب ، فعلى هذا على أنفسكم خبر المبتدأ ، ومتاع منصوب على المصدر : أي يمتعكم بذلك متاع ، وقيل هو مفعول به ، والعامل فيه

بغيكم ، ويكون البغى هنا بمعنى الطلب: أي طلبكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ، فعلى هذا على أنفسكم ليس بخبر ، لأن المصدر لا يعمل فيما بعد خبره ، بل على أنفسكم متعلق بالمصدر ، والخبر محذوف تقديره: طلبكم متاع الحياة الدنيا ضلال ونحو ذلك ويقرأ متاع بالجر على أنه نعت للأنفس ، والتقدير : ذوات متاع ، ويجوز أن يكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، أي ممتعات الدنيا ، ويضعف أن يكون بدلا إذ قد أمكن أن يجعل صفة .

قوله تعالى (فاختلط به نبات الأرض) الباء للسبب: أي اختلط النبات بسبب اتصال الماء به ، وقيل المعنى خالطه نبات الأرض ، أي اتصل به فرباه ، و (مما يأكل) حال من النبات (وازينت) أصله تزينت ، ثم عمل فيه ما ذكرنا في " ادارأتم فيها " ويقرأ بفتح الهمزة وسكون الزاى وياء مفتوحة بعدها خفيفة النون والياء : أي صارت ذات زينة كقولك: أجرب الرجل إذا صار ذا إبل جربى ، وصحح الياء ، والقياس أن تقلب ألفا ، ولكن جاء مصححا كما جاء استحوذ ، ويقرأ و " ازيأنت " بزاى ساكنة خفيفة بعدها ياء مفتوحة بعدها همزة بعدها نون مشددة والأصل وازيانت مثل احمارت ولكن حرك الألف فانقلبت همزة كما ذكرنا في الضالين (تغن بالأمس) قرئ في الشاذ " تتغن " بتاءين وهو في القراءة المشهورة والأمس هنا يراد به للزمان الماضي لاحقيقة أمس الذى قبل يومك ، وإذا أريد به ذلك كان معربا .

وكان بلا ألف ولام ولا إضافة نكرة .

قوله تعالى (ولا يرهق وجوههم) الجملة مستأنفة ، ويجوز أن يكون حالا ، والعامل فيها الاستقرار في الذين : أي استقرت لهم الحسنى مضمونا لهم السلامة ونحو ذلك ، ولايجوز أن

يكون معطوفا على الحسنى لأن الفعل إذا عطف على المصدر احتاج إلى أن ذكرا أو تقديرا ، وإن غير مقدرة لأن الفعل مرفوع .

قوله تعالى (والذين كسبوا) مبتدأ ، وفى الخبر وجهان: أحدهما هو قوله " مالهم من الله من عاصم " أو قوله "كأنما أغشيت " أو قوله " أولئك أصحاب " ويكون (جزاء سيئة بمثلها) معترضا بين المبتدأ وخبره .

والثانى الخبر جزاء سيئة ، وجزاء مبتدأ .

وفى خبره وجهان ، أحدهما بمثلها والباء زائدة كقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها ، ويجوز أن تكون غير زائدة ، والتقدير: جزاء سيئة مقدر بمثلها .

(91/355)

والثانى أن تكون الباء متعلقة بجزاء والخبر محذوف: أي وجزاء سيئة بمثلها واقع (وترهقهم ذلة) قيل هو معطوف على كسبوا ، وهو ضعيف لأن المستقبل لا يعطف على الماضي ، وإن قيل هو بمعنى الماضي فضعيف أيضا ، وقيل الجملة حال (قطعا) يقرأ بفتح الطاء وهو جمع قطعة ، وهو مفعول ثان لأغشيت ، و (من

الليل) صفة لقطع ، و (مظلما) حال من الليل ، وقيل من قطعا أو صفة لقطعا وذكره لأن

القطع في معنى الكثير ، ويقرأ بسكون الطاء فعلى هذا يكون مظلما صفة لقطع ، أو حالا منه أو حالا من الضمير في من ، أو حالا من الليل .

قوله تعالى (مكانكم) هو ظرف مبنى لوقوعه موقع الأمر : أي الزموا ، وفيه ضمير فاعل ، و (أنتم) توكيد له والكاف والميم في موضع جر عند قوم ، وعند آخرين الكاف للخطاب لا موضع لها كالكاف في إياكم (وشركاؤكم) عطف على الفاعل (فزيلنا) عين الكلمة واوا لأنه من زال يزول ، وإنما قلبت ياء لأن وزن الكلمة فيعل : أي زيولنا مثل بيطر وبيقر فلما اجتمعت الياء والواو على الشرط المعروف قلبت ياء ، وقيل هو من زلت الشئ أزيله ، فعينه على هذا ياء ، فيحتمل على هذا أن تكون فعلنا وفيعلنا .

قوله تعالى (هنالك تبلوا) يقرأ بالباء : أي تختبر عملها ، ويقرأ بالتاء : أي تتبع ، أو تقرأ في الصحيفة .

قوله تعالى (أنهم لا يؤمنون) أن وما عملت فيه في موضع رفع بدلا من كلمة ، أو خبر مبتدأ محذوف ، أو في موضع نصب : أي لأنهم أو في موضع جر على إعمال اللام محذوفة .

قوله تعالى (أمن لا يهدى) فيها قراءات قد ذكرنا مثلها في قوله " يخطف أبصارهم " ووجهناها هناك ، وأما (إلا أن يهدى) فهو مثل قوله " إلا أن يصدقوا " وقد ذكر في النساء ، وله نظائر قد ذكرت أيضا (فمالكم) مبتدأ وخبره : أي أي شئ لكم في الإشراك ، و (كيف تحكمون) مستأنف : أي كيف تحكمون بأن له شريكا .

قوله تعالى (لا يغنى من الحق شيئا) في موضع المصدر: أي إغناء ، ويجوز أن يكون مفعولا ليغنى ، ومن الحق حال منه .

(92/355)

قوله تعالى (وما كان هذا القرآن) هذا اسم كان ، والقرآن نعت له أو عطف بيان ، و (أن يفترى) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أنه خبر كان: أي وما كان القرآن افتراء ، والمصدر هنا بمعنى المفعول .

أي مفترى .

والثانى التقدير: ما كان القرآن ذا افتراء .

والثالث أن " أن " خبر كان محذوف ، والتقدير: ما كان هذا القرآن ممكنا أن يفترى ، وقيل التقدير: لان يفترى ، و (تصديق) مفعول له: أي ولكن أنزل للتصديق ، وقيل التقدير: ولكن كان التصديق الذى: أي مصدق الذى

(وتفصيل الكتاب) مثل تصديق (لاريب فيه) يجوز أن يكون حالا من الكتاب والكتاب مفعول في المعنى ، ويجوز أن يكون مستأنفا (من رب العالمين) يجوز أن يكون حالا أخرى ، وأن يكون متعلقا بالمحذوف: أي ولكن أنزل من رب العالمين .

قوله تعالى (كيف كان) كيف خبر كان ، و (عاقبة) اسمها .

قوله تعالى (من يستمعون إليك) الجمع محمول على معنى " من " والإفراد في قوله تعالى (من ينظر) محمول على لفظها .

قوله تعالى (لا يظلم الناس شيئا) يجوز أن يكون مفعولا : أي لا ينقصهم شيئا ، وأن يكون في موضع المصدر .

قوله تعالى (كأن لم يلبثوا) الكلام كله في موضع الحال ، والعامل فيه يحشرهم وكأن ها هنا مخففة من الثقيلة ، واسمها محذوف: أي كأنهم ، و (ساعة) ظرف ليلبثوا ، و (من النهار) نعت لساعة ، وقيل كأن لم صفة اليوم ، والعائد محذوف أي لم يلبثوا قبله ، وقيل هو نعت لمصدر محذوف: أي حشرا كأن لم يلبثوا قبله ، والعامل في يوم اذكر (يتعارفون) حال أخرى ، والعامل فيها يحشرهم ، وهى حال مقدرة .

لأن التعارف لا يكون حال (قد خسر) يجوز أن يكون مستأنفا ويجوز أن يكون التقدير : يقولون قد خسر ، والمحذوف حال من الضمير في يتعارفون .

قوله تعالى (ثم الله شهيد) ثم ها هنا غير مقتضية ترتيبا في المعنى ، وإنما رتبت الأخبار بعضها على بعض كقولك: زيد عالم ثم هو كريم .

قوله تعالى (ماذا يستعجل) قد ذكرنا في ماذا في البقرة عند قوله تعالى " ماذا ينفقون " قولين ، وهما مقولان هاهنا ، وقيل فيها قول ثالث وهو أن تكون " ماذا " اسما واحدا مبتدأ ، ويستعجل منه الخبر ، وقد ضعف ذلك من حيث إن الخبر هاهنا جملة من فعل وفاعل ، ولا ضمير فيه يعود على المبتدأ ، ورد هذا للقول بأن العائد الهاء في منه فهو كقولك: زيد أخذت منه درهما .

قوله تعالى (الآن) فيها كلام قد ذكر مثله في البقرة ، والناصب لها محذوف تقديره: آمنتم الآن .

قوله تعالى (أحق هو) مبتدأ وهو مرفوع به ، ويجوز أن يكون هو مبتدأ ، وأحق الخبر ، وموضع الجملة نصب بيستنبئونك ، و (إي) بمعنى نعم .

قوله تعالى (وأسروا الندامة) مستأنف ، وهو حكاية ما يكون في الآخرة .

وقيل هو بمعنى المستقبل .

وقيل قد كان ذلك في الدنيا .

قوله تعالى (وشفاء) هو مصدر في معنى الفاعل: أي وشاف ، وقيل هو في معنى المفعول: أي المشفي به .

قوله تعالى (فبذلك) الفاء الأولى مرتبطة بما قبلها ، والثانية بفعل محذوف تقديره: فليعجبوا

بذلك فليفرحوا ، كقولهم: زيدا فاضربه: أي تعمد زيدا فاضربه ، وقيل الفاء الأولى زائدة ، والجمهور على الياء وهو أمر للغائب ، وهو رجوع من الخطاب إلى الغيبة ، ويقرأ بالتاء على الخطاب كالذى قبله .

قوله تعالى (أرأيتم) قد ذكر في الأنعام (آلله) مثل آلذكرين ، وقد ذكر في الأنعام .

قوله تعالى (في شأن) خبر كان (وما تتلوا) ما نافية ، و (منه) أي من الشأن ، أي من أجله ، و (من قرآن) مفعول تتلو ، ومن زائدة (إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون) ظرف لشهودا (من مثقال) في موضع رفع بيعزب ، ويعزب بضم الزاى وكسرها لغتان وقد قرئ بهما (ولا أصغر .

ولا أكبر) بفتح الراء في موضع جر صفة لذرة أو لمثقال على اللفظ ، ويقرآن بالرفع حملا على موضع من مثقال ، والذى في سبأ يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى (إلا في كتاب) أي إلا هو في كتاب ، والاستثناء منقطع .

(94/355)

قوله تعالى (الذين آمنوا) يجوز أن يكون مبتدأ ، وخبره (لهم البشرى) ويجوز أن يكون خبرا ثانيا ، لأن أو خبرا ابتداء محذوف: أي هم الذين ، ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى ،

أو صفة لأولياء بعد الخبر ، وقيل يجوز أن يكون في موضع جر بدلا من الهاء والميم في عليهم .

قوله تعالى (في الحياء الدنيا) يجوز أن تتعلق في بالبشرى ، وأن يكون حالا منها ، والعامل الاستقرار ، و (لا تبديل) مستأنف .

قوله تعالى (إن العزة) هو مستأنف ، والوقف على ما قبله .

قوله تعالى (وما يتبع) فيه وجهان: أحدهما هي نافية ، ومفعول يتبع محذوف دل عليه قوله " إن يتبعون إلا الظن " و (شركاء) مفعول يدعون ، ولايجوز أن يكون مفعول يتبعون ، لأن المعنى يصير إلى أنهم لم يتبعوا شركاء وليس كذلك .

والوجه الثاني أن تكون " ما " استفهاما في موضع نصب بيتبع .

قوله تعالى (إن عندكم من سلطان) إن ها هنا بمعنى " ما " لا غير ، (بهذا) يتعلق بسلطان أو نعت له .

قوله تعالى (متاع في الدنيا) خبر مبتدأ محذوف تقديره افتراؤهم أو حياتهم أو تقلبهم ونحو ذلك .

قوله تعالى (إذ قال لقومه) " إذ " ظرف ، والعامل فيه نبأ ، ويجوز أن يكون حالا (فعلى الله) الفاء جواب الشرط ، والفاء في (فاجمعوا) عاطفة على الجواب ، وأجمعوا بقطع الهمزة من قولك أجمعت على الأمر إذا عزمت عليه ، إلا أنه حذف حرف الجر فوصل الفعل بنفسه ،

وقيل هو متعد بنفسه في الأصل ، ومنه قول الحرث: أجمعوا أمرهم بليل فلما * أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء وأما (شركاءكم) فالجمهور على النصب ، وفيه أوجه: أحدها هو معطوف على أمركم تقديره: وأمر شركائكم ، فأقام المضاف إليه مقام المضاف .

والثانى هو مفعول معه تقديره: مع شركائكم .

والثالث هو منصوب بفعل محذوف: أي وأجمعوا شركاءكم ، وقيل التقدير: وادعوا شركاءكم ، ويقرأ بالرفع وهو معطوف

(95/355)

على الضمير في أجمعوا ، ويقرأ فاجمعوا بوصل الهمزة وفتح الميم ، والتقدير ذوى أمركم ، لأنك تقول جمعت القوم وأجمعت الأمر ، ولا تقول جمعت الأمر على هذا المعنى وقيل لاحذف فيه لأن المراد بالجمع هنا ضم بعض أمورهم إلى بعض (ثم اقضوا إلى) يقرأ بالقاف والضاد من قضيت الأمر ، والمعنى: أقضوا ماعزمتم عليه من الإيقاع بى ، ويقرأ بفتح الهمزة والفاء والضاد ، والمصدر منه الإفضاء ، والمعنى: صلوا إلى ولام الكلمة واو ، يقال فضا المكان يفضوا إذا اتسع .

قوله تعالى (من بعده) الهاء تعود على نوح عليه السلام (فما كانوا) الواو ضمير القوم ،

والضمير في (كذبوا) يعود على قوم نوح ، والهاء في (به) لنوح ، والمعنى: فما كان قوم الرسل الذين بعد نوح ليؤمنوا بالذى كذب به قوم نوح: أي بمثله ، ويجوز أن تكون الهاء لنوح ، ولايكون فيه حذف ، والمعنى: فما كان قوم الرسل الذين بعد نوح ليؤمنوا بنوح عليه السلام .

قوله تعالى (أتقولون للحق لما جاءكم) المحكى بيقول محذوف: أي أتقولون له هو سحر ! ثم استأنف فقال (أسحر هذا) وسحر خبر مقدم ، وهذا مبتدأ .

قوله تعالى (الكبرياء في الأرض) هو اسم كان ، ولكم خبرها ، وفى الأرض ظرف للكبرياء منصوب بها ، أو بكان ، أو بالاستقرار في لكم ، ويجوز أن يكون حالا من الكبرياء ، أو من الضمير في لكم .

قوله تعالى (ما جئتم به السحر) يقرأ بالاستفهام فعلى هذا تكون " ما " استفهاما ، وفى موضعها وجهان: أحدهما نصب بفعل محذوف موضعه بعد ما تقديره: أي شئ أتيتم به وجئتم به يفسر المحذوف ، فعلى هذا في قوله السحر وجهان ، أحدهما هو خبر مبتدأ محذوف: أي هو السحر .

والثانى أن يكون الخبر محذوفا : أي السحر هو ، والثانى موضعها رفع بالابتداء وجئتم به الخبر ، والسحر فيه وجهان: أحدهما ما تقدم من الوجهين .

والثانى هو بدل من موضع " ما " كما تقول ما عندك أدينار أم

درهم ؟ ويقرأ على لفظ الخبر وفيه وجهان: أحدهما استفهام أيضا في المعنى ، وحذفت الهمزة للعلم بها .

(96/355)

والثانى هو خبر في المعنى ، فعلى هذا تكون " ما " بمعنى الذى .

وجئتم به صلتها ، والسحر خبرها ، ويجوز أن تكون " ما " استفهاما ، والسحر خبر مبتدأ محذوف .

قوله تعالى (وملئهم) فيما يعود الهاء والميم إليه أوجه: أحدها هو عائد على الذرية ، ولم تؤنث لأن الذرية قوم فهو مذكر في المعنى .

والثانى هو عائد على القوم والثالث يعود على فرعون ، وإنما جمع لوجهين: أحدهما أن فرعون لما كان عظيما عندهم عاد الضمير إليه بلفظ الجمع ، كما يقول العظيم نحن نأمر .

والثانى أن فرعون صار اسما لأتباعه ، كما أن ثمود اسم للقبيلة كلها ، وقيل الضمير يعود على محذوف تقديره من آل فرعون وملائهم: أي ملأ الآل ، وهذا عندنا غلط لأن المحذوف لا يعود إليه ضمير ، إذ لو جاز ذلك لجاز أن تقول زيد قاموا ، وأنت تريد غلمان زيد قاموا

(أن يفتنهم) هو في موضع جر بدلا من فرعون تقديره: على خوف فتنة من فرعون ، ويجوز

أن يكون في موضع نصب بخوف: أي على خوف فتنة فرعون .

قوله تعالى (أن تبوآ) يجوز أن تكون أن المفسرة ولايكون لها موضع من الإعراب ، وأن تكون مصدرية فتكون في موضع نصب بأوحينا ، والجمهور على تحقيق الهمزة ، ومنهم من جعلها ياء وهى مبدلة من الهمزة تخفيفا (لقومكما) فيه وجهان: أحدهما اللام غير زائدة ، والتقدير: أتخذ لقومكما بيوتا ، فعلى هذا يجوز أن يكون لقومكما أحد مفعولي تبوآ ، وأن يكون حالا من البيوت .

والثانى اللام زائدة ، والتقدير: بوئا قومكما بيوتا : أي أنزلاهم ، وتفعل وفعل بمعنى مثل علقها وتعلقها ، فأما قوله بمصر يجوز أن يتعلق بتبوآ ، وأن يكون حالا من البيوت ، وأن يكون حالا من قومكما ، وأن يكون حالا من ضمير الفاعل في تبوآ وفيه ضعف (واجعلوا .

وأقيموا) إنما جمع فيهما ، لأنه أراد موسى وهارون صلوات الله عليهما وقومهما ، وأفرد في قوله (وبشر) لأنه أراد موسى عليه السلام وحده ، إذ كان هو الرسول وهارون وزيرا له ، فموسى عليه السلام هو الأصل .

(97/355)

قوله تعالى (فلا يؤمنوا) في موضعه وجهان: أحدهما النصب وفيه وجهان: أحدهما هو معطوف على ليضلوا ، والثانى هو جواب الدعاء في قوله اطمس واشدد .

والقول الثاني موضعه جزم ، لأن معناه الدعاء كما تقول لا تعذبني .

قوله تعالى (ولا تتبعان) يقرأ بتشديد النون ، والنون للتوكيد ، والفعل مبنى معها ، والنون التى تدخل للرفع لا وجه لها هاهنا لأن الفعل هنا غير معرب ، ويقرأ بتخفيف النون وكسرها .

وفيه وجهان: أحدهما أنه نهى أيضا ، وحذف النون الأولى من الثقيلة تخفيفا ، ولم تحذف الثانية لأنه لو حذفها لحذف نونا محركة واحتاج إلى تحريك الساكنة ، وحذف الساكنة أقل تغيرا .

والوجه الثاني أن الفعل معرب مرفوع وفيه وجهان: أحدهما هو خبر في معنى النهى كما ذكرنا في قوله " لا تعبدون إلا الله " والثانى هو في موضع الحال ، والتقدير: فاستقيما غير متبعين .

قوله تعالى (وجاوزنا ببنى إسرائيل) الباء للتعدية مثل الهمزة كقولك: أجزت الرجال البحر (بغيا وعدوا) مفعول من أجله ، أو مصدر في موضع الحال .

قوله تعالى (الآن) العامل فيه محذوف تقديره: أتؤمن الآن .

قوله تعالى (ببدنك) في موضع الحال: أي عاريا ، وقيل بجسدك لا روح فيه ، وقيل بدرعك .

قوله تعالى (مبوأ صدق) يجوز أن يكون مصدرا ، وأن يكون مكانا .

قوله تعالى (إلا قوم يونس) هو منصوب على الاستثناء المنقطع ، لأن المستثنى منه القرية وليست من جنس القوم ، وقيل هو متصل لأن التقدير : فلولا كان أهل قرية ، ولو كان قد قرئ بالرفع لكانت إلا فيه بمنزلة غير فيكون صفة .

قوله تعالى (ماذا في السموات) هو استفهام في موضع رفع بالابتداء .

والسموات الخبر وانظروا معلقة عن العمل ، ويجوز أن تكون بمعنى الذى ، وقد تقدم أصل ذلك (وما تغنى) يجوز أن تكون استفهاما في موضع نصب ، وأن تكون نفيا .

قوله تعالى (كذلك حقا) فيه ثلاثة أوجه: أحدها أن كذلك في موضع نصب صفة لمصدر محذوف: أي إنجاء كذلك وحقا بدل منه .

والثانى أن يكونا منصوبين

بينجى التى بعدهما .

(98/355)

والثالث أن يكون كذلك للأولى وحقا للثانية ، ويجوز أن يكون ، كذلك خبر المبتدأ : أي الأمر كذلك ، وحقا منصوب بما بعدها .

قوله تعالى (وأن أقم وجهك) قد ذكر في الأنعام مثله. انتهى انتهى. اهـ ﴿ إملاء ما من به الرحمن حـ 2 صـ 24. 34 ﴾

(99/355)

وقال الشيخ: حميدان دعاس:

سورة يونس

[سورة يونس (10): الآيات 1 الى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ (1) أَكانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2)

"الر" هذه الحروف وأمثالها لا محل لها من الإعراب "تِلْكَ" اسم إشارة مبتدأ "آياتُ" خبر والجملة استئنافية "الْكِتابِ" مضاف إليه "الْحَكِيمِ" صفة "أَكانَ" الهمزة للاستفهام وكان فعل ماض ناقص "لِلنَّاسِ" متعلقان بمحذوف حال "عَجَباً" خبر كان المقدم "أَنْ" حرف مصدري ونصب واستقبال "أَوْحَيْنا" ماض وفاعله وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل

رفع اسم كان المؤخر "إِلى رَجُلٍ" متعلقان بأوحينا "مِنْهُمْ" متعلقان بمحذوف صفة لرجل "أَنْ" تفسيرية "أَنْذِرِ" أمر وفاعله مستتر "النَّاسَ" مفعول به والجملة تفسيرية لا محل لها "وَبَشِّرِ" الواو عاطفة وأمر فاعله مستتر والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنْ" حرف مشبه بالفعل "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "قَدَمَ" اسم أن "صِدْقٍ" مضاف إليه "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف "رَبِّهِمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "قالَ الْكافِرُونَ" ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم "أَنْ" حرف مشبه بالفعل "هذا" الها للتنبيه واسم إشارة في محل نصب اسم إن "لَساحِرٌ" اللام المزحلقة وساحر خبر إن "مُبِينٌ" صفة والجملة مقول القول

[سورة يونس (10) : الآيات 3 الى 4]

(100/355)

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (4)

"إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ" إن واسمها ولفظ الجلالة خبرها والجملة مستأنفة "الَّذِي" اسم موصول صفة "خَلَقَ السَّماواتِ" ماض ومفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم وفاعله مستتر والجملة صلة "وَالْأَرْضَ" معطوف على السموات منصوب مثله "فِي سِتَّةِ" متعلقان بخلق "أَيَّامٍ" مضاف إليه "ثُمَّ" عاطفة "اسْتَوى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "عَلَى الْعَرْشِ" متعلقان باستوى "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مستأنفة أو حالية "ما" نافية "مِنْ" حرف جر زائد "شَفِيعٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا "إِلَّا" أداة حصر "مِنْ بَعْدِ" متعلقان بالخبر المحذوف "إِذْنِهِ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "ذلِكُمُ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "اللَّهُ" بدل "رَبُّكُمُ" خبر المبتدأ والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "فَاعْبُدُوهُ" الفاء الفصيحة

(101/355)

و أمر وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "أَفَلا" الهمزة للاستفهام ولا نافية "تَذَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "إِلَيْهِ" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "مَرْجِعُكُمْ" مبتدأ مؤخر والكاف مضاف

إليه "جَمِيعاً" حال "وَعْدَ" مفعول مطلق لفعل محذوف "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "حَقًّا" مفعول مطلق لفعل محذوف "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة تعليلية "يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر "ثُمَّ يُعِيدُهُ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "لِيَجْزِيَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب وأن وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر باللام ومتعلقان بيعيده "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" الجملة معطوفة "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "بِالْقِسْطِ" متعلقان بيجزي "وَالَّذِينَ" الواو استئنافية واسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "كَفَرُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم "شَرابٌ" مبتدأ مؤخر والجملة خبر الذين "مِنْ حَمِيمٍ" متعلقان بصفة لشراب "وَعَذابٌ" معطوف على شراب "أَلِيمٌ" صفة "بِما" الباء حرف جر وما مصدرية "كانُوا" كان واسمها والباء وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بصفة ثانية لعذاب "يَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر

[سورة يونس (10) : الآيات 5 الى 6]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسابَ ما خَلَقَ اللَّهُ ذلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5) إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ (6)

"هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر والجملة مستأنفة "جَعَلَ الشَّمْسَ" ماض ومفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة صلة "ضِياءً" مفعول به ثان "وَالْقَمَرَ نُورًا" معطوف على الشمس "وَقَدَّرَهُ" الواو عاطفة وماض ومفعوله الأول وفاعله مستتر والجملة معطوفة "مَنازِلَ" مفعول به ثان "لِتَعْلَمُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بجعل "عَدَدَ" مفعول به "السِّنِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "وَالْحِسابَ" معطوف على السنين "ما" نافية "خَلَقَ اللَّهُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "ذلِكَ" اسم إشارة مفعول به واللام للبعد والكاف للخطاب "إِلَّا" أداة حصر "بِالْحَقِّ" متعلقان بحال محذوفة "يُفَصِّلُ" مضارع فاعله مستتر "الْآياتِ" مفعول به منصوب بالكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة مستأنفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بيفصل "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي اخْتِلافِ" متعلقان بالخبر المحذوف المقدم "اللَّيْلِ" مضاف إليه "وَالنَّهارِ" معطوف على الليل "وَما" الواو عاطفة وما نافية "خَلَقَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة معطوفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بخلق "وَالْأَرْضِ" معطوفة

على السموات "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن "لِقَوْمٍ" متعلقان بصفة لآيات "يَتَّقُونَ"

مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم

[سورة يونس (10) : الآيات 7 الى 9]

(103/355)

إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَرَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَاطْمَأَنُّوا بِها وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ (7) أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (8) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (9)

(104/355)

"إِنَّ الَّذِينَ" إن واسم الموصول اسمها والجملة مستأنفة "لا يَرْجُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "لِقاءَنا" مفعول به ونا مضاف إليه "وَرَضُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِالْحَياةِ" متعلقان برضوا "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَاطْمَأَنُّوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بِها"

متعلقان باطمأنوا "وَالَّذِينَ" معطوف على الذي قبلها "هُمْ" مبتدأ "عَنْ آياتِنا" متعلقان بغافلون ونا مضاف إليه "غافِلُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة "أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة خبر إن "مَأْواهُمُ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "النَّارُ" خبر مأواهم والجملة خبر أولئك "بِما" الباء حرف جر وما موصولية متعلقان بفعل محذوف تقديره وجوزوا "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا "إِنَّ الَّذِينَ" اسم الموصول اسم إن والجملة مستأنفة "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَعَمِلُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "الصَّالِحاتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "يَهْدِيهِمْ" مضارع والهاء مفعوله "رَبُّهُمْ" فاعل والهاء مضاف إليه والجملة خبر إن "بِإِيمانِهِمْ" متعلقان بيهديهم والهاء مضاف إليه "تَجْرِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "مِنْ تَحْتِهِمُ" متعلقان بتجري والهاء مضاف إليه "الْأَنْهارُ" فاعل "فِي جَنَّاتِ" متعلقان بمحذوف حال "النَّعِيمِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة

[سورة يونس (10) : الآيات 10 الى 11]

(105/355)

دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10) وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا فِي طُغْيانِهِمْ يَعْمَهُونَ (11)

"دَعْواهُمْ" مبتدأ والهاء مضاف إليه "فِيها" متعلقان بدعواهم والجملة مستأنفة "سُبْحانَكَ" مفعول مطلق لفعل محذوف والكاف مضاف إليه والجملة خبر "اللَّهُمَّ" منادى بأداة نداء محذوفة وحلت الميم محلها وهو مبني على الضم لأنه مفرد علم في محل نصب "وَتَحِيَّتُهُمْ" الواو عاطفة ومبتدأ والهاء مضاف إليه "فِيها" متعلقان بتحية "سَلامٌ" خبر والجملة معطوفة "وَآخِرُ" الواو عاطفة وآخر مبتدأ والجملة معطوفة "دَعْواهُمْ" مضاف إليه والهاء مضاف إليه "أَنِ" مخففة من أن وحركت بالكسر لالتقاء الساكنين واسمها ضمير الشأن والجملة خبر آخر "الْحَمْدُ" مبتدأ "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المحذوف والجملة خبر أن "رَبِّ" مضاف إليه "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء "وَلَوْ"

(106/355)

الواو استئنافية ولو حرف شرط غير جازم "يُعَجِّلُ اللَّهُ" مضارع ولفظ الجلالة فاعله "لِلنَّاسِ" متعلقان بيعجل "الشَّرَّ" مفعول به "اسْتِعْجالَهُمْ" مفعول مطلق والهاء مضاف إليه

"بِالْخَيْرِ" متعلقان باستعجالهم والجملة ابتدائية "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب لو وماض مبني للمجهول "إِلَيْهِمْ" متعلقان بقضي "أَجَلُهُمْ" نائب فاعل والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها لأنها واقعة في جواب شرط غير جازم "فَنَذَرُ" الفاء عاطفة ومضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به والجملة معطوفة على جملة محذوفة تقديرها فنمهلهم "لا يَرْجُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "لِقاءَنا" مفعول به ونا مضاف إليه "فِي طُغْيانِهِمْ" متعلقان بيعمهون "يَعْمَهُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة حالية

[سورة يونس (10) : الآيات 12 الى 13]

وَإِذا مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا إِلى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (12) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّناتِ وَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13)

(107/355)

"وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "مَسَّ الْإِنْسانَ الضُّرُّ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف إليه . "دَعانا" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر ونا مفعول به وفاعله مستتر والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "لِجَنْبِهِ" متعلقان بمحذوف حال "أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً" معطوف على الحال المحذوفة "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "كَشَفْنا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "عَنْهُ" متعلقان بكشفنا "ضُرَّهُ" مفعول به والهاء مضاف إليه "مَرَّ" ماض فاعله مستتر والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "كَأَنْ" مخففة من كأنّ واسمها ضمير الشأن والجملة حالية "لَمْ" جازمة "يَدْعُنا" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة ونا فاعل والجملة خبر كأن "إِلى ضُرٍّ" متعلقان بيدعنا "مَسَّهُ" ماض ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صفة لضر "كَذلِكَ" الكاف حرف جر وذا اسم إشارة في محل جر متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "زُيِّنَ" ماض مبني للمجهول "لِلْمُسْرِفِينَ" متعلقان بزين "ما" اسم موصول نائب فاعل "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كان "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق "أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ قَبْلِكُمْ" متعلقان بأهلكنا والكاف مضاف إليه "لَمَّا" الحينية ظرف زمان "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه

"وَجاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ" ماض والهاء مفعوله المقدم ورسلهم فاعله المؤخر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بجاءتهم "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانُوا" كان واسمها

(108/355)

"لِيُؤْمِنُوا" اللام لام الجحود ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بمحذوف خبر كان "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر ومتعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف واللام للبعد والكاف للخطاب "نَجْزِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "الْقَوْمَ" مفعول به "الْمُجْرِمِينَ" صفة والجملة مستأنفة.

[سورة يونس (10) : الآيات 14 الى 15]

ثُمَّ جَعَلْناكُمْ خَلائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (14) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ إِنِّي أَخافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)

"ثُمَّ" عاطفة "جَعَلْناكُمْ" ماض وفاعله ومفعوله الأول والجملة معطوفة "خَلائِفَ" مفعول به ثان "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بخلائف "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان بجعلنا والهاء مضاف إليه "لِنَنْظُرَ" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام التعليل وفاعله مستتر واللام وما بعدها من مصدر مؤول متعلقان بجعلناكم "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب على الحال "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مفعول به لننظر "وَإِذا" الواو استئنافية وإذا ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "تُتْلى" مضارع مبني للمجهول مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مضاف إليه "عَلَيْهِمْ" متعلقان بتتلى "آياتُنا" نائب فاعل ونا مضاف إليه "بَيِّناتٍ" حال منصوبة بالكسرة لأنها جمع مؤنث سالم "قالَ الَّذِينَ" ماض والاسم الموصول فاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "لا يَرْجُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "لِقاءَنَا" مفعول به ونا مضاف إليه "ائْتِ" أمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر والجملة مقول القول "بِقُرْآنٍ" متعلقان بائت "غَيْرِ" صفة "هذا" الها للتنبيه واسم الإشارة في محل جر مضاف إليه "أَوْ بَدِّلْهُ" معطوف على ائت والهاء مفعوله وفاعله مستتر. "قُلْ" أمر وفاعله مستتر

والجملة مستأنفة "ما" نافية "يَكُونُ" مضارع ناقص والجملة مقول القول "لِي" متعلقان بالخبر المحذوف المقدم "أَنْ" ناصبة "أُبَدِّلَهُ" مضارع منصوب والهاء مفعوله والفاعل مستتر وان وما بعدها في تأويل مصدر في محل نصب اسم يكون "مِنْ تِلْقاءِ" متعلقان بأبدله "نَفْسِي" مضاف إليه والياء مضاف إليه "أَنْ" حرف نفي "أَتَّبِعُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَّا" أداة حصر "ما" اسم موصول مفعول به "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "إِلَيَّ" متعلقان بيوحى والجملة صلة "إِنِّي" إن واسمها والجملة مستأنفة

(110/355)

"أَخافُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر إني "أَنْ" شرطية "عَصَيْتُ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "رَبِّي" مفعول به منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "عَذابَ" مفعول به لأخاف "يَوْمٍ" مضاف إليه "عَظِيمٍ" صفة

[سورة يونس (10) : الآيات 16 الى 17]

قُلْ لَوْ شاءَ اللَّهُ ما تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْراكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (16) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآياتِهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ (17)

(111/355)

"قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "لَوْ" حرف شرط غير جازم "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة ابتدائية "ما" نافية "تَلَوْتُهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "عَلَيْكُمْ" متعلقان بتلوته "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "أَدْراكُمْ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة "بِهِ" متعلقان بأدراكم "فَقَدْ" الفاء استئنافية وقد حرف تحقيق "لَبِثْتُ" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "فِيكُمْ" متعلقان بلبثت "عُمُراً" ظرف زمان متعلق بلبثت "مِنْ قَبْلِهِ" متعلقان بلبثت "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ولا نافية "تَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "فَمَنْ" الفاء استئنافية ومن اسم استفهام مبتدأ "أَظْلَمُ" خبر والجملة مستأنفة "مِمَّنِ" من اسم موصول في محل جر بمن المدغمة بها ومتعلقان بأظلم "افْتَرى" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والفاعل مستتر والجملة صلة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بافترى "كَذِباً" مفعول به "أَوْ" عاطفة "كَذَّبَ" ماض فاعله مستتر والجملة معطوفة "بِآياتِهِ" متعلقان بكذب والجملة معطوفة "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مستأنفة "لا" نافية "يُفْلِحُ" مضارع مرفوع "الْمُجْرِمُونَ" فاعل مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر إن

[سورة يونس (10) : الآيات 18 الى 19]

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ

اللَّهَ بِما لا يَعْلَمُ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ سُبْحانَهُ وَتَعالى عَمَّا يُشْرِكُونَ (18) وَما كانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً واحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْ لا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيما فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (19)

(112/355)

"وَيَعْبُدُونَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "مِنْ دُونِ" متعلقان بيعبدون "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "ما" اسم موصول مفعول به "لا" نافية "يَضُرُّهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "وَلا يَنْفَعُهُمْ" معطوفة على ما قبلها وإعرابها مثله "وَيَقُولُونَ" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "هؤُلاءِ" الها للتنبيه واسم الإشارة مبتدأ "شُفَعاؤُنا" خبر ونا مضاف إليه والجملة مقول القول "عِنْدَ" ظرف مكان متعلق بشفعاء "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَتُنَبِّئُونَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول "اللَّهِ" لفظ الجلالة مفعول به "بِما" ما موصولية مجرورة بالباء ومتعلقان بتنبئون "لا" نافية "يَعْلَمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بحال محذوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة "فِي الْأَرْضِ" معطوفة على

السموات "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "وَتَعالى " الواو عاطفة وماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر وفاعله مستتر والجملة معطوفة "عَمَّا" ما موصولية ومجرورة بعن ومتعلقان بتعالى "يُشْرِكُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والجملة صلة "وَما " الواو استئنافية وما نافية "كانَ النَّاسُ" كان واسمها والجملة استئنافية "إِلَّا " أداة حصر "أُمَّةً" خبر "واحِدَةً" صفة "فَاخْتَلَفُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "وَلَوْلا" الواو عاطفة ولولا حرف شرط غير جازم "كَلِمَةٌ" مبتدأ خبره محذوف والجملة ابتدائية "سَبَقَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة صفة "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بسبقت والكاف مضاف إليه "لَقُضِيَ" اللام واقعة في جواب لولا وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بقضي والهاء مضاف إليه والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "فِيما " ما موصولية مجرورة بفي المدغمة بها ومتعلقان بقضي "فِيهِ" متعلقان بيختلفون "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة يونس (10) : الآيات 20 الى 21]

وَيَقُولُونَ لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (20) وَإِذا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً إِنَّ رُسُلَنا يَكْتُبُونَ ما تَمْكُرُونَ (21)

(114/355)

"وَيَقُولُونَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "لَوْلا" حرف شرط غير جازم "أُنْزِلَ" مضارع مبني للمجهول "عَلَيْهِ" متعلقان بأنزل "آيَةٌ" نائب فاعل والجملة ابتدائية نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "مَسَّتْهُمْ" ماض والتاء للتأنيث والهاء مفعول به وفاعله مستتر والجملة صفة لضراء "إِذا" الفجائية "لَهُمْ" متعلقان بالخبر المقدم. "مَكْرٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مضاف إليه "فِي آياتِنا" متعلقان بمكر ونا مضاف إليه "قُلِ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ أَسْرَعُ" مبتدأ وخبر والجملة مقول القول "مَكْراً" تمييز "إِنَّ رُسُلَنا" إن واسمها ونا مضاف إليه والجملة تعليل "يَكْتُبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر "ما" موصولية مفعول به "تَمْكُرُونَ" مضارع والواو فاعل والجملة صلة

[سورة يونس (10) : آية 22]

هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22)

(115/355)

"هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم موصول خبر والجملة مستأنفة "يُسَيِّرُكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة صلة "فِي الْبَرِّ" متعلقان بيسيركم "وَالْبَحْرِ" معطوف على البر "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذَا" ظرف متضمن معنى الشرط "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة مضاف إليه "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَجَرَيْنَ" الواو عاطفة وماض مبني على السكون لاتصاله بنون النسوة والنون فاعل "بِهِمْ بِرِيحٍ" متعلقان بجرين "طَيِّبَةٍ" صفة لريح "وَفَرِحُوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "بِهَا" متعلقان بفرحوا "جَاءَتْهَا" ماض ومفعوله المقدم "رِيحٌ" فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "عَاصِفٌ" صفة "وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة معطوفة "مِنْ كُلِّ" متعلقان بجاءهم "مَكَانٍ" مضاف إليه "وَظَنُّوا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "أَنَّهُمْ" أن واسمها والجملة سدت مسد مفعولي ظن "أُحِيطَ" ماض مبني للمجهول

ونائب الفاعل محذوف "بِهِمْ" متعلقان بأحيط "دَعَوُا" ماض مبني على الضم المقدر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين والواو فاعل "اللَّهَ" لفظ الجلالة مفعول به والجملة مستأنفة "مُخْلِصِينَ" حال منصوبة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "لَهُ" متعلقان بمخلصين "الدِّينَ" مفعول به لمخلصين "لَئِنْ" اللام موطئة للقسم وان شرطية "أَنْجَيْتَنا" ماض وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية "مِنْ هذِهِ" اسم الإشارة في محل جر بمن ومتعلقان بأنجيتنا والها للتنبيه "لَنَكُونَنَّ" اللام واقعة في جواب القسم وجملة جواب الشرط محذوفة دل 0 عليها جواب القسم "مِنَ الشَّاكِرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف.

[سورة يونس (10) : الآيات 23 الى 24]

(116/355)

فَلَمَّا أَنْجاهُمْ إِذا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما بَغْيُكُمْ عَلى أَنْفُسِكُمْ مَتاعَ الْحَياةِ الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (23) إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "أَنْجاهُمْ" ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر والهاء مفعوله والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "إِذا" الفجائية "هُمْ" مبتدأ والجملة جواب لما لا محل لها من الإعراب "يَبْغُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر: هم "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بيبغون "بِغَيْرِ الْحَقِّ" متعلقان بيبغون والحق مضاف إليه "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى

(117/355)

نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب على النداء والها للتنبيه "النَّاسُ" بدل من أي أو عطف بيان وجملة النداء لا محل لها "إِنَّما" كافة ومكفوفة "بَغْيُكُمْ" مبتدأ والكاف مضاف إليه "عَلى أَنْفُسِكُمْ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة "مَتاعَ" مفعول لأجله "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "ثُمَّ" عاطفة "إِلَيْنا" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مَرْجِعُكُمْ" مبتدأ مؤخر والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "فَنُنَبِّئُكُمْ" الفاء عاطفة ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة معطوفة. "بِما" ما موصولية ومتعلقان بننبئكم "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة صلة "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كنتم "إِنَّما" كافة ومكفوفة "مَثَلُ"

مبتدأ والجملة مستأنفة "الْحَياةِ" مضاف إليه "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "كَماءٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "أَنْزَلْناهُ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة لماء "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بأنزلناه "فَاخْتَلَطَ" الفاء عاطفة وماض مبني على الفتح "بِهِ" متعلقان باختلط "نَباتُ" فاعل "الْأَرْضِ" مضاف إليه والجملة معطوفة "مِمَّا" من حرف جر وما موصولية متعلقان بحال محذوفة "يَأْكُلُ النَّاسُ" مضارع وفاعله والجملة صلة "وَالْأَنْعامُ" معطوف على الناس "حَتَّى" حرف غاية وجر "إِذا" ظرف زمان يتضمن معنى الشرط "أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها" ماض وفاعله ومفعوله والتاء للتأنيث والها مضاف إليه "وَازَّيَّنَتْ" ماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث والجملة معطوفة "وَظَنَّ أَهْلُها" الواو عاطفة وماض وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "أَنَّهُمْ قادِرُونَ" أن واسمها وخبرها والجملة سدت مسد مفعولي ظن "عَلَيْها" متعلقان بقادرون "أَتاها أَمْرُنا" ماض ومفعوله المقدم وأمرنا فاعل مؤخر ونا مضاف إليه والجملة لا محل

(118/355)

لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "لَيْلًا" ظرف زمان "أَوْ نَهاراً" معطوف على ليلا "فَجَعَلْناها حَصِيداً" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعولاه والجملة معطوفة "كَأَنْ"

مخففة من كأن واسمها ضمير الشأن والجملة حالية "لَمْ" حرف جازم "تَغْنَ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والفاعل مستتر "بِالْأَمْسِ" متعلقان بتغن "كَذلِكَ" الكاف حرف جر واسم الإشارة في محل جر بالكاف واللام للبعد والكاف للخطاب ومتعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "نُفَصِّلُ" مضارع فاعله مستتر "الْآياتِ" مفعول به منصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم "لِقَوْمٍ" متعلقان بنفصل "يَتَفَكَّرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم.

[سورة يونس (10) : الآيات 25 الى 26]

وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (25) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنى وَزِيادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (26)

"وَاللَّهُ" الواو استئنافية ولفظ الجلالة مبتدأ والجملة مستأنفة "يَدْعُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل وفاعله مستتر والجملة خبر "إِلى دارِ" متعلقان بيدعو "السَّلامِ" مضاف إليه "وَيَهْدِي" الواو عاطفة ومضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والجملة معطوفة "مَنْ" اسم

موصول مفعول به "يَشاءُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "إِلى صِراطٍ" متعلقان بيدعو "مُسْتَقِيمٍ" صفة "لِلَّذِينَ" اللام حرف جر واسم الموصول في محل جر به متعلقان بالخبر المقدم "أَحْسَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "الْحُسْنى" مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والحسنى الجنة "وَزِيادَةٌ" معطوف على الحسنى والجملة مستأنفة والزيادة هي النظر لوجه اللّه العظيم "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ" مضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا نافية "ذِلَّةٌ" معطوف على قتر "أُولئِكَ" اسم إشارة مبتدأ والكاف للخطاب "أَصْحابُ" خبر والجملة مستأنفة "الْجَنَّةِ" مضاف إليه "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة.

[سورة يونس (10) : الآيات 27 الى 30]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكاؤُكُمْ فَزَيَّلْنا بَيْنَهُمْ وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ ما كُنْتُمْ إِيَّانا تَعْبُدُونَ (28) فَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ

عِبادَتِكُمْ لَغافِلِينَ (29) هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ ما أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ ما كانُوا يَفْتَرُونَ (30)

(120/355)

"وَالَّذِينَ" الواو استئنافية واسم الموصول مبتدأ "كَسَبُوا السَّيِّئاتِ" ماض والواو فاعله والسيئات مفعوله المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم والجملة صلة "جَزاءُ" مبتدأ ثان "سَيِّئَةٍ" مضاف إليه "بِمِثْلِها" متعلقان بخبر محذوف وهذه الجملة خبر الذين "وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ" الواو استئنافية ومضارع ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مستأنفة "ما" نافية "لَهُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "مِنَ اللَّهِ" لفظ الجلالة في محل جر بمن متعلقان بعاصم "مِنَ" زائدة "عاصِمٍ" مبتدأ مجرور لفظا مرفوع محلا "كَأَنَّما" كافة ومكفوفة "أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً" ماض مبني للمجهول ونائب فاعل ومفعول به "مِنَ اللَّيْلِ" متعلقان بصفة لقطعا "مُظْلِماً" صفة ثانية والجملة مستأنفة "أُولئِكَ" اسم الإشارة مبتدأ والكاف للخطاب "أَصْحابُ" خبر "النَّارِ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "هُمْ" مبتدأ "فِيها" متعلقان بخالدون "خالِدُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية. "وَيَوْمَ" الواو استئنافية ويوم ظرف زمان متعلق بفعل محذوف "نَحْشُرُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل

مستتر والجملة مضاف إليه "جَمِيعاً" حال "ثُمَّ" عاطفة "نَقُولُ" مضارع فاعله مستتر والجملة معطوفة "لِلَّذِينَ" اسم موصول مجرور باللام ومتعلقان بنقول "أَشْرَكُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "مَكانَكُمْ" اسم فعل أمر "أَنْتُمْ" توكيد للضمير المستتر في مكانكم "وَشُرَكاؤُكُمْ" معطوفة على أنتم "فَزَيَّلْنا" الفاء استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "بَيْنَهُمْ" ظرف زمان متعلق بزيلنا والهاء مضاف إليه "وَقالَ شُرَكاؤُهُمْ" الواو عاطفة وماض

(121/355)

و فاعله والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "ما" نافية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة مقول القول "إِيَّانا" مفعول به مقدم لتعبدون "تَعْبُدُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر. "فَكَفى" الفاء استئنافية وماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر "بِاللَّهِ" الباء زائدة ولفظ الجلالة مجرور لفظا مرفوع محلا فاعل والجملة مستأنفة. "شَهِيداً" تمييز. "بَيْنَنا" ظرف مكان متعلق بشهيد ونا مضاف إليه "وَبَيْنَكُمْ" معطوفة على بيننا "إِنْ" مخففة من إن وهي مهملة "كُنَّا" كان ونا اسمها والجملة مقول القول "عَنْ عِبادَتِكُمْ" متعلقان بغافلين "لَغافِلِينَ" اللام الفارقة وخبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم "هُنالِكَ"

اسم إشارة ظرف مكان واللام للبعد والكاف للخطاب "تَبْلُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل "كُلُّ" فاعل "نَفْسٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "ما" اسم موصول مفعول به "أَسْلَفَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة صلة "وَرُدُّوا" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة معطوفة "إِلَى اللَّهِ" متعلقان بردوا "مَوْلاهُمُ" بدل من لفظ الجلالة والهاء مضاف إليه "الْحَقِّ" بدل "وَضَلَّ" الواو عاطفة وماض مبني على الفتح "عَنْهُمْ" متعلقان بضل "ما" اسم موصول فاعل "كانُوا" كان واسمها والجملة صلة "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر

[سورة يونس (10) : الآيات 31 الى 32]

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ (31) فَذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَماذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (32)

(122/355)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ والجملة مقول القول "يَرْزُقُكُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر "مِنَ السَّماءِ" متعلقان بيرزقكم

"وَالْأَرْضِ" معطوف على السماء "أم" عاطفة "مَنْ" اسم استفهام مبتدأ والجملة معطوفة "يَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "السَّمْعَ" مفعول به "وَالْأَبْصارَ" معطوف على السمع "وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ" معطوف على ما قبله "مِنَ الْمَيِّتِ" متعلقان بيخرج "وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "وَمَنْ" اسم استفهام مبتدأ "يُدَبِّرُ الْأَمْرَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر وجملة من . . 0 معطوفة "فَسَيَقُولُونَ" الفاء استئنافية والسين للاستقبال ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو اللّه والجملة مقول القول "فَقُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَفَلا" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ولا نافية "تَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول "فَذلِكُمُ" الفاء استئنافية واسم الإشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب "اللَّهُ" لفظ الجلالة خبر والجملة مستأنفة "رَبُّكُمُ" بدل والكاف مضاف إليه "الْحَقُّ" بدل أو صفة لرب "فَما ذا" الفاء استئنافية وما نافية وذا

زائدة "بَعْدَ" ظرف زمان متعلق بالخبر المحذوف "الْحَقُّ" مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "الضَّلالُ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فَأَنَّى" الفاء استئنافية وأنى اسم استفهام في محل نصب على الحال "تُصْرَفُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل

والجملة مستأنفة.

[سورة يونس (10) : الآيات 33 الى 35]

(123/355)

كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35)

(124/355)

"كَذَلِكَ" الكاف حرف جر واسم إشارة في محل جر بالكاف متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "حَقَّتْ كَلِمَةُ" ماض وفاعله والتاء للتأنيث "رَبِّكَ" مضاف إليه والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "عَلَى الَّذِينَ" اسم الموصول في محل جر متعلقان بحقت "فَسَقُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "أَنَّهُمْ" أن واسمها وأن وما بعدها في محل جر بحرف جر محذوف أي

بعد إيمانهم "لا يُؤْمِنُونَ" لا نافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "هَلْ" حرف استفهام "مِنْ شُرَكَائِكُمْ" متعلقان بخبر مقدم محذوف والكاف مضاف إليه "مِنْ" اسم موصول مبتدأ والجملة مقول القول "يَبْدَؤُا الْخَلْقَ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "ثُمَّ" عاطفة "يُعِيدُهُ" معطوف على يبدأ والهاء مفعوله "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مقول القول "يَبْدَؤُا" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "الْخَلْقَ" مفعول به "ثُمَّ يُعِيدُهُ" معطوف على ما سبق "فَأَنَّى" الفاء استئنافية وأنى اسم استفهام في محل نصب على الحال "تُؤْفَكُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة مستأنفة "قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ" سبق إعرابها قريبا "يَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر "إِلَى الْحَقِّ" متعلقان بيهدي والجملة خبر من والكلام مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مقول القول "يَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل "لِلْحَقِّ" متعلقان بيهدي "أَفَمَنْ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ومن اسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "يَهْدِي" مضارع فاعله مستتر "إِلَى الْحَقِّ" متعلقان بيهدي "أَحَقُّ" خبر من "أَنْ" حرف ناصب "يُتَّبَعَ" مضارع مبني

للمجهول ونائب الفاعل مستتر والمصدر المؤول في محل جر بحرف جر محذوف "أم" عاطفة "مِنْ" اسم موصول مبتدأ "لا" نافية "يَهْدِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والجملة صلة "إِلَّا" أداة حصر "أَنْ" ناصبة "يَهْدِي" مضارع للمجهول منصوب بالفتحة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مستتر والمصدر المؤول من أن وما بعدها خبر لمبتدأ محذوف

"فَما" الفاء استئنافية وما استفهامية في محل رفع مبتدأ والجملة مستأنفة "لَكُمْ" متعلقان بخبر محذوف "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب على الحال "تَحْكُمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة توكيد للجملة السابقة.

[سورة يونس (10) : الآيات 36 الى 38]

وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما يَفْعَلُونَ (36) وَما كانَ هذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (38)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ" مضارع وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِلَّا" أداة حصر "ظَنًّا" مفعول به "إِنَّ الظَّنَّ" إن واسمها "لا" نافية "يُغْنِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والجملة خبر "مِنَ الْحَقِّ" متعلقان بمحذوف حال "شَيْئاً" مفعول به "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها "عَلِيمٌ" خبر والجملة مستأنفة "بِما" اسم الموصول في محل جر بالباء ومتعلقان بعليم "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "وَما" الواو استئنافية وما نافية "كانَ هذا" كان واسم إشارة اسمها والها للتنبيه والجملة مستأنفة "الْقُرْآنُ" بدل "أَنْ" ناصبة "يُفْتَرى" مضارع مبني للمجهول منصوب بأن وعلامة نصبه الفتحة المقدرة على الألف للتعذر ونائب الفاعل مستتر والجملة خبر كان "مِنْ دُونِ" متعلقان بيفترى "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَلكِنْ" الواو عاطفة ولكن حرف استدراك "تَصْدِيقَ" خبر لكان المحذوفة واسمها محذوف والتقدير كان تصديق أو مفعول لأجله والجملة معطوفة "الَّذِي" اسم الموصول مضاف إليه "بَيْنَ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة "يَدَيْهِ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه مثنى "وَتَفْصِيلَ" معطوف على تصديق "الْكِتابِ" مضاف إليه "لا" نافية للجنس "رَيْبَ" اسم لا "فِيهِ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِنْ رَبِّ" متعلقان بمحذوف حال "الْعالَمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "أَمْ" عاطفة "يَقُولُونَ" مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "افْتَراهُ" ماض ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مقول القول "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "فَأْتُوا" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِسُورَةٍ" متعلقان بأتوا "مِثْلِهِ" صفة لسورة والهاء

(127/355)

مضاف إليه "وَادْعُوا" الواو عاطفة وأمر وفاعله والجملة معطوفة "مَنِ" اسم موصول مفعول به "اسْتَطَعْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة "مِنْ دُونِ" متعلقان بمحذوف حال "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "صادِقِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله.

[سورة يونس (10) : الآيات 39 الى 41]

بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (39) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (40) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (41)

"بَلْ" حرف إضراب وعطف "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "بِما" الباء جارة وما موصولية ومتعلقان بكذبوا "لَمْ" جازمة "يُحِيطُوا" مضارع مجزوم بحذف النون والواو فاعل والجملة صلة "بِعِلْمِهِ" متعلقان بيحيطوا "وَلَمَّا" الواو حالية ولما حرف جازم "يَأْتِهِمْ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة والهاء مفعول به "تَأْوِيلُهُ" فاعل والهاء مضاف إليه والجملة حالية "كَذلِكَ" الكاف جارة واسم الإشارة في محل جر متعلقان بصفة لمفعول مطلق محذوف "كَذَّبَ الَّذِينَ" ماض واسم موصول فاعل "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بمحذوف صلة الموصول "فَانْظُرْ" الفاء عاطفة وأمر وفاعله مستتر "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر مقدم "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها "الظَّالِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مفعول به لانظر "وَمِنْهُمْ" الواو استئنافية الجار والمجرور متعلقان بخبر مقدم "مَنْ" اسم موصول مبتدأ والجملة مستأنفة "يُؤْمِنُ" مضارع فاعله مستتر "بِهِ" متعلقان بيؤمن والجملة صلة "وَمِنْهُمْ مَنْ لا يُؤْمِنُ بِهِ" إعرابها كسابقتها . "وَرَبُّكَ" الواو استئنافية ومبتدأ والكاف مضاف إليه "أَعْلَمُ" خبر والجملة مستأنفة "بِالْمُفْسِدِينَ" الباء حرف جر والمفسدين اسم مجرور ومتعلقان بأعلم "وَإِنْ" الواو استئنافية وإن شرطية "كَذَّبُوكَ" ماض

وفاعله ومفعوله والجملة ابتدائية وهي فعل الشرط "فَقُلْ" الفاء رابطة للجواب وأمر فاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "لِي" متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "عَمَلِي" مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة والياء مضاف إليه والجملة مقول القول "وَلَكُمْ" الواو عاطفة ومتعلقان بالخبر المقدم المحذوف "عَمَلُكُمْ" مبتدأ مؤخر والكاف مضاف إليه والجملة معطوفة "أَنْتُمْ" مبتدأ "بَرِيئُونَ" خبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم

(129/355)

والجملة مستأنفة "مِمَّا" مؤلفة من حرف الجر من وما الموصولية ومتعلقان ببريئون "أَعْمَلُ" مضارع فاعله مستتر والجملة صلة "وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا" معطوف على ما تقدم وإعرابه مثله "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة.

[سورة يونس (10) : الآيات 42 الى 44]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ (42) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ (43) إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (44)

"وَمِنْهُمْ" الواو استئنافية ومتعلقان بالخبر المقدم "مَنْ" اسم الموصول مبتدأ والجملة مستأنفة "يَسْتَمِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بيستمعون "أَفَأَنْتَ" الهمزة للاستفهام والفاء استئنافية ومبتدأ والجملة مستأنفة "تُسْمِعُ" مضارع والفاعل مستتر "الصُّمَّ" مفعول به والجملة خبر "وَلَوْ" الواو عاطفة ولو حرف شرط غير جازم "كانُوا" كان واسمها والجملة ابتدائية والكلام معطوف على ما سبق "لا" نافية "يَعْقِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر "وَمِنْهُمْ مَنْ" سبق إعرابها قريبا "يَنْظُرُ" مضارع فاعله مستتر "إِلَيْكَ" متعلقان بينظر "أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كانُوا لا يُبْصِرُونَ" انظر إعراب الآية السابقة "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مستأنفة "لا" نافية "يَظْلِمُ" مضارع فاعله مستتر والجملة خبر "النَّاسَ" مفعول به "شَيْئاً" نائب مفعول مطلق "وَلكِنَّ النَّاسَ" لكن واسمها والجملة معطوفة "أَنْفُسَهُمْ" مفعول به مقدم والهاء مضاف إليه "يَظْلِمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبر لكن.

(130/355)

[سورة يونس (10) : الآيات 45 الى 46]

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقاءِ

اللَّهِ وَما كانُوا مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلى ما يَفْعَلُونَ (46)

(131/355)

"وَيَوْمَ" الواو استئنافية ويوم ظرف زمان متعلق بفعل محذوف تقديره واذكر والجملة مستأنفة "يَحْشُرُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة مضاف إليه "كَأَنْ" مخففة من كأن واسمها ضمير الشأن والجملة حالية "لَمْ يَلْبَثُوا" مضارع مجزوم بلم بحذف النون والواو فاعله والجملة خبر "إِلَّا" أداة حصر "ساعَةً" ظرف زمان متعلق بيلبثوا "مِنَ النَّهارِ" متعلقان بصفة محذوفة لساعة "يَتَعارَفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والجملة حالية "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيتعارفون "قَدْ" حرف تحقيق "خَسِرَ الَّذِينَ" ماض واسم الموصول فاعله والجملة مستأنفة "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِلِقاءِ" متعلقان بكذبوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَما" الواو عاطفة وما نافية "كانُوا" كان واسمها والجملة معطوفة "مُهْتَدِينَ" خبر كانوا . و"إِمَّا" الواو استئنافية وإما مؤلفة من إن الشرطية وما الزائدة "نُرِيَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم فعل الشرط وجملة فعل الشرط ابتدائية والفاعل مستتر والكاف مفعول به أول

"بَعْضَ" مفعول به ثان "الَّذِي" اسم موصول مضاف إليه "نَعِدُهُمْ" مضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة صلة "أَوْ" عاطفة "نَتَوَفَّيَنَّكَ" مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وفاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة معطوفة "فَإِلَيْنا" الفاء رابطة للجواب ومتعلقان بالخبر المحذوف المقدم "مَرْجِعُهُمْ" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة في محل جزم جواب الشرط "ثُمَّ" عاطفة "اللَّهُ شَهِيدٌ" لفظ الجلالة مبتدأ وشهيد خبر والجملة معطوفة "عَلى ما" اسم الموصول في محل جر بعلى وهما متعلقان بشهيد "يَفْعَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة.

[سورة يونس (10) : الآيات 47 الى 49]

(132/355)

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذا جاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (47) وَيَقُولُونَ مَتى هذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (48) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلا نَفْعاً إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ (49)

(133/355)

"وَلِكُلِّ" الواو استئنافية ومتعلقان بالخبر المقدم "أُمَّةٍ" مضاف إليه "رَسُولٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فَإِذا" الفاء عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ رَسُولُهُمْ" ماض وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة مضاف إليه "قُضِيَ" ماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بقضي والهاء مضاف إليه "بِالْقِسْطِ" متعلقان بمحذوف حال "وَهُمْ" الواو حالية وهم مبتدأ والجملة حالية "لا" نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول والواو نائب فاعل والجملة خبر "وَيَقُولُونَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مستأنفة "مَتى" اسم استفهام للزمان متعلق بخبر مقدم محذوف "هذا" الها للتنبيه وذا اسم إشارة مبتدأ مؤخر والجملة مقول القول "الْوَعْدُ" بدل من اسم الإشارة "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "صادِقِينَ" خبر كنتم المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "لا" نافية "أَمْلِكُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مقول القول "لِنَفْسِي" متعلقان بأملك والياء مضاف إليه "ضَرًّا" مفعول به "وَلا نَفْعاً" معطوف على ضرا "إِلَّا" أداة استثناء "ما" اسم موصول في محل نصب مستثنى بإلا "شاءَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "لِكُلِّ" متعلقان بخبر مقدم محذوف "أُمَّةٍ" مضاف إليه "أَجَلٌ" مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة ف "إِذا" الفاء

عاطفة وإذا ظرف يتضمن معنى الشرط "جاءَ أَجَلُهُمْ" ماض وفاعله والهاء مضاف إليه والجملة مضاف إليه "فَلا" الفاء واقعة في جواب إذا ولا نافية "يَسْتَأْخِرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "ساعَةً" ظرف زمان متعلق بيستأخرون "وَلا يَسْتَقْدِمُونَ"

معطوف على يستأخرون.

(134/355)

[سورة يونس (10) : الآيات 50 الى 52]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً أَوْ نَهاراً ما ذا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذا ما وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلْآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِما كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (52)

"قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "أَتاكُمْ" فعل ماض ومفعوله المقدم "عَذابُهُ" فاعله المؤخر والجملة ابتدائية والهاء مضاف إليه "بَياتاً" ظرف زمان متعلق بأتاكم "أَوْ نَهاراً" معطوف على بياتا

"ما ذا" ما اسم استفهام مبتدأ وذا اسم إشارة في محل رفع خبر والجملة جواب شرط لا محل لها من الإعراب لأنها لم تقترن بالفاء

(135/355)

الرابطة للجواب "يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ" مضارع وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم ومنه متعلقان بيستعجل "أَثُمَّ" الهمزة للاستفهام وثم عاطفة "إِذا" ظرف يتضمن معنى الشرط "ما" زائدة "وَقَعَ" ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "آمَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "بِهِ" متعلقان بآمنتم "آلْآنَ" الهمزة للاستفهام والآن ظرف زمان "وَقَدْ" الواو حالية قد حرف تحقيق "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة حالية "بِهِ" متعلقان بتستعجلون "تَسْتَعْجِلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون الواو فاعل والجملة خبر كنتم "ثُمَّ" عاطفة "قِيلَ" ماض مبني للمجهول والجملة معطوفة "لِلَّذِينَ" موصول في محل جر ومتعلقان بقيل "ظَلَمُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "ذُوقُوا" أمر وفاعله والجملة في محل رفع نائب فاعل لقيل "عَذابَ" مفعول به "الْخُلْدِ" مضاف إليه "هَلْ" حرف استفهام "تُجْزَوْنَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل "إِلَّا" أداة حصر "ما" اسم الموصول في محل جر بالباء ومتعلقان بتجزون "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة

صلة "تَكْسِبُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة يونس (10) : الآيات 53 الى 54]

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ ما فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (54)

(136/355)

"وَيَسْتَنْبِئُونَكَ" الواو استئنافية ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والكاف مفعوله الأول والجملة مستأنفة "أَحَقٌّ" الهمزة للاستفهام وخبر مقدم "هُوَ" مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب مفعول به ثان "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِي" حرف جواب لا محل له من الإعراب "وَرَبِّي" الواو حرف جر وقسم وربي مجرور بالواو ومتعلقان بالفعل أقسم المحذوف والياء مضاف إليه "إِنَّهُ" إن واسمها والجملة مقول القول "لَحَقٌّ" اللام المزحلقة وحق خبر إنه "وَما" الواو استئنافية وما تعمل عمل ليس "أَنْتُمْ" اسم ما "بِمُعْجِزِينَ" الباء زائدة ومعجزين خبر ما المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة "وَلَوْ" الواو استئنافية لو حرف شرط غير جازم "أَنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِكُلِّ"

متعلقان بالخبر المقدم "نَفْسٍ" مضاف إليه "ظَلَمَتْ" ماض وفاعله مستتر والتاء للتأنيث والجملة صفة لنفس "ما" موصولية اسم إن المؤخر "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "لَافْتَدَتْ" اللام واقعة في جواب لو وماض فاعله مستتر والتاء للتأنيث "بِهِ" متعلقان بافتدت والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "وَأَسَرُّوا النَّدامَةَ" ماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "لَمَّا" الحينية ظرف زمان متعلق بأسروا والجملة مستأنفة "رَأَوُا" ماض وفاعله "الْعَذابَ" مفعول به والجملة مضاف إليه "وَقُضِيَ" الواو استئنافية وماض مبني للمجهول ونائب الفاعل مستتر "بَيْنَهُمْ" متعلقان بقضي والجملة مستأنفة "بِالْقِسْطِ" متعلقان بمحذوف حال "وَهُمْ" الواو حالية ومبتدأ "لا" نافية "يُظْلَمُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل والجملة خبر المبتدأ هم.

[سورة يونس (10) : الآيات 55 الى 58]

(137/355)

أَلا إِنَّ لِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَلا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56) يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفاءٌ لِما

فِي الصُّدُورِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (57) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (58)

(138/355)

"أَلا" أداة استفتاح وتنبيه "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "لِلَّهِ" لفظ الجلالة مجرور باللام متعلقان بالخبر المقدم المحذوف "ما" اسم موصول اسم إن والجملة مستأنفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "وَالْأَرْضِ" معطوف على السموات "أَلا" حرف تنبيه "إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" إن واسمها وخبرها ولفظ الجلالة في محل جر بالإضافة والجملة مؤكدة لما سبق "وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" الواو عاطفة ولكن واسمها والهاء مضاف إليه "لا" نافية "يَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر و"هُوَ" الواو استئنافية ومبتدأ "يُحيِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل وفاعله مستتر والجملة خبر "وَيُمِيتُ" معطوف على يحيي "وَإِلَيْهِ" الواو عاطفة "تُرْجَعُونَ" مضارع مبني للمجهول مرفوع بثبوت النون والواو نائب فاعل "يا" أداة نداء "أَيُّهَا" منادى نكرة مقصودة مبني على الضم في محل نصب وجملة النداء لا محل لها "النَّاسُ" بدل أو عطف بيان "قَدْ" حرف تحقيق "جاءَتْكُمْ" ماض والكاف مفعوله والتاء للتأنيث "مَوْعِظَةٌ" فاعل مؤخر "مِنْ رَبِّكُمْ"

متعلقان بموعظة "وَشِفاءٌ" معطوف على موعظة "لِما" ما اسم موصول ومجرور باللام ومتعلقان بشفاء "فِي الصُّدُورِ" متعلقان بشفاء "وَهُدىً وَرَحْمَةٌ" عطف على ما سبق "لِلْمُؤْمِنِينَ" متعلقان برحمة "قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "بِفَضْلِ" متعلقان بفعل محذوف تقديره فليفرحوا بفضل "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "وَبِرَحْمَتِهِ" عطف على بفضل "فَبِذلِكَ" الفاء عاطفة واسم الإشارة في محل جر متعلقان بيفرحوا واللام للبعد والكاف للخطاب "فَلْيَفْرَحُوا" مضارع مجزوم بلام الأمر وعلامة جزمه حذف النون والواو فاعل والجملة معطوفة على فليفرحوا المحذوفة "هُوَ خَيْرٌ" مبتدأ وخبر والجملة مستأنفة "مِمَّا" ما الموصولية من المدغمة بها

(139/355)

متعلقان بخير "يَجْمَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة.

[سورة يونس (10) : الآيات 59 الى 60]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (59) وَما ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَشْكُرُونَ (60)

"قُلْ" أمر وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "أَرَأَيْتُمْ" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله والجملة مقول القول "ما" موصولية مفعول به "أَنْزَلَ اللَّهُ" ماض ولفظ الجلالة فاعله والجملة صلة "لَكُمْ" متعلقان بأنزل "مِنْ رِزْقٍ" متعلقان بمحذوف حال "فَجَعَلْتُمْ" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْهُ" متعلقان بجعلتم "حَلالًا" مفعول به و"حَراماً" معطوف على حلالا "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة

(140/355)

"اللَّهُ" لفظ الجلالة مبتدأ والجملة مقول القول "أَذِنَ" ماض فاعله مستتر والجملة خبر "لَكُمْ" متعلقان بأذن "أَمْ" عاطفة "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بتفترون "تَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة معطوفة "وَما" الواو استئنافية وما اسم استفهام مبتدا "ظَنُّ" خبر والجملة مستأنفة "الَّذِينَ" اسم موصول مضاف إليه "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بيفترون "الْكَذِبَ" مفعول به "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بظن "الْقِيامَةِ" مضاف إليه "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة تعليلية "لَذُو" اللام المزحلقة وذو خبر مرفوع بالواو لأنه من الأسماء الخمسة "فَضْلٍ" مضاف إليه "عَلَى النَّاسِ" متعلقان بفضل "وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ" لكن واسمها

والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "لا" نافية "يَشْكُرُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر.

[سورة يونس (10) : الآيات 61 الى 63]

وَما تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَما تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَما يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتابٍ مُبِينٍ (61) أَلا إِنَّ أَوْلِياءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُونَ (63)

(141/355)

"وَما" الواو استئنافية وما نافية "تَكُونُ" مضارع ناقص واسمها محذوف "فِي شَأْنٍ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَما" الواو عاطفة وما نافية "تَتْلُوا" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الواو للثقل والفاعل مستتر والجملة معطوفة "مِنْهُ" متعلقان بتتلو "مِنْ" زائدة "قُرْآنٍ" مفعول به مجرور لفظا منصوب محلا "وَلا" الواو عاطفة وما نافية "تَعْمَلُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مِنْ" زائدة "عَمَلٍ" مجرور لفظا منصوب محلا مفعول به "إِلَّا" أداة حصر "كُنَّا" كان واسمها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بشهودا "شُهُوداً" خبر "إِذْ" ظرف زمان متعلق

بشهودا "تُفِيضُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مضاف إليه "فِيهِ" متعلقان بتفيضون "وَما" الواو استئنافية ولا نافية "يَعْزُبُ" مضارع "عَنْ رَبِّكَ" متعلقان بيعزب "مِنْ" حرف جر زائد "مِثْقالِ" فاعل مجرور لفظا مرفوع محلا "ذَرَّةٍ" مضاف إليه "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف حال "وَلا فِي السَّماءِ" معطوف على في الأرض "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة "أَصْغَرَ" معطوف على مثقال مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "مِنْ ذلِكَ" اسم الإشارة في محل جر بمن ومتعلقان بأصغر واللام للبعد والكاف للخطاب "وَلا" الواو عاطفة ولا زائدة "أَكْبَرَ" معطوف على أصغر "إِلَّا" أداة حصر "فِي كِتابٍ" متعلقان بخبر محذوف مقدم والمبتدأ محذوف تقديره هو في كتاب والجملة في محل نصب على الحال "مُبِينٍ" صفة كتاب "أَلا" حرف استفتاح "إِنَّ أَوْلِياءَ" إن اسمها "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "لا" نافية "خَوْفٌ" مبتدأ "عَلَيْهِمْ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة خبر إن "وَلا" الواو عاطفة "هُمْ" مبتدأ والجملة معطوفة "يَحْزَنُونَ" مضارع مرفوع

(142/355)

بثبوت النون والواو فاعله والجملة خبرهم "الَّذِينَ" اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره هم "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "وَكانُوا" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة

معطوفة "يَتَّقُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة يونس (10) : الآيات 64 الى 66]

لَهُمُ الْبُشْرى فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الْآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِماتِ اللَّهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) وَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (65) أَلا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّماواتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَما يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (66)

"هُمُ

متعلقان بخبر مقدم محذوف "لُبُشْرى

مبتدأ مؤخر والجملة ابتدائية "فِي الْحَياةِ

متعلقان بالبشرى "لدُّنْيا

صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "فِي الْآخِرَةِ

معطوفة على ما تقدم "

نافية للجنس تعمل عمل إِنَّ "بَدِيلَ

اسم لا المنصوب "كَلِماتِ

متعلقان بالخبر المحذوف "لِلَّهِ

لفظ الجلالة مضاف إليه "لِكَ

اسم إشارة مبتدأ واللام للبعد والكاف للخطاب والجملة مستأنفة"وَ"

مبتدأ"الْفَوْزُ"

خبره"لَعَظِيمٌ"

صفة الفوز "وَلَا" حرف عطف ولا ناهية "يَحْزُنْكَ" مضارع ومفعوله "قَوْلُهُمْ" فاعل "إِنَّ الْعِزَّةَ" إن واسمها "لِلَّهِ" متعلقان بخبر محذوف "جَمِيعاً" حال "هُوَ" مبتدأ "السَّمِيعُ الْعَلِيمُ" خبران. "أَلَا" أداة تنبيه. "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل. "لِلَّهِ" متعلقان بالخبر المحذوف.

(143/355)

"مَنْ" اسم موصول اسم لا "فِي السَّماواتِ" متعلقان بصلة الموصول المحذوفة "وَمَنْ فِي الْأَرْضِ" معطوف على ما سبق وإعرابه مثله "وَما" الواو استئنافية وما نافية "يَتَّبِعُ الَّذِينَ" مضارع واسم الموصول فاعل والجملة مستأنفة "يَدْعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "مِنْ دُونِ" متعلقان بيدعون والجملة صلة "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "شُرَكاءَ" مفعول به ليتبع "إِنَّ" نافية "يَتَّبِعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "أَلَا" أداة حصر "الظَّنَّ" مفعول به والجملة مستأنفة "وَإِنْ" الواو عاطفة وإن نافية "هُمْ" مبتدأ "أَلَا" أداة حصر "يَخْرُصُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر المبتدأ.

[سورة يونس (10) : الآيات 67 الى 70]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67) قالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ (69) مَتاعٌ فِي الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذابَ الشَّدِيدَ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ (70)

"هُوَ" مبتدأ "الَّذِي" اسم الموصول خبر والجملة مستأنفة "جَعَلَ" ماض فاعله مستتر والجملة صلة "لَكُمُ" متعلقان بجعل "اللَّيْلَ" مفعول به "لِتَسْكُنُوا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة بعد لام

(144/355)

التعليل وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها متعلقان بجعل "فِيهِ" متعلقان بتسكنوا "وَالنَّهارَ" معطوف على الليل "مُبْصِراً" حال "إِنَّ" حرف مشبه بالفعل "فِي ذلِكَ" اسم الإشارة في محل جر بفي ومتعلقان بالخبر المقدم واللام للبعد والكاف للخطاب "لَآياتٍ" اللام المزحلقة وآيات اسم إن المنصوب بالكسرة لأنه جمع مؤنث سالم

والجملة مستأنفة "لِقَوْمٍ" متعلقان بآيات "يَسْمَعُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صفة لقوم "قالُوا" ماض وفاعله "اتَّخَذَ اللَّهُ" فعل ماض لفظ الجلالة فاعله "وَلَداً" مفعول به "سُبْحانَهُ" مفعول مطلق لفعل محذوف والهاء مضاف إليه والجملة مستأنفة "هُوَ الْغَنِيُّ" مبتدأ وخبر مؤخر والجملة مستأنفة "لَهُ" متعلقان بخبر مقدم "ما" موصولية مبتدأ مؤخر والجملة مستأنفة "فِي السَّماواتِ" متعلقان بمحذوف صلة و"الْأَرْضِ" معطوف على السموات "إِنْ" نافية "عِنْدَكُمْ" ظرف مكان متعلق بالخبر المقدم المحذوف "مِنْ" حرف جر زائد لا عمل له "سُلْطانٍ" مبتدأ مؤخر مجرور لفظا مرفوع محلا "بِهذا" الباء حرف جر وذا اسم إشارة متعلقان بسلطان والها للتنبيه . "أَتَقُولُونَ" الهمزة للاستفهام ومضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة متعلقان بتقولون "ما" موصولية مفعول به "لا" نافية "تَعْلَمُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة "قُلْ" أمر فاعله مستتر والجملة مستأنفة "إِنَّ الَّذِينَ" إن واسمها والجملة مقول القول "يَفْتَرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى متعلقان بيفترون "الْكَذِبَ" مفعول به والجملة صلة "لا" نافية "يُفْلِحُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر إن "مَتاعٌ" مبتدأ خبره محذوف تقديره لهم متاع "قليل" صفة "فِي الدُّنْيا" متعلقان بمتاع والجملة مستأنفة "ثُمَّ" عاطفة "إِلَيْنا" متعلقان

بالخبر المحذوف المقدم "مَرْجِعُهُمْ" مبتدأ مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "ثُمَّ" عاطفة "نُذِيقُهُمُ" مضارع فاعله مستتر والهاء مفعوله الأول والجملة معطوفة "الْعَذابَ" مفعول به ثان "الشَّدِيدَ" صفة "بِما" ما مصدرية وما بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء الجارة ومتعلقان بنذيقهم "كانُوا" كان واسمها "يَكْفُرُونَ" مضارع مرفوع والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة يونس (10) : الآيات 71 الى 72]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (72)

"وَاتْلُ" الواو استئنافية وأمر مبني على حذف حرف العلة وفاعله مستتر "عَلَيْهِمْ" متعلقان باتل "نَبَأَ" مفعول به "نُوحٍ" مضاف إليه والجملة مستأنفة "إِذْ" ظرف زمان متعلق بنبإ "قالَ" ماض فاعله مستتر والجملة مضاف إليه "لِقَوْمِهِ" متعلقان بقال "يا" أداة نداء "قَوْمِ" منادى منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف وجملة النداء مقول

القول "إِنْ" شرطية "كانَ" ماض ناقص واسمها ضمير مستتر والجملة ابتدائية "كَبُرَ" ماض "عَلَيْكُمْ" متعلقان بكبر "مَقامِي" فاعل مرفوع بالضمة المقدرة

(146/355)

على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "وَتَذْكِيرِي" معطوف على مقامي "بِآياتِ" متعلقان بتذكيري "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه "فَعَلَى اللَّهِ" الفاء رابطة لجواب الشرط ولفظ الجلالة مجرور بعلى ومتعلقان بتوكلت . "تَوَكَّلْتُ" ماض وفاعله "فَأَجْمِعُوا" فعل ماض وفاعله "أَمْرَكُمْ" مفعول به "وَشُرَكاءَكُمْ" معطوف على أمركم أو مفعول معه "ثُمَّ" عاطفة "لا" نافية "يَكُنْ" مضارع ناقص مجزوم بلا "أَمْرُكُمْ" اسم يكن والكاف مضاف إليه "عَلَيْكُمْ" متعلقان بغما "غُمَّةً" خبر يكن "ثُمَّ" عاطفة "اقْضُوا" أمر وفاعله والجملة معطوفة على اجمعوا "إِلَيَّ" متعلقان باقضوا "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تُنْظِرُونِ" مضارع مجزوم بحذف النون والنون للوقاية وحذفت ياء المتكلم وهي مفعول به "فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية والجملة مستأنفة "تَوَلَّيْتُمْ" ماض وفاعله والجملة ابتدائية "فَما" الفاء رابطة للجواب وما نافية "سَأَلْتُكُمْ" ماض وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "مِنْ" حرف جر زائد "أَجْرٍ" مفعول به ثان مجرور لفظا منصوب محلا "إِنْ" حرف شرط "أَجْرِيَ"

مبتدأ مرفوع بالضمة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم والياء مضاف إليه "إِلَّا" أداة حصر "عَلَى اللَّهِ" متعلقان بالخبر المحذوف "وَأُمِرْتُ" الواو عاطفة وماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل "إِنْ" ناصبة

[سورة يونس (10) : الآيات 73 الى 74]

فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (73) ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلاً إِلى قَوْمِهِمْ فَجاؤُهُمْ بِالْبَيِّناتِ فَما كانُوا لِيُؤْمِنُوا بِما كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذلِكَ نَطْبَعُ عَلى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (74)

(147/355)

"فَكَذَّبُوهُ" الفاء استئنافية وماض وفاعله ومفعوله والجملة مستأنفة "فَنَجَّيْناهُ" الفاء عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَمَنْ" الواو عاطفة ومن اسم موصول معطوف على مفعول نجيناه "مَعَهُ" ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة والهاء مضاف إليه "فِي الْفُلْكِ" متعلقان بنجيناه "وَجَعَلْناهُمْ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "خَلائِفَ" مفعول به ثان "وَأَغْرَقْنَا" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "الَّذِينَ" اسم الموصول مفعول به "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِنا" متعلقان

بكذبوا ونا مضاف إليه "فَانْظُرْ" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله مستتر والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "كَيْفَ" اسم استفهام في محل نصب خبر كان المقدم "كانَ عاقِبَةُ" كان واسمها والجملة في محل نصب مفعول به لانظر "الْمُنْذَرِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم "ثُمَّ" عاطفة "بَعَثْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ بَعْدِهِ" متعلقان ببعثنا والهاء مضاف إليه "رُسُلًا" مفعول به "إِلى قَوْمِهِمْ" متعلقان بجاء وهم "فَجاؤُهُمْ" الفاء حرف عطف وماض وفاعله ومفعوله "بِالْبَيِّناتِ" متعلقان بالفعل. "فَما" الفاء عاطفة وما نافية "كانُوا" كان واسمها "لِيُؤْمِنُوا" اللام لام الجحود ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام الجحود واللام وما بعدها متعلقان بمحذوف خبر كانوا "بِما" اسم موصول في محل جر ومتعلقان بيؤمنوا "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِهِ" متعلقان بكذبوا "كَذلِكَ" الكاف جارة واسم الإشارة في محل جر ومتعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف "نَطْبَعُ" مضارع فاعله مستتر والجملة مستأنفة "عَلى قُلُوبِ" متعلقان بنطبع "الْمُعْتَدِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يونس (10) : الآيات 75 الى 77]

ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسى وَهارُونَ إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ بِآياتِنا فَاسْتَكْبَرُوا وَكانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (75) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِينٌ (76) قالَ مُوسى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَكُمْ أَسِحْرٌ هذا وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (77)

"ثُمَّ" عاطفة "بَعَثْنا" ماض وفاعله والجملة معطوفة "مِنْ بَعْدِهِمْ" متعلقان ببعثنا والهاء مضاف إليه "مُوسى" مفعول به منصوب "وَهارُونَ" معطوف على موسى "إِلى فِرْعَوْنَ" متعلقان ببعثنا "وَمَلائِهِ" معطوف على فرعون "بِآياتِنا" متعلقان بمحذوف حال "فَاسْتَكْبَرُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "وَكانُوا" الواو عاطفة، وكان اسمها والجملة معطوفة "قَوْماً" خبر "مُجْرِمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنه جمع مذكر سالم "فَلَمَّا" الفاء عاطفة ولما الحينية ظرف زمان "جاءَهُمُ الْحَقُّ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف إليه "مِنْ عِنْدِنا" متعلقان بجاءهم "قالُوا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها لأنها جواب شرط غير جازم "إِنَّ هذا لَسِحْرٌ" إن واسم الإشارة اسمها واللام المزحلقة وسحر خبر والجملة مقول القول "مُبِينٌ" صفة "قالَ مُوسى" ماض وفاعله المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة مستأنفة "أَتَقُولُونَ" الهمزة للاستفهام تقولون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة مقول القول "لِلْحَقِّ" متعلقان بتقولون "لَمَّا" الحينية ظرف زمان "جاءَكُمْ" ماض فاعله مستتر والكاف مفعوله والجملة مضاف إليه "أَسِحْرٌ هذا" الهمزة للاستفهام وخبر مقدم واسم الإشارة مبتدأ مؤخر والها للتنبيه

والجملة مقول القول "وَلا" الواو حالية ولا نافية "يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ" مضارع وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية.

[سورة يونس (10) : الآيات 78 الى 80]

(149/355)

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِياءُ فِي الْأَرْضِ وَما نَحْنُ لَكُما بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ ساحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (80)

"قالُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "أَجِئْتَنا" الهمزة للاستفهام وماض وفاعله ومفعوله والجملة مقول القول "لِتَلْفِتَنا" اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن مضمرة بعد لام التعليل ونا مفعول به وفاعله مستتر واللام وما بعدها في تأويل المصدر متعلقان بجئتنا "عَمَّا" عن حرف جر وما اسم موصول ومتعلقان بتلفتنا "وَجَدْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "عَلَيْهِ" متعلقان بوجدنا "آباءَنا" مفعول به ونا مضاف إليه "وَتَكُونَ" الواو عاطفة ومضارع ناقص "لَكُمَا" متعلقان بالخبر المحذوف المقدم "الْكِبْرِياءُ" اسم تكون "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بالخبر المحذوف. "وَما" الواو عاطفة وما تعمل عمل ليس "نَحْنُ" اسم ما. "لَكُمَا" متعلقان

بمؤمنين "بِمُؤْمِنِينَ" الباء حرف جر زائد ومؤمنين اسم مجرور لفظا منصوب محلا خبر ما "وَقالَ فِرْعَوْنُ" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "ائْتُونِي" أمر والواو فاعله والنون للوقاية والياء مفعوله به "بِكُلِّ" متعلقان بائتوني والجملة مقول القول "ساحِرٍ" مضاف إليه "عَلِيمٍ" صفة "فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "جاءَ السَّحَرَةُ" ماض وفاعله والجملة مضاف إليه "قالَ لَهُمْ مُوسى" ماض وموسى فاعله والجار والمجرور متعلقان بقال "أَلْقُوا" أمر وفاعله والجملة مقول القول "ما" موصولية مفعول به "أَنْتُمْ مُلْقُونَ" مبتدأ وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة صلة.

[سورة يونس (10) : الآيات 81 الى 82]

(150/355)

فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (81) وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (82)

"فَلَمَّا" الفاء استئنافية ولما الحينية ظرف زمان "أَلْقَوْا" ماض والواو فاعله والجملة مضاف إليه "قالَ مُوسى" ماض وفاعله المرفوع بالضمة المقدرة على الألف للتعذر والجملة لا محل لها لأنها جواب لما "ما" موصولية مبتدأ "جِئْتُمْ" ماض وفاعله والجملة صلة الموصول "بِهِ"

متعلقان بجئتم "السِّحْرُ" خبر ما "إِنَّ اللَّهَ" إنّ ولفظ الجلالة اسمها والجملة خبر ما . . .

"سَيُبْطِلُهُ" السين للاستقبال ومضارع ومفعوله والفاعل مستتر والجملة خبر إن "إِنَّ اللَّهَ" إن ولفظ الجلالة اسمها والجملة مقول القول "لا" نافية "يُصْلِحُ" مضارع فاعله مستتر "عَمَلَ" مفعول به "الْمُفْسِدِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة خبر إن "وَيُحِقُّ" الواو استئنافية ، ومضارع "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل مرفوع "الْحَقَّ" مفعول به والجملة معطوفة "بِكَلِماتِهِ" متعلقان بيحق "وَلَوْ" الواو حالية ولو حرف شرط غير جازم "كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ" ماض وفاعله المرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية .

[سورة يونس (10) : الآيات 83 الى 84]

فَما آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (83) وَقالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (84)

(151/355)

"فَما" الفاء استئنافية وما نافية "آمَنَ" ماض "لِمُوسى" متعلقان بآمن "إِلَّا" أداة حصر "ذُرِّيَّةٌ" فاعل آمن "مِنْ قَوْمِهِ" متعلقان بصفة محذوفة لذرية والهاء مضاف إليه "عَلى

خَوْفٍ" متعلقان بآمن "مِنْ فِرْعَوْنَ" متعلقان بخوف "وَ1 مَلَائِهِمْ" الواو عاطفة وملئه معطوف على فرعون والهاء مضاف إليه "أَنْ" ناصبة "يَفْتِنَهُمْ" مضارع منصوب بأن وفاعله مستتر والهاء مفعول به وأن وما بعدها في تأويل المصدر في محل نصب مفعول لأجله على تقدير حذف اللام أي لأجل أن يفتنهم "وَإِنَّ فِرْعَوْنَ" الواو حالية وإن واسمها "لَعالٍ" اللام لام المزحلقة وعال خبر إن المرفوع بالضمة المقدرة على الياء المحذوفة والجملة حالية "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بعال "وَإِنَّهُ" الواو عاطفة وإن واسمها والجملة معطوفة "لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" اللام المزحلقة والجار والمجرور متعلقان بالخبر المحذوف "وَقالَ مُوسى" الواو عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة على ما سبق "يا" اداة نداء "قَوْمِ" منادى مضاف منصوب بالفتحة المقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف والجملة مقول القول "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "آمَنْتُمْ" ماض وفاعله والجملة خبر "بِاللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بالباء متعلقان بآمنتم "فَعَلَيْهِ" الفاء رابطة للجواب ومتعلقان بتوكلوا "تَوَكَّلُوا" أمر وفاعله والجملة في محل جزم جواب الشرط "إِنْ" شرطية "كُنْتُمْ" كان واسمها والجملة ابتدائية "مُسْلِمِينَ" خبر منصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم.

[سورة يونس (10) : الآيات 85 الى 87]

فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (85) وَنَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (86) وَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (87)

"فَقالُوا" الفاء عاطفة وماض وفاعله والجملة معطوفة "عَلَى اللَّهِ" لفظ الجلالة مجرور بعلى ومتعلقان بتوكلنا "تَوَكَّلْنا" ماض وفاعله والجملة مقول القول "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف اليه "لا تَجْعَلْنا" لا ناهية تجعلنا مضارع مجزوم بلا الناهية ونا مفعوله الأول والفاعل مستتر والجملة وما قبلها مقول القول "فِتْنَةً" مفعول به ثان "لِلْقَوْمِ" متعلقان بفتنة "الظَّالِمِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "وَنَجِّنا" الواو عاطفة وفعل دعاء مبني على حذف حرف العلة ونا مفعول به وفاعله مستتر "مِنَ الْقَوْمِ" متعلقان بنجنا "الْكافِرِينَ" صفة مجرورة بالياء لأنها جمع مذكر سالم "وَأَوْحَيْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "إِلى مُوسى" متعلقان بأوحينا "وَأَخِيهِ" معطوف على موسى مجرور بالياء لأنه من الأسماء الخمسة "أَنْ" مصدرية "تَبَوَّءا" أمر مبني على حذف النون والألف فاعل وأن وما بعدها في محل نصب مفعول به لأوحينا "لِقَوْمِكُما" متعلقان بتبوءا "بِمِصْرَ" الباء حرف جر ومصر مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف متعلقان بتبوءا "بُيُوتاً" مفعول به "وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً" أمر وفاعله ومفعولاه

والجملة معطوفة "وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ" أمر وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ" أمر وفاعله مستتر والمؤمنين مفعوله المنصوب بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة مستأنفة.

(153/355)

[سورة يونس (10) : الآيات 88 الى 89]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَلا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (89)

(154/355)

"وَقالَ" الواو عاطفة وماض "مُوسى" فاعل مرفوع بالضمة القدرة على الألف للتعذر والجملة معطوفة "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة وهو مضاف ونا مضاف اليه "إِنَّكَ" إن واسمها والجملة مقول القول "آتَيْتَ" ماض وفاعله "فِرْعَوْنَ" مفعول به "وَمَلَأَهُ" معطوفة على فرعون والهاء مضاف اليه والجملة خبر "زِينَةً" مفعول به ثان "وَأَمْوالاً" معطوفة على زينة

"فِي الْحَياةِ" متعلقان بآتيت "الدُّنْيا" صفة "لِيُضِلُّوا" اللام للتعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة وعلامة نصبه حذف النون والواو فاعل واللام وما بعدها في تأويل مصدر متعلقان بآتيت "عَنْ سَبِيلِكَ" متعلقان بيضلوا والكاف مضاف إليه "رَبَّنا" منادى بأداة نداء محذوفة منصوب ونا مضاف إليه "اطْمِسْ" فعل دعاء وفاعله مستتر "عَلى أَمْوالِهِمْ" متعلقان باطمس والهاء مضاف اليه والجملة وما قبلها مقول القول "وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ" معطوف على ما قبله وإعرابه مثله "فَلا" الفاء فاء السببية ولا نافية "يُؤْمِنُوا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد فاء السببية وفاعله "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَرَوُا" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى والواو فاعل "الْعَذابَ" مفعول به "الْأَلِيمَ" صفة "قالَ" ماض وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "قَدْ" حرف تحقيق "أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما" ماض مبني للمجهول ونائب فاعله والكاف مضاف إليه والجملة مقول القول "فَاسْتَقِيما" الفاء الفصيحة وأمر وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَتَّبِعانِّ" مضارع مجزوم بلا ناهية وعلامة جزمه حذف النون والألف فاعل والنون نون التوكيد الثقيلة والجملة معطوفة "سَبِيلَ" مفعول به "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر مضاف اليه "لا يَعْلَمُونَ" لا نافية يعلمون مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة صلة الموصول.

[سورة يونس (10) : الآيات 90 الى 91]

وَجاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (90) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (91)

"وَجاوَزْنا" الواو استئنافية وماض وفاعله والجملة مستأنفة "بِبَنِي" اسم مجرور بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم متعلقان بجاوزنا "إِسْرائِيلَ" مضاف اليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "الْبَحْرَ" مفعول به "فَأَتْبَعَهُمْ" الفاء عاطفة وماض ومفعوله "فِرْعَوْنُ" فاعل مؤخر والجملة معطوفة "وَجُنُودُهُ" معطوفة على فرعون "بَغْياً" مفعول لأجله "وَعَدْواً" معطوفة على بغيا "حَتَّى" حرف غاية "إِذا" ظرفية تضمن معنى الشرط "أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة مضاف اليه. "قالَ" ماض وفاعله مستتر "آمَنْتُ" ماض وفاعله والجملة مقول القول "أَنَّهُ" أن واسمها "لا" نافية للجنس "إِلهَ" اسمها والجملة خبر أنه "إِلَّا" أداة حصر "الَّذِي" اسم موصول خبر لا "آمَنْتُ" ماض والتاء للتأنيث "بِهِ" متعلقان بآمنت "بَنُوا" فاعل مرفوع بالواو لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" مضاف اليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف

والجملة صلة الموصول "وَأَنَا" الواو حالية وأنا مبتدأ والجملة حالية "مِنَ الْمُسْلِمِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "آلْآنَ" الهمزة للاستفهام الآن ظرف زمان متعلق بفعل محذوف "وَقَدْ" الواو حالية وقد حرف تحقيق "عَصَيْتَ" ماض وفاعله والجملة حالية "قَبْلُ" ظرف مبني على الضم لانقطاعه عن الإضافة "وَكُنْتَ" الواو عاطفة وكان واسمها والجملة معطوفة "مِنَ الْمُفْسِدِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف.

(156/355)

[سورة يونس (10) : الآيات 92 الى 93]

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (92)
وَلَقَدْ بَوَّأْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جاءَهُمُ الْعِلْمُ
إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (93)

(157/355)

"فَالْيَوْمَ" الفاء استئنافية واليوم ظرف زمان متعلق بننجيك "نُنَجِّيكَ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر والجملة مستأنفة "بِبَدَنِكَ" متعلقان بمحذوف حال والجملة مضاف إليه "لِتَكُونَ" اللام لام التعليل ومضارع ناقص واسمها محذوف "لِمَنْ" اللام حرف جر ومن اسم موصول ومتعلقان بمحذوف حال "خَلْفَكَ" ظرف مكان متعلق بصلة الموصول والكاف مضاف اليه "آيَةً" خبر تكون "وَإِنَّ كَثِيراً" الواو حالية وإن واسمها "مِنَ النَّاسِ" متعلقان بكثيرا "عَنْ آياتِنا" متعلقان بغافلون ونا مضاف اليه "لَغافِلُونَ" اللام لام المزحلقة وخبر مرفوع بالواو لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية "وَلَقَدْ" الواو استئنافية واللام واقعة في جواب قسم محذوف وقد حرف تحقيق . "بَوَّأْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها وقعت في جواب قسم "بَنِي" مفعول به منصوب بالياء لأنه ملحق بجمع المذكر السالم "إِسْرائِيلَ" سبق إعرابها "مُبَوَّأَ" مفعول مطلق "صِدْقٍ" مضاف إليه "وَرَزَقْناهُمْ" الجملة معطوفة وماض وفاعله ومفعوله "مِنَ الطَّيِّباتِ" متعلقان برزقناهم "فَمَا" الفاء استئنافية وما نافية "اخْتَلَفُوا" ماض وفاعله والجملة مستأنفة "حَتَّى" حرف غاية وجر "جاءَهُمُ الْعِلْمُ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر "إِنَّ رَبَّكَ" إن واسمها والكاف مضاف إليه والجملة مستأنفة "يَقْضِي" مضارع مرفوع بالضمة المقدرة على الياء للثقل والفاعل مستتر والجملة خبر "بَيْنَهُمْ" ظرف مكان متعلق بيقضي والهاء مضاف إليه "يَوْمَ" ظرف زمان متعلق بيقضي "الْقِيامَةِ" مضاف إليه . "فِيما" متعلقان بيقضي "كانُوا"

كان واسمها والجملة صلة .

"فِيهِ" متعلقان بيختلفون "يَخْتَلِفُونَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر كانوا .

[سورة يونس (10) : الآيات 94 الى 97]

(158/355)

فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (94) وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ الْخاسِرِينَ (95) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ (96) وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (97)

(159/355)

"فَإِنْ" الفاء استئنافية وإن شرطية "كُنْتَ" كان واسمها والجملة ابتدائية "فِي شَكٍّ" متعلقان بالخبر المحذوف "مِمَّا" ما الموصولية مجرورة بمن ومتعلقان بمحذوف صفة لشك

"أَنْزَلْنا" ماض وفاعله والجملة صلة "إِلَيْكَ" متعلقان بانزلنا "فَسْئَلِ" الفاء رابطة للجواب وأمر وفاعله مستتر والجملة في محل جزم جواب الشرط "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به "يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ" مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعله والكتاب مفعوله والجملة صلة "مِنْ قَبْلِكَ" متعلقان بمحذوف حال والكاف مضاف اليه "لَقَدْ" اللام للقسم وقد حرف تحقيق "جاءَكَ الْحَقُّ" ماض ومفعوله المقدم وفاعله المؤخر والجملة لا محل لها لأنها جواب قسم "مِنْ رَبِّكَ" متعلقان بمحذوف حال والكاف مضاف اليه "فَلا" الفاء عاطفة ولا ناهية "تَكُونَنَّ" مضارع ناقص مبني على الفتح في محل جزم واسمها مستتر "مِنَ الْمُمْتَرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف والجملة معطوفة "وَلا" الواو عاطفة ولا ناهية "تَكُونَنَّ" مضارع ناقص مبنى على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم واسمها ضمير مستتر والجملة معطوفة "مِنَ الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر بمن ومتعلقان بالخبر المحذوف "كَذَّبُوا" ماض وفاعله والجملة صلة "بِآياتِ" متعلقان بكذبوا "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف اليه "فَتَكُونَ" الفاء فاء السببية ومضارع ناقص منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية واسمها محذوف "مِنَ الْخاسِرِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف "إِنَّ الَّذِينَ" اسم الموصول اسم إن والجملة مستأنفة "حَقَّتْ" ماض والتاء للتأنيث والجملة صلة "عَلَيْهِمْ" متعلقان بحقت "كَلِمَتُ" فاعل حقت "رَبِّكَ" مضاف اليه والكاف مضاف اليه "لا" نافية "يُؤْمِنُونَ" مضارع مرفوع

بثبوت النون والواو فاعل والجملة خبر إن "وَلَوْ" الواو حالية ولو حرف شرط غير جازم "جاءَتْهُمْ" ماض والتاء للتأنيث و

(160/355)

الهاء مفعوله المقدم "كُلُّ" فاعل مؤخر "آيَةٍ" مضاف اليه والجملة ابتدائية لا محل لها "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَرَوُا" مضارع منصوب بأن مضمرة بعد حتى "الْعَذابَ" مفعول به "الْأَلِيمَ" صفة.

[سورة يونس (10) : الآيات 98 الى 99]

فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ (98) وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (99)

"فَلَوْلا" الفاء استئنافية ولولا حرف تحضيض "كانَتْ قَرْيَةٌ" كان تامة والتاء للتأنيث وقرية فاعل "آمَنَتْ" ماض والتاء للتأنيث والفاعل مستتر والجملة استئنافية "فَنَفَعَها" الفاء عاطفة وماض ومفعوله المقدم

(161/355)

"إِيمانُها" فاعل مؤخر والهاء مضاف إليه والجملة معطوفة "إِلَّا" أداة استثناء "قَوْمَ" مستثنى بإلا "يُونُسَ" مضاف إليه مجرور بالفتحة نيابة عن الكسرة لأنه ممنوع من الصرف "لَمَّا" الحينية ظرف زمان. "آمَنُوا" ماض وفاعله والجملة مضاف اليه "كَشَفْنا" ماض وفاعله والجملة لا محل لها من الإعراب لأنها جواب شرط غير جازم "عَنْهُمْ" متعلقان بكشفنا "عَذابَ" مفعول به "الْخِزْيِ" مضاف اليه "فِي الْحَياةِ" متعلقان بمحذوف حال "الدُّنْيا" صفة مجرورة بالكسرة المقدرة على الألف للتعذر "وَمَتَّعْناهُمْ" الواو عاطفة وماض وفاعله ومفعوله والجملة معطوفة "إِلى حِينٍ" متعلقان بمتعناهم "وَلَوْ" الواو استئنافية ولو حرف شرط غير جازم "شاءَ رَبُّكَ" ماض وفاعله والكاف مضاف إليه والجملة ابتدائية "لَآمَنَ" اللام واقعة في جواب لو وماض "مَنْ" اسم موصول فاعل والجملة جواب شرط غير جازم لا محل لها من الإعراب "فِي الْأَرْضِ" متعلقان بمحذوف صلة. "كُلُّهُمْ" توكيد لمن. "جَمِيعاً" حال منصوبة. "أَفَأَنْتَ" الهمزة للاستفهام والفاء عاطفة ومبتدأ مرفوع. "تُكْرِهُ" مضارع فاعله مستتر. "النَّاسَ" مفعول به والجملة خبر للمبتدأ. "حَتَّى" حرف تعليل وجر. "يَكُونُوا" مضارع ناقص منصوب بأن مضمرة بعد حتى والواو اسمه. "مُؤْمِنِينَ" خبر يكونوا.

[سورة يونس (10) : آية 100]

وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ (100)

(162/355)

"وَما كانَ" الواو استئنافية. "ما" نافية. "كانَ" فعل ماض ناقص. "لِنَفْسٍ" خبر كان. "أَنْ تُؤْمِنَ" أن حرف مصدري ونصب. "تُؤْمِنَ" فعل مضارع منصوب والمصدر المؤول من أن والفعل في محل رفع اسم كان المؤخر. "إِلَّا" أداة حصر. "بِإِذْنِ" متعلقان بتؤمن. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "وَيَجْعَلُ" الواو عاطفة. "يَجْعَلُ الرِّجْسَ" مضارع وفاعله مستتر ومفعوله. والجملة معطوفة. "عَلَى الَّذِينَ" متعلقان بيجعل. "لا" نافية "يَعْقِلُونَ" مضارع وفاعله. والجملة صلة الموصول.

[سورة يونس (10) : آية 101]

قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما تُغْنِي الْآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ (101)

"قُلِ" فعل أمر والفاعل أنت. "انْظُرُوا" فعل أمر والواو الفاعل والجملة مقول القول. "ما ذا" اسم استفهام في محل رفع مبتدأ. "فِي السَّماواتِ" خبر. "وَالْأَرْضِ" عطف. "وَما" الواو حالية. "ما" نافية.

"تُغْنِي" فعل مضارع. "الْآيَاتُ" فاعل. "وَالنُّذُرُ" اسم معطوف. "عَنْ قَوْمٍ" متعلقان بتغني. وجملة تغني حالية وجملة "لَا يُؤْمِنُونَ" الجملة في محل جر صفة.

[سورة يونس (10) : آية 102]

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (102)

"فَهَلْ" الفاء استئنافية. "هل" حرف استفهام. "يَنْتَظِرُونَ" فعل مضارع مرفوع بثبوت النون والواو فاعل. "إِلَّا" أداة حصر. "مِثْلَ" مفعول به. "أَيَّامِ" مضاف إليه. "الَّذِينَ" اسم موصول في محل جر بالإضافة. "خَلَوْا" فعل ماض مبني على الضمة المقدرة على الألف المحذوفة، والواو فاعل. "مِنْ قَبْلِهِمْ" متعلقان بخلوا. والجملة صلة الموصول، وجملة "فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ" استئنافية. "قُلْ" فعل أمر.

(163/355)

"فَانْتَظِرُوا" الفاء الفصيحة، وفعل أمر، والواو فاعل. "إِنِّي" إن والياء اسمها. "مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" خبرها. "مَعَكُمْ" ظرف مكان وجملة "فَانْتَظِرُوا" مقول القول. وجملة "إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ" جواب شرط مقدر. لا محل لها.

[سورة يونس (10) : آية 103]

ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ حَقًّا عَلَيْنا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (103)

"ثُمَّ" حرف عطف. "نُنَجِّي رُسُلَنا" فعل مضارع ومفعوله. "وَالَّذِينَ" اسم موصول معطوف على رسلنا. "آمَنُوا" فعل ماض وفاعله والجملة صلة. "كَذلِكَ" الكاف اسم بمعنى مثل صفة لمفعول مطلق محذوف. "و ذا" اسم إشارة مضاف إليه. واللام للبعد والكاف للخطاب. "حَقًّا" مفعول مطلق لفعل محذوف، "عَلَيْنا" متعلقان بحقا، "نُنْجِ" فعل مضارع وفاعله محذوف، "الْمُؤْمِنِينَ" مفعوله.

[سورة يونس (10) : آية 104]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (104)

"قُلْ" فعل أمر. "يا أَيُّهَا النَّاسُ" الناس بدل من المنادى قبله. "إِنْ" حرف شرط. "كُنْتُمْ" فعل ماض ناقص والتاء اسمها، "فِي شَكٍّ" متعلقان بالخبر. "مِنْ دِينِي" متعلقان بصفة لشك. "فَلا" الفاء رابطة للجواب. "لا" نافية. "أَعْبُدُ" مضارع، والفاعل أنا. "الَّذِينَ" اسم موصول مفعول به. "تَعْبُدُونَ" فعل مضارع والواو فاعله. "مِنْ دُونِ" متعلقان بتعبدون. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه والجملة صلة الموصول. "وَلكِنْ" الواو عاطفة.

"لكِنْ" حرف استدراك. "أَعْبُدُ اللَّهَ" فعل مضارع ولفظ الجلالة مفعوله وفاعله مستتر.

"الَّذِي" اسم موصول صفة. "يَتَوَفَّاكُمْ" مضارع ومفعوله وفاعله مستتر.

(164/355)

والجملة صلة. "وَأُمِرْتُ" فعل ماض مبني للمجهول والتاء نائب فاعل، والجملة معطوفة.

"أَنْ أَكُونَ" مضارع ناقص منصوب واسمه محذوف تقديره أنا. "مِنَ الْمُؤْمِنِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف.

[سورة يونس (10) : آية 105]

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)

"وَ" استئنافية. "أَنْ" تفسيرية. "أَقِمْ وَجْهَكَ" فعل أمر ومفعوله وفاعله محذوف "لِلدِّينِ" متعلقان بأقم، "حَنِيفاً" حال منصوبة. "وَلا تَكُونَنَّ" الواو عاطفة. "لا" ناهية جازمة تكونن مضارع ناقص، مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة وهو في محل جزم. واسمها محذوف "مِنَ الْمُشْرِكِينَ" متعلقان بالخبر المحذوف. والجملة معطوفة.

[سورة يونس (10) : آية 106]

وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ (106)

"وَلا" الواو عاطفة، ولا ناهية جازمة. "تَدْعُ" مضارع مجزوم بحذف حرف العلة. "مِنْ دُونِ" متعلقان بالفعل. "اللَّهِ" لفظ الجلالة مضاف إليه. "ما لا" ما اسم موصول مفعول به. لا نافية. "يَنْفَعُكَ" مضارع ومفعوله والجملة صلة الموصول. "وَلا يَضُرُّكَ" كسابقتها.

"فَإِنْ" الفاء عاطفة. "إن" حرف شرط جازم. "فَعَلْتَ" فعل ماض وفاعله. والجملة معطوفة. "فَإِنَّكَ" الفاء رابطة للجواب. "إنك" إن واسمها.

"إِذاً" حرف جواب. "مِنَ الظَّالِمِينَ" متعلقان بالخبر. والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط.

[سورة يونس (10) : آية 107]

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (107)

(165/355)

"وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ" إعرابها كسابقتها "فَلا" الفاء رابطة للجواب. "لا" نافية للجنس. "كاشِفَ" اسمها مبني على الفتحة. "لَهُ" متعلقان باسم الفاعل كاشف والخبر محذوف. "إِلَّا" أداة حصر. "هُوَ" ضمير منفصل في محل رفع بدل من خبر لا النافية

للجنس . "وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ" إعرابها كسابقتها . "يُصِيبُ" مضارع فاعله محذوف . "بِهِ" متعلقان بيصيب "مَنْ" اسم موصول مفعول به .

"يَشاءُ" مضارع فاعله محذوف والجملة صلة الموصول . وجملة يصيب استئنافية . "مِنْ عِبادِهِ" متعلقان بيشاء "وَهُوَ" الواو حالية . "هُوَ" مبتدأ . "الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" خبراه والجملة حالية .

[سورة يونس (10) : آية 108]

قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (108)

"قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ" سبق إعرابها "قَدْ" حرف تحقيق "جاءَكُمُ الْحَقُّ" فعل ماض ومفعوله وفاعله "مِنْ رَبِّكُمْ" متعلقان بحال من الحق "فَمَنِ" الفاء استئنافية "مِنْ" اسم شرط جازم مبتدأ "اهْتَدى" فعل ماض والفاعل هو "فَإِنَّما" الفاء رابطة للجواب "إنما" كافة ومكفوفة "يَهْتَدِي" مضارع وفاعله مستتر . "لِنَفْسِهِ" متعلقان بيهتدي ، والجملة في محل جزم جواب الشرط . وجملة فمن اهتدى استئنافية "وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها" إعرابها كسابقتها .

"وَما" الواو استئنافية "ما" نافية تعمل عمل ليس "أَنَا" ضمير رفع منفصل في محل رفع اسمها "عَلَيْكُمْ" متعلقان بوكيل "بِوَكِيلٍ" اسم مجرور لفظا . منصوب محلا خبر ما . والباء حرف جر زائد . والجملة استئنافية .

[سورة يونس (10) : آية 109]

وَاتَّبِعْ ما يُوحى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ (109)

(166/355)

"وَاتَّبِعْ" فعل أمر والجملة معطوفة "ما" اسم موصول مفعول به "يُوحى" مضارع مبني للمجهول ونائب الفاعل محذوف "إِلَيْكَ" متعلقان بيوحى. والجملة صلة موصول "وَاصْبِرْ" معطوفة على اتبع "حَتَّى" حرف غاية وجر "يَحْكُمَ" مضارع منصوب بأن المضمرة بعد حتى، والمصدر المؤول في محل جر بحرف الجر حتى. وهما متعلقان باصبر. "اللَّهُ" لفظ الجلالة فاعل. "وَهُوَ" الواو حالية "هُوَ" مبتدأ. "خَيْرُ" خبره. "الْحاكِمِينَ" مضاف إليه مجرور بالياء لأنه جمع مذكر سالم والجملة حالية. انتهى انتهى. اهـ ﴿إعراب القرآن / لدعاس حـ 2 صـ 15. 45﴾

(167/355)

فصل فى تخريج الأحاديث الواردة فى السورة الكريمة

قال الإمام الزيلعى رحمه الله :

سُورَة يُونُس عَلَيْهِ السَّلَام

ذكر فِيهَا اثْنَيْنِ وَعشْرين حَدِيثا

588 - الحَدِيث الأول

إِن الْمُؤمن إِذا خرج من قَبره صور لَهُ عمله فِي صُورَة حَسَنَة فَيَقُول لَهُ أَنا عَمَلك فَيكون لَهُ نورا وَقَائِدًا إِلَى الْجنَّة وَالْكَافِر إِذا خرج من قَبره صور لَهُ عمله فِي صُورَة سَيِّئَة فَيَقُول أَنا عَمَلك فَينْطَلق بِهِ حَتَّى يدْخلهُ النَّار

قلت رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا بشر بن معَاذ حَدثنَا يزِيد بن هَارُون حَدثنَا سعيد بن أبي عرُوبَة عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى إِن الَّذين أمنُوا وَعمِلُوا الصَّالِحَات يهْدِيهم رَبهم بإيمانهمْ الْآيَة قَالَ بلغنَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن الْمُؤمن إِذا خرج من قَبره صور لَهُ عمله فِي صُورَة حَسَنَة فَيَقُول لَهُ من أَنْت فوَالله إِنِّي لأَرَاك امْرأ صدق فَيَقُول لَهُ أَنا عَمَلك فَيكون لَهُ نورا وَقَائِدًا إِلَى الْجنَّة وَأما الْكَافِر إِذا خرج من قَبره صور لَهُ عمله فِي صُورَة سَيِّئَة فَيَقُول لَهُ من أَنْت فوَالله إِنِّي لأَرَاك امْرأ سوء فَيَقُول أَنا عَمَلك فَينْطَلق بِهِ حَتَّى يدْخلهُ النَّار) انْتَهَى

وَنَقله الثَّعْلَبِيّ عَن مُجَاهِد وَمُقَاتِل عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَسَنده إِلَيْهِمَا فِي أول

كِتَابه

وَرَوَى ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي أَبْوَاب كَلَام الصَّحَابَة فِي بَاب كَلَام ابْن عمر حَدثنَا أَبُو خَالِد الْأَحْمَر عَن عَمْرو بن قيس عَن عَطِيَّة عَن ابْن عمر قَالَ يسْتَقْبل الْمُؤمن عِنْد خُرُوجه من قَبره عمله أحسن صُورَة رَآهَا قطّ فَيَقُول لَهُ من

(168/355)

أَنْت فَيَقُول لَهُ أَنا الَّذِي كنت مَعَك فِي الدُّنْيَا لَا أُفَارِقك حَتَّى أدْخلك الْجنَّة وَيسْتَقْبل الْكَافِر عمله عِنْد خُرُوجه من قَبره أقبح صُورَة رَآهَا قطّ فَيَقُول لَهُ من أَنْت فَيَقُول لَهُ أَنا الَّذِي كنت مَعَك فِي الدُّنْيَا لَا أُفَارِقك حَتَّى أدْخلك النَّار

انْتَهَى

589 - الْحَدِيث الثَّانِي

عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ إِن الله لَيُصبح الْقَوْم بِالنعْمَةِ ويمسيهم بهَا فَتُصْبِح طَائِفَة مِنْهُم بهَا كَافِرين يَقُولُونَ مُطِرْنَا بنَوْء كَذَا وَكَذَا

قلت هَكَذَا رَوَاهُ الْمُصَنّف مَوْقُوفا وَهُوَ مَرْفُوع رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده والطبري فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْوَاقِعَة وَمن طَرِيق الطَّبَرِيّ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ كلهم من حَدِيث مُحَمَّد بن

إِسْحَاق عَن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم التَّيْمِيّ عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن الله تَعَالَى لِيُصبح عباده بِالنعْمَةِ أَو ليمسيهم بهَا فَيُصْبِح قوم بهَا كَافِرين يَقُولُونَ مُطِرْنَا بِنَوْء كَذَا وَكَذَا) قَالَ مُحَمَّد فَذكرت هَذَا الحَدِيث لسَعِيد بن الْمسيب فَقَالَ وَنحن سمعناه من أبي هُرَيْرَة

انْتَهَى

وَأَبْعد الطِّيبِيّ إِذْ اسْتَشْهد لَهُ بِحَدِيث لمُسلم عَن أبي هُرَيْرَة مَرْفُوعا قَالَ الله تَعَالَى مَا أَنْعَمت عَلَى عبَادي من نعْمَة إِلَّا أصبح فريق بهَا كَافِرين يَقُولُونَ الْكَوْكَب وَبِالْكَوْكَبِ مُطِرْنَا رَوَاهُ مُسلم فِي الْإِيمَان

590 - الحَدِيث الثَّالِث

حَدِيث بني قُرَيْظَة أَنه عَلَيْهِ السَّلَام هدم دُورهمْ وَأَهْلك زُرُوعهمْ وَقلع أَشْجَارهم

(169/355)

قلت فِي البُخَارِيّ عَن مُوسَى بن عقبَة عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن يهود بني النَّضِير حَارَبُوا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَأَجْلَى رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بني النَّضِير . . . الحَدِيث

قَالَ حَارَبت النَّضِير وَقُرَيْظَة فَأَجْلَى بني النَّضِير وَأقر قُرَيْظَة وَمن عَلَيْهِم حَتَّى حَارَبت قُرَيْظَة فَقتل رِجَالهمْ وَقسم نِسَاءَهُمْ وَأَمْوَالهمْ وَأَوْلَادهمْ بَين الْمُسلمين إِلَّا بَعضهم لَحِقُوا بِالْمُسْلِمين فَأَمنَهُمْ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَأَسْلمُوا وَأَجْلَى يهود الْمَدِينَة انْتَهَى وَرَوَاهُ مُسلم أَيضا فِي الْجِهَاد

591 - الْحَدِيث الرَّابِع

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (لَا تَمْكُر وَلَا تعن مَاكِرًا وَلَا تَبْغِ وَلَا تعن بَاغِيا وَلَا تنكث وَلَا تعن نَاكِثًا)

قلت رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الزّهْد وَالرَّقَائِق أخبرنَا يُونُس عَن يزِيد عَن الزُّهْرِيّ قَالَ بلغنَا أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَا تَمْكُر وَلَا تعن مَاكِرًا فَإِن الله يَقُول وَلَا يَحِيق الْمَكْر السيء إِلَّا بِأَهْلِه وَلَا تَبْغِ وَلَا تعن بَاغِيا فَأَن الله يَقُول إِنَّمَا بَغْيكُمْ عَلَى أَنفسكُم وَلَا تنكث وَلَا تعن نَاكِثًا فَإِن الله يَقُول وَمن نكث فَإِنَّمَا ينْكث عَلَى نَفسه انْتَهَى

وَهَذَا مُرْسل

وَرَوَى الْحَاكِم بعضه فِي مُسْتَدْركه عَن عُيَيْنَة بن عبد الرَّحْمَن الْغَطَفَانِي سَمِعت أبي يحدث عَن أبي بكرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (لَا تَبْغِ وَلَا تعن بَاغِيا) فَإِن الله يَقُول إِنَّمَا بَغْيكُمْ عَلَى أَنفسكُم) انْتَهَى وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْأَرْبَعِينَ وَأَعَادَهُ فِي فاطر وَمن طَرِيق ابْن الْمُبَارك رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة فاطر

592 - الْحَدِيث الْخَامِس

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم أَنه قَالَ (أسْرع الْخَيْر ثَوَابًا صلَة الرَّحِم وَأعجل الشَّرّ عقَابا الْبَغي وَالْيَمِين الْفَاجِرَة)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أَنا جرير عَن برد بن سِنَان عَن مَكْحُول قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أعجل الْخَيْر ثَوَابًا صلَة الرَّحِم وَأعجل الشَّرّ عقَابا الْبَغي وَالْيَمِين الْفَاجِرَة تدع الديار بِلَا قع)

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الرَّعْد عَن جرير عَن ثَوْر عَن مَكْحُول مَرْفُوعا . . . فَذكره وَهُوَ مُرْسل

وَرَوَى أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا سُوَيْد بن سعيد حَدثنَا صَالح بن مُوسَى عَن مُعَاوِيَة بن إِسْحَاق عَن عَائِشَة بنت طَلْحَة وَعَن عَائِشَة أم الْمُؤمنِينَ قَالَت قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (أسْرع الْخَيْر ثَوَابًا صلَة الرَّحِم وأسرع الشَّرّ عُقُوبَة الْبَغي)

593 - الْحَدِيث السَّادِس

وَعَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (شَيْئَانِ تَعَجَّلهمَا الله فِي الدُّنْيَا الْبَغي وعقوق الْوَالدين)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه أَيْضا فِي مُسْنده حَدثنَا الْفضل بن دُكَيْن الْملَائي حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الْعَزِيز الرَّاسِبِي حَدثنَا سعد مولَى أبي بكرَة حَدثنَا عبيد الله ابْن أبي بكرَة عَن أَبِيه عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (اثْنَتَانِ يعجلهما الله) إِلَى آخِره

(171/355)

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا الفضيل بن مُحَمَّد الْمَلْطِي حَدثنَا الْفضل بن دُكَيْن بِهِ

وَعَن الطَّبَرَانِيّ رَوَاهُ أَبُو نعيم الْأَصْبَهَانِيّ فِي تَارِيخ أَصْبَهَان فِي بَاب الْعين الْمُهْملَة بِسَنَدِهِ وَمَتنه

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب حَدثنَا حَامِد بن عمر حَدثنَا بكار بن عبد الْعَزِيز عَن أَبِيه عَن جده عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (كل الذُّنُوب يُؤَخر الله مِنْهَا مَا شَاءَ إِلَى يَوْم الْقِيَامَة إِلَّا الْبَغي وعقوق الْوَالدين فَإِنَّهُ يعجل بِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا قبل الْمَوْت) انْتَهَى

594 - الْحَدِيث السَّابِع

عَن ابْن عَبَّاس قَالَ لَو بغى جبل عَلَى جبل لَدُكَّ الْبَاغِي

قلت هَكَذَا ذكره الْمُصَنّف مَوْقُوفا وَقد ورد مَرْفُوعا وموقوفا رَوَاهُ ابْن الْمُبَارك فِي كتاب الْبر والصلة أخبرنَا فطر بن خَليفَة حَدثنَا أَبُو يَحْيَى القَتَّات عَن مُجَاهِد قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَو أَن جبلا بغى عَلَى جبل لَدُكَّ الْبَاغِي مِنْهُمَا انْتَهَى وَهَذَا مُرْسل وَرُوِيَ أَيْضا مَرْفُوعا من طَرِيق واهية رَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الْعِلَل المتناهية من طَرِيق الدَّارَقُطْنِيّ عَن ابْن حبَان قَالَ أخبرنَا أَبُو بكر أَحْمد بن مُحَمَّد بن الْفضل الْقَيْسِي من لَفظه أخبرنَا نصر بن عَلِي الْجَهْضَمِي عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن الزُّهْرِيّ عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكره ثمَّ قَالَ وَأحمد بن الْفضل هَذَا كَانَ يضع الحَدِيث

قَالَ ابْن حبَان كتبت عَنهُ نَحْو خَمْسمِائَة حَدِيث كلهَا مَوْضُوعَة

انْتَهَى

(172/355)

وَالْمَوْقُوف رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالْأَرْبَعِينَ عَن الْحَاكِم بسَنَدِهِ إِلَى الْأَعْمَش عَن أبي يَحْيَى القَتَّات عَن مُجَاهِد قَالَ قَالَ ابْن عَبَّاس . . . فَذكره

قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي كتاب الْعِلَل هَذَا حَدِيث اخْتلف فِيهِ عَلَى أبي يَحْيَى القَتَّات فَرَوَاهُ

فطر بن خَليفَة عَنهُ عَن مُجَاهِد عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَرَوَاهُ الثَّوْرِيّ وَإِسْرَائِيل عَنهُ عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس من قَوْله وَهُوَ أصح انْتَهَى كَلَامه

قلت رَوَاهُ الْبُخَارِيّ فِي كِتَابه الْمُفْرد فِي الْأَدَب حَدثنَا أَبُو نعيم حَدثنَا فطر بن خَليفَة عَن أبي يَحْيَى القَتَّات سَمِعت مُجَاهدًا عَن ابْن عَبَّاس مَوْقُوفا

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره فِي سُورَة الْحَج من حَدِيث قُطْبَة بن عبد الْعَزِيز عَن أَبِيه عَن جده حَدثنَا الْأَعْمَش عَن أبي يَحْيَى القَتَّات عَن مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره ثمَّ رَوَاهُ من حَدِيث سُفْيَان عَن الْأَعْمَش بِهِ مَوْقُوفا

ثمَّ رَوَاهُ حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن رَاشد حَدثنَا أَحْمد بن عبد الرَّحْمَن بن وهب حَدثنَا عمي حَدثنَا عبد الله بن عمر وَجَرِير بن حَازِم عَن نَافِع عَن ابْن عمر أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ . . . فَذكره

595 - الْحَدِيث الثَّامِن

قَالَ الْمُصَنّف رَحِمَهُ اللَّهُ وَزَعَمت الْمُجبرَة أَن الزِّيَادَة هِيَ النّظر إِلَى وَجه الله تَعَالَى وَجَاءَت بِحَدِيث مَرْفُوع إِذا دخل أهل الْجنَّة الْجنَّة نُودُوا أَن يَا أهل الْجنَّة فَيكْشف الْحجاب فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ فوالله مَا أَعْطَاهُم الله شَيْئًا هُوَ أحب إِلَيْهِ مِنْهُ

قلت قَالَ الطِّيبِيّ قَوْله مَرْفُوع هُوَ عِنْده بِالْقَافِ أَي مُرَقع مفترى وَهُوَ عِنْد أهل السّنة بِالْفَاءِ

والْحَدِيث رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه من حَدِيث حَمَّاد بن سَلمَة عَن ثَابت الْبنانِيّ عَن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى عَن صُهَيْب عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِذا دخل أهل الْجنَّة الْجنَّة يَقُول الله تَعَالَى تُرِيدُونَ شَيْئا أَزِيدكُم فَيَقُولُونَ ألم تبيض وُجُوهنَا ألم تُدْخِلنَا الْجنَّة وَتُنْجِينَا من النَّار وَقَالَ فَيكْشف الْحجاب فَمَا أعْطوا شَيْئا أحب إِلَيْهِم من النّظر إِلَى رَبهم) انْتَهَى وَزَاد فِي رِوَايَة ثمَّ تَلا للَّذين أَحْسنُوا الْآيَة

وَالْعجب أَن التِّرْمِذِيّ لما رُوِيَ هَذَا الحَدِيث فِي كِتَابه لم يُحسنهُ وَلم يُصَحّحهُ وَلَا قَالَ وَفِي الْبَاب عَن أحد من الصَّحَابَة وَإِنَّمَا قَالَ هَكَذَا رَفعه حَمَّاد بن سَلمَة وَقد رَوَاهُ سُلَيْمَان بن الْمُغيرَة عَن ثَابت عَن عبد الرَّحْمَن بن أبي لَيْلَى قَوْله لم يذكر فِيهِ عَن صُهَيْب عَن النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم

انْتَهَى

أَحَادِيث تَفْسِير الزِّيَادَة بالنّظر إِلَى وَجه الله

رُوِيَ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره أَنا يُونُس أَنا وهب أَنا شبيب عَن أبان بن أبي عَيَّاش عَن أبي تَمِيمَة الْهُجَيْمِي أَنه سمع أَبَا مُوسَى الْأَشْعَرِيّ يحدث عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (إِن

الله يبْعَث يَوْم الْقِيَامَة مناديا يُنَادي يَا أهل الْجنَّة بِصَوْت يسمع أَوَّلهمْ وَآخرهمْ إِن الله وَعدكُم الْحُسْنَى وَزِيَادَة وَالْحُسْنَى الْجنَّة وَزِيَادَة النّظر إِلَى وَجه الرَّحْمَن عَزَّ وَجَلَّ)

(174/355)

وَرَوَاهُ هُوَ وَابْن أبي حَاتِم من حَدِيث أبي بكر الْهُذلِيّ عَن أبي تَمِيمَة الهُجَيْمِي بِهِ رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من طَرِيق عبد الله بن وهب ثَنَا شبيب عَن أبان بن أبي عَيَّاش عَن أبي تَمِيمَة بِهِ

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث خَالِد بن هياج بن بسطَام عَن أَبِيه عَن أبان بن أبي عَيَّاش بِهِ

حَدِيث آخر أخرج الطَّبَرِيّ وَابْن أبي حَاتِم أَيْضا عَن زُهَيْر عَمَّن سمع أَبَا الْعَالِيَة حَدثنَا أبي بن كَعْب أَنه سَأَلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَن قَوْله للَّذين أَحْسنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة قَالَ (الْحُسْنَى الْجنَّة وَالزِّيَادَة النّظر إِلَى وَجه الله تَعَالَى) انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا عبد الْبَاقِي بن قَانِع حَدثنَا مُحَمَّد بن زَكَرِيَّا ابْن دِينَار حَدثنَا قَحْطَبَة بن غُدَانَة حَدثنَا أَبُو خلدَة عَن أبي الْعَالِيَة بِهِ سَوَاء

وَرَوَاهُ أَيْضا عَن زُهَيْر بن مُعَاوِيَة عَن أبي حَفْص عَن أبي الْعَالِيَة بِهِ

حَدِيث آخر رَوَاهُ الطَّبَرِيّ حَدثنَا ابْن حميد حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن الْمُخْتَار عَن ابْن جريج عَن

عَطاء عَن كَعْب بن عجْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله للَّذين أَحْسنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة قَالَ الزِّيَادَة النّظر إِلَى وَجه الله تَعَالَى)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ أَبو نعيم الْأَصْبَهَانِيّ فِي تَارِيخ أَصْبَهَان عَن إِبْرَاهِيم بن مُخْتَار بِهِ

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن حميد بِهِ وَقَالَ عَطاء الْخُرَاسَانِي

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث حَدِيث عباد بن كثير عَن ثَابت بن الْبنانِيّ عَن عبد الرَّحْمَن ابْن أبي لَيْلَى عَن كَعْب بن عجْرَة مَرْفُوعا نَحوه

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُسْند الشاميين

(175/355)

حَدِيث آخر أخرج ابْن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده عَن عَامر بن سعد بن أبي بكر الصّديق فِي قَوْله تَعَالَى للَّذين أَحْسنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة قَالَ الزِّيَادَة النّظر إِلَى وَجه الله تَعَالَى انْتَهَى

قَالَ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي آخر تَفْسِير سُورَة هود بعد أَن رَوَى عَن ابْن عَبَّاس تَفْسِير آيَة قَالَ وَلَعَلَّ مُتَوَهمًا يتَوَهَّم أَن هَذَا وَأَمْثَاله من الْمَوْقُوفَات وَلَيْس كَذَلِك فَإِن الصَّحَابِيّ إِذا فسر التِّلَاوَة فَهُوَ مُسْند عِنْد الشَّيْخَيْنِ

حَدِيث آخر رَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث الْهَيْثَم بن جميل حَدثنَا أَبُو معشر عَن نَافِع عَن ابْن عمر عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى للَّذين أَحْسنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة قَالَ الْحُسْنَى الْجنَّة وَالزِّيَادَة النّظر إِلَى وَجه الله الْكَرِيم انْتَهَى

حَدِيث آخر رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أيضا من حَدِيث نوح بن أبي مَرْيَم عَن ثَابت عَن أنس بن مَالك قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن هَذِه الْآيَة للَّذين أَحْسنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَة قَالَ (فَأَحْسنُوا الْعَمَل فِي الدُّنْيَا فَلهم الْحُسْنَى الْجنَّة وَالزِّيَادَة النّظر إِلَى وَجه الله الْكَرِيم) انْتَهَى

وَأخرج عَن الحكم بن أبان عَن عِكْرِمَة عَن ابْن عَبَّاس مَوْقُوفا نَحوه

وَعَن الْحَارِث عَن عَلّي مَوْقُوفا نَحوه

وَأخرج حَدِيث أبي بكر عَن إِسْرَائِيل عَن عَامر بن سعد عَنهُ

596 - الْحَدِيث التَّاسِع

رُوِيَ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي بعض غَزَوَاته لِتَأْخُذُوا مَصَافكُمْ

قلت غَرِيب

وَرَوَى التِّرْمِذِيّ فِي التَّفْسِير وَقَالَ حَدِيث حسن صَحِيح وَسَأَلت عَنهُ مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل فَقَالَ حَدِيث صَحِيح عَن مَالك بن يخَامر عَن معَاذ بن جبل قَالَ أَبْطَأَ عَنَّا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي صَلَاة الْفجْر حَتَّى كَادَت الشَّمْس أَن تطلع قَالَ (ثمَّ خرج وأقيمت الصَّلَاة فَصَلى بِنَا صَلَاة تجوز بهَا فَلَمَّا سلم قَالَ كَمَا أَنْتُم عَلَى مَصَافكُمْ) فَثَبت الْقَوْم عَلَى مَصَافهمْ ثمَّ أقبل عَلَيْهِم بِوَجْهِهِ فَقَالَ (إِنِّي منبئكم بطئي عَنْكُم الْغَدَاة إِنِّي قُمْت من اللَّيْل فَتَوَضَّأت ثمَّ صليت مَا شَاءَ الله وَإِنِّي رَأَيْت رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي مَنَامِي فرأيته فِي أحسن صُورَة فَقَالَ فيمَ يخْتَصم الْمَلأ الْأَعْلَى) فَذكر الْحَدِيث

وَأخرج مُسلم عَن أبي سَلمَة عَن أبي هُرَيْرَة أَن الصَّلَاة كَانَت تُقَام لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَيَأْخُذ النَّاس مَصَافهمْ قبل أَن يقوم مقَامه

انْتَهَى ذكره فِي الصَّلَاة

وَأخرج أَبُو دَاوُد أَيْضا فِي صَلَاة الْخَوْف عَن أبي هُرَيْرَة فِي قصَّة ذَات الرّقاع وَفِيه فَلَمَّا قَامُوا مَشوا الْقَهْقَرَى إِلَى مصَاف أَصْحَابهم

597 - الْحَدِيث الْعَاشِر

عَن أبي بن كَعْب أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم تَلا قَوْله تَعَالَى قل بِفضل الله وبرحمته فَقَالَ (بِكِتَاب الله وَالْإِسْلَام)

قلت رَوَى ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث مُحَمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن غَزوَان حَدثنَا أبي

عَن سُلَيْمَان بن الْمُغيرَة عَن ثَابت عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قل بِفضل الله وبرحمته قَالَ بِفضل الله الْقُرْآن وبرحمته أَن جعلكُمْ من أَهله

انْتَهَى غَرِيب مَرْفُوعا

(177/355)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ مَوْقُوفا عَلَى ابْن عَبَّاس وَأبي سعيد الْخُدْرِيّ وَعلي وَالْحسن وَقَتَادَة وَمُجاهد

وَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مصنفة مَوْقُوفا عَلَى الْخُدْرِيّ وَعلي وَابْن عَبَّاس

وَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان مَوْقُوفا عَلَى ابْن عَبَّاس فِي الْبَاب التَّاسِع عشر أخرجه عَن جرير عَن مَنْصُور حَدثنَا مُجَاهِد عَن ابْن عَبَّاس فِي قَوْله قل بِفضل الله . . . إِلَى آخِره

598 - الْحَدِيث الْحَادِي عشر

عَن سعيد بن جُبَير قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن أَوْلِيَاء الله فَقَالَ (هم الَّذين يذكر الله عِنْد رُؤْيَتهمْ)

قلت هَكَذَا رَوَاهُ الْمُصَنّف مُرْسلا وَقد رُوِيَ مُرْسلا وَمُسْندًا

فَالْمُسْنَدُ رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث مُحَمَّد بن سعيد بن سَابق

حَدثنَا يَعْقُوب بن عبد الله الْأَشْعَرِيّ عَن جَعْفَر بن أبي الْمُغيرَة عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أَوْلِيَاء الله قَالَ (الَّذين إِذا رُءُوا ذكر الله) انْتَهَى

وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ الْحَكِيم فِي نَوَادِر الْأُصُول وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَزَّار فِي مُسْنده قَالَ الْبَزَّار وَقد رَوَاهُ غير مُحَمَّد بن سعيد عَن يَعْقُوب عَن جَعْفَر عَن سعيد بن جُبَير عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرْسلا انْتَهَى

وَأما الْمُرْسل فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه فِي بَاب كَلَام النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والطبري فِي تَفْسِيره حَدثنَا يَحْيَى بن الْيَمَان عَن أَشْعَث بن إِسْحَاق عَن جَعْفَر بن أبي الْمُغيرَة عَن سعيد بن جُبَير قَالَ سُئِلَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(178/355)

وَله طَرِيق آخر عِنْد أبي نعيم فِي الْحِلْية فِي تَرْجَمَة مسعر عَن الْهياج بن بسطَام عَن مسعر عَن بكير بن الْأَخْنَس عَن سعيد بن جُبَير قَالَ سُئِلَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . الْحَدِيث ثمَّ قَالَ غَرِيب من حَدِيث مسعر تفرد بِهِ الْهياج وَبُكَيْر ابْن الْأَخْنَس رَوَى عَنهُ مسعر وَلم يلقه الثَّوْرِيّ وَلَا شُعْبَة

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث يَحْيَى الْحمانِي حَدثنَا يَعْقُوب بن عبد الله القمي بِهِ مُرْسلا

599 - الْحَدِيث الثَّانِي عشر

عَن عمر سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (إِن من عباد الله عبادا مَا هم بِأَنْبِيَاء وَلَا شُهَدَاء يَغْبِطهُمْ الْأَنْبِيَاء وَالشُّهَدَاء يَوْم الْقِيَامَة لِمَكَانِهِمْ من الله) قَالُوا يَا رَسُول الله خبرنَا مَا هم وَمَا أَعْمَالهم فَلَعَلَّنَا نحبهمْ فَقَالَ (قوم تحَابوا فِي الله عَلَى غير أَرْحَام بَينهم وَلَا أَمْوَال يَتَعَاطونَهَا فو الله إِن وُجُوههم لنُور وَإِنَّهُم عَلَى مَنَابِر من نور لَا يخَافُونَ إِذا خَافَ النَّاس وَلَا يَحْزَنُونَ إِذا حزن النَّاس) ثمَّ قَرَأَ الْآيَة

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده حَدثنَا جرير بن عبد الحميد عَن عمَارَة بن الْقَعْقَاع عَن أبي زرْعَة بن عَمْرو بن جرير عَن عمر بن الْخطاب سَمِعت النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول . . . فَذكره

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسِّتِّينَ بِسَنَدِهِ وَمَتنه ثمَّ قَالَ وَأَبُو زرْعَة عَن عمر مُرْسل

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره حَدثنَا ابْن حميد حَدثنَا جرير بِهِ

وَرَوَاهُ أَبُو نعيم فِي الْحِلْية فِي أول الْكتاب والواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط عَن قيس بن الرّبيع عَن عمَارَة بن الْقَعْقَاع بِهِ

وَرَوَاهُ أَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ فِي مُسْنده وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره ثمَّ رَوَاهُ حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن البيع حَدثنَا مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم بن زِيَاد حَدثنَا عبد الصَّمد بن مُوسَى الْقطَّان حَدثنَا جرير بن عبد الحميد عَن عمَارَة بن الْقَعْقَاع عَن أبي زرْعَة بن عَمْرو بن جرير عَن أبي هُرَيْرَة عَن عمر بن الْخطاب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره حَدثنَا زُهَيْر وَعُثْمَان بن أبي شيبَة قَالَا حَدثنَا جرير بِهِ

وَمن طَرِيق أبي دَاوُد رَوَاهُ أَبُو الْقَاسِم الْأَصْبَهَانِيّ فِي كِتَابه التَّرْغِيب والترهيب

وَقد رُوِيَ هَذَا الحَدِيث من حَدِيث أبي هُرَيْرَة وَأبي مَالك الْأَشْعَرِيّ وَابْن عمر والْعَلَاء بن زِيَاد وَأنس وَأبي الدَّرْدَاء

فَحَدِيث أبي هُرَيْرَة رَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث أبي زرْعَة عَن أبي هُرَيْرَة قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن من عبَادي لعبادا يَغْبِطهُمْ الْأَنْبِيَاء وَالشُّهَدَاء) قيل من هم يَا رَسُول الله قَالَ (هم قوم تحَابوا بِروح الله عَلَى غير أَمْوَال وَلَا أَنْسَاب وُجُوههم نور عَلَى

مَنَابِر من نور لَا يخَافُونَ إِن خَافَ النَّاس وَلَا يَحْزَنُونَ إِن حزن النَّاس) ثمَّ تَلا هَذِه الْآيَة أَلا إِن أَوْلِيَاء الله

لَا خوف عَلَيْهِم وَلَا هم يَحْزَنُونَ)

انْتَهَى وَكَذَلِكَ رَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه

(180/355)

وَأما حَدِيث أبي مَالك الْأَشْعَرِيّ فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْحَادِي وَالسِّتِّينَ من طَرِيق عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن ابْن أبي حُسَيْن عَن شهر بن حَوْشَب عَن أبي مَالك الْأَشْعَرِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . نَحوه وَأعله الْبَيْهَقِيّ بِشَهْر بن حَوْشَب

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي الْبر والصلة من حَدِيث زِيَاد بن خَيْثَمَة عَن أَبِيه عَن ابْن عمر مَرْفُوعا نَحوه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ

وَأما حَدِيث الْعَلَاء بن زِيَاد فَرَوَاهُ ابْن أبي شيبَة فِي مُصَنفه حَدثنَا مُحَمَّد ابْن بشر حَدثنَا عبد الْعَزِيز بن عمر حَدثنِي إِبْرَاهِيم بن أبي عبلة أَن الْعَلَاء بن زِيَاد كَانَ يحدث عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكر نَحوه

وَأما حَدِيث أبي الدَّرْدَاء فَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه من حَدِيث فرج بن فضَالة عَن أَسد بن ودَاعَة عَن أبي الدَّرْدَاء مَرْفُوعا . . . نَحوه

وَأما حَدِيث أنس فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الْعَاشِر عَن وَاقد بن سَلامَة الْبَصْرِيّ عَن يزِيد الرقاشِي عَن أنس عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . . . فَذكر نَحوه

وَرَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل والعقيلي فِي ضعفَاهُ وَأَعلاهُ بواقِد قَالَ ابْن عدي لم يَصح حَدِيثه وَنقل الْعقيلِيّ عَن الْبُخَارِيّ نَحوه قَالَ وَلَا يُتَابع عَلَيْهِ إِلَّا من طَرِيق يُقَارِبه

600 - الْحَدِيث الثَّالِث عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى قَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُؤمن أَو ترَى لَهُ)

(181/355)

قلت رُوِيَ من حَدِيث عبَادَة بن الصَّامِت وَأبي الدَّرْدَاء وَابْن مَسْعُود وَجَابِر بن عبد الله بن رئَاب وَأبي هُرَيْرَة

فَحَدِيث عبَادَة رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ لفظ التِّرْمِذِيّ عَن أبي سَلمَة قَالَ نبئت عَن عبَادَة وَسكت عَنهُ وَلَفظ ابْن ماجة عَن أبي سَلمَة عَن عبَادَة وَبِهِمَا رَوَاهُ الْحَاكِم وَابْن ماجة فِي كتَاب

الرُّؤْيَا من حَدِيث أبي سَلمَة عَن عبَادَة بن الصَّامِت قَالَ سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا قَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُؤمن أَو ترَى لَهُ)

وَرَوَاهُ أَحْمد وَإِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو يعلي فِي مسانيدهم وَالْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب الثَّالِث وَالثَّلَاثِينَ وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه وَقَالَ صَحِيح الْإِسْنَاد وَلم يخرجَاهُ وَأَعَادَهُ الْحَاكِم فِي كتَاب الرُّؤْيَا وَقَالَ عَن أبي سَلمَة قَالَ نبئت عَن عبَادَة بن الصَّامِت . . . فَذكره وَقَالَ صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ وَلم يخرجَاهُ وَشَاهده حَدِيث أبي الدَّرْدَاء ثمَّ أخرجه عَن أبي الدَّرْدَاء وَسكت عَنهُ

قلت ظَاهر هَذَا اللَّفْظ الِانْقِطَاع فَكيف يكون عَلَى شَرط الشَّيْخَيْنِ أَو صَحَّحَاهُ بِالْجُمْلَةِ قَالَ ابْن عَسَاكِر فِي أَطْرَافه وَأَبُو سَلمَة لم يسمع من عبَادَة وَالْعجب من الذَّهَبِيّ كَيفَ أقره عَلَى ذَلِك

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره من حَدِيث عبد الله بن حميد بن عبد الله المري عَن أَبِيه عَن عبَادَة بن الصَّامِت مَرْفُوعا

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث إِسْمَاعِيل بن عَيَّاش حَدثنَا صَفْوَان بن عَمْرو السكْسكِي عَن حميد بن عبد الله عَن عبَادَة

وَرَوَاهُ أَيْضا من حَدِيث بَقِيَّة بن الْوَلِيد حَدثنَا صَفْوَان بن عَمْرو السكْسكِي وَعمر بن عَمْرو والأحموسي عَن حميد بن عبد الله أَنه حَدثهمْ عَن عبَادَة بن الصَّامِت

وَأما حَدِيث أبي الدَّرْدَاء فَرَوَاهُ التِّرْمِذِيّ فِي كِتَابه عَن عَطاء بن يسَار عَن رجل من أهل مصر قَالَ سَأَلت أَبَا الدَّرْدَاء عَن قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَقَالَ سَأَلت عَنْهَا رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فَقَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُؤمن أَو ترَى لَهُ) انْتَهَى

وَقَالَ حَدِيث حسن انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَأَبُو يعلي الْموصِلِي وَزَاد فِيهِ وَفِي الْآخِرَة الْجنَّة

وَابْن رَاهَوَيْه وَابْن أبي شيبَة فِي مسانيدهم

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه وَكَذَلِكَ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان رَوَاهُ بِالْإِسْنَادِ الْمَذْكُور

وَرَوَاهُ الْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه عَن عَطاء بن يسَار قَالَ سَأَلت أَبَا الدَّرْدَاء . . . فَذكره وَسكت عَنهُ

وَينْبَغِي أَن ينظر فِي هَذَا قَالَ ابْن أبي حَاتِم فِي علله سَأَلت أبي من هَذَا الشَّيْخ الَّذِي من أهل مصر فَقَالَ لَا يعرف

انْتَهَى

وَأما حَدِيث جَابر بن عبد الله بن رِئَاب فَرَوَاهُ الْبَزَّار فِي مُسْنده من حَدِيث مُحَمَّد بن السَّائِب الْكَلْبِيّ عَن ابْن صَالح عَن جَابر بن عبد الله بن رِئَاب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَة قَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُسلم أَو يرَاهَا لَهُ)

انْتَهَى وَسكت عَنهُ

رَوَاهُ ابْن عدي فِي الْكَامِل وعده من مُنكرَات الْكَلْبِيّ

(183/355)

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن جَعْفَر الْقَزاز الْكُوفِي حَدثنَا عبيد بن كثير العامري حَدثنَا عَمْرو بن عُثْمَان الخزاز حَدثنَا مفضل بن صَالح عَن جَابر عَن أبي جَعْفَر عَن جَابر بن عبد الله مَرْفُوعا قَالَ وَهُوَ جَابر بن عبد الله

ابْن رِئَاب وَلَيْسَ بِالْأَنْصَارِيّ

وَرَوَاهُ أَيْضا حَدثنَا مُحَمَّد بن أَحْمد بن إِبْرَاهِيم حَدثنَا مُحَمَّد بن سُلَيْمَان حَدثنَا عبد السَّلَام بن عبد الحميد الْحَرَّانِي حَدثنَا عِيسَى بن يُونُس عَن الْأَعْمَش عَن أبي سُفْيَان عَن جَابر مَرْفُوعا نَحوه

وَأما حَدِيث ابْن مَسْعُود فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أَيْضا من طَرِيق ابْن وهب وَأَخْبرنِي جرير بن حَازِم عَن عَاصِم بن بَهْدَلَة عَن أبي وَائِل وزر بن حُبَيْش عَن ابْن مَسْعُود قَالَ سَأَلت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عَن قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا قَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُؤمن أَو ترَى لَهُ) انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن الْعَاص فَرَوَاهُ أَبُو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده من طَرِيق ابْن لَهِيعَة حَدثنَا دراج عَن عبد الرَّحْمَن بن جُبَير عَن عبد الله بن عَمْرو عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم فِي قَوْله تَعَالَى لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا قَالَ (هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الْمُؤمن هِيَ جُزْء من تِسْعَة وَأَرْبَعين جُزْءا من النُّبُوَّة)

وَأما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ وَابْن مرْدَوَيْه وَرَوَاهُ النَّسَائِيّ فِي كتاب الكنى من حَدِيث أبي إِسْحَاق عبد الرَّحْمَن بن عمر رجل من أهل الْكُوفَة أَن الْأَعْمَش حَدثهُ عَن أبي صَالح بِهِ قَالَ النَّسَائِيّ وَأَبُو إِسْحَاق هَذَا لَا أعرفهُ والْحَدِيث خطأ انْتَهَى

(184/355)

وَفِي تَفْسِيره حَدثنَا مُحَمَّد بن حَاتِم الْمُؤَدب حَدثنَا عمار بن مُحَمَّد ثَنَا الْأَعْمَش عَن أبي صَالح عَن أبي هُرَيْرَة عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لَهُم الْبُشْرَى فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا هِيَ

(الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا العَبْد الصَّالح أَو ترَى لَهُ وَهِي فِي الْآخِرَة الْجنَّة)

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه أَيْضا عَن عباد بن مُوسَى الْخُتُلِي حَدثنَا سُفْيَان عَن الْأَعْمَش بِهِ

601 - الحَدِيث الرَّابِع عشر

عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (ذهبت النُّبُوَّة وَبقيت الْمُبَشّرَات)

قلت رُوِيَ من حَدِيث حُذَيْفَة بن أسيد وَمن حَدِيث أبي الطُّفَيْل وَمن حَدِيث أم كرز الْكَعْبِيَّة

أما حَدِيث حُذَيْفَة فَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا مُحَمَّد بن عبد الله الْحَضْرَمِيّ حَدثنَا الْحسن بن عَلّي الْحلْوَانِي حَدثنَا أَبُو عَاصِم عَن مهْدي بن مَيْمُون عَن عُثْمَان بن عبيد الرَّاسِبي عَن أبي الطُّفَيْل عَن حُذَيْفَة بن أسيد أبي سريحَة الْغِفَارِيّ عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (ذهبت النُّبُوَّة وَبقيت الْمُبَشّرَات) قَالُوا يَا رَسُول الله وَمَا الْمُبَشّرَات قَالَ (الرُّؤْيَا الصَّالِحَة يَرَاهَا الرجل أَو ترَى لَهُ) انْتَهَى

وَأما حَدِيث أبي الطُّفَيْل فَرَوَاهُ البُخَارِيّ فِي تَارِيخه الْوسط فِي بَاب الْعين الْمُهْملَة فِي تَرْجَمَة عُثْمَان بن عبيد فَقَالَ حَدثنَا سُلَيْمَان عَن حَمَّاد بن زيد عَن عُثْمَان بن عبيد عَن أبي الطُّفَيْل عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (ذهبت النُّبُوَّة وَبقيت الْمُبَشّرَات) انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه حَدثنَا مُوسَى بن هَارُون حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن أَسمَاء حَدثنِي مهْدي بن مَيْمُون حَدثنَا عُثْمَان بن عبيد الرَّاسِبِي عَن أبي الطُّفَيْل مَرْفُوعا وَرَوَاهُ أَبو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا عبد الله بن مُحَمَّد بن أَسمَاء بِهِ سندا ومتنا وَأما حَدِيث أم كرز فَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه فِي النَّوْع السَّادِس و السّتين من الْقسم الثَّالِث عَن سُفْيَان بن عُيَيْنَة عَن عبيد الله بن أبي يزِيد عَن أَبِيه عَن سِبَاع بن ثَابت عَن أم كرز الْكَعْبِيَّة سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (ذهبت النُّبُوَّة وبقيت الْمُبَشّرَات)

وَرَوَاهُ الطَّبَرِيّ فِي تَفْسِيره وَأحمد وَالْبَزَّار فِي مسنديهما وَأَبو يعلي قَالَ الْبَزَّار وَلَا نعلمهُ يروي عَن أم كرز إِلَّا من هَذَا الْوَجْه

انْتَهَى

وَرَوَى أَبو يعلي الْموصِلِي فِي مُسْنده حَدثنَا زُهَيْر حَدثنَا عَفَّان حَدثنَا عبد الْوَاحِد ابْن زِيَاد عَن الْمُخْتَار بن فلفل عَن أنس قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِن الرسَالَة والنبوة قد انْقَطَعت فَلَا رَسُول بعدِي وَلَكِن بقيت الْمُبَشّرَات) قَالُوا يَا رَسُول الله وَمَا الْمُبَشّرَات قَالَ (رُؤْيا الْمُسلمين جُزْء من أَجزَاء النُّبُوَّة) انْتَهَى

602 - الْحَدِيث الْخَامِس عشر

عَن أبي ذَر قلت لرَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الرجل يعْمل الْعَمَل لله ويُحِبهُ ويَحْمَدهُ النَّاس عَلَيْهِ فَقَالَ (تِلْكَ عَاجل بشرى الْمُؤمن)

(186/355)

قلت رَوَاهُ مُسلم فِي صَحِيحه فِي آخر الْبر والصلة من حَدِيث عبد الله ابْن الصَّامِت الْغِفَارِيّ عَن أبي ذَر قَالَ قلت يَا رَسُول الله الرجل يعْمل الْعَمَل لله فنحبه وَتَحْمَدهُ النَّاس عَلَيْهِ قَالَ (تِلْكَ عَاجل بشرى الْمُؤمن) انْتَهَى

603 - الحَدِيث السَّادِس عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لَا غمَّة فِي فَرَائض الله)

قلت وَأَعَادَهُ فِي سُورَة أَرَأَيْت قَالَ السّلف الْغُمَّة السترَة أَي لَا تستر فِي فَرَائض الله بل يُجَاهر بهَا ذكره القَاضِي عِيَاض فِي الْبَاب الأول من كتاب الشِّفَاء فِي فصل فَصَاحَته قَالَ وَمن كِتَابه عَلَيْهِ السَّلَام لوَائِل بن حجر إِلَى الْأَقْيَال العباهلة والأرواع المشابيب وَفِيه فِي التيعة شَاة لَا مُقَوَّرَة الأليا ط وَلَا ضناك وانطوا الثبجة وَفِي السُّيُوب الْخمس وَمن زنَى مِم بكر فاصعقوه مائَة واستوفضوه عَاما وَمن زنَى مِم ثيب فَضَرِّجُوهُ بِالْأَضَامِيم وَلَا توصيم فِي الدّين وَلَا غمَّة فِي فَرَائض الله وكل مُسكر حرَام

انْتَهَى

604 - الْحَدِيث السَّابِع عشر

قَالَ الْمُصَنّف وَالَّذِي يَحْكِي أَنه حِين قَالَ آمَنت يَعْنِي فِرْعَوْن أَخذ جِبْرِيل من حَال الْبَحْر فَدَسَّهُ فِي فِيهِ فللغضب لله عَلَى الْكَافِر فِي وَقت قد علم أَن إِيمَانه لَا يَنْفَعهُ وَأما مَا يضم إِلَيْهِ من قَوْله خشيَة أَن تُدْرِكهُ الرَّحْمَة

فَمن زيادات الباهتين لله وَمَلَائِكَته وَفِيه جَهَالَتَان إِحْدَاهمَا أَن الْإِيمَان يصبح بِالْقَلْبِ كَإِيمَانِ الْأَخْرَس فحال الْبَحْر لَا يمنعهُ

وَالْأُخْرَى أَن من ذكر هَذَا الِاعْتِرَاض الأول لَا يمشي إِلَّا عَلَى مَذْهَب أبي حنيفَة

(187/355)

لِأَنَّهُ لَا يشْتَرط لَهُ اللَّفْظ باللّسَان وَقد يُجَاب عَنهُ بِأَن جِبْرِيل إِنَّمَا أَرَادَ أَن يشْتَغل قلبه لَا لِسَانه بدلِيل مَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ أَنه قَالَ وَهُوَ فِي الْغَرق آمَنت أَنه لَا إِلَه إِلَّا الَّذِي آمَنت بِهِ بَنو إِسْرَائِيل ثمَّ وضع جِبْرِيل فِي فِيهِ الطين فَعلم أَنه أَرَادَ أَن يشغل قلبه ويلهيه عَن الْإِيمَان بِقَلْبِه وَذَلِكَ أَن من كره إِيمَان الْكَافِر وَأحب بَقَاءَهُ عَلَى الْكفْر فَهُوَ كَافِر لِأَن الرِّضَا بِالْكفْر كفر

قلت رُوِيَ من حَدِيث ابْن عَبَّاس وَأبي هُرَيْرَة

فَحَدِيث ابْن عَبَّاس رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وَالنَّسَائِيّ فِي التَّفْسِير من حَدِيث شُعْبَة عَن عدي بن ثَابت وَعَطَاء بن السَّائِب عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس رَفعه أَحدهمَا إِلَى النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَانَ يدس فِي فَم فِرْعَوْن الطين مَخَافَة أَن يَقُول لَا إِلَه إِلَّا الله زَاد التِّرْمِذِيّ فيرحمه اللَّهُ

انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن غريب صَحِيح

انْتَهَى

وَرَوَاهُ ابْن حبَان فِي صَحِيحه

فِي النَّوْع السَّادِس من الْقسم الثَّالِث دون زِيَادَة التِّرْمِذِيّ وَالْحَاكِم فِي مُسْتَدْركه فِي كتاب الْإِيمَان بِزِيَادَة التِّرْمِذِيّ وَفِي التَّفْسِير بدُونهَا وَقَالَ فِي الْمَوْضِعَيْن صَحِيح عَلَى شَرط الشَّيْخَيْن وَلم يخرجاهُ لِأَن أَكْثر أَصْحَاب شُعْبَة وَقَفُوهُ عَلَى ابْن عَبَّاس

انْتَهَى

وَكَذَلِك رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَالْبَزَّار فِي مسانيدهم

(188/355)

وَله طَرِيق آخر أَيْضا عِنْد التِّرْمِذِيّ رَوَاهُ عَن حَمَّاد بن سَلمَة عَن عَلّي بن زيد عَن يُوسُف بن مهْرَان عَن ابْن عَبَّاس أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لما أغرق الله فِرْعَوْن قَالَ آمَنت أَنه لَا إِلَه إِلَّا الَّذِي آمَنت بِهِ بَنو إِسْرَائِيل فَقَالَ جِبْرِيل يَا مُحَمَّد فَلَو رَأَيْتنِي وَأَنا آخذ من حَال الْبَحْر فَأَدُسهُ فِي فِيهِ مَخَافَة أَن تُدْركهُ الرَّحْمَة) انْتَهَى وَقَالَ حَدِيث حسن

وَبِهَذَا الْإِسْنَاد رَوَاهُ أَحْمد وَأَبُو دَاوُد الطَّيَالِسِيّ وَعبد بن حميد فِي مسانيدهم وَالطَّبَرَانِيّ فِي مُعْجَمه

وَرَوَاهُ السَّرَقسْطِي فِي كِتَابه غَرِيب الحَدِيث أخبرنَا مُوسَى بن هَارُون حَدثنَا يَحْيَى بن عبد الحميد حَدثنَا أَبُو خَالِد الْأَحْمَر عَن عمر بن يعلي عَن سعيد بن جُبَير عَن ابْن عَبَّاس قَالَ قَالَ جِبْرِيل للنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم وَذكر فِرْعَوْن فَقَالَ لقد رَأَيْتنِي وَإِنِّي لألبس فَمه بِالْحُمَاةِ مَخَافَة أَن تُدْركهُ الرَّحْمَة انْتَهَى

أما حَدِيث أبي هُرَيْرَة فَرَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب السَّادِس وَالْخمسين والطبري وَابْن مرْدَوَيْه وَابْن أبي حَاتِم فِي تفاسيرهم عَن حكام بن سلم عَن عَنْبَسَة بن سعيد عَن كثير بن زَاذَان عَن أبي حَازِم عَن أبي هُرَيْرَة أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (قَالَ لِي جِبْرِيل يَا مُحَمَّد لَو رَأَيْتنِي وَأَنا آخذ من حَال الْبَحْر فَأَدُسهُ فِي فِي فِرْعَوْن مَخَافَة أَن يَقُول رَبِّي الله فَتُدْركهُ رَحْمَة الله)

انْتَهَى

وَأما حَدِيث ابْن عمر فَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره حَدثنَا سُلَيْمَان بن أَحْمد حَدثنَا خطاب بن سعد الدِّمَشْقِي حَدثنَا نصر بن مُحَمَّد بن سُلَيْمَان بن أبي ضَمرَة السّلمِيّ حَدثنَا أبي حَدثنَا عبد الله بن أبي قيس حَدثنَا عبد الله بن عمر قَالَ سَمِعت رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُول (قَالَ لي جبْرِيل يَا مُحَمَّد مَا غضب ربك عَلَى أحد غَضَبه عَلَى فِرْعَوْن إِذْ قَالَ مَا علمت لكم من إِله غَيْري وَإِذ نَادَى فَقَالَ أَنَا ربكُم الْأَعْلَى فَلَمَّا أدْركهُ الْغَرق اسْتَغَاثَ وَأَقْبَلت أَحْشُو فَاه مَخَافَة أَن تدْركهُ الرَّحْمَة) انْتَهَى

605 - الحَدِيث الثَّامِن عشر

رُوِيَ أَن جبْرِيل عَلَيْهِ السَّلَام جَاءَ فِرْعَوْن بِفُتْيَا مَا قَول الْأَمِير فِي عبد لرجل نَشأ فِي مَاله وَنعمته فَكفر نعْمَته وَجحد حَقه وَادَّعَى السِّيَادَة دونه فَكتب فِرْعَوْن عَلَيْهَا يَقُول أَبُو الْعَبَّاس الْوَلِيد بن مُصعب جَزَاء هَذَا الْعَبْد الْخَارِج عَلَى سَيّده الْكَافِر نعماه أَن يغرق فِي الْبَحْر فَلَمَّا أُلْجمهُ الْغَرق نَاوَلَهُ جبْرِيل خطه فعرفهُ

606 - الحَدِيث التَّاسِع عشر

قَالَ النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم عِنْد نزُول قَوْله تَعَالَى فَإِن كنت فِي شكّ مِمَّا أنزلنَا إِلَيْك

فَسَأَلَ الَّذين يقرءُون الْكتاب من قبلك الْآية (لَا أَشك وَلَا أسأَل بل أشهد أَنه الْحق)

قلت رَوَاهُ عبد الرَّزَّاق فِي تَفْسِيره أَنا معمر عَن قَتَادَة فِي قَوْله تَعَالَى فَإِن كنت فِي شكّ مِمَّا أنزلنَا إِلَيْك قَالَ بلغنَا أَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (لَا أَشك وَلَا أسأَل)

انْتَهَى

وَكَذَلِكَ رَوَاهُ الطَّبَرِيّ مثله سَوَاء وَهُوَ معضل

607 - الْحَدِيث الْعشْرُونَ

(190/355)

رُوِيَ أَنه لما نزلت واصبر حَتَّى يحكم الله جمع رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم الْأَنْصَار فَقَالَ (إِنَّكُم سَتَجِدُونَ بعدِي أَثَرَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي)

غَرِيب بِهَذَا اللَّفْظ وَهُوَ فِي تَفْسِير الثَّعْلَبِيّ عَن أنس بِغَيْر سَنَد

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَن عبد الله بن زيد بن عَاصِم أَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (يَا معشر الْأَنْصَار أَلم أَجدكُم ضلالا فهداكم الله بِي) إِلَى أَن قَالَ إِنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بعدِي أَثَرَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْض)

مُخْتَصر

وَأخرجه أَيْضا عَن أسيد بن حضير أَن رجلا من الْأَنْصَار قَالَ يَا رَسُول الله أَلا تَسْتَعْمِلنِي كَمَا اسْتعْملت فلَانا فَقَالَ (إِنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بعدِي أَثَرَة فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْض) انْتَهَى

608 - الْحَدِيث الْحَادِي وَالْعِشْرين

رُوِيَ أَن أَبَا قَتَادَة تخلف عَن تلقي مُعَاوِيَة وَقد قدم الْمَدِينَة وَقد تَلَقَّتْهُ الْأَنْصَار ثمَّ دخل عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُ مَالك لم تتلقنا قَالَ لم تكن عندنَا دَوَاب قَالَ فَأَيْنَ النَّوَاضِح قَالَ قَطَعْنَاهَا فِي طَلَبك وَطلب أَبِيك يَوْم بدر وَقد قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (إِنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بعدِي أَثَرَة) فَقَالَ مُعَاوِيَة فَمَاذَا قَالَ قَالَ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم (فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي) قَالَ فَاصْبِرُوا قَالَ إِذن نصبر فَقَالَ عبد الرَّحْمَن ابْن حسان بن ثَابت

(أَلا أبلغ مُعَاوِيَة بن حَرْب . . . أَمِير الظَّالِمين نَثَا كَلَامي)

(بِأَنَّا صَابِرُونَ فمنظروكم . . . إِلَى يَوْم الْقِيَامَة وَالْخِصَام)

(191/355)

قلت رَوَاهُ إِسْحَاق بن رَاهَوَيْه فِي مُسْنده أخبرنَا عبد الرَّزَّاق أَنا معمر عَن عبد الله بن مُحَمَّد بن عقيل بن أبي طَالب أَن مُعَاوِيَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْه لما قدم الْمَدِينَة لقِيه أَبو قَتَادَة

الْأَنْصَارِيّ فَقَالَ مُعَاوِيَة تلقانِي النَّاس كلهم غَيْركُمْ يَا معشر الْأَنْصَار فَمَا يمنعكم أَن تَلْقَوْنِي قَالَ لم يكن لنا دَوَاب فَقَالَ مُعَاوِيَة فَأَيْنَ النَّوَاضِح قَالَ أَبُو قَتَادَة عقرناها فِي طَلَبك وَطلب أَبِيك يَوْم بدر ثمَّ قَالَ أَبُو قَتَادَة إِن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ لنا (إِنَّكُم سَتَلْقَوْنَ بعدِي أَثَرَة) قَالَ مُعَاوِيَة فَمَا أَمركُم قَالَ أمرنَا أَن نصبر حَتَّى نَلْقَاهُ قَالَ فَاصْبِرُوا حَتَّى تلقوهُ فَقَالَ عبد الرَّحْمَن ابْن حسان حِين بلغه ذَلِك . . . فَذكر الْبَيْتَيْنِ إِلَّا أَنه قَالَ عوض الظَّالِمين الْمُؤمنِينَ وَقَالَ عوض يَوْم الْقِيَامَة يَوْم التغابن

انْتَهَى

وَمن طَرِيق ابْن رَاهَوَيْه رَوَاهُ الْحَاكِم وَعَن الْحَاكِم رَوَاهُ الْبَيْهَقِيّ فِي شعب الْإِيمَان فِي الْبَاب التَّاسِع وَالْأَرْبَعِينَ

609 - الْحَدِيث الثَّانِي وَالْعشْرُونَ

عَن رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم قَالَ (من قَرَأَ سُورَة يُونُس أعطي من الْأَجر عشر حَسَنَات بِعَدَد من صدق بِيُونُس وَكذب بِهِ وَبِعَدَد من غرق مَعَ فِرْعَوْن)

قلت رَوَاهُ الثَّعْلَبِيّ من حَدِيث سَلام بن سليم حَدثنَا هَارُون بن كثير عَن زيد بن أسلم عَن أَبِيه عَن أبي أُمَامَة عَن أبي بن كَعْب عَن النَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم . . . فَذكره سَوَاء وَرَوَاهُ ابْن الْجَوْزِيّ فِي الموضوعات من طَرِيق أبي بكر بن أبي دَاوُد بِسَنَدِهِ فِي آخر الْكتاب وَرَوَاهُ ابْن مرْدَوَيْه فِي تَفْسِيره بسنديه بِهِ فِي آل عمرَان

(192/355)

وَرَوَاهُ الواحدي فِي تَفْسِيره الْوَسِيط أخبرنَا الْأُسْتَاذ أَبُو عُثْمَان سعيد بن مُحَمَّد الزَّعْفَرَانِي حَدثنَا أَبُو عَمْرو مُحَمَّد بن جَعْفَر بن مطر الْعدْل حَدثنَا إِبْرَاهِيم بن شريك الْأَسدي حَدثنَا أَحْمد بن عبد الله بن يُونُس حَدثنَا سَلام بن سليم بِهِ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تخريج الأحاديث والآثار حـ 2 صـ 119.142 ﴾

(193/355)

فصل فى ذكر آيات الأحكام فى السورة الكريمة

قال العلامة الكيا هراسي :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

سورة يونس

قوله تعالى : (قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هذا أَوْ بَدِّلْهُ) ، الآية/ 15 .

يستدل به في منع نسخ الكتاب بالسنة «1» ، لأنه تعالى قال : (قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ

تِلْقاءِ نَفْسِي) ، الآية/ 15 .

وهذا بعيد ، فإن الآية وردت في طلب المشركين مثل القرآن نظما ، ولم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام قادرا عليه ، ولم يسألوه تبديل الحكم دون اللفظ ، ولأن الذي يقوله الرسول عليه الصلاة والسلام ، إذا كان وحيا لم يكن من تلقاء نفسه ، بل كان من اللّه تعالى .

قوله تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَراماً وَحَلالًا ، قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ) ، الآية/ 59 .

يستدل به في القياس وهو بعيد ، فإن القياس دليل اللّه تعالى ، فيكون التحريم والتحليل من اللّه ، عند وجود دلالة نصبها اللّه تعالى على الحكم ،

---

(1) أنظر السيوطي في الإكليل .

فإن خالف في أن القياس دليل اللّه تعالى ، فهو خروج عن هذا الغرض ورجوع إلى غيره .

قوله تعالى : (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً) ، الآية/ 87 .

قال ابن عباس : كانوا خائفين من الظهور ، فأمروا أن يجعلوا بيوتهم قبلة ، فيصلوا في بيوتهم ،

وفيه دليل على أن الصلاة في المسجد أفضل إلا لعذر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أحكام القرآن / للكيا هراسي حـ 4 صـ 223. 224﴾

(195/355)

من مجازات القرآن فى السورة الكريمة

قال ابن المثنى :

(بسم اللّه الرّحمن الرّحيم)

«سورة يونس»

(10)

«الر» (1) ساكنة لأنها حروف جرت مجرى فواتح سائر السور اللواتى مجازهن مجاز حروف التهجي ومجاز موضعهن فى المعنى كمجاز ابتداء فواتح السور .

«تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْحَكِيمِ» (1) مجازها : هذه آيات الكتاب الحكيم ، أي القرآن ، قال الشاعر :

ما فهم من الكتاب أم آي القرآن «1»

والحكيم : مجازه المحكم «2» المبيّن الموضّح ، والعرب قد نضع فعيل فى معنى مفعل ،

وفى آية أخرى : «هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ» (50/ 23) ، مجازه : معد ، «3» وقال أبو ذوءيب :

---

(1) لم أجده فيما رجعت إليه من المظان ، وفى وزنه خلل وفى معناه غموض .

(2) «والحكيم . . . والمحكم» : راجع ما رواه القرطبي (8/ 305) عن أبى عبيدة .

(3) « «المعد» » هكذا ورد فى الأصول وهو بمعنى العتيد (حسبما ورد فى اللسان) ولكن مقتضى السياق هو المعتد .

(196/355)

. . . إنى غداة إذ ولم أشعر خليف «1»

أي ولم أشعر أنى محلف ، من قولهم : أخلفت الموعد . ومجاز «آيات» مجاز أعلام «2» الكتاب وعجائبه ، وآياته أيضا : فواصله ، والعرب يخاطبون بلفظ الغائب وهم يعنون الشاهد ، وفى آية أخرى : «الم ذِلكَ الْكِتابُ» (2/ 1) مجازه : هذا القرآن ، قال عنترة :

شطّت مزار العاشقين فأصبحت عسرا علىّ طلابك ابنة مخرم (17)

«قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ» (2) مجازه : سابقة صدق عند ربهم ، ويقال : له قدم فى الإسلام وفى الجاهلية .

«ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ» (3) مجازه : ظهر على العرش وعلا عليه ، ويقال : استويت على ظهر الفرس ، وعلى ظهر البيت .

«إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا» (4) وعد اللّه : منصوب لأنه مصدر فى موضع «وَعْدَ اللَّهِ» ، وإذا كان المصدر فى موضع فعل ، نصبوه كقول كعب :

تسعى الوشاة جنابيها وقيلهم إنّك يا ابن أبى سلمى لمقتول (147)

---

(1) : ديوان الهذليين 1/ 99 واللسان (خلف) على اختلاف فى روايتهما

(2) «أعلام» : وفى البخاري : يقال : تلك آيات ، يعنى هذه أعلام القرآن ، ومثله : «حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم» المعنى : بكم ، قال ابن حجر : وقع لغير أبى ذر وسيأتى للجميع فى التوحيد وقائل ذلك هو أبو عبيدة ابن المثنى (فتح الباري 8/ 261) . [. . . . .]

(197/355)

يقولون حكاية عن أبى عمرو : وقيلهم منصوب لأنه فى موضع «ويقولون» «وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالْقِسْطِ» (4) أي بالعدل .

«لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ» (4) كل حار فهو حميم ، قال المرقّش الأصغر من بنى سعد بن

مالك :

وكل يوم لها مقطرة فيها كباء معدّ وحميم «1»

أي ماء حار يستحمّ به ، كباء مما تكبيت به أي تبخّرت وتجمّرت سواء ، وكبى منقوص :

هى الكنّاسة والسّباطة والكساحة .

«جَعَلَ الشَّمْسَ ضِياءً» (5) وصفها بالمصدر ، والعرب قد تصف المؤنثة بالمصدر

وتسقط الهاء ، كقولهم : إنما خلقت فلانة لك عذابا وسجنا ونحو ذلك بغير الهاء .

---

(1) المرقش الأصغر : اسمه عمرو بن حرملة بن سعد بن مالك ، وقيل اسمه حرملة بن

سعد ، وقيل غير ذلك . شاعر جاهلى وهو عم طرفة ترجم له المرزباني فى المعجم

201 وأخباره فى الأغانى 193 . - والبيت فى الطبري 11/ 55 واللسان (قطر ،

صمم) على خلاف فى الرواية

(198/355)

قال :

«الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا» (7) مجازه : لا يخافون ولا يخشون ، وقال :

إذا لسعته النحل لم يرج لسعها وحالفها فى بيت نوب عوامل «1»

«دَعْواهُمْ فِيها» (10) أي دعاؤهم «2» أي قولهم وكلامهم. «وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ» (10).

«لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ» (11) مجازه: لفرغ ولقطع ونبذ إليهم، وقال أبو ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما داود أو صنع السوابغ تبّع (62)

«دَعانا لِجَنْبِهِ أَوْ قاعِداً أَوْ قائِماً» (12) مجازه: دعانا على إحدى هذه الحالات، ومجاز «دعانا لجنبه» مجاز المختصر الذي فيه ضمير كقولك: دعانا وهو مضطجع لجنبه.

«مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنا» (12) أي استمر فمضى.

«مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي» (15) أي من عند نفسى.

---

(1) والبيت لأبى ذؤيب فى ديوان الهذليين 1/ 143 - وجمهرة الأشعار 9 والطبري 11/ 56 والقرطبي 8/ 311.

(2) «دعواهم. دعاؤهم»: رواه البخاري، قال ابن حجر فى فتح الباري 8/ 261 هو قول أبى عبدة.

«وَلا أَدْراكُمْ بِهِ» (16) مجازه : ولا أفعلكم به من دريت أنا به .

«عُمُراً» (16) أي حينا طويلا ، مجازه من قولهم : مضى علينا حين من الدهر ، والعمر والعمر والعمر ثلاث لغات .

«وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤُنا عِنْدَ اللَّهِ» (18) مجاز ما هاهنا مجاز الدين ، ووقع معناها على الحجارة ، وخرج كنايتها على لفظ كناية لآدميين ، فقال : هؤلاء شفعاؤنا ، ومثله فى آية أخرى : «لَقَدْ عَلِمْتَ ما هؤُلاءِ يَنْطِقُونَ» (21/ 65) ، وفى آية أخرى : «إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي ساجِدِينَ» (12/ 4) والمستعمل فى الكلام : ما تنطق هذه ، ورأيتهن لى ساجدات ، وقال :

تمزّزتها والدّيك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا «1»

وفى آية أخرى «يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ» (27/ 18) والمستعمل : أدخلن مساكنكن لا يحطمنكن سليمان .

«مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آياتِنا» (21) مجاز المكر هاهنا مجاز الجحود بها والرد لها .

«قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْراً» (21) أي أخذا وعقوبة واستدراجا لهم .

---

(1) : البيت للنابغة الجعدي وهو فى الكتاب 1/ 205 والطبري 19/ 35 والشنتمرى

1/ 240 والصحاح واللسان والتاج (نعش) وابن يعيش 1/ 700 وشواهد المغني 215 والخزانة 3/ 21 .

(200/355)

«أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ» (22) مجازه : دنوا للهلاك ، ويقال : إنه محاط بك ، «1» والإدراك أي إنك مدرك فمهلك .

«فَجَعَلْناها حَصِيداً» (24) اى مستاصلين ، والحصيد من الزرع والنبات المجذوذ من أصله وهو يقع أيضاً لفظه على لفظ الجميع من الزرع والنبات فجاء فى هذه الآية على معنى الجميع ، وقد يقال : حصائد الزرع ، اللواتى تحصد .

«وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ» (26) يرهق : أي يغشى ، والقتر جميع قترة ، وفى القرآن : «تَرْهَقُها قَتَرَةٌ» (80/ 41) ، وهو الغبار [قال الأخطل :

يعلو القناطر يبنيها ويهدمها مسوّما فوقه الرايات والقتر] «2»

وقال [الفرزدق] :

متوّج برداء الملك يتبعه موج ترى فوقه الرايات والفترا «3»

---

(1) «أحيط بهم . . . محاط بك» : رواه ابن حجر عن أبى عبيدة فى فتح الباري 8/

.361

(2) : ديوانه 103 .

(3) : ديوانه 290 - والطبري 11/ 69 رواه القرطبي 8/ 331 وصاحب اللسان (قتر) على أنه من إنشاد أبى عبيدة .

(201/355)

«قِطَعاً «1» مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً» (27) إذا أسكنت الطاء فمعناه بعضا من الليل ، والجميع : أقطاع من الليل ، أي ساعات من الليل ، يقال : أتيته بقطع من الليل وهو فى آية أخرى : بقطع من اللّيل (11/ 81) . ومن فتح الطاء فإنه يجعلها جميع قطعة والمعنيان واحد . ويجعل «مظلما» من صفة الليل وينصبها على الحال وعلى أنها نكرة وصفت به معرفة .

«هُنالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ» (30) أي تخبر وتجد . و«تتلو» «2» تتبع .

«لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ أَمْ يَقُولُونَ» (37 ، 38) مجاز «أم» ها هنا مجاز الواو ويقولون .

«افْتَراهُ» (38) أي اختلقه وابتشكه .

«إِنْ أَتاكُمْ عَذابُهُ بَياتاً» (50) أي بيتكم ليلا وأنتم بائتون .

«إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ» (61) أي تكثرون وتلغطون وتخلطون .

«وَما يَعْزُبُ «3» عَنْ رَبِّكَ» (61) أي ما يغيب عنه ، ويقال : أين عزب عقلك عنك .

«مِثْقالِ ذَرَّةٍ» (61) أي زنة نملة صغيرة ، ويقال خذ هذا فإنه أخف مثقالا ، أي وزنا .

---

(1) «قطعا» : قرأ ابن كثير والكسائي بإسكان الطاء والباقون بفتحها (الداني 121) .

(2) «و ما يعزب» : وقرأ الكسائي يعزب بكسر الزاى وضم الباقون وهما لغتان فصيحتان (القرطبي 8/ 356) .

(3) «تبلو ، تتلو» : قراءتان ، انظر القرطبي 8/ 334 .

(202/355)

«وَالنَّهارَ مُبْصِراً» (67) له مجازان أحدهما : أن العرب وضعوا أشياء من كلامهم فى موضع الفاعل ، والمعنى : أنه مفعول ، لأنه ظرف يفعل فيه غيره لأن النهار لا يبصر ولكنه يبصر فيه الذي ينظر ، وفى القرآن : «فِي عِيشَةٍ راضِيَةٍ» (61/ 21) وإنما يرضى بها الذي يعيش فيها ، قال جرير :

لقد لمتنا يا أمّ غيلان فى السّرى ونمت وما ليل المطيّ بنائم «1»

والليل لا ينام وإنما ينام فيه ، وقال [رؤية] :

فنام ليلى وتجلّى همّى «2»

«إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بِهذا» (68) مجازه: ما عندكم سلطان بهذا، و«من» من حروف الزوائد، ومجاز سلطان هاهنا: حجّة وحق وبرهان.

«ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً» (71) مجازها: ظلمة وضيق «3» وهمّ، قال العجّاج:

بل لو شهدت الناس إذ تكموا بغمّة لو لم تفرّج غمّوا «4»

---

(1): ديوانه (نشر الصاوى) 544 - والكتاب 1/ 69 والطبري 11/ 89 والشنتمرى 1/ 80 والخزانة 1/ 223.

(2): ديوانه 142.

(3) «مجازها ... وضيق»: نقل القرطبي (8/ 364) هذا الكلام عنه.

(4): ديوانه 63 - والطبري 11/ 91 والقرطبي 8/ 364 واللسان (كمم).

[.....]

(203/355)

تكمّوا: تغمّدوا، يقال تكمّيت فلانا أي تغمّدته، وقد كميت شهادتك إذا كتمتها، وفارس كمىّ وهو الذي لا يظهر شجاعته إلا عند الحاجة إلى ذلك.

«ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ» (71) مجازه كمجاز الآية الأخرى:

«وَقَضَيْنا إِلى بَنِي إِسْرائِيلَ» (17/ 4) أي أمرناهم.

«إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ» (75) أي أشراف قومه.

«أَجِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَيْهِ آباءَنا» (78) أي لتصرفنا عنه وتميلنا وتلوينا عنه، ويقال: لفت عنقه. كقول رؤبة:

[يدقّ صلّبات العظام لفتى] لفتا وتهزيعا سواء اللّفت «1»

التهزيع: الدّق واللّفت: اللّيّ.

«قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» «2» (81) مجاز «ما» هاهنا: «الذي» ويزيد فيه قوم ألف الاستفهام، كقولك: آلسّحر؟.

---

(1): ديوانه 24 - والطبري 11/ 93.

(2) «السحر»: اختلفت القراء فى قراءة الآية فقرأتها عامة قراء أهل الحجاز والعراق «ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» على وجه الخبر من موسى عن الذي جاءت به سحرة فرعون أنه سحر. وقرأها مجاهد وبعض المدنيين والبصريين «ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ» بهمزة ممدودة على وجه الاستفهام من موسى للسحرة (الطبري 11/ 94).

«اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ» (88) أي أذهب أموالهم ، ويقال : طمست عينه وذهبت ، وطمست الريح على الديار .

«وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ» (88) مجازه ها هنا كمجاز «اشدد الباب» ، ألا نرى بعده :

«فَلا يُؤْمِنُوا» (88) جزم ، لأنه دعاء عليهم ، أي فلا يؤمنن .

«فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ» (90) مجازه : تبعهم ، هما سواء .

«بَغْياً وَعَدْواً» (90) «1» مجازه : عدوانا .

«فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ» (92) مجازه : نلقيك «2» على نجوة ، أي ارتفاع ليصر علما أنه قد غرق .

«لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً» (92) أي علامة ، ومجاز خلفك : بعدك .

«إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ

---

(1) «وعدوا» : في البخاري : عدوا من العدوان ، قال ابن حجر : هو قول أبي عبيدة أيضا ، وهو وما قبله نعتان منصوبان على أنهما مصدران أو على الحال (فتح الباري 8/ 262) .

(2) «نلقيك . . .» : أخذ القرطبي (8/ 380) هذا الكلام ، وهو في فتح الباري 8/

262 ، وقال ابن حجر : والنجوة هى الربوة المرتفعة وجمعها نجا بكسر النون والقصر ، وليس قوله ننحيك من النجاة بمعنى السلامة ، وقد قيل هو بمعناها والمراد مما وقع فيه قومك من قعر البحر إلخ .

(205/355)

حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ» (96 ، 97) مجازه : المؤلم وهو الموجع ، والعرب تضع فعيل فى موضع مفعل ، وقال فى آية أخرى : «سَمِيعٌ بَصِيرٌ» (22/ 61) أي مبصر وقال عمرو بن معد يكرب .

أمن ريحانة الداعي السميع «1»

يريد المسمع . ريحانة : أخت عمرو بن معديكرب كان الصّمّة أغار عليها وذهب بها ، وقال أبو عبيدة : كانت ريحانة أخت عمرو فسباها الصّمّة وهى أم دريد وخالد .

«إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ» (98) مجاز «إلّا» ها هنا مجاز الواو ، كقولك : وقوم يونس لم يؤمنوا حتى رأوا العذاب الأليم فآمنوا ف «كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ» «2»

---

(1) : هو مطلع قصيده له وعجزه : يؤرقنى وأصحابى هجوع وهى فى الأصمعيات 43 والأغانى 14/ 33 والمعاهد 1/ 220 والخزانة 3/ 462 والبيت أيضا فى الكامل

114 والسمط 40 والشنتمرى 1/ 59 واللسان (سمع) وشواهد الكشاف 165 :

أما ريحانة فقد روى فى الأغانى والبغدادي فى الخزانة أنها أخت عمرو بن معد يكرب ، ورويا مرة أخرى أنها مطلقة عمرو وصوب هذه الرواية البغدادي ، لأنه قد اعترض على كون ريحانة أخت عمرو بأن عمرا قد أسلم فى خلافة عمر وقتل فى سنة 21 من الهجرة ودريد قد قتل يوم هوازن وهو ينيف على المائة راجع اختلاف الروايات فى الخزانة .

(2) «فآمنوا . . . الخزي» : نص الآية : «لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ» (98) .

(206/355)

وقال فى ذلك [عنز بن دجاجة المازنىّ] :

من كان أسرع فى تفرّق فالج فلبونه جربت معا وأغدّت (77)

إلّا كنا شرة الذي ضيّعتم كالغصن فى غلوائه المتنبّت

وقال [الأعشى] :

من مبلغ كسرى إذا ما جئته عنّى قواف غارمات شرّدا «1»

إلّا كخارجة المكلّف نفسه وابني قبيصة أن أغيب ويشهدا «2»

---

(1) هـ : ديوانه 7 - والسمط 820 واللسان (طوى) .

(2) : البيتان فى ديوان الأعشى 153 ، الأول هو 24 من القصيدة والثاني فهو 27 منها . أما الأبيات التي تركناها فى الحاشية وهى رواية نسخة فتخالف رواية الديوان والفرق بين الروايتين ليس بيسير .

(207/355)

أي وكخارجة وابني قبيصة ثم جاء معنى هذا «فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إِيمانُها» (98) مجازه : فهلّا كانت قرية إذا رأت بأسنا آمنت فكانت مثل قوم يونس . ولها مجاز آخر قالوا فيه : «إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ» (96 ، 97) ثم استثنى منهم فقال : إلّا أن قوم يونس لمّا رأوا العذاب آمنوا فنفعهم إيمانهم فكشفنا عنهم عذاب الخزي .

ويقال : يونس ويؤنس كأنه يفعل من : آنسته .

«فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها» (108) مجازه : يضل لها أي لنفسه ، وهداه لنفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مجاز القرآن حـ 1 صـ 272.284 ﴾

(208/355)

من مجازات القرآن واستعاراته فى السورة الكريمة

قال الشريف الرضى :

ومن السورة التي يذكر فيها «يونس» عليه السلام

[سورة يونس (10) : الآيات 2 الى 3]

أَكانَ لِلنّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنا إِلى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قالَ الْكافِرُونَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ مُبِينٌ (2) إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ما مِنْ شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (3)

قوله سبحانه وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ [2] وهذه استعارة. لأن المراد بالقدم هاهنا : السابقة فى الإيمان ، والتقدم فى الإخلاص .

والعبارة عن ذلك بلفظ القدم غاية فى البلاغة ، لأن بالقدم يكون السبق والتقدم .

فسمّيت قدما لذلك . وإن كان التأخر أيضا يكون بها «1» ، كما يكون التقدم بخطوها ، فإنما سميت بأشرف حالاتها وأنبه متصرفاتها . وقال بعضهم : إيمانهم فى الدنيا هو قدمهم فى الآخرة . لأن معنى القدم فى العربية : الشيء تقدمه أمامك ليكون عدّة لك ، حتى تقدم عليه .

وقال بعضهم : ذكر القدم ها هنا على طريق التمثيل والتشبيه ، كما تقول العرب :

قد وضع فلان رجله فى الباطل ، وتخطى «2» إلى غير الواجب . ومعناه أنه انتقل إلى فعل ذلك ، كما ينتقل الماشي ، وإن لم يحرك قدمه ، ولم ينقل خطاه .

وقوله سبحانه : ثُمَّ اسْتَوى عَلَى الْعَرْشِ [3] وهذه استعارة . لأن حقيقة الاستواء إنما يوصف بها الأجسام التي تعلو البساط وتميل وتعتدل . والمراد بالاستواء ها هنا :

---

(1) فى الأصل «بهما» بضمير المثنى . وهو تحريف من الناسخ . والصواب «بها» بضمير المفردة العائد على القدم .

(2) فى الأصل هكذا «و تحطا» بدون إعجام وبرسم الفعل بألف بدل الياء .

الاستيلاء بالقدرة والسلطان ، لا بحلول القرار والمكان . كما يقال :

استوى «1» فلان الملك على سرير ملكه . بمعنى استولى على تدبير الملك ، وملك مقعد الأمر والنهى . وحسن صفته بذلك وإن لم يكن له فى الحقيقة سرير يقعد عليه ، ولا مكان عال يشار إليه . وإنما المراد نفاذ أمره فى مملكته ، واستيلاء سلطانه على رعيته .

فإن قيل : فاللّه سبحانه مستول على كل شىء بقهره وغلبته ، ونفاذ أمره وقدرته ، فما

معنى اختصاص العرش بالذكر ها هنا ؟ قيل- كما ثبت- أنه تعالى رب لكل شيء . وقد قال في صفة نفسه ، رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ «2» فإن قيل : فما معنى قولنا عرش اللّه ، إن لم يرد بذلك كونه عليه ؟ قيل كما يقال : بيت اللّه وإن لم يكن فيه ، والعرش في السماء تطوف به الملائكة تعبدا ، كما أن البيت في الأرض تطوف به الخلائق تعبدا .

[سورة يونس (10) : آية 10]

دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ وَآخِرُ دَعْواهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (10)

وقوله سبحانه : وَتَحِيَّتُهُمْ «3» فِيها سَلامٌ [10] وهذه استعارة على بعض الأقوال . كأنّ المعنى أن بشراهم بالسلامة من المخاوف عند دخول الجنة تجعل مكان التحية لهم . لأن لكل داخل دارا تحية يلقى بها ، ويؤنس بسماعها . والسلام ها هنا من السلامة ، لا من التسليم .

---

(1) ومنه قول الراجز :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مهراق انظر «القرطبي» ج 7 ص 220 .

(2) سورة التوبة . الآية رقم 129 ، والنمل الآية رقم 26 ، والمؤمنون . الآية 86 ، ونصها هنا قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

(3) فى الأصل «تحيتهم» بغير واو. والصواب «و تحيتهم» بالواو عطفا على ما قبلها، وهو قوله تعالى: دَعْواهُمْ فِيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلامٌ. [. . . . .]

(210/355)

[سورة يونس (10): آية 24]

إِنَّما مَثَلُ الْحَياةِ الدُّنْيا كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعامُ حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها أَتاها أَمْرُنا لَيْلاً أَوْ نَهاراً فَجَعَلْناها حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24)

وقوله سبحانه: حَتَّى إِذا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها وَازَّيَّنَتْ، وَظَنَّ أَهْلُها أَنَّهُمْ قادِرُونَ عَلَيْها [24]. وهذه استعارة حسنة، لأن الزخرف فى كلامهم اسم للزّينة واختلاف الألوان المونقة.

وقوله سبحانه: أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَها [24]. أي لبست زينتها بألوان الأزهار، وأصابيغ «1» الرياض، كما يقال: أخذت المرأة قناعها. إذا لبسته. وتقول لها: خذى عليك ثوبك. أي البسيه.

وقوله تعالى : خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ «2» أي البسوا ثيابكم .

وقوله سبحانه : فَجَعَلْناها حَصِيداً [24] . استعارة أخرى ، لأن الحصيد من صفة النبات ، لا من صفة الأرض . والمعنى : فجعلنا نباتها كذلك . فاكتفى بذكر الأرض من ذكر النبات لأن النبات فيها ، ومنشؤه منها .

[سورة يونس (10) : آية 27]

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئاتِ جَزاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ما لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ (27)

وقوله سبحانه : كَأَنَّما أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً [27] . على قراءة من قرأ بتحريك الطاء . وهذه استعارة . لأن الليل على الحقيقة لا يوصف بأن له قطعا متفرقة ، وأجزاء متنصفة . وإنما المراد - والله أعلم - أن الليل لو كان مما يتبعض وينفصل لأشبه سواد وجوههم أبعاضه وقطعه . ونصب سبحانه (مظلما) على أنه حال من الليل . وفيه زيادة معنى . لأن الليل قد سمى ليلا وإن كان مقمرا ، فإنما قال سبحانه : مظلما ، على أن التشبيه إنما وقع به أسود ما يكون جلبابا ، وأبهم أثوابا .

[سورة يونس (10) : آية 67]

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (67)

وقوله سبحانه : هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهارَ مُبْصِراً [67]

(1) فى الأصل «وأصابيع» بالعين المهملة. ولعلها كما أثبتناه بالغين المعجمة، جمعا لأصباغ مثل أزهار وأزاهير. فتكون جمع الجمع لصبغ.

(2) سورة الأعراف. الآية رقم 31.

(211/355)

وهذه استعارة عجيبة. وقد أومأنا إلى نظيرها فيما تقدم. وذلك أنه سبحانه- إنما سمّى النهار مبصرا، لأن الناس يبصرون فيه، فكأن ذلك صفة الشيء بما هو سبب له، على طريق المبالغة. كما قالوا: ليل أعمى، وليلة عمياء. إذا لم يبصر الناس فيها شيئا لشدة إظلامها.

[سورة يونس (10): آية 71]

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَتَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنْظِرُونِ (71)

وقوله: فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكاءَكُمْ، ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً [71]. على قراءة من قرا: فَأَجْمِعُوا «1». من الجمع، لا على قراءة من قرأ:

فَأَجْمِعُوا من الإجماع. وهذه استعارة. والمعنى: اشتوروا فى أمركم، وأجمعوا له بالكم، وبالغوا فى قدح الرأى بينكم، حتى لا يكون أمركم غمة عليكم «2». أي مغطى تغطية حيرة، ومبهما إيهام جهالة، فيكون عليكم كالغمة العمياء، والطخية الظلماء.

وذلك مأخوذ من قولهم: غمّ الهلال. إذا تغطى ببعض الموانع التي تمنع من رؤيته. ثم افعلوا بي ما أنتم فاعلون.

وهذه حكاية لقول نوح عليه السلام لقومه. ويخرج الكلام منه على الاستقلال لكيدهم، وقلة الحفل باستجماعهم واحتشادهم.

[سورة يونس (10): آية 88]

وَقالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوالاً فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (88)

وقوله سبحانه. رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ [88]. وهذه استعارة. لأن حقيقة الطمس محو الأثر. من قولهم: طمست الكتاب. إذا محوت سطوره. وطمست الريح ربع الحىّ. إذا محت رسومه. فكأنّ موسى عليه السلام إنما دعا اللّه سبحانه بأن يمحو معارف أموالهم بالمسح لها، حتى لا يعرفوها، ولا يهتدوا إليها، وتكون منقلبة عن حال الانتفاع بها، لأن الطمس تغيّر حال الشيء إلى الدثور والدروس.

(1) هى قراءة عاصم الجحدري ، بوصل الألف وفتح الميم . من جمع يجمع

(2) ومنه قول الشاعر الجاهلى طرفة :

لعمرك ما أمرى على بغمة نهارى ، ولا ليلى على بسرمد

(212/355)

وقوله تعالى : وَاشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ [88] استعارة اخرى . إما أن يكون المراد بها ما يراد بالختم والطبع . لأن معنى الشد يرجع إلى ذلك . أو يكون المراد به تثقيل العقاب على القلوب ، بالإيلام لها ، ومضاعفة الغم والكرب عليها . ويكون ذلك على معنى قول النبي صلّى اللّه عليه وسلم : «اللّهمّ اشدد وطأتك على مضر» «1» أي غلّظ عليهم عقابك ، وضاعف عليهم عذابك .

[سورة يونس (10) : آية 105]

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (105)

وقوله سبحانه : وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ [105] وهذه استعارة . وقد أومأنا إلى مثلها فيما تقدم . والمراد بها : استقم على دينك ، واثبت على طريقك . وخص الوجه بالذكر ، لأن به يعرف توجه الجملة نحو الجهة المقصودة وقد يجوز أن

يكون المراد بذلك- والله أعلم- أقم وجهك أي قوّمه نحو القبلة التي هى الكعبة . مستمرا على لزومها ، وغير منحرف عن جهتها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تلخيص البيان صـ 153 . 157 ﴾

---

(1) هذا الحديث فى مسند ابن حنبل ج 12 ص 250 بتحقيق المحدث الجليل الصديق الشيخ أحمد محمد شاكر . وقد ذكر الشيخ أن إسناده صحيح . وقد رواه ابن سعد فى الطبقات ، ورواه مسلم والبخاري فى صحيحيهما . ونص الحديث فى المسند : (لما رفع النبي صلّى الله عليه وسلم رأسه من الركعة الأخيرة من صلاة الصبح قال : «اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة والمستضعفين بمكة . اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف) .

(213/355)

فصل فى التفسير الموضوعى للسورة كاملة

قال الشيخ محمد الغزالى :

سورة يونس

سورة يونس مكية ، تشبه سورتى الأنعام والإسراء فى موضوعها : وهو التعريف بالله عن

طريق النظر فى ملكوته ، والتأمل فى خلقه . وعندى أن الأسلوب المكى الذى اتجه أول ما اتجه إلى الوثنيين قدير على تحريك العقل ، وإشعال الفكر الخامد ، ودفع الناس بقوة إلى ربهم . والاعتماد عليه ، يصلح عند مخاطبة العلمانيين والماديين وأحزاب الملاحدة الأخرى . إن من خصائص القرآن العامة فى طوريه المكى والمدنى أنه كتاب إنسانى يهيب بالبشر أن يصحوا من غفلاتهم ، ويتعرفوا على ربهم ويستعدوا للقائه . ورعاية مقتضى الحال جعلته يناقش الكتابيين فيما أثاروا من قضايا واختلقوا من بدع ، وذلك ظهر جليا فى الطور المدنى . أما عبدة الأصنام فإن المنطق الحى كان يسيطر عليهم ، والعمل للدنيا وحدها هو ما يشغلهم ! وهذه أمراض تشبه ما وفدت به الحضارة الحديثة ، فإن الناس فى أوروبا وأمريكا – وحيث امتدت هذه الحضارة - لا يهتمون بالله ولا بلقائه . والأديان القديمة لا تترك فى نفوسهم أثرا ذا بال ، إنهم يعبدون الحياة وحسب ويتركون لرجال الكهنوت مكانا يتحركون فيه حسب مواريثهم التى يؤمنون بها ، وهى مواريث قلما تؤمن بمنطق العقل والعدل . . . ومن المضحك أن أحد سماسرة الفكر الاستشراقى زعم أن الأسلوب المكى عاطفى ، وأن المدنى عقلانى ، لأنه تأثر بالجو العلمى عند أهل الكتاب . فلما أراد الاستدلال على المنطق العلمى للقرآن المدنى جاء بآية مما نزل بمكة المكرمة ! ! جاء بقوله تعالى: " لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون "

! فانظر إلى هذا الطمس . . . والقرآن عموما يؤكد أن الوجود الأول الذى نعيش فيه تمهيد لوجود آخر سوف نبعث فيه ، وأن

(214/355)

الذين يعرفون الله هنا سوف يعرفونه هناك . يمكن أن نقول: إنه وجود واحد نحس مبادئه هنا أيام التكليف والمعاناة ، ونحس نهايته هناك أيام الحساب والمجازاة . والحضارة العصرية ترفض ذلك كله . نحن هنا نسبح بحمد الله ، ونشكر آلاءه ، ونقوم بواجباته ، أما هناك فإن التسبيح والتحميد وأداء الواجبات سيكون طبيعة فينا لا تقترن بمعاناة أو تكلف ! " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم * دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين " . من أنس بالله هنا أنس به هناك ، وسعد فى جواره ! أما من أنكره هنا فماذا ينتظر هناك ؟ ! . إن الاستغراق فى عبادة اليوم الحاضر ، والذهول التام عما وراءه ديدن الحضارة الغربية . وخدم الديانات الأولى يرددون ألفاظا لا تقدم ولا تؤخر فى مسير هذه الحضارة . " إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون * أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون" . والمنطق المادى يستغرب القرآن

الكريم ، أو يستغرب الوحى كله ، لأنه مادى لا ينظر إلى السماء أبدا إلا عند التفكير فى غزو الكواكب . . ! ! إنه كفر شديد الغرور . وقد بدأت سورة يونس بتصوير هذا الموقف: " تلك آيات الكتاب الحكيم * أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " ! إن الإيمان من قبيل البداهات السهلة ، وما عكر مورده إلا كهان محترفون أو جهال معاندون . وفى هذه السورة نرى الرباط وثيقا بين الإيمان والصلاح ، فلابد مع الإيمان من عمل صالح ، قال تعالى: " ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط " وقال: " إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم " . . وبعد قليل قال : " للذين أحسنوا الحسنى وزيادة " والإحسان هو مجموع الإيمان الواضح ، والعمل الصالح عندما يسيران

(215/355)

معا فى الحياة على ضوء من شهود الله ورقابته . وقد عرفت السورة أولياء الله بأنهم الجامعون بين اليقين والتقوى: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون" .

وتدبر ما جاء على لسان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : "إني أخاف إن عصيت ربي

عذاب يوم عظيم" . وقوله تعالى: " والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها وترهقهم ذلة ما لهم من الله من عاصم . . " وقوله : " إن الله لا يصلح عمل المفسدين" . إن الأمة الإسلامية لم تستثن من جملة الأمم الأخرى ، ولم تنل شيئًا من المحاباة ، بل قيل لها : إن الجزاء من جنس العمل . وإذا كانت الأمم البائدة قد جنت ما غرست ، وذاقت ما قدمت ، فإن المسلمين معاملون بالمنطق نفسه " ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا كذلك نجزي القوم المجرمين * ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون " . ومضت السورة حتى خواتيمها تؤكد هذه الحقيقة : " قل يا أيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله . . . " . قارن بين هذا الختام العادل المنصف ، وبين ما قيل للرسول أول السورة: " أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم" تجد أن وظيفة محمد إقامة العدل وإحقاق الحق وإبطال الباطل وأنه – فى هذه السورة – يكوّن أمة لا تختال ولا تغتال ، بل أمة تعرف ربها وتُعرف به ، وتمشى على صراطه ، وتطمئن إلى لقائه . أمة تتجنب سيرة الفراعنة الذين ذكر فيها نبؤهم ، فلا تغتر بثروة أو سلطة ، بل تحارب الجبروت والطاغوت ، وتقول مع موسى وهو يدعو ربه: " ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا

حتى يروا العذاب الأليم" . لو سأل أحد : من ربنا الذى كلفنا بعبادته وسنعود للقائه بعد انتهاء آجالنا فى هذه الدنيا ؟ لكان الجواب: ماجاء فى سورة

(216/355)

يونس " إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلا تذكرون" إن هذا جواب مجمل يحتاج إلى تفصيل تولته آيات أخرى فى السورة نفسها ، إن هناك ألوفا مؤلفة من الأفواه القاضمة والبطون الهاضمة . ترى من هيأ لها أرزاقها ومن حول هذه الأرزاق إلى لحم وشحم وعيون وآذان ؟ .

من جعل العيون تبصر ، والآذان تسمع ؟ إن هذه الحواس النفيسة أجهزة محكمة معقدة فى كيان واحد ، فكيف صاغتها القدرة فى ملايين من الكائنات ؟ " قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون" ؟ . إن الفلاح يضع حبة واحدة فى الطين فتخرج له ألف حبة ! ! من حول الحمأ الكريه الطعم والرائحة إلى قمح أو أرز أو ذرة يستحلى طعمها ورائحتها ؟ . من حول المخففات العضوية إلى قصب سكر ؟ وإلى أزهار

وورود ترف عليها ألوان الطيف ، وتفوح منها أنواع العطور ؟ "فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون ؟" ! والغريب أن بعض الناس بدل أن يسير فى الأرض فيبحث كيف بدأ الخلق انتكس على رأسه ورأى أن يبحث فى ذات الخالق يحاول أن يعرف كنهها ! . إنه يفر من وظيفته الطبيعية ، ويستر بطالته القبيحة بعمل باطل ! . وقد كان هذا الانتكاس من أسباب غروب الحضارة الإسلامية وانهزامها العالمى . ونحن مع التفويض فى فهم آيات الصفات ! فإنا نوقن بأن الله استوى على عرشه استواء يليق به ، وشرع يدبر بحكمته شئون العالم الذى خلقه من غير شريك ولا معين ، ويستحيل أن يستعين الخالق بالمخلوق ، والقادر بالعاجز . وعلى الناس كلهم أن يعرفوا هذه الحقيقة ، فلا يتجهوا فى دعائهم إلى أحد سواه . وقد عاب القرآن الكريم على الجهال الذين يفعلون ذلك: "ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله

(217/355)

بما لا يعلم في السماوات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون" . والواقع أن البشر - وفى مقدمتهم الرسل - والملائكة - وفى مقدمتهم جبريل - عبيد لله ، عانون لحكمه ،

خاضعون لسلطانه: " لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون * يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون " . ومع صحة العقيدة تصح العلاقة الإنسانية بالله ـ جل شأنه ت ويكسب المرء الوجود الدائم فى الحياة الباقية ، وتتحول الدنيا إلى ذكريات حسنة .

(218/355)

إن عشرات السنين فى عمر الفرد ، أو عشرات القرون فى تاريخ الدول تتحول إلى أصول عارضة أو ساعات قلائل: "ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم . . . " . لكن ساعة التعارف هذه بعيدة المدى فيما تُعقب من أحزان أو أفراح ، ولذلك يقول ابن القيم : فحى على جنات عدن فإنها منازلك الأولى وفيها المخيم ! ولما كان عقاب الخطأ قد يطول انتظاره ، فإن بعض الناس يحسب هذا الطول إهمالا لا إمهالا . كان اليهود قديما يُحيون المسلمين فيقولون لهم: السام عليكم ، أى: الهلاك ، ويحسبون أنهم بذلك بلغوا أملهم : " . . . وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير " . إنهم يستعجلون العقوبة ، وكلما تأخرت ازدادوا ريبة ! . ومن قبلهم كان المشركون يكفرون بالله الواحد ، ويحادون

رسوله ، ولثقتهم فى أنهم صادقون كانوا يتعجلون العقاب على ما يفعلون استهزاء وكفرانا : "ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون * يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين" . هذا الاستعجال الذى شرحناه هنا هو ما عنته سورة يونس فى قوله تعالى: " ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي إليهم أجلهم فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون " . وهذا الإنذار يتلاقى مع قوله تبارك اسمه : " وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا " لكنه فى هذه السورة يسائل المجرمين : لم الاستعجال ؟ وما جدواه عليكم ؟ . أليس الأولى أن تتوبوا قبل أن تعاقبوا ، وأن تستغلوا الإرجاء لما فيه خيركم ؟ ! " قل أرأيتم إن أتاكم عذابه بياتا أو نهارا ماذا يستعجل منه المجرمون * أثم إذا ما وقع آمنتم به آلآن وقد كنتم به تستعجلون " ؟ . هل يستطيع أحد الإفلات من عقاب الله يوم يجئ فى موعده المقدور ؟ كيف والأشياء كلها ملك لله " ألا إن

(219/355)

لله ما في السماوات والأرض ألا إن وعد الله حق ولكن أكثرهم لا يعلمون " . هذا فيما لا يعقل ، أما فيمن يعقل فقد قال جل شأنه: " ألا إن لله من في السماوات ومن في الأرض وما

يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن . . . . " .

فإذا كان الكون كله من أشخاص وأشياء مسترقا لله ، وكان ملكا محضا لله سبحانه ، فأين يفر امرؤ بجريرته ؟ ومن يجيره ؟ " ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين " ما الذى يدعو للعجب عندما يختار الرحمن رجلا يوحى إليه ويبلغ عنه ؟ قد يكون الشعور بالحسد على نحو ما قيل: " أأنزل عليه الذكر من بيننا . . . " . وقد يكون الغضب لتجريح الوثنية وتقاليدها ، فإن الذين ورثوا التعدد ينكرون التوحيد ، والذين ورثوا تقاليد المادية العابدة للحياة الدنيا ينكرون كل كلام عن الحياة الأخرى . . وسورة يونس من السور التى رفعت راية الوحدانية ، وأفاضت فى دلائل الوجود الأعلى ، وشرحت من آفاق الكون ما يشير إلى عظمة الله " هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون " . وقد رفض العرب هذا الوحى ، وتعرضوا للقرآن الكريم فى ثلاثة مواضع من هذه السورة . الموضع الأول: " وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . . . " قل كلاما آخر تمدح فيه آلهتنا ، وتقر فيه تقاليدنا وأحوالنا ! ! . " قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي . . . " ثم بين لهم الرسول الكريم أنه بلغ الأربعين دون أن يتلو وحيا أو يصحح دينا حتى فاجأه الوحى ، فبلغ أمر ربه ، ولا يملك إلا البلاغ " قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت

فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون " ؟ . والموضع الثانى لذكر القرآن الكريم قوله تعالى : " وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا

(220/355)

ريب فيه من رب العالمين " . والقارئ المنصف بعد ما يتلو القرآن يشعر أن محمدا لم يفتعل كلمة منه ، وأن حرارة الدعوة إلى الحق تسرى فى سياقه سريان الماء فى النبات الغض . وأنه لا يصح فى الأذهان شىء لو نزل هذا القرآن بعيدا عن الله . بل سيدل هذا - إذا اعترفنا بالكتب السابقة - على أن البشر أقدر على صناعة الوحى من رب البشر ! ! ! فإن القرآن فى الدفاع عن الألوهية ووحدتها أحر نفسا وأصدق لهجة وأسطع برهانا . . وإذا كان القرآن قول إنسان فما يمنعهم من الإتيان بمثله ؟ " أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين " . استعينوا بكل ذى مقدرة بلاغية من الإنس والجن على تأليف كتاب مشابه أو سورة مماثلة ! ! . وقد مضت القرون على هذا التحدى القائم فما أتى أحد بشىء ! ! " بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله . . . " إنهم جهال أرجأ القدر عقابهم لعلهم ينتهون . ثم جاء تفصيل لمواقف الناس من هذا الكتاب : " ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به وربك أعلم بالمفسدين " فما

الموقف من هؤلاء الشاكين المكذبين ؟ "وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون" . إن جوا من حرية الرأى لم يعهد فى الدنيا كلها حف عرض هذا الكتاب على الناس ، فلا إحراج ولا إكراه ، وسوف يستجيب له يقينا أصحاب المشاعر المفتوحة ، والأفئدة المتجردة للحق ! أما غيرهم: فماذا تفعل لأصم غلف التعصب أذنيه فهو لا يسمع ؟ ولا يعى ؟ أو أعمى لا ترى أجفانه ألق الفجر فهو لا يبصر شيئا ! ! "ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون * ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمي ولو كانوا لا يبصرون" ؟ . وفى موضع ثالث من السورة يقول الله سبحانه عن هذا القرآن: " يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين " . والقرآن نعم المربى للنفوس ! إنه زاجر عن الرذائل ، وعاصم من الشبهات

(221/355)

والشكوك ، وراحة من الحيرة ، وغنى نفسى ومادى لصاحبه . ولذلك جاء بعد ذلك: " قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون " وإن إنسانا أوتى القرآن ثم ظن غير أوتى خيرا منه فقد حقر عظيما ، أو عظَّم حقيرا ! . وقد جاهد النبى أعداءه

بالقرآن فأوقع فى صفوفهم الخلل ، لأنه لم يبق لهم وجهة نظر ، إلا أدحضها ، وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يتلو القرآن فى كل ساحة ، ويتنقل به فى كل بقعة ، ولذلك قيل له هنا : " وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين" .

(222/355)

وجاء آخر السورة مصدقا لأولها فى الاستمساك بالوحى والتعويل عليه . فإذا كان للناس عجب أن أوحينا إلى رجل منهم ، فآخر آية فى هذه السورة يقول الله للرسول: " واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين" . إن النزاع بين المسلمين وغيرهم شديد حول هذا القرآن ، ونحن على يقين من أنه الحق المبين . وقد تجئ عبارات لا يعرف حقيقتها إلا الخبراء بالبلاغة العربية فيتوهمون ما لا أصل له ، ففى معرض التحريض والتثبيت نقول للسابق المتفرد : لا تكسل ، أو حافظ على القمة التى بلغت ، وهو ما يفكر فى كسل أو تفريط ، ولكنك تهيجه ليظل ممتازا . ومن هذا القبيل قول الله لنبيه: " فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك . . . " أيتصور أن يسأل

المثلثين عن التوحيد ؟ أو يسأل المجسدين عن التنزيه ؟ وهو يخاصهم من أول يوم ؟ ! ولذلك جاء فى الأثر ؟ لا أشك ولا أسأل ! ! ولو افترضنا جدلا إن هناك سؤالا فهو كسؤال النائب العام للمتهمين ، أو سؤال المتثبت للمريبين ! ! فإن الله واحد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ! ! . وتلك العقيدة دعامة الإسلام التى لا يثار حولها تساؤل .

وكذلك القول مع اليهود - وهم المذكورون فى سياق السورة - إن التهم التى وجهوها للأنبياء ولله تباركت أسماؤه ليس بطلانها موضع شك ، ولا يقبل حولها تساؤل ، ومن هنا جاء هذا الخطاب الحاسم " . . . لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين * إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون * ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم " . ذلك ، وللعقل الإنسانى حكمه الجازم ، فلن يكون الله اثنين ولا ثلاثة ، ولن تلحق به آفات النقص البشرى كما يزعم الجاهلون . تمر بالإنسان أيام عصيبة يشعر فيها بالألم والعجز ، ويحس أن الأزمات أخذت بخناقه ، وأنها - إذا بقيت - فهى قاضية عليه ، فيهرع إلى الله طالبا النجدة ، ملتمسا الفرج ، ويدعو ويلح . . .

(223/355)

وتنكشف الكروب آخر الأمر ، فهل تبقى مع المرء حرارة إيمانه ؟ وصدق تطلعه إلى ربه ؟ . . أم تفتر حرارته وينسى ؟ . يقول الله تعالى: " وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون" ! ! وهذا مسلك ينطوى على خسة ، والواجب أن يتذكر الإنسان من أنقذه فى شدته ، وامتن عليه بفرجه ، وأن يتشبث به فى السراء كما كان يتشبث به فى الضراء .

(224/355)

وقد وصفت سورة يونس هذه الحال مرة أخرى بشىء من التفصيل: " هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين * فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون" .

والواقع أن الناس عند الغرق وإحاطة اللجج بهم من كل ناحية تنقطع آمالهم إلا من الله وحده ، فلا ملجأ إلا إليه ولا غوث إلا منه . . . . لكن لماذا تنسى يده التى أسداها إذا

امتن بالنجاة ؟ لماذا يعود الناس إلى ذهولهم وكنودهم ؟ هذا غدر يجب أن يعالج وما يبقى عليه ذو شرف ! ! . والذين تغمرهم موجات السرور فلا يذكرون غيرها جديرون بما يحل بهم من عقاب ، وهذا العقاب ينزل عند قفة النشوة وغمرة الذهول قال تعالى : " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون" . إن المفاجآت الموجعة تطرق على حين غرة ، وتقطع خط التفكير العادى للأفراد والجماعات كما قيل:

وسالمتك الليالى فاغتررت بها وعند صفو الليالى يحدث الكدر والجوائح التى تنتاب الزروع والثمار فتودى بها تحدث عند اقتراب الحصاد ، واعتقاد الناس أن المحصول المرجو أمكن جناه ، بل صار فى اليد ! لعل ذلك ليكون العقاب أوجع . . . ومن حق الناس أن يفزعوا إلى الله إذا مسهم ضر ، ولكن من حق الله عليهم أن يشكروه بعد النجاة ، وأن تبقى علاقتهم به قائمة إذا انتهى ما ألجأهم إليه ، إنهم لن يستغنوا عنه أبدا . والمثل الذى ضربته الآية للأرض المزروعة يطرد فى كل شىء من أحوال الناس وشئونهم ، وقدراتهم

الحضارية فوق ظهر الأرض ، فمع الغرور والذهول تجيء ضربات القدر ، ويحصد الناس ما بذروا . . . وقبل نهاية السورة يأمر الله رسوله أن يتوجه للناس بهذا الخطاب الرقيق المفعم بالعبودية والنصيحة . . " قل يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين * وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين * ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين *

(226/355)

وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم" . هذا هو الإسلام ! رباط بالله الواحد ، ويأس من كل الشركاء ، إن كان لهم وجود ! وتعليق الرغبة والرهبة بذاته سبحانه ، والتعامل مع الناس جميعا على هذا الأساس . . . وقد ذكر الله - تبارك وتعالى - في هذه السورة أطرافا من قصص الأولين ، منها قصة يونس مع قومه التي ذكرت بإيجاز شديد - وسميت بها السورة - ولعل في ذلك تلويحا بأن أهل مكة قد يظفرون بالنجاة التي ظفرت بها قرية يونس ! ! .

والواقع أن أهل مكة كابروا الإسلام أول ما ظهر مكابرة شديدة ، وقادوا المعركة ضده نحو

عشرين سنة ، ولكنهم دخلوا فيه بعد ذلك ، وأخلصوا له وحملوا لواءه وحموا كعبته . . إن قوم يونس كانوا خيرا من قوم هود وغيرهم ، قال تعالى : "فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين" . والقصص المختلفة تساق فى أحوال مشابهة لما يعانى النبى - عليه الصلاة والسلام - فيأخذ منها العبرة المناسبة ، ومنها تتشابه الردود على الكافرين وإن اختلفت العصور . لقد ظل نوح مع قومه تسعة قرون ونصفا يدعو وهم يكابرون ، فما كان موقفه بإزاء هذا الإصرار ؟ يقول تعالى: "واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا إلي ولا تنظرون * فإن توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . . . " . وما قاله نوح لقومه هو ما يقوله محمد لقومه ، إن الرسل دعاة متجردون لا يبغون مالا ولا جاها حسبهم التعريف بالحق . . وذكرت بعد ذلك رسل ، ثم طال الكلام فى سيرة فرعون وقومه ، ثم فى سيرة بنى إسرائيل مع هداتهم . إن الفراعنة أهلكهم بطر الحق وغمص الناس ، أما بنو إسرائيل فقد تاجروا بالوحى ، وتجرأوا على

الله ، ولم ينتفعوا بما أوتوا من علم "ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات فما اختلفوا حتى جاءهم العلم إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون" وعلى أتباع محمد أن يتجنبوا هذه المزالق ، فيحملوا الدعوة بتجرد ، ويتجهوا إلى الله بإخلاص . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نحو تفسير موضوعى صـ 157.166 ﴾

(228/355)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : الحَاوِى فى تَفْسِيرِ القُرْآنِ الْكَرِيمِ

وُيسَمَّى (جَنَّةُ الْمُشْتَاقِ فى تَفْسِيرِ كَلَامِ الْمَلِكِ الْخَلَّاقِ)

العاجز الفقير

عبد الرحمن بن محمد القماش

إمام وخطيب مسجد بُورُسْلِى - رأس الخيمة

دولة الإمارات العربية المتحدة

عفا الله عنه وغفر له

الجزء السادس والخمسون بعد الثلاثمائة

حُقُوقُ النَّسْخِ وَالطَّبْعِ وَالنَّشْرِ مَسْمُوحٌ بِهَا لِكُلِّ مُسْلِمٍ

﴿ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾

(3/356)

الجزء السادس والخمسون بعد الثلاثمائة

من الآية ﴿ 1 ﴾ من سورة يونس عليه السلام

وحتى الآية ﴿ 5 ﴾ من نفس السورة

(4/356)

(فى رياض آيات السورة الكريمة)

(5/356)

" فصل "

قال السيوطى :

سورة يونس عليه السلام

أقول: قد عرف وجه مناسبتها فيما تقدم في الأنفال ونزيد هنا : أن مطلعها شبية بمطلع سورة الأعراف ، وأنه سبحانه قال فيها : (أَن أَنذِرِ النَّاس وَبَشِرِ الذينَ آمنوا) فقدم الإنذار وعممه ، وأخر البشارة وخصصها وقال تعالى في مطلع الأعراف: (لتُنذِرَ بِهِ وذِكرى للمؤمنين) فخص الذكرى وأخرها ، وقدم الإنذار ، وحذف مفعوله ليعم وقال هنا : (إِنَّ رَبَّكُم اللهُ الذي خَلقَ السمواتِ والأَرضِ في ستةِ أَيام ثُمَ استوى على العَرش) وقال في الأوائل ، أي أوائل الأعراف مثل ذلك وقال هنا : (يدبر الأَمر) وقال هناك: (مسخرات بأَمرِهِ أَلا لهُ الخلق والأَمر) وأيضاً فقد ذكرت قصة فرعون وقومه في الأعراف ، فاختصر ذكر عذابهم ، وبسطه في هذه السورة أبلغ بسط فهي شارحة لما أجمل في سورة الأعراف منه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿أسرار ترتيب القرآن صـ 107 . 108 ﴾

(6/356)

قوله تعالى ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

" فصل "

قال البقاعي :

بسم الله (أي الذي لا أمر لأحد سواه فلا كلام يشبه كلامه فلا كفوء له (الرحمن) الذي عم بكلامه جميع خلقه فأوضح البيان (الرحيم) الذي أتم لمطيعهم نعمة الامتنان)

﴿ الر ﴾ فخم الراء ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم ، وأمالها ورش عن نافع بين بين ، والباقون بالإمالة المحضة ، والأصل في ذلك الفتح ، وكذا ما كان من أمثالها مما ألفاتها ليست منقلبة عن ياء نحو ما ولا ، وإمالتها للتنبيه على أنها أسماء للحروف وليست حروفاً – نقل ذلك عن الواحدي .

لما قدم في أول الأعراف الحث على إبلاغ النصيحة بهذا الكتاب وفرغ مما اقتضاه السياق من التحذير من مثل وقائع الأولين ومصارع الماضين ومما استتبع ذلك من توصيل القول قي ترجمة هذا النبي الكريم مع قومه في أول أمره وأثنائه وآخر في سورتي الأنفال وبراءة ، وختم ذلك بأن سور الكتاب تزيد كل أحد مما هو ملائم له متهيىء لقبوله وتبعده عما هو منافر له بعيد من قبول ملاءمته .

وأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بذلك قد حوى من الأوصاف والحلي والأخلاق العلى ما يوجب الإقبال عليه والإسراع إليه .

والإخبار بأن توليهم عنه لا يضره شيئاً لأن ربه كافيه لأنه لامثل له وأنه ذو العرش العظيم ؛ لما كان ذلك كذلك ، أعاد سبحانه القول في شأن الكتاب الذي افتتح به الأعراف وختم سورة التوبة ، وزاده وصف الحكمه وأشار بأداة البعد إلى أن رتبته فيها بعيدة المنال بديعة المثال فقال : ﴿ تلك ﴾ أي الآيات العظيمة جداً التي اشتملت عليها هذه السورة ، أو السور التي تقدمت هذه السورة أو هذه الحروف المقطعة المشيرة إلى أن القرآن كلام الله وإلا لما أعجز القادرين على التلفظ بهذه الأحرف ﴿ آيات الكتاب ﴾ أي الذكر الجامع لكل خير ، وهو هذا القرآن الذي وافق كل ما فيه من القصص كل ما في التوارة والإنجيل من ذلك ، فدل ذلك على صدق الآتي به قطعاً لأنه لم يكن يعرف شيئاً مما في الكاتبين ولا جالس أحداً يعلمه ﴿ الحكيم ﴾ فكان فيما مضى - أن كونه من عند الله كاف في وجوب اتباعه - وفيما هنا تأكيد الوجوب بكونه مع ذلك حكيماً والآية : العلامة التي تنبىء عن مقطع الكلام من جهة مخصوصة ، والحكيم : الناطق بالحكمة .

وهي المعروف بما يجتمع عليه مما يمنع الفعل من الفساد والنقص ، استعير له ذلك لأنه دليل كالناطق بالحكمة لأنه يؤدي إلى المعرفة التي يميز بها طريق النجاة من طريق الهلاك ، وهو

حاكم يبين الحق من الباطل في الأصول والفروع ويحكم بالعدل الذي لا جور فيه بوجه في كل نازلة ، ومحكم لما أتى به ، مانع له من الفساد ، لا يمحوه الماء ولا تحرقه النار ولا تغيره الدهور ، وهذا ما ظهر لي في التحامها بما قبلها ؛ وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير : لما تضمنت سورة براءة قوله تعالى

(8/356)

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله ﴾ [براءة : 40] وقوله ﴿ عفا الله عنك لما أذنت لهم ﴾ [براءة : 43] وقوله ﴿ ورحمة للذين آمنوا منكم والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم ﴾ [براءة : 61] وقوله : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ [براءة : 128] إلى آخر السورة إلى ما تخلل أثناء آي هذه السورة الكريمة مما شهد لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بتخصيصه بمزايا السبق والقرب والاختصاص والملاطفة في الخطاب ووصفه بالرأفة والرحمة ، هذا ما انطوت هي والأنفال عليه من قهره أعداءه وتأييده ونصره عليهم وظهوره دينه وعلو دعوته وإعلاء كلمته إلى غير هذا من نعم الله سبحانه عليه ، وكان ذلك كله مظنة لتعجب المرتاب وتوقف الشاك ومثيراً لتحرك ساكن الحسد من العدو العظيم ما منحه عيه السلام ، قال تعالى ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر

الناس ﴾ إلى قوله : ﴿ لساحر مبين ﴾ ثم قال ﴿ إن ربكم الله ﴾ الآيات ، فبين انفراده تعالى بالربوبية والخلق والاختراع والتدبير ، فكيف تعترض أفعاله أو يطلع البشر على وجه الحكمة في كل ما يفعله ويبديه ، وإذا كان الكل ملكه وخلقه فيفعل في ملكه ما يشاء ويحكم في خلقه بما يريد ﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ ثم توعد سبحانه الغافلين عن التفكر في عظيم آياته حتى أدتهم الغفلة إلى مرتكب سلفهم في العجب والإنكار حتى قالوا ﴿ مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ﴾ [الفرقان : 7] وقالوا ﴿ لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ﴾ [الفرقان : 21] وهذه مقالات الأمم المتقدمة ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ﴾ [يس : 15] ﴿ قالوا أنؤمن لبشرين مثلنا ﴾ [المؤمنون : 47] ﴿ ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم ﴾ [سبأ : 43] فقال تعالى متوعداً للغافلين ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا ﴾ ، ثم وعد المعتبرين فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ ، وكل هذا

بيّن الالتحام جليل الالتئام ، تناسجت آي السور - انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 413.411 ﴾

(9/356)

" القراءات والوقوف "

قال العلامة النيسابوري رحمه الله :

القراءات : ﴿ الر ﴾ بالإمالة وكذلك ما بعده : أبو عمرو وخلف وحمزة وعلي والخزاز عن هبيرة والنجاري عن ورش ويحيى وابن مجاهد والنقاش عن ابن ذكوان . ﴿ لساحر ﴾ بالألف : ابن كثير وعصام وحمزة وعلي وخلف . الآخرون ﴿ لسحر ﴾ ﴿ حقاً أنه ﴾ بالفتح .

يزيد . ﴿ ضياء ﴾ بالهمز حيث كان : ابن مجاهد وأبو عون عن قنبل ﴿ يفصل ﴾ بالياء : ابن كثير وعمرو وسهل ويعقوب وحفص والمفضل والعجلي . الباقون بالنون . ﴿ واطمأنوا ﴾ بغير همز : الأصبهاني عن ورش وحمزة في الوقف .

الوقوف : ﴿ آلر ﴾ ق كوفي ﴿ الحكيم ﴾ ه ط ﴿ عند ربهم ﴾ ط ﴿ مبين ﴾ ه ﴿ يدبر الأمر ﴾ ط ﴿ إذنه ﴾ ط ﴿ فاعبدوه ﴾ ط ﴿ تذكرون ﴾ ه ﴿ جميعاً ﴾ ط ، ﴿ حقاً ﴾ ط ، إلا لمن قرأ ﴿ أنه ﴾ بالفتح . ﴿ بالقسط ﴾ ط ﴿ يكفرون ﴾ ه ﴿ والحساب ﴾ ط ﴿ إلا بالحق ﴾ ط لمن قرأ ﴿ نفصل ﴾ بالنون ، ومن قرأ بالياء أمكنه أن يجعل ﴿ يفصل ﴾ حالاً . ﴿ يعلمون ﴾ ه ﴿ يتقون ﴾ ه ﴿ غافلون ﴾ هل لا لأن ﴿ أولئك ﴾ خبر " إن " ﴿ بإيمانهم ﴾ ج ط للحذف تقديره يهديهم ربهم بإيمانهم

إلى دار البقاء مع اتحاد المقصود وتمام الموعود ﴿ النعيم ﴾ ه ﴿ سلام ﴾ ج ط لأن الجملتين وإن اتفقتا فقد اعترضت جملة معطوفة أخرى لأن قوله ﴿ وآخر دعواهم ﴾ معطوف على ﴿ دعواهم ﴾ الأوّل ﴿ العالمين ﴾ ه. انتهى انتهى. اهـ ﴿ غرائب القرآن حـ 3 صـ 553.554 ﴾

(10/356)

فصل

قال الفخر:

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قوله جل جلاله ﴿ الر ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى:

قرأ نافع وابن كثير وعاصم ﴿ الر ﴾ بفتح الراء على التفخيم، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويحيى عن أبي بكر: بكسر الراء على الإمالة.

وروي عن نافع وابن عامر وحماد عن عاصم، بين الفتح والكسر، واعلم أن كلها لغات

صحيحة .

قال الواحدي : الأصل ترك الإمالة في هذه الكلمات نحو ما ولا ، لأن ألفاتها ليست منقلبة عن الياء ، وأما من أمال فلأن هذه الألفاظ أسماء للحروف المخصوصة ، فقصد بذكر الإمالة التنبيه على أنها أسماء لا حروف .

المسألة الثانية :

اتفقوا على أن قوله ﴿ الر ﴾ وحده ليس آية ، واتفقوا على أن قوله ﴿ طه ﴾ [طه : 1] وحده آية .

والفرق أن قوله : ﴿ الر ﴾ لا يشاكل مقاطع الآي التي بعده بخلاف قوله : ﴿ طه ﴾ فإنه يشاكل مقاطع الآي التي بعده .

المسألة الثالثة :

الكلام المستقصى في تفسير هذا النوع من الكلمات قد تقدم في أول سورة البقرة إلا أنا نذكر ههنا أيضاً بعض ما قيل .

قال ابن عباس ﴿ الر ﴾ معناه أنا الله أرى .

وقيل أنا الرب لا رب غيري .

وقيل ﴿ الر ﴾ و ﴿ حم ﴾ [السجدة : 1] و ﴿ ن ﴾ [القلم : 1] اسم الرحمن .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب الحكيم ﴾ فيه مسألتان :

المسألة الأولى :

(11/356)

قوله : ﴿ تِلْكَ ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى ما في هذه السورة من الآيات ، ويحتمل أن يكون إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن ، وأيضاً فالكتاب الحكيم يحتمل أن يكون المراد منه هو القرآن ، ويحتمل أن يكون المراد منه غير القرآن ، وهو الكتاب المخزون المكنون عند الله تعالى الذي منه نسخ كل كتاب ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ فِى كتاب مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة : 77 ، 78] وقال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ [البروج : 22] وقال : ﴿ وَإِنَّهُ فِى أُمِّ الكتاب لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف : 4] وقال : ﴿ يَمْحُوْا الله مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الكتاب ﴾ [الرعد : 39] .

وإذا عرفت ما ذكرنا من الاحتمالات تحصل ههنا حينئذ وجوه أربعة من الاحتمالات :

الاحتمال الأول : أن يقال : المراد من لفظة ﴿ تِلْكَ ﴾ الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة ، فكان التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم الذي هو القرآن ، وذلك لأنه

تعالى وعد رسوله عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ، ولا يغيره كرور الدهر ، فالتقدير أن تلك الآيات الحاصلة في سورة ﴿ الر ﴾ هي آيات ذلك الكتاب المحكم الذي لا يمحوه الماء .

الاحتمال الثاني : أن يقال : المراد أن تلك الآيات الموجودة في هذه السورة هي آيات الكتاب المخزون المكنون عند الله .

واعلم أن على هذين القولين تكون الإشارة بقولنا : ﴿ تِلْكَ ﴾ إلى آيات هذه السورة وفيه إشكال ، وهو أن ﴿ تِلْكَ ﴾ يشار بها إلى الغائب ، وآيات هذه السورة حاضرة ، فكيف يحسن أن يشار إليه بلفظ ﴿ تِلْكَ ﴾ .

واعلم أن هذا السؤال قد سبق مع جوابه في تفسير قوله تعالى : ﴿ الم ذلك الكتاب ﴾ [البقرة : 1 ، 2] .

(12/356)

الاحتمال الثالث والرابع : أن يقال : لفظ ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن ، والمراد بها : هي آيات القرآن الحكيم ، والمراد أنها هي آيات ذلك الكتاب المكنون المخزون عند الله تعالى ، وفي الآية قولان آخران : أحدهما : أن يكون المراد من

﴿ الكتاب الحكيم ﴾ التوراة والإنجيل ، والتقدير : أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة والإنجيل ، والمعنى : أن القصص المذكورة في هذه السورة موافقة للقصص المذكورة في التوراة والإنجيل ، مع أن محمداً عليه الصلاة والسلام ما كان عالماً بالتوراة والإنجيل ، هذه الموافقة لا يمكن إلا إذا خص الله تعالى محمداً بإنزال الوحي عليه .

والثاني : وهو قول أبي مسلم : أن قوله : ﴿ الر ﴾ إشارة إلى حروف التهجي ، فقوله : ﴿ الر تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ يعني هذه الحروف هي الأشياء التي جعلت علامات لهذا الكتاب الذي آيات به وقع التحدي .

فلولا امتياز هذا الكتاب عن كلام الناس بالوصف المعجز ، وإلا لكان اختصاصه بهذا النظم ، دون سائر الناس القادرين على التلفظ بهذه الحروف محالاً .

المسألة الثانية :

في وصف الكتاب بكونه حكيماً وجوه : الأول : أن الحكيم هو ذو الحكمة بمعنى اشتمال الكتاب على الحكمة .

الثاني : أن يكون المراد وصف الكلام بصفة من تكلم به .

قال الأعشى :

وغريبة تأتي الملوك حكيمة . . قد قلتها ليقال من ذا قالها

الثالث : قال الأكثرون ﴿ الحكيم ﴾ بمعنى الحاكم ، فعيل بمعنى فاعل دليله قوله تعالى :

﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس ﴾ [البقرة : 213] فالقرآن كالحاكم في الاعتقادات لتميز حقها عن باطلها ، وفي الأفعال لتميز صوابها عن خطئها ، وكالحاكم على أن محمداً صادق في دعوى النبوة ، لأن المعجزة الكبرى لرسولنا عليه الصلاة والسلام ، ليست إلا القرآن الرابع : أن ﴿ الحكيم ﴾ بمعنى المحكم .

(13/356)

والأحكام معناه المنع من الفساد ، فيكون المراد منه أنه لا يمحوه الماء ، ولا تحرقه النار ، ولا تغيره الدهور .

أو المراد منه براءته عن الكذب والتناقض .

الخامس : قال الحسن : وصف الكتاب بالحكيم ، لأنه تعالى حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه ، فعلى هذا ﴿ الحكيم ﴾ يكون معناه المحكوم فيه .

السادس : أن ﴿ الحكيم ﴾ في أصل اللغة : عبارة عن الذي يفعل الحكمة والصواب ، فكان وصف القرآن به مجازاً ، ووجه المجاز هو أنه يدل على الحكمة والصواب ، فمن

حيث إنه يدل على هذه المعاني صار كأنه هو الحكيم في نفسه . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 5.3 ﴾

(14/356)

وقال السمرقندى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ ؛ قال ابن عباس : يعني : أنا الله أرى من العرش إلى الثرى ، فهل يرى أحد مثل ما أرى ، وهكذا عن الضحاك .

وقد ذكرنا تفسير الحروف في أول سورة البقرة .

قرأ حمزة ، والكسائي ، وأبو عمرو ، وابن عامر ، وعاصم في رواية أبي بكر ﴿ الر ﴾ بإمالة الراء وقرأ ابن كثير ، وحفص بنصب الراء ، وقرأ نافع بين ذلك .

﴿ تِلْكَ ءايات الكتاب ﴾ : يعني : هذه آيات الكتاب الذي أنزل عليك يا محمد ، تلك الآيات التي وعدتك يوم الميثاق أو أوحينا إليك الكتاب .

﴿ الحكيم ﴾ ؛ قال مقاتل : يعني : المحكم من الباطل ، لا كذب فيها ولا اختلاف .

وقال الكلبي : يعني : بما حكم ، أحكم بحلاله وحرمته ويقال : ﴿ الحكيم ﴾ يعني : الحاكم

على الكتب كلها ؛ ويقال : ﴿ تِلْكَ ءايات ﴾ يعني : حجج وبراهين وهي التي احتج بها النبي صلى الله عليه وسلم على دعواه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(15/356)

وقال الثعلبى :

﴿ الر ﴾ قُرِئ بالتفخيم والإمالة وبين اللفظين ، وكلها لغات صحيحة فصيحة .

ابن عباس والضحاك : أنا الله أرى ، وقيل : أنا الرب لا رب غيري . عكرمة والأعمش والشعبي . الروحمون حروف الرحمن مقطعة . فاذا وصلت كان الرحمن . قتادة : اسم من أسماء القرآن . أبو روق : فاتحة السورة ، وقيل : عزائم الله ، وقيل : هو قسم كأنّه قال : والله إنّ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب ﴾ .

قال مجاهد وقتادة : أراد به التوراة والإنجيل والكتب المقدسة ، وتلك إشارة إلى غائب مؤنث .

وقال الآخرون : أراد به القرآن وهو أولى بالصواب لأنه لم يخص الكتب المقدمة قبل ذكره ولأن الحكيم من بعث القرآن ، دليله قوله : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : 1] ونحوها فيكون على هذا التأويل تلك يعني هذه وقد مضى القول في هذه المسألة في أول

سورة البقرة ﴿ الحكيم ﴾ المحكوم بالحلال والحرام والحدود والأحكام .

وقال مقاتل : المحكم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف وهو فعيل بمعنى فاعل كقول الأعمش في قصيدته :

وعزيمة تأتي الملوك حكيمة . . . قد قلتها ليقال من ذا قالها

وقيل : هو الحاكم فعيل بمعنى فاعل بأنه قرأ : نزل فيهم الكتاب بالحق ﴿ لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ﴾ [البقرة : 213] وقيل : بمعنى المحكوم فيه فعيل بمعنى المفعول .

قال الحسن : حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر والبغي وحكم فيه بالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه .

وقال عطاء : حكيم بما حكم فيه من الأرزاق والآجال بما شاء . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(16/356)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ الر ﴾ فيه أربعة تأويلات :

أحدها : معناه أنا الله أرى ، قاله ابن عباس والضحاك . والثاني : هي حروف من اسم

الله الذي هو الرحمن ، قاله سعيد بن جبير والشعبي . وقال سالم بن عبد الله : ﴿ الر ﴾ و ﴿ حمٓ ﴾ و ﴿ ن ﴾ للرحمن مقاطع .

الثالث : هو اسم من أسماء القرآن ، قاله قتادة .

الرابع : أنها فواتح افتتح الله بها القرآن ، قاله ابن جريج .

﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ يعني بقوله ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ ﴾ أي هذه آيات ، كما قال الأعشى :

تلك خَيْلِي مِنْهُ وتلكَ رِكَابِي . . . هُنَّ صُفْرٌ أَوْلاَدُها كالزَّبِيبِ

أي هذه خيلي .

وفي ﴿ الكِتَابِ الْحِكيمِ ﴾ ها هنا ثلاثة أقاويل :

أحدها : التوراة والإنجيل ، قاله مجاهد .

الثاني : الزبور ، قاله مطر .

الثالث : القرآن ، قاله قتادة .

وفي قوله ﴿ الحَكِيمِ ﴾ تأويلان :

أحدهما : أنه بمعنى محكم ، قاله أبو عبيدة .

الثاني : أنه كالناطق بالحكمة ، ذكره علي بن عيسى . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

وقال ابن عطية :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور ، وتلك الأقوال كلها تترتب هنا ، وفي هذا الموضع قول يختص به ، قاله ابن عباس وسالم بن عبد الله وابن جبير والشعبي : ﴿ الر ﴾ ﴿ حم ﴾ [غافر : 1 ، فصلت : 1 ، الشورى : 1 ، الزخرف : 1 ، الدخان : 1 ، الجاثية : 1 ، الأحقاف : 1] و﴿ ن ﴾ [القلم : 1] هو الرحمن قطع اللفظ في أوائل هذه السورة واختلف عن نافع في إمالة الراء والقياس أن لا يمال وكذلك اختلف القرّاء وعلة من أمال الراء أن يدل بذلك على أنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإنما الحرف " ر " ، وقوله تعالى : ﴿ تلك ﴾ قيل هو بمعنى هذه وقد يشبه أن يتصل المعنى ب ﴿ تلك ﴾ دون أن نقدرها بدل غيرها والنظر في هذه اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبره . و﴿ الكتاب ﴾ قال مجاهد وقتادة : المراد به التوراة والإنجيل ، وقال مجاهد أيضاً وغيره : المراد به القرآن وهو الأظهر ، و﴿ الحكيم ﴾ فعيل بمعنى محكم كما قال تعالى : ﴿ هذا ما لدي عتيد ﴾ [ق : 23] أي معتد معد ، ويمكن أن يكون "

حكيم " بمعنى ذو حكمة فهو على النسب ، وقال الطبري فهو مثل أليم بمعنى مؤلم ثم قال : هو الذي أحكمه وبيّنه .

قال القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية رضي الله عنه : فساق قولين على أنهما واحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(18/356)

وقال ابن الجوزى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

فأما قوله : ﴿ الر ﴾ قرأ ابن كثير : "الر" بفتح الراء .

وقرأ أبو عمرو ، وابن عامر ، وحمزة ، والكسائي : "الر" على الهجاء مكسورة .

وقد ذكرنا في أول سورة (البقرة) ما يشتمل على بيان هذا الجنس .

وقد خُصَّت هذه الكلمة بستة أقوال .

أحدها : أن معناها : أنا الله أرى ، رواه الضحاك عن ابن عباس .

والثاني : أنا الله الرحمن ، رواه عطاء عن ابن عباس .

والثالث : أنه بعض اسم من أسماء الله .

روى عكرمة عن ابن عباس قال : "الار" و"حما " و"نا" حروف الرحمن .

والرابع : أنه قَسَمٌ أقسم الله به ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

والخامس : أنه اسم من أسماء القرآن ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والسادس : أنه اسم للسورة ، قاله ابن زيد .

وفي قوله : ﴿ تلك ﴾ قولان : أحدهما : أنه بمعنى "هذه" ، قاله أبو صالح عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيدة .

والثاني : أنه على أصله .

ثم فيه ثلاثة أقوال : أحدها : أن الإِشارة إِلى الكتب المتقدمة من التوراة والإِنجيل ، قاله مجاهد ، وقتادة ؛ فيكون المعنى : هذه الأقاصيص التي تسمعونها ، تلك الآيات التي وصفت في التوراة والإِنجيل .

والثاني : أن الإِشارة إِلى الآيات التي جرى ذكرها ، من القرآن ، قاله الزجاج .

والثالث : أن "تلك" إِشارة إِلى "الر" وأخواتها من حروف المعجم ، أي : تلك الحروف المفتتحة بها السُّوَر هي ﴿ آيات الكتاب ﴾ لأن الكتاب بها يتلى ، وألفاظه إِليها ترجع ، ذكره ابن الأنباري .

قال أبو عبيدة : ﴿ الحكيم ﴾ بمعنى المحكَم المبيَّن الموضَّح ؛ والعرب قد تضع فعيلاً في

معنى مُفْعَل ؛ قال الله تعالى : ﴿ ما لديَّ عتيد ﴾ [ق : 23] أي : مُعَدٌّ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(19/356)

وقال القرطبى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قوله تعالى : ﴿ الر ﴾ قال النحاس : قرىء على أبي جعفر أحمد بن شعيب بن علي بن الحسين بن حريث قال : أخبرنا علي بن الحسين عن أبيه عن يزيد أن عكرمة حدّثه عن ابن عباس : الر ، وحم ، ونون (حروف) الرحمن مفرّقة ؛ فحدّثت به الأعمش فقال : عندك أشباه هذا ولا تخبرني به ؟ .

وعن ابن عباس أيضاً قال : معنى "الار" أنا الله أرى .

قال النحاس : ورأيت أبا إسحاق يميل إلى هذا القول ؛ لأن سيبويه قد حكى مثله عن العرب وأنشد :

بالخير خيراتٍ وإن شرّاً فَا . . .

ولا أُريد الشرّ إلا أنْ تَا

وقال الحسن وعكرمة : "الار" قَسَم .

وقال سعيد عن قتادة : "الار" اسم السورة ؛ قال : وكذلك كل هجاء في القرآن .

وقال مجاهد : هي فواتح السُّوَر .

وقال محمد بن يزيد : هي تنبيه ، وكذا حروف التهجي .

وقرىء "الر" من غير إمالة .

وقرىء بالإمالة لئلا تُشبه ما ولا من الحروف .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ ابتداء وخبر ، أي تلك التي جرى ذكرها آيات الكتاب الحكيم .

قال مجاهد وقتادة : أراد التوراة والإنجيل والكتب المتقدّمة ؛ فإن "تلك" إشارة إلى غائب مؤنّث .

وقيل : "تلك" بمعنى هذه ؛ أي هذه آيات الكتاب الحكيم .

ومنه قول الأعشى :

تلك خَيْلِي منه وتلك رِكابي . . .
هنّ صُفْرٌ أولادها كالزَّبيب

أي هذه خيلي .

والمراد القرآن وهو أولى بالصواب ؛ لأنه لم يجر للكتب المتقدّمة ذكر ، ولأن "الحكيم" من

نعت القرآن .

دليله قوله تعالى : ﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ﴾ [هود : 1] وقد تقدّم هذا المعنى في أوّل سورة "البقرة" .

والحكيم : المُحْكَم بالحلال والحرام والحدود والأحكام ؛ قاله أبو عبيدة وغيره .

وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم ؛ أي إنه حاكم بالحلال والحرام ، وحاكم بين الناس بالحق ؛ فعِيل بمعنى فاعل .

(20/356)

دليله قوله : ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الكتاب بالحق لِيَحْكُمَ بَيْنَ الناس فِيمَا اختلفوا فِيهِ ﴾ [البقرة : 213] .

وقيل : الحكيم بمعنى المحكوم فيه ؛ أي حكم الله فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وحكم فيه بالنهي عن الفحشاء والمنكر ، وبالجنة لمن أطاعه وبالنار لمن عصاه ؛ فهو فعيل بمعنى المفعول ؛ قاله الحسن وغيره .

وقال مقاتل : الحكيم بمعنى المُحْكَم من الباطل لا كذب فيه ولا اختلاف ؛ فعيل بمعنى مفعَل ، كقول الأعشى يذكر قصيدته التي قالها :

وغريبةٍ تأتي الملوكَ حكيمةٍ . . .

قد قلتها ليقال من ذا قالها . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(21/356)

وقال الخازن :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قوله : ﴿ الر ﴾ قال ابن عباس والضحاك معناه أنا الله أرى وقال ابن عباس في رواية أخرى : عنه الر وحم ون حروف الرحمن مقطعة وبه قال سعيد بن جبير وسالم بن عبد الله وقال قتادة : الر اسم من أسماء القرآن وقيل هي اسم للسورة وقد تقدم الكلام في معنى الحروف المقطعة في أول سورة البقرة بما فيه كفاية ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ المراد في لفظ تلك الإشارة إلى الآيات الموجودة في هذه السورة ويكون التقدير تلك الآيات هي آيات الكتاب وهو القرآن الذي أنزله الله إليك يا محمد وذلك أن الله وعده أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه الماء ولا تغيره الدهور .

وقيل : إن لفظة تلك للإشارة إلى ما تقدم هذه السورة من آيات القرآن .

والمعنى : أن تلك الآيات هي آيات الكتاب الحكيم ، وفيه قول آخر أن المراد بآيات الكتاب

الكتب التي قبل القرآن حكاه الطبري عن قتادة .

وروي عن مجاهد أنها التوراة والإنجيل فعلى هذا القول يكون التقدير أن الآيات المذكورة في هذه السورة هي الآيات المذكورة في التوراة أو الإنجيل والمراد من الآيات القصص المذكورة في هذه السورة وهذا وإن كان له وجه فهو ضعيف لأن التوراة والإنجيل لم يجر لهما ذكر قريب حتى يشار إليهما قيل : إن المراد من الآيات حروف الهجاء التي منها الر سميت آيات لأنها افتتاح السور وسر القرآن ﴿ الحكيم ﴾ يعني المحكم الحلال والحرام والحدود والأحكام .

فعيل : بمعنى مفعول .

وقيل : الحكيم بمعنى الحاكم فعيل بمعنى فاعل لأن القرآن حاكم يميز بين الحق والباطل ويفصل الحلال من الحرام .

وقيل : حكيم بمعنى المحكوم فيه فيعمل بمعنى مفعول .

قال الحسن : حكم فيه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى .

وقيل : إن الحكيم هو الذي يفعل الحكمة والصواب فمن حيث إنه يدل على الأحكام صار كأنه هو الحكيم في نفسه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(22/356)

وقال أبو حيان :

﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات ، فإنها نزلت بالمدينة ، وهي فإن كنت في شك إلى آخرهن ، قاله ابن عباس .

وقال الكلبي : إلا قوله ومنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به فإنها نزلت في اليهود بالمدينة .

وقال قوم : نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة ، ونزل باقيها بالمدينة .

وقال الحسن وعطاء وجابر : هي مكية وسبب نزولها : أنّ أهل مكة قالوا : لم يجد الله رسولاً إلا يتيم أبي طالب فنزلت .

وقال ابن جريج : عجبت قريش أن يبعث رجل منهم فنزلت .

وقيل : لما حدثهم عن البعث والمعاد والنشور تعجبوا .

ومناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما أنزل ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ وذكر تكذيب المنافقين ثم قال : ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ وهو محمد (صلى الله عليه وسلم) أتبع ذلك بذكر الكتاب الذي أنزل ، والنبي الذي أرسل ، وأن ديدن الضالين وأحد متابعيهم ومشركيهم في التكذيب بالكتب الإلهية وبمن جاء بها ، ولما كان ذكر القرآن مقدّماً على ذكر الرسول في آخر السورة ، جاء في أول هذه السورة كذلك فتقدم ذكر الكتاب على ذكر الرسول ، وتقدم ما قاله المفسرون في أوائل هذه السورة المفتتحة بحروف المعجم ، وذكروا هنا أقوالاً عن

المفسرين منها : أنا الله أرى ، ومنها أنا الله الرحمن ، ومنها أنه يتركب منها ومن حم ومن نون الرحمن .

فالراء بعض حروف الرحمن مفرقة ، ومنها أنا الرب وغير ذلك .

والظاهر أن تلك باقية على موضوعها من استعمالها البعد المشار إليه .

فقال مجاهد وقتادة : أشار بتلك إلى الكتب المتقدمة من التوراة والإنجيل والزبور ، فيكون الآيات القصص التي وصفت في تلك الكتب .

وقال الزجاج : إشارة إلى آيات القرآن التي جرى ذكرها .

(23/356)

وقيل : إشارة إلى الكتاب المحكم الذي هو مخزون مكتوب عند الله ، ومنه نسخ كل كتاب كما قال : ﴿ بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ ﴾ وقال : ﴿ وإنه في أم الكتاب ﴾ وقيل : إشارة إلى الراء وأخواتها من حروف المعجم ، أي تلك الحروف المفتتح بها السور وإن قربت ألفاظها فمعانيها بعيدة المنال .

وهي آيات الكتاب أي الكتاب بها يتلى ، وألفاظه إليها ترجع ذكره ابن الأنباري .

وقيل : استعمل تلك بمعنى هذه ، والمشار إليه حاضر قريب قاله ابن عباس ، واختاره أبو

عبيدة .

فقيل : آيات القرآن .

وقيل : آيات السور التي تقدمّ ذكرها في قوله : ﴿ وإذا ما أنزلت سورة ﴾ وقيل : المشار إليه هو الراء ، فإنها كنوز القرآن ، وبها العلوم التي استأثر الله بها .

وقيل : إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والكتاب السورة .

والحكيم : الحاكم ، أو ذو الحكمة لاشتماله عليها .

وتعلقه بها ، أو المحكم ، أو المحكوم به ، أو المحكم أقوال . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(24/356)

وقال أبو السعود :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

﴿ الر ﴾ بتفخيم الراءِ المفتوحةِ وقرىء بالإمالة إجراءً للأصلية مُجرى المنقلبة عن الياء وقرىء بينَ بين وهو إما مسرودٌ على نمط التعديدِ بطريق التحدّي على أحد الوجهين المذكورين في فاتحة سورة البقرة فلا محلَّ له من الإعراب وإما اسمٌ للسورة كما عليه إطباقُ

الأكثرِ فمحلُّه الرفعُ على أنه خبرٌ لمبتدأ محذوفٍ أي هذه السورةُ مسماةٌ بألر ، وهو أظهرُ من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلمِ بالتسمية بعدُ ، فحقُّها الإخبارُ بها لا جعلُها عنوانَ الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب كما مر . والإشارةُ إليها قبل جَرَيانِ ذكرها لِما أنها باعتبار كونِها على جناح الذكْرِ وبصدده صارت في حكم الحاضِر كما يقال : هذا ما اشترى فلان ، أو النصب بتقدير فعل لائقٍ بالمقام نحوُ اذكر أو اقرأ ، وكلمةُ ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارةٌ إليها إما على تقدير كونِ الر مسرودةً على نمط التعديدِ فقد نُزّل حضورُ مادتِها التي هي الحروفُ المذكورةُ منزلةَ ذِكرِها فأشير إليها كأنه قيل : هذه الكلماتُ المؤلفةُ من جنس هذه الحروفِ المبسوطةِ الخ ، وأما تقدير كونِه اسماً للسورة فقد نوّهتُ بالإشارة إليها بعد تنويهِها بتعيين اسمِها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها ، وما في اسم الإشارة من معنى البُعد للتنبيه على بُعد منزلتها في الفخامة ومحلُّه الرفعُ على أنه مبتدأ خبرُه قوله تعالى : ﴿ آيات الكتاب ﴾ وعلى تقدير كون الر مبتدأً فهو مبتدأٌ ثانٍ أو بدلٌ من الأول والمعنى هي آياتٌ مخصوصةٌ منه مترجمةٌ باسم مستقلٍ والمقصودُ ببيانِ بعضيَّتِها منه وصفُها بما اشتهر اتصافُه به من النعوت الفاضلةِ والصفاتِ الكاملةِ ، والمرادُ بالكتاب إما جميعُ القرآنِ العظيم وإن لم ينزل الكلُّ حينئذ إما باعتبار تعيّنه وتحققِه في علم الله عز وعلا أو في اللوح أو باعتبار أنه أُنزل جملةً إلى السماء الدنيا كما هو المشهورُ فإن فاتحةَ الكتاب كانت مسماةً بهذا الاسم وبأم القرآن في عهد

(25/356)

النبوة ولمّا يحصُلِ المجموعُ الشخصي إذ ذاك فلا بد من ملاحظة كلَ من الكتاب القرآن بأحد الاعتباراتِ المذكورةِ وما جميعُ القرآنِ النازلِ وقتئذ المتفاهَمِ بين الناسِ إذ ذاك فإنه كما يُطلق على المجموع الشخصيّ يُطلق على مجموع ما نزل في كل عصرٍ ، ألا يُرى إلى ما رُوي عن جابر رضي الله عنه أنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم يجمع بين الرجلين من قتلى أحُدٍ في ثوب واحد ثم يقول : "أيُّهم أكثرُ أخذاً للقرآن ؟" فإذا أشير له إلى أحدهما قدمه في اللحد فإن ما يفهمه الناسُ من القرآن في ذلك الوقت ويحافظون على التفاوت في أخذه إنما هو المجموعُ النازلُ حينئذ من غير ملاحظةٍ لتحقق المجموعِ الشخصيِّ في علم الله سبحانه أو في اللوح ولا لنزوله جملةً إلى السماء الدنيا .

(26/356)

﴿ الحكيم ﴾ ذي الحِكمة وصُف به لاشتماله على فنون الحِكَم الباهرة ونُطقِه بها ، أو هو من باب وصفِ الكلامِ بصفة صاحبِه أو من باب الاستعارة المكنيةِ المبنيةِ على تشبيه

الكتابِ بالحكيم الناطق بالحكمة ، هذا وقد جعل الكتابُ عبارةً عن نفس السورةِ ، وكلمةُ تلك إشارةٌ إلى ما في ضمنها من الآي فإنها في حكم الحاضرِ لا سيما بعد ذكر ما يتضمنها من السورة عند بيان اسمِها أو الأمرِ بذكرها أو بقراءتها ، وينبغي أن يكون المشارُ إليه حينئذ كلَّ واحدةٍ منها لا جميعَها من حيث هو جميعٌ لأنه عينُ السورةِ فلا يكون للإضافة وجهٌ ولا لتخصيص الوصفِ بالمضاف إليه حكمةٌ فلا يتأتى ما قُصد من مدح المضافِ بما للمضاف إليه من صفات الكمال ولأن في بيان اتصافِ كلَ منها بالكمال من المبالغة ما ليس في بيان اتصافِ الكلِّ بذلك ، والمتبادرُ من الكتاب عند الإطلاقِ وإن كان كلُّه بأحد الوجهين المذكورين لكنّ صحةَ إطلاقِه على بعضه أيضاً مما لا ريب فيها ، والمعهودُ المشهورُ وإن كان اتصافُ الكل بأحد الاعتبارين بما ذُكر من نعوت الكمالِ إلا أن شهرةَ اتصافِ كل سورةٍ منه بما اتصف به الكلُّ مما لا ينكر ، وعليه يدور تحققُ مدحِ السورةِ بكونها بعضاً من القرآن الكريم إذ لولا أن بعضَه منعوتٌ بنعت كلِّه داخلٌ تحت حكمِه لما تسنى ذلك ، وفيه ما لا يخفى من التكلف والتعسف . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(27/356)

وقال الآلوسى :

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرحمن الرحيم الر ﴾

بتفخيم الراء المفتوحة وهو الأصل وأمال أبو عمرو وبعض القراء إجراء لألف الراء مجرى الألف المنقلبة عن الياء فإنهم يميلونها تنبيهاً على أصلها ، وفي الإمالة هنا دفع توهم أن را حرف كما ولا فقد صرحوا أن الحروف يمتنع فيها الإمالة ، وقرأ ورش بين بين ، والمراد من ﴿ الر ﴾ على ما روى جماعة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنا الله أرى ، وفي رواية أخرى لنها بعض الرحمن وتمامه حم ون ، وعن قتادة أنها بعض الراحم وهو من أسماء القرآن ، وقيل : هي أسماء للأحرف المعلومة من حروف التهجي أتى بها مسرودة على نمط التعديد بطريق التحدي وعليه فلا محل لها من الإعراب ، والكلام فيها وفي نظائرها شهير . والأكثرون على أنها اسم للسورة فمحلها الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أي هذه السورة مسماة بكذا وهو أظهر من الرفع على الابتداء لعدم سبق العلم بالتسمية بعد فحقها الإخبار بها لا جعلها عنوان الموضوع لتوقفه على علم المخاطب بالانتساب ، والإشارة إليها قبل جريان ذكرها لصيرورتها في حكم الحاضر لاعتبار كونها على جناح الذكر كما يقال في الصكوك : هذا ما اشترى فلان ، وجوز النصب بتقدير فعل لائق بالمقام كاذكر واقرأ وكلمة ﴿ تِلْكَ ﴾ إشارة إليها أما على تقدير كون ﴿ الر ﴾ مسروداً على نمط التعديد فقد نزل حضور مادتها منزلة ذكرها فأشير إليها كأنه قيل : هذه الكلمات المؤلفة من جنس

هذه الحروف المبسوطة الخ ، وأما على تقدير كونها اسماً للسورة فقد نوهت بازشارة إليها بعد تنويهها بتعيين اسمها أو الأمر بذكرها أو بقراءتها .

(28/356)

وما في اسم الإشارة من معنى البعد للتنبيه على بعد منزلتها في الفخامة ومحله الرفع على أنه مبتدأ خبره قوله عز وجل : ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ وعلى تقدير كون ﴿ الر ﴾ مبتدأ فهو إما مبتدأ ثان أو بدل من الأول ، والمعنى هي آيات مخصوصة منه مترجمة باسم مستقل ، والمقصود ببيان بعضيتها منه وصفيتها بما أشير إلى اتصافه به من النعوت الفاضلة والصفات الكاملة ، والمراد بالكتاب إما جميع القرآن العظيم وإن لم ينزل بعد إما باعتبار تعينه وتحققه في العلم أو في اللوح أو باعتبار نزوله جملة إلى بيت العزة من السماء الدنيا وإما جميع القررن النازل وقتئذٍ المتفاهم بين الناس إذ ذاك فإنه كما يطلق على المجموع الشخصي يطلق على مجموع ما نزل في كل كذا قال شيخ الإسلام .

وأنت تعلم أن المشهور عن السلف تفويض معنى ﴿ الر ﴾ وأمثاله إلى الله تعالى وحيث لم يظهر المراد منها لا معنى للتعرض لإعرابها ، وقد ذكروا أنه يجوز في الإشارة أن تكون لآيات هذه السورة وأن تكون لآيات القرآن ويجوز في الكتاب أن يراد به السورة وأن يراد القرآن

فتكون الصور أربعاً .

إحداها : الإشارة إلى آيات القرآن والكتاب بمعنى السورة ولا يصح إلا بتخصيص آيات أو تأويل بعيد .

وثانيها : عكسه ولا محذور فيه .

وثالثها : الإشارة إلى آيات السورة والكتاب بمعنى السورة .

ورابعها : ازشارة إلى آيات القررن والكتاب بمعنى القرآن ، ومرجع إفادة الكلام عليهما باعتبار صفة الكتاب الآتية ، وجوز الإشارة إلى الآيات لكونها في حكم الحاضر وإن لم تذكر كما في المثال المذكور آنفاً .

وفي "أمالي ابن الحاجب" أن المشار إليه لا يشترط أن يكون موجوداً حاضراً بل يكفي أن يكون موجوداً ذهناً .

(29/356)

وفي "الكشاف" في تفسير قوله تعالى : ﴿ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ ﴾ [الكهف : 78] ما يؤيديه ، وأوثر لفظ تلك لما أشار إليه الشيخ ولكونه في حكم الغائب من وجه ولا يخلو ما ذكروه عن دغدغة ، وأما حمل الكتاب على الكتب التي خلت قبل القرآن من التوراة

والإنجيل وغيرهما كما أخرجه ابن أبي حاتم عن قتادة فهو في غاية البعد فتأمل ، وقوله تعالى : ﴿ الحكيم ﴾ صفة للكتاب ووصف بذلك لاشتماله على الحكم فيراد بالحكيم ذو الحكمة على أنه للنسبة كلابن وتامر ، وقد يعتبر تشبيه الكتاب بإنسان ناطق بالحكمة على طريق الاستعارة بالكناية وإثبات الحكمة قرينة لها ، وجوز أن يكون وصفه بذلك لأنه كلام حكيم فالمعنى حكيم قائله فالتجوز في الإسناد كليله قائم ونهاره صائم ، وقيل : لأن آياته محكمة لم ينسخ منها شيء أي بكتاب آخر ففعيل بمعنى مفعل وقد تقدم ماله وما عليه ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ الهمزة لإنكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لوقوعه في غير محله ، والمراد بالناس كفار العرب ، والتعبير عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم الذي هو المدار لتعجبهم كما تعرض له فيما بعد لتحقيق ما فيه من الشركة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم وتعيين مدار التعجيب في زعمهم ثم تبيين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بإيراد الإنكار ، واللام متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿ عَجَبًا ﴾ كما هو القاعدة في نعت النكرة إذا تقدم عليها ، وقيل : متعلقة بعجباً بناءً على التوسع المشهور في الظروف ، وبعضهم جعلها متعلقة به لا على طريق المفعولية كما في قوله :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها

بل على طريق التبيين كما في ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف : 32] وسقياً لك ومثل ذلك يجوز تقديمه على المصدر .

(30/356)

وأنت تعلم أن هذا قول بالتعلق بمقدر في التحقيق ، وقيل : إنها متعلقة به لأنه بمعنى المعجب والمصدر إذا كان بمعنى مفعول أو فاعل يجوز تقديم معموله عليه ، وجوز أيضاً تعلقه بكان وإن كانت ناقصة بناءً على جوازه ، و﴿ عَجَبًا ﴾ خبر كان قدم على اسمها وهو قوله سبحانه : أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(31/356)

وقال ابن عاشور :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

تقدم القول في الحروف الواقعة في فواتح بعض السور في أول سورة البقرة فهي بمنزلة الأعداد المسرودة ، لا محل لها من الإعراب ، ولا يُنطق بها إلا على حال السكت ، وحالُ السكت يعامَل معاملة الوقف ، فلذلك لا يُمد اسم را في الآية ، وإن كان هو في اللغة بهمزة في آخره

لأنه بالسكت تحذف الهمزة كما تحذف في الوقف لثقل السكوت على الهمزة في الوقف والسكت ، فبذلك تصير الكلمة على حرفين فلا تمد .

ولذلك أجمع القراء على عدم مد الحروف : را .

ها . يا . طا . حا .

التي في أوائل السور وإن كانت تلك الأسماء ممدودة في استعمال اللغة .

اسم الإشارة يجوز أن يكون مراداً به جميع آي القرآن التي نزلت قبل هذه السورة باعتبار حضور تلك الآيات في أذهان الناس من المؤمنين وغيرهم ، فكأنها منظورة مشاهدة ، فصحت الإشارة إليها إذ هي متلوة محفوظة فمن شاء أن يسمعها ويتدبرها أمكنه ذلك ولأن الخوض في شأنها هو حديث الناس في نواديهم وأسمارهم وشغلهم وجدالهم ، فكانت بحيث تتبادر إلى الأذهان عند ورود الإشارة إليها .

واسمُ الإشارة يُفسر المقصودَ منه خبرُه وهو ﴿ آيات الكتاب الحكيم ﴾ كما فسره في قوله تعالى : ﴿ فهذا يومُ البعث ﴾ [الروم : 56] وقوله تعالى : ﴿ قال هذا فراقُ بيني وبينك ﴾ [الكهف : 78] .

قال في "الكشاف" : تصوَّر فراقاً بينهما سيقع قريباً فأشار إليه بهذا .

وقد تقدم شيء من هذا المعنى عند قوله تعالى : ﴿ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده ﴾ في سورة [الأنعام : 88] .

فالمقصود من الإشارة إما الحث على النظر في آيات القرآن ليتبين لهم أنه من عند الله ويعلموا صدق من جاءهم به .

(32/356)

وإما إقناعهم من الآيات الدالة على صدق النبي بآيات الكتاب الحكيم فإنهم يسألون النبي آيةً على صدقه ، كما دل عليه قوله في هذه السورة [يونس : 15] ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائتِ بقرآن غير هذا أو بَدله ﴾ فقيل لهم ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ ، أي ما هو آية واحدة بل آيات كثيرة ، فإن الإعجاز حاصل بكل سورة منه .

ولأنه اشتمل على الحقائق السامية والهدى إلى الحق والحكمة ؛ فرجل أمي ينشأ في أمة جاهلة يجيء بمثل هذا الهدى والحكمة لا يكون إلا موحى إليه بوحي إلهي ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارْتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : 48] .

وعليه فاسم الإشارة مبتدأ و ﴿ آيات ﴾ خبره .

وإضافة ﴿ آيات ﴾ إلى ﴿ الكتاب ﴾ إضافة شبيهة بالبيانية وإن كان الكتاب بمنزلة

الظرف للآيات باختلاف الاعتبار ، وهو معنى الإضافة البيانية عند التحقيق .

ويجوز أن تجعل الإشارة بـ ﴿ تلك ﴾ إلى حروف ﴿ ألر ﴾ لأن المختار في الحروف المقطعة في فواتح السور أن المقصود من تعدادها التحدي بالإعجاز ، فهي بمنزلة التهجي للمتعلم .

فيصح أن يجعل (ألر) في محل ابتداء ويكون اسم الإشارة خبراً عنه .

والمعنى تلك الحروف آيات الكتاب الحكيم ، أي من جنسها حروف الكتاب الحكيم ، أي جميع تراكيبه من جنس تلك الحروف .

والمقصود تسجيل عجزهم عن معارضته بأن آيات الكتاب الحكيم كلها من جنس حروف كلامهم فما لكم لا تستطيعون معارضتها بمثلها إن كنتم تكذّبون بأن الكتاب منزل من عند الله ، فلولا أنه من عند الله لكان اختصاصه بهذا النظم المعجز دون كلامهم محالاً إذ هو مركب من حروف كلامهم .

والكتاب : القرآن .

فالتعريف فيه للعهد .

ويجوز جعل التعريف دالاً على معنى الكمال في الجنس ، كما تقول : أنتَ الرجل .

والحكيم : وصف إما بمعنى فاعل ، أي الحاكم على الكتب بتمييز صحيحها من محرفها ، مثل قوله : ﴿ ومُهيمِناً عليه ﴾ [المائدة : 48] ، وقوله : ﴿ وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ﴾ [البقرة : 213] .

وإما بمعنى مُفعَل بفتح العين ، أي مُحكَم ، مثل عَتِيد ، بمعنى مُعَد .

وإما بمعنى ذي الحِكمة لاشتماله على الحكمة والحق والحقائق العالية ، إذ الحكمة هي إصابة الحق بالقول والعمل فوُصف بوصف ذي الحكمة من الناس على سبيل التوسع الناشىء عن البليغ كقول الأعشى :

وغريبةٍ تأتي الملوك حَكِيمة

قد قلتُها ليقال مَن ذَا قالها . . .

وإما أن يكون وُصِفَ بوصف منزّله المُتكلم به ، كما مشَى عليه صاحب "الكشاف" عند قوله تعالى : ﴿ يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين ﴾ [يس : 1 ، 3]

واختيار وصف ﴿ الحكيم ﴾ من بين أوصاف الكمال الثابتة للقرآن ؛ لأن لهذا الوصف مزيد اختصاص بمقام إظهار الإعجاز من جهة المعنى بعد إظهار الإعجاز من جهة اللفظ بقوله : ﴿ الر تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ ، ولِما اشتملت عليه السورة من براهين التوحيد وإبطال الشرك .

وإلى هذا المعنى يشير قوله بعد هذا : ﴿ قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون ﴾ [يونس 16] . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(34/356)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

و﴿ الر ﴾ ثلاثة حروف ، وقد سبقتها سورة البقرة ب ﴿ الم ﴾ و ﴿ الم ﴾ في أول سورة آل عمران ، وفي أول سورة الأعراف ﴿ المص ﴾ وهنا ﴿ الر ﴾ في أول سورة يونس . ونلاحظ أن ﴿ الم ﴾ و ﴿ المص ﴾ و ﴿ الر ﴾ كلها أسماء حروف .

وكل شيء له اسم وله مسمى ، أنا اسمي الشعراوي صحيح ، والمسمَّى هو صورتي .

فإذا أُطلق الاسم جاءت صورة المسمَّى في الذهن .

فساعة تقول : " السماء " يأتي الذهن " ما علاك " . وساعة تقول : " المسجد " يأتي إلى الذهن المكان المحيّز للصلاة .

إذن : فهناك فرق بين الاسم والمسمّى . وكل إنسان أمّي ، أو متعلم ، له قدرة على الكلام ،

لكن لا ينطبق بأسماء الحروف إلا من تعلَّم . وفي الإنجليزية نطلب ممن يتعلمها أن يتهجَّى أسماء الحروف .

إذن : فالكُلّ – كل متكلم – يعرف النطق بمسمَّيات الحروف ولكن الذي يعرف المسميات ويعرف الأسماء هو من جلس إلى معلِّم . وعرف أنك حين تقول : " أكلت " ، فهذه الكلمة مكونة من (همزة ، وكاف ، ولام ، وتاء) .

فإن كانت بعض سور القرآن قد بَدأت ب ﴿ الم ﴾ وهذه أسماء حروف ، لا مسمَّيات حروف ، ومحمد صلى الله عليه وسلم أمّيّ لم يتعلم ، فمن الذي علَّمه أسماء الحروف ؟ هي ، إذن ، رمزية على أنه – بإقرار الجميع – أمي ولم يجلس إلى معلم ، ولم يقل له أحد شيئاً ، ثم نطق بعد ذلك بأسماء الحروف " ألف لام ميم " ولو نظرت إلى المنطوق بالأسماء تجدها أربعة عشر حرفاً تكررت ، وهي نصف حروف الهجاء .

ومن العجيب أن توصيف حروف الهجاء جاء بعد أن نزل القرآن . وقسمناها نحن إلى حروف مهجورة وحروف مهموسة وحروف رقيقة وحروف رخوة . وقد حدث هذا التقسيم بعد أن نزل القرآن . وبالاستقراء تجد الأربعة عشر حرفاً التي تأتي في فواتح السور تمثل كل أنواع الحروف .

(35/356)

من : رقيق ، ومفخم ، ومجهور ، ومهموس ، ومستعلٍ ، وبدأ الله بها على أشكال مختلفة ، فمرة يبدأ بحرف واحد : ﴿ ص والقرآن ذِي الذكر ﴾ [ص : 1]

ويقول سبحانه : ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ [ق : 1]

ويقول سبحانه : ﴿ ن والقلم وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : 1]

إذن : فثلاث سور ابتدأت بحرف واحد .

وهناك سور ابتدأت بحرفين اثنين مثل : ﴿ طه ﴾ . ﴿ يس ﴾ . ﴿ طس ﴾ ، ﴿ حم ﴾ .

وهناك سور بدئت بثلاثة حروف : ﴿ الم ﴾ مثلما بدأت سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وسورة العنكبوت ، وسورة الروم ، وسورة السجدة .

وهناك سور قد بدئت ب ﴿ الر ﴾ .

وثلاث سور تتفق في الألف واللام . وتختلف في " الميم والراء " و ﴿ الر ﴾ في أول سورة يونس و ﴿ الر ﴾ في أول سورة يوسف . و ﴿ الر ﴾ في أول سورة إبراهيم ، و ﴿ الر ﴾ في أول سورة الحجر .

وهناك سورة قد بدئت بأربعة حروف مثل : ﴿ المص ﴾ في أول سورة الأعراف ، وكذلك سورة الرعد بدأت ب ﴿ المر ﴾ .

وهناك سور قد بدأت بخمسة حروف مثل سورة مريم ﴿ كهيعص ﴾ . وكذلك سورة الشورى بدأت ب ﴿ حم* عسق ﴾ .

ومرة يطلق الحرف أو الحرفان في أول السورة ولا تعتبر آية وحدها ؛ بل جزءاً من آية ، وهناك سورتان تبدآن بأحرف وتعتبر آية مثل ﴿ طه ﴾ ، و ﴿ يس ﴾ . أما في سورة النمل فهي تبدأ ب ﴿ طس ﴾ ولا تعتبر آية وحدها .

(36/356)

إذن : فمرة تنطق الحروف وحدها كآية مكتملة ، ومرة تكون الحروف بعضاً من آية ، ومرة تأتي خمسة حروف مثل ﴿ كهيعص ﴾ ، وكل هذا يدلك على أن القرآن توقيفي . ولم تأت آياته على نسق واحد ؛ لننتبه إلى أن الحق سبحانه أنزل هذه الحروف هكذا ، وكذلك نجد كلمة " اسم " في القرآن في ﴿ بسم الله ﴾ وتكتب من غير ألف ، وهي ألف وصل ، أي : تنطقها حين تقرأها لكن الحرف يسقط عند الكتابة ، ولكنها لا تسقط عندما نكتب الآية الأولى من سورة العلق : ﴿ اقرأ باسم رَبِّكَ الذي خَلَقَ ﴾ [العلق : 1] ومثال آخر لو استعرضت في القرآن الكريم كلمة " تبارك " ، ستجد فيها ألفاً بعد الباء ، وتأتي مرة من غير ألف ، وكلمة " البنات " نجدها مرة بألف ومرة من غير ألف ، كل ذلك ؛ لنفهم أن

المسألة ليس لها رتابة كتابة ؛ لأنها لو كانت رتابة كتابة ؛ لجاءت على نظام واحد .

وقد شاء الحق هذا الأمر ؛ لتكون كتابة القرآن معجزة ، كما كانت ألفاظه وتراكيبه معجزة . وقد قال البعض : إن العرب المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكونوا أهل إتقان للكتابة ، ونقول : لو كانوا على غير دراية بالكتابة لما كتبوا " بسم " من غير ألف في موقعها ، لقد علموا أن القرآن يجب أن يكتب كما نزل به جبريل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابة توقيفية ، أي : كما أمر الحق سبحانه .

وعجيبة أخرى أن كل آيات القرآن مبنية على الوصل ، فأنت لا تقرأ ختام السورة بالسكون ، بل تلتفت لتجد الكلمة التي في ختام أي سورة مشكلة بغير السكون .

والمثال هو : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم ﴾ وجاء الحرف الأخير بالكسر لا بالسكون ؛ لتقرأ موصولة بما بعدها ، فتقرأ كالآتي : ﴿ وَهُوَ رَبُّ العرش العظيم بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ .

(37/356)

وهذه الحركة دلت على أن جميع آيات القرآن موصولة ببعضها ، وإياك أن تجعل القرآن ﴿ عِضِينَ ﴾ فلا تأخذ بعضاً من آياته مفصولاً عن غيرها ، بل القرآن كله موصولة ، فليس في

القرآن من وقف واجب ، بل الآيات كلها مبنية على الوصل ، وإن كانت الكلمة الأخيرة تنتهي بالفتحة فأنت تقرأها منصوبة ومن بعدها ﴿ بسم الله الرحمن الرَّحِيمِ ﴾ فنحن لا نسكِّن الحرف الأخير في أي سورة ؛ لأنها موصولة بما بعدها .

وحتى في الحكم التجويدي إن وجد إقلاب ننطقه إقلاباً ، وإن وجد إظهاء ننطقه إظهاراً ؛ لأن آيات القرآن مبنية على الوصل .

ولقائل أن يقول : إذا كان القرآن قد بني على الوصل ، فكان المفروض أن آيات القرآن التي بدئت بحروف المعجم تنبني على طريق المعجم . فلا نقول (ألف لام ميم) بل نقول " ألم " .

ونقول لمثل هذا القائل : لا ، إن حروف القرآن التي بدئت بها السور يجب أن ننطقها كما هي ، فننطق " ألف " ثم نقف ، ونقرأ " ميم " ثم نقف ، ونقرأ " لام " ثم نقف ، ونقرأ " ميم " ثم نقف ؛ لأن هذه الحروف جاءت هكذا ، وعلّمها جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا ، حتى لا نقول رتابة كلام ، بل إن لذلك حكمة عند الله سواء فهمتها أنت الآن أم لم تفهمها .

وقد نزل القرآن على أمة عربية وظل أناس على كفرهم ، وكانوا يعاندون رسول الله ، ويترصدون لأي هفوة ؛ ليدخلوا منها للتشييك في القرآن ، ولكن أسمعتم رغم وجود الكافرين الصناديد أن واحداً قال : ما معنى ﴿ الم ﴾ ؟

لم يقل أحد من الكافرين ذلك ، رغم حرصهم على أن يأتوا بمطاعن في القرآن ، بل اعترفوا

بمطلق بلاغة القرآن الكريم ، مما يدل على أنهم فهموا شيئاً من ﴿ الم ﴾ بملكتهم العربية ، ولو لم يفهموا منها شيئاً ؛ لطعنوا في القرآن . لكنهم لم يفعلوا .

(38/356)

وأيضاً صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أهل حرص على الفهم ، هل سمعت أن أحداً سأل رسول الله عن معنى ﴿ الم ﴾ ؟ لم يحدث ، مما يدل على أنهم انفعلوا لقائلها بسرِّ الله فيها ، لا بفهم عقولهم لها ؛ لأن الوارد من عند الله لا يوجد له معارض من النفس ، وإن لم العقل فهو يرفضه مع استراحة النفس له .

وضربنا من قبل مثلاً ، فقلنا : إن آل فرعون حين استحيوا نساء بني إسرائيل وذبحوا الذكور ، فماذا فعلت أم موسى ؟ لقد أوحى لها الله ما جاء خبره في القرآن : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ موسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7]

هاتِ أيَّ أمٍّ وقُلْ لها : حين تخافين على وليدك فارميه في البحر ، طبعاً لن تنفذ أي أم هذا الاقتراح .

كان من الممكن أن تحاول أم موسى إخفاء موسى بأي وسيلة .

أما أن تلقيه في البحر مظنّة أن تنجيه من الذبح ، فهذا أمر غير متخيَّل ، ولكن هذا أمر وارد

من الرحمن بالإلهام والوحي ، فلا يأتي الشيطان ؛ ليعارضه أبداً ؛ ولذلك طمأنها الحق سبحانه ؛ لأن الآيات وردت : ﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7]

وكأن هناك تمهيداً يعلّمها الاستعداد للأمر قبل أن يقع ، وحين جاء الأمر : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلى أُمِّكَ مَا يوحى * أَنِ اقذفيه فِي التابوت فاقذفيه فِي اليم . . . ﴾ [طه : 38-39]

والكلام هنا كلام عَجَلَة ؛ لأن هذا وقت التنفيذ ، وطمأنها سبحانه بأن أصدر أوامره للبحر أن يقذفه إلى الشاطئ :

﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل . . . ﴾ [طه : 39]

وأصدر الحق أوامر إلى العدوّ أن يأخذه ؛ ليربيه : ﴿ فَلْيُلْقِهِ اليم بالساحل يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ . . . ﴾ [طه : 39]

إذن : وارد الرحمن لا يأتي له رد أبداً .

وكذلك يستقبل المؤمن ﴿ الم ﴾ بسر الله فيها ، لا بفهم عقله .

(39/356)

وأنا أنصح من يريد أن يقرأ القرآن تعبداً ألا يشغل نفسه بالمعنى ، على خلاف من يقول : " اقرأ لتستنبط " ؛ لأن من يريد أن يستنبط هو الذي يقف عند اللفظ ، ويطلب معناه . فإذا قرأت القرآن للتعبد ؛ فلتقرأه بسر الله فيه ؛ حتى لا تحدد القرآن بمعلوماتك ؛ فتأخذه أخذاً ناقصاً بنقصك البشرى ؛ لذلك في قراءة التعبد نأخذ اللفظ بسر الله في اللفظ ؛ فليس كل قارئ للقرآن متخصصاً في اللغة ؛ ليعرف أصل كل كلمة ، والكثير منا أمي ، يريد التعبد بالقرآن ، إذن – فليأخذ القرآن بسر من لقنه إياها .

وقد فهم العربي القديم عن الحروف التوقيفية في أوائل بعض السور أشياء ، وللغته فيها نظائر ؛ لأنه مثلاً حين يقرأ الشعر ، ويلتفت إلى شاعر يقول :

ألا هُبّي بِصحْنكِ فَاصبِحينا . . . ويقول :

ألا لايَجْهَلَنْ أحدٌ علينا . . . فَنجهَل فوْقَ جَهل الجَاهِلينَا

ما معنى ألا هنا ، ولماذا جاءت ؟ فالمعنى واضح بدونها ، لكن العربي القديم قد نطق هذا البيت ، وعرف أن الكلام وسيلة إفهام وفهم بين المتكلم والسامع . والمتكلم هو مالك الزمام في أن يتكلم ، أو لا يتكلم ، والسامع مفاجأ بالكلام ، فإذا ما ألقيت الكلام إلى السامع ؛ قد يكون في ذهنه مشغولاً ، وإلى أن ينتبه لكلماتك ، قد تفوته جزئية من جزئيات الكلام ؛ فتنبه أنت إلى ما قلت ؛ فيتنبه ؛ ليستوعب كل ما قلت .

إذن : فما المانع أن يكون الحق سبحانه وتعالى يريد أن يهيئ الأذهان ب ﴿ الم ﴾ ؛ حتى

نسمع ، ثم تأتي الآيات الحاملة للمنهج من بعد ذلك ؟

وما المانع في أن نفهم أن النبي الأمي لا يعرف كيف ينطق بأسماء الحروف ، فهو إن نطق فإنما يصدر ذلك بعد تعليم الله له ؟

(40/356)

ولماذا لا نفهم منها أيضاً أن وسائل الفهم لا تنتهي إلى أن تقوم الساعة ؟ وإلا لو انتهت عند البشر ؛ لكان كلام الله قد حددت صفته بفهم البشر ، وسبحانه قد شاء أن نغترف من معاني كلماته الكثير على مدى الأزمان ، والقرآن كلام الله ، وكلام الله صفته ، وصفته لا تتناهى في الكمال ، فإن عرفت كل مدلولاتها ، تكون قد حددت الكمال بعلم ، لكن القرآن لا نهاية له .

ولماذا لا نفهم أن القرآن الذي بيّن الحق سبحانه وتعالى أنه معجزو محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما نبغ فيه قومه ؛ فتحداهم من جنس ما برعوا فيه . ويقول لهم : هاتوا مثيلاً له ، ولن تستطيعوا ، ولو أنه جاء بالقرآن على غير لغتهم في الكلام لقالوا : لا نستطيع ؛ لأن حروف هذه اللغة جديدة علينا .

وقد شاء الحق أن يكون القرآن من نفس الحروف التي يتحدثون بها ، وبالكلمات التي

يعرفونها في لغتهم ، وشاء سبحانه أن يجعل حروف وكلمات وآيات وأساليب القرآن غير قابلة للتقليد ؛ لأن المتكلم مختلف ، وبهذا جاءت عظمة القرآن لا من ناحية المادة الخام التي تبني منها الكلمات وهي الحروف ؛ بل المعاني والنسق الذي جاءت به الحروف ، فالمادة الخام – وهي الحروف – واحدة . وصار القرآن معجزة ؛ لأن المتكلم هو الله .

وضربنا من قبل المثل لنقرب ذلك إلى الأذهان : هب أننا نريد أن نقيس مهارة من ينسجون الأقمشة ، ونضع أمام كل منهم مجموعة من غزل الصوف وغزل القطن ، وغزل الحرير ، وهذه مواد خام يختلف كل منها عن الآخر ، ونقول لهم : كل واحد منكم عليه أن ينسج قطعة من كل صنف لنعرف الأفضل في النسج .

وسنسمع من يقول : إن نتيجة نسج الصوف نسيج خشن ، وناسج القطن سينسج قطعة تأخذ صفات القطن ، وناسج الحرير سينسج لنا نسيجاً ناعماً ، أما إن أعطينا كلاّ منهم نوعاً واحداً من الغزل ؛ صوفاً أو قطناً أو حريراً ، هنا سنعرف من الأقدر على النسج .

(41/356)

إذن : لو أن القرآن جاء بغير حروف العرب ، وبغير كلمات العرب ؛ لقالوا : لو كانت عندنا هذه الحروف وهذه الكلمات ؛ لأتينا بأحسن منها .

لذلك شاء الحق أن يأتي القرآن من جنس الحروف والكلمات . ولذلك تحوم العقول حول مقدمات آيات السور ؛ لتعرف شيئاً من الإيناسات بعد أن تواصلت الثقافات ، ولم تعد اللغة العربية متوافرة مثلما كان الحال أيام نزول القرآن ، ومن كانوا يملكون هذه الملكة الصافية أيام الرسول صلى الله عليه وسلم سمعوا الحروف التي في أوائل بعض السور وقبلوها ، والحق سبحانه يقول : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1]

و﴿ تِلْكَ ﴾ : إشارة ، ولا بد أن نفرق بين الإشارة والخطاب ؛ لأن البعض يخلط بينهما ، فالإشارة هي التي تشير إلى شيء مثل قولنا : هذا وذا ، أو تلك ، وهذا : إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمذكر ، والمثال هو قولنا : هذا القلم جميل ، أما قولنا : تلك الدواة جميلة ، فهذه إشارة لمؤنثة . أما " الكاف " : فهي حرف للخطاب ، فالتاء : إشارة للآيات وهي مؤنثة ، و " الكاف " في ﴿ تِلْكَ ﴾ : للمخاطب ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم . فالله يقول لرسوله : تلك الآيات يا محمد .

وعلى ضوء الفوارق بين الإشارة والخطاب تختلف أساليب القرآن ، مثل قوله الحق : ﴿ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ . . . ﴾ [القصص : 32]

و﴿ فَذَانِكَ ﴾ : إشارة لشيئين اثنين : للعصا .

و﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ . . . ﴾ [النمل : 12]

ويقول الحق أيضاً : ﴿ ذلكما مِمَّا عَلَّمَنِي ربي . . . ﴾ [يوسف : 37]

وهذا ما قاله سيدنا يوسف عليه السلام للسجينين اللذين كانا معه . وتُظهر لنا العبارة أنه كان يخاطب اثنين ، ولكنه يشير إلى التأويل ب " ذا " .

(42/356)

وحين دعت امرأة العزيز النسوة ؛ ليشاهدن جمال سيدنا يوسف ، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً ؛ وقالت : اخرج عليهن ، ولأنه مفرد مذكر ، وهن جماعة إناث ، فالعبارة تأتي بخطاب لجماعة الإناث ، وإشارة إلى المفرد المذكر فقالت : ﴿ فذلكن الذي لُمْتُنَّنِي . . . ﴾ [يوسف : 32]

و " ذا " إشارة إلى سيدنا يوسف ، و " كن " خطاب للنسوة . والقرآن حين يخاطب جماعة يقول : ﴿ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ . . . ﴾ [فصلت : 23]

إذن فهناك فرق بين الإشارة والآيات ، فال " ت " إشارة للآيات ، والآيات مؤنثة ،

والمخاطب الأول بالتكليف هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والآيات – كما عرفنا من قبل – جمع آية ، والآية هي الأمر العجيب ، وكل منا يسمع من يقول : إنها آية في الحسن أو آية في الجمال ، أو آية في الفن ، أو آية في الروعة .

فالآية إذن هي الشيء العجيب ، أو الشيء الذي بلغ من الحسن ومن الجمال درجة هائلة .

وتطلق الآيات إطلاقات متعددة : فهي إما أن تكون المعجزات التي أمدّ الله بها رسله ؛ ليثبت صدقهم . ﴿ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف : 132]

وإما أن تطلق الآيات على الأشياء العجيبة في الكون مثل قوله الحق : ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ . . . ﴾ [يس : 37]

وقوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ . . . ﴾ [الإسراء : 12]

وقوله الحق : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً . . . ﴾ [المؤمنون : 50]

إذن : فالآية إما أن تكون شيئاً في الكون ، وإما أن تطلق على المعجزة التي جاء بها الرسل ؛ لتثبت صدقهم في البلاغ عن الله ، وقد يكون المقصود بها آيات القرآن .

(43/356)

إذن : فالآيات تطلق على ثلاثة أمور : الآيات الكونية للنظر والاعتبار ، وآيات إعجازية لصدق الرسول صلى الله عليه وسلم في البلاغ عن الله ، وآيات قرآنية تحمل الأحكام والتحدي للمشركين أن يأتوا بمثلها .

وهنا في قوله الحق : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ المراد بها : الآيات القرآنية ، وما دام الله هو خالق الآيات الكونية الحسية ، وخالق المعجزات ؛ وهو منزِّل القرآن ؛ فلا تعارض بين الآيات ؛ لأن مصدرها واحد .

وقوله : ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1]

وكلمة ﴿ الحكيم ﴾ معناها : الذي يضع الشيء في موضعه الدقيق بحكمة ، فلا ينظر إلى ظاهر معطيات الشيء الآن ويغفل ما قد يأتي به من مضرّة .

ولله المثل الأعلى أقول : إنك قد تصل إلى الشيء ، وتظن أنه يخلصك من متاعب أخرى ، لكنه قد يؤدي إلى شيء أضر ، وهذا هو السبب في اختلاف ألوان ووظائف العقاقير المختلفة ، ولذلك نجد الطبيب الحاذق يكتب عدداً من الأدوية ؛ ليستخلص المريض منها ما يشفيه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يُجنبه الآثار الجانبية لتلك الأدوية .

إذن : فهذه حكمة ؛ لأن الطبيب لا يكتب الدواء الواحد الذي قد يأتي منه أثر ضار ، بل يكتب معه دواء يخفّف من ضرره ، وهذه حكمة منه لأنه يعمل احتياطات لما قد ينشأ من ضرر أو أثر جانبي .

وفي أوائل الخمسينات ، حاول العلماء أن يقللوا من أثر تهديد الحشرات للزروع ، واخترعوا مادة اسمها " د . د . ت " لمقاومة الحشرات ، وافتخروا بهذا كل الفخر حتى علا كل صوت ، وهذا لأن البشرية وصلت إلى مادة تقضي على الحشرات ، ولكنهم اكتشفوا أن

هذه المادة تضر الكائنات الحية الأخرى ، والآن تُوقع العقوبة على من يستخدم تلك المادة ؛ لأن ذلك عمل قد تم بغير حكمة . قد نأخذ منه ظاهر النفع ، لكن له جوانب متعددة من الضرر ، فقد سمّم الحيوانات وسمّم الزروع .

إذن : فالحكمة تعني : أن تضع الشيء في موضعه ؛ ليعطيك فائدة لا تحدث ضرراً فيما بعد .

(44/356)

وقد أنزل الله المنهج في الكتاب ليقود حياتنا إلى كل صلاح . فإن طبقناه ؛ فلسوف يأتي منه كل نفع ، ولن يأتي لنا أي ضرر ، وضربنا المثل في المعطيات التي أعطاها الحق لنا في الكون ، فسبحانه خلق لنا الحيوانات ؛ لنأخذ من لبنها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من أصوافها ، ونأخذ من جلودها ، ونأكل من لحومها . وهو القائل : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ . . . ﴾ [النحل : 7]

أي : أنها ستعطينا درجة من الراحة ، وإذا كان الإنسان قد اخترع أدوات أخرى تحمل عنا هذه المشقات ، وتبلغنا غاياتنا بدون تعب ؛ فهذه اختراعات تحقق مصلحة البشرية – وقد كانت البشرية تحمل أمتعتها فوق الحمار أو البغل – وقد صنع الإنسان هذه

الاختراعات ؛ فصارت عندنا السيارات الكبيرة التي تحمل أطناناً من المواد والمتاع ، ولكن لم نلتفت إلى ما تحدثه من عوادم تسبب فساد الهواء ، وتلوثه على عكس فضلات الحمار أو البغل ، التي تفيد في خصوبة الأرض .

إذن : فصناعة السيارات إن لم تتخلص من عيوب عوادمها بأسلوب ما ، فهي اختراع بلا حكمة ، ويجب البحث عن وسائل لإزالة أضرار احتراق الوقود ، وبذلك نستفيد من سرعة السيارات ، وقدرتها على حمل البضائع ، ونتخلص مما تسببه من ضرر . وهكذا نعرف أن الحكمة هي : وضع الشيء في موضعه المفيد فائدة دائمة لا يأتي من بعدها ضرر .

ولقائل أن يقول : وما معنى قول الحق : ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ هل الكتاب بمفرده له حكمة ؟ أم أن الحكيم هو من أنزل الكتاب ؟ ونقول : إن معنى ﴿ الكتاب الحكيم ﴾ أنه الكتاب الذي يمتلئ بالحكمة الصادرة من الله ، أو الكتاب الذي أنزله الرب الحكيم . وكلمة " حكيم " على وزن " فعيل " ، ومثلها مثل " كريم " و " رحيم " وتأتي مرة بصيغة فاعل ، ومرة بصيغة فعيل ، وموضعها هو الذي يبين لنا ذلك .

(45/356)

ومعنى كلمة " الحكيم " يتضح لنا من سياقها : فإن نسبت الأمر إلى الحكم فهو كتاب صادر من الحق سبحانه ، وإن أردت الوصف بمعنى فاعل فهو من حاكم ؛ والحاكم هو الذي يحكم في قضايا ؛ ليبين وجه الحق فيها ، والقرآن يحكم في كل قضايا الإيمان .

وقمة العقيدة التي يحكم فيها القرآن هي لا إله إلا الله . ومن يفعل عكس ذلك هو الظالم ، وسبحانه القائل : ﴿ إِنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : 13]

والقرآن يحسم هذه القضايا ، وهو كحاكم فاصل فيها .

فإن قلت : " محكم " تكون قد نسبته لله ، وإن قلت : " حاكم " فهو الفاعل وهو يحكم في قمة العقيدة " لا إله إلا الله " ، وهي شهادة ذات لذات ، وشهادة مشهد من الملائكة ، وشهادة أدلة من الخلق : ﴿ شَهِدَ الله أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ هُوَ والملائكة وَأُوْلُواْ العلم . . . ﴾ [آل عمران : 18]

وساعة يفصل القرآن في هذه القضية ، فهو يحكم حكماً عدلاً يبين وجه الحق في قمة العقائد . وهو حاكم في الأفعال ؛ فيبين الحلال من الحرام ويضع حدّاً فاصلاً في الأحكام بين الحلال والحرام . وحاكم في الأخلاق .

إذن : " حاكم " تعني ما بين وجه الحق فيما تتعارض فيه الآراء والأفكار والمعسكرات المتضاربة .

و " حكيم " : إما أن تكون بمعنى " فاعل " وإما أن تكون بمعنى (مفعول) ووقعت الحكمة

من قائله عليه ، فصار " محكماً " ، وإن كانت كلمة الحكيم بمعنى فاعل تكون بمعنى " حاكم " وكلمة حاكم تدل على أن هناك فريقين : فريق يقول قضية ، وفريق آخر يناقضه ، فيأتي الحاكم ؛ ليفصل بين الأمرين ، وليعدل وينصف .

(46/356)

وقد جاء القرآن هكذا : حاكماً في أمر القمة التي اختلف الخلق فيها ؛ فمنهم من أنكر وجود إله وهم الملاحدة . ومنهم من قال : إن الإله هو غير الله ، ومنهم من قال : الإله شريك لغيره ، فجاء القرآن ؛ ليفصل في هذه المسألة ، وحكم فيها حكماً واضحاً ، وبيّن : يا من تقولون : لا إله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله غير الله ؛ أنتم كذابون ، ويا من تقولون : إن الإله له شركاء مع الله ؛ أنتم كذابون ، بل هو إله واحد ، وهذا أول حكم في قضية القمة .

وما دام الحكم في قضية القمة قد صح ؛ إذن : فالاستقبال للمنهج سيكون واحداً ، فلا آلهة متعددة يضارب هذا ذاك ، أو يناقضه ، بل هو إله واحد ، يصدر عنه حكم واحد يحقق الوحدة في التكاليف للناس جميعاً ، ويُخرج جميع الناس من أهوائهم إلى مراده هو سبحانه ، ويكون القرآن حاكماً أيضاً في الأفعال ، فقد يختلف الناس في تقييمهم لفعل واحد . فهذا

يقول فعل حسن ، وآخر يقول : فعل قبيح ، ويحسم القرآن الأمر ويحدد الفعل الحسن ؛ فيأمر به ؛ ويحدد الفعل القبيح ؛ فينهي عنه ، ويبين القرآن لنا الحلال من الحرام .

إذن : فالقرآن حكم في العقائد وفي الأفعال وفي ذوات الأشياء حلاّ وحُرْمة ، وهو يحكم أيضاً في قضية هامة تلي قضية الحكم في قمة العقيدة ، وهي صدق البلاغ عن الله ، فهذا الرسول الذي يحمل البلاغ عن الله لا بد أن يكون صادقاً ، وقد جاء القرآن بالحكم في هذه القضية بمعنى أنه قد جاء معجزاً ، فإن لم تكونوا قد صدقتم بأن هذا رسول ؛ فأتوا بمثل ما جاء به هذا الرسول .

فإن عجزتم ؛ فالرسول بنفسه يخبركم أن القرآن ليس من عنده ، بل من عند خالقه وخالقكم .

وسواء أكانت " حكيم " بمعنى " فاعل " أم بمعنى " مفعول " فقد دلتنا على أنها تعني وضع الأشياء في نصابها وضعاً يحقق النفع منها دائماً ، ولا ينتج عنها ضاراً أبداً . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(47/356)

لطيفة

قال فى ملاك التأويل :

قوله تعالى : "الر تلك آيات الكتاب الحكيم " وفى سورة لقمان "الم تلك آيات الكتاب الحكيم " وفى مطلع يوسف : "الر تلك آيات الكتاب المبين " فافتتحت تلك السور الثلاث بعد الحروف المقطعة فى مطالعها بالإشارة إلى الكتاب المذكر به والمنبه بآياه فقيل : "تلك آيات الكتاب " ثم وصفه فى السورتين بالحكيم وفى سورة يوسف بالمبين فيسأل عن ذلك ؟

(48/356)

والجواب والله أعلم ان سورتى يونس ولقمان تردد فيهما من الآيات المعتبر بها المطلعة على عظيم حكمته تعالى واتقانه للأشياء ما لم يرد فى سورة يوسف كقوله تعالى : "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام " وخلق السماوات والأرض وما انطوت عليه من أعظم المعتبرات قال تعالى : "لخلق السماوت والأرض أكبر من خلق الناس " وقال تعالى : "إن فى السماوات والأرض لآيات للمؤمنين " وقد تبع الآية المذكورة من سورة يونس ما يجاريها فى التنبيه بما به الاعتبار كقوله تعالى : "هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب " إلى قوله : "لقوم يعلمون " ثم قال تعالى : " إن

فى اختلاف اليل والنهر وما خلق الله فى السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون إن الذين لا يرجون لقاءنا " لم يتخللها ما يخرج عن باب الاعتبار من حكم أو غيره ولا من القصص الا ما تضمن اعتبارا كالوارد من قصة نوح من قومه لقومه : "يا قوم إن كان كبر عليكم مقامى . . . " الآية إلى قوله : "ثم اقضوا إلى ولا تنظرون " ، والمراد من هذا الكلام تعجيزهم وقطعهم عما كانوا يرومون من الكفر به عليه السلام وإرادة إهلاكه وقد قطع عليه السلام بنصرة الله إياه عليهم وقطعهم دون ما يرومونه وإن تألبوا واجتمعوا وذكر عليه السلام شركاءهم وأن يكونوا معهم تهكما بهم وتوبيخا على اعتمادهم على مالا يعقل ولا يضر ولا ينفع وفى هذا كله أعظم معتبرة ثم ذكر تعالى نجاة نوح عليه السلام منهم فى الفلك هو ومن آمن معه وجعلهم خلائف وإغراق أعدائهم من المكذبين ولم يغن

عنهم كيدهم .

ولم يرد هذا الضرب المقتضب من قصة نوح عليه السلام على هذه الصفة فى غير هذه السورة لما قدمنا ذكره ولم يكن ليناسب ما بنيت عيه السورة غير هذا الوارد .

(49/356)

ومن نحو هذا ما ورد فيها من قصة موسى عليه السلام ودعائه فى قوله : "ربنا اطمس على أموالهم "فكان ذلك حسب ما دعاه إلى ذكر إغراق فرعون وملئه وطمعه فى الإيمان حين أدركه الغرق فقال : "آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل " فلم ينفعه ذلك لفوات وقته فاقتصر أيضا على هذا القدر من قصة موسى عليه السلام لما تقدم من مناسبة هذه السورة .

وأما سورة لقمان فورد فيها قوله تعالى : " خلق السماوات والأرض بغير عمد ترونها " إلى قوله : "هذا خلق الله " وبعد ذلك قوله تعالى : " ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات والأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة " وقوله : "إن الله غنده علم الساعة . . . " الآية وفى هذه السورة أيضا ما منح لقمان من الحكمة وما انطوت عليه قصته من حكمة وما صدر عنه فى وصيته ولم تخرج آى هذه السورة عن هذا فهذا وجه وصف الكتاب فى هاتين السورتين بالحكيم .

وأما سورة يوسف عليه السلام فلم تنطو على غير قصته وبسط التعريف بقضيته وبيان ما جرى له مع أبيه من فراقه وامتحانه بإلقائه فى الجب والبيع والتعرض له بالفتنة وتخلصه بسابق اصطفائه مما كيد به وابتلائه بالسجن وجمعه بأخيه واشتمال شملة بأبيه عليهما السلام واخوته ولم تخرج آية من آى هذه السورة عن هذا من بسط هذه القصة فلهذا اتبع الكتاب بالوصف بالمبين .

فقد وضح ورود كل من الموضعين على ما يجب ويناسب والله أعلم .

فإن قيل فما وجه ورود الميم فى سورة لقمان مكان الراء فى قوله تعالى : " الر "فى السورتين فقيل فى مطلع لقمان : "الم" مع موافقتها سورة يونس عليه السلام فيما تمهد ثم خالفتها فى هذه فقيل : "الم" فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك ؟

(50/356)

والجواب عن ذلك – والله أعلم – ان سورة لقمان تضمنت من التنبيه والتحريك والاعتبار إفصاحا وإيماء للمؤمن والكافر ما لم تتضمن سورة يونس على طولها وان كانت آيها كلها آى اعتبار الا انها ليست كالوارد من ذلك فى سورة لقمان فمن التنبيه المتضمن تقريع من عبد غيره سبحانه قوله تعالى بعد ذكر خلق السماوات بغير عمد وارساء الأرض بالجبال وذكر ما بث فيها من الدواب وانزال الماء من السماء وذكر ما أنبت سبحانه به من كل زوج بهيج فقال تعالى : "هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه " ولا نجد مثل هذا حيث تراد المبالغة فى توبيخ من عبد اله غيره .

ويجارى هذا فى هذا القصد الا أنه أرفق فى التعنيف قوله تعالى فى سورة يونس : "قل هل من شراكائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده . . "الآيات إلا أنها ليست كآية لقمان ولا ختمت بمثل

ما ختمت به وقد تكرر هذا فى آيات وآية لقمان من أشدها وعيدا ولعظيم ما انطوت عليها اتبعها تعالى بتأنيس نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قصة لقمان بقوله : "ومن كفر فلا يحزنك كفره " وبإخباره انهم لو سئلوا من خلق السماوات والأرض لم يجدوا مصرفا غير الاعتراف فقال تعالى : "ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله " ليعلم عليه السلام أن ذلك من حالهم جار عليهم بقدر الله وما سبق فى علمه وهو الحكيم فى أفعاله .

(51/356)

ومن التنبيه للمؤمنين ولغيرهم – ممن سبقت له السعادة – قوله مخاطبة لنبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين : "ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السماوات وما فى الأرض وأسبغ عليكم عمه ظاهرة وباطنة " وقوله تعالى : "ألم تر أن الله يولج الليل فى النهار . . . . " الآية وقوله تعالى : "ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر . . . " الآية فورد هذا التنبيه بهمزة التقرير ولم الجازمة وهى الأداة المتكررة فى آى التنبيه فتكررت فى هذه السورة فى ثلاث آيات ولم تقع متكررة فى شئ مما أتى بعدها من السور إلى آخر القرآن ولا فى سورة مما قبلها مما يماثلها فى عدد كلمها ولا فيما هو على الضعف منها الا فى سورة فاطر وهى أطول من سورة لقمان فتناسب ذلك مع ما فى هذه السورة من التنبيه فى مطلعها بوقوع الميم مكان الراء الواردة

فى مطلع سورة يونس .

وأما سورة يونس فمبنية على التعريف بربوبيته تعالى وقصره وقد ابتدأت ثالثة آيها بقوله تعالى : "إن ربكم الله الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام " ثم تكرر فيها اسمه الرب سبحانه فى بضعة عشر موضعا أولها هذا وآخرها قوله تعالى : " قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم " ولم يرد من هذا فى سورة لقمان غير قوله تعالى : "يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده . . . " الآية ثم إنه تكرر فى سورة يونس من الكلم الواقع فيها الراء مائتا وعشرون كلمة أو نحوها وأقرب السور إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطعة من سورة النحل وهى أطول منها والوارد فيها مما تركب على الراء من كلمها مئتا كلمة مع زيادتها فى الطول عليها فلمجموع ما ذكرنا وردت فى الحروف المقطعة الراء مكان الميم الواردة فى لقمان وجاء كل على ما يجب ويناسب والله أعلم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ ملاك التأويل صـ 237 . 240 ﴾

(52/356)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الر ﴾ قال : فواتح السور ، أسماء من أسماء الله .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في الأسماء والصفات وابن النجار في تاريخه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الر ﴾ قال : أنا الله ارى .

وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير في قوله ﴿ الر ﴾ قال : أنا الله أرى .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الضحاك في قوله ﴿ الر ﴾ قال : أنا الله أرى .

وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ الر ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ ن ﴾ قال : اسم مقطع .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ﴿ الر ﴾ و ﴿ حم ﴾ و ﴿ ن ﴾ قال : حروف الرحمن مفرقة .

وأخرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي وفي قوله ﴿ الر ﴾ قال : ألف ولام وراء من الرحمن .

أما قوله : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ .

أخرج ابن أبي حاتم عن أنس بن مالك رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ تلك ﴾ يعني هذه .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله تعالى ﴿ تلك آيات الكتاب ﴾ قال : الكتب التي خلت قبل القرآن . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(53/356)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (1) ﴾

قد تقدَّم الكلامُ على الحروف المقطعة في أوائل هذا الموضوع ، واختلافُ القُرَّاء في إمالة هذه الحروف إذا كان في آخرها ألفٌ وهي : را ، وطا ، وها ، ويا ، وحا . فأمال " را " من جميع سورها إمالةً محضة الكوفيون إلا حفصاً ، وأبو عمرو وابن عامر . وأمال الأخَوَان وأبو بكر " طا " من جميع سُوَرِها نحو : طس ، طسم ، طه ، و " يا " من يس . وافقهم ابنُ عامر والسوسي على " يا " من كهيعص ، بخلاف عن السوسي . وأمال الأخَوان وأبو عمرو وورش وأبو بكر " ها " من طه ، وكذلك أمالها من كهيعص أبو عمرو والكسائي وأبو بكر دون حمزةَ وورش . وأمال أبو عمرو وورش والأخَوَان وأبو بكر وابن ذكوان حا من جميع سورها السبع . إلا أن أبا عمروٍ ووَرْشاً يُميلان بين بين ، [وللقراء في هذا عمل كثير] بيَّنْتُه

في " شرح القصيد " .

و" الحكيم " : يجوز أن يكونَ بمعنى فاعِل ، أي : الحاكم ، وأن يكونَ بمعنى مفعول ، أي : مُحْكَم ، قال الأعشى :

2558 وغريبةٍ تأتي الملوكَ حكيمةً . . . قد قلتُها لِيُقالَ مَنْ ذا قالها . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ الدر المصون حـ 6 صـ 143.144 ﴾

(54/356)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

بسم الله الرحمن الرحيم .

كلمة سماعها شفاء كل عابد ، وضياء كل قاصد ، وعزاء كل فاقد ، وبلاء كل واجد ، وهدو كل خائف ، وسلو كل عارف ، وأمان كل تائب ، وبيان كل طالب .

قلوب العارفين لا تفرح إلا بسماع بسم الله ، وكروب الخائفين لا تبرح إلا عند سماع بسم الله .

قوله جل ذكره : ﴿ الر تِلْكَ ءَايَتُ الكِتَابِ الحَكِيمِ ﴾ .

الألف مفتاح اسم « الله » ، واللام مفتاح اسم « اللطيف » والراء مفتاح اسم « الرحيم » ،

أقسم بهذه الأسماء إن هذا الكتابَ هو الموعودُ لكم يوم الميثاق ، والإشارة فيه أنا حققْنَا لكم الميعاد ، وأَطْلنا لكم عِنان الوداد . . . وانقضى زمانُ الميعاد ، فالعَصَاةُ مُلقَاة ، والأيامُ بالسرور مُتَلْقَاة ، فبادِروا إلى شُرْبِ كاساتِ المحابِّ ، واستقيموا على نَهْجِ الأحباب .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 76 . 77 ﴾

(55/356)

قوله تعالى ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) ﴾

مناسبة الآية لما قبلها

قال البقاعي :

ولما كان كونه من عند الله مع كونه حكيماً – موجباً لقبوله بادىء بدء والسرور به لما تقرر في العقول وجبلت عليه الفطر من أنه تعالى الخالق الرازق كاشف الضر ومدبر الأمر ، كان ذلك موضع أن يقال : ما كان حال من تلي عليهم ؟ فقيل : لم يؤمنوا ، فقيل : ما شبهتهم ؟ هل قدروا على معارضته والطعن في حكمته ؟ فقيل : لا ! بل تعجبوا من إنزاله على محمد - صلى الله عليه وسلم - وليس بأكثرهم مالاً ولا بأقدمهم سناً ، فرجع حاصل تعجبهم إلى ما

قاله تعالى إنكاراً عليهم .

فإنه لو أرسل ذا سن قالوا مثل ذلك ، وهل مثل ذلك محل العجب ! ﴿ أكان ﴾ أي بوجه من الوجوه ﴿ للناس عجباً ﴾ أي الذين فيهم أهلية التحرك إلى المعالي ، والعجب : تغير النفس بما لا يعرف سببه مما خرج عن العادة ؛ ثم ذكر الحامل على العجب وهو اسم "كان" فقال بعد ما حصل لهم شوق إليه : ﴿ أن أوحينا ﴾ أي ألقينا أوامرنا بما لنا من العظمة بواسطة رسلنا في خفاء منهين ﴿ إلى رجل ﴾ أي هو في غاية الرجولية ، وهو مع ذلك ﴿ منهم ﴾ بحيث إنهم يعرفون جميع أمره كما فعلنا بمن قبلهم والملك العظيم المُلك المالك التام الملك لا اعتراض عليه فيما به تظهر خصوصيته من إعلاء من شاء .

(56/356)

ولما كان في الإيحاء معنى القول ، فسره بقوله ﴿ أن أنذر الناس ﴾ أي عامة ، وهم الذين تقدم نداءهم أول البقرة ، ما أمامهم من البعث وغيره إن لم يؤمنوا أصلاً أو إيماناً خالصاً ينفي كل معصية صغيرة أو كبيرة وكل هفوة جليلة أو حقيرة على اختلاف الرتب وتباين المقامات ﴿ وبشر ﴾ أي خص ﴿ الذين آمنوا ﴾ أي أوجدوا هذا الوصف وعملوا تصديقاً لدعواهم له الصالحات ، أي من الأعمال اللسانية وغيرها ، بالبشارة بقبول حسناتهم

وتكفير سيئاتهم والتجاوز عن هفواتهم وترفع درجاتهم كما كان إرسال الرسل قبله وكما هو مقتضى العدل في إثابة الطائع الطائع وعتاب العاصي ، والإنذار : الإعلام بما ينبغي أن يحذر منه ، والتبشير : التعريف بما فيه السرور ، واضاف القدم – الذي هو السابقة بالطاعة – إلى الصدق في قوله تعالى موصلاً لفعل البشارة إلى المبشر به دون حرف جر : ﴿ أن لهم ﴾ أي خاصة ﴿ قدم صدق ﴾ أي أعمالاً حقة ثابته قدموها لأنفسهم صدقوا فيها وأخلصوا فيما يسّروا له لأنهم خلقوا له وكان مما يسعى إليه بالأقدام ، وزاد في البشارة بقوله : ﴿ عند ربهم ﴾ ففي إضافة القدم تنبيه على أنه يجب أن يخلص له الطاعة كإخلاص الصدق من شوائب الكذب ، وفي التعبير بصفة الإحسان إشارة إلى المضاعفة .

(57/356)

ولما ثبت أن الرسول وما أرسل به على وفق العادة ، انتفى أن يكون عجباً من هذه الجهة ، فصار المحل قابلاً لأن يتعجب منهم فيقال : ما قالوا حين أظهروا العجب ؟ ومن أيّ وجه رأوه عجباً ؟ فقيل : ﴿ قال الكافرون ﴾ أي الراسخون في هذا الوصف منهم وتبعهم غيرهم مؤكدين ما يحق لقولهم من الإنكار ﴿ إن هذا ﴾ أي القول وما تضمنه من الإخبار بما لا يعرف من البعث وغيره ﴿ لسحر ﴾ أي محمد لساحر – كما في قراءة ابن كثير وحمزة

والكسائي ﴿ مبين ﴾ أي ظاهر في نفسه ، وهو من شدة ظهوره مظهر لكل شيء أنه كذلك ، فجاؤوا بما هو في غاية البعد عن وصفه ، فإن السحر قد تقرر لكل ذي لب أنه – مع كونه تمويهاً لا حقيقة له – شر محض ليس فيه شيء من الحكمة فضلاً عن أن يمتطي الذروة منه مع أن في ذلك ادعاءهم أمراً متناقضاً ، وهو أنه من قول البشر كما هي العادة في السحر ، وأنهم عاجزون عنه ، لأن السحر فعل تخفى الحيلة فيه حتى يتوهم الإعجاز به ، فقد اعترفوا بالعجز عنه وكذبوا في ادعاء أنه لسحر لأن الآتي به منهم لم يفارقهم قط وما خالط عالماً لا بسحر ولا غيره حتى يخالطهم فيه شبهة ، فهم يعلمون أن قولهم في غاية الفساد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ نظم الدرر حـ 3 صـ 414.413 ﴾

(58/356)

فصل

قال الفخر :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾

في الآية مسائل :

المسألة الأولى :

أن كفار قريش تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً بالرسالة والوحي ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك التعجب .

أما بيان كون الكفار تعجبوا من هذا التخصيص فمن وجوه : الأول : قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلَ الآلهة إلها واحدا إِنَّ هذا لَشَىْء عُجَابٌ وانطلق الملأ مِنْهُمْ أَنِ امشوا وَاْصْبِرُواْ على ءالِهَتِكُمْ إِنَّ هذا لَشَىْء يُرَادُ ﴾ [ص : 5 ، 6] وإذا بلغوا في الجهالة إلى أن تعجبوا من كون الإله تعالى واحداً ، لم يبعد أيضاً أن يتعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً بالوحي والرسالة ! والثاني : أن أهل مكة كانوا يقولون : إن الله تعالى ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب ! والثالث : أنهم قالوا : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وبالجملة فهذا التعجب يحتمل وجهين : أحدهما : أن يتعجبوا من أن يجعل الله بشراً رسولاً ، كما حكى عن الكفار أنهم قالوا : ﴿ أَبَعَثَ الله بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] والثاني : أن لا يتعجبوا من ذلك بل يتعجبوا من تخصيص محمد عليه الصلاة والسلام بالوحي والنبوة مع كونه فقيراً يتيماً ، فهذا بيان أن الكفار تعجبوا من ذلك .

وأما بيان أن الله تعالى أنكر عليهم هذا التعجب فهو قوله في هذه الآية : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ فإن قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ لفظه لفظ الاستفهام ، ومعناه الإنكار ، لأن يكون ذلك عجباً .

وإنما وجب إنكار هذا التعجب لوجوه : الأول : أنه تعالى مالك الخلق وملك لهم والمالك والملك هو الذي له الأمر والنهي والإذن والمنع .

ولا بد من إيصال تلك التكاليف إلى أولئك المكلفين بواسطة بعض العباد .

(59/356)

وإذا كان الأمر كذلك كان إرسال الرسول أمراً غير ممتنع ، بل كان مجوزاً في العقول .

الثاني : أنه تعالى خلق الخلق للاشتغال بالعبودية كما قال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجن والإنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : 56] وقال : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ ﴾ [الإنسان : 2] وقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تزكى وَذَكَرَ اسم رَبِّهِ فصلى ﴾ [الأعلى : 14 ، 15] ثم إنه تعالى أكمل عقولهم ومكنهم من الخير والشر ، ثم علم تعالى أن عباده لا يشتغلون بما كلفوا به ، إلا إذا أرسل إليهم رسولاً ومنبهاً .

فعند هذا يجب وجوب الفضل والكرم والرحمة أن يرسل إليهم ذلك الرسول ، وإذا كان ذلك واجباً فكيف يتعجب منه .

الثالث : أن إرسال الرسل أمر ما أخلى الله تعالى شيئاً من أزمنة وجود المكلفين منه ، كما قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِى إِلَيْهِمْ ﴾ [يوسف : 109] فكيف

يتعجب منه مع أنه قد سبقه النظير ، ويؤكده قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ﴾ [الأعراف : 59] وسائر قصص الأنبياء عليهم السلام .

الرابع : أنه تعالى إنما أرسل إليهم رجلاً عرفوا نسبه وعرفوا كونه أميناً بعيداً عن أنواع التهم والأكاذيب ملازماً للصدق والعفاف .

(60/356)

ثم إنه كان أمياً لم يخالط أهل الأديان ، وما قرأ كتاباً أصلاً ألبتة ، ثم إنه مع ذلك يتلو عليهم أقاصيصهم ويخبرهم عن وقائعهم ، وذلك يدل على كونه / صادقاً مصدقاً من عند الله ، ويزيل التعجب ، وهو من قوله : ﴿ هُوَ الذى بَعَثَ فِى الاميين رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [الجمعة : 2] وقال : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كتاب وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت : 48]

الخامس : أن مثل هذا التعجب كان موجوداً عند بعثة كل رسول ، كما في قوله : ﴿ وإلى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [لأعراف : 65] ﴿ وإلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحا ﴾ [الأعراف : 73] إلى قوله : ﴿ أوعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مّن رَّبّكُمْ على رَجُلٍ مّنْكُمْ ﴾ [الأعراف : 63] السادس : أن هذا التعجب إما أن يكون من إرسال الله تعالى رسولاً من البشر ، أو

سلموا أنه لا تعجب في ذلك ، وإنما تعجبوا من تخصيص الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام بالوحي والرسالة .

أما الأول : فبعيد لأن العقل شاهد بأن مع حصول التكليف لا بد من منبه ورسول يعرفهم تمام ما يحتاجون إليه في أديانهم كالعبادات وغيرها .

وإذا ثبت هذا فنقول : الأولى أن يبعث إليهم من كان من جنسهم ليكون سكونهم إليه أكمل والفهم به أقوى ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ جعلناه مَلَكاً لجعلناه رَجُلاً ﴾ [الأنعام : 9] وقال : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] .

وأما الثاني : فبعيد لأن محمداً عليه الصلاة والسلام كان موصوفاً بصفات الخير والتقوى والأمانة ، وما كانوا يعيبونه إلا بكونه يتيماً فقيراً ، وهذا في غاية البعد ، لأنه تعالى غني عن العالمين فلا ينبغي أن يكون الفقر سبباً لنقصان الحال عنده ، ولا أن يكون الغنى سبباً لكمال الحال عنده .

(61/356)

كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أموالكم وَلاَ أولادكم بالتي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زلفى ﴾ [سبأ : 37]

فثبت أن تعجب الكفار من تخصيص الله تعالى محمداً بالوحي والرسالة كلام فاسد .

المسألة الثانية :

الهمزة في قوله : ﴿ أَكَانَ ﴾ لإنكار التعجب ولأجل التعجيب من هذا التعجب و ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ اسم كان وعجباً خبره ، وقرأ ابن عباس ﴿ عجب ﴾ فجعله اسماً وهو نكرة و ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ خبره وهو معرفة كقوله : يكون مزاجها عسل وماء .

والأجود أن تكون "كان" تامة ، وأن أوحينا ، بدلاً من عجب .

المسألة الثالثة :

أنه تعالى قال : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ ولم يقل أكان عند الناس عجباً ، والفرق أن قوله : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ معناه أنهم جعلوه لأنفسهم أعجوبة يتعجبون منها ونصبوه وعينوه لتوجيه الطيرة والاستهزاء والتعجب إليه ! وليس في قوله : "أكان عند الناس عجباً" هذا المعنى .

المسألة الرابعة :

﴿ أن ﴾ مع الفعل في قولنا : ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ في تقدير المصدر وهو اسم كان وخبره ، هو قوله : ﴿ عَجَبًا ﴾ وإنما تقدم الخبر على المبتدأ ههنا لأنهم يقدمون الأهم ، والمقصود بالإنكار في هذه الآية إنما هو تعجبهم ، وأما ﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾

فمفسرة لأن الإيحاء فيه معنى القول ، ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس .

المسألة الخامسة :

أنه تعالى لما بين أنه أوحى إلى رسوله ، بين بعده تفصيل ما أوحى إليه وهو الإنذار والتبشير .

أما الإنذار فللكفار والفساق ليرتدعوا بسبب ذلك الإنذار عن فعل ما لا ينبغي ، وأما التبشير فلأهل الطاعة لتقوى رغبتهم فيها .

وإنما قدم الإنذار على التبشير لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وإزالة ما لا ينبغي مقدم في الرتبة على فعل ما ينبغي .

المسألة السادسة :

قوله : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ فيه أقوال لأهل اللغة وأقوال المفسرين .

(62/356)

أما أقوال أهل اللغة فقد نقل الواحدي في "البسيط" منها وجوهاً .

قال الليث وأبو الهيثم : القدم السابقة ، والمعنى : أنهم قد سبق لهم عند الله خير .

قال ذو الرمة :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة . . لهم قدم معروفة ومفاخر

وقال أحمد بن يحيى : القدم كل ما قدمت من خير ، وقال ابن الأنباري : القدم كناية عن العمل الذي يتقدم فيه ، ولا يقع فيه تأخير ولا إبطاء .

واعلم أن السبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني ، أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم ، فسمى المسبب باسم السبب ، كما سميت النعمة يداً ، لأنها تعطى باليد .

فإن قيل : فما الفائدة في إضافة القدم إلى الصدق في قوله سبحانه : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ .

قلنا : الفائدة التنبيه على زيادة الفضل وأنه من السوابق العظيمة ، وقال بعضهم : المراد مقام صدق .

وأما المفسرون فلهم أقوال فبعضهم حمل ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ على الأعمال الصالحة ؛ وبعضهم حمله على الثواب ، ومنهم من حمله على شفاعة محمد عليه الصلاة والسلام ، واختار ابن الأنباري هذا الثاني وأنشد :

صل لذي العرش واتخذ قدما . . بنجيك يوم العثار والزلل

المسألة السابعة :

أن الكافرين لما جاءهم رسول منهم فأنذرهم وبشرهم وأتاهم من عند الله تعالى بما هو اللائق بحكمته وفضله قالوا متعجبين ﴿ إِنَّ هذا لساحر مُّبِينٌ ﴾ أي إن هذا الذي يدعي أنه رسول هو ساحر .

والابتداء بقوله : ﴿ قَالَ الكافرون ﴾ على تقدير فلما أنذرهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ، قال القفال : وإضمار هذا ، غير قليل في القرآن .

المسألة الثامنة :

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ إِنَّ هذا لساحر ﴾ والمراد منه محمد صلى الله عليه وسلم ، والباقون ﴿ لسحر ﴾ والمراد به القرآن .

واعلم أن وصف الكفار القرآن بكونه سحراً يدل على عظم محل القرآن عندهم ، وكونه معجزاً .

وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة ، فاحتاجوا إلى هذا الكلام .

(63/356)

واعلم أن إقدامهم على وصف القرآن بكونه سحراً ، يحتمل أن يكونوا ذكروه في معرض الذم ، ويحتمل أنهم ذكروه في معرض المدح ، فلهذا السبب اختلف المفسرون فيه .

فقال بعضهم : أرادوا به أنه كلام مزخرف حسن الظاهر ، ولكنه باطل في الحقيقة ، ولا حاصل له ، وقال أخرون : أرادوا به أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله ، جار مجرى السحر .

واعلم أن هذا الكلام لما كان في غاية الفساد لم يذكر جوابه ، وإنما قلنا إنه في غاية الفساد ، لأنه صلى الله عليه وسلم كان منهم ، ونشأ بينهم وما غاب عنهم ، وما خالط أحداً سواهم ، وما كانت مكة بلدة العلماء والأذكياء ، حتى يقال : إنه تعلم السحر أو تعلم العلوم الكثيرة منهم فقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن .

وإذا كان الأمر كذلك ، كان حمل القرآن على السحر كلاماً في غاية الفساد ، فلهذا السبب ترك جوابه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ مفاتيح الغيب حـ 17 صـ 5 . 8 ﴾

(64/356)

وقال السمرقندى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾

لأن أهل مكة كانوا يتعجبون ويقولون ﴿ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ فنزل : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ ؛ يقول : أعجب أهل مكة أن أختار عبداً من عبيّدي وأرسله إلى عبادي من جنسهم وحسبهم ، حتى يقدروا أن ينظروا إليه يعرفونه ولا ينكرونه ؟ ثم بيَّن ما أوحى الله تعالى إليه فقال : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ ، يعني : خوف أهل مكة بما في القرآن من الوعيد ؛ ويقال : في الآية تقديم ، ومعناه تلك آيات الكتاب الحكيم

للناس ، أكان عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ؟ وقال غلبة المفسرين على ظاهر التنزيل .

ثم قال : ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ ﴾ ، أي بما في القرآن من الثواب في الجنة .

﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ ، قال مقاتل : يعني : بأن أعمالهم التي قدموها بين أيديهم سلف خير عند ربهم وهي الجنة ، وقال ابن عباس : يعني : الصحابة عند ربهم وهي الجنة .

وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال : يعني : شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، لهم شفيع صدق عند ربهم ؛ وقال الحسن : هي رضوان الله في الجنة ؛ وقال القتبي : يعني : عَمَلاً صالحاً قدموه .

﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لساحر مُّبِينٌ ﴾ ؛ قرأ نافع وأبو عمرو وابن عامر ﴿ لساحر ﴾ بغير ألف ، يعني : إن هذا القرآن لسحر مبين ، كذب ظاهر ، قرأ الباقون : ﴿ لساحر مُّبِينٌ ﴾ .

(65/356)

فإن قيل : إنما قال الكفار هذا القول ، فما الحكمة في حكاية كلامهم في القرآن ؟ قيل : الحكمة فيه من وجوه أحدها أنهم كانوا يقولون قولاً فيما بينهم ، فيظهر قولهم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان في ذلك علامة لنبوته لمن أيقن به ؛ والثاني : أن في ذلك تعزية للنبي صلى الله عليه وسلم ليصبر على ذلك ، كما قال : ﴿ فاصبر على مَا يَقُولُونَ ﴾ ، والثالث : أن في ذلك تنبيهاً لمن بعده أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولا يمتنع بما يسمع من المكروه . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ بحر العلوم حـ 2 صـ ﴾

(66/356)

وقال الثعلبى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾ الآية

قال ابن عباس : لما بعث الله محمداً رسولاً أنكرت الكفار وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد فأنزل الله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ أهل مكة والألف للتوبيخ ﴿ عَجَباً ﴾ ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾ أن في محل الرفع وأوحينا صلة له تقديره أكان للناس عجباً لإيحائنا ﴿ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ محمد ، وفي حرف عبد الله : عجيبٌ ، بالرفع على اسم كان ، وأن في محل نصب على خبره ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ أن على محل نصب بقصد

الخافض وكذلك الثانية .

﴿ وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

قال ابن عباس : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم . قال الضحاك : ثواب صدق .

مجاهد : الأعمال الصالحة ، علي بن أبي طلحة عن ابن عباس : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول . سلف صدق ، زيد بن أسلم : محمد صلى الله عليه وسلم شفيع لهم . يمان : إيمانهم ، عطاء : مقام صدق لا زوال فيه ولا بؤس ، نعيم مقيم وخلود وخلود لا موت فيه ، الحسن : عمل صالح أسلفوه (فأثابهم) عليه ، الأعمش : سابقة صدق . أبو حاتم : منزل صدق نظيره ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] عبد العزيز بن يحيى : قدم صدق . قوله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى ﴾ [الأنبياء : 101] . الزجاج : منزلة رفيعة ، وقيل : هو بعثهم وتقديم الله تعالى هذه الأمة في البعث يوم القيامة ، بيانه قوله صلى الله عليه وسلم نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، وقيل : عِدَة الله تعالى لهم ، والقدم : القدم كالنقص والقبض وأُضيف القدم إلى الصدق وهو [علة] كما قيل : مسجد الجامع ، وحقّ اليقين .

قال ابن الأعرابي : القدم المتقدم في الشرف .

قال العجاج :

زل بنو العوام عن آل الحكم . . . وتركوا الملك لملك ذي قدم

أي متقدم .

(67/356)

قال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم . يقال : لفلان قدم في الإسلام ، وله عندي قدم صدق ، وقدم سوء ، وهو مؤنث يقال : قدم حسنة وقدم صالحة . قال حسان بن ثابت :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا . . . لأوّلنا في طاعة الله تابع

قال ذو الرمّة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . . مع الحسب العاديّ طمت على البحر

وقال آخر :

قعدت بهم قدم الفجار وذكرت . . . أنسابهم من فضة من مالق

أي ما يقدّم لهم من الفجّار .

﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ قال المفسرون : القرآن ، وقرأ أهل الكوفة :

لساحر يعني محمد (صلى الله عليه وسلم) . انتهى انتهى . اهـ ﴿الكشف والبيان حـ 5 صـ ﴾

(68/356)

وقال الماوردى :

قوله عز وجل : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾

قال ابن عباس : سبب نزولها أن الله تعالى لما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكر العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فنزلت هذه الآية .

وهذا لفظه لفظ الاستفهام ومعناه الإنكار والتعجب مَن كفر من كفر بالنبي صلى الله عليه وسلم لأنه جاءهم رسول منهم ، وقد أرسل الله إلى سائر الأمم رسلاً منهم .

ثم قال : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَآمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ فيه خمسة تأويلات :

أحدها : أن لهم ثواباً حسناً بما قدموا من صالح الأعمال ، قاله ابن عباس .

الثاني : سابق صدق عند ربهم أي سبقت لهم السعادة في الذكر الأول ، قاله ابن أبي طلحة عن ابن عباس أيضاً .

الثالث : أن لهم شفيع صدق يعني محمداً صلى الله عليه وسلم يشفع لهم ، قاله مقاتل بن حيان .

الرابع : أن لهم سلف صدق تقدموهم بالإيمان ، قاله مجاهد وقتادة .

والخامس : أن لهم السابقة بإخلاص الطاعة ، قال حسان بن ثابت :

لنا القدم العُلْيَا إليكَ خَلْفَنَا . . . لأَوَّلنا في طَاعَةِ اللَّهِ تابعُ

ويحتمل سادساً : أن قدم الصدق أن يوافق الطاعة صدق الجزاء ، ويكون القدم عبارة عن التقدم ، والصدق عبارة عن الحق . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ النكت والعيون حـ 2 صـ ﴾

(69/356)

وقال ابن عطية :

قوله : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الآية

قال ابن عباس وابن جريج وغيرهما نسبت هذه الآية أن قريشاً استبعدوا أن يبعث الله رسولاً من البشر ، وقال الزجاج : إنما عجبوا من إخباره أنهم يبعثون من القبور إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك ، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم : أما وجد الله من يبعث إلا يتيم أبي طالب ، ونحو هذا من الأقاويل التي اختصرتها لشهرتها فنزلت الآية ، وقوله :

﴿ أكان ﴾ تقرير والمراد ب " الناس " قائلو هذه المقالة ، و﴿ عجباً ﴾ خبر كان واسمها ﴿ أن أوحينا ﴾ ، وفي مصحف ابن مسعود " أكان للناس عجب " وجعل الخبر في قوله ﴿ أن أوحينا ﴾ والأول أصوب لأن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصح ولا يجيء إلا شاذاً ومنه قول حسان : [الوافر]

يكون مزاجها عسلٌ وماء . . . ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط بل معناه أوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب ؟ وقرأت فرقة " إلى رجل " بسكون الجيم ، ثم فسر الوحي وقسمه عل النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، و" القدم " هنا ما قدم ، واختلف في المراد بها ها هنا فقال ابن عباس ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس وابن زيد : هي الأعمال الصالحة من العبادات ، وقال الحسن بن أبي الحسن وقتادة : هي شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال زيد بن أسلم وغيره : هي المصيبة بمحمد صلى الله عليه وسلم في موته ، وقال ابن عباس أيضاً وغيره : هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ ، وهذا أليق الأقوال بالآية ، ومن هذه اللفظة قول حسان : [الطويل]

لنا القدم العليا إليك وخلْفَنا . . . لأوّلنا في طاعةِ اللهِ تابعُ

وقول ذي الرمة : [الطويل]

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . . مع الحسب العادي طمت على البحر

ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم : " حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول قط قط " ، أي ما قدم لها من خلقه ، هذا على أن الجبار اسم الله تعالى ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم ، ف " القدم " على التأويل الجارحة والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح ، كما تقول رجل صدق ورجل سوء ، وقوله ﴿ قال الكافرون ﴾ يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله أكان وحينا إلى بشر عجباً قال الكافرون عنه كذا وكذا ، وذهب الطبري إلى أن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه تقديره فلما أنذر وبشر قال الكافرون كذا وكذا ، وقرأ جمهور الناس وهي قراءة نافع وأبي عمرو وابن عامر " إن هذا لسحر مبين " ، وقرأ مسروق بن الأجدع وابن جبير والباقون من السبعة وابن مسعود وأبو رزين ومجاهد وابن وثاب وطلحة والأعمش وعيسى بن عمر بخلاف ، وابن محيصن وابن كثير بخلاف عنه " إنه لساحر " والمعنى متقارب ، وفي مصحف أبي " قال الكافرون ما هذا إلا سحر مبين " ، وقولهم في الإنذار والبشارة سحر إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه ذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ المحرر الوجيز حـ 3 صـ ﴾

(71/356)

وقال ابن الجوزى :

قوله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾

سبب نزولها : أن الله تعالى لما بعث محمداً صلى الله عليه وسلم أنكرت الكفار ذلك ، وقالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد ، فنزلت هذه الآية .

والمراد بالناس هاهنا : أهل مكة ، والمراد بالرجُل : محمد صلى الله عليه وسلم .

ومعنى ﴿ منهم ﴾ : يعرفون نسبه ، قاله ابن عباس ، فأما الأِلف فهي للتوبيخ والإِنكار .

قال ابن الأنباري : والاحتجاج عليهم في كونهم عجبوا من إِرسال محمد ، محذوف هاهنا ، وهو مبيَّن في قوله : ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم ﴾ [الزخرف 32] ، أي : فكما وضح لكم هذا التفاضل بالمشاهدة ، فلا تنكروا تفضيل الله مَنْ شاء بالنبوة ؛ وإنما حذفه هاهنا اعتماداً على ما بيَّنه في موضع آخر .

قال : وقيل : إِنما عجبوا من ذكر البعث والنشور ، لأن الإِنذار والتبشير يتصلان بهما ، فكان جوابهم في مواضع كثيرة تدل على كون ذلك ، مثل قوله : ﴿ وهو أهون عليه ﴾ [الروم : 27] ، وقوله : ﴿ يحييها الذي أنشأها أول مرة ﴾ [يس : 79] .

وفي المراد بقوله : ﴿ قَدَم صدق ﴾ سبعة أقوال :

أحدها : أنه الثواب الحسن بما قدَّموا من أعمالهم ، رواه العوفي عن ابن عباس ، وروى عنه

أبو صالح قال : عمل صالح يَقْدمون عليه .

والثاني : أنه ما سبق لهم من السعادة في الذِّكر الأول ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس .

قال أبو عبيدة : سابقة صدق .

والثالث : شفيع صدق ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم يشفع لهم يوم القيامة ، قاله الحسن .

والرابع : سَلَفُ صدق تقدّموهم بالإِيمان ، قاله مجاهد ، وقتادة .

والخامس : مقام صدق لا زوال عنه ، قاله عطاء .

والسادس : أن قدم الصِّدق : المنزلة الرفيعة ، قاله الزجاج .

والسابع : أن القدم ها هنا : مصيبة المسلمين بنبيِّهم صلى الله عليه وسلم وما يلحقهم من ثواب الله عند أسفهم على فقده ومحبتهم لمشاهدته ، ذكره ابن الأنباري .

(72/356)

فإن قيل : لِم آثر القَدَم ها هنا على اليد ، والعرب تستعمل اليد في موضع الإِحسان ؟

فالجواب : أن القدم ذكرت ها هنا للتقدم ، لأن العادة جارية بتقدُّم الساعي على قدميه ، والعرب تجعلها كناية عن العمل الذي يُتقدَّم فيه ولا يقع فيه تأخُّر ، قال ذو الرمة :

لكم قَدَمٌ لا يُنْكِرُ النَّاسُ أَنَّها . . .

مع الحَسَبِ العادِيِّ طَمَّتْ على البحر

فإن قيل : ما وجه إضافة القدم إلى الصدق ؟

فالجواب : أن ذلك مدح للقدم ، وكل شيء أضفته إلى الصدق ، فقد مدحته ؛ ومثله : ﴿ أدخلني مُدْخَل صدق وأخرجْني مخرج صدق ﴾ [الاسراء : 80] ، وقوله : ﴿ في مقعد صدق ﴾ [القمر : 55] .

وفي الكلام محذوف ، تقديره : أوحينا إلى رجل منهم ، فلما أتاهم الوحي ﴿ قال الكافرون إن هذا لسحر مبين ﴾ قرأ ابن كثير ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائي : "لَساحر" بألف .

وقرأ نافع ، وأبو عمرو ، وابن عامر : "لَسحر" بغير ألف .

قال أبو علي : قد تقدم قوله : ﴿ أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ فمن قال : ساحر ، أراد الرجل ؛ ومن قال : سحر ، أراد الذي أُوحي ، سحر ، أي : الذي تقولون أنتم فيه : إنه وحي ، سحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ زاد المسير حـ 4 صـ ﴾

(73/356)

وقال القرطبى :

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾

استفهام معناه التقرير والتوبيخ .

و"عَجَباً" خبر كان ، واسمها ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾ وهو في موضع رفع ؛ أي كان إيحاؤنا عجباً للناس .

وفي قراءة عبد الله "عجب" على أنه اسم كان .

والخبر "أَنْ أَوْحَيْنَا" .

﴿ إلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ قرىء "رَجْل" بإسكان الجيم .

وسبب النزول فيما رُوي عن ابن عباس أن الكفار قالوا لما بُعث محمد : إن الله أعظمُ من أن يكون رسوله بشراً .

وقالوا : ما وجد الله من يرسله إلا يتيمَ أبي طالب ؛ فنزلت : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ ﴾ يعني أهل مكة "عَجَباً" .

وقيل : إنما تعجبوا من ذكر البعث .

قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا ﴾ في موضع نصب بإسقاط الخافض ؛ أي بأن أنذر الناس ، وكذا ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ .

وقد تقدّم معنى النّذارة والبشارة وغير ذلك من ألفاظ الآية .

واختلف في معنى "قَدَمَ صِدْقٍ" فقال ابن عباس : قدم صدق منزلَ صدق ؛ دليله قوله تعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ [الإسراء : 80] .

وعنه أيضاً : أجراً حسناً بما قدّموا من أعمالهم .

وعنه أيضاً "قَدَمَ صِدْقٍ" سَبْقَ السعادة في الذكر الأوّل ، وقاله مجاهد .

الزجاج : درجة عالية .

قال ذو الرُّمّة :

لكم قدمٌ لا ينكر الناس أنها . . .

مع الحسب العالي طَمّت على البحر

قتادة : سلف صدق .

الربيع : ثواب صدق .

عطاء : مقام صدق .

يَمَانٍ : إيمان صدق .

وقيل : دعوة الملائكة .

وقيل : ولدٌ صالح قدّموه .

الماورديّ : أن يوافق صدق الطاعة صدق الجزاء .

وقال الحسن وقتادة أيضاً : هو محمد صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه شفيع مطاع يتقدّمهم ؛

كما قال : " أنا فَرَطُكم على الحوض " وقد سئل صلى الله عليه وسلم فقال : " هي شفاعتي توسّلون بي إلى ربكم " وقال الترمذيّ الحكيم : قدّمه صلى الله عليه وسلم في المقام المحمود .

(74/356)

وعن الحسن أيضاً : مصيبتهم في النبيّ صلى الله عليه وسلم .

وقال عبد العزيز بن يحيى : "قَدَمَ صِدْقٍ" قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الذين سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الحسنى أولئك عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴾ .

وقال مقاتل : أعمالاً قدّموها ؛ واختاره الطبريّ .

قال الوضّاح :

صلِّ لذي العرش واتخذ قَدَماً . . .

تُنْجيك يوم العِثار والزّلل

وقيل : هو تقديم الله هذه الأُمة في الحشر من القبر وفي إدخال الجنة .

كما قال : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة المقضيّ لهم قبل الخلائق " وحقيقته أنه كناية عن السعي في العمل الصالح ؛ فكنّى عنه بالقَدَم كما يُكنَى عن الإنعام باليد وعن الثناء

باللسان .

وأنشد حسان :

لنا القَدم العليا إليك وخَلْفُنا . . .

لأوّلنا في طاعة الله تابع

يريد السابقة بإخلاص الطاعة ، والله أعلم .

وقال أبو عبيدة والكسائي : كل سابق من خير أو شر فهو عند العرب قَدَم ؛ يقال : لفلان قَدَم في الإسلام ، له عندي قَدَم صدقٍ وقَدَم شر وقَدَم خير .

وهو مؤنث وقد يذكر ؛ يقال : قَدَم حَسَن وقدم صالحة .

وقال ابن الأعرابي : القدم التقدّم في الشرف ؛ قال العَجّاج :

زلّ بنو العَوّام عن آل الحَكَمْ . . .

وتركوا المُلْك لملْك ذي قَدَم

وفي الصحاح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لي خمسة أسماء .

أنا محمد وأحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي يُحشر الناسُ على قدمي وأنا العاقب " يريد آخر الأنبياء ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَخَاتَمَ النبيين ﴾ [الأحزاب : 40] .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ قرأ ابن مُحَيْصِن وابن كثير

والكوفيون عاصم وحمزة والكسائي وخلف والأعمش "لساحِر" نعتاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقرأ الباقون "لِسَحْرٌ" نعتاً للقرآن وقد تقدّم معنى السحر في "البقرة" . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ تفسير القرطبى حـ 8 صـ ﴾

(75/356)

وقال الخازن :

قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾

قال ابن عباس : سبب نزول هذه الآية أن الله لما بعث محمداً (صلى الله عليه وسلم) رسولاً أنكرت العرب ذلك ومن أنكر منهم قال : الله أعظم من أن يكون له رسول بشر مثل محمد فقال الله سبحانه وتعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ وقال سبحانه وتعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً ﴾ الآية والهمزة في أكان همزة استفهام ومعناه الإنكار والتوبيخ والمعنى لا يكون ذلك عجباً ﴿ أن أوحينا إلى رجل منهم ﴾ والعجب حالة تعتري الإنسان من رؤية شيء على خلاف العادة .

وقيل : العجب حالة تعتري الإنسان عند الجهل بسبب الشيء ولهذا قال بعض الحكماء :

العجب ما لا يعرف سببه والمراد بالناس هنا أهل مكة وبالرجل محمد (صلى الله عليه وسلم) منهم يعني من أهل مكة من قريش يعرفون نسبه وصدقه وأمانته ﴿ أن أنذر الناس ﴾ يعني خوفهم بعقاب الله تعالى إن أصروا على الكفر والمخالفة والإنذار إخبار مع تخويف كما أن البشارة إخبار مع سرور وهو قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ اختلفت عبارات المفسرين وأهل اللغة في معنى قدم صدق .

فقال ابن عباس : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالم .

وقال الضحاك : ثواب صدق .

وقال مجاهد : الأعمال الصالحة صلاتهم وصومهم وصدقتهم وتسبيحهم .

وقال الحسن : عمل صالح أسلفوه يقدمون عليه .

وفي رواية أخرى عن ابن عباس أنه قال : سبقت لهم السعادة في الذكر الأول يعني في اللوح المحفوظ .

وقال زيد بن اسلم : هو شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو قول قتادة .

وقيل : لهم منزلة رفيعة عند ربهم وأضيف القدم إلى الصدق وهو نعته كقوله مسجد الجامع وصلاة الأولى وحب الحصيد والفائدة في هذه الإضافة التنبيه على زيادة الفضل

ومدح القدم لأن كل شيء أضيف إلى الصدق فهو ممدوح ومثله في مقعد صدق ، وقال أبو عبيدة : كل سابق في خير أو شر فهو عند العرب قدم .

(76/356)

يقال : لفلان قدم في الإسلام وقدم في الخير ولفلان عندي قدم صدق وقدم سوء .

قال حسان بن ثابت :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا . . .

لأولنا في طاعة الله تابع

وقال الليث وأبو الهيثم القدم السابق والمعنى أنه قد سبق لهم عند الله خير قال ذو الرمة :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة . . .

لهم قدم معروفة ومفاخر

والسبب في إطلاق لفظ القدم على هذه المعاني أن السعي والسبق لا يحصل إلا بالقدم فسمى المسبب باسم السبب كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد .

وقال ذو الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . .

مع الحسب العادي طمت على البحر

معناه لكم سابقة عظيمة لا ينكرها الناس وقال آخر .

صل لذي العرش واتخذ قدماً . . .

تنجيك يوم العثار والزلل

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ وقرئ : لساحر مبين

وفيه حذف تقديره أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم فلما جاءهم بالوحي

وأنذرهم قال الكافرون : إن هذا لساحر ، يعنون محمداً (صلى الله عليه وسلم) ، وإنما

نسبوه إلى السحر لما أتاهم بالمعجزات الباهرات التي لا يقدر أحد من البشر أن يحصل مثلها

، ومن قرأ السحر فإنهم عنوا به القرآن المنزل عليه وإنما نسبوه إلى السحر لأن فيه الإخبار

بالبعث والنشور وكانوا ينكرون ذلك . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الخازن حـ 3 صـ ﴾

(77/356)

وقال أبو حيان :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾

الهمزة في أكان للاستفهام على سبيل الإنكار لوقوع العجب من الإيحاء إلى بشر منهم

بالإنذار والتبشير ، أي : لا عجب في ذلك فهي عادة الله في الأمم السالفة ، أوحى إلى رسلهم الكتب بالتبشير والإنذار على أيدي من اصطفاه منهم .

واسم كان أن أوحينا ، وعجباً الخبر ، وللناس فقيل : هو في موضع الحال من عجباً لأنه لو تأخر لكان صفة ، فلما تقدَّم كان حالاً .

وقيل : يتعلق بقوله : عجباً وليس مصدراً ، بل هو بمعنى معجب .

والمصدر إذا كان بمعنى المفعول جاز تقدم معموله عليه كاسم المفعول .

وقيل : هو تبيين أي أعنى للناس .

وقيل : يتعلق بكان وإن كانت ناقصة ، وهذا لا يتم إلا إذا قدرت دالة على الحدث فإنها إنْ تمحضت للدلالة على الزمان لم يصح تعلق بها .

وقرأ عبد الله : عجب ، فقيل : عجب اسم كان ، وأنْ أوحينا هو الخبر ، فيكون نظير : يكون مزاجها عسل وماء ، وهذا محمول على الشذوذ ، وهذا تخريج الزمخشري وابن عطية .

وقيل : كان تامة ، وعجب فاعل بها ، والمعنى : أحدث للناس عجب لأن أوحينا ، وهذا التوجيه حسن .

ومعنى للناس عجباً : أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علماً لم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم .

وقرأ رؤبة : إلى رجل بسكون الجيم وهي لغة تميمية يسكنون فعلاً نحو سبع وعضد في سبع وعضد .

ولما كان الإنذار عاماً كان متعلقه وهو الناس عامًّا ، والبشارة خاصة ، فكان متعلقها خاصاً وهو الذين آمنوا .

وأن أنذر : أن تفسيرية أو مصدرية مخففة من الثقيلة ، وأصله أنه أنذر الناس على معنى أن الشأن قولنا أنذر الناس ، قالهما الزمخشري : ويجوز أنْ تكون أنْ المصدرية الثنائية الوضع ، لا المخففة من الثقيلة لأنّها توصل بالماضي والمضارع والأمر ، فوصلت هنا بالأمر ، وينسبك منها معه مصدر تقديره : بإنذار الناس .

وهذا الوجه أولى من التفسيرية ، لأنّ الكوفيين لا يثبتون لأنّ أن تكون تفسيرية .

(78/356)

ومن المصدرية المخففة من الثقيلة لتقدير حذف اسمها وإضمار خبرها ، وهو القول فيجتمع فيها حذف الاسم والخبر ، ولأنّ التأصيل خير من دعوى الحذف بالتحفيف .

وبشر الذين آمنوا أن لهم أي : بأن لهم ، وحذفت الباء .

وقدم صدق قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وابن زيد : هي

الأعمال الصالحة من العبادات .

وقال الحسن وقتادة : هي شفاعة محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال زيد بن أسلم وغيره : هي المصيبة بمحمد (صلى الله عليه وسلم) .

وقال ابن عباس وغيره : هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ .

وقال مقاتل : سابقة خير عند الله قدموها .

وإلى هذا المعنى أشار وضاح اليمن في قوله :

مالك وضاح دائم الغزل . . .

ألست تخشى تقارب الأجل

صل لذي العرش واتخذ قدماً . . .

ينجيك يوم العثار والزلل

وقال قتادة أيضاً : سلف صدق .

وقال عطاء : مقام صدق .

وقال يمان : إيمان صدق .

وقال الحسن أيضاً : ولد صالح قدموه .

وقيل : تقديم الله في البعث لهذه الأمة وفي إدخالهم الجنة ، كما قال : "نحن الآخرون السابقون يوم القيامة" وقيل : تقدم شرف ، ومنه قول العجاج :

ذل بني العوام من آل الحكم . . .

وتركوا الملك لملك ذي قدم

وقال الزجاج : درجة عالية وعنه منزلة رفيعة .

ومنه قول ذي الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . .

مع الحسب العادي طمت على البحر

وقال الزمخشري : قدم صدق عند ربهم سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ، ولما كان السعي والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدماً ، كما سميت النعمة يداً ، لأنها تعطى باليد وباعاً لأن صاحبها يبوع بها فقيل لفلان : قدم في الخير ، وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل وأنه من السوابق العظيمة .

وقال ابن عطية : والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح ، كما تقول : رجل صدق .

وعن الأوزاعي : قدم بكسر القاف تسمية بالمصدر قال : الكافرون .

(79/356)

ذهب الطبري إلى أنّ في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه تقديره : فلما أنذر وبشر قال الكافرون كذا وكذا .

قال ابن عطية : قال الكافرون : يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله : أكان للناس وحينا إلى بشر عجباً قال الكافرون عنه كذا وكذا .

وقرأ الجمهور والعربيان ونافع : لسحر إشارة إلى الوحي ، وباقي السبعة ، وابن مسعود ، وأبو رزين ، ومسروق ، وابن جبير ، ومجاهد ، وابن وثاب ، وطلحة ، والأعمش ، وابن محيصن ، وابن كثير ، وعيسى بن عمرو بخلاف عنهما لساحر إشارة إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وفي مصحف أبي ما هذا إلا سحر .

وقرأ الأعمش أيضاً : ما هذا إلا ساحر .

قال ابن عطية : وقولهم في الإنذار والبشارة سحر إنما هو بسبب أنه فرق كلمتهم ، وحال بين القريب وقريبه ، فأشبه ذلك ما يفعله الساحر ، وظنوه من ذلك الباب .

وقال الزمخشري : وهذا دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً .

ولما كان قولهم فيما لا يمكن أن يكون سحراً ظاهر الفساد ، لم يحتج قولهم إلى جواب ، لأنهم يعلمون نشأته معهم بمكة وخلطتهم له وما كانت قلة علم ، ثم أتى به من الوحي المتضمن ما لم يتضمنه كتاب إلهي من قصص الأولين والأخبار بالغيوب والاشتمال على مصالح الدنيا والآخرة ، مع الفصاحة والبراعة التي أعجزتهم إلى غير ذلك من المعاني التي تضمنها يقضي

بفساد مقالتهم ، وقولهم ذلك هو ديدن الكفرة مع أنبيائهم إذ أتوهم بالمعجزات كما قال : فرعون وقومه في موسى عليه السلام : ﴿ إن هذا لساحر عليم ﴾ ﴿ قالوا ساحران تظاهران ﴾ وقوم عيسى عليه السلام : ﴿ إن هذا إلا سحر مبين ﴾ ودعوى السحر إنما هي على سبيل العناد والجحد . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ البحر المحيط حـ 5 صـ ﴾

(80/356)

وقال أبو السعود :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾

الهمزةُ لإنكار تعجّبهم ولتعجب السامعين منه لكونه في غير محلّه ، والمرادُ بالناس كفارُ مكةَ ، وإنما عبّر عنهم باسم الجنسِ من غير تعرُّضٍ لكفرهم مع أنه المدارُ لتعجبهم كما تُعُرّض له في قوله عز وجل : ﴿ قَالَ الكافرون ﴾ الخ لتحقيق ما فيه الشركةُ بينهم وبين رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وتعيينِ مدارِ التعجبِ في زعمهم ثم تبيينِ خطئِهم وإظهارِ بطلانِ زعمِهم بإيراد الإنكارِ والتعجيب ، واللامُ متعلقةٌ بمحذوف وقع حالاً من عجباً وقيل : بعجباً على التوسع المشهورِ في الظروف ، وقيل : المصدرُ إذا كان بمعنى اسم الفاعلِ أو اسمِ المفعول جاز تقديمُ معمولِه عليه ، وقيل : متعلقةٌ بكان وهو مبنيٌّ على دلالة كان

الناقصةِ على الحدث ﴿ أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ اسمُ كان قُدِّم عليه خبرُها اهتماماً بشأنه لكونه مدارَ الإنكارِ والتعجيبِ وتشويقاً إلى المؤخَّر ولأن في الاسم ضربَ تفصيلٍ ففي مراعاة الأصلِ نوعُ إخلالٍ يتجاوب أطرافِ الكلام ، وقرىء برفع عجب على أنه الاسمُ وهو نكرةٌ والخبرُ أن أوحينا وهو معرفةٌ لأن أن مع الفعل في تأويل المصدرِ المضافِ إلى المعرفة ألبتةَ والمختارُ حينئذ أن تجعل كان تامةٌ وأن أوحينا متعلقاً بعجبٌ على حذف حرف التعليل أي أحدث للناس عجبٌ لأن أوحينا أو من أن أوحينا ، أو بدلاً من عجبٌ لكن لا على توجيه الإنكارِ والتعجيب إلى حدوثه بل إلى كونه عجباً ، فإن كونَ الإبدال في حكم تنحيةِ المبدَلِ منه ليس معناه إهدارَه بالمرة وإنما قيل : للناس لا عند الناس للدِلالة على أنهم اتخذوه أعجوبةً لهم ، وفيه من زيادة تقبيحِ حالِهم ما لا يخفى ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي إلى بشر من جنسهم كقولهم : أبعث الله بشراً رسولاً أو من حيث المال لا من عظمائهم كقولهم : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مِّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ وكلا الوجهين من ظهور البطلانِ بحيث لا مزيد عليه . أما الأولُ فلأن بعثَ الملَكِ إنما يكون

عند كون المبعوثِ إليهم ملائكةً كما قال سبحانه : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ وأما عامة البشر فهم بمعزل من استحقاق المفاوضةِ الملكية كيف لا وهي منوطةٌ بالتناسب والتجانس ، فبعثُ الملَكِ إليهم مزاحِمٌ للحكمة التي عليها يدور فلكُ التكوين والتشريع وإنما الذي تقتضيه الحكمةُ أن يُبعث الملكُ من بينهم إلى الخواصّ المختصين بالنفوس الزكية المؤيَّدين بالقوة القدسيةِ المتعلّقين بكلا العالَمين الروحانيِّ والجُسماني ليتلقَّوْا من جانب ويُلْقوا إلى جانب . وأما الثاني فلما أن مناطَ الاصطفاء للنبوة والرسالةِ هو التقدُم في الاتصاف بما ذكر من النعوت الجميلةِ والصفاتِ الجليلة والسبْقِ في إحراز الفضائلِ العلية وحيازةِ الملَكات السنية جبِلّةً واكتساباً ، ولا ريب لأحد منهم في أنه عليه الصلاة والسلام في ذلك الشأنِ في غاية الغاياتِ القاصيةِ ونهايةِ النهاياتِ النائيةِ ، وأما التقدمُ في الرياسات الدنيويةِ والسبْقِ في نيل الحظوظِ الدنية فلا دخلَ له في ذلك قطعاً بل له إخلالٌ به غالباً قال عليه الصلاة والسلام :

" لو كانت الدنيا تزنُ عند الله جَناحَ بعوضةٍ ما سقى الكافرَ منها شربةَ ماء "

(82/356)

﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ أن مصدريةٌ لجواز كونِ صلتِها أمراً كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ ﴾ وذلك لأن الخبرَ والإنشاءَ في الدلالة على المصدر سيانِ فساغ وقوعُ الأمرِ والنهي صلةً حسبَ وقوعِ الفعل فلا يجرد عند ذلك عن معنى الأمرِ والنهي نحوَ تجرُّدِ الصلةِ الفعليةِ عن معنى المضيِّ والاستقبالِ ، ووجوبُ كونِ الصلةِ في الموصول الاسميِّ خبريةً إنما هو للتوصل بها إلى وصف المعارفِ بالجمل لا لقصور في دلالة الإنشاءِ على المصدر ، أو مفسرةٌ إذ الإيحاءُ فيه معنى القولِ وقد جوز كونُها مخفّفة من المثقّلة على حذف ضميرِ الشأنِ والقولِ من الخبر والمعنى أن الشأنَ قولُنا : أنذر الناسَ ، والمرادُ به جميعُ الناسِ كافةً لا ما أريد بالأول وهو النكتةُ في إيثار الإظهارِ على الإضمار ، وكونُ الثاني عينَ الأولِ عند إعادة المعرفةِ ليس على الإطلاق ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ ﴾ بما أوحيناه وصدّقوه ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ أي سابقةً ومنزلةً رفيعة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وإنما عبر عنها بها إذ بها يحصُل السبْقُ والوصولُ إلى المنازل الرفيعةِ كما يعبر عن النعمة باليد لأنها تعطى بها ، وقيل : مقامَ صدقٍ ، والوجهُ أن الوصولَ إلى المقام إنما يحصُل بالقدم وإضافتُها إلى الصدق للدلالة على تحققها وثباتِها ، وللتنبيه على أن مدارَ نيلِ ما نالوه من المراتب العليةِ هو صدقُهم فإن التصديقَ لا ينفك عن الصدق ﴿ قَالَ الكافرون ﴾ هم المتعجبون ، وإيرادُهم ها هنا بعنوان الكفر مما لا حاجة إلى ذكر سببِه ، وتركُ العاطفِ لجريانه مَجرى البيانِ للجملة التي دخلت عليها همزةُ الإنكار أو لكونه استئنافاً مبنياً على السؤال ، كأنه

قيل : ماذا صنعوا بعد التعجبِ هل بقُوا على التردد والاستبعادِ أو قطعوا فيه بشيء ؟

فقيل : قال : الكافرون على طريقة التأكيدِ : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ يعنون به ما أوحيَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(83/356)

من القرآن الحكيم المنطوي على الإنذار والتبشير ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهرٌ وقرىء لساحْر على أن الإشارةَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقرىء ما هذا إلا سحرٌ مبينٌ ، وهذا اعترافٌ من حيث لا يشعرون بأن ما عاينوه خارجٌ عن طَوْق البشر نازلٌ من جناب خلاق القُوى والقدَر ولكنهم سمَّوه بما قالوا تمادياً في العناد كما هو ديدنُ المكابرِ اللَّجوجِ ودأبُ المُفحَمِ المحجوج . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير أبي السعود حـ 4 صـ ﴾

(84/356)

وقال الآلوسى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾

الهمزة لإنكار تعجبهم ولتعجيب السامعين منه لوقوعه في غير محله ، والمراد بالناس كفار العرب ، والتعبير عنهم باسم الجنس من غير تعرض لكفرهم الذي هو المدار لتعجبهم كما تعرض له فيما بعد لتحقيق ما فيه من الشركة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم وتعيين مدار التعجيب في زعمهم ثم تبيين خطئهم وإظهار بطلان زعمهم بإيراد الإنكار ، واللام متعلقة بمحذوف وقع حالاً من ﴿ عجباً ﴾ كما هو القاعدة في نعت النكرة إذا تقدم عليها ، وقيل : متعلقة بعجباً بناء على التوسع المشهور في الظروف ، وبعضهم جعلها متعلقة به لا على طريق المفعولية كما قي قوله :

عجبت لسعي الدهر بيني وبينها . . .

بل على طريق التبيين كما في ﴿ هيت لك ﴾ [يوسف : 23] وسقياً لك ومثل ذلك يجوز تقديمه على المصدر ، وأنت تعلم أن هذا قول بالتعلق بمقدر في التحقيق ، وقيل : إنها متعلقة به لأنه بمعنى المعجب والمصدر إذا كان بمعنى مفعول أو فاعل يجوز تقديم معمولة عليه ، وجوز أيضاً تعلقه بكان وإن كانت ناقصة بناء على جوازه ، و ﴿ عجباً ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ قدم على اسمها وهو قوله سبحانه : أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ لكونه مصب الإنكار والتعجيب وتشويقاً إلى المؤخر ولأن في الاسم ضرب تفصيل ففي تقديمه رعاية للأصل نوع إخلال بتجاوب أطراف النظم الكريم .

وقرأ ابن مسعود ﴿ عجب ﴾ بالرفع على أنه اسم كان وهو نكرة والخبر ﴿ عَجَبًا أَنْ

أَوْحَيْنَا ﴾ وهو معرفة لأن أن مع الفعل في تأويل المصدر المضاف إلى المعرفة فهو كقول حسان :

كأن سبيئة من بيت رأس . . .

يكون مزاجها عسل وماء

(85/356)

وحمله بعضهم على القلب ، وفي قبوله مطلقاً أو إذا تضمن لطيفة خلاف والمعول عليه اشتراط التضمن وهو غير ظاهر هنا ، وحكى عن ابن جني أنه قال : إنما جاز ذلك في البيت من حيث كان عسل وماء جنسين فكأنه قال : يكون مزاجها العسل والماء ، ونكرة الجنس تفيد مفاد معرفته ، ألا ترى أنك تقول : خرجت فإذا أسد بالباب أي فإذا الأسد بالباب لا فرق بينهما لأنك في الموضعين لا تريد أسداً معيناً ، ولهذا لم يجز هذا في قولك : كان قائم أخاك وكان جالس أباك لأنه ليس في جالس وقائم معنى الجنسية التي تتلاقى معنى نكرتها ومعرفتها .

ومعنى الآية على هذا كان الوحي للناس هذا الجنس من الفعل وهو التعجب ، ولا يخفى أن المصدر المتحصل هو المصدر المضاف إلى المعرفة كما سمعت فاعتباره محلى بأل الجنسية

خلاف الظاهر .

وأجاز بعضهم الإخبار عن المعرفة بالنكرة في باب النواسخ خاصة سواء كان هناك نفي أو ما في حكمه أم لا .

وابن جني يجوز ذلك إذا كان نفي أو ما في حكمه ولا يجوز إذا لم يكن ، وفي الآية قد تقدم الاستفهام الإنكاري على الناسخ وهو في حكم النفي .

واختار غير واحد كون كان تامة .

(86/356)

و﴿ عجب ﴾ فاعل لها و﴿ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا ﴾ بتقدير حرف جر متعلق بعجب أي لأن أوحينا أو من أن أوحينا أو هو بدل منه بدل كل من كل أو بدل اشتمال ، والإنكار متوجه إلى كونه عجباً لا إلى حدوثه وكون الإبدال في حكم تنحية المبدل منه ليس معناه إهداره بالمرة كما تقرر في موضعه ، واقتصر في اللوامح على أن ﴿ لِلنَّاسِ ﴾ خبر كان ، وتعقب بأنه ركيك معنى لأنه يفيد إنكار صدوره من الناس لا مطلقاً وفيه ركاكة ظاهرة فافهم ، وإنما قيل : للناس لا عند الناس للدلالة على أنهم اتخذوه أعجوبة لهم وفيه من زيادة تقبيح حالهم ما لا يخفى ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ أي إلى بشر من جنسهم كقوله تعالى حكاية

: ﴿ أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 94] وقوله سبحانه : ﴿ لَوْ شَاء رَبُّنَا لأَنزَلَ ملائكة ﴾ [فصلت : 14] أو إلى رجل من أفناء رجالهم من حيث المال لا من حيث النسب لأنه صلى الله عليه وسلم كان من مشاهيرهم فيه وكان منه بمكان لا يدفع فهو كقولهم : ﴿ لَوْلاَ نُزِّلَ هذا القرءان على رَجُلٍ مّنَ القريتين عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : 31] وفي بعض الآثار أنهم كانوا يقولون : العجب أن الله تعالى لم يجد رسولاً يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب والعجب من فرط جهلهم أما في قولهم الأول فحيث لم يعلموا أن بعث الملك إنما يكون عند كون المبعوث إليهم ملائكة كما قال تعالى : ﴿ قُل لَوْ كَانَ فِى الأرض ملائكة يَمْشُونَ مُطْمَئِنّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مّنَ السماء مَلَكًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : 95] وأما عامة البشر فبمعزل عن استحقاق مفاوضة الملائكة لأنها منوطة بالتناسب فبعث الملك إليهم مزاحم للحكمة التي عليها يدور فلك التكوين والتشريع وإنما الذي تقتضيه الحكمة بعث الملك من بينهم إلى الخواص المختصين بالنفوس الزكية المؤيدين بالقوة القدسية المتعلقين بكلا العالمين الروحاني والجسماني ليتأتى لهم الاستفاضة والإفاضة وهذا تابع للاستعداد

(87/356)

الأزلي كما لا يخفى ، وأما في قولهم الثاني فلان مناط الاصطفاء للإيحاء إلى شخص هو التقدم في الاتصاف بما علمت والسبق في إحراز الفضائل وحيازة الملكات السنية جبلة واكتساباً ، ولا ريب لأحد في أن للنبي صلى الله عليه وسلم القدح المعلى من ذلك بل له عليه الصلاة والسلام فيه غاية الغايات القاصية ونهاية النهايات النائية يقول رائيه :

وأحسن منك لم تر قط عيني . . .

ومثلك قط لم تلد النساء

خلقت مبرأ من كل عيب . . .

كأنك قد خلقت كما تشاء

وكذا يقول :

ولو صورت نفسك لم تزدها . . .

على ما فيك من كرم الطباع

وأما التقدم في الرياسة الدنيوية والسبق في نيل الحظوظ الدنية فلا دخل له في ذلك قطعاً بل له إخلال به غالباً ، وما أحسن قول الشافعي رضي الله تعالى عنه من أبيات :

لكن من رزق الحجا حرم الغنى . . .

ضدان مفترقان أي تفرق

وما ذكروه من اليتم أن رجع إلى ما في الآية على التوجيه الثاني فبطلانه بطلانه وإن أرادوا أن أصل اليتم مانع من الإيحاء إليه صلى الله عليه وسلم فهو أظهر بطلاناً وأوضح هذياناً وما ألطف ما قيل إن أنفس الدر يتيمه ، وقيل للحسن : لم جعل الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم يتيماً ؟ فقال : لئلا يكون لمخلوق عليه منة فإن الله سبحانه هو الذي آواه وأدبه ورباه صلى الله عليه وسلم هذا والوجه الثاني من الوجهين السابقين في قوله سبحانه : ﴿ إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ على الوجه الذي ذكرناه هو الذي أراده صاحب الكشاف ولم يرتضه الجلال السيوطي وزعم أن التحامي عنه أولى ، ثم قال : والذي عندي في تفسير ذلك أن المراد إلى مشهور بينهم يعرفون نسبه وجلالته وأمانته وعفته كما قال سبحانه : في آخر السورة التي قبل ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة : 128] فإن هذا هو محل إنكار العجب ويكون هذا وجه مناسبة وضع هذه السورة بعد تلك واعتلاق أول هذه بآخر تلك ، ونظيره ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ [النحل : 113] ﴿ رَبَّنَا وابعث فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة : 129] إلى آخر ما قال ، وتعقب بأنه غير ظاهر لأنه وإن كان أعظم مما ذكر لكن السياق يقتضي بيان كفرهم وتذليلهم وتحقير من أعزه الله تعالى وعظمه والذي يقتضيه سبب النزول تعين الوجه الأول هنا .

فقد أخرج ابن جرير .

وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : لما بعث الله تعالى محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكرت العرب ذلك أو من أنكر منهم فقالوا : الله تعالى أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد عليه الصلاة والسلام فأنزل سبحانه ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ ﴾ الآية ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً ﴾ [النحل : 43] الآية .

(89/356)

فلما كرر الله سبحانه عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد صلى الله عليه وسلم كان أحق بالرسالة فلولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم فأنزل الله تعالى رداً عليهم ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [الزخرف : 32] الآية ومنه يعلم أن ما حكى في الوجه الثاني سبب لنزول آية أخرى ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس ﴾ أي أخبرهم بما فيه تخويف لهم مما يترتب على فعل ما لا ينبغي ، والمراد به جميع الناس الذين يمكنه عليه الصلاة والسلام تبليغهم ذلك لا ما أريد بالناس أولاً وهو النكتة في إيثار الإظهار على الإضمار ، وكون الثاني عين الأول عند إعادة المعرفة ليس على الإطلاق ، و ﴿ إن ﴾ هي المفسرة لمفعول الإيحاء المقدر وقد تقدم عليها ما فيه معنى القول دون حروفه وهو الإيحاء أو هي المخففة

من المثقلة على أن اسمها ضمير الشأن ، والجملة الأمرية خبرها وفي وقوعها خبر ضمير الشأن دون تأويل وتقدير قول اختلاف ، فذهب صاحب الكشف إلى أنه لا يحتاج إلى ذلك لأن المقصود منها التفسير وخالفه غير واحد في ذلك وذهبوا إلى أنه لا فرق بين خبره وخبر غيره .

وقال بعضهم : هي المصدرية الخفيفة في الوضع بناءً على أنها توصل بالأمر والنهي والكثير على المنع ، وذكر أبو حيان هذا الاحتمال هنا مع أنه نقل عنه في "المغني" أن مذهبه المنع لما أنه يفوت معنى الأمر إذا سبك بالمصدر .

واعترض بأنه يفوت معنى المضي والحالية والاستقبال المقصود أيضاً مع الاتفاق على جواز وصلها بما يدل على ذلك ، وأجيب بأنه قد يقال : بأن بينهما فرقاً فإن المصدر يدل على الزمان التزاماً فقد تنصب عليه قرينة فلا يفوت معناه بالكلية بخلاف الأمر والنهي فإنه لا دلالة للمصدر عليهما أصلاً .

(90/356)

وقال بعض المدققين : إن المصدر كما يجوز أخذه من جوهر الكلمة يجوز أخذه من الهيئة وما يتبعها فيقدر في هذا ونحوه أوحينا إليه الأمر بالإنذار كما قدر في أن لا تزني خير عدم

الزنا خير ، ولا يخفى أن هذا البحث يجري في أن المخففة من الثقيلة لأنها مصدرية أيضاً وأن أقل الاحتمالات مؤنة احتمال التفسير ﴿ وَبَشِّرِ الذين ءامَنُواْ ﴾ بما أوحيناه إليك وصدقوه ﴿ أَنَّ لَهُمْ ﴾ أي بأن لهم ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ أي سابقة ومنزلة رفيعة ﴿ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ وأصل القدم العضو المخصوص ، وأطلقت على السبق مجازاً مرسلاً لكونها سببه وآلته وأريد من السبق الفضل والشرف والتقدم المعنوي إلى المنازل الرفيعة مجازاً أيضاً فالمجاز هنا بمرتبتين ، وقيل : المراد تقدمهم على غيرهم في دخول الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم : " نحن الآخرون السابقون يوم القيامة " وقوله صلى الله عليه وسلم : " إن الجنة محرمة على الأنبياء حتى أدخلها أنا وعلى الأمم حتى تدخلها أمتي " وقيل : تقدمهم في البعث وأصل الصدق ما يكون في الأقوال ويستعمل كما قال الراغب في الأفعال فيقال : صدق في القتال إذا وفاه حقه وكذا في ضده يقال : كذب فيه فيعبر به عن كل فعل فاضل ظاهراً وباطناً ويضاف إليه كمقعد صدق ومدخل صدق ومخرج صدق إلى غير ذلك ، وصرحوا هنا بأن الإضافة من إضافة الموصوف إلى صفته ، والأصل قدم صدق أي محققة مقررة ، وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ثم جعل الصدق كأنه صاحبها ، ويحتمل أن تكون الإضافة من إضافة المسبب إلى السبب وفي ذلك تنبيه على أن ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صدق القول والنية .

وقال بعضهم : إن هذا التنبيه قد يحصل على الاعتبار الأول لأن الصدق قد تجوز به عن

توفية الأمور الفاضلة حقها للزوم الصدق لها حتى كأنها لا توجد بدونه ويكفي مثله في ذلك التنبيه وهذا كما قالوا : أن أبا لهب يشير إلى أنه جهنمي وفيه خفاء كما لا يخفى .

(91/356)

ويجوز إلى يراد بالقدم المقام بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وعن الأزهري أن القدم الشيء الذي تقدمه قدامك ليكون عدة لك حين تقدم عليه ويشعر بأنه اسم مفعول وبه صرح بعضهم وقال إنه كالنقض ، وقيل : إنه اسم للحسنى من العبد كما أن اليد اسم للحسنى من السيد وفعلوا ذلك للفرق بين العبد والسيد وهو من الغرابة بمكان ، ولا يكاد يصح في قول ذي الرمة :

لكم قدم لا ينكر الناس أنها . . .

مع الحسب العادي طمت على البحر

وقوله :

وأنت امرؤ من أهل بيت ذؤابة . . .

لهم قدم معروفة في المفاخر

والسبق هو الأسبق إلى الذهن في ذلك وكذا في قول حسان :

لنا القدم العليا إليك وخلفنا . . .

لأولنا في طاعة الله تابع

وقول الآخر :

صل لذي العرض واتخذ قدما . . .

تنجيك يوم العثار والزلل

محتمل لسائر المعاني وهل يطلق على سابقة السوء أولاً الظاهر الأول وقد نص على ذلك أبو عبيدة .

والكسائي .

وقال صاحب الانتصاف لم يسموا سابقة السوء قدماً إما لكون المجاز لا يطرد وإما لأنه غلب في العرف على سابقة الخير وفيه نظر ، وتفسير ابن عباس رضي الله تعالى عنهما له بالأجر وابن مسعود بالعمل لا يخرج عما ذكرنا من معانيه ، وكذا تفسير علي كرم الله تعالى وجهه .

وأبي سعيد الخدري .

والحسن .

(92/356)

وزيد بن أسلم له برأس الموجودات محمد صلى الله عليه وسلم يرجع إلى تفسيره بالخير والسعادة كما قاله جمع ، وكونه صلى الله عليه وسلم خيراً وسعادة للمؤمنين ما لا يمتري فيه مؤمن ، أو يقال : إن المراد شفاعته صلى الله عليه وسلم والأمر في ذلك حينئذٍ في غاية الظهور وخص التبشير بالمؤمنين لأنه لا يتعلق بالكفار وتبشيرهم أن آمنوا راجع إلى تبشير المؤمنين وهذا بخلاف الإنذار فإنه يتعلق بالمؤمن والكافر ولذلك ذكره سبحانه ولم يذكر جل وعلا المنذر به للتعميم والتهويل ، وذكر المبشر به على الوجه الذي ذكره لتقوى رغبة المؤمنين فيما يؤديهم إليه ، وقدم الإنذار على التبشير لأن التخلية مقدمة على التحلية وإزالة ما لا ينبغي مقدمة في الرتبة على فعل ما ينبغي .

﴿ قَالَ الكافرون ﴾ هم المتعجبون وإيرادهم بهذا العنوان على بابه ، وترك العاطف لجريانه مجرى البيان للجملة التي دخل عليها همزة الإنكار أو لكونه استئنافاً مبنياً على السؤال كأنه قيل : ماذا صنعوا بعد التعجب هل بقوا على التردد والاستبعاد أو قطعوا فيه بشيء ؟ فقيل : قال الكافرون على طريقة التأكيد ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم من الكتاب المنطوي على الإنذار والتبشير ، وزعم الخازن أن في الكلام حذفاً أي أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر وبشر فلما جاءهم بالوحي وأنذرهم قال الكافرون إن هذا ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر .

وقرأ ابن كثير.

والكوفيون ﴿ لساحر ﴾ على أن الإشارة إلى رجل وعنوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي قراءة أبي ﴿ مَا هذا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ وأرادوا بالسحر الحاصل بالمصدر ، وفي هذا اعتراف بأن ما عاينوه خارج عن طوق البشر نازل من حضرة خلاق القوى والقدر ولكنهم يسمونه بما قالوا تمادياً في العناد كما هو شنشنة المكابر اللجوج ونشنشة المفحم المحجوج. انتهى انتهى . ا هـ ﴿ روح المعانى حـ 11 صـ ﴾

(93/356)

وقال القاسمى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ الهمزة لإنكار التعجب والتعجيب منه ، وإنما أنكر ذلك لكون سنة الله جارية أبداً على هذا الأسلوب في الإيحاء إلى الرجال ، وإنما كان تعجبهم لبعدهم عن مقامه ، وعدم مناسبة حالهم لحاله ، ومنافاة ما جاء به لما اعتقدوه ، و (القدم) بمعنى السبق مجازاً ، لكونه سببه وآلته ، كما تطلق (اليد) على النعمة ، و (العين) على الجاسوس ، و (الرأس) على الرئيس . ثم إن السبق مجاز عن الفضل والتقدم المعنوي إلى

المنازل الرفيعة ، فهو مجاز بمرتبتين أو (القدم) بمعنى المقام كـ : ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ [القمر : من الآية 55] ، بإطلاق الحال وإرادة المحل ، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى الصفة . وأصله (قدمٌ صدقٌ) أي : محققة مقررة ، وفيه مبالغة لجعلها عين الصدق ، وتنبيه على أنهم إنما نالوا ما نالوا بصدقهم ، ظاهراً وباطناً .

قال في " الانتصاف " : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها (قدماً) إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ، ولكن غلب العرف على قصرها ، كما يغلب في الحقيقة .

(94/356)

﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وهم المتعجبون : ﴿ إِنَّ هَذَا ﴾ أي : الكتاب الحكيم : ﴿ لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي : ظاهر . وقرئ (لَسَاحِرٌ) على أن الإشارة إلى الرسول صلوات الله عليه . وهو دليل عجزهم واعترافهم ، وإن كانوا كاذبين في تسميته سحراً ، وذلك لأن التعجب أولاً ، ثم التكلم بما هو معلوم الانتفاء قطعاً ، حتى عند نفس المعارض ، دأب العاجز المفحَم . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ محاسن التأويل حـ 9 صـ 7 ﴾

(95/356)

وقال صاحب المنار فى الآيتين :

- سُورَةُ يُونُسَ

(السُّورَةُ الْعَاشِرَةُ فِي الْمُصْحَفِ وَآيَاتُهَا 109 عِنْدَ الْجُمْهُورِ وَعِنْدَ الشَّامِيِّ 110)

(96/356)

هِيَ مَكِّيَّةٌ نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (بَنِي إِسْرَائِيلَ) وَقِيلَ سُورَةِ هُودٍ . وَمَا رَوَاهُ ابْنُ مَرْدَوَيْهِ مِنْ طَرِيقِ عُثْمَانَ بْنِ عَطَاءٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ كَوْنِهَا مَدَنِيَّةً غَلَطٌ مُخَالِفٌ لِلرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ عَنْهُ وَعَنْ غَيْرِهِ بَلْ لِلْإِجْمَاعِ الَّذِي يُؤَيِّدُهُ مَوْضُوعُ السُّورَةِ مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى آخِرِهَا فَهُوَ يَدُورُ عَلَى إِثْبَاتِ أُصُولِ التَّوْحِيدِ وَهَدْمِ الشِّرْكِ وَإِثْبَاتِ الرِّسَالَةِ وَالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَدَفْعِ الشُّبُهَاتِ عَنْهَا وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الدِّينِ الْأَصْلِيَّةِ الَّتِي هِيَ مَوْضُوعُ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَطَاءٍ ضَعِيفٌ مَتْرُوكٌ لَا يُحْتَجُّ بِرِوَايَتِهِ فِيمَا يَحْتَمِلُ الصَّوَابَ فَكَيْفَ يُنْظَرُ إِلَيْهَا فِي مِثْلِ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، وَلَكِنَّ الرُّوَاةَ لَمْ يَتْرُكُوا مُتَرَدَّمًا ، وَقَالَ السُّيُوطِيُّ فِي الْإِتْقَانِ : اسْتُثْنِيَ مِنْهَا : (فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ) الْآيَتَيْنِ (94 و95) - وَقَوْلُهُ (وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ) (10 - 40) الْآيَةَ قِيلَ : نَزَلَتْ فِي الْيَهُودِ ، وَقِيلَ : مِنْ أَوَّلِهَا إِلَى رَأْسِ أَرْبَعِينَ مَكِّيٌّ وَالْبَاقِي مَدَنِيٌّ :

حَكَاهُ ابْنُ الْفَرَسِ وَالسَّخَاوِيُّ فِي جَمَالِ الْقُرَّاءِ انْتَهَى . وَأَقُولُ : إنَّ مَوْضُوعَ السُّورَةِ لَا يَقْبَلُ هَذَا مِنْ جِهَةِ الدِّرَايَةِ ، وَهُوَ مِمَّا لَمْ تَثْبُتْ بِهِ رِوَايَةٌ . وَكَوْنُ الْمُرَادِ : بِـ (الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ) فِي الْآيَةِ (94) الْيَهُودَ لَا يَقْتَضِي أَنْ تَكُونَ نَزَلَتْ فِي الْمَدِينَةِ . وَبَيَانُهُ مِنْ وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) أَنَّ الْمُرَادَ بِالشَّرْطِيَّةِ فِيهَا

(97/356)

الْفَرْضُ لَا وُقُوعُ الشَّكِّ حَقِيقَةً ; وَلِذَلِكَ قَالَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لَا أَشُكُّ وَلَا أَسْأَلُ) وَهُوَ مُرْسَلٌ يُؤَيِّدُهُ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَسَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ كَمَا سَيَأْتِي فِي تَفْسِيرِهَا (وَثَانِيهِمَا) أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى نَزَلَ فِي سُوَرٍ مَكِّيَّةٍ أُخْرَى كَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ (فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ)

(17 : 101) وَقَوْلِهِ فِي سُورَتَيِ النَّحْلِ الْآيَةِ (43) وَالْأَنْبِيَاءِ الْآيَةِ (7) (فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) .

وَوَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا أَنَّ تِلْكَ خُتِمَتْ بِذِكْرِ رِسَالَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهَذِهِ افْتُتِحَتْ بِهَا ، وَأَنَّ جُلَّ تِلْكَ فِي بَيَانِ أَحْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَمِنْهُ مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ ، وَمَا كَانُوا

يَفْعَلُونَهُ عِنْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ كَالْآيَاتِ (124 - 127) وَهَذِهِ فِي أَحْوَالِ الْكُفَّارِ ، وَمِنْهَا مَا كَانُوا يَقُولُونَهُ فِي الْقُرْآنِ كَالْآيَاتِ (15 و16 و17 و37 - 40) .

(98/356)

وَاعْلَمْ أَنَّ التَّنَاسُبَ الَّذِي يُوجَدُ بَيْنَ السُّورِ لَيْسَ سَبَبًا فِي هَذَا التَّرْتِيبِ الَّذِي بَيْنَهَا ، فَرُبَّ سُورَتَيْنِ بَيْنَهُمَا أَقْوَى التَّنَاسُبِ فِي مَوْضُوعِ الْآيَاتِ وَمَسَائِلِهَا يُفْصَلُ بَيْنَهُمَا تَارَةً وَيُجْمَعُ بَيْنَهُمَا أُخْرَى ، فَمِنَ الْأَوَّلِ الْفَصْلُ بَيْنَ سُورَتَيِ الْهُمَزَةِ وَاللَّهَبِ وَمَوْضُوعُهُمَا وَاحِدٌ ، وَالْفَصْلُ بَيْنَ السُّوَرِ الْمَبْدُوءَةِ بِلَا تَسْبِيحٍ بِسُورَةِ الْمُنَافِقِينَ . وَيُقَابِلُهَا مِنَ الْوَجْهِ الثَّانِي الْوَصْلُ بَيْنَ سُوَرِ الطَّوَاسِينِ وَسُوَرِ آلَ حَامِيمَ ، وَبَيْنَ سُورَتَيِ الْمُرْسَلَاتِ وَالنَّبَأِ وَسُورَتَيِ التَّكْوِيرِ وَالِانْفِطَارِ ، وَرُبَّمَا يُقَالُ إِنَّ التَّنَاسُبَ بَيْنَ أَكْثَرِ السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ أَقْوَى مِنْهُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السُّوَرِ الْمَدَنِيَّةِ . وَمِنْ حِكْمَةِ الْفَصْلِ بَيْنَ الْقَوِيَّةِ التَّنَاسُبُ فِي الْمَعَانِي كَالْمَكِّيَّةِ الَّتِي مَوْضُوعُ أَكْثَرِهَا الْعَقَائِدُ وَالْأُصُولُ الْعَامَّةُ وَالزَّوَاجِرُ الصَّادِعَةُ ، وَالْمَدَنِيَّةِ الَّتِي مَوْضُوعُ أَكْثَرِهَا الْأَحْكَامُ الْعَمَلِيَّةُ - أَنَّهُ أَدْنَى إِلَى تَنْشِيطِ تَالِي الْقُرْآنِ بِالتَّرْتِيبِ وَأَنْأَى بِهِ عَنِ الْمَلَلِ ، وَأَدْعَى لَهُ إِلَى التَّدَبُّرِ ، فَهَذِهِ الْحِكْمَةُ تُشْبِهُ حِكْمَةَ تَفْرِيقِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ الْوَاحِدَةِ مِنْ عَقَائِدَ وَقَوَاعِدَ

وَأَحْكَامٍ عَمَلِيَّةٍ ، وَحِكَمٍ أَدَبِيَّةٍ ، وَتَرْغِيبٍ وَتَرْهِيبٍ ، وَبِشَارَاتٍ وَنُذُرٍ ، وَأَمْثَالٍ وَقَصَصٍ ، وَالْعُمْدَةُ فِي كُلِّ ذَلِكَ التَّوْقِيفُ وَالِاتِّبَاعُ .

(99/356)

وَهَأَنَذَا أَشْرَعُ فِي تَفْسِيرِ السُّورَةِ مُلْتَزِمًا فِيهَا الْقَصْدَ وَالِاخْتِصَارَ فِي كُلِّ مَا سَبَقَ لَهُ بَيَانٌ مُفَصَّلٌ فِي تَفْسِيرِ السُّوَرِ السَّابِقَةِ وَلَا سِيَّمَا السُّورَتَيْنِ الْمَكِّيَّتَيْنِ مِنَ السُّوَرِ الطُّوَلِ - الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ - وَإِنَّمَا أَبْسُطُ الْقَوْلَ فِيمَا لَمْ أَبْسُطْهُ فِيهِ تَمَامَ الْبَسْطِ مِنْ قَبْلُ ، وَأَهَمُّهُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ مَسْأَلَةُ الْوَحْيِ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ) .

(الر) تُقْرَأُ هَذِهِ الْحُرُوفُ الثَّلَاثَةُ بِأَسْمَائِهَا سَاكِنَةً غَيْرَ مُعْرَبَةٍ هَكَذَا : أَلِفْ ، لَامْ ، رَا .

وَالْحَرْفُ الْأَخِيرُ غَيْرُ مَهْمُوزٍ . وَفَائِدَةُ النُّطْقِ بِهَا وَبِأَمْثَالِهَا هَكَذَا تَنْبِيهُ الَّذِينَ تُتْلَى عَلَيْهِمُ السُّورَةُ لِمَا بَعْدَهَا لِأَجْلِ الْعِنَايَةِ بِفَهْمِهِ حَتَّى لَا يَفُوتَهُمْ مِنْ سَمَاعِهِ شَيْءٌ ، وَهِيَ أَقْوَى فِي هَذَا

التَّنْبِيهِ مِنْ حَرْفِ الْهَاءِ الْمَوْضُوعِ لَهُ فِي اسْمِ الْإِشَارَةِ ، وَمِنْ كَلِمَةِ (أَلَا) الِافْتِتَاحِيَّةِ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ فِي أَوَّلِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

(100/356)

(تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ) أَيْ تِلْكَ الْآيَاتُ الْبَعِيدَةُ الشَّأْوِ ، الرَّفِيعَةُ الشَّأْنِ الَّتِي تَأَلَّفَتْ مِنْهَا هَذِهِ السُّورَةُ ، أَوِ الْقُرْآنُ كُلُّهُ ، هِيَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمَوْصُوفِ بِالْحِكْمَةِ فِي مَعَانِيهِ ، وَالْأَحْكَامِ فِي مَبَانِيهِ ، الْحَقِيقِ بِهِدَايَةِ مُتَدَبِّرِهِ وَوَاعِيهِ .

(أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ) الِاسْتِفْهَامُ لِلتَّعَجُّبِ مِنْ عَجَبِ الْكُفَّارِ وَاسْتِنْكَارِ إِنْكَارِهِمْ لِلْوَحْيِ إِلَى رَجُلٍ مِنْ جِنْسِهِمْ ، وَالْوَحْيُ الْإِعْلَامُ الْخَفِيُّ الْخَاصُّ لِامْرِئٍ بِمَا يَخْفَى عَلَى غَيْرِهِ . أَيْ أَكَانَ إِيحَاؤُنَا إِلَى رَجُلٍ مِنَ النَّاسِ أَمْرًا نُكْرًا اتَّخَذُوهُ أُعْجُوبَةً بَيْنَهُمْ يَتَفَكَّهُونَ بِاسْتِغْرَابِهَا ؟ كَأَنَّ مُشَارَكَتَهُمْ لَهُ فِي الْبَشَرِيَّةِ يَمْنَعُ اخْتِصَاصَ اللَّهِ إِيَّاهُ بِمَا شَاءَ مِنَ الْعِلْمِ .

وَالْمُرَادُ بِالنَّاسِ كُفَّارُ مَكَّةَ وَمَنْ تَبِعَهُمْ فِي إِنْكَارِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَعَبَّرَ عَنْهُمْ بِالنَّاسِ لِأَنَّ هَذِهِ الشُّبْهَةَ عَلَى الرِّسَالَةِ قَدْ سَبَقَتْهُمْ إِلَيْهَا أَقْوَامُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ كَمَا تَقَدَّمَ فِي قِصَّةِ نُوحٍ

وَهُوَ مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ (أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ) (7 : 63 و69) وَهَذَا الْمَعْنَى مُكَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ ، وَقَدْ دَحَضْنَا هَذِهِ الشُّبْهَةَ فِي آخِرِ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ (أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ) (أَنْ) هَذِهِ مُفَسِّرَةٌ لِمَا قَبْلَهَا ، وَالْإِنْذَارُ الْإِعْلَامُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْبَعْثِ وَسَائِرِ مَقَاصِدِ الدِّينِ الْمُقْتَرِنِ بِالتَّخْوِيفِ مِنْ عَاقِبَةِ الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي ، أَيْ أَوْحَيْنَا إلَيْهِ بِأَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ كَافَّةً (وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) التَّبْشِيرُ مُقَابِلُ الْإِنْذَارِ ، أَيِ الْإِعْلَامُ الْمُقْتَرِنُ بِالْبِشَارَةِ بِحُسْنِ الْجَزَاءِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ . وَالْمَعْنَى وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ خَاصَّةً (أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ) يَجْزِيهِمْ بِهِ فِي الْآخِرَةِ – وَالصِّدْقُ فِي أَصْلِ اللُّغَةِ ضِدُّ الْكَذِبِ ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَلَى الْإِيمَانِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ وَالْوَفَاءِ وَسَائِرِ مَوَاقِفِ الْفَضَائِلِ ، وَمِنْهُ فِي التَّنْزِيلِ (مَقْعَدِ صِدْقٍ) (54 : 55) وَ(مُدْخَلَ صِدْقٍ) (17 : 80) وَ(مُخْرَجَ صِدْقٍ) (17 : 80) وَ(قَدَمَ صِدْقٍ) وَالْقَدَمُ هَاهُنَا السَّابِقَةُ وَالتَّقَدُّمُ . قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : سَابِقَةٌ وَمَنْزِلَةٌ رَفِيعَةٌ سُمِّيَتْ قَدَمًا لِأَنَّ السَّبْقَ بِهَا كَمَا سُمِّيَتِ النِّعْمَةُ يَدًا لِأَنَّهَا تُعْطَى بِالْيَدِ ، وَإِضَافَتُهَا إلَى الصِّدْقِ لِتَحَقُّقِهَا ، وَالتَّنْبِيهِ عَلَى أَنَّهُمْ إنَّمَا يَنَالُونَهَا بِصِدْقِ الْقَوْلِ وَالنِّيَّةِ (قَالَ الْكَافِرُونَ إنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ)

(102/356)

قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَالْكُوفِيُّونَ (لَسَاحِرٌ) يَعْنُونَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَالْبَاقُونَ (لَسِحْرٌ) وَيَعْنُونَ بِهِ الْقُرْآنَ ، وَكُلًّا مِنَ الْقَوْلَيْنِ قَدْ قَالُوا ، وَكُلٌّ مِنَ الْقَوْلَيْنِ يُشِيرُ إِلَى إِثْبَاتِ رِسَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ; فَإِنَّ قَوْلَهُمْ إِنَّ الْقُرْآنَ سِحْرٌ جَاءَ بِهِ سَاحِرٌ يَتَضَمَّنُ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُمَا فَوْقَ الْمَعْهُودِ وَالْمَعْلُومِ لِلْبَشَرِ فِي عَالَمِ الْأَسْبَابِ الْمَقْدُورَةِ لَهُمْ ، وَتَأْكِيدُ قَوْلِهِمْ بِالْجُمْلَةِ الِاسْمِيَّةِ وَإِنَّ وَاللَّامِ ، وَبِوَصْفِ السِّحْرِ أَوِ

(103/356)

السَّاحِرِ بِالْمُبِينِ الظَّاهِرِ يُفِيدُ الْحَصْرَ كَقَوْلِ الْوَلِيدِ (إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ) يَعْنِي الْقُرْآنَ . وَسَمَّوْهُ سِحْرًا لِأَنَّهُ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ بِقُوَّةِ تَأْثِيرِهِ فِي الْقُلُوبِ وَجَذْبِهِ لِلنُّفُوسِ إِلَى الْإِيمَانِ ، وَحَمْلِهَا عَلَى احْتِقَارِ الْحَيَاةِ وَلَذَّاتِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، حَتَّى إِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَأَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَزَوْجِهِ وَبَنِيهِ ، وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ، وَتَمْنَعُهُ وَتَحْمِيهِ . وَإِنَّمَا السِّحْرُ مَا كَانَ بِأَسْبَابٍ خَفِيَّةٍ خَاصَّةٍ بِبَعْضِ النَّاسِ يَتَعَلَّمُهَا بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَهِيَ إِمَّا حِيَلٌ وَشَعْوَذَةٌ ، وَإِمَّا

خَوَاصُّ طَبِيعِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ لِلْجَمَاهِيرِ ، وَإِمَّا تَأْثِيرُ قُوَى النَّفْسِ وَتَوْجِيهُ الْإِرَادَةِ ، وَكُلُّهَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْعَارِفِينَ بِهَا وَقَدِ اسْتَبَانَ لِعَامَّةِ الْعَرَبِ ثُمَّ لِغَيْرِهِمْ مِنْ شُعُوبِ الْعَجَمِ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِسِحْرٍ يُؤْثَرُ بِالتَّعْلِيمِ وَالصِّنَاعَةِ ، بَلْ هُوَ مَجْمُوعَةُ عُلُومٍ عَالِيَةٍ فِي الْعَقَائِدِ وَالْآدَابِ وَالتَّشْرِيعِ وَالِاجْتِمَاعِ مُرَقِّيَةٌ لِلْعُقُولِ ، مُزَكِّيَةٌ لِلْأَنْفُسِ ، مُصْلِحَةٌ لِلنَّاسِ ، وَأَنَّهُ مُعْجِزٌ لِلْبَشَرِ فِي أُسْلُوبِهِ وَنَظْمِهِ وَمَعَانِيهِ وَهِدَايَتِهِ وَتَشْرِيعِهِ وَإِخْبَارِهِ بِالْغَيْبِ (1) وَأَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُبَلِّغٌ لَهُ ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَقْدِرَ عَلَى شَيْءٍ مِنْهُ ، وَقَدْ عَجَزَ عَنْهُ غَيْرُهُ ، فَثَبَتَ أَنَّهُ نَبِيُّ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ وَحْيٌ مِنْهُ تَعَالَى .

(104/356)

وَقَدْ بَيَّنَّا حَقِيقَةَ الْوَحْيِ لُغَةً وَشَرْعًا ، وَإِثْبَاتَهُ لِنَبِيِّنَا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي مَوَاضِعَ : مِنْهَا مَا فِي بَحْثِ دَلَالَةِ الْقُرْآنِ عَلَى نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ فِي (ص 181 - 182 ج 1 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهَا تَفْسِيرُ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ) (4 : 163) الْآيَةَ . وَهُوَ فِي (ص 55 وَمَا بَعْدَهَا ج 6 ط الْهَيْئَةِ) . وَمِنْهَا رَدُّ شُبُهَاتِ الْكُفَّارِ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (ص 258 - 267 ج 7 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهَا فِي خُلَاصَتِهِمَا (ص 242 - 247 ج 8 ط الْهَيْئَةِ) وَمِنْهَا تَحْقِيقُ الْقَوْلِ فِي مَسْأَلَةِ الْكَلَامِ الْإِلَهِيِّ بِمُنَاسَبَةِ

تَكْلِيمِ اللهِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ (ص 154 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ) وَبَقِيَ عَلَيْنَا بَسْطُ الْقَوْلِ فِي نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ مَعَ مُثْبِتِي الْوَحْيِ وَنُفَاتِهِ ، وَشُبْهَةُ النُّفَاةِ لِعَالَمِ الْغَيْبِ عَلَيْهَا وَتَصْوِيرُهُمْ لِلْوَحْيِ إِلَيْهِ بِغَيْرِ صُورَتِهِ ، فَنَعْقِدُ لَهُ الْفَصْلَ التَّالِيَ :

فَصْلٌ فِي إِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى مُثْبِتِي الْوَحْيِ وَنُفَاتِهِ

(فِي إِثْبَاتِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –)

الْكَلَامُ فِي الْوَحْيِ لِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مَعَ مُثْبِتِي الْوَحْيِ :

(105/356)

أَمَّا الْفَرِيقُ الْأَوَّلُ فَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ ، وَإِنَّ مَنِ اطَّلَعَ عَلَى كُتُبِهِمُ الْمُقَدَّسَةِ الْمُعَبَّرِ عَنْهَا بِكُتُبِ الْعَهْدَيْنِ الْعَتِيقِ وَالْجَدِيدِ ، وَعَلَى الْقُرْآنِ وَكُتُبِ السُّنَّةِ وَالسِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عَلِمَ عِلْمًا عَقْلِيًّا وِجْدَانِيًّا أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُؤْمِنَ إِيمَانًا عِلْمِيًّا بِأَنَّ تِلْكَ كُتُبُ وَحْيٍ مِنَ اللهِ ، وَأَنَّ الَّذِينَ كَتَبُوهَا أَنْبِيَاءُ مَعْصُومُونَ فِيمَا كَتَبُوهُ ، ثُمَّ لَا يُؤْمِنُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ وَحْيٌ مِنَ اللهِ وَأَنَّ مُحَمَّدًا نَبِيٌّ مَعْصُومٌ فِيمَا بَلَّغَهُ عَنِ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ فَقِيهٌ أَنْ يُنْكِرَ فِقْهَ أَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيِّ ، وَلَا نَحْوِيٌّ أَنْ يَجْحَدَ نَحْوَ سِيبَوَيْهِ وَابْنِ جِنِّيٍّ ، وَلَا شَاعِرٌ أَنْ يَنْفِيَ شَاعِرِيَّةَ الرَّضِيِّ وَالْبُحْتُرِيِّ ، بَلْ كَمَا لَا يَسْتَطِيعُ بَصِيرٌ أَنْ يُكَابِرَ حِسَّهُ فَيُفَضِّلَ نُورَ الْقَمَرِ وَالْكَوْكَبِ عَلَى ضَوْءِ

الشَّمْسِ ، أَوْ نُورَ السِّرَاجِ عَلَى نُورِ النَّهَارِ ، وَلِلَّهِ دَرُّ الْبُوصِيرِيِّ حَيْثُ قَالَ :

اللهُ أَكْبَرُ إِنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ وَكِتَابَهُ أَقْوَى وَأَقْوَمُ قِيلًا

لَا تَذْكُرُوا الْكُتُبَ السَّوَالِفَ عِنْدَهُ

طَلَعَ الصَّبَاحُ فَأَطْفِئِ الْقِنْدِيلَا

وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذَا الْمَعْنَى عُلَمَاءُ الْإِفْرِنْجِ الَّذِينَ نَشَئُوا فِي النَّصْرَانِيَّةِ وَأَحَاطُوا بِهَا عِلْمًا وَخَبَرًا ، ثُمَّ عَرَفُوا الْإِسْلَامَ مَعْرِفَةً صَحِيحَةً وَلَوْ غَيْرَ تَامَّةٍ . وَهَاكَ شَهَادَةً حَدِيثَةً لِعَالِمٍ مُسْتَشْرِقٍ مِنْهُمْ .

(106/356)

كَتَبَ الْأُسْتَاذُ إِدْوَارْ مُونْتِيهِ الْمُسْتَشْرِقُ مُدَرِّسُ اللُّغَاتِ الشَّرْقِيَّةِ فِي مَدْرَسَةِ جِنِيفَ الْجَامِعَةِ فِي مُقَدِّمَةِ تَرْجَمَتِهِ الْفَرَنْسِيَّةِ لِلْقُرْآنِ مَا تَرْجَمْتُهُ بِالْعَرَبِيَّةِ .

(كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا صَادِقًا كَمَا كَانَ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقَدِيمِ ، كَانَ مِثْلُهُمْ يُؤْتَى رُؤْيَا وَيُوحَى إِلَيْهِ ، وَكَانَتِ الْعَقِيدَةُ الدِّينِيَّةُ وَفِكْرَةُ وُجُودِ الْأُلُوهِيَّةِ مُتَمَكِّنَتَيْنِ فِيهِ كَمَا كَانَتَا مُتَمَكِّنَتَيْنِ فِي أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ أَسْلَافِهِ ، فَتُحْدِثُ فِيهِ كَمَا كَانَتْ تُحْدِثُ فِيهِمْ ذَلِكَ الْإِلْهَامَ النَّفْسِيَّ ، وَهَذَا التَّضَاعُفُ فِي الشَّخْصِيَّةِ اللَّذَيْنِ يُحْدِثَانِ فِي الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ

الْمَرَائِيَ ، وَالتَّجَلِّيَاتِ ، وَالْوَحْيَ ، وَالْأَحْوَالَ الرُّوحِيَّةَ الَّتِي مِنْ بَابِهَا) ا هـ .

فَهَذَا الْعَالِمُ الْأُورُبِّيُّ الْمُسْتَقِلُّ الْفِكْرِ يَقُولُ : إنَّ كُلَّ مَا كَانَ بِهِ أَنْبِيَاءُ بَنِي إسْرَائِيلَ أَنْبِيَاءَ كَانَ ثَابِتًا لِمُحَمَّدٍ . وَنَحْنُ نَقُولُ : إنَّ جَمِيعَ خَصَائِصِ النُّبُوَّةِ الَّتِي كَانَتْ فِيهِ هِيَ أَكْمَلُ شَكْلًا وَمَوْضُوعًا وَأَصَحُّ رِوَايَةً وَأَبْعَدُ عَنِ الشُّبَهَاتِ كَمَا سَنُوَضِّحُهُ ، وَأَمَّا مَا فُسِّرَ بِهِ هَذِهِ الْخَصَائِصُ فَهُوَ التَّعْلِيلُ الَّذِي يُعَلِّلُ بِهِ الْمَادِّيُّونَ الْوَحْيَ الْمُطْلَقَ ، وَسَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ .

(107/356)

وَقَدْ لَخَّصَ هَذَا الْعَالِمُ خَبَرَ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ كُتُبٍ إسْلَامِيَّةٍ مُذْعِنًا لِصِحَّةِ رِوَايَتِهَا وَفَصَّلَهَا بَعْدَهُ الْعَالِمُ الْمُسْتَشْرِقُ الْفَرَنْسِيُّ إمِيلْ دِرْمِنْغَامْ فِي كِتَابِهِ (حَيَاةُ مُحَمَّدٍ) مُذْعِنًا لِصِحَّةِ الرِّوَايَةِ وَلِمَوْضُوعِهَا مُفَصِّلًا نُبُوَّتَهُ فِي إصْلَاحِ الْبَشَرِ ، مُتَمَنِّيًا الِاتِّفَاقَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى ، آسِفًا لِلشِّقَاقِ بَيْنَهُمْ .

وَإِنَّنَا نَنْقُلُ هُنَا تَعْرِيفَ الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ وَالْآيَاتِ (الْعَجَائِبِ) عَنْ أَحَدِ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ الْجَامِعِينَ بَيْنَ الْعُلُومِ الْعَصْرِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالتَّوَارِيخِ وَهُوَ الدُّكْتُورُ جُورْجُ بُوسْتِ الشَّهِيرُ مُؤَلِّفُ كِتَابِ (قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ) بِالْعَرَبِيَّةِ ؛ لِيَبْنِيَ عَلَيْهَا الْبَاحِثُ الْمُسْتَقِلُّ الْعَقْلِ حُكْمَهُ فِي نُبُوَّةِ

أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَوُحْيِهِمْ ، وَنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَالْوَحْيِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ .

تَعْرِيفُ الْوَحْيِ عِنْدَهُمْ

جَاءَ فِي تَفْسِيرِ كَلِمَةِ (وَحْيٍ) مِنْ قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مَا نَصُّهُ مَعَ حَذْفِ رُمُوزِ الشَّوَاهِدِ :

(تُسْتَعْمَلُ هَذِهِ اللَّفْظَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوَّةٍ خَاصَّةٍ بِمَدِينَةٍ أَوْ شَعْبٍ ، وَجَاءَ فِي (حَزَّ 12 : 1) وَهَذَا الْوَحْيُ هُوَ الرَّئِيسُ) أَيْ أَنَّهُ آيَةٌ لِلشَّعْبِ . وَعَلَى الْعُمُومِ يُرَادُ بِالْوَحْيِ الْإِلْهَامُ .

وَعَلَى ذَلِكَ

يُقَالُ : (إِنَّ كُلَّ الْكِتَابِ هُوَ مُوحًى بِهِ مِنَ اللهِ) وَالْوَحْيُ بِهَذَا الْمَعْنَى هُوَ حُلُولُ رُوحِ

(108/356)

اللهِ فِي رُوحِ الْكُتَّابِ الْمُلْهَمِينَ وَذَلِكَ عَلَى أَنْوَاعٍ .

(1) إِفَادَتُهُمْ بِحَقَائِقَ رُوحِيَّةٍ أَوْ حَوَادِثَ مُسْتَقْبَلَةٍ لَمْ يَكُنْ يُمْكِنُهُمُ التَّوَصُّلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِهِ .

(2) إِرْشَادُهُمْ إِلَى تَأْلِيفِ حَوَادِثَ مَعْرُوفَةٍ أَوْ حَقَائِقَ مُقَرَّرَةٍ ، وَالتَّفَوُّهُ بِهَا شِفَاهًا أَوْ تَدْوِينُهَا كِتَابَةً بِحَيْثُ يُعْصَمُونَ مِنَ الْخَطَأِ فَيُقَالُ (تَكَلَّمَ أُنَاسُ اللهِ الْقِدِّيسُونَ مَسُوقِينَ مِنَ الرُّوحِ

الْقُدُسِ) وَهُنَا لَا يَفْقِدُ الْمُتَكَلِّمُ أَوِ الْكَاتِبُ شَيْئًا مِنْ شَخْصِيَّتِهِ وَإِنَّمَا يُؤَثِّرُ فِيهِ الرُّوحُ الْإِلَهِيُّ بِحَيْثُ يَسْتَعْمِلُ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْقُوَى وَالصِّفَاتِ وَفْقَ إِرْشَادِهِ تَعَالَى . وَلِهَذَا تَرَى فِي كُلِّ مُؤَلَّفٍ مِنَ الْكُتَّابِ الْكِرَامِ مَا امْتَازَ بِهِ مِنَ الْمَوَاهِبِ الطَّبِيعِيَّةِ وَنَمَطِ التَّأْلِيفِ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ ، وَفِي شَرْحِ هَذَا التَّعْلِيمِ دِقَّةٌ ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِيمَا أَوْرَدُوهُ مِنْ شَرْحِهِ ، غَيْرَ أَنَّ جَمِيعَ الْمَسِيحِيِّينَ يَتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ اللهَ قَدْ أَوْحَى لِأُولَئِكَ الْكُتَّابِ لِيُدَوِّنُوا إِرَادَتَهُ وَيُفِيدُوا الْإِنْسَانَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ لِكَيْ يَنَالَ الْخَلَاصَ الْأَبَدِيَّ) اهـ .

تَعْرِيفُ النُّبُوَّةِ وَالْأَنْبِيَاءِ عِنْدَهُمْ

وَجَاءَ فِي تَفْسِيرِ (نَبِيٍّ . أَنْبِيَاءَ . نُبُوَّةٍ) مِنْهُ مَا نَصُّهُ :

(النُّبُوَّةُ لَفْظَةٌ تُفِيدُ مَعْنَى الْإِخْبَارِ عَنِ اللهِ وَعَنِ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ وَلَا سِيَّمَا عَمَّا سَيَحْدُثُ فِيمَا بَعْدُ .

(109/356)

وَسُمِّيَ هَارُونُ نَبِيًّا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ الْمُخْبِرَ وَالْمُتَكَلِّمَ عَنْ مُوسَى نَظَرًا لِفَصَاحَتِهِ . أَمَّا أَنْبِيَاءُ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ فَكَانُوا يُنَادُونَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُوسَوِيَّةِ ، وَيُنَبِّئُونَ بِمَجِيءِ الْمَسِيحِ . وَلَمَّا قَلَّتْ رَغْبَةُ الْكَهَنَةِ وَقَلَّ اهْتِمَامُهُمْ بِالتَّعْلِيمِ وَالْعِلْمِ فِي أَيَّامِ صَمُوئِيلَ أَقَامَ مَدْرَسَةً فِي الرَّامَةِ وَأَطْلَقَ

عَلَى تَلَامِذَتِهَا اسْمَ بَنِي الْأَنْبِيَاءِ فَاشْتُهِرَ مِنْ ثَمَّ صَمُوئِيلُ بِإِحْيَاءِ الشَّرِيعَةِ وَقُرِنَ اسْمُهُ بِاسْمِ مُوسَى وَهَارُونَ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنَ الْكِتَابِ ، وَتَأَسَّسَتْ أَيْضًا مَدَارِسُ أُخْرَى لِلْأَنْبِيَاءِ فِي بَيْتِ إِيلَ وَأَرِيحَا وَالْجِلْجَالِ وَأَمَاكِنَ أُخْرَى . وَكَانَ رَئِيسُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ يُدْعَى أَبًا أَوْ سَيِّدًا ، وَكَانَ يُعَلِّمُ فِي هَذِهِ الْمَدَارِسِ تَفْسِيرَ التَّوْرَاةِ وَالْمُوسِيقَى وَالشِّعْرَ ، وَلِذَلِكَ كَانَ الْأَنْبِيَاءُ شُعَرَاءَ وَأَغْلَبُهُمْ كَانُوا يُرَنِّمُونَ وَيَلْعَبُونَ عَلَى آلَاتِ الطَّرَبِ . وَكَانَتِ الْغَايَةُ مِنْ هَذِهِ الْمَدَارِسِ أَنْ يُرَشَّحَ الطَّلَبَةُ فِيهَا لِتَعْلِيمِ الشَّعْبِ .

أَمَّا مَعِيشَةُ الْأَنْبِيَاءِ ، وَبَنِي الْأَنْبِيَاءِ فَكَانَتْ سَاذَجَةً لِلْغَايَةِ ، وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ كَانُوا مُتَنَسِّكِينَ أَوْ طَوَّافِينَ يُضَافُونَ عِنْدَ الْأَتْقِيَاءِ .

(110/356)

(وَيَظْهَرُ أَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الَّذِينَ تَعَلَّمُوا فِي تِلْكَ الْمَدَارِسِ لَمْ يُعْطُوا قُوَّةً عَلَى الْإِنْبَاءِ بِمَا سَيَأْتِي ، إِنَّمَا اخْتُصَّ بِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ أُنَاسٌ مِنْهُمْ كَانَ اللهُ يُقَيِّمُهُمْ وَقْتًا دُونَ آخَرَ حَسَبَ مَشِيئَتِهِ ، وَيَعِدُهُمْ بِتَرْبِيَةٍ فَوْقَ الْعَادَةِ لِوَاجِبَاتِهِمُ الْخَطِيرَةِ . عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ الْمُلْهَمِينَ كَانَ يَخُصُّهُمُ اللهُ بِوَحْيِهِ وَلَمْ يَتَعَلَّمُوا مِنْ قَبْلُ وَلَا دَخَلُوا تِلْكَ الْمَدَارِسَ كَعَامُوسَ مَثَلًا فَإِنَّهُ كَانَ رَاعِيًا وَجَانِيَ جُمَّيْزٍ . أَمَّا النُّبُوَّةُ فَكَانَتْ عَلَى أَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ كَالْأَحْلَامِ وَالرُّؤَى وَالتَّبْلِيغِ ، وَأَحْيَانًا كَثِيرَةً كَانَ

الْأَنْبِيَاءُ يَرَوْنَ الْأُمُورَ الْمُسْتَقْبَلَةَ بِدُونِ تَمْيِيزِ أَزْمِنَتِهَا ، فَكَانَتْ تَقْتَرِنُ فِي رُؤَاهُمُ الْحَوَادِثُ الْقَرِيبَةُ الْعَهْدِ مَعَ الْبَعِيدَةِ كَاقْتِرَانِ نَجَاةِ الْيَهُودِ مِنَ الْآشُورِيِّينَ بِخَلَاصِ الْعَالَمِ بِوَاسِطَةِ الْمَسِيحِ ، وَكَانْتِصَارِ إِسْكَنْدَرَ ذِي الْقَرْنَيْنِ بِإِتْيَانِ الْمَسِيحِ ، وَكَاقْتِرَانِ انْسِكَابِ الرُّوحِ الْقُدُسِ يَوْمَ الْخَمِيسِ بِيَوْمِ الْحَشْرِ . وَمِنْ هَذَا الْقَبِيلِ اقْتِرَانُ خَرَابِ أُورْشَلِيمَ بِحَوَادِثِ يَوْمِ الدَّيْنُونَةِ .

(111/356)

(وَقَدْ أَرْسَلَ اللهُ الْأَنْبِيَاءَ الْمُلْهَمِينَ لِيُعْلِنُوا مَشِيئَتَهُ وَلِيُصْلِحُوا الشُّؤُونَ الدِّينِيَّةَ ، وَعَلَى الْأَخَصِّ لِيُخْبِرُوا بِالْمَسِيحِ الْآتِي لِتَخْلِيصِ الْعَالَمِ ، وَكَانُوا الْقُوَّةَ الْعَظِيمَةَ الْفَعَّالَةَ فِي تَعْلِيمِ الشَّعْبِ وَتَنْبِيهِهِمْ وَإِرْشَادِهِمْ إِلَى سَبِيلِ الْحَقِّ ، وَكَانَ لَهُمْ دَخْلٌ عَظِيمٌ فِي الْأُمُورِ السِّيَاسِيَّةِ انْتَهَى بِنَصِّهِ .

مَا يَرِدُ عَلَى نُبُوَّتِهِمْ مِنْ تَعْرِيفِهَا :

أَمَّا تَفْسِيرُ الْإِلْهَامِ بِحُلُولِ رُوحِ اللهِ فِي رُوحِ الْمُلْهَمِ فَهُوَ تَحَكُّمٌ لِلنَّصَارَى لَا يَعْرِفُهُ وَلَا يَعْتَرِفُ بِهِ أَنْبِيَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا عُلَمَاؤُهُمْ . وَلَا يُمْكِنُهُمْ إِثْبَاتُهُ وَلَا دَفْعُ مَا يَرِدُ عَلَيْهِ مِنْ وُقُوعِ التَّعَارُضِ وَالتَّنَاقُضِ وَالْخُلْفِ فِيمَا كَتَبَهُ أُولَئِكَ الْمُلْهَمُونَ وَمَا خَالَفُوا فِيهِ الْوَاقِعَ ، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : إِنَّ فِي شَرْحِ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ دِقَّةً وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي شَرْحِهِ إِلَخْ ، وَمَنْ حَلَّ فِيهِ رُوحُ

اللهِ صَارَ إِلَهًا ; إِذًا الْمَسِيحُ لَمْ يَكُنْ إِلَهًا عِنْدَ النَّصَارَى إِلَّا بِهَذَا الْحُلُولِ ، فَكَيْفَ يَقَعُ فِي مِثْلِ مَا ذُكِرَ وَيَتَخَلَّفُ وَحْيُهُ أَوْ يُخَالِفُ الْوَاقِعَ ؟

وَأَمَّا كَلَامُهُ فِي النُّبُوَّةِ فَيُؤْخَذُ مِنْهُ مَا يَأْتِي :

(112/356)

---

(1) إِنَّ أَكْثَرَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانُوا يَتَخَرَّجُونَ فِي مَدَارِسَ خَاصَّةٍ بِهِمْ يَتَعَلَّمُونَ فِيهَا تَفْسِيرَ شَرِيعَتِهِمُ التَّوْرَاةَ وَالْمُوسِيقَى وَالشِّعْرَ ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا شُعَرَاءَ وَمُغَنِّينَ وَعَزَّافِينَ عَلَى آلَاتِ الطَّرَبِ ، وَبَارِعِينَ فِي كُلِّ مَا يُؤَثِّرُ فِي الْأَنْفُسِ وَيُحَرِّكُ الشُّعُورَ وَالْوِجْدَانَ ، وَيُثِيرُ رَوَاكِدَ الْخَيَالِ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ يَكُونَ عِزْرَا وَنَحْمِيَا مِنْ أَعْظَمِ أَنْبِيَائِهِمْ سَاقِيَيْنِ مِنْ سُقَاةِ الْخَمْرِ لِمَلِكِ بَابِلَ (أَرْتَحْشَشْتَا) وَمُغَنِّيَيْنِ لَهُ ، وَأَنْ يَكُونَا قَدِ اسْتَعَانَا بِتَأْثِيرِ غِنَائِهِمَا فِي نَفْسِهِ عَلَى سَمَاحِهِ لَهُمَا بِالْعَوْدَةِ بِقَوْمِهِمَا إِلَى وَطَنِهِمَا وَإِقَامَةِ دِينِهِمَا فِيهِ . فَالنُّبُوَّةُ عَلَى هَذَا كَانَتْ صِنَاعَةً تُعَلَّمُ مَوَادُّهَا فِي الْمَدَارِسِ وَيُسْتَعَانُ عَلَى الْإِقْنَاعِ بِهَا بِالتَّخْيِيلَاتِ الشِّعْرِيَّةِ وَالْإِلْهَامَاتِ الْكَلَامِيَّةِ ، وَالْمُؤَثِّرَاتِ الْغِنَائِيَّةِ وَالْمُوسِيقِيَّةِ . وَالْمَعْلُومَاتِ الْمُكْتَسَبَةِ فَأَيْنَ هِيَ مِنْ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ الْأُمِّيِّ الَّذِي لَمْ يَتَعَلَّمْ شَيْئًا وَلَمْ يَقُلْ شِعْرًا ، وَقَدْ جَاءَ بِأَعْظَمِ مِمَّا جَاءُوا بِهِ كُلُّهُمْ ؟

(2) إِنَّ كَثِيرًا مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَوْلَادِهِمْ كَانُوا مُتَنَسِّكِينَ أَوْ طَوَّافِينَ عَلَى النَّاسِ يَعِيشُونَ ضُيُوفًا عِنْدَ الْأَتْقِيَاءِ الْمُحِبِّينَ لِرِجَالِ الدِّينِ كَمَا هُوَ مِنْ دَرَاوِيشِ الْمُتَصَوِّفَةِ أَهْلِ

(113/356)

الطُّرُقِ فِي الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ يَقْبَلُونَ مِنْ رِجَالِ التَّنَسُّكِ كُلَّ مَا يَقُولُونَ ، وَيُسَلِّمُونَ لَهُمْ مَا يَدَّعُونَ ، وَيُذِيعُونَ عَنْهُمْ كُلَّ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ ، وَمِنْ غَيْرِ هَؤُلَاءِ الْكَثِيرِينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَنْ نَقَلَتْ عَنْهُمْ كُتُبُهُمُ الْمُقَدَّسَةُ بَعْضَ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي ، وَإِنَّ مِنْ أَخْبَارِ الصُّوفِيَّةِ وَالنُّسَّاكِ وَالسُّيَّاحِ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مَنْ تَفْضُلُ سِيرَتُهُمْ سِيرَةَ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُتُبِهِمْ ، فَكَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَرْتَفِعَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى دَرَجَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي نَشْأَتِهِ الْفِطْرِيَّةِ وَمَعِيشَتِهِ مِنْ كَسْبِهِ ، وَكَوْنِهِ لَمْ يَكُنْ عَالَةً عَلَى النَّاسِ فِي شَيْءٍ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَلَا بَعْدَهَا

.

(3) أَشْهَرُ أَنْوَاعِ نُبُوَّتِهِمُ الْأَحْلَامُ وَالرُّؤَى الْمَنَامِيَّةُ وَالتَّخَيُّلَاتُ الْمُبْهَمَةُ وَكُلُّهَا تَقَعُ لِغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ كَانَتِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ مَبْدَأَ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ وَحْيِ التَّشْرِيعِ الَّذِي كَانَ لَهُ صُوَرٌ أَعْلَى مِنْهَا سَنُبَيِّنُهَا بَعْدُ . وَالرُّؤَى : صُوَرٌ حِسِّيَّةٌ فِي الْخَيَالِ تَذْهَبُ الْآرَاءُ

وَالْأَفْكَارُ فِي تَعْبِيرِهَا مَذَاهِبَ شَتَّى قَلَّمَا يَعْرِفُ تَأْوِيلَ الصَّادِقِ مِنْهَا غَيْرُ الْأَنْبِيَاءِ كَرُؤْيَا مَلِكِ مِصْرَ الَّتِي عَبَرَهَا يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرُؤْيَاهُ هُوَ فِي صِغَرِهِ .

(114/356)

---

(4) إِنَّ نُبُوَّةَ الْإِخْبَارِ عَنِ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ الَّتِي يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى كَوْنِهِمْ مُخْبَرِينَ عَنِ اللهِ تَعَالَى كَانَتْ أَحْيَانًا كَثِيرَةً بِدُونِ تَمْيِيزِ أَزْمِنَتِهَا وَلَا حَوَادِثِهَا : فَكَانَ بَعْضُهَا يَخْتَلِطُ بِبَعْضٍ فَلَا يَكَادُ يَظْهَرُ الْمُرَادُ مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ حَمْلِهَا عَلَى شَيْءٍ وَاضِحٍ بَعْدَ وُقُوعِهِ كَمَا يُعْهَدُ فِي كُلِّ عَصْرٍ مِنْ أَخْبَارِ الْعَرَّافِينَ وَالْمُنَجِّمِينَ ، بَلْ هَ الرُّوحَانِيِّينَ الْمُكَاشِفِينَ ،

وَمِنْهَا مَا ظَهَرَ خِلَافُهُ كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ وَلَمْ يَشْرَحْهُ وَلَكِنَّ التَّارِيخَ شَرَحَهُ . وَكَانَ أَعْظَمُ نُبُوَّاتِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ إِخْبَارَهُمْ عَنِ الْمَسِيحِ (مِسْيَا) وَمُلْكِ إِسْرَائِيلَ ثُمَّ إِخْبَارَ الْمَسِيحِ نَفْسِهِ عَنْ خَرَابِ الْعَالَمِ وَمَجِيءِ الْمَلَكُوتِ لِأَجْلِ دَيْنُونِيَّةِ الْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ لَا يَنْقَضِي الْجِيلُ الَّذِي خَاطَبَهُ حَتَّى يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ . وَقَدْ مَرَّ أَجْيَالٌ كَثِيرَةٌ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ .

امْتِيَازُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَلَى نُبُوَّةِ مَنْ قَبْلَهُ :

فَأَنَّى تُضَاهِئُ هَذِهِ الْأَخْبَارَ (النُّبُوَّاتِ) ، وَهِيَ كَمَا عَلِمْتَ – أَنْبَاءُ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةُ بِالْمُغَيَّبَاتِ

كَالَّذِي بَيَّنَّاهُ فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ السَّابِقَةِ مِمَّا وَقَعَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَمَا هُوَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ .

(115/356)

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الرُّومِ (الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ) الْآيَاتِ (1 – 4) وَقَوْلُهُ : (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ) (24 : 55) وَأَيْنَ هِيَ مِنْ إنْبَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَصْحَابَهُ بِأَنَّهُمْ سَيَفْتَحُونَ بَعْدَهُ بِلَادَ الشَّامِ وَبِلَادَ الْفُرْسِ وَمِصْرَ وَسَيَسْتَوْلُونَ عَلَى مُلْكِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ حَتَّى إنَّهُ سَمَّى كِسْرَى عَصْرَهُ بِاسْمِهِ كَمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ إلَخْ ؟

هَذَا مَا يُقَالُ بِالْإِجْمَالِ عَلَى أَحَدِ مَوْضُوعَيِ النُّبُوَّةِ وَهُوَ الْإِخْبَارُ عَمَّا سَيَكُونُ فِي مُسْتَقْبَلِ الزَّمَانِ ، فَمَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْهَا فِي وَحْيِ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ أَظْهَرُ وَأَوْضَحُ وَأَبْعَدُ عَنِ احْتِمَالِ التَّأْوِيلِ ، وَأَعْصَى عَلَى إنْكَارِ الْمُرْتَابِينَ ، وَيَزِيدُ عَلَيْهِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ الْمَاضِيَةِ ، وَسَأَذْكُرُ مَا يَتَأَوَّلُهُ بِهِ الْجَاحِدُونَ لِلنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ فِي بَيَانِ بُطْلَانِ شُبُهَاتِهِمْ .

(116/356)

وَأَمَّا الْمَوْضُوعُ الثَّانِي لِلنُّبُوَّةِ وَهُوَ الْأَهَمُّ الْأَعْظَمُ أَيْ عَقَائِدُ الدِّينِ وَعِبَادَاتُهُ وَآدَابُهُ وَأَحْكَامُهُ فَالنَّظَرُ فِيهِ مِنْ وَجْهَيْنِ (أَحَدُهُمَا) مَا ذَكَرُوهُ مِنْ كَوْنِهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ عَقْلُ مَنْ جَاءَ بِهِ وَفِكْرُهُ وَلَا عُلُومُهُ وَمَعَارِفُهُ الْكَسْبِيَّةُ فَيَتَعَيَّنُ أَنْ يَكُونَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ (وَثَانِيهِمَا) أَنْ يَكُونَ مَا فِيهِ مِنْ هِدَايَةِ النَّاسِ وَصَلَاحِ أُمُورِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ أَعْلَى فِي نَفْسِهِ مِنْ مَعَارِفِ الْبَشَرِ فِي عَصْرِهِ ، فَيَتَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ وَحْيًا .

فَأَمَّا الْأَوَّلُ الْخَاصُّ بِشَخْصِ الرَّسُولِ فَإِنَّ الْعَاقِلَ الْمُسْتَقِلَّ الْمُفَكِّرَ إِذَا عَرَفَ تَارِيخَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَتَارِيخَ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فَإِنَّهُ يَرَى أَنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ نَشَأَ أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمِ الْقِرَاءَةَ وَلَا الْكِتَابَةَ ، وَأَنَّ قَوْمَهُ الَّذِينَ نَشَأَ فِيهِمْ كَانُوا أُمِّيِّينَ وَثَنِيِّينَ جَاهِلِينَ بِعَقَائِدِ الْمِلَلِ وَتَوَارِيخِ الْأُمَمِ وَعُلُومِ التَّشْرِيعِ وَالْفَلْسَفَةِ ، حَتَّى إِنَّ مَكَّةَ عَاصِمَةَ بِلَادِهِمْ ، وَقَاعِدَةَ

(117/356)

دِينِهِمْ ، وَمَثْوَى كُبَرَائِهِمْ وَرُؤَسَائِهِمْ ، وَمَثَابَةَ الشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ لِلْحَجِّ وَالتِّجَارَةِ فِيهَا ، وَالْمُفَاخَرَةِ بِالْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ فِي أَسْوَاقِهَا التَّابِعَةِ لَهَا ، لَمْ يَكُنْ يُوجَدُ فِيهَا مَدْرَسَةٌ وَلَا كِتَابٌ مُدَوَّنٌ قَطُّ ، فَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ الدِّينِ التَّامِّ الْكَامِلِ ، وَالشَّرْعِ الْعَامِّ الْعَادِلِ ، لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ مُكْتَسَبًا وَلَا أَنْ يَكُونَ مُسْتَنْبَطًا بِعَقْلِهِ وَفِكْرِهِ كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ . وَسَنَدْفَعُ مَا يَرُدُّ مِنَ الشُّبْهَةِ عَلَيْهِ فِي الْقِسْمِ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْفَصْلِ .

وَيُرَى تُجَاهَ هَذَا أَنَّ مُوسَى أَعْظَمَ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ فِي عَمَلِهِ وَفِي شَرِيعَتِهِ وَفِي هِدَايَتِهِ – قَدْ نَشَأَ فِي أَعْظَمِ بُيُوتِ الْمُلْكِ لِأَعْظَمِ شَعْبٍ فِي الْأَرْضِ وَأَرْقَاهُ تَشْرِيعًا وَعِلْمًا وَحِكْمَةً وَفَنًّا وَصِنَاعَةً ، وَهُوَ بَيْتُ فِرْعَوْنَ مِصْرَ ، وَرَأَى قَوْمَهُ فِي حُكْمِ هَذَا الْمَلِكِ الْقَوِيِّ الْقَاهِرِ مُسْتَعْبَدِينَ مُسْتَذَلِّينَ ، تُذَبَّحُ أَبْنَاؤُهُمْ وَتُسْتَحْيَا نِسَاؤُهُمْ ، تَمْهِيدًا لِفَنَائِهِمْ وَمَحْوِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ إِنَّهُ مَكَثَ بِضْعَ سِنِينَ عِنْدَ حَمِيهِ فِي مَدْيَنَ وَكَانَ نَبِيًّا – أَوْ كَاهِنًا كَمَا يَقُولُونَ – فَمِنْ ثَمَّ يَرَى مُنْكِرُو الْوَحْيِ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُوسَى مِنَ الشَّرِيعَةِ الْخَاصَّةِ بِشَعْبِهِ لَيْسَ بِكَثِيرٍ عَلَى رَجُلٍ كَبِيرِ الْعَقْلِ عَظِيمِ الْهِمَّةِ ، نَاشِئٍ فِي بَيْتِ الْمُلْكِ وَالتَّشْرِيعِ وَالْحِكْمَةِ إِلَخْ .

(118/356)

ثُمَّ ظَهَرَ فِي أَوَائِلِ هَذَا الْقَرْنِ الْمِيلَادِيِّ أَنَّ شَرِيعَةَ التَّوْرَاةِ مُوَافِقَةٌ فِي أَكْثَرِ أَحْكَامِهَا لِشَرِيعَةِ حَمُورَابِي الْعَرَبِيِّ مَلِكِ الْكَلْدَانِ الَّذِي كَانَ قَبْلَ مُوسَى وَقَدْ قَالَ الَّذِينَ عَثَرُوا عَلَى هَذِهِ الشَّرِيعَةِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأَلْمَانِ فِي حَفَائِرِ الْعِرَاقِ أَنَّهُ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ شَرِيعَةَ مُوسَى مُسْتَمَدَّةٌ مِنْهَا لَا وَحْيَ مِنَ اللهِ تَعَالَى كَمَا شَرَحْنَا فِي مُجَلَّدِ الْمَنَارِ السَّادِسِ وَذَكَرْنَا خُلَاصَتَهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ التَّوْبَةِ (9 : 30) وَهُوَ فِي (ص 305 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَأَقَلُّ مَا يَقُولُهُ مُسْتَقِلُّ الْفِكْرِ فِي ذَلِكَ : إِنَّهُ إِنْ لَمْ تَكُنِ التَّوْرَاةُ مُسْتَمَدَّةً مِنْهَا فَلَا تَعْدُو أَحَقَّ مِنْهَا بِأَنْ تَكُونَ وَحْيًا مِنَ اللهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يُنْقَلْ أَنَّ حَمُورَابِي ادَّعَى أَنَّ شَرِيعَتَهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى .

(119/356)

ثُمَّ يَرَى النَّاظِرُ سَائِرَ أَنْبِيَاءِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ أَنَّهُمْ كَانُوا تَابِعِينَ لِلتَّوْرَاةِ مُتَعَبِّدِينَ بِهَا ، وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَدَارَسُونَ تَفْسِيرَهَا فِي مَدَارِسَ خَاصَّةٍ بِهِمْ وَبِأَبْنَائِهِمْ مَعَ عُلُومٍ أُخْرَى ، فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُذْكَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَعَ مُحَمَّدٍ ، وَيُرَى أَيْضًا أَنَّ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانَ الَّذِي شَهِدَ الْمَسِيحَ بِتَفْضِيلِهِ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ وَلَمْ يَأْتِ بِشَرْعٍ وَلَا بِنَبَأٍ غَيْبِيٍّ – بَلْ إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ أَعْظَمُهُمْ قَدْرًا وَأَعْلَاهُمْ ذِكْرًا ، وَأَجَلُّهُمْ أَثَرًا ، لَمْ يَأْتِ بِشَرِيعَةٍ جَدِيدَةٍ بَلْ كَانَ تَابِعًا لِشَرِيعَةِ التَّوْرَاةِ مَعَ نَسْخِ قَلِيلٍ مِنْ

أَحْكَامِهَا ، وَإِصْلَاحٍ رُوحِيٍّ أَدَبِيٍّ لِجُمُودِ الْيَهُودِ الْمَادِّيِّ عَلَى ظَوَاهِرِ أَلْفَاظِهَا ، فَأَمْكَنَ لِجَاحِدِي الْوَحْيِ أَنْ يَقُولُوا : إِنَّهُ لَا يَكْثُرُ عَلَى رَجُلٍ مِثْلِهِ زَكِيِّ الْفِطْرَةِ ذَكِيِّ الْعَقْلِ نَاشِئٍ فِي حِجْرِ الشَّرِيعَةِ الْيَهُودِيَّةِ ، وَالْمَدَنِيَّةِ الرُّومَانِيَّةِ . وَالْحِكْمَةِ الْيُونَانِيَّةِ ، غَلَبَ عَلَيْهِ الزُّهْدُ وَالرُّوحَانِيَّةُ ، أَنْ يَأْتِيَ بِتِلْكَ الْوَصَايَا الْأَدَبِيَّةِ ، وَنَحْنُ الْمُسْلِمِينَ لَا نَقُولُ هَذَا وَإِنَّمَا يَقُولُهُ الْمَادِّيُّونَ وَالْمُلْحِدُونَ وَالْعَقْلِيُّونَ ، وَأُلُوفٌ مِنْهُمْ يُنْسَبُونَ إِلَى الْمَذَاهِبِ النَّصْرَانِيَّةِ .

(120/356)

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي وَهُوَ عَقَائِدُ الدِّينِ وَعِبَادَاتُهُ وَآدَابُهُ وَأَحْكَامُهُ فَلَا يَرْتَابُ الْعَقْلُ الْمُسْتَقِلُّ الْمُفَكِّرُ غَيْرُ الْمُقَلِّدِ لِدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ فِي أَنَّ عَقَائِدَ الْإِسْلَامِ : مِنْ تَوْحِيدِ اللهِ وَتَنْزِيهِهِ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ ، وَوَصْفِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَالِاسْتِدْلَالِ عَلَيْهَا بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَمِنْ بَيَانِ هِدَايَةِ رُسُلِهِ ، وَمِنْ عِبَادَاتِهِ وَآدَابِهِ الْمُزَكِّيَةِ لِلنَّفْسِ الْمُرَقِّيَةِ لِلْعَقْلِ ، وَمِنْ تَشْرِيعِهِ الْعَادِلِ وَحُكْمِهِ الشُّورِيِّ الْمُرَقِّي لِلِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ - كُلُّ ذَلِكَ أَرْقَى مِمَّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْأَنَاجِيلِ وَسَائِرِ كُتُبِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، بَلْ هُوَ الْإِصْلَاحُ الَّذِي بَلَغَ بِهِ دِينُ اللهِ أَعْلَى الْكَمَالِ ،

وَيَشْهَدُ بِهَذَا عُلَمَاءُ الْإِفْرِنْجِ ، وَقَدْ شَرَحْنَاهُ مِنْ وِجْهَةِ نَظَرِنَا وَوِجْهَةِ نَظَرِهِمْ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْمَنَارِ التَّفْسِيرِ (آخِرُهَا ص 313 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(121/356)

وَمَنْ نَظَرَ فِي قِصَّةِ آدَمَ وَنُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَلُوطٍ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ مِنْ سِفْرِ التَّكْوِينِ ، وَسِيرَةِ مُوسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فِي سَائِرِ أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ ، ثُمَّ قَرَأَ هَذِهِ الْقِصَصَ فِي الْقُرْآنِ يَرَى الْفَرْقَ الْعَظِيمَ فِي الِاهْتِدَاءِ بِسِيرَةِ هَؤُلَاءِ الْأَنْبِيَاءِ الْعِظَامِ ; فَفِي أَسْفَارِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ يَرَى وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالنَّدَمِ عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ وَالِانْتِقَامِ مِنْهُمْ ، وَوَصْفَ الْأَنْبِيَاءِ أَيْضًا بِمَا لَا يَلِيقُ بِهِمْ مِنَ الْمَعَاصِي مِمَّا هُوَ قُدْوَةٌ سُوأَى ، مِنْ حَيْثُ يَجِدُ فِي قَصَصِ الْقُرْآنِ مِنْ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ وَعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَمِنْ وَصْفِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ بِالْكَمَالِ وَأَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، مَا هُوَ قُدْوَةٌ صَالِحَةٌ وَأُسْوَةٌ حَسَنَةٌ تَزِيدُ قَارِئَهَا إِيمَانًا وَهُدًى ، فَأَخْبَارُ الْأَنْبِيَاءِ فِي كُتُبِ الْعَهْدَيْنِ تُشْبِهُ بُسْتَانًا فِيهِ كَثِيرٌ مِنَ الشَّجَرِ وَالْعُشْبِ وَالشَّوْكِ ، وَالثِّمَارِ وَالْأَزْهَارِ وَالْحَشَرَاتِ ، وَأَخْبَارُهُمْ فِي الْقُرْآنِ تُشْبِهُ الْعِطْرَ الْمُسْتَخْرَجَ مِنْ تِلْكَ الْأَزْهَارِ ، وَالْعَسَلَ الْمُشْتَارَ مِنْ تِلْكَ الثِّمَارِ ، وَيَرَى فِيهِ رِيَاضًا أُخْرَى جَمَعَتْ جَمَالَ الْكَوْنِ كُلِّهِ .

(122/356)

وَنَدَعُ هُنَا ذِكْرَ مَا كَتَبَهُ عُلَمَاءُ الْإِفْرِنْجِ الْأَحْرَارُ فِي نَقْدِ هَذِهِ الْكُتُبِ وَالطَّعْنِ فِيهَا ، وَمِنْ أَخْصَرِهَا وَأَغْرَبِهَا كِتَابُ (أَضْرَارِ تَعْلِيمِ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) لِأَحَدِ عُلَمَاءِ الْإِنْكِلِيزِ ، وَمَا فِيهَا مِنْ مُخَالَفَةِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ وَالتَّارِيخِ ، وَالْقُرْآنُ خَالٍ مِنْ مِثْلِ ذَلِكَ .

(صَدُّ الْكَنِيسَةِ عَنِ الْإِسْلَامِ وَبَغْيُهُ عِوَجًا)

إِنَّ رِجَالَ الْكَنِيسَةِ لَمْ يَجِدُوا مَا يَصُدُّونَ بِهِ أَتْبَاعَهَا عَنِ الْإِسْلَامِ – بَعْدَ أَنْ رَأَوْهُ قَدْ قَضَى عَلَى الْوَثَنِيَّةِ وَالْمَجُوسِيَّةِ ، وَكَادَ يَقْضِي عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ فِي الشَّرْقِ ، ثُمَّ امْتَدَّ نُورُهُ إِلَى الْغَرْبِ – إِلَّا تَأْلِيفَ الْكُتُبِ ، وَنَظْمَ الْأَشْعَارِ وَالْأَغَانِي فِي ذَمِّ الْإِسْلَامِ وَنَبِيِّهِ وَكِتَابِهِ بِالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ ، وَفُحْشِ الْكَلَامِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ الْمُتَدَيِّنِينَ أَكْذَبُ الْبَشَرِ وَأَشَدُّهُمْ عَدَاوَةً لِلْحَقِّ وَالْفَضِيلَةِ ، فِي سَبِيلِ رِيَاسَتِهِمُ الَّتِي يَتَبَرَّأُ مِنْهَا الْمَسِيحُ عَلَيْهِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ .

(123/356)

وَقَدْ كَانَ أَتْبَاعُهُمْ يُصَدِّقُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَكْتُبُونَ . وَيَتَهَيَّجُونَ بِمَا يَنْظُمُونَ وَيُنْشِدُونَ ، حَتَّى إِذَا مَا اطَّلَعَ بَعْضُهُمْ عَلَى كُتُبِ الْإِسْلَامِ وَرَأَوُا الْمُسْلِمِينَ وَعَاشَرُوهُمْ فَضَحُوهُمْ أَقْبَحَ الْفَضَائِحِ ، كَمَا تَرَى فِي كِتَابِ (الْإِسْلَامِ خَوَاطِرُ وَسَوَانِحُ) لِلْكُونْتِ دِي كَاسْتِرِي ، وَكَمَا تَرَى فِي الْكِتَابِ الْفَرَنْسِيِّ الَّذِي ظَهَرَ فِي هَذَا الْعَهْدِ بِاسْمِ (حَيَاةِ مُحَمَّدٍ) لِلْمُوسِيُو دِرِمِنْغَامْ وَهَذَانِ الْكِتَابَانِ فَرَنْسِيَّانِ مِنْ طَائِفَةِ الْكَاثُولِيكِ اللَّاتِينِ ، وَقَدْ صَرَّحَا كَغَيْرِهِمَا بِأَنَّ كَنِيسَتَهُمْ هِيَ الْبَادِئَةُ بِالظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَالْإِفْكِ وَالْبُهْتَانِ ، وَبِأَدَبِ الْمُسْلِمِينَ فِي الدِّفَاعِ .

(124/356)

وَلَمَّا ظَهَرَتْ طَائِفَةُ الْبُرُوتُسْتَانِ وَغَلَبَ مَذْهَبُهَا فِي شُعُوبِ الْأَنْجُلُوسَكْسُونِ وَالْجِرْمَانِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ فِي دَعْوَتِهِمُ الْإِصْلَاحِيَّةِ لِمَا انْعَكَسَ عَلَى أُورُبَّةَ مِنْ نُورِ الْإِسْلَامِ ، لَمْ يَتَعَفَّفْ قُسُوسُهُمْ وَدُعَاتُهُمْ (الْمُبَشِّرُونَ) عَنِ افْتِرَاءِ الْكَذِبِ ، وَلَا تَجَمَّلُوا فِيهِ بِشَيْءٍ مِنَ النَّزَاهَةِ وَالْأَدَبِ ، وَالَّذِي نَرَاهُ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ مَطَاعِنِهِمْ وَافْتِرَائِهِمْ وَسُوءِ أَدَبِهِمْ أَشَدُّ مِمَّا نَرَاهُ مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَلَكِنِ الَّذِينَ أَنْصَفُوا الْإِسْلَامَ مِنْ أَحْرَارِ عُلَمَائِهِمْ أَصْرَحُ قَوْلًا ، وَلَعَلَّهُمْ أَكْثَرُ مِنَ اللَّاتِينِ عَدَدًا ، وَكَذَلِكَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا بِهِ ، وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْحُرِّيَّةَ وَالِاسْتِقْلَالَ فِي تَرْبِيَتِهِمْ أَقْوَى ، وَسَيَكُونُونَ هُمُ الَّذِينَ يَنْشُرُونَ الْإِسْلَامَ فِي أُورُبَّةَ وَالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِكَانِيَّةِ ، ثُمَّ فِي

سَائِرِ الْعَالَمِ كَمَا جَزَمَ الْعَلَّامَةُ بِرْنَارْدُ شُو الْإِنْكِلِيزِيُّ فِي كِتَابِهِ (الْحَيَاةُ الزَّوْجِيَّةُ) .

مَسْأَلَةُ الْآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ أَيِ الْخَوَارِقِ :

(125/356)

بَقِيَ الْكَلَامُ فِي مَسْأَلَةِ الْعَجَائِبِ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى أَسَاسِهَا الْكَنَائِسُ النَّصْرَانِيَّةُ عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهَا . وَفِيمَا يَدَّعُونَهُ مَنْ تَجَرُّدِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ لِبَاسِهَا ، وَهِيَ قَدْ أَصْبَحَتْ فِي هَذَا الْعَصْرِ حُجَّةً عَلَى دِينِهِمْ لَا لَهُ ، وَصَادَّةً لِلْعُلَمَاءِ وَالْعُقَلَاءِ عَنْهُ لَا مُقْنِعَةً بِهِ ، وَلَوْلَا حِكَايَةُ الْقُرْآنِ لِآيَاتِ اللهِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ لَكَانَ إِقْبَالُ أَحْرَارِ الْإِفْرِنْجِ عَلَيْهِ أَكْثَرَ ، وَاهْتِدَاؤُهُمْ بِهِ أَعَمَّ وَأَسْرَعَ ؛ لِأَنَّ أَسَاسَهُ قَدْ بُنِيَ عَلَى الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَمُوَافَقَةِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَتَزْكِيَةِ أَنْفُسِ الْأَفْرَادِ ، وَتَرْقِيَةِ مَصَالِحِ الِاجْتِمَاعِ ، وَأَمَّا آيَتُهُ الَّتِي احْتَجَّ بِهَا عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى هِيَ الْقُرْآنُ ، وَأُمِّيَّةُ مُحَمَّدٍ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، فَهِيَ آيَةٌ عِلْمِيَّةٌ تُدْرَكُ بِالْعَقْلِ وَالْحِسِّ وَالْوِجْدَانِ .

كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِي الْيُتْمِ

(126/356)

وَأَمَّا تِلْكَ الْعَجَائِبُ الْكَوْنِيَّةُ فَهِيَ مَثَارُ شُبُهَاتٍ وَتَأْوِيلَاتٍ كَثِيرَةٍ فِي رِوَايَتِهَا وَفِي صِحَّتِهَا وَفِي دَلَالَتِهَا وَأَمْثَالُ هَذِهِ الْأُمُورِ تَقَعُ مِنْ أُنَاسٍ كَثِيرِينَ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَالْمَنْقُولُ مِنْهَا عَنْ صُوفِيَّةِ الْهُنُودِ وَالْمُسْلِمِينَ أَكْثَرُ مِنَ الْمَنْقُولِ عَنِ الْعَهْدَيْنِ : الْعَتِيقِ وَالْجَدِيدِ ، وَعَنْ مَنَاقِبِ الْقِدِّيسِينَ ; وَهِيَ مِنْ مُنَفَّرَاتِ الْعُلَمَاءِ عَنِ الدِّينِ فِي هَذَا الْعَصْرِ . وَسَنُبَيِّنُ مَا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ فِيهَا مِنَ الْفَصْلِ .

الْعَجَائِبُ وَمَا لِلْمَسِيحِ مِنْهَا :

جَاءَ فِي تَعْرِيفِ الْعَجَائِبِ وَأَنْوَاعِهَا مِنْ قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ مَا نَصُّهُ :

(عَجِيبَةٌ : حَادِثَةٌ تَحْدُثُ بِقُوَّةٍ إِلَهِيَّةٍ خَارِقَةٍ مَجْرَى الْعَادَةِ الطَّبِيعِيَّةِ لِإِثْبَاتِ إِرْسَالِيَّةِ مَنْ جَرَتْ

عَلَى يَدِهِ أَوْ فِيهِ . وَالْعَجِيبَةُ الْحَقِيقِيَّةُ هِيَ فَوْقَ الطَّبِيعَةِ لَا ضِدُّهَا تَحْدُثُ بِتَوْقِيفِ نَوَامِيسِ الطَّبِيعَةِ لَا بِمُعَاكَسَتِهَا ، وَهِيَ إِظْهَارُ نِظَامٍ أَعْلَى مِنَ الطَّبِيعَةِ يَخْضَعُ لَهُ النِّظَامُ الطَّبِيعِيُّ ، وَلَنَا فِي فِعْلِ الْإِرَادَةِ مِثَالٌ يُظْهِرُ لَنَا حَقِيقَةَ أَمْرِ الْعَجَائِبِ إِذْ بِهَا نَرْفَعُ الْيَدَ وَبِذَلِكَ نُوقِفُ نَامُوسَ الثِّقَلِ وَيَتَسَلَّطُ اللهُ عَلَى قُوَى الطَّبِيعَةِ ، وَيُرْشِدُهَا ، وَيَمُدُّ مَدَارَهَا أَوْ يَحْصُرُهُ ; لِأَنَّهَا عَوَامِلُ لِمَشِيئَتِهِ وَيُنَاطُ فِعْلُ الْعَجَائِبِ بِاللهِ وَحْدَهُ أَوْ بِمَنْ سَمَحَ لَهُ بِذَلِكَ .

(127/356)

وَإِذَا آمَنَّا بِالْإِلَهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ لَمْ يَعْسُرْ عَلَيْنَا التَّسْلِيمُ بِإِمْكَانِ الْعَجَائِبِ . وَكَانَتِ الْعَجِيبَةُ الْأُولَى خَلِيقَةَ الْكَوْنِ مِنَ الْعَدَمِ بِإِرَادَتِهِ تَعَالَى . أَمَّا الْمَسِيحُ فَأُقْنُومُهُ عَجِيبَةٌ أَدَبِيَّةٌ عَظِيمَةٌ وَعَجَائِبُهُ لَمْ تَكُنْ إِلَّا إِظْهَارَ هَذَا الْأُقْنُومِ وَأَعْمَالِهِ ، وَإِذَا آمَنَّا بِالْمَسِيحِ ابْنِ اللهِ الْعَدِيمِ الْخَطِيَّةِ لَمْ يَعْسُرْ عَلَيْنَا تَصْدِيقُ عَجَائِبِهِ . أَمَّا الشَّيْطَانُ فَعَجَائِبُهُ كَذَّابَةٌ .

وَلَا بُدَّ مِنَ الْعَجَائِبِ لِتَعْزِيزِ الدِّيَانَةِ ، فَكَثِيرًا مَا يَسْتَشْهِدُ الْمَسِيحُ بِعَجَائِبِهِ لِإِثْبَاتِ هُوِّيَّتِهِ وَكَوْنِهِ الْمَسِيحَ ، وَكَانَ يَفْعَلُهَا لِتَمْجِيدِ اللهِ وَلِمَنْفَعَةِ نُفُوسِ النَّاسِ وَأَبْدَانِهِمْ ، كَانَ يَفْعَلُهَا ظَاهِرًا أَمَامَ جَمَاهِيرِ أَصْحَابِهِ وَأَعْدَائِهِ ، وَلَمْ يُنْكِرْهَا أَعْدَاؤُهُ غَيْرَ أَنَّهُمْ نَسَبُوهَا لِبَعْلَزَبُولَ ، وَسَوَاءٌ امْتَحَنَّاهَا بِالشَّهَادَةِ مِنَ الْخَارِجِ ، وَبِمُنَاسَبَتِهَا إِلَى إِرْسَالِيَّتِهِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي ظَهَرَتْ لِكُلِّ مَنْ كَانَ خَالِيًا مِنَ الْغَرَضِ صَحِيحَةً . فَإِذَا لَمْ نُسَلِّمْ بِصِحَّتِهَا الْتَزَمْنَا أَنْ نَقُولَ بِأَنَّ مُقَرِّرِيهَا كَذَّابُونَ ; الْأَمْرُ الَّذِي لَا يَسُوغُ ظَنُّهُ بِالْمَسِيحِ وَالرُّسُلِ .

(128/356)

وَبَقِيَتْ قُوَّةُ الْعَجَائِبِ فِي عَصْرِ الرُّسُلِ ، وَلَمَّا امْتَدَّتِ الدِّيَانَةُ الْمَسِيحِيَّةُ زَالَ الِاضْطِرَارُ إِلَيْهَا وَلَا يَلْزَمُنَا الْآنَ سِوَى الْعَجَائِبِ الْأَدَبِيَّةِ الْحَاصِلَةِ مِنْ هَذِهِ الدِّيَانَةِ مَعَ الشَّوَاهِدِ الدَّاخِلِيَّةِ عَلَى صِحَّتِهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ يُمْكِنُ لِلَّهِ تَعَالَى أَنْ يُجَدِّدَهَا فِي أَيِّ وَقْتٍ شَاءَ) اهـ .

ثُمَّ وَضَعَ الْمُؤَلِّفُ حُلُولًا أَحْصَى فِيهِ عَجَائِبَ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ مِنْ خَرَابِ سَدُومَ وَعَمُّورَةَ عَلَى قَوْمِ لُوطٍ إِلَى (خَلَاصِ يُونَانَ (يُونُسَ) بِوَاسِطَةِ حُوتٍ) فَبَلَغَتْ 67 عَجِيبَةً ، وَقَفَّى عَلَيْهِ بِجَدْوَلِ الْعَجَائِبِ الْمَقْرُونَةِ بِحَيَاةِ الْمَسِيحِ مِنَ الْحَبَلِ بِهِ (بِفِعْلِ الرُّوحِ الْقُدُسِ) إِلَى (الصُّعُودِ إِلَى السَّمَاءِ) فَبَلَغَتْ 37 ، وَعَزَّزَ الْجَدْوَلَيْنِ بِثَالِثٍ فِي (الْعَجَائِبِ الَّتِي جَرَتْ فِي عَصْرِ الرُّسُلِ) أَيِ الَّذِينَ بَثُّوا دَعْوَةَ الْمَسِيحِ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ (انْسِكَابِ الرُّوحِ الْقُدُسِ يَوْمَ الْخَمِيسِ) إِلَى (شِفَاءِ أَبِي بُوبْلِيُوسَ وَغَيْرِهِ) فَكَانَتْ عِشْرِينَ . وَقَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ يُوحَنَّا الْمَعْمَدَانِ لَمْ يَرِدْ فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ صَنَعَ عَجَائِبَ .

بَحْثٌ فِي عَجَائِبِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

(129/356)

أَقُولُ : إِنَّ 27 مِنْ عَجَائِبِ الْمَسِيحِ الْمَذْكُورَةِ شِفَاءُ مَرْضَى وَمَجَانِينَ لَابَسَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ ، وَثَلَاثٌ مِنْهَا إِقَامَةُ مَوْتَى عَقِبَ مَوْتِهِمْ ، وَمَا بَقِيَ فَمَسْأَلَةُ الْحَبَلِ بِهِ وَتَحْوِيلُهُ الْمَاءَ إِلَى خَمْرٍ

وَسَحْبِ الشَّبَكَةِ فِي بَحْرِ الْجَلِيلِ ، وَإِشْبَاعِ خَمْسَةِ آلَافٍ مَرَّةً وَأَرْبَعَةِ آلَافٍ مَرَّةً أُخْرَى ، وَضَرْبُ التِّينَةِ الْعَقِيمَةِ بِمَا أَيْبَسَهَا ، وَقِيَامَةُ الْمَسِيحِ ، وَصَيْدُ السَّمَكِ وَالصُّعُودِ .

وَإِنَّنَا نُلَخِّصُ رِوَايَةَ الْأَنَاجِيلِ لِأَهَمِّهَا وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَوْتَى ، وَنَذْكُرُ مَا يَقُولُهُ فِيهَا مُنْكِرُو الْعَجَائِبِ

الْمَيِّتُ الْأَوَّلُ شَابٌّ مِنْ مَدِينَةِ نَايِينَ كَانَ مَحْمُولًا فِي جَنَازَةٍ وَأُمُّهُ تَبْكِي فَاسْتَوْقَفَ النَّعْشَ ، وَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الشَّابُّ لَكَ أَقُولُ قُمْ ; فَجَلَسَ وَابْتَدَأَ يَتَكَلَّمُ ، فَدَفَعَهُ إِلَى أُمِّهِ ، فَأَخَذَ الْجَمِيعَ خَوْفٌ وَمَجَّدُوا اللهَ قَائِلِينَ : قَدْ قَامَ فِينَا نَبِيٌّ عَظِيمٌ وَافْتَقَدَ اللهُ شَعْبَهُ (لُوقَا 7 : 11 – 16)

الثَّانِي : صَبِيَّةٌ مَاتَتْ فَقَالَ لَهُ أَبُوهَا وَكَانَ رَئِيسًا : ابْنَتِي الْآنَ مَاتَتْ لَكِنْ تَعَالَ فَضَعْ يَدَكَ عَلَيْهَا فَتَحْيَا . فَجَاءَ بَيْتَ الرَّئِيسِ وَوَجَدَ الْمُزَمِّرِينَ وَالْجَمْعَ يَضِجُّونَ فَقَالَ لَهُمْ (تَنَحَّوْا فَإِنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَمُتْ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ) فَضَحِكُوا عَلَيْهِ ، فَلَمَّا أَخْرَجَ الْجَمْعَ دَخَلَ وَأَمْسَكَ بِيَدِهَا فَقَامَتِ الصَّبِيَّةُ (مَتَّ 9 : 18 – 24) .

(130/356)

فَمُنْكِرُو الْعَجَائِبِ يَقُولُونَ إِنَّ كُلًّا مِنَ الشَّابِّ وَالشَّابَّةِ لَمْ يَكُونَا قَدْ مَاتَا بِالْفِعْلِ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فِي كُلِّ زَمَانٍ قَدْ قَامُوا مِنْ نُعُوشِهِمْ ، بَلْ مِنْ قُبُورِهِمْ بَعْدَ أَنْ ظَنَّ النَّاسُ أَنَّهُمْ مَاتُوا ، وَلِذَلِكَ تَمْنَعُ الْحُكُومَاتُ الْمَدَنِيَّةُ دَفْنَ الْمَيِّتِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكْتُبَ أَحَدُ الْأَطِبَّاءِ شَهَادَةً بِمَوْتِهِ . وَلِلْمُؤْمِنِينَ بِالْآيَاتِ أَنْ يَجْزِمُوا أَيْضًا بِأَنَّ الصَّبِيَّةَ لَمْ تَكُنْ مَيِّتَةً أَخْذًا بِظَاهِرِ قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(131/356)

وَأَمَّا الثَّالِثُ فَهُوَ (لِيعَازَرُ) حَبِيبُهُ وَأَخُو مَرْثَا وَمَرْيَمَ حَبِيبَتِهِ : مَرِضَ فِي قَرْيَتِهِمْ (بَيْتِ عَنْيَا) فَأَرْسَلَتَا إِلَى الْمَسِيحِ قَائِلَتَيْنِ : (هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ) فَمَكَثَ يَوْمَيْنِ وَحَضَرَ فَوَجَدَ أَنَّهُ مَاتَ مُنْذُ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ فَلَاقَتْهُ مَرْثَا وَقَالَتْ : يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي ، ثُمَّ دَعَتْ أُخْتَهَا مَرْيَمَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً كَمَا قَالَتْ مَرْثَا ، وَكَانُوا قَدْ ذَهَبُوا إِلَى عِنْدِ الْقَبْرِ لِلْبُكَاءِ ، فَلَمَّا رَآهَا تَبْكِي وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ (انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ) وَقَالَ : (أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ ؟) فَدَلُّوهُ عَلَيْهِ فَبَكَى وَانْزَعَجَ فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ ، فَأَمَرَ بِرَفْعِ الْحَجَرِ فَرَفَعُوهُ (وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ : أَيُّهَا الْأَبُ أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي ، وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي ، وَلَكِنْ لِأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي) وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ (لِعَازَرَ ! هَلُمَّ

خَارِجًا) فَخَرَجَ الْمَيِّتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلَاهُ مَرْبُوطَتَانِ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ ، فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ : حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ . انْتَهَى . مُلَخَّصًا مِنَ الْفَصْلِ 11 مِنْ إِنْجِيلِ يُوحَنَّا .

(132/356)

أَتَدْرِي أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا يَقُولُ مُنْكِرُو الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ الرِّوَايَةِ ؟ إِنِّي سَمِعْتُ طَبِيبًا سُورِيًّا بُرُوتُسْتَنْتِيًّا يَقُولُ : إِنَّهَا كَانَتْ بِتَوَاطُؤٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَبِيبَتَيْهِ وَحَبِيبِهِ لِإِقْنَاعِ الْيَهُودِ بِنُبُوَّتِهِ . وَحَاشَاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَإِنَّمَا نَنْقُلُ هَذَا لِنُبَيِّنَ أَنَّ النَّصَارَى لَا يَسْتَطِيعُونَ إِقَامَةَ الْبُرْهَانِ فِي هَذَا الْعَصْرِ عَلَى نُبُوَّةِ الْمَسِيحِ فَضْلًا عَنْ أُلُوهِيَّتِهِ بِهَذِهِ الرِّوَايَاتِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى النُّبُوَّةِ وَتَنْفِي الْأُلُوهِيَّةَ ، كَمَا فَهِمَ الَّذِينَ شَاهَدُوهَا ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ لَهَا أَسَانِيدُ مُتَّصِلَةٌ إِلَى كَاتِبِيهَا ، وَلَا دَلِيلَ عَلَى عِصْمَتِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ فِي رِوَايَتِهَا ، دَعْ قَوْلَ الْمُنْكِرِينَ بِاحْتِمَالِ الِاحْتِيَالِ وَالتَّلْبِيسِ أَوِ الْمُصَادَقَةِ فِيهَا ، أَوْ عَدَّهُمْ إِيَّاهَا عَلَى تَقْدِيرِ ثُبُوتِهَا مِنْ فَلَتَاتِ الطَّبِيعَةِ .

وَإِذَا كَانَ أَعْظَمُهَا وَهُوَ إِحْيَاءُ الْمَيِّتِ يَحْتَمِلُ مَا ذَكَرُوا مِنَ التَّأْوِيلِ فَمَا الْقَوْلُ فِي شِفَاءِ الْمَرْضَى وَإِخْرَاجِ الشَّيَاطِينِ الَّذِي يَكْثُرُ وُقُوعُ مِثْلِهِ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَالْأَطِبَّاءُ كُلُّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّ مَا يَدَّعِي الْعَوَّامُ مِنْ دُخُولِ الشَّيَاطِينِ فِي أَجْسَادِ النَّاسِ مَا هُوَ إِلَّا أَمْرَاضٌ عَصَبِيَّةٌ تُشْفَى

بِالْمُعَالَجَةِ أَوْ بِالْوَهْمِ وَالِاعْتِقَادِ وَدُونَهَا مَسْأَلَةُ الْخَمْرِ وَالسَّمَكِ وَيُبْسِ التِّينَةِ .

آيَةُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ عَقْلِيَّةٌ عِلْمِيَّةٌ وَسَائِرُ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ :

(133/356)

هَذَا وَإِنَّ مَا رَوَاهُ الْمُحَدِّثُونَ بِالْأَسَانِيدِ الْمُتَّصِلَةِ تَارَةً وَبِالْمُرْسَلَةِ أُخْرَى مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي أَكْرَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا رَسُولَهُ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هِيَ أَكْثَرُ مِنْ كُلِّ مَا رَوَاهُ الْإِنْجِيلِيُّونَ وَأَبْعَدُ عَنِ التَّأْوِيلِ . وَلَمْ يَجْعَلْهَا بُرْهَانًا عَلَى صِحَّةِ الدِّينِ وَلَا أَمَرَ بِتَلْقِينِهَا لِلنَّاسِ

.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ وَرِسَالَتَهُ قَائِمَةً عَلَى قَوَاعِدِ الْعِلْمِ وَالْعَقْلِ فِي ثُبُوتِهَا وَفِي مَوْضُوعِهَا ; لِأَنَّ الْبَشَرَ قَدْ بَدَءُوا يَدْخُلُونَ فِي سِنِّ الرُّشْدِ وَالِاسْتِقْلَالِ النَّوْعِيِّ الَّذِي لَا يَخْضَعُ عَقْلُ صَاحِبِهِ فِيهِ لِاتِّبَاعِ مَنْ تَصْدُرُ عَنْهُمْ أُمُورٌ عَجِيبَةٌ مُخَالِفَةٌ لِلنِّظَامِ الْمَأْلُوفِ فِي سُنَنِ الْكَوْنِ ، بَلْ لَا يَكْمُلُ ارْتِقَاؤُهُمْ وَاسْتِعْدَادُهُمْ بِذَلِكَ ، بَلْ هُوَ مِنْ مَوَانِعِهِ ، فَجَعَلَ حُجَّةَ نُبُوَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ عَيْنَ مَوْضُوعِ نُبُوَّتِهِ وَهُوَ كِتَابُهُ الْمُعْجِزُ لِلْبَشَرِ بِهِدَايَتِهِ وَعُلُومِهِ وَإِعْجَازِهِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ : كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ لِيُرَبِّيَ الْبَشَرَ عَلَى التَّرَقِّي فِي هَذَا الِاسْتِقْلَالِ ، إِلَى مَا هُمْ مُسْتَعِدُّونَ لَهُ مِنَ الْكَمَالِ .

هَذَا الْفَصْلُ بَيْنَ النُّبُوَّاتِ الْخَاصَّةِ الْمَاضِيَةِ ، وَالنُّبُوَّةِ الْعَامَّةِ الْبَاقِيَةِ ، قَدْ عَبَّرَ عَنْهُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِقَوْلِهِ : (مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ . وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – .

وَقَصَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا فِي كِتَابِهِ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ اقْتَرَحُوا الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةَ (الْعَجَائِبَ) عَلَى رَسُولِهِ فَاحْتَجَّ عَلَيْهِمْ بِالْقُرْآنِ فِي جُمْلَتِهِ وَبِمَا فِيهِ مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ وَالْكُتُبِ السَّابِقَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهَا هُوَ وَلَا قَوْمُهُ ، وَبِهِدَايَتِهِ وَبِعُلُومِهِ وَبِإِعْجَازِهِ ، وَعَدَمِ اسْتِطَاعَةِ أَحَدٍ وَلَا جَمَاعَةٍ وَلَا الْعَالَمِ كُلِّهِ عَلَى الْإِتْيَانِ بِمِثْلِهِ (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) (17 : 88) .

وَأَمَّا مَا أَكْرَمَهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ فَلَمْ يَكُنْ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَى نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، بَلْ كَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعَالَى وَعِنَايَتِهِ بِهِ وَبِأَصْحَابِهِ فِي الشَّدَائِدِ : كَنَصْرِهِمْ عَلَى الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْكُفَّارِ الَّذِينَ يَفُوقُونَهُمْ عَدَدًا وَعُدَدًا وَاسْتِعْدَادًا بِالسِّلَاحِ وَالطَّعَامِ ، وَنَاهِيكَ بِغَزْوَةِ بَدْرٍ وَالنَّصْرِ فِيهَا ، ثُمَّ بِغَزْوَةِ الْأَحْزَابِ إِذْ تَأَلَّبَ الْمُشْرِكُونَ وَالْيَهُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأَحَاطُوا بِمَدِينَتِهِمْ فَرَدَّهُمُ اللهُ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ .

(136/356)

مِنْ تِلْكَ الْآيَاتِ شِفَاءُ الْمَرْضَى وَإِبْصَارُ الْأَعْمَى وَإِشْبَاعُ الْعَدَدِ الْكَثِيرِ مِنَ الطَّعَامِ الْقَلِيلِ فِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ وَفِي غَزْوَةِ تَبُوكَ كَمَا وَقَعَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمِنْهُ تَسْخِيرُ اللهِ السَّحَابَ لِإِسْقَاءِ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَثْبِيتُ أَقْدَامِهِمُ الَّتِي كَانَتْ تَسِيخُ فِي الرَّمْلِ بِبَدْرٍ ، وَلَمْ يُصِبِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ غَيْثِهَا شَيْءٌ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ إِذْ نَفِدَ مَاءُ الْجَيْشِ فِي الصَّحْرَاءِ وَالْحَرُّ شَدِيدٌ حَتَّى كَانُوا يَذْبَحُونَ الْبَعِيرَ وَيُخْرِجُونَ الْفَرْثَ مِنْ كَرِشِهِ لِيَعْتَصِرُوهُ وَيَبُلُّوا بِهِ أَلْسِنَتَهُمْ عَلَى قِلَّةِ الرَّوَاحِلِ مَعَهُمْ ، وَكَانَ يَقِلُّ مَنْ يَجِدُ مِنْ عُصَارَتِهِ مَا يَشْرَبُهُ شُرْبًا ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اللهَ عَوَّدَكَ فِي الدُّعَاءِ خَيْرًا فَادْعُ لَنَا فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَدَعَا فَلَمْ يَرْجِعْهُمَا

حَتَّى كَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ سَكَبَتْ لَهُمْ مَاءً مَلَئُوا مَا مَعَهُمْ مِنَ الرَّوَايَا وَلَمْ تَتَجَاوَزْ عَسْكَرَهُمْ .

تَأْثِيرُ الْعَجَائِبِ فِي الْأَفْرَادِ وَالْأُمَمِ .

(137/356)

لَقَدْ كَانَتْ آيَاتُ الْمُرْسَلِينَ حُجَّةً عَلَى الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ اسْتَحَقُّوا بِجُحُودِهَا عَذَابَ اللهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَمْ يُؤْمِنْ بِهَا مِمَّنْ شَاهَدُوهَا إِلَّا الْمُسْتَعِدُّونَ لِلْإِيمَانِ بِهَا ، إِنَّ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ لَمْ يُؤْمِنُوا بِآيَاتِ مُوسَى ، وَإِنَّ أَكْثَرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمْ يَعْقِلُوهَا ، وَقَدِ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ وَعَبَدُوهُ بَعْدَ رُؤْيَتِهَا . وَقَالَ الْيَهُودُ فِي الْمَسِيحِ : لَوْلَا أَنَّهُ رَئِيسُ الشَّيَاطِينِ لَمَا أَخْرَجَ الشَّيْطَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ وَقَالُوا : إِنَّ إِبْلِيسَ أَوْ بَعْلَزَبُولَ يَفْعَلُ أَكْبَرَ مِنْ فِعْلِهِ ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ . وَقَالَ الْمُنَافِقُونَ وَقَدْ رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ سَحَابَةً وَاحِدَةً فِي إِبَّانِ الْقَيْظِ قَدْ مَطَرَتْ عَسْكَرَ الْمُؤْمِنِينَ وَحْدَهُ عِنْدَ دُعَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : إِنَّنَا مُطِرْنَا بِتَأْثِيرِ النَّوْءِ لَا بِدُعَائِهِ .

وَقَدْ كَانَ أَكْثَرُ مَنْ آمَنَ بِتِلْكَ الْآيَاتِ إِنَّمَا خَضَعَتْ أَعْنَاقُهُمْ وَاسْتَخْذَتْ أَنْفُسُهُمْ لِمَا لَا يَعْقِلُونَ لَهُ سَبَبًا ، وَقَدِ انْطَوَتِ الْفِطْرَةُ عَلَى أَنَّ كُلَّ مَا لَا يُعْرَفُ لَهُ سَبَبٌ فَالْآتِي بِهِ مَظْهَرٌ لِلْخَالِقِ سُبْحَانَهُ إِنْ لَمْ يَكُنْ هُوَ الْخَالِقَ نَفْسَهُ وَكَانَ أَضْعَافُ أَضْعَافِهِمْ يَخْضَعُ مِثْلَ هَذَا الْخُضُوعِ

نَفْسِهِ لِلسَّحَرَةِ وَالْمُشَعْوِذِينَ وَالدَّجَّالِينَ وَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ .

وَقَدْ نَقَلُوا عَنِ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ سَيَأْتِي بَعْدَهُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ

(138/356)

وَيُعْطَوْنَ آيَاتٍ عَظِيمَةً وَعَجَائِبَ حَتَّى يَضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ الْمُخْتَارِينَ أَيْضًا (مَتَّى 24 : 24)

وَقَدْ ذَكَرَ فِي قَامُوسِ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ عَدَدًا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَأَسْمَاءَ بَعْضِهِمْ . وَأَقُولُ : إِنَّ مِنْهُمُ الْقَادْيَانِيُّ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ مُسْلِمِي الْهِنْدِ ، وَتَذْكُرُ صُحُفُ الْأَخْبَارِ ظُهُورَ هِنْدِيٍّ آخَرَ يُرِيدُ إِظْهَارَ عَجَائِبِهِ فِي أَمْرِيكَا فِي هَذَا الْعَامِ وَنَقَلُوا عَنِ الْمَسِيحِ أَنَّهُ قَالَ : (الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ لَيْسَ كُلُّ نَبِيٍّ مَقْبُولًا فِي وَطَنِهِ) وَجَعَلَ الْقَاعِدَةَ لِمَعْرِفَةِ النَّبِيِّ الصَّادِقِ تَأْثِيرَ هِدَايَتِهِ فِي النَّاسِ لَا الْآيَاتِ وَالْعَجَائِبَ فَقَالَ : (مِنْ ثِمَارِهِمْ تَعْرِفُونَهُمْ) وَلَمْ يَظْهَرْ بَعْدَهُ – وَلَا قَبْلَهُ – نَبِيٌّ كَانَتْ ثِمَارُهُ الطَّيِّبَةُ فِي هِدَايَةِ الْبَشَرِ كَثِمَارِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَلَا أَحَدَ يَصْدُقُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ فِي إِنْجِيلِ يُوحَنَّا (16 : 12 إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا وَلَكِنْ لَا تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الْآنَ ، وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَلِكَ (أَيِ الْبَارْقَلِيطُ رُوحُ الْحَقِّ فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ) إِلَخْ وَمَا جَاءَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ أَرْشَدَ النَّاسَ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ فِي الدِّينِ مِنْ تَوْحِيدٍ وَتَشْرِيعٍ وَحِكْمَةٍ وَتَأْدِيبٍ غَيْرَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ .

وَمَنِ اسْتَقْرَأَ تَوَارِيخَ الْأُمَمِ عَلِمَ أَنَّ أَهْلَ الْمِلَلِ الْوَثَنِيَّةِ أَكْثَرُ اعْتِمَادًا عَلَى الْعَجَائِبِ مِنْ أَهْلِ الْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَّةِ ، وَرَأَى الْجَمِيعَ يَنْقُلُونَ مِنْهَا عَنْ مُعْتَقَدِيهِمْ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْقِدِّيسِينَ أَكْثَرَ مِمَّا نَقَلُوا عَنِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ ، وَأَنَّ أَكْثَرَ الْمُصَدِّقِينَ بِهَا مِنَ الْخُرَافِيِّينَ .

ثُبُوتُ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ بِنَفْسِهَا وَإِثْبَاتِهَا لِغَيْرِهَا :

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَدْ ثَبَتَتْ بِنَفْسِهَا ، أَيْ بِالْبُرْهَانِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَقْلِيِّ الَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ لَا بِالْآيَاتِ وَالْعَجَائِبِ الْكَوْنِيَّةِ ، وَأَنَّ هَذَا الْبُرْهَانَ قَائِمٌ مَاثِلٌ لِلْعُقُولِ وَالْحَوَاسِّ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ آيَاتِ النَّبِيِّينَ السَّابِقِينَ إِلَّا بِثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي جَاءَ بِهِ ، فَالْحُجَّةُ الْوَحِيدَةُ عَلَيْهَا فِي هَذَا الطَّوْرِ الْعِلْمِيِّ الِاسْتِقْلَالِيِّ مِنْ أَطْوَارِ النَّوْعِ الْبَشَرِيِّ هُوَ شَهَادَتُهُ لَهَا . فَإِنَّ الْكُتُبَ الَّتِي نَقَلَتْهَا لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ عَزْوِهَا إِلَى مَنْ عُزِيَتْ إِلَيْهِمْ ؛ إِذْ لَا يُوجَدُ نُسَخٌ مِنْهَا مَنْقُولَةٌ عَنْهُمْ بِاللُّغَاتِ الَّتِي كَتَبُوهَا بِهَا لَا تَوَاتُرًا وَلَا آحَادًا ، وَلَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ عِصْمَتِهِمْ مِنَ الْخَطَأِ فِيمَا كَتَبُوهُ عَلَى اخْتِلَافِهِ وَتَنَاقُضِهِ وَتَعَارُضِهِ ، وَلَا إِثْبَاتُ صِحَّةِ التَّرَاجِمِ الَّتِي نُقِلَتْ بِهَا ، كَمَا قُلْنَا آنِفًا وَبَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ مِرَارًا .

(140/356)

الْكِتَابُ الْإِلَهِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي نُقِلَ بِنَصِّهِ الْحَرْفِيِّ تَوَاتُرًا عَمَّنْ جَاءَ بِهِ بِطَرِيقَتَيِ الْحِفْظِ وَالْكِتَابَةِ مَعًا هُوَ الْقُرْآنُ ، وَالنَّبِيُّ الْوَحِيدُ الَّذِي نُقِلَ تَارِيخُهُ بِالرِّوَايَاتِ الْمُتَّصِلَةِ الْأَسَانِيدِ حِفْظًا وَكِتَابَةً هُوَ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَالدِّينُ الْوَحِيدُ الَّذِي يُمْكِنُ لِلْعُلَمَاءِ الْمُسْتَقِلِّينَ فِي الْفَهْمِ وَالرَّأْيِ أَنْ يَعْقِلُوهُ وَيَبْنُوا عَلَيْهِ حُكْمَهُمْ هُوَ الْإِسْلَامُ . وَأَمَّا خُلَاصَةُ مَا يُمْكِنُ الِاعْتِرَافُ بِهِ مِنَ الْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ لِثُبُوتِ قَضَايَاهُ الْإِجْمَالِيَّةِ بِالتَّوَاتُرِ الْمَعْنَوِيِّ ، فَهُوَ أَنَّهُ وُجِدَ فِي جَمِيعِ أُمَمِ الْحَضَارَةِ الْقَدِيمَةِ

دُعَاةٌ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَإِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَإِلَى تَرْكِ الشُّرُورِ وَالرَّذَائِلِ مِنْهُمْ أَنْبِيَاءُ مُبَلِّغُونَ عَنِ اللهِ تَعَالَى مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، كَمَا أَنَّهُ وُجِدَ فِيهِمْ حُكَمَاءُ يَبْنُونَ إِرْشَادَهُمْ عَلَى الِاحْتِجَاجِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَيَضُرُّهُمْ بِحُكْمِ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ – وَوُجِدَ فِي جَمِيعِ مَا نُقِلَ عَنِ الْفَرِيقَيْنِ أُمُورٌ مُخَالِفَةٌ لِلْعَقْلِ وَلِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَأُمُورٌ خَاصَّةٌ بِأَهْلِهَا وَبِزَمَانِهِمْ ، وَخُرَافَاتٌ يُنْكِرُهَا الْعَقْلُ وَيَنْقُضُهَا الْعِلْمُ .

(141/356)

وَإِذَا كَانَ الْإِسْلَامُ وَنَبِيُّهُ هُوَ الدِّينَ الْوَحِيدَ الَّذِي عُرِفَتْ حَقِيقَتُهُ وَتَارِيخُهُ بِالتَّفْصِيلِ فَإِنَّنَا نَذْكُرُ هُنَا شُبْهَةَ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ الْمَادِّيِّينَ وَمُقَلِّدِيهِمْ عَلَيْهِ ، بَعْدَ مُقَدِّمَةٍ فِي شَهَادَتِهِمُ الْإِجْمَالِيَّةِ لَهُ ، تَمْهِيدًا لِدَحْضِ الشُّبْهَةِ ، وَنُهُوضِ الْحُجَّةِ ، فَنَقُولُ :

(دَرْسُ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ لِلسِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ وَشَهَادَتُهُمْ بِصِدْقِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –)

دَرَسَ عُلَمَاءُ الْإِفْرِنْجِ تَارِيخَ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَبَعْدَهُ عَلَى طَرِيقَتِهِمْ فِي النَّقْدِ وَالتَّحْلِيلِ ، وَدَرَسُوا السِّيرَةَ النَّبَوِيَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ وَفَلَوْهَا فَلْيًا وَنَقَشُوهَا بِالْمَنَاقِيشِ ، وَقَرَءُوا الْقُرْآنَ بِلُغَتِهِ وَقَرَءُوا مَا تَرْجَمَهُ بِهِ أَقْوَامُهُمْ ، وَكَانُوا عَلَى عِلْمٍ مُحِيطٍ بِكُتُبِ الْعَهْدَيْنِ الْقَدِيمِ وَالْجَدِيدِ ، وَتَارِيخِ الْأَدْيَانِ وَلَا سِيَّمَا الدِّيَانَتَيْنِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ ، وَبِمَا كَتَبَهُ الْمُتَعَصِّبُونَ لِلْكَنِيسَةِ مِنَ الِافْتِرَاءِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالنَّبِيِّ وَالْقُرْآنِ مِمَّا أَشَرْنَا إِلَى بَعْضِهِ آنِفًا ، فَخَرَجُوا مِنْ هَذِهِ الدُّرُوسِ كُلِّهَا بِالنَّتِيجَةِ الْآتِيَةِ :

(142/356)

(إِنَّ مُحَمَّدًا كَانَ سَلِيمَ الْفِطْرَةِ ، كَامِلَ الْعَقْلِ ، كَرِيمَ الْأَخْلَاقِ ، صَادِقَ الْحَدِيثِ ، عَفِيفَ النَّفْسِ ، قَنُوعًا بِالْقَلِيلِ مِنَ الرِّزْقِ ، غَيْرَ طَمُوعٍ بِالْمَالِ وَلَا جَنُوحٍ إِلَى الْمُلْكِ ، وَلَا يُعْنَى بِمَا كَانَ يُعْنَى بِهِ قَوْمُهُ مِنَ الْفَخْرِ ، وَالْمُبَارَاةِ فِي تَحْبِيرِ الْخُطَبِ وَقَرْضِ الشِّعْرِ ، وَكَانَ يَمْقُتُ مَا كَانُوا

عَلَيْهِ مِنَ الشِّرْكِ وَخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَيَحْتَقِرُ مَا يَتَنَافَسُونَ فِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ الْبَهِيمِيَّةِ ، كَالْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ

وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ، وَبِهَذَا كُلِّهِ وَبِمَا ثَبَتَ مِنْ سِيرَتِهِ وَيَقِينِهِ بَعْدَ النُّبُوَّةِ جَزَمُوا بِأَنَّهُ كَانَ صَادِقًا فِيمَا ادَّعَاهُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ مِنْ رُؤْيَةِ مَلَكِ الْوَحْيِ ، وَإِقْرَائِهِ إِيَّاهُ هَذَا الْقُرْآنَ ، وَإِنْبَائِهِ بِأَنَّهُ رَسُولٌ مِنَ اللهِ لِهِدَايَةِ قَوْمِهِ فَسَائِرِ النَّاسِ) .

وَزَادَهُمْ ثِقَةً بِصِدْقِهِ أَنْ كَانَ أَوَّلُ النَّاسِ إِيمَانًا بِهِ وَاهْتِدَاءً بِنُبُوَّتِهِ أَعْلَمَهُمْ بِدَخِيلَةِ أَمْرِهِ ، وَأَوَّلُهُمْ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ الْمَشْهُورَةُ بِالْعَقْلِ وَالنُّبْلِ وَالْفَضِيلَةِ ، وَمَوْلَاهُ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ الَّذِي اخْتَارَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ عَلَى أَنْ يَلْحَقَ بِوَالِدِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ وَيَكُونَ مَعَهُمْ حُرًّا ، ثُمَّ إِنْ كَانَ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ أَعْظَمِ الْعَرَبِ حُرِّيَّةً وَاسْتِقْلَالًا فِي الرَّأْيِ وَلَا سِيَّمَا أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ .

(143/356)

فَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَبِأَنَّ لِلْبَشَرِ أَرْوَاحًا خَالِدَةً مِنْ هَؤُلَاءِ الْإِفْرِنْجِ فَقَدْ آمَنُوا بِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَلَى عِلْمٍ وَبُرْهَانٍ ، وَهُمْ يَزِيدُونَ عَامًا بَعْدَ عَامٍ ، بِقَدْرِ مَا يُتَاحُ لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ بِالْإِسْلَامِ ، وَأَمَّا الْمَادِّيُّونَ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ بُدٌّ مِنْ تَفْسِيرٍ لِهَذِهِ الْحَادِثَةِ أَوِ الظَّاهِرَةِ الَّتِي

لَا رَيْبَ فِي صِحَّتِهَا وَثُبُوتِهَا ، وَبِتَصْوِيرِهَا بِالصُّورَةِ الَّتِي يَقْبَلُهَا الْعَقْلُ ، الَّذِي لَا يُؤْمِنُ بِمَا وَرَاءَ الْمَادَّةِ أَوِ الطَّبِيعَةِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ .

قَدَحُوا زِنَادَ الْفِكْرِ ، وَاسْتَوْرُوا بِهِ نَظَرِيَّاتِ الْفَلْسَفَةِ ، فَلَاحَ لَهُمْ مِنْهُ سَقْطٌ أَبْصَرُوا فِي ضَوْئِهِ الضَّئِيلِ الصُّورَةَ الْخَيَالِيَّةَ الَّتِي أَجْمَلَهَا الْأُسْتَاذُ مُونْتِيهْ فِي عِبَارَتِهِ الَّتِي نَقَلْنَاهَا عَنْهُ آنِفًا وَفَصَّلَهَا إِمِيلْ دِرِمَنْغَامْ وَغَيْرُهُ بِمَا نَشْرَحُهُ هَاهُنَا .

(شُبْهَةُ مُنْكِرِي عَالَمِ الْغَيْبِ عَلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ)

(وَتَصْوِيرُهُمْ لِنُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)

(144/356)

خُلَاصَةُ رَأْيِ هَؤُلَاءِ الْمَادِّيِّينَ أَنَّ الْوَحْيَ إِلْهَامٌ يَفِيضُ مِنْ نَفْسِ النَّبِيِّ الْمُوحَى إِلَيْهِ لَا مِنَ الْخَارِجِ ، ذَلِكَ أَنَّ نَفْسَهُ الْعَالِيَةَ ، وَسَرِيرَتَهُ الطَّاهِرَةَ ، وَقُوَّةَ إِيمَانِهِ بِاللَّهِ وَبِوُجُوبِ عِبَادَتِهِ وَتَرْكِ مَا سِوَاهَا مِنْ عِبَادَةٍ وَثَنِيَّةٍ ، وَتَقَالِيدَ وِرَاثِيَّةٍ ، يَكُونُ لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ مَا يَتَجَلَّى فِي ذِهْنِهِ وَيُحْدِثُ فِي عَقْلِهِ الرُّؤَى وَالْأَحْوَالَ الرُّوحِيَّةَ ، فَيَتَصَوَّرُ مَا يَعْتَقِدُ وُجُوبَهُ إِرْشَادًا إِلَهِيًّا نَازِلًا عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ بِدُونِ وَاسِطَةٍ ، أَوْ يَتَمَثَّلُ لَهُ رَجُلٌ يُلَقِّنُهُ ذَلِكَ يَعْتَقِدُ أَنَّهُ مَلَكٌ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ وَقَدْ يَسْمَعُهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَإِنَّمَا يَرَى وَيَسْمَعُ مَا يَعْتَقِدُهُ فِي الْيَقَظَةِ

كَمَا يَرَى وَيَسْمَعُ مِثْلَ ذَلِكَ فِي الْمَنَامِ الَّذِي هُوَ مَظْهَرٌ مِنْ مَظَاهِرِ الْوَحْيِ عِنْدَ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ ، فَكُلُّ مَا يُخْبِرُ بِهِ النَّبِيُّ مِنْ كَلَامٍ أُلْقِيَ فِي رَوْعِهِ أَوْ مَلَكٌ أَلْقَاهُ عَلَى سَمْعِهِ فَهُوَ خَبَرٌ صَادِقٌ عِنْدَهُ .

(145/356)

يَقُولُ هَؤُلَاءِ الْمَادِّيُّونَ : نَحْنُ لَا نَشُكُّ فِي صِدْقِ مُحَمَّدٍ فِي خَبَرِهِ عَمَّا رَأَى وَسَمِعَ ، وَإِنَّمَا نَقُولُ إِنَّ مَنْبَعَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ جَاءَ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي وَرَاءَ عَالَمِ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الَّذِي يَعْرِفُهُ جَمِيعُ النَّاسِ ; فَإِنَّ هَذَا شَيْءٌ لَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا وُجُودُهُ كَمَا أَنَّهُ لَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ مَا يَنْفِيهِ وَيُلْحِقُهُ بِالْمُحَالِ ، وَإِنَّمَا نُفَسِّرُ الظَّوَاهِرَ غَيْرَ الْمُعْتَادَةِ بِمَا عَرَفْنَا وَثَبَتَ عِنْدَنَا دُونَ مَا لَمْ يَثْبُتْ .

وَيَضْرِبُونَ مَثَلًا لِهَذَا الْوَحْيِ قِصَّةَ جَانْ دَارْكِ الْفَتَاةِ الْإِفْرَنْسِيَّةِ الَّتِي قَرَّرَتِ الْكَنِيسَةُ الْكَاثُولِيكِيَّةُ قَدَاسَتَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا بِزَمَنٍ ، وَهَذَا التَّصْوِيرُ الَّذِي يُصَوِّرُونَ بِهِ ظَاهِرَةَ الْوَحْيِ قَدْ سَرَتْ شُبْهَتُهُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْمُرْتَابِينَ الَّذِينَ يُقَلِّدُونَ هَؤُلَاءِ الْمَادِّيِّينَ فِي نَظَرِيَّاتِهِمُ الْمَادِّيَّةِ أَوْ يَقْتَنِعُونَ بِهَا .

وَإِنِّي أَفْتَتِحُ الْكَلَامَ فِي إِبْطَالِ هَذِهِ الصُّورَةِ الْخَيَالِيَّةِ بِالْكَلَامِ عَلَى جَانْ دَارْكْ فَقَدْ أُلْقِيَ إِلَيَّ

سُؤَالٌ عَنْهَا نَشَرْتُهُ مَعَ الْجَوَابِ عَنْهُ فِي صَفْحَةِ 788 مِنَ الْمُجَلَّدِ السَّادِسِ مِنَ الْمَنَارِ (سَنَةَ 1321 هـ) وَهَذَا نَصُّهُ .

شُبْهَةٌ عَلَى الْوَحْيِ

حَضْرَةَ الْأُسْتَاذِ الرَّشِيدِ

(146/356)

عَرَضَتْ لِي شُبَهَاتٌ فِي وُقُوعِ الْوَحْيِ (وَهُوَ أَسَاسُ الدِّينِ) فَعَمَدْتُ إِلَى رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ لِلشَّيْخِ مُحَمَّدْ عَبْدُهْ – حَيْثُ وَقَعَ اخْتِيَارِي عَلَيْهَا – وَقَرَأْتُ فِي بَابَيْ (حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى الْوَحْيِ) وَ (إِمْكَانِ الْوَحْيِ) فَوَجَدْتُ الْكَلَامَ وَجِيهًا مَعْقُولًا ، غَيْرَ أَنَّ الْحَاجَةَ إِلَى الشَّيْءِ لَا تَسْتَلْزِمُ وُقُوعَهُ ، وَكَذَا إِمْكَانُهُ وَعَدَمُ اسْتِحَالَتِهِ عَقْلًا لَا يَقْتَضِي حُصُولَهُ . ثُمَّ ذُكِرَ بَعْدُ مِنْ أَنَّ حَالَةَ النَّبِيِّ وَسُلُوكَهُ بَيْنَ قَوْمِهِ بِجَلَائِلِ الْأَعْمَالِ وَبِوُقُوعِ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدَيْهِ هُوَ دَلِيلُ نُبُوَّتِهِ وَتَأْيِيدُ بَعْثَتِهِ ، فَلَيْسَ شَيْئًا ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ (كَوْنُ) النَّبِيِّ حَمِيدَ السِّيرَةِ فِي عَشِيرَتِهِ صَادِقًا فِي دَعْوَتِهِ – أَعْنِي مُعْتَقِدًا فِي نَفْسِهِ – سَبَبًا فِي نُهُوضِ أُمَّتِهِ ، وَلَا يَكُونُ كُلُّ ذَلِكَ مَدْعَاةً إِلَى الِاعْتِقَادِ بِهِ وَالتَّسْلِيمِ لَهُ .

وَلَقَدْ حَدَثَ بِفَرَنْسَا فِي الْقَرْنِ الْخَامِسَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ إِذْ كَانَتْ مَقْهُورَةً لِلْإِنْكِلِيزِ

أَنَّ بِنْتًا تُدْعَى (جَانْ دَارْكْ) مَنْ أَجْمَلِ النِّسَاءِ سِيرَةً وَأَسْلَمِهِنَّ نِيَّةً اعْتَقَدَتْ وَهِيَ مِنْ بَيْتِ أَهْلِهَا بَعِيدَةً عَنِ التَّكَالِيفِ السِّيَاسِيَّةِ أَنَّهَا مُرْسَلَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ لِإِنْقَاذِ وَطَنِهَا وَدَفْعِ الْعَدُوِّ عَنْهُ ، وَصَارَتْ تَسْمَعُ صَوْتَ الْوَحْيِ فَأَخْلَصَتْ فِي الدَّعْوَةِ لِلْقِتَالِ ، وَتَوَصَّلَتْ بِصِدْقِ إِرَادَتِهَا إِلَى رِئَاسَةِ جَيْشٍ صَغِيرٍ وَغَلَبَتْ بِهِ الْعَدُوَّ فِعْلًا ، ثُمَّ مَاتَتْ غِبَّ نُصْرَتِهَا مَوْتَةَ الْأَبْطَالِ مِنَ الرِّجَالِ ، إِذْ خَذَلَهَا قَوْمُهَا ، وَوَقَعَتْ فِي يَدِ عَدُوِّهَا فَأَلْقَوْهَا فِي النَّارِ حَيَّةً ، فَذَهَبَتْ تَارِكَةً فِي صَحَائِفِ التَّارِيخِ اسْمًا يَعْبَقُ نَشْرُهُ وَتَضُوعُ رَيَّاهُ ، وَهِيَ الْآنَ مَوْضِعُ إِجْلَالِ الْقَوْمِ وَإِعْظَامِهِمْ ، فَلَقَدْ تَيَسَّرَتْ لَهُمُ النَّهْضَةُ بَعْدَهَا وَجَرَوْا فِي الْعِلْمِ وَالرُّقِيِّ بَعِيدًا .

فَهَلْ نَجْزِمُ لِذَلِكَ أَنَّ تِلْكَ الْبِنْتَ نَبِيَّةٌ مُرْسَلَةٌ ؟ ؟ رُبَّمَا تَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ عَمَلَهَا لَا يُذْكَرُ مُقَارَنًا بِمَا أَتَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَمَا وَصَلَ لِلنَّاسِ مِنَ الْخَيْرِ بِسَبَبِهِمْ ، فَأَقُولُ : هَلْ هُنَاكَ مِنْ مِيزَانٍ نَزِنُ بِهِ الْأَعْمَالَ النَّافِعَةَ لِنَعْلَمَ إِنْ كَانَتْ وَصَلَتْ إِلَى الدَّرَجَةِ الَّتِي يَجِبُ مَعَهَا أَنْ نُصَدِّقَ دَعْوَةَ صَاحِبِهَا ؟ وَهَلْ لَوْ سَاعَدَتِ الصُّدَفُ (كَذَا) رَجُلًا عَلَى أَنْ يَكُونَ أَكْبَرَ النَّاسِ فِعْلًا وَأَبْقَاهُمْ أَثَرًا وَاعْتَقَدَ بِرِسَالَةِ نَفْسِهِ لَوَهْمٍ قَامَ (عِنْدَهُ) يُفْضِي بِنَا ذَلِكَ إِلَى التَّيَقُّنِ مِنْ رِسَالَتِهِ ؟

أَظُنُّ أَنَّ هَذَا كُلَّهُ مُضَافًا لِغَيْرِهِ يَدْعُو إِلَى التَّرْجِيحِ وَلَا يَسْتَلْزِمُ الْيَقِينَ أَبَدًا . عَلَى أَنِّي أَنْتَظِرُ أَنْ تَجِدُوا فِي قَوْلِي هَذَا خَطَأً تُقْنِعُونِي بِهِ أَوْ تَزِيدُونِي إِيضَاحًا يَنْكَشِفُ بِهِ الْحِجَابُ وَتَنَالُونَ بِهِ الثَّوَابَ . هَذَا وَإِنِّي أَعْلَمُ مِنْ فِئَةٍ مُسْلِمَةٍ مَا أَعْلَمُهُ مِنْ نَفْسِي وَلَكِنَّهُمْ يَتَحَفَّظُونَ فِي الْكِتْمَانِ ، وَيَسْأَلُونَ الْكُتُبَ خَشْيَةَ سُؤَالِ الْإِنْسَانِ ، وَلَكِنِّي لَا أَجِدُ فِي السُّؤَالِ عَارًا ، وَكُلُّ عَقْلٍ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ ، وَيَزِلُّ وَيَسْتَقِيمُ . (أَحَدُ قُرَّائِكُمْ) .

(جَوَابُ الْمَنَارِ)

لَقَدْ سَرَّنَا مِنَ السَّائِلِ أَنَّهُ عَلَى تَمَكُّنِ الشُّبْهَةِ مِنْ نَفْسِهِ لَمْ يُذْعِنْ لَهَا تَمَامَ الْإِذْعَانِ ، فَيَسْتَرْسِلُ فِي تَعَدِّي حُدُودِ الدِّينِ إِلَى فَضَاءِ الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ الَّتِي تُفْسِدُ الْأَرْوَاحَ وَالْأَجْسَامَ ، بَلْ أَطَاعَ شُعُورَ الدِّينِ الْفِطْرِيِّ ، وَلَجَأَ إِلَى الْبَحْثِ فِي الْكُتُبِ ، ثُمَّ السُّؤَالِ مِمَّنْ يُظَنُّ فِيهِمُ الْعِلْمُ بِمَا يَكْشِفُ الشُّبْهَةَ ، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَيَنْصَرِفُونَ عَنْ طَلَبِ الْحَقِّ عِنْدَ أَوَّلِ قَذْعَةٍ مِنَ الشُّبَهِ تَلُوحُ فِي فَضَاءِ أَذْهَانِهِمْ ؛ لِأَنَّهُمْ شَبُّوا عَلَى حُبِّ التَّمَتُّعِ وَالِانْغِمَاسِ فِي اللَّذَّةِ ، وَيَرَوْنَ الدِّينَ صَادًّا لَهُمْ عَنِ

الِانْهِمَاكِ وَالِاسْتِرْسَالِ فِيهَا ، فَهُمْ يُحَاوِلُونَ إِمَاتَةَ شُعُورِهِ الْفِطْرِيِّ ، كَمَا أَمَاتَ النُّشُوءُ فِي الْجَهْلِ بُرْهَانَهُ الْكَسْبِيَّ .

(149/356)

أَرَى السَّائِلَ نَظَرَ مِنْ رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ فِي الْمُقَدِّمَاتِ وَوَعَاهَا وَلَكِنَّهُ لَمْ يُدَقِّقِ النَّظَرَ فِي الْمَقَاصِدِ وَالنَّتَائِجِ ؛ لِذَلِكَ نَرَاهُ مُسَلِّمًا بِالْمُقَدِّمَاتِ دُونَ النَّتِيجَةِ مَعَ اللُّزُومِ بَيْنَهُمَا ، فَإِذَا هُوَ عَادَ إِلَى مَبْحَثِ (حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى الرِّسَالَةِ) وَتَدَبَّرَهُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ بِاللهِ وَأَنَّهُ أَقَامَ الْكَوْنَ عَلَى أَسَاسِ الْحِكْمَةِ الْبَالِغَةِ وَالنِّظَامِ الْكَامِلِ فَإِنَّنِي أَرْجُو لَهُ أَنْ يَقْتَنِعَ . ثُمَّ إِنَّنِي آنَسْتُ مِنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَقْرَأْ مَبْحَثَ (وُقُوعِ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ) أَوْ لَعَلَّهُ قَرَأَهُ وَلَمْ يَتَدَبَّرْهُ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَذْكُرِ الْبُرْهَانَ عَلَى نَفْسِ الرِّسَالَةِ وَيَبْنِي الشُّبْهَةَ عَلَيْهِ وَإِنَّمَا بَنَاهَا عَلَى جُزْءٍ مِنْ أَجْزَاءِ الْمُقَدِّمَاتِ ، وَهِيَ الْقَوْلُ فِي بَعْضِ صِفَاتِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ . وَإِنَّنِي أَكْشِفُ لَهُ شُبْهَتَهُ أَوَّلًا فَأُبَيِّنُ أَنَّهَا لَمْ تُصِبْ مَوْضِعَهَا ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَى رَأْيِي فِي الْمَوْضُوعِ .

(150/356)

إِنَّ (جَانْ دَارْكْ) الَّتِي اشْتَبَهَ عَلَيْهِ أَمْرُهَا بِوَحْيِ الْأَنْبِيَاءِ لَمْ تَقُمْ بِدَعْوَةٍ إِلَى دِينٍ أَوْ مَذْهَبٍ تَدَّعِي أَنَّ فِيهِ سَعَادَةَ الْبَشَرِ فِي الْحَيَاةِ وَبَعْدَ الْمَوْتِ كَمَا هُوَ شَأْنُ جَمِيعِ الْمُرْسَلِينَ ، وَلَمْ تَأْتِ

بِآيَةٍ كَوْنِيَّةٍ وَلَا عِلْمِيَّةٍ لَا يُعْهَدُ مِثْلُهَا مِنْ كَسْبِ الْبَشَرِ تَتَحَدَّى بِهَا النَّاسَ لِيُؤْمِنُوا بِهَا . وَإِنَّمَا كَانَتْ فَتَاةً ذَاتَ وِجْدَانٍ شَرِيفٍ هَاجَهُ شُعُورُ الدِّينِ وَحَرَّكَتْهُ مُزْعِجَاتُ السِّيَاسَةِ ، فَتَحَرَّكَ ، فَنَفَرَ ، فَصَادَفَ مُسَاعَدَةً مِنَ الْحُكُومَةِ ، وَاسْتِعْدَادًا مِنَ الْأُمَّةِ لِلْخُرُوجِ مِنَ الذُّلِّ الَّذِي كَانَتْ فِيهِ ، وَكَانَ التَّحَمُّسُ الَّذِي حَرَّكَتْهُ سَبَبًا لِلْحَمْلَةِ الصَّادِقَةِ عَلَى الْعَدْوِ وَخِذْلَانِهِ . وَمَا أَسْهَلَ تَهْيِيجَ حَمَاسَةِ أَهْلِ فَرَنْسَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُؤَثِّرَاتِ وَبِمَا هُوَ أَضْعَفُ مِنْهَا ، فَإِنَّنَا بِلْيُونَ الْأَوَّلَ كَانَ يَسُوقُهُمْ إِلَى الْمَوْتِ مُخْتَارِينَ بِكَلِمَةٍ شِعْرِيَّةٍ يَقُولُهَا كَكَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ عِنْدَ الْأَهْرَامِ

.

وَأُذَكِّرُ السَّائِلَ الْفَطِنَ بِأَنَّهُ لَمْ يُوَافِقِ الصَّوَابَ فِي إِبْعَادِ الْفَتَاةِ عَنِ السِّيَاسَةِ وَمَذَاهِبِهَا فَقَدْ جَاءَ فِي تَرْجَمَتِهَا مِنْ (دَائِرَةِ الْمَعَارِفِ الْعَرَبِيَّةِ لِلْبُسْتَانِيِّ) مَا نَصُّهُ :

(كَانَتْ مُتَعَوِّدَةً الشُّغْلَ خَارِجَ الْبَيْتِ كَرَعْيِ الْمَوَاشِي وَرُكُوبِ الْخَيْلِ إِلَى الْعَيْنِ وَمِنْهَا إِلَى الْبَيْتِ ، وَكَانَ النَّاسُ فِي جِوَارِ دُومَرْمَى (أَيْ بَلَدِهَا) مُتَمَسِّكِينَ بِالْخُرَافَاتِ ، وَيَمِيلُونَ

(151/356)

إِلَى حِزْبِ أُورْلِيَانْ فِي الِانْقِسَامَاتِ الَّتِي مَزَّقَتْ مَمْلَكَةَ فَرَنْسَا ، وَكَانَتْ جَانْ تَشْتَرِكُ فِي الْهِيَاجِ السِّيَاسِيِّ وَالْحَمَاسَةِ الدِّينِيَّةِ . وَكَانَتْ كَثِيرَةَ التَّخَيُّلِ وَالْوَرَعِ تُحِبُّ أَنْ

تَتَأَمَّلَ فِي قِصَصِ الْعَذْرَاءِ وَعَلَى الْأَكْثَرِ فِي نُبُوَّةٍ كَانَتْ شَائِعَةً فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ ، وَهِيَ إِحْدَى الْعَذَارَى سَتُخَلِّصُ فَرَنْسَا مِنْ أَعْدَائِهَا . وَلَمَّا كَانَ عُمُرُهَا 13 سَنَةً كَانَتْ تَعْتَقِدُ بِالظُّهُورَاتِ الْفَائِقَةِ الطَّبِيعَةِ وَتَتَكَلَّمُ عَنْ أَصْوَاتٍ كَانَتْ تَسْمَعُهَا وَرُؤًى كَانَتْ تَرَاهَا . ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ بِبِضْعِ سِنِينَ خُيِّلَ لَهَا أَنَّهَا قَدْ دُعِيَتْ لِتُخَلِّصَ بِلَادَهَا وَتُتَوَّجَ مُلْكَهَا . ثُمَّ أَوْقَعَ (الْبَرغِنْيُورُ) تَعَدِّيًا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي وُلِدَتْ فِيهَا فَقَوَّى ذَلِكَ اعْتِقَادَهَا بِصِحَّةِ مَا خُيِّلَ لَهَا) . ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ ذَلِكَ تَوَسُّلَهَا إِلَى الْحُكَّامِ وَتَعْيِينَهَا قَائِدَةً لِجَيْشِ مَلِكِهَا وَهُجُومَهَا بِعَشَرَةِ آلَافِ جُنْدِيٍّ ضُبَّاطُهُمْ مَلَكِيُّونَ عَلَى عَسْكَرِ الْإِنْكِلِيزِ الَّذِينَ كَانُوا يُحَاصِرُونَ أُورْلِيَانْ ، وَأَنَّهَا دَفَعَتْهُمْ عَنْهَا حَتَّى رَفَعُوا الْحِصَارَ فِي مُدَّةِ أُسْبُوعٍ ، وَذَلِكَ سَنَةَ 1429 م ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ زَالَتْ خَيَالَاتُهَا الْحَمَاسِيَّةُ ، وَلِذَلِكَ هُوجِمَتْ فِي السَّنَةِ التَّالِيَةِ سَنَةِ 1430 م فَانْكَسَرَتْ وَجُرِحَتْ وَأُسِرَتْ .

(152/356)

فَمِنْ مُلَخَّصِ الْقِصَّةِ يُعْلَمُ أَنَّ مَا كَانَ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ تَهَيُّجٌ عَصَبِيٌّ سَبَّبَهُ التَّأَلُّمُ مِنْ تِلْكَ الْحَالَةِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَتَأَلَّمُ مِنْهَا مَنْ نَشَأَتْ بَيْنَهُمْ مَعَ مَعُونَةِ التَّحَمُّسِ الدِّينِيِّ وَالِاعْتِقَادِ بِالْخُرَافَاتِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ ذَائِعَةً فِي زَمَنِهَا . وَهَذَا شَيْءٌ عَادِيٌّ مَعْرُوفُ السَّبَبِ وَهُوَ

مِنْ قَبِيلِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بَاسِمِ الْمَهْدِيِّ الْمُنْتَظَرِ كَمُحَمَّدِ أَحْمَدَ السُّودَانِيِّ وَالْبَابِ (وَكَذَا الْبَهَاءُ وَالْقَادْيَانِيُّ) بَلِ الشُّبْهَةُ فِي قِصَّتِهَا أَبْعَدُ مِنَ الشُّبْهَةِ فِي قِصَّةِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ ، وَإِنْ كَانَتْ أَسْبَابُ النَّهْضَةِ مُتَقَارِبَةً فَإِنَّ هَذَيْنِ كَانَا كَأَمْثَالِهِمَا يَدْعُوَانِ إِلَى شَيْءٍ (مُلَفَّقٍ) يَزْعُمَانِ أَنَّهُ إِصْلَاحٌ لِلْبَشَرِ فِي الْجُمْلَةِ .

(153/356)

أَيْنَ هَذِهِ النَّوْبَةُ الْعَصَبِيَّةُ الْقَصِيرَةُ الزَّمَنِ ، الْمَعْرُوفَةُ السَّبَبِ ، الَّتِي لَا دَعْوَةَ فِيهَا إِلَى عِلْمٍ وَلَا إِصْلَاحٍ اجْتِمَاعِيٍّ إِلَّا الْمُدَافَعَةَ عَنِ الْوَطَنِ عِنْدَ الضِّيقِ الَّتِي هِيَ مُشْتَرَكَةٌ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ ، الَّتِي لَا حُجَّةَ تَعْمِدُهَا ، وَلَا مُعْجِزَةَ تُؤَيِّدُهَا ، الَّتِي اشْتَعَلَتْ بِنَفْخَةٍ وَطَفِئَتْ بِنَفْخَةٍ ؟ أَيْنَ هِيَ مِنْ دَعْوَةِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي بَيَّنَ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ أَنَّهَا حَاجَةٌ طَبِيعِيَّةٌ مِنْ حَاجَاتِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ ، طَلَبَهَا هَذَا النَّوْعُ بِلِسَانِ اسْتِعْدَادِهِ فَوَهَبَهَا لَهُ الْمُدَبِّرُ الْحَكِيمُ : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (20 : 50) فَسَارَ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ إِلَى كَمَالِهِ ، فَلَمْ يَكُنْ أَدْنَى مِنْ سَائِرِ الْمَخْلُوقَاتِ الْحَيَّةِ النَّامِيَةِ بَلْ أَرْقَى وَأَعْلَى . وَأَيْنَ دَلِيلُهَا مِنْ أَدِلَّةِ النُّبُوَّةِ وَأَيْنَ أَثَرُهَا مِنْ أَثَرِ النُّبُوَّةِ ؟ إِنَّ الْأُمَمَ الَّتِي ارْتَقَتْ بِمَا أَرْشَدَهَا إِلَيْهِ تَعَالِيمُ الْوَحْيِ إِنَّمَا ارْتَقَتْ بِطَبِيعَةِ ذَلِكَ التَّعْلِيمِ وَتَأْثِيرِهِ ، وَإِنَّ فَرَنْسَا لَمْ تَرْتَقِ بِإِرْشَادِ (جَانْ دَارْكْ) وَتَعْلِيمِهَا ،

وَإِنَّمَا مِثْلُهَا مِثْلُ قَائِدٍ انْتَصَرَ فِي وَاقِعَةٍ فَاصِلَةٍ بِشَجَاعَتِهِ وَبِأَسْبَابٍ أُخْرَى لَيْسَتْ مِنْ صُنْعِهِ ، وَاسْتَوْلَتْ أُمَّتُهُ بِسَبَبِ ذَلِكَ عَلَى بِلَادٍ رَقَّتْهَا بِعُلُومِ عُلَمَائِهَا وَحِكْمَةِ حُكَمَائِهَا وَصُنْعِ صُنَّاعِهَا ، وَلَمْ يَكُنِ الْقَائِدُ يَعْرِفُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا وَلَمْ يُرْشَدْ إِلَيْهِ ، فَلَا يُقَالُ

(154/356)

إِنَّ ذَلِكَ الْقَائِدَ هُوَ الَّذِي أَصْلَحَ تِلْكَ الْبِلَادَ ، وَعَمَّرَهَا وَمَدَّنَهَا ، وَإِنْ عُدَّ سَبَبًا بَعِيدًا فَهُوَ شَبِيهٌ بِالسَّبَبِ الطَّبِيعِيِّ ، كَهُبُوبِ رِيحٍ تُهَيِّجُ الْبَحْرَ فَيَغْرَقُ الْأُسْطُولُ وَتَنْتَصِرُ الْأُمَّةُ .

أَيْنَ حَالُ تِلْكَ الْفَتَاةِ الَّتِي كَانَتْ كَبَارِقَةٍ خَفَّتْ (أَيْ ظَهَرَتْ وَأَوْمَضَتْ) ثُمَّ خَفِيَتْ ، وَصَيْحَةٍ عَلَتْ وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ خَفَتَتْ ، مَنْ حَالِ شَمْسِ النُّبُوَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّتِي أَشْرَقَتْ فَأَنَارَتِ الْأَرْجَاءَ ، وَلَا يَزَالُ نُورُهَا وَلَنْ يَزَالَ مُتَأَلِّقَ السَّنَاءِ ، أُمِّيٌّ يَتِيمٌ قَضَى سِنَّ الصِّبَا وَسِنَّ الشَّبَابِ هَادِئًا سَاكِنًا لَا يُعْرَفُ عَنْهُ عِلْمٌ وَلَا تَخَيُّلٌ ، وَلَا وَهْمٌ دِينِيٌّ ، وَلَا شِعْرٌ ، وَلَا خَطَابَةٌ ، ثُمَّ صَاحَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ بِالْعَالَمِ كُلِّهِ صَيْحَةً (إِنَّكُمْ عَلَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ، فَاتَّبِعُونِ أَهْدِكُمُ الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) فَأَصْلَحَ وَهُوَ الْآدَمِيُّ أَدْيَانَ الْبَشَرِ عَقَائِدَهَا وَآدَابَهَا وَشَرَائِعَهَا ، وَقَلَبَ نِظَامَ الْأَرْضِ فَدَخَلَتْ بِتَعْلِيمِهِ فِي طَوْرٍ جَدِيدٍ ؟ لَا جَرَمَ أَنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْحَالَيْنِ عَظِيمٌ إِذَا أَمْعَنَ النَّظَرَ فِيهِ الْعَاقِلُ .

(155/356)

لَا سَعَةَ فِي جَوَابِ سُؤَالٍ لِتَقْرِيرِ الدَّلِيلِ عَلَى النُّبُوَّةِ وَإِنَّمَا أُحِيلَ السَّائِلَ عَلَى التَّأَمُّلِ فِي بَقِيَّةِ بَحْثِ النُّبُوَّةِ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ وَمُرَاجَعَةِ مَا كَتَبْنَاهُ أَيْضًا مِنَ الْأَمَالِي الدِّينِيَّةِ فِي الْمَنَارِ لَا سِيَّمَا الدَّرْسِ الَّذِي عُنْوَانُهُ (الْآيَاتُ الْبَيِّنَاتُ ، عَلَى صِدْقِ النُّبُوَّاتِ) وَإِنْ كَانَ يَصْدُقُ عَلَى رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ الْمَثَلُ (كُلُّ صَيْدٍ فِي جَوْفِ الْفَرَا) فَإِنْ بَقِيَ عِنْدَهُ شُبْهَةٌ فَالْأَوْلَى أَنْ يَتَفَضَّلَ بِزِيَارَتِنَا لِأَجْلِ الْمُذَاكَرَةِ الشِّفَاهِيَّةِ فِي الْمَوْضُوعِ ، فَإِنَّ الْمُشَافَهَةَ أَقْوَى بَيَانًا ، وَأَنْصَعُ بُرْهَانًا ، وَنَحْنُ نُعَاهِدُهُ بِأَنْ نَكْتُمَ أَمْرَهُ وَإِنْ أَبَى فَلْيَكْتُبْ إِلَيْنَا مَا يَظْهَرُ لَهُ مِنَ الشُّبْهَةِ عَلَى مَا فِي الرِّسَالَةِ وَالْأَمَالِي مِنَ الِاسْتِدْلَالِ عَلَى وُقُوعِ النُّبُوَّةِ بِالْفِعْلِ ، وَعِنْدَ ذَلِكَ نُسْهِبُ فِي الْجَوَابِ بِمَا نَرْجُو أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا ، عَلَى أَنَّ الْمُشَافَهَةَ أَوْلَى كَمَا هُوَ مَعْقُولٌ وَكَمَا ثَبَتَ لَنَا بِالتَّجْرِبَةِ مَعَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْتَبِهِينَ وَالْمُرْتَابِينَ اهـ .

(156/356)

هَذَا وَإِنَّ مَا بَيَّنَهُ الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي إِثْبَاتِ وُقُوعِ الْوَحْيِ لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ فَهْمَهُ حَقَّ الْفَهْمِ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِوُجُودِ اللهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الْفَاعِلِ الْمُخْتَارِ إِلَّا أَنْ يَقْبَلَهُ وَيُذْعِنَ لَهُ ، فَإِنَّهُ بَيَّنَ أَنَّ الْوَحْيَ وَالرِّسَالَةَ بِالْمَعْنَى الَّذِي قَرَّرَهُ لَازِمٌ عَقْلِيٌّ لِعِلْمِهِ تَعَالَى وَحِكْمَتِهِ وَكَوْنِهِ هُوَ : (الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى) (20 : 50) وَلَا يَفْهَمُهُ حَقَّ الْفَهْمِ إِلَّا مَنْ أُوتِيَ نَصِيبًا مِنْ عِلْمِ الِاجْتِمَاعِ وَحِكْمَةِ الْوُجُودِ وَسُنَنِهِ وَأُصُولِ الْعَقَائِدِ ، وَنَصِيبًا آخَرَ مِنْ بَلَاغَةِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ . وَإِنَّ نُبُوَّةَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَرِسَالَتَهُ يُمْكِنُ إِثْبَاتُهَا بِمَا دُونَ هَذِهِ الْفَلْسَفَةِ وَالْبَلَاغَةِ وَهُوَ مَا قَهَرَ عُقُولَ عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ عَلَى تَصْدِيقِ دَعْوَتِهِ . وَحَمَلَ الْمَادِّيِّينَ عَلَى تَصْوِيرِهَا بِمَا نَبْسُطُهُ فِيمَا يَأْتِي وَنُقَفِّي عَلَيْهِ بِإِثْبَاتِ بُطْلَانِهِ .

تَفْصِيلُ الشُّبْهَةِ وَدَحْضُهَا بِالْحُجَّةِ

(157/356)

قَدْ فَصَّلَ إِمِيلْ دِرِمِنْغَامِ الشُّبْهَةَ الَّتِي أَجْمَلَهَا مُونْتِيهْ بِمَا لَمْ نَرَ مِثْلَهُ لِغَيْرِهِ مِنْ كُتَّابِ الْإِفْرِنْجِ حَتَّى اغْتَرَّ بِكَلَامِهِ كَثِيرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ; فَإِنْ كَانَ حَكِيمُنَا السَّيِّدُ جَمَالُ الدِّينِ قَالَ لِبَعْضِ مُجَادِلِي النَّصْرَانِيَّةِ : إِنَّكُمْ فَصَّلْتُمْ قَمِيصًا مِنْ رِقَاعِ الْعَهْدِ الْقَدِيمِ وَأَلْبَسْتُمُوهَا لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ – فَنَحْنُ نَقُولُ لَهُمْ : إِنَّكُمْ فَصَّلْتُمْ قَمِيصًا آخَرَ مِمَّا فَهِمْتُمْ مِنْ تَارِيخِ الْإِسْلَامِ لَا مِنْ نُصُوصِهِ

وَحَاوَلْتُمْ خَلْعَهَا عَلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَإِنِّي أَشْرَحُ هَذِهِ الشُّبْهَةَ بِأَوْضَحِ مِمَّا كَتَبَهُ دِرِمِنْغَامْ وَمَا بَلَغَنِي عَنْ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، ثُمَّ أَكُرُّ عَلَيْهَا بِالنَّقْضِ وَالدَّحْضِ فَأَقُولُ :

(1) قَالُوا : إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ لَقِيَ بَحِيرَى الرَّاهِبَ فِي مَدِينَةِ بُصْرَى بِالشَّامِ ، وَقَالُوا : إِنَّهُ كَانَ نَسْطُورِيًّا مِنْ أَتْبَاعِ آرِيُوسَ فِي التَّوْحِيدِ وَيُنْكِرُ أُلُوهِيَّةَ الْمَسِيحِ وَعَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَلِمَ مِنْهُ عَقِيدَتَهُ ، وَقَالُوا فِي بَحِيرَى أَيْضًا : إِنَّهُ كَانَ عَالِمًا فَلَكِيًّا مُنَجِّمًا وَحَاسِبًا سَاحِرًا ، وَإِنَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ اللَّهَ ظَهَرَ لَهُ وَأَنْبَأَهُ بِأَنْ سَيَكُونُ هَادِيًا لِآلِ إِسْمَاعِيلَ إِلَى الدِّينِ الْمَسِيحِيِّ .

(158/356)

بَلْ سَمِعْنَا مِنْ بَعْضِ الرُّهْبَانِ أَنَّهُ كَانَ مُعَلِّمًا لِمُحَمَّدٍ وَمُصَاحِبًا لَهُ بَعْدَ رِسَالَتِهِ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا مَا حَرَّمَ الْخَمْرَ إِلَّا لِأَنَّهُ قَتَلَ أُسْتَاذَهُ بَحِيرَى وَهُوَ سَكْرَانُ ، وَأَمْثَالُ هَذَا مِنَ الِافْتِرَاءِ وَالْبُهْتَانِ .

وَكُلُّ مَا عَرَفَهُ الْمُسْلِمُونَ مِنْ رُوَاةِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا خَرَجَ مَعَ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَهُوَ ابْنُ تِسْعِ سِنِينَ

وَقِيلَ 12 سَنَةً رَآهُ هَذَا الرَّاهِبُ مَعَ قُرَيْشٍ وَرَأَى سَحَابَةً تُظَلِّلُهُ مِنَ الشَّمْسِ ، وَذَكَرَ لِعَمِّهِ أَنَّهُ سَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ وَحَذَّرَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْيَهُودِ - وَفِي الْمَسْأَلَةِ رِوَايَاتٌ أُخْرَى بِمَعْنَاهَا ضَعِيفَةٌ

الْأَسَانِيدِ إِلَّا رِوَايَةً لِلتِّرْمِذِيِّ لَيْسَ فِيهَا اسْمُ بَحِيرَى وَفِيهَا غَلَطٌ فِي الْمَتْنِ ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ مِنْ بَحِيرَى شَيْئًا مِنْ عَقِيدَتِهِ أَوْ دِينِهِ .

(159/356)

---

(2) قَالُوا إِنَّ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ كَانَ مِنْ مُتَنَصِّرَةِ الْعَرَبِ الْعُلَمَاءِ بِالنَّصْرَانِيَّةِ وَأَحَدَ أَقَارِبِ خَدِيجَةَ - يُوهِمُونَ الْقَارِئَ أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَخَذَ عَنْهُ شَيْئًا مِنْ عِلْمِ أَهْلِ الْكِتَابِ - وَالَّذِي صَحَّ مِنْ خَبَرِ وَرَقَةَ هَذَا هُوَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنْ أَنَّ خَدِيجَةَ أَخَذَتْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَقِبَ إِخْبَارِهِ إِيَّاهَا بِرُؤْيَةِ الْمَلَكِ فِي حِرَاءَ إِلَى وَرَقَةَ هَذَا وَأَخْبَرَتْهُ خَبَرَهُ وَكَانَ شَيْخًا قَدْ عَمِيَ وَلَمْ يَلْبَثْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ تُوُفِّيَ وَلَمْ يَثْبُتْ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَآهُ قَبْلَ ذَلِكَ (وَسَأَذْكُرُ نَصَّ الْحَدِيثِ فِي آخِرِ هَذَا الْمَبْحَثِ) وَقَدِ اسْتَقْصَى الْمُحَدِّثُونَ وَالْمُؤَرِّخُونَ كُلَّ مَا عُرِفَ عَنْ وَرَقَةَ هَذَا مِمَّا صَحَّ سَنَدُهُ وَمِمَّا لَمْ يَصِحَّ لَهُ سَنَدٌ كَدَأْبِهِمْ فِي كُلِّ مَا لَهُ عَلَاقَةٌ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْإِسْلَامِ ، فَلَمْ يَذْكُرْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّهُ عَرَفَ عَنْهُ دَعْوَةً إِلَى النَّصْرَانِيَّةِ أَوْ كِتَابَةً فِيهَا .

وَإِنَّمَا وَرَدَ فِي بَعْضِهَا أَنَّهُ قَالَ حِينَ عَلِمَ مِنْ خَدِيجَةَ خَبَرَ مُحَمَّدٍ : إِنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ . وَفِي بَعْضِهَا أَنَّهُ عَاشَ حَتَّى رَأَى بِلَالًا يُعَذَّبُ

الْمُشْرِكُونَ لِيَرْجِعَ عَنِ الْإِسْلَامِ وَلَكِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَةَ شَاذَّةٌ مُخَالِفَةٌ لِحَدِيثِ عَائِشَةَ ، الصَّحِيحُ أَنَّهُ كَانَ عِنْدَ بَدْءِ الْوَحْيِ أَعْمَى وَلَمْ يَنْشَبْ أَيْ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ ، وَقَدْ كَانَ تَعْذِيبُ بِلَالٍ بَعْدَ إِظْهَارِ دَعْوَةِ النُّبُوَّةِ وَدُخُولِ النَّاسِ فِيهَا ، وَقَدْ كَانَ هَذَا بَعْدَ بَدْءِ الْوَحْيِ بِثَلَاثِ سِنِينَ – وَإِمِيلْ دِرِمِنْغَامْ قَدْ غَلِطَ فِيمَا نَقَلَهُ مِنْ خَبَرِ فَتْرَةِ الْوَحْيِ لِاخْتِلَاطِ الرِّوَايَاتِ عَلَيْهِ فِيهَا وَعَدَمِ اطِّلَاعِهِ عَلَى مَا دُوِّنَ فِي كُتُبِ الْحَدِيثِ مِنْهَا . وَإِنَّمَا كَانَ هَمُّ الْمُحَدِّثِينَ فِي خَبَرِ وَرَقَةَ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ كَانَ صَحَابِيًّا أَمْ لَا ، فَإِنَّ الصَّحَابِيَّ هُوَ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بَعْدَ الْبَعْثَةِ مُؤْمِنًا بِهِ ، وَلَوْ بَلَغَهُمْ عَنْهُ أَيُّ شَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ بِالتَّوْرَاةِ أَوِ الْإِنْجِيلِ لَنَقَلُوهُ .

(3) ذَكَرُوا مَا كَانَ مِنِ انْتِشَارِ الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَتَنَصُّرِ بَعْضِ فُصَحَاءِ الْعَرَبِ وَشُعَرَائِهِمْ كَقُسِّ بْنِ سَاعِدَةَ الْأَيَادِيِّ وَأُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ ، وَإِشَادَةِ هَؤُلَاءِ بِمَا كَانُوا يَسْمَعُونَ مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ قُرْبِ ظُهُورِ النَّبِيِّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرُهُمَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَدْ نَشَرْنَا بَعْضَ مَا نُقِلَ عَنْهُمْ فِي

التَّوْرَاةِ وَالْأَنَاجِيلِ وَكُتُبِ النُّبُوَّاتِ فِي تَفْسِيرِ (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) (157) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ .

فَأَمَّا الْقُسُّ فَقَدْ مَاتَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ . وَرُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَآهُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ بِزَمَنٍ طَوِيلٍ يَخْطُبُ النَّاسَ فِي سُوقِ عُكَاظٍ عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ ، بِكَلَامٍ لَهُ مُونِقٍ ، قَالَ فِيهِ : إنَّ لِلَّهِ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِكُمُ الَّذِي أَنْتُمْ عَلَيْهِ ، وَنَبِيًّا قَدْ أَظَلَّكُمْ زَمَانُهُ ، وَأَدْرَكَكُمْ أَوَانُهُ ، فَطُوبَى لِمَنْ أَدْرَكَهُ فَاتَّبَعَهُ ، وَوَيْلٌ لِمَنْ خَالَفَهُ - وَالرِّوَايَاتُ فِي هَذَا ضَعِيفَةٌ ، وَتَعَدُّدُهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهَا أَصْلًا .

وَأَمَّا أُمَيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلْتِ الثَّقَفِيُّ فَهُوَ شَاعِرٌ مَشْهُورٌ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : اتَّفَقَتِ الْعَرَبُ عَلَى أَنَّ أُمَيَّةَ أَشْعَرُ ثَقِيفَ ، وَقَالَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ : حَدَّثَنِي عَمِّي قَالَ : كَانَ أُمَيَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ نَظَرَ الْكُتُبَ وَقَرَأَهَا وَلَبِسَ الْمُسُوحَ تَعَبُّدًا وَكَانَ يَذْكُرُ إبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْحَنِيفِيَّةَ ، وَحَرَّمَ الْخَمْرَ وَتَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ وَطَمِعَ فِي النُّبُوَّةِ لِأَنَّهُ قَرَأَ فِي الْكُتُبِ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ بِالْحِجَازِ فَرَجَا أَنْ يَكُونَ هُوَ ، فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَسَدَهُ فَلَمْ يُسْلِمْ . وَهُوَ الَّذِي رَثَى قَتْلَى بَدْرٍ (الْمُشْرِكِينَ) بِالْقَصِيدَةِ الَّتِي أَوَّلُهَا :

مَاذَا بِبَدْرٍ وَالْعَقَنْ . . . قَلِ مِنْ مَرَازِبَةٍ جَحَاجِحْ

وَفِي الْمِرْآةِ عَنِ ابْنِ هِشَامٍ أَنَّهُ كَانَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدِمَ الْحِجَازَ ، لِيَأْخُذَ مَالَهُ مِنَ الطَّائِفِ وَيُهَاجِرَ ، فَعَلِمَ بِغَزْوَةِ بَدْرٍ وَقَتْلِ صَنَادِيدِ قُرَيْشٍ فِيهَا فَجَدَعَ أَنْفَ نَاقَتِهِ وَشَقَّ ثَوْبَهُ وَبَكَى ؛ لِأَنَّ فِيهِمُ ابْنَيْ خَالِهِ وَعَادَ إلَى الطَّائِفِ وَمَاتَ فِيهَا . وَصَحَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَنْشَدَ الشَّرِيدَ بْنَ عَمْرٍو مِنْ شِعْرِهِ فَأَنْشَدَهُ فَقَالَ : (كَادَ أَنْ يُسْلِمَ) وَلَكِنَّهُ كَانَ حَنِيفِيًّا عَلَى مِلَّةِ إبْرَاهِيمَ وَلَمْ يَتَنَصَّرْ وَمِنْ شِعْرِهِ :

كُلُّ دِينٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ . . . إلَّا دِينَ الْحَنِيفَةِ زُورُ

(4) إسْلَامُ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كَانَ فَارِسِيًّا مَجُوسِيًّا فَتَنَصَّرَ عَلَى يَدِ بَعْضِ الرُّهْبَانِ وَصَحِبَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ عُبَّادِهِمْ وَسَمِعَ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ آخِرِهِمْ بِقُرْبِ ظُهُورِ النَّبِيِّ الَّذِي بَشَّرَ بِهِ عِيسَى وَالْأَنْبِيَاءُ مِنَ الْعَرَبِ فَقَصَدَ بِلَادَ الْعَرَبِ وَبِيعَ لِبَعْضِ يَهُودِ يَثْرِبَ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا وَلَمْ يَرَ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إلَّا بَعْدَ الْهِجْرَةِ فَأَسْلَمَ وَكَاتَبَ سَيِّدَهُ . وَفِي قِصَّتِهِ رِوَايَاتٌ مُتَعَارِضَةٌ ، هَذَا هُوَ الْمُرَادُ مِنْهَا لِدِرِمْنْغَامْ وَغَيْرِهِ .

(163/356)

(5) ذَكَرُوا مَا كَانَ مِنْ رِحْلَةِ تُجَّارِ قُرَيْشٍ فِي الشِّتَاءِ إِلَى الْيَمَنِ وَفِي الصَّيْفِ إِلَى الشَّامِ وَاجْتِمَاعِهِمْ بِالنَّصَارَى فِي كُلٍّ مِنْهُمَا كُلَّمَا مَرُّوا بِدَيْرٍ أَوْ صَوْمَعَةٍ لِلرُّهْبَانِ ، وَكَانَ هَؤُلَاءِ النَّصَارَى يَتَحَدَّثُونَ بِقُرْبِ ظُهُورِ نَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ .

(6) زَعَمَ دِرِمِنْغَامْ أَنَّهُ كَانَ يُوجَدُ بِمَكَّةَ نَفْسِهَا أُنَاسٌ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَبِيدًا وَخَدَمًا لِأَنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ لَمْ يَكُونُوا يَسْمَحُونَ لَهُمْ أَنْ يَسْكُنُوا فِي مَكَّةَ حَرَمِهِمُ الْمُقَدَّسِ الْخَاصِّ بِوَثَنِيَّتِهِمْ وَأَصْنَامِهِمْ . وَكَانَ هَؤُلَاءِ يَسْكُنُونَ فِي أَطْرَافِ مَكَّةَ (فِي الْمَنَازِلِ الْبَعِيدَةِ عَنِ الْكَعْبَةِ الْمُتَاخِمَةِ لِلصَّحْرَاءِ) ! ! وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ بِقِصَصٍ عَنْ دِينِهِمْ لَا تَصِلُ إِلَى مَسَامِعِ رُؤَسَاءِ قُرَيْشٍ وَعُظَمَائِهِمْ أَوْ مَا كَانُوا يَحْفَلُونَ بِهَا لِسَمَاعِ أَمْثَالِهَا فِي رِحْلَاتِهِمُ الْكَثِيرَةِ . وَلَكِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ عَتَبَ عَلَى أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ كَثْرَةَ تَكْرِيرِهِ لِمَا يَذْكُرُهُ الرُّهْبَانُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ .

(164/356)

فَهَذِهِ مُقَدِّمَاتٌ يَذْكُرُهَا كُتَّابُ الْإِفْرِنْجِ لِتَعْلِيلِ مَا ظَهَرَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ دَعْوَى النُّبُوَّةِ عَلَى طَرِيقِهِمْ فِي الِاسْتِنْبَاطِ وَمَا يُسَمُّونَهُ النَّقْدَ التَّحْلِيلِيَّ ، وَيُقْرِنُونَ بِهَا مُقَدِّمَاتٍ أُخْرَى فِي وَصْفِ حَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ وَحَالَةِ قَوْمِهِ وَمَا اسْتَفَادَهُ مِنْهَا مِنْ تَأْثِيرٍ وَعِبْرَةٍ ،

فَنُلَخِّصُهَا مَضْمُومَةً إِلَى مَا قَبْلَهَا مَعَ الْإِلْمَامِ بِنَقْدِهَا .

(7) قَالَ دِرِمِنْغَامْ فِي كَفَالَةِ أَبِي طَالِبٍ لِمُحَمَّدٍ بَعْدَ وَفَاةِ جَدِّهِ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ غَنِيًّا فَلَمْ يُتِحْ لَهُ تَعْلِيمُ الصِّبْيِ الَّذِي بَقِيَ أُمِّيًّا طُولَ حَيَاتِهِ (يُوهِمُ الْقَارِئَ أَنَّ أَوْلَادَ الْمُوسِرِينَ بِمَكَّةَ كَانُوا يَتَعَلَّمُونَ كَأَنَّ هُنَالِكَ مَدَارِسَ يُعَلَّمُ فِيهَا النَّشْءُ بِالْأُجُورِ كَمَدَارِسِ بِلَادِ الْحَضَارَةِ وَهَذَا بَاطِلٌ لَا أَصْلَ لَهُ – ثُمَّ قَالَ) :

(وَلَكِنَّهُ كَانَ يَسْتَصْحِبُهُ وَإِيَّاهُ فِي التِّجَارَةِ فَيَسِيرُ وَالْقَوَافِلَ خِلَالَ الصَّحْرَاءِ يَقْطَعُ هَذِهِ الْأَبْعَادَ الْمُتَنَائِيَةَ وَتُحَدِّقُ عَيْنَاهُ الْجَمِيلَتَانِ بِمَدْيَنَ وَوَادِي الْقُرَى وَدِيَارِ ثَمُودَ وَتَسْتَمِعُ أُذُنَاهُ الْمُرْهَفَتَانِ إِلَى حَدِيثِ الْعَرَبِ وَالْبَادِيَةِ عَنْ هَذِهِ الْمَنَازِلِ وَحَدِيثِهَا وَمَاضِي نَبَئِهَا . وَيُقَالُ إِنَّهُ فِي إِحْدَى هَذِهِ الرِّحْلَاتِ إِلَى الشَّامِ الْتَقَى بِالرَّاهِبِ بَحِيرَى فِي جِوَارِ مَدِينَةِ بُصْرَى ، وَأَنَّ الرَّاهِبَ رَأَى فِيهِ

(165/356)

عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ عَلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ أَنْبَاءُ كُتُبِهِ . وَفِي الشَّامِ عَرَفَ مُحَمَّدٌ أَحْبَارَ الرُّومِ وَنَصْرَانِيَّتَهُمْ وَكُتَّابَهُمْ وَمُنَاوَأَةَ الْفُرْسِ مِنْ عُبَّادِ النَّارِ لَهُمْ وَانْتِظَارَ الْوَقِيعَةِ بِهِمْ) .

كُلُّ مَا ذَكَرَهُ دِرِمِنْغَامْ هُنَا فَهُوَ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ خَيَالِهِ وَمُبْتَدَعَاتِ رَأْيِهِ إِلَّا مَسْأَلَةَ بَحِيرَى

الرَّاهِبِ فَأَصْلُهَا مَا ذَكَرْنَا ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَحْفَلْ بِإِثْبَاتِهَا لِمَا يَعْلَمُهُ مِنْ مُفْتَرَيَاتِ رِجَالِ الْكَنِيسَةِ فِيهَا .

(166/356)

فَمُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَمْ يَذْهَبْ مَعَ عَمِّهِ إِلَى التِّجَارَةِ فِي الشَّامِ إِلَّا وَهُوَ طِفْلٌ كَمَا تَقَدَّمَ وَقَدْ أَعَادَهُ إِلَى مَكَّةَ قَبْلَ إِتْمَامِ رِحْلَتِهِ . ثُمَّ سَافَرَ إِلَيْهَا فِي تِجَارَةِ خَدِيجَةَ وَهُوَ شَابٌّ مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَمْ يَتَجَاوَزْ سُوقَ بُصْرَى فِي الْمَرَّتَيْنِ . وَالْقَوَافِلُ الَّتِي تَذْهَبُ إِلَى الشَّامِ لَمْ تَكُنْ تَمُرُّ بِمَدْيَنَ وَهِيَ فِي أَرْضِ سَيْنَاءَ . وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْقَوَافِلُ تُضَيِّعُ شَيْئًا مِنْ وَقْتِهَا لِلْبَحْثِ مَعَ الْعَرَبِ أَوِ الْأَعْرَابِ فِي طَرِيقِهَا عَنْ أَنْبَائِهَا وَالتَّارِيخِ الْقَدِيمِ لِبِلَادِهَا ، وَلَمْ يُعْرَفْ عَنْ تُجَّارِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يُعْنَوْنَ بِلِقَاءِ أَحْبَارِ النَّصَارَى وَمُبَاحَثَتِهِمْ فِي دِينِهِمْ وَكُتُبِهِمْ ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ لِدِرِمِنْغَامْ أَنَّ مُحَمَّدًا هُوَ الَّذِي كَانَ يَشْتَغِلُ فِي تِلْكَ التِّجَارَةِ بِالْبَحْثِ عَنِ الْأُمَمِ وَالتَّوَارِيخِ وَالْكُتُبِ وَالْأَدْيَانِ وَيُعْنَى بِلِقَاءِ رُؤَسَائِهَا وَالْبَحْثِ مَعَهُمْ ؟ إِنَّمَا اخْتَرَعَ هَذَا لِأَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ تَعْلِيلَ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ قِصَصِ الرُّسُلِ إِلَّا بِهِ وَكَذَلِكَ الْإِنْبَاءُ بِغَلَبِ الرُّومِ لِلْفُرْسِ كَمَا سَيَأْتِي . وَسَتَرَى مَا نُفَنِّدُ بِهِ تَعْلِيلَهُ وَتَحْلِيلَهُ وَتَرْكِيبَهُ عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ مَا زَعَمَهُ كُلِّهِ .

(167/356)

(8) ثُمَّ ذَكَرَ دِرِمِنْغَامْ أَنَّ الْعَرَبَ وَلَا سِيَّمَا أَهْلِ مَكَّةَ كَانُوا يَصْرِفُونَ مُعْظَمَ أَوْقَاتِهِمْ بَعْدَ مَا يَكُونُ مِنْ تِجَارَةٍ أَوْ حَرْبٍ فِي الِاسْتِمْتَاعِ بِاللَّذَّاتِ مِنَ السُّكْرِ وَالتَّسَرِّي وَغَيْرِ ذَلِكَ ، وَأَنَّ التَّارِيخَ يَشْهَدُ بِأَنَّ مُحَمَّدًا كَانَ يَرَاهُمْ وَلَمْ يَكُنْ يُشَارِكُهُمْ فِي ذَلِكَ لَا لِفَقْرِهِ وَضِيقِ ذَاتِ يَدِهِ قَالَ : (لَكِنَّ نَفْسَ مُحَمَّدٍ كَانَتْ شَغِفَةً بِأَنْ تَرَى وَأَنْ تَسْمَعَ وَأَنْ تَعْرِفَ ، وَكَأَنَّ حِرْمَانَهُ مِنَ التَّعْلِيمِ الَّذِي كَانَ يَعْلَمُهُ أَنْدَادُهُ جَعَلَهُ أَشَدَّ لِلْمَعْرِفَةِ شَوْقًا وَبِهَا تَعَلُّقًا ، كَمَا أَنَّ النَّفْسَ الْعَظِيمَةَ الَّتِي تَجَلَّتْ مِنْ بَعْدُ آثَارُهَا ، وَمَا زَالَ يَغْمُرُ الْعَالَمَ سُلْطَانُهَا ، كَانَتْ فِي تَوْقِهَا إِلَى الْكَمَالِ تَرْغَبُ عَنْ هَذَا اللَّهْوِ الَّذِي يَطْمَحُ إِلَيْهِ أَهْلُ مَكَّةَ إِلَى نُورِ الْحَيَاةِ الْمُتَجَلِّي مِنْ كُلِّ مَظَاهِرِ الْحَيَاةِ لِمَنْ هَدَاهُ الْحَقُّ إِلَيْهَا لِاسْتِكْنَاهِ مَا تَدُلُّ هَذِهِ الْمَظَاهِرُ عَلَيْهِ وَمَا تَحَدَّثَ الْمَوْهُوبُونَ بِهِ) .

هَذَا الْخَبَرُ مِنْ مُخْتَرَعَاتِ دِرِمِنْغَامْ فَمُحَمَّدٌ لَمْ يَكُنْ شَغُوفًا بِأَنْ يَرَى مَا يَفْعَلُهُ فُسَّاقُ قَوْمِهِ مِنْ فُسُوقٍ وَفُجُورٍ ، وَلَا أَنْ يَسْمَعَ ذَلِكَ ، وَلَا يَتَحَرَّى أَنْ يَعْرِفَهُ ، وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْ سَمَرَهُمْ وَلَهْوَهُمْ إِلَّا مَرَّتَيْنِ أَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ النُّوَّمَ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا حَتَّى طَلَعَتِ

الشَّمْسُ فَلَمْ يَرَ وَلَمْ يَسْمَعْ شَيْئًا ، وَقَدْ بَطَلَ بِهَذَا مَا عَلَّلَ بِهِ الْخَبَرَ عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الْمَدْحِ الْمُتَضَمِّنِ لِدَسِيسَتَيْنِ (إِحْدَاهُمَا) أَنَّ أَنْدَادَهُ فِي قُرَيْشٍ كَانُوا مُتَعَلِّمِينَ وَكَانَ هُوَ مَحْرُومًا مِمَّا لُقِّنُوهُ مِنَ الْعِلْمِ وَكَانَ حِرْمَانُهُ هَذَا يَزِيدُهُ شَغَفًا بِالْبَحْثِ وَالِاسْتِطْلَاعِ (وَالثَّانِيَةُ) أَنَّ نَفْسَهُ كَانَتْ بِسَبَبِ هَذَا تَزْدَادُ طُمُوحًا إِلَى نُورِ الْحَيَاةِ الْمُتَجَلِّي فِي جَمِيعِ مَظَاهِرِهَا لِاسْتِكْنَاهِ مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَظَاهِرُ ، فَهَذِهِ مِدْحَةٌ غَرَضُهُ مِنْهَا تَعْلِيلُ مَا انْبَثَقَ فِي نَفْسِهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الْوَحْيِ ، وَسَتَرَى بُطْلَانَهُ .

(169/356)

---

(9) ثُمَّ ذَكَرَ دِرِمِنْغَامْ مَسْأَلَةَ أَبْنَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْقَاسِمِ وَالطَّيِّبِ وَالطَّاهِرِ وَهُوَ يَشُكُّ فِي وُجُودِهِمْ وَيَقُولُ : إِنَّ تَكْنِيَتَهُ بِأَبِي الْقَاسِمِ لَا تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ وَلَدٍ لَهُ بِهَذَا الِاسْمِ وَإِنَّهُ إِنْ صَحَّ أَنَّهُمْ وُلِدُوا فَقَدْ مَاتُوا فِي الْمَهْدِ ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهُ وُلِدَ لَهُ غُلَامٌ سَمَّاهُ الْقَاسِمَ وَكُنِّيَ بِهِ وَأَنَّهُ مَاتَ طِفْلًا ، وَقِيلَ عَاشَ إِلَى أَنْ رَكِبَ الدَّابَّةَ وَأَنَّ الطَّيِّبَ وَالطَّاهِرَ لَقَبَانِ لِلْقَاسِمِ . وَلَكِنَّ دِرِمِنْغَامْ قَدْ كَبَّرَ مَسْأَلَةَ مَوْتِ هَؤُلَاءِ الْأَوْلَادِ الَّذِينَ يَشُكُّ فِي وُجُودِهِمْ . وَبَنَى عَلَيْهَا حُكْمًا . وَأَثَارَ وَهْمًا ، قَالَ بَعْدَ أَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّدًا تَبَنَّى زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ لِأَنَّهُ لَمْ يُطِقْ عَلَى الْحِرْمَانِ مِنَ الْبَنِينَ صَبْرًا .

(فَمِنْ حَقِّ الْمُؤَرِّخِ أَنْ يَجْعَلَ لِهَذَا الْحَادِثِ بَلِ الْحَوَادِثِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أَصَابَتْ مُحَمَّدًا فِي بَنِيهِ مَا هِيَ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَتْرُكَهُ فِي حَيَاتِهِ وَفِي تَفْكِيرِهِ مِنْ أَثَرٍ . وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ بِنَوْعٍ خَاصٍّ إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ أُمِّيًّا ، فَلَمْ تَكُنِ الْمُضَارَّاتُ الْجَدَلِيَّةُ (كَذَا) لِتَصْرِفَهُ عَنِ التَّأْثِيرِ بِعِبَرِ الْحَوَادِثِ وَدُرُوسِهَا ، وَحَوَادِثُ أَلِيمَةٌ كَوَفَاةِ أَبْنَائِهِ جَدِيرَةٌ بِأَنْ تَسْتَوْقِفَ تَفْكِيرَهُ وَأَنْ تَلْفِتَهُ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لِمَا كَانَتْ خَدِيجَةُ تَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى أَصْنَامِ الْكَعْبَةِ وَتَنْحَرُ لِهُبَلٍ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةِ الْأُخْرَى تُرِيدُ أَنْ تَفْتَدِيَ نَفْسَهَا مِنْ أَلَمِ الثُّكْلِ فَلَا تُفِيدُ الْقُرْبَانُ وَلَا تُجْدِي النُّحُورُ) .

(وَالْأَمْرُ كَانَ كَذَلِكَ لَا رَيْبَ أَنْ كَانَتْ عِبَادَةُ الْأَصْنَامِ قَدْ بَدَأَتْ تَتَزَعْزَعُ فِي النُّفُوسِ تَحْتَ ضَغْطِ النَّصْرَانِيَّةِ الْآتِيَةِ مِنَ الشَّامِ مُنْحَدِرَةً إِلَيْهَا مِنَ الرُّومِ وَمِنَ الْيَمَنِ مُتَخَطِّيَةً إِلَيْهَا مِنْ خَلِيجِ الْعَرَبِ (الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ) مِنْ بِلَادِ الْحَبَشَةِ) .

غَرَضُ دِرِمِنْغَامْ مِنْ تَكْبِيرِ الْمُصِيبَةِ بِمَوْتِ الْأَبْنَاءِ الْمَشْكُوكِ فِي وِلَادَتِهِمْ هُوَ أَنْ يَجْعَلَهَا مُسَوِّغَةً لِمَا اخْتَلَقَهُ مِنْ تَوَسُّلِ خَدِيجَةَ إِلَى الْأَصْنَامِ بِالْقَرَابِينِ لِيُنْقِذُوهَا مِنْ

مَعْصِيَةِ الثُّكْلِ ، ثُمَّ يَسْتَنْبِطُ مِنْ ذَلِكَ زَعْزَعَةَ إِيمَانِهَا وَإِيمَانَ بَعْلِهَا بِعِبَادَتِهَا الَّذِي كَانَ سَبَبُهُ تَأْثِيرَ النَّصْرَانِيَّةِ فِي مَكَّةَ وَغَيْرِهَا مِنْ بِلَادِ الْعَرَبِ ، ثُمَّ لِيَجْعَلَ ذَلِكَ مِنَ الْأَسْبَابِ التَّحْلِيلِيَّةِ لِتَعْلِيلِ الْوَحْيِ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْحَقُّ أَنَّهُ مَا تَبَنَّى زَيْدًا إِلَّا لِأَنَّهُ آثَرَ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لَهُ عَلَى أَنْ يَكُونَ حُرًّا مَعَ وَالِدِهِ وَعَمِّهِ عِنْدَمَا جَاءَا مَكَّةَ لِافْتِدَائِهِ بِالْمَالِ . فَقَالَ لَهُمَا : (ادْعُوهُ فَخَيِّرُوهُ فَإِنِ اخْتَارَكُمْ فَهُوَ لَكُمْ فِدَاءٌ) ثُمَّ دَعَاهُ فَسَأَلَهُ عَنْ أَبِيهِ وَعَمِّهِ فَعَرَفَهُمَا قَالَ : (فَأَنَا مَنْ قَدْ عَلِمْتَ وَقَدْ رَأَيْتَ صُحْبَتِي لَكَ فَاخْتَرْنِي أَوِ اخْتَرْهُمَا) فَقَالَ زَيْدٌ : مَا أَنَا بِالَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْكَ أَحَدًا . أَنْتَ مِنِّي بِمَكَانِ الْأَبِ وَالْعَمِّ . فَقَالَا : وَيْحَكَ يَا زَيْدُ أَتَخْتَارُ الْعُبُودِيَّةَ عَلَى الْحُرِّيَّةِ وَعَلَى أَبِيكَ وَعَمِّكَ وَأَهْلِ بَيْتِكَ ؟ قَالَ : قَدْ رَأَيْتُ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ شَيْئًا مَا أَنَا الَّذِي أَخْتَارُ عَلَيْهِ أَحَدًا . فَلَمَّا رَأَى رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ أَخْرَجَهُ إِلَى الْحِجْرِ فَقَالَ : (اشْهَدُوا أَنَّ زَيْدًا ابْنِي يَرِثُنِي وَأَرِثُهُ) فَلَمَّا رَأَى أَبُوهُ وَعَمُّهُ طَابَتْ أَنْفُسُهُمَا . فَدُعِيَ زَيْدَ بْنَ مُحَمَّدٍ حَتَّى جَاءَ اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ .

رَوَاهُ ابْنُ سَعْدٍ وَنَحْوُهُ فِي سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ .

هَذَا وَإِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ جَزُوعًا عِنْدَ مَوْتِ وَلَدٍ وَلَا غَيْرِهِ بَلْ كَانَ أَصْبَرَ الصَّابِرِينَ وَإِنَّ

خَدِيجَةَ لَمْ تَيْأَسْ – بِمَوْتِ الْقَاسِمِ – مِنَ اللهِ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهَا بِوَلَدٍ آخَرَ ، وَلَمْ تَنْحَرْ لِلْأَصْنَامِ شَيْئًا ، وَإِنَّ اللَّاتَ كَانَتْ صَخْرَةً فِي الطَّائِفِ تَعْبُدُهَا ثَقِيفُ وَلَمْ تَكُنْ مِنْ أَصْنَامِ قُرَيْشٍ ، وَالْعُزَّى كَانَتْ شَجَرَةً بِبَطْنِ نَخْلَةَ تَعْبُدُهَا قُرَيْشٌ وَكِنَانَةُ وَغَطَفَانُ ، وَمَنَاةَ كَانَتْ صَنَمًا فِي قُدَيْدٍ لِبَنِي هِلَالٍ وَهُذَيْلٍ وَخُزَاعَةَ .

وَقَدْ كَانَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ ضَعِيفِ الْوَثَنِيَّةِ فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ – وَزَعَمَ أَنَّهُ سَبَّبَهُ انْتِشَارُ النَّصْرَانِيَّةِ – جَدِيرًا بِأَنْ يَمْنَعَ خَدِيجَةَ وَهِيَ مِنْ أَعْقَلِ الْعَرَبِ وَأَسْلَمِهِمْ فِطْرَةً ، وَأَقْرَبِهِمْ إِلَى الْحَنِفِيَّةِ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تُهَاجِرَ إِلَى هَذِهِ الْأَصْنَامِ لِتَنْحَرَ لَهَا وَتَتَقَرَّبَ إِلَيْهَا لِتَرْزُقَهَا غُلَامًا ، فَإِنْ لَمْ يَمْنَعْهَا عَقْلُهَا وَفِطْرَتُهَا فَأَجْدَرُ بِبَعْلِهَا الْمُصْطَفَى أَنْ يَمْنَعَهَا مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ عَدُوُّ الْوَثَنِيَّةِ وَالْأَصْنَامِ مِنْ طُفُولَتِهِ كَمَا يَعْتَرِفُ دِرِمِنْغَامْ ، وَلَكِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يُنْسِي صَاحِبَهُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَنْسَاهُ لَوْلَاهُ .

(10) زَعَمَ دِرِمِنْغَامْ أَنَّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ تَغَلْغُلِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي بِلَادِ الْعَرَبِ أَوْجَدَ فِيهَا حَالَةً نَفْسِيَّةً أَدَّتْ إِلَى زِيَادَةِ إِمْعَانِهِمْ فِيمَا كَانُوا يُسَمُّونَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ التَّحَنُّثَ أَوِ التَّحَنُّفَ وَفَرَّعَ عَلَى ذَلِكَ قَوْلَهُ :

(وَكَانَ مُحَمَّدٌ يَجِدُ فِي التَّحَنُّثِ طُمَأْنِينَةً لِنَفْسِهِ أَنْ كَانَ لَهُ بِالْوَحْدَةِ شَغَفٌ ، وَأَنْ

كَانَ يَجِدُ فِيهَا الْوَسِيلَةَ إِلَى مَا بَرِحَ شَوْقُهُ يَشْتَدُّ إِلَيْهِ مِنْ نَشْدَانِ الْمَعْرِفَةِ وَاسْتِلْهَامِ مَا فِي الْكَوْنِ مِنْ أَسْبَابِهَا فَكَانَ يَنْقَطِعُ كُلَّ رَمَضَانَ طُولَ الشَّهْرِ فِي غَارِ حِرَاءَ بِجَبَلِ أَبِي قُبَيْسٍ مُكْتَفِيًا بِالْقَلِيلِ مِنَ الزَّادِ يُحْمَلُ إِلَيْهِ لِيَمْضِيَ أَيَّامًا بِالْغَارِ طَوِيلَةً فِي التَّأَمُّلِ وَالْعِبَادَةِ بَعِيدًا عَنْ ضَجَّةِ النَّاسِ وَضَوْضَاءِ الْحَيَاةِ) .

وَأَقُولُ : إِنَّ رِوَايَاتِ الْمُحَدِّثِينَ تُفِيدُ أَنَّهُ حُبِّبَ إِلَيْهِ التَّحَنُّثُ فِي غَارِ حِرَاءَ فِي الْعَامِ الَّذِي جَاءَهُ فِيهِ الْوَحْيُ وَكَانَ هُوَ يَحْمِلُ الزَّادَ وَمَا كَانَ أَحَدٌ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ ، وَمَا ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ تَعَبُّدِهِ فِيهِ شَهْرَ رَمَضَانَ كُلَّ سَنَةٍ إِنَّمَا كَانَ فِي زَمَنِ فَتْرَةِ الْوَحْيِ كَمَا سَيَأْتِي :

(174/356)

وَهَاهُنَا وَصَلَ دِرِمِنْغَامْ إِلَى آخِرِ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِالنَّتِيجَةِ الْمَطْلُوبَةِ لَهُ فَأَرْخَى لِخَيَالِهِ الْعِنَانَ وَنَزَعَ مِنْ جَوَادِهِ اللِّجَامَ ، وَنَخَسَهُ بِالْمَهَارَةِ ، فَعَدَا بِهِ سَبْحًا ، وَجَمَحَ بِهِ جَمْحًا ، وَقَدَحَتْ حَوَافِرُهُ لَهُ قَدْحًا ، وَأَثَارَتْ لَهُ نَقْعًا ، وَأَذِنَ لِشَاعِرِيَّتِهِ الْفَرَنْسِيَّةِ أَنْ تَصِفَ مُحَمَّدًا عِنْدَ ذَلِكَ الْغَارِ بِمَا تُحْدِثُهُ فِي نَفْسِهِ مَشَاهِدُ نُجُومِ اللَّيْلِ وَمَا تُسْعِفُهُ بِهِ شَمْسُ النَّهَارِ ، وَمَا تَصَوَّرَ أَنَّهُ كَانَ يَرَاهُ فِي تِلْكَ الْقُنَّةِ مِنَ الْجَبَلِ مِنْ صَحَارَى وَقِفَارٍ ، وَخِيَامٍ وَآبَارٍ ، وَرُعَاةٍ تَهُشُّ عَلَى غَنَمِهَا حَيْثُ لَا أَشْجَارَ ، حَتَّى ذَكَرَ الْبِحَارَ عَلَى بُعْدِ الْبِحَارِ وَقَدْ أَتْقَنَ التَّخَيُّلَ

الشِّعْرِيَّ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُوَافِقْ بِهِ الْوَصْفَ الْمَوْضِعِيَّ ، ثُمَّ قَالَ مُصَوِّرًا لِمَا يَبْتَغِيهِ مِنْ مُشَاهَدَاتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - :

(وَهَذِهِ النُّجُومُ فِي لَيَالِي صَيْفِ الصَّحْرَاءِ كَثِيرَةٌ شَدِيدَةُ الْبَرِيقِ حَتَّى لَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَسْمَعَ بَصِيصَ ضَوْئِهَا وَكَأَنَّهُ نَغَمُ نَارٍ مُوقَدَةٍ .

(حَقًّا ! إِنَّ فِي السَّمَاءِ لَشَارَاتٍ لِلْمُدْرِكِينَ . وَفِي الْعَالَمِ غَيْبٌ بَلِ الْعَالَمُ غَيْبٌ كُلُّهُ ، لَكِنْ !

(175/356)

أَلَا يَكْفِي أَنْ يَفْتَحَ الْإِنْسَانُ عَيْنَيْهِ لِيَرَى ، وَأَنْ يُرْهِفَ أُذُنَهُ لِيَسْمَعَ ؟ لِيَرَى حَقًّا ، وَلِيَسْمَعَ الْكَلِمَ الْخَالِدَ ! لَكِنَّ لِلنَّاسِ عُيُونًا لَا تَرَى وَآذَانًا لَا تَسْمَعُ . . . أَمَّا هُوَ فَحَسْبٌ أَنَّهُ يَسْمَعُ وَيَرَى وَهَلْ تَحْتَاجُ لِكَيْ تَسْمَعَ مَا وَرَاءَ السَّمَاءِ مِنْ أَصْوَاتٍ إِلَّا إِلَى قَلْبٍ خَالِصٍ وَنَفْسٍ مُخْلِصَةٍ وَفُؤَادٍ مُلِئَ إِيمَانًا ؟

(وَمُحَمَّدٌ فِي رَيْبٍ مِنْ حِكْمَةِ النَّاسِ فَهُوَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَعْرِفَ إِلَّا الْحَقَّ الْخَالِصَ ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ بَاطِلٌ ، وَهُوَ لَا يَسْتَطِيعُ الْعَيْشَ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَالْحَقُّ لَيْسَ فِيمَا يَرَى حَوْلَهُ ، فَحَيَاةُ الْقُرَشِيِّينَ لَيْسَتْ حَقًّا ، وَرِبَا الْمُرَابِينَ وَنَهْبُ الْبَدْوِ وَلَهْوُ الْخُلَعَاءِ وَكُلُّ مَا إِلَى ذَلِكَ لَا شَيْءَ مِنَ الْحَقِّ فِيهِ ، وَالْأَصْنَامُ الْمُحِيطَةُ بِالْكَعْبَةِ لَيْسَتْ حَقًّا

وَهُبَلُ الْإِلَهُ الطَّوِيلُ الذَّقْنِ الْكَثِيرُ الْعُطُورِ وَالْمَلَابِسِ لَيْسَ إِلَهًا حَقًّا .

(إِذًا فَأَيْنَ الْحَقُّ وَمَا هُوَ) ؟

(176/356)

(وَظَلَّ مُحَمَّدٌ يَتَرَدَّدُ عَلَى حِرَاءَ فِي رَمَضَانَ كُلَّ عَامٍ سَنَوَاتٍ مُتَتَالِيَةً وَهُنَاكَ كَانَ يَزْدَادُ بِهِ التَّأَمُّلُ ابْتِغَاءَ الْحَقِيقَةِ حَتَّى لَكَانَ يَنْسَى نَفْسَهُ ، وَيَنْسَى طَعَامَهُ ، وَيَنْسَى كُلَّ مَا فِي الْحَيَاةِ لِأَنَّ هَذَا الَّذِي يَرَى فِي الْحَيَاةِ لَيْسَ حَقًّا وَهُنَاكَ كَانَ يُقَلِّبُ فِي صُحُفِ ذِهْنِهِ كُلَّ مَا وَعَى ، فَيَزْدَادُ عَمَّا يُزَاوِلُ النَّاسُ مِنْ أَلْوَانِ الظَّنِّ رَغْبَةً وَازْوِرَارًا ، وَهُوَ لَمْ يَكُنْ يَطْمَعُ فِي أَنْ يَجِدَ فِي قِصَصِ الْأَحْبَارِ وَفِي كُتُبِ الرُّهْبَانِ الْحَقَّ الَّذِي يَنْشُدُ ، بَلْ فِي هَذَا الْكَوْنِ الْمُحِيطِ بِهِ : فِي السَّمَاءِ وَنُجُومِهَا وَقَمَرِهَا وَشَمْسِهَا ، وَفِي الصَّحْرَاءِ سَاعَاتِ لَهِيبِهَا الْمُحْرِقِ تَحْتَ ضَوْءِ الشَّمْسِ الْبَاهِرَةِ اللَّأْلَاءِ ، وَسَاعَاتِ صَفْوِهَا الْبَدِيعِ إِذْ تَكْسُوهَا أَشِعَّةُ الْقَمَرِ أَوْ أَضْوَاءُ النُّجُومِ بِلِبَاسِهَا الرَّطْبِ النَّدِيِّ ، وَفِي الْبَحْرِ وَمَوْجِهِ وَفِي كُلِّ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَّصِلُ بِالْوُجُودِ وَتَشْمَلُهُ وَحْدَةُ الْوُجُودِ – فِي هَذَا الْكَوْنِ كَانَ يَلْتَمِسُ الْحَقِيقَةَ الْعُلْيَا ، وَابْتِغَاءُ إِدْرَاكِهَا كَانَ يَسْمُو بِنَفْسِهِ سَاعَاتِ خَلْوَتِهِ لِيَتَّصِلَ بِهَذَا الْكَوْنِ وَلِيَخْتَرِقَ شِغَافَ الْحُجُبِ إِلَى مَكْنُونِ سِرِّهِ .

قَالَ دِرمِنْغَامْ : فَلَمَّا كَانَتْ سَنَةُ 610م أَوْ نَحْوُهَا كَانَتِ الْحَالُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي يُعَانِيهَا (مُحَمَّدٌ) عَلَى أَشُدِّهَا فَقَدْ أَبْهَظَتْ عَاتِقَهُ الْعَقِيدَةُ بِأَنَّ أَمْرًا جَوْهَرِيًّا يَنْقُصُهُ وَيَنْقُصُ قَوْمَهُ ، وَأَنَّ النَّاسَ نَسُوا هَذَا الْأَمْرَ الْجَوْهَرِيَّ وَتَشَبَّثَ كُلٌّ بِصَنَمِ قَوْمِهِ وَقَبِيلَتِهِ ، وَخَشِيَ النَّاسُ الْجِنَّ وَالْأَشْبَاحَ وَالْبَوَارِحَ وَأَهْمَلُوا الْحَقِيقَةَ الْعُلْيَا ، وَلَعَلَّهُمْ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَكِنَّهُمْ نَسُوهَا نِسْيَانًا هُوَ مَوْتُ الرُّوحِ وَقَدْ خَلَصَتْ نَفْسُ (مُحَمَّدٍ) مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْآرَاءِ التَّافِهَةِ ، وَمِنْ كُلِّ الْقُوَى الَّتِي تَخْضَعُ لِقُوَّةِ غَيْرِهَا وَمِنْ كُلِّ كَائِنٍ لَيْسَ مَظْهَرًا لِلْكَائِنِ الْوَاحِدِ .

وَلَقَدْ عَرَفَ أَنَّ الْمَسِيحِيِّينَ فِي الشَّامِ وَمَكَّةَ لَهُمْ دِينٌ أُوحِيَ بِهِ ، وَأَنَّ أَقْوَامًا غَيْرَهُمْ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللهِ وَأَنَّهُمْ عَرَفُوا الْحَقَّ وَوَعَوْهُ أَنْ جَاءَهُمْ عِلْمٌ مِنْ أَنْبِيَاءَ أُوحِيَ إِلَيْهِمْ بِهِ ، وَكُلَّمَا ضَلَّ النَّاسُ بَعَثَتِ السَّمَاءُ إِلَيْهِمْ نَبِيًّا يَهْدِيهِمْ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ وَيُذَكِّرُهُمْ بِالْحَقِيقَةِ الْخَالِدَةِ .

وَهَذَا الدِّينُ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فِي كُلِّ الْأَزْمَانِ دِينٌ وَاحِدٌ وَكُلَّمَا أَفْسَدَهُ النَّاسُ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنَ السَّمَاءِ يُقَوِّمُ عِوَجَهُمْ . وَقَدْ كَانَ الشَّعْبُ الْعَرَبِيُّ يَوْمَئِذٍ فِي أَشَدِّ تِيهَاءِ الضَّلَالِ . أَفَمَا آنَ لِرَحْمَةِ اللهِ أَنْ تَظْهَرَ فِيهِمْ مَرَّةً أُخْرَى وَأَنْ تَهْدِيَهُمْ إِلَى الْحَقِّ) ؟

(وَتَزَايَدَتْ رَغْبَةُ مُحَمَّدٍ عَنِ الاجْتِمَاعِ بِالنَّاسِ ، وَوَجَدَ فِي وَحْدَةِ غَارِ حِرَاءَ مَسَرَّةً تَزْدَادُ كُلَّ يَوْمٍ عُمْقًا ، وَجَعَلَ يَقْضِي الأَسَابِيعَ وَمَعَهُ قَلِيلٌ مِنَ الزَّادِ وَرُوحُهُ تَزْدَادُ بِالصَّوْمِ وَالسَّهَرِ وَالإِدْمَانِ عَلَى تَقْلِيبِ فِكْرَتِهِ صِقَالًا وَحِدَّةً . وَنَسِيَ النَّهَارَ وَاللَّيْلَ وَالْحُلْمَ وَالْيَقَظَةَ ، وَجَعَلَ يَقْضِي السَّاعَاتِ الطِّوَالَ جَاثِيًا فِي الْغَارِ ، أَوْ مُسْتَلْقِيًا فِي الشَّمْسِ ، أَوْ سَائِرًا بِخُطًى وَاسِعَةٍ فِي طُرُقِ الصَّحْرَاءِ الْحَجَرِيَّةِ ، وَكَأَنَّهُ يَسْمَعُ الأَصْوَاتَ تَخْرُجُ مِنْ خِلَالِ أَحْجَارِهَا تُنَادِيهِ مُؤْمِنَةً بِرِسَالَتِهِ .

(وَقَضَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ حَتَّى خَشِيَ عَلَى نَفْسِهِ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ فَأَسَرَّ بِمَخَاوِفِهِ إِلَى خَدِيجَةَ فَطَمْأَنَتْهُ وَجَعَلَتْ تُحَدِّثُهُ بِأَنَّهُ الأَمِينُ وَأَنَّ الْجِنَّ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَقْتَرِبَ مِنْهُ وَفِيمَا هُوَ يَوْمًا نَائِمٌ بِالْغَارِ جَاءَهُ مَلَكٌ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأْ ، قَالَ (مَا أَنَا بِقَارِئٍ) وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ الْوَحْيِ وَأَوَّلَ النُّبُوَّةِ

.

(وَهُنَا تَبْدَأُ حَيَاةٌ جِدَّةٍ رُوحِيَّةٍ قَوِيَّةٍ غَايَةَ الْقُوَّةِ ، حَيَاةٌ تَأْخُذُ بِالأَبْصَارِ وَالأَلْبَابِ وَلَكِنَّهَا حَيَاةُ تَضْحِيَةٍ خَالِصَةٍ لِوَجْهِ اللهِ وَالْحَقِّ وَالإِنْسَانِيَّةِ) .

أَقُولُ : إِنَّ كُلَّ مَا هُنَا مِنْ خَيْرٍ أَوْ جُلُّهُ فَهُوَ غَيْرُ صَحِيحٍ ، فَمِنْ أَيْنَ عَلِمَ هَذَا الْإِفْرَنْسِيُّ أَنَّ مُحَمَّدًا نَسِيَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، وَالْحُلْمَ وَالْيَقَظَةَ ، وَأَنَّهُ كَانَ يَقْضِي السَّاعَاتِ الطِّوَالَ جَاثِيًا فِي الْغَارِ أَوْ مُسْتَلْقِيًا فِي الشَّمْسِ إلَخْ وَأَنَّهُ قَضَى سِتَّةَ أَشْهُرٍ فِي هَذِهِ الْحَالِ - قَدِ افْتَرَى فِي الْأَخْبَارِ لِيَسْتَنْبِطَ مِنْهَا أَنَّهُ صَارَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَغْلُوبًا عَلَى عَقْلِهِ ، غَائِبًا عَنْ حِسِّهِ . وَإِنَّنَا نَنْقُلُ هُنَا أَصَحَّ الْأَخْبَارِ فِي خَبَرِ تَحَنُّثِهِ فِي الْغَارِ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ - مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ لَا فِيمَا قَبْلَهَا - لِتَفْنِيدِ مُفْتَرَيَاتِهِ وَلِلِاسْتِغْنَاءِ بِهَا عَمَّا نَقَلَهُ مِنَ الْخَلْطِ فِي صِفَةِ الْوَحْيِ مِنَ الْفَصْلِ الْآتِي - وَهُوَ مَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِمَا وَهَذَا نَصُّ رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - .

(بَابُ كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)

(180/356)

افْتَتَحَ الْبَابَ بَلِ الْكِتَابَ كُلَّهُ بِرِوَايَتِهِ الْحَدِيثَ : (إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ) ثُمَّ قَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ قَالَ : أَخْبَرَنَا مَالِكٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – (أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ ، فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ) قَالَتْ عَائِشَةُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهَا – : وَلَقَدْ

رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا .

حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ بُكَيْرٍ قَالَ حَدَّثَنَا اللَّيْثُ عَنْ عُقَيْلٍ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ : أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنَ الْوَحْيِ

(181/356)

الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ الْمَلَكُ ، فَقَالَ : اقْرَأْ قَالَ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ :

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ، قُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ،

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : اقْرَأْ ، فَقُلْتُ : مَا أَنَا بِقَارِئٍ ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي ، فَقَالَ : (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ) (96 : 1 – 3) فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا – فَقَالَ : (زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي) فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ

فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ : (لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي) فَقَالَتْ خَدِيجَةُ : كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَحْمِلُ الْكَلَّ وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ وَتَقْرِي

(182/356)

الضَّيْفَ وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ : يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنِ ابْنِ أَخِيكَ ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى ؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِخَبَرِ مَا أَرَى ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ : هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا . لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ ، فَقَالَ

رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ ؟ قَالَ : نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ . وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ

وَفَتَرَ الْوَحْيُ .

(183/356)

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ وَأَخْبَرَنِي أَبُو سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ الْأَنْصَارِيَّ قَالَ وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ فِي حَدِيثِهِ (بَيْنَا أَنَا مَاشٍ إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءَ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ : زَمِّلُونِي فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ) إِلَى قَوْلِهِ : (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) (74 : 1 - 5) فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ اهـ .

(وَأَقُولُ) أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ حَدِيثَ جَابِرٍ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ مِنْ طُرُقٍ فِي بَعْضِهَا أَنَّ أَوَّلَهَا أَوَّلُ مَا أُنْزِلَ مُطْلَقًا وَفِي الْبَعْضِ الْآخَرِ أَنَّهَا مِنْ حَدِيثِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ كَالَّتِي هُنَا وَقَدْ عَبَّرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ رُعْبِهِ مِنْ رُؤْيَةِ الْمَلَكِ بِقَوْلِهِ : (فَجُئِثْتُ مِنْهُ

رُعْبًا) وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى (فَجُئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ) أَيْ فَزِعْتُ وَخِفْتُ وَهُوَ بِضَمِّ الْجِيمِ وَكَسْرِ الْهَمْزَةِ بِالتَّاءِ لِلْمَفْعُولِ .

(184/356)

هَذَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ فِي أَوَّلِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَالْمَشْهُورُ أَنَّهُ نَزَلَ بَعْدَ أَوَّلِ الْمُدَّثِّرِ سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ تَامَّةً وَبَعْدَهَا بَقِيَّةُ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ . وَقَالَ مُجَاهِدٌ : أَوَّلُ مَا نَزَلَ سُورَةُ (ن وَالْقَلَمِ) (68 : 1) وَهُوَ غَلَطٌ ، وَرُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ أَنَّ أَوَّلَ مَا نَزَلَ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ وَاعْتَمَدَهُ شَيْخُنَا فِي تَوْجِيهِ كَوْنِهَا فَاتِحَةَ الْكِتَابِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يُرَادَ أَنَّهَا أَوَّلُ سُورَةٍ تَامَّةٍ بَعْدَ بَدْءِ الْوَحْيِ بِالتَّمْهِيدِ التَّكْوِينِيِّ ثُمَّ بِالْأَمْرِ بِالتَّبْلِيغِ الْإِجْمَالِيِّ وَتَلَاهَا فَرْضُ الصَّلَاةِ وَنُزُولُ سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ أَوْ نَزَلَتَا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ .

(بَسْطُ مَا يُصَوِّرُونَ بِهِ الْوَحْيَ النَّفْسِيَّ لِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -)

هَأَنَذَا قَدْ بَسَطْتُ جَمِيعَ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي اسْتَنْبَطُوهَا مِنْ تَارِيخِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحَالَتِهِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ ، وَحَالَةِ قَوْمِهِ وَوَطَنِهِ ، وَمَا تَصَوَّرُوا أَنَّهُ اسْتَفَادَهُ مِنْ أَسْفَارِهِ ، وَمَا كَانَ مِنْ تَأْثِيرِ خَلَوَاتِهِ وَتَحَنُّثِهِ وَتَفَكُّرِهِ فِيهَا ، وَقَفَّيْتُ عَلَيْهَا بِأَصَحِّ مَا رَوَاهُ

الْمُحَدِّثُونَ فِي الصِّحَاحِ مِنْ صِفَةِ الْوَحْيِ وَكَيْفَ كَانَ بَدْؤُهُ وَفَتْرَتُهُ ، ثُمَّ كَيْفَ أَمَرَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِتَبْلِيغِهِ وَدَعْوَةِ النَّاسِ إلَى الْحَقِّ وَكَيْفَ حَمِيَ وَتَتَابَعَ .

(185/356)

وَأُبَيِّنُ الْآنَ كَيْفَ يَسْتَنْبِطُونَ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ هَذَا الْوَحْيَ قَدْ نَبَعَ مِنْ نَفْسِ مُحَمَّدٍ وَأَفْكَارِهِ بِتَأْثِيرِ ذَلِكَ كُلِّهِ فِي وِجْدَانِهِ وَعَقْلِهِ ، بِمَا لَمْ أَرَ وَلَمْ أَسْمَعْ مِثْلَهُ فِي تَقْرِيبِهِ إلَى الْعَقْلِ ، ثُمَّ أُقَفِّي عَلَيْهِ بِمَا يَنْقُضُهُ مِنْ أَسَاسِهِ بِأَدِلَّةِ الْعَقْلِ وَالتَّارِيخِ وَالصَّحِيحِ مِنْ وَصْفِ حَالَتِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَقُولُ :

يَقُولُونَ : إنَّ عَقْلَ مُحَمَّدٍ الْهُيُولَانِيَّ قَدْ أَدْرَكَ بِنُورِهِ الذَّاتِيِّ بُطْلَانَ مَا كَانَ عَلَيْهِ قَوْمُهُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ كَمَا أَدْرَكَ ذَلِكَ أَفْرَادٌ آخَرُونَ مِنْ قَوْمِهِ - آمَنَّا وَصَدَّقْنَا - وَإِنَّ فِطْرَتَهُ الزَّكِيَّةَ قَدِ احْتَقَرَتْ مَا كَانُوا يَتَنَافَسُونَ فِيهِ مِنْ جَمْعِ الْأَمْوَالِ بِالرِّبَا وَالْقِمَارِ - آمَنَّا وَصَدَّقْنَا - وَإِنَّ فَقْرَهُ وَفَقْرَ عَمِّهِ (أَبِي طَالِبٍ) الَّذِي كَفَلَهُ صَغِيرًا قَدْ حَالَ دُونَ انْغِمَاسِهِ فِيمَا كَانُوا يُسْرِفُونَ فِيهِ مِنَ الِاسْتِمْتَاعِ بِالشَّهَوَاتِ ، مِنَ السُّكْرِ وَالتَّسَرِّي وَعَزْفِ الْقِيَانِ - الصَّحِيحُ أَنَّهُ تَرَكَ ذَلِكَ احْتِقَارًا لَهُ لَا عَجْزًا عَنْهُ -

(186/356)

وَأَنَّهُ طَالَ تَفَكُّرُهُ فِي إِنْقَاذِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الشِّرْكِ الْقَبِيحِ وَتَطْهِيرِهِمْ مِنْ تِلْكَ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ – لَا مَانِعَ مِنْ ذَلِكَ – ، وَإِنَّهُ اسْتَفَادَ مِنْ أَسْفَارِهِ وَمِمَّنْ لَقِيَهُ فِيهَا وَفِي مَكَّةَ نَفْسِهَا مِنَ النَّصَارَى كَثِيرًا مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَنِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ الَّذِينَ بَعَثَهُمُ اللهُ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ فَأَخْرَجُوهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ – هَذَا وَلَمْ يَصِحَّ عِنْدَنَا وَلَا يَضُرُّنَا – ، وَإِنَّ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ لَمْ تَكُنْ كُلُّهَا مَقْبُولَةً فِي عَقْلِهِ لِمَا عَرَضَ لِلنَّصْرَانِيَّةِ مِنَ الْوَثَنِيَّةِ بِأُلُوهِيَّةِ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ وَبِمَا حَدَثَ فِيهَا مِنَ الْبِدَعِ – هَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى مَا قَبْلَهُ فَهُوَ مَعْقُولٌ غَيْرُ مَنْقُولٍ – وَإِنَّهُ كَانَ قَدْ سَمِعَ أَنَّ اللهَ سَيَبْعَثُ نَبِيًّا مِثْلَ أُولَئِكَ الْأَنْبِيَاءِ مِنَ الْعَرَبِ فِي الْحِجَازِ قَدْ بَشَّرَ بِهِ

(187/356)

عِيسَى الْمَسِيحُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ – وَإِنَّ هَذَا عَلَقَ بِنَفْسِهِ فَتَعَلَّقَ رَجَاؤُهُ بِأَنْ يَكُونَ هُوَ ذَلِكَ النَّبِيَّ الَّذِي آنَ أَوَانُهُ – وَهَذَا اسْتِنْبَاطٌ لَهُمْ مِمَّا قَبْلَهُ وَسَيَأْتِي مَا فِيهِ – وَنَتِيجَةُ مَا تَقَدَّمَ أَنَّهُ تَوَسَّلَ إِلَى ذَلِكَ بِالِانْقِطَاعِ إِلَى عِبَادَةِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّوَجُّهِ إِلَيْهِ فِي خَلْوَتِهِ بِغَارِ حِرَاءَ فَقَوِيَ هُنَالِكَ إِيمَانُهُ ، وَسَمَا وِجْدَانُهُ ، فَاتَّسَعَ مُحِيطُ تَفَكُّرِهِ ، وَتَضَاعَفَ نُورُ بَصِيرَتِهِ ، فَاهْتَدَى

عَقْلُهُ الْكَبِيرُ إِلَى الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ مُبْدِعِ الْوُجُودِ ، وَسِرِّ النِّظَامِ السَّارِي فِي كُلِّ مَوْجُودٍ ، بِمَا صَارَ بِهِ أَهْلًا لِهِدَايَةِ النَّاسِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَمَا زَالَ يُفَكِّرُ وَيَتَأَمَّلُ ، وَيَنْفَعِلُ وَيَتَمَلْمَلُ ، وَيَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْآلَامِ وَالْآمَالِ ، حَتَّى أَيْقَنَ أَنَّهُ هُوَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، الَّذِي يَبْعَثُهُ اللهُ لِهِدَايَةِ الْبَشَرِ ، فَتَجَلَّى لَهُ هَذَا الِاعْتِقَادُ فِي الرُّؤَى الْمَنَامِيَّةِ ، ثُمَّ قَوِيَ حَتَّى صَارَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ يُلَقِّنُهُ فِي الْيَقَظَةِ .

(188/356)

وَأَمَّا الْمَعْلُومَاتُ الَّتِي جَاءَتْهُ فِي هَذَا الْوَحْيِ فَهِيَ مُسْتَمَدَّةُ الْأَصْلِ مِنْ تِلْكَ الْمَعْلُومَاتِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا ، وَمِمَّا هَدَاهُ إِلَيْهِ عَقْلُهُ وَتَفَكُّرُهُ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا يَصِحُّ مِنْهَا وَمَا لَا يَصِحُّ ، وَلَكِنَّهَا كَانَتْ تَتَجَلَّى لَهُ نَازِلَةً مِنَ السَّمَاءِ ، وَأَنَّهَا خِطَابُ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ بِوَاسِطَةِ النَّامُوسِ الْأَكْبَرِ مَلَكِ الْوَحْيِ جِبْرِيلَ الَّذِي كَانَ يَنْزِلُ عَلَى مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ .

وَقَالَ أَحَدُ مَلَاحِدَةِ الْمِصْرِيِّينَ : إِنْ سُولُونَ الْحَكِيمَ الْيُونَانِيَّ وَضَعَ قَانُونًا وَشَرِيعَةً لِقَوْمِهِ فَلَيْسَ بِدْعًا فِي الْعَقْلِ أَنْ يَضَعَ مُحَمَّدٌ شَرِيعَةً أَيْضًا ، وَسَأُبَيِّنُ فَسَادَ هَذَا الرَّأْيِ .

(تَفْنِيدُ تَصْوِيرِهِمْ لِلْوَحْيِ النَّفْسِيِّ وَإِبْطَالِهِ مِنْ وُجُوهٍ)

(الْوَجْهُ الْأَوَّلُ) أَنَّ أَكْثَرَ الْمُقَدِّمَاتِ الَّتِي أَخَذُوا مِنْهَا هَذِهِ النَّتِيجَةَ هِيَ آرَاءٌ مُتَخَيَّلَةٌ ، أَوْ دَعَاوَى بَاطِلَةٌ ، لَا قَضَايَا تَارِيخِيَّةٌ ثَابِتَةٌ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ عِنْدَ ذِكْرِهَا ، وَإِذَا بَطَلَتِ الْمُقَدِّمَاتُ بَطَلَ التَّسْلِيمُ بِالنَّتِيجَةِ .

(189/356)

مِثَالُ ذَلِكَ زَعْمُهُمْ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَ مِنْ نَصَارَى الشَّامِ خَبَرَ غَلَبِ الْفُرْسِ وَظُهُورِهِمْ عَلَى الرُّومِ ؛ لِيُوهِمُوا النَّاسَ أَنَّ مَا جَاءَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الرُّومِ مِنَ الْإِنْبَاءِ بِالْمَسْأَلَةِ وَبِأَنَّ الرُّومَ سَيَغْلِبُونَ الْفُرْسَ بَعْدَ ذَلِكَ - هُوَ مُسْتَمَدٌّ مِمَّا سَمِعَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ نَصَارَى الشَّامِ . وَهَذَا مَرْدُودٌ بِدَلَائِلِ التَّارِيخِ وَالْعَقْلِ . فَأَمَّا التَّارِيخُ فَإِنَّهُ يُحَدِّثُنَا بِأَنَّ ظُهُورَ الْفُرْسِ عَلَى الرُّومِ كَانَ فِي سَنَةِ 610م وَذَلِكَ بَعْدَ رِحْلَةِ مُحَمَّدٍ الْأَخِيرَةِ إِلَى الشَّامِ بِأَرْبَعَ عَشْرَةَ سَنَةً وَقَبْلَ بَدْءِ الْوَحْيِ بِسَنَةٍ . ثُمَّ إِنَّ التَّارِيخَ أَنْبَأَنَا أَنَّ دَوْلَةَ الرُّومِ كَانَتْ مُخْتَلَّةً مُعْتَلَّةً فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَرْجُو أَنْ تَعُودَ لَهَا الْكَرَّةُ وَالْغَلَبُ عَلَى الْفُرْسِ حَتَّى إِنَّ أَهْلَ مَكَّةَ أَنْفُسَهُمْ هَزِئُوا بِالْخَبَرِ وَرَاهَنَ أَبُو بَكْرٍ أَحَدَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَأَجَازَهُمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَرَبِحَ الرِّهَانَ

(190/356)

وَأَمَّا الْفِعْلُ فَإِنَّهُ يَحْكُمُ بِأَنَّ مِثْلَ مُحَمَّدٍ فِي سُمُوِّ إِدْرَاكِهِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَجْزِمَ بِأَنَّ الْغَلَبَ سَيَعُودُ لِلرُّومِ عَلَى الْفُرْسِ فِي مُدَّةٍ بِضْعِ سِنِينَ - لَا مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ وَلَا مِنَ الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ الْمُسْتَمَدِّ مِنَ الْأَخْبَارِ غَيْرِ الْمَوْثُوقِ بِهَا . وَقَدْ صَحَّ أَنَّ انْتِصَارَ الرُّومِ حَصَلَ سَنَةَ 622م وَكَانَ وَحْيُ التَّبْلِيغِ لِلنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَنَةَ 614م فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّ سُورَةَ الرُّومِ نَزَلَتْ فِي هَذِهِ السَّنَةِ يَكُونُ النَّصْرُ قَدْ حَصَلَ بَعْدَ ثَمَانِي سِنِينَ وَإِنْ كَانَ فِي السَّنَةِ الثَّانِيَةِ تَكُونُ الْمُدَّةُ سَبْعَ سِنِينَ ، وَهُوَ الْمُعْتَمَدُ فِي التَّفْسِيرِ وَالْبِضْعُ يُطْلَقُ عَلَى مَا بَيْنَ الثَّلَاثِ وَالتِّسْعِ . وَالْحِكْمَةُ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا النَّبَأِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ) (30 : 1 - 4) وَلَمْ يَقُلْ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ مَثَلًا - هِيَ إِفَادَةُ أَنَّ الْغَلَبَ يَكُونُ فِي الْحَرْبِ الْمُمْتَدَّةِ فِي هَذِهِ الْمُدَّةِ . وَأَنْبَاءُ الْوَحْيِ وَالْعِبَرِ لَا تَكُونُ بِأُسْلُوبِ التَّارِيخِ الَّذِي يُحَدِّدُ الْوَقَائِعَ بِالسِّنِينَ ، وَلَيْسَ فِي وُعُودِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ لِلْمُسْلِمِينَ بِالنَّصْرِ وَغَيْرِهِ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ذِكْرُ السِّنِينَ وَلَا الشُّهُورِ فَهَذِهِ الْآيَةُ فَرِيدَةٌ فِي بَابِهَا .

(191/356)

وَمِثَالٌ آخَرُ مَا زَعَمُوهُ مِنْ مُرُورِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي رِحْلَتِهِ إلَى الشَّامِ بِأَرْضِ مَدْيَنَ وَحَدِيثِهِ مَعَ أَهْلِهَا ، الَّذِي أَرَادُوا بِهِ أَنْ يَجْعَلُوهُ أَصْلًا لِمَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِهَا ، وَالْخَبَرُ بَاطِلٌ كَمَا بَيَّنَّاهُ عِنْدَ نَقْلِنَا إيَّاهُ فِي الْمُقَدِّمَاتِ ، وَلَوْ صَحَّ لَمَا كَانَ مِنَ الْمَعْقُولِ أَنْ يَكُونَ مَا سَمِعَهُ فِي الطَّرِيقِ مِنْ أُنَاسٍ مَجْهُولِينَ ، وَمَعَارِفُهُمْ لَا يُوثَقُ بِهَا أَصْلًا لِلْوَحْيِ الَّذِي جَاءَهُ فِي قِصَّةِ مُوسَى وَفِي قِصَّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ .

(الْوَجْهُ الثَّانِي) لَوْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - تَلَقَّى عَنْ عُلَمَاءِ النَّصَارَى فِي الشَّامِ شَيْئًا أَوْ عَاشَرَهُمْ لَنَقَلَ ذَلِكَ إلَى أَتْبَاعِهِ الَّذِينَ لَمْ يَتْرُكُوا شَيْئًا عُلِمَ عَنْهُ أَوْ قِيلَ فِيهِ وَلَوْ لَمْ يَثْبُتْ إلَّا دَوَّنُوهُ وَوَكَلُوا أَمْرَ صِحَّتِهِ أَوْ عَدَمِهَا إلَى إسْنَادِهِ .

(192/356)

(الْوَجْهُ الثَّالِثُ) لَوْ وَقَعَ مَا ذَكَرَ لَاتَّخَذَهُ أَعْدَاؤُهُ مِنْ كِبَارِ الْمُشْرِكِينَ شُبْهَةً يَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى أَنَّ مَا يَدَّعِيهِ مِنَ الْوَحْيِ قَدْ تَعَلَّمَهُ فِي الشَّامِ مِنَ النَّصَارَى ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُورِدُونَ عَلَيْهِ مَا هُوَ أَضْعَفُ وَأَسْخَفُ مِنْ هَذِهِ الشُّبْهَةِ وَهُوَ أَنَّهُ كَانَ فِي مَكَّةَ قَيْنٌ (حَدَّادٌ) رُومِيٌّ يَصْنَعُ السُّيُوفَ وَغَيْرَهَا فَكَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَقِفُ عِنْدَهُ أَحْيَانًا يُشَاهِدُ صَنْعَتَهُ فَاتَّهَمُوهُ بِأَنَّهُ يَتَعَلَّمُ مِنْهُ ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ

لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (16 : 103) .

(الْوَجْهُ الرَّابِعُ) نُصُوصُ الْقُرْآنِ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ شَيْئًا مِنْ أَخْبَارِ الرُّسُلِ وَقِصَصِهِمْ قَبْلَ الْوَحْيِ ، وَهُمْ مُتَّفِقُونَ مَعَنَا عَلَى أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ يَكْذِبُ عَلَى أَحَدٍ فَضْلًا عَنِ الْكَذِبِ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، كَمَا اعْتَرَفَ بِذَلِكَ أَعْدَى أَعْدَائِهِ أَبُو جَهْلٍ ، كَمَا أَنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ مَعَنَا عَلَى قُوَّةِ إِيمَانِهِ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَيَقِينِهِ بِكُلِّ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ .

(193/356)

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى عَقِبَ قِصَّةِ مُوسَى فِي مَدْيَنَ وَمَا بَعْدَهَا مِنْ سُورَةِ الْقَصَصِ : (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) (28 : 44 ، 45) وَقَوْلُهُ بَعْدَ قِصَّةِ نُوحٍ مِنْ سُورَةِ هُودٍ : (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ) (11 : 49) وَنَحْوُهَا فِي قِصَّةِ يُونُسَ مِنْ سُورَتِهِ .

(الْوَجْهُ الْخَامِسُ) أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ فِي الْأَخْبَارِ الصَّحِيحَةِ وَلَا الضَّعِيفَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

كَانَ يَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ النَّبِيَّ الْمُنْتَظَرَ الَّذِي كَانَ يَتَحَدَّثُ عَنْهُ بَعْضُ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَبْلَ بَعْثَتِهِ ، وَلَوْ رُوِيَ عَنْهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ لَدَوَّنَهُ الْمُحَدِّثُونَ لِأَنَّهُمْ مَا تَرَكُوا شَيْئًا بَلَغَهُمْ عَنْهُ إِلَّا دَوَّنُوهُ كَمَا رَوَوْا مِثْلَهُ عَنْ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ .

(194/356)

(الْوَجْهُ السَّادِسُ) أَنَّ حَدِيثَ بَدْءِ الْوَحْيِ الَّذِي أَثْبَتَهُ الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْمُحَدِّثِينَ صَرِيحٌ فِي أَنَّهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – خَافَ عَلَى نَفْسِهِ لَمَّا رَأَى الْمَلَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلَمْ تَجِدْ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ الْعَاقِلَةُ الْمُفَكِّرَةُ وَسِيلَةً يَطْمَئِنُّ بِهَا عَلَى نَفْسِهِ وَتَطْمَئِنُّ هِيَ عَلَيْهِ إِلَّا اسْتِفْتَاءَ أَعْلَمِ الْعَرَبِ بِهَذَا الشَّأْنِ وَهُوَ ابْنُ عَمِّهَا وَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ الَّذِي كَانَ تَنَصَّرَ وَقَرَأَ كُتُبَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

(195/356)

(الْوَجْهُ السَّابِعُ) لَوْ كَانَتِ النُّبُوَّةُ أَمْرًا كَانَ يَرْجُوهُ مُحَمَّدٌ وَيَتَوَقَّعُهُ ، وَكَانَ قَدْ تَمَّ اسْتِعْدَادُهُ لَهُ بِاخْتِلَائِهِ وَتَعَبُّدِهِ فِي الْغَارِ ، وَمَا صَوَّرُوا بِهِ حَالَهُ فِيهِ مِنَ الْفِكْرِ الْمُضْطَرِبِ ، وَالْوِجْدَانِ الْمُلْتَهِبِ ، وَالْقَلْبِ الْمُتَقَلِّبِ ، حَتَّى إِذَا كَمُلَ اسْتِعْدَادُهُ تَجَلَّى لَهُ رَجَاؤُهُ وَاعْتِقَادُهُ ، بِمَا تَمَّ بِهِ مُرَادُهُ ، لَظَهَرَ عَقِبَ ذَلِكَ كُلُّ مَا كَانَتْ تَنْطَوِي عَلَيْهِ نَفْسُهُ الْوَثَّابَةُ ، وَفِكْرَتُهُ الْوَقَّادَةُ ، فِي سُورَةٍ أَوْ سُوَرٍ مِنْ أَبْلَغِ سُوَرِ الْقُرْآنِ ، فِي بَيَانِ أُصُولِ الْإِيمَانِ ، وَتَوْحِيدِ الدَّيَّانِ ، وَاجْتِثَاثِ شَجَرَةِ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَإِنْذَارِ رُءُوسِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ، مَا سَيَلْقَوْنَ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْخِزْيِ وَالنَّكَالِ ، وَفِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ، كَسُوَرِ الْمُفَصَّلِ وَلَا سِيَّمَا (ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ) (50 : 1) وَالذَّارِيَاتِ وَالطُّورِ وَالنَّجْمِ وَالْقَمَرِ . ثُمَّ الْحَاقَّةِ وَالنَّبَأِ - أَوْ فِي سُورَةٍ مِنَ السُّوَرِ الْوُسْطَى الَّتِي تُقَرِّعُهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَتَأْخُذُهُمْ بِالْعِبَرِ ، وَتَضْرِبُ لَهُمُ الْمَثَلَ بِسُنَنِ اللهِ فِي الرُّسُلِ ، كَسُوَرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحَجِّ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَلَكِنَّهُ ظَلَّ ثَلَاثَ سِنِينَ لَمْ يَتْلُ فِيهَا عَلَى النَّاسِ سُورَةً ، وَلَمْ يَدْعُهُمْ إِلَى شَيْءٍ ، وَلَا تَحَدَّثَ إِلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَلَا إِلَى أَصْدِقَائِهِ بِمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الْإِصْلَاحِ الدِّينِيِّ الَّذِي تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ ، وَلَا مِنْ ذَمِّ خُرَافَاتِ الشِّرْكِ الَّذِي ضَاقَ بِهِ ذَرْعُهُ ، إِذْ لَوْ تَحَدَّثَ

بِذَلِكَ لَنَقَلُوهُ عَنْهُ ، وَنَاهِيكَ بِأَلْصَقِ النَّاسِ بِهِ . خَدِيجَةُ وَعَلِيٌّ وَزَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فِي بَيْتِهِ ، وَأَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ الَّذِي عَاشَرَهُ طُولَ عُمُرِهِ – فَهَذَا السُّكُوتُ وَحْدَهُ بُرْهَانٌ قَاطِعٌ عَلَى بُطْلَانِ مَا صَوَّرُوا بِهِ اسْتِعْدَادَهُ لِلْوَحْيِ الذَّاتِيِّ الَّذِي زَعَمُوهُ ، وَاسْتِمْدَادَهُ لِعُلُومِهِ مِنَ التَّلَقِّي وَالِاخْتِبَارِ الَّذِي تَوَهَّمُوهُ .

(الْوَجْهُ الثَّامِنُ) أَنَّ مَا نُقِلَ مِنْ تَرْتِيبِ نُزُولِ الْوَحْيِ بَعْدَ ذَلِكَ مُوَافِقًا لِمُجْرَيَاتِ الْوَقَائِعِ وَالْحَوَادِثِ يُؤَيِّدُ ذَلِكَ ، فَقَدْ نَزَلَ مَا بَعْدَ صَدْرِ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ عَقِبَ قَوْلِ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيِّ الَّذِي قَالَهُ فِي الْقُرْآنِ – فَقَدْ أَرَادَهُ أَبُو جَهْلٍ أَنْ يَقُولَ فِيهِ قَوْلًا يَبْلُغُ قَوْمَهُ أَنَّهُ مُنْكِرٌ لَهُ وَأَنَّهُ كَارِهٌ لَهُ ، بَعْدَ أَنْ عَلِمَ أَنَّهُ تَحَرَّى اسْتِمَاعَهُ مِنْ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأُعْجِبَ بِهِ .

قَالَ لَهُ الْوَلِيدُ : وَمَاذَا أَقُولُ ؟ فَوَاللَّهِ مَا فِيكُمْ رَجُلٌ أَعْلَمُ بِالشِّعْرِ لَا بِرَجْزِهِ وَلَا بِقَصِيدِهِ مِنِّي وَلَا بِأَشْعَارِ الْجِنِّ ، وَاللَّهِ مَا يُشْبِهُ الَّذِي يَقُولُ شَيْئًا مِنْ هَذَا ، وَوَاللَّهِ إِنَّ لِقَوْلِهِ لَحَلَاوَةً ، وَإِنَّ عَلَيْهِ لَطَلَاوَةً ، وَإِنَّهُ لَمُثْمِرٌ أَعْلَاهُ ، مُغْدِقٌ أَسْفَلُهُ وَإِنَّهُ لَيَعْلُو وَمَا يُعْلَى ، وَإِنَّهُ لَيُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ .

(197/356)

قَالَ أَبُو جَهْلٍ : لَا يَرْضَى عَنْكَ قَوْمُكَ حَتَّى تَقُولَ فِيهِ . فَقَالَ : دَعْنِي حَتَّى أُفَكِّرَ ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ : هَذَا سِحْرٌ يُؤْثَرُ بِأَثَرِهِ عَنْ غَيْرِهِ ، فَنَزَلَتِ الْآيَاتُ : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) (74 : 11) إِلَخْ رَوَاهُ الْحَاكِمُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ .

(الْوَجْهُ التَّاسِعُ) أَنَّ هَذِهِ الْمَعْلُومَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةَ الَّتِي تَصَوَّرَهَا هَؤُلَاءِ الْمُحَلِّلُونَ لِمَسْأَلَةِ الْوَحْيِ قَلِيلَةُ الْمَوَادِّ ، ضَيِّقَةُ النِّطَاقِ عَنْ أَنْ تَكُونَ مَصْدَرًا لِوَحْيِ الْقُرْآنِ .

وَأَنَّ الْقُرْآنَ لَأَعْلَى وَأَوْسَعُ وَأَكْمَلُ مِنْ كُلِّ مَا كَانَ يَعْرِفُهُ مِثْلُ بَحِيرَى وَسَطُورَ وَكُلِّ نَصَارَى الشَّامِ وَنَصَارَى الْأَرْضِ وَيَهُودِهَا ، دَعِ الْأَعْرَابَ الَّذِينَ كَانَ يَمُرُّ بِهِمُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالطَّرِيقِ إِلَى الشَّامِ .

(198/356)

وَأَنَّ الْقُرْآنَ نَزَلَ مُصَدِّقًا لِكُتُبِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ حَيْثُ كَوْنِهَا فِي الْأَصْلِ مِنْ وَحْيِ اللَّهِ إِلَى مُوسَى وَعِيسَى وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَغَيْرِهِمْ - وَنَزَلَ أَيْضًا مُهَيْمِنًا عَلَيْهَا أَيْ رَقِيبًا وَحَاكِمًا كَمَا نَصَّتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ (48) مِنْ سُورَةِ الْمَائِدَةِ (5) وَمِمَّا حَكَمَ بِهِ عَلَى أَهْلِهَا مِنَ الْيَهُودِ النَّصَارَى أَنَّهُمْ (أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ) (4 : 44 و51) وَنَسُوا نَصِيبًا أَوْ حَظًّا آخَرَ مِنْهُ وَأَنَّهُمْ حَرَّفُوا وَغَيَّرُوا ، وَبَدَّلُوا (5 : 13 ، 14) وَبَيَّنَ كَثِيرًا مِنَ الْمَسَائِلِ الْكُبْرَى مِمَّا

خَالَفُوا وَاخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ وَالْأَخْبَارِ ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَحْكَامِ الْعُلْيَا عَلَيْهِمْ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مُسْتَمَدَّةً مِنْ أَفْرَادٍ مِنَ الرُّهْبَانِ أَوْ غَيْرِ الرُّهْبَانِ ، أَفَاضُوهَا عَلَى مُحَمَّدٍ عَلَى رِحْلَتِهِ التِّجَارِيَّةِ إِلَى الشَّامِ ، سَوَاءٌ أَكَانَ عِنْدَ بَعْضِهِمْ بَقِيَّةٌ مِنَ التَّوْحِيدِ الْمُوسَوِيِّ وَالْعِيسَوِيِّ الَّذِي كَانَ يَقُولُ بِهِ آرِيُوسُ وَأَتْبَاعُهُ أَمْ لَا ، وَسَوَاءٌ أَكَانَ لَدَى بَعْضِهِمْ بَقِيَّةٌ مِنَ الْأَنَاجِيلِ الَّتِي حَكَمَتِ الْكَنِيسَةُ الرَّسْمِيَّةُ بِعَدَمِ قَانُونِيَّتِهَا (أَبُو كَرِيفٍ) كَإِنْجِيلِ طُفُولَةِ الْمَسِيحِ وَإِنْجِيلِ بَرْنَابَا أَمْ لَا ، فَمُحَمَّدٌ لَمْ يَعْقِدْ فِي الشَّامِ وَلَا فِي مَكَّةَ مَجْمَعًا مَسِيحِيًّا كَمَجَامِعِ الْكَنِيسَةِ لِلتَّرْجِيحِ بَيْنَ الْأَنَاجِيلِ وَالْمَذَاهِبِ الْمَسِيحِيَّةِ وَيَحْكُمُ بِصِحَّةِ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ .

(199/356)

إِنَّ وُقُوعَ مِثْلِ هَذَا مِنْهُ فِي تِلْكَ الرِّحْلَةِ مِمَّا يَعْلَمُ وَاضِعُو هَذِهِ الْأَخْبَارِ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ مَعَ عَدَمِ النَّقْلِ أَنَّهُ مُحَالٌ ، وَعَلَى فَرْضِ وُقُوعِهِ يُقَالُ : كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَ تِلْكَ الْأَنَاجِيلِ وَتِلْكَ الْمَذَاهِبِ بِرَأْيِهِ فِي تِلْكَ الْخِلْسَةِ التِّجَارِيَّةِ لِلنَّظَرِ فِيهَا وَيَأْمَنُ عَلَى حُكْمِهِ الْخَطَأَ ؟ وَقَدْ صَحَّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي شَأْنِ أَهْلِ الْكِتَابِ : (لَا تُصَدِّقُوهُمْ وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ) يَعْنِي فِيمَا سَكَتَ عَنْهُ الْقُرْآنُ لِئَلَّا يَكُونَ مَا كَذَّبُوهُمْ فِيهِ مِمَّا حَفِظُوا ، وَيَكُونَ مَا صَدَّقُوهُمْ بِهِ مِمَّا نَسُوا

حَقِيقَتَهُ أَوْ حَرَّفُوا أَوْ بَدَّلُوا .

(الْوَجْهُ الْعَاشِرُ) أَنَّ فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ مُخَالِفٌ لِلْعَهْدَيْنِ الْعَتِيقِ وَالْجَدِيدِ وَهُوَ مِمَّا لَا يُعْلَمُ إِلَى الْآنَ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى قَالَ بِهِ ، كَمُخَالَفَةِ سِفْرِ الْخُرُوجِ فِيمَنْ تَبَنَّتْ مُوسَى فَفِيهِ أَنَّهَا ابْنَةُ فِرْعَوْنَ وَفِي الْقُرْآنِ أَنَّهَا امْرَأَتُهُ – وَفِيمَا قَرَّرَهُ مِنْ عَزْوِ صُنْعِ الْعِجْلِ الَّذِي عَبَدَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ إِلَى هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَزْوِهِ إِيَّاهُ إِلَى السَّامِرِيِّ وَإِثْبَاتِهِ لِإِنْكَارِ هَارُونَ عَلَيْهِمْ فِيهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

بَلْ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مَا فِي الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ مَا صَحَّ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَصِحَّ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ .

(200/356)

رُوَيْدَكُمْ أَيُّهَا الْمُفْتَاتُونَ ، الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّ وَحْيَ الْقُرْآنِ أَعْلَى مِمَّا تَزْعُمُونَ ، وَأَكْبَرُ مِمَّا تَتَصَوَّرُونَ ، وَتُصَوِّرُونَ . وَإِنَّ مُحَمَّدًا أَقَلُّ عِلْمًا كَسْبِيًّا مِمَّا تَدَّعُونَ وَأَكْمَلُ اسْتِعْدَادًا لِتَلَقِّي كَلَامِ اللهِ عَنِ الرُّوحِ الْقُدُسِ مِمَّا تَسْتَكْبِرُونَ .

وَإِذَا كَانَ وَحْيُ الْقُرْآنِ أَعْلَى وَأَكْمَلَ مِنْ جَمِيعِ مَا حُفِظَ عَنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ وَرُسُلِهِ لِأَنَّهُ الْخَاتَمُ لَهُمُ الْمُكَمِّلُ لِشَرَائِعِهِمُ الْخَاصَّةِ الْمَوْقُوتَةِ ، فَأَجْدَرُ بِهِ أَنْ يَكُونَ أَكْمَلَ مِمَّا وَضَعَهُ سُولُونُ

الْفَيْلَسُوفُ الْيُونَانِيُّ الَّذِي شَبَّهَ مُحَمَّدًا بِهِ أَحَدُ مَلَاحِدَةِ عَصْرِنَا فِي مِصْرِنَا ، مَعَ بُعْدِ الشَّبَهِ بَيْنَ أُمِّيٍّ نَشَأَ بَيْنَ الْأُمِّيِّينَ ، وَفَيْلَسُوفٍ نَشَأَ فِي أُمَّةِ حِكْمَةٍ وَتَشْرِيعٍ وَدَوْلَةٍ وَسِيَاسَةٍ ، وَدَخَلَ فِي كُلِّ أُمُورِ الْأُمَّةِ وَالدَّوْلَةِ .

الْقَوْلُ الْحَقُّ فِي اسْتِعْدَادِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلنُّبُوَّةِ :

(201/356)

التَّحْقِيقُ فِي صِفَةِ حَالِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ ، وَإِعْدَادِ اللهِ تَعَالَى إِيَّاهُ لِنُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ ، هُوَ أَنَّهُ خَلَقَهُ كَامِلَ الْفِطْرَةِ ، لِيَبْعَثَهُ بِدِينِ الْفِطْرَةِ ، وَأَنَّهُ خَلَقَهُ كَامِلَ الْعَقْلِ الِاسْتِعْدَادِيِّ الْهُيُولَانِيِّ ، لِيَبْعَثَهُ بِدِينِ الْعَقْلِ وَالنَّظَرِ الْعِلْمِيِّ ، وَأَنَّهُ كَمَّلَهُ بِمَعَالِي الْأَخْلَاقِ لِيَبْعَثَهُ مُتَمِّمًا لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَأَنَّهُ بَغَّضَ إِلَيْهِ الْوَثَنِيَّةَ وَخُرَافَاتِ أَهْلِهَا وَرَذَائِلَهُمْ مِنْ صِغَرِ سِنِّهِ ، وَحَبَّبَ إِلَيْهِ الْعُزْلَةَ حَتَّى لَا تَأْنَسَ نَفْسُهُ بِشَيْءٍ مِمَّا يَتَنَافَسُونَ فِيهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ وَاللَّذَّاتِ الْبَدَنِيَّةِ ، أَوْ مُنْكَرَاتِ الْوَحْشِيَّةِ ، كَسَفْكِ الدِّمَاءِ وَالْبَغْيِ عَلَى النَّاسِ ، أَوِ الْمَطَامِعِ الدَّنِيئَةِ كَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ – لِيَبْعَثَهُ مُصْلِحًا لِمَا فَسَدَ مِنْ أَنْفُسِ النَّاسِ ، وَمُزَكِّيًا لَهُمْ بِالتَّأَسِّي بِهِ ، وَجَعَلَهُ الْمَثَلَ الْبَشَرِيَّ الْأَعْلَى ، لِتَنْفِيذِ مَا يُوحِيهِ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرْعِ الْأَعْلَى ، فَكَانَ مِنْ عِفَّتِهِ أَنْ سَلَخَ مِنْ سِنِي شَبَابِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً مَعَ زَوْجِهِ خَدِيجَةَ كَانَتْ فِي 15

مِنْهَا عَجُوزًا يَائِسَةً مِنَ النَّسْلِ فَتُوُفِّيَتْ فِي الْخَامِسَةِ وَالسِّتِّينَ وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ ، وَظَلَّ يَذْكُرُهَا وَيُفَضِّلُهَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ تَزَوَّجَ بِهِنَّ مِنْ بَعْدِهَا ، حَتَّى عَائِشَةَ بِنْتِ الصِّدِّيقِ عَلَى جَمَالِهَا وَحَدَاثَتِهَا وَذَكَائِهَا وَكَمَالِ اسْتِعْدَادِهَا لِلتَّبْلِيغِ عَنْهُ – وَظَلَّ طُولَ عُمُرِهِ يَكْرَهُ سَفْكَ

(202/356)

الدِّمَاءِ وَلَوْ بِالْحَقِّ فَكَانَ عَلَى شَجَاعَتِهِ

الْكَامِلَةِ يَقُودُ أَصْحَابَهُ لِقِتَالِ أَعْدَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ الْمُعْتَدِينَ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ لِأَجْلِ صَدِّهِمْ عَنْ دِينِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقْتُلْ بِيَدِهِ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا مِنْهُمْ (هُوَ أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ) كَانَ مُوَطِّنًا نَفْسَهُ عَلَى قَتْلِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَهَجَمَ عَلَيْهِ وَهُوَ مُدَجَّجٌ بِالْحَدِيدِ مِنْ مِغْفَرٍ وَدِرْعٍ فَلَمْ يَجِدْ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بُدًّا مِنْ قَتْلِهِ فَطَعَنَهُ فِي تَرْقُوَتِهِ مِنْ خَلَلِ الدِّرْعِ وَالْمِغْفَرِ ، وَظَلَّ طُولَ عُمْرِهِ وَبَعْدَ مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْهِ مِنْ غَنَائِمِ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُودِ يُؤْثِرُ الْقَشَفَ وَشَظَفَ الْعَيْشِ عَلَى نِعْمَتِهِ ، مَعَ إِبَاحَةِ شَرْعِهِ لِأَكْلِ الطَّيِّبَاتِ وَنَهْيِهِ لِمَنْ كَانَ يَتْرُكُهَا تَدَيُّنًا ، وَيُرَقِّعُ ثَوْبَهُ وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ ، مَعَ إِبَاحَةِ دِينِهِ لِلزِّينَةِ وَأَمْرِهِ بِهَا عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكَانَ يَأْكُلُ مَا وَجَدَ لَا يَعِيبُ طَعَامًا قَطُّ ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ لَا يَشْرَبُ إِلَّا الْمَاءَ الْعَذْبَ النَّقِيَّ .

(203/356)

وَأَكْمَلَ اللهُ تَعَالَى اسْتِعْدَادَهُ الذَّاتِيَّ (لَا الْكَسْبِيَّ) لِلْبَعْثَةِ بِإِكْمَالِ دِينِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ وَالتَّشْرِيعِ الْكَافِي الْكَافِلِ لِإِصْلَاحِ جَمِيعِ الْبَشَرِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ، وَجَعَلَهُ حُجَّةً عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، بِأَنْ أَنْشَأَهُ كَأَكْثَرِ قَوْمِهِ أُمِّيًّا وَصَرَفَهُ فِي أُمِّيَّتِهِ عَنِ اكْتِسَابِ أَيِّ شَيْءٍ مِنْ عُلُومِ الْبَشَرِ مِنْ قَوْمِهِ الْعَرَبِ الْأُمِّيِّينَ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ أَدْنَى عِنَايَةٍ بِمَا يَتَفَاخَرُ بِهِ قَوْمُهُ مِنْ فَصَاحَةِ

اللِّسَانِ ، وَقُوَّةِ الْبَيَانِ ، مِنْ شِعْرٍ وَخَطَابَةٍ ، وَمُفَاخَرَةٍ وَمُنَافَرَةٍ ، إِذْ كَانُوا يَؤُمُّونَ أَسْوَاقَ مَوْسِمِ الْحَجِّ وَأَشْهَرُهَا عُكَاظُ مِنْ جَمِيعِ النَّوَاحِي لِإِظْهَارِ بَلَاغَتِهِمْ وَبَرَاعَتِهِمْ ، فَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمَ الْأَسْبَابِ لِارْتِقَاءِ لُغَتِهِمْ ، وَلِوُجُودِ الْحِكْمَةِ فِي شِعْرِهِمْ ، فَكَانَ مِنَ الْغَرِيبِ أَنْ يَزْهَدَ فِي مُشَارَكَتِهِمْ فِيهِ بِنَفْسِهِ ، وَفِي رِوَايَتِهِ لِمَا عَسَاهُ يَسْمَعُهُ مِنْهُ ، وَقَدْ سَمِعَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ زُهَاءَ مِائَةِ قَافِيَةٍ مِنْ شِعْرِ أُمَيَّةَ فَقَالَ : (إِنْ كَادَ لَيُسْلِمُ) وَقَالَ : (آمَنَ شِعْرُهُ وَكَفَرَ قَلْبُهُ) وَقَالَ : (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا ، وَإِنَّ مِنَ الشِّعْرِ حِكَمًا) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، وَأَمَّا قَوْلُهُ : (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا) فَقَدْ رَوَاهُ مَالِكٌ وَأَحْمَدُ وَالْبُخَارِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ .

قُلْنَا : إِنَّ اسْتِعْدَادَ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فِطْرِيٌّ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ كَسْبِهِ بِعِلْمٍ وَلَا عَمَلٍ لِسَانِيٍّ وَلَا نَفْسِيٍّ ، وَلَمْ يُرْوَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَرْجُوهَا كَمَا رُوِيَ عَنْ أُمَيَّةَ بْنِ أَبِي الصَّلْتِ ، بَلْ رُوِيَ عَنْ خَدِيجَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا لَمَّا سَمِعَتْ مِنْ غُلَامِهَا مَيْسَرَةَ أَخْبَارَ أَمَانَتِهِ وَفَضَائِلِهِ وَكَرَامَاتِهِ وَمَا قَالَ بَحِيرَى الرَّاهِبُ فِيهِ تَعَلَّقَ أَمَلُهَا بِأَنْ يَكُونَ هُوَ النَّبِيَّ الَّذِي يَتَحَدَّثُونَ عَنْهُ ، وَلَكِنَّ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ لَا يَصِلُ شَيْءٌ مِنْهَا إِلَى دَرَجَةِ الْمُسْنَدِ الصَّحِيحِ كَحَدِيثِ بَدْءِ الْوَحْيِ الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ آنِفًا ، فَإِنْ قِيلَ إِنَّهُ يُقَوِّيهِ حَلِفُهَا بِاللَّهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخْزِيهِ أَبَدًا ، قُلْنَا : إِنَّهَا عَلَّلَتْ ذَلِكَ بِمَا ذَكَرَتْهُ مِنْ فَضَائِلِهِ ، وَرَأَتْ أَنَّهَا فِي حَاجَةٍ إِلَى اسْتِفْتَاءِ ابْنِ عَمِّهَا أُمَيَّةَ فِي شَأْنِهِ .

(205/356)

وَأَمَّا اخْتِلَاؤُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَتَعَبُّدُهُ فِي الْغَارِ عَامَ الْوَحْيِ فَلَا شَكَّ فِي أَنَّهُ كَانَ عَمَلًا كَسْبِيًّا مُقَوِّيًا لِذَلِكَ الِاسْتِعْدَادِ السَّلْبِيِّ مِنَ الْعُزْلَةِ وَعَدَمِ مُشَارَكَةِ الْمُشْرِكِينَ فِي شَيْءٍ مِنْ عِبَادَاتِهِمْ وَلَا عَادَاتِهِمْ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ الِاسْتِعْدَادَ لِلنُّبُوَّةِ ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لِأَجْلِهَا لَاعْتَقَدَ حِينَ رَأَى الْمَلَكَ أَوْ عَقِبَ رُؤْيَتِهِ حُصُولَ مَأْمُولِهِ وَتَحَقُّقَ رَجَائِهِ وَلَمْ يَخَفْ مِنْهُ عَلَى

نَفْسِهِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الْبَاعِثُ لِهَذَا الِاخْتِلَاءِ ، وَالتَّحَنُّثِ اشْتِدَادَ الْوَحْشَةِ مِنْ سُوءِ حَالِ النَّاسِ وَالْهَرَبِ مِنْهَا إِلَى الْأُنْسِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَالرَّجَاءِ فِي هِدَايَتِهِ إِلَى الْمَخْرَجِ مِنْهَا ، كَمَا بَسَطَهُ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الضُّحَى : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) (93 : 7) وَمَا يُفَسِّرُهُ مِنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي سُورَةِ الشُّورَى (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ) (42 : 52 و53) وَأَلَمَّ بِهِ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ إِلْمَامًا مُخْتَصَرًا مُفِيدًا ، فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى : (مِنَ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ أَنْ يَتِيمًا فَقِيرًا أُمِّيًّا مِثْلَهُ تَنْطَبِعُ نَفْسُهُ بِمَا تَرَاهُ مِنْ أَوَّلِ نَشْأَتِهِ إِلَى زَمَنِ كُهُولَتِهِ ،

(206/356)

وَيَتَأَثَّرُ عَقْلُهُ بِمَا يَسْمَعُهُ مِمَّنْ يُخَالِطُهُ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ وَأَهْلِ عَصَبَتِهِ ، وَلَا كِتَابَ يُرْشِدُهُ ، وَلَا أُسْتَاذَ يُنَبِّهُهُ ، وَلَا عَضُدَ إِذَا عَزَمَ يُؤَيِّدُهُ ، فَلَوْ جَرَى الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى جَارِي السُّنَنِ لَنَشَأَ عَلَى عَقَائِدِهِمْ ، وَأَخَذَ بِمَذَاهِبِهِمْ ، إِلَى أَنْ يَبْلُغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ ، وَيَكُونَ لِلْفِكْرِ وَالنَّظَرِ مَجَالٌ ، فَيَرْجِعُ إِلَى مُخَالَفَتِهِمْ ، إِذَا قَامَ لَهُ الدَّلِيلُ عَلَى خِلَافِ ضَلَالَاتِهِمْ ، كَمَا

فَعَلَ الْقَلِيلُ مِمَّنْ كَانُوا عَلَى عَهْدِهِ وَلَكِنَّ الْأَمْرَ لَمْ يَجْرِ عَلَى سُنَّتِهِ ، بَلْ بُغِّضَتْ إِلَيْهِ الْوَثَنِيَّةُ مِنْ مَبْدَأِ عُمُرِهِ ، فَعَاجَلَتْهُ طَهَارَةُ الْعَقِيدَةِ ، كَمَا بَادَرَهُ

حُسْنُ الْخَلِيقَةِ ، وَمَا جَاءَ فِي الْكِتَابِ مِنْ قَوْلِهِ : (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى) (93 : 7) لَا يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّهُ كَانَ عَلَى وَثَنِيَّةٍ قَبْلَ الِاهْتِدَاءِ إِلَى التَّوْحِيدِ ، أَوْ عَلَى غَيْرِ السَّبِيلِ الْقَوِيمِ ، قَبْلَ الْخُلُقِ الْعَظِيمِ ، حَاشَ لِلَّهِ إِنَّ ذَلِكَ لَهُوَ الْإِفْكُ الْمُبِينُ ، وَإِنَّمَا هِيَ الْحَيْرَةُ تُلِمُّ بِقُلُوبِ أَهْلِ الْإِخْلَاصِ ، فِيمَا يَرْجُونَ لِلنَّاسِ مِنَ الْخَلَاصِ ، وَطَلَبِ السَّبِيلِ إِلَى مَا هُدُوا إِلَيْهِ مِنْ إِنْقَاذِ الْهَالِكِينَ ، وَإِرْشَادٍ لِلضَّالِّينَ ، وَقَدْ هَدَى اللهُ نَبِيَّهُ إِلَى مَا كَانَتْ تَتَلَمَّسُهُ بَصِيرَتُهُ بِاصْطِفَائِهِ لِرِسَالَتِهِ ، وَاخْتِيَارِهِ مِنْ بَيْنِ خَلْقِهِ لِتَقْرِيرِ شَرِيعَتِهِ) اهـ .

(207/356)

(أَقُولُ) وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ أَنَّ اسْتِعْدَادَ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لِلنُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ عِبَارَةٌ عَنْ جَعْلِ اللهِ تَعَالَى رُوحَهُ الْكَرِيمَةَ كَمِرْآةٍ صَقِيلَةٍ حِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ كُلِّ مَا فِي الْعَالَمِ مِنَ التَّقَالِيدِ الدِّينِيَّةِ ، وَالْآدَابِ الْوِرَاثِيَّةِ وَالْعَادَاتِ الْمُكْتَسَبَةِ ، إِلَى أَنْ تَجَلَّى فِيهَا الْوَحْيُ الْإِلَهِيُّ بِأَكْمَلِ مَعَانِيهِ ، وَأَبْلَغِ مَبَانِيهِ ، لِتَجْدِيدِ دِينِ اللهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي كَانَ يُرْسِلُ بِهِ رُسُلَهُ إِلَى أَقْوَامِهِمْ خَاصَّةً بِمَا يُنَاسِبُ حَالَهُمْ وَاسْتِعْدَادَهُمْ ، وَجَعَلَ بَعْثَةَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ بِهِ لِلْبَشَرِ عَامَّةً دَائِمَةً لَا

يَحْتَاجُونَ بَعْدَهَا إِلَى وَحْيٍ آخَرَ ، فَكَانَ فِي فِطْرَتِهِ السَّلِيمَةِ وَرُوحِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَعَارِفِ الْعَالِيَةِ ، وَمَا أَشْرَقَ فِيهَا مِنْ نُورِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي تَلَوْتُهُ عَلَيْكَ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الشُّورَى ، هُوَ مَضْرَبُ الْمَثَلِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ النُّورِ : (اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (24 : 35) .

(208/356)

فَزَيْتُ مِصْبَاحِ الْمَعَارِفِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، يُوقَدُ مِنْ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، وَلَا يَهُودِيَّةٍ ، وَلَا نَصْرَانِيَّةٍ ، بَلْ هِيَ إِلَهِيَّةٌ عُلْوِيَّةٌ .

هَذَا مَا نَرَاهُ كَافِيًا لِتَفْنِيدِ مَزَاعِمِ مُصَوِّرِي الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ شَخْصِ مُحَمَّدٍ وَاسْتِعْدَادِهِ ، وَيَتْلُوهُ مَا هُوَ أَقْوَى دَلِيلًا ، وَأَقْوَمُ قِيلًا ، وَهُوَ تَفْنِيدُهُ بِمَوْضُوعِ الْوَحْيِ الَّذِي هُوَ آيَةُ نُبُوَّتِهِ الْخَالِدَةُ ، وَحُجَّتُهُ النَّاهِضَةُ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ .

آيَةُ اللهِ الْكُبْرَى – الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ

(الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ، الْقُرْآنُ الْحَكِيمُ ، الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ ، الْكِتَابُ الْعَزِيزُ)
الَّذِي : (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ)

(209/356)

هُوَ كِتَابٌ لَا كَالْكُتُبِ ، هُوَ آيَةٌ لَا كَالْآيَاتِ ، هُوَ مُعْجِزَةٌ لَا كَالْمُعْجِزَاتِ ، هُوَ نُورٌ لَا كَالْأَنْوَارِ ، وَهُوَ سِرٌّ لَا كَالْأَسْرَارِ ، هُوَ كَلَامٌ لَا كَالْكَلَامِ ، هُوَ كَلَامُ اللهِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ الَّذِي لَيْسَ لِرُوحِ الْقُدُسِ جِبْرِيلَ الْأَمِينِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْهُ إِلَّا نَقْلُهُ بِلَفْظِهِ الْعَرَبِيِّ مِنْ سَمَاءِ الْأُفُقِ الْأَعْلَى إِلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَلَا لِمُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ - مِنْهُ إِلَّا تَبْلِيغُهُ لِلنَّاسِ لِيَهْتَدُوا بِهِ ، فَهُوَ مُعْجِزَةٌ لِلْخَلْقِ بِلَفْظِهِ وَنَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ وَعُلُومِهِ وَهِدَايَتِهِ ، لَمْ يَكُنْ فِي اسْتِطَاعَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ سُوَرِهِ بِكَسْبِهِ وَمَعَارِفِهِ ، وَفَصَاحَتِهِ وَبَلَاغَتِهِ ، وَهُوَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمْ يَكُنْ عَالِمًا وَلَا بَلِيغًا مُمْتَازًا إِلَّا بِهِ ، بَلْ فِيهِ آيَاتٌ صَرِيحَةٌ فِي مُعَاتَبَتِهِ عَلَى بَعْضِ اجْتِهَادِهِ كَفِدَاءِ أَسْرَى بَدْرٍ (رَاجِعْ ص 72 و82 و401 و409 ج10 ط الْهَيْئَةِ) .

(210/356)

وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّحَدِّي بِالْقُرْآنِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 23) أَهَمَّ وُجُوهِ الْإِعْجَازِ اللَّفْظِيِّ وَالْمَعْنَوِيِّ بِالْإِجْمَالِ وَالْإِيجَازِ ، وَأَعُودُ هُنَا إِلَى الْكَلَامِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ الْمُصْلِحَةِ لِلْبَشَرِ بِمَا يَحْتَمِلُهُ الْمَقَامُ مِنَ الْبَسْطِ وَالتَّفْصِيلِ ، وَهُوَ الْقَدْرُ الَّذِي يُعْلَمُ مِنْهُ أَنَّ هَذِهِ الْعُلُومَ أَعْلَى مِنْ كُلِّ مَا حَفِظَهُ التَّارِيخُ عَنْ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ ، وَوَاضِعِي الشَّرَائِعِ وَالْقَوَانِينِ ، وَسَاسَةِ الشُّعُوبِ وَالْأُمَمِ .

فَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِأَنَّ لِلْعَالَمِ رَبًّا عَلِيمًا حَكِيمًا رَحِيمًا مُرِيدًا فَاعِلًا مُخْتَارًا فَلَا مَنْدُوحَةَ لَهُ وَلَا مَنَاصَ مِنَ الْإِيمَانِ بِأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ وَحْيٌ مِنْ لَدُنْهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَهُ عَلَى خَاتَمِ أَنْبِيَائِهِ الْمُرْسَلِينَ رَحْمَةً بِهِمْ لِيَهْتَدُوا بِهِ إِلَى تَكْمِيلِ فِطْرَتِهِمْ ، وَتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ ، وَإِصْلَاحِ مُجْتَمَعِهِمْ مِنَ الْمَفَاسِدِ الَّتِي كَانَتْ عَامَّةً لِجَمِيعِ أُمَمِهِمْ ، فَيَكُونُ اتِّبَاعُ مُحَمَّدٍ فَرْضًا إِلَهِيًّا لَازِبًا عَامًّا كَمَا قَالَ تَعَالَى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ

جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (7 : 158) .

(211/356)

وَمَنْ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِوُجُودِ هَذَا الرَّبِّ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ فَلَا مَنْدُوحَةَ لَهُ عَنِ الْجَزْمِ بِأَنَّ مُحَمَّدًا أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ وَأَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ كُلِّ مَنْ عُرِفَ فِي هَذَا الْعَالَمِ مِنَ الْحُكَمَاءِ الْهَادِينَ الْمَهْدِيِّينَ ،

وَيَكُونُ الْوَاجِبُ بِمُقْتَضَى الْعَقْلِ أَنْ يَعْتَرِفَ لَهُ هَؤُلَاءِ بِأَنَّهُ سَيِّدُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ وَأَوْلَاهُمْ بِالِاتِّبَاعِ بِعُنْوَانِ (سَيِّدِ الْبَشَرِ وَحَكِيمِهِمُ الْأَعْظَمِ) .

وَإِنَّنَا رَأَيْنَا بَعْضَ الْمُنْصِفِينَ مِنَ الْوَاقِفِينَ عَلَى السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ الَّذِينَ يَفْهَمُونَ الْقُرْآنَ فِي الْجُمْلَةِ يَعْتَرِفُونَ بِهَذَا قَوْلًا وَكِتَابَةً (مِنْهُمْ) الْأُسْتَاذُ مُولَرُ الْإِنْكِلِيزِيُّ الْمَشْهُورُ ، وَمِنْهُمْ ذَلِكَ الْفَيْلَسُوفُ الطَّبِيبُ السُّورِيُّ الْكَاثُولِيكِيُّ النَّشْأَةِ الَّذِي رَأَى فِي مَجَلَّةِ الْمَنَارِ بَعْضَ الْمَنَاقِبِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَكَتَبَ إِلَيْنَا كِتَابًا يَقُولُ فِي أَوَّلِهِ : أَنْتَ تَنْظُرُ إِلَى مُحَمَّدٍ كَنَبِيٍّ فَتَرَاهُ عَظِيمًا ، وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ كَرَجُلٍ فَأَعُدُّهُ أَعْظَمَ ، وَذَكَرَ أَبْيَاتًا فِي وَصْفِهِ وَوَصْفِ الْقُرْآنِ وَمَا فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ الْآيَاتِ ، الْمَانِعَةِ لِمَنْ عَقَلَهَا مِنْ تَقْيِيدِ الْعُمْرَانِ بِالْعَادَاتِ ، وَإِصْلَاحِهِ لِلْبَشَرِ بِحِكْمَةِ بَيَانِهِ وَقُوَّةِ بَنَانِهِ ، وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ :

بِبَيَانِهِ أَرْبَى عَلَى أَهْلِ النُّهَى . . . وَبِسَيْفِهِ أَنْحَى عَلَى الْهَامَاتِ

مِنْ دُونِهِ الْأَبْطَالُ فِي كُلِّ الْوَرَى . . . مِنْ سَابِقٍ أَوْ حَاضِرٍ أَوْ آتِ

وَالْمُؤْمِنُونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ مِنْ أَحْرَارِ مُفَكِّرِي الشُّعُوبِ كُلِّهَا كَثِيرُونَ ، وَلَكِنَّ الْجَاحِدِينَ لِوُجُودِ رَبٍّ مُدَبِّرٍ لِلْعَالَمِينَ قَلِيلُونَ ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ فِي نَشْأَتِهِ وَتَرْبِيَتِهِ وَمَا عُلِمَ بِالضَّرُورَةِ مِنْ صِدْقِهِ الْفِطْرِيِّ الْمَطْبُوعِ ، ثُمَّ بِمَا جَاءَ بِهِ فِي سِنِّ الْكُهُولَةِ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ الْمُصْلِحَةِ لِجَمِيعِ شُئُونِ الْبَشَرِ فِي كُلِّ زَمَانٍ إِذَا عَقَلُوهَا وَاهْتَدَوْا بِهَا ، وَإِسْنَادِهِ إِيَّاهَا إِلَى الْوَحْيِ الْإِلَهِيِّ ، فَهُوَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَزَايَاهُ هَذِهِ حُجَّةٌ وَبُرْهَانٌ عَلَى وُجُودِ الرَّبِّ الْخَالِقِ الْحَكِيمِ ، بَلْ مَجْمُوعَةُ حُجَجٍ عَقْلِيَّةٍ وَطَبِيعِيَّةٍ – وَهَاكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ مَا أَزُفُّهُ إِلَيْكَ مِنْ قَوَاعِدِ تِلْكَ الْعُلُومِ الْإِصْلَاحِيَّةِ بَعْدَ تَمْهِيدٍ وَجِيزٍ فِي أُسْلُوبِ الْقُرْآنِ وَحِكْمَةِ جَعْلِ تِلْكَ الْعُلُومِ الْكُلِّيَّةِ مُتَفَرِّقَةً فِي سُوَرِهِ بِأُسْلُوبِهِ الْغَرِيبِ الْعَجِيبِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ بَيَّنَّاهُ مِنْ قَبْلُ ، وَإِنَّمَا نُعِيدُهُ مَعَ زِيَادَةٍ مُفِيدَةٍ وَإِيضَاحٍ اقْتِدَاءً بِأُسْلُوبِ الْقُرْآنِ نَفْسِهِ فِي تَكْرَارِ الْمَعْنَى الْوَاحِدِ فِي الْمَوَاقِعِ الْمُقْتَضِيَةِ لَهُ مِنْ إِيجَازٍ أَوْ إِسْهَابٍ ، وَتَفْصِيلٍ أَوْ إِجْمَالٍ .

(أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ الْخَاصِّ وَحِكْمَتُهُ وَإِعْجَازُهُ بِهِ)

(213/356)

لَوْ أَنَّ عَقَائِدَ الْإِسْلَامِ الْمُنَزَّلَةَ فِي الْقُرْآنِ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَدَارِ الثَّوَابِ وَدَارِ الْعِقَابِ جُمِعَتْ وَحْدَهَا مُرَتَّبَةً فِي ثَلَاثِ سُوَرٍ أَوْ أَرْبَعٍ أَوْ خَمْسٍ مَثَلًا كَكُتُبِ الْعَقَائِدِ الْمُدَوَّنَةِ – وَلَوْ أَنَّ عِبَادَاتِهِ مِنَ الطَّهَارَةِ وَالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ وَالدُّعَاءِ وَالْأَذْكَارِ وُضِعَ كُلٌّ مِنْهَا فِي بِضْعِ سُوَرٍ أَيْضًا كَكُتُبِ الْفِقْهِ الْمُصَنَّفَةِ – وَلَوْ أَنَّ آدَابَهُ وَحِكَمَهُ وَفَضَائِلَهُ الْوَاجِبَةَ وَالْمَنْدُوبَةَ ، وَمَا يُقَابِلُهَا مِنَ الرَّذَائِلِ وَالْأَعْمَالِ الْمُحَرَّمَةِ وَالْمَكْرُوهَةِ ، أُفْرِدَتْ هِيَ وَمَا يَقْتَضِيهِ التَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ مِنَ الْمَوَاعِظِ وَالنُّذُرِ وَالْأَمْثَالِ الْبَاعِثَةِ لِشُعُورَيِ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ فِي بِضْعِ سُوَرٍ أُخْرَى كَكُتُبِ

(214/356)

الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ الْمُؤَلَّفَةِ – وَلَوْ أَنَّ قَوَاعِدَهُ التَّشْرِيعِيَّةَ وَأَحْكَامَهُ الشَّخْصِيَّةَ وَالسِّيَاسِيَّةَ وَالْحَرْبِيَّةَ وَالْمَدَنِيَّةَ وَحُدُودَهُ وَعُقُوبَاتِهِ التَّأْدِيبِيَّةَ رُتِّبَتْ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ خَاصَّةٍ بِهَا كَأَسْفَارِ الْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ – ثُمَّ لَوْ أَنَّ قِصَصَ النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْمَوَاعِظِ وَالسُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ سُرِدَتْ فِي سُوَرِهَا مُرَتَّبَةً كَدَوَاوِينِ التَّارِيخِ – لَوْ أَنَّ كُلَّ مَا ذُكِرَ وَمَا لَمْ يُذْكَرْ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ الَّتِي أَرَادَ اللهُ بِهَا إِصْلَاحَ شُئُونِ الْبَشَرِ جُمِعَ كُلُّ نَوْعٍ مِنْهَا وَحْدَهُ كَتَرْتِيبِ أَسْفَارِ التَّوْرَاةِ التَّارِيخِيِّ الَّذِي لَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مُرَتِّبَهُ ، أَوْ كُتُبِ الْعِلْمِ وَالْفِقْهِ وَالْقَوَانِينِ لَفَقَدَ الْقُرْآنُ

بِذَلِكَ أَعْظَمَ مَزَايَا هِدَايَتِهِ الْمَقْصُودَةِ بِالْقَصْدِ الْأَوَّلِ لِلْغَايَةِ الَّتِي انْتَهَتْ إِلَيْهَا ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ بِهِ وَاسْتِفَادَةُ كُلِّ حَافِظٍ لِلْقَلِيلِ مِنْ سُوَرِهِ كَثِيرًا مِنْ مَسَائِلِ الْإِيمَانِ وَالْفَضَائِلِ وَالْأَحْكَامِ وَالْحِكَمِ الْمُنْبَثَّةِ فِي جَمِيعِ السُّوَرِ ؛ لِأَنَّ السُّورَةَ الْوَاحِدَةَ لَا يُوجَدُ فِيهَا فِي هَذَا التَّرْتِيبِ إِلَّا مَقْصِدٌ وَاحِدٌ مِنْ تِلْكَ الْمَقَاصِدِ ، وَقَدْ يَكُونُ أَحْكَامُ الطَّلَاقِ أَوِ الْحَيْضِ ، فَهُوَ يَتَعَبَّدُ بِهَا ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَمَلُّهَا ، وَأَمَّا سُوَرُهُ الْمُنَزَّلَةُ فَفِي كُلٍّ مِنْهَا حَتَّى أَقْصَرِهَا عِدَّةُ مَسَائِلَ مِنَ الْهِدَايَةِ فَتَرَى فِي سُورَتَيِ الْفِيلِ وَقُرَيْشٍ (الْمُتَعَلِّقَةِ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى حَتَّى فِي الْإِعْرَابِ) ذِكْرَ

(215/356)

مَسْأَلَتَيْنِ تَارِيخِيَّتَيْنِ قَدْ جُعِلَتَا حُجَّةً عَلَى مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فِيمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَعِبَادَتِهِ بِمَا مَنَّ عَلَيْهِمْ مِنْ عِنَايَتِهِ بِحِفْظِ الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ مَنَاطُ عِزِّهِمْ وَفَخْرِهِمْ وَشَرَفِهِمْ وَتَأْمِينِ تِجَارَتِهِمْ وَحَيَاتِهِمْ – وَلَقَدْ بِهَذَا التَّرْتِيبِ أَخَصَّ أَنْوَاعِ إِعْجَازِهِ أَيْضًا .

(216/356)

يُعْلَمُ هَذَا وَذَاكَ مِمَّا نُبَيِّنُهُ مِنْ فَوَائِدِ نَظْمِهِ وَأُسْلُوبِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِهِ رَبُّ الْعَالَمِينَ الْعَلِيمُ ، الْحَكِيمُ ، الرَّحِيمُ ، وَهُوَ مَزْجُ تِلْكَ الْمَقَاصِدِ كُلِّهَا بَعْضِهَا بِبَعْضٍ ، وَتَفْرِيقُهَا فِي السُّوَرِ الْكَثِيرَةِ ، الطَّوِيلَةِ مِنْهَا وَالْقَصِيرَةِ ، بِالْمُنَاسَبَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَتَكْرَارُهَا بِالْعِبَارَاتِ الْبَلِيغَةِ الْمُؤَثِّرَةِ فِي الْقُلُوبِ ، الْمُحَرِّكَةِ لِلشُّعُورِ ، النَّافِيَةِ لِلسَّآمَةِ وَالْمَلَلِ مِنَ الْمُوَاظَبَةِ عَلَى تَرْتِيلِهَا بِنَغَمَاتِ نَظْمِهِ الْخَاصِّ بِهِ وَفَوَاصِلِهِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْقَابِلَةِ لِأَنْوَاعٍ مِنَ التَّغَنِّي الَّذِي يُحْدِثُ فِي الْقَلْبِ وِجْدَانَ الْخُشُوعِ ، وَخَشْيَةَ الْإِجْلَالِ لِلرَّبِّ الْمَعْبُودِ ، وَالرَّجَاءَ فِي رِضْوَانِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالْخَوْفَ مِنْ عُقُوبَتِهِ ، وَالِاعْتِبَارَ بِسُنَّتِهِ فِي خَلْقِهِ ، بِمَا لَا نَظِيرَ لَهُ فِي كَلَامِ الْبَشَرِ مِنْ خَطَابَةٍ وَلَا شِعْرٍ وَلَا رَجْزٍ وَلَا سَجْعٍ ، فَبِهَذَا الْأُسْلُوبِ الرَّفِيعِ فِي النَّظْمِ الْبَدِيعِ وَبَلَاغَةِ التَّعْبِيرِ السَّنِيعِ ، كَانَ كَمَا وَرَدَ فِي وَصْفِهِ : لَا تَبْلَى جِدَّتُهُ وَلَا تُخْلِقُهُ كَثْرَةُ التَّرْدِيدِ . وَحِكْمَةُ ذَلِكَ وَغَايَتُهُ تُعْلَمُ مِمَّا وَقَعَ بِالْفِعْلِ وَهَاكَ بَيَانَهُ بِالْإِجْمَالِ .

الثَّوْرَةُ وَالِانْقِلَابُ الَّذِي أَحْدَثَهُ الْقُرْآنُ فِي الْبَشَرِ :

(217/356)

الْقُرْآنُ كِتَابٌ أُنْزِلَ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ أُمِّيٍّ نَشَأَ عَلَى الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ سَلِيمِ الْعَقْلِ صَقِيلِ النَّفْسِ طَاهِرِ الْأَخْلَاقِ لَمْ تَمْلِكْهُ تَقَالِيدُ دِينِيَّةٌ وَلَا أَهْوَاءُ دُنْيَوِيَّةٌ ؛ لِأَجْلِ إِحْدَاثِ ثَوْرَةٍ وَانْقِلَابٍ كَبِيرٍ فِي

الْعَرَبِ ، فَسَائِرُ الْأُمَمِ يَكْتَسِحُ مِنَ الْعَالَمِ الْإِنْسَانِيِّ مَا دَنُسَ فِطْرَتُهُ مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ وَالْوَثَنِيَّةِ الَّذِي هَبَطَ بِهَذَا الْإِنْسَانِ مِنْ أُفُقِهِ الْأَعْلَى فِي عَالَمِ الْأَرْضِ إِلَى عِبَادَةِ مِثْلِهِ وَمَا هُوَ دُونَهُ مِنْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ ، وَمَا أَفْسَدَ عَقْلَهُ وَذَهَبَ بِاسْتِقْلَالِ فِكْرِهِ مِنَ الْبِدَعِ الْكَنَسِيَّةِ ، وَالتَّقَالِيدِ الْمَذْهَبِيَّةِ ، الَّتِي أَحَالَتْ تَوْحِيدَ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ شِرْكًا وَحَقَّهُمْ بَاطِلًا ، وَهِدَايَتَهُمْ غِوَايَةً – وَمَا أَفْسَدَ بَأْسَهُ ، وَأَذَلَّ نَفْسَهُ ، وَسَلَبَهُ إِرَادَتَهُ ، مِنِ اسْتِبْدَادِ الْمُلُوكِ الظَّالِمِينَ ، وَالرُّؤَسَاءِ الْقَاهِرِينَ ، ثَوْرَةٌ تُحَرِّرُ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ وَالْإِرَادَةَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ رِقِّ الْمُنْتَحِلِينَ لِأَنْفُسِهِمْ صِفَةَ الرُّبُوبِيَّةِ أَوِ النِّيَابَةِ عَنْهَا فِي التَّحَكُّمِ فِي النَّاسِ وَاسْتِذْلَالِهِمْ ، فَيَكُونُ كُلُّ امْرِئٍ اهْتَدَى بِهِ حُرًّا كَرِيمًا فِي نَفْسِهِ ، عَبْدًا خَالِصًا لِرَبِّهِ وَإِلَهِهِ ، يُوَجِّهُ قُوَاهُ الْعَقْلِيَّةَ وَالْبَدَنِيَّةَ إِلَى تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَجِنْسِهِ .

(218/356)

مَثَلُ هَذِهِ الثَّوْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْدُثَ إِلَّا عَلَى قَاعِدَةِ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (13 : 11) وَكَيْفَ يَكُونُ تَغْيِيرُ الْأَقْوَامِ لِمَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالصِّفَاتِ ، الَّتِي طَبَعَتْهَا عَلَيْهَا الْعِبَادَاتُ الْمَوْرُوثَةُ وَالْعَادَاتُ الرَّاسِخَةُ ؟

هَلْ يَكْفِي فِي ذَلِكَ قِيَامُ مُصْلِحٍ فِيهِمْ يَضَعُ لَهُمْ كِتَابًا تَعْلِيمِيًّا جَافًّا كَكُتُبِ الْفُنُونِ يَقُولُ فِيهِ : إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ ضَالُّونَ فَاسِدُونَ ، وَمُضِلُّونَ مُفْسِدُونَ ، فَاعْمَلُوا بِهَذَا الْكِتَابِ تَهْتَدُوا وَتَصْلُحُوا أَوْ قَانُونًا مَدَنِيًّا يَقُولُ فِي مُقَدِّمَتِهِ : نَفِّذُوا هَذَا الْقَانُونَ تَحْفَظْ حُقُوقَكُمْ ، وَتَعْتَزَّ أُمَّتُكُمْ وَتَقْوَ دَوْلَتُكُمْ ؟ أَنَّى وَقَدْ عُهِدَ مِنَ النَّاسِ الْفَاسِدِينَ الْمُفْسِدِينَ سُوءُ التَّصَرُّفِ بِكُتُبِ أَنْبِيَائِهِمُ الْمُرْسَلِينَ ، وَإِهْمَالِ قَوَانِينِ حُكَمَائِهِمُ الْمُصْلِحِينَ ، (كَمَا فَعَلَ الْمُسْلِمُونَ الْمُتَأَخِّرُونَ) وَإِنَّمَا تُوضَعُ الْقَوَانِينُ لِلْحُكُومَاتِ الْمُنَظَّمَةِ ذَاتِ السُّلْطَةِ وَالْقُوَّةِ الَّتِي تَكْفُلُ تَنْفِيذَهَا ، وَأَنَّى لِمُحَمَّدٍ فِعْلُ هَذَا فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ وَقَدْ بُعِثَ بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، فَرِيدًا وَحِيدًا لَا عُصْبَةَ لَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَلَا سُلْطَانَ ؟ عَلَى أَنَّهُ جَاءَ بِأَعْدَلِ الْأُصُولِ الَّتِي تَبْنِي عَلَيْهَا أُمَّتُهُ قَوَانِينَهَا عِنْدَ تَكْوِينِ دَوْلَتِهَا فِي الْأَحْوَالِ الْمُلَائِمَةِ لَهَا كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا يَأْتِي .

(219/356)

كَلَّا إِنَّ هَذِهِ الثَّوْرَةَ مَا كَانَ يُمْكِنُ أَنْ تَحْدُثَ إِلَّا بِمَا حَدَثَتْ بِهِ وَهُوَ تَأْثِيرُ هَذَا الْقُرْآنِ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ أَشَدَّ الْأُمَمِ الْبَدَوِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ اسْتِعْدَادًا فِطْرِيًّا لِظُهُورِ الْإِسْلَامِ فِيهَا بِالْإِقْنَاعِ كَمَا بَيَّنَّاهُ بِالتَّفْصِيلِ فِي كِتَابِنَا (خُلَاصَةِ السِّيرَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ) وَسَنُلِمُّ بِهِ قَرِيبًا .

ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ فِي مَعْرِفَةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ الْعَمَلَ بِمُقْتَضَى الْمَعْرِفَةِ

وَإِنْ خَالَفَ مُقْتَضَى الْأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ ، وَالتَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ . إِنَّ مُجَرَّدَ الْبَيَانِ وَالْإِعْلَامِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا يَكْفِي فِي الْحَمْلِ عَلَى الْتِزَامِ الْحَقِّ وَنَصْرِهِ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَلَا فِي أَدَاءِ الْوَاجِبِ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ إِذَا عَارَضَ الْمُقْتَضَى الْعِلْمِيَّ لَهُمَا مَا أَشَرْنَا إِلَيْهِ آنِفًا مِنَ الْمَوَانِعِ النَّفْسِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ ، إِلَّا فِي بَعْضِ الْأَفْرَادِ مِنَ النَّاسِ دُونَ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَقْوَامِ . بَلْ مَضَتْ سُنَّةُ اللهِ فِي تَثْبِيتِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ فِي النَّفْسِ وَصُدُورِ آثَارِهِمَا عَنْهُمَا بِالْعَمَلِ ، إِنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى صَيْرُورَةِ الْإِيمَانِ بِهِمَا إِذْعَانًا وِجْدَانِيًّا حَاكِمًا عَلَى الْقَلْبِ ، رَاجِحًا عَلَى مَا يُخَالِفُهُ مِنْ رَغَبٍ وَرَهَبٍ

وَأَلَمٍ وَأَمَلٍ وَإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا فِي الْأَحْدَاثِ بِالتَّرْبِيَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْأُسْوَةِ الْحَسَنَةِ لَهُمْ فِيمَنْ يَنْشَئُونَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْمُعَاشِرِينَ .

(220/356)

وَأَمَّا كِبَارُ السِّنِّ فَلَا سَبِيلَ إِلَى جَعْلِ الْإِيمَانِ بِالْحَقِّ الْمُطْلَقِ وَالْخَيْرِ الْعَامِّ إِذْعَانًا وِجْدَانِيًّا لِجُمْهُورِهِمْ إِلَّا بِالْأُسْلُوبِ الَّذِي نَزَلَ بِهِ الْقُرْآنُ فَقَلَبَ بِهِ طِبَاعَ الْكُهُولِ وَالشُّبَّانِ وَأَخْلَاقَهُمْ وَتَقَالِيدَهُمْ وَعَادَاتِهِمْ وَحَوَّلَهَا إِلَى ضِدِّهَا عِلْمًا وَعَمَلًا بِمَا لَمْ يُعْهَدْ لَهُ نَظِيرٌ فِي

الْبَشَرِ ، فَكَانَ الْقُرْآنُ آيَةً خَارِقَةً لِلْمَعْهُودِ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ فِي تَأْثِيرِهِ ، بِالتَّبَعِ لِكَوْنِهِ آيَةً مُعْجِزَةً لِلْبَشَرِ فِي لُغَتِهِ وَأُسْلُوبِهِ .

(221/356)

وَاعْتَبِرْ هَذَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ سُلَالَةِ النَّبِيِّينَ ، فَإِنَّ كُلَّ مَا رَأَوْهُ بِمِصْرَ مِنْ آيَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ثُمَّ مَا رَأَوْهُ فِي بَرِّيَّةِ سِينَا مُدَّةَ التِّيهِ مِنْهَا ، وَمِنْ عِنَايَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ ، وَمِنْ سَمَاعِهِمْ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى بِآذَانِهِمْ فِي لَهِيبِ النَّارِ الْمُشْتَعِلَةِ عَلَى مَا تَرْوِيهِ تَوْرَاتُهُمْ - وَلَمْ يَثْبُتْ عِنْدَنَا التَّكْلِيمُ إِلَّا لِنَبِيِّهِمْ - لَمْ يَتَغَيَّرْ بِهِ مَا كَانَ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ تَأْثِيرِ الْوَثَنِيَّةِ الْمِصْرِيَّةِ وَخُرَافَاتِهَا وَمَهَانَتِهَا وَأَخْلَاقِهَا ، فَقَدْ عَذَّبُوا مُوسَى عَذَابًا نُكْرًا ، وَعَانَدُوهُ فِي كُلِّ مَا كَانَ يَأْمُرُهُمْ بِهِ ، وَعَبَدُوا صَنَمَ الْعِجْلِ الذَّهَبِيِّ فِي أَثْنَاءِ مُنَاجَاتِهِ لِرَبِّهِ ، حَتَّى وَصَفَهُمُ اللَّهُ فِي التَّوْرَاةِ بِالشَّعْبِ الصُّلْبِ الرَّقَبَةِ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنِ الْبَلَادَةِ وَالْعِنَادِ ، وَعَصْلِ الطِّبَاعِ الْمَانِعِ مِنَ الِانْقِيَادِ ، وَظَلَّ ذَلِكَ كَذَلِكَ إِلَى أَنْ بَادَ ذَلِكَ الْجِيلُ الْفَاسِدُ بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً نَشَأَ فِيهِمْ جِيلٌ جَدِيدٌ مِمَّنْ كَانُوا أَطْفَالًا عِنْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ وَمِمَّنْ وُلِدَ فِي التِّيهِ أَمْكَنَ أَنْ يَعْقِلُوا التَّوْحِيدَ وَالشَّرِيعَةَ ، وَأَنْ يَعْمَلُوا بِهَا ، وَيُجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهَا وَإِنَّمَا كَانَ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(222/356)

فَأَيْنَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الَّذِينَ تَرَبَّوْا بِسَمَاعِ الْقُرْآنِ وَتَرْتِيلِهِ وَتَدَبُّرِهِ فِي رُسُوخِهِمْ فِي الْإِيمَانِ ، وَصَبْرِهِمْ عَلَى أَذَى الْمُشْرِكِينَ وَاضْطِهَادِهِمْ إِيَّاهُمْ لِيَفْتِنُوهُمْ عَنْ دِينِهِمْ ، ثُمَّ فِي مُجَاهَدَتِهِمْ لَهُمْ عِنْدَ الْإِمْكَانِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، وَمُجَاهَدَةِ أَعْوَانِهِمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ (الْيَهُودِ) وَتَطْهِيرِهِمُ الْحِجَازَ وَسَائِرَ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ مِنْ كُفْرِ الْفَرِيقَيْنِ فِي عَهْدِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَقَدْ كَانَتْ مُدَّةُ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ كُلِّهَا عِشْرِينَ سَنَةً أَيْ نِصْفَ مُدَّةِ التِّيهِ ، وَكَانَ ذَهَبَ نِصْفُهَا فِي الدَّعْوَةِ وَتَبْلِيغِ الدِّينِ لِلْأَفْرَادِ بِمَكَّةَ ، وَالنِّصْفُ الْآخَرُ هُوَ الَّذِي تَمَّ فِيهِ الِانْقِلَابُ الْعَرَبِيُّ مِنْ تَشْرِيعٍ وَتَنْفِيذٍ وَجِهَادٍ .

ثُمَّ تَأَمَّلْ مَا كَانَ مِنْ تَدَفُّقِهِمْ هُمْ أَنْفُسِهِمْ كَالسَّيْلِ الْآتِي عَلَى الْأَقْطَارِ مِنْ نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ كُلِّهَا وَالظُّهُورِ عَلَى مَلِكَيْ قَيْصَرَ وَكِسْرَى أَعْظَمِ مُلُوكِ الْأَرْضِ وَإِزَالَةِ الشِّرْكِ وَالظُّلْمِ مِنْهُمَا ، وَنَشْرِ التَّوْحِيدِ وَالْحَقِّ وَالْعَدْلِ فِيهِمَا ، وَدُخُولِ الْأُمَمِ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا مُخْتَارِينَ اهْتِدَاءً بِهِمْ ،

وَعِنَايَتِهِمْ بِتَعَلُّمِ الْعَرَبِيَّةِ بِالتَّبَعِ لِعِنَايَتِهِمْ بِالدِّينِ ، حَتَّى فَتَحُوا لَهُمْ وَتَلَامِيذُهُمْ نِصْفَ كُرَةِ الْأَرْضِ فِي زُهَاءِ نِصْفِ قَرْنٍ ، أَوْ ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِهَا فِي ثَلَاثَةِ أَرْبَاعِهِ وَكَانُوا مَضْرِبَ الْمَثَلِ فِي الرَّحْمَةِ وَالْعَدْلِ وَمَوْضِعَ الْحَيْرَةِ لِعُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ وَقُوَّادِ الْحَرْبِ .

وَأَنَّى يَبْلُغُ الشَّعْبُ الَّذِي وَصَفَهُ رَبُّهُ فِي كِتَابِهِ بِالشَّعْبِ الصُّلْبِ الرَّقَبَةِ رُتْبَةَ الَّذِينَ وَصَفَهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ بِقَوْلِهِ : (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا) (48 : 29) الْآيَاتِ فَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي طُبِعَ وَشَبَّ عَلَى الشِّدَّةِ وَالْقَسْوَةِ يَطْبُخُ الطَّعَامَ هُوَ وَزَوْجُهُ لَيْلًا لِامْرَأَةٍ فَقِيرَةٍ تَلِدُ وَبَعْلُهَا حَاضِرٌ لَا يُسَاعِدُهُمَا إِذْ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ .

(224/356)

لَا جَرَمَ أَنَّ سَبَبَ هَذَا كُلِّهِ تَأْثِيرُ الْقُرْآنِ بِهَذَا الْأُسْلُوبِ الَّذِي نَرَاهُ فِي الْمُصْحَفِ فَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُجَاهِدُ بِهِ الْكَافِرِينَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ : (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (25 : 25) ثُمَّ كَانَ بِهِ يُرَبِّي الْمُؤْمِنِينَ وَيُزَكِّيهِمْ ، وَبِهِدَايَتِهِ وَالتَّأَسِّي بِمَبْلَغِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - رَبَّوُا الْأُمَمَ وَهَذَّبُوهَا ، وَقَلَّمَا يَقْرَؤُهُ أَحَدٌ كَمَا كَانُوا يَقْرَءُونَ ، إِلَّا وَيَهْتَدِي بِهِ كَمَا كَانُوا يَهْتَدُونَ ، عَلَى تَفَاوُتٍ فِي الِاسْتِعْدَادِ النَّفْسِيِّ

وَاللُّغَوِيِّ وَاخْتِلَافِ الزَّمَانِ لَا يَخْفَى .

وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ بِأُسْلُوبِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْقَوَانِينِ الْوَضْعِيَّةِ لَمَا كَانَ لَهُ ذَلِكَ التَّأْثِيرُ الَّذِي غَيَّرَ مَا بِأَنْفُسِ الْعَرَبِ فَغَيَّرُوا بِهِ أُمَمَ الْعَجَمِ ، فَكَانُوا كُلُّهُمْ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِقَوْلِهِ : (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (3 : 110) .

(225/356)

وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ مِنَ الْعِلْمِ بِسِيَاسَةِ الْأُمَمِ وَإِدَارَتِهَا إِلَّا هَذَا الْقُرْآنَ ، وَالْأُسْوَةَ الْحَسَنَةَ بِمُبَلِّغِهِ وَمُنَفِّذِهِ الْأَوَّلِ – عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ – ، وَلَنْ يَعُودَ لِلْمُسْلِمِينَ مَجْدُهُمْ وَعِزُّهُمْ إِلَّا إِذَا عَادُوا إِلَى هِدَايَتِهِ ، وَتَجْدِيدِ ثَوْرَتِهِ ، وَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى مَنْ يَصُدُّونَهُمْ عَنْهُ زَاعِمِينَ اسْتِغْنَاءَهُمْ عَنِ الْعَمَلِ بِهِ وَبِسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، بِكُتُبِ مَشَايِخِهِمُ الْجَافَّةِ الْخَاوِيَةِ مِنْ كُلِّ مَا يُحْيِي الْإِيمَانَ وَيُنْهِضُ الْهِمَمَ ، وَيُزَكِّي الْأَنْفُسَ وَيَبْعَثُ عَلَى الْعَمَلِ .

(فِعْلُ الْقُرْآنِ فِي أَنْفُسِ الْعَرَبِ الْمُسْتَعِدَّةِ لَهُ نَوْعَانِ)

بَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ الْقُرْآنِ فِي أَنْفُسِ الْعَرَبِ وَإِحْدَاثَهُ تِلْكَ الثَّوْرَةَ الْكُبْرَى فِيهِمْ قَدْ كَانَ عَلَى نَوْعَيْنِ : أَوَّلُهُمَا جَذْبُهُ النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَثَانِيهِمَا تَزْكِيَتُهُمْ وَتَغْيِيرُ كُلِّ مَا بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ جَهْلٍ

وَفَسَادٍ إِلَى ضِدِّهِ ، حَتَّى أَعْقَبَ مَا أَعْقَبَ مِنَ الْإِصْلَاحِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ . وَهَاكَ التَّفْصِيلَ الَّذِي يَحْتَمِلُهُ الْمَقَامُ لِذَلِكَ .

بَيَّنَّا مِرَارًا أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَعَدَّ الْأُمَّةَ الْعَرَبِيَّةَ وَلَا سِيَّمَا قُرَيْشٍ وَمَنْ حَوْلَهَا لِمَا أَرَادَهُ

(226/356)

مِنَ الْإِصْلَاحِ الْعَامِّ لِلْبَشَرِ بِكَوْنِهِمْ كَانُوا أَقْرَبَ الْأُمَمِ إِلَى سَلَامَةِ الْفِطْرَةِ ، وَأَرْقَاهُمْ لُغَةً وَأَقْوَاهُمُ اسْتِقْلَالًا فِي الْعَقْلِ وَالْإِرَادَةِ ؛ لِعَدَمِ وُجُودِ مُلُوكٍ مُسْتَبِدِّينَ وَرُؤَسَاءَ دِينٍ أُولِي سُلْطَانٍ رُوحِيٍّ يَتَحَكَّمُونَ فِي عَقَائِدِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ وَيُسَخِّرُونَهُمْ لِشَهَوَاتِهِمْ .

(227/356)

فَلَمَّا بُعِثَ فِيهِمْ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِهَذَا الْقُرْآنِ الدَّاعِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ كَانُوا عَلَى أَتَمِّ الِاسْتِعْدَادِ الْفِطْرِيِّ لِقَبُولِ دَعْوَتِهِ ، وَلَكِنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ كَانُوا عَلَى مَقْرُبَةٍ مِنْ مُلُوكِ شُعُوبِ الْعَجَمِ فِي التَّمَتُّعِ بِالثَّرْوَةِ الْوَاسِعَةِ وَالْعَظَمَةِ الْكَاذِبَةِ وَالشَّهَوَاتِ الْفَاتِنَةِ وَالسَّرَفِ فِي التَّرَفِ ، وَعَلَى حَظٍّ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ رُؤَسَاءُ الْأَدْيَانِ فِيهَا مِنَ الْمَكَانَةِ

الدِّينِيَّةِ بِسَدَانَتِهِمْ لِبَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ الَّذِي أَوْدَعَ اللهُ تَعْظِيمَهُ فِي الْقُلُوبِ مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ – فَرَأَوْا أَنَّ هَذَا الدِّينَ يَسْلُبُهُمُ الِانْفِرَادَ بِهَذِهِ الْعَظَمَةِ الْمَوْرُوثَةِ ، وَقَدْ يُفَضِّلُ عَلَيْهِمْ بَعْضَ الْفُقَرَاءِ وَالْمَوَالِي ، وَأَنَّهُ يَحْكُمُ عَلَيْهِمْ وَعَلَى مَنْ يُفَاخِرُونَ بِهِمْ مِنْ آبَائِهِمْ بِالْكُفْرِ وَالْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَالْفُسُوقِ وَيُشَبِّهُهُمْ بِسَائِمَةِ الْأَنْعَامِ – فَوَجَّهُوا كُلَّ قُوَاهُمْ وَنُفُوذِهِمْ إِلَى صَدِّ مُحَمَّدٍ عَنْ دَعْوَتِهِ وَلَوْ بِتَمْلِيكِهِ عَلَيْهِمْ ، وَجَعْلِهِ أَغْنَى رَجُلٍ فِيهِمْ ، وَلَكِنْ تَعَذَّرَ إِقْنَاعُهُ بِالرُّجُوعِ عَنْهَا بِالتَّرْغِيبِ ، حَتَّى التَّمْوِيلِ وَالتَّمْلِيكِ ، فَقَدْ أَجَابَ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِ مَا أَرَادُوهُ مِنْ ذَلِكَ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الْعُلْيَا : (يَا عَمِّ وَاللهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ، وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلَكَ فِيهِ مَا تَرَكْتُهُ) حِينَئِذٍ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عَلَى صَدِّهِ

(228/356)

عَنْ تَبْلِيغِهَا بِالْقُوَّةِ ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جَمَاهِيرِ النَّاسِ فِي الْأَسْوَاقِ وَالْمَجَامِعِ وَالْبَيْتِ الْحَرَامِ ، وَبِصَدِّ النَّاسِ عَنْهُ أَنْ يَأْتُوهُ وَيَسْتَمِعُوا لَهُ ، وَبِاضْطِهَادِ مَنِ اتَّبَعَهُ بِالدَّعْوَةِ الْفَرْدِيَّةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ مَنْ يَحْمِيهِ مِنْهُمْ لِقَرَابَةٍ أَوْ

جِوَارٍ أَوْ ذِمَّةٍ ، فَهَؤُلَاءِ الرُّؤَسَاءُ الْمُتْرَفُونَ الْمُسْرِفُونَ الْمُتَكَبِّرُونَ كَانُوا أَعْلَمَ النَّاسِ بِصِدْقِ

مُحَمَّدٍ وَفِيهِمْ نَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (6 : 33) فَقَدْ كَابَرُوا الْحَقَّ بَغْيًا وَاسْتِكْبَارًا لِلْحِرْصِ عَلَى رِيَاسَتِهِمْ وَشَهَوَاتِهِمْ ، وَكَانُوا أَجْدَرَ الْعَرَبِ بِقَبُولِ دَعْوَةِ الْقُرْآنِ : (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (27 : 14) كَفِرْعَوْنَ وَقَارُونَ وَهَارُونَ .

فِعْلُ الْقُرْآنِ فِي مُشْرِكِي الْعَرَبِ

قُلْنَا إِنَّ فِعْلَ الْقُرْآنِ فِي أَنْفُسِ الْعَرَبِ كَانَ عَلَى نَوْعَيْنِ : فِعْلِهِ فِي الْمُشْرِكِينَ ، وَفِعْلِهِ فِي الْمُؤْمِنِينَ ، فَالْأَوَّلُ تَأْثِيرُ رَوْعَةِ بَلَاغَتِهِ ، وَدَهْشَةِ نَظْمِهِ ، وَأُسْلُوبِهِ الْجَاذِبِ لِفَهْمِ دَعْوَتِهِ وَالْإِيمَانِ بِهِ ، إِذْ لَا يَخْفَى حُسْنُهَا عَلَى أَحَدٍ فَهِمَهَا ، وَكَانُوا يَتَفَاوَتُونَ فِي هَذَا النَّوْعِ تَفَاوُتًا كَبِيرًا لِاخْتِلَافِ دَرَجَاتِهِمْ فِي بَلَاغَةِ اللُّغَةِ وَفَهْمِ الْمَعَانِي الْعَالِيَةِ .

فَهَذَا التَّأْثِيرُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ الْوَلِيدَ بْنَ الْمُغِيرَةِ الْمَخْزُومِيَّ بِكَلِمَتِهِ الْعَالِيَةِ فِيهِ لِأَبِي جَهْلٍ

(229/356)

الَّتِي اعْتَرَفَ فِيهَا بِأَنَّهُ الْحَقُّ الَّذِي يَعْلُو وَلَا يُعْلَى ، وَالَّذِي يُحَطِّمُ مَا تَحْتَهُ ، وَكَانَتْ كَلِمَةً فَائِضَةً مِنْ نُورِ عَقْلِهِ وَصَمِيمِ وِجْدَانِهِ ، وَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ كَلِمَةً أُخْرَى فِي الصَّدِّ عَنْهُ بَعْدَ إِلْحَاحِ أَبِي جَهْلٍ عَلَيْهِ بِاقْتِرَاحِهَا إِلَّا بِتَكْلِيفٍ لِمُكَابَرَةِ عَقْلِهِ وَوِجْدَانِهِ ، وَبَعْدَ أَنْ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ،

وَنَظَرَ وَعَبَسَ وَبَسَرَ ، وَأَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، كَمَا يُعْلَمُ مِنْ سُورَةِ الْمُدَّثِّرِ وَسَبَبِ نُزُولِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا) (74 : 11) الْآيَاتِ مِنْهَا .

وَهَذَا التَّأْثِيرُ هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْذِبُ رُءُوسَ أُولَئِكَ الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ لَيْلًا لِاسْتِمَاعِ تِلَاوَةِ رَسُولِ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي بَيْتِهِ ، عَلَى مَا كَانَ مِنْ نَهْيِهِمْ عَنْهُ وَتَأْيِهِمْ عَنْهُ ، وَتَوَاصِيهِمْ وَتَقَاسُمِهِمْ لَا يَسْمَعُنَّ لَهُ ، ثُمَّ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ فُرَادَى مُسْتَخْفِينَ ، وَيَتَلَاقَوْنَ فِي الطَّرِيقِ مُتَلَاوِمِينَ .

(230/356)

وَهَذَا التَّأْثِيرُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى مَنْعِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فِي الصَّلَاةِ وَالتِّلَاوَةِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ لَيْلًا لِمَا كَانَ لِتِلَاوَتِهِ وَبُكَائِهِ فِي الصَّلَاةِ مِنَ التَّأْثِيرِ الْجَاذِبِ إِلَى الْإِسْلَامِ ، وَعَلَّلُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ يَفْتِنُ عَلَيْهِمْ نِسَاءَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ ، فَاتَّخَذَ مَسْجِدًا لَهُ بِفِنَاءِ دَارِهِ فَطَفِقَ النِّسَاءُ وَالْأَوْلَادُ النَّاشِئُونَ يَنْسَلُّونَ إِلَى بَيْتِهِ لَيْلًا لِاسْتِمَاعِ الْقُرْآنِ ، فَنَهَاهُ أَشْرَافُ الْمُشْرِكِينَ بِأَنَّ الْعِلَّةَ لَا تَزَالُ ، وَأَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَغْلِبَهُمْ نِسَاؤُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَكَانُوا أَلْجَئُوهُ إِلَى الْهِجْرَةِ فَهَاجَرَ فَلَقِيَ فِي طَرِيقِهِ ابْنَ الدُّغُنَّةِ سَيِّدَ قَوْمِهِ فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ هِجْرَتِهِ فَأَخْبَرَهُ الْخَبَرَ وَهُوَ يَعْرِفُ فَضَائِلَ أَبِي بَكْرٍ مِنْ قَبْلِ الْإِسْلَامِ فَأَجَارَهُ

وَأَعَادَهُ إِلَى مَكَّةَ بِجِوَارِهِ ، فَعَادَ إِلَى قِرَاءَتِهِ ، وَعَادَ النِّسَاءُ وَالنَّشْءُ الْحَدِيثُ إِلَى الِاسْتِمَاعِ لَهُ ، حَتَّى اضْطَرَّ الْمُشْرِكُونَ ابْنَ الدُّغُنَّةِ إِلَى إِقْنَاعِهِ بِتَرْكِ رَفْعِ صَوْتِهِ بِالْقُرْآنِ أَوْ يَرُدُّ عَلَيْهِ جِوَارَهُ ، فَرَدَّ أَبُو بَكْرٍ جِوَارَهُ اكْتِفَاءً بِجِوَارِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَخَبَرُهُ هَذَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي بَابِ الْهِجْرَةِ وَأَوْرَدْنَاهُ بِطُولِهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْغَارِ (ص 377 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ) .

(231/356)

بَلْ هَذَا التَّأْثِيرُ هُوَ الَّذِي حَمَلَهُمْ عَلَى صَدِّ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِالْقُوَّةِ عَنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي الْبَيْتِ الْحَرَامِ وَفِي أَسْوَاقِ الْمَوْسِمِ وَمَجَامِعِهِ ، وَعَلَى تَوَاصِيهِمْ بِمَا حَكَاهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ فِي قَوْلِهِ : (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ) (41 : 26) .

وَقَدْ أَدْرَكَ هَذَا أَحَدُ فَلَاسِفَةِ فَرَنْسَةَ فَذَكَرَ فِي كِتَابٍ لَهُ قَوْلَ دُعَاةِ النَّصْرَانِيَّةِ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَأْتِ بِآيَةٍ عَلَى ثُبُوتِهِ كَآيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى ، وَقَالَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ : إِنْ مُحَمَّدًا كَانَ يَقْرَأُ الْقُرْآنَ خَاشِعًا أَوَّاهًا مُتَأَلِّمًا فَتَفْعَلُ قِرَاءَتُهُ فِي جَذْبِ النَّاسِ إِلَى الْإِيمَانِ مَا لَمْ تَفْعَلْهُ جَمِيعُ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ (أَقُولُ) : وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَكُتُبِ الْقَوَانِينِ الْمُرَتَّبَةِ وَكُتُبِ الْفُنُونِ الْمُبَوَّبَةِ ، لَمَا كَانَ لِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ مِنَ التَّأْثِيرِ مَا كَانَ لِسُوَرِهِ الْمُنَزَّلَةِ .

كَانَ كُلُّ مَا يَطْلُبُهُ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ قَوْمِهِ أَنْ يُمَكِّنُوهُ مِنْ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ رَبِّهِ بِتِلَاوَةِ

(232/356)

الْقُرْآنِ عَلَى النَّاسِ . قَالَ تَعَالَى مُخَاطِبًا لَهُ : (قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ) (6 : 19) أَيْ وَأُنْذِرْ بِهِ كُلَّ مَنْ بَلَغَهُ مِنْ غَيْرِكُمْ مِنَ النَّاسِ . وَقَالَ فِي آخِرِ سُورَةِ النَّمْلِ (إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (27 : 91 - 93) إِنَّ رُؤَسَاءَ قُرَيْشٍ عَرَفُوا مِنْ قُوَّةِ جَذْبِ النَّاسِ إِلَى الْإِسْلَامِ بِوَقْعِهِ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَمْ يَعْرِفْهُ غَيْرُهُمْ ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ لِجُمْهُورِ الْعَرَبِ مِثْلُ مَا لَهُمْ مِنْ أَسْبَابِ الْجُحُودِ وَالْمُكَابَرَةِ ، فَقَالَ لَهُمْ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ : خُذُوا عَلَى يَدَيْهِ ، قَبْلَ أَنْ تَجْتَمِعَ الْعَرَبُ عَلَيْهِ) فَفَعَلُوا . وَكَانَ مِنْ ثَبَاتِهِ عَلَى بَثِّ الدَّعْوَةِ وَاحْتِمَالِ الْأَذَى مَا أَفْضَى بِهِمْ إِلَى الِاضْطِهَادِ وَأَشَدِّ الْإِيذَاءِ لَهُ وَلِمَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ، ثُمَّ إِجْمَاعُ الرَّأْيِ عَلَى قَتْلِهِ ، حَتَّى

(233/356)

أَلْجَئُوهُمْ إِلَى الْهِجْرَةِ بَعْدَ الْهِجْرَةِ ، ثُمَّ صَارُوا يُقَاتِلُونَهُ فِي دَارِ هِجْرَتِهِ وَمَا حَوْلَهَا ، وَنَصَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، إِلَى أَنِ اضْطُرُّوا إِلَى عَقْدِ الصُّلْحِ مَعَهُ فِي الْحُدَيْبِيَةِ سَنَةَ سِتٍّ مِنَ الْهِجْرَةِ وَكَانَ أَهَمُّ شُرُوطِ الصُّلْحِ السَّمَاحَ لِلْمُؤْمِنِينَ بِمُخَالَطَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِي كَانَ سَبَبَ سَمَاعِهِمْ لِلْقُرْآنِ ، وَدُخُولِهِمْ بِتَأْثِيرِهِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، فَكَانَ انْتِشَارُ الْإِسْلَامِ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ بِالسِّلْمِ وَالْأَمَانِ أَضْعَافَ انْتِشَارِهِ فِي سِتَّ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ .

فِعْلُ الْقُرْآنِ فِي أَنْفُسِ الْمُؤْمِنِينَ

(234/356)

كَانَ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ فِي الْإِسْلَامِ قَبْلَ الْهِجْرَةِ يُلَقَّنُ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ – لِيَعْبُدَ اللَّهَ بِتِلَاوَتِهِ – وَيَعْلَمَ الصَّلَاةَ وَلَمْ يُفْرَضْ فِي مَكَّةَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ غَيْرُهَا ، فَيُرَتِّلُ مَا يَحْفَظُهُ فِي صَلَاتِهِ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِذْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ التَّهَجُّدَ مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ قَالَ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْمُزَّمِّلِ – الَّتِي قِيلَ إِنَّهَا أَوَّلُ مَا نَزَلَ بَعْدَ فَتْرَةِ الْوَحْيِ وَبَعْدَهَا الْمُدَّثِّرُ وَقِيلَ بِالْعَكْسِ – وَتَقَدَّمَ الْجَمْعُ بَيْنَ الْأَقْوَالِ (يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا) (73 : 1 – 4) ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهَا : (إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى

مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ) (73 : 20) أَيْ فِي صَلَاةِ اللَّيْلِ وَغَيْرِهَا ، ثُمَّ ذَكَرَ الْأَعْذَارَ الْمَانِعَةَ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ كُلِّهِ مَا كَانَ مِنْهَا فِي ذَلِكَ الْعَهْدِ كَالْمَرَضِ وَالسَّفَرِ ، وَمَا سَيَكُونُ بَعْدَ سِنِينَ وَهُوَ الْقِتَالُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .

(235/356)

وَمِمَّا وَرَدَ فِي صِفَةِ الصَّحَابَةِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ – أَنَّ الَّذِي كَانَ يَمُرُّ بِبُيُوتِهِمْ لَيْلًا يَسْمَعُ مِنْهَا مِثْلَ دَوِيِّ النَّحْلِ مِنْ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَقَدْ غَلَا بَعْضُهُمْ فَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ حَتَّى شَكَا مِنْهُمْ نِسَاؤُهُمْ فَنَهَاهُمُ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – عَنْ ذَلِكَ ، وَكَانَ هُوَ يُصَلِّي فِي كُلِّ لَيْلَةٍ ثَلَاثَ عَشْرَةَ

رَكْعَةً يُوتِرُ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ ، وَمَا قَبْلَهَا مَثْنَى مَثْنَى ، وَكَانَ هُوَ يُطِيلُ فِيهِنَّ حَتَّى تَوَرَّمَتْ قَدَمَاهُ مِنْ طُولِ الْقِيَامِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ مُرَفِّهًا وَمُسَلِّيًا (طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى) (20 : 1 و2) .

فَتَرْبِيَةُ الصَّحَابَةِ الَّتِي غَيَّرَتْ كُلَّ مَا كَانَ بِأَنْفُسِهِمْ مِنْ مَفَاسِدِ الْجَاهِلِيَّةِ وَزَكَّتْهَا تِلْكَ التَّزْكِيَةَ الَّتِي أَشَرْنَا إِلَيْهَا آنِفًا وَأَحْدَثَتْ أَعْظَمَ ثَوْرَةٍ رُوحِيَّةٍ اجْتِمَاعِيَّةٍ فِي التَّارِيخِ

إِنَّمَا كَانَتْ بِكَثْرَةِ تِلَاوَةِ الْقُرْآنِ فِي الصَّلَاةِ وَفِي غَيْرِ الصَّلَاةِ وَتَدَبُّرِهِ ، وَرُبَّمَا كَانَ أَحَدُهُمْ يَقُومُ اللَّيْلَةَ بِآيَةٍ وَاحِدَةٍ يُكَرِّرُهَا مُتَدَبِّرًا لَهَا ، وَكَانُوا يَقْرَءُونَهُ مُسْتَقِلِّينَ وَمُضْطَجِعِينَ كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِقَوْلِهِ : (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ) (3 : 191) وَأَعْظَمُ ذِكْرِ اللهِ تِلَاوَةُ كِتَابِهِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى ذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ وَأَحْكَامِهِ وَحِكَمِهِ ، وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ وَأَفْعَالِهِ فِي تَدْبِيرِ مُلْكِهِ ، وَلَوْ كَانَ الْقُرْآنُ كَكُتُبِ الْقَوَانِينِ وَالْفُنُونِ لَمَا كَانَ لِتِلَاوَتِهِ كُلُّ ذَلِكَ التَّأْثِيرِ فِي قَلْبِ الطِّبَاعِ ، وَتَغْيِيرِ الْأَوْضَاعِ ، بَلْ لَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ تُمَلُّ فَتُتْرَكُ ، فَأُسْلُوبُ الْقُرْآنِ الَّذِي وَصَفْنَاهُ آنِفًا مِنْ أَعْظَمِ أَنْوَاعِ إِعْجَازِهِ اللُّغَوِيِّ ، وَتَأْثِيرِهِ الرُّوحِيِّ ، وَمَنِ ارْتَابَ فِي هَذَا فَلْيَنْظُرْ فِي الْمَسَائِلِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَيْهَا السُّورَةُ مِنْهُ وَلْيُحَاوِلْ كِتَابَتَهَا نَفْسَهَا أَوْ مِثْلَهَا بِأُسْلُوبِ تِلْكَ السُّورَةِ وَنَظْمِهَا أَوْ أُسْلُوبِ سُورَةٍ أُخْرَى ، كَالسُّوَرِ الَّتِي يَتَكَرَّرُ فِيهَا الْمَوْضُوعُ الْوَاحِدُ بِالْإِجْمَالِ الْمُوجَزِ تَارَةً وَبِبَعْضِ التَّفْصِيلِ تَارَةً وَبِالْإِطْنَابِ فِيهِ أُخْرَى ، – كَالِاعْتِبَارِ بِقَصَصِ الرُّسُلِ مَعَ أَقْوَامِهِمْ فِي سُوَرِ الْمُفَصَّلِ (كَالذَّارِيَاتِ وَالْقَمَرِ وَالْحَاقَّةِ) وَفِيمَا فَوْقَهَا (كَالْمُؤْمِنُونَ وَالشُّعَرَاءِ وَالنَّمْلِ) وَفِيمَا هُوَ أَطْوَلُ مِنْهَا (كَالْأَعْرَافِ وَهُودٍ) – ثُمَّ لِيَنْظُرْ مَا يُفْضِي

إِلَيْهِ عَجْزُهُ مِنَ السُّخْرِيَةِ .

وَقَدْ بَيَّنَ بَعْضُ عُلَمَاءِ الِاجْتِمَاعِ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ تَكْرَارَ الدَّعَوَاتِ الدِّينِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ هِيَ الَّتِي تُثِيرُ الْجَمَاعَاتِ وَتَدَعُّهُمْ إِلَى الِانْهِمَاكِ وَالتَّفَانِي فِيهَا دَعًّا ، وَمَا كَانَ مُحَمَّدٌ وَلَا أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ عَصْرِهِ يَعْلَمُونَ هَذَا ، وَلَكِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مِنْ طِبَاعِ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَقْوَامِ فَوْقَ مَا يَعْلَمُهُ حُكَمَاءُ عَصْرِنَا وَسَائِرِ الْأَعْصَارِ ، وَإِنَّمَا الْقُرْآنُ كَلَامُهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ مِنَ التَّكْرَارِ إِلَّا مَا لَهُ أَكْبَرُ الشَّأْنِ فِي انْقِلَابِ الْأَفْكَارِ ، وَتَحْوِيلِ مَا فِي الْأَنْفُسِ مِنَ الْعَقَائِدِ وَالْأَخْلَاقِ إِلَى خَيْرٍ مِنْهَا ، وَهُوَ مَا لَا يُمْكِنُ إِحْدَاثُ الِانْقِلَابِ الْإِصْلَاحِيِّ بِدُونِهِ كَمَا تَعْلَمُ مِنَ التَّفْصِيلِ الْآتِي

.

(مَقَاصِدُ الْقُرْآنِ ، فِي تَرْقِيَةِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَمَا فِيهِ مِنَ التَّكْرَارِ) .

إِنَّ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ مِنْ إِصْلَاحِ أَفْرَادِ الْبَشَرِ وَجَمَاعَاتِهِمْ وَأَقْوَامِهِمْ وَإِدْخَالِهِمْ فِي طَوْرِ الرُّشْدِ وَتَحْقِيقِ أُخُوَّتِهِمُ الْإِنْسَانِيَّةِ وَوَحْدَتِهِمْ وَتَرْقِيَةِ عُقُولِهِمْ وَتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ مِنْهَا مَا يَكْفِي بَيَانُهُ لَهُمْ فِي الْكِتَابِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ أَوْ مِرَارًا قَلِيلَةً ، وَمِنْهَا مَا لَا تَحْصُلُ

الْغَايَةُ إِلَّا بِتَكْرَارٍ كَثِيرٍ لِأَجْلِ أَنْ يَجْتَثَّ مِنْ أَعْمَاقِ الْأَنْفُسِ كُلَّ مَا كَانَ فِيهَا مِنْ آثَارِ الْوِرَاثَةِ وَالتَّقَالِيدِ وَالْعَادَاتِ الْقَبِيحَةِ الضَّارَّةِ وَيَغْرِسُ فِي مَكَانِهَا أَضْدَادَهَا ، وَيَتَعَاهَدُ هَذَا الْغَرْسَ بِمَا يُنَمِّيهِ حَتَّى يُؤْتِيَ أُكُلَهُ وَيَيْنَعَ ثَمَرُهُ ، وَمِنْهَا مَا يَجِبُ أَنْ يَبْدَأَ بِهَا كَامِلَةً ، وَمِنْهَا مَا لَا يُمْكِنُ كَمَالُهُ إِلَّا بِالتَّدْرِيجِ ، وَمِنْهَا مَا لَا يُمْكِنُ وُجُودُهُ إِلَّا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَيُوضَعُ لَهُ بَعْضُ الْقَوَاعِدِ الْعَامَّةِ وَمِنْهَا مَا يَكْفِي فِيهِ الْفَحْوَى وَالْكِنَايَةِ .

(239/356)

وَالْقُرْآنُ كِتَابُ تَرْبِيَةٍ عَمَلِيَّةٍ وَتَعْلِيمٍ ، لَا كِتَابُ تَعْلِيمٍ فَقَطْ ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يُذْكَرَ فِيهِ كُلُّ مَسْأَلَةٍ مَرَّةً وَاحِدَةً وَاضِحَةً تَامَّةً كَالْمَعْهُودِ فِي كُتُبِ الْفُنُونِ وَالْقَوَانِينِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ فِي مَوْضُوعِ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ : (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ) (62 : 2) وَإِنَّنَا نَذْكُرُ هُنَا أُصُولَ هَذِهِ الْمَقَاصِدِ كَمَا وَعَدْنَا عِنْدَ قَوْلِنَا إِنَّ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – هُوَ أَعْلَى وَأَكْمَلُ مِمَّا جَاءَ بِهِ مَنْ قَبْلَهُ جَمِيعُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ وَالْحُكَّامِ فَهُوَ بُرْهَانٌ عَلَى أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى لَا مِنْ فَيْضِ اسْتِعْدَادِهِ الشَّخْصِيِّ ، وَإِنَّنَا نُقَسِّمُ هَذِهِ الْمَقَاصِدَ إِلَى أَنْوَاعٍ وَنُبَيِّنُ حِكْمَةَ الْقُرْآنِ ، وَمَا

امْتَازَ بِهِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا بِالْإِجْمَالِ لِأَنَّ التَّفْصِيلَ لَا يَتِمُّ إِلَّا إِذَا يَسَّرَ اللهُ لَنَا مَا وَعَدْنَا بِهِ مِنْ تَفْسِيرِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ كُلِّهَا فِي أَبْوَابٍ نُبَيِّنُ فِي كُلِّ بَابٍ مِنْهَا وَجْهَ حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى ذَلِكَ الْمَقْصِدِ وَكَوْنَ الْقُرْآنِ وَفَّى بِهَذِهِ الْحَاجَةِ بِمَا نَأْتِي بِهِ مِنْ جُمْلَةِ آيَاتِهِ فِيهِ .

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ مَقَاصِدِهِ الْإِصْلَاحُ الدِّينِيُّ لِأَرْكَانِ الدِّينِ الثَّلَاثَةِ) .

(240/356)

إِنَّ أَرْكَانَ الدِّينِ الْأَسَاسِيَّةَ الَّتِي بُعِثَ بِهَا جَمِيعُ رُسُلِ اللهِ تَعَالَى وَنَاطَ بِهَا سَعَادَةَ الْبَشَرِ هِيَ الثَّلَاثَةُ الْمُبَيَّنَةُ بِقَوْلِهِ : (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (2 : 62) وَهَاكَ الْكَلَامَ عَلَى كُلٍّ مِنْهَا بِالْإِيجَازِ .

(الرُّكْنُ الْأَوَّلُ لِلدِّينِ الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى)

(241/356)

فَالرُّكْنُ الْأَوَّلُ الْأَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ الْأَرْكَانِ – وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى – قَدْ ضَلَّ فِيهِ جَمِيعُ الْأَقْوَامِ وَالْأُمَمِ حَتَّى أَقْرَبُهُمْ عَهْدًا بِهِدَايَةِ الرُّسُلِ ، فَالْيَهُودُ جَعَلُوا اللهَ كَالْإِنْسَانِ يَتْعَبُ وَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَعَلَ كَخَلْقِهِ لِلْإِنْسَانِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِثْلَهُ . (أَوْ مِثْلَ الْآلِهَةِ) وَزَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَظْهَرُ فِي شَكْلِ الْإِنْسَانِ حَتَّى إِنَّهُ صَارَعَ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَقْدِرْ عَلَى التَّفَلُّتِ مِنْهُ حَتَّى بَارَكَهُ فَأَطْلَقَهُ ! وَعَبَدُوا بَعْلًا وَغَيْرَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ ، وَالنَّصَارَى جَدَّدُوا مِنْ عَهْدِ قُسْطَنْطِينَ الْوَثَنِيَّاتِ الْقَدِيمَةَ ، فَغَمَرَ الشِّرْكُ بِاللهِ هَذِهِ الْأَرْضَ بِطُوفَانِهِ وَطَغَتِ الْوَثَنِيَّةُ عَلَى أَهْلِهَا ، حَتَّى صَارَتْ كَنَائِسُ النَّصَارَى كَهَيَاكِلِ الْوَثَنِيَّةِ الْأُولَى مَمْلُوءَةً بِالصُّوَرِ وَالتَّمَاثِيلِ الْمَعْبُودَةِ – عَلَى أَنَّ عَقِيدَةَ التَّثْلِيثِ وَالصَّلْبِ وَالْفِدَاءِ هِيَ عَقِيدَةُ الْهُنُودِ فِي كَرْشَنَةَ وَثَالُوثُهُ فِي جُمْلَتِهَا وَتَفْصِيلِهَا ، وَهِيَ مَدْعُومَةٌ بِفَلْسَفَةٍ خَيَالِيَّةٍ غَيْرِ مَعْقُولَةٍ ، وَبِنِظَامٍ يَقُومُ بِتَنْفِيذِهِ الْمُلُوكُ وَالْقَيَاصِرَةُ ، وَيُبْذَلُ فِي سَبِيلِهِ الْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَيُرَبَّى عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ مِنَ الصِّغَرِ تَرْبِيَةً وِجْدَانِيَّةً خَيَالِيَّةً لَا تَقْبَلُ حُجَّةً

(242/356)

وَلَا بُرْهَانًا ، فَهَدْمُ مَعَاقِلِ هَذِهِ الْوَثَنِيَّةِ وَحُصُونِهَا الْمُشَيَّدَةِ فِي الْأَفْكَارِ وَالْقُلُوبِ مَا كَانَ لِيَتِمَّ بِإِقَامَةِ بُرْهَانٍ عَقْلِيٍّ أَوْ عِدَّةِ بَرَاهِينَ عَلَى تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، بَلْ فِيهِ مِنْ دَحْضِ الشُّبُهَاتِ

وَتَفْصِيلِ الْحُجَجِ الْعَقْلِيَّةِ وَالْعِلْمِيَّةِ وَالْخَطَابِيَّةِ بِالْعِبَارَاتِ الْمُخْتَلِفَةِ وَضَرْبِ الْأَمْثَالِ ؛ لِذَلِكَ كَانَ أَكْبَرُ الْمَسَائِلِ تَكْرَارًا فِي الْقُرْآنِ مَسْأَلَةَ تَوْحِيدِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي أُلُوهِيَّتِهِ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَاعْتِقَادِ أَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ سَوَاءٌ فِي كَوْنِهِمْ مِلْكًا وَعَبِيدًا لَهُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْ دُونِهِ نَفْعًا وَلَا ضُرًّا لِأَحَدٍ وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ إِلَّا فِيمَا سَخَّرَهُ مِنَ الْأَسْبَابِ الْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَ الْخَلْقِ كَمَا شَرَحْنَاهُ مِرَارًا .

وَأَمَّا تَكْرَارُ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَهُوَ انْفِرَادُهُ تَعَالَى بِالْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ وَالتَّدْبِيرِ وَالتَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ فَلَيْسَ سَبَبُهُ كَثْرَةَ الْمُشْرِكِينَ بِرُبُوبِيَّتِهِ تَعَالَى ، بَلْ سَبَبُهُ إِقَامَةُ الْحُجَّةِ بِهِ عَلَى بُطْلَانِ شِرْكِ الْعِبَادَةِ بِدُعَاءِ غَيْرِ اللهِ تَعَالَى لِأَجْلِ التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِأُولَئِكَ الْأَوْلِيَاءِ وَابْتِغَاءِ شَفَاعَتِهِمْ عِنْدَهُ ، فَشَرُّ الشِّرْكِ وَأَعْرَقُهُ فِي الْكُفْرِ وَأَكْثَرُهُ فِي ضُعَفَاءِ الْعُقُولِ إِنَّمَا هُوَ تَوَجُّهُ الْعَبْدِ إِلَى غَيْرِ اللهِ تَعَالَى فِيمَا يَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَيْهِ مِنْ كَشْفِ ضُرٍّ وَجَلْبِ نَفْعٍ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ ، فَقَدْ ذُكِرَ الدُّعَاءُ فِي الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً ،

(243/356)

بَلْ زُهَاءَ سَبْعِينَ بَعْدَ سَبْعِينَ مَرَّةً ؛ لِأَنَّهُ رُوحُ الْعِبَادَةِ وَمَحْنُهَا ، بَلْ هُوَ الْعِبَادَةُ الَّتِي هِيَ دِينُ الْفِطْرَةِ كُلُّهُ ، وَمَا عَدَاهُ مِنَ الْعِبَادَاتِ فَوَضْعِيٌّ تَشْرِيعِيٌّ .

بَعْضُ آيَاتِ الدُّعَاءِ أَمْرٌ بِدُعَائِهِ تَعَالَى ، وَبَعْضُهَا نَهْيٌ عَنْ دُعَاءِ غَيْرِهِ مُطْلَقًا ، وَمِنْهَا حُجَجٌ عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ أَوْ عَلَى إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ ، وَمِنْهَا أَمْثَالٌ ، تُصَوِّرُ كُلًّا مِنْهُمَا بِالصُّوَرِ اللَّائِقَةِ الْمُؤَثِّرَةِ ، وَمِنْهَا إِخْبَارٌ بِأَنَّ دُعَاءَ غَيْرِهِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يُسْتَجَابُ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ يُدْعَى مِنْ دُونِهِ تَعَالَى فَهُوَ عَبْدٌ لَهُ وَأَنَّ أَفْضَلَهُمْ وَخِيَارَهُمْ كَالْمَلَائِكَةِ وَالْأَنْبِيَاءِ يَدْعُونَهُ هُوَ وَيَبْتَغُونَ الْوَسِيلَةَ إِلَيْهِ ، وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، وَأَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِ الَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْ مَعَ اللهِ – وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِمَّا يَطُولُ تَلْخِيصُهُ .

(244/356)

وَثَمَّ أَنْوَاعٌ أُخْرَى مِنْ آيَاتِ الْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى تُغَذِّي التَّوْحِيدَ ، وَتَصْعَدُ بِأَهْلِهِ دَرَجَاتٍ مُتَفَاوِتَةً فِي السُّمُوِّ بِمَعْرِفَتِهِ تَعَالَى وَالتَّأَلُّهِ وَالتَّوَلُّهِ فِي حُبِّهِ مِنَ التَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ وَالتَّسْبِيحِ ، وَذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى مَمْزُوجَةً بِبَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ ، حَتَّى أَحْكَامِ الطَّهَارَةِ وَالنِّسَاءِ وَالْإِرْثِ وَالْأَمْوَالِ . وَبِحِكَمِ الْخَلْقِ وَالتَّدْبِيرِ لِأُمُورِ الْعَالَمِ ، وَسُنَنِهِ فِي طِبَاعِ الْبَشَرِ وَفِي شُئُونِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَوَضْعِ كُلِّ اسْمٍ مِنْهَا فِي الْمَوْضِعِ الْمُنَاسِبِ لَهُ مِنْ رَحْمَةٍ وَعِلْمٍ وَحِكْمَةٍ وَقُدْرَةٍ وَمَشِيئَةٍ وَحِلْمٍ وَعَفْوٍ وَمَغْفِرَةٍ وَحُبٍّ وَرِضًا وَمَا يُقَابِلُ ذَلِكَ ، وَمِنَ الْأَمْرِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ فِي فَضْلِهِ إِلَخْ وَنَاهِيكَ بِمَا سَرَدَ مِنْهَا سَرْدًا لِجَذْبِ

الْأَرْوَاحِ الْعَالِيَةِ إِلَى كَمَالِهِ الْمُطْلَقِ وَفَنَائِهَا فِيهِ كَمَا تَرَاهُ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْحَشْرِ فَتَأَمَّلْهَا ، وَفِي فَاتِحَةِ سُورَةِ الْحَدِيدِ : (سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (1) (هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (3)

وَمِنْهَا اسْتَمَدَّ الْأَوْلِيَاءُ الْعَارِفُونَ وَالْأَئِمَّةُ الرَّبَّانِيُّونَ تِلْكَ الْكُتُبَ الْعَالِيَةَ فِي مَعْرِفَتِهِ تَعَالَى وَأَسْرَارِ خَلْقِهِ ، بَعْدَ أَنْ تَرَبَّوا بِكَثْرَةِ ذِكْرِهِ ، وَتِلَاوَةِ كِتَابِهِ .

(245/356)

بِهَذَا التَّكْرَارِ الَّذِي جَعَلَهُ أُسْلُوبُ الْقُرْآنِ الْمُعْجِزِ مَقْبُولًا غَيْرَ مَمْلُولٍ طَهَّرَ اللهُ عُقُولَ الْعَرَبِ وَقُلُوبَهُمْ مِنْ رِجْسِ الشِّرْكِ وَخُرَافَاتِ الْوَثَنِيَّةِ ، وَزَكَّاهَا بِالْأَخْلَاقِ الْعَالِيَةِ وَالْفَضَائِلِ السَّامِيَةِ وَكَذَا غَيْرُ الْعَرَبِ مَنْ آمَنَ وَأَتْقَنَ لُغَةَ كِتَابِهِ وَصَارَ يُرَتِّلُهُ فِي عِبَادَتِهِ وَيَتَدَبَّرُ آيَاتِهِ ، حَتَّى إِذَا دَبَّ فِي الْأُمَّةِ دَبِيبُ الْجَهْلِ بِلُغَةِ الْقُرْآنِ وَقَلَّ تَدَبُّرُهُ ، وَاعْتَمَدَ الْمُسْلِمُونَ فِي فَهْمِ عَقِيدَتِهِمْ عَلَى الْكُتُبِ الْكَلَامِيَّةِ الْمُصَنَّفَةِ ، ضَعُفَ التَّوْحِيدُ وَابْتَغَوْا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ اعْتِقَادًا وَعَمَلًا ، وَتَأَوُّلًا وَجَدَلًا فَصَارَ أَدْعِيَاءُ الْعِلْمِ يَتَأَوَّلُونَ تِلْكَ الْآيَاتِ الْكَثِيرَةَ عَلَى التَّوْحِيدِ بِشُبَهَاتِهِمْ وَأَهْوَائِهِمْ كَمَا هُوَ مُشَاهَدٌ وَمَعْلُومٌ .

(246/356)

عَلَى أَنَّ بَعْضَ الْمُتَكَلِّمِينَ وَالصُّوفِيَّةِ قَدْ بَالَغُوا فِي التَّوْحِيدِ حَتَّى أَنْكَرَ بَعْضُهُمْ تَأْثِيرَ الْأَسْبَابِ فِي مُسَبَّبَاتِهَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ ، وَانْتَهَى بِهِمْ ذَلِكَ إِلَى بِدْعَةِ الْجَبْرِ الَّتِي أَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِهَا كُلَّ شَيْءٍ ، بَيْدَ أَنَّ الْأَوَّلِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ بِمَا يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ النَّظَرُ الْعَقْلِيُّ ، أَوْ رِيَاضَةُ النَّفْسِ وَمَا تُثْمِرُهُ مِنَ الشُّعُورِ الْوِجْدَانِيِّ ، ثُمَّ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ مِنَ الْمُقَلِّدِينَ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ الْبُرْهَانِ وَلَا مِنَ الْوِجْدَانِ ، وَإِنَّمَا يَتَّبِعُونَ الْعَوَامَّ وَيَتَأَوَّلُونَ لَهُمْ بِكَلَامِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْمُصَنِّفِينَ الْجَاهِلِينَ وَلَوْ فَقِهُوا أَقْصَرَ سُورَةٍ فِي التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ كَمَا يَجِبُ – وَهِيَ سُورَةُ الْإِخْلَاصِ – لَمَا وَجَدَ الشِّرْكُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ سَبِيلًا .

(247/356)

قَدْ كَانَ تَوْحِيدُ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ لِلَّهِ وَمَعْرِفَتُهُمْ بِهِ وَحُبُّهُمْ لَهُ وَتَوَكُّلُهُمْ عَلَيْهِ هُوَ الَّذِي زَكَّى أَنْفُسَهُمْ ، وَأَعْلَى هِمَمَهُمْ ، وَكَمَّلَهُمْ بِعِزَّةِ النَّفْسِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ، وَإِقَامَةِ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَمَكَّنَهُمْ مِنْ فَتْحِ الْبِلَادِ وَسِيَاسَةِ الْأُمَمِ ، وَإِعْتَاقِهَا مِنْ رِقِّ الْكَهَنَةِ وَالْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ

وَالْبُوذَاتِ وَالْمُوبَذَانَاتِ الرُّوحِيِّ وَالْعَقْلِيِّ ، وَتَحْرِيرِهِمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ وَاسْتِبْدَادِهِمْ ، وَإِقَامَةِ دَعَائِمِ الْحَضَارَةِ ، وَإِحْيَاءِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ الْمَيِّتَةِ وَتَرْقِيَتِهَا فِيهِمْ وَقَدْ تَمَّ لَهُمْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ مَا لَمْ يَقَعْ مِثْلُهُ وَلَا مَا يُقَارِبُهُ لِأُمَّةٍ مِنْ أُمَمِ الْأَرْضِ ، حَتَّى قَالَ الدُّكْتُورُ غُوسْتَافْ لُوبُونْ الْمُؤَرِّخُ الِاجْتِمَاعِيُّ الشَّهِيرُ : إِنَّ مَلَكَةَ الْفُنُونِ لَمْ يَتِمَّ تَكْوِينُهَا لِأُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ النَّاهِضَةِ إِلَّا فِي ثَلَاثَةِ أَجْيَالٍ ، أَوَّلُهَا جِيلُ التَّقْلِيدِ ، وَثَانِيهَا جِيلُ الْخَضْرَمَةِ وَثَالِثُهَا جِيلُ الِاسْتِقْلَالِ وَالِاجْتِهَادِ – قَالَ : إِلَّا الْعَرَبَ وَحْدَهُمْ فَقَدِ اسْتَحْكَمَتْ لَهُمْ مَلَكَةُ الْفُنُونِ فِي الْجِيلِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَءُوا فِيهِ بِمُزَاوَلَتِهَا .

وَأَقُولُ : إِنَّ سَبَبَ ذَلِكَ تَرْبِيَةُ الْقُرْآنِ لَهُمْ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَاحْتِقَارِ التَّقْلِيدِ . وَتَوْطِينِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى إِمَامَةِ الْبَشَرِ وَقِيَادَتِهَا فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا مَعًا ، وَقَدْ خَفِيَ كُلُّ هَذَا عَلَى سَلَائِلِهَا بَعْدَ ذَهَابِ الْخِلَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَزَوَالِ النَّهْضَةِ الْعَرَبِيَّةِ ،

(248/356)

وَتَحَوُّلِ السُّلْطَانِ إِلَى الْأَعَاجِمِ الَّذِينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ إِلَّا الظَّوَاهِرُ التَّقْلِيدِيَّةُ الْمُنْفَصِلَةُ عَنْ هِدَايَةِ الْقُرْآنِ .

(الرُّكْنُ الثَّانِي مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ عَقِيدَةُ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ)

وَأَمَّا الرُّكْنُ الثَّانِي . وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ ، فَقَدْ كَانَ جُلُّ مُشْرِكِي الْعَرَبِ يُنْكِرُونَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَلَا يَكْمُلُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَيَكُونُ بَاعِثًا لِلْأُمَّةِ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَتَرْكِ الْفَوَاحِشِ وَالْمُنْكَرَاتِ وَالْبَغْيِ وَالْعُدْوَانِ بِدُونِهِ وَكَانَ أَهْلُ الْكِتَابِ وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْمِلَلِ الَّتِي كَانَ لَهَا كُتُبٌ وَتَشْرِيعٌ دِينِيٌّ وَمَدَنِيٌّ ، ثُمَّ فُقِدَتْ كُتُبُهُمْ أَوْ حُرِّفَتْ وَاسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِمُ الْوَثَنِيَّةُ - يُؤْمِنُونَ بِحَيَاةٍ بَعْدَ الْمَوْتِ وَجَزَاءٍ عَلَى الْأَعْمَالِ ، وَلَكِنَّ إِيمَانَهُمْ هَذَا قَدْ شَابَهُ الْفَسَادُ بِبِنَائِهِ عَلَى بِدَعٍ ذَهَبَتْ بِجُلِّ فَائِدَتِهِ فِي إِصْلَاحِ النَّاسِ . وَأَسَاسُهَا عِنْدَ الْهُنُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ قُدَمَاءِ الْوَثَنِيِّينَ وَخَلْفِ النَّصَارَى - وُجُودُ الْمُخَلِّصِ الْفَادِي ، الَّذِي يُخَلِّصُ النَّاسَ مِنْ عُقُوبَةِ الْخَطَايَا وَيَفْدِيهِمْ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ الْأُقْنُومُ الثَّانِي مِنَ الثَّالُوثِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي هُوَ عَيْنُ الْأَوَّلِ وَالثَّالِثِ ، وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَيْنُ الْآخَرِ . وَكُلُّ مَا يَقُولُهُ النَّصَارَى فِي فِدَاءِ الْمَسِيحِ لِلْبَشَرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَهُوَ نُسْخَةٌ مُطَابِقَةٌ لِمَا يَقُولُهُ الْهُنُودُ فِي (كَرْشَنَةَ) فِي اللَّفْظِ وَالْفَحْوَى كَمَا تَقَدَّمَ ، لَا يَخْتَلِفَانِ إِلَّا فِي الِاسْمَيْنِ : كَرْشَنَةَ ، وَيَسُوعَ .

وَأَمَّا الْيَهُودُ فَكُلُّ دِيَانَتِهِمْ خَاصَّةٌ بِشَعْبِ إِسْرَائِيلَ وَمُحَابَاةِ اللهِ تَعَالَى لَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّعُوبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيُسَمُّونَهُ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ كَأَنَّهُ رَبُّهُمْ وَحْدَهُمْ لَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، وَدِيَانَتُهُمْ أَقْرَبُ إِلَى الْمَادِّيَّةِ مِنْهَا إِلَى الرُّوحِيَّةِ . فَكَانَ فَسَادُ الْإِيمَانِ بِهَذَا الرُّكْنِ مِنْ أَرْكَانِ الدِّينِ تَابِعًا لِفَسَادِ الرُّكْنِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ تَعَالَى وَمَعْرِفَتُهُ ، وَمُحْتَاجًا إِلَى الْإِصْلَاحِ مِثْلَهُ .

جَاءَ الْقُرْآنُ لِلْبَشَرِ بِهَذَا الْإِصْلَاحِ ، فَقَدْ أَعَادَ دِينَ النَّبِيِّينَ فِي الْجَزَاءِ إِلَى أَصْلِهِ الْمَعْقُولِ ، وَهُوَ مَا كَرَّمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ الْإِنْسَانَ مِنْ جَعْلِ سَعَادَتِهِ وَشَقَائِهِ مَنُوطَيْنِ بِإِيمَانِهِ وَعَمَلِهِ ، اللَّذَيْنِ هُمَا مِنْ كَسْبِهِ وَسَعْيِهِ لَا مَنْ عَمَلِ غَيْرِهِ ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ عَلَى الْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي يَكُونُ بِعَدْلِ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ جَمِيعِ خَلْقِهِ بِدُونِ مُحَابَاةِ شَعْبٍ عَلَى شَعْبٍ ، وَالْجَزَاءُ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ يَكُونُ بِمُقْتَضَى الْفَضْلِ ، فَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا وَقَدْ يُضَاعِفُهَا اللهُ تَعَالَى أَضْعَافًا كَثِيرَةً .

(251/356)

وَمَدَارُ كُلِّ ذَلِكَ قَاعِدَةُ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا) (91 : 7 – 10) أَيْ إِنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ هَذِهِ النَّفْسَ

وَسَوَّاهَا بِمَا وَهَبَهَا مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْعَقْلِ . قَدْ جَعَلَهَا بِإِلْهَامِ الْفِطْرَةِ وَالْغَرِيزَةِ مُسْتَعِدَّةً لِلْفُجُورِ الَّذِي يُرْدِيهَا وَيُدَسِّيهَا ، وَالتَّقْوَى الَّتِي تُنْجِيهَا وَتُعْلِيهَا ، وَمُتَمَكِّنَةً مِنْ كُلٍّ مِنْهُمَا بِإِرَادَتِهَا ، وَالتَّرْجِيحِ بَيْنَ خَوَاطِرِهَا وَمَطَالِبِهَا . وَمَنْحِهَا الْعَقْلَ وَالدِّينَ يُرَجِّحَانِ الْحَقَّ وَالْخَيْرَ عَلَى الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ ، فَبِقَدْرِ طَهَارَةِ النَّفْسِ وَأَثَرِ تَزْكِيَتِهَا بِالْإِيمَانِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، يَكُونُ ارْتِقَاؤُهَا فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَالضِّدُّ بِالضِّدِّ فَالْجَزَاءُ أَثَرٌ طَبِيعِيٌّ لِلْعَمَلِ النَّفْسِيِّ وَالْبَدَنِيِّ الَّذِي يُزَكِّي

النَّفْسَ أَوْ يُدَسِّيهَا وَيُدَنِّسُهَا ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ الَّذِي يُثْبِتُهُ مَنْ عَرَفَ حَقِيقَةَ الْإِنْسَانِ ، وَحِكْمَةَ الدِّيَانِ وَهُوَ مِمَّا أَصْلَحَهُ الْقُرْآنُ مِنْ تَعَالِيمِ الْأَدْيَانِ .

(252/356)

فَإِذَا عَلِمْتَ مَا كَانَ مِنْ إِنْكَارِ مُشْرِكِي الْعَرَبِ لِلْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ . وَمِنْ فَسَادِ إِيمَانِ أَهْلِ الْكِتَابِ وَسَائِرِ الْمِلَلِ فِي هَذِهِ الْعَقِيدَةِ ، وَعَلِمْتَ أَنَّهَا مُكَمِّلَةٌ لِلْإِيمَانِ بِاللهِ تَعَالَى ، وَأَنَّ تَذَكُّرَهَا هُوَ الَّذِي يُقَوِّي الْوَازِعَ النَّفْسِيَّ الَّذِي يَصُدُّ الْإِنْسَانَ عَنِ الْبَاطِلِ وَالشَّرِّ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ ، وَيُرَغِّبُهُ فِي الْتِزَامِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ وَعَمَلِ الْبِرِّ – عَلِمْتَ أَنَّ ذَلِكَ مَا كَانَ لِيَفْعَلَ فِعْلَهُ الْعَاجِلَ فِي شَعْبٍ كَبِيرٍ إِلَّا بِتَكْرَارِهِ فِي الْقُرْآنِ بِالْأَسَالِيبِ الْعَجِيبَةِ الَّتِي فِيهِ مِنْ حُسْنِ الْبَيَانِ ، وَتَقْرِيبِ

الْبَعِيدِ مِنَ الْأَذْهَانِ . تَارَةً بِالْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ ، وَتَارَةً بِضَرْبِ الْأَمْثَالِ ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، لَعَلَّهَا تَبْلُغُ الْمِئَاتِ ، وَمِنْ إِعْجَازِهِ أَنَّهَا لَا تُمَلُّ وَلَا تُسْأَمُ .

الْإِيمَانُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَهُوَ الرُّكْنُ الثَّانِي فِي جَمِيعِ الْأَدْيَانِ ، مِنْ لَوَازِمِ الرُّكْنِ الْأَوَّلِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِاللهِ الْمُتَّصِفِ بِجَمِيعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ ، الْمُنَزَّهِ عَنِ الْبَعْثِ فِي أَفْعَالِهِ وَأَحْكَامِهِ ، وَلِهَذَا كَانَ مَنْ أَظْهَرِ أَدِلَّةِ الْقُرْآنِ عَلَيْهِ قَوْلُهُ : (أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا

(253/356)

وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ) (23 : 115) وَقَوْلُهُ : (أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى) (75 : 36 – 40) فَكُفْرُ الْإِنْسَانِ بِهَذَا الرُّكْنِ مِنْ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ يَسْتَلْزِمُ كُفْرَهُ بِحِكْمَةِ رَبِّهِ وَعَدْلِهِ فِي خَلْقِهِ ، وَكُفْرَهُ بِنِعْمَتِهِ بِخَلْقِهِ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى أَهْلِ عِلَلِهِ (الْأَرْضِ) حَيْثُ سَخَّرَهَا وَكُلَّ مَا فِيهَا لِمَنَافِعِهِ ، وَعَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقَ فِي عَالَمِ الْغَيْبِ الَّذِي وَعَدَهُ بِمَصِيرِهِ إِلَيْهِ وَجِهَادٍ بِمَا وَهَبَهُ مِنَ الْمَشَاعِرِ وَالْقُوَى وَالْعَقْلِ ، وَجَهْلِهِ بِحِكْمَتِهِ فِي خَلْقِهِ مُسْتَعِدًّا لِمَا لَيْسَ لَهُ حَدٌّ وَنِهَايَةٌ مِنَ الْعِلْمِ الدَّالِّ عَلَى أَنَّهُ خُلِقَ لِحَيَاةٍ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نِهَايَةَ – وَمِنْ لَوَازِمِ هَذَا الْكُفْرِ وَالْجَهْلِ كُلِّهِ ، احْتِقَارُهُ لِنَفْسِهِ بِاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ

خُلِقَ عَبَثًا لَا لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ ، وَأَنَّ وُجُودَهُ فِي الْأَرْضِ مَوْقُوتٌ مَحْدُودٌ بِهَذَا الْعُمْرِ الْقَصِيرِ ، الْمُنَغَّصِ بِالْهُمُومِ وَالْمَصَائِبِ وَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ وَالْآثَامِ ، وَأَنَّهُ يُتْرَكُ سُدًى لَا يُجْزَى كُلُّ ظَالِمٍ مِنْ أَفْرَادِهِ بِظُلْمِهِ ، وَكُلُّ عَادِلٍ بِعَدْلِهِ وَفَضْلِهِ ، وَإِذْ كَانَ هَذَا الْجَزَاءُ غَيْرَ مُطَّرِدٍ فِي الدُّنْيَا لِجَمِيعِ الْأَفْرَادِ ، تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ جَزَاءُ الْآخِرَةِ هُوَ الْمَظْهَرَ الْأَكْبَرَ لِلْعَدْلِ الْعَامِّ .

(254/356)

وَمِمَّا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مُخَالِفًا لِمَا عِنْدَ النَّصَارَى مِنْ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ أَنَّ الْإِنْسَانَ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ يَكُونُ إِنْسَانًا كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا ، إِلَّا أَنَّ أَصْحَابَ الْأَنْفُسِ الزَّكِيَّةِ وَالْأَرْوَاحِ الْعَالِيَةِ يَكُونُونَ أَكْمَلَ أَرْوَاحًا وَأَجْسَادًا مِمَّا كَانُوا بِتَزْكِيَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَأَصْحَابَ الْأَنْفُسِ الْخَبِيثَةِ وَالْأَرْوَاحِ السَّافِلَةِ يَكُونُونَ أَنْقَصَ وَأَخْبَثَ مِمَّا كَانُوا بِتَدْسِيَةِ أَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَيُعْلَمُ مِمَّا ثَبَتَ

عَنْ قُدَمَاءِ الْمِصْرِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَقْدَمِينَ أَنَّ الْأَدْيَانَ الْقَدِيمَةَ كَانَتْ تُعَلِّمُ النَّاسَ عَقِيدَةَ الْبَعْثِ بِالرُّوحِ وَالْجَسَدِ .

وَلَوْ كَانَ الْبَعْثُ لِلْأَرْوَاحِ وَحْدَهَا لَنَقَصَ مِنْ مَلَكُوتِ اللهِ تَعَالَى هَذَا النَّوْعُ الْكَرِيمُ الْمُكَرَّمُ مِنَ الْخَلْقِ الْمُؤَلَّفِ مِنْ رُوحٍ وَجَسَدٍ ، فَهُوَ يُدْرِكُ اللَّذَّاتِ الرُّوحِيَّةَ وَاللَّذَّاتِ الْجُثْمَانِيَّةَ ، وَيَتَحَقَّقُ

بِحِكَمِ اللهِ (جَمْعُ حِكْمَةٍ) وَأَسْرَارِ صُنْعِهِ فِيهِمَا مَعًا ، مِنْ حَيْثُ حَرَمَ الْحَيَوَانَ وَالنَّبَاتَ مِنَ الْأُولَى وَالْمَلَائِكَةَ مِنَ الثَّانِيَةِ ، وَمَا جَنَحَ مَنْ جَنَحَ مِنْ أَصْحَابِ النَّظَرِيَّاتِ الْفَلْسَفِيَّةِ إِلَى الْبَعْثِ الرُّوحَانِيِّ الْمُجَرَّدِ ، إِلَّا لِاحْتِقَارِهِمْ لِلَّذَّاتِ الْجَسَدِيَّةِ

(255/356)

وَتَسْمِيَتِهَا بِالْحَيَوَانِيَّةِ مَعَ شَغَفِ أَكْثَرِهِمْ بِهَا ، وَإِنَّمَا تَكُونُ نَقْصًا فِي الْإِنْسَانِ إِذَا سَخَّرَ عَقْلَهُ وَقُوَاهُ لَهَا وَحْدَهَا ، حَتَّى يَصْرِفَهُ اشْتِغَالُهُ بِهَا عَنِ اللَّذَّاتِ الْعَقْلِيَّةِ وَالرُّوحِيَّةِ بِالْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ ، وَأَصْلُ هَذَا الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ غُلُوُّ الْهُنُودِ فِي احْتِقَارِ الْجَسَدِ وَتَرْبِيَةِ النَّفْسِ بِالرِّيَاضَةِ وَتَعْذِيبِ الْجَسَدِ ، وَتَبِعَهُمْ فِيهِ نُسَّاكُ النَّصَارَى كَمَا تَبِعُوهُمْ فِي عَقِيدَةِ الصَّلْبِ وَالْفِدَاءِ وَالتَّثْلِيثِ ، عَلَى أَنَّهُمْ نَقَلُوا أَنَّ الْمَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَرِبَ الْخَمْرَ مَعَ تَلَامِيذِهِ لَمَّا وَدَّعَهُمْ فِي الْفِصْحِ وَقَالَ لَهُمْ : إِنِّي مِنَ الْآنَ لَا أَشْرَبُ مِنْ نِتَاجِ الْكَرْمَةِ هَذَا إِلَى ذَلِكَ الْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ مَعَكُمْ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ أَبِي (مَتَّى 26 : 29) وَجَرَى الْيَهُودُ عَلَى عَكْسِ ذَلِكَ . وَجَاءَ الْإِسْلَامُ بِالِاعْتِدَالِ فَأَعْطَى الْإِنْسَانَ جَمِيعَ حُقُوقِهِ ، وَطَالَبَهُ بِمَا يَكُونُ بِهَا كَامِلًا فِي إِنْسَانِيَّتِهِ

.

وَقَدْ بَيَّنَّا كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مِنْ جَمِيعِ أَطْرَافِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَكَشْفِ شُبَهَاتِهَا فِي

تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، الَّتِي هِيَ أَجْمَعُ سُوَرِ الْقُرْآنِ لِمَسَائِلِ الْإِيمَانِ بِاللهِ وَتَوْحِيدِهِ وَالْبَعْثِ وَالرِّسَالَةِ ، وَدَحْضِ شُبَهَاتِ الْمُشْرِكِينَ عَلَيْهَا ص 417 - 427 ج 8 ط الْهَيْئَةِ .

(256/356)

وَيُؤْخَذُ مِمَّا وَرَدَ مِنَ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ مِنْ صِفَةِ حَيَاةِ الْآخِرَةِ أَنَّ الْقُوَى الرُّوحِيَّةَ تَكُونُ هِيَ الْغَالِبَةَ وَالْمُتَصَرِّفَةَ فِي الْأَجْسَادِ ، فَتَكُونُ قَادِرَةً عَلَى التَّشَكُّلِ بِالصُّوَرِ اللَّطِيفَةِ وَقَطْعِ الْمَسَافَاتِ الْبَعِيدَةِ فِي الْمُدَّةِ الْقَرِيبَةِ ، وَالتَّخَاطُبِ بِالْكَلَامِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ - وَإِنَّ تَرَقِّيَ الْبَشَرِ فِي عِلْمِ الْكِيمْيَاءِ وَخَوَاصِّ الْكَهْرَبَاءِ وَالصِّنَاعَاتِ وَالْآلَاتِ فِي عَصْرِنَا قَدْ قَرَّبَ كُلَّ هَذَا مِنْ حِسِّ الْإِنْسَانِ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ الْمَادِّيُّونَ الْمُلْحِدُونَ يُعَدُّونَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) (7 : 44) مِنْ تَخَيُّلَاتِ مُحَمَّدٍ - صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نُخَاطِبُ مِنْ مِصْرَ أَهْلَ عَوَاصِمِ أُورُبَّةَ بِآلَةِ التِّلِيفُونِ ، وَنَسْمَعُ خُطَبَهُمْ وَمَعَازِفَهُمْ بِآلَةِ الرَّادْيُو وَسَنَرَاهُمْ وَيَرَوْنَنَا بِآلَةِ التِّلِيفِزْيُونْ مَعَ التَّخَاطُبِ حِينَمَا يَعُمُّ انْتِشَارُهَا .

وَأَمَّا عُلَمَاءُ الرُّوحِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وَغَيْرِهِمْ فَقَدْ قَرَّرُوا أَنَّ الْأَرْوَاحَ الْبَشَرِيَّةَ قَادِرَةٌ عَلَى التَّشَكُّلِ

فِي أَجْسَادٍ تَأْخُذُهَا مِنْ مَادَّةِ الْكَوْنِ كَمَا يَقُولُ الصُّوفِيَّةُ . وَهَذِهِ مَسْأَلَةٌ أَوْ مَسَائِلُ قَدْ شَرَحْنَاهَا

(257/356)

مِنْ قَبْلُ فِي هَذَا التَّفْسِيرِ وَإِنَّمَا نَذْكُرُهَا هُنَا بِالْإِجْمَالِ رَدًّا عَلَى مَنْ زَعَمُوا أَنَّ الْقُرْآنَ مُسْتَمَدٌّ مِنْ كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَمِنْ عَقْلِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَإِلْهَامَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ .

وَيُنَاسِبُ هَذَا مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ مِنْ نَبَأِ خَرَابِ الْعَالَمِ وَقِيَامِ السَّاعَةِ الَّتِي هِيَ بَدْءُ مَا يَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ مِنْ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَلَمْ يُوجَدْ لَهُ أَصْلٌ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا غَيْرِهِمْ ، وَلَا هُوَ مِمَّا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ قَدْ عَرَفَهُ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِذَكَائِهِ أَوْ نَظَرِيَّاتِهِ الْعَقْلِيَّةِ . وَجُمْلَتُهُ أَنَّ قَارِعَةً - وَالظَّاهِرُ أَنَّهَا كَوْكَبٌ - تَقْرَعُ الْأَرْضَ وَتَصُكُّهَا صَكًّا وَتَرُجُّهَا رَجًّا فَتَكُونُ هَبَاءً (غُبَارًا رَقِيقًا) مُنْبَثًّا فِي الْفَضَاءِ وَحِينَئِذٍ يَخْتَلُّ مَا يُسَمَّى فِي عُرْفِ الْعُلَمَاءِ بِالْجَاذِبِيَّةِ لِلْعَامَّةِ فَتَتَنَاثَرُ الْكَوَاكِبُ إِلَخْ . وَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ بِبَالِ أَحَدٍ أَنْ يُقَالَ إِنَّ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سَمِعَهُ مِنْ أَحَدٍ فِي بَلَدِهِ أَوْ فِي سَفَرِهِ وَلَا يَعْقِلُ أَنْ يَكُونَ قَالَهُ بِرَأْيِهِ وَفِكْرِهِ ، فَهُوَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَدْحَضُ زَعْمَ الْقَائِلِينَ بِالْوَحْيِ

النَّفْسِيِّ وَقَدْ صَرَّحَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ عُلَمَاءِ الْهَيْئَةِ الْفَلَكِيَّةِ الْمُعَاصِرِينَ بِأَنَّ خَرَابَ الْعَالَمِ بِهَذَا السَّبَبِ هُوَ أَقْرَبُ النَّظَرِيَّاتِ الْعِلْمِيَّةِ لِخَرَابِهِ .

(الرُّكْنُ الثَّالِثُ لِلدِّينِ الْعَمَلُ الصَّالِحِ)

(258/356)

وَأَمَّا الرُّكْنُ الثَّالِثُ مِنْ مَقَاصِدِ بَعْثَةِ الرُّسُلِ وَهُوَ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فَهُوَ مُكَرَّرٌ فِي الْقُرْآنِ فِي سُوَرٍ كَثِيرَةٍ ؛ لِإِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَهُ الْبَشَرُ فِيهِ بِجَعْلِهِ تَقْلِيدِيًّا غَيْرَ مُزَكٍّ النَّفْسَ وَلَا مُصْلِحٍ لِشُؤُونِ الِاجْتِمَاعِ ، وَلَكِنْ دُونَ تَكْرَارِ تَوْحِيدِ اللهِ وَتَقْدِيسِهِ الَّذِي هُوَ الْأَصْلُ الَّذِي يَتْبَعُهُ ، وَلَوْلَا الْحَاجَةُ إِلَى هَذَا التَّكْرَارِ فِي التَّذْكِيرِ وَالتَّأْثِيرِ لَكَانَتْ سُورَةُ الْعَصْرِ كَافِيَةً فِي الْإِصْلَاحِ الْعِلْمِيِّ الْعَمَلِيِّ عَلَى قِصَرِهَا ، كَسُورَةِ الْإِخْلَاصِ فِي الرُّكْنِ الْأَوَّلِ الِاعْتِقَادِيِّ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا تُكْتَبُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ ، فَهُمَا مِنْ مُعْجِزَاتِ إِيجَازِ الْقُرْآنِ وَهِدَايَتِهِ .

ثُمَّ إِنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِاللهِ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى ؛ لِأَنَّ مَنْ عَرَفَ اللهَ عَرَفَ اسْتِحْقَاقَهُ لِلْحَمْدِ وَالشُّكْرِ وَالْعِبَادَةِ وَالْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ ، وَهُوَ مِنْ لَوَازِمِ الْإِيمَانِ بِالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ فِي الدَّرَجَةِ الثَّانِيَةِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ وَرَجَاءً فِي الثَّوَابِ .

وَيَدْخُلُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْعِبَادَاتُ الَّتِي يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللهِ تَعَالَى ، وَسَائِرُ أَعْمَالِ الْبِرِّ

الَّتِي تُرْضِيهِ بِمَا لَهَا مِنَ التَّأْثِيرِ فِي صَلَاحِ الْبَشَرِ كَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ ، وَإِكْرَامِ الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ . وَمِنْ أُصُولِهِ الْوَصَايَا الْجَامِعَةُ فِي آيَاتِ سُورَةِ الْإِسْرَاءِ :

(259/356)

(وَقَضَى رَبُّكَ) إلَى قَوْلِهِ : (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ) (17 : 23 - 39) إلَخْ وَهِيَ أَجْمَعُ وَأَعْظَمُ مِنَ الْوَصَايَا الْعَشْرِ الَّتِي فِي التَّوْرَاةِ . وَآيَاتُ سُورَةِ الْأَنْعَامِ : (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) (6 : 151) إلَخْ . وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَنْفَعُ النَّاسَ مِنَ الْحَثِّ عَلَى الْفَضَائِلِ ، وَالزَّجْرِ عَنِ الرَّذَائِلِ وَالْمَعَاصِي الضَّارَّةِ بِالْأَبْدَانِ وَالْأَمْوَالِ وَالْأَعْرَاضِ وَالْعُقُولِ وَالْأَدْيَانِ ، وَمَثَارُهَا الْأَكْبَرُ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطَاعَةُ وَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ . وَيُضَمِّدُهُمَا مَلَكَةُ التَّقْوَى ، فَهِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِمَا يَقِي النَّفْسَ مِنْ كُلِّ مَا يُدَنِّسُهَا وَتَسُوءُ بِهِ عَاقِبَتُهَا فِي الدُّنْيَا أَوِ الْآخِرَةِ وَلِهَذَا تُذْكَرُ فِي الْمَسَائِلِ الدِّينِيَّةِ وَالزَّوْجِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ وَغَيْرِهَا وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي (ص 538 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ) وَلَا حَاجَةَ إلَى التَّطْوِيلِ بِالشَّوَاهِدِ عَلَى مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْهَا .

(260/356)

وَسُنَّةُ الْقُرْآنِ فِي الْإِرْشَادِ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ بَيَانُ أُصُولِهَا وَمَجَامِعِهَا ، وَتَكْرَارُ التَّذْكِيرِ بِهَا بِالْإِجْمَالِ ، وَأَكْثَرُ مَا يَحُثُّ عَلَيْهِ مِنَ الْعِبَادَاتِ الصَّلَاةُ الَّتِي هِيَ الْعِبَادَةُ الرُّوحِيَّةُ الْعُلْيَا وَالِاجْتِمَاعِيَّةُ الْمُثْلَى ، وَالزَّكَاةُ الَّتِي هِيَ الْعِبَادَةُ الْمَالِيَّةُ الِاجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى ، كَرَّرَ الْأَمْرَ بِهِمَا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ وَبَيَّنَ أَهَمَّ مَنَافِعِهِمَا بِقَوْلِهِ : (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ) (29 : 45) وَقَوْلِهِ : (إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ) (70 : 19 – 26) الْآيَاتِ ، وَقَوْلِهِ : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (9 : 103) .

وَلَمْ يُكَرِّرْ مَا يُحْفَظُ بِالْعَمَلِ وَالِاقْتِدَاءِ بِالرَّسُولِ مِنْ أَحْكَامِ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ بَلْ لَمْ يَذْكُرْ مِنْهَا إِلَّا لِمَا لِذِكْرِهِ فَائِدَةٌ خَاصَّةٌ ، وَذُكِرَتْ فِيهِ أَحْكَامُ الصِّيَامِ فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ وَلَمْ يُذْكَرْ فِيهِ عَدَدُ الرَّكَعَاتِ فِي كُلِّ صَلَاةٍ وَلَا عَدَدُ الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، وَلَا نِصَابُ الزَّكَاةِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِمَّا تَجِبُ فِيهِ ؛ لِأَنَّ كُلَّ هَذَا يُؤْخَذُ مِنْ بَيَانِ الرَّسُولِ وَيُحْفَظُ بِالْعَمَلِ ، وَلَيْسَ فِي ذِكْرِهِ تَزْكِيَةٌ لِلنَّفْسِ وَلَا تَغْذِيَةٌ لِلْإِيمَانِ .

تَرْجِيحُ فَضَائِلِ الْقُرْآنِ عَلَى فَضَائِلِ الْإِنْجِيلِ :

وَأَذْكُرُ فَضِيلَتَيْنِ مِنْ فَضَائِلِهِ يَزْعُمُ النَّصَارَى أَنَّ مَا هُوَ مَأْثُورٌ عِنْدَهُمْ فِيهَا أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ مِمَّا جَاءَ بِهِ الْإِسْلَامُ :

(الْأُولَى) قَوْلُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : (أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ بَارِكُوا لَاعِنِيكُمْ . أَحْسِنُوا إلَى مَنْ أَسَاءَ إلَيْكُمْ . وَمَنْ ضَرَبَكَ عَلَى خَدِّكَ الْأَيْمَنِ فَأَدِرْ لَهُ الْأَيْسَرَ) وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالْبَدَاهَةِ أَنَّ امْتِثَالَ هَذِهِ الْأَوَامِرِ يَتَعَذَّرُ عَلَى غَيْرِ الْأَذِلَّةِ الْمُسْتَعْبَدِينَ مِنَ النَّاسِ ، وَأَنَّهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَكْبَرِ الْمَفَاسِدِ بِإِغْرَاءِ الْأَقْوِيَاءِ بِالضُّعَفَاءِ الْخَاضِعِينَ ، وَإِنَّكَ لَتَجِدُ أُعْصَى النَّاسِ لَهَا مَنْ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ بِالْمَسِيحِيِّينَ .

أَمْثَالُ هَذِهِ الْأَوَامِرِ لَا تَأْتِي فِي دِينِ الْفِطْرَةِ الْعَامِّ ؛ لِأَنَّ امْتِثَالَهَا مِنْ غَيْرِ الْمُسْتَطَاعِ .

وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : (لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَهَا) (2 : 286) وَإِنَّمَا قَرَّرَ الْقُرْآنُ فِي مَوْضُوعِهَا الْجَمْعَ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ وَالْمَصْلَحَةِ . قَالَ تَعَالَى :

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ) (42 : 40 – 43) وَلَا يَخْفَى أَنَّ الْعَفْوَ وَالْمَغْفِرَةَ لِلْمُسِيءِ إِنَّمَا تَكُونُ مِنَ الْقَادِرِ عَلَى الِانْتِصَارِ لِنَفْسِهِ وَبِذَلِكَ يَظْهَرُ فَضْلُهُ عَلَى مَنْ عَفَا عَنْهُ ، فَيَكُونُ سَبَبًا لِاسْتِبْدَالِ الْمَوَدَّةِ بِالْعَدَاوَةِ ، فِي مَكَانِ الْإِغْرَاءِ بِالتَّعَدِّي وَدَوَامِ الظُّلْمِ ; وَلِذَلِكَ قَالَ : (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (41 : 34 ، 35) فَانْظُرْ كَيْفَ بَيَّنَ مَرَاتِبَ الْكَمَالِ وَدَرَجَاتِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْفَضْلِ . وَكَيْفَ اسْتَدَلَّ عَلَيْهِ بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصْلَحَةِ وَحُكْمِ الْعَقْلِ ، أَفَلَيْسَ هَذَا الْإِصْلَاحُ الْأَعْلَى عَلَى لِسَانِ أَفْضَلِ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْشِدِينَ ، دَلِيلًا عَلَى أَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى قَدْ أَكْمَلَ بِهِ الدِّينَ ؟ بَلَى وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَا يَجْحَدُهُ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ فَكَانَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .

(263/356)

(الثَّانِيَةُ) مُبَالَغَةُ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّزْهِيدِ فِي الدُّنْيَا وَالْأَمْرِ بِتَرْكِهَا وَذَمِّ الْغِنَى ، حَتَّى جَعَلَ دُخُولَ الْجَمَلِ فِي ثُقْبِ الْإِبْرَةِ أَيْسَرَ مِنْ دُخُولِ الْغَنِيِّ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ . وَنَقُولُ إنَّ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ وَسَابِقَتَهَا إنَّمَا كَانَتَا إصْلَاحًا مُوَقَّتًا لِإِسْرَافِ الْيَهُودِ وَغُلُوِّهِمْ فِي عِبَادَةِ الْمَالِ حَتَّى أَفْسَدَ أَخْلَاقَهُمْ وَآثَرُوا دُنْيَاهُمْ عَلَى دِينِهِمْ . وَالْغُلُوُّ يُقَاوَمُ مُوَقَّتًا بِضِدِّهِ ، وَكَذَلِكَ كَانَتْ دَوْلَةُ الرُّومَانِ السَّالِبَةِ لِاسْتِقْلَالِ الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ دَوْلَةً مُسْرِفَةً فِي الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ .

وَأَمَّا الْإِسْلَامُ فَهُوَ دِينُ الْبَشَرِ الْعَامُّ الدَّائِمُ ، فَلَا يُقَرِّرُ فِيهِ إلَّا مَا هُوَ لِمَصْلَحَةِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ . وَهُوَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ذَمَّ اسْتِعْمَالَ الْمَالِ فِيمَا يَضُرُّ مِنَ الْإِسْرَافِ

(264/356)

وَالطُّغْيَانِ وَذَمَّ أَكْلَهُ بِالْبَاطِلِ وَمَنْعَ الْحُقُوقِ الْمَفْرُوضَةِ فِيهِ ، وَالْبُخْلَ بِهِ عَنِ الْفُقَرَاءِ وَالضُّعَفَاءِ ، وَمَدَحَ أَخْذَهُ بِحَقِّهِ ، وَبَذْلَهُ فِي حَقِّهِ ، وَإِنْفَاقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَيُعِزُّ الْمِلَّةَ وَيُقَوِّي الْأُمَّةَ وَيَكُونُ عَوْنًا لَهَا عَلَى حِفْظِ حَقِيقَتِهَا وَاسْتِقْلَالِهَا - فَهَذِهِ الْمَسْأَلَةُ وَمَا قَبْلَهَا مِمَّا أَكْمَلَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الدِّينَ ، فِيمَا أَوْحَاهُ مِنْ كِتَابِهِ إلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَمَا كَانَ لِرَجُلٍ أُمِّيٍّ وَلَا مُتَعَلِّمٍ أَنْ يَصِلَ بِعَقْلِهِ إلَى أَمْثَالِ هَذَا الْإِصْلَاحِ لِتَعَالِيمِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي يَتَعَبَّدُ بِهَا الْمَلَايِينُ مِنَ الْبَشَرِ وَلِكُتُبِ الْحُكَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ أَيْضًا ، فَهَلِ الْأَقْرَبُ إلَى الْعَقْلِ

أَنْ يَكُونَ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمْ مِنْ نَفْسِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ ! .

وَعَلَى ذِكْرِ الْفَلَاسِفَةِ أَذْكُرُ شُبْهَةً لِمُقَلِّدَتِهِمْ عَلَى الْفَضَائِلِ وَأَعْمَالِ الْخَيْرِ الدِّينِيَّةِ ، يَلُوكُونَهَا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَلَا يَعْقِلُونَ فَسَادَهَا ، وَهِيَ أَنَّ الْكَمَالَ الْبَشَرِيَّ أَنْ يَعْمَلَ الْإِنْسَانُ الْخَيْرَ لِذَاتِهِ أَوْ لِأَنَّهُ خَيْرٌ لَا لِعِلَّةٍ ، وَيَعُدُّونَ مِنْ أَكْبَرِ الْعِلَلِ أَنْ يَعْمَلَهُ رَجَاءً فِي ثَوَابِ الْآخِرَةِ أَوْ خَوْفًا مِنْ عِقَابِهَا ، وَمَعْنَى هَذَا إِنْ كَانُوا يَفْقَهُونَ أَنَّ مَنْ يَقْصِدُ بِعَمَلِ الْخَيْرِ وَالْبِرِّ مَا أَرْشَدَ إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ مِنْ تَزْكِيَةِ نَفْسِهِ

(265/356)

وَتَرْقِيَةِ رُوحِهِ بِحَيْثُ تَكُونُ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ذِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ الْأَعْلَى – وَأَهْلًا لِجِوَارِهِ فِي دَارِ كَرَامَتِهِ يَكُونُ نَاقِصًا وَإِنَّمَا يَكُونُ كَامِلًا إِذَا خَرَجَ عَنْ طَبْعِهِ ، وَقَصَدَ النَّفْعَ بِعَمَلِهِ لِغَيْرِهِ دُونَ نَفْسِهِ ، وَدُونَ إِرْضَاءِ رَبِّهِ وَمَنْ ذَا الَّذِي يَحِدُّ حَقِيقَةَ هَذَا الْخَيْرِ لِلْبَشَرِ وَيَحْمِلُهُمْ عَلَيْهِ ؟

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ أَرْكَانَ الدِّينِ ثَلَاثَةٌ مَأْثُورَةٌ عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ الْقَدِيمَةِ ، وَذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ أَصْلَهَا وَاحِدٌ وَهُوَ الْوَحْيُ وَهِدَايَةُ الرُّسُلِ ، وَأَنَّهُ كَانَ قَدْ دَبَّ إِلَيْهَا الْفَسَادُ بِتَعَالِيمِ الْوَثَنِيَّةِ وَبِدَعِهَا ، فَجَاءَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ بِهَذَا الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى ، فَأَصْلَحَ مَا كَانَ مِنْ

فَسَادِهَا الَّذِي جَعَلَهَا غَيْرَ كَافِلَةٍ لِسَعَادَةِ الْبَشَرِ الْآخِذِينَ بِهَا ، مِنْ شَوْبِ الْإِيمَانِ بِاللهِ بِالشِّرْكِ وَالتَّشْبِيهِ بِالْخَلْقِ ، وَجَعَلَ الْجَزَاءَ بِالْمُحَابَاةِ وَالْفِدَاءِ ، لَا بِالْحَقِّ وَالْعَدْلِ ، وَجَعَلَ الْعِبَادَاتِ تَقَالِيدَ كَاللَّعِبِ وَاللَّهْوِ ، غَيْرَ مُثْمِرَةٍ لِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ ، وَلَا رَاجِحَةً فِي مِيزَانِ الْعَقْلِ ، وَعِبَادَاتُ الْإِسْلَامِ وَآدَابُهُ كُلُّهَا مَعْقُولَةٌ مُكَمِّلَةٌ لِفِطْرَةِ الْإِنْسَانِ .

(266/356)

وَإِنَّنَا نُقَفِّي عَلَى هَذَا بِبَيَانِ الْقُرْآنِ لِمَا جَعَلَهُ الْبَشَرُ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَوَظَائِفِ الرُّسُلِ ، ثُمَّ نَعُودُ إِلَى بَيَانِ مَا فِي وَحْيِ الْقُرْآنِ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِصْلَاحِ الْعَامِّ الدَّائِمِ لِلْبَشَرِ ، الدَّالِّ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا مِنْ مَعَارِفِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – النَّابِعَةِ مِنْ نَفْسِهِ .

الْمَقْصِدُ الثَّانِي مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ

(بَيَانُ مَا جَهِلَ الْبَشَرُ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ وَوَظَائِفِ الرُّسُلِ)

(267/356)

كَانَتِ الْعَرَبُ تُنْكِرُ الْوَحْيَ وَالرِّسَالَةَ إِلَّا أَفْرَادًا مِنْ بَقَايَا الْحُنَفَاءِ فِي الْحِجَازِ وَغَيْرِهِ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ لِمُجَاوَرَتِهِ لِأَهْلِهِمَا وَقَلِيلٌ مَا هُمْ . وَكَانَتْ شُبْهَةُ مُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى الْوَحْيِ اسْتِبْعَادَ اخْتِصَاصِ اللهِ تَعَالَى بَعْضَ الْبَشَرِ بِهَذَا التَّفْضِيلِ عَلَى سَائِرِهِمْ ، وَهُمْ مُتَسَاوُونَ فِي الصِّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ بِزَعْمِهِمْ ، وَيَقْرُبُ مِنْهُمُ الْيَهُودُ الَّذِينَ أَنْكَرُوا أَنْ يُخْتَصَّ تَعَالَى بِهَذِهِ الرَّحْمَةِ وَالْمِنَّةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأَوْجَبُوا عَلَيْهِ أَنْ يَحْصُرَ النُّبُوَّةَ فِي شَعْبِ إِسْرَائِيلَ وَحْدَهُ ، كَأَنَّ بَقِيَّةَ الْبَشَرِ لَيْسُوا مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ مَا أَعْطَاهُ لِلْيَهُودِ مِنْ هِدَايَةِ النُّبُوَّةِ . عَلَى أَنَّهُمْ وَصَفُوا الْأَنْبِيَاءَ بِالْكَذِبِ وَالْخِدَاعِ وَالِاحْتِيَالِ عَلَى اللهِ وَمُصَارَعَتِهِ وَارْتِكَابِ كَبَائِرِ الْمَعَاصِي كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ ، وَوَافَقَهُمُ النَّصَارَى عَلَى حَصْرِ النُّبُوَّةِ فِيهِمْ ، وَأَثْبَتُوا قَدَاسَةَ غَيْرِ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ رُسُلِ الْمَسِيحِ وَغَيْرِهِمْ وَعَبَدُوهُمْ أَيْضًا ، عَلَى أَنَّهُمْ نَقَلُوا عَنْ بَعْضِ خَوَاصِّ تَلَامِيذِهِ إِنْكَارَهُ إِيَّاهُ فِي وَقْتِ الشِّدَّةِ ، وَعَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ أَسْلَمَهُ لِأَعْدَائِهِ ، وَأَنَّهُ قَالَ لَهُمْ : (كُلُّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ ، وَاتَّخَذَ كُلٌّ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ وَقُسُوسَهُمْ أَرْبَابًا

(268/356)

مِنْ دُونِ اللهِ تَعَالَى ، بِأَنْ نَحَلُوهُمْ حَقَّ التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ مِنْ وَضْعِ الْعِبَادَاتِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ ، وَكُلُّ ذَلِكَ مِنَ الْكُفْرِ بِاللهِ وَإِنْكَارِ عَدْلِهِ ، وَعُمُومِ رَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ وَمُفْسِدَاتِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ وَجَعْلِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ مِنْهُ مُسْتَعْبَدًا لِأَفْرَادٍ مِنْ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ ، فَأَبْطَلَ اللهُ تَعَالَى كُلَّ ذَلِكَ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنْ كِتَابِهِ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَأَثْبَتَ بَعْثَةَ الرُّسُلِ وَالْمُنْذِرِينَ لِجَمِيعِ شُعُوبِهِ بِقَوْلِهِ : (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ) (16 : 36) وَقَوْلِهِ : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) (35 : 24) وَكَرَّمَ الْإِنْسَانَ بِجَعْلِ التَّشْرِيعِ الدِّينِيِّ مِنْ حُقُوقِ اللهِ وَحْدَهُ . وَإِنَّمَا النَّبِيُّونَ وَالرُّسُلُ مُبَلِّغُونَ عَنْهُ وَلَيْسُوا بِمُسَيْطِرِينَ عَلَى الْأَقْوَامِ ، وَطَاعَتُهُمْ تَابِعَةٌ لِطَاعَتِهِ ، فَقَدْ أَبْطَلَ مَا نَحَلَهُمُ النَّاسُ مِنْ رُبُوبِيَّةِ التَّشْرِيعِ ، كَمَا أَبْطَلَ عِبَادَتَهُمْ وَعِبَادَةَ مَنْ دُونَهُمْ مِنَ الْقِدِّيسِينَ ، وَبِذَلِكَ تَحَرَّرَ الْإِنْسَانُ مِنَ الرِّقِّ الرُّوحِيِّ وَالْعَقْلِيِّ الَّذِي مُنِيَتْ بِهِ الْأُمَمُ الْمُتَدَيِّنَةُ وَلَا سِيَّمَا النَّصَارَى .

(269/356)

وَضَلَالِ جَمِيعِ أَهْلِ الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ فِي ذَلِكَ ، كَرَّرَ هَذَا الْإِصْلَاحَ فِي كَثِيرٍ مِنَ السُّوَرِ بِالتَّصْرِيحِ بِأَنَّ الرُّسُلَ بَشَرٌ مِثْلُ سَائِرِ الْبَشَرِ يُوحَى إِلَيْهِمْ ، وَبِأَنَّهُمْ لَيْسُوا إِلَّا مُبَلِّغِينَ لِدِينِ اللهِ تَعَالَى

الْمُوحَى إِلَيْهِمْ ، قَالَ تَعَالَى لِخَاتَمِهِمُ الْمُكَمِّلِ لِدِينِهِمْ فِي خَاتِمَةِ سُورَةِ الْكَهْفِ : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ) (18 : 110) الْآيَةَ . وَقَالَ فِي جُمْلَتِهِمْ مِنْ وَسَطِهَا : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) (18 : 56) وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ (6 : 48) وَفِي مَعْنَاهُمَا آيَاتٌ أُخْرَى . بَعَثَهُمْ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ وَالتَّنْفِيذِ ، وَبِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِلنَّاسِ وَلَا لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ، وَلَا هِدَايَةً وَلَا نَجَاةً مِنَ الْعِقَابِ عَلَى مُخَالَفَةِ شَرْعِ اللهِ وَسُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ . وَقَدْ شَرَحْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 188) وَسَيَأْتِي نَظِيرُهَا فِي الْآيَةِ 49 مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ الَّتِي نُفَسِّرُهَا ، وَقَدْ بَيَّنَ ذَلِكَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِأَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ فِي الْعُبُودِيَّةِ وَالتَّوَاضُعِ بِمَا لَا يَدَعُ لِتَأْوِيلِ الْآيَاتِ سَبِيلًا حَتَّى فَطِنَ لِذَلِكَ بَعْضُ

(270/356)

عُلَمَاءِ الْإِفْرِنْجِ الْأَحْرَارِ فَقَالَ : إِنَّ مُحَمَّدًا لَمَّا رَأَى خِزْيَ النَّصَارَى بِتَأْلِيهِ نَبِيِّهِمْ وَعِبَادَتِهِ ، لَمْ يَكْتَفِ بِتَلْقِيبِ نَفْسِهِ بِرَسُولِ اللهِ ، حَتَّى أَمَرَهُمْ بِأَنْ يَقُولُوا : (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ

أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) .

وَأَمَّا مَسْأَلَةُ الشَّفَاعَةِ الَّتِي كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يُثْبِتُونَهَا لِمَعْبُودَاتِهِمْ فِي الدُّنْيَا ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ يُثْبِتُونَهَا لِأَنْبِيَائِهِمْ وَقِدِّيسِيهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، فَقَدْ نَفَاهَا الْقُرْآنُ وَأَبْطَلَهَا ، وَأَثْبَتَ أَنَّ الشَّفَاعَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ، وَأَنَّهُ لَا يَشْفَعُ عِنْدَهُ أَحَدٌ إلَّا بِإِذْنِهِ (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إنِّي إلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ) (21 : 28 ، 29) وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهِ مِرَارًا (مِنْهُ أَنَّ الشَّفَاعَةَ الثَّابِتَةَ فِي الْأَحَادِيثِ غَيْرُ الشَّفَاعَةِ الْوَثَنِيَّةِ الْمَنْفِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ) . وَكَرَّرَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ دُونَ تَكْرَارِ مَا قَبْلَهَا لِأَنَّهَا فَرْعٌ لَهَا فَالْإِقْنَاعُ بِهَا أَسْهَلُ .

(271/356)

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ بَيَّنَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ الَّتِي ضَلَّ فِيهَا الْمَلَايِينُ مِنَ الْبَشَرِ ، فَأَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، فَهَلْ كَانَ هَذَا مِمَّا اسْتَمَدَّهُ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنْ عُلَمَاءِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَجَادُوا بِهِ عَلَيْهِ وَبَخِلُوا بِهِ عَلَى أَقْوَامِهِمْ ؟ أَمْ هُوَ نَابِعٌ مِنْ نَفْسِهِ ، وَهُوَ يَقْتَضِي أَنَّ مَا يَنْبُعُ مِنْهَا أَعْلَى مِنْ وَحْيِ اللَّهِ لِغَيْرِهِ عَلَى حَسَبِ دَعْوَى أَتْبَاعِ هَؤُلَاءِ الرُّسُلِ ؟

كَلَّا إِنَّمَا هِيَ مِنْ وَحْيِ اللهِ تَعَالَى لَهُ :

الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ الرُّسُلِ وَعَدَمِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ :

وَمِمَّا بَيَّنَهُ الْقُرْآنُ فِي مَسْأَلَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالرُّسُلِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِجَمِيعِ رُسُلِ اللهِ تَعَالَى ، وَعَدَمِ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِبَعْضِهِمْ وَالْكُفْرِ بِبَعْضٍ كَالْكُفْرِ بِهِمْ كُلِّهِمْ ؛ لِأَنَّ إِضَافَتَهُمْ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَحْدَهُ . وَوَظِيفَتُهُمْ فِي إِرْشَادِ الْمُكَلَّفِينَ تَبْلِيغُ رِسَالَتِهِ وَشَرْعِهِ وَاحِدَةٌ .

قَالَ تَعَالَى فِي خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ) (2 : 285) وَبَيَّنَ فِي سُورَةِ النِّسَاءِ أَنَّ التَّفْرِقَةَ بَيْنَهُمْ فِي الْإِيمَانِ هُوَ الْكُفْرُ حَقُّ الْكُفْرِ ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ بِالْجَمِيعِ بِغَيْرِ تَفْرِقَةٍ هُوَ الْإِيمَانُ حَقُّ الْإِيمَانِ ، وَهُوَ فِي الْآيَاتِ (4 : 150 - 152) .

(272/356)

وَهَذَا مَبْنِيٌّ عَلَى الْإِيمَانِ بِأَنَّ دِينَ اللهِ تَعَالَى الَّذِي أَرْسَلَ بِهِ جَمِيعَ رُسُلِهِ وَاحِدٌ فِي مَقَاصِدِهِ مِنْ هِدَايَةِ الْبَشَرِ وَإِصْلَاحِهِمْ ، وَإِعْدَادِهِمْ لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنَّمَا تَخْتَلِفُ صُوَرُ الْعِبَادَاتِ وَالشَّرَائِعِ بِاخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ الْأَقْوَامِ وَمُقْتَضَيَاتِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ . فَالْإِيمَانُ بِبَعْضِهِمْ دُونَ بَعْضٍ اتِّبَاعٌ لِلْهَوَى فِي الْإِيمَانِ ، وَجَهْلٌ بِحَقِيقَةِ الدِّينِ ، فَلَا يُعْتَدُّ بِهِ لِأَنَّهُ عَيْنُ

الْكُفْرِ .

وَقَدِ انْفَرَدَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَادِلَةِ الْمُسْلِمُونَ دُونَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا بِأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَبِيهِمْ وَجَدِّهِمْ عَلَى مَا يَذْكُرُونَ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ عُيُوبٍ وَمُنْكَرَاتٍ وَفَوَاحِشَ يَرْمُونَهُمْ بِهَا .

وَأَمَّا الْمُسْلِمُونَ فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ أَرْسَلَ فِي كُلِّ الْأُمَمِ رُسُلًا هَادِينَ مَهْدِيِّينَ ، يُؤْمِنُونَ بِهِمْ إِجْمَالًا وَبِمَا قَصَّهُ الْقُرْآنُ عَنْ بَعْضِهِمْ تَفْصِيلًا ، فَقَدْ كَرَّمَ الْإِسْلَامُ بِهَذَا نَوْعَ الْإِنْسَانِ ، وَمَهَّدَ بِهِ السَّبِيلَ لِلْأُلْفَةِ وَالْأُخُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي نُبَيِّنُهَا بَعْدُ .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ وَبِنَصِّ الْقُرْآنِ ، أَنَّ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ بِتَخْصِيصِ

(273/356)

اللهِ تَعَالَى ، وَبِمَا كَانَ لِكُلٍّ مِنْ نَفْعِ الْعِبَادِ وَهِدَايَتِهِمْ وَهِيَ مُتَفَاوِتَةٌ جِدًّا . قَالَ اللهُ تَعَالَى : (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ) (2 : 253) .

وَمِنَ الْمَعْلُومِ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْلِيَّةِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ الَّذِي أَكْمَلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَأَرْسَلَهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ، هُوَ الَّذِي رَفَعَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ كُلِّهِمْ دَرَجَاتٍ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ تِلْكَ

الْآيَةِ بِالْإِجْمَالِ وَفَصَّلْنَاهُ فِي هَذَا الْبَحْثِ أَقْصَدَ التَّفْصِيلِ .

وَإِنَّكَ لَتَجِدُ مَعَ هَذَا أَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ لِأَتْبَاعِهِ : (لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ) قَالَهُ إنْكَارًا عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَطَمَ يَهُودِيًّا لِأَنَّهُ قَالَ : لَا وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْبَشَرِ . فَشَكَاهُ إلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَغَضِبَ غَضَبًا شَدِيدًا عَلَى صَاحِبِهِ الْمُسْلِمِ وَقَالَهُ .

(274/356)

وَبَيَّنَ مَزِيَّةً لِمُوسَى عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي الْآخِرَةِ ، ثُمَّ قَالَ : (وَلَا أَقُولُ إنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى) وَالْحَدِيثُ رَوَاهُ الشَّيْخَانِ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، وَفِي رِوَايَاتٍ أُخْرَى لِلْبُخَارِيِّ : (لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ) وَفِي بَعْضِهَا (لَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى) وَالْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ مَنْعُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ تَنْقِيصِ أَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَمِنَ التَّعَادِي بَيْنَ النَّاسِ ، وَمِنَ الْغُلُوِّ فِيهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، وَإِلَّا فَهُوَ قَدْ قَالَ فِي تَعْلِيلِ نَهْيِهِ عَنْ سُؤَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ : (وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ مَا حَلَّ لَهُ إلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي) رَوَاهُ أَبُو يَعْلَى مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ .

فَصْلٌ فِي الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الَّتِي أَيَّدَ اللَّهُ بِهَا رُسُلَهُ

(وَمَا يُشْبِهُ بَعْضَهَا مِنَ الْكَرَامَاتِ ، وَمَا يُشْتَبَهُ بِهَا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَضَلَالِ الْمَادِّيِّينَ وَالْخُرَافِيِّينَ فِيهَا)

(275/356)

تَكَلَّمْنَا فِي الْقِسْمِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْحَدِيثِ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي تُسَمِّيهَا النَّصَارَى بِالْعَجَائِبِ ، وَيُسَمِّيهَا عُلَمَاءُ الْكَلَامِ مِنَّا بِالْمُعْجِزَاتِ ، وَيَعُدُّونَهَا قِسْمًا مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ الَّتِي جَعَلُوهَا عِدَّةَ أَقْسَامٍ ، وَنَقُولُ هُنَا كَلِمَةً وَجِيزَةً فِي إِصْلَاحِ الْإِسْلَامِ لِضَلَالِ الْبَشَرِ فِيهَا ، وَالصُّعُودِ بِهِمْ أَعْلَى مَرَاقِي الْإِيمَانِ ، اللَّائِقِ بِطَوْرِ الرُّشْدِ الْعَقْلِيِّ لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَالْعِلْمِ الْوَاسِعِ بِسُنَنِ الْأَكْوَانِ ، الَّذِي مَنَحُوهُ بِرِسَالَةِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - ، فَنَقُولُ :

آيَاتُ اللهِ نَوْعَانِ :

آيَاتُ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ نَوْعَانِ : (النَّوْعُ الْأَوَّلُ) الْآيَاتُ الْجَارِيَةُ عَلَى سُنَنِهِ تَعَالَى فِي نِظَامِ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ ، وَهِيَ أَكْثَرُهَا وَأَظْهَرُهَا وَأَدَلُّهَا عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَإِحَاطَةِ عِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ ، وَسَعَةِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ . (وَالنَّوْعُ الثَّانِي) الْآيَاتُ الْجَارِيَةُ عَلَى خِلَافِ السُّنَنِ

(276/356)

الْمَعْرُوفَةِ لِلْبَشَرِ وَهِيَ أَقَلُّهَا ، وَرُبَّمَا كَانَتْ أَدَلَّهَا عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ عَلَى اخْتِيَارِهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمِيعِ مَا خَلَقَ وَمَا يَخْلُقُ ، وَكَوْنِ قُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ غَيْرَ مُقَيَّدَتَيْنِ بِسُنَنِ الْخَلْقِ الَّتِي قَامَ بِهَا نِظَامُ الْكَوْنِ ، فَالسُّنَنُ مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ وَإِتْقَانِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَقَدْ يَأْتِي بِمَا يُخَالِفُهَا لِحِكْمَةٍ أُخْرَى مِنْ حِكَمِهِ الْبَالِغَةِ ، وَلَوْلَا هَذَا الِاخْتِيَارُ لَكَانَ الْعَالَمُ كَالْآلَاتِ الَّتِي تَتَحَرَّكُ بِنِظَامٍ دَقِيقٍ لَا عِلْمَ لَهَا وَلَا إِرَادَةَ وَلَا اخْتِيَارَ فِيهِ . كَآلَةِ السَّاعَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تُعْرَفُ بِهَا أَوْقَاتُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَآلَاتِ الْبَوَاخِرِ وَالْمَعَامِلِ الْكَثِيرَةِ ، وَالْمَادِّيُّونَ الْمُنْكِرُونَ لِوُجُودِ الْخَالِقِ وَالْفَلَاسِفَةُ الَّذِينَ يُسَمُّونَهُ الْعِلَّةَ الْفَاعِلَةَ لِلْوُجُودِ يُعَبِّرُونَ عَنْ هَذَا النِّظَامِ بِنَظَرِيَّةِ (الْمِيكَانِيكِيَّةِ) وَهُمْ يَتَكَلَّفُونَ اخْتِرَاعَ الْعِلَلِ

وَالْأَسْبَابِ لِكُلِّ مَا يَرَوْنَهُ مُخَالِفًا لِسُنَنِهِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَيُسَمُّونَ هَذِهِ الْأُمُورَ الْمُخَالِفَةَ لَهَا بِفَلَتَاتِ الطَّبِيعَةِ ، وَيَقِيسُونَ مَا لَمْ يَظْهَرْ لَهُمْ تَعْلِيلُهُ عَلَى مَا اقْتَنَعُوا بِتَعْلِيلِهِ وَإِنْ لَمْ يَقُمْ عَلَيْهِ دَلِيلٌ يُثْبِتُهُ ، وَيَقُولُونَ : إِنَّ مَا لَمْ يَظْهَرْ لَنَا الْيَوْمَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَظْهَرَ لَنَا أَوْ لِمَنْ بَعْدَنَا غَدًا .

سُنَنُ اللهِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَعَالَمِ الْغَيْبِ :

وَنَحْنُ مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِعَالَمِ الْغَيْبِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ جُنْدُ اللهِ الْأَكْبَرُ ، وَمَا لَهُمْ مِنَ التَّأْثِيرِ وَالتَّدْبِيرِ فِي عَالَمِ الشَّهَادَةِ الْمَادِّيِّ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى وَتَسْخِيرِهِ ، نَعْتَقِدُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى سُنَنًا فِي نِظَامِ ذَلِكَ الْعَالَمِ غَيْرَ سُنَنِهِ الْخَاصَّةِ بِعَالَمِ الْمَادَّةِ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ هُوَ حَلْقَةُ الِاتِّصَالِ بَيْنَ الْعَالَمَيْنِ .

فَجَسَدُهُ وَوَظَائِفُهُ الْحَيَوِيَّةُ مِنْ عَالَمِ الشَّهَادَةِ ، وَرُوحُهُ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَإِنَّهُ مَا دَامَ فِي عَالَمِ الْجَسَدِ الْمَادِّيِّ ، فَإِنَّ جَمِيعَ مَدَارِكِهِ تَكُونُ مَشْغُولَةً مِنَ الْمَادَّةِ وَسُنَنِهَا وَحَاجَاتِهِ الشَّخْصِيَّةِ وَالنَّوْعِيَّةِ مِنْهَا بِمَا يَحْجُبُهُ عَنْ عَالَمِ الرُّوحِ الْغَيْبِيِّ حَتَّى رُوحِهِ الْمُتَمِّمِ لِحَقِيقَتِهِ . وَإِنَّمَا يَكُونُ الظُّهُورُ وَالسُّلْطَانُ لِلرُّوحِ عَلَى الْجَسَدِ فِي الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ ، إِلَّا مَنِ اصْطَفَى اللهُ تَعَالَى مِنْ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، فَأَعَدَّهُمْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ لِلِاتِّصَالِ بِمَلَائِكَتِهِ وَالتَّلَقِّي عَنْهُمْ ، وَأَظْهَرَهُمْ عَلَى مَا شَاءَ مِنْ غَيْبِهِ لِيُبَلِّغُوا عِبَادَهُ عَنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ .

الْغَيْبُ قِسْمَانِ حَقِيقِيٌّ وَإِضَافِيٌّ :

(278/356)

الْغَيْبُ مَا غَابَ عِلْمُهُ عَنِ النَّاسِ ، وَهُوَ قِسْمَانِ : غَيْبٌ حَقِيقِيٌّ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ ، وَغَيْبٌ إِضَافِيٌّ يَعْلَمُهُ بَعْضُ الْخَلْقِ دُونَ بَعْضٍ ؛ لِأَسْبَابٍ تَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الِاسْتِعْدَادِ الْفِطْرِيِّ

وَالْعَمَلِ الْكَسْبِيِّ ، وَمَنْ أَظْهَرَهُ اللهُ عَلَى بَعْضِ الْغَيْبِ الْحَقِيقِيِّ مِنْ رُسُلِهِ فَلَيْسَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ كَسْبٌ ؛ لِأَنَّهُ مِنْ خَصَائِصِ النُّبُوَّةِ غَيْرِ الْمُكْتَسَبَةِ .

وَمِنْ دُونِهِمْ أَفْرَادٌ مِنْ خَوَاصِّ أَتْبَاعِهِمْ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْإِشْرَافِ عَلَى ذَلِكَ الْعَالَمِ بِانْكِشَافِ مَا لِلْحِجَابِ ، وَإِدْرَاكِ مَا لِشَيْءٍ مِنْ تِلْكَ الْأَنْوَارِ ، كَانَ بِهَا إِيمَانُهُمْ بِرُسُلِهِمْ فَوْقَ إِيمَانِ أَهْلِ الْبُرْهَانِ ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ أَنَّهُ قَالَ : لَوْ كُشِفَ الْحِجَابُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينًا .

وَمِنْ دُونِ هَؤُلَاءِ أَفْرَادٌ آخَرُونَ ، قَدْ يَكُونُ مَنْ لَهُمْ سَلَامَةُ الْفِطْرَةِ ، أَوْ مُعَالَجَةُ النَّفْسِ بِأَنْوَاعٍ مِنَ الرِّيَاضَةِ أَوْ مِنْ طُرُوءِ مَرَضٍ يَصْرِفُ قُوَى النَّفْسِ عَنِ الِاهْتِمَامِ بِشَهَوَاتِ الْجَسَدِ ، أَوْ مِنْ سُلْطَانِ إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ عَلَى إِرَادَةٍ ضَعِيفَةٍ ، تَصْرِفُهَا عَنْ حِسِّهَا ، وَتُوَجِّهُ قُوَاهَا النَّفْسِيَّةَ إِلَى مَا شَاءَتْ أَنْ تُدْرِكَهُ لِقُوَّتِهَا الْخَاصَّةِ بِهَا – قَدْ يَكُونُ لِهَؤُلَاءِ الْأَفْرَادِ فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ مِنْ قُوَّةِ الرُّوحِ مَا يَلْمَحُونَ بِهِ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ أَوِ الْأَشْخَاصِ الْبَعِيدَةِ عَنْهُمْ ، وَتَتَمَثَّلُ لَهُمْ بَعْضُ الْأُمُورِ قَبْلَ وُقُوعِهَا مُرْتَسِمَةً فِي خَيَالِهِمْ ، فَيُخْبِرُونَ بِهَا فَتَقَعُ كَمَا أَخْبَرُوا .

(279/356)

الْخَوَارِقُ الْحَقِيقِيَّةُ وَالصُّورِيَّةُ عِنْدَ الْأُمَمِ :

إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي تَأْتِي فِي الظَّاهِرِ عَلَى غَيْرِ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ ، أَوِ الْخَارِقَةِ لِلْعَادَاتِ الْمَأْلُوفَةِ مَنْقُولَةٌ عَنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ فِي جَمِيعِ الْعُصُورِ نَقْلًا مُتَوَاتِرًا فِي جِنْسِهِ دُونَ أَفْرَادِ وَقَائِعِهِ وَلَيْسَتْ كُلُّهَا خَوَارِقَ حَقِيقِيَّةً ، فَإِنَّ مِنْهَا مَا لَهُ أَسْبَابٌ مَجْهُولَةٌ لِلْجُمْهُورِ ، وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا هُوَ صِنَاعِيٌّ يُسْتَفَادُ بِتَعْلِيمٍ خَاصٍّ ، وَإِنَّ مِنْهَا لِمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ قُوَى النَّفْسِ وَتَأْثِيرِ أَقْوِيَاءِ الْإِرَادَةِ ، فِي ضُعَفَائِهَا وَيَدْخُلُ فِي هَذَيْنِ الْمُكَاشَفَةُ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ ، وَالتَّنْوِيمُ الْمِغْنَاطِيسِيُّ ، وَشِفَاءُ بَعْضِ الْمَرْضَى وَلَا سِيَّمَا الْمُصَابِينَ بِالْأَمْرَاضِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي يُؤَثِّرُ فِيهَا الِاعْتِقَادُ وَالْوَهْمُ ، وَمِنْهَا بَعْضُ أَنْوَاعِ الْعَمَى وَالْفَالِجِ ، فَإِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَفْقِدُ بَصَرَهُ بِمَرَضٍ يَطْرَأُ عَلَى أَعْصَابِ عَيْنَيْهِ وَهُمَا صَحِيحَتَانِ تَلْمَعَانِ فِي وَجْهِهِ ، أَوْ يَغْشَاهُمَا بَيَاضٌ عَارِضٌ مَعَ بَقَاءِ طَبَقَاتِهِمَا صَحِيحَةً . وَلَيْسَ مِنْهُ الْكَمَهُ وَالْعَمَى الَّذِي يَقَعُ بِطَمْسِ الْعَيْنَيْنِ وَغُؤُورِهِمَا كَالَّذِي أَبْرَأَهُ الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى . وَقَدْ بَيَّنَّا هَذِهِ الْأَنْوَاعَ مِنَ الْخَوَارِقِ الصُّورِيَّةِ فِي بَحْثِ السِّحْرِ مِنْ تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ ، وَفِي الْمَقَالَاتِ الَّتِي عَقَدْنَاهَا لِلْكَرَامَاتِ وَأَنْوَاعِهَا وَتَعْلِيلِهَا فِي الْمُجَلَّدِ الثَّانِي مِنَ الْمَنَارِ وَأَتْمَمْنَاهَا فِي الْمُجَلَّدِ السَّادِسِ مِنْهُ .

(280/356)

إِنَّ عَوَامَّ الشُّعُوبِ الَّذِينَ يَجْهَلُونَ تَوَارِيخَ الْأُمَمِ ، وَمَا وُجِدَ عِنْدَ كُلٍّ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِبِ ، وَمَا كَشَفَهُ الْعُلَمَاءُ مِنْ حِيَلٍ فِيهَا وَعِلَلٍ ، يَغْتَرُّونَ بِمَا عِنْدَهُمْ مِنْهَا ، وَيَخْضَعُونَ لِلدَّجَّالِينَ وَالْمُحْتَالِينَ الَّذِينَ يَنْتَحِلُونَهَا ، وَيُمَكِّنُونَهُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَيَسْلُبُونَهَا ، وَيَأْتَمِنُونَهُمْ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ فَيَنْتَهِكُونَهَا ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانُوا يَأْتُونَ مَا يَأْتُونَ مِنْهَا عَلَى أَنَّهُ مِنْ كَرَامَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَعَجَائِبِ الْقِدِّيسِينَ ، وَيَقِلُّ تَصْدِيقُ هَذَا وَالِانْقِيَادُ لِأَهْلِهِ حَيْثُ يَنْتَشِرُ تَعْلِيمُ التَّوَارِيخِ وَمَا عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ مِنْ ذَلِكَ

عَلَى أَنَّهُ لَا يَزَالُ كَثِيرًا فِي جَمِيعِ بِلَادِ أُورُبَّةَ وَأَمْرِيكَةَ ، وَلَعَلَّهُ دُونَ مَا فِي بِلَادِ الشَّرْقِ وَلَا سِيَّمَا الْقُرَى وَهَمَجِ الزُّنُوجِ وَغَيْرِهِمْ .

(281/356)

بَيْدَ أَنَّ آيَاتِ اللهِ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي نُسَمِّيهَا الْمُعْجِزَاتِ ، هِيَ فَوْقَ هَذِهِ الْأَعْمَالِ الصِّنَاعِيَّةِ الْغَرِيبَةِ لَا كَسْبَ لِأَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ وَلَا صُنْعَ لَهُمْ فِيهَا ، وَإِنَّمَا أَيَّدَ بِهِ رُسُلَهُ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ بِكَسْبِهِمْ وَلَا عَمَلِهِمْ وَلَا تَأْثِيرِهِمْ حَتَّى مَا يَكُونُ بَدْؤُهُ بِحَرَكَةٍ إِرَادِيَّةٍ يَأْمُرُهُمُ اللهُ تَعَالَى بِهَا ، أَلَمْ يَهْدِ لَكَ كَيْفَ خَافَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ تَحَوَّلَتْ عَصَاهُ حَيَّةً تَسْعَى ، فَوَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ لِشِدَّةِ خَوْفِهِ مِنْهَا ، حَتَّى هَدَّأَ اللهُ رَوْعَهُ وَأَمَّنَ خَوْفَهُ ؟ أَوَلَمْ تَقْرَأْ قَوْلَهُ لِمُحَمَّدٍ –

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى) (8 : 17) ؟ أَوَلَمْ تَفْهَمْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُجِيبَ مُقْتَرِحِي الْآيَاتِ عَلَيْهِ مِنْ قَوْمِهِ بِقَوْلِهِ : (قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (17 : 93) وَقَوْلِهِ : (قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ) (29 : 50) وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا .

(282/356)

جَهِلَ هَذَا الْأَصْلَ الْمُحْكَمَ مِنْ عَقَائِدِ الْإِسْلَامِ أَدْعِيَاءُ الْعِلْمِ مِنْ سَدَنَةِ الْقُبُورِ الْمَعْبُودَةِ وَغَيْرِهِمْ فَظَنُّوا أَنَّ الْمُعْجِزَاتِ وَالْكَرَامَاتِ أُمُورٌ كَسَبِيَّةٌ كَالصِّنَاعَاتِ الْعَادِيَّةِ ، وَأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ يَفْعَلُونَهَا بِاخْتِيَارِهِمْ فِي حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِمْ مَتَى شَاءُوا ، وَيُغْرُونَ النَّاسَ بِإِتْيَانِ قُبُورِهِمْ وَلَوْ بِشَدِّ الرِّحَالِ إِلَيْهَا لِدُعَائِهِمْ وَالِاسْتِغَاثَةِ بِهِمْ عِنْدَ نُزُولِ الْبَلَاءِ وَالشَّدَائِدِ ، الَّتِي يَعْجِزُونَ عَنْ دَفْعِهَا بِكَسْبِهِمْ وَكَسْبِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْبَشَرِ بِالْأَسْبَابِ الْعَادِيَّةِ كَالْأَطِبَّاءِ مَثَلًا ، وَبِالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِمْ بِالنُّذُورِ وَالْقَرَابِينِ كَمَا كَانَ الْمُشْرِكُونَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى آلِهَتِهِمْ مِنَ الْأَصْنَامِ وَغَيْرِهَا ، وَهُمْ يَأْكُلُونَهَا سُحْتًا حَرَامًا ، وَيُخْبِرُونَهُمْ بِأَنَّ دِينَ اللَّهِ تَعَالَى يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَعْتَقِدُوا أَنَّهُمْ يَقْضُونَ حَوَائِجَهُمْ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ بِأَجْسَادِهِمْ وَيَتَوَلَّوْنَ قَضَاءَ الْحَاجَاتِ ، وَكَشْفَ الْكُرُبَاتِ ، وَلَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ لَمَا كَانَتْ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ ،

وَقَالَ بَعْضُهُمْ فِي كِتَابٍ مَطْبُوعٍ : إِنَّ فُلَانًا مِنَ الْأَقْطَابِ يُمِيتُ وَيُحْيِي ، وَيُسْعِدُ وَيُشْقِي ، وَيُفْقِرُ وَيُغْنِي .

الْفَرْقُ بَيْنَ الْمُعْجِزَةِ وَالْكَرَامَةِ :

(283/356)

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُؤَيِّدْ رُسُلَهُ بِمَا أَيَّدَهُمْ بِهِ مِنَ الْمُعْجِزَاتِ إِلَّا لِتَكُونَ حُجَّةً لَهُمْ عَلَى أَقْوَامِهِمْ يَهْدِي بِهَا الْمُسْتَعِدَّ لِلْهِدَايَةِ ، وَتَحِقُّ بِهَا الْكَلِمَةُ عَلَى الْجَاحِدِينَ الْمُعَانِدِينَ فَتَقَعُ عَلَيْهِمُ الْعُقُوبَةُ ، وَذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا بِإِظْهَارِهَا ، فَهُوَ وَاجِبٌ لِإِتْمَامِ تَبْلِيغِ الدَّعْوَةِ الَّتِي أُرْسِلُوا لِتَبْلِيغِهَا ، وَمَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ يَدْعُونَ اللَّهَ تَعَالَى بِشَيْءٍ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ غَيْرِ حُجَّةِ الرِّسَالَةِ إِلَّا لِضَرُورَةٍ كَالِاسْتِسْقَاءِ وَكَانَ خَاتَمُهُمْ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى يَصْبِرُ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ وَأَصْحَابُهُ عَلَى الْمَرَضِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ ، وَلَا يَدْعُو لَهُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِمَا يُزِيلُ ذَلِكَ إِلَّا نَادِرًا ، وَقَدْ سَأَلَتْهُ الْمَرْأَةُ الَّتِي كَانَتْ تُصْرَعُ أَنْ يَدْعُوَ اللَّهَ لَهَا بِالشِّفَاءِ فَأَرْشَدَهَا إِلَى أَنَّ الصَّبْرَ عَلَى مُصِيبَتِهَا خَيْرٌ لَهَا . فَشَكَتْ إِلَيْهِ أَنَّهَا تَتَكَشَّفُ عِنْدَ النَّوْبَةِ وَأَنْ يَدْعُوَ لَهَا أَلَّا تَتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا وَاسْتَجَابَ اللَّهُ دُعَاءَهُ .

وَالْأَصْلُ فِي الْكَرَامَةِ الْإِخْفَاءُ وَالْكِتْمَانُ ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ ظُهُورُهَا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ، وَمَا كَانَ

أَهْلُهَا يُظْهِرُونَ مَا لَهُمْ كَسْبٌ فِيهِ مِنْهَا كَالْمُكَاشِفَةِ إلَّا لِضَرُورَةٍ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذَا الْعُلَمَاءُ وَالصُّوفِيَّةُ فَهُوَ مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ بَيْنَهُمْ خِلَافًا لِلْمَشْهُورِ بَيْنَ الْعَامَّةِ .

(284/356)

قَالَ التَّاجُ السُّبْكِيُّ فِي سِيَاقِ حُجَجِ مُنْكِرِي جَوَازِ وُقُوعِ الْكَرَامَاتِ مِنْ طَبَقَاتِ الشَّافِعِيَّةِ :

(الْحُجَّةُ الثَّانِيَةُ) قَالُوا : لَوْ جَازَتِ الْكَرَامَةُ لَاشْتَبَهَتْ بِالْمُعْجِزَةِ ، فَلَا تَدُلُّ الْمُعْجِزَةُ عَلَى ثُبُوتِ النُّبُوَّةِ . وَالْجَوَابُ : مَنْعُ الِاشْتِبَاهِ ، بِقَرْنِ الْمُعْجِزَةِ بِدَعْوَى النُّبُوَّةِ ، دُونَ الْكَرَامَةِ فَهِيَ إنَّمَا تَقْتَرِنُ بِكَمَالِ اتِّبَاعِ النَّبِيِّ مِنَ الْوَلِيِّ - وَأَيْضًا فَالْمُعْجِزَةُ يَجِبُ عَلَى صَاحِبِهَا الِاشْتِهَارُ ، وَالْكَرَامَةُ مَبْنَاهَا عَلَى الْإِخْفَاءِ ، وَلَا تَظْهَرُ إلَّا عَلَى النُّدْرَةِ وَالْخُصُوصِ ، لَا عَلَى الْكَثْرَةِ وَالْعُمُومِ ، وَأَيْضًا فَالْمُعْجِزَةُ يَجُوزُ أَنْ تَقَعَ بِجَمِيعِ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَالْكَرَامَةُ تَخْتَصُّ بِبَعْضِهَا ، كَمَا بَيَّنَّاهُ مِنْ كَلَامِ الْقُشَيْرِيِّ وَهُوَ الصَّحِيحُ اهـ . ثُمَّ قَالَ :

(الْحُجَّةُ الرَّابِعَةُ) قَالُوا : لَوْ جَازَ ظُهُورُ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ عَلَى أَيْدِي الصَّالِحِينَ لَمَا أَمْكَنَ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ الْأَنْبِيَاءِ بِظُهُورِهَا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، لِجَوَازِ أَنْ تَظْهَرَ عَلَى يَدِ الْوَلِيِّ سِرًّا ، فَإِنَّ مِنْ أُصُولِ مُعْظَمِ جَمَاعَتِكُمْ أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ لَا يُظْهِرُونَ الْكَرَامَاتِ وَلَا يَدْعُونَ بِهَا ، وَإِنَّمَا تَظْهَرُ سِرًّا وَرَاءَ سُتُورٍ ، وَيَتَخَصَّصُ بِالِاطِّلَاعِ عَلَيْهَا آحَادُ النَّاسِ ،

وَيَكُونُ ظُهُورُهَا سِرًّا مُسْتَمِرًّا بِحَيْثُ لَا يَلْتَحِقُ بِحُكْمِ الْمُعْتَادِ ، فَإِذَا ظَهَرَ نَبِيٌّ وَتَحَدَّى بِمُعْجِزَةٍ ، جَازَ أَنْ تَكُونَ مِمَّا اعْتَادَهُ أَوْلِيَاءُ عَصْرِهِ مِنَ الْكَرَامَاتِ فَلَا يَتَحَقَّقُ فِي حَقِّهِ خَرْقُ الْعَادَةِ ، فَكَيْفَ السَّبِيلُ إلَى تَصْدِيقِهِ مَعَ عَدَمِ تَحَقُّقِ خَرْقِ الْعَوَائِدِ فِي حَقِّهِ ؟ وَأَيْضًا تَكَرُّرُ الْكَرَامَةِ يُلْحِقُهَا بِالْمُعْتَادِ فِي حَقِّ الْأَوْلِيَاءِ ، وَذَلِكَ يَصُدُّهُمْ عَنْ تَصْحِيحِ النَّظَرِ فِي الْمُعْجِزَةِ إذَا ظَهَرَ نَبِيٌّ فِي زَمَنِهِمْ)

وَقَالَ فِي الْجَوَابِ : لِأَئِمَّتِنَا وَجْهَانِ الْأَوَّلُ مَنْعُ تَوَالِي الْكَرَامَاتِ وَاسْتِمْرَارُهَا حَتَّى تَصِيرَ فِي حُكْمِ الْعَوَائِدِ ، وَإِنَّمَا يَجُوزُ ظُهُورُهَا عَلَى وَجْهٍ لَا تَصِيرُ عَادَةً فَلَا يَلْزَمُ مَا ذَكَرُوهُ وَالثَّانِي – وَهُوَ لِمُعْظَمِ أَئِمَّتِنَا – قَالُوا : إنَّهُ يَجُوزُ تَوَالِي الْكَرَامَاتِ عَلَى وَجْهِ الِاخْتِفَاءِ بِحَيْثُ لَا يَظْهَرُ وَلَا يَشِيعُ وَلَا يُعْتَادُ ، لِئَلَّا تَخْرُجَ الْكَرَامَاتُ عَنْ كَوْنِهَا كَرَامَاتٍ . انْتَهَى مِنْ مُجَلَّدِ الْمَنَارِ الثَّانِي .

وَأَقُولُ : إِنَّ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الصُّوفِيَّةِ يُوَافِقُونَ عُلَمَاءَ الْكَلَامِ وَالْأُصُولِ عَلَى مَنْعِ تَوَالِي الْكَرَامَاتِ وَتَكْرَارِهَا ، وَمَنْعِ إِظْهَارِهَا ، وَقَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ بْنُ عَرَبِيٍّ : إِنَّ مَا يَتَكَرَّرُ لَا يَكُونُ كَرَامَةً لِأَنَّهُ يَكُونُ عَادَةً ، وَإِنَّمَا الْكَرَامَةُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَقَالَ الشَّيْخُ أَحْمَدُ الرِّفَاعِيُّ إِنَّ الْأَوْلِيَاءَ يَسْتَتِرُونَ مِنَ الْكَرَامَةِ كَمَا تَسْتَتِرُ الْمَرْأَةُ مِنْ دَمِ الْحَيْضِ ، فَأَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالُ مِمَّا عَلَيْهِ الدَّجَّالُونَ الْخُرَافِيُّونَ وَسَدَنَةُ الْقُبُورِ الْمُعْتَقِدَةُ مِنْ زَعْمِهِمْ أَنَّ الْكَرَامَةَ الْوَاحِدَةَ تَتَكَرَّرُ لِأَوْلِيَاءَ كَثِيرِينَ مِنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ مِرَارًا كَثِيرَةً وَكُلُّهَا ظَاهِرَةٌ ذَائِعَةٌ شَائِعَةٌ ، بَلْ صِنَاعَةٌ ذَاتُ بِضَاعَةٍ رَابِحَةٍ ؟

الْكَافِرُونَ بِالْآيَاتِ صِنْفَانِ . مُكَذِّبُونَ وَمُشْرِكُونَ ، وَعِلَاجُ كُلٍّ مِنْهُمَا :

(287/356)

الْكَافِرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى صِنْفَانِ : صِنْفٌ يُكَذِّبُهَا كُلَّهَا وَلَا يُؤْمِنُونَ بِشَيْءٍ مِنْهَا ، وَصِنْفٌ يُشْرِكُ بِاللَّهِ غَيْرَهُ فِيهَا ، فَيَنْحَلُهُ مَا هُوَ خَاصٌّ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ سِوَاهُ ، وَيُشَرِّعُ لِلنَّاسِ أَنْ يَعْبُدُوا هَؤُلَاءِ الْأَغْيَارَ بِدُعَائِهِمْ مِنْ دُونِهِ ، وَاسْتِغَاثَتِهِمْ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ ، بِدَعْوَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُمُ الْقُدْرَةَ الْغَيْبِيَّةَ عَلَى ذَلِكَ لِمَحَبَّتِهِ لَهُمْ وَجَاهِهِمْ عِنْدَهُ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي أَشْرَكَهُمْ مَعَهُ فَأَعْطَاهُمْ هَذَا التَّصَرُّفَ فِي عِبَادِهِ ، وَإِنَّمَا

يَتَحَامَوْنَ أَلْفَاظَ الْعِبَادَةِ وَالشِّرْكِ وَالْخَلْقِ دُونَ مَعَانِيهَا ، فَيَكْذِبُونَ عَلَى اللهِ تَعَالَى وَعَلَيْهِمْ بِمَا يُكَذِّبُهُمْ بِهِ كِتَابُهُ الْمُنَزَّلُ ، وَنَبِيُّهُ الْمُرْسَلُ ، وَلَكِنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ آيَاتِ الْكِتَابِ فَيَحْتَجُّونَ بِهَا عَلَى جَهْلِهِمْ ، فَيَذْكُرُونَ أَنَّ اللهَ كَانَ يَرْزُقُ مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ، وَمَا كَانَ رِزْقُهَا مِنْ فِعْلِهَا ، وَلَا يَدْرِي أَحَدٌ كَيْفَ سَخَّرَهُ اللهُ لَهَا ، وَرُوِيَ أَنَّهُ كَانَ بِتَسْخِيرِ بَعْضِ النَّاسِ لَهَا ، وَوَحْيِهِ إِلَى أُمِّ مُوسَى وَمَا هُوَ مِنْ فِعْلِهَا . وَقَدْ قِيلَ بِنُبُوَّتِهَا .

(288/356)

وَإِنَّ إِفْسَادَ هَؤُلَاءِ الْخُرَافِيِّينَ لِلْبَشَرِ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ لَأَشَدُّ مِنْ إِفْسَادِ الْمُنْكِرِينَ لِلْآيَاتِ الْمُكَذِّبِينَ بِهَا ، بِأَنَّهُمْ أَكْبَرُ أَسْبَابِ هَذَا الْإِنْكَارِ وَالتَّكْذِيبِ بِزَعْمِهِمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ يَتَصَرَّفُونَ فِي الْخَلْقِ بِمَا يُخَالِفُ سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِيهِ ، أَوْ يُبَدِّلُهَا بِغَيْرِهَا وَيُحَوِّلُهَا عَمَّا وُضِعَتْ لَهُ . وَزَعْمُهُمْ أَنَّ اللهَ هُوَ الَّذِي دَعَا النَّاسَ إِلَى هَذَا الِاعْتِقَادِ وَجَعَلَهُ أَسَاسَ دِينِهِ ، فَكَذَّبُوا بِالدِّينِ مِنْ أَسَاسِهِ ، فَتَكُونُ فِتْنَتُهُمْ شَامِلَةً لِفَرِيقَيِ الْكُفَّارِ بِالْآيَاتِ – فَرِيقِ الْمُكَذِّبِينَ وَفَرِيقِ الْمُشْرِكِينَ وَهُوَ مَعَ هَذَا قَوْلٌ عَلَى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، وَافْتِرَاءٌ عَلَى اللهِ بِكَوْنِهِ شَرْعًا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ ، وَهُوَ أَشَدُّ أَنْوَاعِ الْكُفْرِ بِاللهِ ؛ لِأَنَّ ضَرَرَهُ مُتَعَدٍّ بِمَا فِيهِ مِنْ إِضْلَالِ

النَّاسِ باعْتِقَادٍ بَاطِلٍ يَتْبَعُهُ عِبَادَةٌ بَاطِلَةٌ غَيْرُ مَشْرُوعَةٍ .

عِلَاجُ خُرَافَةِ تَصَرُّفِ الْأَوْلِيَاءِ فِي الْكَوْنِ :

(289/356)

أَمَّا الَّذِينَ يُشْرِكُونَ بِاللهِ فِي عِبَادَتِهِ بِجَهْلِهِمْ لِآيَاتِهِ ، وَتَقْلِيدِ أَمْثَالِهِمْ مِنَ الْجَاهِلِينَ فِي خُرَافَاتِهِمْ فَلَا عِلَاجَ لَهُمْ إِلَّا تَعْلِيمُهُمْ تَوْحِيدَ اللهِ الْخَالِصَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَأُلُوهِيَّتِهِ بِآيَاتِ الْقُرْآنِ ، دُونَ نَظَرِيَّاتِ كُتُبِ الْكَلَامِ ، وَتَعْلِيمُهُمْ وَظَائِفَ الرُّسُلِ وَكَوْنَهُمْ بَشَرًا ، اخْتَصَّهُمُ اللهُ تَعَالَى بِوَحْيِهِ لِتَبْلِيغِ عِبَادِهِ مَا ارْتَضَاهُ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَحَصْرِ اخْتِصَاصِهِمْ بِالتَّعْلِيمِ وَالْإِرْشَادِ تَبْشِيرًا وَإِنْذَارًا وَتَنْفِيذِ أَحْكَامِ شَرْعِهِ فِيهِمْ بِالْعَدْلِ وَالْمُسَاوَاةِ ، وَلَمْ يُؤْتِهِمْ مِنَ التَّصَرُّفِ الْفِعْلِيِّ فِي خَلْقِهِ مَا يَقْدِرُونَ بِهِ عَلَى هِدَايَةِ أَقْرَبِ النَّاسِ وَأَحَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ بِالطَّبْعِ كَالْوَالِدِ وَالْوَلَدِ وَالزَّوْجَةِ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ أُولِي الْقُرْبَى ، فَوَالِدُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَاشَ كَافِرًا وَمَاتَ كَافِرًا عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَخَلِيلِهِ وَوَلَدُ نُوحٍ

أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأُمَمِ مَاتَ كَافِرًا وَلَمْ يَأْذَنِ اللهُ تَعَالَى لَهُ بِحَمْلِهِ فِي السَّفِينَةِ فَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْمُغْرَقِينَ ، وَكَانَ أَبُو لَهَبٍ عَمُّ مُحَمَّدٍ حَبِيبِ اللهِ وَرَسُولِهِ أَشَدَّ أَعْدَائِهِ الصَّادِّينَ عَنْهُ الْمُؤْذِينَ لَهُ ، وَأَنْزَلَ اللهُ فِي ذَمِّهِ وَوَعِيدِهِ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ يَتَعَبَّدُ بِهَا

الْمُؤْمِنُونَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَمْ يَنْزِلْ مِثْلُهَا فِي أَحَدٍ مِنْ أَعْدَائِهِ وَأَعْدَاءِ رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، بَلْ كَانَ مِنْ كَمَالِ حِكْمَةِ اللهِ تَعَالَى أَنَّ عَمَّهُ الَّذِي كَفَلَهُ وَرَبَّاهُ وَكَفَّ عَنْهُ أَذَى الْمُشْرِكِينَ مَا اسْتَطَاعَ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ ، وَقَدْ عَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) لِيَشْهَدَ لَهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَامْتَنَعَ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِيهِ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا هَذَا الْمَوْضُوعَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ) (6 : 74) الْآيَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَّا فِي خُلَاصَةِ هَذِهِ السُّورَةِ (الْأَنْعَامِ) وَظَائِفَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِمَا يَحْسُنُ أَنْ يُرَاجِعَهُ مَنْ يُحِبُّ اسْتِيفَاءَ هَذَا الْمَوْضُوعِ وَإِذَا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ الْمُرْسَلُونَ لَمْ يُؤْتُوا الْقُدْرَةَ عَلَى التَّصَرُّفِ فِي الْكَوْنِ فَكَيْفَ يُؤْتَاهُ الْأَوْلِيَاءُ وَغَيْرُهُمْ ؟

الْمُنْكِرُونَ لِلْمُعْجِزَاتِ وَشُبْهَةُ الْخَوَارِقِ الْكَسْبِيَّةِ عَلَيْهَا :

وَأَمَّا الْمُنْكِرُونَ لَهَا فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَقُومَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ إلَّا بِالْقُرْآنِ كَمَا تَقَدَّمَ فَهُمْ لَا يُصَدِّقُونَ مَا يَنْقُلُهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى مِنْ آيَاتِ مُوسَى وَعِيسَى وَغَيْرِهَا مِنَ النَّبِيِّينَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وَلَا يُسَلِّمُونَ صِحَّةَ تَوَاتُرِهَا ، إذْ يَقِيسُونَ نَقْلَهُمْ لَهَا عَلَى مَا يَنْقُلُهُ الْعَوَامُّ فِي كُلِّ عَصْرٍ عَنْ بَعْضِ الْمُعْتَقِدِينَ فِي بِلَادِهِمْ مِنَ الْخَوَارِقِ الْخَادِعَةِ الَّتِي مَثَارُهَا الْوَهْمُ وَالتَّخَيُّلُ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ يُوسِيفُوسَ الْمُؤَرِّخَ الْيَهُودِيَّ الْمُعَاصِرَ لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يَنْقُلْ لِلنَّاسِ أَخْبَارَ عَجَائِبِهِ الَّتِي تَقُصُّهَا الْأَنَاجِيلُ الَّتِي أُلِّفَتْ بَعْدَهُ ، وَيُعَلِّلُونَهَا عَلَى تَقْدِيرِ صِحَّةِ النَّقْلِ بِمَا يُعَلِّلُونَ بِهِ الْخَوَارِقَ الصُّورِيَّةَ الَّتِي يُشَاهِدُونَهَا فِي كُلِّ عَصْرٍ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِيعُوا تَعْلِيلَهَا قَالُوا : إنَّهُ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ سَبَبٍ كَسْبِيٍّ يَظْهَرُ لَنَا أَوْ يَعْتَرِفُ بِهِ فَاعِلُوهَا ، كَمَا وَقَعَ فِي أَمْثَالِهَا مِنْ صُوفِيَّةِ الْهِنْدُوسِ (الْفُقَرَاءِ) كَالِارْتِفَاعِ فِي الْهَوَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ أَغْرَبُ مِنْهُ .

رَوَتْ إحْدَى الْجَرَائِدِ الْمِصْرِيَّةِ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ مِنْ أَخْبَارِ سَائِحِي الْإِفْرِنْجِ فِي الْهِنْدِ حَادِثَةً لِفَقِيرٍ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ اسْمُهُ سَارَجُوهَا رَدْيَاسْ وَقَعَتْ فِي سَنَةِ 1837 ، وَخُلَاصَتُهَا أَنَّ هَذَا الْفَقِيرَ جَاءَ قَصْرَ الْمَهَرَاجَا رَانْجِيتْ سَنْجَا أَمِيرِ بَنْجَابَ وَعَرَضَ

عَلَيْهِ أَنْ يُرِيَهُ بَعْضَ كَرَامَاتِهِ ، وَكَانَ الْمَهَرَاجَا لَا يُصَدِّقُ مَا يُنْقَلُ مِنْ خَوَارِقِ هَؤُلَاءِ الْفُقَرَاءِ ، فَسَأَلَهُ عَمَّا يُرِيدُ

إِظْهَارَهُ فَقَالَ : إِنَّهُ يُدْفَنُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا ثُمَّ يَعُودُ إِلَيْهِمْ حَيًّا ، فَأَحْضَرَ الْمَهَرَاجَا نَفَرًا مِنْ أَطِبَّاءِ الْإِنْكِلِيزِ وَالْفَرَنْسِيسِ وَأُمَرَاءِ بَنْجَابَ ، فَجَلَسَ الْفَقِيرُ الْقُرْفُصَاءَ أَمَامَهُمْ فَكَفَّنُوهُ بَعْدَ أَنْ وَضَعُوا الْقُطْنَ وَالشَّمْعَ عَلَى أُذُنَيْهِ وَأَنْفِهِ - كَمَا أَوْصَاهُمْ - وَخَاطُوا عَلَيْهِ الْكَفَنَ وَوَضَعُوهُ فِي صُنْدُوقٍ مِنَ الْخَشَبِ السَّمِيكِ وَسَمَّرُوا غِطَاءَهُ وَوَضَعَ الْمَهَرَاجَا عَلَيْهِ خِتْمَهُ ، وَدَفَنُوهُ فِي قَبْوٍ دَاخِلَ حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ وَأَقْفَلُوا بَابَهَا وَوَضَعَ الْمَهَرَاجَا خِتْمَهُ بِالشَّمْعِ عَلَى قُفْلِهَا ، وَأَمَرَ اثْنَيْنِ مِنْ رِجَالِ حَرَسِهِ الْأُمَنَاءِ بِحِرَاسَتِهَا وَطَائِفَةً مِنْ جُنْدِهِ بِمُعَاوَنَتِهِمَا ، وَكَانَ ذَلِكَ كُلُّهُ بِمَشْهَدِ مَنْ حَضَرَ مِنَ الْأُورُبِّيِّينَ وَالْبَنْجَابِيِّينَ وَحَاشِيَةِ الْمَهَرَاجَا .

وَلَمَّا تَمَّتِ الْأَرْبَعُونَ حَضَرَ هَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ قَصْرَ الْمَهَرَاجَا وَشَاهَدُوا خِتْمَ الْحُجْرَةِ كَمَا كَانَ ، وَالْعُشْبَ أَمَامَهَا فِي الْحَدِيقَةِ لَمْ تَطَأْهُ قَدَمُ أَحَدٍ ، ثُمَّ فَتَحُوا بَابَ الْحُجْرَةِ وَامْتَحَنُوا أَخْتَامَ الْقَبْوِ ثُمَّ أَخْرَجُوا الصُّنْدُوقَ وَامْتَحَنُوا أَخْتَامَهُ فَوَجَدُوهَا كُلَّهَا عَلَى حَالِهَا ، فَفَتَحُوهُ ، وَأَخْرَجُوا الْفَقِيرَ مِنْهُ فَإِذَا هُوَ كَمَا وَصَفَهُ أَحَدُ أُولَئِكَ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ . قَالَ :

لَمَّا فَتَحُوا الصُّنْدُوقَ وَأَخْرَجُوا الْفَقِيرَ مِنْهُ وَجَدْتُ الذِّرَاعَيْنِ وَالسَّاقَيْنِ صُلْبَةً وَالرَّأْسَ مَائِلًا عَلَى إِحْدَى الْكَتِفَيْنِ ، فَخِلْتُنِي أَمَامَ جُثَّةٍ هَامِدَةٍ فَارَقَتْهَا الْحَيَاةُ مُنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ ، فَطَلَبْتُ مِنْ طَبِيبِي أَنْ يَفْحَصَهَا فَانْحَنَى عَلَيْهَا وَجَسَّ الْقَلْبَ وَالصُّدْغَيْنِ وَالذِّرَاعَيْنِ وَقَالَ : إِنَّهُ لَمْ يَجِدْ أَثَرًا لِلنَّبْضِ أَلْبَتَّةَ ، وَلَكِنَّهُ شَعَرَ بِحَرَارَةٍ فِي مِنْطَقَةِ الدِّمَاغِ إِلَخْ .

ثُمَّ نَفَّذَ مَا أَوْصَى الْفَقِيرُ أَنْ يُعْمَلَ بَعْدَ إِخْرَاجِهِ ، فَغَسَلَ الْجِسْمَ بِالْمَاءِ الْحَارِّ فَرَدَّ عَلَى الْأَوْصَالِ لِينَهَا السَّابِقَ بِالتَّدْرِيجِ ، وَأُزِيلَ الْقُطْنُ وَالشَّمْعُ عَنِ الْأُذُنَيْنِ وَالْأَنْفِ وَوُضِعَتْ أَكْيَاسٌ دَافِئَةٌ عَلَى الرَّأْسِ فَدَبَّتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ الْمُسَجَّى ، وَتَقَلَّصَتِ الْأَعْصَابُ وَالْأَطْرَافُ ثُمَّ اضْطَرَبَتْ فَسَالَ مِنْهَا عَرَقٌ غَزِيرٌ وَعَادَتِ الْأَعْضَاءُ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى ، وَبَعْدَ دَقَائِقَ اتَّسَعَتْ حَدَقَتَا الْعَيْنَيْنِ وَعَادَ إِلَيْهِمَا لَوْنُهُمَا الطَّبِيعِيُّ ، فَلَمَّا رَأَى الْفَقِيرُ الْمَهَرَاجَا شَاخِصًا إِلَيْهِ دَهِشًا مُتَحَيِّرًا قَالَ لَهُ : (أَرَأَيْتَ يَا مَوْلَايَ صِدْقَ قَوْلِي وَفِعْلِي ؟ وَبَعْدَ نِصْفِ سَاعَةٍ خَرَجَ مِنَ التَّابُوتِ وَأَنْشَأَ يُحَدِّثُ الْحَاضِرِينَ أَحْسَنَ حَدِيثٍ وَيُطْرِفُهُمْ بِمَا يُحَيِّرُ الْعُقُولَ .اهـ .

(294/356)

إِنَّ هَذِهِ الْحَادِثَةَ مِنْ آيَاتِ اللهِ الَّتِي أَظْهَرَتْهَا الرِّيَاضَةُ الْمُكْتَسَبَةُ ، وَهِيَ أَعْجَبُ مِنْ رِوَايَةِ الْإِنْجِيلِ لِمَوْتِ لِيعَازَرَ ثُمَّ حَيَاتِهِ بِدُعَاءِ الْمَسِيحِ بَعْدَ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَحْثِ عَجَائِبِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَغْرَبُ مِنْ حَادِثَةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ أَيْضًا مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ فَإِنَّ الْفَقِيرَ الْهِنْدِيَّ قَدْ سُدَّ أَنْفُهُ وَلُفَّ فِي كَفَنٍ وَوُضِعَ فِي تَابُوتٍ دُفِنَ تَحْتَ الْأَرْضِ ، فَحِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْهَوَاءِ الَّذِي لَا يَعِيشُ أَحَدٌ بِدُونِهِ عَادَةً ، وَأَهْلُ الْكَهْفِ نَامُوا فِي فَجْوَةٍ وَاسِعَةٍ مِنْ كَهْفٍ بَابُهُ إِلَى الشِّمَالِ ، مَهَبِّ الْهَوَاءِ اللَّطِيفِ ، وَكَانَتِ الشَّمْسُ تُصِيبُ مَدْخَلَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ عِنْدَ شُرُوقِهَا وَعِنْدَ غُرُوبِهَا مَائِلَةً

مُتَزَاوِرَةً عَنْهُمْ ، فَتُلَطِّفُ هَوَاءَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تُصِيبُهُمْ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَكْبَرُ الْغَرَابَةِ فِي نَوْمِهِمْ طُولَ مُدَّةِ لُبْثِهِمْ فِيهِ وَكَانَتْ طَوِيلَةً جِدًّا حَتَّى عَلَى نَقْلِ الْبَيْضَاوِيِّ وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : (وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ) (18 : 25) الْآيَةَ - حِكَايَةٌ عَنْ بَعْضِ الْمُخْتَلِفِينَ فِي أَمْرِهِمْ ، فَإِنْ كَانَ خِلَافَ ظَاهِرِ السِّيَاقِ فَقَدْ يُقَوِّيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ بَعْدَهَا : (قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا) (18 : 26) وَاللهُ أَعْلَمُ بِكُلِّ حَالٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَإِنْ خَفِيَ سِرُّ آيَاتِهِ عَلَى خَلْقِهِ ، وَلَا شَيْءَ مِنَ الْأَمْرَيْنِ بِمُحَالٍ . وَقَدْ نَامَ بَعْضُ أَهْلِ الْعَصْرِ بِمَرَضِ النَّوْمِ عِدَّةَ أَشْهُرٍ .

(295/356)

وَلَكِنْ مَا جَرَى لِلْفَقِيرِ الْهِنْدِيِّ مُخَالِفٌ لِسُنَّةِ الْحَيَاةِ الْعَامَّةِ فِي النَّاسِ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ وَقَعَ بِطَرِيقَةٍ كَسَبِيَّةٍ مِنْ طَرَائِقِ رِيَاضَةِ هَؤُلَاءِ الصُّوفِيَّةِ لِأَبْدَانِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ بِمَا تَبْقَى بِهِ الْحَيَاةُ كَامِنَةً فِي أَجْسَادِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ ، مَعَ انْتِفَاءِ أَسْبَابِهَا الْعَامَّةِ فِي أَحْوَالِ النَّاسِ الِاعْتِيَادِيَّةِ مِنْ دَوْرَةِ الدَّمِ وَالنَّفَسِ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، فَلَا وَجْهَ لِاتِّخَاذِ أَحَدٍ مِنَ الْعُقَلَاءِ إِنْكَارَ كُلِّ مَا يُخَالِفُ السُّنَنَ الْعَامَّةَ قَاعِدَةً عَامَّةً وَلَا سِيَّمَا فِعْلِ الْخَالِقِ عَزَّ وَجَلَّ لَهَا وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ ، وَوَاضِعُ نِظَامِ السُّنَنِ وَالْأَسْبَابِ بِمَشِيئَتِهِ ، وَأَكْثَرُ مُنْكِرِي الْخَوَارِقِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ وُقُوعَ شَيْءٍ مُخَالِفٍ لِسُنَنِهِ بِأَنَّهُ مُنَافٍ لِحِكْمَتِهِ ، وَمَنْ ذَا الَّذِي أَحَاطَ بِحِكَمِهِ أَوْ بِسُنَنِهِ عِلْمًا ؟ وَإِنَّمَا الَّذِي يَقْضِي بِهِ الْعَقْلُ أَلَّا نُصَدِّقَ بِوُقُوعِ شَيْءٍ عَلَى خِلَافِ السُّنَنِ الثَّابِتَةِ الْمُطَّرِدَةِ فِي نِظَامِ الْأَسْبَابِ الْعَامَّةِ إِلَّا إِذَا ثَبَتَ ثُبُوتًا قَطْعِيًّا لَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَ ، وَهَذَا هُوَ الْمُعْتَمَدُ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَعُلَمَاءِ الْمَادَّةِ وَعُلَمَاءِ النَّفْسِ وَغَيْرِهِمْ ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي هَذَا الْعَصْرِ مِنْ خَوَاصِّ

الْكَهْرَبَاءِ وَغَيْرِهَا مَا لَوْ قِيلَ لِعُقَلَاءِ النَّاسِ وَحُكَمَائِهِ قَبْلَ ثُبُوتِهِ بِالْفِعْلِ إِنَّهُ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ ، لَحَكَمُوا عَلَى مُدَّعِي إِمْكَانِهِ بِالْجُنُونِ لَا بِتَصْدِيقِ الْخُرَافَاتِ ، كَمَا قُلْنَا مِنْ قَبْلُ .

الْفَرْقُ بَيْنَ الْخَوَارِقِ الْكَسْبِيَّةِ وَالْحَقِيقِيَّةِ :

(297/356)

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّ أَسْرَارَ هَذَا الْكَوْنِ لَا يُحِيطُ بِهَا إِلَّا خَالِقُهُ عَزَّ وَجَلَّ – وَأَنَّهُ قَدْ وُجِدَ فِي كُلِّ عَصْرٍ وَقَائِعُ غَرِيبَةٌ تُعَدُّ مِنْ هَذِهِ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ عَلَى غَيْرِ نِظَامِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ فِي الْخَلْقِ ، بِحَسَبِ مَا يَتَرَاءَى لِلْجُمْهُورِ بَادِيَ الرَّأْيِ ، وَإِنَّ مَا يَتَنَاقَلُهُ الْجُمْهُورُ الْمُولَعُ بِالْغَرَائِبِ مِنْهَا – مِنْهُ مَا هُوَ كَذِبٌ مَحْضٌ ، وَمِنْهُ مَا لَهُ أَسْبَابٌ عِلْمِيَّةٌ أَوْ صِنَاعِيَّةٌ خَفِيَّةٌ يَجْهَلُهَا الْأَكْثَرُونَ ، وَمِنْهُ مَا يُظَنُّ أَنَّهُ مِنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ وَلَيْسَ مِنْهَا ، وَمِنْهُ مَا سَبَبُهُ الْوَهْمُ كَشِفَاءِ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ ، أَوِ انْخِدَاعِ الْبَصَرِ بِالتَّخْيِيلِ الَّذِي يَحْذِقُهُ الْمُشَعْوِذُونَ ، وَمِنْهُ مَا فَعَلَهُ سَحَرَةُ فِرْعَوْنَ الْمُبَيَّنُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى) (20 : 66) وَمِنْهُ انْخِدَاعُ السَّمْعِ كَالَّذِي يَفْعَلُهُ الَّذِينَ يَدَّعُونَ اسْتِخْدَامَ الْجِنِّ ، إِذْ يَتَكَلَّمُونَ لَيْلًا بِأَصْوَاتٍ غَرِيبَةٍ غَيْرِ أَصْوَاتِهِمُ الْمُعْتَادَةِ فَيَظُنُّ مُصَدِّقُهُمْ أَنَّ ذَلِكَ صَوْتُ الْجِنِّيِّ ، وَقَدْ يَتَكَلَّمُونَ نَهَارًا مِنْ بُطُونِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُحَرِّكُوا شِفَاهَهُمْ ، فَلَا يُوثَقُ بِشَيْءٍ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَلَا مِنْ

نَقْلِهِمْ – وَمِنَ الدَّلَائِلِ عَلَى كَذِبِ الْمُنْتَحِلِينَ

لِهَذِهِ الْغَرَائِبِ أَنَّهُمْ جَعَلُوهَا وَسِيلَةً لِمَعَايِشِهِمُ الدِّنِيئَةِ ، وَأَنَّهُمْ لَوْ كَانُوا صَادِقِينَ فِيهَا لَتَنَافَسَ الْمُلُوكُ وَكِبَارُ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي صُحْبَتِهِمْ وَالِاهْتِدَاءِ بِهِمْ .

(298/356)

الْمُعْجِزَاتُ قِسْمَانِ : تَكْوِينِيَّةٌ وَرُوحَانِيَّةٌ تُشْبِهُ الْكَسْبِيَّةَ :

الْمُعْجِزَاتُ كُلُّهَا مِنَ اللهِ تَعَالَى لَا مِنْ كَسْبِ الْأَنْبِيَاءِ كَمَا نَطَقَ بِهِ الْقُرْآنُ ، وَلَكِنَّهَا بِحَسَبِ مَظْهَرِهَا قِسْمَانِ : قِسْمٌ لَا يُعْرَفُ لَهُ سُنَّةٌ إِلَهِيَّةٌ يَجْرِي عَلَيْهَا فَهُوَ يُشْبِهُ الْأَحْكَامَ الِاسْتِثْنَائِيَّةَ فِي قَوَانِينِ الْحُكُومَاتِ أَوْ مَا يَكُونُ بِإِرَادَةٍ سَنِيَّةٍ مِنَ الْمُلُوكِ لِمَصْلَحَةٍ خَاصَّةٍ .

(وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) وَقِسْمٌ يَقَعُ بِسُنَّةٍ إِلَهِيَّةٍ رُوحَانِيَّةٍ لَا مَادِّيَّةٍ .

أَمَّا الْمَأْثُورُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الَّتِي أَيَّدَ بِهَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَثْبَتَهَا الْقُرْآنُ لَهُ ، كَالْآيَاتِ التِّسْعِ بِمِصْرَ فَهِيَ مِنَ الْقِسْمِ الْأَوَّلِ ، وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْهَا بِكَسْبٍ لَهُ حَقِيقِيٍّ وَلَا صُورِيٍّ وَكَذَلِكَ الْآيَاتُ الْأُخْرَى الَّتِي ظَهَرَتْ فِي أَثْنَاءِ خُرُوجِهِ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمُدَّةَ التِّيهِ ،

بَلْ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِفِعْلِ اللهِ تَعَالَى بِدُونِ سَبَبٍ كَسْبِيٍّ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا مَا يَأْمُرُهُ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ ضَرْبِ الْبَحْرِ أَوِ الْحَجَرِ بِعَصَاهُ الَّتِي هِيَ آيَتُهُ الْكُبْرَى ، وَلَمْ يَرِدْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

آيَةٌ كَهَذِهِ الْآيَاتِ فَضْلًا عَمَّنْ دُونَهُمْ ، وَلَا هِيَ مِمَّا يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَكُونُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بِالرِّيَاضَةِ الرُّوحِيَّةِ أَوْ خَوَاصِّ الْمَادَّةِ وَقُوَاهَا .

(299/356)

وَأَمَّا الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَالْآيَاتُ الَّتِي أَيَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِهَا - عَلَى كَوْنِهَا خَارِقَةً لِلْعَادَاتِ الْكَسْبِيَّةِ وَعَلَى خِلَافِ السُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ لِلنَّاسِ - قَدْ يَظْهَرُ فِيهَا أَنَّهَا كُلَّهَا أَوْ جُلَّهَا حَدَثَ عَلَى سُنَّةِ اللهِ فِي عَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، كَمَا كَانَ خَلْقُهُ كَذَلِكَ ، فَقَدْ حَمَلَتْ أُمُّهُ بِهِ بِنَفْخَةٍ مِنْ رُوحِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهَا - وَهُوَ الْمَلَكُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ - كَانَتْ سَبَبَ عُلُوقِهَا بِهِ بِفِعْلِهَا فِي الرَّحِمِ مَا يَفْعَلُ تَلْقِيحُ الرَّجُلِ بِقُدْرَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَا غَرْوَ أَنْ كَانَتْ مَظَاهِرُ آيَاتِهِ أَعْظَمَ مِنْ مَظَاهِرِ سَائِرِ الرُّوحِيِّينَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، كَالْكَشْفِ وَشِفَاءِ بَعْضِ الْمَرْضَى وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّأْثِيرِ فِي الْمَادَّةِ الَّذِي اشْتُهِرَ عَنْ كَثِيرٍ مِنْهُمْ . وَالْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرُّوحَانِيِّينَ مِنْ صُوفِيَّةِ الْهُنُودِ وَالْمُسْلِمِينَ أَنَّ رُوحَانِيَّتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَقْوَى وَأَكْمَلُ وَأَنَّهَا لَمْ تَكُنْ بِعَمَلٍ كَسْبِيٍّ مِنْهُ ، بَلْ مِنْ أَصْلِ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِآيَةٍ مِنْهُ كَمَا قَالَ : (وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 91) (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً) (23 :

50) فَآيَتُهُمَا هِيَ الْحَمْلُ بِهِ وَخَلْقُهُ بِنَفْخِ الرُّوحِ الْإِلَهِيِّ لَا بِسَبَبِ التَّلْقِيحِ الْبَشَرِيِّ ، وَلَا بِمَا قِيلَ مِنِ احْتِمَالِ وُجُودِ مَادَّتَيِ الذُّكُورَةِ وَالْأُنُوثَةِ فِي رَحِمِهَا .

(300/356)

وَأَعْظَمُ آيَاتِهِ الرُّوحَانِيَّةِ الَّتِي أَثْبَتَهَا لَهُ التَّنْزِيلُ وَلَمْ يَنْقُلْهَا مُؤَلِّفُو الْأَنَاجِيلِ الْأَرْبَعَةِ (وَرُوِيَ أَنَّهَا مَنْصُوصَةٌ فِي إِنْجِيلِ الطُّفُولِيَّةِ الَّذِي نَبَذَتْهُ الْمَجَامِعُ الْكَنَسِيَّةُ قَبْلَ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَفُقِدَ مِنَ الْعَالَمِ هِيَ أَنَّهُ كَانَ يَأْخُذُ قِطْعَةً مِنَ الطِّينِ فَيَجْعَلُهَا بِهَيْئَةِ طَيْرٍ ، فَيَنْفُخُ فِيهِ أَيْ مِنْ رُوحِهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى وَمَشِيئَتِهِ ، وَالْمَرْوِيُّ أَنَّهُ كَانَ يَطِيرُ قَلِيلًا وَيَقَعُ مَيِّتًا . وَدُونَ هَذَا إِحْيَاءُ الْمَيِّتِ الصَّحِيحِ الْجِسْمِ الْقَرِيبِ الْعَهْدِ بِالْحَيَاةِ ، فَإِنَّ تَوْجِيهَ سَيَّالِ رُوحِهِ الْقَوِيِّ إِلَى جُثَّةِ الْمَيِّتِ مَعَ تَوْجِيهِ قَلْبِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَدُعَائِهِ ، كَانَ يَكُونُ سَبَبًا رُوحَانِيًّا لِإِعَادَةِ رُوحِهِ إِلَيْهِ بِإِذْنِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ ، كَمَا يَمَسُّ النُّورُ ذُبَالَ السِّرَاجِ الْمُنْطَفِئِ فَتَشْتَعِلُ أَوْ كَمَا يَتَّصِلُ السِّلْكُ الْحَامِلُ لِلْكَهْرَبَائِيَّةِ الْإِيجَابِيَّةِ بِالسِّلْكِ الْحَامِلِ لِلْكَهْرَبَائِيَّةِ السَّلْبِيَّةِ بَعْدَ انْقِطَاعِهَا فَيَتَأَلَّقُ النُّورُ مِنْهُمَا . وَقَدْ ثَبَتَ عَنْ بَعْضِ أَطِبَّاءِ هَذَا الْعَصْرِ إِعَادَةُ الْحَيَاةِ الْحَيَوَانِيَّةِ إِلَى فَاقِدِهَا عَقِبَ فَقْدِهَا بِعَمَلِيَّةٍ جِرَاحِيَّةٍ أَوْ مُعَالَجَةٍ لِلْقَلْبِ

(301/356)

وَمِنْ دُونِ هَذَا وَذَاكَ شِفَاءُ بَعْضِ الْأَمْرَاضِ وَلَا سِيَّمَا الْعَصَبِيَّةُ ، سَوَاءٌ كَانَ سَبَبُهَا مَسَّ الشَّيْطَانِ وَتَلَبُّسَهُ بِالْمَجْنُونِ كَمَا فِي الْأَنَاجِيلِ أَمْ غَيْرَهُ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رُوحٌ خَبِيثٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْبَقَاءَ مَعَ تَوَجُّهِ الرُّوحِ الطَّاهِرِ الَّذِي هُوَ شُعْلَةٌ مِنْ رُوحِ الْقُدُسِ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّصَالِهِ بِمَنْ تَلَبَّسَ بِهِ ، وَقَدْ وَقَعَ مِثْلُ هَذَا لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ وَغَيْرِهِ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ ، وَمَا مِنْ مَرَضٍ عَصَبِيٍّ أَوْ غَيْرِهِ إِلَّا وَهُوَ ضَعْفٌ فِي الْحَيَاةِ بِأَنْ يَزُولَ بِاتِّصَالِ هَذَا الرُّوحِ بِالْمُصَابِ بِهِ لِأَنَّهُ أَعْظَمُ أَسْبَابِ الْحَيَاةِ وَالْقُوَّةِ .

(302/356)

وَمِنْ دُونِ هَذَا وَذَاكَ الْمُكَاشَفَاتُ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا فِيمَا حَكَاهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ : (وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ) (3 : 49) وَقَدْ أَنْبَأَ غَيْرُهُ مِنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرُهُمْ بِمَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَكَذَا غَيْرُهُمْ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ وَلَا سِيَّمَا أُمَّةُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلَكِنَّهَا دَرَجَاتٌ مُتَفَاوِتَةٌ فِي الْقُوَّةِ وَالضَّعْفِ ، وَطُولِ الْمُدَّةِ وَقِصَرِهَا ، وَالثِّقَةِ بِالْمَرْئِيِّ وَعَدَمِهَا ، وَإِدْرَاكِ الْحَاضِرِ الْمَوْجُودِ ، وَالْغَائِبِ الْمَفْقُودِ ، وَمَا كَانَ فِي الْأَزْمِنَةِ الْمَاضِيَةِ ، وَمَا يَأْتِي فِي الْأَزْمِنَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ ، فَأَعْلَاهَا خَاصٌّ

بِالْأَنْبِيَاءِ ، إِذْ لَمْ يُوجَدْ وَلَنْ يُوجَدَ بَشَرٌ يَعْلَمُ بِالْكَشْفِ مَا وَقَعَ مُنْذُ الْقُرُونِ الْأُولَى كَأَخْبَارِ الْقُرْآنِ عَنِ الرُّسُلِ الْأَوَّلِينَ مَعَ أَقْوَامِهِمْ أَوْ مَا يَقَعُ بَعْدَ سِنِينَ فِي الْمُسْتَقْبَلِ كَإِخْبَارِهِ عَنْ عَوْدِ الْكَرَّةِ لِلرُّومِ عَلَى الْفُرْسِ ، وَإِخْبَارِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِفَتْحِ الْأَمْصَارِ وَاتِّبَاعِ الْأُمَمِ لِأُمَّتِهِ ، ثُمَّ بِتَدَاعِيهِمْ عَلَيْهَا مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ الثَّابِتَةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ مَا يُسَمُّونَهُ قِرَاءَةَ الْأَفْكَارِ وَقَدْ شَاهَدْنَا مَنْ فَعَلَهُ ، وَمِنْهَا مُرَاسَلَةُ الْأَفْكَارِ .

(303/356)

فَتَبَيَّنَ بِهَذَا وَذَاكَ أَنَّ آيَاتِ اللهِ تَعَالَى الْمَشْهُورَةَ لِمُوسَى بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ تَعَالَى دُونَ سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِهِ الظَّاهِرَةِ فِي قُوَاهُ الرُّوحِيَّةِ ، وَأَنَّ آيَاتِهِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بِخِلَافِ ذَلِكَ .

وَالنَّوْعُ الْأَوَّلُ أَدَلُّ عَلَى قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى وَمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ فِي أَفْعَالِهِ فِي نَظَرِ الْبَشَرِ ، لِبُعْدِهَا عَنْ نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبَاتِ الَّتِي تَجْرِي عَلَيْهَا أَفْعَالُهُمْ .

عِبَادَةُ بَعْضِ النَّاسِ لِلْمَسِيحِ وَلِلْأَوْلِيَاءِ دُونَ مُوسَى :

وَإِنَّمَا عَبَدَ بَعْضُ الْبَشَرِ عِيسَى وَاتَّخَذُوهُ إِلَهًا وَلَمْ يَعْبُدُوا مُوسَى كَذَلِكَ وَآيَاتُهُ أَعْظَمُ ؛ لِأَنَّهُمْ جَهِلُوا أَنَّ آيَاتِ عِيسَى جَارِيَةٌ عَلَى سُنَنٍ رُوحِيَّةٍ عَامَّةٍ قَدْ يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيْرُهُ ، فَظَنُّوا أَنَّهُ يَفْعَلُهَا بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ الَّتِي هِيَ عَيْنُ قُدْرَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ لِحُلُولِهِ فِيهِ وَاتِّحَادِهِ بِهِ بِزَعْمِهِمْ

وَآيَاتُ مُوسَى بِمَحْضِ قُدْرَةِ اللهِ وَحْدَهُ ، وَلَمْ يَفْطِنُوا لِاتِّبَاعِ عِيسَى لِمُوسَى فِي شَرْعِهِ – التَّوْرَاةِ – إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا نَسَخَهُ اللهُ عَلَى لِسَانِهِ مِنْ إِحْلَالِ بَعْضِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ بِظُلْمِهِمْ عُقُوبَةً لَهُمْ ، وَمِنْ تَحْرِيمِ مَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي عِبَادَةِ الْمَالِ وَالشَّهَوَاتِ .

(304/356)

وَمِثْلُ النَّصَارَى فِي هَذَا مَنْ يَفْتَتِنُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِعِبَادَةِ الصَّالِحِينَ بِدُعَائِهِمْ فِي الشَّدَائِدِ ، لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُمْ يَدْفَعُونَ عَنْهُمُ الضُّرَّ وَيَجْلِبُونَ لَهُمُ النَّفْعَ بِالتَّصَرُّفِ الْغَيْبِيِّ الْخَارِجِ عَنْ سُنَنِ اللهِ فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ ، الدَّاخِلِ عِنْدَهُمْ فِي بَابِ الْكَرَامَاتِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِالرَّبِّ تَعَالَى ، وَلَكِنَّهُمْ لَا يُطْلِقُونَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمُ اسْمَ الرَّبِّ وَلَا الْإِلَهِ وَلَا الْخَالِقِ ، إِذِ الْأَسْمَاءُ اصْطِلَاحِيَّةٌ ، وَإِنَّمَا الْفُرْقَانُ بَيْنَ الْخَالِقِ وَالْمَخْلُوقِ وَالرَّبِّ وَالْمَرْبُوبِ ، أَنَّ الرَّبَّ الْخَالِقَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى النَّفْعِ وَالضُّرِّ لِمَنْ شَاءَ وَصَرْفِهِمَا عَمَّنْ شَاءَ بِمَا يُسَخِّرُهُ مِنَ الْأَسْبَابِ وَبِدُونِهَا إِنْ شَاءَ – وَأَنَّ الْمَخْلُوقَ الْمَرْبُوبَ هُوَ الْمُقَيَّدُ فِي أَفْعَالِهِ الْكَسْبِيَّةِ الِاخْتِيَارِيَّةِ فِي النَّفْعِ وَالضُّرِّ بِسُنَنِ اللهِ تَعَالَى فِي الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ الَّتِي سَخَّرَهَا تَعَالَى لِجَمِيعِ خَلْقِهِ ، وَلَكِنَّهُمْ يَتَفَاوَتُونَ فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ بِهَا كَمَا يَتَفَاوَتُونَ فِي الِاسْتِعْدَادِ لَهَا بِقُوَى الْعَقْلِ وَالْحَوَاسِّ وَالْأَعْضَاءِ وَفِي وَسَائِلِهَا ، وَقَدْ بَلَغَ الْبَشَرُ بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ الْكَسْبِيَّيْنِ مِنَ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ

مَا لَمْ يُعْهَدْ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ قَبْلَهُمْ لَا الْأَنْبِيَاءُ وَلَا غَيْرُهُمْ ; لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمُرْسَلِينَ لَمْ يُبْعَثُوا لِهَذَا ، وَإِنَّمَا بُعِثُوا لِهِدَايَةِ النَّاسِ إِلَى مَعْرِفَةِ اللهِ وَعِبَادَتِهِ وَتَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمْ بِهَا ، فَمَنَافِعُ

(305/356)

الدُّنْيَا لَا تُطْلَبُ مِنْهُمْ أَحْيَاءً وَلَا أَمْوَاتًا وَإِنَّمَا تُطْلَبُ مِنْ أَسْبَابِهَا ، وَمَا وَرَاءَ الْأَسْبَابِ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَقَدْ قَتَلَ الظَّالِمُونَ بَعْضَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، وَآذَوْا بَعْضَهُمْ بِضُرُوبٍ مِنَ الْإِيذَاءِ وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَدْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ ; وَلِذَلِكَ تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ نَفْيُ هَذَا النَّفْعِ وَالضُّرِّ عَنْ كُلِّ مَا عُبِدَ وَمَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ بِالذَّاتِ أَوْ بِالشَّفَاعَةِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى ، كَمَا قَالَ : (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ) (10 : 18) الْآيَةَ وَمِثْلُهَا آيَاتٌ ، وَأَمَرَ خَاتَمَ رُسُلِهِ أَنْ يُعَلِّمَ النَّاسَ ذَلِكَ كَمَا فَعَلَ مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الرُّسُلِ فَقَالَ : (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (7 : 188) وَقَالَ :

(قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا) (72 : 21) الْآيَاتِ . وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ

مِرَارًا .

وَنُلَخِّصُ الْمَوْضُوعَ هُنَا فِي الْمَسَائِلِ الْآتِيَةِ :

(306/356)

---

(1) إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ فَجَعَلَهُ بِإِحْكَامٍ وَنِظَامٍ لَا تَفَاوُتَ فِيهِ وَلَا اخْتِلَالَ ، وَسُنَنٍ مُطَّرِدَةٍ رَبَطَ فِيهَا الْأَسْبَابَ بِالْمُسَبَّبَاتِ . فَمَخْلُوقَاتُهُ الْعُلْيَا وَالسُّفْلَى هِيَ مَظْهَرُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الْعُلَى وَلِهَذَا قَالَ حُجَّةُ الْإِسْلَامِ الْغَزَالِيُّ : لَيْسَ فِي الْإِمْكَانِ أَبْدَعُ مِمَّا كَانَ . وَهَذَا النِّظَامُ الْمُطَّرِدُ فِي الْأَكْوَانِ ، الثَّابِتُ بِالْحِسِّ وَالْعَقْلِ وَنُصُوصِ الْقُرْآنِ – هُوَ الْبُرْهَانُ الْأَعْظَمُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ خَالِقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا) (21 : 22) .

(307/356)

---

(2) إِنَّ سُنَنَ اللهِ تَعَالَى فِي إِبْدَاعِ خَلْقِهِ وَنِظَامِ الْحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّرْكِيبِ فِيهِ لَا يُحِيطُ بِهَا عِلْمًا غَيْرُهُ عَزَّ وَجَلَّ . وَكُلَّمَا ازْدَادَ الْبَشَرُ فِيهَا نَظَرًا وَتَفَكُّرًا وَاخْتِبَارًا وَتَدَبُّرًا

وَتَجْرِبَةً وَتَصَرُّفًا ، ظَهَرَ لَهُمْ مِنْ أَسْرَارِهَا وَعَجَائِبِهَا مَا لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ وَلَا يَظُنُّونَ ، وَمِنْ مَنَافِعِهَا مَا لَمْ يَكُونُوا يَتَخَيَّلُونَ وَلَا يَتَوَهَّمُونَ . وَهَا نَحْنُ أُولَاءِ نَرَى مَرَاكِبَهُمُ الْهَوَائِيَّةَ مِنْ تِجَارِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ تُحَلِّقُ فِي الْأَجْوَاءِ ، حَتَّى تَكَادَ تَتَجَاوَزُ مُحِيطَ الْهَوَاءِ ، وَمَرَاكِبَهُمُ الْبَحْرِيَّةَ تَغُوصُ فِي لُجَجِ الْبِحَارِ ، وَنَرَاهُمْ يَتَخَاطَبُونَ مِنْ مُخْتَلِفِ الْأَقْطَارِ ، كَمَا نَطَقَ الْوَحْيُ بِتَخَاطُبِ أَهْلِ الْجَنَّةِ مَعَ أَهْلِ النَّارِ فَيَسْمَعُ أَهْلُ الْمَشْرِقِ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْمَغْرِبِ ، وَأَهْلُ الْجَنُوبِ حَدِيثَ أَهْلِ الشَّمَالِ وَخُطَبَهُمْ وَأَغَانِيَهُمْ قَبْلَ أَنْ يَسْمَعَهَا بَعْضُ أَهْلِ الْبَلَدِ أَوِ الْمَكَانِ الَّذِي يَصْدُرُ عَنْهُ الْكَلَامُ . وَقَدْ يَغْمِزُ أَحَدُهُمْ زِرًّا كَهْرَبَائِيًّا فِي قَارَّةٍ أُورُبَّةَ فَتَتَحَرَّكُ بِغَمْزَتِهِ آلَاتٌ عَظِيمَةٌ فِي قَارَّةٍ أُخْرَى فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ ، وَبَيْنَهُمَا الْمَهَامِهُ الْفِيحُ وَالْجِبَالُ الشَّاهِقَةُ ، وَمِنْ دُونِهِمَا الْبِحَارُ الْوَاسِعَةُ ، وَالْجَاهِلُونَ بِهَذِهِ السُّنَنِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَالْعُلُومِ الْعَمَلِيَّةِ ، لَا يَزَالُونَ يَلْجَئُونَ فِي طَلَبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مِنْ غَيْرِ طَرِيقِ الْأَسْبَابِ – الَّتِي ضَيَّقَ الْجَهْلُ عَلَيْهِمْ سُبُلَهَا – إِلَى قُبُورِ الْمَوْتَى

(308/356)

مِنَ الصَّالِحِينَ الْمَعْرُوفِينَ وَالْمَجْهُولِينَ لِيَقْضُوا لَهُمْ حَاجَتَهُمْ ،

وَيَشْفُوا مَرْضَاهُمْ ، وَيُعِينُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ مِنْ زَوْجٍ وَقَرِيبٍ وَجَارٍ وَوَطَنِيٍّ ، وَأَعْدَاؤُهُمْ

مِنَ الْأَجَانِبِ قَدْ سَادُوا حُكُومَتَهُمْ ، وَاسْتَذَلُّوا أُمَّتَهُمْ ، وَاسْتَأْثَرُوا بِجُلِّ ثَرْوَتِهِمْ وَلَا يَتَصَرَّفُ فِيهِمْ هَؤُلَاءِ الْأَوْلِيَاءُ بِمَا يَدْفَعُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ضَرَرَهُمْ وَتَحَكُّمَهُمْ .

(3) إِنَّ الْأَصْلَ فِي كُلِّ مَا يَحْدُثُ فِي الْعَالَمِ أَنْ يَكُونَ جَارِيًا عَلَى نِظَامِ الْأَسْبَابِ وَالْمُسَبَّبَاتِ وَسُنَنِ اللهِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا الْعِلْمُ ، وَأَخْبَرَنَا الْوَحْيُ بِأَنَّهُ لَا تَغْيِيرَ فِيهَا وَلَا تَبْدِيلَ لَهَا وَلَا تَحْوِيلَ فَكُلُّ خَبَرٍ عَنْ حَادِثٍ يَقَعُ مُخَالِفًا لِهَذَا النِّظَامِ وَالسُّنَنِ فَالْأَصْلُ فِيهِ أَنْ يَكُونَ كَذِبًا اخْتَلَقَهُ الْمُخْبِرُ الَّذِي ادَّعَى شُهُودَهُ أَوْ خُدِعَ بِهِ وَلُبِّسَ عَلَيْهِ فِيهِ فَإِنْ كَانَ قَدْ وَقَعَ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي يَجْهَلُهَا الْمُخْبِرُ كَمَا حَقَّقَهُ عُلَمَاءُ الْأُصُولِ فِي بَحْثِ الْخَبَرِ وَمَا يَقْطَعُ بِكَذِبِهِ مِنْهُ .

(309/356)

---

(4) إِنَّ آيَاتِ اللهِ الَّتِي تَجْرِي عَلَى غَيْرِ سُنَنِهِ الْحَكِيمَةِ فِي خَلْقِهِ لَا يُمْكِنُ الْعِلْمُ بِهَا إِلَّا بِدَلِيلٍ قَطْعِيٍّ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ حِكْمَتِهِ أَنْ أَيَّدَ بَعْضَ النَّبِيِّينَ الْمُرْسَلِينَ بِشَيْءٍ مِنْهَا لِإِقَامَةِ حُجَّتِهِمْ وَتَخْوِيفِ الْمُعَانِدِينَ لَهُمْ ، وَقَدِ انْقَطَعَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ بِخَتْمِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَسَبَبُ ذَلِكَ أَوْ حِكْمَتُهُ خَتْمُ النُّبُوَّةِ بِرِسَالَتِهِ . وَجَعَلَ مَا أَوْحَاهُ إِلَيْهِ آيَةً دَائِمَةً وَهِدَايَةً عَامَّةً لِجَمِيعِ الْبَشَرِ مُدَّةَ بَقَائِهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا

رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) (21 : 107) لِعِلْمِهِ تَعَالَى بِأَنَّهُمْ لَا يَحْتَاجُونَ بَعْدَ هَذَا الْوَحْيِ إِلَى وَحْيٍ آخَرَ وَلَا إِلَى آيَةٍ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى إِلَّا هَذَا الْقُرْآنَ نَفْسَهُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ دَلَالَتِهِ الْعَقْلِيَّةِ عَلَى كَوْنِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعَالَى .

خَتْمُ النُّبُوَّةِ وَانْقِطَاعُ الْخَوَارِقِ بِهَا وَمَعْنَى الْكَرَامَاتِ :

(310/356)

---

(5) لَوْ كَانَ لِلْبَشَرِ حَاجَةٌ بَعْدَ الْقُرْآنِ وَمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – إِلَى الْآيَاتِ ، كَمَا يَدَّعِي الْمَفْتُونُونَ بِالْكَرَامَاتِ وَمُخْتَرِعُو الْأَدْيَانِ وَالنِّحَلِ الْجَدِيدَةِ لَمَا كَانَ لِخَتْمِ النُّبُوَّةِ مَعْنًى ؛ وَلِذَلِكَ يُنْكِرُ الْبَهَائِيَّةُ وَالْقَادْيَانِيَّةُ خَتْمَ النُّبُوَّةِ وَانْقِطَاعَ الْوَحْيِ ، وَيَدَّعُونَهُمَا لِلْبَابِ وَالْبَهَاءِ ، وَلِغُلَامِ أَحْمَدَ الْقَادْيَانِيِّ وَخُلَفَائِهِ بِلَا انْقِطَاعٍ ، حَتَّى سَامَهَا الْمُرْتَزِقَةُ مِنْهُمْ وَالرَّعَاعُ .

وَقَدْ بَيَّنَ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ فِي رِسَالَةِ التَّوْحِيدِ كَيْفَ ارْتَقَى التَّشْرِيعُ الدِّينِيُّ فِي الْأُمَمِ بِارْتِقَاءِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ فِي الْإِدْرَاكِ وَالْعَقْلِ ، كَارْتِقَاءِ الْأَفْرَادِ مِنْ طُفُولَةٍ إِلَى شَبَابٍ إِلَى كُهُولَةٍ بَلَغَ فِيهَا رُشْدَهُ وَاسْتَوَى ، وَصَارَ يُدْرِكُ بِعَقْلِهِ هَذِهِ الْهِدَايَةَ الْعَقْلِيَّةَ الْعُلْيَا (هِدَايَةَ الْقُرْآنِ) بَعْدَ أَنْ كَانَ لَا سَبِيلَ إِلَى إِذْعَانِهِ لِتَعْلِيمِ الْوَحْيِ ، إِلَّا مَا يُدْهِشُ حِسَّهُ وَيُعْيِي عَقْلَهُ مِنْ آيَاتِ الْكَوْنِ

(311/356)

بَيَّنَ فِي الْكَلَامِ عَلَى وَجْهِ الْحَاجَةِ إلَى الرِّسَالَةِ أَنَّ سُمُوَّ عَقْلِ الْإِنْسَانِ وَسُلْطَانَهُ عَلَى قُوَى الْكَوْنِ الْأَعْظَمِ بِمَا هِيَ مُسَخَّرَةٌ لَهُ تُنَافِي خُضُوعَهُ وَاسْتِكَانَتَهُ لِشَيْءٍ مِنْهَا ، إلَّا مَا عَجَزَ عَنْ إدْرَاكِ سَبَبِهِ وَمَنْشَئِهِ فَاعْتَقَدَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الْأَعْلَى لِمُدَبِّرِ الْكَوْنِ وَمُسَخِّرِ الْأَسْبَابِ فِيهِ فَكَانَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِ أَنَّهُ أَتَاهُ مَنْ أَضْعَفِ الْجِهَاتِ فِيهِ وَهِيَ جِهَةُ الْخُضُوعِ وَالِاسْتِكَانَةِ ، فَأَقَامَ لَهُ مِنْ بَيْنِ أَفْرَادِهِ مُرْشِدِينَ هَادِينَ ، وَمَيَّزَهُمْ مِنْ بَيْنِهِمْ بِخَصَائِصَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَا يُشْرِكُهُمْ فِيهَا سِوَاهُمْ ، وَأَيَّدَ ذَلِكَ زِيَادَةً فِي الْإِقْنَاعِ بِآيَاتٍ بَاهِرَاتٍ تَمْلِكُ النُّفُوسَ ، وَتَأْخُذُ الطَّرِيقَ عَلَى سَوَابِقِ الْعُقُولِ فَيَسْتَخْذِي الطَّامِحُ وَيَذِلُّ الْجَامِحُ ، وَيَصْطَدِمُ بِهَا عَقْلُ الْعَاقِلِ فَيَرْجِعُ إلَى رُشْدِهِ وَيَنْبَهِرُ لَهَا بَصَرُ الْجَاهِلِ فَيَرْتَدُّ عَنْ غَيِّهِ) .

(312/356)

ثُمَّ قَالَ فِي رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : نَبِيٌّ صَدَّقَ الْأَنْبِيَاءَ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَأْتِ فِي الْإِقْنَاعِ بِرِسَالَتِهِ بِمَا يُلْهِي الْأَبْصَارَ أَوْ يُحَيِّرُ الْحَوَاسَّ أَوْ يُدْهِشُ الْمَشَاعِرَ ، وَلَكِنْ طَالَبَ كُلَّ

قُوَّةٍ بِالْعَمَلِ فِيمَا أُعِدَّتْ لَهُ ، وَاخْتَصَّ الْعَقْلَ بِالْخِطَابِ ، وَحَاكَمَ إِلَيْهِ الْخَطَأَ وَالصَّوَابَ ، وَجَعَلَ فِي قُوَّةِ الْكَلَامِ ، وَسُلْطَانِ الْبَلَاغَةِ ، وَصِحَّةِ الدَّلِيلِ ، مَبْلَغَ الْحُجَّةِ وَآيَةَ الْحَقِّ الَّذِي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (41 : 42) .

لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا بِالْقُرْآنِ :

(6) إِنَّهُ لَا يُمْكِنُ إِثْبَاتُ مُعْجِزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِحُجَّةٍ لَا يُمْكِنُ لِمَنْ عَقَلَهَا رَدُّهَا إِلَّا هَذَا الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ، وَمَا ثَبَتَ فِيهِ بِالنَّصِّ الصَّرِيحِ مِنْهَا ، بِنَاءً عَلَى إِنْكَارِ الْعُلَمَاءِ الْوَاقِفِينَ عَلَى كُتُبِ الْأَدْيَانِ الَّتِي قَبْلَ الْإِسْلَامِ – حَتَّى كُتُبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى – وَعَلَى تَوَارِيخِهَا لِتَوَاتُرِ مَا ذُكِرَ فِيهَا مِنَ الْآيَاتِ ، وَالِاشْتِبَاهِ فِي كَوْنِهَا خَوَارِقَ حَقِيقِيَّةً ، وَحُجَّتُهُمْ أَنَّ التَّوَاتُرَ الَّذِي يُفِيدُ الْعِلْمَ الْقَطْعِيَّ غَيْرُ مُتَحَقِّقٍ فِي نَقْلِ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَهُوَ نَقْلُ الْجَمْعِ الْكَثِيرِ الَّذِينَ يُؤْمَنُ تَوَاطُؤُهُمْ عَلَى الْكَذِبِ لِخَبَرٍ أَدْرَكُوهُ بِالْحِسِّ ، وَحَمَلَهُ عَنْهُمْ مِثْلُهُمْ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ وَجِيلًا بَعْدَ جِيلٍ بِدُونِ انْقِطَاعٍ ، وَإِنَّمَا يَكُونُ اسْتِحَالَةُ تَوَاطُئِهِمْ عَلَى

(313/356)

الْكَذِبِ بِأُمُورٍ ، أَهَمُّهَا عَدَمُ التَّحَيُّزِ وَالتَّشَيُّعِ لِمَضْمُونِ الْخَبَرِ وَعَدَمُ تَقْلِيدِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ فِيهِ ، وَآيَةُ صِحَّةِ هَذَا التَّوَاتُرِ حُصُولُ الْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ بِهِ وَإِذْعَانُ النَّفْسِ لَهُ ، وَعَدَمُ إِمْكَانِ رَدِّهِ

اعْتِقَادًا وَوِجْدَانًا . وَهَذَا غَيْرُ حَاصِلٍ فِي آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْأَوَّلِينَ عِنْدَهُمْ .

وَأَمَّا آيَةُ الْقُرْآنِ فَهِيَ بَاقِيَةٌ بِبَقَائِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَكُلُّ وَاقِفٍ عَلَى تَارِيخِ الْإِسْلَامِ يَعْلَمُ عِلْمًا قَطْعِيًّا أَنَّهُ مُتَوَاتِرٌ تَوَاتُرًا مُتَّصِلًا فِي كُلِّ عَصْرٍ ، مِنْ عَصْرِ الرَّسُولِ الَّذِي جَاءَ بِهِ إِلَى الْآنَ ، وَأَمَّا الَّذِي يَخْفَى عَلَى كَثِيرٍ مِنْهُمْ فَهُوَ وُجُوهُ إِعْجَازِهِ ، وَقَدْ شَرَحْنَا شُبُهَاتِهِمْ عَلَيْهِ وَبَيَّنَّا بُطْلَانَهَا فِي هَذَا الْبَحْثِ ، وَإِذْ قَدْ ثَبَتَ بِذَلِكَ كَوْنُهُ وَحْيًا مِنَ اللهِ تَعَالَى فَقَدْ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ آيَاتِهِ فِي خُلُقِهِ ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ لِتَأْيِيدِ رُسُلِهِ وَإِقَامَةِ حُجَّتِهِمْ أَمْ لَا ، وَكَمَا يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ بِهِ أَنْ يُؤْمِنَ بِهَا ، يَجِبُ أَنْ يُؤْمِنَ بِانْقِطَاعِ مُعْجِزَاتِ الرُّسُلِ بَعْدَ خَتْمِ النُّبُوَّةِ بِمُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – .

(314/356)

وَإِذْ كَانَ لَا يَجِبُ عَلَى مُسْلِمٍ أَنْ يَعْتَقِدَ بِوُقُوعِ كَرَامَةٍ كَوْنِيَّةٍ خَارِقَةٍ لِلْعَادَةِ بَعْدَ (مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) فَلَا يَضُرُّ مُسْلِمًا فِي دِينِهِ أَنْ يَعْتَقِدَ كَمَا يَعْتَقِدُ أَكْثَرُ عُقَلَاءِ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَمَاءِ مِنْ أَنَّ مَا يَدَّعِيهِ النَّاسُ مِنَ الْخَوَارِقِ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ أَكْثَرُهُ كَذِبٌ وَبَعْضُهُ صِنَاعَةُ عِلْمٍ ، أَوْ شَعْوَذَةُ سِحْرٍ ، وَأَقَلُّهُ مِنْ خَوَاصِّ الْأَرْوَاحِ الْبَشَرِيَّةِ الْغَالِيَةِ .

(7) إِنَّ الثَّابِتَ بِنُصُوصِ الْقُرْآنِ مِنْ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ الْمُعَيَّنَةِ قَلِيلٌ جِدًّا ، فَمَا كَانَتْ

دَلَالَتُهُ قَطْعِيَّةً مِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ فَصَرْفُهُ عَنْهَا بِالتَّحَكُّمِ فِي التَّأْوِيلِ الَّذِي تَأْبَاهُ مَدْلُولَاتُ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَيَنْقُضُ شَيْئًا مِنْ قَوَاعِدِ الشَّرْعِ الْقَطْعِيَّةِ ارْتِدَادٌ عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَمَا كَانَتْ دَلَالَتُهُ ظَاهِرَةً غَيْرَ قَطْعِيَّةٍ وَجَبَ حَمْلُهُ عَلَى ظَاهِرِهِ إنْ لَمْ يُعَارِضْهُ نَصٌّ مِثْلُهُ أَوْ أَقْوَى مِنْهُ ، فَإِنْ عَارَضَهُ فَحِينَئِذٍ يُنْظَرُ فِي التَّرْجِيحِ بَيْنَ الْمُتَعَارِضَيْنِ بِالْأَدِلَّةِ الْمَعْرُوفَةِ ، وَالْخُرُوجُ عَنْ ذَلِكَ ابْتِدَاعٌ .

(خُلَاصَةُ الْخُلَاصَةِ لِهَذَا الْفَصْلِ)

(315/356)

إنَّنَا نُؤْمِنُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ بِقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ ، وَاخْتِيَارِهِ ، وَحِكْمَتِهِ وَأَنَّهُ (أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ) (32 : 7) كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ (الٓمٓ) السَّجْدَةِ ، فَهُوَ : (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ) (27 : 88) كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ النَّمْلِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ فِي خَلْقِهِ تَفَاوُتٌ وَلَا فُطُورٌ كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْمُلْكِ ، الْآيَةِ (3) وَأَنَّهُ خَلَقَهُ بِنِظَامٍ وَتَقْدِيرٍ لَا جُزَافًا وَلَا أَنَفًا كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ الْقَمَرِ : (إنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (54 : 49) وَقَالَ فِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ : (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (25 : 2) وَقَالَ فِي سُورَةِ الْحِجْرِ : (وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ) (15 : 19) (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ)

(15 : 21) .

وَأَنَّ لَهُ تَعَالَى فِي نِظَامِ التَّكْوِينِ وَالْإِبْدَاعِ ، وَفِيمَا هَدَى إِلَيْهِ الْبَشَرَ مِنْ نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ سُنَنًا مُطَّرِدَةً تَتَّصِلُ فِيهَا الْأَسْبَابُ بِالْمُسَبَّبَاتِ ، وَلَا تَتَبَدَّلُ وَلَا تَتَحَوَّلُ مُحَابَاةً لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، وَأَنَّهَا عَامَّةٌ فِي عَالَمِ الْأَجْسَامِ وَعَالَمِ الْأَرْوَاحِ ، وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ هَذِهِ السُّنَنِ بِاللَّفْظِ فِي عِدَّةِ سُوَرٍ .

(316/356)

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ لَهُ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ، وَأَنَّ لَهُ فِي آيَاتِهِ حِكَمًا جَلِيَّةً أَوْ خَفِيَّةً ، وَأَنَّ مَا مَنَحَنَا إِيَّاهُ مِنَ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ يَأْبَيَانِ عَلَيْنَا أَنْ نُثْبِتَ وُقُوعَ شَيْءٍ فِي الْخَلْقِ عَلَى خِلَافِ مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ نِظَامِ التَّقْدِيرِ وَسُنَنِ التَّدْبِيرِ ، إِلَّا بِبُرْهَانٍ قَطْعِيٍّ يَشْتَرِكُ الْعَقْلُ وَالْحِسُّ فِي إِثْبَاتِهِ وَتَمْحِيصِهِ وَأَنَّهُ لَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ وُقُوعُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ لَا عَنْ خَلَلٍ وَلَا عَبَثٍ ، وَأَنَّ مَا خَفِيَ عَلَيْنَا مِنْ حُكْمِهِ كَسَائِرِ مَا يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ أُمُورِ خَلْقِهِ ، نَبْحَثُ عَنْهَا لِنُزَادَ عِلْمًا بِكَمَالِهِ وَنُكْمِلَ بِهِ أَنْفُسَنَا بِقَدْرِ اسْتِطَاعَتِنَا وَلَا نَتَّخِذَهَا حُجَّةً وَلَا عُذْرًا عَلَى الْكُفْرِ بِهِ لِجَهْلِنَا ، وَقَدْ ثَبَتَ لِأَعْلَمِ الْعُلَمَاءِ مِنَّا أَنَّ مَا نَجْهَلُ مِنْ هَذَا الْكَوْنِ أَكْثَرُ مِمَّا نَعْلَمُ ، وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يُحِيطَ الْبَشَرُ بِهِ عِلْمًا .

وَنُؤْمِنُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ مَنَحَنَا رُسُلًا هَدَوْنَا بِآيَاتِهِ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْ مَضِيقِ مَدَارِكِ الْحِسِّ ، وَمَا يَسْتَنْبِطُهُ الْفِكْرُ مِنْهَا بَادِيَ الرَّأْيِ ، إِلَى مَا وَرَاءَهَا مِنْ سَعَةِ عَالَمِ الْغَيْبِ ، وَلَوْلَا هِدَايَتُهُمْ لَظَلَّ الْبَشَرُ أُلُوفَ الْأُلُوفِ مِنَ السِّنِينَ يُنْكِرُونَ وُجُودَ مَا لَمْ يَكُونُوا يُدْرِكُونَهُ بِحَوَاسِّهِمْ مِنَ الْأَجْسَامِ وَأَعْرَاضِهَا ، وَبِقِيَاسِهِمْ مَا جَهِلُوا عَلَى مَا عَلِمُوا مِنْهَا .

(317/356)

وَقَدْ عَلِمْنَا مِنَ التَّارِيخِ أَنَّ الْإِيمَانَ بِاللهِ وَبِآيَاتِهِ لِرُسُلِهِ ، وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبِمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ هُوَ الَّذِي وَجَّهَ عُقُولَ الْبَشَرِ إِلَى الْبَحْثِ فِي أَسْرَارِ الْوُجُودِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنَ الِارْتِقَاءِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالصِّنَاعَاتِ فِي الْأَجْيَالِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَلَمْ

يَكُنْ لِغَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ نَصِيبٌ فِي ذَلِكَ – فَهَذَا الْإِيمَانُ بِالْأَرْكَانِ الثَّلَاثَةِ مِنَ الْغَيْبِ هُوَ الَّذِي أَوْصَلَ الْبَشَرَ إِلَى عُلُومٍ وَأَعْمَالٍ كَانَ يَعُدُّهَا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْغَيْبِ مِنْ مُحَالَاتِ الْعُقُولِ كَالْغَيْبِ الَّذِي أَنْكَرُوهُ ، حَتَّى لَمْ يُعَدَّ شَيْءٌ مِنْ أَخْبَارِ الْغَيْبِ بَعِيدًا عَنِ الْعَقْلِ بَعْدَ ثُبُوتِهَا .

(318/356)

فَتَبَيَّنَ لَنَا بِهَذَا وَبِمَا قَبْلَهُ أَنَّهُ كَانَ لِلْبَشَرِ بِآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ ثَلَاثُ فَوَائِدَ ، هِيَ مِنْ حِكَمِ نَصْبِهِ تَعَالَى لِتِلْكَ الْآيَاتِ : (الْأُولَى) جَعْلُهَا دَلِيلًا حِسِّيًّا عَلَى اخْتِيَارِهِ تَعَالَى فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ ، وَكَوْنِ سُنَنِ النِّظَامِ فِي الْخَلْقِ خَاضِعَةً لَهُ لَا حَاكِمَةً عَلَيْهِ وَلَا مُقَيِّدَةً لِإِرَادَتِهِ وَقُدْرَتِهِ . (الثَّانِيَةُ) جَعْلُهَا دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ رُسُلِهِ فِيمَا يُخْبِرُونَ عَنْهُ بِوَحْيِهِ وَنُذُرًا لِلْمُعَانِدِينَ لَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ، وَلَوْ كَانَتْ مِمَّا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَشَرُ بِكَسْبِهِمْ أَوْ تَقَعُ مِنْهُمْ بِاسْتِعْدَادٍ رُوحِيٍّ لَمَا كَانَتْ آيَةً عَلَى صِدْقِهِمْ (الثَّالِثَةُ) هِدَايَةُ عُقُولِ الْبَشَرِ بِرُؤْيَتِهَا إِلَى سَعَةِ دَائِرَةِ الْمُمْكِنَاتِ وَضِيقِ نِطَاقِ الْمُحَالِ فِي الْمَعْقُولَاتِ ، وَإِلَى أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ بَعِيدًا عَنِ الْأَسْبَابِ الْمُعْتَادَةِ وَالْأُمُورِ الْمَعْهُودَةِ وَالسُّنَنِ الْمَعْرُوفَةِ – لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ مُحَالًا يُجْزَمُ بِعَدَمِ وُقُوعِهِ ، وَبِكَذِبِ الْمُخْبِرِ بِهِ ، مَعَ قِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى صِدْقِهِ ، وَإِنَّمَا غَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ الْأَصْلُ فِيهِ عَدَمَ الثُّبُوتِ فَيَتَوَقَّفُ ثُبُوتُهُ عَلَى الدَّلِيلِ الصَّحِيحِ ، وَهَذِهِ قَاعِدَةُ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْكَوْنِ فِي هَذَا الْعَصْرِ ، فَلَا يَنْقُصُهُمْ لِتَكْمِيلِ عِلْمِهِمْ إِلَّا ثُبُوتُ آيَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لَهَا عِلَّةٌ مِنْ سُنَنِ الْكَوْنِ .

وَلَكِنَّ الْأَمْرَ قَدِ انْقَلَبَ إِلَى ضِدِّهِ ، فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الَّذِينَ وَصَلُوا إِلَى هَذِهِ الْعُلُومِ

وَالْأَعْمَالِ الْمُقَرِّبَةِ لِآيَاتِ الرُّسُلِ وَمَا دَعَوْا إِلَيْهِ مِنَ الْإِيمَانِ بِالْغَيْبِ مِنَ الْعُقُولِ ، قَدْ صَارَتْ هَذِهِ الْعُلُومُ نَفْسُهَا سَبَبًا لِإِنْكَارِهِمْ مَا كَانَ سَبَبًا لَهُمْ وَمُوصِلًا إِلَيْهَا (وَهُوَ الْآيَاتُ وَالْإِيمَانُ بِالْغَيْبِ) - لَا إِنْكَارَ إِمْكَانِهِ بَلْ إِنْكَارَ ثُبُوتِهِ بِالْفِعْلِ ، فَهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونَ الْخَالِقُ قَدْ فَعَلَ مَا صَارُوا يَفْعَلُونَ بِإِقْدَارِهِ وَتَوْفِيقِهِ نَظِيرًا لَهُ فِي الْغَرَابَةِ ، وَكَانَ يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوهُ دَلِيلًا عَلَيْهِ مُبَيِّنًا لِحَقِيقَتِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) (41 : 53) وَلَكِنَّهُمْ كُلَّمَا أَرَاهُمْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ الرُّوحِيَّةِ فِي أَنْفُسِهِمْ ، أَوْ مِنْ آيَاتِهِ الْكَوْنِيَّةِ فِي الْآفَاقِ ، الْتَمَسُوا لَهَا سُنَّةً بِقِيَاسِ مَا لَمْ يَعْرِفُوا عَلَى مَا عَرَفُوا ، فَأَخْرَجُوهَا عَنْ كَوْنِهَا بِمَحْضِ قُدْرَتِهِ وَإِبْدَاعِهِ ، وَظَلُّوا عَلَى لَبْسِهِمْ ، كَالَّذِينَ طَلَبُوا أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ مَلَكًا رَسُولًا فَقَالَ فِيهِمْ : (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) (6 : 9) أَيْ لَمَّا كَانُوا لَا يُمْكِنُ لَهُمْ أَنْ يُدْرِكُوا الْمَلَكَ وَيَتَلَقَّوْا عَنْهُ إِلَّا إِذَا كَانَ بِصُورَةِ رَجُلٍ مِثْلِهِمْ ، وَهُوَ مَا اسْتَنْكَرُوهُ مِنْ كَوْنِ الرُّسُلِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَلَوْ جَعَلَ اللهُ الْمَلَكَ رَجُلًا مِثْلَهُمْ لَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ أَمْرُهُ بِمَا يُلْبِسُونَهُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنِ اسْتِنْكَارِ كَوْنِ الرُّسُلِ بَشَرًا مِثْلَهُمْ ، وَهَكَذَا يَفْعَلُونَ

الْآنَ : ظَهَرَتْ لَهُمْ فِي عَصْرِنَا عِدَّةُ آيَاتٍ رُوحِيَّةٍ مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرِ فِي الْمَادَّةِ فَشَبَّهُوهَا بِمَا عَرَفُوا مِنْ نَقْلِ الْكَلَامِ بِالسَّيَّالِ الْكَهْرَبَائِيِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ ، حَتَّى لَا يَعْتَرِفُوا بِآيَةٍ إِبْدَاعِيَّةٍ مِنَ الْخَالِقِ لَا تَخْضَعُ لِعِلْمِهِمْ .

الْخَطَرُ عَلَى الْبَشَرِ مِنِ ارْتِقَاءِ الْعِلْمِ بِدُونِ الدِّينِ :

إِنَّ حِرْمَانَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ مِنَ الْإِيمَانِ بِآيَةِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ هَذَا النَّوْعِ ، قَدْ جَعَلَ حَظَّ الْبَشَرِ مِنْ هَذَا الِارْتِقَاءِ الْعَجِيبِ فِي الْعِلْمِ أَنَّهُمُ ازْدَادُوا بِهِ شَقَاءً ، حَتَّى صَارَتْ حَضَارَتُهُمْ مُهَدَّدَةً بِالتَّدْمِيرِ الْعِلْمِيِّ الصِّنَاعِيِّ فِي كُلِّ يَوْمٍ ، وَجَمِيعُ عُلَمَائِهِمُ الْمُصْلِحِينَ وَسَاسَتِهِمُ الدَّهَاقِينَ فِي حَيْرَةٍ مِنْ تَلَافِي هَذَا الْخَطَرِ ، وَلَنْ يُتَلَافَى إِلَّا بِالْجَمْعِ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالدِّينِ ، وَهَذَا مَا جَاءَهُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ; وَلِأَجْلِهِ أَثْبَتَ الْآيَاتِ بِكِتَابِهِ وَفِي كِتَابِهِ الْمُبِينِ ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْضَعَ الْبَشَرُ إِلَّا لِمَا هُوَ فَوْقَ اسْتِطَاعَتِهِمْ ، بِقِيَامِ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّهُ مِنَ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الْإِلَهِيِّ الَّذِي فَوْقَ اسْتِعْدَادِهِمْ ، وَسَنُبَيِّنُ هَذَا الْجَمْعَ فِيمَا يَأْتِي مِنْ هَذَا الْبَحْثِ الْمُثْبِتِ لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ

.

الْمَقْصِدُ الثَّالِثُ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ

(بَيَانُ أَنَّ الْإِسْلَامَ دِينُ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ ، وَالْعَقْلِ وَالْفِكْرِ ، وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ ، وَالضَّمِيرِ وَالْوِجْدَانِ ، وَالْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ) .

قَدْ أَتَى عَلَى الْبَشَرِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَا يَعْرِفُونَ مِنَ الدِّينِ إِلَّا أَنَّهُ تَعَالِيمُ خَارِجَةٌ عَنْ مُحِيطِ الْعَقْلِ ، كُلِّفَ الْبَشَرُ بِهَا مُقَاوَمَةَ فِطْرَتِهِمْ ، وَتَعْذِيبَ أَنْفُسِهِمْ ، وَمُكَابَرَةَ عُقُولِهِمْ وَبَصَائِرِهِمْ ، خُضُوعًا لِلرُّؤَسَاءِ الَّذِينَ يُلَقِّنُونَهُمْ إِيَّاهَا ، فَإِنِ انْقَادُوا لِسَيْطَرَتِهِمْ عَلَيْهِمْ بِهَا كَانُوا مِنَ الْفَائِزِينَ ، وَإِنْ خَالَفُوهُمْ سِرًّا أَوْ جَهْرًا كَانُوا مِنَ الْهَالِكِينَ .

حَتَّى إِذَا بَعَثَ اللهُ مُحَمَّدًا خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُزَكِّيهِمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ الْمُبِينِ – بَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ دِينَ اللهِ الْإِسْلَامَ هُوَ دِينُ الْفِطْرَةِ ، وَالْعَقْلِ وَالْفِكْرِ ، وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَالْبُرْهَانِ وَالْحُجَّةِ ، وَالضَّمِيرِ وَالْوِجْدَانِ ، وَالْحُرِّيَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ ، وَأَنْ لَا سَيْطَرَةَ عَلَى رُوحِ الْإِنْسَانِ وَعَقْلِهِ وَضَمِيرِهِ لِأَحَدٍ مِنْ خَلْقِ اللهِ ، وَإِنَّمَا رُسُلُ اللهِ هُدَاةٌ مُرْشِدُونَ ، مُبَشِّرُونَ وَمُنْذِرُونَ ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْمَقْصِدِ الَّذِي قَبْلَ هَذَا ، وَنُبَيِّنُ هَذِهِ الْمَزَايَا بِالشَّوَاهِدِ الْمُخْتَصَرَةِ مِنَ الْقُرْآنِ فَنَقُولُ :

(1) الْإِسْلَامُ دِينُ الْفِطْرَةِ :

قَالَ اللهُ تَعَالَى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (30 : 30) الْحَنِيفُ صِفَةٌ مِنَ الْحَنَفِ (بِالتَّحْرِيكِ) وَهُوَ الْمَيْلُ عَنِ الْعِوَجِ إِلَى الِاسْتِقَامَةِ . وَعَنِ الضَّلَالَةِ إِلَى الْهُدَى ، وَعَنِ الْبَاطِلِ إِلَى الْحَقِّ ، وَيُقَابِلُهُ الزَّيْغُ وَهُوَ الْمَيْلُ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ إِلَخْ . وَفِطْرَةُ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا هِيَ الْجِبِلَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ ، الْجَامِعَةُ بَيْنَ الْحَيَاتَيْنِ : الْجِسْمَانِيَّةِ الْحَيَوَانِيَّةِ ، وَالرُّوحَانِيَّةِ الْمَلَكِيَّةِ ، وَالِاسْتِعْدَادُ لِمَعْرِفَةِ عَالَمِ الشَّهَادَةِ وَعَالَمِ الْغَيْبِ فِيهِمَا ، وَمَا أُودِعَ فِيهَا مِنْ غَرِيزَةِ الدِّينِ الْمُطْلَقِ ، الَّذِي هُوَ الشُّعُورُ الْوِجْدَانِيُّ بِسُلْطَانٍ غَيْبِيٍّ

(323/356)

فَوْقَ قُوَى الْكَوْنِ وَالسُّنَنِ وَالْأَسْبَابِ الَّتِي قَامَ بِهِمَا نِظَامُ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْعَالَمِ ، فَرَبُّ هَذَا السُّلْطَانِ هُوَ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا ، وَالْمَصْدَرُ الذَّاتِيُّ لِلنَّفْعِ وَالضُّرِّ الْمُحَرِّكَيْنِ لِشُعُورِ التَّعَبُّدِ الْفِطْرِيِّ ، وَطَلَبِ الْعِرْفَانِ الْغَيْبِيِّ ، فَالْعِبَادَةُ الْفِطْرِيَّةُ هِيَ التَّوَجُّهُ الْوِجْدَانِيُّ إِلَى هَذَا الرَّبِّ الْغَيْبِيِّ فِي كُلِّ مَا يَعْجِزُ الْإِنْسَانُ عَنْهُ مِنْ نَفْعٍ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَيَعْجِزُ عَنْهُ بِكَسْبِهِ ، وَدَفْعِ ضُرٍّ يَمَسُّهُ أَوْ يَخَافُهُ وَيَرَى أَنَّهُ يَعْجِزُ عَنْ دَفْعِهِ بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَفِي كُلِّ مَا تَشْعُرُ فِطْرَتُهُ بِاسْتِعْدَادِهَا لِمَعْرِفَتِهِ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ مِمَّا لَا نِهَايَةَ لَهُ .

وَأَعْنِي بِالْإِنْسَانِ جِنْسَهُ ، فَمَا يَعْجِزُ عَنْهُ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ دُونَ أَبْنَاءِ جِنْسِهِ فَإِنَّهُ يَعُدُّهُ مِنْ مَقْدُورِهِ ، وَيَعُدُّ مُسَاعَدَةَ غَيْرِهِ لَهُ مِنْ جِنْسِ كَسْبِهِ ، فَطَلَبُهُ لِلْمُسَاعَدَةِ مِنْ أَمْثَالِهِ لَيْسَ فِيهَا مَعْنَى التَّعَبُّدِ عِنْدَ أَحَدٍ مِنَ الْبَشَرِ – فَتَعْظِيمُ الْفَقِيرِ لِلْغَنِيِّ بِوَسَائِلِ اسْتِجْدَائِهِ ، وَخُضُوعُ الضَّعِيفِ لِلْقَوِيِّ لِاسْتِنْجَادِهِ وَاسْتِعْدَائِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَخُنُوعُ السُّوقَةِ لِلْمَلِكِ أَوِ الْأَمِيرِ لِخَوْفِهِمْ مِنْهُ أَوْ رَجَائِهِ – لَا يُسَمَّى شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ عِبَادَةً فِي عُرْفِ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَلَا مِلَّةٍ مِنَ الْمِلَلِ ، وَإِنَّمَا رُوحُ الْعِبَادَةِ الْفِطْرِيَّةِ وَمُخُّهَا هُوَ دُعَاءُ ذِي السُّلْطَانِ الْعُلْوِيِّ وَالْقُدْرَةِ الْغَيْبِيَّةِ ، الَّتِي هِيَ فَوْقَ مَا يَعْرِفُهُ الْإِنْسَانُ وَيَعْقِلُهُ فِي عَالَمِ الْأَسْبَابِ ، وَلَاسِيَّمَا الدُّعَاءَ عِنْدَ الْعَجْزِ وَالشَّدَائِدِ . قَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ) هَكَذَا بِصِيغَةِ الْحَصْرِ ، أَيْ هُوَ الرُّكْنُ الْمَعْنَوِيُّ الْأَعْظَمُ فِيهَا لِأَنَّهُ رُوحُهَا الْمُفَسَّرُ بِرِوَايَةِ (الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ) وَكُلُّ تَعْظِيمٍ وَتَقَرُّبٍ قَوْلِيٍّ أَوْ عَمَلِيٍّ لِصَاحِبِ هَذِهِ الْقُدْرَةِ وَالسُّلْطَانِ فَهُوَ عِبَادَةٌ لَهُ – هَذَا أَصْلُ دِينِ الْفِطْرَةِ الْغَرِيزِيِّ فِي الْبَشَرِ .

وَعَلَى هَذَا الْأَصْلِ يُبْنَى الدِّينُ التَّعْلِيمِيُّ التَّشْرِيعِيُّ ، الَّذِي هُوَ وَضْعٌ إِلَهِيٌّ يُوحِيهِ اللهُ إِلَى رُسُلِهِ ، لِئَلَّا يَضِلَّ عِبَادُهُ بِضَعْفِ اجْتِهَادِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ فِي الْعَمَلِ بِمُقْتَضَى غَرِيزَةِ الدِّينِ كَمَا وَقَعَ بِالْفِعْلِ ، وَلَا يَقْبَلُهُ الْبَشَرُ بِالْإِذْعَانِ وَالْوَازِعِ النَّفْسِيِّ ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْمُلَقِّنُ لَهُمْ إِيَّاهُ مُؤَيَّدًا فِي تَبْلِيغِهِ وَتَعْلِيمِهِ مِنْ صَاحِبِ ذَلِكَ السُّلْطَانِ الْغَيْبِيِّ الْأَعْلَى ، وَالتَّصَرُّفِ الذَّاتِيِّ الْمُطْلَقِ فِي جَمِيعِ الْعَالَمِ ، الَّذِي تَخْضَعُ لَهُ الْأَسْبَابُ وَالسُّنَنُ فِيهِ وَهُوَ لَا يَخْضَعُ لَهَا ، وَهُوَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ

وَقَدْ شَرَحْنَا هَذِهِ الْحَقِيقَةَ مِرَارًا ، وَبَيَّنَّا فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْمَنَارِ مَعْنَى كَوْنِ الْإِسْلَامِ دِينَ الْفِطْرَةِ ، وَأَنَّهُ شُرِّعَ لِتَكْمِيلِ اسْتِعْدَادِ الْبَشَرِ لِلرُّقِيِّ فِي الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ ، وَمَعْرِفَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ الْمُعِدَّةِ إِيَّاهُمْ لِسَعَادَةِ الْآخِرَةِ ، فَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يُصَادِمُهَا .

فَهَذَا الدِّينُ التَّعْلِيمِيُّ حَاجَةٌ مِنْ حَاجِ الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ لَا يَتِمُّ كَمَالُهَا النَّوْعِيُّ بِدُونِهِ ، فَهُوَ لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ كَالْعَقْلِ لِأَفْرَادِهِ كَمَا حَقَّقَهُ شَيْخُنَا الْأُسْتَاذُ الْإِمَامُ .

(2) الْإِسْلَامُ دِينُ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ :

تَقْرَأُ قَامُوسَ الْكِتَابِ الْمُقَدَّسِ فَلَا تَجِدُ فِيهِ كَلِمَةَ (الْعَقْلِ) وَلَا مَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ أَسْمَاءِ هَذِهِ الْغَرِيزَةِ الْبَشَرِيَّةِ الَّتِي فَضُلَ الْإِنْسَانُ بِهَا جَمِيعَ أَنْوَاعِ هَذَا الْجِنْسِ الْحَيِّ كَاللُّبِّ وَالنُّهَى ، وَلَا أَسْمَاءَ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ وَالنَّظَرِ فِي الْعَالَمِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ وَظَائِفِ الْعَقْلِ ، وَلَا أَنَّ الدِّينَ مُوَجَّهٌ إِلَيْهِ ، وَقَائِمٌ بِهِ وَعَلَيْهِ . أَمَّا ذِكْرُ الْعَقْلِ بِاسْمِهِ وَأَفْعَالِهِ فِي الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ فَيَبْلُغُ زُهَاءَ خَمْسِينَ مَرَّةً ، وَأَمَّا ذِكْرُ (أُولِي الْأَلْبَابِ) فَفِي بِضْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً ، وَأَمَّا كَلِمَةُ (أُولِي النُّهَى) أَيِ الْعُقُولِ فَقَدْ جَاءَتْ مَرَّةً وَاحِدَةً مِنْ آخِرِ سُورَةِ طه .

(327/356)

أَكْثَرُ مَا ذُكِرَ فِعْلُ الْعَقْلِ فِي الْقُرْآنِ قَدْ جَاءَ فِي الْكَلَامِ عَلَى آيَاتِ اللهِ ، وَكَوْنِ الْمُخَاطَبِينَ وَالَّذِينَ يَفْهَمُونَهَا وَيَهْتَدُونَ بِهَا الْعُقَلَاءُ ، وَيُرَادُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ فِي الْغَالِبِ آيَاتُ الْكَوْنِ الدَّالَّةُ عَلَى عِلْمِ اللهِ وَمَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (2 : 164) وَيَلِي ذَلِكَ فِي الْكَثْرَةِ آيَاتُ كِتَابِهِ التَّشْرِيعِيَّةُ وَوَصَايَاهُ ، كَقَوْلِهِ فِي تَفْصِيلِ الْوَصَايَا الْجَامِعَةِ مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ :

(ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (6 : 151) وَكَرَّرَ قَوْلَهُ : (أَفَلَا تَعْقِلُونَ) أَكْثَرَ مِنْ عَشْرِ مِرَارٍ كَأَمْرٍ لِرَسُولِهِ أَنْ يَحْتَجَّ عَلَى قَوْمِهِ بِكَوْنِ الْقُرْآنِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لَا مِنْ عِنْدِهِ بِقَوْلِهِ : (فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (10 : 16) وَجَعَلَ إهْمَالَ اسْتِعْمَالِ الْعَقْلِ سَبَبَ عَذَابِ الْآخِرَةِ بِقَوْلِهِ فِي أَهْلِ النَّارِ مِنْ سُورَةِ الْمُلْكِ : (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ) (67 : 10) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ : (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا

(328/356)

يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (7 : 179) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الْحَجِّ : (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) (22 : 46) الْآيَةَ . كَذَلِكَ آيَاتُ النَّظَرِ الْعَقْلِيِّ وَالتَّفَكُّرِ وَالتَّفْكِيرِ كَثِيرَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ ، فَمَنْ تَأَمَّلَهَا عَلِمَ أَنَّ أَهْلَ هَذَا الدِّينِ هُمْ أَهْلُ النَّظَرِ وَالتَّفَكُّرِ وَالْعَقْلِ وَالتَّدَبُّرِ ، وَأَنَّ الْغَافِلِينَ الَّذِينَ يَعِيشُونَ كَالْأَنْعَامِ لَا حَظَّ لَهُمْ مِنْهُ إلَّا الظَّوَاهِرُ التَّقْلِيدِيَّةُ ، الَّتِي لَا تُزَكِّي الْأَنْفُسَ وَلَا تَصْعَدُ بِهَا فِي مَعَارِجِ الْكَمَالِ ، بِعِرْفَانِ ذِي الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ ، وَمِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ إنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ

مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا) (34 : 46)

وَقَوْلُهُ : (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) (30 : 8) وَقَوْلُهُ فِي صِفَاتِ الْعُقَلَاءِ أُولِي الْأَلْبَابِ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (3 : 191) وَقَوْلُهُ بَعْدَ نَفْيِ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالتَّصَرُّفِ فِي خَزَائِنِ الْأَرْضِ عَنِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَحَصْرِ وَظِيفَتِهِ فِي اتِّبَاعِ الْوَحْيِ : (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ) (6 : 50) .

(329/356)

وَقَدْ صَرَّحَ بَعْضُ حُكَمَاءِ الْغَرْبِ ، بِمَا لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ عَاقِلَانِ فِي الْأَرْضِ ، مِنْ أَنَّ التَّفَكُّرَ هُوَ مَبْدَأُ ارْتِقَاءِ الْبَشَرِ ، وَبِقَدْرِ جَوْدَتِهِ يَكُونُ تَفَاضُلُهُمْ فِيهِ اهـ . وَقَدْ كَانَتِ التَّقَالِيدُ الدِّينِيَّةُ حَجَّرَتْ حُرِّيَّةَ التَّفَكُّرِ وَاسْتِقْلَالَ الْعَقْلِ عَلَى الْبَشَرِ حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ فَأَبْطَلَ بِكِتَابِهِ هَذَا الْحَجْرَ ، وَأَعْتَقَهُمْ مِنْ هَذَا الرِّقِّ ، وَقَدْ تَعَلَّمَ هَذِهِ الْحُرِّيَّةَ أُمَمُ الْغَرْبِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ نُكِسَ هَؤُلَاءِ الْمُسْلِمُونَ عَلَى رُءُوسِهِمْ فَحَرَّمُوهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى عَادَ بَعْضُهُمْ يُقَلِّدُونَ فِيهَا مَنْ أَخَذُوهَا عَنْ أَجْدَادِهِمْ .

(3) الْإِسْلَامُ دِينُ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ :

ذُكِرَ اسْمُ الْعِلْمِ مَعْرِفَةً وَنَكِرَةً فِي عَشَرَاتٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ، وَذُكِرَتْ مُشْتَقَّاتُهُ أَضْعَافَ ذَلِكَ ، وَهُوَ يُطْلَقُ عَلَى عُلُومِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِأَنْوَاعِهَا ، فَمِنَ الْعِلْمِ الْمُطْلَقِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي وَصَايَا سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (17 : 36) قَالَ الرَّاغِبُ : أَيْ لَا تَحْكُمْ بِالْقِيَافَةِ وَالظَّنِّ . وَقَالَ الْبَيْضَاوِيُّ مَا مُلَخَّصُهُ : وَلَا تَتَّبِعْ مَا لَمْ يَتَعَلَّقْ بِهِ عِلْمُكَ تَقْلِيدًا أَوْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ فِي الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ فِي التَّارِيخِ : (ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (46 : 4) وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي عُلُومِ

(330/356)

الْبَشَرِ الْمَادِّيَّةِ : (وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (30 : 6 و7) إِلَخْ . وَقَوْلُهُ فِيهَا دُونَ الْعِلْمِ الرُّوحِيِّ : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) (17 : 85) .

وَقَوْلُهُ فِي الْعِلْمِ الْعَقْلِيِّ : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (22 : 8) الظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْعِلْمِ فِيهِ الْعِلْمُ النَّظَرِيُّ ، بِدَلِيلِ مُقَابَلَتِهِ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ وَهُوَ هُدَى الدِّينِ . وَقَوْلُهُ فِي الْعِلْمِ الطَّبِيعِيِّ : (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ) (30 : 22) بِكَسْرِ اللَّامِ أَيْ

عُلَمَاءِ الْكَوْنِ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُهُ بَعْدَ ذِكْرِ إِخْرَاجِ الثَّمَرَاتِ الْمُخْتَلِفِ أَلْوَانُهَا مِنْ مَاءِ الْمَطَرِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْوَانِ الطَّرَائِقِ فِي الْجِبَالِ وَأَلْوَانِ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ : (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) (35 :28)

الْآيَةَ . فَالْمُرَادُ بِالْعُلَمَاءِ هُنَا الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَسْرَارَ الْكَوْنِ وَأَسْبَابَ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ وَأَنْوَاعِهِ وَأَلْوَانِهَا وَآيَاتِ اللَّهِ وَحِكَمِهِ فِيهَا .

(331/356)

عَظَّمَ الْقُرْآنُ شَأْنَ الْعِلْمِ تَعْظِيمًا لَا تُعْلُوهُ عَظْمَةٌ أُخْرَى بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ) (3 : 18) الْآيَةَ ، فَبَدَأَ عَزَّ وَجَلَّ بِنَفْسِهِ وَثَنَّى بِمَلَائِكَتِهِ ، وَجَعَلَ أُولِي الْعِلْمِ فِي الْمَرْتَبَةِ الثَّالِثَةِ ، وَيَدْخُلُ فِيهَا الْأَنْبِيَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَمَنْ دُونَهُمْ مِنْ أَهْلِ الدَّرَجَاتِ فِي قَوْلِهِ : يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (58 : 11) وَأَمَرَ أَكْرَمَ رُسُلِهِ وَأَعْلَمَهُمْ بِأَنْ يَدْعُوَهُ بِقَوْلِهِ : وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (20 : 114) .

وَيُؤَيِّدُ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةَ فِي مَدْحِ الْعِلْمِ وَالْحَثِّ عَلَى مَا وَرَدَ فِي ذَمِّ اتِّبَاعِ الظَّنِّ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (10 : 36) وَمِثْلُهُ : وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ

إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (53 : 28) وَقَوْلُهُ فِي قَوْلِ النَّصَارَى بِصَلْبِ الْمَسِيحِ : مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ (4 : 157) .

(332/356)

وَبَلَغَ مِنْ تَعْظِيمِهِ لِشَأْنِ الْعِلْمِ وَالْبُرْهَانِ أَنْ قَيَّدَ بِهِ الْحُكْمَ بِمَنْعِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالنَّهْيِ عَنْهُ وَهُوَ أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ وَأَقْصَى الْكُفْرِ فَقَالَ : قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (7 : 33) السُّلْطَانُ الْبُرْهَانُ .

وَقَالَ فِي بِرِّ الْوَالِدَيْنِ الْكَافِرَيْنِ : وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا (29 : 8) وَمَعْلُومٌ مِنَ الدِّينِ بِالضَّرُورَةِ أَنَّ الشِّرْكَ بِاللَّهِ لَا يَكُونُ بِعِلْمٍ وَلَا بِبُرْهَانٍ ، لِأَنَّهُ ضَرُورِيُّ الْبُطْلَانِ ، وَتَرَى تَفْصِيلَ هَذَا فِيمَا بَعْدَهُ مِنْ تَعْظِيمِ أَمْرِ الْحُجَّةِ وَالدَّلِيلِ وَمَا يَلِيهِ مِنْ ذَمِّ التَّقْلِيدِ .

(333/356)

وَأَمَّا الْحِكْمَةُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي تَعْظِيمِ شَأْنِهَا الْمُطْلَقِ : يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (2 : 269) : وَقَالَ تَعَالَى فِي بَيَانِ مُرَادِهِ مِنْ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (62 : 2) وَفِي مَعْنَاهَا آيَتَانِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ . وَقَالَ لِرَسُولِهِ مُمْتَنًّا عَلَيْهِ : وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (4 : 113) وَقَالَ لَهُ : ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ (16 : 125) وَقَالَ لَهُ فِي خَاتِمَةِ الْوَصَايَا بِأُمَّهَاتِ الْفَضَائِلِ وَالنَّهْيِ عَنْ كَبَائِرِ الرَّذَائِلِ ، مَعَ بَيَانِ عِلَلِهَا وَمَا لَهَا مِنَ الْعَوَاقِبِ :

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ (17 : 39) وَقَالَ لِنِسَائِهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ : وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ (33 : 34) .

(334/356)

وَقَدْ آتَى اللهُ جَمِيعَ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ الْحِكْمَةَ ، وَلَكِنْ أَضَاعَهَا أَقْوَامُهُمْ مِنْ بَعْدِهِمْ بِالتَّقَالِيدِ وَالرِّيَاسَةِ الدِّينِيَّةِ ، وَنَسَخَهَا بُولُسُ مِنَ النَّصْرَانِيَّةِ بِنَصٍّ صَرِيحٍ . قَالَ اللهُ تَعَالَى فِي الْيَهُودِ : أَمْ

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (4 : 54) فَالْكِتَابُ أَعْلَى مَا يُؤْتِيهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ مِنْ نِعَمِهِ وَيَلِيهِ الْحِكْمَةُ وَيَلِيهَا الْمُلْكُ . وَقَالَ فِي نَبِيِّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ (2 : 251) وَقَالَ لِنَبِيِّهِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (5 : 110) وَقَالَ : وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ (31 : 12) وَذَكَرَ مِنْ حِكْمَتِهِ وَصَايَاهُ لِابْنِهِ بِالْفَضَائِلِ وَمَنَافِعِهَا وَنَهْيَهُ عَنِ الرَّذَائِلِ مُعَلَّلَةً بِمَضَارِّهَا . فَالْحِكْمَةُ أَخَصُّ مِنَ الْعِلْمِ ، هِيَ الْعِلْمُ بِالشَّيْءِ عَلَى حَقِيقَتِهِ وَبِمَا فِيهِ مِنَ الْفَائِدَةِ وَالْمَنْفَعَةِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْعَمَلِ ، فَهِيَ بِمَعْنَى الْفَلْسَفَةِ الْعَمَلِيَّةِ كَعِلْمِ النَّفْسِ وَالْأَخْلَاقِ وَأَسْرَارِ الْخَلْقِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ وَصَايَا سُورَةِ الْإِسْرَاءِ : ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ (17 : 39) وَلَوْلَا اقْتِرَانُ تِلْكَ الْوَصَايَا بِحِكَمِهَا وَعِلَلِهَا وَمَنَافِعِهَا لَمَا سُمِّيَتْ حِكْمَةً . أَلَا تَرَى أَنَّهُ سَمَّى

(335/356)

فِيهَا الْمُبَذِّرِينَ لِلْمَالِ (إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ) لِأَنَّهُمْ يُفْسِدُونَ نِظَامَ الْمَعِيشَةِ بِإِسْرَافِهِمْ ، وَيَكْفُرُونَ النِّعْمَةَ بِعَدَمِ حِفْظِهَا وَوَضْعِهَا فِي مَوَاضِعِهَا بِالِاعْتِدَالِ ، وَلِذَلِكَ قَالَ عَقِبَهُ : وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (17 : 27) ثُمَّ قَالَ : (وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ

فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا) (17 : 29) فَعَلَّلَ الْإِسْرَافَ فِي الْإِنْفَاقِ بِأَنَّ عَاقِبَةَ فَاعِلِهِ أَنْ يَكُونَ مَلُومًا مِنَ النَّاسِ وَمَحْسُورًا فِي نَفْسِهِ ، وَالْمَحْسُورُ مَنْ حُسِرَ عَنْهُ سَتْرُهُ فَانْكَشَفَ مِنْهُ الْمُغَطَّى ، وَيُطْلَقُ عَلَى مَنِ انْحَسَرَتْ قُوَّتُهُ وَانْكَشَفَتْ عَنْ عَجْزِهِ ، وَالْمَحْسُورُ الْمَغْمُومُ أَيْضًا . وَكُلُّ هَذِهِ الْمَعَانِي تَصِحُّ فِي وَصْفِ الْمُسْرِفِ فِي النَّفَقَةِ ، يُوقِعُهُ إِسْرَافُهُ فِي الْعُدْمِ وَالْفَقْرِ إِلَخْ . وَحَسِيرُ الْبَصَرِ كَلِيلُهُ وَقَصِيرُهُ .

وَيَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ ذِكْرُ الْفِقْهِ ، وَهُوَ الْفَهْمُ الدَّقِيقُ لِلْحَقَائِقِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْعَالِمُ حَكِيمًا .

(4) الْإِسْلَامُ دِينُ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ :

(336/356)

قَالَ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (4 : 174) وَقَالَ : وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (23 : 117) قَيَّدَ الْوَعِيدَ عَلَى الشِّرْكِ بِكَوْنِهِ لَا بُرْهَانَ لِصَاحِبِهِ يَحْتَجُّ بِهِ عِنْدَ رَبِّهِ ، مَعَ الْعِلْمِ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا كَذَلِكَ تَعْظِيمًا لِشَأْنِ الْبُرْهَانِ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَبْعَثُ الْأُمَمَ مَعَ رُسُلِهِمْ وَوَرَثَتِهِمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ عَلَيْهِمْ وَيُطَالِبُهُمْ بِحَضْرَتِهِمْ بِالْبُرْهَانِ عَلَى مَا خَالَفُوهُمْ فِيهِ كَمَا قَالَ :

وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28 : 75) .

وَأَقَامَ الْبُرْهَانَ الْعَقْلِيَّ عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ بِقَوْلِهِ بَعْدَ ذِكْرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِنْ سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (21 : 220) ثُمَّ قَفَّى عَلَيْهِ بِمُطَالَبَةِ الْمُشْرِكِينَ بِالْبُرْهَانِ عَلَى مَا اتَّخَذُوهُ مِنَ الْآلِهَةِ مِنْ دُونِهِ مُطَالَبَةَ تَعْجِيزٍ فَقَالَ : (أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ) (21 : 24) الْآيَةَ ، وَمِثْلُهُ فِي سُورَةِ النَّمْلِ : أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (27 : 64) .

(337/356)

وَقَالَ فِي سِيَاقِ مُحَاجَّةِ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ وَإِقَامَةِ الْبَرَاهِينِ الْعِلْمِيَّةِ لَهُمْ عَلَى بُطْلَانِ شِرْكِهِمْ : (وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (6 : 81) ثُمَّ قَالَ فِي آخِرِهِ : (وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ) (6 : 83) فَالدَّرَجَاتُ هُنَا دَرَجَاتُ الْحُجَّةِ وَالْبُرْهَانِ الْعَقْلِيِّ عَلَى الْعِلْمِ ، وَلِذَلِكَ قَدَّمَ فِيهِ ذِكْرَ

الْحِكْمَةِ عَلَى الْعِلْمِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْعِلْمِ آيَةُ رَفْعِ الدَّرَجَاتِ فِيهِ .

وَمِمَّا جَاءَ فِيهِ الْبُرْهَانُ بِلَفْظِ السُّلْطَانِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا) (40 : 35) الْآيَةَ ، وَفِي مَعْنَاهَا مِنْ هَذِهِ السُّورَةِ (إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ) (40 : 56) الْآيَةَ ، وَفِي عِدَّةِ سُوَرٍ أَنَّهُ تَعَالَى أَرْسَلَ مُوسَى إِلَى فِرْعَوْنَ بِآيَاتِهِ وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ .

(5) الْإِسْلَامُ دِينُ الْقَلْبِ وَالْوِجْدَانِ وَالضَّمِيرِ :

(338/356)

قَالَ الْفَيُّومِيُّ فِي الْمِصْبَاحِ : ضَمِيرُ الْإِنْسَانِ قَلْبُهُ وَبَاطِنُهُ ، وَقَالَ : وَالْقَلْبُ مِنَ الْفُؤَادِ مَعْرُوفٌ - يَعْنِي أَنَّهُ ضَمِيرُهُ وَوِجْدَانُهُ الْبَاطِنُ (قَالَ) : وَيُطْلَقُ عَلَى الْعَقْلِ اهـ . وَقَدْ شَرَحْنَا مَعْنَاهُ هَذَا وَطَرِيقَ اسْتِعْمَالِهِ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ الْأَعْرَافِ وَقَدْ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي مِائَةِ آيَةٍ وَبِضْعَ عَشْرَةَ آيَةً .

مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ ق : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (50 : 37) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّعَرَاءِ : (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ

بِقَلْبٍ سَلِيمٍ) (26 : 88 ، 89) وَمَدْحُهُ لِخَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بِقَوْلِهِ (إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ) (37 : 84) وَقَوْلُهُ حِكَايَةً عَنْهُ (وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي) (2 : 26) وَقَوْلُهُ فِي صِفَةِ الْمُؤْمِنِينَ : (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (13 : 28)

وَقَوْلُهُ فِي صِفَاتِ الَّذِينَ اتَّبَعُوا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : (وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا) (57 : 72) وَوَصَفَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخُشُوعِ وَالْإِخْبَاتِ لِلَّهِ وَتَمْحِيصِهَا مِنَ الشَّوَائِبِ ، وَقُلُوبَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ بِالرِّجْسِ وَالْمَرَضِ وَالْقَسْوَةِ وَالزَّيْغِ . وَعَبَّرَ عَنْ فَقْدِهَا لِلِاسْتِعْدَادِ لِلْحَقِّ وَالْخَيْرِ بِالطَّبْعِ وَالْخَتْمِ وَالرَّيْنِ عَلَيْهَا ، أَيْ أَنَّهَا كَالْمَخْتُومِ عَلَيْهِ فَلَا يَدْخُلُهُ شَيْءٌ جَدِيدٌ .

(339/356)

وَإِذْ كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ ، وَحُرِّيَّةِ الضَّمِيرِ وَالْوِجْدَانِ ، مَنَعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّصَارَى وَغَيْرُهُمْ مِنَ الْإِكْرَاهِ فِي الدِّينِ وَالْإِجْبَارِ عَلَيْهِ وَالْفِتْنَةِ وَالِاضْطِهَادِ لِمُخَالِفِيهِمْ فِيهِ ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ كَثِيرَةٌ بَيَّنَّاهَا فِي مَحَلِّهَا ، وَمِنْ دَلَائِلِهَا ذَمُّ الْقُرْآنِ لِلتَّقْلِيدِ وَتَضْلِيلُ أَهْلِهِ .

(6) مَنْعُ التَّقْلِيدِ وَالْجُمُودِ عَلَى اتِّبَاعِ الْآبَاءِ وَالْجُدُودِ :

كُلُّ مَا نَزَلَ مِنَ الْآيَاتِ فِي مَدْحِ الْعِلْمِ وَفَضْلِهِ وَاسْتِقْلَالِ الْعَقْلِ وَالْفِكْرِ وَحُرِّيَّةِ الْوِجْدَانِ يَدُلُّ عَلَى ذَمِّ التَّقْلِيدِ ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَمِّهِ وَالنَّعْيِ عَلَى أَهْلِهِ آيَاتٌ كَثِيرَةٌ كَقَوْلِهِ : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ) (2 : 170) وَقَوْلُهُ تَعَالَى : وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (5 : 104) ذَمَّهُمْ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ : (إِحْدَاهُمَا) الْجُمُودُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَالِاكْتِفَاءُ بِهِ عَنِ التَّرَقِّي فِي الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ شَأْنِ الْإِنْسَانِ الْحَيِّ الْعَاقِلِ ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ تَقْتَضِي النُّمُوَّ وَالتَّوْلِيدَ ، وَالْعَقْلَ يَطْلُبُ الْمَزِيدَ وَالتَّجْدِيدَ . (وَالثَّانِيَةُ) أَنَّهُمْ بِاتِّبَاعِهِمْ لِآبَائِهِمْ قَدْ فَقَدُوا مَزِيَّةَ الْبَشَرِ فِي التَّمْيِيزِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ ، بِطَرِيقِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ ، وَطَرِيقِ الِاهْتِدَاءِ فِي الْعَمَلِ ، وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ : (وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (7 : 28) وَقَالَ تَعَالَى فِي عِبَادَةِ الْعَرَبِ لِلْمَلَائِكَةِ : وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ

مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (43 : 20 – 23) وَقَدْ وَرَدَتِ الشَّوَاهِدُ عَلَى هَذَا فِي قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ قَوْمِهِ فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ وَالشُّعَرَاءِ وَالصَّافَّاتِ .

فَالْقُرْآنُ قَدْ جَاءَ يَهْدِي جَمِيعَ مُتَّبِعِي الْمِلَلِ وَالْأَدْيَانِ السَّابِقَةِ إِلَى اسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ مَعَ ضَمَائِرِهِمْ لِلْوُصُولِ إِلَى الْعِلْمِ وَالْهُدَى فِي الدِّينِ ، وَأَلَّا يَكْتَفُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُهُمْ وَأَجْدَادُهُمْ مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنَّ

هَذَا جِنَايَةٌ عَلَى الْفِطْرَةِ الْبَشَرِيَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْفِكْرِ

(342/356)

وَالْقَلْبِ الَّتِي امْتَازَ بِهَا الْبَشَرُ ، وَبِهَذَا الْعِلْمِ وَالْهُدَى امْتَازَ الْإِسْلَامُ وَدَخَلَ فِيهِ الْعُقَلَاءُ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ أَفْوَاجًا ، ثُمَّ نُكِسَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى رُءُوسِهِمْ وَاتَّبَعُوا سُنَنَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَغَيْرِهِمْ فِي التَّقْلِيدِ لِآبَائِهِمْ وَمَشَايِخِهِمُ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى بَعْضِ أَئِمَّةِ عُلَمَائِهِمْ ، الَّذِينَ

نَهَوْهُمْ عَنِ التَّقْلِيدِ وَلَمْ يَأْمُرُوهُمْ بِهِ ، فَأَبْطَلُوا بِذَلِكَ حُجَّةَ اللهِ تَعَالَى عَلَى الْأُمَمِ وَصَارُوا حُجَّةً عَلَى دِينِهِمْ ، حَتَّى إِنَّ أَدْعِيَاءَ الْعِلْمِ الرَّسْمِيِّ فِيهِمْ يُنْكِرُونَ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ عَلَى مَنْ يَدْعُونَهُمْ إِلَى اتِّبَاعِ كِتَابِ اللهِ وَهَدْيِ رَسُولِهِ وَسِيرَةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ مِنْ أَهْلِهِ وَنَحْنُ مَعَهُمْ فِي بَلَاءٍ وَعَنَاءٍ ، نُقَاسِي مِنْهُمْ مَا شَاءَ الْجَهْلُ وَالْجُمُودُ مِنِ اسْتِهْزَاءٍ وَطَعْنٍ وَبَذَاءٍ ، وَتَهَكُّمٍ بِلَقَبِ (الْمُجْتَهِدِ) الَّذِي احْتَكَرَهُ الْجَهْلُ لِبَعْضِ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ .

(343/356)

وَلَوْ كَانَ فِينَا عُلَمَاءُ كَثِيرُونَ يُظْهِرُونَ الْإِسْلَامَ فِي صُورَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ الْعِلْمِيَّةِ الْعَقْلِيَّةِ ، لَدَخَلَ النَّاسُ الْمُسْتَقِلُّونَ فِي الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ أَفْوَاجًا حَتَّى يَعُمَّ الدُّنْيَا ، لِأَنَّ التَّعْلِيمَ الْعَصْرِيَّ فِي جَمِيعِ مَدَارِسِ الْأَرْضِ يَجْرِي عَلَى طَرِيقَةِ الِاسْتِقْلَالِ فِي الْفَهْمِ وَاتِّبَاعِ الدَّلِيلِ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْأَفْرُعِ وَالْبِلَادِ الْمُقَلِّدَةِ لَهُمْ : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ هَؤُلَاءِ يَرَوْنَ جَمِيعَ الْأَدْيَانِ تَقْلِيدِيَّةً وَيَعْتَدُّونَهَا نُظُمًا أَدَبِيَّةً وَاجْتِمَاعِيَّةً لِلْأُمَمِ ، فَلِهَذَا يَرَوْنَ الْأَوْلَى بِحِفْظِ نِظَامِهِمُ اتِّبَاعَ دِينِهِمُ التَّقْلِيدِيِّ ، وَبِهَذَا يَعْسُرُ عَلَيْنَا أَنْ نُقْنِعَهُمْ بِامْتِيَازِ الْإِسْلَامِ عَلَى دِينِهِمْ ، لِأَنَّهُ يَقِلُّ فِينَا مَنْ يَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِ الْإِسْلَامِ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خَصَّهُ بِهَا الْقُرْآنُ وَمَا بَيَّنَهُ مِنْ سُنَّةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –

وَسِيرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ وَالسَّلَفِ الصَّالِحِينَ ، رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

(دَحْضُ شُبْهَةٍ ، وَإِقَامَةُ حُجَّةٍ)

(344/356)

يَتَوَهَّمُ بَعْضُ الْمُقَلِّدِينَ أَنَّ دَعْوَةَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الِاهْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالِاسْتِقْلَالِ فِي فَهْمِهِمَا الَّتِي اشْتُهِرَ الْمَنَارُ فِي عَصْرِنَا بِهَا ، هِيَ الَّتِي جَرَّأَتْ بَعْضَ الْجَاهِلِينَ عَلَى دَعْوَى الِاجْتِهَادِ فِي الشَّرِيعَةِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ تَقْلِيدِ الْأَئِمَّةِ وَالِانْتِقَادِ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اتِّبَاعِهِمْ بِمَا هُوَ ابْتِدَاعٌ جَدِيدٌ ، وَاسْتِبْدَالٌ لِلْفَوْضَى بِالتَّقْلِيدِ ، وَهُوَ وَهْمٌ سَبَبُهُ الْجَهْلُ بِالدِّينِ وَبِالتَّارِيخِ فَمَذَاهِبُ الِابْتِدَاعِ وَالْإِلْحَادِ قَدِيمَةٌ قَدْ نَجَمَتْ قُرُونُهَا فِي خَيْرِ الْقُرُونِ وَعَهْدِ أَكْبَرِ الْأَئِمَّةِ ، وَكَانَ أَشَدَّهَا إِفْسَادًا لِلدِّينِ الدَّعْوَةُ إِلَى اتِّبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْمَعْصُومِينَ الَّذِينَ لَا يُسْأَلُونَ عَنِ الدَّلِيلِ ، عَلَى خِلَافِ مَا كَانَ عَلَيْهِ أَئِمَّةُ السُّنَّةِ مِنْ تَحْرِيمِ اتِّبَاعِ أَحَدٍ لِذَاتِهِ فِي الدِّينِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ الْمَعْصُومِ الَّذِي لَا مَعْصُومَ بَعْدَهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ، وَلَكِنَّ الْمُقَلِّدِينَ لِهَؤُلَاءِ الْمُحَرِّمِينَ لِلتَّقْلِيدِ قَدِ اتَّبَعُوا الْقَائِلِينَ بِعِصْمَةِ أَئِمَّتِهِمْ ، حَتَّى مَلَاحِدَةِ الْبَاطِنِيَّةِ مِنْهُمْ ، فَهُمْ يَرُدُّونَ نُصُوصَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَقْوَالِ أَئِمَّتِهِمْ بَلْ بِأَقْوَالِ كُلِّ مَنْ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَدْعِيَاءِ الْعِلْمِ .

وَإِنَّمَا تَرُوجُ الْبِدَعُ فِي سُوقِ التَّقْلِيدِ الَّذِي يَتْبَعُ أَهْلُهُ كُلَّ نَاعِقٍ ، لَا فِي سُوقِ الِاسْتِقْلَالِ وَالْأَخْذِ بِالدَّلَائِلِ

(345/356)

وَمِنْ بَابِ التَّقْلِيدِ دَخَلَ أَكْثَرُ الْخُرَافَاتِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، لِانْتِسَابِ جَمِيعِ الدَّجَّالِينَ مِنْ أَهْلِ الطَّرَائِقِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَئِمَّةِ الْمَذَاهِبِ الْمُجْتَهِدِينَ ، وَهُمْ فِي دَعْوَى اتِّبَاعِهِمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ، وَنَحْنُ دُعَاةُ الْعِلْمِ الصَّحِيحِ وَالِاهْتِدَاءِ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَحَقُّ مِنْهُمْ بِاتِّبَاعِ الْأَئِمَّةِ .

إِنَّ فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ وَالْفِقْهِ وَالتَّصَوُّفِ وَشُرُوحِ الْأَحَادِيثِ لِلْعُلَمَاءِ الْمَنْسُوبِينَ إِلَى الْأَئِمَّةِ كَثِيرًا مِنَ الْبِدَعِ وَالْخُرَافَاتِ الَّتِي يَتَبَرَّأُ مِنْهَا أَئِمَّةُ الْهُدَى ، وَتَرَى عُلَمَاءَ الرُّسُومِ الْجَامِدِينَ يَحْتَجُّونَ بِذِكْرِهَا فِي هَذِهِ الْكُتُبِ عَلَى شَرْعِيَّتِهَا وَعَلَى رَدِّ نُصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ الصَّحِيحَةِ بِهَا ، وَصَاحِبُ الْمَنَارِ قَدِ انْفَرَدَ دُونَ عُلَمَاءِ مِصْرَ بِالرَّدِّ عَلَى هَؤُلَاءِ ، وَعَلَى الْبَابِيَّةِ وَالْبَهَائِيَّةِ وَالْقَادِيَانِيَّةِ وَالتِّيجَانِيَّةِ وَالْقُبُورِيِّينَ وَسَائِرِ مُبْتَدِعَةِ عَصْرِنَا ، وَلِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةُ .

(7) الْحُرِّيَّةُ الشَّخْصِيَّةُ فِي الدِّينِ بِمَنْعِ الْإِكْرَاهِ وَالِاضْطِهَادِ وَرِيَاسَةِ السَّيْطَرَةِ :

(346/356)

هَذِهِ الْمَزِيَّةُ مِنْ مَزَايَا الْإِسْلَامِ هِيَ نَتِيجَةُ الْمَزَايَا الَّتِي بَيَّنَّا بِهَا كَوْنَهُ دِينَ الْفِطْرَةِ ، فَأَمَّا مَنْعُ الْإِكْرَاهِ فِيهِ وَعَلَيْهِ فَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – بِمَكَّةَ : (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) (10 : 99 – 101) عَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ مِنْ سُنَنِهِ فِي الْبَشَرِ أَنْ تَخْتَلِفَ عُقُولُهُمْ وَأَفْكَارُهُمْ فِي فَهْمِ الدِّينِ ، وَتَتَفَاوَتُ أَنْظَارُهُمْ فِي الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ فَيُؤْمِنُ بَعْضٌ وَيَكْفُرُ بَعْضٌ ، فَمَا كَانَ يَتَمَنَّاهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مِنْ إِيمَانِ جَمِيعِ النَّاسِ مُخَالِفٌ لِمُقْتَضَى مَشِيئَتِهِ تَعَالَى فِي اخْتِلَافِ اسْتِعْدَادِ النَّاسِ لِلْإِيمَانِ ، وَهُوَ مَنُوطٌ بِاسْتِعْمَالِ عُقُولِهِمْ وَأَنْظَارِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ هِدَايَةِ الدِّينِ وَضَلَالَةِ الْكُفْرِ .

ثُمَّ قَوْلُهُ تَعَالَى لَهُ عِنْدَمَا أَرَادَ أَصْحَابُهُ أَخْذَ مَنْ كَانَ عِنْدَ بَنِي النَّضِيرِ مِنْ أَوْلَادِهِمْ

عِنْدَ إِجْلَائِهِمْ عَنِ الْحِجَازِ وَكَانَ قَدْ تَهَوَّدَ بَعْضُهُمْ : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (2 : 256) الْآيَةَ - فَأَمَرَهُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يُخَيِّرُوهُمْ ، فَمَنِ اخْتَارَ الْيَهُودِيَّةَ أُجْلِيَ مَعَ الْيَهُودِ وَلَا يُكْرَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَمَنِ اخْتَارَ الْإِسْلَامَ بَقِيَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ .

وَأَمَّا مَنْعُ الْفِتْنَةِ ، وَهِيَ اضْطِهَادُ النَّاسِ لِأَجْلِ دِينِهِمْ حَتَّى يَتْرُكُوهُ ، فَهُوَ السَّبَبُ الْأَوَّلُ لِشَرْعِيَّةِ الْقِتَالِ فِي الْإِسْلَامِ كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ) (2 : 193) مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ . ثُمَّ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ 39 مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ الَّتِي بِلَفْظِهَا مَعَ زِيَادَةِ (كُلُّهُ) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَ هَذِهِ الْآيَةِ فِي ص 552 وَمَا بَعْدَهَا ج 9 ط الْهَيْئَةِ .

وَأَمَّا مَنْعُ رِيَاسَةِ السَّيْطَرَةِ الدِّينِيَّةِ كَالْمَعْهُودَةِ عِنْدَ النَّصَارَى فَفِيهَا آيَاتٌ مُبَيِّنَةٌ فِي الْقُرْآنِ ، وَهِيَ مَعْلُومَةٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ سِيرَةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهَا

فِي الْكَلَامِ عَلَى وَظَائِفِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَحَسْبُكَ مِنْهَا قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ) (88 : 21 ، 22) .

الْمَقْصِدُ الرَّابِعُ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ

(الْإِصْلَاحُ الاجْتِمَاعِيُّ الْإِنْسَانِيُّ وَالسِّيَاسِيُّ الَّذِي يَتَحَقَّقُ بِالْوَحَدَاتِ الثَّمَانِ)

وَحْدَةُ الْأُمَّةِ – وَحْدَةُ الْجِنْسِ الْبَشَرِيِّ – وَحْدَةُ الدِّينِ – وَحْدَةُ التَّشْرِيعِ بِالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ – وَحْدَةُ الْأُخُوَّةِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمُسَاوَاةِ فِي التَّعَبُّدِ – وَحْدَةُ الْجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ – وَحْدَةُ الْقَضَاءِ – وَحْدَةُ اللُّغَةِ .

جَاءَ الْإِسْلَامُ وَالْبَشَرُ أَجْنَاسٌ مُتَفَرِّقُونَ ، يَتَعَادَوْنَ فِي الْأَنْسَابِ وَالْأَلْوَانِ وَاللُّغَاتِ وَالْأَوْطَانِ وَالْأَدْيَانِ ، وَالْمَذَاهِبِ وَالْمَشَارِبِ ، وَالشُّعُوبِ وَالْقَبَائِلِ ، وَالْحُكُومَاتِ وَالسِّيَاسَاتِ ، يُقَاتِلُ كُلُّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ مُخَالِفَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الرَّوَابِطِ الْبَشَرِيَّةِ وَإِنْ وَافَقَهُ فِي الْبَعْضِ الْآخَرِ ، فَصَاحَ الْإِسْلَامُ بِهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً دَعَاهُمْ بِهَا إِلَى الْوَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْعَامَّةِ الْجَامِعَةِ وَفَرَضَهَا عَلَيْهِمْ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ التَّفَرُّقِ وَالتَّعَادِي وَحَرَّمَهُ عَلَيْهِمْ ، وَبَيَانُ هَذَا التَّفْرِيقِ وَمَضَارِّهِ بِالشَّوَاهِدِ التَّارِيخِيَّةِ ، وَبَيَانُ أُصُولِ الْكِتَابِ الْإِلَهِيِّ وَسُنَّةِ

(349/356)

خَاتَمِ النَّبِيِّينَ فِي الْجَامِعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ ، لَا يُمْكِنُ بَسْطُهُمَا إِلَّا بِمُصَنَّفٍ كَبِيرٍ ، فَنَكْتَفِي فِي هَذِهِ الْخُلَاصَةِ الِاسْتِطْرَادِيَّةِ فِي إِثْبَاتِ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ ، بِسَرْدِ الْأُصُولِ الْجَامِعَةِ فِي هَذَا

الْإِصْلَاحِ الْإِنْسَانِيِّ الدَّاعِي إِلَى جَعْلِ النَّاسِ مِلَّةً وَاحِدَةً ، وَدِينًا وَاحِدًا وَشَرْعًا وَاحِدًا ، وَحُكْمًا وَاحِدًا وَلِسَانًا وَاحِدًا ، كَمَا أَنَّ جِنْسَهُمْ وَاحِدٌ ، وَرَبَّهُمْ وَاحِدٌ .

وَنَبْدَأُ بِالْأَصْلِ الْجَامِعِ فِي هَذَا وَنُقَفِّي عَلَيْهِ بِالْأُصُولِ وَالشَّوَاهِدِ الْمُفَصِّلَةِ لَهُ :

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْبِيَاءِ مُخَاطِبًا أُمَّةَ الْإِسْلَامِ : (إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ) (21 : 92) .

ثُمَّ بَيَّنَ لَهَا فِي سُورَةِ (الْمُؤْمِنُونَ) أَنَّهُ خَاطَبَ جَمِيعَ النَّبِيِّينَ بِهَذِهِ الْوَحْدَةِ لِلْأُمَّةِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ) (23 : 51 ، 52) وَلَكِنْ كَانَ لِكُلِّ نَبِيٍّ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ هُمْ قَوْمُهُ ، وَأَمَّا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ فَأُمَّتُهُ جَمِيعُ النَّاسِ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْإِيمَانَ بِجَمِيعِ رُسُلِهِ وَعَدَمَ التَّفْرِقَةِ بَيْنَهُمْ كَمَا تَقَدَّمَ ، فَالْإِيمَانُ بِخَاتَمِهِمْ كَالْإِيمَانِ بِأَوَّلِهِمْ وَبِمَنْ بَيْنَهُمَا ، فَمَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الْمُلُوكِ أَوِ الْوُلَاةِ

(350/356)

فِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ ، وَمَثَلُ اخْتِلَافِ شَرَائِعِهِمْ بِنَسْخِ الْمُتَأَخِّرِ مِنْهَا لِمَا قَبْلَهُ كَمَثَلِ تَعْدِيلِ الْقَوَانِينِ فِي الدَّوْلَةِ الْوَاحِدَةِ أَيْضًا إِلَى أَنْ كَمَلَ الدِّينُ .

(الْأَصْلُ الثَّانِي) الْوَحْدَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ أَجْنَاسِ الْبَشَرِ وَشُعُوبِهِمْ وَقَبَائِلِهِمْ .

وَشَاهِدُهُ الْعَامُّ قَوْلُهُ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) (49 : 13) وَقَدْ بَلَّغَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ذَلِكَ لِلْأُمَّةِ يَوْمَ الْعِيدِ الْأَكْبَرِ بِمِنًى فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ . وَهَذِهِ الْوَحْدَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ تَتَضَمَّنُ الدَّعْوَةَ إلَى التَّآلُفِ بِالتَّعَارُفِ ، وَإِلَى تَرْكِ التَّعَادِي بِالتَّخَالُفِ .

(الْأَصْلُ الثَّالِثُ) وَحْدَةُ الدِّينِ بِاتِّبَاعِ رَسُولٍ وَاحِدٍ جَاءَ بِأُصُولِ الدِّينِ الْفِطْرِيِّ الَّذِي جَاءَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الرُّسُلِ ، وَأَكْمَلَ تَشْرِيعَهُ بِمَا يُوَافِقُ جَمِيعَ الْبَشَرِ ، وَشَاهِدُهُ الْأَعَمُّ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا) (7 : 158) وَلَمَّا كَانَ الْإِسْلَامُ دِينَ الْفِطْرَةِ وَحُرِّيَّةِ الِاعْتِقَادِ وَالْوِجْدَانِ جُعِلَ الدِّينُ اخْتِيَارِيًّا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ) (2 : 256) .

(351/356)

(الْأَصْلُ الرَّابِعُ) وَحْدَةُ التَّشْرِيعِ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْخَاضِعِينَ لِأَحْكَامِ الْإِسْلَامِ فِي الْحُقُوقِ الْمَدَنِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِيَّةِ بِالْعَدْلِ الْمُطْلَقِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِ وَالْكَافِرِ ، وَالْبَرِّ وَالْفَاجِرِ ، وَالْمَلِكِ وَالسُّوقَةِ ، وَالْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ، وَالْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ، وَسَنَذْكُرُ بَعْضَ شَوَاهِدِهِ فِي إِصْلَاحِ التَّشْرِيعِ فِيهِ .

(الْأَصْلُ الْخَامِسُ) الْوَحْدَةُ الدِّينِيَّةُ بِالْمُسَاوَاةِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ بِهَذَا الدِّينِ ، فِي أُخُوَّتِهِ الرُّوحِيَّةِ

وَعِبَادَاتِهِ ، وَفِي الِاجْتِمَاعِ الِاجْتِمَاعِيِّ مِنْهَا كَالصَّلَاةِ وَمَنَاسِكِ الْحَجِّ ، فَمُلُوكُ الْمُسْلِمِينَ وَأُمَرَاؤُهُمْ وَكِبَارُ عُلَمَائِهِمْ يَخْتَلِطُونَ بِالْفُقَرَاءِ وَالْعَوَّامِ فِي صُفُوفِ الصَّلَاةِ وَالطَّوَافِ بِالْكَعْبَةِ الْمُشَرَّفَةِ وَالْوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ وَسَائِرِ مَوَاطِنِ الْحَجِّ . لَا تَجِدُ شُعُوبَ الْإِفْرِنْجِ الْمُنْتَسِبِينَ إلَى النَّصْرَانِيَّةِ يَرْضَوْنَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْمُسَاوَاةِ الْمَعْلُومَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ بِالضَّرُورَةِ لِلْعَمَلِ بِهَا مِنْ أَوَّلِ الْإِسْلَامِ إلَى الْيَوْمِ ، قَالَ تَعَالَى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) (49 : 10) وَقَالَ فِي سِيَاقِ الْكَلَامِ عَنِ الْمُشْرِكِينَ الْمُحَارِبِينَ : (فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) (9 : 11) .

(352/356)

(الْأَصْلُ السَّادِسُ) وَحْدَةُ الْجِنْسِيَّةِ السِّيَاسِيَّةِ الدَّوْلِيَّةِ ، بِأَنْ تَكُونَ جَمِيعُ الْبِلَادِ الْخَاضِعَةِ لِلْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ مُتَسَاوِيَةً فِي الْحُقُوقِ الْعَامَّةِ ، إلَّا حَقَّ الْإِقَامَةِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ أَوِ الْحِجَازِ فَإِنَّهُ خَاصٌّ بِالْمُسْلِمِينَ ، لِأَنَّ لِلْحَرَمَيْنِ وَسِيَاجِهِمَا مِنَ الْجَزِيرَةِ حُكْمَ الْمَعَابِدِ وَالْمَسَاجِدِ ، وَحُكْمُ الْإِسْلَامِ فِي مَعَابِدِ الْمِلَلِ كُلِّهَا أَنَّهَا خَاصَّةٌ بِأَهْلِهَا وَلَهَا حُرْمَتُهَا لَا يَجُوزُ لِغَيْرِ أَهْلِهَا دُخُولُهَا بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنْهُمْ ، الْمُسْلِمُونَ وَغَيْرُهُمْ فِي هَذَا سَوَاءٌ .

(الْأَصْلُ السَّابِعُ) وَحْدَةُ الْقَضَاءِ وَاسْتِقْلَالُهُ وَمُسَاوَاةُ النَّاسِ فِيهَا أَمَامَ الشَّرِيعَةِ الْعَادِيَّةِ إلَّا أَنَّهُ

مُسْتَثْنًى مِنْهُ الْأَحْكَامُ الشَّخْصِيَّةُ الدِّينِيَّةُ ، فَإِنَّ الْإِسْلَامَ يُرَاعِي فِيهَا حُرِّيَّةَ الْعَقِيدَةِ وَالْوِجْدَانِ بِنَاءً عَلَى

أَسَاسِهِ فِي ذَلِكَ ، فَهُوَ يَسْمَحُ لِغَيْرِ الْمُسْلِمِينَ فِي أُمُورِ الزَّوْجِيَّةِ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى عُلَمَاءِ مِلَّتِهِمْ وَإِذَا تَحَاكَمُوا إِلَيْنَا فَإِنَّنَا نَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِعَدْلِ شَرِيعَتِنَا النَّاسِخَةِ لِشَرَائِعِهِمْ ، وَالْأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (5 : 42) وَقَوْلُهُ بَعْدَ آيَاتٍ : (فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ)

(5 : 48) .

(353/356)

(الْأَصْلُ الثَّامِنُ) وَحْدَةُ اللُّغَةِ ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتِمَّ الِاتِّحَادُ وَالْإِخَاءُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَصَيْرُورَةُ الشُّعُوبِ الْكَثِيرَةِ أُمَّةً وَاحِدَةً إِلَّا بِوَحْدَةِ اللُّغَةِ . وَمَا زَالَ الْحُكَمَاءُ الْبَاحِثُونَ فِي مَصَالِحِ الْبَشَرِ الْعَامَّةِ يَتَمَنَّوْنَ لَوْ يَكُونُ لَهُمْ لُغَةٌ وَاحِدَةٌ مُشْتَرَكَةٌ ، يَتَعَاوَنُونَ بِهَا عَلَى التَّعَارُفِ وَالتَّآلُفِ وَمَنَاهِجِ التَّعْلِيمِ وَالْآدَابِ وَالِاشْتِرَاكِ فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ وَالْمُعَامَلَاتِ الدُّنْيَوِيَّةِ ، وَهَذِهِ الْأُمْنِيَةُ قَدْ حَقَّقَهَا الْإِسْلَامُ بِجَعْلِ لُغَةِ الدِّينِ وَالتَّشْرِيعِ وَالْحُكْمِ لُغَةً لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَالْخَاضِعِينَ

لِشَرِيعَتِهِ ، إِذْ يَكُونُ الْمُؤْمِنُونَ مَسُوقِينَ بِاعْتِقَادِهِمْ وَوِجْدَانِهِمْ إِلَى مَعْرِفَةِ لُغَةِ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ، لِفَهْمِهِمَا وَالتَّعَبُّدِ بِهِمَا وَالِاتِّحَادِ بِإِخْوَتِهِمْ فِيهِمَا ، وَهُمَا مَنَاطُ سِيَادَتِهِمْ وَسَعَادَتِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَبِذَلِكَ كَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ بَيَانَ كَوْنِهِ كِتَابًا عَرَبِيًّا وَحُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَكَرَّرَ الْأَمْرَ بِتَدَبُّرِهِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ وَالِاتِّعَاظِ وَالتَّأَدُّبِ بِهِ ، وَأَمَّا غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ فَيَتَعَلَّمُونَ لُغَةَ الشَّرْعِ الَّذِي يَخْضَعُونَ لِحُكْمِهِ ، وَالْحُكُومَةِ الَّتِي يَتْبَعُونَهَا لِمَصَالِحِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ كَمَا هِيَ عَادَةُ الْبَشَرِ فِي ذَلِكَ ، وَكَذَلِكَ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْفُتُوحَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ كُلِّهَا .

(354/356)

وَقَدْ بَيَّنْتُ مِنْ قَبْلُ وُجُوبَ تَعَلُّمِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ ، وَكَوْنَهُ مُجْمَعًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ كَمَا قَرَّرَهُ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي رِسَالَتِهِ ، وَقَدْ جَرَى عَلَيْهِ الْعَمَلُ فِي عَهْدِ الرَّسُولِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَخُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ ، ثُمَّ خُلَفَاءِ الْأُمَوِيِّينَ وَالْعَبَّاسِيِّينَ ، إِلَى أَنْ كَثُرَ الْأَعَاجِمُ وَقَلَّ الْعِلْمُ وَغَلَبَ الْجَهْلُ ، فَصَارُوا يَكْتَفُونَ مِنْ لُغَةِ الدِّينِ بِمَا فَرَضَهُ فِي الْعِبَادَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْأَذْكَارِ (فَرَاجِعْ ذَلِكَ فِي ص 264 وَمَا بَعْدَهَا) ج 9 ط الْهَيْئَةِ .

وَلَقَدْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُنْكِرُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ التَّفَرُّقِ ،

الَّذِي يُنَافِي وَحْدَتَهُمْ وَجَعْلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ ؛ كَمَا شَبَّهَهُمْ بِقَوْلِهِ (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى لَهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى) رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وَكَانَ يَخُصُّ بِمَقْتِهِ وَإِنْكَارِهِ التَّفَرُّقَ فِي الْجِنْسِ النَّسَبِيِّ أَوِ اللُّغَةِ ، أَمَّا الْأَوَّلُ فَمَشْهُورٌ ، وَأَمَّا الثَّانِي فَيَجْمَعُهُ مَعَ الْأَوَّلِ الشَّاهِدُ الْآتِي .

رَوَى الْحَافِظُ ابْنُ عَسَاكِرَ بِسَنَدِهِ إِلَى مَالِكٍ عَنِ الزُّهْرِيِّ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ :

(355/356)

جَاءَ قَيْسُ بْنُ مُطَاطِيَّةَ إِلَى حَلْقَةٍ فِيهَا سَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ وَصُهَيْبٌ الرُّومِيُّ ، وَبِلَالٌ الْحَبَشِيُّ ، فَقَالَ : هَذَا الْأَوْسُ وَالْخَزْرَجُ قَدْ قَامُوا بِنُصْرَةِ هَذَا الرَّجُلِ فَمَا بَالُ هَذَا (يَعْنِي هَذَا الْمُنَافِقُ بِالرَّجُلِ النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَأَنَّ الْأَوْسَ وَالْخَزْرَجَ مِنْ قَوْمِهِ الْعَرَبِ يَنْصُرُونَهُ لِأَنَّهُمْ مِنْ قَوْمِهِ ، فَمَا الَّذِي يَدْعُو الْفَارِسِيَّ وَالرُّومِيَّ وَالْحَبَشِيَّ إِلَى نَصْرِهِ ؟) .

فَقَامَ إِلَيْهِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فَأَخَذَ بِتَلْبِيبِهِ (أَيْ بِمَا عَلَى لَبَبِهِ وَنَحْرِهِ مِنَ الثِّيَابِ) ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فَأَخْبَرَهُ بِمَقَالَتِهِ ، فَقَامَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – مُغْضَبًا يَجُرُّ رِدَاءَهُ حَتَّى أَتَى الْمَسْجِدَ ثُمَّ نُودِيَ : إِنَّ الصَّلَاةَ جَامِعَةٌ – وَقَالَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ ، وَالْأَبَ وَاحِدٌ ، وَإِنَّ الدِّينَ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَتِ الْعَرَبِيَّةُ بِأَحَدِكُمْ مِنْ أَبٍ وَلَا أُمٍّ ، وَإِنَّمَا هِيَ اللِّسَانُ ، فَمَنْ تَكَلَّمَ بِالْعَرَبِيَّةِ فَهُوَ عَرَبِيٌّ) فَقَامَ مُعَاذٌ ، فَقَالَ : فَمَا تَأْمُرُنِي بِهَذَا الْمُنَافِقِ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ قَالَ : (دَعْهُ إِلَى النَّارِ) فَكَانَ قَيْسٌ مِمَّنِ ارْتَدَّ فِي الرِّدَّةِ فَقُتِلَ .

(356/356)

أَرَأَيْتَ لَوْ ظَلَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هَذِهِ التَّرْبِيَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ أَكَانَ وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنَ الشِّقَاقِ وَالْحُرُوبِ بِاخْتِلَافِ الْجِنْسِ وَاللُّغَةِ كُلُّ مَا وَقَعَ وَأَدَّى بِهِمْ إِلَى هَذَا الضَّعْفِ الْعَامِّ ؟ أَرَأَيْتَ لَوْ حَافَظُوا عَلَى هَذِهِ الْأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، أَكَانَتْ هَذِهِ الْفِئَةُ مِنْ مَلَاحِدَةِ التُّرْكِ تَجِدُ سَبِيلًا لِاجْتِثَاثِ هَذِهِ الدَّوْحَةِ الْبَاسِقَةِ مِنْ جَنَّةِ حُكْمِ الْإِسْلَامِ ، وَامْتِلَاخِ هَذَا السَّيْفِ الصَّارِمِ مِنْ غِمْدِهِ ، وَالْحَيْلُولَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كِتَابِ اللهِ الْمَعْصُومِ الْمُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِ اللهِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ الْمُصْلِحِ لِشُعُوبِ الْبَشَرِ وَهِيَ بِالْعَرَبِيَّةِ ، لِأَجْلِ تَكْوِينِ هَذَا الشَّعْبِ وَمَا أُدْغِمَ وَيُدْغَمُ فِيهِ مِنَ الشُّعُوبِ تَكْوِينًا جَدِيدًا ، بِرَابِطَةِ لُغَةٍ تَخْلُقُ خَلْقًا جَدِيدًا ، لِأَجْلِ أَنْ يَلْحَقَ بِالشُّعُوبِ

الْأُورُبِّيَّةِ دَعِيًّا ، كَمَا يُلْصَقُ الْوَلَدُ بِغَيْرِ أَبِيهِ إلْصَاقًا فَرِيًّا ، فَيُقَالُ : إنَّ رَجُلًا عَظِيمًا جَدَّدَ أَوْ أَوْجَدَ شَعْبًا وَلُغَةً وَدَوْلَةً وَدِينًا ؟ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا يَبْغُونَ .

(357/356)

لَقَدْ كَانَ هَذَا الشَّعْبُ (التُّرْكُ) قَائِمًا بِاسْمِ الْإِسْلَامِ عَلَى رِيَاسَةٍ رُوحِيَّةٍ ، يَدِينُ لَهَا أَوْ بِهَا زُهَاءَ أَرْبَعِمِائَةِ مِلْيُونٍ مِنَ الْبَشَرِ ، وَلَوْ أُوتِيَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ مَا يُحْسِنُ بِهِ الْقِيَامَةَ ، وَمِنَ الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ مَا يُعَزِّزُ بِهِ الْقِيَادَةَ ، وَمِنَ النِّظَامِ مَا يُحْكِمُ بِهِ السِّيَاسَةَ ، لَأَمْكَنَهُ أَنْ يَسُوسَ بِهَا الشَّرْقَ ثُمَّ يَسُودَ بِنُفُوذِهَا الْغَرْبَ ، كَمَا كَانَ يَقْصِدُ نَابِلْيُونُ الْكَبِيرُ لَوْ تَمَّ لَهُ الْبَقَاءُ فِي مِصْرَ . يَعْتَرِضُ بَعْضُ أُولِي النَّظَرِ الْقَصِيرِ وَالْبَصَرِ الْكَلِيلِ عَلَى تَوْحِيدِ اللُّغَةِ فِي الشُّعُوبِ الْمُخْتَلِفَةِ بِأَنَّهُ خِلَافُ طَبِيعِيَّةِ الْبَشَرِ ، وَيُرَدُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّ تَوْحِيدَ الدِّينِ أَبْعَدُ مِنْ تَوْحِيدِ اللُّغَةِ عَنْ طَبِيعَةِ

(358/356)

الْبَشَرِ إنْ أُرِيدَ بِالْبَشَرِ جَمِيعُ أَفْرَادِهِمْ ، وَأَنَّ الْحُكَمَاءَ ، مَا زَالُوا يَسْعَوْنَ لِجَمْعِ الْبَشَرِ عَلَى لُغَةٍ وَاحِدَةٍ مُشْتَرَكَةٍ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنَّ تَرَقِّيَ بَعْضِ اللُّغَاتِ بِتَرَقِّي أَهْلِهَا فِي الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ

وَالسِّيَاسَةِ وَالْقُوَّةِ يَسْتَحِيلُ مَعَهُ أَنْ يَرْغَبُوا عَنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ، وَلَمْ يَسَعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِجَمْعِهِمْ عَلَى دِينٍ وَاحِدٍ ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي شَرَعَ تَوْحِيدَ الدِّينِ مَعَ شَرْعِهِ وَلُغَتِهِ لِجَمِيعِ الْبَشَرِ ، قَدْ عَلَّمَنَا أَنَّ حِكْمَةَ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِ الْإِنْسَانِ تَأْبَى أَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً تَدِينُ بِدِينٍ وَاحِدٍ (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ) (11 : 118 ، 119) وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَى هَذِهِ الرَّحْمَةِ لِيَقِلَّ الشَّقَاءُ الَّذِي يُثِيرُهُ الْخِلَافُ فِيهِمْ – هَذَا الْخِلَافُ الَّذِي جَعَلَ أَعْلَمَ شُعُوبِ الْأَرْضِ وَأَرْقَاهُمْ فِي الْعُمْرَانِ يَبْذُلُونَ فِي هَذَا الْعَهْدِ أَكْثَرَ مَا تَسْتَغِلُّهُ شُعُوبُهُمْ مِنْ ثَرْوَةِ الْعَالَمِ فِي سَبِيلِ الْحُرُوبِ الَّتِي تُنْذِرُ عُمْرَانَهُمْ بِالْخَرَابِ وَالدَّمَارِ .

(359/356)

دَعَا الْإِسْلَامُ الْبَشَرَ كُلَّهُمْ إِلَى دِينٍ وَاحِدٍ يَتَضَمَّنُ تَوْحِيدَ اللُّغَةِ وَغَيْرِهَا مِنْ مُقَوِّمَاتِ الْأُمَمِ ، فَكَانُوا يَدْخُلُونَ فِيهِ أَفْوَاجًا ، حَتَّى امْتَدَّ فِي قَرْنٍ وَاحِدٍ مَا بَيْنَ الْمُحِيطِ الْغَرْبِيِّ إِلَى الْهِنْدِ ، وَلَوْلَا مَا طَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الِابْتِدَاعِ ، وَعَلَى حُكُومَاتِهِ مِنَ الظُّلْمِ وَالِاسْتِبْدَادِ ، وَعَلَى شُعُوبِهِ مِنَ الْجَهْلِ وَالْفَسَادِ ، وَالتَّفَرُّقِ بِالِاخْتِلَافِ ، لَدَخَلَ فِيهِ أَكْثَرُ الْبَشَرِ ، وَلَصَارَتْ لُغَتُهُ لُغَةً لِكُلِّ مَنْ دَخَلَ فِي حَظِيرَتِهِ مِنَ الْأُمَمِ ، فَمِنْ غَرَائِزِهِمُ اخْتِيَارُ الْأَفْضَلِ إِذَا عَرَفُوهُ .

قَالَ أَحَدُ كِبَارِ عُلَمَاءِ الْأَلْمَانِ فِي الْأَسِتَانَةِ لِبَعْضِ الْمُسْلِمِينَ وَفِيهِمْ أَحَدُ شُرَفَاءِ مَكَّةَ : إِنَّهُ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نُقِيمَ تِمْثَالًا مِنَ الذَّهَبِ لِمُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فِي مَيْدَانِ كَذَا مِنْ عَاصِمَتِنَا (بَرْلِينْ) قِيلَ لَهُ : لِمَاذَا ؟ قَالَ : لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي حَوَّلَ نِظَامَ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ عَنْ قَاعِدَتِهِ الدِّيمُقْرَاطِيَّةِ إِلَى عَصَبِيَّةِ الْغَلَبِ ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَعَمَّ الْإِسْلَامُ الْعَالَمَ كُلَّهُ ، وَلَكُنَّا نَحْنُ الْأَلْمَانَ وَسَائِرَ شُعُوبِ أُورُبَّةَ عَرَبًا وَمُسْلِمِينَ .

(360/356)

فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ تَقْرِيرُ هَذِهِ الْأُصُولِ الَّتِي تُوَحِّدُ الْأُمَمَ وَالشُّعُوبَ ، وَتُؤَلِّفُ بَيْنَهَا بِمَا يَجْمَعُ كَلِمَتَهُمْ عَلَيْهَا بِالْوَازِعِ النَّفْسِيِّ مِنَ الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ الَّذِي نَبَعَ مِنْ نَفْسِ مُحَمَّدٍ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الْأُمِّيِّ فِي سِنِّ الْكُهُولَةِ فَفَاقَ بِهَا جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْحُكَمَاءِ ، أَمِ الْأَقْرَبُ إِلَى الْعَقْلِ أَنْ تَكُونَ بِوَحْيِ اللهِ تَعَالَى أَفَاضَهُ عَلَيْهِ ؟ ! .

الْمَقْصِدُ الْخَامِسُ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ

(تَقْرِيرُ مَزَايَا الْإِسْلَامِ الْعَامَّةِ فِي التَّكَالِيفِ الشَّخْصِيَّةِ مِنَ الْعِبَادَاتِ وَالْمَحْظُورَاتِ)

(وَنُلَخِّصُ أَهَمَّهَا بِالْإِجْمَالِ فِي عَشْرِ جُمَلٍ)

(1) كَوْنُهُ وَسَطًا جَامِعًا لِحُقُوقِ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ وَمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . قَالَ تَعَالَى :

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ) (2 : 143) الْآيَةَ . وَقَدْ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِهَا أَنَّ الْمُسْلِمِينَ وَسَطٌ بَيْنَ الَّذِينَ تَغْلِبُ عَلَيْهِمُ الْحُظُوظُ الْجَسَدِيَّةُ وَالْمَنَافِعُ الْمَادِّيَّةُ كَالْيَهُودِ ، وَالَّذِينَ تَغْلِبُ عَلَيْهِمُ التَّعَالِيمُ الرُّوحِيَّةُ ، وَتَعْذِيبُ الْجَسَدِ وَإِذْلَالُ النَّفْسِ وَالزُّهْدُ كَالْهِنْدُوسِ وَالنَّصَارَى ، وَإِنْ خَالَفَ هَذِهِ التَّعَالِيمَ أَكْثَرُهُمْ .

(361/356)

---

(2) كَوْنُ غَايَتِهِ الْوُصُولَ إِلَى سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِتَزْكِيَةِ النَّفْسِ بِالْإِيمَانِ الصَّحِيحِ ، وَمَعْرِفَةِ اللهِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ ، وَمَحَاسِنِ الْأَعْمَالِ ، لَا بِمُجَرَّدِ الِاعْتِقَادِ وَالِاتِّكَالِ ، وَلَا بِالشَّفَاعَاتِ وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ ، وَتَقَدَّمَ بَيَانُهُ .

(3) كَوْنُ الْغَرَضِ مِنْهُ التَّعَارُفَ وَالتَّأْلِيفَ بَيْنَ الْبَشَرِ ، لَا زِيَادَةَ التَّفْرِيقِ وَالِاخْتِلَافِ ، وَتَقَدَّمَتْ شَوَاهِدُهُ فِي كَوْنِهِ عَامًّا مُكَمِّلًا وَمُتَمِّمًا لِدِينِ اللهِ عَلَى أَلْسِنَةِ رُسُلِهِ فِي الْكَلَامِ عَلَى آيَةِ الْقُرْآنِ وَعُمُومِ بَعْثَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَفِي الْكَلَامِ عَلَى الرُّسُلِ مِنَ الْمَقْصِدِ الثَّانِي .

وَإِنَّمَا تَفْصِيلُ أُصُولِهِ فِي تِلْكَ الْوَحَدَاتِ الثَّمَانِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا فِي الْمَقْصِدِ الرَّابِعِ .

(4) كَوْنُهُ يُسْرًا لَا حَرَجَ فِيهِ وَلَا عُسْرَ وَلَا إِرْهَاقَ وَلَا إِعْنَاتَ ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لَا يُكَلِّفُ

اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) (2 : 286) وَقَالَ بَلَغَتْ حِكْمَتُهُ : (وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ) (2 : 220) وَقَالَ عَظُمَتْ رَأْفَتُهُ : (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) (2 : 185) وَقَالَ جَلَّتْ مِنَّتُهُ : (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) (22 : 78) وَقَالَ عَمَّتْ رَحْمَتُهُ : (مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ) (5 : 6) .

(362/356)

وَمِنْ فُرُوعِ هَذَا الْأَصْلِ ، أَنَّ الْوَاجِبَ الَّذِي يَشُقُّ عَلَى الْمُكَلَّفِ أَدَاؤُهُ وَيُحْرِجُهُ يَسْقُطُ عَنْهُ إلَى بَدَلٍ أَوْ مُطْلَقًا ، كَالْمَرِيضِ الَّذِي يُرْجَى بُرْؤُهُ ، وَالَّذِي لَا يُرْجَى بُرْؤُهُ وَمِثْلُهُ الشَّيْخُ الْهَرِمُ - الْأَوَّلُ يَسْقُطُ عَنْهُ الصِّيَامُ وَيَقْضِيهِ كَالْمُسَافِرِ ، وَالثَّانِي لَا يَقْضِي

بَلْ يُكَفِّرُ بِإِطْعَامِ مِسْكِينٍ إذَا قَدَرَ . وَأَمَّا الْمُحَرَّمُ فَيُبَاحُ لِلضَّرُورَةِ بِنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَإِنْ كَانَ تَحْرِيمُهُ أَوِ النَّهْيُ عَنْهُ لِسَدِّ ذَرِيعَةِ الْفَسَادِ فَيُبَاحُ لِلْحَاجَةِ ، كَمَا بَيَّنَّاهُ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الرِّبَا وَآيَاتِ الصِّيَامِ ، وَآيَةِ مُحَرَّمَاتِ الطَّعَامِ .

وَقَدْ بَيَّنَّا مَسْأَلَةَ يُسْرِ الْإِسْلَامِ الْعَامِّ بِالتَّفْصِيلِ فِي تَفْسِيرِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ

أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ) (5 : 101)

مِنَ الْجُزْءِ السَّابِعِ وَجُمِعَ فِي رِسَالَةٍ خَاصَّةٍ .

(363/356)

---

(5) مَنْعُ الْغُلُوِّ فِي الدِّينِ وَإِبْطَالُ جَعْلِهِ تَعْذِيبًا لِلنَّفْسِ ، بِإِبَاحَةِ الطَّيِّبَاتِ وَالزِّينَةِ بِدُونِ إِسْرَافٍ وَلَا كِبْرِيَاءَ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْوَارِدَةِ فِي الْأَمْرِ بِالْأَكْلِ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَسُورَةِ الْمَائِدَةِ وَفِي تَفْسِيرِ : (يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (7 : 31 و32) وَقَالَ تَعَالَى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) وَهُوَ فِي (4 : 171) وَ(5 : 77) وَفِي هَذَا النَّهْيِ اعْتِبَارٌ لِلْمُسْلِمِينَ ؛ لِأَنَّهُمْ أَوْلَى بِالِانْتِهَاءِ عَنِ الْغُلُوِّ بِأَنَّ دِينَهُمْ دِينُ الرَّحْمَةِ وَالْيُسْرِ . وَالْأَحَادِيثُ الصَّحِيحَةُ فِي نَهْيِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الْعِبَادَةِ وَعَنْ تَرْكِ الطَّيِّبَاتِ وَعَنِ الرَّهْبَانِيَّةِ وَالْخِصَاءِ مُبَيِّنَةٌ لِهَذِهِ الْآيَاتِ ، وَهِيَ مِصْدَاقُ تَسْمِيَةِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – لَهُ بِالْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ .

(364/356)

(6) قِلَّةُ تَكَالِيفِهِ وَسُهُولَةُ فَهْمِهَا ، وَقَدْ كَانَ الْأَعْرَابِيُّ يَجِيءُ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِنَ الْبَادِيَةِ فَيُسْلِمُ ، فَيُعْلِمُهُ مَا أَوْجَبَ اللهُ وَمَا حَرَّمَ عَلَيْهِ فِي مَجْلِسٍ وَاحِدٍ ، فَيُعَاهِدُهُ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ فَيَقُولُ : (أَفْلَحَ الْأَعْرَابِيُّ إِنْ صَدَقَ) وَكَانَ هَذَا أَعْظَمَ أَسْبَابِ قَبُولِ النَّاسِ لَهُ . وَلَكِنَّ الْفُقَهَاءَ أَكْثَرُوا التَّكَالِيفَ بِآرَائِهِمُ الِاجْتِهَادِيَّةِ حَتَّى صَارَ الْعِلْمُ بِهَا مُتَعَسِّرًا ، وَالْعَمَلُ بِهَا مُتَعَذِّرًا .

(7) انْقِسَامُ التَّكْلِيفِ إِلَى عَزَائِمَ وَرُخَصٍ ، وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُرَجِّحُ جَانِبَ الرُّخَصِ ، وَابْنُ عُمَرَ يُرَجِّحُ الْعَزَائِمَ . وَالنَّاسُ دَرَجَاتٌ فِي التَّقْصِيرِ وَالتَّشْمِيرِ وَالِاعْتِدَالِ ، فَيُوَافِقُ الْبَدَوِيَّ السَّاذَجَ وَالْفَيْلَسُوفَ الْحَكِيمَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنَ الطَّبَقَاتِ ، قَالَ اللهُ تَعَالَى : (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ) (35 : 32) .

(365/356)

(8) نُصُوصُ الْكِتَابِ وَهَدْيُ السُّنَّةِ مُرَاعًى فِيهِمَا دَرَجَاتُ الْبَشَرِ فِي الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ وَعُلُوِّ الْهِمَّةِ وَضَعْفِهَا ، فَالْقَطْعِيُّ مِنْهَا هُوَ الْعَامُّ ، وَغَيْرُ الْقَطْعِيِّ تَتَفَاوَتُ فِيهِ الْأَفْهَامُ ، فَيَأْخُذُ كُلُّ

أَحَدٍ مِنْهُ بِمَا أَدَّاهُ إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ ، وَلِذَلِكَ كَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُقِرُّ كُلَّ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِ عَلَى اجْتِهَادِهِ ، كَمَا فَعَلَ عِنْدَمَا نَزَلَتْ آيَةُ الْبَقَرَةِ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ الدَّالَّةُ عَلَى تَحْرِيمِهِمَا دَلَالَةً ظَنِّيَّةً فَتَرَكَهُمَا بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ ، وَأَقَرَّ كُلًّا عَلَى اجْتِهَادِهِ إِلَى أَنْ نَزَلَتْ آيَتَا الْمَائِدَةِ بِالتَّحْرِيمِ الْقَطْعِيِّ . قَالَ تَعَالَى : (وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ) (29 : 43) .

وَبَيَانُ ذَلِكَ أَنَّ الْفَرَائِضَ الدِّينِيَّةَ الْعَامَّةَ فِيهِ وَالْمُحَرَّمَاتِ الدِّينِيَّةَ الْعَامَّةَ لَا يَثْبُتَانِ إِلَّا بِنَصٍّ قَطْعِيٍّ يَفْهَمُهُ كُلُّ أَحَدٍ ، وَالْأَوَّلُ مَذْهَبُ الْحَنَفِيَّةِ وَأَمَّا الثَّانِي وَهُوَ التَّحْرِيمُ فَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ السَّلَفِ

أَيْضًا ، وَأَمَّا الْآيَاتُ الظَّنِّيَّةُ الدَّلَالَةِ ، وَالْأَحَادِيثُ الْأُحَادِيَّةُ الظَّنِّيَّةُ الرِّوَايَةِ أَوِ الدَّلَالَةِ ، فَهِيَ مَوْكُولَةٌ إِلَى اجْتِهَادِ مَنْ يَثْبُتُ عِنْدَهُ فِي الْعِبَادَاتِ وَالْأَعْمَالِ الشَّخْصِيَّةِ ، وَإِلَى اجْتِهَادِ أُولِي الْأَمْرِ فِي الْأَحْكَامِ الْقَضَائِيَّةِ وَالْمَسَائِلِ السِّيَاسِيَّةِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا فِي مَوَاضِعَ مِنَ التَّفْسِيرِ وَالْمَنَارِ .

(366/356)

(9) مُعَامَلَةُ النَّاسِ بِظَوَاهِرِهِمْ وَجَعْلُ الْبَوَاطِنِ مَوْكُولَةً إِلَى اللهِ تَعَالَى ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْحُكَّامِ وَلَا الرُّؤَسَاءِ الرَّسْمِيِّينَ وَلَا لِخَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُعَاقِبَ أَحَدًا وَلَا أَنْ يُحَاسِبَهُ عَلَى مَا يَعْتَقِدُ أَوْ يُضْمِرُ فِي قَلْبِهِ ، وَإِنَّمَا الْعُقُوبَاتُ عَلَى الْمُخَالَفَاتِ الْعَمَلِيَّةِ لِلْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِحُقُوقِ النَّاسِ وَمَصَالِحِهِمْ وَقَدْ فَصَّلْنَا هَذَا فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ سُورَةِ : بَرَاءَةٌ (التَّوْبَةِ) .

(10) مَدَارُ الْعِبَادَاتِ كُلِّهَا عَلَى اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِي الظَّاهِرِ ، فَلَيْسَ لِأَحَدٍ فِيهَا رَأْيٌ شَخْصِيٌّ وَلَا رِيَاسَةٌ ، وَمَدَارُهَا فِي الْبَاطِنِ عَلَى الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى وَصِحَّةِ النِّيَّةِ ، وَالْآيَاتُ وَالْأَحَادِيثُ فِي الْأَمْرَيْنِ كَثِيرَةٌ .

الْمَقْصِدُ السَّادِسُ مِنْ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ بَيَانُ حُكْمِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ الدَّوْلِيِّ

(بَيَانُ حُكْمِ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيِّ الدَّوْلِيِّ : نَوْعِهِ وَأَسَاسِهِ وَأُصُولِهِ الْعَامَّةِ)

الْإِسْلَامُ دِينُ هِدَايَةٍ وَسِيَادَةٍ وَسِيَاسَةٍ وَحُكْمٍ ؛ لِأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ إِصْلَاحِ الْبَشَرِ فِي جَمِيعِ شُؤُونِهِمُ الدِّينِيَّةِ وَمَصَالِحِهِمُ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْقَضَائِيَّةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى السِّيَادَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَإِقَامَةِ الْحَقِّ ، وَالِاسْتِعْدَادِ لِحِمَايَةِ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ ، وَفِيهِ أُصُولٌ وَقَوَاعِدُ .

(الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ الْأُولَى لِلْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ)

(367/356)

الْحُكْمُ فِي الْإِسْلَامِ لِلْأُمَّةِ ، وَشَكْلُهُ شُورَى ، وَرَئِيسُهُ الْإِمَامُ الْأَعْظَمُ أَوِ (الْخَلِيفَةُ) مُنَفِّذٌ لِشَرْعِهِ ، وَالْأُمَّةُ هِيَ الَّتِي تَمْلِكُ نَصْبَهُ وَعَزْلَهُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) (42 : 38) وَقَالَ لِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) (3 : 159) وَكَانَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي الْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ مِنْ سِيَاسِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ وَمَالِيَّةٍ مِمَّا لَا نَصَّ فِيهِ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِهَا حِكْمَةَ تَرْكِ الشُّورَى لِاجْتِهَادِ الْأُمَّةِ .

وَقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) (4 : 159) وَأُولُو الْأَمْرِ هُمْ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ وَالرَّأْيِ الْحَصِيفِ فِي مَصَالِحِهَا ، الَّذِينَ تَثِقُ بِهِمُ الْأُمَّةُ وَتَتْبَعُهُمْ فِيمَا يُقَرِّرُونَهُ ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى بَعْدَ تِلْكَ الْآيَةِ مِنْ سُورَتِهَا : (وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ) (4 : 83) فَأُولُو الْأَمْرِ الَّذِينَ كَانُوا مَعَ الرَّسُولِ ، وَكَانَ

الْأَمْرُ يُرَدُّ إِلَيْهِ وَإِلَيْهِمْ فِي الشُّئُونِ الْعَامَّةِ لِلْأُمَّةِ مِنَ الْأَمْنِ وَالْخَوْفِ وَغَيْرِهِمَا ، هُمُ الَّذِينَ كَانَ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَسْتَشِيرُهُمْ فِي الْأُمُورِ الدَّقِيقَةِ وَالسِّرِّيَّةِ الْمُهِمَّةِ . وَكَانَ يَسْتَشِيرُ جُمْهُورَ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا لَهُمْ بِهِ عَلَاقَةٌ عَامَّةٌ وَيَعْمَلُ بِرَأْيِ الْأَكْثَرِ وَإِنْ خَالَفَ رَأْيَهُ ، كَاسْتِشَارَتِهِمْ فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ فِي أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ : الْحِصَارِ فِي الْمَدِينَةِ أَوِ الْخُرُوجِ إِلَى أُحُدٍ لِلِقَاءِ الْمُشْرِكِينَ فِيهِ . وَكَانَ رَأْيُهُ وَرَأْيُ بَعْضِ كِبَارِ الْأُمَّةِ الْأَوَّلَ ، وَرَأْيُ الْجُمْهُورِ الثَّانِيَ ، فَنَفَّذَ رَأْيَ الْأَكْثَرِ ، وَلَكِنَّهُ اسْتَشَارَ فِي مَسْأَلَةِ أَسْرَى بَدْرٍ خَوَاصَّ أُولِي الْأَمْرِ وَعَمِلَ بِرَأْيِ أَبِي بَكْرٍ ، كَمَا فَصَّلْنَاهُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ .

وَقَدْ بَيَّنْتُ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ الْأُولَى (4 : 59) مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ مِنْ قَوَاعِدِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ وَكَوْنِهِ أَفْضَلَ مِنَ الْحُكْمِ النِّيَابِيِّ الَّذِي عَلَيْهِ دُوَلُ هَذَا الْعَصْرِ .

(369/356)

وَمِنَ الدَّلَائِلِ الْكَثِيرَةِ عَلَى أَنَّ التَّشْرِيعَ الْقَضَائِيَّ وَالسِّيَاسِيَّ هُوَ حَقُّ الْأُمَّةِ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا فِي الْحَدِيثِ بِالْجَمَاعَةِ ، أَنَّ الْقُرْآنَ يُخَاطِبُ بِهَا جَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ الْخَاصَّتَيْنِ بِالْحُكْمِ الْعَامِّ وَالدَّوْلَةِ وَفِي سَائِرِ الْأَحْكَامِ الْعَامَّةِ ، كَقَوْلِهِ : (بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (9 : 1) وَمَا يَلِيهَا مِنَ الْآيَاتِ الْمُتَعَلِّقَةِ بِالْمُعَاهَدَاتِ وَالْحَرْبِ

وَالصُّلْحِ ، وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنْ سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَالْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ وَمِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (49 : 9) وَكَذَلِكَ خِطَابُهُ لَهُمْ فِي أَحْكَامِ الْأَمْوَالِ كَالْغَنَائِمِ وَتَخْمِيسِهَا وَقِسْمَتِهَا وَأَحْكَامِ النِّسَاءِ وَغَيْرِهَا (وَقَدْ بَيَّنَّا هَذَا كُلَّهُ فِي مَوَاضِعِهِ مِنَ التَّفْسِيرِ) .

(370/356)

وَقَدْ صَرَّحَ كِبَارُ النُّظَّارِ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ بِأَنَّ السُّلْطَةَ فِي الْإِسْلَامِ لِلْأُمَّةِ يَتَوَلَّاهَا أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ الَّذِينَ يُنَصِّبُونَ عَلَيْهَا الْخُلَفَاءَ وَالْأَئِمَّةَ ، وَيَعْزِلُونَهُمْ ، إذَا اقْتَضَتْ الْمَصْلَحَةُ عَزْلَهُمْ قَالَ الْإِمَامُ الرَّازِيُّ فِي تَعْرِيفِ الْخِلَافَةِ : هِيَ رِئَاسَةٌ عَامَّةٌ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا لِشَخْصٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَشْخَاصِ . وَقَالَ فِي الْقَيْدِ الْأَخِيرِ (الَّذِي زَادَهُ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ) هُوَ احْتِرَازٌ عَنْ كُلِّ الْأُمَّةِ إذَا عَزَلُوا الْإِمَامَ لِفِسْقِهِ . قَالَ الْعَلَّامَةُ السَّعْدُ التَّفْتَازَانِيُّ فِي شَرْحِ الْمَقَاصِدِ عِنْدَ ذِكْرِ هَذَا التَّعْرِيفِ وَمَا عُلِّلَ بِهِ الْقَيْدَ الْأَخِيرَ : وَكَأَنَّهُ أَرَادَ بِكُلِّ الْأُمَّةِ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، وَاعْتَبَرَ رِئَاسَتَهُمْ عَلَى مَنْ عَدَاهُمْ أَوْ عَلَى كُلٍّ مِنْ آحَادِ الْأُمَّةِ . اهـ ، وَقَدْ فَصَّلْنَا مَسْأَلَةَ سُلْطَةِ الْأُمَّةِ فِي كِتَابِنَا (الْخِلَافَةُ أَوِ الْإِمَامَةُ الْعُظْمَى) .

فَهَذِهِ الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ أَعْظَمُ إِصْلَاحٍ سِيَاسِيٍّ لِلْبَشَرِ ، قَرَّرَهَا الْقُرْآنُ فِي عَصْرٍ

كَانَتْ فِيهِ جَمِيعُ الْأُمَمِ مُرْهَقَةً بِحُكُومَاتٍ اسْتِبْدَادِيَّةٍ اسْتَعْبَدَتْهَا فِي أُمُورِ دِينِهَا وَدُنْيَاهَا ، وَكَانَ أَوَّلَ مُنْقِذٍ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَلَمْ يَكُنْ يَقْطَعُ بِأَمْرٍ مِنْ أُمُورِ السِّيَاسَةِ وَالْإِدَارَةِ الْعَامَّةِ لِلْأُمَّةِ إِلَّا بِاسْتِشَارَةِ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالْمَكَانَةِ فِي الْأُمَّةِ ؛ لِيَكُونَ قُدْوَةً لِمَنْ بَعْدَهُ .

(371/356)

ثُمَّ جَرَى عَلَى ذَلِكَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ ، فَقَالَ الْخَلِيفَةُ الْأَوَّلُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي أَوَّلِ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَقِبَ مُبَايَعَتِهِ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِذَا اسْتَقَمْتُ فَأَعِينُونِي ، وَإِذَا زِغْتُ فَقَوِّمُونِي . وَقَالَ الْخَلِيفَةُ الثَّانِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - مَنْ رَأَى مِنْكُمْ فِيَّ عِوَجًا فَلْيُقَوِّمْهُ فَقَالَ لَهُ أَعْرَابِيٌّ : لَوْ رَأَيْنَا فِيكَ عِوَجًا لَقَوَّمْنَاهُ بِسُيُوفِنَا . فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي الْمُسْلِمِينَ مَنْ يُقَوِّمُ عِوَجَ عُمَرَ بِسَيْفِهِ . وَكَانَ يَجْمَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالرَّأْيِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَيَسْتَشِيرُهُمْ فِي كُلِّ مَسْأَلَةٍ لَيْسَ فِيهَا نَصٌّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةٍ أَوْ قَضَاءٌ مِنْ

رَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - . وَقَالَ الثَّالِثُ عُثْمَانُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - أَمْرِي لِأَمْرِكُمْ تَبَعٌ ، وَكَذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْخَلِيفَةِ الرَّابِعِ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَكَرَّمَ وَجْهَهُ ، وَلَا أَذْكُرُ لَهُ كَلِمَةً مُخْتَصَرَةً مِثْلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ عَلَى الْمِنْبَرِ .

وَإِذَا أَوْجَبَ اللهُ الْمُشَاوَرَةَ عَلَى رَسُولِهِ فَغَيْرُهُ أَوْلَى ، وَلَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ حُكْمُ الْإِسْلَامِ أَدْنَى مِنْ حُكْمِ مَلِكَةِ سَبَأٍ الْعَرَبِيَّةِ فَقَدْ كَانَتْ مُقَيَّدَةً بِالشُّورَى ، وَوُجِدَ ذَلِكَ فِي أُمَمٍ أُخْرَى ، وَإِنْ جَهِلَ ذَلِكَ مَنْ جَهِلَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ .

(372/356)

وَلَكِنَّ مُلُوكَ الْمُسْلِمِينَ زَاغُوا بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ هَذَا الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ وَشَايَعَهُمْ عُلَمَاءُ الرُّسُومِ الْمُنَافِقُونَ ، وَخُطَبَاءُ الْفِتْنَةِ الْجَاهِلُونَ ، حَتَّى صَارَ الْمُسْلِمُونَ يَجْهَلُونَ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِحُكُومَةِ دِينِهِمْ ، وَكَانَ مِنْ حُسْنِ حَظِّ الْإِفْرِنْجِ فِي حَرْبِهِمُ الصَّلِيبِيَّةِ أَنْ كَانَ سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي نَصَرَهُ اللهُ عَلَيْهِمْ يَقْتَفِي فِي حُكْمِهِ أَثَرَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَهُوَ صَلَاحُ الدِّينِ الْأَيُّوبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ الَّذِي قَالَ لِأَحَدِ رِجَالِهِ الْمُتَمَيِّزِينَ عِنْدَهُ وَقَدِ اسْتَعْدَاهُ عَلَى رَجُلٍ غَشَّهُ : (مَا عَسَى أَنْ أَصْنَعَ لَكَ ، وَلِلْمُسْلِمِينَ قَاضٍ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ،

وَالْحَقُّ الشَّرْعِيُّ مَبْسُوطٌ لِلْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ وَأَوَامِرُهُ وَنَوَاهِيهِ مُمْتَثَلَةٌ ، وَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ الشَّرْعِ وَشِحْنَتُهُ ، فَالْحَقُّ يَقْضِي لَكَ أَوْ عَلَيْكَ) وَمَعْنَى عِبَارَةِ السُّلْطَانِ : أَنَّهُ لَيْسَ إِلَّا

(373/356)

مُنَفِّذًا لِحُكْمِ الشَّرْعِ - كَالشِّحْنَةِ وَهُوَ صَاحِبُ الشُّرْطَةِ - وَأَنَّ الْقُضَاةَ مُسْتَقِلُّونَ بِالْحُكْمِ لِأَنَّهُمْ يَحْكُمُونَ بِالشَّرْعِ الْعَادِلِ الْمُسَاوِي بَيْنَ النَّاسِ . وَقَدِ اقْتَبَسَ الصَّلِيبِيُّونَ مِنْهُ طَرِيقَةَ حُكْمِهِ ، ثُمَّ دَرَسُوا تَارِيخَ الْإِسْلَامِ فَعَرَفُوا مِنْهُ مَا جَهِلَهُ أَكْثَرُ الْمُسْلِمِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ ، حَتَّى أَسَّسُوا حُكْمَ دُوَلِهِمْ عَلَى قَاعِدَةِ سُلْطَةِ الْأُمَّةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَصَارُوا يَدَّعُونَهَا لِأَنْفُسِهِمْ ، وَيَعِيبُونَ الْحُكُومَاتِ الْإِسْلَامِيَّةَ بِاسْتِبْدَادِهَا ، ثُمَّ يَجْعَلُ الْإِسْلَامُ نَفْسُهُ سَبَبَ هَذَا الِاسْتِبْدَادِ وَالْحُكْمِ الشَّخْصِيِّ ، وَصَارَ الْمُسْلِمُونَ يُصَدِّقُونَهُمْ ، وَيَرَى الْمُشْتَغِلُونَ بِالسِّيَاسَةِ وَعِلْمِ الْحُقُوقِ مِنْهُمْ أَنَّهُ لَا صَلَاحَ لِحُكُومَاتِهِمْ إِلَّا بِتَقْلِيدِهِمْ ، فَكَانَ هَذَا مِنْ أَسْبَابِ ضَيَاعِ أَعْظَمِ مَزَايَا الْإِسْلَامِ السِّيَاسِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ وَذَهَابِ أَكْثَرِ مُلْكِهِ .

(أُصُولُ التَّشْرِيعِ فِي الْإِسْلَامِ)

الْمَعْرُوفُ عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ أُصُولَ التَّشْرِيعِ الْأَسَاسِيَّةَ أَرْبَعَةٌ :

(1) الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ وَالْمَشْهُورُ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ أَنَّ آيَاتِ الْأَحْكَامِ الْعَمَلِيَّةَ فِيهِ مِنْ دِينِيَّةٍ

وَقَضَائِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ لَا تَبْلُغُ عُشْرَ آيَاتِهِ ، وَعَدَّهَا بَعْضُهُمْ خَمْسَمِائَةِ آيَةٍ لِلْعِبَادَاتِ وَالْمُعَامَلَاتِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ يَعْنُونَ الصَّرِيحَ مِنْهَا وَأَكْثَرُهَا فِي الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ ؛ لِأَنَّ أَكْثَرَ أُمُورِ الدُّنْيَا مَوْكُولَةٌ إلَى عُرْفِ النَّاسِ وَاجْتِهَادِهِمْ .

(374/356)

---

(2) مَا سَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْعَمَلِ وَالْقَضَاءِ بِهِ مِنْ بَيَانٍ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَقَالُوا أَيْضًا إنَّ أَحَادِيثَ الْأَحْكَامِ الْأُصُولِ خَمْسُمِائَةِ حَدِيثٍ تَمُدُّهَا أَرْبَعَةُ آلَافٍ فِيمَا أَذْكُرُ .

(3) إجْمَاعُ الْأُمَّةِ ، وَاتَّفَقَ الْأَئِمَّةُ عَلَى الِاحْتِجَاجِ بِإِجْمَاعِ الصَّحَابَةِ فِي الدِّينِيَّاتِ ، وَفِي إجْمَاعِ الْمُجْتَهِدِينَ بَعْدَهُمْ تَفْصِيلٌ .

(4) اجْتِهَادُ الْأَئِمَّةِ وَالْأُمَرَاءِ وَالْقُضَاةِ وَالْقُوَّادِ فِي الْأُمُورِ الْقَضَائِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ ، وَخَصَّهُ بَعْضُ الْفُقَهَاءِ (بِالْقِيَاسِ) وَأَنْكَرَ بَعْضُهُمُ الْقِيَاسَ وَقَيَّدَهُ آخَرُونَ كَمَا فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ (5 : 101) .

وَوَرَدَ فِي هَذَا التَّرْتِيبِ أَحَادِيثُ وَآثَارُ تَدُلُّ عَلَى الْعَمَلِ بِهِ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ (مِنْهَا) حَدِيثُ مُعَاذٍ أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَمَّا

أَرْسَلَهُ إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ : (كَيْفَ تَصْنَعُ إِذَا عَرَضَ لَكَ قَضَاءٌ ؟) قَالَ : أَقْضِي بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ ، قَالَ : فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ) ؟ قَالَ : فَبِسُنَّةِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . قَالَ : (فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ) قَالَ : أَجْتَهِدُ رَأْيِي لَا آلُو . قَالَ مُعَاذٌ : فَضَرَبَ رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – صَدْرِي ثُمَّ

(375/356)

قَالَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِ اللهِ لِمَا يُرْضِي رَسُولَ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ –) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ طَرِيقِ الْحَارِثِ بْنِ عَمْرٍو وَفِيهِ مَقَالٌ وَلَهُ شَوَاهِدُ ، وَأَمَّا الْعَمَلُ بِهَذَا التَّرْتِيبِ فَهُوَ مَعْرُوفٌ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، وَقَدْ بَيَّنَّاهُ فِي مَحَلِّهِ وَبِهِ أَمَرَ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – قَاضِيَهُ شُرَيْحًا فِي كِتَابِهِ الْمَشْهُورِ فِي الْقَضَاءِ ، وَلَكِنَّ الْفُقَهَاءَ يُقَدِّمُونَ الْإِجْمَاعَ حَتَّى الْعُرْفِيَّ عِنْدَ عُلَمَاءِ الْأُصُولِ – وَهُوَ مُخْتَلَفٌ فِيهِ – عَلَى النَّصِّ . وَالْأَصْلُ فِي شَرْعِيَّةِ اجْتِهَادِ الرَّأْيِ لِلْحُكَّامِ حَدِيثُ (إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ) رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ .

بَلْ كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يُعْطِي أُمَرَاءَ الْجُيُوشِ وَالسَّرَايَا حَقَّ الْحُكْمِ بِمَا يَرَوْنَ فِيهِ الْمَصْلَحَةَ بِقَوْلِهِ لِلْوَاحِدِ مِنْهُمْ : (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ عَلَى أَنْ

تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ

اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَمُسْلِمٌ وَالتِّرْمِذِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ مِنْ حَدِيثِ بُرَيْدَةَ . وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ فِي إِنْزَالِهِمْ عَلَى ذِمَّةِ الْأَمِيرِ دُونَ ذِمَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ لِئَلَّا يَخْفِرَهَا .

(قَوَاعِدُ الِاجْتِهَادِ مِنَ النُّصُوصِ)

(376/356)

أَحْكَامُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ مِنْهَا أَحْكَامٌ خَاصَّةٌ بِالْأَعْمَالِ وَالْوَقَائِعِ ، وَمِنْهَا قَوَاعِدُ عَامَّةٌ لِلتَّشْرِيعِ ، وَالْأَحْكَامِ الْخَاصَّةِ مِنْهَا مَا هُوَ قَطْعِيُّ الرِّوَايَةِ وَالدَّلَالَةِ لَا مَجَالَ لِلِاجْتِهَادِ فِيهِ ، وَلَا مَعْدِلَ عَنِ الْحُكْمِ بِهِ إلَّا لِمَانِعٍ شَرْعِيٍّ مِنْ فَوَاتِ شَرْطٍ كَدَرْءِ حَدٍّ بِشُبْهَةٍ أَوْ عُذْرٍ ضَرُورَةٍ ، وَقَدْ أَمَرَ عُمَرُ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُ – فِي الْمَجَاعَةِ أَلَّا يُحَدَّ سَارِقٌ . وَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ قَطْعِيٍّ يُعْمَلُ فِيهِ بِاجْتِهَادِ مَنْ يُنَاطُ بِهِ الْحُكْمُ وَالتَّنْفِيذُ مِنْ أَمِيرٍ أَوْ قَاضٍ أَوْ قَائِدِ جَيْشٍ كَمَا تَقَدَّمَ قَرِيبًا فِي الْعِبَادَاتِ وَالْمُحَرَّمَاتِ .

وَأَمَّا الْقَوَاعِدُ الْعَامَّةُ فَهِيَ مَا تَجِبُ مُرَاعَاتُهُ فِي الْأَحْكَامِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَأَهَمُّهَا فِي الْإِسْلَامِ تَحَرِّي الْحَقِّ وَالْعَدْلِ الْمُطْلَقِ الْعَامِّ ، وَالْمُسَاوَاةُ فِي الْحُقُوقِ وَالشَّهَادَاتِ وَالْأَحْكَامِ وَتَقْدِيرِ

الْمَصَالِحِ ، وَدَرْءُ الْمَفَاسِدِ ، وَمُرَاعَاةُ الْعُرْفِ بِشَرْطِهِ ، وَدَرْءُ الْحُدُودِ بِالشُّبُهَاتِ ، وَكَوْنُ الضَّرُورَاتِ تُبِيحُ الْمَحْظُورَاتِ ، وَتَقْدِيرُ الضَّرُورَةِ بِقَدْرِهَا ، وَدَوَرَانُ الْمُعَامَلَاتِ عَلَى اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ ، وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ ، وَنَكْتَفِي بِالشَّوَاهِدِ فِي الْعَدْلِ وَالظُّلْمِ .

(نُصُوصُ الْقُرْآنِ فِي إيجَابِ الْعَدْلِ الْمُطْلَقِ وَالْمُسَاوَاةِ فِيهِ وَحَظْرِ الظُّلْمِ)

(377/356)

لَمَّا كَانَ الْعَدْلُ أَسَاسَ الْأَحْكَامِ ، وَمِيزَانَ التَّشْرِيعِ وَقِسْطَاسَهُ الْمُسْتَقِيمَ ، أَكَّدَ اللَّهُ تَعَالَى الْأَمْرَ بِهِ وَالْمُسَاوَاةَ فِيهِ بَيْنَ النَّاسِ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ . قَالَ تَعَالَى : إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ (16 : 90) وَقَالَ : إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ (4 : 58) وَقَالَ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (4 : 135) أَمَرَ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ بِالْمُبَالَغَةِ فِي الْقِيَامِ بِالْقِسْطِ وَهُوَ الْعَدْلُ ؛ فَإِنَّ الْقَوَّامَ (بِتَشْدِيدِ الْوَاوِ) صِيغَةُ مُبَالَغَةٍ لِلْفَاعِلِ بِالْقِيَامِ بِالْأَمْرِ وَعَدَمِ التَّهَاوُنِ وَالتَّقْصِيرِ فِيهِ ، وَبِأَنْ تَكُونَ شَهَادَتُهُمْ فِي الْمُحَاكَمَاتِ وَغَيْرِهَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا لِهَوَى وَلَا مَصْلَحَةِ أَحَدٍ ، وَلَوْ كَانَتْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوْ

وَالِدَيْهِمْ وَالْأَقْرَبِينَ مِنْهُمْ ، وَأَلَّا يُحَابُوا فِيهَا غَنِيًّا لِغِنَاهُ تَقَرُّبًا إِلَيْهِ أَوْ تَكْرِيمًا لَهُ ، وَلَا فَقِيرًا لِفَقْرِهِ رَحْمَةً بِهِ وَشَفَقَةً عَلَيْهِ ، وَنَهَاهُمْ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى فِي الْحُكْمِ أَوِ الشَّهَادَةِ كَرَاهَةً أَلَّا يَعْدِلُوا فِيهِمَا لِمُرَاعَاةِ مَنْ ذُكِرَ مِنَ النَّاسِ ، وَأَنْذَرَهُمْ عِقَابَهُ إِنْ لَوَوْا وَمَالُوا عَنِ الْحَقِّ

(378/356)

أَوْ أَعْرَضُوا عَنْهُ .

وَقَالَ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (5 : 8) فَهَذِهِ الْآيَةُ مُتَمِّمَةٌ لِمَا قَبْلَهَا فَهُنَاكَ يَأْمُرُ بِالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ وَالشَّهَادَةِ بَيْنَ النَّفْسِ وَغَيْرِهَا ، وَبَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَبَيْنَ الْغَنِيِّ وَالْفَقِيرِ ، وَهَاهُنَا يَأْمُرُ بِالْمُسَاوَاةِ فِيهِمَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَأَعْدَائِهِ مَهْمَا يَكُنْ سَبَبُ عَدَاوَتِهِمْ لَا فَرْقَ فِيهَا بَيْنَ دِينِيٍّ وَدُنْيَوِيٍّ ، فَالشَّنَآنُ : الْبُغْضُ وَالْعَدَاوَةُ ، وَقِيلَ مَعَ الِاحْتِقَارِ وَقَدْ قَالَ (وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ

شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا) (5 : 8) لَا يَحْمِلَنَّكُمْ بُغْضُهُمْ وَعَدَاوَتُهُمْ لَكُمْ أَوْ بُغْضُكُمْ وَعَدَاوَتُكُمْ لَهُمْ عَلَى تَرْكِ الْعَدْلِ فِيهِمْ ، فَالْعَدْلُ بِالْمُسَاوَاةِ أَقْرَبُ إِلَى تَقْوَى اللَّهِ ، وَأَنْذَرَ تَارِكَ الْعَدْلِ لِلشَّنَآنِ بِمِثْلِ مَا أَنْذَرَ تَارِكَهُ لِلْمُحَابَاةِ ، أَنْذَرَ كُلًّا مِنْهُمَا بِأَنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَعْمَلُهُ لَا يَخْفَى

عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَهُوَ يُحَاسِبُهُ عَلَى عَمَلِهِ وَعَلَى نِيَّتِهِ وَقَصْدِهِ مِنْهُ ، فَيُثِيبُهُ أَوْ يُعَاقِبُهُ عَلَى مَا يَعْلَمُ مِنْ أَمْرِهِ .

(379/356)

فَالْعَدْلُ هُوَ الْمِيزَانُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ) (42 : 17) وَقَوْلِهِ : (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ) (57 : 25) الْآيَةَ : فَخَيْرُ النَّاسِ مَنْ يَصُدُّهُمْ عَنِ الظُّلْمِ وَالْعُدْوَانِ هِدَايَةُ الْقُرْآنِ ، وَيَلِيهِمْ مَنْ يَصُدُّهُمُ الْعَدْلُ الَّذِي يُقِيمُهُ السُّلْطَانُ ، وَشَرُّهُمْ مَنْ لَا عِلَاجَ لَهُ إلَّا السَّيْفُ وَالسِّنَانُ ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالْحَدِيدِ .

فَقِوَامُ صَلَاحِ الْعَالَمِ بِالْإِيمَانِ بِالْكِتَابِ الَّذِي يُحَرِّمُ الظُّلْمَ وَسَائِرَ الْمَفَاسِدِ ، فَيَجْتَنِبُهَا الْمُؤْمِنُ خَوْفًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَجَاءً فِي ثَوَابِهِ فِيهِمَا ، وَبِالْعَدْلِ فِي الْأَحْكَامِ الَّذِي يَرْدَعُ النَّاسَ عَنِ الظُّلْمِ بِعِقَابِ السُّلْطَانِ .

(380/356)

وَيُؤَيِّدُ قَاعِدَةَ إِقَامَةِ الْعَدْلِ مَا وَرَدَ فِي تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَالْوَعِيدِ الشَّدِيدِ عَلَيْهِ . فَقَدْ ذُكِرَ الظُّلْمُ فِي مِئَاتٍ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ أَسْوَأَ الذِّكْرِ ، وَقُرِنَ فِي بَعْضِهَا بِأَسْوَأِ الْعَوَاقِبِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَنَّ الْجَزَاءَ عَلَيْهِ فِيهِمَا أَثَرٌ لَازِمٌ لَهُ لُزُومَ الْمَعْلُولِ لِلْعِلَّةِ وَالْمُسَبَّبِ لِلسَّبَبِ ، وَأَنَّ النَّاسَ هُمُ الَّذِينَ يَظْلِمُونَ أَنْفُسَهُمْ (وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا) (18 : 49) وَمِنْ أَثَرِهِ وَعَاقِبَتِهِ فِي الدُّنْيَا أَنَّهُ مُهْلِكُ الْأُمَمِ وَمُخَرِّبُ الْعُمْرَانِ ، قَالَ تَعَالَى : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ) (11 : 117) أَيْ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ وَلَا مِنْ سُنَّتِهِ فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ أَنْ يُهْلِكَ الْأُمَمَ بِظُلْمٍ مِنْهُ لَهُمْ ، أَوْ بِشِرْكٍ بِهِ يَقَعُ مِنْهُمْ ، وَهُمْ مُصْلِحُونَ فِي سِيرَتِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ ، وَإِنَّمَا يُهْلِكُهُمْ بِظُلْمِهِمْ وَإِفْسَادِهِمْ ، كَمَا قَالَ : (وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (18 : 59) وَقَالَ فِي الْأَحْكَامِ : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) (5 : 45) وَرَدَ هَذَا فِي حُكْمِ الْقِصَاصِ .

(قَوَاعِدُ مُرَاعَاةِ الْفَضَائِلِ فِي الْأَحْكَامِ وَالْمُعَامَلَاتِ)

(381/356)

مَنِ اسْتَقْرَأَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنْوَاعِهَا مِنْ شَخْصِيَّةٍ وَمَدَنِيَّةٍ وَسِيَاسِيَّةٍ وَحَرْبِيَّةٍ يَرَى أَنَّ الْغَرَضَ مِنْهَا كُلِّهَا قَاعِدَةُ مُرَاعَاةِ الْفَضَائِلِ فِيهَا مِنَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْوَفَاءِ

بِالْعُهُودِ وَالْعُقُودِ ، وَالرَّحْمَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُوَاسَاةِ وَالْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ وَاجْتِنَابِ الرَّذَائِلِ مِنَ الظُّلْمِ وَالْغَدْرِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ وَالْعُقُودِ وَالْكَذِبِ وَالْخِيَانَةِ وَالْقَسْوَةِ وَالْغِشِّ وَالْخِدَاعِ وَأَكْلِ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ كَالرِّبَا وَالرِّشْوَةِ وَالسُّحْتِ وَشَرَهِ التِّجَارَةِ بِالدِّينِ وَالْخُرَافَاتِ ، وَسَيَأْتِي الْكَلَامُ فِي الْإِصْلَاحِ الْحَرْبِيِّ .

وَالْعِبْرَةُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْقَوَاعِدِ ، الَّتِي فَضَلَ بِهَا الْإِسْلَامُ جَمِيعَ شَرَائِعِ الْأَنْبِيَاءِ وَقَوَانِينِ الْحُكَمَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، أَنَّهَا قَدْ جَاءَتْ عَلَى لِسَانِ نَبِيٍّ أُمِّيٍّ نَشَأَ بَيْنَ أُمِّيِّينَ ، فَهَلْ كَانَتْ بِوَحْيٍ نَبَعَ بَعْدَ الْكُهُولَةِ مِنْ نَفْسِهِ ، أَمْ هُوَ كَمَا بَلَغَنَا رُوحِيٌّ مِنْ رَبِّهِ ؟ .

الْمَقْصِدُ السَّابِعُ مِنْ فِقْهِ الْقُرْآنِ

(الْإِرْشَادُ إِلَى الْإِصْلَاحِ الْمَالِيِّ)

(382/356)

(تَمْهِيدٌ) بَيَّنَّا مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ أَوْ أُصُولَ فِقْهِهِ فِي إِصْلَاحِ الْبَشَرِ مِنْ طَرِيقِ التَّدَيُّنِ وَالْإِيمَانِ ، وَالْعَمَلِ وَالْإِذْعَانِ ، وَمِنْ طَرِيقِ الْعَقْلِ وَالْبُرْهَانِ وَالْفِكْرِ وَالْوِجْدَانِ ، وَمِنْ طَرِيقِ الْحُكْمِ الْعَادِلِ وَالسُّلْطَانِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِالْإِفْرَادِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ مِنْهُ بِوَحْدَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْأَجْنَاسِ ، وَبَقِيَ مَا يَتَعَلَّقُ بِفِقْهِهِ فِي إِصْلَاحِ الْمَفَاسِدِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ الْكُبْرَى الَّذِي يَتَوَقَّفُ كَمَالُهُ عَلَى مَا

تَقَدَّمَ كُلِّهِ وَهِيَ : - طُغْيَانُ الثَّرْوَةِ وَدَوْلَتِهَا . عُدْوَانُ الْحَرْبِ وَقَسْوَتُهَا . ظُلْمُ الْمَرْأَةِ وَاسْتِبَاحَتُهَا . ظُلْمُ الضَّعْفَةِ وَالْأَسْرَى وَسَلْبُ حُرِّيَّتِهِمْ ، وَهُوَ الرِّقُّ الْمُطْلَقُ - ذَلِكَ بِأَنَّ جَمِيعَ حُظُوظِ الدُّنْيَا مَنُوطَةٌ - مِنْهَا ، وَلَا يَتِمُّ الْإِصْلَاحُ فِيهَا إِلَّا بِتَعَاوُنِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ ، وَالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْحُكْمِ وَإِنَّنَا نَتَكَلَّمُ عَلَيْهَا بِالْإِجْمَالِ ، مُبْتَدِئِينَ بِالْمَالِ ، وَالْآيَاتُ فِيهِ تَدُورُ عَلَى سَبْعَةِ أَقْطَابٍ ، فَنَقُولُ :

(1 - الْقَاعِدَةُ الْعَامَّةُ فِي الْمَالِ كَوْنُهُ فِتْنَةً وَاخْتِبَارًا فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ)

(383/356)

الْقَاعِدَةُ الْأَسَاسِيَّةُ لِلْقُرْآنِ فِي الْمَالِ أَنَّهُ فِتْنَةٌ ، أَيِ اخْتِبَارٌ وَامْتِحَانٌ لِلْبَشَرِ فِي حَيَاتِهِمُ الدُّنْيَوِيَّةِ مِنْ مَعَايِشَ وَمَصَالِحَ ، إِذْ هُوَ الْوَسِيلَةُ إِلَى الْإِصْلَاحِ وَالْإِفْسَادِ ، وَالْخَيْرِ وَالشَّرِّ وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ وَهُوَ مَثَارُ التَّنَازُعِ وَالتَّنَافُسِ فِي كَسْبِهِ وَإِنْفَاقِهِ ، وَكَنْزِهِ وَاحْتِكَارِهِ وَجَعْلِهِ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ وَتَدَاوُلِهِ فِي الْمَصَالِحِ وَالْمَنَافِعِ بَيْنَ النَّاسِ .

قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ) (3 : 186) وَقَالَ حِكَايَةً عَنْ نَبِيِّهِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ رَأَى عَرْشَ مَلِكَةِ سَبَأٍ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ : (هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ) (27 : 40)

الْآيَةَ . وَقَالَ : (وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا) (34 : 37) الْآيَةَ . وَقَالَ : (وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) (30 : 39) وَقَالَ : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ) (3 : 14) الْآيَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (8 : 28) وَمِثْلُهَا فِي سُورَةِ التَّغَابُنِ (64 : 15) وَيَلِيهَا التَّرْغِيبُ فِي الْإِنْفَاقِ وَقَصْرُ الْفَلَاحِ عَلَى الْوِقَايَةِ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ ، وَقَالَ تَعَالَى : (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا) (18 : 46) انْظُرْ هَذَا مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ وَهِيَ الْكَهْفُ : (إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (7) وَالْمُرَادُ مِنَ الْعَمَلِ مَا يَتَعَلَّقُ بِمَا عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْعُمْرَانِ ، وَأَحْسَنُهُ أَنْفَعُهُ لِلنَّاسِ وَأَرْضَاهُ لِلَّهِ بِشُكْرِهِ ، ثُمَّ مَا ضَرَبَهُ مِنَ الْمَثَلِ بِصَاحِبَيِ الْجَنَّتَيْنِ ، وَالْمَثَلِ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِنَبَاتِ الْأَرْضِ .

وَقَالَ تَعَالَى فِي تَعْلِيلِ قِسْمَةِ الْفَيْءِ بَيْنَ مُسْتَحِقِّيهِ : (كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ) (59 : 7) وَالدُّولَةُ بِضَمِّ الدَّالِ الْمَالُ الْمُتَدَاوَلُ ، أَيْ لِئَلَّا يَكُونَ الْمَالُ مَحْصُورًا فِي الْأَغْنِيَاءِ مُتَدَاوَلًا بَيْنَهُمْ وَحْدَهُمْ . وَقَالَ تَعَالَى : (وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (9 : 34) إِلَخْ ، الْكَنْزُ هُوَ الْمَنْعُ مِنَ التَّدَاوُلِ الَّذِي يَكُونُ بِهِ الْمَالُ نَافِعًا لِلنَّاسِ .

وَالشَّوَاهِدُ فِي فِتْنَةِ الْمَالِ فِي الْقُرْآنِ كَثِيرَةٌ تَجِدُ الْكَلَامَ عَلَيْهَا فِي مَوَاضِعَ مِنْ هَذَا التَّفْسِيرِ وَلَا سِيَّمَا الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنْهُ فَمِنَ الْآيَاتِ فِي ارْتِبَاطِ السَّعَادَةِ وَالْفَلَاحِ بِإِنْفَاقِ الْمَالِ وَالشَّقَاءِ بِمَنْعِهِ مَا هُوَ لِلتَّرْهِيبِ وَمَا هُوَ لِلتَّرْغِيبِ ، وَجَمَعَ بَيْنَ التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيبِ فِي قَوْلِهِ : (وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ) (2 : 195) الْآيَةَ ، أَيْ إِنَّ مَنْعَ إِنْفَاقِ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللهِ مِنْ أَسْبَابِ التَّهْلُكَةِ ، ثُمَّ قَالَ فِي التَّرْغِيبِ : (وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (2 : 195) وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ اللَّيْلِ : (92 : 5 – 11) .

وَيُؤَيِّدُ ذَلِكَ شَوَاهِدُ الْقُطْبِ الثَّانِي مِنْ آيَاتِ الْمَالِ وَهِيَ :

(2 – الْآيَاتُ فِي ذَمِّ طُغْيَانِ الْمَالِ وَغُرُورِهِ وَصَدِّهِ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَيْرِ)

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْعَلَقِ : (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (96 : 6 و7) أَيْ حَقًّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَتَجَاوَزُ حُدُودَ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْفَضِيلَةِ بِرُؤْيَةِ نَفْسِهِ غَنِيًّا بِالْمَالِ . وَقَدْ نَزَلَتْ هَذِهِ وَمَا بَعْدَهَا فِي أَبِي جَهْلٍ أَشَدِّ أَعْدَاءِ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَالْإِسْلَامُ فِي أَوَّلِ ظُهُورِهِ ، وَهِيَ

أَوَّلُ مَا نَزَلَ فِي ذَلِكَ . وَمِثْلُهَا سُورَةُ الْمَسَدِ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ) (111 : 1 و2) إِلَخْ وَمِثْلُهَا سُورَةُ الْهُمَزَةِ : (الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (104 : 2 و3) إِلَخْ . وَفِي مَعْنَاهُمَا آيَاتٌ مِنْ سُورَتَيِ الْمُدَّثِّرِ وَالْقَلَمِ وَغَيْرِهِمَا .

(3 – ذَمُّ الْبُخْلِ بِالْمَالِ وَالْكِبْرِيَاءِ بِهِ وَالرِّيَاءِ فِي إِنْفَاقِهِ) .

قَالَ تَعَالَى : (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (3 : 180) وَقَالَ : (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ) (2 : 268) الْآيَةَ ، فَسَّرُوا الْفَحْشَاءَ بِالْبُخْلِ . أَيِ الشَّيْطَانُ

يَصُدُّكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللهِ بِتَخْوِيفِكُمْ مِنَ الْفَقْرِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالْبُخْلِ الَّذِي فَحَشَ شَرُّهُ وَضَرَرُهُ ، وَقَالَ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِحْسَانِ بِالْوَالِدَيْنِ وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجِيرَانِ : (وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ) (57 : 23 و24) وَمِنَ الشَّوَاهِدِ آيَاتُ 9 : 76 و77 وَآيَةُ 47 : 38 وَآيَةُ 4 : 39 وَآيَةُ 2 : 188 وَآيَةُ 4 : 161 وَآيَةُ 4 : 29 وَآيَةُ : 9 : 34 و35 .

(4 – مَدْحُ الْمَالِ وَالْغِنَى بِكَوْنِهِ مِنْ نِعَمِ اللهِ وَجَزَائِهِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ)

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِكَايَةً عَنْهُ : (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (71 : 10 – 12) وَفِي مَعْنَاهُ مَا حَكَاهُ عَنْ هُودٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سُورَتِهِ (11 : 52) وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُهُ تَعَالَى مِنْ سُورَةِ الْجِنِّ (72 : 13 – 17) وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ بَيَانُ نِعْمَتِهِ عَلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ وَذُرِّيَّتِهِمَا بِهِدَايَةِ الدِّينِ فِي آخِرِ قِصَّتِهِ مِنْ سُورَةِ طه (20 : 122 و123) الْآيَاتِ .

(388/356)

وَمِنَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي غَفَلَ عَنْهَا الْمُفَسِّرُونَ وَغَيْرُهُمْ ، قَوْلُهُ تَعَالَى عَطْفًا عَلَى الْأَمْرِ بِمَنْعِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ دُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ : (وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ) (9 : 28) أَيْ وَإِنْ خِفْتُمْ فَقْرًا يَعْرِضُ لَكُمْ بِحِرْمَانِ مَكَّةَ مِمَّا كَانَ يُنْفِقُهُ فِيهَا الْمُشْرِكُونَ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ وَغَيْرِهِ ، فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ وَفُتُوحِهِ وَغَنَائِمِهِ . وَكَذَا قَوْلُهُ لِلَّذِينَ أَعْطَوُا الْفِدَاءَ مِنْ أَسْرَى بَدْرٍ : (إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ) (8 : 70) وَكَذَلِكَ كَانَ ، فَقَدْ أَغْنَى اللَّهُ الْعَرَبَ الْفُقَرَاءَ عَامَّةً وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ أُولَئِكَ الْأَسْرَى بِالْإِسْلَامِ ، فَجَعَلَهُمْ أَغْنَى الْأُمَمِ وَالْأَقْوَامِ .

وَقَدِ امْتَنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ الْأَعْظَمِ بِقَوْلِهِ : (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) (93 : 8) وَامْتَنَّ عَلَى قَوْمِهِ بِتَوْفِيقِهِمْ لِلتِّجَارَةِ الْوَاسِعَةِ بِرِحْلَةِ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فِي سُورَةٍ خَاصَّةٍ بِذَلِكَ ، وَسَمَّى

الْمَالَ الْكَثِيرَ خَيْرًا بِقَوْلِهِ فِي صِفَاتِ الْإِنْسَانِ : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) (100 : 8)

وَقَالَ : (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ) (2 : 180) الْآيَةَ .

(5 – مَا أَوْجَبَ اللَّهُ مِنْ حِفْظِ الْمَالِ مِنَ الضَّيَاعِ وَالِاقْتِصَادِ فِيهِ) .

(389/356)

قَالَ تَعَالَى : (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) (4 : 5) قِيَامُ الشَّيْءِ وَقِوَامُهُ (بِالْكَسْرِ وَالْفَتْحِ) مَا يَسْتَقِيمُ بِهِ وَيُحْفَظُ وَيَثْبُتُ ، أَيْ جَعَلَهَا قِوَامَ مَعَايِشِكُمْ وَمَصَالِحِكُمْ وَالسُّفَهَاءُ هُمُ الْمُسْرِفُونَ الْمُبَذِّرُونَ لَهَا لِصِغَرِ سِنِّهِمْ دُونَ الرُّشْدِ أَوْ لِفَسَادِ أَخْلَاقِهِمْ وَضَعْفِ عُقُولِهِمْ وَقَالَ تَعَالَى فِي صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) (25 : 67) الْإِسْرَافُ : التَّبْذِيرُ وَالْإِفْرَاطُ وَالْقَتْرُ وَالْقُتُورُ وَالْإِقْتَارُ : الْإِقْلَالُ وَالتَّضْيِيقُ فِي النَّفَقَةِ .

(6 – إِنْفَاقُ الْمَالِ آيَةُ الْإِيمَانِ وَالْوَسِيلَةِ لِحَيَاةِ الْأُمَّةِ وَعِزَّةِ الدَّوْلَةِ) .

هَذَا هُوَ الْقُطْبُ الْأَعْظَمُ مِنْ أَقْطَابِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ فِي الْمَالِ وَأَكْثَرِهَا فِيهِ ، وَمَا ذُكِرَ قَبْلَهُ وَسَائِلُ لَهُ ، وَمَا بَعْدَهُ بَيَانٌ لِلْعَمَلِ بِهِ ، وَأَظْهَرُ الشَّوَاهِدِ فِيهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ هُوَ الْفَصْلَ بَيْنَ الْإِسْلَامِ الصَّحِيحِ الْمُقْتَرِنِ بِالْإِذْعَانِ ، الْمَبْنِيِّ عَلَى أَسَاسِ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّ دَعْوَى الْإِيمَانِ بِدُونِ شَهَادَتِهِ بَاطِلَةٌ ، وَإِنْ كَانَتْ دَعْوَى الْإِسْلَامِ تُقْبَلُ مُطْلَقًا ؛ لِأَنَّ أَحْكَامَهُ الْعَمَلِيَّةَ تُبْنَى عَلَى الظَّوَاهِرِ وَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُحَاسِبُ عَلَى السَّرَائِرِ .

(390/356)

وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا) (49 : 14 و15) إلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ ، فَقَدَّمَ الْجِهَادَ بِالْمَالِ عَلَى الْجِهَادِ بِالنَّفْسِ فِي تَحْقِيقِ صِحَّةِ الْإِيمَانِ . وَيَلِي هَذَا الشَّاهِدَ آيَةُ الْبِرِّ النَّاطِقَةُ بِأَنَّ بَذْلَ الْمَالِ عَلَى حُبِّهِ بِالِاخْتِيَارِ ، أَوَّلُ آيَاتِ الْإِيمَانِ : (لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ) (2 : 177) إلَخْ .

وَمِنَ الْآيَاتِ فِي تَفْضِيلِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُنْفِقِينَ عَلَى غَيْرِهِمْ وَتَفَاوُتِهِمْ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى : (لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ ، وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) (4 : 95) اقْرَأْ تَتِمَّةَ الْآيَةِ وَمَا بَعْدَهَا . وَقَالَ تَعَالَى : (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى) (57 : 10) وَالْآيَاتُ فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ كَثِيرَةٌ ، وَيُرَاجَعُ تَفْصِيلُهَا فِي تَفْسِيرِ الْجُزْءِ الثَّانِي وَالْجُزْءِ الْعَاشِرِ وَهَذَا الْجُزْءِ (11) مِنَ التَّفْسِيرِ .

وَمِنَ الْآيَاتِ الْبَلِيغَةِ فِي التَّرْغِيبِ فِيهِ وَمُضَاعَفَةِ ثَوَابِهِ ، وَبَيَانِ آدَابِهِ ، عِشْرُونَ آيَةً

مِنْ أَوَاخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ هِيَ مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ مِنَ الْقُرْآنِ يَتَخَلَّلُهَا الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى أَكْلِ الرِّبَا فَرَاجِعْهَا مِنْ آيَةِ 261 – 281 مَعَ تَفْسِيرِهَا مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّالِثِ .

ثُمَّ رَاجِعْ فِي فِهْرِسِ الْجُزْءِ الْعَاشِرِ كَلِمَةَ (الْمَالُ : الْجِهَادُ بِهِ أَقْوَى آيَاتِ الْإِيمَانِ وَقِوَامُ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ) يُرْشِدْكَ إِلَى عَشْرِ صَفَحَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ فَصَّلْنَا فِيهَا هَذِهِ الْمَسْأَلَةَ .

(7 – الْحُقُوقُ الْمَفْرُوضَةُ وَالْمَنْدُوبَةُ فِي الْمَالِ وَالْإِصْلَاحِ الْمَالِيِّ فِي الْإِسْلَامِ)

قَدْ عَقَدْتُ لِتَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا) (9 : 103) فَصْلًا : (فِي فَوَائِدِ الزَّكَاةِ الْمَفْرُوضَةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْإِصْلَاحِ الْمَالِيِّ لِلْبَشَرِ وَامْتِيَازِ الْإِسْلَامِ بِذَلِكَ عَلَى جَمِيعِ الْأَدْيَانِ) وَلَخَّصْتُ أُصُولَ هَذَا الْإِصْلَاحِ فِي أَرْبَعَةَ عَشَرَ أَصْلًا ، فَرَاجِعْهَا فَمَا هِيَ مِنْكَ بِبَعِيدٍ .

وَمَوْضُوعُ بَحْثِنَا فِي هَذَا الِاسْتِطْرَادِ وَهُوَ (دَلَائِلُ الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) أَنَّهُ لَا يُعْقَلُ أَنْ يَكُونَ مُحَمَّدٌ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي عَرَفْنَا خُلَاصَةَ تَارِيخِهِ قَدِ اهْتَدَى بِعَقْلِهِ ، أَوْ بِوَحْيٍ مِنْ نَفْسِهِ لِنَفْسِهِ ، إِلَى هَذِهِ الْحَقَائِقِ الَّتِي فَاقَتْ وَعَلَتْ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْبَشَرِيَّةِ فِي أَرْقَى عُصُورِ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ وَالْقَوَانِينِ ، وَإِنَّمَا الْمَعْقُولُ أَنْ يَكُونَ هَذَا بِوَحْيٍ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ أَفَاضَهُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ فَلَا يَحْتَاجُونَ بَعْدَهُ إِلَى وَحْيٍ آخَرَ .

الْمَقْصِدُ الثَّامِنُ مِنْ فِقْهِ الْقُرْآنِ

(إِصْلَاحُ نِظَامُ الْحَرْبِ وَدَفْعُ مَفَاسِدِهَا وَقَصْرُهَا عَلَى مَا فِيهِ الْخَيْرُ لِلْبَشَرِ)

التَّنَازُعُ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ فِي مَرَافِقِ الْمَعِيشَةِ وَوَسَائِلِ الْمَالِ وَالْجَاهِ غَرِيزَةٌ مِنْ غَرَائِزِ الْحَيَاةِ ، وَإِفْضَاءُ التَّنَازُعِ إِلَى التَّعَادِي وَالِاقْتِتَالِ بَيْنَ الْجَمَاعَاتِ وَالْأَقْوَامِ ، سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ الِاجْتِمَاعِ ، أَوْ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِهِ ، قَدْ تَكُونُ وَسِيلَةً مِنْ وَسَائِلِ الْعُمْرَانِ ، فَإِنْ كَانَ التَّنَازُعُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ كَانَ الْفَلْجُ لِلْحَقِّ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ كَانَ الظَّفَرُ لِلْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ بَيْنَ النِّظَامِ وَالِاخْتِلَالِ كَانَ النَّصْرُ لِلنِّظَامِ وَإِنْ كَانَ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ كَانَ الْغَلَبُ لِلصَّلَاحِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ : (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ) (21 : 18) وَقَالَ فِي بَيَانِ نَتِيجَةِ الْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ لَهُمَا : (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (13 : 17) .

وَأَمَّا التَّنَازُعُ وَالتَّعَادِي وَالتَّقَاتُلُ عَلَى الشَّهَوَاتِ الْبَاطِلَةِ وَالسُّلْطَةِ الظَّالِمَةِ ، وَاسْتِبْعَادُ الْقَوِيِّ لِلضَّعِيفِ ، وَالِاسْتِكْبَارُ وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ ؛ فَإِنَّ ضَرَرَهُ كَبِيرٌ ، وَشَرَّهُ مُسْتَطِيرٌ ، وَيَزِيدُ

ضَرَاوَةَ الْبَشَرِ بِسَفْكِ الدِّمَاءِ ، وَيُورِثُهُمُ الْحِقْدَ وَيُؤَرِّثُ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ هَذِهِ الْمَفَاسِدُ

(393/356)

فِي هَذَا الزَّمَانِ ، حَتَّى خِيفَ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى هَذَا الْعُمْرَانِ الْعَظِيمِ فِي وَقْتٍ قَصِيرٍ ، بِمَا اسْتَحْدَثَهُ الْعِلْمُ الْوَاسِعُ مِنْ وَسَائِلِ التَّخْرِيبِ وَالتَّدْمِيرِ ، كَالْغَازَاتِ السَّامَّةِ وَمَوَادِّ الْهَدْمِ وَالتَّحْرِيقِ تَقْذِفُهَا الطَّيَّارَاتُ الْمُحَلِّقَةُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ ، عَلَى الْمَدَائِنِ الْمُكْتَظَّةِ بِالْأُلُوفِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ ، فَتَقْتُلُهُمْ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ أَوْ سَاعَاتٍ مَعْدُودَةٍ .

وَقَدْ حَارَتِ الدُّوَلُ الْحَرْبِيَّةُ فِي تَلَافِي هَذَا الْخَطَرِ ، وَتَرَى دَهَاقِينَ السِّيَاسَةِ فِي كُلٍّ مِنْهَا يَتَفَاوَضُونَ مَعَ أَقْرَانِهِمْ لِوَضْعِ نِظَامٍ لِتَقْرِيرِ السَّلَامِ ، وَدَرْءِ مَفَاسِدِ الْخِصَامِ ، بِمُعَاهَدَاتٍ يَعْقِدُونَهَا ، وَأَيْمَانٍ يَتَقَاسَمُونَهَا ، ثُمَّ يَنْفَضُّونَ خَائِبِينَ ، أَوْ يَنْقُضُونَ مَا أَبْرَمُوا مُتَأَوِّلِينَ ، وَيَعُودُونَ إِلَى مِثْلِهِ مُخَادِعِينَ .

(394/356)

وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ سَبَبَ هَذِهِ الْخَيْبَةِ بِمَا وَجَدْنَا مِصْدَاقَهُ فِي هَذِهِ الدُّوَلِ بِأَظْهَرَ مِمَّا كَانَ فِي عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ نَزَلَ هَذَا الْبَيَانُ فِي عَهْدِهِمْ ، كَأَنَّهُ نَزَلَ فِي هَؤُلَاءِ الْإِفْرِنْجِ دُونَ غَيْرِهِمْ ، وَهُوَ مِنْ عَجَائِبِ الْقُرْآنِ فِي لَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ . وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْإِيفَاءِ بِعَهْدِهِ وَالنَّهْيِ عَنْ نَقْضِهِ : (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) (16 : 92) وَالْمَعْنَى : لَا تَكُونُوا فِي نَقْضِ عُهُودِكُمْ وَالْعَوْدِ إِلَى تَجْدِيدِهَا كَالْمَرْأَةِ الْحَمْقَاءِ الَّتِي تَنْقُضُ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ إِبْرَامِهِ نَقْضَ أَنْكَاثٍ (وَهُوَ جَمْعُ نِكْثٍ بِالْكَسْرِ : مَا نُقِضَ لِيُغْزَلَ مَرَّةً أُخْرَى) حَالَ كَوْنِكُمْ تَتَّخِذُونَ عُهُودَكُمْ دَخْلًا بَيْنَكُمْ

(وَالدَّخَلُ بِالتَّحْرِيكِ الْفَسَادُ وَالْغِشُّ الْخَفِيُّ الَّذِي يَدْخُلُ فِي الشَّيْءِ وَمَا هُوَ مِنْهُ) لِأَجْلِ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى رِجَالًا ، وَأَكْثَرَ رِبْحًا وَمَالًا ، وَأَقْوَى أَسِنَّةً وَنِصَالًا .

وَالْمُرَادُ : أَنَّ مُعَاهَدَاتِ الصُّلْحِ وَالِاتِّفَاقِ بَيْنَ الْأُمَمِ ، يَجِبُ أَنْ يُقْصَدَ بِهَا الْإِصْلَاحُ وَالْعَدْلُ وَالْمُسَاوَاةُ ، فَتُبْنَى عَلَى الْإِخْلَاصِ دُونَ الدَّخَلِ وَالدَّغَلِ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ مَا ذُكِرَ .

(395/356)

وَلَوْ طَلَبُوا الْمَخْرَجَ وَالسَّلَامَةَ مِنْ هَذَا الْخَطَرِ لَوَجَدُوهُمَا فِي دِينِ الْإِسْلَامِ فَهُوَ دِينُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالسَّلَامِ ، وَهَاكَ بَعْضَ الشَّوَاهِدِ عَلَى هَذَا مِنْ قَوَاعِدِ الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ .

(أَهَمُّ قَوَاعِدِ الْحَرْبِ وَالسَّلَامِ وَالشَّوَاهِدُ عَلَيْهَا مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ) .

قَدِ اسْتَنْبَطْنَا مِنْ آيَاتِ سُورَةِ الْأَنْفَالِ 28 قَاعِدَةً مِنَ الْقَوَاعِدِ الْحَرْبِيَّةِ الْعَسْكَرِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ فِي الْقِتَالِ وَالصُّلْحِ وَالْمُعَاهَدَاتِ ، أَجْمَلْنَاهَا فِي الْبَابِ السَّابِعِ مِنْ خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ السُّورَةِ (125 - 130 ج 10 ط الْهَيْئَةِ) وَأَحَلْنَا فِي تَفْصِيلِهَا عَلَى تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُسْتَنْبَطَةِ مِنْهَا ، ثُمَّ اسْتَنْبَطْنَا مِنْ آيَاتِ سُورَةِ التَّوْبَةِ 13 قَاعِدَةً حَرْبِيَّةً أَكْثَرُهَا فِي الْمُعَاهَدَاتِ وَوُجُوبِ الْوَفَاءِ بِهَا وَشَرْطِ نَبْذِهَا ، وَفِي الْهُدْنَةِ وَتَأْمِينِ الْحَرْبِيِّ لِلدُّخُولِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ - و20 حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِ الْحَرْبِ وَالْجِزْيَةِ سَرَدْنَاهَا فِي خُلَاصَةِ تَفْسِيرِ هَذِهِ السُّورَةِ ثُمَّ أَتَيْنَا بِبِضْعِ قَوَاعِدَ مِنْهُمَا وَمِنْ غَيْرِهِمَا مِنَ السُّورِ فِيمَا

(396/356)

أَفْرَدْنَاهُ مِنْ هَذَا الْبَحْثِ ؛ لِأَنَّ الْمَقَامَ مَقَامُ إِيرَادِ الشَّوَاهِدِ الْمُحَمَّلَةِ عَلَى أَنْوَاعِ الْإِصْلَاحِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْقُرْآنِ ، لِلِاسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى أَنَّ جُمْلَةَ هَذِهِ الْعُلُومِ لَا يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ كُلُّهَا مِنْ آرَاءِ

مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، الَّذِي عَاشَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ عِيشَةَ الْعُزْلَةِ وَالِانْفِرَادِ ، إلَّا قَلِيلًا مِنْ رَعْيِ الْغَنَمِ فِي الصِّبَا وَالتِّجَارَةِ فِي الشَّبَابِ ، وَقَدْ قَصَّرَتْ عَنْ كُلِّ نَوْعٍ مِنْهَا كُتُبُ الْأَدْيَانِ الْإِلَهِيَّةِ ، وَكُتُبُ الْحِكْمَةِ وَالْقَوَانِينِ الْبَشَرِيَّةِ .

(الْقَاعِدَةُ الْأُولَى فِي الْحَرْبِ الْمَفْرُوضَةِ شَرْعًا)

وَرَدَ الْأَمْرُ بِقِتَالِ الْمُعْتَدِّينَ لِمَا سَيَأْتِي مِنْ دَرْءِ الْمَفَاسِدِ وَتَوْطِيدِ الْمَصَالِحِ ، مُقْتَرِنًا بِالنَّهْيِ عَنْ قِتَالِ الِاعْتِدَاءِ وَالْبَغْيِ وَالظُّلْمِ ، وَالشَّاهِدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) (2 : 190) وَتَعْلِيلُ النَّهْيِ عَنْ قِتَالِ الِاعْتِدَاءِ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ مُطْلَقًا ، دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ هَذَا النَّهْيَ مُحْكَمٌ غَيْرُ قَابِلٍ لِلنَّسَخِ ، وَمِنْ ثَمَّ بَيَّنَّا فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ جُزْءِ التَّفْسِيرِ الثَّانِي أَنَّ حُرُوبَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِلْكُفَّارِ كَانَتْ كُلُّهَا دِفَاعًا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنَ الْعُدْوَانِ .

(الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ فِي الْغَرَضِ مِنَ الْحَرْبِ وَنَتِيجَتِهَا)

(397/356)

وَهِيَ أَنْ تَكُونَ الْغَايَةُ الْإِيجَابِيَّةُ مِنَ الْقِتَالِ - بَعْدَ دَفْعِ الِاعْتِدَاءِ وَالظُّلْمِ وَاسْتِتْبَابِ الْأَمْنِ - حِمَايَةَ الْأَدْيَانِ كُلِّهَا ، وَعِبَادَةَ الْمُسْلِمِينَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَمَصْلَحَةَ الْبَشَرِ ، وَإِسْدَاءَ الْخَيْرِ إلَيْهِمْ ،

لَا الِاسْتِعْلَاءَ عَلَيْهِمْ وَالظُّلْمَ لَهُمْ ، وَالشَّاهِدُ الْأَوَّلُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى بَعْدَ الْإِذْنِ الْأَوَّلِ بِالْقِتَالِ الدِّفَاعِيِّ لِلْمَظْلُومِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ لِأَجْلِ عِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (22 : 40 و41) .

ذَكَرَ فِي تَعْلِيلِ إِذْنِهِ لَهُمْ بِالْقِتَالِ الْمَذْكُورِ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ .

(أَوَّلُهَا) كَوْنُهُمْ مَظْلُومِينَ مُعْتَدًى عَلَيْهِمْ فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَمُخْرَجِينَ نَفْيًا مِنْ أَوْطَانِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ لِأَجْلِ دِينِهِمْ وَإِيمَانِهِمْ ، وَهَذَا سَبَبٌ خَاصٌّ بِهِمْ بِقِسْمَيْهِ الشَّخْصِيِّ وَالْوَطَنِيِّ ، أَوِ الدِّينِيِّ وَالدُّنْيَوِيِّ .

(ثَانِيهَا) أَنَّهُ لَوْلَا إِذْنُ اللهِ لِلنَّاسِ بِمِثْلِ هَذَا الدِّفَاعِ ، لَهُدِّمَتْ جَمِيعُ الْمَعَابِدِ الَّتِي يَذْكُرُ فِيهَا اسْمَ اللهِ تَعَالَى أَتْبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ ، كَصَوَامِعِ الْعِبَادِ وَبِيَعِ النَّصَارَى وَصَلَوَاتِ الْيَهُودِ

(398/356)

(كَنَائِسِهِمَا) وَمَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ بِظُلْمِ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ وَمُنْكِرِي الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَهَذَا سَبَبٌ دِينِيٌّ عَامٌّ صَرِيحٌ فِي حُرِّيَّةِ الدِّينِ فِي الْإِسْلَامِ وَحِمَايَةِ الْمُسْلِمِينَ لَهَا وَلِمَعَابِدِ أَهْلِهَا

وَكَذَلِكَ كَانَ .

(ثَالِثُهَا) أَنْ يَكُونَ غَرَضُهُمْ مِنَ التَّمَكُّنِ فِي الْأَرْضِ وَالْحُكْمِ فِيهَا إِقَامَةُ الصَّلَاةِ الْمُزَكِّيَةِ لِلْأَنْفُسِ بِنَهْيِهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ كَمَا وَصَفَهَا تَعَالَى ، وَالْمُرَبِّيَةِ لِلْأَنْفُسِ عَلَى مُرَاقَبَةِ اللهِ وَخَشْيَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ الْمُصْلِحَةِ لِلْأُمُورِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالِاقْتِصَادِيَّةِ – وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ الشَّامِلِ لِكُلِّ خَيْرٍ وَنَفْعٍ لِلنَّاسِ – وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الشَّامِلِ لِكُلِّ شَرٍّ وَضُرٍّ يَلْحَقُ صَاحِبَهُ أَوْ غَيْرَهُ مِنَ النَّاسِ .

(الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ إِيثَارُ السَّلْمِ عَلَى الْحَرْبِ)

هَذِهِ الْقَاعِدَةُ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْقَاعِدَتَيْنِ اللَّتَيْنِ قَبْلَهَا إِذَا عُلِمَ بِهِمَا أَنَّ الْحَرْبَ ضَرُورَةٌ يَقْتَضِيهَا مَا ذُكِرَ فِيهِمَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ ، وَأَنَّ السَّلْمَ هِيَ الْأَصْلُ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهَا النَّاسُ ؛ فَلِهَذَا أَمَرَنَا اللهُ بِإِيثَارِهَا عَلَى الْحَرْبِ إِذَا جَنَحَ الْعَدُوُّ لَهَا ، وَرَضِيَ بِهَا ، وَالشَّاهِدُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (8 : 61) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي ص 59 ، 126 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ .

(399/356)

(الْقَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ الِاسْتِعْدَادُ التَّامُّ لِلْحَرْبِ لِأَجْلِ الْإِرْهَابِ الْمَانِعِ مِنْهَا)

إنَّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ الدَّوْلَةُ قَبْلَ الْحَرْبِ ، هُوَ إعْدَادُ الْأُمَّةِ كُلَّ مَا تَسْتَطِيعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْقُوَّةِ الْحَرْبِيَّةِ وَرِبَاطِ الْخَيْلِ فِي كُلِّ زَمَانٍ بِحَسْبِهِ ، عَلَى أَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ الْأَوَّلُ مِنْ ذَلِكَ إرْهَابُ الْأَعْدَاءِ وَإِخَافَتُهُمْ مِنْ عَاقِبَةِ التَّعَدِّي عَلَى بِلَادِ الْأُمَّةِ أَوْ مَصَالِحِهَا ، أَوْ عَلَى أَفْرَادٍ مِنْهَا أَوْ مَتَاعٍ لَهَا حَتَّى فِي غَيْرِ بِلَادِهَا ؛ لِأَجْلِ أَنْ تَكُونَ آمِنَةً فِي عُقْرِ دَارِهَا ، مُطْمَئِنَّةً عَلَى أَهْلِهَا وَمَصَالِحِهَا وَأَمْوَالِهَا ، وَهَذَا يُسَمَّى فِي

عُرْفِ هَذَا الْعَصْرِ بِالسِّلْمِ الْمُسَلَّحَةِ أَوِ التَّسْلِيحِ السِّلْمِيِّ ، وَتَدَّعِيهِ الدُّوَلُ الْعَسْكَرِيَّةُ فِيهِ زُورًا وَخِدَاعًا فَتُكَذِّبُهَا أَعْمَالُهَا ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ امْتَازَ عَلَى الشَّرَائِعِ كُلِّهَا بِأَنْ جَعَلَهُ دِينًا مَفْرُوضًا ، فَقَيَّدَ بِهِ الْأَمْرَ بِإِعْدَادِ الْقُوَى وَالْمُرَابَطَةِ لِلْقِتَالِ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ) (8 : 60) .

(الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ الرَّحْمَةُ فِي الْحَرْبِ)

(400/356)

إذَا كَانَ الْغَلَبُ وَالرُّجْحَانُ فِي الْقِتَالِ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُعَبَّرِ بِالْإِثْخَانِ فِي الْأَعْدَاءِ ، وَأَمِنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ ظُهُورَ الْعَدُوِّ عَلَيْهِمْ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَكُفُّوا عَنِ الْقَتْلِ ، وَيَكْتَفُوا بِالْأَسْرِ ، ثُمَّ

يُخْبِرُهُمْ فِي الْأُسَارَى إمَّا بِالْمَنِّ عَلَيْهِمْ بِإِطْلَاقِهِمْ بِغَيْرِ مُقَابِلٍ ، وَإِمَّا بِأَخْذِ الْفِدَاءِ عَنْهُمْ ، وَذَلِكَ نَصُّ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ) (47 : 4) الْآيَةَ . وَقَدْ أَوْرَدْنَاهَا وَبَيَّنَّا مَعْنَاهَا فِي تَفْسِيرِ (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ) (8 : 67) الْآيَةَ : (رَاجِعْ تَفْسِيرَهَا فِي ص 72 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ)

.

(الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ الْوَفَاءُ بِالْمُعَاهَدَاتِ وَتَحْرِيمُ الْخِيَانَةِ فِيهَا)

(401/356)

وُجُوبُ الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ فِي الْحَرْبِ وَالسِّلْمِ وَتَحْرِيمُ الْخِيَانَةِ فِيهِمَا سِرًّا أَوْ جَهْرًا ، كَتَحْرِيمِ الْخِيَانَةِ فِي كُلِّ أَمَانَةٍ مَادِّيَّةٍ أَوْ مَعْنَوِيَّةٍ ، كِلَاهُمَا مِنْ أَحْكَامِ الْإِسْلَامِ الْقَطْعِيَّةِ ، وَالْآيَاتُ فِي ذَلِكَ مُتَعَدِّدَةٌ مُحْكَمَةٌ لَا تَدَعُ مَجَالًا لِإِبَاحَةِ نَقْضِ الْعَهْدِ بِالْخِيَانَةِ فِيهِ وَقْتَ الْقُوَّةِ ، وَعَدِّهِ قُصَاصَةَ وَرَقٍ عِنْدَ إِمْكَانِ نَقْضِهِ بِالْحِيلَةِ (مِنْهَا) وَالْآيَاتُ فِيهَا كَثِيرَةٌ تَقَدَّمَ أَهَمُّهَا فِي الْجُزْءِ الْعَاشِرِ مِنَ التَّفْسِيرِ .

(الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ الْجِزْيَةُ وَكَوْنُهَا غَايَةً لِلْقِتَالِ لَا عِلَّةً)

قُلْتُ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي قِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ آيَةِ الْجِزْيَةِ : (حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) (9 : 29) مَا نَصُّهُ :

هَذِهِ غَايَةٌ لِلْأَمْرِ بِقِتَالِ أَهْلِ الْكِتَابِ يَنْتَهِي بِهَا إذَا كَانَ الْغَلَبُ لَنَا ، أَيْ قَالُوا مَنْ ذُكِرَ عِنْدَ وُجُودِ مَا يَقْتَضِي وُجُوبَ الْقِتَالِ ، كَالِاعْتِدَاءِ عَلَيْكُمْ أَوْ عَلَى بِلَادِكُمْ أَوِ اضْطِهَادِكُمْ وَفِتْنَتِكُمْ عَنْ دِينِكُمْ أَوْ تَهْدِيدِ أَمْنِكُمْ وَسَلَامَتِكُمْ كَمَا فَعَلَ الرُّومُ فَكَانَ سَبَبًا لِغَزْوَةِ تَبُوكَ ، حَتَّى تَأْمَنُوا عُدْوَانَهُمْ بِإِعْطَائِكُمُ الْجِزْيَةَ فِي الْحَالَيْنِ اللَّذَيْنِ قُيِّدَتْ بِهِمَا . (ثُمَّ قُلْتُ) :

(402/356)

هَذَا – وَإِنَّ الْجِزْيَةَ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ تَكُنْ كَالضَّرَائِبِ الَّتِي يَضَعُهَا الْفَاتِحُونَ عَلَى مَنْ يَتَغَلَّبُونَ عَلَيْهِمْ فَضْلًا عَنِ الْمَغَارِمِ الَّتِي يُرْهِقُونَهُمْ بِهَا ، وَإِنَّمَا هِيَ جَزَاءٌ قَلِيلٌ عَلَى مَا تَلْتَزِمُهُ الْحُكُومَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مِنَ الدِّفَاعِ عَنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، وَإِعَانَةٌ لِلْجُنْدِ الَّذِي يَمْنَعُهُمْ أَيْ يَحْمِيهِمْ مِمَّنْ يَعْتَدِي عَلَيْهِمْ كَمَا يُعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَهُمْ أَعْلَمُ النَّاسِ بِمَقَاصِدِ الشَّرِيعَةِ وَأَعْدَلُهُمْ فِي تَنْفِيذِهَا . وَالشَّوَاهِدُ عَلَى ذَلِكَ كَثِيرَةٌ أَوْرَدْنَا طَائِفَةً مِنْهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ . بَعْدَ مَا تَقَدَّمَ آنِفًا .

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذِهِ الْقَوَاعِدَ رَأَى أَنَّهُ لَمْ يَسْبِقِ الْإِسْلَامَ إِلَى مِثْلِهَا دِينٌ مِنَ الْأَدْيَانِ ، وَلَا قَانُونٌ دَوْلِيٌّ ، وَلَا إِرْشَادٌ فَلْسَفِيٌّ أَوْ أَدَبِيٌّ ، وَلَا تَبِعَتْهُ بِهَا أُمَّةٌ بِتَشْرِيعٍ وَلَا عَمَلٍ ، أَفَلَيْسَ هَذَا وَحْدَهُ دَلِيلًا وَاضِحًا لَدَى مَنْ يُؤْمِنُ بِوُجُوبِ رَبٍّ لِلْبَشَرِ عَلِيمٍ حَكِيمٍ ، بِأَنَّ مُحَمَّدًا الْعَرَبِيَّ الْأُمِّيَّ قَدِ اسْتَمَدَّهَا بِوَحْيٍ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَنَّ عَقْلَهُ وَذَكَاءَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَبْلُغَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ الْمُعْضِلَاتِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ بِدُونِ هَذَا الْوَحْيِ ؟ فَكَيْفَ إِذَا أَضَفْنَا إِلَيْهَا مَا تَقَدَّمَ وَمَا يَأْتِي مِنَ الْمَعَارِفِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْأَدَبِيَّةِ وَالِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالْأَنْبَاءِ الْغَيْبِيَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دَلَائِلِ نُبُوَّتِهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – ؟ ! .

(403/356)

الْمَقْصِدُ التَّاسِعُ مِنْ فِقْهِ الْقُرْآنِ

(إِعْطَاءُ النِّسَاءِ جَمِيعَ الْحُقُوقِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ وَالْمَدَنِيَّةِ)

كَانَ النِّسَاءُ قَبْلَ الْإِسْلَامِ مَظْلُومَاتٍ مُمْتَهَنَاتٍ مُسْتَعْبَدَاتٍ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ وَفِي جَمِيعِ شَرَائِعِهَا وَقَوَانِينِهَا ، حَتَّى عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ ، حَتَّى جَاءَ الْإِسْلَامُ ، وَأَكْمَلَ اللَّهُ دِينَهُ بِبِعْثَةِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، فَأَعْطَى اللَّهُ النِّسَاءَ بِكِتَابِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ ، وَبِسُنَنِهِ الَّتِي بَيَّنَ بِهَا كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، جَمِيعَ الْحُقُوقِ الَّتِي أَعْطَاهَا

لِلرِّجَالِ ، إِلَّا مَا يَقْتَضِيهِ اخْتِلَافُ طَبِيعَةِ الْمَرْأَةِ وَوَظَائِفُهَا النِّسَوِيَّةِ مِنَ الْأَحْكَامِ ، مَعَ مُرَاعَاةِ تَكْرِيمِهَا وَالرَّحْمَةِ بِهَا وَالْعَطْفِ عَلَيْهَا ، حَتَّى كَانَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يَقُولُ : (مَا أَكْرَمَ النِّسَاءَ إِلَّا كَرِيمٌ ، وَلَا أَهَانَهُنَّ إِلَّا لَئِيمٌ) رَوَاهُ ابْنُ عَسَاكِرَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

(404/356)

وَإِنِّي أُشِيرُ هُنَا إِلَى أَهَمِّ أُصُولِ الْإِصْلَاحِ النِّسَوِيِّ الَّتِي بَسَطْتُهَا بِكِتَابٍ وَسِيطٍ فِي (حُقُوقِ النِّسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ) بَيَّنْتُ فِي مُقَدِّمَتِهِ حَالَهُنَّ قَبْلَ الْبَعْثَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ عِنْدَ أُمَمِ الْأَرْضِ إِجْمَالًا بِقَوْلِي : (كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُشْتَرَى وَتُبَاعُ ، كَالْبَهِيمَةِ وَالْمَتَاعِ ، وَكَانَتْ تُكْرَهُ عَلَى الزَّوَاجِ وَعَلَى الْبَغَاءِ ، وَكَانَتْ تُورَثُ وَلَا تَرِثُ ، وَكَانَتْ تُمْلَكُ وَلَا تَمْلِكُ ، وَكَانَ أَكْثَرُ الَّذِينَ يَمْلِكُونَهَا يَحْجُرُونَ عَلَيْهَا التَّصَرُّفَ فِيمَا تَمْلِكُهُ بِدُونِ إِذْنِ الرَّجُلِ ، وَكَانُوا يَرَوْنَ لِلزَّوْجِ الْحَقَّ فِي التَّصَرُّفِ بِمَالِهَا مِنْ دُونِهَا ، وَقَدِ اخْتَلَفَ الرِّجَالُ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ فِي كَوْنِهَا إِنْسَانًا ذَا نَفْسٍ وَرُوحٍ خَالِدَةٍ كَالرَّجُلِ أَمْ لَا ؟ وَفِي كَوْنِهَا تُلَقَّنُ الدِّينَ وَتَصِحُّ مِنْهَا الْعِبَادَةُ أَمْ لَا ؟ وَفِي كَوْنِهَا تَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَوِ الْمَلَكُوتَ فِي الْآخِرَةِ أَمْ لَا ؟ فَقَرَّرَ أَحَدُ الْمَجَامِعِ فِي رُومِيَّةَ أَنَّهَا حَيَوَانٌ نَجِسٌ لَا رُوحَ لَهُ وَلَا خُلُودَ ، وَلَكِنْ يَجِبُ عَلَيْهَا الْعِبَادَةُ وَالْخِدْمَةُ ، وَأَنْ يُكَمَّ فَمُهَا كَالْبَعِيرِ

وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ لِمَنْعِهَا مِنَ الضَّحِكِ وَالْكَلَامِ ، لِأَنَّهَا أُحْبُولَةُ الشَّيْطَانِ ، وَكَانَتْ أَعْظَمُ الشَّرَائِعِ تُبِيحُ لِلْوَالِدِ بَيْعَ ابْنَتِهِ ، وَكَانَ بَعْضُ الْعَرَبِ يَرَوْنَ أَنَّ لِلْأَبِ الْحَقَّ فِي قَتْلِ بِنْتِهِ بَلْ فِي وَأْدِهَا - دَفْنِهَا حَيَّةً - أَيْضًا . وَكَانَ مِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّهُ لَا قِصَاصَ عَلَى الرَّجُلِ فِي قَتْلِ الْمَرْأَةِ وَلَا دِيَةَ) .

(405/356)

وَكَتَبْتُ فِي مُقَدِّمَةِ الْكَلَامِ عَلَى حُقُوقِ النِّسَاءِ الْمَالِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ مَا مُخْتَصَرُهُ :

(قَدْ أَبْطَلَ الْإِسْلَامُ كُلَّ مَا كَانَ عَلَيْهِ الْعَرَبُ وَالْعَجَمُ مِنْ حِرْمَانِ النِّسَاءِ مِنَ التَّمَلُّكِ أَوِ التَّضْيِيقِ عَلَيْهِنَّ فِي التَّصَرُّفِ بِمَا يَمْلِكْنَ ، وَاسْتِبْدَادِ أَزْوَاجِ الْمُتَزَوِّجَاتِ مِنْهُنَّ بِأَمْوَالِهِنَّ ، فَأَثْبَتَ لَهُنَّ حَقَّ الْمِلْكِ بِأَنْوَاعِهِ وَالتَّصَرُّفَ بِأَنْوَاعِهِ الْمَشْرُوعَةِ ، فَشَرَعَ الْوَصِيَّةَ وَالْإِرْثَ لَهُنَّ كَالرِّجَالِ ، وَزَادَهُنَّ مَا فُرِضَ لَهُنَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ مَهْرِ الزَّوْجِيَّةِ وَالنَّفَقَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ وَأَوْلَادِهَا وَإِنْ كَانَتْ غَنِيَّةً ، وَأَعْطَاهُنَّ حَقَّ الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالْإِجَارَةِ وَالْهِبَةِ وَالصَّدَقَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَيَتْبَعُ ذَلِكَ حُقُوقُ الدِّفَاعِ عَنْ مَالِهَا كَالدِّفَاعِ عَنْ نَفْسِهَا بِالتَّقَاضِي وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ لَا تَزَالُ إِلَى الْيَوْمِ مُقَيَّدَةً بِإِرَادَةِ زَوْجِهَا فِي جَمِيعِ التَّصَرُّفَاتِ الْمَالِيَّةِ ، وَالْعُقُودِ الْقَضَائِيَّةِ)

وَإِنِّي أَلْخِصُ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ الْمَسَائِلَ الْآتِيَةَ بِالْإِيجَازِ :

(406/356)

---

(1) كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ مِنَ الْإِفْرِنْجِ وَغَيْرِهِمْ يَعُدُّونَ الْمَرْأَةَ مِنَ الْحَيَوَانِ الْأَعْجَمِ أَوْ مِنَ الشَّيَاطِينِ لَا مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، وَبَعْضُهُمْ يَشُكُّ فِي ذَلِكَ ، فَجَاءَ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَتْلُو عَلَيْهِمْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى) (49 : 13) الْآيَةَ : وَقَوْلَهُ : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً (4 : 1) وَمَا فِي مَعْنَاهُمَا .

(2) كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ فِي أُورُبَّةَ وَغَيْرِهَا يَرَوْنَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَا يَصِحُّ أَنْ يَكُونَ لَهَا دِينٌ ، حَتَّى كَانُوا يُحَرِّمُونَ عَلَيْهَا قِرَاءَةَ الْكُتُبِ الْمُقَدَّسَةِ رَسْمِيًّا ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ يُخَاطِبُ بِالتَّكَالِيفِ الدِّينِيَّةِ الرِّجَالَ وَالنِّسَاءَ مَعًا بِلَقَبِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ .

(407/356)

كَانَ أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِمُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - امْرَأَةً ، وَهِيَ زَوْجُهُ خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ - رَضِيَ اللهُ عَنْهَا - وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مُبَايَعَتَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ – لِلنِّسَاءِ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ ثُمَّ بَايَعَ الرِّجَالَ بِمَا جَاءَ فِيهَا ، وَلَمَّا جُمِعَ الْقُرْآنُ فِي مُصْحَفٍ وَاحِدٍ جَمْعًا رَسْمِيًّا وُضِعَ عِنْدَ امْرَأَةٍ هِيَ حَفْصَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَظَلَّ عِنْدَهَا مِنْ عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى عَهْدِ الْخَلِيفَةِ الثَّالِثِ عُثْمَانَ – رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ – فَأُخِذَ مِنْ عِنْدِهَا وَاعْتَمَدُوا عَلَيْهِ فِي نُسَخِ الْمَصَاحِفِ الرَّسْمِيَّةِ الَّتِي كُتِبَتْ وَأُرْسِلَتْ إِلَى الْأَمْصَارِ لِأَجْلِ النَّسْخِ عَنْهَا وَالِاعْتِمَادِ عَلَيْهَا .

(3) كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ يَزْعُمُونَ أَنَّ الْمَرْأَةَ لَيْسَ لَهَا رُوحٌ خَالِدَةٌ فَتَكُونَ مَعَ الرِّجَالِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَنَّةِ النَّعِيمِ فِي الْآخِرَةِ – وَهَذَا الزَّعْمُ أَصْلٌ لِعَدَمِ تَدَيُّنِهَا –

(408/356)

فَنَزَلَ الْقُرْآنُ يَقُولُ : (لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (4 : 123 و124) وَيَقُولُ : (فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ) (3 : 195) الْآيَةَ . وَفِيهَا الْوَعْدُ الصَّرِيحُ بِدُخُولِ الْفَرِيقَيْنِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

(4) كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ يَحْتَقِرُونَ الْمَرْأَةَ فَلَا يَعُدُّونَهَا أَهْلًا لِلِاشْتِرَاكِ مَعَ الرِّجَالِ فِي الْمَعَابِدِ

الدِّينِيَّةِ وَالْمَحَافِلِ الْأَدَبِيَّةِ ، وَلَا فِي غَيْرِهِمَا مِنَ الْأُمُورِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْإِرْشَادَاتِ الْإِصْلَاحِيَّةِ ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ يُصَارِحُهُمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (9 : 71) الْآيَةَ . ثُمَّ قَالَ : (وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (9 : 72) فَرَاجِعْ تَفْسِيرَهُمَا فِي ص 466 وَمَا بَعْدَهَا ج 10 ط الْهَيْئَةِ .

(409/356)

---

(5) كَانَ بَعْضُ الْبَشَرِ يَحْرِمُونَ النِّسَاءَ مِنْ حَقِّ الْمِيرَاثِ وَغَيْرِهِ مِنَ التَّمَلُّكِ ، وَبَعْضُهُمْ يُضَيِّقُ عَلَيْهِنَّ حَقَّ التَّصَرُّفِ فِيمَا يَمْلِكْنَ ، فَأَبْطَلَ الْإِسْلَامُ هَذَا الظُّلْمَ وَأَثْبَتَ لَهُنَّ حَقَّ التَّمَلُّكِ وَالتَّصَرُّفِ بِأَنْفُسِهِنَّ فِي دَائِرَةِ الشَّرْعِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا) (4 : 7) وَقَالَ : (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ) (4 : 32)

.

وَنَحْنُ نَرَى أَنَّ دَوْلَةَ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمِيرِيكِيَّةِ لَمْ تَمْنَحِ النِّسَاءَ حَقَّ التَّمَلُّكِ وَالتَّصَرُّفِ إِلَّا مِنْ عَهْدٍ قَرِيبٍ فِي عَصْرِنَا هَذَا ، وَأَنَّ الْمَرْأَةَ الْفَرَنْسِيَّةَ لَا تَزَالُ مُقَيَّدَةً بِإِرَادَةِ زَوْجِهَا فِي

التَّصَرُّفَاتِ الْمَالِيَّةِ وَالْعُقُودِ الْقَضَائِيَّةِ ، وَقَدْ مُنِحَتِ الْمَرْأَةُ الْمُسْلِمَةُ هَذِهِ الْحُقُوقَ مُنْذُ ثَلَاثَةَ عَشَرَ قَرْنًا وَنِصْفَ قَرْنٍ .

(6) كَانَ الزَّوَاجُ فِي قَبَائِلِ الْبَدْوِ وَشُعُوبِ الْحَضَارَةِ ضَرْبًا مِنِ اسْتِرْقَاقِ الرِّجَالِ لِلنِّسَاءِ ، فَجَعَلَهُ الْإِسْلَامُ عَقْدًا دِينِيًّا مَدَنِيًّا ؛ لِقَضَاءِ حَقِّ الْفِطْرَةِ بِسُكُونِ النَّفْسِ مِنِ اضْطِرَابِهَا الْجِنْسِيِّ بِالْحُبِّ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ ، وَتَوْسِيعِ دَائِرَةِ الْمَوَدَّةِ وَالْأُلْفَةِ بَيْنَ الْعَشِيرَتَيْنِ ، وَاكْتِمَالِ عَاطِفَةِ الرَّحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَانْتِشَارِهَا مِنَ الْوَالِدَيْنِ إِلَى الْأَوْلَادِ ، عَلَى مَا أَرْشَدَ

(410/356)

إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (30 : 21) .

(7) الْقُرْآنُ سَاوَى بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ بِاقْتِسَامِ الْوَاجِبَاتِ وَالْحُقُوقِ بِالْمَعْرُوفِ ، مَعَ جَعْلِ حَقِّ رِيَاسَةِ الشَّرِكَةِ الزَّوْجِيَّةِ لِلرَّجُلِ لِأَنَّهُ أَقْدَرُ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْحِمَايَةِ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الزَّوْجَاتِ : (وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) (2 : 228) وَقَدْ بَيَّنَ هَذِهِ الدَّرَجَةَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ) (4 : 34) فَجَعَلَ مِنْ وَاجِبَاتِ هَذِهِ الْقِيَامَةِ عَلَى الزَّوْجِ نَفَقَةَ

الزَّوْجَةِ وَالْأَوْلَادِ لَا تُكَلَّفُ مِنْهُ شَيْئًا وَلَوْ كَانَتْ أَغْنَى مِنْهُ ، وَزَادَهَا الْمَهْرَ فَالْمُسْلِمُ يَدْفَعُ لِامْرَأَتِهِ مَهْرًا عَاجِلًا مَفْرُوضًا عَلَيْهِ بِمُقْتَضَى الْعَقْدِ ، حَتَّى إذَا لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ لَزِمَهُ فِيهِ مَهْرُ مِثْلِهَا فِي الْهَيْئَةِ الِاجْتِمَاعِيَّةِ ، وَلَهُمَا أَنْ يُؤَجِّلَا بَعْضَهُ بِالتَّرَاضِي ، عَلَى حِينِ نَرَى بَقِيَّةَ الْأُمَمِ حَتَّى الْيَوْمِ تُكَلِّفُ الْمَرْأَةَ دَفْعَ الْمَهْرِ لِلرَّجُلِ .

(411/356)

وَكَانَ أَوْلِيَاءُ الْمَرْأَةِ يُجْبِرُونَهَا عَلَى التَّزَوُّجِ بِمَنْ تَكْرَهُ ، أَوْ يَعْضُلُونَهَا بِالْمَنْعِ مِنْهُ مُطْلَقًا ، وَإِنْ كَانَ زَوْجَهَا وَطَلَّقَهَا فَحَرَّمَ الْإِسْلَامُ ذَلِكَ ، وَالنُّصُوصُ فِي هَذَا مَعْرُوفَةٌ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ وَسُنَّتِهِ وَتَقَدَّمَ بَيَانُهَا فِي الْجُزْءِ الثَّانِي مِنَ التَّفْسِيرِ .

(8) كَانَ الرِّجَالُ مِنَ الْعَرَبِ وَبَنِي إسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ يَتَّخِذُونَ مِنَ الْأَزْوَاجِ مَا شَاءُوا غَيْرَ مُقَيَّدِينَ بِعَدَدٍ ، وَلَا مُشْتَرَطٍ عَلَيْهِمْ فِيهِ الْعَدْلُ ، فَقَيَّدَهُمُ الْإِسْلَامُ بِأَلَّا يَزِيدُوا عَلَى أَرْبَعٍ ، وَأَنَّ مَنْ خَافَ عَلَى نَفْسِهِ أَلَّا يَعْدِلَ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَجَبَ عَلَيْهِ الِاقْتِصَارُ عَلَى وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا أَبَاحَ الزِّيَادَةَ لِمُحْتَاجِهَا الْقَادِرِ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْإِحْصَانِ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورَاتِ الِاجْتِمَاعِ وَلَا سِيَّمَا حَيْثُ يَقِلُّ الرِّجَالُ وَيَكْثُرُ النِّسَاءُ .

وَقَدْ فَصَّلْنَا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ آيَةِ التَّعَدُّدِ مِنْ سُورَةِ النِّسَاءِ ، ثُمَّ زِدْنَا عَلَيْهِ فِي كِتَابِ (حُقُوقِ

النِّسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ) مَا هُوَ مُقْنِعٌ لِكُلِّ عَاقِلٍ مُنْصِفٍ بِأَنَّ مَا شَرَعَهُ الْإِسْلَامُ فِي التَّعَدُّدِ هُوَ عَيْنُ الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَمَصْلَحَةِ الْبَشَرِ .

(9) الطَّلَاقُ قَدْ يَكُونُ ضَرُورَةً مِنْ ضَرُورِيَّاتِ الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ ، إذَا تَعَذَّرَ عَلَى الزَّوْجَيْنِ الْقِيَامُ بِحُقُوقِ الزَّوْجِيَّةِ مِنْ إقَامَةِ حُدُودِ اللَّهِ وَحُقُوقِ الْإِحْصَانِ وَالنَّفَقَةِ

(412/356)

وَالْمُعَاشَرَةِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَكَانَ مَشْرُوعًا عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْوَثَنِيِّينَ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ ، وَكَانَ يَقَعُ عَلَى النِّسَاءِ مِنْهُ وَفِيهِ ظُلْمٌ كَثِيرٌ وَغَبْنٌ يَشُقُّ احْتِمَالُهُ ، فَجَاءَ الْإِسْلَامُ فِيهِ بِالْإِصْلَاحِ الَّذِي لَمْ يَسْبِقْهُ إلَيْهِ شَرْعٌ وَلَمْ يَلْحَقْهُ بِمِثْلِهِ قَانُونٌ ، وَكَانَ الْإِفْرِنْجُ يُحَرِّمُونَهُ وَيَعِيبُونَ الْإِسْلَامَ بِهِ ، ثُمَّ اضْطُرُّوا إلَى إبَاحَتِهِ ، فَأَسْرَفُوا فِيهِ إسْرَافًا مُنْذِرًا بِفَوْضَى الْحَيَاةِ الزَّوْجِيَّةِ وَانْحِلَالِ رَوَابِطِ الْأُسْرَةِ وَالْعَشِيرَةِ .

(413/356)

جَعَلَ الْإِسْلَامُ عُقْدَةَ النِّكَاحِ بِيَدِ الرِّجَالِ ، وَيَتْبَعُهُ حَقُّ الطَّلَاقِ لِأَنَّهُمْ أَحْرَصُ عَلَى بَقَاءِ الزَّوْجِيَّةِ بِمَا تُكَلِّفُهُمْ مِنَ النَّفَقَاتِ فِي عَقْدِهَا وَحَلِّهَا ، وَكَوْنِهِمْ أَثْبَتَ مِنَ النِّسَاءِ جَأْشًا وَأَشَدَّ صَبْرًا عَلَى مَا يَكْرَهُونَ ، وَقَدْ أَوْصَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذَا بِمَا يَزِيدُهُمْ قُوَّةً عَلَى ضَبْطِ النَّفْسِ وَحَبْسِهَا عَلَى مَا يَكْرَهُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ فَقَالَ : (وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (4 : 19) عَلَى أَنَّ الشَّرِيعَةَ تُعْطِي الْمَرْأَةَ حَقَّ اشْتِرَاطِ جَعْلِ عِصْمَتِهَا بِيَدِهَا لِتُطَلِّقَ نَفْسَهَا إِذَا شَاءَتْ ، وَأَعْطَتْهَا حَقَّ طَلَبِ فَسْخِ عَقْدِ الزَّوَاجِ مِنَ الْقَاضِي إِذَا وَجَدَ سَبَبَهُ مِنَ الْعُيُوبِ الْخِلْقِيَّةِ أَوِ الْمَرَضِيَّةِ كَالرَّجُلِ ، وَكَذَا إِذَا عَجَزَ الزَّوْجُ عَنِ النَّفَقَةِ . وَجَعَلَتْ لِلْمُطَلَّقَةِ عَلَيْهِ حَقَّ النَّفَقَةِ مُدَّةَ الْعِدَّةِ الَّتِي لَا يَحِلُّ لَهَا فِيهَا الزَّوَاجُ ، وَذَمَّ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – الطَّلَاقَ بِأَنَّ اللَّهَ يَبْغَضُهُ لِلتَّنْفِيرِ عَنْهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي بَيَّنَّاهَا فِي تَفْسِيرِ الْآيَاتِ الْمُنَزَّلَةِ فِيهَا ، وَفِي كِتَابِنَا الْجَدِيدِ فِي حُقُوقِ النِّسَاءِ فِي الْإِسْلَامِ .

(414/356)

---

(10) بَالَغَ الْإِسْلَامُ فِي الْوَصِيَّةِ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ فَقَرَنَهُ بِعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَكَّدَ النَّبِيُّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – فِيهِ حَقَّ الْأُمِّ فَجَعَلَ بِرَّهَا مُقَدَّمًا عَلَى بِرِّ الْأَبِ ، ثُمَّ بَالَغَ فِي الْوَصِيَّةِ بِتَرْبِيَةِ

الْبَنَاتِ وَكَفَالَةِ الْأَخَوَاتِ ، بِأَخَصِّ مِمَّا وَصَّى بِهِ مِنْ صِلَةِ الْأَرْحَامِ ، بَلْ جَعَلَ لِكُلِّ امْرَأَةٍ قَيِّمًا شَرْعِيًّا يَتَوَلَّى كِفَايَتَهَا وَالْعِنَايَةَ بِهَا وَمَنْ لَيْسَ لَهَا وَلِيٌّ مِنْ أَقَارِبِهَا وَجَبَ عَلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْ حُكَّامِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَوَلَّوْا أَمْرَهَا .

وَجُمْلَةُ الْقَوْلِ : أَنَّهُ مَا وُجِدَ دِينٌ وَلَا شَرْعٌ وَلَا قَانُونٌ فِي أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ أَعْطَى النِّسَاءَ مَا أَعْطَاهُنَّ

الْإِسْلَامُ مِنَ الْحُقُوقِ وَالْعِنَايَةِ وَالْكَرَامَةِ ، أَفَلَيْسَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ دَلَائِلِ كَوْنِهِ مِنْ وَحْيِ اللهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ الرَّحِيمِ لِمُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الْمَبْعُوثِ فِي الْأُمِّيِّينَ ؟ بَلَى وَأَنَا عَنْ ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ الْمُبَرْهِنِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الْمَقْصَدُ الْعَاشِرُ مِنْ فِقْهِ الْقُرْآنِ تَحْرِيرُ الرَّقَبَةِ

إِنَّ اسْتِرْقَاقَ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ قَدِيمٌ فِي شُعُوبِ الْبَشَرِ ، بَلْ هُوَ مَعْهُودٌ فِي الْحَشَرَاتِ الَّتِي تَعِيشُ عِيشَةَ الِاجْتِمَاعِ وَالتَّعَاوُنِ أَيْضًا كَالنَّمْلِ ، فَإِذَا حَارَبَتْ قَرْيَةٌ مِنْهُ أُخْرَى فَظَفِرَتْ بِهَا وَانْتَصَرَتْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا تَأْسِرُ مَا سَلِمَ مِنَ الْقِتَالِ وَتَسْتَعْبِدُهُ فِي خِدْمَةِ الظَّافِرِ مِنَ الْبِنَاءِ وَجَمْعِ الْمُؤْنَةِ وَخَزْنِهَا فِي مَخَازِنِهَا وَغَيْرِ ذَلِكَ .

(415/356)

كَانَتْ شُعُوبُ الْحَضَارَةِ الْقَدِيمَةِ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَالْبَابِلِيِّينَ وَالْفُرْسِ وَالْهُنُودِ وَالْيُونَانِ وَالرُّومِ وَالْعَرَبِ وَغَيْرِهَا تَتَّخِذُ الرِّقَّ وَتَسْتَخْدِمُهُ فِي أَشَقِّ الْأَعْمَالِ ، وَتُعَامِلُهُ بِمُنْتَهَى الْقَسْوَةِ وَالظُّلْمِ ، وَقَدْ أَقَرَّتْهُ الدِّيَانَتَانِ الْيَهُودِيَّةُ وَالنَّصْرَانِيَّةُ ، وَظَلَّ الرِّقُّ مَشْرُوعًا عِنْدَ الْإِفْرِنْجِ إِلَى أَنْ حَرَّرَتِ الْوِلَايَاتُ الْأَمِيرِيكِيَّةُ الْمُتَّحِدَةُ رَقِيقَهَا فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ الثَّامِنَ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ ، وَتَلَتْهَا إِنْكِلْتِرَةُ بِاتِّخَاذِ الْوَسَائِلِ لِمَنْعِهِ مِنَ الْعَالَمِ كُلِّهِ فِي أَوَاخِرِ الْقَرْنِ التَّاسِعَ عَشَرَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَمَلُ كُلٍّ مِنْهُمَا خَالِصًا لِمَصْلَحَةِ الْبَشَرِ وَجُنُوحًا لِلْمُسَاوَاةِ بَيْنَهُمْ ، فَإِنَّ الْأُولَى لَا تَزَالُ تُفَضِّلُ الْجِنْسَ الْأَبْيَضَ الْأُورُبِّيَّ الْمُتَغَلِّبَ عَلَى الْجِنْسِ الْأَحْمَرِ الْوَطَنِيِّ الْأَصْلِيِّ بِمَا يَقْرُبُ مِنَ الِاسْتِعْبَادِ السِّيَاسِيِّ الْمُبَاحِ عِنْدَ جَمِيعِ الْإِفْرِنْجِ لِلشُّعُوبِ ، كَمَا أَنَّ إِنْكِلْتِرَةَ تَحْتَقِرُ الْهُنُودَ وَتَسْتَذِلُّهُمْ وَلَكِنَّ النَّهْضَةَ الْهِنْدِيَّةَ فِي هَذَا الْعَهْدِ قَدْ خَفَّضَتْ مِنْ غُلَوَائِهِمْ ، وَطَامَنَتْ مِنْ إِشْنَاقِ كِبْرِيَائِهِمْ .

(416/356)

فَلَمَّا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ ، وَأَشْرَقَ نُورُهُ الْمَاحِي لِكُلِّ ظَلَامٍ ، كَانَ مِمَّا أَصْلَحَهُ مِنْ فَسَادِ الْأُمَمِ إِبْطَالُ ظُلْمِ الرِّقِّ وَإِرْهَاقِهِ ، وَوَضْعُ الْأَحْكَامِ لِإِبْطَالِ الرِّقِّ بِالتَّدْرِيجِ السَّرِيعِ ، إِذْ كَانَ إِبْطَالُهُ دُفْعَةً وَاحِدَةً مُتَعَذِّرًا فِي نِظَامِ الِاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ مِنَ النَّاحِيَتَيْنِ : نَاحِيَةِ مَصَالِحِ السَّادَةِ الْمُسْتَرِقِّينَ

، وَنَاحِيَةِ مَعِيشَةِ الْأَرِقَّاءِ الْمُسْتَعْبَدِينَ .

فَإِنَّ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةَ لَمَّا حَرَّرَتْ رَقِيقَهَا كَانَ بَعْضُهُمْ يَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِسُ وَسِيلَةً لِلرِّزْقِ فَلَا يَجِدُهَا ، فَيَحُورُ إِلَى سَادَتِهِ يَرْجُو مِنْهُمُ الْعَوْدَ إِلَى خِدْمَتِهِمْ كَمَا كَانَ .

وَكَذَلِكَ جَرَى فِي السُّودَانِ الْمِصْرِيِّ ، فَقَدْ جَرَّبَ الْحُكَّامُ مِنَ الْإِنْكِلِيزِ أَنْ يَجِدُوا لَهُمْ رِزْقًا بِعَمَلٍ يَعْمَلُونَهُ مُسْتَقِلِّينَ فِيهِ مُكْتَفِينَ بِهِ فَلَمْ يُمْكِنْ ، فَاضْطُرُّوا إِلَى الْإِذْنِ لَهُمْ بِالرُّجُوعِ إِلَى خِدْمَةِ الرِّقِّ السَّابِقَةِ ، بَيْدَ أَنَّهَا لَا تَسْمَحُ لِلْمَخْدُومِينَ بِبَيْعِهِمْ وَالِاتِّجَارِ بِهِمْ .

هِدَايَةُ الْإِسْلَامِ فِي تَحْرِيرِ الرَّقِيقِ وَأَحْكَامِهِ

قَدْ شَرَعَ اللهُ تَعَالَى لِإِبْطَالِ الرِّقِّ طَرِيقَتَيْنِ : عَدَمُ تَجْدِيدِ الِاسْتِرْقَاقِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ ، وَتَحْرِيرُ الرَّقِيقِ الْقَدِيمِ بِالتَّدْرِيجِ الَّذِي لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ فِيهِ .

(417/356)

(الطَّرِيقَةُ الْأُولَى) مَنَعَ الْإِسْلَامُ جَمِيعَ مَا كَانَ عَلَيْهِ النَّاسُ مِنِ اسْتِرْقَاقِ الْأَقْوِيَاءِ لِلضُّعَفَاءِ إِلَّا اسْتِرْقَاقَ الْأَسْرَى وَالسَّبَايَا فِي الْحَرْبِ ، الَّتِي اشْتَرَطَ فِيهَا مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ مِنْ دَفْعِ الْمَفَاسِدِ وَتَقْرِيرِ الْمَصَالِحِ وَمَنْعِ الِاعْتِدَاءِ وَمُرَاعَاةِ الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَهِيَ شُرُوطٌ لَمْ تَكُنْ قَبْلَهُ مَشْرُوعَةً عِنْدَ الْمِلِّيِّينَ ، وَلَا عِنْدَ أَهْلِ الْحَضَارَةِ فَضْلًا عَنِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا شَرْعَ لَهُمْ وَلَا

قَانُونَ ، وَلَسْتُ أَعْنِي بِالِاسْتِثْنَاءِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى شَرَعَ لَنَا مِنْ هَذَا النَّوْعِ مِنَ الِاسْتِرْقَاقِ كُلَّ مَا كَانَتِ الْأُمَمُ تَفْعَلُهُ مُعَامَلَةً لَهُمْ بِالْمِثْلِ ، بَلْ شَرَعَ لِأُولِي الْأَمْرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مُرَاعَاةَ الْمَصْلَحَةِ لِلْبَشَرِ فِي إِمْضَائِهِ أَوْ إِبْطَالِهِ بِأَنْ خَيَّرَهُمْ فِي أَسْرَى الْحَرْبِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الْمَنِّ عَلَيْهِمْ بِالْحُرِّيَّةِ ، وَالْفِدَاءِ بِهِمْ ، وَهُوَ نَوْعَانِ : فِدَاءُ الْمَالِ ، وَفِدَاءُ الْأَنْفُسِ ، إِذَا كَانَ لَنَا أُسَارَى أَوْ سَبْيٌ عِنْدَ قَوْمِهِمْ ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى الَّذِي أَوْرَدْنَاهُ فِي قَوَاعِدِ الْحَرْبِ : (فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مِنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً) (47 : 4) وَلَمَّا كُنَّا مُخَيَّرِينَ فِيهِمْ بَيْنَ إِطْلَاقِهِمْ بِغَيْرِ مُقَابِلٍ وَالْفِدَاءِ بِهِمْ ، جَازَ أَنْ يُعَدَّ هَذَا أَصْلًا شَرْعِيًّا لِإِبْطَالِ اسْتِئْنَافِ الِاسْتِرْقَاقِ فِي الْإِسْلَامِ ؛ فَإِنَّ ظَاهِرَ التَّخْيِيرِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ أَنَّ الْأَمْرَ الثَّالِثَ الَّذِي هُوَ الِاسْتِرْقَاقُ غَيْرُ جَائِزٍ ، لَوْ لَمْ يُعَارِضْهُ أَنَّهُ هُوَ الْأَصْلُ

(418/356)

الْمُتَّبَعُ عِنْدَ جَمِيعِ الْأُمَمِ ، فَمِنْ أَكْبَرِ الْمَفَاسِدِ وَالضَّرَرِ أَنْ يَسْتَرِقُّوا أَسْرَانَا وَنُطْلِقَ أَسْرَاهُمْ وَنَحْنُ أَرْحَمُ بِهِمْ وَأَعْدَلُ كَمَا يُعْلَمُ مِمَّا يَأْتِي . وَلَكِنَّ الْآيَةَ لَيْسَتْ نَصًّا فِي الْحَصْرِ ، وَلَا صَرِيحَةً فِي النَّهْيِ عَنِ الْأَصْلِ ، فَكَانَتْ دَلَالَتُهَا عَلَى تَحْرِيمِ الِاسْتِرْقَاقِ مُطْلَقًا غَيْرَ قَطْعِيَّةٍ ، فَبَقِيَ حُكْمُهُ مَحَلَّ اجْتِهَادِ أُولِي الْأَمْرِ ، إِذَا وَجَدُوا الْمَصْلَحَةَ فِي إِبْقَائِهِ أَبْقَوْهُ ، وَإِذَا وَجَدُوا

الْمَصْلَحَةَ فِي تَرْجِيحِ الْمَنِّ عَلَيْهِمْ بِالْحُرِّيَّةِ - وَهُوَ إِبْطَالٌ اخْتِيَارِيٌّ لَهُ - أَوِ الْفِدَاءُ بِهِمْ عَمِلُوا بِهِ .

(الطَّرِيقَةُ الثَّانِيَةُ مَا شَرَعَهُ لِتَحْرِيرِ الرَّقِيقِ الْمَوْجُودِ وُجُوبًا وَنَدْبًا وَهُوَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ) .

(النَّوْعُ الْأَوَّلُ مِنْ أَحْكَامِ الرِّقِّ وَوَسَائِلِ تَحْرِيرِهِ اللَّازِبَةِ وَفِيهِ عَشْرُ مَسَائِلَ) .

(1) إِنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِنْسَانِ هُوَ الْحُرِّيَّةُ وَيَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أَحْكَامٌ . (2) تَحْرِيمُ الِاسْتِرْقَاقِ وَبُطْلَانُهُ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ بِشَرْطِهِ . (3) الْكِتَابَةُ : وَهِيَ شِرَاءُ الْمَمْلُوكِ نَفْسَهُ مِنْ سَيِّدِهِ بِمَالٍ يَكْسِبُهُ ، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا لِمَنْ يَبْتَغِيهَا ، وَأَمَرَ بِمُسَاعَدَتِهِ عَلَيْهِ بِالْمَالِ مِنَ الْمَالِكِ نَفْسِهِ . (4) إِذَا خَرَجَ الْأَرِقَّاءُ مِنْ دَارِ الْكُفْرِ إِلَى دَارِ الْإِسْلَامِ يَصِيرُونَ أَحْرَارًا . (5) مَنْ أَعْتَقَ بَعْضَ عَبْدِهِ عُتِقَ كُلُّهُ عَلَيْهِ

(419/356)

وَإِنْ كَانَ الْبَعْضُ الْآخَرُ لِغَيْرِهِ فَلَهُ أَحْكَامٌ . (6) مَنْ عَذَّبَ مَمْلُوكَهُ أَوْ مَثَّلَ بِهِ كَأَنْ خَصَاهُ أَوْ جَبَّهُ عُتِقَ عَلَيْهِ وَزَالَ مِلْكُهُ عَنْهُ . (7) مَنْ آذَى مَمْلُوكَهُ بِمَا دُونَ التَّمْثِيلِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ ، فَكَفَّارَةُ ذَنْبِهِ أَنْ يُعْتِقَهُ . (8) التَّدْبِيرُ عِتْقٌ لَازِمٌ ، وَهُوَ أَنْ يُعْتَقَ مَمْلُوكُهُ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَلَهُ أَنْ يَسْتَخْدِمَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُ أَنْ يَبِيعَهُ لِأَنَّهُ صَارَ حُرًّا بَعْدَ مَوْتِهِ . (9) إِذَا وَلَدَتِ

الْجَارِيَةُ لِسَيِّدِهَا وَلَدًا مِنْهُ حَرُمَ عَلَيْهِ بَيْعُهَا وَهِبَتُهَا لِغَيْرِهِ ، وَتَصِيرُ حُرَّةً بِمَوْتِهِ لَا تُورَثُ عَنْهُ .

(10) مَنْ مَلَكَ أَحَدَ أَقَارِبِهِ عُتِقَ عَلَيْهِ ، وَقَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثَ الدَّالَّةَ عَلَى هَذِهِ الْأَحْكَامِ فِي كِتَابِ (الْوَحْيِ الْمُحَمَّدِيِّ) الَّذِي بَسَطْنَا بِهِ هَذَا الْبَحْثَ مِنَ التَّفْسِيرِ .

(النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ وَسَائِلِ تَحْرِيرِ الرَّقِيقِ الْمَوْجُودِ الْكَفَّارَاتُ)

وَالْمُرَادُ بِهَا الْقُرُبَاتُ الَّتِي تَمْحُو الذُّنُوبَ ، وَأَعْظَمُهَا عِتْقُ الرِّقَابِ وَهِيَ ثَلَاثَةُ أَقْسَامٍ :

(أَحَدُهَا) وَاجِبٌ حَتْمٌ عَلَى الْقَادِرِ عَلَى الْعِتْقِ بِمِلْكِ الرَّقَبَةِ أَوْ ثَمَنِهَا ، كَكَفَّارَةِ قَتْلِ النَّفْسِ خَطَأً ، وَكَفَّارَةِ الظِّهَارِ وَهُوَ تَشْبِيهُ الرَّجُلِ زَوْجَهُ بِأُمِّهِ وَكَانَ طَلَاقًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَفَّارَةِ إِفْسَادِ الصِّيَامِ عَمْدًا بِشَرْطِهِ وَقَيْدِهِ الْمَعْرُوفَيْنِ فِي الْفِقْهِ .

(420/356)

(ثَانِيهَا) وَاجِبٌ مُخَيَّرٌ فِيهِ وَهُوَ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ ، فَمَنْ حَلَفَ يَمِينًا وَحَنَثَ فِيهَا فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى ، وَحِكْمَةُ التَّخْيِيرِ ظَاهِرَةٌ .

(ثَالِثُهَا) مَنْدُوبٌ وَهُوَ الْعِتْقُ لِتَكْفِيرِ الذُّنُوبِ غَيْرِ الْمُعَيَّنَةِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مُكَفِّرَاتِهَا .

(النَّوْعُ الثَّالِثُ مِنْ وَسَائِلِ إِلْغَاءِ الرِّقِّ الْمَوْجُودِ)

جَعْلُ سَهْمٍ مِنْ مَصَارِفِ الزَّكَاةِ الشَّرْعِيَّةِ الْمَفْرُوضَةِ (فِي الرِّقَابِ) بِنَصِّ الْقُرْآنِ وَهُوَ يَشْمَلُ

الْعِتْقَ وَالْإِعَانَةَ عَلَى شِرَاءِ الْمَمْلُوكِ نَفْسِهِ (الْكِتَابَةُ) وَمِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ زَكَاةَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ قَدْ تَبْلُغُ مِئَاتِ الْأُلُوفِ وَأُلُوفَ الْأُلُوفِ مِنَ الدَّرَاهِمِ وَالدَّنَانِيرِ ، فَلَوْ نُفِّذَتْ أَحْكَامُ الْإِسْلَامِ فِيهَا وَحْدَهَا لَأَمْكَنَ تَحْرِيرُ جَمِيعِ الرَّقِيقِ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ .

(النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنْهَا الْعِتْقُ الِاخْتِيَارِيُّ لِوَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى أَيِ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِهِ) .

قَدْ وَرَدَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَآثَارِ السَّلَفِ مِنَ التَّرْغِيبِ فِي الْعِتْقِ مَا يَدْخُلُ تَدْوِينُهُ فِي سِفْرٍ كَبِيرٍ ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْعِبَادَاتِ وَأُصُولِ الْبِرِّ آيَةٌ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ (2 : 177)

.

وَمِنْ أَشْهَرِ أَحَادِيثِ التَّرْغِيبِ فِي الْعِتْقِ قَوْلُهُ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – : (أَيُّمَا رَجُلٍ أَعْتَقَ امْرَأً مُسْلِمًا اسْتَنْقَذَ اللَّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عُضْوًا مِنَ النَّارِ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ، وَفِي رِوَايَةٍ

(421/356)

(عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهِ مِنَ النَّارِ حَتَّى فَرْجُهُ بِفَرْجِهِ) وَحَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : (إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ) قُلْتُ : فَأَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : (أَغْلَاهَا ثَمَنًا وَأَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا) الْحَدِيثَ .

وَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ الَّذِي رَوَاهُ الْجَمَاعَةُ كُلُّهُمْ إلَّا مَالِكًا (أَيُّمَا رَجُلٍ كَانَتْ لَهُ جَارِيَةٌ أَدَّبَهَا فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا ، وَعَلَّمَهَا فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا ، وَأَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ) وَفِي الصَّحِيحِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ لَمَّا رَوَى قَوْلَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : (لِلْمَمْلُوكِ الصَّالِحِ أَجْرَانِ) قَالَ : وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَوْلَا الْجِهَادُ وَالْحَجُّ وَبِرُّ أُمِّي لَأَحْبَبْتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مَمْلُوكٌ .

(الْوَصِيَّةُ بِالْمَمَالِيكِ)

أَضِفْ إلَى هَذَا وَصَايَا اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِالْمَمَالِيكِ ، وَمِنْهَا تَخْفِيفُ الْوَاجِبَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَجَعْلُ حَدِّ الْمَمْلُوكِ فِي الْعُقُوبَاتِ نِصْفَ حَدِّ الْحُرِّ ، وَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ الْوَصِيَّةَ بِهِمْ بِالْوَصِيَّةِ بِالْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ، وَنَهَى النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَنْ قَوْلِ السَّيِّدِ : (عَبْدِي وَأَمَتِي) وَأَمَرَهُ أَنْ

(422/356)

يَقُولَ : (فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) وَأَمَرَ بِأَنْ يُطْعِمُوهُمْ مِمَّا يَأْكُلُونَ وَيُلْبِسُوهُمْ مِمَّا يَلْبَسُونَ وَيُعِينُوهُمْ عَلَى خِدْمَتِهِمْ إنْ كَلَّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَغَيْرِهِمَا ، وَكَانَ يُوصِي بِالنِّسَاءِ وَمَا مَلَكَتِ الْأَيْمَانُ حَتَّى فِي مَرَضِ مَوْتِهِ إلَى أَنِ الْتَحَقَ

بِالرَّفِيقِ الْأَعْلَى – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – . وَسَأَلَهُ ابْنُ عُمَرَ كَمْ أَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ ؟ قَالَ : (اعْفُ عَنْهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً) وَهَذَا مُبَالَغَةٌ ، أَيْ كُلَّمَا أَذْنَبَ .

وَلِهَذَا كَانَ الْمُسْلِمُونَ فِي الصَّدْرِ الْأَوَّلِ يُبَالِغُونَ فِي تَكْرِيمِ الرَّقِيقِ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِالْحِلْمِ حَتَّى صَارُوا يُقَصِّرُونَ فِي الْخِدْمَةِ . وَلَعَمْرُ الْحَقِّ إِنَّ الْعَبْدَ الْمَمْلُوكَ فِي حُكْمِ الْإِسْلَامِ الْأَوَّلِ أَعَزُّ نَفْسًا وَأَطْيَبُ عَيْشًا مِنْ جَمِيعِ الْأَحْرَارِ الَّذِينَ ابْتُلُوا فِي هَذِهِ الْعُصُورِ بِحُكْمِ دُوَلِ الْإِفْرِنْجِ مَنْ غَيْرِهِمْ أَوْ نُفُوذِهِمْ ، وَإِنَّ حُكُومَةَ الْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ لَتُعَامِلُ الْجِنْسَ الْأَحْمَرَ مِنْ سُكَّانِ الْبِلَادِ الْأَصْلِيِّينَ الَّذِينَ تَمُنُّ عَلَيْهِمْ بِالْحُرِّيَّةِ بِغَيْرِ الْأَحْكَامِ الَّتِي تُعَامِلُ بِهَا الْجِنْسَ الْأَبْيَضَ ، حَتَّى إِنَّ مَنِ اعْتَدَى مِنْهُمْ عَلَى امْرَأَةٍ بَيْضَاءَ يُقْتَلُ شَرَّ قِتْلَةٍ – إِنْ لَمْ تَقْتُلْهُ الْحُكُومَةُ قَتَلَهُ الشَّعْبُ – بِخِلَافِ الْعَكْسِ ، وَلَا يَتَّسِعُ هَذَا الْمَقَامُ لِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَالشَّوَاهِدِ عَلَيْهِ .

خُلَاصَةُ الْبَحْثِ

(423/356)

رَاجِعْ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْكَلَامِ عَلَى الْوَحْيِ وَالنُّبُوَّةِ وَآيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عِنْدَنَا وَعِنْدَ النَّصَارَى ، وَمِنَ الْكَلَامِ فِي تَنْفِيذِ شُبْهَةِ الْوَحْيِ النَّفْسِيِّ ، وَالْكَلَامِ فِي إِعْجَازِ الْقُرْآنِ اللُّغَوِيِّ وَالْعِلْمِيِّ ، وَمَا أَحْدَثَهُ مِنَ الِانْقِلَابِ الْبَشَرِيِّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ ، ثُمَّ أَضِفْ إِلَيْهَا هَذِهِ الْعَشْرَةَ الْأَنْوَاعَ مِنْ مَقَاصِدِ

الْقُرْآنِ ، فِي إِصْلَاحِ الْبَشَرِ وَتَكْمِيلِ نَوْعِ الْإِنْسَانِ ، مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِي التَّشْرِيعِ الرُّوحِيِّ وَالْأَدَبِيِّ وَالِاجْتِمَاعِيِّ

وَالْمَالِيِّ وَالسِّيَاسِيِّ ، وَهِيَ الَّتِي اشْتَدَّتْ حَاجَةُ الشُّعُوبِ وَالدُّوَلِ فِي هَذَا الْعَصْرِ إِلَيْهَا ، مُوَضَّحَةً بِأُصُولٍ وَقَوَاعِدَ هِيَ أَصَحُّ وَأَكْمَلُ وَأَكْفَلُ لِلْمَصَالِحِ الْعَامَّةِ ، وَدَفْعِ الْمَفَاسِدِ الْقَدِيمَةِ وَالطَّارِئَةِ ، مِنْ كُلِّ مَا سَبَقَهَا مِنْ تَعَالِيمِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَفَلْسَفَةِ الْحُكَمَاءِ ، وَقَوَانِينِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ ، عَلَى اخْتِلَافِ الْأَعْصَارِ ، مَعَ الْعِلْمِ الْقَطْعِيِّ مِنْ تَارِيخِ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا يُؤْثِرُ بِطَبْعِهِ عِيشَةَ الْعُزْلَةِ ، فَلَمْ يَتَّفِقْ لَهُ الِاطِّلَاعُ عَلَى كُتُبِ الْأَنْبِيَاءِ وَلَا غَيْرِهَا مِنَ الْكُتُبِ وَالْقَوَانِينِ ،

(424/356)

وَأَنَّهُ لَمْ يُعْرَفْ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَبْحَثُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْعُلُومِ ، وَلَا أَنَّهُ نَطَقَ بِشَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهَا ، وَالْعِلْمِ بِأَنَّهُ إِنَّمَا جَاءَ بِهَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ سِنِّ الْأَرْبَعِينَ وَهِيَ سِنٌّ لَمْ يُعْرَفْ فِي اسْتِعْدَادِ أَنْفُسِ الْبَشَرِ وَمُدْرَكَاتِ عُقُولِهِمْ ، وَلَا فِي تَارِيخِهِمْ أَنَّ صَاحِبَهَا يَأْتِنِفُ مِثْلَهَا ائْتِنَافًا لَمْ يَسْبِقْ لَهُ الْبَدْءُ بِشَيْءٍ مِنْهُ فِي أَنْفِ عُمْرِهِ ، وَآنِفَةِ شَبَابِهِ وَشَرْخِهِ ، رَاجِعْ هَذَا كُلَّهُ وَتَأَمَّلْهُ

جُمْلَةً وَاحِدَةً تَجِدْ عَقْلَكَ مُضْطَرًّا إِلَى الْجَزْمِ بِأَنَّ هَذَا كُلَّهُ فَوْقَ اسْتِعْدَادِ بَشَرٍ أُمِّيٍّ أَوْ مُتَعَلِّمٍ ، وَأَنَّهُ وَحْيٌ مِنَ اللهِ تَعَالَى .

(425/356)

فَإِذَا فَرَضْنَا أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَدْ تَسَرَّبَ إِلَى ذِهْنِهِ بَعْضُ مَسَائِلِهَا مِنْ أَفْوَاهِ عُقَلَاءِ قَوْمِهِ ، أَوْ غَيْرِهِمْ مِمَّنْ لَقِيَ فِي أَسْفَارِهِ الْقَلِيلَةِ ، أَوْ أَنَّهُ فَكَّرَ فِي حَاجَةِ الْبَشَرِ إِلَى مِثْلِهَا مِمَّا أَدْرَكَهُ بِذَكَائِهِ الْفِطْرِيِّ مِنْ سُوءِ حَالِهِمْ . فَهَلْ يُعْقَلُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْفَلَتَاتُ الشَّارِدَةُ ، وَهَذِهِ الْخَطَرَاتُ الْوَارِدَةُ ، تَبْلُغُ هَذَا الْحَدَّ مِنَ التَّحْقِيقِ وَالْوَفَاءِ بِحَاجَةِ الْأُمَمِ كُلِّهَا ، وَأَنْ تَظَلَّ كُلُّهَا مَكْتُومَةً مِنْ سِنِّ الصِّبَا وَعَهْدِ حُبِّ الظُّهُورِ إِلَى أَنْ تَظْهَرَ فِي سِنِّ الْكُهُولَةِ ، بِهَذِهِ الرَّوْعَةِ مِنَ الْبَيَانِ ، وَسُلْطَانِ الْبَلَاغَةِ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَقُوَّةِ الْبُرْهَانِ فِي الْعُقُولِ ، فَتُحْدِثَ هَذِهِ الثَّوْرَةَ فِي الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُغَيِّرَةِ لِطِبَاعِهَا ، الْمُبَدِّلَةِ لِأَوْضَاعِهَا ، بِحَيْثُ تَسُودُ بِهَا شُعُوبُ الْمَدَنِيَّةِ كُلِّهَا وَيَتْلُو ذَلِكَ مَا قَصَّهُ التَّارِيخُ مِنَ الِانْقِلَابِ فِي الْعَالَمِ كُلِّهِ ؟ وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا كُلِّهِ أَنْ يَظْهَرَ فِي هَذَا الْعَصْرِ أَنَّ أُمَمَ الْعِلْمِ وَالْحَضَارَةِ الْعَجِيبَةِ أَشَدُّ حَاجَةً إِلَيْهَا مِمَّنْ قَبْلَهُمْ ؟ كَلَّا إِنَّ هَذَا لَمْ يُعْرَفْ مِثْلُهُ فِي الْبَشَرِ .

(426/356)

وَإِذْ قَدْ ثَبَتَ هَذَا ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مَنْ بَلَغَهُ مِنَ الْبَشَرِ أَنْ يَتَّبِعَهُ وَيَهْتَدِيَ بِهِ لِتَكْمِيلِ إِنْسَانِيَّتِهِ وَإِعْدَادِهَا لِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . فَإِنِ اعْتَرَضَتْهُ شُبْهَةٌ عَلَيْهِ فَلْيَبْحَثْ عَنْهَا أَوْ لِيَنْبِذْهَا ، فَمَا كَانَ لِعَاقِلٍ ثَبَتَ عِنْدَهُ نَفْعُ عِلْمِ الطَّلَبِ أَنْ يَتْرُكَ مُرَاعَاتَهُ فِي حِفْظِ صِحَّتِهِ أَوْ مُدَاوَاةِ مَرَضِهِ لِشُبْهَةٍ فِي بَعْضِ مَسَائِلِهِ ، أَوْ خَيْبَةِ الْأَطِبَّاءِ فِي بَعْضِ مُعَالَجَاتِهِمْ لِلْمَرْضَى ، وَإِنَّ حَاجَةَ الْبَشَرِ إِلَى طِبِّ الْأَرْوَاحِ وَالِاجْتِمَاعِ ، لَأَشَدُّ مِنْ حَاجَتِهِمْ إِلَى طِبِّ الْأَبْدَانِ .

(قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ) (الْأَنْعَام 6 : 149) .

(رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا ، وَبِمُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَبِيًّا وَرَسُولًا)

(وَنَعُودُ إِلَى نَسَقِ التَّفْسِيرِ بِاسْمِ اللَّهِ وَحَمْدِهِ) . انتهى انتهى . اهـ ﴿ تفسير المنار حـ 11 صـ 116.240 ﴾

(427/356)

وقال ابن عاشور :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ﴾

الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً لأن جملة ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : 1] بما

فيها من إيهام الداعي إلى التوقف على آيات الكتاب الحكيم تثير سؤالاً عن ذلك الداعي فجاءت هذه الجملة تبيّن أن وجه ذلك هو استبعاد الناس الوحي إلى رجل من الناس استبعادَ إحالة .

وجاءت على هذا النظم الجامع بين بيان الداعي وبين إنكار السبب الذي دَعا إليه وتجهيل المتسببين فيه ، ولك أن تجعله استئنافاً ابتدائياً ، لأنه مبدأ الغرض الذي جاءت له السورة ، وهو الاستدلال على صدق الرسول وإثبات البعث .

فالهمزة للاستفهام المستعمل في الإنكار ، أي كيف يتعجبون من ذلك تعجب إحالة .

وفائدة إدخال الاستفهام الإنكاري على (كان) دون أن يقال : أعجِبَ الناسُ ، هي الدلالة على التعجيب من تَعَجُّبهم المراد به إحالة الوحي إلى بَشر .

والمعنى : أحدث وتقرر فيهم التعجب من وحينا ، لأن فعل الكون يشعر بالاستقرار والتمكن فإذا عبر به أشعَرَ بأن هذا غير متوقَّع حصوله .

و﴿ للناس ﴾ متعلق بـ ﴿ كَان ﴾ لزيادة الدلالة على استقرار هذا التعجب فيهم ، لأن أصل اللام أن تفيد الملك ، ويستعار ذلك للتمكن ، أي لتمكن الكون عجباً من نفوسهم .

و﴿ عَجباً ﴾ خبر ﴿ كان ﴾ مقدم على اسمها للاهتمام به لأنه محل الإنكار .

و﴿ أنْ وأحينا ﴾ اسم كان ، وجيء فيه بـ (أنْ) والفعل دون المصدر الصريح وهو وَحْينا ليتوسل إلى ما يفيده الفعل من التجدد وصيغة المضي من الاستقرار تحقيقاً لوقوع

الوحي المتعجب منه وتجدده وذلك ما يزيدهم كمداً .

والعجب : مصدر عَجِب ، إذا عَدَّ الشيءَ خارجاً عن المألوف نادر الحصول .

(428/356)

ولما كان التعجب مبدأ للتكذيب وهم قد كذبوا بالوحي إليه ولم يقتصروا على كونه عجيباً جاء الإنكار عليهم بإنكار تعجبهم من الإيحاء إلى رجل من البشر لأن إنكار التعجب من ذلك يؤول إلى إنكار التكذيب بالأوْلى ويَقلع التكذيب من عروقه .

ويجوز أن يكون العجب كناية عن إحالة الوقوع ، كما في قوله تعالى : ﴿ قالت يا ويْلتي أألِدُ وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب قالوا أتعجبين من أمر الله ﴾ في سورة [هود : 72 ، 73] وقوله : ﴿ أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ﴾ في سورة [الأعراف : 63] .

وكانت حكاية تعجبهم بإدماج ما يفيد الرد عليهم بأن الوحي كانَ إلى رجل من الناس وذلك شأن الرسالات كلها كما قال تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يُوحى إليهم ﴾ [النحل : 43] وقال : ﴿ ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ﴾ [الأنعام : 9] وقال : ﴿ قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ [

الإسراء : 95] .

وأطلق ﴿ الناس ﴾ على طائفة من البشر ، والمراد المشركون من أهل مكة لأنهم المقصود من هذا الكلام .

وهذا الإطلاق مثل ما في قوله : ﴿ إن الناس قد جمعوا لكم ﴾ [آل عمران : 173] .

وعن ابن عباس أنكرت طائفة من العرب رسالة محمد صلى الله عليه وسلم فقالوا : الله أعظم من أن يكون له رسول بشراً ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ .

و﴿ أن ﴾ في قوله : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ تفسيرية لفعل ﴿ أوحينا ﴾ لأن الوحي فيه معنى القول .

و﴿ الناس ﴾ الثاني يعم جميع البشر الذين يمكن إنذارهم ، فهو عموم عرفي .

ولكون المراد بـ ﴿ الناس ﴾ ثانياً غير المراد به أول ذُكر بلفظه الظاهر دون أن يقال : أن أنذرهم .

ولما عطف على الأمر بالإنذار الأمرُ بالتبشير للذين آمنوا بقي ﴿ الناس ﴾ المتعلق بهم الإنذار مخصوصاً بغير المؤمنين .

وحذف المنذر به للتهويل ، ولأنه يُعلم حاصله من مقابلته بقوله : ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قَدَم صدق ﴾ ، وفعل التبشير يتعدى بالباء ، فالتقدير : وبشر الذين آمنوا بأن لهم قدم صدق ، فحذف حرف الجر مع (أنَّ) جرياً على الغالب .

والقَدم : اسم لما تَقدم وسلَف ، فيكون في الخير والفضل وفي ضده .

قال ذو الرمة :

لكم قَدم لا ينكِر الناس ألها

مع الحَسَب العادِيّ طَمَّت على البحر . . .

وذكر المازري في "المُعْلم" عن ابن الأعرابي : أن القدم لا يعبر به إلا عن معنى المقدم لكن في الشرف والجلالة .

وهو فَعَل بمعنى فاعل مثل سلَف وثَقَل .

قال ابن عطية : ومن هذه اللفظة قول النبي صلى الله عليه وسلم في صفة جهنم : " حتى يضع رب العزة فيها قَدَمه فتقول قط قط " يشير إلى حديث أنس بن مالك قال نبيء الله صلى الله عليه وسلم ما تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة (وفي رواية الجبار) فيها قدمه فتقول قط قط ، وعزتك .

ويُروَى بعضُها إلى بعض .

وهذا أحد تأويلين لمعنى "قَدمه" .

وأصل ذلك في "المُعلم على صحيح مسلم" للمازري وعزاه إلى النضر بن شميل .

والمراد بـ ﴿ قدم صدق ﴾ في الآية قدم خَير ، وإضافة ﴿ قدم ﴾ إلى ﴿ صِدق ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة .

وأصله قدمٌ صِدقٌ ، أي صادق وهو وصف بالمصدر : فعلى قول الجمهور يكون وصف ﴿ صدق ﴾ ل ﴿ قدم ﴾ وصفاً مقيّداً .

وعلى قول ابن الأعرابي يكون وصفاً كاشفاً .

والصدق : موافقة الشيء لاعتقاد المعتقد ، واشتهر في مطابقة الخَبر .

ويضاف شيء إلى (صدق) بمعنى مصادفته للمأمول منه المرضي وأنه لا يخيب ظن آمل كقوله : ﴿ ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق ﴾ [يونس : 90] وقوله : ﴿ في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ [القمر : 55] .

وقوله : ﴿ أن أنذر الناس ﴾ تفسير لفعل ﴿ أوحينا ﴾ .

وإنما اقتصر على ذكر هذا الموحى به لأن ذلك هو الذي حملهم على التكذيب إذ صادف صرفهم عن ضلاله دينهم وسمعوا منه تفضيل المؤمنين عليهم .

(430/356)

وأيضاً في ذكر المفسّرِ إدماج لبشارة المؤمنين بهذه المزية .

﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لساحر مُّبِينٌ ﴾

هذه الجملة بدل اشتمال من جملة : ﴿ أكان للناس عجباً ﴾ الخ .

ووجه هذا الإبدال أن قولهم هذا ينبىء عن بلوغ التعجب من دعوى الوحي والرسالة من نفوسهم مزيد الإحالة والتكذيب حتى صاروا إلى القول : ﴿ إن هذا لسحر مبين ﴾ [يونس : 76] أو ﴿ إن هذا لساحِر مبين ﴾ فاسم الإشارة راجع إلى ما تضمنته جملة ﴿ أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا ﴾ .

وقرأه الجمهور "لسِحْر" بكسر السين وسكون الحاء على أن المراد به الحاصل بالمصدر ، أي أن هذا الكلام كلام السحرِ ، أي أنه كلام يُسحر به .

فقد كان من طرق السحر في أوهامهم أن يقول الساحر كلاماً غير مفهوم للناس يوهمهم أن فيه خصائص وأسماء غير معروفة لغير السحرة ، فالإشارة إلى الوحي .

وقرأه ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي ﴿ لسَاحر ﴾ فالإشارة إلى رجل من قوله : ﴿ إلى رجل منهم ﴾ وهو النبي صلى الله عليه وسلم وإن وصفهم إياه بالسحر ينبىء بأنهم كذبوا بكونه من عند الله ولم يستطيعوا أن يدعوه هذياناً وباطلاً فهرعوا إلى ادعائه سِحراً ، وقد كان من عقائدهم الضالة أن من طرائق السحر أن يقول الساحر أقوالاً تستنزل عقول

المسحورين .

وهذا من عجزهم من الطعن في القرآن بمطاعن في لفظه ومعانيه .

والسحر : تخييل ما ليس بكائن كائناً .

وقد تقدم عند قوله تعالى : ﴿ يعلمون الناس السحر ﴾ في سورة [البقرة : 102] .

والمبين : اسم فاعل من أبان الذي هو بمعنى بان ، أي ظهر ، أي سحر واضح ظاهر .

وهذا الوصف تلفيق منهم وبهتان لأنه ليس بواضح في ذلك بل هو الحق المبين . انتهى

انتهى . اهـ ﴿ التحرير والتنوير حـ 11 صـ ﴾

(431/356)

وقال الشيخ الشعراوى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾

ما هو العجيب – إذن – في أن الله أوحى إلى رجل منكم أن يبلغكم إنذار الله وبشارته ؟

ما الذي تعجبتم منه ؟ وما موضع العجب فيه ؟ وجاء تحديد العجب فيه ما ذكرته الحيثية

في آخر السورة السابقة من أنه : ﴿ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ . . . ﴾ [التوبة : 128]

أي : من البشر ، ومن العرب ، ومن قبائلكم ، ومن أنفسكم ممن تعرفون كل خُلُقه ، فما

العجيب في أن يرسله الله رسولاً إليكم ؟ إنكم قد ائتمنتموه على أموركم من قبل أن ينزل عليه الوحي من الله ، فكأنكم احترمتم طبعه الكريم ، وأنكم في كثير من الأشياء قبلتم منه ما يصل إليه من أحكام .

ودليل هذا أنكم حين اختلفتم في بناء الكعبة ، وقالت كل قبيلة : نحن أولى بأن نضع بأيدينا أقدس شيء في الكعبة ، وهو الحجر ، حين ذلك اختلفت القبائل ؛ فما كان إلا أن حَكَّموا أول داخل ؛ فشاء الله أن يكون أول داخل هو محمد بن عبد الله ، فكيف يحل محمد بن عبد الله هذه المشكلة ، ولم يكن قد نزل عليه وحي بعد ؟ إنها الفطرة التي جعلته أهلاً لاستقبال وحي الله فيما بعد ، فماذا صنع ؛ لينهي هذا الخلاف ؟

جاء برداء ، ووضع الحجر على الرداء ، ثم قال لكل قبيلة : أمسكوا بطرف من الرداء ، واحملوا الحجر إلى مكانه . وتلك هي الفطرة السليمة . ورأينا أيضاً سيدنا أبا بكر عندما قالوا له وهو راجع من الرحلة التي كان يقوم بها : لقد ادعى صاحبك النبوة ، قال : " إن كان قد قالها فقد صدق " .

من أي أحداث جاء حكم أبي بكر . أهو سمع من رسول الله كلاماً معجزاً ؟ أسمع منه قرآناً ؟ لا ، بل صدَّقه بمجرد أن أعلن أنه رسول . فقد جربه في كل شيء ووجده صادقاً ، وجربه في كل شيء ووجد أنه أمين ، فما كان محمد لِيصْدُقَ فيما بين البشر ، ليكذب على الله .

وكذلك خديجة بنت خويلد حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأتيني كذا وأخاف أن يكون كذا ، فبينت له أن المقدمات التي في حياته لا توحي بأن الله يخذله ويفضحه ويسلط عليه الجن : " إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكَلَّ وتنصف المظلوم ، ولن يخزيك الله أبداً " وبذلك كانت السيدة خديجة أول فقيه مستنبط في الإسلام .

وقوله سبحانه : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً ﴾ يعني : التعجب من أن يصدر منهم العجب ، والقرآن يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ وما دام يتعجب كيف يصدر منهم هذا العجب ؟ فمن المنطقي ألا يكونوا قد تعجبوا ؛ لأنك حين تتعجب من شيء فإما أن تتعجب منه ؛ لأنه بلغ من الحسن مبلغاً فوق مستوى ما تعرف من البشر ، مثلما ترى صنعة جميلة وتقول : ما أحسن هذه الصنعة ، وتتساءل : ما الذي جعل هذه الصنعة جميلة إلى هذا الحد غير المتصور ؟

وأنت تقول ذلك ؛ لأن الصنعة قد بلغت من الجمال مبلغاص لا تصدق به أن أحداً من الموجودين في إمكانه أن يصنعها .

والمثال على ذلك : نجد من يقول : ما أحسن السماء ؛ وهو يتعجب من الشيء الذي يفوق

تصوره . وقد يتعجب من شيء قبيح ، ما كان يجب أن يرد على الخاطر ، ولذلك يقول القرآن : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ . . . ﴾ [البقرة : 28]

أي : قولوا لنا : كيف قبلتم لأنفسكم الكفر ؟

لأن الكفر مسألة عجيبة تتنافى مع الفطرة .

وهنا يقول الحق : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ . . . ﴾ [يونس : 2]

وهنا نتساءل : كيف تتعجبون وقد جئناكم برسول من أنفسكم ، ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمؤمنين رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : 128]

أليس هذا هو المطلوب في الرائد ، فكيف تعجبون ؟ .

إن عجبكم يدل على أن بصيرتكم غير قادرة على الحكم على الأشياء ، وما كان يصح أن يُستقبل الرسول بالعجب ، ونحن نتعجب من عجبكم هذا .

وحين تتعجب من العجب ؛ فأنت تبطل التعجب .

(433/356)

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ . . . ﴾ [يونس : 2]

أي : أن إيحاءنا لرجل منكم كان عجيباً عندكم ، وما كان يصح أن يكون أمراً عجيباً ؛ لأنه

أمر منطقي وطبيعي .

ثم ما هو الوحي ؟ لقد سبق أن أوضحنا أن الوحي هو الإعلام بخفاء . وهناك إعلام واضح مثل قولك لابنك : يا بني اسمع كذا ، وافعل كذا . هذا إعلام واضح . وهناك إعلام بخفاء ، كأن يدخل عندك ضيف ؛ ثم يسهو خادمك – مثلاً – عن تحيته ، فتشير للخادم إشارة ؛ تعني بها أن يُسرع بتقديم التحية للضيف ؛ من مرطبات ، أو حلوى ، وهكذا تكون قد أعلمت خادمك بخفاء .

والحق سبحانه وتعالى يوحي إلى الجماد ، فسبحانه يقول : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرض زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الأَرض أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا * بِأَنَّ رَبَّكَ أوحى لَهَا ﴾ [الزلزلة : 1-5]

أي : أنه سبحانه وتعالى قد أعلمها إعلاماً خفيّاً ؛ وهي قد فهمت بطريقة لا نعرفها .

وسبحانه يوحي للحيوانات ، فهو القائل : ﴿ وأوحى رَبُّكَ إلى النحل . . . ﴾ [النحل : 68]

أي : أنها فهمت عن الله بما أودع فيها من الغرائز .

وسبحانه يوحي للملائكة وهو القائل : ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الملائكة . . . ﴾ [الأنفال : 12]

ويوحي الحق سبحانه إلى غير الرسل ؛ كما أوحى إلى أم موسى ﴿ وَأَوْحَيْنَا إلى أُمِّ موسى

أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي اليم . . . ﴾ [القصص : 7]

وأوحى سبحانه إلى الرسل جميعاً .

إذن : فسبحانه يوحي للجماد ، ويوحي للحيوان ، ويوحي للملائكة ويوحي للصالحين من غير الأنبياء ، ويوحي للأنبياء وللرسل .

والوحي – كإعلام بخفاء – يقتضي مُعْلِماً ، وهو الحق سبحانه وتعالى ، ومُعْلَماً ؛ وهو إما : الأرض ، وإما النحل ، وإما الملائكة ، وإما إلى بعض الصالحين من غير الأنبياء ، وإما إلى الرسل والأنبياء .

(434/356)

وقد يأتي الوحي من غير الله ، فسحبحانه يقول :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنس والجن يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غُرُوراً . . . ﴾ [الأنعام : 112]

إذن : فالشياطين يُعلمون بعضهم البعض إعلاماً خفياً .

ويقول الحق : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ . . . ﴾ [النساء : 163]

والموحى إليه هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو وحي خاص بالرسول ، فلا تقل : أنا لم

أسمع ماذا أوحى إلى محمد ، ولا أعرف كيف نزل الوحي ، فقد جاء جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبلغه أن يعلن ما أوحي إليه ، ولو كنت أنت قادراً على سماع الوحي من جبريل ، فما ضرورة إرسال الرسول إذن ؟

إن الطاقة والقدرة العالية المرسلة إلى الموحى إليه تحتاج إلى قوة تحمل ، وضربنا المثل من قبل بأن الإنسان حين ينقل طاقة من مصدر عال قوى إلى مصدر ضعيف فهو لا يُسرب الطاقة من القويّ إلى الضعيف دفعةً واحدة ، وإلا لما تحمَّل الضعيف تلك الطاقة من القادمة إليه من القوى ، ولذلك نحن نأتي بمحوِّل يتحمل طاقة قوى ، ثم ينقل للضعيف ما يناسب قدرته ، ومثال ذلك هو شراؤنا لمحول كهربي حين ننقل الكهرباء من مصدر طاقة عالي الجهد إلى مصدر آخر ضعيف قليل الجهد ؛ مثل المصباح الصغير الذي تضيئه في المنزل ليلاً لينير بالقدر المناسب كيلا نرتطم بالأشياء ، وهو ما نسميه بالعامية " ونّاسة " . إذن : فمهمة المحول أن يستقبل من مصدر الطاقة القوي ؛ ليضيء لمصدر الطاقة الضعيف .

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يوحي للرسول ، والرسول من البشر لا يمكنه التلقي المباشر عن الله ؛ لذلك لا بد من واسطة تبلغ في الارتقاء بما يمسح لها بالتلقي عن الله ، وتستطيع أن تلتقي بالبشر ؛ وهذه خاصية المَلَك .

(435/356)

ورغم أن أصاب الجهد والتعب سيدنا رسول صلى الله عليه وسلم في أول تلقيه للوحي ، وكان صلى الله عليه وسلم يعرف حتى يتفصد العرق من جبينه ، وإذا انصرف عنه الوحي قال : " زمّلوني . . زملوني " ويرتعد .

وكان الصحابة يقولون : كان إذا نزل الوحي على رسول على رسول الله ، وهو قاعد ؛ وقد تكون ركبته على فخذ أحد الصحابة ، فيجد الصحابي ثقلاً على رجله من شدة وطأة ركبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا نزل الوحي ، والرسول يركب مطيه فهي تئط منه .

إذن : كان الوحي يُتعب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن يُسرِّي عنه التعب ؛ تبقى له حلاوة ما أوحي إليه ؛ فيتشوّق ثانية للوحي .

وقد شاء الحق أن يشوّق النبي صلى الله عليه وسلك ، للوحي ففتر الوحي لمدة من الزمن . وحين اشتاق النبي للوحي ؛ كان ذلك يعني أنه قد شحن نفسه بطاقة متقبلة لاستقبال هذا الوحي ؛ بما فيه من تعب .

ولله المثل الأعلى دائماً ، قسْ أنت الجهد المبذول في رحلة إلى من تحب ، أثناء المطر ، والأرض موحلة ومليئة بالشوك ، ورغم ذلك أنت تقطع الرحلة دون أن تلتفت لما فيها من إرهاق وتعب .

وشاء سبحانه أن يرغِّب رسوله شوقاً إلى الوحي ، رغم ما فيه من جهد ؛ لأن التقاء مَلَك ببشر ، وهذا اللقاء يكون على صورتين : إما أن ينقلب الملَك إلى مرتبة بشرية ؛ وهذه الصورة ليس فيها إجهاد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن عملية التحويل جاءت في الأعلى بينما يظل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو ، " مثلاً دخل جبريل على رسول الله ، وكان معه بعض من الصحابة ، وسأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ وما الإسلام ؟ وما الإحسان ؟ ثم اختفى السائل ، فسأل الصحابة رسول الله عن هذا السائل ؛ فقال : " هذا جبريل جاءكم يُعلِّمكم أمور دينكم . "

هذه هي الصورة الأولى في الوحي ، والتحول فيها كان من جهة الإرسال فلا مشقة فيها على النبي صلى الله عليه وسلم .

(436/356)

أما الصورة الثانية ، فقد كان فيها مشقة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الملك يظل على طبيعته ، والتحول إنما يحدث لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكان التحول يقتضي عملية كيمياوية تصيبه بالجهد ؛ فيقول بعد أن يُسرى عنه : " زمّلوني . "

وشاء الحق أن يتلطف برسوله ، ففتر الوحي فترة من الزمن . وقال الكافرون من العرب :

إن رب محمد قد قلاه وهذا غباء منهم ؛ لأنهم اعترفوا أن لمحمد ربّا . وما داموا قد اعترفوا ، فعدم إيمانهم صلف وغباء ، وارادوا بذلك أن ينسبوا النقص لمحمد صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الله قد قلى محمداً .

وقد شاء الحق أن ينقطع الوحي عن محمد صلى الله عليه وسلم هذه المدة ؛ ليكشفهم أمام أنفسهم وأمام غيرهم ، لتنكشف نواياهم ، وتثبت قلّة بصيرتهم ، وافتقادهم للمنطق السليم ، فهم حين اعترفوا أن لمحمد ربًا ، كان عليهم أن يحتكموا إلى عقولهم ؛ ليعرفوا أنهم قد أقروا بالألوهية ، لكنهم أرادوا بهذا الاعتراف أن ينسبوا النقص لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولو قاضيناهم إلى عقولهم ، وإلى الكون الذي عاشوا فيه ، وإلى الظواهر المادية المحسوسة لهم ، لعرفوا أن الأحداث لا بد لها من زمان ومكان ؛ لأن كل حديث يتطلب زماناً ومكاناً ، وإذا لم يوجد حدث ؛ لا يوجد زمان أو مكان .

ولذلك أقول دائماً لمن يسأل : أين كان الله ؟ أقول له : أنت جئت بالأينية من الزمان ، والمكانية من المكان ، وهذا لا يتأتى إلا بوجود حدث . وما دام الله غير حدث ، فلا زمان يحدده ، ولا مكان يُحيّزه ؛ لأن الزمان كان به ، والمكان كان فيه . والأحداث هي عند البشر ، فهم من يستقون في المكان ، ويتوالى عليهم الزمان .

والزمان الذي يحدث فيه أي حدث اسمه " ظرف زمان " ، والمكان الذي يحدث فيه الحدث اسمه " ظرف مكان " ؛ وظرف المكان ظرف قارّ ثابت ، بينما ظرف الزمان غير قارٍ ، بل هو حال ، وبعد قليل يصبح الحال زمناً ماضياً ؛ ويأتي المستقبل ليكون حاضراً ، ثم يصبح ماضياً .

وهكذا نعلم أن زمناً يحدث فيه التناوب بين المستقبل والحال والماضي ، والليل والنهار هما أوضح صور ظرف الزمان وفيهما اختلاف ، فالليل يأتي والنهار خلفه ؛ لأن النهار جعله الله ضياء ؛ للحركة والكدح والعمل ، وجعل سبحانه الليل ظلاماً ؛ للسكون والراحة ، فإن لم ترتحْ بالليل ؛ لا تقوى علة العمل في الصباح ، وهكذا يكون الليل مكملاً للنهار لا مناقضاً له .

وكذلك شاء الحق أن يكون الوحي بهذا الشكل ، فحين جاء الوحي لأول مرة أجهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم فتر الوحي ليستريح صلى الله عليه وسلم ؛ وتتجدد قدرته على استقبال الوحي من بعد ذلك .

وحين قال الكافرون : إن ربَّ محمد قد قلاه ، ردّ عليهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ والضحى * والليلِ إذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى ﴾ والضحى ضحوة النهار وهي – كما قلنا – للعمل والحركة ، فإذا جاء الليل فهو يبدو وكأنه ضد النهار ، لكنه غير

ذلك ، بل هو مكمل له ويساعده .

إذن : ففتور الوحي لمدة من الزمن كان لمساعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم لتجديد الحيوية . وقد أقسم الحق سبحانه بالضحى والليل ، وهو قسم بالظاهرة الكونية المشاهدة والتي يعترف بها كل إنسان ، مؤمنهم ، وكافرهم !

أقسم الحق بالضحى أنه ما قلى رسوله ، بل شاء بفتور الوحي أن يعطيه طاقة تزيد من حركته ، وتزيد من جهده ليشتاق صلى الله عليه وسلم لأمر الوحي . وبذلك أعانه الحق على مهمته ، وفي هذا أبلغ ردٍّ على من قالوا : إن رب محمد قد قلاه ، وإثبات أن الحق قد شاء لفترة فتور الوحي أن تكون كالليل سكوناً ، ليهدأ صلى الله عليه وسلم بعد الضحى المجهد الذي استقبل به الوحي .

(438/356)

وبعد أن تتجدد حيويته صلى الله عليه وسلم يأتي الوحي من جديد ؛ لذلك قال الحق :

﴿ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى ﴾ [الضحى : 4-5]

وبعد هذه السورة يقول الحق سبحانه في سورة الشرح : ﴿ والضحى * والليل إِذَا سجى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قلى * وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى ﴾ [الشرح : 1-4]

وهكذا بيَّن لنا الحق أن مسألة فتور الوحي وعودته هي عملية متكاملة ، لكن الأغبياء فقط هم من يظنون أنها تتناقضة ويقولون : (ظلمة – وضوء) ، و (ليلٌ – ونهارٌ) والحق أنها متكاملة .

ومثل هذا الأمر تجده أيضاً فيمن يحاولون خَلْق عداوة بين الرجل والمرأة ، ولم يتفهَّموا أن الذكر متمّم للأنثى ، وأن الأنثى متمّمة للذكر .

وهنا يقول الحق ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا . . . ﴾ [يونس : 2]

والإنذار – كما نعلم – هو الإخبار بشيء يمكن أن تتلافاه .

أما البشارة فهي الإخبار بخير يحثُّك من يبشرك على أن تقتنيه . وأنت تنذر من يهمل في دراسته بأنه قد يرسب ، وأنت حين تنذره إنما تطالبه بأن يجتهد ، وفي المقابل فأنت تبشر المجتهد بالنجاح وبالمستقبل الطيب .

إذن : فالإنذار يعني أن تحث الإنسان على ألا يقبل أو يُقْدِمَ على ما يضره . والتبشير يعني أن تحث الإنسان على أن يجتهد ؛ لينال ما يحبه . والأمور في الأحداث كلها تدور بين سَلْب وإيجاب .

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء سبحانه بالإنذار قبل البشارة ؟

فنقول : إن كلمة " الإنذار " كلمة عامة لكل الناس ، حتى يتجنبوا ما يقودهم إلى النار ، لكن

البشارة تكون لمن آمن فقط . أو أن الإنذار والبشارة للمؤمنين ، ولكن شاء الحق أن يجعل المؤمنين في صف البشارة دائماً ، وأن يكون الإنذار لوناً من ضرورة التخلية من العيوب ، قبل التحلية بالكمال .

(439/356)

فأنت تدفع عن نفسك الأمر الذي يأتي بالضُرّ أولاً ، ثم تتجه إلى ما يجلب النفع من بعد ذلك ؛ لأن دَرْء المفسدة مُقدّم على جلب المصلحة .

ونجد الحق سبحانه يحدد الإنذار بأنه للناس ، والناس : هم الجنس المنحدر من آدم إلى أن تقوم الساعة . وقد وقف بعض المستشرقين عند كلمة " الناس " ، وأرادوا أن يدخلونا من خلالها إلى متاهات التشكيك في القرآن ، وقالوا : إن القرآن فيه تكرار لا لزوم له .

وأهم سورة أخذها هؤلاء المستشرقون هي سورة " الناس " حيث يقول الحق : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس * مَلِكِ الناس * إله الناس * مِن شَرِّ الوسواس الخناس * الذى يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ الناس * مِنَ الجنة والناس ﴾ [الناس : 1-6]

وهذا الجمع من المستشرقين فهموا أن المعنى لكلمة " الناس " في كل آية من آيات هذه السورة هو معنى واحد . ولنهم لم يتمتعوا بملكة اللغة ؛ لم يلتفتوا إلى أن معنى كلمة " الناس " في كل

موقع هو معنى مختلف وضروري ؛ لأن الحق سبحانه أراد بكل كلمة في القرآن أن تكون جائبة لمعناها ، وأن يكون كل معنى جاذباً للكلمة المناسبة له .

والمثال أيضاً في كلمة " الناس " ؛ هو قول الحق سبحانه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَآ آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [النساء : 54]

فهل كل الناس تتلقى الحسد ؟ لو كان الأمر كذلك فمن الحاسد ؟ إذن : فقوله الحق : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس . . . ﴾ [النساء : 54]

إنما يعني أن هناك أناساً حاسدين ، وآخرين محسودين ، ولا تكون كلمة " الناس " عامة شاملة لكل الأفراد إلا في حالة الحكم العام .

والمثال هو قوله الحق : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ . . . ﴾ [آل عمران : 96]

وهذا القول الحق يحل لنا إشكالاً عاماً ، فالبيت الحرام موضوع لكل الناس ، من لَدُن آدم ، وآدم أبو الناس .

(440/356)

ولا بد – إذن – أن يكون البيت موضوعاً قبل أن يكون آدم ، وأن الذي وضعه هو من غير الناس ، فالذي وضعه هو بأمر من الحق سبحانه ، فلا يقولن أحد : إن إبراهيم – عليه

السلام – هو الذي وضع البيت الحرام ؛ لأن مهمة إبراهيم – عليه السلام – كانت هي رفع القواعد من البيت ؛ لأننا لو قلنا : إن إبراهيم – عليه السلام – هو الذي بنى البيت ؛ فكيف ينسجم هذا مع قوله الحق :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ القواعد مِنَ البيت وَإِسْمَاعِيلُ . . . ﴾ [البقرة : 127]

وهو قول نفهم منه أن إسماعيل كان شريكاً لوالده في الرفع والبناء ، ولا بد أن يكون قد امتلك درجة من القوة تجعله قادراً على مساعدة الأب في العمل .

وهذا القول أيضاً نفهم منه أن عملية رفع القواعد من البيت لم تتم وقت أن كان إسماعيل رضيعاً ؛ لأن الحق سبحانه قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ المحرم . . . ﴾ [إبراهيم : 37]

وهذا يعني أن البيت كان موجوداً قبل ذلك .

وقولنا هذا يرد على بعض العلماء الذين قالوا : إن إبراهيم – عليه السلام – هو أول من بنى الكعبة فنقول لهم : وماذا عن الخلق البشري من قبل إبراهيم إلى لَدُنْ آدم ، أليسوا ناساً ؛ فلماذا لم يكن لهؤلاء الناس من قبل إبراهيم بيتٌ محرّمٌ ؟

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يكون البيت الحرام لكل الناس من لدن آدم ، وأنه موضوع من قِبَلِ الله .

وكلمة الناس – إذن – عامة حين يتعلق الأمر بحكم عام ، وتكون خاصة في مواقع أخرى ،

مثل قوله : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ الناس على مَا آتَاهُمُ الله مِن فَضْلِهِ . . . ﴾ [النساء : 54]

وأما سورة " الناس " بالاستقراء الدقيق في هذه السورة ، نجد الحق سبحانه يقول : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الناس ﴾ [الناس : 1]

وهذا إعلان للربوبية لكل الخلق ، فهو الرب الذي أوجد وأعطى الصفات لكل مخلوق .

(441/356)

ولا تحسب أنك تستطيع أن تشرد منه ؛ فهو سبحانه يقول : ﴿ مَلِكِ الناس ﴾ [الناس : 2]

أي : أنه يملك كل الخلق ، وجعل لهم الاختيار في أشياء ؛ ومنع عنهم الاختيار في أشياء ، ولم يقل : " مليك النَّاس " ؛ لأن هذا القول يعني أنهم مجبورون على الإيمان ، ولا يسعهم غير هذا ، ولكن الله جعلهم مختارين في الأمور التي هي مَنَاط للتكليف ، وغير مختارين في أمور هي ليست محلاً لهذا .

وأقول لأي واحد ممن تمرّدوا على الإيمان ؛ فكفروا بالله ؛ أقول : أنت متمرّد على الله ، وتكفر به ، وتنكر الألوهية ، فلماذا لا تكون منطقيّاً مع نفسك ، وتتمرّد على كل الأحداث التي تصيبك ، فإن أصابك مرض ؛ قل له : لا ، لن أمرض .

فلا أحد يستطيع أن يدفع عن نفسه قدراً شاءه الله ؛ لأن الأحداث ستنال من كل إنسان من كل إنسان ما قدره الله له .

إذن : فكل إنسان هو مملوك لله .

وهكذا نجد الفرق بين أن يقول سبحانه : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾ [الناس : 1]

وان يقول : ﴿ مَلِكِ النَّاسِ ﴾ [الناس : 2]

و" الناس " في الآية الأولى هم المربون ، والناس في الآية الثانية هم " المملوكون لله " فلا أحد يخرج عن قدرة الله في الأمور القهرية .

وتأتي " الناس " في الآية الثالثة : ﴿ إِلَهِ النَّاسِ ﴾ [الناس : 3]

لتؤكد أن الحق هو الإله المعبود بحق ، وهو الذي يقيك مما ستأتي به الآية الرابعة : ﴿ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : 4]

والآية الخامسة : ﴿ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴾ [الناس : 5]

والوسواس الخناس : هو الذي يزين لك أفعال الشر في أذنك ، وهو خَنّاس ؛ لأنه يخنس ساعة يسمع قولك : " أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " وهو يوسوس في صدور الناس المُوَسْوَسِ إليهم .

وهكذا نجد أن كلمة " الناس " قد جاءت ؛ لتعبر عن المربوبين ، والمملوكين ، والمأهولين ، والموسوس إليهم ، وأن من يوسوِس قد يكون من الجن ، وقد يكون من الناس .

إذن : فليس هناك تكرار بل جاءت الكلمة الواحدة بمعنى يناسب كل موضع جاءت فيه .

والمثال في حياتنا – ولله المثل الأعلى – قد أكون معلِّماً متميزاً واختارتني الكلية التي أقوم بالتدريس فيها لأكون رائداً للطلاب ، ورئيساً لجمعيتهم الصحفية ، ومشرفاً عليهم في الرحلات ، ومراجعاً لتصحيح أوراق إجاباتهم ، وهكذا تكون كلمة " الطلاب " لها معنى مختلف في كل موقع .

والحق يقول في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها : ﴿ أَنْ أَنذِرِ الناس وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ . . . ﴾ [يونس : 2]

والحديث موجه لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو الرسول الخاتم .

إذن : فالمراد بإنذار الناس هنا ؛ هم جميع الناس .

وما المقصود بقوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [يونس : 2]

إن القدم كما نعرفه : هو آلة السعي إلى الحركة ، كما أن اليد آلة الإعطاء ؛ فتقول : فلان له يد عندي ، أو تقول : أنا لا أنسى أياديك عليّ حين يقدم لك صديق هدية ما ، وهو قد سار على قدميه ؛ ليحضر لك الهدية ، ولكنه يناولك لها بيديه .

إذن : فكل جارحة لها ظاهر في الحركة ؛ وفي الأعمال . فالقدم تسعى إلى الأشياء ، واليد تتحرك في العطاء ، والأذن في السمع ، والعين في الرؤية . وهكذا يكون معنى ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ هو سابقة فضل ؛ لأنهم حين استمعوا إلى منهج الله ، وأدَّوْا مطلوبات هذا المنهج كما يحب الله ؛ فعليك يا محمد ان تبشرهم بالجنة . ذلك أن لهم سابق قدم ، سعي إلى الخير ، وهو قدم صدق .

لكن هل هناك ما يمكن أن نسميه " قدم كذب " ؟

نعم ، وهو ما يخلعه الأفاقون على تواريخ الناس ، فيصفونهم بما لم يكن فيهم ، وهكذا نفرق بين قدم الصدق وقدم الكذب .

قدم الصدق – إذن – هو سابقة في الفضل أهّلتهم لأن يكونوا موضع البشارة ، فهم قد صدقوا المنهج ، وأعطوا من واعد حق .

(443/356)

والصدق – كما نعلم – هو الخصلة التي لا يمكن لمؤمن أن يتنحى عنها ؛ لأنه لو تنّحى عنها ، فهذا يعني التنحّي عن الإيمان . وحينما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون

المؤمن كذاباً ؟

فقال : لا .

إذن : فالصدق هو جماع الخير . وعلى الصدق تدور الحركة النافعة في الكون .

وحين يصدق التاجر في ثمن الأشياء ؛ ويصدق العامل في إخلاصه للعمل ؛ ويصدق الصحفي في نقل الخبر ، ويصدق كل فرد في المجتمع ، هنا يتكامل المجتمع وينسجم ؛ لأن الفساد في الكون إنما ينشأ من الكذب ، والكذب هو الذي يخل بحركة الحياة .

لذلك أتى الله بكلمة الصدق في القرآن في أكثر من موضع ، فهو القائل : ﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بني إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ . . . ﴾ [يونس : 93]

فحين قالوا : ﴿ لَن نَّصْبِرَ على طَعَامٍ وَاحِدٍ . . . ﴾ [البقرة : 61]

أنزلهم الله بمكان يحقق لهم ما طلبوا من طعام ، فلم يخدعهم سبحانه ، ويأتي الحق مرة ثانية بكلمة الصدق فيقول : ﴿ واجعل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخرين ﴾ [الشعراء : 84]

أي : اجعل لي ذكْراً حسناً فيمن يأتون من بعدي ، فلا يقال في تاريخي كلام كذب ، وألا يخلع عليَّ الناس ما ليس فيّ .

وقد قال الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن الإنسان : ﴿ وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْراً حتى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوزِعني أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ التي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعلى وَالِدَيَّ وَأَنْ

أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذرِيتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ المسلمين ﴾ [الأحقاف : 15]

(444/356)

ثم يقول الحق سبحانه : ﴿ أولئك الذين نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الجنة وَعْدَ الصدق الذي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ [الأحقاف : 16]

ولماذا يصف الحق الوعد هنا بأنه وعد حق ؟ لأن هناك من يعد الوعد الكاذب ، حين يعد أحدهم بما لا يملك ، أو أن تعد بما لا تقدر عليه ، أو أن تعد بما لا تمهلك الحياة لإنفاذه .

ولذلك قال الحق لنا : ﴿ وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذلك غَداً * إِلاَّ أَن يَشَآءَ الله . . . ﴾ [الكهف : 23-24]

إذن : لا بد أن تسبق أي وعد بمشيئة الله ؛ لأنك حين تَعد ؛ قد لا تملك إنفاذ ما وعدت به ، فقد تعد إنساناً بأن تلقاه في الغد في مكان ما لتتحدثا في أمرٍ ما .

ونقول : أضمنت أن تستمر حياتك إلى الغد ؟ ها هو أول عنصر قد يُفقد ؛ أضمنت أن تستمر حياته ؟ هذا هو العنصر الثاني الذي قد يُفقد ، ثم أضمنت ألا يتغير السبب الذي من أجله تلقاه ؟ ثم أضمنت إن اجتمعت كل هذه العناصر ألا تُغير أنت رأيك في هذه

المسألة؟

إذن: لا تجازف بأن تعد بشيء ليس عندك عنصر من عناصر الوفاء له، وأسند كل عمل إلى من يملك كل العناصر، وقل:

﴿ إِلاَّ أَن يَشَآءَ اللهُ . . . ﴾ [الكهف: 24]

إذن: فوعد الصدق معناه أن يكون الوعد ممن هو قادر على أن يحققه قطعاً؛ ولا تخرج الأشياء مهما كانت عن قدرته، ولم يترك الأشياء؛ لأنه باقٍ. ولن يتغير رأيه؛ لأنه ليس حدثاً يتغير. بل بيده كل شي وهو على كل شيء قدير. وسبحانه وتعالى يقول: ﴿ إِنَّ المتقين فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: 54-55] هكذا وعد الحق عباده المتقين بأنهم سوف يقعدون في حضرته مقعد صدق وهو المليك المقتدر. وسبحانه يقول: ﴿ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ . . . ﴾ [الإسراء: 80]

(445/356)

أي: أدخلني في هذه البلدة مدخل صدق للغاية التي لا أستحي من أن أقولها، لا أن أدخل بغرض أمام الناس وأن أخفي غرضاً آخر، وكذلك أخرجني منها مخرج صدق.

إذن : فكلمة الصدق دائرة ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُبَوَّأَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مَقْعَدِ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُدْخَلَ صِدْقٍ ﴾ و ﴿ مُخْرَجَ صِدْقٍ ﴾ وكل هذا يُحببنا في الصدق ؛ لأن كل أمور الحياة ؛ وفضائلها ؛ وخيراتها ، وما ينتظر الناس من سعادة ؛ كل ذلك قائم على كلمة الصدق .

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه : ﴿ وَبَشِّرِ الذين آمنوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ ﴾ [يونس : 2]

أي : أن لهم سابقة فَضْلٍ عند ربهم يجازيهم بها ؛ لأنهم عملوا بمقتضى منهجه ، أما موقف الكافرين فهو مختلف ؛ لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 2]

ولماذا جاء سبحانه بخبر الكافرين هنا رغم أن الموقف هو إنذار وبشارة ؟

ونقول إن الرسول صلى الله عليه وسلم حين أبلغ المنهج عن الله ، استقبله أهل الإيمان بالتصديق ، أما الكافرون فقد اختلف موقفهم ، فَإِتَّهَمَ بعضهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر .

وجاء قول الحق على هذه الصورة المبينة بالآية ؛ لأن القرآن يحذف أشياء أحياناً ، لأن لباقة السامع ستنتهي إليها ، فلا يريد أن يكرر القول . وانظر إلى قصة بلقيس ، حيث نجد الهدهد يقول لسيدنا سليمان : ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ . . . ﴾ [النمل : 22]

هذا هو الهدهد وهو المخلوق الأقل من سليمان عليه السلام يقول له : لقد عرفت ما لم تعرفه أنت ، وكأن هذا القول قد جاء ؛ ليعلمنا حسن الأدب مع من هو دوننا ، فهو يهب لمن دوننا ما يُعَلِّمُه لنا ، ألم يُعلِّمنا الغراب كيف نواري سوأة الميت ؟ ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ . . . ﴾ [المائدة : 31]

(446/356)

ويقول قابيل : ﴿ يا ويلتى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هذا الغراب فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النادمين ﴾ [المائدة : 31]

وهكذا يتعلم الإنسان ممن هو دونه ، وممن سخره الله له . وانظر كيف أبرز لنا الله أن الأدنى إن رأى خبراً ، لا بد أن يبلغه للأعلى ، فتتحقق سيولة المعلومات ، التي يتخذ الأعلى على ضوئها القرار المناسب ؛ فالهدهد يقول لسيدنا سليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾ [النمل : 22]

ويتخذ سليمان قراراً ينفذه الهدهد : ﴿ اذهب بِّكِتَابِي هذا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فانظر مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ [النمل : 28]

وتتابع الحكاية من بعد ذلك فيقول الحق : ﴿ قَالَتْ يا أَيُّهَا الملأ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾

[النمل : 29]

فكأن الهدهد أخذ الكتاب وألقاه إلى بلقيس فما قرأته ؛ جمعت قومها ؛ لتخبرهم .

وهكذا حذف القرآن بعضاً من التفاصيل التي إن رُويت تكون تكراراً ؛ ولكن جاءت المسألة بهذه الصورة ؛ ليدلنا الحق على أن أوامر التلقي كانت سريعة بحيث لا يوجد فاصل بين الأمر وتنفيذ الأمر ، فالتحم الأمران معاً .

إذن : فقوله الحق : ﴿ قَالَ الكافرون إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 2]

جاء منسجماً مع ما يُفهم من النص ، فهم لم يقولوا ذلك الاتهام إلا بعد أن بلغهم صلى الله عليه وسلم أن الله قال له : بَشِّر وأنذر ، فلما بشَّر وأنذر ، جاء قولهم بأن الرسول ساحر ، وهكذا نفهم كيف تكوَّن موقفهم هذا من سياق الآية ؛ لأنهم لم يقولوا ذلك إلا بعد بلاغ الإنذار ، أو بلاغ البشارة .

(447/356)

وهكذا نجد أن القرآن قد لا يذكر الأشياء التي إذا سمع السامع الأسلوب أخذها من نفسه دون أن يتطلبها كلام منطوق ، ومثل هذا الأمر جاء في لقطة أخرى في قصة سبأ ، فبعد أن ائتمر الهدهد بأمر سليمان وذهب بالكتاب فألقاه إلى ملكة سبأ ، وقرأته ، وجمعت القوم ؛

لتأخذ رأيهم فيما تفعله مع سليمان ، فكان من أمرها معهم ما ذكره القرآن ثم علم سيدنا سليمان بأمر مقدمها مع قومها ، فنجد سيدنا سليمان عليه السلام يسأل من حوله : ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : 38]

إذن : فهو قد عَلِم أنهم مُقبلون عليه بالإسلام ، فأراد أن ينقل العرش من مملكتها إلى مملكته ؛ قبل أن يجيئوا ، وما داموا قادمين في الطريق ، فعلى من يذهب ليفك العرش وينقله ، لا بد أن تكون له طاقة تفوق قدرة الإنسان العادي ، ولذلك لم يتكلم الإنس العادي ، لكن الذي تكلم جني غير عادي ، ذكي ، فمن الجن من يتميز بالذكاء ، ومنهم غير ذلك .

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل : 39]

ومقام سليمان مع قومه قد يستمر ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات . وسيدنا سليمان يريد التعجيل بنقل عرش بلقيس ، لذلك تجده يستمع إلى من عنده علم من الكتاب : ﴿ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ . . . ﴾ [النمل : 40]

ألم يكن مثل هذا القول يحتاج إلى إذن من سيدنا سليمان ، وأن يقول سليمان اذهب فيذهب ويحل العرش ويعود به ؟ نعم ، الأمر يحتاج كل ذلك ، ولكن القرآن جاء بالقصة في تصوير متتابع للسرعة ، وجاء القرآن بخبر العرش ، وقد جاء إلى حيث يجلس سليمان

عليه السلام :

﴿ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ . . . ﴾ [النمل : 40]

(448/356)

وهكذا حذف التفاصيل التي يسهل معرفتها ، والتي وقعت بين قول مَنْ عنده علم من الكتاب ، وبين تنفيذ نقل عرش بلقيس .

وكذلك حذف القرآن قدراً من الأحداث في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها ، فعندما بلَّغهم رسول الله الإنذار ، هنا قال الكافرون : ﴿ إِنَّ هذا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ [يونس : 2] وقد قال الكافرون هذا الاتهام أكثر من مرة ، فمرة يقولون عن القرآن : إنه سحر ، ومرة يقولون عن محمد : إنه ساحر . ولنسأل : ما معنى كلمة ساحر ؟ إن الساحر هو الذي يصنع أشياء ، ويوهمك أنها حقيقة ؛ وهي ليست بحقيقة .

ولذلك يجب أن نفرق بين السحر وبين معجزة موسى ، حتى لا يقال : إن معجزة موسى عليه السلام وهي العصا كانت من جنس ما برع فيه سحرة فرعون ، صحيح أنها من جنس ما برع فيه قوم فرعون ، ولكنها ليست سحراً ؛ لأن الحق شاء أن يُغير من حقيقة العصا فجعلها أفعى ، أما سحر قوم فرعون فهو لا يغير حقيقة الأشياء ، بل يوهم مَنْ يراها

بأنها تغيرت .

والسحر يقتضي ساحراً ، ويقتضي مسحوراً ، ويقتضي عملية السحر ذاتها . أما عن الساحر فهو الذات التي تقوم بعملية السحر .

ويقول الحق عن السحرة : ﴿ سحروا أَعْيُنَ الناس . . . ﴾ [الأعراف : 116]

أي : سحروا الأعين التي ترى الأمر المسحور على غير حقيقته ، رغم بقاء الشيء المسحور على حقيقته .

إذن : فهم قد أوهموا المسحورين بغير واقع ، لكن المعجزة – معجزة موسى – ليست كذلك ؛ لأنها لا تُغير من الرائي ، بل تغير من حقيقة المرئي فعلاً . وقد دَلَّنَا القرآن على حقيقة هذه المسألة بالتجربة العملية حين اختار الله موسى وقال له : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا موسى * قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا على غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أخرى ﴾ [طه : 17-18]

(449/356)

وحين أمر الحق سبحانه موسى بإلقاء العصا ، رآها موسى عليه السلام حيّةً تسعى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يا موسى * فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تسعى ﴾ [طه : 19-20]

فعندما رأى موسى عصاه ، قد تحوّلتْ إلى حية تسعى على الأرض ، فرَّها رباً خائفاً ، ولكن الله أراد أن يثبّت قلبه ويؤمنه إعداداً له للموقف الذي سيقفه فيما بعد أمام سحرة فرعون فقال له رب العزة : ﴿ خُذْهَا وَلاَ تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الأولى ﴾ [طه : 21]

إذن : فلم يكن هناك سحر في عيني موسى ، ولكن كان هناك تغيُّر فعليّ في حقيقة العصا . فلما خاف طمأنه الحق سبحانه وأمره بأن يلتقط العصا ؛ لأنها ستعود – بإذن الله – إلى سيرتها الأولى . والدليل على ان التغير قد حدث في حقيقة العصا ، أن السحرة الذين جمعهم فرعون من كل مكان ، ووقفوا في منافسة مع سيدنا موسى ، وقالوا له : ﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ ألقى ﴾ [طه : 65]

وقبل موسى عليه السلام التحدي ، وتجد القرآن يصور المسألة فيقول :

﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تسعى ﴾ [طه : 66]

وقوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ يعني : أن الحبال والعصى لم تتغير حقيقتها ولم تسعَ . وما إن رمى موسى عصاه حتى تحولت إلى حية فعْليّة تلقف ما صنعوا ، وهذا ما جعل السحرة يسجدون ويعلنون الإيمان ؛ لأنهم رأوا حقيقة واضحة ، وهي أن العصا قد تحولت بالفعل إلى حية .

إذن : فالساحر يرى الشيء على حقيقته ، والمسحور هو الذي تتغير رؤيته إلى الشيء ،

فيُخيَّل إليه أنه شيء آخر ؛ ولذلك لم يقل أحد : إن موسى تعلّم السحر ، وإن من علّمه غلبهم ، لا ، بل عرفوا أنها مسألة أكبر من طاقة البشر ؛ لأن حقيقة العصا نفسها قد تغيرت ، فقالوا : ﴿ آمَنَّا بِرَبِّ هارون وموسى ﴾ [طه : 70]

ولم يقولوا : آمنا بموسى .

(450/356)

إذن : فالتخييل إنما يحدث في عيني المسحور . أقول ذلك حتى نفهم غباء كفار قريش حين اتهموا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه ساحر ، يسحر الناس ، فيخرج الولد على أبيه ، وأهله . ويجعل العبيد يتمردون على سادتهم . ولو كان رسول الله ساحراً ، فلماذا لم يُسحَر من قالوا هذا الاتهام . وبقاء من يقول بمثل هذا الاتهام دليل على أن مسألة الإيمان بالمنهج وبالرسول لا علاقة لها بالسحر . انتهى انتهى . ا هـ ﴿ تفسير الشعراوى صـ ﴾

(451/356)

" فصل "

قال السيوطى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ (2) ﴾

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما بعث الله محمد صلى الله عليه وسلم رسولاً أنكرت العرب ذلك ، ومن أنكر منهم قالوا : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً مثل محمد . فأنزل الله ﴿ أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم . . . ﴾ الآية . ﴿ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم . . . ﴾ [الأنبياء : 7] الآية . فلما كرر الله عليهم الحجج قالوا : وإذا كان بشراً فغير محمد كان أحق بالرسالة ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾ [الزخرف : 31] يقولون : أشرف من محمد يعني الوليد بن المغيرة من مكة ، ومسعود بن عمرو الثقفي من الطائف ، فأنزل الله رداً عليهم ﴿ أهم يقسمون رحمة ربك ﴾ [الزخرف : 32] الآية . والله أعلم .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : ما سبق لهم من السعادة في الذكر الأول .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : أجراً حسناً بما قدموا من أعمالهم .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : القدم هو العمل الذي قدموا . قال الله ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾ [يس : 12] والآثار ممشاهم قال : مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين اسطوانتين من مسجدهم ، ثم قال " هذا أثر مكتوب " .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الربيع في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ قال : ثواب صدق .

(452/356)

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي رضي الله عنه في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ قال : يقدمون عليه عند ربهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ قال : خير .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن مجاهد في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ قال : سلف صدق .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن قتادة رضي الله عنه في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ أي سلف

صدق .

وأخرج أبو الشيخ عن بكار بن مالك رضي الله عنه في قوله ﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن رضي الله عنه في قوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم شفيع لهم يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم شفيع لهم يوم القيامة .

وأخرج ابن مردويه عن أبي سعيد الخدري في قوله ﴿ قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم شفيع صدق لهم يوم القيامة .

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي بن كعب في قوله ﴿ لهم قدم صدق ﴾ قال : سلف صدق .

وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن الحسن في قوله ﴿ أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ قال : مصيبتهم في نبيهم صلى الله عليه وسلم .

وأخرج ابن جرير عن زيد بن أسلم في قوله ﴿ قدم صدق ﴾ قال : محمد صلى الله عليه وسلم .

أما قوله تعالى : ﴿ قال الكافرون إن هذا لسحر مبين ﴾ .

وأخرج أبو الشيخ عن زائدة قال : قرأ سليمان في يونس عند الآيتين ﴿ ساحر مبين ﴾ .

انتهى انتهى . ا هـ ﴿ الدر المنثور حـ 4 صـ ﴾

(453/356)

" فوائد لغوية وإعرابية "

قال السمين :

قوله تعالى : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَآ ﴾

الهمزة للإنكار و " أن أوحينا " اسمُها . و " عجباً " خبرها . و " للناس " متعلق بمحذوف على أنه حالٌ مِنْ " عَجَباً " لأنه في الأصل صفة له ، أو متعلِّقٌ ب " عَجَباً " ، ولا يَضُرُّ كونُه مصدراً لأنه يُتَّسع في الظرف وعديلِه ما لا يُتَّسع في غيرهما . وقيل : لأن " عجباً " مصدرٌ واقعٌ موقعَ اسمِ الفاعل أو اسم المفعول ، ومتى كان كذلك جاز تقديمُ معمولِه . وقيل : هو متعلق ب " كان " الناقصة ، وهذا على رأيِ مَن يُجيز فيها ذلك . وهذا مرتَّبٌ على الخلاف في دلالة " كان " الناقصة على الحدث ، فإن قلنا : إنها تدلُّ على ذلك فيجوز وإلا فلا وقيل : هو متعلقٌ بمحذوفٍ على التبين ، والتقدير في الآية : أكان إيحاؤنا إلى رجلٍ منهم عجباً لهم . و " منهم " صفة ل " رجل " .

وقرأ رؤبة " رَجْل " بسكون الجيم ، وهي لغة تميم ، يُسَكِّنون فَعُلاً نحو : سَبُع وعَضُد .

وقرأ عبد الله بن مسعود " عَجَبٌ " . وفيها تخريجان ، أظهرهما : أنها التامة ، أي : أَحَدَثَ للناس عجب ، و " أَنْ أَوْحَيْنا " متعلق ب " عَجَب " على حَذْف لامِ العلة ، أي : عَجَبٌ لأَنْ أوحينا ، أو يكون على حَذْف " مِنْ " ، أي : مِنْ أَنْ أوحينا . والثاني : أن تكون الناقصة ، ويكون قد جعل اسمَها النكرةَ وخبرَها المعرفةَ ، على حَدِّ قوله :

2559 . . . . . يكونُ مزاجَها عَسَلٌ وماءُ

وقال الزمخشري : " والأجودُ أن تكونَ التامةَ ، و " أَنْ أَوْحَيْنا " بدلٌ من " عجب " . يعني به بدلَ اشتمال أو كل من كل ؛ لأنه جُعِل هذا نفسَ العَجَب مبالغةً . والتخريج الثاني لابن عطية .

(454/356)

قوله : ﴿ أَنْ أَنذِرِ ﴾ يجوز أن تكونَ المصدرية ، وأن تكونَ التفسيريةَ . ثم لك في المصدرية اعتباران ، أحدهما : أن تجعلَها المخففةَ مِن الثقيلة ، واسمها ضمير الأمر والشأن محذوف . كذا قال الشيخ ، وفيه نظر من حيث إن أخبارَ هذه الأحرف لا تكون جملةً

طلبية ، حتى لو ورد ما يُوهم ذلك يُؤوَّل على إضمار القول كقوله :

2560 ولو أصابَتْ لقالَتْ وَهْي صادقةٌ . . . إنَّ الرياضةَ لا تُنْصِبْكَ للشّيبِ

وقول الآخر :

2561 إنَّ الذين قتلتُمْ أمسِ سَيّدَهُمْ . . . لا تحسَبوا ليلَهم عن ليلِكم ناما

وأيضاً فإن الخبرَ في هذا البابِ إذا وقع جملةً فعلية فلا بد من الفصلِ بأشياءَ ذكرتُها في المائدة ، ولكن ذلك الفاصلَ هنا متعذّرٌ . والثاني : أنها التي بصدد أن/ تنصِبَ الفعلَ المضارعَ ، وهي تُوصل بالفعل المتصرّف مطلقاً نحو : "كتبت إليه بأَنْ قم" . وقد تقدَّم لنا في ذلك بحث أيضاً ولم يُذْكر المُنْذَرُ به ، وقد ذكر المُبَشَّرَ به كما سيأتي لأنَّ المقامَ يقتضي ذلك .

قوله : ﴿ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ ﴾ "أنَّ" وما في حيّزها هي المبشَّرُ بها ، أي : بَشِّرهم باستقرارِ قَدَمِ صِدْق ، فَحُذفت الباء ، فجرى في محلّها المذهبان . والمرادُ بقدمِ صِدْقٍ السابقةُ والفضلُ والمنزلةُ الرفيعة . وإليه ذهب الزجاج والزمخشري ومنه قولُ ذي الرمة :

2562 لهمْ قَدَمٌ لا يُنْكِرُ الناسُ أنها . . . مع الحَسَبِ العاديِّ طَمَّتْ على البحر . . . لمَّا

كان السعي والسَّبْقُ بالقدم سُمّي السَّعْيُ المحمود قَدَماً ، كما سُمّيت اليدُ نِعْمة لمَّا كانت صادرةً عنها ، وأُضيف إلى الصدق دلالةً على فضلِه ، وهو من باب رجلُ صدقٍ ورجلُ سوءٍ . وقيل : هو سابقةُ الخير التي قَدَّموها ، ومنه قول وضّاح اليمني :

2563 مالك وضَّاحُ دائمَ الغزَلِ . . . أَلَسْتَ تخشى تقارُبَ الأَجَلِ

صَلِّ لذي العرشِ واتَّخِذْ قَدَماً . . . تُنْجيك يوم العِثارِ والزَّلَلِ

(455/356)

وقيل : هو التقدُّمُ في الشرف ، ومنه قول العجاج :

2564 ذَلَّ بنو العَوَّامِ مِنْ آلِ الحَكَمْ . . . وتركوا المُلْكَ لمَلْكٍ ذي قَدَمْ

أي : ذي تقدُّمٍ وشرفٍ . و " لهم " خبر مقدم ، و " قَدَمَ " اسمُها ، و " عند ربهم " صفةٌ لـ " قَدَم " . ومن جَوَّز أن يتقدَّمَ معمولُ خبرِ " أنَّ " على اسمها إذا كان حرف جر كقوله :

2565 فلا تَلْحَني فيها فإنَّ بحبِّها . . . أخاك مصابُ القلب جَمٌّ بَلابِلُهْ

قال : ف " بحبها " متعلقٌ ب " مُصاب " ، وقد تقدَّم على الاسم فكذلك " لهم " يجوز أن يكونَ متعلقاً ب " عند ربهم " لِما تَضَمَّنَ من الاستقرار ، ويكونُ " عند ربهم " هو الخبر . وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وابن عامر " لَسِحْرٌ " والباقون " لَساحر " ، ف " هذا " يجوزُ أن يكونَ إشارةً للقرآن ، وأن يكونَ إشارة للرسول على القراءة الأولى ، ولكن لا بد من تأويل على قولنا : إن المشار إليه هو النبي عليه السلام ، أي : ذو سحر أو جعلوه إياه مبالغةً . وأمَّا

على القراءةِ الثانيةِ فالإِشارةُ للرسولِ عليه السلام فقط . انتهى انتهى . ا هـ ﴿الدر المصون حـ6 صـ144.147﴾

(456/356)

لطيفة

قال العلامة مجد الدين الفيروزابادى :

(بصيرة فى قدم)

القَدَم : السّابقة فى الأَمر ، كالقُدْمة ، والرّجُل له مرتبة فى الخير ، والرِّجْل – مؤَنثة – والجمع : أَقدام ؛ والشجاع كالقُدْم والقُدُم .

وقَدَم القومَ يقدُمهم قَدْمًا وقُدُومًا ، وقدّمهم واستقدمهم : تقدّمهم .

قال الله تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ قيل معناه : لا تتقدَّمُوا .

وتحقيقه : لا تسبقوه بالقول والحُكم ، بل افعلوا ما يأْمركم به ، كما يفعله العِباد المكرمون كما قال : ﴿لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ .

وقَدُمَ – ككرم – قِدَماً وقَدامة فهو قَدِيم وقُدَام ، والجمع : قُدَماءُ وقُدَامَى : تقادم .

وأَقدم على الأَمر : شَجُع .

وأَقدمته وقدّمته .

والقِدَم : ضدّ الحدوث .

والقُدُم – بضمتين – : المضىّ أَمام أَمام .

وهو يمشى القُدُم والقُدُمِيّة والتَقْدُمِيَّة والتَقْدُمة : إذا تقدّم فى الحرب .

والتقدّم على أَربعة أَوجه ممّا ذكر فى (قبل) .

ويقال : قديم وحديث ، وذلك إما باعتبار الزّمانين ، وإمّا بالشرف ، وإما لما لا يصحّ وجود غيره إلاَّ بوجوده ، كقوله : الواحد متقدّم على العدد ، بمعنى أَنه لو تُوهّم ارتفاعه لارتفع الأَعداد .

والقِدَم : وجودٌ فيما مضى ، والبقاءُ : وجود فيما يستقبل .

ولم يرد فى التنزيل ولا فى السنّة ذكر القديم فى وصف الله تعالى ، والمتكلّمون يصفونه به ، وقد ورد يا قديم الإحسان .

وأَكثر ما يستعمل القديم يستعمل باعتبار الزمان ؛ نحو قوله : ﴿ كَالعُرجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ أَى سابقة فضيلة .

(وقدّمت إليه بكذا : أَعلمته قبل وقت الحاجة إلى فعله) ، قال تعالى : ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴾ .

(457/356)

وقوله تعالى : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ أَى لا يزيدون تأَخُّرًا ولا تقدُّمًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَآثَارَهُمْ ﴾ أَى ما فعلوه قبل .

قال الزمخشريّ : تقدّمت إِليه بكذا وقدّمت : أَمرته به .

وفلان يتقدّم بين يدى الله : إِذا عجِل فى الأَمر والنهى دونه .

وما له فى ذاك متقدَّم ومقْتدَم .

ولقيته قدام ذاك وقد يديمته ، أَى قُبيله ، قال علقمة :

*قُدَيْدِيمَة التجريب والحِلم إِنَّنى * أَرَى غفلات العيش قبل التجارب* . انتهى انتهى . ا

هـ ﴿ بصائر ذوى التمييز حـ 4 صـ 248 . 249 ﴾

(458/356)

من لطائف الإمام القشيرى فى الآية

قال عليه الرحمة :

قوله جلّ ذكره : ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ ﴾ .

تعجبوا من ثلاثة أشياء : من جواز البعث بعد الموت ، ومن إرسال الرسل إلى الخَلْق ، ثم من تخصيص محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مِنْ بين الخلق ، ولو عرفوا كمال مُلْكِه لم يُنْكِروا جواز البعث ، ولو علموا كمال ملكه لم يجحدوا إرسالَ الرُّسل إلى الخَلْق ، ولو عرفوا أنَّ له أنْ يفعلَ ما يريد لم يتعجبوا من تخصيص محمد – صلى الله عليه وسلم بالنبوة مِنْ بين الخَلْق ، ولكنْ سُدَّتْ بصائرُهم فتاهوا في أودية الحيرة ، وعَثَرُوا – من الضلالة – في كل وَهْدَةٍ . وكان الأستاذ أبو علي الدَّقاق – رحمه الله – يقول : جَوَّزُوا أن يكون المنحوتُ من الخشب والمعمولُ من الصخر إلهاً معبوداً ، وتعجبوا أن يكون مثلُ محمد – صلى الله عليه وسلم – في جلالةِ قَدْرِه رسولاً . . . ! ! هذا هو الضلال البعيد .

قوله جلّ ذكره : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ .

وهو ما قدَّموه لأنفسهم من طاعاتٍ أخلصوا فيها ، وفنونِ عباداتٍ صَدَقُوا في القيام بقضائها .

ويقال هو ما قَدَّم الحقُّ لهم يومَ القيامة ، مع مقتضى العناية بشأنهم ، وما حَكَمَ لهم من فنون إحسانه بهم ، وصنوفِ ما أفردهم به من امتنانهم .

ويقال : ﴿ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ : هو ما رفعوه من أقدامهم في بدايتهم في زمان إرادتهم ، فإنّ لأقدام المريدين المرفوعةِ لأَجْلِ اللَّه حُرْمَةً عند الله ، ولأيامِهم الخاليةِ في حالِ تردُّدِهم

، ولياليهم الماضية في طلبه وهم في حُرْقَةِ تحيّرهم . . . مقاديرَ عند الله . وقيل :

مَنْ يَنْسَ داراً قد تخونها . . . رَيْبُ الزمان فإني لست أنساكا

وقيل :

تلك العهودُ تشدُّها لتَحُلَّها . . . عندي كما هي عقدها لم يُحللِ . انتهى انتهى . ا هـ

﴿ لطائف الإشارات حـ 2 صـ 77.78 ﴾

(459/356)

AL-HAWI FE AL-TAFSEER

Sheikh Abdul Rahman

Bin Mohammed

AL-QAMMASH

18